# دولة الإسلام في الأندلس

تأليف

محمد عبد الله عنان

## العصر الأول - القسم الأول

## من الفتح إلى بداية عهد الناصر

الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة

حقوق الطبع محفوظة للناشر

الطبعة الرابعة

١٤١٧ هـ = ١٩٩٧ م

رقم الإيداع : 90/8988

الترقيم الدولى : 977-505-082-4

مطبعة المدني المؤسسة السعودية بمصر

٦٨ شارع العباسية - القاهرة . ت : ٤٨٢٧٨٥١

نموذج من صفحات الجزء المخطوط من تاريخ ابن حيان المحفوظ بمكتبة جامع القرويين بفاس

بسم الله الرحمن الرحيم

# مقدمة

تصدر اليوم الطبعة الرابعة من كتاب « دولة الإسلام فى الأندلس » ، وقد أتيح لنا بعون الله وتوفيقه ، أن نكمل تاريخ الأندلس منذ بدايته إلى نهايته ، وأن تظهر عصوره الأربعة على النحو الآتى :

العصر الأول — ويشمل تاريخ فتوح إفريقية والأندلس ، وعصر الولاة ، ثم تاريخ الدولة الأموية الأندلسية منذ قيامها فى ظل الإمارة ، ثم قيام الخلافة الأموية ، وانحلالها على يد الدولة العامرية ، ثم انهيارها وسقوطها ، وبدء قيام دول الطوائف الأندلسية : ٢٢ — ٤٥٠ هـ (٦٤٣ — ١٠٥٨ م) .

وهذا العصر ، هو الذى نقدمه اليوم إلى القارئ فى طبعته الجديدة .

العصر الثانى — « دول الطوائف » ، ويشمل تاريخ الأندلس منذ قيام دول الطوائف الأندلسية ، فى أوائل القرن الخامس الهجرى ، حتى سقوطها على يد المرابطين فى أواخر هذا القرن : ٤٢٥ — ٥٠٢ هـ (١٠٣٣ — ١١٠٨ م) .

العصر الثالث — « عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس » ويشمل تاريخ هاتين الدولتين المغربيتين العظيمتين ، منذ بدايته حتى نهايته ، وتاريخ الأندلس الكبرى فى ظلهما ، ثم انهيارها عقب انهيار سلطان الموحدين فى الأندلس ، فى أوائل القرن السابع الهجرى : ٥٠٠ — ٦٦٨ هـ (١١٠٦ — ١٢٦٩ م) .

العصر الرابع — « نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين » ، ويشمل تاريخ مملكة غرناطة آخر دول الإسلام فى الأندلس ، منذ قيامها حتى سقوطها ، ثم تاريخ الأمة الأندلسية المغلوبة تحت نير اسبانيا النصرانية ، بعد أن غدت طائفة الموريسكيين أو العرب المتنصرين ، وما نزل بها من محن التنصير المغصوب ، ومختلف ضروب الاضطهاد المفجعة ، حتى إخراجها نهائياً من

الأراضى الإسبانية ، وذلك فى بداية القرن السابع عشر الميلادى : ٦٣٥ — ١٠١٩ هـ ( ١٢٣٧ — ١٦١٠ م ) .

وقد أتيح لنا إلى جانب هذه العصور الأربعة من تاريخ الأندلس ، أن نصدر فى نفس الوقت مؤلفاً خاصاً عن الآثار والنقوش الأندلسية الباقية ، فى شبه الجزيرة الأندلسية ، وذلك بعنوان « الآثار الأندلسية الباقية ، فى اسبانيا والبرتغال » .

وتشغل هذه العصور الأربعة تسعة قرون من حياة الأمة الأندلسية ، زاخرة بالأحداث والعبر والمآسى المشجية ، لم نأل جهداً فى سردها ، وتحليلها ، وإسنادها إلى مصادرها الوثيقة .

وقد أنفقت فى كتابة هذه العصور الأربعة ، من تاريخ الأمة الأندلسية ، خمسة وعشرين عاماً ، قمت خلالها بست عشرة رحلة فى اسبانيا والمغرب ، لم أدخر خلالها وسعاً فى البحث والتنقيب ، وتقصى مختلف المصادر والوثائق ، ودراسة المخطوطات العربية ، والوثائق القشتالية ، فى مختلف مواطنها .

ولقد كان لهذا التجوال المتكرر ، فى ربوع الأندلس القديمة ، والزيارات المتعددة للقواعد الأندلسية الذاهبة ، ولاسيما القواعد الكبرى مثل قرطبة وإشبيلية ، وبلنسية ، وشاطبة ، ومرسية ، وسرقسطة ، وطليطلة ، وبطليوس ، وماردة ، وأشبونة ، وباجة وغرناطة ، وألمرية ، ومالقة ، وغيرها ، وهذه الدراسات المستفيضة لآثارها ونقوشها الأندلسية الباقية ، وهذه المشاهدات لطبائع الإقليم ، والبقاع ، والأوساط التى حلت فيها الأمة الأندلسية ، وعاشت عدة قرون ، ووضعت أسس حضارتها العظيمة — كان لذلك كله فى نفسى أعمق الآثار ، وقد أمدنى بكثير من الحقائق والفكر الجديدة .

وأود أن أنوه هنا ، بأنه فضلا عن استيعاب المصادر القشتالية واللاتينية القديمة ، والمصادر الغربية الحديثة ، إلى جانب المصادر العربية المختلفة العامة والخاصة ، قد أتيح لى أن أنتفع بكثير من المصادر المخطوطة الهامة ، مما عثرت عليه خلال بحوثى فى المجموعات الإسبانية ( ولاسيما مجموعة الإسكوريال ومجموعة أكاديمية التاريخ ) ، والمجموعات المغربية فى الرباط وفاس ، وأن أنتفع فى هذا القسم من تاريخ الأندلس ، بوجه خاص ، بثلاث قطع مخطوطة نادرة

من مؤلف ابن حيّان القيم فى تاريخ الأندلس ، وهو كتاب « المقتبس فى تاريخ رجال الأندلس » أو « المقتبس فى أخبار أهل الأندلس » .

القطعة الأولى — وتشمل حوادث سنى ١٨٠–٢٣٢ هـ ، أعنى عصرى الحكم ابن هشام وعبد الرحمن بن الحكم ، وتقع فى نحو مائة صفحة ( ص ٨٨ — ١٨٩ ) من القطع الكبير ، وهى عبارة عن بداية السفر الثانى من كتاب « المقتبس » ؛ ويرجع الفضل فى انتفاعى بهذا القسم ، إلى صديقى العلامة المرحوم الأستاذ ليڤى بروڤنسال ، وكان قد عثر عليه فى مكتبة جامع القرويين بفاس ، وقد اختفى الآن هذا القسم ولا نعرف مكان وجوده .

القطعة الثانية — وهى تأتى مباشرة بعد القطعة الأولى ، وتشمل حوادث سنى ٢٣٣ — ٢٦٧ هـ ، أعنى بقية عصر عبد الرحمن بن الحكم ، ومعظم عهد ولده الأمير محمد ، والبوادر الأولى للثورة الكبرى ، وتقع فى ٩٥ لوحة أعنى مائة وتسعين صفحة من القطع الكبير ، وهى عتيقة بالية كثيرة الخروم ، متساقطة الحوافى ، مكتوبة بخط أندلسى قديم ، وقد كتب فى نهايتها « كمل السفر الثانى بحمد الله تعالى ، يتلوه الثالث ، مبتدأ نجوم عمر بن حفصون كبير الثوار بالأندلس » . وهى تحتوى على تفاصيل ومعلومات هامة عن بلاط قرطبة وأحواله فى هذا العصر ، وعن الصقالبة والوزراء والعمال . وقد عثرت على هذه القطعة فى مكتبة جامع القرويين بفاس ، وحصلت منها على صورة فتوغرافية ، وانتفعت بها منذ الطبعة الثالثة من الكتاب انتفاعاً عظيماً ، وذلك بالرغم من صعوبة المراجعة فى هذه المخطوطة البالية[1] .

ويتلو هذا القسم المخطوط الذى يشتمل على السفر الثانى من « المقتبس » ، السفر الثالث ، الذى قام بنشره المستشرق الإسبانى الأب الأوغسطينى ملشيور أنتونيا عن مخطوطة المكتبة البودلية بأكسفورد ( باريس سنة ١٩٣٧ ) ، وهو يشتمل على عهد الأمير عبد الله بن محمد ، وحوادث الفتنة الكبرى من سنة ٢٧٥ إلى سنة ٢٩٨ هـ ، قبيل عهد الناصر بعامين .

القطعة الثالثة — وهى تتعلق بأعظم اكتشاف من نوعه من كتاب « المقتبس » ،

---

( ١ ) وقد قام صديق الدكتور محمود على مكى أخيراً بتحقيق هذه القطعة ونشرها ، وسوف تظهر قريباً .

وهو العثور على « السفر الخامس » منه المتعلق بعهد عبد الرحمن الناصر .

إن هذا الاكتشاف يتعلق بأعظم قطعة مخطوطة عثر بها البحث حتى اليوم من هذا المؤلف الكبير . وقد تم العثور عليها منذ أعوام قلائل بين موجودات الخزانة الملكية بالرباط ، وقد كان من حسن الطالع أن أتيح لنا الاطلاع عليها ودراسة محتوياتها دراسة وافية .

وهى عبارة عن جزء ضخم من كتاب « المقتبس » يقع فى مائة وخمسة وثمانين ورقة كبيرة تضم ٣٧٠ صفحة ، ولا يحمل المخطوط عنواناً لأنه ناقص من أوله . ولكن لا يصعب على من يعرف منهج ابن حيان التاريخى وأسلوبه النقدى ، ومصادره التى يقتبس منها ، أن يدرك لأول وهلة أنه أمام جزء كبير من المقتبس . ومن جهة أخرى ، فإنه مما يقطع بصحة هذا الاستنتاج ، ما قرأناه فى حوادث سنة ٣٢٧ هـ ، عن موقعة الخندق ، من قول المؤلف خلال حديثه عمن قتل من المسلمين فى الموقعة « وفشا القتل فيمن سواهم من المستنفرين والمحشودة ، فافترطنا فيهم إلى جدّنا حيان الأمثل طريقة أبا سعد مروان بن محمد بن حيان رحمه الله » .

ويضم هذا المجلد الضخم السفر الخامس من كتاب « المقتبس » ، وذلك حسبما ورد فى ختامه . وهو يتعلق جميعه بعصر عبد الرحمن الناصر . ومن ثم كانت أهميته البالغة ، بيد أنه مع ضخامته لا يشمل عصر الناصر كله ، وهو يبدأ من سنة ٣٠٠هـ وينتهى فى سنة ٣٥٠هـ . بل تنقص هذا السفر الخامس من « المقتبس » فى البداية نحو ستين صفحة ، وهو يبدأ بحوادث سنة « سبع وثلاثمائة » ، وينتهى بحوادث سنة ٣٣٠ هـ وإن كان يتناول أحياناً بعض الحوادث التى وقعت قبل ذلك أو بعد ذلك حتى سنة ٣٤٠ هـ .

والمخطوط قديم ، ومكتوب بخط أندلسى جميل ، ولكنه لا يحمل تاريخ كتابته[1] .

وقد قضينا فى دراسة هذا المخطوط والنقل منه فترات طويلة ، وانتفعنا

---

(١) هذا وقد كتبت عن هذا الاكتشاف بحثاً مفصلا ، نشر بمجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد فى المجلد الثالث عشر ( سنة ١٩٦٥ — ١٩٦٦ ) . ثم ألقيت بعد ذلك عنه محاضرة بالإنجليزية بمدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن فى ربيع سنة ١٩٦٧

بمحتوياته أعظم انتفاع ، فى هذه الطبعة الرابعة من كتابنا ، وما نقلناه منه يرى الضياء لأول مرة .

وتوجد إلى جانب ذلك قطعة مخطوطة أخرى من تاريخ ابن حيّان فى مكتبة أكاديمية التاريخ بمدريد (مجموعة كوديرا) ، تقع فى ١٣٦ صفحة صغيرة ، وتشتمل على حوادث سنى ٣٦١ — ٣٦٤ هـ ، وهى أواخر عهد الخليفة الحكم المستنصر بالله ، وتحتوى على معلومات هامة عن الشئون المالية والإدارية فى هذا العصر .

فإذا ذكرنا بعد ذلك كله ، ما نقله الكتاب والمؤرخون اللاحقون مثل ابن بسام صاحب الذخيرة ، وابن عذارى صاحب البيان المغرب ، وابن الخطيب ، فى الإحاطة ، وأعمال الأعلام ، والمقّرى فى نفح الطيب ، من الفصول والشذور العديدة ، من تاريخ ابن حيان ، أدركنا أننا قد ظفرنا فى الواقع بقدر كبير ، وربما بمعظم محتويات هذا التاريخ العظيم الجامع ، الذى يعتبر بحق من أقيم مصادر التاريخ الأندلسى ، وأكثرها اتزاناً ، وأقواها من حيث الروح التحليلية والنقدية ، ولا سيما فيما يتعلق بحوادث سقوط الخلافة الأموية ، وأوائل عهد الطوائف ، وهو العصر الذى أدركه ابن حيان وعاش فيه ، وشهد أحداثه المثيرة ، وترك لنا عنها أبدع الصور وأقواها .

ونكتفى بهذه الإشارة إلى المصادر المخطوطة ، وهى عديدة ذكرت فى مواضعها ، وكذلك المصادر الأخرى من عربية وقشتالية وغيرها ، فقد ذكرت كذلك فى مواضعها ، وسوف نثبتها جميعاً فى نهاية الكتاب فى ثبت خاص .

وأما المصادر والنصوص والوثائق اللاتينية والقشتالية ، فقد راجعت معظمها فى مدريد ، فى المكتبة الوطنية ، وقسم المحفوظات التاريخية ، وكذلك فى مكتبة معهدنا المصرى بمدريد ، وهى تضم مجموعة نفيسة من مصادر التاريخ الأندلسى .

* * *

ولا بد لى أن أكرر هنا ما سبق أن ذكرته فى مقدمة الطبعة الأولى ، وهو أنى بذلت فى كتابة هذا المؤلف الذى يمتزج فيه تاريخ الشرق والغرب ، والإسلام والنصرانية ، جهداً خاصاً لتمحيص الروايات والنصوص العربية والإفرنجية ، واستخراج الرواية الراجحة ، وتكوين الرأى المستقل مهما يكن هذا الرأى

ومما تجدر ملاحظته أن تاريخ الأندلس كتاريخ الحروب الصليبية ، يمتاز فى كثير من الأحيان بتباين واضح بين الرواية الإسلامية والرواية النصرانية ، وقد تتأثر هذه الرواية أو تلك ، بالمؤثرات القومية أو الدينية ؛ ولكن الرواية الإسلامية فيما يتعلق بتاريخ الأندلس ، تبدو على العموم أقل تحاملا ، وأكثر دقة واعتدالا . وأما الرواية النصرانية فكثيراً ما يشوبها الإغراق والتحامل ، وينقصها الإنصاف والدقة . ويرجع ذلك إلى أن الروايات النصرانية الأولى ، التى كتبت عن تاريخ اسبانيا المسلمة ، كانت من تصنيف بعض الأحبار المتعصبين ، وإلى أن مؤرخى اسبانيا المحدثين ، لبثوا حتى أواخر القرن الثامن عشر يكتبون تاريخ اسبانيا من ناحية واحدة ، ويرجعون إلى المصادر النصرانية دون غيرها ، ويجتنبون كل بحث أو تنقيب فى المصادر العربية ، وذلك بالرغم من أن تاريخ اسبانيا المسلمة يشغل أعظم مكانة فى تاريخ اسبانيا فى العصور الوسطى ، ويكون صفحة من أمجد صفحاته . وقد نعى النقد الإسبانى الحديث نفسه هذا المسلك على مؤرخى اسبانيا النصرانية ، فمثلا يقول العلامة المستشرق الإسبانى جاينجوس فى مقدمة ترجمته لكتاب نفح الطيب : « إن ماريانا وأكابر المؤرخين الإسبانيين تحدوهم عاطفة بغض قومى عميق ، أو نزعة تعصب دينى ، أبدوا دائماً أبلغ الإحتقار لمؤلفات العرب .. فكانوا يرفضون وسائل البحث التى تقدمها لهم الوثائق التاريخية العربية الكثيرة ، ويهملون المزايا التى قد تترتب على المقارنة بين الروايات النصرانية والإسلامية ، ويؤثرون أن يكتبوا تواريخهم من جانب واحد . وقد ترتب على هذا الروح الضيق الذى يطبع كتاباتهم أثر واضح . ذلك أن تاريخ اسبانيا فى العصور الوسطى ، ما يزال بالرغم من كل ما أفاض عليه النقدة المحدثون ، معتركاً من الخرافة والمتناقضات » .

وقد أرسل العلامة جاينجوس هذه الصيحة منذ نحو قرن . ومع ذلك فإن فريقاً من المؤرخين والمفكرين الإسبان ، ما زال حتى عصرنا يعتبر تاريخ الأمة الأندلسية صفحة بغيضة من التاريخ القومى ، وأن القضاء على الأمة الأندلسية وعلى حضارتها إنما هو نصر قومى باهر ، وأن مطاردات ديوان التحقيق المروعة لبقايا الأمة المغلوبة ، إنما هى عمل إنقاذ وسلام . وينسى هذا الفريق أو يتناسى كل المزايا ، وكل الجهود الإنتاجية ، وكل التراث الحضارى ، وكل التقدم الإنسانى الذى

حققه المسلمون فى اسبانيا ؛ بل نجد فى العصر الحديث عالماً إسبانياً مثل المستشرق سيمونيت ، يبرر ، بل ويمجد العمل الوندلى الذى ارتكبه الكردينال خمنيس مطران طليطلة ، بجمع الكتب العربية من المسلمين بعد سقوط غرناطة بقليل ، وقد بلغت زهاء مائة ألف أو تزيد ، والاحتفال بإحراقها أكداساً فى ميادين غرناطة ، لكى تحرم الأمة المغلوبة بذلك من غذائها الروحى والفكرى .

على أن البحث الغربى الحديث ، استطاع أن يستدرك كثيراً من شوائب هذا النقص ، الذى يكتنف تاريخ اسبانيا فى العصور الوسطى ، فدرست الكتب والوثائق العربية منذ أوائل القرن الماضى ، وتبوأت المصادر الإسلامية مكانها إلى جانب المصادر النصرانية ، وترجم البعض منها إلى اللغات الأوربية ، وظهرت طائفة كبيرة من الكتب والبحوث النقدية بمختلف اللغات الأوربية ومنها الإسبانية ، تكشف للغرب عن كثير من الحقائق المتعلقة بتاريخ الأندلس ، وأحوال المجتمع الإسلامى فى اسبانيا ، وتكشف بالأخص عن القسط البارز ، الذى ساهمت به المدنية الإسلامية بالأندلس ، فى بناء الحضارة الإسبانية الحديثة ، وحضارة عصر الإحياء الأوربى .

هذا وقد راعيت فى سائر فصول هذه القصة الأندلسية المشجية ، أن أسلك سبيل التبسط المعتدل ، بعيداً عن الإيجاز المخل ، بعيداً فى الوقت نفسه عن الإسهاب والتفاصيل الكثيرة ، إلا ما دعت إليه المناسبات الهامة أو المواقع الحاسمة ، حريصاً خلال ذلك كله على أن أبرز الحوادث والشخصيات والصور فى إطارها النقدى ، الذى تدعمه الوثائق والنصوص والقرائن ، بعيداً كل البعد عن التأثر بالعاطفة أو الأهواء أو الاتجاهات القومية أو الدينية من أى نوع ، وإنى لأرجو أن أكون قد وفقت فى ذلك ، إلى تأدية رسالة الحق والصدق والاعتدال ، فى كتابة هذه الصفحات المشرقة المؤسية معاً من تاريخ الأمة الأندلسية .

وقد حرصت إلى جانب تاريخ اسبانيا المسلمة ، أن أكتب فى نفس الوقت تاريخ اسبانيا النصرانية ، فاستعرضت منذ البداية نشأة المملكة النصرانية الأولى ، ثم تاريخ الممالك النصرانية اللاحقة ، ثم تناولت تاريخها تباعاً فى عصورها المتعاقبة ، وعنيت بعد ذلك بتتبع أحداث المعركة الأبدية المضطرمة ، التى نشبت بين الأندلس المسلمة ، وبين هاته الممالك النصرانية ، وهى التى غدت فيما بعد محور التاريخ الأندلسى

كله ، ثم تحولت من جانب اسبانيا النصرانية إلى ما يسميه المؤرخون الإسبان « معركة الاسترداد » La Reconquista ، وانتهت إلى نتيجتها الطبيعية المحتومة ، أعنى إلى القضاء على دولة الإسلام فى اسبانيا .

وهذه الطبعة الجديدة من « دولة الإسلام فى الأندلس » تتضمن بعض الإضافات والنصوص الجديدة ، التى استطعنا أن نقتبسها بالأخص من « السفر الخامس » من تاريخ ابن حيّان ، وهو الذى يتضمنه مخطوط المكتبة الملكية الذى سبق ذكره ، وقد كنا لحسن الطالع ، أول من وفق إلى مراجعته والانتفاع به . وقد نقلنا منه كثيراً من النصوص والوثائق الهامة ، ولا سيما كتاب الناصر عن فتنة ابن مسرة ، وكتابه عن موقعة الخندق ، وغيرهما من الوثائق الرسمية التى ترى الضياء لأول مرة فى البحوث الأندلسية . كما تتضمن هذه الطبعة فصلين جدين ينشران لأول مرة ، الأول عن نظم الحكم والأوضاع السياسية والعسكرية والاقتصادية فى عصر الإمارة والخلافة ، والثانى عن الحركة الفكرية الأندلسية .

هذا إلى ما تتضمنه هذه الطبعة أيضاً من النصوص والتعليقات الكثيرة ، المستمدة من المصادر النصرانية والقشتالية ، وهو أثر من آثار المراجعة المستمرة التى عكفت عليها فى مدريد ، خلال رحلاتى المتوالية إلى شبه الجزيرة الإسبانية .

ولقد تمنيت فى ختام مقدمة الطبعة الأولى لهذا الكتاب ، أن يكون صدوره « بداية مشجعة تبعث إلى اهتمام الباحثين بهذه الصفحة المجيدة من تاريخ الإسلام فى الغرب » . وإنه لما يدعو إلى الغبطة ، ما يلاحظ من تقدم الدراسات الأندلسية وانتعاشها فى العهد الأخير ، وذلك سواء فى ميدان الكتابة والتصنيف ، أو ميدان نشر الآثار الأندلسية المخطوطة ، وهو نشاط تساهم القاهرة فى قسميه بأوفى نصيب .

القاهرة فى المحرم سنة ١٣٨٩
الموافق مارس سنة ١٩٦٩

محمد عبد الله عنان

# الكتاب الأول

# فتوح العرب

## في إفريقية والأندلس وغاليس

## وعصر الولاة في الأندلس

٢٢ — ١٣٨ هـ : ٦٤٣ — ٧٥٥ م

# الفصل الأول

## فتوح العرب في إفريقية

الصراع بين الدولتين الإسلامية والرومانية . اتجاه الفتوح الإسلامية نحو الغرب . غزو برقة . جرجير حاكم إفريقية الرومانى . موقعة سبيطلة وهزيمة الروم . فتح سبيطلة عقد الصلح . إفريقية وقت الفتح الإسلامى . أحوالها فى ظل الحكم الرومانى . انتقالها إلى الدولة الشرقية . فتحها على يد الوندال . كلمة بربر مدلولها . إستعادة الدولة الشرقية لإفريقية . ضعفها وانحلالها . وقف الفتوح العربية واستئنافها على يد الدولة الأموية . موقعة حصن الأجم . إفتتاح سوسة وحصن جالولاء . ولاية عقبة بن نافع الفهرى لإفريقية . افتتاحه لأقطار المغرب . بناؤه لمدينة القيروان . ولاية أبى المهاجر الأنصارى . ولاية عقبة الثانية . مسيره ثانية إلى المغرب . ثورة البربر وقيام كسيلة بن لمزم . هزيمته للمسلمين واستيلاؤه على القيروان . ولاية زهير البلوى . زحفه على القيروان . مقتل كسيلة وافتتاح القيروان . هجوم الروم من البحر على برقة . هزيمة العرب ومقتل زهير . مسير حسان بن النعمان إلى إفريقية . غزوالعرب لقرطاجنة واستيلاؤهم عليها . فقدهم إياها ثم استردادهم لها . ثورة البربر وقيام للكاهنة . القتال بين العرب والبربر . هزيمة العرب ارتدادهم إلى برقة . عود حسان إلى غزو المغرب . انصراف البربر عن الكاهنة وهزيمتها . تنظيم حكومة إفريقية وتجديد القيروان . عزل حسان وولاية موسى بن نصير . نشأة موسى وحياته الأولى . الخلاف على تاريخ توليته لإفريقية . عود البربر إلى الثورة . هزيمتهم وسحق ثورتهم . فتح موسى لطنجة . لاية طارق بن زياد لها . إنشاء موسى للأسطول . غزو العرب لجزائر البليار وصقلية وسردانية .

كان الصراع الذى نشب بين الدولة الإسلامية الناشئة، وبين الدولة الرومانية الشرقية ، يضطرم حيثما تبسط الدولة الشرقية سلطانها . وكانت بسائط الشام مهاد المعارك الأولى بين الدولتين ، وكانت أول قطر غنمته الخلافة من أراضى الدولة الرومانية ؛ ثم افتتح العرب مصر بعد الشام ، وهى أيضاً ولاية رومانية ، وكان افتتاحها فى خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، على يد عمرو بن العاص ، وذلك فى المحرم سنة عشرين من الهجرة ( ديسمبر سنة ٦٤٠ م ) . ولما كانت مصر تتصل من الغرب بأملاك أخرى للدولة الرومانية هى الولايات الإفريقية ، فقد كان من الطبيعى أن يتخذ العرب مصر قاعدة لافتتاح إفريقية ، توطيداً لسلطانهم فى مصر

والشام ، وإتماماً لسلسلة الفتوحات الغربية . غير أن تقدمهم نحو الغرب كان محفوفاً بمشاق وصعاب لم يألفوها فى فتوحهم الأولى ، فقضوا زهاء نصف قرن فى معارك عنيفة مع الروم ( الرومان ) والبربر ، وأصيبوا إلى جانب انتصاراتهم ، بأكثر من هزيمة شديدة ، وواجهوا عدة ثورات محلية عنيفة ، وانهار سلطانهم الفتىّ غير مرة ، قبل أن يستقر نهائياً فى إفريقية .

وبدأ العرب فتوحهم فى إفريقية عقب افتتاحهم لمصر مباشرة . فى سنة اثنتين وعشرين من الهجرة ، أعنى بعد افتتاح مصر بنحو عامين ، سار عمرو ابن العاص غرباً إلى برقة ، فافتتحها وصالح أهلها على الجزية ، ثم افتتح طرابلس (أو إطرابلس) بعد أن حاصرها شهراً ولجأ سكانها إلى سفنهم فى البحر ، ولكنه تركها بعد اغتنام ما فيها[١] . وفى خلافة عثمان توغل العرب فى قفار إفريقية . وفى سنة سبع وعشرين ( ٦٤٧ م )[٢] سار عبد الله بن سعد بن أبى سرح الذى خلف عمراً فى ولاية مصر إلى إفريقية فى نحو عشرين ألف مقاتل[٣] ، وسارت معه حامية برقة بقيادة عقبة بن نافع ، وكان عمرو قد ولاه على تلك الأنحاء[٤] . وقصد الغزاة بادئ بدء إلى طرابلس وهى يومئذ أغنى وأمنع ثغور إفريقية[٥] .

---

( ١ ) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم ( طبعة لجنة ذكرى جب ) ص ١٧١ ، وأبو الفداء ( مصر ) ج ١ ص ١٦٤ ، وابن الأثير ( مصر ) ج ٣ ص ١٠ .

( ٢ ) هذه هى رواية ابن عبد الحكم ( ص ١٨٧ ) وهى أقدم رواية . ويوافقه البلاذرى ، وهو معاصر له تقريباً ، ولكنه يضيف إلى ذلك أن هناك رواية بوقوع هذه الغزوة سنة ٢٨ هـ ، وثالثة بوقوعها سنة ٢٩ ( فتوح البلدان — مصر — ص ٢٢٦ ) . ويضع الطبرى تاريخ هذه الغزوة فى سنة ٢٧ هـ متفقاً مع ابن عبد الحكم والبلاذرى ( مصر ج ٥ ص ٤٨ و ٤٩ ) . ولكن ابن الأثير يضع تاريخها فى سنة ٢٦ هـ ( ج ٣ ص ٣٣ ) .

( ٣ ) فتوح مصر ص ١٨٤ .

( ٤ ) فتوح البلدان ص ٢٢٤ .

( ٥ ) يطلق العرب اسم إفريقية على الأقطار الواقعة شمال هذه القارة دون مصر . وذكر ياقوت فى معجمه أن حد إفريقية من برقة شرقاً إلى طنجة الخضراء غرباً ، وعرضها من البحر إلى الرمال التى فى أول السودان ( معجم البلدان فى مقال إفريقية ) . وتنقسم إلى ثلاثة أقسام : الأول ، إفريقية ويمتد من حدود مصر الغربية إلى شرق الجزائر ، والثانى المغرب الأدنى ويشمل قطر الجزائر تقريباً ، والثالث المغرب الأقصى ممتداً من غرب الجزائر إلى المحيط ، ويشمل إقليم مراكش وطنجة . وكانت كلمة إفريقية تطلق أيضاً فى العصور الوسطى بمعنى أخص على إقليم تونس وما يليه .

ولكن الروم تقدموا إلى لقاء المسلمين فى مائة وعشرين ألف مقاتل[1] بقيادة جريجوريوس أو جرجير حاكم إفريقية الرومانى[2]. وتختلف الرواية الإسلامية فى أمر جرجير هذا ، ويقول البعض إنه كان من الفرنج ، وليس من الروم ، وإنه كان ملك الفرنجة فى إفريقية ما بين طرابلس وطنجة ، وإن سبيطله كانت دار ملكه . والحقيقة أن إفريقية كانت فى ذلك الحين ولاية رومانية ، تخضع لقيصر ( إمبراطور ) قسطنطينية ، وكان جرجير أو جريجوريوس حاكمها من قبل الإمبراطور . على أن حاكم إفريقية الرومانى ، كان يتمتع وقتئذ بكثير من الإستقلال ، نظراً لضعف السلطة المركزية فى عاصمة الدولة الشرقية . وهكذا كان شأن جرجير ، فقد كان حاكماً بأمره فى ولايته . ولما علم العرب بتحرك جرجير ، تركوا حصار طرابلس وساروا إلى لقاء الروم ، ونشبت بين الجيشين مدى أيام معارك شديدة فى ظاهر سبيطلة (سوفيتولا) بالقرب من أطلال قرطاجنة القديمة ، وهى عاصمة إفريقية يومئذ ، فهزم الروم هزيمة شديدة . وقتل قائدهم جريجوريوس ، وأسرت إبنته (٢٨ هـ — ٦٤٨م)[3] . ثم حاصر عبد الله سبيطلة ، وافتتحها وخربها ، وبث جيوشه فى تلك الأنحاء حتى قفصة . ثم عقد الصلح مع أهلها على أن يؤدوا الجزية . وقضى فى تلك الغزوات خمسة عشر شهراً ، ولكنه لم ينشئ فى البلاد المفتوحة حكومة جديدة ، ولم يتخذ بها قاعدة إسلامية . ثم عاد إلى مصر بعد أن أنشأ حامية فى برقة وأخرى فى زويلة[4] .

ويجب قبل أن نمضى فى الكلام على افتتاح إفريقية أن نذكر كلمة عما كانت عليه أحوالها وظروفها وقت الفتح الإسلامى. كانت إفريقية منذ زوال قرطاجنة القديمة ، فى أوائل القرن الثانى قبل الميلاد إلى أوائل القرن الخامس بعده ، ولاية رومانية تخضع لسلطة رومة أولا ، ثم بعد سقوطها لسلطة قسطنطينية أو الدولة

---

( ١ ) ابن الأثير ج ٣ ص ٣٤ — Gibbon : Roman Empire, Ch. LI,

( ٢ ) ابن خلدون — كتاب العبر — ج ٦ ص ١٠٧ .

( ٣ ) روى ابن عبد الحكم أن ابنة جريجوريوس وقعت بعد أسرها فى نصيب رجل من الأنصار ، ولكنها انتحرت أثناء الطريق ( فتح مصر ص ١٨٥ ) .

( ٤ ) ابن عبد الحكم ص ١٨٣ .

الرومانية الشرقية ؛ ولما غزت القبائل الجرمانية رومة واستولت على معظم أقطار الدولة الرومانية الغربية ، نفذ الوندال إلى غاليا أو غاليس (جنوبى فرنسا) ثم إلى اسبانيا ، واستقر الوندال حيناً فى جنوبى إسبانيا فى ولايات الأندلس ، التى سميت يومئذ باسمهم « ڤاندالیتا » Vandalita أو ڤاندلوسيا Vandalusia أى بلد الوندال[١] .

وكان البربر أو سكان إفريقية ، قبل الفتح الرومانى ، يدينون بالوثنية ، ولكن رومة استطاعت منذ أوائل القرن الرابع ، أن تفرض النصرانية على معظم القبائل . ويقول لنا ابن خلدون من جهة أخرى ، إن القبائل البربرية كانت وقت الفتح الإسلامى تدين باليهودية ، وإنهم تلقوها منذ أقدم العصور عن بنى إسرائيل عند استفحال ملكهم لقرب الشام وسلطانه منهم ، وكان من هؤلاء قبائل جبل أوراس وملكتهم الكاهنة[٢] . وكان الفتح الرومانى شديد الوطأة على القبائل المغلوبة ، وكانت النظم الإدارية والمالية التى فرضتها عليهم رومة غاية فى التعسف والشطط ، مع ما يقترن بها من اقتضاء الضرائب والمغارم الفادحة ؛ فكان البربر يتوقون إلى التخلص من نيرها ، وقد نزعوا فعلا إلى الثورة فى عهد الإمبراطور تيودوسيوس فى أواخر القرن الرابع ، ونادوا بأحد زعمائهم ملكاً عليهم ، ولكن الثورة أخفقت وأخمدت . ولما انتقلت إفريقية إلى سلطان قسطنطينية بعد سقوط رومة ، كانت قد اضمحلت ثروتها ، واضطربت نظمها ، ومزقتها الخلافات الدينية ، وضعف سلطان الدولة عليها ، وكثر الخوارج من الحكام والزعماء المحليين . وفى أوائل القرن الخامس ، عبر الوندال البحر من اسبانيا إلى إفريقية ، بقيادة ملكهم جنسريك ، وافتتحوها فى سنة ٤٢٩ م ، وعاونهم البربر[٣] حباً فى التخلص من نير رومة . ولكن الوندال عاثوا فى إفريقية أيما عيث ، وخربوا المدن والمنشآت

---

(١) سوف نفصل فى حاشية لاحقة أصول هذه التسمية وفقاً لمختلف الروايات .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ١٠٧ .

(٣) يطلق العرب كلمة « البربر » على سكان « إفريقية » أعنى من برقة إلى المحيط ، وأصل التسمية مجهول . ولكن المحقق أنها كانت موجودة قبل الفتح الإسلامى بعصور بعيدة . وترجعها الرواية اللاتينية إلى أقدم العصور . فكان يطلقها اليونانيون القدماء على الأمم ذات اللغات واللهجات المعقدة بوجه عام وحيثما وجدت ، وعلى الأمم الغريبة عن لغة اليونانيين وحضارتهم . وكان يطلقها الرومان على شعوب الإمبراطورية خلا إيطاليا وولاياتها ، ثم انتهوا إلى تحديد معنى الكلمة بإطلاقها على القبائل =

الرومانية ، واستقروا سادة فى البلاد المفتوحة مدى قرن ، عانى البربر فيه أمر ضروب العسف والطغيان . وفى سنة ٥٣٤ م بعث يوستنيان ، إمبراطور ( قيصر ) الدولة الشرقية قائده الشهير بليزاريوس إلى إفريقية على رأس جيش ضخم فافتتحها وحطم سلطان الوندال وأجلاهم عنها ؛ ومن ذلك الحين عادت إفريقية إلى سلطان الدولة الشرقية ، وظلت كذلك حتى الفتح الإسلامى .

وكانت إفريقية يومئذ فى حال يرثى لها من الانحلال والتفكك ، يسود الاضطراب نظمها وإدارتها ، وتمزقها الأهواء والمطامع والفتن ؛ وكانت عصور من الطغيان والجور والمصادرة قد عصفت بمواردها ، ولكن الثروات كانت مع ذلك تتكدس فى بعض الثغور والمدن ؛ وكانت الدولة الشرقية قلما تعنى بإصلاح هذه الأقطار أو إعداد وسائل الدفاع عنها ، وإنما كانت ترى فيها قبل كل شىء مورداً للكسب على نحو ما قدمنا ، فكان البربر على استعداد للتخلص من هذا النير المرهق ، ومعاونة الفاتحين الجدد .

ولكن العرب شغلوا حيناً عن متابعة الفتح حينما عصفت ريح التفرق بالخلافة الإسلامية ، ونشب الخلاف بين على بن أبى طالب ، الذى ولى الخلافة على أثر مقتل عثمان ، فى مستهل سنة ٣٥ هـ ( ٦٥٥ م ) ، وبين خصمه ومنافسه القوى معاوية بن أبى سفيان والى الشام ، واضطرمت ثورة الخوارج التى كادت أن تزعزع أسس الدولة الإسلامية الناشئة ، وشغلت الجزيرة العربية بضعة أعوام ، بتلك الحوادث والفتن الداخلية . وكان مقتل أمير المؤمنين على بن أبى طالب فى رمضان سنة ٤٠ هـ خاتمة هذا النضال المؤلم ، فآلت الخلافة إلى معاوية ، وقامت الدولة الأموية فى الشام لتفتتح فى تاريخ الإسلام عصراً جديداً .

وكانت الدولة الأموية ، تتشح إلى جانب ثوبها الخلافى ، بأثواب الملك

---

= المتوحشة أو المعادية خارج الإمبراطورية بأسرها . ثم حرفها العرب عند الفتح عن اللاتينية وأطلقوها على الأمم والقبائل التى تسكن إفريقية ( خلا مصر ) راجع (Gibbon. ibid, Chap. LI (note) ويقول ابن خلدون فى أصل هذه التسمية ، إن أحد ملوك التبابعة العرب لما غزا المغرب وإفريقية ، ورأى هذا الجيل من الأعاجم ، وسمع رطانتهم تعجب من ذلك وقال ما أكثر بربرتكم فسموا بالبربر . والبربرة بلسان العرب هى اختلاط الأصوات غير المفهومة ، ومنه يقال بربر الأسد إذا زأر بأصوات غير مفهومة ( كتاب العبر ج ٦ ص ٨٩ ) .

الإمبراطورى ، وهكذا قدر لها أن تكون منشئة الإمبراطورية الإسلامية الكبرى. وما كادت تستقر الأمور الداخلية ، حتى نشطت سياسة الفتح مرة أخرى. وكانت الخلافة فى نفس الوقت الذى تسير فيه جيوشها نحو الشمال وتقترب من عاصمة الدولة الشرقية ، تتجه ببصرها نحو الغرب ، حيث كانت فتوحها فى إفريقية ما تزال بحاجة إلى التوسع والتوطد . وهكذا وجه معاوية عنايته إلى إتمام فتح إفريقية . وكان الروم قد عادوا إلى الأرض المفتوحة عقب انسحاب العرب ، فعاد إليها الجور والإرهاق ، وأثقل كاهل البربر بما فرض عليهم من الأعباء والمغارم الجديدة ، فاتصل زعماؤهم بالعرب واستحثوهم إلى العود واستئناف الفتح . فنى سنة ٤٥ هـ ( ٦٦٥ م ) سار معاوية بن حُديج التجيبى [1] إلى إفريقية وهزم الروم عند حصن الأجم ، وتفرق الغزاة فى مختلف الأنحاء ، فسار عبد الله ابن الزبير إلى سوسة وافتتحها ، وافتتح عبد الله بن مروان حصن جالولاء ، وافتتحت عدة أخرى من البلاد والحصون .

وفى سنة خمسين ( ٦٧٠ م )[2] قام العرب بأعظم فتح فى إفريقية بقيادة عقبة ابن نافع الفهرى . وكان عقبة جندياً عظيماً ، خبيراً بتلك الأنحاء والمسالك، وكان يتولى قيادة حامية برقة منذ فتحها ، فاختاره الخليفة ( معاوية ) لولاية إفريقية ، وبعث إليه بعشرة آلاف مقاتل ليتم فتحها . فجاز عقبة وهاد برقة ، وتوغل غرباً حتى المغرب الأقصى ، وافتتح جميع العواصم والثغور الإفريقية تباعاً ، وهزم جيوش الروم والبربر فى مواقع عديدة ، وتوغل فى مفاوز المغرب الأقصى ، ثم

---

( ١ ) وذكر بعض المؤرخين أن معاوية بن حديج كان فى ذلك الحين والياً على إفريقية ( ابن الأثير ج ٣ ص ١٨٤ ) ، وذكر البلاذرى أنه ولى بعد ذلك على مصر سنة ٥٠ هـ ، وأنه هو الذى بعث عقبة بن نافع إلى إفريقية ( ص ٣٢٧ ) ، وذكر الطبرى أن معاوية بن حديج ولى مصر وعزله معاوية عنها سنة ٥٠ هـ ( ج ٦ ص ١٣٤ ) . ويضع ابن الأثير تاريخ ولاية ابن حديج لمصر فى سنة ٤٧ هـ . على أن صاحب النجوم الزاهرة الذى عنى عناية خاصة بتعداد ولاة مصر يقول : إن حاكم مصر من سنة ٤٥ — ٤٨ هـ هو عقبة بن عامر الجهنى ( النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٣٠ ) ، وإن الذ ليها بعده هو مسلمة بن مخلد الأنصارى ، واستمر فى ولايتها حتى سنة ٦٢ هـ ، وفى ولايته وقع فتح إفريقية الكبير .

( ٢ ) هذه هى الرواية الراجحة ، ولكن ابن عبد الحكم يضع تاريخ هذه الغزوة فى سنة ٤٦ هـ .

أنشأ مدينة القَيْرُوان لتكون عاصمة للولاية الإسلامية الجديدة ، وحصناً للدفاع عنها ، وقاعدة لرد الروم والبربر .

ولم يمض قليل على قيام عقبة بذلك الفتح الكبير ، حتى عزله والى مصر مسلمة بن مخلد الذى جمع له معاوية بين حكم مصر والمغرب[١] ، وولى مكانه على إفريقية أبا المهاجر الأنصارى ، فلبث فى ولايتها عدة أعوام لم تقع فيها حوادث تذكر . ثم عزل أبو المهاجر وأعيد عقبة سنة ٦٢هـ فى بدء خلافة يزيد بن معاوية . وكانت البلاد المفتوحة ما تزال تضطرم بعوامل الخروج والثورة . وكان الروم والبربر كلاهما يترقب الفرص ، ولكن عقبة شغل عن توطيد الدولة الفتية بفتوحات جديدة ، وعاد فاخترق المغرب إلى أقصاه ، ووصل إلى ساحل المحيط هذه المرة . وهنا تقول الرواية العربية ، إن عقبة لما انتهى إلى المحيط دفع فرسه إلى الماء حتى بلغ نحره ، ، ثم قال : « اللهم إنى أشهدك أن لا مجاز ، ولو وجدت مجازاً لجزت »[٢] .

فى ذلك الحين ثار البربر بقيادة زعيم لهم يدعى كسيلة بن لمزم[٣] كان قد اعتنق الإسلام وحالف العرب ثم تغير عليهم ، وانضمت إليه جموع كثيرة من الروم والبربر ، وانتهز فرصة تفرق المسلمين فى مختلف الأنحاء ، وانقض بجموعه على جيش عقبة ، ووقعت بين الفريقين معارك شديدة هزم فيها المسلمون ، وقتل عقبة وجماعة من القادة ( سنة ٦٢ هـ ) وزحف كسيلة على القيروان واستولى عليها ، وارتد حاكمها زهير بن قيس البلوى بقواته القليلة إلى برقة ، وكادت بذلك تذهب دولة العرب فى إفريقية .

ولما تولى الخلافة عبد الملك بن مروان ( سنة ٦٥ هـ ) اعتزم أن يعمل لاستعادة إفريقية ، فولى عليها زهير بن قيس البلوى ، وكان منذ سقوط القيروان يتولى الدفاع عن برقة ، وأمده بجيش ضخم ، فزحف زهير على القيروان سنة ٦٩هـ ( ٦٨٨ م ) والتقى على مقربة منها بجيش كسيلة ، فهزم البربر بعد معركة شديدة

---

( ١ ) ويضع ابن عبد الحكم تاريخ هذا العزل فى سنة ٥١ هـ ، ويقول الطبرى إنه وقع فى سنة ٥٠ هـ ( ج ٦ ص ١٣٤ ) .

( ٢ ) ابن عبد الحكم ص ١٩٩ ، وابن الأثير ج ٤ ص ٤٢ .

( ٣ ) هذه هى تسمية ابن عبد الحكم ( ص ٢٠٠ ) وابن خلدون ( ج ٦ ص ١٠٨ ) ولكن ابن الأثير يسميه كسيلة ابن كرم .

قتل فيها كسيلة وكثير من أصحابه ، ودخل زهير القيروان وترك فيها حامية للدفاع عنها ، وفرق جنده لإخضاع الثوار فى مختلف الأنحاء . ولكن الروم انتهزوا فرصة توغل المسلمين غرباً ، وأمدهم قيصر قسطنطينية[1] بأسطول من صقلية ، فنزلوا فى قرطاجَنَّة ثم زحفوا على برقة فى جموع عظيمة ، وعلم زهير بتلك المفاجأة ، فارتد للدفاع عن برقة ، ونشبت بين الفريقين معركة هائلة هزم فيها المسلمون ، وقتل زهير ومعظم ضباطه ، وذهب المغرب من قبضة المسلمين مرة أخرى .

وكان وقع هذا الخطب شديداً فى حكومة دمشق ، وكانت تشغل يومئذ بمحاربة ابن الزبير وصحبه الخوارج عليها ، فمضت أعوام أخرى قبل أن تتمكن من العناية بشئون إفريقية ، فلما انتهت الثورة وقتل ابن الزبير ، وجه عبد الملك عنايته إلى استعادة إفريقية ، فولى عليها حسان بن النعمان الغسانى سنة ٧٣ هـ[2] (٦٩٢ م) وسيره إليها فى جيش ضخم كان أعظم قوة سيرتها الخلافة إلى إفريقية ، فاخترق حسان برقة وقصد قرطاجَنة عاصمة إفريقية الرومانية ، وكانت لاتزال فى يد الروم ولم يغزها المسلمون بعد لحصانتها واتصالها بالبحر ، وقربها من صقلية حيث كانت ترسل إليها الأمداد بسرعة ، فحاصرها بشدة ثم اقتحمها واستولى عليها ، ولكن الإمبراطور سير إليها جيشاً بقيادة حاكمها يوحنا ، يعاونه أسطول من صقلية ، وقوة من القوط أرسلها ملك اسبانيا القوطى الذى أزعجه اقتراب العرب من بلاده ، فانسحب العرب وارتدوا إلى القيروان ، حتى إذا جاءتهم الأمداد أعادوا الكرة على قرطاجنة ، وهزموا الروم والقوط هزيمة شديدة ، ففروا إلى سفنهم ، وخربت قرطاجنة وهدمت حصونها القوية . ثم سار حسان غرباً وهزم الروم والبربر فى عدة مواقع ، واستعاد الإسلام سلطانه فيما بين برقة والمحيط[3] .

وعاد حسان إلى القيروان لينظم جيشه . وكان البربر والقبائل الجبلية قد

---

(١) كان إمبراطور قسطنطينية فى ذلك الحين يوستنيان الثانى ، ٦٨٥ – ٦٩٥ م .

(٢) ابن عبد الحكم ص ٢٠٠ ؛ ولكن ابن الأثير يضع تاريخ توليته فى سنة ٧٤ هـ .

(٣) ابن الأثير ج ٤ ص ١٤٣ ، ومعجم ياقوت تحت كلمة قرطاجنة ، وكذلك : Gibbon : ibid., Chap. L

اجتمعوا منذ مقتل زعيمهم كسيلة ، فى مفاوز المغرب الأقصى ، تحت لواء امرأة من قبيلة جراوة يعتقدون فيها السحر والكهانة وتعرف بالكاهنة[1] ، وكانت تقيم ملكها فى جبل أوراس . فسار حسان لقتالها وخرجت إليه بجموعها، فالتقيا عند نهر نيني ، ونشبت بينهما موقعة هائلة هزم فيها العرب هزيمة شديدة ، وقتل منهم جمع كبير ، وارتد حسان إلى برقة . وسارت الكاهنة شرقاً حتى قابس واستولت على كثير من البلاد والحصون ، وبسطت سلطانها على معظم إفريقية مدى خمسة أعوام . ولبث حسان فى برقة حتى أمده عبد الملك بالجند ، فزحف على المغرب ثانية سنة ٧٩ هـ (٦٩٨ م ) ، ولم تر الكاهنة وسيلة لوقفه إلا أن تحول البلاد إلى خراب بلقع ، فهدمت جميع المدن والحصون ، وأحرقت جميع القرى والضياع الواقعة فى طريق المسلمين ، ولكن ذلك لم يثن حساناً عن عزمه ، فتابع سيره حتى أقاصي المغرب فى وهاد ومفاوز صعبة . وكان البربر قد سئموا نير الكاهنة وعسفها ، فهرع الكثير منهم إلى حسان يطلبون حمايته ، وتفرقت جموع الكاهنة ، وأدركها المسلمون بجبل أوراس فمزقت جموعها وقتلت . واستأمن البربر على الإسلام والطاعة ، وأن يمدوا المسلمين باثنى عشر ألف مقاتل . وولى حسان جبل أوراس ابن الكاهنة بعد أن استوثق من طاعته ، ثم عاد إلى القيروان بعد أن سحق كل مقاومة وقضى على كل نزعة إلى الخروج والثورة[2] .

ولبث حسان بن النعمان بإفريقية حيناً ، ينظم شؤونها العسكرية والإدارية والمالية ، وينشئ الدواوين ويرتب الخراج والجزية ، ويوطد سلطان الحكم الجديد فى الثغور والنواحي . ثم جدد مدينة القيروان وأنشأ بها المسجد الجامع[3] ، ولبث

---

(١) ويسميها ابن خلدون دهيا بنت ماتية بن تيفان (ج ٦ ص ١٠٩ ) ويسميها بعض المؤرخين الأوربيين داميا ؛ راجع **Aschbach : Geschicchte der Omaijaden in Spanien. B. 1.21**

(٢) ابن الأثير ج ٤ ص ١٤٤ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٠٩ . وفى روايته من حيث التاريخ شىء من التناقض ، فهو يؤرخ غزوة حسان الأولى وفتح قرطاجنة بسنة ٧٩ هـ ثم يؤرخ حرب الكاهنة للمرة الثانية بعد أن يذكر أنها لبثت تحكم إفريقية خمسة أعوام بسنة ٧٤ هـ — ولعل هذا تحريف فى النقل أو الطبع ، إذ يقتضى ان يكون هذا التاريخ طبقاً لرواية ابن خلدون هو سنة ٨٤ هـ . ولكن ابن عبد الحكم وهو أقدم رواية وثيقة يؤرخ غزوة حسان الأولى بسنة ٧٣ هـ ويؤرخها ابن الأثير بسنة ٧٤ هـ — وينقض رواية ابن عبد الحكم عن مقتل الكاهنة تاريخ هذه الواقعة ( ص ٢٠١ ) .

(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ١١٠ ، وابن عبد الحكم ص ٢٠١ .

فى منصبه حتى توفى عبد الملك بن مروان سنة ٨٦ هـ (٧٠٥ م) فخلفه ابنه الوليد بعهد منه ، وولى عمه عبد الله بن مروان على مصر ، فعزل حساناً عن ولاية إفريقية ، واختار لولايتها موسى بن نصير اللخمى ، وكانت إفريقية تابعة لمصر فى شؤون الحكم والولاية كما بينا . وكانت ولاية موسى بن نصير لإفريقية سنة ٨٩ هـ (٧٠٨ م) .

ويجب قبل أن نمضى فى الكلام عن حوادث إفريقية ، أن نقول كلمة عن الرجل الذى قدر أن يجوز الإسلام على يديه لأول مرة إلى القارة الأوربية ، وأن يكتب فيها صفحة من أمجد صفحاته . كان موسى بن نصير من أعظم الزعماء والقادة الذين وجههم الخلافة إلى الغرب . ومع أن الرواية الإسلامية تتبع حياته بإفاضة منذ ولايته لحكم إفريقية ، فإنها لا تقدم إلينا عن نشأته وحياته الأولى تفاصيل شافية ، شأنها نحو كثير من زعماء الإسلام فى القرن الأول من الهجرة . بيد أننا نعرف مع ذلك أنه من التابعين ، وأنه ولد سنة ١٩ هـ فى خلافة أمير المؤمنين عمر ، فى قرية من قرى الجزيرة ، أو بوادى القرى فى شمالى الحجاز على قول آخر . وأما عن نسبته ، فتقول الرواية إنه ينتسب إلى بكر بن وائل ، وان أباه نصيراً كان ممن سباهم خالد بن الوليد فى موقعة عين التمر (سنة ١٢ هـ)[١] . وقيل إنه ينتسب بطريق الولاء إلى بنى لخم ، وان أباه نصيراً كان على حرس معاوية بن أبى سفيان . ثم كان وصيفاً لعبد العزيز بن مروان فأعتقه[٢] .

وأما عن حياة موسى الأولى فلا تذكر الرواية سوى القليل . وكل ما نعرفه منها أنه تقلب فى بعض المناصب الحربية والإدارية الهامة ، قبل أن يعهد إليه بحكم إفريقية ، وأنه قاد بعض الحملات البحرية فى عصر معاوية بن أبى سفيان ، وغزا قبرس وغيرها من الجزر القريبة[٣] . وفى بعض الروايات أن عبد الملك بن مروان حينما ولى أخاه بشراً على البصرة فى سنة ٧٣ هـ ، وكان يتولى قيادة الجند

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ٢٢ ، و « أخبار مجموعة فى فتح الأندلس » ص ٣ ، وأبو المحاسن فى النجوم الزاهرة (مصر) ج ١ ص ٢٣٥ .

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ١٧٦ ، وابن الأثير ج ٤ ص ٢٠٩ ، والبلاذرى فى فتوح البلدان ص ٢٣٢ .

(٣) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٢٥ .

بمصر ، ندب موسى بن نصير لمعاونته ، وكان يومئذ بمصر فى خدمة أميرها عبد العزيز بن مروان صديقه وحاميه ، وأن موسى لبث وزيراً ومستشاراً لبشر أيام ولايته للبصرة . فلما وُلّى الحجاج حكم العراق فى سنة ٧٥ هـ ، اتهم موسى باختلاس أموال البصرة ، ولم ينقذه من بطش الحجاج سوى تدخل عبد العزيز ابن مروان ، وكان قد وفد يومئذ على الشام بأموال مصر ، وهرع إليه موسى مستجيراً به . ثم عاد موسى إلى مصر مع عبد العزيز بن مروان ، ولبث بها يتبوأ لديه أسمى مراتب النفوذ والثقة حتى عين حاكماً لإفريقية[1] .

وتختلف الرواية فى تاريخ ولاية موسى بن نصير لإفريقية اختلافاً بيناً ، فالبعض يقول إنها كانت فى سنة ٧٨ أو ٧٩ هـ فى عهد عبد الملك ، ويقول البعض الآخر إنها كانت فى سنة ٨٦ أو سنة ٨٩ هـ فى عهد ابنه الوليد[2] ؛ ونحن نؤثر الأخذ بالقول الثانى لأنه أكثر اتفاقاً مع سير الحوادث فى إفريقية ، ولأن معظم الروايات تجمع على أن حسان بن النعمان والى إفريقية لبث على ولايتها حتى وفاة عبد الملك ، وقد توفى عبد الملك فى شوال سنة ٨٦ هـ . وكان عبد العزيز بن مروان أمير مصر قد توفى قبل ذلك سنة ٨٥ هـ ، وندب عبد الملك ولده عبد الله أميراً

---

(١) وردت هذه التفاصيل فى كتاب « الإمامة والسياسة » المنسوب لابن قتيبة . ومع أن هذه النسبة يحيط بها كثير من الشك ، فإن الكتاب يتضمن كثيراً من الأخبار والتفاصيل المفيدة عن رجالات الإسلام فى عصر الخلفاء الراشدين والدولة الأموية ( راجع الكتاب المشار إليه — طبع مصر — ج ٢ ص ٦٠ وما بعدها ) . وقد اعتبره المستشرق الإسبانى جاينجوس **Gayangos** قديماً وصحيحاً ، وإن كان يشك فى نسبته لابن قتيبة لعدة أسباب وجيهة ؛ وانتفع به المستشرق الألمانى فايل **Weil** ، والمستشرق الإيطالى أمارى **Amari** . ويرى دوزى أن الكتاب غير قديم وغير صحيح ، وأنه يحتوى على أخطاء تاريخية وروايات خيالية غير معقولة ، وعلى ذلك فلا يمكن أن يكون ابن قتيبة صاحب هذا التصنيف الضعيف ؛ ويرى المستشرق هاماكر ويوافقه دوزى أن هذا الكتاب وأمثاله من الكتب التاريخية الحماسية ( مثل الكتب التى نسبت للواقدى ) ، قد ألفت أيام الحروب الصليبية لبث الحماس فى نفوس المسلمين ، وتذكيرهم بمجد أسلافهم وبطولتهم الخارقة . راجع دوزى :

**Recherches sur l'Histoire et Littérature de l'Espagne au moyen âge ; V.I. p.21**

(٢) يقول بالرواية الأولى ابن عبد الحكم ( ص ٢٠٣ ) ، ويتبعه صاحب كتاب الإمامة والسياسة ( ج ٢ ص ٦٢ ) ، وابن الأبار فى الحلة السيراء ( ليدن ص ٧٠ ) ، والحميدى فى جذوة المقتبس ( مصر ص ٣١٧ ) ، والنجوم الزاهرة ( ج ١ ص ١٨٨ ) ، ويقول بالثانية ابن الأثير ( ج ٤ ص ١٤٤ و ٢٠٦ ) ، وابن خلكان ( ج ٢ ص ١٧٦ ) . وابن عذارى فى البيان المغرب ( ج ١ ص ٢٣ )

على مصر ، فدخلها فى جمادى الآخرة سنة ٨٦هـ قبيل وفاة أبيه بأشهر قلائل . وعزل عبد الله ، حسان بن النعمان عن ولاية إفريقية ، واختار لولايتها موسى بن نصير . وكانت ولاية موسى لإفريقية على أرجح الأقوال فى سنة ٨٩ هـ ( ٧٠٨ م ) .

وكان موسى بن نصير قد اختبر مفاوز إفريقية من قبل ، وسيره عبد العزيز ابن مروان فى سنة ٨٤ هـ إلى برقة ، فافتتح درنة وسبى من أهلها جموعاً غفيرة . وكان البربر لا يزالون على اضطرابهم وتمردهم ، يتحينون الفرصة للثورة كلما سنحت . فما كاد موسى يلى الحكم حتى نزعوا إلى الثورة شأنهم عند كل تغيير فى الحكم ، ولكنهم أخطأوا تقدير عزم الحاكم الجديد وصرامته . وسرعان ما سحقت الثورة فى كل ناحية ، ومزق موسى جموع الثوار بيد من حديد ، ودوخ هوارة وزناتة وكتامة وصنهاجة وغيرها من القبائل البربرية القوية ، ثم سار إلى طنجة وهى آخر معقل اعتصم به الثوار ، ولم يكن غزاها العرب بعد ، فافتتحها ، وولى عليها جندياً عظيماً هو طارق بن زياد الليثى ، وأثخن فى مفاوز المغرب الأقصى ، وطهرها من العصاة والمتآمرين ، وأحرز فى تلك الغزوات من الغنائم والسبى ما لا يحصى ، واستمال إليه وجوه القبائل ، وحشد فى جيشه آلافاً من البربر المسالمين ، واهتم بنشر الإسلام بين البربر اهتماماً عظيماً ، فأقبلوا على اعتناقه وذاع بينهم ذيوعاً كبيراً ، وهبت ريح من الأمن والسكينة على البلاد المفتوحة .

وكان الروم ( الرومان ) بعد أن أخفقوا فى الحرب البرية ، ويئسوا من استرداد إفريقية ، قد لجأوا إلى غزو الثغور ونهبها ، فابتنى موسى داراً عظيمة للصناعة ( بناء السفن ) على مقربة من أطلال قرطاجنة ، وأنشأ أسطولا ضخماً لحماية الثغور . وكان العرب قد بدأوا غزواتهم البحرية الأولى فى تلك المياه قبل ذلك بعدة أعوام ، وسير موسى ابنه عبد الله فى السفن إلى الجزر القريبة فغزا جزائر البليار ( الجزائر الشرقية ) وكانت يومئذ من أملاك ملك اسبانيا القوطى ، وافتتح مَيُورقة ومِنُورقة ( ٧١٠ م ) ولكنه لم يكن فتحاً مستقراً[1] . وسارت

---

( ١ ) تعرف هذه الغزوة بغزوة الأشراف لكثرة من اشترك فيها من أكابر المسلمين . وورد فى كتاب « الإمامة والسياسة » أن هذه الغزوة التى قادها عبد الله بن موسى كانت خاصة بصقلية لا بميورقة ( ج ٢ ص ٧٣ ) .

حملات بحرية أخرى إلى صقلية وسردانية وعاثت فى ثغورها ، وعادت مثقلة بالسبي والغنائم . وهكذا بسط العرب سلطانهم على شمالى إفريقية كله فى البر والبحر ، ولم يبق من ثغوره بيد النصارى بعد افتتاح طنجة سوى ثغر سبتة(١) الواقع فى نهاية البحر الأبيض المتوسط شرقى طنجة ، وكانت يومئذ من أملاك اسبانيا ، ويحكمها زعيم من القوط أو الفرنج يدعى الكونت يوليان . وكانت سبتة قد استطاعت لمنعتها الطبيعية ويقظة حاكمها ، أن ترد هجمات العرب ، رغم مجاورتهم لها من الجنوب والغرب ، وكان موسى يتوق إلى افتتاح هذا المعقل الحصين . على أن مشاريعه فى الفتح لم تكن تقف عند سبتة بل كانت تجاوزها إلى ما وراء ذلك البحر الشاسع ، الذى عرف العرب كثيراً عن شواطئه الشرقية والجنوبية ، ولكنهم لم يعرفوا بعد شيئاً أو لم يعرفوا سوى القليل عن شواطئه الشمالية والغربية : أجل ، كان موسى يتوق إلى افتتاح ما وراء ذلك البحر من الممالك والأمم المجهولة .

---

(١) ومقابلها الإفرنجى هو **Ceuta**

# الفصل الثانى

## إسبانيا قبل الفتح الإسلامى

أصل القوط . نزوحهم من الشمال إلى الجنوب . عبورهم نهر الدانوب . يهزمون الإمبراطور ديسيوس . هزيمتهم على يد الإمبراطور قسطنطين ثم الإمبراطور فالنس . زحف الهذن على القوط . دخولهم فى طاعة الإمبراطور . ثورة القوط فى عهد هونوريوس . زعيم القوط ألاريك . عقدهم الصلح مع الإمبراطور واندماجهم فى الجيش الرومانى . استقرارهم فى غاليس . فاليا أول ملوكهم . تيودريك الأول يعاون الدولة فى محاربة آتيلا . تيودريك الثانى يفتتح إسبانيا من يد الوندال . قيام مملكة القوط فى اسبانيا . اعتناقهم للنصرانية . اسبانيا وقت الفتح الإسلامى . المجتمع الإسبانى . استئثار القوط بالسيادة والثراء . نفوذ رجال الدين . بؤس الشعب وانحلال الجيش . ركون القوط إلى الرفاهة والدعة . يهود إسبانيا . اضطهاد الكنيسة لهم وإرغامهم على التنصير . محاولتهم للثورة والمبالغة فى إرهاقهم . ملك القوط وتيزا والخوارج عليه . تفرق المملكة ونشوب الثورة . مقدم العرب إلى شواطىء الجزيرة . محاصرة العرب لسبتة . زعيم الثورة ردريك . الحرب بينه وبين وتيزا . مقتل وتيزا واستيلاء ردريك على الملك . الكونت يوليان حاكم سبتة والخلاف فى شأنه . الاتفاق بينه وبين وتيزا على الاستنجاد بالعرب . قصة فلورندا إبنة الكونت يوليان . أقوال الرواية الإسلامية فى شأنها . إنكار الرواية الإسبانية لصحتها . ما يرجحها فى نظ التاريخ .

كانت اسبانيا[1] فى الوقت الذى امتد فيه سلطان العرب إلى الشواطىء القريبة منها ، وإلى الجزر المجاورة لها ، خاضعة لنير القوط . وكانت قبل ذلك بنحو ثلاثة قرون كإفريقية ، ولاية رومانية تخضع لسلطان رومة . فلما اضمحل سلطان رومة ، وغزتها القبائل البربرية الجرمانية فى أوائل القرن الخامس الميلادى ،

---

( ١ ) لا يستعمل العرب اسم « اسبانيا » للإشارة إلى شبه الجزيرة المعروفة بهذا الاسم ، وإنما يطلق العرب اسم « الأندلس » على شبه الجزيرة كلها ( راجع الروض المعطار — مصر — ص ١ ) . وفى بعض الروايات العربية أن التسمية نسبة لملك من الرومان اسمه إشبان بن طيطش غلب الأفارقة على ملك الأندلس ، وباسمه سميت إشبانية . وذكر بعضهم أن اسمه أصبهان فحرف وأنه هو الذى بنى إشبيلية ، وأن « اشبانية » كانت تطلق على إشبيلية التى كان ينزلها إشبان هذا . ثم غلب الاسم بعده على الأندلس كله ، فالعجم يسمونه إشبانية ( نفح الطيب عن الرازى ج ١ ص ٦٧ ) ؛ وذكر ابن حيان أن الإشبانيين ينسبون إلى إشبان وفسر منشأهم بخرافة دينية ( نفح الطيب ج ١ ص ٦٩ ) . ولم تنفرد الرواية الإسلامية بذكر « إشبان **Espan** » هذا ولكن تذكره أيضاً رواية ألفونسو العاشر القشتالية ، فتقول لنا انه ابن أخ للملك هرقل ، وأنه هو الذى عمر جزيرة قادس واتخذها مقراً له . راجع :

**Primera Crónica General de Espana (Ed. Pidal) Vol, I. p. 10**

اقتسمت هذه القبائل أملاك رومة الغربية ، واستولت على إيطاليا وفرنسا واسبانيا وكانت اسبانيا من نصيب القوط .

والقوط هم إحدى هذه القبائل أو الشعوب البربرية . التى هبطت من شمال أوربا ، وقوضت صروح الإمبراطورية الرومانية . وتقول الأساطير القديمة إنهم نزحوا من اسكندناوة ، وهى رواية يؤيدها كثير من القرائن والشواهد . ويذكر المؤرخ تاسيتوس أنهم كانوا منذ ظهور النصرانية إلى أواخر القرن الثانى ، يسكنون شواطىء البلطيق الجنوبية ، وأن قبائل عديدة من الوندال كانت تسكن على ضفاف نهر «أودَر» . وهنالك من المشابهات بين القوط والوندال ، فى الدين والعادات والأخلاق والتقاليد ، ما يدل على أنهما يرجعان فى الأصل إلى شعب أو جنس عظيم واحد . وفى عهد الإمبراطور اسكندر سيڤروس ( ٢٢٢ — ٢٣٥ م ) ظهرت طلائع القوط فى ولاية «داسيا»[1] الرومانية ، وأغارت على بعض مدنها ، وكان هذا نزوحهم الثانى حيث استقروا عندئذ فى إقليم « اليوكرين » . وفى عهد الإمبراطور ديسيوس عبروا نهر الدانوب وخربوا ولاية ميزيا[2] الرومانية ، ثم تقدموا إلى قلب البلقان ، فسار ديسيوس لقتالهم ولكنه هزم ومزق جيشه (٢٥٠ م) وسار القوط إلى اليونان فعاثوا فيها وخربوها . ولم ينقطع عيثهم حتى نشط الإمبراطور قسطنطين الكبير لقتالهم ورد عدوانهم ، فحاربهم فى عدة مواقع وهزمهم هزيمة شديدة ، وردهم إلى أقاصى داسيا ( سنة ٣٢٢ م ) وفرض عليهم شروطاً فادحة . ثم حاربهم الإمبراطور ڤالينس قيصر قسطنطينية وهزمهم فى سنة ٣٦٩ م . وفى سنة ٣٧٥ م زحف الهون من المشرق على القوط ومزقوهم ، ففروا إلى ضفاف الدانوب واستغاثوا بالإمبراطور وطلبوا الدخول فى طاعته ، فأجابهم إلى ذلك ، واستقروا حيناً فى ولاية تراقية ، ولكنهم ثاروا مراراً من جراء قسوة الحكام الرومانيين وعسفهم[3] .

وفى عهد الإمبراطور هونوريوس ، قام القوط بثورة أعظم وأبعد أثراً بقيادة زعيمهم « ألاريك » ، وخربوا تراقية واليونان ، ثم عبروا إلى إيطاليا

( ١ ) كانت ولاية داسيا تقع فى شرق حوض الدانوب وتشغل مكان رومانيا والمجر .

( ٢ ) كانت ولاية ميزيا تقع فى وسط البلقان وتشغل مكان بلغاريا الحديثة .

( ٣ ) Gibbon, ibid. Chap X, XIV & XXV

وافتتحوا رومة ونهبوها ( سنة ٤١٠م ) . ولكن زعيمهم ألاريك توفى فى نفس هذا العام فارتدوا إلى الشمال . ثم عقدوا الصلح مع الإمبراطور، واندمجوا فى الجيش الإمبراطورى ، وقاموا بقمع الثورات المحلية فى غاليا أو غاليس[1] (جنوبى فرنسا وشمالى إسبانيا ، ثم استقروا فى أواسط فرنسا وجنوبها ، فيما بين نهرى اللوار والجارون ، واتخذوا تولوز ( تولوشة ) عاصمة لهم . وأقطع الإمبراطور ملكهم « ڤاليا » حكم هذا القطر ، وقامت بذلك مملكة قوطية تابعة للدولة الرومانية . وعاون القوط الدولة على محاربة الوندال والآلان والسوابيين[2] ، وعاونها بالأخص ملكهم تيودريك الأول ولد ألاريك ، على هزيمة آتيلا التترى وبرابرته الهون فى موقعة شالون ( سنة ٤٥١ م ) . ثم عبر خلفه وأخوه تيودريك الثانى إلى اسبانيا ، لانتزاعها من الوندال والسوابيين المتغلبين عليها ، مشترطاً على الدولة أن يحتفظ بما يفتتحه من اسبانيا لنفسه ولعقبه . وحارب الوندال والسوابيين وهزمهم (سنة ٤٥٦ م) ، وافتتح اسبانيا ما عدا ركنها الشمالى الغربى ( جليقية ) ، الذى استعصم به الوندال حيناً . ولم تأت نهاية القرن الخامس حتى ملك القوط شبه الجزيرة كلها ، وامتد ملكهم من اللوار إلى شاطىء اسبانيا الجنوبى . ولكن الفرنج غزوهم من الشمال ، وأجلوهم عن فرنسا فى أعوام قلائل ، فاستقروا فى اسبانيا ، واتخذوا طليطلة دار ملكهم ، ووضعوا لمملكتهم الجديدة نظماً وقوانين خاصة ، تتأثر بروح الحضارة والأنظمة الرومانية ؛ وكانوا أيضاً قد اعتنقوا النصرانية منذ أواخر القرن الرابع ، كما اعتنقها الوندال وغيرهم من الشعوب البربرية ، التى تقاسمت تراث رومة وأملاكها . ولبث القوط زهاء قرنين سادة لإسبانيا حتى الفتح الإسلامى[3] .

---

( ١ ) هكذا يسميها ابن الأثير . ويسميها البكرى ، « بلاد غاليش » وهو اسمها الرومانى : La Gaule

( ٢ ) ويبدى ابن خلدون دقة فى تسمية هؤلاء البربر ، فيسميهم « القندلس والآبيون والشوابيون » (ج ٢ ص ٢٣٥ ) .

( ٣ ) يقدم المؤرخون المسلمون عن تاريخ اسبانيا قبل الفتح الإسلامى روايات غامضة أكثرها خراف . ولكن بعضها يقترب من التاريخ . فابن الأثير مثلا يشير فى روايته عن القوط إلى غزوهم لمقدونية ومحاربة قسطنطين الأكبر لهم . ثم يذكر زعيمهم « ألريق » (ألاريك) وكيف غزا رومة ، وكيف استقر القوط أولا فى غاليس (أى غاليا ) ثم انتقلوا إلى اسبانيا . غير أنه يذكر ثبت ملوكهم —

ولنعرض بعد ذلك إلى حالة اسبانيا وقت الفتح . كانت المملكة القوطية تجوز دور انحلالها قبل ذلك بأمد طويل ، وكان المجتمع الإسبانى يعانى صنوف الشقاء والبؤس ، وقد مزقته عصور طويلة من الظلم والإرهاق والإيثار . ولم يكن القوط فى الحقيقة أمة بمعنى الكلمة ، فإنهم لم يمتزجوا بسكان الجزيرة ، ذلك الامتزاج الذى يجعل الغالب والمغلوب ، والحاكم والمحكوم ، أمة واحدة . بل كان القوط يستأثرون بمزايا الغلبة والسيادة ، وينعمون بإحراز الإقطاعات والضياع الواسعة ، ومنهم وحدهم الحكام والسادة والأشراف. أما سواد الشعب الأعظم ، فقوامه طبقة متوسطة رقيقة الحال ، وزراع شبه أرقاء يلحقون بالضياع ، وأرقاء للسيد عليهم حق الحياة والموت . وإلى جانب السادة والأشراف ، يتمتع رجال الدين بأعظم قسط من السلطان والنفوذ ؛ ذلك أن القوط كانوا أتقياء مؤمنين رغم خشونتهم ، وكان للأحبار عليهم أيما تأثير ، وقد استطاعوا أن يوجهوا القوانين والنظم ، وأن يصوغوا الحياة العقلية والاجتماعية ، وفقاً لمثل الكنيسة وغاياتها . ثم استغلوا هذا النفوذ فى إحراز الضياع وتكديس الثروات ، واقتناء الزراع والأرقاء . وهكذا كانت ثروات البلاد كلها تجمع فى أيدى فئة قليلة ممتازة من الأشراف ورجال الدين، اختصت بترف العيش ومتاع الحياة ، وكل نعم الحرية والكرامة والاعتبار .

أما الشعب فقد كان فى حالة يرثى لها من الحرمان والبؤس ، يعانى أمر ضروب الظلم والعسف والإرهاق ، ويُخص وحده دون الطبقات الممتازة ، بأعباء المغارم والضرائب الفادحة ، ومشاق العمل ، والسخرة فى ضياع الأشراف والأحبار ، وتسلبه فروض العبودية والرق ، كل شعور بالعزة والكرامة . ولم يكن الشعب كما قدمنا سوى كتلة مهيضة من طبقة فقيرة وسطى ، ومن جمهرة من الزراع شبه الأرقاء والأرقاء ، ومع ذلك فقد كان يقع عليه إلى جانب هذه الفروض والمغارم

---

= فى كثير من التحريف والخلط (ج ٤ ص ٢١٢ و٢١٣) . وقال ابن حيان بعد أن ذكر أصل اسم اسبانيا « وغلب على هؤلاء الإشبانيين من عجم رومة أمة يدعون البشتولقات ( الوندال ) وملكهم طلويش بن بيطة وذلك من بعث المسيح . ثم دخلت عليهم أمة القوط » ( نقله المقرى فى نفح الطيب ج ١ ص ٦٩ ) . وأقرب الروايات إلى الصحة هى رواية ابن خلدون ، فهو يقول متفقاً مع الرواية اللاتينية : « إن القوط قد امتلكوا القطر الأندلسى لمئين من السنين قبل الإسلام . بعد حروب كانت لهم مع اللطنيين ، حاصروا فيها رومة ثم عقدوا معهم السلم على أن تنصرف القوط إلى الأندلس» (ج ٤ ص ١١٦) .

الفادحة ، عبء الحرب والدفاع عن الوطن . وكما أن الجيوش الرومانية كانت وقت ظهور الإسلام ، قد فقدت وحدتها وروحها القومى وقوتها المعنوية ، لتكوينها من الرعايا الأجانب والمرتزقة ، فكذلك كان الجيش الإسبانى منذ العهد الرومانى ، قوامه الزراع شبه الأرقاء واليهود . فلما حل القوط فى اسبانيا وذاقوا نعم السلم ، بعد مشاق التجوال والغزو ، وتبوأوا مراكز الغلبة والسيادة ، اعتمدوا فى الدفاع عن ملكهم الجديد على هذا الجيش ، الذى تموج صفوفه بجماعات مضطهدة ناقمة على سادتها . «ولاريب أن شبه الأرقاء كانوا فى الجيش أكثر بكثير من الأحرار ، وهذا ما يعنى أن الدفاع عن الدولة كان يعهد به إلى أولئك الذين يؤثرون ممالأة العدو على الذود عن ظالميهم»[1] . أما القوط أنفسهم فقد فقدوا منذ بعيد خلالهم الحربية القوية ، وركنوا إلى حياة النعماء والدعة ، وفتت فى عزائمهم وشجاعتهم نعومة الجو وترف العيش ، ولم يعودوا بعد أولئك الغزاة الأشداء الذين أخضعوا رومة ، وتوغلوا فيما بين الدانوب والمحيط ، «بل كان خلفاء ألاريك يحتجبون بصخور البرنيه غارقين فى سبات السلم ، لا يعنون بتحصين مدينة ، ولا يعبأ شبابهم بتجريد سيف »[2] ؛

وكان يهود الجزيرة كتلة كبيرة عاملة ، ولكنهم كانوا موضع البغض والتعصب والتحامل ، يعانون أشنع ألوان الجور والاضطهاد . وكانت الكنيسة منذ اشتد ساعدها ونفوذها تحاول تنصير اليهود ، وتتوسل إلى تحقيق غايتها بالعنف والمطاردة . ففى عصر الملك سيزبوت[3] فرض التنصر على اليهود أو النفى أو المصادرة ، فاعتنق النصرانية كثير منهم كرها ورياء (سنة ٦١٦ م) . ثم توالت عليهم مع ذلك صنوف الاضطهاد والمحن ، فركنوا إلى التآمر وتدبير الثورة ، وتفاهموا مع إخوانهم يهود المغرب على المؤازرة والتعاون . ولكن المؤامرة اكتشفت قبل نضجها (٦٩٤م) . وكان ذلك فى عهد الملك إجيكا ؛ فقرر أن يشتد فى معاقبتهم ، واجتمع مؤتمر الأحبار فى طليطلة للنظر فى ذلك ، وأجاب الملك إلى ما طلبه ، وقرر معاقبة اليهود باعتبارهم خوارج على الدولة يأتمرون بسلامتها ، ولأنهم ارتدوا

---

(١) Dozy: Histoire des Musulmans de L'Espagne (1932) Vol. I. p. 269

(٢) Gibbon, ibid, Chap. L1.

(٣) ويسميه ابن الأثير ، سيسفوط (ج ٤ ص ٢١٣) .

عن النصرانية التي اعتنقوها من قبل ؛ وقرر أن ينزع أملاكهم في سائر الولايات الإسبانية ، وأن تحول إلى جانب العرش ، وأن يشردوا ويقضى عليهم بالرق الأبدى للنصارى ، وأن يهبهم الملك عبيداً لمن شاء ، وألا يسمح لهم باسترداد حرياتهم ما بقوا على اليهودية ، وأن يحرر أرقاؤهم من النصارى ويمنحون بعض أملاكهم ، وأن ينزع أبناؤهم منذ السابعة ويربون على دين النصرانية ، وألا يتزوج عبد يهودى إلا بجارية نصرانية ، ولا تتزوج يهودية إلا بنصرانى[1] . وهكذا عصفت يد البطش والمطاردة باليهود أيما عصف ، فكانوا قبيل الفتح الإسلامى ضحية ظلم لا يطاق ، وكانوا كباقى طوائف الشعب المهيضة يتوقون إلى الخلاص من هذا النير الجائر ، ويرون فى أولئك الفاتحين الذين يتركون لهم حرية الضمائر والشعائر مقابل جزية ضئيلة ملائكة منقذين[2] .

هكذا كانت حال اسبانيا حينما افتتح العرب إفريقية واقتربوا من شواطىء الأندلس . وكان على عرش اسبانيا يومئذ الملك وتيزا[3] خلف الملك إجيكا وولده . وكان يحكم مملكة مزقها الخلاف وشعباً أضناه العسف . وتحمل بعض الروايات الإسبانية القديمة على وتيزا ، وتصفه بأنه كان ملكاً خليعاً فاجراً ، مغرقاً فى شهواته ، وأنه كان على رأس بلاط منحل وضيع الخلال . ويقول البعض الآخر إنه كان بالعكس ملكاً فاضلاحسن السيرة ، وافر الحكمة والعدالة ، وإنه عمل على رد المظالم وإقامة العدل[4] . والمرجح المتداول ، أنه أحسن السيرة فى بداية عهده ، ورد إلى اليهود سابق حقوقهم وامتيازاتهم ، ولكنه حاول أن يحد من سلطة الأشراف والأحبار ، وأن يجمع السلطة فى يد العرش ، فسخط عليه الأشراف ورجال الدين ، ودبروا لإسقاطه ثورة بعد ثورة ؛ ولكنه أخمدها

(١) راجع كتاب « تاريخ لانجدوك » **Histoire de Languedoc** ، تأليف الراهب **Dom Vissette** ( الطبعة الجديدة ج ١ ص ٧٥٠ و ٧٥١ ) ، وهذا المؤلف موسوعة ضخمة من ستة عشر مجلدا ، ويشتمل على وثائق وتفاصيل هامة عن تاريخ اسبانيا قبل الفتح الإسلامى ، وغزوات العرب الأولى لإسبانيا وفرنسا .

(٢) **Dozy : Hist. : V. I. p. 268**

(٣) ويسميه العرب « غيطشة » .

(٤) يقول بالرواية الأولى سبستيان الشلمنتى وردريك الطليطلى ، ويقول بالرواية الثانية إيزيدور الباجى ؛ ويوافقه فى هذا ابن عذارى المراكشى ( البيان المغرب ج ٢ ص ٤ ) . وراجع : **Dozy : Recherches, V.1 p. 16.**

جميعاً ، وهدم جميع المعاقل والحصون الداخلية لكى يحطم سلطان خصومه ويجردهم من وسائل الدفاع والمقاومة ، فلم يزدهم البطش والهزيمة إلا ظمأً إلى الخروج والثورة . وكان فى مقدمة خصومه الذين يخشى بأسهم دوق تيودوفريد الذى نفاه أبوه الملك إچيكا إلى قرطبة ، فزاد على ذلك أن سمل عينيه مبالغة فى النكاية به ، وحاول أن يفعل ذلك مع بلاجيوس ولد فاڤيلا دوق كانتابريا ، ولكنه استطاع الفرار من نقمته[1] . وكان الشعب من جهة أخرى يرزح أبداً تحت نير الجور والإرهاق ، فكان عرش القوط يرتجف فوق بركان مضطرم من السخط :
وتقول الرواية النصرانية إن الزعماء الناقمين انتهزوا فرصة اقتراب أسطول إسلامى من جنوب اسبانيا ورفعوا لواء الثورة ، وإن وتيزا استطاع أن يرد هذا الأسطول وإن تيودومير قائد الأسطول القوطى هزم المسلمين فى معركة بحرية كبيرة وذلك فى سنة ٧٠٨ م[2] . وكان العرب كما قدمنا قد طوقوا أسوار سبتة معقل القوط فى الضفة المقابلة من البحر ، وأمد وتيزاً حاكمها الكونت يوليان بأشجع جنده ، فانتهز خصومه فرصة ضعفه فى الداخل ليدبروا الثورة مرة أخرى . وقاد الثورة عندئذ زعيم جرىء هو رُدريك ابن دوق تيودوفرد الذى سمل وتيزاً عينى أبيه ، فكان يحفزه باعث الانتقام أيضاً ، وكان يتزعم حزباً قوياً ، والتف حوله رجال الدين والأشراف والأسر الرومانية ، فجمع جيشاً كبيراً ونادى بنفسه ملكاً . ووقعت بين الفريقين حرب أهلية شديدة . وهنا تختلف الرواية فيقال إن وتيزا قتل فى هذا النضال وخلص الملك لمنافسه ، وفى رواية أخرى أن ردريك ظفر به وسمل عينيه انتقاماً لأبيه ، ويقال أيضاً إنه ارتد إلى إحدى الولايات الشمالية وامتنع بها حتى وفاته . ويختلف المؤرخون كذلك فى تاريخ ولاية ردريك الملك ، فيقول البعض ، ومنهم ردريك الطليطلى ، إنه تولى سنة ٧١١ م ، وحكم مع وتيزا قسما من اسبانيا ، وإنه لما توفى وتيزا فى سنة ٧١٣م ، استأثر بالحكم مدى

---

(١) **Dom Vissette : ibid, V. 1. p. 756**

(٢) أورد هذه الرواية إيزيدور الباجى **Isidorus Pacensis** ونقلها المؤرخ الألمانى يوسف أشباخ فى كتابه **Geschichte der Omajaden in Spanien** (ج ١ ص٢٦) . والظاهر أن المقصود هنا هو الحملة البحرية التى جهزها موسى بن نصير بقيادة ابنه عبد الله سنة ٨٩ هـ (٧٠٨م) وهى المعرفة بغزوة الأشراف . ولكن المسلمين لم يهزموا عندئذ فى أية موقعة بحرية ، وقد غزوا جزائر البليار كما قدمنا .

عام آخر حتى فتح اسبانيا ، ويقول إيزيدورالباجى ، إن ردريك ظفر بالعرش فى أواخر سنة ٧١١ م وإنه لم يحكم قبل الفتح سوى عام واحد(١) ؛ وفى الروايتين تحريف ظاهر ، ولا بد أن ردريك ولى الملك قبل سنة ٧١١ ، إذكان فتح العرب لاسبانيا فى صيف هذا العام نفسه . وعلى أى حال فإن المعركة استمرت مدى حين بين ردريك وولدى وتيزا ، وهما إيقا وسيزبوت يعاونهما عمهما أوباس(٢) أسقف طليطلة وإشبيلية ورأس الكنيسة ، والتفت حولها رجال الدين وكل أنصار الحكم القديم . وكان ردريك قوى الجانب وافر الشجاعة والعزم ، فاستطاع أن يخمد الثورة فى كل ناحية ، واستتب له الأمر حيناً ، ومع ذلك فقد بقى عرش القوط مضطرباً يهتز فى يد القدر ، وكان الخطر يجثم فى ناحية أخرى :

ذلك أن خصوم ردريك اتجهوا بأبصارهم إلى خارج الجزيرة . وكان الكونت يوليان حاكم سبتة والمضيق ، محط أنظارهم ومساعيهم . وقد اختلف فى أمر الكونت يوليان اختلافاً بيناً ، فالروايات العربية القديمة كلها تشيد بذكره ، وبالدور العظيم الذى أداه فى الفتح ، وينكر وجوده بعض أكابر المؤرخين الإسبان مثل ماسدى وغيره ، لأن ذكره لم يرد لأول مرة إلا فى روايات القرن الثانى عشر. على أنه مما يعزز إجماع الرواية العربية ، إشارة إيزيدور الباجى ، صاحب أقدم رواية إسبانية عن الفتح ، إلى شريف نصرانى كان يصحب موسى فى كل غزواته . كذلك تختلف الرواية فى صفة الكونت ، فيقال إنه لم يكن تابعاً لملك القوط ، وإن سبتة كانت فى ذلك الحين ما تزال تابعة لقيصر الدولة الشرقية ، ولكن حاكمها الكونت رأى لبعدها وعزلتها أن يستظل بحماية اسبانيا(٣). على أنه يبدو من أقوال الرواية العربية ، وهى فى نظرنا أقوى وأرجح ، أن الكونت يوليان كان قوطياً إسبانياً ، وأنه كان يرتبط ببلاط طليطلة بصلات وثيقة . وتؤيد الرواية العربية

---

(١) Dom Visette : ibid, V. 1. p. 756 وذلك نقلا عن Rodericus Toletanus و Isidorus Pacensis , Chronicon

(٢) يسمى ابن القوطية أولاد وتيزا كما يأتى : المند . ورملة . ثم أرطباس . ولعل أرطباس هو أوباس . ولكن صاحب « أخبار مجموعة فى فتح الأندلس » أصح وأدق فهو يسميهما شبشرت وأبة باعتبار أنهما اثنان فقط ( ص ٨ ) .

(٣) Dozy : Recherches : V. 1. p. 60-65, Hiet : V. 1. p. 270

بعض التواريخ النصرانية المتأخرة ، فيقول لنا ردريك الطليطلى ، ولوقا التطيلى ، إن الكونت يوليان كان حاكماً لسبتة ، وهى يومئذ من أملاك العرش القوطى ، وإنه كان رجلا شجاعاً ، ولكنه كان مغامراً منتقماً ، وإنه كان من أقارب الملك ڤامبا[1] . ويقول لنا ألفونسو العاشر فى تاريخه العام إن الكونت يوليان كان من أكابر الأشراف الذين يرجع أصلهم إلى القوط ، وإنه كان قريباً للملك وتيزا[2]. ولما نشب الخلاف الداخلى حول العرش ، انضم الكونت إلى أنصار الحكم القديم وأنصار الملك وتيزا . وكان غنياً شديد البأس ، كثير الأتباع والجند ، يعتصم بالبحر ، بعيداً عن سلطة العرش ، ويقبض على مفتاح اسبانيا بحكمه لسبتة والمضيق . وكان من خصوم الحكم الجديد يخشى عواقبه على مركزه وسلطانه . فاتصل به إبنا وتيزا وباقى الزعماء الخوارج ، واستقر الرأى على الاستنجاد بالعرب جيران الكونت ، وهذا هو التعليل التاريخى للتحالف الذى عقد بين يوليان وموسى ابن نصير وانتهى بفتح العرب لإسبانيا . ولكن الرواية — والرواية الإسلامية بنوع خاص — تقدم إلينا تعليلا آخر ، فتقول لنا إن يوليان كان يعمل بدافع الانتقام الشخصى أيضاً . فقد كانت له إبنة رائعة الحسن تدعى فلورندا أوكابا ، أرسلها إلى بلاط طليطلة جرياً على رسوم ذلك العصر ، لتتلقى ما يليق بها من التربية بين كرائم العقائل والفرسان ، فاستهوى جمالها الفتان قلب ردريك فاغتصبها وانتهك عفافها . وعلم الكونت بذلك فاستقدم ابنته إليه وأقسم بالانتقام ، ونزع ردريك ذلك العرش الذى اغتصبه . فلما نشبت الحرب الأهلية بين ردريك وخصومه ، والتجأ هؤلاء الخصوم إليه ، رأى الفرصة سانحة للعمل ، ولم ير خيراً من الاستنصار بالعرب ومعاونتهم على فتح اسبانيا .

والرواية الإسلامية تجمع على قبول هذه القصة والأخذ بها ، مع أخذها فى الوقت نفسه بالعوامل السياسية التى ذكرناها[3]. ولكن الرواية النصرانية تتردد

---

Camille Jalian : Histoie de la Gaule p. 727 ( ١ )

Pr. Crónica General ( Ed. Pidal ) Vol. I. p. 307 ( ٢ )

( ٣ ) يتناقل المؤرخون المسلمون هذه القصة منذ أقدم العصور ، فنراها فى رواية ابن عبد الحكم الذى كتب تاريخ فتح الأندلس بعد وقوعه بنحو قرن فقط (أخبار مصر وفتوحها ص ٢٠٥) . وذكرها ابن حيان مؤرخ الأندلس ( نقله نفح الطيب ج ١ ص ١٠٩ ) ، وابن القوطية القوطى فى « افتتاح الأندلس » (ص ٨) — وهو يصف يوليان بأنه كان تاجراً من تجار العجم لا حاكما لسبتة ، ويعلل=

فى قبولها ، وتنكرها معظم الروايات الإسبانية الحديثة ، وتعتبرها أسطورة صاغتها الأغانى والقصص القديمة . وهكذا نجد ماريانا وماسدى أعظم مؤرخى اسبانيا فى مقدمة المنكرين لصحتها . ويذهب البعض الآخر مثل مونتيخار وغيره إلى أبعد من ذلك ، فينكر شخصية الكونت يوليان ذاته ، ويعتبرها شخصية خيالية ، ويعتبر القصة كلها خرافة وأسطورة فقط[1] . ويقول كوندى إن اسم كابا ( فلورندا ) ووصيفتها أليفا وكل أشخاص هذه الرواية تدل على أن القصة كلها إنما هى خرافة موريسكية[2] اشتقت من الأساطير والأغانى العامية التى كانت ذائعة بين المسلمين والنصارى[3] .

وإنكار الرواية الإسبانية لمثل هذه القصة معقول ظاهر الحكمة ، فهى تأبى الاعتراف بواقعة تسجل خيانة الوطن على نفر من زعماء اسبانيا الأوائل ، وهى خيانة كان من أثرها أن افتتح العرب اسبانيا وحكمها الإسلام قروناً طويلة . على أننا لا نجد فى القصة ما يبعث إلى إنكارها ، فوقوعها ممكن معقول فى مثل الظروف التى كانت تجوزها اسبانيا يومئذ ، من خلاف فى الرأى ، وتنازع على السلطة ، وانحلال أخلاقى واجتماعى . ولسنا من جهة أخرى نلمس فى الرواية الإسلامية أثر الاختراع . فليس ثمة ما يدعو إليه . وليس من المعقول أن تخترع الرواية الإسلامية قصة مفادها أن المسلمين لقوا فى فتح اسبانيا معاونة لم يتوقعوها ، وأن هذه المعاونة سهلت لهم سبل الفتح ، ولعلهم لم يقدموا بدونها على الاضطلاع به ، أو لعلهم كانوا يتعرضون للإخفاق والفشل . هذا إلى أن بعض الروايات الإسبانية القديمة ، ومنها ما هو قريب من الفتح ، يشترك مع الرواية العربية فى سرد قصة فلورندا والأخذ بها .

---

= وقوع الفتح بخروج أولاد وتيزا وخيانتهم . وكذا صاحب أخبار مجموعة (ص ٥) . وابن الأثير (ج ٤ ص ٢١٣ ) . وابن خلدون ( ج ٢ ص ٢٣٦ وج ٤ ص ١١٧ ) . وعبد الواحد المراكشى فى « المعجب » ( ص ٦ ) . وابن عذارى المراكشى فى « البيان المغرب » ( ج ٢ ص ٨ ) . وصاحب الروض المعطار فى « وصف جزيرة الأندلس » المنشور بالقاهرة ١٩٣٧ ( ص ٧ ) .

( ١ ) راجع الهامش فى : **Aschbach : ibid, I. p. 28**

( ٢ ) نسبة إلى الموريسكيين **Moriscos** أو العرب المتنصرين ، وهم بقية الأمة الأندلسية المغلوبة بعد سقوط غرناطة ( ١٤٩٢ م ) وانتهاء دولة الإسلام فى الأندلس .

( ٣ ) **Historia de la Dominación de los Arabes en Espana**

فمن ذلك ما ورد فى رواية إيزيدور الباجى الذى عاش فى أوائل القرن الثامن ، وما ذكره ردريك الطليطلى فى روايته ، من أن الكونت يوليان ثار لاعتداء ردريك على ابنته أو زوجه ، واعتزم أن ينتقم لنفسه بدعوة العرب إلى فتح اسبانيا . وهى قصة يرددها أيضاً التاريخ العام الذى وضع بأمر الملك ألفونسو العالم فى أواخر القرن الثالث عشر(١). فنى هذه الروايات الإسبانية النصرانية كلها تأييد لهذه القصة الشهيرة . كذلك يختلف النقد الأوربى الحديث فى أمر هذه القصة ، فيرى البعض أنها أسطورة لا يصح الأخذ بها ، ويرى البعض الآخر أنها معقولة لا أثر للاختراع فيها(٢) . ونحن مع هذا الفريق نرى قصة فلورندا حادثاً طبيعياً معقولا ، ونرى فى إجماع الرواية الإسلامية على تدوينها دليلا آخر على صحتها . ومهما كان من أمر يوليان ، ومهما كان من بواعث غضبه ونقمته على مليكه ، فقد كان تدخله أكبر عامل فى تذليل فتح المسلمين لشبه الجزيرة الإسبانية ، والقضاء على مملكة القوط .

---

(١) — Pr. Crónica General ; Vol. I. p. 807, C. Julian, ibid, p. 757 Gibbon, ibid. Chap. LI (Note)

(٢) قال الفيلسوف جيبون فى تعليقه على تلك القصة : « طالما كانت أهواء الملوك يطبعها الجموح والعبث . ولكن هذه القصة المعروفة ، وإن كانت روائية فى ذاتها ، لم تؤيدها الأدلة الكافية ، وتاريخ اسبانيا يقدم من بواعث المصلحة والسياسة ما هو أليق بتفكير السياسى القديم ( يريد الكونت يوليان ) Gibbon, ibid, LI . ويسخر ڤولتير فى تاريخه العام من القصة ويقول : « إن الاغتصاب صعب التنفيذ صعب التدليل ، فهل يتحالف الأحبار من أجل فتاة » . ولكن المؤرخ المستشرق دوزى يروى القصة ويأخذ بها فى شرح حوادث الفتح Dozy : Histoire V.I.p.271 وكذا يرويها ويأخذ بها المستشرق كاردون فى كتابه : Histoire de l'Afrique etde l'Espagne p. 65.

# الفصل الثالث

## فتح اسبانيا

المفاوضة بين موسى بن نصير والكونت يوليان . استئذان موسى للوليد فى الفتح . فكرة يوليان وأصحابه فى استدعاء العرب . حملة تمهيدية إلى الجزيرة الخضراء . حملة الفتح . طارق بن زياد . عبوره إلى الأندلس واختراقه للجزيرة الخضراء . تأهب ردريك ملك القوط لملاقاة العرب . مكان اللقاء بينهما . موقعة شذونة أو وادى لكة . تفرق الجيش القوطى . هزيمة القوط ومقتل ردريك . الخطاب الذى ينسب إلى طارق والشك فى صحته . هل أحرق طارق سفن الحملة . اللقاء الثانى بين القوط والعرب فى إستجة . هزيمة القوط الثانية . زحف طارق على طليطلة . إفتتاح قرطبة وغرناطة ومالقة . معاونة اليهود للمسلمين . افتتاح تدمير وعقد الصلح مع أميرها . طارق يخترق الأندلس . كلمة أندلس وأصلها . استيلاء طارق على طليطلة . اختراقه قشتالة وليون وجبال أستورية . عوده إلى طليطلة . موسى وموقفه من الفتح . أوامره لطارق . يقود حملة جديدة إلى اسانيا . استيلاؤه على شذونة وقرمونة وإشبيلية . حصاره لماردة وافتتاحها . غضبه على طارق ثم عفوه عنه . مسيرهما إلى الشمال وافتتاحهما لسرقسطة وطركونة وبرشلونة . مسير طارق إلى جليقية . موسى يخترق البرنيه ويغزو سبتمانيا . إفتتاحه لأربونة وقرقشونة ووادى الرون . مشروعه فى اختراق الأمم النصرانية شرقاً إلى مقر الخلافة . إعتراض حكومة دمشق . مسيره لإخضاع جليقية . استدعاؤه وطارق إلى دمشق . بواعث هذا الاستدعاء . افتتاح عبد العزيز بن موسى لبلنسية ولبلة . معاهدته مع تيودمير . إشبيلية عاصمة الأندلس . إستخلاف موسى لولده عبد العزيز . سفره وطارق إلى المشرق . ما أصاب المسلمون من غنائم الأندلس . مصير موسى واختلاف الرواية فى شأنه . وفاته وخلاله . مصير طارق . مصير الكونت يوليان والأمراء المحالفين للعرب . سارة القوطية وحفيدها المؤرخ .

فى الوقت الذى كانت شبه الجزيرة الإسبانية تجوز فيه هذه الحوادث والأزمات الخطيرة ، كان العرب قد أتموا فتح المغرب الأقصى ، واستولوا على ثغر طنجة ، وأشرفوا على شواطىء الأندلس من الضفة الأخرى من البحر ، ولم يبق لإتمام فتح إفريقيه سوى ثغر سبتة الذى يقع مقابل طنجة فى الطرف الآخر من اللسان المغربى . وكانت سبتة قد استطاعت لمنعتها وسهر حاكمها الكونت يوليان ، أن تحبط كل محاولة لأخذها . وكان موسى بن نصير يتوق إلى افتتاح هذا الثغر المنيع ، وتطهير إفريقية من البقية الباقية من العدو . وبينا هو يرقب الفرص لتحقيق هذه الأمنية ، إذ جاءته رسالة من الكونت يوليان نفسه يعرض فيها

تسليم معقله ، ويدعوه إلى فتح اسبانيا ، وجرت بينهما المفاوضة فى هذا المشروع الخطير . وتختلف الرواية فى أمر هذا الاتصال ، فيقال إن موسى ويوليان اتصلا بالمراسلة ، وقيل إنهما اتصلا بالمقابلة الشخصية ، وإن الكونت استدعى موسى إلى سبتة ، وهنالك وقعت المفاوضة بينهما . وقيل أخيراً إنهما اجتمعا فى سفينة فى البحر[1] . وعلى أى حال فقد استجاب موسى لدعوة الكونت ، واهتم بمشروعه أعظم اهتمام ، وكان قد وقف على أحوال اسبانيا وخصبها وغناها ، واستطاع أن يقدر أهمية مثل هذا الفتح ، وجليل مغانمه ومزاياه ، فلما علم من يوليان وحلفائه ما تعانيه اسبانيا من الخلاف والشقاق ، وما يسودها من الانحلال والضعف ، ورأى مما يعرضه يوليان من تسليم سبتة وباقى معاقله ، وتقديم سفنه لنقل المسلمين فى البحر ، ومعاونته بجنده وإرشاده ، أن الفوز ميسور محقق ، كتب إلى الوليد بن عبد الملك يخبره بأمر المشروع ، فكتب إليه الوليد أن يختبره بالسرايا ، أعنى بالحملات الصغيرة بادىء بدء ، وألا يزج بالمسلمين إلى أهوال البحر ، بيد أن المسلمين كانوا قد خاضوا قبل ذلك غمر المعارك البحرية فى هذه المياه ، وغزوا صقلية وسردانية ، ثم غزوا جزائر البليار ( الجزائر الشرقية ) كما قدمنا ، وكان البحر الذى يفصل بين إفريقية والأندلس مجازاً ضيقاً سهل العبور .

ولبث موسى حيناً بطنجة يهىء عدة الفتح . والظاهر أن يوليان وحلفاءه لم يقصدوا بدعوة موسى أن يمتلك العرب اسبانيا ، وأن يحكموها ، بل كان مشروعهم أن يستعينوا بالعرب على محاربة المغتصب وإسقاطه ، واستخلاص الملك لأنفسهم . وكان اعتقادهم أن العرب متى امتلأت أيديهم بالأسلاب والغنائم ، قفلوا إلى إفريقية . وهو فرض معقول يؤيده سير الحوادث فى اسبانيا ، فقد كان الخوارج على ردريك يقصدون إلى انتزاع الملك من يده . وتحقيق أطماعهم بالحلول مكانه . أما الفرض الآخر — وهو أنهم كانوا يقصدون بالفعل تسليم وطنهم إلى العرب — فمعناه أنهم كانوا يعملون للقضاء بأنفسهم على مشاريعهم وأطماعهم ، وهو مما يصعب قبوله وتعليله[2] ، والظاهر أن موسى بن نصير كان من جانبه

( ١ ) راجع ابن الأثير ج ٤ ص ٢١٣ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٦ .

( ٢ ) قدم ابن الأثير فى روايته ما يفيد صحة الفرض الأول ( ج ٤ ص ٢١٤ ) . وكذا صاحب =

يؤكد ليوليان أنه لايقصد بالغزو سوى مجد الفتح وكسب الغنائم ، وأنه لا ينوى إنشاء دولة مسلمة فيما وراء البحر . ونزل موسى على نصح الخليفة فى اختبار الفتح الجديد بالسرايا ، وبدأ مشروعه بمحاولة صغيرة ، فجهز خمسمائة مقاتل بينهم مائة فارس ، بقيادة ضابط من البربر يدعى طريف بن مالك ، فعبروا البحر من سبتة فى أربع سفن قدمها يوليان ، إلى البقعة المقابلة التى سميت جزيرة طريف باسم قائد الحملة ، وذلك فى رمضان سنة إحدى وتسعين (يوليه سنة ٧١٠ م) . وجاست الحملة خلال الجزيرة الخضراء بإرشاد يوليان ، فأصابت كثيراً من الغنائم ، وقوبلت بالإكرام والترحيب ، وشهدت كثيراً من دلائل خصب الجزيرة وغناها ، ثم عادت فى أمن وسلام ، وقص قائدها على موسى نتائج رحلته ، فاستبشر بالفوز ، وجد فى أهبة الفتح .

وفى شهر رجب سنة اثنتين وتسعين ( إبريل سنة ٧١١ م ) جهز موسى جيشاً من العرب والبربر يبلغ سبعة آلاف مقاتل بقيادة طارق بن زياد الليثى ، وكان يومئذ حاكماً لطنجة كما قدمنا(١) . ومن الغريب أن الرواية الإسلامية لا تحدثنا عن فاتح الأندلس بشىء قبل ولايته لطنجة ، بل إنها لتختلف فى أصله ونسبته ، فقيل هو فارسى من همذان ، كان مولى لموسى بن نصير ، وقيل إنه من سبى البربر ، وقيل أخيراً إنه بربرى من بطن من بطون نفزة ، وهذه فيما يظن أرجح رواية ، وهى رواية يؤيدها صاحب البيان المغرب ، بإيراد نسبة طارق مفصلة . ويبدو منها أن طارقاً تلقى الإسلام عن أبيه زياد عن جده عبد الله ، وهو أول اسم عربى إسلامى فى نسبته ، ثم ينحدر مساق النسبة بعد ذلك خلال أسماء بربرية محضة حتى ينتهى إلى نفزة ، وهى القبيلة التى ينتمى إليها(٢) .

= « أخبار مجموعة » ( ص ٨ ) ، والمقرى ( ج ١ ص ١٢٠ ) . ومن جهة أخرى فإن البحث الحديث يؤيده ويرجحه . راجع دوزى : Dozy : Hist, V. I. p. 272 ، وأيضاً جيبون حيث يقول : « يظهر أن الكونت لا يستحق وصمات الخيانة والخسة والغدر مطلقة ، فإن التاريخ لم يثبت أنه كان يريد تسليم بلاده للعرب . وإنما كان مشروعه أن يستعين بهم على قلب الحكومة وإسقاط ردريك حتى يكون له فى حكومة هو منشؤها مكانة أسمى » Gibbon : ibid. Chap. LI. (note)

( ١ ) يقول صاحب البيان المغرب إن ولاية طارق لطنجة كانت فى سنة ٨٥ هـ (ج ٢ ص ٢٨ ) ، ولكن الظاهر أنه وليها بعد ذلك ببضعة أعوام .

( ٢ ) راجع البيان المغرب (ج ٢ ص ٦ ) وفيه ترد نسبة طارق هكذا : — طارق بن زياد ابن عبد الله بن ولغو بن ورفجوم بن نيرغاس بن ولهاص بن يطوفت بن نفزا ؛ وراجع أيضاً نزهة =

وتقدم إلينا الرواية الإسلامية التى يسوقها إلينا صاحب كتاب « الإمامة والسياسة » وصفاً لشخص طارق خلاصته أنه كان « رجلا طويلا أشقر ، بعينيه قبل أى حول وبيده شلل »[١] . فإذا صحت هذه الرواية ، فإنها يمكن أن تقدم إلينا دليلا آخر على انتماء طارق إلى الجنس البربرى . فالبربر حسبما شهدنا من التجوال فى بعض ربوعهم بالمغرب ، يكثر بينهم الطول والشقرة .

وكان طارق جندياً عظيماً ظهر فى غزوات المغرب بفائق شجاعته وبراعته ، وقدر موسى مواهبه ومقدرته واختاره لحكم طنجة وما يليها ، وهى يومئذ أخطر بقاع المغرب الأقصى وأشدها اضطرباً ، ثم اختاره لفتح الأندلس . فعبر البحر من سبتة بجيشه تباعاً فى سفن يوليان القليلة ، ونزل بالبقعة الصخرية المقابلة التى ما زالت تحمل اسمه إلى اليوم أعنى جبل طارق ، وذلك فى يوم الإثنين الخامس من رجب سنة ٩٢ هـ ( ٢٧ إبريل سنة ٧١١ م )[٢] . واخترق طارق المنطقة المجاورة غرباً بمعاونة يوليان وإرشاده ، وزحف على ولاية الجزيرة التى كان يحكمها تيودومير القوطى عامل ردريك واحتل قلاعها ، بعد أن هزم شراذم من القوط تصدت لوقفه . وبادر حكام الولايات المجاورة بإخطار بلاط طليطلة بالخطر الداهم . وكان ردريك يشتغل يومئذ بمحاربة بعض الخوارج فى الولايات الشمالية ، فهرع إلى طليطلة شاعراً بفداحة الخطر المحيق بعرشه وأمته ، وبعث قائده إديكو لرد العدو حتى يستكمل أهبته . ولكن طارقاً هزمه ثم اخترق بسائط « الفرنتيره »[٣] معتزماً السير صوب عاصمة القوط .

وكان رُدريك أو رذريق أو لذريق كما يسميه العرب[٤] أميراً شجاعاً وافر المقدرة والعزم ، ولكنه كان طاغية يثير بقسوته وصرامته حوله كثيراً من البغضاء

---

= المشتاق للشريف الإدريسى حيث يقول إنه بربرى من زناته ( طبع رومة ص ١٧٩ ) ، وكذلك ابن خلدون ( ج ٤ ص ١١٧ ) ، والمقرى ( نفح الطيب ج ١ ص ١١٩ ) .

( ١ ) الإمامة والسياسة ج ٢ ص ٧٤ . ونقل إلينا المقرى ما يفيد أن طارقا كان ضخم الهامة ، وفى كتفه الأيسر شامة ( ج ١ ص ١٠٧ ) .

( ٢ ) المقرى ( ج ١ ص ١١٩ ) ، والبيان المغرب ؛ وهناك خلاف على الشهر الذى عبر فيه طارق .

( ٣ ) الفرنتيره **La Frontera** ، هى المنطقة الوسطى والغربية فى المثلث الإسبانى .

( ٤ ) ويسميه الواقدى باسم آخر هو « الأدرينوق » ؛ راجع الطبر ج ٨ ص ٨٢ .

والسخط[1] . وكان عرشه يرتجف فوق بركان من الخلاف ، وكانت إسبانيا قد مزقت شيعاً وأحزاباً ، يتطلع كل منها إلى انتزاع السلطان والملك ، وكان أهم هذه الأحزاب وأقواها حزب العرش القديم الذى يلتف حول ولدى وتيزا ( غيطشة ) . ومع ذلك فقد اعتصم القوط حين الخطر الداهم بنوع من الاتحاد ، واستطاع ردريك أن يجمع حوله معظم الأمراء والأشراف والأساقفة ، وحشد هؤلاء رجالهم وأتباعهم ، فاجتمع للقوط يومئذ جيش ضخم تقدره بعض الروايات بمائة ألف[2] ، ويقدره مؤرخ أندلسى متأخر بتسعين ألف[3] . وسار ردريك نحو الجنوب للقاء المسلمين ، وكان طارق قد وقف على أمر هذه الأهبة العظيمة ، فكتب إلى موسى يستنجد به ، فأمده بخمسة آلاف مقاتل ، فبلغ المسلمون اثنى عشر ألفاً ، وانضم إليهم يوليان فى قوة صغيرة من صحبه وأتباعه .

كان القوط أضعاف المسلمين ، وكان المسلمون يقاتلون فى أرض العدو فى هضاب ومفاوز شاقة ، ولكن قائدهم الجرىء تقدم إلى الموقعة الحاسمة بعزم . فكان اللقاء بين الجيشين فى سهل الفرنتيره Frontera على ضفاف نهر وادى لكُّه أو وادى بكه . وقد اختلف البحث الحديث فى تحديد المكان والنهر الذى يحمل هذا الاسم الذى تورده الرواية العربية . فذكر البعض أنه هو نهر «جواداليتّى» Guadalete ( وادى لكه ) الذى يصب فى خليج قادس على مقربة من مدينة شريش ، وأن اللقاء حدث على ضفته الجنوبية شمالى مدينة شذونة . وذكر البعض الآخر ، وهى الرواية الراجحة فيما يرى البحث الحديث ، أن اللقاء قد حدث جنوبى بحيرة « خَنْدة » Janda الصغيرة المتصلة بنهر بارباتى Barbate الصغير

(١) Cardonne : ibid. p. 62

(٢) راجع ابن الأثير ج ٤ ص ٢١٤ ؛ والمقرى ج ١ ص ١٢٠ . ويقدره فى مكان آخر بسبعين ألف ( ص ١١٢ ) . ويأخذ جيبون بهذه الرواية فيقدر جيش القوط بتسعين ألف أو مائة ألف ( الفصل الحادى والخمسون ) . ولكن ابن خلدون يقدره بأربعين ألف فقط ، وهو فى نظرنا أقرب إلى المعقول ( ج ٤ ص ١١٧ ) .

(٣) هذه هى رواية على بن عبد الرحمن بن هذيل صاحب كتاب « تحفة الأنفس وشعار أهل الأندلس » وهو من كتاب القرن الرابع عشر الميلادى ( مخطوط بالإسكوريال رقم ١٦٥٢ دير نبورر — لوحة ٤٨ ) وهو مؤلف فريد فى بابه يتحدث عن الجهاد والمغازى وللصوائف والفروسية وأحوالها وشروطها . وبه نبذ تاريخية مفيدة . وقد نشره المستشرق مرسييه .

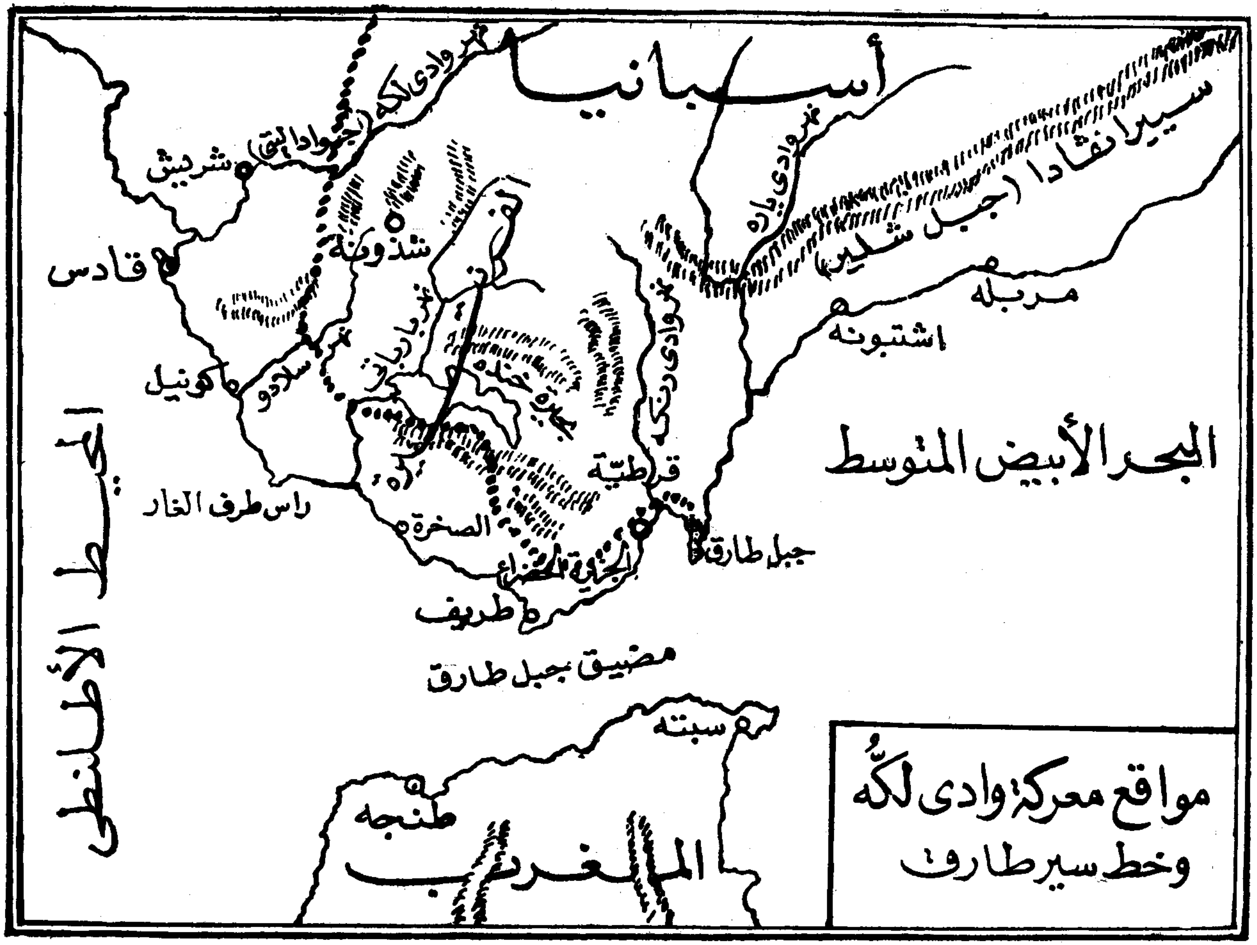


مواقع معركة وادى لكه
وخط سير طارق

الذى يصب فى المحيط على مقربة من رأس « طرف الغاز »[1] وأن الرواية العربية تقصد هذا النهر بما تورده من إسم وادى لكه أو وادى بكه . فى هذا السهل الصغير الذى تحده من الجنوب سلسلة من التلال العالية، وعلى ضفاف بحيرة خنده ونهر «بارباتى» تلاقى العرب والقوط ، والإسلام والنصرانية ، وذلك فى الثامن والعشرين من شهر رمضان سنة ٩٢ ( ١٧ يوليه سنة ٧١١ م )[2] . وفرق النهر بين الجيشين مدى أيام ثلاثة شغلت بالمعارك البسيطة . وفى اليوم الرابع التحم الجيشان ونشبت بينهما معركة عامة . وظهر ردريك وسط الميدان فى حلل ملوكية فوق عرش تجره الخيل المطهمة ، وهو منظر يثير سخرية الفيلسوف جيبون ولاذع تهكمه إذ يقول : « ولقد يخجل ألاريك ( مؤسس دولة القوط ) عند رؤية خلفه ( ردريك ) متوجاً باللآلىء ، متشحاً بالحرير والذهب ، مضجعاً فى هودج من العاج »[3] . واستمرت المعركة هائلة مضطرمة بين القوى النصرانية الضخمة ، وبين القوة المسلمة المتواضعة نحو أربعة أيام[4] . ولكن الجيش القوطى كان رغم كثرته مختل النظام منحل العرى ، وكان يقود جناحيه إيفا وسيزبوت خصما ردريك[5] ،

---

(١) يقول دوزى إن هذا النهر يحمل اليوم اسم سلادو **Salado** ( ج ١ ص ٢٧٣ هامش ) وهو خطأ لأن هذا الإسم يطلق على نهر آخر يقع شمالى نهر بارباتى . ويسميه ابن القوطية « وادى بكه » ( ص ٧ ) . وراجع : الأستاذ ليڤى بروڤنسال : **Histoire de l'Espagne Musulmane (1944) p. 15 & 16,** والهوامش .

(٢) تجمع الرواية الإسلامية تقريباً على أن الموقعة كانت فى ذلك التاريخ . ولكن ابن حيان مؤرخ الأندلس يقول إنها كانت فى السابع من ربيع الأول سنة ٩٢ هـ ( المقرى عن ابن حيان ج ص ١١٦ ) ولعله ينفرد بهذا الخلاف .

(٣) تشير معظم الروايات الإسلامية إلى هذا المنظر ؛ فيقول الطبرى نقلا عن الواقدى : « فزحف الأدرينوق فى سرير الملك ، وعلى الأدرينوق تاجه وقفازه وجميع الحلة التى كان يلبسها الملوك » ( ج ٨ ص ٨٢ ) ، والمقرى ( ج ١ ص ١١٢ ) ، وابن الأثير ( ج ٤ ص ٢١٢ ) ، وابن عذارى ( ج ٢ ص ٩ ) .

(٤) قال الرازى : « كانت الملاقاة يوم الأحد لليلتين بقيتا من شهر رمضان ، فاتصلت الحرب بينهم إلى يوم الأحد لخمس خلون من شوال . ثم هزم الله المشركين فقتل منهم خلق عظيم أقامت عظامهم بعد ذلك بدهر طويل ملبسة بتلك الأرض ، قالوا : وحاز المسلمون من عسكرهم ما يجل قدره ، فكانوا يعرفون كبار العجم وملوكهم بخواتم الذهب يجدونها فى أصابعهم ، ويعرفون من دونهم بخواتم الفضة ، ويميزون عبيدهم بخواتم النحاس » ( المقرى ج ١ ص ١٢١ ) .

(٥) أخبار مجموعة ( ص ٨ ) .

وتتكون صفوفه من أتباعهما وأتباع حلفائهما من الأمراء والزعماء الناقمين ، الذين تظاهروا بالإخلاص وقت الخطر ، وكلهم يتحين الفرصة للإيقاع بالملك المغتصب(١) ، فكانت الخيانة تمزق جيش القوط شر ممزق . واستمال يوليان والأسقف أوپاس وهما فى صف المسلمين كثيراً من جند القوط ، وبثا بدعايتهما فى الصفوف الموالية لردريك كثيراً من عوامل الشقاق والتفرق ، فأخذ كل أمير يسعى فى سلامة نفسه . وتمكن الجيش الإسلامى على ضآلة عدده ، بجلده وثباته واتحاد كلمته ، من جيش القوط ، فلم يأت اليوم السابع من اللقاء حتى تم النصر لطارق وجنده ، وهزم القوط شر هزيمة ، وشتتوا ألوفاً فى كل صوب .

أما ردريك آخر ملوك القوط ، فقد اختفى عقب الموقعة ، ولم يعثر له بأثر . ويقول إيزويدور الباجى إنه بقى فى ميدان الحرب حتى قتل مدافعاً عن عرشه وأمته . وتقول بعض الروايات النصرانية الأخرى إنه فر عقب الهزيمة على ظهر جواده ، ولكنه غرق فى مياه النهر . وتميل التواريخ الإسلامية إلى تأييد هذه الرواية ، وتقول لنا إن ملك القوط مات غريقاً ، وإنهم عثروا على جواده وسرجه الذهبى ، ولم يعثر إنسان بجثته . وتزعم بعض الروايات النصرانية أيضاً أن ردريك استطاع أن يلوذ بالفرار ، ولكنه قتل بعد ذلك ، أو أنه فر إلى بعض الأديار فى البرتغال وترهب ، وعاش متنكراً حيناً من الدهر . وينفرد صاحب كتاب الإمامة والسياسة بين المشارقة برواية أخرى ، وهى أن طارقاً ظفر بجثة ردريك ، فاحتز رأسه وبعث بها إلى موسى بن نصير ، وبعث بها موسى إلى الخليفة ، ويتابعه فى هذه الرواية كاتب أندلسى هو صاحب كتاب تحفة الأنفس الذى تقدم ذكره(٢) . هذا إلى روايات كثيرة أخرى . ولكن المرجح فى هذه الروايات كلها هو أن ردريك فقد حياته فى الموقعة التى فقد فيها ملكه ، وأنه مات قتيلا أو غريقاً على الأثر(٣) .

---

(١) ابن الأثير (ج ٤ ص ٢١٤) والمقرى (ج ١ ص ١٢١) ودوزى (ج ١ ص ٢٧٢) .

(٢) راجع كتاب الإمامة والسياسة ج ٢ ص ٧٥ و ٧٦ . ووردت هذه الرواية فى كتاب تحفة الأنفس فى المخطوط المتقدم ذكره (لوحة ٤٨) .

(٣) راجع فى مصير ردريك **C. Julian: Histoire de la Gaule p.750-Gibbon, ibid, Chap.LI. & notes** ، وراجع من المصادر الإسلامية : ابن الأثير حيث يقول إنه غرق فى نهاية الموقعة (ج ٤ ص ٢١٤) . والمقرى حيث يقول إنه رمى بنفسه مختارا إلى النهر ، وقد ثقلته الجراح (نفح الطيب =

هكذا كانت موقعة شذونة التى دالت فيها دولة القوط ، بعد أن لبثت زهاء ثلاثمائة عام منذ قيامها فى غاليس ، وغنم الإسلام فيها ملك إسبانيا . وتحيط الرواية الإسلامية حوادث الفتح بطائفة كبيرة من الأساطير والقصص التى لا يستطيع المؤرخ أن يقف بها[1] . بيد أنه يجدر بنا فى هذا المقام أن نذكر ما تعرضه الرواية من أن طارقاً خطب جنده قبيل نشوب المعركة الحاسمة ؛ كما أنه يجدر بنا أن نورد نص هذا الخطاب الشهير الذى ينسب لفاتح الأندلس ، والذى يعتبر نموذجاً بديعاً من الفصاحة والحماسة الحربية وهو :

« أيها الناس : أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم . وليس لكم والله إلا الصدق والصبر ، واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من الأيتام فى مأدبة اللئام ، وقد استقبلكم عدوكم بجيوشه وأسلحته ، وأقواته موفورة ، وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم ، ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أيدى عدوكم . وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً ، ذهبت ريحكم وتعوضت القلوب عن رعبها منكم الجرأة عليكم ؛ فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم ، بمناجزة هذا الطاغية ، فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة ؛ وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت . وإنى لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة ، ولا حملتكم على خطة أرخص متاعاً فيها للنفوس ، أبدأ بنفسى ، واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلا استمتعتم بالأرفه الألذ طويلا ، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسى ، فما حظكم فيه بأوفى من حظى . وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان ، الرافلات فى الدر والمرجان .

---

= ج ١ ص ١٢١ ) . وقال ابن الأبار فى الحلة السيراء إنهم عثروا على جواد ردريك وسرجه من ذهب وزبرجد وإحدى نعليه وغاب شخصه ، فما وجد حياً ولا ميتاً (ايضا ص ٣١) . وهذه هى أيضاً رواية صاحب « أخبار مجموعة » ( ص ٦ ) . وقال ابن عذارى إن ردريك اختفى ولم يعرف له موضع ولا وجدت له جثة ، وإنما وجد له خف مفضض ، فقالوا إنه غرق وقالوا إنه قتل ( ج ٢ ص ١٠ ) ؛ وتردد بعض التواريخ الغربية هذه الرواية ( كامى جوليان فى تاريخ « غاليس » ص ٧٥٨ ) . وتقول بعض الروايات الإسبانية إنه فر إلى مغار ناسك ، والبعض الآخر إنه ألقى حياً إلى بئر ملأى بالأفاعى حيث صاح : « وإنها تلتهم الجزء الذى ثقلته بالخطايا » ( جيبون الهامش فى الفصل الحادى والخمسين ) .

[1] راجع رواية ابن عبد الحكم عن فتح الأندلس ( ص ٣٠٤ وما بعدها ) فقد تخللها بعض هذه الأساطير ، ولكن المقرى يستوعب الكثير منها نقلا عن مختلف الروايات ( نفح الطيب ج ١ ص ١١٤ وما بعدها ) .

والحلل المنسوجة بالعقيان ، المقصورات فى قصور الملوك ذوى التيجان ، وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عرباناً ، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً ، ثقة منه بارتياحكم للطعان ، واستماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان ، ليكون حظه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته ، وإظهار دينه بهـذه الجزيرة ، وليكون مغنمها خالصة لكم من دونه ، ومن دون المؤمنين سواكم . والله تعالى ولى إنجادكم على ما يكون لكم ذكراً فى الدارين . أيها الناس : ما فعلت من شىء فافعلوا مثله ، إن حملت فاحملوا ، وإن وقفت فقفوا ، ثم كونوا كهيئة رجل واحد فى القتال ، وإنى عامد إلى طاغيتهم بحيث لا أنهيه حتى أخالطه وأمثل دونه ، فإن قتلت فلا تهنوا ولا تحزنوا ولا تنازعوا ، فتفشلوا وتذهب ريحكم ، وتولوا الدبر لعدوكم فتبدوا بين قتيل وأسير . وإياكم إياكم أن ترضوا بالدنية ، ولا تعطوا بأيديكم ، وارغبوا فيما عجل لكم من الكرامة ، والراحة من المهنة والذلة ، وما قد أحل لكم من ثواب الشهادة ، فإنكم إن تفعلوا ، والله معكم ومفيدكم ، تبوءوا بالخسران المبين ، وسوء الحديث غدا بين من عرفكم من المسلمين ، وهأنذا حامل حتى أغشاه فاحملوا بحملتى »(١) .

ويشير صاحب كتاب تحفة الأنفس إلى خطبة طارق فى قوله : « لما التقى العرب والقوط ، فاقتتلوا ثلاثة أيام أشد قتال ، فرأى طارق ما الناس فيه من الشدة ، فقام يعظهم ويحضهم على الصبر ويرغبهم فى الشهادة ، وبسط فى آمالهم » ، ثم يورد نص الخطبة(٢) .

ثم تنوه الرواية الإسلامية بما كان لهذا الخطاب من أثر فعال فى إذكاء همم المسلمين وشجاعتهم وثقتهم ، ودفعهم إلى طريق النصر والظفر .

على أنه يسوغ لنا أن نرتاب فى نسبة هذه الخطبة إلى طارق ؛ فإن معظم المؤرخين المسلمين ، ولاسيما المتقدمين منهم لا يشير إليها ، ولم يذكرها ابن عبدالحكم

---

(١) هذا ، ومما ينسب لطارق أيضاً من قصيدة قالها فى الفتح :

ركبنا سفيناً بالمجاز قصيرا ... عسى أن يكون الله منا قد اشترى
نفوساً وأموالا وأهلا بجنة ... إذا ما اشتهينا الشىء فيها تيسرا
ولسنا نبالى كيف سالت نفوسنا ... إذا نحن أدركنا الذى كان أجدرا

(٢) كتاب تحفة الأنفس وشعار أهل الأندلس ؛ المخطوط المتقدم ذكره لوحة ٤٨ .

ولا البلاذرى ، وهما أقدم رواة الفتوحات الإسلامية ؛ ولم تشر إليها المصادر الأندلسية الأولى ، ولم يشر إليها ابن الأثير وابن خلدون ؛ ونقلها المقرى عن مؤرخ لم يذكر اسمه ؛ وهى على العموم أكثر ظهوراً فى كتب المؤرخين والأدباء المتأخرين . وليس بعيداً أن يكون طارق قد خطب جنده قبل الموقعة ، فنحن نعرف أن كثيراً من قادة الغزوات الإسلامية الأولى ، كانوا يخطبون جندهم فى الميدان ؛ ولكن فى لغة هذه الخطبة ، وروعة أسلوبها وعباراتها ، ما يحمل على الشك فى نسبتها إلى طارق ، وهو بربرى لم يكن عريقاً فى الإسلام والعروبة . والظاهر أنها من إنشاء بعض المتأخرين ، صاغها على لسان طارق مع مراعاة ظروف المكان والزمان .

وتشير الرواية الإسلامية فى هذا الموطن إلى واقعة أخرى جديرة بالتأمل والبحث ؛ وهى واقعة قد يغلب عليها لون الأسطورة ، وإن كانت مع ذلك تعرض علينا فى ثوب التاريخ الحق ؛ تلك هى واقعة إحراق السفن التى نقل عليها طارق جيشه من الشاطىء الإفريقى إلى شاطىء الأندلس . ونحن نعرف مما تقدم أن الكونت يوليان هو الذى قدم السفن التى ركبها العرب إلى الأندلس فى بعثهم الاستكشافية الأولى بقيادة طريف بن مالك ، ثم فى حملتهم الغازية بقيادة طارق . وهنا تذكر الرواية أن طارقاً ما كاد يعبر بجيشه إلى الشاطئ الأندلسى ، حتى أمر بإحراق السفن التى عبر عليها جيشه ، وذلك لكى يدفع جنده إلى الاستبسال والموت ، أو النصر المحقق ، ويقطع عليهم بذلك كل تفكير فى التخاذل والارتداد. فما مبلغ هذه الرواية من الصحة ؟ إن جميع الروايات الإسلامية التى تحدثنا عن فتح الأندلس لا تذكر شيئاً عن هذه الواقعة ، ولا تذكرها الرواية الإسلامية إلا فى موطن واحد ؛ فقد ذكر الشريف الإدريسى فى معجمه الجغرافى « نزهة المشتاق » عند الكلام على جغرافية الأندلس ، أن طارقاً أحرق سفنه بعد العبور بجيشه إلى الأندلس(١) ، وقد نقلت بعض التواريخ النصرانية المتأخرة هذه الرواية عن الإدريسى فيما يرجح ؛ وفيما عدا ذلك فإن جميع الروايات الإسلامية تمر عليها بالصمت المطلق .

وقد يقال إن فى الخطاب المنسوب إلى طارق ما يؤيد صحة هذه الرواية ،

---

(١) نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ( المختصر ) ، طبع رومة ، ص ١٧٨ .

فطارق يستهله بقوله : « أيها الناس ، أين المفر ؟ البحر من ورائكم ، والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر ... » ، وفى ذلك ما يمكن أن يحمل على أن الجيش الفاتح قد جرد من وسائل الارتداد والرجعة إلى الشاطئ الإفريقى ، أو بعبارة أخرى قد جرد من السفن التى حملته فى عرض البحر إلى اسبانيا ؛ ولكنا رأينا أن هذا الخطاب لا يمكن الاعتماد عليه من الوجهة التاريخية ، كوثيقة بعيدة عن شوائب الريب . ولو صح أن طارقاً ألقى فى جنده مثل ذلك الخطاب ، فقد نجد تفسيراً لأقوال طارق فى أن السفن كانت ملكاً للكونت يوليان ، وفى أنها لم تكن تحت تصرف الغزاة فى جميع الأوقات .

ومع ذلك كله فإن رواية الشريف الإدريسى عن واقعة إحراق طارق للسفن ليست من الأمور المستحيلة ؛ وهى عمل بطولة يتفق مع بطولة فاتح الأندلس ؛ على أنها تبقى عرضة لكثير من الريب ، فقد دونت لأول مرة فى القرن الخامس الهجرى . أعنى بعد فتح الأندلس بأكثر من ثلاثة قرون ، ولم تؤيدها أية رواية إسلامية أخرى(١) .

وعلى أثر الموقعة الحاسمة التى غلب فيها الجيش القوطى ومزق ، ساد الرعب على القوط ، فامتنعوا بالحصون والجبال ، وقصدوا إلى الهضاب والسهول . وذاعت أنباء النصر فى طنجة وسبتة وما جاورهما من أراضى العدوة ، فعبر إلى الجيش الفاتح سيل من المجاهدين والمغامرين من العرب والبربر . وزحف طارق بجيشه شمالا . وكانت بقية الجيش القوطى قد اجتمعت عند إستجة لتحاول رد الجيش الفاتح ، فالتقى الجيشان هناك ثانية ، وهزم القوط مرة أخرى ، ولم يبق إلا أن يستولى الفاتحون على المدن والقواعد الحصينة واحدة بعد الأخرى .

وكان يوليان وأصحابه إلى جانب المسلمين ، يعاونهم بالنصح والإرشاد كما قدمنا ، ففى إستجة وضعت خطة السير ، وتقرر أن يسير طارق بنفسه إلى طليطلة عاصمة المملكة القوطية ؛ وأرسل طارق مغيثاً الرومى مولى الوليد بن

---

(١) يقدم لنا التاريخ الحديث مثلا بديعا للفاتح الذى يحرق السفن التى عبر عليها جيشه لكى يقطع على جنده كل تفكير فى الرجعة والارتداد ، هو مثل المكتشف الإسبانى هرناندو كورتيث فاتح المكسيك . فقد أمر هذا الفاتح الشهير ، حينما أشرف على شواطىء المكسيك مستكشفا فاتحا فى سنة ١٥١٩ م . بإحراق سفنه التى قدم عليها جيشه من اسبانيا . ومن الغريب أن يكون بطل هذا الحادث إسبانيا ، وهو ما يحملنا على الظن بأنه قد تأثر فى عمله بالمثل الذى ينسب لطارق فاتح الأندلس .

عبد الملك إلى قرطبة فى سبعمائة فارس ، فاقتحم أسوارها الحصينة واستولى عليها دون مشقة ، وأرسل حملات أخرى إلى غرناطة وإلبيرة ومالقة ، فافتتحت مالقة وفر سكانها إلى الجبال ، ثم لحق جيشها بالجيش المتجه إلى إلبيرة وغرناطة ، فحوصرت غرناطة قليلا وفتحت ، ثم فتحت إلبيرة . وكان اليهود يعاونون المسلمين فى كل هذه الفتوح ، فكان المسلمون يضمون إليهم فى كل مدينة من المدائن المفتوحة حامية صغيرة لحفظها . ثم سار المسلمون بعد ذلك شرقاً نحو ولاية مرسية ، وكانت تسمى يومئذ تيودمير ( أو تدمير ) باسم أميرها ، وقاعدتها مدينة أوريولة ؛ وكان تيودمير جندياً كبيراً ، وافر العزم والبأس ، فالتقى بالمسلمين ونشبت بينه وبينهم معارك شديدة هلك فيها معظم رجاله ، فارتد إلى أوريولة ، وامتنع بها ، وعرض النساء ، حسبما تقول الرواية ، على الأسوار فى اثواب الرجال إيهاماً بكثرة جنده ، واستطاع بثباته وجلده ، أن يعقد الصلح مع المسلمين بشروط حسنة أنقذت بها مدينته من السبى والجزية[1] .

وسار طارق فى بقية الجيش إلى طليطلة مخترقاً هضاب الأندلس[2] وجبال

---

( ١ ) ابن الأثير ( ج ٤ ص ٢١٥ ) . والبيان المغرب ( ج ٢ ص ١٣ ) . وسنورد فيما بعد نص هذه المعاهدة .

( ٢ ) يطلق المؤرخون والجغرافيون العرب كلمة « الأندلس » على شبه جزيرة إيبيريا المكونة من اسبانيا والبرتغال ( ياقوت فى معجم البلدان تحت كلمة لأندلس . والروض المعطار ص١ ) . وتطلق فى الرواية العربية أيضاً على اسبانيا المسلمة ، التى كانت عقب الفتح تشمل كل إسبانيا ما عدا جاهقية وولايات جبال البرنيه . ولكن « الأندلس » تطلق فى العصور المتأخرة وفى الجغرافية الحديثة على ولايات الأندلس الواقعة فى جنوبى إسبانيا بين نهر الوادى الكبير والبحر ، وبين ولاية مرسيه وإشبيلية ؛ وما زالت « الأندلس » **Andalucia** تحتل فى تقسيم اسبانيا الإدارى الحاضر نفس هذه المنطقة . والرواية العربية تعلل هذه التسمية بصور مختلفة فتقول مثلا إنها سميت أندلس باسم أول من سكنها من قديم الزمان وهم قوم من الأعاجم يقال لهم أندلوش ( نفح الطيب ج ١ ص ٦٧ ) . ويقول ابن الأثير إن النصارى يسمون الأندلس إشبانة باسم اشبانس أحد ملوكها ، وهذا هو اسمها عند بطليموس ( ج ٤ ص ٢١٢ ) . ولكن ابن خلدون يقدم لنا تعليقاً أدق فيقول إنها سميت «الأندلس» باسم « قندلس» ولعلها قندلس ، ومن الواضح أنه يقصد الفندال أى الوندال ( ج ٢ ص ٢٣٥ فى تاريخ القوط ) . ويقدم لنا البكرى خلاصة دقيقة لهذه المسميات الجغرافية التاريخية فيقول فى وصفه لجزيرة الأندلس ، « إن اسمها فى القديم إباريه **Iberia** من وادى إبره ، ثم سميت بعد ذلك باطقة **Baetica** ، من وادى بيطى وهو نهر قرطبة . ثم سميت إشبانية من اسم رجل ملكها فى القديم كان اسمه إشبان . وقيل سميت بالإشبان سكنوه فى أول الزمان على جرية النهر وما والاه . وقال قوم إن اسمها هو فى الحقيقة إشبارية **Hisperia** =

سيرّا مورينا ( جبل الشارّات ) التى تفصل بين الأندلس وقشتالة ، بإرشاد يوليان وأصحابه . وكان القوط قد فروا منها نحو الشمال بأموالهم وآثار قديسيهم . ولم يبق بها سوى اليهود وقليل من النصارى ، فاستولى طارق عليها ، وأبقى على من بقى من سكانها ، وترك لأهلها عدة كنائس ، وترك لأحبارها حرية إقامة الشعائر الدينية ، وأباح للنصارى من القوط والرومان اتباع شرائعهم وتقاليدهم ، واختار لحكمها وإدارتها أوباس مطرانها السابق وأخا الملك وتيزا . وتابع طارق زحفه شمالا ، فاخترق قشتالة ثم ليون فى وهاد ومفاوز صعبة ، وطارد فلول القوط حتى أسترقة ؛ فلجأت إلى قاصية جليقية واعتصمت بجبالها الشامخة . وعبر طارق جبال أشتوريش ( أستورياس )[1] واستمر فى سيره حتى أشرف على ثغر خيخون الواقع على خليج بسكونية ( غسقونية ) فكان خاتمة زحفه ونهاية فتوحاته ، ورده عباب المحيط عن التقدم فعاد إلى طليطلة حيث تلقى أوامر موسى بوقف الفتح . وكان ذلك لعام فقط من عبوره إلى اسبانيا .

وقد اختلف المؤرخون فى تعليل البواعث التى حملت موسى على أن يصدر أوامره إلى طارق بوقف الفتح ؛ فقيل إن موسى لم يكن يتوقع كل هذا الفوز لقائده ومبعوثه ، فلما وقف على مبلغ فوزه وتقدمه ، تحول إعجابه به إلى حسد وغيرة ، وخشى أن ينسب ذلك الفتح العظيم إليه دونه ، فكتب إليه ألا يتقدم

---

من إشبرش وهو الكوكب المعروف بالأحمر . وسميت بعد ذلك بالأندلس من أسماء الأندليش من الذين = سكنوها » . والأندليش هم الوندال **Vandals** . ( أبو عبيد البكرى فى جعرافية بلاد افريقية والمغرب طبعة دى سلان ) . وهذا هو التعليل الذى يأخذ به دانفيل **Danville** إذ يقول إن الاشتقاق مأخوذ من كلمة ڤاندالوسيا **Vandalusia** أى بلد الوندال ، ( نقله جيبون عن كتاب ممالك أوربا فى هامش الفصل الحادى والخمسين ) . وهذا ما يقرره الغزيرى أيضاً فى معجم مخطوطات الإسكوريال **(Bibliotheca Arabico - Hispana Escurialensis II, p. 237)**

( ١ ) وهنا تذكر الرواية العربية أن طارقاً انتهى إلى مدينة المائدة خلف جبال أستوريه فاستولى على مائدة سليمان بن دا د ، وهى خضراء من زبرجد حافاتها منها وأرجلها ثلثمائة وخمسة وستون. ويقال إن هذه المائدة غنمها الرومان من المشرق أو بيت المقدس فى بعض غزواتهم ثم نقلوها إلى رومة ، فغنمها القوط حين افتتحوا رومة ، ثم أحرزها العرب عند فتح اسبانيا . وذكر ابن الأثير أن أحد ملوك اسبانيا فى عهد الوندال غزا بيت المقدس وأحرز المائدة ( ج ٤ ص ٢١٢ ) . وذكر صاحب الروض المعطار ، كما ذكر بعض مؤرخى الإفرنج ، أن هذه المائدة هى من نفائس ملوك القوط ، وأن العرب عثروا بها فى كنيسة طليطلة وهو أقرب إلى المعقول . ( الروض المعطار ص ٥ ) .

حتى يلحق به ، ويتوعده بالعقاب إذ توغل بعد بغير إذنه[1] . ولكن البعض يعلل غضب موسى على طارق ولحاقه به ، بأن طارقاً خالف الأوامر الصادرة إليه بألا يجاوز قرطبة أو حيث تقع هزيمة القوط[2] . وهذا تعليل حسن يتفق وما أثر عن موسى من الحيطة والحذر ، فقد ينكب المسلمون إذا توغلوا فى أراض ومسالك مجهولة . على أن ذلك لا يمنع من أن يكون للغيرة أثرها أيضاً فى نفس موسى وفى تصرفه . وعلى أى حال فقد عبر موسى البحر إلى اسبانيا فى عشرة آلاف من العرب وثمانية آلاف من البربر ، فى سفن صنعها خصيصاً لذلك ، يحفزه شغف الفتح بالرغم من شيخوخته ، ونزل بولاية الجزيرة حيث استقبله الكونت يوليان ، وذلك فى رمضان سنة ثلاث وتسعين ( يونيه سنة ٧١٢ م ) . وبدأ موسى زحفه بالاستيلاء على مدينة شَذُونة[3] ، ثم سار إلى قَرْمونة وهى يومئذ من أمنع معاقل الأندلس ، فاستولى عليها بمعاونة يوليان وأصحابه . وقصد بعدئذ إلى إشبيلية أعظم قواعد الأندلس . ففتحها بعد أن حاصرها شهراً . ثم سار إلى ماردة وحاصرها مدة ، وقتل تحت أسوارها جماعة كبيرة من المسلمين فى كمين دبره النصارى . وانتهت بالتسليم فى رمضان أو شوال سنة أربع وتسعين ، على أن تكون أموال الغائبين والكنائس ، غنيمة للمسلمين دية لمن قتل منهم . وقصد موسى بعدئذ إلى طليطلة فالتقى بطارق على مقربة منها وكان قد سار إلى استقباله . فأنبه وبالغ فى إهانته ، وزجه مصفداً إلى ظلام السجن بتهمة الخروج والعصيان ، وقيل بل هم بقتله أيضاً[4] . ولكنه ما لبث أن عفا عنه ورده إلى منصبه[5] .

---

( ١ ) هذه هى رواية ابن عبد الحكم ( ص ٢٠٧ ) ، وصاحب أخبار مجموعة ( ص ١٥ ) ، وابن القوطية ( ص ٩ ) ، وابن الأثير ( ج ٤ ص ٢١٥ ) ، وابن خلدون ( ج ٤ ص ١١٧ ) ، وابن حيان مؤرخ الأندلس ( نفح الطيب ج ١ ص ١٢٦ ) ، وبغية الملتمس للضبى ( ص ١١ ) ، والحميدى فى جذوة المقتبس ( طبع مصر ) ص ٥ .

( ٢ ) البيان المغرب ( ج ٢ ص ١٥ و ١٨ ) .

( ٣ ) **Medina Sedonia** ، ويسميها ابن الأثير مدينة السليم ( ج ٤ ص ٢١٥ ) . ولكن شدونة أو شذونة تسمية أكثر ذيوعاً .

( ٤ ) ابن عبد الحكم ( ص ٢٠٨ ) ، وابن الأثير ( ج ٤ ص ٢١٥ ) ، والمقرى فى نفح الطيب ( ج ١ ص ١٢٧ ) ، والحميدى فى جذوة المقتبس ( ص ٦ ) .

( ٥ ) ينفرد ابن عبد الحكم برواية عن إطلاق سراح طارق ، هى أن طارقاً استجار بمغيث الرومى وكان عائداً من الأندلس إلى المشرق ، ووعده بمائة عبد إذا هو أبلغ أمره إلى الوليد بن عبد الملك ، فقام مغيث بالرسالة وبادر الوليد بالكتابة إلى موسى أن يطلق سراح طارق ويتوعده إذا أساء إليه .=

ووضع الإثنان خطة لافتتاح ما بقى من إسبانيا . ثم زحفا نحو الشمال الشرقى واخترقا ولاية أراجون ( الثغر الأعلى ) وافتتحا سرقسطة وطرّكونة وبرشلونة وغيرها من المدائن والمعاقل . ثم افترق الفاتحان ، فسار طارق نحو الغرب ليغزو جلّيقية ، وليتم القضاء على فلول القوط . وسار موسى شمالا فاخترق جبال البرنيه ( جبال البرت أو البرتات أو الممرات)[١] ، وغزا ولاية لانجدوك أو سبتمانيا التى كانت تابعة إذ ذاك لملوك القوط ، واستولى على قرقشونة (كاركاسون) وأربونة ( ناربون ) . ثم نفذ إلى مملكة الفرنج وغزا وادى الرون ( رذونة ) حتى مدينة لوطون أو لوذون (ليون) ، فاضطرب أمراء الفرنج وأخذوا فى الأهبة لرد الغزاة ؛ ويقال إن المعارك الأولى بين العرب والفرنج وقعت فى تلك السهول على مقربة من أربونة[٢] .

وهنا فكر القائد الجرىء فى أن يخترق بجيشه جميع أوربا غازياً فاتحاً ، وأن يصل إلى الشام من طريق قسطنطينية ، وأن يفتتح فى طريقه أمم النصرانية والفرنجة كلها . وهو ما يجمله ابن خلدون فى تلك العبارة القوية: « وجمع أن يأتى المشرق على القسطنطينية ، ويتجاوز إلى الشام ودروب الأندلس ، ويخوض ما بينها من بلاد الأعاجم أمم النصرانية مجاهداً فيهم ، مستلحماً لهم إلى أن يلحق بدار الخلافة »[٣]. وكان موسى يقدر تنفيذ مشروعه العظيم بجيش ضخم يقتحم البرنيه ، يؤيده من البحر أسطول قوى ، فيبدأ بافتتاح مملكة الفرنج ثم يقصد إلى مملكة اللومبارد[٤] فى شمالى إيطاليا ، فيخترقها فاتحاً إلى رومة قاعدة النصرانية ، فيفتتحها ويقضى فيها على كرسى النصرانية . ويتابع سيره بعدئذ شرقاً إلى سهول الدانوب ،

---

= وحمل مغيث هذا الكتاب إلى الأندلس ، فأفرج موسى عن طارق ورده إلى منصبه (ص ٢١٠) . وذكر الطبرى أن طارقاً ترضى موسى فرضى عنه وقبل منه عذره ( ج ٨ ص ٩٠ ) .

( ١ ) البرت أو البرتات محرفة عن الاسبانية **Puerta** ، ومعناها الباب . وسميت الجبال بهذا الاسم لأنها تحتوى على خمسة أبواب أو ممرات طويلة كانت تستعمل للعبور والغزو . وسنعود إلى تفصيل ذلك . أما تسميتها بجبال البرانس فهو خطأ جغرافى حسبما نوضح بعد .

( ٢ ) ابن حيان مؤرخ الأندلس ( نقله المقرى فى نفح الطيب ج ١ ص ١٢٨ ) ، والبيان المغرب ( ج ٢ ص ١٤ ) . ومعظم الروايات على أن موسى وقف فى زحفه عند أربونة .

( ٣ ) ابن خلدون ج ٤ ص ١١٧ ، ونفح الطيب ج ١ ص ١٣٠ .

( ٤ ) فى الجغرافية العربية بلاد النبرد أو أنكبردية .

متخناً فى القبائل الجرمانية التى تسيطر على ضفافه ، ثم يخترق أراضى الدولة البيزنطية حتى قسطنطينية فيستولى عليها ، ثم يعبر إلى آسيا الصغرى قاصداً إلى دمشق فيصل بذلك أملاك الخلافة الإسلامية فيما بين المشرق والمغرب من طريق الشمال ، كما اتصلت من طريق الجنوب[١] .

ولم يك ثمة ما يحول دون تنفيذ هذا المشروع الضخم ؛ فقد كان الإسلام يومئذ فى ذروة الفتوة والقوة والبأس ، وكانت جيوشه تقتحم أرجاء العالم القديم ظافرة أينما حلت . وكانت أمم الغرب من جهة أخرى يسودها الضعف والانحلال ، وكانت مملكة الفرنج وهى أضخمها وأقواها يمزقها الخلاف والتفرق ، وقد بدأ العرب غزوها بالفعل . ولم تستطع النصرانية أن توحد جهودها لرد الإسلام ، ولم تقم فيها زعامة قوية تجمع كلمتها وتنظم قواها فى جبهة دفاعية موحدة . ولم تكن أوربا فى ذلك الحين سوى مزيج مضطرب من الأمم والقبائل المتنافرة ، تمزقها المطامع والأهواء المختلفة . فكان الإسلام يستطيع غزوها وفتحها . ولم يكن حلماً وإغراقاً ما تصوره موسى بن نصير واعتزمه . ولكن سياسة الإحجام والتردد التى اتبعها بلاط دمشق نحو الفتوح الغربية ،والتى كادت تحول دون فتح اسبانيا ، أودت بذلك المشروع البديع ، وكتب الوليد بن عبد الملك إلى موسى يحذره من التوغل بالمسلمين فى دروب مجهولة ، ويأمره بالعود ، فارتد موسى مرغماً آسفاً ؛ ولكنه تمهل فى العود حتى يتم إخضاع معاقل جليقية التى اعتصمت بها فلول القوط ، ويطهر اسبانيا بأسرها من كل خروج ومقاومة ، فاخترق جليقية واستولى على معظم معاقلها ، ومزق كل قوة تصدت لمقاومته ، ولم يبق من النصارى سوى شراذم يسيرة اجتمعت حول زعيم يدعى بلاجيوس أو بلايو ، ولجأت إلى قاصية جليقية ؛ وبينما كان موسى يتأهب للحاق بها وسحقها ، إذ وصله كتاب آخر من دمشق يستدعيه وطارقاً ، ويأمرهما بتعجيل العود . ولعل أقوى البواعث التى حملت الوليد على هذا الاستدعاء ما نمى إليه من خلاف موسى وطارق ، وخوفه أن ينتهى هذا الخلاف ، بتفرق كلمة المسلمين ونكبتهم فى تلك الأقطار

---

(١) Cardonne : ibid. V.I.p. 96—97 . ويقول الفيلسوف جيبون تعليقاً على هذا المشروع إنه تمكن مقارنته بخطة مثراديتيس ليفتتح ما بين القرم ورومة ، أو خطة قيصر ليفتتح المشرق ثم يعود من طريق الشمال . ويفوق هذه المشاريع جميعاً مشروع هانيبال الذى نفذ بنجاح عظيم ( الفصل الحادى والخمسون ) .

الحديدة المجهولة التي افتتحوها[1] . أو لعله خوف الوليد أن يفكر موسى بما عرف من طمعه ودهائه ، في الاستقلال بذلك الملك الجديد النائي ، وهو أفضل تعليل يقبله النقد الحديث ويرجحه . وربما كان من هذه البواعث أيضاً ما بلغ الوليد عن وفرة الأموال والتحف التي اغتنمت من الأندلس ، وخوفه أن تمتد إليها يد التبديد . ومهما كانت العوامل التي دفعت الوليد إلى استدعاء فاتحي الأندلس ، فلا ريب أنه كان خطراً على مستقبل الإسلام في اسبانيا . ذلك أن هذه الشراذم النصرانية الصغيرة التي نجت من المطاردة واعتصمت بصخور جليقية ، لم تلبث أن نمت وقويت ، وكانت منشأ المملكة النصرانية التي قامت في الشمال ، ولبثت قروناً تكافح دولة الإسلام في اسبانيا حتى انتهت بالقضاء عليها .

وفي ذلك الحين كان عبد العزيز بن موسى قد افتتح منطقة الساحل الواقعة بين مالقة وبلنسية ، وأخمد الثورة في إشبيلية وباجة ، وافتتح لبلة وغيرها من المعاقل والحصون ، وأبدى في معاملة البلاد المفتوحة كثيراً من الرفق والتسامح ، والاعتدال في تطبيق الأحكام وفرض الضرائب . ولنا في معاهدته مع تيودمير خير شاهد باعتدال السياسة الإسلامية ولينها وتسامحها . وإليك نص هذه المعاهدة ، حسبما نقله إلينا الغزيري في معجمه ، نورده نموذجاً للوثائق السياسية الإسلامية في عصر الفتح :

« نسخة كتاب الصلح الذي كتبه عبد العزيز بن موسى لتدمير عبدوش — بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد العزيز إلى تدمير ، أنه نزل على الصلح ، وأنه له عهد الله وذمته أن لا ينزع عنه ملكه ، ولا أحد من النصارى عن أملاكه . وأنهم لا يقتلون ولا يسبون ، أولادهم ولا نساؤهم ، ولا يكرهون على دينهم ، ولا تحترق كنائسهم ما تعبد ونصح ، وأن الذي اشترط عليه أنه صالح على سبع مدائن ، أوريوالة وبلنتلة ولقنت ومولة وبقسرّة وأنة ولورقة . وأنه لا يأوي لنا عدواً ، ولا يخون لنا أمناً ولا يكتم خبراً علمه . وأنه عليه وعلى أصحابه ديناراً

---

(١) لم توضح الرواية الإسلامية أسباب هذا الاستدعاء . ولكن الغزيري نقل في معجمه عن بعض أوراق مخطوطة في الإسكوريال في سبب الاستدعاء هذه الفقرة : « ولما علم الوليد بن عبد الملك ما حدث لطارق بن زياد وموسى بن نصير من الخلاف بعث فيهما فانصرفا إلى المشرق » . ويعتقد الغزيري أن الأوراق التي عثر بها ونقل منها هذه الفقرة إنما هي من تاريخ الرازي لقرائن ذكرها . راجع Casiri : ibid ; V. II p. 323

كل سنة ، وأربعة أمداد قمح وأربعة أمداد شعير ، وأربعة أقساط طلا ، وأربعة أقساط خل ، وقسطى عسل ، وقسطى زيت ، وعلى العبد نصف ذلك . كتب فى أربع من رجب سنة أربع وتسعين من الهجرة . شهد على ذلك ... الخ »[١] .

واتخذ موسى بن نصير أهبته للعود إلى دمشق نزولا على أوامر الخليفة . فنظم حكومة الأندلس قبل رحيله ما استطاع ، وجعل حاضرتها إشبيلية[٢] لاتصالها بالبحر وكانت حاضرتها أيام الرومان ، واختار لولايتها ولده عبدالعزيز ، واستخلف على المغرب الأقصى ولده عبد الملك ، كما استخلف على إفريقية عبد الله أكبر أولاده . وفى شهر ذى الحجة سنة خمس وتسعين ( أغسطس ٧١٥ م ) قفل راجعاً إلى المشرق وطارق معه ، وفى ركبه من نفيس التحف والغنائم ما لا يقدر ولا يوصف ، ومن أشراف السبى عدد عظيم[٣] .

---

( ١ ) نقل الغزيرى هذا النص فى معجمه عن بعض مخطوطات الإسكوريال ، وقرنه بترجمة لاتينية **(Casiri : ibid. V II. p. 105)**

هذا وقد أورد لنا العذرى نصا آخر لهذا الأمان فى كتابه « ترصيع الأخبار وتنويع الآثار » ؛ على نفس المدن السبعة ، جاءت شروطه على النحو الآتى : « ألا يقدم ولا يؤخر لأحد من أصحابه بسوء ، وأن لا يسبون ، ولا يفرق بينهم وبين نسائهم وأولادهم ، ولا يقتلون ولا تحرق كنائسهم ، ولا يكرهون على دينهم ؛ وأنه لا يدع حفظ العهد ، ولا يحل ما انعقد ، ويصحح الذ فرضناه عليه ، وألزمناه أمره ، ولا يكتمنا خبراً علمه ، وأن عليه وعلى أصحابه غرم الجزية من ذلك على كل حر دينار .. الخ » ثم يلى ذلك شهود هذا الأمان » ( راجع « نصوص عن الأندلس » وهى عبارة عن أوراق منقولة من كتاب « ترصيع الأخبار » ومنشو ة بعناية الدكتور عبد العزيز الأهوانى ، وصاد، ة عن معهد الدراسات الإسلامية بمدريد — ص ٤ و ٥ ) .

( ٢ ) اقتبس العرب اسم « إشبيلية » من اسمها اللاتينى « هسبالى » **Hispali** ، ثم حرف الإسبان هذا الاسم إلى « سفيليا » **Sevilla** ، وهو الذ يطلق عليها فى الجغرافية الحديثة .

( ٣ ) تفيض الرواية الإسلامية فى وصف ما أصابه المسلمون فى الأندلس من الغنائم الجليلة والسبى الذى لا يحصى . وتقول إن موسى بن نصير حمل إلى دمشق من التحف والذخائر من الذهب والدر والياقوت والزبرجد ما لا يقدر ؛ منها مائدة سليمان السالفة الذكر ؛ وأما السبايا فيقال إنه حمل منها ثلاثين ألفاً ، بينهم مئات من أشراف القوط والد صفاء المختارين ، من ذو الشباب الغض والجمال الباهر ذكوراً وإناثاً . وذكر ابن القوطية أن موسى بن نصير عاد ومعه من أبناء الملوك والعجم أربعمائة ، على رؤسهم تيجان الذهب وفى أوساطهم مناطق الذهب ( ص ١٠ ) . ونقل المقرى عن بعض المؤرخين أن العرب وجدوا فى طليطلة حين فتحوها من الذخائر والأموال ما لا يحصى ، فمن ذلك مائة وسبعون تاجاً من الذهب الأحمر مرصعة بالدر وأصناف الحجارة الكريمة ، ووجد فيها ألف سيف ملوكى ، ومن الدر والياقوت أكيال ، ومن أوانى الذهب والفضة ما لا يحيط به وصف ( نفح الطيب ج ١ ص ١٣٠ و ١٣٥ و ١٣٦ ) .

وقد اختلفت الرواية العربية فى مصير موسى بن نصير ، واختلف الرواة فى أمر لقائه بالخليفة ؛ فقيل إنه وصل إلى دمشق قبل وفاة الوليد بن عبد الملك ، وقدم إليه الأخماس والغنائم ، فأكرمه وأحسن إجازته ؛ وقيل بل وصل عقب وفاة الوليد وارتقاء سليمان بن عبد الملك أخيه عرش الخلافة ، وأن سليمان غضب عليه ونكبه[1] . على أنه يمكن التوفيق بين القولين أعنى وفود موسى على الوليد ابن عبد الملك ثم نكبته على يد سليمان . وهنالك ما يرجح لدينا أنه لحق بالوليد قبيل وفاته ؛ فإن ابن عبد الحكم وهو أقدم رواة فتوح الأندلس ، يقول لنا إن موسى بن نصير مر بمدينة الفسطاط فى أواخر شهر ربيع الأول سنة ست وتسعين فى طريقه إلى دمشق[2]. وقد توفى الوليد فى منتصف جمادى الآخرة من هذا العام أعنى بعد وصول موسى إلى مصر بأكثر من شهرين ونصف . ولما كانت مسافة السفر بين الفسطاط ودمشق لا تتجاوز فى هذا العصر بضعة أسابيع ، فإن الوقت كان يكفى لمقدم موسى على الوليد قبل وفاته بأسابيع . على أن الرواية من جهة أخرى تكاد تجمع على أن سليمان سخط على فاتح الأندلس ونكبه . ذلك أن موسى وصل إلى الشام والوليد فى مرض موته ، فكتب إليه سليمان ولى العهد أن يتمهل فى السير ، رجاء أن يموت الوليد بسرعة ، فيقدم عليه فى صدر خلافته بما يحمل من التحف والغنائم الكثيرة ، فأبى موسى وجد فى السير حتى قدم والوليد حى فسلم إليه الأخماس والغنائم . ثم توفى الوليد بعد ذلك بقليل مستخلفاً أخاه سليمان على كرسى الخلافة . فغضب سليمان على موسى ، وزاد فى حقده عليه ، ما قدمه فى حقه طارق ومغيث من مختلف التهم[3] . وفى الحال أمر ، بعزله واتهمه وبنيه باختلاس مقادير عظيمة من المال والتحف ، وقضى عليه بردها ، وبالغ فى إهانته وتعذيبه ، ثم ألقاه إلى ظلام السجن . واستجار موسى بصديقه يزيد بن المهلب من نقمة سليمان ، وكان من أخصائه وذوى النفوذ عنده ، فيروى أن يزيداً

---

(١) يقول بالرواية الأولى ابن عبد الحكم ( فتوح مصر ص ٢١١ ) ، وصاحب كتاب الإمامة والسياسة (ج ٢ ص ٩٣ و ٩٤ ) ، وابن خلكان (ج ٢ ص ١٨١ ) . ويقول بالرواية الثانية ابن الأثير (ج ٤ ص ٢١٦ ) ، والحميدى فى جذوة المقتبس ( ص ٦ ) ، وابن خلدون (ج ٤ ص ١١٨ ) .

(٢) فتوح مصر ص ٢١١ .

(٣) أخبا مجموعة ص ٢٩ .

قال له : « لم أزل أسمع عنك أنك من أعقل الناس وأعرفهم بمكائد الحروب ومداراة الدنيا . فقل لى كيف حصلت فى يد هذا الرجل بعد ما ملكت الأندلس ، وألقيت بينك وبين هؤلاء القوم البحر الزخار ، وتيقنت بعد المرام واستصعابه ، واستخلفت بلاداً أنت اخترعتها ، وحصل فى يدك من الذخائر والأموال والمعاقل ما لو أظهرت به الامتناع ما ألقيت عنقك فى يد من لا يرحمك . ثم إنك علمت أن سليمان ولى عهد وأنه الولى بعد أخيه . وقد أشرف على الهلاك لامحالة ، وبعد ذلك خالفته وألقيت بيدك إلى التهلكة ، وأحقدت مالكك ومملوكك » . وما زال يزيد بسليمان حتى عفا عن موسى ، وأعفاه من الغرامة الفادحة التى قضى بها عليه ، ويقال بل عفا عن حياته ، ولم يعفه من الغرامة ، وإن موسى استطاع أن يفتدى نفسه ببعض ما فرض عليه ، وإن سليمان عفا عنه بعد ذلك[1] . وأقر ابنه عبد الله على إفريقية وابنه عبد العزيز على الأندلس . وتبالغ بعض الروايات فتقول إن سليمان أصر على معاقبة موسى وتغريمه . حتى كان يطوف أحياء العرب مع حراسه ليسأل بعض المال ليفتدى نفسه ، وإنه لبث على تلك الحال حتى توفى فى منتهى البؤس والذلة بوادى القرى فى شمال الحجاز حيث ينسب مولده ، وذلك سنة سبع وتسعين[2] .

بيد أنه لا يوجد ما يبرر الأخذ بمثل هذه الرواية المغرقة . والصحيح المعول عليه أن سليمان عفا عن موسى ، وأقاله من محنته ؛ وتوفى موسى بعد ذلك بقليل فى سنة سبع وتسعين ( وقيل فى سنة تسع وتسعين ) وهو فى طريقه إلى الحج مع سليمان ، وقد جاوز الثمانين من عمره .

---

( ١ ) هذه هى رواية ابن عبد الحكم ( فتوح مصر ص ٢١٣ ) . وهى رواية يؤيدها البلاذرى ( فتوح البلدان ص ٢٣٠ ) .

( ٢ ) يراجع فى مصير موسى بن نصير : فتوح مصر ( ص ٢١١ ) ، وأخبار مجموعة ( ص ٢٩ و ٣٠ ) ، وابن القوطية ( ص ١٠ — ١١ ) ، وابن الأثير ( ج ٤ ص ٢١٦ ) ، والمقرى عن ابن حيان وابن يشكوال والحجارى ، ( نفح الطيب ج ١ ص ١٣٤ و ١٣٥ ) ، وابن خلكان ( ج ٢ ص ١٨١ ) ، وكذلك كتاب الإمامة والسياسة ( ج ٢ ص ٨٦ ، ٨٩ و ٩٣ ، ٩٦ ) . هذا ويبدى المستشرق دوزى ريبه فى صحة الروايات والقصص التى قيلت عن مصير موسى بن نصير ، ويقول إنه لا يوجد ثمة ما يبررها ، لأن موسى كان يتمتع بحماية يزيد بن المهلب صديق سليمان وصاحب النفوذ لديه ، ويستشهد برواية البلاذرى التى أشرنا إليها ، وأيضاً برواية مؤرخ نصرانى معاصر هو إيزيدور الباجى (Dozy, Hist. V. I. p. 134—136)

هذا ما تردده الرواية الإسلامية عن مصير موسى بن نصير . ومهما كان من الأمر ، فإن فاتح الأندلس لم يلق الجزاء الحق ، بل غمط حقه وفضله أشنع غمط ، وأبدت الخلافة بهذا الجحود والنكران ، أنها لم تقدر البطولة فى هذا الموطن قدرها ، ولم تقدر عظمة الفتح الباهر الذى غنمته على يد رجلها وقائدها .

وكان موسى بن نصير من أعظم رجال الحرب والإدارة المسلمين فى القرن الأول للهجرة . وقد ظهرت براعته الإدارية فى جميع المناصب التى تقلدها ، كما ظهرت براعته الحربية فى جميع الحملات البرية والبحرية التى قادها . على أن هذه المواهب تبدو بنوع خاص فى حكمه لإفريقية ، حيث كانت الحكومة الإسلامية تواجه شعباً شديد المراس ، يضطرم بعوامل الانتقاض والفتنة ، وإذا كان موسى قد أبدى فى معالجة الموقف وإخماد الفتنة كثيراً من الحزم والشدة ، فقد أبدى فى الوقت نفسه خبرة فائقة بنفسية الشعوب ، وبراعة فى سياستها وقيادتها . وكان موسى فوق مواهبه الإدارية والعسكرية ، غزير العلم والأدب ، متمكنا من الحديث والفقه ، عالماً بالفلك ، مجيداً للنثر والنظم . غير أن هذه المواهب والخلال البديعة كانت تشوبها نزعة قوية إلى الطغيان والبطش ، وشهوة الحقد والحسد[1] .

وإلى موسى بن نصير يرجع الفضل الأول فى عبور الإسلام إلى أوربا من الغرب وقيام دولته فيها ، بعد أن اخفقت محاولته فى العبور إليها من المشرق عن طريق قسطنطينية . ومع أن سيل الفتح الإسلامى رد غير بعيد فى سهول بلاط الشهداء ، فإن الإسلام استطاع مع ذلك أن يستقر فى إسبانيا قروناً ، يبهر بضوء مدنيته الزاهرة جميع الأمم الأوربية فى العصور الوسطى .

* * *

هذا ما كان من شأن موسى ومصيره ، فماذا كان مصير طارق ؟ هذا ما تمر عليه الرواية الإسلامية بالصمت . وكل ما هنالك أنها تشير إلى ما كان من نية سليمان بن عبد الملك فى تعيينه والياً للأندلس مكان موسى ، وكيف عدل عن ذلك حينما وقف من مغيث الرومى فاتح قرطبة ، على ما كان يتمتع به طارق فى الأندلس من عظيم الهيبة والنفوذ ، وذلك توجساً مما قد يجيش به من أطماع ومشاريع نحو ذلك

(١) نفح الطيب (ج ١ ص ١٣٣ و ١٣٤) .

القطر النائى من أقطار الخلافة[1] . وقد كان مغيث يحقد على موسى وطارق منذ الفتح ويسعى إلى منافستهما والإيقاع بهما ، وكان لوقيعته ومساعيه ضدهما أكبر الأثر فى استدعائهما إلى دمشق . وإذا كانت هذه الرواية لا تلقى ضوءاً كافياً على مصير طارق ، فإنها قد تسمح لنا مع ذلك أن نعتقد أن طارقاً لم يلق مثل المصير المحزن الذى لقيه موسى ، وأنه بالعكس قد استقبل فى بلاط دمشق استقبالا حسناً ، وربما أحسن الخليفة فوق ذلك إثابته ، بدليل أنه فكر فى تعيينه والياً للقطر الذى ساهم فى افتتاحه بأعظم قسط .

ولكن الرواية الإسلامية لا تحدثنا بعد ذلك عن طارق بشىء ، ولا تذكر لنا أين ومتى توفى ، بل تسدل على نهايته حجاباً عميقاً من الصمت[2] .

وليس فى وسعنا إزاء هذا الغموض الذى يحيط بسيرة طارق أن نتحدث عن صفاته وخلاله ، وكل ما نستطيعه فى هذا الموطن هو أن ننوه بخلاله العسكرية الباهرة ، التى ظهرت بوضوح فى حروب المغرب وفتح الأندلس ، وهو بهذه الخلال يتبوأ مكانته بين أعظم الفاتحين المسلمين .

أما مصير الكونت يوليان الذى مهد لفتح الأندلس ، فلم تشر إليه الرواية الإسلامية . وفى بعض الروايات أنه عاد بعد الفتح إلى سبتة وأقطع ما حولها من الأراضى ، وقُلِّد إمارتها جزاء خدماته . ولكنه بقى نصرانياً هو وبنوه الأقربون ، ثم دخل عقبه فى الإسلام بعد ذلك . وتقول الرواية الكنسية الإسبانية إنه قتل بيد مواطنيه فى معركة نشبت بينه وبينهم ، أو أنه قتل بعد ذلك بأعوام فى ولاية الحر الثقفى بيد العرب لريبة فى ولائه . وتقول هذه الرواية أيضاً إن العرب أعدموا ابنى وتيزا وأفراد أسرته لمثل هذا السبب[3] . وهذا ما تنفيه الرواية الإسلامية وتؤكد عكسه . فالمصادر الإسلامية تجمع كلها على أن العرب أحسنوا معاملة إيقا ( أو إيبا ) وسيزبوت ابنى وتيزا وعمهما أوباس ؛ فأما أوباس فقد عين كما تقدم مطراناً لطليطلة ، وأقطع إيقا وسيزبوت ما كان لأبيهما من الضياع .

---

(١) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ٥٥ .

(٢) ولا نعرف مصدراً لما يقوله السيد أمير على من أن طارقاً لقى نفس المصير التعس الذى قيل إن موسى لقيه وأنه مات فى فقر وضعة : **History of the Saracens p. 122**

(٣) **Crónica General ; Vol. II. p. 324. Cardonne : ibid., V. I. p. 85 — Gibbon, ibid. Ch. LI — Scott : Moorish Empire, V. I. p. 259**

ثم توفى إيقا أكبر الأخوين بعد ذلك بأعوام عن إبنة تدعى سارة وولدين صغيرين ، فاغتصب سيزبوت ميراثه وضياعه ، فبادرت سارة بالسفر مع أخويها إلى دمشق ، وشكت عمها إلى الخليفة هشام بن عبد الملك ، فأنصفها وقضى لها برد ميراث أبيها ، وبعث بذلك إلى والى الأندلس أبى الخطار الكلبي . وتزوجت سارة فى دمشق من سيد عربى يدعى عيسى بن مزاحم ، ورزقت منه بولدين هما إبراهيم وإسحاق . ثم عادت مع زوجها إلى الأندلس ، وأحرز ولداها مكانة ممتازة . وإليها ينتمى نسب ابن القوطية القرطبي المؤرخ ، نسبة إلى لقبها العربى وهو سارة « القوطية »[1] .

---

( ١ ) تضطرب معظم الروايات العربية فى ذكر ابناء وتيزا ، فتقول إنه ترك ثلاثة بنين وتسميهم إلمند ورملة وارطباس . والظاهر أن الخطأ فى اعتبارها أوباس ( ولعله هو أرطباس ) ابنا لوتيزا . والمند هو إيقا ورملة هو سيزبوت . ( راجع فتح الأندلس لابن القوطية ص ٥ و ٦ ) . والمقرى ( ج ١ ص ١٢٥ ) ، ولكن صاحب « أخبار مجموعة » يقرر أنهما اثنان . ويسميهما ششبرت وأبة ، وهو تعريب حسن للاسمين ( ص ٨ ) ، وكذا ابن الأثير ( ج ٤ ص ٢١٣ ) .

# الفصل الرابع

## إسبانيا بعد الفتح الإسلامى

(١) آثار الفتح الإسلامى . سياسة العدل والتسامح . أقوال النقد الغربى الحديث فى ذلك . الحرية الدينية . المجتمع الإسلامى الجديد . عناصر الضعف فيه . العرب والبربر والمولدون . الخصومة بين اليمنية والمضرية . أسباب هذه الخصومة . رأى ابن خلدون فى تعليلها . الخصومة بين العرب والبربر . أثر دعوة الخوارج فى إذكائها . (٢) الأقاليم الأندلسية الجديدة . تفرق القبائل فى المدن المختلفة . منازل البربر فى شبه الجزيرة . ولاية عبد العزيز بن موسى . تنظيمه للحكومة الجديدة . زواجه بأرملة ردريك . التوجس من سياسته . مقتله . بواعث هذه الجريمة . ولاية أيوب ابن حبيب اللخمى . نقل قاعدة الحكم إلى قرطبة . ولاية الحر الثقفى . قمعه للمنازعات والفتن . غزوه لسبتمانيا وافتتاحه لقواعدها . محاربته لثوار الشمال . الإضطراب فى قرطبة . ولاية السمح بن مالك . فصل حكومة الأندلس عن إفريقية . فكرة عمر بن عبد العزيز فى جلاء المسلمين عن الأندلس . إصلاحات السمح ومنشآته . غزوه لسبتمانيا . زحفه على تولوشة .

— ١ —

كان فتح الإسلام لاسبانيا فاتحة عصر جديد ، وبدأ تطور عظيم فى حياتها العامة وفى نظمها الاجتماعية . وقد كانت لعهد الفتح كما رأينا ترزح فى غمر مرهقة من الجور والعسف ، وكانت أقلية باغية من الأمراء والنبلاء تسود شعباً بأسره وتستغله أشنع استغلال ، وتفرض عليه رسوم الرق والعبودية ، وتستبيح منه كل الحريات والحرم . فجاء الإسلام ليقضى على ذلك كله ، وليحمل نعم العدل والحرية والمساواة إلى الناس جميعاً ، وليعطى كل ذى حق حقه ، وليقمع البغى والظلم . وبالرغم من أن العرب شغلوا حيناً بتوطيد الفتح الجديد وتوسيعه ، فإنهم استطاعوا فى أعوام قلائل أن يقمعوا عناصر الشر والفوضى ، وأن ينظموا إدارة البلاد المفتوحة ، وأن يبثوا فى الجزيرة روحاً جديداً من العزم والأمل ، فنشطت الزراعة والصناعة والتجارة بعد ركودها ، وهبت ريح من الرخاء والدعة ، على مجتمع أضناه العسف والفاقة مدى عصور .

قضى الفتح على سلطان الطبقات الممتازة ، فتنفس الشعب الصعداء ، وخف عن كاهله ما كان ينوء به من الأعباء والمغارم . وفرض المسلمون الضرائب

بالمساواة والاعتدال والعدل ، بعد أن كان يفرضها حكم الهوى والجشع ، وأمن الناس على حياتهم وحرياتهم وأموالهم . وترك الفاتحون لرعاياهم الجدد حق اتباع قوانينهم وتقاليدهم ، والخضوع لقضائهم وقضاتهم ، واختاروا فى معظم الأحوال لهم حكاماً من أبناء جنسهم ، يعهد إليهم بسن الضرائب المطلوبة ، والإشراف على النظام والسكينة . أما فى شأن الدين وحرية العقائد والضمائر ، فقد كانت السياسة الإسلامية مثلا أعلى للتسامح . فلم يظلم أحد أو يرهق بسبب الدين أو الاعتقاد ، وكان أداء الجزية هو كل ما يفرض على الذميين من النصارى أو اليهود ، لقاء الاحتفاظ بدينهم وحرية عقائدهم وشعائرهم ، ومن دخل الإسلام منهم سقطت عنه الجزية ، وأصبح كالمسلم سواء بسواء فى جميع الحقوق والواجبات . ونرى فى هذا الموطن أن نقدم طائفة من الأقوال والآراء التى يعلق بها المؤرخون والنقدة الغربيون ، على سياسة الفتح الإسلامى وآثاره فى اسبانيا . يقول العلامة المستشرق رينهارت دوزى :

« لم تكن حال النصارى فى ظل الحكم الإسلامى مما يدعو إلى كثير من الشكوى بالنسبة لما كانت عليه من قبل . أضف إلى ذلك أن العرب كانوا يتحلون بكثير من التسامح . فلم يرهقوا أحداً فى شئون الدين . ولم تكن الحكومة — إذا لم تكن مغرقة فى الدين — لتشجع إسلام النصارى ، إذ كانت خزانة الدولة تخسر بإسلامهم كثيراً . ولم يغمط النصارى للعرب هذا الفضل ، بل حمدوا للفاتحين تسامحهم وعدلهم ، وآثروا حكمهم على حكم الجرمان والفرنج ، وانقضى القرن الثامن كله فى سكينة ، وقلما نشبت فيه ثورة . كذلك لم يبد رجال الدين فى العصور الأولى كثيراً من التذمر ، وإن كانت لديهم أكثر البواعث لذلك . وهذا ما تؤيده روح الرواية اللاتينية التى كتبت سنة ٧٥٤ فى قرطبة ، والتى تنسب لإيزيدور الباجى ، فإن كاتبها رغم كونه من رجال الدين ، يبدى نحو المسلمين من العطف ، ما لم يبده أى كاتب إسبانى آخر قبل القرن الرابع عشر » . ويقول دوزى عن آثار الفتح الإجتماعية : « كان الفتح العربى من بعض الوجوه نعمة لإسبانيا . فقد أحدث فيها ثورة إجتماعية هامة ، وقضى على كثير من الأدواء التى كانت تعانيها البلاد منذ قرون .. وحطمت سلطة الأشراف والطبقات الممتازة أو كادت تمحى ، ووزعت الأراضى توزيعاً كبيراً ، فكان ذلك حسنة سابغة ، وعاملا فى ازدهار الزراعة إبان الحكم العربى . ثم كان الفتح عاملا فى تحسين أحوال الطبقات المستعبدة ،

إذ كان الإسلام أكثر تعضيداً لتحرير الرقيق من النصرانية ، كما فهمها أحبار المملكة القوطية . وكذا حسنت أحوال أرقاء الضياع ، إذ غدوا من الزراع تقريباً ، وتمتعوا بشيء من الإستقلال والحرية »[١].

ويقول الأستاذ لاين پول : « أنشأ العرب حكومة قرطبة التي كانت أعجوبة العصور الوسطى ، بينما كانت أوربا تتخبط في ظلمات الجهل ، فلم يكن سوى المسلمين من أقام بها منائر العلم والمدنية » .

« ما كان المسلمون كالبرابرة من القوط أو الوندال ، يتركون وراءهم الخراب والموت . حاشا ، فإن الأندلس لم تشهد قط أعدل وأصلح من حكمهم . ومن الصعب أن نقول أنى اكتسب العرب تلك الخبرة الفائقة بالشئون الإدارية ، فقد خرجوا من الصحراء إلى الغزو ، ولم يفسح لهم تيار الفتح مجالا يدرسون فيه إدارة الأمم المفتوحة »[٢] .

ويقول المستشرق الإسباني جاينجوس : « لقد سطعت في أسبانيا ( الأندلس ) أول أشعة لهذه المدنية ، التي نثرت ضوءها فيما بعد على جميع الأمم النصرانية . وفي مدارس قرطبة وطليطلة العربية ، جمعت الجذوات الأخيرة للعلوم اليونانية بعد أن أشرفت على الانطفاء ، وحفظت بعناية . وإلى حكمة العرب ، وذكائهم ، ونشاطهم ، يرجع الفضل في كثير من أهم المخترعات الحديثة وأنفعها »[٣] .

وقال المؤرخ الأمريكي سكوت : « في أقل من أربعة عشر شهراً ، قضى

---

( ١ ) Dozy : Histoire, V.II, p. 277—278 . ويذكر دوزي من جهة أخرى أن الفتح أعقبته فترة من الفوضى نهب فيها المسلمون عدة أماكن ، وأحرقوا عدة مدن وشنقوا بعض الأشراف ، وقتلوا الأطفال بالخناجر ، ولكن الحكومة العربية قمعت في الحال هذه الفظائع (ج ٢ ص ٢٧٥ ) . ويندد من جهة أخرى بقضاء العرب على حرية الكنيسة ، واستئثارهم بتكوين المجالس الدينية ، وتعيين الأساقفة وعزلهم . ثم يقول إن العرب بعد أن توطد سلطانهم ، كانوا أقل احتراماً للمعاهدات المعقودة (ج ٢ ص ٢٨١) . ونقول نحن إن دوزي لم يعتمد في سرد هذه الفظائع إلا على الرواية النصرانية وهي متحاملة مغرضة تحمل طابع المبالغة ، خصوصاً فيما يتعلق بقتل الأطفال . أما تنديده بقضاء العرب على سلطة الكنيسة فليس مما يمكن تبريره ، لأن سياسة الفتح المستنيرة ، وبواعث توطيد دعائم الدولة الجديدة ، تقضي بأن يأخذ الغالب بزمام كل السلطات في البلد المفتوح .

( ٢ ) Lane - Poole : The Moors in Spain, Ch. I

( ٣ ) P. Gayangos : History of the Mohammedan Dynasties in Spain V. I. p. VII & VIII

على مملكة القوط قضاء تاماً . وفى عامين فقط وطدت سلطة المسلمين فيما بين البحر الأبيض المتوسط وجبال البرنيه . ولا يقدم لنا التاريخ مثلا آخر اجتمعت فيه السرعة والكمال والرسوخ بمثل ما اجتمعت فى هذا الفتح ... وقد كان المظنون فى البداية أن الغزو إنما هو أمر مؤقت فقط . ولم يتوقع أحد أن يكون احتلال البلاد دائماً . فلما استقرت الجماعات المستعمرة ، وفتحت الثغور لتجارة المشرق ، وأقيمت المساجد ، أدرك القوط فداحة الخطب الذى نزل بهم . ولكن اعتدال حكامهم الجدد خفف من ألم الهزيمة . وكان دفع الجزية يضمن الحماية لأقل الناس ، وكان يسمح للورع المتعصب أن يزاول شعائره دون تدخل ، كما يسمح للملحد أن يجاهر بآرائه دون خشية المطاردة ، والأحبار يزاولون شئونهم فى سلام : أما أقوال الكتاب النصارى التى ينسبون فيها للعرب أفظع المثالب ، فهى محض مبالغة أو افتراء »[1] .

أجل ، لم يك ثمة ما يدعو لأن يعتبر الفتح الإسلامى لاسبانيا كارثة قومية يفزع لها الشعب ويأسو ، بل كان كل ما هنالك بالعكس يدعو إلى اعتباره نذير الخلاص والأمل . ألم يكن شعار الفاتحين التسامح والعدل والمساواة ؟ لقد كان تسامح الإسلام نبراساً يشع بضوئه المنقذ فى هاتيك المجتمعات التى أضناها الإرهاق الدينى ، ولم ير الإسلام بأساً من أن يستقبل النصارى واليهود إلى جانب المسلمين فى مجتمع واحد ، يسوى فيه بينهم فى جميع الحقوق والواجبات ، ولم ير بأساً من أن تقوم الكنائس والبيع إلى جانب المساجد ، ألم يكن ذلك أبدع وأروع ما فى سياسة الفتح الإسلامى ؟ لقد كانت حرية الضمائر والعقائد والفكر ، وما زالت منذ أقدم العصور ، أثمن ما تحرص عليه الشعوب الكريمة وتذود عنه .

فإذا ذكرنا أن هذا التسامح الذى أبداه الإسلام نحو الأمم المغلوبة ، وهذا الاحترام لضمائر الناس وعقائدهم ، وهذه الحرية التى تركها لهم فى إقامة شعائرهم ، إنما جاءت بعد عصور طويلة من الاضطهاد الدينى ، اتخذت فيها مطاردة الضمائر والعقائد أشنع الأساليب والصور ، استطعنا أن نقدر ما كان لذلك الانقلاب من

---

(١) Scott : ibid., V. I. p. 260 & 264 . وينوه باحث أمريكى حديث آخر هو الدكتور لى Lea بتسامح العرب والمسلمين خلال العصور الوسطى ، وترفعهم عن الخصومات الدينية ، وبغض الأجناس أو التفرقة بينها . راجع : History of the Inquisition in Spain V. I. p. 356

أثر عميق فى نفسية الشعوب المغلوبة وعواطفها ، وما كانت تحبو به حكم الإسلام من التأييد والرضى .

ويبدى كثير من العلماء الإسبان أنفسهم مثل هذا التقدير ، والإشادة باعتدال السياسية الإسلامية وآثار مسلكها المستنير . ذلك أن العرب تركوا الشعب المغلوب دون مضايقة ، يحيا حياته الخاصة فى نظمه وتقاليده . وهذا ما يسلم به المستشرق سيمونيت ، بالرغم من كونه من أشد العلماء الإسبان تحاملا ، فهو يقول لنا « إنه فيما يتعلق بالقوانين المدنية والسياسية ، فإن النصارى الإسبان احتفظوا فى ظل الحكم الإسلامى بنوع من الحكومة الخاصة ، واحتفظ الناس بأحوالهم القديمة دون تغيير كبير ؛ وفيما يتعلق بالتشريع ، فإنهم قد احتفظوا فى باب النظم الكهنوتية بقوانين الكنيسة الإسبانية القديمة ، واحتفظوا فى الناحية المدنية بالقوانين القوطية أو قانون التقاضى "Fuero Juzgo" ، يخضعون لها فى كل ما له علاقة بحكومتهم . وهى حكومة بلدية محلية ، وما لم يكن يتعارض مع القوانين والسياسة الإسلامية »[١] .

وفيما يتعلق بالناحية النظامية يقول العلامة ألتاميرا ، إن أغلبية الشعب الإسبانى الرومانى والقوطى بقيت فى ظل حكم المسلمين محتفظة برؤسائها (وهم الأقماط أو الكونتات Condes ) وقضاتها وأساقفتها وكنائسها ، وبالجملة بقيت محتفظة بما يشبه استقلالها المدنى الكامل . وقنع الولاة بأن يفرضوا على النصارى المحكومين الضرائب الشرعية »[٢] .

ويقول المستشرق كارديناس : « إن الفضل يرجع إلى تسامح الولاة والأمراء الأوائل ، فى أنه خلال العصور الأولى من الحكم الإسلامى ، كان الشعبان — المسلمون والمستعربون (النصارى) — يعيشان جنباً إلى جنب عيشة حرة » .

« واستطاع المستعربون فى ظل الحكم الإسلامى أن يحتفظوا باستقلالهم ، ولغتهم وعاداتهم وقوانينهم ، وأحياناً بأساقفتهم وكونتاتهم ، وأن يسهروا على صيانة الفنون القوطية التى كان العرب أنفسهم يقتبسون من أساليبها »[٣] .

---

(١) D. Francisco J. Simonet : Historia de los Mozarabes de Espana (Madrid 1897) V. I. p. 106.

(٢) R. Altamira y Crevea : Historia de Espana y de la Civilizacion Espanola (Barcelona 1900) T. I. p. 217.

(٣) O. Almagro y Cardenas: La Cultura Arabigo—Sevillana (Sevilla 1894) p. 10.

ونكتفى بما تقدم من أقوال المؤرخين والمفكرين الغربيين فى الإشادة باعتدال السياسة الإسلامية وتسامحها . وفى أقوالهم أبلغ رد على ما ينسبه بعض الأحبار والعلماء المتعصبين لحكم المسلمين ، من ضروب التعصب والطغيان المدنى والدينى .

غير أن هذه الدولة الجديدة التى أنشأها الإسلام فى اسبانيا ، كانت تحمل منذ البداية جرثومة الخلاف الخطر . وكان هذا المجتمع الجديد الذى جمع الإسلام شمله ومزج بين عناصره ، يجيش بمختلف الأهواء والنزعات ، وتمزقه فوارق الجنس والعصبية . كانت القبائل العربية ماتزال تضطرم بمنافساتها القديمة الخالدة ، وكان البربر الذين يتألف منهم معظم الجيش ، يبغضون قادتهم ورؤساءهم العرب ، وينقمون عليهم استئثارهم بالسلطة والمغانم الكبيرة ، واحتلالهم لمعظم القواعد والوديان الخصبة ، وكثيراً ما رفعوا لواء العصيان والثورة . وكان المسلمون الإسبان وهم « المولدون أو البلديون »[1] محدثين فى الإسلام ، يشعرون دائماً بأنهم رغم إسلامهم ، أحط من الوجهة الاجتماعية ، من سادتهم العرب . ذلك أن العرب رغم كون الإسلام يسوى بين جميع المسلمين فى الحقوق والواجبات ، ويمحو كل فوارق الجنس والطبقات ، كانوا يشكون فى ولاء المسلمين الجدد ، ويضنون عليهم بمناصب الثقة والنفوذ ، هذا إلى أن العربى فى الأقطار القاصية التى افتتحها بالسيف ، لم يستطع أن يتنازل عن كبرياء الجنس ، التى كانت دائماً من خواص طبيعته ، فكان مثل الإنكليزى السكسونى يعد نفسه أشرف الخليقة[2] . على أن الخلاف بين العرب أنفسهم كان أخطر ما فى هذا المجتمع الجديد من عوامل التفكك والانحلال ، فقد كانت عصبية القبائل والبطون ، ما تزال قوية حية فى الصدور ، وكان التنافس على السلطان والرياسة بين الزعماء والقادة ، يمزق الصفوف ويجعلها شيعاً وأحزاباً ، وكانت عوامل الغيرة والحسد تعمل عملها فى نفوس القبائل والبطون المختلفة . وأشد ما كانت تستعر نار ذلك الخلاف والتنافس بين اليمنية والمضرية ، وذلك لأسباب عديدة ترجع إلى ماقبل الإسلام . منها أن الرياسة كانت لعصور طويلة قبل الإسلام فى حمير وتُبع ، أعظم القبائل اليمنية ، وكانت لهم دول ومنعة وحضارة زاهرة ، بينما كانت مضر بدواً متأخرين يخضعون لحمير ويؤدون

---

(١) ابن القوطية — افتتاح الأندلس — ص ٣٠ .

(٢) Ameer Ali : Ibid., p. 118

الجزية لهم . وكان بينهما خصومات وحروب مستعرة طويلة الأمد ، إذ كانت حمير تعمل للاحتفاظ برياستها وسلطانها ، وتجاهد مضر فى سبيل استقلالها وحريتها . ولنا فى « أيام » العرب ووقائعها المشهورة ، أمثلة رائعة من هذا التضال . قال ابن خلدون : « واستمرت الرياسة والملك فى هذه الطبقة اليمانية أزمنة وآماداً ، بما كانت صبغتها لهم من قبل ، وأحياء مضر وربيعة تبعاً لهم — فكان الملك بالحيرة للخم فى بنى المنذر ، وبالشام لغسان فى بنى جفنة ، ويثرب كذلك فى الأوس والخزرج . وما سوى هؤلاء من العرب فكانوا ظواعن بادية وأحياء ناجعة . وكانت فى بعضهم رياسة بدوية وراجعة فى الغالب إلى أحد هؤلاء . ثم نبضت عروق الملك ، وظهرت قريش على مكة ونواحى الحجاز ، أزمنة عرفت فيها منهم ودانت الدول بتعظيمهم . ثم صبغ الإسلام أهل هذا الجيل ، فاستحالت صبغة الملك إليهم وعادت الدول لمضر من بينهم ، واختصت كرامة الله بالنبوة بهم ، فكانت فيهم الدول الإسلامية كلها ، إلا بعضاً من دولها قام بها العجم اقتداء بالملة وتمهيداً للدعوة »(١). وهكذا أسفر النضال لظهور الإسلام عن تحول فى الرياسة ، إذ انتهت إلى قريش زعيمة المضرية ، بعد أن لبثت عصوراً طويلة فى اليمنية ، وانقلبت الآية ، فأصبحت المضرية تعمل على الاحتفاظ برياستها ، واليمنية تجاهد فى انتزاعها منها . وكانت مسألة اللغة أيضاً من أسباب ذلك الخلاف . ذلك أن لسان حمير ، كان أصل اللغة العربية التى اعتنقتها مضر ، وأسبغت عليها آيات باهرة من الفصاحة والبيان ، ونزل بها القرآن الكريم على النبى القرشى المضرى ، فكانت اللغة من مفاخر مضر ، تغار عليها وتحافظ على سلامتها ونقائها ، بينما فسدت لهجات القبائل الأخرى بالاختلاط وضعف بيانها . وفى ذلك يقول ابن خلدون : « ولهذا كانت لغة قريش أفصح اللغات العربية وأصرحها ، لبعدهم عن بلاد العجم من جميع جهاتهم ، ثم من اكتنفهم من ثقيف وهذيل وخزاعة وبنى كنانة وغطفان وبنى أسد وتميم . وأما من بعد عنهم من ربيعة ولخم وجذام وغسان وأياد وقضاعة وعرب اليمن المجاورين لأمم الفرس والروم والحبشة ، فلم تكن لغتهم تامة الملكة بمخالطة الأعاجم »(٢) . أضف إلى هذا وذاك ما كان بين الفريقين من تباين شديد

---

(١) ابن خلدون ج ٢ ص ٢٣٩ و ٢٤٠ .

(٢) ابن خلدون ج ١ ( المقدمة ) ص ٤٨٧ .

فى الطبائع والخلال ، مما كان يذكى بينها أسباب النفور والتباعد . وقد كان الإسلام مدى حين عاملا قوياً فى جمع الكلمة ، وتوطيد الصفوف ، وتلطيف أسباب الخصومة ، ولاسيما فى شبه الجزيرة العربية . ولكن ما كاد ينقضى العصر الأول ، حتى هبت كوامن الخصومة والنضال من مرقدها ، وعادت تعصف بوحدة المجتمع الإسلامى ، وكان هذا الخلاف أخطر وأشد فى الأقطار القاصية التى افتتحها الإسلام ، ففتحت أمام القبائل والأجناس المختلفة ، التى تعمل معاً تحت لوائه ، مجالا واسعاً للتنافس والتطاحن . وكان هذا هو بالأخص شأن المجتمع الإسلامى المضطرم المتنافر ، الذى قام عقب الفتح فى اسبانيا .

وكانت إفريقية وهى أقرب قطر إسلامى لإسبانيا ، وتتبعها حكومة الأندلس من الوجهة الإدارية ، تفيض أيضاً بعناصر اضطراب خطرة . فقد نزح إليها الدعاة الخوارج منذ أواخر القرن الأول ، وذاعت مبادئ الخوارج الثورية بين البربر بسرعة ، لحداثة عهدهم بالإسلام ، وتعددت نحلهم وطوائفهم ، واشتد الخلاف والجدل فيما بينهم ، وفسد من جهة أخرى ما بينهم وبين العرب من علائق الإخاء والمودة ، وكثر نزوعهم إلى الثورة . وهذا مايصفه ابن خلدون فى قوله : « ثم نبضت فيهم ( أى البربر ) عروق الخارجية ، فدانوا بها ، ولقنوها من العرب الناقلة ممن سمعها بالعراق ، وتعددت طوائفهم ، وتشعبت طرقها من الإباضية والصفرية . وفشت هذه البدعة ، وعقدها رؤوس النفاق من العرب ، وجرت إليهم الفتنة من البربر ذريعة الانتزاء على الأمر ، فاختلفوا فى كل جهة ، ودعوا إلى قائدهم طغام البربر ، تتلون عليهم مذاهب كفرها ، ويلبسون الحق بالباطل فيها ، إلى أن رسخت فيهم عروق من غرائسها . ثم تطاول البربر إلى الفتك بأمر العرب »(١) . واشتد تحريض الخوارج على حكومة الأمويين فى إفريقية ، بعد أن أخفقوا فى مقاومتها فى العراق ، وتوالت الثورات والحروب الأهلية حيناً . وكان لذلك كله صداه فى اسبانيا ، وخصوصاً بين البربر الذين يتألف منهم معظم الجيش ، فاضطرب أمر الحكم والنظام فى الأندلس ، وذكا الخلاف بين الزعماء والقادة على نحو ما قدمنا ، ولبثت حكومة اسبانيا العسكرية مدى حين عرضة للخروج والثورة ، وذهب ضحية الفتنة جماعة من الحكام والزعماء كما نفصل بعد .

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١١٠ .

— ٢ —

عنى الفاتحون عقب الفتح بتنظيم شئون الحكم والإدارة ، فقسمت اسبانيا على ضوء تقسيمها القديم أيام الرومان والقوط ، فى المبدأ ، إلى أربع ولايات كبيرة على رأس كل منها حاكم محلى يعينه الحاكم العام ، ويُسئل أمامه مباشرة عن أعماله وشئون إدارته . أما حاكم الأندلس أو واليها العام ، فكان تعيينه فى المبدأ راجعاً إلى حاكم إفريقية يختاره بموافقة الخليفة .

وكانت الولاية الأولى تشمل إقليم الأندلس ، الممتد بين البحر المتوسط ونهر الوادى الكبير ، وما يلى هذا النهر حتى نهر وادى أنة أو وادى يانة ، وأشهر مدنها قرطبة ، وإشبيلية ، ومالقة ، وإستجة ، وجيان . وتشمل الثانية جميع اسبانيا الوسطى ، من البحر المتوسط شرقاً إلى حدود البرتغال غرباً ( لوزيتانيا ) ، ثم إلى نهر دويره ( دورو ) شمالا ، وأشهر قواعدها طليطلة ، على نهر تاجُه ، وقونقة وشقوبية ، وبلنسية ، ودانية ، ولقنت ، وقرطاجنة ، ومرسية ، ولورقة ، وبسطة . وتشمل الثالثة جليقية ولوزيتانيا ( البرتغال القديمة ) ، وأشهر قواعدها ماردة ، ويابرة ، وباجة ، وأشبونة ، وقلمرية ، ولك ، وأسترقة ، وشلمنقة وغيرها . وتمتد الرابعة من نهر دويره إلى جبال البرنيه ( جبال البرت أو الممرات ) على ضفتى نهر إبره (إيبرو) ، وغرباً إلى جليقية . وأشهر قواعدها سرقسطة ، وطرطوشة ، وطركونة ، وبرشلونة ، وأرقلة ( أرجل ) ، وبلد الوليد ، ووشقة ، وببشتر وغيرها . ولما اتسع نطاق الفتوح الإسلامية شمالا ، أنشئت ولاية خامسة شمالى جبال البرنيه شاملة لأربونة ، ونيمة ( أونومشو ) ، وقرقشونة ، وبزييه ، وأجده ، وماجويلون ( أومقلون ) ، ولوديف[1] .

فى هذه الولايات والقواعد الجديدة تفرقت القبائل والعشائر المختلفة ، فنزلت قبائل دمشق بكورة قرطبة ، وحمص بإشبيلية ولبلة وأنحائهما ، وقنسرين بجيان وأنحائها ، وفلسطين بشذونة والجزيرة وريُه ومالقة وأنحائها ، وقبائل اليمن بطليطلة وأراضيها ، ونزل الفرس بشريش وأحوازها ، والعراقيون ، بكورة إلبيرة (غرناطة) ؛

---

( ١ ) يقدم لنا أبو عبيدة البكرى فى وصفه للأندلس تفصيلا لهذا التقسيم ، ويسميه تقسيم قسطنطين . وهو يقوم على تقسيم اسبانيا إلى ست وحدات إدارية ، تقترب فى أوضاعها مما ذكر . ( راجع الروض المعطار — الترجمة الفرنسية ص ٢٤٦ ) .

والمصريون بتدمير وماردة وأشبونة وأراضيها ، واستقر الحجازيون بالقواعد الداخلية[١] .

وأما البربر فقد نزل أغلبهم بالأطراف الغربية فى نواحي ماردة وبطليوس وأراضي البرتغال ، ونواحي الثغر الأوسط شمالي طليطلة فيما وراء نهر التاجُه ، وفى بعض أنحاء الثغر الأعلى ، وفى قطاع قونقة والسهلة ، ونزلت أقليات منهم بين القبائل العربية ، بنواحي شاطبة ولقنت ، وفى أحواز شذونة وأراضي الفرنتيرة[٢] .

ويلاحظ من الناحية الإقليمية ، أن القبائل العربية قد احتلت معظم البقاع والوديان الخصبة فى شبه الجزيرة ، وأن البربر نزلوا أو بعبارة أخرى أنزلوا بالعكس فى معظم الأقاليم والهضاب القاحلة ، ولم يحتلوا من البقاع الخصبة سوى القليل . وقد كان هذا التقسيم المجحف للأقاليم المفتوحة عاملا آخر فى ازدياد الشتاق بين العنصرين الفاتحين — العرب والبربر — . وسنرى فيما بعد كيف كان استقرار البربر فى تلك الأطراف الوعرة النائية ، من العوامل التى شجعتهم على تحدى السلطة المركزية ، ورفع لواء الثورة من آن لآخر .

وقد ذكرنا أن موسى بن نصير قبل رحيله إلى المشرق فى شهر ذى الحجة سنة ٩٥ ، اختار ولده عبد العزيز لولاية الأندلس ، فكان أول ولاتها من المسلمين ، وأنه استخلف ولده عبدالله فى ولاية إفريقية ، وأن سليمان بن عبد الملك أقر هذا الاختيار . فقضى عبد العزيز بن موسى فى ولايته زهاء عامين عنى فيهما بتحصين الثغور ، وقمع الخروج والعصيان ، وافتتح عدة أماكن وحصون ، وأبدى همة فى تنظيم الحكومة الجديدة وإدارتها ، وأنشأ ديواناً لتطبيق الأحكام الشرعية وتنسيقها ، لتوافق مشارب الرعايا الجدد ، ولتجمع حولها كلمة المسلمين من مختلف القبائل ، وشجع الزواج بين العرب والإسبان ، وتزوج هو بالملكة إجلونا[٣] أرملة ردريك ملك القوط ، واختار فى إشبيلية عاصمة ، الأندلس

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١١٩ .

(٢) يقدم لنا ابن حزم فى كتاب « الجمهرة » بياناً مفصلا عن القبائل والبطون البربرية التى نزلت فى شبه الجزيرة ، والنواحى التى نزلت بها . راجع « جمهرة أنساب العرب » ( القاهرة ) ص ٤٦٤ ، ٤٦٥ .

(٣) ويسميها العرب « إيلة » أو أم عاصم . وقال الواقدى ، ونقله ابن عبد الحكم ، إنها كانت ابنة ردويك لا زوجته ( أخبار مصر ص ٢١٢ ) ، وكذا ورد فى البيان المغرب ( ج ٢ ص ٢٢ ) .

الجديدة ، دير « سانتا روفينا » ليكون مقاماً له ولزوجه ، وفيه أجريت أول تعديلات على الطراز العربى ، ووفد عليه المهاجرون من مصر والشأم والعراق وفارس ، فأحيوا بالجزيرة سبل الزراعة والصناعة والتجارة . ولكنه لم يستطع أن يوفق بين مختلف القبائل ، ولا أن يهدئ من فورة الجند . هذا إلى ما ثار من ريب حول مقاصده ونياته ، بانقياده إلى زوجه ، واتخاذه نوعاً من رسوم الملك ، حتى قيل إنه تنصر ، وقيل إنه كان يبغى الملك ويسعى إليه بتحريض زوجه ، ويعمل للاستقلال بإسبانيا[1] .

وهذا ما يراه المستشرق سيمونيت ، إذ يقول إن عبد العزيز بن موسى كان يدبر مشروعاً يرمى إلى الاستقلال بإسبانيا ، وإلى أن يؤسس مملكة أو إمارة مستقلة فوق أنقاض المملكة القوطية ، وقد كان مما يدفعه إلى هذا العزم ، فضلا عن طموحه الشخصى ، تحريض زوجه إجلونا ، التى كانت تضطرم رغبة فى استرداد تاجها القديم ، وأسباب أخرى تتعلق بالسياسة العليا . ولم يكن يخفى عليه أن سلطان خلفاء المشرق ، غدا قاصراً عن أن يسيطر على هذا القطر الغربى ، الذى كان سكانه الوطنيون أقل انحطاطاً من الأمم الأخرى التى فتحها المسلمون ، والذى كان يقدم إلى الفاتحين بعدده وحضارته مزية عظيمة[2] . وبالرغم من أنه ليست لدينا أدلة حاسمة على مشروع عبد العزيز بن موسى فى الاستقلال باسبانيا ، فإنه يبدو ممكناً ومعقولا فى الظروف التى كانت تجوزها اسبانيا يومئذ . وعلى أى حال ، فإن خصومه شنوا عليه وعلى تصرفاته دعاية قوية انتهت بالثورة ، فوثب به جماعه من الجند على رأسهم وزيره حبيب بن أبى عبدة الفهرى ، وقتلوه أثناء صلاته بأحد مساجد إشبيلية ، وذلك فى رجب سنة ٩٧ (يناير ٧١٦م) ، وبعثوا برأسه إلى دمشق . ومن المرجح أن يد الخلافة لم تكن بعيدة عن هذه المؤامرة ، وأن سليمان بن عبد الملك هو روحها والمحرض عليها ، فمن المعقول أن يتوجس سليمان ريبة من عبد العزيز ومقاصده ، بعد الذى أنزله بأبيه موسى ، وأن يرى التخلص منه وسيلة لتأمين الخلافة على سلطانها فى ذلك القطر الجديد . وفى اهتمام

---

(١) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٨ . وراجع C. Julian : ibid, p. 778

(٢) F. J. Simonet : Historia de los Mozarabes de Espana, Vol. I, p. 147

الجناة بإرسال رأس القتيل إلى دمشق اتهام واضح للخليفة . وقد عزل سليمان ، عبد الله بن موسى بن نصير عن إفريقية ، فى نفس الوقت الذى قتل فيه عبد العزيز ، وهو ما يؤيد هذا الفرض أيضاً . والواقع أن أكثر من رواية إسلامية وثيقة يلقى تبعة هذه الجريمة على سليمان ، ويتهمه البعض صراحة بأنه مدبرها ، بل لقد ذهب بعضهم إلى القول بأن سليمان لم يكتف بأن حمل الجناة إليه رأس عبد العزيز ، وأنه عرضها على أبيه موسى زيادة فى إيلامه والتشفى منه[1] ، على أن سليمان لم يعدم من الرواة من يبرئه من ارتكاب هذه الجريمة ، فقد ذكر لنا صاحب « أخبار مجموعة » أن سليمان أسف لمقتل عبد العزيز ، أو بعبارة أخرى أنه برىء من تبعة مقتله ، وهى الرواية الوحيدة من نوعها ، وهى رواية ظاهرة الضعف[2] .

وعلى أثر مقتل عبد العزيز ، اتفق الزعماء فى إشبيلية على تولية أيوب بن حبيب اللخمى ، وهو ابن أخت موسى بن نصير ، وكان عاقلا صالحاً ، فهدأت الخواطر نوعاً ، ولبث فى ولايته ستة أشهر نقلت خلالها قاعدة الحكم من إشبيلية إلى قرطبة باتفاق الجماعة[3] . ثم أقاله محمد بن يزيد الذى خلف عبد الله بن موسى فى ولاية إفريقية ، وعين لولاية الأندلس الحر بن عبد الرحمن الثقفى ، فقدمها فى ذى الحجة سنة ٩٧ فى جماعة كبيرة من وجوه إفريقية . وأنفق الحر صدر ولايته فى قمع الفتن والمنازعات التى كانت قائمة بين العرب والبربر ، وإصلاح الجيش ؛ ومطاردة الخوارج والمعتدين من الجند ، وتنظيم الإدارة وتوطيد الأمن ، وكان صارماً جائراً شديد الوطأة . ثم سار نحو الشمال فى جيش ضخم ليستعيد المدن والحصون الشمالية التى غزاها المسلمون من قبل ، فعبر جبال البرنيه واخترق ولاية سبتمانيا[4] أو لانجدوك فى ربيع سنة ٧١٨ (٩٩هـ) ، وكانت مدن سبتمانيا قرقشونة

---

(١) راجع ابن عبد الحكم ص ٢١٢ و ٢١٣ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٢ و ٢٣ ؛ وابن الأثير ج ٥ ص ٨ ، وابن القوطية ( ص ٤١ ) وهو صريح فى أن سليمان هو الذى دبر الجريمة وعهد بتنفيذها إلى جماعة معينة من الجند ، وابن خلدون وهو صريح أيضاً فى أن الجريمة تمت بتحريض سليمان ( ج ٤ ص ١١٨ ) .

(٢) راجع أخبار مجموعة ص ٢٢ .

(٣) وهناك رواية أخرى فى أن الذى نقل قاعدة الحكم إلى قرطبة هو الحر الثقفى . راجع البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤ و ٢٥ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٦ .

(٤) سميت كذلك لاحتوائها على المدن السبعة أربونة وقرقشونة وأجدة وبزييه ولوديف وقيمة وماجويلون .

وأربونة وبزييه ونيمة تابعة لمملكة القوط ، وكانت تخلفت عن الطاعة بعد أن غزاها المسلمون لأول مرة بقيادة موسى بن نصير على نحو ما قدمنا . فافتتحها الحر واستولى عليها ، وتابع زحفه حتى ضفاف نهر الجارون . ولكنه اضطر أن يعود أدراجه ، إذ علم أن النصارى فى منطقة ناڤار الجبلية ( نبّره أو بلاد البشكنس ) ، قد نظموا حركة مقاومة خطيرة ، وأن الأمور قد اضطربت فى قرطبة . وكان النظام قد اختل ، وعادت المنازعات والدسائس تعمل عملها ، فى تقويض الأمن والسكينة ، فأنفق الحر حيناً آخر فى قمع الفتنة ، حتى عزله أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ، فى منتصف سنة مائة لقسوته وصرامته ، واضطراب النظام فى عهده ، فكانت ولايته سنتان وثمانية أشهر ، سادت فيها القلاقل والفتن .

واختار عمربن عبدالعزيز لولاية الأندلس السَّمْح بن مالك الخولانى . وقرر أن تكون الأندلس ولاية مستقلة عن إفريقية تابعة للخلافة مباشرة ، لما رآه من أهميتها واتساع شئونها ، وكانت إلى ذلك الحين تابعة لعامل إفريقية وإليه تعيين ولاتها . ويقال إن عمر بن عبد العزيز فكر فى إخلاء الأندلس وإجلاء المسلمين قاطبة عنها ، لانقطاعهم بها ، وعزلتهم فيما وراء البحر عن باقى أقطار الخلافة ، فقيل له إن المسلمين قد تكاثروا بها واستقروا ، فعدل عن مشروعه . « قالوا وليت الله تعالى أبقاه حتى يفعل ، فإن مصيرهم مع الكفار إلى بوار إلا أن يستنقذهم الله برحمته »[1] . وقدم السمح إلى الأندلس فى رمضان سنة مائة ( إبريل سنة ٧١٩ ) مزوداً بنصح الخليفة فى أن يتبع الرفق والعدل ، وأن يقيم كلمة الحق والدين . وكان السمح حاكماً وافر الخبرة والحكمة والعقل . فقبض على زمام الأمور بحزم وهمة ، وبادر بقمع المنازعات والفتن ، وإصلاح الإدارة والجيش . وخمس جميع أراضى الأندلس التى فتحت عنوة ، أعنى مسحها وقرر عليها الخراج بنسبة الخمس .

ويقول لنا العلامة ألتاميرا ، فيما يتعلق بتوزيع أراضى الأندلس ما يأتى :

« وقد ترك الفاتحون للإسبان الذين أسلموا أو خضعوا ، سواء أكانوا جنداً

---

( ١ ) أورد هذه الرواية صاحب البيان المغرب ( ج ٢ ص ٢٥ ) ، ونقلها المقرى عن ابن حيان مؤرخ الأندلس ( ج ٢ ص ٥٦ ) ، وأشار إليها ابن الأثير أيضاً ( ج ٥ ص ١٨٢ ) .

أم نبلاء — حقوقهم فى ملكية أملاكهم كلها أو بعضها ، مع فرض ضريبة عقارية عليهم مشابهة للخراج هى ( الجزية ) ، على الأراضى المزروعة والأشجار المثمرة ، واتبعت هذه القاعدة نحو بعض الأديار ، كما حدث فى الامتياز الذى منح لمدينة « قُلُمرية » ، وأبيح لهؤلاء الملاك فوق ذلك حرية التصرف فى أملاكهم ، وهو حق كان وفقاً للقوانين الرومانية القديمة مقيداً أيام القوط . وأما مازاد عن الخمس فى الأراضى التى استولى عليها الفاتحون ، فقد وزع بين الرؤساء والجند ، وبين القبائل التى يتألف منها الجيش .

« وقد روعى فى توزيع الأراضى أن تخصص الولايات الشمالية ، وهى جلّيقية وليون والأستورياس للبربر ، وأن تخصص الولايات الجنوبية ، أعنى الأندلس للقبائل العربية . وكان يفرض على العمال الملازمين siervos من القوط ، الذين يشتغلون بزرع الأرض ، أن يدفعوا للسيد أو القبيلة المالكة ثلثى أو ثلاثة أخماس المحصول . وكان من أثر ذلك أن تحسنت أحوال المزارعين ، كما أنه أدى فى نفس الوقت إلى تقسيم الملكية وتمزيق الملكيات الكبيرة . كذلك تحسنت حال العبيد ، لأن المسلمين كانوا يعاملونهم بأفضل مما كان الإسبان الرومان والقوط ، ولأنه كان يكفى أن يدخل العبد فى الإسلام ليغدو حراً »(١) .

وأنشأ السمح قنطرة قرطبة الشهيرة ، على نهر الوادى الكبير ، تحقيقاً لرغبة أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ، وأبدى فى جميع أعماله حزماً ورفقاً وعدلا ، فالتف الزعماء حوله ، وخبت الفتنة وهدأت الخواطر ، واستقر النظام والأمن .

وكان السمح فوق كفايته الإدارية جندياً جريئاً وقائداً عظيماً . فلما انتهى من مهمة التنظيم والإصلاح ، تأهب لاستئناف الغزو ، وتوطيد سلطان الخلافة فى الولايات الجبلية ، والقواعد الشمالية ، التى لم يستطع أن يتمم إخضاعها الحر الثقفى . فزحف على لانجدوك (سبتمانيا ) فى أواخر سنة ٧١٩ م فى جيش ضخم ، وفى جماعة كبيرة من وجوه الزعماء والقادة ، واخترق جبال البرنيه من الشرق من ناحية روسيون ، واستعاد أربونة وقرقشونة ومعظم قواعد سبتمانيا وحصونها ، وعاث فى تلك الأنحاء ، وشتت كل قوة تصدت لمقاومته . ووقعت هذه الغزوة

---

(١) R. Altamira. Historia de Espana. V. I. p. 217—218

الشاملة فى سنة ٧٢٠ م ( ١٠١ هـ ) . ويقول إيزيدور الباجى إن العرب اجتاحوا يومئذ غاليس القوطية كلها وجميع قواعد سبتمانيا[1] . ثم اتجه السمح بعد ذلك نحو الشرق ليغزو مملكة الفرنج الجنوبية أو أكوتين ، وزحف تواً على قاعدتها تولوشة ( تولوز )[2] ، وبدأ بذلك النضال بين العرب والفرنج فى بسائط غاليس قوياً رائعاً .

---

( ١ ) Dom Vissette : ibid. V. I. p. 781

( ٢ ) ويسميها ابن عذارى طرسونة ( البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥ ) وهو تحريف ظاهر لأن طرسونة كانت من أعمال تطيلة فى شمال شرق الأندلس ( راجع معجم ياقوت ) .

# الفصل الخامس

## غاليس بين العرب والفرنج

(١) مملكة الفرنج . نزوحهم من الشمال إلى فرنسا . كلوڤيس أول ملوكهم . كلوتير الثانى . داجوبرت . نمو مملكة الفرنج . ضعف سلطان العرش . الزعماء المحليون . محافظ القصر . الأسرة الكارلية . نفوذها وتقدمها فى الرياسة . المعارك الأهلية . قيام إمارة أكوتين . ببين دى هرشتال محافظ القصر . حفيده تودڤالد يخلفه . ولده كارل مارتل ينتزع السلطة لنفسه . الدوق أودو أمير أكوتين . السمح يغزو إمارته . موقعة تولوشة ومقتل السمح . (٢) انتخاب عبد الرحمن الغافقى للرياسة . إخماده للفتنة فى الشمال . ولاية عنبسة بن سحيم الكلبى . رد الأندلس إلى حكومة إفريقية . سير عنبسة إلى الشمال . غزوه لسبتمانيا . استيلاؤه على قرقشونة . غزوه لوادى الرون . تفاهم أودو مع المسلمين . أقوال إيزيدور الباجى . كمين الفرنج لعنبسة ومقتله . تتابع الولاة على الأندلس . عزرة بن عبد الله الفهرى . يحيى بن سلمة الكلبى . عثمان بن أبى نسعة الخثعمى . حذيفة بن الأحوص القيسى . الهيثم ابن عبيد الكلابى . اضطراب شؤون الأندلس . غزو الفرنج لمواقع المسلمين . اجتماع فلول القوط فى جليقيه . إصلاحات الهيثم . عبوره إلى سبتمانيا . غزوه لوادى الرون وبرجونية . ولاية محمد ابن عبد الله الأشجعى . ولاية عبد الرحمن الغافقى الثانية . مواهبه وخلاله . بوادر الثورة فى الشمال . منوسة حاكم الولايات الشمالية . غموض شخصيته . أطماعه ومشاريعه . تفاهمه مع أودو دوق اكوتين وتحالفه معه . اقترانه بلامبيجيا ابنة الدوق . ارتياب عبد الرحمن فى موقفه وتصرفاته . إرساله جيشاً إلى الشمال . فرار منوسة ومقتله وأسر زوجه . مخاوف أودو . تأهب عبد الرحمن للغزوة الكبرى . سيره إلى الشمال . زحفه على مدينة آرل واستيلاؤه عليها . اختراقه لأكوتين . موقعة الدردون وهزيمة الفرنج . استيلاء عبد الرحمن على بوردو . سيره ثانية إلى وادى الرون . استيلاؤه على ليون وبيزانصون وصانص . زحفه غرباً نحو اللوار . أقوال الفيلسوف جيبون .

— ١ —

يجدر بنا قبل أن نمضى فى تتبع الغزوات الإسلامية لتلك الأنحاء ، أن نقول كلمة عن مملكة الفرنج تمهيداً لما سيجىء من لقاء العرب والفرنج وتطور العلائق بينهما . كان الفرنج (أو الفرنك) شعبة من القبائل الجرمانية استقرت منذ أواخر القرن الخامس للميلاد ، بين نهر الرّين والبحر فى إقليم فلاندر وما إليه (البلچيك الحديثة) ، ثم على ضفاف الرين الوسطى والموزل . وفى نهاية القرن الخامس كان زعيم هذه القبائل أمير شجاع مقدام يدعى كلوڤيس بدأ حكمه فى مدينة «تورنى» .

وفى سنة ٤٨٦ م غزا شمال فرنسا وانتزعه من يد الحاكم الرومانى سباجريوس ، وكان قد أقام به دولة مستقلة ، ثم حارب قبائل « الألمانى » القاطنة شرق نهر الرين ، وافتتح أراضيها حتى باڤاريا . وفى سنة ٥٠٧ م حارب كلوڤيس القوط ، وكانوا قد استقروا كما قدمنا فى القسم الجنوبى من فرنسا المسمى بغاليا ( أوغاليس ) وقتل ملكهم ألاريك ، واستولى على الأراضى الواقعة ما بين اللوار والبرنيه ، عدا ولاية سبتمانيا (لانجدوك) التى بقيت فى يد القوط . واعتنق كلوڤيس النصرانية وأذاعها بين قبائله الوثنية ، وجعل باريس مقر ملكه الشاسع ، وبذا قامت مملكة الفرنج القوية أصل فرنسا الحديثة . وتابع أبناء كلوڤيس وخلفاؤه من بعده سياسة الفتح ، وافتتحوا برجونية وأواسط ألمانيا وشمالى إيطاليا : ثم وقعت الحرب الأهلية حيناً بين أمراء الفرنج الذين اقتسموا تراث كلوڤيس ، حتى جاء كلوتير الثانى سنة ٦١٣ م فبسط سلطانه على غاليس كلها ( فرنسا ) (١) ، واستأنف الفتح لإخضاع باقى الإمارات الفرنجية الواقعة شرقى الرين . وسار ولده داجوبيرت فى أثره ، وجمع كلمة الفرنج تحت لواء واحد ، وغلبت سلطة الفرنج على ألمانيا الغربية ثانية ، وهذبت النصرانية التى جاهد فى إذاعتها الفرنج بين هذه القبائل المتوحشة ، كثيراً من خشونتها ، وقضت على كثير من رسومها الوثنية .

ولكن داجوبيرت كان آخر ملك من الفرنج الميروڤنجيـة — أسرة كلوڤيس(٢) — استطاع أن يقبض على زمام السلطة المركزية بيد قوية : ذلك أن نظام الإقطاع والعشائر ، كان يسود هذه المملكة الشاسعة ، وكانت جمهرة من الأمراء والدوقات والكونتات تتقاسم السلطة فى مختلف الولايات والأنحاء ، وكلما ضعف سلطان العرش اشتد نفوذ أولئك الزعماء المحليين .

وكان أولئك الزعماء قد استطاعوا خلال العصور المتعاقبة ، أن يحدوا تباعاً من سلطة العرش ، وأن يحرزوا لأنفسهم كثيراً من الامتيازات والسلطات ، فلما جاء كلوڤيس استطاع بعزمه وصرامته ، أن يقبض على السلطة المركزية بيد قوية ، وأن يبسط على مملكة الفرنج كلها سلطاناً مطلقاً ، واستطاع بعض خلفائه

---

( ١ ) تطلق كلمة غاليس فى الرواية الإسلامية على جنوبى فرنسا ، وهى تعريب حسن لكلمة La Gaule أو Gaulia ( راجع ابن الأثير ج ٤ ص ٢١٣ ) . وتسمى فرنسا أيضاً فى الجغرافية العربية بالأرض الكبيرة .

( ٢ ) The Merovingians ، نسبة إلى مؤسس أسرتهم الملك مرفيج جد كلوڤيس .

حتى داجوبيرت أن يبسطوا مثل هذا السلطان حيناً . ولكن خلفاء داجوبيرت كانوا رجالاً ضعاف الخلال والعزائم ، ينغمسون فى نعماء الترف والملاذ ، فضعف سلطان العرش ، وانهارت السلطة المركزية القوية التى كان يقبض عليها ، واسترد الأشراف والزعماء المحليون استقلالهم وامتيازاتهم . هذا إلى أن ما استطاع العرش أن يحتفظ به من السلطات ، امتدت إليه سلطة جديدة فى القصر ذاته ، هى سلطة محافظ القصر . وكان هذا المنصب فى المبدأ متواضعاً ، ليست له أية صفة سياسية أو إدارية ، تقتصر مهامه على النظر فى شئون القصر المنزلية ، ولكنه غدا منذ أوائل القرن السابع ، أعنى منذ أخذت سلطة العرش فى الضعف ، منصباً هاماً ، يتولاه رجال أقوياء يتطلعون إلى السلطان ، وتؤازرهم عصبية الأسرة والثروة ، وأصبح بمضى الزمن أهم مناصب الدولة السياسية والإدارية ، يستأثر صاحبه بكل السلطات الحقيقية ، وإليه منتهى الأمر فى أخطر شئون الدولة ، يباشرها باسم العرش ومن ورائه ، ولا يباشر الملك إلى جانبه غير رسوم الملك الإسمية ، ويلتف حوله الزعماء والأكابر ، ويباشر فى معظم الأحيان سلطة الملك الحقيقية ، خصوصاً إذا كان الملك طفلا قاصراً ، فهو عندئذ يغدو الملك الحقيقى باسم الوصى أو النائب.

وكانت الأسرة الكارلية[1] القوية قد اختصت بهذا المنصب الخطير ، منذ عهد الملك داجوبيرت ، وأخذت تهدد بنفوذها وقوتها مصير الأسرة الميروفنجية الملكية . وكانت أقوى بطون الفرنج فى أوستراسيا ( مملكة الفرنج الغربية ) ، تملك ضياعاً شاسعة ما بين نهرى الرين والموز وتتزعم جماعة النبلاء ، وترعاها الكنيسة لنفوذها وسلطانها ، ويمنح زعيمها محافظ القصر لقب « دوق الفرنج » ، تنويهاً برياسته وسلطانه ، الذى أصبح فوق سلطان العرش . وكان انحلال الأسرة الميروفنجية وانهيار سلطانها على هذا النحو ، سبباً فى تفرق كلمة الفرنج وانحلال الإمبراطورية الفرنجية الشاسعة ، وتطلع الزعماء إلى الاستقلال والرياسة ، أسوة بما انتهى إليه محافظ القصر ؛ فاضطرمت الحرب الأهلية حيناً بين الفرنج فى أوستراسيا والفرنج فى نوستريا ( الفرنج الشرقية ) ، وأسفر هذا الصراع عن استقلال ولاية أكوتين فى غاليا الجنوبية ، وكذا استقلال معظم الولايات الألمانية ، برياسة طائفة من

---

(١) Carlovingians أو Carolingians ، نسبة إلى أعظم ملوكها كارل الأكبر أو الإمبراطور شارلمان .

الأمراء الأقوياء . ثم آل منصب المحافظ فى أواخر القرن السابع إلى أمير مقدام جرىء من الأسرة الكارلية ، هو ببين دى هرشتال ، فحارب الفرنج الخوارج فى فريزيا وسكسونيا وباڤاريا وأخضعهم ، ولبث محافظاً للقصر يحكم مملكة الفرنج فى الشرق والغرب بقوة وعزم ، مدى سبعة وعشرين عاماً ، ثم توفى سنة ٧١٥ م موصياً بمنصبه لحفيده الطفل تودڤالد ، ولد ابنه جريمولد الذى قتل قبل وفاته . وكان لببين ولد آخر من زوجته « ألفايده » ابنة راتبود زعيم فريزيا الوثنى ، هو كارل ( أو شارل ) مارتل ، تركه أبوه فتى قوياً فى نحو الثلاثين من عمره ، وكان من الطبيعى أن يكون هو محافظ القصر بعد وفاة أخويه الكبيرين جريمولد ودروجو. ولكن ببين تأثر بتحريض زوجه الأولى « بلكترود » وأوصى بالمنصب لحفيده ، فكان محافظ القصر طفلا هو تودڤالد ، يحكم مكان الملك الميروفنجى وهو طفل أيضاً ، بواسطة بلكترود التى عينت وصية على حفيدها . وكان أول ما فعلت بلكترود أن قبضت على كارل مارتل ، وزجته إلى السجن لتأمن شره ومنافسته . ولكن أشراف أوستريا ساءهم أن تتولى الحكم امرأة . فثاروا ونادوا بأحد زعمائهم « راجنفرد » محافظاً للقصر ، ونشبت الحرب بين الفريقين ، وهزم حزب بلكترود ، فارتدت مع حفيدها إلى كلونية ، وقبض راجنفرد على زمام الحكم .

وفى تلك الأثناء فر كارل مارتل من سجنه ، والتف حوله جماعة من أنصار أبيه ، وحارب النوستريين ، فاستغاث راجنفرد بالدوق أودو أمير أكوتين القوى ، فلم يغنه ذلك شيئاً ، وانتهى كارل بأن هزمه ومزق قواته ، واضطره إلى التسليم والصلح . أما بلكترود فقد عقدت الصلح أيضاً ، ونزلت عن كل حقوقها . وغدا كارل منذ سنة ٧٢٠ م محافظاً للقصر لا ينازعه منازع ، يحكم جميع الفرنج فى أوستراسيا ونوستريا[١] .

هكذا كانت مملكة الفرنج حينما عبر المسلمون إلى غاليا أو غاليس ( فرنسا ) لثالث مرة بقيادة السمح بن مالك ، وغزوا ولاية سبتمانيا القوطية ، واستولوا على قواعدها ، وزحفوا على مدينة تولوشة (تولوز) عاصمة أكوتين . وكان أودو

---

( ١ ) راجع فى تاريخ مملكة الفرنج ونشأتها وعصر الأسرتين الميروفنجية والكارلية :
**Hodgkin : Charles the Great,** وكذلك **Zeller : Histoire de l'Allemagne Ch. VII Ch. II & III**

دوق أكوتين أحد أعضاء الأسرة الميروفنجية ، أقوى أمراء الفرنج فى غاليا وأشدهم بأساً . وكان أثناء الاضطراب الذى ساد مملكة الفرنج ، قد استقل بأكوتين وبسط حكمه على جميع غاليس الجنوبية ، من اللوار إلى البرنيه ، والتف حوله القوط والبشكنس (الناڤاريون) ، وأخذ يطمح إلى انتزاع ملك الفرنج أو ملك أسرته ، ويعد العدة لقتال كارل مارتل المتغلب عليه . ولكنه اضطر أن يشتغل عن مشروعه برد خطر العرب الداهم .

استولى السَّمح على سبتمانيا وأقام بها حكومة إسلامية ، ووزع الأراضى بين العرب والسكان ، وفرض الجزية على النصارى ، وترك لهم حرية الاحتكام إلى شرائعهم ، ثم زحف نحو الغرب ليغزو أكوتين كما قدمنا ، فقاومه البشكنس والغسقونيون سكان هذه الأنحاء أشد مقاومة . ولكنه مزق جموعهم وقصد إلى تولوشة . وكان الدوق أودو قد جمع فى تلك الأثناء جيشاً ضخماً وسار لرد العرب ، وعلم السمح بذلك فارتد عن مهاجمة تولوشة ليلقى جيش الدوق رغم تفوقه على جيشه فى العدد . والتقى الفريقان بظاهر تولوشة ، ونشبت بينهما معركة هائلة سالت فيها الدماء غزيرة ، وكثر القتل فى الجيشين ، وأبدى المسلمون رغم قلتهم شجاعة خارقة ، وتراوح النصر حيناً بين الفريقين . ولكن السمح سقط قتيلا من فوق جواده ، فاختل نظام الفرسان المسلمين ، ووقع الاضطراب فى الجيش كله ، وارتد المسلمون إلى سبتمانيا بعد أن فقدوا زهرة جندهم ، وسقط منهم عدة من الزعماء الأكابر ، وذلك فى التاسع من ذى الحجة سنة اثنتين ومائة ( ٩ يونيه سنة ٧٢١ م )[١] .

وعلى أثر مقتل السمح اختار الجيش أحد زعمائه ، عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى للقيادة العامة ، فارتد عبد الرحمن إلى الجنوب توا ، وأقرته « الجماعة » والياً للأندلس ، حتى يأتى الحاكم الجديد . فلبث فى منصبه فترة وجيزة ، ولكنه استطاع خلالها أن يخمد بوادر الخروج التى ظهرت فى الولايات الجبلية الشمالية ،

---

( ١ ) يضع كوند وهو ينقل عن مصادر عربية إسبانية لم يبينها ، تاريخ الموقعة فى سنة ١٠٣ ﻫ (Conde : ibid. I. p. 72) . ولكن المصادر العربية التى بين أيدينا تجمع كلها على أن الموقعة كانت سنة ١٠٢ ﻫ ( نفح الطيب عن ابن بشكوال وابن حيان ج ٢ ص ٥٦ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٥ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١١٨ ) . ومعظم المصادر الفرنجية على أن الموقعة كانت سنة ٧٢١ م ( ١٠٢ ﻫ ) متفقة بذلك مع الرواية الإسلامية . راجع Dom Vissette : ibid ; I. p. 781 & 784

وأن يستبقى الجزية على أربونة وغيرها من قواعد سبتمانيا . ولبث محمد الفتن ، ويصلح الأمور حتى قدم عنبسة بن سحيم الكلبي ، الذى اختاره بشر بن صفوان الكلبي والى إفريقية ، والياً للأندلس . وكان الخليفة عمر بن عبد العزيز قد جعل الأندلس ولاية مستقلة كما قدمنا ، تتبع الخلافة مباشرة . ولكن خلفه يزيد بن عبد الملك لم يقر هذا التعديل ، فعادت الأندلس تابعة فى إدارتها لإفريقية كما كانت . وقدم عنبسة بن سحيم الكلبي إلى الأندلس فى صفر سنة ١٠٣ . وأنفق حيناً فى تنظيم الإدارة ، وضبط النواحي ، وإصلاح الجيش ، وإعداده لغزوات جديدة . وفى أوخر سنة ١٠٥ هـ ( أوائل سنة ٧٢٤ م ) سار عنبسة فى الجيش إلى الشمال غازياً ، وعبر جبال البرنيه[1] مرة أخرى ، وغزا سبتمانيا التى فقد المسلمون كثيراً من معاقلها ، منذ هزيمة تولوشة ، واستولى على قرقشونة ونيمة وما بينهما من القواعد ، وارتد القوط عن محالفة الفرنج إلى محالفته . وتابع زحفه شمالا فى وادى الرون ونفذ إلى برجونية حتى مدينة أوتون فغزاها وخربها ( أغسطس سنة ٧٢٥ م ) ، ثم غزا مدينة صانص . وخشى أودوق أكوتين أن يهاجمه المسلمون مرة أخرى ، فسعى إلى مفاوضتهم ومهادنتهم . وبسط المسلمون سلطانهم قوياً فى شرق جنوبى فرنسا . وفى ذلك يقول إيزيدور الباجى : « كان نجاح عنبسة راجعاً إلى الجرأة والبراعة ، أكثر منه إلى القوة والكثرة . وكان لينه ورفقه وحسن معاملته للسكان ، عاملا فى تقوية سلطان الإسلام فى جنوبى فرنسا » . ولكن قضى نكد الطالع أن ينكب المسلمون مرة أخرى . فإن عنبسة حين عوده إلى الجنوب ، داهمته قبل أن يجتمع إليه جميع جيشه ، جموع كبيرة من الفرنج ، فأصيب أثناء الموقعة التى نشبت بجراح بالغة توفى على أثرها ، وذلك فى شعبان سنة ١٠٧ هـ ( ديسمبر سنة ٧٢٥ ) ، فارتد الجيش إلى الداخل ، وعاد الاضطراب إلى الجزيرة مرة أخرى .

---

( ١ ) يحسن بنا أن نشير هنا إلى أن بعض الكتاب والباحثين يسمون جبال البرنيه خطأً بجبال « البرانس » . ذلك لأن جبال البرنيه تسمى فى الجغرافية العربية حسبما قدمنا بجبال البرت أو البرتات . أما جبال « البرانس » فهى سلسلة أخرى من الجبال الإسبانية ، تقع شرقى ماردة ، وجنوبى طليطلة ، وهى التى تعرف فى الجغرافية الحديثة بجبال المعدن **Sierra de Almaden** ، لوقوعها على مقربة من مدينة « المعدن » . وسميت فى الجغرافية العربية « بالبرانس » نسبة لقبيلة البرانس البربرية ، التى كان منزلها فى الأندلس على مقربة من هذه الجبال ( راجع البيان المغرب ج ٢ ص ١٤٣ و ١٦٣ حيث يشير إلى الحملات التى جردت لمقاتلة الثوار فى منطقة جبال البرانس ) .

وتوالى على الأندلس مدى الأعوام الخمسة التى تلت وفاة عنبسة ، ستة ولاة أولهم عزرة بن عبد الله الفهرى[1] ، الذى تولى قيادة الجيش عقب وفاة عنبسة ، فلبث فى منصبه شهرين فقط . ثم يحيى بن سلمة الكلبى ، ولاه بشر بن صفوان عامل إفريقية ، فقدم الأندلس فى شوال سنة ١٠٧ ، وامتد حكمه عامين ونصف لم تقع فيهما حوادث أو غزوات تذكر . ثم توفى بشر بن صفوان ، وخلفه فى ولاية إفريقية عبيدة بن عبد الرحمن السلمى ، فولى على الأندلس عثمان بن أبى نسعة الخثعمى ، فقدمها فى شعبان سنة ١١٠ ، ولبث فى منصبه ستة أشهر فقط ثم عزل ، وخلفه حذيفة بن الأحوص القيسى فلم تطل ولايته سوى أشهر أيضاً ، فخلفه الهيثم ابن عبيد الكلابى أو الكنانى ، ولاه أيضاً عبيدة السلمى عامل إفريقية ، فقدم الأندلس فى المحرم سنة ١١١ هـ . وكان تتابع الولاة على هذا النحو سبباً فى تفاقم الخلل والاضطراب فى شئون الجزيرة ، وتفاقم الخلاف بين الزعماء والقبائل . وكان تخلف المسلمين عن الغزو من جهة أخرى مشجعاً للفرنج على مهاجمة القواعد الشمالية ، مشجعاً للخوارج من القوط والبشكنس على تنظيم قواتهم . وكان أخطر أولئك الخوارج شراذم القوط التى لجأت كما أسلفنا إلى قاصية جليقية ، واجتمعت هناك حول زعيم يدعى بلايو أو بلاى ، ولم يعن الولاة بتتبعها والقضاء عليها ، إما احتقاراً لشأنها أو لوعورة الجبال التى امتنعت بها ، ففى أثناء اضطراب الشئون وانشغال الولاة ، كانت هذه الشراذم تنمو وتشتد داخل هضابها النائية ، وكانت هى نواة هذه المملكة النصرانية القوية التى نشأت سراعاً ، واشتد ساعدها ، حتى غدت قبل قرن تنافس الإسلام وتنازعه سيادة اسبانيا .

فلما ولى الهيثم حاول أن يقمع الفوضى ، وأن يرد النظام . وكان الهيثم حازماً قوى العزم ، ولكن صارماً شديد الوطأة ، فطارد الشغب والفوضى بشدة ، واضطهد معظم الزعماء والمخالفين له فى الرأى ، وبالأخص اليمنية ، وتتبع كثيرين منهم بالسجن والمطاردة ، وقاد حملة ضد « منوسة » وهو حسبما نوضح بعد زعيم بربرى غامض الشخصية ، كان حاكماً لمنطقة الأسترياس وظهرت منه أعراض التمرد ، ولكنه لم يوفق إلى القضاء عليه . ثم سار فى الجيش إلى الشمال ليقمع

---

(١) يرى بعض المؤرخين أن عزرة لم يكن من ولاة الأندلس ، أو أن ولايته كانت غير رسمية ( المقرى عن ابن بشكوال ج ٢ ص ٥٧ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٦ ) .

أعراض الثورة التى بدأت فى الولايات الجبلية ، وليستأنف الغزو ؛ فعبر البرنيه ، واخترق سبتمانيا إلى وادى الرون وغزا ليون (لوذون) وماسون[1] وشالون الواقعة على نهر الساؤون ، واستولى على أوتون وبون ، وعاث فى أراضى برجونية الجنوبية . ولكن هذا الفتح الكبير لم يكن ثابت الأثر ، فقد أدى اختلاف القبائل وتمرد البربر إلى تفكك الجيش الفاتح ، وإلى تخلف المدن المفتوحة عن قبضة الفاتحين. فعاد الهيثم إلى الجنوب ، ولم يلبث أن توفى بعد أن حكم الأندلس مدى عامين ، فاختارت « الجماعة » مكانه محمد بن عبد الله الأشجعى حتى يعين الوالى الجديد[2] ، فلبث فى منصبه شهرين ، حتى عين عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى والياً للأندلس ، عينه عبيدة بن عبد الرحمن السلمى والى إفريقية بمصادقة الخليفة هشام بن عبد الملك فى صفر سنة ١١٣ هـ ( إبريل سنة ٧٣١ )[3] فكانت ولايته الثانية . وكانت ولايته الأولى سنة ١٠٣ هـ على أثر مقتل السمح كما قدمنا . وكان عبد الرحمن جندياً عظيماً ظهرت مواهبه الحربية فى غزوات غاليا ، وحاكماً قديراً بارعاً فى شئون الحكم والإدارة ، ومصلحاً كبيراً يضطرم رغبة فى الإصلاح ، بل كان بلا ريب أعظم ولاة الأندلس وأقدرهم جميعاً . وتجمع الرواية الإسلامية على تقديره والتنويه برفيع خلاله ، والإشادة بعدله وحلمه وتقواه[4] . فرحبت الأندلس قاطبة بتعيينه

---

( ١ ) لعل ماسون هى التى يسميها ابن عذارى منوسه ( راجع البيان المغرب ج ٢ ص ٢٧ ) .

( ٢ ) يقدم كوندى رواية أخرى عن مصير الهيثم ، فيقول إن أمر عسفه وجوره نمى إلى الخليفة هشام بن عبد الملك ، فانتدب محمد بن عبد الله الأشجعى للتحقيق معه . فلما تحقق صحة التهم المنسوبة إليه عزله وسجنه وصادر أمواله ، وأطلق الذين اعتقلهم ظلماً . ويقول كوندى أيضاً إن الأشجعى هو الذى اختار عبدالرحمن الغافقى لولاية الأندلس ، لما تحقق من شجاعته وحزمه بتفويض لديه من الخليفة Conde. ibid. V.I.p.81) . ويأخذ دوزى بهذه الرواية (Hist.V.I.p.137) . وكوندى يستقى روايته من بعض المصادر العربية الإسبانية ، ولكنه لا يعين هذه المصادر . على أن المصادر العربية التى أمامنا تجمع على أن ولاية الهيثم اختتمت بوفاته ، وأن الأشجعى خلفه باختيار الجماعة ( البيان المغرب ج ٢ ص ٢٧ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٨ عن ابن بشكوال ، وابن خلدون ج ٤ ص ١١٩ ) .

( ٣ ) تختلف الرواية الإسلامية فى تاريخ ولاية عبد الرحمن ، فيقول الضبى إن تعيينه كان فى حدود سنة ١١٠ هـ ( بغية الملتمس رقم ١٠٢١ ) ، وكذا ابن بشكوال ( نفح الطيب ج ٢ ص ٥٦ ) . ويقول ابن عذارى إنه كان فى صفر سنة ١١٢ ( ج ٢ ص ٢٨ ) ، وابن حيان إنه كان فى صفر سنة ١١٣ ( نفح ج ٢ ص ٥٦ ) . وهى أرجح رواية فيما نعتقد وبها أخذنا لاتفاقها مع سير تواريخ الولاة المتقدمين .

( ٤ ) راجع ابن عبد الحكم ص ٢١٦ ، ٢١٧ و وبغية الملتمس رقم ١٠٢١ ، والحميدى فى جذوة المقتبس ص ٦ و ٢٥٥ .

وأحبه الجند لعدله ورفقه ولينه ، وجمعت هيبته كلمة القبائل ، فتراضت مضر وحمير ، وعاد الوئام نوعاً فى الإدارة والجيش ، واستقبلت الأندلس عهداً جديداً.

وبدأ عبدالرحمن ولايته بزيارة الأقاليم المختلفة فنظم شئونها ، وعهد بإدارتها إلى ذوى الكفاية والعدل ، وقمع الفتن والمظالم ما استطاع ، ورد إلى النصارى كنائسهم وأملاكهم المغصوبة ، وعدل نظام الضرائب وفرضها على الجميع بالعدل والمساواة ، وقضى صدر ولايته فى إصلاح الإدارة ، ومعالجة ماسرى إليها فى عهد أسلافه من عوامل الاضطراب والخلل . وعنى بإصلاح الجيش وتنظيمه عناية خاصة ، فحشد الصفوف من مختلف الولايات ، وأنشأ فرقاً قوية مختارة من فرسان البربر ، بإشراف نخبة من الضباط العرب ، وحصن القواعد والثغور الشمالية ، وتأهب لإخماد كل نزعة إلى الخروج والثورة[١] .

وكانت الثورة فى الواقع توشك أن تنقض فى الشمال ، وبطلها فى تلك المرة زعيم مسلم هو حاكم الولايات الشمالية . فمن هو ذلك الزعيم الثائر ؟ إن الرواية الإسلامية تلزم الصمت إزاء شخصية هذا الزعيم ، وإزاء الحوادث التى اقترنت باسمه . وكل ما هنالك أن صاحب البيان المغرب يقول لنا فى حديثه عن ولاية الهيثم بن عبيد الكنانى « وهو الذى غزا منوسة »[٢]. ثم يردد المقرى هذه العبارة فى قوله مشيراً أيضاً إلى الهيثم « وغزا أرض منوسة فافتتحها »[٣] . ويبدو لأول وهله من استقراء هاتين الإشارتين القصيرتين ، أن « منوسة » تنصرف فيما يرجع إلى المكان ، ومنوسة قد تكون مدينة « ماسون » وهى التى غزاها الهيثم ضمن غزواته فى أرض فرنسا . ولكن معظم الروايات النصرانية والفرنجية المعاصرة ، تحدثنا فى نفس الوقت عن شخصية زعيم مسلم يدعى **Munuza** « منوزا » أو Munez « مونز » ، وهو كما يبدو مطابق لاسم « منوسة » ، وتسرد لنا سلسلة من الحوادث الهامة التى اقترنت باسمه . وفى موطن واحد فقط تقول الرواية النصرانية إن منوسة كان زعيماً نصرانياً من زعماء منطقة الأستورياس ، وأنه كان حاكماً لمدينة خيخون[٤] . ولنسلم نحن بهذه المطابقة بين الإسمين ،

---

(١) **Conde ; ibid V. I. p. 82 & 83**

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٧

(٣) نفح الطيب ج ١ ص ١٠٩ .

(٤) **Crónica General : Vol. I. p. 319 & V. II. p. 324**

فنقول إن منوسة ، كان وفقاً لأقوال هذه الروايات النصرانية والفرنجية ، زعيماً مسلماً يحكم بعض ولايات البرنيه الغربية وسبتمانيا فيما وراء البرنيه باسم حكومة الأندلس ، وذلك حوالى سنة ٧٢٥ إلى سنة ٧٣٠ م[١] . وكان الدوق أودو أمير أكوتين منذ اجتاح المسلمون أراضيه ، ورأى خطر الفتح الإسلامى يهدد ملكه يسعى إلى مهادنة المسلمين والتقرب من حكومة الأندلس ، ويحاول فى نفس الوقت أن يجمع الحلفاء من حوله لمقاومتها إذا اقتضى الأمر . فلما تولى منوسة حكم الولايات الشمالية . وهى تجاور أكوتين من الشرق والجنوب ، سعى الدوق إلى التفاهم معه . وكان منوسه كما تصفه الرواية النصرانية المعاصرة ، زعيماً قوى المراس ، كثير الأطماع ، نافذ الهيبة فى هاتيك الوهاد ، ولم يكن على اتفاق مع حكومة الأندلس . ذلك أنه كان من أقطاب البربر الذين عبروا الأندلس مع طارق بن زياد[٢] ؛ وقد سبق أن شرحنا عوامل الخلاف بين العرب والبربر ، وكيف حقد البربر على العرب لاستئثارهم بمغانم الفتح والرياسة . وعلى ضوء هذه التفاصيل ، نعود فنتساءل من يكون « منوسة » ؟ هل يكون هو عثمان بن أبى نسعة الخثعمى الذى ولى إمارة الأندلس قبل ذلك بثلاثة أعوام حسبما قدمنا ، ولم يطل أمد ولايته سوى أشهر قلائل ؟ وهل يكون اسم « منوسة » **Munuza** تحريفاً نصرانياً للقب « نسعة » العربى ؟ إذا صح أن منوسة كان زعيماً بربرياً كما تصفه الروايات النصرانية المعاصرة ، وهى وحدها مصدر التعريف عنه ، فيكون من المشكوك فيه إذن أن يكون منوسة ، هو عثمان ابن أبى نسعة الخثعمى والى الأندلس[٣] . ذلك أن عثمان بن أبى نسعة كان زعيماً

---

(١) ويقول ألتاميرا إن « منوسه » **Munuza** هو الحاكم البربرى الذى تركه موسى ابن نصير فى خيخون فى منطقة الأستورياس وكان حاكماً لمدينة أوفيدو ، وأنه أى منوسة قد اضطر عقب فشله فى القضاء على بلايو الزعيم القوطى ، وهزيمته فى موقعة كوفادونجا أن يخلى منطقة الأستورياس . راجع : **Altamira : ibid, T. I. p. 221—223**

(٢) هذه هى رواية إيزيدور الباجى وقد نقلتها بعض الروايات النصرانية المتأخرة ؛ راجع **Dozy:Histoire,V.I.p. 160 et notes** و **Dom Viseette : ibid, V.I. p. 794 & II. p.129**

(٣) كنت من قبل أعتقد كبعض الباحثين أن « منوزا » ( منوسة ) هو تحريف لاسم ابن أبى نسعة ؛ وأنهما اسمان لشخص واحد . وهذا ما يقوله فى الواقع يوسف كوندى **(V. I. p. 80)** . ولكنى أصبحت بعد الذى قرأته من مختلف التفاصيل والتعليقات التى أوردتها الروايات النصرانية المعاصرة ، وبعد مقارنتها بأقوال الرواية الإسلامية عن ابن أبى نسعة ، أشك فى صواب هذا الرأى . والمرجح كما يبدو من مختلف الشروح المتقدمة أن منوسة كان فعلا من زعماء البربر المتمردين على حكومة قرطبة .

عربياً ينتسب إلى خثعم إحدى البطون العربية العريقة[١] ، ولم يفز بإمارة الأندلس فى تلك الفترة سوى زعماء العرب ، ولم تسند إلى أحد من البربر . هذا إلى أن الرواية الإسلامية تقدم إلينا عن مصير عثمان بن أبى نسعة رواية أخرى غير التى تقدمها إلينا الرواية النصرانية عن مصير «منوسة» ، فهى تقول لنا ان أبن ابى نسعة ولى الأندلس فى شعبان سنة ١١٠ ﻫ (٧٢٨م) واستمرت ولايته خمسة أشهر أو ستة ثم عزل ، وانصرف إلى القيروان فمات بها[٢] . أما « منوسة » فقد مات محارباً ، ومات قتيلا كما سنرى .

وعلى أى حال فقد تفاهم دوق أكوتين ومنوسة ، وقوت المصاهرة بينهما أواصر الصداقة والتحالف. ذلك أنه كانت للدوق ابنة رائعة الحسن تدعى لامبجيا (أو منينا أو نوميرانا على قول بعض الروايات ) فرآها منوسة أثناء بعض رحلاته فى أكوتين أو أنه أسرها فى بعض غاراته عليها . تقول الرواية : « وكانت لامبجيا أجمل امرأة فى عصرها ، كما كان منوسة أقبح رجل فى عصره ، وكانت نصرانية متعصبة ، ولكن أطماع الوالد غلبت على كل شيء ، فارتضى مصاهرة الزعيم المسلم » .

وكما يحيط الغموض بشخصية منوسة ، فكذلك يحيط بشخصية لامبجيا وظروف زواجها من الزعيم المسلم ، فتقول الرواية مثلا ، إن منوسة بعد أن أسر لامبجيا ، وشغف بها حبا وتزوج بها ، حمل بتأثيرها ونفوذها على مخالفة أبيها الدوق ومناوأة حكومة الأندلس ، وتقول أيضاً إن ابنة الدوق أكوتين التى تزوجها منوسة لم تكن لامبجيا التى اشتهرت بفائق حسنها ، بل كانت أختها « منينا » التى كانت من قبل زوجة لفرويلا القوطى أمير أستورية ، كما تورد لنا غير ذلك من الأنباء والتفاصيل التى يقع معظمها فى حد الأساطير[٣] .

وهكذا اجتمعت عوامل الحب والسياسة لتوثيق عرى التحالف بين الزعيم المسلم وبين الدوق أودو . وكان أودو ، فضلا عما يهدده من خطر الغزو الإسلامى ، يخشى بأس خصمه القوى كارل مارتل زعيم الفرنج ، وكذا كان كارل مارتل

---

(١) راجع نفح الطيب ج ١ ص ١٣٩ .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٨ .

(٣) راجع خلاصة الروايات النصرانية والفرنجية فى موسوعة **Bayle V. IV.** والتعليقات .

ينقم على أودو نفوذه واستقلاله بالجنوب ، وقد غزا بالفعل أكوتين غير مرة وهزم أميرها . فكان أودو فى الواقع بين نارين ، يخشى الفرنج من الشمال ، والعرب من الجنوب . وكانت جيوش كارل مارتل تهدده وتعيث فى أرضه (سنة ٧٣١) فى نفس الوقت الذى سعى فيه منوسة إلى محالفته ، والاستعانة به على تنفيذ مشروعه فى الخروج على حكومة الأندلس ، والاستقلال بحكم الولايات الشمالية . وقد رأى منوسة اكتساباً للوقت وكتماناً لحقيقة مشروعه ، أن يسبغ على محالفته مع الدوق صفة هدنة عقدت بينه وبين الفرنج ، ولكن عبد الرحمن أمير الأندلس ارتاب فى أمر الثائر ونياته ، وأبى إقرار الهدنة التى عقدها . وعندئذ كشف منوسة القناع ، وأعلن الثورة ، فأرسل عبد الرحمن إلى الشمال حملة قوية بقيادة ابن زيان لتأديب الزعيم الثائر ، والتحوط لسلامة الولايات الشمالية ، فاستعصم منوسة بمواقعه الجبلية ، وتحصن فى عاصمة إقليمه « مدينة الباب »[١] ، الواقعة على منحدر جبال البرنيه ، وكان يظن أنه يستطيع أن يتحدى الجيش الإسلامى ، وأن يعتصم بالصخر ، كما اعتصم به الزعيم القوطى « بلاجيوس» (بلايو) ولكنه كان مخطئاً فى تقديره ، فقد نفذ ابن زيان بجيشه إلى مدينة الباب ، وحاصر الثائر فى عاصمته ، ففر منها إلى شعب الجبال الداخلية ، فطارده ابن زيان من صخرة إلى صخرة ، حتى أخذ وقتل مدافعاً عن نفسه ، وتحطمت أطماعه ومشاريعه (١١٣ هـ — ٧٣١ م)[٢] ، وأسرت زوجه الحسناء لامبجيا ، وأرسلت إلى بلاط دمشق ، فاستقبلها الخليفة ( هشام بن عبد الملك ) بحفاوة وإكرام ، وزوجت هنالك من أمير مسلم لا تذكر لنا الرواية اسمه[٣] .

---

( ١ ) واسمها بالقشتالية **Ciudad de la Puerta** ، وقد كانت تقع على أحد ممرات البرنيه وتسمى أحياناً « بويكاردا » .

( ٢ ) تمر الرواية الإسلامية على هذه الحوادث كلها بالصمت كما قدمنا ، ولا تذكر لنا أى تفصيل أو لمحة تلقى الضياء على شخصية منوسة ؛ ويوافق دوزى على أن منوسة **Munuza** هو اسم للزعيم البربرى المتقدم الذكر . راجع : **Dozy : Histoire V.II. p. 129 & note,** ؛ وكذلك **Lévy-Provençal : Hist. de l'Espagne Musulmane (1944) p.43 & note.**

( ٣ ) **Dom Vissette : ibid, I. p. 764** . وتحيط الرواية سيرة لامبجيا وزوجها بكثير من القصص الخيالية الشائقة ، التى اتخذت فيما بعد مستقى لخيال بعض الشعراء والكتاب . غير أن معظم هذه القصص لا يخرج عن حد الأساطير .

هذا ، وهناك فى شأن «منوسة» وزوجه رواية أخرى ، أوردها الحبر ماريانا كبير مؤرخى إسبانيا ، فقد ذكر أن منوسة كان زعيماً نصرانياً اختاره المسلمون لحكم المنطقة الواقعة غربى البرنيه ، ولكنه كان صارماً يشتد فى معاملة النصارى ، وأنه كانت للدون بلاجيوس زعيم جليقية القوطى أخت بارعة الحسن ، شغف بها منوسة حباً ، ولكن بلاجيوس لم يوافق على زواجها منه ، فاحتال منوسة ، وبعثه فى مهمة إلى قرطبة ، وأسر الأميرة أثناء غيبته وتزوج بها قسراً ، فأسر بلاجيوس وأخته هذه الإهانة ، ولبثا يرقبان الفرص حتى استطاعت الأميرة فراراً من أسرها وسارت مع أخيها إلى جبال جليقية حيث اعتصم بلاجيوس مع أنصاره ، وأعلن الخروج والثورة ، فأخطر منوسة حكومة قرطبة ، فأرسلت حملة لتأديب الثائر بقيادة « علقمة » . ولكن بلاجيوس استطاع مع أنصاره القلائل ، أن يعتصم بشعب الجبال ، فارتد المسلمون منهزمين ، وقتل علقمة ، وارتاع منوسة لفوز خصمه ، وخشى انتقام مواطنيه ، فحاول الفرار إلى الجنوب ، ولكنه وقع فى يد شرذمة من الفلاحين النصارى فقتلوه ، ويضع ماريانا تاريخ هذه الحوادث فى سنة ٧١٨ م[1] .

ولكن رواية ماريانا هذه ظاهرة الضعف ، أولا لأنه ليس بمعقول أن تعهد حكومة الأندلس المسلمة بحكم ولاية من ولاياتها إلى زعيم نصرانى . وثانياً لأن هذه الرواية تخالف فى مجموع تفاصيلها كل ما كتبته الروايات المعاصرة عن شخصية منوسة ، وعن مصاهرته لأمير أكوتين . وثالثاً لأن تاريخ هذه الحوادث متأخر عن التاريخ الذى يعينه ماريانا بأكثر من عشرة أعوام .

ولما قتل منوسة ، وانهارت مشاريعه ، ورأى أودو ما حل بحليفه ، واستشعر الخطر الداهم تأهب للدفاع عن مملكته ، وبدأ الفرنج والقوط فى الولايات الشمالية بالتحرك لمهاجمة المواقع الإسلامية . وكان عبد الرحمن يتوق إلى الانتقام لمقتل السمح وهزيمة المسلمين عند أسوار تولوشة ، ويتخذ العدة منذ بدء ولايته لاجتياح مملكة الفرنج كلها . فلما رأى الخطر محدقاً بالولايات الشمالية ، لم ير بدا من السير إلى الشمال ، قبل أن يستكمل كل أهبته . على أنه استطاع أن يجمع أعظم جيش سيره

---

(١) Mariana فى تاريخ إسبانيا العام — الترجمة الفرنسية ج ٣ ص ٥ وما بعدها .

المسلمون إلى غاليس (فرنسا) منذ الفتح . وفى أوائل سنة ٧٣٢ م ( أوائل سنة ١١٤ هـ ) سار عبد الرحمن إلى الشمال مخترقاً ولاية أراجون ( الثغر الأعلى ) وناڤار ( بلاد البشكس ) وعبر البرنية من طريق بنبلونة ، ودخل فرنسا فى ربيع سنة ٧٣٢ م ، وزحف تواً على مدينة آرل الواقعة على نهر الرون ، لتخلفها عن أداء الجزية ، واستولى عليها بعد معركة عنيفة ، نشبت على ضفاف النهر بينه وبين قوات الدوق أودو . ثم زحف غرباً وعبر نهر الجارون ، وانقض المسلمون كالسيل على ولاية أكوتين[1] ، يثخنون فى مدنها وبسائطها ، فحاول أودو أن يقف زحفهم ، والتقى الفريقان على ضفاف نهر الدردون ، فهزم الدوق هزيمة فادحة ، ومزق جيشه شر ممزق . قال إيزيدور الباجى : « والله وحده يعلم كم قتل فى تلك الموقعة من النصارى » . وطارد عبد الرحمن جيش الدوق حتى عاصمته بوردو ( بردال) . واستولى عليها بعد حصار قصير[2] ، وفر الدوق فى نفر من صحبه إلى الشمال ، وسقطت أكوتين كلها فى يد المسلمين . ثم ارتد عبد الرحمن نحو الرون كرة أخرى واخترق الجيش الإسلامى برجونية واستولى على ليون وبزانصون[3] ، ووصلت سرياته حتى صانص ، التى تبعد عن باريس نحو مائة ميل فقط . وارتد عبد الرحمن بعد ذلك غرباً إلى ضفاف اللوار ليتم فتح هذه المنطقة ثم يقصد إلى عاصمة الفرنج[4] .

---

( ١ ) كانت إمارة أكوتين فى ذلك الحين تمتد بين نهر الرون شرقاً وخليج غسقونية (بسكونية) غرباً ، وبين نهر اللوار شمالا ونهر الجارون جنوباً ، وتشمل من مقاطعات فرنسا الحديثة جويان وبيرجور وسانتونج وبواتو وڤنده وجزءاً من أنجو .

( ٢ ) **Dom Vissette : Ibid, I. p. 795**

( ٣ ) وهى مسقط رأس الشاعر الفرنسى الأشهر ڤكتور هوجو .

( ٤ ) يقدم المستشرق كاردون شرحاً آخر لسير عبد الرحمن ، فيقول إنه زحف أولا على آرل وحاصرها فبادر الكونت إلى إنجادها ، فلقيه عبد الرحمن وهزمه وألجأه إلى الفرار ، ثم عبر عبد الرحمن نهر الجارون واستولى على بوردو . وكان الكونت قد جمع جيشاً جديداً وحاول رده فهزم مرة أخرى ، ثم اخترق عبد الرحمن بيرجور وسانتونج وبواتو وهو يثخن فى تلك الأنحاء حتى انتهى إلى تور **Cardonne : Hist. de L'Afrique et de L'Espagne -I-129** ولكن عبد الرحمن اقتحم وادى الرون أيضاً كما بينا ، وقد شرحنا سيره طبقاً لجميع الروايات مجتمعة ، وطبقاً للمواقع الجغرافية التى تتعلق بهذه الغزوة . وقد يكون أن عبد الرحمن لم يسر بنفسه شمالا نحو برجونية ، ولكن الجيش الإسلامى اقتحم هذه الأنحاء بلا ريب .

وتم هذا السير ، وافتتح نصف فرنسا الجنوبى كله من الشرق إلى الغرب ، فى بضعة أشهر فقط . قال إدوارد جيبون : « وامتد خط الظفر مدى ألف ميل من صخرة طارق إلى ضفاف اللوار . وقد كان اقتحام مثل هذه المسافة يحمل العرب إلى حدود بولونيا وربى اسكتلندا . فليس الرّين بأمنع من النيل أو الفرات ، ولعل أسطولا عربياً كان يصل إلى مصب التيمز دون معركة بحرية ، بل ربما كانت أحكام القرآن تدرس الآن فى معاهد أكسفورد ، وربما كانت منابرها تؤيد لمحمد صدق الوحى والرسالة» .

Gibbon : ibid, Ch-LII (١)

# الفصل السادس

## بلاط الشهـــداء

معركة الإسلام والنصرانية . تحول هذه المعركة إلى سهول فرنسا . العرب والفرنج على أطلال الدولة الرومانية . حلول الفرنج فى فرنسا . خواص المجتمع الفرنجى . انحلال عصبيته بالاستقرار . تفككه وتنافره . خطر القبائل الجرمانية الوثنية . الدولة الإسلامية . انتظامها وتماسكها . تفرق الفرنج . سيل الفتح الإسلامى . عبد الرحمن الغافقى وجيشه . كيف يصوره الشاعر سوذى . اختراق عبد الرحمن لفرنسا . موقف الدوق أودو . كارل مارتل محافظ القصر . تمهله فى لقاء العرب . ما تقوله الرواية فى ذلك . التجاء أودو إلى كارل . مسير كارل للقاء العرب . اجتياح العرب لأكوتين . أين التقى العرب والفرنج . هجوم المسلمين على مدينة تور . وصول الفرنج إلى اللوار . ارتداد عبد الرحمن إلى ما وراء النهر . حالة الجيش الإسلامى . وفرة غنائمه وخطرها على نظامه . بدء القتال . المعارك المحلية . المعركة العامة . مهاجمة الفرنج لمعسكر الغنائم . ارتداد الفرسان المسلمين لحمايته . اختلال نظام المسلمين. مقتل عبد الرحمن الغافقى . الذعر فى الجيش الإسلامى . رجحان كفة الفرنج . افتراق الجيشين . الخلاف فى القيادة الإسلامية . تقرير الانسحاب . ارتداد المسلمين إلى الجنوب . توجس كارل مارتل . أقوال الرواية الكنسية . مبالغتها فى التقدير والتصوير . وصفها لحوادث اللقاء الحاسم . صمت الرواية الأندلسية . وصفها لحوادث الغزوة الإسلامية . وصفها للجيش الإسلامى . حديثها عن الموقعة الحاسمة . أقوال المستشرق كاردون . تحفظ الرواية الإسلامية ومغزى هذا التحفظ . بلاط الشهداء . لون الموقعة الدينى . أقوال المؤرخين المسلمين عنها . موقف الرواية النصرانية . مبالغتها فى تصوير هزيمة المسلمين وتقدير خسائرهم . ما يدحض هذا الإغراق . إحجام الفرنج عن مطاردة العرب . خسارة المسلمين بمقتل عبد الرحمن . النقد الحديث وبلاط الشهداء . كيف ينوه بأهميتها فى خلاص النصرانية من سلطان الإسلام . تأملات .

أجل ، كان اللقاء الحاسم بين الإسلام والنصرانية ، وبين الشرق والغرب على وشك الوقوع . وكان اجتياح الإسلام للعالم القديم سريعاً مدهشاً ، فإنه لم يمض على وفاة النبى العربى نصف قرن ، حتى سحق العرب دولة الفرس الشامخة ، واستولوا على معظم أقطار الدولة الرومانية الشرقية ، من الشام إلى أقاصى المغرب ، وقامت دولة الخلافة قوية راسخة الدعائم فيما بين السند شرقاً والمحيط غرباً ، وامتدت شمالا حتى أواسط آسيا الصغرى . وكانت سياسة الفتح الإسلامى مذ توطدت دولة الإسلام ، ترمى إلى غاية أبعد من امتلاك الأقطار ، وبسطة السلطان والملك . فقد كان الإسلام يواجه فى الأقطار التى افتتحها من العالم القديم أنظمة

راسخة مدنية واجتماعية ، تقوم على أصول وثنية أو نصرانية . وكانت النصرانية قد سادت أقطار الدولة الرومانية منذ القرن الرابع . فكان على الخلافة أن تهدم هذا الصرح القديم ، وأن تقيم فوق أنقاضه فى الأمم المفتوحة ، نظماً جديدة تستمد روحها من الإسلام ، وأن تذلل النصرانية لصولة الإسلام ، سواء بنشر الإسلام بين الشعوب المفتوحة ، أو بإخضاعها من الوجهتين المدنية والاجتماعية لنفوذ الإسلام وسلطانه . وكان هذا الصراع بين الإسلام والنصرانية قصير الأمد فى الشام ومصر وإفريقية ، فلم يمض نصف قرن حتى غمر الإسلام هذه الأمم بسيادته ونفوذه ، وقامت فيها مجتمعات إسلامية قوية شاملة ، وغاضت الأنظمة والأديان القديمة . ثم دفعت الخلافة فتوحها إلى أقاصى الأناضول من المشرق ، وجازت إلى اسبانيا من المغرب . فأما فى المشرق فقد حاول الإسلام أن يعبر إلى الغرب عن طريق قسطنطينية ، وبعثت الخلافة جيوشها وأساطيلها الزاخرة إلى عاصمة الدولة الشرقية مرتين ، الأولى فى عهد معاوية بن أبى سفيان فى سنة ٤٩ هـ (٦٦٩ م) والثانية فى عهد سليمان بن عبد الملك سنة ٩٨ هـ (٧١٧ م) ، وكانت قوى الخلافة فى كل مرة تبدى فى محاصرة قسطنطينية ، غاية الإصرار والعزم والجلد ، ولكنها فشلت فى المرتين ، وارتدت عن أسوار قسطنطينية منهوكة خائرة ، وأخفق مشروع الخلافة فى افتتاح الغرب من تلك الناحية ، ولقى الإسلام هزيمته الحاسمة فى المشرق أمام أسوار بيزنطية ، وقامت الدولة الشرقية فى وجه الإسلام حصناً منيعاً يحمى النصرانية من غزوه وسلطانه . ولكن جيوش الإسلام جازت إلى الغرب عن طريق اسبانيا ، وأشرفت من هضاب البرنيه على باقى أمم أوربا النصرانية ، ولولا تردد الخلافة وخلاف الزعماء ، لاستطاع موسى بن نصير أن ينفذ مشروعه فى اختراق أوربا من الغرب إلى المشرق ، والوصول إلى دار الخلافة بطريق قسطنطينية ، ولكان من المرجح أن تلقى النصرانية يومئذ ضربتها القاضية ، وأن يسود الإسلام أمم الشمال كما ساد أمم الجنوب ، ولكن الفكرة غاضت فى مهدها لتوجس الخلافة وترددها .

على أن الفتوح التى قام بها ولاة الأندلس بعد ذلك فى جنوبى فرنسا ، كانت طوراً آخر من أطوار ذلك الصراع بين الإسلام والنصرانية . فقد كانت مملكة الفرنج أعظم ممالك الغرب والشمال يومئذ ، وكانت تقوم فى الغرب بحماية النصرانية ،

على نحو ما كانت الدولة الرومانية فى الشرق ، بل كانت مهمتها فى هذه الحماية أشق وأصعب ، إذ بينما كان الإسلام يهدد النصرانية من الجنوب ، كانت القبائل الوثنية الجرمانية تهددها من الشمال والشرق . وكانت الغزوات الإسلامية تقف فى المبدأ عند سبتمانيا ومدنها ، ولكنها امتدت بعدئذ إلى أكوتين وضفاف الجارون ، ثم امتدت إلى شمال الرون وولاية برجونية ، وشملت نصف فرنسا الجنوبى كله ، وهكذا بدا الخطر الإسلامى على مصير الفرنج والنصرانية قوياً ساطعاً ، وبدت طوالع ذلك الصراع الحاسم ، الذى يجب أن تتأهب لخوضه أمم الفرنج والنصرانية كلها .

كانت المعركة فى سهول فرنسا إذاً بين الإسلام والنصرانية ، بيد أنها كانت من الجانب الآخر بين غزاة الدولة الرومانية ، والمتنافسين فى اجتناء تراثها . كانت بين العرب الذين اجتاحوا أملاك الدولة الرومانية فى المشرق والجنوب . وبين الفرنج الذين حلوا فى ألمانيا وغاليس ( فرنسا ) . والفرنج هم شعبة من القبائل البربرية التى غزت رومة وتقاسمت تراثها ، من وندال وقوط وآلان وشوابيين . فكان ذلك اللقاء بين العرب والفرنج فى سهول فرنسا ، أكثر من نزاع محلى على غزو مدينة أو ولاية بعينها : كان هذا النزاع فى الواقع أبعد ما يكون مدى وأثراً ، إذ كان محوره تراث الدولة الرومانية العريض الشاسع ، الذى فاز العرب منه بأكبر غنم ، ثم أرادوا أن ينتزعوا ما بقى منه بأيدى منافسيهم غزاة الدولة الرومانية من الشمال .

وكانت هذه السهول الشمالية ، التى قدر أن تشهد موقعة الفصل بين غزاة الدولة الرومانية ، تضم مجتمعاً متنافراً ، لم تستقر بعد قواعده ونظمه على أسس متينة . ذلك أن القبائل الجرمانية التى عبرت نهر الرين وقضت على سلطان رومة فى الأراضى المفتوحة ، كانت مزيجاً مضطرماً من الغزاة الظمأى إلى تراث رومة من الثروة والنعماء . وكان القوط قد اجتاحوا شمالى إيطاليا منذ القرن الخامس ، وحلوا فى جنوبى غاليس واسبانيا . ولكن هذه الممالك البربرية لم تكن تحمل عناصر البقاء والاستقرار ، فلم يمض زهاء قرن آخر حتى غزا الفرنج فرنسا ، وانتزعوا نصفها الشمالى من يد حاكمه الرومانى المستقل بأمره ، وانتزعوا نصفها الجنوبى من القوط ، وحلت فى غاليس سلطة جديدة ومجتمع جديد . وكان الغزاة فى كل

مرة يقيمون ملكهم على القوة وحدها ، ويقتسمون السلطة فى نوع من الإقطاع ، فلا يمضى وقت طويل حتى تقوم فى القطر المفتوح عدة إمارات محلية ، ولم يعن الغزاة بإقامة مجتمع متماسك ذى نظم سياسية واجتماعية ثابتة ، ولم يعنوا بالأخص بأن يندمجوا برعاياهم الجدد . فكان سكان البلاد المفتوحة من الرومان والغاليين ، الذين لبثوا قروناً يخضعون لسلطان رومة ، ماتزال تسود فيهم لغة رومة وحضارتها ، ولكن القبائل الجرمانية الغازية كانت تستأثر بالحكم والرياسة ، وتكون وحدها مجتمعاً منعزلا ، لبثت تسوده الخشونة والبداوة أحقاباً ، قبل أن يتأثر بمدنية رومة وتراثها الفكرى والاجتماعى . وكان اعتناق الفرنج للنصرانية منذ عهد كلوڤيس ، أكبر عامل فى تطور هذه القبائل وتهذيب عقليتها الوثنية وتقاليدها الوحشية . ثم كان استقرارها بعد حين فى الأرض المفتوحة ، وتوطد سلطانها وتمتعها بالنعماء والثراء ، بعد طول المغامرة والتجوال ، وشظف العيش ، وحرصها على حياة الدعة والرخاء ، عوامل قوية فى انحلال عصبيتها الحربية وفتور شغفها بالغزو ، وإذكاء رغبتها فى الاستعمار والبقاء . وهكذا كانت القبائل الجرمانية التى عبرت الرين تحت لواء الفرنج واستقرت فى غاليس ، قد تطورت فى أوائل القرن الثامن ، إلى مجتمع مستقر متماسك نوعاً . ولم تكن غاليس قد استحالت عندئذ إلى فرنسا ، ولكن جذور فرنسا المستقبلة كانت قد وضعت ، وهيئت الأسباب والعوامل لنشوء الأمة الفرنسية . بيد أن هذا المجتمع رغم تمتعه بنوع من الاستقرار والتماسك ، كان وقت أن نفذ العرب إلى فرنسا ، فريسة الانحلال والتفكك ، وكان الخلاف يمزقه كما قدمنا . وكانت أكوتين وباقى فرنسا الجنوبية ، فى يد جماعة من الأمراء والزعماء المحليين ، الذين انتهزوا ضعف السلطة المركزية ، فاستقلوا بما فى أيديهم من الأقاليم والمدن . ثم كانت القبائل الجرمانية الوثنية ، فيما وراء الرين من جهة أخرى ، تحاول اقتحام النهر من آن لآخر ، وتهدد بالقضاء على مملكة الفرنج . فكان الفرنج يشغلون برد هذه المحاولات ويقتحمون النهر بين آونة وأخرى لدرء هذا الخطر ، ولإرغام القبائل الوثنية على اعتناق النصرانية . فكانت المسألة الدينية أيضاً عاملا قوياً فى هذا النضال الذى يضطرم بين قبائل وعشائر تجمعها صلة الجنس والنسب . ولم ينقذ مملكة الفرنج من ذلك الخطر ، سوى خلاف القبائل الوثنية وتنافسها وتفرق كلمتها(١) .

(١) راجع Creasy : Decisive Battles of the World, Ch. VII (الفصل السابع)=

هكذا كانت مملكة الفرنج والمجتمع الفرنجي فى أوائل القرن الثامن ، أعنى حينما انساب تيار الفتح الإسلامى من اسبانيا إلى جنوبى فرنسا . وكان قد مضى منذ وفاة النبي العربى ، إلى عهد هذا اللقاء الحاسم بين الإسلام والنصرانية (سنة ٧٣٢م) ، مائة عام فقط . ولكن العرب كانوا خلال هذا القرن ، قد افتتحوا جميع الأمم الواقعة بين السند شرقاً والمحيط غرباً ، واكتسحوا العالم القديم ، فى فيض مدهش من الظفر الباهر ، واستولوا على جميع أقطار الدولة الرومانية الجنوبية ، من الشأم إلى أقاصى المغرب واسبانيا ، وعبروا البرنيه إلى أواسط فرنسا ، هذا بينما أنفقت القبائل الجرمانية الشمالية ، أكثر من ثلاثة قرون فى افتتاح أقطار الدولة الشمالية ، ومحاولة الاستقرار فيها . وبينما قامت الدولة الإسلامية ثابتة وطيدة الدعائم ، وقامت فى جميع أقطار الخلافة حكومات محلية قوية ، ومجتمعات إسلامية مستنيرة ، وجيوش غازية منظمة ، إذا بمعظم القبائل الجرمانية غزاة رومة من الشمال ، ما يزال إذا استثنينا مملكة الفرنج ، على حاله من البداوة والتجوال والتفرق . وكان الفرنج هم قادة القبائل الجرمانية فى هذا الصراع ، الذى نشب فى سهول فرنسا ، وآذن طوره الحاسم بعبور المسلمين إلى فرنسا فى ربيع سنة ٧٣٢ م . وكان سيل الفتح الإسلامى ، ينذر باجتياح فرنسا منذ عشرين عاماً ، أعنى مذ عبر المسلمون جبال البرنيه بقيادة موسى بن نصير لأول مرة واستولوا على سبتمانيا ، ثم اقتحموا بعد ذلك وادى الرون وأكوتين غير مرة . ولكن مملكة الفرنج كانت يومئذ تشغل بالمعارك الداخلية ، وتقتتل حول السلطان والرياسة ، حتى ظفر كارل مارتل بمنصب محافظ القصر ، وأنفق أعواماً أخرى فى توطيد سلطانه ، بينما كان خصمه ومنافسه أودو أمير أكوتين ، يتلقى وحده ضربات العرب . فلما استفحل خطر الفتح الإسلامى ، وانساب نحو الشمال حتى برجونية ، فزع الفرنج وهبت القبائل الجرمانية فى أوستراسيا ونوستريا لتذود عن سلطانها وكيانها .

وكان الخطر داهماً حقيقياً فى تلك المرة ، لأن المسلمين عبروا البرنيه عندئذ فى أكبر جيش حشد ، وأتم أهبة اتخذت منذ الفتح . وكان على رأس الجيش الإسلامى قائد وافر الهمة والشجاعة والمقدرة هو عبد الرحمن الغافقى ، وهو أعظم

---

= ففيه استعراض حسن لأحوال المجتمع الجرمانى فى هذا العصر ، وعرض شائق لحوادث موقعة تور .
وراجع أيضاً Zeller : Hist. de l'Allemagne, p. 67

جندى مسلم عبر البرنيه . وكان قد ظهر ببراعته فى القيادة منذ موقعة تولوشة ، حيث استطاع إنقاذ الجيش الإسلامى من المطاردة عقب هزيمته ومقتل قائده السمح ، والارتداد إلى سبتمانيا . وتبالغ الرواية الفرنجية فى تقدير جيش عبد الرحمن وأهبته ، فتقدره بأربعمائة ألف مقاتل ، هذا غير جموع حاشدة أخرى صحبها لاستعمار الأرض المفتوحة . وهو قول ظاهر المبالغة . وتقدره بعض الروايات العربية بسبعين أو ثمانين ألف مقاتل ، وهو أقرب إلى الحقيقة والمعقول . وقد أثارت هذه الغزوة الإسلامية الشهيرة ، وهذا الجيش الضخم ، خيال الشاعر الأوربى الحديث ، فنرى الشاعر الإنجليزى سوذى يقول فى منظومته عن ردريك آخر ملوك القوط ·

« جمع لا يحصى .
« من شأم وبربر وعرب ، وروم خوارج .
« وفرس وقبط وتتر عصبة واحدة .
« يجمعها إيمان ، هائم راسخ الفتوة .
« وحمية مضطرمة ، وأخوة مروعة .
« ولم يك الزعماء ،
« أقل ثقة بالنصر ، وقد شمخوا بطول ظفر
« يتيهون بتلك القوة الخارقة ،
« التى أيقنوا أنها كما اندفعت ،
« حيثما كانوا بلا منازع ، ستندفع ظافرة إلى الأمام ،
« حتى يصبح الغرب المغلوب كالشرق ،
« يطأطئ الرأس إجلالا لاسم محمد ،
« وينهض الحاج من أقاصى المنجمد ،
« ليطأ بأقدام الإيمان ، الرمال المحرقة ،
« المنتثرة فوق صحراء العرب وأراضى مكة الصلدة »[1] .

ونفذ عبد الرحمن فى جيشه الزاخر إلى فرنسا ، فى ربيع سنة ٧٣٢ م ( أوائل سنة ١١٤ هـ ) ، واقتحم وادى الرون وولاية أكوتين ، وشتت قوى الدوق أودو ، وأشرف بعد هذا السير الباهر على ضفاف نهر اللوار . وتقول بعض الروايات

---

(١) Southy: Roderic the last of the Goths

الكنسية ، إن أودو هو الذى استدعى عبد الرحمن إلى فرنسا ، ليعاونه على محاربة خصمه كارل مارتل[١]. ولكن هذه الرواية مردودة غير معقولة ، لما قدمنا من أن أودو هو الذى بادر إلى مقاومة عبد الرحمن ورده ، وكانت مملكته وعاصمته أول غنم للمسلمين . وكان ملك الفرنج يومئذ تيودوريك الرابع ، ولكن ملوك الفرنج كانوا فى ذلك العصر أشباحاً قائمة فقط . وكان محافظ القصر كارل مارتل هو الملك الحقيقى ، يستأثر بكل سلطة حقيقية ، وعليه يقع عبء الدفاع عن ملكه وأمته . وكان منذ استفحل خطر الفتح الإسلامى يتخذ أهبته ويحشد قواه . ولكن عبد الرحمن سار إلى قلب فرنسا قبل أن يتحرك للقائه . وترد الرواية الإسلامية هذا التمهل إلى خطة مرسومة مقصودة . فتقول فى هذا الموطن : « فاجتمعت الفرنج إلى ملكها الأعظم قارلة وهذه سمة لملوكهم ، فقالت له ما هذا الخزى الباقى فى الأعقاب . كنا نسمع بالعرب ونخافهم من جهة مطلع الشمس حتى أتوا من مغربها ، واستولوا على بلاد الأندلس ، وعظيم ما فيها من العدة والعدد ، بجمعهم القليل وقلة عدتهم وكونهم لا دروع لهم . فقال لهم ما معناه : الرأى عندى أن لا تعترضوهم فى خرجتهم هذه ، فانهم كالسيل يحمل من يصادره ، وهم فى إقبال أمرهم ، ولهم نيات تغنى عن كثرة العدد ، وقلوب تغنى عن حصانة الدروع ، ولكن أمهلوهم حتى تمتلئ أيديهم من الغنائم ، ويتخذوا المساكن ، ويتنافسوا فى الرياسة ، ويستعين بعضهم ببعض ، فحينئذ تتمكنون منهم بأيسر أمر »[٢]. ونستطيع أيضاً أن نفسر تمهل كارل مارتل بأنه كان يقصد إلى ترك خصمه ومنافسه أودو دون إغاثة ، حتى يقضى المسلمون على ملكه وسلطانه ، فيتخلص بذلك من منافسته ومناوأته . وعلى أى حال فإن عبد الرحمن كان قد اقتحم أكوتين وجنوبى فرنسا كله ، حينما تأهب كارل مارتل للسير إلى لقائه . وجاء الدوق أودو بعد ضياع ملكه ، وتمزيق

---

( ١ ) موسوعة **Bouquet : Recueil des Historiens de la Gaule et de la France.** رواية القديس دنى **Vol. III. p. 310** . وراجع أيضاً موسوعة : **Bayle : Dictionnaire Historique et Critique** تحت كلمة **Abderame**

( ٢ ) المقرى عن الحجارى فى المسهب ( نفح الطيب ج ١ ص ١٢٩ ) . ويورد الحجارى هذه الرواية بمناسبة عبور موسى بن نصير إلى فرنسا . ولكن ظاهر من اسم قارلة ( كارل ) أن الأمر يتعلق بالغزوة الكبيرة التى نتحدث عنها ؛ وإليها ترجمها الرواية الكنسية اللاتينية . راجع : **Gibbon : ibid, Ch. LII** حيث يورد نفس هذه الفقرة فى كلامه عن موقعة تور .

قواته يطلب العون والنجدة من خصمه القديم أعنى كارل مارتل[1]. وكان كارل قد حشدجيشاً ضخماً من الفرنج ومختلف العشائر الجرمانية المتوحشة ، والعصابات المرتزقة فيما وراء الرين ، يمتزج فيه المقاتلة من أمم الشمال كلها ، وجله جند غير نظاميين ، نصف عراة يتشحون بجلود الذئاب ، وتنسدل شعورهم الجعدة ، فوق أكتافهم العارية . وسار زعيم الفرنجة فى هذا الجيش الجرار نحو الجنوب لملاقاة العرب فى حمى الهضاب والربى ، حتى يفاجئ العدو فى مراكزه قبل أن يستكمل الأهبة لرده . وكان الجيش الإسلامى قد اجتاح عندئذ جميع أراضى أكوتين ، التى تقابل اليوم من مقاطعات فرنسا الحديثة جويان وبريجور وسانتونج وبواتو ، وأشرف بعد سيره المظفر على مروج نهر اللوار الجنوبية ، حيثما يلتقى بثلاثة من فروعه هى « الكريز » و « القيين » و « الكلين » .

ومن الصعب أن نعين بالتحقيق ، مكان ذلك اللقاء الحاسم فى تاريخ الشرق والغرب ، والإسلام والنصرانية . ولكن المتفق عليه أنه السهل الواقع بين مدينتى بواتييه وتور ، حول نهرى كلين وقيين فرعى اللوار ، على مقربة من مدينة تور . والرواية الإسلامية مقلة موجزة فى الكلام عن تلك الموقعة العظيمة ، وليس فيما لدينا من المصادر العربية عنها أى تفصيل شامل ، وإنما وردت تفاصيل للرواية الإسلامية عن الموقعة ، نقلها إلينا المؤرخ الإسبانى كوندى سنعود إليها بعد . وتفيض الرواية الفرنجية والكنسية بالعكس فى حوادث الموقعة ، وتقدم إلينا عنها تفاصيل شائقة ، ولكن يحفها الريب وتنقصها الدقة التاريخية . وقد رأينا أن نحاول وصف الموقعة أولا مما لدينا من أقوال الروايتين ، ثم نعود بعد ذلك إلى ذكر كل منهما

انتهى الجيش الإسلامى فى زحفه إلى السهل الممتد بين مدينتى بواتييه وتور كما قدمنا ، واستولى المسلمون على بواتييه ، ونهبوها وأحرقوا كنيستها الشهيرة . ثم هجموا على مدينة تور الواقعة على ضفة اللوار اليسرى ، واستولو عليها وخربوا كنيستها أيضاً . وفى ذلك الحين كان جيش الفرنج قد انتهى إلى اللوار ، دون أن يشعر المسلمون بمقدمه بادئ بدء ، وأخطأت الطلائع الإسلامية تقدير عدده وعدته . فلما أراد عبد الرحمن أن يقتحم اللوار ، لملاقاة العدو على ضفته اليمنى ، فاجأه كارل مارتل بجموعه الجرارة . وألفى عبد الرحمن جيش الفرنج يفوقه فى

---

(١) Dom: Visstte, ibid, V.I. p. 795

الكثرة ، فارتد من ضفاف النهر ثانية إلى السهل الواقع بين تور وبواتييه . وعبر كارل اللوار غربى تور ، وعسكر بجيشه إلى يسار الجيش الإسلامى بأميال قليلة ، بين نهرى كلين وڤين فرعى اللوار .

وكان الجيش الإسلامى فى حال تدعو إلى القلق والتوجس ، فإن الشقاق كان يضطرم بين قبائل البربر التى يتألف منها معظم الجيش ، وكانت تتوق إلى الانسحاب ناجية بغنائمها الكبيرة . وكان المسلمون فى الواقع قد استصفوا ثروات فرنسا الجنوبية أثناء سيرهم المظفر ، ونهبوا جميع كنائسها وأديارها الغنية ، وأثقلوا بما لا يقدر ولا يحصى ، من الذخائر والغنائم والسبى ، فكانت هذه الأثقال النفيسة تحدث الخلل فى صفوفهم ، وتثير بينهم ضروب الخلاف والنزاع . وقدر عبد الرحمن خطر هذه الغنائم على نظام الجيش وأهبته ، وخشى مما تثيره فى نفوس الجند من الحرص والانشغال ، وحاول عبثاً أن يحملهم على ترك شىء منها . ولكنه لم يشدد فى ذلك خيفة التمرد . وكان المسلمون من جهة أخرى ، قد أنهكتهم غزوات أشهر متواصلة ، مذ دخلوا فرنسا ، ونقص عددهم بسبب تخلف حاميات عديدة منهم ، فى كثير من القواعد والمدن المفتوحة . ولكن عبد الرحمن تأهب لقتال العدو وخوض المعركة الحاسمة بعزم وثقة .

وبدأ القتال فى اليوم الثانى عشر أو الثالث عشر من أكتوبر سنة ٧٣٢ م (أواخر شعبان سنة ١١٤ هـ) فنشبت بين الجيشين معارك محلية مدى سبعة أيام أو ثمانية ، احتفظ فيها كل بمراكزه . وفى اليوم التاسع نشبت بينهما معركة عامة ، فاقتتلا بشدة وتعادل ، حتى دخول الليل . واستأنفا القتال فى اليوم التالى ، وأبدى كلاهما منتهى الشجاعة والجلد ، حتى بدا الإعياء على الفرنج ، ولاح النصر فى جانب المسلمين . ولكن حدث عندئذ أن افتتح الفرنج ثغرة إلى معسكر الغنائم الإسلامى ، وخشى عليه من السقوط فى أيديهم ، أو حدث كما تقول الرواية أن ارتفعت صيحة مجهول فى المراكز الإسلامية ، بأن معسكر الغنائم سوف يقع فى يد العدو . فارتدت قوة كبيرة من الفرسان من قلب المعركة إلى ما وراء الصفوف لحماية الغنائم ، وتواثب كثير من الجند للدفاع عن غنائمهم ، فدب الخلل إلى صفوف المسلمين . وعبثاً حاول عبد الرحمن أن يعيد النظام وأن يهدئ روع الجند ، وبينما هو يتنقل أمام الصفوف يقودها ويجمع شتاتها ، إذ أصابه من جانب الأعداء سهم أودى

بحياته ، فسقط قتيلا من فوق جواده ، وعم الذعر والاضطراب فى الجيش الإسلامى ، واشتدت وطأة الفرنج على المسلمين ، وكثر القتل فى صفوفهم . ولكنهم صمدوا للعدو حتى جن الليل ، وافترق الجيشان دون فصل . وكان ذلك فى اليوم الحادى والعشرين من أكتوبر سنة ٧٣٢م (أوائل رمضان سنة ١١٤هـ)[(١)].

وهنا اضطرم الجدل والنزاع بين قادة الجيش الإسلامى ، واختلف الرأى وهاجت الخواطر ، وسرى التوجس والفزع . ورأى الزعماء أن كل أمل فى النصر قد غاض ، فقرروا الانسحاب على الأثر . وفى الحال غادر المسلمون مراكزهم ، وارتدوا فى جوف الليل وتحت جنح الظلام ، جنوباً صوب قواعدهم فى سبتمانيا ، تاركين أثقالهم ومعظم أسلابهم غنماً للعدو . وفى فجر الغد ، لاحظ كارل وحليفه أودو سكون المعسكرات العربية ، فتقدما منها بحذر وإحجام ، فألفياها خاوية خالية إلا من بعض الجرحى الذين لم يستطيعوا مرافقة الجيش المنسحب ، فذبحوا على الأثر . وخشى كارل الخديعة والكمين فاكتفى بانسحاب العدو ، ولم يجرؤ على مطاردته ، وآثر العود بجيشه إلى الشمال .

هذه هى أصدق صورة لحوادث تلك الموقعة الشهيرة ، طبقاً لمختلف الروايات . والآن نورد ما تقوله الرواية الفرنجية الكنسية ثم الرواية الإسلامية .

أما الرواية الفرنجية الكنسية فيشوبها كثير من المبالغة والتحامل والتعصب ، وهى تصف مصائب فرنسا والنصرانية من جراء غزوة العرب ، فى صور مثيرة محزنة ، وتفصل حوادث هذه الغزوة فتقول إحداها : « لما رأى الدوق أودو أن الأمير شارل (كارل) قد هزمه وأذله ، وأنه لا يستطيع الانتقام ، إذا لم يتلق النجدة من إحدى النواحى ، تحالف مع عرب اسبانيا ، ودعاهم إلى معاونته ضد الأمير شارل وضد النصرانية ، وعندئذ خرج العرب وملكهم عبد الرحمن ، من

---

(١) تجمع معظم الروايات الفرنجية والكنسية على أن الموقعة كانت فى أكتوبر سنة ٧٣٢ م . وهذا التاريخ يوافق بالهجرية شعبان سنة ١١٤ . بيد أن الرواية الإسلامية تختلف فى تحديد هذا التاريخ ؛ فالبعض يقول إنها كانت سنة ١١٥ هـ (ابن عبد الحكم ص ٣١٧ ، والضبى فى بغية الملتمس رقم ١٠٢١ ، وابن عذارى فى البيان المغرب ج ١ ص ٣٧ ؛ ولكنه يعود فيذكر أن الموقعة كانت سنة ١١٤ هـ — ج ٢ ص ٢٨ ) . ولكن ابن الأثير (ج ٥ ص ٧٤ ) ، وابن خلدون (ج ٤ ص ١١٩ ) والمقرى عن ابن حيان (ج ١ ص ١٠٩ وج ٢ ص ٥٦ ) متفقون على أنها كانت سنة ١١٤ هـ ؛ ويقول الأخيران إنها كانت فى رمضان سنة ١١٤ هـ ، وهو أصح تعيين يتفق مع الرواية الغربية .

اسبانيا ، مع جميع نسائهم وأولادهم وعددهم وأقواتهم ، فى جموع لا تحصى ولا تقدر ، وحملوا كل ما استطاعوا من الأسلحة والذخائر ، كأنما عولوا على البقاء فى أرض فرنسا ، ثم اخترقوا مقاطعة چيروند ، واقتحموا بوردو ، وقتلوا الناس ، ونهبوا الكنائس ، وخربوا كل البسائط ، وساروا حتى پواتيو... »[١].

وتقول أخرى : « ولما رأى عبد الرحمن أن السهول قد غصت بجموعه ، اقتحم الجبال ، ووطئ السهول بسيطها ووعرها ، وتوغل مثخناً فى بلاد الفرنج ، وسحق بسيفه كل شىء ، حتى أن أودو حينما تقدم لقتاله على نهر الجارون وفر منهزماً أمامه ، لم يكن يعرف عدد القتلى سوى الله وحده ، ثم طارد عبد الرحمن الكونت أودو ، وحينما حاول أن ينهب كنيسة تور المقدسة ويحرقها ، التقى بكارل أمير فرنج أوستراسيا ، وهو رجل حرب منذ فتوته ، وكان أودو قد بادر بإخطاره . وهناك قضى الفريقان أسبوعاً فى التأهب ، واصطفا أخيراً للقتال ، ثم وقفت أمم الشمال كسور منيع ، أو منطقة من الثلج لاتخترق ، وأثخنت فى العرب بحد السيف » .

« ولما أن استطاع أهل أوستراسيا ( الفرنج ) ، بقوة أطرافهم الضخمة ، وبأيديهم الحديدية ، التى ترسل من الصدر تواً ضرباتها القوية ، أن يجهزوا على جموع كبيرة من العدو ، التقوا أخيراً بالملك ( عبد الرحمن ) وقضوا على حياته . ثم دخل الليل ففصل بين الجيشين ، والفرنج يلوحون بسيوفهم عالية احتقاراً للعدو . فلما استيقظوا فى فجر الغد ، ورأوا خيام العرب الكثيرة كلها مصفوفة أمامهم ، تأهبوا للقتال معتقدين أن جموع العدو جاثمة فيها . ولكنهم حينما أرسلوا طلائعهم ، ألفوا جموع المسلمين ، قد فرت صامتة تحت جنح الليل ، مولية شطر بلادها . على أنهم خشوا أن يكون هذا الفرار خديعة يعقبها كمين من جهات أخرى ، فأحاطوا بالمعسكر حذرين دهشين . ولكن الغزاة كانوا قد فروا ، وبعد أن اقتسم الفرنج الغنائم والأسرى فيما بينهم بنظام ، عادوا مغتبطين إلى ديارهم »[٢] .

---

( ١ ) هذه هى رواية القديس دنى **Saint Denis** – ووردت فى موسوعة **Bouquet** . ووردت فى هذه الموسوعة أيضاً أقوال آخرين من الرواة الأحبار .

( ٢ ) هذه هى رواية إيزيدور الباجى وهو معاصر للموقعة . راجع **Creasy : ibid , Ch. VI** و **Hodgkin , Charles the Great ; Ch. III** ، وكذلك **Gibbon : ibid , Ch. LII** نفيها تنقل هذه التفاصيل أو تلخص .

وأما الرواية الإسلامية فهى ضنينة فى هذا الموطن كل الضن كما أسلفنا . ويمر معظم المؤرخين المسلمين على تلك الحوادث العظيمة ، بالصمت أو الإشارة الموجزة كما سنرى . غير أن المؤرخ الإسبانى كوندى يقدم إلينا خلاصة من أقوال ينسبها إلى الرواية الأندلسية المسلمة[١] ، عن غزو فرنسا وعن موقعة تور ؛ ونحن ننقلها مترجمة فيما يلى :

« لما علم الفرنج وسكان بلاد الحدود الإسبانية بمقتل عثمان بن أبى نسعة ، وسمعوا بضخامة الجيش الإسلامى الذى سير إليهم ، استعدوا للدفاع جهدهم ، وكتبوا إلى جيرانهم يلتمسون الغوث . وجمع الكونت وسيد هذه الأنحاء ( يريد أودو ) قواته وسار للقاء العرب ، ووقت بينهم معارك سجال . ولكن النصر كان إلى جانب عبد الرحمن بوجه عام ، فاستولى تباعاً على كل مدن الكونت . وكان جنده قد نفخ فيهم حسن طالعهم المستمر ، فلم يكونوا يرغبون إلا فى خوض المعارك ، واثقين كل الثقة فى شجاعة قائدهم وبراعته .

« وعبر المسلمون نهر الجارون ، وأحرقوا كل المدن الواقعة على ضفافه ، وخربوا جميع الضياع ، وسبوا جموعاً لا تحصى ، وانقض هذا الجيش على البلاد كالعاصفة المخربة فاجتاحها ، وأذكى اضطرام الجند ، نجاح غزواتهم ، واستمرار ظفرهم وما أصابوا من الغنائم .

« ولما عبر عبد الرحمن نهر الجارون اعترضه أمير هذه الأنحاء ، ولكنه هزمه ففر أمامه وامتنع بمدينته . فحاصرها المسلمون ولم يلبثوا أن اقتحموها ، وسحقوا بسيوفهم الماحقة كل شىء . ومات الكونت مدافعاً عن مدينته ، واحتز الغزاة رأسه[٢] . ثم ساروا مثقلين بالغنائم فى طلب انتصارات أخرى ، وارتجت بلاد

( ١ ) لم نقف فى أى المصادر العربية التى بين أيدينا ، على أصل هذه التفاصيل التى يقول كوندى إنه اقتبسها من الرواية العربية ، ولم يذكر هو مصدر اقتباسه . ولعله نقلها عن بعض مخطوطات الإسكوريال أو المجموعات الخاصة وقد فقدت آثارها اليوم ، كما فقدت مخطوطات كثيرة من المجموعة الأندلسية بالإسكوريال . ولعله أيضاً نقل شيئاً منها من شذور لابن حيان وابن بشكوال كانت موجودة فى عصره ولم تصل إلينا . ويلوح لنا أن الحجارى فى كتابه « المسهب » قد تناول هذه الحوادث بالتفصيل حيث نقل المقرى عنه شذرة تفيد ذلك . ( نفح ج ١ ص ١٣٩ ) ، ولعل كوندى وقف على شىء منها . على أننا لم نعثر خلال بحوثنا فى مجموعة الإسكوريال على أثر لمثل هذه المخطوطات أو الأوراق . راجع حديث كوندى عن مصادره : Conde: ibid., V.I. Prologo, p. 20 & 21.

( ٢ ) هذا خطأ بين ، لأن الكونت أودو لم يقتل عندئذ ، بل فر إلى الشمال ، وعاد لقتال عبد الرحمن فى تور كما قدمنا .

الفرنج كلها رعباً لاقتراب جموع المسلمين ، وهرع الفرنج إلى ملكهم قلدوس فى طلب الغوث ، وأخبروه بما يأتيه الفرسان المسلمون من العيث والسفك ، وكأنهم فى كل مكان ، وكيف أنهم احتلوا واجتاحوا كل أقاليم أربونة وتولوشة وبردال(١) وقتلوا الكونت . فهدأ الملك روعهم ووعدهم بالغوث العاجل . وفى سنة ١١٤ هـ سار على رأس جموع لاتحصى للقاء المسلمين . وكان المسلمون قد اقتربوا عندئذ من مدينة تور ، وهنالك علم عبد الرحمن بأمر الجيش العظيم الذى سيلتى . وكان جيشه قد دب إليه الخلل ، لأنه كان مثقلا بالغنائم من كل ضرب . ورأى عبد الرحمن وأولوا الحزم من زملائه ، أن يحملوا الجند على ترك هذه الأثقال ، والاقتصار على أسلحتهم وخيولهم ، ولكنهم خشوا التمرد أو أن يثبطوا عزائم الجند ، واستسلموا لرأى الواثقين المستهترين . واعتمد عبد الرحمن على شجاعة جنده ، وحسن طالعه المستمر . ولكن الاضطراب خطر خالد على سلامة الجيوش . نعم إن الجند يحملهم ظمأ الغنم ، قد أتوا جهوداً لم يسمع بها ، فطوقوا مدينة تور ، وقاتلوا حصونها بشدة رائعة ، حتى سقطت فى أيديهم أمام أعين الجيش القادم لإنقاذها ، وانقض المسلمون على أهلها كالضوارى المفترسة ، وأمعنوا القتل فيهم . قالوا ، ولعل الله أراد أن يعاقب المسلمين على تلك الآثام . وكان طالعهم قد ولى .

« وعلى ضفاف نهر « الأوار » ( اللوار ) اصطف رجال اللغتين ، والتقى المسلمون والنصارى ، وكلاهما جزع من الآخر . وكان عبد الرحمن ثقة منه بظفره المستمر ، هو البادئ بالهجوم ، فانقض بفرسانه على الفرنج بشدة ، وقابله الفرنج بالمثل . ودامت المعركة ذريعة مروعة طوال اليوم حتى جن الليل . وفرق بين الجيشين . وفى اليوم التالى استؤنف القتال منذ الفجر بشدة ، وشق بعض مقدمى المسلمين طريقهم إلى صفوف العدو وتوغلوا فيها . ولكن عبد الرحمن لاحظ والمعركة فى أوج اضطرامها ، أن جماعة كبيرة من فرسانه ، غادرت الميدان بسرعة لحماية الغنائم المكدسة فى المعسكر العربى ، لأن العدو أخذ يهددها . فأحدثت هذه الحركة خللا فى صفوف المسلمين ، وخشى عبد الرحمن عاقبة هذا الاضطراب ، فأخذ يثب من صف إلى صف يحث جنوده على القتال ، ولكنه ما لبث أن أدرك أنه يستحيل عليه ضبطهم ، فارتد يحارب مع أشجع جنده حيثما استقرت المعركة ،

(١) مدينة بوردو .

حتى سقط قتيلا مع جواده وقد أثخن طعاناً . وهنا ساد الخلل فى الجيش الإسلامى وارتد المسلمون فى كل ناحية ، ولم يعاونهم على الانسحاب من تلك المعركة الهائلة سوى دخول الليل .

« وانتهز النصارى هذه الفرصة فطاردوا الجنود المنهزمة أياماً عديدة ، واضطر المسلمون أثناء انسحابهم أن يحتملوا عدة هجمات ، واستمر الصراع بين مناظر مروعة حتى أربونة .

« وقد وقعت هذه الهزيمة الفادحة بالمسلمين ، وقتل قائدهم الشهير عبد الرحمن سنة ١١٥ هـ . ثم أن ملك فرنسا حاصر مدينة أربونة ، ولكن المسلمين دافعوا عنها بشجاعة فائقة ، حتى أرغم على رفع الحصار ، وارتد إلى داخل بلاده وقد أصابته خسائر كبيرة »(١) .

وأورد المؤرخ كاردون من جهة أخرى فى كلامه عن الموقعة ، فقرة ذكر أنه نقلها عن ابن خلكان جاء فيها : « لما استولى العرب على قرقشونة خشى قارله ( كارل ) أن يتوغلوا فى الفتح ، فسار لقتالهم فى الأرض الكبيرة ( فرنسا ) فى جيش ضخم ، وعلم العرب بقدومه وهم فى لوذون (ليون) وأن جيشه يفوقهم بكثرة ، فعولوا على الارتداد . وسار قارله حتى سهل أنيسون دون أن يلقى أحداً إذ احتجب العرب وراء الجبال وامتنعوا بها ، فطوق هذه الجبال دون أن يدرى العرب ، ثم قاتلهم حتى هلك عدد عظيم منهم ، وفر الباقون إلى أربونة . فحاصر قارلة أربونة مدة ، ولم يستطيع فتحها فارتد إلى أراضيه ، وأنشأ قلعة وادى رذونة ( الرون ) ، ووضع فيها حامية قوية لتكون حداً بينه وبين العرب »(٢) .

ونعود بعد ذلك إلى الرواية الإسلامية فنقول إن المؤرخين المسلمين يمرون على حوادث هذه الموقعة الشهيرة إما بالصمت أو الإشارة الموجزة . ويجب أن نذكر بادىء بدء أن موقعة تور ، تعرف فى التاريخ الإسلامى بواقعة البلاط أو بلاط

---

(١) Conde : ibid , Vol. I, p. 86-88

(٢) راجع : Cardonne : ibid, V.I. p.129-131 . وقد بحثنا طويلا فى كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان فى مظان وجود هذه التفاصيل فلم نعثر بها . ولعل كاردون وقد كتب فى أواسط القرن الثامن عشر ، واستعان بمخطوطات عربية فى المكتبة الملكية فى باريس ، قد نقل عن نسخة لابن خلكان فيها زيادات عن النسخة التى بين أيدينا . ولسنا نعلم من جهة أخرى أن لابن خلكان مؤلفاً تاريخياً آخر يمكن أن يحتوى مثل هذه التفاصيل .

الشهداء ، لكثرة من استشهد فيها من أكابر المسلمين والتابعين . وفى هذه التسمية ذاتها ، وفى تحفظ الرواية الإسلامية ، وفى لهجة العبارات القليلة التى ذكرت بها الموقعة ، ما يدل على أن المؤرخين المسلمين ، يقدرون خطورة هذا اللقاء الحاسم بين الإسلام والنصرانية ، ويقدرون فداحة الخطب الذى نزل بالإسلام فى سهول تور . ويدل على لون الموقعة الدينى ما تردده الأسطورة الإسلامية ، من أن الأذان لبث عصوراً طويلة يسمع فى بلاط الشهداء(١) . ونستطيع أن نحمل تحفظ المؤرخين المسلمين فى هذا المقام ، على أنهم لم يروا أن يبسطوا القول فى مصاب جلل نزل بالإسلام ، ولا أن يفيضوا فى تفاصيله المؤلمة ، فاكتفوا بالإشارة الموجزة ، ولم يكن ثمة مجال للتعليق أيضاً ، ولا التحدث عن نتائج خطب ، لاريب أنه كان ضربة للإسلام ولمطامع الخلافة ومشاريعها . وإذا استثنينا بعض الروايات الأندلسية التى كتبت عن الموقعة فى عصر متأخر ، والتى نقلناها فيما تقدم ، فإن المؤرخين المسلمين يتفقون جميعاً فى هذا الصمت والتحفظ . وهذه طائفة من أقوالهم وإشاراتهم الموجزة :

قال ابن عبد الحكم ، وهو من أقدم رواة الفتوح الإسلامية وأقرب من كتب عن فتوح الأندلس ما يأتى : « وكان عبيدة ( يريد والى إفريقية ) قد ولى عبد الرحمن بن عبد الله العكى على الأندلس ، وكان رجلا صالحاً فغزا عبد الرحمن إفرنجة ، وهم أقاصى عدو الأندلس ، فغنم غنائم كثيرة وظفر بهم . . . ثم خرج إليهم غازياً فاستشهد وعامة أصحابه ، وكان قتله فيما حدثنا يحيى عن الليث فى سنة خمسة عشر ومائة »(٢). ولم يذكر الواقدى والبلاذرى والطبرى وهم أيضاً من أقدم رواة الفتوح شيئاً عن الموقعة . وقال ابن الأثير فى حوادث سنة ثلاث عشرة ومائة مردداً لرواية ابن عبد الحكم . « ثم إن عبيدة استعمل على الأندلس عبد الرحمن ابن عبد الله ، فغزا إفرنجة وتوغل فى أرضهم وغنم غنائم كثيرة . ثم خرج غازياً ببلاد الفرنج فى هذه السنة ( أعنى ١١٣ هـ ) ، وقيل سنة أربع عشرة ومائة وهو الصحيح ، فقتل هو ومن معه شهداء »(٣). وينسب ابن خلدون الموقعة خطأ لابن الحبحاب والى مصر وإفريقية فيقول : « وقدم بعده ( أى بعد الهيثم ) محمد

(١) المقرى عن ابن حيان ( نفح الطيب ج ٢ ص ٥٦ ) .
(٢) فتوح مصر وأخبارها ص ٢١٦ ٢١٧ .
(٣) ابن الأثير ج ٥ ص ٦٤ .

ابن عبد الله بن الحبحاب صاحب إفريقية فدخلها ( أى الأندلس ) سنة ثلاث عشرة ، وغزا إفرنجة وكانت له فيهم وقائع ، وأصيب عسكره فى رمضان سنة أربع عشرة فولى سنتين »(١). ولدينا من الرواية الأندلسية ما قاله صاحب « أخبار مجموعة » عند ذكر ولاة الأندلس وهو : « ثم ( أى وليها ) عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى ، وعلى يده استشهد أهل البلاط الشهداء ، واستشهد معهم واليهم عبد الرحمن »(٢). ونقل الضبى فى ترجمة عبد الرحمن ما ذكر ابن عبد الحكم عن الموقعة(٣). وقال الحميدى وهو من مؤرخى الأندلس فى حديثه عن عبد الرحمن : « وعبد الرحمن الغافقى هذا من التابعين ... استشهد فى قتال الروم بالأندلس سنة خمس عشرة ومائة »(٤). وقال ابن عذارى المراكشى : « ثم ولى الأندلس عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى ، فغزا الروم واستشهد مع جماعة من عسكره سنة ١١٥ ، بموضع يعرف ببلاط الشهداء »(٥) وقال فى موضع آخر : « ثم ولى الأندلس عبد الرحمن هذا ( أى الغافقى ) ثانية وكان جلوسه لها فى صفر سنة ١١٢ فأقام والياً سنتين وسبعة أشهر وقيل وثمانية أشهر ، واستشهد فى أرض العدو فى رمضان سنة ١١٤ »(٦). وقال المقرى فيما نقل : « ثم قدم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى من قبل عبيد الله بن الحبحاب صاحب إفريقية ، فدخلها ( أى الأندلس ) سنة ثلاث عشرة ، وغزا الإفرنجة وكانت له فيهم وقائع ، وأصيب عسكره فى رمضان سنة أربع عشرة فى موضع يعرف ببلاط الشهداء وبه عرفت الغزوة »(٧). ونقل فى موضع آخر : « وذكر أنه قتل ( والإشارة هنا خطأ إلى السمح بن مالك ) فى الواقعة المشهورة عند أهل الأندلس بوقعة البلاط ، وكانت جنود الإفرنجة قد تكاثرت عليه ، فأحاطت بالمسلمين فلم ينج من المسلمين أحد . قال ابن حيان ،

---

( ١ ) ابن خلدون ج ٤ ص ١١٩ ، وفى نسبته الموقعة لمحمد بن الحبحاب خطأ بين لأن ابن الحبحاب كان عامل مصر ، ولم يندب لولاية إفريقية سوى سنة ست عشرة ومائة . ولم يل هو أو ولده الأندلس قط ( راجع ابن عبد الحكم ص ٢١٧ ) .

( ٢ ) أخبار مجموعة فى فتح الأندلس ص ٢٥ .

( ٣ ) بغية الملتمس رقم ١٠٢٤ .

( ٤ ) جذوة المقتبس ( طبع القاهرة ) ص ٢٥٦ .

( ٥ ) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٧ .

( ٦ ) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٨ .

( ٧ ) نفح الطيب ج ١ ص ١٠٩ .

فيقال إن الأذان يسمع بذلك الموضع إلى الآن » . ونقل عن ابن حيان : « قال دخل الأندلس ( أى عبد الرحمن ) حين وليها ولايته الثانية من قبل ابن الحبحاب فى صفر سنة ثلاث عشرة ومائة ، وغزا الإفرنج فكانت له فيهم وقائع جمة إلى أن استشهد ، وأصيب عسكره فى موضع يعرف ببلاط الشهداء . قال ابن بشكوال وتعرف غزوته هذه بغزوة البلاط »(١) .

هذه الفقرات والإشارات الموجزة ، التى تكاد تتفق جميعاً فى اللفظ والمعنى ، هى ما ارتضت الرواية الإسلامية أن تقدمه إلينا فى هذا المقام ، وإن كان فى تحفظها ذاته ما ينم عن تقديرها لرهبة الحادث وخطورته وبعد آثاره . وإذا كان صمت الرواية الإسلامية تمليه فداحة الخطب الذى أصاب الإسلام فى سهول تور ، فإن الرواية النصرانية تفيض بالعكس فى تفاصيل الموقعة إفاضة واضحة ، وتشيد بظفر النصرانية ونجاتها من الخطر الإسلامى ، وترفع بطولة كارل مارتل إلى السماكين . وتذهب الرواية النصرانية ، ومعظم كتابها من الأحبار المعاصرين ، فى تصوير نكبة المسلمين إلى حد الإغراق ، فتزعم أن القتلى من المسلمين فى الموقعة بلغوا ثلاثمائة وخمسة وسبعين ألفاً ، فى حين أنه لم يقتل من الفرنج سوى ألف وخمسمائة . ومنشأ هذه الرواية رسالة أرسلها الدوق أودو إلى البابا جريجورى الثانى ، يصف فيها حوادث الموقعة وينسب النصر لنفسه ، فنقلتها التواريخ النصرانية المعاصرة واللاحقة ، كأنها حقيقة يستطيع العقل أن يسيغها . بيد أنها ليست سوى محض خرافة ، فإن الجيش الإسلامى كله ، لم يبلغ حين دخوله فرنسا على أقصى تقدير ، أكثر من مائة ألف(٢). والجيش الإسلامى لم يهزم فى تور ولم يسحق ، بالمعنى الذى تفهم به الهزيمة الساحقة ، ولكنه ارتد من تلقاء نفسه بعد أن لبث طوال المعركة الفاصلة ، يقاتل حتى المساء محتفظاً بمراكزه أمام العدو ، ولم يرتد أثناء القتال ولم يهزم . ومن المستحيل أن يصل القتل الذريع فى جيش يحافظ على ثباته ومواقعه ، إلى هذه النسبة الخيالية . ومن المعقول أن تكون خسائر المسلمين فادحة فى مثل هذه المعارك الهائلة ، وهذا ما تسلم به الرواية الإسلامية . ولكن مثل هذه

---

( ١ ) نفح الطيب ج ٢ ص ٥٦ .

( ٢ ) وهذا التقدير يأخذ به بعض المؤرخين الغربيين أيضاً ، مثال ذلك المؤرخ الفرنسى **Mezeral** . راجع التعليقات فى موسوعة **Bayle** ، تحت كلمة **Abderame** .

الخسائر لا يمكن أن تعدو بضع عشرات الألوف فى جيش لم يزد على مائة ألف . وأسطع دليل على ذلك هو حذر الفرنج وإحجامهم عن مطاردة العرب عقب الموقعة ، وتوجسهم أن يكون انسحاب العرب خديعة حربية ، فلو أن الجيش الإسلامى انتهى إلى أنقاض ممزقة ، لبادر الفرنج بمطاردته والإجهاز عليه . ولكنه كان مايزال من القوة والكثرة إلى حد يخيف العدو ويرده[1] . على أن خسارة المسلمين كانت بالأخص فادحة فى نوعها ، تتمثل فى مقتل عبد الرحمن وجمع كبير من زعماء الجيش وقادته . بل كان مقتل عبد الرحمن أفدح ما فى هذه الخسارة ، فقد كان خير ولاة الأندلس ، وكان أعظم قائد عرفه الإسلام فى الغرب ، وكان الرجل الوحيد الذى استطاع بهيبته وقوة خلاله ، أن يجمع كلمة الإسلام فى اسبانيا ، فكان لمقتله فى هذا المأزق العصيب ، ضربة شديدة لمثل الإسلام ومشاريع الخلافة فى افتتاح الغرب[2].

ويعلق النقد الحديث على هذا اللقاء بين الإسلام والنصرانية أهمية كبرى ، وينوه بخطورة آثاره وبعد مداها فى تغيير مصاير النصرانية وأمم الغرب ، ومن ثم فى تغيير تاريخ العالم كله . وإليك طائفة مما يقوله أكبر مؤرخى الغرب ومفكريه فى هذا المقام :

قال إدوارد جيبون ، إن حوادث هذه الموقعة « أنقذت آباءنا البريطانيين وجيراننا الغاليين ( الفرنسيين ) من نير القرآن المدنى والدينى ، وحفظت جلال رومة ، وأخرت استعباد قسطنطينيه ، وشدت بأزر النصرانية ، وأوقعت بأعدائها بذور التفرق والفشل »[3]. ويعتبر المؤرخ أرنولد الموقعة « إحدى هاته المواقف

---

( ١ ) قال ادوار جيبون تعليقاً على مزاعم الرواية الفرنجية « ولكن تلك القصة الخرافية يمكن ردها بحذر القائد الفرنسى ( كارل مارتل ) إذ توجس من شراك المطاردة ومفاجآتها ورد حلفاءه الألمان إلى أوطانهم . ان سكون الفاتح ينم عن فقد الدماء والقوة ، وأن أشنع تمزيق للعدو لا يقع حين التحام الصفوف ، وإنما حين الانسحاب وتولية الأدبار » .

( ٢ ) راجع موسوعة **Bayle** تحت كلمة **Abderame** ، ففيها أيضاً إنكار للرواية الفرنجية عن خسائر العرب . وفى هذه الموسوعة تعليقات وملاحظات مفيدة لطائفة من المؤرخين الفرنسيين تجمع كلها على التنديد بمبالغة الرواية الفرنجية . وراجع أيضاً **Dom Vissette : ibid , V.I. p. 797** حيث يدحض مزاعم الروايات النصرانية .

( ٣ ) **Roman Empire - Ch. LII.**

الرهيبة لنجاة الإنسانية وضمان سعادتها مدى قرون »[1] . ويقول السير إدوار كريزى : « إن النصر العظيم الذى ناله كارل مارتل على العرب سنة ٧٣٢ وضع حداً حاسماً لفتوح العرب فى غرب أوربا ، وأنقذ النصرانية من الإسلام ، وحفظ بقايا الحضارة القديمة ، وبذور الحضارة الحديثة ، ورد التفوق القديم للأمم الهندية الأوربية على الأمم السامية »[2]. ويقول فون شليجل فى كلامه عن الإسلام والإمبراطورية العربية : « ما كاد العرب يتمون فتح إسبانيا حتى تطلعوا إلى فتح غاليا وبرجونية . ولكن النصر الساحق الذى غنمه بطل الفرنج كارل مارتل بين تور وبواتييه وضع لتقدمهم حداً ، وسقط قائدهم عبد الرحمن فى الميدان مع زهرة جنده . وبذا أنقذ كارل مارتل بسيفه أمم الغرب النصرانية من قبضة الإسلام الفتاكة ، الهدامة إلى الذروة »[3] ، ويقول رانكه : « إن فاتحة القرن الثامن من أهم عصور التاريخ ، ففيها كان دين محمد ينذر بامتلاك إيطاليا وغاليا ، وقد وثبت الوثنية كرة أخرى إلى ما وراء الرين . فنهض إزاء ذلك الخطر فتى من عشيرة جرمانية هو كارل مارتل ، وأيد هيبة النظم النصرانية المشرفة على الفناء ، بكل ما تقتضيه غريزة البقاء من عزم ، ودفعها إلى بلاد جديدة »[4] . ويقول زيلر : « كان هذا الانتصار بالأخص انتصار الفرنج والنصرانية . وقد عاون هذا النصر زعيم الفرنج على توطيد سلطانه ، لا فى غاليا وحدها ولكن فى جرمانيا التى أشركها فى نصره »[5]. على أن هناك فريقاً من مؤرخى الغرب لا يذهب إلى هذا الحد فى تقدير نتائج الموقعة وآثارها . ومن هذا الفريق المؤرخان الكبيران سسموندى وميشليه ، فهما لا يعلقان كبير أهمية على ظفر كارل مارتل . ويقول جورج فنلى : « إن أثرة الكتاب الغاليين قد عظمت من شأن تغلب كارل مارتل على حملة ناهبة من عرب اسبانيا ، وصورته كانتصار باهر ، ونسبت خلاص أوربا من نير العرب إلى شجاعة الفرنج ، فى حين أن حجاباً ألقى على عبقرية ليون الثالث ( إمبراطور قسطنطينية ) وعزمه ، مع أنه نشأ جندياً يبحث وراء طالعه ، ولم يكد يجلس على

---

(١) History of the Roman Commonwealth

(٢) Decisive Battles of the World

(٣) Philosophie der Geschichte

(٤) History of the Reformation

(٥) Histoire de L'Allemagne

العرش حتى أحبط خطط الفتح ، التى أنفق الوليد وسليمان طويلا فى تدبيرها »[1]

ونحن مع الفريق الأول نكبر شأن بلاط الشهداء أيما إكبار ، ونرى أنها كانت أعظم لقاء بين الإسلام والنصرانية ، وبين الشرق والغرب ، ففى سهول تور وبواتييه فقد العرب سيادة العالم بأسره ، وتغيرت مصائر العالم القديم كله ، وارتد تيار الفتح الإسلامى أمام الأمم الشمالية ، كما ارتد قبل ذلك بأعوام أمام أسوار قسطنطينية ، وأخفقت بذلك آخر محاولة بذلتها الخلافة لافتتاح أمم الغرب ، واخضاع النصرانية لصولة الإسلام . ولم تتح للإسلام المتحد فرصة أخرى ، لينفذ إلى قلب أوربا فى مثل كثرته وعزمه واعتزازه ، يوم مسيره إلى بلاط الشهداء . ولكنه أصيب غير بعيد بتفرق الكلمة ، وبينما شغلت إسبانيا المسلمة بمنازعاتها الداخلية ، إذ قامت فيما وراء البرنيه إمبراطورية فرنجية عظيمة موحدة الكلمة ، تهدد الإسلام فى الغرب وتنازعه السيادة والنفوذ .

---

(١) Byzantine Empire

# الفصل السابع

## الأندلس بين المد والجزر

صدى بلاط الشهداء . اهتمام الخلافة بحوادث الأندلس . تعيين عبد الملك بن قطن والياً للأندلس . مسير ابن قطن إلى الشمال . محاربته للثوار فى الثغر الأعلى وبسكونية . غزوه لأكوتين . هزيمته أثناء العودة . صرامته وعزله . ولاية عقبة بن الحجاج . حزم عقبة وإصلاحاته . غزوه لجليقية . تحصينه لقواعد الثغر . غزواته فى غاليس . حوادث أكوتين . عبد الرحمن اللخمى فارس الأندلس يغزو آرل . تحالف مورنتوس دوق بروڤانس مع العرب . غزو القوات المتحدة لبرجونية . مهاجمة الفرنج لافنيون واستيلاؤهم عليها . حصار كارل مارتل لأربونة . موقعة بين العرب والفرنج . هزيمة العرب . رفع الحصار عن أربونة . استيلاء كارل على مدن سبتمانيا وتخريبها . عوده إلى الشمال . مسير عقبة إلى سبتمانيا . استرداده لآرل . غزو الفرنج واللومبارد لبروڤانس . قدوم كارل مارتل . ارتداد المسلمين . هزيمة مورنتوس وتمزيق قواته . مهاجمة البشكنس لعقبة حين عبوره الجبال . وفاة عقبة . ولاية عبد الملك ابن قطن الثانية . حوادث إفريقية . سخط البربر على العرب . ذيوع الدعوة الخارجية بين البربر . موقف البربر فى اسبانيا . أقوال ابن خلدون فى ذلك . أقوال دوزى . اضطرام البربر بعوامل الثورة . إخماد الثورة فى المغرب الأقصى . ولاية إسماعيل بن عبيد الله للمغرب . عودة الثورة بزعامة ميسرة المدغرى . استيلاء الثوار على طنجة . الحرب بين العرب والبربر . مصرع ميسرة . موقعة الأشراف . ولاية كلثوم بن عياض لإفريقية . الخلاف بين زعماء العرب . مسير كلثوم إلى المغرب . استئناف الحرب بين العرب والبربر . هزيمة العرب ومقتل كلثوم . امتناع الشاميين بسبتة . ولاية حنظلة بن صفوان لإفريقية . الثورة فى إفريقية الوسطى . قتال حنظلة للثوار . هزيمة البربر ومصرع زعمائهم .

كان للخطب الجلل الذى أصاب الإسلام فى بلاط الشهداء وقع عظيم فى بلاط دمشق . وفى جميع أرجاء العالم الإسلامى ، وكان ارتداد الإسلام أمام أسوار قسطنطينية قد وقع للمرة الثانية قبل ذلك بأربعة عشر عاماً فقط ، فكانت نكبة البلاط تتمة الفشل المؤلم ، الذى أصاب مشاريع الخلافة فى افتتاح أمم الغرب . على أنها لم تكن خاتمة الفتوح الإسلامية فى فرنسا .

وأثار هذا الخطب فى نفس هشام بن عبد الملك . أيما اهتمام بشئون الأندلس ومصير الإسلام فى الغرب ، فاختار عبد الملك بن قطن الفهرى والياً للأندلس ، وأمره أن يعمل على حماية شبه الجزيرة ، وتوطيد هيبة الإسلام فى تلك الأقطار

النائية . فعبر عبد الملك إلى اسبانيا ، فى جيش منتخب من جند إفريقية ، فى أواخر سنة ١١٤ هـ[١]. وكان ثوار المقاطعات الشمالية قد انتهزوا فرصة مقتل عبد الرحمن وانحلال جيشه ، وحاولوا أن ينزعوا عنهم نير الإسلام ، فسار عبد الملك إلى الثغر الأعلى (أراجون) وهزم الثوار فى عدة مواقع . ثم عبر البرنيه إلى بسكونية ( بلاد البشكنس)[٢]سنة ١١٥ هـ ( ٧٣٣ م ) ، وكانت دائماً أشد المقاطعات الجبلية مراساً ، وأكثرها خروجاً وانتقاضاً ، فعاث فيها وشتت جندها وألجأهم إلى طلب الصلح[٣] . ثم سار إلى لانجدوك ، وكان الفرنج منذ موقعة البلاط ، يتطلعون إلى استردادها ، ويكثرون من الإغارة عليها ، فنظم حامياتها ، وحصن قواعدها . ثم أغار على أراضى أكوتين وعاث فيها ، فاعترضه الدوق أودووردو ، ولم يخاطر عبد الملك بالتوغل فى أرض الفرنج لصغر جيشه ، فارتد إلى الجنوب ، ولكنه أثناء عبوره جبال البرنيه ، هاجمته العصابات الجبلية البسكونية ، وأصابته فى قتالها خسارة كبيرة ، فعاد إلى قرطبة دون أن يتمكن من إخضاعها .

ولم يطل عهد عبد الملك بعد عوده ، فقد كان صارماً ، شديد الوطأة ، كثير الظلم والبطش[٤]. فسخط عليه الزعماء وأولو الرأى ، ودب الخلاف بين القبائل ، وبدت بوادر الفتنة . هذا إلى أنه لم يوفق إلى إخماد الثورة فى الولايات الشمالية ، وتوطيد سلطان الإسلام فيها ، فعزل فى رمضان سنة ١١٦ لسنتين من ولايته . واختار عبيد الله بن الحبحاب عامل إفريقية ، مكانه لولاية الأندلس ، عقبة بن الحجاج السلولى . فدخلها فى شوال سنة ١١٦ ( أواخر سنة ٧٣٤ م ) . وكان عقبة من طراز عبد الرحمن الغافقى جندياً عظيماً ، نافذ العزم والهيبة ، محمود الخلال والسيرة ، كثير العدل والتقوى[٥] ، فأقام النظام والعدل ، ورد المظالم ، وقمع الرشوة

---

( ١ ) المقرى ج ٢ ص ٥٨ ، ابن الأثير ج ٥ ص ٦٤ . ولكن ابن عبد الحكم يقول إن ولاية ابن قطن كانت سنة ١١٥هـ (ص٢١٧) . وهذا يرجع إلى أنه يقول كما قدمنا بوقوع بلاط الشهداء سنة ١١٥ .

( ٢ ) بسكونية أو بسكونس أو بلاد البشكنس بالعربية هى **Vasconia** القديمة ، وقد كانت تشمل الرقعة الممتدة فى غرب البرنيه بحذاء الشاطىء إلى شرق الأستورياس ، وكانت أهم أجزائها فى ذلك العصر ولاية نافار التى يسميها العرب أحياناً نبره ، وكانت عندئذ إمارة مستقلة يحكمها على الأرجح زعيم أو أمير قوطى ، وتشمل من مقاطعات اسبانيا الحديثة نافار وبسكاية **Vizcaya**

( ٣ ) المقرى ج ٢ ص ٥٨ .

( ٤ ) المقرى ج ١ ص ١١٠ ؛ وعن ابن بشكوال ج ٢ ص ٥٨ .

( ٥ ) المقرى ج ٢ ص ٥٨ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٨ .

والاختلاس ، وعزل الحكام الظلمة وألقاهم فى غيابة السجن ، وأقام مكانهم جماعة من ذوى الحزم والنزاهة ، وأنشأ كثيراً من المدارس والمساجد . فاستقرت الأحوال وخبت الفتنة ، وتراضت القبائل . واعتزم عقبة فى الوقت نفسه أن يعيد عهد الجهاد والفتوح العظيمة ، وأن يوطد سلطان الإسلام فى الولايات الشمالية ، وفى غاليس ( فرنسا ) . فنظم الجيش وزاد فى قواته وأهبته ، وغزا جليقية وتوغل فيها ، واستولى على كثير من مواقعها ، ولكنه لم يستطع أن يسحق بقية النصارى التى اجتمعت حول الزعيم القوطى بلاى (أوبلايو) ، وما زالت معتصمة بأقاصى الجبال فى شعب عرفت لمنعتها « بالصخرة » ، متحدية كل أمير وقائد مسلم[١] . وحصن عقبة جميع المواقع الإسلامية على ضفاف نهر الرون ، واتخذ ثغر أربونة قاعدة للجهاد والغزو ، فحصنها وبعث إليها بالجند والمؤن والذخائر . وتقول الرواية الإسلامية إن عقبة لبث طوال حكمه الذى امتد خمسة أعوام مثابراً على الجهاد والغزو ، وأنه كان يخرج للغزو كل عام ، حتى عاد نهر الرون رباط المسلمين أو معقل فتوحاتهم[٢] ، بعد أن كان الفرنج قد استردوا ما بيد المسلمين فى تلك الأنحاء . ولا تفصل الرواية الإسلامية حوادث هذه الغزوات ، ولكن الروايات الفرنجية المعاصرة تلقى عليها شيئاً من الضياء ، وإليك ملخص الغزوات الإسلامية فى غاليس فى تلك الفترة حسبما تقصه علينا تلك الروايات :

رأى الفرنج على أثر ما أصاب المسلمين فى بلاط الشهداء ، أن الفرصة قد سنحت لإخراجهم من فرنسا . ولكن كارل مارتل شغل حيناً بمحاربة القبائل الوثنية فيما وراء الرين ، فى فريزيا وسكسونية ، وشغل أودو برد العرب حينما غزوا أكوتين مرة أخرى بقيادة ابن قطن . ثم توفى أودو فى العام التالى ( سنة ٧٣٥م ) ، وتخلص كارل مارتل بذلك من منافسه القوى ، وبادر إلى غزو أكوتين ودخل بوردو عاصمتها ، وأقام هونالد ولد أودو دوقاً مكان أبيه ، على أن تكون أكوتين تابعة للمملكة الفرنجية . وفى تلك الأثناء ولى الأندلس عقبة بن الحجاج ، وأخذ ينظم الأهبة لاسترداد الثغور الإسلامية الشمالية . وفى سنة ٧٣٥م ( ١١٧ هـ ) غزا العرب مدينة آرل للمرة الثانية ، بقيادة عبد الرحمن بن علقمة اللخمى والى

---

( ١ ) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩ .

( ٢ ) المقرى ج ٢ ص ٥٨ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٩ .

أربونة ، الموصوف بأنه « فارس الأندلس فى عصره » تنويهاً بشجاعته النائقة[١] واستولوا عليها . وكانت الولايات المجاورة لسبتمانيا الواقعة حول ضفاف الرون ، وكلها مزيج من القوط والبرجونيين ، تنزع إلى الخروج على كارل مارتل ، وتحاول التخلص من نير الفرنج ، وكان الدوق مورنتوس أو مورنت أمير بروڤانس أقوى زعماء هذه المنطقة . يحكم ما بين نهر الرون وجبال الألب ، ويسعى إلى توطيد استقلاله . وتوسيع ملكه على نحو ما كان يفعل أودو فى أكوتين ، فاتصل بالعرب وتحالف معهم . وفى سنة ٧٣٦ م عبر الدوق وعبد الرحمن اللخمى الرون فى جيش مشترك ، واستوليا على مدينة أڤنيون رغم حصانتها[٢] . واخترق العرب بعد ذلك إقليم دوفينه ، واستولوا على أوسيز وڤڤييه وڤالانس وڤيين وليون وغيرها ، وغزوا برجونية وحصلوا على غنائم لا تحصى[٣] . وعلم كارل مارتل بذلك أثناء انشغاله بالحرب فى سكسونية ، فبعث أخاه شلدبراند فى جيش ضخم ليصد العرب . ثم لحق به جيش آخر ، وزحف الفرنج على أڤنيون فى كثرة وهاجموها بشدة حتى سقطت فى أيديهم ، وقتلوا حاميتها المسلمة ، وتحصن العرب فى أربونة ، فسار إليها كارل مارتل ، وحاصرها فقاومه المسلمون أشد مقاومة . وردوا كل هجماته . وأرسل عقبة فى الحال جيشاً لإنقاذ المدينة ، فقصدها من جهة البحر . وجاز إلى الشاطئ قبل أن يشعر به الفرنج حتى صار على مقربة من أربونة . فلما علم كارل بمقدم هذا الجيش الجديد ، بادر إلى لقائه ونشبت بينه وبين العرب موقعة هائلة ، فيما بين البحر وأربونة ، هزم فيها العرب هزيمة شديدة ، وطاردهم الفرنج حتى الشاطئ ، فلم ينج منهم سوى شراذم قليلة لجأت إلى السفن ، وذلك فى ربيع سنة ٧٣٧م (١١٩هـ) . ومع ذلك فلم تسلّم أربونة ولم يهن عزمها . فاضطر عندئذ كارل مارتل إلى رفع الحصار عنها ، وارتد إلى مهاجمة المواقع الإسلامية الأخرى ، فاستولى على بزييه وأجده وماجلونة وخرب قلاعها ومعاهدها ، وأحرق نيمة وآثارها الرومانية الفخمة ، فغدت جميعاً أطلالا دارسة ، بعد أن كانت أيام المسلمين زاهرة باسمة . وحول السهل الواقع غرب سبتمانيا وشمالها إلى قفر بلقع ليحول دون تقدم المسلمين . وهنا وصلته الأنباء بوفاة تيودريك الرابع

---

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ٥٩ و ٦٢ .

(٢) وهى فى الرواية العربية « صخرة أبنيون » ( راجع نفح الطيب ج ١ ص ١٢٨ ) .

(٣) Dom Vissette : ibid. V.I. p. 803

ملك الفرنج الميروفنجي (سبتمبر سنة ٧٣٧) ، فارتد مسرعاً إلى عاصمة ملكه ليتقي تدابير خصومه ، ولم يقم ملكاً جديداً على العرش رغم وجود أعضاء من الأسرة الميروفنجية ، بل آثر أن يترك العرش خالياً ، حتى تمهد الظروف له أو لبنيه اعتلاءه ، وتتويج سلطان محافظ القصر الفعلي بألقاب الملك .

وفي ذلك الحين كان عقبة بن الحجاج يتأهب لاستئناف الغزو ، واسترداد ما انتزعه كارل مارتل من قواعد سبتمانيا . ففي ربيع سنة ٧٣٨ م ( ١٢٠ هـ ) عبر عقبة جبال البرنيه في جيش ضخم ونفذ إلى سبتمانيا ، وعبر الرون واسترد مدينة آرل للمرة الثالثة أو الرابعة . ثم استولى بمعاونة الدوق مورنتوس على أفنيون وعدة معاقل أخرى في بروفانس . وكان كارل في ذلك الحين قد عاد إلى محاربة السكسونيين ، فبعث لقتال العرب جيشاً بقيادة أخيه شلدبراند ، واستغاث بصهره وحليفه لوتراند ملك اللومبارد[1] ، فغزا بروفانس من جهة الشرق ليضيق على قوات الدوق ، ثم أسرع كارل إلى الرون بجيش ثالث ، وزحفت الجيوش المتحدة على مواقع المسلمين ، فاضطر عقبة إلى إخلاء بروفانس والارتداد إلى ما وراء الرون ، واستولى الفرنج أيضاً على معظم سبتمانيا ، ولم يبق منها بيد المسلمين سوى أربونة ، ورقعة ضيقة من الأرض على الشاطئ بين أربونة والبرنيه ، ومزقت قوى الدوق مورنتوس ، وطارده الفرنج في شعب الجبال ، ففر ناجياً بحياته ، واستولى الفرنج على أراضيه ، واصطدم عقبة حين عبوره البرنيه إلى الأندلس بعصابات قوية من البسكونيين والقوط ، حاولت بتحريض الفرنج أن تسد دونه ممرات الجبال ، فتكبد في تمزيقها بعض الخسائر ، ولكنه ارتد بجيشه سالماً إلى قرطبة . وكان هذا اللقاء الأخير بين العرب والفرنج في سهول الرون في سنة ٧٣٩ م ( ١٢١ هـ )[1] .

ثم توفي عقبة بن الحجاج بعد ذلك بقليل ، وقدمت الجماعة مكانه عبد الملك ابن قَطَن ، فولى الأندلس للمرة الثانية . وقيل بل ثار ابن قطن على عقبة في جمع

---

( ١ ) يسمى العرب لومبارديا أنكبردة ، واللومبارد بالأنكبرد ، محرفة عن التسمية القديمة ( لانجوبارد ) Langobard ( راجع معجم ياقوت الجغرافي ج ١ ص ٢٦٢ ) ،

( ٢ ) رجعنا في تفصيل هذه الغزوات والوقائع إلى ما ورد في موسوعة Bouquet من أقوال الرواة والمؤرخين المعاصرين من الأحبار وغيرهم . وراجع أيضاً : Dom Vissette: ibid , V.I. p. 807 & 809

كبير من أنصاره ، وكان عقبة قد ولاه على أمر عزله ، قيادة الجيش فى الشمال ، فلبث يتحين الفرص للخروج والثورة . فأسر عقبة وقتل ، أو أسر حتى توفى ، وانتزع ابن قطن ولاية الأندلس لنفسه ، ووقع هذا الانقلاب سنة ١٢٢ هـ[١] ، وقيل بل سنة ١٢٣ . قال الرازى : « ثار أهل الأندلس بأميرهم عقبة فى صفر سنة ثلاث وعشرين ، فى خلافة هشام بن عبد الملك ، وولوا عليهم عبد الملك بن قطن ولايته الثانية ، وكانت ولاية عقبة ستة أعوام وأربعة أشهر ، وتوفى بقرمونة فى صفر سنة ثلاث وعشرين واستقام الأمر لعبد الملك »[٢]. وعلى أى حال فقد كان هذا الانقلاب بالنسبة للأندلس فاتحة عهد من الاضطراب والفتن والحرب الأهلية المتصلة كما سنرى .

ويجب لكى نعرف عوامل هذا الاضطراب ، أن نعود إلى حوادث إفريقية قبل ذلك بثلاثة أعوام أو أربعة . ففى سنة ١١٦ هـ عين عبيد الله بن الحبحاب عامل مصر والياً لإفريقية ، وقد بينا فيما سلف كيف كان البربر يضطرمون سخطاً على سادتهم العرب ، وشرحنا طرفاً من عوامل هذا السخط ، وبينا كيف أن دعوة الخوارج ذاعت بين البربر منذ أواخر القرن الأول ، فأقبلوا على اعتناقها لما تضمنت من مبادئ الحرية والديمقراطية ، والحث على مقاتلة الغاصبين للرياسة والحكم . كذلك رأينا كيف استبسل البربر فى الدفاع عن حرياتهم ، وانقضوا على الفاتحين غير مرة ، وحطموا سلطانهم ، وفتكوا بقادتهم وجيوشهم ، ولم يخضعوا لنير العرب إلا بعد كفاح رائع ، استطال زهاء نصف قرن . ومع أن الأمر استتب للعرب آخر الأمر ، واستطاعوا أن يفرضوا سلطانهم ودينهم على البربر ، وأن يتخذوهم جنداً لجيوش الخلافة فى الغرب ، فإن البربر لبثوا يعتبرون العرب أجانب غاصبين لحرياتهم ، ولبثت القبائل البربرية القاصية ، تضطرم دائماً بنزعات الخروج والثورة . وكانت مثل هذه العواطف تحفز البربر فى اسبانيا ، إلى مخاصمة العرب والسخط عليهم والتربص بهم ، وخصوصاً لأنهم رغم قيامهم بمعظم أعباء الفتح ، لم يفوزوا بكثير من مغانمه ، واستأثر العرب دونهم بالسلطان والحكم . وفى ذلك يقول ابن خلدون : « ثم نبضت فيهم ( أى البربر ) عروق الخارجية

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩ .

(٢) المقرى عن الرازى ( نفح الطيب ج ١ ص ١١٠ ) . راجع أيضاً عن مصير عقبة ، نفح الطيب ج ٢ ص ٥٨ ، وابن الأثير ج ٥ ص ٩٢ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١١٩ .

فدانوا بها ، ولقنوها من العرب الناقلة ممن سمعها بالعراق ، وتعددت طوائفهم ، وتشعبت طرقها من الإباضية والصفرية . وفشت هذه البدعة وعقدها رؤوس النفاق من العرب ، وجرت إليهم الفتنة من البربر ذريعة الانتزاء على الأمر ، فاختلوا فى كل جهة ، ودعوا إلى قائدهم طغام البربر ، تتلون عليهم مذاهب كفرها ، ويلبسون الحق بالباطل فيها ، إلى أن رسخت فيهم عروق من غرائسها . ثم تطاول البربر إلى الفتك بأمر العرب »(١) .

ويصف دوزى موقف البربر من العرب فيما يأتى : « اعتنق البربر سكان الأكواخ الحقيرة ، كل التعاليم بحماسة لا توصف ، ولا ريب أنهم لجهالتهم وسذاجتهم ، لم يدركوا شيئاً من تضارب المذاهب ودقائقها ، مما تدركه وتسيغه أذهان مستنيرة ، فمن العبث إذاً أن نبحث عن أى الفرق كانوا يفضلون الانضمام إليها ، وعما إذا كانوا من الحرورية أو الصفرية أو الإباضية ، فقد اختلف الرواة فى ذلك . ولكنهم كانوا يفقهون من المبادئ ما يسمح لهم باعتناق المبادئ الثورية والديمقراطية ، ومشاطرة الآمال الخيالية التى يذيعها فقهاؤهم فى المساواة العامة ، وما يقنعهم بأن ظالميهم كانوا آثمين نصيبهم النار . ولما كان الخلفاء منذ عثمان جميعاً غاصبين غير مؤمنين ، فلم يكن جريمة أن يثوروا على الظالم الذى يسلبهم أراضيهم ونساءهم ، فقد كان هذا حقاً بل كان واجباً . ولما كان العرب قد أبعدوهم عن السلطة ، ولم يتركوا لهم إلا ما عجزوا عن أخذه منهم ، أعنى حكم القبائل ، فقد اعتقدوا بسهولة أن نظرية سيادة الشعب ، وهى نظرية يعتنقونها فى ظل استقلالهم الوحشى منذ غابر العصور ، إنما هى نظرية عريقة فى الإسلام عريقة فى الإيمان . وأن أقل بربرى يمكن رفعه إلى العرش برأى الجماعة . وهكذا كان هذا الشعب الذى بولغ فى ظلمه ، يثيره متعصبون أنصاف فقهاء وأنصاف جند ، وينزع إلى رفع هذا النير باسم الله وباسم النبى . وباسم هذا الكتاب المقدس ( القرآن ) الذى اعتمد عليه آخرون فى إقامة الطغيان الرائع »(٢) .

فلما ولى عبيد الله بن الحبحاب إفريقية ، كانت القبائل البربرية تضطرم بعوامل الثورة ولا سيما فى المغرب الأقصى ، فسير عبيد الله إلى مواطن الثورة فى قاصية المغرب جيشاً بقيادة حبيب بن أبى عبيدة الفهرى ، فأثخن فى هاتيك الأنحاء ومزق

---

( ١ ) ابن خلدون ج ٦ ص ١١٠ .

( ٢ ) Dozy : Hist. V.I. p. 149 — 150

جموع الثائرين ، وعاد مثقلا بالغنائم والسبي ، وسادت السكينة حيناً فى المغرب الأقصى . وسير ابن الحبحاب حبيباً فى معظم قواته فى غزوة بحرية إلى سردانية وصقلية ، وعين ولده إسماعيل والياً للمغرب الأقصى . ولكن هذه السكينة كانت ظاهراً خلباً فقط ، فقد كان البربر يتوقون إلى الانتقام ويرقبون الفرص . وكان إسماعيل يحفزهم ويثيرهم بعسفه وسوء تصرفه . وذاع فوق ذلك أنه ينوى أن يعتبر مسلمى البربر كالنصارى فيئاً وغنيمة ، وأن يفرض الأخماس عليهم . فذكا الهياج واستفحل ، وانتهز البربر فرصة غياب الجيش والقادة فى صقلية . فأعلنوا الثورة والتفوا حول داعية من الخوارج الصفرية ، وهو سقاء يدعى ميسرة المدغرى ، وانقضوا على طنجة وهزموا حاميتها ، وقتلوا قائدهم عمر بن عبد الله . واستولوا عليها ودعوا لميسرة بالخلافة . ثم زحفوا على السوس وهزموا إسماعيل بن عبيد الله وقتلوه ، فقويت جموعهم واستفحل شأنهم . وذاعت الدعوة الخارجية فى قفار المغرب ذيوعاً كبيراً ، واضطرب سلطان العرب فى معظم النواحى . فسير ابن الحبحاب فى الحال جيشاً إلى المغرب الأقصى بقيادة خالد بن حبيب ، واستدعى حبيب بن أبى عبيدة وجيشه من صقلية ، ووقعت بين خالد والبربر بقيادة ميسرة معارك شديدة غير حاسمة فى ظاهر طنجة . ثم ارتد ميسرة إلى طنجة حيناً ، واغتاله بعض أنصاره لأمور نقموها منه ، وولوا مكانه خالد بن حميد الزناتى ، وهو من بطون زناتة . فبرز لقتال العرب ثانية ، ونشبت بين الفريقين فى مكان يعرف بوادى سلف ، معارك هائلة هزم فيها العرب ، وقتل خالد بن حبيب وجماعة كبيرة من الزعماء والقادة ، وسميت الموقعة لذلك بغزوة الأشراف ( أوائل سنة ١٢٣ هـ )[١].

فلما رأى هشام بن عبد الملك عجز ابن الحبحاب عن ضبط الأمور ، استدعاه وأقاله ، واعتزم أن يخمد ثورة البربر بأى الوسائل . فعين لولاية إفريقية كلثوم ابن عياض القشيرى[٢] ، وسيره إليها فى جيش ضخم من عرب الشام ، بقيادة ابن أخيه بلْج بن بشر القشيرى ( جمادى الثانية سنة ١٢٣ ) واجتمعت إليه أثناء

---

( ١ ) ابن عبد الحكم ص٢١٧ و ٢١٨ ؛ وابن الأثير ج ٥ ص ٧٠ ؛ وابن خلدون ج ٦ ص ١١٠

( ٢ ) هكذا يسميه ابن الأثير ( ج ٥ ص ٧٠ ) ، وابن خلدون ( ج ٦ ص ١١١ ) ، والمقرى ( ج ٢ ص ٥٨ ) ولكن ابن عبد الحكم يسميه كلثوم بن عياض القبسى ( ص ٢١٨ ) . وكذا بشر ابن بلج فيسميه القيسى بدلا من القشيرى ( ص ٢١٩ ) .

مسيره قوات أخرى من مصر وطرابلس ، حتى بلغ جيشه زهاء سبعين ألفاً[١]. وكان حبيب بن أبي عبيدة قد وقف بجيشه فى منتصف الطريق ، متردداً لما رآه من استفحال أمر البربر ، فاستوقفه كلثوم حتى يصل إليه . وكان حبيب وزعماء العرب فى إفريقية ، يتوجسون شراً من غلبة الشاميين ، فاستقبلوا كلثوماً وبلْجا بفتور ، وأبدى بلج بالأخص جفاء وخشونة فى معاملة أهل القيروان ، وثارت بينه وبين حبيب مناقشات عاصفة ، وكاد الخلاف يضطرم بين الفريقين ، ويرتد العرب لقتال بعضهم بعضاً لولا أن غلبت الحكمة إزاء الخطر الداهم[٢] . فسارت القوات المتحدة لقتال البربر ، وسار البربر لقتالهم من طنجة فى جموع زاخرة بقيادة خالد بن حميد الزناتى ، ونشبت بين الفريقين على مقربة من طنجة فى مكان يعرف بوادى سبسر . معارك هائلة كان النصر فيها حليف البربر ، فمزق العرب للمرة الثالثة ، وقتل كلثوم وحبيب وكثير من الزعماء والقادة[٣]. وارتدت فلول العرب إلى القيروان ، وفر بلج بن بشر ونفر من الزعماء ، منهم ثعلبة بن سلامة الحذامى وعبد الرحمن بن حبيب فى بقية من جند الشام إلى سبتة ، فامتنعوا بها واستغاثوا بوالى الأندلس عبد الملك بن قطن ، ووقعت هذه النكبة فى أواخر سنة ١٢٣ أو أوائل سنة ١٢٤ هـ ( ٧٤١ م ) .

عندئذ سير هشام بن عبد الملك والى مصر ، حنظلة بن صفوان الكلبى والياً لإفريقية ، فقدمها فى ربيع الثانى سنة ١٢٤ . وكانت دعوة الخوارج قد سرت أيضاً إلى إفريقية الوسطى ، بعد أن خرج المغرب الأقصى من قبضة الخلافة ، وثار البربر فى كثير من النواحى . وخرج منهم فى ناحية قابس زعيم يدعى عكاشة الفزارى . وخرج فى غرب القيروان زعيم آخر هو عبد الواحد بن يزيد الهوارى . فحشد حنظلة كل قواته ، ولقى الفزارى أولا ، وهزمه بعد معركة عنيفة ومزق جموعه . ثم التقى بجيش عبد الواحد على مقربة من القيروان بمكان يعرف بالأصنام ،

---

( ١ ) المقرى عن ابن حيان ج ٢ ص ٥٨

( ٢ ) ابن عبد الحكم ( ص ٢١٩ ) ، وابن الأثير ( ج ٥ ص ٧٠ ) وراجع أيضاً دوزى : **Hist, V.I. p. 245**

( ٣ ) يتفق ابن عبد الحكم ( ص ٢٢٠ ) وابن الأثير ( ج ٥ ص ٧١ ) وابن خلدون (ج ٦ ص ١١١ ) ، على أن كلثوم بن عياض قتل فى الموقعة ، ولكن المقرى يقول نقلا عن ابن حيان إنه فر مع بلج إلى سبتة ، وعبر إلى الأندلس حيث توفى (ج ٢ ص ٥٨ — ٥٩ ) .

ويقال إن جموع البربر بلغت يومئذ ثلاثمائة ألف ، وبلغ العرب أربعين ألفاً فقط[١]. ونشب بين الفريقين قتال رائع ثبت فيه العرب ، ومزق البربر وقتلت منهم جموع عظيمة ، وقتل عبد الواحد وأسر الفزارى وقتل بأمر حنظلة . وكانت هذه الموقعة الشهيرة سنة ١٢٥ هـ ( ٨٤٢ م ) .

وليس من موضوعنا أن نتتبع ما تلا من الحوادث فى إفريقية[٢] ، ويكفى أن نقول إن ثورة الخوارج لبثت على اضطرامها ، وظهر الثوار والمتغلبون فى كل ناحية ، ولبثت إفريقية عصراً آخر فريسة الاضطراب والفوضى ، واضمحلت سيادة العرب ، ثم زالت غير بعيد لتحل مكانها سيادة المستعربين من البربر والموالى .

---

( ١ ) ابن الأثير ج ٥ ص ٧١ .

( ٢ ) يفصل ابن خلدون هذه الحوادث فى ج ٦ ص ١١١ وما بعدها ، وكذلك ابن عبد الحكم فى أخبار مصر وفتوحها ص ٢٣٣ وما بعدها .

# الفصل الثامن

## الحرب الأهليـــة

صدى حوادث إفريقية فى الأندلس . استغاثة الشاميين بابن قطن . إعراضه عن دعوتهم . ثورة البربر فى الأندلس . مفاوضة ابن قطن لبلج زعيم الشاميين واستقدامهم . سير القوات المتحدة لمحاربة البربر . هزيمة البربر فى شذونة وقرطبة . سحق ثورتهم . مطالبة ابن قطن للشاميين بالجلاء . ثورة بلج بن بشر وادعاؤه ولاية الأندلس . مقتل ابن قطن وولاية بلج . ثورة أمية وقطن ابنى عبد الملك . الخصومة بين الشاميين والعرب المحليين . لقاء الفريقين فى ظاهر قرطبة . مصرع بلج وانتصار الشاميين . ولاية ثعلبة بن سلامة . ضعف حكومة قرطبة . خروج الزعماء فى مختلف النواحى . استئناف الحرب بين الشاميين وخصومهم . هزيمة ثعلبة ثم فوزه . مقدم أبى الخطار الوالى الجديد . قبضه على زمام السلطة . تفرقته للشاميين . ضمه لولاية تدمير إلى الأندلس . مطاردته للزعماء الخوارج . سكون الفتنة . تعصب أبى الخطار لليمنية . الصميل بن حاتم زعيم المضرية . ثورة المضرية والجذامية . الحرب بين الفريقين . هزيمة أبى الخطار . ولاية ثوابة بن سلامة . ثورة أبى الخطار . زحفه على قرطبة . فشله وهزيمته . الخلاف بين اليمنية والمضرية . ولاية عبد الرحمن اللخمى لشئون الحكم . الاتفاق على تولية يوسف بن عبد الرحمن الفهرى .

كان لهذه الفتنة التى اضطرمت فى إفريقية بين العرب والبربر . وما اقترن بها من الأحداث الخطيرة ، صداها فى شئون الأندلس . وكانت الأندلس تتبع يومئذ إفريقية من الوجهة الإدارية ، فكان لاضطراب الحكم فى إفريقية أثره فى اضطراب الحكم فى الأندلس ، كما كان لثورة البربر فى المغرب . أثرها فى تحريك البربر فى الضفة الأخرى من البحر . وقد سبق أن بينا كيف كان البربر فى شبه الجزيرة الإسبانية يجيشون سخطاً على العرب . لما استأثروا به دونهم من مغانم السيادة والحكم . وكيف كانت عصبية القبيل تمزق وحدة العرب أنفسهم ، وكيف كانت عوامل التنافس والتنازع ، تضطرم باستمرار بين اليمنية والمضرية . وسنرى الآن كيف كان صدى هذه العوامل المختلفة قوياً بارزاً فى حوادث الأندلس ، وفى اضطراب شئونها ، وتمزيق وحدتها . وكيف انحدرت الأندلس من جرائها ، إلى معترك خطر من الفتن ، والحروب الأهلية الطاحنة . والفوضى .

تولى عبد الملك بن قطن الفهرى إمارة الأندلس للمرة الثانية على أثر وفاة عقبة بن الحجاج سنة ١٢٢ أو ١٢٣ هـ ، وثورة البربر يومئذ على أشدها فى المغرب

الأقصى . فلما هزم الجيش العربى فى مفاوز طنجة للمرة الثالثة ، وقتل كلثوم ابن عياض والى إفريقية ومعظم قواده ، فر بَلْج بن بشر فى بقية من جند الشام إلى سبتة ، وامتنع بها حسبما أسلفنا ، فطاردهم البربر وشددوا الحصار عليهم حتى جهدوا وأشرفوا على الهلاك . واستغاث بلج وزملاؤه بعبد الملك بن قطن ورجوه أن يعاونهم على العبور إلى الأندلس . وكان عبد الملك مضرياً شهد موقعة الحَرَّة(١) قبل ذلك بستين عاماً ، وشهد ما ارتكبه جند يزيد فى المدينة من رائع السفك والإثم ، فكان يبغض الشاميين أشد البغض ، وكان فوق ذلك يخشى مطامعهم ومنافستهم ، فأبى إغاثتهم بادئ ذى بدء ، وعاقب بالجلد والقتل زعيما من بنى لخم ، أمدهم ببعض المؤن . ولكنه من جهة أخرى خشى عاقبة تصرفه ، وأن يتهمه الخليفة بالعمل على إهلاك جنده . ولم يمض قليل حتى اضطرته الحوادث نفسها إلى استدعاء بَلْج وأصحابه . ذلك أن ثورة البربر كان لها فى الأندلس أكبر صدى ، فتحرك البربر فى معظم الأقاليم الشمالية . وعصفت بالأندلس ريح ثورة بربرية دينية سياسية ، كتلك التى عصفت بإفريقية ، وإن كانت دونها شدة . واضطرمت الثورة بالأخص فى جليقية وماردة وقورية وطَلَبيرة ، وحشد الثوار جموعهم واختاروا لهم إماماً ، واعتزموا الزحف على طليطلة وقرطبة ثم الجزيرة ، ليمهدوا لبربر العدوة سبيل القدوم إلى اسبانيا ، ومعاونتهم على سحق العرب . واستطاع البربر ، وهم فى عنفوان ثورتهم ، أن يهزموا كل الحملات . التى وجهها ابن قطن لإخضاعهم . وهنا ارتاع ابن قطن ، وفكر فى الحال أن يستعين بجند الشام المحصورين فى سبتة ، وهم زهاء عشرة آلاف ، فكتب إلى بلج يدعوه إلى معاونته ، واشترط عليه للعبور إلى الأندلس ، أن يغادرها متى صلحت حال جنده ، وانتهت الثورة . فقبل بَلْج وقدم الرهائن من أصحابه لتنفيذ هذا الميثاق . وعبر بَلْج وأصحابه إلى الأندلس (سنة ١٢٣ هـ) ، وقدمت إليهم المؤن والثياب . وانضموا إلى قوات ابن قطن بقيادة ولديه أمية وقطن . والتقت القوات المتحدة بالبربر أولا فى شَذُونة (مدينا سدونيا) فهزم البربر ، وأصاب الشاميون منهم غنائم كثيرة . ثم وقع القتال فى ظاهر قرطبة مع جموع البربر الزاحفة عليها ، فهزموا أيضاً بعد مقاومة

---

(١) هى ضاحية المدينة الشرقية وتعرف بحرة واقم . وكانت موقعة الحرة سنة ٦٣ هـ ؛ وفيها هاجم جند يزيد بن معاوية المدينة بقيادة مسلم بن عقبة المرى ، واستباحوها وقتلوا من أهلها جموعاً كبيرة ، ونهبوا الأموال ، وسبوا الذرية ، وهتكوا الأعراض ؛ وكانت من أشنع الوقائع .

شديدة ، ثم هزم البربر للمرة الثالثة ، فى وادى سليط على مقربة من طليطلة ، وكانوا قد بدأوا حصارها ، وبذلك سحقت الثورة ، ومزق البربر وطوردوا فى كل مكان ، وانتعش بلج وأصحابه وقويت نفوسهم واشتدت شوكتهم[١] .

وعندئذ طالب ابن قَطَن بتنفيذ الميثاق وجلاء الشاميين عن الأندلس متوجساً من بقائهم . ولكن بَلْجا كانت تحدوه أطماع أخرى ، فماطل فى الجلاء وسوّف ، ثم كشف القناع فجأة ، وادعى أنه أمير الأندلس الشرعى بعهد من عمه كلثوم ، وأيده فى ذلك ثعلبة بن سلامة وغيره من الزعماء . ثم نادى الشاميون بخلع ابن قطن وتولية بلج ، وانحازت إليه اليمانية ، ووثب بلج وأصحابه على ابن قطن وهو فى قلة من جنده ، فقبضوا عليه بقصره بقرطبة ، وكان شيخاً قد أشرف على التسعين فلم يرحموا شيخوخته بل قتلوه وصلبوه ومثلوا بجثته ، فتم الأمر بذلك لبلج بن بشر القشيرى ، وتولى إمارة الأندلس فى أوائل ذى القعدة سنة ١٢٣ هـ ( سبتمبر سنة ٧٤١ م )[٢] .

ولكن الفتنة لم تنته بعد . فإن أمية وقَطَن ابنى عبد الملك فرا إلى الشمال ، وحشدا جموعهما فى سرقسطة ، وآزرهما البلديون ( العرب المحليون ) والبربر ، وانضم إليهما جماعة من الزعماء ، الذين أنكروا فعلة بلج بعبد الملك ، مثل عبد الرحمن ابن حبيب الفهرى كبير الجند ، وكان من أنصار بلج قبل الانقلاب ، وعبد الرحمن ابن علقمة اللخمى ، حاكم أربونة « فارس الأندلس فى عصره » ، وكان قوى البأس كثير الأتباع . وانقسمت الأندلس بذلك إلى معسكرين كبيرين ، معسكر الشاميين[٣] المتغلبين على الحكم ، ومعسكر العرب والبربر المحليين الذين اعتبروا الشاميين دخلاء غاصبين ، فعظمت الفتنة واشتد الاضطراب ، وسار أمية وقطن وأنصارهما إلى قرطبة لقتال الشاميين فى جيش قيل إنه بلغ نحو مائة ألف ، وتأهب بلج وأنصاره للدفاع فى نحو عشرين ألفاً ، والتقى الفريقان على مقربة من قرطبة فى شوال سنة ١٢٤ ( أغسطس سنة ٧٤٢ م ) ونشبت بينهما معارك

---

( ١ ) المقرى عن ابن حيان ج ٢ ص ٥٩ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٣٠ و ٣١ ، وراجع أيضاً : **Dozy : Hist. V. I. p. 163**

( ٢ ) ابن عبد الحكم ص ٢٢٠ ، وابن الأثير ج ٥ ص ٩٢ .

( ٣ ) ويعرف هؤلاء الجند الشاميون أيضاً « بالطالعة البلجية » نسبة إلى زعيمهم بلج ( ابن الأبار فى الحلة السيراء – ليدن – ( ص ٥١ ) .

شديدة ، وأبدى الشاميون شجاعة وجلداً . ولكن عبد الرحمن اللخمى صمم على قتل بلج . فحمل بجند أربونة على الشاميين ، وشق بينهم طريقاً إلى مكان بلج ، وأثخنه طعاناً توفى منها بعد أيام . ومع ذلك فقد انتصر الشاميون على البلديين انتصاراً باهراً فارتدوا منهزمين . وعاد الشاميون ظافرين إلى قرطبة ، وقدموا عليهم ثعلبة بن سلامة العاملى ، وكان من أصحاب بلج الذين عبروا معه إلى الأندلس كما قدمنا . فتولى إمارة الأندلس ، وقيل فى إمارته ما قيل فى إمارة بلج ، من أنه وليها بعهد من الخليفة ، أو من كلثوم والى إفريقية يليها بعد بلج ، وكانت ولايته فى شوال سنة ١٢٤[(١)] . فقبض ثعلبة على زمام الأمور بحزم ، وحاول أن يضبط النظام والأمن ، وأبدى كثيراً من اللين والاعتدال ، ولكن سلطان الحكومة المركزية كان قد تضعضع ، وانقسمت الأندلس إلى مناطق عديدة للنفوذ ، ولبثت الغلبة فى الأقاليم الوسطى والشمالية ، لجماعة من الزعماء الخارجين على حكومة قرطبة ، مثل أمية وقطن ابنى عبد الملك ، وعبد الرحمن بن حبيب الفهرى ، وعبد الرحمن اللخمى حاكم أربونة ؛ واستمر يؤازر هذا الفريق سواد العرب المحليين والبربر . ولم تمض أشهر قلائل حتى اضطرمت الحرب مرة أخرى بين الفريقين المتنازعين ، ونشبت بينهما مواقع عديدة على مقربة من ماردة ، فهزم الشاميون أولا واعتصم ثعلبة بقلعة ماردة ، ولكنه عاد فكر على خصومه وهزمهم هزيمة شنيعة ، وأسر وسبى منهم جموعاً كبيرة ، وعاد ظافراً إلى قرطبة ، وقرر إعدام الأسرى ليلقى على خصومه درساً قاسياً . ولكنه قبل أن يتمكن من تنفيذ عزمه ، قدم إلى قرطبة حاكم جديد للأندلس ، هو أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبى ، بعثه حنظلة بن صفوان والى إفريقية ، إجابة لجماعة من زعماء الأندلس ، خشوا عواقب الفتنة ، وما قد تؤدى إليه من استظهار نصارى الشمال ، وإغارتهم على الأراضى الإسلامية[(٢)] ، وقيل إن الذى اختار أبا الخطار لولاية الأندلس ، هو هشام بن عبد الملك[(٣)] ، اختاره قبيل وفاته بقليل ، إذ توفى فى ربيع الثانى سنة ١٢٥ . وقدم أبو الخطار إلى الأندلس

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٢ و ٣٣ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٩ و ٦٠ ؛ وابن الأثير ج ٥ ص ٩٥ .

(٢) ابن عبد الحكم ص ٢٢١ ؛ وأخبار مجموعة ص ٤٥ ؛ وابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٤٦ ؛ وكذلك Dozy: Hist , V. I. p. 168

(٣) ابن الأثير ج ٥ ص ١٠٠ ؛ وابن الأبار ص ٤٨ .

فى رجب ، ولم يكن مضى على ولاية ثعلبة سوى عشرة أشهر . فقبض فى الحال على زمام السلطة . وأفرج عن جموع الأسرى والسبايا ، التى اعتزم أن يزهقها وينكل بها ثعلبة ، واهتم برد السكينة والنظام ، وإخماد شوكة الزعماء الخارجين ، ففرق الشاميين فى مختلف الكور تمزيقاً لعصبتهم ، وأنزل جند الشام بإلبيرة (غرناطة) ، وجند حمص بإشبيلية ولَبْلة ، وجند فلسطين بشذونة والجزيرة ، وجند الأردن بريّه . وجند قنسرين بجيان ، وجند مصر بعضهم فى أكشُونبة وباجة والبعض فى تدمير . ونذكر أن ولاية تدمير (مرسية) كانت قد تركت عند الفتح لصاحبها تيودمير ، وفقاً للمعاهدة التى عقدت بينه وبين عبد العزيز بن موسى[1] ، ولكن تيودمير كان قد توفى ، وخلفه فى حكم الولاية ولده أتاناجلد . واعتبر أبو الخطار أن نص المعاهدة ، كان قاصراً على تيودمير ، وأنه لا يسرى على خلفائه ، وطالب أتاناجلد بتأدية الجزية لحكومة قرطبة ، وأنزل جند مصر قسراً بقواعد تدمير ، وأقطعهم أراضيها ، وبذلك فقد القوط آخر معاقلهم الحرة فى الجنوب ، وضمت تدمير إلى باقى ولايات الأندلس ، تحت سلطان الحكومة المركزية[2] . وتتبع أبو الخطار الزعماء الخارجين ، فقبض على ثعلبة ونفاه إلى إفريقية مع نفر من زملائه ، وأعلن أمية وقَطَن ابنا عبد الملك الطاعة ، وتفاهما مع أبى الخطار ، فولاهما الحكم فى بعض الولايات الشمالية . أما عبد الرحمن بن حبيب فاستطاع أن يتقى المطاردة وفر إلى تونس ، وهنالك أقام حيناً يرقب الحوادث ، حتى سنحت له فرصة الوثوب وانتزاع إمارة إفريقية من حنظلة ابن صفوان على ما سيجىء . وأما عبد الرحمن اللخمى فلبث مستقلا برباط الثغر فى أربونة وما جاورها .

وسلك أبو الخطار فى البداية سبيل الحزم والاعتدال ، وسوى بين جميع القبائل فى المعاملة ، فرضى الجميع واجتمعت الكلمة على تأييده وطاعته ، وسكنت الفتنة واستقر النظام حيناً . ولكن نزعة العصبية ما لبثت أن حملته كما حملت أسلافه من قبل ، فمال إلى قومه اليمانية ، وتنكر لخصومهم من المضرية ، واضطرمت الأحقاد

(١) أوردنا نص هذه المعاهدة فى ص ٥٥ و٥٦ من هذا الكتاب . وراجع فى توزيع القبائل على الكور ، ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٤٦ . وكذلك : **Conde : ibid, V.I. p. 112**

(٢) **Conde:ibid, quot Isodorus, V.I. p. 112 (note)** وكذلك **Aschbach: ibid. V. I. p. 92**

والمنافسات القديمة . وحدث أن اعتدى أبو الخطار على زعيم من زعماء المضرية بالإهانة والضرب لأنه تدخل لحماية رجل من بنى قومه . وهذا الزعيم هو الصميل ابن حاتم بن شمر الكلابى ، وجده شمر بن ذى الجوشن من أشراف الكوفة ، وكان قد اشترك فى قتل الحسين بن على فى كربلاء ، ثم نزح بأسرته إلى الشام خيفة الانتقام ، فلما ولى كلثوم بن عياض القشيرى حكم إفريقية . كان الصميل بين أشراف الشام الذين انتظموا فى جيش بلج القشيرى ، ثم جازوا معه إلى الأندلس[1] . وكان الصميل فارساً شجاعاً وزعيماً ذا نجدة ، يلتف حوله المضرية وبعض اليمنية ، من خصوم أبى الخطار ومنافسيه مثل جذام ولخم . فلما اعتدى أبو الخطار عليه بعث إلى قومه فى مختلف الأنحاء ، وأيدته المضرية وحلفاؤهم فى الخروج ، وتفاهم مع باقى الزعماء الناقمين على أبى الخطار ، ومنهم ثوابة بن سلامة الجذامى زعيم جذام . وكان يمنياً ولكنه كان يحقد على أبى الخطار . لأنه عزله عن ولاية إشبيلية . وتكفل ثوابة بمحاربة أبى الخطار ، وقدمته المضرية ، وزحف بجموعه على قرطبة ، فلقيه أبو الخطار بقواته فى شذونة على ضفاف وادى لكه فى رجب سنة ١٢٧ . ونشبت بين الفريقين معارك شديدة انتهت بهزيمة أبى الخطار وأسره ، ودخل ثوابة قرطبة وارتضته المضرية أميراً للأندلس مكان أبى الخطار ، ووافق عبد الرحمن بن حبيب الفهرى أمير إفريقية على هذا الاختيار . وكان قد استطاع فى تلك الفترة أن ينتزع ولاية إفريقية من حنظلة بن صفوان . ولكن أبا الخطار استطاع أن يفر من سجنه بمعونة نفر من أصدقائه . فذهب إلى باجة وحشد جموعه ، وقصد إلى قرطبة ، فلقيه الصميل فى المضرية وثوابة فى أنصاره من اليمنية ، ووقعت بينهما معركة غير حاسمة . وعندئذ دعا بعض اليمنية من فريق ثوابة إلى وقف القتال ، ونعى على أنصار أبى الخطار أنهم يقاتلون ثوابة . مع أنه يمنى منهم ، وقد عفا عن أبى الخطار وعف عن دمه حين كان فى قبضته ؛ فأحدثت هذه الدعوة أثرها ، وانفض عن أبى الخطار جنده . واضطر أن يعود إلى باجة وهنالك لبث ينتظر مجرى الحوادث[2] .

ولم يمض سوى قليل حتى توفى ثوابة فى أوائل سنة تسع وعشرين ومائة .

---

(١) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٤٩ ؛ والمقرى عن ابن حيان فى نفح الطيب ج ٢ ص ٦٢ .

(٢) المقرى ج ٢ ص ٦٠ و ٦١ ، وابن الأثير ج ٥ ص ١٢٦ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٣٥ و ٣٦ .

بعد أن حكم الأندلس زهاء عام ونصف . وهنا نشب الخلاف بين الزعماء والقبائل كرة أخرى ، وأصرت اليمنية على أن يكون الأمير منهم خلفاً لأميرهم المتوفى ، وأصر الصميل أن يكون الأمير من المضرية ، واشتد النزاع بين الفريقين ، ووقعت بينهما مصادمات ومعارك عديدة ، ولبثت الأندلس بضعة أشهر دون أمير رسمي ، وتولى الأحكام فيها عندئذ عبد الرحمن بن كثير اللخمي باتفاق الفريقين . ولما تفاقم الخلاف ، وخشي الزعماء عاقبة الفتنة والحرب الأهلية ، اتفقوا على تولية يوسف ابن عبد الرحمن الفهرى أحد زعماء المضرية ، فولى إمارة الأندلس فى ربيع الثانى سنة ١٢٩ ( يناير ٧٤٧ م ) دون مصادقة أو مراجعة من دمشق أو إفريقية . وكانت حكومة دمشق قد اضطربت يومئذ شئونها ، وأخذت نذر السوء تبدو فى الأفق ، وشغلت الخلافة الأموية بما يهددها من خطر داهم على سلطانها ، وضعف إشراف الحكومة المركزية على الولايات النائية ، فاستقلت إفريقية والأندلس كل بشئونها ، حتى يستبين المصير ، وتستقر الأمور .

# الفصل التاسع

## خاتمة عصر الولاة

أصل يوسف الفهرى . عبد الرحمن بن حبيب واستيلاؤه على إفريقية . استئثار يوسف بالسلطة . تحرك اليمنية . خروج أبى الخطار وابن حريث . التقاء المضرية واليمنية فى شقندة . هزيمة اليمنية ومقتل زعمائها . استقرار الأمر ليوسف والصميل . ولاية الصميل لسرقسطة . إصلاحات يوسف الإدارية والمالية . تقسيم اسبانيا الجديد . إصلاحه للجيش . إرساله جيشاً إلى الشمال . ثورة البشكنس والقوط . استيلاء الفرنج على المواقع الإسلامية فى سبتمانيا . اضطراب أمر الخلافة فى المشرق . سخط الزعماء على يوسف والصميل . عبد الرحمن اللخمى فارس الأندلس . محاولته الخروج ومصرعه . الثورة فى إشبيلية وسحقها . ثورة عروة بن الوليد فى باجة . استيلاؤه على إشبيلية . هزيمته ومصرعه . ثورة المضرية واليمنية بقيادة عامر العبدرى . فراره إلى الشمال وتحالفه مع الحباب الزهرى وتميم الفهرى . محاصرة الثوار للصميل فى سرقسطة . هزيمة الصميل واستيلاء الثوار على سرقسطة . إدعاء عامر لولاية الأندلس . ولاية الصميل لطليطلة . مسير يوسف إلى سرقسطة واستيلاؤه عليها . أسر زعماء الثورة ومصرعهم . اجتماع يوسف والصميل فى طليطلة . الإخطار بمقدم عبد الرحمن الأموى . مسيرهما إلى قرطبة . ببين ملك الفرنج وأنزيموند أمير القوط يحاصران أربونة . القتال بين ببين وأمير أكوتين . مصرع أنزيموند . خيانة النصارى فى أربونة . سقوطها فى يد الفرنج . انتهاء سيادة الإسلام فيما وراء البرنيه . نصارى الشمال . امتناعهم بهضاب جليقية . إغارتهم على الأراضى الإسلامية . نمو المملكة النصرانية .

ويجب أن نقف قليلا عند شخصية يوسف بن عبد الرحمن الفهرى هذا ، الذى اختارته « الجماعة » والياً للأندلس ، واستقل بولايتها زهاء عشرة أعوام ، وكان آخر هذا الثبت من أمرائها ، وعلى يده انتقلت إلى عهد جديد ، ودولة جديدة . فمعظم الروايات على أنه ولد عبد الرحمن بن حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع الفهرى فاتح إفريقية . ويؤيد هذا القول من مؤرخى الأندلس ابن القوطية ، وابن حزم ، والرازى ، وابن الفرضى . ولكن ابن حيان يرتاب فى هذه النسبة ويقول لنا إنه لم يقف على ما يؤيد بنوة يوسف لعبد الرحمن بن حبيب ، أو صلته بهذا الفرع(١). بيد أن اتفاق معظم مؤرخى الأندلس ، ولا سيما المتقدمين منهم

---

(١) نقل ابن الأبار فى الحلة السيراء أقوال ابن القوطية وابن حيان وابن حزم فى هذه النقطة — الحلة السيراء ص ٥٣ و ٥٤ — وراجع أقوال ابن الفرضى والرازى فى نفح الطيب ج ٢ =

على صحة هذه النسبة يجعلها فى نظرنا أقوى وأرجح . وإذن فيوسف بن عبد الرحمن خاتمة ولاة الأندلس هو ولد عبد الرحمن بن حبيب ، الذى تتبعنا أخباره فيما تقدم خلال الحروب الأهلية ، التى اضطرمت منذ قدوم بَلْج القشيرى إلى شبه الجزيرة . وقد أسلفنا أنه فر إلى تونس اتقاء لنقمة أبى الخطار ، وهنالك لبث يرقب الحوادث مدى حين ، فلما جاءت الأخبار إلى إفريقية بمقتل الخليفة الوليد بن يزيد بن عبد الملك ( فى جمادى الآخرة سنة ١٢٦ ) ، رأى عبد الرحمن الفرصة سانحة للعمل ، فدعا أنصاره وحشد جموعه لقتال حنظلة بن صفوان والى إفريقية ، وزحف على القيروان ، وخشى حنظلة عاقبة الفتنة ، فانسحب مع أصحابه إلى الشام دون قتال ، ودخل عبد الرحمن القيروان ( سنة ١٢٧ هـ ) وأعلن ولايته لإفريقية ، وأيدته المضرية ، وبعث إلى الثغور عمالا من أقاربه وأنصاره . ولم يختر يزيد بن الوليد ، الذى ولى الخلافة عقب مقتل أبيه ، والياً لإفريقية نزولا على حكم الواقع . فلما خلفه مروان بن محمد بعد ذلك بأشهر ، كاتبه عبد الرحمن وهاداه وأظهر له الطاعة فأقره على ولايته[1]. ولبث عبد الرحمن مستقلا بحكم إفريقية أكثر من عشرة أعوام ، وفى عهده وقعت بإفريقية ثورات وقلاقل كثيرة ، فأخمدها جميعاً وغزا صقلية وسردانية . ولما دالت دولة بنى أمية أعلن الطاعة لبنى العباس ، ودعا لهم بإفريقية . ولكنه لم يلبث أن قتل غيلة فى شهر ذى الحجة سنة ١٣٨ ( ٧٥٥ م ) . وأما ابنه يوسف فقد فر منه مغضباً لأمور نقمها عليه ، ودخل الأندلس يبحث وراء طالعه فى حوادثها ، وكان مثل أبيه فارساً هماماً وخطيباً مفوهاً[2]. فلم يلبث أن ظهر بين أنجاد المضرية وسادتهم ، ولازم الصميل وصادقه حتى عظم نفوذه ، وانتهى بأن ظفر بإمارة الأندلس فى ربيع الثانى سنة ١٢٩ ، وهو يومئذ فى السابعة والخمسين من عمره .

وكانت مصاير الخلافة الأموية تهتز يومئذ فى يد القدر ، وقد شغلت بما يواجهها من خطر الفناء الداهم عن حوادث الأندلس ، فلم تحاول تدخلا أو اعتراضاً على ما يحدث فى ذلك القطر النائى ، ولم يكن يوسف بحاجة إلى مصادقة أو مراجعة .

---

= ص ٦١ . ويقر ابن عذارى هذه النسبة أيضاً ( البيان المغرب ج ٢ ص ١٠٧ ) وكذلك صاحب أخبار مجموعة ( ص ٢١ ) .

( ١ ) البلاذرى فى فتوح البلدان ص ٢٣٣ .

( ٢ ) نفح الطيب ( عن الرازى ) ج ٢ ص ٦١ ، وابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٥٥ .

وكان المتفق عليه بين اليمنية والمضرية أن يتعاقبا فى الولاية فيمكث يوسف عاماً فقط ثم يُرد الأمر إلى اليمنية(١) . ولكن المضرية وعلى رأسهم الصميل مرجع الزعامة والأمر يومئذ، لم يفكروا بلاريب فى تمكين اليمنية من الرياسة بأى الصور ، وكذلك لا ريب فى أن يوسف بن عبد الرحمن لم يفكر بعد أن ظفر بالإمارة أن ينزل عنها طائعاً مختاراً ، بل بادر منذ البداية إلى استخلاص جميع السلطات لنفسه ، فنزع ولاية ريُّه من يحي بن حريث الجذامى أحد الزعماء اليمنية ، وكان ينافسه ويعارض إمارته ، فأقطع ريه ثمناً لموافقته . فلما نزعت منه ريه ثار قومه من اليمنية والتفوا حوله . وهنا أيضاً ظهر أبو الخطار الأمير المعزول على مسرح الحوادث ، وكان يقيم كما قدمنا فى باجة ، بغرب الأندلس . فلما علم بتولية يوسف وخروج ابن حريث ، تحرك للعمل ، وفاوضه ابن حريث ولكنهما لم يتفقا ، إذ أصر كل منهما على ترشيح نفسه للإمارة ، بيد أنهما اجتمعا على قتال يوسف ابن عبد الرحمن ، وحشد كل منهما جموعه من الفريق الذى يؤازره ، وزحفا على قرطبة . وحشد يوسف والصميل جموع المضرية ، وبالغ كل فريق فى الأهبة ، والتقيا أخيراً فى شقندة بالقرب من قرطبة ( سنة ١٣٠ هـ — ٧٤٧ م ) ونشبت بينهما موقعة هائلة تبالغ فى روعتها الرواية الأندلسية ، إذ تقول لنا : « إنه لم يك بالمشرق ولا بالمغرب ، حرب أصدق منها جلاداً ولا أصبر رجالا ، طال صبر بعضهم على بعض إلى أن فنى السلاح ، وتجاذبوا بالشعور ، وتلاطموا بالأيدى ، وكلّ بعضهم عن بعض »(٢) . واستمر القتال حيناً سجالا بين الفريقين ، ثم داهمت المضرية ذات يوم جموع اليمنية على غرة ، فأوقعت بها ، وأسر أبو الخطار وابن حريث وكثير من أصحابهما ، وقتلوا جميعاً بأمر الصميل ، وجردت اليمنية من زعمائها ، واستقر الأمر ليوسف ، ولكنه كان يخشى الصميل ، لأنه كان بنفوذه وكثرة عصبته ، يقبض على ناصية الموقف ، فرأى أن يبعده عن قرطبة ، وأقطعه ولاية سرقسطة وأعمالها ، فسار الصميل إلى سرقسطة واستقل يوسف بالأمر .

ونشط يوسف إلى ضبط النظام ، وإصلاح الشئون فى ظروف صعبة . وكانت السلطة المركزية قد اضمحلت ، وهبت ريح الفتنة من كل صوب .

---

( ١ ) ابن الأثير ج ٥ ص ١٨٣ .

( ٢ ) المقرى عن ابن حيان ج ٢ ص ٦١ .

واستقل كثير من العمال بالنواحي ، وتحرك النصارى فى الولايات الشمالية ، وعصف القحط فوق ذلك بالأندلس سنة ١٣٣ هـ ( ٧٥٠ م ) ، واستطال زهاء عامين ، فأجدبت السهول والوديان ، وأمحلت الزراعة ، وفتك الجوع بالمدن والقرى ، وهبطت عندئذ على شواطئ الأندلس عصابات بحرية ناهبة كثيرة من أمم الشمال ، وعاثت فى الشواطيء والثغور والمدن القريبة[1]. ولكن يوسف أبدى فى مغالبة هذه الصعاب والمحن همة فائقة ، فطاف بالأقاليم وعزل الحكام العابثين ، وقمع المظالم والفوضى ما استطاع ، وأصلح الطرق الحربية ، لتكون ممهدة لحملاته حيثما اضطر إلى الحرب ، وعدل نظام الضرائب فاقتضى ثلث الدخل من كل ولاية ، ولكنه أمر بمراجعة السجلات القديمة ، واستبعاد الأموات منها ، وكانت الضرائب ما تزال تجبى طبقاً للإحصاء القديم ، فكان فى ذلك إرهاق للسكان ، لأن عددهم تناقص منذ الفتح ، فقرر يوسف أن تجبى الضرائب عن الأحياء فقط ، وأسقطها عمن توفوا ، واكتسب بذلك عطف كثير من النصارى[2]. وأعاد يوسف أيضاً تنظيم الأقاليم الإدارى ، فقسم اسبانيا إلى خمس ولايات كما كانت أيام القوط ، وكما قسمت عند الفتح مع تعديل فى حدودها ، فأصبحت كما يأتى : ولاية الأندلس وهى ولاية « باطقة » Baetica القديمة ، وتقع بين نهر وادى يانة والبحر الأبيض المتوسط ، وأشهر قواعدها قرطبة ، وقرمونة ، وإستجة ، وإشبيلية ، وشَذُونة ، ولَبْلَة ، ومالقة ، وإلبيرة ، وجيّان . وولاية طليطلة ، وهى ولاية قرطاجنة القديمة ، وتمتد من جبال قرطبة فى شمال شرقى ولاية الأندلس حتى نهر دويره (الدورو) ، وجبال وادى الحجارة شمالا ، وأشهر قواعدها طُلَيطلة ، ومرسية ، ولورَقة ، وأوريولة ، وشاطبة ، ودانية ، ولَقنت ، وبلنسية ، وشَقُوبية ، ووادى الحجارة ، وقُونْقَة . وولاية ماردة وهى ولاية اوجدانيا أو جلّيقية القديمة ، وتمتد فيما وراء نهر وادى يانة شرقاً حتى المحيط ، وأشهر قواعدها ماردة ، وباجة ، وأُشبُونة ، وأسترُقه ، وسمُّورة ، وشامنقة . وولاية سرَقُسطة ، وهى ولاية كانتبريا القديمة ، وتمتد من منابع نهر التّاجُه شرقاً ، على ضفتى نهر إيبرو حتى

---

( ١ ) إيزيدور الباجى . راجع : Aschbach : ibid,V.I. p. 102 ، وكذا البيان المغرب ج ٢ ص ٣٨

( ٢ ) Conde : ibid, V.I. p. 121 - Aschbach, quot. Isidorus, ibid.V.I. p. 101

جبال البرنيه وبلاد البشكنس ، وأشهر قواعدها سرقسطة ، وطرّكونة ، وجيرندة ، وبرشلونة ، وأرقلة ، ولاردة ، وطُرطُوشة ، ووشقة . ثم ولاية أربونة وهى ولاية الثغر ، وتقع شمال شرقى جبال البرنيه حتى البحر ، وتشمل مصب نهر الرون ، وأشهر قواعدها أربونة ، ونيمة ، وقَرْقَشونة ، وأجدة ، وبزييه ، وماجلونة[١] .

وعنى يوسف بتنظيم الجيش وإصلاحه أشد عناية ، وحشد قوات جديدة ليستطيع قمع الثورة فى الداخل وحماية الحدود الشمالية ، وسير إلى الشمال جيشاً بقيادة ولده محمد أبى الأسود ، وسليمان بن شهاب ، والحصين العقيلى . وكان النصارى قد انتهزوا فرصة الاضطراب الداخلى ، وأغاروا على الأراضى الشمالية ، واستولوا على كثير من القلاع والحصون ، ووصلوا فى تقدمهم حتى ضفاف نهر دويره (الدورو) . وثار البشكنس والقوط فيما وراء البرنيه واستدعى أميرهم الكونت آنزيموند ، ملك الفرنج پيپن الملقب « بالقصير » لمحاربة المسلمين ، وكان آنزيموند هذا من نبلاء القوط ، فانتهز فرصة اضطراب الحوادث فى اسبانيا ، واستولى على قواعد سبتمانيا المسلمة ، وهى نيمة وأجدة وما جلونة وبزييه وما حولها ، وأنشأ منها مملكة صغيرة ، والتف حوله السكان النصارى ، واستطاع بمؤازرة الزعماء المحليين ، أن يقضى على سلطان المسلمين فى تلك الأنحاء . ولكنه رأى أنه لا يستطيع الاحتفاظ بمملكته الصغيرة ، والعرب على مقربة منه فى أربونة أقوياء يخشى بأسهم ، وكذلك توجس شراً من جاره أمير أكوتين ، إذ كان يطمح إلى ضم هذه الأراضى إلى أملاكه ، فلم ير خيراً من الانضواء تحت لواء ملك الفرنج پيپن ، واستدعائه لمعاونته[٢] .

وكان پيپن قد خلف أباه كارل مارتل كمحافظ للقصر الفرنجى ، ولكنه لم يلبث أن قبض على مليكه شلدريك الثالث آخر الملوك الميروفنجية ، وزج به إلى ظلام الدير ، وانتزع العرش لنفسه (٧٥١ م) . فلما استدعاه آنزيموند ، استجاب لدعوته ، ورحب بتلك الفرصة ليتم ما بدأه أبوه من إجلاء المسلمين عن غاليس ، وغزا لانجدوك ، وهاجم المواقع الإسلامية مع حليفه آنزيموند ، وفتك بالمسلمين فى تلك الأنحاء (٧٥٣ م) . وقاومته الحاميات الإسلامية أشد مقاومة ، ولكنها لم تثبت طويلا لعزلتها ، وحرمانها من كل معاونة ومدد ، واستولى الفرنج على تلك

---

(١) سبق أن أشرنا إلى تقسيم اسبانيا الإدارى الذى أورده البكرى ، راجع الهامش فى ص ٧٠

(٢) Dom Vissette : ibid, V.I. p. 822

القواعد والمعاقل كلها خلا أربونة ، فإنها لبثت بيد المسلمين أعواماً أخرى . ولم يستطع الجيش الذى سيره يوسف إلى الشمال ، أن يحقق الغاية المنشودة ، بل رد بخسارة فادحة وقتل قائده سليمان بن شهاب ، ونجا الحصين العقيلى وفرسانه بصعوبة[1] . وترك الشمال لمصيره ، واستغرقت الثورات والحروب الداخلية اهتمام يوسف وكل نشاطه وموارده .

ذلك أن الأحقاد والمنافسات القديمة التى هدأت حيناً بتولية يوسف ، عادت فاضطرمت حين استأثر يوسف وحليفه الصميل بكل سلطة وولاية ، وكان المفهوم أن ولاية يوسف لإمارة الأندلس إنما هى حل موقت لحالة طارئة حتى يأتى الأمير الشرعى الذى يختاره الخليفة ، ولكن الخلافة الأموية لقيت مصرعها غير بعيد (١٣٢هـ — ٧٥٠م) ، وتفاقم الاضطراب الذى سرى إلى شئون إفريقية والأندلس قبل ذلك بأعوام ، وأصبح تراث الخلافة الأموية نهباً مباحاً لكل طامع ومتغلب . وكان بالأندلس عدة من الزعماء النابهين ذوى الجاه والعصبية ، ينقمون من يوسف والصميل استئثارهما بالسلطة ، ويرى كل منهم أنه أولى بها وأجدر ، وكان يوسف يعمل من جهة أخرى لتوطيد سلطانه فى ذلك القطر البعيد ، الذى رفعه القدر إلى ولايته ورياسته ، والذى يضارع بضخامته وأهميته ملكاً عظيماً . وكان أقوى أولئك الخصوم والزعماء المنافسين ليوسف ، عبد الرحمن بن علقمة اللخمى حاكم ثغر أربونة الملقب «بفارس الأندلس» تنويهاً بفائق شجاعته[2] . وكان قد اشترك فى الحرب الأهلية قبل ذلك بأعوام حسبما قدمنا . ثم ارتد بجنده إلى أربونة ، واستعصم بها يرقب الحوادث والفرص . فلما تولى يوسف إمارة الأندلس ، واضطربت شئون الشمال ، أخذ يدبر العدة لعبور البرنيه ومحاربة يوسف ، ولكن لم يلبث أن اغتاله بعض أصحابه وحملوا رأسه إلى يوسف ، وتمت هذه الخيانة بوحى يوسف وتحريضه على الأرجح ، وانهارت تلك المحاولة فى مهدها[3] . وخرج على يوسف فى إشبيلية يوسف بن عمرو بن يزيد الأزرق ، وكثر جمعه وقوى أمره ، فزحف إليه يوسف وقاتله حتى هزمه وقتله . وخرج عليه فى باجة عروة بن الوليد

(١) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٥٨ . وكذا **Conde: ibid, V.I. p. 127** و **Aschbach: ibid, V.I. p.102** ويضع صاحب أخبار مجموعة تاريخ هذه الحملة بعد ذلك بنحو عامين ص ٧٦ و٧٧ .

(٢) ابن القوطية ص ٤٣ .

(٣) المقرى عن ابن حيان ج ٢ ص ٦٢ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٣٩ .

المعروف بالذمى لتحالفه مع أهل الذمة ، والتف حوله النصارى فضلا عن أنصاره من العرب والبربر ، وسار إلى إشبيلية فاستولى عليها . واتسع نطاق الثورة فى تلك الأنحاء ، فوجه إليه يوسف جيشاً لقتاله فهزمه عروة ، فسار إليه يوسف بنفسه ، ووقعت بينهما معارك شديدة انتهت بهزيمة عروة وأسره ، ثم بقتله مع نفر من أصحابه . بيد أن ثورة أخطر وأوسع نطاقاً كانت تدبر عندئذ فى الشمال لخلع يوسف والصميل وسحق سلطانهما . وكان روح هذه الثورة ومدبرها زعيم مضرى شديد البأس والجاه ، هو عامر بن عمرو بن وهب العبدرى ، وكان عامر عريق الحسب والعصبية ، وافر الجاه والأتباع ، يتزعم مضر ويقودها خلال الحوادث ، وكان صديقاً ليوسف الفهرى قبل ظفره بالإمارة ، يتولى مثله قيادة الجيش ، فلما وُلِّى يوسف نزعها منه ، وكان كباقى الزعماء ينقم من يوسف والصميل استئثارهما بالسلطة واستبدادهما بالشئون . فلما اضطرمت الأندلس بالفتن واتسع نطاق الثورة ، أخذ يدبر وسائل الخروج على يوسف ، وكان يبسط نفوذهُ على الجزيرة الخضراء ، ثم انتقل إلى قرطبة يرقب الحوادث ، وكاتب الخليفة العباسى أبا جعفر المنصور ، وعرض عليه أن يدعو له بالأندلس ، وأن يحكمها باسمه ، إذا بعث إليه بمرسوم إمارتها . وكان يتودد فوق ذلك إلى اليمانية ، وينعى على يوسف والصميل إسرافهما فى سفك دمائهم يوم شَقُندة ، فالتفت حوله اليمنية والمضرية . ولم يكن يوسف يجهل حركاته وتدابيره ، فلما هم بمطاردته والقبض عليه ، فر إلى الشمال فى كثير من أتباعه . وكان ثمة زعيمان قرشيان آخران هما الحباب بن رواحة الزهرى من بنى كلاب ، وتميم بن معبد الفهرى ، قد رفعا لواء الثورة فى ولاية سرقسطة ، فتفاهم معهما عامر وتحالف ، واجتمع إليه جيش كبير من اليمنية والمضرية والبربر ، وزحف عامر والحباب الزهرى على سرقسطة ، حيث كان الصميل ، وضيقا عليه الحصار . فاستغاث الصميل بحليفه يوسف. ولكن يوسف لم يستطع أو لم يُرد إنجاده بغية القضاء على سلطانه[1]. فاضطر الصميل أن يلقى خصومه فى أنصاره وأتباعه القلائل . ونشبت بين الفريقين مدى أشهر معارك عديدة ، انتهت بهزيمة الصميل وانسحابه من سرقسطة فى فل أنصاره ، فدخلها عامر وحليفه ، واستوليا عليها ( سنة ١٣٦ هـ — ٧٥٣ م ) . وعمت الثورة كورة

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٨ و ٤٣ .

سرقسطة وما إليها ، ودعا عامر لنفسه بولاية الأندلس ، بمرسوم زعم أنه تلقاه من أبي جعفر المنصور ، وخرج الشمال كله عن قبضة يوسف الفهرى .

أما الصميل فارتد إلى طليطلة التى أسند إليه يوسف ولايتها بدلا من سرقسطة ، وكان يوسف قد أنهكت قواه واستنفدت موارده تلك الحروب والثورات المتوالية ، فاضطر أن يلزم السكينة حيناً . وبسط عامر سلطانه زهاء عامين ، على كورة سرقسطة . وفى أواخر سنة ١٣٧ هـ (٧٥٤ م) سار يوسف إلى سرقسطة فى جيش كبير ، وحاصرها بشدة حتى ضاق أهلها بالحصار ذرعاً ، ورأوا أن يتقوا مصائب الحصار ، بتسليم عامر وابنه وهب والحباب الزهرى إلى يوسف ، فحملهم يوسف معه فى الأصفاد ، وارتد صوب طليطلة ، ثم أمر بهم فقتلوا أثناء الطريق ، وتخلص يوسف بذلك من آخر الزعماء الخوارج عليه[1] . ولكنه لم يقدر أن خطراً آخر سيأتيه من خارج الجزيرة ، وينذر جميع مشاريعه وتدابيره بالانهيار . ذلك أنه ما كاد يجتمع بصديقه وحليفه الصميل فى ظاهر طليطلة ، حتى أقبل عليه رسول من قرطبة يحمل كتاباً من ولده عبد الرحمن ، خلاصته أن فتى من بنى أمية يدعى عبد الرحمن بن معاوية قد نزل بساحل الأندلس فى ثغر المُنكّب Almuñecar ، واجتمع إليه أشياع بنى أمية فى كورة إلبيرة ( غرناطة ) ، وانتشرت دعوته فى جنوب الأندلس بسرعة . وذاع الخبر فى جيش يوسف فأحدث فيه ذعراً واضطراباً ، وتفرق كثير من جنده . وقيل إن نبأ مقدم الأمير الأموى انتهى إلى يوسف أثناء سيره إلى الشمال ليقاتل نصارى جلّيقية ، بعد أن سحق الثوار فى سرقسطة[2] . وعلى أى حال فقد بادر يوسف والصميل فيمن بقى من الأشياع والجند بالسير إلى قرطبة ، ليدبرا الخطط لرد هذا الخطر الجديد ، وكان ذلك فى أواسط سنة ١٣٨ هـ ( أواخر سنة ٧٥٥ م ) .

وفى أثناء هذه الفتن والقلاقل المتواصلة ، استولى الفرنج كما قدمنا على جميع القواعد والأراضى الإسلامية فى سبتمانيا ولانجدوك ، وهى التى تكون ولاية الثغر أو رباط الثغر ، ولم يبق منها بيد المسلمين سوى أربونة . وكانت

---

( ١ ) راجع فى تفصيل هذه الحوادث ، ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٥٢ ؛ وابن الأثير ج ٥ ص ١٤٠ و ١٨٤ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٤٣ و ٤٤ ؛ وكذا فى Dozy: Hist : V. I. p. 184 & 185

( ٢ ) ابن القوطية ص ٢٠ ؛ ونفح الطيب ج ١ ص ١٥٤ .

أمنع قلاع المسلمين فيما وراء جبال البرنيه ، وقد استطاعت أن ترد غزوات الفرنج أيام كارل مارتل . فلما فقدت أربونة بطلها المدافع عنها أعنى عبد الرحمن اللخمى فارس الأندلس ، وسقطت أراضى الثغر كلها فى يد النصارى ، زحف پپين ملك الفرنج ومعه حليفه الكونت آنزيموند القوطى أمير سبتمانيا على أربونة ، وطوقها بقوات كثيفة وضرب حولها الحصار الصارم (سنة ٧٥٥ م) . وكانت أربونة فى غاية المنعة والحصانة ، فاعتزم المسلمون الدفاع عنها لآخر نسمة ، واضطر پپين خلال الحصار أيضاً ، أن يرتد عنها بقسم من جيشه لمحاربة أمير أكوتين حفيد الدوق أودو ، ورده عن الأراضى الفرنجية ، وترك آنزيموند لمتابعة الحصار . ولكن آنزيموند قتل أثناء ذلك غيلة تحت أسوار أربونة ، فعاد پپين لاستئناف الحصار وهاجم المدينة المحصورة مراراً ، ولكن المسلمين استطاعوا أن يقاوموا الفرنج ، وأن يردوا كل هجماتهم مدى أربعة أعوام ، رغم عزلتهم وانقطاع صلتهم بالأندلس ، وعدم تلقيهم أى مدد من أولى الأمر فى قرطبة ، لاشتغالهم بالحرب الأهلية . وكان اتصال المدينة بالبحر يسهل على المسلمين تلقى بعض المؤن ، وتحمل ويلات الحصار . فلما رأى پپين أنه لا يستطيع أخذ المدينة بالحرب لجأ إلى الخديعة والخيانة ، وتفاهم مع أهلها القوط ، وقطع لهم عهوداً مؤكدة أنهم إذا عاونوه على أخذها ، فإنه يترك لهم حرية التمتع بقوانينهم ، ويمنحهم حقوقاً ومزايا كثيرة ، فعمل القوط على إضرام الثورة داخل المدينة ، ثم انقضوا ذات يوم على حراسها المسلمين وقتلوهم وفتحوا أبوابها ، فدخلها الفرنج وفتكوا بسكانها المسلمين إيما فتك ، وخربوا مساجدها ومعاهدها ودورها وذلك فى سنة ٧٥٩ م (١٤٢ هـ)[١]. وسقطت بذلك آخر المعاقل الإسلامية فى غاليس فى يد النصارى ، وانهارت سيادة الإسلام فيما وراء جبال البرنيه ، بعد أن استمرت هنالك زهاء نصف قرن ، وعادت قوى النصرانية ، فاحتشدت وراء تلك الآكام تتربص بالإسلام فى الأندلس ، بينما كانت قوى الإسلام داخل شبه الجزيرة يمزق بعضها بعضاً .

وحذا نصارى الشمال حذو الفرنج فى الاستفادة من تمزق الإسلام بالأندلس ، ونريد بنصارى الشمال تلك البقية الباقية من القوط الذين ارتدوا أمام الفتح الإسلامى

---

(١) Dom Vissette : ibid., V. I. p. 827

# الكتاب الثاني

# الدّولة الأمويّة في الأندلس

## القسم الأول

# عصر الإمارة

## من عبد الرحمن الداخل إلى عبد الرحمن بن الحكم

١٣٨ - ٢٣٨ هـ : ٧٥٦ - ٨٥٢ م

# الفصل الأول

## مصرع الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية

اضمحلال الدولة الأموية إبان فتوتها . عوامل هذا الاضمحلال . السياسة الأموية . ما أثارته وسائلها من السخط . إستغلال الشيعة لهذه العاطفة . إضطرام العصبية والخلافات القومية . خلاف العرب والبربر . خلاف العرب فيما بينهم . وهن دعائم الدولة الأموية . العوامل الخفية التى عملت على تقويضها . الخصومة بين بنى أمية وآل البيت . تقدم الدعوة الشيعية . ظهور الشيعة فى النواحى . أئمة الشيعة بعد الحسين . محمد بن على ولد العباس . أبو مسلم الخراسانى أعظم دعاة الشيعة . إضطرام الدعوة فى خراسان . إستنجاد أميرها نصر بن سيار بالخليفة . غزو أبى مسلم الخراسانى وفرار أميرها . استيلاء أبى مسلم على خراسان وفارس . وفاة إبراهيم الإمام والدعوة لأخيه عبد الله بن محمد . غزو الشيعة العراق . نزول أبى العباس عبد الله بن محمد بالكوفة . من هو السفاح . مسير مروان الثانى لقتال الشيعة . لقاء الأموية والشيعة على ضفاف الزاب . هزيمة مروان . فراره ومصرعه . ذهاب الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية .

كانت الدولة الأموية دولة الإمبراطورية الإسلامية الكبرى ، فى ظلها امتدت الفتوح الإسلامية شرقاً إلى السند وغرباً إلى المحيط الأطلنطى وإسبانيا ، ووصلت الإمبراطورية الإسلامية إلى ذروة ضخامتها وقوتها ، متماسكة الأجزاء ، وثيقة العرى ، موحدة السلطان والإدارة . ولكن الدولة الأموية لم تنعم طويلا بطور فتوتها ومنعتها ووحدتها ، ولم تأت فاتحة القرن الثانى للهجرة حتى كانت هذه الدولة الشامخة التى لم تجز بعد طور الفتوة ، قد هرمت سراعاً وأدركها الانحلال والوهن ، وتصدع صرح وحدتها الباذخ . واختتم ثبت الخلفاء الأقوياء من بنى أمية ، بالوليد بن عبد الملك وأخيه سليمان (٨٦–٩٩ هـ) ثم بأخيهما هشام . ومنذ عصر هشام بن عبد الملك ، نجد عوامل الانحلال والتفكك ، تعمل عملها فى هذا الصرح العظيم ، فلم يمض طويل حتى اضطرمت الأندلس بالفتن وخرجت من حظيرة الإمبراطورية ، ولم يبق للخلافة عليها سوى سلطة إسمية ، واستقل الزعماء المتغلبون بحكم إفريقية ، بعد أن خرجت أطرافها القصوى عن قبضة الخلافة ، واضطرب سلطان الخلافة فى الولايات الشرقية النائية مثل خراسان وفارس ، وأخذ ملك بنى أمية يهتز فوق بركان مضطرم من الدعوات الخصمية ، التى لبثت قبل

ذلك بنصف قرن تعمل فى الخفاء ، ثم لاح لها أن الفرصة قد آذنت بالانفجار .

ولهذا الانحلال الذى سرى إلى الدولة الأموية ، قبل أن تستكمل أطوار نموها وتوطدها ، أسباب خاصة ، ترجع إلى الظروف التى قامت فيها ، وإلى الآثار الدينية والمعنوية ، التى أثارتها السياسة الأموية فى الجزيرة العربية ، ثم إلى نتائج تلك المعركة الخالدة التى نشبت بين مختلف العناصر والقوى ، التى اشتركت فى بناء الإمبراطورية الإسلامية . فقد استطاع بنو أمية أن ينتزعوا الخلافة والملك ، خلال معركة اعتبرها فريق كبير من الأمة العربية ، خروجاً على آل البيت ذوى الحق الشرعى فى الخلافة ، وبوسائل لم تكن دائماً نزيهة ولا عادلة . وكان لما ارتكبه بنو أمية خلال هذه المعركة من الأحداث المثيرة ، أسوأ وقع فى نفوس الأمة العربية . فقد فتك بنو أمية بآل البيت وشيعتهم أشنع فتك ، وكان مقتل الحسين ابن على فى كربلاء (سنة ٦١ هـ)[١] ، ومقتل عدة من أبنائه وأخوته أشهر حوادث الفتك بآل البيت وأروعها . ومع أن مصرع الحسين وآله ، لم يكن سوى نتيجة للصراع السياسى الذى اضطرم بين آل البيت وبين بنى أمية منذ خلافة على ، فقد كان لهذا الحادث أعظم وقع فى العالم الإسلامى . ولم يمض عامان على تلك المأساة المؤلمة ، حتى أرسل يزيد بن معاوية (سنة ٦٣ هـ) جنده إلى المدينة بقيادة مسلم بن عقبة المرى ، لمعاقبة أهلها على خروجهم عن طاعة بنى أمية ، فاقتحم الجند الأمويون مدينة الرسول ، وعاثوا فيها واستباحوا الحرم المقدسة ، وارتكبوا أشنع صنوف الكبائر والإثم[٢] ، ثم ساروا بعد ذلك إلى مكة فحاصروها ، وضربوا البيت الحرام بالمنجنيق والنار . وكان لهذه الحوادث وأمثالها أثر عميق فى الأمة الإسلامية ، وألفى الشيعة صحب آل البيت ودعاتهم ، فى تلك الأحداث المثيرة ، غذاء للتشهير بالسياسة الأموية وأساليبها ، وأصيبت هيبة الخلافة الأموية من هذه الناحية ، بصدع لم تنهض من بعده ، وذكت عوامل السخط عليها .

---

(١) كان مقتل الحسين بن على فى كربلاء فى العاشر من المحرم سنة ٦١ هـ ، وهو يوم « عاشوراء » الذى اتخذته الخلافة الفاطمية بمصر يوم حزن وأسى ؛ وكانت تقام فى ذلك اليوم بمدينة القاهرة طائفة من المراسم والاحتفالات المؤثرة . ( راجع كتابى الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية — الطبعة الثانية — ص ٣٥٤ ) .

(٢) وتعرف هذه الموقعة الشهيرة بموقعة الحرة أو حرة واقم ، وهى ضاحية المدينة الشرقية ، وقد سبقت الإشارة إليها .

واستغل الشيعة هذه العاطفة لبثّ دعوتهم وتدعيم قضيتهم ، وحشد العناصر الناقمة فى صفوفهم . وكان اضطرام العصبية والخلافات القومية من جهة أخرى ، يعمل عمله لتمزيق روابط هذه الإمبراطورية الشاسعة . ففى إفريقية كانت ثورات البربر القومية ، تستنفد قوى الخلافة ومواردها بلا انقطاع ، وكان الخلاف بين العرب والبربر فى الأندلس ، يهدد مصير الإسلام والخلافة فى ذلك القطر النائى ، ويفت فى عضد الزعماء والقادة ، ويبعث الاضطراب والوهن إلى صفوف الغزاة . وكان العرب أنفسهم قدوة سيئة فى تفرق الرأى والكلمة . فكانت المعركة الخالدة بين مضر وحمير ، وبين مختلف القبائل والبطون ، تمزق أوصال الوحدة العربية ، وتقوض دعائم هذه العصبية القومية ، التى دفعت يوم اتحادها وتماسكها ، سيل الفتوح الإسلامية إلى أقاصى المشرق والمغرب .

كانت الخلافة الأموية تسيطر على دولة عظيمة مترامية الأطراف . ولكن سلطانها الحقيقى كان محدود المدى داخل هذه الإمبراطورية الشاسعة ، وكان فوق ذلك يقوم على دعائم مضطربة . وفى ذلك ما يفسر تلك الظاهرة التى يعرضها سقوط الدولة الأموية . فبينا هى تبدو فى أوج قوتها وفتوحها ، إذ بها تنهار فجأة ، وتبدو فى الحال مظاهر ضعفها وتفككها ، ويبدو ما كان يحيط بسلطانها الشاسع من عوامل مصطنعة ، وما كان يهدده من عوامل الهدم الخفية ، المعنوية والنفسية . وكانت هذه العوامل الخفية فى الواقع أخطر ما يهدد سلطان بنى أمية ، فإن تلك الأحقاد المرة التى أثارتها السياسة الأموية فى نفوس خصومها ، كانت تسرى وتجيش ، وتحيط ملك بنى أمية بسياج خطر من الحفيظة والبغض . وكانت هذه الخصومة الخطرة التى يغذيها ظمأ الانتقام ، هى عماد الدعوة الشيعية التى لبثت تشق طريقها منذ مقتل علىّ ، ثم مقتل بنيه من بعده . ثم تأثلت هذه الخصومة وتوطدت منذ أوائل القرن الثانى من الهجرة . واستطاع الشيعة أن يظهروا فى النواحى ، ولاسيما فى العراق وخراسان ، وأن يدبروا عدة ثورات محلية خطيرة . وقد أخمدت هذه الحركات الأولى فى سيل من الدماء . ولكن القمع كان يذكى النضال ، وإراقة الدم تذكى ظمأ الانتقام . ولم تكن المعركة متكافئة من الوجهة المادية ، فلم يك للشيعة جيوش منظمة أو موارد يعتد بها ، ولكن خطر المعركة كان يجثم فى نواحيها المعنوية . واشتد هذا الخطر حينما ضعف أمر العمال فى

النواحى ، واتسع الأمر على الحكومة المركزية ، وانحل سلطانها فى الأنحاء النائية ، وأضحى عرضة للانتقاض والانهيار .

ولبث دعاة الشيعة زهاء نصف قرن ينظمون دعوتهم ، ويضعون لها الأصول والقواعد ، ويحشدون لها الصحب والأنصار فى سائر النواحى ، وكانت كغيرها من الدعوات السرية الثورية ، تلقى فى الخفاء تأييداً كبيراً . وليس من موضوعنا أن نتحدث عن مبادئ الشيعة ورأيهم فى الإمامة ومساقها[1] . ويكفى أن نقول إن اختلاف الشيعة فيما بينهم ، على حق الإمامة ومساقها فى ولد على ، لم يحل دون إجماعهم على خصومة بنى أمية ، ولا دون استمرار الدعوة الشيعية وتقدمها . وكانت إمامة الشيعة قد انتقلت بعد مقتل الحسين إلى أخيه ، محمد بن على بن أبى طالب المعروف بابن الحنفية[2]. فلما توفى سنة ٨١ هـ ، قام بها ولده أبو هاشم عبد الله بوصية منه . واستمر أبو هاشم أيام الوليد بن عبد الملك وأخيه سليمان قائماً بأمر الشيعة ، يفدون عليه ويؤدون له الخراج . ثم توفى مسموماً سنة ٩٨ هـ بتحريض سليمان بن عبد الملك فيما يقال ، وأوصى بالإمامة إلى ابن عمه محمد ابن على بن عبدالله بن العباس كبير علماء الشيعة يومئذ . والعباس هو ابن عبدالمطلب عم النبى . وتقدمت الدعوة الشيعية على يد محمد بن على تقدماً كبيراً ، وظفرت فى ذلك الحين بأعظم دعاتها السياسيين ، ونعنى أبا مسلم الخراسانى . وقد كان أبو مسلم شخصية عظيمة ، وكان يتمتع بمقدرة ومواهب فائقة . ولكن الغموض يحيط مع ذلك بأصله ونشأته ، وتختلف الرواية فى أمره اختلافاً كبيراً ، حتى أنها لتختلف فيما إذا كان من الأحرار أو الموالى . فيقول البعض إنه حر ، يرجع إلى أصل فارسى رفيع المنبت ، وإنه ولد بأصبهان ونشأ بالكوفة ، واسمه الحقيقى إبراهيم بن عثمان بن بشار . ويقول البعض إنه من الموالى ، وأصله من أصبهان ، واسمه إبراهيم . وقيل بل كان عبداً لبكير بن ماهان أحد عمال السند ، وإنه استصحبه إلى مكة فى زيارته لإبراهيم الإمام ، فأعجب إبراهيم بذكائه وفطنته واشتراه منه . وأما تسميته بأبى مسلم ، فيقال إنه سمى نفسه عبد الرحمن بن مسلم ،

---

(١) أورد ابن خلدون فى مقدمته شرحاً حسناً لمبادئ الشيعة ومساق الإمامة عند مختلف فرقهم ( المقدمة ص ١٦٤ — ١٦٨ ) . ويتناولها الشهرستانى فى « الملل والنحل » بشىء من التفصيل ؛ وكذلك عبد القاهر البغدادى فى كتابه « الفرق بين الفرق » .

(٢) وهو أخو الحسن والحسين من الأب فقط . ويعرف بابن الحنفية نسبة لأمه خولة بنت جعفر بن قيس المعروف بالحنفية .

واتخذ كنيته أبا مسلم ، وقيل إن إبراهيم الإمام هو الذى سماه بهذا الإسم . ولعل أرجح رواية فى شأن هذا الداعية الكبير أنه كان فتى مغموراً ، ولد بمرو فى أسرة رقيقة الحال ، ونشأ بأصبهان ، واتصل منذ فتوته ببعض نقباء الشيعة فى الكوفة ، فآنسوا فيه ذكاء خارقاً ، وحماسة تضطرم لآل البيت وقضيتهم ، وسار معهم إلى محمد بن على بن عبد الله بمكة ، فأعجب بذكائه وعزمه ، واختاره داعية للشيعة فى خراسان ، موطنه وأصلح ميدان لنشاطه . ولما ظهر أبومسلم وقوى أمره ، وكثر أنصاره ، ادعى أنه من آل البيت من ولد سليط بن عبدالله بن عباس[1]. ولما توفى محمد بن على ، وخلفه فى الإمامة ولده إبراهيم الملقب بالإمام بعهد منه (سنة ١٢٦ هـ) استمر أبو مسلم فى مهمته ، يبث الدعوة ، ويحشد لها الأنصار . وكانت خراسان كما قدمنا أخصب ميدان للدعوة الشيعية لبعدها عن الحكومة المركزية ، وتعاقب الفتن فيها بين المضرية واليمنية . وكان أميرها من قبل بنى أمية نصر بن سيار فى مأزق صعب ، يستنجد عبثاً بحكومة دمشق ، ويشهد تفاقم الحوادث عاجزاً ، وحركة الشيعة تشتد ، وتجتاح خراسان بسرعة . ويروى أن نصر بن سيار كتب إلى مروان بن محمد الخليفة يومئذ ، هذا الشعر الفياض بالنبوءة والنذير يستنجد به ، ويستحثه للدفاع عن عرشه وترات أسرته :

أرى تحت الرماد وميض نار ⁂ ويوشك أن يكون لهـا ضرام
فان النـار بالعودين تـذكى ⁂ وإن الحـرب أولهـا الكلام
فإن لم يطفهـا عقـلاء قـوم ⁂ يكون وقودهـا جثث وهـام
فقلت من التعجب ليت شعرى ⁂ أأيقـاظ أميـة أم نيـام
فان كانوا لحينهـم نيـاماً ⁂ فقل قوموا فقـد حان القيام
فقرى عن رحالك ثم قـولى ⁂ على الإسلام والعرب السلام[2]

وكان أبو مسلم رجل الموقف يدبر الخطط بقوة وبراعة ، فلم يمض بعيد حتى ألفى الفرصة سانحة للعمل الحاسم ، فاعتزم أمره ووثب فى صحبه على نصر بن سيار

---

(١) راجع فى أصل أبى مسلم وسيرته ، ابن الأثير ج ٥ ص ٩٥ — ٩٧ ، وابن خلكان ج ١ ص ٣٥٢ — ٣٥٤ ، وابن خلدون ج ٣ ص ١٠٠ و ١١٧ — ١٢٠ .

(٢) تروى هذه الأبيات بصورة أخرى . راجع مروج الذهب للمسعودى (بولاق) ج ٢ ص ١٥٩

وقوات بنى أمية وهزمهم فى عدة معارك (سنة ١٢٩ — ١٣٠ هـ) ، واستولى على مرو وسمرقند وخراسان ونيسابور ، وطرد منها عمال بنى أمية ، وفر نصر بن سيار إلى العراق . وبسط أبو مسلم سلطانه على خراسان وفارس ، ورفع فيهما لواء الشيعة الأسود ، ودعا لأبى العباس عبد الله بن محمد بن على المعروف « بالسفاح » أخى إبراهيم الإمام وخلفه . وكان الخليفة الأموى مروان بن محمد ، قد هاله ما رأى من تغلغل الدعوة الشيعية فى النواحى ، فقبض على إبراهيم الإمام ، وهو يومئذ بإحدى قرى الشام ، وزجه إلى السجن حتى مات ( سنة ١٣٢ هـ ) ، وزعم أخوه عبد الله أبو العباس وأصحابه ، أنه أوصى إليه بالإمامة من بعده . فدعا له أبو مسلم فى خراسان وفارس حسبما تقدم . ثم سير أبو مسلم جيشاً إلى العراق فلقيه أميرها ابن هبيرة فى قواته ، ووقعت بين الفريقين على ضفاف الفرات معارك شديدة ، هزم فيها ابن هبيرة وفر إلى الشمال . واستولى الشيعة على العراق ، ودعوا لأبى العباس بالخلافة (ربيع الآخر سنة ١٣٢ هـ) ، ونزل أبو العباس عبد الله « السفاح » بالكوفة ، واستقر بها يرقب الحوادث .

وفى ذلك الحين كان مروان بن محمد أو مروان الثانى[١]، الذى ولى الخلافة سنة ١٢٧هـ ، يتأهب للدفاع عن ملك بنى أمية ، الذى تصدع صرحه سراعاً . فحشد جيشاً ضخماً ، وسار شرقاً حتى وصل إلى ضفاف نهر الزّاب ، وهو فرع من دجلة يتصل به فى الضفة الشرقية جنوب شرقى الموصل ، وسار للقائه قائد المسوّدة (الشيعة) فى الشمال ، أبو عون عبد الملك بن يزيد الأزدى ، وأمده أبو العباس بجيش آخر بقيادة عمه عبد الله بن على ، وبلغت قوات الشيعة كلها زهاء عشرين ألفاً ، وبلغت القوات الأموية زهاء مائة وعشرين ألفاً . ولكن حماسة الشيعة كانت تغنى عن الكثرة ، وكان تعاقب الظفر يذكى عزائمهم ويضاعف قواهم ، وكان الجيش الأموى على ضخامته قد خبت عزائمه ، واختلت صفوفه وغاضت قواه المعنوية . والتقى الفريقان على ضفة الزاب اليسرى ونشبت بينهما معركة شديدة حاسمة ، انتهت بهزيمة الجيش الأموى وتمزيقه ، وذلك فى الحادى عشر من جمادى الثانية سنة ١٣٢ هـ (٢٥ يناير ٧٥٠ م) ، وغرق فى النهر آلاف من جند الشام ، وعدة من زعمائه وقادته ، واستولى الشيعة على أسلابه ، وفر

(١) يعرف مروان بن محمد أيضاً بمروان الجعد ، وحمار الجزيرة ، أو مروان الحمار .

مروان فى فل من صحبه إلى الشام ، فسار فى أثره عبد الله بن على ، وحاصر دمشق واقتحمها فى الخامس من رمضان من نفس العام . وفر مروان إلى فلسطين ثم إلى مصر . فبعث « السفاح » فى أثره جيشاً بقيادة عمه صالح بن على ، فلحق به فى مصر ، وظل يطارده من مكان إلى مكان ، حتى ظفر به فى قرية بوصير على مقربة من الجيزة . وهنالك مزقت البقية الباقية من أنصار بنى أمية ، وقتل مروان آخر الخلفاء الأمويين بالمشرق ، وأرسل رأسه إلى «السفاح» وذلك فى السابع والعشرين من ذى الحجة سنة ١٣٢ هـ ( ٦ أغسطس سنة ٧٥٠ م ) .

وهكذا انهارت دعائم الدولة الأموية بسرعة مدهشة ، وقامت على أنقاضها دولة بنى العباس . ولا ريب أن أكبر الفضل فى تحطيم ذلك الصرح الشامخ ، يرجع إلى جهود تلك الشخصية العظيمة ونعنى أبا مسلم الخراسانى . كان أبو مسلم إحدى هذه العبقريات الشاملة ، التى تتفتح فى معترك الإنقلابات الحاسمة ، وتقوم على سواعدها الدول العظيمة . وكانت دعوة الشيعة وإمامة آل البيت مبعث هذا الانقلاب وروحه . ولكن بنى العباس ما كادوا يتبوأون ذلك الملك الباذخ ، حتى غلبت عليهم عصبية الأسرة ، وألفوا فى أبى مسلم منافساً تخشى عواقبه ، وفى الدعوة الشيعية خطراً يجب القضاء عليه . فلم تمض أعوام قلائل حتى قتل أبو مسلم ( شعبان سنة ١٣٧ هـ ) ، قتله أبو جعفر المنصور أخو أبى العباس وخلفه . ثم تتبع زعماء الشيعة وولد على بن أبى طالب بالقبض والمطاردة ، حتى مزق شملهم وسحق دعوتهم . واستخلص بنو العباس تراث بنى أمية لأنفسهم . وقامت تلك الدولة العباسية الزاهرة ، تصل تاريخ الإسلام فى المشرق ، وتسير به إلى عصر جديد من العظمة والبهاء .

# الفصل الثاني

## بعث الدولة الأموية في الأندلس

موقف الأندلس بعد سقوط الدولة الأموية . يوسف الفهرى حاكم بأمره . مطاردة بنى العباس لبنى أمية . المذبحة الرائعة . من هو السفاح . نجاة عبد الرحمن بن معاوية . فراره وظروفه المؤثرة . تجوله فى برقة وإفريقية . نجاته من قبضة عبد الرحمن بن حبيب . التجاؤه إلى المغرب الأقصى . إرساله لبدر مولاه إلى الأندلس . مفاوضة بدر للزعماء . سعى أبى عثمان وعبد الله بن خالد لتأييد عبد الرحمن . موقف الصميل بن حاتم . عبور عبد الرحمن إلى الأندلس . توجس يوسف الفهرى واختلال جيشه . تقدم الدعوة الأموية . الزعماء المؤيدون لعبد الرحمن . عود يوسف والصميل إلى قرطبة . عرض يوسف على عبد الرحمن وكتابه إليه . رفض عبد الرحمن لهذا العرض . مبايعة ريه وشذونة وإشبيلية لعبد الرحمن . زحفه على قرطبة . خروج يوسف والصميل لملاقاته . لقاء الفريقين فى موقعة المسارة . هزيمة يوسف والصميل . دخول عبد الرحمن قرطبة ومبايعته بالإمارة . الموقف بعد المسارة . مهمة عبد الرحمن الفادحة . معركة الدولة والإمارات المستقلة . الأخطار التى تحيق بالأندلس . الكفاح المستمر .

بينما كانت حوادث هذا الانقلاب الحاسم فى مصاير الإسلام تجرى فى المشرق ، كانت حوادث الأندلس تؤذن بانقلاب عظيم آخر فى مصاير الإسلام فى ذلك القطر النائى . وكانت الفتن والحروب الأهلية المتعاقبة التى فصلنا أخبارها ، تدفع بالأندلس إلى مصير مجهول تخشى عواقبه ، وتعصف تباعاً بمنعة الإسلام فى الغرب ، وتشجع الفرنج ونصارى الشمال على اقتطاع الأطراف النائية ، والتوغل فى الأراضى الإسلامية . وكان من عناية القدر أن تولى أمر الأندلس فى ذلك المأزق العصيب ، رجل قوى حازم هو يوسف بن عبد الرحمن الفهرى . ولكن ولاية يوسف لم تكن حلا نهائياً للأزمة ، لأنه تولى دون مصادقة شرعية من السلطة العليا ، ولأن منافسيه من الزعماء والخوارج لم يقروا بولايته ، ولم يخلدوا إلى السكينة ، وأخيراً لأن السلطة العليا التى يرجع إليها أمر الأندلس ، ونعنى خلافة دمشق قد انهارت غير بعيد ، وقامت على أنقاضها دولة وخلافة جديدتان . والحقيقة أن يوسف بن عبد الرحمن الفهرى كان حاكماً بأمره فى الأندلس . وكانت الأندلس فى ذلك الحين إمارة أو دولة مستقلة ، يتوقف مصيرها ومصير السلطات فيها على سير الظروف والحوادث . وكان للانقلاب الذى وقع فى المشرق صداه

فى الأندلس ، إذ قام بعض الخوارج على يوسف يدعو لبنى العباس ، طمعاً فى الرياسة على نحو ما بينا ، ولكنه كان صدى ضعيفاً لم يحدث أثره ، واستمر يوسف ثابتاً فى مركزه ، يناهض الخارجين عليه بقوة وعزم . ولاريب أنه كان يحرص على ذلك السلطان الذى ألقى إليه به القدر ، بل لعله كان يعمل لغاية أتم وأبعد ، هى أن يؤسس بالأندلس مملكة مستقلة قوية ، يتبوأ عرشها ، وأسرة ملوكية جديدة من بنيه وعقبه ، يلقى إليها بهذا التراث الباذخ .

على أن حوادث المشرق كانت تتمخض عن عوامل ومفاجآت أخرى. ذلك أن بنى العباس بعد أن ظفروا بملك بنى أمية ومزقوا شمل أسرتهم ، أخذوا فى تتبع من بقى من أمرائهم وزعمائهم ، حتى لا تقوم لفلهم قائمة بعد . وعهد أبو العباس عبد الله « السفاح » ، إلى عمه عبد الله بن على وهو بالشام ، تنظيم هذه المطاردة الدموية[1]. فتتبع وجوه بنى أمية ومواليهم فى كل مكان ، وأمعن فى مطاردتهم وسفك دمائهم ، وقتل منهم جماعه كبيرة من الأمراء والسادة ، ولم يبق حتى على النساء والأطفال ، ولما شعر أن كثيرين منهم فروا ولاذوا بالاختفاء ، زعم أن أبا العباس قد ندم على ما فرط منه فى حقهم ، وأنه يشملهم بعفوه وأمانه ، فخدع كثيرون منهم بهذا الوعد ، ولبوا دعوة عبد الله إلى الظهور ، واستطاع بهذه الوسيلة أن يقتل منهم نحو سبعين رجلا أخر . وكانت مأساة هائلة ارتكبت خلالها ضروب مروعة من القسوة ، ومثل بكثير من الضحايا أشنع تمثيل ، وألقيت جثثهم للكلاب ، واستخرجت رفات الخلفاء الأمويين من مثواها وبددت ، ولم تترك جريمة مثيرة ، أو لون من العقاب أو المهانة ، إلا كان فل بنى أمية لها فرائس وضحايا[2] .

وهنا يسوغ لنا أن نتساءل ، من هو « السفاح » ؟ أهو أبو العباس عبد الله ابن محمد أول خلفاء بنى العباس ؟ أم هو هو عمه عبدالله بن على ؟ هذا ما تختلف

---

(١) وقد أشار أحد الشعراء من دعاة بنى العباس وهو سديف بن ميمون إلى هذه المطاردة فى شعر أنشده بين يدى أبى العباس وفيه يقول :

لا يغرنك ما ترى من رجال ⁂ إن تحت الضلوع داء دويا
فضع السيف وارفع السوط حتى ⁂ لا ترى فوق ظهرها أمويا

(٢) راجع طرفاً من فظائع هذه المطاردة فى ابن خلدون ج ٣ ص ١٣٢ و ١٣٣ ؛ وابن الأثير ج ١ ص ١٦١ .

الرواية الإسلامية فى شأنه . ويتفق معظم المؤرخين المسلمين ، مثل الطبرى ، وابن الأثير ، وابن خلكان ، وابن خلدون[١] على أن « السفاح » إنما هو لقب أبى العباس عبد الله بن محمد أول الخلفاء العباسيين . ويذكر لنا الطبرى وابن الأثير كيف أن أبا العباس ، هو الذى أطلق على نفسه هذا اللقب حينما ألقى خطابه الأول بمسجد الكوفة على أثر مبايعته بالخلافة ، إذ قال للناس فى ختام خطابه : «فاستعدوا فأنا السفاح المبيح ، والثائر المنيح »[٢]. ولكن هناك روايات أخرى ومنها رواية قديمة هى رواية صاحب « أخبار مجموعة فى فتح الأندلس » تذكر لنا أن لقب «السفاح» لم يطلق على أبى العباس ولكنه أطلق على عمه عبد الله بن على[٣]. ولهذه الرواية ظاهر من الوجاهة فيما ارتكبه عبد الله بن على من الفتك الذريع ببنى أمية ، وتتبعهم بالقتل فى سائر الأنحاء دون هوادة . ولكن من الذى يحمل فى الواقع تبعة هذه المطاردة الدموية المروعة ؟ إن الذى أوصى بمطاردة بنى أمية والفتك بهم هو أبو العباس ذاته ، وهو أول من اجتنى ثمار الجريمة ، وتلقى تراث القتلى ، ولم يكن عمه عبد الله بن على سوى منفذ لإرادته وأمره ، وعلى ذلك فهو أحق بأن يحمل ذلك اللقب الذى يتفق مع تبعاته ونتائج سياسته ، وهو لقب يخصه به جمهرة من الثقاة المؤرخين .

ولكن هذه المطاردة الدموية الشاملة لم تجتث الشجرة من أصلها ، وشاء القدر أن تفلت بعض فروعها من يد الجناة ، وأن تزكو لتستعيد أصلها الراسخ فى أرض أخرى . وكان ممن نجا من المذبحة الهائلة فتى من ولد هشام بن عبد الملك هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام . وكان وقت أن حلت النكبة بأسرته يقيم مع أهله وأخوته ، فى قرية تعرف بدير خنان من أعمال قنسرين ؛ وفيها كان مولده قبل ذلك بنحو عشرين عاماً فى سنة ١١٣ من الهجرة ( ٧٣١ م ) ؛ وقيل بل كان مولده بالعليا من أعمال تدمير . وتوفى أبوه معاوية شاباً فى أيام أبيه هشام بن

---

( ١ ) راجع الطبرى ج ٩ ص ١٢٣ ؛ وابن خلكان فى الوفيات ج ١ ص ٣٥٤ ؛ وابن الأثير ج ٥ ص ١٤٥ و ١٥٥ ، وابن خلدون ج ٣ ص ١٢٨ و ١٣١ و ١٧٣ .

( ٢ ) الطبرى ج ٩ ص ١٣٢ ؛ وابن الأثير ج ٥ ص ١٥٥ .

( ٣ ) راجع « أخبار مجموعة فى فتح الأندلس » ص ٤٨ ؛ وراجع أيضاً كتاب الإمامة والسياسة ج ٢ ص ١٤٨ .

عبد الملك فى سنة ١١٨ هـ ، فكفله وأخوته جدهم هشام[١]. ولما انهار صرح الخلافة الأموية ، وأمعن الظافر فى مطاردة بنى أمية ، فر عبد الرحمن بأهله وولده إلى ناحية الفرات ، وحل هناك ببعض القرى واختفى بها حيناً يدبر أمره ، ولكن جند المسوّدة ما لبثت أن حلت بتلك الجهة تستقصى آثار بنى أمية ، فبادر عبد الرحمن بالفرار . وتنقل إلينا الرواية على لسانه قصة مؤثرة عن حوادث فراره ، وتصف لنا كيف أدركته خيل المطاردين على ضفة النهر مع أخيه الصبى ، فوثبا إلى النهر واستطاع عبد الرحمن أن يقطعه سباحة إلى الضفة الأخرى ، ولكن الغلام عجز عن قطعه وعاد إلى الضفة الأولى ، حيث وعده المطاردون بالأمان ، ولكنه ما كاد يقع فى أيديهم حتى انقضوا عليه وقطعوا رأسه أمام عينى أخيه ، وقلبه يتفطر روعة وأسى[٢] . ولما أن أمن عبد الرحمن خطر مطارديه ، سار مختفياً إلى الجنوب ، قاصداً إلى المغرب . وتقول لنا الرواية أيضاً ، إن المغرب كان مقصده منذ الساعة الأولى ، وإن نفسه كانت تحدثه بما سيكون له فى الأندلس من شأن ، وإن بنى أمية كانوا قبل مصرعهم ، يهجسون بمثل هذه النبوءة ويرددونها[٣] .

واخترق عبد الرحمن فلسطين ومصر ، ولحق به مولياه بدر وسالم ، أنفذتهما إليه أخته أم الأصبغ بشىء من المال والجوهر ، ثم جاز إلى برقة والتجأ إلى أخواله بنى نفزة ، وهم من برابرة طرابلس ، وكانت أمه بربرية منهم تدعى راح ، وأقام لديهم طويلا يرقب الفرص . والظاهر أن محاولة الاستيلاء على إفريقية لم تكن بعيدة عن ذلك الذهن الجرىء المغامر ، وقد كانت إفريقية فى الواقع منذ ربع قرن مطمح الخوارج والمتغلبين . وكان عبد الرحمن بن حبيب الفهرى قد انتزعها لنفسه فى سنة ١٢٧ هـ ، ولما دالت دولة بنى أمية دعا لبنى العباس كما قدمنا ، ولكن الفتى الأموى لم يجد على ما يظهر أية فرصة للعمل فى هذا السبيل . وكان عبد الرحمن ابن حبيب يخشى على سلطانه من ظهور بنى أمية فى إفريقية ، فطارد اللاجئين إليها منهم ، وقتل ولدين للوليد بن يزيد بن عبد الملك ، واعتقل آخرين وصادر أموالهم.

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ١٥٦ .

(٢) أورد هذه الرواية صاحب أخبار مجموعة ( ص ٥١ – ٥٣ ) . وكذلك أوردها ابن حيان مؤرخ الأندلس ونقلها المقرى ( نفح الطيب ج ٢ ص ٦٢ و ٦٣ ) .

(٣) أخبار مجموعة ص ٥١ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٦٢ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٤٣ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٢١ .

ولما شعر بظهور عبد الرحمن الأموى حاول القبض عليه ، ولكن عبد الرحمن استطاع أن يتجنب المطاردة ، وفر مع صحبه إلى المغرب الأقصى ، وتجول حيناً فى تلك الأنحاء ، ولقى كثيراً من الصعاب والخطوب ، وكان يرى الموت والأسر ينذرانه فى كل خطوة . وأقام حيناً مختفياً عند شيخ من شيوخ البربر يدعى وانسوس ، كانت له فيما بعد لديه حظوة ، ثم نزل عند قوم من زناتة على شاطىء البحر ، ولحق حيناً بمليلة وغيرها ، وكان أثناء تجواله يدرس أحوال الأندلس وأخبارها ، ويرقب فرص العبور إليها .

وفى أواخر سنة ١٣٦هـ (٧٥٣م) لاحت له فرصة العمل ، وقوى أمله ما علمه من اشتداد الخلاف بين المضرية واليمنية . فبعث بدراً مولاه إلى الأندلس ليسبر غور شئونها ، وليحاول بث دعوته بين أنصار بنى أمية وأهل الشام ، فنزل بدر بساحل إلبيرة (كورة غرناطة) وكانت منزل جند الشام كما أسلفنا ، وفيها تجتمع عصبة بنى أمية . وكانت رياسة الأمويين (أو المروانية) والشاميين يومئذ لزعيمين من موالى بنى أمية ، هما أبو عثمان عبيد الله بن عثمان وصهره عبد الله ابن خالد . فاجتمع بدر بأبى عثمان وأبلغه رسالة عبد الرحمن ، وناشده العمل لنصرته ، وبث دعوته بين أصدقائه وشيعته ، ولاسيما بين اليمنية ، وهم خصوم يوسف الفهرى ومنافسوه[(١)] . فاستجاب أبو عثمان لهذه الدعوة ، وكانت بينه وبين الصميل مودة وصداقة ، ففكر فى التماس عونه فى ذلك المشروع ، وسار إليه مع عبد الله بن خالد فى طليطلة ، وكان الصميل قد ارتد إليها منهزماً عن سرقسطة وفى نفسه مرارة من يوسف لأنه قصر فى غوثه وإنجاده ، ففاوضاه فى أمر عبد الرحمن وطلبا منه العون والتأييد . ولكن الصميل أبدى تردداً وفتوراً ، واقترح أن يتزوج عبد الرحمن من ابنة يوسف ، وأن ينزل آمناً فى ظله ، ثم صرفهما ببعض الوعود الغامضة[(٢)]. وكان الصميل يحرص فى الواقع على أن تبقى السلطة ليوسف ،

---

(١) يروى لنا ابن حيان قصة اتصال بدر باليمانيين على النحو الآتى : قال لهم ، ما رأيكم فى رجل من أهل الخلافة يطلب الدولة بكم ، فيقيم أودكم ، ويدرككم آمالكم ؛ فقالوا : ومن لنا به فى هذه الديار . فقال بدر : ما أدناه منكم ، وأنا الكفيل لكم به . ثم ذكر لهم خبر عبد الرحمن ومكان وجوده ، وأنه يقدم نفسه إليهم ، فقالوا : فجىء به أهلا ، إنا سراع إلى طاعته ، وأرسلوا بدراً بكتبهم يستدعونه ( راجع الإحاطة لابن الخطيب ( ١٩٥٦ ) ج ١ ص ٤٥٣ ) .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٤٥ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٦٤ ؛ وابن القوطية ص ٢٣ .

لأنه مستأثر فى ظله بالنفوذ والسلطان ، ويشاركه فى تدبير الأمر وحكم الأندلس ، فعاد أبو عثمان وزميله إلى إلبيرة ونشطا إلى بث الدعوة فيها ، وحث اليمنية على القيام للأخذ بالثأر ، وبثا عمالها فى أنحاء الأندلس يدعون إلى تأييد عبد الرحمن الأموى . وعاد بدر إلى عبد الرحمن على مركب خاصة جهزها أبو عثمان ومعه عدة من أنصار الأموية ، وأفضى إليه بنتائج رحلته ، فاستبشر عبد الرحمن ، وعبر البحر معهم إلى الأندلس ، ونزل بساحل إلبيرة فى ثغر المُنكَّب Almuñecar[(١)] ، وذلك فى ربيع الآخر سنة ١٣٨ هـ (سبتمبر سنة ٧٥٥ م) ، فاستقبله أبو عثمان وأنزله بمقامه فى طرُّش Torrox ، وهى قرية تقع غربى المنكب على مقربة من البحر ، فاستقر بها ينظم دعوته ويدبر خططه[(٢)] .

وكان يوسف بن عبد الرحمن الفهرى أثناء ذلك فى الشمال يعسكر بجيشه تحت أسوار سرقسطة ، وقد استعصم بها عامر العبدرى والحباب الزهرى . فلما تم له الأمر بالاستيلاء على سرقسطة والقبض على الزعيمين الثائرين وإعدامهما على نحو ما فصلنا ، ارتد بجيشه صوب طليطلة . وبينا هو فى الطريق على مقربة منها ، إذ أتاه رسول أوفده على جناح السرعة ولده عبد الرحمن بن يوسف ، الذى استخلفه على قرطبة ، ومعه كتاب ينبئه فيه بمقدم عبد الرحمن الأموى ، وانتشار دعوته فى فى جنوب الأندلس ، فذعر يوسف ، وذاع النبأ فى الجيش ، فسرى إليه الخلل ، وتسللت العناصر الناقمة ، ولم يبق منه سوى فلول يسيرة . فهرول يوسف فى بقية جنده إلى طليطلة ، ليبحث مع الصميل فى خير الوسائل لرد هذا الخطر . وكانت الدعوة الأموية فى ذلك الحين قد اجتاحت جنوبى الأندلس ، والتف حول عبد الرحمن عدة من زعماء القبائل والجند ، منهم تمام بن علقمة اللخمى[(٣)] ، وقد أخذ له بيعة جند فلسطين ، ويوسف بن بخت وقد أخذ له بيعة جند الأردن ، وجدار بن عمرو المذحجى من زعماء ريُّه ، وحسان بن مالك الكلبى من زعماء

---

(١) وما تزال المنكب كما كانت ثغراً من ثغور الأندلس الجنوبية . وهى مدينة كبيرة بيضاء تقع على خليجين متجاورين كقوسين فى البحر ، وتحميها الجبال من الخلف . وربما كان موقعها الحصين من البر والبحر ، هو الذى حدا بعبد الرحمن إلى اختيارها للنزول فى شاطىء الأندلس . فضلا عن قربها لمركز دعوته .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٤٦ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٦٥ ؛ وأخبار مجموعة ص ٧٦ .

(٣) لعله أخ لعبد الرحمن بن علقمة اللخمى والى أربونة ، المعروف بفارس الأندلس الذى فصلنا أخباره فيما تقدم .

إشبيلية ، وحشد أبو عثمان وعبد الله بن خالد حوله جموعاً كبيرة من الأموية وأهل الشام . وعاد يوسف والصميل إلى قرطبة ليدبرا الأمر معاً ، وأشار الصميل على يوسف بمصانعة عبد الرحمن وملاطفته وإغرائه بمصاهرته ، فأرسل إليه يوسف وهو ما يزال بطرّش وفداً يعرض عليه أن يزوجه ابنته ، ويقطعه كورة إلبيرة (غرناطه) أو كورة ريه أو يقطعه ما بينهما ، وبعث إليه هدية وشيئاً من المال ، وكتاباً طويلا يرغبه فيه بمحالفته . وينقل إلينا منه صاحب البيان المغرب هذه الفقرة : « أما بعد فقد انتهى إلينا نزولك بساحل المنكب ، وتأبش من تأبش إليك ، ونزع نحوك من السراق وأهل الختر والغدر ، ونقض الأيمان المؤكدة التى كذبوا الله فيها وكذبونا ، وبه جل وعلا نستعين عليهم . ولقد كانوا معنا فى ذرى كنف ورفاهية عيش ، حتى غمضوا ذلك ، واستبدلوا بالأمن خوفاً ، وجنحوا إلى النقض ، والله من ورائهم محيط . فإن كنت تريد المال وسعة الجناب . فأنا أولى بك ممن لجأت إليه ، أكنفك وأصل رحمك ، وأنزلك معى إن أردت أو بحيث تريد ، ثم لك عهد الله وذمته بى ، ألا أغدرك ولا أمكن منك ابن عمى صاحب إفريقية ولا غيره ... » . ولكن عبد الرحمن لم يخدع بوعود يوسف وعهده ، فأبى عرضه ورد رسله ، وكان يسمو بأطماعه إلى أبعد من ذلك وأرفع ، وكان سلطان الأندلس كلها مطمح آماله[1]. وكان قد آنس عندئذ ذيوع دعوته وقوة أنصاره ، فسار فى صحبه من طرّش إلى ريُّه ، فبايعه عاملها عيسى بن مساور ، ثم إلى شذونة فبايعه عاملها علقمة بن غيات اللخمى ، ثم إلى إشبيليه ، فبايعه كبيرها أبو الصباح بن يحيي اليحصبى زعيم اليمنية ، وانضم إليه أثناء تجواله كثير من الأنصار والجند ، واجتمع له فى إشبيلية زهاء ثلاثة آلاف فارس ، وذاعت دعوته فى غربى الأندلس كله ، وأقبلت إليه المتطوعة من كل صوب ، من المضرية واليمنية وأهل الشام . ولما رأى أنه يستطيع البدء بمناجزة يوسف سار فى قواته صوب قرطبة ، وكان ذلك فى فاتحة ذى الحجة سنة ١٣٨ هـ (أوائل سنة ٧٥٦ م ) .

وفى ذلك الحين كان يوسف والصميل قد حشدا جموعهما ، ومعظمها من الفهرية والقيسية ، وكان جند يوسف قد وهن ، وتفرق معظمه خلال الفتن والغزوات المتوالية ، وجاءت دعوة عبد الرحمن الأموى فزادته تفرقاً وضعفاً .

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٤٧ ؛ وأخبار مجموعة ص ٧٩ و ٨٠ .

وخرج يوسف بقواته إلى المسارّة فى ظاهر قرطبة من الغرب ، على ضفة نهر الوادى الكبير ، وكان عبد الرحمن قد أشرف بجيشه على ضفة النهر الجنوبية ، فى قرية مقابلة تسمى « بلّة نوبة » ( ڤليا نويڤا Villanueva )[١] . وفرق النهر بين الجيشين مدى أيام ثلاثة ، وفى اليوم الرابع وهو يوم الخميس تاسع ذى الحجة ، هبط ماء النهر وانحسر فى بعض المواضع ، فتأهب الفريقان للحرب ، ولم تنجح محاولة يوسف فى سبيل عقد الصلح ، وصمم عبد الرحمن على القتال فى اليوم التالى أعنى يوم الجمعة ، وكان يوم الأضحى ، متيمنا فى ذلك بذكرى موقعة مرج راهط الشهيرة ، التى انتصر فيها جده مروان بن الحكم ، على قوات عبد الله ابن الزبير ، التى يقودها الضحاك بن قيس الفهرى ، وذلك فى يوم الأضحى — وقد كان الجمعة أيضاً — سنة ٦٤ هـ . وفى اليوم التالى دفع عبد الرحمن قواته لاقتحام النهر ، وكان أول من اقتحمه منهم جند بنى أمية ، وكان يوسف يتفوق على خصومه بكثرة فرسانه ، ولكن التفرق كان يسود جنده ، وكانت جموع عبد الرحمن تضطرم على قلتها عزماً وحماسة ، فنشبت بين الفريقين معركة عنيفة ولكن قصيرة ، فلم يأت الضحى حتى مزقت خيل يوسف ، وهزم جيشه هزيمة شديدة ، ونهبت أسلابه ، وقتل كثير من وجوه القيسية والفهرية[٢] . وفر يوسف صوب طليطلة ، حيث كان ولده عبد الرحمن ، وفر الصميل صوب جيان . ودخل عبد الرحمن الأموى وصحبه قرطبة دون معارضة ، وحمل جنده ما استطاع على الاعتدال والقناعة ، وحمى أسر خصومه وحريمهم وأموالهم من العيث ، وصلى الجمعة فى الجامع ، ثم نزل بالقصر ، وبويع فى الحال بالإمارة ، وذلك فى العاشر من ذى الحجة سنة ١٣٨ هـ ( ١٣ مايو سنة ٧٥٦ م )[٣] .

كان يوم المسارّة بالنسبة لعبد الرحمن فاتحة الظفر لاغايته ، فقد استطاع بعد أحداث وخطوب جمة أن يجوز إلى الأندلس ، وأن يفتتح عاصمتها ، وأن ينتزع إمارتها لنفسه ، ولكنه ظفر بعرش لم يتوطد سلطانه بعد . وكان ثمة بينه وبين مُلْك

---

( ١ ) ابن القوطية ص ٢٦ .

( ٢ ) ويبالغ البعض فى تقدير عدد القتلى فيقدره بسبعين ألفاً ( ابن القوطية ص ٢٧ ) .

( ٣ ) يفرد صاحب أخبار مجموعة فصلا مسهباً لهذه الموقعة ، وكيفية تقسيم الجيشين المتحاربين وأسماء القادة فى كل منهما ( ص ٨٦ — ٩٠ ) . وراجع أيضاً ابن القوطية ص ٢٦ — ٢٨ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٦٥ و ٦٦ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٤٨ و ٤٩ .

الأندلس الحقيقى مراحل بعيدة ، وكان ملك الأندلس قد غدا منذ انحلال الخلافة الأموية ، كما رأينا ، نهباً مشاعاً يتنازعه الزعماء والمتغلبون ، وكانت الفتن المتوالية قد عصفت بالسلطة العليا ، واقتصت من أطرافها ، واستقل الزعماء الأقوياء بكثير من النواحى ، وقضى يوسف الفهرى معظم ولايته فى إخماد الفتنة ، واستخلاص الرياسة ، ولكنه لم يوفق إلى إخماد كل عناصر النزاع والخروج. فلما ظهر الفتى الأموى فى الميدان ، كان صرح الأندلس يهتز فوق دعائمه الواهنة ، وكان توطيده يتطلب كثيراً من العزم والعمل القوى .

وكان يوم المسارّة حاسما فى مصاير الأندلس ، وكان فاتحة عهد جديد فى تاريخها . ولكن المهمة كانت فادحة ، والمعركة شاقة مشعبة النواحى. وكما أن يوم المسارة كان فاتحة الظفر ، فقد كان فاتحة الكفاح أيضاً . ذلك أن الأندلس كانت يومئذ بسيطاً من الفتن المتأججة ، وكانت الثورة تجثم فى كل ناحية ، وانحلت عرى العصبية القديمة الشاملة ، وانتثرت فرقاً وشيعاً صغيرة ، فلم تبق الخصومة قاصرة على المضرية واليمنية فقط ، ولكن غدت كل قبيلة وكل بطن تلتف حول زعامتها ومصالحها الخاصة . وكانت هذه القوى المنتثرة المستقلة برأيها وهواها ، تتمسك باستقلالها المحلى ، وتأبى الخضوع لأية سلطة عامة . وكان عبد الرحمن يرمى إلى إحياء دولة الإسلام فى الأندلس موحدة متماسكة ، كما كانت قبل أن تمزقها الحرب الأهلية ، فكانت المعركة فى الواقع معركة الدولة والإمارات المستقلة ، ومعركة السلطة المركزية والإقطاع المحلى : معركة الرياسة الشاملة ، والعصبية المتناثرة . وكان البربر عنصراً قوياً فى الفتنة ، يحتفظون دائماً ببغضهم القديم للعرب ، ويحرصون على ما انتزعوه منهم خلال الفتنة من النواحى والضياع . ثم كان هنالك ما هو أشد خطراً على دولة الإسلام فى الأندلس ، ونعنى اسبانيا النصرانية التى استطاعت أن تخرج سراعاً من غمر الهزيمة والفوضى ، وأن تنتظم إلى مملكة جديدة فى الشمال ، وكذلك مملكة الفرنج القوية التى استطاعت أثناء الفتنة أن تنتزع الأراضى الإسلامية فيما واء البرنيه. وكان نصارى الشمال والفرنج يتربصون يومئذ بالأندلس ، ويرون فى تفرقها وضعفها فرصة صالحة للعمل ، ويتصلون بكثير من الزعماء والخوارج ، ويمدونهم بالنصح والعون ، ويتخذونهم وسائل لتحقيق مشاريعهم فى تمزيق الأندلس وانتزاع أطرافها .

كان عبد الرحمن غداة ظفره الأول ، يواجه هذه الخطوب والأخطار كلها ، وكان عليه أن يقارعها جميعاً ، لكى يغنم رياسة الأندلس القوية المتحدة . ولكن ذلك الأمير الفتى الذى لم يكن يجاوز السادسة والعشرين يوم ظفره ، كان رجل الموقف ، قد شحذت من عزمه الخطوب والمحن ، وأعدته لحياة النضال والمغامرة . فقضى بقية عمره — اثنين وثلاثين عاماً — فى كفاح مستمر ، لاينتهى من معركة إلا ليخوض أخرى ، ولايقمع ثورة إلا تليها ثورة ، ولا يسحق خارجاً إلا ليعقبه خارج ، ولم تبق بالأندلس ناحية أو مدينة إلا ثارت عليه ، ولا قبيلة إلا نازعته فى الرياسة ، ولم تبق قوة خفية أو ظاهرة إلا عملت لسحقه . فكانت الأندلس طوال عهده بركاناً يتأجج بضرام الحرب والثورة والمؤامرة . ولكنه صمد لتلك الخطوب كلها ، واستطاع بكثير من الذكاء والإقدام والعزم والجلد ، أن يغالب تلك الأخطار والقوى ، وأن يقبض على مصاير الأندلس بيده القوية ، وأن يحيى سلطان أسرته المندثر ، فى ذلك القطر النائى ، ليستقر ويزدهر أكثر من قرنين . وكان تفرق خصومه أهم عامل فى ظفره ، فلم تك ثمة زعامة شاملة بعد يوسف والصميل ، يجتمع الخصوم حولها ، وكانت القوى الخصيمة منتثرة فى النواحى والمدن ، تعمل كل بمفردها حول زعيمها المحلى ، وكانت فوق ذلك يعارض بعضها بعضاً فى معظم الأحيان ، وقد استطاع عبد الرحمن أن يقدر هذا الظرف وأن يستغله ، فعمد إلى لقاء معارضيه فى الميدان فرادى ، واستطاع أن يخمد ثوراتهم ، وأن يحطم قواهم بالتعاقب ، وهو فى كل مرة يزداد قوة ومنعة ، ويزداد خصومه ضعفاً وتفرقاً ، حتى قضى عليهم جميعاً .

# الفصل الثالث

## ولاية عبد الرحمن الداخل

— ١ —

بدء المعارك الداخلية . القتال بين يوسف والصميل وبين عبد الرحمن . إذعانهما إلى طلب الصلح وعودهما إلى قرطبة . فرار يوسف وسجن الصميل . يوسف يستأنف الحرب . هزيمته وفراره . مصرعه فى طليطلة ومقتل ولده عبد الرحمن . فرار ولده محمد إلى طليطلة . هزيمته وأسره . مصرع الصميل . تأملات عن يوسف والصميل . ثورة القاسم بن يوسف فى الجزيرة الخضراء . استيلاؤه على إشبيلية . مهاجمة عبد الرحمن لإشبيلية . هزيمة القاسم وأسره . ثورة عبد الغافر اليمنى فى إشبيلية وإخمادها . استئنافها على يد حيوة بن ملامس . عبد الرحمن يقاتله ويهزمه . ثورة هشام بن عزرة الفهرى بطليطلة وامتناعه بها . ظهور العلاء بن مغيث واضطرام الثورة فى باجة . شهر الدعوة العباسية واتساع نطاق الثورة . مسير عبد الرحمن لمقاتلة العلاء وحلفائه . لقاؤهما فى قرمونة . هزيمة الثوار ومصرعهم . إرسال رؤوسهم إلى إفريقية ومكة . استئناف حصار طليطلة . تسليمها ومصرع زعمائها . ثورة المطرى بلبلة . هزيمته ومقتله . ثورة أبى الصباح فى إشبيلية . إستدراجه إلى قرطبة ومقتله . ظهور الفاطمى البربر ودعوته . ثورته فى غرب الأندلس . هزيمته لقوات عبد الرحمن . مسير عبد الرحمن لقتاله . التجاؤه إلى الجبال . خطة عبد الرحمن لتفريق جموعه . عود الثورة إلى إشبيلية ولبلة . مسير عبد الرحمن لقتال الثوار . تفرق الثوار وهزيمتهم . عود عبد الرحمن لقتال الفاطمى . التجاؤه إلى شنت برية . اغتياله وانهيار دعوته .

وكان أول ما عنى به عبد الرحمن من أدوار ذلك النضال بعد يوم المسارة ، هو أن يتعقب يوسف والصميل أقوى خصومه وأخطرهم . وكان يوسف قد فر عقب الموقعة صوب طليطلة ، وفر الصميل إلى جيان معقل قومه . وحشد يوسف فى طليطلة ونواحيها ما استطاع من أنصاره ، بمعاونة عامله عليها هشام بن عزرة الفهرى ، ووافاه الصميل بمن حشد من المضرية . ثم سارا فى قواتهما إلى جيان ثم إلى إلبيرة (غرناطة) ، واجتمع أهل هذه الأنحاء حول يوسف ، ونزل يوسف بإلبيرة يتأهب لمحاربة عبد الرحمن . ولكنه ما كان يستقر فى إلبيرة ، حتى بادر عبد الرحمن بالسير إليه ، وترك حماية قرطبة لحليفه وقائده أبى عثمان . ولما علم يوسف بمسيره إليه ، بعث ابنه عبد الرحمن فى بعض قواته إلى قرطبة ، فاقتحمها وأسر أبا عثمان ونفراً من أهل عبد الرحمن وحريمه ، ثم غادرها فى الحال خشية

المفاجأة . ولكن عبد الرحمن الأموى لم يلو فى طريقه على شىء ، وقصد إلى إلبيرة توا ، وحاصر يوسف والصميل . فلما شعرا بأن المقاومة عبث ، فاوضاه فى الصلح والتسليم بالأمر له ، ونبذ كل دعوى فى الولاية والسلطة ، على أن يؤمنهما فى النفس والمال والأهل ، وأن يؤمن حلفاؤهم وأصدقاؤهم جميعاً ، وأن يسمح لهما بسكنى قرطبة تحت رعايته ورقابته ، فأجابهما عبد الرحمن إلى الصلح على ذلك ، وعلى أن يقدم يوسف ولديه عبد الرحمن ومحمداً أبا الأسود رهينة لديه ، يعتقلهما فى قصر قرطبة برفق وإكرام ، حتى تطمئن النفوس وتستقر الأمور ، وتم عقد الصلح بين الفريقين فى صفر سنة ١٣٩ هـ ، وأفرج عن أبى عثمان وباقى الأسرى الذين أسرهم ولد يوسف ، وتصافى الفريقان ، وقفل يوسف والصميل مع عبد الرحمن إلى قرطبة ، وانفض جندهما[١]. ونزل يوسف بشرقى قرطبة فى قصر الحر الثقفى أحد الولاة السابقين ، ونزل الصميل بداره بالربض (الضاحية) ، وأبدى عبد الرحمن نحوهما عطفاً وليناً ، وهو مع ذلك يشدد عليهما الرقابة ، ويحرص على تجريدهما من كل سلطة وقوة . وكان فى قرطبة فل من عصبة يوسف وأنصاره السابقين ، الذين نالوا على يديه جاهاً وحظوة ، يتطلعون إلى العهد السابق ، ويلومون يوسف على تسليمه واستكانته ، ويحرضونه على استعادة مركزه وسلطانه ، وكان يوسف من جهة أخرى يشعر أنه فى شبه اعتقال ، وأن عبد الرحمن يضيق الخناق عليه ، ويؤلب عليه صنائعه ، ينازعونه فى أملاكه وأمواله لدى القضاء ، والقضاء يميل إلى غبنه وإعناته ، حتى ذهب معظم أملاكه ، وهو يشعر أن عبد الرحمن من وراء ذلك الاضطهاد[٢]. عندئذ عول على الفرار ، وكاتب أنصاره فى ماردة وطليطلة ، ثم فر إلى ماردة ، وكان بها معظم أهله وأصهاره (سنة ١٤١ هـ) ، وهناك حشد أنصاره من العرب والبربر ، حتى اجتمع له زهاء عشرين ألفاً ، وتخلف الصميل ولم يوافقه ، فقبض عليه عبد الرحمن وألقاه فى غيابة السجن بتهمة التحريض والتآمر . وبينا كان عبد الرحمن يحشد جنوده ، سار يوسف بقواته إلى إشبيلية ، وعليها عبد الملك بن عمر بن مروان المعروف بالمروانى ، فحاصره فى إشبيلية حتى أتاه ولده عبد الله بالمدد ، ثم وقعت بينهما معارك شديدة

---

(١) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ٦٦ ؛ وأخبار مجموعة ص ٩٣ و ٩٤ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٥٠ .

(٢) المقرى عن ابن حيان (نفح الطيب ح ٢ ص ٦٦) ، وأخبار مجموعة ص ٩٥ .

قتل فيها كثير من الفريقين ، وارتد يوسف منهزماً بفلوله . وكان عبد الرحمن الأموى يرابط عندئذ بقواته فى حصن المدوّر ، الواقع على مقربة من غربى قرطبة ، على نهر الوادى الكبير ، فوافته الأخبار بهزيمة يوسف وفراره ، فتوقف عن مطاردته ، وسار يوسف إلى طليطلة ، ولبث يتردد فى أنحائها مدى أشهر ، وهو يحاول أن ينظم قواته مرة أخرى ، ولكن بعض الخونة من أنصاره أو مواليه ائتمروا به ، واغتالوه ذات يوم على مقربة من طليطلة ، وحملوا رأسه إلى عبد الرحمن فى قرطبة (سنة ١٤٢ هـ) . والظاهر أن هذه الجريمة لم تكن بعيدة عن وحى عبد الرحمن . وانتهت بذلك حياة يوسف الحافلة المضطربة ، وأمن عبد الرحمن شره وخطره ، وقتل ابنه عبد الرحمن المعتقل لديه ، ورفع رأسيهما فوق الرماح أمام القصر ليلقى الرعب فى قلوب الخوارج والمخالفين [١]. أما ولد يوسف الآخر وهو محمد أبو الأسود ، فقد استطاع أن يفر من سجنه ، وقصد تواً إلى طليطلة معقل عصبة أبيه وتحصن بها ، فبعث عبد الرحمن فى أثره جيشاً بقيادة تمام بن علقمة وعينه والياً لطليطلة ، فحاصرها حتى سلمت ، وأسر محمد بن يوسف ثانية وجىء به إلى قرطبة ، واستولت جنود عبد الرحمن على طليطلة ( ذى الحجة سنة ١٤٢ ) ، وسحق بذلك وكر الثورة الفهرية . وزج محمد إلى السجن ثانية وادعى العمى حتى استطاع الفرار بعد محنة طويلة ، وعاد يرفع علم الثورة كما سيأتى . واستطاع أخوه الأصغر القاسم بن يوسف أن يفر من طليطلة متنكراً قبل سقوطها . وأما الصميل ، فلبث يوسف فى سجنه مدى أسابيع أخرى حتى دس عليه عبد الرحمن من قتله داخل السجن خنقاً ( أواخر سنة ١٤٢ هـ ) [٢].

وهكذا انتهت بذهاب يوسف والصميل مرحلة خطيرة من الإضطراب والقلاقل . كان يوسف شخصية قوية وزعيما ممتازاً ، وقد استطاع أن يحكم الأندلس زهاء عشرة أعوام فى ظروف عصيبة ، وأن يسهر على وحدتها وسلامتها بقوة

---

( ١ ) البيان المغرب ج ٢ ص ٥١ ؛ وأخبار مجموعة ص ١٠٠ . ولكن كوندى يورد عن مصرع عبد الرحمن بن يوسف رواية أخرى هى أنه كان عند مقتل أبيه حراً طليقاً ، وقتل فى معركة دموية نشبت بينه وبين جنود تمام بن علقمة والى طليطلة (Conde : ibid., V.I. p. 174) وهى رواية ظاهرة الضعف .

( ٢ ) نفح الطيب ج ٢ ص ٦٧ ؛ وابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٥٥ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٥١ ، وأخبار مجموعة ص ١٠١ .

وذكاء ، وأن يدرأ عنها خطر نصارى الشمال والفرنج ، ولما فقد يوسف رياسة الأندلس فى يوم المسارة ، لبث مع ذلك أخطر قوة تهدد طالع عبد الرحمن الأموى وسلطانه ، ولبث روح الثورة والمعارضة مدى أعوام أخرى. وكان الصميل زعيماً قوى العصبية ، نافذ الرأى والكلمة ، وافر الدهاء والمكر ، يخشى بأسه ووحيه . فكان ذهابهما من الميدان فوزاً لعبد الرحمن ، وخطوة كبيرة فى سبيل استقرار رياسته وتوطدها .

وقطع عبد الرحمن أعوامه التالية فى كفاح مستمر ، يتلقى وثبات الخوارج عليه من كل صوب. وكان أول الخوارج عليه بعد مصرع يوسف والصميل ، القاسم ابن يوسف وحليفه رزق بن النعمان الغسانى. وكان القاسم حينما فر من طليطلة كما قدمنا ، قد سار إلى الجزيرة الخضراء ، والتجأ إلى شيخها رزق بن النعمان صديق أبيه ، وحشد حوله جمعاً من الأنصار والمرتزقة ، واستولى بمعونة حليفه على شذونة ، ثم سارا فى قواتهما إلى إشبيلية ، ولم تكن بها قوة تدافع عنها ، فاستوليا عليها دون مشقة ، فبادر عبد الرحمن الأموى فى قواته إلى إشبيلية ، ونشبت بينه وبين الخوارج معركة عنيفة ، قتل فيها رزق بن النعمان ومزق جنده ، ودخل عبد الرحمن إشبيلية ظافراً ، وذلك فى أواخر سنة ١٤٣ هـ . أما القاسم فالتجأ بقواته إلى شذونة ، وبعث عبد الرحمن فى أثره تماماً والى طليطلة ، فطارده حتى أسره ومزق قواته(١) .

ولبث عبد الرحمن بإشبيلية بضعة أشهر ، ولكنه ما كاد يغادرها إلى قرطبة حتى نشبت فيها ثورة أخرى ، بقيادة عبد الغافر اليمانى زعيم اليمانية ، واستولى عبد الغافر على ما جاور قرطبة من الأنحاء ، وكثرت جموعه ولا سيما من البربر ، وأصبح يهدد قرطبة . فخرج عبد الرحمن لقتاله ، والتقيا بوادى قيس على مقربة من قرطبة ، فاستمال عبد الرحمن حلفاء عبد الغافر من البربر وانفض عنه جندهم ، واقتتل الفريقان فهزم عبد الغافر هزيمة شديدة ، وفر إلى لَقَنت ، وطارد عبد الرحمن جنده حتى قتل منهم ألوفاً عديدة (سنة ١٤٤ هـ) .

ورفع لواء الثورة من بعده فى إشبيلية أيضاً ، حيوة بن ملامس الحضرمى

---

(١) Conde : ibid., V. I. p. 178 ، وأخبار مجموعة ص ١٠١ .

كبير زعمائها ، وتغلب على إشبيلية وإستجة وكثير من نواحي الغرب[١]، والتف حوله أهل هذه الأنحاء واستفحل أمره . فسار إليه عبد الرحمن ، ونشبت بينهما معارك عنيفة مدى أيام ، ودافع الثوار عن أنفسهم بمنتهى البسالة ، حتى كادت الدائرة تدور على عبد الرحمن ، ولكن التفرق دب أخيراً إلى صفوف الثوار ، ولحقهم الإعياء والملل ، فوقعت عليهم الهزيمة ، وفر زعيمهم حيوة ، وكتب إلى عبد الرحمن يلتمس منه العفو والأمان ( سنة ١٤٤ هـ — ٧٦١ م )[٢] .

وعلى أثر ذلك نشبت الثورة فى طليطلة . وكان عبد الرحمن قد اختار لولايتها تمام بن علقمة ، ثم عينه لحجابته فكان أول حجابه ، وخلفه فى ولاية طليطلة حبيب بن عبد الملك . وكانت المدينة ماتزال تضطرم بعناصر الثورة وفيها كثير من أنصار الفهرية ، فلم يلبث أن قام زعيمهم هشام بن عزرة الفهرى ، ولد عزرة أمير الأندلس السابق ، وأعلن الثورة واعتصم بالمدينة . فسار إليه عبد الرحمن وحاصره مدى أشهر ، حتى اضطر إلى طلب الصلح ، وقدم ولده رهينة بحسن طاعته ، فأجابه عبد الرحمن إلى طلبه ، وآثر أن يهادنه مؤقتاً . ولكنه ما كاد يصل إلى قرطبة حتى عاد هشام إلى الثورة ، فارتد إليه عبد الرحمن ليعاقبه على نكثه ، وحاصره ثانية وقتل ابنه ، وأطلق رأسه بالمنجنيق داخل الأسوار ، ولكنه لم يظفر بحمل الثائر على التسليم ، فعاد إلى قرطبة ليضاعف أهباته ، بيد أنه لم يستطع أن يعود تواً إلى طليطلة ، إذ نمى إليه عندئذ خبر حادث داهم الخطر يتطلب كل جهوده وقواه .

ذلك أن داعية من خصوم بنى أمية هو العلاء بن مغيث اليحصبى[٣]، وكان من وجوه باجة وله بها رياسة وعصبة ، كاتب أبا جعفر المنصور ، واتصل برسله

---

( ١ ) كورة « الغرب » كانت تقع غربى إشبيلية ، حتى جنوبى البرتغال ما بين لبلة وولبة والمحيط ، وقد حرفت فى الإفرنجية إلى كلمة **Algarve** .

( ٢ ) البيان المغرب ج ٢ ص ٥٣ ، والمقرى ج ٢ ص ٧٣ . ويذكر كوندى أن حيوة من ملامس كان بالعكس صديقاً حميماً لعبد الرحمن ، وبالغ فى الاحتفاء به يوم نزوله بإشبيلية ، وأنه توفى بعد ذلك بقليل فرثاه عبد الرحمن بأبيات مؤثرة **(Conde : ibid., V.I.p. 179)** ، ولكن كوندى يخلط هنا فى الوقائع . والحقيقة أن حيوة بن ملامس كان من أصدقاء عبد الرحمن لأول مقدمه وكانت له لديه منزلة ، وينقل إلينا ابن الأبار بيتين ينسب قولهما إلى عبد الرحمن فى امتداح حيوة وجوده ووفائه ( الحلة السيراء ص ٣٣ و ٣٤ ) . ولكنه غدا بعد من ألد خصومه ومنافسيه . وله أخبار أخرى ستجىء .

( ٣ ) وقيل الحضرمى ( أخبار مجموعة ص ١٠٧ ) . والجذامى ( البيان المغرب ج ٢ ص ٥٣ ) .

فى إفريقية ، واستصدر منه سجلا بولايته للأندلس . ثم ارتد إلى الأندلس ، وعاد إلى باجة فى قوة كبيرة ، ودعا لبنى العباس ، ورفع العلم الأسود ، وأعلن أنه قد عين أميراً للأندلس من قبل المنصور[١] (سنة ١٤٦هـ) . وكان الخليفة العباسى يحاول بهذه الدعوة ، أن يحطم مشاريع بنى أمية فيما وراء البحر ، وأن يبسط سلطانه الإسمى على الأندلس . وقد رأينا أن عبد الرحمن بن حبيب المتغلب على إفريقية ، دعا لبنى العباس حينما انهار سلطان بنى أمية ، وكاتب الخليفة العباسى فأقره على حكم إفريقية ، فكانت إفريقية تابعة لبنى العباس من الوجهة النظرية ، وهكذا كان شأن العلاء بن مغيث ، فقد رأى أن يستظل فى ثورته بالدعوة العباسية ، لكى يسبغ عليها لوناً من الشرعية ، ولم يكن للخليفة العباسى اعتراض على محاولة لا يتحمل تبعتها من الوجهة المادية ، وإن كان يعضدها من الناحية المعنوية ، وقد أرسل بالفعل سجلا إلى الثائر بما طلب . وكان بعض الزعماء الخوارج على يوسف ابن عبد الرحمن ، قد استظلوا بالدعوة العباسية كما قدمنا . وسنرى كيف يشهر الخوارج على عبد الرحمن الأموى هذه الدعوة فى حوادث وخطوب أخرى[٢] .

واضطرمت باجة وما حولها بنار الثورة ، وهرعت القبائل والأحزاب المختلفة إلى الانضواء تحت اللواء الأسود ، ولاسيما الفهرية واليمنية وجند مصر ، واستفحل أمر العلاء وكثر جمعه ، وانضم إليه أمية بن قطن وأصحابه . وأعلن غياث ابن علقمة الثورة فى شذونة محالفاً للعلاء . فخرج عبد الرحمن من قرطبة فى جميع قواته ، وبعث بدراً مولاه فى بعضها إلى شذونة ، فحاصرها حتى أذعن غياث لطلب الصلح . وسار عبد الرحمن إلى قرمونة ما بين قرطبة وإشبيلية نظراً لمناعتها ، واتخذ موقف الدفاع ، فسار إليه العلاء فى جموعه ، وهاجم قرمونة مراراً ، وحاصرها مدى أسابيع حتى وهنت قوى جنده ، وعندئذ انقلب عبد الرحمن من الدفاع إلى الهجوم ، وداهم العلاء فى صفوة جنده ، ونشبت بين الفريقين معارك شديدة مدى أيام ، حتى هزم العلاء ومزق جنده ، وقتل منهم آلاف عديدة ، وكان العلاء نفسه بين القتلى ؛ وأسر ابن قطن . وجمع عبد الرحمن رؤوس الزعماء والقادة من خصومه ورقمها بأسمائهم . وحملها بعض رسله إلى القيروان ، فألقيت فى أسواقها سراً ، وأثارت هناك دهشة وارتياعاً . ووضعت رأس العلاء فى سفط ،

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٥٤ .

(٢) راجع ابن القوطية ص ٣٢ ؛ وابن الأثير ج ٥ ص ٢١٣ ؛ وابن خلدون ج ٤ ص ١٢٢

ومعها اللواء الأسود وسجل المنصور للعلاء ، وحمله بعض التجار الثقاة إلى مكة ، حيث كان المنصور يؤدى فريضة الحج فى العام التالى (سنة ١٤٧ هـ) . وألقى أمام سرادق المنصور ، وحمل إليه فارتاع لرؤيته ، وقال ما معناه : « ما فى هذا الشيطان مطمح ، فالحمد لله الذى جعل بيننا وبينه البحر »[١] .

وهكذا استطاع عبد الرحمن أن يسحق هذه الدعوة الخطرة ، وكان أخطر ما فيها أنها لم تكن دعوة حزب أو قبيلة ، وإنما كانت دعوة عامة تدعمها الصبغة الشرعية ، ولم يك أصلح منها لجمع خصوم عبد الرحمن من سائر الأحزاب والقبائل تحت لواء واحد[٢] . ولما عاد عبد الرحمن إلى قرطبة كانت الثورة التى يثير ضرامها هشام الفهرى فى طليطلة ، قد استفحلت واتسع نطاقها . فأرسل عبد الرحمن قائديه بدراً وتمام بن علقمة فى جيش كبير إلى طليطلة ، فطوقها وشدد الحصار عليها حتى ضاق أهلها ذرعاً ، واضطروا إلى طلب الصلح ، على أن يسلموا الزعماء الثائرين ، وقبضوا على هشام وعدة من أصحابه ، فأخذوا إلى قرطبة مصفدين معذبين ، ثم صلبوا بأمر عبد الرحمن ، وتم بذلك سحق الثورة فى طليطلة إلى حين (سنة ١٤٧ هـ — ٧٦٤ م) .

وفى أوائل سنة ١٤٩ هـ — ٧٦٦م ، خرج سعيد اليحصبى المعروف بالمطرى بمدينة لَبْلة ، مطالباً بثأر اليمانية الذين قتلوا مع العلاء ، فهرعت إليه اليمانية وقوى جمعه . ثم سار إلى إشبيلية فاستولى عليها ، وارتد عنها واليها عبد الملك بن عمر المروانى لقلة جنده ، ولبث ينتظر المدد . وكانت إشبيلية مطمح كل ثائر لقربها من قرطبة ، ولأنها لبثت مدى أعوام من أهم مراكز الثورة فى الأندلس . وخرج فى الوقت نفسه غياث بن علقمة اللخمى بمدينة شذونة ناكثاً لعهده . فسار عبد الرحمن أولا إلى إشبيلية ، وانقلب المطرى إلى قلعة رعواق القريبة وامتنع بها ، فحاصره عبد الرحمن وقطع علائقه مع بقية أنصاره ، فلما ضاق الثائر بالحصار ذرعاً ، حاول الخروج ليشق له طريقاً بين الحشد المحاصر ، ووقعت بين الفريقين معركة شديدة قتل فيها المطرى ، وارتدت فلوله إلى القلعة ، وقدموا عليهم خليفة بن مروان ،

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٥٤ ؛ والمقرى ج ١ ص ١٥٦ وج ٢ ص ٦٧ ؛ وأخبار مجموعة ص ١٠٢ و ١٠٣ ؛ وابن القوطية ص ٢٣ .

(٢) Dozy : Hist., V. I. p. 234

فاستمر عبد الرحمن فى محاصرة الخوارج ، حتى أذعنوا لطلب الصلح ، وسلموا إليه قائدهم فقتله ، واستولى على القلعة وهدمها ، ثم سار إلى شذونة فحاصرها حتى أذعن أهلها لطلب الأمان .

وفى العام التالى عادت الثورة فاضطرمت فى إشبيلية ، ومدبرها وزعيمها فى تلك المرة أبو الصباح بن يحيى اليحصبى ، صديق عبد الرحمن وحليفه ، وكان أبو الصباح زعيم اليمنية فى إشبيلية يوم قدوم عبد الرحمن إلى الأندلس ، فكان فى طليعة من هرعوا يومئذ لتأييده ونصرته ، وقاتل معه يوم المسارّة ، وغدا إلى جانب أبى عثمان وعبد الله بن خالد ، من خاصة أعوانه وأركان دولته . ولكن عبد الرحمن كان يحقد عليه ويتوجس منه ، لحديث نقل عنه يوم المسارة بوجوب التخلص من عبد الرحمن بعد التخلص من يوسف الفهرى ورد الأمر إلى اليمنية[1] . وكان عبد الرحمن قد ولاه إشبيلية ، ثم عزله عنها لما ظهر من عجزه عن قمع الفتنة ، فغضب أبو الصباح وأظهر الخلاف ، واجتمع إليه أنصاره ، ورأى عبد الرحمن أن يأخذه بالحيلة والملاطفة ، فبعث إليه تمام بن علقمة يدعوه إلى قرطبة للتفاهم ، ويبذل له ما شاء من الوعود ، فسار أبو الصباح إلى قرطبة فى أربعمائة من رجاله ، واستقبله عبد الرحمن بالقصر ، وعاتبه على ما كان منه ، فأغلظ أبو الصباح فى الجواب ، ولامه على النكث بوعوده له ، فأمر الفتيان بقتله ، فقتل طعناً بالخناجر وانفض جمعه ( سنة ١٥٠ هـ ) .

ولم يمض قليل على ذلك حتى نشبت فتنة خطيرة من نوع جديد ، شغلت عبد الرحمن مدى الأعوام التالية ، وكان نشوبها فى شمال شرقى الأندلس بين البربر ، وزعيمها ومثير ضرامها ، داعية بربرى خطر يدعى شقنا أو شقيا بن عبد الواحد ، وأصله من بربر مكناسة ، وكان فقيهاً يعلم الصبيان ، فزعم ذات يوم أنه سليل النبى ومن ولد فاطمة والحسين ، وتسمى بعبد الله بن محمد . فذاعت دعوته بين البربر فى تلك المنطقة ، وكانوا أكثرية بها . والخصومة بين العرب والبربر قديمة موئلة كما بينا ، وقد كان البربر دائماً على قدم الأهبة للثورة ضد العرب . ولما آنس الدعى الفاطمى قوة جمعه ، سار إلى شنت برية[2] . فاستولى عليها وجعلها مركزه

---

( ١ ) نفح الطيب ج ٢ ص ٦٦ ؛ وابن القوطية ص ٣٠ .

( ٢ ) شنت برية وبالإسبانية **Santaver** من الكور الأندلسية القديمة التى اندثرت ، وكان موقعها يشغل مقاطعة قونقة اليوم ، وقاعدتها شنت برية تقع شرق وادى الحجارة . وسميت كذلك عن اسمها القديم **Santebria** .

العام ، ثم سار فى جموعه غرباً واستولى على ماردة وقورية ومدلين ، وعلى جميع المنطقة الواقعة حولها بين نهرى التاجُه ووادى يانة ، فقويت دعوته وعظم أمره ، واشتد بغيه وعيثه فى تلك الأنحاء ، وأخذت العناصر المخالفة لعبد الرحمن من العرب فى التحرك أيضاً . فعهد عبد الرحمن إلى والى طليطلة أن يقمع ثورة الدعى ، فبعث إلى شنت برية جيشاً بقيادة سليمان بن عثمان ، فخرج إليه الفاطمى فى قواته ، فهزمه هزيمة شديدة ، وأسر قائده سليمان وقتله ، وزاد هذا الظفر فى سلطانه وبغيه . فسار إليه عبد الرحمن بنفسه فى العام التالى (سنة ١٥٢ ﻫ) ، واقتحم منطقة الثورة ، ونشبت بينه وبين البربر وقائع عديدة ثبت فيها البربر ، وامتنع الثائر بالجبال ، ولم يجد عبد الرحمن سبيلا إلى مطاردته . فارتد إلى قرطبة ، وبعث إلى شنت برية مولاه بدراً ليتابع القتال ، فاستمر الفاطمى ممتنعاً بصحبه فى الجبال ، محاذراً لقاء الجيش المهاجم . وعاد عبد الرحمن لقتاله بنفسه فى العام التالى (سنة ١٥٤ ﻫ) ، وشدد فى محاصرته ومطاردته ، ولكنه لم يفلح أيضاً فى حمله على مغادرة مواقعه ، ثم بعث لقتاله فى العام التالى مولاه عبيد الله بن عثمان ، فخرج الفاطمى للقائه واستمال جنده البربر ، وبث الخلاف إلى صفوفه ، فانحل عسكره وأثخن فيه الفاطمى ، ففر عبيد الله واستولى الثائر على معسكره وأسلاب جيشه ، وقتل جماعة كبيرة من وجهاء جنده (سنة ١٥٥ ﻫ)[1] .

وهكذا فشلت الحملات المتوالية لإخماد الثورة فى تلك المنطقة الوعرة ، فعاد عبد الرحمن بجيش جديد إلى شنت برية ، ولكنه لجأ عندئذ إلى وسيلة جديدة لتمزيق شمل الثوار ، فاستقدم إليه كبير البربر فى شرقى الأندلس واسمه هلال الميديونى ، وأقره على ما بيده من الأنحاء ، وأصدر له عهداً بولاية الأنحاء التى غلب عليها الفاطمى ، وفوض إليه أمر استخلاصها منه ، وكان لتلك الحيلة أثرها فى بث الخلاف إلى صفوف البربر ، فانفض عن الفاطمى كثير من أنصاره ، واضطر أن ينسحب من شنت برية إلى الشمال ليعتصم بالجبال مرة أخرى ، وبينا عبد الرحمن يجد فى مطاردته ويقتحم معاقله وضياعه ، وينكل بأنصاره حيثما وجدوا ، إذ بلغه نشوب الثورة فى إشبيلية ولبلة وباجة ، وقوامها اليمنية من عصبة أبى الصباح

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٥٦ و ٥٧ ؛ وابن الأثير ج ٥ ص ٢٢٤ ؛ وابن خلدون ج ٤ ص ١٢٣ .

وأنصاره . وكان على رأس الثورة فى إشبيلية زعيمها القدم حيوة بن ملامس الحضرمى ، وفى باجة عبد الغافر اليحصبى ، وفى لبلة عمر بن طالوت ، وهما من أبناء عمومة أبى الصباح ، وانضم إليهم كثير من البربر ، فحشد الثلاثة جموعهم واعتزموا السير إلى قرطبة فى غيبة عبد الرحمن ، وكان قد استخلف عليها مولاه بدراً [١] . فعاد عبد الرحمن إلى قرطبة مسرعاً ، ثم غادرها توا إلى لقاء الثوار ، فالتقى بهم فى وادى منبس على نهر «عمبزار» أحد فروع الوادى الكبير ، ونشبت بين الفريقين فى المبدأ عدة معارك محلية . ثم لجأ عبد الرحمن إلى الحيلة والخديعة ، فعهد إلى جماعة من وجهاء البربر من جنده ، أن يتصلوا بزملائهم البربر من جند العدو ، وأن يقنعوهم بخطأ تصرفهم فى نصرة اليمنية ، وأنه إذا تغلب عليه العرب ، كانت العاقبة وبالا عليهم أيضاً ، فانسل الرسل إلى معسكر العدو تحت جنح الظلام ، وخاطبوا أبناء جنسهم بما تقدم ، وأخذوا عليهم العهود والمواثيق . وفى اليوم التالى نشبت بين الفريقين موقعة عامة . فنكث البربر وتقاعدوا عن القتال ، فهزم الثوار شر هزيمة ، وكثر القتل فى جموعهم حتى قتل منهم زهاء ثلاثين ألفاً [٢] . وهلك معظم الزعماء الثائرين ، وفر عبد الغافر وركب البحر إلى المشرق ، وقرن عبد الرحمن ظفره باجراء دموى آخر ، إذ قبض على ثلاثين من وجهاء إشبيلية ممن كانوا فى جيشه وأمر بهم فأعدموا ( سنة ١٥٧ — ١٥٨ هـ ) .

وفى العام التالى عاد عبد الرحمن إلى مطاردة الفاطمى ، فالتجأ الثائر إلى الجبال كعادته ، ولم يجد عبد الرحمن سبيلا إلى اللحاق به ، فغزا قورية وأثخن فى تلك الأنحاء ، وكان أمر الفاطمى قد ضعف خلال هذه الأعوام وتضاءل جمعه ، ولكنه لبث يسيطر على شنت برية وماردة ، ولبثت دعوته خطراً يهدد سلام الأندلس . فوجه عبد الرحمن لقتاله فى العام التالى حملة قوية أخرى بقيادة تمام ابن علقمة وعبيد الله بن عثمان ، فلقيهما الفاطمى ووقعت بينهما معارك شديدة ، رجحت فيها كفته ، ثم التجأ إلى حصن شبطران بقرب شنت برية ، فحاصره تمام وعبيد الله مدى أشهر ، ولم يظفرا منه بطائل ، فعادا إلى قرطبة ، وخرج الفاطمى على أثر عودهما إلى شنت برية ، ونزل بقرية من أعمالها تسمى قرية العيون ،

---

( ١ ) ويقول ابن الأثير إنه كان يستخلف عليها ولده سليمان ( ج ٦ ص ٣ ) .

( ٢ ) ابن القوطية ص ٣١ و ٣٢ .

وهنالك ائتمر به اثنان من أصحابه هما أبو معن داود بن هلال وكنانة بن سعيد ، وانقضا عليه ذات يوم وقتلاه ، واحتزا رأسه وحملاها إلى عبد الرحمن فى قرطبة ، وبذلك انفضت جموعه ، وخبت ثورته ، بعد أن لبثت زهاء عشرة أعوام تحمل الدمار والسفك إلى شرق الأندلس وغربها ، وتهدد سلطان عبد الرحمن بشر العواقب ، وحققت الخيانة فى لحظة واحدة ما لم تحققه الحملات والبعوث المتعاقبة فى أعوام طويلة . ولعل هذه الضربة الناجعة لم تكن بعيدة عن أصبع عبد الرحمن أو وحيه ، وقد كانت الخيانة والجريمة من بعض أسلحته فى مقارعة خصومه ، وكانتا تحققان له فى بعض الأحيان من الظفر ما لا تحققه أى الوسائل . وكان مصرع الفاطمى وانتهاء ثورة سنة ١٦٠ هـ (٧٧٦ م)[1] .

(١) أخبار مجموعة ص ١١١ ؛ وابن الأثير ج ٦ ص ١٧ .

# الفصل الرابع

## موقعة رونسفال أو باب شزروا

الثورة فى الشمال . تحالف ابن يقظان والى برشلونة والحسين الأنصارى والى سرقسطة . هزيمة جيش عبد الرحمن وأسر قائده . سعى ابن يقظان لدى ملك الفرنج واستدعاؤه لغزو اسبانيا . تلبية شارلمان للدعوة . اتصال الزعماء الخوارج بالفرنج . سياسة الفرنج فى تشجيع الثورة فى الأندلس . صلة الخلافة العباسية بهذه السياسة . الصراع بين الأندلس والفرنج . اللون الدينى لهذا الصراع . أقوال الروايات اللاتينية فى تأييد هذه الخاصة . مسير شارلمان إلى اسبانيا . اختراقه لنافار وحصاره لبنبلونة . مقاومة البشكنس . سقوط المدينة فى يد الفرنج . مقدم سليمان وتسليمه الرهائن . زحف شارلمان على سرقسطة . مقدم بقية الجيش الفرنجى . تطور الحوادث . تحول الحسين وامتناعه بسرقسطة . فشل شارلمان فى أخذها . اعتقاله لسليمان وارتداده . بواعث هذا الارتداد الفجائى . عود شارلمان إلى مهاجمة بنبلونة وتخريبها . بدء المسير للعود . عيشون ومطروح ولدا سليمان . تحالفهما مع الحسين الأنصار . سيرهما فى قواتهما فى أثر الفرنج . مسير شارلمان إلى البرنيه . أبواب البرنيه . رونسفال أو باب شزروا . مفاجأة الجيش الفرنجى وفصل مؤخرته . من هم الذين هاجموه . المسلمون أم البشكنس . المسلمون هم الذين دبروا الهجوم . معاونة البشكنس . وصف الرواية اللاتينية للهجوم . تمزيق مؤخرة الجيش الفرنجى . مصرع الفرسان والسادة الفرنج . أنشودة رولان وبعدها عن التاريخ الحق . مكانتها فى أدب الفروسة . لماذا لم ينتقم شارلمان لهزيمته . مقارنة بين الروايتين العربية واللاتينية .

فى ذلك الحين كانت ثمة حوادث هامة أخرى تقع فى شمال الأندلس . وقد تتبعنا ثورة الفاطمى والبربر إلى نهايتها حرصاً على صلة الحديث . ونعود الآن بضع سنين إلى الوراء . ففى سنة ١٥٧ هـ (٧٧٤ م) ثار سليمان بن يقظان الكلبى ( أو الأعرابى ) والى برشلونة (أوبرشنونة )[١] وجيرونة ( جيرندة ) ، والحسين ابن يحيى الأنصارى والى سرقسطة ، وهو من ولد سعد بن عبادة ، وتحالفا على قتال عبد الرحمن وخلعه . وكان استمرار الثورة فى الجنوب ، وانشغال عبد الرحمن الدائم بقمعها ، وطبيعة الشمال الجبلية ومنعته ، مما يذكى عوامل الثورة فى الولايات الشمالية ، ويشجع مشاريع الزعماء الخوارج . وكان عبد الرحمن يشتغل يومئذ بمقاتلة الفاطمى ، فأرسل إلى الشمال جيشاً بقيادة ثعلبة بن عبيد الجذامى ، فهزمه

---

( ١ ) وهو تعريب مطابق لأصلها اللاتينى **Barcenona**

سليمان وأسره وتفرق جيشه ( ١٥٨ هـ — ٧٧٥ م ) [١]. واستفحل أمر الثورة فى الشمال ، ولكن زعماء الثورة وعلى رأسهم سليمان بن يقظان لم يطمئنوا إلى ذلك النصر المؤقت لما يعلمونه من عزم عبد الرحمن وبأسه وروعة انتقامه ، ففكروا فى الاستنصار بملك الفرنج. وسار سليمان ( وتسميه الرواية اللاتينية ابن الأعرابى ) مع نفر من صحبه الخوارج ، إلى لقاء شارلمان أو كارل الأكبر فى ربيع سنة ٧٧٧م (١٦٠ هـ) ؛ وكان يومئذ يقيم بلاطه فى مدينة پادربورن من أعمال وستفاليا (شمال غربى ألمانيا) ، ويعقد الجمعية الكبرى ، حيث كانت جموع السكسونيين المغلوبة تعمّد للنصرانية ، بعد أن شتت شارلمان شملهم وفر زعيمهم ڤيد وكنت ؛ فهنا وفد عليه سليمان وصحبه ، وعرض عليه المحالفة على قتال عبد الرحمن ، واقترح عليه غزو الولايات الأندلسية الشمالية ، وتعهد بمعاونته ، وبأن يسلمه المدن التى يحكمها هو وصحبه من قبل أمير قرطبة ولاسيما سرقسطة ، وأخيراً بأن يسلمه أسيره القائد ثعلبة بن عبيد . وتضيف الرواية اللاتينية إلى ذلك أنه كان مع ابن الأعرابى ولد ليوسف الفهرى حاكم الأندلس السابق جاء ومعه صهره ليسعيا كذلك إلى خلع عبد الرحمن ؛ وتقول الرواية الإسبانية النصرانية ، إن الذى دعا شارلمان إلى غزو اسبانيا هو ألفونسو أمير إمارة ليون النصرانية (جليقية) . ولكن الروايتين العربية والفرنجية (اللاتينية) كلتاهما صريحة فى أن الدعو جاءت من سليمان بن يقظان ( الأعرابى ) وحلفائه . والرواية العربية تقول لنا بمنتهى الوضوح ، إن سليمان استدعى قارله ( كارل أو شارلمان ) ملك الفرنج إلى بلاد المسلمين ، ووعده بتسليم برشلونة أو سرقسطة[٢] . وتوافق الرواية اللاتينية على ذلك ، وتزيد أن سليمان

---

( ١ ) ويقدم إلينا الرازى بعض تفاصيل عن ذلك . فيقول لنا إن سليمان بن يقظان الكلبى ( وهو الأعرابى ) كان من زعماء سرقسطة ، فلما ولى الثغر بدر مولى عبد الرحمن الداخل نقله إلى قرطبة ، فحرضه البعض على القيام بثأر قومه اليمانية فخرج من قرطبة إلى سرقسطة ودخلها . وخرج لمحاربة ثعلبة بن عبيد سنة أربع وستين ومائة ، ونزل مدينة طرسونة ، ووالى حربه ، واضطرب على باب سرقسطة بمعسكره ، فافترس سليمان بن يقظان غفلته ، وافتراق أهل الجيش ، فهجم عليه وأسر ثعلبة بن عبيد ، وبعث به إلى ملك الفرنج . وأهم مفارقة فى رواية الرازى هو التاريخ المتأخر الذى يقدمه إلينا عن هذه الموقعة ، وذلك حسبما يتضح بعد من سير الحوادث ( وقد نقل إلينا هذه الرواية العذرى فى كتابه ترصيع الأخبار الذى سبقت الإشارة إليه ص ١٢٥) .

( ٢ ) أخبار مجموعة ص ١١٢ و ١١٣ ، وابن الأثير ج ٦ ص ٥ و ٢١ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٢٤ .

وحلفاءه أعلنوا خضوعهم لملك الفرنج وانضواءهم تحت حمايته[1].

ولبى ملك الفرنج دعوة الثوار المسلمين ووافق على عروضهم . وبعث إليه سليمان بأسيره ثعلبة بن عبيد قائد عبد الرحمن ، عنواناً للثقة والتحالف ، فسجن فى إحدى القلاع الفرنسية . وفى رواية أخرى أنه سلمه إليه عقب مقدمه إلى اسبانيا . وعلى أى حال فقد كان حصول هذا الأسير ، وهو من خاصة عبد الرحمن وأكابر وزرائه فى يد ملك الفرنج ، ضربة لعبد الرحمن ، ورهينة قيمة يمكن استغلالها . وكان سليمان زعيم أولئك الخوارج يعمل مستقلا لنفسه ، ويرمى قبل كل شىء إلى تحطيم سيادة قرطبة ، وإلى الاستقلال بما فى يده تحت حماية ملك الفرنج . ولكن ملك الفرنج كانت له مشاريع أخرى . وكانت السياسة الفرنجية ترمى إلى تعضيد روح الثورة والخلاف فى إسبانيا المسلمة ، ولاسيما منذ انهارت سيادة الإسلام فى جنوبى فرنسا وارتد المسلمون إلى ما وراء البرنيه . وبدأ تطبيق هذه السياسة منذ عهد پپين أبى شارلمان . وكان سليمان بن يقظان زعيم الثورة فى الشمال يتصل بملك الفرنج منذ سنة ٧٦٠ م ، أعنى منذ استيلائه على أربونة واتصال الحدود الفرنجية بحدود اسبانيا المسلمة ، ويسعى بهذا التحالف إلى تأييد استقلاله . وهكذا بدأت العلائق تنتظم بين الزعماء المسلمين ، الخوارج على حكومة قرطبة ، وبين الفرنج المتربصين بدولة الإسلام فى الأندلس ، فكان الزعماء الخوارج كلما حاولوا الثورة والاستقلال بحكم مدينة أو ولاية ، اتجهوا إلى الفرنج يستمدون عونهم ومناصرتهم ، وكان الفرنج يسارعون إلى تلبية هذه الدعوات ، ويتخذونها ذريعة للتدخل فى شئون اسبانيا المسلمة ، وإذكاء روح التفرق فيها ، وسنرى كيف استطاع ملوك الفرنج تنفيذ هذه السياسة فى فرص عديدة متعاقبة . والظاهر أن الخلافة العباسية فى المشرق لم تكن بعيدة عن تأييد هذه السياسة فى المغرب ، والتوسل بذلك إلى مناوأة بنى أمية الذين استطاعوا أن ينتزعوا هذا القطر النائى من أقطار الخلافة ، ويقيموا فيه دولتهم الداهبة على دعائم جديدة ، فإن الرواية الفرنجية تحدثنا عن

---

(١) تراجع أقوال الرواية اللاتينية فى مؤلف العلامة الأستاذ پيدال : **Ramón Menendez Pidal: La Chanson de Roland y el Neotradicionalismo (Espana-Calpe, Madrid 1959) p. 179 - 180** وهو مؤلف ضخم جامع، وأحدث ما أخرجه العلامة الإسبانى، وهو يتناول حوادث موقعة باب الشزرى بإفاضة شافية وتحليل ممتع . وراجع أيضاً موسوعة بوكيه **Bouquet. Vol. V.** وكذلك **Reinaud : Invasions des Sarrazins, en France, p. 94 p. 14, 40 & 142**

علائق المنصور وپپين وتقول لنا ، إن پپين بعث فى سنة ٧٦٥ م سفارة إلى بغداد ، ورد المنصور بإرسال سفراء إلى ملك الفرنج وفدوا عليه بعد ذلك بثلاثة أعوام ، وقضوا حيناً فى البلاط الفرنجى فى مدينة متز[١]. وسار شارلمان ولد پپين على سياسة أبيه ، فكان بينه وبين الرشيد فيما بعد تلك المكاتبات والسفارات الشهيرة التى فصلتها الرواية الفرنجية أيضاً ، والتى نعود إليها فى مقامها المناسب . وسنرى فيما بعد ، أنه فى الوقت الذى كان فيه يعقد هذا التحالف بين ثوار الشمال وبين ملك الفرنج ، كانت ثمة محاولات تبذل لنشر الدعوة العباسية فى الأندلس حيث نزل عبد الرحمن بن حبيب الفهرى المعروف بالصقلبى فى تدمير يدعو للخلافة العباسية على نحو ما نفصل بعد .

وكانت إسبانيا المسلمة تجوز إزاء هذا الخطر الأجنبى الذى يتربص بها ظرفاً من أدق ظروفها ، فقد كانت مصايرها تهتز فى يد القدر ، وكان الإسلام يجوز فيها معركة الحياة والموت ، بعد أن كان قبل ذلك بحقبة يسيرة يتدفق إلى ماوراء البرنيه بقوة ، ويسود معظم أنحاء فرنسا الجنوبية . وكانت مملكة الفرنج بالعكس قد توطدت دعائمها ، وانتزعت من الإسلام كل معاقله فى فرنسا ، بعد أن لبث مدى حين يزعجها ويهدد وجودها . وبينما اجتمعت كلمة الفرنج بزعامة الأسرة القارلية القوية ، إذا بالإسلام فى اسبانيا تعصف به ريح التفرق من كل صوب وتمزقه شر ممزق ، وإذا بالأندلس تغدو بركاناً من القلاقل والحروب الأهلية . وكان كارل الأكبر (شارلمان) مذ ولى العرش (سنة ٧٦٨ م) يشغل عن التدخل فى اسبانيا المسلمة ، بمحاربة القبائل الوثنية السكسونية فيما وراء الرين لير د خطر اعتدائها على مملكته ، وليخضعها إلى سلطانه . وكانت غزوات الأسرة القارلية تتخذ فيما وراء الرّين منذ عهد كارل مارتل ، جد كارل الأكبر ، لوناً دينياً عميقاً كالذى تتخذه حروب الفرنج مع العرب فى غاليس . ذلك أن حروب الفرنج فيما وراء الرين كانت تتخذ مظهر حماية النصرانية ، من خطر الوثنية المتدفق من المشرق ، وكانت حروبهم فى غاليس تتخذ مظهر حماية النصرانية ، من وثبات الإسلام المتدفق من الجنوب . وكانت الكنيسة روح هذه المعارك توحى بها وتذكيها ، إلى جانب شهوة الظفر والفتح . فلما ظفر الفرنج برد تيار الإسلام إلى ما وراء البرنيه ، واستولوا

---

(١) Reinaud : ibid. p. 89 & 92.

على جميع ثغوره ومعاقله فى فرنسا ، وفترت تلك النزعة الدينية العميقة ، التى جعلت غاليس مدى نصف قرن مسرحاً لصراع العرب والفرنج ، بقيت الأطماع والبواعث السياسية ، تحفز الفرنج إلى قتال الإسلام ومطاردته ، وانتزاع اسبانيا أو على الأقل ولاياتها وثغورها الشمالية من قبضته ، لتكون معقلا لدرء فورانه ووثباته من الجنوب .

وتشير الروايات اللاتينية إلى غايات السياسة الفرنجية من التدخل فى شئون اسبانيا المسلمة ، وتحدثنا عن هذا المزج بين الغايات الدينية والدنيوية . فأما عن الناحية السياسية فإن إجنهارت مؤرخ شارلمان يقول لنا إن الحملة التى نظمها الملك الفرنجى إلى اسبانيا كان يقصد بها مهاجمة قرطبة . وإنه ليبدو من ضخامة الجيش الذى حشده شارلمان ، أن الأمر لم يكن متعلقاً فقط بالاستيلاء على المدن التى وعد سليمان بن يقظان بتسليمها ، وأن شارلمان كان يرمى بالعكس إلى السيطرة على اسبانيا كلها ، أو على الأقل نصفها الشمالى . ويقول لنا «أبدال» وهو مؤرخ حملة شارلمان الإسبانية ، إن الأمر لم يكن متعلقاً بغاية دينية قوامها تحطيم دولة « كافرة » ولكن الحملة كانت ترمى إلى غاية سياسية قوامها أن يوضع حد لأخطار الغزوات الإسلامية لفرنسا . ويرى الأستاذ پيدال أن شارلمان لم تكن له غاية دينية خالصة فى أية حملة من حملاته ، وأن الباعث كان دائماً سياسياً ، ولكنه يبطن فى ثنيته الغاية الدينية . ذلك لأن المشكل الوحيد لإخضاع شعب « كافر » هو حمله على اعتناق النصرانية ، وهذا ما وقع بالنسبة لحملات شارلمان ضد « الأڤار »[1] ، وضد « السكسونيين » .

ومن ثم فقد كان مسير شارلمان إلى اسبانيا يبطن الغاية الدينية إلى جانب الغاية السياسية ، وهذا ما تؤيده الرواية اللاتينية **Anales Mettenses** ، التى كتبت فى حياة شارلمان ، وفيها «أن كارلوس قد هزته شكاوى النصارى الإسبان الذين نكل بهم المسلمون فسار بجيشه إلى هنالك» . ويضيف الأستاذ پيدال إلى ذلك «انه وإن كان الإسلام يتسم حقاً بالتسامح ، إلا أن النصارى واليهود فى اسبانيا كانوا يعانون ضغطاً وإرهاقاً فى ظل الحكومة الإسلامية ، ومن ثم فقد كان للنصارى المستعربين

---

(١) الأڤار أو الأڤاريين **Avars** هم مجموعة من القبائل القوية كانت تسكن حوض نهر الدانوب الأوسط . وقد حطمهم شارلمان وانتهى الأمر بتنصيرهم ( ٧٩١ — ٧٩٥ م ) .

أن يستقبلوا شارلمان كمحرر لهم » . وتؤيد هذه النزعة الدينية للحملة ، روايات لاتينية كثيرة أخرى معاصرة ولاحقة . بيد أن أقطع دليل على روح الحملة الدينية هو أن شارلمان قد أبلغ البابا هادريان بأمرها قبل أن يضطلع بها ، وأن البابا بارك عزيمته ووعده بإقامة الصلوات ، لكى يعود ظافراً إلى مملكته[١].

وكان كارل حينما استدعاه الخوارج المسلمون لغزو اسبانيا ، قد انتهى من الحرب فى سكسونية ، وهزم القبائل الوثنية الجرمانية ، وأخضع زعيمها القوى «ڤيدوكنت» وألجأه إلى الفرار ، فجاءت الدعوة إليه فى وقت ملائم . وانتظر كارل حتى مضى الشتاء ، ثم سار إلى الجنوب وقضى أعياد الفصح فى أكوتين على مقربة من بوردو . وفى فاتحة ربيع سنة ٧٧٨ م ، جمع قواته المؤلفة من فرنج نوستريا ومن الجرمان واللونبارد وفرق من بريتانيا وأكوتين ، واخترق ولاية أكوتين ، وقرر أن يفتتح الغزوة الإسبانية توا حتى لا يفاجئه الشتاء ، وقسم جيشه الضخم إلى قسمين ، عبر أحدهما جبال البرنيه من الناحية الشرقية ، وعبرها القسم الثانى بقيادة كارل نفسه من الناحية الغربية ، من الطريق الرومانى القديم فوق آكام «چان دى لاپور» الشاهقة التى تشرف على مفاوز رونسڤال الوعرة ، على أن يجتمع الجيشان على ضفاف نهر الإيبرو أمام سرقسطة حيث يلتقى شارلمان بحلفائه المسلمين . وكان عبوره لجبال البرنيه من « باب الشزرى » فى شهر أبريل على الأرجح . واخترق شارلمان بلاد البشكنس أو ناڤار الحديثة ، وحاصر عاصمتها بنبلونة ، وهى قلعة الناڤاريين ، واستولى عليها بعد قليل . وقد كان أولئك الناڤاريون دائماً شعبة خاصة من « البشكنس » ، وكانت بنبلونة دائماً مدينة البشكنس منذ أيام سترابون[٢]. وقد كان البشكنس دائماً يحاولون الاحتفاظ باستقلالهم منذ أيام القوط ، وكثيراً ما لجأوا فى سبيل ذلك إلى الخروج والعصيان ، والامتناع بهضابهم وجبالهم الشاهقة ، وكان هذا شأنهم حينما وفد شارلمان بقواته الضخمة ، فقد كانوا يحرصون على هذا الاستقلال ، ولا يودون الخضوع لأية جهة ، لا إلى الفرنج ، ولا إلى مملكة (جليقية) ، ولا إلى إمارة قرطبة الإسلامية . ومن ثم فقد اضطر شارلمان إلى محاصرة بنبلونة وأخذها بالعنف . وهنا تبرز هذه الحقيقة ، وهى

---

(١) راجع : R.M. Pidal : ibid., p. 181, 182, 183 & 184.

(٢) R. M. Pidal : ibid., p. 186

أن شارلمان بغزو بلاد البشكنس ، كان يحارب أمة من النصارى ، وهو فى ذلك لم تكن تحدوه سوى بواعث السياسة والفتح . ولم تكن النزعة الدينية خاصة بارزة فى تلك الغزوة . أما الجيش الفرنجى الذى اخترق شرقى البرنيه ، فقد كان يسير فى منطقة يسيطر عليها الفرنج ، مذ تقلص عنها سلطان المسلمين ، منذ أيام پپين والد شارلمان ، ومن ثم فقد كان يخترق بلاداً صديقة ، يرحب أهلها بمقدمه ، أملا فى عونه وحمايته .

وتقول لنا بعض الروايات اللاتينية[1] إن سليمان بن يقظان (ابن الأعرابى) ، كان يتردد عندئذ بانتظام على بنبلونة ، وإنه وفقاً لتعهداته سلم الرهائن إلى شارلمان ، وإنه قد وفد كذلك على بنبلونة أبو ثور بن قسى حاكم وشقه ، وقدم أخاه وولده رهينة ، وقد بقيت هذه الرهائن فى معسكر شارلمان حتى وقعت النكبة . بيد أنه توجد روايات أخرى مفادها أن الرهائن سلمت فيما بعد ، حين وفود شارلمان على سرقسطة . وعلى أى حال ، فقد سار شارلمان بعد استيلائه على بنبلونة ومعه سليمان إلى سرقسطة[2] ، وهى معقد المشروع كله حسبما اتفق عليه فى پادربورن ؛ وكان القسم الآخر من الجيش ، قد اخترق فى تلك الآونة منطقة جيرندة ( جيرونة ) وبرشلونة ، واتجه غرباً إلى سرقسطة حيث انضم إلى القوات التى يقودها شارلمان ، وكان شارلمان ، يعتقد حينما سار إلى سرقسطة أنه سيلقى هناك حلفاءه المسلمين على أهبة لمعاونته وتحقيق رغباته فى الاستيلاء على المدينة الكبرى . ولكن الحوادث كانت تطورت عندئذ ، ودب الخلاف بين الخوارج المسلمين . وكان الحسين بن يحيى الأنصارى والى سرقسطة حليف سليمان منذ البداية ، وكان عضده فى مشروعه لاستدعاء الفرنج . وبالرغم من أنه لم يذهب إلى پادربورن ، ولا إلى بنبلونة ، فقد كان موافقاً على الحلف الذى عقده سليمان مع شارلمان ، وعلى العهود التى قطعها له . والظاهر أن الحسين نقم على سليمان موقف الصدارة والزعامة الذى اتشح به إزاء الفرنج ، فنشبت بينهما الخصومة ، أو أنه خشى عاقبة التورط فى حلف الفرنج . فعدل موقفه فى آخر لحظة حينما شعر بمسير الفرنج إلى مدينته والظاهر أيضاً أنه لم يكن فى سرقسطة حينما أقبل إليها الجيش الفرنجى ؛ إذ تقول

---

R. M. Pidal : Ibid., cit. Anales Breves. p. 187 (١)

(٢) ابن الأثير ج ٦ ص ٥ .

لنا الرواية الإسلامية ، إنه سبق إليها سليمان ، وتحصن بها ، فلما أشرف شارلمان مع حليفه سليمان على سرقسطة ، رفض الحسين أن يستقبله ، وألفى المدينة محصنة متأهبة للدفاع والمقاومة ، فعبر نهر الإيبرو إلى الضفة الأخرى ، وقدم إليه سليمان رهائن عدة من الأعيان والأكابر ، وفى مقدمتهم ثعلبة بن عبيد قائد عبد الرحمن وكان أسيراً لديه حسبما تقدم . ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئاً لإقناع الحسين بفتح أبواب سرقسطة ، ولم يستطع شارلمان من جهة أخرى الاستيلاء عليها ، وردت المدينة المحصورة كل هجماته بشدة[1] ، وعجز سليمان أن يحقق شيئاً من وعوده فى تسليم المدن والحصون الواقعة فى تلك المنطقة . ولم يشأ ملك الفرنج أن يخوض فى تلك الوهاد والهضاب الصعبة معارك لم يتأهب لخوضها ، وارتاب من جهة أخرى فى نية سليمان وموقفه ، فقبض عليه[2] ، وارتد بجيشه نحو الشمال الشرقى فى طريق العودة . وكان ذلك فى شهر يوليه سنة ٧٧٨ م ( شوال سنة ١٦١ هـ ) .

بيد أن هذه الوقائع ينقصها شىء من الوضوح . ذلك أنه لم تقع بين الفريقين معارك ذات شأن . فهل ارتد ملك الفرنج من تلقاء نفسه ، أم اضطر مرغماً إلى الارتداد لبواعث وأسباب لا نعلمها ؟ .

يقول الأستاذ بيدال « إن الانسحاب لا شك فيه . ولكن فشل حملة الملك الفرنجى لاتفسرها لنا هجمات المحصورين . إذ كيف يرتد هذان الجيشان الفرنجيان اللذان يضمان هذه الجموع من جند بريتانيا ونوستريا وباڤاريا ولومبارديا ؟ وكيف يرتد كارل وهو فى عنفوان قوته بهذه السهولة ؟ كيف يرتد هذا العاهل القوى وجيشه العظيم ما يزال سليما لم يمس ، دون أن يخضع الحسين ، ودون أن يفتتح أواسط إسبانيا ؟ »[3] .

إن الروايات اللاتينية تحاول أن تلقى الضوء على ذلك الغموض ؛ فيقول لنا « أبدال » السالف الذكر ، إن شارلمان قدر أنه قد يجد نفسه وحيداً فى قلب شعب معاد ، مع صعوبة التموين لجيشه العظيم . بيد أنه يوجد تعليل آخر أقوى وأوضح ، تقدمه إلينا رواية لاتينية أخرى فى نصها الآتى : « إن السكسون المارقين حينما

---

( ١ ) أخبار مجموعة ص ١١٣ .
( ٢ ) ابن الأثير ج ٦ ص ٥ .
( ٣ ) R.M. Pidal : Ibid.; p 188

علموا أن الملك كارلوس فى منطقة سرقسطة، قد شقوا الطاعة ، وخربوا وأحرقوا الأراضى حتى ضفاف الرين . ونمى ذلك إلى كارلوس وهو فى اسبانيا ، فلما وقف عليه عاد مسرعاً إلى فرنسا »(١) . وربما كان فى ذلك خير تفسير لانسحاب شارلمان ، وتركه سرقسطة لمصيرها .

ارتد شارلمان على رأس قواته المجتمعة وفى ركبه سليمان أسيره وعدد من الرهائن وسار شمالا نحو بلاد البشكنس . وكان النافاريون فى تلك الأثناء قد جمعوا فلولهم ، واعتزموا الدفاع عن حاضرتهم بنبلونة وعن حرياتهم التالدة ، خصوصاً وقد شجعتهم وقفة سرقسطة وصاحبها الحسين ضد الملك الفرنجى ، وانضم إليهم كثير من المسلمين من أبناء الأنحاء المجاورة، للتعاون فى دفع العدو المشترك ؛ ولكن شارلمان هاجم بنبلونة بعنف ، ولم تجد بسالة النافاريين وحلفائهم المسلمين شيئاً ، فتركوا المدينة ، وتفرقوا فى مختلف الأنحاء ؛ واستولى شارلمان على بنبلونة للمرة الثانية ، وهدم حصونها وأسوارها حتى لاتعود إلى المقاومة إذا عاد إلى تلك الأنحاء ، ولكى يمهد لجيشه طريق العود المأمون إلى فرنسا .

وغادر شارلمان بنبلونة متجهاً إلى جبال البرنيه من طريق هضاب رونسفال المؤدية إلى باب الشزرى . فما الذى حدث عندئذ ؟ تقول الرواية العربية إن شارلمان « لما أبعد من بلاد المسلمين واطمأن ، هجم مطروح وعيشون إبنا سليمان فى أصحابهما ، فاستنقذا أباهما ورجعا به إلى سرقسطة »(٢). وفى هذه الكلمات القليلة تشير الرواية العربية إلى النكبة الهائلة التى أصابت الجيش الفرنجى أمام باب الشزرى والتى تقدم إلينا الروايات اللاتينية اللاحقة تفاصيلها .

والظاهر أيضاً من الرواية العربية أن ولدى سليمان ، حينما قبض شارلمان على أبيهما ، عادا إلى الاتفاق مع الحسين بن يحيى على مقاومة الفرنج ، وجمعا فى الحال قوات أبيهما وأتباعه، وسارا بجيشهما فى أثر ملك الفرنج يحاولان مهاجمته وإنقاذ أبيهما من أسره . وكان شارلمان فى ذلك الحين قد غادر بنبلونة بعد تخريبها متجهاً صوب جبال البرنيه ، ليعبرها كرة أخرى إلى فرنسا ، وكان عبوره من نفس الطريق التى أتى منها ، أعنى من مفاوز رونسفال . ويقع ممر رونسفال Roncesvalles ،

---

(١) R. M. Pidal : ibid ; cit. Chronicon Moissiocense ; p. 189

(٢) ابن الأثير ج ٦ ص ٥ .

الذى يسمى بالعربية « باب شيزروا »[١]، أو باب الشزرى ، فى طرف البرنية الغربى شمال شرقى بنبلونة ، وعلى قيد عشرين كيلومتر منها ، وهو أحد ممرات عدة كانت تستعمل منذ عهد الرومان لاختراق البرنيه من الشمال أو الجنوب . وهى نفس الممرات أو الأبواب التى كان يستعملها العرب للعبور إلى غاليس[٢] . وقد لبثت هذه الجبال الوعرة الشاهقة على ممر القرون حاجزاً منيعاً يفصل بين شبه الجزيرة الإسبانية وبين غاليس ، ولا يتأتى للغزاة ، عبوره إلا خلال هذه الممرات الشهيرة . ففى مفاوز رونسفال الوعرة ، وتجاه ممر البرنيه المسمى بهذا الاسم أعنى باب شيزروا ، وقعت المفاجأة الهائلة . ذلك أن الجيش الفرنجى ما كاد يبدأ عبور الجبال ، حتى أشرف المسلمون بقيادة عيشون ومطروح على مؤخرته ، وهاجموه بشدة رائعة ، وفصلوا عنه مؤخرته ، وانتزعوا منها الأسلاب والأسرى ، وفيهم سليمان بن يقظان . والرواية العربية صريحة فى أن المسلمين هم الذين دبروا هذا الهجوم الفجائى ، على مؤخرة الجيش الفرنسى ، ولكن بعض الروايات اللاتينية التى تتحدث عن الموقعة ، تقول لنا إن الذين

---

(١) هذه هى تسمية الشريف الإدريسى ، وهى مشتقة من الاسم الرومانى القديم **Portus Ciserei** أو **Portus Sizarae**

(٢) يقدم لنا الشريف الإدريسى وصفاً دقيقاً لجبال البرنيه التى تسمى فى الجغرافية العربية بجبال البرت أو البرتات كما قدمنا ، وللأبواب الرومانية التى كانت بها فيقول : « وطول هذا الجبل من الشمال إلى الجنوب مع سير تقويس سبعة أيام ، وهو جبل عال جداً صعب الصعود ، وفيه أربعة أبواب فيها مضايق يدخلها الفارس بعد الفارس . وهذه الأبواب عراض لها مسافات وهى منحرفة الطرق . وأحد هذه الأبواب الباب الذى فى ناحية برشلونة ويسمى « برت جاقة » ( چاكا ) ؛ والباب الثانى الذى يليه يسمى « برت أشبرة » ؛ والباب الثالث منها يسمى « برت شيزروا » **Roncesvalles** وطوله فى عرض الجبل خمسة وثلاثون ميلا ؛ والباب الرابع منها يسمى « برت بيونة » . ويتصل بكل برت منها مدن فى الجهتين ، فما يلى برت شيزروا مدينة بنبلونة ؛ والباب المسمى جاقة عليه مدينة جاقة . (راجع نزهة المشتاق للشريف الإدريسى ؛ وكذا وصف الإدريسى لجغرافية الأندلس ص ٦٥ من طبعة **Saavedra**) وظاهر أن كلمة برت تعنى الباب أو الممر ، وأصلها من الإسبانية **Puerta** ، وقد سميت جبال البرنيه بالعربية البرتات نسبة إلى الأبواب والممرات المذكورة . والجغرافية الحديثة لا تختلف كثيراً عما تقدم ، وفيها أن هذه الأبواب والممرات خمسة : ( ١ ) ممر بربنيان ، بين برشلونة وأربونة ( ٢ ) ممر بوكيردا الموصل إلى شرطانية ( ٣ ) الممر بين بنبلونة وسان چان دى بييدبور ( ويسميها الإدريسى شنت جوان ) وهو باب شيزروا ( ٤ ) ممر تولوز ( طلوشة ) إلى بيونة ( ٥ ) ممرچاكا . وكانت هذه الأبواب أو الممرات تستعمل لاختراق الجبال حين الغزو إلى فرنسا ومنها فى طريق العودة .

هاجموا مؤخرة شارلمان حين ارتداده ، هم البشكنس النصارى انتقاماً لما أنزله الفرنج ببلادهم وعاصمتهم بنبلونة من العيث والتخريب . وإليك ما تقوله هذه الرواية : « إن شارلمان عاد من سرقسطة إلى بنبلونة ، وهدم أسوار هذه المدينة من أساسها لكى لا تستطيع الثورة عليه وقرر العودة ، وبدأ بجوز شعب البرنيه . وهنا ، وفى أرفع نقطة هجم البشكنس ، وقد كانوا يكمنون فى المؤخرة ، وأوقعوا الخلل فى الجيش كله ، فساده أيما اضطراب وجلبة ، وبالرغم من أن الفرنج أبدوا تفوقهم على البشكنس ، سواء فى السلاح أو الروح المعنوية ، فقد بقوا هم الأضعف بسبب رداءة الموقع وعدم التكافوء فى وضع المعركة »(١) .

وهنا يحق لنا أن نتساءل إزاء هذا التناقض بين الروايتين ، من هم الذين دبروا هذا الهجوم على مؤخرة الجيش الفرنجى ؛ أهم المسلمون وحدهم حسبما تقرر الرواية العربية ، أم هم البشكنس وحدهم حسبما تقرر الرواية الفرنجية ؟ يقول الأستاذ بيدال ، إنه لمن غير المعقول ، بل ومن المستحيل أن يقوم البشكنس وحدهم بمهاجمة مؤخرة جيش عظيم كجيش شارلمان ، والأكثر احتمالا هو أنهم يبحثون عن العون ضد المعتدى الخارجى ، وإنه لكذلك من غير المعقول أن يستطيع إبنا سليمان وحدهما انتزاع الأسرى من الجيش الفرنجى ، وذلك فى الأرض المكشوفة ما بين سرقسطة وبنبلونة ، وإنه لا يمكن الاعتقاد بأى حال بأن يسمح جيش شارلمان لنفسه أن يُفاجأ مرتين فى أيام قليلة ، وإذاً فلا بد أن البشكنس والمسلمين معاً قد فاجأوه فى شعب البرنيه : البشكنس الذين أثارهم تخريب بنبلونة ، والمسلمون الذين يحاولون استنقاذ ابن الأعرابى والرهائن(٢) .

ثم يقول العلامة الإسبانى « إنه باستعراض سائر الروايات يبدو أن هناك حقيقة تاريخية ، وهى أن المسلمين تعاونوا مع البشكنس فى موقعة باب الشزرى ؛ وأن أنشودة رولان ، وهى مستمدة من أناشيد معاصرة للنكبة ، هى أصح من الرواية اللاتينية Anales Regios » . ونقول نحن إن هذا الاستعراض لمختلف الروايات يدلى بأن المسلين هم الذين دبروا الهجوم على مؤخرة الجيش الفرنجى ، وإنه

---

(١) Anales Regios hssta 829; cit. por R.M. Pidal : ibid ; p. 191 8 192

(٢) R. M. Pidal : ibid ; p. 193&194 . وراجع أيضاً Conde : Ibid., V.I. p.201 و Dozy : Hist. V. I. p. 243 & notes . وهل أدل على أن العرب هم الذين مزقوا مؤخرة الفرنج من أنشودة رولان الشهيرة ، التى نتحدث عنها بعد .

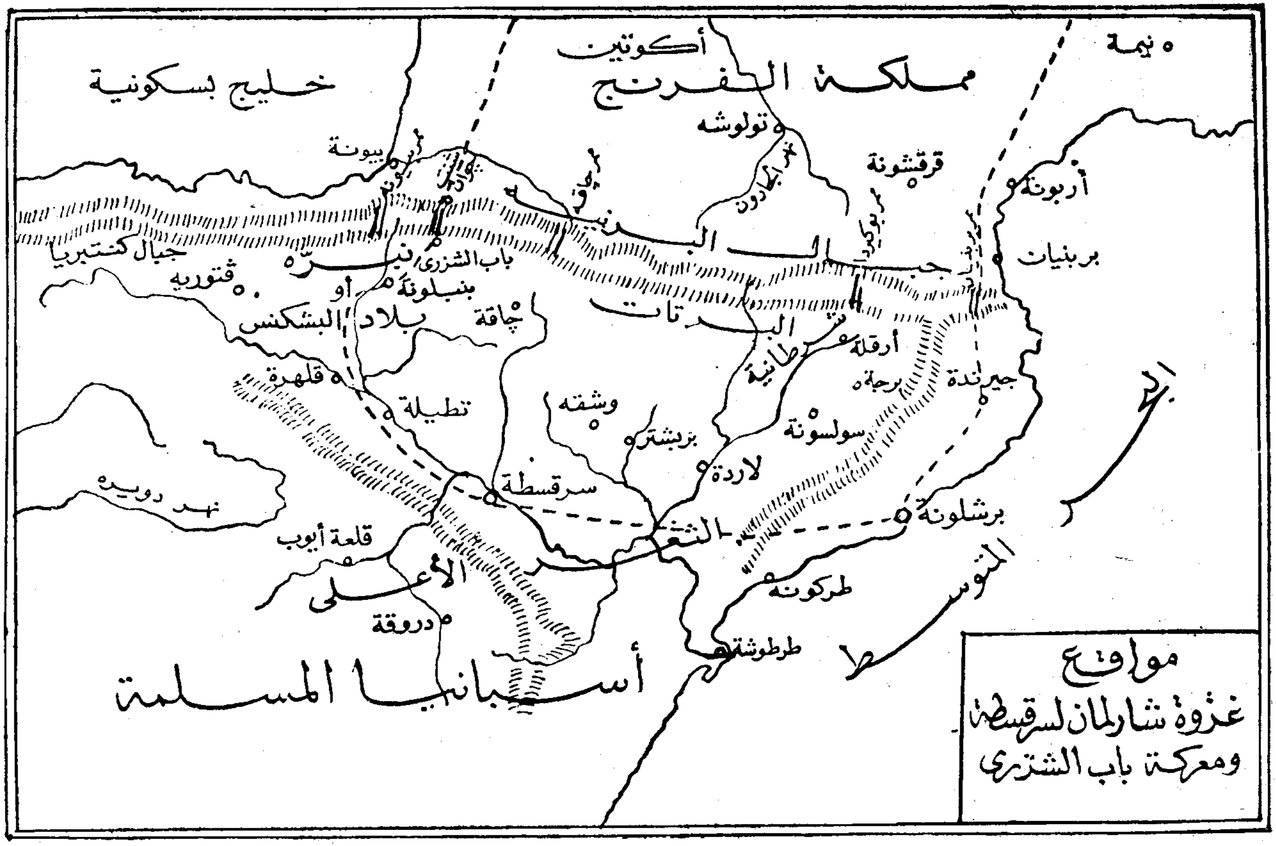

مواقع
غزوة شارلمان لسرقسطة
ومعركة باب الشزري
خليج بسكونية
مملكة الفرنج
أكوتين
نيمة
تولوشه
قرقشونة
أربونة
بربنيات
بيونة
جبال كنتبريا
قتوريه
نبرّه
باب الشزري
بنبلونة
بلاد البشكنس
جاقة
جبال البرتات
برطانية
أرقلة
برجة
جيرندة
قلهرة
تطيلة
وشقه
بربشتر
سولسونة
لاردة
سرقسطة
نهر دويره
الثغر الأعلى
قلعة أيوب
دروقة
برشلونة
طركونة
طرطوشة
البحر المتوسط
أسبانيا المسلمة

فيما يرجح قد اشتركت معهم جموع كبيرة من البشكنس فى هذا الهجوم ، وإن مضمون أنشودة رولان حسبما نقدمه بعد ، يؤكد هذا الاستنتاج فى إسناد الدور الرئيسى فى الموقعة إلى المسلمين .

وقد وصفت لنا إحدى هذه الروايات اللاتينية ، تعاون المسلمين والبشكنس فى الهجوم ، وفيها «أن جيش شارلمان كان يتكون من خمسة آلاف فارس من ذوى الأسلحة الثقيلة وعدد مماثل من المشاة ، وأن المؤخرة كانت تتكون من ألف فارس ومعها دواب الحمل ، وأن الكمين وقع فى الأماكن الصاعدة من الطريق المعبد . وقد تعاون بشكنس بنبلونة والمسلمون ولاسيما مطروح وعيشون ولدى ابن الأعرابى ، وكان هذا التحالف ضرورياً ، لأن المسلمين كانوا فى حاجة إلى المعرفة الدقيقة لهذه الوهاد وهو ما يتقنه البشكنس ، وكان البشكنس بحاجة إلى مقدرة المسلمين فى التنظيم العسكرى ، وهما معاً قد استطاعا أن يسحقا مؤخرة هذه الصفوف التى ارتجت لها سائر إسبانيا »[١] .

وقع هذا الهجوم الفجائى من المسلمين على مؤخرة الجيش الفرنجى بمعاونة البشكنس ، فأسفر عن أروع نتيجة يمكن تصورها . ذلك أن الفرنج لم يحسنوا الدفاع عن أنفسهم فى تلك الشعاب الضيقة المنحدرة . وقد فصلت مؤخرة الجيش الفرنجى ، وانتزعت منها الأسلاب والأمتعة وفى مقدمتها الخزانة الملكية ، وكذلك الرهائن ، وفى مقدمتهم سليمان ، ومزقت المؤخرة نفسها شر ممزق ، وهلك خلال المعمعة الهائلة عدد عظيم من سادة الجيش الفرنجى وفرسانه ، ولم تسمح المفاجأة المذهلة بأى عمل أو محاولة منظمة لإنقاذ الفرق المنكوبة . وكانت نكبة مروعة لبث صداها يتردد مدى عصور فى أمم الغرب والنصرانية .

وتضع الرواية الفرنجية تاريخ الموقعة فى ١٨ أغسطس سنة ٧٧٨ ( ذى القعدة سنة ١٦١ هـ )[٢]. وقد رأينا فيما تقدم كيف تقنع الرواية العربية بالإشارة إليها فى

---

( ١ ) Anales Regios, cit. por R. M. Pidal: ibid . p. 197

( ٢ ) ولكن الرواية العربية تقدم تاريخها عن ذلك فتضعها فى سنة ١٥٧ هـ ( ٧٧٤ م ) وهى رواية ابن الأثير ( ج ٦ ص ٥ ) والمقرى فى نفح الطيب ( ج ٢ ص ٧٣ ) . والظاهر من نص الرواية العربية أنها تنصرف هنا إلى بداية الحوادث لا إلى الموقعة ذاتها ، وقد وقعت فيما بعد ، وهو ما يفسر التباين بين التاريخين . ولا ريب أن الرواية الفرنجية أقرب إلى الصحة والتحقيق لأنها معاصرة قريبة من الحوادث .

عبارات موجزة ، وإن كانت مع إيجازها فى منتهى الدقة ، وكيف أن الرواية اللاتينية الفرنجية والكنسية تفيض بالعكس فى تفاصيلها إفاضة واضحة ، وقد أشرنا فيما تقدم إلى بعض هذه الروايات التى اقتبسنا بعض نصوصها ؛ وربما كانت رواية إجنهارت (أينهارت) مؤرخ شارلمان ، عن الموقعة ، هى أدق هذه الروايات وأوثقها ، فقد كتبت فى سنة ٨٢٩ م بعد وفاة شارلمان بقليل ، واعتمد فيها على كثير من أقوال المعاصرين وشهود العيان . وهو يفصل لنا حوادثها ويذكر من هلك فيها من الأمراء والسادة ، ومنهم إيجهارد رئيس الخاص ، وأنسلم محافظ القصر ، وهردولاند حاكم القصر البريتانى ، وكثير من الرؤساء ورجال الخاص والحاشية . وهردولاند ، هو رولان Roland بطل الأنشودة الشهيرة ، التى نظمت فيها بعد عن هذه الموقعة ، واستمدت من أناشيد معاصرة لها ، والتى ما زالت أثراً خالداً لقريض الفروسية فى العصور الوسطى. بيد أن أنشودة رولان تنحرف فى كثير من مناحيها إلى الأسطورة . وقد اتخذت الأسطورة من حوادث الموقعة موضوعاً لقصة حربية حماسية حرفت فيها الوقائع الأصلية أيما تحريف ، ولكنها تستبقى مكان الموقعة ، وبعض أشخاص التاريخ . وقد رأينا أن نورد فيما يلى خلاصة هذه القصة أو الأنشودة الشهيرة :

« غزا شارلمان إسبانيا ، ولبث يحارب فيها سبعة أعوام ، حتى افتتح ثغورها ومدنها ، ما عدا سرقسطة ، وهى معقل الملك العربى مارسيل . وكان يعسكر بجيشه بجوار قرطبة ، حين جاءته رسل مارسيل يعرض عليه الطاعة ، بشرط أن يجلو الفرنج عن إسبانيا ، فعقد شارلمان مجلساً من البارونات ومنهم رولان ابن أخيه . وكان رولان يرى أن تستمر الحرب ، ولكن فريقاً آخر من السادة برآسة جانلون كونت مايانس ، كان يرى الصلح والمهادنة ، فغلب رأى هذا الفريق ، لأن الفرنج سئموا الحرب والقتال ، وأرسل جانلون إلى الملك مارسيل ليعقد معه شروط الهدنة . فأغراه مارسيل واستماله بالتحف والذخائر ، واتفق معه على الغدر برولان وفريقه . ثم عاد إلى شارلمان وزعم أن مارسيل قبل شروط الفرنج ، وبذا قرر شارلمان الإنسحاب . وتولى رولان قيادة المؤخرة . وكان معه الأمراء الإثنا عشر ، وزهرة الفروسية الفرنجية . ولما وصل الجيش إلى قمة الممرات الجبلية رآى أوليفر أحد الأمراء ، جيشاً من العرب ، يبلغ أربعمائة ألف مقاتل .

فتضرع إلى رولان أن ينفخ فى بوقه ليدعو شارلمان إلى نجدته ، فأبى رولان ، وانقض الجيش الهاجم على مؤخرة الفرنج ، ونشبت بينهما عدة معارك هائلة . واستمر رولان يأبى طلب النجدة حتى مزق جيشه ولم يبق منه سوى ستين رجلا ، وعندئذ نفخ فى بوقه يدعو شارلمان : ثم قتل بقية أصحابه ، ولم يبق سوى رولان وأوليفر واثنين آخرين . ولما شعر العرب أن شارلمان سيرتد بجيشه لقتالهم ، قرروا الانسحاب . وكان زملاء رولان الثلاثة قد قتلوا ، وأثخن رولان نفسه جراحاً حتى أشرف على الموت . ولكنه استطاع أن ينفخ فى بوقه مرة أخرى قبل أن يموت ، وأن يسمع صرخة شارلمان الحربية ، وسمع شارلمان صوت البوق على بعد مراحل عديدة . فعاد مسرعاً وطارد جيش العدو وسحقه . ودفن الفرنج قتلاهم ، وعوقب جانلون الخائن أروع عقاب . وتوفيت ألده ، خطيبة رولان حينما علمت بموته » .

هذه هى خلاصة القصة التى ترددها أنشودة رولان الشهيرة . وهى أبعد ما يكون عن وقائع التاريخ الحق . بيد أنها تتخذ مادتها من بعض هذه الوقائع ، ومن الذكريات والروايات الشفوية المتناقلة ، والأناشيد الحربية المعاصرة . وهى نورمانية الأصل ، ظهرت لأول مرة فى القرن الحادى عشر ، أعنى بعد الموقعة بنحو ثلاثة قرون ، ودونت أولا فى بعض القصص اللاتينية ، ثم دونت بالنظم فى ملحمة طويلة تبلغ أربعة آلاف بيت بعنوان «أنشودة رولان» **Chanson de Roland** ولبثت تعتبر مدى عصور من أعظم الآثار الأدبية ، ومن روائع القريض الحربى .

وكانت حوادث هذه الموقعة الشهيرة مستقى خصباً لكثير من الكتاب والشعراء ، وكانت بالأخص مستقى لقصص الفروسية والملاحم الحماسية المغرقة ، التى تملأ فراغاً كبيراً فى الأدب الفرنجى فى العصور الوسطى[1] .

ومما يلفت النظر فى حوادث الموقعة أن شارلمان ، لم يحاول بعد أن أفاق من الصدمة الأولى ، أن يعجل بالانتقام لنكبة جيشه ومقتل فرسانه ، وأن يعود فيطارد تلك العصابات التى تحدته واجترأت عليه سواء من المسلمين أو البشكنس .

---

(١) راجع حوادث هذه الموقعة الشهيرة فى أخبار مجموعة ص ١١٢ و ١١٣ ، وابن الأثير ج ٦ ص ٥ و ٢١ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٢٤ ، وراجع أيضاً **Bouquet ; Vol. V.**
**R.M. Pidal : La Chanson de Rolad. Cap. VI. p. 171 — 215;p. 14,26,42,& 208**
و **Hodgkin : Charles the Great p. 141—152** و **Reinaud: ibid ; p. 95, 96**

وتعليل ذلك هو أن شارلمان شغل قبل كل شيء بخطورة الأنباء التي وصلته عن تحرك السكسونيين ، وهم ألد أعداء الفرنج وأخطرهم ، فارتد أدراجه مسرعاً ليخوض معهم حرباً جديدة استطالت زهاء سبع سنين ، حتى تمت هزيمة زعيمهم فتكنت ( أو فيدوكنت ) نهائياً ، وأرغم على التنصير في سنة ٧٨٥ م[١] .

ولم يبق بيد شارلمان ، بعد استنقاذ المسلمين للرهائن ، سوى ثعلبة بن عبيد قائد عبد الرحمن ، وقد لبث فترة أخرى معتقلا بفرنسا ، حتى تمت المفاوضة بشأنه ، وأطلق سراحه لقاء فدية كبيرة .

وهكذا اختتمت محاولة شارلمان غزو اسبانيا المسلمة والتدخل في شئونها ، بنكبته والقضاء على زهرة جنده ، وقد أسبلت هذه النكبة مدى حين سحابة على مجده الحربي . بيد أنها لم تكن كما سنرى آخر محاولة من نوعها لعاهل الفرنج ، فإن السياسة الفرنجية لبثت بالرغم من هذه الصدمة المؤلمة ، ترقب سير الحوادث في الأندلس لتجد فيها ثغرة تتخذها وسيلة لتحقيق غاياتها .

* * *

ونستطيع بعد أن استعرضنا أدوار هذه الموقعة الشهيرة التي تركت في عصرها أعظم صدى في الروايات الفرنجية (اللاتينية) والكنسية المعاصرة واللاحقة ، وبعد أن سجلنا ممهداتها وحوادثها تفصيلا . أن نعود فنلقي نظرة مقارنة على موقف الروايات العربية واللاتينية إزاء الموقعة ، وكيف تعاملها كل منها .

وأول ما يلفت النظر هو حسبما قدمنا ، إيجاز الروايات العربية ، في الوقت الذي تميل فيه الروايات اللاتينية إلى الإفاضة الواضحة . وقد كان خليقاً بالرواية العربية أن تبسط القول في حوادث موقعة لها من الخطورة البالغة ما لموقعة « باب الشزري » خصوصاً وقد كان التفوق فيها للجانب الإسلامي. ولكن الرواية العربية لم تنظر إلى الموقعة إلا من حيث ارتباطها بحوادث الأندلس ، ومن جهة أخرى فإنها لم تكن على علم تام بما يدور في الناحية الأخرى من جبال البرنيه ، في مملكة الفرنج الشاسعة ، ولم تقف على آثار الصدى الهائل الذي أحدثه تمزيق جيش شارلمان داخل مملكة الفرنج ، وفي سائر الأمم المتصلة بها ، ولاسيما القبائل السكسونية ألد أعداء الفرنج يومئذ .

---

(١) R.M. Pidal : ibid, p. 199

وثمة فرق واضح آخر بين الروايتين العربية واللاتينية ، هو أن الأولى تنوه بأن شارلمان قاد حملته إلى اسبانيا استجابة لدعوة الخوارج المسلمين ليعمل معهم ضد إمارة قرطبة ، وأن الثانية تنوه بأن حملة شارلمان إنما كانت موجهة إلى إخضاع البشكنس .

ومع ذلك فإن الرواية العربية على إيجازها تقدم إلينا ممهدات الموقعة وعناصرها الأساسية بمنتهى الدقة ، بل إن العلامة المؤرخ الأستاذ پيدال ، وهو آخر من تناول حوادث هذه الموقعة من النقدة المحدثين بإفاضة ، وبأسلوبه النقدى الرائع ، يقرر لنا أن الرواية العربية هنا ، هى أرقى بكثير من الرواية اللاتينية ، وأنها فيما يتعلق بغزوة شارلمان لإسبانيا ، أبعد من أن تنحدر إلى الغموض والتناقض ، وأنها بالعكس تقدم إلينا بعض أنباء فى منتهى الأهمية والجدارة .

ويدفع الأستاذ پيدال ما يرمى به بعض الباحثين مثل باسيه وغيره ، الرواية العربية من أخطاء وسابقات تاريخية ، ويؤكد بالعكس أنه لاتناقض بين النصوص العربية واللاتينية ، وكل ماهنالك أن كلامنهما يركز اهتمامه فى نقط معينة ، وكلتاهما تتفق مع الأخرى فى الحوادث الرئيسية (١) .

---

(١) R.M. Pidal : ibid., p. 177, 178

# الفصل الخامس

## ولاية عبد الرحمن الداخل

— ٢ —

عبد الرحمن وحوادث الشمال . ظهور الصقلبى فى شرق الأندلس . استئنافه للدعوة العباسية . تحالفه مع ابن يقظان ثم خلافه معه . مسير عبد الرحمن إلى قتال الصقلبى . التجاؤه إلى بلنسية . مصرعه وانهيار دعوته . ثورات محلية تلفة . حوادث الشمال . مصرع ابن يقظان . مسير عبد الرحمن إلى سرقسطة وحصارها . خضوع الحسين الأنصارى . عبد الرحمن يغزو نافار وشرطانية . قتله لعيشون ابن سليمان . عود الحسين إلى الثورة . إرسال عبد الرحمن حملة لقتاله . حصار سرقسطة وثبات الحسين . مسير عبد الرحمن إلى قتاله . هزيمته ومصرعه . تفاهم عبد الرحمن مع شارلمان وسعيه إلى مصاهرته . ائتمار الوافدين من الأموية بعبد الرحمن . صرامته فى إخماد هذه المؤامرات . حديث ينسب إليه عنها . فرار محمد بن يوسف الفهرى وثورته فى طليطلة . مسير عبد الرحمن لقتاله . موقعة قسطلونة . هزيمة محمد وفراره . استئنافه للثورة فى قورية . هزيمته ووفاته . أخوه أبو القاسم . خروجه ثم خضوعه . انتهاء الثورة . خاتمة الكفاح الرائع .

بينما كانت هذه الحوادث الخطيرة تجرى فى الشمال ، كان عبد الرحمن الأموى فى الجنوب يكافح الثورة فى مختلف الأنحاء . وكانت ثورة البربر قد شغلته واستنفدت معظم قواه أعواماً متوالية . بيد أنه ما كاد يفرغ من سحقها حتى ظهر فى شرق الأندلس خطر جديد قوامه الدعوة العباسية . ذلك أن عبد الرحمن بن حبيب الفهرى أحد زعماء الفهرية ، وهو المعروف بالصقلبى نظراً لطوله وشقرته وزرقة عينيه ، عبر البحر من إفريقية إلى الأندلس فى قوة كبيرة ، ونزل بساحل تدمير (مرسية) فى شرق الأندلس ، ودعا للخليفة العباسى (سنة ١٦١ هـ) . ويجب أن نذكر أن عبدالرحمن بن حبيب هذا هو غير سميه عبد الرحمن بن حبيب المتغلب على إفريقية الذى فصلنا أخباره من قبل ، فقد قتل هذا المتغلب على إفريقية منذ سنة ١٤٠ هـ ، بعد أن خرج على طاعة بنى العباس[1]. ولا نعرف علاقة الصقلبى

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١١١ .

بيوسف بن عبد الرحمن الفهرى ، وربما كان من أبناء عمومته[١]. بيد أنه كان من زعماء الفهرية وزعماء الثورة على بنى أمية . وكانت حركة الصقلبي فى تدمير ، كحركة العلاء بن مغيث من قبل فى باجة ، ولكنها كانت أشد خطراً ، لأن الصقلبي سعى إلى التفاهم مع زعيم الثورة فى الشمال سليمان بن يقظان وتحالف معه[٢] . والظاهر أن هذا التحالف كان بعد عبور الفرنج إلى إسبانيا وموقعة باب شيزروا . ولكن ابن يقظان لم يف بوعده فى إمداده لقتال عبد الرحمن الأموى ، فغضب منه وسار لقتاله ، فهزمه ابن يقظان فى ظاهر برشلونة . فعاد إلى تدمير ولبث مدى أشهر ينظم قواته وأهبته ، ولكن عبد الرحمن لم ينتظر حتى يهاجمه ، بل سار بنفسه ، وهاجمه بشدة ، وأحرق سفنه الراسية بالساحل ، حتى لا يجد سبيلا إلى الفرار ، فارتد الصقلبي بفلوله إلى جبال بلنسية واستعصم بها ، وهنا لجأ عبد الرحمن إلى سلاح الاغتيال مرة أخرى ، فدس على الصقلبي بعض أصدقائه فاغتاله وحمل رأسه إليه ، وانهارت بذلك دعوته وثورته (سنة ١٦٢ و ١٦٣ هـ : ٧٧٨ — ٧٧٩ م ) .

ووقعت بعد ذلك عدة ثورات محلية عنى عبد الرحمن بقمعها قبل أن يسير إلى الشمال ، فقد ثار دحية الغسانى ببعض حصون إلبيرة (غرناطة) ، وكان دحية من أصدقاء عبد الرحمن ومن قادته ، ولكنه نكث بعهده ولحق بالفاطمى ، فلما هلك الفاطمى ، فر إلى إلبيرة وأعلن بها الثورة ، فأرسل عبد الرحمن إليه جيشاً ضيق عليه الحصار حتى أخذ وقتل . وثار إبراهيم بن شجرة بحصن مورور ،

---

( ١ ) يقول دوزى إنه كان صهراً ليوسف الفهرى متزوجاً بإحدى بناته ( ج ١ ص ٢٤٢ ) ولكنه لم يبين مصدراً لقوله ، ولم نجد فى المراجع العربية ما يؤيده .

( ٢ ) يقدم إلينا دوزى ثورة ابن يقظان وحلفائه وعلاقة الصقلبى به فى صورة أخرى ، فيقول لنا ، إن هذا التحالف كان يضم ابن يقظان والحسين بن يحيى والصقلبى ومحمد بن يوسف الفهرى ، وانهم اتفقوا جميعاً على استدعاء الفرنج إلى اسبانيا ، وساروا جميعاً إلى لقاء شارلمان فى بادربورن ، واتفق على أن يقوم ابن يقظان بمعاونة شارلمان فى غزوته بينما يقوم الصقلبى بحشد البربر فى إفريقية ثم يعبر بهم إلى تدمير ليشغل عبد الرحمن بحركته ( دوزى ج ١ ص ٢٤٠ — ٢٤١ ) . ولكنا لا نوافق دوزى على هذا التصوير أولا لأن المصادر العربية لا تشير إلى مثل هذا التحالف الرباعى ، وتتفق جميعاً فى اعتبار حركة الصقلبى حركة مستقلة لا علاقة لها بغزوة الفرنج ، ومن جهة أخرى فإنه لا يوجد فى الروايات اللاتينية المتعلقة بغزوة شارلمان لإسبانيا ما يشير إلى هذا التحالف ، وثانياً لأن محمد بن يوسف الفهرى أحد أركان هذا التحالف لم يفر من سجنه كما سنرى إلا بعد ذلك ببضعة أعوام . راجع : ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٥٧ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٥٨ ، وابن الأثير ج ٦ ص ٢٦ .

فبعث إليه عبد الرحمن مولاه بدراً ، فهاجمه وقتله . وثار فى طليطلة القائد السلمى ، وكان من خاصة عبد الرحمن ، ثم فر من قرطبة خشية بطشه به لأمور نقمها منه ، والتفت حوله العناصر الخارجة فى تلك الأنحاء ، فسير إليه عبد الرحمن جيشاً قوياً بقيادة حبيب بن عبد الملك ، فحاصروه حيناً ثم قتل . وثار فى الجزيرة الخضراء واليها الرماحس بن عبد العزيز الكنانى ، فسار إليه عبد الرحمن بنفسه ، وداهمه قبل أن يستكمل أهبته ، ففر الرماحس وعبر البحر إلى المشرق (سنة ١٦٣—١٦٤)(١).

وفى العام التالى تأهب عبد الرحمن لقمع الثورة فى الشمال . وكان الخلاف قد وقع بين زعيمى الثورة بعد تفاهمهما على أثر نكبة الجيش الفرنجى فى موقعة باب الشزرى ، وتربص الحسين بن يحيى الأنصارى بزميله سليمان بن يقظان ، ودس عليه ذات يوم من قتله بالمسجد الجامع ، وانفرد بالأمر فى سرقسطة وما حولها(٢). فسار عبد الرحمن إلى سرقسطة فى جيش ضخم وضيق الحصار عليها (سنة ١٦٥ هـ — ٧٨١ م ) . ووفد عليه عندئذ عيشون بن سليمان ، وكان قد فر عقب مقتل أبيه إلى أربونة ، وانضم إليه بمن معه فى مقاتلة الحسين ، فلما اشتد الحصار بالحسين طلب الصلح ، وقدم ابنه سعيداً رهينة ، فأجابه عبد الرحمن إلى ملتمسه ، وأقره والياً على سرقسطة . ثم تحول عن سرقسطة إلى الشمال الشرقى ، واخترق بلاد البشكنس (ناڤار) ليعاقب أهلها على عيثهم وعدوانهم ، وغزا عاصمتها بنبلونة ، وأثخن فيها وخرب قلاعها ، وغزا قلهرّة وبقيرة (ڤكيرا) ، واجتاح ولاية شرطانية(٣)، وأرغم أميرها على تقديم الطاعة وأداء الجزية(٤). ثم عاد إلى قرطبة ظافراً بعد أن وطد هيبة الحكومة المركزية فى الشمال نوعاً ، وألقى على النصارى درساً يذكرهم بأن الإسلام قد استرد منعته وسلطانه فى اسبانيا . وكان سعيد بن الحسين قد فر من معسكر الأمير أثناء الطريق ، ولما حل عبد الرحمن بقرطبة توجس شراً من عيشون بن سليمان ، وكان قد عاد فى ركابه ، فأمر به

---

( ١ ) أخبار مجموعة ص ١١٢ ، وابن الأثير ج ٦ ص ٢٠ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٥٨ .

( ٢ ) يقول لنا العذرى نقلا عن الرازى أن قتل الحسين لسليمان كان بتحريض من حكومة قرطبة ، وذلك على أن يولى سرقسطة ( فى كتابه ترصيع الأخبار الذى سبقت الإشارة إليه ص ٢٦ ) .

( ٣ ) شرطانية بالإفرنجية **Cerdagne** وبالإسبانية **Cerdana** ، وهى ولاية صغيرة فى شمال شرق إسبانيا .

( ٤ ) أخبار مجموعة ص ١١٤ ، وابن الأثير ج ٦ ص ٢٢ .

فقتل . ولما رأى الحسين بن يحيي أن عبد الرحمن قد ارتد عنه ، وعاد إليه ولده سالماً ، نكث بعهده وعاد إلى الثورة ، وعاث فساداً فى سرقسطة وأعمالها ، فاعتزم عبد الرحمن أن يعود إلى قتاله ، وأن ينكل به وبأنصاره فى تلك المرة . فبعث إلى الشمال جيشاً كثيفاً بقيادة غالب بن تمام بن علقمة ، فخرج الحسين إلى لقائه ، ووقعت بينهما معارك شديدة هزم فيها الحسين ، وأسر ولده يحيي وعدة من صحبه ، فأرسلوا إلى قرطبة حيث أمر عبد الرحمن بإعدامهم ، وامتنع الحسين بالمدينة واستمر غالب فى حصاره . وفى العام التالى (سنة ١٦٧ هـ — ٧٨٣ م) سار عبد الرحمن بنفسه إلى سرقسطة وحاصرها بشدة ، وضربها بالمجانيق ضرباً عنيفاً حتى هدم أسوارها ، واقتحمها عنوة ، وقبض على الحسين وجماعة من صحبه ، وقتلهم جميعاً ، وشرد كثيراً من أهلها ، وفر سعيد ولد الحسين ، وعين عبد الرحمن قائده ثعلبة بن عبيد والياً لسرقسطة ، وكان قد افتداه من أسر الفرنج حسبما تقدم . وركدت بذلك ريح الثورة فى الشمال مدى حين[1] .

وشغل عاهل الفرنج شارلمان مدى حين عن شئون إسبانيا ، لأن القبائل السكسونية عادت فنكثت طاعته ، وعاد لقتاله خصمه القوى ڤيدوكنت ، واستمرت الحرب بينهما زهاء سبعة أعوام وانتهت بهزيمة السكسونيين ، وخضوع زعيمهم وإرغامه على التنصر (سنة ٧٨٥ م) . بيد أن عبد الرحمن رأى أن يتفاهم مع زعيم الفرنجة ، وأن يؤثر صداقته ومدارته على خصومته ، فبعث إليه يطلب عقد الصداقة معه ، ويكاشفه برغبته فى مصاهرته ، فأجابه شارلمان إلى السلم ولم تتم المصاهرة[2]. وفى بعض الروايات أن شارلمان هو الذى عرض على عبد الرحمن أن يزوجه ابنته فاعتذر عبد الرحمن باعتلال صحته[3] . واستمر السلام معقوداً بين الزعيمين حتى وفاة عبد الرحمن .

---

(١) ابن الأثير ج ٦ ص ٢٢ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٥٩ .

(٢) المقرى عن ابن حيان ( ج ١ ص ١٥٥ ) . ولا تقدم الرواية لنا تفصيلا عن مشروع المصاهرة هذا ، ولكن الظاهر أن عبد الرحمن طلب الاقتران بإحدى بنات شارلمان ، والمرجح أنها « هروترود » كبرى بناته ، وكانت وحدها تصلح للزواج فى ذلك الحين . ويرى رينو أن المقصود بهذه الإشارة إنما هو عبد الرحمن الثانى أو عبد الرحمن الأوسط حفيد عبد الرحمن الداخل ، فقد كانت علائقه بملك الفرنج ( شارل الأصلع ) على ما يرام ، وكان هذا الاتصال بين الأمراء الفرنج والمسلمين دائماً **(Reinaud : ibid , p. 98)**

(٣) راجع : **Scott : Moorish Empire, V.I. p. 40**

ولما عاد عبد الرحمن إلى قرطبة نمى إليه خبر مؤامرة خطيرة دبرت لسحقه ، بزعامة ابن أخيه المغيرة بن الوليد بن معاوية ، وهذيل ولد الصميل بن حاتم . ولم تكن هذه أول مؤامرة من نوعها ، فقد دبرت قبل ذلك ببضعة أعوام سنة ١٦٣ هـ مؤامرة أخرى ، وعلى رأسها أيضاً اثنان من أقطاب بنى أمية ، الذين وفدوا على الأندلس حينما تألق طالع عبد الرحمن ، هما عبد السلام بن يزيد بن هشام المعروف باليزيدى ، وهو ابن عم عبد الرحمن ، وعبيد الله بن أبان بن معاوية وهو ابن أخيه ، وذلك بمعاونة أبى عثمان كبير الدولة . وكان عبد الرحمن مذ تم له الأمر ، يسعى إلى استقدام فل بنى أمية من المنفى ، ويدعوهم إليه ليكونوا له عوناً وعصبة ، ويظلهم برعايته ، ويغدق عليهم من نعمه ، ويختارهم لمختلف المناصب . ولكن روحاً سيئاً من الحقد والحسد ، كان يحفز أولئك الأقارب لمناوأة ذلك الذى هيأت له الأقدار أن يفوز دونهم ، بتراث بنى أمية فى الأندلس . فائتمروا به غير مرة ، وشجعهم على ذلك بعض الخوارج الناقمين والمنافسين الطامعين ، ولكن عبد الرحمن كان يكتشف الخطر قبل وقوعه ، ويسحقه بكل ما أوتى من شدة وصرامة ، فلم يحجم حينما وقف على المؤامرة الأولى ، عن قتل ابن عمه عبد السلام اليزيدى وعبيد الله ابن أخيه أبان ، وعفا عن أبى عثمان لمكانته وسابق صنيعه . ولم يحجم حينما وقف على المؤامرة الثانية ، عن قتل المغيرة بن أخيه الوليد ، وزميله هذيل بن الصميل ومن معهما ، ونفى أخاه الوليد وأسرته إلى المغرب . وقد نقل إلينا مؤرخ أندلسى عن بعض موالى عبد الرحمن ، أنه دخل عليه أثناء قتله المغيرة ، ابن أخيه ، وهو مطرق شديد الغم فرفع رأسه وقال : « ما عجبى إلا من هؤلاء القوم . سعينا فيما يضجعهم فى مهاد الأمن والنعمة وخاطرنا بحياتنا ، حتى إذا بلغنا منه إلى مطلوبنا ويسر الله تعالى أسبابه ، أقبلو علينا بالسيوف . ولما آويناهم وشاركناهم فيما أفردنا الله تعالى به ، حتى أمنوا وردت عليهم أخلاف النعم ، هزوا أعطافهم ، وشمخوا بآنافهم ، وسموا إلى العظمى ، فنازعونا فيما منحه الله تعالى ، فخذلهم الله بكفرهم النعم ، إذ أطلعنا على عوراتهم ، فعاجلناهم قبل أن يعاجلونا ، وأدى ذلك إلى أن ساء ظننا فى البرىء منهم ، وساء أيضاً ظنه فينا ، وصار يتوقع من تغيرنا عليه ما نتوقع نحن منه »[1] .

---

(١) الحجارى فى كتابه « المسهب » ؛ ونقله المقرى فى نفح الطيب ( ج ٢ ص ٧٢ و ٧٣ ) .

وفى ذلك الحين فر أبو الأسود محمد بن يوسف الفهرى من سجنه ، ورفع لواء الثورة فى طليطلة . وكان محمد سجيناً فى قرطبة منذ مقتل أبيه ، ثم فراره وأسره ثانية فى حوادث طليطلة سنة ١٤٢ ﻫ كما قدمنا . وتظاهر محمد عندئذ بالعمى ، وأتقن حيلته حتى جازت على جميع الموكلين بسجنه ، وأشفق عبد الرحمن عليه فأبقاه ولم يقتله كأخيه ، وأنفق محمد فى أسره أعواماً طويلة حتى أهمل شأنه ، ولم يعد يكترث أحد به ، وعرف بالأعمى . ثم سنحت له فرصة الفرار على يد بعض مواليه المتصلين به ، ففر من سجنه الواقع على النهر الكبير ، وجاز النهر سباحة ، ولحق بطليطلة سنة ١٦٨ ﻫ وأعلن الثورة . والتفت حوله جموع كبيرة من الفهرية والقيسية ، ومن إليهم من عناصر الخروج والثورة ، وسار فى قواته صوب جيان ، فخرج عبد الرحمن إلى قتاله ، ووقعت بينهما معارك عديدة ، كان النصر فيها لعبد الرحمن . ولكن أبا الأسود لبث حيناً محتفظاً بمراكزه وقواته . ثم نشبت بينهما على مقربة من قسطلونة فى الوادى الأحمر ، بمكان يعرف بمخاضة الفتح ، معركة شديدة حاسمة ، ولجأ عبد الرحمن إلى الخديعة ، فاتفق مع بعض قادة أبى الأسود على التقاعد والغدر ، فهزم أبو الأسود هزيمة شديدة ، وقتل من جنده عدة آلاف ، وغرق عدد كبير فى النهر ، وطارده عبد الرحمن حتى قلعة رباح ، ومزق جيشه كل ممزق ( ربيع الأول سنة ١٦٨ ﻫ — ٧٨٤ م )[1]. ولكن محمداً لم يخضع ولم يهن عزمه ، فارتد إلى جهة الغرب ونزل بقورية ، وعاد يحشد قواته لاستئناف القتال ، وقوى أمره وبسط سلطانه على تلك الأنحاء ، فسار عبد الرحمن لقتاله ثانية ، وهاجم قورية ومزق شمل قواته (سنة ١٦٩ ﻫ — ٧٨٥ م) ، ففر فى نفر من صحبه إلى بعض قرى طلطلية ، وهنالك توفى لأشهر قلائل (سنة ١٧٠ ﻫ). فقام مكانه أخوه أبو القاسم بن يوسف ، واقترن بزوجته ، وعاد ينظم الثورة فى طليطلة . فسار عبد الرحمن لقتاله قبل أن يستفحل أمره ، ولم ير أبو القاسم بدأ من الخضوع والتماس الصلح والعفو ، فأجابه الأمير إلى ملتمسه ، وصحبه معه إلى قرطبة ، ورد إليه بعض أموال أسرته[2] ، وطويت بذلك آخر مرحلة فى ثورة

---

( ١ ) يضع الرازى تاريخ هذه الموقعة فى أول ربيع الأول سنة ١٦٨ ( ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٥٧ ) ويتبعه فى ذلك ابن الأثير فيضع تاريخها سنة ١٦٨ ﻫ . ولكن صاحب البيان المغرب يجعل تاريخها فى سنة ١٦٩ ﻫ (ج ٢ ص ٥٩ ) .

( ٢ ) ابن الأبار ص ٥٦ و ٥٧ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٥٢ و ٥٩ و ٦٠ ، ويروى ابن الأثير أن عبد الرحمن لم يبق على أبى القاسم بل قتله (ج ٦ ص ٢٦ ) .

الفهرية ، بل كانت آخر ثورة قام بقمعها عبد الرحمن ، ولم يعش بعدها سوى عدة أشهر .

وهكذا أنفق عبد الرحمن جميع حكمه — ثلاثة وثلاثين عاماً — فى كفاح مستمر . وكانت مهمة عظيمة دونها خطوب فادحة . أن يطمح فتى شريد ، يعمل القتل الذريع فى أسرته وعصبته ، وحيد ليس له أنصار ولا صحب ، إلى افتتاح قطر عظيم زاخر بالقادة والجند ، وأن يخضع ذلك القطر فى حروب لا يخمد أوارها ، وسيول من الدماء لا تنقطع ، وأن يقيم ملكاً على بركان يضطرم من الثورة والمؤامرة والخصومة : تلك هى قصة عبد الرحمن الأموى ، وهى قصة عجيبة ليست من حوادث التاريخ العادية ، ولا يقدم إلينا التاريخ كثيراً من أمثالها . ولكن عبد الرحمن كان رجل الموقف ، وكانت حوادث الجزيرة ( إسبانيا ) وظروفها ، وتمزق شملها ، وتطلعها إلى زعامة قوية توحد كلمتها وقواها ، وتسير بها نحو السلام والأمن ، تفسح مجال الطموح والعمل لذهن جرىء مغامر كذهن عبد الرحمن . وكان عبد الرحمن يجمع إلى فيض جرأته ، كثيراً من الذكاء والدهاء والعزم ، ولم يكن عليه أن يخاطر بأكثر من تلك الحياة التى كادت تزهق غير مرة ، وكان يحملها فى كفه أمام مطارديه خلال القفر الشاسع . ولكن الغنم كان عظيماً : كان ملكاً بأسره ، وكان بعث أسرة هوَت ومجد عريض دثر . وسنعرض فى الفصل القادم طرفاً من خلال تلك الشخصية الباهرة ، التى تتبوأ مكانها بين أسطع شخصيات التاريخ الإسلامى .

# الفصل السادس

## خلال عبد الرحمن ومآثره

(١) وفاة عبد الرحمن الداخل . شخصيته . أساليبه . إقدامه وجرأته وقسوته . بطشه بآله وأصدقائه . نزعته الميكافيلية . تعليقات دوزى على سياسته . خلاله الباهرة . وصفه بصقر قريش . (٢) نوع رياسته . قطعه الدعاء لبنى العباس . إحجامه عن التلقب بالخلافة . أقوال ابن خلدون فى ذلك . نظام الحكومة فى عهده . حجابه وأعوانه . استرابته بالعرب بعد الثقة فيهم . اصطناعه للموالى والبربر . سياسته نحو النصارى . مقدراته الإدارية . عنايته بالجيش والأسطول . تفكيره فى غزو الشام . منشآته بقرطبة . الرصافة . السور الكبير . المسجد الجامع . (٣) كرمه وتواضعه . نقش خاتمه . خلاله الأدبية . نثره وشعره . (٤) عناصر المجتمع الأندلسى . العرب والبربر والمولدون . النصارى المعاهدون واليهود .

— ١ —

توفى عبد الرحمن الأموى فى الرابع والعشرين من ربيع الآخر سنة ١٧٢ هـ (٢ أكتوبر سنة ٧٨٧ م)[1] وهو فى نحو الثامنة والخمسين من عمره ، بعد أن حكم الأندلس ثلاثة وثلاثين عاماً ملؤها الخطوب والفتن . فخلفه ولده هشام بعهد منه لأيام قلائل من وفاته . وانتظم بذلك سلك الدولة الأموية بالأندلس بعد أن تصرم بالمشرق ، واستؤنفت حياة تلك الدولة الزاهرة ، التى بلغ الإسلام على يدها ذروة الفتح والظفر ، والتى ذهبت سراعاً كالحلم فى عنفوان قوتها .

---

(١) يختلف المؤرخون فى تاريخ وفاة عبد الرحمن . ويستفاد من أقوال صاحب أخبار مجموعة أنها وقعت فى أوائل سنة ١٧٢هـ (ص ١١٦) . ويوافقه ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد على ذلك ، فيقول إنها وقعت فى ١٢ جمادى الأولى سنة ١٧٢ هـ (العقد الفريد ج ٣ ص ٢٠١) . ولكن ابن حيان مؤرخ الأندلس يضعها فى ٢٤ ربيع الآخر سنة ١٧١ (المقرى ج ٢ ص ٧٢) . وهذه أيضاً رواية ابن الأبار (الحلة ص٣٧) . على إننا نرجح الرواية الأولى لقدمها ، وهى أيضاً رواية ابن عذارى حيث يضع وفاة عبد الرحمن فى ٢٤ ربيع الآخر سنة ١٧٢ هـ (البيان المغرب ج ٢ ص ٦٠) . ويضعها كل من ابن خلدون (ج ٤ ص ١٢٤) ، والمراكشى (المعجب ص ٩) فى سنة ١٧٢ هـ دون تعيين للشهر . ويضعها ابن الأثير فى ربيع الآخر سنة ١٧١ ، ولكنه يرجح وقوعها سنة ١٧٢ هـ (ج ٦ ص ٣٧) .

كان سقوط الدولة الأموية بالمشرق مأساة من أروع مآسي التاريخ الإسلامى ، وكانت تلك الشخصية التى قامت على كاهلها دعائم الدولة الجديدة ، من أعظم شخصيات الحرب والسياسة . كان عبد الرحمن الأموى يتمتع بعبقرية ممتازة وخلال نادرة . وكان قرين جده العظيم معاوية بن أبى سفيان ، ينشئ مثله دولة ، ولكن فى ظروف أسوأ من ظروفه ، ويهزم الخطوب والحوادث ، ويسحق خصومه فى كل ميدان ، ويؤثر مثل السياسة العملية على كل اعتبار ، ويذهب توا إلى الغاية بأى الوسائل . وكانت المحنة المروعة التى نزلت بأسرته ، والظروف العصيبة التى يواجهها ، والخصومات والأحقاد المستعرة التى تحيط به ، تحمل خلاله القوية إلى ذروة التطرف ، وتدفعه إلى التذرع بأشد الوسائل . فنراه يقرن وافر العزم بفيض من الجرأة والمغامرة واحتقار الخطر ، ويقرن وافر الدهاء بنزوع إلى الخيانة والغدر والفتك ، ويقرن وافر الحزم والصرامة بنزوع إلى القمع الذريع ، ويذهب فى الانتقام إلى حدود مروعة من القسوة . ومع ذلك فقد كان عبد الرحمن وفياً يحفظ العهد والصنيعة لمن أخلص له ، وإن لم يحجم لأقل ريب أو بادرة عن الفتك بأعز أصدقائه وأقرب الناس إليه . وقد رأينا هذه الخلال واضحة بارزة ، فى كثير مما تقدم من حوادث حياته ونضاله ، فرأيناه مراراً يلجأ إلى الغدر والاغتيال للتخلص من خصومه ، ورأيناه فى مواطن كثيرة يزهق دون تردد ، كل من وقع فى يده من أولئك الخصوم أو من ولدهم وصحبهم الأبرياء . وذهب عبد الرحمن فى صرامته وقسوته إلى البطش بكثير من أصدقائه ، الذين آزروه يوم مقدمه ، شريداً لاعصبة له ، وقاتلوا معه وقادوه إلى الظفر والحكم ، وكان قد أولاهم فى المبدأ ثقته وجعلهم عماد دولته . ومن هؤلاء بدر مولاه الذى جاب معه القفر وخاض الغمار ، وكان مثالا للشجاعة والدهاء وبعد النظر ، فإنه قدر فى البداية خلاله وكفايته وولاه القيادة واختصه بأسمى المناصب والمهام ، ولكنه تغير عليه فى أواخر عهده ، لما أبداه من التذمر وعدم الرضى ، ولما وجهه إليه من عتاب خشن تجاوز فيه حد اللياقة ، فنكبه وجرده من مناصبه وأمواله ، وشرده عن قرطبة إلى قاصية الثغر ، ولم يستمع إلى تضرعه حتى مات فى فقر وضعة(١) . ومنهم أبو عثمان رأس أنصاره ،

(١) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ٦٩ و ٧١ ، حيث يورد طرفاً من الرسائل التى تبادلها عبد الرحمن وبدر ، والتى انتهت بنكبة بدر . وراجع الإحاطة لابن الخطيب (١٩٥٦) ج ١ ص ٤٥٣ .

وأول من تلقاه وآواه يوم مقدمه ؛ فإنه جعله كبير دولته ، فلما توطد أمره جرده من نفوذه ، ولما وقعت المؤامرة التى دبرها بعض الوافدين من بنى أمية ، واتهم أبو عثمان بالاشتراك فى تدبيرها استراب به ، ولم ينقذه من بطشه إلا عظم صنيعه لديه . ولما ثار ابن أخت أبى عثمان فى بعض حصون إلبيرة ، لم يتردد عبد الرحمن فى قتله حين ظفر به . وكذا تغير عبد الرحمن على عبد الله بن خالد ، صهر أبى عثمان وزميله فى مؤازرة عبد الرحمن ونصرته ، وكان من وزرائه ، ثم اعتزل المنصب ، وتوارى لما رأى من غدر عبد الرحمن بزعيم اليمنية أبى الصباح ، وكان أبو الصباح هو الذى جمع كلمة اليمنية فى إشبيلية حول عبدالرحمن وقاتل معه بصحبه ، ثم انحرف عنه لأمور نقمها منه ، فاستدرجه عبد الرحمن إلى قرطبة وفتك به فى نفس مجلسه بالقصر ، ناكثاً لعهوده كما قدمنا[1]. بل لم يحجم عبد الرحمن عن الفتك بذويه وخاصة أسرته ، حينما نمى إليه أنهم يأتمرون به ، فقتل ابنى أخيه عبيد الله بن أبان والمغيرة بن الوليد ، وابن عمه عبد السلام اليزيدى حسبما فصلنا .

والخلاصة أن عبد الرحمن كان يلجأ فى تحقيق غاياته إلى أروع الأساليب والوسائل ، وكان طاغية مسرفاً فى البطش والسفك ، مكيافيلليا[2] بكل معانى الكلمة . ولكن تلك الخلال المثيرة التى كان يحفزها ويذكيها الخطر الداهم ، كانت عنوان قوته ووسيلة ظفره . يقول دوزى : « لقد دفع عبد الرحمن ثمن ظفره غاليا ، ذلك الطاغية الغادر الصارم المنتقم ، الذى لاتأخذه رأفة . ولم يبق زعيم عربى أو بربرى ، يجرؤ على مواجهته صراحة ، ولكن الجميع كانوا يلعنونه خفية . ولم يك ثمة رجل يرغب فى خدمته » . ثم يقول : « كان هم عبد الرحمن الدائم أن يذل العرب والبربر إلى الطاعة ، وأن يرغمهم على التعود على النظام والسلام ، وقد لجأ فى تحيق هذه الغاية إلى جميع الوسائل ، التى لجأ إليها ملوك القرن الخامس عشر لسحق الإقطاع . بيد أنه كان مصيراً محزناً ذلك الذى دفع القدر إليه اسبانيا ، وكانت مهمة محزنة تلك التى كان على خلفاء عبد الرحمن أن يضطلعوا بها . ذلك أن الطريق الذى رسمه لهم مؤسس الأسرة ، كان طريق الطغيان يؤيده السيف . ولكن من الحق أن نقول إن ملكاً لايستطيع أن يحكم العرب والبربر

---

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ٦٧ و ٧١ .

(٢) نسبة إلى مكيافيللى صاحب المذهب السياسى المشهور ، وخلاصته أن للأمير أن يتذرع فى تحقيق الغاية بأى الوسائل ، ومنها الغدر والخيانة والسفك وكل ما إليها .

بغير هذه الوسيلة ، وإذا كان العنف والطغيان ثمة فى ناحية ، فنى الناحية الأخرى يوجد الاضطراب والفوضى »[١] .

على أن عبد الرحمن كان إلى جانب هذه الصفات المثيرة ، يتمتع بكثير من الخلال الباهرة . وقد أجمل ابن حيان مؤرخ الأندلس خلاله فى تلك العبارات القوية ، قال : « كان عبد الرحمن راجح الحلم ، فاسح العلم ، ثاقب الفهم ، كثير الحزم ، نافذ العزم ، بريئاً من العجز ، سريع النهضة فى طلب الخارجين عليه ، متصل الحركة ، لايخلد إلى راحة ، ولايسكن إلى دعة ، ولايكل الأمور إلى غيره ، ثم لاينفرد فى إبرامها برأيه ، شجاعاً مقداماً ، بعيد الغور ، شديد الحذر قليل الطمأنينة ، بليغاً ، مفوهاً ، شاعراً ، محسناً ، سمحاً ، سخياً ، طلق اللسان »[٢] وهذا التصوير الرائع الذى يقدمه لنا ابن حيان عن خلال تلك الشخصية الممتازة ، إنما هو صورة بارزة من صور العظمة والبطولة ، توضحها فى جملتها وفى تفاصيلها حياة عبد الرحمن فى جميع أدوارها .

ويشبهه ابن حيان أيضاً بأبى جعفر المنصور فى قوة الشكيمة ، ومضاء العزم ، وفى القسوة والصرامة والاجتراء على الكبائر[٣].

وإذا كانت هذه الصفات والخلال القوية المثيرة معاً ، لا تحمل على الحب ، فإنها تحمل على الإعجاب بلا ريب . بل إن المتأمل ليشعر بعطف خاص نحو هذه الشخصية الفريدة ، ويرجع ذلك بلا ريب إلى تلك الحياة المؤثرة ، التى خاض عبد الرحمن غمارها ، وتلك المحن الأليمة التى نزلت بأسرته ، وتلك الجهود الفادحة التى بذلها لاسترداد حقه وحق أسرته فى الحياة والرياسة . وكانت هذه الحياة المؤثرة وما انتهت إليه من النتائج الباهرة ، تحمل ألد خصوم عبدالرحمن على احترامه والإعجاب به ، حتى لقد سماه أبو جعفر المنصور « صقر قريش » فى حديث طريف تنقله إلينا الرواية ؛ وهو أن المنصور قال يوماً لبعض أصحابه ، « من صقر قريش من الملوك ؟ » قالوا : أمير المؤمنين الذى راض الملك وسكن الزلازل وحسم الأدواء . قال ما صنعتم شيئاً . قالوا فمعاوية ، قال ولا هذا . قالوا

---

(١) Dozy : Hist. V. I. p. 245, 248

(٢) نقله نفح الطيب ج ٢ ص ٦٧ .

(٣) نفح الطيب ج ١ ص ١٥٦ .

فعبد الملك بن مروان ، قال لا . قالوا فمن يا أمير المؤمنين؟ قال : صقر قريش عبد الرحمن بن معاوية ، الذى تخلص بكيده عن سنن الأسنة وظباة السيوف ، يعبر القفر ، وركب البحر ، حتى دخل بلداً أعجمياً منفرداً بنفسه ، فمصر الأمصار ، وجند الأجناد ، ودون الدواوين ، وأقام ملكاً عظيماً بعد انقطاعه ، بحسن تدبيره وشدة شكيمته . إن معاوية نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان وذلل له صعبه ، وعبد الملك ببيعة أبرم عقدها ، وأمير المؤمنين بطلب عزته واجتماع شيعته . ، وعبد الرحمن منفرد بنفسه ، مؤيد برأيه ، مستصحب لعزمه ، وطد الخلافة بالأندلس ، وافتتح الثغور وقتل المارقين ، وأذل الجبابرة الثائرين[١] .

هذا وأما عن شخصه ، فقد وُصف عبد الرحمن ، بأنه كان مديد القامة ، نحيف القوام ، أعور ، أخشم[٢] ، له ضفيرتان ، أصهب[٣] ، خفيف العارضين ، له خال فى وجهه[٤] .

— ٢ —

كانت الأندلس حتى ولاية يوسف بن عبد الرحمن الفهرى ، ولاية من ولايات الخلافة الأموية . فلما انهار سلطان بنى أمية ، انفرد يوسف بالأمر ، وغدت الأندلس فى عهده إمارة مستقلة . وتلقى عبد الرحمن الأموى تراث الإمارة كما خلفه يوسف ، ولم ينشئ رغم كونه سليل بنى أمية ، لنفسه شيئاً جديداً من رسوم الملك . وتلقبه الرواية الإسلامية أحياناً بالأمير ، وأحياناً بالإمام[٥] ، ويلقب أيضاً بصاحب الأندلس[٦] . ويعرف بعبد الرحمن الداخل لأنه أول من دخل الأندلس من أمراء بنى أمية وحكمها ، ويعرف أيضاً بعبد الرحمن الأول ، لأنه أول أمراء ثلاثة من بنى أمية بهذا الاسم حكموا الأندلس ، هم عبد الرحمن الداخل ،

---

(١) راجع أخبار مجموعة ص ١١٨ و ١١٩ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٦١ و ٦٢ ، وبين الروايتين اختلاف يسير فى الألفاظ .

(٢) هو الذى فقد حاسة الشم .

(٣) من الصهبة والصهوبة وهى احمرار الشعر .

(٤) نفح الطيب ج ١ ص ١٥٦ ؛ وابن الأثير ج ٦ ص ٣٧ .

(٥) راجع أخبار مجموعة ص ١٠٠ — ١٠٤ حتى نهاية الحديث عن عبد الرحمن ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٢٢ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٥١ وما بعدها ، وص ٦٠ ، حيث ينعت عبد الرحمن بالإمام ، وكذلك نفح الطيب ج ٢ ص ٧٤ ، والروض المعطار ( القاهرة ١٩٣٧ ) ص ١٨٦ .

(٦) ابن الأثير ج ٦ ص ٣٧ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٥٠ .

وحفيده عبد الرحمن الأوسط ( ابن الحكم ) ، ثم عبد الرحمن الناصر .

وكانت الدعوة العباسية قد انتهت إلى الأندلس حين مقدم عبد الرحمن ، وذاعت فى منابرها ، ودعى فى الخطبة لبنى العباس فى كثير من النواحى ، ثم دعى لهم فى قرطبة ذاتها ، ودعى عبد الرحمن الداخل نفسه لأبى جعفر المنصور مدى أشهر ، وكان ذلك رغم غرابته وتناقضه ، عملا من أعمال السياسة . ولكن جماعة من بنى أمية الذين وفدوا على الأندلس ، وعلى رأسهم عبد الملك المروانى ، اعترضوا على هذا التصرف ، ونوهوا بما أثم به بنو العباس فى حق بنى أمية ، وما زالوا بعبد الرحمن حتى قرر قطع ذكر بنى العباس من الخطبة ( ١٣٩ هـ ) ، فقطعت من سائر منابر الأندلس[١] . ولكن عبد الرحمن لم يحاول أن يتخذ سمة الخلافة قط ، رغم كونه سليل أقيالها . ويرجع ذلك إلى اعتبارات دينية وسياسية ، يجملها ابن خلدون فى قوله ، إن بنى أمية بالأندلس « تلقبوا كسلفهم مع ما علموه من أنفسهم من القصور عن ذلك ، بالقصور عن ملك الحجاز أصل العرب والملة ، والبعد عن دار الخلافة التى هى مركز العصبية ، وأنهم إنما منعوا بإمارة القاصية أنفسهم عن مهالك بنى العباس »[٢] . ويقول لنا فى موضع آخر إن عبد الرحمن لم يتخذ سمة الخلافة تأدباً منه فى حق الخلافة بمقر الإسلام ومنتدى العرب[٣]. ويقول المسعودى إن الخلافة لم يكن يستحقها عند بنى أمية إلا من كان مالكاً للحرمين ، ولذلك سموا بالخلائف ، حتى بعد أن تسموا بالخلافة ولم يخاطبوا بالخلفاء[٤]. وعلى أى حال فإن بواعث السياسة العملية ، هى التى حملت عبد الرحمن على سلوك هذا المسلك ، والحرص على عدم التورط فى رسوم لم يحن الوقت لاتخاذها ، والدخول بذلك مع الخلافة العباسية القوية فى منافسة لا تؤمن عواقبها .

وأما عن نظام الحكومة ، فقد اتبع عبد الرحمن الداخل سنة أسلافه بالمشرق فى تبسيط الرسوم والنظم ، وأنشأ منصب الحجابة ، ولكنه لم ينشئ مناصب الوزارة ، بل استعاض عنها بأعوان وأشياخ يعاونونه فى القيام بمهام الحكم ، وليست لهم سمة الوزارة ، وإنما هم أقرب إلى الخاصة وأهل الشورى . واختار أعوانه فى

---

( ١ ) نفح الطيب ج ٢ ص ٧٨ ، وابن الأبار فى الحلة السيراء ( ليدن ) ص ٣٣ .

( ٢ ) المقدمة ص ١٩٠ .

( ٣ ) ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٢ .

( ٤ ) المسعودى فى مروج الذهب ( بولاق ) ج ١ ص ٧٨ .

البداية من أصدقائه ، الذين استقبلوه يوم مقدمه ، وآزروه وقاتلوا معه ، فولى حجابته تمام بن علقمة ، ثم ولاها من بعده ليوسف بن بخت الفارسى مولى عبد الملك ابن مروان ، ثم عبد الكريم بن مهران الغسانى ، ثم عبد الرحمن بن مغيث ولد مغيث فاتح قرطبة ، وولاها فى آخر أيامه لمنصور الخصى ، فلم يزل فى حجابته حتى توفى . وعين لمشورته أبا عثمان عبيد الله بن عثمان كبير أنصاره ، وصهره عبد الله بن خالد ، فكانا مدى حين دعامة حكومته . وكان من أعوان حكومته أيضاً جدار بن عمرو ، وأبو عبدة حسان بن مالك زعيم إشبيلية ، وشهيد بن عيسى ابن شهيد ، وعبد السلام بن بسيل الرومى ، وهما من موالى بنى أمية ، وثعلبة ابن عبيد الجذامى الذى ولاه سرقسطة فيما بعد ، وعاصم بن مسلم الثقفى وهو من خاصة أنصاره يوم المسارّة . وولى قيادة عسكره مولاه بدراً ، وتمام بن علقمة ، وعبد الملك المروانى ، وثعلبة بن عبيد ، وغيرهم من خاصة عصبته ، وقد كان عبد الرحمن يتولى بنفسه قيادة الجيش ، فى معظم الوقائع والحروب التى نشبت بينه وبين خصومه كما رأينا . وولى عبد الرحمن على الكور والثغور جماعة مختارة من أصدقائه ، وذوى رحمه الوافدين عليه حسبما فصلنا فى مواضعه . وعلى الجملة فقد كانت حكومة عبد الرحمن الداخل تقوم فى البداية بالأخص على العصبية والموالاة ، وكانت عربية فى بنائها وروحها ، ولكن الخصومة المستعرة التى شهرها زعماء القبائل والبطون المختلفة على عبد الرحمن ، والثورات المستمرة التى عملوا على إضرامها من حوله ، ونكثهم المتكرر بعهودهم ، حمله على الاسترابة بالعرب والحذر منهم ، فمال عنهم إلى اصطناع الموالى والبربر ، ولاسيما بربر العُدوَة (المغرب) وحشد حوله من الموالى والبربر والرقيق آلافاً مؤلفة ، لتكون له وقت الحاجة عوناً يركن إليه ويثق به . وكان ذلك قاعدة للسياسة التى سار عليها خلفاء عبد الرحمن الداخل من بعده ، والتى بلغت ذروتها فى عهد عبد الرحمن الناصر ، كما نفصل فى موضعه[1] .

وأما عن سياسة عبد الرحمن نحو رعاياه النصارى ( المستعربين ) ، ونحو نصارى الشمال ، فقد كانت سياسة اعتدال ومهادنة . وكان من الواضح أنه نظراً لاشتغاله المستمر بأمر الثورات الداخلية ، لم يفكر فى غزو أرض النصارى ، وأنه

---

( ١ ) راجع نفح الطيب ج ١ ص ١٥٦ ، وج ٢ ص ٦٧ .

كان يرحب بعقد السلم والمهادنة معهم . وهذا الأمان الذى يقال إن عبد الرحمن أصدره لجيرانه نصارى قشتالة يؤيد هذه السياسة وهذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، كتاب أمان الملك العظيم عبد الرحمن ، للبطارقة والرهبان والأعيان والنصارى والأندلسيين أهل قشتالة ، ومن تبعهم من سائر البلدان . كتاب أمان وسلام ، وشهد على نفسه أن عهده لا ينسخ ما أقاموا على تأدية عشرة آلاف أوقية من الذهب وعشرة آلاف رطل من الفضة ، وعشرة آلاف رأس من خيار الخيل ، ومثلها من البغال ، مع ألف درع وألف بيضة ومثلها من الرماح ، فى كل عام إلى خمس سنين ، كتب بمدينة قرطبة ثلاث صفر عام اثنين وأربعين ومائة ( ٧٥٩ م ) »(١) .

وكان عبد الرحمن الداخل يتمتع بمواهب إدارية باهرة ، فاستطاع خلال الاضطراب الشامل أن يوطد دعائم الحكم والإدارة ، وأن يقمع كثيراً من ضروب الفساد والبغى ، وأن يؤيد هيبة القانون والنظام . ولما توطد سلطانه وخبا ضرام الثورة نوعاً ، استطاعت الأندلس أن تتمتع فى ظل حكومته بأمن وطمأنينه ورخاء لم تعرفها منذ بعيد ، ولو لم يُشغل عبد الرحمن طوال عهده بقمع الثورة والفتن الداخلية ، لاستطاع كأسلافه الفاتحين الأوائل ، أن يبعث الأندلس خلقاً جديداً ، وأن يجعل منها حديقة يانعة . على أنه ذلل الصعب ومهد الطريق لعقبة ، واستطاع أن يضع دعائم تلك المملكة ، التى غدت على يد بنيه أعجوبة العصور الوسطى . وينوه ابن حيان مؤرخ الأندلس بمقدرة الداخل وكفاياته الإدارية فيقول إنه «دون الدواوين ، ورفع الأواوين ، وفرض الأعطية ، وعقد الألوية ، وجند الأجناد ، ورفع العماد ، وأوثق الأوتاد ، فأقام للملك آلته ، وأخذ للسلطان عدته »(٢) .

وعنى عبد الرحمن بالجيش عناية خاصة ، فحشد المتطوعة والمرتزقة من كل صوب ، وبلغت قواته مائة ألف مقاتل(٣) ، هذا عدا حرسه الخاص الذى أنشأه

---

( ١ ) أورد ابن الخطيب فى كتاب الإحاطة ( مخطوط الإسكوريال ) نص هذا الكتاب ونقله عنه الغزيرى فى فهرسه . راجع Casiri: Bibliotheca Arabico-Hispana Escurialenses Vol. II. p. 104 . بيد أننا نرتاب على الأقل فى صحة الأرقام التى وردت به لضخامتها بالنسبة لموارد النصارى فى هذا العصر .

( ٢ ) نقله نفح الطيب ج ١ ص ١٥٥ .

( ٣ ) نفح الطيب ج ٢ ص ٧٤ .

من الموالى والبربر والرقيق حسبما قدمنا ويبلغ زهاء أربعين ألفاً[١] . كذلك عنى عبد الرحمن فى أواخر عهده بأمر القوات البحرية ، فأنشأ عدة قواعد لبناء السفن فى بعض الثغور النهرية والبحرية ، مثل طركونة وطرطوشة وقرطاجنة وإشبيلية وغيرها[٢]. ويقال إن عبد الرحمن الداخل لما توطد ملكه ، وكثرت قواته وعدته ، فكر فى استرداد ملك بنى أمية بالشام ، والرحيل إلى المشرق ببعض قواته ، واستخلاف ولده سليمان على الأندلس ، وأيده فى ذلك خاصة أسرته ومواليه . وكان ذلك فى سنة ١٦٣ هـ . ولكن اضطرام الثورة فى سرقسطة حال بينه وبين ذلك العزم ، وتوفى قبل أن تسنح فرصة لتنفيذه[٣]. وقد تكون هذه أمنية جالت بذهن عبد الرحمن ، ولكننا لانجد فى ظروف حياته التى انقضت كلها فى إخماد الفتن والثورات المحلية ، ما يسمح باعتبار مثل هذه الأمنية مشروعاً جدياً تتخذ العدة لتنفيذه .

واستطاع الداخل أيضاً أن يعنى بالحاضرة الأموية الجديدة أعنى قرطبة ، فحصنها وزينها بالمنشآت الفخمة والرياض اليانعة . وكان أول ما أنشأ بها فى عهده منية الرُّصافة وقصرها المنيف. وكان قصر الإمارة بناء قديماً ساذجاً يرجع إلى عهد القوط ، فرأى عبد الرحمن أن ينشئ ضاحية ملوكية جديدة ، تليق بحاضرة ملكه ، وتعيد ذكرى بهاء بنى أمية بالمشرق ، فأنشأ فى شمال غربى قرطبة قصراً فخماً تحيط به حدائق زاهرة ، وجلب إليها مختلف الغروس والبذور والنوى من الشأم وإفريقية ، وسمى تلك الضاحية الجديدة بالرُّصافة تخليداً لذكرى الرصافة التى أنشأها جده هشام بالشأم ، واتخذها مقاماً ومنتزها ومركزاً للإمارة ، وكانت حدائق الرصافة أماً لحدائق الأندلس ، ومنها انتشرت بالأندلس غروس الشام وإفريقية[٤]. وفى سنة ١٥٠ هـ بدأ عبد الرحمن بإنشاء سور قرطبة الكبير ، واستمر العمل فيه مدى أعوام[٥]. وأنشأ عبدالرحمن فى قرطبة وفى باقى مدن الأندلس مساجد محلية عديدة ، وبدأ فى أواخر أيامه (سنة ١٧٠ هـ — ٧٨٦م) بإنشاء المسجد

---

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ٦٧ .

(٢) **Reinaud : ibid , p. 120**

(٣) نفح الطيب ج ١ ص ١٥٦ ، وج ٢ ص ٧٦ .

(٤) نفح الطيب ج ١ ص ٢١٧ .

(٥) ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٣ .

الأموى الجامع بقرطبة ، وكان موضعه كنيسة قوطية قديمة ، وجلب إليه الأعمدة الفخمة والرخام المنقوش بالذهب واللازورد . ولكنه توفى قبل إتمامه ، فأتمه ولده هشام ، وزاد فيه من بعده ملوك بنى أمية ، حتى غدا أعظم مساجد الأندلس ، وبلغ ما أنفقه عليه الداخل وحده زهاء مائة ألف دينار (١) . وأنشأ عبد الرحمن أيضاً فى قرطبة داراً للسكة ، تضرب فيها النقود على نحو ما كانت تضرب فى دمشق أيام بنى أمية وزناً ونقشاً .

— ٣ —

وكان عبد الرحمن الأموى جواداً ، جم البساطة والتواضع ، يؤثر لبس البياض ويعتم به ، يصلى بالناس أيام الجمع والأعياد ، ويحضر الجنائز ويصلى عليها ، ويعود المرضى ، ويزور الناس ويخاطبهم ، ولم ينحرف عن هذه الديمقراطية إلا فى أواخر عهده ، حينما نصحه بعض خاصته بالترفع ، استبقاء لهيبة الملك ، والحذر من بوادر العامة وشر المتآمرين (٢) . وقد كان فى نقش خاتمه « عبد الرحمن بقضاء الله راض » و « وبالله يثق عبد الرحمن وبه يعتصم » ما ينم عن ذلك التواضع الجم (٣) ، حيث لم يتخذ لقب المظفر أو الناصر أو المنصور وما إليها .

بقى أن نتحدث عن ناحية أخرى من خلال عبد الرحمن البديعة ، هى الناحية الأدبية . كان عبد الرحمن شاعراً جيد النظم ، ناثراً فصيح البيان ، قوى الترسل ، عالماً بالشريعة ، وكان يعتبر من أعظم بنى مروان مكانة فى البلاغة والأدب (٤) . وقد انتهت إلينا بعض رسائله وفيها تبدو قوة بيانه وفيض بلاغته . ومن ذلك رسالة موجزة وجهها إلى سليمان بن يقظان حين خروجه عليه : « أما بعد ، فدعنى من معارض المعاذر ، والتعسف عن جادة الطريق ، لتمدن يداً إلى الطاعة ، والاعتصام بحبل الجماعة ، أو لألقين بنانها على رصف المعصية ، نكالا بما قدمت يداك ، وما الله بظلام للعبيد » . ومنها رسائله إلى بدر مولاه ، يزجره عن تمرده وانحرافه وقد كتب إليه حين ألحف فى طلب العفو والمنة : « لتعلم أنك لم تزل بمقتك حتى

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ١٥٥ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٦٠ .

(٢) نفح الطيب ج ٢ ص ٦٧ .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٥٠ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٧٦ .

(٤) البيان المغرب ج ٢ ص ٦٠ و ٦٢ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٦٩ ؛ والمراكشى فى المعجب ص ١٠ .

ثقلت على العين طلعتك ، ثم زدت إلى أن ثقل على السمع كلامك ، ثم زدت إلى أن ثقل على النفس جوارك ، وقد أمرنا بإقصائك إلى أقصى الثغر ... » . ومن أقواله لأصحابه يوم المسارّة يشحذ هممهم للقتال : « هذا اليوم هو أس ما يبنى عليه ، إما ذل الدهر وإما عز الدهر ، فاصبروا ساعة فيما لا تشتهون ، تربحوا بها بقية أعماركم فيما تشتهون »[1] .

وانتهى إلينا من نظم عبدالرحمن ما يدل على قوة شاعريته ورقة خياله . فمن ذلك قوله حين بلغه أن بعض أصدقائه يمن عليه ، ويزعم أنه لولاه لما صار الملك إليه :

سعدى وحزمى والمهند والقنا ومقادير بلغت وحال حائل
إن الملوك مع الزمان كواكب نجم يطالعنا ونجم آفل
والحزم كل الحزم أن لا يغفلوا أيروم تدبير البرية غافل
ويقول قوم سعده لا عقله خير السعادة ما حماها العاقل

وأشاد بعضهم أمامه بموقف الغمر بن يزيد بن عبد الملك فى مجلس عبد الله ابن على جلاد بنى أمية ، ونعيه عليه إثمه فى حقهم وسفكه لدمائهم ، وفقده لحياته ثمناً لجرأته ، فأنشد عبد الرحمن :

شتان من قام ذا امتعاص[2] فشال ما قال واضمحلا
ومن غدا مصلتا لعزم[3] مجرداً للعداة نصلا
فجاب قفراً وشق بحراً ولم يكن فى الأنام كلاّ
فبز ملكاً وشاد عزاً ومنبراً للخطاب فصلا
وجند الجند حين أودى ومصر المصر حين أجلى
ثم دعا أهله جميعاً حيث انتأوا أن هلم أهلا[4]

ومن قوله فى التشوق إلى ربوع الشام ، وهو رقيق مؤثر :

أيها الركب الميمم أرضى أقر من بعضى السلام لبعضى
إن جسمى كما علمت بأرض وفؤادى ومالكيه بأرض

(١) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ٦٨ — ٧٠ ، حيث يورد عدة من رسائل عبد الرحمن وأقواله .
(٢) يريد الغمر بن يزيد بن عبد الملك .
(٣) يريد نفسه أى عبد الرحمن الداخل .
(٤) هكذا يوردها المقرى ( نفح الطيب ج ٢ ص ٦٨ ) ؛ ولكن صاحب البيان المغرب يوردها بصورة أخرى ج ٢ ص ٦١ ) .

قدر البين بيننـــا فافترقنـــا  وطوى البين عن جفونى غمضى
قد قضى الله بالفـــراق علينـــا  فعسى باجتماعنا ســـوف يقضى

ورأى بروض الرصافة وهى الضاحية الجديدة التى أنشأها ، نخلة منفردة ، فأثار منظرها فى نفسه ذكرى وشجناً وأنشد(١) :

تبدت لنا وسط الرصافة نخـــلة  تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهى فى التغرب والنوى  وطول التنائى عن بنيّ وعن أهلى
نشأت بأرض أنت فيها غريبـــة  فمثلك فى الإقصاء والمنتأى مثلى
سقتك غوادى المزن من صوبها الذى  يسح ويستمرى ءالسماكين بالويل(٢)

— ٤ —

هذا ويجب أن نستعرض هنا ، وقبل اختتام الكلام على عصر عبد الرحمن الداخل ، عناصر المجتمع الأندلسى ، الذى كان خلال هذه الأحداث والخطوب التى توالت عليه منذ أيام الفتح ، قد استقر ، وأخذت جذوره فى التوطد والرسوخ ، وأخذت عناصره المختلفة ، يؤدى كل منها دوره فى غمرة الحوادث ، مستهدياً بعواطفه وأمانيه ومثله الخاصة .

وقد سبق أن أشرنا بإيجاز إلى أن المجتمع الإسلامى الذى قام فى شبه الجزيرة عقب الفتح ، كان يتألف من عناصر رئيسية ثلاثة ، هى العرب ، والبربر ، والمولدون . كما أشرنا إلى عناصر الشقاق والتفرق التى كانت تعمل فى صفوف هذا المجتمع الإسلامى الجديد .

كانت البطون العربية التى اشتركت فى الفتح ، واستقرت فى شبه الجزيرة تضطرم منذ البداية بروحها القبلى المتأصل ، ولم تستطع قط أن تتحرر من هذا

---

(١) وينسب هذا الشعر أيضاً لعبد الملك بن بشر بن عبد الملك بن مروان ، وكان من الداخلين إلى الأندلس ( راجع الحلة السيراء ص ٣٤ ) .

(٢) يورد ابن الأبار فى هذا الموطن رواية يفهم منها أن هذه النخلة هى أول نخلة غرست بالأندلس ، ومنها تولد جميع النخل بالأندلس فيما بعد ، وإذاً فيكون عبد الرحمن الداخل هو أول من نقل غراس النخيل بالأندلس فيما نقل من غراس الشام إلى الرصافة ( الحلة السيراء ص ٣٥ ) . ولكن يحق لنا أن نلاحظ أن العرب فتحوا الأندلس قبل ذلك بنحو ثمانين عاماً ، ومن قبلها فتحوا إفريقية ؛ ومن المعقول أن يكون النخل قد نقل إليها فيما نقلوا من غراس بلادهم ؛ وقد نقلوه قبل ذلك إلى مصر منذ الفتح . وإذا كان النخيل قد غرس بإفريقية عقب افتتاحها ، أفلا يكون من المرجح أنه قد نقل منها إلى الأندلس عقب افتتاحها أيضاً ؟ وقد كان أول ما عنى به العرب فى الأندلس تنظيم للزراعة وغرس الحدائق .

الروح النكد ، الذى أشاع فيا بينها عوامل الشقاق والتنابذ ، وأثار فيا بينها غير مرة ضرام الحرب الأهلية . وقد رأينا كيف عانت الأندلس فى أواخر عهد الولاة من هذه الحرب الأهلية ، التى اضطرمت بين المضرية واليمنية وبين البلديين والشاميين ، وكيف كادت تودى بسلامة الأندلس ومنعتها . ثم رأينا كيف قضى عبد الرحمن الداخل معظم عهده فى مكافحة الثورات المتعاقبة التى شهرها فى وجهه زعماء القبائل والبطون فى سبيل الاحتفاظ بسلطانهم المحلى . وهكذا كانت القبائل العربية فى الأندلس منقسمة على نفسها ، وإن كانت الرياسة قد بقيت فيها على يد الدولة الأموية الجديدة التى قامت فى شبه الجزيرة . بيد أن العرب لم يكونوا بين كتلة الأمة الأندلسية أغلبية ، بل كانوا بالعكس أقلية تتمثل بالأخص فى الأرستقراطية العربية التى استأثرت بمعظم مغانم الفتح ، واستولت حيناً على أزمة الحكم ، واحتلت فى شبه الجزيرة معظم البقاع الخصبة . وقد ذكر لنا ابن غالب فى « فرحة الأنفس » ، كثيراً من البطون العربية التى استقرت بالأندلس ، وبعض من كان ينتمى إليها من الأسر الأندلسية النابهة ، وذكر لنا من منازلها ، بلنسية وأوريولة وإشبيلية وغرناطة ووادى آش[1]. وكانت الأرستقراطية العربية تستقر بالأخص فى القواعد والمدن الكبيرة ، ولا سيما فى قرطبة ، وتترك العمل فى ضياعها الشاسعة للموالى والبربر ، وكان أمراء بنى أمية منذ عهد عبد الرحمن الداخل يعملون على مقارعة هذه الأرستقراطية القوية وإخضاعها ، حتى جاء عبد الرحمن الناصر ، فقضى على سلطانها السياسى والاجتماعى ، ورفع إلى مكانها الموالى والصقالبة ، ثم جاء المنصور بن أبى عامر ، فعمل على تمزيقها وتشتيتها ، وخلق أرستقراطية جديدة من البربر تقوم مكانها ، ومن ذلك الحين تغيض الأصول العربية فى شبه الجزيرة تباعاً ، وتضمحل مكانتها وأهميتها .

ويرجع انكماش العنصر العربى فى الأمة الأندلسية ، أولا إلى كونه يمثل الطبقة الممتازة وهى تكون الأقلية دائماً ، وثانياً إلى أن الهجرة العربية إلى شبه الجزيرة لم تكن هجرة غزيرة ، وقد توقفت تقريباً منذ القرن الثالث الهجرى ، ولم يكن ما ينسب للأمراء والكبراء من كثرة النسل ، لامتلاء قصورهم بالجوارى ، ما يعوض هذا النقص العنصرى .

وإلى جانب الأقلية العربية الأرستقراطية ، يجب أن نذكر طائفة الموالى التى

(١) نقله المقرى فى نفح الطيب ج ١ ص ١٣٦ و ١٣٧ .

كانت تنتمى إليها أولا وتشد بأزرها، ثم انقلبت عليها فيما بعد حينما تمكنت واشتد نفوذها . وقد نمت هذه الطائفة بمر الأيام . وظهر منها كثير من القادة والزعماء النابهين ،الذين شغلوا أعظم المناصب فى الدولة وفى الجيش ، مل بنى شُهيد ، وبنى مغيث وبنى عَبْدَه ، وبنى جهور ، وبنى بسيل : وهم الذين شغلوا مناصب القيادة والحجابة أجيالا . وإلى جانب هؤلاء ، يجب أن نذكر طائفة الصقالبة الأجانب التى ظهرت أهميتها منذ أيام عبد الرحمن الداخل ، وبلغت ذروة تضخمها ونفوذها أيام عبد الرحمن الناصر . وقد كان بنو أمية يؤثرون اصطناع هؤلاء الموالى والإفادة من عونهم وتأييدهم . .

وأما العنصر الثانى الذى كانت تتكون منه الأمة الأندلسية فهو عنصر البربر . وقد قام البربر حسبما رأينا بأكبر قسط فى فتح الأندلس ، وفى الغزوات التى اضطلعت بها الجيوش الإسلامية فيما وراء البربيه ، وكانوا فى معظم الأحيان أغلبية فى تلك الجيوش ، وإن كانت القيادة قد لبثت على الأغلب فى أيدى القادة والضباط العرب . وكانت هجرة القبائل البربرية إلى شبه الجزيرة أسرع وأشد كثافة من هجرة العرب ، أولا لقرب منازلهم فى العدوة من شبه الجزيرة ، وثانياً لشعورهم بما كان لهم من فضل فى أعمال الفتح ، وثالثاً لما كان يحفزهم من آمال فى البحث وراء طالعهم فى هذا القطر الجديد ، الذى كانت وديانه الخضراء تجذبهم من بواديهم المقفرة . وقد استمرت هجرة البربر على هذا المنوال أجيالا ، بينما كانت هجرة العرب من منازلهم البعيدة فى شبه الجزيرة العربية وفى الشام بطيئة محدودة أضف إلى ذلك ما عمد إليه أمراء بنى أمية ، منذ عهد عبد الرحمن الداخل من اصطناع البربر إلى جانب الموالى والصقالبة ، والاستعانة بهم فى تدعيم سلطانهم ، لاسترابتهم بالقبائل العربية . وقد بلغت هذه السياسة كما سنرى فيما بعد ذروتها فى عهد المنصور بن أبى عامر ، حيث انثالت القبائل البربرية على شبه الجزيرة ، واحتل زعماؤها معظم المناصب الكبيرة ، وأضحى سواد الجيش مؤلفاً منها . وقد كانت معظم البطون البربرية المهاجرة تنتمى بالأخص إلى زناتة ومصمودة ومكناسة ونفزة والبرانس ، واشتهرت من هـــذه البطون بالأخص ، مدغرة ومديونة ومكناسة وهوارة . ومنها خرج فيما بعد أمراء كثير من القواعد والثغور ، وقامت من بينها ممالك من دول الطوائف . وقد كان البربر أكثرية فى الشمال الغربى ، وفى وسط الأندلس فى منطقة جبال المعدن ( أو جبال البرانس ) ، وفى أراضى السهلة

ووادى الحجارة ، ومنطقة شرق إشبيليه والفرنتيرة ، وهى مناطق تمتاز على الأغلب بهضابها الوعرة ، وهو ما كان يشجع البربر فى أحيان كثيرة على الثورة ومقاومة الحكومة المركزية للمحافظة على استقلالهم المحلى(١) .

والعنصر الثالث الذى كانت تتكون منه الأمة الأندلسية هو عنصر المولدين ، وهم القوط والإسبان الذين أسلموا منذ الفتح ، ودخلوا حظيرة المجتمع الإسلامى إلى جانب زملائهم العرب والبربر ، مؤثرين أن يتمتعوا فى ظل الإسلام بمزايا المساواة والثقة ، والتحرر من القيود والأعباء التى تلاحق الذميين . ويعرف أولئك المولدون فى الإسبانية بالخوارج أو المرتدين Renegados ، أى الذين ارتدوا عن دينهم القديم ، وهو النصرانية ، ويسمون أحياناً بالمسالمة أو بالأسالمة ، أو أسالمة أهل الذمة ، متى كان إسلامهم حديثاً . وكان المولدون يكونون بين السكان كتلة كبيرة ربما كانت الأغلبية ، وقد كان إسلامهم سريعاً ، ولم يأت جيل أو اثنان حتى استطاعوا الاندماج فى المجتمع الإسلامى ، وأضحى من الصعب تمييزهم من المسلمين الأصليين ، وغدوا بمضى الزمن عنصرا من أهم عناصر السكان إن لم يكن أهمها جميعاً ، سواء من حيث الكثرة أو المستوى الاجتماعى والحضارى .

وإلى جانب هذه العناصر الأساسية الثلاثة ؛ التى كانت تتكون منها الأمة الأندلسية ، كان ثمة عنصران آخران هما المستعربون أو النصارى المعاهدون Mozárabes وهم النصارى الذين آثروا الاحتفاظ بدينهم القديم ، ولبثوا يعيشون فى المدن والأراضى المفتوحة تحت الحكم الإسلامى ، وقد كانت منهم ثمة أقليات كبيرة فى بعض المدن مثل طليطلة وقرطبة . واليهود ، وقد رأينا كيف ساعدوا الفاتحين المسلمين وقت الفتح ، وتعاونوا معهم فى حفظ المدن المفتوحة وإدارتها ، وقد كانت منهم أقليات فى معظم المدن الأندلسية ، تتمتع بحماية الحكومات الإسلامية ورعايتها . وقد ازدهرت هذه الأقليات اليهودية فيما بعد ، وظهرت منها شخصيات بارزة تولت مناصب كبيرة فى الدولة ، وغلب نفوذها فى بعض المناطق ، كما حدث فى مملكة غرناطة البربرية ، وظهرت كذلك فى ميدان العلوم والآداب ، ونبغ منها علماء نابهون مثل ابن ميمون وغيره .

تلك هى العناصر المختلفة التى كانت تتألف منها الأمة الأندلسية . وسوف نعود من آن لآخر إلى التحدث عن هذه العناصر فى مختلف المواطن والمناسبات .

---

(١) يحدثنا ابن حزم تفصيلا عن منازل البربر فى الأندلس . راجع جمهرة أنساب العرب (القاهرة) ص ٤٦٣ — ٤٦٧ .

# الفصل السابع

## المملكة النصرانية الشمالية

### منذ قيامها إلى ولاية ألفونسو الثانى

بعث المملكة النصرانية فى الشمال . اجتماع فلول النصارى فى الهضاب الشمالية . الدوق بتروس وبلاجيوس . نشوء المملكة النصرانية . صمت إيزيدرو الباجى عن ذكرها . أقوال الرواية الإسلامية . إمارة جليقية والصخرة . رأى لابن خلدون فى شأنها . إغفال الفاتحين لأمرها . حملات المسلمين عليها . ارتدادهم عن تلك الهضاب . اجتماع النصارى حول بلاجيوس . حملة ابن أبى نسعة على جليقية . إغارة النصارى على الأراضى الإسلامية . غزو عقبة بن الحجاج لجليقية . نمو المملكة النصرانية . وفاة بلاجيوس . ولده فافيلا . إمارة كانتابريا . تحالفها مع جليقية . اتحادهما تحت ولاية ألفونسو الأول . ألفونسو الأول أو الكاثوليكى . اجتياحه للأراضى الإسلامية . استيلاؤه على أسترقة . أخوه فرويلا أمير كانتابريا . استيلاء ألفونسو على مدينة لك . حملة يوسف الفهرى لإنقاذ أربونة . القتال بينه وبين البشكنس . عبور ألفونسو لنهر دويرة . وفاة فرويلا . وفاة ألفونسو . فرويلا الأول . استيلاؤه على شلمنقة وشقوبية وسمورة وقشتالة . اختلاف الرواية الإسلامية فى تاريخ هذه الغزوة . خطر المملكة النصرانية . عبد الرحمن الأموى يرسل حملة إلى جليقية . غزو ألبة والقلاع . ما تقوله الرواية النصرانية عن موقعة بونتومو . ثورات النصارى على فرويلا . غزوه لنافار . بطشه وسفكه . إنشاؤه لمدينة أوبييدو . وفاته . انقسام المملكة . ولاية أورليوس للولايات الشرقية . ولاية سيلو للولايات الغربية . وفاة أورليوس . ولاية سيلو على المملكة كلها . الصلح بينه وبين المسلمين . وفاة سيلو . اضطراب المملكة . قيام مورجات ولد ألفونسو الأول . فرار ألفونسو ابن فرويلا إلى ألبة . تحالف مورجات مع المسلمين . أقوال الرواية الإسلامية . وفاة مورجات . ولاية برمند الأول لجليقية . تحالفه مع ألفونسو . تخلى برمند وولاية ألفونسو على المملكة كلها . أسطورة القديس يعقوب وقيام مدينة شنت ياقب . عزلة المملكة الشمالية . خواص مجتمعها .

نقف الآن قليلا فى تتبع أخبار دولة الإسلام فى الأندلس ، لنأتى على أخبار دولة متواضعة أخرى ، قامت فى اسبانيا إلى جانب الدولة الإسلامية فى نوع من الخفاء والصمت ، ولم يشعر المسلمون بمولدها ولا نموها فى أعوامها الأول ، ولم يقدروا أهميتها حين شعروا وجودها ، ولم يعنوا بأمرها إلا حينما نمت وانتظمت إلى قوة تستطيع العدوان والمقاومة : تلك هى المملكة الإسبانية النصرانية التى يجب أن تأخذ منذ الآن مكانها فى تاريخ شبه الجزيرة ، إلى جانب دولة الإسلام فيها . ولم يكن قيام هذه المملكة الناشئة ، سوى طور جديد فى حياة تلك المملكة

القوطية التى سحقها العرب عند فتح الأندلس ( ٩٢ هـ — ٧١١ م ) ، والتى قامت بعد ذلك تستأنف حياتها ضئيلة متواضعة ، فى قاصية اسبانيا الشمالية الغربية وفيما وراء الصخر ، ثم لبثت تنمو بطيئة ولكن ثابتة ، حتى رسخت دعائمها فى هاتيك الهضاب ، وبدأت بعد ذلك معركة الحياة والموت ، مع تلك المملكة الإسلامية التى قامت فى الجنوب ، على أنقاض مملكة القوط القديمة ، وهى معركة تشغل منذ الآن حيزاً كبيراً فى تاريخ الإسلام فى اسبانيا .

وقد نشأت المملكة الإسبانية النصرانية فى ظروف كالأساطير ، ونشأت فى نفس الوقت الذى افتتح فيه العرب اسبانيا ، وسحقوا دولة القوط القديمة . ففى موقعة شَريش التى مزق فيها جيش القوط وقتل آخر ملوكهم ردريك ( لذريق ) ( ٩٢ هـ ) ، فرت شراذم قليلة من الجيش المنهزم إلى الشمال ، واختفت فيما وراء تلك الجبال الشمالية ، التى وقف عندها تيار الفتح الإسلامى ، واجتمعت بالأخص فى هضاب كانتاريا (نافار وبسكونية) فى الشرق ، وفى هضاب أشتوريش[١] فى الغرب ، واجتمع فل النصارى فى الهضاب الشرقية تحت لواء زعيم يدعى الدوق پتروس ، واجتمع فلّهم فى الهضاب الغربية فى جليقية تحت لواء زعيم يدعى پلاجيوس أو پلايو . وكان پتروس ينتمى إلى أحد الأصول الملكية ، وكان من قادة الجيش فى عهد وتيزا ملك القوط ، ثم فى عهد خلفه ومغتصب ملكه ردريك . أما پلاجيوس أو پلايو فيحيط الغموض بأصله ونشأته ، ولكن يبدو مما تنسبه إليه الرواية من ألوان الوطنية والبسالة والبطولة ، أنه كان رفيع المنبت والنشأة ، وتقول بعض الروايات إنه ولد الزعيم فافيلا[٢] الذى قتل الملك وتيزا فى هضاب جليقية ، وإنه كان لذلك من خاصة الملك ردريك وقادته . وهذا ما يردده سيمونيت إذ يقول فى أصل پلاجيوس ما يأتى : « وكان الحزب المتمسك بدينه ووطنه ، المنكر لخيانة أولاد وتيزا ، قد اختار له رئيساً رفيع المواهب هو الدون پلايو بن فافيلا ، من سلالة القوط الملكية . ويقول البعض إنه ولد من يدعى ڤرمندو ، وحفيد للملك ردريك ، وقد حارب إلى جانب ردريك . ثم رأى فيه الأحبار والأكابر الذين التفوا حوله ، أنه جدير بالعمل على إحياء مملكة

---

( ١ ) فى الجغرافية الحديثة « أستورية » Asturias

( ٢ ) ابن خلدون ج ٤ ص ١٧٦ ، حيث يقول « وملكوا عليهم ( أى الجلالقة ) بلاى ابن فافلة »

القوط»[١]. وتعرف الرواية الإسلامية پلايو وتحدثنا عنه وتسميه ( بلاى ) ، وتصفه أحياناً بأنه أمير أو ملك، وتنعته غالباً بأنه « علج من علوج النصارى »[٢] وتتبع أخباره مع المسلمين ؛ ولكنها لا تلقى ضياء كثيراً على أصله أو أحوال مملكته الصغيرة . ذلك لأن المسلمين لم ينفذوا قط إلى ما وراء الهضاب الوعرة ، التى امتنع بها هذا الزعيم وفله ، والتى نشأت فيها جذور المملكة النصرانية الشمالية ، التى غدت غير بعيد خطراً على دولة الإسلام فى اسبانيا . ومن الغريب أن راوية نصرانياً كبيراً معاصراً هو إيزيدور الباجى ، وهو حبر عاصر الفتح الإسلامى ، وكتب روايته منذ منتصف القرن السابع ، ووصل فى كتابتها حتى سنة ٧٥٤ م[٣]، لم يذكر لنا فى روايته شيئاً عن قيام تلك المملكة النصرانية الصغيرة فى الشمال ، ولا عن زعيمها أو ملكها پلايو ، ولا عن غزوات المسلمين لها ، مع أن إيزيدور يتتبع أخبار الغزوات الإسلامية كلها ، منذ الفتح حتى منتصف القرن الثامن ، سواء فى اسبانيا أو فى مملكة الفرنج ، ويقدم إلينا عنها كثيراً من التفاصيل والملاحظات الهامة . وقد يرجع ذلك إلى أن إيزيدور وهو يقيم فى الجنوب فى مدينة باجة ، كان يجهل قصة هذه المملكة النصرانية الناشئة ، ولكن ما نراه من عنايته بتدوين أخبار الغزوات الإسلامية فى فرنسا ، وأخبار مملكة أكوتين ، يحملنا على الاعتقاد بأنه لم يكن يجهل أخبار مملكة جليقية النصرانية ، وهى أقرب إليه من فرنسا ، وأن أسباباً أخرى لعلها ترجع إلى انتماء أميرها پلايو إلى حزب ردريك الذى كان يبغضه المؤرخ ، هى التى حملته على إغفال أخبارها[٤].

وعلى أى حال فإن الرواية الإسلامية ، تذكر لنا كيف نشأت المملكة النصرانية

---

( ١ ) **F.J. Simonet cit. Saavedra ; Historia de los Mozarabes de Espana, Vol. I. p. 148.** ويقول المؤرخ المستشرق كاردون إن بلاجيوس ينتمى إلى أصل ملكى ، وانه الأمير الوحيد الذى نجا من فتك العرب ( راجع **Cardonne : ibid , I. p. 105.** ) ، بيد أن كاردون لا يقول لنا من أين استقى هذه الرواية .

( ٢ ) راجع أخبار مجموعة ص ٢٨ ، ونفح الطيب ج ١ ص ١١٠ .

( ٣ ) وقد كتبت باللاتينية بعنوان **Isidorus Pacensis Chronicon** . ونشرت ضمن المجموعة التاريخية الكنسية الإسبانية الكبيرة المسماة **Espana Sagrada** تصنيف الأب **P. Enrique Florez** . الجزء الثامن . ونشر دوزى منها مقتطفات فى كتابه **Recherches : V.I. p. 4-14 :** مع تعليقات .

( ٤ ) راجع : **Aschbach : ibid, I. p. 142**

الإسبانية فى الهضاب الشمالية ، بعد أن سحقت فى موقعة شريش فقد لجأت شراذم قليلة من القوط عقب الفتح إلى الجبال الشمالية ، وامتنعت فى مفاوز جبال أشتوريش (أستورية) ، وقامت إمارتان نصرانيتان صغيرتان فى كانتابريا وجلّيقية . وكانت إمارة كانتابريا التى أسسها الدوق پتروس ، لوقوعها فى الطرف الغربى من جبال البرنيه فى سهول ناڤار وبسكونية ، عرضة لاقتحام الفاتحين لها حين سيرهم إلى فرنسا وحين عودهم منها . ولكن إمارة جلّيقية Galicia ، كانت تقع فى أعماق جبال أشتوريش الوعرة ، بعيداً عن غزوات الفاتحين ، وسميت جليقية لأنها قامت على حدود الولاية الرومانية القديمة التى كانت تسمى بهذا الإسم . فى هذه الهضاب النائية المنيعة اجتمع پلايو وصحبه ، وعددهم لا يتجاوز بضع مئات حسبما تقول الرواية ، ولجأوا إلى مغار عظيم فى آكام كوڤادنجا ، تحيط به وديان سحيقة خطرة ، ويعرف فى الرواية الإسلامية باسم (الصخرة)[1]. ويقول لنا ابن خلدون فى الفصل الذى يخصصه (لملوك الجلالقة) ، إن هذه الإمارة الصغيرة التى كانت مهد المملكة النصرانية ، لاتمت بصلة إلى القوط ، وإن ملوك الجلالقة ليسوا من القوط ، لأن أمة القوط كانت قد بادت ودثرت لعهد الفتح الإسلامى[2]. بيد أنه يصعب علينا أن نقبل هذا الرأى على إطلاقه ، فمن المحقق أن فلول النصارى التى لجأت إلى الشمال كانت مزيجاً من القوط والإسبان المحليين ، ولكن الظاهر مما انتهى إلينا من أقوال الروايتين المسلمة والنصرانية ، أن الزعماء ولاسيما پلاجيوس كانوا من القوط ، وأن ملوك الجلالقة يمتون إلى القوط بأكبر الصلات .

ولم يعن المسلمون لأول عهد الفتح بأمر هذه الشراذم الممزقة عناية كافية . وكان فاتحا الأندلس موسى وطارق ، قد قاد كل منهما حملة إلى جليقية لسحق البقية الباقية من فل القوط ، ولكنهما لم يتمكنا من تحقيق غايتهما لاستدعائهما إلى دمشق كما أسلفنا . وكان إغفال أمر هذه الفلول الباقية بعد ذلك من أعظم أخطاء الفاتحين . بيد أنه لما كثرت ثورات النصارى فى الشمال ، وبالأخص فى بسكونية (أو بلاد البشكنس) ، اهتم ولاة الأندلس بقمعها وتأمين الولايات الشمالية ،

---

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ٥٧ .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٧٩ ، وهو يعارض هنا رأى ابن حيان فى أن المملكة النصرانية يرجع أصلها إلى القوط .

وسير الحرُّ بن عبد الرحمن الثقفى والى الأندلس فى سنة ٩٨ هـ ( ٧١٨ م ) جيشاً إلى الشمال لإخضاع النصارى ، فاجتاح المسلمون بلاد البشكنس وهضاب أشتوريش ، وأوفدوا حليفهم الأسقف أوپاس وهو أخو الملك وتيزا إلى پلايو ليقنعه بالتسليم وعبث المقاومة ، فأبى پلايو ولجأ إلى كهوفه المنيعة فى صخرة كوڤادنجا ، ونفذ المسلمون إلى أعماق الجبال وحاولوا عبثاً أن يستولو على مراكز العدو ، وحالت بينهم وبينه الوديان السحيقة والآكام الرفيعة ، وحوصر پلايو وأصحابه فى « الصخرة » مدى حين ، وقطعت عنهم المؤن ، وتساقطوا تباعاً من الجوع ، حتى لم يبق منهم على قول الرواية سوى ثلاثين رجلا وعشر نساء[١]. وتزعم بعض الروايات النصرانية أن پلايو كر على المسلمين ، وأنهم هزموا هزيمة شديدة وفقدوا ألوفاً كثيرة ، ووقع أوپاس فى أيدى مواطنيه فعاقبوه على خيانته بالموت[٢] .

وقد أتيح لنا أن نزور هذه المنطقة الوعرة — منطقة كوڤادنجا — وأن نشهد الصخرة المنيعة ، التى تقول الرواية إن پلايو وأصحابه امتنعوا فى مغارها ، والتى تثوى فى جانب منها إلى اليوم رفات پلايو . والحق أننا شهدنا من الوادى الذى تشرف عليه الصخرة ، والذى يقال إن المسلمين رابطوا فيه لمحاصرة النصارى ، أروع منظر يمكن تصوره من الصخور الوعرة ، والآكام الرفيعة المدببة ، وأدركنا كيف عجز المسلمون عن اقتحام مثل هذا المعقل المنيع .

ولما رأى المسلمون وعورة الهضاب وقسوة الطبيعة ، ارتدوا عن جلّيقية محتقرين شأن هذه الشرذمة الممزقة الجائعة . فقويت لذلك نفس پلايو وأصحابه ، وانضم إليهم كثير من النصارى فى كانتابريا وسهول جليقية ، واختاروه ملكاً عليهم لما رأوا من بسالته وبراعته وقوة عزمه ، وألفى پلايو الفرصة سانحة لتوطيد سلطانه وتوسيع أملاكه ، فأخذ يغير على الأراضى الإسلامية الشمالية ، وبدا لحكومة الأندلس خطر هذه العصابات الجبلية التى أخذت تنتظم إلى قوة يخشى بأسها . ولكن اضطراب الشئون الداخلية حال مدى حين دون مطاردتها وغزوها .

وفى سنة ١١٢ هـ ( ٧٣٠ م ) فى عهد أمير الأندلس الهيثم بن عبيد ، بعث حاكم ولاية البرنيه وهو يومئذ الزعيم المسلم الذى تعرفه الرواية النصراية باسم

---

( ١ ) أخبار مجموعة ص ٢٨ ؛ وكذلك Dozy : Hist , II. p.129

( ٢ ) Cardonne : ibid , I. p. 109, Aschbach : ibid; I. p. 145

منوسة أو مونس — جيشاً إلى جبال أشتوريش لغزو جليقية وسحق أميرها پلايو . ولكن پلايو استطاع أن يصمد للمسلمين كرة أخرى ، وأن يهزمهم هزيمة شنيعة . ولما رأى پلايو منعة معقله وقوة عصبته ، اخترق بسكونية وهاجم قوات المسلمين فى الوقت الذى كانت تتأهب فيه للسير إليه ، ومزق بعض وحداتها ، ثم ارتد إلى هضابه فاستعصم بها . ولما اضطربت شئون الأندلس بعد مقتل أميرها عبد الرحمن الغافقى وارتداد جيشه فى بلاط الشهداء ( ١١٤ هـ — ٧٣٢ م ) ، وشغل الولاة برد جيوش الفرنج ، عن الأراضى الإسلامية فى سبتمانيا ، كثرت غارات العصابات الجليقية على الأراضى الإسلامية فى شمال نهر دويرة ( دورو ) وفى منطقة أسترقة ، وعانى المسلمون فى تلك الأنحاء كثيراً من عيث النصارى . ولما تولى عقبة بن الحجاج حكومة الأندلس فى سنة ١١٦ هـ (٧٣٤ م ) ، ورأى خطر العصابات الجليقية وشدة عيثها فى الأراضى الإسلامية ، سار إلى جليقية وغزاها مرة أخرى فى سنة ٧٣٥ أو ٧٣٦ م ( ١١٨ هـ ) واستولى على بعض مواقعها ، ولكن النصارى امتنعوا كعادتهم فى الجبال ولم يبلغ عقبة منهم أمراً . ولما اضطرمت الأندلس بالفتن ونشبت الحرب الأهلية ، بين مختلف الزعماء والقبائل ، ازداد النصارى جرأة وتحرشاً بالمسلمين وعيثاً فى أراضيهم ، ولم تستطع حكومة قرطبة أن تسعفهم بالعون والمدد لاشتغالها بالشئون الداخلية . وكانت سلطة الحكومة المركزية ضعيفة فى تلك الأنحاء النائية ، وكان سكانها ومعظمهم من البربر ، يكثرون من الخروج والثورة سخطاً على العرب ، واستئثارهم بالحكم والسيادة . وكان النصارى من رعايا حكومة قرطبة ، يدسون الدسائس ويرتكبون شتى الخيانات ، ويشجعون بذلك پلايو وعصبته على الإغارة والعيث فى أراضى المسلمين ، وكانت الإمارة النصرانية الناشئة تنمو خلال ذلك ويشتد ساعدها ، ويهرع النصارى إلى لواء پلايو من مختلف الأنحاء .

ويقول العلامة ألتاميرا : « كان كفاح پلايو وزملائه الأشراف ، يرجع إلى الرغبة فى استرداد جزء من الأراضى المفقودة ، ومن جهة أخرى فإن احترام الفاتحين لدين المغلوبين وعاداتهم ، لم يجعل فى البداية للمعركة لوناً دينياً أو عنصرياً ، بل كان مدارها من جانب الأشراف ورجال الدين ، استرداد الأملاك وشىء من هيبة الملك »(١) .

---

(١) R. Altamira : Historia de Espana, Vol. I. p. 224

واستمر پلايو فى حكم إمارة جليقية زهاء تسعة عشر عاماً ، وتوفى سنة ٧٣٧ م . ولكن بعض الروايات النصرانية تضع تاريخ وفاته بعد ذلك ، فتقول إنه لبث حتى ولاية عبد الرحمن بن يوسف الفهرى للأندلس (١٢٧ — ١٣٧ هـ) (٧٤٥ — ٧٥٥ م) ، وأن الموقعة التى نشبت بين منوسة وپلايو كانت بين سنتى ٧٤٦ و ٧٥١[١] ، وهى رواية ظاهرة الضعف ، لأن منوسة قتل فى سنة ١١٤ هـ (٧٣٢ م) كما قدمنا ، والرواية الإسلامية واضحة دقيقة فى ترتيب الوقائع والتواريخ فى هذا الموطن . وخلف پلايو ولده فاڤيلا ، ولكنه توفى بعد حكم لم يطل أمده سوى عامين (سنة ٧٣٩ م) . وكان الدوق پتروس أمير كانتابريا قد توفى فى ذلك الحين أيضاً ، وخلفه ولده ألفونسو دوق كانتابريا ، ونمت هذه الإمارة النصرانية الصغيرة أيضاً واشتد ساعدها ، وقويت أواصر التحالف بينها وبين جلّيقية بتزوج أميرها ألفونسو من ابنة پلايو واسمها أرموزندة أو هرمزندة . فلما توفى فاڤيلا ولد پلايو ، اختار الجلالقة ألفونسو دوق كانتابريا ملكاً عليهم ، واتحدت الإمارتان ، وقامت منهما مملكة نصرانية واحدة ، هى مملكة ليون النصرانية أو مملكة جلّيقية فى الرواية الإسلامية ، وتمتد من بلاد البشكنس شرقاً إلى شاطئ المحيط غرباً ، ومن خليج بسكونية شمالا إلى نهر دويرة جنوباً ، وتشمل مناطق شاسعة من القفر والهضاب الوعرة ، وتحتجب وراء الجبال بعيدة عن سلطان المسلمين وغزواتهم[٢] .

ويعتبر ألفونسو دوق كانتابريا ، أو ألفونسو الأول الملقب بالكاثوليكى مؤسس المملكة النصرانية الشمالية ، وأصل ذلك الثبت الحافل من ملوك قشتالة[٣] ، الذين لبثوا قروناً يدفعون حدودهم إلى الجنوب تباعاً فى قلب المملكة الإسلامية ، ثم انتهوا بالقضاء عليها والاستيلاء على غرناطة آخر معاقلها (١٤٩٢ م) . وحكم ألفونسو فى ظروف حسنة ، فقد كانت الحرب الأهلية تمزق الأندلس ، وكان أمر الولايات الشمالية فوضى ، والضعف يسود المسلمين فى تلك الأنحاء ، وكان ثمة منطقة عظيمة من القفر والخراب تفصل بين جليقية وبين الأراضى الإسلامية ، فاجتاحها ألفونسو بجموعه ، وقتل من بها من المسلمين القلائل ، ودفع النصارى

---

(١) Aschbach : ibid , I. p. 148—149

(٢) Aschbach : ibid , I. p. 152 و Dozy : Hsit., V. II. p. 130

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٧٩ .

إلى الشمال . ولما حل القحط بالأندلس (سنة ١٣٣ هـ — ٧٥٠ م) واشتد عصفه بالولايات الشمالية الغربية ، جلا كثير من المسلمين عن تلك الأنحاء ، واشتد ساعد النصارى فيها ، ورفعوا لواء الثورة ، وفتكوا بالمسلمين ، ونادوا بألفونسو ملكاً عليهم[١]، وانتهز ألفونسو الفرصة فغزا أسْتُرقة واستولى عليها من يد المسلمين ، واستولى على كثير من البلاد والضياع المجاورة ، وضمها لأملاكه (١٣٦ هـ — ٧٥٣ م) . وهكذا نمت تلك المملكة النصرانية التى نشأت فى ظروف كالأساطير واتسعت حدودها ، واشتد بأسها بسرعة مدهشة ، ولم يأت منتصف القرن الثامن حتى بدأت تناهض الإسلام فى الأندلس وتغالبه ، وتغير على معاقله وأراضيه .

وعهد ألفونسو بإمارة كانتابريا وهى القسم الشرقى من مملكته ، إلى أخيه فرويلا (أو فرويلة) ، فكان يغير أيضاً على الأراضى الإسلامية المجاورة ، ويعيث فيها قتلا ونهباً وسبياً ، ثم يعود مسرعاً إلى الجبال خشية أن يلحق به المسلمون . بيد أن المسلمين كانوا يومئذ فى شغل شاغل من الفتنة والحروب الداخلية ، وكان يوسف بن عبد الرحمن الفهرى أمير الأندلس يعنى يومئذ بقمع الثورة فى الشمال ، فانتهز ألفونسو تلك الفرصة وغزا مدينة لُك (لوجو) الحصينة وهى أقصى معاقل المسلمين فى الشمال الغربى وافتتحها (سنة ١٣٧ هـ — ٧٥٤ م) ، وكان يوسف قد انتهى من إخماد الثورة فى الشمال ، وأراد إنجاد المدينة المحصورة ، فجاءته الأنباء بمقدم عبد الرحمن الأموى ، فهرول إلى الجنوب وترك لُك لمصيرها . وكان أيضاً قد أرسل قبل أن يغادر الشمال قوة من جنده بقيادة الحصين بن الدجن وسليمان بن شهاب لإنجاد ثغر أربونة ، الذى كان يحاصره الفرنج يومئذ ، ففاجأها النصارى قبل أن تعبر البرنيه ، ونشبت بين الفريقين معركة مزق فيها المسلمون وقتل قائدهم سليمان بن شهاب ، وارتد فلهم إلى الجنوب (سنة ٧٥٦ م)[٢] . والظاهر أن الذى هاجم المسلمين فى تلك الموقعة هو فرويلا وحلفاؤه أو رعاياه البشكنس . وعبر ألفونسو نهر دويرة (دورو) غير مرة ، وعاث فى أراضى المسلمين مراراً ، وكان يقتل كل من وقع فى يده من المسلمين ، ويسوق النصارى معه إلى الشمال . ولبث مع أخيه فرويلا كلٌّ يعمل من جانبه على توسيع المملكة

---

(١) أخبار مجموعة ص ٦١ و ٦٢ .

(٢) راجع ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٥٨ ؛ وكذلك **Aschbach : I. ibid ; I.p. 155** والهوامش .

النصرانية ، حتى توفى فرويلا سنة ٧٦٤ م ( ١٤٦ هـ ) ، وتولى أخوه ألفونسو من بعده حكم المملكة كلها ، ولكنه لم يعش طويلا ، وتوفى فى العام التالى (٧٦٥م )[١] فخلفه ابنه فرويلا الأول . وكان عبد الرحمن الأموى يكرس كل جهوده وقواه لقمع الثورة الخطيرة التى نظمها العلاء بن مغيث باسم الدعوة العباسية ، فرأى فرويلا الفرصة سانحة لغزو الأراضى الإسلامية[٢] فعبر نهر دويرة فى جيش ضخم وغزا لُك وبُرتقال وشَلَمنقة وشَقُوبية وآبلة وسمّورة وقشتالة[٣] ، واستولى عليها من المسلمين ، وعاث فى تلك المنطقة سفكاً وتخريباً وضمها إلى أملاكه ، فصارت جزءاً من مملكة جلّيقية ، حتى استعادها المسلمون بعد ذلك بنحو قرنين فى عهد الحاجب المنصور . وتختلف الرواية الإسلامية فى تعيين تاريخ هذه الغزوة فيضعها ابن الأثير قبل ذلك بأعوام فى حوادث سنة ١٤٠ هـ ( ٧٥٨ م ) ويقول إن الذى قام بها هو تدويلية ( تدڤيليا ) ابن أذفنش (ألفونسو ) ، ولكن ألفونسو توفى بعد ذلك كما رأينا[٤] ، ويضعها ابن خلدون بعد سنة ١٤٢ هـ وهى التى يعينها تاريخاً لوفاة ألفونسو ، فى عهد فرويلا ، وقد تولى فرويلا الملك بعد وفاة أبيه حسبما تقول الرواية النصرانية فى سنة ٧٦٥ م (١٤٧ هـ)[٥]. وعلى أى حال فقد كانت هذه الغزوة أعظم فتح قام به النصارى يومئذ فى الأراضى الإسلامية ، بعد افتتاح الفرنج لسبتمانيا واستيلائهم على أربونة أمنع مواقع ولاية « الثغر » قبل ذلك بأعوام قلائل .

وهنا ظهر خطر المملكة النصرانية واضحاً جلياً . ولم يكن عبد الرحمن الأموى بغافل عن ذلك الخطر ، وكان رغم اشتغاله المتواصل بقمع الثورة والفتن الداخلية ، يتحين الفرص لدرئه ، ففى سنة ١٤٨ هـ ( ٧٦٦ م ) أرسل بعض قواده إلى

---

( ١ ) يضع ابن خلدون ( ج ٤ ص ١٨٠ ) وفاة ألفونسو(أدفونش) فى سنة ١٤٢ هـ (٧٦٠م) .

( ٢ ) ينسب أشباخ هذه الغزوة لفرويلا الكبير ( ج ١ ص ١٥٦ ) معتمداً على رواية ردريك الطليطلى ، ولكن الرواية الإسلامية وهى أقدم من ذلك ، تجمع على أنها وقعت بعد ذلك فى عهد فرويلا ابن الفونسو .

( ٣ ) تراجع الأسماء الفرنجية لهذه الأماكن فى جدول الأعلام التاريخية والجغرافية الملحق بنهاية الكتاب .

( ٤ ) ابن الأثير ج ٥ ص ١٨٦ .

( ٥ ) ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٢ و ١٨٠ ؛ وكذلك المقرى عن ابن حيان فى نفح الطيب ج ١ ص ١٥٥ .

الشمال على رأس قوة كبيرة ، فسارت حتى حدود جليقية ، واشتبكت مع النصارى والعصاة فى عدة مواقع ، وعادت مثقلة بالغنائم والأسرى[١]. وفى سنة ١٥٠ هـ ( ٧٦٧ م ) بعث عبد الرحمن جيشاً بقيادة مولاه بدر إلى ألبة والقلاع [٢]، وهى المنطقة الواقعة بين بلاد البشكنس وجبال كانتاريا ، على ضفاف نهر إيبرو فى الطرف الشرقى من مملكة جليقية ، فغزاها وتوغل فيها وأرغمها على أداء الجزية ، وقبض على كثير من العصاة فى تلك الأنحاء[٣] . وتقص الرواية النصرانية علينا بعد ذلك نبأ موقعة كبيرة وقعت بين المسلمين والنصارى فى بونتومو من أعمال جليقية ، وتقول لنا إن عبد الرحمن أرسل فى سنة ٧٧٣ م ( ١٥٧ هـ ) جيشاً كبيراً إلى الشمال بقيادة حاجبه عامر ، أو تمام بن علقمة على يظهر ، فلقيه النصارى بقيادة فرويلا فى بونتومو ، ونشبت بين الفريقين موقعة هائلة ، هزم فيها المسلمون وقتل منهم عدد عظيم تقدره الرواية بأربعة وخمسين ألفاً وأسر قائدهم[٤]. ولم تشر الرواية المسلمة إلى أن موقعة بهذه الخطورة نشبت بين المسلمين والنصارى ، ولاسيما فى هذا التاريخ ، الذى كان عبد الرحمن مشتبكا فيه مع الدعى الفاطمى فى معارك تقتضى كل جهوده وموارده ، والرواية النصرانية تبدى كعادتها فى هذا الموطن مبالغة تسبغ عليها كبير ريب .

وكان فرويلا طاغية شديد البطش ، ولم يكن حكمه موفقاً ، فقد اضطرمت فى جليقية الغربية نار ثورة كبيرة أيدها المسلمون فيما يظهر ، وأخمدها فرويلا بعد جهد ، ولكنه فقد كثيراً من أرضه التى افتتحها فى تلك الأنحاء ، وعادت إلى

---

( ١ ) **Conde : ibid , I. p. 207**

( ٢ ) تطلق الرواية الإسلامية اسم «ألبة والقلاع» على ولايتى قشتالة القديمة **Castile** وآلفا **Alava** معربة عن اللاتينية القديمة **Alava et Castella Vetula** . وكانت « ألبة والقلاع » تشمل فى العصور الوسطى ، جميع المنطقة الواقعة بين نهر دويرة جنوباً والبحر شمالا ، وبين نافار ( بلاد البشكنس ) وأراجون ( الثغر الأعلى ) شرقاً ومملكة ليون غرباً ؛ وألبة هى فى الواقع إحدى ولايات بلاد البشكنس ، وتمتد غرباً حتى « برغش » وشمالا حتى خليج بسكونية ، وجنوباً حتى نهر إيبرو . وأما « القلاع » أو قشتالة **Castella** أو **Castile** فقد كانت تشمل باقى المنطقة من برغش شمالا إلى ما بعد نهر دويرة ( الدورو ) وجبال واد الرملة **Guadarrama** جنوباً ، وحتى موقع مدينة مدريد عاصمة إسبانيا الحديثة .

( ٣ ) البيان المغرب ج ٢ ص ٥٦ ؛ ونفح الطيب ج ١ ص ١٥٦ .

( ٤ ) **Aschbach: ibid ; I, p. 159** والهوامش

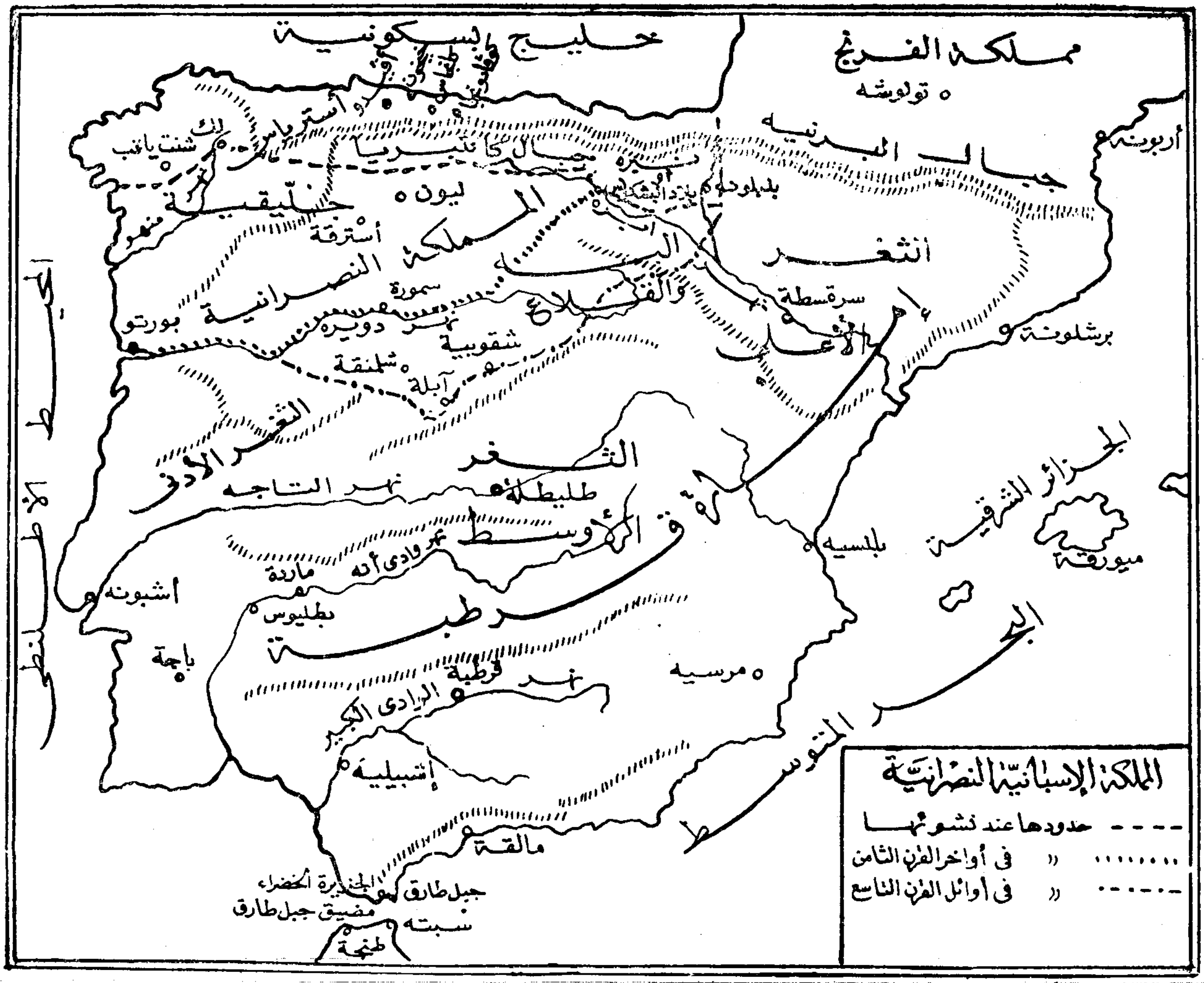

المملكة الإسبانية النصرانية
حدودها عند نشوئها
في أواخر القرن الثامن
في أوائل القرن التاسع
مملكة الفرنج
تولوشه
خليج بسكونية
جبال البرنيه
جبال كانتبريا
أربونة
برشلونة
سرقسطة
الثغر الأعلى
الثغر الأوسط
الثغر الأدنى
المملكة النصرانية
جليقية
ليون
أسترقة
سمورة
نهر دويره
شقوبية
شلمنقة
آبلة
بورتو
نهر التاجه
طليطلة
ماردة
بطليوس
أشبونة
باجة
قرطبة
نهر الوادي الكبير
إشبيلية
مالقة
مرسيه
بلنسيه
الجزائر الشرقية
ميورقة
البحر المتوسط
المحيط الأطلنطي
جبل طارق
الجزيرة الخضراء
مضيق جبل طارق
سبته
طنجة

المسلمين ، ونشبت ضده فى ناڤار فى الشرق ثورة أخرى ، فأخمدها بشدة ، واجتاح ناڤار وأخضعها ، وكان من أسراه فى تلك المعارك فتاة حسناء من أسرة كريمة تدعى مونيا فأحبها وتزوجها ، ورزق منها بولده ألفونسو ، الذى تولى العرش فيما بعد ، وكان مسرفاً فى الانتقام والسفك ، قتل كثيراً من أفراد أسرته وقتل أخاه بيده ، وكان الشعب يبغضه ويلتف حول « أورليوس » ابن عمه فرويلا . وأنشأ فرويلا مدينة أوبييدو التى غدت فيما بعد حاضرة جليقية ، ولكنه لم يتخذها قاعدة للحكم ، ولبث فى مدينة كانجاس حاضرتها الأولى ، حتى هلك قتيلا فى ثورة جديدة نشبت سنة ٧٧٥ م[١] .

ولما توفى فُرُويلا كان ولده من مونيا ألفونسو طفلا ، فافترقت كلمة الشعب ، وانحازت منه أغلبية كبيرة إلى أورليوس أو أورالى[٢] ولد فرويلا أخى ألفونسو الأول واختارته للملك ، ولكنه لم يحكم إلا فى الولايات الشرقية فى ناڤار وبسكونية ، حيث كان يحكم أبوه من قبل ، وانحازت جليقية الغربية إلى سيلو أو شيلون[٣] زوج أروزندا إبنة ألفونسو الأول ، وانقسمت المملكة بذلك إلى إمارتين . ولكنهما تهادنتا ولم تقع بينهما حرب ولا منافسة . وفى سنة ٧٧٨ م غزا شارلمان بلاد البشكنس فى طريقه إلى سرقسطة حسبما قدمنا ، فاضطر أورليوس أن يسعى إلى محالفة المسلمين . ولم تقع فى ذلك الحين فيما يظهر حروب بين المسلمين ومملكة جليقية ، لاشتغال كل منهما بشئونه الخاصة . وتوفى أورليوس سنة ٧٨١ م ، فاختار البشكنس مكانه سيلو لأن ألفونسو ولد فرويلا كان لايزال طفلا ، واتحدت المملكة مرة أخرى . ولبث سيلو ملكاً على جليقية المتحدة ثلاثة أعوام أخرى ، وفى عهده عقد الصلح بين المسلمين والنصارى . ولكن نشبت بعض ثورات محلية فى جليقية نجح فى إخمادها ، وتوفى بعدئذ بقليل سنة ٧٨٤م[٤] .

وتوفى سيلو دون عقب ، ولكنه أوصى بالملك لألفونسو ولد فرويلا الطفل

---

(١) يضع ابن خلدون وفاة فرويلا فى سنة ١٥٨ ( ٧٧٥ م ) متفقاً بذلك مع الرواية النصرانية (ج ٤ ص ١٨٠ ) .

(٢) هكذا تسميه الرواية العربية وهى تعتبره ملكاً لجليقية كلها ( راجع ابن الأثير ج ٦ ص ١٢ )

(٣) وهو اسمه فى الرواية العربية . ويعتبره ابن خلدون خطأ ولد فرويلا الكبير (ج ٤ ص ١٨٠ ) .

(٤) يضع ابن خلدون وفاة سيلو أو شيلون سنة ١٦٨ هـ ( ٧٨٤ م ) متفقاً أيضاً مع الرواية النصرانية ( ج ٤ ص ١٨٠ ) . وكذا ابن الأثير ( ج ٦ ص ٢٢ ) .

وبالوصاية عليه لزوجه أروزندا . ولكن الأشراف لم يرضوا عن حكم طفل وامرأة ، وانضم إليهم فريق من الشعب ، ولم تلبث جليقية أن اضطرمت بثورة قوية على رأسها زعيم يدعى مورجات – وفى الرواية العربية مورقاط – وهو ولد غير شرعى لألفونسو الأول من جارية عربية ، فاستولى على جليقية الغربية ، وانضم إليه كثير من الأشراف والزعماء الذين اشتركوا فى محاربة فرويلا خشية أن يستقر الملك لابنه فيبطش بهم فيما بعد ، ففر ألفونسو إلى ألبة حيث عصبة أمه وعشيرتها ، وقد كانت بسكونية حسبما تقدم . ورأى مورجات أن يوطد مركزه وسلطانه بالتحالف مع المسلمين ، وتحالف حزب ألفونسو مع الفرنج أعداء المسلمين ، واتخذ مورجات قاعدة حكمه فى مدينة براقيا فى قاصية جليقية . وكان رجال الدين ومن إليهم من النصارى والمتعصبين يبغضونه ويثيرون الشعب عليه ، لأنه بالغ فى التودد إلى المسلمين والتقرب إليهم ، ولأنه يمت إليهم بصلة الدم بواسطة أمه العربية . ولكنه استطاع مع ذلك أن يحكم مملكته الصغيرة حتى وفاته فى سنة ٧٨٩ م[١] .

وتشير الرواية العربية إلى طرف من هذه الحوادث ، وتقول لنا إن مورقاط (مورجات) وثب على أذفنش (ألفونسو) فقتله ، ولكن ألفونسو لم يقتل كما قدمنا . وسنرى أنه يتولى الملك ويخوض مع المسلمين فى الأعوام التالية كثيراً من الوقائع . وتقول الرواية العربية أيضاً ، إن المسلمين انتهزوا فرصة الاضطراب الذى وقع فى جليقية ، من جراء هذه الحوادث ، فسار إليها وإلى طليطلة وغزاها وأثخن فيها[٢] ، وهذا ما لا تشير إليه الرواية النصرانية . والظاهر أن المسلمين أغاروا على ألبة والقلاع ، لأنهم كانوا على وئام وتحالف مع مورقاط أمير جليقية . ووقعت هذه الغزوة حسبما تشير الرواية العربية حوالى سنة ١٦٩ هـ ( ٧٨٦ م ) أعنى فى أواخر عهد عبد الرحمن الداخل .

وكان طبيعياً بعد أن توفى مورجات عميد الثورة ومغتصب الملك ، أن يعود العرش إلى صاحبه الشرعى ، أعنى ألفونسو ولد فرويلا . ولكن الأشراف لبثوا

---

(١) Aschbach : ibid, I. p. 165—166

(٢) راجع ابن الأثير ج ٦ ص ٢٢ ؛ وابن خلدون ج ٤ ص ١٨٠ ، ويسمى مورقاط هنا بسمول قاط وهو تحريف نسخ أو خطأ مطبعى على ما يظهر .

فى توجسهم من نقمة ألفونسو ، واختاروا للملك برمند ( أو برمودو ) ، وهو ولد لفرويلا وأخ لأروليوس ، الذى تولى إمارة البشكنس من قبل . وكان قد هجر الحياة الدنيا إلى عزلة الدير ، فتولى الملك على غضاضة منه ، ولكنه لم يحكم على ما يظهر إلا فى غربى جليقية ، حيثما كان يسود نفوذ مورجات ، ولبث ألفونسو أميراً على الأنحاء الشرقية . وفى ذلك الحين كان أمير الأندلس هشام بن عبد الرحمن يتأهب لغزو الشمال ، فخشى برمند خطر الإنقسام على مستقبل المملكة ، وعقد الصلح مع ألفونسو وولاه قيادة الجيش ، ولم تمض ثلاثة أعوام حتى ضاق ذرعاً بمهام الملك فتنازل عن العرش مختاراً لألفونسو ، وارتد إلى حياة الدير والعزلة ، وتولى ألفونسو الملك فى أواخر سنة ٧٩١ م ( ١٧٥ هـ )[١] باسم ألفونسو الثانى . وبذلك عادت المملكة النصرانية إلى اتحادها مرة أخرى .

وفى أواخر عهد ألفونسو الثانى ، الملقب « بالعفيف » el Casto ، وقع حدث دينى كان له فيما بعد أثر عميق فى توجيه مصاير المملكة النصرانية ، هو اكتشاف قبر القديس ياقب ، وهو القديس يعقوب أو يعقوب الحوارى . وتذكر الأسطورة أنه لما قتل بأمر هيرود الثانى ملك بيت المقدس ، حمل تلاميذه جثته فى مركب جاز به البحر المتوسط إلى المحيط ، ثم حملتهم الرياح شمالا حتى انتهوا إلى موضع فى قاصية جليقية ، ودفنوا جثمان القديس فى سفح تلال هنالك . ومضت العصور ، وغاض القبر ولم يعلم مكانه ، حتى كانت سنة ٨٣٥ م ، حيث زعم القس تيودمير أسقف إريا أنه اكتشف القبر ، هداه إليه ضوء نجم ، وحمل النبأ فى الحال إلى الملك ، فأمر أن يبنى فوق هذه البقعة كنيسة ، وذاعت الأسطورة فى جميع الأنحاء ، وصدقها المؤمنون دون تردد ، وهرعوا يحجون إلى البقعة المقدسة ، وقامت حول المزار المزعوم مدينة نمت بسرعة ، وغدت مدينة شنت ياقب Santiago de Compostela المقدسة ، وأنشئت فيما بعد فوق القبر مكان الكنيسة الساذجة كنيسة جامعة (كتدرائية) ، غدت من أعظم كنائس اسبانيا ضخامة وروعة وفخامة . وكان لقيام هذه المدينة المقدسة أثر كبير فى إذكاء الحماسة الدينية والعاطفية القومية فى إسبانيا ، وغدا القديس ياقب

---

( ١ ) ابن الأثير ج ٦ ص ٤٠ ، وهو يتفق هنا مع الروايه النصرانية فى الوقائع والتواريخ وراجع أيضا Aschbach : I. p. 188—192

« حامى » اسبانيا كلها ، وغدا قبره من أشهر المزارات النصرانية فى أوربا .

وينوه الأستاذ ألتاميرا بأهمية هذا الحدث الدينى ، وأثره فى حضارة هذه المنطقة من اسبانيا ، فيقول : « وقد بعث هذا الاكتشاف فى النصارى أيما سرور ، وانتظمت وفود عظيمة ، جاءت لتحج إلى القبر ، لا من الأراضى الإسبانية وحدها ، ولكن من الخارج أيضاً ؛ وهكذا بدأ تيار من الزيارات والمؤثرات الأوربية فى جليقية ، وكان لها أعظم تأثير فى العادات والآداب »(١) .

وقد أتيح لنا أن نزور مدينة شنت ياقب ، وهى من أعجب وأجمل المدن الإسبانية ، ذات طابع خاص بها ، وهى أشد المدن الإسبانية احتفاظاً بهذا الطابع الخاص . وطابعها القدم المشبع بالجلال والوقار ، وهى تبدو بشوارعها المعقودة ، وميادينها التى تغص بالصروح التاريخية ، مدينة قديمة عريقة حقاً . وأروع ما تقع عليه العين كنيستها العظمى ، التى تقوم فى وسطها ، وتبدو بواجهاتها الفخمة وصرحها الشامخ ، وبرجها العظيم ، أثراً من أعظم الآثار الدينية .

وقد نشأت هذه المملكة النصرانية الشمالية ، مستقلة فى ظروفها وفى خواصها ، ولبثت آماداً طويلة بعيدة عن الإتصال بالأمم النصرانية الأخرى ، ولم تنشأ بينها وبين جيرانها المسلمين علائق سياسية أو اجتماعية قوية تؤثر فى نظمها وخواصها ، فاستمرت تحتجب بوعر الجبال وعباب المحيط ، تسود فيها روح المملكة القوطية القديمة ونظمها ، واستمر الجلالقة دهراً ينتسبون إلى القوط ، ويسمون أنفسهم قوطاً ، وتسير حكوماتهم على سنن السياسة القوطية ونظمها ، فالعرش مطلق يقبض على زمام السلطتين التشريعية والتنفيذية ، ولايستطيع الأشراف الحد من سلطانه إلا بالثورة ، أو باستعمال حقهم فى الانتخاب ، واستمرت خواص المجتمع القديم كما كانت أيام القوط : أقلية غنية قوية تستأثر بنعم الثروة والجاه ، وأكثرية فقيرة مستعبدة ترزخ تحت جور العرش ، واستغلال الأشراف والسادة ، بيد أن هذه الأكثرية استطاعت أن تشق طريقها إلى الحرية ، حينما اشتدت معركة الحياة والموت بين الإسلام والنصرانية فى اسبانيا ، واضطرت المملكة أن تلجأ إلى الأكثرية للذود عن حدودها وحياتها ، وانقلب الرقيق القديم جنداً يثور ضد

---

(١) R. Altamira: Hist. de Espana; Vol. I. p. 239

وتعرف الرواية الإسلامية هذه الأسطورة وتشير إليها . راجع الروض المعطار ( صفة جزيرة الأندلس ) ص ١١٥ .

سادته ، ويرغمهم على احترامه ومصانعته . هكذا نشأت المملكة النصرانية الشمالية ، ونمت واتسعت حدودها فيما بين الجبال والقفر ، حتى أصبحت تمتد من بلاد البشكنس شرقاً إلى المحيط غرباً ، ومن المحيط شمالا إلى ما بعد ضفاف نهر دويرة جنوباً ، وتشمل عدة مناطق وقواعد ، كانت قبل ذلك بفترة يسيرة فى قبضة الإسلام .

وهنا نقف فى تتبع أخبار المملكة النصرانية عند هذا الحد ، لنستأنفه فى مواطنه فيما سيأتى .

# الفصل الثامن

## هشام بن عبد الرحمن والحكم بن هشام

( ١ ) ولاية العهد . هشام يخالف أباه عبدالرحمن . خلاله . خروج أخويه سليمان وعبدالله . خضوع عبد الله . مطاردة سليمان وعبوره إلى المغرب . الثورة فى الشمال . إخمادها . عدوان النصارى . غزو جليقية وهزيمة النصارى . غزو المسلمين الثغر الفرنجى . موقف حكام الشمال وانحرافهم إلى الفرنج . الاستيلاء على جرندة ومحاصرة أربونة . موقعة قبل دنى بين المسلمين والفرنج . غزو جليقية ثانية . هزيمة الجلالقة . وفاة هشام . حزمه وتقواه . منشآته بقرطبة . شغفه بالجهاد . إعزازه للغة العربية . نفوذ الفقهاء فى عهده . انتشار مذهب مالك بالأندلس . ( ٢ ) الحكم بن هشام وخلاله . محاربته لنفوذ الفقهاء وسخطهم عليه . غزوة ألبة والقلاع . الثورة فى سرقسطة . عود سليمان وعبد الله عمى الحكم إلى الثورة . استنصار عبد الله بشارلمان . غزو الفرنج للثغر الأعلى ثم انسحابهم . هدوء الثورة فى الشمال . الحرب بين الحكم وعمه سليمان . هزيمة سليمان وإعدامه . خضوع عبد الله . سياسة الفرنج نحو اسبانيا المسلمة . تحرشهم بالمملكة الإسلامية . موقف الخلافة العباسية من هذه السياسة . اتحاد الغاية بينها وبين الفرنج . إنتهاز الفرنج لاضطراب الحوادث الداخلية . غزوهم للثغر الأعلى ومحاصرتهم لبرشلونة . دفاع المسلمين الباسل عنها . سقوطها فى أيدى الفرنج . إنشاء الفرنج للثغر القوطى . ائتمار الفقهاء والأعيان بالحكم . اكتشاف المؤامرة وسحقها . الثورة فى ماردة . الثورة فى طليطلة . تعيين عمروس ابن يوسف حاكماً لها . واقعة الحفرة . حصار الفرنج لطرطوشة . تحرك نصارى الشمال . عيثهم فى أراضى المسلمين . مسير الحكم لمحاربتهم . غزو المسلمين لقطلونية . عقد الهدنة بين الحكم وشارلمان . بواعث هذا الصلح . الثورات المحلية . القحط فى الأندلس . غزو المسلمين لجليقية . سخط أهل قرطبة على الحكم . تحريض الفقهاء . تحرك العامة وزحفهم على القصر . واقعة الربض . إخماد الثورة وتمزيق الثوار . معاقبة أهل الربض ونفيهم . مسير الأندلسيين إلى الإسكندرية وافتتاحهم لإقريطش . بلاغ الحكم عن الثورة وشعره فيها . تحوطاته بعد إخمادها . مرض الحكم ووفاته . وصيته لولده عبد الرحمن . أخلاق الحكم وصفاته . توطيده لهيبة الملك . إصطناؤه للصقالبة . أبهته وفخامته . شعره . رجال دولته . الحاجب عبد الكريم . قومس أهل الذمة . ازدهار العلوم والآداب . عباس بن فرناس ويحيى الغزال .

— ١ —

خلف عبد الرحمن الداخل ولدُه هشام بعهد منه ، ولم يكن أكبر ولده ، بل كان أكبرهم سليمان والى طليطلة ، ولم يك يومئذ ثمة نظام خاص لولاية العهد ، بل كانت ولاية العهد كما هو مأثور ، حقاً مفوضاً للأمير أو الإمام ، يجريه وفقاً

للمصلحة العامة[١]، ولم يكن انحصاره فى ولد الأمير أو أسرته ، سوى تقليد من تقاليد السياسة والعصبية ، سارت عليه الدولة الأموية ، فوضعت بذلك فى الدول الإسلامية أسس الأسر الملوكية ، والعروش المتوارثة . وكان من الطبيعى بعد أن ظفر عبد الرحمن الأموى ، بإحياء تراث أسرته المندثر فى المشرق ، أن يصل ما انقطع ، وأن تقوم من هذا الفرع الأموى ، أسرة ملوكية جديدة تتعاقب فى العرش ، وتعيد بالأندلس مجد الدولة الأموية الذاهب .

وهكذا اختار عبد الرحمن لولاية العهد من بين بنيه الأحد عشر ، ولده هشاماً ، وآثره بهذه الاختيار لما توسمه فيه من المزايا والمواهب الخاصة . وكان مولده بقرطبة فى سنة ١٣٩هـ — ٧٥٦م[٢] . وكانت أمه — وهى « أم ولد »[٣] بارعة فى الحسن تدعى «حلل»[٤]— أحب نساء عبد الرحمن إليه ، وأكثرهم نفوذاً لديه ، وكان هشام حينما توفى أبوه مقيماً بماردة مقر ولايته ، فأخذ البيعة له أخوه عبد الله المعروف بالبلنسى ، ولكن على غضاضة منه ، لأنه مثل أخيه سليمان ، كان يرى نفسه أحق بولاية العهد من أخيه الأصغر . ودخل هشام قرطبة لأيام قلائل من وفاة أبيه ، وبويع فى مستهل جمادى الأولى سنة ١٧٢ هـ ( ٧٨٨ م ) ، وكان حينما ولى العرش فى الثالثة والثلاثين من عمره ، بيد أنه كان عاقلا حازماً وافر الشجاعة والعزم ، كثير العدل والتقوى ، جم التواضع والرفق . وتشيد الرواية الإسلامية بجميل خلاله ، وتنوه بالأخص بورعه ، وتواضعه ، وحبه للخير ، فيقول لنا ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد إنه «كان أحسن الناس وجهاً ، وأشرفهم نفساً ، الكامل المروءة ، الحاكم بالكتاب والسنة ، الذى أخذ الزكاة على حلها ، ووضعها فى حقها ، لم يعرف عنه هفوة فى حداثته ، ولا زلة فى أيام صباه » . وقيل بلغ من تواضعه أن كان يطوف شوارع قرطبة مختلطاً بالرعية يسمع المظالم بنفسه ، ويعود المرضى ، ويشهد الجنائز ، وربما كان يخرج فى الليالى المظلمة الممطرة ، فيلقى بصرر المال فى المساجد لمن وجد فيها بغية تعميرها بالمصلين ،

---

( ١ ) يعقد ابن خلدون فى مقدمته ، فصلا عن ولاية العهد فى الأمة الإسلامية ، ( ص ١٧٥ وما بعدها ) .

( ٢ ) البيان المغرب ج ٢ ص ٦٢ ؛ وابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٣٧ .

( ٣ ) هى الجارية إذا رزقت من سيدها بولد ، وعندئذ لا يجوز بيعها ولا هبتها .

( ٤ ) وفى رواية « حوراء » . وفى رواية أخرى « جمال » .

ويسعى إلى غوث البائس والمسكين بمختلف الوسائل[١]. وكان يذهب مذهب عمر بن عبد العزيز ، فى تحرى الحق والعدالة ، فكان يبعث إلى الكور بقوم من ثقاته ، للتحرى عن مسلك العمال وسيرهم بين الرعية ، فإذا انتهى إليه حيف من أحدهم أسقطه واشتد فى عقابه[٢] .

وكانت ولاية هشام نذير فوره جديدة من الثورات المحلية . ذلك أن سليمان أكبر أخوته لم يقر إمارته ، ودعا لنفسه فى طليطلة وما جاورها ، وكذلك أخوه عبد الله البلنسى لم يخلد إلى الرضى ، بالرغم مما بذله هشام لاسترضائه ، ولم يلبث أن لحق بأخيه سليمان فى طليطلة ، وتحالفا على العصيان والثورة ، وسار سليمان خفية إلى قرطبة ليحاول إضرام الثورة ضد أخيه ، فلم يظفر بشىء ، وطارده الجند ، ففر إلى ماردة وحاول أن يعتصم بها ، ولكن رده عاملها . وكان هشام قد بعث جيشاً لحصار طليطلة وإخضاعها ، ففر سليمان إلى جبال بلنسية ، ولجأ إلى بعض ثغور تدمير . ولما رأى عبد الله البلنسى ما حل بأخيه من الفشل والهزيمة ، خشى عاقبة الخروج ، وارتد إلى قرطبة يلتمس الصفح من أخيه ، فعفا عنه هشام وأكرم مثواه ، وبعث جيشاً بقيادة ولده معاوية لمطاردة سليمان وصحبه ، فتوغل فى أنحاء تدمير (مرسية) واضطر سليمان إلى طلب الأمان والعفو ، فأجابه هشام إلى طلبه ، على أن يعبر بأهله وولده إلى المغرب ، وأعطاه ستين ألف دينار صلحاً على تركة أبيه . وسار معه أخوه عبد الله ، وأقاما بعدوة المغرب ، وانتهت بذلك ثورة الأخوين (سنة ١٧٤ هـ — ٧٩٠ م)[٣] .

واعتقد ثوار الشمال فى نفس الوقت أن الفرصة قد سنحت بوفاة عبد الرحمن لإضرام نار الثورة كرة أخرى ، فخرج بطرطوشة سعيد بن الحسين الأنصارى ، وكان قد التجأ إليها منذ مصرع أبيه ، والتف حوله اليمنية ، وأخرج عاملها من قبل هشام ، يوسف العبسى ، فعارضه موسى بن فرقوق فى المضرية ودعا لهشام[٤] ،

(١) راجع فى التنويه بخلال هشام وصفاته ، أخبار مجموعة ص ١٢٠ و ١٢١ ؛ وابن الأثير ج ٦ ص ٣٧ ؛ والعقد الفريد (مصر سنة ١٩٢٨) ج ٣ ص ٢٠٢ ؛ والمعجب لعبد الواحد المراكشى ص ١٠ .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٦٧ ، وأخبار المجموعة ص ١٢٧ .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٦٤ و ٦٥ .

(٤) ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٤ .

وخرج أيضاً مطروح بن سليمان بن يقظان بثغر برشلونة ، والتفت حوله جموع كبيرة ، واستولى على سرقسطة ووشقة ، وقوى أمره ، وبسط سلطانه على الولاية كلها ، فسير إليه هشام جيشا كبيراً بقيادة عبيد الله بن عثمان ، فسار إلى طرطوشة وانتزعها من يد الثوار ، وحاصر سرقسطة وفيها مطروح وصحبه ، وضيق عليها الخناق حتى ضاق أهلها ذرعاً بالحصار ، وفى ذات يوم اغتال مطروحاً بعض أصحابه واحتزوا رأسه ، وقدموها إلى ابن عثمان ، فبعث بها إلى هشام ، ودخل سرقسطة ظافراً (سنة ١٧٥ هـ)[١] ، وقضى بذلك على الثورة فى تلك الأنحاء .

وكان نصارى الشمال ، منذ اشتد ساعدهم ، يكثرون من الإغارة على البلاد الإسلامية والعيث فيها ، ويشتد هذا العيث والعدوان كلما اضطرمت الأندلس بالفتن الداخلية ، وشغلت حكومة قرطبة عن حماية الأطراف النائية . وكان الفرنج جرياً على سياستهم المأثورة ، يشجعون النصارى من البشكنس والجلالقة على مواصلة التحرش بالمملكة الإسلامية ، وكان هشام كأبيه يقدر خطورة هذه الدسائس الفرنجية ، وتحدوه من جهة أخرى نزعة قوية إلى الجهاد والغزو ، فما كاد ينتهى من القضاء على الثورة الداخليـــة ، حتى سير إلى الشمال جيشاً قوياً من أربعين ألف مقاتل بقيادة عبيد الله بن عثمان ، فاخترق ألبة والقلاع (قشتالة القديمة) ، واجتاح جليقية ، وهزم الجلالقة بقيادة ملكهم برمودو (أو برمند) وحلفاءهم البشكنس ، ومزق جموعهم (سنة ١٧٥هـ — ٧٩١م) ، وعاد إلى قرطبة مثقلا بالغنائم والسبى . ولم يمض قليل على ذلك حتى سارت إلى جليقية حملة أخرى بقيادة يوسف بن بخت ، وهزم برمودو مرة أخرى ، وقتلت جموع كبيرة من النصارى ، وعلى أثر ذلك تنازل برمودو عن العرش لألفونسو الثانى ولد فرويلا ، وأمير جليقية الشرقية ، ولجأ إلى عزلة الدير .

وفى العام التالى أعنى فى سنة ١٧٦ هـ (٧٩٢ م) تأهب هشام لمحاربة الفرنج ، واستئناف عهد الجهاد والغزو ، فسير إلى الشمال جيشاً كثيفاً . بقيادة حاجبه عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث[٢] . فعبر البرنيه من ناحية قطلونية ، واستولى

---

(١) العذرى فى كتاب « ترصيع الأخبار » (ص ٢٦ و ٢٩) .

(٢) وهو حفيد مغيث الرومى فاتح قرطبة .

أثناء سيره على مدينة چيرونة (جرندة) الحصينة فى قاصية شمال شرقى إسبانيا ، وكان الفرنج قد استولوا عليها منذ سنة ٧٨٥ م من يد مطروح بن سليمان . وكان حكام هذه الأنحاء التى لبثت تضطرم بالثورة على حكومة قرطبة ، منذ غزوة شارلمان الأولى لإسبانيا ، قد استقلوا بما فى أيديهم من المدن ، وجنحوا إلى محالفة الفرنج جيرانهم من الشمال ، والتماس حمايتهم . ومن ذلك أن أبا ثور صاحب مدينة وشقة ، الذى سبق ذكره فى حوادث باب الشزرى ، بعث رسله إلى تولوشة عاصمة أكوتين يطلب التحالف من ملكها الدوق لويس ابن شارلمان (٧٩٠ م)[١]. واستولى الحاجب عبد الملك بعد ذلك على عدد آخر من المعاقل والحصون ، ثم نفذ إلى سبتمانيا ، وزحف على أربونة قاعدة الثغر الإسلامى القديم . وتقول الرواية الإسلامية إن المسلمين افتتحوا خلال تلك الغزوة أربونة[٢] ، ولكن الروايات الفرنجية المعاصرة لاتذكر شيئاً عن ذلك الفتح ، وتذكر أن المسلمين أرتدوا عن أربونة لمناعتها إلى قرقشونة . وكان شارلمان (أو كارل الأكبر) ملك الفرنج يشتغل يومئذ بمحاربة خصومه السكسونيين بعيداً عن فرنسا ، فتأهب ولده لويس أمير أكوتين لصد العرب ، وأوفد لمحاربتهم جيشاً بقيادة جيوم كونت دى تولوز ، فالتقى الفريقان فى مكان يسمى «ڤيل دنى» على ضفاف نهر أوربينا بين أربونة وقرقشونة ، ونشبت بينهما موقعة غير حاسمة ، ارتد المسلمون على أثرها إلى الجنوب مثقلين بالغنائم والسبى ، وقدرت أخماس السبى وحدها بخمسة وأربعين ألفاً من الذهب ، وأرغم الأسرى النصارى على حمل أو جر أحمال من الأحجار والتراب من سور أربونة حتى قرطبة ، وأمر هشام أن يُبنى منها جناح جديد للمسجد الجامع تخليداً لتلك الغزوة الشهيرة .

وكانت منطقة رندة ، المعروفة بإقليم « تاكرنّا » ، أو « تاكرنى »[٣] ، وفيها يحتشد البربر ، مهد الفتن والقلاقل المتوالية . فى سنة ١٧٨ هـ (٧٩٤ م) أثار البربر هنالك ضرام الفتنة مرة أخرى ، وخلعوا الطاعة وعاثوا فى تلك الأنحاء ، فسير إليهم هشام حملة بقيادة عبد القادر بن أبان بن عبد الله ، فأخمد الثورة دون رأفة ، وأباد جموع البربر ، وخرب بلادهم وضياعهم ، وفرقهم فى الأنحاء

(١) راجع R.M. Pidal : ibid, p. 203

(٢) ابن الأثير ج ٦ ص ٤٥ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٦٤ ، ونفح الطيب ج ١ ص ١٥٨

(٣) راجع معجم البلدان لياقوت ج ٢ ص ٣٥٣ .

والقبائل تمزيقاً لعصبتهم ، وبقيت هذه المنطقة عدة أعوام قفراً خراباً .

وفى ربيع سنة ١٧٩ هـ (٧٩٥ م) سير هشام إلى جليقية حملة أخرى بقيادة عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث ، أخى الحاجب ، فاخترق المسلمون مفاوز جليقية حتى أستُرقة ، ففر السكان النصارى إلى رؤوس الجبال ، وتأهب ألفونسو ملك جليقية للقاء المسلمين ، على رأس جيش من الجلالقة وحلفائهم البشكنس ، ونشب القتال بين الفريقين فى قاصية جليقية ، فى المكان المعروف بالصخرة ، وانتصر الجلالقة فى البداية فى بعض الوقائع المحلية ، وقتل جماعة من المسلمين فى كمين دبر لهم ، ولكن النصارى هزموا فى النهاية ، وعاث المسلمون فى جليقية ، وأصابوا كثيراً من الغنائم ، ثم ارتدوا إلى الجنوب بعد أن مزقت قوى الجلالقة وسكنوا إلى حين ، وساد الأمن فى الولايات الشمالية[1].

وكانت هذه آخر غزوة سيرها هشام ، إذ توفى عقب ذلك بقليل فى الثالث من صفر سنة ١٨٠ هـ (١٨ إبريل سنة ٧٩٦ م) فى نحو الأربعين من عمره ، بعد أن حكم نحو ثمانية أعوام . وكان أبيض ، أشهل ، مشرباً بالحمرة ، وبعينيه حول ، وكنيته أبو الوليد ويلقب بالرضا[2]. وفى عهده ساد الأمن والاستقرار ربوع الأندلس بالرغم مما وقع خلاله من الثورات المحلية . وكان هشام إلى جانب رفقه وتواضعه ، حازماً ، صارماً فى الحق ، حريصاً على توطيد النظام والعدالة ، فلم يتردد فى القبض على ابنه الأكبر عبد الملك وزجه إلى السجن لما ثبت لديه من ائتماره به ، فبقى فى سجنه أعواماً طويلة حتى توفى بعد وفاة أبيه[3]. وكان فوق شغفه بالجهاد والغزو ، محباً للإصلاح والإنشاء ، فعنى بإتمام مسجد قرطبة الجامع الذى بدأ بإنشائه أبوه وتوفى قبل إتمامه ، وأنشأ عدة مساجد أخرى ، وزين قرطبة بكثير من الأبنية والحدائق الفخمة ، وجدد قنطرة قرطبة الشهيرة التى بناها السمح بن مالك على النهر الكبير ، وأنفق فى تجديدها أموالا عظيمة ، وكان

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٦٦ ، وابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٧٢ . ويقول ابن الأثير إن الذى قاد هذه الحملة هو عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث (ج ٦ ص ٤٨) . وراجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٥ .

(٢) ابن الأثير ج ٦ ص ٤٦ ، وابن الأبار ص ٣٧ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٦٢ .

(٣) ابن الأثير ج ٦ ص ٤١ .

يشرف على إصلاحها بنفسه[١]، وعلى الجملة فقد كان عهده زاهراً ، وافر الأمن والرخاء .

وكان هشام شديد الورع والتقوى ، وكان شغفه بالجهاد وإعلاء كلمة الدين من أخص مظاهر تقواه ، وكان ينفق الأموال الطائلة فى افتداء أسرى المسلمين ، حتى لم يبق فى عهده منهم فى قبضة العدو أحد ، ورتب فى ديوانه أرزاقاً لأسر الجند المتوفين فى الجهاد[٢] . وفى عصره اتخذت السياسة الأموية إجراء يشهد ببعد نظرها ، إذ جعلت العربية لغة التدريس فى معاهد النصارى واليهود . وكان لذلك الإجراء بالرغم من بساطته ، أثر عميق فى التقريب بين أصحاب المذاهب المختلفة ، وفى بث روح التفاهم والوئام بينها ، ولاسيما بين المسلمين والنصارى ، وكان من أثره أيضاً أن كثر اعتناق النصارى للإسلام بعد أن وقفوا على أصوله وتفاصيله ، وقربت مسافة الخلف بينهم وبين الفاتحين ، ولم يكن ذلك بعيداً فى الواقع عن غاية السياسة الأموية[٣] .

وكان هشام يؤثر مجالس العلم والأدب ولاسيما الحديث والفقه على غيرها . وفى عصره ذاع مذهب مالك[٤]. وكان الإمام مالك ، وهو معاصر لهشام ، يعجب بسيرته وخلاله ، ويشيد بعدله وتقواه ، وكانت تجمع بين الرجلين على بعد المزار عاطفة مشتركة هى بغض بنى العباس ، وكان قد رحل إلى المشرق عدة من فقهاء الأندلس ، منذ أيام عبد الرحمن الداخل ، وفى مقدمتهم زياد بن عبدالرحمن ، وعيسى بن دينار ، وسعيد بن أبى هند ، ويحيى بن يحيى الليثى ، فدرسوا على مالك بالمدينة ، واستقوا من علمه واجتهاده ، ونقلوا عنه كتابه « الموطأ » ، وذاع مذهب مالك على يدهم فى الأندلس فى عصر هشام . وكان هشام كثير الإجلال لمالك ومذهبه ، فزاد ذلك فى ذيوعه وتوطده ، وغدا مذهب أهل الأندلس الغالب ، وكانوا قبل ذلك يعملون بمذهب الأوزاعى إمام

---

( ١ ) البيان المغرب ج ٢ ص ٦٨ ، وابن الأثير ج ٦ ص ٤٩ . وما تزال هذه القنطرة العربية قائمة حتى اليوم على نهر الوادى الكبير خلف الجامع الأموى ، محتفظة بعقودها القديمة ، بالرغم مما توالى عليها من ضروب الإصلاح والتجديد .

( ٢ ) أخبار مجموعة ص ١٢٠ .

( ٣ ) راجع **Scott : ibid, I. p. 433.**

( ٤ ) الإمام مالك بن أنس ، أبو عبد الله ، أحد أصحاب المذاهب الأربعة الشهيرة ( ٩٥ — ١٧٩ هـ ) وترجمته فى ابن خلكان ج ١ ص ٥٥٥ — ٥٧ .

أهل الشأم[1]. وفى عصر هشام قوى نفوذ الفقهاء ورجال الدين ، وتربعوا فى أهم المناصب ، وكثر تدخلهم فى شئون الدولة ، خلافاً لما كان عليه عبد الرحمن الداخل من إقصائهم والتحرز من تدخلهم ونفوذهم ، وكان لذلك أثر غير محمود ترتبت عليه فيما بعد نتائج سياسية واجتماعية خطيرة .

— ٢ —

وخلف هشاماً ولده الحكم بعهده منه ، وبويع عقب وفاة أبيه بأيام قلائل فى الثامن من صفر سنة ١٨٠ هـ ( أبريل ٧٩٦ م ) ، وهو فى السادسة والعشرين من عمره ، وكان مولده بقرطبة سنة ١٥٤ هـ ( ٧٧١ م ) ، وأمه أم ولد تدعى زخرف ، وكان طاغية ، حازماً ، شجاعاً ، شديد الوطأة على خصومه والخارجين عليه ، وكانت تحدوه مع ذلك نزعة إلى الإنصاف والعدالة[2] . وهو أول من أظهر فخامة الملك بالأندلس ، وأسرف فى تأييد هيبته ، وجدد عهد أجداده بالمشرق ببذخه وروعته ، واستكثر من المماليك والبطانة . وكان ميالا إلى اللهو ، مولعاً بالصيد ، يؤثر مجالس الندماء والشعراء ، على مجالس الفقهاء والعلماء . وآنس الفقهاء تصدع مركزهم الذى سما فى عهد أبيه هشام ، وكانت سياسة الحكم ترمى إلى الحد من نفوذهم ، وإبعادهم عن التدخل فى شئون الدولة ، وكانوا بالعكس يرمون إلى انتزاع السلطة السياسية ليحكموا الأمة من وراء العرش بواسطة جمهورية دينية ، فجاءت سياسة الحكم ضربة قاضية على أمانيهم ، وثارت نفوسهم سخطاً على الأمير الفتى ، وأخذوا يلوحون بسبه والتعريض به من فوق المنابر ، ويوغرون عليه صدور العامة بالدس والوقيعة ، ويسبغون على دعايتهم ثوب الوعظ والإرشاد ، والحض على التمسك بأحكام الدين . وكان الحكم بإسرافه فى مجالى اللهو والبذخ ، يسبغ على أقوالهم قوة ، وكانت دعايتهم قوية بالأخص بين البربر والمولدين ( أو مسلمى الإسبان ) ، إذ كان هؤلاء يبغضون العرب لكبريائهم واستئثارهم بالمناصب والنفوذ ، وكانوا دائماً على أهبة الخروج والعصيان كلما سنحت الفرصة . وكان لتحريض الفقهاء وسعايتهم كما سنرى آثار بعيدة المدى[3].

---

( ١ ) أخبار مجموعة ص ١٢٠ ؛ والاستقصاء ج ١ ص ٦١ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ١٥٨ ؛ وراجع أيضاً Dozy : Hist., I. p. 286 & 287

( ٢ ) أخبار مجموعة ص ١٢٥ .

( ٣ ) راجع المعجب ص ١١ ؛ ونفح الطيب ج ١ ص ١٥٩ ، وكذلك Dozy : Hist, I. p. 238 وألتالير ا Hist. de Espana, Vol. I. p. 227

وفى بداية عهد الحكم ، فى صيف سنة ١٨٠ هـ ( ٧٩٦ م ) سار الحاجب عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث غازياً بالصائفة إلى ألبة والقلاع ، ( قشتالة القديمة ) واستولى على قلعة قلهُرّة الواقعة على نهر إيبرو ، وأثخن فى بلاد البشكنس ( نافار ) ، وعاد مثقلا بالغنائم والسبي . ولكن سرعان ما اضطر الحكم إلى ترك الجهاد والغزو ، ليعنى بمقاومة بوادر الخروج والثورة التى أخذت تتفتح حوله من كل صوب . وكان الثغر الأعلى ( أراجون ) موطن الخطر فى تلك المرة ، وكانت تؤازره وتذكيه عوامل خارجية فى منتهى الخطورة . ذلك أن الحكم ما كاد يجلس على عرش أبيه ، حتى عول عماه سليمان وعبد الله على التحرك مرة أخرى . وكانا يقيمان فى عدوة المغرب منذ أيام أخيهما هشام ، يرقبان الفرص . واتصل عبد الله بابن الأغلب صاحب إفريقية وخاطبه فى مشروعهما ، ولكنه لم يلق على ما يظهر منه تأييداً ، فاتجه الأخوان وجهة أخرى . وكانت مدائن الثغر الأعلى[1] وفى مقدمتها سرقسطة ما زالت ، منذ أيام عبد الرحمن الداخل تفيض بعوامل الفتنة ، ففى سنة ١٨١ هـ ( ٧٩٧ م ) ثار بالثغر الأعلى بهلول بن مروان المعروف بأبى الحجاج ودخل سرقسطة ، وثار حاكم مدينة وشقة فى نفس الوقت . فعبر سليمان وعبد الله سراً إلى الأندلس ، وسار عبد الله إلى الثغر الأعلى يؤلب البلاد ، ويحشد الأنصار لمقاتلة الحكم ، ثم عبر جبال البرنيه إلى بلاد الفرنج ، وسعى إلى مقابلة شارلمان ( كارل الأكبر ) فى مدينة إيكسلا شابيل حيث كان يعقد بلاطه يومئذ ، والتمس إليه العون والمؤازرة ، فأكرم ملك الفرنج وفادته ، واستجاب إلى دعوته ، وألفى الفرصة سانحة للتدخل فى شئون الأندلس ، وتحقيق مطامعه القديمة . وسير شارلمان جيشاً مع ولده لويس أمير أكوتين ، فعبر البرنيه واستولى على مدينة چيرونة ( جيرندة ) ، ثم توغل فى ولاية الثغر الأعلى ، بممالأة بعض الزعماء الخوارج ، وقيل إن الأخوين عبد الملك وعبد الكريم ابنى عبد الواحد

---

( ١ ) قال ياقوت فى معجمه الجغرافى « الثغر » ، كل موضع قريب من أرض العدو يسمى ثغراً ، كأنه مأخوذ عن الثغرة ، وهى الفرجة فى الحائط » . وكان رباط الثغر أيام فتح الأندلس يشمل أربونة وما حولها ، باعتبارها أقصى ولاية فى اسبانيا المسلمة ، مما يلى أرض الفرنج ، فلما سقطت أربونة فى يد النصارى ارتد « ثغر » الأندلس إلى ما وراء جبال البرنيه ؛ فأصبح «الثغر» يطلق على ولاية سرقسطة وما جاورها حتى برشلونة والبحر شرقاً ، وهذا هو « الثغر الأعلى » ، ويشمل عدا سرقسطة لاردة ، وتطيلة ، ووشقة ، وطرطوشة ، وطركونة وغيرها ؛ ويقابل « أراجون » من ولايات اسبانيا الحديثة . وسميت طليطلة وأعمالها « بالثغر الأوسط » لمجاورتها لمملكة ليون النصرانية ( جليقية ) .

ابن مغيث انضما يومئذ إلى عبدالله فى ثورته ، وأنهما سارا إلى سرقسطة ، ولكن أبا صفوان حاكمها من قبل الحكم ، استطاع أن يهزم الخوارج ، وأن يأسر زعيمهم عبد الكريم ، وأن الأخوين عادا بعد ذلك إلى الطاعة واستأمنا فى أوائل سنة ١٨٦ هـ فأمنهما الحكم ، ووفدا على قرطبة وقدما خضوعهما وإخلاصهما[1]. وقد نجد ما يؤيد هذه الرواية فى أنه لم يرد للأخوين ذكر خلال هذه الأعوام الخمسة ، مع أنهما كانا دائماً فى الطليعة فى قيادة مختلف الحملات والغزوات . وعلى أى حال فقد بادر الحكم بالسير إلى الشمال لرد هذا الخطر الجديد . والظاهر أن الفرنج لم يلقوا الحوادث ممهدة فى ذلك الجزء المضطرم من الأندلس ، وخشوا من جهة أخرى من نكث حلفائهم المسلمين ، وتكرار مأساة باب الشزرى ؛ فارتدوا إلى الشمال بعد أن حاصروا مدينة وشقة حيناً ( ٧٩٧ م ) ، تاركين الأمور لمصيرها . ولما رأى الزعماء الخوارج عبث المقاومة ، عادوا إلى الطاعة ، واسترد الحكم سلطانه على سرقسطة ووشقة ولاردة وغيرها .

---

( ١ ) وردت هذه الرواية منسوبة إلى الرازى مؤرخ الأندلس ، فى أوراق مخطوطة عن تاريخ الأندلس من سنة ١٨٠ إلى سنة ٢٣٢ هـ عثر بها صديقى العلامة المرحوم الأستاذ « ليڤى بروڤنسال » عميد كلية الجزائر والأستاذ بجامعة باريس سابقاً . وقد تفضل بإطلاعى عليها ونقلت منها . ولم نكن نعرف وقتئذ بالتحقيق من هو مؤلف هذا المخطوط ؛ ولكن تبين فيما بعد من مقارنة الروايات التى يوردها عن مؤرخى الأندلس السابقين مثل الرازى وابن القوطية وابن الفرضى ، ثم ابن حزم وأحمد ابن خالد ، كما تبين منه مما تتسم به كتاباته وتعليقاته من الرزانة والدقة ، أن هذه الأوراق المخطوطة ، إنما هى قطعة من مؤلف مؤرخ الأندلس الكبير ابن حيان ، وهو المسمى « المقتبس فى تاريخ رجال الأندلس » . وتحتوى هذه القطعة على كثير من المعلومات والتفاصيل الحسنة عن حوادث العصر الذى نتحدث عنه وعن شخصياته . وقد حصلت بعد ذلك بأعوام من مكتبة القرويين بفاس ، على نسخة مصورة من قطعة كبيرة مخطوطة من تاريخ ابن حيان المشار إليه تبين أنها تتمة الجزء المتقدم ، إذ تبدأ حوادثها من سنة ٢٣٣ هـ وتنتهى فى سنة ٢٦٧ هـ ، وهى عبارة عن جزء كبير يقع فى مائة وتسعين صفحة كبيرة . وهى قديمة بالية متآكلة الحواف . وقد انتفعت بها منذ الطبعة الثالثة من الكتاب انتفاعاً عظيماً حسبما يرى القارىء بعد هذا . ثم ظهرت أخيراً قطعة كبيرة من « المقتبس » تتعلق بعصر الناصر وتحفظ بالمكتبة الملكية بالرباط ، وقد أشرنا إليها وإلى محتوياتها فى مقدمة الكتاب . وقد انتفعنا بها فى هذه الطبعة الجديدة أعظم انتفاع حسبما يرى القارئ بعد . وقد نشرت من قبل قطعة أخرى من تاريخ ابن حيان بعناية المستشرق الإسبانى أنتونيا ، وهى تتعلق بالأخص بحوادث عصر الفتنة الكبرى ( ٢٥٠ — ٣٠٠ هـ ) . وتوجد قطعة صغيرة مخطوطة أخرى من تاريخ ابن حيان بمكتبة أكاديمية التاريخ بمدريد ، وهى تتعلق بأحوال الخلافة وحوادث الأندلس فى سنى ٣٦٢ — ٣٦٥ هـ أيام الحكم المستنصر .

وفى ذلك الحين كان سليمان بن عبد الرحمن قد استطاع أن يحشد أنصاره ولاسيما من البربر ، وهرع إليه أخوه عبد الله البلنسى بعد فشله فى الشمال ، وسار الخوارج إلى قرطبة يحاولون الإغارة عليها ، فالتقوا بجند الحكم على مقربة منها فى مكان يسمى « فنجيط » وذلك فى شوال سنة ١٨٢ هـ ، فهزم سليمان . ثم التقى الجمعان ثانية بالقرب من إستجَّة فى صفر سنة ١٨٣ ، فهزم سليمان مرة أخرى بعد قتال عنيف ، وفر فى أصحابه متجهاً إلى ماردة ، فبعث الحكم الجند فى أثره ، فطاردته حتى قبض عليه . وجىء به إلى الحكم ، فأمر بإعدامه ، وأعدم معه عدة من زعماء الفتنة ، وأرسلت رؤوسهم إلى قرطبة حيث طيف بها ( سنة ١٨٤ هـ — ٨٠٠ م ) . وفر أخوه عبد الله إلى بلنسية فاختفى بها ، ولكنه لم ير فى النهاية مناصاً من طلب العفو ، فعفا عنه الحكم وأصدر له أماناً خاصاً ، وذلك على أن يبقى فى بلنسية وتجرى عليه أرزاقه ، وبعث عبد الله إلى الحكم بابنه عبيد الله فأكرمه الحكم وزوجه إحدى أخواته ، وركن عبد الله إلى السكينة طوال عهد الحكم(١) .

وهكذا انتهت المرحلة الأولى من الحوادث التى اقترنت بثورة سليمان وأخيه عبد الله ، ولم يجن الفرنج منها كبير غنم ، ولكن ذلك لم يثن شارلمان عاهل الفرنج عن عزمه ومشاريعه . ذلك أن سياسة التدخل فى شئون إسبانيا المسلمة ، كانت أصلا من أصول السياسة الفرنجية ، وكان الفرنج ينظرون بعين التوجس ، إلى قيام هذه الإمارة الإسلامية الجديدة فيما وراء البرنيه ، وإلى توطدها ونموها ، ويخشون بالأخص أن يضطرم الإسلام بفورة جديدة من الجهاد والغزو ، فينساب تيار الفتح الإسلامى إلى غاليس كرة أخرى ، وقد حاول شارلمان ضربته الأولى فى عهد عبد الرحمن الداخل فباء بالهزيمة والفشل ، ونكب فى مفاوز رونسفال ( باب الشزرى) . ولما عبر المسلمون جبال البرنيه فى عهد هشام وغزوا سبتمانيا ، تجددت مخاوف الفرنج وتجددت مشاريعهم لتأمين حدودهم الجنوبية ، وكانوا يلتمسون الفرصة كلما اضطرمت الأندلس بالثورة . وهنا يجدر بنا أن نتساءل ، هل كان لسياسة الخلافة العباسية أثر فى صوغ هذه السياسة الفرنجية نحو الأندلس أو الإيحاء بها ؟ لقد رأينا كيف كانت الخلافة العباسية تحاول بث دعوتها فى الأندلس على يد بعض الزعماء الخوارج ، وكيف كانت هذه الدعوة تحدث أثرها فى إضرام نار

---

(١) مخطوط ابن حيان المشار إليه لوحة ٩٠ .

الفتنة . على أن الخلافة العباسية ، كانت من جهة أخرى تتصل بالمملكة الفرنجية بصلات سياسية . وترجع الرواية الفرنجية هذه الصلة إلى عهد المنصور ، وتقول لنا إن پپن ملك الفرنج أرسل إلى المنصور سفارة رد عليها المنصور بمثلها ، وتضيف الرواية الفرنجية إلى ذلك أنه كانت ثمة بعدئذ مكاتبات وسفارات بين الرشيد وبين شارلمان ولد پپن ، ومع أن الرواية الإسلامية لا تذكر شيئاً عن هذه العلائق بين ملك الفرنج والخليفة العباسى ، فإن فى تفاصيل الرواية الفرنجية ، وفى طبيعة الحوادث التى كان يجوزها الشرق والغرب يومئذ ، مايحملنا على الاعتقاد فى صحتها[1]. وهذه العلائق ذاتها تلقى ضوءاً على موقف السياسة العباسية ، من حوادث الأندلس فى ذلك الحين . فقد كانت الخلافة العباسية ترى فى قيام إمارة قرطبة الأموية فى الغرب منافساً لها فى سيادة العالم الإسلامى ، ولم يكن يسوءها أن تتعثر هذه الإمارة الفتية فى معترك من الصعاب والفتن ، وأن تشغل بمقارعة أعدائها فى الداخل والخارج . وإذاً فقد كانت الخلافة العباسية تشاطر السياسة الفرنجية نفس الغاية التى ترمى إليها بالنسبة لإمارة قرطبة ، وهى العمل على إضعافها وتحطيمها إن أمكن ، ولما كانت الدولة العباسية لاتستطيع أن تعمل لتحقيق هذه الغاية بطريق مباشر ، فقد كان فى وسعها على الأقل أن تعمل لتأييدها بطريق الدعوة والتحريض . ولم يكن بعيداً أن يجد الخليفة العباسى ، وهو يبسط حكمه على ملايين من النصارى ، وفى أرضه يقع القبر المقدس ، وسيلة للتفاهم مع إمبراطور الفرنج وحامى النصرانية ، وأن يجد عاهل الفرنج ما يشجعه على إذكاء تحرشه بإمارة قرطبة ، فى رفق الخليفة برعاياه النصارى ، هذا فضلا عن أن السياسة الفرنجية تعمل بذلك على تحقيق غايتها الأصلية من مناوأة الإسلام فى اسبانيا وإضعاف سيادته ونفوذه ، وحماية حدود مملكة الفرنج الجنوبية . وإذاً فمن المحتمل أن يكون لهذه السفارات والمراسلات السياسية ، التى تقول الرواية الفرنجية بوقوعها بين الرشيد وشارلمان ، صلة بهذه المرحلة من تدخل الفرنج فى شئون اسبانيا المسلمة ، واعتدائهم المتكرر على أراضيها . وقد وقع الغزو الفرنجى لشمال اسبانيا فى عهد الحكم بين سنتى ١٨١ و ١٨٥ هـ ، أعنى فى أواسط عهد الرشيد

---

(١) تناولت موضوع العلائق بين الرشيد وشارلمان فى فصل خاص فى كتابى « مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام » ( الطبعة الرابعة ص ٢١٨ — ٢٢٤ ) .

( ١٧٠ – ١٩٣ هـ ) . والواقع أن فى اتحاد المصلحة والغاية بين الخليفة العباسى وعاهل الفرنج ، ما يسبغ على هذا الفرض تأييداً .

ولما كانت السياسة الفرنجية ترمى قبل كل شىء إلى تأمين غاليس ( جنوب فرنسا ) من خطر الغزو الإسلامى ، فقد رأت أن تنشىء فى قاصية اسبانيا الشمالية الشرقية مما يلى جبال البرنيه ، ولاية فرنجية جديدة تكون سداً بين الغزاة وبين مملكة الفرنج ، وأنشئت هذه الولاية التى سميت « بالثغر القوطى » أو الثغر الإسبانى فى البداية ، من مدن چيرونة (جيرندة) وأوزونة وسولسونة ، وما حولها مما اقتطعه الفرنج من أراضى اسبانيا المسلمة ، التى كانت تابعة لرباط الثغر الإسلامى القديم . ولما عاد الاضطراب إلى الثغر الأعلى ، وشغلت حكومة قرطبة بأمر الثورات الداخلية المتوالية ، ألفى الفرنج الفرصة سانحة لدفع غزواتهم نحو الجنوب ، وكان شارلمان يطمح بالأخص إلى افتتاح ثغر برشلونة المنيع ليكون معقلا لحماية أملاكه الجنوبية ، وحلقة اتصال بحرى سهل بينها وبين فرنسا . وعمد شارلمان قبل البدء فى تنفيذ مشروعه إلى عقد محالفة بينه وبين أمير جليقية ألفونسو الثانى (سنة ٧٩٨ م ) ، لكى يكتسب ولاء البشكنس ومعاونتهم . وفى سنة ٨٠١م ( ١٨٥ هـ ) سير شارلمان إلى اسبانيا جيشاً ضخماً لافتتاح برشلونة بقيادة ولده لويس أمير أكوتين ، وانقسم هذا الجيش إلى قسمين ، سار أحدهما بقيادة حاكم چيرونة لمحاصرة برشلونة ، وسار الآخر بقيادة جيوم كونت دى تولوز ليرابط جنوب غربى برشلونة بين لاردة وطركونة ، ليحول دون وصول أى مدد إلى المدينة المحصورة . وكان الحكم يشغل يومئذ بمطاردة الخوارج عليه وفى مقدمتهم عمه عبد الله ، وكان والى برشلونة ، سعدون الرعينى ، فى مأزق حرج ، يتطلع عبثاً إلى قدوم المدد ، وهو فى ثغره القاصى بعيداً عن كل عون ومساعدة ، ولم يكن له ما يؤمل من معاونة زملائه ولاة الثغر الأعلى ، ومعظمهم يضمر الخروج على حكومة قرطبة ، ويرى فى اضطراب الأمور ملاذاً . ومع ذلك فقد صمدت برشلونة ، وصمم واليها الشجاع على المقاومة ، ولبثت حيناً تعانى أمر ضروب الحرمان والجوع ، دون أن يأتيها المدد المنشود . ثم تفاقم الأمر وجاء جيش جديد من الفرنج بقيادة لويس ليشدد الحصار على المدينة ، فرأى سعدون الرعينى أن يحاول التماس المدد بنفسه من قرطبة ، وغادر برشلونة تحت جنح الظلام ،

وحاول أن يخترق خطوط العدو ، ولكنه ضبط وأسر ، ولم تستطع برشلونة ثباتاً بعد أن هلك ألوف من أهلها ، وفتحت ثغرات عديدة فى أسوارها ، فاضطرت إلى التسليم بعد أن ذاقت ويلات الحصار سبعة أشهر . واتخذ الفرنج من برشلونة مكان جبرندة ، قاعدة للثغر القوطى الذى نما فيما بعد ، وكان الفرنج يعينون حكامه من الكونتات الذين ينتمون إلى أصل قوطى أو فرنجى . ولم يلبث أولئك الحكام ، حينما شعروا بقوتهم وبعدهم عن سلطان مملكة الفرنج ، أن أعلنوا استقلالهم ، وغدا الثغر الفرنجى إمارة نصرانية هى إمارة قطلونية ، التى اندمجت فيما بعد فى مملكة أراجون القوية ، وخسر الإسلام بفقد برشلونة أمنع ثغوره فى قاصية اسبانيا ، وارتدت حدود الأندلس إلى الثغر الأعلى ، بعد أن كانت تجاوز جبال البرنيه[1] .

وفى سنة ١٨٩ هـ ( ٨٠٥ م ) اكتشف الحكم مؤامرة خطيرة دبرت لخلعه ، وكان من ورائها رهط الفقهاء الذين قضى الحكم على نفوذهم ، مثل يحيى بن يحيى الليثى ، وعيسى بن دينار ، وطالوت الفقيه ، وغيرهم من زعماء المالكية . وقد رأينا كيف سخط الفقهاء على الحكم لتصدع نفوذهم القديم ، وأثاروا عليه وعلى خلاله دعاية قوية ، واتهموه من فوق المنابر بالقسوة والخروج على أحكام الدين ، وكيف كان الحكم ، بمرحه وبذخه ، وشغفه باللهو والشراب ، يسبغ على دعايتهم قوة . وكان ثمة فريق آخر من أعيان قرطبة ينقم على الحكم صرامته وطغيانه . وكان هؤلاء وهؤلاء يتربصون بالحكم ويلتمسون الفرصة للإيقاع به ، وكان فى موقف الشعب القرطبى ، ما يشجعهم على تدبير مشاريعهم ، إذ كان الشعب متأثراً بدعاية الفقهاء فى حق الحكم ، وبما كان يبديه الحكم من ترفع عن الشعب ، فكان أهل قرطبة يبغضون الحكم وبلاطه . وهكذا ائتمر الفقهاء والأعيان بالحكم واتفقوا على خلعه ، وكان فى مقدمة المتآمرين مالك بن يزيد بن يحيى التجيبى ، وموسى بن سالم الخولانى ، وأبو كعب بن عبد البر وأخوه عيسى ، ويحيى ابن مضر القيسى الفقيه وغيرهم ، وكان بينهم بعض المروانية من أقارب الحكم ، ومنهم محمد بن القاسم المروانى الذى اختاره المتآمرون لرياستهم ، ووعدوه بأن

---

( ١ ) تضع الرواية الإسلامية تاريخ سقوط برشلونة فى سنة ١٨٥ هـ ( ٨٠١ م ) متفقة بذلك مع الرواية الفرنجية ، وقد وردت عنه نبذة حسنة فى مخطوط ابن حيان الذى أشرنا إليه ( ص ٩٠ ) . وراجع ابن الأثير ج ٦ ص ٥٥ ؛ وكذلك Scott : ibid , V. I. p. 448-452, و Altamira : Hist. de Espana : Vol. I. p. 241

يكون خلف الحكم فى الإمارة[1] ، ولكنه خشى العاقبة وبادر بإبلاغ الحكم ، واكتشفت المؤامرة قبل نضجها ، وقبض الحكم على عدد كبير من المتآمرين . واستطاع بعضهم الفرار ، مثل يحيى بن يحيى ، وعيسى بن دينار . وأعدم الحكم منهم اثنين وسبعين رجلا ، وأبدى فى إعدامهم قسوة ظاهرة ، إذ صلبهم على شاطىء النهر تجاه مشارف القصر ، وكان من بين القتلى عماه مسلمة المشهور بكليب ، وأمية ، ابنا عبد الرحمن بن معاوية ، قتلهما لارتيابه فى سلوكهما ، فأثار هذا الإجراء الدموى فى قرطبة أيما ارتياع ، وأسبغ على خلال الحكم ريباً ، وأذكى الحفيظة على الأمير فى نفوس الخاصة والعامة معاً . وشعر الحكم بخطورة هذا الأثر ، فحصن قرطبة ورمم أسوارها ، واحتفر الخنادق حولها ، وفرض على الشعب حكم إرهاب يزيد فى حفيظته . ولم تمض أشهر على ذلك حتى اضطرمت فى قرطبة فورة من السخط ، وثار العامة فى الرَّبض (الضاحية) بزعامة رجل منهم يقال له ديبل ، وكان الحكم غائباً يشرف على محاصرة الثوار فى ماردة ، فعاد مسرعاً إلى قرطبة ، وقبض على زعيم الفتنة وعدة كبيرة من أنصاره ، وصلبوا جميعاً ومثل بهم ، وسحق الهياج دون رأفة ، وهدأت العاصمة إلى حين[2] .

وفى العام التالى ، سنة ١٩٠ هـ ( ٨٠٦ م ) ، نشبت الثورة فى ماردة بقيادة زعيمها أصبغ بن عبد الله بن وانسوس ، فسار الحكم إلى قتاله ، ولكنه ارتد عنه حينما وقف على نبأ الهياج فى قرطبة . وترددت الحملات والبعوث بعد ذلك إلى ماردة لإخماد الثورة ، واستمر زعيمها أصبغ على مقاومته بضعة أعوام ، وكان ذا وجاهة وبأس ، يلتف حوله مواطنوه البربر ، وهم كثرة فى ماردة وما حولها ، ولكنه اضطر أخيراً إزاء حزم الحكم وصرامته إلى طلب الأمان والصلح ، فاجابه الحكم إلى طلبه ، وعادت ماردة إلى الطاعة[3] .

وكانت طليطلة حاضرة القوط القديمة ، وقاعدة «الثغر الأوسط»[4] ما تزال

---

(١) راجع البيان المغرب ج ٢ ص ٧٣ ؛ وابن الأثير ج ٦ ص ٦٦ ؛ ولكن ابن القوطية يذكر أن المتآمرين بايعوا شخصاً آخر من أبناء عمومة الحكم .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٧٣ ؛ وابن الأثير ج ٦ ص ٨٦ ، ومخطوط ابن حيان المشار إليه ص ٩٨ .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٧٤ ، ومخطوط ابن حيان المشار إليه ص ٩٩ .

(٤) تسمى طليطلة وأعمالها فى الجغرافية الأندلسية « بالثغر بالأوسط » حسبما تقدم .

منذ الفتح تفيض بعوامل الهياج والثورة ، وكان بين أهلها كثرة من المولدين أو النصارى الذين دخلوا فى الإسلام ، والمستعربين أو النصارى المعاهدين . وقد سبق أن عنينا بالتعريف بهذين العنصرين ، اللذين اضطلعا بأدوار خطيرة فى تاريخ اسبانيا المسلمة ، وأوضحنا أن العرب والبربر ، وهما العنصران اللذان تعاونا فى فتح اسبانيا ، لم يكونا أغلبية بين الشعب الأندلسى الذى تكون بعد الفتح بمضى الزمن ، وكان العرب بالأخص أقلية فى معظم المدن الكبيرة ، لكن هذه الأقلية العربية كانت تستأثر بالحكم ، وخصوصاً فى الأقاليم الوسطى والجنوبية القريبة من قرطبة مركز الإمارة والسيادة . وكان البربر من جانبهم أغلبية فى بعض المناطق الغربية والشمالية ، وكانوا حيثما غلبت كثرتهم وسلطتهم ، يتحدون فى معظم الأحيان مع المولدين ، وأحياناً مع النصارى المعاهدين أنفسهم ، على مناوأة حكومة قرطبة . أما «المولدون» فكان معظمهم حسبما أسلفنا من الإسبان والقوط الذين اعتنقوا الإسلام منذ الفتح تباعاً ، واندمجوا فى المجتمع الإسلامى ، وقد كانوا كثرة فى بعض المدن القوطية العريقة مثل طليطلة وبعض مدن الثغر الأعلى ، وقد برزت منهم بعض الأسر القوية ذات السلطان والبأس ، مثل بنى قسىّ زعماء الثغر الأعلى وبنو حفصون زعماء ريّه ، ويصفهم المستشرق سيمونيت بأنهم كانوا بعد اندماجهم فى المجتمع الإسلامى أشد تعصباً ضد النصارى من المسلمين الخلص أنفسهم(١) .

وأما النصارى المعاهدون أو المستعربون كما يسمون بالإسبانية Mozárabes ، فهم حسبما أشرنا من قبل النصارى الإسبان الذين آثروا الاحتفاظ بدينهم ، وبقوا فى المدن الأندلسية المفتوحة تحت الحكم الإسلامى . وبالرغم مما كانت تسبغه الحكومة الإسلامية عليهم من أسباب الرعاية ، وما كان لهم فى كثير من الأحيان من الحظوة والتمتع بثقة الأمراء ، وتولى كثير من الوظائف الهامة ، فقد كانوا على العموم عنصراً قليل الولاء للحكومة الإسلامية ، وكانوا فى المدن البعيدة فى كثير من الأحيان ، يحالفون الثوار من المسلمين والبربر والمولدين ، ويمالئونهم ، ويعملون على عقد الصلات بينهم وبين الملوك النصارى ، سعياً إلى مناوأة حكومة قرطبة وخلق الصعاب فى وجهها . وسنرى أى دور خطير يلعبه أولئك النصارى المعاهدون فى قرطبة فى عهد عبد الرحمن بن الحكم ، لإثارة الفتن والاضطراب فى المملكة الإسلامية .

---

(١) Simonet: Hist. de los Mozárabes, Vol.I.p. 362

هذا ، وفضلا عما كان للمولدين والنصارى المعاهدين من كثرة ظاهرة فى مدينة طليطلة ، فإن أهل طليطلة على وجه العموم ، لم ينسوا سالف عزهم ومجدهم أيام أن كانت مدينتهم دار ملك القوط ، وكانوا يعتزون بكثرتهم وثروتهم وحصانة مدينتهم[1] ، وتحدوهم روح من التمرد والخروج المستمر على حكومة قرطبة . وقد رأينا كيف كانت طليطلة مركز الثورة ، وملاذ الزعماء الخوارج منذ عهد عبد الرحمن الداخل . وفى عهد الحكم عادت طليطلة إلى سابق سيرتها ، وثار فيها فى سنة ١٨١ هـ ( ٧٩٧ م ) عبيدة بن حميد ، فوجه الحكم قائده عمروس ابن يوسف لمحاربته ، وكان يقود الجيش فى طلبيرة ، فالتقى بالثوار فى عدة وقائع ، ولما رأى ثبات الثوار لجأ إلى سلاح الغيلة ، واستمال إليه بعض وجهاء المدينة بالمنح والوعود ، ودفعهم إلى اغتيال عبيدة بن حميد ، وبذا أخمدت الثورة إلى حين ، وأذعنت المدينة الثائرة لسلطان الحكم . ولكن هذا الهدوء المؤقت لم يطل أمده ، ولم تمض بضعة أعوام حتى عادت طليطلة إلى الثورة ، ولم ير الحكم وسيلة لإخضاعها سوى تعيين عمروس بن يوسف حاكماً لها . وكان عمروس « مولداً » من أهل وشقة ، ذا وجاهة وبأس ، وكان قد ظهر فى الثغر الأعلى ، وأظهر طاعة الحكم ودعا له ، خلافاً لكثير من زعماء الثغر الخوارج ، فسر الحكم بمسلكه ودعاه إلى خدمته ، واختاره للقيادة ، ثم اختاره لولاية طليطلة ليعالج المدينة الثائرة ، ويعمل على إخضاعها ، ولوحظ فى هذا الاختيار أن عمروس مولد ، وأن معظم أهل طليطلة من المولدين . وكتب الحكم إلى أهل طليطلة يقول : « إنى قد اخترت لكم فلاناً وهو منكم لتطمئن قلوبكم إليه ، وأعفيتكم ممن تكرهون من عمالنا وموالينا ، ولتعرفوا جميل رأينا فيكم » . ودخل عمروس طليطلة ، فأنس به أهلها ، وتظاهر أمامهم ببغض بنى أمية والموافقة على خلع طاعتهم ، واستمالهم برفقه ولينه ، ثم أنشأ بموافقتهم فى ظاهر طليطلة قلعة حصينة بحجة إيواء الجند والموظفين فيها بعيداً عن أهل المدينة وحرصاً على راحتهم ، وبعث إلى الحكم يستقدم إليه الجند سراً ، فسير الحكم جيشاً بقيادة ولده عبد الرحمن لمقاتلة نصارى الشمال فى الظاهر ، ثم عرج هذا الجيش حين العودة على طليطلة ، وخرج عمروس لملاقاة الأمير

---

( ١ ) إن إلقاء نظرة على موقع طليطلة فوق المنحدر الصخرى الوعر المشرف على منحنى نهر التاجه ، والنهر محيط بها من كل نواحيها تقريباً ، وبقية الأسوار الهائلة التى كانت تحيط بها ، كل ذلك يدل على ما كانت عليه هذه المدينة التالدة من الحصانة فى تلك العصور .

وتحيته ، ومعه وجوه المدينة ، فأكرمهم عبد الرحمن ولاطفهم . وهنا دبرت المؤامرة التى هلك فيها وجوه طليطلة وأعيانها ، وفى بعض الروايات أن الذى دبرها وأوعز بتنفيذها هو الحكم ، فى خطاب أرسله سراً إلى عمروس مع ولده عبد الرحمن ، وفى البعض الآخر أن الذى دبر الكمين هو عمروس . وعلى أى حال فقد نفذت المؤامرة بأن أقام عمروس فى القلعة الجديدة ، ولمية حافلة دعا إليها ألوفاً من الكبراء والأعيان ، ورتب الدخول من باب والخروج من باب آخر ، منعاً للزحام ، وجعل الخدم يقتادون المدعوين إلى غرف الطعام عشرة عشرة ، وكلما دخل منهم فوج أخذوا إلى ناحية معينة ، وضربت أعناقهم ، وألقيت جثثهم إلى حفرة عظيمة ، حفرت خصيصاً فى مؤخرة القصر ، وأصوات الطبول والمزامير تحول دون سماع استغاثتهم ، ولم يفطن أحد إلى الحقيقة المروعة إلا بعد أن تعالى النهار ، ولم يبد للداخلين أثر فى الخروج ، ولم يسمع لهم ضجيج ، فعندئذ فطن البعض إلى الكمين ، وتصايح القادمون ونكصوا على أعقابهم ، وهلك فى تلك المذبحة التى تعرف بواقعة « الحفرة » عدد كبير من وجوه طليطلة وأعيانها ، يقدره البعض ببضع مئين والبعض الآخر ببضعة آلاف ، وكانت ضربة شديدة للمدينة الثائرة جردتها من زعامتها ، وأضعفت من شأنها ، وقضت مدى حين على روح الثورة فيها ، وكانت وقعة الحفرة فى سنة ١٩١ هـ ( ٨٠٧ م )[١] .

وفى ذلك الحين غزا الفرنج بقيادة لويس ولد شارلمان[٢] ، ولاية الثغر الأعلى مرة أخرى ، وحاصروا مدينة طرطوشة ( سنة ١٩٢ هـ ) ، فبعث الحكم جيشاً إلى الشمال بقيادة ولده عبد الرحمن ، فارتد الفرنج إلى أراضيهم ، ثم عادوا إلى حصار طرطوشة فى العام التالى بقيادة لويس أيضاً ، وعاد المسلمون إلى قتالهم بقيادة عبد الرحمن ، ومعه فى تلك المرة عمروس عامل الثغر الأوسط ،

---

( ١ ) راجع ابن الأثير ج ٦ ص ٦٥ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٢٦ و ١٢٧ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٧١ و ٧٢ ، وفيه أن من هلك فى مذبحة الحفرة ، بلغ زهاء سبعمائة فقط . وجاء فى مخطوط ابن حيان السابق ذكره ، رواية عيسى بن أحمد الرازى ، أن الذى دبر الكمين هو الأمير عبد الرحمن بن الحكم ، وأنه هو الذى أولم الوليمة ، وأنه هلك فى المذبحة زهاء خمسة آلاف ( ص ٩٣ ) . وراجع أيضاً Dozy : Hist., I. p. 291—294.

( ٢ ) وتسميه الرواية العربية خطأ برذريق أو لذريق بن قارله ( ابن الأثير ج ٦ ص ٩٦ والبيان المغرب ج ٢ ص ٧٤ ) .

وعبدون عامل الثغر الأعلى ، فى قواتهما ، ونشبت بين المسلمين والفرنج عدة وقائع انتهت بهزيمة الفرنج وإنقاذ طرطوشة ، وذلك فى سنة ١٩٣ هـ ( ٨٠٩ م ) .

وعمد نصارى الشمال كعادتهم إلى انتهاز كل فرصة سانحة للإغارة على أراضى المسلمين ، وشجعهم انشغال حكومة قرطبة بقمع الثورات المختلفة ، وكان ملك جليقية يومئذ ألفونسو الثانى ، الملقب بالعفيف ، أميراً شديد التعصب لدينه ووطنه ، وكانت حملاته المتوالية إلى أراضى المسلمين يطبعها لون دينى عميق ، وعبر ألفونسو نهر دويرة (دورو) إلى أراضى المسلمين غير مرة ، وعاث فيها قتلا ونهباً وسبياً ، وكانت حملاته تتجه بالأخص إلى أطراف الثغر الأدنى ، والى المنطقة الواقعة بين نهرى دويرة والتَّاجُه ، لبعدها عن حكومة قرطبة ، وضعف وسائل الدفاع فيها ، وتوغل ألفونسو فى حملاته حتى قُلُمْرِية ( قلنبرية ) وأشبونة ، وعانى المسلمون فى تلك الأنحاء كثيراً من جراء غزوات النصارى ، وترامت إلى الحكم آلامهم واستغاثتهم ، ورفع إليه شاعره عباس بن ناصح الجزيرى قصيدة يصف فيها آلام أهل الثغر ومصائبهم . فى صيف سنة ١٩٤ هـ ( ٨١٠ م )[١] ، سار الحكم غازياً بنفسه إلى أراضى ألبة والقلاع ، وتوغل فيها مما يلى وادى الحجارة غرباً ، وأثخن فى تلك الأنحاء ، وهزم النصارى فى عدة وقائع ، وقتل وسبى منهم جموعاً كثيرة ، واطمأنت نفوس المسلمين فى الثغر بزجر النصارى وردهم إلى داخل أراضيهم .

وسير الحكم فى العام التالى جيشاً إلى الثغر الأعلى بقيادة عمه عبد الله البلنسى ، فغزا قطلونية ، وهاجم مدينة برشلونة ، وهزم الفرنج ، ولكنه لم يحرز فتوحاً ثابتة . وشعر الفرنج ، كما شعر المسلمون بعقم هذه الحملات المخربة ، وآثر الفريقان التفاهم والمهادنة ، ويقول لنا ابن حيان إنه كان ثمة باعث آخر على التعجيل بعقد السلم بين العاهلين ، هو استفحال أمر إدريس بن إدريس بن عبد الله الحسنى بأرض العدوة ( المغرب ) ، وتقاطر الوفود من إفريقية والأندلس إلى بيعته ، وتوجس الحكم من مصاير هذه الحركة الجديدة بالمغرب[٢]. وهكذا عقد

( ١ ) هذه رواية صاحب البيان المغرب ( ج ٢ ص ٧٥ ) ويضع ابن الأثير تاريخ هذه الغزوة فى سنة ١٩٦ هـ .

( ٢ ) مخطوط ابن حيان المشار إليه ص ١٠٠ . ويسمى ابن حيان هنا ملك الفرنج باسمه الصحيح « قارله بن بيين » . وراجع الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ج ١ ص ٧١ و ٧٢ .

السلم بين شارلمان والحكم ، واستمر معقوداً حتى وفاة شارلمان بعد ذلك بأعوام قلائل فى سنة ٨١٤ م .

ووقعت فى تلك الأثناء عدة ثورات محلية ، فثارحزم بن وهب فى باجة ، وامتد سلطانه حتى أشبونة ، فسير إليه الحكم ولده هشاماً ، فقاتل الثوار حتى أذعنوا لطلب الأمان . وعادت طليطلة إلى الثورة فى سنة ١٩٧ ﻫ لأعوام قلائل من واقعة الحفرة ، فرأى الحكم أن يسير إليها بنفسه ، فسار فى قواته من طريق منحرفة كأنه يقصد الشمال ، ثم تحول إليها فجأة ، ولم تكن الثورة يومئذ ، فى مثل عنفها القديم ، فلم يجد الحكم مشقة فى دخول المدينة الثائرة وإخضاعها (سنة ١٩٩ ﻫ) . وثارت بعد ذلك ماردة بقيادة زعيمها مروان بن يونس الجليقى ، فبعث الحكم إليها ولده عبد الرحمن فى الجند فأخضعها .

وفى سنة ١٩٧ ﻫ (٨١٢ م) عصف بالولايات الشمالية قحط شديد ، وعانى المسلمون فى تلك الأنحاء كثيراً من ضروب الحرمان والبؤس ، ومات منهم خلق كثير ، وعبر البحر إلى العدوة الكثير منهم ، فبادر الحكم إلى إغاثتهم ومعاونة المنكوبين منهم ، وتخفيف الويل عنهم ، وفرق الصدقات الواسعة والأموال الكثيرة فى الضعفاء والمساكين ، وأبناء السبيل ، وفى ذلك يمتدحه شاعره عباس بن ناصح الجزيرى بقوله :

نكد الزمان فآمنت أيامه      من أن يكون بعصره عسر
طلع الزمان بأزمة فجلت له      تلك الكريهة جـوده الغمر

وكانت آخر غزوة قام بها الحكم فى الشمال فى سنة ٢٠٠ ﻫ (٨١٥ م) إذ سير الحاجب عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث إلى جليقية فى جيش ضخم ، وكان الجلالقة وحلفاؤهم البشكنس ما يزالون على عدوانهم وعيثهم بالأراضى الإسلامية المجاورة ، فتوغل المسلمون فى أراضى جليقية ، وأثخنوا فيها ، ونشبت بينهم وبين النصارى موقعة شديدة على ضفاف نهر أرون استمرت عدة أيام ، وانتهت بهزيمة النصارى ، وقتل منهم عدد كبير ، ووقع فى الأسر جماعة من أمرائهم وأكابرهم ، وارتد النصارى إلى الداخل ، واعتصموا بالوهاد والربى ، وعاد الحاجب إلى قرطبة ظافراً(١) .

(١) نفح الطيب ج ١ ص ١٥٩ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٧٧ .

وفى أواخر عهد الحكم اضطرمت بقرطبة ثورة خطيرة كادت آن تزعزع عرشه ، وكان الشعب القرطبي ينقم على الأمير طغيانه وصرامته وكبرياءه ، وكان بين أهل قرطبة كثير من « المولدين » الذين يبغضون السلطة الحاكمة ، لشعورهم بنقص فى مركزهم الإجتماعى وفى حقوقهم العامة ، وكان الفقهاء من جهة أخرى ، وفى مقدمتهم جماعة من المحرضين البارعين مثل طالوت المعافرى وغيره ، يعملون على إذكاء سخط العامة على الحكم وبلاطه ، بما يرمون به الحكم من جنوح إلى المعاصى ، واقتراف للإثم ، وانهماك فى اللهو والشراب ، فكانت بين الأمير وبين أهل قرطبة وحشة تشتد على مر الأيام ، وزاد فى سخط العامة ما فرضه الحكم على المواد الغذائية ، من عشور مرهقة ، وكان العامة يجاهرون بذم الأمير والخوض فى سيرته ، ويجتمعون فى المساجد ليلا لتجريحه والطعن عليه ، ووصلت بهم الجرأة إلى أن كانوا يتعرضون له فى الطريق ، وينعتونه علنا « بالمخمور » . وحدث ذات يوم أن خرج الأمير إلى الصيد ، وشق سوق «الربض» فتعرضوا له بالقول ، وصفقوا عليه بالأكف ، فأمر بالقبض على عشرة من زعمائهم وصلبهم . ويقول لنا ابن القوطية ، إن أولئك الذين قبض عليهم وصلبوا كانوا من زعماء مؤامرة دبرت ضد الحكم ، وكان منهم بعض أعلام القوم ، مثل يحيى بن نصر اليحصبي ، وموسى بن سالم الخولانى وولده[1]. وهنا ازداد الهياج ، وبدت أعراض الثورة ، وتحفز العامة للوثوب ، وأكثروا من التعرض لجند الأمير وحرسه والاعتداء عليهم ، وشعر الحكم بخطورة الموقف ، فحصن القصر واتخذ أهبته . وفى ذات يوم اضطرمت نار الثورة فجأة ، وذلك على أثر مشادة وقعت بين أحد مماليك الحكم وبين صيقل عهد إليه بصقل سيفه ، فتباطأ الصيقل ، فقتله المملوك ، فثار العامة فى الحال ، وهرعوا إلى السلاح ، وكان أشدهم تحفزاً وهياجاً أهل «الربض» الجنوبى فى الضفة الأخرى من النهر ، وهى ضاحية قرطبة الجنوبية المسماة « شَقُندة» ، وكانت كثرتهم من الأوغاد والسفلة ، وكان ذلك فى اليوم الثالث عشر من رمضان سنة ٢٠٢ هـ ( ٢٥ مارس ٨١٨ م )[2]، وزحفت

---

( ١ ) ابن القوطية فى « افتتاح الأندلس » ص ٥٠ و ٥١ .

( ٢ ) تختلف الرواية الإسلامية فى تاريخ هذه الواقعة اختلافاً بينا ، فتضع معظم الروايات الأندلسية تاريخها فى سنة ٢٠٢هـ ؛ ويعين ابن الأبار اليوم والشهر الذى وقعت فيه فيقول إنها وقعت =

جموع الثوار إلى القصر من كل ناحية ، وتأهب الحكم فى حرسه وغلمانه لردها ، وبعث ابن عمه عبيد الله البلنسى صاحب الصوائف ، والحاجب عبد الكريم ، فى قوة من الفرسان والمشاة ، فاستقبلت الجموع الزاحفة ، وردتها إلى الوراء بعد أن نفذت إلى فناء القصر ، ثم شقت طريقها إلى النهر واقتحمته إلى الضاحية الثائرة ، وأضرمت النار فى عدة من أنحائها ، ونجحت هذه الوسيلة فى تفرقة شمل الثوار ، إذ ما كادت ألسنة اللهب تبدو ، حتى هرع الكثير منهم إلى دورهم يحاولون إطفاء النار وإنقاذ الأهل والولد . وهنا احتاط الجند بالثوار من كل ناحية وأمعنوا فيهم قتلا حتى أفنوا منهم خلقاً كثيراً ، وطاردوهم فى كل مكان ، ونهبت دورهم ، وأسر منهم عدد كبير ، وفر من استطاع ، ومنهم بعض الفقهاء والمحرضين مثل طالوت وغيره ، والتجأ البعض إلى طليطلة ، واستمر القتل والنهب ثلاثة أيام حتى مزقوا كل ممزق ، وصلب الحكم تجاه قصره على شاطىء النهر ثلاثمائة رجل من الثوار ، صفوفاً منكسة ، إرهاباً لأهل قرطبة . ثم كف الجند عنهم ، ونودى بالأمان وهدأت الفتنة ، وأمر الحكم بديار الثوار فهدمت عن آخرها ، ولا سيما «الرَّبَض» القبلى الذى كان مهد الفتنة ، وقام على الهدم ربيع القومس عامل أهل الذمة وقائد الغلمان الخاصة ، فمسح أحياء الثوار مسحاً ، وغدت ألوف كثيرة منهم دون مأوى ، وأمر الحكم بخروجهم من قرطبة فى الحال ، وأن

---

=فى يوم الأربعاء ١٣ رمضان سنة ٢٠٢ (الحلة السيراء ص ٣٩) ؛ ويوافقه ابن عذارى فيضع تاريخها فى نفس العام (ج ٢ ص ٨٧ ) ؛ وتؤيد هذا التاريخ عدة روايات وردت فى مخطوط ابن حيان الذى بين أيدينا ، ومنها رواية الرازى (ص ١٠٣ و ١٠٤ ) . ولكن ابن الأثير يضع تاريخ واقعة الربض فى سنة ١٩٨ هـ ، وإن كان يشير أيضاً إلى ما قيل من وقوعها فى سنة ٢٠٢ هـ (ج ٦ ص ١٠١ و ١٠٢ ) ؛ ويأخذ المشارقة بهذه الرواية ؛ فنرى المقريزى مثلا يضع مقدم الأندلسيين الذين نزحوا على أثر الواقعة إلى الإسكندرية فى سنة ١٩٩ هـ ، ويشير إلى اشتراكهم فى الحرب الأهلية التى كانت تضطرم يومئذ بها فى سنتى ٢٠٠ و ٢٠١ هـ (راجع خطط المقريزى – مصر – ج ١ ص ٢٧٨–٢٨٠ ) وذلك مما قد يعزز رواية ابن الأثير فى حدوث الواقعة سنة ١٩٨ هـ ؛ ويميل دوزى أيضاً إلى الأخذ بهذه الرواية (ج ١ ص ٢٩٦ – ٢٩٧ ) ، ويستشهد بما يرويه المقريزى من الوقائع المادية . على أننا نميل من جانبنا إلى الأخذ بالرواية الأندلسية ، لقدمها واتفاقها ، وكونها أقرب إلى ميدان الحوادث وأقرب إلى التحقيق . وأما رواية المقريزى ، فقد يحمل ما ورد فيها إلى اضطراب فى ذكر الحوادث ، خصوصاً وأن الحرب الأهلية المصرية التى يشير إلى اشتراك الأندلسيين فيها قد استمرت من سنة ١٩٩ إلى سنة ٢٠٥ هـ ، مما يمكن معه أن نوفق بين أقواله وبين حدوث واقعة الربض فى سنة ٢٠٢ هـ (وراجع النجوم الزاهرة ج ٢ ص ١٦٩ و ١٧٨ ) .

لا أمان لمن لديه تخلف منهم . وبدأ رحيلهم فى العشرين من رمضان (٢٠٢ هـ) فتفرقوا فى الثغور والكور ، ولجأت جموع منهم إلى طليطلة لمخالفة أهلها على الحكم يومئذ ، وعبر البحر كثير منهم إلى عدوة المغرب ، واتجهت جماعة كبيرة منهم قوامها زهاء خمسة عشر ألفاً إلى المشرق فى عدة من السفن ، ورست فى مياه الإسكندرية ، وكانت مصر تضطرم يومئذ بنار الحرب الأهلية التى نشبت بين السّرى بن الحكم وبين خصومه حول ولايتها ، فنزل الأندلسيون إلى الثغر واستقروا فيه ، واشتركوا فى الحرب الأهلية ، واستمرت الفتنة بمصر ، والأندلسيون بالإسكندرية ، حتى قدم عبد الله بن طاهر إلى مصر أميراً عليها من قبل الخليفة المأمون ، فسار إلى الإسكندرية وحاصرها ، واضطر الأندلسيون إلى الإذعان والصلح ، وغادروا الإسكندرية فى سفنهم ، وساروا إلى جزيرة إقريطش (كريت) ، بقيادة زعيمهم أبى حفص عمر بن عيسى البلوطى ، وافتتحوها ، ونزلوا بها (٢١٢ هـ — ٨٢٧ م) ، وأسسوا بها دولة صغيرة زاهرة استمرت زهاء قرن وثلث ، حتى استعاد البيزنطيون الجزيرة من المسلمين سنة ٣٥٠ هـ (٩٦١ م) .

هكذا كانت ثورة « الربض » التى كادت أن تحمل الحكم وعرشه ، وكانت ثورة شعبية بمعنى الكلمة ، ولكنها كانت دون تنظيم ودون زعامة ، وقد أدرك الحكم خطورتها ، ولم تأخذه فى إخمادها هوادة ولا رأفة ، وأصدر عقب إخمادها كتاباً إلى الكور يشرح فيه الواقعة وظروفها . وقد رأينا أن ننقل نصه فيما يلى كوثيقة سياسية وديوانية هامة من وثائق العصر :

« بسم الله الرحمن الرحيم ؛ أما بعد فإن الله ذو الفضل والمن ، والطول والعدل ، إذا أراد إتمام أمر وتهميه ، لمن جعله أهله وكفيه ، سدده وأعزه ، وأنفذ قضاءه بفلحه ، ولم يجعل لأحد من خلقه قوة على عناده ودفاعه ، حتى يمضى فيه حكمه له وعليه كما شاء ، وختم فى أم الكتاب لا مبدل لكلماته عز وجل ، وإنه لما كان يوم الأربعاء لثلاث عشرة من شهر رمضان ، تداعى فسقة أهل قرطبة وسفلتهم ، وأذنبتهم من الشرطانيين ، ألد الفئة ، المعلوجى شراً وبطراً ، عن غير مكروه سيرة ، ولا قبيح أثر ، ولا نكر حادثة ، كان منا فيهم ، فأظهروا السلاح ، وتلبنوا للكفاح ، وهتفوا بالخلعان ، وتأنقوا بالخلاف ، ومدوا عنقاً إلى ما لم يجعله الله له أهلا من التأمير على خلقه ، والتسور فى حكمه . فلما رأيت ذلك من

غدرهم وعدوانهم ، أمرت بشد جدار المدينة ، فشد بالرجال والأسلحة ، ثم أنهضت الأجناد خيلا ورجالا ، إلى من تداعى من الفسقة فى أرباضها ، فأقحموا الخيل فى شوارعهم وأزقتهم ، وأخذوا بفوهاتها عليهم ، ثم صدقوهم الحملات ، وكورهم بالسَّدَّات المتواليات ، فما صبر العبدان أن كشفوا السوءات ، ومنحوا أكتافهم المتواليات ، وأمكن الله منهم ذوى البصائر المؤيدات ، فأسلمهم الله بجريرتهم ، وصدعهم ببغيهم ، وأخذهم بنكثهم ، فقتلوا تقتيلا ، وعموا تدميراً ، وعروا تشويهاً وتمثيلا ، جزاء عاجلا على الذى نكثوه من بيعتنا ، ودفعوه من طاعتنا ، ولعذاب الآخرة أخزى وأشد تنكيلا . فلما قتلهم الله بجرمهم فيها ، وأحسن العون عليهم لنا ، أمسكت عن نهب الأموال ، وسبى الذرية والعيال ، وعن قتل من لا ذنب له من أهل البراءة والاعتزال ، ازدلافاً إلى رضى الله ناصرى عليهم ذى العزة والجلال ، تهنأت صلحه وفلحه ، واستورعت حمده وشكره ، فاحمدوا الله ذا الآلاء والقمع ، معشرة الأولياء والرعية ، الذى أتاح لنا ولجميع المسلمين فى قتلهم وإذلالهم ، وقمعهم وإهلاكهم ، مما أعظم به علينا المنة ، وخصنا فيه بالكماية ، وتمم علينا وعليكم به النعمة ، فقد كانوا أهل جرأة مقدم ، وذعرة ضلالة ، واستخفاف بالأئمة ، وظهير إلى المشركين ، وحطوط إليهم ، وتحنن لدولتهم . فلله الحمد المكرور ، والاعتراف المذخور ، على قطع دابرهم ، وحسم شرهم ، أحببت إعلامك بالذى كان من صنع الله عليهم لولائك بنا ، ومكانك منا ، لمشاركتنا فى نصرته ، وتحمد الله ومن قبلك من شيعتنا ومعتقدى طاعتنا ، على جميل صنعه فيه ، وتشيعوا شكره عليه إنشاء الله »(١) .

ومن نظم الحكم فى واقعة الربض قوله :

رأيت صدوع الأرض بالسيف واقعاً وقدما لأمت الشعب مذ كنت يافعا
فسائل ثغورى هل بها اليـوم ثغرة أبادرها مسـتنضى السـيف دارعا

---

(١) نقلنا هذه الوثيقة عن مخطوط ابن حيان المشار إليه ( ص ١٠٣ و ١٠٤ ) . وتراجع حوادث واقعة الربض فى ابن الأبار ( الحلة السيراء ص ٣٩ و ٤٠ ) ، والبيان المغرب ( ج ٢ ص ٧٧ و ٧٨ ) ، والمعجب للمراكشى ( ص ١١ ) ، وابن الأثير ( ج ٦ ص ١٠١ و ١٠٢ ) ، وابن القوطية ص ٥١ و ٥٢ . ويورد ابن خلدون والمقرى عن الواقعة روايات محرفة متداخلة فى حوادث سابقة ( راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٦ ، ونفح الطيب ج ١ ص ١٥٦ ) . ووردت فى مخطوط ابن حيان عنها تفاصيل كثيرة منسوبة إلى الرازى وغيره ( ص ١٠٣ — ١١٠ ) .

تنبيـــك أنى لم أكن فى قراعهـــم ... بوان وقد ما كنت بالسيف قارعا
وهل زدت أن وفيتهم صاع قرضهم ... فوافوا منـــايا قدرت ومصارعا
فهذى بلادى إننى قـــد تركتهـــا ... مهاداً ولم أترك عليهـــا منـــازعا
وإنى إذ أجادر أجراعاً عن الـــردى ... فما كنت ذا جيد عن الموت جارعا

خرج الحكم ظافراً من تلك الثورة الشعبية بعد أن سحقها سحقاً . ومع ذلك فقد لبث أهل قرطبة على تحديهم له ، ولبثوا يتغامزون عليه ، ويقدحون فى سيرته . وقد وصف لنا كاتب قريب من العصر ، موقف أهل قرطبة بعد الواقعة من الحكم فى قوله : « فأكثروا الخوض ، وأطالوا الهمهمة ، وفزع رؤوسهم إلى السمر فى مساجدهم بالليل ، مستخفين من السلطان ، مدبرين عليه ، وقد كان خائفاً من ثورتهم ، متهماً لدخلتهم ، حذراً منهم ، مستعداً لهم ، مرتقباً لوثبتهم ، مرتبطاً الخيل على باب قصره ، نوباً بين غلمانه ... » . ثم إنه استكثر من العبيد والسلاح ، وعززهم بالأحرار ، يرابطون دائماً حول القصر ، واستشعر الناس من ذلك الهيبة والخوف ، وركنوا إلى السكينة ، وفرض الحكم العشور على جميع الناس بقرطبة وبالكور ، فزاد فى نفورهم منه ، وبغضهم له[(١)].

وأثارت حوادث الربض ، واستكانة الشعب ، من جهة أخرى ، قريض الشعراء الأحرار ، من خصوم الحكم ، والناقمين على عسفه وطغيانه ، وصدرت فى ذلك قصائد كثيرة تنعى مسلك أهل قرطبة واستكانتهم ، ومن ذلك قول الشاعر غريب بن عبد الله من قصيدة طويلة :

يا أهـــل قرطبة الذين تواكلوا ... جد الدفاع من التواكل أفضل
جد الدفاع لو انـــكم دافعـــتم ... يوم الهياج لـــكم أعز وأجمـــل
إن التواكل وهنـــة ومـــذلة ... والحد فيـــه الصنع والمتمهـــل
صرتم أحـــاديث العبـــاد وكنتم ... عوناً لهـــم فى كل هم يـــنزل
أمسى عبيـــدكم الذين ملـــكتم ... ملـــكوا عليـــكم والأمور تحول

ومرض عبد الرحمن بعد ذلك واستطالت به العلة ، فاستناب عنه فى أواخر عهده عبد الرحمن أكبر أولاده لتدبير الأمور[(٢)] ، واختاره لولاية عهده ، وأخذ له البيعة

---

(١) مخطوط ابن حيان المشار إليه ص ١٠٥ و ١١٠

(٢) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٤١ .

بالفعل ، واختار أخاه المغيرة ليخلفه من بعده ، ولكن المغيرة تنازل فيما بعد عن حقه فى ولاية العهد . وكان الحكم أول أمير من أمراء بنى أمية بالأندلس أخذ البيعة فى حياته لولى عهده ، وذلك خشية وقوع الخلاف بعد موته . ثم توفى الحكم فى السادس والعشرين من ذى الحجة سنة ٢٠٦ هـ (٢٢ مايو سنة ٨٢٢ م) ، وقد بلغ الثانية والخمسين من عمره ، ودفن مع آبائه فى مقبرة القصر المعروفة بالروضة . وترك من الولد تسعة عشر من الذكور واثنين وثلاثين من الإناث .

وقيل إن الحكم أبدى حين مرض موته أسفه وندمه ، لما أوقعه بأهل الربض من بالغ النكال والشدة ، وصرح بأنه كان خيراً لو لم يفعل ما فعله[١] .

ولما شعر الحكم بدنو أجله استدعى ولده عبد الرحمن ، وألقى إليه وصيته ، وفيها يقول : « إنى وطدت لك الدنيا ، وذللت لك الأعداء ، وأقمت أود الخلافة ، وأمنت عليك الخلاف والمنازعة ، فاجر على ما نهجت لك من الطريقة ، واعلم أن أولى الأمور بك ، وأوجبها عليك ، حفظ أهلك ، ثم عشيرتك ، ثم الذين يلونهم من مواليك وشيعتك ، فهم أنصارك وأهل دعوتك ، ومشاركوك فى حلوك ومرك ، فهم أنزل ثقتك ، وإياهم واس من نعمتك ، وعصابتهم استشعر دون المتوثبين إلى مراتبهم من عوام رعيتك ، الذين لا يزالون ناقمين على الملوك أفعالهم ، مستثقلين لأعبائهم ، فاحسم عللهم ببسط العدل لكافتهم ، واحسام أولى الفضل والسداد لأحكامهم وعمالاتهم ، دون أن ترفع عنهم ثقل الهيبة ، وإن رأيت فيمن يرتقى من صنائعك رجلا لم تنهض به سابقة ، ويشف بخصلة ، وتطمح نفسه وهمته ، فأعنه واختبره ، وقدمه واصطنعه ، ولا يريبنك خمول أوله ، فان أول كل شرف خارجيته ، ولاتدع عن مجازاة المحسن بإحسانه ، ومعاقبة المسىء بإساءته ، فإن عند التزامك لهذين ، ووضعك لهما مواضعهما ، رغب فيك ، ورهب منك . وملاك أمرك كله بالمال ، وحفظه ، بأخذه من حله ، وصرفه فى حقه ، فإنه روح الملك المدبر بجثمانه ، فلا تجعل بينك وبينه أحداً ، فى الإشراف على اجتنائه وادخاره ، والتثقيف لإنفاقه وعطائه . وختام وصيتى إياك بإحكامك فى أحكامك ، فاتق الله ما استطعت ، وإلى الله أكلك ، وإياه استحفظك ، فقد هان على الموت إذ خلفنى مثلك »[٢] .

---

(١) ابن القوطية ص ٥٥

(٢) نقلنا نص هذه الوصية عن مخطوط ابن حيان . وقد وردت فيه برواية الرازى ومعاوية هشام الشبينسى فى نصين تلفين حاولنا أن ننسق بينهما .

وكان الحكم أميراً قوى النفس ، وافر العزم ، فطناً ، حسن التدبير ، واسع الحيلة ، نافذ الرأى والحزم ، صارماً يؤثر وسائل الطغيان المطلق ، شديد الاستئثار بسلطانه ، حريصاً على حمايته من كل تدخل أو نفوذ . وكان مثل جده عبد الرحمن الداخل يلتمس الغاية بأى الوسائل ، ويذهب فى صرامته وطغيانه إلى حد القسوة والقمع الذريع ، ولم يكن يحجم مثله عن الالتجاء إلى وسائل لا تقرها المبادئ الأخلاقية القويمة . وكان شغوفاً بأبهة الملك ، مسرفاً فى مظاهر البذخ الطائل ، كثير الترفع عن العامة ، ولم يكن كأبيه وجده محبباً إلى الشعب ، بل كان بالعكس مكروهاً من الكافة ، وكان الفقهاء يبثون هذا البغض فى نفوسهم بوسائلهم الخاصة ، لما عمد إليه الحكم من سحق سلطانهم ونفوذهم . ومع ذلك فقد كان الحكم بالرغم من عسفه وطغيانه ، أميراً مستنيراً ، يؤثر العدل ، ويحرص على إقامته ، ويختار لقضائه أفضل الناس ، وأكثرهم نزاهة وورعاً ، وكان يسلط قضاته على نفسه ، وعلى ولده وخاصته . وكان قاضيه محمد بن بشير من أعظم القضاة نزاهة واستقلالا فى الرأى والحكم[1] .

وقد أشرنا فيما تقدم إلى أن الحكم كان أول من أظهر فخامة الملك بالأندلس ، والواقع أنه أول من أنشأ بالأندلس بلاطاً إسلامياً ملوكياً بكل معانى الكلمة ، ورتب نظمه ورسومه ، وأقام له بطانة ملوكية فخمة ، فاستكثر من الموالى والحشم ، وأنشأ الحرس الخاص ، وفى عهده ظهر الصقالبة لأول مرة فى البلاط بكثرة ، وكان جده عبد الرحمن الداخل أول من وضع سياسة اصطفاء الموالى لاسترابته بالعرب كما قدمنا ، وتوسع حفيده الحكم فى تطبيق هذه السياسة ، فاستكثر من الموالى والصقالبة ، وعهد إليهم بمعظم شئون القصر والخاص . وكان هؤلاء الصقالبة[2] على الأغلب من الرقيق والخصيان ، الذين يؤتى بهم بالأخص من بلاد الفرنج وحوض الدانوب وبلاد اللونبارد ومختلف ثغور البحر الأبيض النصرانية ، وكان يؤتى بهم أطفالا من الجنسين ويربون تربية إسلامية ، ثم يدربون على أعمال البطانة وشئون القصر ، وقد سما شأنهم فيما بعد ، وتولوا مناصب الرياسة والقيادة ،

---

(١) أخبار مجموعة ص ١٢٤ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٨٠ ؛ والمعجب ص ١١ .

(٢) يرى البعض أن كلمة صقالبة قد اشتقت فى الأصل من كلمة **Esclave** الإفرنجية . ومعناها الرقيق أو الأسير . راجع **Reinaud : ibid, p. 237**

وبلغ عددهم فى عهد الحكم زهاء خمسة آلاف[١]. وكان للحكم فرقة من الحرس الخاص معظمهم من فىء أربونة ورثهم عن والده هشام ، وقد أبلوا فى الدفاع عنه يوم الربض أحسن البلاء ، فأعتقهم جميعاً ، وأغدق عليهم صلاته[٢] . وكان الحكم فارساً مجيداً ، يعشق الفروسية والصيد ، وكانت له ألفا فرس من الجياد الصافنات مرتبطة على شاطئ النهر تجاه القصر ، يشرف عليها جماعة من العرفاء البارعين[٣]. وكانت له شرطة قوية منظمة ، وله عيون يطالعونه بأحوال الناس . وعلى الجملة فقد كان الحكم أميراً عظيم السلطان والهيبة ، يسطع بلاطه ، كما تسطع خلاله ، ويثير من حوله بهاء الملك وروعته ، وقد شبهه بعضهم بأبى جعفر المنصور فى قوة الملك ، وتوطيد الدولة ، وقمع الأعداء[٤].

وكان الحكم فوق ذلك خطيباً مفوهاً ، وشاعراً مجيداً ، نظم الشعر فى مختلف المناسبات ، من أحداث الحرب والسياسة ، والفخر والغزل وغيرها . وقد أوردنا فيما تقدم شيئاً من نظمه فى واقعة الربض ، ومن قوله فى الفخر :

غناء صليل البيض أشهى إلى الأذن ... من اللحن فى الأوتار واللهو والردن
إذا اختلفت زرق الأسـنة والقنا ... أرتك نجوماً يطلعن من الطعن
بها يهتدى السارى وينكشف الدجى ... وتستشعر الدنيا لباساً من الأمن
وإن تجد الأبطال حصناً ومعقلا ... فما لى غير السيف فى الأرض من حصن
قذفت بهم فى فضا الأرض فانزوت ... له الأرض واستولى على السهل والحزن

ومن قوله فى الغـزل :

قضب من البان ماست فوق كثبان ... ولَّيْن عنى وقد أزمعن هجرانى
ناشدتهن بحقى فاعتزمن على الـ ... عصيان لما خلا منهن عصيانى
ملكننى ملكاً ذلت عزائمه ... للحب ذل أسير موثق عانى
من لى بمغتصبات الروح من بدنى ... يغصبننى فى الهوى عزى وسلطانى

---

(١) المسالك والممالك لابن حوقل ص ٧٥ ؛ ونفح الطيب ج ١ ص ١٥٩ و ١٦٠ ؛ وابن الأثير ج ٦ ص ١٢٨ .

(٢) مخطوط ابن حيان المشار إليه ( ص ١٠٦ ) .

(٣) أخبار مجموعة ص ١٢٩ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٨١ .

(٤) ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٧ ؛ وابن الأثير ج ٦ ص ١٢٨ ؛ ونفح الطيب ج ١ ص ١٥٩ .

على أن هذه الخلال الباهرة التى كان يتمتع بها الحكم ، لم تكن دون نواح قاتمة هى دائماً مما يغلب لدى الطغاة الأقوياء ، وقد ذكر لنا ابن حزم أنه كان من المجاهرين بالمعاصى السفاكين للدماء . ويزيد ابن حزم على ذلك أن الحكم كان يخصى من اشتهر بالجمال من أبناء رعيته ، ليدخلهم إلى قصره ويصيرهم من خدمه ، ومن هؤلاء طرفة بن لقيط ، وهو من أسرة نابهة تصرف أبناؤها فى الولايات الرفيعة ، ومنهم نصر صاحب منية نصر ، وهو الذى غدا فى عهد ولده عبد الرحمن من أعظم رجالات الدولة مكانة ونفوذاً[١] .

وكان الحكم مديد القامة ، أسمر ، نحيفاً ، وكان يلقب بالحكم المنتصر ، وبالحكم الربضى ، نسبة إلى ما حدث منه فى واقعة الربض .

* * *

وكانت حكومة الحكم تضم طائفة من الشخصيات البارزة فى تاريخ الأندلس فى ذلك العصر ، فتولى حجابته (رياسة الوزارة) عبد الكريم بن عبد الواحد ابن مغيث قائد أبيه من قبل ، وكان جندياً عظيماً ، قاد عدة غزوات مظفرة إلى بلاد النصارى ، وكان أيضاً كاتباً بليغاً وشاعراً مجيداً[٢]. وخلفه فى الحجابة عبد العزيز بن أبى عبْدَة ، وكان قائداً كبيراً وسياسياً بارعاً . وكان بين قواده ووزرائه أيضاً ، إسحاق بن المنذر ، والعباس بن عبد الله . وفى عهد الحكم أنشئ بالدولة منصب خاص لإدارة شئون أهل الذمة (النصارى واليهود) ينعت صاحبه بالقومس[٣]، وعين فيه ربيع بن تدلف القومس ، قائد الغلمان الخاصة ومتولى قهرمة الأمير الحكم وشئونه الخاصة ، وكان طاغية ظلوماً يبغضه الجميع ، وقد أمر الحكم بقتله قبيل وفاته ، فنفذ فيه الحكم ولى العهد عبد الرحمن ، وتم إعدامه وسط الاغتباط العام . وذكر البعض أن هذا المنصب أنشئ فى عهد

---

(١) مخطوط ابن حيان السالف الذكر ص ١٢٨ . وراجع رسالة ابن حزم المسماة « نقط العروس » المنشورة بعناية الدكتور شوقى ضيف فى مجلة كلية الآداب ( ديسمبر سنة ١٩٥١ ) ، ص ٧٣ . وكذلك نفح الطيب ج ١ ص ١٦٠ .

(٢) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٧٢ .

(٣) مخطوط ابن حيان . والقومس تعريب للكلمة اللاتينية **Comes** ، وتعرب أحياناً بكلمة « قمط » ، أعنى « الكونت » **Comte** باللغة الحديثة .

عبد الرحمن الداخل[1]. ولكن الظاهر أنه لم يرتب بصورة ثابتةوتحدد اختصاصاته إلا فى عهد الحكم .

وكان عصر الحكم ، بالرغم مما غشيه من الاضطرابات والفتن ، عصراً ازدهرت فيه الآداب والعلوم ، وظهر فيه عدد جم من أكابر الكتاب والشعراء والعلماء . وكان فى مقدمتهم شاعر الحكم الأثير لديه ، وقطب الشعر فى عصره ، عباس بن ناصح الثقفى الجزيرى ؛ وكان فضلا عن براعته فى الشعر والأدب ، بارعاً فى علوم اللغة ، وفى الهندسة والفلسفة والفلك ، وكانت له منزلة خاصة عند الحكم ، وله فى مدحه أشعار كثيرة . وقد ولاه الحكم قضاء الجزيزه بلده ومسقط رأسه ، ثم وليه من بعده ولده عبد الوهاب بن عباس ، وكان مثله شاعراً نابهاً ، وتوفى أواخر عهد الحكم[2] .

وكان من أعلام عصر الحكم أبو القاسم عباس بن فرناس ، وهو فيلسوف وعلامة رياضى من نوع فذ ، وقد ولد فى مقاطعة تاكرنا من أصل بربرى ، وبرع منذ فتوته فى الفلسفة والفلك والكيمياء الصناعية ، وهو أول من استنبط بالأندلس صناعة الزجاج من الحجارة ، وبرع أيضاً فى الموسيقى ، وصنع آلة فلكية تعرف « بالميقاتة » لتعريف الوقت ، وله مخترعات كثيرة أخرى . وروى بعضهم أنه حاول أن يخترع أداة للطيران ، فصنع لنفسه جناحين بهيئة مخصوصة ، وحاول الطيران من ناحية الرُّصافة ، فحلق فى الهواء ، ثم وقع فى مكان طيرانه على مسافة بعيدة ، واشتهر أمره بذلك حتى قال فيه مؤمن بن سعيد الشاعر :

يطم على العنقـــاء فى طيرانهـــا ... إذا ما كسى جثمانه ريش قشعم

وذكر عبد الحميد بن بسيل الوزير ، قال : « أبدع عباس بن فرناس طول أمده إبداعات لطيفة واختراعات عجيبه ، وضرب بالعود ، وصاغ الألحان الحسنة ، وكان مع ذلك مجيداً للشعر ، حسن التصرف فى طريقته ، كثير المحاسن جم الفوائد » . وأثار ابن فرناس باختراعاته المدهشة ريب الجهلاء ، فكثر الطعن فى عقيدته ، واتهم بالزندقة ، ولكن القضاء لم يجد سبيلا إلى إدانته ، وعاش طويلا وعاصر من بعد الحكم ، ولده عبد الرحمن ، وتوفى فى عهد حفيده الأمير محمد بن

---

(١) ابن القوطية ص ٣٨ . ويقول إن أول من تولى « القيامة » هو ارطباس ابن وتيزا .

(٢) مخطوط ابن حيان ص ١٢٨ و ١٢٩ . وراجع تاريخ العلماء والرواة لابن الفرضى رقم ٨٨١ ( طبع مصر ص ٣٤٠ )

عبد الرحمن[1] ونظم كثيراً من مختار الشعر فى العهود الثلاثة . وسوف نعود إلى ذكره .

ومن أعلام عصر الحكم أيضاً ، يحيى الغزال الجيانى ، وهو أبو زكريا يحيى ابن الحكم البكرى ، نسبة إلى بكر بن وائل ، وأصله من مدينة جيَّان ، ولقب بالغزال لجماله وظرفه وتأنقه ، وكان شاعراً جزلا مطبوعاً ، وبرع بالأخص فى الغزل ، وله فى النسائيات كثير من رقيق النظم ، وكان فوق ذلك عالماً بالفلك والفلسفة ، وله أرجوزة طويلة فى أبواب العلوم لم تصل إلينا ، وكان كثير التعريض بالفقهاء والحملة عليهم ، حتى سخطوا عليه ، ورموه بالزندقة ، لصراحته وحر تفكيره . وهو القائل فيهم :

لست تلقى الفقيه إلا غنيا ليت شعرى من أين يستغنونا
تقطع البر والبحار طلاب الـ ـرزق والقوم ها هنا قاعدونا
إن للقوم مضرباً غاب عنا لم يصب قصد وجهه الراكبونا

وله فى ذكر النفس والروح قصيدة ، أثارت حول عقيدته شبهاً وريباً ، يقول فيها :

يا ليت شعرى أى شىء محصل يرى شخص من قد مات وهو دفين
أهو هو أم خلق شبيه بما رأ ى فقل للقلوب النائمات عيون
وكيف يرى والعين قد مات نورها وواقعه شبه الوقار سكون
لئن كانت الأرواح من بعد بينها بهن إلى ما خلفهن حنين

وقال يمدح الحكم فى قصيدة مطلعها :

كأن الملوك الغُلْب عندك خُضَّعاً خواضع طير يتقى الصقر لُبَّد
تقلب فيهم مقلة حكمية فتخفض أقواماً وقوماً تُسوِّد

واشتهر الغزال فوق ذلك بأصالة الرأى ، وحسن التدبير ، واللباقة ، والدهاء وقد رشحته هذه الصفات فيما بعد ، فى عصر عبد الرحمن بن الحكم للقيام ببعض المهام الدبلوماسية الخطيرة ، وهو ما سوف نعود إليه فى موضعه .

(١) المخطوط السابق الذكر ص ١٣١ ؛ ١٣٢ .

# الفصل السادس

## عبد الرحمن بن الحكم

ولاية عبد الرحمن بن عبد الحكم . الثورة فى تدمير . شغب أهل الذمة . غزو ألبة والقلاع . وفاة الحاجب عبد الكريم . نكبة جديدة للفرنج . حوادث الثغر الأعلى . ثورة البربر فى ماردة . مغامرات محمود بن عبد الجبار وأخته جميلة العذراء . ثورة هاشم الضراب فى طليطلة . مسير الجند إليها ومصرع الضراب . محاصرة طليطلة وثبات الثوار . تعاقب الحملات إليها . حصارها للمرة الثانية وخضوعها . الصوائف . غزو عبد الرحمن لنافار . خروج والى تطيلة وتحالفه مع النصارى . بنى قسى وأصلهم . مسير عبد الرحمن إلى الشمال . زحفه على نافار واقتحامه لبنبلونة . هزيمة الثوار والنصارى . وفاة ألفونسو الثانى . النورمانيون أو المجوس . بدء ظهورهم فى المياه الإسبانية . غزوهم لثغر أشبونة . إقتحامهم للنهر حتى إشبيلية . غزوهم لها وعيثهم فيها . الحرب بين المسلمين والغزاة . هزيمة النورمانيين وانسحابهم . اهتمام حكومة قرطبة بأمر الأسطول . غزو جليقية . حوادث الثغر الأعلى . غزو ميورقة . الحملات البحرية الأندلسية إلى شواطىء فرنسا وكورسيكا وسردانية . الحرب بين المسلمين والبشكنس . مجتمع النصارى فى قرطبة . كيف يصفه المستشرق سيمونيت . حملته على الحكومة الإسلامية . الغلاة المتعصبون . بغضهم للمسلمين وتحاملهم على الإسلام . مجاهرتهم بسب النبى . عقاب المعتدين . دسائس الأحبار وتفاقم الفتنة . أقوال العلامة ألتاميرا . مجتمع الأساقفة وحزم الحكومة . قصة الفتاة فلورا . وفاة عبد الرحمن . صفاته وخلاله . روعة البلاط الأموى فى عهده . ترتيب الوزارة . وزراؤه وكتابه وقضاته . اصطفاؤه للموالى والصقالبة . الفتى نصر . نفوذ الفتيان والجوارى . منشآته . الأمن والرخاء فى عهده . أدبه وشعره . حمايته للعلوم والآداب . استقدامه لزرياب نابغة الموسيقى . شغفه بجمع الكتب . سفارة قيصر قسطنطينية إليه . بواعث هذه السفارة . سفارة عبد الرحمن إلى القيصر وكتابه إليه . يحيى الغزال فى بلاط بيزنطية . سفارته إلى ملك النورمانيين .

لما توفى الحكم ، خلفه عبد الرحمن أكبر أولاده بعهد منه ، وكان ينوب عنه فى الحكم أثناء مرضه حسبما قدمنا ، وبويع فى اليوم التالى لوفاة أبيه ، فى السابع والعشرين من ذى الحجة سنة ٢٠٦ ( مايو ٨٢٢ م ) ، وأخذ له البيعة بالقصر الحاجب عبد الكريم ، وكان حينما ولى العرش فى الحادية والثلاثين من عمره ، إذ كان مولده بطليطلة فى سنة ١٧٦ هـ (٧٩٢ م) ، وأمه أم ولد تدعى « حلاوة » ، وكان أحب أبناء الحكم إليه ، وقد عنى بتربيته وتثقيفه عناية خاصة . وشغف عبد الرحمن ، منذ فتوته بالأدب والحكمة ، ودرس الحديث والفقه ، فكان ذهناً مستنيراً[١] ، وكان فوق ذلك أميراً رفيع الخلال والكفاية ، وافر الخبرة بشئون

(١) أخبار مجموعة ص ١٣٥ .

الحرب والإدارة ، يحسن اختيار الرجال للمناصب ، فكان يحشد حوله خيرة رجال الدولة من الوزراء والقادة والولاة والقضاة[1] .

وفى فاتحة ولايته ، عاد عبد الله البلنسى ، عم أبيه ، إلى الثورة مرة أخرى ، واحتل كورة تدمير مطالباً بإقطاعها (سنة٢٠٧هـ) ، والتف حوله جمع كثير ، وكان يزمع الزحف إلى قرطبة بالرغم من ضعفه وشيخوخته ، ولكن المرض عاجله ، وتوفى فى العام التالى ( سنة ٢٠٨ هـ ) ، فاحتل عبد الرحمن كورة تدمير ، وتكفل بأهله وولده ، وانتهت بذلك آخر مرحلة فى فتنة طالما تكرر حدوثها منذ وفاة عبد الرحمن الداخل .

ولكن تدمير لبثت مع ذلك تضطرم بنار ثورة داخلية من نوع جديد . ذلك أن فتنة نشبت فيها بين المضرية واليمنية ، من جراء موت مضرى قتله يمانى ، واستفحل الشر بينهما ، وقتل كثير من الفريقين ، فبعث عبد الرحمن إليهم حملة بقيادة يحيي بن عبد الله ، وعينه والياً على تدمير ، ولكنه لم يفلح فى إخضاع الولاية الثائرة . واستمرت الفتنة على أشدها ، وغلب على تدمير أبو الشماخ زعيم اليمنية ، ولبث بضعة أعوام يتحدى سلطة قرطبة ، والبعوث تتردد إليه فى كل عام ، دون أن تنال منه منالا ، ولم تهدأ الفتنة إلا فى سنة ٢١٣ هـ ، حيث خضع أبو الشماخ وغيره من الزعماء ، وطلبوا الأمان ، وعادوا إلى الطاعة .

وحدثت فى قرطبة عقب جلوس عبد الرحمن بأيام قلائل ، فتنة شعبية من نوع ما حدث أيام الربض . ذلك أن وفوداً من أهل الذمة وغيرهم قدمت من إلبيرة تطالب برفع المغارم التى فرضها عليهم ربيع الأسقف ، وانضم إليهم كثير من أهل قرطبة النصارى ، وساروا إلى القصر فى ضجة كبيرة ، فأرسل إليهم عبد الرحمن قوة من الفتيان لتهدئتهم فاعتدوا عليها ، فبعث عندئذ الجند إليهم ، ففتكوا بهم وقتل منهم خلق كثير ، وفر الباقون فى مختلف الأنحاء ، وكان ذلك فى المحرم سنة ٢٠٧ هـ[2] .

وبدأ عبد الرحمن برنامجه فى الغزو والجهاد مبكراً ، فبعث فى صيف سنة ٢٠٨ هـ ( ٨٢٣ م ) حملة إلى ألبة والقلاع بقيادة عبد الكريم بن عبد الواحد ابن مغيث ، وكان ألفونسو الثانى ملك جليقية ( أو ليون ) قد أغار على

---

( ١ ) مخطوط ابن حيان ص ١٣٨ .

( ٢ ) مخطوط ابن حيان المشار إليه ، وابن الأثير ج ٦ ص ١٣٠ .

مدينة سالم Medinaceli من أعمال الثغر الأعلى ، وحذت حذوه بعض القبائل الجبلية من أهل بسكونية ، فأغارت على أطراف الثغر وعاثت فيها ، فاخترق الحاجب بسائط ألبة والقلاع ، وهزم النصارى فى عدة مواقع ، وعاث فى ألبة وخرب مدينة ليون وأحرق حصونها ، واشترط على النصارى أن يدفعوا جزية كبيرة ، وأن يطلقوا أسرى المسلمين ، وأن يسلموا بعض زعمائهم كفالة بسكينتهم ، وعاد الحاجب إلى قرطبة مثقلا بالغنائم والسبى . وكانت هذه آخر غزوة قام بها هذا الوزير النابه والقائد المظفر ، الذى قاد معظم الغزوات الكبرى إلى أرض العدو ، منذ عهد هشام بن عبد الرحمن ، إذ توفى عقب عوده إلى قرطبة بقليل فى المحرم سنة ٢٠٩ هـ ( ٨٢٤ م ) (١) .

وفى هذا العام ( ٨٢٤ م ) أصيب الفرنج بهزيمة ساحقة فى أحواز بنبلونة ، فى سفح جبال البرنيه ، عند باب شزروا ، حيث نكب جيش شارلمان من قبل ؛ ويبدو من أقوال الرواية الفرنجية أن المسلمين كان لهم دور كبير فى إيقاع هذه الهزيمة . ذلك أن لويس ملك الفرنج أرسل قواته بقيادة الكونتين أزنار وإبلو لمهاجمة البشكنس وإخضاعهم ، فاستغاث البشكنس بجيرانهم المسلمين ، والظاهر أن الذى لبى نداء البشكنس هم بنو موسى أو بنو قسى أصحاب تطيلة ، وأن هذه المعاونة كانت بموافقة حكومة قرطبة . وعلى أى حال فقد أحرز المسلمون والبشكنس على الفرنج نصراً ساحقاً . وأسر القائدان أزنار وإبلو ، ثم أطلق سراح الأول وأرسل الثانى إلى قرطبة حيث اعتقل بعض الوقت . وقد أثار هذا الحادث ذكريات موقعة باب شزروا الكبرى التى نكب فيها الفرنج أيام الأمير عبد الرحمن الداخل ، قبل ذلك بستة وأربعين عاماً (٢) .

وتولى قيادة الصائفة بعد الحاجب عبد الكريم (٣) ، أمية بن معاوية بن هشام ، ولكنه لم يسر إلى أرض العدو ، بل سار إلى شنت برية ، ثم إلى تدمير ليعمل على تهدئة الثورة . وكانت حوادث الشمال قد عادت تتطلب اهتمام قرطبة ، وكان

---

( ١ ) راجع نفح الطيب ج ١ ص ١٦١ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٨٤ .

( ٢ ) راجع : R.M. Pidal : ibid, Vol. I. p. 195 ، وكذلك كوندى : Conde : ibid ; Vol. I. p. 264 & 265

( ٣ ) كانت معظم الحملات والغزوات الإسلامية الكبرى ، تنظم فى الصيف باعتباره خير الفصول للقيام بمثل هذه الغزوات ، ولهذا كانت تسمى بالصائفة و الصوائف .

الفرنج فى الثغر القوطى قد تحركوا ، وأغاروا على أطراف الثغر الأعلى ، بقيادة أميرهم برنهارت صاحب برشلونة ، وهو ولد جيوم دوق تولوز ، فسير عبد الرحمن إلى الشمال جيشاً كبيراً بقيادة عبيد الله بن عبد الله البلنسى ، فاخترق الثغر الأعلى إلى أراضى الفرنج ( ٢١٢ هـ — ٨٢٧ م ) واجتاح ولاية قطلونية ، وهزم الفرنج فى عدة مواقع ، وسار حتى جيرُندة (چيرونة) ، ولكنه لم يحاول أن يحرز فتوحاً ثابتة ، فارتد إلى الجنوب بعد أن مزق شمل النصارى فى تلك الأنحاء[1] .

وشغلت عبد الرحمن فى الأعوام التالية عدة ثورات محلية خطيرة ، وكانت الفتنة تضطرم فى نفس مواطنها القديمة ، فى طليطلة ، وماردة ، حيث كانت عناصر الخروج والثورة تحتشد وتعمل بعيدة عن العاصمة ، ممتنعة بالوهاد والوعر ، قريبة من النصارى ، تتلقى منهم الوحى والعون فى أحيان كثيرة . فى ماردة ثار البربر بقيادة زعيمين من زعمائهم هما محمود بن عبد الجبار بن راحلة ، وهو من بنى طريف من مصمودة ، وسليمان بن مرتين ، وانضم إليهم النصارى المعاهدون . وألفى لويس ملك الفرنج فرصة جديدة للدس والتحريض على حكومة قرطبة ، فبعث إلى الثوار يشجعهم ويعدهم بالمدد والعون[2] . وكان محمود زعيما قوياً ومغامراً جريئاً ، فوثب بعامل ماردة وقتله ، وعاث فى تلك الأنحاء قتلا ونهباً وتخريباً ، وتوالت إليه بعوث عبد الرحمن ، فكان فى كل مرة يعتصم بالمدينة ، فإذا غادره الجند عاد إلى عيثه وسفكه . وفى سنة ٢١٨ هـ ( ٨٣٣ م ) سار إليه عبد الرحمن بنفسه ، فغادر ماردة فى صحبه ومعه زميله سليمان ، وخرجت مع محمود أخته جميلة العذراء ، وهى فارسة بارعة الحسن ، اشتهرت يومئذ فى جميع أنحاء الأندلس برائع جمالها ، كما اشتهرت بالشجاعة والنجدة والفروسية ، ولقاء الفرسان ومبارزتهم[3] ، ونزل الثوار بحصن فرنكش على ضفة نهر وادى يانة . ثم غادر سليمان زميله ، واستقل محمود بالعمل ، وزحف فى جموعه على بطليوس ، ثم على أكشونبة[4] ثم سار إلى باجة ، فقاتلـه أهلها ، ولكنه تغلب عليهم بمعاونة أخته جميلة ، وبسط محمود سلطانه على

---

( ١ ) البيان المغرب ج ٢ ص ٨٥ ؛ ومخطوط ابن حيان ص ١٨٠ .

( ٢ ) Scott : ibid , Vol. I. p.482

( ٣ ) جمهرة أنساب العرب لابن حزم ( القاهرة ) ص ٤٦٦ .

( ٤ ) بطليوس بالإسبانية Badajoz ، وأكشونبة Ocsonoba

باجة ، وهو يقاتل خصومه من حوله ، وبعوث الأمير تتردد إليه ، حتى لحقه الإعياء واليأس ، ففر مع أخته وصحبه إلى جليقية ، واستجار بملكها ألفونسو الثانى ، فرحب به وأكرم وفادته ، وأنزله بأطراف مملكته . وبعد حين رأى الثائر أن يعود إلى الطاعة فكاتب عبد الرحمن ، ووقف ألفونسو على هذه المحاولة ، فخشى إن أفلت الثائر منه أن ينقلب حرباً عليه ، فسار إليه وأحاطت به الجند من كل ناحية ، ودافع محمود عن نفسه دفاع الأبطال ، ولكنه قتل أخيراً ، وأسر أهله وصحبه ، وكانت أخته الحسناء جميلة بين الأسرى ( ٢٢٥ هـ — ٨٤٠ م ) . ووقعت جميلة فى نصيب كبير من كبراء النصارى ، فحملها على اعتناق النصرانية وتزوج منها ، وكان من ولدها فيما بعد أسقف شنت ياقب[1] .

واضطرمت طليطلة بالثورة فى نفس الوقت ، ففى سنة ٢١٤ هـ ( ٨٢٩ م ) ثار بها زعيم من العامة يدعى هاشم الضراب ، وكان هاشم فى طليطلة أيام واقعة الحفرة ، ثم أخذ بين الرهائن إلى قرطبة ، فاشتغل بها حداداً مدى حين وعرف بالضراب ، ثم غادرها إلى طليطلة ، وهناك اجتمع إليه عدد كبير من الأوغاد والسفلة ، فأخذ يغير بهم على الأنحاء المجاورة ، حتى اشتد بأسه وطار صيته ، وهرع إلى لوائه أهل الشر والبغى من كل صوب ، وسار إلى البربر فى شنت برية ، فأغار عليهم وأوقع بهم ، فبعث عبد الرحمن الجند لقتاله بقيادة محمد بن رستم ، عامل الثغر الأدنى ، فنشبت بينه وبين الثوار عدة وقائع غير حاسمة . وفى العام التالى بعث عبد الرحمن إلى عامله بالمدد ، فزحف على الثوار والتقى بهم على مقربة من حصن سمسطا بمجاورة رورية ، ونشبت بين الفريقين موقعة عنيفة هزم فيها الثوار ، وقتل هاشم الضراب وكثير من أصحابه ، وذلك فى سنة ٢١٦ هـ ( ٨٣١ م ) .

ولكن طليطلة استمرت مع ذلك على اضطرامها ، وكان على عبد الرحمن أن يخوض معارك أخرى لإخضاعها . ففى سنة ٢١٩ هـ ( ٨٣٤ م ) أرسل إليها جيشاً بقيادة أخيه أمية بن الحكم ، فحاصرها وانتسف ما حولها من الزروع ، ولكن المدينة الثائرة لم تهن ولم تخضع ، فرحل عنها ، وأبقى بعض قواته بقيادة

---

(١) وردت هذه التفاصيل الشائقة فى مخطوط ابن حيان ( ص ١٨٢ و ١٨٣ و ١٨٤ ) . وراجع ابن القوطية ص ٦٧ .

ميسرة الفتى فى قلعة رباح [1] الواقعة فى جنوبها استعداداً لمحاصرتها ، فخرج عندئذ أهل طليطلة لقتال ميسرة ، فظهر عليهم وقتل منهم مقتلة عظيمة ، فارتدوا إلى داخل المدينة ، وعادوا إلى الاعتصام بأسوارها المنيعة . وفى العام التالى ( سنة ٢٢٠ هـ ) سار إليهم عبد الرحمن بنفسه ، فثبتت فى وجهه المدينة الثائرة ، فترك الجند فى قلعة رباح ، وسار إلى الغرب فى أحواز ماردة ، ليطارد سليمان بن مرتين زعيم البربر ، وكان بعد أن تخلف عن زميله محمود بن عبد الجبار ، يتزعم الثورة فى تلك الأنحاء ، فحاصره عبد الرحمن ، وحدث أن قتل الثائر فى سقطة مميتة عن جواده ، فانفضت جموعه وخبت ثورته . وسير عبد الرحمن فى العام التالى حملة أخرى إلى طليطلة بقيادة أخيه الوليد بن الحكم ، فضرب حولها الحصار الصارم ، واستمر على حصارها حتى جهد أهلها ، وضاقوا بالحصار ذرعاً ، ثم هاجمها بعد ذلك واقتحم أسوارها ، وخضعت المدينة الثائرة ، بعد أعوام عديدة من من فتن وثورات مستمرة ، كان يغذيها خلالها روح التمرد المتأصل فى شعبها ، ودسائس البربر والنصارى من أهلها ، وتحريض الفرنج والجلالقة ، وكان خضوعها فى رجب سنة ٢٢٢ هـ ( ٨٣٧ م )[2] .

واستطاع عبد الرحمن بعد إخماد الثورة فى مختلف النواحى ، أن يستأنف أعمال الجهاد والغزو ، فعكف فى الأعوام التالية على تسيير الصوائف أو حملات الغزو الصيفية متعاقبة فى كل عام إلى الشمال ، تارة إلى أطراف الثغر الأعلى ، حيث تشتبك مع الفرنج ، وتثخن فى أراضيهم ، وتارة إلى ألبة والقلاع ، حيث تغير على أراضى البشكنس ، أو أطراف مملكة ليون (جليقية) ، وتولى عبد الرحمن قيادة الصائفة بنفسه إلى جليقية فى سنة ٢٢٥ هـ ( ٨٤٠ م ) . وفى سنة ٢٢٧ هـ (٨٤٢ م) سار عبد الرحمن إلى الشمال ، وكان موسى بن موسى بن قسِيّ والى تُطيلة[3] من أعمال الثغر الأعلى ( أراجون ) ، قد خرج عن طاعته وتحالف مع غرسية[4] أمير نافار ، وأوقع الإثنان بجند الأمير فى الثغر ، وعاثا فى أنحائه .

---

( ١ ) ومقابلها بالإسبانية Calatrava

( ٢ ) راجع ابن الأثير ج ٦ ص ١٤١ و ١٥٠ و ١٥٣ و ١٦١ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٨٥ و ٨٦ و ٨٧ .

( ٣ ) وهى بالإسبانية Tudela

( ٤ ) وهى بالإسبانية Garcia

وتقول الرواية فى سبب نقض موسى الطاعة ، أن عبد الرحمن كان قد ولى عبد الله بن كليب على سرقسطة ، وعامر بن كليب على تُطيلة ، فأغار عبد الله على أموال ينقة بن ونقة أخى موسى لأمه ، واعتدى عامر بن كليب على أملاك موسى وخيله ، وانتهب أمواله ، وخرب حدائقه ، فعندئذ أعلن الخروج والعصيان ، وكان ذلك فى سنة ٢٢٦ هـ(١) . فسار عبد الرحمن إلى بلاد البشكنس ( ناڤار ) ، وتوغل فيها حتى بنبلونة ، وعاث فيها نسفاً وتخريباً ، وسبى من أهلها جموعاً كثيرة .

ولا بد لنا هنا من التعريف بهذا الزعيم الثائر موسى بن موسى ، إذ هو سوف يحتل منذ الآن فصاعداً ، هو وأبناؤه ، حيزاً كبيراً فى تاريخ الثورة على حكومة قرطبة . فهو وفقاً لابن حيان ، وابن حزم ، موسى بن موسى بن فرتون ابن قسىّ ( أو القسوى ) . وكان جده الأعلى ، الكونت قسىّ Kasi من أشراف القوط ، وكان وقت الفتح «قومس» Comes الثغر الأعلى ، فلما غزا المسلمون أراضيه سار إلى الشام ، واعتنق الإسلام على يدى الخليفة الوليد بن عبد الملك ، وذلك لكى يحتفظ فى ظل الغزاة الجدد ، بأملاكه وسلطانه الإقطاعى ، واعتبر بإسلامه على يدى الخليفة من مواليه ، وانحاز بطريق هذا الولاء إلى جانب المضرية . وعدا أولاده وأحفاده من بعده زعماء المولدين فى الثغر الأعلى . وكانوا من أنجاد الزعماء والفرسان ، يمتازون بالجرأة والإقدام والشجاعة ، ويعتزون دائماً بأصلهم القوطى النصرانى . وكانت لهم دائماً علائق مصاهرة مع جيرانهم من الأمراء النصارى ، من البشكنس وغيرهم ؛ وكان إسلامهم فى الواقع مظهراً سطحياً لاغتنام السلطان والنفوذ ، وكانوا لايشعرون بالولاء نحو حكومة قرطبة ، يصانعونها متى وجبت المصانعة ، احتفاظاً بمركزهم وسلطانهم فى الثغر ، ولكنهم لايحجمون عن انتهاز أية فرصة للثورة عليها ، ومحالفة أعدائها من النصارى . وسنرى فيما بعد أى دور خطير قامت به هذه الأسرة المتمردة الخطرة ، فى ثورة المولدين الكبرى على قرطبة (٢).

---

( ١ ) نصوص عن الأندلس للعذرى فى الأوراق المنشورة من كتاب « ترصيع الأخبار » ص٢٩

( ٢ ) راجع المقتبس لابن حيان ، الجزء المطبوع بعناية المستشرق أنتونيا ص ١٦ و ١٧ . وكذلك جمهرة أنساب العرب لابن حزم ( القاهرة ) ص ٤٦٧ و ٤٦٨ ، حيث يقدم لنا شجرة كاملة لنسبة بنى قسى ، منذ جدهم الأعلى حتى أواخر القرن الثالث الهجرى .

وفى العام التالى سار عبد الرحمن إلى الشمال مرة أخرى ، ومعه ولداه المطرّف ومحمد ، واستخلف ولده المنذر على قرطبة ، وبدأ عبد الرحمن بمحاصرة تُطيلة حتى أخضعها ، ثم زحف على بلاد البشكنس مرة أخرى ، ولقيه غرسية وحليفه موسى بن موسى فى جموع كبيرة ، فهزم البشكنس وحلفاؤهم هزيمة شديدة ، وقتل منهم عدد جم ، وفر موسى وحليفه غرسيّة جريحين ، وسار عبد الرحمن إلى بنبلونة فأثخن فيها وخربها ، واضطر البشكنس إلى طلب الأمان والصلح ، وعاد عبد الرحمن إلى قرطبة ظافراً بعد أن وطد هيبة الإسلام وحكومته فى تلك الأنحاء ( ٢٢٨ هـ — ٨٤٢ م )[1] . ولم يكن لهذه الغزوات فى الواقع نتائج مستقرة ، وكانت تقصد فى الغالب إلى إيقاع الرعب فى قلوب نصارى الشمال ، وتخريب بلادهم ، وإنهاك قواهم ، حتى يلزموا السكينة ، ويكفوا عن عدوانهم وعيثهم فى أراضى المسلمين .

وفى نفس هذا العام الذى سحقت فيه ناڤار وخربت (٨٤٢ م) ، توفى ألفونسو الثانى الملقب بالعفيف بعد أن حكم مملكة ليون ( جليقية ) إحدى وخمسين عاماً ، إذ تولى الملك فى سنة ٨٩١ م ، أيام الأمير هشام بن عبد الرحمن ، وخلفه ولده راميرو الأول ، أو رذمير كما تسميه الرواية العربية . وقد اقتصرنا فيما تقدم على أن نسرد من أخباره وأخبار مملكته ، ما له صلة بسير الحوادث فى اسبانيا المسلمة ، أما أخبار مملكة ليون الداخلية ، فسنفصلها عند الكلام على تاريخ المملكة النصرانية الشمالية .

* * *

وفى عهد عبد الرحمن بن الحكم ، عرفت الأندلس لأول مرة خطراً جديداً لم يسبق لها أن عرفته أو توقعت حدوثه : ذلك هو خطر الغزوات النورمانية البحرية .

كانت سيادة البحار الشمالية منذ بداية العصور الوسطى فى يد « الڤيكنج » Vikings أو النورمانيين ، وكان أولئك النورمانيون أمة بحرية عريقة ، تمرست منذ غابر العصور فى ركوب البحر ومقارعة أهواله ، ووطنهم الأصلى هو اسكندناوة ، وربما دانيماركه ، وشواطئ ألمانيا الشمالية ، ولذا عرفوا بالنورمانيين

---

( ١ ) البيان المغرب ج ٣ ص ٨٨ و ٨٩ ؛ وابن الأثير ج ٦ ص ١٦٧ و ١٧٢ و ١٨٠ ، ومخطوط ابن حيان ص ١٨٥ .

أى أهل الشمال[1] . واشتهر النورمانيون بجرأتهم فى جوب البحار الشمالية ، وبراعتهم فى مغالبة قسوة الجليد وأهوال اللجة والطبيعة ، ولم يأت القرن الثامن الميلادى حتى كانت حملاتهم البحرية الناهبة ، تثخن فى شواطئ الجزر البريطانية . وكان جدب الوطن ، وشظف العيش ، وروح المخاطرة ، تدفع بهم دائماً إلى عرض البحار ، وتجعلهم خطراً دائماً على الشواطئ والثغور المجاورة . وفى أوائل القرن التاسع وصلت حملاتهم الناهبة إلى شواطئ بلاد الفرنج ( فرنسا ) ، ثم نفذت جموع منهم إلى شمال فرنسا . وغزوا مصب اللوار ومصب الجارون ، وأنشأوا لهم عدة مراكز وقواعد فى تلك الأنحاء .

وهنا بدأ تطلع النورمانيين إلى اسبانيا . والأندلس بنوع خاص . وكانت نعماء الأندلس ، وما اشتهرت به من الخصب والغنى ، تثير جشع أولئك الغزاة المغامرين ، ولم تكن الأندلس تحسب حساباً لذلك الخطر الداهم المستتر معاً ، لأنها لم تعرف النورمانيين من قبل ، ولا تعرف لهم بقربها أرضاً أو مستقراً . وتطلق الرواية الإسلامية على أولئك الغزاة المجهولين إسم «المجوس» ، بيد أنها تعرفهم أيضاً «بالأردمانيين» أى النورمانيين ، وقد ترجع هذه التسمية إلى أن النورمانيين كانوا فى العهد الذى عرفهم فيه عرب الأندلس لأول مرة « مجوساً » أى وثنيين لم يعتنقوا النصرانية بعد . وكان ظهور النورمانيين فى المياه الإسبانية ، لأول مرة فى سنة ٨٤٣ م . ففى تلك السنة خرج أسطول نورمانى من نهر الجارون وعاث فى شواطئ مملكة جليقية ، فبعث ملكها راميرو ( رذمير ) إليهم جيشاً ردهم وأحرق كثيراً من سفنهم ، فانقلب النورمانيون عندئذ إلى مياه إسبانيا الغربية والجنوبية ، يجوبونها فى طلب السبى والغنيمة ، واقتحموا شواطئ المملكة الإسلامية ( الأندلس ) فى غزوتهم الأولى .

وتضع الرواية الإسلامية هذه الغزوة فى سنة ٢٣٠ هـ ، وتحدثنا عنها بإفاضة ، فتقول لنا إن أسطولا مجوسياً (نورمانياً) قوامه زهاء ثمانين مركباً ، رسا فى مياه أشبونة[2] فى أواخر سنة ٢٢٩ هـ ( يوليه أو أغسطس سنة ٨٤٣ م ) ، فكتب عاملها وهب الله بن حزم إلى عبدالرحمن بن الحكم ينبئه بالخطر ، فكتب عبد الرحمن

---

( ١ ) وهى بالإفرنجية **Norsmen** أو **Normanen**

( ٢ ) لشبونة **Lisboa** عاصمة البرتغال الحديثة .

إلى عمال الثغور بالتحوط والأهبة . ولبث النورمانيون فى مياه أشبونة ثلاثة عشر يوماً التحموا خلالها مع المسلمين فى عدة وقائع ، ثم ساروا بأسطولهم جنوباً إلى قادس ، ثم شذونة ، ثم اخترقوا النهر الكبير ( الوادى الكبير ) حتى إشبيلية .
وكان ظهور هذه السفن الغازية ، وأولئك الغزاة الشقر فى قلب الأندلس ، مفاجأة مروعة ، ولم يكن للأندلس يومئذ أسطول قوى تدفع به شر الغزوات البحرية ، ولم تتخذ فى الثغور لردها أهبات خاصة . ونزل النورمانيون فى ظاهر إشبيلية فى أوائل المحرم سنة ٢٣٠ هـ ( سبتمبر سنة ٨٤٣ م )[١] وكانت يومئذ دون أسوار تحميها من العدوان المفاجىء ، وكانت مفاجأة مروعة لأهلها ، الذين لم يتخذوا أية أهبة خاصة للدفاع عن أنفسهم . وعبثاً حاول المسلمون رد الغزاة . واقتحم النورمانيون إشبيلية وأمعنوا فى أهلها سفكاً ونهباً وسبياً ، وعاثوا فيها مدى سبعة أيام أشنع عيث ، ثم غادروها وعسكروا فى ظاهرها ، فى قرية طلياطة الواقعة غربى إشبيلية . وفى تلك الأثناء بعث الأمير عبد الرحمن قوات من الخيل على عجل لإنجاد إشبيلية بقيادة عبد الله بن كليب ومحمد بن رستم ، وجعل على قوات قرطبة حاجبه عيسى بن شهيد ، وهرع المسلمون من كل صوب للجهاد ورد الغزاة . وقاد القوات المتحدة نصر الخصى ، وتلقى النورمانيون المدد فى سفن جديدة قدمت إليهم ، ونشبت بين الفريقين فى البداية بضع معارك محلية ، تفوق فيها الغزاة . وفى الخامس والعشرين من صفر سنة ٢٣٠ هـ ، نشبت بينهما معركة حاسمة تجاه قرية طلياطة ، وكان على رأس قوات المسلمين محمد بن رستم ، فهزم النورمانيون بعد قتال عنيف ، وقتل منهم نحو ألف وأسر نيف وأربعمائة ، وأحرق من سفنهم ثلاثون ، وكان قائدهم بين القتلى ، وارتد النورمانيون إلى سفنهم ، وتحصنوا بها ، وقتل المسلمون أسراهم أمام أعينهم ، وصلبوا على جذوع النخل ، ثم أقلعت سفن الغزاة مرتدة إلى الجنوب ، والمسلمون من ورائهم يطاردونهم ، ويفتدون أسرى المسلمين منهم بمختلف السلع ، وانتقم النورمانيون لأنفسهم أثناء ارتدادهم بالإغارة على لبلة وباجة ، ثم انتهوا ثانية إلى ثغر أشبونة حيث غادروا مياه الأندلس مع باقى سفنهم ، بعد أن لبثوا بضعة أسابيع يبثون فيها الرعب والروع .

---

( ١ ) يضع ماريانا غزوة النورمانيين الأولى لإشبيلية فى سنة ٨٤٧ م ( راجع تاريخه العام — الترجمة الفرنسية — ج ٢ ص ٨٤ ) .

واستطالت غزوة النورمانيين ، منذ نزولهم بأرض إشبيلية ، إلى أن تمت هزيمتهم وإقلاعهم ، إثنين وأربعين يوماً ، عانى فيها المسلمون محناً وشدائد كثيرة ، ارتجت لها ربوع الأندلس كلها . فلما انقشعت الغمة . بادر الأمير عبد الرحمن فبعث بالكتب إلى سائر الآفاق معلنة هذا النصر على العدو المغير ، وبعث بها بالأخص إلى أمراء العدوة ، ومعها طائفة من رؤوس أكابر النورمانيين القتلى . وأغدق الأمير ثناءه وصلاته على نصر الخصى فتاه الأثير لديه ، وكان قائد قواته العام فى تلك المعركة الكبرى[1] .

وكان لهذه المفاجأة المروعة أثرها فى حمل حكومة الأندلس على الاهتمام بأمر الأسطول والتحصينات البحرية ، فابتنى عبد الرحمن حول إشبيلية سوراً ضخماً ، وأنشأ بها داراً عظيمة للصناعة ، واهتم بصنع السفن الحربية الكبيرة ، وحشد لها المقاتلة من شواطئ الأندلس . فكانت نواة الأسطول الأندلسى الكبير الذى بلغ فى عهد عبد الرحمن الناصر زهاء مائتى سفينة . وعلى أى حال فقد أدرك النورمانيون أن الأندلس لم تكن فريسة هينة . وتحدثنا الرواية الإسلامية بأنهم عقب هزيمتهم فى هذه الغزوة الأولى سعوا إلى الصلح مع أمير الأندلس ، وبعثوا رسلهم فى طلب السلم والمهادنة ، وأن الأمير الأندلسى عبدالرحمن بعث كاتبه يحيى الغزال إلى ملكهم لبرد السفارة ، وهى رواية سنعود إلى تفصيلها[2] .

ولم يمض قليل على رد الغزاة النورمانيين ، حتى بادر عبد الرحمن إلى استئناف الغزو ، فسير بالصائفة إلى الشمال جيشاً بقيادة ولده هشام ، ومعه الوزير عيسى ابن شهيد . فاخترق قشتالة القديمة ، وسار صوب ناڤار وغزا بنبلونة ، ووافاه هناك موسى بن موسى والى تطيلة ، فقدم طاعته ، ومنح الأمان ، وأقر على ولايته . وفى العام التالى سير عبد الرحمن بالصائفة قواته مرة أخرى إلى الشمال ،

---

(١) راجع فى تفاصيل هذه الغزوة ، البيان المغرب ج ٢ ص ٨٩ و ٩٠ ، والعذرى فى الأوراق المنشورة من « ترصيع الأخبار » ص ٩٨ — ١٠٠ ؛ وفى النويرى : نهاية الأرب ( القسم الخاص بتاريخ الأندلس ) وقد نقل دوزى روايته ؛ **Recherches : II: p. 337-338** وكذلك فى الملحق **Appendice 37** ؛ وفى ابن القوطية ( ص ٦٣ — ٦٧ ) ؛ وابن الأثير ج ٧ ص ٧ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٢٩ . وفى مخطوط ابن حيان عنها تفاصيل كثيرة نقلت عن محمد بن أحمد الرازى وأخيه عيسى ومعاوية بن هشام الشبينسى .

(٢) راجع رواية النويرى المشار إليها فى دوزى : **Recherches : App. 37**

بقيادة ولده محمد ، فاخترق بسائط جليقية ، وحاصر عاصمتها ليون ، ولجأ النصارى إلى الجبال ، ثم ارتد عنها بعد أن عاث فيها قتلا وتخريباً (سنة ٢٣١ هـ — ٨٤٥ م) . وعصف بالأندلس فى العام التالى قحط شديد ، وهلكت الزروع والماشية ، وقاست البلاد من ويلاته مدى أشهر .

وفى سنة ٢٣٣ هـ (٨٤٧ م) ظهر بالثغر الفرنجى ، فى شمال شرقى إسبانيا ، زعيم يدعى جيين دى تولوز ، وهو فيما يرجح من تسميه الرواية العربية ، غليالم بن برباط بن غليالم ، وكان قد أعلن الخروج والثورة على ملك الفرنج شارل الأصلع ، ووفد فى العام السابق على بلاط قرطبة ، يلتمس التأييد والعون ، فاستقبله عبد الرحمن بترحاب ، وأمده بعونه ، فعاد إلى الثغر وعاث فيه بقواته ، وحاصر برشلونة وخرب حصونها ، وهاجم جرندة ، وكتب عبد الرحمن إلى عامله على طرطوشة عبد الله بن يحيى ، وعامله على سرقسطة عبد الله بن كليب ، فى إمداده وتأييده فى ثورته ضد ملك الفرنج[1]. بيد أنه يبدو من أقوال الرواية الفرنجية أنه وقعت على إثر ذلك مفاوضات بين عبد الرحمن وشارل الأصلع ، انتهت بعقد الهدنة والسلم بينهما .

وفى نفس هذا العام نقض موسى بن موسى بن قسى (القسوى) العهد ، وعاد إلى الثورة ، وعاث فى أحواز تطيلة وطرسونة وبرجة من أعمال الثغر الأعلى ، وظاهره أخوه لأمه فرتون إنيجز (ابن ونقة) أمير بنبلونة، فبعث إليه عبد الرحمن جند الصائفة بقيادة عباس بن الوليد المعروف بالطبلى ، فطاردته حتى أرهق وأعلن عوده إلى الطاعة ، وقدم ولده إسماعيل رهينة كفالة بولائه، فقبل عبد الرحمن طاعته، وأقره على ولايته تطيلة ، ودخل معه فى هذا الصلح أخوه فرتون إنيجز[2]

وفى سنة ٢٣٤ هـ (٨٤٨ م) بعث عبد الرحمن قوة بحرية كبيرة إلى جزيرتى ميورقة ومنورقة وهما أكبر الجزائر الشرقية (جزائر البليار) لغزوهما ، ومعاقبة

---

(١) وردت هذه الرواية فى قطعة مخطوطة أخرى من تاريخ ابن حيان ، عثرت بها فى مكتبة القرويين بفاس ، وحصلت منها على نسخة مصورة حسبما أشرت إلى ذلك من قبل . وهى التى تبدأ حوادثها منذ سنة ٢٣٣ هـ وتنتهى بحوادث سنة ٢٦٧ هـ ، وسوف نقتبس منها منذ الآن فصاعدا فى مختلف المواطن التى تتناول حوادثها . (لوحة ١٨٩ ب من المخطوطة المذكورة) .

(٢) لوحة ١٨٩ ب و ١٩٠ أ من المخطوط المذكور ، وهو يسمى هنا أمير بنبلونة بابن رنقة وهو تحريف ، والصواب ابن ونقة **Inequiz**

أهلهما لتعرضهم لسفن المسلمين المجاهدين والإضرار بهم ، فأخضعهما المسلمون وأثخنوا فيهما ، وأصابوا كثيراً من السبي ، وبعث أهلهما إلى الأمير يطلبون الأمان ودفع الجزية ، ويتعهدون بالولاء والطاعة ، فأجابهم إلى ما طلبوا . وكانت مياه اسبانيا الشرقية قد غدت منذ عهد هشام مركزاً للحملات البحرية المتجهة نحو الشمال والشرق ، وكان قوام هذه الحملات فى الغالب جماعات من البحارة والمجاهدين ، الذين يجوبون هذه المياه طلباً للغنيمة والسبي ، ويثخنون فى الثغور والجزر النصرانية القريبة . ففى سنة ٨٠٦ م (١٩١ هـ) فى عهد الحكم ، غزت إحدى هذه الجماعات البحرية الأندلسية المغامرة جزيرة كورسيكا (قورسقة) ، فبعث ببين ابن شارلمان ملك إيطاليا أسطولا لقتالهم ، فهزموه واستولوا على كثيرا من الغنائم والسبي . ولم يمض عامان على ذلك ، حتى عاد البحارة المسلمون إلى غزو شواطىء كورسيكا وسردانية ، ثم توالت غزواتهم لها بعد ذلك . وفى سنة ٨٣٦ م (٢٢١ هـ) خرج أسطول أندلسي من ثغر طرّكونة والجزائر الشرقية ، وسار إلى مياه فرنسا الجنوبية ، وهاجم المسلمون ثغر مرسيليا وما حوله من الأراضي وأثخنوا فيها . وكان على عرش فرنسا يومئذ لويس ابن شارلمان ، وكان ملكاً ضعيفاً عاجزاً ، فلما توفى سنة ٨٤٠ م ، اضطربت أحوال المملكة ، وضعفت حماية الثغور ، فانتهز البحارة المجاهدون هذه الفرصة ، وغزوا ولاية بروڤانس عند مصب نهر الرون ، وهاجموا مدينة آرل وخربوها ، ثم توالت غزواتهم فى تلك المياه بعد ذلك ، وكان من أثرها أن قامت مستعمرات عربية كثيرة فى بروڤانس وفى أنحاء أخرى فى جنوب فرنسا وشمال إيطاليا ، وسوف نعود إلى حديث هذه المستعمرات العربية النائية فى قلب أوربا .

وفى سنة ٢٣٧ هـ (٨٥١ م) ، اضطرمت الحرب فى الشمال بين المسلمين والغسقونيين أو الجاشقيين كما تسميهم الرواية الإسلامية وهم فرع من البشكنس ، وكان هؤلاء قد أغاروا على الأراضي الإسلامية المجاورة ، فى قاصية الثغر الأعلى ، فتصدى لردهم موسى بن موسى والى تطيلة ، وكان يومئذ على ولائه لحكومة قرطبة ، ووقعت الحرب بين المسلمين والبشكنس ، فى جنوبى بنبلونة على مقربة من بقيرة ، فهزم المسلمون أولا ، وأثخن قائدهم موسى جراحاً ، ولكنه أستأنف المعركة فى اليوم التالى ، وكر على العدو بشدة ، فهزم البشكنس شر

هزيمة ، وقتل منهم عدد جم ، وتسمى هذه الموقعة فى الرواية الإسلامية بموقعة البيضاء ، وهى محلة صغيرة مجاورة لبقيرة[١] .

* * *

وفى أواخر عهد عبد الرحمن ، هبت على نصارى قرطبة ريح شديدة من التعصب ، ولاحت فى الأفق بوادر فتنة دينية واجتماعية خطيرة . ولم يك فى نظم الحكم الإسلامى ، ما يقصد إلى إيذاء النصارى المستظلين بلوائه ، ولم تشذ حكومة قرطبة عن سياسة التسامح الإسلامى المأثور ، ولم تحاول تدخلا فى شئون النصارى الدينية أو تعرضاً لعقائدهم أو شعائرهم ، بل كان النصارى فى قرطبة وغيرها ، أحراراً فى عقائدهم وشعائرهم ، والاحتكام إلى شرائعهم وقضاتهم ، وكثيراً ما تبوأوا مناصب الثقة والمسئولية فى الجيش وفى الإدارة ، وكثيراً ما حاربوا مع إخوانهم المسلمين جنباً إلى جنب ، وكانت أغلبية كثيرة منهم تشتغل بالتجارة فى الثغور والمدن ، ويشتغل عامتهم فى ضياع المسلمين دون إكراه ولا عنت ، وكانت منهم مجتمعات زاهرة رغدة فى قرطبة وغيرها ، بل كثيراً ما بهرتهم الفصاحة العربية فانطلقت بها ألسنتهم ووضعوا بها كتبهم ، وكثيراً ما تخلقوا بأخلاق المسلمين وعاداتهم ، ونهجوا نهجهم فى الحياة الخاصة . بيد أنه كان ثمة فريق آخر من النصارى المتعصبين الذين يرون فى سادتهم المسلمين أجانب غاصبين ، معتدين على دينهم وأوطانهم ، وكان أولئك الغلاة يبغضون إخوانهم من النصارى المعتدلين ، ويرمونهم بالمروق والخيانة ، وكان رجال الدين ، وهم فى الأصل مبعث التعصب ودعامته ، يبذرون بذور الشقاق ، ويضرمون نار الفتنة ، ويوغرون قلوب الغلاة والمتطرفين ، باسم الدين ، وكانوا يبغضون المسلمين أشد البغض ويسخرون من دينهم ونبيهم ، ويجاهرون بهذا التحامل والبغض للنبى العربى وتعاليمه ، ويعتمدون فى معرفتهم للإسلام ونبيه ، على طائفة من الخرافات والأباطيل التى يتناقلها القسس فى كل عصر ومكان . يقول دوزى : « ولم يك ثمة أيسر عليهم ، وقد كانوا يعيشون بين المسلمين من الوقوف على الحقيقة ، ولكنهم كانوا يرفضون أن يستقوا من المصادر التى كانت لديهم ، وكان يسرهم أن يعتقدوا وأن يعيدوا كل الخرافات السخيفة التى أذيعت عن نبى مكة »[٢] .

---

(١) ابن حيان ( مخطوط القرويين ) لوحة ١٩٣ أ . وبقيرة هى بالإسبانية **Viguera** .

(٢) **Dozy : Hist, I.p. 317 et suiv.** . ويخصص دوزى لهذا البحث حيزاً كبيراً ، وتحمله نزعة من التعصب فى إيراد الوقائع ووصفها ، وهو يعتمد هنا بالأخص على مصادر كنسية معاصرة .

ويقدم إلينا المستشرق سيمونت ، وهو عمدة العلماء الإسبان فى الكتابة عن تاريخ « النصارى المعاهدين » Los Mozárabes التفاصيل الآتية ، عما يصفه بأنه « البطولة التى تذرعت بها النصرانية فى قرطبة فى مقاومة فورات الإلحاد الإسلامى » . ويرى سيمونيت أن قرطبة كانت من المعسكرات الرئيسية للحرب المدمرة التى شهرها الإسلام على النصرانية . وبالرغم عن أنه يعترف بأن الإسلام لبث مدى قرن يحتفظ بقدر من التسامح نحو المستعربين ، وقت أن كان فى حاجة إلى خدماتهم ومعاونتهم ، فإنه يقول إن الإسلام لما شعر بقوته ، لم يبد تسامحاً إزاء انتعاش الروح النصرانى ، الذى بدا يسيطر على فريق كبير من الشعب النصرانى . ثم يتحدث سيمونيت بعد ذلك عن « المظالم وصنوف الاضطهاد التى كان النصارى يقاسونها ، ليس فقط من عامة أهل قرطبة بل من حكومة قرطبة ذاتها » . ثم يقول : « وقد كانت هذه السياسة منافية للعهود والقوانين التى منحت للوطنيين ( الإسبان ) أيام الفتح . وقد كان الطغيان الإسلامى شديد الوطأة على ضمائر النصارى الوطنيين وأملاكهم وكرامتهم معاً » .

وينعى سيمونيت على أمراء قرطبة ، أنهم احتفظوا بحقوق وامتيازات ضد النصارى لإخضاعهم ، وأنهم كانوا مثل القوط يدعون لأنفسهم حق تعيين الأساقفة وعزلهم ، وحق عقد المجالس الدينية التى يمثلهم فيها بعض المسلمين أو النصارى المرتدين ، ويسندون وظائف الأساقفة فى أحيان كثيرة إلى رجال من طراز منحط ، يملقون الأمراء ويخدمونهم .

ولم يك استبداد الأمراء أقل وطأة على أملاك المستعربين وثرواتهم ، إذ كانوا حرصاً على سلامتهم يؤدون للخزانة مزايا عظيمة ، فى شكل جزية وضرائب تنبو عن طاقتهم . وقد كان تسامح المسلمين لايغتنم فى الظروف العادية إلا بالعرق والدم . ثم جاءت الأيام التى كان يقاسى فيها النصارى كل شىء ، ليحتفظوا بحرية دينهم ، وينتزع كل يوم منهم مغارم أكبر ، هذا فضلا عن الضرائب العادية ، وقد كانت فادحة فى ذاتها تفرض عليهم بمختلف الحجج والأعذار .

وقد وصلت هذه المغارم إلى ذروتها فى عصر عبد الرحمن الثانى الأمير الباذخ ، ومحمد الأول الأمير القاسى ، الذى حصل من نصارى قرطبة بواسطة الكونت سواندا على مبلغ مائة ألف « سويلدو » .

ويتحدث سيمونيت بعد ذلك عن تعصب المسلمين ، ويقول إن تعصب العرب ضد الأجانب وامتهانهم لهم ، وصل إلى الذروة فى النصف الأول من القرن التاسع ، وكذا وصل إلى الذروة تزمت البربر الوحشى ، وتزمت الإسبان المسلمين ( المولدين ) الذين اتخذوا الارتداد عن دينهم سبيلا إلى بلوغ الرخاء ، وكانوا لكى يمحوا ذكرى أصولهم المسيحية ، أشد تعصباً ضد النصارى من المسلمين أنفسهم . كان هؤلاء وهؤلاء يمعنون فى إهانة النصارى واضطهادهم بشتى المظاهر ، ولاسيما رجال الدين والقساوسة ، وكانت موجة هذا الاضطهاد تشتد كلما جاءت الأخبار بانتصار نصارى الشمال ، أو قيام المولدين فى طليطلة أو غيرها .

هكذا يتحدث سيمونيت عن « تعصب » المسلمين ضد رعاياهم وإخوانهم النصارى المعاهدين . ومع ذلك فإن سيمونيت يعترف بأن كثيراً من نصارى قرطبة ، كانوا يخدمون فى الجيش الإسلامى جنداً أو ضباطاً ، وأن كثيراً منهم وصل إلى وظائف هامة فى البلاط والقصر الملكى ، وفى قصور أكابر المسلمين .

ويصف سيمونيت تأثير المجتمع الإسلامى ، وعظمته ولغته وتقاليده ، فى نفوس النصارى فى قوله :

« هذا ، وقد كان يأسر الشباب النصرانى منظر العظمة المادية والحضارية ، التى تفوقت بها قرطبة المسلمة على قرطبة النصرانية ، وما كانت تقترن به هذه العظمة من المظاهر الأدبية والفنية ، التى بثها عبد الرحمن بحبه للشعر والفلسفة والموسيقى .

وكان من مظاهر تأثر الشباب النصرانى أنهم كانوا يكتبون ويتكلمون العربية ، محتقرين دراسة اللغة والآداب اللاتينية ، وهو أمر كان شديد الخطر على وطنيتهم ودينهم .

وفى النصف الأول من القرن التاسع ، لم تكن اللغة والآداب العربية فقط ، بل وكذلك الأفكار والتقاليد الإسلامية ، قد انتشرت بين المستعربين الإسبان . وهذا ما تشير إليه وثيقة هامة كتبها نصرانى قرطبي معاصر هو ألبرو القرطبي Alvaro Cordubense فى سنة ٨٥٤ م عنوانها Indicalo Luminoso ، وفيها يصف بقوة وبلاغة ، الذعر الذى أصاب « الأشراف الكرماء البواسل الذين كانوا يحتفظون بالعاطفة المسيحية والوطنية الإسبانية » ، وكيف أن شباناً من

النصارى يمتلئون حياة وقوة وفصاحة ، يتقنون اللغة العربية ، ويبحثون بشغف عن الكتب العربية ويدرسونها بعناية ، ويمتدحونها بحماسة ، هذا فى حين أنهم يجهلون جمال الآداب الكنسية ، ثم يبدى ألمه من أن النصارى يجهلون شريعتهم ولغتهم اللاتينية ، وينسون لغتهم القومية[1] .

وهذه التفاصيل التى يقدمها إلينا العلامة سيمونيت عن أحوال المجتمع النصرانى فى قرطبة ، هى تفاصيل مفيدة قيمة ، ولكنها تنم عن كثير من التحامل ، وتصور وجهة نظر الكنيسة بأسلوب مغرق متزمت . وهى تغضى عن تلك الحقيقة الهامة ، وهى أن النصارى المستعربين وهم من رعايا الحكومة الإسلامية ، ويتمتعون تقريباً بكامل حقوق إخوانهم المسلمين ، يدينون لهذه الحكومة بالطاعة ، واحترام القانون والنظام . ولئن كانت ثمة بعض قيود لحقوقهم ، فإن سن هذه القيود لا يرجع إلى عدم التسامح ، ولكنه يرجع إلى روح العصر ذاته .

بيد أن العوامل الدينية لم تكن وحدها مبعث هذا التحامل ، الذى يضطرم به نصارى قرطبة نحو الحكومة الإسلامية ، بل كان للعوامل الاجتماعية أيضاً أثرها فى إذكائه . ذلك أن القسس والمتعصبين كان يحفظهم ويثيرهم ، ما يحيط بالحكم الإسلامى من مظاهر الإعزاز والسؤدد ، وما تبديه الهيئة الحاكمة من مظاهر الأبهة والفخامة ، وماينعم به المجتمع الإسلامى ، من حياة رغدة رفيعة . وكان يذكى هذا الحقد فى نفوسهم مايعانونه من خشونة عامة قرطبة وتعريضهم وتحاملهم . وهكذا بلغ تعصب النصارى أقصاه فى عهد عبد الرحمن ، وبدا منذراً بشر العواقب . وكان فى وسع أولئك المتعصبين فى المدن البعيدة عن قرطبة مثل طليطلة وغيرها ، أن يرفعوا علم الثورة ، وأن يقاتلوا حكامهم وجهاً لوجه ، ولكن الثورة فى قرطبة كانت أمراً عسيراً . فحاولوا عندئذ أن يبثوا بذور الفتنة الطائفية والفوضى الدينية والاجتماعية ، وأن يحاولوا الاستشهاد بطريق الاشتباك والتحدى . وعمد القسس والمتعصبون إلى تحقيق غايتهم بوسيلة بسيطة خطيرة معاً ، هى المجاهرة بسب النبى العربى ودينه ، وهى جريمة شنعاء تعرض مرتكبها لعقوبة الموت ، وأخذ بعض الغلاة من القسس والمتعصبين الهائمين ينزلقون عامدين إلى

---

(١) راجع هذا الفصل فى مؤلف سيمونيت الضخم : Historia de los Mozarabes de Espana. Vol. I. p. 258—272

هذا المنحدر الخطر ، ويوجهون السب المثير إلى النبى العربى فى الطرقات جهراً ، فإذا أخذوا أمام القضاة كرروا سبابهم بمنتهى الإصرار والجرأة . وحاول القضاة فى البداية استعمال الرفق واللين ، وإقناع أولئك العابثين بالعدول عن أقوالهم ، ولكنهم ألفوا أنفسهم أمام سلسلة مدبرة من الجرائم المماثلة ، فلم يترددوا عندئذ فى الحكم على القاذفين بالموت ، وهكذا أزهق بتلك الطريقة عدة من القسس والمتعصبين فى فترة وجيزة من صيف سنة ٨٥١ م ( ٢٣٧ هـ ) ، وكان الأحبار يكرمون رفات القتلى ، ويسبغون عليهم صفة الشهداء ، ويزيدون بذلك فى اضطرام الفتنة . وكان فى مقدمة المنظمين لهذه الحركة قس من قرطبة يدعى «أولوخيو» ، كان يعمل على تحريض أولئك «الشهداء» المزعومين ، ودفعهم إلى براثن الموت .

ويصف لنا العلامة المتزن ألتاميرا ، تلك المؤامرة المنظمة فيما يأتى : « اتبع الأمراء المسلمون سياسة التسامح الدينى منذ الفتح . وكان أشراف العرب يحترمون النصارى ، ولكنهم لم يستطيعوا منع الدهماء فى أوقات الحماسة المغرقة ، من إهانة القسس حينما يسيرون فى الشوارع فرادى أو فى مواكبهم . وكانت هذه الحوادث وأمثالها تثير سخط النصارى ، وأدى ذلك بمضى الزمن إلى حقد الورعين ولاسيما القساوسة . وحاول النصارى عن طريق آخر ، أن يحدثوا فورات تحطم النير الإسلامى . فطلبوا الاستشهاد بالطعن فى محمد أمام الناس والسلطات ، وأعدموا لأن القانون يعاقب بالموت على ذلك . ولم يقتصر الاندفاع فى ذلك الطريق على المدنيين ، بل اندفع فيه كذلك قساوسة عقلاء مسالمون ، وكان من هؤلاء أولوخيو وألبارو ، ولم يجد هؤلاء طريقة أفضل للاحتجاج على الإسلام من الطعن فيه ، وتقديم حياتهم قرباناً للدين الكاثوليكى »[١]. وأدرك عبد الرحمن دقة الموقف وخطورته ، ورأى أن يعالجه بالحزم والتفاهم معاً ، فاستدعى مجلساً من الأساقفة ، عقد فى قرطبة برآسة ريكافرد مطران إشبيلية ، ومثل الأمير فيه أحد كتابه النصارى ، وهو جومث بن أنطونيان بن خوليان عامل أهل الذمة[٢] ، وشرح للأساقفة

---

( ١ ) R. Altamira : Hist. de Espana , Vol. I. p. 230

( ٢ ) ويسميه ابن القوطية قومس بن انتنيان بن يليانة وقد اعتنق الإسلام فيما بعد ( ص ٨٣ ) . وكذلك يذكره الخشنى فى كتاب قضاة قرطبة ويسميه أيضاً قومس بن انتنيان . راجع كتاب قضاة قرطبة ( القاهرة ) ص ١١١ .

ما يمكن أن يترتب على أعمال المتطرفين وسبهم للنبي من العواقب الخطيرة بالنسبة للنصارى. ولم يعترض المجلس على مبدأ الاستشهاد فى ذاته ، ولكنه أصدر قراره باستهجان مسلك أولئك المتطرفين ، وتحذير النصارى المخلصين من حذو مسلكهم ، ووجوب اعتقال كل مخالف (١). ولكن قرار الأساقفة لم يكف لتسكين فورة التعصب المزبد ، وتمادى المتطرفون أنصار أولوخيو فى غيهم ، وزج إلى السجن منهم كثيرون ، ومنهم أولوخيو نفسه ، وكان بين المعتقلين بضع فتيات مسلمات بمولدهن من آباء مسلمين وأمهات نصارى ، ولكن أضلهن الأمهات والقسس ، ودفعن إلى التنصر وسب النبي ، وكان منهن فتاة رائعة الحسن تدعى فلورا ، عرفها أولوخيو وهام بها حباً .

وقصة هذه الفتاة حسبما يرويها سيمونيت ، توضح لنا طريقة التحدى والاستثارة التى اتبعها المتطرفون لإحداث الشغب . فقد كانت فلورا ابنة مسلم من زوجه النصرانية ، وتوفى أبوها وهى ما تزال طفلة ، فربتها أمها على مبادئ المسيحية . وكانت بالرغم من جمالها تبدى تحفظاً ونسكاً ، وتزور الكنائس خفية لخوفها من أخيها الأكبر ، وهو مسلم شديد التعصب . ثم فرت من دار أهلها ، وتتبعها أخوها فى كل مكان ، فعادت إلى منزلها ، وأعلنت لأخيها تمسكها بدين النصرانية ، ولم ينجع فى ردها الضرب والوعيد . فأخذها أخوها إلى القاضى ، وأبلغه بأن أخته القاصر قد ضلت واعتنقت الدين المسيحى ، وأنها تسب النبي ودينه ، واعترفت فلورا بأنها نصرانية منذ طفولتها ، ومتمسكة بدينها . ومع أن هذا الاعتراف بالردة يستحق عقوبة الموت ، فإن القاضى اكتفى بتقرير ضربها ضرباً مبرحاً ، أملا فى أن تعود إلى صوابها . فاحتملت الفتاة العقوبة بجلد ، وحملت إلى دارها منهوكة القوى ، وصبرت أياماً حتى برئت من مرضها ، ثم فرت من الدار ذات ليلة ، وسارت هائمة على وجهها ، حتى لجأت إلى دار نصرانى فى بلدة « مرتش » القريبة ، والظاهر أن القس أولوخيو رآها هنالك ، وأعجب بجمالها وحشمتها وورعها ، وشعر نحوها بحب سماوى عميق .

ثم عادت فلورا بعد حين إلى قرطبة مواجهة كل خطر ، معتزمة الاستشهاد ، ولجأت إلى كنيسة سان إثيسكولو ، وكانت قد لجأت إليها أيضاً فتاة نصرانية

---

(١) Dozy : ibid, Vol. I. p. 310

أخرى تدعى ماريا ، وكانت إبنة رجل نصرانى من لبلة ، وأم مسلمة تنصرت . وربيت ماريا فى الدير تربية دينية خالصة ، كما ربى أخوها الأكبر فيه . ولما توفى أخوها وجدت عليه وجداً شديداً ، وسارت إلى قرطبة تبغى الاستشهاد ، ولجأت إلى نفس الكنيسة التى لجأت إليها فلورا . واعتزمت الفتاتان أمرهما وذهبتا إلى دار القضاء ، وقالت فلورا للقاضى إنها إبنة مسلم ، ولكنها اعتنقت النصرانية وأخلصت لها ، وأن المسيح هو الإله الحق ، وأن النبى محمد ، هو نبى زائف ... الخ[١]. وكذلك قالت ماريا إنها تؤكد من كل قلبها أن يسوع هو الرب الحقيقى ، وأن الإسلام دين الشيطان . فأمر القاضى بإيداعهما السجن . وكان فيه بطريق الصدفة أولوخيو مقضياً بحبسه أيضاً ، فعكف على وعظ الفتاتين ، وحثهما على الاستشهاد فى سبيل المسيح .

وحاول القاضى نصح الفتاتين ، ولكنهما أصرتا على موقفهما وعلى مطاعنهما. وأخيراً أصدر القاضى حكمه بإعدامهما ، وذلك فى ٢٤ نوفمبر سنة ٨٥١ ، وأخذتا إلى ساحة الإعدام ، وهنالك أبدت كلتاهما إشارة الصليب ، ثم أعدمتا بقطع الرأس ، وألقيت جثتاهما إلى النهر ، واستطاع النصارى العثور على جثة ماريا وحدها ، فأخذوها مع رأسى الفتاتين . ونظمت فلورا فيما بعد فى سلك القديسين[٢].

هكذا يروى سيمونيت قصة فلورا وزميلتها ، ومهما كان فى أسلوبه من رواء القصة المشجية ، فإن فى وقائعها ما يلقى ضوءاً على خيوط المؤامرة التى دبرها نصارى قرطبة ، وفى مقدمتهم القسس ، لإثارة الفتنة الطائفية والإخلال بالنظام والأمن ، وهى محاولة لا يمكن لأية حكومة منظمة أن تغضى عنها .

واستمرت هذه الفتنة المضطرمة مدى حين ، وتذرعت حكومة قرطبة فى إخمادها بالحزم والشدة ، وزهق من المتعصبين عدة أخر ، ومن بينهم أولوخيو الذى نظمه النصارى فيما بعد فى ثبت « القديسين » .

وهكذا شغل عبد الرحمن فى أواخر عهده بتلك الفتنة الدينية الخطيرة ، ولكن المتعصبين لم يحققوا منها ما أملوا ، وكانت بالعكس مثار السخط والإنكار من جانب النصارى المعتدلين ، الذين يقدرون تسامح الحكومة الإسلامية ورفقها ورعايتها .

* * *

(١) لم نر مجالا لإيراد بقية المطاعن التى أوردها سيمونيت على لسان فلورا وهى مطاعن مقذعة .

(٢) Simonet : Hist. de los Mozarabes, Vol. I. p. 413—422

وتوفى عبد الرحمن بن الحكم فى الثالث من ربيع الثانى سنة ٢٣٨ هـ (٢٣ سبتمبر ٨٥٢ م) فى الثانية والستين من عمره ، بعد أن حكم إحدى وثلاثين عاماً وبضعة أشهر . وكان أسمر طويلا ، وسيم المحيا ، أشم ، أقنى ، أعين ، أسود العينين ، بهى الطلعة ، بهيج الزى ، كبير اللحية . نقش خاتمه : « عبد الرحمن بقضاء الله راض »[1] ، ويكنى أبا المطرّف ، ويعرف بعبد الرحمن الأوسط أو الثانى ، والأول هو جده عبد الرحمن الداخل ، والثالث هو عبد الرحمن الناصر . وكان مثل أبيه الحكم ، أميراً وافر البأس والعزم ، رفيع الخلال ، يسمو بمكانته ويحتجب عن العامة ، ويعشق مظاهر البذخ والفخامة . وفى عهده وصل البلاط الأموى إلى درجة لم تسبق من البهاء والروعة ، وبدت الأرستقراطية العربية فى أبدع مظاهرها ، وسطعت الفروسية الأندلسية ، وتجلت خلالها الباهرة التى غدت فيما بعد مثلا يحتذى فى مجتمعات العصور الوسطى ، وعنها اقتبست فروسة النصرانية فيما تلا من العصور . ورتبت رسوم المملكة أبدع ترتيب ، ورفع من شأن الوظائف العامة ، وأحيطت بسياج من الهيبة والمسئولية ، وجعل « أحكام السوق » منصباً مستقلا عن ولاية المدينة ، واتبعت رسوم الخلفاء فى الزينة والشكل وترتيب الخدمة[2] ، ووضعت خطة الوزارة المنظمة .

وتنوه الرواية الإسلامية بمقدرة عبد الرحمن ، وحسن اختياره لرجالات حكومته . فيقول لنا الرازى : « وانتقى الرجال للأعمال ، واستوزر الأكفاء ، من أهل الاكتفاء ، وقدوة الأبطال ذوى الغناء ، فظهر فى أيامه جلة الوزراء وكبار الفقهاء » . وكان من وزرائه عدة من أعظم وألمع رجالات العصر ، مثل الحاجب عبد الكريم ، والقائد عيسى بن شُهيد ، ويوسف بن بخت ، وهاشم بن عبد العزيز ، وعبد الرحمن بن رستم ، وحسن بن عبد الغافر بن أبى عبده ، ومحمد بن السليم ، ومحمد بن عبد السلام بن بسيل ، وعبد الواحد بن يزيد الإسكندرانى ، وغيرهم . وكان الوزراء يختلفون إلى القصر بطريقة منظمة للبحث والمداولة وإبرام الشئون فى جناح خاص ، سمى « بيت الوزارء » ، وانتهت

---

(١) ابن الأثير ج ٧ ص ٢٢ ؛ وابن حيان عن الرازى ، المخطوطة الأولى ص ١١١ ؛ والثانية لوحة ١٩٤ ب

(٢) ابن الآبار فى الحلة السيراء ص ٦١ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٩٣ .

أرزاق الوزراء يومئذ إلى ثلاثمائة وخمسين ديناراً فى الشهر(١) .

وتفيض الرواية فى مناقب هذه الجمهرة من الوزراء والقادة ، الذين اجتمعوا فى بلاط عبد الرحمن بن الحكم ، وتصفهم بأنهم «عصابة من سراة الوزراء ، أولى الحلوم والنهى ، لم يجتمع مثلها عند أحد من الخلفاء قبلهم ولا بعدهم» . ويتقدم هذا الثبت الحافل رجلان ، كان لهما فى تنظيم حكومة عبد الرحمن وسياسته أعظم الأثر ، أولهما الحاجب عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث حاجب أبيه الحكم من قبل ، وهو الذى يصفه الرازى بأنه « أكمل من حمل هذا الاسم ، وأجمعهم لكل جملة حسنة» . وكان عبد الكريم ، فضلا عن براعته الإدارية ، مثل جده مغيث فاتح قرطبة ، من أعظم قادة هذا العصر ، وقد قاد حسبما تقدم فى مواضعه ، عدة من الحملات الغازية المظفرة . ولما توفى فى سنة ٢٠٩ هـ ( ٨٢٤ م ) خلفه فى الحجابة سفيان بن عبد ربه وهو من البربر ، ولم تكن له نباهة سابقة ، ثم عيسى بن شهيد ، وهو ثانى الرجلين . وكان عيسى من أعيان موالى بنى أمية ، وكان أيضاً من وزراء الحكم ، أوصى به ولده عبد الرحمن ، فلما ولى الأمر قدمه على خاصته ، ثم ولاه خطة الخيل ، ثم خلع عليه رتبة الوزارة ، وعهد إليه بالنظر فى المظالم ، وتنفيذ الأحكام على طبقات أهل المملكة . ثم ولاه الحجابة بعد سفيان . واشتهر عيسى بالحلم والوقار وحصافة الرأى ، والمعرفة والجزالة ، وقاد كثيراً من الصوائف المظفرة . بيد أنه استهدف لخصومة الفتى نصر الخصى المسيطر على شئون القصر ، والأثير لدى الأمير بمظاهرته لحظيته طروب ، فلبث يدس له ويعمل على إقصائه عن الحجابة ، حتى تم له ذلك ، حينما مرض عبد الرحمن وطال احتجابه . وعين مكانه للحجابة عبد الرحمن بن رستم . فلما أبل الأمير من مرضه أنكر ما وقع ، وأنحى باللائمة على نصر ، وأعاد عيسى بن شهيد إلى الحجابة ، فلم يزل على حجابته حتى توفى عبد الرحمن . قال ابن القوطية : «لم يختلف أحد من شيوخ الأندلس فى أنه ما خدم ملوك بنى أمية فيها أحد أكرم من عيسى بن شهيد غاية ، ولا أكرم اصطناعاً ، ولا أدعى لذمته . ولقد كان الحاجب قبله عبد الكريم ابن عبد الواحد بن مغيث بهذه الصفة ، على زيادة خصاله وأدواته على عيسى ،

---

(١) ابن القوطية ص ٦١ ، و ٦٢ ، وكذلك مخطوط ابن حيان ص ١٤٤ . ومخطوط القرويين لوحة ١٩٦ أ .

إلا فى باب كرم الصنيعة واستتمامها ، فلم يك تفصله درجة »[١] .

وتولى الكتابة للأمير عبد الرحمن عدة من الكتاب المبرزين ، فى مقدمتهم الحاجب عبد الكريم ، وقد كان أيضاً كاتباً بليغاً وشاعراً جزلا ، وعبد الله بن محمد ابن أمية بن أبى حوثرة ، ومحمد بن أبى سليمان الزجالى وهو من برابرة نفزة ، وكان كاتباً بارعاً ، واشتهر بقوته فى الحفظ حتى أنه سمى « بالأصمعى » ، واشتهر أبناؤه من بعده فى ميدان الكتابة .

وكان ممن كتبوا للأمير عبد الرحمن أيضاً الأسقف جومث (قومس) بن أنطونيان عامل أهل الذمة ، وكان أديباً بارعاً ، وكاتباً مقتدراً ، وكان عبد الرحمن يعهد إليه بالمهام الخطيرة ، وخدم من بعده ولده الأمير محمد[٢] .

واجتمعت فى عهد الأمير عبد الرحمن أيضاً جمهرة من جلة الفقهاء والقضاة ، رحل معظمهم إلى المشرق فى طلب العلم وانتقاء الرواية ، ومن هؤلاء محمد بن يوسف بن مطروح ، ومحمد بن حارث ، وعبد الأعلى بن وهب ، وبقى بن مخلد ، ومحمد بن وضاح ، ويحيى بن إبراهيم بن مدين ، وعيسى بن دينار ، ويحيى بن يحيى . وقد اشتهر بعض هؤلاء من قبل فى عهد أبيه الحكم . وكان يتقدم هذه الجمهرة من الفقهاء فى المكانة والنفوذ ، عبد الأعلى بن وهب ، ويحيى ابن يحيى ، وعبد الملك بن حبيب . وكان يحيى بن يحيى عميد الفقهاء وشيخ قرطبة الأول ، وأصله من برابرة مصمودة ، ودرس فى المشرق على مالك ، والليث بن سعد وابن وهب وغيرهم ، وتولى الفتيا بعد عيسى بن دينار ، ولبث حتى وفاته فى سنة ٢٣٤ هـ يتبوأ أسمى مكانة . وكان ممن اتهموا بالتحريض على ثورة الربض وفر عقب إخماد الثورة إلى طليطلة ، ثم استأمن الحكم فأمنه وعاد إلى قرطبة .

وخلفه فى علمه ومكانته عبد الملك بن حبيب ، وغدا أثير الأمير ، لا يقدم عليه أحداً ، ولا يعدل بمشورته أحد . وكان عبد الملك فوق براعته فى الفقه والحديث ، متقدماً فى علوم اللغة ، والعلوم القديمة ، بارعاً فى الأدب ، وكتب كتباً فى إعراب القرآن وشرح الحديث وفى الأنساب وغيرها[٣] .

---

(١) تاريخ ابن حيان ( مخطوط القرويين ) لوحة ١٩٦ أ و ب و ١٩٧ أ و ١٩٨ أ .

(٢) راجع قضاة قرطبة للخشنى ص ١١١ .

(٣) تاريخ ابن حيان ( مخطوط القرويين ) لوحة ٢٠١ ب و ٢٠٢ أ .

ويخصص ابن حيان لذكر قضاة عبد الرحمن ، وأخبارهم ، ونوادرهم والتعريف بهم ، نبذاً طويلة رأينا أن نكتفى بالإشارة إليها[1].

وحذا عبد الرحمن حذو أبيه أيضاً ، فى اصطفاء الموالى والصقالبة ، وابتاع أنصبة أخوته من مماليك أبيه « العجم » ، وكانوا خمسة آلاف مملوك ، ثلاثة آلاف فارس يرابطون إزاء باب القصر ، فوق الرصيف ، وألفا رجل على أبواب القصر وكانوا يسمون « الخرس » لعجمتهم[2] . وسما نفوذ الفتيان يومئذ فى البلاط ، وكان زعيمهم الفتى نصر المتصرف فى شئون القصر الخاص ، وكان يتمتع بأعظم نفوذ فى القصر والدولة ، بمؤازرة طروب جارية عبد الرحمن .

وكان نصر هذا ويكنى أبو الفتوح ، من الفتيان المختارين الذين اشتهروا بالجمال والظرف ، وأمر الحكم بخصيهم ، وأصله من أبناء الأحرار الذين حشدوا للخدمة داخل القصر ، وكان أبوه من أسالمة أهل الذمة ( المولدين ) من أهل قرمونة[3] . ولما ولى عبد الرحمن ، قدّمه على سائر خاصته ، وغدا مدبر أمر داره ، ومشاركاً لأكابر وزرائه فى تصريف الشئون . وتضاعف نفوذه ومكانته بمحالفته لجارية عبد الرحمن الأثيرة طروب ، صاحبة النفوذ القوى . وكان من أشهر أعمال نصر قيادته لجيوش الأندلس التى حشدت لمقاتلة النورمانيين فى أراضى إشبيلية ، وانتصاره عليهم . واستمر نجم نصر فى صعود ، ونفوذه فى تمكن ، حتى غدا أعظم رجال الدولة ، وأمضاهم أمراً ؛ وكان مرهوب الجانب ، تخشاه الأكابر والخاصة . توفى فجأة فى أواخر سنة ٢٣٣ هـ ( ٨٤٨ م ) ، « أرقى ما كان فى غلوائه ، وأطمع ما هو بالاحتواء على أمر سلطانه ، أرهب ما كان الناس له ، وأخوفهم لعدوانه ، إذ نال من أثرة مولاه الأمير عبد الرحمن واصطفائه ، فوق ما ناله خادم خاص ، مع أمير رشيد » . فتنفس الناس الصعداء ، وسروا لوفاته ، والتخلص من طغيانه[4].

---

( ١ ) مخطوط القرويين اللوحات ٢٠٢ أ حتى ٢١١ أ .

( ٢ ) مخطوط ابن حيان ص ١٤٥ .

( ٣ ) ابن حزم فى رسالة نقط العروس ص ٧٣ . ويقول ابن حزم إن نصراً هذا هو الذى تنسب إليه « منية نصر » وهى ضاحية جميلة كانت تقع على النهر ، على مسافة قصيرة من شرقى قرطبة .

( ٤ ) تاريخ ابن حيان ( مخطوط القرويين ) لوحة ١٩١ ب .

واستكثر عبد الرحمن أيضاً من اقتناء الجوارى الحسان ، وكان كلفاً شديد الشغف بهن ، وكان يعنى باختيارهن من أطيب العناصر والأصول ، واجتمعت لديه منهن نخبة بارعة فى الحسن والخلال ، مثل طروب أم ولده عبد الله ، ومؤمرة أم ولده المنذر ، وشفاء أم ولده المطرف ، وفخر ومتعة وغيرهن ، وأنجب عبد الرحمن من الولد عدداً ضخماً بلغ وفقاً لابن حزم مائة ، خمسين من الذكور ، ومثلهم من الإناث ، وذكر الرازى أن عدد أولاده من الذكور أربعون ، وسماهم واحداً واحداً ، وأن عدد بناته ثلاثة وأربعون ، ذكر أسماءهن جميعاً(١) . وبلغ الجوارى كالفتيان من النفوذ مبلغاً عظيماً . واشتهرت من بينهن طروب حظية عبد الرحمن الأثيرة لديه ، وقد اشتد نفوذها فى أواخر أيامه ، وظاهرت نصراً الفتى ، فكانت لهما الكلمة النافذة فى معظم الشئون ، وكان عبد الرحمن يشغف بها أعظم شغف ، وهو القائل فيها :

إذا ما بدت لى شمس النهـــا ر طالعـــة ذكرتنى طـــروبا

وعنى عبد الرحمن بالمنشآت العامة أعظم عناية ، فزاد فى مسجد قرطبة الجامع بهوين جديدين من جانب القبلة ، وقام على عمارته الفتى نصر . وما زال هذا الجامع الشهير قائماً إلى اليوم بسائر عقوده الإسلامية ، وأروقته ومحاريبه . ولكنه حول منذ القرن السادس عشر إلى كنيسة قرطبة العظمى (كتدرائية) ، وبالرغم من أن الهياكل قد أقيمت فى سائر عقوده الجانبية ، وأقيم فى وسطه مصلى عظيم على شكل صليب ، فإنه ما زال يحمل بالإسبانية اسمه الإسلامى القديم « المسجد الجامع» La Mezqnita Aljama ، وقد أزيلت قبابه ومعظم زخارفه الإسلامية ، لتحل مكانها الزخارف النصرانية . ولكن محاريبه الفخمة ، مازالت تحتفظ بنقوشها الإسلامية ، وآياتها القرآنية .

ويقع جامع قرطبة فى طرف المدينة الجنوبى وسط شبكة من الدروب الأندلسية القديمة ، على مقربة من القنطرة الرومانية العربية القائمة على نهر الوادى الكبير . ويبلغ طوله ١٨٥ متراً وعرضه ١٣٥ متراً . وله عدة أبواب كبيرة فخمة ، مازالت تحتفظ بكثير من نقوشها الإسلامية . ويعرف بابه الرئيسى المقابل لصحنه

(١) راجع جمهرة أنساب العرب لابن حزم ( القاهرة ) ، ص ٩٠ ، وابن حيان ( مخطوط القرويين ) لوحة ١٩٤ ب و ١٩٥ أ .

« بباب النخيل » Puerta de las Palmas ، ويقع صحنه فى ناحيته الشمالية ويعرف بفناء النارنج Patio de los Naranjos ، وهو صحن مستطيل شاسع يزدان بعدد من أشجار البرتقال ( أو النارنج ) ، وهو الآن صحن الكنيسة . وقد هدمت منارة الجامع ، وهى التى أقامها عبد الرحمن الناصر بجوار الصحن ، وأقيم مكانها برج الأجراس الحالى(١) .

وأنشأ عبد الرحمن أيضاً مسجد إشبيلية الجامع ، كما ابتنى سورها الكبير عقب غزو النورمانيين لها ، ووضع نظاماً جديداً للسكة وجعلها أندلسية مستقلة ، بقيم وأوزان جديدة . وكان أهل الأندلس يتعاملون من قبل بما يحمل إليهم من نقد المشرق ، أو بنقود تسك على نظامه ، فى دار السكة التى أنشأها عبد الرحمن الداخل . وأنشأ أجنحة ومشارف جديدة للقصر ، وجلب إليه الماء العذب من قنن الجبال ، وأنشأ على النهر الأعظم مما يلى سور القصر والمدينة رصيفاً عظيماً(٢) . كما أنشأ بقرطبة عدة من الحدائق الغناء . وحذت جواريه حذوه ، فأنشأن فى قرطبة عدة مساجد سميت بأسمائهن .

ويشير سيمونيت إلى عظمة قرطبة فى عصر عبد الرحمن ويقول « إن عبد الرحمن كان يعشق البذخ الطائل ، وفى عهده حفلت قرطبة بطائفة من المساجد والقصور والقناطر والمنشآت المختلفة . وقد وصف قرطبة وعظمتها فى عهده نصرانى معاصر شهير وهو سان أولوخيو ، إذ يقول إن عبد الرحمن أسبغ على عاصمة مملكته لوناً خارقاً من العظمة ، ورفع من ذكرها ، وأفاض عليها حلل المجد ، وأغدق عليها الثروات ، وملأها بجميع مظاهر المتعة الدنيوية إلى حدود لا تصدق »(٣) .

وكانت أيام عبد الرحمن أيام سكينة وأمن ورخاء ، وفيها ازدهرت الزراعة والصناعة والتجارة ، وورد على الأندلس كثير من الأمتعة والسلع الفاخرة ، وزخرت الأسواق بالبضائع . وزاد الدخل زيادة عظيمة ، وبلغت الجباية وحدها

---

(١) راجع وصفاً مسهباً لجامع قرطبة وتاريخه وخواصه الأثرية فى كتابى : « الآثار الأندلسية الباقية فى اسبانيا والبرتغال » ( الطبعة الثانية ) ص ٢٠ – ٣٤ .

(٢) كان القصر الأموى القديم يقع على ضفة النهر على مقربة من الجامع ، ويحتل موقعه اليوم القصر الأسقفى والسجن المحلى ، والحدائق المجاورة التى ما زالت إلى اليوم ، تسمى حدائق القصر Huertas del Alcazar ، والمرجح أنها تقوم مكان حدائق القصر القديمة .

(٣) Simonet : ibid , Vol. I. p. 366

زهاء ألف ألف دينار فى السنة ، واستطاع الأمير أن ينفق بسخاء على تسيير الحملات الغازية ، وإقامة المنشآت المختلفة[1] .

وكان عبد الرحمن بن الحكم أديباً حسن التثقيف ، وكاتباً بليغاً مشرق البيان ، عالماً بالشريعة والحكمة ( الفلسفة ) ، مجيداً للنظم ، نصيراً للعلوم والآداب ، يحتشد حوله جمهرة من أكابر العلماء والأدباء والشعراء ، مثل العلامة الرياضى والفلكى عباس بن فرناس ، ويحيى الغزال ، وشاعره الخاص عبد الله بن الشمر بن نمير ، وكان صديقه مذ كان ولياً للعهد ، وكان بارعاً فى الأدب والشعر والمنطق والتنجيم ، وكان يكشف لعبد الرحمن نجمه وطالعه[2] ، وعباس بن ناصح الجزيرى شاعر أبيه الحكم ، وعبيد الله بن قرلمان بن بدر مولى الداخل ، وكان من جلسائه وخاصته وكان أديباً بارعاً ، وشاعراً مجيداً . وغيرهم . ومن نظمه قوله :

ولقد تعارض أوجه لأوامر ... فيقودها التوفيق نحو صوابها
والشيخ أن يحو النهى بتجارب ... فشباب رأى القوم عند شبابها

وقوله وقد خرج غازياً إلى جلّيقية :

فكم قد تخطيت من سبسب ... ولاقيت بعد دروب دروبا
ألاقى بوجهى سموم الهجـ ... ـير إذ كاد منه الحصى أن يذوبا
تدارك بى الله دين الهدى ... فأحييته وأمتُّ الصليبا
وسرت إلى الشرك فى جحفل ... ملأت الحزون بها والسهوبا

ومن قوله فى الغزل :

قتلتنى بهواكا ... وما أحب سواكا
من لى بسحر جفون ... تديره عيناكا
وحمرة فى بياض ... تكسى به وجنتاكا
أعطف على قليلا ... واحينى برضاكا
فقد قنعت وحسبى ... أن أرى من رآكا

---

(١) راجع ابن القوطية ص٦٧ ، وابن الأبار ص ٦١ ، والبيان المغرب ج ٢ ص٩٣ و ٩٤ ، وأخبار مجموعة ص ١٣٦ ، ونفح الطيب ج ١ ص ١٦٢ و ١٦٣ ؛ وابن الأثير ج ٧ ص ٢٢ ؛ وفى مخطوط ابن حيان عما تقدم نبذ وتفاصيل حسنة ( ص ١٣٨ و ١٤٢ و ١٤٤ ) .

(٢) مخطوط ابن حيان ص ١٥٦ و ١٥٧ .

واشتهر عبد الرحمن بحنوه الجم على قرابته وذوى رحمه بدرجة لم يجاره فيها أحد من أهل بيته ، فكان يوليهم وافر عطفه ، ويجرى عليهم الصلات السخية . وفى أيامه وفد من المشرق على الأندلس عدد من قرابته المروانية ( بنى أمية ) ، فاستقبلهم جميعاً أجمل استقبال ، وأنزلهم أكرم منزل ، وأجرى عليهم الأرزاق والإقطاعات الواسعة .

وكان عبد الرحمن يعشق الفلك والتنجيم ، ويشغف بدراسته ، وكان العلامة الرياضى ابن فرناس ، وعبيد الله بن الشمر ، وعبد الواحد بن إسحاق الضبى من أساتذته فى ذلك الفن ، وكان يقربهم ويجرى عليهم الأرزاق الواسعة ، وله معهم قصص ونوادر كثيرة . وكان أيضاً يعشق الغناء والموسيقى ، ويجمع حوله عدداً من أكابر الفنانين يجرى عليهم الأرزاق الواسعة . ووفد عليه من المشرق أبو الحسن على بن نافع الملقب بزرياب نابغة الغناء والموسيقى ، وكان زرياب من تلاميذ الفنان الشهير إسحاق الموصلى مغنى الرشيد ، فلما ظهر نبوغه وشعر أبو إسحاق بخطورة منافسته ، تحيل فى صرفه وإبعاده ، فغادر بغداد إلى المغرب ، وكتب إلى الحكم أمير الأندلس يستأذنه فى الوفود عليه . فأذن له واستدعاه ، ولكن زرياب ما كاد يصل إلى المغرب حتى علم بوفاة الحكم ، وكاد ينثنى عن عزمه فى العبور إلى الأندلس ، لولا أن جاءه كتاب عبد الرحمن بدعوته والترحيب به ، فسار إلى قرطبة واستقبله عبد الرحمن بمنتهى الإكرام والحفاوة ، وأجرى عليه الأرزاق الواسعة ، وجعله من خاصة بطانته . وبهر زرياب أهل الأندلس ببراعتــه فى الغناء والموسيقى ، وطار صيته فى كل مكان ، وأضحى قطب الفن الذى لا يجارى ، وأخذ عنه أهل الأندلس فنونه وإبداعه ، وتشبهوا به فى مظاهر زيه وإناقته وطرائق معيشته . وتوفى فى ربيع الأول سنة ٢٣٨ هـ ( أغسطس ٨٥٢ م ) قبيل وفاة عبد الرحمن بأسابيع قلائل . وكان لزرياب وفنه أعظم الأثر فى تكوين الفن الأندلسى فى ظل الدولة الأموية ، ثم فى ظل دول الطوائف[١].

وشغف عبد الرحمن أيضاً بجمع الكتب ، وأوفد شاعره عباس بن ناصح إلى المشرق للبحث عن الكتب القيمة واستنساخها ، فجمع له منها طائفة كبيرة ،

---

( ١ ) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ١٠٩ وما بعدها ، وابن خلدون فى المقدمة ص ٢٥٧ .

وكان أول من عنى بجمعها من أمراء الأندلس، وكانت جهوده فى هذا السبيل نواة لإنشاء مكتبة قرطبة العظيمة .

* * *

وفى عهد عبد الرحمن سما شأن حكومة قرطبة الإسلامية ، وأخذت تتبوأ مكانتها من الهيبة والنفوذ ، بين مختلف القصور والحكومات النصرانية ، وتغدو مركز التوجيه للدبلوماسية الإسلامية فى الغرب . والظاهر أن الدولة البيزنطية ، خصيمة الدولة العباسية فى المشرق ، كانت تعتقد أنها تستطيع أن تصل بتفاهمها مع حكومة قرطبة الإسلامية ، إلى بعض النتائج العملية فى مقاومة خصيمتهما المشتركة . ففى سنة ٨٤٠ م ( ٢٢٥ هـ ) وفد على قرطبة سفير من قبل قيصر قسطنطينية الإمبراطور تيوفيلوس ( توفلس ) ، يدعى قرطيوس ، ومعه كتاب وهدية فخمة ، فاستقبله عبد الرحمن بحفاوة ، وكان القيصر يتوجه فى كتابه إلى أمير الأندلس ، باسم الصداقة القديمة التى كانت قائمة بين الأوائل من خلفاء بنى أمية وقياصرة بيزنطية ، ويشكو مر الشكوى من فعال الخليفة المأمون وأخيه المعتصم وعيثهما فى أراضيه ، ويشير إليهما فى كتابه بابن مراجل وابن ماردة[١] تحقيراً وازدراء ، كما يشكو إليه من استيلاء أبى حفص البلوطى وعصبته الأندلسية على جزيرة إقريطش (كريت) وهى من أملاكه ، ويطلب إليه عقد أواصر المودة والصداقة بينهما ، ويرغبه فى ملك أجداده بالمشرق ، ويستنهض همته لاسترداده ، ويتنبأ له بقرب انهيار الدولة العباسية ، وزوال سلطانها ، ويعده بنصرته فى ذلك المشروع . وقد رد عبد الرحمن على سفارة تيوفيلوس بمثلها ، وأوفد كاتبه وصديقه الشاعر يحيى الغزال إلى قسطنطينية ومعه يحيى بن حبيب المعروف بالمنيقلة بكتاب وهدية إلى الإمبراطور . وقد سبق أن أشرنا إلى الغزال وإلى شخصيته الممتازة وإلى بارع خلاله وظرفه ، وكان الغزال قد جاوز الستين يومئذ ولكنه كان مايزال يحتفظ بكثير من إناقته وروائه . وسار الغزال وصاحبه يحيى ومعهما السفير البيزنطى إلى المشرق عن طريق تدمير (مرسية) ، فوصلوا إلى قسطنطينية بعد رحلة بحرية شاقة، عاينوا فيها الأهوال من اضطراب البحر وروعة الموج. واستقبل الإمبراطور السفير الأندلسى بحفاوة ، وقدم الغزال إليه كتاب

---

( ١ ) مراجل هى أم المأمون ، وماردة هى أم المعتصم ، وكلتاهما جارية وأم ولد .

عبد الرحمن وهديته . ويرد عبد الرحمن فى كتابه على ما جاء فى كتاب الإمبراطور تفصيلا ، ويشير مثله إلى المأمون والمعتصم بابن مراجل وابن ماردة ، وإليك ما يرد به عبد الرحمن على ما يدعوه إليه الإمبراطور من وجوب العمل لاسترداد ملك أجداده بالمشرق ، وهى أهم فقرات الخطاب :

« وأما ما ذكرت من أمر الخبيث ابن ماردة ، وحضضت عليه من الخروج إلى ما قبله ، وذكرته من تقارب انقطاع دولته ودولة أهله ، وزوال سلطانهم ، وما حضر من وقت رجوع دولتنا ، وأزف من حين ارتجاع سلطاننا ، فإننا نرجو فى ذلك عادة الله عندنا ، ونستنجز موعوده إيانا ، ونمترى حسن بلائه لدينا ، بما جمع لنا من طاعة من قبلنا ، من أهل شأمنا وأندلسنا وأجنادنا وكورنا وثغورنا ، وما لم نزل نسمع ونعترف أن النقمة تنزل بهم ، والدائرة تحل عليهم من أهل المغرب بنا وعلى أيدينا ، فيقطع الله دابرهم ، ويستأصل شأفتهم إن شاء الله تعالى »(١).

وأدى الغزال سفارته خير أداء ، وعمل على إحكام الصلة والمودة بين الإمبراطور وبين مليكه ، وسحر البلاط البيزنطى بكياسته وظرفه ، وبديع صفاته ، وقدمه الإمبراطور إلى زوجه الإمبراطورة تيودورا وإلى ولده الأمير ميخائيل الذى تولى العرش فيما بعد ، وكان يومئذ فتى يافعاً ، فأنست به الإمبراطورة وسحرته برائع جمالها ، وسحره الأمير الفتى بظرفه وبارع خلاله . وقال فيه قصيدته التى مطلعها :

وأغيد لين الأطراف رخص ... كحيل الطرف ذو عنق طويل
ترى ماء الشباب بوجنتيه ... يلوح كرونق السيف الصقيل
من أبنـــاء الغطارف قيصرى ... العمومة حين ينسب والخؤول

وعاد الغزال إلى قرطبة بعد رحلة دامت عدة أشهر ، وقد بهرته مظاهر الحضارة البيزنطية وروعة البلاط البيزنطى .

---

(١) ورد هذا الخطاب بنصه كاملا كما وردت تفاصيل هذه السفارة مفصلة فى مخطوط ابن حيان ص ١٦١ و١٦٢ و ١٦٣ ؛ ونشر الأستاذ ليڤى بروڤنسال قصة هذه السفارة بالفرنسية ، ومعها نص الخطاب بالعربية فى فصل خاص ، فى المجلد الثانى عشر من مجموعة **Byzantion** التى تصدر فى بروكسل بعنوان : **Echange d'Ambassades entre Cordoue et Byzance au IXe.Siècle** كما نشرها أيضاً فى رسالة خاصة . وراجع أيضاً نفح الطيب ج ١ ص ١٦٢ ، حيث يشير إلى هذه السفارة إشارة موجزة .

هذا وقد أوفد الغزال بعد ذلك بقليل فى سفارة أخرى أغرب وأعجب ؛ وذلك أنه على أثر غزو النورمانيين (المجوس) لولايات الأندلس الجنوبية الغربية واقتحامهم إشبيلية ، وردهم عنها ، ثم هزيمتهم ومطاردتهم ، بعث ملكهم رسله إلى عبد الرحمن بن الحكم فى طلب المهادنة والصلح ، فأجابه عبد الرحمن إلى طلبه ، وبعث الغزال مع الرسل إلى ملكهم ليرد السفارة ، ويعلنه بقبول الصلح .

وتقدم إلينا الرواية الإسلامية عن هذه السفارة تفاصيل شائقة . وهى رواية أديب أندلسى عاش فى القرن الثالث عشر الميلادى ، هو أبو الخطاب عمر ابن الحسن بن دحية البلنسى ، أوردها فى كتابه «المطرب من أشعار أهل المغرب» فى حديثه عن الغزال . وهو يذكر لنا أن عبد الرحمن أوفد مع الغزال ، يحيى بن حبيب لمرافقته فى تلك السفارة ، وأنهما خرجا معاً إلى البحر المحيط عن طريق شلب[1] فى مركب خاص أعد لهما ، وسارت مع مركب الرسل النورمانيين . ويصف لنا ما لقيه السفيران المسلمان من أهوال البحر وروعته ، وكيف أنهما جازا تلك الشدائد سالمين ووصلا إلى بلاد المجوس . ثم يصف لنا بلاد المجوس بأنها « جزيرة عظيمة فى البحر المحيط » ، وعلى مقربة منها « جزائر كثيرة منها صغار وكبار ، أهلها كلهم من المجوس ، وما يليهم من البر أيضاً لهم مسيرة أيام ، وهم مجوس ، وهم اليوم على دين النصرانية » .

ويبدو من وصف طريق الرحلة ، وأوصاف تلك الجزر ، أن القطر الذى قصده الغزال ورفيقه ، هو الدانماركة ، ويؤيد ذلك أن الدانماركة كانت فى ذلك الوقت مستقر ملك النورمان ( المجوس ) ، وكان ملكهم عندئذ يشمل الدانماركة وما حولها من الجزائر ، وقسما من إسكندناوة وألمانيا الشمالية . وكان يجلس على عرش النورمان فى ذلك الوقت (نحو سنة ٨٤٤ أو ٨٤٥ م ) ملك يسمى « هوريك » . وكان النورمان يومئذ أحداثاً فى النصرانية ، حسبما تقول الرواية الإسلامية . ولقى السفير المسلم من ملك النورمان كل ترحاب وعطف ، وأفرد لإقامته وزملائه منزلاً حسناً . وقدم إليه الغزال كتاب الأمير عبد الرحمن وهديته من الثياب والآنية ، فوقعت لديه أحسن موقع . ولقى الغزال فى البلاط النورمانى كله ، كثيراً من

(١) شلب Silves هى بلدة أندلسية قديمة تقع فى جنوب غربى البرتغال على مقربة من المحيط الأطلنطى .

الإعجاب والعطف ، واستقبلته « نود » ملكة النورمان ، فراعه حسنها ، وشملته بعطفها ، ورآها بعد ذلك مراراً ، ونظم فى حسنها شعراً رقيقاً ، يورده لنا ابن دحية ، وفيه يخاطبها بقوله :

يا نود يا رود الشباب التى      تُطلع من أزرارها الكوكبا

وعاد الغزال إلى الأندلس بعد رحلة دامت عشرين شهراً ، وكان عوده عن طريق شنت ياقب . ويقول لنا ابن دحية إنه كان يحمل من ملك النورمان كتاباً إلى صاحبها ، وهو ملك جليقية وليون . والظاهر أنه كان كتاب توصية وجواز ، لكى يستطيع السفير المسلم وزملاؤه اختراق المملكة النصرانية الشمالية ، فى طريقهم إلى الأندلس . وقد اخترق الغزال بالفعل مملكة ليون ، وسار إلى طليطلة ، ومنها إلى قرطبة . والمرجح أن وصوله إلى قرطبة ، كان سنة ٢٣٢ هـ ( أواخر سنة ٨٤٦ م ) .

وعاش الغزال بعد ذلك زهاء عشرين عاماً أخرى ، وتوفى فى سنة ٢٥٠ هـ . وقد بلغ الرابعة والتسعين من عمره ، إذ كان مولده فى سنة ١٥٦ هـ[1] ، وأدرك خمسة من أمراء بنى أمية بالأندلس أولهم عبد الرحمن الداخل ، وآخرهم محمد ابن عبد الرحمن . وكان مدى نصف قرن يتبوأ الزعامة فى الشعر والأدب والحكمة ، ويتبوأ فى بلاط قرطبة أسمى مقام من النفوذ والثقة والتقدير[2] .

---

( ١ ) راجع جذوة المقتبس للحميدى ( مصر ) رقم ٨٨٧

( ٢ ) تراجع رواية ابن دحية كاملة فى كتابه « المطرب من أشعار أهل المغرب » المنشور بعناية وزارة المعارف سنة ١٩٥٤ ( ص ١٣٨ — ١٤٩ ) . ونقلها دوزى فى كتابه : **Recherches, Vol. I. App, XXXIV** ، وأشار إليها المقرى فى الفصل الذى أورده عن الغزال وأخباره ( نفح الطيب ج ١ ص ٤٤١ وما بعدها ) . وقد كان البحث يتجه من قبل إلى أن رواية ابن دحية عن هذه السفارة قد تكون تكراراً أو تحريفاً للرواية الخاصة بسفارة الغزال إلى قسطنطينية ، ولكن يتضح من مراجعة رواية ابن دحية كاملة فى كتابه المنشور ، ودراسة المعالم الجغرافية التى أوردها عن طريق سفر الغزال وطريق عودته عن طريق شنت ياقب ومملكة جليقية — وعن موقع مملكة النورمان ، يتضح من ذلك كله أنه لا توجد الآن ذرة من الريب فى صحة القول بأن السفارة كانت فعلا إلى « بلاد المجوس » أو النورمان ، أو بعبارة أخرى إلى الدانماركة .

# الفصل الأول

## ولاية محمد بن عبد الرحمن بن الحكم
### وطوالع الثورة الأولى

محمد بن عبد الرحمن . ظروف توليته والتمهيد لها . الثورة فى طليطلة . مسير محمد إلى طليطلة . استعانة الثوار بملكى ليون وناڤار . موقعة وادى سليط . تحريضات النصارى المتعصبين . غزوة ألبة والقلاع . عود إلى محاربة طليطلة وإخضاعها . غزوة النورمانيين . عيثهم فى جنوبى الجزيرة . ارتدادهم من طريق الشمال . غزو المسلمين لناڤار وألبة والقلاع . موسى بن موسى وسيادته فى الثغر الأعلى . الحرب بينه وبين أردونيو . مصرع موسى . ولده لب ومحالفته للنصارى . أخوته الثلاثة . غزو المسلمين لألبة والقلاع . هزيمة المسلمين . عود إلى غزو ألبة . هزيمة النصارى . الثورة فى ماردة وإخمادها . احتماء بنى قسى بملك النصارى . الثورة فى قواعد الثغر الأعلى . استيلاء بنى قسى على تطيلة وسرقسطة . سير محمد إلى الثغر الأعلى . استيلاؤه على تطيلة . غزوه لناڤار . زحف المنذر إلى سرقسطة . غزوه لناڤار ثانية . عوده إلى غزو الثغر الأعلى . افتتاح المنذر لحصن روطة واستيلاؤه على لاردة . خضوع سرقسطة . الخلاف بين بنى قسى . خروج محمد بن لب فى سرقسطة وتحالفه مع النصارى . سير المنذر إلى سرقسطة واستيلاؤه عليها . الهدنة بين المسلمين والنصارى . عود ابن مروان إلى الثورة فى ماردة . سير محمد لقتاله . تحالف ابن مروان مع ملك ليون . هزيمة جيش الأندلس وأسر قائده . عيث ابن مروان بنواحى الغرب . التجاؤه إلى ملك ليون . زحف المنذر على بطليوس وإحراقها . الثورة فى شنت برية وبنو ذو النون . ظهور ابن حفصون فى جبل ببشتر . بواعث الفتنة فى كورة ريه . غزو ابن حفصون لكورة ريه . محاربة ابن حفصون وأسره . فراره واستئنافه الثورة . سير المنذر لقتاله . محاصرة الحامة . وفاة محمد بن عبد الرحمن وعود المنذر إلى قرطبة . خلال محمد . عنايته بالجيش والأسطول والمنشئات الدفاعية . نظام البلاط فى عهده . حجابه ووزراؤه . أعماله الإنشائية . المسجد الجامع ومنية الرصافة . شخصه وخلاله . أدبه وبلاغته . عطفه على العلماء والأدباء . حمايته لبقى بن مخلد . نفوذ الفقهاء فى عهده . تسامحه نحو النصارى .

ترك عبد الرحمن بن عبد الحكم ، مملكة زاهرة موطدة الأركان ، تنعم بالاستقرار والهدوء . ولكن هذا الاستقرار الظاهر ، كان يحجب كثيراً من التيارات الخفية ، التى تهدد أمن المملكة وسلامتها . ذلك أن الهزات العنيفة التى توالت على الأندلس فى عهد عبد الرحمن ، تركت آثارها العميقة فى هذا الصرح الباذخ .

وكانت الثورات المحلية المتعاقبة ، وغزوات النورمانيين ، ودسائس النصارى المتعصبين ، كلها تنذر بأن الاستقرار الموقت الذى تنعم به المملكة ، لم يكن سوى

# الكتاب الثانى

# الدولة الأموية فى الأندلس

القسم الثانى

## عصر الإمارة

من محمد بن عبد الرحمن إلى عبد الله بن محمد
وعهد الفتنة الكبرى

٢٣٨ — ٣٠٠ هـ : ٨٥٢ — ٩١٢ م

هدنة خادعة ، حققتها سياسة قوية حازمة . وكانت عناصر الإضطراب والغدر تجثم هنالك فى صدور المنافقين والطامعين ، وتنذر حكومة قرطبة وعرش بنى أمية بأعظم الأخطار .

تولى محمد بن عبد الرحمن الملك عقب وفاة أبيه ، فى الرابع من ربيع الآخر سنة ٢٣٨ هـ (٢٤ سبتمبر سنة ٨٥٢ م) ، ودخل القصر وأبوه مسجى على سريره ، فاقتعد لفوره سرير الملك ، وأخذ له البيعة الحاجب عيسى بن شُهيد . وكان يومئذ قد جاوز الثلاثين بقليل . وكان مولده فى شهر ذى القعدة سنة ٢٠٧ هـ (إبريل سنة ٨٢٣ م) . وأمه أم ولد تدعى بهير[1]. وكانت ظروف ولايته ممهدة من قبل ، وكان والده عبد الرحمن قد استخلفه بقصر الإمارة ، حينما اعتزم أن ينيبه عنه فى سنة ٢٢٦ هـ ، وهو يومئذ فتى فى العشرين من عمره ، ثم ولاه ثغر سرقسطة ، فضبطه وأحسن إدارته ، وصحب والده إلى بنبلونة فى غزوته المظفرة سنة ٢٢٨ هـ ، وقاد ميمنة الجيش ، وأثنى عليه والده فى كتاب الفتح ، فاشتهر اسمه بين الناس ، ثم ندبه أبوه بعد ذلك لمقابلة رسل ملك الفرنج قارله (كارل) بن ببين القادمين إليه . وأخيراً كلفه بالركوب إلى البلاط بصفة منتظمة ، ليرفع إليه الكتب الواردة بعد تلخيصها بمعرفته ، وقد تم هذا الإجراء بتوصية الحاجب عيسى بن شهيد ونصحه ، وذلك لتمكين أمر محمد ومكانته ، وتوهين ما كان يحاوله نصر الخصى الأثير لدى الأمير ، وحليف حظيته طروب المتغلبة عليه ، من ترشيح ولدها عبد الله لولاية العهد ، وتمكين أمره .

ولم يكن ذلك دون اختيار وتثبت . ذلك أن عبد الرحمن ، كان حسبما يحدثنا عيسى الرازى « قد كشف عن مذاهب ولده ، ولداً ولداً ، وعجم أخلاقهم اختباراً ، فوجد محمداً راجحاً لهم بخلاله » . فاختاره ليخلفه من بعده ، وأوعز إلى وزرائه وأكابر دولته . بأنه صاحب ولاية عهده ، والمفوض إليه الأمر من بعده ، وكلفهم جميعاً ، ومعهم القاضى وأهل الشورى ، بالركوب إليه وغشيان مجلسه أيام الجمع فى المسجد الجامع ، وأبدى على الجملة بما لا يدع مجالا لأى شك ، بإيثاره على جميع ولده ، وتفرده دونهم بخلافته فى ملكه .

وفضلا عن ذلك كله ، فقد كانت لمحمد عيون من الصقالبة بالقصر يطالعونه

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٩٦ .

بالأخبار فى وقتها . فلما توفى والده ، وافاه فى مساء نفس اليوم رسول من قبل حبيب الخصى ، يستدعيه إلى القصر بسرعة ، فبادر إلى القصر متنكراً وقد أخفى سلاحه تحت ثيابه، خوفاً من دسائس أخيه ومنافسه عبدالله، لتمكن نفوذ أمه داخل القصر. وكان الصقالبة قد كتموا موت الأمير ، وأغلقوا أبواب القصر ، وثارت بينهم مناقشات عنيفة حول ولاية العرش ، وانتهى الأمر بتفضيل محمد وتقرير استدعائه . وخرج محمد من غرفة أبيه المسجى إلى مجلس البيعة ، واستدعى إخوته التسعة والأربعين ، وعمومته ، وأهل بيته ، وعظماء المملكة . وأخذت له البيعة دون خلاف ( يوم الجمعة الرابع من ربيع الأول ٢٣٨ هـ ) ، ثم أخذت له بيعة الكافة فى المسجد الجامع أياماً متوالية[١] .

أوردنا هذه التفاصيل لنقف على نوع الإجراءات التى كانت تتخذ لتقرير ولاية العهد ، فى إمارة قرطبة الأموية ، ثم لنقف على الدور الذى أخذ يضطلع به الفتيان الصقالبة منذ الآن فصاعداً فى مسألة خلافة العرش ، وهو دور كان له أثره الحاسم فى كثير من المواطن .

وكان محمداً أميراً ذكياً فطناً بالأمور[٢]، تولى والأفق الذى ظلل عصر أبيه العظيم مازال يحتفظ بلمعانه ، وملوك اسبانيا النصرانية يحسبون حسابه ، ويشعرون بأنه خلف كفء لأبيه ، وملوك العدوة القريبين من الأندلس يخطبون وده ، وملك الفرنج يسعى إلى عقد السلم معه .

وأقر محمد حاجب أبيه عيسى بن شُهيد ، ومعظم الوزراء الذين كانوا يتولون خدمة أبيه على خططهم ومراتبهم ؛ وصنع نظاماً جديداً للوزارة ، تتميز فيه الخطط الرفيعة على غيرها ، ويمتاز فيه الوزراء بنوع من التعظيم والتجلة ، وقدم الوزراء من أهل الشام على غيرهم من الأندلسيين والبربر ، وأعلاهم فى الجلوس على أرائكهم ببيت الوزارة . وكان بنفسه يشرف على أعمال الوزارة والكتاب ، ويدقق فى أعمالهم وتصرفاتهم وحساباتهم[٣]. ولما توفى عيسى بن شهيد ، خلفه فى الحجابة عيسى بن الحسن بن أبى عبدة، وكان بالرغم من رثاثة هيئته وزيراً قوياً،

---

( ١ ) ابن حيان عن أحمد بن محمد الرازى ، وعيسى بن أحمد الرازى ، ومعاوية بن هشام الشبينسى ؛ مخطوط القرويين اللوحات ٢١٥ إلى ٢٢٠ ب .

( ٢ ) ابن الأثير ج ٧ ص ١٤١ .

( ٣ ) ابن حيان عن أحمد الرازى ؛ مخطوط القرويين لوحة ٢٢٣ .

وافر الفطنة والذكاء ، صائب الرأى والتقدير . وكان هاشم بن عبد العزيز من بين وزراء الأمير محمد، أشدهم خصومة ومنافسة للحاجب ابن أبى عبدة ، وكان فى نفس الوقت أحب وزراء الأمير إليه ، وأكثرهم حظوة لديه ، فلم يلبث أن غلب نفوذه على سائر الوزراء . ويقول لنا ابن عبد البر إن هذه الحظوة التى استأثر بها الوزير هاشم لدى الأمير محمد، كان لها أثر سيئ فى تصرفات الأمير ، وأنه أى هاشم قد أفسد عليه أمره ، « فشرّهه ، وصلفه، وحمله على غير المنهج من محمود طرقه ، وعدل عن اختيار ثقات العمال ، من الشيوخ والكهول أولى النهى والأصول ، إلى الأحداث من أولى الشر والخيانة ودناءة الأصول . فلم يلبث الأمر أن فسد بذلك إلى أبعد حال .. فنجمت الفتنة بأكثر البلاد، وكثر فى الأرض الفساد فى المملكة»(١). وفى أقوال ابن عبد البر عن هذا التحول فى سياسة الأمير محمد وفى أساليب حكمه مبالغة ، ينقضها ما أورده صاحب البيان المغرب وغيره عن صفاته(٢). وعلى أى حال فسوف نرى أى دور خطير يلعبه الوزير هاشم بن عبد العزيز ، الذى تولى الحجابة فيما بعد ، فى ميدان الحرب والسياسة فى عهد الأمير محمد .

وقد شاء القدر أن يكون عهد محمد بداية عصر من أخطر عصور التاريخ الأندلسى ، وأشدهم خطراً على ملك بنى أمية ، وعلى دولة الإسلام فى الأندلس . ذلك أنه ما كاد يتبوأ العرش ، حتى بدأت طلائع تلك الثورة الخارقة ، التى قدر له أن يضطلع بكفاحها طوال حكمه ، الذى امتد خمسة وثلاثين عاماً ، والذى يصفه ابن حيان بقوله : « والمشوب آخره بالتنكيد ، المنصرم عن فرقة الجماعة ، ونجوم النفاق بكل جهة » .

فى منتصف ربيع الثانى سنة ٢٣٨ هـ ، يعنى لأيام قلائل فقط من وفاة عبد الرحمن ، وولايه محمد ، تحرك أهل طليطلة التى مافتئت تفيض بعوامل الثورة . وكان بها عندئذ سعيد بن الأمير محمد ، والعامل عليها حارث بن بزيع . وكان جماعة من المارقين وأهل الشر ، قد اجتمعوا فى الهضبة القريبة من المدينة المسماة « جبل الأخوين » بزعامة مسوقة بن مطرّف ، وهو أحد الزعماء الخوارج الذين فروا من قرطبة ، فلما وقفوا على وفاة الأمير عبد الرحمن ، كاتبوا أهل طليطلة وحرضوهم على الوثوب بسعيد ومن معه . فاضطرمت الثورة داخل المدينة ؛

---

(١) نقله ابن حيان ، مخطوط القرويين اللوحة ٢٢٢ أ .

(٢) راجع البيان المغرب ج ٢ ص ١١١ .

وساعدهم ابن مطرف بحشوده من الخارج ، وانتهى الأمر بهزيمة جند الأمير ، واستطاع سعيد أن يغادر المدينة ، ولكن الثوار أسروا عاملها حارثاً ، ورفضوا إطلاق سراحه حتى أطلقت حكومة قرطبة رهائنهم المعتقلة هناك[1]. وفى صيف العام التالى (سنة ٢٣٩ هـ — ٨٥٣ م) بعث الأمير محمد أخاه الحكم فى جند الصائفة إلى قلعة رباح ، وكانت قد أقفرت وخربت وغادرها معظم أهلها ، عقب مهاجمة أهل طليطلة الخوارج لها ، وقتلهم كثيراً من أهلها ، فاحتلتها جند الأمير ، وقامت بإصلاح أسوارها ، واستدعى أهلها الفارون وأمنوا ؛ وفعل الحكم مثل ذلك بحصن شندلة ، الواقع على النهر المسمى بهذا الإسم Jandula ، وهو من أفرع الوادى الكبير ؛ وجالت جند الأمير فى تلك المنطقة تطهيراً من الثوار ، وخرجت منها حملة سارت جنوباً ، فلقيتها عصابات الخوارج من أهل طليطلة فى فحص أندوجر ، ووقعت بين الفريقين معركة عنيفة هزم فيها جند الأمير ، وردوا بخسارة فادحة (شوال سنة ٢٣٩ هـ) . وعلى أثر ذلك خشى أهل مدينة جيّان القريبة على أنفسهم من عيث الخوارج ، فغادرها كثير منهم إلى الجبال ، وابتنى الأمير محمد لهذا السبب حصن « أندة » على مقربة جيان ، وضم إليه العرب المقيمين على الطاعة ، وسمى المكان لذلك « أندة العرب »[2] .

وعندئذ شعر محمد بما يهدد العاصمة من الأخطار ، وأراد أن يلقى على ثوار طليطلة ، درساً عميق الأثر ، فسار إليها فى المحرم سنة ٢٤٠ هـ (يونيه ٨٥٤ م) على رأس قوة كبيرة . وكانت أول حملة يقودها بنفسه بعد تبوئه الملك . وكان عماد الثورة فى طليطلة جمع كبير من المولدين والنصارى ، الذين تحركهم روايات المتعصبين ، عن الاضطهاد الذى يلقاه إخوانهم فى قرطبة ، وكانوا يتطلعون دائماً إلى عون ملك النصارى ؛ فلما استشعروا عزم محمد على قتالهم ، بادروا بالاستغاثة بأردونيو (أردن) ملك ليون ، وكذلك بملك ناقار ؛ وأمدهم أردونيو بقوة على رأسها الكونت غاتون[3]. وكان تدخل النصارى على هذا النحو لتأييد الثورة ضد حكومة قرطبة ، عاملا فى إذكاء حماسة المسلمين ، فهرعت جموع كبيرة إلى جيش الأمير ، ومنهم كثير من الفرسان الأشراف وذوى الحسب ، وسار محمد صوب

---

(١) ابن حيان عن الرازى فى مخطوط القرويين لوحة ٢٥٩ أ .

(٢) مخطوط القرويين لوحة ٢٥٩ ب .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٠ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٩٧ . ويقول صاحب البيان إن الكونت غاتون هو أخ لملك ليون .

طليطلة فى بعض قواته ، وترك بقية جيشه الكثيف مستتراً بالتلال التى تظلل وادى سليط ، وهو الوادى الذى يخترقه النهر المسمى بهذا الإسم Guazalete ، وهو أحد أفرع التاجُه الجنوبية ، فلما رأى أهل طليطلة قلة الجيش المحاصر ، خرجوا لقتاله ومعهم حلفاؤهم النصارى وهم على ثقة من الظفر ، فارتد محمد بجنوده نحو وادى سليط متظاهراً بالهزيمة ، وعندئذ برزت قوات الأندلس من مكامنها ، وأطبقت على الثوار وحلفائهم النصارى ، وكانت موقعة هائلة مزقت فيها جموع الطليطليين والإسبان فى ساعات قلائل من الصباح إلى الضحى ، وقتل منهم مقتلة عظيمة تقدرها الرواية الإسلامية بأحد عشر ألفاً ، وقيل بل عشرين ألفاً ، وأسر منهم كذلك عدد جم ، بينهم كثير من القساوسة وقد أعدموا على الفور ، ورصت رؤوس القتلى ، وأذن فوقها لصلاة الظهر . وكان نصراً عظيماً . وفى هذه الموقعة يقول شاعر العصر عباس بن فرناس :

| | |
|---|---|
| ومؤتلف الأصوات مختلف الزحف | لهـــوم الفلا عبل القبائل ملتف |
| إذا أومضت فيه الصوارم خلتها | بروقاً تراءى فى الغمام وتستخفى |
| كأن ذرى الأعلام فى ميلانها | قراقير فى يم عجزن عن القذف |
| بكى جبلا وادى سليط فأعولا | على النفر العبدان والعصبة الغلف |
| يقول ابن يوليس لموسى وقد ونى | أرى الموت قدامى وتحتى ومن خلفى |
| قتلنـــا لهم ألفاً وألفاً ومثلهـــا | وألفاً وألفاً بعد ألف إلى ألف |
| سوى من طواه النهر فى مستلجّه | فأغرق فيه أو تهدهد من جرف |
| لقد نعمت فيه غزاة نسورنا | وسمعت الدقات قصفاً على قصف (١) |

على أن الفتنة فى طليطلة لم تهدأ ولم تخمد ، فقد استمر تحريض النصارى المتعصبين فيها على أشده ، وأضحت المدينة الثائرة موئلا لطائفة من القسس المتعصبين مثل أولوخيو وصحبه ، يبثون دعايتهم المضطرمة فى طليطلة وما جاورها من الأنحاء ، ويصورون مصير النصارى فى ظل الحكم الإسلامى بأشنع الصور ، ويدعون إلى التحرر من الاضطهاد الدينى والاجتماعى ، وكان صدى هذه

(١) ينقل إلينا ابن حيان عن موسى الرازى تفاصيل هذه الموقعة — مخطوط القرويين لوحة ٢٦٠ أ و ب و ٢٦١ أ . وراجع البيان المغرب ج ٢ ص ٩٧ و ١١٤ . وكذلك Dozy : **Histoire, V.I. p. 355**

الدعوة يتردد قوياً فى العاصمة الأندلسية ، ويبث القسس تحريضهم ودعاياتهم المسمومة ، مثلما كانوا يفعلون أيام عبد الرحمن بن الحكم[١]. وكان محمد يرقب هذه الفتنة حذراً من عواقبها ، وعواقب تمرد المدينة الثائرة ، ومن ثم فقد لبث متأهباً لمقارعتها ، وشحن قلعة رباح وطلبيرة على مقربة منها بالجند والعدد .

وسير الأمير محمد كذلك الصوائف والحملات الغازية إلى الثغر الأعلى . ففى سنة ٢٣٩ هـ ( ٨٥٣ م ) سير جيشاً بقيادة موسى بن موسى بن قسى والى تطيلة إلى ألبة والقلاع . وكان موسى أيام الأمير عبد الرحمن ، من زعماء الثورة فى الشمال ، وتحالف مع النصارى حسبما تقدم ، وقاتله عبد الرحمن حتى تمكن من إخضاعه . ولكنه عاد فى أواخر عهده إلى سابق مكانته من زعامة الثغر الأعلى ، واستطاع أن يوطد استقلاله فى تطيلة وما جاورها ، مع التظاهر فى نفس الوقت بالولاء لحكومة قرطبة ، اتقاء لخصومتها . فسار إلى ألبة والقلاع وعاث فيها ، وهزم النصارى فى عدة مواقع ، وافتتح بعض الحصون ، ثم عاد بعد ذلك فاتجه صوب ثغر برشلونة ، وانتزع بعض حصونه من أيدى النصارى ، وتضع بعض الروايات تاريخ هذه الغزوة فى سنة ٢٤٢ هـ ( ٨٥٦ م ) . بيد أنه يبدو من أقوال الرازى أنها وقعت قبل سنة ٢٤١ هـ[٢] .

وفى صيف سنة ٢٤١ هـ ( ٨٥٥ م ) سار محمد بنفسه إلى ألبة والقلاع ، وقد كتب إلى موسى بن موسى وأهل الثغور بالاحتشاد والسير فى حملته ، فعاث فى بسائط ألبة والقلاع ، وافتتح كثيراً من حصون النصارى . وفى العام التالى بعث موسى بن موسى إلى أحواز برشلونة ، فغزاها وخرب برشلونة وافتتح بعض حصونها ، وأسر بعض أمرائها[٣] .

بيد أن اهتمام الأمير لبث فى الوقت نفسه بالأخص موجهاً إلى طليطلة ، فبعث ولده المنذر إلى المدينة الثائرة فى قوة كبيرة فحاصرتها وعاثت فى أحوازها (٢٤٢هـ) ، ولم يجرأ الثوار هذه المرة على مغادرة مدينتهم . ولكنهم خرجوا فى العام التالى إلى طلبيرة لمقاتلة الحامية الأندلسية بها ، فخرج إليهم قائدها مسعود بن عبد الله ،

---

( ١ ) يفيض دوزى فى شرح أدوار هـذه الفتنة الدينية وأعمال دعاتها : Dozy ; Hist.; V. I. p. 356—362

( ٢ ) مخطوط القرويين لوحة ٢٦١ ب .

( ٣ ) البيان المغرب ج ٢ ص ٩٨ .

وأوقع بهم وقتل منهم عدة مئات أرسلت رؤوسهم إلى قرطبة . وسارت جند الصائفة فى الوقت نفسه إلى طليطلة ، فنازلتها وعاثت فى أحوازها ، وانتسفت زروعها وأقواتها .

ورأى الأمير محمد أن يتابع معاقبة أهل طليطلة . فخرج إليهم بنفسه فى صيف سنة ٢٤٤هـ (٨٥٨م) ، وحاصر المدينة الثائرة ، وتأهب أهلها لقتاله بالرغم مما أصابهم من نقص فى القوى ، وشح فى الأقوات ، واعتمدوا على حصانة مدينتهم . ولجأ محمد إلى الحيلة فهدم مهندسوه قواعد القنطرة الكبيرة مع تركها قائمة ثم انسحب بجنوده ؛ وهنا خرج أهل طليطلة لقتاله ، فلما احتشدوا على القنطرة سقطت بهم فى نهر التاجه وغرق منهم عدد جم[1] . ولم يترك محمد هذه المرة وسيلة رائعة إلا استعملها لسحق المدينة الثائرة ، فخرب حصونها ومعالمها ، وأوقع بأهلها قتلا وتشريداً ، حتى اضطروا إلى طلب الأمان والصلح ، وأذعنوا للخضوع والطاعة ، وهم يعتزمون النكث فى قرارة أنفسهم متى سنحت الفرص (٢٤٥ هـ — ٨٥٩ م) .

وهكذا لبثت طليطلة عصراً تضنى حكومة قرطبة بتمردها وثوراتها المتوالية ؛ وكانت حاضرة القوط القديمة تشعر دائماً بقوتها ومنعتها الطبيعية ، وكانت فوق ذلك مثوى التيارات النصرانية الخطرة حسيا بينا ، تنساب إليها من نصارى الشمال ، ومن النصارى المعاهدين بقرطبة ، ومن أهلها أنفسهم . والواقع أن طليطلة كانت بوعورة موقعها على المنحدر الصخرى الممتد نحو نهر التاجه ، وإحاطة النهر بهذا المنحدر الوعر ، ثم بحصونها القوية ، وأسوارها العالية الضخمة ، من أمنع مدن العصور الوسطى . وما تزال إلى اليوم حين نتأملها ونتجول فيها ، تذكرنا بموقعها الصعب ، وطرقها الصخرية الوعرة ، وبقية أسوارها وحصونها المنيعة ، بما كان لها من سابق الحصانة والقوة فيما خلا من العصور .

وهكذا أخمدت ثورة المولدين والنصارى المعاهدين فى طليطلة إلى حين ؛ وتأهب محمد فى الوقت نفسه لقمع شغب النصارى المتعصبين فى قرطبة وغيرها ،

---

(١) يقدم إلينا ابن حيان عن هدم القنطرة قصة أخرى ، فيقول إن جنود محمد حاولوا هدم القنطرة تحت أنظار أهل المدينة ، وأنهم سخروا من هذه المحاولة ، وأيقنوا بعقمها . ثم خرجوا للقتال ، واحتشد الكثير منهم فوق القنطرة ، فانهارت تحت أقدامهم وهوت بمن فوقها إلى النهر ، وهدمت صخورها عليهم من كل ناحية ( مخطوط القرويين لوحة ٢٦٢ أ ) .

وإخماد نزعتهم الثورية الخطيرة . وحوكم القس أولوخيو الذى أشرنا من قبل إلى دعايته وتحريضه أيام عبد الرحمن ، وكان مايزال معقد الدسائس الدينية ، وقضى بإعدامه كما قضى بإعدام صاحبته ومعاونته الفتاة ليوكريسيا ( مارس سنة ٨٥٩ م ) . ورأى النصارى فتنتهم تنهار فركنوا إلى السكينة ، وخبت جذوة تعصبهم ، التى لبثت أعواماً طويلة تضطرم فى قرطبة ، ولم يبق من حماستهم سوى الذكرى(١) .

ولم يكد ينتهى الأمير محمد من إخضاع طليطلة ، حتى دهم الأندلس خطر النورمانيين مرة أخرى. فى نفس هذا العام (٢٤٥هـ — ٨٥٩ م) انحدر النورمانيون ( وهم الأردمانيون أو المجوس كما تسميهم الرواية الإسلامية ) فى سفنهم نحو شواطئ جليقية ، وعاثوا فى شاطئ اسبانيا الغربى . وتقدر الرواية الإسلامية أسطول النورمان فى هذه المرة باثنتين وستين مركباً ؛ وطاردتهم السفن الأندلسية ، وكانت دائماً على قدم الأهبة تجوس خلال المياه الغربية بصفة مستمرة استعداداً لرد أولئك الغزاة الخطرين ، مذ فاجأوا الأندلس بغاراتهم المخربة أيام عبد الرحمن . ووصلت بعض سفن النورمانيين جنوباً حتى تجاه مدينة باجة ، وهنالك استطاعت السفن الأندلسية أن تقضى على طلائع الغزاة ، وأن تنتزع سفينتين من سفنهم المحملة بالغنائم والسبى ، بيد أنهم انقضوا على الشواطىء الجنوبية ، ووصلوا إلى مصب نهر الوادى الكبير ، ثم انحدروا جنوباً حتى مياه الجزيرة الخضراء .

وفى تلك الأثناء كانت القوات الأندلسية قد سارت إلى الغرب بقيادة الحاجب عيسى بن أبى الحسن بن أبى عبدة ، وهرع الناس إلى جيش الأمير من كل صوب ، وتقدم الأسطول بقيادة أميرى البحر حشحاش وابن شكوح ، وقد عبىء أحسن تعبئة ، وجهز بالأنفاط وفرق الرماة الكثيفة ، ورد الغزاة أولا عن إشبيلية بعد عدة معارك برية وبحرية . ثم نشبت بين الفريقين بعد ذلك معركة بحرية شديدة تجاه شاطئ شذونة ، وغنم المسلمون فى البداية مركبين آخرين ، ولكن السفن النورمانية تكاثرت على جناح الأسطول الذى يقوده حشحاش ، وغلبت عليه ، وقتل أمير البحر المسلم فوق سفينته ، ثم انحدر النورمانيون صوب الجزيرة الخضراء واقتحموها ، وأحرقوا مسجدها الجامع ، وعاثوا فيها سفكاً ونهباً ، وسارت

(١) Dozy : Hist, V. I. p. 361—362

بعض سفنهم إلى شواطئ العدوة ( عدوة المغرب ) وعاثت فيها ، ثم نزلوا بشاطئ الأندلس الجنوبى ، وسارت سفنهم قبالتهم على ساحل تدمير حتى أوريولة ، فدخلوها ، وعاثوا فى تلك الأنحاء نهباً وسبياً ، واشتبكوا مع القوات الأندلسية فى عدة معارك برية وبحرية عنيفة ، حطمت فيها بعض سفنهم ، وقتل كثير من المسلمين ، واستمر عيث النورمانيين على هذا النحو أشهراً حتى خبت فورتهم ، وفقدوا كثيراً من سفنهم . فارتدوا نحو الشمال على طول شواطىءاسبانيا الشرقية ، ونفذت منهم قوة خلال نهر إبره إلى ناڤار ، واقتحموا عاصمتها بنبلونة وأسروا ملكها غرسية ، ولم يطلقوه إلا لقاء فدية كبيرة ، وأغارت قوات أخرى منهم على الجزائر الشرقية وشواطئ پروڤانس حيث عبروا مصب الرون ، وخربوا آرل ونيمة وڤالانس .

وهكذا لم تكن الغزوة النورمانية فى هذه المرة مفاجأة مثلما كانت الغزوة الأولى ، ولم يكن عيث الغزاة على نفس النطاق الواسع . وهذا ما يسجله لنا ابن حيان فى ختام حديثه عنها ، إذ يقول : « فلم يكن لهم فى هذه الكرّة الإنبساط فى البحر ، والإضرار بأهل السواحل ما جرت به عادتهم ، ولم يجدوا فى السواحل مطمعاً لشدة ضبطها ، ولاقوا مع ذلك من البحر هولا عطبت له من مراكبهم أربعة عشر مركباً بناحية البحيرة من الجزيرة ، فنكبوا عن حائط الأندلس ، واعتلوا إلى جهة الفرنجة ، فلم يلقوا ظفراً ، وأسرعوا الانصراف إلى بلدتهم بالخيبة ، فلم تكن لهم بعد بالأندلس إلى اليوم عودة »(١) .

وفى العام التالى أعنى سنة ٢٤٦ هـ ( ٨٦٠ م ) بعث محمد حملة إلى الولايات الشمالية بقيادة حاكم طرطوشة . ويقول لنا ابن حيان إن الأمير محمد هو الذى غزا بالصائفة بنفسه فى تلك السنة . وكان غرسية ملك ناڤار ، قد تحالف عقب انطلاقه من أسر النورمان مع أردونيو ملك ليون ، وأغارت قواتهما المتحالفة على الأراضى الإسلامية . وعلى أى حال فقد زحفت القوات الأندلسية على ناڤار ، ولم تكن قد

---

( ١ ) تختلف الرواية الإسلامية فى تاريخ هذه الغزوة النورمانية الثانية لشواطىء الأندلس ، فيضعه الرازى فى سنة ٢٤٥ هـ ( ٨٥٩ م ) . ويتابعه فى ذلك ابن الأثير وابن عذارى . ويضعها هشام ابن معاوية الشبينسى فى سنة ٢٤٧ هـ ( ٨٦١ م ) ، وقد أخذنا بالرواية الأولى لأنها أرجح وأكثر اتفاقاً مع سير الحوادث . راجع فى تفاصيل الغزوة ، ابن حيان فى مخطوط القرويين لوحة ٢٦٣ أ و ب و ٢٦٤ أ ، والعذرى فى « الأوراق المنثورة من ترصيع الأخبار » ص ١١٨ و ١١٩ ، وابن الأثير ج ٧ ص ٢٨ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٩٩ .

أفاقت بعد من ضربة النورمانيين ، وغزت بنبلونة وخربت حصونها . ولم تقو جموع غرسية على رد المسلمين ، واستمر المسلمون بضعة أسابيع يخربون بسائط نافار وينتسفون قراها وحصونها ، وكان من بين الأسرى فرتون ولد غرسية ، فأخذ إلى قرطبة حيث اعتقل زهاء عشرين عاماً(١) .

وفى صيف سنة ٢٤٧ هـ ( ٨٦١ م ) سارت حملة أندلسية أخرى إلى ألبة والقلاع . وكان موسى بن موسى قد طلب إلى محمد أن يكون طريق الحملات الغازية عن غير منطقته ، نظراً لما يتجشمه فى مقارعة النصارى من جهد ، وما يصيب أراضيه من الدمار ، فأجابه الأمير إلى طلبه ، وسارت الحملة من طريق آخر ، وعاثت فى أراضى النصارى .

وكان موسى بن موسى بن قسيّ يومئذ ، قد بسط نفوذه على بسائط قواعد الثغر الأعلى ، وأصبح سيداً لتطيلة ووشقة وسرقسطة وأحوازها . وكان هذا الزعيم القوى الذى يرجع حسبما أسلفنا إلى أصل نصرانى ، وله مصاهرة وقرابة مع الأمراء النصارى ، ينتهز كل فرصة لتدعيم استقلاله ، وكان يتشح بلقب الإمارة ، ولم يكن يدين لحكومة قرطبة إلا بنوع من الولاء الإسمى . وكانت علائقه مع أردونيو ملك ليون جاره من الغرب ، تتردد بين الخصومة والتحالف وفقاً للظروف . وكان أردونيو ينظر إلى اتساع ولايته من ناحية الغرب بعين القلق ، وموسى من جانبه يحرص على تحصين قواعده وحدوده ؛ ففى سنة ٢٤٨ هـ (٨٦٢م) سار موسى فى قواته إلى الغرب لتحصين قواعده الغربية ومعه صهره غرسية أمير نافار ؛ وحاول أردونيو من جانبه أن يحبط هذه الحركة ، فهاجم بعض الحصون التابعة لموسى وفى مقدمتها حصن « البلدة » الواقع على نهر إبره على مقربة من قلهرّة ، ونشبت بين الفريقين معركة جرح فيها موسى جراحاً خطيرة ، وهزمت قواته وقتل منها عدد كبير من المسلمين والنصارى ، وقتل صهره غرسية ، وهدم أردونيو حصن البلدة وغيره من الحصون التى تحمى أراضى ابن قسى ، ولم يمض سوى قليل حتى توفى موسى نفسه متأثراً بجراحه ، وكانت وفاته نذيراً بتطور الحوادث فى الثغر الأعلى .

وذلك أن موسى بن موسى كان بالرغم من استقلاله عن حكومة قرطبة ،

---

( ١ ) راجع البيان المغرب ج ٢ ص ٩٩ و ١٠٠ ، ومخطوط القرويين اللوحة ٢٦٣ أ .

يقف بقواعده وقواته فى الشمال الشرقى ، سداً منيعاً فى وجه النصارى . فلما توفى أعلن ولده لب خضوعه لأردونيوملك ليون، وتحالف معه ضد المسلمين، وزحف على وادى الحجارة يبغى الاستيلاء عليها ، فرده عنها حاكمها ابن سالم . وأصابته خلال المعركة جراح توفى منها وهو فى طريق العودة إلى تطيلة ، وحل أخوته الثلاثة إسماعيل ومطرِّف وفرُتون مكان أبيهم فى حكم القواعد الشمالية . وهنا رأت حكومة قرطبة أن تضاعف أهباتها لرد النصارى عن الولايات الشمالية . ففى صيف سنة ٢٤٨ هـ ( ٨٦٣ م ) سار عبد الرحمن ابن الأمير محمد على رأس حملة كبيرة إلى ألبة والقلاع ، ومعه القائد عبد الملك بن العباس القرشى ، فجاس خلالها وخرب بسائطها . واشتبك النصارى بقيادة ملكهم أردونيو مع المسلمين فى معركة عنيفة ، وهزموا على أثرها هزيمة شديدة ، وقتل عدة من قوادهم[١]. ولم يمض عامان حتى سير محمد ولده عبد الرحمن مرة أخرى ، إلى غزو ألبة والقلاع (٢٥١ هـ — ٨٦٥ م) . ويقول لنا ابن حيان إن الذى كان على رأس هذه الغزوة هو المنذر بن عبد الرحمن ، وكانت قيادة الجيش للحاجب عيسى بن الحسن بن أبى عبدة . وعلى أى حال فقد سار المسلمون بحذاء نهر إبره ، واستولوا على معظم حصون أكابر النبلاء والسادة فى تلك المنطقة . وحاول أردرنيو كعادته أن يعترض سبيل المسلمين عند العودة، وقد كمن لهم فى موضع يسمى «بفج المركور» على مقربة من نهر إبره ، أفرغ جهده فى تحصينه ، فنشبت بينه وبين المسلمين على ضفاف النهر معركة شديدة، كانت الدائرة فيها على النصارى ، فقتل وأسر منهم عدد كبير وغرق الكثير منهم فى النهر ، ومزقوا كل ممزق[٢]. وفى العام التالى سارت حملة أخرى إلى الشمال بقيادة الحكم بن محمد ، فعاث فى أرض النصارى ، و استولى على بعض الحصون . وكانت هذه الغزوات المتوالية قد هدت من قوى النصارى ، ومزقت شملهم وخربت بلادهم ، فركنوا إلى السكينة ، وتوفى ملكهم أردونيو فى الوقت نفسه ( ٨٦٦ م ) فخلفه ولده ألفونسو الثالث الذى لقب فيما بعد بألفونسو الكبير .

— ٢ —

كان حرياً بعد أن هدأت ثائرة النصارى فى الشمال ، أن تتمتع حكومة قرطبة

( ١ ) ابن حيان فى مخطوط القرويين لوحة ٢٩٥ أ

( ٢ ) البيان المغرب ج ٢ ص ١٠٢ . ومخطوط القرويين لوحة ٢٦٥ ب .

بفترة من السلام والدعة . ولكن الخطر كان يجثم فى ناحية أخرى. ذلك أن عوامل الانتقاض والثورة كانت تجتمع من جديد فى شمال غربى الأندلس ، فى المناطق الجبلية التى ألفت الثورة واتخذتها شعاراً لها . ولم تكن حكومة قرطبة بغافلة عن هذه النذر . وكانت ماردة وبها عدد من زعماء المولدين المتمردين ، فى مقدمة القواعد التى يشك فى ولائها وطاعتها . ففى سنة ٢٥٤هـ ( ٨٦٨ م) خرج الأمير محمد على رأس جنده من قرطبة ، متظاهراً بالسير إلى طليطلة ، ولكنه عرج فى منتصف الطريق فجأة على طريق ماردة ، ودهمها قبل أن تستعد للقائه ، فتحصن بها أهلها . ثم اقتحمها محمد ، ووقع بين الفريقين قتال عنيف انتهى بسحق الثوار وإذعان المدينة ، وطلب الزعماء الثائرون الأمان وفى مقدمتهم عبد الرحمن بن مروان الجليقى، وابن شاكر ، ومكحول ، وغيرهم ، وهم من أكابر الفرسان والسادة ، فنقلهم الأمير بأموالهم وأهلهم إلى قرطبة ، وولى على ماردة سعيداً بن عباس القرشى ، وهدم حصونها وأسوارها[1] .

وكانت الحوادث تتطور فى الثغر الأعلى فى نفس الوقت تطوراً خطيراً . وكان الأمير محمد قد استطاع عقب وفاة موسى بن موسى أن يسترد سلطانه فى تلك الأنحاء ، وأن ينتزع القواعد الشمالية من أبنائه ، ويعين لها حكاماً من قبله . وكان بنو موسى أو بنو قسىّ ، نسبة إلى جدهم الأعلى الكونت قسىّ القوطى ، يرجعون كما أسلفنا إلى أصل نصرانى ، وكانت هذه الأسرة المتمردة الشديدة المراس ، كباقى الأسر القوية المولدة ، تبغض حكومة قرطبة، وتميل إلى مناوأتها والتحالف ضدها مع النصارى ، وكان بنو قسى أصهاراً لملك ناقار النصرانى ، حيث كان غرسية زوجاً لابنة موسى المسماة « أوْرية » Oria ، فلما توفى موسى وانتزعت حكومة قرطبة قواعده من يد بنيه ، لجأ هؤلاء حيناً إلى حماية ملك ليون ، حتى تسنح لهم فرصة العمل ومعاودة الجهاد . على أن حكومة قرطبة لم تلق فى حكامها الذين اختارتهم للقواعد الشمالية ما كانت تؤمل من ولاء وإخلاص . ففى سنة ٢٥٥هـ ( ٨٦٩ م ) ثار سليمان بن عبدوس فى مدينة سُرية وهى من أعمال سرقسطة ، فسار إليه الحكم بن الأمير محمد ، وحاصر سرية وهدم أسوارها بالمجانيق ، وأرغم الثائر على الخضوع والطاعة ، وبعث به إلى قرطبة . وفى العام التالى ( ٢٥٦ هـ )

---

(١) ابن الأثير ج ٧ ص ٦٢ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٠٣ ، ومخطوط القرويين لوحة ٢٦٨ أ .

ثار عمروس بن عمر بن عمروس أحد زعماء الثغر ، وغدر بموسى بن غلند عامل وشقه وانتزعها منه . وعمروس هذا هو حفيد عمروس بن يوسف بطل واقعة الحفرة بطليطلة ، وقد كان بنو عمروس مثل بنى قسى مولدين من أصل نصرانى ، لا يشعرون بأى ولاء حقيقى لحكومة قرطبة . فسير عامل الثغر عبد الوهاب بن أحمد بن مغيث الجند لمقاتلة الثائر ، فلما انتهت إلى وشقة فر عنها عمروس ، وأسر بها حفيده لب بن زكريا بن عمروس ، وقتل وعلق رأسه على سور المدينة . وفى سنة ٢٥٧ هـ ( ٨٧١ م ) أرسل محمد حملة جديدة إلى الثغر الأعلى بقيادة عبد الغافر بن عبد العزيز ، فطارد فلول عمروس ، وقبض على ولده زكريا وأبنائه وجماعة من أهله ، وقتلهم على باب مدينة سرقسطة ، وقفل إلى قرطبة ورؤوسهم مرفوعة بين يديه[1] ، ولاح أن الثورة قد أخمدت فى الشمال

ولكن الواقع أن الثورة عادت لتضطرم فى الشمال بأقصى شدتها . ذلك أن القوات الأندلسية ما كادت تعود إلى قرطبة حتى ظهر بنوقسى فى الميدان مرة أخرى ، وزحف مطرف وأخوه إسماعيل ابنا موسى بن موسى على تطيلة ، فانتزعاها من حاكمها عبد الوهاب بن مغيث ، كما انتزعا سرقسطة من ولده محمد ابن عبد الوهاب ؛ وملك مطرف تطيلة فى صفر سنة ٢٥٨ هـ (٨٧١ م) ، وملك إسماعيل سرقسطة فى ربيع الأول من نفس العام . وهنا عول محمد على أن يخرج إلى الثوار بنفسه . فسار فى العام التالى على رأس جيشه ( ٢٥٩ هـ — ٨٧٢ م ) وعرج فى طريقه على طليطلة ، حيث عقد لأهلها الأمان وأخذ الرهائن . ثم سار إلى الثغر الأعلى ، وزحف تواً على تطيلة واستولى عليها . وقبض فيها على مطرف ابن موسى وأبنائه . وفى رواية أخرى أن مطرفاً كان قد ملك وشقة إلى جانب تطيلة واستقر بها ، وأن عمروساً صاحب وشقه السابق استطاع أن يؤلب أهلها على مطرف ، وانتهى بأن انتزعها منه ، وقبض عليه وعلى ولده وزوجته وهى بنت غرسية ملك نافار وتزوجها . فلما قدم الأمير فى جيشه سارع عمروس بإعلان طاعته ، والتمس الأمان ، فأجابه الأمير إلى ما طلب ، وأقره على ولاية وشقة وأعمالها ، وتسلم منه مطرفاً وأولاده[2] . واتجه الأمير بعد ذلك إلى نافار فخرب

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١٠٣ ، ومخطوط القرويين لوحة ٢٦٩ أ .

(٢) هذه هى رواية عيسى بن أحمد الرازى ، نقلها إلينا ابن حيان فى مخطوط القرويين لوحة ٢٧٠ ب .

بسائطها، ثم عاد إلى قرطبة وأمر بقتل الثائر مطرّف وبنيه الثلاثة : ورفعت رؤوسهم على باب القصر . وفى العام التالى ( ٢٦٠ هـ ) سير محمد إلى الشمال مع ولده المنذر جيشاً بقيادة هاشم بن عبد العزيز . فزحف المنذر إلى سرقسطة وعاث فى نواحيها ، وانتسف أشجارها وزروعها ، وجعلها قاعاً صفصفاً ، ولكنه لم يستطع انتزاعها من يد المتغلب عليها اسماعيل بن موسى . وكان أخوه فُرتون قد حل فى تطيلة مكان أخيه مطرف ، وتحالف الثائران مع ألفونسو الثالث ملك ليون ، فسار المنذر إلى وشقة ، ثم إلى بنبلونة عاصمة ناقار ، وعاث فى تلك الأنحاء ، ولكن جهوده لم تسفر عن أية نتائج مستقرة[1] .

وشغلت حوادث الشمال وثورة بنى موسى حكومة قرطبة أعواماً طويلة . فى سنة ٢٦٤ هـ (٨٧٨ م) سار المنذر مرة أخرى إلى الثغر الأعلى ، وعاث فى بسائط سرقسطة وتطيلة ، ولكنه لم يظفر بالاستيلاء عليهما . ثم زحف على بنباونة ، فخرب بسائطها ، وأتلف زرعها ، وقتل كثيراً من أهلها . وفى العام التالى ( ٢٦٥ هـ ) ، عاد المنذر إلى غزو الثغر الأعلى ، وحاصر مدينة سرقسطة وسائر بلاد بنى قسىّ ، وعاث فيها إتلافاً وتخريباً . ومع ذلك فقد لبث الشمال بعيداً عن سلطان قرطبة بضعة أعوام أخرى . وكانت جنبات الأندلس الأخرى تضطرم فى الوقت نفسه بسلسلة من الثورات المدمرة حسبما نفصل بعد ، ولكن حكومة قرطبة كانت تعلق على قواعد الثغر الأعلى أهمية خاصة ، لوقوعها على حدود الممالك النصرانية . فى سنة ٢٦٨ هـ ( ٨٨٢ م ) سير الأمير محمد ولده المنذر إلى الشمال على رأس جيش ضخم ، ومعه القائد هاشم بن عبد العزيز . وكان المنذر قائداً مجرباً ذا شجاعة وبأس ، وكان يعتزم هذه المرة أن يسحق الثورة وزعماءها فى الشمال . فزحف تواً على سرقسطة ، ولما لم ينجح فى اقتحامها ، تحول إلى الحصون الواقعة حولها فخربها واستولى عليها ، وافتتح حصن روطة أمنع حصونها وأسر به عبد الواحد الروطى « أشجع أهل عصره »[2] ثم استولى على لاردة وما حولها من الأنحاء ، وانضم إليه محمد بن لب بن موسى ، وكان ساخطاً على عميه لاستئثارهما دونه بالسلطان . ولما رأى إسماعيل بن موسى صاحب سرقسطة

---

( ١ ) مخطوط القرويين لوحة ٢٧٢ أ .

( ٢ ) ابن الأثير ج ٧ ص ١٢٢ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٠٧ . وفى رواية أخرى أن هاشم بن عبد العزيز اشترى حصن روطة من صاحبه عبد الواحد ولم يفتتحه ( العذرى فى كتاب « ترصيع الأخبار » ص ٣٥ ) .

عبث المقاومة ، أعلن خضوعه وطاعته للأمير وقدم رهائنه . وزحف المنذر بعد ذلك على ألبة واخترقها إلى قشتالة (القلاع ) ، وتأهب النصارى للقائه بقيادة ملكهم ألفونسو الثالث . ولكن جرت مفاوضة بين الفريقين انتهت بعقد الهدنة ، وعاد المنذر إلى قرطبة ظافراً .

وما كاد المنذر يرتد إلى قرطبة ، حتى نشب الخلاف بين إسماعيل بن موسى وابن أخيه محمد بن لب ، وكان إسماعيل يحقد عليه لتحالفه مع المنذر . وانتهى القتال بينهما إلى انتصار محمد بن لب ، واستيلائه على سرقسطة ، وأسره لعمه إسماعيل . وحكم محمد سرقسطة باسم الأمير محمد . ولكن الأمير أراد أن ينتزع ولايتها منه ، فسخط عليه وأعلن خروجه عن طاعته ، وتحالف مع ألفونسو الثالث ملك ليون . فبادر الأمير محمد بإرسال قواته مرة أخرى بقيادة ولده المنذر وهاشم بن عبد العزيز ، إلى الثغر الأعلى ( ٢٧٠ هـ — ٨٨٣ م ) . فسار المنذر إلى سرقسطة واستولى عليها بعد قتال عنيف ، وأخرج منها محمد بن اب . وفى رواية أخرى أن محمداً بن لب سلم سرقسطة صلحاً وفقاً لاتفاق تم بينه وبين المنذر نظير قدر كبير من المال[1] . وكان من ضباط جيش الأمير فى تلك الغزوة عمر بن حفصون الزعيم الخارج الذى سيجىء ذكره فيما بعد . ثم اخترق المنذر ألبة لمقاتلة النصارى حلفاء الثائر . ولكن المفاوضات انتهت بعقد الهدنة بين الفريقين . وأرسل ألفونسو الثالث سفيراً إلى قرطبة هو القس دولثديو ليضع قواعد الصلح مع أمير الأندلس ، فنجح السفير فى مهمته وعاد إلى أوبييدو عاصمة ليون ، ومعه رفات القس أولوخيو وصاحبته ليوكريسيا ، وهما اللذان أعدما بقرطبة قبل ذلك بنحو عشرين عاماً ، ونظمهما النصارى فى سلك القديسين .

ولنترك الآن حوادث الثغر الأعلى لحظة لنستعرض ما حدث خلال هذه الأعوام المليئة بالفتنة فى أنحاء الأندلس الأخرى . فى ماردة وبطليوس عادت الثورة إلى الاضطرام . وذلك أن عبد الرحمن بن مروان الملقب بالجليقى — لانتمائه

---

( ١ ) نقل إلينا هذه الرواية العذرى فى كتابه « ترصيع الأخبار » وفيها أن محمداً بن لب تقاضى نظير تسليمه سرقسطة خمسة عشر ألف دينار . وكان ذلك فى سنة ٢٦١ هـ . ( الأوراق المنشورة من الكتاب المذكور ص ٣٥ ) . هذا وقد أورد لنا العذرى تفاصيل كثيرة عن موسى بن موسى بن قسى وأولاده وأحفاده ، وثوراتهم ، وما خاضوه من الوقائع المختلفة فى الثغر الأعلى زهاء نصف قرن ( الأوراق المذكورة ص ٢٩ — ٤٠ ) .

إلى أسرة من المولدين أصلها من ولاية جليقية فى شمال البرتغال — استطاع أن يفر من قرطبة مع نفر من صحبه . وكان بنو الجليقى قد استقروا بماردة منذ أمد طويل ، وتولى أبوه مروان بن يونس الجليقى حكم ماردة أيام الأمير عبدالرحمن، فلما اضطرمت الثورة بماردة قتله أهلها (سنة ٢١٣ ﻫ) . وكان ولده عبد الرحمن طموحاً لا يشعر بالولاء نحو حكومة قرطبة ، فانتظم فى سلك الخوارج ، واشترك فى الثورة ضد الأمير محمد . فلما أخمدت الثورة وتم إخضاع ماردة فى سنة ٢٥٤ ﻫ (٨٦٨ م) قبض الأمير على عبد الرحمن الجليقى ونقله مع باقى الزعماء الثائرين إلى قرطبة حسبما تقدم . وكان فرار الجليقى من قرطبة فى أوائل سنة ٢٦١ ﻫ (٨٧٥ م) على أثر مشادة وقعت بينه وبين القائد هاشم بن عبدالعزيز كبير الوزراء أهانه خلالها وصفعه؛ فغادر قرطبة خفية مع جمع من أنصاره ، واستولى على قلعة ألانية (أو قلعة الحنش)[1] فى جنوبى ماردة وتحصن بها ؛ واستولى زميله فى الخروج والعصيان مكحول ابن عمر على قلعة جلمانية[2] القريبة منها . واجتمع إليهما جمع غفير من المارقين والمتمردين، واشتدعيثهما فى سائر الأنحاء المجاورة . وعندئذ سار الأمير لقتال الثائرين فى قوة كبيرة . فلما علما بمقدمه استغاثا بزميلهما القديم سعدون بن عامر المعروف بالسرنباقى ، وهو أيضاً من زعماء الثوار المولدين ، وكان يعيش فى كنف ألفونسو الثالث ملك ليون فى مدينة برتقال جنوبى حليقية، فسار إليهما فى قوة من صحبه ، وانضم إلى قوات ابن مكحول . فضرب الأمير الحصار حول القلاع الثائرة ، وقطع عنها الماء ، واشتد فى ذلك ، وجنده ترهق المحصورين كلما طلبوا الحصول على الماء والمؤن خارج الأسوار . فلما ضاقوا بالحصار ذرعاً ، اضطر عبد الرحمن الجليقى أن يستجير بعبد الله ولد الأمير ، وأن يوسطه فى الشفاعة والإذعان إلى طلب الأمان . وكان عبد الله لين العريكة محباً للسلم ، فتوسط لدى والده الأمير ، وألح حتى أسعفه بما طلب ، ووافق على منح الأمان للثائر ، على أن ينزل له عن قلعة الحنش ، وينصرف وقومه إلى بطليوس ، وكانت يومئذ خالية مجردة من الحصون فينزلون بها ، ويقومون بتعميرها . فقدم ابن مروان رهائنه وهم ولده محمد وثلاثون من أكابر قومه، وسار إلى بطليوس وصحبه ،ونزلها وأخذ فى تعميرها

(١) هى بالإسبانية **Alange** .

(٢) هى بالإسبانية **Jurumena** ، وهى تقع على مقربة من غربى بطليوس .

وماكاد الأمير يرتد أدراجه إلى قرطبة ، حتى حشد ابن مروان أنصاره من كل ناحية ومعظمهم من أهل الشر والمولدين الناقمين ، وأخذ فى تحصين بطليوس ، وإعدادها للدفاع والمقاومة ، وبعث جواسيسه إلى قرطبة ، يتعرفون أخبار الأمير ويترصدون حركاته ، ويبعثون بها إليه تباعاً . ثم عقد حلفاً مع ألفونسو الثالث ملك ليون . وكان يدعو أنصاره إلى مذهب دينى جديد هو خليط من تعاليم الإسلام والنصرانية . واستمر على هذا النحو زهاء عام آخر ، وهو يغير على الأنحاء المجاورة ويرهق أهلها ، ويستلب أموالهم ومتاعهم .

فلما اشتد عيثه ، وضج المسلمون فى تلك الأنحاء من شره وعدوانه ، وجاهر هو من جانبه بالعصيان وخلع الطاعة ، اعتزم الأمير محمد أن يعاقبه ويقمع شره بطريقة حاسمة ، فجهز إليه حملة كبيرة برياسة ولده المنذر ، وجعل قيادتها لوزيره الأثير هاشم بن عبد العزيز . وسارت هذه الحملة صوب بطليوس فى شهر شعبان سنة ٢٦٢ هـ (٨٧٦ م) ، فلما علم ابن مروان بمقدم جند الأمير ، وشعر بصعوبة الدفاع عن بطليوس لاتساعها ، غادرها مع قواته ، وانضم إليه كثير من المولدين من الأنحاء المجاورة ممن خشوا بطش قوات الأمير بهم ، ونزل بحصن كركى أو كركو القريب وامتنع به ، وبعث إلى سعدون السرنباقى فى طلب النجدة . وسار المنذر وهاشم إلى بطليوس ، فألفياها خالية ، فسارا فى أثره ، واحتل هاشم حصن منت سلود ( منت شلوط ) الواقع جنوبى بطليوس خوفاً من أن يحتله الثوار ، وضرب المنذر الحصار حول حصن كركى . وفى تلك الأثناء قدم سعدون السرنباقى فى صحبه ، ومعه قوة كبيرة من النصارى أمده بها ملك ليون ، واشتبك فى طريقه بمدينة قُلُمرية بحاميتها ، وهم قوم من البربر من بنى دانس من مصمودة ، وفتك بهم ، وكانوا على الطاعة ، فبعثوا إلى هاشم بن عبد العزيز يستغيثون به . ووقف هاشم من طلائعه على مقدم سعدون وقواته ، وما فعله بأهل قلمرية ، فخرج إلى لقائه متحمساً تواقاً إلى الانتقام ، وكان سعدون قائداً مجرباً وافر الجرأة ، وكانت لديه فرق مختارة من الفرسان والرماة ، فرتب معظم قواته وراء التلال ، وتقدم للقاء قوات هاشم ، واعتقد هاشم أنه يستطيع سحق الثوار بأيسر أمر ، والتقى الفريقان فى مخاضة النهر جنوبى بطليوس ، وفاجأت خيل سعدون قوات الأندلس وأرهقتها ، وكثر فيها القتل ، وتقدم هاشم بن عبد العزيز إلى المعمعة ،

بعيداً عن مركز قيادته ، فأصابته جراح ، وأحاطت به فرسان العدو ، وكادت تجهز عليه ، لولا أن عرفه بعضهم ، فقبض عليه ، وحمله معه سعدون أسيراً إلى حصن منت سلود ، وكانت قوات الأمير قد غادرته . وكانت هزيمة قوات الأندلس ، وأسر قائدهم على هذا النحو ، فى الثانى عشر من شهر شوال سنة ٢٦٢ هـ ( يونيه سنة ٨٧٦ م ) . ولما علم المنذر بن محمد بما وقع لجنده من الهزيمة وأسر هاشم ، وكان مقيماً على حصار الحليق ، شدد فى الحصار أياماً أخر ، ثم انصرف قافلا ببقية الجيش إلى قرطبة . وسار الحليق وسعدون ومعهما أسيرهما القائد هاشم غرباً ، وهما يعيثان فساداً فى الأرض . وحصل الحليق أولا على هاشم ، وكان يؤمل أن يتخذه أداة للمساومة مع الأمير ، ولكن سعدون استرده منه فيما بعد ، خوفاً من غضب سيده وحاميه ملك ليون ، وتوجه به سعدون بالفعل إلى ألفونسو الثالث ، فتسلمه وحصل فى يده ، واستمر أسيراً لديه بمدينة أوبييدو زهاء عامين ، حتى تم الإفراج عنه لقاء فدية كبيرة بلغت مائة وخمسين ألف دينار[1] .

واستمر ابن مروان أعواماً وهو يسيطر على منطقة بطليوس ، ويعيث فى أنحائها فساداً ، ويخرج منها للإغارة على ناحية الغرب حتى أشبونة ، وجنوباً حتى باجة وأطراف أكشونبة ، ثم أن بعض أصحابه اختلفوا معه ، وغادروه إلى بلدهم ماردة بعد أن حصلوا على أمان من الأمير . ولما شعر بقلة جمعه ، وخشى مطاردة الأمير وانتقامه ، عول على أن يحذو حذو صاحبه سعدون فى الالتجاء إلى ملك جليقية ، فقبل الملك النصرانى ملتمسه ، وأنزله مع صحبه فى حصن بطرسة بوادى دويره على مقربة من ليون ، ولبث فى كنفه أعواماً . ثم دب الخلاف بينهما بسبب غارة قام بها ملك جليقية فى منطقة بطليوس ومعه ابن مروان ، وفيها بالغ الملك النصرانى فى قتل المسلمين ، ومعظمهم من أصحاب ابن مروان ورعاياه السابقين (سنة ٢٦٦ هـ — ٨٧٩ م ) . فغادره ابن مروان مغضباً ، وعاد إلى منطقة بطليوس ، ليستأنف غاراته وعيثه فى أراضى النواحى المجاورة . وفى سنة ٢٧١ هـ ( ٨٨٥ م ) سير إليه الأمير محمد ولده المنذر فى قوة كبيرة ، فزحف على بطليوس ، ففر منها

---

( ١ ) لخصنا ما تقدم من رواية عيسى بن أحمد الرازى المسهبة التى نقلها إلينا ابن حيان ؛ وقد وردت فى مخطوط القرويين فى اللوحات ٢٦٧ أ و ب و ٢٧٣ أ و ب و ٢٧٤ أ و ب ، و ٢٧٦ ب و ٢٧٧ أ حتى ٢٨٠ أ . وراجع البيان المغرب ج ٢ ص ١٠٤ و ١٠٥ .

ابن مروان وتحصن بجبل « أشيروغيره »[١] فأحرق المنذر بطليوس ودمر حصونها .
وفى العام التالى سارت حملة أخرى بقيادة الوزير هاشم إلى « أشيروغيره » لقتال ابن مروان ، فحاصره حيناً ثم ارتد عنه دون إخضاعه . ولما أعيا الأمير أمره ، انتهى أخيراً إلى قبول شروطه فى الاستقلال بحكم بطليوس وما جاورها ، والإعفاء من المغارم والفروض[٢] .

ووقعت فى ذلك الحين ثورات محلية أخرى ، فخرج فى شنت برية[٣] مظفر ابن موسى بن ذى النون وزحف على طليطلة ، فلقيه جندها فهزمهم ، وقوى أمره فى تلك الجهة ، وأضاف إلى شنتبرية ما حولها من البلاد والحصون .

ويرجع ظهور بنى ذى النون ، وهم سادة مملكة طليطلة أيام الطوائف ، إلى ذلك العهد . وخلاصة ما تقدمه إلينا الرواية فى ذلك ، هو أن جدهم ذا النون (أو زنون) بن سليمان الهوارى ، كان زعيماً لشنت برية من أعمال قونقة ، ومر به الأمير محمد فى بعض غزواته إلى الثغر ، وقد مرض له خصى من أكابر فتيانه ، فتركه عند ذى النون حتى يحدث الله فيه أمره . فاعتنى به ذو النون حتى برئ من علته ، وصحبه بنفسه إلى الأمير بقرطبة ، فكافأه الأمير بأن أقره على ناحيته .
واستقام ذو النون على الطاعة حتى توفى ، وخلفه ولده موسى ، فنبذ الطاعة ، وانتظم فى سلك الخوارج ؛ ولما توفى سار ولده مظفر على خطته ، وأضحى بنو ذو النون من زعماء الفتنة فى الثغر الأوسط[٤]. وخرج أسد بن الحرث بجهة رندة[٥] وأخذ ضرام الفتنة ينساب إلى كل ناحية ، ونشط النصارى فى الشمال ، يتربصون لإذكاء الفتنة ، وانتهاز الفرصة السانحة للإغارة على الأراضى الإسلامية .

وانبعثت من هذا الضرام شرارة فى الجبال الجنوبية ، قدر لها أن تستفحل بسرعة ، وأن تغدو أخطر ما يهدد سلام الأندلس وعرش بنى أمية . فى جبل بُبَشتر[٦] ، فيما بين رندة ومالقه ، ظهر عمر بن حفصون أعظم ثوار الأندلس ،

---

(١) واسمه بالإسبانية Esparragosa . وهو يقع بين نهر وادى يانة وجبال المعدن .
(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ١٠٥ و١٠٦ و١٠٨ . وراجع Dozy : Hist.; V. II p. 8-11
(٣) وهى بالإسبانية Santaver وهى تقع جنوب شرق وادى الحجارة . وهى غير شنتمرية الشرق .
(٤) مخطوط القرويين لوحة ٢٧٢ ب .
(٥) ابن خلدون ج ٤ ص ١٣١ .
(٦) وبالإسبانية Bobastro

وأشدهم مراساً ، وأخطرهم جانباً . وكانت سلسلة الجبال الواقعة بين رندة ومالقة مأوى الأشقياء والعصاة . وكان عمر سليل أسرة من المولدين ترجع إلى أصل نصرانى قوطى . وقد سجلت لنا الرواية الأندلسية نسبته ، فجده عند الفتح هو ألفونسو القس، وجده الرابع جعفر هو أول من اعتنق الإسلام من أسرته[١]. ونشأ بيتهم فى تاكرنّا من أعمال رندة . وكان والده حفصون ذا مال ووجاهة . ونشأ ولده عمر فاسداً سيئ السيرة ، عنيفاً يعتدى على النفس والمال ، ولم يلبث أن هجر أسرته وأطلق العنان لأهوائه وغيه ، والتف حوله جماعة من أهل الفساد والبغى ، فألف منهم عصابة معتدية ناهبة ، ونزل بمكان منيع بجبل بُبَشْتر الواقع شمال شرقى جبال رندة ، وكان ذلك فى سنة ٢٦٧ هـ (٨٨٠ م) . وقد وصف لنا ابن حيان مؤرخ الأندلس ابن حفصون عند ذكر الخوارج فى تلك العبارة الجامعة : « إمامهم وقدوتهم عمر بن حفصون ، أعلاهم ذكراً فى الباطل ، وأضخمهم بصيرة فى الخلاف ، وأشدهم سلطاناً ، وأعظمهم كيداً ، وأبعدهم قوة »[٢] .

ويشرح لنا الرازى البواعث الأولى لهذه الفتنة التى اضطرمت فى كورة ريُّه والجزيرة ، فيقول لنا إن السبب فى تحريكها يرجع إلى عنف يحيى بن عبد الله ابن يحيى عامل الأمير محمد فى كورة ريه ، فى مطالبته لأهلها ببقايا عشور تأخرت عليهم ، واشتطاطه فى ذلك وإرهاقهم ، فامتنعوا عليه واعتصموا بجبالهم ، وتأهبوا للدفاع عن أنفسهم ، فحشد يحيى بن عبد الله قواته لقتالهم ، واستدعى أخاه أحمد ابن عبد الله عامل كورة الجزيرة بقواته لمعاونته فى حربهم ، ونشبت بين قوات الأمير وبين الخوارج معارك عنيفة قتل فيها كثير من الفريقين ، وكان ذلك فى سنة ٢٦٥ هـ (٨٧٨ م) . وفى العام التالى سار بالصائفة إلى كورة ريه عبدالله ابن الأمير محمد ، وعلى قيادة الجيش الحاجب هاشم بن عبد العزيز ، وكان قد أطلق سراحه من الأسر ، وعاد إلى سابق مكانته لدى الأمير محمد ، واستأنف القيادة لأول مرة ، فاشتد فى مطاردة الخوارج ، ومزق جموعهم ، وأنشأ عدة

---

(١) قال ابن خلدون عن ابن حيان إنه عمر بن حفصون بن عمر بن جعفر بن دميان بن فرغلوش ابن أدفونش القس (ج ٤ ص ١٣٤) . وزاد عليها صاحب البيان المغرب اسما آخر (ج ٢ ص١٠٨) .

(٢) ابن حيان فى المقتبس ، وهو السفر الثالث المطبوع بعناية المستشرق الأب ملشيور أنتونيا (باريس ١٩٣٧) ص ٩ .

من الحصون لمدافعتهم ، ولكن الفتنة لم تقمع ، وظلت سحب الخروج والعصيان قائمة ، وعمت الفوضى كورة ريه بأسرها .

فى هذا الأفق المضطرم ظهر ابن حفصون ؛ وكانت حوادث ريه مقدمة هذه الفتنة الهائلة التى تزعمها فى جنوبى الأندلس ، والتى يصفها الرازى بأنها « طمت على جميع فتن الأندلس ، بعمومها وامتداد أيامها ، ودفع أهل الشرور منهم نحوها »[1]. وأخذ ابن حفصون ينتهز كل فرصة للإغارة على أطراف إقليم ريه ويوسعها تخريباً وسبياً ونهباً ، ثم يعتصم بأوكاره فى جبل ببشتر ، فلما اشتد عيثه وعدوانه ، سار إليه عامل ريه ، عامر بن عامر فى بعض قواته ، فهزمه ابن حفصون وقوى بذلك أمره ، وهرع إلى لوائه كثير من أهل الشر والعصاة . وعزل الأمير عامل ريه المهزوم ، وبعث إليها بعامل جديد هو عبد العزيز بن عباس ، فسار إلى قتال ابن حفصون للمرة الثانية ، فامتنع الثائر بقلاعه ، ووقعت الهدنة بين الفريقين[2]. وعندئذ سير محمد وزيره هاشم بن عبد العزيز إلى كورة ريه فى قوة كبيرة ، فشدد الحصار على ابن حفصون ، وجد فى أثر العصاة والخوارج ، وأسر الكثير منهم ، وما زال حتى أرغم ابن حفصون على التسليم مع سائر عصابته ، وحملهم جميعاً إلى قرطبة . فعفا محمد عن الثائر وضمه إلى جيشه ، لما آنسه من براعته وقوة مراسه . ولما سار المنذر إلى الثغر الأعلى سنة ٢٧٠ هـ (٨٨٣ م) لقتال محمد بن لب ، كان ابن حفصون من ضباط جيشه . بيد أنه لم يكن راضياً كل الرضى عن منصبه ، وكانت نفسه الوثابة تنزع دائماً إلى الخروج والعمل الحر ، فلم يلبث أن فر من جيش الأمير مع نفر من صحبه ، ولم يلبث أن عاد إلى معاقله فى ببشتر ، واستأنف ثورته ، ومن حوله جميع كبير من الخوارج والبغاة (٨٨٤ م) .

ولبث ابن حفصون مدى عامين يعيث فى هذه المنطقة فساداً ، ويبث من حوله الذعر والروع . وفى صيف سنة ٢٧٣ هـ (٨٨٦ م) ، خرج المنذر إلى كورة ريه لقتال ابن حفصون ، وبدأ الزحف على مدينة الحامّة فى شمال شرقى مالقة ، وفيها الثائر ابن حمدون حليف ابن حفصون ، فسارع ابن حفصون إلى إنجاد حليفه ، واجتمع الثائران بمدينة الحامة لمقاتلة جند الأمير ، فحاصر المنذر الحامة مدى

---

(١) ابن حيان عن عيسى بن أحمد الرازى . مخطوط القرويين لوحة ٢٨٣ أ و ب .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ١٠٧ .

شهرين، ولما أشرفت مؤن المدينة المحصورة على النفاد، خرج ابن حفصون وحليفه فى جندهما ، واشتبكا مع جند الأمير فى معركة عنيفة ، هزم فيها الثوار وجرح ابن حفصون ، وارتد مع أصحابه ثانية إلى الحامة واستعصم بها . وبينما المنذر مقيم على حصار الحامة ، إذ جاءته الأنباء من قرطبة بوفاة أبيه الأمير محمد . وكانت وفاته فى ٢٩ صفر سنة ٢٧٣ ﻫ ( أوائل أغسطس سنة ٨٨٦م ) فارتد لفوره إلى قرطبة ، تاركاً الحامّة لمصيرها ، وتنفس ابن حفصون الصعداء ، وانتهز الفرصة السانحة للإغارة على معظم الحصون الواقعة فى تلك المنطقة ، ولم يمض سوى قليل حتى استطاع أن يبسط سلطانه على ريُّه ورندة وإستجّة وغيرها .

— ٣ —

كان الأمير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم من خيرة أمراء بنى أمية وأوفرهم ذكاء وفطنة[١]. وقال الرازى : « ولمحمد فى سلطانه الآثار الجميلة ، والآيات الجزيلة، والفتوح العظيمة ، والعناية بمصالح المسلمين ،والتهمم بثغورهم ، والضبط لأطرافهم ، والتوجيه لمصالحهم »[٢] ، وكان يرجو محمد أن يجرى على سنن أبيه من الإصلاح والإنشاء ، ولكن الحوادث سارت على غير ما يشتهى ، وسرت الفتنة إلى سائر أنحاء الأندلس ، واضطر أن ينفق حكمه الطويل فى غزوات متعاقبة وكفاح مستمر . وكان عليه أن يصون عرش بنى أمية ، وأن يحمى سلطان الدولة الإسلامية فى الأندلس من الانهيار . وكانت مهمة شاقة ، ولكنه أبدى فى الاضطلاع بها جلداً وبراعة ، فكانت الصوائف لغزو أرض النصارى ، والحملات التأديبية لقمع الثوار ، تتوالى دون كلل ، وذلك بالرغم مما كانت تنتهى إليه فى معظم الأحيان من النتائج السلبية . وكان الأمير محمد يعشق الجهاد والكفاح ، ويقود الجيش بنفسه كلما سنحت الفرص . وكان ولده المنذر ساعده الأيمن فى تلك المهمة الخطرة. واهتم محمد بأمر الجيش والأسطول ، وكان اهتمامه بتقوية الجيش ضرورة ، أملتها الظروف العصيبة التى كانت تجوزها المملكة يومئذ . وتلقى الأرقام التى يقدمها إلينا ابن حيان نقلا عن معاوية بن هشام ، عن عدد الفرسان الذين يحشدون فى مختلف الكور والمدن لغزوات الصوائف ، ضوءاً على مدى قوة الجيش الأندلسى

---

( ١ ) ابن الأثير ج ٧ ص ١٤١ .
( ٢ ) مخطوط القرويين لوحة ٢٢٢ أ .

يومئذ ، وقد كانت هذه الأرقام ، تفرض على النواحى ، ويؤخذون بها غير منتقصين لها ، إلا لعذر قاهر أو لجدب بين . ومن ذلك كورة إلبيرة ( غرناطة ) ألفان وتسعمائة ، وجيّان ألفان ومئتان ، وقبرة ألف وثمانمائة ، وباغة تسعمائة ، وتاكرنا ميتان وتسعة وستون ، والجزيرة مايتان وتسعون ، وإستجة ألف ومايتان ، وقرمونة مائة وخمسة وثمانون ، وشذونة ستة آلاف وسبعمائة وتسعون ، وريُّه ألفان وستّمائة وسبعة ، وشريش ثلاثمائة واثنان وأربعون ، وفحص البلوط اربعمائة ، وموررور ألف وأربعمائة وثلاثة ، وتدمير مايتان ... أما قرطبة العاصمة فكانت تترك لاجتهادها وهمتها ، ويحشد أبناؤها بطريق التطوع خلافاً لأهل النواحى الأخرى. وكانت هذه الفرق تسمى بفرق الفرسان المستنفرين ويجرى « استنفارهم» أوقات الصوائف ، أو كلما بدرت من العدو حركة اعتداء على أهل الثغور . فاذا ذكرنا أن هذه الأرقام تتعلق بنواحى الأندلس فقط ، وإذا ذكرنا بعد ذلك حشود المشاة المستنفرة والمتطوعة ، استطعنا أن نقدر ضخامة الجيوش التى كانت الدولة الأندلسية تستطيع تعبئتها يومئذ(١) . وأما الأسطول فقد عمل محمد ، على إنشائه ، لحماية الشواطئ الغربية ولغزو مملكة جليقية من ناحية البحر . وفى سنة ٨٦٦م ( ٢٥٢ هـ ) سارت السفن الأندلسية بالفعل إلى شواطئ جليقية بقيادة أمير البحر عبد الحميد بن مغيث ، ووصلت إلى مصب نهر منهو . ولكنه لم يوفق إلى تحقيق بغيته ، إذ عصفت الرياح بالسفن فتفرقت وغرق معظمها فى المياه الغربية(٢) .

وعنى محمد كذلك بتحصين أطراف الثغور ، وأقام عدة من المحلات والقلاع الدفاعية ، المنيعة فابتنى حصن شنت إشتيبن لحماية مدينة سالم ، وابتنى حصن طلمنكة وحصن مجريط بمنطقة وادى الحجارة ، للدفاع عن طليطلة ، وكان شديد الاستخبار عن الثغور ، والبحث فى مصالحها .

وبالرغم مما كان يقتضيه الجهاد المتواصل من النفقات الضخمة ، فقد كان الأمير محمد يبذل وسعه لتخفيف الضرائب عن كاهل شعبه ، وقد رفع عن أهل قرطبة ضريبة « الحشود » ، واكتفى بدعوتهم إلى التطوع والجهاد فى سبيل الله ،

---

( ١ ) مخطوط القرويين لوحة ٢٥٤ ب . وراجع البيان المغرب ج ٢ ص ١١١ .

( ٢ ) البيان المغرب ج ٢ ص ١٠٦ ، و Aschbach : Geschichte der Omajaden in Spanien; B. I. s. 293.

فأقبلوا على تعضيده وتأييده[١]. وأما عن العشور فقد أبدى محمد تشدداً فى اقتضائها وقد نصح له وزيره عبد الرحمن بن غانم صاحب المدينة ، بأن يسقط العشور متى عدمت الغلات ، لأن العشور إنما تفرض على الغلات إذا وهبها الله ، فإذا لم يزرع بذر ولم يستغل زرع وجب إسقاطها ، فلم يستمع إليه محمد فى البداية وعزله ، وعين مكانه حمدون بن بسيل ، وكان فظاً ظلوماً ، فاشتط فى تحصيل العشور ، حتى ضج الناس بالدعاء عليه ، ووصل صريخهم إلى الأمير ، وتوالت فى نفس الوقت أعوام الجدب والقحط ، فاضطر الأمير أن يسقط عن الناس جملا من العشور ، حتى يتنفس مختنقهم ، ويستطيعوا مواجهة أعباء الحياة ، ومواصلة نشاطهم العمرانى ، وأعلن الناس عندئذ بشكره ومدحه الشعراء[٢]. وكان الأمير محمد بارعاً فى الشئون المالية ، دقيقاً فى مراجعة الدخل والخرج ، وقد ساعده ذلك على ضبط شئون الخزانة العامة[٣]. وفى عهده أصيبت الأندلس بالقحط مرتين ، الأولى بين سنتى ٢٥١ و ٢٥٥ هـ ، والثانية فى سنة ٢٦٠ هـ ، وكان قحطاً شديداً استمر بضعة أعوام ، وكثر بسببه الغلاء والموت . ولكن الأندلس استطاعت أن تصمد للمحنة ، وأن تتغلب عليها .

وفى عهده سار بلاط قرطبة على سنن الاعتدال ، ومجانبة البذخ الذى ساد فى أيام أبيه عبد الرحمن ، وضعف نفوذ الجوارى والصقالبة فى القصر ، ومع ذلك فقد استمر النظام الإدارى الذى كان قائماً فى عهد عبد الرحمن بتفاصيله تحت إشراف الأمير وتولى زمام الأمور نفس الرجال الذين تولوها من قبل ، واجتمعت السلطات فى أيدى أسرتى بنى شُهيد وبنى أبى عَبْدة ، أعظم الأسر القرطبية يومئذ ، وتولى الحجابة لمحمد فى البداية عيسى بن شهيد حاجب أبيه من قبل . وقد أشرنا من قبل إلى هذا الوزير النابه غير مرة . ثم خلفه فى الحجابة عيسى بن الحسن ابن أبى عبدة ، فكان من أرجح الوزراء عقلا وإصابة ، وكان طوال خدمته هدفاً لمنافسة هاشم بن عبد العزيز ودسائسه ، وقد خلفه هاشم بالفعل فى الحجابة ، ولبث يضطلع بها أعواماً طويلة حتى وفاة الأمير محمد ، وكان هاشم بن عبد العزيز ينتمى إلى أسرة من المولدين ، وكان من أعظم رجالات الحرب والسياسة فى

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١١١ و ١١٢ ، وأخبار مجموعة ص ١٤١ و ١٤٢ .
(٢) ابن حيان – مخطوط القرويين لوحة ٢٣٩ أ و ٢٥٥ .
(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ١١٠ .

عصره ، وقد تولى القيادة الفعلية لكثير من الغزوات والحملات حسبما فصلنا ، وكان من قبل من وزراء الأمير عبد الرحمن ، فلما صار الأمر إلى ولده محمد ، غدا من بين وزرائه أكثرهم حظوة لديه ، وغدا من خاصة جلسائه وندمائه ، وكان هاشم فوق ذلك أديباً متمكناً وكاتباً بليغاً ، وشاعراً مطبوعاً ، يقرب الأدباء والشعراء ، بيد أنه كان حاد الطبع قليل التحفظ ، لا يحسن اصطناع الرجال ، حتى أنه لما نكب فى غزوة الجليقى وحمل أسيراً إلى ملك ليون (سنة ٢٦٢ ﻫ) لم يجد كثيراً من المدافعين عنه فى محنته ، وسخط عليه الأمير محمد ، وأنحى عليه باللوم ، وكان يقول « هذا أمر جناه علينا فألحق بنا غضاضة ، واستزاد برأيه فضيع وصاتنا ، ولم يحكم تدبير ما صيرنا فى يده من أمرنا » . ولم يدافع عن هاشم ، ويستدر عطف الأمير عليه سوى صديقه الوليد بن غانم صاحب المدينة أعنى حاكم قرطبة ، وقد أقنع الأمير بأن يولى وزيره المنكوب عطفه ، وأن يستخدم ولده مكانه ، حتى يتم إطلاق سراحه . وقد لبث هاشم بن عبد العزيز أسيراً فى أو بييدو عاصمة ليون زهاء عامين ، حتى تم افتداؤه وإطلاق سراحه لقاء فدية ضخمة حسبما أشرنا إلى ذلك من قبل(١) .

وكان من وزراء الأمير محمد ، أمية بن عيسى بن شهيد ، وكان من أجل وزرائه وآثرهم لديه ، وأخصهم بخدمته ؛ والوليد بن غانم المتقدم الذكر ، وكانا يتعاقبان فى منصب ولاية المدينة ، وهو من أهم مناصب الدولة يومئذ ، لما يتطلبه من الحزم وقوة الشكيمة ، والنزاهة فى نفس الوقت . ومنهم تمام بن عامر الثقفى الشاعر الأديب ، وكان مؤرخاً راوية كتب أرجوزة طويلة فى فتح الأندلس ، وقد اشتهر ببراعته فى لعبة الشطرنج ، وكانت من أسباب حظوته لدى الأمير ، وتمكن منزلته لديه ، وقد ذاعت فى أيامه ذيوعاً عظيماً . ومنهم كذلك سليمان ابن وانسوس ، وهو من أشرف البيوتات البربرية ، وكان جده رئيساً مطاعاً بماردة ، وقد ثار فيها أيام الحكم بن هشام ، وكان أديباً وافر الوجاهة ، وقد تولى خطة السوق وهو اسم ولاية الحسبة يومئذ . وكان من الوزراء الكتاب عبد الملك بن عبد الله بن أمية ، وكان كاتباً بليغاً(٢) .

---

(١) ابن حيان فى مخطوط القرويين لوحة ٢٢٨ أ و ب و ٢٣٠ أ و ٢٣٥ ب .

(٢) مخطوط القرويين لوحة ٢٣٠ ب و ٢٣٢ أ و ٢٣٣ ب و ٢٣٥ أ .

وكانت تربط الأمير محمد بأمراء المغرب المعاصرين ولا سيما بنو رستم أمراء تاهرت، وبنو مدرار أمراء سجلماسة وغيرهما ، علائق مودة وصداقة متينة العرى. فكانوا يستمدون منه العون والنصح فى شئونهم ، وكان هو من جانبه شديد الاهتمام بأخبارهم وأحوالهم ، وتتردد إليهم رسله وكتبه فى البحث عن أخبار بنى العباس بدار مملكتهم ، وأخبار ولاتهم وعمالهم بالشام وإفريقية . وكان شارل الأصلع ملك فرنسا ( إفرنجة ) يقدر خلاله ويتودد إليه ، وربما تبادلا المراسلة والهدايا(١)؛ والظاهر أن ملك فرنسا كان يؤثر سياسة السلم مع حكومة قرطبة خشية أن يتكرر غزو المسلمين لسبتمانيا . وكانت تربطه فى الوقت نفسه علائق مودة ببنى قسىّ سادة الثغر الأعلى، الذين ظهروا بمغامراتهم فيما وراء جبال البرنيه .

وعلى الرغم من أن وقت الأمير محمد لم يتسع كثيراً للأعمال الإنشائية ، لما زخر به من الفتن والغزوات المتوالية ، فقد قام منها بطائفة حسنة . وكان فى مقدمتها منشآته بالمسجد الجامع ، فقد عنى أولا بإتمام الزيادة التى بدأها أبوه عبد الرحمن فى وسطه وأقام فيها المقصورة ، وكان أول من اتخذها هنالك من الخلفاء ، وأصلح جناحه القديم الذى أنشأه عبد الرحمن الداخل ، وجدده وأعاده إلى رونقه القديم . ولما تمت هذه الزيادات والإصلاحات ركب الأمير إلى الجامع وزاره فى موكب فخم ، وأشادت بعمله الشعراء . وأصلح محمد جامع إستجّة وجامع شذونة ، ومساجد عديدة أخرى فى مختلف الأنحاء ، وأنشأ زيادات كثيرة بالقصر وملحقاته امتازت بالجمال والإناقة . وعنى بتجديد منية الرُّصافة التى أنشأها جده الأعلى عبد الرحمن الداخل ، وجدد حدائقها ومتنزهاتها ، وزودها بالأشجار والغراس النادرة ، وجعلها منتدى نزهه وأسماره . وفى ذلك يقول عباس بن فرناس من قصيدة :

كأن قصور الأرض بعد تمامه — بنواً لذرى أخفى شخوصاً من الدر
وتنتشر الأبصار منها إلى مدى — التنزه بالأطيار والوحش والزهر
فأعجب من أفنانها الغرر التى — يقيل بهن البرد فى وعوة الحر
هم بأخفى سرها غير كاتم — صداها فأخفى السر بها من الجهر
كأن الذى يخفى الحديث بنجوها — على أخفض الأصوات يشدو على وتر

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١١١ . ويسمى ملك فرنسا هنا خطأ بفردلند .

وأنشأ محمد له كذلك منية خاصة فى مكان ضيعته المسماة «كنتش» الواقعة جنوب غربى قرطبة ، عرفت «بمنية كنتش» وعنى بتجميلها ، وجعلها كذلك موطناً لنزهه ومسراته . وهى التى يقول فيها ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد :

ألما على قصر الخليفــة فانظرا  إلى منيــة شــيدت لأزهرا
هى الزهرة البيضاء فى الأرض ألبست لها الزهرة الحمراء فى الجو مغفرا[1]

وكان الأمير محمد ربع القوام ، أبيض مشرباً بحمرة ، أوقص[2] ، يخضب بالحناء . وكان كثير الأناة والحلم ، عطوفاً على أخوته وآل بيته ، وقد عنى منذ ولايته بشئون الأكابر من أخوته ، فأعد لهم الدور الفخمة خارج القصر ، ووهبهم الضياع المغلة ، وأجرى عليهم الأرزاق الواسعة ، واستعمل من يصلح منهم للأعمال البعيدة . وكان فوق رجاحة عقله ، أديباً ، يشغف بالبيان ، بليغاً فى كتبه ، محسناً فى توقيعه . بيد أنه لم يكن شاعراً مثل أبيه وجده . وكان مكرماً لأعلام الناس ، وذوى العلم والحجى منهم ، يرفع مجالسهم ، ويكثر من رعايتهم ، ويستشعر مع ذلك الحذر من منافستهم وتحاسدهم ، ويأبى الإصغاء لسعاياتهم . وكان يجمع حوله صفوة من الشعراء والعلماء[3] مثل عباس بن فرناس ، ومؤمن ابن سعيد ، وابن عبد ربه ، وهم من أقطاب الشعر فى عصره ؛ ومن العلماء عبد الله ابن حبيب أعظم علماء الأندلس فى عصره ، وقد توفى فى صدر ولايته ، وبقى بن مخلد وعيسى بن دينار ، ومحمد بن عمر بن لبابة ، ومحمد بن عبد السلام الخشنى ، وغيرهم . وقد اشتهر فى عصره بالأخص الفقيه الورع العلامة بقى بن مخلد ، وكان فقيهاً حر الذهن ، واسع الأفق ، نشأ فى قرطبة ، ورحل إلى إفريقية والمشرق ، ودرس دراسة مستفيضة . ولما عاد إلى الأندلس ، حقد عليه فريق من فقهائها ، لغزارة علمه ، وتفوقه عليهم ، ولاسيما فى أساليب الحديث والرواية ، وحاولوا اتهامه بالزندقة ، والإيقاع به لدى الأمير ، فاستجار بقى بالحاجب هاشم بن عبد العزيز ، وكتب إلى الأمير يناشده الله فى دمه ، ليرى رأيه فيه بعد سماع حجته ، فأسعفه هاشم وشرح للأمير قضيته ، وعقد له الأمير مجلساً لمناجزته خصومه فتناظروا بين يديه ، ودحض بقى تهم خصومه بقوة ، وألزمهم الحجة ، واستبان

(١) مخطوط القرويين فى اللوحات ٢٤٣ — ٢٤٧ . وراجع أيضاً البيان المغرب ج ٢ ص ١٠٠ .
(٢) أعنى قصير العنق .
(٣) أخبار مجموعة ص ١٤٥ .

الأمير فضله وتفوقه ، وأسبغ عليه حمايته ورعايته ، وأعلى منزلته . ولبث بقى عمدة العلماء والفقهاء والمحدثين بالأندلس حتى توفى فى سنة ٢٧٦ هـ ، فى عهد الأمير عبد الله بن محمد[١] .

وكان للفقهاء فى عصر الأمير محمد نفوذ كبير فى بلاط قرطبة ، وفى صوغ سياستها نحو النصارى . وكان محمد ينحو نحو أبيه عبد الرحمن فى سياسة التسامح نحو النصارى ، وكان من أثر ذلك أن أقر الأسقف جومث قومس أهل الذمة على ولايته كما كان فى عهد أبيه ، وذلك بالرغم من اعتراض الفقهاء وسخطهم ؛ وبالرغم مما كان ينقل إليه من نعى المشارقة على بنى أمية استخدام النصارى فى بلاطهم وتوليتهم أسمى المناصب[٢] .

وترك محمد من الولد ثلاثة وثلاثين من البنين وإحدى وعشرين من البنات[٣]

(١) مخطوط القرويين اللوحة ٢٤٣ ب ، و٢٥٣ ب . وراجع ترجمة بقى من مخلد فى ابن الفرضى ، تاريخ العلماء والرواة بالأندلس ، رقم ٢٨٣ ؛ وكذلك البيان المغرب ج ٢ ص ١١٢ و ١١٣ .

(٢) أشار ابن القوطية إلى ذلك فى رواية أوردها عن حديث جرى بين القائد ابن أبى عبدة وبين محمد بن الكوثر أحد كتاب الأندلس ، وصف فيه ابن الكوثر « أنه من عجائب الزمان أن يكون صاحب قلم بنى أمية الأعلى وكاتبها العظيم قومس النصرانى » . وكتب إليه « أن من أعجب العجب أن يبلغ خلايف بنى العباس بالمشرق أن بنى أمية اضطروا فى كتابتهم العظمى وقلمهم الأعلى أن يولوا قومساً النصرانى ابن انتنيان ابن يليانه النصرانية » ( واسمه بالإسبانية جومث بن أنتونيو ابن خوليان ) — راجع افتتاح الأندلس ص ٨٢ و ٨٣ .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٩٦ .

# الفصل الثاني

## ولاية المنذر بن محمد بن عبد الرحمن

### وبداية ثـــورة المولدين

ولاية المنذر . تأهبه لقمع الفتنة . الحاجب هاشم بن عبد العزيز . طغيانه وتوجس المنذر منه . سجنه ومصرعه . حملة إلى طليطلة والثغر الأعلى . اشتداد أمر بن حفصون وأطماعه . قضية المولدين وأثرها فى ازدياد سلطانه . خروج المنذر لمحاربته . استيلاؤه على أرشدونة وباغة . محاصرته لابن حفصون فى ببشتر . إذعان الثائر ثم نكثه . عود المنذر إلى محاصرته . مرض المنذر ووفاته . رواية عن اغتيال المنذر . رفع الحصار عن ببشتر . صفات المنذر وخلاله .

وصل المنذر بن محمد بجيشه إلى قرطبة لأيام قلائل من وفاة أبيه ، عائداً من مقاتلة ابن حفصون . وفى الحال أعلنت بيعته فى الثامن من ربيع الأول سنة ٢٧٣ هـ ( أغسطس سنة ٨٨٦ م ) . وكان فى الرابعة والأربعين من عمره . وكان مولده فى قرطبة سنة ٢٢٩ هـ ( ٨٤٤ م ) ، وكان منذ فتوته أثيراً عند أبيه بين أبنائه الثلاثة والثلاثين ، مستأثراً بثقته وولايته عهده . يختاره لجلائل الأمور ، ويندبه لقيادة الجيش كلما جد الخطب . وقد أبلى المنذر حسبما رأينا بلاء حسناً ، فى مقاتلة الثوار والخوارج ؛ وحينما تولى العرش ، كانت الفتنة قد تفاقمت ، وعمت الثورة معظم الأنحاء ؛ وكان المنذر رجل الموقف فتأهب لإتمام المهمة التى بدأها ، من العمل على سحق الثورة ، وتأييد النظام والأمن ، وحماية العرش والدولة ، من كيد الخوارج والطامعين .

وعهد المنذر بحجابته إلى القائد هاشم بن عبد العزيز حاجب أبيه وقائده ، وكان هذا الوزير القوى ، فى أواخر عهد الأمير محمد ، قد استأثر بالسلطة ، وأصبح أقوى رجل فى الدولة . وكان المنذر يخشاه ويتوجس من نفوذه وسلطانه ؛ وكان خصوم هاشم يكثرون من السعاية فى حقه وإحفاظ المنذر عليه ، وتحذيره من أطماعه . فلما توفى الأمير محمد ، رأى المنذر أن يستمر هاشم فى حجابته براً منه بذكرى أبيه ، وأملا فى تحسن الأمور ؛ ولكن الظاهر أن الحاجب استمر فى طغيانه ، ولم يكترث للقوى المتألبة عليه ، وأذكت مساعى خصومه فى نفس المنذر

نوجسه القديم منه ، وسخطه عليه ، فلم يمض سوى قليل حتى اعتزم المنذر أمره ، وأمر بالقبض على هاشم وأولاده وصحبه ، ثم دس عليه فى سجنه من قتله ، وهدم داره ، واستصفى أمواله ، وكان ذلك فى جمادى الأولى سنة ٢٧٣ هـ ، أعنى لشهرين فقط من ولايته . وكانت ضربة جريئة تنبىء عن قسوته وصرامته . واستمر أولاد الحاجب القتيل فى السجن ، حتى أطلقوا بعد وفاة المنذر أيام أخيه الأمير عبد الله ، وردت إليهم أموالهم[١] . وفى تلك المحنة يقول هاشم بن عبد العزيز من شعر نظمه فى سجنه :

سـأرضى بحكم الله فيما ينوبنى ... وما من قضـاء الله للمرء مهرب
فمن يك أمسى شـامتاً بى فإنه ... سينهل فى كأسى وشيكاً ويشرب

وندب المنذر لحجابته مكان الحاجب المقتول ، عبد الرحمن بن أمية بن شهيد ؛ وقد لبث بنو شهيد حسبما رأينا عصراً يستأثرون بمناصب الحجابة والكتابة .

وسير المنذر بعد ذلك بقليل حملة إلى طليطلة . وكانت قد عادت إلى الثورة ، واجتمع إلى أهلها كثير من البربر المنفيين من مدينة ترجيله أو ترجاله[٢] ، الواقعة جنوبى غربى طلبيرة ، فهزم الثوار وقتل منهم ألوف[٣] . وفى نفس هذا العام أيضاً ، غزا محمد بن لب زعيم الثغر الأعلى السابق ، ألبة والقلاع ، وقاتل النصارى وهزمهم ، وكان قد نزل عن سرقسطة حسبما تقدم وعاد إلى سابق ولائه[٤] .

على أن أعظم ما كان يشغل المنذر ، هو القضاء على ابن حفصون عماد الثورة ومثير ضرامها فى الجنوب . وكان ابن حفصون مذ بلغته وفاة الأمير محمد ورحل عنه المنذر ، قد اشتد بأسه وقويت نفسه ، وأخذ يعمل لإخضاع القواعد والحصون الجنوبية كلها ، فبسط سلطانه على كورة ريه بأسرها ، وامتد سلطانه إلى أرشدونة ومالقة وجيان وإستجة وغيرها . واجتمع إليه المغامرون والخوارج من سائر أقطار الأندلس ، وأخذ يطمح إلى الاستيلاء على الأندلس كلها ، وأظهر الدعوة لبنى العباس ، وكاتب ابن الأغلب أمير إفريقية ( تونس ) فى ذلك ، ولكن ابن الأغلب

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١١٨ و ١١٩ .

(٢) وهى بالإسبانية **Trujillo** .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ١١٩

(٤) البيان المغرب ج ٢ ص ١١٨ .

لم يستجب إلى دعوته[١]. ولم يكن ابن حفصون ثائراً عادياً يعتمد فقط على أساليب العنف، ولكنه كان صاحب دعوة سياسية يدعو الكافة إلى اعتناقها . وقد كان ابن حفصون حسبما قدمنا مولّداً ، يمثل فى ثورته ، كل ما يجيش به المولدون نحو العرب الفاتحين ونحو حكومة قرطبة من الحفيظة والبغض . وقد أشرنا من قبل فى حديثنا عن عناصر الأمة الأندلسية ، إلى أولئك المولدين — وهم الإسبان الذين أسلموا منذ الفتح — وبينا كيف كانوا يؤلفون عنصراً من أهم عناصرها ، من حيث الكثرة والمستوى الإجتماعى ، وقد كانوا بالرغم من اندماجهم فى المجتمع الإسلامى يحتفظون دائماً بنزعة إستقلالية واضحة ، ويبغضون العرب والبربر معاً ، وقد ظهرت هذه النزعة الاستقلالية بالأخص فى الثغر الأعلى ، حيث لبث بنو موسى ، وبنو عمروس ، وبنو الطويل ، وهم جميعاً من الأسر المولدة القوية ، عصراً يتحدون السلطة المركزية ويقاومونها . وكانت ثورة ابن حفصون زعيم المولدين فى الجنوب ، هى المرحلة الثانية لتلك النزعة الثورية التى رفع المولدون لواءها ضد حكومة قرطبة . وهكذا كان ابن حفصون يدعو المولدين ومن إليهم من عشاق الخروج والفوضى ، إلى تأييد قضية الإستقلال والحرية ، ويذكرهم بما ينالهم من عسف السلطان ، وانتزاعه لأموالهم ، وتكليفهم فوق طاقتهم ، وكيف أذلتهم العرب واستعبدتهم ، وقضت على حرياتهم واستقلالهم ؛ وأنه إنما ينهض ليأخذ بثأرهم ، ويرفع عنهم نير الطغيان والعبودية . وناهيك بما كانت تبثه هذه الدعوة المثيرة ، فى نفوس سكان هذه المناطق الجبلية من الحماسة والتعلق بقضية الحرية ، وهى لا تعنى فى نظرهم سوى التفانى فى مقاتلة حكومة قرطبة . وهكذا كانت الجموع الغفيرة تحتشد حول ابن حفصون ودعوته ، ويشتد نفوذه ويمتد سلطانه بسرعة ؛ وبالرغم من أن حكومته كانت تقوم على الخروج والثورة ، وكان معظم صحبه من أهل البغى والشر ، فقد كان الأمن يسود المناطق التى يسيطر عليها ؛ وكان صارماً فى أحكامه وعقوباته ، شديداً على كل مخالف ومستهتر ، وكان فوق ذلك كله متودداً لأصحابه ، متواضعاً يكرم الشجعان ويثيبهم ، فكانت هذه العوامل كلها مما يقوى نفوذه ويوطد سلطانه[٢] .

(١) ابن حيان فى المقتبس ( القسم المطبوع ) ص ٩٣

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ١١٧ و١١٨ .

وبلغ ابن حفصون فى زحفه إلى المنطقة الوسطى أحواز جيّان ، وما يليها من الغرب ، واستولى على باغة « بريجو »[1] وأسر حاكمها ، واستولى على قبرة ، الواقعتين فى جنوبى غربى جيان ، وعلى حصن أشرس الواقع فى شمال كورة ريه . وسير المنذر بعض قواته إلى تلك الأنحاء ، فاستردت حصن أشرس وبعض القرى المجاور لقبرة . وفى ربيع العام التالى (٢٧٤ هـ — ٨٨٧ م) خرج المنذر بنفسه فى قواته معتزماً أن يسحق الثائر ، وأن يقضى على الثورة فى الجنوب ، وزحف تواً على كورة ريه ، وحاصر أرشدونة الواقعة فى جنوب غربى لوشة حتى سلمت ، وقبض على عيشون حاكمها من قبل الثائر وعلى صحبه ؛ وافتتح حصون جبل باغة (بريجو) وأسر بها بنى مطروح حلفاء الثائر ، وهم حرب وعون وطالوت ، وبعث بهم جميعاً إلى قرطبة حيث قتلوا صلباً ، وصلب مع عيشون خنزير وكلب ، إمعاناً فى التمثيل به . وكان ابن حفصون أثناء ذلك ممتنعاً بقلاعه فى ببشتر ، فطوقه المنذر بقواته وشدد فى حصاره ، وقطع كل علائقه مع الخارج . فلما ضاق الثائر ذرعاً بالحصار وشعر بنفاد أقواته ، لجأ إلى الخديعة وعرض التسليم والخضوع ، وطلب الصلح الأمان ، على أن يسير بأهله وولده إلى قرطبة ، فأجابه الأمير إلى طلبه ، وعقد له الأمان ، وأمده بالثياب والدواب والمؤن ؛ وطلب الثائر من الأمير مائة بغل لتحمل أهله ومتاعه فزوده بها ، وبعث بها ابن حفصون إلى قلاعه ، ورفع المنذر الحصار عن ببشتر ، وقفل راجعاً بجيشه إلى قرطبة . ولكن ابن حفصون فر من الجيش تحت جنح الظلام ، وعاد إلى ببشتر وامتنع بها ، بعد أن قويت نفسه بما حصل من الأمداد . فاستشاط المنذر حنقاً لتلك الخيانة المثيرة ، وارتد راجعاً بجنده إلى ببشتر ، وضرب حولها الحصار مرة أخرى ، معتزماً ألا يبرحها حتى يقبض على الثائر حياً أو ميتاً ، واستمر الحصار ثلاثة وأربعين يوماً . ومرض المنذر أثناء ذلك ، واستقدم أخاه عبد الله من قرطبة لينوب عنه فى متابعة الحصار ، ولم يأت منتصف صفر سنة ٢٧٥ هـ ( يونيه ٨٨٨ م ) حتى قضى المنذر نحبه تحت أسوار ببشتر ، بعد حكم لم يطل سوى عامين . وفى بعض الروايات أن المنذر توفى قتيلا بتدبير أخيه عبدالله ، وأن عبد الله رغبة منه فى التخلص من أخيه واعتلاء العرش مكانه ، حرض طبيبه ( حجامه ) على قتله ، ففصده الطبيب بمبضع مسموم

(١) وهى بالإسبانية Priego .

أثناء حصاره لببشتر ، فتوفى من أثر السم . ويؤيد هذه الرواية من مؤرخى الأندلس، ابن القوطية وابن حزم، ويرى ابن حزم بنوع خاص أنها رواية معقولة يؤيدها خلق عبد الله وسياسته الدموية . ذلك أنه قتل فيما بعد اثنين من أبنائه ، وهما محمد والد الناصر والمطرِّف ، ثم قتل أخوين له وهما هشام والقاسم ، فليس غريباً أن يكون هو مدبر جريمة يرتفع بها إلى العرش[1] .

وعلى أثر وفاة المنذر ، رفع الحصار عن بُبَشتر للمرة الثانية ، وقفل الجيش راجعاً إلى قرطبة ، وأنقذ ابن حفصون من خطر محقق ، وعاد ينظم شئونه ، ويوطد سلطانه فى الأنحاء الجنوبية .

وكان المنذر أميراً وافر العزم والحزم ، ذا شجاعة وبأس ، وكان خلال الفتنة التى ثار ضرامها فى أيام أبيه ، معقد آمال الحكومة والجيش ، وكان زعماء الفتنة يهابونه ويخشون جانبه ، لما عرف من حدته وصرامته ، وكان موته تحت أسوار ببشتر ضربة مؤلمة لحكومة قرطبة . ولو امتد به الأجل قليلا لاستطاع أن يقضى على ابن حفصون وأضرابه من زعماء الفتنة ، ولأمنت الأندلس شر تفاقمها بعد ذلك . وكان المنذر فوق ذلك يعشق مجالس الشعر والأدب ، ينشده الشعراء قصائدهم ويجزل لهم العطاء . وكان من شعراء دولته ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد والعكى وغيرهما[2] .

وكان المنذر أسمر طويلا ، جعد الشعر ، كث اللحية ، بوجهه أثر جدرى[3] .

(١) ابن القوطية فى افتتاح الأندلس ص ١٠٢ ، وابن حزم نقلا عن ابن حيان فى رسالة « نقط العروس » ص ٧٨و٧٩. وينقل صاحب البيان المغرب أقوال ابن حزم ج ٢ص ١٠٦و١٦١.

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ١٢٣ ؛ وابن الأثير ج ٣ ص ١٤٠ ، وابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٩٠ .

(٣) ابن الأثير ج ٧ ص ١٤٥ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ١١٦ .

# الفصل الثالث

## ولاية عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن

### ١ — ثورة المولدين والعرب

عبد الله يلى العرش فى ظروف صعبة . استفحال الثورة وامتدادها إلى زعماء العرب والبربر . ابن حفصون يحاول التفاهم مع الأمير . نكثه ومسير عبد الله إلى قتاله . الثورة فى جيان . عيث ابن حفصون واشتداد غاراته . مسير عبد الله إلى قتاله . موقعة بلاى . هزيمة ابن حفصون وفراره . أهمية موقعة بلاى وأثرها الحاسم . أقوال الشعر فيها . ثورة القبائل العربية بعد المولدين . الثورة فى كورة ريه واستفحالها . سوار بن حمدون القيسى . استيلاؤه على إلبيرة وغرناطة . مصرعه . قيام سعيد بن جودى مكانه . الحرب بين العرب والمولدين . تفاهم سعيد مع الأمير . مصرعه وشاعريته . محمد بن أضحى . تفاقم الثورة بين القبائل العربية . الثورة فى جيان وتدمير . امتداد الفتنة إلى إشبيلية . بنو عبدة وبنو حجاج وبنو خلدون . رياسة بنى عبدة . ثورة كريب بن خلدون وعيثه فى أحواز إشبيلية . ثورة بنى حجاج . مصرع أمية والى إشبيلية . الإضطراب والفوضى . مسير المطرف بن عبد الله إلى إشبيلية وهزيمته للثوار . حكم إبراهيم بن حجاج وكريب بن خلدون للمدينة . مصرع كريب وانفراد إبراهيم بالحكم . خروجه على الأمير وعوده إلى الطاعة . دولة بنى حجاج فى إشبيلية وقرمونة . وفاة إبراهيم وخلاله .

خلف المنذر على العرش ، أخوه عبد الله بن محمد ، وبويع فى نفس اليوم الذى توفى فيه أخوه ، فى محلة الجيش تحت أسوار بُبشتر ، فى منتصف صفر سنة ٢٧٥ هـ ( يونيه ٨٨٨ م ) . وكان مولده بقرطبة فى نفس العام الذى ولد فيه أخوه المنذر ، أعنى فى سنة ٢٢٩ هـ ( ٨٤٤ ) وأمه أم ولد تدعى بهار ، وكان حينما تولى الملك فى السادسة والأربعين من عمره .

وعلى أثر البيعة ارتد عبد الله مع جيشه عائداً إلى قرطبة ، ومعه جثمان أخيه المنذر ، فدفن بمقبرة القصر ، واستتم عبد الله البيعة دون أن يعارضه أحد من أخوته العديدين .

وبدأ عبد الله حكمه الطويل المضنى فى ظروف قاتمة ، والخلاف يمزق أوصال المملكة ، وعرش بنى أمية يهتز تحت ضربات الخوارج والمتغلبين . ويصف لنا ابن الأثير عهد الأمير عبد الله فى هذه العبارة الجامعة : « وفى أيامه امتلأت الأندلس

بالفن ، وصار فى كل جهة متغلب ، ولم تزل كذلك طول ولايته » (١).

والحقيقة أن الثورة كانت قد استفحلت ، واندلع لهيبها فى كل ناحية ، ولم تبق قاصرة على المناطق الجبلية ، بل تجاوزتها إلى القواعد والمدن الكبيرة ، مثل إشبيلية وبطليوس وجيان ولورقة ومرسية وغيرها ؛ ولم تبق كذلك قاصرة على زعماء المولدين الذين تحدوهم نحو حكومة قرطبة عاطفة بغض طبيعى ، ولكنها امتدت إلى زعماء القبائل العربية أنفسهم ، إذ رأوا الفرصة سانحة لاستقلالهم ، وتدعيم سلطانهم ؛ وظهر البربر فى الوقت نفسه فى الميدان ، فاستعصم كثير من زعمائهم بالحصون النائية ، ونشبت المعارك العنصرية القديمة بين العرب والمولدين حيثما التقت حشودهم ، كما حدث فى كورة ريُّه وإشبيلية ؛ ونشبت مثل هذه الخصومات بين العرب والبربر ، وفيما بين العرب أنفسهم ، واستقل زعماء العرب بإلبيرة وجيان ومنتيشة ولورقة ومدينة سالم ، واستقل زعماء المولدين بالثغر الأعلى وبطليوس وباجة وجيان ومرسية ، وغدت إشبيلية مسرحاً للتنافس الدموى بين العرب والبربر ، وبسط ابن حفصون سلطانه على معظم الأنحاء الجنوبية الغربية فيما بين البحر ووادى شَنيل ؛ وهكذ عمت الثورة معظم جنبات الأندلس ، ولم يبق لحكومة قرطبة سلطان حقيقى إلا فى منطقة العاصمة وأحوازها .

— ١ —

كان عبد الله يواجه هذه الخطوب كلها . وكان يرى إخماد الفتنة مسألة حياة أو موت بالنسبة لسلطان العرش ، وكانت هذه مهمته الشاقة التى كرس لها كل جهوده . وكان يرى أن الثورة فى الجنوب هى أخطر ما يواجه العرش ، وأن ابن حفصون قد غدا قوة يخشى بأسها ، وأنه يجب أن تكرس الجهود لتحطيم ثورته وسحق قواه . وكان ابن حفصون يشعر من جانبه ، بأنه يواجه قوة العرش كلها ، ومن ثم فقد حاول عقب ارتقاء الأمير عبد الله أن يحصل على هدنة يستطيع خلالها أن ينظم شئونه ويوطد سلطانه ؛ فبعث إلى قرطبة ابنه حفصاً مع جماعة من أصحابه ليعقدوا السلم باسمه مع عبد الله ، على أن يستقر فى منطقة ببشتر فى طاعة الأمير ، فاستجاب عبد الله إلى طلبه ، ورد ابنه وصحبه رداً جميلا وأجزل لهم الصلات ، وبعث معهم عبد الوهاب بن عبد الرؤوف والياً من قبله على كورة ريُّه ليكون مع

---

(١) ابن الأثير ج ٧ ص ١٤٥ .

ابن حفصون شريكاً فى حكمها ، ولكن لم تمض بضعة أشهر ، حتى نكث ابن حفصون العهد وطرد عامل الأمير ، وأغار على البلاد المجاورة ، واستولى على أرشدونة ، وعاث فساداً فى تلك المنطقة ، فسار إليه الأمير عبد الله فى سنة ٢٧٦ هـ (٨٨٩ م) واجتاح منطقة ببشتر وخربها ، ولكنه لم ينل من الثائر مأرباً ؛ ولما ارتد إلى قرطبة خرج ابن حفصون فى أثره ، وتوغل حتى إستجة واستولى عليها ، فبعث إليه عبد الله الجند فردته عنها .

ولبثت الثورة على اضطرامها فى الجنوب . وخرج خير بن شاكر فى جيّان ، وطرد منها عامل الأمير واستولى عليها ، فسارت إليه جند الأندلس بقيادة أحمد ابن محمد بن أبى عبدة ، وحاصرته وقتلت كثيراً من أصحابه ، وخربت معظم دور جيان ، ثم عادت دون إخضاعه . وهنا بعث ابن حفصون جماعة من أصحابه إلى جيان بحجة معاونة ابن شاكر ، ولكنهم فتكوا به وحملوا رأسه إلى ابن حفصون ، فبعث بها إلى الأمير عبدالله سعياً إلى مصانعته ومطاولته[1]. ولكن الأمير لم يخدع بسعيه . وسار ابن حفصون إلى جيان فعاث فيها وانتهب أموالها ، وأذل أهلها ، وساد الذعر والفوضى فى تلك الأنحاء .

ودفع ابن حفصون غاراته شمالا حتى أحواز قرطبة ، وبلغ من جرأته أن حاول إحراق مخيم الأمير فى ضاحية شَقُندة على مقربة من العاصمة . فعندئذ عول الأمير عبدالله على أن يخرج لقتاله مرة أخرى ، فحشد ما استطاع من قواته ، واتجه نحو الجنوب إلى ناحية قبرة Cabra حيث حشد الثائر قواته فى معقل بلاى أو « بَلَيِّ » ( بولى )[2] ، وكان حصن بلاى من أمنع حصون قبرة الواقعة على مقربة من جنوب شرقى قرطبة . وقد افتن ابن حفصون فى تقويته وتحصينه ، وجعله مركزاً للسيطرة على كورة قبرة كلها ، والإغارة على المدن والحصون القريبة من قرطبة ، وتهديد أطراف العاصمة ذاتها . وكانت قوات الثور تبلغ زهاء ثلاثين ألفاً ، ولا تعدو قوات الأندلس ثمانية عشر ألفاً ، بل أربعة عشر ألفاً على قول

---

(١) ابن حيان فى المقتبس ص ٩٢ و٩٣ .

(٢) هى بالإسبانية Poley أو Polei ، وما يزال موقعها قائماً معروفاً إلى اليوم تحتله قرية أجيلار Aguilar الحديثة الواقعة جنوبى قرطبة .

ابن حيان(١). ووقع اللقاء بين الفريقين على ضفاف نهر الفوشكة أحد فروع نهر الوادى الكبير(٢) على قيد مسافة قصيرة من بلاى ، فى الثانى من صفر سنة ٢٧٨ هـ ( ١٦ مايو سنة ٨٩١ م ) . وقاد جند الأندلس القائد عبيد الله بن محمد ابن أبى عبدة . وتولى ابن حفصون قيادة جنده بنفسه . ونجح فرسان الأندلس فى هزيمة الجناح الأيمن للثوار وتمزيقه ، فدب الذعر إلى باقى القوات الثائرة ، وركنت إلى الفرار ، وهرعت الخيل فى آثارهم فقتلت كثيراً منهم ، وفر ابن حفصون فى بعض قواته إلى حصن بلاى معولا على الامتناع به ، ولكن هجره معظم جنده ، مؤثرين الفرار على حصار غير مأمون العاقبة ؛ فلما رأى ابن حفصون عبث المقاومة ارتد فى نفر من صحبه إلى شعب الجبال الجنوبية ، بعد أن فقد معظم قواته ، وقتل من الثوار أثناء الموقعة وخلال المطاردة ألوف عدة ، واحتل عبدالله حصن بلاى وقتل من جنده زهاء ألف ، واستولت جند الأمير على محتوياته . وكانت موقعة بلاى موقعة فاصلة فى معنى من المعانى ، وفيها أصيب ابن حفصون بضربة أليمة لم يصب بمثلها من قبل . ولم ير الأمير مطاردة الثائر جنوباً ، ولكنه آثر أن يزحف غرباً إلى إستجة التى كانت تدين بطاعته ، فحاصرها أياماً حتى سلمت والتمس أهلها العفو والأمان(٣) .

وسار الأمير بعد ذلك فى أثر ابن حفصون إلى ببشتر قاعدته الرئيسية ، وكان الثائر قد التجأ إليها عقب الهزيمة ، واجتمع إليه كثير من أنصاره من أهل الجزيرة . وعاث الأمير فى تلك المنطقة ، ولم يخرج ابن حفصون إلى لقائه ، ولكنه حينما ارتد جيش الأندلس أدراجه ، حاول مطاردته ، واشتبك مع مؤخرته فى معركة هزم فيها ورد على أعقابه ( ربيع الأول سنة ٢٧٨ هـ ) . وعلى أثر هذه الغزوة الموفقة ،

---

(١) ابن حيان فى المقتبس ص ١٠٤ . ويقول ابن عبد ربه وهو معاصر للمعركة ، وربما شهدها بنفسه مع الأمير ، إن قوات الأندلس كانت ثمانية عشر ألفاً منهم أربعة عشر ألفاً من أهل قرطبة وأربعة آلاف من حشم الأمير ومواليه ( راجع العقد الفريد ، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ج ٤ ص ٤٩٨ ) .

(٢) ويسمى بالإسبانية **Las Carchenas** ( لاساس كارشيناس ) .

(٣) يورد لنا ابن حيان رواية ضافية وتفاصيل كثيرة عن موقعة بلاى (المقتبس ص ٩٤–١٠٥). وراجع البيان المغرب ج ٢ ص ١٢٦ و١٢٧ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٣٥ . ويضع دوزى تاريخ الموقعة فى ١٥ إبريل سنة ٨٩١ م . ولكن إبريل يوافق شهر المحرم سنة ٢٧٨ هـ . وقد حدثت الموقعة فى بداية صفر . راجع : **Dozy : Hist.; V.II. p. 68-73** .

اختار الأمير عبد الله قائده البطل عبيد الله بن محمد بن أبى عبدة للوزارة ، إثابة له وتكريماً ، وعرفاناً لما أسداه إلى العرش وإلى الدولة ببراعته وبطولته[١] ؛

وقد أشاد الشعراء بذكر موقعة بلاى وإستجة ، وما أحرزه الأمير فيها من النصر الباهر ، فمن ذلك قصيدة طويلة لابن عبد ربه يقول فيها :

نجا مستكناً تحت جنح من الدجى ... وليس يودى شكرنا أنعم الجنح
يودون أن الصبح ليل عليهم ... ونحن نود الليل لو أنه صبح
أقادح نار كان طعم وقودها ... بعينك فانظر ما أضاء لك القدح
محا السيف ما زخرفت أول وهلة ... ودونك فانظر بعد ذلك ما يمح
فكم شارب منكم صحى بعد سكرة ... وما كان لولا السيف من سكره يصح
كأن « بلايا » والخنازير حولها ... مقطعة الأوصال أنيابها كلح
ديار الذين كذبوا رسل ربهم ... فلاقوا عذاباً كان موعده الصبح
فيا وقعة أنست وقيعة راهط ... ويا عزمة من دونها البطن والنطح
ويا ليلة أبقت لنا العز دهرنا ... وذلا على الأعداء صل به الترح
بدولة عبد الله ذى العز والتقى ... يخبر فى أدنى مقاماته المدح[٢]

ولابن عبد ربه قصيدة أخرى يهنئ فيها الأمير بفتح بلاى هذا مطلعها

الحق أبلج واضح المنهاج ... والبدر يشرق فى الظلام الداج
والسيف يعدل ميل كل مخالف ... عميت بصيرته عن المنهاج

ومنها :

لما حفلن إلى « بلاى » عشية ... أقوت معاهدها من الأعلاج
فكأنما جاشت خلال ديارهم ... أسد العرين خلت بسرب نعاج
ونجى ابن حفصون ومن يكن الردى ... والسيف طالبه فليس بناج
فى ليلة أسرت به فكأنما ... خيلت لديه ليلة المعراج
هذى الفتوحات التى أذكت لنا ... فى ظلمة الآفاق نور سراج

---

(١) راجع المقتبس ص ١٠٠ .

(٢) راجع هذه القصيدة بأكملها فى المقتبس ص ٩٧ — ٩٩ .

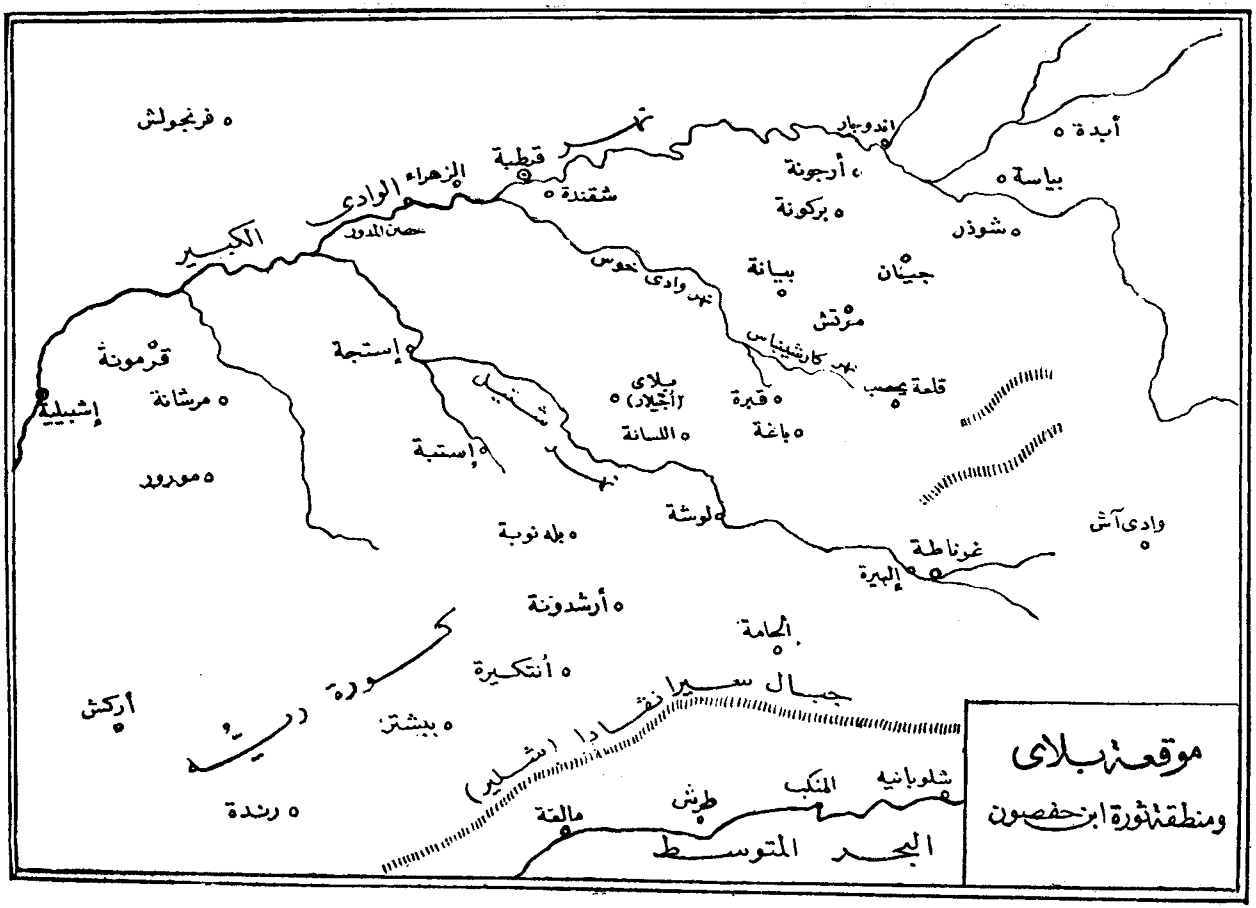
موقعة بلاى
ومنطقة ثورة ابن حفصون
فرنجولش
نهر
قرطبة
الزهراء
الوادى
الكبير
حصن المدور
شقندة
اندوجار
أرجونة
بركونة
أبدة
بياسة
شوذر
جيان
بيانة
مرتش
نهر وادى خوس
نهر كارشيناس
قلعة يحصب
قبرة
باغة
بلاى (أجيلار)
اللسانة
قرمونة
إستجة
إشبيلية
مرشانة
إستبة
مورور
لوشة
بله نوبة
غرناطة
إلبيرة
وادى آش
أرشدونة
الحامة
أنتكيرة
جبال سيرا نفادا (الثلج)
كورة رية
أركش
ببشتر
رندة
شلوبانيه
المنكب
طرش
مالقة
البحر المتوسط

— ٢ —

وهنا نقف قليلا فى تتبع ثورة المولدين وزعيمهم ابن حفصون ، لنعطف على أخبار الثورات التى قام بها الزعماء العرب فى الوقت نفسه ، فى مختلف القواعد والثغور .

كانت المناطق الجنوبية فى الوقت التى تجيش فيه بثورة المولدين فى الغرب ، تجيش فى الشرق بثورة أخرى عمادها القبائل العربية . وكانت سياسة اصطفاء الموالى التى جرى عليها بنو أمية فى الأندلس منذ بداية أمرهم ، قد أخذت تحدث أثرها فى نفوس القبائل العربية ، وأضحت هذه القبائل ترى فى سياسة حكومة قرطبة نوعاً من الطغيان والمهانه . ولما ثار ضرام الفتنة على يد المولدين فى الثغر الأعلى وفى المناطق الجنوبية ، ألفت القبائل العربية الفرصة سانحة للقيام بدورها ، والانتصاف لعصبيتها وكرامتها . وكانت كورة إلبيرة مركز نشاطهم فى الجنوب ؛ ففى سنة ٢٧٥ هـ ( ٨٨٩ ) ثار فى ناحية البراجلة من كورة إلبيرة يحيى بن صقالة القيسى ، وكان ذا وجاهة ومال ، والتفت حوله البيوتات العربية ، واشتد فى مطاردة المولدين والنصارى[١] ، فثاروا به ولم يلبث أن قتل فى بعض المواقع التى نشبت بينه وبينهم ؛ فتصدر لزعامة العرب عندئذ سوّار بن حمدون القيسى ؛ وكان سوار زعيما مجرباً . وافر الشجاعة والبأس ، فهرعت العرب إلى لوائه ، وأغار على حصون المولدين والنصارى فى تلك المنطقة ، فانتزع معظمها ، وامتدت رياسته حتى قلعة رباح ، وجعل مركزه فى حصن منت شقند[٢] على مقربة من إلبيرة ثم زحف على إلبيرة وفيها جعد بن عبد الغافر واليها من قبل الأمير ، ونشبت بين الفريقين معركة هائلة ، فهزم جعد وأسر ، وقتل كثير من أصحابه ( ٢٧٦ هـ ) ، وتعرف هذه الموقعة بواقعة المدينة[٣] . ثم أطلق سوار جعدا فتحالف مع ابن حفصون على قتاله . وقوى أمر سوار واشتد ساعده وكثر أنصاره ، فسار إلى غرناطة واستولى عليها واتخذها قاعدة له ، ونشبت بينـــه وبين المولدين وزعيمهم ابن حفصون عدة معارك ، هزم فيها ابن حفصون وقتل بعض قواده . وكان سوار

---

(١) ابن حيان فى المقتبس ص ٥٥ .

(٢) ويسميها ابن حيان منت شاقر ( المقتبس ص ٥٥ ).

(٣) المقتبس ص ٥٥ و ٥٧ .

فوق فروسيته شاعراً جزلا فصيحاً يأسر الجموع بذلاقته . ولكن رياسته لم تطل سوى نحو عام ، إذ قتل فى كمين دبره له خصمه القديم جعد والى إلبيرة ، وحفص بن المرة قائد ابن حفصون . فقد خرج سوار ذات يوم من غرناطة إلى بعض غاراته فى نفر قليل من أصحابه ، وكان حفص قد رتب قواته فى أماكن مستورة على مقربة من المدينة ، فانقضت على سوار وفتكت به وبأصحابه ومثل بجثته . فخلفه فى رياسة العرب سعيد بن سليمان بن جودى السعدى زعيم قبيلة هوازن ، وكان مثل صديقه سوار بطلا شجاعاً وفارساً مجرباً ، وشاعراً أديباً ، وخطيباً مفوها ، قد تفقه مع فروسيته فى فنون العلم والأدب[١] ، فالتفت حوله القبائل ، واشتدت وطأته على المولدين وزعيمهم ابن حفصون وهزمه مراراً ، وأسره ابن حفصون فى بعض الوقائع ثم أطلقه لقاء فدية كبيرة . ولما رأى الأمير عبد الله غلبة العرب على كورة إلبيرة ، أقر سعيداً على ولايتها فحكمها باسم الأمير ، واستمرت زعامته بضعة أعوام حتى قتل غيلة فى دار عشيقته اليهودية ، وذلك فى أواخر سنة ٢٨٤ هـ ( ٨٩٧ م ) ، ويقال إنه قتل بتدبير الأمير عبد الله ، وكان من أهم أسباب قتله أبيات من الشعر قالها فى ذم بنى أمية جاء فيها :

يا بنى مروان جدوا فى الهرب  نجم الثائر من وادى القصب
يا بنى مروان خلوا ملكنا  إنما الملك لأبناء العرب

ولسعيد بن جودى شعر كثير ، وقد أورد لنا ابن الأبار بعض قصائده ، وهى تنم عن مقدرته وقوة شاعريته[٢] .

ولما قتل سعيد بن جودى ، قام بأمر العرب من بعده فى كورة إلبيرة ، محمد ابن أضحى الهمدانى صاحب حصن الحامة ( الحمة ) ، وأقره الأمير عبد الله على رياسته ، ونشبت بينه وبين ابن حفصون وقائع عديدة كانت سجالا بينهما ؛ ولبث سعيد على رياسته لتلك المنطقة ، حتى قضى عليها الناصر فى بداية عهده ، واستولى على الحامة وغيرها من النواحى الثائرة فى تلك المنطقة[٣] .

---

(١) المقتبس ص ٦٠ و ٦١ .

(٢) راجع فى أخبار سوار بن حمدون وسعيد بن جودى ، ابن الأبار فى « الحلة السيراء » (ليدن) ص ٨٠ — ٨٧ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ١٣٨ و ١٣٩ و ١٤١ ، والمقتبس ص ٢٩ و ٣٠ .

(٣) الحلة السيراء ص ٨٥ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٣٩ .

واتسع نطاق الثورة بين القبائل والبطون العربية والمولدين ، فخرج فى مدينة ابن السليم (شذونة)[1] منذر بن ابراهيم ، واستقل برياستها إلى أن قتله بعض أتباعه ؛ وخرج آخرون من الزعماء فى كورة جيان ، وكان أشدهم مراساً عبيد الله ابن أمية بن الشالية ، وهو من زعماء المولدين . وقد خرج فى منطقة جبل شمنتان وما يليها ، وامتد سلطانه حتى حصن قسطلونة[2] ، وقوى أمره وأنشأ له بلاطاً وجيشاً ، وحالف ابن حفصون وصاهره بأن زوج ابنته من جعفر ولد ابن حفصون . واستمر ابن الشالية ممتنعاً بمعاقله ، طوال أيام الأمير عبد الله ، ولم تنته ثورته إلا فى أوائل عهد الناصر حيث عاد إلى الطاعة ، وعينه الناصر والياً لمنطقة شمنتان . وثار سعيد بن مستنه فى باغة ، وقوى أمره ، فسار إليه الأمير عبد الله فى سنة ٢٧٩ هـ ( ٨٩٢ م ) عقب موقعة بلاى ، وغزا حصن كركبوليه ، الواقع بين قرطبة وجيان ، وهو معقله وأمنع حصونه ، واشتد فى حصاره حتى اضطر إلى التسليم ، وهدم الأمير جميع حصونه[3] . وثار بغربى الأندلس اثنان من زعماء المولدين أيضاً هما بكر بن يحيى بن بكر ، ثار بشنتمرية الغرب وحصنها واستقل بها ، وبسط سلطانه على ما حولها ، وتشبه بالأمراء ، فأنشأ له بلاطاً وحكومة ، وكان جواداً يأوى أبناء السبيل ويحفظ الطرق ، وفى أواخر عهد الأمير عبدالله عاد إلى الطاعة . وعبد الملك بن أبى الجواد ، وقد ثار فى باجة وميرتلة . وكان كلاهما من أتباع عبد الرحمن الجليقى وأنصاره . وثار فى لَبْلة عثمان بن عمرون وأخرج منها عامل الأمير ، وامتدت الفتنة إلى المنطقة كلها . وغلب إسحاق بن إبراهيم العقيلى المعروف بابن عطاف على حصن منتيشة من أعمال جيان وامتنع به ، مستظلا مع ذلك بطاعة الأمير . وفى شرقى الأندلس خرج ديسم بن إسحاق فى كورة تدمير وغلب على مدينتى مرسية ولورقة ، واستفحل أمره ، وكان أديباً يصل الأدباء والشعراء . وسير إليه الأمير عبد الله فى سنة ٢٨٣ هـ ( ٨٩٦ م ) حملة بقيادة عمه هشام بن عبد الرحمن بن الحكم ، فاخترقت ولاية تدمير وعاثت فيها وهاجمت مرسية وأرغمتها على دفع الخراج ، ونشبت بينهم وبين قوات ديسم فى ظاهر لوَرَقة ،

---

( ١ ) **Medina Sidonia** . وهذه تسمية ابن الأثير ( ج ٤ ص ٢١٥ ) .

( ٢ ) جبل شمنتان هو بالإسبانية **Somontin** ، وهو يقع شمالى جيان بين مدينة ليناريس الحديثة ونهر الوادى الكبير ؛ وحصن قسطلونة هو بالإسبانية **Castalona** .

( ٣ ) المقتبس ص ١٠٦ .

معركة هزم فيها الثوار ، بيد أنها لم تكن معركة حاسمة[١]. وقامت ثورات محلية أخرى فى بعض القواعد والحصون ، بيد أنها كانت على الأغلب ثورات قليلة الخطورة ، محدودة الأثر ، وكانت حكومة قرطبة تراها فى المحل الثانى ، ولم تكن ثورة القبائل العربية تصطبغ بتلك المرارة التى كانت تطبع ثورات المولدين والبربر . ولبث كثير من أولئك الزعماء الخوارج على رياستهم واستقلالهم حتى بداية عصر الناصر[٢] .

— ٣ —

وكانت إشبيلية ، أعظم القواعد الأندلسية بعد قرطبة ، فى أثناء ذلك، مسرحاً لفتنة دموية استطال أمدها . وكان سكان إشبيلية مزيجاً من العرب والمولدين والنصارى ، وكانت منزل عدد كبير من البيوتات العربية العريقة التى تمتاز بالثراء والعصبية . وبالرغم مما كان يسود بين هذه العناصر فى معظم الأحيان من عوامل الجفاء والشقاق ، فقد استطاعت إشبيلية أن تحافظ على سكينتها وولائها مدى حين . فلما أخذت القبائل العربية فى ولاية الأمير عبد الله تجيش بعوامل الخروج والثورة ، هبت ريح الاضطراب على إشبيلية وسرت إليها عوامل الفتنة ، وظهر الزعماء المتطلعون إلى الرياسة على مسرح الحوادث . وكان بنو أبى عبدة ، وبنو حجاج ، وبنو خلدون، يومئذ أعظم البيوتات العربية فى إشبيلية . فأما بنو أبى عبدة فكان منهم كثير من رجال الدولة والقادة ، وكان زعيمهم يومئذ أمية بن عبد الغافر بن أبى عبدة ، وكان من وجوه القوم المقربين لدى حكومة قرطبة . وأما بنو حجاج فإنهم يرجعون بنسبتهم إلى لخم ، ويتصلون فى الوقت نفسه من ناحية الأمومة بملوك القوط ، وذلك عن طريق سارة القوطية حفيدة وتيزا ملك القوط[٣]، وكان زعيم بيتهم يومئذ عبد الله بن حجاج وأخوه إبراهيم . وأما بنو خلدون فإنهم ينتسبون إلى العرب اليمانية فى حضرموت ، وإليهم ينتسب المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون،وكان زعيم بيتهم يومئذ كريب بن عثمان بن خلدون وأخوه خالد[٤].

---

(١) المقتبس ص ١١٨ .

(٢) راجع فى تفاصيل هذه الثورات ، المقتبس ص ٩ — ١١ و ١٦ ، وكذلك البيان المغرب ج ٢ ص ١٣٩ — ١٤١ .

(٣) راجع « دولة الإسلام فى الأندلس » ص ٦٠ و ٦١ .

(٤) راجع كتاب العبر ج ٧ ص ٣٨٠ و ٣٨١ ، وابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٩٦ .

وكان هنالك إلى جانب هذه الأسر العربية الصميمة ، عدد من الأسر المولدة القوية الغنية . وكان التنافس بين العرب والمولدين فى النفوذ والرياسة ، من أهم أسباب الاضطراب فى المجتمع الأندلسىّ يومئذ .

وكانت الرياسة فى إشبيلية قديمة فى بيت أبى عبدة ، حيث كان جدهم أبو عبدة واليها من قبل عبد الرحمن الداخل ، وكان حفيده أمية بن عبد الغافر واليها فى الوقت الذى نتحدث عنه ؛ وكان الأمير عبد الله قد أرسل إلى جانب أمية ولده محمداً ، ليكون عضداً أدبياً له فى حكم المدينة . وفى سنة ٢٧٦ هـ ( ٨٨٩ م ) كان بنو خلدون أول من رفع لواء الثورة فى إشبيلية ، وخرج زعيمهم كريب بن عثمان ابن خلدون فى أنصاره وحلفائه من المولدين والبربر ، الذين رأوا أن يعملوا على إذكاء المعركة بين الأسر العربية ، وتحالف مع ابن مروان الجليقى الثائر ببطليوس . وعاث كريب وأصحابه فى أحواز إشبيلية وقطعوا السبل ، ولكنه لم ينل من المدينة مأرباً . ثم ثار المولدون ضد العرب اليمانية لمقتل واحد من كبرائهم ، وتحرك بنو حجاج فى نفس الوقت . وخشى أمية العاقبة فدس على زعيمهم عبد الله ابن حجاج من قتله ، فحل فى الحال مكانه أخوه إبراهيم ، وحمى وطيس الفتنة ، واشتد بنو حجاج وأنصارهم من العرب فى قتال أمية ، وقتل أمية فى النهاية مدافعاً عن نفسه . فأرسل الأمير عبد الله إلى إشبيليه حاكماً جديداً من قبله ، هو عمه هشام ابن عبد الرحمن ، ولكنه لم ينجح فى تهدئة المدينة الثائرة ، وقتل الثوار ولده ، وسادت الفوضى ، واضطرب حبل الأمن فى إشبيلية وما جاورها ؛ فعندئذ أرسل عبد الله ولده المطرِّف ، ومعه الوزير عبد الملك بن عبد الله بن أمية على رأس حملة قوية إلى إشبيلية ( ٢٨٢ هـ — ٨٩٥ م ) . فلما أشرف المطرف على إشبيلية وثب بالقائد عبد الملك فقتله ، وندب للقيادة مكانه أحمد بن هاشم بن عبد العزيز ، وأرسل إلى والده الأمير عبد الله محضراً يبرر فيه تصرفه ، ونشبت الموقعة بين المطرف وبين الثوار خارج المدينة ، فهزمهم وردهم إلى سور المدينة ، وقتل منهم عدد كبير ، وأسر إبراهيم بن حجاج وخالد بن خلدون وغيرهما من زعماء الفتنة ، ولم يطلق سراحهم حتى أذعنت المدينة الثائرة لمطالبه ، وسلمت الخراج المطلوب ، وقدم زعماء الفتنة رهائن من الولد والأهل ، واتُفق على أن يشترك

فى حكم المدينة إبراهيم بن حجاج وكريب بن خلدون باسم الأمير وفى طاعته[١] . وكان كريب طاغية شديد الوطأة فنفر منه الشعب . أما إبراهيم فكان رفيقاً دمث الخلق فكثر أنصاره ، ورجحت كفته ، واستطاع فى الوقت نفسه أن يحصل من الأمير عبد الله سراً على عهد بولاية المدينة . ثم اعتزم أمره ودبر مقتل كريب ابن خلدون وأخيه خالد ، وانفرد بحكم إشبيلية ( ٢٨٢ هـ )[٢] ، وأقره عبد الله على ولاية إشبيلية وقرمونة . وسطع نجم بنى الحجاج وقوى أمرهم ، وطالب إبراهيم الأمير بالإفراج عن ولده عبد الرحمن ، المعتقل رهينة فى قرطبة ، فلما تباطأ الأمير فى إجابته خلع الطاعة وتحالف مع ابن حفصون[٣] ، وسار معه فى قواته لمقاتلة قوات الأندلس ( ٢٨٩ هـ ) حسبما نفصل بعد . وقدر الأمير عبد الله خطورة هذا التحالف وتوجس من عواقبه ، وعاد فأجاب رغبة إبراهيم ، وأفرج عن ولده عبد الرحمن ورده إليه مكرماً (٢٨٩ هـ) ، فجنح إبرهيم إلى الطاعة مرة أخرى ، وارتضى أداء الجزية للأمير ، ونبذ حلف ابن حفصون ، وقنع الأمير من جانبه بهذا المظهر من الخضوع والطاعة ، واستقرت الأمور فى إشبيلية[٤] .

وأبدى إبراهيم بن حجاج فى إدارة ولايته همة وبراعة ، واتخذ سمة الملوك وأنشأ له بلاطاً ، وحرساً خاصاً قوامه خمسمائة فارس غير المشاة ، وحصن مدينة قرمونة ، وجعل بها مرابط خيله[٥] ، وفرض الضرائب وأصلح نظم الحكم والقضاء ، وعمل على توثيق أواصر المودة بينه وبين حكومة قرطبة . وكان يبعث بالأموال والهدايا إلى الأمير عبد الله ، ويمده بجنده فى بعض غزواته . وكان إبراهيم فوق ذلك رضى الخلق ، محبوباً من الشعب ، جواداً يقصده الشعراء وينشدونه مدائحهم

---

( ١ ) يقول ابن خلدون إن كريباً انفرد أولا بحكم إشبيلية ، وسعى ابن حجاج إلى انتزاعها منه ، فتحالف مع ابن حفصون ، ثم جنح إلى مصانعة كريب فأشركه معه فى حكم المدينة (كتاب العبر ج ٧ ص ٣٨١ ) . وراجع المقتبس ص ١١١ .

( ٢ ) أو فى أوائل سنة ٢٨٦ هـ ، على رواية ابن حيان ( المقتبس ص ٨٤ ) .

( ٣ ) البيان المغرب ج ٢ ص ١٢٩ .

( ٤ ) المقتبس ص ١٣١ .

( ٥ ) وما تزال مدينة قرمونة تحتفظ حتى اليوم ببعض الأبواب والأطلال الأندلسية القديمة التى تدل على حصانتها أيام المسلمين ، وما زالت بالأخص تحتفظ بباب « إشبيلية » الشهير كاملا بعقده العظيم وشرفته العربية الرائعة .

فيجزل صلاتهم ؛ وكان ممن مدحه شاعر العصر أبو عمر بن عبد ربه صاحب العقد الفريد ، ومما قاله فى مدحه :

ألا أن إبراهيم لجـــة ســاحل   من الجود أرست فوق لجة ساحل
فإشبيلية الزهراء تزهو بوجهه   وقرمونة الغـــراء ذات الفضائل
إذا ما تحلت تلك من نور وجهه   غدت هذه للناس فى زى عاطل

واستمر إبراهيم بن حجاج فى حكم إشبيلية وقرمونة ، حتى توفى سنة ٢٩٨ هـ ( ٩١٠ م )[1] فى سن الثالثة والستين ، فخلفه فى حكم إشبيلية ولده عبد الرحمن ، وفى حكم قرمونة ولده محمد حتى انتهت دولتهم فى بداية عهد الناصر [2].

(١) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٩٧ . ويضع ابن عذارى وفاته فى سنة ٢٨٨ هـ ( البيان المغرب ج ٢ ص ١٣٢ ) والرواية الأولى أرجح . وراجع أخبار ابن حجاج فى المقتبس ص ١١ — ١٤ .

(٢) راجع فى تفاصيل ثورة بنى حجاج ، ابن خلدون فى كتاب العبر ج ٤ ص ١٣٥ و ج ٧ ص ٣٨٠ ، ٣٨١ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ١٢٨ — ١٣٥ ؛ وابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٩٦ و ٩٧ .

# الفصل الرابع

## ولاية عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن

### ٢ – ذروه الفتنـــة الكبرى

عود إلى ثورة المولدين . ابن حفصون يعود إلى الميدان . عود الصوائف إلى غزوه . إستيلاؤه على إستجة . مسير أبان بن عبد الله لقتاله . المعارك فى الجزيرة الخضراء . تحالف ابن حفصون ومحمد ابن لب . ابن حفصون يعلن اعتناقه للنصرانية . تفرق أنصاره . التحالف بين ابن حجاج وابن حفصون . الحرب بين جند الأندلس وابن حفصون . هزيمة الثائر وانتهاء حلفه مع ابن حجاج . توالى الحملات والصوائف لقتال ابن حفصون . استقلال ابن مروان ببطليوس . ثورة ابن تاكيت فى الثغر الأدنى . محاصرة جند قرطبة لماردة . الخلاف بين ابن مروان وابن تاكيت . وفاة ابن مروان واستمرار بنيه فى حكم بطليوس . بنو ذو النون فى طليطلة . استيلاء بنى قسى عليها وحكمهم لها . سقوطها فى يد ابن الطربيشة . بنو ذو النون فى شرق طليطلة . استيلاء ابن يحيى الأنقر على سرقسطة . بنو قسى فى تطيلة وطرسونة . غزوات لب فى ليون وناڤار . وفاة لب وولاية أخيه عبد الله . ظهور محمد بن عبد الله الطويل فى الثغر الأعلى . القتال بينه وبين بنى قسى . أفول نجم بنى قسى . غزوات الطويل فى أراضى النصارى . مصرعه وذهاب دولته . الأمير عبد الله ومقارعته للثورة . انتهاز ملك ليون لمشاغل حكومة قرطبة . استيلاؤه على سمورة . ظهور ابن القط فى أحواز طليطلة . زعمه بأن هو المهدى . القتال بينه وبين ملك ليون . مصرع ابن القط وتفرق شمله . تفاهم ملك ليون مع الثوار . افتتاح الجزائر الشرقية . وفاة الأمير عبد الله . خلاله وصفاته . صرامته وعدله وتقشفه . حجابه وقواده . اصطفاؤه للموالى . أولاده . مأساة ولديه محمد والمطرف . اغتيال المطرف لأخيه محمد . حكم عبدالله بإعدام المطرف . بطشه بأخوته . أقوال ابن حزم فى صرامته وسفكه للدماء . صفة الأمير عبدالله وخلاله . أدبه وشاعريته . اصطفاؤه للعلماء والشعراء . شعراء العصر وأدباؤه وفقهاؤه .

لم تشغل ثورة القبائل العربية فى إشبيلية وباجة وإلبيرة وتدمير وغيرها، حكومة قرطبة عن متابعة الجهاد لإخماد ثورة المولدين . وقد كانت ثورة المولدين فى الواقع أخطر وأشد رسوخاً ، وأبعد أثراً . وقد استطاع زعيم ثورة المولدين فى الجنوب عمر بن حفصون ، أن يستغرق معظم جهود حكومة قرطبة منذ أواخر عهد الأمير محمد ، ولكن هزيمة الزعيم الثائر فى موقعة بلاى (بولى) سنة ٢٧٨ هـ ( ٨٩١ م ) وما ترتب عليها من تضعضع قواته ، فلت من عزيمته ووضعت حداً مؤقتاً لطغيانه .
بيد أن حكومة قرطبة لم تركن إلى هذه الهدنة المؤقتة ، فقد كانت تعرف

ابن حفصون وتعرف مبلغ خطره ، ومقدرته على العدوان والبغى ، وكان ابن حفصون من جانبه ، يعمل جاهداً لتنظيم قواه واستكمال أهبته ، لاستئناف صراعه المرير مرة أخرى .

ومن ثم فإنه لم يمض عامان على موقعة بلاى، حتى عادت الصوائف تتردد لغزو ابن حفصون ومطاردته . فى سنة ٢٨١ هـ (٨٩٤ م) سار المطرف بن الأمير عبدالله فى جند الأندلس إلى كورة ريه ، وحاصر ابن حفصون فى ببشتر معقله ، وعاث فى بسائطه . وآثر ابن حفصون فى البداية أن يستعصم بمعقله ، ثم خرج إلى لقاء المطرف فهزم ، وقتل فى هذه الموقعة حفص بن المرة أشجع قواد ابن حفصون وأشدهم مراساً[1]. فلما عادت جند الأمير إلى قرطبة ، عاد ابن حفصون يدبر خطط العدوان ، ثم جمع جموعه وزحف على إستجة ، واستولى عليها للمرة الثانية ، وذلك فى سنة ٢٨٤ هـ (٨٩٧ م)[2] . وإستجة تقع جنوب غربى العاصمة على مسافة غير بعيدة عنها ، فبادر الأمير عبد الله باستقدام الجند من النواحى ، وفى العام التالى ( ٢٨٥ هـ ) سير ولده أبان لقتال ابن حفصون ومعه القائد أحمد بن أبى عبدة . واخترقت الحملة الجزيرة الخضراء ، وعكفت على مهاجمة الحصون الخارجية حتى وصلت إلى طريف ، ثم ارتدت إلى ببشتر ثم إلى أرشدونة ثم إلى إلبيرة وحصن شلوبانية ؛ ونشبت بينها وبين قوات ابن حفصون عدة معارك محلية ، ثم عادت إلى قرطبة عن طريق وادى آش[3] . ولكن هذه المعارك لم تسفر عن أية نتيجة حاسمة ، واقتنعت حكومة قرطبة بأنه لا بد من مضاعفة الأهبة لكى تستطيع أن تضع حداً لعدوان الزعيم الثائر .

وفى سنة ٢٨٥ هـ ( ٨٩٨ م ) عقد ابن حفصون ومحمد بن لب زعيم بنى قسى حلفاً متبادلا ، وأرسل محمد ولده لباً فى بعض قواته إلى ابن حفصون ليوثق هذا التحالف ؛ ولكن لباً لم يلبث أن تلقى نبأ موت أبيه أمام أسوار طليطلة ، فغادر ابن حفصون دون أن يبرم أمراً ، وهكذا فشل هذا التحالف قبل نضجه[4]؛ وفى سنة ٢٨٦ هـ ( ٨٩٩ م ) أعلن عمر بن حفصون اعتناقه للنصرانية هو وسائر

( ١ ) البيان المغرب ج ٢ ص ١٤٢ . وراجع **Dozy : Hist. ; V. II, p. 84**

( ٢ ) المقتبس ص ١٠٨ .

( ٣ ) المقتبس ١٢٢ .

( ٤ ) المقتبس ص ١٢٧ .

أفراد أسرته ، واتخذ له إسما نصرانياً هو صمويل ، وكان أبوه قد فعل ذلك منذ أعوام ، ولم يخلص عمر بن حفصون للإسلام قط ، وكان يسرُّ النصرانية دائماً ، ولم يمنعه من إعلانها سوى خوفه من تفرق أنصاره ؛ وقد تحقق ما كان يخشاه إذ هجره كثير من أنصاره ، وتبرأوا من فعلته ، وخرج عليه بعض قواده المسلمين ، وامتنعوا بحصونهم ، وبعثوا بطاعتهم إلى الأمير ، واشتد السخط عليه فى سائر جنبات الأندلس ، ورأى المسلمون فى قتاله نوعاً من الجهاد[1] . وحاول ابن حفصون من جانبه ، أن يقوى مركزه بعقد محالفات جديدة ، ففاوض ألفونسو الثالث ملك ليون وبنى قسىّ ، كما فاوض بعض أمراء المغرب ، ولكن العون الحقيقى جاء من ناحية أخرى . ذلك أن إبراهيم بن حجاج سيد إشبيلية وقرمونة ، لما ساءت العلائق بينه وبين الأمير عبدالله بسبب رفضه إطلاق سراح ولده ، قطع الجزية ، وأعلن استقلاله ، وتحالف مع ابن حفصون (٢٨٨ هـ — ٩٠٠ م) ، وغدا الإثنان قوة يحسب حسابها[2] .

وتوجست حكومة قرطبة شراً من هذا التحالف ، فبعث الأمير إلى ابن حفصون يعرض عليه شروطاً مغرية للصلح ، فقبل الثائر هذا العرض ، وبعث إلى قرطبة أربع رهائن من أصحابه ، منهم خازنه وحليفه سعيد بن مستنة الثائر من قبل فى باغة Priego[3] . بيد أنه لم يمض قليل على ذلك ، حتى حدث خلاف فى تنفيذ الشروط بين الفريقين ، وعاد ابن حفصون فأعلن الخلاف وتأهب للحرب ، وعاونه حليفه ابن حجاج بقوة من الفرسان ، وسارت جند الأندلس بقيادة أحمد ابن أبى عبدة ، وخرج ابن حفصون من إستجة التى اتخذها قاعدة لملاقاته . واشتبك الفريقان فى «إستبة» الواقعة جنوبى إستجة ، على مقربة من نهر شنيل ، فهزم جند الأندلس فى البداية ، وقتل منهم بضع مئات ، ولكنهم عادوا فكروا على قوات ابن حفصون بعنف ، وأوقعوا بها هزيمة شديدة (٢٨٩ هـ — ٩٠٢ م) ، وعلى أثر ذلك أمر الأمير عبد الله بقتل رهائن ابن حفصون ، ما عدا ابن مستنة ، إذ افتدى حياته بالخضوع والطاعة . وخشى إبراهيم بن حجاج على

(١) راجع البيان المغرب ج ٢ ص ١٤٣ ، والمقتبس ص ١٢٨ . وراجع دوزى : Hist.; V. II. p. 84 & 85 . وكان ابن حفصون أيضاً يتكلم « الأعجمية » ، وهى الإسبانية القديمة أو الرومانش .

(٢) المقتبس ص ١٢٩ .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ١٤٤ ، ودوزى : Hist., V. II. p. 86 .

ولده ، ففاوض الأمير فى الصلح ، فأجابه إلى طلبه ، وأطلق سراح ولده عبد الرحمن وعاد إلى سابق ولائه[١] .

وتوالت حملات الأمير بعد ذلك على ابن حفصون . ففى سنة ٢٩١هـ ( ٩٠٤م ) سار أبان بن الأمير عبد الله ، ومعه القائد أحمد بن أبى عبدة إلى ريُّه ، فعاث فى تلك الناحية وهزم ابن حفصون فى عدة مواقع . وفى العام التالى (٩٠٥م ) خرجت الصائفة لقتال ابن حفصون فاستولت على بعض حصونه ، وأوقعت بقواته هزيمة شديدة فى وادى بلون على مقربة من جيان ، وقتل كثير من جنده[٢] . وفى سنة ٢٩٥ هـ (٩٠٨ م) سارت جند الأندلس إلى ببشتّر معقل الثائر ، وعاثت فى تلك المنطقة . وفى سنة ٢٩٧ هـ (٩١٠ م) سارت حملة قوية بقيادة أحمد بن أبى عبدة إلى كورة ريه ، واشتبكت مع قوات ابن حفصون فى عدة معارك شديدة ، ثم سارت شمالا إلى حصون إلبيرة وجيان وحاصرت منتلون حيناً ، وحاول ابن حفصون من جانبه أن يهاجم حصن جيان ، فردته جند الأندلس وطاردته . وفى العام التالى غزت جند الأندلس منطقة ببشتّر مرة أخرى. ورد ابن حفصون بأن أغار وحليفه ابن مستنة ، الذى خلع الطاعة مرة أخرى ، على بسائط قبرة وبعض قرى قرطبة ، فلقيته جند الأندلس وهزمته . وسارت فى العام التالى ( سنة ٢٩٩ هـ ) حملة أخرى إلى ببشتّر فعاثت فى بسائطها[٣]؛ وهكذا استمرت حملات الأندلس متوالية متلاحقة على ابن حفصون زهاء ثلاثين عاماً . وبالرغم من أن حكومة قرطبة استطاعت أن تعمل باستمرار على مناهضته وإحباط خططه وإنهاك قواه ، فإنها لم تفلح فى القضاء عليه ، وإخماد الحركة الثورية المضطرمة ، التى استطاع أن يحمل لواءها بقوة وجلد وعزم لا مثيل لها .

— ٢ —

وقد أشرنا من قبل ، إلى خروج عبدالرحمن بن مروان الجليقى بمدينة بطليوس منذ أيام الأمير محمد ، وكيف أن حكومة قرطبة فشلت فى إخضاعه ، وانتهى الأمر باستقلاله ببطليوس وما جاورها . ولما تولى الأمير عبد الله، لم ير مناصاً من

---

( ١ ) راجع دوز : Hist., V. II. p. 86-88

( ٢ ) البيان المغرب ج ٢ ص ١٥٤ .

( ٣ ) راجع البيان المغرب ج ٢ ص ١٤٨ — ١٥٣ .

إقراره على استقلاله بتلك القاعدة المنيعة ؛ وهكذا لبث ابن مروان سيد بطليوس بلا منازع . فحصنها وجملها ؛ وبسط حكمه على الأنحاء المجاورة ، وكان من حلفائه فى تلك المنطقة حسبما قدمنا يحي بن يحيى بن بكر الثائر بمدينة شنتمرية الغرب[1] بولاية أكشونبة ، وعبد الملك بن أبى الجواد الثائر بمدينة باجة Beja . وكان يحي زعيما مقداماً ، فحصن شنتمرية ، وأقام بها حكومة منظمة ، وضبط الأمور وقمع أهل الشر[2] . وفى سنة ٢٧٦ هـ ( ٨٨٩ م ) نكث ابن مروان بعهده ، وعاون كريب بن خلدون الثائر باشبيلية ، على مهاجمة المدينة ونهب أحوازها . ولم يمض قليل على ذلك حتى ثار البربر فى الثغر الأدنى[3] بزعامة محمد بن تاكيت المصمودى وزحف على ماردة فى شرقى بطليوس ، واستولى عليها ، فسارت إليه الجند من قرطبة ، فتقدم لإنجاده ابن مروان ، ولبث الحصار مدة ارتحلت بعدها جند الأمير خائبة . وكان بماردة جموع من العرب والبربر من قبائل كتامة ومصمودة ، فسعى ابن تاكيت فى إخراج العرب وكتامة منها ، واستقل بها مع شيعته . ولم يلبث أن ثار الخلاف بينه وبين جاره ابن مروان ، ونشبت بينهما الحرب ، فهزمه ابن مروان وظهر عليه . ثم توفى عبد الرحمن بن مروان بعد قليل ، فخلفه فى حكم بطليوس ابنه مروان ، واشتد فى مطاردة البربر ، ولكن ولايته لم تدم سوى شهرين ، فخلفه على بطليوس حفيد لابن مروان يدعى عبد الله ، واستمر بنو مروان سادة بطليوس حتى انتزعها منهم عبد الرحمن الناصر سنة ٣١٧ هـ (٩٢٩ م) ، وقضى على دولتهم[4] .

وكانت طليطلة قاعدة الثغر الأوسط ، قد سقطت فى يد بنى ذى النون أيام المنذر . وكان بنو ذى النون من أكابر زعماء البربر فى تلك المنطقة ، وينتمون إلى قبيلة هوارة ، وكان زعيمهم موسى بن ذى النون قد ظهر فى عهد الأمير محمد ،

---

( ١ ) Santa Maria de Algarve ، وهذا بخلاف شنتمرية الشرق أو شنتمرية ابن رزين التى اشتهرت أيام الطوائف وتعرف فى الإسبانية باسم Albarracin .

( ٢ ) البيان المغرب ج ٢ ص ١٤١ .

( ٣ ) هو فى جغرافية الأندلس عبارة عن المنطقة الغربية الواقعة بين نهر دويرة ونهر التاجه ومن مدنها قورية وقلمرية وشنترين وغيرها ، وأما الثغر الأعلى فهو عبارة عن سرقسطة وأعمالها من المدن الشمالية المتاخمة لحدود نافار وليون وقطلونية . ويشمل الثغر الأوسط طليطلة وأعمالها .

( ٤ ) البيان المغرب ج ٢ ص ١٤٠ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٣٣ و ١٣٤ .

واستقل بشنت برية حسبما ذكرنا من قبل . ثم زحف على طليطلة فى قوة كبيرة من البربر ، واستطاع بممالأة بعض زعمائها أن يستولى عليها ، وذلك فى سنة ٢٧٤هـ (٨٨٨م). وحكم بنوذى النون طليطلة بضعة أعوام ، ثم غلبهم عليها محمد بن لب بن موسى كبير بنى قسى وزعيم الثغر الأعلى ، وكان بنو قسى قد فقدوا زعامتهم يومئذ فى الثغر الأعلى بخروج سرقسطة من أيديهم ووقوعها فى يد أبى يحيى التجيبى حسبما نذكر بعد ، فتحولوا إلى الثغر الأوسط واستولوا على طليطلة سنة ٢٨٣ هـ (٨٩٧ م) . وبعث محمد بن لب ولده لبًّا إلى أحواز جيان ، فهاجم حصن قسطلونة واستولى عليه . والظاهر أن كانت ثمة لتلك الحملة علاقة بمشروع التحالف بين بنى قسى وابن حفصون حسبما قدمنا ، ولكن محمداً بن لب لم يلبث أن قتل بعد ذلك بعامين تحت أسوار سرقسطة ، وهو يحاول انتزاعها من التجيبيين [1]، ولم يستطع ولده لب أن يستمر فى حكم طليطلة فأبعد عنها حيناً . ولكن أهل طليطلة عادوا فدعوه إلى حكمها ، فبعث إليهم أخاه المطرِّف فتولى حكمها . ثم خرج عليه محمد بن إسماعيل بن موسى من أبناء عمومته ، فحكمها حتى مصرعه فى سنة ٢٩٣هـ (٩٠٦) قتيلا بيد أهلها . وعندئذ تولى حكم طليطلة زعيم من البربر المحليين هو ابن الطربيشة ، وهو حليف ابن ذى النون ، واستمر فى حكمها حتى انتزعها منه عبد الرحمن الناصر فى أوائل حكمه . واستمر بنوذى النون أبناء موسى وهم الفتح ويحيى ومطرف بعد وفاة أبيهم ، فى حكم المناطق الواقعة فى شرقى طليطلة ، مثل إقليش ووبذة ثم قلعة رباح[2] وغيرها ، إلى نهاية عهد الأمير عبد الله وأوائل عهد الناصر . وكان مطرِّف أشهرهم وأنجبهم ، وقد استمر معتصماً بوبذة حتى استنزله الناصر منها ، ثم ولاه عليها واستقام بها شأنه ، وحضر مع الناصر واقعة الخندق[3]. وكان لبنى ذى النون هؤلاء فيما بعد شأن ، وكانت لهم أيام الطوائف فى طليطلة دولة سطعت مدى حين .

أما لُبُّ بن محمد فاستقر فى تطيلة ، وكان النزاع يضطرم فى الثغر الأعلى منذ أعوام طويلة بين التجيبيين وبنى قسى .

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١٤٣ .

(٢) وهى بالإسبانية على التوالى : Uclés, Huete, Calatrava .

(٣) ابن حيان فى المقتبس ص ١٩ .

وتذكر لنا الرواية فى أصل نباهة بنى تجيب ، أنه لما ثار بنوقسى فى الثغر الأعلى ، واحتلوا قواعده ، نُوه للأمير محمد بن عبد الرحمن ، بأولاد عبد العزيز ابن عبد الرحمن بن عبد الله بن المهاجر التجيبى ، فاستدعاهم ، وبنى لهم قلعة أيوب على مقربة من سرقسطة ، وعين لضبطها عبد الرحمن بن عبد العزيز التجيبى ، وبنى لهم قلاعاً حصينة فى شميط ودَرَوْقه ، وفُرتش ، ونصبهم لمحاربة بنى قسى ، وعقد لهم على قومهم ، وأجرى عليهم أرزاق الغزو . ولما انتزع الأمير المنذر سرقسطة من محمد بن لب بن موسى فى سنة ٢٧٠ هـ ، توالى عليها عمال الأمير ؛ وكان عليها فى بداية عهد الأمير عبد الله واليها أحمد ابن البرّاء ، فتظاهر محمد بن عبد الرحمن بن عبد العزيز (وهو المعروف بأبى يحيى وبالأنقر) بمهاجمة والده عبد الرحمن والخروج عليه ، والتجأ إلى سرقسطة تحت كنف ابن البراء وحمايته ، وفى ذات يوم وثب بحاميه ابن البراء وقتله غيلة ، واستولى على سرقسطة ، وكان ذلك فى رمضان سنة ٢٧٦ هـ ( ٨٨٩ م ) وفقاً لرواية العذرى ، أو فى سنة ٢٨٢ هـ ( ٨٩٥ م ) وفقاً لرواية ابن حيان . وكان وثوب أبى يحيى الأنقر بابن البرّاء على هذا النحو ، فيما يبدو بتفاهم مع الأمير عبد الله ، إذ كان يشك فى ولاء حاكمه . ومن ثم فقد أقره الأمير عبد الله على حكم سرقسطة وأعمالها[(١)] .

وحاول محمد بن لُبّ أن ينتزع سرقسطة من أبى يحيى ، فهاجمها وحاصرها غير مرة ، حتى قتل تحت أسوارها سنة ٢٨٥ هـ (٨٩٨ م) حسبما أسلفنا . قال ابن حيان : « وهوى نجم القسويين ( بنى قسى ) بعد مهلك محمد واعتورهم الإدبار ، وغشيتهم دولة الجماعة ، وجمع الثغر كله لأبى يحيى »[(٢)] . ولبث أبو يحيى على استقلاله بسرقسطة ، حتى وفاته فى عهد الناصر سنة ٣١٢ هـ ( ٩٢٤ م ) .

ولما توفى محمد بن لُبّ ، خلفه ولده لب فى تطيلة وما جاورها . والظاهر أنه آثر يومئذ مهادنة الأمير والانضواء تحت لوائه ، وأقره عبد الله على حكم تطيلة وطرسونة وما جاورها . وشغل لُب فى الأعوام التالية بغزو أراضى النصارى

---

(١) « نصوص عن الأندلس » . من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار للعذرى ص ٤١ . وابن حيان فى المقتبس ص ٨٥ و ٨٦ .

(٢) المقتبس ص ٨٧ .

المجاورة ، فغزا فى سنة ٢٩٠ هـ (٩٠٣ م) أرض ليون واستولى على بعض حصونها ، وهزم ألفونسو الثالث فى معركة نشبت بينهما ، ثم غزا ناحية بليارش Pallars ، واستولى على حصون إيلاس ومولة وقشتيل ، وقتل بها كثيراً من النصارى . وفى العام التالى خرج لب لمحاصرة سرقسطة ، وخرب ما حولها من القرى ولكنه لم ينل منها مأرباً . وفى سنة ٢٩٤ هـ (٩٠٦ م) ، غزا لب ناڤار وزحف على طريق بنبلونة ، فحشد سانشو (شانجه) ملك ناڤار كل قواته ، ونشبت بين الفريقين معركة شديدة ، هزم فيها لب وقتل كثير من جنده . وكان لب زعيماً مقداماً وافر الجرأة والشجاعة ، وتوفى شاباً فى الثانية والثلاثين من عمره ، فكانت وفاته ضربة شديدة لسلطان بنى قسىّ . وخلفه فى تُطيلة أخوه عبد الله بن محمد بن لب[١] ، وسار على أثره من الانضواء تحت لواء الأمير ، ومتابعة الإغارة على أرض النصارى . وهنا ظهر على مسرح الحوادث فى الثغر الأعلى زعيم جديد هو محمد بن عبد الملك بن شبريط المعروف بالطويل ، وسمى بذلك لطوله الفائق . وكان بنو شبريط أو بنو شبراط من أكبر أسر المولدين بالثغر : وكان منزلهم بوشقة وبربشتر[٢] وكان عميدهم شبريط قد ظهر فى أواخر المائة الثانية فى عصر الحكم بن هشام ، وتغلب حيناً على وشقة . ولكن بنى قسى غلبوا على تلك الأنحاء دهراً ، وحجبوا بنى شبريط وغيرهم من أعيان المولدين عن الظهور . فلما اضمحل شأن بنى قسى ، عاد بنو شبريط إلى الظهور ، واستطاع الطويل أن يستقر فى وشقة تراث أسرته ، وذلك منذ بداية عهد الأمير عبد الله ، ثم حاول أن يتوسع بالإغارة على بعض أملاك جيرانه بنى قسى ، فاستولى على لاردة ، ولكنه اضطر إلى إعادتها إلى محمد بن لب باشارة الأمير عبد الله ، ثم وقع الخلاف بينه وبين لب بن محمد على بعض الحصون المجاورة ، ونشب بينهما قتال هزم فيه الطويل . ومضت بعد ذلك عدة أعوام ، شغل فيها الطويل على ما يظهر بمحاربة جيرانه النصارى فى منطقة البرنيه ، فى أحواز ناڤار وجاقة ، وسوبرابى وبليارش وغيرها . ولما توفى لب بن محمد ، رأى الطويل الفرصة سانحة لتنفيذ خطته ومشاريعه ، فزحف على أراضى بنى قسى مرة أخرى ، واستولى على لاردة وبربشتر وحصن منتشون[٣]

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١٤٣ و ١٤٥ ؛ وراجع دوزى Hist.; V. II., p. 93

(٢) ابن حزم فى جمهرة أنساب العرب ص ٤٦٤ .

(٣) راجع ابن حيان فى المقتبس ص ٨٧ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٤٨ و ١٤٩ .

( ٢٩٥ هـ — ٩٠٧ م) وركد أمر بنى قسى فى الثغر من ذلك الحين . بيد أنهم استمروا فى بعض القواعد والحصون حتى قضى الناصر على دولتهم فى سنة ٣١٢ هـ (٩٢٤م) . أما الطويل فقد قوى أمره واشتد بأسه ، وكان قد تزوج من دونيا سانشا الحسناء ابنة الكونت أسنار أحد سادة أراجون ، وحفيدة غرسية إنيجيز ملك نافار . وتعرف الروايات النصرانية ، من جراء هذه المصاهرة ، محمداً الطويل معرفة حسنة ، وتذكره بإفاضة وتسميه « الملك الطويل »(١) . وعكف الطويل بعد ذلك على الإغارة على الأراضى النصرانية المجاورة ، فخرج فى سنة ٢٩٦ هـ (٩٠٨ م) إلى منطقة بليارش ، وعاث فيها وقتل كثيراً من النصارى ، واستولى على حصن روطة وهدمه ، ثم استولى على حصن منت بطروش . وفى العام التالى خرج الطويل إلى منطقة بليارش مرة أخرى ، وعاد مثقلا بالغنائم والسبى(٢) . ولما رأى عبد الله بن لب قوة الطويل واشتداد بأسه ، آثر مهادنته ، وفى أواخر سنة ٢٩٨هـ (٩١١م) تحالف الإثنان على غزو نافار والزحف إلى عاصمتها بنبلونة ، وسار كل منهما فى طريق مستقل ، وأغار الطويل على بعض الحصون ، وهدم الكنائس ، ولكنه ارتد حينما علم بأن سانشو ملك نافار يسير لقتاله . وغزا عبد الله فى طريقه حصوناً أخرى ، وقتل وسبى كثيراً من النصارى . وفى العام التالى (٩١٢ م) غزا الطويل أراضى برشلونة ونشبت بينه وبين صاحبها الكونت سنير Sunier معركة هزم فيها الكونت وقتل كثير من أصحابه(٣) ، ولكن الطويل لم يلبث أن قتل فى العام التالى (٣٠١ هـ — ٩١٣ م) . والظاهر أنه قتل خلال غزوة أخرى قام بها فى قطلونية(٤) ، فخلفه أولاده فى حكم أراضيه(٥) .

---

(١) نشر العلامة المستشرق ف . كوديرا بحثاً ضمنه سيرة الطويل حسبما تعرضها المصادر اللاتينية والعربية ، وذكر فيه تفاصيل كثيرة شائقة . راجع البحث المذكور فى مجلة أكاديمية التاريخ بمدريد : **Mohamed Atauil, rey moro de Huesca (B.R.A.H.) T. XXXVI (1900) p.316—24.**

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ١٤٩ و ١٥٠ .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ١٥٢ و ١٥٣ و ١٥٤ .

(٤) يذكر لنا ابن عذارى تاريخ وفاة الطويل فى حوادث سنة ٣٠١ هـ . ولكنه لا يقول لنا أين قتل ومن الذى قتله ( ج ٢ ص ١٧٠ ) .

(٥) يذكر لنا الأستاذ كوديرا فى بحثه السالف الذكر أسماء أبناء الطويل وهم أربعة من الذكور هم عبد الملك ، وعمروس ، وفورتونيو ، وموسى ، وابنة تسمى دونيا بلاسكيتا .

— ٣ —

وكان عهد الأمير عبد الله يدنو عندئذ من نهايته ، ولم تشهد الأندلس منذ عهد عبد الرحمن الداخل فترة كهذه ، عمت فيها الفتنة وسرى ضرامها إلى كل ولاية وقاعدة ، ولم ينكمش سلطان الدولة الأموية بالأندلس قدر انكماشه فى تلك الفترة . وكان على الأمير عبد الله أن يكافح دون هوادة لإنقاذ الدولة والعرش من خطر الانهيار ، فقضى حكمه الذى استطال خمسة وعشرين عاماً فى سلسلة لا نهاية لها من الفتن والغزوات والمعارك المستمرة ، مزقت خلالها أوصال المملكة ، واهتزت أسس الدولة إلى الأعماق ، ونضبت قواها ومواردها . وبالرغم من أن الأمير عبد الله لم يوفق إلى القضاء على الثورة فى سائر النواحى ، فإنه استطاع أن يقضى على الخطر الداهم ، وأن يمزق شمل الثوار ، وأن يستميل نفراً من أخطر زعمائهم ، وأن يبسط سلطان العرش من الناحية الإسمية على الأقل ، على بعض القواعد الهامة مثل إشبيلية وسرقسطة . وكان لهذه النتائج الأولى أثرها فيما بعد فى عهد خلفه عبد الرحمن الناصر ، فى التمهيد للقضاء على عناصر الثورة ، وتوطيد سلطان الدولة والعرش .

ويحاول الوزير المؤرخ ابن الخطيب أن يلقى ضوءاً على أسباب ذيوع الثورة فى الأندلس فى هذا العصر فى قوله : « والسبب فى كثرة الثوار بالأندلس يومئذ ثلاثة وجوه : الأول ، منعة البلاد وحصانة المعاقل ، وبأس أهلها بمقاربتهم عدو الدين ، فهم شوكة وحدٌ بخلاف سواهم . والثانى ، علو الهمم ، وشموخ الأنوف ، وقلة الاحتمال لثقل الطاعة ، إذ كان من يحصل بالأندلس من العرب والبرابرة ، أشرافاً يأنف بعضهم من الإذعان لبعض. والثالث ، الاستناد عند الضيقة والاضطرار إلى الجبل الأشم ، والمعقل الأعظم من مَلِك النصارى ، الحريص على ضرب المسلمين بعضهم ببعض . فكان الأمراء من بنى أمية يرون أن اللجاج فى أمورهم ، يؤدى إلى الأضلولة ، وفيها فساد الأموال ، وتعذر الجباية ، وتعريض الجيوش إلى الانتكاب ، وأولياء الدولة إلى القتل . ولايقوم السرور بغلبة الثائر ، بما يوازنه من ترحة هذه الأمور »[1] .

ولم تترك مقارعة الثورة لعبدالله فرصة للقيام بغزوات فى أراضى النصارى .

---

(١) أعمال الأعلام (طبع بيروت) ص ٣٦ .

وشغلت البعوث والصوائف كلها أعواماً متوالية ، بمحاربة الخوارج والثوار فى مختلف الأنحاء . ولم يقم النصارى من جانبهم بغزوات ذات شأن فى الأراضى الإسلامية . وشغل ألفونسو الثالث ملك ليون (جلِّيقية) الذى خلف أباه أردونيو على العرش فى سنة ٨٦٦م بتنظيم مملكته وتوطيد حدودها ، منتهزاً فرصة الاضطراب الذى ساد المملكة الإسلامية . وكان من أعظم أعماله استيلاؤه على مدينة سمُّورة وهى من أمنع مدن الحدود الشمالية الغربية ، وذلك فى سنة ٢٨٠ هـ (٨٩٣م)[1]. وحصن ألفونسو سمورة وأسكنها النصارى ، واتخذها قاعدة للإغارة على الأراضى الإسلامية المجاورة ومعظم سكانها من البربر[2]. ولما اشتدت الفتنة وعمت سائر النواحى ، ظهر فى أحواز طليطلة وطلبيرة ، أحمد بن معاوية المعروف بابن القط ، وهو من ولد هشام بن عبد الرحمن ، ودعا لنفسه بين البربر فى تلك الأنحاء ، وزعم أنه المهدى ، وكان عالماً ومشعوذاً وافر الذكاء والعزم ، فالتفت حوله جموع غفيرة من البربر ، وأعلن الجهاد وقصد إلى سمورة لافتتاحها ، وكتب إلى ألفونسو رسالة عنيفة يدعوه فيها إلى الإسلام وينذره بالويل إذا أبى . وكان ألفونسو يومئذ فى قواته على مقربة من سمورة ، فسار إلى لقاء المهدى وقواته ، ودارت الموقعة فى مخائض نهر دويرة أمام سمورة ، فهزم النصارى أولا وارتدوا ، وحاصر المهدى سمورة . ولكن حدث عندئذ أن انسحب زعماء البربر فى قواتهم خشـــية من تفوقه عليهم وغدره بهم . وصمد ابن القط فيمن بقى معه ، ثم نشبت بينه وبين النصارى موقعة ثانية قاتل فيها ببسالة حتى قتل ومزقت قواته ، واحتز رأسه وسمر فوق أحد أبواب سمورة . وكان ذلك فى شهر رجب سنة ٢٨٨ هـ (يوليه سنة ٩٠١ م) وبذا انهارت حركته ووطد ألفونسو سيادته فى تلك الأنحاء[3] .

وكان ألفونسو الثالث يعمل على انتهاز كل فرصة لإذكاء الفتنة والاضطراب فى المملكة الإسلامية ، وكان يقصده الثوار وفى مقدمتهم عميدهم ابن حفصون ، للتحالف معه ضد حكومة قرطبة ؛ واستدعاه أهل طليطلة فى أواخر عهد الأمير

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١٢٧ .

(٢) المقتبس ص ١٠٩ .

(٣) راجع تفاصيل حركة ابن القط وموقعة سمورة ، فى المقتبس ص ١٣٣ — ١٣٩ ، وكذلك فى ابن الأبار ، الحلة السيراء ص ٩١ — ٩٢ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ١٤٤ ، ودوزى : **Hist.; V. II. p. 132—134.**

عبد الله ودفعوا إليه الجزية ،واستولى فى عودته على بعض الحصون . وكانت هذه أول غزوة للنصارى على ضفاف نهر التاجُه ، بيد أنها كانت غزوة عابرة ولم تخلف أثراً ثابتاً. وأما الثغر الأعلى فقد كان بنوقسيّ ، وفى مقدمتهم لب بن محمد بن لب ، يحاربون ألفونسو ويحاربهم من وقت إلى آخر .

وكان من الحوادث البارزة فى عهد الأمير عبد الله افتتاح الجزائر الشرقية ( جزائر البليار ) . وقد رأينا فيما تقدم كيف أرسل عبد الرحمن بن الحكم فى سنة ٢٣٤ هـ (٨٤٨ م) حملة بحرية إلى ميورقة لغزوها ، ومعاقبة أهلها على تعرضهم لسفن المسلمين وكيف تعهد أهلها بالجزية والولاء . وفى أواخر عهد الأمير عبد الله فى سنة ١٩٠ هـ (٩٠٣م) سار عصام الخولانى إلى ميورقة فى قوة بحرية من المجاهدين ، فحاصرها تباعاً ، وكان عصام قد حملته الرياح قبل ذلك وهو فى طريقه إلى الحج إلى ميورقة فعرفها ، واختبر أحوال هذه الجزائر الغنية ، وأدرك سهولة فتحها وعرض مشروعه على الأمير عبد الله ، فأقره وأمده بالسفن والقطائع . ولما وفق إلى فتحها أقره الأمير على ولايتها . ومن ذلك الحين تدخل الجزائر الشرقية فى حظيرة المملكة الإسلامية[١] .

وكان أيضاً من الحوادث البارزة فى هذا العهد الحافل بالخطوب والمحن ، المجاعة الشديدة التى وقعت فى سنة ٢٨٥ هـ (٨٩٨ م) والتى قاست الأندلس منها الشدائد والأهوال .

— ٤ —

وتوفى الأمير عبدالله بن محمد بن عبد الرحمن فى مستهل ربيع الأول سنة ٣٠٠ هـ ( أكتوبر سنة ٩١٢ م ) فى الثانية والسبعين من عمره ، بعد أن حكم خمسة وعشرين عاماً ملؤها الاضطراب والفتن. وكان أميراً ورعاً جم التقشف والتواضع ، جواداً محباً للخير ، كثير البر بالفقراء وذوى الحاجات ، يفرز لهم سهماً من مال الجبايات[٢]، عالماً أديباً فصيحاً رفيع البيان ، ينظم الجيد من الشعر. وكان بالرغم مما شغله طوال حكمه من الفتن والخطوب ، شديد العناية بشئون الحكم وتوطيد أركانه ، وتعرف أحوال الشعب ورغباته ، وكان من أشد الناس حرصاً على

( ١ ) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٤ .
( ٢ ) المقتبس ص ٣٣ و ٣٤ .

إقامة العدل ، وقمع الظلم والبغى ، وسحق الظلمة . وكان يجلس للفقراء يوماً فى كل أسبوع بباب أنشأه عند ركن القصر خصيصاً لذلك وسماه باب العدل ، ليقضى فى مظالم الناس بنفسه ، وليستمع إلى كل ذى حاجة ومظلمة ، وأنشأ باباً حديدياً يتمكن الناس بواسطته من تقديم شكاويهم وظلاماتهم حتى لا يحرم بذلك ضعيف من مخاطبته[1]. وكان لصرامته وشدة وطأته على الطغاة وأهل السلطان ، أثر كبير فى شيوع العدل فى عهده ، والحد من بغى ذوى الجور والظلم ، كما كان لبالغ تقواه وتواضعه ، واحتشامه وتقشفه فى حياته الخاصة ، وفى مظاهره وحياته الملوكية ، أثر كبير فى تقويم الأخلاق ودعم الفضيلة ، والاقتصاد فى اللهو والملاذ ، فى عصر كثرت فيه الخطوب والمحن .

وتولى الحجابة فى بداية عهد عبدالله ، عبد الرحمن بن أمية بن شُهيد حاجب أخيه المنذر ، ثم تولاها من بعده سعيد بن محمد بن السليم حيناً ، ثم عزله عبد الله فى أواخر عهده ، ولم يول أحداً من بعده لحجابته ، واقتصر فى تدبير شئون الدولة على الوزراء والكتاب ، وبالأخص على بدر الخصى الصقلبى وكان يؤثره ويوليه ثقته[2].

وكان من حسن الطالع أن استطاع الأمير عبدالله ، أن يعتمد فى مواجهة الفتنة الغامرة التى أحاقت بعرشه وملك أسرته ، على عون نفر من أكابر رجال الحرب والسياسة ، الذين أبدوا فى معالجة الخطوب مقدرة فائقة . وكان فى مقدمة أولئك الرجال بنو عَبْدة وهم من صميم موالى بنى أمية . وقد تولى عدة منهم الوزارة والقيادة للأمير عبد الله ، ومنهم عبيدالله محمد بن أبى عبدة ، الظافر فى موقعة بلاى ، وأحمد بن محمد بن عيسى بن أبى عبدة ، وسلمة بن على بن أبى عبدة ، وقد اضطلع كلاهما بقيادة كثير من الصوائف . وينسب أعظم الفضل إلى هؤلاء القادة فى مقارعة الفتنة ، وإنقاذ العرش والدولة[3]. وتولى القيادة والوزارة منهم أيضاً عبد الرحمن بن حمدون بن أبى عبدة ، وعبد الله بن محمد بن أبى عبدة ولد القائد الشهير[4]. وكان من وزراء الأمير عبد الله أيضاً ، عبد الملك بن عبد الله

(١) راجع المقتبس ص ٣٤ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٥٨ . وقد استعملت هذه الوسيلة فى كثير من العصور لإيقاف الأمير على مظالم رعاياه بطريقة مباشرة .

(٢) ابن حيان فى المقتبس ص ٤ .

(٣) المقتبس ص ٢٩ .

(٤) راجع البيان المغرب ج ٢ ص ١٥٦ ، و ١٥٧ ، وأخبار مجموعة ص ١٥١ . وكذلك المقتبس ص ٦ .

ابن أمية ، وقد قتله ولده المطرف أثناء حملة إشبيلية حسبما أسلفنا . والزعيم البربرى سليمان بن وانسوس وزير أبيه من قبل ، وكان من أقدر وزرائه وأعقلهم ، عزله عن الوزارة ثم اضطر لإعادته للاستعانة بخبرته ونصحه[1] .

وكان الأمير عبد الله ، إلى جانب هؤلاء الوزراء والقادة ، الذين يمثلون العصبية العربية أو البربرية ، يعتمد على ولاء الموالى والفتيان ، ويقدم الموالى الشاميين على البلديين ، أسوة بما رتبه أبوه الأمير محمد ، وكان من زعماء الفتيان فى بلاطه ريّان صاحب الطراز ، وبدر الوصيف وزميله أفلح . وسنرى فيما بعد كيف نما نفوذ أولئك الفتيان فى بلاط قرطبة ، واستفحل فى عهد الناصر حتى غلب على كل نفوذ آخر[2] .

ورزق الأمير عبد الله من الولد إثنا عشر إبناً وثلاثة عشر بنتاً[3] . ووقعت داخل الأسرة الملكية فى عهده عدة حوادث محزنة أسبغت على اسمه وخلاله سحباً قاتمة . من ذلك مصرع ولديه محمد والمطرّف. وكان محمد أكبر أبنائه وولى عهده، وكان أخوه الأصغر مطرف يحقد عليه ، ويرى أنه أحق بولاية العهد لما كان والده يحبوه به من ثقته ، ويعهد إليه به من جلائل الأمور والغزوات، فما زال يدس فى حق أخيه ويغرى أباه عليه ويتهمه بممالأة الثوار ، والاتصال بابن حفصون ، حتى توجس منه أبوه الأمير شراً ، وأمر باعتقاله فى جناح من القصر . ولما تواترت الأدلة بعد ذلك على براءته ، واعتزم عبدالله إطلاق سراحه ، بادر مطرف إليه فى معتقله ، وأثخنه طعاناً حتى أجهز عليه . وهنا تختلف الرواية فيقال إن الأمير عبد الله حزن أشد الحزن لمصرع ولده الأكبر ، وهم بقتل أخيه وقاتله مطرف ، لولا أن ثناه عن ذلك رجال دولته ، ويقال من جهة أخرى إن مطرّفاً لم يرتكب جريمته إلا بوحى أبيه وموافقته[4]. وكان مصرع محمد فى شوال سنة ٢٧٧ هـ

---

(١) راجع ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٦٦ و ٦٧ .

(٢) راجع الحلة السيراء ص ٦٥ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٥٣ .

(٣) يذكر لنا صاحب البيان المغرب أسماء أبناء الأمير عبد الله وبناته (ج ٢ ص ١٥٦ ) .

(٤) راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٧ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٥٦ و ١٥٧ و ١٦٠ و ١٦١ . ويقول صاحب البيان إن محمداً خرج بالفعل على أبيه ، وفر إلى ابن حفصون ، ثم عفا عنه أبوه وعاد إليه ، حتى انتهت وشاية أخيه باعتقاله ( ص ١٥٤ و ١٥٥ ) . وذكر ابن الأثير أن الأمير عبد الله قتل ولده محمداً فى حد من الحدود (ج ٨ ص ٢٤ ) .

( ٨٩١ م ) وهو فى السابعة والعشرين من عمره ، فتولى أبوه عبد الله كفالة ولده الرضيع عبد الرحمن ، وكان قد مضى على مولده ثلاثة أسابيع فقط ، وأسكنه معه فى قصره ، ولما بلغ أشده وظهرت نجابته ، عنى بتعليمه وتربيته ، وقربه إليه وأولاه ثقته ثم جعله كاتب سره[1]. وقد شاء القدر أن يخلف الطفل اليتيم فيما بعد جده على العرش ، وأن يغدو أعظم خلفاء الأندلس .

ولم تذهب جريمة المطرف دون عقاب . ذلك أنه لم تمض بضعة أعوام حتى ساءت العلائق بين مطرف وبين أبيه ، ولما سار المطرف على رأس الصائفة إلى إشبيلية فى سنة ٢٨٢هـ (٨٩٥ م) ، ومعه الوزير عبد الملك بن أمية ، وثب المطرف بالوزير لعداوة بينهما وقتله ، وأثمر سعى خصوم المطرف هذه المرة ، وصُور لأبيه كما صور أخوه من قبل ، فى صورة الخارج عليه المتربص به ، فقضى بإعدامه ، وقطع رأسه وبذا كفر عن دم أخيه ودم الوزير[2] .

واستراب عبدالله أيضاً بإخوته ، وقد أشرنا فيما تقدم إلى ما قيل من أن أخاه المنذر توفى قتيلا ، وأنه هو الذى أوحى إلى طبيبه بتدبير قتله . وبطش عبد الله بأخوين آخرين له هما هشام والقاسم ابنا محمد بن عبد الرحمن . فأما هشام فاتهم بالتآمر على أخيه ، فقبض عليه وقضى بإعدامه (٢٨٤ هـ) . وأما القاسم فقبض عليه وزج إلى السجن ، ثم دس عليه عبد الله من قتله بالسم . واعتقل كذلك عدة من أمراء بنى أمية وأكابر رجال الدولة ، وقتل بعضهم . وقد أسبغت هذه الوقائع الدموية سحابة قاتمة على خلال الأمير عبدالله وسيرته ، ولم ينجح فى محوها ورعه وزهده وحبه للخير . وقد نعى عليه الفيلسوف ابن حزم هذا الإسراف فى البطش فى أقوال استشهد بها ابن حيان وغيره من مؤرخى الأندلس ، وجاء فيها أن الأمير عبدالله « كان قتالا تهون عليه الدماء ، مع الذى كان يظهره من عفته ، فإنه احتال على أخيه المنذر على إيثاره إياه ، وأوطأ عليه حجامه بأن سم له المبضع الذى فصده به وهو نازل بعسكره على ابن حفصون ، فكانت فيه منيته وتطوق دمه . ثم قتل ولديه معاً بالسيف واحداً بعد آخر ، محمداً والد الخليفة الناصر لدين الله ،

(١) المقتبس ص ٤٠ .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٧ .

وأخاه عدوه المطرف؛ ثم قتل أخوين له معاً أيضاً ، قتل هشاماً بالسيف، والقاسم أخاه بالسم ، إلى من قتله غيرهم »[١] .

وتجمل الرواية خلال الأمير عبدالله وصفاته فى العبارات الآتية : « وكانوا يعدونه من أصلح خلفاء بنى أمية بالأندلس ، وأمثلهم طريقة ، وأتمهم معرفة ، وأمتنهم ديانة ، لكنه كان منغص الحال بدوام الفتنة ، وتضييق نطاق الخطة ، ونقصان مقدار التزكية ، حتى كان يتخلله الرياء تحت قناع تقواه ، والبخل يطوقه طبيعة ليست له تحط من قدره »[٢] ويزيد ابن حيان على ذلك قوله : « وغمصوا دينه بما كان من هو ن الدماء عليه ، وإسراعه إلى سفكها ، حتى من ولديه وإخوته ومن خلفهما من صحابته ورعيته ، أخذاً لأكثرهم بالظنة ، مقوياً فى إيثامهم بالشبهة »[٣] .

وكان للأمير عبدالله بالرغم من هذا الجانب المظلم ، خلال مشرقة ، منها أدبه وفصاحته وشاعريته. وتنوه الرواية بهذه الموهبة فيقول لنا صاحب أخبار مجموعة، إن الأمير عبد الله كانت له توقيعات بليغة ، وأشعار بديعة فى الغزل والزهد ، لا يكاد أن يقع مثلها أو تنسب إلى من تقدمه نظيرها[٤] . ويقول ابن حيان «كان متصرفاً فى فنون ، متحققاً منها بلسان العرب ، بصيراً بلغاتها وأيامها ، حافظاً للغريب من الأخبار ، آخذاً من الشعر بحظ وافر »[٥]. ويقول صاحب البيان المغرب إنه كان شاعراً مطبوعاً له أشعار حسان[٦]، ومن شعره فى الغزل قوله :

يا مهجة المشتاق ما أوجعك ... ويا أسير الحب ما أخشعك
ويا رسول العين من لحظها ... بالرد والتبليغ ما أسرعك
تذهب بالسر فتأتى به ... فى مجلس يخفى على من معك

---

(١) راجع نقط العروس لابن حزم ص ٨٧ و ٧٩ ، والمقتبس ص ٤١ ، وكذلك ص ١٢٢ ، وابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٦٩ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٦٠ و ١٦١ .

(٢) ابن حيان ، نقلا عن عيسى بن أحمد الرازى ، فى المقتبس ص ٣٣ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٦٠ .

(٣) المقتبس ص ٣٩ .

(٤) أخبار مجموعة ص ١٥٢ .

(٥) المقتبس ص ٣٤ .

(٦) البيان المغرب ج ٢ ص ١٥٩ .

كم حاجـة أنجـزت إبرازها  تبـارك الرحمن ما أطوعـك

وقوله :

ويحى على شـادن كحيـل  فى مثـله يخـلع العـذار
كأنمـا وجنتـاه ورد  خالصـة النور والبهـار
قضيب بان إذا تثـنى  يـدير طرفاً به أحوار
فصفو ودى عليـه وقف  ما اطّـرد لليـل و النهـار

ومن قوله فى الزهد :

يا من يراوغـه الأجـل  حتى م يلهيـك الأمـل
حتى م لا تخشى الـردى  وكأنه بك قـد نـزل
أغفلت عن طلب النجـاة  ولا نجـاة لمـن غفـل
هيهـات يشـغلك المـنى  ولا يدوم لك الشـغل
فـكأن يومك لم يـكن  وكأن نعيـك قد نزل

وكان يؤثر مجالس العلماء والشعراء ، ويعظمهم ويقربهم ويستدعيهم ،ويرتاح لمديحهم . قال ابن حيان : « وكان مجلس الأمير عبدالله قبل الخلافة وبعدها ، أعمر مجالس للفضائل ، وأنزهها من الرذائل ، وأجمعها لطبقات أهل الآداب والتعالم » . وكان فى مقدمة أصدقائه وجلاسه زعيم شعراء العصر ، أبو عمر أحمد ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد ؛ وكان شاعر الدولة الأموية ، ومادح أمرائها منذ الأمير محمد حتّى الناصر ؛ وموسى بن محمد بن حُدير المعروف بالزهد ؛ وسعيد بن عمرو العكى ؛ وعبيد الله بن يحيى بن إدريس الخالدى ، وسعيد ابن عبد ربه ابن أخى صاحب العقد ؛ وكلهم من أكابر الشعراء والكتاب . وكان من أخص وزرائه فى تلك المجالس العلمية ، الوزيران العالمان الأديبان عبد الملك بن جَهور ، وعبد الملك بن شُهيد . وكان من عادته أن يلجأ إلى العلماء وأهل الرأى فى المشورة ، ويستعين بآرائهم وأحكامهم فيما يواجه من أحداث وخطوب ؛ وكان بقىّ بن مخلد فقيه العصر وأعظم علمائه أكثرهم حظوة لديه ، وكان يبجله ويزوره فى داره ، ويقتبس منه ، ويستمع لنصحه[١] .

---

(١) المقتبس ص ٣٤ و ٣٨ و ٤١ و ٤٢ .

ولم يتسع عهد الأمير عبد الله الفياض بالثورات والفتن للأعمال الإنشائية ، بيد أنه يمكن أن نذكر من منشآته القليلة «الساباط» الموصل بين القصر والمسجد الجامع ، وهو عبارة عن ممر مسقوف مبنى فوق عقد كبير يفضى من القصر إلى الجامع ، ويتصل به على مقربة من المحراب .

وكان الأمير عبد الله بن محمد ، أبيض ، أصهب ، مشرباً بحمرة ، أزرق العينين ، أقنى الأنف ، يخضب بالسواد ، إلى الطول أميل[1] . ووصفه ابن حيان بقوله : « كان جميل الطلعة ، ضخماً ، مهيباً ، نبيلا »[2] .

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ٣٤ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٥٥ .
(٢) المقتبس ص ٣٦ .

# الفصل الخامس

## المملكة الإسبانية النصرانية

### خلال القرن التاسع الميلادى

ألفونسو الثانى ملك جليقية . النضال بين الأندلس وبين المملكة النصرانية . موقعة الصخرة . غزو ألفونسو للأراضى الإسلامية . غزو الحكم لجليقية . غزو المسلمين لألبة والقلاع . راميرو الأول . الحرب الأهلية فى جليقية . غزو محمد بن عبد الرحمن لجليقية . وفاة راميرو وولاية ولده أردونيو . تحالف أردونيو مع الثوار المسلمين . غزو الأمير محمد لألبة والقلاع . التحالف بين موسى بن موسى وملك ناڤار . الحرب بين أردونيو وبنى قسى . هزيمة موسى ومصرعه . تحالف لب بن موسى مع أردونيو . غزو أردونيو لأراضى المسلمين . غزوة المنذر بن محمد لناڤار . غزوات أخرى لألبة والقلاع . وفاة أردونيو وولاية ولده ألفونسو الثالث . الحرب الأهلية فى جليقية . اتساع المملكة النصرانية فى عهد الفونسو الثالث . توغله فى أراضى المسلمين . عقد السلم بينه وبين محمد بن عبد الرحمن . أحوال المملكة النصرانية . نفوذ الكنيسة فى توجيه العرش الإسبانى . معارك بين المسلمين والنصارى . الثورة ضد ألفونسو . نزوله عن العرش . وفاته وخلاله . مملكة ناڤار . أصلها ونشأتها . مدافعة البشكنس عن استقلالهم . تحالف ناڤار مع بنى قسى . المصاهرة بين الأسرتين . التنافر بين ناڤار وليون . سانشو ملك ناڤار . الحرب بين سانشو وبنى قسى .

— ١ —

تحدثنا فيما تقدم عن نشأة المملكة الإسبانية النصرانية عقب افتتاح المسلمين لاسبانيا ، وكيف نمت هذه المملكة الوليدة المحتجبة فيما وراء الجبال الشمالية ، بخطوات بطيئة ولكن ثابتة ، وكيف شغل عنها ولاة الأندلس فلم ينهضوا لسحقها ، انتقاصاً لشأنها وخطرها ، حتى غدت فى أواخر القرن الثامن عاملا يحسب حسابه ، وبدأت حكومة قرطبة تنظر إلى هذه القوة الجديدة التى توالت غزواتها للأراضى الإسلامية بعين الاهتمام والتوجس ، وتخصص لمقارعتها شطراً كبيراً من جهودها ومواردها .

وقد انتهينا فى أخبار هذه الحقبة من تاريخ المملكة الإسبانية النصرانية ، إلى عصر ألفونسو الثانى الملقب بالعفيف ، الذى تولى الملك سنة ٧٩١ م ( ١٧٥ ﻫ ) .

وكان ألفونسو الثانى ملكاً حازماً مقداماً ، فضبط المملكة ونهض بها نهضة شاملة ، وحصن ثغورها وقواعدها ، وعمل على تحسين شئونها الاجتماعية ، وجعل عاصمتها مدينة «أوبييدو» Oviedo . وكانت مملكة جلّيقية أو مملكة أشتوريش (أستورياس) كما كانت تسمى يومئذ ، تمتد من ولاية بسكونية شرقاً إلى المحيط غرباً ، ومن خليج بسكونية شمالا حتى نهر دويرة جنوباً ، ولكنها لم تكن عندئذ كما كانت أيام ألفونسو الكاثوليكى تشمل ولاية نافار أو بلاد البشكنس ، التى استطاعت أن تستقل بنفسها ، وقامت بها غير بعيد مملكة نصرانية مستقلة أخرى .

واستطال حكم ألفونسو الثانى زهاء نصف قرن . عاصر فيه ثلاثة من أمراء الأندلس ؛ هم هشام بن عبد الرحمن ، وولده الحكم ، وحفيده عبد الرحمن ، وتوالت فيه مراحل النضال بين الأندلس والمملكة النصرانية ، فنشبت الحرب بينهما مراراً عدة ، وتبادلا الغزو كلٌ لأراضى الآخر مراراً ؛ وكانت أهم الأحداث البارزة فى حلقات هذا النضال ، هزيمة الجلالقة والبشكنس بقيادة ألفونسو الثانى على يد المسلمين فى موقعة الصخرة فى قاصية جليقية فى سنة ٧٩٥ م ( ١٧٩ هـ ) . وفى سنة ٨١٠ م ( ١٩٣ هـ ) فى عهد الحكم بن هشام عبر ألفونسو الثانى بقواته نهر دويرة ، وغزا الأراضى الإسلامية ، وتوغل فى سيره حتى قُلُمرية وأشبونة ، وعاث فى تلك الأنحاء أيما عيث ، ورد الحكم على ذلك بنفسه فى صيف العام التالى غازياً إلى جليقية ، وتوغل فى منطقة وادى الحجارة ، وأثخن فى تلك الأنحاء عقاباً للنصارى وزجراً لهم على عدوانهم .

وفى عهد عبد الرحمن بن الحكم سارت الجيوش الأندلسية ، بقيادة الحاجب عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث فى سنة ٨٢٣ م ( ٢٠٨ هـ ) ، غازية إلى ألبة والقلاع ، على أثر غزو ألفونسو الثانى للثغر الأعلى ، وإغارته على مدينة سالم ، وهزم المسلمون النصارى فى عدة مواقع ، وعاثوا فى أراضى جلّيقية ، وخربوا مدينة ليون ، وأملوا على النصارى صلحاً شديداً قاسياً(١) .

ولما توفى ألفونسو الثانى فى سنة ٨٤٢ م ، خلفه على العرش ولده راميرو الأول أو رذمير كما تسميه الرواية الإسلامية . على أنه لم يخلفه دون نضال . ذلك أن

---

(١) راجع فى تفاصيل الحروب والغزوات المتقدمة « دولة الإسلام فى الأندلس » الفصل السابع من القسم الأول من الكتاب الثانى ص ٢٠٨ وما بعدها ، وكذلك المراجع .

راميرو حينما توفى أبوه كان فى ولاية بردوليا الشرقية ، التى عرفت فيما بعد بقشتالة (كاستيليا Castilla نظراً لكثرة قلاعها ، يرقب حركات المسلمين . وكان عبد الرحمن بن الحكم يقوم عندئذ بغزوته الكبرى فى الثغر الأعلى ، ويثخن فى بلاد البشكنس ، وكان ألفونسو يخشى أن يتدفق هذا السيل المخرب إلى أحواز جليقية ، ولكن عبد الرحمن ارتد إلى قرطبة بعد أن غزا بنبلونة ، وخربها ، وسحق البشكنس وحلفاءهم ثوار الثغر الأعلى . وتوفى ألفونسو بعد ذلك بقليل ؛ فوثب فى أوبييدو زعيم من الأشراف يدعى الكونت ريوتيانوس واستولى على العرش ؛ وعلم راميرو بذلك وهو فى بردوليا فهرع إلى جليقية ، وجمع جيشاً فى مدينة « لك » وسار إلى أشتوريش ليقاتل المغتصب . ولقيه ريوتيانوس فى قواته على ضفاف نهر نارسياس ، وما كادت المعركة تضطرم بين الفريقين ، حتى هجر ريوتيانوس معظم جنده ، وهزم هزيمة شديدة ، وقبض عليه ، وسملت عيناه ، واعتقل بقية حياته فى أحد الأديار ؛ واسترد راميرو عرشه ، وأطاعته سائر جليقية وأشتوريش .

ولكن علاقة العرش بالأشراف لبثت على توترها ، ولم تمض أعوام قلائل حتى دبر الأشراف ثورة جديدة ضد راميرو (٨٤٥ م) . ثم تلتها فى سنة ٨٤٨م ثورة أخرى ، واستطاع راميرو فى كل مرة أن يخمد الثورة ، وقبض على معظم الزعماء والخوارج وأعدم الكثير منهم .

ومما تجدر ملاحظته بهذه المناسبة أن حكومة قرطبة كانت فى معاملتها للزعماء الخوارج عليها ، تبدو أكثر اعتدالا وتسامحاً . فقد كانت تعفو أحياناً عن الثوار ، وكانت تؤثر اصطناع القادرين والأكفاء منهم ، وكانت فى عقابهم أقل قسوة ونكالا . وقد يرجع ذلك إلى ظروف الأحوال فى الأندلس ، فقد كانت الثورات شعبية أو قبلية على الأغلب . أما فى جليقية فكان زعماء الثورة من الأشراف والزعماء الإقطاعيين الأقوياء ، وكان خطرهم على العرش أشد وأدعى إلى التوجس والحذر[1] .

وشغلت المملكة النصرانية فى بداية عهد راميرو ، كما شغلت المملكة الإسلامية ، برد خطر النورمانيين الذين فاجأوا الأندلس بغاراتهم المخربة فى سنة ٨٤٢ م حسبما

---

(١) Aschbach : Geschichte der Omajaden in Spanien, B. I. s. 263

أسلفنا . وشغلت حكومة قرطبة بالأخص حيناً بتحصين أطراف المملكة، وإصلاح ما تخرب من أعمالها . وما كاد أمير الأندلس عبد الرحمن بن الحكم ينتهى من ذلك ، حتى نشط إلى استئناف غزو المملكة النصرانية ورد غارات النصارى ، فسير ولده محمداً فى سنة ٨٤٧م إلى جليقية فاخترق بسائطها ، وحاصر مدينة ليون ، وعاث فى تلك المنطقة . وتقول بعض الروايات النصرانية ، إن المسلمين التقوا براميرو على مقربة من مدينة سالم ، وهزموه هزيمة شديدة ، واستولوا على عدد من الحصون ، وعلى كثير من الغنائم والأسرى . وفى رواية أخرى أن راميرو التقى بالمسلمين على مقربة من كلاڤينجو بجوار قلهرة ، وأنه هزمهم بالرغم من قلة جنده ، وتنسب هذا النصر إلى خرافة خلاصتها أن راميرو رأى القديس ياقب فى نومه ليلة المعركة ووعده بالنصر (١). على أن الروايات الإسلامية لا تذكر شيئاً عن هذه الموقعة وهذا النصر المزعوم .

وأنفق راميرو بقية عهده القصير فى العمل على تنظيم شئون مملكته وتوطيد الأمن فيها ، وأنشأ عدداً من الكنائس والأديار ، ثم توفى فى ديسمبر سنة ٨٥٠ م بعد حكم دام نحو ثمانية أعوام ، تاركاً عرش أشتوريش وبردوليا لولده أردونيو.

— ٢ —

وتولى أردونيو عرش المملكة النصرانية عقب وفاة أبيه بقليل، وبدأ أعماله بتحصين المدن المتاخمة لحدود المسلمين ، مثل تودة وليون وأسترقة ، وأصلح باقى القلاع والحصون تأهباً للدفاع ، وأخمد الثورة فى ولاية بسكونية ، وفرض عليها سلطانه . ولما ظهرت أعراض ثورة المولدين فى الأندلس فى بداية عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن، وقامت طليطلة بثورتها على حكومة قرطبة ، أرسل أردونيو مدداً إلى الثوار ، ولكن جيش الأندلس هزم الثوار وحلفاءهم النصارى فى موقعة وادى سليط شر هزيمة ( ٨٥٤ م ) . وفى العام التالى غزا الأمير محمد ألبة والقلاع وعاث فيها ، ولكن الأندلس شغلت بعد ذلك بظهور النورمانيين وغزوهم لثغور الأندلس وبسائطها القريبة ، فوقف سير الصوائف إلى الشمال بضعة أعوام .

ولكن أردونيو كان يواجه عندئذ خطر قوة جديدة ، أخذت تنمو وتشتد فى الولايات الشمالية . ذلك أن موسى بن موسى بن قسى ، استطاع أن يبسط سلطانه

---

(١) Aschbach : ibid , B. I. s. 259.

على الثغر الأعلى ؛ وأن ينشئ فيه إمارة مستقلة قوية ، واقترن غرسية أمير ناقار بابنة موسى وتحالف معه ، ليستعين به على مقاومة المسلمين ، ومقاومة جيرانه النصارى من الغرب . وفى أوائل عهد الأمير محمد ، عبر موسى جبال البرنيه بقواته ، وغزا جنوبى فرنسا ، واضطر ملكها شارل الأصلع إلى مهادنته ومسالمته ، وأغدق عليه الهدايا والتحف . ولما رأى أردونيو نهوض قوة موسى وخطرها عليه ، اضطر أن يسعى إلى محالفته ، ولكنه ما لبث أن تركه مغضباً إذ كان موسى يؤازر البشكنس الثائرين عليه بتحريض صهره أمير ناقار ، ولم ير أردونيو فى النهاية بدأً من مخاصمة موسى ومحاربته ، وهاجم أردونيو بعض الحصون الغربية التابعة لموسى ، فسار موسى لقتاله ومعه صهره غرسية ملك ناقار فى قواته ، ونشبت بين الفريقين معركة شديدة هزم فيها موسى وجرح وقتل صهره غرسية . ثم توفى موسى متأثراً بجراحه ( ٨٦٢ م ) . وكانت ضربة شديدة أصابت سلطان بنى قسىّ فى الشمال . ولما شعر لب بن موسى عقب وفاة أبيه بقوة المملكة النصرانية ، وخطرها ، على سلطان أسرته ، سعى إلى مهادنة أردونيو ومحالفته على قتال المسلمين ، وردهم عن الولايات الشمالية .

وانتهز أردونيو فرصة اشتغال حكومة قرطبة بأمر النواحى الثائرة ، فعبر نهر دويرة بقواته ، وغزا مدينة قورية وأسر واليها ، ثم غزا شلمنقة ، وهزم المسلمين ، وعاث فى تلك الأنحاء[1]. فسير محمد جيشاً إلى الشمال بقيادة ولده المنذر ، فاخترق ألبة والقلاع ، وهزم النصارى فى كل موطن ، ووصل إلى بنبلونة ، وعاث فى نواحيها . وتوالت حملات الأندلس بعد ذلك على ألبة والقلاع ، ونشبت بين المسلمين وأردونيو معارك متعاقبة ، هزم فيها النصارى جميعاً حسبما فصلنا ذلك فى موضعه[2] . وأراد محمد أن يقضى نهائياً على مملكة جليقية فسير السفن إلى المياه الغربية لتغزوها من البحر ، ووصل الأسطول الأندلسى بالفعل إلى مصب نهر منهو ، ولكن العواصف ثارت وحطمت السفن ، وفشل المشروع فى المهد ( ٨٦٦ م ) .

ولزم أردونيو عقب هزائمه المتوالية السكينة بقية عهده ، ثم توفى فى شهر مايو

(١) Crónica General (Ed. Pidal) Vol. II. p. 366.

(٢) راجع تفاصيل هذه المعارك فى أخبار أمير الأندلس محمد بن عبد الرحمن ( ص ٢٩٤ — ٢٩٩ و ص ٣١١ ) .

سنة ٨٦٦م ، واختار قبيل وفاته ولده البكر ألفونسو لولاية عهده ، فخلفه على العرش باسم ألفونسو الثالث ولما يبلغ الرابعة عشر من عمره .

— ٣ —

وما كاد الملك الفتى يجلس على العرش ، حتى ثار عليه الكونت فرويلا حاكم ولاية جليقية وولد الملك برمند ، مطالباً بالعرش ، وسار فى قواته إلى أوبييدو ، ففر ألفونسو إلى ولاية ألبة ، واستولى فرويلا على القصر ، وأعلن نفسه ملكاً . ولكن الأشراف القوط الذين يرون فى العرش رمزهم وملاذهم ، لم يرقهم هذا الاغتصاب ، فثاروا على فرويلا وقاتلوه حتى قتل ، وعاد ألفونسو إلى أوبييدو ظافراً واسترد عرشه .

ولم يمض قليل على ذلك حتى دبر أخوة ألفونسو ، وهم فرويلا ونونيو وبرمند وأدڤاريوس مؤامرة لعزله وانتزاع العرش منه ، ولكن المؤامرة افتضحت قبل نضجها ، وقبض ألفونسو على أخوته وعاقبهم بسمل أعينهم واعتقالهم ، ولم ينج من بطشه سوى برمند إذ فر إلى أسترقة واستولى عليها ، واستطاع بمؤازرة المسلمين أن يستقل بحكمها بضعة أعوام[١] .

وكان حكم ألفونسو الثالث الذى استطال أربعة وأربعين عاماً ، فاتحة عهد جديد من القوة والنهوض بالنسبة للمملكة النصرانية ، وكان ألفونسو أميراً وافر العزم والكفاية ، فاستطاع خلال حكمه الطويل بالحروب والزواج أن يدفع حدود مملكته حتى جبال البرنيه شرقاً ؛ وعبر نهر دويرة إلى أراضى المسلمين مراراً ، ووصل فى غزواته إلى ضفاف التاجُه ، وغزا عدة من المدن الإسلامية المتاخمة مثل ماردة وقلمرية وبازو وقورية وشلمنقة ؛ ومع أنه لم يستطع أن يضم هذا البسيط إلى مملكته ، فانه استطاع أن يشدد الضغط على الأندلس من هذه الناحية ، وأن يرد تيار الغزوات الإسلامية . وفى سنة ٨٧٨ م حاول المسلمين غزو ليون وأسترقة ، فبادر ألفونسو إلى لقائهم ، وهزمهم فى موقعتين على مقربة من سمورة ، وأرغم أخاه برمند على الفرار من أسترقه ، والالتجاء إلى المسلمين . وفى سنة ٨٨١م غزا ألفونسو أراضى المسلمين وعبر دويرة والتاجه ، ووصل فى زحفه حتى أحواز ماردة ووادى أنة ، وهو مدى لم يبلغه أحد من أسلافه . وتقول الرواية النصرانية

---

(١) Crónica General : ibid. Vol. II. p. 376 — Aschach : ibid. B. I. s. 301

أنه التقى بالمسلمين عند سفح جبل أريفر من جبال سيرّا مورينا ( جبل الشارّات ) وهزمهم وقتل منهم عدة آلاف وهى موقعة لم تشر إليها الروايات الإسلامية[١] .

وكانت ريح الثورة تهب يومئذ على معظم جنبات الأندلس ، وتشغل حكومة قرطبة بمقارعة بنى قسى فى الثغر الأعلى . وتحالف محمد بن لب زعيم الأسرة الثائرة مع ألفونسو الثالث ، ليستعين به على قتال المسلمين ، ولكن المسلمين نجحوا فى انتزاع سرقسطة معقل ابن لب ، وزحفوا على ألبة لمقاتلة النصارى ، وعندئذ آثر ألفونسو أن يعقد السلم مع المسلمين ، وعقدت بالفعل بينه وبين الأمير محمد بن عبد الرحمن حسبما فصلنا من قبل ، معاهدة صلح استمرت ردحاً طويلا .

ذلك أن ملك النصارى رأى بالرغم مما كان يشغل حكومة قرطبة من ثورات متعاقبة ، أن يقنع بتأمين حدوده وأراضيه من خطر الغزو الإسلامى ، وأن يتفرغ لشئون مملكته الداخلية ، وكانت هذه الشئون تستغرق جل اهتمامه ، وكانت الأزمات والقلاقل السياسية والاجتماعية تتعاقب ، لأسباب وبواعث تتعلق بنظم المجتمع النصرانى وظروفه . وقد وقعت فى عهد ألفونسو عدة ثورات محلية ترجع بالأخص إلى المبالغة فى فرض الضرائب على الضياع ، وثار أصحاب الضياع لهذا الجور غير مرة فى أنحاء مختلفة ، وطالبوا بالحد من تغريمهم على هذا النحو لصالح الكنيسة ورجال الدين ، ولكن هذه الثورات الإقطاعية أخمدت تباعاً ، وصودرت معظم الضياع لصالح الكنيسة ، واستمر العرش فى الإغداق على الأديار ورجال الدين .

ومما تجدر ملاحظته أن الملوكية الإسبانية ، كانت تدين منذ نشأتها بمنتهى الولاء والطاعة للكنيسة وللكرسى الرسولى . وكانت البابوية تتمتع فى توجيهها بأعظم نفوذ . وكان العرش الإسبانى يشعر دائماً بأنه يستمد سلطانه من الكنيسة ، ويرجع إلى البابوية فى كل أمر يمس شئون السلطة الروحية . ومن ذلك أن ألفونسو الثالث كتب إلى البابا يوحنا الثامن يستأذنه فى عقد المؤتمر الكهنوتى وتعيين الأساقفة ، فأذن له ، وطلب إليه أن يبعث بفرقة من الفرسان للمعاونة فى محاربة المسلمين فى صقلية وجنوبى إيطاليا . وعقد المؤتمر الكهنوتى بالفعل فى أوبييدو سنة ٨٧١ م ونظمت فيه شئون الكنيسة الإسبانية . وكان ألفونسو الثالث ملكاً تقياً ورعاً ، وكانت

---

( ١ ) Aschbach : ibid , B. I, s. 303

الكنيسة ورجال الدين يحظون منه بأوفر قسط من الرعاية والإغداق ، وكان هذا الجود المغرق يحمله على الإسراف فى فرض الضرائب على الطوائف المدنية ، وبذا يبث إليها بذور السخط والانتقاض(١) .

وفى أواخر عهد ألفونسو نشبت الحرب بينه وبين بنى قسيّ سادة الثغر الأعلى ، وأغار زعيمهم محمد بن لب غير مرة على أراضى المملكة النصرانية وناڤار . وكذلك نشبت الحرب بين ألفونسو وبين ابن القط المعروف بالمهدى الذى تزعم البربر فى منطقة سمورة حسبما فصلنا ذلك فى موضعه . ولكن هذه المعارك التى وقعت يومئذ بين المسلمين والنصارى لم تتسم بالطابع الرسمى ، وكان يضطلع بها الزعماء الخوارج على حكومة قرطبة ، ومن ثم فقد استمر التهادن بين حكومة قرطبة وبين المملكة النصرانية طوال عهد الأمير محمد ، فإبنه الأمير المنذر ، ثم أخيه الأمير عبد الله . وبالرغم من أن ألفونسو لم يكن يترك فرصة لإذكاء الفتنة فى المملكة الإسلامية وتعضيد الخوارج عليها ، فإنه التزم عهده المعقود معها ، ولم يقم بغزوات ذات شأن فى الأراضى الخاضعة لها .

ودبرت عدة مؤامرات لخلع ألفونسو وانتزاع العرش منه . وكان المتآمرون من خاصة أسرته . وحاول المتآمرون لأول مرة تمكين أولاده وزوجه خمينا من الحكم ، ولكن ألفونسو استطاع أن يقف على المؤامرة وأن يقضى عليها . وقبض على ولده غرسية واعتقله فى قلعة أوبييدو . ولكن هذا الفشل لم يفت فى عضد المتآمرين ، فدبروا مؤامرة جديدة برياسة الملكة خمينا ، وهى امرأة ذات أطماع تهيم بالسلطان ، واشترك فى تدبيرها الكونت نونيو صاحب برغش وأولاد الملك الثلاثة وهم : أردونيو وفرويلا وجند سالڤوس ، وانضم إليهم قسم من الجيش وفريق كبير من الشعب ، وسيطروا على كثير من المعاقل . وخشى ألفونسو عاقبة الحرب الأهلية فقبل شروط الثوار ، ونزل عن العرش لولده الأكبر غرسية ، وعين أردونيو حاكماً لجليقية ، وفرويلا حاكماً لأشتوريش ، ووقع ذلك فى سنة ٩١٠م ، وبذا اختتم ألفونسو عهده الذى استطال أربعة وأربعين عاماً . ولم يمض قليل على ذلك حتى توفى فى شهر اكتوبر من نفس العام وقد جاوز الثامنة والخمسين من عمره(٢) .

---

(١) Aschbach : ibid, B. I. s. 346 & 352

(٢) Crónica General: ibid, Vol. II. p. 382

وتشيد الرواية بخلال ألفونسو الثالث ، وتصفه بالحزم والشجاعة ، وتقول لنا إنه كان خصماً عنيداً للمسلمين شديد الوطأة فى محاربتهم ، ولكنه حينما عقد السلم مع حكومة قرطبة احترم عهده والتزم الوفاء به . وكان ألفونسو فى الوقت نفسه نصيراً للآداب والعلوم يجزل صلاته لأهل العلم ، وكان من سعة أفقه أن عهد بتربية ولده أردونيو إلى بعض العلماء المسلمين (١) ، وكان حسبما أسلفنا تقياً ورعاً يخص الكنيسة بأوفر رعايته وعطائه ، وقد أنشأ كثيراً من الكنائس والأديار ، وابتنى كنيسة شنت ياقب الشهيرة . وقد رأينا كيف حمله إسرافه فى الإغداق على الكنيسة ورجال الدين ، على المبالغة فى فرض الضرائب على الضياع ، فكان ذلك من عوامل الإنتقاض والثورة على سياسته ؛ وبذل ألفونسو جهوداً كبيرة فى تحصين مدن الحدود ، وفى مقدمتها برغش وسمورة وسيمانقة ( شنت منكش ) ، وزودها بالسكان والجند ، لكى تغدو سداً منيعاً ضد غزوات المسلمين .

ومنذ وفاة ألفونسو تسمى المملكة الإسبانية النصرانية مملكة ليون ، بعد أن كانت تسمى مملكة أشتوريش وجلّيقية ؛ وقد نقل ابنه وخلفه غرسية قاعدة المملكة من أوبييدو إلى مدينة ليون لتوسط موقعها بين جلّيقية وأشتوريش ؛ وتسبغ الرواية النصرانية على ألفونسو الثالث لقب ( ألفونسو الكبير El magno ) ، لما امتازت به المملكة النصرانية فى عهده من القوة والنهوص والاتساع ، وما تمتعت به خلال عهده الطويل من السلم والرخاء .

— ٤ —

إلى جانب مملكة أشتوريش أو مملكة ليون الإسبانية الشمالية ، كانت تقوم فى غربى البرنيه فى بلاد البشكنس الجبلية ، إمارة أو مملكة نصرانية أخرى هى مملكة ناڤار ( نبرّة ) . ويحيط الغموض بأصل هذه المملكة الصغيرة ونشأتها . وكل ما نعرفه من ذلك هو أن قبائل البشكنس ، كانت حتى أواخر القرن الثامن الميلادى تخضع لبعض السادة الإقطاعيين التابعين لمملكة الفرنج ، وربما حكمها دوقات كانتاريا أو أمراء أشتوريش . وكانت قاعدتهم مدينة بنبلونة الحصينة ، التى حكمها المسلمون ردحاً من الزمن ، ثم فقدوها فى أواخر القرن الثامن أيام غزوات الفرنج لاسبانيا الشمالية . وكانت بلاد البشكنس أو ناڤار منذ الفتح ميداناً للغزوات

(١) Aschbach : ibid , B. I. s. 352

الإسلامية والفرنجية . وقد حاول أمراء جليقية غزوها غير مرة ، وضمها إلى المملكة النصرانية . ولكن قبائل البشكنس كانت تتفانى دائماً فى الذود عن استقلالها . ولما شغلت المملكة النصرانية بمنازعاتها الداخلية ، لبثت نافار مدى حين مقصد الصوائف الإسلامية ، واجتاحها المسلمون مراراً .

وفى نهاية القرن الثامن الميلادى فى نحو سنة ٧٩٩ م ، ظهر فى نافار زعيم من السادة يدعى أزوار وجعل نفسه أميراً مستقلا . ولما توفى سنة ٨٣٦ م خلفه أخوه سانشو . ولكن أميراً آخر من الزعماء البشكنس هو غرسية إنيجيز بن إنيجو أريستا تغلب عليه وانتزع منه الإمارة . وتعرف الرواية الإسلامية إنيجو أريستا هذا وتسميه « ونقه بن شانجه ملك البشاكسة »[١]. وهنا تبدو نافار لأول مرة فى صورة المملكة المستقلة ، ويبدأ ثبت ملوكها المتعاقبين . ومما يجدر ذكره أن مملكة نافار الناشئة ، رأت أن ترتبط برباط التحالف والمصاهرة مع إمارة إسلامية مجاورة هى إمارة بنى قسىّ سادة الثغر الأعلى ، وهم حسبما قدمنا يرجعون إلى أصل نصرانى أو قوطى. وقد تزوج إنيجو أريستا رأس الأسرة النافارية بأرملة موسى بن فرتون ابن قسى ، وتزوج موسى بن موسى من إبنة غرسية إنيجز ، وتزوج غرسية وإخوته من بنات لب بن موسى بن فرتون ، وتزوج بعض إخوة موسى وأبنائه من بنات أمراء نافار[٢] .

وهكذا كانت وشائج التحالف والمصاهرة تربط بين الأسرتين المسلمة والنصرانية ، وتوثقت هذه الوشائج واستطالت دهراً . وكذلك رأى غرسية إنيجيز أن يتحالف مع عمر بن حفصون زعيم الفتنة فى الأندلس . وكانت علائق نافار بجارتها المملكة النصرانية الكبيرة أو مملكة ليون يشوبها الكدر . ذلك أن مملكة نافار الصغيرة كانت دائماً تخشى مطامع ليون وغدرها ، وقد حارب غرسية إنيجيز أردونيو ملك ليون ، إلى جانب صهره موسى بن موسى ، فى موقعة البلدة وقتل سنة ٨٦٢ م حسبما أسلفنا .

وخلف غرسية ولده فرتون الذى لبث أسيراً فى قرطبة ردحاً طويلا . ثم خلفه ولده سانشو غرسية . وفى رواية أن سانشو هذا لم يكن ولداً لفرتون أو لغرسية

(١) راجع جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ٤٦٨ .
(٢) جمهرة أنساب العرب ص ٤٦٨ .

ولم يكن من أمراء البيت المالك ، ولكنه متغلب من نوع آخر انتزع الملك لنفسه . وعلى أى حال فقد استقر سانشو غرسية ملكاً على ناڤار . وهو أول من تلقب من أمراء ناڤار بألقاب الملك ، وبه تبدأ مملكة ناڤار الحقيقية . وقد حكم سانشو حتى سنة ٩٢٦ م ، وخاض مع المسلمين أيام الأمير عبدالله عدة حروب ووقائع ، وشغل حيناً بقتال بنى قسى الذين تصرمت علائقهم مع مملكة ناڤار ، وهاجم لب ابن محمد بن لب زعيم بنى قسى ناڤار غير مرة ، ونشبت بينه وبين سانشو على مقربة من بنبلونة وقائع متوالية انتهت بهزيمة لب ومقتله فى سنة ٩٠٧ م ، فخلفه أخوه عبدالله فى رياسة تطيلة وما جاورها ، واستمر فى محاربة ناڤار وهزم سانشو فى سنة ٩١١ م ، وتقول الرواية الإسلامية إن شانجه بن غرسية البشكنسى صاحب بنبلونه أعنى سانشو غرسية ، غزا مدينة تطيلة فى سنة ٣٠٣ هـ ( ٩١٤م ) ، فقتل كثيراً من المسلمين ، وأسر أميرها عبد الله بن محمد بن لب بن موسى القسوى . فدخلها أخوه مطرِّف بن محمد فى اليوم التالى ، وقام مكان أخيه . وقد كان عبد الله وأخوه مطرف من أبطال الثغر الأعلى ، وكانت لهما غزوات عديدة مظفرة فى أراضى النصارى[1] . وشغل سانشو أيضاً بقتال الطويل وغيره من زعماء الثغر الأعلى حسبما فصلنا ذلك فى موضعه . وسنعرض فى فصل قادم إلى حروبه مع عبد الرحمن الناصر .

---

(١) المقتبس لابن حيان — السفر الخامس — مخطوط الخزانة الملكية بالرباط لوحة ١٦١ ، وهو الذى أشرنا فى مقدمة الكتاب إلى اكتشافه بين محفوظات الخزانة الملكية .

# فهرست الموضوعات[1]

صفحة

مقـدمة ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٥

## الكتاب الأول

### فتوح العرب فى إفريقية والأندلس وغاليس
### وعصر الولاة فى الأندلس

الفصل الأول : فتوح العرب فى إفريقية. ... ... ... ... ... ... ... ... ١٤
الفصل الثانى : إسبانيا قبل الفتح الإسلامى . ... ... ... ... ... ... ... ٢٧
الفصل الثالث : فتح إســبانيا ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٣٨
الفصل الرابع : إسبانيا بعد الفتح الإســلامى ... ... ... ... ... ... ... ٦٣
الفصل الخامس : غاليس بين العرب والفرنج ... ... ... ... ... ... ... ٧٧
الفصل السادس : بلاط الشــهداء... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٩٢
للفصل السابع : الأندلس بين المد والجزر .. ... ... ... ... ... ... ... ١١٢
الفصل الثامن : الحــرب الأهليــة .. ... ... ... ... ... ... ... ... ١٢٢
الفصل التاسع : خاتمة عصر الولاة ... ... ... ... ... ... ... ... ... ١٢٩

## الكتاب الثانى

### الدولة الأموية فى الأندلس

### القسم الأول ــ عصر الإمارة

### من عبد الرحمن الداخل إلى عبد الرحمن بن عبد الحكم

---

(١) رأينا أن نكتفى بأن نثبت هنا فهرس الموضوعات والخرائط لهذا القسم الأول من الكتاب . أما ما عدا ذلك من الملاحق والفهارس المختلفة الأخرى ، فسوف نثبتها فى نهاية القسم الثانى من الكتاب .

صفحة

الفصل الأول : مصرع الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية ... ... ١٤٠

الفصل الثانى : بعث الدولة الأموية فى الأندلس . ... ... ... ... ... ١٤٧

الفصل الثالث : ولاية عبد الرحمن الداخل — ١ .. ... ... ... ... ... ١٥٧

الفصل الرابع : موقعة رونسڤال أو باب شزروا .. ... ... ... ... ... ١٦٨

الفصل الخامس : ولاية عبد الرحمن الداخل — ٢ .. ... ... ... ... ... ١٨٥

الفصل السادس : خلال عبد الرحمن ومآثره . ... ... ... ... ... ... ١٩٢

الفصل السابع : المملكة النصرانية الشمالية منذ قيامها إلى ولاية ألفونسو الثانى ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٢٠٧

الفصل الثامن : هشام بن عبد الرحمن والحكم بن هشام . ... ... ... ... ٢٢٣

الفصل التاسع : عبد الرحمن بن الحكم . ... ... ... ... ... ... ... ٢٥٤

## الكتاب الثانى

### الدولة الأموية فى الأندلس

### القسم الثانى — عصر الإمارة

### من محمد بن عبد الرحمن إلى عبد الله بن محمد

### وعهد الفتنة الكبرى

الفصل الأول : ولاية محمد بن عبدالرحمن بن الحكم ، وطوالع الثورة الأولى ٢٨٨

الفصل الثانى : ولاية المنذر بن محمد بن عبدالرحمن ، وبداية ثورة المولدين ٣١٧

الفصل الثالث : ولاية عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن

١ — ثورة المولدين والعرب ... ... ... ... ... ... ٣٢٢

الفصل الرابع : ولاية عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن

٢ — ذروة الفتنة الكبرى ... ... ... ... ... ... ٣٣٥

صفحة

الفصل الخامس : المملكة الإسبانية النصرانية. ... ... ... ... ... ... ... ...
خلال القرن التاسع الميلادى ... ... ... ... ... ... ... ٣٥٣

* * *

## فهرست الخرائط

١ — خريطة عامة لإسبانية المسلمة ( موضوعة فى فاتحة الكتاب ) ... ...
٢ — موقعة وادى لكه وخط سير طارق . ... ... ... ... ... ... ... ٤٣
٣ — مواقع غزوة شارلمان لسرقسطة ومعركة باب الشزرى ... ... ... ١٧٩
٤ — المملكة الإسبانية النصرانية ... ... ... ... ... ... ... ... ٢١٧
٥ — موقعة بلاى ومنطقة ثورة ابن حفصون ... ... ... ... ... ... ٣٢٧

# دولة الإسلام في الأندلس

## الخلافة الأموية والدولة العامرية

تأليف

محمد عبد الله عنان

العصر الأول - القسم الثاني

الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة

حقوق الطبع محفوظة للناشر

الطبعة الرابعة

١٤١٧ هـ = ١٩٩٧ م

رقم الإيداع : 90/8988

الترقيم الدولى : 977-505-082-4

مطبعة المدني المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة، ت : ٤٨٢٧٨٥١

# الكتاب الثاني

# الدّولة الأمويّة في الأندلس

## القسم الثالث

# عبد الرحمن الناصر
# وقيام الخلافة الأموية بالأندلس

٣٠٠ – ٣٥٠ هـ – ٩١٢ – ٩٦١ م

# الفصل الأول

## ولاية عبد الرحمن الناصر

### وقيام الخلافة الأندلسية

ولاية عبد الرحمن حفيد الأمير عبد الله . نشأته وحداثته . أخذ البيعة له . حزمه فى معالجة الثورة . غزو قلعة رباح وإخضاعها . خروج عبد الرحمن لغزو الثوار . غزوة المنتلون . غزوه لمعاقل ابن حفصون فى ريه وإلبيرة . سحق الثورة فى إشبيلية . عوده لغزو كورة ريه . محاصرته لقرمونة وإخضاعها . مولد ولى العهد الحكم . القحط بالأندلس . أقوال ابن حيان . إخضاع أوريولة ولبلة . ابن حفصون يطلب الصلح ويجاب إليه . عهد الناصر له . وفاة عمر بن حفصون . مبالغة النقد الغربى فى تصوير شخصيته . أبناؤه يخلفونه فى معاقله . مطاردتهم وإخضاع ببشتر آخر معاقلهم . استخراج جثة الثائر وصلبها . إعدام ابنته أرخنتا . كتاب الناصر عن فتح ببشتر . محاصرة طليطلة وإخضاعها . إخضاع بطليوس ونهاية بنى الجليقى . إخضاع بنى ذى النون . تمزيق الثوار فى شرقى الأندلس . إسبانيا النصرانية وتربصها بالأندلس . عيث النصارى فى أراضى المسلمين . غزو أردونيو ليابرة وماردة وبطليوس . غزو المسلمين لأراضى ليون . موقعة شنت إشتيبن وهزيمة المسلمين . عود المسلمين إلى غزو ليون . موقعة مط نية وهزيمة النصارى . مسير عبد الرحمن إلى ليون . استيلاؤه على أوسمة وشنت إشتيبن . توغله فى أراضى نافار . موقعة جونكيرا وهزيمة النصارى . إستيلاء النصارى على بقيرة وفتكهم بالمسلمين . مسير عبد الرحمن إلى الثغر الأعلى . غزوه لنافار واستيلاؤه على بنبلونة . هزيمة النصارى . وفاة أردونيو وولاية ولده راميرو . راميرو يشجع ثوار طليطلة . محاصرة الناصر لطليطلة . محاولة راميرو إنجادها . سقوطها فى يد الناصر . غزو الناصر لقشتالة . مسيره إلى أوسمة . التماس طوطة للصلح . غزو ألبة والقلاع . غزوة بحرية إسلامية للثغر الفرنجى . الصلح بين الناصر وراميرو . تحالف بنى هاشم أصحاب الثغر الأعلى مع النصارى . مسير عبد الرحمن إلى مقاتلة الثوار . محاصرته لسرقسطة . خروج أمية بن إسحاق والتجاؤه للنصارى . سقوط سرقسطة وخضوع محمد بن هاشم . عهد الناصر له بالأمان . غزو عبد الرحمن لنافار وخضوع ملكتها طوطه . تأهب عبد الرحمن لمحاربة راميرو . نفوذ الصقالبة فى القصر والجيش . مسير عبد الرحمن إلى ليون . تحالف ليون ونافار . زحف عبد الرحمن على سمورة . موقعة الخندق وهزيمة المسلمين . أقوال الروايات العربية . رواية المسعودى . رواية ابن حيان . كتاب الناصر عن الغزوة . رواية ابن الخطيب . الروايات النصرانية . رواية ألفونسو الحكيم . الروايات الأخرى . آثار الموقعة . عود المسلمين لغزو ليون . وفاة راميرو وجلوس أردونيو . الصلح بين الأندلس وليون . بعض الحوادث الداخلية . حريق قرطبة . المحل والقحط . الدعوة الفاطمية واجتياحها للمغرب . جزع حكومة قرطبة . استيلاء عبد الرحمن على سبتة . خضوع المغرب الأقصى لعبد الرحمن . خطر الفاطميين على الأندلس . السفن الفاطمية تغزو المرية . غزوات عبد الرحمن لشواطىء المغرب . أثر الدعوة الفاطمية فى بعث فكرة الخلافة الأندلسية . عبد الرحمن يتخذ سمة الخلافة . الوثيقة الخاصة بذلك . ابن مسرة . حركته وحقيقة أمرها . أقوال ابن حيان عنها . مطاردة منتحليها . كتاب الناصر فى شأنها .

— ١ —

مضى زهاء قرن منذ استقر ملك بنى أمية بالأندلس ، وتوطدت أسس الدولة الجديدة ، وأخذت تزهو وتزدهر فى عهد عبد الرحمن بن الحكم . ولكن عوامل الإنتقاض والتفكك ، سرت فجأة إلى هذا الصرح القوى ، ولبثت الأندلس مدى النصف الأخير من القرن الثالث الهجرى ( أواخر القرن التاسع الميلادى ) تضطرم بسلسلة لا نهاية لها من الثورات والفتن ، حتى لاح مدى لحظة أن ملك بنى أمية أضحى على وشك الانهيار .

توفى الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن أمير الأندلس فى مستهل ربيع الأول سنة ٣٠٠ هـ (١٥ أكتوبر سنة ٩١٢ م ) بعد حكم طويل عاصف ، مزقت فيه أوصال المملكة ونضبت مواردها ، فخلفه فى نفس اليوم على العرش حفيده عبد الرحمن ابن ابنه محمد ، غير متجاوز الثالثة والعشرين من عمره ، وذلك بالرغم من وجود أعمامه وأعمام أبيه . وكان الأمير عبدالله قد اختار محمداً أكبر أولاده لولاية عهده ، فوجد عليه أخوه المطرّف وقتله حسبما تقدم . وولد عبد الرحمن قبيل مقتل أبيه بأسابيع قلائل فى ٢٢ رمضان سنة ٢٧٧ هـ ( ديسمبر سنة ٨٩٠ م ) وأمه جارية إسبانية نصرانية تدعى ماريا أو مزنة حسبما تسميها الرواية العربية ، فنشأ الطفل اليتيم فى كفالة جده مرموقاً بعين العطف والرعاية ، وأسكنه جده معه بالقصر دون ولده . وما كاد يبلغ أشده حتى ظهرت نجابته ، وأبدى بالرغم من حداثته تفوقاً فى العلوم والمعارف إلى درجة تسمو على سنه ؛ ودرس القرآن والسنة وهو طفل لم يجاوز العاشرة ، وبرع فى النحو والشعر والتاريخ ، ومهر بالأخص فى فنون الحرب والفروسية ، وأقبل عليه جده الأمير يخصه بحبه وثقته ، ويرشحه لمختلف المهام ، ويندبه للجلوس مكانه فى بعض الأيام والأعياد لتسليم الجند عليه ؛ وهكذا تعلقت آمال أهل الدولة بهذا الفتى النابه ، وأضحى ترشيحه لولاية العهد أمراً واضحاً مقضياً ، بل يقال إن جده قد رشحه بالفعل لولاية عهده وذلك بأن برئ بخاتمه إليه ، حينما اشتد عليه المرض إشارة منه باستخلافه[1]

(١) وردت هذه التفاصيل الأخيرة فى أوراق مخطوطة عن بداية عهد الناصر ، نشرت بعناية الأستاذ ليفى بروفنسال بعنوان : **Una Crônica Anónima de Abd Al-Rahman III, Al-Nasir (Madrid 1950) p. 29—80**

وما كاد الأمير عبدالله يسلم أنفاسه الأخيرة حتى بويع حفيده عد الرحمن بالملك . وجلس عبد الرحمن للبيعة ، يوم الخميس غرة شهر ربيع الأول فى قاعة « المجلس الكامل » بقصر قرطبة ، فكان أول من بايعه أعمامه ، وأعمام أبيه ، وتلاهم أخوة جده ، وقد مثلوا أمامه وعليهم الأردية والظهائر البيض عنوان الحزن على الأمير الراحل ، وتكلم بلسانهم عمه أحمد بن عبدالله فقال : « والله لقد اختارك الله على علم للخاص منا والعام ، ولقد كنت أنتظر هذا من نعمة الله علينا ، فأسأل الله إيزاع الشكر ، وتمام النعمة ، وإلهام الحمد » . وتتابع للبيعة بعد ذلك وجوه الدولة والموالى ، ثم أهل قرطبة من الفقهاء والأعيان ، ورؤساء البيوتات ، واستمرت بيعة الخاصة على هذا النحو حتى الظهر ؛ وعندئذ نهض الأمير الجديد فصلى على جثمان جده ، ثم واراه فى مدفنه بالروضة ، ومعه الوزراء ورجال الدولة . وجلس لتلقى البيعة فى المسجد الجامع صاحب المدينة الوزير موسى بن محمد بن حُدير ، والقاضى أحمد بن زياد اللخمى ، وصاحب الشرطة العليا ابن وليد الكلبى ، وصاحب الشرطة الصغرى ، أحمد بن محمد بن حدير ، وصاحب أحكام السوق محمد بن محمد بن أبى زيد ، فاستمرت بضعة أيام . وكذلك أنفذت الكتب بأخذ البيعة إلى العمال فى سائر الكور ، وأخرج الأمناء إلى البلاد لأخذها ، وتتابعت الردود بإنجازها من جميع النواحى[1]. وساد البشر يوم البيعة فى القصر والمدينة ، وتوسم الجميع فى الأمير الفتى آيات العظمة واليمن ، وعلقوا على ولايته أكبر الآمال . وفى ذلك يقول معلمه شاعر العصر ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد ، يوم أن تولى عبد الرحمن الملك فى مستهل ربيع الأول سنة ٣٠٠ هـ :

بدا الهلال جديداً … والملك غض جديد
يا نعمة الله زيدى … ما كان فيك مزيد
إن كان للصوم فطر … فأنت للدهر عيد
إمام عدل عليه … تاجان : بأس وجود
يوم الخميس تبدى … لنا الهلال السعيد
فكل يوم خميس … يكون للناس عيد

وكانت الأندلس عندئذ أشد ما تكون حاجة إلى السكينة بعد أن هزتها الثورة

(١) الأوراق المخطوطة الخاصة بعهد الناصر ص ٣١ .

إلى الأعماق ، وتجاذبتها الأعاصير من كل صوب ، وكان الأمير الفتى يرى أن خطة التردد والرفق التى اتبعها أجداده نحو الزعماء الخوارج كانت سياسة خطرة ، ولم تكن ناجعة ، وأنه لابد لاستتباب الأمن واستقرار السكينة ، من سحق الثورة وزعمائها بأى الوسائل . ومن ثم فإنه لم تمض على جلوسه أسابيع قلائل حتى بعث حملته الأولى إلى المناطق الثائرة بقيادة الوزير عباس بن عبد العزيز القرشى ، فقصدت إلى منطقة قلعة رباح وكان قد ثار بها الفتح بن موسى بن ذى النون من زعماء البربر ، ومعه حليفه الرياحى المعروف بأرذبلش ، فوقعت بين جند الأمير وبين العصاة معارك شديدة ، هزم فيها الفتح بن موسى ، وارتد مغلولا إلى معاقله ، وقتل أرذبلش ، وبعثت رأسه إلى قرطبة ، فرفعت فوق باب السدة ، وطهرت قلعة رباح وأحوازها من الثورة ، وذلك فى شهر ربيع الآخر[1]. وسارت حملة أخرى نحو الغرب ، واستردت مدينة إستجة من أيدى العصاة أتباع ابن حفصون ( جمادى الأولى ) ، وهدمت أسوارها وقنطرتها الواقعة على نهر شنيل ، حتى تعزل وتغدو بذلك عاجزة عن التمرد والخروج .

وفى شعبان سنة ٣٠٠ هـ ( مارس سنة ٩١٣ م ) خرج عبد الرحمن للغزو وتولى القيادة بنفسه ، فأثار ظهور الأمير الفتى فى الصفوف حماسة الجند وأكبروا شجاعته وإقدامه . وسار عبد الرحمن أولا إلى الجنوب الشرقى ، ومعه جند كورة إلبيرة وزعماؤها ، وكان ابن حفصون قد نزعهم حصونهم ومعاقلهم ، فالتجأوا إلى الأمير ، وألقوا بطاعتهم إليه ، واتجه صوب كورة جيان فى وسط الأندلس ، حيث كانت الثورة على أشدها ، وحيث كان ابن حفصون أخطر الزعماء الخوارج يبسط سلطانه على طائفة من الحصون القوية ؛ فاستولى على حصن مَرتُش الواقع فى طريق جيان ، وسير فى نفس الوقت بعض قواته إلى مالقة لإنجادها ، وكان يهددها الزعيم الثائر ، فاحتلتها وأمنها . وقصد عبد الرحمن بعد استيلائه على مرتش ، إلى حصن مونت ليون ( حصن المنتلون ) القريب منها ، وكان يمتنع به زعيم من المولدين هو سعيد بن هذيل ، فضربه بشدة ، وهاجمه حتى اقتحمه ، وأذعن الزعيم الثائر إلى التسليم والطاعة ومنح الأمان ( رمضان سنة ٣٠٠ هـ ) . وتعتبر هذه الغزوة أول غزوات عبد الرحمن ، وتسمى عادة بغزوة المنتلون .

---

( ١ ) الأوراق المخطوطة السالفة الذكر ص ٣٣ .

واتجه عبد الرحمن بعد ذلك إلى حصن شمنتان ، الواقع على مقربة من بياسة ، وبه عبد الله بن الشالية ، فاستسلم الثائر دون مقاومة ، وطلب الأمان ، ونزل عن جميع حصونه ومعاقله . وأستولى عبد الرحمن بعد ذلك على حصن منتيشة من يد صاحبه ابن عطاف. وافتتح سائر الحصون التى كانت بيد ابن حفصون من كورة جيان ، وطهرها من آثار الخروج والعصيان . وقدم إليه سائر الزعماء الخوارج طاعتهم ، فتقبلها وعفا عنهم .

وسار عبد الرحمن بعد ذلك جنوباً إلى كورة ريُّه ، فاحتل منها سائر الحصون التى تدين بالطاعة لابن حفصون ، واقتحم أمنع هذه الحصون ، وهو حصن شبليس بعد قتال عنيف ، وقتل من كان به من أصحاب الثائر ، وفز أمامه جعفر ابن حفصون ليلا ولحق بأبيه ، ثم استولى عبد الرحمن على حصن إشتبين على مقربة من إلبيرة . واتجه بعد ذلك إلى وادى آش فاحتل حصونها ، ثم توغل فى شعب جبل الثلج ( سيراً نفادا ) وافتتح ما هنالك من المعاقل والحصون . وحاول ابن حفصون أن يزحف على غرناطة ، فخرج إليه أهل إلبيرة ومعهم مدد من جيش عبد الرحمن فردوه على عقبه . وما زال عبد الرحمن يجول فى تلك الأنحاء يخضع حصونها وينتسف أراضيها ، حتى قضى على كل عناصر الثورة والخروج فيها ، وبلغ ما استولى عليه فى تلك الغزوة من الحصون زهاء سبعين حصناً من أمهات المعاقل الثائرة ، ثم ارتد عائداً إلى قرطبة فوصلها فى يوم عيد الأضحى بعد أن قضى فى غزوته زهاء ثلاثة أشهر(١) .

على أن هذه الجولة الأولى لم تكن إلا بداية الصراع المرير ، الذى كان على عبد الرحمن أن يضطلع به . ذلك أنه لم تمض بضعة أشهر أخرى حتى عادت عناصر الثورة تجتمع ، وتتحفز ، وعاد ابن حفصون ينظم خططه وقواته . وكانت إشبيليه فى مقدمة القواعد التى رفعت لواء الثورة ، وقام بها منذ أيام الأمير عبدالله ، بنو حجاج حسبما تقدم ، وأنشأوا بها إمارة مستقلة . وقد كانوا بالرغم من انحدارهم من أصل عربى ينتمون إلى المولدين من ناحية الأم ، ويشاطرونهم شعور الحفيظة ضد حكومة قرطبة . وكان عبد الرحمن يتوق إلى تحطيم سلطان أولئك المولدين ومن يمالئهم ، وقد أبدوا دائماً أنهم لا يدينون بالولاء للحكومة الإسلامية التى

---

(١) وردت تفاصيل هذه الغزوة فى الأوراق المخطوطة الخاصة بعهد الناصر ص ٣٥ – ٣٨ .

لم تدخر وسعاً فى الرفق بهم ومعاملتهم دون تمييز أو إجحاف أو تحامل . وكان زعيم إشبيليه إبراهيم بن حجاج قد توفى ، وخلفه فى حكمها ولده عبد الرحمن ، وخلفه فى حكم قرمونة ولده محمد . ولما توفى عبد الرحمن فى المحرم سنة ٣٠١ هـ ، تطلع أخوه محمد إلى أن يحكم إشبيلية من بعده ، ولكن أهل إشبيلية اجتمعوا حول زعيم قوى آخر هو أحمد بن مسلمة وهو أيضاً من بنى حجاج وقدموه لحكمها ، وسبق محمداً إلى الاستيلاء عليها . فسار محمد إلى قرطبة ، وقدم طاعته إلى عبد الرحمن ، فتقلبها وأوفد معه الجند بقيادة الحاجب بدر ، فحاصر إشبيلية ثم استولى عليها فى جمادى الأولى سنة ٣٠١ هـ وهدم أسوارها ، وندب لها عبد الرحمن والياً من قبله ، وانتهت بذلك ثورة العرب والمولدين فى إشبيلية .

وفى شوال سنة ٣٠١ هـ ( مايو سنة ٩١٤م ) خرج عبد الرحمن فى غزوته الثانية ، وقصد إلى كورة ريه والجزيرة . وكان ابن حفصون زعيم ثورة المولدين قد عاد فبسط حكمه على تلك الأنحاء ، وعادت الثورة تضطرم فيها . وبدأ عبد الرحمن بحصار قلعة « طرُّش » فى شرقى مالقة ، ثم سار إلى حصون ريه ومعاقلها يفتتحها تباعاً ؛ وهنا قدم ابن حفصون على رأس قواته والتقى بعبد الرحمن أمام قلعة طرُّش ، ونشبت بين الفريقين معركة شديدة قتل فيها كثير من جند ابن حفصون وحلفائه النصارى ، وارتد الثائر بفلوله صوب الغرب ، واستطاع أسطول عبد الرحمن أن يضبط عدة سفن محملة بالمؤن كانت قادمة من عدوة المغرب لإمداد ابن حفصون وأن يحرقها . وزحف عبد الرحمن على منطقة الجزيرة الخضراء ، واقتحم حصن لورة الواقع بجوار الجزيرة ، ثم دخل الجزيرة الخضراء فى أوائل شهر ذى القعدة سنة ٣٠١ ( يونيه ٩١٤ م ) . وسار عبد الرحمن بعد ذلك إلى شذونة ثم إلى قرمونة ، وكان حاكمها حبيب بن سوادة قد ثار بها ، فحاصرها حتى سلم الثائر واستأمن ، فمنح الأمان ، وانتقل بأهله إلى قرطبة . بيد أنه نكث بعهده فيما بعد . ودخلت فى طاعته سائر المعاقل والحصون التى مر بها ؛ ثم عاد إلى قرطبة فى شهر ذى الحجة بعد أن أصاب جبهة الثورة فى تلك المرة بضربة شديدة وإن لم تكن قاضية . ومع أن عبد الرحمن كان يتوق إلى سحق الثورة بكل الوسائل ، فإنه لم يلجأ إلى قسوة لا مبرر لها ، بل آثر منذ البداية أن يتبع سياسة الرفق والتسامح نحو الزعماء والثوار الذين قدموا خضوعهم

وطاعتهم ، فسمح للكثير منهم بالانتقال إلى قرطبة مع الأهل والولد ، وأجرى عليهم الأرزاق والأعطية ، وأبدى بالأخص نحو النصارى الذين أذعنوا إلى الطاعة منتهى الكرم والتسامح(١) :

وفى سنة ٣٠٢ هـ ( ٩١٥ م ) ، وقع حادث سعيد فى البلاط القرطبى ، هو مولد ولى العهد الحكم بن عبد الرحمن الناصر . وقد اختلف فى تاريخ مولده ، فيقول الرازى إنه وقع فى يوم الجمعة غرة رجب من هذه السنة . ويقول محمد ابن مسعود إنه وقع فى يوم الجمعة ٢٤ من جمادى الأولى ، وأمه مرجان الرومية ، أم الولد الأثيرة ، وقد سر عبد الرحمن بولادته أيما سرور ، ونوه بها ، وأوسع الإنعام ، وتقدمت طبقات الناس إليه بالتهنئة . وأنشد الشعراء تهانيهم ، فمن ذلك قول الفقيه أحمد بن محمد بن عبد ربه :

هلال نماه البدر واختاره الفجر ... تلقت به شمس وأنجمه زهر
على وجهه سيما المكارم والعلى ... فضاءت به الآمال وابتهج الشعر
سلالة أفراس وبيت خلايف ... أكفهم بحر ونايلهم غمر
بدا لصلاة الظهر نجم مكارم ... تحف به العليا ويكنفه الفخر
نماه إلى العلياء خير خليفة ... تتيه به الدنيا ويزهى به العصر(٢)

وفى أواخر سنة ٣٠٢ هـ ( ٩١٥ م ) حل بالأندلس قحط شديد ، فعزت الأقوات وارتفعت الأسعار ، وأمر عبد الرحمن وزيره أحمد بن محمد بن زياد بالبروز بالناس للاستسقاء ، فبرز بهم يوم الإثنين ١٣ شوال ( أول مايو ) فنزل فيه رذاذ مملح وندى مبلل لم يكن له كبير أثر(٣) ، وعمت المحنة سائر القواعد والثغور ، واستمرت خلال العام التالى ( سنة ٣٠٣ هـ ) ، وبلغت الشدة بالناس مبلغاً عظيماً ، وانتشر الوباء مع القحط ، وكثر الموت ، وهلك كثير من الرؤساء والوجهاء ، وكانت محنة قاسية شديدة الوطأة . ولم يدخر عبد الرحمن خلال تلك الآونة العصيبة ، وسعاً فى بذل المعونة والغوث لشعبه بتوزيع المؤن والصدقات الوفيرة . وحذا حذوه كثير من الكبراء وأهل الدولة ، فكان

---

(١) ابن حيان فى السفر الخامس ( مخطوط الخزانة الملكية بالرباط ) لوحة ٣٢ أ ، و Dozy : Hist., Vol. II. p. 103

(٢) ابن حيان فى السفر الخامس ( مخطوط الخزانة الملكية ) لوحة ٥٣ .

(٣) ابن حيان فى السفر الخامس ( مخطوط الخزانة الملكية ) لوحة ٥٣

لجهودهم أثر كبير فى التلطيف من آثار المحنة . وكان لهذا الظرف أثره فى تهدئة الثورة ، والفت فى عضد الثوار ، ولكن عبد الرحمن لبث مع ذلك متيقظاً يرقب حركاتهم بحذر وأهبة .

ويحدثنا ابن حيان عن هذه المحنة فى حوادث سنة ٣٠٣ هـ ، ويقدم إلينا عنها الصورة التالية :

« فيها كانت المجاعة بالأندلس التى شبهت بمجاعة سنة ستين ، فاشتد الغلاء ، وبلغت الحاجة والفاقة بالناس مبلغاً لم يكن لهم عهد بمثلها ، وبلغ قفيز القمح بكيل سوق قرطبة ثلاثة دنانير ، ووقع الوباء فى الناس ، فكثر الموتان فى أهل الفاقة والحاجة ، حتى عجز عن دفنهم ، وكثرت صدقات الناصر لدين الله فى هذه الأزمة على المساكين وأهل الفاقة ، وعلى المتعففين عن المسئلة ، وصدقات أهل الحسبة من رجاله الموتسين فيه ، فنفع الله بهم كثيراً من خلقه . وكان حاجبه بدر بن أحمد ، مدبر دولته ، أفشاهم صدقة ، وأعظمهم مواساة ، فنعش الله به أمة . وعدا أصر هذه المجاعة وضيق الأحوال ، السلطان عن تجريد صايفة وإعداد جيش ، لما بالناس من الجهد . فأخذ الناصر لدين الله فى شأنه بالوثيقة ، وعول على ضبط أطراف وتحصين بيضته ، والإرصاد لأهل الخلاف والخلعان خلال معاقلهم ، ومجال مساربهم ، إذ كانوا مع استيلاء المجاعة عليهم ، لا يفترون عن العدوان ، على من مر بهم من رفاق المسلمين ، وطالبى المعيشة ، وجالبى الميرة ، فلم يجدوا منفذاً إلى ما طمعوا فيه من إشاعة ، ونفع الله بذلك . وعاث الموتان فى هذه الأزمة ، فأودى بخلق من وجوه أهل قرطبة وعلمابهم وخيارهم »(١) .

وما كادت تنقشع هذه الغمة حتى عاد عبد الرحمن إلى استئناف الغزو ، فسير قائده أحمد بن محمد بن أبى عبدة غازياً إلى أرض النصارى . وسوف نتتبع غزوات عبد الرحمن لاسبانيا النصرانية مجتمعة فيما بعد . وسير وزيره إسحق بن محمد القرشى إلى كورتى تدمير وبلنسية ، فطارد فيهما أهل الخلاف ، وافتتح حصن أوريولة المنيع ، قاعدة تدمير التالد من يد الثوار ، ثم أخضع الثوار فى مدينة الحامة . وغزا الحاجب بدر مدينة لبلة ، وكان صاحبها الثائر عثمان بن نصر ممتنعاً بها .

(١) السفر الخامس ( مخطوط الخزانة الملكية ) لوحة ٥٥ أ

فبعث إليه الحاجب يلاطفه ويبذل الأمان له ولأصحابه ، ويعده بكل ما يحب ، ولكن الثائر رفض كل عرض ، وأصر على العصيان ، فطوق بدر المدينة ، وبرز له كثير من أهل الطاعة فأمنهم ، وأبقاهم لديه ، وجد فى مهاجمة عثمان وأصحابه إلى أن اقتحم عليه المدينة يوم ٢٠ رمضان سنة ٣٠٣ هـ ( فبراير ٩١٦ م ) ، وقبض على عثمان وصحبه وأرسلهم فى الأصفاد إلى قرطبة ، وأمن أهل المدينة ، ونظر فى مصالحهم . وقد نظم ابن عبد ربه فى فتح مدينة لبلة وفى مديح الناصر والحاجب بدر قصيدة يقول فيها :

خليفة الله وابن عم رسول الله والمصطفى على رسله
منتك نعمى نمت سوابغها كما استتم الهلال فى كمله
وجه ربيع أتاك باكره يرفل فى حليه وفى حلله
وأقبل العيد لاهياً جذلا يختال فى لهوه وفى جذله
نصر من الله تضمنه ينهض فى ريثه وفى عجله
يجرى بشأو الأمام منصلتا يسبق حضر الجياد فى مهله
قد وقف النكث والخلاف بها وقوف صب يبكى على طله(١)

وفى هذا العام ، سنة ٣٠٣ هـ ، وقع حادث داخلى هام ، هو جنوح عمر بن حفصون ، أكبر ثوار الأندلس إلى الصلح والطاعة ، فبعث إلى الناصر يخطب وده ، ويلتمس الصلح ، مستشفعاً بما كان منه فى إيواء الأمير محمد والد عبد الرحمن وحمايته ، حينما فر من أبيه الأمير عبد الله . وقام بالوساطة فى ذلك يحيى بن إسحق طبيب عبد الرحمن ، وكان صديقاً لعمر بن حفصون ، فبذل فى سبيل ذلك جهده ، وعاونه الحاجب بدر لدى الناصر ، فاستجاب الناصر لعقد الصلح مع عمر ، مع الحذر من غدره ومكره ؛ واتصل يحيى فى ذلك مع جعفر بن مقسم أسقف ببشتر ، وعبد الله بن أصبغ بن نبيل ، وودنا ابن عطاف ، وهم أكابر رجال ابن حفصون وخاصته ، وكانوا يميلون إلى عقد الصلح والدخول فى كنف الطاعة . وسار يحيى نفسه لمقابلة ابن حفصون ، ووضع معه شروط الصلح ، وعاد إلى قرطبة ، وأقر الناصر تلك الشروط ،

---

(١) ابن حيان فى السفر الخامس ( مخطوط الخزانة الملكية ) لوحة ٦١ ب و ٦٢ أ .

وعقد لابن حفصون على ذلك كتابة المشهور ، الذى خط فى أسفله بيده الأسطر الآتية :

« يا الله الذى لا إله إلا هو الطالب الغالب ، وجميع إيمان البيعة لازمتى من العهود المشددة ، والأيمان المؤكدة ، والمواثيق المغلظة ، لانقضت شيئاً مما جمعه هذا الكتاب تبديله ، ولا نقصان شيء منه ، ولارضيت ذلك فى سر ولا جهر ، وأن كل ما فيه من الشروط والعهود والمواثيق لازمتى ، والله شهيد علينا ، وخططنا هذه الأحرف بيدنا ، وأشهدنا الله عز وجل على أنفسنا ، وكفانا بالله شهيداً ، ما وفى عمر بن حفصون بما نص فى هذا العهد وصحح فيه إنشاء الله ، والله المستعان » .

ويقول لنا الرازى الذى يورد لنا نص هذه الوثيقة ، إن الحصون التى دخلت فى أمان عمر بن حفصون بمقتضى هذا الصلح ، وسميت فى كتاب العهد ، مائة واثنين وستين حصناً . واغتبط عمر بن حفصون بعقد هذا العهد مع الناصر أيما غبطة ، وبذل جهده وفى المحافظة على شروطه وأوضاعه ، وسر الناصر من جانبه بما أبداه ابن حفصون فى ذلك من دقة وإخلاص ؛ وقدم ابن حفصون بهذه المناسبة إلى الناصر هدية فخمة ، فتقبلها الناصر ، وحسن موقعها لديه ، وكافأ ابن حفصون عنها بأضعافها ؛ وعظم سرور ابن حفصون بها ، واستحكمت طاعته طول حياته . وكان هذا من أعظم العوامل فى تهدئة اضطرام الثورة ، وجنوحها إلى التبدد والانهيار[1].

وكان حبيب بن سوادة الثائر بقرمونة قد نكث بعهده ، وعاد إلى قرمونة ، وأظهر الامتناع بها ، فسير إليه عبد الرحمن الحاجب بدراً فى حملة قوية ، فحاصر بدر قرمونة وضربها بالمجانيق بشدة ، ثم دخلها عنوة ، وقبض على حبيب وولده وأرسلهما فى الأصفاد إلى قرطبة (ربيع الأول ٣٠٥ هـ)[2].

وفى شهر ربيع الأول من العام التالى ، فى سنة ٣٠٦ هـ ( سبتمبر ٩١٨ م )[3]

---

(١) ابن حيان فى السفر الخامس من المقتبس — مخطوط الخزانة الملكية — لوحة ٥٦ ب و ٥٧ أ و ب .

(٢) الأوراق المخطوطة الخاصة بعهد الناصر ص ٥٥ و ٥٦ .

(٣) وفى رواية الرازى التى نقلها إلينا ابن حيان ، أن وفاة ابن حفصون كانت فى شهر شعبان سنة ٣٠٥ هـ — السفر الخامس — مخطوط الخزانة الملكية — لوحة ٦٥ أ .

وقع حادث كان له أكبر الأثر فى تفكك عرى الثورة وانحلالها . ذلك هو وفاة عمر بن حفصون زعيم الثورة الكبرى ، ومثير ضرامها فى غربى الأندلس، توفى بعد مرض طويل ، فى الثانية والسبعين من عمره . وكان ابن حفصون فى الواقع أخطر ثائر عرفته الأندلس منذ الفتح ، وكانت ثورته تمثل أخطر العناصر التى لا تدين بالولاء لحكومة قرطبة ، وفى مقدمتها طائفة المولدين الذين ينتمى إليهم ، وهم سلالة القوط والنصارى الإسبان الذين أسلموا منذ الفتح ، وغدوا جزءاً من الأمة الأندلسية . وكان أولئك المولدون بالرغم مما تسبغه عليهم حكومة قرطبة الإسلامية من ضروب الرعاية والتسامح ، يضمرون لها الخصومة والكيد ، وينتهزون كل فرصة للخروج عليها . وكانوا يلقون العون دائماً من زملائهم النصارى المعاهدين رعايا الحكومة الأسلامية . وقد رأينا كيف دبر ابن حفصون حركته ونظم ثورته فى المناطق الجنوبية الغربية ، فيما بين رندة ومالقة ، وقد كانت فضلا عن وعورتها ومناعتها الطبيعية ، تضم كثرة من المولدين والنصارى ، وكان من هؤلاء معظم أنصاره وجنده . ولم ير ابن حفصون نفسه وهو يرجع إلى أصل نصرانى ، بأساً من أن ينبذ الإسلام ويرتد إلى النصرانية لكى يذكى حماسة أنصاره . وهكذا كانت وفاة هذا الثائر الخطر ضربة شديدة للثورة ، وتنفست حكومة قرطبة لوفاته الصعداء ، بعد أن شغلها زهاء ثلاثين عاماً .

قال الرازى : « وكان أول قيامه بالفتنة ، وصدعه عصى الجماعة ، وامتناعه بقلعة ببشتر منبر المعصية ، من ثلاثين سنة ، ركب فيها من العيث فى الخلق ، والفساد فى الأرض بغير الحق ، ما لم يركبه مارق بالأندلس ، منذ دانت للمسلمين ، فعد مهلكه فاتحة الإقبال ، وطالعة السعد ، واجتثاث الفتنة »[1] .

وقد بالغت التواريخ النصرانية فى تصوير ثورة عمر بن حفصون الطويلة المدى ، واعتبارها ثورة قومية تهدف إلى غاية وطنية سامية ، وهى تحرير وطنه — إسبانيا — من نير المتغلبين عليه ، وأنه كان فى مناوأته لحكومة قرطبة الإسلامية يجيش بهذه النزعة ، ويهدف إلى هذه الغاية . وعمل النقد الحديث على إبراز هذه الصورة، وعلى اعتبار ابن حفصون بطلا قومياً ، جديراً بالتقدير والاحترام .

---

(١) ابن حيان فى المقتبس — السفر الخامس — لوحة ٦٥ ب .

وهذا ما نقرأه فى تعليقات بعض أكابر النقدة المحدثين أمثال دوزى وسيمونيت، وذلك بالرغم من كونهم لم ينسوا أن يذكروا فى نفس الوقت أن ابن حفصون قد نشأ سفاحاً وقاطعاً للطرق ، لا تحدوه أية نزعة وطنية أو غاية مثلى . بيد أن سيمونيت ، وهو مؤرخ النصارى المستعربين ، يحاول أن يبرر حسن تقديره وتصويره لحركة ابن حفصون ، بأن قيامه اتخذ فيما بعد « شكلا أكثر نبلا ، وتحول من زعيم عصابة إلى زعيم حزب وأمة »[1]. ويصفه دوزى بأنه « البطل الإسبانى الذى لبث أكثر من ثلاثين عاماً يتحدى المتغلبين على وطنه ، والذى استطاع مراراً أن يجعل الأمويين يرتجفون فوق عرشهم » وأنه «كان بطلا خارقاً لم تنجب إسبانيا مثله منذ أيام الرومان »[2] . أما نحن فنرى فى مثل هذه الآراء مبالغة وإغراقاً ، وأنها ليست إلا ثمرة نزعة من التعصب الدينى والجنسى ، الذى يطبع النقد الغربى ، فى كثير من المواطن ، وأن ابن حفصون بالرغم من صلابته وقوة عزمه ، وبراعة خططه ، لم يكن سوى قاطع طريق ، وثائر من طراز قوى عنيف . أجل إن ابن حفصون ، كان يدعو منذ اشتد ساعده ، إلى مايسميه قضية الاستقلال والحرية ، وتحرير مواطنيه من نير المسلمين ، بيد أنه لم يكن فى هذا الزعم سوى مخادع سياسى ، يسعى إلى كسب الصحب والأنصار لتقوية مركزه ، ودعم سلطانه ، ولم يكن يصدر فى مغامراته وحروبه أو فى أعماله خلال ثورته الطويلة ، عن أية نزعة نبيلة ، أو تصرف تطبعه الشهامة ، والعزة القومية ، بل كانت أعماله وتصرفاته كلها ، بغى صراح ، وإجرام فى إجرام ، وامتهان لكل المبادئ الأخلاقية ، وكل مقتضيات الشرف والمروءة والشهامة . ومن كان هذا شأنه ، فإنه من التعسف أن تُسبغ عليه صفات البطولة ، وثوب التحرير والوطنية .

وترك ابن حفصون أربعة بنين ، هم سليمان وعبد الرحمن وجعفر وحفص ، وابنة هى «أرختنا» ؛ وكان له ولد آخر هو أيوب اتهمه أبوه عندما اعتل ذات مرة ، بمحاولة الفتك به وقتله[3]. فقام سليمان فى أبّده ، وقام جعفر مكان أبيه فى ببشتر بعهد منه ، وكان أبوه قد قلده عهده فى حياته ، وأخذ له البيعة فى

---

(١) راجع : J. Simonet : Histoira de los Mozarabes de Eapana (Madrid 1897) p. 516 .

(٢) Dozy : Histoire ; V. II. p. 106 .

(٣) أعمال الأعلام لابن الخطيب ص ٣٢ ؛ ونقط العروس لابن حزم ص ٧٩ .

أواخر أيامه ، فأظهر جعفر يوم موت أبيه لجميع نصارى ببشتر أنه يعتقد دينهم ، ويدين بالنصرانية معهم ، وزعم أن أباه كان يعتقد ذلك ولا يظهره ، وجمع إلى نفسه ثقاته منهم ، مع القسيسين والرهبان دون سائر الناس ، فتولوا تجهيز والده معه ، ودفنه على سنة النصارى ، بعد أن أمر بسد باب القصبة ، وحجاب باقى الناس من نصارى وغيرهم ، ولاطف جعفر إخوته ، ووعدهم بالجميل حتى سلموا له ، قال الرازى : « وكان جعفر فى ذاته متهوراً سخيفاً ، جباناً ضعيف السيا ، ذميماً ، جسوراً حقوداً ، منافساً لمن يعمل عنده ، كنوداً لمن استرسل إليه ، موالفاً للسفال ، مستصحباً للأرذال ، لم تسم همته إلى مروءة ، ولا انطوت نيته على جميل ، ولا عرف قدر ما مهده له والده مع السلطان من فراش الصلح ، وبسط من ظلال الأمن ، بالتسجيل له على أعماله ، وإمضاء ذلك بعده لعقبه ، بل غمط النعمة عليه ، ورفض الساعين فيه لأبيه ، وعقد شهادات جماعة من السفلة والطغام ، على ابن مقسم الأسقف وابن نبيل وابن عطاف حاجبيه ، فإنهم سعوا فى الغدر بوالده عند السلطان ، وأرادوا إزاحة سلطانه عن ولده بعده »(١) .

بيد أنه لم تمض أشهر قلائل حتى سير عبد الرحمن قواته إلى أبدة فاقتحمتها وأسر سليمان ، وأخذ إلى قرطبة حيث عفا عنه عبد الرحمن وضمه إلى جيشه ؛ وكذا استسلم عبد الرحمن بن حفصون ، وكان ممتنعاً بحصن طُرُّش ، وكان أخوه جعفر صاحب ببشتر ، قد ضايقه ، وحاول أن ينتزع منه طرش ، فالتجأ عندئذ إلى الأمير ، وأذعن للطاعة ، على أن يسلم حصنه ويمنح الأمان لنفسه وأهله ، فأجابه الأمير إلى ما طلب ، وتسلم منه الحصن ، واستقدمه إلى قرطبة وأجرى عليه الصلات ، وكان أديباً شاعراً . واستبد جعفر بحكم ببشتر وما حولها ، وآثر عبد الرحمن أن يهادنه مدى حين ، وأن يقره على أعماله . وفى سنة ٣٠٨ هـ (٩٢٠ م) قتل جعفر فى ببشتر ضحية مؤامرة قيل إنها من تدبير أخيه سليمان ، وقيل من جهة أخرى إنه رأى أن يعود إلى الإسلام اكتساباً لمودة السكان والجند المسلمين ، فاغتاله نفر من جنده النصارى(٢) . فقام أخوه سليمان مكانه فى ببشتر ، وأقره عبد الرحمن

---

(١) ابن حيان فى المقتبس – السفر الخامس – مخطوط الخزانة الملكية – لوحة ٦٥ ب

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٥ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٨٩ ، وراجع : Dozy : Hist., Vol. II. p. 108

على ولايته ، ولكنه نكث عهد الطاعة ، فسار عبد الرحمن لقتاله وحاصره مدى حين ، وكان أصحاب سليمان بحصن طُرُش ، قد نبذوا الطاعة مثله ، فسار عبد الرحمن إلى طرش ، ونازلهم ، ثم ترك قوة استمرت فى حصارهم ، حتى أذعنوا إلى الطاعة ، وسلموا الحصن بالأمان ، وأمر عبد الرحمن بتخريبه وتسويته بالأرض . ثم سار عبد الرحمن لحصار سليمان مرة أخرى فى سنة ٣١١ ﻫ (٩٢٣ م) ، وخرب سائر المناطق التى يسيطر عليها الثائر ، وأخضع معظم حصونها ، واعتصم سليمان بجبل بُبَشْتر ، فنازله عبد الرحمن ، واشتد فى محاصرته ، حتى ضاق الثائر وصحبه بالحصار ذرعاً ، وخرج عليه معظم أنصاره ، ونكل بالكثير منهم . ونازل عبد الرحمن بالأخص حصن الشط ، وكان من أمنع الحصون الثائرة ، حتى تغلب عليه وعلى ما حوله من الحصون . وأخيراً عرض عليه سليمان أن يعود إلى الطاعة ، وأن يسلم بعض حصونه ، فاستجاب عبد الرحمن إلى رغبته ، وتسلم حصن الشط ، وحصن منت ميور وغيرهما من الحصون كفالة بحسن الطاعة ، وانصرف عائداً إلى قرطبة ، وهو يتحين الفرصة الملائمة للقضاء على الثائر بصورة نهائية .

وفى سنة ٣١٣ ﻫ ، صُلب على الرصيف بباب قرطبة ، رجل من أصحاب ابن حفصون هو الرامى النصرانى المعروف بأبى نصر ، وكان من أحذق الرماة فى عصره ، وطار صيته أيام عمر بالحذق فى الرماية وإصابة الأغراض البعيدة ، قلما تخطئ رميته ، وقد أودى بحياة كثير من المسلمين من الجند وغيرهم ، وساد الذعر منه ، وانتهى الأمر بأسره ، وإحضاره إلى الحضرة ، فجيء به إلى باب السُّدَّة وأمر عبد الرحمن بصلبه وشكه بالسهام ، فرفع فوق جذع فى مشهد حافل من الناس ، وتعاورته الرماة بالسهام حتى مزق بدنه ، وترك داميا فوق جذعه ، ثم أخذت جثته بعد أيام وأحرقت[1] .

وفى أواخر سنة ٣١٤ ﻫ ، سير عبد الرحمن وزيره عبد الحميد بن بسيل إلى ببشتر ، وخرج سليمان فى قواته إلى لقائه فهزم وقتل ، واحتز رأسه وقطعت أشلاؤه ، وأرسلت إلى قرطبة فرفعت على باب السدة (يونيه سنة ٩٢٧ م) . وقام أخوه حفص مكانه فى ببشتر ، واستمر على المقاومة حيناً . وفى ربيع الأول سنة ٣١٥ ﻫ ، سار عبد الرحمن بنفسه إلى ببشتر ومعه ولى عهده الحكم ،

---

(١) ابن حيان فى المقتبس — السفر الخامس — مخطوط الخزانة الملكية ، لوحة ٨٤ ب .

وكان يومئذ صبياً فى الثانية عشرة من عمره ، ونزل على مدينة ببشتر ذاتها ، وبها حفص ، وشدد عليها الحصار ، وابتنى إزاءها حصناً للتضييق عليها ، وفرق قواته لمنازلة بقية الحصون الثائرة ، ثم ترك قوة لمتابعة الحصار . واستمر الحصار بضعة أشهر ، حتى اضطر حفص أن يذعن أخيراً إلى التسليم ؛ فسلم المدينة بالأمان إلى القائد سعيد بن المنذر ، وذلك فى أواخر شهر ذى القعدة سنة ٣١٥ هـ ( يناير سنة ٩٢٨ م ) وأخذ حفص بن عمر وأهله وأصحابه أسرى إلى قرطبة ، فعفا عبد الرحمن عنهم ، وأحسن مثواهم ، وضم حفصاً إلى جيشه .

وفى العام التالى سنة ٣١٦ هـ ، سار عبد الرحمن إلى ببشتر لتنظيم شئونها ، فخرج من قرطبة فى منتصف شهر المحرم منها ( مارس سنة ٩٢٨ م ) ورافقه ولده الحكم ، ووزيره أحمد بن محمد بن حُدير ، واستخلف على المدينة أحمد ابن عيسى بن أبى عبدة . وقصد إلى ببشتر بطريق أشونة ، فوصلها فى العشرين من المحرم ، ودخلها وجال فى أرجائها ، وألفاها منقطعة النظير من حيث الحصانة والمنعة . فعين لها والياً من قبله ، وعمد إلى تطهيرها من آثار ابن حفصون ، فصلى فى مسجدها الجامع ، وأمر أن تقام به الصلاة . وكان ابن حفصون فى أواخر أيامه ، قد أثار حول موقفه من تذبذبه حول إظهار الإسلام ، وجنوحه إلى النصرانية ، ريباً حول حقيقة الدين الذى كان يعتنقه . فأمر الناصر بنبش قبره ، وإخراج جثته وفحصها . فتبين من هيئتها ، وكونه ملقى على الظهر ، مشبوك الذراعين على الصدر ، ومستقبلا المشرق ، أنه دفن على دين النصرانية ، وعاين ذلك الناس من العسكر وغيرهم ، وشهد بذلك الفقهاء المرافقون ، واتفق الجميع على أنه هلك على دين النصرانية . فأمر عبد الرحمن بحمل الجثة ، إلى قرطبة ، حيث علقت فى أعلى الجذوع على باب السُّدة يكتنفها أشلاء ولديه المصلوبين قبله ، وهما حكم وسليمان . واستمرت أشلاؤهم معلقة على جذوعها عبرة للناظرين حتى سنة ٣٣١ هـ ، حيث حملها مد النهر الطامى فى تلك السنة ولأحمد بن محمد الرازى فى صلب أوصال ابن حفصون قصيدة يقول فيها

تبدى لمرأى العــين مجســماً ... وقام من الأجداث خلقاً متمما
فما كان إلا مثــل من نام نومة ... فأنبه عنها حين أغفى وهــوّما

ثوى فى الثرى حتى إذا صار رمة    أعيد إليه جسمه فتلأما
رقى فوق جذع بالهواء معلق    يحاول منه بالنجوم تحوما
تبارك من أبداه للخلق سامغاً    وبوّأ منه النفس قعر جهنما[(١)]

وأمر عبد الرحمن ، فعمرت سائر مساجد ببشتر المهجورة ، وهدمت سائر الكنائس والأديار ، التى ابتناها الثائر فى تلك المنطقة ، واستولى عبد الرحمن على سائر معاقلها وحصونها ، وطهرها من آثار الثورة الأخيرة[(٢)] . ثم أمر بعد ذلك بالقبض على « أرختنا » ابنة عمر بن حفصون وإعدامها ، لارتدادها عن الإسلام ، وتمسكها باعتناق النصرانية ، فأعدمت فى سنة ٩٣١ م ، أو فى سنة ٩٣٧ وفقاً لرواية أخرى ، ونظمتها الروايات والأساطير النصرانية فى سلك القديسين والشهداء[(٣)] :

هذا ، وقد أصدر الناصر عقب فتح ببشتر واستئمان حفص ، كتاباً طويلا ينوه فيه بهدى الإسلام وفضله ، وما خصه الله به من خلافته وأمانة عباده ، ويشير إلى خروج المارقين ، وميل نفوسهم المريضة إلى الشرك ، وكيف أنه أصدر أمانة لأهل ببشتر ، ثم يقول فى خطابه ما يأتى :

« وعهدنا إلى الوزير أحمد بن محمد حدير ، بالتقدم إليهم لحضور خروجهم ، ومباشرة نزولهم ، وإكمال الأمان لهم ، وقبض الأيدى عنهم ، فنهض إلى ذلك وقصد له ، فلما صار بمدينة طلجير ، المبتناة على مدينة ببشتر ، هبت بالطاغين عنها ، فتساربوا خارجين ، وتهافتوا ذاهبين ، وتعرفوا الذى سبا إلى جوانب شتى ، فقصد كل واحد إلى منزعه ، وأم مكان طاعيته ، ولحق بمداين الطاعة ، فصاروا فى غمار الرعية ، وتمكث خلفهم عميدهم حفص بن عمر طاير الفواد ،

---

(١) ابن حيان — السفر الخامس — لوحة ٨٩ أ و ب و ٩١ أ . هذا ولم نجد ذكراً لحكم من أبناء عمر بن حفصون إلا فى هذه المناسبة ، وفى رواية ابن حيان ، وفى الأوراق المخطوطة (ص ٧٧) .

(٢) تراجع تفاصيل المعارك الأخيرة بين عبد الرحمن وأبناء ابن حفصون ، وخاتمة هذه المعارك فى الأوراق المخطوطة الخاصة بعصر الناصر ص ٦٢ و ٦٥ و ٦٩ و ٧٣ و ٧٤ و ٧٥ و ٧٦ و ٧٧ و ٧٨ . وكذلك فى البيان المغرب ج ٢ ص ١٩١ و ١٩٣ و ١٩٤ و ٢٠٤ و ٢٠٨ و ٢٠٩ ؛ وابن خلدون ج ٤ ص ١٣٥ .

(٣) Dozy: Hist., Vol. II. p. 109 وكذلك R.M. Pidal: Origines del Espanol, p. 420

خافق القلب ، لم تطب نفسه على الخروج خواراً ، ولا سكن منه الأمان نفاراً ، يخشى كل يد أن تضبط عليه ، وكل شجرة أن تتعلق به ، قد خامره من الرعب ما كاد أن يربى على العطب ، فطمأن الوزير أحمد محمد بن حدير من جزعه ، وسكن من جأشه ، ووفاه من آمالنا المبسوطة ليناً وثق به واطمأن إليه ، فخرج آخر الخارجين ، ولحق بالآمنين ، فأصبحت مدينته بقعة الضلالة ، ومنبر الخلاف ، ومعدن الغواية ، مما أحاط بها من أسوارها وأبنيتها وقصابها ، وداخلها من جناتها ومصانعها ، مغوية من قطينها ، خاوية على عروشها ، كأن لم يغن بها ساكن ، ولا استوطنها قافل » .

ثم يقول إنه أمر بعد ذلك بتخريب ببشتر ، وحط أسوارها ، وإنزال جدرانها ، وهدم كل قائم فيها من قصرها ودورها ومخازنها ، وإعادتها جبلا أجرد ، على ما كانت عليه لأول خلقها . « ثم استقدمنا حفصاً اللائذ بالتوبة إلى ما تفضلنا عليه من التأمين والتمكين ، وعدنا عليه من العفو والتطمين ، وأخذنا فيه بالفضل المبين ، الذى جعلنا الله أهله ، وغلب على مذهبنا إيثاره ، وجمعنا له من ذلك ما اغتبط به ، وسكن إليه ، وقرر نفسه عليه ، فاعلم ذلك ، وقف عليه ، واستشعر حمد الله ، ومر بقراءة كتابنا هذا إليك على المسلمين قبلك فى جامع موضعك ، ليحمدوا الله عز وجهه ، على عظيم ما اصطنعه إليهم ، ووهبه لهم ، وليحدثوا من شكره تعالى على ما درأ عنهم ، والتقرب بنوافل الحمد إليه ، ما يستدام له رضاه عز وجهه ، ويستجلب به المزيد من نعمه ، إن شاء الله وهو المستعان ، وكتب يوم الخميس لخمس من ذى الحجة سنة خمس عشرة وثلث مائة » .

ويقول لنا الرازى ، إن الناصر لما خرج إلى ببشتر ، وأمر بهدمها ، أمر بالإبقاء على القصور والقصاب ، التى أبقاها لعماله وحشمه الذين ندبهم للقيام بها ، فدكت أسوارها ، وحطت أعلامها ، وإنه أى الناصر أصدر كتاباً بحوادث ببشتر ، والأمر بهدمها ، وهدم مسجدها الذى أقامه ابن حفصون ، لأنه كان ستاراً لفسقه المسلمين ، والأمر بإحراق منبره « الذى دعى فيه للخنزير الضال ، ومن خلفه من نسله الخبيث ، وأعلن عليه بدعوة الشيعة »[١] .

---

(١) ابن حيان فى المقتبس — السفر الخامس — مخطوط الخزانة الملكية لوحات ٩٤ و ٩٥ و ٩٦ .

ولم يغفل عبد الرحمن فى الوقت الذى كانت فيه ثورة ابن حفصون وأبنائه فى جنوب الأندلس ، تشغل معظم عنايته ،عن مطاردة الثورة فى الأنحاء الأخرى. وكانت طليطلة من أمنع معاقل الثورة ، فسير عبد الرحمن جنده لحصارها ، وفيها لُبّ بن الطربيشة وهو من زعماء المولدين ، واستمر الحصار زهاء عامين حتى نضبت موارد المدينة ،وخبت عزائم أهلها واضطرت فى النهاية إلى التسليم والإذعان. وسار لبّ مع الأمير بقواته إلى الغزو فى أرض النصارى (سنة ٣٠٨ هـ) . وكانت بطليوس وأحوازها منذ أكثر من أربعين عاماً ، معقلا من معاقل ثورة المولدين . وكان بنو مروان الجليقى مايزالون يسيطرون على تلك المنطقة ، وكانوا من أخطر الخوارج وأشدهم مراساً ، يمالئون الأمراء النصارى ويحالفونهم على حكومة قرطبة . فى سنة ٣١١ هـ ( ٩٢٣ م ) ، هلك عبد الله بن محمد بن مروان الجليقى صاحب بطليوس قتيلا بيد بعض المخالفين من أصحابه ، فقام مكانه ولده عبد الرحمن ، واستبد بمدينة بطليوس وما حولها ، واستمر بضعة أعوام على خروجه وتحديه لحكومة قرطبة .

وفى ربيع الأول سنة ٣١٧ هـ ( إبريل ٩٢٩ م ) خرج الناصر من قرطبة متجهاً نحو الغرب ، ومعه ولداه الحكم والمنذر وعدة من الوزراء ، واستخلف على القصر ولده عبد العزيز . وبعث الناصر ينذر المتخلفين عن الطاعة ، بوجوب الدخول فى طاعته ، والتخلى عن العصيان ، وفى مقدمتهم صاحب بطليوس عبد الرحمن بن عبد الله الجليقى . ووصل الناصر بجيشه إلى بطليوس فى أواخر ربيع الآخر من هذه السنة وحاصر بطليوس ، وقاتل المتصدين للمقاومة حتى هزموا واقتحم أرباضهم ، وأحرقت ديارهم ، فامتنعوا داخل المدينة ؛ فعهد الناصر بقتالهم إلى القائد أحمد بن إسحق القرشي فى قوة كثيفة ، فشدد فى حصار المدينة ، واقتحم ما حولها من الحصون ، ثم ضربها بالمجانيق بشدة ، وقطع عنها كل مورد ، واشتد بأهلها الضيق ، واضطر الجليقى إلى الإذعان وطلب الأمان ، فأجابه الناصر إليه ، وأسكنه هو وأهله وأكابر رجاله بحضرة قرطبة ، وعين لبطليوس والياً جديداً هو عثمان بن عبد الله ، وكان خضوع بطليوس فى سنة ٣١٨ هـ ( ٩٣٠ م ) .

ولما غادر الناصر بطليوس سار إلى مدينة باجة ، أقصى قواعد الغرب ،

وفيها الثائر عبد الرحمن بن سعيد بن مالك ، فنزل عليها ، وأنذر صاحبها بالدخول فى الطاعة ، فلم يقبل النصح ، فطوقها وحاصرها بشدة ، حتى أجهد أهلها الجوع والعطش ، وتساقطوا من الإعياء ، وعندئذ اضطر صاحبها إلى الإذعان ، فمنحهم عبد الرحمن الأمان ، وأمن صاحبها وآله ، وخرجوا إليه تائبين مستسلمين ، فبعثهم إلى قرطبة . وكان افتتاح باجة فى منتصف جمادى لآخر سنة ٣١٧ ﻫ . ونظر الناصر فى مصالح المدينة ، ثم عين لها والياً من قبله ، هو عبد الله بن عمرو ابن مسلمة ، وزوده بحامية كافية .

وتحول عبد الرحمن بعد ذلك إلى مدينة أكشونبه على مقربة من ساحل المحيط الجنوبى ، وبها الثائر خلف بن بكر ، فبادر إلى الطاعة معتذراً ، وأقره الناصر على ولايته ، على أن يلتزم بأداء الجباية وبحسن السيرة .

وقضى الناصر فى هذه الغزوة زهاء ثلاثة أشهر ، طهر خلالها أنحاء ولاية الغرب من آثار الخروج والثورة ، ثم قفل إلى قرطبة فوصل إلى القصر فى منتصف رجب[1]. وكان الناصر قد سار بنفسه إلى تدمير وبلنسية ، وذلك فى سنة ٣١٢ ﻫ ( ٩٢٤ م ) أثناء مسيره إلى غزوة بنبلونة الكبرى ، حسبما نفصل بعد . فطارد الخوارج والعصاة فى شرقى الأندلس ، واستولى على معاقلهم ومزق شملهم . وفى سنة ٣١٤ ﻫ ( ٩٢٦ م ) سير الناصر وزيره القائد عبد الحميد ابن بسيل إلى الثغر الأعلى لمقاتلة بنى ذى النون ، وكانوا قد عادوا إلى الخلاف والعصيان ، وأكثروا من الفساد والعدوان على من جاورهم من المسلمين وأهل الذمة ، فقصد إلى معقلهم شنت بَرِيَّة واقتحمها ، وقتل كبيرهم محمد بن محمد ابن ذى النون ، وعدة أخر من رجالهم ، وافتتح مدينة سُرية من مدنهم ، وولى عليها عاملا للسلطان . وخضعت شنت برية وما والاها للطاعة ، ودرت جبايتها من ذلك الحين[2] . وفى سنة ٣١٧ ﻫ ، افتتحت مدينة شاطبة ، واستنزل عنها صاحبها عامر بن أبى جوشن الثائر بها ، بعد أن ترددت الحملات عليه ، مدى خمسة أعوام ، وكان خضوعه على يد صاحب الشرطة العليا درِّى بن

---

( ١ ) ابن حيان فى المقتبس — السفر الخامس — لوحات ١٠٠ و ١٠١ و ١٠٩ ، والأوراق المخطوطة الخاصة بعهد الناصر ص ٨١ .

( ٢ ) ابن حيان فى المقتبس — السفر الخامس — لوحة ٨٥ أ .

عبد الرحمن ؛ واشترط عامر عند استسلامه أن يمنح الإقامة مدة فى حصن « شنت مرية » من حصونه ، حتى ينظم شئونه ويسير فى أهله إلى قرطبة ، فأجيب إلى طلبه[1] . وهكذا أخمدت الثورة فى سائر النواحى ، بعد أن لبثت زهاء نصف قرن تستنفد قوى الأندلس ومواردها ، وتفت فى عضدها ، وتقعدها عن الكفاح ضد عدوها الحقيقى المتربص بها ، ونعنى إسبانيا النصرانية .

— ٢ —

كانت إسبانيا النصرانية فى خلال تلك الفترة التى اضطرمت فيها الأندلس بالفتن ، وشغلت حكومة قرطبة بأمر الثورة فى النواحى ، تسير قدماً فى سبيل القوة والتوطد ، وتعمل جاهدة لانتهاز كل فرصة للكيد للأندلس ، وممالأة ثوارها والعيث فى أراضيها . وكانت تنقسم عندئذ إلى إمارتين أو مملكتين متحالفتين ، هما مملكة ليون ( أو مملكة جليقية ) ، ومملكة ناڤار ( نبرّه أو بلاد البشكنس ) . وكانت ليون وهى الواقعة فى الشمال الغربى بين المحيط ونهر دويرة ، أكبر المملكتين وأوفرهما قوة ومنعة ، وكانت بذلك تتولى قيادة إسبانيا النصرانية ، فى ميدان الكفاح الخالد بينها وبين إسبانيا المسلمة . وكانت قواعد الأندلس الشمالية التى تتاخم مملكة ليون ، مثل أسترقة وسمورة وشلمنقة وشقوبية ومبراندة ، قد خلت منذ أواخر القرن الثامن من معظم سكانها المسلمين ، واستوحش العرب والبربر ، لقلتهم فى تلك الأنحاء ، وكثر اعتداء النصارى عليهم ، وتوالى القحط فى تلك الربوع ، فهاجروا إلى الجنوب ، وجاء ملك ليون ألفونسو الثالث ( أواخر القرن التاسع ) ، فعاث فى تلك المنطقة ، وفتك بمن فيها من المسلمين ، ثم ارتد إلى جباله . ولبثت هذه المنطقة قفراً خالية تقريباً ، يتبادلها المسلمون والنصارى من وقت إلى آخر ، وشغلت حكومة قرطبة بأمر الثورة فلم تستطع رد الاعتداء ، وانتهز ألفونسو الثالث تلك الفرصة ، فدفع حدود مملكته جنوباً حتى نهر دويرة . واختط هنالك عدة قلاع منيعة ، كان يتخذها النصارى قواعد للإغارة على الحدود الإسلامية ، واجتياح المسلمين العزل بالنار والسيف ، وقتل النساء والأطفال والشيوخ ، ونهب الأموال والمتاع . وجرى ولده غرسية على هذه السياسة الدموية الغاشمة . وكانت إسبانيا النصرانية تنظر من خلال هضابها القفرة ، ومواردها

---

(١) ابن حيان فى المقتبس — السفر الخامس ، لوحة ١٠١ ب .

الضئيلة ، وفقرها المدقع ، إلى وديان الأندلس النضرة ، وإلى نعمائها الوافرة ، وحضارتها الزاهرة ، بعين المقت والحسد ، وتعمل جاهدة لبث الدمار والويل إلى هاتيك الربوع السعيدة . وكان على حكومة قرطبة أن تعمل على حماية الأندلس وحماية تراثها وحضارتها ، من هذا العدوان المخرب الذى أخذ يشتد يوماً عن يوم .

وكان عبد الرحمن حينما ولى الملك ، يؤثر الإغضاء حيناً عن محاربة النصارى ، لكى يكرس جهوده وقواه لقمع الثورة ، وتطهير الأندلس من عناصر الفتنة : ولكن النصارى رأوا بالعكس أن يعملوا على انتهاز الفرصة ، وإذكاء نار الفتنة والفوضى فى الأندلس . فما كاد عبدالرحمن يلى الملك ، حتى بادر أردونيو الثانى ( أردون ) ملك ليون بالإغارة على الأراضى ، الإسلامية واتجه أولا نحو منطقة الغرب لنأيها وضعف وسائل الدفاع عنها ، وقصد إلى مدينة يابُرة ، الواقعة غربى بطليوس . ويقول لنا الرازى إن أردونيو نزل على يابرة فى يوم ١٣ من المحرم سنة ٣٠١ هـ ( أغسطس ٩١٣ م ) وأنه كان فى جيش يقدر بثلاثين ألفاً من الخيل والرجل والرماة ، وكان على يابرة يومئذ عاملها مروان عبد الملك بن ، فبذل جهده لمدافعة الغزاة ؛ وطوق أردونيو المدينة من سائر نواحيها ، وهاجمتها قواته من كل صوب ، ودافع المسلمون عن مدينتهم من فوق الأسوار ، حتى أرغموا بفعل السهام على النزول عنها وتسلق النصارى الأسوار ، ودخلوا المدينة ، واضطرمت بينهم وبين المسلمين داخلها معارك شديدة ، وفنى المسلمون شيئاً فشيئاً حتى قتلوا جميعاً ، ولم تنج منهم سوى شرذمة قليلة ، فرت تحت جنح الظلام إلى مدينة باجة . وسبى النصارى سائر النساء والذرية ، وقتل مروان بن عبد الملك عامل المدينة مدافعاً عنها ، وبلغ السبى أكثر من أربعة آلاف من النساء والولدان . وترك أردونيو المدينة خراباً يبابا ، وعاد فى قواته إلى جليقية . وبث هذا الحادث الروع والفزع فى سائر قواعد الغرب ، فأخذ أهلها فى إصلاح أسوارهم ، وقام أهل بطليوس بالأخص فى ذلك بمجهود ضخم ، ودعموا أسوارهم ، وزادوا فى عرضها وارتفاعها ، بقيادة عاملهم عبد الله بن محمد الجليقى(١) . وفى سنة ٣٠٣ هـ ( ٩١٥ م ) ، سار أردونيو فى قواته مرة أخرى إلى منطقة الغرب ، فى جيش تقدره الرواية الإسلامية بستين ألفاً ،

---

(١) ابن حيان عن الرازى — السفر الخامس — مخطوط الخزانة الملكية — لوحة ٥١ أ و ب

فعبر نهر التاجُه ، واشترك فى إرشاده إثنان من الأدلاء المسلمين ، من بربر مصمودة من البرانس ، ولكنهما كانا يضمران عكس ما طلب إليهما ؛ واتجه أردونيو جنوباً صوب حصن مدلين ، وقاده الدليلان المسلمان من طريق صعبة وعرة ، فلم يخرج منها إلا وقد نهك جيشه ، فأمر بالدليلين فأعدما ، وسار حتى وصل إلى الحصن ، فاستولى عليه دون مقاومة وأصاب فيه بعض الغنائم ، ثم سار إلى قلعة الحنش ( ألانية ) ، الواقعة جنوبى ماردة ، وكان يسكنها يومئذ برانس كتامة ، وكانوا فى عدد وافر وعلى أتم استعداد للمقاومة ، وكان المقدم عليهم يسمى بابن راشد ؛ فهاجم النصارى الحصن ، ودافع المسلمون عن أنفسهم أشد دفاع ، ولكنهم هزموا فى النهاية وقتل معظمهم ، وقتل ابن راشد فيمن قتل ، ودخل النصارى الحصن فقتلوا كل من وجدوه ، وسبوا النساء والذرية ، وهدموا الحصن . ثم سار أردونيو فى اليوم التالى إلى ماردة ، ولكنه وقف أمامها ذاهلا من حصانتها ، واعتزم الكف عن قتالها ، وبعث إليه قائد المدينة محمد بن تاجيت رسولا يستلطفه ، وأهدوا إليه فرساً رائعاً من عتاق الخيل بسرجه وعدته ، فقبله وأعجب به ، وتركهم ورحل عنهم . ولكنه عاث حين قفوله فى تلك المنطقة ، وقتل وسبى كثيراً من سكانها ، واستولى على بعض قلاعها ؛ ثم قصد إلى مدينة بطليوس ، فارتاع أهلها واسترضوه بالمال والحلى ، وعبر النصارى نهر دويرة قافلين إلى ديارهم مثقلين بالغنائم والسبى دون أن يعترض سبيلهم معترض[1] .

وبقيت يابرة خراباً نحو عام ، حتى بعث عبد الله بن محمد الجليقى ، صاحب بطليوس حليفه مسعود بن سعدون المعروف بالسرنباقى ، ومن معه من قومه الشاردين عن الجماعة إلى مدينة يابرة ، فنزلها مسعود بأهله وولده وصحبه ومن معهم ، وكان منهم كثير ممن لجأ من قبل من أهل يابرة إلى باجة وأكشونبه ؛ وابتنى لهم الجليقى أسوار المدينة ، وأمدهم بالأطعمة والدواب والكسى ؛ وعلى أثر ذلك قصد الناس إلى يابرة فاستوطنوها ، وعمرت بسكانها مرة أخرى[2] ؛

---

( ١ ) ابن حيان فى السفر الخامس من المقتبس – مخطوط الخزانة الملكية ، لوحة ٦٠ أ و ب وابن خلدون ج ٤ ص ١٤١ .

( ٢ ) المقتبس – السفر الخامس ، لوحة ٥٣ و ٥٤ .

وكانت هذه المنطقة التى غزاها النصارى وهى منطقة ماردة ، من المناطق الثائرة . ولكن عبد الرحمن كان أبعد نظراً من أن يغضى عن عدوان يقع فى صميم الأراضى الإسلامية . هذا إلى أنه رأى أن يأسر قلوب الثوار ، بإنجادهم والانتقام لهم ، وأن يرد عدوان النصارى بمثله . فى فاتحة سنة ٣٠٤ هـ (٩١٦ م) سير عبد الرحمن وزيره وقائده أحمد بن محمد بن أبى عبدة فى جيش قوى ، غازياً إلى أراضى مملكة ليون ، فالتقى بالنصارى وهزمهم فى عدة وقائع محلية ، وعاث فى أراضيهم وسبى وغنم غنائم كثيرة[1] . وفى العام التالى أراد أردونيو الثانى الانتقام لهزائمه ، فعاث فى منطقة طلبيرة[2] ، وأحرق مدنها وانتسف ضياعها ، فضج المسلمون لهذا البلاء ، وتضرعوا إلى مليكهم أن ينقذهم من هذا العدوان الصارخ .

فسير عبد الرحمن قائده أحمد بن أبى عبدة ثانية إلى أرض النصارى فى جيش ضخم من المدونين ، والمتطوعة ، وانضم إليه حين دخوله إلى الثغر ( الحدود ) خلق كثير ، واخترق المسلمون أراضى قشتالة ، وزحفوا إلى قلعة شنت إشتيبن الواقعة على نهر التاجُه ، وكانت تسمى أيضاً قلعة قاشترو مورش[3] ، وهى من أمنع قلاع النصارى على الحدود ، وضربوا حولها الحصار الصارم ، ثم نازلوها بشدة ، وكادت تسقط فى أيديهم ، لولا أن هرع إلى إنجادها أردونيو فى جموع ضخمة من النصارى ؛ وكان الجيش الإسلامى بالرغم من تفوقه فى الكثرة مختل النظام ، مفكك العرى ، يتألف سواده من البربر والمرتزقة الذين لا يعتمد على ولائهم وشجاعتهم ، وكانوا يحرصون على غنائمهم أكثر من حرصهم على مقاتلة العدو ، فلما انقض أردونيو بقواته على المسلمين ، تسللت منهم وحدات كثيرة ، وارتدت أمام المهاجمين ، ودب الهرج إلى صفوف المسلمين . ولكن قائدهم الشجاع أحمد بن أبى عبدة فضل الموت على الارتداد ، فصمد فى مكانه فى نفر من أشجع ضباطه وجنده ، فقتلوا جميعاً ، وهلك معهم عدة من أكابر الفقهاء والمجاهدين . وكانت هزيمة مروعة . وكان ذلك فى الرابع عشر من ربيع الأول سنة ٣٠٥ هـ ( ٤ سبتمبر سنة ٩١٧ م ) . وتقول

---

( ١ ) البيان المغرب ج ٢ ص ١٧٦ .

( ٢ ) وهى بالإسبانية **Talavera** ، وهى تقع على نهر التاجه غربى طليطلة .

( ٣ ) **San Esteban** أو **Castro Moros**

الرواية الإسلامية إن فلول الجيش الإسلامى ، استطاعت أن ترتد بعتادها ومتاعها سالمة إلى الأراضى الإسلامية[١] . ولكن الرواية الإسبانية تقول بالعكس إن هزيمة المسلمين كانت ساحقة ، وبلغ من روعتها أن غصت سائر التلال والسهول والغابات الممتدة جنوباً من دويرة إلى أنتيسة[٢] ، بقتلاهم وأشلائهم[٣] .

وكان لذلك الخطب وقع عميق فى بلاط قرطبة . وكان عبد الرحمن يعتزم المبادرة إلى غزو ليون بنفسه ، لولا أن شغلته عندئذ حوادث إفريقية ، على أنه اضطر غير بعيد أن ينهض لرد اعتداء النصارى . ذلك أنه لم تمض بضعة أشهر حتى عاد أردونيو الثانى وحليفه سانشو ( شانْجُه ) ملك نافار ، إلى غزو الأراضى الإسلامية فى منطقة الثغر الأعلى ، وذلك فى ربيع سنة ٩١٨ م . وكانت موقعة شنت إشتين قد ضاعفت من جرأة النصارى واستهتارهم ، فعاثوا فى أحواز ناجرة وتطيلة . واستولى سانشو على بلدة بلتيرة[٤] وأحرق مسجدها الجامع ونكل بأهلها . يقول ابن حيان : « وانقلب الكفرة لعنهم الله إلى بلادهم أعزة ، فكان هذا مما أحفظ الناصر لدين الله وحركه لمجاهدة أعداء الله ، ورغبه فى الانتقام منهم بمن الله تعالى »[٥] . وكان عبد الرحمن فى الواقع يتوق إلى الانتقام لهزيمته الفادحة فى شنت اشتين ومقتل قائده الشهم ، ولم ينس أن أردونيو سمر رأسه فى جدران شنت إشتين ، فحشد جيشاً ضخماً لمقاتلة النصارى بإمرة حاجبه بدر بن أحمد ، وبعث الأوامر والكتب إلى أهل الثغور بالنهوض لتأييده ، ومعاونته على معاقبة النصارى ورد عدوانهم والإيقاع بهم . وخرج بدر فى جيشه الضخم من قرطبة فى المحرم سنة ٣٠٦ هـ ( أوائل يوليه سنة ٩١٨ م ) ، وهرع إليه أهل الثغور ( الأطراف ) من كل ناحية ، ظمئين إلى الجهاد والانتقام . وكذلك احتشد النصارى من سائر الأنحاء لرد الغزاة . ونفذ المسلمون كالسيل

---

( ١ ) هذا قول ابن حيان فى السفر الخامس من المقتبس – مخطوط الخزانة الملكية ، لوحة ٦٤ أ ، وكذلك البيان المغرب ج ٢ ص ١٧٨ .

( ٢ ) هى بالإسبانية **Atienza**

( ٣ ) **Dozy : Hist, Vol. II. p. 117**

( ٤ ) ناجرة هى بالإسبانية **Najera** ، وبلتيرة هى **Valterra** ، وكلتاهما تقع فى أحواز تطيلة .

( ٥ ) السفر الخامس من المقتبس – لوحة ٦٦ ب .

إلى حدود ليون ، فاعتصم النصارى بالجبال لما رأوا من كثرة العدو وأهبته ؛ ولكن المسلمين هاجموهم فى مواقعهم ، ونشبت بين الفريقين موقعتين دمويتين على مقربة من مكان يسمى « مطونية » . فهزم النصارى هزيمة ساحقة ، وأمعن المسلمين فيهم قتلا وأسراً ، ولم تنج منهم سوى فلول يسيرة ، وكان ذلك فى الثالث والخامس من ربيع الأول سنة ٣٠٦ هـ (١٣ و ١٥ أغسطس سنة ٩١٨ م )[1] .

على أن هذه الهزيمة الساحقة لم تفت فى عضد النصارى ، فلم يمض سوى قليل حتى عادوا إلى الاحتشاد والإغارة على الأراضى الإسلامية ، واستمر القتال سجالا بين المسلمين والنصارى مدى أشهر ، وكثر العيث والسبى فى مناطق الحدود . فاعتزم عبد الرحمن أن يسير إلى مقاتلة النصارى بنفسه ، فخرج من قرطبة فى الثالث عشر من المحرم سنة ٣٠٨ هـ ( أوائل يونيه ٩٢٠ م ) فى جيش ضخم ، وانضم إليه أثناء سيره كثير من أهل الثغور . واخترق أراضى الثغر الأوسط من طليطلة شمالا ، حتى مدينة الفرج أو وادى الحجارة ومدينة سالم ، فوصل إليها فى الرابع والعشرين من المحرم . وفى ذلك اليوم ولى خطة الوزارة لسعيد بن منذر القرشى ، وعينه والياً لوادى الحجارة ، واتجه إلى طريق ألبة والقلاع ( قشتالة ) ثم عبر نهر دويرة وزحف على مدينة أوسمة ( وخشمة ) وأحرقها ، وفر منها النصارى ولاذوا بالجبال . ثم سار إلى قلعة شنت إشتبين ( قاشترو مورش ) ، وهى التى كانت مسرحاً لهزيمة المسلمين المروعة ، ففرت حاميتها النصرانية ، واستولى عليها وخربها ، وغنم ما فيها . وخرب فى تلك المنطقة كثيراً من المعاقل والأبراج والكنائس والديارات . ثم سار إلى مدينة قلونية وهى مدينة قديمة لم تبق منها اليوم سوى أطلال دارسة ، وكان أهلها قد فروا إلى الجبال ، فاجتاح تلك المنطقة كلها ، وانتسف أراضيها وخرب قلاعها ، وهدم قلونية وخرب دورها وكنائسها ، ولم يعترض سبيله أحد من النصارى . وكان أردونيو ملك ليون وسانشو ( شانجه ) ملك ناڤار قد حشدا حشودهما ، واجتمعت لهما قوات كثيرة . ولكنهما بقيا فى الشمال انتظاراً لمقدم المسلمين ، وعرج عبد الرحمن بعد ذلك على مدينة تطيلة إستجابة لصريخ أهلها ، حيث أزعجها النصارى

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١٧٩ و ١٨٠ .

باعتدائهم المتكرر ، وبعث بعض قواته بقيادة محمد بن لب بن قسى صاحب تطيلة لاحتلال قلعة قلقرة[1] التى كان سانشو يتخذها قاعدة للإغارة عليها ، فألفوها خالية ، وزحف عبد الرحمن فى الوقت نفسه على حصن قلهرّة وكان به سانشو فى قواته ، ففر عند اقترابه ، واحتله المسلمون وغنموا كل ما فيه ثم دمروه ، وانتسفوا الأراضى المحيطة به ، ولجأ سانشو إلى حصن أرنيط (أورنيدو) الواقع جنوب غربى قلهرة . والظاهر أن النصارى اعتزموا ألا يعترضوا سبيل المسلمين فى تلك المنطقة كلها ، وفقاً لخطة وضعوها لاستدراج المسلمين . فلما عبر عبد الرحمن بقواته نهر إيبرو (إبرة) فاجأه سانشو فى قواته ، وهاجم مقدمة المسلمين ، ولكن عبد الرحمن كان يقظاً متأهباً ، فتعاون الفرسان والرماة المسلمون على النصارى ، وأثخنوا فيهم ، فارتدوا إلى شعب الجبال واعتصموا بها . ولجأ سانشو إلى حليفه أردونيو ملك ليون ، وجمع الملكان قواتهما من سائر النواحى وتربصا للقاء المسلمين فى مواقع منيعة ، وعلم عبد الرحمن باجتماع القوات النصرانية على هذا النحو ، فأمر بإحكام التعبئة ، ومضاعفة الاستعداد ، فلما نفذ الجيش الإسلامى إلى شعب الجبال ، انحدر النصارى لمهاجمته واشتبكوا بمؤخرته وأحدثوا بها اضطراباً وخسائر ، فشعر عبد الرحمن بخطر المأزق ، وبادر بالخروج من الشعب الضيقة إلى السهل المنبسط . وهنالك عسكر بجيشه فى مكان يسمى «خونكيرا» Junquera على مقربة من غربى بنبلونة ، واستعد للقاء النصارى . وهنا طمع النصارى فى محاربة المسلمين فانحدروا إلى السهل بعد أن كانوا فى حمى الجبال ، ولكنهم دفعوا ثمن جرأتهم هزيمة فادحة ، وأمعن المسلمون فيهم قتلا وأسراً ، ولم ينقذهم من الفناء الشامل سوى دخول الليل ، وقتل وأسر كثير من أكابر فرسانهم وزعمائهم ، ومن بينهم أسقفان هما دولثديو أسقف شلمنقة وأرمخيو أسقف توى ، وقد كانا يحاربان كجنديين ، ولجأ نحو ألف من النصارى ، أو أزيد من خمسمائة على قول آخر ، إلى قلعة مويش القريبة ، فاقتحمها المسلمون ، واستخرج جميع النصارى الذين بها ، ومنهم عدد من القوامس ووجوه الفرسان ، فأمر عبد الرحمن بإعدامهم جميعاً ، ومزق النصارى كل ممزق ، وانهارت كل مقاومة ،

(١) وهى بالإسبانية Carcar وهى تقع على مقربة من شمالى قلهرة .

وقضى عبد الرحمن أربعة أيام بجمع الأسلاب والنعم، وبهدم الديار ويقطع الأشجار: وأصاب المسلمون كثيراً من الأسلاب والغنائم . وحدثت هـــذه الوقيعة الساحقة على النصارى ، فى اليوم السادس من شهر ربيع الأول سنة ٣٠٨ هـ ( ٢٦ يوليه ٩٢٠ م ) . وهدم عبد الرحمن حصون العدو ، وأصلح حصون المسلمين ، وفى مقدمتها حصن بقيرة Viguera المشرف على حدود نافار ، وزودها بالعتاد والمؤن .

وفى اليوم السابع والعشرين من ربيع الأول ، قفل عبد الرحمن عائداً إلى قرطبة ، وتوقف فى طريقه يوماً بمدينة أنتيسة على مقربة من مدينة سالم ، وفرق الأموال والكسى فى أهل الثغر ، وأذن لهم بالعودة إلى ديارهم ، ووصل إلى قصر قرطبة فى يوم الخميس الثالث عشر من ربيع الآخر سنة ٣٠٨ هـ ( أواخر سبتمبر سنة ٩٢٠ م ) بعد أن قطع فى غزوته هذه ثلاثة أشهر ، وكانت غزوته الأولى فى مقاتلة النصارى ، وكان ممن شهدها معه سليمان بن عمر بن حفصون المستأمن إليه ، فأبلى فيها بلاء حسناً ، وبها ارتفع شأوه ، وتوطدت سمعته(١) .

وكان عبد الرحمن يرجو أن يكون هذا الدرس بعيد الأثر فى ردع النصارى ووقف عدوانهم . ولكنه أخطأ الظن . ذلك أنه لم يمض سوى عامين حتى أغار أردونيو على ناجرة واستولى عليها ، وسار حليفه سانشو إلى بقيرة ، وكان يتولى الدفاع عنها عبد الله بن محمد بن لب، ومعه نفر من زعماء بنى لب وبنى ذى النون وغيرهم من الوجوه الأكابر ، فحاصرها سانشو واستولى عليها ، وأسر من فيها من الزعماء وحملهم إلى بنبلونه ثم قتلهم ، ولم ينج منهم سوى مطرف بن موسى ابن ذى النون حيث استطاع الفرار من سجنه : فضجت الأندلس من أقصاها إلى أقصاها لتلك الفعلة البشعة ، ووجهت سهام اللوم إلى عبد الرحمن لقصوره أو تقصيره ، فى حماية الثغور وحماية الزعماء والقادة ، ولم يك ثمة مناص من العمل على تهدئة الخواطر ، والانتقام لذلك الاجتراء . وسير عبد الرحمن مولاه ووزيره

---

( ١ ) ابن حيان فى السفر الخامس من المقتبس – مخطوط الخزانة الملكية – لوحة ٧١ ب – ٧٤ أ وب، و الأوراق المخطوطة الخاصة بعصر الناصر ص ٦٣ و ٦٤ ، والبيان المغرب ج ٢ ص١٨٧ – ١٨٩ ، وكذلك Dozy : Hist., V. II. p. 114 & 143, Crónica General ; ibid. Vol. II. p. 386 .

عبد الحميد بن بسيل إلى الثغر الأعلى فى جيش قوى ، ريثما يتم هو أهبته (ربيع سنة ٣١١ هـ — ٩٢٣ م) ، فقصد إلى تطيلة وجازمنها إلى أراضى نبرّة (ناڤار) ، وعاث فيها ، وقاتل سانشو وهزمه فى عدة وقائع . ولم تمض بضعة أشهر أخرى ، حتى أتم عبد الرحمن أهبته ، ولم يصبر على انتظار الربيع وهو موعد الصوائف ، بل غادر قرطبة فى السادس عشر من المحرم سنة ٣١٢ هـ (١٧ إبريل سنة ٩٢٤ م) فى قوى جرارة ، وهو يعتزم التنكيل بالنصارى ، والانتقام الذريع لجناية بقيرة ، وترك فى القصر إبنه الأكبر وولى عهده الحكم ، وهو صبى فى نحو العاشرة من عمره ، وإلى جانبه الوزير أحمد بن محمد بن حدير ، وسلك الناصر إلى الثغر طريق المشرق ، مخترقاً كورة تدمير ، فكورة بلنسية ، ونازل فى طريقه مدينة لورّقة ، وكان يمتنع بها زعيمها الثائر عبد الرحمن بن وضاح ، فأخضعه بالأمان ، وبعثه مع أهله إلى قرطبة . ثم تقدم منها إلى مدينة مرسية ، فاستنزل بها يعقوب بن أبى خالد التوزرى وزملاءه العصاة ، وأخضع بعض حصون أخرى فى قطاع بلنسية ، ثم سار إلى طرطوشة ونظر فى شئونها ، وتقدم بعد ذلك صوب سرقسطة ، وهنالك انضم إليه التجيبيون وحلفاؤهم . ولما وصل إلى تطيلة هرع إليه زعماء الثغر بقواتهم ، وهم فى جموع وافرة وتعبية محكمة ، ودخل أراضى ناڤار فى أوائل ربيع الآخر (يوليه) . فساد الذعر بين النصارى ، وترك العدو معظم قلاعه وحصونه دون دفاع ، وكان أول ما استولى عليه المسلمون حصن قلهرّة وكان سانشو قد أخلاه ، فأمر عبد الرحمن بهدمه وإحراق ما فيه ، ثم استولى عبد الرحمن على حصن قلقرة ، ومحلة بيطرالته (بيرالتا)[1] الواقعة شمال شرقى قلهرة وما حولها من الحصون ، وقتل وسبى كل من وجد بها من النصارى ؛ ثم سار إلى حصن بالحش القريب منها وأحرقه ، وخرب ما حوله من الضياع والزروع ، واستولى بعد ذلك على حصن قرقشتال (كاركاستيلو) فى وادى أراجون شرقى بيرالته ، وشمال شرقى تطيلة ، وهدم سائر القلاع فى تلك المنطقة أو أحرقها . ثم نفذ عبد الرحمن إلى قلب ناڤار وزحف على عاصمتها بنبلونة ، وحاول ملكها سانشو غير مرة أن يعترض طريقه فى شعب الجبال ، فكان يرد فى كل مرة بخسارة فادحة . ودخل

(١) يبدو أن بيطرالته هو المكان الذى يسميه ابن حيان « قنطرة ألبة » .

عبد الرحمن بنبلونة ، وقد فر سكانها رعباً ، فدمرها وأحرق قصورها وكنائسها ، وجد سانشو فى جمع قواته ووافته الأمداد من قشتالة ، وحاول لقاء المسلمين فى مماوز ناڤار الوعرة مرتين ، الأولى على مقربة من شنت إشتين ، والثانية على مقربة من قلهرّة ، ولكن عبد الرحمن كان على حذر ، وكان يعرف تلك المفاجآت الخطرة ، فهزم النصارى فى كلتا الموقعتين ومزقوا شر ممزق ، وانهارت كل مقاومة ، وبذلك تم إخضاع ناڤار وسحق قواتها ( ربيع الثانى ٣١٢ ﻫ — أغسطس ٩٢٤ م ) .

ثم سار عبد الرحمن جنوباً إلى حصن مسرة ، وهو أول حصون المسلمين على حدود نبرّة ، فعهد إلى من فيه بادخار الأطعمة ، وفرق فيهم الأموال . ورحل بعد ذلك إلى مدينة تطيلة ، فوصلها فى اليوم السابع والعشرين من ربيع الثانى ، ثم قفل منها راجعاً إلى الحضرة ، وتوقف خلال الطريق بمدينة شنت برية مقر بنى ذى النون ، وكان زعيمهم يحيى بن موسى بن ذى النون قد خلع الطاعة ، والتزم العصيان مستقلا بسلطانه ، فلما أشرف الناصر على معقله ، خرج إليه نادماً مستغفراً منضوياً فى ظل طاعته ، فتقبل الناصر توبته ، ودخل الناصر قصر قرطبة فى يوم الخميس الثانى والعشرين من جمادى الأولى سنة ٣١٢ ﻫ ، وقد أنفق فى غزوته أربعة أشهر ، وهى تعرف فى الرواية الإسلامية « بغزوة بنبلونة »(١) .

ولم يمض سوى قليل حتى توفى أردونيو الثانى ملك ليون (سنة ٩٢٥ م) ، فخلفه فى الملك أخوه «فرويلا» ، فلم يحكم سوى عام ثم توفى ؛ فتنازع العرش سانشو وألفونسو ولدا أردونيو ، وشغلت ليون بحرب أهلية استمرت بضعة أعوام ، وانتهى طورها الأول بوفاة سانشو . ثم نشبت ثانية بين ألفونسو وأخيه راميرو ، وانتهت بفوز راميرو ، وجلوسه على عرش ليون باسم راميرو الثانى ، وذلك سنة ٩٣٢ م .

ولم يتدخل عبد الرحمن فى تلك الحرب الأهلية ، فترك النصارى يمزق بعضهم بعضاً ، وانتهز الفرصة ليتم سحق الثورة ، وتوطيد السكينة داخل مملكته ، حسبما

---

( ١ ) ابن حيان فى المقتبس — السفر الخامس — مخطوط الخزانة الملكية — لوحة ٨٠ — ٨٣ والبيان المغرب ج ٢ ص ١٩٥ — ٢٠١ ؛ وكذلك **Dozy : Hist, V. II. p. 144—145** .

فصلنا فى موضعه ، وليقضى على دعوة الفاطميين فى المغرب الأقصى :

وكان راميرو الثانى أو رذمير كما تسميه الرواية الإسلامية ، ملكاً مقداماً شديد البأس . فما كاد يلى العرش حتى نشط إلى استئناف الصراع القديم ضد المسلمين ، وكان يرى أن العمل على إذكاء عوامل الفتنة فى المملكة الإسلامية هو خير السبل إلى تبديد قوى المسلمين ؛ وكانت مدينة طليطلة قد عادت تضطرم بعوامل الفتنة والثورة ، وشجع راميرو بدسائسه ووعوده ، زعماءها على التمادى فى غيهم ، فأرسل إليهم عبد الرحمن وفداً من العلماء يخطب ودهم ويحثهم على الخضوع والطاعة ، فرفضوا نصحه بكبرياء وصلف ، معتمدين على مؤازرة ملك ليون . فبادر الناصر[1] بالسير إلى طليطلة فى قوات ضخمة ، وذلك فى ربيع الثانى سنة ٣١٨ هـ ( مايو سنة ٩٣٠ م ) وضرب حولها الحصار وانتسف ما حولها من المروج ، ثم غادرها بعد بضعة أسابيع ، وترك لحصارها بعض قواته ، ثم عاد فسار إليها بعد ذلك بعامين فى صيف سنة ٣٢٠ هـ ( يونيه سنة ٩٣٢ م) معتزماً فى هذه المرة أن ينزل بها الضربة القاضية . وهنا حاول راميرو أن يسعى إلى إنقاذ المدينة المحصورة ، استجابة لنداء أهلها ، فسار لإنجادها فى بعض قواته ، واستولى فى طريقه على حصن مجريط[2] . ولكن القوات الإسلامية استطاعت أن ترده قبل أن يصل إلى طليطلة ، فاضطر أن يترك المدينة الثائرة لمصيرها ، وفقد الثوار بذلك كل أمل فى المقاومة ، وأضنتهم مصائب الحصار ، فاضطروا فى النهاية إلى الإذعان والتسليم ، ودخل الناصر طليطلة ظافراً (رجب سنة ٣٢٠ هـ) ، وشهد مبلغ منعتها وكثافة أسوارها ، وأمر بهدم حصونها ، وفقدت الثورة فى الأندلس بسقوط طليطلة أمنع معاقلها .

وفى العام التالى ، سنة ٣٢١ هـ ( ٩٣٣ م ) ، سار ملك ليون إلى مدينة أوسمة ( وخشمة ) التى كان يهددها المسلمون ، فردهم عنها واحتلها ، وكانت أوسمة ، وهى تقع شرقى شنت إشتيبن على مقربة من دويرة ، وعلى خط الحصون الفاصل بين الأراضى الإسلامية وقشتالة القديمة ، من القواعد الدفاعية الهامة ، ومن ثم فقد اعتزم الناصر أن يسير لاستردادها بنفسه ، فخرج بالصائفة

---

(١) كان عبد الرحمن قد اتخذ سمة الخلافة وتلقب بالناصر لدين الله منذ سنة ٣١٧هـ حسبما نبين بعد .

(٢) هو حصن ومحلة منيعة أنشأها الأمير محمد بن عبد الرحمن سنة ٢٤٦ هـ (٨٦٠ م) على ضفة نهر منثنارس ضمن منطقة الحصون الدفاعية بين الأندلس ومملكة ليون . وقد استمرت تؤدى دورها الدفاعى حتى سقطت أخيراً فى يد القشتاليين سنة ٤٧٦ هـ ( ١٠٨٣ م ) ، وعلى موقعها أقيمت مدينة مدريد الحديثة .

من قرطبة فى منتصف جمادى الأولى سنة ٣٢٢ هـ ( مايو ٩٣٤ م ) ، فى جيش كثيف حسن الأهبة ، وكانت قواته فى هذه المرة ترفع أعلام العقاب المصورة ، التى كان أول من استعملها ، وكان معه ولده الأكبر وولى عهده الحكم ، واستخلف فى القصر ولده عبيد الله . وقصد الناصر إلى دار الحرب ( أراضى النصارى ) من طريق مدينة الفرج أو وادى الحجارة ، وذلك لكى يضع حداً لما أبداه محمد بن هاشم التجيبى صاحب سرقسطة ، من أعراض الخلاف ، والتوقف عن اللحاق به حسبما أوعز إليه ، فتحول نحو أراضيه مما يلى غرب الثغر الأعلى ، واحتل حصن ماومده من حصونه ، بعد أن بادر أهله بالطاعة ، ثم تقدم إلى حصن روطة اليهود على مقربة من سرقسطة ، وكان به أخوه يحيى بن هاشم ، وافتتحه قسراً . ثم سار إلى سرقسطة ، وطوقها ببعض قواته ، وبعث قوات أخرى إلى تطيلة وطرسونة . ولكنه رأى بعد ذلك أن يتحول بقواته إلى غزو أراضى النصارى ، وكان أقربها إليه أراضى نبرّة ( ناڤار ) . وهنا وفدت عليه رسل تيودا ( طوطة ) إبنة شنير ملكة ناڤار ، التى قامت بالأمر بعد وفاة زوجها سانشو ملك ناڤار وصية على ولدها غرسية ، ترجو عقد الصداقة ، والسلم . فرحب الناصر بطلبها ، ووفدت عليه فى وجوه مملكتها وقواميسها وأساقفتها ، وهو بمحلة قلهرّة ، فاستقبلها الناصر ومن حوله جيوشه الكثيفة ، العظيمة الأهبة ، وأكرم منزلتها ، وتعهدت لديه بالطاعة ، والابتعاد عن محالفة أى ملك أو أمير نصرانى ، وكف الأذى عن المسلمين ، ومعاونة قواد الثغر الأعلى فى محاربة كل من خرج على الطاعة ، وأخيراً أن تخلى سبيل وجوه بنى ذى النون الذين فى اعتقالها . وسجل الناصر ذلك وأشهد عليه ، وأقر الناصر من جانبه ولدها غرسية ، ملكاً على بنبلونة وأعمالها ( بلاد البشكنس ) ، وانصرفت مع رجالها مزودة بالهدايا والكسى الفاخرة ، وفى وفود طوطة على الناصر يقول الشاعر إسماعيل بن بدر :

وقيــدت زعيمتهم إليه ... كبلقيس تحف به الجنــود
تلفت لا ترى إلا شهاباً ... به يرمى وتختطف العديد
فبادرت السجود لنور وجه ... له رحب التواضع والسجود
فأوسعها بفضل العفو أمناً ... وقد كادت بمهجتها تجود

فدام يسـوسنا ما دام شـبه له في الأرض طالعه السعود

وسار الناصر بعد ذلك إلى أراضي ألبة والقلاع ، وتوغل فيها ، ففر النصارى من السهول ، واعتصموا بالجبال ، وكان أول ما استولى عليه من حصون العدو ، حصن المنار ، وهو من أعظم حصون ألبة ، فدمره المسلمون ، ودمروا حدائقه ، ولم تبق منها قائمة . وتردد المسلمون بعد ذلك في مختلف الأنحاء ، وهم يدمرون في طريقهم كل شيء ، حتى وصلوا إلى حصن أنة ، فهدموه ، وأتلفوا حدائقه ومصانعه ، وكان ضمن أبنيته كنيسة فخمة ، وضمن سكانه ثلاثمائة راهب . واجتاح الناصر سائر بقاع ألبة . ثم نزل على قلونية في شهر رمضان ؛ وكان الناصر يود أن يلتقي براميرو ملك ليون في موقعة ما ، ولكنه حاول عبثاً أن يحمله على مغادرة قلاعه ، والاشتباك مع المسلمين في معركة فاصلة ، وكان راميرو يرى ما ينزله المسلمون تباعاً بأراضي مملكته من صنوف التدمير والتخريب ، وهو عاجز عن أن يقوم بأية حركة لوقف هذا السيل المخرب . وأخيراً اجتمع النصارى ، ومعهم ملكهم راميرو في قلعة مزورته الواقعة فوق ربوة وافرة الحصانة ، على مقربة من قلونية ، واستعدوا للقاء المسلمين ؛ فعبأ المسلمون صفوفهم ، واشتبكوا مع النصارى في معركة حامية ، قتل فيها عدة من أكابر الفرسان النصارى ، واستشهد عدد من المسلمين ، وحاول المسلمون بعد ذلك استدراج النصارى إلى السهل . فلما عبروا وادي أوسمة حاول النصارى الهجوم ، فردهم المسلمون وقتلوا منهم جملة ؛ ثم رحل المسلمون بعد ذلك إلى حصن غرماج ( Gormaz ) على مقربة من ليون . ورأى الناصر أن التقدم بعد ذلك في السهول القفرة يعرض جيشه لمتاعب شديدة ، فارتد بقواته شرقاً ، وهو يعيث في أراضي قشتالة . ثم زحف على مدينة برغش عاصمة قشتالة وخربها ، وقتل على مقربتها عدداً كبيراً من أحبار الأديار المجاورة ( سنة ٩٣٤ م ) ثم قفل راجعاً بجيشه إلى قرطبة ، وقد قطع في غزوته هذه زهاء أربعة أشهر . وذكر الناصر في كتاب الفتح الصادر عن هذه الغزوة ، الجهات والمدن التي غزاها من بلاد ألبة والقلاع ، فكان منها مدينة أوسمة ، وحصن القصر ، وحصن أنة والدير المنسوب إليه ، ومدينة برغش وقصبتها المنيعة وبسيطها ، وحصن بلنسية وبسيطه ، وحصن اشكفيرش وبسيطه والأديار المتصلة به ، ومدينة لزمة

العظيمة الشأن وبسيطها ، ونظم الشعراء قصائدهم فى تهنئة الناصر بما أصابه فى هذه الغزوة من الظفر[١] .

وتقص علينا الرواية الإسلامية خبر غزوة بحرية قام بها أسطول الناصر فى تلك السنة (٣٢٣ هـ) . وخلاصة ذلك أن أسطولا بقيادة أمير البحر عبدالملك ابن سعيد بن أبى حمامة ، قوامه أربعون مركباً منها عشرون من الحرافات التى تحمل النفط والآلات البحرية ، وعشرون تحمل الرجال المقاتلة ، وعدة ركابه من الجند ألف رجل ومن البحريين ألفين ، خرج من ثغر ألمرية فى شهر رجب (مايو ٩٣٥ م) فسار أولا إلى جزيرة ميورقة الإسلامية ، ثم خرج منها متجهاً نحو شاطىء الثغر الفرنجى ، وقصد أولا إلى مدينة بالش وهاجمها ، ووقعت بينه وبين أهلها معركة عنيفة هزم فيها الفرنج ، وقتل منهم ثلاثمائة رجل ؛ ثم سار الأسطول إلى مدينة إينش ، وأحدق بها المسلمون براً وبحراً وأحرقوا المراكب فى مرساها وقتلوا من أهلها نحو أربعمائة رجل ؛ وبعث ابن حمامة من سفنه خمسة عشر سارت شمالا إلى بلدة مسّنيط ثم سار خلفها ببقية الأسطول ، وغزا الأسطول قرى كثيرة على الشاطىء ، وحقق غنائم كثيرة ، وخرج الافرنج لقتاله ، فهزموا وقتل قائدهم . ثم تقدم الأسطول بعد ذلك من مدينة برشلونة ، عاصمة الثغر الفرنجى ، فاجتمع الفرنج لمقاومته بقيادة زعيمهم بليط ، فهزموا وقتل قائدهم ، وأغلقت المدينة أبوابها ودافع أهلها من فوق الأسوار ، فتحول الأسطول إلى الساحل الجنوبى ، ودارت بينه وبين الفرنج المجتمعين على الشاطىء معركة شديدة هزم فيها الفرنج . ثم قفل الأسطول الإسلامى بعد ذلك عائداً إلى ثغر طرطوشة الإسلامى ، مثقلا بالسبى والغنائم ، وهنالك تلقى قائده أبا حمامة كتاب الناصر ، بالنهوص إلى سبتة وطنجة لمحاربة من انتقض هنالك من أهلها فصدع القائد بالأمر ، وسار بسفنه نحو الجنوب ، ولبث متردداً بين مراسى العدوة حتى شتاء العام التالى ، ثم عاد إلى مراسيه فى ألمرية فى صفر سنة ٣٢٤ هـ[٢] .

---

(١) ابن حيان فى المقتبس — السفر الخامس — مخطوط الخزانة الملكية ، لوحات ١٣١ - ١٣٥ ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٢ ؛ وكذلك : Dozy : Hist. · Vol. II. p. 148

(٢) ابن حيان فى المقتبس — السفر الخامس — لوحة ١٤٤ ب و ١٤٥ أ .

وفى هذه السنة أيضاً (٣٢٣ هـ)، عقد السلم بين الناصر لدين الله وراميرو ملك ليون. وكان راميرو، على أثر الغزوة المخربة التى قام بها المسلمون فى أراضيه، قد بعث رسله إلى الناصر فى التماس الصلح، فبعث إليه الناصر وزيره يحيى بن يحيى بن إسحاق سفيراً، فاجتمع فى ليون مع راميرو، وعقد معه شروط الصلح. ووقع الناصر هذه المعاهدة فى منتصف ربيع الثانى من هذه السنة (مارس ٩٣٥ م)، فى يوم مشهود. وكان الناصر يرمى بعقد هذا الصلح إلى أبعاد ملك ليون عن التفاهم مع محمد بن هاشم صاحب سرقسطة ومعاونته. بيد أن هذا الصلح لم يدم طويلا، لما كان يجيش به راميرو من رغبة ملحة فى النكث والتفاهم مع الخارجين على حكومة قرطبة[1].

ذلك أن بذور الثورة كانت تختمر فى الثغر الأعلى، وكان النصارى إلى جانب ذلك يتحينون الفرصة للنهوض والانتقام. وكانت طوطة ملكة نبرّة الوصية على ولدها غرسية، قد لزمت السكينة حيناً وفقاً لمعاهدة السلم التى عقدتها مع الناصر، ثم تحرك البشكنس بعد ذلك وأغاروا على بعض الحصون الإسلامية (٩٣٧ م). وظهرت فى الوقت نفسه فى الولايات الشمالية أعراض فتنة خطيرة. ذلك أن بنى هاشم التجيبيين سادة سرقسطة، لم يكونوا دائماً على وفاق مع حكومة قرطبة، وكانت تحدوهم أطماع كثيرة. وكانوا يخشون عواقب السياسة التى يتبعها الناصر فى إخضاع الولاة المحليين، وسحق سلطان الأسر القديمة، وكان وجودهم فى الشمال بين الممالك النصرانية يفسح لهم مجال التآمر والخروج. وكان أبو يحيى محمد بن عبد الرحمن التجيبى، حينما توفى فى سنة ٣١٢ هـ، قد خلفه ولده هاشم بمصادقة الناصر، وحكم سرقسطة، وضبط الثغر، واشترك فى الغزو مع الناصر، وتوفى فى سنة ٣١٨ هـ. فطلب ولده محمد بن هاشم التجيبى إلى الناصر أن يقره على ولاية سرقسطة، فلم يجبه إلى ذلك، فسار محمد إلى قرطبة مؤكداً لولائه، فصدر الأمر بتوليته فى رجب سنة ٣١٩ هـ، والتزم بأن يورد قسما من الجباية. ولما سار الناصر فى سنة ٣٢٢ هـ إلى الغزو بعث إلى أهل الثغور لموافاته، فقدم إليه التجيبيون، فى رجالهم، وتخلف محمد بن هاشم عنهم، وسار الناصر لقتاله، ولكنه تحول

(١) ابن حيان — السفر الخامس — لوحة ١٤٣ أ

عنه إلى قتال النصارى حسبما تقدم[١] . ومن ثم فإنه لما اضطرمت نار الحرب بين ملك ليون وبين الناصر ، رأى التجيبيون الفرصة سانحة لتنفيذ مشاريعهم ، وكان راميرو ملك ليون بالرغم من ارتباطه بعهد السلم مع الناصر ، يرقب الفرصة للنكث واستئناف الحرب ضد المسلمين ، فلما استجاش به محمد بن هاشم ، رأى الفرصة سانحة ، فنكث عن السلم وعقد الحلف المنشود مع محمد بن هاشم التجيبي صاحب سرقسطة ، وقريبه مطرّف بن منذر التجيبي صاحب قلعة أيوب[٢] ، وتعهد محمد لراميرو أن يعترف بطاعته ، نظير معاونته إياه فى الخروج على عبد الرحمن الناصر ومحاربته ، بل يقال إن هذا الحلف كان قد عقد قبل ذلك سراً ، وإن آثاره ظهرت منذ سنة ٣٢٤ هـ ( ٩٣٤ م ) ، حينما كان الناصر يغزو أراضي ليون ، ولم يتقدم بنوهشام لمعاونته ، بل بالعكس جاهر محمد بالخروج عليه وخلع طاعته ، ثم اعترف بسيادة ليون على سرقسطة وأحوازها ، ولما أبى بعض قواد الحصون مجاراته فى خيانته ، سار إليهم راميرو وأخضعهم ، وسلم قلاعهم إلى الزعيم الثائر ، ثم عقد محمد وراميرو محالفة مع طوطة ملكة ناڤار ، وغزا البشكنس الأراضى الإسلامية حسبما قدمنا ، وبذا تحالف الشمال كله ضد عبد الرحمن .

وتقدم إلينا الرواية الإسلامية ، خبر معركة ، نشبت فى ذلك الوقت فى الثغر الأعلى بين المسلمين والنصارى . وذلك أن الفرنج فى برشلونة وحلفاءهم فى الثغر ،حاولوا انتهاز الفرصة ، وغزوا الأراضى الإسلامية ، فخرج إليهم أحمد بن محمد بن إلياس قائد القوات السلطانية المرابطة فى الثغر على مقربة من سرقسطة ، ونشبت بين المسلمين والنصارى معركة شديدة على ضفاف نهر إبرُه ، فهزم النصارى هزيمة شديدة وقتل وغرق منهم عدد جم . وتضع الرواية الإسلامية تاريخ هذه الموقعة فى آخر شوال سنة ٣٢٤ هـ ( سبتمبر ٩٣٦ م )[٣] .

وبعث الناصر فى نفس الوقت جيشاً كثيفاً إلى الثغر الأعلى بقيادة الوزير عبد الحميد بن بسيل ، ليقوم بالتضييق على سرقسطة وبنى هاشم ، وليدعم

---

( ١ ) العذرى فى كتاب ترصيع الأخبار ص ٤٣ و ٤٤ .

( ٢ ) **Calatayud** وهى تقع جنوب غربى سرقسطة فى منتصف الطريق بينها وبين مدينة سالم .

( ٣ ) المقتبس — السفر الخامس — لوحة ١٤٨ ب و ١٤٩ أ

للقوى السلطانية المرابطة على مقربة منها ، وذلك ريثما يستطيع السير بنفسه إلى الشمال . ثم أتبعه بجيش آخر ، بعثه إلى الثغر أيضاً بقيادة الوزير سعيد بن المنذر القرشي ، ليقوم بالمعاونة فى التضييق على سرقسطة .

وفى نفس هذا العام ( ٣٢٤ هـ ) حاول نصارى ليون مرة أخرى الاستيلاء على قلعة مجريط أهم قلاع الثغر الأدنى ، فهاجمتها قوة كبيرة ، ولكن الحامية الإسلامية بقيادة أبى عمر بن أبى عمر استطاعت أن تصد هذا الهجوم ، وأن تنقذ القلعة[١] .

وكان عبد الرحمن أثناء ذلك يتأهب إلى الغزوة المرتقبة إلى الشمال . ففى منتصف شهر رجب سنة ٣٢٥ هـ ( مايو سنة ٩٣٧ م ) ، خرج من قرطبة إلى مقاتلة أعدائه فى جيش ضخم ، وكان بروزه يوماً مشهوداً ، تبدت فيه روعة أهباته ، وفى ذلك يقول الفقيه أحمد بن محمد بن عبد ربه :

يوم من العز مجموع له الناس ... يختال فى عقوتيه الجود والباس

وعلم عبد الرحمن أثناء سيره ، أن النصارى فى الوقت الذى يحتشدون فيه بأطراف الثغر الأعلى ، لمناصرة حليفهم الخارج محمد بن هاشم التجيبى صاحب سرقسطة ، يحاولون فى نفس الوقت أن يزحفوا صوب طليطلة لإثارة الثورة فيها . فسار بجيشه إلى طليطلة كيما يؤمن أهلها ، ويرهب النصارى ، ونزل عليها ، فلما علم النصارى بمقدمه ارتدوا مذعورين إلى الشمال . وفى خلال ذلك وافاه كتاب من أحمد بن محمد بن إلياس قائد الثغر بظفره بالعصاة فى مدينة وشقة ، وكتاب آخر بإخماد ثورة أهل طلبيرة غربى طليطلة .

وسار عبد الرحمن بعد ذلك إلى الثغر الأعلى من طريق وادى الحجارة ، وأبقى قوة من جيشه فى منطقة طليطلة بقيادة مولاه درّى ، للسهر على النظام فى تلك المنطقة ؛ ورأى أن يبدأ بقلعة أيوب ، وكان قد امتنع بها مطرّف بن منذر التجيبى المعروف بأبى شوريب ، وكان راميرو قد بعث لإنجاده فرقة من فرسان ألبة والقلاع . فحاصر عبد الرحمن القلعة ، وبعث يدعوه إلى الطاعة ، ويؤكد له الأمان بخطه ، فرفض مطرف أن يستجيب إلى هذه الدعوة ، فهاجم عبد الرحمن القلعة ، وبرز إليه مطرف وحلفاؤه ، ونشبت بين الطرفين معركة

---

( ١ ) المقتبس — السفر الخامس — لوحة ١٤٩ ب .

شديدة ، هزم على أثرها مطرف ، وقتل ، ولجأ أخوه حكم بن منذر فى فلوله ومن معه من فرسان ألبة إلى القصبة ، وامتنعوا بها ، فاستمر الهجوم عليهم ، وكثر القتل فى المدافعين ، حتى اضطر حكم أن يطلب الأمان لنفسه ولحلفائه النصارى ، ليعودوا إلى بلادهم ، ويلحق هو وأهله بالحضرة ، فقبل الناصر ونزل حكم ومن معه من القصبة ، وأعفى عن النصارى المستأمنين وقتل الباقون . ووقع فتح قلعة أيوب على هذا النحو فى التاسع عشر من شهر رمضان من هذه السنة .

وكان فتح قلعة أيوب أول صدع خطير فى ثورة بنى تجيب ، وكان بها ، فضلا عن مناعتها الطبيعية ، عدة كبيرة من فرسان سرقسطة الأكابر ، وخمسمائة من الفرسان النصارى لم ينج منهم سوى الخمسين الذين أمنوا ، وقد أفاضت الشعراء فى تهنئة الناصر بهذا الفتح ، ومن ذلك قصيدة لابن عبد ربه هذا مطلعها :

يا ابن الخلايف والصيد الصناديد ألقت إليك الرعايا بالمقاليد

ورأى الناصر ، قبل أن يسير إلى سرقسطة ، أن يقوم بجولة فى أرض النصارى . فاتجه إلى أراضى ألبة والقلاع ، فافتتح عدة كبيرة من حصونها تبلغ السبعة والثلاثين حصناً . واعتزم بعد ذلك أن يعاقب البشكنس على عدوانهم ، فسار إلى بسيط بنبلونة ، وخرب معاهدها وحصونها ، ومزق جموع البشكنس وسحق كل مقاومة ، وبعث فرقاً من جيشه إلى مختلف الأنحاء المجاورة فعاثت فيها وأصاب المسلمون غنائم كثيرة . وساد الرعب على البشكنس ؛ وهرعت إليه طوطة ، ملكة نبرّة تقدم إليه خضوعها وتوبتها ، فقبل الناصر اعتذارها وأقر ولدها غرسية ملكاً على نبرّة فى طاعته وتحت حمايته ؛ وكان ذلك فى أواخر رمضان وأوائل شوال من سنة ٣٢٥ هـ ( أغسطس ٩٣٧ م )[١].

وسار الناصر بعد ذلك إلى تطيلة ، ثم سار منها إلى سرقسطة ، فنزل عليها فى الثانى عشر من شهر شوال ، وابتنى حولها المنازل والدور بمحلته ، وعهد بحصارها إلى أحمد بن إسحاق القرشى قائد الفرسان ، وهو من قرابته ، وعينه حاكماً للثغر . ولكنه تهاون فى الحصار وتوانى لمرض فى قلبه ، ولأطماع كانت تجيش بها نفسه ، فأنبه عبد الرحمن وعزله ، فاتفق مع أخيه أمية على التآمر

( ١ ) ابن حيان فى المقتبس – السفر الخامس – لوحات ١٥٣ و ١٥٥ و ١٥٦ أ .

والخروج ، فوقف عبد الرحمن على أمرهما واكتفى بنفيهما من الأندلس . فسار أمية إلى مدينة شنترين[1] فى ناحية الغرب ، واستولى عليها ورفع بها علم الثورة ، وتحالف مع ملك ليون . فأمر الناصر القائد أحمد بن محمد بن إلياس ، وكان مقيما فى بطليوس ليرصد حركات أمية بن إسحاق ، أن يغزو أرض العدو ، فسار إلى أراضى ليون واشتبك مع الحلالقه فى معركة ، هزم فيها الحلالقة ، وقتل منهم عدد جم ، ولا سيما من أهل سمورة (جمادى الأولى سنة ٣٢٦ ﻫ) ، ثم أمر الناصر بعد ذلك القائد عبد الحميد بن بسيل ، أن ينضم فى قواته إلى أحمد ابن محمد بن إلياس ، وأن يسيرا معاً إلى غزو ليون . فصدعا بالأمر ، ووصلا بقواتهما إلى أرض النصارى وعاثا فى جنباتها ، وفى نفس الوقت تحركت بعض السفن من نهر الوادى الكبير وسارت نحو الغرب لغزو أهل شنترين الذين يناصرون أمية بن إسحاق . وانتهى الأمر بأن قام أحد الزعماء المحليين الذين يدينون بطاعة الأمير ، واستطاع أن ينتزع شنترين من أمية ، فالتجأ أمية إلى راميرو . أما أخوه أحمد فحاول أن يتصل بعمال الفاطميين فى عدوة المغرب ، وأن يأتمر معهم على حكومة قرطبة ، فسعى عبد الرحمن إلى القبض عليه ثم أمر بإعدامه[2] ، ولكن سنرى أن مغامرات بنى إسحاق لم تنته عند هذا الحد .

واستمر حصار سرقسطة مدى أشهر ، والناصر يشدد عليها الخناق شيئاً فشيئاً . وأخيراً اضطر محمد بن هاشم أن يبعث رسله فى طلب الأمان والصلح ، على أن يقره الناصر على حاله ، فأبدى الناصر قبوله وتسامحه ، وطلب أن يخرج إليه إخوة محمد ووجوه أهل سرقسطة لعقد الصلح . فخرج إليه وجوه سرقسطة ، ومن بينهم إخوة محمد ، يحيى وعبد الرحمن وهذيل ، وعدة من ذوى الشوكة . وهنا ثابت للناصر فكرة فى انتهاز الفرصة ، والقبض على تلك الصفوة المختارة من أهل سرقسطة ، ليسدد إلى المدينة الثائرة ضربة مميتة ، فأمر بالقبض عليهم جميعاً واعتقالهم داخل سرادقه ، فلما علم محمد بن هاشم بما تم سُقط فى يده ، وشعر بوقع هذه الضربة التى حرمته من كبار معاونيه ، ولكنه استمر صامداً ممتنعاً ، ورسل الناصر تتردد إليه بالإعذار والإنذار دون جدوى . وأخيراً بعث

---

(١) وهى بالإفرنجية **Santarem** .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٠ ؛ وابن الأثير ج ٨ ص ١١٥ .

إليه الناصر بوزيره ومولاه محمد بن عبد الملك بن أبي عبدة ، فاطمأن الثائر إليه ، وأذعن إلى التوبة والإنابة وطلب الأمان والصلح ، وكان ذلك خلال عيد الأضحى سنة ٣٢٥ هـ .

فاستجاب الناصر إلى طلب محمد بن هاشم ، وعقد له الأمان بأوثق عقد ، وشهد الملأ من أهل العسكر وأهل الثغور ، وشهدت نسخته فى الناس عامة ، وذلك فى شهر المحرم سنة ٣٢٦ هـ ( نوفمبر ٩٣٧ م ) . وكان مضمونه « أن يمنح الأمان لمحمد بن هاشم وإخوته وجميع أهله وأصحابه من مدينة سرقسطة ، وجميع من يتصل بهم من أهلها ، للمدة التى يرضاها الناصر ، وأن يملكه سرقسطة تمليكاً يدخل فيها من يشاء ، وإلى العدد الذى يرضاه من رجاله ، ويكون أهل مدينة سرقسطة ومن يبقيه محمد بن هاشم منهم من أهله وأتباعه آمنين بأمان الله ، محفوظين بعهد الملة . مستمسكين بمثل أمان محمد بن هاشم ، غير معتقبين فى أنفسهم ، ولا مأخوذين بذنب سلف ، وأن يخرج محمد بن هاشم من سرقسطة بنفسه ، ومن أحب إخراجه معه من خواص أهله وولده ، إلى مدينة تطيلة أو غيرها من مدن الثغر ، وحصوله مسجلا على الموضع الذى يتخيره ، ويبقى بسرقسطة من أحب منهم ، ويختلف عليهم . وعلى المُولّى بسرقسطة بعده ، إحسان صحبتهم ، وعليه أن يباعد منزله عنهم ، لا يقربه شيء من دور محمد ابن هاشم ، أو ينزل القصر القديم بعد خروج محمد بن هاشم عنه بجميع ماله فيه . وعلى أن يسجل الناصر لدين الله ، لأخيه يحيى بن هاشم على ما كان بيده من مدينة لاردة وأحوازها . فإن انقضت المدة التى يضربها الناصر لمحمد ، توجه إلى الحضرة ، وأقام فيها ثلثين يوماً أو نحوها ، مظهراً لصدق طاعته ، ماحياً لكل ما انتثر فى أقطار الأرض من معصيته ، وهو فى توجهه إليه آمن فى طريقه ، ومدة مقامه ومنصرفه ، غير مقطوع ولا معترض دون الانصراف ، إذ انقضت المدة التى وضعت له . وله على السلطان إذا وفى بما عقد عليه من الشخوص إلى باب سُدّته أن يكتب له عهداً على مدينة سرقسطة ، ويصرفه إليها عاملا وقايداً ، ويعزل عنها عامله وقايده ، بعد أن يناله من كرامته ، ويظهر عليه من آثار نعمته ، ما يعود معه إلى أحسن الأحوال التى كان عليها قبل هفوته » .

وقد اشترط عهد الأمان أيضاً أن يقدم محمد بن هاشم إلى الناصر رهائن من

ولده وإخوته وصحبه وكاتبه ، وأن يكون جماعتهم لدى الناصر بحال حفظ وتكرمة ، وأمان فى المسير والمقام ، يديلهم ستة أشهر ، باكفاءهم ونظرائهم من إخوتهم خاصة ، إلى أن يظهر لأمير المؤمنين براءة محمد بن هاشم من ممالأة المشركين ، وتصحيحه طاعة أمير المؤمنين ، وعلى أن يقطع محمد بن هاشم من المشركين فى ظاهره وباطنه ، من حدّ بلد برشلونة إلى شرطانية إلى بنبلونة إلى ألبة والقلاع وإلى جليقية ، ولا يكاتبهم ولا يداخلهم ، ولا يصالحهم على طرف من أطراف الثغر إلا عن إذن أمير المؤمنين ، وأن يورد جباية بلده لمحلها ، بعد أن يسقط عنه جباية عام ، وألا يتقبل حراً نازعاً ، ولا عبداً آبقاً لأمير المؤمنين ، ولا لأحد من رعيته ، وأن يوثق من ظفر به من هذه الطبقة ويصرفه إلى مكانه ، وألا يتعقب أحداً ممن سجل له عليه ، أو يسجل بعد ، ممن حاربه مع أمير المؤمنين وفارقه إليه أيام الطاعة ، وأن يجدد البيعة لأمير المؤمنين ويلتزم شروطها ، وأن يغزو مع أمير المؤمنين ، ويعادى من عاداه ويحارب من حاربه ، ويسالم من سالمه من أهل الملوك وغيرهم ، ويقطع نصيبه من كل من أخرج يده عن طاعته ، وإن كان ابنه أو أخاه ، يلتزم كل ما ألزمه أمير المؤمنين من ظاهر القول وباطن الإرادة ، لا ينقص تناول البغية ، ولا يحرف عن التصحيح بالعلة ، فقد التزم أمير المؤمنين فى عقده ، مثل ما سأله محمد فى ذلك وأوجبه على نفسه مع دركه لهذه المنن ، إن صدق الطاعة ، أن يوليه مدينة سرقسطة ، وما وقع فى سجله معها ولاية مستمرة ، ولا يعزله طول أيامه عنها ، ثم لا يؤاخذه بذنب ، ولا يعدد عليه اقتراف خطأ ولا عمد ، ولا تقبل فيه مقالة كاشح ولا طعن حاسد ، ويصير ذلك له وصية فيمن بعده ، يلزمهم الوقوف عندها على سبيل الخلفاء فى خالدات عهودهم إن شاء الله ، ووقعت الأيمان فى هذا الأمان من الناصر لدين الله مستوفاة مغلظة ، أخذ على محمد بن هاشم أشد منها ، فحلف فى مقطع الحق بمسجد سرقسطة الجامع خمسين يميناً منسوقة بمحضر قاضى الجماعة بقرطبة والفقهاء وأعلام العسكر ، والملأ من أهل بيت محمد بن هاشم ، ووجوه أهل الثغر ، على التزام ما عقد على نفسه منه واعتداده إياه ديانته » . ثم أشهد الناصر لدين الله على نفسه فيه جميع أهل عسكره ، فكان أول من شهد عليه أولاده الحاضرون ، ثم أعمامهم ثم الوزراء وأصحاب الخطط ، ثم الفقهاء ، ثم

وجوه أهل سرقسطة ومن حضر من أهل الثغر[1].

سقطت سرقسطة وسائر الحصون المجاورة لها فى يد الناصر ، وكذلك سقط فى يده حصن روطة أمنع حصونها فى الغرب ، وبذا انهارت ثورة التجيبيين فى الشمال ، وكانت من أخطر الثورات التى واجهها الناصر ، لأنها كانت مركزاً لتجمع القوى المعادية لخلافة قرطبة ، من الخوارج والأمراء النصارى . أما عفو الناصر عن محمد بن هشام ، ومنحه الأمان له ، واستصناعه بالرغم من فداحة جرمه ، فيرجع إلى ما كان يتمتع به محمد من مقدرة إدارية فائقة ، ولما كان لبنى هاشم فى الشمال من مركز قوى موثل ، ولما كان لهم من العصبة والأنصار . وقد رأينا الناصر فى غير موطن ، يعفو عن الثوار العتاة ، ويحسن إليهم ، وينظمهم فى جيشه . وقد كانت هذه سياسة مستنيرة من الخليفة القادر ، للاستفادة من هذه العناصر المنحرفة القوية معاً ، متى استقرت توبتها ، وحسن ولاؤها .

ودخل الناصر بجيشه مدينة سرقسطة وفقاً للسلم المعقود فى يوم الخميس ١٤ من المحرم سنة ٣٢٦ هـ ( ٢٢ نوفمبر ٩٣٧ م ) ، وشهد منعتها وحصانة أسوارها ، فأمر بهدم الأسوار حتى لا تعود منعتها فتشجع الخوارج على الثورة ، وشحنها برجاله ، ونظر فى مصالحها ، فساد بها الهدوء والأمن ، وبعث الناصر أثناء مقامه بسرقسطة ، قوة من جيشه بقيادة نجدة بن حسين الصقلبى لتقوم ببعض الغزوات فى أرض العدو ، وأمر محمد بن هاشم أن يرافقه فى أصحابه امتحاناً لوفائه ، فصدع بالأمر . وسار المسلمون بالرغم من اشتداد البرد وانهمار الثلوج صوب ناحية شنت إشتين ، وتفرقوا إلى ثلاث فرق ، أخذت كل فرقة منها بشن الغارات فى قطاع معين ، ثم اجتمعت عند حصن شنت إشتين ، وهنا حاول النصارى اعتراض المسلمين ، ونشبت بين الفريقين معركة هزم فيها النصارى . وتوغل المسلمون بعد ذلك فى أراضى ألبة ، وانتسفوا الزروع

---

( ١ ) أورد لنا ابن حيان حوادث فتح سرقسطة ، وعهد الأمان الذى أصدره الناصر لمحمد ابن هاشم نقلا عن عيسى بن أحمد الرازى . وقد أورد لنا أيضاً أسماء الشهود الذين وقعوا هذا الأمان من الأمراء والوزراء وأصحاب الخطط والموالى والفقهاء وغيرهم ، وشغل ذلك أكثر من صفحة . المقتبس فى السفر الخامس – مخطوط الخزانة الملكية لوحات ١٥٦ ب إلى ١٥٩ أ .

وخربوا الكنائس والديارات ، ثم عادوا مثقلين بالغنائم إلى سرقسطة . وكان الناصر قد استتم خلال ذلك النظر فى شئون الثغر ، وحفظ أطرافه ، وتزويده بالحماة والمقاتلة ، وكل ما يضمن سلامته ، ثم خرج بجيشه من سرقسطة قافلا إلى الحضرة فى الرابع عشر من صفر ، فوصل إلى قصر الخلافة فى الثامن عشر من ربيع الأول سنة ٣٢٦ هـ ( أواخر يناير ٩٣٧ م ) ، وذلك بعد أن قضى فى غزوته زهاء ثمانية أشهر(١) .

ووفد محمد بن هاشم التجيبى بعد ذلك على قرطبة ، فأكرم الناصر وفادته ، وأقام فى كنفه مدة فى رغد وإيثار ، وهو يحضر مجالس الخليفة ، ثم غادر قرطبة فى رجب بعد أن ولاه الناصر سرقسطة ، وعقد له عليها وعلى الجهات التابعة لها ، وولاه القيادة فى نفس الوقت ، وبذا رد إلى سابق مناصبه ومكانته .

* * *

وهكذا استطاع عبد الرحمن أن يمزق شمل هذا التحالف الخطر ، وأن يخضع الشمال الشرقى من شبه الجزيرة كله لسلطانه وصولته ؛ ولم يبق عليه إلا أن يحطم خصمه القوى العنيد راميرو الثانى ملك ليون ، وهو محور النضال الحقيقى . فلم يمض سوى عامين حتى تأهب للقيام بأعظم غزواته ضد مملكة ليون . فحشد جيشاً ضخماً يبلغ زهاء مائة ألف ، وعهد بقيادته إلى نجدة بن حسين الصقلبى . وكان الأجانب والصقالبة قد تبوأوا يومئذ ذروة القوة والنفوذ فى بلاط قرطبة ، وسيطروا على معظم المناصب الكبيرة فى القصر والجيش . وكان لهذه السياسة التى أسرف الناصر فى اتباعها ، أسوأ الأثر فى نفوس الزعماء العرب ، وفى انحلال قوى الجيش المعنوية . وفى صيف سنة ٩٣٩ م ( ٣٢٧ هـ ) سار الناصر إلى ليون على رأس جيشه الضخم ، وعبر نهر التاجُه من عند طليطلة ، ثم عبر نهر دويرة متجهاً نحو قلعة شنت منكش ، أو شنت مانك ( سمانقة ) دون أن يفطن إلى ما يفت فى عضد هذه القوة العظيمة من العوامل الخفية ؛ وكان راميرو الثانى يرابط على مقربة منها فى حشود عظيمة ، متأهباً لقتال المسلمين بكل ما وسع ، وزوده حليفه الخائن أمية بن إسحاق بنصائح ومعلومات ثمينة ،

(١) المقتبس فى السفر الخامس — لوحة ١٦٣ أ و ب .

وانضمت إليه طوطة ملكة ناقار ناكثة لعهدها ، وبذا اتحدت قوى اسبانيا النصرانية لمقاتلة المسلمين مرة أخرى .

وهنا تختلف الرواية العربية والفرنجية اختلافاً بيناً فى شأن الموقعة التى نشبت بين المسلمين والنصارى ؛ وبينما تقدم إلينا الرواية الفرنجية كثيراً من التفاصيل الواضحة المغرقة أحياناً ، إذا بالرواية العربية يغلب عليها الإيجاز والغموض والتحفظ ؛ وبالرغم من أن الرواية الأندلسية تشير إليها فى غير موضع وتصفها « بغزاة القدرة » تنويهاً بأهميتها ، وما كان يعلق عليها من رغبة فى سحق المملكة النصرانية ، وتسميها بموقعة « الخندق » وهو نفس الإسم الذى تقدمه الرواية الفرنجية ، فإنها لا تقدم إلينا أى تفصيل شاف عن مكانها وظروفها[1] . وسوف نستعرض أقوال الرواية الإسلامية أولا ، ثم نتلوها بأقوال الرواية النصرانية، حتى نستطيع بالتمحيص والمقارنة ، أن نخرج بفكرة واضحة عن حقائق هذه الموقعة التى تعتبر من كوارث التاريخ الأندلسى .

ويقدم إلينا المسعودى عن الموقعة رواية يطبعها لون القصة . فيقول لنا إن عبد الرحمن اقتحم بجيشه حدود ليون وزحف على مدينة سمّورة عاصمتها ، وكانت فى غاية المناعة ، يحيط بها سبعة أسوار شاهقة البنيان ، قد أحكمتها الملوك السابقة ، وبين الأسوار خنادق متسعة تفيض بالماء ، فافتتح المسلمون منها سورين ، واحتمى النصارى بداخل المدينة ، ثم لحق المسلمين الإعياء من امتناع المكان وحصانته ، فكر عليهم النصارى بشدة وحماسة ، فساد الاختلال بين المسلمين وهزموا هزيمة شديدة ، وقتل منهم زهاء أربعين ألفاً وقيل خمسين ألفاً ، وكان ذلك فى شوال سنة ٣٢٧ هـ ( يوليه ٩٣٩ م ) . وسميت الموقعة بموقعة الخندق لنشوبها على خنادق سمورة[2] .

على أن الرواية الأندلسية أكثر وضوحاً ودقة ، فى شرح تفاصيل هذه

---

( ١ ) أخبار مجموعة ص ١٣٦ ؛ ويشير ابن خلدون إلى الموقعة إشارات عابرة ( ج ٤ ص ١٣٧ و ١٤٠ ) . وكذا ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ١٥٠ . ولم يذكرها ابن عذارى فى البيان المغرب .

( ٢ ) مروج الذهب ( بولاق ) ج ١ ص ٧٨ ؛ ونقلها المقرى فى نفح الطيب ج ١ ص ٦٦٥ وابن الأثير ج ٨ ص ١١٥ .

الكارثة . ولدينا من ذلك روايتان ، تمتاز كلتاهما بنوع من الوضوح فى تحديد مكان الموقعة وظروفها ، هما رواية مؤرخ الأندلس الكبير ابن حيان ، ورواية الوزير ابن الخطيب .

أما رواية ابن حيان ، وهى التى ينقلها فى المقتبس عن عيسى بن أحمد الرازى ، فخلاصتها ، هو أن الناصر لما عزم على غزو أهل جلِّيقية ( مملكة ليون ) ، جد فى الاستعداد والحشد ، وبعث كتبه إلى الثغور ، واستكثر من الآلات والسلاح ، وخرج فى حشوده إلى الغزو فى يوم الجمعة ٢٢ شعبان سنة ٣٢٧ هـ الموافق لأول شهر يونيه العجمى ( سنة ٩٢٩ م ) . وكان الناصر قد سير قبل خروجه الوزير القائد أحمد بن محمد بن أبى عبدة فى بعض قواته إلى جهة الغرب احتياطاً على أهله ، وحماية لهم أثناء قيامه بالغزو .

ووصل الناصر فى قواته إلى طليطلة فى يوم ٢٣ رمضان ، ثم خرج منها إلى أرض العدو (قشتالة) فى الخامس من شوال ، فعاث فيها أياماً ، وألفى النصارى قد أخلوا معظم بلاد هذه المنطقة ، وكانت غاصة بالنعم والأقوات ، فاستولى المسلمون عليها ، ثم تقدموا إلى حصن أشكر ، وخربوه وانتسفوا ما حوله . ثم ساروا إلى حصن أطلة ، فحصن برتيل ، وذلك فى يوم ١٣ شوال .

وكان محمد بن هاشم التجيبى صاحب سرقسطة قد تقدم فى قواته ، فى الوقت نفسه ، فعبر نهر شنت مانكش ( سيمانقا ) ، فارتد العدو بقواته وراء النهر ، ونشبت بين الفريقين معركة هزم فيها النصارى أولا ، ولكنهم عادوا فاجتمعوا وتكاثروا على المسلمين ، وسقط محمد بن هاشم عن فرسه خلال القتال فأسر ، وهزم المسلمون على باب شنت مانكش هزيمة شديدة ، وقتل منهم كثيرون وارتدوا فى تراجعهم إلى خندق عميق ، وهو الذى تنسب إليه الموقعة ، فتردى فيه منهم خلق كثير ، فتقدم الناصر مضطراً بقواته ، وترك محلته ، فملكها العدو فى الحال ، واحتل الناصر أعلى النهر بقواته ، وقد عجز النصارى عن اتباعه ، فلبث هناك يومه ، وقد ساد الخلل فى الجيش . وأيقن الناصر بتمحيص الله للمسلمين ، ثم رحل قافلا حتى وصل إلى مدينة وادى الحجارة ، ثم سار منها إلى قرطبة .

هذا ملخص ما نقله ابن حيان عن عيسى بن أحمد عن موقعة الخندق ، ويزيد ابن حيان على ذلك ، أن هذه الوقيعة التى اشتهر حديثها بالأندلس قد نالت

السلطان ( الخليفة ) والمسلمين فيها محنة عظيمة ، وقتل وأسر فيها خلق كثير . واستولى العدو على محلة السلطان وسرادقه وآلاته السلطانية ، وفيها مصحفه الخاص ودرعه الأثير لديه . وشملت الهزيمة سائر الكافة ، فلم ينج من نجا منها إلا على متون الدواب . وأصاب القتل والأسر بالأخص أهل البلاد والمطوعة . وأما الجند فقد نجا معظمهم ، وفشا القتل فيمن سواهم من المستنفرين والحشودة .

ويقول لنا ابن حيان ، إنه كان بين ضحايا المعركة جده أبوسعد مروان بن حيان بن محمد بن حيان . ومن الحقائق المؤلمة التى ينقلها إلينا ابن حيان ، أنه قد بدا فى هذا اليوم ، من قوم من وجوه الجند « النفاق لأضغان احتملوها على السلطان فقبعوا للصفوف ، وسارعوا فى الهرب ، وجروا على المسلمين الهزيمة وأوبقوهم . وكان أسبقهم إلى ذلك وأكشفهم لما فى نفسه الخاين « ابن فرتون بن محمد الطويل » وقد بعث الناصر خلفه برسول استطاع القبض عليه ، فثقف وحمل إلى قرطبة ، وهنالك صلب على باب السُّدة يوم وصول الناصر من غزاته ، وألحق به نفر من أشكاله ممن عملوا عمله ، ولحقهم وزره .

ويصف لنا عيسى بن أحمد ، طريق العودة الذى سلكه الناصر بجيشه عقب الموقعة ، فيقول إن الناصر ، قصد أولا إلى مدينة الفرج ( وادى الحجارة ) ، ثم غادرها فى يوم الخميس الحادى عشر من ذى العقدة ، وسار إلى جربيرة ، ومنها إلى شبطران ، ومنها إلى محارس ، ومنها إلى مدينة طليطلة ، فلبث بها أربعة أيام ، ورحل منها يوم الخميس إلى فج سراج ، ومنها إلى ملقون ، ثم احتل بالبركة ، ومنها إلى منزل رند ، ثم إلى قنالش على وادى أربيشر ، ومنها إلى طير برتيطة ، ومنها إلى قليانة ، فأرملاط ، ومنها إلى منية نصر على باب قرطبة بعدوة النهر بالربض . وهنالك قضى الليل . ثم سار إلى قصر قرطبة فى الغد ، وقد نفذ أمره بصلب فرتون بن محمد الطويل ، على باب السُّدة الأكبر من أبواب القصر .

هذا ، وقد نقل إلينا ابن حيان نص الكتاب الذى صدر باسم الناصر عن الموقعة ، وهو من إنشاء الوزير الكاتب عيسى بن فطيس . وهو كتاب طويل ، يحاول فيه كاتبه أن يصف أدوار الموقعة ، وروعة القتال الذى نشب بين المسلمين والنصارى ؛ ويستخلص منه أن المعركة بدأت فى صالح المسلمين ، وأنهم استطاعوا فى البداية أن يردوا النصارى ، وأن يفضوا جموعهم ، حتى سقط محمد بن هاشم التجيبى

قائد الطليعة عن فرسه ، وأسره النصارى ، فعندئذ ارتد المسلمون إلى خطوطهم ، وذلك بعد أن قتلوا عدداً كبيراً من أعلام النصارى ، وقوامسهم وفرسانهم . ثم استؤنف القتال فى اليوم الثالث ، وقد تضخمت حشود النصارى بما ورد إليهم من الأمداد « من أقصى بنبلونة وألبة والقلاع ، وأهل قشتيلة إلى مشركى قلمرية ، وكل صنف من أصناف العجم معهم » ، واضطرمت المعركة بين الفريقين ، وانتهت هذه المعركة الثانية بهزيمة النصارى وقتل عدد من أعلامهم ، وارتد المسلمون إلى خطوطهم ظافرين . وفى اليوم التالى بادر النصارى بالهجوم ، فلقيهم المسلمون بعنف وشدة ، واحتدم القتال ، وسقط « عظيم من عظماء النصارى » فاستداروا حوله ، وقد لحقتهم الهزيمة ، وهنا يقول الكتاب « وبلغ أمير المؤمنين أقصى أمله من إذلال جميع المشركين ، والاحتلال بساحتهم ، وانحياز طاغيتهم فى أعلى شاهق ، يرجو النجاة بنفسه ، فأمر بالرحيل ، وقد ضاعف النظر ، والعدو فى ضبط ساقة جيشه ، لما توقع خروج الكفرة فى أثره . وأصبح منتقلا ، فما أقدم أعداء الله أن ينظروا من الجيش إلا من بعد على رأس جبل » .

وسار الناصر ، حسبما ينبئنا الكتاب ، بعد ذلك صوب نهر دويرة ، فى اتجاه حصن شنت منكش ، وهو يهدم الحصون ، وينتسف الزروع فى طريقه ؛ وكان الناصر ، يزمع السير شرقاً بحذاء دويرة ، حتى حصن شنت إشتبين ، ولكنه عدل عن ذلك ، وأزمع السير إلى حصن أنتيشة . وهنا يحدثنا الكتاب عن المرحلة الحاسمة من الموقعة . ذلك أن الناصر ، أشرف فى سيره على « خنادق ومهاو تتقاذفه ، وأجراف منقطعة قد عرفها المشركون ، وقدموا إليها ، وألقوا إلى ساقة الجيش فرسانهم ، فدارت عليهم الحرب ، وصرع فيها من جلة فرسانهم ، ومتقدمى رجالهم جملة ، لو أصيبت بحيث يتراءى الجمعان لكانت سبب هزيمتهم ، ولكنهم وثقوا بالوعد ، وانتظروا تقدم الحماة ، وترادف الأثقال ؛ فحامى أمير المؤمنين برجاله وخاصته عن المسلمين ، ساعات من النهار ، حتى تقدم أكثرهم ، وجازت الخندق لقتالهم ، إلا من ضعفت دابته ، أو ضعفت تعبئته عن استنفارها ؛ فلما رأوا الخلل تصايحوا من قنن الجبال ، وانحطوا من أعاليها انحطاط الأوعال ، فأصابوا من الأمتعة والدواب المثقلة ، ما لو أصابوا مثله فى مجال حرب أو سهل

من الأرض ، لما أنكر مثله مثله . عند مقارعة الرجال . وتصرف الأحوال . وحامى صاحب العسكر عن كل من أجاز الخندق ، وخلص من مضايقه ، حتى أسهلوا . وأصبح لأمير المؤمنين جيوشه ، وانتظمت جموعه ، وسلم الله رجاله ، فلم يصب منهم أحد . وفى ذلك دليل للسامع عن الموقعة أنها لم تدر بغلبة ، ولا ظفر المشركون ، اظفروا به فيها عن مساواة أو كثرة ، ولكن ضيق المسالك، ووعر الطريق ، وسوء فهم الدليل ، خلى لما جلبه إلى أقدار الله تعالى التى لا تصرف ، ومحنه التى لم يزل يمتحن بها أولياءه ليعظهم ، ويبتلى عبيده ليرهبهم ، وأمير المؤمنين شاكر لله تعالى عظيم نعمه ، وواقف على تصرف محنته ، مستسهل ما اختص به فى حب طاعته ، ضارع إلى الله تعالى فى التقبل لقوله وفعله » .

وقد أرخ هذا الكتاب فى اليوم الثامن من ذى القعدة سنة ٣٢٧ هـ ، أعنى عقب الموقعة بأربعة أسابيع ، وحينما وصل الناصر فى ارتداده إلى وادى الحجارة ، وذلك ليكون إيضاحاً للناس ومعذرة من الخليفة ، عما أصابه من هزيمة . على أن هذه العبارات الرفيقة التى صيغ فيها الخطاب ، وهذه التأكيدات الجريئة ، بأن أمير المؤمنين ، عقب جواز الخندق ، قد انتظمت جيوشه ، وسلم الله رجاله ، ولم يصب منهم أحد ، لا يمكن أن تنفى شيئاً من الحقائق المؤلمة ، التى تشهد كلها بفداحه النكبة التى نزلت بجيش الناصر على خندق شنت منكش ، والتى يفصل لنا ابن حيان بعض نتائجها وآثارها فيما تقدم .

ونقل إلينا ابن حيان كذلك رواية موجزة عن الموقعة عن عريب بن مسعود جاء فيها : « غزا الناصر لدين الله سنة سبع وعشرين وثلاثمائة بالصوائف إلى مدينة شنت مانكش بلد ألبة ، وبارز الكفرة ، فوقعت حرب عظيمة انهزم المسلمون عنها ، واستمسك الناصر لدين الله فى رجال الحقيقة بعد أن هلك فى [ الموقعة ] عالم من المسلمين ، وقتل منهم كثير ، وأسر كثير ، وكان ممن أسر محمد بن هاشم التجيبى صاحب سرقسطة . وذلك فى شهر رمضان منها » .

وكان القائد الباسل محمد بن هاشم التجيبى ، قد لبث فى أسر راميرو ( رذمير ) ملك ليون ، مدة استطالت أكثر من عامين ، والناصر يسعى إلى افتكاكه ، ويضاعف له الفدية ، حتى أفرج عنه أخيراً ، وحضر إلى قرطبة فى

شهر صفر سنة ٣٣٠ هـ ، بعد عامين وثلاثة أشهر من أسره [١] .

وأما رواية ابن الخطيب ، فهى بالرغم من إيجازها أقرب الروايات الإسلامية إلى الدقة والحقائق التاريخية ؛ فهو يحدد تاريخ الموقعة ، ومكانها بدقة ، ويصفها « بالوقيعة الشهيرة التى ابتلى الله بها عبد الرحمن ومحصه ، والتى أوقعه بها عدو الله رذمير ابن أردون » . فأما تاريخ الموقعة فهو يوم الجمعة ١١ شوال سنة ٣٢٧ هـ ( أول أغسطس سنة ٩٣٩ م ) ، وقد وقعت على باب شانت منكش [٢] ، بعد قتال استمر أياماً ، تراوحت فيه المغالبة بين الفريقين بأشد ما يكون وأصعبه . ثم كانت للعدو الكرة ، فانكشف المسلمون انكشافاً لم يسمع بمثله ، وألجأ العدو المسلمين إلى التراجع إلى خندق عميق ، هو الذى تنسب إليه الموقعة ( فهى تسمى موقعة الخندق ) [٣] . فتساقط فيه المسلمون حتى ساووا بين ضفتيه ، وانكشف الناصر ، واستولى العدو على محلاته ، وما فيها من عدة ومتاع ، وضاع فيها مصحفه ودرعه [٤] .

ولدينا من الرواية النصرانية أولا رواية ألفونسو الحكيم فى تاريخه العام ، وهى رواية موجزة مغرقة معاً ، وخلاصتها أن عبد الرحمن ملك قرطبة وابن يحيى ملك سرقسطة ، قدما فى جيش ضخم إلى أرض الملك راميرو ، ووصلا فى جيشهما حتى بلدة سيت مانكاس . فلما علم بذلك الملك راميرو خرج لقتالهم وقاتلهم حتى هزم المسلمون ، وقتل منهم ثمانون ألفاً ، وكان هذا اليوم يوم القديس يوستى والقديس باستور . ويقول لوقا التوجى إنه كان يوم الإثنين . وأسر ابن يحيى . وهرع المسلمون الآخرون إلى حصن يسمى « الخندق » **Alfondiga** وتركوا كثيراً من قتلاهم فى الميدان . وحاصرهم الملك راميرو فى هذا الحصن ، وفر منه

---

( ١ ) نقلنا رواية ابن حيان عن موقعة الخندق والكتاب الذى صدر عن الناصر عقب وقوعها من السفر الخامس من المقتبس ( مخطوط الخزانة الملكية ) لوحات ١٦٧ إلى ١٧٢ أ . هذا وقد نشرنا نص كتاب الناصر كاملا فى نهاية الكتاب .

( ٢ ) شنت مانكش هى بالإسبانية **Simancas** ( سيمانقة ) . وهى تقع على مقربة من نهر دويرة شرقى مدينة سمورة وجنوب غربى بلد الوليد . وما تزال هذه القلعة قائمة حتى اليوم بصورتها النصرانية المجددة . وهى اليوم مقر دار المحفوظات الإسبانية .

( ٣ ) وتعرف الموقعة بالإسبانية **Alhandega** محرفة عن كلمة « الخندق » .

( ٤ ) أعمال الأعلام ص ٣٦ و ٣٧ .

عبد الرحمن ناجياً بنفسه فى نفر من صحبه ، وعاد الملك راميرو فى جيشه ومعهم غنائم كثيرة من الذهب وللفضة والأحجار النفيسة وأشياء كثيرة أخرى ، وأخذ معه ابن يحيى أسيراً[1] .

بيد أن هنالك روايات نصرانية أخرى أكثر دقة ووضوحاً . وخلاصة هذه الروايات هو أن عبد الرحمن سار بجيشه فى اتجاه سيمانقة الواقعة على مقربة من نهر دويرة شرق مدينة سمورة ، فلقيه راميرو وحليفته طوطة فى قواتهما ، ونشبت بين الفريقين موقعة فى ٥ أغسطس سنة ٩٣٩ م ، فأبدى رؤساء العشائر العربية فى القتال فتوراً وتراجعوا أمام النصارى . ولكن حدث ما لم يتوقعه المسلمون ؛ ذلك أن النصارى طاردوهم وألحوا فى قتالهم ، فارتد المسلمون أمامهم نحو الجنوب الغربى ، حتى محلة صغيرة فى جنوبى مدينة شملنقة تسمى ألانديجا ( الخندق ) ، ثم وقفوا وكروا على النصارى بفتور وتخاذل ، وهجم النصارى عليهم بجرأة وشدة ، فهزم المسلمون هزيمة شديدة ، وأمعن النصارى فيهم قتلا وأسراً . فساد الخلل فى الجيش الإسلامى ، ومزقت منه فرق برمتها ، وقتل قائده نجدة الصقلبى ، وأسر محمد بن هاشم حاكم سرقسطة ومزق جيشه ، وكان يحارب إلى جانب عبد الرحمن فى هذه الغزوة ، وحمل مصفداً إلى ليون . وأثخن عبد الرحمن نفسه جراحاً ، ولم ينج من الموت والأسر إلا بأعجوبة ، فولى شطر قرطبة فى نفر من الفرسان[2] . ولم يحاول راميرو أن يستغل نصره بمطاردة المسلمين . ويقال إن الذى منعه من مطاردتهم هو أمية بن اسحاق إذ حذره من الكمين ورغبه فيما خلفوه من الأسلاب والغنائم الضخمة . ولولا ذلك لفنى الجيش الإسلامى بأسره[3] . وكان لانتصار راميرو وقع عظيم فى أوربا وفى العالم الإسلامى ، بيد أن الموقعة على روعتها لم تكن بعيدة الأثر فى قوة الأندلس ومنعتها ، ولم يدخر عبد الرحمن منذ عوده إلى قرطبة جهداً فى تنظيم الجيش وإصلاحه ، وتطهيره من العوامل الخطرة التى أدت إلى هذه الكارثة . ويحاول ابن الخطيب أن يوضح لنا أسباب هذه الكارثة فى قوله : « وجرت الهزيمة على المسلمين طائفة من جند الناصر

---

(١) Crónica General, ibid, Vol. II. p. 396

(٢) Dozy : Hist.; Vol. II. p. 155—156 وكذلك : Aschbach : Geschichte der Omajaden in Spanien. B. II. p. 50 حيث يورد الروايات النصرانية .

(٣) نفح الطيب ج ١ ص ١٦٥ ، وابن الأثير ج ٨ ص ١١٥ .

لدين الله حسدته ما هيأ الله من الصنع ، ولم تناصحه فى الحرب حق النصح ، فجالت ثانية للأعنة ، واختل مصاف القتال » . ثم يقول لنا إن الناصر ، قرر أن يبطش بأولئك الخونة المتهاونين ، فأمر قبيل وصوله إلى قرطبة ، أن تقام المصالب على ضفة نهرها ، وما كاد يصل إلى قرطبة ، حتى قبض على نحو ثلاثمائه من الفرسان ، فصلبهم وأمر بالنداء عليهم : « هذا جزاء من غش الإسلام ، وكاد أهله ، وأخل بمصاف الجهاد»[1]. بيد أن موقعة الخندق كانت خاتمة أعمال الناصر الحربية فلم يغز من بعدها بنفسه .

وفى ذلك يقول ابن حيان : « إنه قد اشتدت على الناصر نكبته فى غزوته هذه ، فاتهم سعده ، واعتكر بكره ، حتى خاف على نفسه ، فأشير عليه بعكس همه . فالتفت إلى البنيان يعالج به همه وأساه ، فأنشأ مدينة الزهراء ، وأقصر من ذلك الوقت عن الغزو بنفسه ، ووكل إلى حزمة قواده وشجعانهم ، يجردهم بالصوائف كل عام » . ومن جهة أخرى فقد رأى عبد الرحمن أن يتبع نحو أمراء الثغر الأعلى سياسة جديدة . وذلك أنه ، وفقاً لقول ابن حيان قد « اقتصر فى تقليد شئون الثغر الأعلى المانعة للدروب على أكابر ساكنيها ورآثها عن الأجداد والآباء صلابة البأس ، آل تجيب ، وآل ذى النون ، وآل زروال ، وآل غزوان ، وآل الطويل ، وآل رزين ، وأسبابهم المؤمرين قديماً بثغورهم ، الذابين عن حريمهم ، فضم بلادهم بينهم حصصاً ، وجدد لهم ولأعقابهم بعدهم على أقسامهم منها كل عام ، ثم لا يغبنهم بالصلات إذا وفدوا وطلبوا ، وبالهدايا إن بعدوا »، وقد ترتب على ذلك أن كان هؤلاء الزعماء يقومون بدفاع النصارى، وكان الناصر يزودهم كل عام بالعدد والسلاح ، والمستنفرة والمطوعة إلى الثغر تعضيداً لجهودهم[2] .

واستأمن أمية بن إسحاق بعد ذلك عبد الرحمن ، فلم ير بأساً من تأمينه والعفو عنه . وكانت سياسة عبد الرحمن ترمى دائماً إلى اصطناع خصومه الأقوياء بالعفو والإغضاء . وسعى عبد الرحمن حسبما تقدم إلى افتداء محمد بن هشام ، فأفرج عنه النصارى بعد أن لبث فى سجون ليون زهاء ثلاثة أعوام ، وغمره الناصر بعطفه

---

(١) أعمال الأعلام ص ٣٧ .

(٢) ابن حيان فى السفر الخامس لوحة ١٦٨ ب .

فأسبغ عليه لقب الوزارة ، وجعله قائداً للثغر ، وعاد إلى سرقسطة ، وكان يزور قرطبة من آن لآخر ، واستمر والياً لسرقسطة حتى توفى فى سنة ٣٣٨ هـ . فعين الناصر ولده يحيى مكانه فى الولاية والقيادة . وشغل النصارى مدى حين بعد موقعة الخندق بطائفة جديدة من الحروب الأهلية ، واستطاع عبد الرحمن خلال ذلك أن يعنى بإصلاح شئون المملكة وتقويتها .

وجنح راميرو ملك ليون إلى السلم مرة أخرى ، وبعث إلى الناصر يطلب عقد الصلح ، فأجابه الناصر عن كتابه بالقبول ، وبعث إليه سفيراً ليعقد معه شروط السلم . ولكنه كان كالعادة سلماً قصير الأمد .

وعقد الناصر من جهة أخرى السلم مع صاحب برشلونة الإفرنجى شنير بن منفريد ، وبعث إليه كاتبه حسداى بن إسحاق الإسرائيلى ، لينظم معه عقد السلم وفقاً للشروط التى ارتضاها الناصر ، وخلاصتها أن يتخلى شنير عن إمداد جميع النصارى الذين ليسوا فى سلم الناصر ، وأن يلتزم طاعته ، وأن يحل المصاهرة التى بينه وبين غرسية بن شانجه صاحب بنبلونة ( نبرّة ) ، وكان شنير قد زوجه ابنته فألغى زواجها وفقاً لرغبة الناصر . وأصدر الناصر أوامره إلى قادة الأسطول وعمال السواحل بتحامى أعماله ومسالمة أهل بلاده . ودعا حسداى أمراء الثغر الفرنجى إلى طاعة الناصر ، فأجابه منهم ، إلى جانب شنير ، إنجه صاحب جيرنده ، وبعث إلى قرطبة سفارة يطلب تأمين تجار أراضيه الذين يجوبون ربوع الأندلس ، فأجيب إلى طلبه ، وصدرت الأوامر إلى جميع عمال الجزائر الشرقية والمراسى الساحلية ، بتأمين سائر رعايا إنجه على أنفسهم وأموالهم[1] .

ولم يحترم ملك ليون عهد السلم طويلا ، وعادت بعوثه تعيث فى الأراضى الإسلامية . ومن ثم فإن غزوات المسلمين لإسبانيا النصرانية لم تنقطع فى الأعوام التالية . ففى سنة ٣٢٩ هـ ( ٩٤١ م ) غزا المسلمون أراضى ليون وعاثوا فيها ؛ وفى سنة ٣٣٥ هـ ( ٩٤٦ م ) عنى الناصر بتجديد مدينة سالم[2] وهى أقصى مدن الأندلس الشمالية الغربية على حدود ليون ، وحصنها وشحنها بالرجال والعدد ،

( ١ ) المقتبس – السفر الخامس – لوحات ١٧٣ – ١٧٥ .

( ٢ ) هى بالإسبانية **Medinaceli** وترجع تسميتها بذلك الاسم إلى أنها كانت منزل بنى سالم ، وهم بطن من بطون قبيلة مصمودة البربرية ( راجع جمهرة أنساب العرب لابن حزم – القاهرة – ص ٤٦١ ) .

وكانت قد خربت من جراء غزوات العدو المتكررة . وتوالت غزوات المسلمين لأراضى ليون فى الأعوام التالية . وفى أواخر سنة ٣٣٩ هـ ( يناير ٩٥٠ م ) ، توفى راميرو الثانى ملك ليون ، فثارت الحرب الأهلية بين ولديه أردونيو وسانشو ، وانتهز المسلمون هذه الفرصة فعاثوا فى أراضى ليون غير مرة ، وانتهى الأمر بفوز أردونيو وجلوسه على العرش . ورأى أردونيو أن يعقد الصلح مع الناصر ، فأرسل إليه سفيراً يخطب وده ، فاستجاب الناصر إلى دعوته ، وعقد معه معاهدة صلح تعهد فيها أردونيو بأن يصلح بعض القلاع الواقعة على الحدود ، وأن يهدم البعض الآخر ( سنة ٩٥٥ م ) ، ولكن أخاه سانشو رفض هذه المعاهدة وحال دون تنفيذها . فاضطر الناصر إلى استئناف الحرب ، وسير قائده أحمد ابن يَعلى فى جيش إلى ليون ، فهزم النصارى وعقد الصلح بين الفريقين مرة أخرى ، واستقرت بينهما علائق السلم مدى حين .

* * *

ونعود الآن قليلا إلى الوراء لنستعرض بعض الحوادث الداخلية ، ومنها بالأخص ما حدث من محن المحل والمجاعة بالأندلس . فنى سنة ٣١٧هـ ( ٩٢٩ م ) ، وقع المحل بالأندلس واحتبس الغيث ، واضمحلت الزروع ، وعزت الأقوات ، وغلت الأسعار على نحو ما حدث فى سنة ٣٠٣ هـ ، فأمر الناصر خطيب المسجد الجامع بالحضرة ، بالاستسقاء ، فبدأ بذلك فى خطبة الجمعة التالية ، ثم برز بالناس إلى مصلى الربض يوم الإثنين الثامن من شهر صفر ( ٢٣ مارس ) ، فلم يسقط الغيث ، واستمر المحل والقحط ، وجهدت الناس . وخرجت كتب الناصر إلى جميع العمال على الكور بالأمر بالاستسقاء ، وكان الكتاب إلى جميع العمال بنفس النص على النحو الآتى :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد فإن الله عز وجل ، إذا بسط رزقه وأغدق نعمته ، وأجزل بركاته ، أحب أن يشكر عليها ، وإذا رواها وقبضها ، أحب أن يسئلها ، ويضرع إليه فيها ، وهو الرزاق ، ذو القوة المتين ، والتواب الرحيم ، الذى يقبل التوبة من عباده ، ويعفو عن السيئات ، ويعلم ما تفعلون ، وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا ، وينشر رحمته ، وهو الولى الحميد ، فأوجبت به الرغبة ، عز وجهه فيه ، والخشوع لعزته ، والاستكانة له ، والإلحاح فى المسئلة

فيما احتبس به ، والتوبة من الأعمال المنكرة التى توجب سخطه منه ، وتبذل نقمته ، وتستروحه رضاه ، تعالى جده . وقد أمرنا الخطيب فيما قبلنا بالاستسقاء فى المسجد الجامع يوم الجمعة ، والجمعة الثانية التى تليه ، إن أبطأت السقيا ، والبروز يوم الإثنين بعدها لجماعة المسلمين عندنا إلى مصلاتهم ، أو يأتى الله قبل ذلك بغيثه المغنى عنه ، ورحمته المنتظرة منه ، المرجوة عنده ، فرالخطيب بموضعك أن يحتمل على مثل ذلك ، ويأخذ به من قبله من المسلمين ، وليحملهم بذلك المحمل ، ولتكن ضراعتهم إلى الله تعالى ، ضراعة من قد اعترف بذنبه ، ورجا رحمة الله ، والله غفور رحيم ، وهو المستعان لا شريك له إن شاء الله»[١].

وفى سنة ٣٢٤ هـ ، وقع بالأندلس محل جديد لم يعهد فيها بمثله من قبل ، فاحتبس المطر ، وجفت الزروع . ومع ذلك فلم يترك هذا المحل وراءه كثيراً من الآثار المخربة ، ويقول لنا ابن حيان ، إن البركات والخيرات استمرت ذائعة بين الناس فى سائر الجهات . وبذل الناصر لمعونة الناس ما جبر النقص فى المحل . وانهمل الغيث فى العام التالى ، وقد نظم الشاعر عبد الله بن يحيى بن إدريس فى ذلك قصيدة فى مديح الناصر هذا مطلعها :

نعم الشفيع إلى الرحمن فى المطر      مستنزل الغيث بالأعذار والنذر[٢]

وعاد المحل والقحط يعصف بالأندلس فى سنة ٣٢٩ هـ ( ٩٤١ م ) ، وتوقف المطر ، وعم الجفاف ، وشرع قاضى الجماعة ، وصاحب الصلاة محمد بن أبى عبد الله بن عيسى فى إقامة صلاة الاستسقاء فى يوم الجمعة الثانى من ربيع الآخر. ولكن المحل تمادى ، وبرز الناس إلى مصلى الربض مراراً وتكراراً . وفى الثانى عشر من جمادى الأولى ( أول فبراير ) ، بدا نوء غليظ وسحاب كثيف ونزل الثلج طوال اليوم وغطى الأرض ، ثم نزل المطر والثلج ، وانقطع دون أن يروى الأرض . فعاد القاضى إلى الاستسقاء حتى استجاب الله لعباده بعد أيام قلائل ، وبدأ الناس فى الزرع ، وتوالى نزول الغيث ، واستسقى الناس سقيا وافياً ، ورويت الأراضى والمزارع ، وهبطت الأسعار وعاد الرخاء[٣] .

---

( ١ ) ابن حيان فى السفر الخامس — لوحة ١٠٢ أ و ب .

( ٢ ) ابن حيان — السفر الخامس — لوحة ١٥٠ أ .

( ٣ ) ابن حيان السفر الخامس — لوحة ١٨١ .

هذا ، ومما ذكره لنا ابن حيان من الحوادث الداخلية فى سنة ٣٢٤ هـ ( ٩٣٦ م ) ، وقوع الحريق العظيم بمدينة قرطبة . ففى أوائل شهر شعبان من هذه السنة ، شبت النار بسوق قرطبة ، فأحرقت جميع مجالس الحصاد ، واتصل الحريق بحى الصرافين ، وما جاور مسجد أبى هرون ، فاحترق وتداعى المسجد . ثم اتصلت النار بسوق العطارين ، وما جاوره من الأسواق والأحياء ، واتسع نطاقها بصورة مرعبة . وكان حريقاً شنيعاً مروع الآثار . وقد أمر الناصر بعد انتهائه ، وانجلاء آثاره ، أن يعاد بناء مسجد أبى هرون ، فأعيد على أحسن حال . وأمر الناصر كذلك بإعادة بناء ما تهدم من الدور والصروح العامة(١).

— ٣ —

لم ينس عبد الرحمن خلال توفره على محاربة الثوار والنصارى داخل شبه الجزيرة ، أن يعنى بمقاومة الدعوة الفاطمية التى اجتاحت شمالى إفريقية ، وامتدت بسرعة إلى عُدوة المغرب وإلى سبتة ، وأخذت تهدد شواطىء الأندلس . وكانت الدعوة الفاطمية تنطوى بالنسبة للأندلس على خطر مزدوج دينى وسياسى معاً . وكانت فى قوتها وعنفوانها تهدد طرفى إفريقية أعنى مصر والمغرب . فمنذ عبيد الله المهدى أول الخلفاء الفاطميين ، تتردد جيوش الخلافة الفتية من قواعدها فى تونس نحو مصر والمغرب ، غازية . وكان اجتياحها السريع للمغرب يثير بحق جزع حكومة قرطبة ؛ ولا غرو فقد كانت عدوة المغرب تعتبر دائماً ، قاعدة لغزو الأندلس وخط دفاعها الأول . وكان ثوار الأندلس يتجهون بأبصارهم إلى العدوة ، ويفاوضون الفاطميين ، ويأتمرون معهم على حكومة الأندلس ، فكان على عبد الرحمن أن يغالب هذا الخطر الجديد قبل استفحاله . ففى سنة ٣١٩ هـ ( ٩٣١ م ) سير عبد الرحمن إلى ثغر سبتة أسطولا قوياً يتكون من مائة وعشرين سفينة ، ما بين حربية وناقلة ، وسبعة آلاف رجل منهم خمسة آلاف من البحارة وألف من الحشم ، وانضم إليه عدة من وجوه ألمرية وبجانة تطوعا فى مراكبهم ، وكان تحت قيادة أميرى البحر أحمد بن محمد بن إلياس وسعيد بن يونس بن سعديل . فخرج هذا الأسطول من الجزيرة آخر جمادى الأولى من هذه السنة ، واستولى على سبتة من يد ولاتها البربر بنى عصام حلفاء الفاطميين ، وطلب الناصر إلى صاحب طنجة

(١) ابن حيان السفر الخامس — لوحة ١٥٠ أ .

أبى العيش الحسنى أن ينزل له عنها لتكمل له بذلك السيطرة على رأس العدوة ، فأبى ، فحاصره الأسطول وضيق عليه حتى أذعن ، وأجاب الناصر إلى ما طلب ، وانتقل مع إخوته وبنى عمه من الأدارسة إلى مدينة البصرة وثغر أصيلا تحت طاعة الناصر[1] .

وبادر زعماء البربر من الأدارسة وزناتة إلى طاعة الناصر ومهادنته ، وامتدت دعوته إلى فاس . وبعث إليه موسى بن أبى العافية أمير مكناسة يطلب محالفته والدخول فى طاعته ، فأجابه عبد الرحمن إلى رغبته ، وأمده بالأمول والهدايا ، وقوى أمره فى المغرب . وفى سنة ٣٢١ هـ ( ٩٣٣ م ) استطاع موسى أن يهزم جيشاً أرسله عبيد الله الفاطمى لغزو المغرب ، والقضاء على دعوة الناصر ، بقيادة قائده ابن يصل عامل تاهرت . ثم توفى عبيد الله فى العام التالى . وفى سنة ٣٢٣ هـ سير ولده الخليفة القائم إلى المغرب حملة أخرى ، بقيادة ميسور الصقلبى ، فضيق على موسى وطارده حتى الصحراء ، واستولى الأدارسة حلفاء الفاطميين على مملكته .

وبعث الناصر لإنجاده إلى شواطىء العدوة أسطولا قوامه أربعون سفينة بقيادة أمير البحر عبد الملك بن أبى حمامة ، سار إلى سبتة ، ثم تقدم إلى مليلة فافتتحها ، ثم افتتح نكور وجراوة ، فقويت نفس موسى ، واستقل نوعاً من عثرته ، وانسحب الفاطميون إلى الداخل ، وقضى الأسطول فى غزواته هذه ستة أشهر ، ثم عاد إلى قواعده فى ألمرية .

وجازت جيوش عبد الرحمن وأساطيله بعد ذلك مراراً إلى المغرب ، لمحاربة الفاطميين وحلفائهم من الأدارسة وغيرهم من أمراء البربر ، واضطر الأدارسة فى النهاية إلى طلب الصلح من عبد الرحمن والاعتراف بطاعته ( ٣٣٢ هـ ) ، ودعى لعبد الرحمن على منابر المغرب ، واستقرت دعوته هنالك مدى حين ، ولكن سلطانه فيما وراء البحر لم يكن ثابت الدعائم ، وكان رهيناً بقيام دولة الأمراء المحالفين له .

ولما تولى المعز لدين الله رابع الخلفاء الفاطميين الملك ، وبدت الدولة الفاطمية فى أوج قوتها فى إفريقية ، وأخذت أساطيلها القوية تزعج الدولة البيزنطية ، بغزو

---

( ١ ) ابن حيان — السفر الخامس — لوحة ١٢٥ أ و ب ، والاستقصاء ج ١ ص ٨٥ .

شواطىء قلورية(١) فى جنوبى إيطاليا ، كان خطر غزو الفاطميين للأندلس يلوح قوياً فى الأفق . والظاهر أن هذه الفكرة لم تكن بعيدة عن ذهن المعز ، بل يبدو فوق ذلك أن حكومة قرطبة وقفت على بعض وثائق تؤيد هذه النية. وفى سنة ٣٤٤هـ (٩٥٥ م) سارت بعض السفن الفاطمية وهاجمت ثغر ألمرية ، وأحرقت ما فيه من السفن ، وعاثت فى ألمرية . فرد عبد الرحمن بأن أرسل قوة بحرية بقيادة أمير البحر غالب ، إلى شواطىء إفريقية (تونس) ، فعاثت فيها ، وأمر عبد الرحمن فى الوقت نفسه بلعن الشيعة والفاطميين على منابر الأندلس . ثم عاد بعد ذلك بثلاثة أعوام ، فسير أسطوله ثانية إلى إفريقية بقيادة أحمد بن يعلى ، تهديداً للقوات الفاطمية ، التى زحفت بقيادة جوهر الصقلى حذاء الشاطىء إلى عدوة المغرب ، وكان المعز قد سير قائده جوهراً فى سنة ٣٤٧ هـ ، فى جيش عظيم إلى المغرب الأقصى ، ومعه زعيم صنهاجة زيرى بن مناد فى قواته ، فاجتاح شمالى المغرب كله حتى المحيط ، ونازل فاس واقتحمها عنوة . وكان الناصر يرقب تقدم الفاطميين على هذا النحو فى أراضى العدوة بجزع ، ويجعل أساطيله على أهبة دائمة . وعبرت فى نفس الوقت حملة أندلسية أخرى من طريق سبتة إلى المغرب ، ولبثت هنالك حتى ارتد الفاطميون أدارجهم (٢) .

ويقدم إلينا ابن حيان بقلمه البليغ تلك الصورة عن تقدير الناصر لأهمية عدوة المغرب فى الدفاع عن الأندلس ، ومقاومة الدعوة الفاطمية :

« لم تزل نفس الخليفة الناصر لدين الله ، منذ استولى على أمر الملك ، واعين النصر ، وسلط على أهل الخلاف ، دروباً على ما سخر له من ذلك ، ظموءاً إلى درك اقصاره ، متخطياً موسطته إلى نهايته ، معملا فيه روئيته ، موقظاً له فكرته ، تأمل هذا الفرج فى ساحل البحر الرومى . . . مجاورة جبل البرابر الحالّين بلاد المغرب لملكتهم لعدوتهم الراكبة لعدوة بلد الأندلس ، تكاد عدوتهما تتراءى لضيق بحر الزقاق الحاجز بينهما ، وسهولة مرامه أى أوقات الزمان روى

---

(١) وهى بالإفرنجية **Calabria** .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٨ و ١٤١ ؛ وابن الأثير ج ٨ ص ١١٩ ؛ ونفح الطيب ج ١ ص ١٦٩ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٢١٩ و ٢٢٠ و ٢٢٥ و ٢٣٧ ، ٢٣٨ ؛ وراجع **Dozy: Hist., Vol. II.p. 164 & 165**

ركوبه . فمنه طرقت الأندلس فى الزمان الخالية ، واكتسب أهلها المخافة ، فدعته همته العلية ، وفكرته المصيبة ، إلى التوقل إلى تلك الباغية المرهوبة ، والسمو لتلك العورة المكشوفة ، وذلك عند ما كشف عند يكنف ذلك الساحل الغربى من طنجة الفتنة ، وضع ما كان أوهته من صدع الفرقة ، وملك مفتاح الجزيرة الخضراء فرضة الأندلس الدنيا ، الراكبة فتح ذلك البحر المرهوب ، المحاضية لضرتها مدينة سبتة فرضة المجاز من بلد العدوة . فأذكى نظر عينه ما كان منبثاً بخاطره من الرهبة ، فأرهف العزم ، وألطف الحيلة ، وابتدئ ففتح ذلك بمخاضة من تقدمت له بأسلافه ملوك بنى أمية من أمراء تلك البلاد وصلة أو سلفت بينهم أصرة ، يستثير وصايلهم ، ويصل أحبلهم ، ويستدعى ولايتهم ، ويسبب ذلك ما شاء مهاداتهم ، واكرام أسبابهم ، وقضاء حوائجهم ، فلم يلبث أن هويت إليه أفئدة كثير منهم ، وزعمايهم بين مصحح فى ولايته ، مستجيب لدعوته ، مغتنم لعطيته . مستعين بقوته على مدافعة من قد هد ركنه من بنى عبيد الله إمام الشيعة المقتحم أرضه عليه ودونه ، وبين منافق مقيم لسوقه بينه وبين تلك الشيعة ، منذ بدت بينها العداوة ، مايل مع الدولة ، مجتلب لعاجل ما استمسك به من الرشوة .

« استوى للناصر لدين الله من الطائفتين أولياء قاموا بدعوته ، ورفعوا فوق أعلامه ، وعاطوا مضطهدا ، عبيد الله الشيعى صاحب إفريقية بدعوته ، وقلبوا مجانهم إليه ،ونصبوا الحرب لرجاله، فكفكفوهم عن الإيغال فى بلدتهم من قاصية المغرب ، يهطنونهم بالكيد والمكر ، فتمكنت بذلك قدم الناصر لدين الله ، فيما حازه من مدينة سبتة والقطعة التى استضمها إليها من أرض العدوة ، واجتذب من أجله كثيراً من فرسان البربر وحماة رجالهم إلى حضرته ، استعان بهم فى حروبه ، وتمكن من ذلك من ارتياد عتاق الخيل بوادى البربر ، واستنتاجهم الفاضل لبراذين الأندلس ، فمتنت بذلك أسباب ملكه ، وجل مقداره ، وبعد صيته ، وهابته ملوك الأمم حوله ، وظهرت نتيجة ما عاناه من مواصلة أمراء البربر ، وسعى لهم سعيه لصدر دولته الفاضلة ، سنة سبع عشرة وثلث مايه وما يليها ، إذ ترددت فيها عليه كتب محمد بن خزر عظيم أمراء زنانة فى وقته ، وأنفرهم عن عبيد الله الشيعى ، وأدناهم من داره ، وأول من تناوله الناصر

لمدين الله من جماعتهم بمكاتبته ، واجتذبه بوصلته »[1] .

— ٤ —

هذا وربما كان قيام الخلافة الفاطمية فى الضفة الأخرى من البحر ، وانسياب دعوتها إلى المغرب الأقصى ، على مقربة من شواطىء الأندلس ، فى مقدمة البواعث التى حدت بعبد الرحمن إلى العمل على إحياء تراث الخلافة الأموية الروحى ، بعد أن توطدت دعائم دولتها السياسية بالأندلس ، وكان مؤسسها عبدالرحمن الداخل قد أمر بمنع الدعاء لبنى العباس ، ولكنه لم يتخذ سمة الخلافة واكتفى بلقب الإمارة . وسار بنوه على أثره . وبالرغم من أن الدولة الأموية قد استطاعت غير مرة ، أن تستعيد مجدها السالف ، فى عهد الحكم بن هشام وولده عبدالرحمن الأوسط ، فإن أمراء بنى أمية لم يفكروا فى الإقدام على منافسة بنى العباس فى ألقاب الخلافة . وقيل فى تعليل ذلك إنهم كانوا يرون الخلافة تراثاً لآل البيت ، ويدركون قصورهم عن ذلك « بالقصور عن ملك الحجاز أصل العرب والملة ، والبعد عن دار الخلافة التى هى مركز العصبية » وأنهم بعبارة أخرى كانوا يرون أن الخلافة تكون لمن يملك الحرمين[2]. بيد أننا نعتقد أن هذا الإحجام يرجع بالأخص إلى بواعث الحكمة والسياسة ، والتحوط من إثارة الفتنة والخلافات الدينية والمذهبية . فلما ظهرت الدعوة الفاطمية فى إفريقية ، ونمت بسرعة فى أوائل القرن الرابع الهجرى ، ولما تواترت الأنباء من جهة أخرى ، عما انتهت إليه الدولة العباسية فى المشرق من الإضطراب والفوضى ، وما حدث من استبداد موالى الترك بالأمر وحجرهم على الخلفاء ، رأى عبد الرحمن أن يتسم بسمة الخلافة ، وأن يسترد بذلك تراث أسرته الروحى ، وأنه بما وفق إليه من النهوض بالدولة الإسلامية وتوطيد أركانها ، أحق بألقاب الخلافة من دولة منحلة وأخرى طارئة . ونفذ الأمر بذلك فى يوم الجمعة مستهل ذى الحجة سنة ٣١٦ هـ ، حيث قام صاحب الصلاة القاضى أحمد بن أحمد بن بقى بن مخلد بالدعاء له بالخلافة ، على منبر المسجد الجامع بقرطبة[3]. وإليك نص الوثيقة الرسمية التى صدرت بذلك وهو :

(١) ابن حيان فى المقتبس — السفر الخامس لوحة ١٠٣ ب و ١٠٤ ا

(٢) ابن خلدون ج ١ (المقدمة) ص ١٩٠ ؛ والمسعودى فى مروج الذهب (بولاق) ج ١ ص ٧٨ ؛ وابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٩٩ .

(٣) ابن حيان فى المقتبس — السفر الخامس — لوحة ٩٩ أ .

« بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على نبيه محمد الكريم . أما بعد فإنا أحق من استوفى حقه ، وأجدر من استكمل حظه ، ولبس من كرامة الله تعالى ما ألبسه ، فنحن للذى فضلنا الله به ، وأظهر أثرتنا فيه ، ورفع سلطاننا إليه ، ويسر على أيدينا دركه ، وسهل بدولتنا مرامه ، وللذى أشاد فى الآفاق من ذكرنا ، وأعلى فى البلاد من أمرنا ، وأعلن من رجاء العالمين بنا ، وأعاد من انحرافهم إلينا ، واستبشارهم بما أظلهم من دولتنا إنشاء الله ، فالحمد لله ولى الإنعام بما أنعم به ، وأهل الفضل بما تفضل علينا فيه . وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمير المؤمنين ، وخروج الكتب عنا وورودها علينا بذلك — إذ كل مدعو بهذا الإسم غيرنا ، منتحل له ، ودخيل فيه ، ومتسم بما لا يستحقه منه ، وعلمنا التمادى على ترك الواجب لنا من ذلك حق أضعناه ، واسم ثابت أسقطناه ، فمر الخطيب بموضعك ، أن يقول به ، وأجر مخاطبتك لنا عليه إن شاء الله . والله المستعان . وكتب يوم الخميس لليلتين خلتا من ذى الحجة سنة ٣١٦ »[١] .

وهكذا اتخذ عبد الرحمن سمة الخلافة عن يقين بأفضليته ، وأولوية حقه وحق أسرته ، وتسمى بأمير المؤمنين الناصر لدين الله ، وذلك فى الثانى من شهر ذى الحجة سنة ٣١٦ هـ ( يناير سنة ٩٢٩ م ) فكان أول أمير من بنى أمية بالأندلس ينعت بأمير المؤمنين . وبدأت الدعوة من ذلك الحين لبنى أمية بألقاب الخلافة فى الأندلس والمغرب الأقصى ، ونقشت ألقاب الخلافة على السكة . ويضع بعض المؤرخين اتخاذ لقب الناصر لسمة الخلافة فى سنة ( ٣٢٧ هـ ) أى بعد وقوعه بنحو عشرة أعوام ، وهو تحريف واضح تنقضه وثيقة الدعوة الرسمية[٢] .

— ٥ —

وكان من أبرز الحوادث الداخلية فى عصر الناصر ، حركة الفيلسوف المتصوف ابن مَسَرَّة الجبلى ، واهتمام الناصر بمقاومتها وقمعها ، وذلك حتى بعد أن توفى زعيمها بأعوام طويلة ، وإصدار كتابه الشهير فى شأنها .

---

( ١ ) يضع ابن حيان اتخاذ الناصر لسمة الخلافة فى حوادث سنة ٣١٦ هـ والدعاء له بها ، حسبما تقدم فى مستهل ذى الحجة من هذه ، السنة ويلخص فى كلامه نص الوثيقة ( السفر الخامس — لوحة ٩٩ أ ) . وقد اعتمدنا فى نقل الوثيقة الخلافية على ما ورد فى الأوراق المخطوطة الخاصة بعهد الناصر ، ص ٧٨ و ٧٩ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢١٢ .

( ٢ ) هذه رواية ابن الأثير ( ج ٨ ص ١٧٨ ) وكذلك ابن خلدون ( ج ٤ ص ١٣٧ ) . والظاهر أن أصحاب هذه الرواية لم يطلعوا على وثيقة الدعوة التى أثبتنا نصها .

وهو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مَسَرَّة من أهل قرطبة ، وبها ولد سنة ٢٦٩ هـ (٨٨٢ م) ، ودرس على أبيه وعلى ابن وضاح والخشنى وغيرهم ، ولكنه جاهر ببعض الآراء الدينية المغرقة فى التأويل والقدر وإنفاذ الوعيد وغيرها ، فاتهم بالزندقة ، فغادر الأندلس فاراً إلى المشرق ، وأنفق هنالك بضعة أعوام ، وتفقه على يد المعتزلة والكلاميين وأهل الجدل . ثم عاد إلى الأندلس ، وهو يخفى آراءه ونحلته الحقيقية تحت ستار من النسك والورع ، وكان ذلك فى بداية عهد الناصر ، فاختلف إليه الطلاب من كل صوب ، وكان يستهويهم بغزير علمه ، وسحر بيانه ، ومنطقه الخلاب ، حتى التف حوله جمهرة كبيرة من الصحب والأتباع ، أضحت تكون مدرسة خاصة من الآراء الدينية والكلامية المتطرفة . واختلف الناس فى أمر ابن مسرة ، فمنهم من كان يرتفع به إلى مرتبة الإمامة فى العلم والزهد والورع ، ومنهم من كان يرميه بالزندقة وترويج البدع ، والانحراف عن مبادىء الدين الصحيحة . وتوفى ابن مسرة بقرطبة فى شوال سنة ٣١٩ هـ ( ٩٣١ م)[1] . ولكن آراءه وتعاليمه بقيت من بعده ذائعة بين تلاميذه وأتباعه ، وتكونت من حولها فرقة سرية ، اتهمت بالمروق والإلحاد ، تتابع دعايته ، وتعمل على بث تعاليمه ، حتى برم بهم المتزمتون من أهل السنة ، وأخذوا يسعون لدى السلطات المختصة ، لتعمل على قمع هذه الجماعة ، والقضاء على تعاليمها .

وإليك كيف يصور لنا ابن حيان بقلمه البارع خطة ابن مسرة فى بث تعاليمه ، واستهواء أتباعه . قال :

« كان مذهب الظنين ، المرتب المرائى بالعبادة ، المنطوى على دخل السريرة ، محمد بن عبد الله بن مسرة ، الرابض للفتنة ، دب فى الناس صدر دولة الخليفة الناصر لدين الله ، واستهواهم بفضل ما أظهره من الزهد ، وأبدى من الورع .

« وكان يستهوى العقول ، ويصور الأفئدة . وكان من شأنه أن يلقى أول من يأتيه ، مقتبساً من أهل السلامة ، بالمساهلة ، إلى أن يحيله عن رأيه بالمفاضلة ، فإذا أصغى إلى عذوبة منطقه ، وعلق فى شرك حجاجه ، غره رفقاً بباطله من

---

(١) ابن الفرضى فى « تاريخ العلماء والرواة بالأندلس » (القاهرة) ج ٢ رقم ١٢٠٤ . وكذلك الحميدى فى « جذوة المقتبس » (القاهرة) ص٥٨و٥٩ . والتكملة لابن الأبار ( القاهرة) رقم٧٦٥و٩٩١ .

الطاير فرخه ، فلا يبعد أن يلفته عن رأيه ، ويشككه فى اعتقاده . . . ويحصله فى اتباعه ، فاستهوى خلقاً من الناس ، صدّهم عن سبيل الله ، وأوحشهم من الجماعة ، واتخذ من رأى غيهم فى مذهبه وايمة دخل فى عرضهم رجال من ذوى الفهم . ولم يزل يستظهر عليهم بالمواثيق فى الكتمان إلا من الثقات الوثاق العقدة ، فاكتتم بذلك شأنه ، إلى أن عاقصته منيته ، صدر دولة الناصر لدين الله ، أيام شغله بحروب أهل الخلاف المتصلة . فرفع الله بموته عن الناس فتنة ، ولم يلبث دعاته مع انتشارهم فى البلاد أن تلبسوا بعده بما أودعه من مكنون علمه ، فكثر القول فى شأنه ، وشيم أهل الخلاف من تلقايه ، فذعر له أهل السنة من أهل قرطبة ، وتوقعوا منه البلية ، ففزع فقهاؤهم وكبراؤهم بها إلى أصحاب الخليفة الناصر لدين الله فنبهوا ... »(١) .

ومضت أعوام طويلة ، قبل أن تصل أصوات أهل السنة المعارضين لتعاليم ابن مسرة إلى المسئولين ، ولم يصدر قرار السلطة العليا فى شأنه وشأن تعاليمه ، إلا بعد أن مضى أكثر من عشرين عاماً على وفاته ، مما يدل على أن دعوته وتعاليمه لبثت حية ذائعة . قال ابن حيان :

« وفى يوم الجمعة لتسع خلون من ذى الحجة سنة أربعين وثلاث مائة ، قرئ على الناس بالمسجدين الجامعين بالحضرتين ، قرطبة والزهراء ، كتاب أمير المؤمنين الناصر لدين الله إلى الوزير صاحب المدينة عبد الله بن بدر ، بإنكاره لما ابتدعه المبتدعون ، وشذ فيه الخارجون ، من رأى الجماعة المنتمون إلى صحبة محمد بن عبد الله بن مسرة ، وانتحلوه فى الديانة ، فافتتن العوام بما أظهره من التقشف والشظف فى المعيشة ، واستتروا لبدعهم بسكنى الأطراف البعيدة ، حتى استمالوا بفعلتهم عصابة . . . وفرقة ، فتنت بمذاهبهم ، وأن ذلك بلغ أمير المؤمنين ، ففحص عليه ، وعلم صحته ، فتعاظمه ، واستوحش من اجتراء تلك الطايفة الخبيثة عليه ، فأوعز إلى وزيره ومتولى أحكامه ومدينته ، تتبع هذه الطائفة ، وإخافتها والبسط عليها ، والقبض على من عثر عليه منها ، وإنهاء خبره إلى أمير المؤمنين » .

وأورد لنا ابن حيان بعد ذلك ، نص الكتاب الذى صدر باسم الخليفة

(١) مخطوط ابن حيان ( السفر الخامس من المقتبس ) المحفوظ بالخزانة الملكية . وقد حالت خروم المخطوط دون ظهور بعض الكلمات .

الناصر لدين الله ، فى الحملة على تلك الطائفة ، والتبرؤ منها ، وهو من إنشاء كاتبه ووزيره عبد الرحمن بن عبد الله الزجالى .

ويبدأ الكتاب بالتنويه بشأن الإسلام ، وأفضليته على سائر الأديان ، وبرسالة محمد خاتم النبيين ، الذى اصطفاه الله ، وأرسله إلى الناس ، وكرم به أمته على سائر الأمم ، وما نبه به الإسلام من إقامة الدين ، وعدم افتراق الكلمة . وانه لما شملت النعمة ، وعم الأقطار بعدل أمير المؤمنين السكون والدعة ، طلعت فرقة لا تبتغى خيراً ، ولا تأتمر رشداً ، من طغام السواد ، « وأبدت كتباً لم يعرفوها ، ضلت فيها حلومهم ، وقصرت عنها عقولهم » واستولى عليهم الشيطان بخيله ورجله ، فقالوا بخلق القرآن ، واستيئسوا ، وآيسوا من روح الله ، وأكثروا الجدل فى آيات الله ، وحرموا التأويل فى حديث رسول الله ، فبريت منهم الذمة ، ووعدهم الله ببالغ نكاله ، لما انطوت عليه قلوبهم من الزيغ ، ولما كذبوا من التوبة ، وأبطلوا من الشفاعة ، ونالوا محكم التنزيل ، والقدح فى الحديث ، والقول بمكروه فى السلف الصالح ، فشذوا عن مذهب الجماعة ، حتى تركوا رد السلام على المسلمين ، وهى التحية التى نسخت تحية الجاهلين ، وقالوا بالاعتزال عن العامة . ولما فشى غيهم ، وشاع جهلهم ، واتصل بأمير المؤمنين ، من قدحهم فى الديانة ، وخروجهم عن الجادة ، أغلظ فى الأخذ فوق أيديهم ، وأنذرهم إنذاراً فظيعاً ، واعتزم أن يوقع بهم العقاب الشديد ، وأمر بقراءة كتابه هذا على المنبر الأعظم بحضرة قرطبة ، ليفزع قلب الجاهل ، ويضطر الغواة إلى الآثار الصحيحة التى يتقبلها الله منهم ، وأن يقرأ هذا الكتاب فى سائر الأقطار والكور ، وفى البدو والحضر ، وأن ينفذ عهده بذلك إلى سائر قواده ، وجميع عماله . لكى يقوموا بمطاردة هذه « الطغمة الخبيثة ، التى اجترأت على تبديل السنة ، والاعتداء على القرآن العظيم ، وأحاديث الرسول الأمين » . ويختم الكتاب بمطالبة العمال ببث العيون ، وتتبع أولئك المارقين ، وإخطار أمير المؤمنين بأسمائهم ومواضعهم ، وأسماء الشهود عليهم ، حتى يحملوا إلى باب سدته ، وينكلوا بحضرته[1] .

---

(١) ورد نص هذا الكتاب فى اللوحات ١٧ و ١٨ و ١٩ من مخطوط المقتبس السالف الذكر . وسوف ننشر نص الكتاب كاملا فى نهاية الكتاب .

قال ابن حيان : « وتمادى الطلب لهذه الفرقة المسرية ، والإخافة لهم ، وتخويف الناس من فتنتهم بقية أيام الناصر لدين الله » .

وهنا ولأول مرة نجد شرحاً وافياً ، بقلم ابن حيان القوى الناقد ، لتلك الحركة الدينية الخطيرة ، حركة ابن مسرة وتلاميذه ، وهى التى استحالت أيام الناصر لدين الله إلى جمعية سرية واسعة الانتشار . فهل كانت حقاً ، كما يصورها ابن حيان ، وكما تصورها لنا الوثيقة الخلافية ، التى ينقلها إلينا ، جمعية مارقة ملحدة ، تهدد العقائد والنظام والأمن ؟ أم هل كانت حركة تفكير فلسفى حر ، لم يتسع لها أفق التفكير المعاصر ، وكانت كمعظم الحركات المماثلة ضحية لنقمة المتزمتين الرجعيين من الفقهاء والحكام ، يدافعون بسحقها عن نفوذهم وسلطانهم المطلق ؟ .

# الفصل الثانى

## خلال الناصر ومآثره

عصر الناصر أعظم عصور الإسلام بالأندلس . منشآت الناصر . مشروع بناء الزهراء . البدء فى إنشائها . قصر الزهراء وفخامته وروعته . منشآت الزهراء الأخرى . بعض أوصاف وأرقام عن الزهراء . نهاية الزهراء كقاعدة ملوكية . تخريبها أيام الثورة . بعض ما قيل فى رثائها . أطلال الزهراء واختفاؤها . جهود العلماء الإسبان للكشف عن مواقعها . وصف لما ظهر من آثارها ومعالمها . منشآت الناصر بالمسجد الجامع . تنظيم الناصر للجيش والأسطول . الأحوال المالية فى عهد الناصر . غنى الدولة الأموية وبذخها . إنشاء دار السكة بقرطبة . قرطبة وعظمتها . اصطفاء الدولة الأموية للموالى والصقالبة . حرص الناصر على السلطان المطلق . الصقالبة ونفوذهم . أثر هذا الاصطفاء . قرطبة مركز الجاذبية الدبلوماسية . تقدم الصلات الدبلوماسية بين الإسلام والنصرانية . سفارة قيصر قسطنطينية إلى الناصر . حفل استقبال السفراء وروعته . هدايا قيصر إلى الناصر . خطاب القاضى منذر بن سعيد . سفارات ملوك النصرانية . سفارة إمبراطور ألمانيا . سفارة الناصر إلى الإمبراطور . موضوع المفاوضات بين العاهلين . رأى الناصر فى نظام الحكم . سفارات نصرانية أخرى إلى الناصر . مرض الناصر ووفاته . خلاله وصفاته . حجابه. ووزراؤه وقواده . الوزراء وأصحاب الخطط . تنويه الشعر بعظمة عصره . صفة الناصر . أبناؤه . إشادة النقد الحديث بمناقبه .

ننتقل الآن إلى ناحية أخرى من نواحى عصر الناصر .

كان عصر عبد الرحمن الناصر بالرغم مما شغله من فتن وحروب مستمرة ، عصر عظمة ورخاء ومجد ، بل كان فى الواقع أعظم عصور الإسلام بالأندلس ، ولاسيما من نواحيه المعنوية والحضارية . وإذا كانت الأندلس قد بلغت فيما بعد فى عصر المنصور بن أبى عامر ، ذروة تفوقها السياسى والحربى فى شبه الجزيرة الإسبانية ، فإن الدولة الأموية بالأندلس بلغت فى عهد الناصر ذروة القوة والبهاء ؛ وكان هذا العهد حد الفصل بين مراحل تقدمها وازدهارها ، ومراحل انحلالها وسقوطها .

ولم تحل مهام الحرب والسياسة دون قيام الناصر بأعمال الإنشاء العظيمة ، وكان فى مقدمتها إنشاء مدينة الزهراء أعظم قواعد الأندلس الملوكية . وكانت قرطبة عاصمة الأندلس قد بلغت يومئذ أوج العظمة والازدهار ، وأضحت تفوق بغداد منافستها فى المشرق بهاء وفخامه . وكان الناصر قد ابتنى إلى جانب القصر الزاهر

وهو مقام الملك ، قصراً جديداً سماه دار الروضة ، جلب إليه الماء من فوق الجبل ، واستدعى المهندسين والبنائين من كل فج ، وأنشأ فى ظاهر قرطبة متنزهات عظيمة ساق إليها الماء من أعلى الجبل فوق قناطر بديعة . ومع ذلك فقد كانت قرطبة بمعاهدها ودورها وطرقها الزاخرة ، وسكانها الخمسمائة ألف ، تضيق بما يتطلبه ملك عظيم كملك الناصر ، من استكمال الفخامة الملوكية ، والقصور والميادين والرياض الشاسعة ، بل كانت تضيق بهذه المرافق الملوكية منذ عهد عبد الرحمن الداخل ، حيث أنشأ الرصافة فى ظاهرها لتكون له منزلا ومتنزها ملوكياً. وقد كان بناء القواعد الملوكية دائماً سنة العروش القوية الممتازة . فلما بلغ الناصر لدين الله ما أراد من توطيد ملكه ، وسحق أعدائه فى الداخل والخارج ، عنى بأن يعرض آيات من ملكه الباذخ ، وثاب له رأى فى أن يقيم بجوار قرطبة ضاحية ملوكية عظيمة ، فأنشأ مدينة الزهراء . ولإنشاء الزهراء قصة ، وربما كانت أسطورة على مثل الأساطير التى ترتبط بقيام المدن والمنشآت العظيمة . ولم تقل لنا الرواية إن الناصر رأى حلماً كالذى رآه قسطنطين ، وأوحى إليه بإنشاء قسطنطينية ، ولكنها تقول لنا إن الذى أوحى إلى الناصر ببناء هذه الضاحية الملوكية هى جاريته وحظيته «الزهراء» وأنه ورث من إحدى جواريه مالا كثيراً ، فأمر أن يخصص لافتداء الأسرى المسلمين ، ولكنه لم نجد من الأسرى من يفتدى ، فأوحت إليه «الزهراء» بأن ينشئ بهذا المال ، مدينة تسمى باسمها وتخصص لسكناها[1] . بيد إنا نفضل أن نرجع مشروع الناصر إلى بواعث الملك والسياسة ، وإلى عرض فخامة الملك ، والترفع بمظاهره وخصائصه ، عن المظاهر العامة ، لعاصمة مكتظة زاخرة .

والظاهر أيضاً أن شغفا خاصاً بالعمارة والبناء ، كان يحفز الناصر ويذكى رغبته فى إقامة هذه الضاحية الملوكية ، وقد كانت المنشآت والهياكل العظيمة على كر العصور مظهر الملك الباذخ ، والسلطان المؤثل ، وقد نسبت إلى الناصر فى ذلك أبيات قالها فى هذا المعنى :

همم الملوك إذا أرادوا ذكرها ... من بعدهم فبألسن البنيان
أو ما ترى الهرمين قد بقيا وكم ... مُلْك محاه حوادث الأزمان
إن البناء إذا تعاظم شأنه ... أضحى يدل على عظيم الشان

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٥ .

وهكذا اختطت الزهراء فى ساحة تقع شمال غربى قرطبة ، على قيد خمسة أميال أو ستة منها ، فى سفح جبل يسمى جبل العروس[١] . وكان البدء فى بنائها فى فاتحة المحرم سنة خمس وعشرين وثلثمائة ( نوفمبر سنة ٩٣٦ م ) . وعهد الناصر إلى ولده وولى عهده الحكم ، بالإشراف على بناء العاصمة الجديدة[٢] ، وحشد لها أمهر المهندسين والصناع والفنانين من سائر الأنحاء ، ولا سيما من بغداد وقسطنطينية[٣] . وجلب إليها أصناف الرخام الأبيض والأخضر والوردى من ألمرية وريُّه ، ومن قرطاجنة إفريقية وتونس ، ومن الشام وقسطنطينية ، وجلب إليها من سوارى الرخام أربعة آلاف وثلاثمائة أربعة وعشرين سارية[٤] . وكان يشتغل فى بنائها كل يوم من العمال والفعلة عشرة آلاف رجل ، ومن الدواب ألف وخمسمائة ، ويعد لها من الصخر المنحوت نحو ست آلاف صخرة فى اليوم ؛ وقدرت النفقة على بنائها بثلثمائة ألف دينار كل عام طوال عهد الناصر ، أعنى مدى خمسة وعشرين عاماً ، هذا عدا ما أنفق عليها فى عهد ولده الحكم[٥] . وابتنى الناصر فى حاضرته الجديدة قصراً منيف الذرى ، لم يدخر وسعاً فى تنميقه وزخرفته ، حتى غدا تحفة رائعة من الفخامة والجلال ، تحف به رياض وجنان ساحرة ، وأنشأ فيه مجلساً ملوكياً جليلا سمى بقصر الخلافة ، صنعت جدرانه من الرخام المزين بالذهب ، وفى كل جانب من جوانبه ثمانية أبواب ، قد انعقدت على حنايا من العاج والأبنوس المرصع بالذهب والجوهر ، وزينت جوانبه بالتماثيل والصور البديعة ، وفى وسطه صهريج عظيم مملوء بالزئبق ، وكانت الشمس إذا أشرقت على ذلك المجلس سطعت جوانبه بأضواء ساحرة[٦] . وزود الناصر مقامه فى قصر الزهراء ، وهو الجناح الشرقى المعروف بالمؤنس بأنفس التحف والذخائر ، ونصب فيه الحوض الشهير المنقوش بالذهب ، الذى أهدى إليه من قيصر

---

( ١ ) مختصر نزهة المشتاق للادريسى ( طبع رومة ) ص ١٩٣ ؛ والمسالك والممالك لابن حوقل ص ٧٨ . ويسمى ابن حوقل هذا الجبل بجبل بطلش .

( ٢ ) البيان المغرب ج ١ ص ٢٤٧ ؛ ونفح الطيب ج ١ ص ٢٦٦ .

( ٣ ) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٤ .

( ٤ ) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٦ ، ونفح الطيب ج ١ ص ٢٤٦ ، وأعمال الأعلام ص ٣٨

( ٥ ) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٥ .

( ٦ ) نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٦ و ٢٤٧ .

قسطنطينية ، والذى جلبه من هنالك إلى قرطبة ، ربيع الأسقف . وجلب إليه الوزير أحمد بن حزم من الشام حوضاً ثانياً رائعاً ، يقوم عليه اثنا عشر تمثالا من الذهب الأحمر المرصع بالجواهر ، وهى تمثل بعض الطيور والحيوانات وتقذف الماء من أفواهها إلى الحوض[1] . وقد دون هذه الروايات والأوصاف العجيبة ، التى تشبه أوصاف قصور ألف ليلة وليلة المسحورة ، عن قصر الزهراء ، أكثر من مؤرخ معاصر وشاهد عيان ، وأجمعت الروايات على أنه لم يبن فى أمم الإسلام مثله فى الروعة والإناقة والبهاء[2] .

وأنشأ الناصر فى الزهراء أيضاً مسجداً عظيماً ، تم بناؤه فى ثمانية وأربعين يوماً. وكان يعمل فيه كل يوم ألف من العمال والصناع والفنانين ، وزوده بعمد وقباب فخمة ، ومنبر رائع الصنع والزخرف ، فجاء آية فى الفخامة والجمال[3] . وأنشئت بها مجالات فسيحة للوحوش متباعدة الساح ، ومسارح للطير مظللة بالشباك ، ودار عظيمة لصنع السلاح ، وأخرى لصنع الزخارف والحلى[4] . والخلاصة أن الناصر أراد أن يجعل من الزهراء قاعدة ملوكية حقة ، تجمع بين فخامة الملك الباذخ ، وصولة السلطان المؤثل ، وعناصر الإدارة القوية المدنية والعسكرية .

واستمر العمل فى منشآت الزهراء طوال عهد الناصر ، أعنى حتى وفاته فى سنة خمسين وثلثمائة ، واستمر معظم عهد ابنه الحكم المستنصر ، واستغرق بذلك من عهد الخليفتين زهاء أربعين سنة[5] ؛ ولكنها غدت منزل الملك والخلافة مذ تم بناء القصر والمسجد فى سنة تسع وعشرين وثلثمائة ، وبذا كانت ( إلى جانب قرطبة ) أول منزل للخلافة الإسلامية بالأندلس .

وقد انتهت إلينا عن هذه الضاحية الملوكية الشهيرة أوصاف وأرقام مدهشة ، تنبىء عما كانت عليه من الضخامة . فقد ذكر ابن حيان مؤرخ الأندلس أن الزهراء كانت تشغل مسطحاً قدره تسعمائة وتسعون ألف ذراع ، وأن مبانيها اشتملت على أربعة آلاف سارية ما بين صغيرة وكبيرة ، منها ما جلب من مدينة

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٦ ؛ وأعمال الأعلام ص ٣٨ .
(٢) نفح الطيب ج ١ ص ٢٧٤ ، ٢٦٥ .
(٣) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٤ .
(٤) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٤ .
(٥) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٤ .

رومة ، ومنها ما أهداه قيصر قسطنطينية ، وأن مصاريع أبوابها كانت تبلغ زهاء خمسة عشر ألفاً ، وكلها ملبسة بالحديد والنحاس المموه . وذكر مؤرخ آخر أن عدد الفتيان بالزهراء ثلاثة عشر ألفاً وسبعمائة وخمسين فتى ، وعدد النساء والحشم بالقصر ستة آلاف وثلثمائة ، يصرف لهم فى اليوم ثلاثة عشر ألف رطل من اللحم ، سوى الدجاج والحجل وغيرها[1] . وقد لا نجد فى المنشآت الملوكية الحديثة ما يذكرنا بهذه الأرقام المدهشة ، سوى القصر البابوى أو قصر الڤاتيكان الشهير برومة ، وما انتهى إليه خلال العصور المتعاقبة من الضخامة والفخامة والجلال ، فإن هذا المقام الكنسى الملوكى الفخم ، يحتوى على أربعة آلاف غرفة ، وعلى مئات الأبهاء والساحات والأروقة ، ويضم عدة أجنحة ومجالس رائعة ، أسبغ عليها أبدع ما عرف الفن الرفيع من آيات الزخرف والنقش والتصوير .

ويحدثنا الرحالة البغدادى ابن حوقل عن الزهراء — وقد زارها أيام الحكم ولد الناصر — فيصف موقعها ، ويقول «إن العمارة اتصلت بينها وبين قرطبة ، وإن لها مسجداً جامعاً دون جامع البلدة (قرطبة) فى المحل والقدر ، وعلى سورها سبعة أبواب حديد ، وليس لها نظير بالمغرب فخامة حال وسعة تملك ، وابتذال لجيد الثياب والكسى ، وفراهة الكراع وكثرة التحلى ، وإن لم يكن لها فى عيون كثير من الناس حسن بارع »[2] .

ولكن الزهراء لم تعمر طويلا كقاعدة ملوكية ، فقد لبثت قاعدة الملك والخلافة زهاء أربعين عاماً فقط ، مذ نزل بها الناصر سنة ٣٢٩ هـ حتى نهاية عهد ابنه الحكم المستنصر سنة ٣٦٦ هـ ، ولم يكن ذلك لأن الزهراء قد عفت كقاعدة ملوكية ، ولكن لأن تحولا خطيراً قد وقع فى سلطان بنى أمية عقب وفاة الحكم ، إذ استطاع الوزير محمد بن أبى عامر ( الحاجب المنصور ) أن يتغلب على الدولة وأن يحجر على الخليفة هشام المؤيد ولد الحكم حسبما نفصل بعد ؛ ثم رأى أن ينقل قاعدة الحكم إلى ضاحية ملوكية جديدة أنشأها لنفسه بجوار قرطبة ( سنة ٣٦٨ هـ ) على نهر الوادى الكبير وسماها الزاهرة ، ونقل إليها خزائن الأموال والأسلحة ودور الحكومة ، واتخذ لنفسه سمة الملك ، وتسمى بالحاجب المنصور .

---

( ١ ) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٥ .

( ٢ ) المسالك والممالك ص ٧٨ .

وهكذا فقدت الزهراء صفتها كقاعدة رسمية ، وشاءت الأقدار ألا تكون منزل الملك والخلافة إلا فى عهد مؤسسها ، وعهد خلفه الذى أكمل بناءها ؛ وكان قيام الحاجب المنصور فى الواقع خاتمة لسلطان بنى أمية ، ولم يبق بعد ذلك من دولتهم سوى الإسم . وقد بقيت الزهراء حيناً مقاماً ملوكياً للخليفة المحجور عليه — هشام المؤيد — ولكنها فقدت من ذلك الحين أهميتها السياسية وهيبتها الملوكية .

ثم كانت المحنة الكبرى بانهيار هذا الصرح البديع الذى شاده بنو أمية بالأندلس ، وانهيار الخلافة الأموية والدولة العامرية معاً ، وسقوط الأندلس صرعى الحرب الأهلية . ففى ربيع الأول سنة ٤٠١ هـ ( نوفمبر سنة ١٠١٠ م ) زحفت قوات البربر ومعها سليمان المستعين زعيم الثورة الأموية على قرطبة لينتزعها من الخليفة هشام المؤيد ، والفتى واضح الحاجب المتغلب عليه ، واقتحموا فى طريقهم مدينة الزهراء ، وفتكوا بحاميتها وسكانها ، وعاثوا فى معاهدها ورياضها ، وأحرقوا المسجد والقصر ، ولبثوا بها بضعة أشهر . والظاهر أن الضربة كانت قاضية فلم يبق من الضاحية الملوكية الباهرة بعد أن غادروها سوى أطلال دارسة . ولا يكاد اسم الزهراء ، يذكر بعد ذلك فى التاريخ الأندلسي ، إلا كأثر عصفت به صروف الدهر ، وقد كانت الزهراء أيام روعتها وازدهارها ، وحى الشعر الرائع والخيال الرفيع ، وقد أشاد بجمالها وفخامتها ، جمهرة من أكابر شعراء الأندلس وأمراء البيان ، ثم رثوها بعد ذلك فى مقطوعات مؤثرة . ومما قاله ابن زيدون وهو من أعظم شعراء عصر الطوائف ، يشيد بالزهراء ، وروائع ذكرياتها :

| | |
|---|---|
| خليلى لا فطر يسرٌّ ولا أضحى | فما حال من أمسى مشوقاً كما أضحى |
| لئن شاقنى شرق العقاب فلم أزل | أخص بمخصوص الهوى ذلك السفحا |
| معـاهد لذات وأوطان صبوة | أجلت المعلى فى الأمانى بها قدحا |
| ألا هل إلى الزهـراء أوبة نازح | تقضت مبانيها مدامعـه نزحا |
| مقاصـير ملك أشرقت جنباتها | فخلنا العشاء الجون أثناءها صبحا |
| يمثـل قرطيها لى الوهم جهرة | فقبتها فالكوكب الرحب فالسطحا |
| محل ارتيـاح يذكر الخلد طيبه | إذا عز أن يصدى الفتى فيه أو يضحا |

هناك الحمام الزرق تندى خفافها ظلال عهدت الدهر فيها فتى سمحا
تعوضت من شدو القيان خلالها صدى فلوات قد أطار الكرى صبحا[1]

ونقل إلينا الشيخ محيي الدين بن عربى[2] أبياتاً ، قال إنه قرأها على بعض جدران الزهراء بعد خرابها ، رثاء فى المدينة الشهيرة وهى :

ديار بأكناف الملاعب تلمع وما إن بها من ساكن وهى بلقع
ينوح عليها الطير من كل جانب فيصمت أحياناً وحيناً يرجع
فخاطبت منها طائراً متغرداً له شجن فى القلب وهو مروع
فقلت على ماذا تنوح وتشتكى فقال على دهر مضى ليس يرجع

ورثى الفتح بن خاقان معاهد الزهراء خلال رواية نقلها عن جولة لبعض الكبراء فى تلك الأطلال : « وآثار الديار قد أشرفت عليهم كثكالى ينحن على خرابها ، وانقراض أطرابها ، والوهى بمشيدها لاعب ، وعلى كل جدار غراب ناعب ، وقد محت الحوادث ضياءها ، وقلصت ظلالها وأفياءها ، وطالما أشرقت بالخلائف وابتهجت ، وفاحت من شذاهم وأرجت ، أيام نزلوا خلالها ، وتفيأوا ظلالها ، وعمروا حدائقها وجناتها ، ونبهوا الآمال من سناتها ، وراعوا الليوث فى آجامها ، وأخجلوا الغيوث عند انسجامها ، فأضحت ولها بالتداعى تلفع واعتجار ، ولم يبق من آثارها إلا نؤى وأحجار ، وقد هوت قبابها ، وهرم شبابها ؛ وقد يلين الحديد ، ويبلى على طيه الجديد ... »[3] .

وكانت أطلال الزهراء ما تزال قائمة حتى القرن السابع الهجرى ( القرن الثالث عشر ) . وقد ذكرها الشريف الإدريسى فى معجمه الجغرافى الذى وضعه فى منتصف القرن السادس الهجرى (منتصف القرن الثانى عشر) ، وذكر أن بينها وبين قرطبة خمسة أميال[4] ؛ وذكرها أيضاً ياقوت الحموى فى معجمه الجغرافى الذى

---

(١) راجع قصيدة ابن زيدون برمتها فى ترجمته فى « قلائد العقيان » للفتح بن خاقان ص ٧٢ .

(٢) هو من أكابر متصوفة الأندلس وعلمائها فى أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع الهجرى ، وقد نقل إلينا هذه الرواية والأبيات فى كتابه الشهير « محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار » .

(٣) راجع قلائد العقيان فى ترجمة المعتمد بن عباد ص ١٠ .

(٤) راجع نزهة المشتاق ( المختصر ) طبع رومة — ص ١٩٣ .

وضعه فى أوائل القرن السابع الهجرى[1] . وفى شوال سنة ٦٣٣ هـ ( ١٢٣٦ م ) كانت نكبة الأندلس ونكبة الإسلام ، بسقوط قرطبة فى أيدى الإسبان ؛ فطويت بذلك أسطع صحف الإسلام وصحف الخلافة فى الأندلس . وكانت قرطبة قد فقدت أهميتها السياسية منذ الثورة وسقوط الدولة الأموية ، ولكنها لبثت بعد ذلك عصراً تحتفظ بهيبتها الخلافية القديمة . ومن المرجح أن أطلال الزهراء بقيت بعد سقوط قرطبة فى أيدى الإسبان عصراً يصعب تحديده ، غير أن قرطبة فقدت فى ظل سادتها الجدد صبغتها ومعالمها الإسلامية بسرعة ، ولم يبق اليوم من آثارها وصروحها الإسلامية سوى مسجدها الجامع ، الذى ما يزال بالرغم من تحويله إلى كنيسة جامعة ، يحتفظ إلى اليوم بكثير من روعته الإسلامية السالفة .

* * *

هذا وما زالت سيرة مدينة الزهراء وذكريات فخامتها الذاهبة ، تحتل المقام الأول فى تاريخ إسبانيا المسلمة الأثرى والفنى . وقد اهتم العلماء الإسبان منذ نحو قرن بالكشف عن معالمها وأطلالها ، لما يلقيه ذلك الكشف من أضواء هامة على أحوال الخلافة الأندلسية ونظمها الإدارية والاجتماعية ، وعلى تطور الفن الأندلسى فى أزهى عصوره . وعنيت الحكومة الإسبانية منذ بداية القرن الحالى ، بإجراء الحفريات الأثرية للكشف عن صروح المدينة الخلافية . وبالرغم من أن جهود اللجان الأثرية المتعاقبة التى اضطلعت بهذا العمل ، لم تكن متواصلة أو ذات نطاق واسع ، فقد استطاع الأثريون الإسبان أن يكشفوا عن كثير من معالم الزهراء ، ومواقع صروحها ، وأبهائها الملوكية .

وقد أتيح لنا أن نزور معالم الزهراء وأطلالها غير مرة ، خلال زياراتنا لعاصمة الخلافة القديمة[2] . وتقع هذه الأطلال الضخمة غربى قرطبة على بعد نحو سبعة أميال منها ، وشمالى نهر الوادى الكبير على قيد ميلين ، وتحتل منحدراً صخرياً وعراً يقع أسفل الأكمة التى يحتلها دير سان خيرنمو San Jeronimo الشهير ، الذى يقال إنه بنى بأنقاض قصر الزهراء . وتسمى هذه المنطقة التى تحتلها أطلال الزهراء « قرطبة القديمة » Córdoba la vieja .

---

( ١ ) راجع معجم البلدان تحت كلمة الزهراء ( مصر ) ج ٤ ص ٤٢١ .

( ٢ ) قمنا بزيارة أطلال الزهراء لآخر مرة فى مايو سنة ١٩٦٣ .

وتشمل الحفريات الأثرية التى يقوم بها العلماء الإسبان منذ سنة ١٩١٠ منطقة واسعة ، تمتد ١٥١٨ متراً من الشرق إلى الغرب و ٧٤٥ متراً من الشمال إلى الجنوب . ومع أن هذه المنطقة لم تكشف كلها فإن ما كشف حتى الآن من الأطلال الضخمة ، ومن نقوشها وزخارفها التى مازال بعضها قائماً فى بعض الجدران ، والتى تتمثل بالأخص فى مئات القطع الرخامية الزخرفية التى وجدت ، يكفى لتكوين فكرة عامة، عن هندسة المدينة الملوكية ومنعتها وفخامة صروحها الذاهبة .

وتنقسم أطلال الزهراء بصفة عامة إلى مجموعات ثلاث ، مدرجة من أعلى إلى أسفل . وتشمل المجموعة الأولى مواقع القصر الخليفى والمقام الخاص . وتشمل الثانية فيما يبدو مساكن الحاشية والحرس . وتشمل المجموعة الثالثة، وهى الواقعة أسفل الربوة ، فى بسيط معتدل من الأرض ، أربعة أفنية كبيرة عالية ، هى التى يجرى اليوم ضمها وإعادتها تشكيلها ، فيما يظن أنه البهو العظيم الذى كان مخصصاً لاستقبال الملوك وأكابر السفراء .

وقد تم الكشف عن هذا البهو الذى يعتبر أعظم ما كشف حتى اليوم من آثار الزهراء فى سنة ١٩٤٤ ، ووجدت سائر حطامه وزخارفه مدفونة تحت الأنقاض . ويعكف الأثريون الإسبان منذ أعوام على إقامة الصرح وتنسيقه ، مما وجد من أنقاضه وأعمدته وزخارفه . وقد أقيم حتى اليوم فى وسطه ما اصطلح على تسميته « بهو السفراء » أو باسمه التاريخى « المجلس المؤنس » ، وهو عبارة عن أربعة أفنية متلاصقة تبلغ واجهتها نحو أربعين متراً ، وقد قسمت من الداخل إلى ثلاث أروقة مستطيلة ، يتوسطها رواق رابع ذو عقود من الجانبين . ويقوم كل فناء منها على خمسة عقود ، وقد ركب على هذه العقود ما وجد بين الأطلال من رؤوس وقواعد رخامية مزخرفة ، وفى وسط الرواق الثالث عقد جميل عال يفضى إلى بهو داخلى ، زين جانباه بالزخارف الرخامية . ويبلغ طول كل رواق من الأروقة المذكورة نحو عشرين متراً ، وعرضه نحو ثمانية أمتار . وقد صنعت العقود كلها على نمط واحد ، وزينت من أعلاها بما أمكن جمعه من قطع الزخارف الرخامية التى وجدت . وقد شيدت هذه الأروقة على ارتفاع يبلغ نحو عشرة أمتار .

وقد كشفت الحفريات الأخيرة عن مجموعة جديدة من الأطلال تقع أعلى هذه الأبهاء من اليسار ، وهى عبارة عن مجموعة من الغرف السكنية وبهو مستطيل :

وهى لا تفترق كثيراً عن غيرها من المجموعات الأخرى المماثلة من حيث التخطيط ، ولكنها تكشف لنا عن حقائق معمارية وفنية هامة ، فهى المجموعة الوحيدة التى وجد بها أثر الدهان واضحاً . وقد تبين أن لون الدهان الذى كان مستعملا فى هذه المجموعات من المساكن ( مساكن الحاشية ) هو اللون الأحمر ، يحف به على ارتفاع نحو متر ونصف خط أبيض ، يعلوه خط أحمر ، وتبين كذلك أن البلاط المستعمل فى تغطية أرض الغرف هو أيضاً أحمر اللون ، وهو قطع مربعة يبلغ ضلع الواحدة منها أربعين سنتمتراً . وتبين أخيراً أن الأحجار المستعملة فى أسفل البناء ، هى أحجار كبيرة بعضها يبلغ طوله نحو ٨٠ سنتيمتراً وعرضه ٤٠ سنتيمتراً .

وإلى جانب هذه المجموعات الجديدة من أطلال الزهراء ، توجد المجموعات القديمة ، وهى تشمل موقع القصر الخليفى والجدار الشمالى ، والفناءين التوأمين المتصلين بالمنحدر ، والفناء الصغير المتصل بقصر الخلفاء ، ومجموعة من مساكن الحرس . وترجع منطقة الجدار الشمالى إلى عصر الناصر ذاته ، وهى من منشآته فى المرحلة الأولى من بناء الزهراء ، وقد أصلحت على امتداد سبعين متراً . وهذا الجزء من الجدار أمتن وأحكم صنعاً ، من قسمه الذى بنى فيما بعد فى عهد الحكم المستنصر .

أما عن الفناءين المتماثلين أو الفناءين التوأمين ، فيقع أولهما على بعد ثمانية أمتار أسفل القصر الخليفى ، ويشتمل كل منهما على بهو كامل ، وهناك ما يدل على أن كلا منهما كان يحتوى على مجموعة من المساكن المتماثلة المخصصة لسكنى طائفة هامة من البطانة أو الجند . ويشغل الفناء الغربى رقعة ضخمة مربعة تقريباً تبلغ مساحتها نحو خمسمائة متر ، وبه أيضاً بقايا أبنية سكنية . بيد أنه لم يكتشف فى هذه المنطقة أبواب أو مداخل تكشف عن حقيقة نوع هذه الأبنية ، والظاهر أن الفناء الشرقى كان موقع مسكن « للحريم » ، أو بعبارة أخرى كان جناحاً للقصر الذى تسكنه النساء والأولاد حسبما تدل على ذلك آثار أبنيته ومرافقه .

وعثر المكتشفون إلى جانب هذه المجموعات الضخمة من أطلال المدينة الخليفية ، بطائفة كبيرة من القطع الزخرفية والعقود والأعمدة والألواح والأحواض الرخامية ، ومئات من القطع والأوانى الزخرفية والبللورية ، وقد جمعت كلها فى متحف خاص أقيم عند مدخل « مدينة الزهراء » ، وعرضت فيه بعض القطع

والأحواض الرخامية البديعة الزخرف والنقوش ، وبعض الأوانى الخزفية والبللورية المصححة ، وهذا إلى ما يوجد من تحف الزاهراء ونقوشها الزخرفية بمتحف قرطبة الأثرى ، وفى مقدمتها الوعل البرونزى الشهير الذى يعتبر من أروع القطع الفنية .

نقول ، ولعل حفائر الزهراء المستقبلة تكشف لنا عن معالم كثيرة أخرى من ضروب الفخامة والجلال ، التى كانت تتسم بها المدينة الخلافية ، والتى تحدثنا عنها الروايات المعاصرة[١] .

هذا ولم ينس الناصر أن يشمل المسجد الجامع بعنايته ، أسوة بسائر أسلافه من بنى أمية ، فجدد واجهته ، وزاد فيه زيادات كبيرة (٣٤٦ هـ — ٩٥٧ م) . وكان قبل ذلك قد هدم منارته القديمة ، وأنشأ مكانها المنارة العظمى ، وذلك فى سنة ٣٤٠ هـ ( ٩٥١ م ) . وكانت منارة الناصر تمتاز بفخامتها وارتفاعها الشاهق ، وكانت مربعة الواجهات ، ولها أربعة عشرة شباكاً ذات عقود ، وتحتوى على سلمين أحدهما للصعود ، والآخر للنزول ، وقد ركب فى قمتها ثلاث تفاحات كبيرة ، إثنتان منها من الذهب ، والثالثة من الفضة[٢] ، وكانت إذا أرسلت الشمس أشعتها عليها ، تكاد تخطف الأبصار ببريقها . وقد أزال الإسبان فيما بعد ، تلك المنارة العظيمة ، تتمة لبرنامجهم فى تشويه المسجد الجامع ، وأقاموا مكانها برج الأجراس الحالى .

وما زالت اللوحة التى تنوه بما قام به الناصر من تجديد واجهة الجامع قائمة إلى اليوم ، فى مكانها فى الجانب الأيمن من بابه الرئيسى المسمى «باب النخيل»[٣] وقد كتب بها ما يأتى بخط كوفى جميل :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أمر عبد الله عبد الرحمن أمير المؤمنين الناصر لدين الله أطال الله بقاءه ، ببنيان هذا الوجه ، وإحكام إتقانه ، تعظيما لشعائر الله ،

---

( ١ ) رجعنا فى هذا الاستعراض لأطلال الزهراء إلى مشاهداتنا الخاصة . وكذلك إلى البحوث الأثرية الآتية :

**Medina Azzahra y Alamiriya, por D.R. Velazquez Bosco (Madrid 1912)**

**Excavaciónes del Plan nacional en Medina Azzahra (Córdoba), Campana de 1943. por R. Castéjon y Martinez de Arizala (Madrid 1945)**

**Nuevas Excavaciónes en Medinat Al-Zahra : El Salon de Abd Al-Rahman III por R. Castéjon (Al-Andalus, Vol. X (1945) Fsc. I.**

( ٢ ) أعمال الأعلام ص ٣٨ .

( ٣ ) وبالإسبانية **Puerta de las Palmas**

ومحافظة على حرمة بيوته ، التى أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، ولما دعاه على ذلك من تقبل عظيم الأجر ، وجزيل الذخر ، مع بقاء شرف الأثر ، وحسن الذكر ، فتم ذلك بعون الله ، فى شهر ذى الحجة سنة ست وأربعين وثلث مائة على يد مولاه ووزيره وصاحب مبانيه عبد الله بن بدر ، عمل سعيد بن أيوب»[1] .

— ٢ —

تولى عبد الرحمن الناصر عرش مملكة تفاقمت من حولها الخطوب ، واستنفدت مواردها الثورة ، فتداركها بعزمه وقوة نفسه ، واستطاع أن يسحق خصومها فى الداخل والخارج ، فى سلسلة طاحنة من الحروب والغزوات المستمرة ، وأن يوطد دعائمها وأن يخضع الجزيرة لصولتها ، وأن يكفل لها الأمن والسكينة والرخاء .

ولم يفت الناصر منذ البداية أن الجيش عماد الدولة وسياج الملك ، فعكف على إصلاح الجيش الذى أضناه الكفاح ضد الثورة ، وحشد له الجند من سائر أنحاء الأندلس والمغرب ، واستكثر من الأسلحة والذخائر ، وصقلت الحروب والغزوات المستمرة كفاية الجيش ودربته ، وأمدته بطائفة من أمهر القادة وأشدهم بأساً ، ورفعت القوة المعنوية بين الصفوف . وكان إقدام الأمير على تولى القيادة بنفسه مجدداً لعهد الحماسة الحربية والانتصارات الباهرة . وعنى عبد الرحمن فى الوقت نفسه بأمر الأسطول وإصلاحه ، فأنشأ له وحدات جديدة قوية . وكانت ألمرية عندئذ مركز الأسطول الأندلسى الرئيسى ، وبها أكبر دار للصناعة . وبلغ الأسطول فى عهد الناصر زهاء مائتى سفينة مختلفة الأنواع والأحجام ، وهذا عدا الأسطول المخصص لشئون المغرب البحرية ، وقد كان يضم كذلك عدداً كبيراً من السفن . وهكذا كان أسطول الأندلس فى ذلك العهد من أقوى الأساطيل يومئذ ، وكان بضخامته وأهباته ، يسيطر على مياه إسبانيا الجنوبية والشرقية ، وينازع الفاطميين سيادة الشق الغربى من البحر المتوسط .

وكان عهد الناصر بالرغم من استمرار الحروب والغزوات ، كما قدمنا عهد رخاء ويسر ، توطدت فيه مالية الدولة وامتلأت خزائنها بالأموال الوفيرة ، وزاد الخراج والدخل زيادة عظيمة باستتباب السكينة والأمن ، وازدهار الزراعة والتجارة والصناعة ، وكثرة الأخماس والغنائم . وإن فيما احتوته الزهراء من القصور

---

(١) راجع الآثار الأندلسية الباقية لمحمد عبد الله عنان ( الطبعة الثانية ) ص ٢٠ و ٢١ و ٣٠

والمنشآت الباذخة ، وما بذل لإقامتها من النفقات مدى أعوام طويلة ، لما يستوقف النظر ، ويحمل على تأمل ذلك المدى المدهش الذى بلغته الدولة الأموية بالأندلس فى عهد الناصر من القوة والضخامة والغنى . وقد انتهت إلينا فى ذلك أرقام مدهشة ، منها أن جباية الأندلس بلغت فى عهد الناصر من الكور والقرى خمسة آلاف ألف وأربعمائة ألف وثمانين ألف دينار ، ومن السوق والمستخلص سبعمائة ألف وخمسة وستين ألف دينار ، هذا عدا أخماس الغنائم التى لا تحصى . وقيل إن الناصر خلف عند وفاته فى بيوت الأموال ما تبلغ قيمته خمسة آلاف ألف ألف ( خمسة آلاف مليون ) دينار . وكان يقسم الجباية من أجل النفقة إلى ثلاثة أثلاث : ثلث لنفقة الجيش ، وثلث للبناء والمنشآت العامة ، وثلث يدخر للطوارئ[1]. ولم يتردد المؤرخ الحديث فى قبول هذه الأرقام حتى أن العلامة دوزى ينقلها ، ويقدر أن الناصر ترك عند وفاته فى بيت المال عشرين مليوناً من الذهب[2]. ويقول لنا ابن حوقل الرحالة البغدادى الذى زار قرطبة فى هذا العهد ، إن الناصر كان أغنى ملوك عصره ، وإنه وبنى حمدان ملوك حلب والجزيرة أغنى ملوك العالم فى ذلك العصر[3]. وهذه أرقام وروايات تشهد بضخامة الدولة الأموية وغناها الطائل فى عصر الناصر ، وتفسر لنا كيف استطاع الناصر إلى جانب حروبه غزواته ، أن يضطلع بكثير من المنشآت العظيمة .

هذا ، وقد كان مما عنى به الناصر تنظيم العملة ، وتثبيتها ، فأمر فى سنة ٣١٦هـ، باتخاذ دار السكة داخل مدينة قرطبة لضرب العين من الدنانير والدراهم ، فاتخذت هناك على رسمه ، وولى خطتها أحمد بن محمد بن حدير ، وذلك فى ١٧ من شهر رمضان من هذه السنة ، فقام بالضرب فيها من هذا التاريخ ، من خالص الذهب والفضة ، وبذل جهده فى الاحتراس من المدلسين ، فأصبحت دنانيره ودراهمه عياراً محضاً . وقد كان ضرب النقد معطلا قبل الناصر ، وكان لهذا الإجراء أثره فى تثبيت العملة واستقرار التعامل[4].

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ١٧٧ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٧ ، وأعمال الأعلام ص ٣٨ .

(٢) Dozy : Hist. Vol. II. p. 178

(٣) ابن حوقل ، المسالك والممالك ص ٧٧ .

(٤) ابن حيان – السفر الخامس – مخطوط الخزانة الملكية لوحة ٩٩ ب .

وبلغت الأندلس فى عهد الناصر ذروة الرخاء والنعماء والأمن والعزة ، وازدهرت الزراعة والتجارة والصناعة والعلوم والآداب والفنون ، وشمل الأمن سائر أطراف المملكة ، ورخصت كلفة العيش . ونمت قرطبة نمواً عظيماً حتى بلغ سكانها أكثر من خمسمائة ألف ، وبلغت مساجدها ثلاثة آلاف ، ومنازلها أكثر من مائة ألف ، وحماماتها العامة ثلاثمائة ، وبلغت أرباضها أو ضواحيها ثمانية وعشرين ، هذا عدا المدينة الوسطى ، وكان لقرطبة يومئذ سبعة أبواب : باب القنطرة ، وباب اليهود ، وباب عامر ، وباب العطارين ، وباب طليطلة ، وباب عبد الجبار ، وباب الجوند . وكان للقصر الأموى ستة أبواب : باب السُّدة ، وباب الجنان ، وباب العدل ، وباب الصناعة ، وباب الملك ، وباب الساباط ، وهو فى المسجد الجامع . وازدانت قرطبة بعدد كبير من القصور والمتنزهات الفخمة ، ودوت شهرتها فى الآفاق ، ووصلت إلى قاصية الشمال ، حتى أن الراهبة السكسونية هروسوفيتا التى اشتهرت بنظمها فى أواخر القرن العاشر ، أشادت فى قصائدها اللاتينية بمحاسن قرطبة ووصفتها بأنها « زينة الدنيا »[١] .

— ٣ —

كانت سياسة الدولة الأموية بالأندلس تقوم منذ البداية على اصطناع الموالى والصقالبة واتخاذهم أداة وبطانة ، وكان مؤسسها عبد الرحمن الداخل قد عمد بتأثير الظروف العصيبة التى أحاطت بقيام ملكه ، والخطوب والثورات الجمة التى أثارها خصومه ومنافسوه من زعماء القبائل العربية ، إلى الاسترابة بالعرب ، واصطناع البربر والموالى الذين آزروه وقت المحنة ، ومكنوه من توطيد زعامته وإمارته . وقد حافظ خلفاء الداخل على هذه السياسة فى جوهرها . ومنذ عهد الحكم المنتصر (١٨٨ — ٢٠٦ هـ) نرى نفوذ الموالى والصقالبة يشتد فى البلاط وفى الدولة . وكان الحكم يعشق مظاهر الفخامة والملك والباذخ ، فغص البلاط الأموى فى عهده بالخدم والحشم ، من المماليك والصقالبة ، بيد أن نفوذهم لبث مدى حين بعيداً عن شئون الدولة العليا ، قاصراً على شئون القصر والخاص .

واقتفى عبد الرحمن الناصر أثر سياسة جده الداخل ، فى الاسترابة بالقبائل

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٧ . وكذلك Dozy : Hist. Vol. II. p. 174

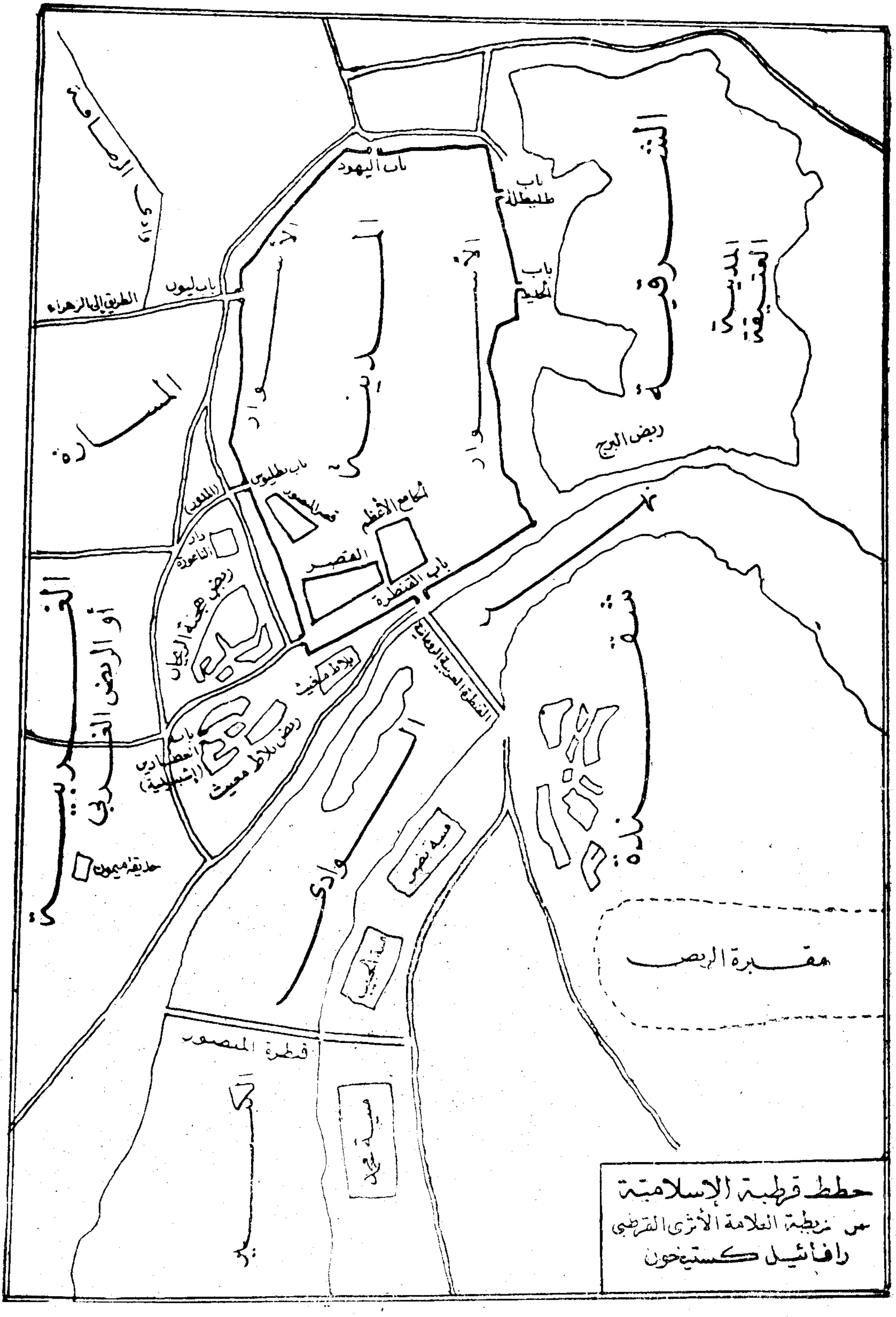


خطط قرطبة الإسلامية
من خريطة العلامة الأثري القرطبي
رافائيل كستيخون

العربية ذات البأس والعصبية ، وفى إقصاء زعمائها عن مناصب النفوذ والثقة ؛ واستأثر بكل سلطة حقيقية فى الدولة ، وجمع مقاليد الحكم كلها فى يده ، فلم يبق سلطة فعلية لحاجب أو وزير . وكان الناصر حريصاً على سلطانه المطلق ، لاينى عن سحق كل من حدثته نفسه بالوقوف فى سبيله ، ولو كان أقرب الناس إليه . ولما نمى إليه أن ولده عبد الله يأتمر به مع بعض فتيان القصر ورجال الدولة ، لأنه آثر أخاه الحكم بولاية العهد وتصريف الشئون ، وأن جماعة من أهل قرطبة بايعوه بالخلافة ، لم يحجم عن أن يقضى بإعدامه ، وإعدام جميع من اتجهت إليهم شبهة الاشتراك معه ، وكان ذلك فى سنة ٣٣٨ هـ (٩٤٩ م) . وكان عبد الله من أفضل أبناء الناصر علماً وعقلا وبصراً بالأمور ؛ وكذلك قضى الناصر بإعدام بعض أبناء عمومته وأخيه القاضى ابن محمد حين قامت الأدلة على ائتمارهم به[١] .

وعهد الناصر بالمناصب الكبيرة إلى رجال وضيعى المنبت من الصقالبة والموالى المعتقين أو الأرقاء ، وهم رجال لا إرادة لهم يوجههم كيفما شاء ، وكان يثق بالصقالبة بنوع خاص ، ويوليهم من السلطان والنفوذ ما لا يوليه سواهم[٢] .

وقد كانت كلمة « الصقالبة » تطلق فى الأندلس على الأسرى والخصيان من الأجناس الصقلبية (السلافية) الحقيقية ، ثم غدت تطلق بمضى الزمن على جميع الأجانب الذين يعملون فى البطانة وفى القصر . وكان أولئك الصقالبة مزيجاً من الخليقيين (النصارى الإسبان) والألمان والفرنسيين واللونبارد والإيطاليين[٣] ، وكان معظمهم يؤتى بهم أطفالا بواسطة خوارج البحر (القراصنة) وتجار الرقيق ، وكانوا يختارون من الجنسين ، ويربون منذ الحداثة تربية عربية حسنة ، ويلقنون مبادىء الإسلام ، وقد نبغ بعضهم فى النثر والنظم وصنفوا الكتب والقصائد . ومنذ عهد الناصر يشتد نفوذ الصقالبة فى شئون الإدارة والحكم ، فضلا عن القصر والخاص ، ويعهد إليهم بالمناصب الكبرى فى القصر والإدارة والجيش ؛ وما لبث أن سما شأنهم وتوطد سلطانهم ، وأحرزوا الضياع والأموال الوفيرة ، وفاق عددهم فى عهد الناصر أى عهد آخر ، حتى قدر بعض المؤرخين عددهم

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٣ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٤ ، وأعمال الأعلام ص ٣٩ .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٨ .

(٣) ابن حوقل فى المسالك والممالك ص ٧٥ ؛ وكذلك Dozy : Hist. Vol. II. p. 153

يومئذ فى القصر والبطانة ، بثلاثة عشر ألفاً وسبعمائة وخمسين ، وبلغوا فى رواية أخرى سبعة آلاف وثمانين . ويقول لنا ابن الخطيب إن عدد الفتيان الصقالبة بمدينة الزهراء كان عند وفاة الناصر ثلاثة آلاف وسبعمائة وخمسين ، وعدد النساء بالقصر ستة آلاف وسبعمائة وخمسين ، تجرى عليهم جميعاً رواتب الطعام بسائر صنوفه[1] . وعلى أى حال فقد كان من أولئك الصقالبة الحرس الخليفى ، ورجال الخاص والحشم ، وكان الناصر يمد لهم فى السلطان والنفوذ ، ويرغم أشراف العرب وزعماء القبائل على الخضوع لهم ، ليذل بذلك أنوفهم ويسحق هيبتهم[2]. بل كان منهم فى عهد الناصر قائد الجيش الأعلى نجدة ، ومعظم أكابر القادة والضباط ، وكان منهم أفلح صاحب الخيل ، ودرّى صاحب الشرطة ، ومنهم ياسر وتمام صاحبا النظر على الخاص[3]. وكان لهذه السياسة غير بعيد ، أسوأ الأثر فى انحلال الجيش وفتور قواه المعنوية ، لما جاشت به صدور الضباط والجند العرب ، من الحفيظة والسخط على هذه السياسة المهينة ، وكانت هزيمة الناصر فى موقعة الخندق الشهيرة ( ألانديجا ) (٣٢٧ هـ) ، ترجع من وجوه كثيرة إلى هذا الانحلال المعنوى ، الذى سرى إلى الجيش من جراء الأحقاد القومية والطائفية[4] .

— ٤ —

كانت الأندلس بما اجتمع لها فى عهد الناصر من أسباب القوة والسلطان ، قد تبوأت مركز الصدارة بين الدول الإسلامية ، وكانت الدولة العباسية قد دخلت يومئذ فى دور انحلالها ، ولم تكن الدولة الفاطمية الفتية منافستها فى المشرق ، قد بلغت يومئذ ذروة قوتها ونفوذها ، فكانت الأندلس تستأثر يومئذ بزعامة الإسلام . وكانت قرطبة مركز الجاذبية الدبلوماسية فى العالم الإسلامى ، تتجه إليها أبصار الدول النصرانية فى طلب المودة ، وعقد العلائق الدبلوماسية ؛ وكانت قسطنطينية مركز هذه الجاذبية الدبلوماسية بين أمم النصرانية حتى القرن الثامن . ثم نافستها فى ذلك مملكة الفرنج القوية مدى حين ، فلما اضمحل شأن المملكة

(١) أعمال الأعلام ص ٤٠ و ٤١ .

(٢) Dozy : Hist. Vol. II. p. 153 . وراجع نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٥ .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ١٢٣ ؛ ونفح الطيب ج ١ ص ١٧١ .

(٤) Dozy : Hist. V. II. p. 153

الفرنجية ، استردت قسطنطينية زعامتها الدبلوماسية فى النصرانية . ولما قامت الإمبراطورية الجرمانية فى القرن العاشر ، استطاعت أن تبسط زعامتها السياسية على أواسط أوربا وغربها ، وهكذا كانت زعامة النصرانية تتردد فى هذه الحقبة بين شرقى أوربا وغربها . هذا بينما لبثت قرطبة تستأثر وحدها بزعامة الإسلام فى الغرب حتى نهاية القرن العاشر .

وقد كان هذا العصر الذى اجتمعت فيه تلك الزعامات الدينية والسياسية القوية ، أحفل العصور بصلات الإسلام والنصرانية . فكانت ثمة معاهدات وسفارات ومراسلات وعلائق دبلوماسية ، بين قرطبة وبين معظم الأمم النصرانية ، وقد بلغت هذه الصلات ذروتها فى عصر الناصر لدين الله ، وتوالت وفود الأمم النصرانية يومئذ على بلاط قرطبة ، تنشد الحلف والصداقة والمهادنة ، من زعيم الإسلام فى الغرب .

وكان بلاط قسطنطينية بالرغم من نأيه عن مقر الخلافة الأندلسية ، وعدم اتصاله بها ، بأية حدود أو صلات جغرافية مشتركة ، فى مقدمة الساعين إلى توثيق الروابط الودية مع بلاط قرطبة . فى سنة ٣٣٦ هـ ( ٩٤٨ م )[1] ، وفدت على الناصر رسل قسطنطين السابع قيصر قسطنطينية المعروف «ببورفيروچنتوس»[2] ومعهم طائفة من الهدايا النفيسة . وتقدم إلينا الرواية الأندلسية عن هذه السفارة تفاصيل شائقة ، تلقى ضوءاً على نظم الرسوم الدبلوماسية فى هذا العصر ، فتقول لنا إن الناصر بعث رسله للقاء السفراء البيزنطيين حين وصولهم إلى الشاطىء لإرشادهم وخدمتهم ، ولما وصل الركب إلى مقربة من قرطبة ، بعث بعض قواته للاحتفاء بهم ، ثم بعث الفتيين ياسراً وتماماً فصحباهم إلى دار الضيافة بقصر ولى العهد الحكم ، فى ربض قرطبة ، ومنعوا من لقاء الخاصة والعامة ، ورتب لخدمتهم طائفة من الموالى والحشم . وفى اليوم الحادى عشر من

---

( ١ ) هذه هى رواية ابن خلدون (ج ٤ ص ١٤٢) . وفى رواية أخرى أنها وقعت سنة ٣٣٨ هـ ( نفح الطيب ج ١ ص ١٧١ ) . وذكر الطبيب الأندلسى ابن جلجل وقد عاش قريباً من عصر الناصر ، أنها وقعت فى سنة ٣٣٧ هـ ( راجع طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة – طبعة ميللر – ج ٢ ص ٤٤٧ ) . وذكر صاحب البيان المغرب أنها وقعت فى سنة ٣٣٤ هـ ( ج ٢ ص ٢٣٩ ) . ولم نعثر فى تواريخ الدولة البيزنطية على تفاصيل هذه السفارة ، ولكن الرواية الإسلامية واضحة جلية .

( ٢ ) ومعناها الأرجوانى .

ربيع الأول من السنة المذكورة ، خرج الناصر من قصر الزهراء إلى قصر قرطبة لاستقبالهم ، وجلس فى بهو المجلس الزاهر ، وكان يوماً مشهوداً من أيام الأندلس . فركبت الجند بالسلاح فى أكمل شكل ، وزين القصر الخلافى بأنواع الزينة وأصناف الستور ، وحفل السرير الخلافى بمقاعد الأبناء والإخوة والأعمام والقرابة ، وجلس عن يمين الخليفة ولده وولى عهده الحكم ، وجلس باقى أولاده يميناً وشمالا ، ورتب الوزراء فى مراتبهم ، وغص المجلس برجال الدولة والقادة والعظماء والزعماء من كل ضرب . ودخل سفراء ملك الروم ، فبهرهم ما رأوا من روعة الملك وفخامة السلطان ، وقدموا الهدايا التى يحملونها . وذكر لنا الطبيب الأندلسى أبو داود سليمان بن حسان المعروف «بابن جُلجل» الذى عاش فى عصر هشام المؤيد حفيد الناصر ، أنه كان فى مقدمة هدايا أرمانيوس ملك الروم إلى الناصر سفران جليلان من كتب الأقدمين ، أحدهما نسخة مصورة أبدع تصوير من كتاب ديسقوريدس[1] عن الحشائش ، مكتوبة بلغة مؤلفها أى باليونانية ؛ والثانى نسخة من تاريخ أورسيوس (هروسيس)[2] مكتوبة باللاتينية ، وهو المتضمن لتاريخ العالم القديم ، وأقاصيص الملوك السابقين[3]. وقدم الرسل كتاب القيصر قسطنطين السابع ، وقد كتب فى رق ذى لون سماوى باللغة اليونانية ، وداخل الكتاب مدرجة مصبوغة ومكتوبة بنفس اللغة ، فيها وصف لهدايا الإمبراطور ، وعلى الكتاب طابع ذهبى ، على إحدى وجهيه صورة للمسيح ، وعلى الوجه الآخر صورة الإمبراطور قسطنطين ، مصنوعة من الزجاج الملون البديع . وكان فى ترجمة عنوان الكتاب فى سطر منه : « قسطنطين ورومانين

---

(١) ديسقوريدس **Dioscorides** طبيب وكيمائى يونانى . أصله من كليكية بآسيا الصغرى . وقد عاش فى القرن الأول للميلاد ، واشتهر بكتابه عن مركبات الأدوية . وهو ما يزال يعتبر ذا قيمة علمية حتى عصرنا ، وكان يعتبر حتى القرن السابع عشر أثمن مرشد لخواص الأعشاب الطبية .

(٢) باولوس أورسيوس **Paulus Orosius** حبر ومؤرخ إسبانى ( قوطى ) عاش فى القرن الخامس الميلادى ووضع باللاتينية تاريخاً للخليقة فى عصره . وقد اشتهر تاريخه بالرغم من ركاكته وكثرة خرافاته ، وانتفع به كثير من المؤرخين اللاحقين . وعرفه المؤرخون المسلمون ونقلوا عنه . وأشار إليه ابن خلدون فى مواضع عديدة من تاريخه ، وتعرفه الرواية الإسلامية بهروسيس أو هرشيوش .

(٣) راجع رواية ابن جلجل منصلة فى كتاب طبقات الأطباء ، فى ترجمة ابن جلجل ( ج ٢ ص ٤٤٧ ) .

المؤمنان بالمسيح الملكان العظيمان ملكا الروم »[١]، وفى سطر آخر صيغة التوجيه : « العظيم الإستحقاق للفخر ، الشريف النسب عبد الرحمن الخليفة ، الحاكم على العرب بالأندلس ، أطال الله بقاءه » . وذكر لنا ابن جُلجل أن ملك الروم كتب إلى الناصر فى شأن كتاب ديسقوريدس أنه لا تجنى فائدته إلا بواسطة شخص يجيد اليونانية ، وأنه لم يكن فى قرطبة يومئذ من يحسن هذه اللغة ، وأن الناصر كتب فى خطابه إلى « أرمانيوس» فيما بعد ، أن يرسل إليه برجل يتكلم اليونانية واللاتينية ، فبعث إليه براهب يدعى نيقولا ، فحظى عند الناصر ، وتوفر على تفسير كتاب ديسقوريدس وشرح محتوياته لأطباء قرطبة . وأما كتاب أورسيوس المكتوب باللاتينية فقد كان فى بلاط قرطبة من يجيدها[٢] . وكان الناصر قد أمر أن يخطب الأعلام فى ذلك الحفل ، وأن يعظموا من شأن الإسلام والخلافة ، وأن يشكروا نعمة الله على ظهور دينه ، وإعزاز كلمته ، وذلة أعدائه ، واستعد بعض الخطباء لذلك ، ولكن بهرهم هول المجلس فوجموا وأرتج عليهم القول ، وكان منهم اللغوى الكبير أبو على القالى وافد العراق وضيف الخليفة — وكان قد وفد على الأندلس فى سنة ٣٣٠ هـ — ، ندبه الناصر لذلك تكريماً له وتقديراً لبلاغته ، ولكنه ما كاد يبدأ خطابه ، حتى بهت وتلعثم ثم صمت ؛ فعندئذ نهض الفقيه منذر بن سعيد البلوطى دون استعداد ولا سابق توقع ، وارتجل خطاباً بليغاً ضافياً يشيد فيه بعهد الناصر ومآثره ، ثم أعقبه بقصيدة فى نفس المعنى[٣] ، فأثار بذلاقته وثبت

---

(١) رومانين هو رومانوس الثانى ابن قسطنطين السابع ، وقد حكم بعد أبيه من سنة ٩٥٩ إلى سنة ٩٦٣ م . وتسميه الرواية الإسلامية « أرمانيوس » .

(٢) راجع رواية ابن جلجل المشار إليها فى طبقات الأطباء ج ٢ ص ٤٤٧ .

(٣) نقل المقرى عن ابن حيان وغيره ، نص الخطاب الذى ألقاه منذر بن سعيد فى ذلك الحفل . وإنه ليصعب علينا متى تأملنا عباراته المنمقة ، وسجعاته المرتبة ، وما يتخلله من ضروب البيان والبديع ، أن نصدق أنه خطاب مرتجل أتى عفو الساعة . ولعله صورة منقحة منمقة للخطاب الأصلى . وقد رأينا أن ننقل فقرات من ذلك الخطاب تتناول عهد الناصر بشىء من الوصف والتحليل .

جاء فى الخطاب بعد الديباجة ما يأتى :

« وإنى أذكركم بأيام الله عندكم ، وتلافيه لكم بخلافة أمير المؤمنين ، التى لمت شعثكم ، وأمنت سربكم ورفعت قوتكم ، بعد أن كنتم قليلا فكثركم ، ومستضعفين فنصركم ، ولاه الله رعايتكم وأسند إليه إمامتكم ، أيام ضربت الفتنة سرادقها على الآفاق ، وأحاطت بكم شعل النفاق ، حتى صرتم ، فى مثل حدقة البعير من ضيق الحال ، ونكد العيش والتقتير ، فاستبدلتم بخلافته من الشدة بالرخاء ، وانتقلتم بين سياسته إلى تمهيد كنف العافية ، بعد استيطان البلاء . أناشدكم بالله معشر الملأ =

جنانه ، أيما إعجاب ، وأكبر الناصر همته وعلمه ، وكان هذا الخطاب المرتجل فاتحة مجده ، فأغدق عليه الناصر عطفه ، وولاه القضاء ، وأصبح من رجال الدولة المشهورين .

ومن شعر منذر بن سعيد فى وصف ذلك الحفل المشهود قوله :

مقالى كحد السيف وسط المحافل ... فرقت به ما بين حق وباطل
بقلب ذكى ترتمى جمراته ... كبارق رعد عند رعش الأنامل
فما دحضت رجلى ولا زل مقولى ... ولا طاش عقلى يوم تلك الزلازل
وقد حدقت حولى عيون أخالها ... كمثل سهام أثبتت فى المقاتل
لخير إمام كان أو هو كائن ... لمقتبل أو فى العصور الأوائل
ترى الناس أفواجاً يؤمون بابه ... وكلهم ما بين راج وآمل
وفود ملوك الروم وسط فنائه ... مخافة بأس أو رجاء لنائل
فعش سالماً أقصى حياة مؤملا ... فأنت رجاء الكل حاف وناعل
ستملكها ما بين شرق ومغرب ... إلى درب قسطنطين أو أرض بابل(١)

= ألم تكن الدماء مسفوكة فحقنها ، والسبل مخوفة فأمنها ، والأموال منتهبة فأحرزها وحصنها ، ألم تكن البلاد خراباً فعمرها ، وثغور المسلمين مهتضمة فحماها ونصرها » .

ثم قال : « فأصبحتم بنعمة الله إخواناً ، وبلم أمير المؤمنين لشعثكم على أعدائه أعواناً ، حتى تواترت لديكم الفتوحات ، وفتح الله عليكم بخلافته أبواب الخير والبركات ، وصارت وفود الروم وافدة عليكم ، وآمال الأقصين والأدنين مستخدمة إليه وإليكم ، يأتون من كل فج عميق وبلد سحيق »

ثم قال : « فاستعينوا على صلاح أحوالكم بالمناصحة لإمامكم ، والتزام الطاعة لخليفتكم ، فإن من نزع يداً من الطاعة ، وسعى فى تفريق الجماعة ، ومرق من الدين ، فقد خسر الدنيا والآخرة ، وذلك هو الخسران المبين . وقد علمتم أن فى التعلق بعصمتها والتمسك بعروتها ، حفظ الأموال وحقن الدماء وصلاح الخاصة والدهماء ، وأن بقوام الطاعة تقام الحدود وتوفى العهود ... فاعتصموا بما أمركم الله بالاعتصام به ، فإنه تبارك وتعالى يقول ( أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ) ، وقد علمتم ما أحاط بكم ، فى جزيرتكم هذه من ضروب المشركين وصفوف الملحدين ، الساعين فى شق عصاكم ، وتفريق ملأكم الآخذين فى مخاذلة دينكم وتوهين دعوة نبيكم ... الخ .

راجع خطاب ابن سعيد بأكمله فى نفح الطيب ج ١ ص ١٧٢ — ١٧٣ .

(١) وقد نقل إلينا المقرى عن المغرب لابن سعيد وغيره نبذة فى ترجمة القاضى منذر بن سعيد البلوطى ، وفيها أنه ولد سنة ٢٦٥ هـ ، وبرع فى علوم القرآن والسنة ، وظهر بفصاحته وذلاقته وجزالة شعره ، وكان الخطاب الذى ارتجله فى مجلس الناصر لمناسبة استقباله لرسل ملك الروم بدأ ظهوره وشهرته ، فولاه الناصر الصلاة والخطابة فى مسجد الزهراء ، ثم ولاه قضاء الجماعة بقرطبة . وتوفى سنة ٣٥٥ هـ . ( راجع نفح الطيب ج ١ ص ١٧٤ و ١٧٥ وكذلك قضاة قرطبة للخشنى ص ١٧٥ و ١٧٦ ) .

ولما انصرف رسل قسطنطين ، بعث الناصر معهم سفيراً هو هشام بن هذيل بهدية حافلة ، ليؤكد المودة ويوثق عرى التحالف بين قرطبة وقسطنطينية ، فعاد بعد سنتين وقد أدى سفارته خير أداء ، وعادت معه رسل قسطنطين[1] .

وتفيض الرواية الإسلامية فى تفاصيل هذه السفارة إفاضة واضحة ، ولكنها لا تلقى كبير ضوء على موضوعها وغايتها الحقيقية ، وأكبر الظن أنها لم تكن إلا تجديداً لعلائق الدولة البيزنطية مع دولة الإسلام بالأندلس ، وتوطيداً للصداقة القديمة التى رأى بلاط قسطنطينية أن يعقدها مع بلاط قرطبة منذ عهد عبد الرحمن ابن الحكم[2] لتكون شبه تحالف ضد الدولة العباسية خصيمتهما المشتركة . وربما كانت ترمى فى الوقت نفسه إلى تنظيم الخطط المشتركة بين الدولتين ، لمقاومة الدولة الفاطمية الفتية ، التى بدأت تزعج البيزنطيين فى أواسط البحر المتوسط ، وتزعج حكومة قرطبة بتوغلها فى المغرب الأقصى .

ثم توالت سفارات ملوك النصرانية بعدئذ على الناصر فوفدت عليه رسل ملك الصقالبة وهو يومئذ الملك بيتر أو بطرس[3] ، فاحتفل بقدومهم كذلك وبعث معهم ربيعاً ( ريفا ) الأسقف سفيراً إلى ملكهم ؛ ثم وفدت رسل ملك فرنسا وهو يومئذ لويس الرابع فى طلب الصداقة والمودة ، فأجابهم إلى ما طلبوا .

على أن أهم سفارة تلقاها الناصر يومئذ ، هى سفارة أوتو الأكبر إمبراطور ألمانيا ، وقد كان أوتو يومئذ زعيم النصرانية ، كما كان عبد الرحمن الناصر زعيم الإسلام . وتشير الرواية الإسلامية إلى تلك السفارة فى غموض وإيجاز ، وتصف أوتو بملك الصقالبة أو ملك « اللمان » وتسميه « هوتوا » أو « هوتو »[4]، ولكنها تتفق مع الرواية الفرنجية فى تاريخ هذه السفارة وهو سنة ٣٤٤هـ الموافقة سنة ٩٥٦م . فى ذلك العام وفد على قرطبة سفير ، وهو حبر يدعى يوحنا الجورزينى نسبة إلى الدير الذى ينتمى إليه فى جورزنى على مقربة من متز ، وكان يوحنا من أكابر

---

( ١ ) راجع فى أخبار هذه السفارة البيزنطية : ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٢ و ١٤٣ ، ونفح الطيب ج ١ ص ١٧٠ – ١٧٤ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٣٩ . وراجع **Aschbach : ibid, B. I. p. 95—100**

( ٢ ) راجع « دولة الإسلام فى الأندلس » القسم الأول ص ٢٨٢ – ٢٨٣ .

( ٣ ) هو بطرس بن سيمون الكبير ملك بلغاريا وقد كان يومئذ يعرف بملك الصقالبة .

( ٤ ) راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٣ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٣٤ .

العلماء وأقطاب البحث والمناظرة . والظاهر أنه قد وقعت فعلا قبل ذلك مراسلات كلامية بين الناصر وأوتو عن الإسلام والنصرانية ، وأن الناصر قد عرض في بعض رسائله بالنصرانية وتعاليمها ، فألفى أوتو الفرصة سانحة لأن يدافع سفيره العلامة الذلق عن قضية النصرانية لدى خليفة قرطبة(١) . بيد أنه يبدو من أقول الروايات الكنسية أن هذه المهمة الجدلية ، لم تكن إلا مهمة ثانوية إلى جانب موضوع سفارته الأصلية ، وأن مهمته الحقيقية كانت تتعلق بشأن توغل المستعمرات العربية المغامرة ، فى جنوبى فرنسا وفى ليجوريا وسويسرة ، وعيثها فى تلك الأنحاء ، بصورة تبث الرعب والروع إلى كثير من المدن والجماعات النصرانية ، والاستعانة بنفوذ خليفة الأندلس الذى تنتمى إليه هذه المستعمرات من الناحية الأدبية ، لوقف عدوانها وتوغلها(٢) . وقدم يوحنا إلى قرطبة عن طريق الرون وقطلونية برفقة راهب آخر ، ومعه طائفة نفيسة من الهدايا برسم الخليفة ، فاستقبل بحفاوة ، وأنزل فى إحدى الدور الرسمية . ولكن الناصر لم يبادر باستقباله حين وقف على موضوع رسالته ، ولم يقبل بالأخص أن تكون المسائل الدينية موضوع جدل بينهما . ولما ألح يوحنا فى طلب المقابلة والمحادثة ، أجاب الناصر بأنه سبق أن أرسل رسولا أسقفاً إلى أوتو فاعتقله مدى ثلاثة أعوام ، وأنه سيعتقله أى يوحنا ، أضعاف هذه المدة ، لأنه أرفع مقاماً من ملك النصرانية . وأخيراً تقرر أن يرسل الناصر إلى ملك الألمان رسولا آخر يستوثق من عواطفه ونياته نحوه ، وأن يبقى يوحنا معتقلا حتى يعود السفير . واختير لهذه السفارة كالعادة قس من رعايا الخليفة هو ربيع أو ريفا الأسقف ، وكان عالماً متمكناً يشغل فى البلاط منصباً هاماً ، ويحبوه الناصر بعطفه وتقديره ، لعلمه وجليل خدماته(٣) ، فاخترق فرنسا إلى ألمانيا ، ومثل لدى الإمبراطور أوتو فى تورنجن ، حيث كان ينفق معظم أوقاته . وكان أوتو يجوز يومئذ بعض المتاعب الداخلية من جراء ثورة ولده عليه ، فأبدى تساهلا فى قبول وجهات نظر الخليفة ، وأكرم مثوى سفيره ، وعاد ربيع الأسقف إلى قرطبة ، بعد سنتين من سفره (٣٤٧ هـ — ٩٥٨ م) . فارتاح الناصر لنتائج سفارته ، وأذن برؤية يوحنا سفير

---

(١) Reinaud: Invasions des Sarrazins en France p. 187

(٢) تناولنا قصة هذه المستعمرات فى الفصل التالى .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٣ . وهو ربيع بن زيد من زعماء النصارى المعاهدين ، وكان يجيد العربية واللاتينية .

الإمبراطور ، واستقبله بقصر قرطبة فى احتفال فخم ، ظهرت فيه روعة البلاط الأموى ، وأفضى إلى الخليفة بموضوع سفارته . ولسنا نعرف ماذا كانت نتائج هذه السفارة ، لأن الرواية العربية لا تحدثنا عن موضوعها ، ولا تحدثنا الرواية الكنسية عن نتائجها . ولكن المرجح أن وجهة النظر التى أبدتها حكومة قرطبة لسفير الإمبراطور ، فيما يتعلق بأمر المستعمرات العربية المغامرة ، وغزواتها فى غاليس وشمالى إيطاليا وسويسرة ، أنها ليست لها علاقة بتلك المستعمرات ، وأنها لاتتحمل تبعة أعمالها ، ولاتستطيع أن تتدخل فى شأنها ، أو تبذل نصحها لأولئك المغامرين الخارجين عن طاعتها ، وهو استنتاج يؤيده صمت الرواية العربية عن ذكر أخبار هذه المستعمرات ، مما يدل على أن حكومة الأندلس ، لم تكن ذات علائق رسمية بها ، ولم تكن تعنى بأمرها ، وإن كانت بلا ريب تنظر إلى غزواتها وتوغلها فى الأراضى النصرانية ، بعين العطف والرضى . ولكن لوتبراند وهو مؤرخ كنسى معاصر ، يؤكد لنا أن الخليفة كان يحمى هذه المستعمرات ، ويمدها بالتشجيع والعون(١) .

بيد أن الرواية الكنسية تقدم إلينا بهذه المناسبة حديثاً طريفاً عن آراء الناصر فى نظم الحكم ، فقد وقف الناصر من مستشاريه أو من يوحنا نفسه على طرق نظام الحكم الإقطاعى السائد فى ألمانيا ، وما يتمتع به بعض الأمراء المحليين فى ظل هذا النظام ، من الاستقلال الداخلى ، وأبدى ليوحنا اعتراضه على هذا النظام ، قائلا إن ملككم أمير حكيم ماهر ، ولكن فى سياسته شيئاً لا أستسيغه ، وهو أنه بدلا من أن يقبض بيديه على جميع السلطات ، ينزل عن بعضها لأتباعه ، ويترك لهم بعض ولاياته ، معتقداً أنه يكسب بذلك ، وهذا خطأ فادح ، فإن مداراة العظماء لايمكن إلا أن تزيد فى كبريائهم ، وتذكى رغبتهم فى الثورة(٢) . وفى ذلك ما يوضح لنا فكرة الناصر فى الحكم المطلق ، وسياسته فى سحق أولى الشأن والعصبية من زعماء القبائل العربية ، واعتماده على بطانة ذليلة من الفتيان الصقالبة والمولدين .

تلك تفاصيل المراسلات والسفارة الشهيرة التى تبادلها أوتو الأكبر وعبد الرحمن الناصر ، زعيما النصرانية والإسلام فى عصرهما ، بيد أنها لم تكن خاتمة الصلات

(١) Reinaud : ibid, p. 193

(٢) Dozy : Hist. V. II. p. 153

الدبلوماسية بين الناصر وملوك النصرانية . فقد تلقى الناصر كذلك فى سنة ٣٤٤ هـ (٩٥٥ م) سفارة من أردونيو الرابع ملك ليون يرجو عقد السلام والمودة ، فأجابه إلى طلبه ؛ وأرسل فى السنة التالية سفيره محمد بن الحسين إلى ليون ، فعقد مع أردونيو معاهدة صادق عليها ، ولكن حال دون تنفيذها منافسة سانشو لأخيه أردونيو . وفى سنة ٣٤٧هـ (٩٥٨م) وفدت طوطة ملكة ناڤار بنفسها إلى قرطبة ، ومعها ولدها غرسية وسانشو أمير ليون ، وطائفة من الأحبار والعظماء النصارى ، فاستقبلهم الناصر فى قصره بالزهراء استقبالا حافلا ، وعقد السلم مع طوطة ، وأقر ولدها ملكاً على ناڤار ، ووعد سانشو بالعون على استرداد عرشه . ثم وفدت على الناصر رسل البابا يوحنا الثانى عشر فى طلب السلم والمودة بين الإسلام والنصرانية فأجابهم إلى ما طلبوا[1] ، وكانت سفارة ذات مغزى واضح فى الاعتراف بزعامة الناصر للعالم الإسلامى . وفى أخبار هذه السفارات المتبادلة بين زعيم الإسلام وملوك النصرانية ، وفى تفاصيلها الشائقة ، ما يلقى كبير ضوء على طبيعة التقاليد والرسوم الدبلوماسية فى العصور الوسطى .

— ٥ —

فى أوائل سنة ٣٤٩ هـ مرض الناصر من برد شديد أصابه ، واحتجب حيناً ، وأكب الأطباء على معالجته حتى تحسنت حالته نوعاً ، وعاد إلى الجلوس فى القصر ، ولكنه أصيب بنكسة ، وعاد إلى احتجابه ، ولبث أشهراً تشتد به العلة حيناً ، وتخف حيناً ، حتى وافاه القدر المحتوم ، فى الثانى من شهر رمضان سنة ٣٥٠ هـ (١٥ أكتوبر سنة ٩٦١ م) . وكانت وفاته بقصر الزهراء فى الحادية والسبعين من عمره ، واستطال حكمه زهاء خمسين عاماً ، وهى أطول مدة حكمها خليفة من خلفاء الإسلام ، إذا استثنينا عهد المستنصر بالله الفاطمى بمصر .

وكان عبد الرحمن الناصر أعظم أمراء الإسلام فى عصره ، بل ربما كان أعظم أمراء عصره قاطبة . ولم تصل الدولة الإسلامية فى الغرب ، إلى ما وصلت إليه فى عصر الناصر ، من القوة والسؤدد والهيبة والنفوذ . وكان يتمتع بخلال باهرة قلما تجتمع فى شخصية واحدة ، سياسية وعسكرية وإدارية . وكان يشبه فى

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٣ .

حزمه وصرامته وبعد نظره ، بجده الأكبر عبد الرحمن الداخل(١) . ويجمل ابن الأبار خواصه وخواص عصره فى تلك العبارة : « وظهر لأول ولايته من يمن طائره ، وسعادة جده ، واتساع ملكه ، وقوة سلطانه ، وإقبال دولته ، وخمود نار الفتنة على اضطرامها بكل جهة ، وانقياد العصاة لطاعته ، مما تعجز عن تصوره الأوهام »(٢) . وتولى حجابته لأول ولايته مولاه بدر بن أحمد ، وما لبث أن اصطفاه وأولاه كل ثقته ، وفوض إليه الأمر والنهى ، وجعله على حد قول المؤرخ «شمساً لملكه وبدراً »(٣). وولى أبناءه الثلاثة عبد الرحمن وعبد الله وإسماعيل مناصب فى القصر والخاص . ولما توفى بدر بن أحمد فى شهر رجب سنة ٣٠٩هـ ، ولى الناصر مكانه فى الحجابة موسى بن محمد بن حُدير . وتولى وزارته عدة من أنبه رجال العصر ، منهم أحمد بن محمد بن حُدير ، وجَهْور بن عبد الملك ، وعبد الله بن محمد الزجّالى . وتولى إدارة الشئون المالية عبد الملك بن جهور ، وأحمد بن عبد الملك بن شُهَيد(٤). وأهدى ابن شهيد إلى الناصر هديته المشهورة ، التى أفاض فى وصفها مؤرخو الأندلس ، وكان منها خمسمائة ألف مثقال من الذهب ، ومائتا أوقية من المسك والعنبر ، وثلاثون شقة من الحرير المرقوم بالذهب ، ومائة فرس مسرجة ، وعشرون بغلا عالية الركاب ، وأربعون وصيفاً ، وعشرون جارية بكسوتهن وزينتهن ، وأصناف عديدة أخرى . قال ابن خلدون « وهى مما يدل على ضخامة الدولة الأموية واتساع أحوالها » . ويجمع مؤرخو الأندلس على أنه لم تقدم هدية فى قدرها ونفاستها إلى ملك من ملوك الأندلس . قدمها ابن شهيد إلى الناصر فى سنة ٣٢٧ هـ ، ومعها خطاب رقيق يشيد فيه بعظمة الناصر ومآثره ، فوقعت لديه أحسن موقع ، وزاده حظوة واختصاصاً ، وأسمى منزلته على سائر الوزراء ، وأسبغ عليه لقب ذى الوزارتين ، فكان أول من حظى بهذا اللقب من وزراء الأندلس ، وضاعف له رزق الوزارة ، وجعله ثمانين ألف دينار فى العام(٥) . وولى قيادة الجيش لأول عهد الناصر أحمد بن محمد

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١٦٣ .

(٢) الحلة السيراء ( ليدن ) ص ٩٩ — ١٠٠ .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٠ .

(٤) البيان المغرب ج ص ١٦٤ .

(٥) راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٨ ؛ ونفح الطيب ج ١ ص ١٦٦ و ١٦٧ و ١٧٧ نقلا عن ابن حيان وابن الفرضى وغيرهما .

ابن أبى عبدة ، سليل الأسرة الشهيرة ، التى تولى زعماؤها قيادة الجيوش الأندلسية خلال الفتنة الكبرى . وكذلك وليها الحاجب بدر غير مرة ، ووليها الفتيان الصقالبة مثل نجدة وميسور وغيرهما . وقد رأينا كيف انتهت سياسة عبد الرحمن فى إيثار الصقالبة بالقيادة إلى كارثة الخندق . وممن ولى القضاء فى عهد الناصر أحمد بن محمد بن زياد ، وأسلم بن عبد العزيز بن هشام ، ومنذر بن سعيد البلوطى(١) .

وقد أورد لنا ابن حيان ثبتاً طويلا من الوزراء وأصحاب الخطط والموالى الذين تولوا المناصب الكبرى فى عهد الناصر .

فمن الوزراء : محمد بن سليمان بن وانسوس . سعيد بن المنذر القرشى ؛ عبد الحميد بن بسيل ، خالد بن أمية بن شهيد . عيسى بن أحمد بن أبى عبدة ؛ جهور بن عبد الملك البختى ، أحمد بن محمد بن إلياس .

ومن أصحاب الخطط : محمد بن سعيد بن المنذر القايد . عيسى بن فطيس الكاتب . عبد الله بن بدر بن أحمد صاحب الشرطة . محمد بن قاسم بن طملس صاحب المظالم . محمد بن عبد الله بن موسى الخازن ؛ إسماعيل بن بدر بن اسماعيل العارض .

ومن الموالى : جهور بن عبيد الله بن محمد بن أبى عبده . أحمد بن خالد ابن أمية بن عيسى بن شهيد . محمد بن جهور بن عبد الملك البختى . مروان بن جهور بن عبد الملك البختى ، أحمد بن سهل بن محمد . عبد الله بن أحمد بن محمد ابن عيسى . محمد بن عباس بن محمد بن أبى عبدة . عبيد الله بن عباس بن أحمد ابن أبى عبده ، عبد الله بن يحيى بن أدريس . عبد الوهاب بن محمد بن بسيل . محمد بن مروان بن عبد الله بن بسيل . عبد الرحمن بن أحمد بن زكريا بن عاصم . محمد بن أحمد بن قابوس . أحمد بن محمد بن عيسى . محمد بن عبد السلام بن كليب بن ثعلبة(٢) .

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١٦١ .

(٢) نقلنا هذا الثبت عن ابن حيان أورده فى المقتبس — السفر الخامس — مخطوط الخزانة الملكية الذى سبقت الإشارة إليه غير مرة . وأورد لنا ابن حيان أيضاً ثبتاً طويلا بأسماء عمال الكور فى عهد الناصر استغرق صفحة كاملة ( لوحة ١٥٣ أ ) . ولكننا لم نجد محلا لإيراده .

وذكر لنا ابن حيان ، فى حوادث سنة ٣٢٤ هـ ، أن الوزراء فى هذه السنة كانوا عشرة ، وهم : سعيد بن المنذر القرشى المروانى . أحمد بن محمد بن حدير . عبد الحميد بن بسيل . أحمد بن عبد الوهاب بن عبد الرؤوف . خالد بن أمية ابن شهيد . عيسى بن أحمد بن أبى عبدة . عبد الملك بن جهور . فطيس بن أصبغ بن فطيس . أحمد بن محمد بن إلياس . يحيى بن إسحق .

وذكر لنا فى حوادث سنة ٣٢٥ هـ ، أنه قد عزل عن الوزارة يحيى بن إسحق ، ووليها أحمد بن عبد الملك بن شهيد ، وعبد الرحمن بن عبد الله الزجالى ، وأن الوزراء بلغ عددهم فى هذه السنة واحداً وعشرين وزيراً ، منهم تسعة من العشرة الذين سبق ذكرهم عدا يحيى بن إسحق[1] .

وكان عبد الرحمن الناصر عالماً أديباً ، يهوى الشعر وينظمه ، ويقرب الأدباء والشعراء ؛ وكان فى مقدمة دولته وأكثرهم حظوة لديه ، الفقيه ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد ، وشاعر الدولة المروانية منذ محمد بن عبد الرحمن . ويفيض ابن عبد ربه فى مناقب الناصر ، ويستعرض غزواته منذ ولايته حتى سنة ٣٢٢هـ ، فى أرجوزة طويلة رتبت وفق السنين[2] . ومن شعره فى وصف عصر الناصر ، واعتزاز الإسلام بدولته قوله :

قد أوضح الله للإســلام منهاجا ... والناس قد دخلوا فى الدين أفواجا
وقد تزينت الدنيــا لســاكنها ... كأنها ألبست وشياً وديبــاجا
يا ابن الخلائف إن المزن لو علمت ... نداك ما كان منها المــاء ثجّاجا
والحرب لو علمت بأساً تصول به ... ما هيجت من حمياك الذى اهتاجا
مات النفاق وأعطى الكفر رمته ... وذلت الخيــل إلجاماً وإسراجا
وأصبح النصر معقــوداً بألوية ... تطوى المراحل تهجيراً وإدلاجا
أدخلت فى قبــة الإسلام بارقة ... أخرجتها من ديار الشرك إخراجا
بجحفل تشرق الأرض الفضاء به ... كالبحر يقذف بالأمواج أمواجا
يقوده البدر يسرى فى كواكبه ... عرمرماً كسواد الليــل رجراجا

(١) وردت الفقرة الأولى فى المقتبس — السفر الخامس — لوحة ١٥٣ أ ، ووردت الفقرة الثانية فى لوحة ١٦٢ أ .

(٢) راجع هذه الأرجوزة فى كتاب العقد الفريد ( طبعة المطبعة الأزهرية ) ج ٣ ص ٢٠٩ إلى ٢٢٧ .

إن الخلافة لن ترضى ولا رضيت حتى عقدت لها فى رأسك التاجا[1]

ومما ينسب إلى الناصر من النظم ، قوله :

لا يضر الصغير حدثان سن إنما الشأن فى سعود الصغر
كم مقيم فازت يداه بغنم لم تنله بالركض كف مغير[2]

وكان الناصر سمحاً وافر الجود . ويصفه ابن الأثير بأنه كان ، أبيض ، أشهل ، حسن الوجه ، عظيم الجسم ، قصير الساقين[3] » وترك الناصر من البنين أحد عشر ولداً منهم ولى عهده وخلفه الحكم المستنصر بالله .

وقال الوزير جعفر بن عثمان المُصْحفى فى رثاء الناصر :

إلا إن أياماً هفت بإمامها لجائرة مشتطة فى احتكامها
فلم يؤلم الدنيا عظام خطوبها وأحداثها إلا قلوب عظامها
تأمل فهل من طالع غير آفل لهن وهل من قاعد لقيامها
وعاين فهل من عائش برضاعها من الناس إلا ميت بفطامها
كأن نفوس الناس كانت بنفسه فلما توارى أيقنت بحمامها
فطار بها يأس الأسى وتقاصرت يد الصبر عن أعوالها واحتدامها

ويشيد النقد الحديث بمناقب عبد الرحمن الناصر وعصره أعظم إشادة : وربما كان أبلغ ما قيل فى ذلك تلك العبارات القوية التى يختتم بها العلامة دوزى حديثه عن عصر عبد الرحمن الناصر : « لقد كانت هذه نتائج باهرة ، ولكنا نجد إذا ما درسنا ذلك العصر الزاهر ، أن الصانع يثير الإعجاب والدهشة ، بأكثر مما يثيرها المصنوع : تثيرهما تلك العبقرية الشاملة التى لم يفلت شىء منها ، والتى كانت تدعو إلى الإعجاب فى تصرفها نحو الصغائر ، كما تدعو إليه فى أسمى الأمور » إن ذلك الرجل الحكيم النابه ، الذى استأثر بمقاليد الحكم ، وأسس وحدة الأمة ، ووحدة السلطة معاً ، وشاد بواسطة معاهداته نوعاً من التوازن السياسى ، والذى اتسع تسامحه الفياض لأن يدعو إلى نصحه رجالا من غير المسلمين ، لأجدر بأن يعتبر قريناً لملوك العصر الحديث ، لا خليفة من خلفاء العصور الوسطى »[4].

(١) وقيل إن هذه القصيدة وجهت إلى الناصر لمناسبة عوده ظافراً من أول غزوة قام بها ضد الثوار فى مستهل حكمه .

(٢) نفح الطيب ج ١ ص ١٦٦ .

(٣) ابن الأثير ج ٨ ص ١٧٧ .

(٤) Dozy : Hist, V. II. p. 175

# الفصل الثالث

## غزوات المسلمين

## فى غاليس وشمال إيطاليا وسويسرة

توقف الغزو الإسلامى عقب بلاط الشهداء . استئناف الغزو فى عهد هشام . غزو الفرنج لشمال الأندلس . الغزوات الإسلامية المغامرة . صمت الرواية الإسلامية عن ذكرها . غزو قورسقة وشواطىء فرنسا الجنوبية . غزو مرسيليا وبروڤانس . غزو موسى بن موسى لسبتمانيا . غزو جزيرة كاماراج . اضطراب الأحوال فى جنوبى فرنسا . غزو المسلمين لشواطىء سان تروپيه . معاقلهم فى تلك الأنحاء . تدخلهم بين النصارى . اختراق الغزاة لدوفينه . عبورهم مون سنى . احتلالهم لممرات الألب . جوازهم إلى سهول پييمون . عودهم إلى غزو بروڤانس . غزوهم لمرسيليا وإيكس . غلقهم لممرات الألب . تقدمهم إلى ليجوريا . غزوهم لمنطقة ڤاليه وساڤوا . وصولهم إلى قلب سويسرة وشرقها . غزوهم لثغر فريجوس . اتحاد الأمراء النصارى على مقاومتهم . استنجادهم بقيصر قسطنطينية. مهاجمة المسلمين وتمزيقهم . الصلح بينهم وبين ملك بروڤانس . احتلالهم لممر سان برنار . استيلاؤهم على جرينوبل . غاراتهم فى پييمون . الحرب بينهم وبين المجر . وصولهم إلى سان جالن . قتالهم وهزيمتهم . صدى الغزوات الإسلامية فى جنوبى أوربا . سعى البابوية وإمبراطور ألمانيا لوقفها . محاربة الغزاة فى دوفينه وبروڤانس . هزيمتهم وارتدادهم إلى الجنوب . سقوط حصن فراكسنيه . سقوط المستعمرات الإسلامية فى الألب . غزوات بحرية إسلامية لشواطىء فرنسا . غزو قورسقة وسردانية . ظروف هذه الغزوات الإسلامية . خواصها وبواعثها . آثارها المادية والأدبية . أثر العرب فى تقدم الزراعة فى الأنحاء المفتوحة . نقلهم لكثير من المحاصيل والغراس . أثرهم فى تحسين سلالة الخيل . الآثار الاجتماعية . أقوال النقد الحديث .

— ١ —

تحدثنا فيما تقدم عن غزوات العرب فى غاليس ( جنوبى فرنسا ) منذ الفتح ، ورأينا كيف وضع ارتداد العرب فى موقعة بلاط الشهداء فى سنة ١١٤هـ (٧٣٢ م) حداً لغزواتهم فى غاليس ، وكيف فقدوا تباعاً قواعدهم فى لانجدوك وسبتمانيا ، حتى انتهت رياستهم فيما وراء البرنيه بسقوط ثغر أربونة ، آخر قواعدهم فى سبتمانيا ، فى يد الفرنج فى سنة ١٤٢ هـ ( ٧٥٩ م )[1] .

وكانت الأندلس خلال هذه الفترة تضطرم بالفتن الداخلية والحرب الأهلية . ولما استطاع عبد الرحمن الأموى أن ينتزع الرياسة لنفسه من غمر الفتنة ، وأن يعيد

( ١ ) راجع « دولة الإسلام فى الأندلس » القسم الأول ص ١٢٧ .

ملك الدولة الأموية بالأندلس ، لبث بقية عهده يعمل على توطيد ملكه الفتى ، وحمايته من الثوار والخوارج ، ولم تتح له فرصة للتفكير فى الغزوات الخارجية . بل لقد اضطر أن يقف موقف المدافع من مملكة الفرنج ومن عاهلها شارلمان ، الذى حاول أن يغزو الولايات الإسلامية ، بمؤازرة الزعماء الخوارج فى الثغر الأعلى ، واضطر أن يغضي مدى حين عن غزوات المملكة النصرانية الناشئة ، لأراضى الأندلس وقواعدها الشمالية .

فلما تولى ولده هشام الملك ، واستطاع أن يقضى على ثورة أخويه سليمان وعبد الله ، وجه عنايته إلى مقارعة المملكة الفرنجية ، ورد خطرها عن الأندلس ، وبعث إلى الشمال فى سنة ١٧٦ هـ (٧٩٢ م) بجيش كثيف بقيادة حاجبه عبد الملك ابن عبد الواحد بن مغيث ، فعبر جبال البرنيه ، ونشبت بين المسلمين والفرنج فى بسائط سبتمانيا عدة معارك كانت سجالا ، وجدد بذلك عهد الغزو والجهاد فيما وراء البرنيه .

وعاد الفرنج فى عهد الحكم بن هشام ، فعبروا جبال البرنيه فى سنة ١٨٥ هـ ( ٨٠١ م ) وغزوا الثغر الأعلى وافتتحوا ثغر برشلونة ، واقتطعوا بذلك جزءاً من الأندلس الشمالية . ولم تمض بضعة أعوام أخرى ، حتى عبر الفرنج البرنيه للمرة الثانية ( ١٩٣ هـ — ٨٠٩ م ) وحاولوا الاستيلاء على مدينة طرطوشة ، ولكن المسلمين استطاعوا إنقاذها .

وفى عهد عبد الرحمن بن الحكم سارت حملة بحرية أندلسية لغزو الجزائر الشرقية . وقد رأينا فيما تقدم كيف غدت مياه الأندلس الشرقية مركزاً لحملات البحارة المسلمين ، يسيرون منها نحو الشمال والشرق إلى الشواطئ والجزائر القريبة ، ينقضون عليها طلباً للغنيمة والسبي ، وكيف بدأت من ذلك الحين محاولات المجاهدين المسلمين ، لغزو شواطىء فرنسا الجنوبية وأحواز مصب الرون .

وقد فصلنا فيما تقدم من كتابنا أخبار الغزوات الأندلسية الرسمية فيما وراء البرنيه ، وأشرنا بإيجاز إلى بداية عهد الحملات البحرية الأندلسية الخاصة[1]. سنحاول فى هذا الفصل أن نستعرض لمحة من أخبار هذه الحملات والغزوات الإسلامية غير الرسمية البحرية والبرية ، إلى شواطئ فرنسا الجنوبية ، وما يجاورها

---

( ١ ) راجع « دولة الإسلام فى الأندلس » ص ٢٦٥ و ٢٦٦ .

من سهول ليجوريا وهضاب سويسرة ، ومما يجدر ذكره أن الرواية الإسلامية قلما تشير إلى هذه الغزوات بكلمة ؛ وربما كان ذلك راجعاً إلى طبيعة هذه الغزوات والمغامرات غير الرسمية ، التى كانت تنظمها جماعات خاصة من المجاهدين لا ترتبطها بحكومة قرطبة صلة رسمية ، ولا تعتمد إلا على جهودها ومواردها الخاصة .

بدأت هذه الغزوات الأندلسية للشواطئ والثغور الفرنجية منذ أوائل القرن التاسع . وكان معظمها حملات بحرية ، قوامها جماعات من المجاهدين والزعماء المغامرين . فنى سنة ٨٠٦ م غزت إحدى هذه الجماعات البحرية المجاهدة جزيرة كورسيكا ( قورسقة ) ، وهزمت الأسطول الفرنجى الذى بعثه ببين ابن شارلمان ملك إيطاليا لقتالهم ، وعادت بكثير من الغنائم والسبي . وتوالت بعد ذلك غزوات البحارة الأندلسيين لشواطىء كورسيكا وسردانية ، وهما يومئذ أغنى جزر البحر المتوسط . وكذلك توالت غارات البحارة المسلمين على شواطىء فرنسا الجنوبية . وتعنى الرواية الكنسية والفرنجية المعاصرة بتدوين هذه الغزوات الإسلامية ، وتصف عصفها وعيثها ، وما كانت تحدثه من الرعب بين السكان النصارى ، وتقول لنا إن البحارة المسلمين ، ذهبوا فى الجرأة إلى حد التجول فى مياه الأطلنطيق ، والإغارة على شواطىء فرنسا الغربية ، وإن سفينة عربية كبيرة اجتازت فى ذلك الحين مياه الأطلنطيق حتى مصب نهر اللوار[1] .

وفى سنة ٨٣٨ م سار أسطول أندلسى من مياه طركونة ومياه الجزائر الشرقية إلى مياه پروڤانس ، وغزا ثغر مرسيليا وما حوله من الأراضى ، وأثخن فيها ، وحمل الغزاة كثيراً من الغنائم والسبي . ولم يستطع ملك فرنسا الضعيف لويس ابن شارلمان مقاتلة الغزاة . ثم عاد البحارة المسلمون وغزوا شواطىء پروڤانس مرة أخرى ، ونفذوا إلى مصب نهر الرون ، واقتحموا مدينة آرل وخربوا كنائسها . وتوالت بعد ذلك غزواتهم لهذه المنطقة . وفى سنة ٨٥٠م فى أواخر عهد عبد الرحمن ابن الحكم ، عبر موسى بن موسى بن قسى صاحب سرقسطة وزعيم الثغر الأعلى ، جبال البرنيه ، وغزا سبتمانيا وأثخن فى نواحيها ، واضطر شارل الأصلع ملك فرنسا أن يهادنه ، وأن يعقد الصلح معه ، وأن يسترضيه بالهدايا والتحف . ومن

---

( ١ ) جمعت أقوال الروايات الكنسية والفرنجية المعاصرة ، عن هذه الغزوات الإسلامية ، فى موسوعة **Bouquet** التى سبقت الإشارة إليها غير مرة ، بنصوصها اللاتينية أو الفرنسية القديمة ، وقد عتمدنا عليها فى كثير من حوادث هذا الفصل .

المرجح أن هذه الغزوة لم تكن ذات طابع رسمى ، ولم تكن لها صلة بحكومة قرطبة . ذلك أن بنى قسيّ زعماء الثغر الأعلى فى ذلك الحين ، كانوا يتمتعون باستقلال محلى ، ولا يدينون بالولاء لحكومة قرطبة ، وكانوا بالعكس ينزعون إلى مقاومتها والخروج عليها . وفى سنة ٨٦٩م هاجمت جماعة من البحارة والمجاهدين المسلمين شواطىء پروڤانس مرة أخرى ، واستولت على جزيرة كاماراج الواقعة فى مصب الرون ، وأسرت أسقف آرل الذى كان يقيم بها ، وعادت مثقلة بالغنائم والأسرى .

— ٢ —

وأذكى نجاح هذه الغزوات المتوالية ، فى نفوس المغامرين والمجاهدين من مسلمى الأندلس وإفريقية ، حب التوغل فى هاتيك الأنحاء ، ورغبة فى استعمارها والاستقرار فيها . وكانت أحوال غاليس ( جنوبى فرنسا ) قد اضطربت يومئذ ، وغلب سيد من سادة هذه الأنحاء يدعى بوسون على ولايتى دوفينه وپروڤانس ، وتلقب بملك آرل . وقام يناوئه بعض منافسيه ، ونشبت بينه وبينهم حرب أهلية ( نحو سنة ٨٩٠ م ) . فى تلك الآونة رست سفينة عربية صغيرة عليها عشرون بحاراً من المسلمين ، فى خليج جريمو أو خليج سان تروپيه ، ونزلوا إلى الشاطئ ولجأوا إلى غابة كثيفة ، تظللها الجبال ، ثم هاجموا بعض الضياع القريبة وفتكوا بسكانها . ولما رأوا منعة معقلهم من البر والبحر ، عولوا على الاستقرار فيه ، ودعوا إخوانهم من الثغور الإسلامية القريبة إلى القدوم ، وأرسلوا فى طلب العون والتأييد من حكومات الأندلس والمغرب ، فوفد عليهم كثير من المغامرين البواسل . ولم تمض أعوام قلائل ، حتى استقروا فى ذلك المكان ، وأنشأوا لهم سلسلة من المعاقل والحصون ، أمنعها وأشهرها حصن تطلق عليه الرواية الفرنجية المعاصرة ، اسم ( فراكسنتم ) Fraxinetum . والمظنون أنه هو المكان الذى تقوم عليه اليوم قرية (جارد فرينيه) Garde-Frinet الواقعة فى سفح جبال الألب[1]. وما زالت ثمة آثار تدل على قيام معاقل قديمة فى ذلك المكان . ولما كثر جمعهم ، واشتد ساعدهم ، اخذوا فى الإغارة على الأنحاء المجاورة ، وأصبحوا قوة يخشى بأسها . وسعى إليهم بعض الأمراء والسادة المتنافسين يستظهرون بهم ، بعضهم على بعض ، فلبوا الدعوة ،

(١) Reinand : Invasions des Sarrazins en France. p. 160

وانتزعوا من بعض السادة أراضيهم ، وأعلنوا أنفسهم سادة فى الأنحاء المغلوبة ، وبثوا الذعر والروع فى جنوب پروڤانس ، حتى وصفهم كاتب معاصر « بأن واحداً منهم يهزم ألفاً ، واثنين يهزمان ألفين »(١) .

وكانت هذه أول خطوة فى استعمار المسلمين لجنوبى فرنسا . وفى خاتمة القرن التاسع اتخذ المستعمرون المسلمون خطوة أخرى ، فتقدموا نحو جبال الألب غرباً وشمالا . وكانت مملكة آرل قد ضعفت واضمحلت ، وخلف بوسون ولده لويس ، ولكنه ذهب إلى إيطاليا ليحارب إلى جانب حلفائه فهزم هنالك وأسر ، وتركت مملكته بلا دفاع ، وساد الإنحلال والفوضى غاليس كلها . فانتهز المسلمون تلك الفرصة واخترقوا مفاوز دوفينه ، وعبروا « مون سنى » أهم ممرات الألب الفرنسية ، واستولوا على دير نوڤاليس الشهير الواقع فى وادى «سيس» على حدود پييمون ، وفر الأحبار إلى مختلف الأنحاء (سنة ٩٠٦ م) . وأغار المسلمون على القرى والضياع المجاورة ونهبوها ، وفتكوا بأهلها ، وأسر بعضهم وأخذوا إلى تورينو بإيطاليا وسجنوا فى ديرها ، ولكنهم استطاعوا أن يحطموا أغلالهم ، وأضرموا النار فى الدير وفى المدينة ، وفروا عائدين إلى زملائهم ؛ واشتد بأس المسلمين فى تلك الأنحاء ، واحتلوا معظم ممرات الألب ، فسيطروا بذلك على طرق المواصلة بين فرنسا وإيطاليا ، ثم انحدروا من آكام الألب إلى سهول بييمون ، وأغاروا على بعض مناطقها .

وفى سنة ٩٠٨ م نزلت سرية قوية من البحارة المسلمين فى شاطىء پروڤانس على مقربة من « إيج مورت » ونهبت دير بالمودى ، وكانت الأديار والكنائس يومئذ مطمح أنظار الغزاة ، لما كانت تغص به من الذخائر والأموال ؛ وانتشر المسلمون بعد ذلك فى جميع الأنحاء المجاورة ، واجتاحوا كل ما فى طريقهم من البسائط ، وهاجموا مرسيليا ، وهدموا كنيستها ، وغزوا إيكس ، وسبوا النساء وتزوجوا بهن ليكثر نسلهم ويقووا به ، وانضم إليهم كثير من النصارى المغامرين من أهل هذه الأنحاء ، وهجر السادة والأغنياء حصونهم وقصورهم ، والتجأوا إلى الداخل خشية القتل والأسر ، وأغلق المسلمون طريق الألب إلى إيطاليا ، وكان يمر بها كل عام ألوف من الحجاج الذين يقصدون إلى رومة ، واقتضوا منهم الضرائب الفادحة ليسمحوا لهم بالمرور .

---

(١) Reinaud : ibid, p. 161

— ٣ —

ثم اتخذ المسلمون خطوة جديدة فى سبيل التقدم إلى أواسط أوربا ، فدفعوا غزواتهم إلى بييمون ومونفراتو . وتقول لنا الرواية الكنسية المعاصرة إنهم وصلوا فى أوائل القرن العاشر إلى حدود ليجوريا على شاطىء خليج چنوة . ويروى لوتبراند ، وهو كاتب معاصر ، أن العرب غزوا سنة ٩٠٦ ، مدينة « آكى » من أعمال مونفراتو الشهيرة بحماماتها ( وهى على مقربة من تورينو ) ، ثم غزوها ثانية سنة ٩٣٥ بقيادة زعيم يدعى ( ساجيتوس ) ولكنهم هزموا ومزقوا . وفى هذا الوقت أيضاً نزلت جماعة قوية من البحارة الإفريقيين بساحل چنوة ، وقتلت عدداً كبيراً من أهلها ، وأسرت جموعاً كثيرة من النساء والأطفال .

وفى سنة ٩٣٩ م غزا المسلمون منطقة « ڤاليه » فى جنوب سويسرة ، ونهبوا دير « أجون » الشهير ، وغزوا فى الوقت نفسه منطقة « تارانتيز » من أعمال ساڤوا الوسطى ، ثم اتخذوا منطقة « ڤاليه » قاعدة للإغارة على الأراضى المجاورة فى سويسرة وإيطاليا ، ونفذوا منها إلى أواسط سويسرة ، ثم إلى « جريزون » فى شرق سويسرة ، ونهبوا دير ديزنتى أشهر وأغنى الأديار السويسرية ، ونهبوا طائفة أخرى من الأديار والكنائس الغنية . وفى بعض الروايات أيضاً أن المسلمين وصلوا فى غزواتهم إلى بحيرة چنيف ، وجاوزوا إلى مفاوز چورا الواقعة فى شمالها ، وكانت سويسرة يومئذ من أقاليم بورجونية وملكتها يومئذ الملكة « برت » الوصية على ولدها الطفل كونراد ، فارتدت حين اقتراب العرب إلى حصن ناء فى جهة نيو شاتل .

وفى سنة ٩٣٠ م غزا العرب فريجوس وكانت يومئذ من أكبر وأمنع ثغور فرنسا الجنوبية ، وغزوا أيضاً ثغر طولون ، ففر السكان إلى الجبال ، وعاث المسلمون فى تلك الأنحاء ، وخربوا المدن والحصون ، وأحرقوا الأديار والكنائس.

ولما اشتدت وطأة المسلمين فى جنوبى فرنسا ، وبلغ السخط من غزواتهم وعيثهم ذروته ، اعتزم سادة الجنوب ، وعلى رأسهم هوج ملك بروڤانس أن يبذلوا كل ما فى وسعهم لسحق ذلك العدو المزعج . ورأى هوج أن يبدأ بافتتاح حصن فراكسنيه (فراكسنتم) الذى يمتنع به المسلمون ، ويتخذونه قاعدة لتأمين مواصلاتهم مع اسبانيا وإفريقية ، وقاعدة للإغارة على الداخل ، وكتب إلى صهره إمبراطور

قسطنطينية ، يطلب منه أسطولا من قاذفات النار اليونانية ، حتى يستطيع مهاجمة المسلمين من البر والبحر معاً . فلبي نداءه . وفى سنة ٩٤٣ م رسا أسطول بيزنطى فى مياه سان تروپيه ، وزحف هوج فى نفس الوقت بجيشه على فراكسنيه ، وهوجم المسلمون من البر والبحر بمنتهى الشدة ، وأحرقت سفنهم ، ونفذ هوج إلى الحصن بعد قتال رائع ، وفر المسلمون إلى الآكام والربى ، وكاد يسحق سلطانهم فى تلك الأنحاء . ولكن حدث بعد ذلك أن علم هوج أن خصمه ومنافسه برانجيه ، قد عاد إلى إيطاليا لينازعه فى انتزاع عرشها فصرف هوج الأسطول ، واضطر أن يعقد الصلح مع المسلمين ، بشرط أن يبقوا فى رؤوس الألب وممراتها ، وأن يغلقوا الطريق إلى إيطاليا فى وجه خصمه ، وبذلك استعاد المسلمون قلاعهم وسيادتهم فى جنوبى پروڤانس .

واحتل المسلمون آكام الألب وممراتها ، وفرضوا الضرائب الفادحة على المسافرين ، واستطاعوا بسيطرتهم على ممر سان برنار الكبير ، الموصل بين سويسرة وإيطاليا ، وغيره من الممرات والمعاقل الجبلية ، أن يجتاحوا الأنحاء المجاورة ، وأن يبثوا فيها الذعر والروع ، واستقرت منهم جموع فى السهول والضياع القريبة من معاقلهم ، وتزوجوا النساء الأسيرات ، وزرعوا الأرض ، واكتفى أمراء هذه النواحى بأن يحصلوا منهم بعض الضرائب . ونفذ المسلمون أيضاً إلى منطقة نيس ذاتها ، وما يزال فى نيس إلى اليوم حى يعرف بحى العرب **Canton des Sarrazins**

وأخيراً نفذ المسلمون إلى قلب ولاية دوفينه ، وغزوا جرينوبل واحتلوها مدى حين ، واحتلوا واديها الخصيب «جريزيڤودان» الذى يجرى فيه نهر الإيزر فرع الرون ، وفر أسقف جرينوبل وزملاؤه إلى الشمال حاملين رفات قديسيهم [1] .

— ٣ —

وهكذا انتشرت المستعمرات والمعاقل الإسلامية خلال القرن العاشر الميلادى فى پروڤانس وساڤوا وپييمون وسويسرة ، وبسط المسلمون سيادتهم على ممرات جبال الألب وعلى الحدود بين غاليس وبلاد اللونبارد (شمال إيطاليا ) وبينها وبين سويسرة ، وبلغوا فى تقدمهم فى غاليس مدينة جرينوبل ، واحتلوا فى سويسرة ولاية ڤاليه ومفاوز چورا المتاخمة لبرجونية ، واحتلوا فى إيطاليا الشمالية ، ولاية

---

(١) Reinaud : ibid , p. 180 & 181

ليجوريا : وكانت معاقلهم فى پروڤانس ولا سيا حصن «فراكسنيه» ، قواعد غزواتهم وملاذ قوتهم وسيادتهم . والظاهر أنهم اتبعوا نفس هذه الخطة فى سهول پييمون ، فأنشأوا بها سلسلة من الحصون والقلاع القوية ، لتكون مركز غزواتهم فى بلاد اللونبارد وفى سويسرة ، فإن الرواية الكنسية التى كتبها حبر معاصر من دير نوڤاليس ، تذكر لنا اسم حصن إسلامى فى تلك الأنحاء وتسميه «فراشنديلوم» Fraschendellum ، والمظنون أنه هو المكان الذى تعرفه الجغرافية الحديثة باسم «فراسنيتو» ، وهو الواقع فى لومبارديا على مقربة من نهر « پو » . وتقص علينا نفس هذه الرواية الكنسية أيضاً أن سيداً نصرانيا من سادة تلك الأنحاء يدعو إيمون دفعه شغف المغامرة والكسب ، إلى محالفة المسلمين فانضم إليهم ، واشترك فى غاراتهم الناهبة ؛ وفى ذات يوم وقعت بين السبايا امرأة رائعة الحسن ، فاستبقاها إيمون لنفسه ، ولكن زعيماً مسلماً استحسنها وانتزعها منه قسراً ، فغضب إيمون والتجأ إلى كونت روتبالدرس حاكم بروڤانس العليا ، وفاوضه سراً فى محاربة المسلمين ، وإنقاذ البلاد منهم ، فرحب الكونت بهذا المشروع ، ودعا السادة إلى معاونته ، واستطاع أن يحشد قوات كبيرة ، وهوجم المسلمون فى بييمون من كل صوب ومزقوا ، وسقطت قلاعهم فى أيدى النصارى ، وذهب سلطانهم فى تلك الأنحاء . وتقص الرواية الكنسية أيضاً قصة مؤامرة دبرها كونراد ملك برجونية لإهلاك المسلمين النازلين فى أملاكه فى چورا وعلى حدود برجونية ، والمجر الذين كانوا يشاطرونهم يومئذ الإغارة والعيث فى تلك الأنحاء . وذلك أنه كتب إلى المسلمين يستحثهم على قتال منافسيهم المجر ، وانتزاع ما بيدهم من الأراضى والضياع الخصبة ، وكتب مثل ذلك إلى المجر يستحثهم لقتال المسلمين والمعاونة على إجلائهم ، وعين مكاناً للقاء الفريقين ، فالتقت الجموع المتنافسة من المسلمين والمجر ، ونشب بينهما قتال هلك فيه كثير من الفريقين ، ثم أشرف كونراد بجموعه ، ومزق البقية الباقية من الفريقين قتلا وأسراً ، وتضع الرواية تاريخ هذه الموقعة فى سنة ٩٥٢ م ، ولكنها لا تعين لنا مكان حدوثها[١] .

ومنذ منتصف القرن العاشر يأخذ نجم أولئك المسلمين المستعمرين المغامرين فى الأفول ، وتضمحل سيادتهم فى تلك الأنحاء . بيد أنهم لبثوا مدى حين بعد ذلك

---

(١) Bouquet : T, IX, p. 6., Reinaud : ibid , p.128

يحتلون كثيراً من مواقع ساقوا ، ويجوبون أنحاء سويسرة كلها فى طلب الغنيمة والسبى ، وقد اعتادوا على حرب الجبال وحذقوا أساليبها ، وبلغوا فى توغلهم فى سويسرة مدينة سان جالن على مقربة من بحيرة كونستانس ، وأنشأوا ثمة كثيرا من القلاع والأبراج ، التى مازالت تقوم منها إلى اليوم بعض الأطلال والبقايا ، ولبثوا حيناً فى سان جالن حتى حشد رئيس ديرها حوله جمعاً من المقاتلين الأشداء ، وفاجأوا المسلمين فى جوف الليل ، ومزقوهم قتلا وأسراً ، وبذلك خفت وطأة الغزوات الإسلامية فى شمال سويسرة .

واستمرت المستعمرات والمعاقل الإسلامية فى دوفينه وبروڤانس ، وبعض جهات الألب ، وكان قربها من «فراكسنيه» أمنع المعاقل الإسلامية يمدها بأسباب الجرأة والعون ، ويمدها قربها من البحر دائماً بأمداد جديدة من المتطوعين والمغامرين من ثغور الأندلس وإفريقية .

وكان لاستقرار هذه المستعمرات الإسلامية فى جنوبى أوربا ، وعيثها المستمر فى الأنحاء والسهول المجاورة ، وقع عميق فى الحكومات الأوربية ، وكان صريخ البابوية يتردد لدى أمراء أوربا ، بالسعى إلى مكافحة هذا الخطر الداهم ، وكان أوتو الأكبر إمبراطور ألمانيا وأعظم أمراء النصرانية يومئذ ، أشد هؤلاء الأمراء اهتماماً بالقضاء على خطر المستعمرات الإسلامية ، لأنه يدنو من أملاكه ويصيبها بشره . ولهذا رأى أن يبذل فى هذا السبيل سعيه ، لدى عبد الرحمن الناصر عاهل الأندلس وزعيم الإسلام الروحى والزمنى ، وأوفد إليه فى سنة ٩٥٦ م سفارته الشهيرة التى أتينا على ذكرها . وبحث سفيره يوحنا الجورزينى مع الخليفة مسألة اعتداء المستعمرات الإسلامية على الأراضى النصرانية ، والتمس إليه أن يعاون بنصحه ونفوذه على قمع هذا العدوان . ولكن هذا المسعى لم يسفر عن أية نتائج عملية ، إذ اعتذر الخليفة حسبما فصلنا من قبل ، بأن هذه المستعمرات الإسلامية لا تخضع له ولا تأتمر بأوامره ، وأنها تعمل مستقلة بعيدة عن حكومة قرطبة . على أن لوتبراند، وهو مؤرخ كنسى معاصر ، يؤكد أن الخليفة كان يحمى هذه المستعمرات ويمدها بالتشجيع والعون[1] .

— ٤ —

ولم يمض قليل على ذلك حتى أخرج المسلمون من معاقلهم فى آكام سان برنار

(١) Reinaud : ibid , p. 193

( فى نحو سنة ٩٦٩ م ) ؛ ولسنا نعرف تفاصيل ذلك الحادث ، ولكن المحقق أن المسلمين أبدوا كعادتهم منتهى البسالة فى الدفاع عن مواقعهم ؛ والظاهر أيضاً أن القديس برنار ( سان برنار ) الذى سميت هذه الآكام باسمه ، كان من أبطال الموقعة التى نشبت وانتهت بجلاء المسلمين ؛

واستمر المسلمون فى دوفينه وپروڤانس ، وكثيراً ما دعوا إلى التدخل بين سادة هذه الأنحاء . ولما غزا الإمبراطور أوتو بلاد اللونبارد ، وأخرج منها ملكها بيرانجيه ، التجأ ولده أدلبرت إلى عرب «فراكسنيه» ، ليعاونوه فى استعادة ملكه ، وكان هذا التحالف بين السادة والمسلمين ، يقوى سيادة الغزاة ويدعمها كلما أذنت بالانهيار . بيد أن هذه السيادة قد أخذت فى الاضمحلال ، مذ فقد العرب معاقلهم فى جبال الألب . وفى سنة ٩٦٥ م أخرج المسلمون من مدينة جرينوبل ومن واديها الخصب (جريزيڤودان) وطوردوا فى تلك النواحى ،وساءت أحوالهم ، وأعلن الإمبراطور أوتو بعد ذلك بعامين أو ثلاثة وهو يومئذ فى إيطاليا ، أنه سيتولى طرد المسلمين من الأراضى النصرانية ، ولكنه توفى دون القيام بمشروعه .

ثم دنت بوادر المعركة الحاسمة : وحدث فى ذلك الحين أن حبراً كبيراً ذائع الصيت ، وهو سان مايول أسقف دير كلونى من أعمال برجونية ، حج إلى رومة ، ولما عاد من طريق دوفينه أسره المسلمون المرابطون فى الجبال مع جماعة كبيرة من الحجاج ، واشترطوا عليهم فدى فادحة ، فدفعت بعد عناء ، وأطلق سراح سان مييل وزملاؤه ، وأذكى الحادث حماستهم وسخطهم ، وذاعت قصة أسرهم ، وما يعانيه الحجاج من شر المسلمين وعدوانهم . فنهض سيد من سادة تلك الأنحاء يدعى بويون ، ( أو بيفون ) ، وانتهز فرصة الحماسة العامة وجمع حوله كثيراً من المقاتلة ، وبنى حصناً فى سترون على مقربة من حصن كان يملكه المسلمون ، ولبث يتحين الفرصة لمفاجأة العرب والاستيلاء على حصنهم ، حتى استطاع ذات يوم أن يحمل بعض الحراس على فتح الأبواب ، فتمت الخيانة ، وباغت النصارى المسلمين فى حصنهم ، وقضوا عليهم قتلا وأسراً ( سنة ٩٧٢م ) ؛

وفى الوقت نفسه التف النصارى فى دوفينه حول زعيم يدعى جيوم ، وهاجموا المسلمين فى جميع مراكزهم وقلاعهم ومزقوهم فى كل ناحية ، وبذا انهارت سيادتهم فى دوفينه ، ولم تبق إلا فى پروڤانس ؛ ولما قوى جيوم وكثر جمعه ، بسط نفوذه

على پروفانس وتلقب بألقاب الإمارة ، واعتزم أن يخرج المسلمين نهائياً من تلك الأرض . فدعا السادة لمعاونته ومنهم كونت نيس ، ورأى المسلمون أن العاصفة تنذر باجتياحهم من كل ناحية ، فاستجمعوا كل أهبتهم وقواهم ، ونزلوا من الآكام إلى البسيط فى صفوف متراصة ، ووقعت بينهم وبين النصارى معركة هائلة فى « تورتور » فهزم المسلمون وارتدوا إلى قلاعهم ، ولاسيما «فراكسنيه» التى غدت ملاذهم الأخير . فطاردهم النصارى أشد مطاردة ، وضيقوا الحصار عليهم ، فحاولوا الفرار تحت جنح الليل إلى الغابات المجاورة ، ولكن النصارى لحقوا بهم وأمعنوا فيهم قتلا وأسراً ، وأبقى على من استسلم وعلى المسلمين الذين كانوا يحترفون الزرع فى الضياع المجاورة ، وفر كثيرون من طريق البحر ، وتنصر كثير منهم ، وبقى نسلهم فى تلك الأرض زمناً طويلا .

وهكذا سقط حصن فراكسنتم أو فراكسنيه سنة ٩٧٥ م ، بعد أن لبث زهاء ثمانين سنة مركزاً قوياً للغزوات العربية فى غاليس ، وقسمت أسلاب العرب وأراضيهم بين السادة والجند ، الذين اشتركوا فى هذه الحرب الصليبية ، وانهارت سلطة العرب فى تلك الأنحاء .

أما المستعمرات الإسلامية التى كانت مبعثرة فى آكام الألب ، فيقال إنها طوردت ومزقت فى نفس الوقت ، واعتنق الذين أسروا النصرانية . ولكن توجد رواية أخرى خلاصتها أن هذه المستعمرات لبثت فى معاقلها نحو جيل آخر حتى تولى مطاردتها زعيم يدعى جيرولدوس . وعلى أى حال فلم تأت أواخر القرن العاشر حتى ذهبت سيادة المسلمين فى غاليس وسويسرة ، ولم يجب أحد فى إفريقية والأندلس صريخ الغوث ، الذى وجهه أولئك المستعمرون البواسل إلى إخوانهم ، لأن الحوادث الداخلية لم تكن تسمح يومئذ ببذل هذا العون .

على أن ذلك لم يكن خاتمة الغزوات الإسلامية فى تلك المياه . ففى سنة ١٠٠٣ م سارت حملة بحرية من مسلمى الأندلس ، ونزلت بجوار أنتيب فى جنوب فرنسا ، واجتاحت الأراضى المجاورة . وفى سنة ١٠١٩ م نزلت حملة مسلمة أخرى فى ظاهر أربونة وحاولت أن تستولى عليها ، ولكنها هزمت ومزقت . وفى سنة ١٠٤٧ م هاجمت حملة أخرى جزيرة ليران الواقعة إلى الغرب من مرسيليا وأسرت عدداً من الرهبان . وظهر فى ذلك الحين زعيم أندلسى جرىء هو مجاهد العامرى

أحد أمراء الطوائف ، وصاحب ثغر دانية والجزائر الشرقية ( جزائر البليار ) ، واهتم بأمر الغزوات البحرية ، فسار فى أسطوله إلى مياه قورسقة وسردانية ، وغزا سردانية واحتل بعض أنحائها (سنة ٤٠٦ هـ — ١٠١٥ م ) ، ولكن النصارى استردوها بعد قليل(١) . ولبث مجاهد العامرى الذى تسميه الرواية النصرانية «موسيتو » أو موجيتوس » مدى حين سيد هذه المياه ، يبث فيها بحملاته الرعب والروع .

تلك هى قصة الغزوات الإسلامية فى غاليس وبلاد اللونبارد وسويسرة ؛ وهى قصة تغفل الرواية الإسلامية كثيراً من أدوارها ووقائعها ، ولكنها تشغل فراغاً كبيراً فى الروايات الكنسية والفرنجية المعاصرة . وهذه الروايات هى عمدتنا فيما ننقل من سير هذه الغزوات الشهيرة . ومن المحقق أنها مشبعة بروح التحامل والخصومة فى كثير من المواطن ، ولكنا نستطيع مع ذلك أن نتبين منها ، أهمية الدور الذى قام به أولئك المجاهدون والمغامرون المسلمون ، فى تلك الوهاد والآكام النائية ، وما كان لهم بين هاتيك الأمم من السيادة والنفوذ مدى عصور .

— ٥ —

والآن فلنحاول أن نستعرض طرفاً من العوامل والظروف التى أحاطت بتلك الغزوات الإسلامية النائية ، وطرفاً من الآثار التى خلفتها فى البلاد والأمم التى كانت ميداناً لها .

ينكر بعض مؤرخى الغرب على تلك الفتوحات والغزوات العربية والإسلامية بوجه عام ، خاصة الاستقرار والإنشاء ، ويقولون إنها كانت فى الغالب حملات ناهبة ، تقوم على رغبة الكسب وتحصيل الغنائم . ولاريب أن ظمأ المغنم وشغف المغامرة ، وما إليها من لذة الاستكشاف والسيادة ، كانت من أهم العوامل التى قامت عليها هذه الغزوات ، وتلك هى العوامل الخالدة التى تقوم عليها فتوحات الأمم منذ أقدم العصور . ولكن من الحق أيضاً أن نقول إن نزعة الجهاد لم تكن بعيدة عن تلك الغزوات ، وإن كثيراً من أولئك المغامرين البواسل ، كانت تحفزهم الحماسة الدينية ، وفكرة الجهاد فى سبيل الله . وقد كانت هذه العصابات الغازية المستعمرة تعمل فى الغالب لحساب نفسها ، ولكنها كانت تعمل ملحوظة بعطف

(١) ابن خلدون ؛ المقدمة ص ٢١٢ .

الحكومات والأمم الإسلامية التى تنتمى إليها . وكانت تؤدى إلى تلك الحكومات خدمات جليلة ، بما كانت تقوم به من إزعاج الحكومات والأمم النصرانية ، وإضعاف جيوشها ومواردها . ومن المحقق أيضاً أن نزعة الاستقرار والإنشاء لم تكن بعيدة عن أذهان الغزاة ، بل كان يحفزهم مثل ذلك الروح الاستعمارى القوى الذى دفع الأمم الغربية فى العصر الحديث إلى افتتاح الأمم المتأخرة واستعمارها[1]. وقد استقروا بالفعل واستعمروا ، حيث مهدت لهم الكثرة والقوة سبيل البقاء ، كما فعلوا فى إقريطش ( كريت ) ، حيث استقروا بها بعد افتتاحها زهاء قرن وثلث قرن ( ٨٢٧ — ٩٦١م ) ، ونشروا بها الإسلام والحضارة الإسلامية . وكذلك استقروا مدى حين فى بارى وفى تارنت من ثغور إيطاليا الجنوبية وفى راجوزا ( رغوس ) من ثغور الأدرياتيك الشرقية ؛ وكان لهم على شواطىء قلورية ( جنوبى إيطاليا ) مستعمرة زاهرة لبثت تستطع فى هذه المياه عصراً :

ويبالغ المؤرخون الغربيون أيضاً ، فى تصوير الآثار المخربة لتلك الغزوات الإسلامية ، وما كانت تقترن به من ضروب العنف والسفك . ولكن العنف والقسوة والسفك والتخريب ، لم تكن خاصة بالغزوات الإسلامية ، وإنما كانت من خواص العصر ذاته ، ولم تكن الغزوات النصرانية للأراضى الإسلامية أقل عنفاً وسفكاً . ويكفى أن نشير هنا إلى الحملات الصليبية التى لبثت مدى عصور تحمل إلى الأمم الإسلامية أروع صنوف الدمار والسفك ، بل يكفى أن نشير إلى ما كانت ترتكبه البعوث الإستعمارية الحديثة ، الإسبانية والإنجليزية والفرنسية ، فى الدنيا الجديدة من صنوف القسوة والسفك ، وما ترتكبه اليوم بعض الأمم الأوربية « المتمدنة » من الجرائم المروعة فى إفريقية وآسيا باسم المدنية والاستعمار .

* * *

والآن لنر ماذا خلفته الغزوات الإسلامية فى هذه الأنحاء من الآثار المادية والاجتماعية . ومن المحقق أن هذه الآثار لاتكاد ترى اليوم ، ولايشعر بها إلا الباحث المنقب . ويلاحظ أولا أن الفتوحات العربية الأولى فى غاليس وأكوتين لم يطل أمدها أكثر من نصف قرن ، ولم تكن الحضارة الإسلامية فى اسبانيا قد تكونت وتفتحت بعد . ثم كانت الغزوات اللاحقة التى فصلنا أخبارها ، والتى كانت

---

(١) Finlay : Byzantine Empire, Ch. III—I

أقرب إلى المغامرة المؤقتة ، منها إلى الفتوح المستقرة ، فلم تتح للغزاة فرص الإستقرار والعمل السلمى ، لأنهم كانوا فى مراكزهم النائية متفرقين ، يشتغلون قبل كل شىء بالدفاع عن مراكزهم وأنفسهم . بيد أن هذه الغزوات المحلية المتقطعة وهذه المستعمرات الإسلامية النائية ، خلفت وراءها فى الأراضى المفتوحة بعض الآثار المادية والمعنوية . ومن ذلك ما كشفته المباحث الأثرية منذ القرن الماضى على شواطىء خليج سان تروپيه من أطلال الحصون العربية القديمة التى كانت قائمة فى تلك الأرض ، والتى ما تزال قائمة فى بعض آكام الألب الفرنسية والسويسرية ، وهى تدل على ما كان للغزاة من الحذق والبراعة فى فن التحصينات والمنشآت الحربية . وهناك فى جنوب فرنسا وفى بعض أنحاء إيطاليا الشمالية والجنوبية ، عدد كبير من الأبراج القائمة فوق الآكام والربى ، يدل ظاهرها على أنها كانت تستعمل لأغراض حربية . ويرى البعض أن هذه الأبراج هى آثار عربية من مخلفات الغزاة كانت تبنى لعقد حلقات الاتصال ، وتسهيل حركات الدفاع فيما بينهم ؛ ومن المعروف أن العرب منذ فتوحاتهم الأولى فى سبتمانيا أعنى منذ أوائل القرن الثامن ، كانوا ينشئون فى الأراضى المفتوحة حصوناً وأبراجاً تسمى «بالرباط» ؛ بيد أن فريقاً آخر من الباحثين يرى بالعكس أن هذه الأبراج إنما كانت من إنشاء أبناء الأرض المفتوحة ، أقاموها أيام اشتداد خطر الغزوات العربية ، ليستعينوا بها على رد الغزاة .

وقد ظفرت المباحث الأثرية أيضاً بالعثور على كثير من القطع الذهبية والفضية ( المداليات ) فى أنحاء كثيرة من لانجدوك وپروڤانس ، وثبت أنها من مخلفات العرب والمسلمين ، وأنها كانت تستعمل للتعامل مكان النقود ، ولكنها لا تحمل اسما ولا تاريخاً ولا يمكن تعيين عهد سكها ، وإن كانت بذلك تدل على أنها ترجع إلى عصر الغزوات الأولى . ووجدت أيضاً فى العهد الأخير فى منطقة تورا سيوف ودروع قيل إنها عربية ، من مخلفات الموقعة الشهيرة التى نشبت فى تلك السهول بين العرب والفرنج فى سنة ٧٣٢ م ( موقعة بلاط الشهداء ) .

ومن الحقائق التى لاشك فيها أثر المسلمين فى الزراعة ؛ فقد رأينا أن كثيراً من الغزاة تخلفوا عن إخوانهم ، واستقروا فى تلك الأرض وزرعوها ، ومن المعروف أن العرب حولوا وديان اسبانيا المجدبة ، إلى حدائق وغياض زاهرة ، ونقلوا

إليها مختلف الغراس من المشرق ، وأنشأوا بها القناطر العظيمة . وقد حمل هؤلاء الغزاة المغامرون إلى جنوب فرنسا كثيراً من خبرتهم الزراعية ، ولقنوها لسكان تلك الأنحاء . ويقال إن « القمح الأسمر » الذى هو الآن من أهم محاصيل فرنسا إنما هو من مخلفات العرب ، وهم الذين حملوا بذوره ، وكانوا أول من زرعه بفرنسا : والمرجح أيضاً أنهم هم الذين حملوا فسائل النخيل من اسبانيا وإفريقية إلى شواطىء الريفييرا . ومن آثارهم الصناعية ، استخراج «القطران» الذى تطلى به قاع السفن ويحميها من العطب ، فهم الذين علموه لأهل بروفانس ، وما زال عندهم من الصناعات الذائعة ، وما زال اسمه الفرنسى Quitran ينم عن أصله العربى .

ومن الحقائق الثابتة أيضاً ، فضل العرب فى تحسين نسل الخيول فى تلك الأنحاء ، وما يزال فى جنوب فرنسا جهات تشتهر بجمال خيولها ونبل أرومتها ، ولا سيما فى «كاماراج » فى مقاطعة « لاند » من أعمال غسقونية ، ومن المحقق أن هذه الخيول الأصيلة الجميلة ، إنما هى من سلالة الخيول العربية ، التى أحضرها الفرسان المسلمون معهم إلى تلك الأنحاء .

ولا ننسى ما للدم العربى من أثر فى بعض أنحاء جنوب فرنسا . فقد رأينا أن المسلمين أنشأوا بعض المستعمرات الزراعية ، وتزوجوا من نساء تلك الأراضى وتناسلوا فيها . ولما تغلب عليهم النصارى وأخرجوا نهائياً من تلك الأراضى تنصر كثير منهم ممن أسروا ، وأرغموا على افتداء حياتهم وأسرهم بالتنصر ، وقد لبث أبناء أولئك المسلمين المتنصرين عصوراً فى تلك البلاد ، يشتغلون بالزراعة والتجارة حتى جرفهم تيار التطور واندمجوا فى المجتمع النصرانى ، واختفت كل آثارهم وخواصهم العربية والإسلامية .

هذا ، وأما عن الآثار الاجتماعية ، فانه يلاحظ فى بعض جهات بروفانس التى استقر فيها المسلمون مدى حين ، أن لسكانها بعض التقاليد الخاصة ، ومن ذلك أنواع معينة من الرقص يظن أنها ترجع إلى أصل عربى . على أن أعظم آثار العرب الاجتماعية فى جنوب فرنسا ، يبدو فى تطور الحركة الفكرية فى العصور الوسطى ، فقد كان للعرب أثر عظيم فى تكوين النزعة الشعرية فى الجنوب ، وظهر أثر هذه النزعة واضحاً فى الحركة الأدبية التى تعرف بحركة «التروبادور» **Troubadour** التى ظهرت فى جنوبى فرنسا ، وفى شمال إسبانيا وشمال إيطاليا ، منذ القرن الحادى عشر

الميلادى ، وقوامها القريض الحربى والغنائى ، وزعماؤها فرسان شعراء وفنانون . أضف إلى ذلك أن تأثير الحضارة الإسلامية فى سير الحضارة الأوربية ، لم يقف عند هذا العصر ولا عند هذه الحدود ، فقد استمرت العلائق بعد ذلك طويلا بين مسلمى الأندلس والأمم النصرانية المجاورة ، وكان للحضارة الأندلسية فى تطورها العقلى والاجتماعى أعظم الآثار.

وقد لبثت ذكرى العرب وذكرى الغزوات العربية فى فرنسا ، تثير مدى القرن الثامن فى نفوس النصارى أعظم ضروب السخط والروع ، وتقدمها الرواية الكنسية المعاصرة فى أشنع الصور ؛ فلما ظهرت عصابات النورمان والمجر وغزت فرنسا من الشرق والغرب ، رأى النصارى من عيثهم وسفكهم أهوالا لا تذكر بجانبها أهوال الغزوات الإسلامية ، وارتفعت ذكرى العرب وأضحت تقترن بكل ما هو عظيم ضخم[١]، وفى ذلك يقول المستشرق رينو : « إن ذكرى الغزوات النورمانية والمجرية لا توجد إلا فى الكتب . ولكن ما السر فى أن ذكرى العرب ما زالت ماثلة فى جميع الأذهان . لقد ظهر العرب فى فرنسا قبل النورمان والمجر ، واستطالت إقامتهم بعد الغزوات النورمانية والمجرية ، وإن غزوات العرب الأولى ليطبعها طابع من العظمة ، حتى أننا لا نستطيع أن نتلو أخبارها دون تأثر . ذلك لأن العرب[٢] دون النورمانيين والمجر ، ساروا مدى آماد فى طليعة الحضارة ، ثم إنهم لبثوا بعد أن غادروا أرضنا موضع الروع فى شواطئنا ، وأخيراً لأن المعارك التى اضطلعوا بها أيام الصليبيين فى اسبانيا وإفريقية وآسيا ، أسبغت على اسمهم بهاء جديداً ، بيد أن هذه العوامل كلها قد لا تكفى لتعليل المكانة العظيمة التى يتبوأها الاسم العربى فى أوربا وفى أذهان المجتمع الأوربى . أما السبب الحقيقى لهذه الظاهرة المدهشة ، فهو الأثر الذى بثه قصص الفروسية فى العصور الوسطى ، وهو أثر لا يزال ملموساً إلى يومنا »[٣] .

---

(١) Reinaud : ibid , p. 310

(٢) يلاحظ أن كلمة « العرب » هنا يجب أن تفهم بأوسع معانيها ، فالمقصود بها هنا « الغزاة المسلمون » . ومنذ أواخر القرن الثامن الميلادى تغيض الصبغة العربية عن هذه الفتوحات ، وتغدو فتوحات إسلامية ، ينضوى تحت لوائها العرب وغيرهم من أبناء المجتمعات الإسلامية ، التى قامت فى إفريقية واسبانيا .

(٣) Reinaud : ibid; p. 311 — 312 . وقد اعتمدنا على مؤلف هذا العلامة فى كثير من هذه الملاحظات الخاصة بآثار العرب ( المسلمين ) فى جنوب فرنسا .

# الكتاب الثاني

# الدّولة الأمويّة في الأندلس

## القسم الرابع

# ربيع الخلافة الأندلسيّة

٣٥٠ — ٣٧٠ هـ : ٩٦١ — ٩٨٠ م

# الفصل الأول

## الحكم المستنصر بالله

خلافة الحكم المستنصر . تنظيم البيعة له . عنايته بتوسيع المسجد الجامع . تحرك أمير قشتالة . وفود أردونيو الرابع على الحكم . وصف لحفل استقباله . سفارة سانشو . وفاة أردونيو . تحالف الملوك النصارى . خروج الحكم إلى الغزو . استيلاء المسلمين على شنت إشتيبن . إفتتاح قلهرة . استرداد حصن غرماج . عناية الحكم بتعزيز الأسطول . ظهور النورمان فى المياه الغربية . مقاومة المسلمين وارتداد النورمان . عود النورمان إلى المياه الغربية ثم انسحابهم . قرطبة تغدو مركز التوجيه فى شبه الجزيرة . وفود الملوك النصارى وسفاراتهم على قرطبة . حوادث المغرب . انحلال دولة الأدارسة . أميرهم الحسن بن كنون . طاعته الناصر والحكم . مسير بلكين نائب المعز الفاطمى إلى قتال زناتة . ولاء زناتة لبنى أمية . غزو بلكين لأراضيهم . هزيمة زناته . نكث الحسن بن كنون . الحكم يرسل جيوشه إلى المغرب . هزيمة الحسن وفراره . عوده إلى القتال . هزيمة جند الأندلس . الحسن يطلب الصلح . الحكم يرسل كبير قواده غالباً فى جيش ضخم . غالب يطارد الحسن ويرغمه على التسليم . التجاء الحسن إلى قرطبة . وصف لموكب القائد غالب . وصف لصفات الحسن . مغادرته قرطبة إلى مصر . اعتداء صاحب قشتالة على الأراضى الإسلامية . نكبة جعفر ويحيى ابنى على بن حمدون . اصطناع الحكم للبربر . مولد ولى العهد هشام . الحكم العالم . شغفه باقتناء الكتب . المكتبة الأموية الكبرى ودور الحكم فى إنشائها . ذيوع الشغف باقتناء الكتب . جامعة قرطبة . تشجيع الحكم للعلماء . تقدير النقد الحديث لهذه النزعة العلمية . المكتبات العامة بالأندلس . أخذ البيعة لولى العهد الطفل . تعليق ابن حيان على ذلك . وفاة الحكم . ورعه وخلاله . الحاجب جعفر بن عثمان المصحفى . هديته إلى الحكم . القائد غالب الناصرى . الحكم الشاعر . أبهة بلاط قرطبة فى عهد الحكم . تكوين المجتمع الأندلسى فى هذا العصر . الأرستقراطية الأندلسية . المولدون . طبقة الرقيق . النصارى المعاهدون . اليهود . نفوذهم وازدهارهم العلمى .

طويت بوفاة عبد الرحمن الناصر ، ألمع صفحة فى تاريخ اسبانيا المسلمة ، وتاريخ الخلافة الأندلسية .

استقرت الخلافة الأندلسية فى عهد الناصر ، على أسس ثابتة ، وسحقت ثورة المولدين والعرب ، بعد أن كادت تقضى على ملك بنى أمية ، وعلى صرح الدولة الأندلسية كلها ، ورد النصارى الإسبان إلى عقر دارهم ، فسكنوا وجلين منتظرين ، وتمتعت الأندلس بعهد من السلم والاستقرار والرخاء ، لم تعرفه من قبل ، ووصلت رقعة الوطن الأندلسى إلى أعظم ما وصلت إليه ، إذا استثنينا عهد الفتح الأول . وهكذا كان عصر الناصر بالنسبة للأندلس ، ذروة عصورها ، قوة وعظمة ومجداً .

وخلف الناصر أكبر ولده الحكم المستنصر بالله بعهد منه ، وكان الناصر قد آثره منذ حداثته على سائر إخوته وولاه عهده[1]. وقيل إنه أخذ له بيعة العهد وهو طفل لم يجاوز الثامنة . وبويع الحكم فى اليوم التالى لوفاة أبيه ، فى الثالث من رمضان سنة ٣٥٠هـ (١٦ أكتوبر ٩٦١م) ، وكان الحكم يومئذ فى نحو الثامنة والأربعين من عمره ، إذ كان مولده حسبما تقدم بقرطبة فى ٢٤ من جمادى الأولى وقيل فى غرة رجب سنة ٣٠٢ هـ ( ٩١٥ م )[2] وأمه أم ولد تدعى مرجان . وأخذت البيعة للخليفة الجديد فى قصر الزهراء . وجلس الحكم على سرير الملك فى البهو الأوسط الذهبى ، واجتمع إخوته ، وسائر للوزراء ورجال الدولة ، وأكابر الفتيان الصقالبة ، ومن دونهم من رجال الخاص، وأهل الخدمة ، وأكابر الجند ، انتظموا جميعاً وفق مراتبهم فى المجلسين الشرقى والغربى ، وفى مختلف الأروقة ، وانتظم الحرس وفرسان الحشم وطبقات الجند ، فيما وراء باب السُّدة ، صفوفاً متصلة حتى باب المدينة . ولما تمت البيعة ، أذن للناس فى الانصراف ، إلا الإخوة والوزراء ورجال الخاصة ، فإنهم لبثوا بالقصر ، حتى احتمل جسد الخليفة الذاهب ( الناصر ) إلى قصر قرطبة ليدفن هنالك فى مقبرة القصر[3] .

ولم يكن الحكم حين ولايته ، محدثاً فى شئون الملك ، بل لقد مارسها فى حياة أبيه ، وكثيراً ما ندبه أبوه لمباشرة المهام والشئون الخطيرة ، فكان عند جلوسه أميراً مكتمل النضج والخبرة .

واستهل الحكم عهده بالنظر فى توسيع المسجد الجامع ، وأصدر بذلك مرسومه فى اليوم التالى لجلوسه . وكان المسجد الجامع قد ضاقت جنباته بجموع المصلين ، فتقرر توسيعه من الناحية الشرقية على طول الجامع من الجنوب إلى الشمال حتى صحنه . وبلغت الزيادة نحو مساحة الجامع ، فتضاعف بذلك حجمه . وابتنى الحكم محرابه الثالث ، واستغرق بناؤه أربعة أعوام ، وعملت له قبة فخمة زخرفت

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٤ ، وأعمال الأعلام لابن الخطيب ( المطبوع ببيروت سنة ١٩٥٦) ص ٤١ .

(٢) الإحاطة فى أخبار غرناطة لابن الخطيب ( القاهرة سنة ١٩٥٦ ) ج ١ ص ٤٨٧ ، والحلة السيراء لابن الأبار ص ١٠٢ . وراجع ص ٣٧٨ من هذا الكتاب .

(٣) نفح الطيب ج ١ ص ١٨١ .

بالفسيفساء البديعة . وأرسل قيصر قسطنطينية رومانوس الثانى إلى الحكم منها قدراً كبيراً ، كما أرسل إليه أستاذاً خبيراً بأعمال الفسيفساء . وأنشأ الحكم أيضاً مقصورة جديدة لها قبة على الطراز البيزنطى . وابتنى إلى جانب المسجد داراً للصدقة ، وأخرى للوعاظ وعمال المسجد . وتشغل زيادة الحكم فى الجامع اليوم قسمه الأوسط ، الواقع بين الجناح القديم ، الذى أنشأه عبد الرحمن الداخل وزاد فيه عبد الرحمن الأوسط — والجناح الذى أنشأه الحاجب المنصور ، وهو يشغل نحو ثلث المسجد من الناحية الشرقية[1] .

ولم يمض سوى قليل ، حتى بدت من الأمراء النصارى نزعة إلى العدوان . وكان الناصر قبيل وفاته قد عاون سانشو الأول (شانجُه) ملك ليون ابن أردونيو الثالث بالمال والجند على استرداد عرشه ، وفر ابن عمه ومنافسه أردونيو الرابع مهزوماً إلى برغش (سنة ٩٦٠ م) ، واشترط الخليفة ثمناً لهذا العون ، أن يهدم النصارى بعض حصون الحدود ، وأن يسلموا عدداً آخر منها إلى المسلمين . فلما توفى الناصر بعد ذلك بقليل ، نكث سانشو بالعهد ، وأبى تنفيذ ما وعد . ومن جهة أخرى فقد ظهر عامل جديد فى عدوان النصارى . وذلك أن قشتالة ، وقد كانت يومئذ ولاية من ولايات ليون ، كانت تنزع إلى الاستقلال ، وكان زعيمها الكونت (القومس) فرنان كونثالث[2] رجلا مقداماً يلتف حوله مواطنوه ، فثار على سانشو ، وأعلن استقلال قشتالة ، ونصب نفسه أميراً عليها ، وأخذ يغير على أراضى المسلمين المجاورة ، وهى مما يلى غرب الثغر الأعلى ، وشمال الثغر الأوسط ، وانضم إليه كثير من النصارى المتعصبين . فنما بذلك جيشه واشتد بأسه . وكان الكونت يطمح إلى توسيع أملاكه ، ويعتمد على مناعة قلاعه الواقعة على الحدود . وقد أغضى الحكم فى البداية عن هذا العدوان مؤثراً الاعتصام بالسلم ، ولكنه لما رأى تمادى النصارى فى بغيهم ، أخذ فى التأهب للحرب ، وأنفذ الكتب إلى سائر الولاة والقواد ، بوجوب الأهبة والاستعداد للجهاد فى سبيل الله .

وكان أردونيو الرابع الملك المخلوع ، قد لجأ إلى الحكم ليعاونه على استرداد

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٩ ، وأعمال الأعلام ص ٤٨ .

(٢) ويسميه ابن خلدون « فردلند القومس » ( ج ٤ ص ١٤٤ ) وفى مكان آخر فرلند بن غند شلب ( ج ٤ ص ١٨٠ ) وورد اسمه فى أعمال الأعلام « فران غنصالص » وهو أكثر مطابقة للاسم القشتالى ( ص ٣٧٥ ) .

عرشه . وتفيض الرواية الإسلامية فى وصف مقدمه على قرطبة ، ومثوله بين يدى الخليفة ، فتقول لنا إن أردونيو وفد على قرطبة فى عشرين رجلا من وجوه أصحابه ، ومعهم غالب الناصرى مولى الحكم وصاحب مدينة سالم ، وذلك فى آخر صفر سنة ٣٥١هـ ( ٣٠ مارس ٩٦٢م ) . وتلقاهم الوزير هشام المصحفى فى قوات كثيفة من الجند . فلما دخلوا قصر قرطبة ، ووصل أردونيو إلى ما بين باب السُّدة وباب الجنان ، سأل عن مكان مدفن الناصر ، فأشير إليه فى الروضة بداخل القصر ، فسار إليه وخلع قلنسوته وانحنى أمامه خاشعاً . وأنزل أردونيو وصحبه فى دار الناعورة الفخمة ، وبولغ فى إكرامهم . وبعد يومين استدعاهم الحكم إلى قصر الزهراء ، وقد حشدت قوات عظيمة من الجند ، وبولغ فى الاحتفال بالزينات ، وإظهار الأسلحة والعُدَد . وجلس الحكم فوق سرير الملك فى المجلس الشرقى ، ومن حوله الإخوة والوزراء والأكابر ، وجىء بأردونيو وأصحابه ، ومعهم جماعة من وجوه نصارى الأندلس . فدخلوا بين الصفوف الفخمة المزركشة وقد بهروا بما رأوا ، وجازوا أبواب القصر المتعاقبة ، وأجلسوا برهة فى بهو الانتظار ، ثم استدعوا للمثول بين يدى الخليفة ، فسار أردونيو ومن ورائه أصحابه ، فلما وصل إلى المجلس الخلافى كشف رأسه وخلع برنسه . ولما دنا من سرير الحكم سجد أمامه ثم قبل يده . ثم ارتد راجعاً إلى كرسى من الديباج المثقل بالذهب . وتولى الترجمة بين أردونيو والخليفة ، وليد بن خيزون قاضى الذمة بقرطبة ، وأعرب الحكم عن سروره وترحيبه بمقدم أردونيو ، ووعده برعايته . وبسط أردونيو قضيته ، وشكا مما أنزله به خصمه سانشو ، مع أن الشعب كان قد آثره باختياره ، ولكن خصمه لجأ إلى الخليفة الراحل واستجار به ، فأغاثه ونصره عليه ، ومع ذلك فقد قصر فى الوفاء بعهوده ، وأنه يضع نفسه وبلاده وشعبه ، تحت رعاية الخليفة ، وأنه يتعهد بمحالفة الإسلام ، ومقاطعة صهره فردلند القومس أمير قشتالة ، ويقدم ولده غرسيه رهينة بصدق وفائه[1] . وهنا وعده الخليفة بعونه ونصرته فى تمليكه ما كان له . وانصرف أردونيو بعد الشكر والتحية ، وخرج من المجلس ، وقد بهره وأذهله ما رأى من آيات الفخامة والسلطان . وقدم إليه الحاجب جعفر الهدايا التى أمر بها الخليفة له ولأصحابه . وألقى الخطباء والشعراء

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٥ .

خطبهم وقصائدهم ، منوهين بروعة هذا اليوم المشهود . فمن ذلك قول عبد الملك ابن سعيد المرادى من قصيدة :

ملك الخليفة آية الإقبال — وسعوده موصولة بنوال
والمسلمون بعزة ورفعة — والمشركون بذلة وسفال
ألقت بأيديها الأعاجم نحوه — متوقعين لصولة الرئبال
هذا أميرهم أتاه آخذاً — منه أواصر ذمة وحبال
متواضعاً لجلاله متخشعاً — متبرعاً لما يرع بقتال[1]

فلما نمى إلى سانشو ما وعد به الخليفة خصمه ومنافسه ، خشى عاقبة هذا المسعى ، فبعث إلى الحكم وفداً من الأكابر والأحبار ، يعرض عليه أن يعترف بطاعته ، وأن يقوم بتنفيذ ماتعهد به للناصر من تسليم بعض الحصون الواقعة على الحدود وهدم البعض الآخر[2]. ولكن أردونيو ما لبث أن توفى ، وعاد سانشو إلى نكثه بعد أن أمن شر منافسه . وهنا شعر الأمراء النصارى بخطورة أهبة المسلمين العسكرية ، وأدركوا أن لا بد لهم من الاتحاد جميعاً ، لكى يستطيعوا مواجهتهم . وهكذا عقد التحالف بين سانشو ملك ليون ، وخصمه الكونت فرنان أمير قشتالة ، وغرسية سانشيز ملك ناڤار ، وكونت برشلونة ، وتأهب الجميع لمدافعة المسلمين .

وفى صيف سنة ٣٥٢ هـ ( ٩٦٣ م) خرج الحكم إلى الغزو ، معلناً الجهاد ، واجتمعت إليه الجيوش فى طليطلة ، فسار مخترقاً جبال وادى الرملة إلى أراضى قشتالة ، وأشرف على قلعة شنت إشتيبن المنيعة[3] فحاصرها المسلمون ، واستولوا عليها . وعبثاً حاول الكونت فرنان كونثالث ، أن يقف فى سبيل المسلمين ، واجتاح المسلمون أراضيه ، ومزقوا قواته ، حتى أذعن إلى طلب الصلح ، ولكنه نكث عهده ، فهاجمه المسلمون كرة أخرى ، واستولوا على بلدة أنتيسة الحصينة[4].

---

( ١ ) أورد لنا المقرى ( عن ابن حيان ) عن هذه الزيارة تفاصيل مسهبة ( راجع نفح الطيب ج ١ ص ١٨١ — ١٨٤ ) . ولخصها ابن خلدون (ج ٤ ص ١٤٥ ) . وكذلك البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥١ .

( ٢ ) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٥ .

( ٣ ) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥١ .

( ٤ ) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٤ . وأنتيسة هى **Atienza** .

وأرسل الحكم جيشاً آخر بقيادة يحي بن محمد التجيبي حاكم سرقسطة فى اتجاه نافار . وكان ملكها غرسية سانشيز ، قد أغار على الأراضى الإسلامية ناكثاً لعهده ، وهرع حليفه سانشو ملك ليون فى قواته لإنجاده ، ونشبت بين الفريقين موقعة هزم فيها النصارى وامتنعوا بالجبال . وفى نفس الوقت سار القائد غالب مولى الحكم فى جيش قوى إلى مدينة قلهرّة ، من قواعد نافار الغربية ، فافتتحها ، وحصنها وشحنها بالرجال والعدة ، وكان فتحاً عظيماً . وسار حاكم مدينة وشقة فى قواته شمالا نحو أراضى نافار مما يلى جبال البرنيه ، واستولى على حصن يبه[1] واجتاح تلك المنطقة ، وغنم ما فيها من السلاح والأقوات والماشية[2]. واستغرقت هذه الفتوح والغزوات العظيمة ، الصائفة فى سنى ٣٥٢ و ٣٥٣ هـ (٩٦٣ — ٩٦٤) .

ويروى لنا ابن خلدون قصة غزوة إسلامية أخرى فى أراضى قشتالة — فيقول لنا إن غالباً سار إلى بلاد ألبة ، ومعه يحي بن محمد التجيبي ، وقاسم بن مطرف بن ذى النون ، فاستولى على حصن غرماج Gormaz . ويضع ابن خلدون تاريخ هذه الغزوة فى سنة ٣٥٤ هـ (٩٦٥ م) . وتقع قاعدة « غرماج » الحصينة على نهر دويرة على مقربة من شنت إشتبين . وكان الناصر قد انتزعها من النصارى فى سنة ٩٤٠ م . والظاهر أن القشتاليين بقيادة فرنان كونثالث ، كانوا قد استولوا عليها فيما استولوا عليه من قواعد الحدود ، قبل أن يخرج الحكم إلى الغزو ، فاستردها المسلمون فى صائفة سنة ٣٥٣ هـ ، أو فى الصائفة التالية ، وقاموا بتحصينها لمدافعة القشتاليين فى هذه المنطقة[3] .

وتشير الرواية الإسلامية فوق ذلك إلى غزوات ناجحة أخرى ، قام بها المسلمون فى أراضى قشتالة فى سنتى ٣٥٥ و ٣٥٦ هـ ، بيد أنها لا تقدم إلينا شيئاً عن تفاصيل تلك الغزوات[4] .

وفى سنة ٣٥٣ هـ وقعت بالعاصمة الخلافية مجاعة عظيمة ، فبذل الحكم للفقراء والمعوزين فى سائر أرباض قرطبة والزهراء ، من النفقة ما يكفل أقواتهم ويسد عوزهم .

---

(١) وبالإسبانية **Yerba** .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٥ .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٥ .

(٤) راجع البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٥ .

وكانت حوادث المغرب الأقصى (وسوف نتحدث عنها بعد)، وما يتهدد الأندلس من جراء مشاريع الفاطميين وأشياعهم فى تلك المنطقة، مما يشغل حكومة قرطبة، ويحفزها دائماً إلى اليقظة والتأهب، وكان من أثر ذلك أن قصد الحكم فى شهر رجب سنة ٣٥٣ إلى ثغر ألمرية (سبتمبر سنة ٩٦٤) فى جماعة كبيرة من الرؤساء والقادة، ليشرف بنفسه على أعمال التحصين الجارية فيها، وليتخذ ما يجب لتجديد الأسطول وتعزيزه. وكانت ألمرية أعظم قواعد الأسطول الأندلسى، وكانت سفنه الراسية بها يومئذ تبلغ ثلاثمائة قطعة[١].

بيد أنه لم يمض قليل، حتى جاء الخطر يتهدد الأندلس من ناحية أخرى: فنى أواخر سنة ٣٥٥ هـ[٢] (أواخر سنة ٩٦٧ م) ظهرت سفن النورمان أو المجوس فى مياه الشاطىء الغربى قبالة ولاية الغرب.

وكان النورمان قد ظهروا فى مياه الأندلس لأول مرة فى سنة ٢٢٩ هـ (٨٤٣م) أيام عبد الرحمن بن الحكم، وبدأت حكومة قرطبة تعنى بشأن الأسطول ومضاعفة أهبتها البحرية من ذلك الحين. وكان أولئك الغزاة النورمان فى هذه المرة من أهل دانماركة المجوس، ويقودهم رتشارد الأول دوق نورماندى، وحفيد زعيمهم الكبير رولو. وكانت عدة أسطولهم ثمانية وعشرين مركباً. ونزل الغزاة على مقربة من بلدة قصر أبى دانس[٣]، وعاثوا فى تلك المنطقة، ثم زحفوا شمالا إلى بسائط أشبونة الغنية اليانعة، وعاثوا فيها تخريباً ونهباً، واجتمع المسلمون فى تلك المنطقة لقتالهم. ونشبت بينهم وبين الغزاة موقعة دامية قتل فيها كثير من الفريقين. وفى تلك الأثناء خرج أسطول إشبيلية من نهر الوادى الكبير بقيادة أمير البحر عبد الرحمن بن رماحس، وسار على عجل إلى شاطىء البرتغال الجنوبى، وكان الغزاة قد انحدروا عندئذ جنوباً ثم شرقاً بمحاذاة الشاطىء، ووقع اللقاء بين سفنهم وبين سفن المسلمين عند مصب نهر شِلْب. فحطم المسلمون عدة من سفن الغزاة، وأنقذوا من كان بها من أسرى المسلمين، وقتل كثير من النورمان، وارتدوا منهزمين عن تلك المياه، بيد أن سفنهم لبثت تجوس خلال المياه الغربية، والمسلمون لهم بالمرصاد أينما ظهروا. وأمر الحكم زيادة فى التحوط أن تحشد بعض

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٢، والإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٤٨٦.

(٢) ويذكر ابن خلدون أنها كانت سنة ٣٥٤ هـ (ج ٤ ص ١٤٥).

(٣) وهى بالإفرنجية Alcacer do Sal، وهى ثغر برتغالى صغير يقع جنوب شرقى اشبونة.

سفن الأسطول الصغرى فى نهر الوادى الكبير تجاه قرطبة ، وترتيبها على هيئة مراكب النورمان[1] ، وذلك خشية أن يتسرب الغزاة بطريق النهر إلى العاصمة ، كما فعلوا حينما هاجموا إشبيلية فى غزوتهم الأولى .

ولم تمض بضعة أعوام على ذلك ، حتى عادت مراكب النورمان تجوس خلال المياه الغربية (٣٦٠ هـ — ٩٧١ م) مرة أخرى ، وتهدد شواطىء ولاية الغرب الغنية .

ويقدم إلينا ابن حيان عن هذه الغزوة الثانية للنورمان لشواطىء الأندلس بعض تفاصيل ملخصها أن الحكم عهد إلى أمير البحر عبد الرحمن بن رماحس بتسيير الأسطول من ألمرية وإشبيلية ، واجتماع قوى الأندلس البحرية كلها لمواجهة الغزاة ، كما عهد إلى الوزير القائد غالب بن عبد الرحمن بأن يشرف على القوات البرية والبحرية التى أعدت لمدافعة أولئك الغزاة ، وأمر صاحب الخيل والحشم زياد بن أفلح بإخراج السلاح والعدة ، وحشد قوة مختارة من الجند .

بيد أنه لم تقع فيما يبدو ، أية معارك هامة بين المسلمين والغزاة ، ولم يحدثنا ابن حيان عن وقوع مثل هذه المعارك . والظاهر أنهم ارتدوا من تلقاء أنفسهم لما رأوا من تفوق قوى المسلمين[2] .

وفى خلال ذلك كانت قرطبة تغدو شيئاً فشيئاً ، مركز التوجيه فى شبه الجزيرة الإسبانية كلها ، وتغدو كعبة لملوك اسبانيا النصرانية ، يفدون إليها تباعاً ، يقدمون إليها عهود الطاعة ، ويلتمسون منها الصداقة والعون . وقد بدأ تقاطر هذه الوفود والسفارات من سنة ٣٥٥ هـ (٩٦٦ م) واستمر عدة أعوام . ويجدر بنا قبل التحدث عنها ، أن نشير إلى ما وقع من تغييرات فى الإمارات والممالك النصرانية . فقد توفى سانشو ملك ليون مسموماً فى سنه ٩٦٦ م . وخلفه ولده الطفل راميرو الثالث ، تحت وصاية عمته الراهبة إلبيرة ، وكان من أثر ذلك أن وقع التفكك . فى مملكة ليون ، وأعلن عدة من الزعماء المحليين استقلالهم . وتوفى الكونت

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٥ .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٧ . وابن حيان فى المقتبس — مخطوط أكاديمية التاريخ بمدريد ( مجموعة كوديرا ) المنشور بتحقيق الأستاذ عبد الرحمن على الحجى ( بيروت ١٩٦٥ ) ص ٢٣ — ٢٦ وبه بيانات وتفاصيل هامة عن حوادث الأعوام الخمسة من سنة ٣٦٠ إلى سنة ٣٦٤هـ . وسوف نرجع إليه بكثرة فيما يتعلق بأحداث هذه الأعوام وأحوالها .

فرنان كونثالث أمير قشتالة فى سنة ٩٧٠ م ، وخلفه ولده غرسيه فرناندز . وتولى عرش ناڤار سانشو غرسية الثانى ، بعد وفاة أبيه غرسية سانشيز .

وكان أول الوافدين على قرطبة من أمراء النصارى أمير جليقية ، وأمير أشتوريش ، (الأستورياس) . ثم وفدت رسل سانشو غرسية ملك ناڤار ، وهم جماعة من القوامس والأساقفة يسألون الصلح ، فأجابهم الحكم إلى ما طلبوا .

ووفدت فى شعبان سنة ٣٦٠ هـ ( يونيه ٩٧١ م ) سفارة من أمير برشلونة الكونت بوريل ابن شونير Saunier على رأسها مبعوثه القومس بون فلى لتجديد المودة والصداقة ، ومعهم ثلاثون أسيراً من المسلمين الذين كانوا محجوزين بالإمارة ، تقرباً من الخليفة . فاستقبلهم الحكم بالمجلس الشرقى من قصر الزهراء مرتين ، الأولى فى الرابع من رمضان سنة ٣٦٠ هـ ، والثانية فى الثانى من شوال ، واستمع إلى رسالتهم بالقبول والرضى ، وصرفهم بجزيل الصلات وفاخر الكسى[١]. وفى السادس من ذى الحجة سنة ٣٦٠ هـ ( أكتوبر ٩٧١ م ) وفدت الراهبة إلبيرة عمة ملك ليون راميرو الثالث والوصية عليه — ويسميها ابن حيان حلويرة وأحياناً حلورية[٢] — ، فقوبلت فى قرطبة بمظاهر الترحاب والتكريم ، واحتفل الحكم باستقبالها بقصر الزهراء فى يوم مشهود ، وعقد السلم للملك ليون تحقيقاً لرغبتها ، وأغدق عليها الهدايا والصلات « وحملت على بغلة فارهة بسرج ولجام مثلقين بالذهب وملحفة ديباج »[٣]. ومما هو جدير بالذكر أنه قام بالترجمة يومئذ بين الخليفة الحكم ، وبين سفراء أولئك الأمراء والملوك النصارى ، قاضى النصارى وأسقفهم بقرطبة ، عيسى بن منصور ، وقومس أهل الذمة ، معاوية بن لب ، ومطران إشبيلية عبيد الله بن قاسم . وكانت لغة النصارى

---

( ١ ) ابن حيان فى المقتبس — قطعة أكاديمية التاريخ السالفة الذكر ص ٢١ و ٣٢ .

( ٢ ) راجع ابن حيان فى المقتبس — القطعة السالفة الذكر ص ٦٣ و ١٤٦ و ٢٣٥ و ٢٤١ . ويلاحظ أن ابن حيان لم يتحدث عن قدومها بنفسها إلى قرطبة وإنما يتحدث عن قدوم رسل من قبلها . بيد أننا أخذنا هنا برواية ابن خلدون بالرغم من كونها تنصرف إلى اسم سيده نصرانية أخرى . والرواية الإسبانية تؤيد هذا التفضيل .

( ٣ ) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٦ . وراجع المقتبس لابن حيان ( قطعة أكاديمية التاريخ السالفة الذكر ) ص ٦٤ .

**الإسبان يومئذ هى اللغة الرومانية (الرومانشى) Romance أو « اللاتينية » ، وهى التى تطورت فيما بعد إلى اللغة القشتالية[1] .**

ووفدت سفارات أخرى من غرسية فرناندز أمير قشتالة ، وفرنان لينيز كونت شلمنقة وغيرهما . وفى سنة ٩٧٣ م ( ٣٦٢ هـ ) وفدت سفارة جديدة من سانشو غرسية ملك نافار ، ومن الراهبة إلبيرة الوصية على ملك ليون . وكان جل هذه الزيارات والسفارات من أمراء اسبانيا النصرانية ، يقصد إلى عقد السلم والمودة مع خليفة الأندلس ، وأحياناً إلى تقديم الطاعة وطلب العون .

هذا وقد وردت إلى الخليفة رسالة ودية من يوحنا زيمسكى (الدمستق) قيصر قسطنطينية على يد رسوله قسطنطين الملتى ، وذلك فى جمادى الأولى سنة ٣٦١ هـ ( ٩٧٢ م )[2] ، ورسالة أخرى فى أواخر سنة ٣٦٣ هـ ( ٩٧٤ م ) من إمبراطور ألمانيا أوتو الثانى الذى خلف أباه أوتو الأول ، وفيها يجدد علائق المودة التى كانت بين أبيه وبين الناصر . ووردت فى نفس العام سفارة جديدة من الكونت بوريل أمير برشلونة يطلب تجديد المودة والصداقة .

ويعلق العلامة المؤرخ الأستاذ پيدال على ذلك بقوله : « وصلت الخلافة الأندلسية فى ذلك العصر إلى أوج روعتها ، وبسطت سيادتها السلمية على سائر اسبانيا ، وكفلت بذلك السكينة العامة » .

وفى هذا العام ، سنة ٣٦١ هـ ، فى الخامس والعشرين من جمادى الأولى ، أمر الخليفة الحكم صاحب مدينة الزهراء ، محمد بن أفلح ، بمطاردة الشعراء الهجائين والقبض عليهم ، صوناً لأعراض الناس من لاذع ألسنتهم ومقذع هجائهم وكان منهم عيسى بن قرلمان الملقب بالزبراكة ، ومؤنس الكاتب ، وأحمد بن الأسعد ، ويوسف بن هارون البطليوسى وغيرهم . فظفر صاحب المدينة بمعظمهم وأودعهم السجن ، واختفى البطليوسى حيناً ، ولكنه لما شعر بوطأة المطاردة ،

---

( ٢ ) R. M. Pidal : Origenes del Espanol p. 421

( ٣ ) راجع المقتبس قطعة أكاديمية التاريخ ص ٧١ و ٧٢ . وكان يوحنا زيمسكى . وهو كبير الجيش البيزنطى قد ائتمر بعمه القيصر نيقفور الثانى مع زوجه الحسناء ثيوفانو وانتهى بقتله وذلك فى العاشر من ديسمبر سنة ٩٦٩ م ، واعتلى العرش فى الحال مكانه ، وحكم حتى وفاته فى العاشر من يناير سنة ٩٧٩ م .

قدم نفسه لصاحب المدينة ، فزج إلى السجن . ورفع أمره إلى الخليفة ، فرق لمحنتهم ، وأمر بالإفراج عنهم ، فأطلق سراحهم فى أواخر شعبان من هذه السنة(١) وفى هذا الإجراء ما يشهد برفيع خلال الحكم ، ورقة شعوره ، وموفور احتشامه .

* * *

وفى ذلك الحين حدثت بعدوة المغرب ، فى الضفة الأخرى من البحر ، حوادث هامة ، شغلت الحكم ، وكدرت صفو السلام السائد فى مملكته . وقد سبق أن أشرنا إلى غزو الناصر لدين الله لثغر سبتة ، وعبور جيوشه إلى المغرب لمقاومة جهود الفاطميين فى السيطرة عليه ، ومحاربة الأدارسة أمراء المغرب وحلفاء الفاطميين ، ومطاردتهم . حتى أذعنوا فى النهاية إلى طلب الصلح ، والاعتراف بطاعة الناصر ( سنة ٣٣٢ هـ — ٩٤٣ م ) ، وقيام الدعوة المروانية بالمغرب منذ ذلك الحين .

وكانت دولة الأدارسة ، قد تقلصت فى ذلك الحين ، عن معظم أنحاء المغرب الجنوبية والوسطى ، وارتدت إلى منطقة الريف الشمالية ، ما بين غربى بحر الزقاق والمحيط ، وجعلت قاعدتها بعد انقراض أمرهم فى فاس ، فى قلعة حجر النسر المنيعة ، الواقعة فى جنوبى تطوان . ولم تكن مع ذلك دولة مستقلة بمعنى الكلمة ، إذ كانت تنضوى تحت لواء المتغلب على المغرب ، سواء من العبيديين (الفاطميين) أصحاب إفريقية ، أو الأمويين أصحاب الأندلس . وكان أمير الأدارسة فى أواخر عهد الناصر ، الحسن بن كنّون ( أو قنون ) ، وهو القاسم بن محمد ابن القاسم بن إدريس ، الذى قدر أن تنقضى على يده دولة الأدارسة بالمغرب ، وكان قد بايع العبيديين ، ودعا لهم حينما تغلب جوهر الصقلى على المغرب ، ناكثاً بذلك عهده للناصر . فلما انصرف جوهر إلى إفريقية فى أواخر سنة ٣٤٩ هـ (٩٦٠ م) عاد الحسن إلى طاعته لبنى أمية . ولما توفى الناصر أعلن الحسن طاعته لولده الحكم المستنصر . ولم يكن ذلك سوى مصانعة ورياء ، إذ كان الأدارسة يبغضون بنى أمية ، ويترقبون فرص الخروج عليهم ، ولم تكن طاعتهم لهم إلا خوفاً من بطشهم ، لوقوع مملكتهم فى شمال العدوة على مقربة من الأندلس .

(١) راجع المقتبس — قطعة أكاديمية التاريخ المشار إليها — ص ٧٣ — ٧٥ .

وفى أوائل سنة ٣٦١ هـ (٩٧١ م) سار بُلُكّين بن زيرى بن مناد الصنهاجى ، قائد الخليفة الفاطمى المعز لدين الله ، من إفريقية غازياً إلى المغرب ، ليعيد هنالك سلطان الشيعة ، ولينتقم من قبيلة زناته لمقتل أبيه زيرى بن مناد . وكان زيرى عامل الخليفة المعز وقائده على المغرب ، وكانت زناتة من القبائل المغربية القوية المخالفة للشيعة ، والمنضوية تحت لواء الأمويين . وكان من أشد خصوم الشيعة أيضاً ، جعفر ويحيى إبنا على بن حمدون المعروف بالأندلسى[١] ، وكان الأندلسى هذا قد استقر فى «المسيلة» فى المغرب الأوسط ، وبسط حكمه على تلك الناحية ، وخلفه ولده جعفر فى إقطاعه ، ولكنه خشى سطوة الشيعة ، وسطوة عاملهم زيرى ، ففر وأخوه يحيى مع الأهل والمال إلى المغرب الأقصى ، ولجأ إلى بنى خزر أمراء زناتة الأقوياء ، وألد خصوم الشيعة وصنهاجة . وكان رسل الحكم يروجون الدعوة فى زناتة وحلفائهم لمحاربة الشيعة ، ويمدونهم بالمال لحشد الرجال والعدة ، فاجتمعت قوات بنى خزر وجعفر ويحيى على قتال زيرى ، ودارت بينهما الحرب فى وادى ملوية عند مشارف المغرب الأقصى ، وانهزم الشيعة ، وقتل زيرى ومعظم رجاله بعد معركة طاحنة ، واحتوى الزناتيون على معسكره ، وانهار بذلك سلطان الشيعة فى المغرب ، وكان ذلك فى العاشر من رمضان سنة ٣٦٠ هـ (يوليه ٩٧١ م) . واحتز الظافرون رأس زيرى ورؤوس عدة من أكابر صحبه . وحملها جعفر ويحيى وأصحابهما إلى الأندلس ، وقدموها إلى الحكم ، فحظوا لديه وغمرهم بعطفه وصلاته[٢].

(١) ذكر ابن حيان نقلا عن محمد بن يوسف بن عبد الله الوراق أن جعفراً وأخاه هما من أصل أندلسى ، وهما ابنا على بن حمدون بن سماك بن سعيد بن إبراهيم . وكان منزلهم بالأندلس بكورة إلبيرة على مقربة من قلعة يحصب . وانتقل جدهما حمدون إلى إفريقية وتزوج من كتامة ، ثم سافر إلى الحج ، وتعرف هناك بأبى عبد الله الشيعى ودخل فى مذهبه . ولما ظهر الشيعى بإفريقية واحتوى على ملك بنى الأغلب حظى لديه ، وحظى أبناؤه لدى الخلفاء الفاطميين ، واستقروا مدى حين حكاماً للمسيلة . ثم اتهم زعيمهم جعفر بالاتصال ببنى خزر ، وتوعده الخليفة المعز بشر النكال ففر وأخوه فى الأهل والمال إلى بنى خزر أمراء زناته ( راجع المقتبس – قطعة أكاديمية التاريخ – ص ٣٣ – ٣٦

(٢) يقدم إلينا ابن حيان تفاصيل ضافية عن استقبال جعفر وأخيه يحيى حين مقدمها إلى الأندلس برؤوس زيرى وأصحابه ، ودخولها قرطبة فى ركب فخم برفقة احب السكة والمواريث وقاضى إشبيلية محمد بن أبى عامر ، ثم استقبال الخليفة لها ومن معهما من أعيان بنى خزر ، وذلك بالمجلس القبلى من قصر الزهراء ، فى حفل فخم رتبت فيه صفوف الجند وأهل الخدمة بأنواعهم =

وكان لهذه النكبة التى حلت بجيش الشيعة وصنهاجة ، وقع عميق فى الخلافة الفاطمية . فأمر الخليفة المعز قائده يوسف بن زيرى بن مناد ، المسمى بُلُكّين ( بلقين ) أن يسير فى الجيوش إلى المغرب جسيما تقدم . فسار بلكين ، وهو ينزل ضرباته المتوالية بأتباع زناتة حيثما وجدوا فى طريقه ، وكانت منهم جموع غفيرة فى المغرب الأوسط فى بجاية ، والمسيلة ، وبسكرة ، وتاهرت وغيرها ، فمزقهم شر ممزق . ووصل بلكين فى قواته ، إلى المغرب الأقصى ، فى ربيع الثانى سنة ٣٦١ هـ ، واستعد بنو خزر وسائر أمراء زناتة للقائه ، ووقعت الحرب بين الفريقين ، فهزمت زناتة شر هزيمة ، وانتحر أميرها محمد بن الخير بن خزر وذلك بأن اتكأ على سيفه فذبح نفسه ، حتى لا يقع فى يد عدوه ، ومزق بلكين زناتة كل ممزق ، وهدم مدينة البصرة ، وبسط سلطانه على معظم أنحاء المغرب ، وقطع دعوة الأمويين ، وحقق انتقامه لمقتل أبيه كاملا[1] .

وسارع الحسن بن كنون ، القلّب مع كل تطور جديد ، إلى بيعة بلكين ، والانضواء تحت لوائه ، أو بعبارة أخرى ، تحت لواء سادته الشيعة . ولكن بلكين لم يمكث طويلا بالمغرب . إذ سرعان ما استدعاه سيده المعز — وكان يتخذ يومئذ أهبته للسفر إلى مصر ، مقر ملكه الجديد — فارتد عائداً بقواته إلى إفريقية .

ووقف الحكم على تطور الحوادث بالمغرب ، فأزعجه ذلك وأهمه ، وبادر

= الزاهية ، وقد رفعت رؤوس القتلى وعددها مائة وفى مقدمتها رأس زيرى على القنوات . وكان دخولهم على الخليفة ، فى أواخر ذى القعدة سنة ٣٦٠ هـ . واستقبلهم الخليفة بالبشر والرضى ، وامتدح موقفهم وانصرافهم عن حزب الشيعة إلى مؤازرة حزبه . وعلى أثر انتهاء المقابلة ، انزلوا فى الدور التى خصصت لهم بقرطبة ، ورتب الخليفة لكل من جعفر وأخيه يحيى نفقة شهرية قدرها ألف دينار ، ورتب لمرافقيهم من بنى خزر ، كل ما يكفيه من النفقة والطعام . يقول ابن حيان بعد أن أورد لنا هذه التفاصيل الشائقة بإسهاب لا مزيد عليه : « فكان يوم جعفر بن على ومن ورد معه من أحد الأيام المعقم بقرطبة ، فى اكتمال حسنه وجلالة قدره ، خلد حديثه زمناً فى أهلها ، قاضياً من عجب الجلالة ، وكل شىء فإلى انقضاء ، إلا إله الأرض والسماء ، تعالى جده » ( المقتبس — قطعة أكاديمية التاريخ ص ٤٤ — ٥٣ وص ٥٧ ) .

( ١ ) راجع مجموعة « نبذ تاريخية فى أخبار البربر فى القرون الوسطى » المنتخبه من كتاب « مفاخر البربر » لمؤلف مجهول ، والمنشور بعناية الأستاذ ليڤى بروفنسال ( الرباط سنة ١٩٣٤ ) ص ٦ — ٨ ، ويرجع الكاتب هذه الموقعة إلى سنة ٣٦٠ هـ . وراجع أيضاً المقتبس — قطعة أكاديمية التاريخ ص ٣٦ و ٣٨ .

باعداد جيش ضخم ، حسن الأهبة ، لغزو المغرب ، ومقاتلة الحسن بن كنون ، تحت إمرة قائده محمد بن القاسم بن طملس ، كما أمر قائد البحر عبد الرحمن بن رماحس بحشد الأسطول . وعبر محمد بن القاسم فى قواته من الجزيرة الخضراء إلى سبتة ، فى شوال سنة ٣٦١هـ ( يوليه ٩٧٢ م ) ، وكان الحسن بن كنون عندئذ فى طنجة ، فخرج فى جموع البربر لقتال جيش الحكم ، فوقعت عليه الهزيمة وقتل كثير من أصحابه ، وفر هارباً تاركاً أمواله وعتاده بطنجة ، واستسلم أهل طنجة إلى محمد بن القاسم ، وأعلنوا طاعتهم للحكم ؛ ودخل محمد طنجة واحتلها ، وبعث إلى الحكم بفتحها . ثم طارد فلول الحسن بن كنون جنوباً حتى ثغر أصيلا ، ودخلها .

وفى تلك الأثناء كان الحسن قد جمع فلوله ، وأعاد تنظيم قوانه ، وسار إلى لقاء جيش الحكم مرة أخرى ، فالتقى الجمعان فى مكان يعرف بفحص مهران ؛ وهنا حالف الحسن حسن الطالع ، فدارت الدائرة على جند الأندلس ، وقتل منهم عدة كبيرة فرساناً ومشاة ، وفى مقدمتهم قائدهم محمد بن القاسم ، وبلغ القتلى من الفرسان وفق تقدير الرازى خمسمائة ومن الرجالة ألفاً ، وكان ذلك فى الثالث والعشرين من ربيع الأول سنة ٣٦٢ هـ ، وفرت فلول الأندلسيين إلى سبتة فامتنعوا بها ، وبعثوا إلى الحكم يطلبون الإنجاد والغوث (١).

وأراد الحسن فى نفس الوقت أن يستغل نصره بطلب الصلح ، وتقديم الطاعة وتبادل الرهائن ، وبعث أمير البحر عبد الرحمن بن رماحس بذلك إلى الحكم ، فكتب الحكم إليه ومن معه من القادة يوصيهم بالاستمرار فى مجاهدة الملحد ، ومجاهدة من معه ، حتى يفتح الله عز وجل فيه وفيهم . وكان مما قاله فى كتابه : « أن أفضل ما احتمل عليه ، وعمل به ، استشعار الحزم ، وادراع التحفظ ، واستنصاح الاتهام ، وإذكاء العيون ، وبث الجواسيس ، والاستكثار منهم ، ومن حملة الأخبار حتى لا يخفى لحسن — أهلكه الله — حركة ، ولا يتوارى له مذهب » .

ومما كتبه الحكم إلى عبد الرحمن بن يوسف بن أرمطيل قائد ثغر أصيلا ،

---

( ١ ) راجع مجموعة « نبذ تاريخية فى أخبار البربر » التى سبق ذكرها ص ٨ . وابن حيان فى المقتبس — قطعة أكاديمية التاريخ ص ٩٦ .

رداً على ما أبداه الحسن من رغبة فى الإنابة والصلح : « وكيف يذهب الآن هذا المذهب وهو فى طغيانه مستمر ، وفى دينه مستبصر ، ولكم فى كل أيامه محارب ، هذا هو الضلال ، والمحال عين المحال ، وسبب الخبال ، وقد رأى أمير المؤمنين تأمين جميع الناس لديه غيره ، وغير من أصر إصراره ، وتمادى تماديه ، إلى أن يحكم الله عليه ، ويفتح فيه »(١) .

وبادر الحكم فى نفس الوقت بحشد جيش جديد ، ندب لقيادته مولاه ووزيره وكبير قواده غالباً بن عبد الرحمن « البعيد الصيت المعروف بالشهامة » . وأمده عدا الجند الكثيف ، والعتاد الضخم ، بأموال جليلة لاستمالة القبائل ، وأمره أن يشتد فى قتال الأدارسة ، وأن يستأصل شأفتهم ، وأن يطهر المغرب من كل القوى المناوئة لبنى أمية . وقال له : « سر ياغالب مسير من لا إذن له فى الرجوع إلا حياً منصوراً ، أو ميتاً معذوراً ، وابسط يدك فى الإنفاق ، فان أردت نظمت للطريق بيننا قنطار مال »(٢) . فخرج غالب فى قواته الجرارة من قرطبة ، وعبر البحر من الجزيرة الخضراء إلى قصر مصمودة ( أو القصر الصغير ) وذلك فى الحادى عشر من رمضان سنة ٣٦٢ هـ . وعلم الحسن بمقدمه ، وعظم أهبته ، فغادر مدينة البصرة ، الواقعة فى الجنوب حيث كان يقيم ، ولجأ بأهله وأمواله وذخائره إلى قلعة حجر النسر ، الواقعة شمالها . ثم جمع قواته وخرج لقتال جيش الحكم ، ونشب القتال بين الفريقين أياماً ، وبث غالب فى رؤساء البربر من غمارة وغيرهم من جند الحسن، الأموال والهدايا ، فانفصلوا عنه ، واضطر الحسن أن يمتنع بمن بقى معه فى قلعة حجر النسر ، فطارده غالب وضرب الحصار حول القلعة . وفى أوائل شوال بعث الحكم ثقته محمد بن أبى عامر إلى العدوة بأحمال من المال والحلى والخلع لتوزيعها على أكابر البربر الذين يمكن استمالتهم إلى جانب الخلافة . وأصدر الحكم فى نفس الوقت مرسومه بتعيين ابن أبى عامر

---

(١) ابن حيان — قطعة أكاديمية التاريخ ص ٩٧ و ٩٨ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢١٨ ، وكذلك « نبذ تاريخية فى تاريخ البربر » ص ٩ . وقد وردت هذه العبارة بصورة أخرى فى كتاب نقله إلينا ابن حيان ، وأرسله الحكم إلى غالب وهو بالعدوة ردا على كتاب منه وجاء ، فى خاتمته هذه العبارة : « فاستقبل نظرك استقبال من استشعر مذهب أمير المؤمنين ووطن فيه على أن لا مرجع إلا بما يحب أو يموت فيعذر » . راجع المقتبس — قطعة أكاديمية التاريخ — ١٣١ .

قاضياً لقضاة العدوة ، إلى ما يتقلده من خطتى الشرطة الوسطى والعليا والمواريث وقضاء إشبيلية[1] . ووصلت إلى غالب من الأندلس بعد ذلك أمداد جديدة ، بقيادة الوزير يحيى بن محمد التجيبي وإخوته ، يوسف ومحمد وهاشم وهذيل ، ومعه جملة من المال ( المحرم سنة ٣٦٣ هـ ) ونزل يحيى وجنده بطنجة ، وانضموا إلى قوات القائد الأعلى غالب . وشدد غالب الحصار على الحسن ، وقطع سائر علائقه وموارده ، وبث قواته فى سائر الأنحاء لمطاردة الأدارسة ، واستئصال شأفتهم . ونشبت بين جند الحكم وبينهم معارك عديدة ، قتل فيها الكثير منهم ؛ وفى صفر سنة ٣٦٣ هـ استولى غالب على مدينة البصرة ، وسلمها إليه أهلها ، بعد أن قتلوا نائبها الحسنى . وكان ضمن حاشية غالب الشاعر محمد بن حسين التميمى المعروف بالطبنى ، بعثه إليه الحكم تحقيقاً لرغبته لكى يساعده بنظمه على اكتساب ولاء المنشقين على الحسن[2] . وفى تلك الأثناء ، كان الحسن قد أجهده الحصار ، وأشرف على الهلاك ، ومن معه من أهله ورجاله ، فاضطر فى النهاية إلى طلب الأمان والتسليم ، وأعلن طاعته للحكم ( جمادى الآخرة سنة ٣٦٣هـ ) ، ودخل غالب قلعة حجر النسر ، ودعى فى مسجدها للحكم . ووصلت هذه الأنباء السارة إلى الحكم ، وأعلنها الحكم فى جامع قرطبة ، بعد ذلك بأيام قلائل ؛ وتتبع غالب سائر من بقى من الأدارسة ببلاد الريف حتى استأصل شأفتهم ، وقضى على دولتهم . وسار إلى مدينة فاس ودخلها ، وعين لها حاكماً من قبله ، وتم بذلك إخضاع المغرب للدعوة الأموية .

وكان قد وصل من العدوة قبل هزيمة الحسن ، عدد كبير من القبائل والبطون البربرية الخارجة عليه ، الجانحة إلى طاعة الحكم . وكان بين هؤلاء عدد كبير من فرسان قبائل كتامة يبلغون زهاء ثلاثة آلاف وخمسمائة فارس ، ورئيسهم أبو العيش بن أيوب ، وقد عقد له الحكم على قومه ، وأصدر له بذلك سجلا من إنشاء صاحب المواريث جعفر بن عثمان ، يبين فيه واجباته وسلطاته ولا سيما فى شئون الجباية ، وأصدر الحكم سجلات مماثلة لزعماء القبائل والبطون البربرية الأخرى ، وقد ذكرها لنا ابن حيان ، وذكر أسماء زعمائها[3] .

---

(١) ابن حيان – قطعة أكاديمية التاريخ ص ١٢٣ .

(٢) ابن حيان فى المقتبس – قطعة أكاديمية التاريخ ص ١٠٩ .

(٣) ابن حيان فى المقتبس قطعة أكاديمية التاريخ ص ١١٠ – ١١٥ .

وفى أواخر ذى الحجة سنة ٣٦٣ هـ ، عبر القائد الأعلى غالب البحر إلى الجزيرة الخضراء ، تاركاً شئون العدوة للقائد يحيى بن محمد بن هاشم التجيبى تحقيقاً لرغبة الحكم ؛ وكان فى ركب القائد الأعلى المظفر ، الحسن بن كنون وسائر أهله وشيعته من زعماء الأدارسة ومعهم الأهل والولد . وصدر قبيل ذلك فى قرطبة ، عن أمر الخليفة الحكم ، كتاب طويل من إنشاء الوزير جعفر ابن عثمان قرئ على سائر منابر الأندلس ، وفيه ينوه بما من الله على خليفته من كفالة أمر المسلمين ، وقمع عدوان النصارى بالأندلس ، ثم مطاردة الشيعة أهل البدع بالعدوة ، وما منحه الله من النصر على المخالفين « حتى استوسقت الطاعة فى جميع بلاد المغرب وقامت الدعوة بمنابر قواعده »(١). وأشرف غالب فى ركبه الحافل على قرطبة فى أوائل المحرم سنة ٣٦٤ هـ ، وأنزل الأشراف الحسنيون المرافقون له فى الدور التى أعدت لهم بقرطبة وأرباضها . وخرج الجند من مدينة الزهراء فى صبيحة يوم الخميس الخامس من محرم لتلقى القائد المظفر ، والمسير بين يديه ، وعلى رأسهم عدة من الفتيان ورؤساء الخدمة ، ودخل غالب قرطبة فى عسكره ، وفى ركبه الأشراف الأدارسة ، ونزل بفحص الناعورة ؛ ويصف لنا ابن حيان فى تفصيل شاف موكب القائد غالب ، وركبه المظفر الفخم ، ومن كان يحف به أو يتبعه من الفرسان المدرعين وأهل الخدمة والصقالبة ، والعبيد الرماة وغيرهم من أصحاب الطبول والقرون والبنود والرايات . ودخل غالب فى موكبه الفخم مدينة الزهراء من باب السُّدة ، ونفذ إلى القصر ، وأنزل الأدارسة الذين معه فى المجالس القبلية بدار الجند . وكان الخليفة الحكم قد جلس لاستقباله فى المجلس الشرقى المشرف على الرياض ، وقد حف به الإخوة ، وجلس من بعدهم الوزراء والحجاب وأصحاب الشرطة والمدينة والقضاة وسائر أهل الخدمة ، كل فى مكانه المعهود . واستقبل الخليفة زعماء الأدارسة ، وشيخهم حنون بن أحمد بن عيسى ، وشكر طاعتهم ، وعفا عن الحسن ، ووعدهم بالإحسان ، وأجزل لهم الأرزاق والصلات(٢) . وعين من حاشيتهم فى ديوانه ، سبعمائة من أنجادهم . واستمر الحسن وذووه على ذلك زهاء عامين . ثم وقعت

(١) راجع الكتاب المذكور فى المقتبس – قطعة أكاديمية التاريخ ص ١٧٨ – ١٨٢ .

(٢) ابن حيان فى المقتبس – قطعة أكاديمية التاريخ ص ١٩٤ – ٢٠٠ .

النفرة بينه وبين الحكم لأسباب منها ، «سوء خلق الحسن وبلاجته» . قال المؤرخ : «وكان الحسن بن قنون هذا جاهلا متهوراً فظاً ، شديد الجرأة ، قاسي القلب» . ولم ينس الحكم ما كان من قسوته وفظاعته نحو جنده أيام الحرب بينهما ، حيث كان الحسن يلقى بالأسرى من جند الأندلس من أعلى قلعته الشامخة فيصلون إلى الأرض إرباً[1] . وهكذا ثقل وجوده وذووه فى قرطبة . ومن جهة أخرى فقد كان الحاجب جعفر بن عثمان المُصْحفى يتوجس شراً من وجود الحسن وصحبه ، ويستثقل نفقاتهم ، وينصح بإخراجهم من الأندلس . فرأى الحكم أن يقصيهم عن مملكته ، وأن يتخلص من نفقاتهم الباهظة ، وأن يبعث بهم إلى المشرق . وهكذا أخرج الحسن وعشيرته من قرطبة ، وركبوا البحر من ألمرية إلى تونس سنة ٣٦٥ هـ (٩٧٥ م) ، ثم ساروا إلى مصر ، حيث نزلوا فى كنف خليفتها الفاطمى العزيز بالله ، فأكرم وفادتهم ، ووعدهم بنصرة قضيتهم . واستقر الحسن بمصر بضعة أعوام ، حتى سنة ٣٧٣ هـ ، وعندئذ بعثه العزيز بعهد منه ، إلى بلكين بن زيرى بن مناد بالقيروان ، يطلب إليه إمداده وعونه ، على تنفيذ مشاريعه ، إلى أن كان من أمره ما سيجىء[2] .

وكان غرسية فرناندز ، ولد فرنان كنثالث ، صاحب قشتالة وألبة ، قد خلف أباه فى الحكم ، منذ وفاته فى سنة ٩٧٠ م . وكان مثله يتبع سياسة النفاق والمصانعة ، فى إظهار رغبته فى السلم ، ثم يقوم فى الوقت نفسه بالإغارة على الأراضى الإسلامية ، كلما سنحت الفرص . فلما شغل الحكم بحوادث المغرب ، وعبرت الجيوش الأندلسية وقوادها الأكابر ، إلى العدوة ، بعث غرسية قواته ، فأغارت على أراضى المسلمين ، واقتحمت حصن دسة الواقع شمال شرقى مدينة سالم ، والذى يتوسط أراضى بنى عمريل بن تيملت الثغرى . ووقع هذا الاعتداء فى شهر ذى الحجة سنة ٣٦٣ هـ (صيف سنة ٩٧٤ م) ، وأحرق النصارى الزروع واستاقوا الماشية ؛ فخرج فى أثرهم زروال ومضاء ، ولدا عمريل ، واليا هذه

---

(١) «نبذ تاريخية فى أخبار البربر» ص ١٠ و ١٤ .

(٢) راجع فى سرد هذه الحوادث المغربية : البيان المغرب ج ٢ ص ٢٦١ – ٢٦٥ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢١٦ – ٢١٩ ، والاستقصاء ج ١ ص ٨٦ – ٨٨ . و «نبذ تاريخية فى أخبار البربر» ص ٦ – ١٢ .

المنطقة ، فى أصحابهما ، واستنقذوا الماشية ، وقتلوا عدداً من النصارى ؛ ولكن النصارى تكاثروا عليهم بعد ذلك ، ووقعت بين الفريقين معركة قتل فيها زروال . ومن الغريب أن غرسية فرناندز ، كان قبل هذا الاعتداء بقليل ، قد بعث رسله إلى قرطبة ، فى طلب السلم والمهادنة ، فأجابهم الحكم إلى ما طلبوا ؛ وما كادوا ينصرفون من قرطبة ، حتى جاءت الأنباء بما حدث من اعتداء القشتاليين ، فبعث الحكم لفوره أفلح صاحب الخيل ، فى سرية من وجوه الجند ، للقبض على السفراء القشتاليين ، فهرعت فى أثرهم واستطاعت أن تظفر بهم ، وأعيدوا إلى قرطبة حيث زجوا إلى السجن .

ووفد على الحكم فى العام التالى ، أبناء عمريل الخمسة بعد وفاة أبيهم ، وشهد القائد الأعلى غالب بن عبد الرحمن ، بحزمهم وحسن طاعتهم ، وأوصى بتقليدهم عمل والدهم ، فقسمت بينهم الأراضى والحصون ، على رضا منهم ، وغمرهم الحكم بالخلع والصلات(١) .

وكان من الأحداث البارزة فى أواخر سنة ٣٦٣ هـ ، ما وقع من نكبة جعفر ويحيى ابنى على بن حمدون الأندلسى . وكانا قد استقرا فى قرطبة، فى كنف الحكم وتحت سابغ رعايته . وكان الحكم قد ابتاع منهما عبيدهما الذين استعفوا من خدمتهما ، ودفع الثمن إليهما ، وتم فصل العبيد عنهما ، وضمهم الحكم إلى جنده لما كانوا يتصفون به من الشجاعة والبأس ، وكان لذلك فيما يبدو أثر سيئ فى نفسيهما ، فقيل إنهما تكلما فى حق الخليفة بما لا يحمد ، وجاهرا بامتداح خلفاء الشيعة ، سادتهم الأوائل ، ونمى ذلك إلى الحكم ، فأمر فى الحال بالقبض عليهما ، وزجا مكبولين إلى سجن الزهراء . وكان ذلك فى شوال سنة ٣٦٣ هـ ، ولبثا فى المطبق بضعة أشهر ، حتى عاد الخليفة فعفا عنهما ، وأمر بإطلاق سراحهما ، وذلك فى رجب من العام التالى ، فأقرا بالذنب وطلبا الإنابة والصفح ، فأسعفهما الخليفة بما طلبا ، وغمرهما بصلاته(٢) .

---

(١) راجع ابن حيان فى « المقتبس » قطعة مكتبة أكاديمية التاريخ (ص ٧٣و١٨٨و١٨٩) . وراجع بحثاً فى ذلك الموضوع للعلامة كوديرا عنوانه :

**Embajodores de Castilla encarcelados en Córdoba de los ultimos anos de Alhakam II (B. R. A. H. Tom. XIV, 1889).**

(٢) ابن حيان فى المقتبس — قطعة أكاديمية التاريخ ص ١٧١ — ١٧٤ .

وعمد الحكم فى نفس الوقت إلى اصطناع البربر وفرسانهم ، لما لقيه منهم فى حربه ضد الحسنيين الأدارسة ، من المجالدة ووفرة البأس والشجاعة ، فأكرم وفادتهم ، وألحقهم بجنده ، وأجزل لهم العطاء . وكان فى مقدمة هؤلاء بنو برزال الذين أبلوا من قبل فى محاربة زيرى بن مناد الصنهاجى ، وكانوا قد عبروا إلى الأندلس ، وأغضى الحكم عن انحيازهم إلى مبادئ الخوارج الإباضية . وهكذا اجتمعت للحكم من عبيد جعفر ويحيى ومن داخلهم من أحرار البربر الوافدين ، قوة عسكرية بربرية تضم نحو سبعمائة فارس من خيرة الشجعان[١] .

وفى شهر جمادى الآخرة سنة ٣٦٤ هـ أصدر الحكم أوامره بإسقاط سدس المغرم ( الضرائب ) الواجب أداؤه على سائر الرعايا عن هذه السنة ، وأنفذ بذلك مرسومه إلى سائر القواد والعمال بمختلف الكور ، وقرر أن يكون هذا السدس شائعاً فى الناس يستوى فى معرفته العالم منهم والجاهل ، وذلك ترفيهاً لهم وتحقيقاً لمصالحهم[٢] .

وفى شهر رجب من هذه السنة ، بعث الحكم ، نظراً لما بدا من تحركات النصارى فى مختلف الأنحاء ، عدداً من أكابر رجال المملكة إلى كور الأندلس لحث أهلها على ارتباط الخيل ، والاستعداد لمؤازرة جيش الصائفة ، وكان ممن بعث من رجالاته صاحب الشرطة العليا ، يحيى بن عبيد الله بن يحيى ، بعثه إلى كور الجوف ، وبعث قائد البحر عبد الرحمن بن رماحس إلى كور الشرق ، وبعث أحمد بن محمد بن سعد الجعفرى إلى الغرب ، نحو شنترين وما إليها ، وبعث آخرين لنفس الغرض[٣] .

وفى أوائل شعبان سنة ٣٦٤ هـ ( ابريل ٩٧٥ م ) هاجم جيش مشترك من الجلالقة والقشتاليين والبشكنس ، حصن غرماج الواقع على نهر دويرة على مقربة

---

( ١ ) ابن حيان – قطعة أكاديمية التاريخ ص ١٩١ و ١٩٢ .

( ٢ ) المقتبس – قطعة أكاديمية التاريخ ص ٢٠٨ . وقد أورد لنا ابن حيان نص هذا المرسوم كاملا ( ص ٢٠٧ و ٢٠٨ ) وفيه يقرر الحكم أنه أصدر مرسومه المذكور « لما تظاهرت آلاء الله تعالى عليه ، وحسن بلائه عنده » وأنه « رأى أن يجدد له الشكر » ويمترى منه المزيد بإسقاط سدس جميع مغرم الحشود الواجب تقاضيها منهم لسنة أربع وستين وثلاثمائة ، تخفيفاً عن رعيته وإحساناً إلى أهل مملكته .

( ٣ ) المقتبس – قطعة أكاديمية التاريخ ص ٢١٦ .

من مدينة سالم ، ونشب بينه وبين حاميته الإسلامية قتال عنيف . وشجع النصارى على انتهاك السلم المعقود بينهم وبين الخليفة ، اعتقادهم بأن قوى الأندلس كلها ما تزال مشغولة بحروب العدوة . وانقلب النصارى إزاء بسالة الحامية الإسلامية إلى محاصرة الحصن ، ووافتهم أمداد أخرى جاءت لتشد أزرهم . وما كاد الحكم يقف على هذه الأنباء حتى بعث كبير قواده غالباً بن عبد الرحمن فى قوة مختارة غادرت قرطبة على عجل . وبعث الحكم فى أثرها أحمال المال للإنفاق على الصائفة . واستمر حصار النصارى لغرماج حتى شوال من تلك السنة . وجاءت للنصارى أمداد جديدة من جند ليون ، سيرتها الراهبة إلبيرة الوصية على ملك ليون ، ناكثة بذلك عهدها فى التهادن والسلم . وفى منتصف شوال ، هاجم النصارى الحصن ، وهم فى أكثر من ستين ألفاً ، محاولين اقتحامه ، ونشبت بينهم وبين الحامية الإسلامية معركة طاحنة انتهت بهزيمة النصارى وتبديد شملهم ، فبادرت صفوفهم بالارتداد عن الحصن بعد أن فقدوا كثيراً من جندهم وعتادهم ، وطاردهم المسلمون ، فقتلوا منهم جموعاً أخرى ، وأحرزوا غنائم جمة . وبعث المسلمون إلى الوزير غالب ، وهو مقترب منهم لنصرتهم ، بنبأ هذا الظفر ، فأنفذه من فوره إلى الخليفة ، وسار إلى الحصن ونزل به ، ثم خرج فى قواته ، فعاث حيناً فى أراضى قشتالة ، وانتسف الزروع ، وخرب القرى . وتقدمت قوة بعث بها غرسية فرنانديز صاحب قشتالة لمدافعة المسلمين ، فهزمت وردت إلى أعقابها[1] .

* * *

تولى الحكم المستنصر الملك ، حسبما أسلفنا ، وهو كهل فى الثامنة والأربعين من عمره ، ولم يكن إلى ذلك الحين قد أنجب ولداً ، وكان ذلك مما يثير قلقه وجزعه ، إذ كان يتوق أن يكون له وريث فى الملك . ومن ثم فقد سر أيما سرور حينما ولدت له حظيته « جعفر » أو صبح النافارية ، ولداً سماه عبد الرحمن ( سنة ٣٥١ هـ — ٩٦٢ م ) ، وكان مولده حادثاً خطيراً ، نوهت به الشعراء والأدباء . ولكن هذا الولد توفى طفلا ، فحزن الحكم لفقده أيما حزن . على أن القدر لم يلبث

---

(١) المقتبس — قطعة أكاديمية التاريخ ص ٢١٨ و ٢١٩ و ٢٣٤ — ٢٣٧ .

أن حباه مرة أخرى ، إذ ولدت «جعفر» ولداً آخر سماه أبوه هشاماً وكنيته أبو الوليد ، فكان ولى عهده الملقب بالمؤيد . « فعظم استبشاره به وسروره بموهبة الله فيه »(١). وحضر الحاجب جعفر بن عثمان المصحفى وقت البشارة بولادته ، وأنشد هذه الأبيات :

أطلع البــدر فى سحابه وأطرف السيف من قرابه
وجاءنا وارث المعــالى ليثبت الملك فى نصــابه
بشرنا ســيد الــبرايا بنعمــة الله فى كتــابه

وكان مولد هشام المؤيد سنة ٣٥٤هـ ( ٩٦٥م ) ، وكان مؤدبه مذ بلغ الثامنة من عمره الفقيه أحمد بن محمد بن يوسف القسطلى ، وقد أمر الحكم بأن تعد لتعليمه الدار المعروفة بدار الملك بقصر الزهراء ، وأن تزود بجميع ما يحتاج إليه لذلك . وكان قعود هشام مع مؤدبه فى المجلس الشرقى منها فى رمضان سنة ٣٦١هـ . وندب الحكم وصيفه الفتى ذكاء ناظراً للأمير متكفلا بشئونه(٢). وفى أواخر سنة ٣٦٣ هـ ندب الخليفة العلامة النحوى أبا بكر الزبيدى الإشبيلى ليقوم بتدريس العربية وعلومها لولى العهد . وفى العام التالى ندب الفقيه المحدث يحيى بن عبدالله ابن يحيى ليقوم بإسماعه الحديث . وكان يومئذ عمدة المحدثين بقرطبة(٣) . وسنرى أى دور عظيم تلعبه فيما بعد ، أم هشام جعفر أو صبح النافارية ، على مسرح الحوادث .

وأما عن شخص الحكم ، فقد كان حسبما تصفه الرواية ، أبيض مشرباً بحمرة ، أعين ، أقنى ، جهير الصوت ، قصير الساقين ، ضخم الجسم ، غليظ العنق ، عظيم السواعد ، أفقم(٤) .

* * *

يمتاز عصر الحكم المستنصر بظاهرة ، من ألمع الظواهر فى تاريخ الدولة

---

( ١ ) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٢ و ٢٥٣ ، وأعمال الأعلام لابن الخطيب ص ٤٣ .
( ٢ ) ابن حيان فى المقتبس – قطعة أكاديمية التاريخ ص ٧٦ و ٧٧ .
( ٣ ) المقتبس – قطعة أكاديمية التاريخ ص ١٣٣ و ٢١٦ .
( ٤ ) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٩ . والأعين هو ذو العينين السوداوين النجلاوين ، والأقنى ذو الأنف المرتفع الأعلى والمحدودب الوسط ، والأفقم أى الأعرج .

الأندلسية ، هى ازدهار العلوم والآداب أعظم ازدهار ، وإنشاء المكتبة الأموية العظيمة ، التى كانت بضخامتها ، وتنوع محتوياتها ، من أعظم مكتبات العصور الوسطى .

ويرجع ذلك قبل كل شىء إلى شخصية الحكم نفسه ، وإلى صفاته العلمية الممتازة ، التى نوه بها أكثر من مؤرخ أندلسى ، وإلى شغفه العظيم بجمع الكتب ، وهو شغف كان له أكبر الأثر فى ملىء خزائن الأندلس بنفائس الكتب ، من كل فن ومن كل قطر ، من أقطار العالم الإسلامى .

وقد أشاد ابن حيان مؤرخ الأندلس — وقد عاش قريباً من عصر الحكم — بصفات الحكم العلمية ، وتقدمه فى العلوم الشرعية ، وعنايته بتحقيق الأنساب وتأليف قبائل العرب ، واستدعاء رواة الحديث من جميع الآفاق ، وإيثار مجالس العلماء ، وشغفه بجمع الكتب بصورة لم يسمع بها[1] . ويشاطره معاصره الفيلسوف ابن حزم ، هذا الإعجاب بصفات الحكم العلمية ، ويذكر لنا فى أكثر من موضع من مؤلفه الجامع فى الأنساب ، أنه ينقل من خط الحكم[2] . ويجمل ابن الخطيب هذه الصفات فى قوله : « وكان رحمه الله ( أى الحكم ) عالماً فقيهاً بالمذاهب ، إماماً فى معرفة الأنساب ، حافظاً للتاريخ ، جماعاً للكتب ، مميزاً للرجال من كل عالم وجيل ، وفى كل مصر وأوان ، تجرد لذلك ، وتهمم به ، فكان حجة وقدوة ، وأصلا يوقف عنده »[3] .

وقد انتهت إلينا تفاصيل مدهشة عن الدور العظيم الذى قام به الحكم فى إنشاء المكتبة الأموية الكبرى . وكانت هذه النزعة الأموية ، إلى تشجيع العلوم والآداب وجمع الكتب ، قد بدت منذ عصر عبد الرحمن الداخل . وفى عهد الأمير محمد ابن عبد الرحمن كانت المكتبة الأموية بالقصر ، أعظم مكتبات قرطبة . وكان عبد الرحمن الناصر يشغف بجمع نفائس الكتب من سائر الآفاق ، حتى أن قيصر

---

( ١ ) الحلة السيراء ، نقلا عن ابن حيان ص ١٠١ و ١٠٢ .

( ٢ ) جمهرة أنساب العرب لابن حزم (القاهرة) ص ٢٨١ و ٢٨٢ و ٢٩٢ و ٣٧٤ و ٣٧٥ و ٣٨٤ ، ٣٩٨ . وقد وضع الحكم بالفعل كتاباً فى « أنساب الطالبين والعلويين القادمين إلى المغرب » ( نفح الطيب ج ٢ ص ٧٩ ) .

( ٣ ) أعمال الأعلام ص ٤١ .

قسطنطينية حينما أرسل إليه سفارته الشهيرة ، حرص على أن يهديه كتابين من ذخائر الأقدمين هما كتاب ديسقوريدس عن الأعشاب الطبية وتاريخ أورسيوس . ولما توفى الناصر ، عنى ولده الحكم بجمع مكتبات القصر وتنظيمها ، لتكون بداية طيبة للمكتبة الأموية العظيمة ، التى أنفق بقية عمره فى جمعها وتنسيقها[1] . ويقول لنا ابن حيان فى دهشة وإعجاب إنه «لم يسمع فى الإسلام بخليفة ، بلغ مبلغ الحكم فى اقتناء الكتب والدواوين ، وإيثارها والتهمم بها . أفاد على العلم ، ونوه بأهله ، ورغب الناس فى طلبه ، ووصلت عطاياه ووصلاته إلى فقهاء الأمصار النائية» . وكان الحكم يبعث إلى أكابر العلماء المسلمين من كل قطر ، بالصلات الجزيلة ، للحصول على النسخ الأولى من مؤلفاتهم . ومن ذلك أنه بعث إلى أبى الفرج الأصفهانى ألف دينار من الذهب العين ، ليحصل منه على نسخة من كتابه «الأغانى» . فأرسل إليه منه نسخة حسنة منقحة ، قبل أن يحصل عليه أحد فى العراق أو ينسخه أحد منهم ، وأرسل إليه أبو الفرج أيضاً — وهو ممن ينتمون إلى المروانية بنى أمية — كتاباً ألفه فى أنساب قومه بنى أمية ، يشيد فيه بمجدهم ومآثرهم ، فجدد له الحكم الصلة الجزيلة[2]. وفعل الحكم مثله ذلك مع القاضى أبى بكر الأبهرى المالكى ، إذ بعث إليه بمبلغ جليل ليحصل على النسخة الأولى من شرحه لمختصر ابن عبد الحكم . وأسبغ الحكم رعايته على اللغوى الكبير أبى على القالى ، الذى وفد من العراق على أبيه الناصر ، وقربه إليه ، وألف كتبه تحت كنفه ، وأورث أهل الأندلس علمه[3] . وأهدى إليه أبو عبد الله الخشنى بعض كتبه ومنها كتاب «القضاة» أو «قضاة قرطبة»[4] ؛ وأهدى إليه مطرف ابن عيسى الغسانى ، كتابه المسمى بالمعارف فى «أخبار كورة إلبيرة» ، كما أهدى إليه كثير من علماء العصر مؤلفاتهم ، تيمناً برعايته للعلم والعلماء . وكان للحكم طائفة من مهرة الوراقين بسائر البلاد ، ولاسيما فى بغداد والقاهرة ودمشق ، ينقبون له عن الكتب ، ويحصلون منها على النفيس والنادر ، كما كانت له فى بلاطه طائفة

---

(١) J. Ribera : Disertaciones y Opusculos (Madrid 1928) p. 191 & 192

(٢) الحلة السيراء — عن ابن حيان ص ١٠٢ .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٦ .

(٤) راجع كتاب قضاة قرطبة للخشنى ( المقدمة ) .

أخرى ، من البارعين فى نسخ الكتب ، وتحقيقها ، وتجليدها ، وتصنيفها . وبذل فى هذا السبيل من الجهود والأموال ما لم يسمع به ، واجتمع لديه من نفائس الكتب فى مختلف العلوم ، ما لم يجتمع لأحد قبله . ولما ضاقت أبهاء القصر الخليفى ، عن استيعاب العدد العظيم ، من الكتب الواردة إليها باستمرار ، أنشأ الحكم على مقربة من القصر صرحاً عظيماً خاصاً بالمكتبة ، افتن المهندسون فى ترتيبه وتنسيقه ، وإنارة أبهائه . قال ابن حزم « ملأ الأندلس بجميع كتب العلوم » وذكر لنا أن تليداً الفتى — وكان على خزانة العلوم بقصر بنى أمية بالأندلس — أخبره أن عدد الفهارس التى كانت فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة ، فى كل فهرسة خمسون ورقة ، ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين فقط (١).

وعهد الحكم بإدارة المكتبة الأموية العظيمة إلى أخيه عبد العزيز . وعهد بالإشراف على جامعة قرطبة وأساتذتها إلى أخيه المنذر . وكان يقضى معظم أوقاته بمدينة الزهراء ، فى أبهائها المنيفة وظلالها الهادئة ، معتكفاً على القراءة والدرس برفقة صفيه محمد بن يوسف الحجارى ، الذى كتب له تاريخ الأندلس والمغرب ، وتواريخ أخرى لبعض المدن . وكان من أصفيائه فى تلك المجالس أيضا ، الفتى سابور الفارسى ، الذى قدم بدعوته إلى قرطبة ، واختاره ليكون وصيفاً خاصاً له ، وكان من أعلم أهل عصره(٢) .

ولم يكن هذا الشغف بجمع الكتب ، فى عصر الحكم ، قاصراً على الأمير ، فقد عنى كثير من كبراء العصر وعلمائه ، بانشاء مكتبات خاصة زاخرة بنفائس الكتب . وشغف النساء المثقفات كذلك بجمع الكتب ، وإنشاء المكتبات ، ومن أشهر هؤلاء عائشة بنت أحمد بن قادم ، وكانت من أبرع نساء عصرها ، علماً وأدباً وشعراً ، وكانت خزانة كتبها من أغنى وأقيم المكتبات الخاصة . وكانت سوق الكتب فى قرطبة ، من أشهر الأسواق وأحفلها بالحركة . بل لقد سرى هذا الشغف باقتناء الكتب إلى النصارى واليهود أنفسهم ، وكان الكثير منهم يجيدون اللغة العربية ، ويتذوقون ثمرات التفكير العربى من أدب وشعر وفلسفة وغيرها . وكان من أشهر هؤلاء الطبيب اليهودى حسداى ، طبيب الحكم الخاص ، وفى

---

(١) جمهرة أنساب العرب ص ٩٢ . ونقلها ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ١٠٣ .

(٢) Modesto Lafuente : Historia General de Espana ; T. III, p. 337.

ظله وتحت رعايته كتب يهود قرطبة باللغة العربية ، وألفوا بها مختلف الكتب ؛ وكان من أشهر المكتبات الأندلسية الخاصة فيما بعد ، مكتبة يوسف بن إسماعيل ابن نغرالة اليهودى ، وزير باديس أمير غرناطة(١) .

وإلى جانب هذا الشغف بالكتب والثقافة العالية ، كان التعليم العام فى عهد الحكم يجوز نهضة عظيمة ، وكان أبناء الشعب جميعاً يعرفون القراءة والكتابة ، هذا بينما كان أرفع الناس مكانة فى أوربا — خلا رجال الدين — لا يعرفو ن. وأسس الحكم عدداً كبيراً من المدارس يتعلم فيها الفقراء مجاناً . أما جامعة قرطبة ، فقد كانت يومئذ من أشهر جامعات العالم ، وكان مركزها فى المسجد الجامع ، وتدرس فى حلقاتها مختلف العلوم ، وكان يدرس الحديث أبو بكر ابن معاوية القرشى ، ويملى أبو على القالى ضيف الأندلس دروسه عن العرب قبل الإسلام ، وعن لغتهم وشعرهم وأمثالهم ، وكان ابن القوطية يدرس النحو ، وكان يدرس باقى العلوم أساتذة من أعلام العصر ، وكان الطلبة يعدون بالآلاف(٢) .

وكان الحكم يسبغ رعايته على سائر العلماء من مختلف الملل والنحل ، مسلمين كانوا أو غير مسلمين . ومن شواهد هذه الرعاية أن الأسقف العالم ريثموندو الإلبيرى ، المسمى باسمه العربى ، ربيع بن زيد ، كان أثيراً لديه متمتعاً برعايته ، لتبحره فى علم الفلك ، والعلوم الفلسفية ، وهى من الدراسات التى كان يعنى بها الحكم . وكان هذا الحبر القرطبى عالماً مبرزاً ، متمكناً من الآداب العربية واللاتينية ، وكان الناصر والد الحكم يقدر علمه ومواهبه ، ويحبوه بعطفه ورعايته بالرغم من نصرانيته ، وكان يشغل مكانة هامة فى القصر(٣) .

يقول العلامة دوزى : « وعلى العموم فإن إغداق الحكم على العلماء الإسبان والأجانب لم يعرف حداً ، وقد كانوا يهرعون إلى بلاطه . وكان المليك يشجعهم ويوليهم رعايته ، حتى الفلاسفة استطاعوا فى ظله أن ينصرفوا إلى بحوثهم دون

---

(١) كتاب الصلة لابن بشكوال ( القاهرة ) ج ٢ ص ٦٥٤ ، وكذلك J. Ribera : ibid., p. 199—202

(٢) Dozy : Histoire des Musulmans d'Espagne, Vol. II, p. 184 & 185

(٣) F. J. Simonet : Historia de los Mozarabes de Espana (Madrid 1897), p. 607 & 612.

خوف من أن يقتلهم الأتقياء الورعون »[1]..

ويبدى النقد الحديث تقديره وإعجابه بتلك النزعة العلمية التى امتاز بها الحكم ، والتى سادت كل عصره . فمثلا يقول لنا المؤرخ الإسبانى موديستولافونتى :

« كانت دولة الحكم الثانى دولة الآداب والحضارة ، كما كانت دولة أبيه دولة العظمة والبهاء . وإن الرواية العربية لتحبو الحكم بكثير من جميل الذكر ؛ فهل نغضى نحن عن تسجيل إعجابنا بما لهذا الأموى المستنير من الصفات الباهرة ، لأنه كان مسلماً ولم يكن نصرانياً؟ إن ذلك يعنى أننا ننكر فضائل أمثال أوغسطوس وتراچان وأدريان وماركوس أوريليوس ، لأن أولئك القياصرة العظام لم يكونوا نصارى . إن السلم الذى وطده أكتاڤيوس فى اسبانيا الرومانية ، قد وطده الحكم فى اسبانيا العربية ؛ وقد قدم الحكم ، كما قدم أكتاڤيوس من قبل ، الأدلة على أن الرغبة فى السلم ، لم تكن لأنه لا يعرف الحرب ولا النصر ، ولكن لأنه كان يؤثر إلهام القريض ، ويؤثر الكتب على خزائن السلاح ، وإكليل الجامعات الحقيقى على إكليل الحروب الدموى .

لقد أعيد عصر أوغسطوس فى اسبانيا بعد ألف عام فى صورة جديدة ، وقد تحول بلاط قرطبة إلى نوع من الأكاديمية العظيمة ، وأغدق على ثمرات العبقرية فيض الإغداق والكرم الرائع ، ونستطيع أن نقدر مدى التضحيات العظيمة ، ومدى الصبر ، والمثابرة ، والنفقات التى أمكن أن يتحقق بها إنشاء تلك المجموعة المدهشة ، من أربعمائة ألف إلى ستمائة ألف مخطوط ، هى محتويات مكتبة قصر بنى مروان » .

ثم يشير موديستو لافونتى بعد ذلك إلى أن هذا المستودع الزاخر من ثمرات العقل ، وتلك الحضارة التى وصل إليها العرب فى عصر الحكم ، كانت قد وضعت بذورها من قبل ، وتعاقب أمراء بنى أمية منذ عبد الرحمن الداخل فى تعهدها بالغرس والنماء ، وقد كانوا جميعاً من أهل العلم والأدب ، ومن حماة العلوم والآداب . ثم يختتم تعليقه على عصر الحكم بقوله :

« لقد جاء هذا الخليفة الشهير الذى يعشق الآداب فى عهد سعيد من السلم ، ولما كانت بذور التمدن موجودة من قبل ، فقد تفتحت فى ظل رعايته ، وازدهر

---

(1) Dozy : Histoire des Musulmans d'Espagne ; Vol. II, p. 189.

الغرس ازدهاراً عظيماً ، حتى أنه بعد الحرث الكثير ، والمطر الغزير ، بدت شمس وضاءة رائعة منعشة »[١] .

وقد اختلف فى تقدير محتويات المكتبة الأموية العظيمة ، التى أنشأها الحكم المستنصر ، فقدرها بعض المؤرخين بأربعمائة ألف مجلد ، وقدرها البعض الآخر بستمائة ألف[٢]. وكانت توجد فى قواعد الأندلس الأخرى ، عدا مكتبة قرطبة العظيمة زهاء سبعين مكتبة أخرى[٣]. وهذا وحده يكفى للدلالة على مدى التقدم العظيم ، الذى بلغته الحركة الفكرية والأدبية فى الأندلس ، فى هذا العصر الزاهر . ولبثت المكتبة الأموية العظيمة قائمة بقصر قرطبة ، حتى وقعت الفتنة الكبرى فى سنة ٤٠٠ هـ ، وحاصر البربر قرطبة ، فأخرجت معظم الكتب من خزائنها خلال الحصار ، وبيعت بأمر الفتى واضح مولى المنصور بن أبى عامر ، ثم نهب ما تبقى منها عند اقتحام البربر لقرطبة ، حسبما نذكر بعد[٤] .

* * *

وشعر الحكم فى أواخر عهده ، بأعراض الضعف والمرض تدب إليه ، فانتقل من قصر الزهراء وفقاً لنصح أطبائه ، لغلبة برد الجبل عليه ، وقضى حيناً فى منية ناصح ، ومنية الناعورة ، ثم انتقل إلى قصر قرطبة . وعقد العزم على تأمين ولاية العهد لولده الطفل هشام . وتم ذلك فى شهر جمادى الثانية سنة ٣٦٥ هـ ( ٥ فبراير سنة ٩٧٦ م ) حيث جلس الحكم بقصر قرطبة ، وأعلن عزمه فى تقليد ولده عهد الخلافة من بعده ، وأخذت البيعة بالفعل من الحاضرين ، وأخرجت كتبها لسائر الخاصة والعامة . وتولى أخذها على الناس وفق مراتبهم ، محمد بن أبى عامر ، وهو يومئذ صاحب الشرطة والمواريث ، وكان من قبل كافلا لهشام ، وميسور الفتى الكاتب مولى صبح ، ثم دعى لهشام فى الخطبة بالأندلس والمغرب ، ونقش اسمه فى السكة .

---

( ١ ) Modesto Lafuente : Historia Oeneral de Espana (Barcelona 1889), Tom. II ; p. 364 - 367.

( ٢ ) نفح الطيب ج ١ ص ١٨٤ .

( ٣ ) Prescott : Ferdinand and Isabella of Spain, p. 187.

( ٤ ) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٦ .

وينعى ابن حيان على الحكم هذه السياسة فى اختيار ولده الطفل لولاية العهد ، فيقول إنه أى الحكم على ما وصف من رجاحة «كان ممن استهواهم حب الولد ، وأفرط فيه ، وخالف الحزم فى توريثه الملك بعده ، فى سن الصبا دون مشيخة الأخوة ، وفتيان العشيرة ، ومن يكمل للإمامة بلا محاباة ، فرط هوى ، ووهلة انتقدها الناس على الحكم ، وعدوها الحانية على دولته . وقد كان يعيبها على ولد العباس قبله ، فأتاها هو مختاراً ولا مرد لأمر الله » .

وأصيب الحكم بعد ذلك بقليل ، بشلل أقعده عن الخروج والحركة ، ويقول لنا ابن حيان إن الحكم كان يعانى من هذه «العلة الفالجية » ولا يكاد يستفيق منها[1] فلزم فراشه ، وتولى تدبير الشئون خلال مرضه ، وزيره جعفر بن عثمان المصحفى . ثم توفى بعد ذلك بأشهر قلائل ، فى اليوم الثانى من صفر سنة ٣٦٦ ﻫ ( ٣٠ سبتمبر سنة ٩٧٦ م )[2] .

* * *

وكان الحكم المستنصر من خيرة أمراء بنى أمية خلقاً وعلماً وعدلا . وتنوه الرواية الإسلامية فى غير موطن بجميل خلاله وصفاته . فيقول لنا ابن الأبار : « وكان حسن السيرة ، فاضلا عادلا ، مشغوفاً بالعلوم »[3] . ويقول لنا ابن الخطيب : « وإليه انتهت الأبهة والجلالة ، والعلم والأصالة ، والآثار الباقية ، والحسنات الراقية »[4]. وكان الحكم من ذوى الورع والتقوى ، تشهد بذلك عنايته الفائقة بأمر المسجد الجامع ، وتوسعته وإنشاء منبره الجديد ، وتزويده بالماء بطريقة هندسية بديعة ، وما بذله فى سبيل ذلك من النفقات الطائلة ، ويشهد بذلك أيضاً تشدده فى محاربة الخمر وإراقتها[5]. وكان محباً للعدل معنياً بإقامته ، شديداً فى محاسبة الطغاة من العمال والحكام، يؤيد ذلك ما رواه صاحب

---

(١) المقتبس – قطعة مكتبة أكاديمية التاريخ ص ٢١١ .

(٢) تضع معظم الروايات وفاة الحكم فى هذا التاريخ ( الحلة السيراء ص ١٠١ ، ونفح الطيب ج ١ ص ١٨٥ ، وابن الخطيب عن ابن حيان ، فى أعمال الأعلام ص ٥٦ ) . ولكن صاحب البيان المغرب ينفرد بالقول بأن وفاته كانت فى الثالث من رمضان سنة ٣٦٦ ﻫ .

(٣) الحلة السيراء ص ١٠١ .

(٤) أعمال الأعلام ص ٤٩ .

(٥) الحلة السيراء ص ١٠٣ .

البيان المغرب من أنه أرسل غير مرة إلى الحكام الظلمة ، يحذرهم من سطوته ، وإلى القواد والعمال ، يحذرهم من سفك الدم بلا موجب(١) .

وكان من أعمال الحكم الإنشائية أيضاً إصلاح قنطرة قرطبة العظيمة على نهر الوادى الكبير ، وتقوية دعائمها التى وهنت بمضى الزمن ( سنة ٣٦١ هـ ) ، وإشرافه على ذلك بنفسه(٢) .

وكان الحكم عارفاً بأقدار الرجال ، مميزاً للنابهين منهم ، وقد جمع فى حكومته وبلاطه جمهرة من أعاظم رجال العصر وألمعهم . وكان فى مقدمة هؤلاء ، كبيرهم وزعيمهم الحاجب جعفر بن عثمان بن نصر المصحفى . وكان جعفر ينتمى إلى بطن من بطون البربر من بلنسية ، وتولى أبوه عثمان أيام الناصر تأديب ولده الحكم ، وهكذا نشأت بين الحكم وبين ولد أستاذه ومؤدبه جعفر مودة عميقة ، فلما أسندت إليه ولاية العهد ، قدم جعفر فى الأعمال واستخدمه فى الكتابة ، ثم ولاه الناصر بعد ذلك حكم جزيرة ميورقة . ولما ولى الحكم الخلافة استوزره وأمضاه على كتابة الخاصة ، وضم إليه بعد ذلك ولاية الشرطة ، ثم تولى بعد ذلك منصب الحجابة أى رياسة الوزارة ، خلفاً للحاجب جعفر بن عبد الرحمن الصقلبى ، وأصبح أول رجل فى الدولة ، واجتمعت لديه سائر السلطات ، ولما رزق الحكم بولده هشام اختار جعفر كافلا له ، واستمر جعفر هو القائم بدولة الحكم حتى وفاته . وكان المصحفى من أساطين الكتابة والشعر وله شعر حسن ، أورد لنا منه ابن الأبار مختارات رقيقة مشرقة تدل على تمكنه(٣) .

وكان من أشهر أعمال المصحفى فى بداية عهد الحكم أن قدم إليه هديته الباذخة ، التى حاول أن يبز فيها هدية الوزير ابن شهيد إلى الناصر . وقد أورد لنا ابن حيان فى المقتبس وصفاً لمحتويات هذه الهدية الشهيرة وهى : مائة مملوك من الفرنج ناشئة على خيول صافنة كاملو العدة والسلاح ، وثلاثمائة وعشرون درعاً مختلفة الأجناس ، وثلثمائة خوذة كذلك ، ومائة بيضة هندية ، وخمسون خوذة

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ .

(٢) ابن حيان فى المقتبس – قطعة مكتبة أكاديمية التاريخ السابق الإشارة إليها ص ٦٤ و ٦٥ .

(٣) راجع ترجمة جعفر المصحفى ومختارات من شعره ، فى « الحلة السيراء » ص ١٤١–١٤٧ .

حبشية من حبشيات الإفرنجة ، وثلثمائة حربة إفرنجية ، ومائة ترس سلطانية ، وعشرة جواشن مذهبة ، وخمسة وعشرون قرناً مذهبة من قرون الجاموس[1]. وكانت هدية المصحفي للحكم ، من أشهر الحوادث الاجتماعية فى هذا العصر .

وكان من أكابر دولة الحكم أيضاً ، القائد غالب بن عبد الرحمن الناصرى صاحب مدينة سالم ، وكان مولى لأبيه الناصر . وكان غالب ، فضلاعن كونه من نصحاء الحكم ، ومستشاريه المقربين ، من أعظم قادة الأندلس ورجالاتها فى هذا العصر ، وكان الحكم ، عرفاناً منه بقدر هذا القائد المظفر ، قد أسند إليه القيادة العليا ، وأصدر مرسومه بذلك إليه فى سنة ٣٦١ هـ ، وذلك « لغنائه وجميل مقامه » . ثم عاد على أثر انتصاره فى موقعة حصن غرماج فى سنة ٣٦٤ هـ ، فقلده سيفين مذهبين من ذخائر سيوفه ، وسماه « ذا السيفين »[2]، وكان منهم أيضاً الوزير يحيى بن محمد التجيبى ، والقائد سعيد بن الحكم الجعفرى ، وكلاهما من أعظم الوزراء والقادة ، وقد برز كلاهما فى غزوات الصوائف ، وحوادث المغرب الأقصى .

وكان من كتاب الحكم عيسى بن فطيس ، ومن قضاته منذر بن سعيد البلوطى كبير القضاة فى عهد أبيه الناصر ، ثم أبو بكر محمد بن السليم .

وكان الحكم ، بالرغم مما كان يسود الممالك الإسبانية النصرانية فى عهده من جنوح إلى المهادنة والسلم ، يرقب حركاتها وتصرفاتها بعناية ، وقد رتب لذلك بعض عماله المهرة المخلصين المعروفين بصدق الخدمة ، وفى مقدمتهم ابن أبى عمروس العريف ، وصاحبه سعيد ، للسفارة بينه وبين ملوك جليقية ، ولقاء قواميسها ، والتردد عليهم « للتعرف على أخبارهم ، والتجسس لأنبائهم » وحمل الكتب إليهم فى كل وقت ، وصرفها عنهم ، وهو ما يفصح عن بعض الوسائل التى كان يلجأ إليها بلاط قرطبة للإحاطة بأخبار الممالك النصرانية ونياتها[3].

وكان الحكم شاعراً مطبوعاً ينظم القريض الرقيق ؛ ومما ينسب إليه قوله :

إلى الله أشكو من شمائل مسرف  على ظلوم لا يدين بما دنت

---

(١) ابن خلدون فى كتاب العبر ج ٤ ص ١٤٤ .

(٢) راجع المقتبس – قطعة أكاديمية التاريخ ص ٦٩ و ٢٢٠

(٣) المقتبس – قطعة أكاديمية التاريخ ص ٧٦ .

نأت عنه داري فاستزاد صدوده ... وإني على وجدي القديم كما كنت
ولو كنت أدري أن شوقي بالغ ... من الوجد ما بلغته لم أكن بنت

وقوله :

عجبت وقد ودعتها كيف لم أمت ... وكيف انثنت بعد الوداع يدي معي
فيامقلتي العبرا عليها اسكبي دماً ... ويا كبدي الحرّا عليها تقطعي

* * *

ونلاحظ أخيراً أن بلاط قرطبة ، كان في أيام الحكم المستنصر ، يبدو في بهى أثوابه الملوكية والخلافية ، وكان جلوس الحكم في أيام الأعياد أو لاستقبال الوافدين والسفراء من أيام قرطبة المشهودة . وقد أفاض ابن حيان في وصف هذه الأيام والحفلات الباذخة . ويبدو مما كتبه أن الخليفة الحكم ، كان يؤثر الجلوس في هذه الأيام بالمجلس الشرقي من قصر الزهراء ، ويجلس عن يمينه ويساره إخوته بترتيب السن ؛ ثم يليهم في ترتيب الجلوس ، الوزراء ، يجلسون بعد فرجتين ، إلى اليمين وإلى اليسار ، ويلي ذلك صاحب المدينة بقرطبة ، ويجلس إلى اليمين ، وإلى جانبه صاحب المدينة بالزهراء ، ثم يجلس من بعدهم صاحب الحشم ، فصاحب الخيل ، فأصحاب الشرطة العليا والوسطى ، وسائر طبقات أهل الخدمة وفق مراتبهم ، وقاضي الجماعة ، والحكام وأصحاب الشرطة الصغرى ، وأسباط الخلاف ، وجلة قريش ، ثم وجوه الموالي ، ثم قضاة الكور والفقهاء المشاورون والعـدول ، وأعيان قرطبة . ويصطف الجند في أثوابهم الزاهية ، منذ مداخل القصر حتى الممر المفضي إلى مجلس الخليفة ، وقد أورد لنا ابن حيان وصف هذا النظام في مختلف المناسبات الرسمية ، مما يدل على أنه هو نظام البروتوكول ( المراسيم ) الثابت الذي كان يتبعه بلاط قرطبة في هذا العهد عند جلوس الخليفة للمناسبات الرسمية الكبرى (١) .

ويجب أن نلاحظ من ذلك الوقت التطور العظيم ، الذي حدث في تكوين المجتمع الأندلسي . فقبل عهد الناصر كانت الرياسة والأرستقراطية ، تنحصر في القبائل العربية . وكان البربر يحتلون مقاماً أدنى . وكانت المعارك يضطرم لظاها

(١) ابن حيان في المقتبس – قطعة أكاديمية التاريخ ص ٢٩ و ٤٩ و ٥٠ و ٥٧ و ٨١ و ٩٤ و ١٩٤ و ١٩٥ .

باستمرار بين السلطة المركزية أعنى بين الإماوة وبين العصبية العربية ، التى تحاول دائماً أن تقيم رياستها فى الثغور والمدن على أساس الاستقلال المحلى . وقد استمرت هذه المعارك عصوراً ، منذ عبد الرحمن الداخل ، حتى جاء الناصر ، فشدد فى مطاردة العصبية العربية وتحطيمها ، وآثر أن يعهد بالرياسة والسلطات المحليه إلى طوائف الصقالبة حسبما شرحنا ذلك من قبل . وفى عهد الحكم المستنصر كانت الأرستقراطية العربية ، قد اضمحلت ، وغاض نفوذها ، واختفت كقوة سياسية واجتماعية تخشاها السلطة المركزية ، وإن كانت قد بقيت كطبقة من الطبقات ، وحلت محلها أرستقراطية من نوع جديد ، قوامها القادة والرؤساء العسكريون ، من الموالى والصقالبة ، فكانت بذلك أرستقراطية سيف ، وليست أرستقراطية قبيل أو عصبية ، وبلغ الفتيان الصقالبة أيام الحكم ، ذروة القوة والنفوذ والثراء ، مثلما كانوا أيام أبيه الناصر . ويكفى أن نذكر هنا دليلا على ضخامة ثراء هؤلاء القوم ، أن أحدهم وهو الفتى الكبير درّى الخازن ، قام بإهداء مولاه الخليفة الحكم ، منيته الغراء بوادى الرمان من ضواحى قرطبة ، وكان قد أنشأها مغنى ومتنزهاً ، وأفاض عليها أروع صنوف البذخ والبهاء ، وجعلها برياضها ومنشآتها جنة حقة . وقد قبل الحكم هدية فتاه ، وقام بزيارة هذه المنية مع ولى عهده هشام وحاشيته ، وأنفق فيها يوم استجمام ومسرة . وقد أجمع الخليفة ومرافقوه على أنهم « لم يشاهدوا فى المتنزهات السلطانية أكمل ولا أعذب ولا أعم من صنيع درّى هذا »[1] . هذا وأما الطبقة الوسطى فقد انحصرت فى التجار ورجال الصناعة وغيرهم ممن استطاعوا أن يحرزوا بالتجارة والفنون فى مختلف القواعد ثروات عظيمة . ويأتى بعد الطبقة الوسطى ، طبقات الشعب الكادحة ، وكانت على نحو ما يحدث فى كل زمان ومكان ، تبغض الطوائف الميسورة ، وتنقم عليها نعماء العيش .

وكانت ثمة طبقة أخرى ، ذات مميزات خاصة ، هى طبقة المولدين أو بعبارة أخرى مسلمو الإسبان ، وكانت تحتل مكانها بين الطبقات المتوسطة والميسورة . وكان بينها الكثيرون ممن أحرزوا الجاه والنفوذ والثراء . بيد أن المولدين بالرغم من إسلامهم ، كانوا يعتبرون أقل مكانة من المسلمين الأصليين . وكان المعروف

---

(١) ابن حيان فى المقتبس — قطعة أكاديمية التاريخ ص ١٠٧ .

من أصولهم دائماً ، أنهم كانوا على الأغلب عبيداً أو مسترقين من القوط ، دخلوا فى الإسلام اجتناء للحرية . وقد زاد عدد المولدين زيادة كبيرة ، منذ عهدعبدالرحمن ابن الحكم ، حيث دخل كثير من النصارى المعاهدين فى الإسلام ، حينما اشتدت وطأة حكومة قرطبة عليهم ، أيام الفتن التى حاولوا إثارتها لإشاعة الإضطراب والفوضى ، حسبما فصلنا ذلك فى موضعه . وبذلك ازداد عدد المولدين زيادة كبيرة ، منذ أوائل القرن التاسع الميلادى ، وغدوا فى ظل الخلافة أيام الناصر وولده الحكم ، يمثلون أقلية كبيرة بين الأمة الأندلسية .

وأما الطبقة المسترقة أو طبقة العبيد ، فكانت فى تلك العصور تتألف من العمال العبيد ، الذين يلحقون فى الغالب بالضياع . وكان هذا النظام موجوداً منذ أيام القوط ، ولكنه طبق أيام المسلمين ، بصورة أفضل بكثير مما كان عليه ، ومنح هؤلاء العمال حقوقاً إجتماعية وإنسانية ، رفعت عنهم كثيراً من صور العبودية القديمة ، التى كانت تعطى للسيد عليهم حق الحياة والموت ، والبيع والشراء . ويلحق بغير الأحرار أيضاً طبقة الصقالبة والخصيان . بيد أن هذه الطبقة كانت تحتل مكانة ملحوظة فى المجتمع ، وكان لها فى الحكومة والقصر ، إنما نفوذ ، وقد ظهر منها زعماء وقادة وصلوا إلى مراكز عظيمة ، وكان لهم فيما بعد شأن يذكر ، فى تطور الحوادث التى أعقبت انهيار الخلافة الأندلسية .

وإلى جانب هذه الطبقات المختلفة ، التى تتألف منها الأمة الأندلسية ، كانت توجد دائماً طبقة النصارى المعاهدين ، الذين يعيشون فى ظل الحكم الإسلامى ، وكانت تجتمع فى القواعد الأندلسية فى أقليات كبيرة . وكانت تحتل فى العاصمة ، وفى بعض المدن الأخرى مكانة خاصة ، ويشغل كثير من أفرادها مراكز هامة فى الحكومة والجيش ، وقد تحدثنا من قبل عن بعض أحوال هذه الطبقة وظروفها . ويجب أخيراً ألا ننسى الأقلية اليهودية . فقد عومل اليهود منذ الفتح بمنتهى الرفق والرعاية ، وازدهرت أعمالهم التجارية والصناعية ، فى ظل ذلك التسامح الإسلامى المأثور ، ووصلوا فى قرطبة فى ظل الخلافة ، إلى ذروة النفوذ والرخاء . وفى أيام الناصر تولى أحدهم ، وهو العلامة حسداى بن شبروت ، الإشراف على الخزانة العامة ، وكان قبل ذلك قد حظى برعاية الناصر بخدماته الدبلوماسية ، وترجمته لكتاب ديسقوريدس عن الأعشاب الطبية ، من اليونانية إلى العربية .

وهو الكتاب الذى الذى قيصر منه نسخة إلى الناصر . وفى ظل هذه الرعاية ، وفد كثير من العلماء والأدباء اليهود إلى قرطبة ، أيام الناصر وولده الحكم ، وقامت فى ظل نشاطهم مدرسة قرطبة التلمودية ، ومؤسسها الرابى موسى بن حنوش ، وازدهرت فى ظلها البحوث التلمودية ، وغدت مركز الرياسة والتوجيه لهذه البحوث . واستمرت الخلافة الأموية ، ومن بعدها حكومات الطوائف على رعاية الأقلية اليهودية وتشجيعها ، وكان يهود قرطبة يرتدون الزى العربى ، ويتخلقون بالتقاليد والعادات العربية ، ويمتازون بثرائهم ومظاهرهم الفخمة (١).

(١) راجع : R. Altamira : Historia de Espana y de la Civilización Espanola, Vol. I, p. 250-252.

# الفصل الثاني

## هشـــام المؤيد بالله

مؤامرة الفتيان الصقالبة لإبعاد هشام وترشيح المغيرة بن الناصر. الحاجب جعفر يناهض مشروعهم. محمد بن أبي عامر يتولى قتل المغيرة. معسكر الصقالبة ومعسكر الأحرار. أخذ البيعة لهشام. وصف ابن الخطيب لأحوال الخلافة الأندلسية يومئذ. اجتماع السلطة في يدى الحاجب جعفر وابن أبي عامر. صبح البشكنسية أم المؤيد. ظهورها في بلاط قرطبة وتمكن نفوذها من الحكم. حظوة الحاجب جعفر لديها. محمد بن أبي عامر. أصله ونشأته. خلاله وطموحه. حظوته لدى صبح. طبيعة العلائق بينهما. مصانعته للحاجب جعفر. نفوذه لدى صبح. جعفر المصحفى يتولى الحجابة وابن أبي عامر الوزارة. الصراع الخفى بين الرجلين. الخليفة الصبى هشام. شغفه باللهو واللعب. حجبه والحجر عليه. دور ابن أبي عامر في ذلك. طموحه في الاستئثار بالسلطة. الفتيان الصقالبة. تفاهم الحاجب وابن أبي عامر على سحقهم. ابن أبي عامر يتولى قيادة الجيش ويغزو أرض النصارى. الخلاف بين الحاجب والقائد غالب. مسير ابن أبي عامر وغالب إلى الغزو. ذيوع شهرة ابن أبي عامر. الصراع بينه وبين المصحفى. محاولة المصحفى التفاهم مع غالب. ابن أبي عامر يحبط خطته. مسير ابن أبي عامر وغالب ثانية إلى الغزو. زواج ابن أبي عامر من أسماء ابنه القائد. تولية غالب منصب الحجابة. تضاءل مكانة المصحفى. إقالته والقبض عليه وعلى أهله. اشتداد ابن أبي عامر في مطاردته. وفاة المصحفى أو قتله في سجنه. شعر له في محنته. ابن أبي عامر يسحق خصومه ومنافسيه. اهتمامه بتنظيم الجيش. اصطناعه للبربر واضطهاده للعرب.

لما توفى الحكم المستنصر بالله، في اليوم الثاني من صفر سنة ٣٦٦ هـ، حرص خادماه الخصيان، الفتيان فائق وجوذر، على كتمان خبر موته، وقاما بضبط القصر، واتخاذ التدابير اللازمة، لتسيير الأمور وفق الخطة التي وضعاها. وكانت هذه الخطة، تنحصر في تنحية ولى العهد الصبي هشام عن العرش، واختيار عمه أخي المستنصر، المغيرة بن عبد الرحمن الناصر، لولاية العرش، وكان الفتيان الصقالبة داخل القصر، زهاء ألف، ولهم نفوذ عظيم، وفي يدهم الحرس الخليفى ومعظمه من الصقالبة والمرتزقة. فكانوا بذلك قوة يخشى بأسها.

استدعى فائق وجوذر، الحاجب جعفر بن عثمان المُصْحفى، ونبأه بموت الخليفة وعرضا عليه مشروعهما، في تولية المغيرة، فتظاهر الحاجب بالاستحسان والموافقة، ووعدهما بالعمل وفق خطتهما، وتنفيذ ما يشيران به. ثم خرج،

فبادر إلى ضبط أبواب القصر ، واستدعى أصحابه من خاصة الحكم ، مثل زياد بن أفلح مولى الحكم ، وقاسم بن محمد ، ومحمد بن أبى عامر ، وهشام بن محمد بن عثمان وغيرهم . واستدعى فى نفس الوقت عصبته وأشياعه من زعماء البربر ، مثل بنى برزال ، كما استدعى سائر القادة الأحرار ، فاجتمع له منهم ومن أجنادهم طوائف ضخمة . فنعى لهم الخليفة ، وعرض عليهم مشروع الفتيان الصقالبة ، فى تنحية هشام وتولية المغيرة ، وأوضح لهم أن هذا المشروع خطر داهم عليهم ، وأنه إذا ولى المغيرة ، واستبد الصقالبة بالأمر ، قضى عليهم وعلى دولتهم ونفوذهم ، ونكل بهم المغيرة والصقالبة . والأمر بالعكس إذا ولى هشام ولى العهد الشرعى ، فإنهم يستبقون سلطانهم ونفوذهم ، وتغدو الدولة دولتهم ، ويأمنون على أنفسهم وأموالهم . فاقترح بعض أصحابه أن يقتل المغيرة ، فيؤمن بذلك شره فى الحال والاستقبال ، وتطوع محمد بن أبى عامر لتنفيذ هذه المهمة الدموية ، حفظاً للوئام والوحدة ؛ فبعث جعفر معه سرية من الجند الأحرار الموثوق فيهم ، وسار معه بدر القائد مولى الحكم ، فى سرية من غلمان الخليفة . وأحاط الجند بدار المغيرة ، ثم نفذ محمد بن أبى عامر فى نفر من أصحابه ، ونبأه بموت الخليفة وجلوس ابنه هشام ، وأنه أتى ليتبين حقيقة موقفه ، فذعر المغيرة وأكد لابن أبى عامر ، أنه مطيع مخلص لكل ما تقرر ، وتضرع إليه أن يحقن دمه ، وأن يراجع القوم فى أمره . ولكن الرد كان قاطعاً فى وجوب التخلص من المغيرة ، فدفع إليه ابن أبى عامر عدة من رجاله ، فقتلوه خنقاً أمام زوجته ، ثم أشاعوا أنه قتل نفسه ، ودفن فى نفس مجلسه ، وكان سنه يوم قتل سبعاً وعشرين سنة . ووقع ذلك كله فى يوم واحد فقط .

ولما وقف الفتيان فائق وجوذر على ما وقع ، تملكهما السخط والروع ، وبادرا إلى الحاجب جعفر ، وتظاهرا بالرضا والاستبشار بما وقع ، واعتذرا له عما سبق أن اقترحا عليه ، وأخذ الفريقان من ذلك الحين ، يتوجس كل من صاحبه ويتربص به ، وانقسم أهل القصر إلى معسكرين ، معسكر الصقالبة يتزعمه فائق وجوذر ، ومعسكر الأحرار يتزعمه الحاجب جعفر ومحمد بن أبى عامر[1]

(١) نقل إلينا ابن بسام فى الذخيرة هذه التفاصيل عن ابن حيان ( الذخيرة — القسم الرابع المجلد الأول ص ٤٠ و ٤١ ) . ونقلها أيضاً صاحب البيان المغرب ج ٢ ص ٢٧٨ — ٢٨٠ .

وسنرى فيما بعد ، كيف تطورت هذه المعركة الخفية بين المعسكرين .

* * *

وهكذا وقع الاتفاق على تولية هشام ، وأخذت له البيعة فى صبيحة اليوم التالى لوفاة أبيه الحكم ، وهو يوم الإثنين الثالث من صفر سنة ٣٦٦ هـ ( أول أكتوبر سنة ٩٧٦ م ) . فأجلس الخليفة الصبى هشام ، فى كرسى الخلافة ، ولما يجاوز الثانية عشرة من عمره . وتولى أخذ البيعة له الحاجب جعفر ومحمد ابن أبى عامر ، ولم يعترض أحد على توليته . واستمر أخذ البيعة أياماً ، وكتب بها إلى الأقطار ، فلم يردها أحد . وينقل إلينا ابن الخطيب ، عن ابن حيان ، مئات من أسماء الوزراء والعلماء والقضاة والأكابر ، من مختلف الطبقات ، الذين أخذوا البيعة لهشام ، ومنهم كثيرون ، ممن اشتركوا فى أخذ البيعة له بولاية العهد ، فى حياة أبيه[1] .

ويصف لنا ابن الخطيب حالة الخلافة الأندلسية ، وأحوال الأندلس ، عند ولاية هشام ، فيما يأتى : « بويع ولى عهده ( أى الحكم ) هشام الملقب بالمؤيد بالله والخلافة قد بلغت المنتهى ، وأدركت الجنى ، وبلغ طورها ، وانتهى دورها ، فكانت كمامة ثم زهرة بسّامة ، ثم ثمرة بهية ، ثم فاكهة شهية ؛ وكان بكرسى العامرية مجلاها ، ثم تلاها ما تلاها ، وأرخص الحظوط من أعلاها ، فكان المال قد ضاقت عنه خزائنه ، والمصر قد عظمت مزاياه ومزاينه ، والملك تعوذ بالله ، أن لا يصيبه عائنهُ الذى يعاينه ، والمبانى قد باغت السماء سمواً ، وزاحمت الكواكب علواً ، والبلاد وقد بلغ فيها إلى أقاصى الاهتمام ، وفرغت بناتها من لبنات التمام ، والآثار الصالحة قد تخلدت ، والمآثر الواضحة قد تعددت ، والأذهان فى بسطة الإسلام قد تبلدت ، ورسم الخلاف قد أمحى ، والدولة المراونية قد بركت وسط المرعى ، والدعوة قد انتشرت فى المغرب الأقصى »[2] .

* * *

وهكذا تمت البيعة لهشام المؤيد ، بين يوم وليلة ، وقضى على كل معارضة ، وتوارى الأعمام وبنو العم ، واجتمعت مقاليد السلطة فى أيدى رجلين ، هما الحاجب

---

( ١ ) أعمال الأعلام ص ٤٨ . وقد شغلت أسماء الذين أخذوا البيعة لهشام تسع صفحات كاملة . ( ٤٨ — ٥٧ ) .

( ٢ ) أعمال الأعلام ص ٤٣ و ٤٤ .

جعفر بن عثمان المصحفى ، ومحمد بن أبى عامر ، وهو يومئذ مدير الشرطة ، ومتولى خطة المواريث ، وناظر الحشم . بيد أنه من الخطأ أن يقال إن السلطة قد خلصت لهذين الرجلين وحدهما ؛ فقد كان ثمة شخصية ثالثة تشاطرهما السلطان من وراء ستار . تلك هى « صبح » البشكنسية حظية الحكم وأم ولده هشام الخليفة الصبى ، وكانت قد منحت الوصاية على ولدها ، واكتسبت بذلك صفة شرعية فى الاشتراك فى الحكم وتدبير الشئون .

فمن ذلك كانت تلك المرأة ، التى لبثت ردحاً طويلا من الزمن ، تسيطر بسحرها ونفوذها ، على خلافة قرطبة ، وتشترك فى تدبير شئونها ، فى السلام والحرب ، مع أعظم رجالات الأندلس ؟ لسنا نعرف الكثير عن نشأتها وحياتها الأولى . وكل ماتقدمه إلينا الرواية الإسلامية فى ذلك ، هو أن « صبحاً » كانت جارية بشكنسية أى ناڤارية . ولا تذكر الرواية إن كانت قد استرقت بالأسر فى بعض المواقع ، أم كانت رقيقاً بالملك والتداول ، ولكنها تصفها بالجارية والحظية ؛ وصبح أو صبيحة ترجمة لكلمة Aurora الفرنجية ، ومعناها الفجر أو الصباح الباكر ، وهو الاسم النصرانى الذى كانت تحمله صبح فيما يظهر[1] . وظهرت صبح فى بلاط قرطبة فى أوائل عهد الحكم المستنصر ، وكانت فتاة رائعة الحسن والخلال ، فشغف بها الحكم ، وأغدق عليها حبه وعطفه ، وسماها «بجعفر»[2] ولم تلبث أن استأثرت لديه بكل نفوذ ورأى . ثم ازداد هذا النفوذ توطداً وتمكناً ، حينما رزق منها الحكم بولده عبد الرحمن ثم بولده هشام حسبما تقدم . ولم تك صبح يومئذ جارية أو حظية فقط ، بل كانت ملكة حقيقية ، ولا تشير الرواية الإسلامية إلى أنها غدت زوجة حرة للحكم المستنصر ، بعد أن كانت جارية وحظية . ولكن هنالك مايدل ، على أن صبحاً ، كانت تتمتع فى البلاط والحكومة بما يشبه مركز الملكة الشرعية . فالرواية الإسلامية تنعتها بالسيدة صبح أم المؤيد[3] أو السيدة أم هشام . وتصفها التواريخ الإفرنجية «بالسلطانة صبح»[4]. بيد أن

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٦٨ و ٢٦٩ . وكذلك Dozy : Hist. Vol. II. p. 100

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥١ و ٢٥٣ .

(٣) راجع الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ٤٣ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٦٧ و ٢٨٢ .

(٤) Conde : Dominacion, V I. p. 480 & 493 ; Dozy : Hist. Vol, II. p. 190 & 195.

هناك ما يقطع مع ذلك بأنها بقيت من الوجهة الشرعية جارية « وأم ولد » فقط ، وأن الحكم توفى عنها دون تغيير فى مركزها الشرعى[١] .

استمرت صبح أيام الحكم ، تتمتع فى البلاط والحكومة ، بنفوذ لا حد له . وكان الحكم يثق بإخلاصها وحزمها ، ويستمع لرأيها فى معظم الشئون . وكانت كلمتها هى العليا ، فى تعيين الوزراء ورجال البطانة ، وكان الحاجب جعفر بن عثمان المصحفى ، يجتهد فى خدمتها وإرضائها ، ويستأثر لديها ولدى الحكم بنفوذ كبير . واستمرت الحال حيناً على ذلك ، حتى دخلت فى الميدان شخصية جديدة قدر لها أن تضطلع فيما بعد بأعظم قسط فى توجيه مصاير الأندلس . تلك هى شخصية محمد بن أبى عامر الذى تقدم ذكره غير مرة ، والذى رأيناه فى أواخر عهد الحكم يشغل منصب مدير الشرطة وناظر الخاص .

كان محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أبى عامر المعافرى ، يرجع إلى أصل من أعرق الأصول العربية . وكان جده عبد الملك بن عامر المعافرى ، أول من دخل الأندلس مع الفاتحين موسى وطارق ، وظهر فى الفتح بشجاعته وحسن بلائه . ونزلت أسرة بنى عامر بالجزيرة الخضراء ، وأقطعت حصن طُرُّش الواقع على نهر وادى يارُه ، الذى يصب على مقربة من جبل طارق ، وظهرت بالعلم والوجاهة ، وتولى كثير من أبنائها مناصب القضاء والإدارة ؛ وولد محمد بن أبى عامر بحصن طُرُّش وأنفق فيه حداثته . وكان أبوه عبد الله ، المكنى بأبى حفص من أهل العلم والتقى ، عالماً بالحديث والشريعة ، وكانت أمه بريهة بنت يحيى تنتمى إلى بنى تميم . ونشأ محمد على تقاليد أسرته ، مؤثراً حياة الدرس ، ووفد على قرطبة حَدَثاً ، ودرس فى معاهدها درساً مستفيضاً ، وبرع فى الأدب والشريعة ، وكان من أساتذته العلامة اللغوى أبو على القالى البغدادى ، وأبو بكر بن القوطية ، والمحدث أبو بكر بن معاوية القرشى ؛ وكان طموحاً مضطرم النفس والعزم ، رفيع المواهب والخلال . وتنوه بهذا الطموح المدهش معظم الروايات المعاصرة واللاحقة[٢] . وكان محمد بن أبى عامر فى نحو

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٦٩ . والمعجب للمراكشى ص ٧٤ .

(٢) الحلة السيراء ص ١٤٨ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٧٤ ، والذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ٢٤٣ . والإحاطة فى أخبار غرناطة ( القاهرة ١٩٥٦ ) ص ٤٧٤ .

السابعة والعشرين من عمره ، حينما أراد الخليفة الحكم أن يعين مشرفاً لإدارة أملاك ولده عبد الرحمن ، ورشحه الحاجب جعفر فيمن رشح لتولى هذا المنصب ، وأعجبت صبح بذكائه وحسن روائه ، وظرف شمائله ، فاختارته دون غيره ، وعين بمرتب قدره خمسة عشر ديناراً فى الشهر ، وذلك فى أوائل سنة ٣٥٦ هـ (٩٦٧ م)[١] ؛ ولما توفى عبد الرحمن طفلا ، عين مشرفاً لإدارة أملاك أخيه هشام . وتقدم فى وظائف الدولة بسرعة . فأضيف إليه النظر على الخزانة العامة . وعلى أمانة دار السكة ، ثم عين للنظر على خطة المواريث (٣٥٨ هـ) ، فقاضياً لكورة إشبيلية ولبلة . ثم عينه الحكم مديراً للشرطة الوسطى ( ٣٦١ هـ ) . وفى أواخر أيامه عينه ناظراً على الحشم ( الخاص ) . ويقدم إلينا ابن حيان وظائف ابن أبى عامر فى أواخر أيام الحكم على النحو الآتى : صاحب الشرطة الوسطى ، والمواريث ، وقاضى إشبيلية ، ووكيل الأمير أبى الوليد هشام ، وكان عندئذ يلقب « بفتى الدولة »[٢] .

وهكذا وصل محمد بن أبى عامر إلى أرفع وظائف الدولة والقصر فى أعوام قلائل . ويرجع الفضل فى تقدمه بتلك السرعة ، أولا إلى مواهبه وكفاياته الباهرة ، ثم يرجع بالأخص إلى عطف صبح وحمايتها له . وقد انتهى هذا العطف غير بعيد إلى النتيجة الطبيعية : كانت صبح امرأة حسناء ، لا تزال فى زهرة العمر ، وما زال قلبها يضطرم حباً وجوى ، وكان سيدها الحكم قد أشرف على الستين ، وهدمه الإعياء والمرض ؛ أما ابن أبى عامر فقد كان فتى فى نضرة الشباب ، وسيم المحيا ، حسن القد والتكوين ، ساحر الخلال ، وكان من جهة أخرى يفتن فى خدمة صبح وإرضائها ، ولاينفك يغمرها بنفيس الهدايا والتحف ، حتى لقد أهداها ذات مرة نموذج قصر من الفضة ، بديع الصنع والزخرف ، أنفق عليه مالا عظيماً ، ولم ير مثله من قبل بين تحف القصر وذخائره ، وشهده أهل قرطبة حين حمل من دار ابن أبى عامر إلى القصر ، فكان منظراً يخلب اللب ، وبثوا

---

( ١ ) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٦٧ . وينقل إلينا المقرى رواية أخرى عن اتصال ابن أبى عامر بصبح ، خلاصتها أنه كان يجلس فى دكان عند باب القصر ، ليكتب للخدم والمترافعين للسلطان ، إلى أن طلبت صبح من يكتب عنها ، فعرفها به بعض من كان يأنس الجلوس إليه من فتيان القصر : فاستحسنت كتابته ، وعينته أميناً لبعض شئونها ( نفح الطيب ج ١ ص ١٨٧ ) .

( ٢ ) المقتبس — قطعة أكاديمية التاريخ — ص ١٠٦ .

يتحدثون بشأنه حيناً ؛ فكانت هذه العناية تقع من قلب صبح أحسن موقع ؛ وتزيدها عطفاً على ابن أبى عامر وشغفاً به . وكان الحكم يشهد هذا السحر الذى ينفثه ابن أبى عامر إلى حظيته ، وإلى نساء القصر جميعاً ، ويعجب له . ويروى أنه قال يوماً لبعض ثقاته : « ما الذى استلطف به هذا الفتى حرمنا حتى ملك قلوبهن ، مع اجتماع زخرف الدنيا عندهن ، حتى صرن لا يصفن إلا هداياه ، ولا يرضين إلا ما أتاه ، إنه لساحر عظيم أو خادم لبيب ، وإنى خائف على ما بيده »[1] .

ولم تلبث علائق صبح وابن أبى عامر أن ذاعت ، وغدت حديث أهل قرطبة ، ولم يك ثمة ريب فى أنها استحالت غير بعيد إلى علائق غرامية . وربما ارتاب الحكم فى طبيعة هذه العلائق ، وثاب له رأى فى نكبة ابن أبى عامر ، وسعى لديه بعض خصومه ، واتهمه بأنه يبدد الأموال العامة ، التى عين للنظر عليها ، فى شراء التحف والإنفاق على أصدقائه ، فأمره الحكم أن يقدم حساب الخزانة العامة ، ليتحقق من سلامتها ، وقد كان بالخزانة فى الواقع عجز كبير ، فهرع ابن أبى عامر إلى صديقه الوزير ابن حُدير ، وكان وافر الوجاهة والثراء ، فأغاثه وأعانه بماله على تدارك هذا العجز ، وتقدم إلى الحكم سليم العهدة برىء الذمة ، فزالت شكوكه ، وتوطدت ثقته فيه .

واستمر ابن أبى عامر متمتعاً بنفوذه وسلطانه ، يندبه الحكم لعظائم المهام والشئون ، وكان آخرها ما عهد إليه من تنظيم البيعة بولاية العهد لولده هشام حسبما تقدم ؛ وابن أبى عامر خلال ذلك كله ، يحرص على عطف صبح ، ويستزيده ويصانع الحاجب جعفر ، ويجتهد فى إرضائه وكسب ثقته ؛ وكان بين الرجلين تباين يفيد منه ابن أبى عامر ، فقد كان الحاجب جعفر على ما يبديه من التواضع والبشر والترفق بالناس ، قليل الجود ، مؤثراً لجمع المال . وكان ابن أبى عامر على نقيضه فى ذلك ، فكان واسع البذل والجود ، حريصاً على اصطناع الرجال ، وكانت داره الفخمة بضاحية الرُّصافة ، مقصد الناس من كل صوب ، وكانت مائدته معدة دائماً ، وكان بذلك كله يخلق جواً من الحب والإعجاب ، ويجتذب الصحب والأنصار ، بسحر خلاله ، ووافر بذله ومروءته ، وبارع وسائله وأساليبه[2] .

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٦٨ .

(٢) الذخيرة – القسم الرابع المجلد الأول ص ٤٢ . والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٧٥ .

فلما توفى الحكم المستنصر ، وأسندت الخلافة إلى ولده الطفل هشام ، اتخذت الأمور وضعاً جديداً ، ينذر بتطورات جديدة . وقد رأينا أى دور قام به ابن أبى عامر عندئذ ، من الانضمام إلى الحاجب جعفر فى معارضة الفتيان الصقالبة ، ومقتل مرشحهم للخلافة ، المغيرة بن عبد الرحمن الناصر .

* * *

وهكذا تحقق مشروع الحكم بجلوس ولده هشام ، وتحقق مشروع الثلاثة ذوى السلطان من بعده ؛ وكان طبيعياً أن تحرص صبح على تولية ولدها لتحكم باسمه ، وكان طبيعياً كذلك أن يؤازر ابن أبى عامر صاحبته المحسنة إليه ، ليستمر بواسطتها محتفظاً بسلطانه ونفوذه . أما الحاجب جعفر فقد كان له مثل ذلك الباعث فى تولية هشام ، إذ كان يخشى من تولية المغيرة ، وأوليائه الصقالبة ، على نفسه وعلى سلطانه . وهكذا جمعت البواعث والغايات المشتركة بين أولئك الثلاثة ، الذين قدر لهم أن يسيطروا على تراث الخلافة الأموية . ولكن هذا التحالف الذى أملته الضرورة المؤقتة ، لم يكن طبيعياً ولا سيما بين الحاجب جعفر ، ومنافسه القوى محمد بن أبى عامر . وكانت العلائق بين صبح وابن أبى عامر ، تزداد كل يوم توثقاً ، ولا سيما منذ وفاة الحكم . وكان ابن أبى عامر ، يرى فى تلك المرأة ، التى تجتمع فى يدها السلطة الشرعية ، بوصايتها على ولدها الطفل ، أداة صالحة هينة ، يستطيع أن يخضعها لإرادته ، ويسخرها لمعاونته ، على تحقيق مشاريعه البعيدة المدى . وكانت صبح من جانبها تغدق كل عطفها وثقتها ، على هذا الرجل القوى الذى سحرها بخلاله ، وقوة نفسه ، وباهر كفاياته ، وتضع فيه كل أملها لحماية العرش الذى يشغله ولدها الفتى ، فلم تمض أيام قلائل على تولية هشام ، حتى عين حاجب أبيه جعفراً المصحفى حاجباً له ، ورقى فى نفس الوقت ابن أبى عامر من خطة الشرطة إلى مرتبة الوزارة ، وجعله معاوناً للمصحفى فى تدبير دولته[1] . وبذلك أشرك ابن أبى عامر ، فى تولى السلطة المباشرة مع المصحفى ، ولم يعترض أحد من رجال القصر أو الدولة على ذلك الاختيار ، سوى الحاجب جعفر ، فقد كان يرى فى هذا التعيين انتقاصاً لسلطته ، ونكراناً لجميله ، بعد أن حمل أعباء السلطة كلها دهراً . وكان يرى فى ابن أبى عامر بالأخص منافساً يخشى

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٧٠ .

بأسه ، ويرتاب فى نياته وأطماعه . ومن ذلك اليوم يضطرم بين الرجلين صراع عنيف صامت لم يك ثمة شك فى نتيجته . وكان ابن أبى عامر هو الأقوى بلا ريب ، سواء بمواهبه وقوة نفسه ، أو بموازرة صبح له . ولم تكن هذه الموازرة ترجع فقط إلى ذلك الحب القديم ، الذى تضطرم به جوانح صبح نحو ذلك الرجل القوى ، ولكنها كانت أيضاً ترجع إلى ثقة صبح فى مقدرته وبراعته ، وفى أنه هو الرجل الوحيد الذى يستطيع أن يحمى ملك ولدها الفتى ، وأن يوطد الأمن والسلام فى المملكة . كان ابن أبى عامر فى الواقع هو السيد المطلق ، وكانت صبح تفوض إليه كل سلطة وكل أمر ، فكان يدير الشئون كلها بمهارة ، تثير إعجاب خصومه وأصدقائه على السواء .

وكان الخليفة الفتى هشام المؤيد بالله ، ميالا بطبيعته وسنه إلى اللهو والدعة ، ولم يكن له شىء من تلك الخلال الرفيعة ، التى تهيىء الأمراء للاضطلاع بمهام الملك ، فكان يلزم القصر والحدائق ، ويقضى كل أوقاته فى اللهو واللعب ، بين الخصيان وآلات الطرب ؛ وكان ابن أبى عامر وصبح يشجعان هذه الميول السيئة فى نفس الأمير ، ويريانها ملائمة لمقاصدهما[١]. ومذ ولى هشام ، حجر عليه ابن أبى عامر ، ولم يسمح لأحد غيره برؤيته أو مخاطبته ، وكان يحمل صبحاً بدهائه وقوة عزمه ، على أن تخلق الأعذار لحجب ولدها ، حتى غدا هشام شبه معتقل أو سجين . وفى ذلك يقول لنا مؤرخ أندلسى : « حجر المنصور ابن أبى عامر على هشام المؤيد ، بحيث لم يره أحد مذ ولى الحجابة ، وربما أركبه بعض سنين ، وجعل عليه برنساً فلا يعرف ، وإذا سافر وكل من يفعل به ذلك »[٢]. ويقدم إلينا ابن الخطيب تلك الصورة عن الخليفة هشام : « ولما كان هشام مندرجاً فى طى كافله الحاجب المنصور ، بحيث لا ينسب إليه تدبير ، ولا يرجع إليه من الأمور قليل ولا كثير ، إذ كان فى نفسه وأصل تركيبه مضعفاً مهيناً مشغولا بالنزهات ، ولعب الصبيان والبنات ، وفى الكبر بمجالسة النساء ومحادثة الإماء ، يحرص بزعمه على اكتساب البركات والآلات المنسوبات »[٣] . وفى الفرص النادرة ، التى كان يسمح فيها للأمير بالخروج ، كان ابن أبى عامر يتخذ أشد

(١) Dozy : Hist. Vol. II. p. 227

(٢) راجع نفح الطيب ج ١ ص ٢٧٦ .

(٣) أعمال الأعلام ص ٥٨ .

التحوطات ، فيحيط موكب الأمير حين يخترق شوارع قرطبة ، بصفوف كثيفة من الجند ، تمنع الشعب من رؤيته أو الاقتراب منه . وكان حجب هشام على هذا النحو ، عماد ذلك الانقلاب العظيم الذى اعتزم ابن أبى عامر ، أن يحدثه فى نظم الدولة ، لتمكين سلطانه وجمع سلطات الخلافة كلها فى يده .

وكان لابد لتحقيق هذه الغاية الكبرى ، أن يسحق ابن أبى عامر كل سلطة أخرى تعترض سبيله . وكان الصقالبة وعددهم نحو ألف ، لايزالون قوة يحسب حسابها ، وكذا كان الحاجب جعفر بن عثمان المصحفى ، مايزال بحكم منصبه وتأييد عصبته ، مسيطراً على السلطة العليا . وكانت الوحشة ماتزال قائمة بين الحاجب وبين الصقالبة ، مذ تسبب فى فشل مشروعهم لتولية المغيرة بن عبد الرحمن ، وحصد شوكتهم بتوليته هشام . وكان الحاجب يخشى غدرهم ودسائسهم . وبلغه أن فريقاً من زعمائهم ، وعلى رأسهم الفتيان جؤذر وفائق ، يدبرون مؤامرة لقلب نظام الحكم ، فاتخذ بعض التحوطات ، ووضع الفتيان تحت الرقابة ، وأغلق باب الحديد ، الذى كان مخصصاً بدخولهم ودخول أصحابهم إلى القصر ، وقصر دخولهم مع بقية الناس على باب السُّدة ، وفصل الغلمان من أصحاب جؤذر وفائق ، وتفاهم مع ابن أبى عامر على إلحاقهم بحاشيته ، وكانوا زهاء خمسمائة ، فقبل ابن أبى عامر خدمتهم وفخم بهم شأنه ، ثم انحاز إليه بنو برزال ، وكانوا قبلا من أصحاب الحاجب جعفر ، فقوى بهم أمره ، ولم يمض سوى قليل حتى استقال زعيم الصقالبة الفتى جؤذر ، وشعر الصقالبة بأن نجمهم قد أفل ، وسلطانهم قد انهار ، فسرى بينهم التذمر ، واجتمع المتمردون حول فتى من زعمائهم يدعى درّى . فتفاهم الحاجب وابن أبى عامر على إزالته ، فدعى إلى بيت الوزارة لسؤاله عن أمور نسبت إليه وإلى عماله من رعيته فى بياسة ؛ ولما قدم درى ورأى كثرة الجند ، شعر بالشر ، وأراد العودة فمنعه ابن أبى عامر ، فهجم عليه وأراد أن يبطش به ، فصاح ابن أبى عامر بالجند ، فهرع إليه بنو برزال وانهالوا عليه ضرباً ، ثم حمل إلى داره وقتل فى نفس المساء . ورأى ابن أبى عامر الفرصة سانحة لسحق الصقالبة ، فأمر كبيرهم فائقاً وباقى زعمائهم بالتزام دورهم ، وفرق بذلك شملهم . ثم جد فى مطاردتهم واستصفاء أموالهم ، وفشى فيهم القتل والنفى ، حتى هلك الكثير منهم ، وأبعد الفتى فائق فى النهاية إلى

ميورقة فمات هناك ، وانهار بذلك سلطان الصقالبة ، وأمن الحاجب وزميله ابن أبى عامر شرهم ، وتقلد الحاجب جعفر أمر القصر والُحرم بدلا منهم :

ويبدى ابن حيان ارتياحه لسحق الصقالبة واستئصال شأفتهم على هذا النحو . وقد كان الصقالبة فى البداية زينة للدولة والبلاط ، وكان ظهورهم بجموعهم المتألقة وأزيائهم الفخمة ، يسبغ على القصر ، وعلى مواكب الخلافة ، طابعاً من الأبهة والعظمة . ولكنهم منذ استأثروا بثقة الخليفة ، وبسطوا سلطانهم على القصر والدولة ، اشتد طغيانهم ، وثقلت وطأتهم على أهل الدولة ، وعلى الشعب قاطبة[1] .

وسنحت بعد ذلك بقليل فرصة أخرى ، لكى يوطد ابن أبى عامر قدمه فى السلطة ، ويبسط نفوذه على الجيش عصب كل سلطان حقيقى . وذلك أن القشتاليين ، كانوا قد انتهزوا فرصة مرض الحكم ، وانشغال المسلمين عقب وفاته ، فدفعوا غاراتهم جنوباً ، ووصلوا إلى مقربة من العاصمة ذاتها ، ولم يبد الحاجب فى ذلك ، ما كان واجباً من الهمة والنجدة ، فاهتم ابن أبى عامر ، وأشار إلى الحاجب جعفر بتجهيز الجيش واستئناف الجهاد ؛ ولكن الحاجب لم يجد من القادة من يعهد إليه بتلك المهمة ، فتقدم ابن أبى عامر للاضطلاع بها ، وجهز المال والجند ، وأشرف بنفسه على اختيار الجند . وخرج من قرطبة فى رجب سنة ٣٦٦هـ ( فبراير ٩٧٧ م ) ، وسار شمالا إلى أراضى قشتالة ، ثم عطف غرباً حتى أحواز شلمنقة ، وحاصر حصن الحامة ، ومكانه اليوم محلة تسمى بالإسبانية « لوس بانيوس » Los Baños (الحامات) ، وتقع فى جنوب بلدة (بخار) فى السفح الغربى لجبال جريدوس ، ثم استولى على الحصن وربضه ، وقفل راجعاً إلى قرطبة ، مثقلا بالأسرى والغنائم ، وذلك لثلاثة وخمسين يوماً من خروجه إلى الغزو[2] .

وكان لهذا الظفر الحربى الأول ، الذى حقق على يد ابن أبى عامر ، أكبر الأثر فى نفوس الجند ، ونفوس الشعوب قاطبة ، فقد رأى الجند فيه قائدهم المظفر ، وقد استولى على قلوبهم ببذله ووفرة عطائه ، ورأى فيه الشعب حامى المملكة والمدافع عنها ، وكان لهذه البداية نتائج بعيدة المدى .

ولم تمض أسابيع قلائل على ذلك حتى تأهب ابن أبى عامر للسير إلى غزوته

---

( ١ ) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٨٠ و ٢٨١ . والذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ٤٤ .

( ٢ ) الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ٤٥ . والبيان المغرب ج ٢ ص ٣٨٢ . وكذلك Dozy : Hist. Vol. II. p. 208.

الثانية ؛ وكانت قد وقعت ثمة ظروف جديدة زادت فى توطيد مركزه ، وفى إضعاف مركز الحاجب جعفر . وكان بين الحاجب ، وبين القائد غالب بن عبد الرحمن صاحب مدينة سالم ، وأعظم فرسان الأندلس ، عداء مستحكم ، زاده ما تقوّل به الحاجب على غالب ، من تقصيره فى الدفاع عن الحدود الشمالية ، وعجزه عن رد النصارى ، فانتهز ابن أبى عامر هذه الفرصة ليضم غالباً إلى جانبه ، وسعى إلى خدمته والدفاع عنه لدى صبح ، ولدى الخليفة ، حتى خرج المرسوم برفعه إلى خطة «ذى الوزارتين» ، وبأن يندب لقيادة جيش الثغر ، وأن يندب ابن أبى عامر لقيادة جيش الحضرة . وخرج ابن أبى عامر على أثر ذلك بالجيش إلى غزوته الثانية ، وذلك فى يوم عيد الفطر سنة ٣٦٦ هـ (مايو ٩٧٧ م) ، فالتقى بغالب وجيشه فى محلة مجريط [1] على طريق وادى الحجارة ، واخترق الجيشان معاً أراضى قشتالة القديمة ، واستولى المسلمون على حصن مولة ، وأصابوا كثيراً من الغنائم والسبى . وكان لجيش غالب التفوق فى الأعمال الحربية فى تلك المنطقة ، ولكن غالباً تنحى عن ذلك لابن أبى عامر ، وارتد بجيشه إلى الثغر ، بعد أن توثق بينهما التحالف ، والتفاهم على سحق الحاجب جعفر عدوهما المشترك ؛ وقفل ابن أبى عامر إلى قرطبة بالغنائم والسبى ، وقد نسب إليه فخر الظفر على الأعداء ، فزاد صيته ، وارتفعت هيبته ، وتمكنت منزلته لدى الخليفة ، وازداد الشعب حوله التفافاً وله حباً [2].

وهنا بدت طلائع المعركة الحاسمة بين ابن أبى عامر وجعفر المصحفى . فما كاد ابن أبى عامر يصل إلى قرطبة ، حتى خرج أمر الخليفة بعزل محمد بن جعفر ولد الحاجب عن حكمها ، وتقليده لابن أبى عامر ، وبذلك تم لابن أبى عامر السيطرة على المدينة والجيش معاً . وكانت قرطبة تعانى قبل توليه حكمها من اضطراب الأمور ، واختلال الأمن ، وذيوع الفساد والفسق ، فضبط أمرها وقمع أهل الشر والدعارة ، فساد بها الهدوء والأمن . ثم استخلف ابن أبى عامر على حكم المدينة ابن عمه عمرو بن عبد الله بن أبى عامر . فسار على طريقته ، فى

---

(١) هى محلة وقلعة حصينة أنشأها الأمير محمد بن عبد الرحمن فوق سفح جبال وادى الرملة على مقربة من طليطلة لصد غارات النصارى . ولبثت تؤدى مهمتها الدفاعية ، حتى سقطت فى أيدى النصارى فى سنة ٤٧٦ هـ (١٠٨٣م) . وعلى موقعها القديم أنشئت مدينة مدريد الحديثة .

(٢) الذخيرة — القسم الرابع ج ١ ص ٤٦ و ٤٧ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٨٣ .

انتهاج الحزم والشدة فى ضبط الأمور ، ومطاردة أهل البغي والعدوان . كل ذلك والحاجب جعفر ، يشهد سلطانه يغيض شيئاً فشيئاً ، وسلطان ابن أبى عامر فى صعود وتمكن مستمر ، ويشهد انصراف الخليفة والشعب عنه ، ويشعر فى قرارة نفسه بدنو الخاتمة المحتومة .

وخطر للحاجب جعفر أن يقف هذا التحول الخطر ، باستمالة القائد غالب ومصالحته ، فطلب يد ابنته أسماء زوجاً لابنه محمد ، فاستجاب غالب إلى طلبه ، وكادت تتم المصاهرة ، ولكن سرعان ما علم ابن أبى عامر بذلك المشروع ، فثارت نفسه ، وكتب إلى غالب يناشده الولاء ، ويخطب ابنته لنفسه ، وعضده فى ذلك أهل القصر ، فنزل غالب على تلك الرغبة ، وعدل إلى مصاهرة ابن أبى عامر ، وتم العقد فى أوائل المحرم سنة ٣٦٧ هـ ( ٩٧٧ م ) . ولم يمض قليل على ذلك حتى خرج ابن أبى عامر إلى غزوته الثالثة ، فسار إلى طليطلة فى أوائل صفر ، حيث التقى مع صهره غالب . وسار الإثنان فى قواتهما شمالا ، وافتتحا فى طريقهما بعض الحصون ، ثم قصدا إلى مدينة شلمنقة الواقعة جنوب غربى مملكة ليون فافتتحاها ، وعاثا فى أرباضها ، واستوليا على كثير من الغنائم والسبى ؛ وعاد ابن أبى عامر إلى قرطبة لأربعة وثلاثين يوماً فقط من خروجه ، ومعه عدد عظيم من رؤوس النصارى . فاغتبط الخليفة بصنعه ، ورفعه إلى خطة الوزارتين أسوة بصهره غالب ، ورفع راتبه إلى ثمانين ديناراً فى الشهر ، وهو راتب الحجابة فى ذلك العصر .

وما كاد ابن أبى عامر يستقر فى قرطبة ، حتى اتخذت الأهبة لإتمام زفافه . فأحضرت أسماء إلى العاصمة فى موكب فخم ، وكانت من أجمل نساء عصرها وأوفرهن ثقافة وسحراً ، وكانت قد تزوجت لأول مرة بالوزير ابن حُدير أيام الحكم ، ثم طلقت منه . وزفت أسماء إلى ابن أبى عامر ، فى حفلات كانت مضرب الأمثال فى البذخ والبهاء ، ونظم الاحتفال فى قصر الخليفة ، وبإشراف أمه صبح ، وأغدقت صبح على العروس أروع الهدايا والتحف . وكان زواجاً سعيداً موفقاً لبث مدى الحياة[1] ، وإن كان غالب قد خرج بعد ذلك بأعوام قلائل على صهره حسبما نفصل بعد .

---

( ١ ) الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ٤٦ و ٤٧ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٨٤ و ٢٨٥ ، ونفح الطيب ج ١ ص ١٨٧ . وراجع أيضاً **Dozy : Hist. Vol. II. p. 214 & 215.**

واستقدم الخليفة غالباً من الثغر ، وقلده خطة الحجابة إلى جانب جعفر ، فكانت ضربة جديدة للحاجب. ولكن جعفراً لم يسعه إلا الإذعان والسكوت ، وقد أضحى يشعر شعوراً قوياً بالخطر المحدق به ، وبأنه لم يبق له من الحجابة سوى الاسم ، ولم ينخدع بما كان يبديه نحوه ابن أبى عامر من التلطف والمصانعة ، وهو يقبض دونه على كل شىء فى القصر والدولة .

وأخيراً وقعت النكبة المرتقبة ، ففى الثالث عشر من شعبان سنة ٣٦٧ هـ ، أصدر الخليفة أمره بإقالة الحاجب جعفر بن عثمان المصحفى ، والقبض عليه وعلى ولده وآله ، والتحفظ على أموالهم . وبادر ابن أبى عامر إلى محاسبتهم واستصفاء أموالهم ، وشدد فى مطاردتهم ، حتى مزقهم كل ممزق ، وعوجل هشام ابن أخى الحاجب فقتل فى مطبقه ، وكان من أشد الناس عداوة لابن أبى عامر ، وزج جعفر إلى ظلام السجن ، يعتقل فيه حيناً ، ثم يعتقل حيناً فى داره ، واضطر إزاء التشدد فى مطالبته أن يبيع داره الفخمة بالرُّصافة ، وكانت من أعظم دور قرطبة ، وأمعن ابن أبى عامر فى نكايته ، واستجوابه بمحضر من زملائه القدماء ؛ واستطالت محنة المُصْحفى أعواماً ، عانى خلالها أروع آلام المهانة والذلة ، وهو يستعطف ابن أبى عامر فلا يرحمه ؛ واستمر سجيناً فى مطبق الزهراء حتى توفى سنة ٣٧٢ هـ ( ٩٨٢ م ) . وقيل إنه قتل خنقاً فى مطبقه ، وقيل إنه دست إليه شربة مسمومة كانت سبب وفاته .

وكان المصحفى حسبما تقدم شاعراً جزلا ، وقد أذكت المحنة شاعريته ، وصدر عنه فى مطبقه كثير من القصائد المؤثرة . ومن ذلك قوله :

صبرت على الأيام لـما تولت ... وألزمت نفسى صبرها فاستمرت
فياعجباً للقلب كيف اصطباره ... وللنفس بعد العز كيف استذلت
وما النفس إلا حيث يجعلها الفتى ... فإن طمعت تاقت وإلا تسلت
وكانت على الأيام نفسى عزيزة ... فلما رأت صبرى على الذل ذلت
وقلت لها يانفس موتى كريمة ... فقد كانت الدنيا لنا ثم ولت

ويعلق ابن حيان على محنة المصحفى بقوله : « وكانت لله عند جعفر ، فى إيثاره هشاماً بخلافته ، واتباع شهوة نفسه وحظ دنياه ، وتسرعه إلى قتل المغيرة لأول وهلة ، دون قصاص جريرة استدركته دون إملاء ، فسلط

عليه من كان قدر أن يتسلط على الناس باسمه »[1] .

وهكذا سار ابن أبى عامر إلى غايته بسرعة مدهشة ، ولجأ فى تحقيقها إلى أذكى الوسائل وأشدها ، واستطاع بعزمه وصرامته وبارع خططه ، أن يسحق كل عقبة ، وأن يروع كل منافس ومناوئ . ويجمل ابن خلدون معركة ابن أبى عامر مع خصومه فى تلك العبارة القوية : « ثم تجرد لرؤساء الدولة ممن عانده وزاحمه ، فمال عليهم ، وحطهم عن مراتبهم ، وقتل بعضهم ببعض ، كل ذلك عن أمر هشام وتوقيعه ، حتى استأصل شأفتهم ، ومزق جموعهم »[2] : ولم يكن مهلك المصحفى ، بعد سحق الصقالبة ، سوى حلقة جديدة فى سلسلة المطاردة الشاملة التى نظمها ابن أبى عامر لاستئصال شأفة خصومه ومنافسيه . ذلك أنه جد فى نفس الوقت ، فى مطاردة كل من يخشى بأسه من بنى أمية أو غيرهم من زعماء القبائل ، حتى سحق كل من يصلح منهم للولاية والرياسة ، ومزقهم فى البلاد شر ممزق ، كل ذلك تحت شعار حمايته للمؤيد وللعرش ، وفى ذلك يقول شاعر من شعراء العصر :

أبنى أميــة أين أقمــار الدجى     منكم وأين نجومها والكوكب
غابت أسود منــكم عن غابهــا     فلذاك حاز الملك هــذا الثعلب

ولما خلا الجو لابن أبى عامر من أولياء الخلافة ، والمرشحين للرياسة ، اهتم بتنظيم الجيش . فأنشأ صفوفاً جديدة من المرتزقة من زنانة وصنهاجه وغيرهما من قبائل البربر ، ومن الجند النصارى من ليون وقشتالة وناڤار ، وبذل لهم الأجور السخية ، واجتذب قاوبهم بعدله ورفقه وجوده . وغير أنظمة الجيش القديمة ، فقدم رجال البربر ، وأخر زعماء العرب ، وأقصاهم عن مناصبهم ، وفرق جند القبيلة الواحدة فى صفوف مختلفة ، وكانوا من قبل ينتظمون فى صف واحد . وكان العرب يتمسكون منذ أيام الفتح بوحدة القبيلة ، لأن العصبية كانت فى قبائلهم حتى أيام الناصر ، ما تزال فتية قوية ، ولكن الناصر عمل على سحق القبائل العربية ، وإضعاف هيبتها ، وجاء ابن أبى عامر فألفى الميدان ممهداً لخططه ، فلم تلق سياسته الجديدة كبير معارضة[3] .

---

(١) راجع فى محنة المصحفى ، الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ٤٨ و ٤٩ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٨٥ — ٢٨٨ ، والحلة السيراء ص ١٤٢ .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٧ .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٣١٦ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٤٨ ، ونفح الطيب ج ص ١٣٧ . وراجع : **Dozy : Hist. Vol. II. p. 232 & 233**

# الكتاب الثالث

# الدولة العامرية

٣٦٨ - ٣٩٩ هـ : ٩٧٨ - ١٠٠٩ م

# الفصل الأول

## الحاجب المنصـــــور

ابن أبي عامر يطمح إلى حلل الملك . إنشاؤه لمدينة الزاهرة وانتقاله إليها . يؤلف حرسه من الصقالبة والبربر . تشدده فى الحجر على هشام . موقف صبح من ذلك . ذيوع علاقتها مع ابن أبي عامر . تحولها إلى خصومته والتشهير به . تفاهمها مع القائد غالب . التفاف المعارضين حوله . جعفر بن حمدون الأندلسى يتولى الوزارة . تقاطر البربر من العدوة . الوحشة بين ابن أبي عامر وغالب . نهوض غالب لمحاربته . استعانته بملك ليون . القتال بين غالب وابن أبي عامر . مصرع غالب وهزيمة قواته . الموقعة حسبما يصفها ابن حزم . غزوات ابن أبي عامر . غايته من القيام بها . مسيره إلى ليون ومحاصرته لسمورة . هزيمته للنصارى فى شنت منكش . توغله فى ليون ثم عوده إلى قرطبة . إتخاذه لسمة الملك وتسميه بالحاجب المنصور . غدره بجعفر الأندلسى . الحرب الأهلية فى ليون . اعتراف برمودو بطاعة المنصور . مسير المنصور إلى الغزو . يخترق شرق الأندلس ويغزو قطلونية . اقتحامه لبرشلونة وتدميرها . حوادث المغرب . مسير الحسن بن كنون إلى غزو المغرب . المنصور يرسل جيشاً لقتاله . مطاردة الحسن وإرغامه على طلب الأمان . مسيره إلى قرطبة واغتياله . ندب الوزير السلمى لحكم المغرب . إجتماع قبائل البربر حوله . مسير زيرى زعيم مغراوة إلى قرطبة . القتال بين السلمى وبنى يفرن . مقتله وولاية زيرى حكم المغرب . مسير زيرى ثانية إلى قرطبة . عوده وخيبة أمله . غزو بنى يفرن لفاس واحتلالها . القتال بين مغراوة وبنى يفرن . اشتداد ساعد زيرى . إنشاؤه لمدينة وجدة . غزو المنصور لليون واستيلاؤه على قلمرية . غزوه لنافار . ما تزعمه الرواية النصرانية . عود المنصور إلى غزو ليون . اقتحامه لمدينة ليون وتدميرها . استيلاؤه على سمورة . حوادث الثغر الأعلى . عبد الله ولد المنصور . تآمره مع عبد الرحمن التجيبى والى سرقسطة وآخرين . وقوف المنصور على المؤامرة فى خروجه إلى الغزو . اعتقاله لعبد الرحمن التجيبى . فرار عبد الله والتجاؤه إلى غرسية أمير قشتالة . غزو المنصور لقشتالة وهزيمة أميرها . غرسية يرسل عبد الله استجابة لطلب المنصور . إعدامه . تأملات عن هذا الحادث . سانشو ابن غرسية يخرج عليه بتحريض المنصور . المنصور يغزو قشتالة ويستولى على شنت إشتيبن وكلونية . قصة الأيل الذى أهداه صاعد إلى المنصور . مسير المنصور إلى غزو ليون . إذعان برمودو وتعهده بأداء الجزية . المنصور يرشح ولده عبد الملك للولاية من بعده ويوليه الحجابة . اقتصاره على التسمى « بالمنصور » . اختصاصه بألقاب السيادة . إحجامه عن المساس بالخلافة . عوامل هذا الإحجام . موقف صبح أم المؤيد . اتصالها بزيرى حاكم المغرب . تحوطات المنصور . تفاهمه مع هشام وموكبهما المشترك . يأس صبح ووفاتها . الوحشة بين المنصور وزيرى . مسير عبد الملك إلى العدوة لمحاربة زيرى . هزيمة البربر وسقوط فاس . عبد الملك يولى حكم المغرب . الصلح بين زيرى والمنصور . المنصور يغزو جليقية . اختراقه لأراضى البرتغال . استيلاؤه على بازو وقلمرية . توغله فى جليقية ومسيره إلى شنت ياقب . يهدم أسوارها وكنيستها العظمى . مسيره شمالا حتى ثغر لاكروفيه . عوده من طريق لاميجو إلى قرطبة . ملك ليون يطلب

الصلح . غزوة أخرى لقشتالة . موقعة صخرة جربيرة . اقتحام المنصور لمدينة برغش . غزوه لناقار . آخر غزوات المنصور . ما تقوله الرواية الإسلامية . موقعة قلعة النسور . ما تقوله عنها الرواية النصرانية . آراء البحث الحديث فى شأنها . مرض المنصور ووفاته . قبره بمدينة سالم .

أضحى ابن أبى عامر ، بعد أن قضى على كل خصومه ومنافسيه ، وحده ، سيد الميدان ، وأضحى بعد أن وضع يده على الجيش ، صاحب السلطة العليا دون منازع ولا مدافع . ولم يكن الخليفة هشام المؤيد ، بعد ذلك ، سوى أداة لينة فى يد المتغلب القوى ، يوجهها كيف يشاء .

على أن ابن أبى عامر لم يقنع بما حققه لنفسه من الاستئثار بالسلطة الفعلية . وعلى الرغم من أنه لم يفكر يومئذ فى الافتئات على شىء من رسوم الخلافة الشرعية ، فإنه اتجه إلى أن يتشح بحلل الملك فى صورة من صوره ، فتكون له ثوباً خلاباً ، يتوج سلطانه الفعلى ، بمظاهر العظمة والأبهة الملوكية .

ولم يكن اتجاه ابن أبى عامر يقف عند تحقيق المظهر دون غيره ، ولكن كانت لديه أسباب عملية قوية ، تدعو إلى التحوط من أخطار التآمر والغيلة ، وقد أصبح يخشى على نفسه من الوجود فى قصر الزهراء ، ومما قد يضمره بعض الحاقدين المتربصين(١) ، ورأى أن يتخذ له مركزاً مستقلا للإدارة والحكم ، يجمع بين السلامة ومظاهر السلطان والعظمة . فوضع أسس مدينة ملوكية جديدة أسماها الزاهرة ( ٣٦٨ هـ — ٩٧٨ م ) . وقد اختلف فى الموقع الذى كانت تحتله الزاهرة لأن البحوث الأثرية الحديثة لم تكشف شيئاً من معالمها ، مثلما فعلت بالنسبة لمدينة الزهراء . ويقول البعض إنها كانت تحتل بسيطاً يقع جنوب شرقى قرطبة فى منحنى نهر الوادى الكبير ، وعلى قيد أميال قليلة منها . ويقول البعض الآخر إنها كانت تحتل بقعة على مقربة من شرقى قرطبة على الضفة الجنوبية لنهر الوادى الكبير(٢) . وأنشأ المنصور بالزاهرة قصراً ملوكياً فخماً ، ومسجداً ، ودواوين للإدارة والحكم ، ومساكن للبطانة والحرس ، وأقام حولها سوراً ضخماً ، ونقل إليها خزائن المال والسلاح ، وإدارات الحكم ؛ وتم بناء المدينة الجديدة فى نحو عامين ، وأقطع ما حولها للوزراء والقادة ، وأكابر رجال الدولة ، فابتنوا الدور العظيمة ، وأنشئت الشوارع والأسواق الفسيحة ، واتصلت أرباضها بأرباض قرطبة ،

---

( ١ ) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٤ ، وأعمال الأعلام ٦٢ .

( ٢ ) وهذا يستفاد من أقوال ابن حزم فى « طوق الحمامة » ص ١١٠ .

وأضحت تنافس المدينة الخليفية فى الضخامة والرونق .

وفى أوائل سنة ٣٧٠هـ (٩٨٠م) ، انتقل محمد بن أبى عامر إلى مدينة الزاهرة ، واتخذ له حرساً خاصاً من الصقالبة والبربر ، وأحاط قصره الجديد بالحراس والحاشية ، يرقبون كل حركة وسكنة فى الداخل والخارج ، وأقفرت بذلك مدينة الزهراء الخليفية ، وهجر الوزراء والكبراء قصر الخليفة ، وساد الصمت حول مركز الخلافة الشرعى ؛ وأنشأ ابن أبى عامر فى نفس الوقت حول القصر الخليفى سوراً وخندقاً ، وأحكم غلق أبوابه ، ووكل بها من يمنع دخول أى شخص أو نبأ إلى الخليفة دون علمه وإذنه . وبث عيونه على هشام وحاشيته ، وأشاع أنه قد فوض إليه النظر فى سائر شئون المملكة ، لكى يتفرغ لشئون العبادة . وهكذا أهمل شأن الخليفة الفتى ، وقطعت سائر علائقه مع الخارج ، ولبث محجوباً فى أعماق قصره ، يغمره الخمول والنسيان(١) .

ماذا كان موقف صبح إزاء هذا الانقلاب الحاسم فى مركز ولدها ومركز الخلافة ؟ لاريب أنها كانت بموقفها وتصرفها ، أكبر معين لابن أبى عامر على إحداثه ، وكان حبها المضطرم لذلك الرجل الذى ملك عليها كل مشاعرها وعقلها ، يدفعها دائماً إلى مؤازرته والإذعان لرأيه ، وكان إعجابها الشديد بمقدرته وتوفيقه يضاعف ثقتها به ، ويعميها دائماً عن إدراك الغاية الخطيرة التى يسعى إلى تحقيقها ، هذا إذا لم نفترض أن تلك البشكنسية المضطرمة الجوانح ، كانت تذهب فى حبها إلى حد الائتمار بولدها وتضحية حقوقه ومصالحه . والظاهر أن علائقها بابن أبى عامر قد انتهت بالخروج عن كل تحفظ ، وغدت فضيحة قصر ذائعة ، شهر بها مجتمع قرطبة ، وتناولها بلاذع التعليق والهجو ، وظهرت بهذه المناسبة قصائد وأناشيد شعبية كثيرة ، فى التشهير بحجر ابن أبى عامر على هشام وعلائقه بصبح ، فمن ذلك ما قيل على لسان هشام فى الشكوى من الحجر عليه :

أليس من العجائب أن مثلى    يرى ما قل ممتنعاً عليه
وتملك باسمه الدنيا جميعاً    وما من ذاك شىء فى يديه(٢)

ومن ذلك ما قيل فى هشام وأمه صبح ، وقاضيه ابن السليم :

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٥ و ٢٩٦ و ٢٩٧ و ٢٩٨ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٤٨ والحلة السيراء ص ١٤٩ ، ونفح الطيب ج ١ ص ٢٧٢ .

(٢) هذان البيتان ينسبان أيضاً إلى المقتدر العباسى .

اقترب الوعـــد وحان الهـــلاك　　وكل ما تحـــذره قد أتـــاك
خليفـــة يلعب فى مكتب　　أمه حبـــلى وقاض . . .[١]

وهذه الأناشيد اللاذعة وأمثالها تعبر عن روح العصر ، وتدل على ما كان يثيره موقف صبح وسمعتها ، من الحملات المرة . وتتفق الرواية الإسلامية فى الإشارة إلى هذه العلاقة الغرامية التى استطال أمدها ، بين صبح وابن أبى عامر ، وإن كانت تؤثر التحفظ والاحتشام ، ولم نجد ما يعارضها سوى كلمة أوردها المقرى لكاتب مغربى يدافع فيها عن ابن أبى عامر ، ويدفع عن صبح تهمة شغفها به ، ويرمى أولئك الشعراء بالتحامل والكذب[٢].

على أنه يبدو أن الحوادث قد بدأت تتطور من ذلك الحين ، وأن موقف صبح قد بدأ يتخذ وجهة أخرى . فقد أدركت صبح أخيراً ما يرمى إليه ابن أبى عامر ، وأدركت خطورته على مستقبل ولدها ، ومستقبل الأسرة والخلافة ، فثارت نفسها سخطاً . وكانت صبح قد جاوزت الأربعين يومئذ ، وقد تصرم ذلك الحب القديم ، الذى شغفها بابن أبى عامر دهراً ، وأضحت تبغض ذلك الرجل الذى سلب ولدها ، وسلبها كل نفوذ وسلطة ، ومن ذلك الحين تنقلب صبح إلى خصومة ابن أبى عامر ومقاومته . وقد كان من الصعب ، إزاء عزم ابن ابى عامر ويقظته ، وسلطانه الشامل ، ان تستطيع صبح القيام بأية عمل مباشر ، فلجأت عندئذ إلى العمل المستتر ، وأخذت تبث فى نفس ولدها هشام ، بغض ابن أبى عامر والسعى إلى مناوأته واسترداد سلطانه منه ، وتولى مقاليد الحكم بنفسه ، وشهرت بواسطة أعوانها من الناقمين ، على ابن أبى عامر ، دعاية شديدة ، واتهمته بأنه يسجن الخليفة الشرعى ويحكم رغم إرادته ويغتصب سلطته . والظاهر أن صبحاً لم تقف عند هذا الحد من المقاومة الأدبية ، وأنها حاولت فى نفس الوقت ، أن تقوم بمحاولة عملية لمقاومة ابن أبى عامر وإسقاطه .

وربما كان لتدبير صبح وتحريضها ، أثر فيما وقع يومئذ بين ابن أبى عامر وصهره القائد غالب ، صاحب مدينة سالم . وكان غالب بالرغم من تقلده خطة الوزارة ، يقيم بالثغر بعيداً عن قرطبة . وكان يتمتع فى قرطبة وسائر مدن الأندلس

---

(١) البيان المغرب عن ابن حيان ج ٢ ص ٣٠٠ ، ونفح الطيب ج ١ ص ٢٨١ .
(٢) راجع نفح الطيب ج ١ ص ٢٨٢ .

بسمعة عالية فى ميدان الفروسية والقيادة ، وهو ما كان ينقمه ابن أبى عامر على صهره . وكان المعارضون يرون فيه الرجل الوحيد ، الذى يستطيع أن يقارع ابن أبى عامر ويقاومه . فرأى ابن أبى عامر أن يرفع إلى مرتبة الوزارة جعفر بن على ابن حمدون المعروف بالأندلسى ، وكان من مشاهير الفرسان والقادة البربر من زناته ، وكان مقيما بالعدوة ، فعبر البحر إلى الأندلس ، واستقر فى الوزارة ، يكنفه ابن أبى عامر بحبه وثقته ، ويستعين به على تأليف البربر وكسب محبتهم ، ولاسيما بعد أن غدوا يؤلفون معظم حرسه وحاشيته . وتقاطر البربر من العدوة ، وابن أبى عامر يستقبلهم بأوفر ضروب البذل والإحسان ، ويقوى بهم صفوفه وبطانته . وكان غالب يستشعر الوحشة والريبة من تصرفات صهره ، ويتوقع منها سوء العاقبة . ولم يمض قليل حتى ساء التفاهم بين غالب وصهره ، فعمد غالب إلى مصانعة ابن أبى عامر ، ودعاه أثناء غزوه بالصائفة فى أراضى قشتالة ، إلى وليمة أقامها بمدينة أنتيسة[1] ، إحدى مدن الثغر التى تحت ولايته ، وجاء ابن أبى عامر إلى القلعة حيث أقيمت الوليمة ، فى بعض أصحابه ، فانفرد به غالب وشرع فى عتابه . ثم اشتد بينهما النقاش ، فشهر غالب سيفه على صهره فجأة ، فأصابه فى بعض أنامله وصدغه ، واستطاع ابن أبى عامر أن يفر ناجياً بنفسه ، من مأزق بالغ الخطورة . وامتنع غالب بالقلعة ، بينما سار ابن أبى عامر لفوره إلى مدينة سالم ، حيث دار غالب وأهله ، فاستولى عليها وعلى سائر أمواله ومتاعه ، وفرقها فى الجيش ، وعاد إلى الحضرة ، وهو يضمر لغالب أسوأ النيات .

وكان غالب أعظم قادة الأندلس وأبرعهم فى ذلك العصر ، وكانت لديه فى الثغر قوات يعتد بها ، فنهض لقتال قوات ابن أبى عامر ، وغلب عليها ، فى البداية غير مرة . ثم رأى أن يستعين برامیرو الثالث ملك ليون ، فأمده ببعض قواته . وسار ابن أبى عامر لمقارعة خصمه فى معركة حاسمة . ووقع اللقاء بين الفريقين أمام حصن شنت بجنت San Vicente على مقربة من أنتيسة ، ونشبت بينهما معركة شديدة ، أبلى فيها غالب وقواته بلاء حسناً وكاد يحرز النصر فى البداية ، ولكنه ما لبث أن سقط ميتاً عن جواده خلال المعمعة ، ولم يعرف سبب مصرعه لأنه لم يقتل بيد أحد ، وحملت رأسه فى الحال إلى ابن أبى عامر ، فدب الوهن

---

(١) وهى بالإسبانية Atienza . وهى تقع شمال وادى الحجارة ، على مقربة من غربى مدينة سالم .

والذعر إلى قوانه ، وطاردتها قوات الأندلس ، وأمعنت فيها قتلا وأسراً ، وهلك من الجند النصارى الذين كانوا يقاتلون إلى جانب غالب عدد جم . وكان بين القتلى أمير نصرانى هو راميرو ابن سانشو أباركا من أمراء البشكنس[1] . وقتل كذلك فى المعركة عدة من الكبراء والقادة المسلمين ، الذين كانوا مثل غالب يعارضون سياسة ابن أبى عامر . وكان ذلك فى الرابع من محرم سنة ٣٧١ هـ ( أغسطس سنة ٩٨١ م )[2] .

وقد روى الفيلسوف ابن حزم عن أبيه الوزير ابن حزم ، وزير ابن أبى عامر ، وكان ممن صحبه فى تلك الموقعة ، تفاصيل الموقعة حسبما شهدها . وهو يصف لنا هيئة القائد غالب خلال الموقعة فى قوله : « وهو شيخ كبير قد قارب الثمانين عاماً وهو على فرسه ، وفى رأسه طرطور عال ، وقد عصب حاجبيه بعصابة » قال : وكان قد جمع جموعاً عظيمة من المسلمين والنصارى ، فبدأ بالهجوم على الميمنة ، وفيها جعفر بن على وأخوه يحيى والبربر ، وحمل عليهم حملة ، أزاحتهم عن مواقعهم ، ومزقت صفوفهم ؛ ثم حمل على الميسرة ، وكان فيها الوزير ابن حزم مع غيره من الرؤساء ، ففعل بها كما فعل بالأولى . ثم أخذ يتأهب لمهاجمة القلب ، وهو تحت قيادة ابن أبى عامر نفسه ، وهو يقول : « اللهم إن كنت أصلح للمسلمين من ابن أبى عامر فانصرنى ، وإن كان هو الأصلح لهم فانصره » . ثم يصف لنا ابن حزم مصرع غالب على النحو الآتى ، قال : « ثم هز فرسه ، وترك جهة القتال وأخذ ناحية إلى خندق كان فى جانب عسكره ، فظن أصحابه أنه يريد الخلاء ، فلما أبطأ عليهم ركبت طائفة منهم نحوه ، فوجدوه قد سقط إلى الأرض ميتاً ، وقد فارق الدنيا بلا ضربة ولا رمية ولا أثر ، وفرسه واقف بجانبه يعلك لجامه ، ولا يعلم أحد سبب موته . فلما أدرك أصحابه سقط فى أيديهم ، وطلبوا حظ أنفسهم ، فبادر مبادر منهم بالبشرى إلى ابن أبى عامر ، فلم يصدق حتى وافى مواف بخاتمه ، ووافاه آخر بيده ، ووافاه آخر برأسه » .

هذا وقد بلغت القسوة بابن أبى عامر ، أن أمر بالتمثيل بجثمان خصمه الصريع

---

(١) وهو الذى تسميه الرواية العربية بردمير بن شانجه ويعرف « براى قرجة » .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٨ و ٢٩٩ ، وأعمال الأعلام ص ٦٢ و ٦٣ . وكذلك Dozy : Hist. Vol. II. p. 233 & 234

الباسل ، فحشى جلده بالقطن ، وصلب على باب القصر بقرطبة ، وصلب رأسه على باب الزاهرة ، ولبث كذلك دهراً ، حتى أدركه الفيلسوف ابن حزم نفسه ، وهو فتى ، وذلك عند إنزاله يوم هدم الزاهرة فى سنة ٣٩٩ هـ ( ١٠٠٨ م )[١].

* * *

وهنا تبدأ سلسلة هذه الغزوات الشهيرة العديدة ، التى شهرها ابن أبى عامر على الممالك الإسبانية النصرانية ، واستمر يضطلع بها باستمرار ودون هوادة ، والتى خرج منها جميعاً متوجاً بغار الظفر ، ولم يهزم فى أية واحدة منها .

وتتحدث معظم الروايات الإسلامية عن حروب ابن أبى عامر وغزواته بإفاضة ، وتعددها بأكثر من خمسين غزوة . ولكنها لا تقدم إلينا عنها تفاصيل واضحة ، ولاسيما عن الزمان والمكان[٢] ، ويجمل ابن خلدون ذكرها فى قوله : « وردد الغزو بنفسه إلى دار الحرب ، فغزا اثنين وخمسين غزوة فى سائر أيام ملكه ، لم ينكسر له فيها راية ولا فل له جيش ، ولا أصيب له بعث ولا هلكت سرية »[٣] .

وتجمل الرواية الإسلامية بواعث هذه الغزوات المستمرة فى نزعة الجهاد . ولكن الحقيقة هى أن ابن أبى عامر ، كان باضطلاعه بتلك الغزوات المتعاقبة يرمى إلى غاية سياسية بعيدة المدى ، لم يفكر فيها أحد قبله من أمراء الأندلس ، أو لم يجد لديه وسيلة أو مقدرة لتنفيذها . ذلك أنه فكر فى أن يسحق الممالك الإسبانية النصرانية سحقاً تاماً ، وأن يقضى على استقلالها القومى ، وأن يخضعها جميعاً إلى سلطة الخلافة . وقد خالف ابن أبى عامر فى غزواته ، سنن أسلافه من الأمراء والقادة ، فقد كان هؤلاء يحاربون فى معظم الأحيان للدفاع ورد غارات النصارى ، ولكن ابن أبى عامر كان هو البادئ بالحرب دائماً ، ولم يقبل من أعدائه قط صلحاً أو مهادنة ، ولم يقنع إلا بالنصر الكامل .

---

( ١ ) راجع رواية ابن حزم فى رسالة « نقط العروس » ( المنشورة فى مجلة كلية الآداب بالقاهرة فى عدد ديسمبر سنة ١٩٥١ ) ص ٨١ و ٨٢ .

( ٢ ) ذكر ابن الأبار فى الحلة السيراء أن المؤرخ الكبير أبو مروان ابن حيان قد استوعب هذه الغزوات وفصلها فى كتابه الكبير الذى ألفه فى أخبار الدولة العامرية . ولكن هذا المؤلف لم يصل بعد إلينا ( ص ١٤٩ ) .

( ٣ ) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٨ . وكذلك ابن الأثير ج ٨ ص ٢٢٤ و ج ٩ ص ١٢ .

ولكن سوف نرى أن غزوات المنصور ، بالرغم من تحرى هذه الغاية البعيدة المدى ، وبالرغم مما كان يحالفها من الظفر المستمر ، لم تخرج فى مجموعها عن أساليب الصوائف والغزوات الإسلامية المأثورة ، ولم تتجه بالفعل إلى تحرى هذه الغاية الكبرى .

سار ابن أبى عامر عقب الفراغ من أمر صهره غالب ، إلى مملكة ليون ، ليعاقب ملكها راميرو الثالث على معاونته لخصمه غالب ، وتدخله على هذا النحو فى شئون الأندلس ، وقصد إلى مدينة سمورة الحصينة الواقعة شمالى شلمنقة ، وضرب حولها الحصار ( أوائل سنة ٣٧١ هـ الموافقة ٩٨١ م ) ولكنه لم يستطع الاستيلاء على قلعتها المنيعة بسرعة ، فتركها وعاث فيما حولها من السهول ، وأمعنت قواته فى التخريب والقتل ، وأحرقت مئات القرى والضياع ، وهام النصارى على وجوههم فى الجبال والوديان ألوفاً مؤلفة . وهرع راميرو الثالث إلى غرسية فرنانديز كونت قشتالة ، وسانشو ملك نافار ، وعقد الثلاثة تحالفاً لمحاربة ابن أبى عامر ، وسارت قواتهم المشتركة للقائه . ونشب القتال بين الفريقين فى ظاهر بلدة « روضة » فى جنوب غربى « شنت منكش »[1] ، فهزم النصارى وقتل منهم عدد كبير ، واستولى المسلمون على قلعة شنت منكس الشهيرة ؛ ثم زحف ابن أبى عامر بعد ذلك شمالا إلى مدينة ليون عاصمة المملكة ، وهنالك وقف راميرو فى قواته محاولا اعتراضه ، وحاول المسلمون اقتحام المدينة ، ووصلوا فى هجومهم بالفعل إلى أبوابها ، ولكن الشتاء كان قد دخل ، وغمرهم البرد والثلوج ، فاضطروا إلى وقف القتال ، وعاد ابن أبى عامر إلى قرطبة بعد غزوات دامت بضعة أشهر[2] .

وعلى أثر هذا النصر ، وفى أواسط سنة ٣٧١ هـ ( أواخر ٩٨١ م ) اتخذ ابن أبى عامر سمة الملك ، فتسمى بالحاجب المنصور ، وأمر بالدعاء له على المنابر ، ونفذت الكتب والأوامر باسمه عن « الحاجب المنصور أبى عامر محمد بن أبى عامر » ونقش اسمه فى السكة ، وجرى الوزراء ورجال الدولة على تقبيل يده ، عند المثول لديه ، واجتمعت حول شخصه ، وحول داره ، مظاهر الجلالة الملكية ، وتم بذلك استئثاره بجميع السلطات والرسوم ، ولم يبق من الخلافة الأموية سوى

---

( ١ ) روضة هى بالإسبانية **Rueda** ، وشنت منكش هى **Simancas** .

( ٢ ) **Dozy : Hist. Vol. II. p. 234—235 ; Recherches (3ème ed.) Vol. I. p. 180—181**

الاسم [1]. هذا وسوف نجرى منذ الآن فصاعداً على تسمية ابن أبى عامر باسمه الملكى : المنصور .

وكان المنصور حين استقدم جعفراً بن على الأندلسى ، ورفعه إلى خطة الوزارة ليعارض به نفوذ القائد غالب ، وليوثق بوجوده مودة البربر وتأييدهم ، يتوجس مع ذلك من وجوده وسلطانه ، ويخشى أطماعه ومشاريعه ، فى الناحية الأخرى من البحر ، فما كاد ينتهى من أمر غالب ، ومن ترتيب رسومه الملكية ، حتى قرر أمره ، فدعاه ذات مساء إلى مأدبة حافلة ، وأغرى به السقاة حتى فقد وعيه ، ثم دس عليه فى طريقه إلى منزله من قتله ، وحمل إليه رأسه سراً (٣٧٢ هـ) . فتظاهر المنصور بالحزن على ضحيته ، وكانت هذه الجريمة المثيرة ، عنواناً لبعض النواحى القاتمة ، فى خلاله وفى وسائله السياسية [2] .

وفى ذلك الحين كانت الأحوال قد اضطربت فى ليون ، وفقد راميرو الثالث من جراء هزائمه المتوالية كل عطف وتأييد ، وزاد الشعب نقمة عليه ، محاولاته فى توسيع سلطانه ، وتمكين حكمه المطلق . وما لبثت جليقية أهم ولاياته ، أن اضطرمت بالثورة ، وقرر أشرافها خلع راميرو ، وتولية ابن عمه برمودو (أو برمند) ملكاً مكانه . وفى أكتوبر سنة ٩٨٢ م ، توج هذا الأمير ملكاً على ليون فى مدينة شنت ياقب. فسار راميرو إلى محاربته ونشبت بينهما موقعة شديدة غير حاسمة ، فى بلدة بورتليا دى أريناس ، على حدود ليون وجليقية ، ثم عاد برمودو إلى جمع قواته ، وسار لمحاربة خصمه مرة أخرى ، فهزمه واستولى على مدينة ليون فى مارس سنة ٩٨٤ . فالتجأ راميرو إلى مدينة أسترقة ، والتمس مساعدة المنصور ، على أن يعترف بطاعته ؛ ولكنه توفى بعد ذلك بأشهر قلائل ؛ وحاولت أمه أن تحكم مكانه بمعاونة المنصور ، فأبى المنصور أن يستمع إليها وأدرك برمودو من جهة أخرى أنه لن يستطيع مقاومة الأشراف المعارضين لحكمه إلا بمعاونة المسلمين ، فتقدم إلى المنصور ، وعرض أن يعترف بطاعته ، فقبل المنصور وأمده بجيش ، استطاع ان يخضع به سائر المملكة ، وأن يوطد حكمه . وبقيت بعد ذلك فى مدينة ليون حامية كبيرة من المسلمين :

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٨ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٩ ، و ٣٠٠ .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠١ ، وأعمال الأعلام ص ٦٥ .

وهكذا غدت مملكة ليون الإسبانية النصرانية لأول مرة ، ولاية تابعة لحكومة قرطبة ، تؤدى لها الجزية ، وتأتمر بأوامرها ، وكانت هذه أول ثمرة لسياسة الغزو المنظم ، التى سار عليها المنصور .

وتحول اهتمام المنصور بعد ذلك إلى شمال شرقى الأندلس ، فحشد جيشاً ضخماً استعداداً لغزوة هامة ، لم تخطر من قبل لأحد من أمراء الأندلس . وخرج فى قواته من قرطبة فى ذى الحجة سنة ٣٧٤ هـ (مايو ٩٨٥ م) ، ومعه عدة من الكتاب والشعراء ، يجتمعون فى مجلسه خلال السير . وتوصف غزوة المنصور هذه بأنها الثالثة والعشرون . وسار المنصور جنوباً صوب إلبيرة ( غرناطة ) ، ثم اتجه شرقاً إلى بسطة ، فلورقة ، فتدمير ، فمرسية ، وأقام فى مرسية ثلاثة وعشرين يوماً فى ضيافة أحمد بن عبد الرحمن المعروف بدجيم بن مروان بن خطاب وولده أبى الأصبغ موسى . وكان ابن خطاب من أعظم رجالات الأندلس وجاهة وثراء وجوداً ؛ ومن المدهش حقاً ، ما تنقله إلينا الرواية ، من أنه استضاف المنصور وسائر حاشيته وجيشه خلال هذه المدة ، وتكفل بسائر النفقات ، وأبدى من ضروب الجود والبذخ ما يفوق قصص ألف ليلة وليلة ، وغدا بذلك من أعظم أصدقاء المنصور وأكثرهم حظوة لديه[1] .

وسار المنصور فى جيشه بعد ذلك شمالا . وكان يقصد ثغر برشلونة العظيم . وقد لبثت برشلونة منذ الفتح فى أيدى المسلمين نحو قرن من الزمان ، وكانت أعظم ثغور الأندلس الشمالية الشرقية ، ثم افتتحها عاهل الفرنج شارلمان أو كارل الأكبر فى سنة ٨٠١ م (١٨٥ هـ) أيام الحكم بن هشام ، بعد حصار طويل ، وبعد أن دافع المسلمون عنها أروع دفاع . واتخذ الفرنج من برشلونة قاعدة لولاية « الثغر القوطى » ، الذى نما فيما بعد ، واستطاع حكامه الكونتات القوط مع الزمن ، أن ينتزعوه من يد الفرنج ، وأن يجعلوا منه إمارة مستقلة ، هى إمارة قطلونية ، التى

---

(١) الحلة السيراء عن ابن حيان وابن الفياض ص ٢٥١ و ٢٥٢ و ٢٥٣ . هذا ويقدم إلينا العذرى نسبة ابن خطاب كاملة ، فهو أحمد بن عبد الرحمن المعروف بدجيم بن مروان بن خطاب بن محمد بن مروان بن خطاب بن عبد الجبار الداخل . ويقول لنا إنه استضاف المنصور وجميع عسكره أياماً ، وصنع له فيما صنع حماماً كان ماء الحمام من ماء الورد الطيب الغاية وأهدى له قناطر من الفضة الخالصة . ( العذرى فى كتاب ترصيع الأخبار السابق ذكره ص ١٥ ) .

حافظت عصراً على استقلالها ، ثم اندمجت بعد ذلك فى مملكة أراجون القوية[1].
واخترق المنصور بجيشه قطلونية ، وهزم قوات أميرها الكونت بوريل ، فى أواخر شهر يونيه ، وأشرف على ظاهر برشلونة فى اليوم الأول من يوليه ، ولم تمض أيام قلائل حتى اقتحم المسلمون المدينة ، ودخلوها فى يوم الاثنين منتصف صفر ، سنة ٣٧٥ هـ ، الموافق سادس يوليه سنة ٩٨٥ م[2] . ودمر المسلمون المدينة وأحرقوها ، وقتلوا معظم أهلها ، وتركوها قاعاً صفصفاً ، وكان بين الأسرى أودلرادو نائب كونت برشلونة ، فاقتيد إلى قرطبة ، حيث قضى فى الأسر أعواماً طويلة . والظاهر أن المنصور لم يحاول الاحتفاظ ببرشلونة ، ولم تكن لديه نية افتتاحها بصورة دائمة ، ولكنه قصد أن يدمر قوى النصارى فى هذا الطرف النائى من شبه الجزيرة الإسبانية .

* * *

وما كاد المنصور يرتد بجيشه إلى قرطبة ، حتى استغرقت حوادث المغرب جل اهتمامه . وقد فصلنا فيما تقدم عند الكلام على عهد عبد الرحمن الناصر ، ثم عهد ولده الحكم المستنصر ، أدوار الصراع الذى نشب فى المغرب الأقصى ، بين الفاطميين منذ قامت دولتهم فى إفريقية ، وبين بنى أمية ، ورأينا كيف استطاع الحكم المستنصر ، بعد سلسلة من الأحداث المثيرة ، والمعارك الطاحنة ، بينه وبين الفاطميين وحلفائهم الأدارسة بالمغرب ، أن يقضى على قوى الشيعة والأدارسة ، وكيف استسلم إليه الأدارسة وكبير زعمائهم الحسن بن كنون فى سنة ٣٦٣ هـ ، واستقروا حيناً فى كنفه فى قرطبة ، ثم خرجوا منها بعد ذلك بعامين ، وساروا إلى مصر حيث استقروا بها فى كنف خليفتها الفاطمى العزيز بالله .

وكان العزيز قد شغل فى أوائل ولايته ، برد خطر القرامطة عن مصر والشأم ؛ فلما تمت هزيمة القرامطة ، وزال خطرهم ( ٣٦٨ هـ ) ، عاد إلى الاهتمام بشئون المغرب ، وثاب له رأى فى العمل على استعادة سلطان الدعوة الفاطمية ، وسحق

---

( ١ ) راجع تفاصيل ذلك فى القسم الأول من العصر الأول من « دولة الإسلام فى الأندلس » ص ٢٣٤ – ٢٣٦ .

( ٢ ) تتفق الروايات النصرانية مع الرواية الإسلامية فى تحديد تاريخ دخول المسلمين لبرشلونة على هذا النحو . راجع الإحاطة لابن الخطيب ( القاهرة ) ج ٢ ص/ ٧١ . وكذلك **Dozy : Hist. Vol. II. p. 239** والمراجع .

الدعوة المروانية فى المغرب الأقصى ، فأوعز إلى نائبه على إفريقية ( تونس ) بُلُكّين بن زيرى بن مناد الصنهاجى ، أن يسير فى قواته إلى المغرب ؛ فبدأ بلكين زحفه على المغرب سنة ٣٦٩ ﻫ ، فاستولى على مدينة فاس ، وهزم سائر الأمراء الذين تصدوا لمقاومته من زناتة وغيرهم ، وفر أولئك الأمراء المعارضون جميعاً إلى الشمال ، واعتصموا بسبتة ، وبعثوا إلى المنصور يستغيثون به . فعهد المنصور يومئذ ، إلى جعفر بن على بن حمدون المعروف بالأندلسى ، وهو من زعماء زناته بمحاربة بلكين ، وأمده بالجند والمال ، والتف حوله باقى الزعماء . ولكن بلكين استمر فى تقدمه ، رغم كل معارضة ، حتى استولى على المغرب كله ، ولم يبق منه بيد خصوم الشيعة سوى القطا الشمالى .

وفى سنة ٣٧٣ﻫ ( ٩٨٣م ) بعث العزيز بالله ، الحسن بن كنُّون زعيم الأدارسة ، من مصر إلى المغرب تحقيقاً لملتمسه ، ليسعى إلى استرجاع ملكه ، وقلده عهده ، وأمر نائبه على المغرب بلكين أن يمده بالقوات اللازمة ؛ وكان العزيز ، ووزيره ابن كلّس تخالجهما ايضاً رغبة فى التخلص من الحسن وصحبه ، والتخفف من مؤنتهم(١). فسار الحسن إلى المغرب ، فى جيش صغير أمده به بلكين ، ودعا لنفسه ، فالتف حوله كثير من البربر ، ولاسيما بنى يفرن ، وجاهروا بطاعته ؛ وعلم المنصور بخبره ، فبعث ابن عمه الوزير أبا الحكم عمرو بن عبد الله بن عامر المعروف بعسكلاجة ، فى جيش كثيف ، إلى المغرب ، لقتاله والقضاء على دعوته ؛ فعبر البحر إلى سبتة لقتال الحسن ، وانضم إليه زعماء مغراوة فى قواتهم ، وفى مقدمتهم كبيرهم زيرى بن عطية بن خزر ، ثم بعث المنصور لإمداده جيشاً آخر إلى المغرب بقيادة ولده عبد الملك . وطارد عسكلاجة الحسن ، ثم أحاطه بقواته ، وحاصره حتى أرهقه الحصار ، ولم ير بداً من طلب الأمان والتسليم ، على أن يسير إلى الأندلس كسابق عهده ، فأجيب إلى طلبه ، وأرسل على عجل إلى قرطبة تحقيقاً لرغبة المنصور . ولما علم المنصور بمقدم الحسن ، آثر أن ينقض الأمان الذى منحه ابن عمه ، وأن يقضى على حياة ذلك الخصم العنيد ، الذى تكرر خروجه على حكومة قرطبة ، فأنفذ إليه من قتله فى الطريق وأتاه برأسه ، وذلك فى جمادى الأولى سنة ٣٧٥ ﻫ (أواخر سنة ٩٨٥ م) وانهارت بذلك دعوة الأدارسة

(١) « نبذ تاريخية فى أخبار البربر » ص ١٩ .

بالمغرب الأقصى ، وتفرق أنصارهم ، وركدت ريحهم .

وعلى أثر ذلك ندب المنصور لحكم المغرب الوزير الحسن بن أحمد بن عبد الودود السلمي ، ومنحه السلطان المطلق ، وأمره أن يعمل على استمالة البربر في تلك الأقطار ، إذ يجب أن لا ننسى أن البربر كانوا للمنصور ظهيراً ، وعوناً على إخضاع القبائل العربية بالأندلس ، ومنهم اتخذ المنصور حاشيته وجنده ، وكثيراً من رجالات حكومته وجيشه . فسار الوزير إلى المغرب (٣٧٦ هـ) ونزل بفاس ، وضبط شئون البلاد ، واجتمعت إليه أمراء زناته ومغراوة ، واتخذ من زعيم مغراوة زيرى بن عطية عوناً وحليفاً ، لما أبداه من إخلاص للدعوة المروانية وتأييدها . واستدعى المنصور زيرى للوفود عليه ، فسار إلى قرطبة ، واحتفى المنصور بمقدمه ، وأسبغ عليه كثيراً من مظاهر العطف والتكريم ، وأوعز إليه بمقاتلة بنى يفرن أولياء الفاطميين ؛ فلما عاد زيرى إلى المغرب سار مع الوزير الحسن إلى قتال بنى يفرن وزعيمهم يدُّو بن يَعلى ، ولكنه هزم ، وجرح الوزير الحسن ، ثم توفى متأثراً بجراحه (سنة ٣٨١ هـ) . فلما علم المنصور بذلك عقد لزيرى على المغرب ، وندبه لحكمه ، وأمره بضبط الأمور ، والتعاون مع جيش الخلافة ، وأصحاب الحسن ، فاضطلع زيرى بمهام الحكم بمقدرة وكفاية ، وكان حازماً ، قوى النفس والعزم ، فقوى أمره وتوطد سلطانه ، ولكنه لبث مشغولا بأمر خصومه من بنى يفرن وغيرهم ، ولبثت الحرب سجالا بينهم مدى حين[1] .

وفى سنة ٣٨٢ هـ (٩٩٢ م) استدعى المنصور زيرى بن عطية ، للقدوم عليه للمرة الثانية ، فاستخلف زيرى على المغرب ولده المعز ، وسار إلى قرطبة ، وقدم إلى المنصور هدية عظيمة منها طيور نادرة ، وحيوانات غريبة ، وأسود ؛ فأكرم المنصور وفادته ، وأنزله بقصر المصحفى ، وغمره بالمال والصلات ، ومنحه لقب الوزارة ، وجدد له عهده على المغرب ، وعلى جميع ما غلب عليه ؛ ولكن زيرى لم يبتهج بلقب الوزارة ، بل بالعكس ساءه ذلك ، إذ كان يعتبر نفسه فى مرتبة الإمارة ، فعبر البحر إلى العدوة وفى نفسه مرارة وخيبة أمل . وما كاد يصل إلى طنجة حتى نمى إليه أن خصومه الألداء بنى يفرن وأميرهم يدُّو

---

(١) راجع فى حوادث المغرب الأقصى ، ابن خلدون ج ٧ ص ٢٨ – ٣٠ ، والاستقصاء ج ١ ص ٨٨ – ٩٢ ، و « نبذ تاريخية فى أخبار البربر » ص ١٧ – ٢١ .

ابن يعلى ، قد انتهزوا فرصة غيبته ، فزحفوا على فاس واستولوا عليها ، وقتلوا بها كثيراً من رجال مغراوة . فأسرع بالسير إلى فاس ، وهناك جمع قواته ، ونشبت بين مغراوة وبنى يفرن معارك عديدة متوالية ، قتل فيها كثير من الطائفتين وانتهت بهزيمة بنى يفرن ومقتل أميرهم يدّو ، وبعث زيرى برأسه إلى المنصور (٣٨٣ هـ) .

وأصبح زيرى بعد هزيمة بنى يفرن وركود أمرهم ، أعظم أمراء الغرب قوة وبأساً ، واستقر سلطانه فى سائر أنحاء المغرب ، واستمر فى الظاهر على ولائه للمنصور ، وللدعوة الأموية . ولكن نفسه كانت تجيش بمشاريع أخرى . ولما كانت فاس بموقعها فى الطرف الغربى للمغرب ، وعلى مقربة من مواطن القبائل الخصيمة ، أصبحت لا تصلح لمشاريعه ، فقد اعتزم أن ينشئ لنفسه قاعدة جديدة ، فأنشأ مدينة وجدة الواقعة جنوبى شرقى مليلة ، وعلى مقربة من جنوب غربى تلمسان ، وابتنى بها قصبة منيعة وقصراً ، وأحاطها بأسوار ضخمة ، ونقل إليها أمواله وذخائره ، وسكنها بأهله وحشمه ، واتخذها قاعدة الحكم (سنة ٣٨٦ هـ — ٩٩٦ م) لموقعها المتوسط بين المغربين الأوسط والأقصى (١) .

* * *

ولنقف الآن قليلا فى تتبع حوادث المغرب ، لنعود إلى تتبع حوادث الأندلس ؛ ذلك أن المنصور سار على سنته من المضى فى غزو الممالك النصرانية . وكانت الأحوال فى ليون ما تزال بعيدة عن الإستقرار ، نظراً لما كان يضطرم بين حامية ليون المسلمة ، وبين النصارى من الشغب المستمر . وكان برمودو ملك ليون ، بعد أن استتب له الأمر ، يرقب الفرص لإخراج المسلمين من مملكته ، فجد فى جمع قواته ، وانقض ذات يوم على المسلمين ، وطاردهم إلى خارج حدوده ؛ فاضطر المنصور أن يرد بغزو ليون ؛ فسار فى قواته نحو الشمال مخترقاً أراضى ليون ، ثم سار غرباً إلى مدينة قُلُمرية ، الواقعة فى شمال البرتغال على مقربة من المحيط ، واستولى عليها فى يونيه سنة ٩٨٧ م (٣٧٨ هـ) ، وأمعن فى تخريبها حتى لبثت قاعاً صفصفاً مدى سبعة أعوام . وفى خلال ذلك كان البشكنس أو النافاريون قد أغاروا بقيادة ملكهم سانشو على أراضى الثغر الشمالى ، فسار المنصور إلى

---

(١) الإستقصاء ج ١ ص ٩٢ .

قتالهم وطاردهم حتى مدينة بنبلونة عاصمة ناقار ؛ وهنا تقول الرواية النصرانية إن البشكنس انقلبوا إلى الهجوم ، وهزموا المسلمين ( أواخر ٩٨٧ م ) . ثم تزيد على ذلك أن جيشاً من الفرنسيين ، قد سار فى نفس الوقت إلى برشلونة ، تعاونه سفن من البحر ، فاستولى عليها ، ولم تلبث طويلا فى يد المسلمين . وقد رأينا فيما تقدم أن المسلمين حين غزوا برشلونة ، لم يقصدوا إلى الاحتفاظ بها ، بل اكتفوا بتخريبها وإحراقها .

على أن الرواية الإسلامية تحدثنا عن غزوة ناقار هذه ، دون أن تشير أية إشارة إلى هزيمة المسلمين ، وهى تسميها بغزاة البياض ، وتضع تاريخها فى سنة ٣٧٩ هـ ( ٩٨٩ م ) ، وتقول لنا إن المنصور عاد بجيشه إلى سرقسطة ، حيث التقى هنالك بولده عبد الملك أثر عوده من حروب المغرب (١).

وما كادت تمضى أشهر قلائل ، حتى عاد المنصور لاستئناف الغزو ؛ فخرج فى ربيع سنة ٣٧٨ هـ ( ٩٨٨ م ) فى جيش ضخم ، وعبر نهر دويرة ، واخترق أراضى ليون شمالا ، فرابط برمودو فى معظم قواته بمدينة سمورة ، اعتقاداً منه أن المنصور سيبدأ بمهاجمتها ، ولكن المنصور سار تواً إلى مدينة ليون ، فقاومته حيناً لمناعة قلاعها ، ولكنه اقتحم أسوارها ، بعد قتال رائع ، قتل فيه قائدها الكونت جونزالڤو كونثالث ، ودخلها المسلمون فخربوا صروحها ، وأبادوا سكانها ، وغادروها أطلالا دارسة . وسار المنصور بعد ذلك جنوباً إلى سمورة ، وأحرق فى طريقه عدداً من الأديار ومنها ديرى إسلونزا وسهاجون العظيمين ، وضرب الحصار حول المدينة ، فغادرها برمودو سراً ، واضطر السكان إلى تسليمها إلى المنصور ، فأمر بنهبها ، واضطر معظم نبلاء المملكة (الكونتات) إلى الاعتراف بطاعته ، ولم يبق بيد برمودو من مملكته ، سوى الرقعة الجبلية الشمالية الغربية من جليقية (٢) .

وفى العام التالى وقعت بالثغر الأعلى حوادث هامة . وكان الثغر الأعلى وقاعدته سرقسطة ، لوقوعه فى أقصى الشمال بعيداً عن قرطبة ، يغدو فى فرص

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٢ و ٣٠٣ .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٨١ . وكذلك **Crónica General ; ibid ; Vol. II. p. 446** و **Dozy : Hist. Vol. II. p. 244 & 245**

كثيرة مهداً للقلاقل والثورات المتعاقبة . وكان حكامه بنو هشام التجيبيون الذين غلبوا على بنى قسىّ ، وانتزعوا سرقسطة لأنفسهم ، منذ أيام الأمير عبد الله ، يتمتعون بنوع من الإستقلال المحلى ، ويحرصون على سلطانهم ، بالرغم من اعترافهم الإسمى بسلطان الحكومة المركزية . وكان حاكم الثغر الأعلى وهو يومئذ عبد الرحمن بن مطرّف التجيبى ، يرقب سياسة المنصور ، فى القضاء على سلطان الحكام المحليين ، بتوجس وحذر ، ويلتمس السبل لحماية سلطانه ، ولم يكن بعيداً عن التفكير فى التحالف مع جيرانه من النصارى ، فى نافار ، وقشتالة ، كما فعل أسلافه أيام الناصر ؛ ولكن تطور الحوادث جعله يتجه اتجاهاً آخر . ذلك أن عبد الله ابن المنصور بن أبى عامر ، كان ناقماً على أبيه لأنه يؤثر أخاه عبد الملك عليه ويصطفيه دونه ، ويوليه كل عطفه وثقته . وكان عبد الله يومئذ فتى فى الحادية والعشرين من عمره ، وكان يشعر أنه يتفوق فى الشجاعة والخلال على أخيه الأكبر ، ولكن المنصور كان يشك فى بنوة ولده عبد الله ، ويضن عليه بحبه وثقته ، ويخشى نياته ومشاريعه[1] . وكان عبد الله قد ذهب إلى سرقسطة ، ونزل عند صاحبها عبد الرحمن ، وهو متغير النفس على أبيه . فانتهز التجيبى الفرصة ، واستمال عبدالله إليه ، وأذكى حقده على أبيه ، واتتمر الإثنان على الوثوب بالمنصور فى أول فرصة والقضاء عليه ، على أن يقتسما ملك الأندلس ، فيستولى عبدالله على قرطبة وما والاها ، ويستولى عبد الرحمن على الثغر وأحوازه ، وانضم إليهما فى تلك المؤامرة بعض أكابر الجند ورجال الدولة ، من المعارضين للمنصور والناقمين عليه ، وفى مقدمتهم الوزير عبد الله بن عبد العزيز المروانى حاكم طليطلة المعروف بالربضى .

وترامت أخبار هذه المؤامرة الخطيرة إلى المنصور قبل نضجها ، فأعمل الحيلة فى استدعاء ولده عبد الله من سرقسطة ، وأبدى له كثيراً من الرفق والعطف ، وصرف الوزير المروانى عن حكم طليطلة صرفاً جميلا ، ثم أقاله بعد ذلك من الوزارة ، واعتقله بداره . ثم خرج بالصائفة غازياً إلى أراضى قشتالة ، واستدعى أمداد الثغور ، فتوافدت إلى لقائه ، وفيهم عبد الرحمن بن مطرف ورجاله . واجتمعت الحشود بقوات قرطبة فى مدينة وادى الحجارة . وهناك أجمع أهل

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٥ و ٣٠٦ .

الثغور بوحى المنصور ، على الشكوى من عبد الرحمن بدعوى احتباسه لأرزاقهم ، فقرر المنصور إقالته ، ولكنه رأى استمالة لبنى هاشم ، أن يعين مكانه فى حكم سرقسطة ، ولده يحيى الملقب «بسماحة» ( نهاية صفر ٣٧٩ هـ ) . ولم تمض على ذلك أيام قلائل ، حتى أمر المنصور بالقبض على عبد الرحمن ، ومحاسبته ، ثم أعدم بأمره فيما بعد إثر عوده إلى الزاهرة[١] .

واستدعى المنصور فى نفس الوقت ولده عبد الله إلى معسكره خشية مما قد يقع منه . ثم سار فى قواته شمالا إلى شنت إشتيبن ، وبينما هو مشغول بحصارها ، إذ فر ولده عبد الله فى نفر من غلمانه ، ولحق بغرسية فرنانديز كونت قشتالة ، فوعده بحمايته وتأييده . فطالب المنصور غرسية بتسليم ولده ، وأقسم ألا يكف عن قتاله ، حتى ينزل على رغبته ، فأبى غرسية ، واضطرم القتال بين الفريقين ، وسار المنصور شرقاً ، واستولى على أوسمة (وخشمة) ووضع بها حامية إسلامية ، ثم استولى على « القبة » بعد ذلك بقليل ، وتوالت الهزائم على غرسية ، حتى اضطر أخيراً إلى أن يتضرع إلى المنصور أن يكف عنه ، وتعهد بإجابته إلى سائر مطالبه ؛ فقبل المنصور ضراعته ، وبعث غرسية عبد الله ، فى جماعة من القشتاليين ، فاستقباله سعد الخادم ، مع جماعة من الفرسان ، وقبل يده ولاطفه ، ثم تركه مع بعضهم ، فأنزلوه عن بغله ، وأخطروه أن يتأهب للموت ، فترجل عبد الله ، وقدم نفسه للموت هادئاً ، ثبت الجنان رائع الشجاعة ، فضرب عنقه عند غروب الشمس من يوم الأربعاء ١٤ جمادى الآخرة سنة ٣٨٠ هـ ( ٩ سبتمبر ٩٩٠ م ) وأنفذ برأسه فى الحال إلى والده المنصور ، فبعث به المنصور مع كتاب الفتح إلى الخليفة ، ودفن شلوه فى مكان مصرعه ، وكان عمره يوم إعدامه ثلاثة وعشرين عاماً . وكانت غزوة المنصور التى وقعت خلالها تلك الحوادث هى غزوته الخامسة والأربعون[٢] .

وقد يبدو لنا المنصور ، بإقدامه على إزهاق ولده ، فى أشنع الصور وأروعها . ولكن يجب علينا أن نذكر الظروف التى اضطر فيها المنصور ، إلى اتخاذ تلك الخطوة المؤلمة ؛ فقد كان ائتمار عبد الله بأبيه ، وتحالفه أولا مع التجيبيين سادة الثغر ، وخصوم الحكومة المركزية منذ بعيد ، ثم التجاؤه بعد ذلك إلى أمير قشتالة

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٤ .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٤ و ٣٠٥ . وكذلك Dozy Hist.: Vol. II. p. 247 & 248

من أقطع الدلائل على مرض نفسه ، وخطورة مقصده ؛ ولو نجحت المؤامرة ، لقضى على سلطان المنصور ، وانهارت دعائم الدولة الإسلامية العظيمة ، التى نجح المنصور فى إقامتها وتوطيدها ، ولكان المنصور نفسه حسبما كان يعتقد ، من أول ضحاياها[1] ، فما كان عبدالله ليتردد عندئذ فى إزهاق أبيه ليفسح المجال لنفسه ؛ ولقد كان تصرف المنصور قبل كل شىء تصرفاً سياسياً صارماً ، خلواً من كل عاطفة ، إلا عاطفة الاحتفاظ بالنفس والسلطان ، وكان للمنصور فى تصرفه المثير أسوة فى كل عصر ، وفى كل قطر ، بل كانت له أسوة فى بنى أمية أنفسهم من أمراء وخلفاء ، فقد قام عبد الرحمن الداخل بإزهاق ابن أخيه وأبناء عمومته ، وأقدم الأمير عبدالله على إزهاق إخوته الثلاثة ، وإزهاق ولديه ، ثم جاء الناصر لدين الله ، فأقدم على إزهاق ولده وأبناء عمومته ، كل ذلك بتهمة التآمر ، وحرصاً على السلطان . وقد كان القتل ، ومازال على كر العصور ، سلاح الطغاة الأقوياء ، يجعلونه سياجاً لطغيانهم ودولتهم ؛ وهكذا جعل المنصور مقتل ولده سياجاً لطغيانه فاهتز له الناس ، وملئوا وحشة وروعاً[2] .

هذا وأما عبدالله بن عبد العزيز المروانى ، أحد أركان المؤامرة ، فقد استطاع الفرار فى الوقت المناسب ، والتجأ إلى حماية برمودو ملك ليون .

وكان من ذيول المؤامرة أن قرر المنصور أن يعاقب غرسية فرنانديز كونت قشتالة ، على ما ارتكبه فى حقه ، باغراء ولده عبد الله وحمايته ، فحرض ولده سانشو على الثورة عليه ، وأيده عدد كبير من الأشراف ، وانتهى سانشو بأن أعلن الحرب على أبيه ، وجاهر المنصور بتأييده ، ثم انتهز فرصة اضطرام هذه الحرب الأهلية ، وسار لمحاربة الكونت ، واستولى على شنت إشتين وكلونية . ثم ترك جزءاً من قواته لمتابعة الصائفة وعاد إلى قرطبة .

وهنا تقدم الرواية الإسلامية إلينا قصة حادث مدهش ، يعتبر من أغرب موافقات القدر ، وهو أن شاعر المنصور أبا العلاء صاعدا بن الحسن البغدادى ، أهدى إليه أيّلا فى عنقه حبل ، وسماه غرسية باسم كونت قشتاله ، وبعث به إلى القصر يوم السبت منتصف ربيع الثانى سنة ٣٨٥ هـ ، ومعه أبيات جاء فيها :

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٦ .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٥ .

يا حرز كل مخوف وأمان كل مشرد ومعز كل مذلل
عبد جذبت بضبعه ورفعت من مقداره أهدى إليك بأيل
سميته غرسية وبعثته فى حبله ليتاح فيه تفاؤلى

فكان من عجائب القدر ، أن تحققت نبوءة الشاعر . فى نفس اليوم الذى قدم فيه الأيل والقصيدة إلى المنصور ، تمت الهزيمة على الكونت غرسية فرنانديز ، وجرح وأسر على ضفاف نهر دويرة ، على مقربة من بلدة «القصر» ، وذلك فى يوم ٢٥ مايو سنة ٩٩٥ (منتصف ربيع الثانى ٣٨٥ هـ) . ثم توفى الكونت بعد أيام قلائل متأثراً بجراحه ، وتم الأمر لولده سانشو ، ولكنه اضطر أن يؤدى الجزية للمسلمين[١].

وفى خريف هذا العام سار المنصور إلى غزو ليون ومعاقبة ملكها برمودو على حمايته لعبد الله بن عبد العزيز المروانى . وكانت الأحوال قد ساءت فى ليون ، واستولى الأشراف الإقطاعيون على سائر أراضيها وضياعها ، ولم يبق لملكها سوى الاسم ، واضطر برمودو أن يغادر مدينة ليون عاصمة ملكه ، وأن يتخذ أسترقة عاصمة مكانها . فلما أرهقه المنصور بالحرب غادر أسترقه ، والتمس الصلح من المنصور ، وسلمه المتآمر عبد الله ، وتعهد بدفع الجزية ، فأجابه المنصور إلى ما طلب . واستولى فيما بعد على مدينة سمورة ، وأسكن بها المسلمين ، وولى عليها عاملا من قبله هو أبو الأحوص معن بن عبد العزيز التجيبى . وهكذا عادت قشتالة وليون إلى دفع الجزية لحكومة قرطبة[٢] . وأما عبد الله المروانى ، فقد ألقى به المنصور إلى السجن مصفداً ، وتركه يرزح فى أصفاده ، بالرغم مما رفعه إليه من القصائد المؤثرة فى طلب العفو والمغفرة[٣] .

* * *

وقد تقدم أن ابن أبى عامر اتخذ سمة الملك منذ سنة ٣٧١ هـ ( ٩٨١ م ) ، وتسمى بالحاجب المنصور ، وأمر بالدعاء له على المنابر ، وكانت هذه أول خطوة فى اتخاذه ألقاب الملك بصفة رسمية ، بعد أن استأثر بكل سلطة فعلية .

---

( ١ ) الذخيرة المجلد الرابع القسم الأول ص ٢٢ و ٢٣ ، وأعمال الأعلام ص ٦٨ و ٦٩ ، والمعجب لعبد الواحد ( القاهرة ١٩١٤ ) ص ٢٠ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٨١ .

( ٢ ) ابن خلدون ج ٤ ص ١٨١ . وراجع **Dozy : Hist. Vol. II. p. 249**

( ٣ ) راجع الحلة السيراء ص ١١٣ و ١١٤ .

وفى سنة ٣٨١ هـ (٩٩١ م) أى بعد ذلك بعشرة أعوام ، اتخذ المنصور خطوة أخرى فى سبيل تدعيم صفته الملوكية . فرشح ولده عبد الملك للولاية من بعده ، وهو فتى لم يجاوز الثامنة عشرة ، ونزل له عن خطة الحجابة والقيادة العليا ، وسائر الخطط الأخرى التى كان يتقلدها ، واقتصر على التسمى بالمنصور ، وأن تنفذ الكتب عنه « باسم المنصور أبى عامر وفقه الله » كما قلد ولده عبد الرحمن خطة الوزارة .

ثم كانت الخطوة الثالثة بعد ذلك بخمسة أعوام ، حينما أصدر المنصور فى سنة ٣٨٦ هـ ( ٩٩٦ م ) أمره ، بأن يخص بألقاب السيادة من بين سائر الناس فى المخاطبات ، وأن يرفع ذلك عن سائر أهل الدولة ، ونفذت الكتب بذلك ، وخوطب المنصور من ذلك الوقت « بالملك الكريم » ، وبولغ فى تكريمه وتعظيمه فى سائر المخاطبات ، واستمر ذلك بقية حياته[١] .

ولم يك ثمة شك فيما يرمى إليه ابن أبى عامر ، من وراء هذه الخطوات المتعاقبة فى سبيل الاتشاح بألقاب الملك والسيادة . فهو قد حقق من الناحية العملية أمنيته الجوهرية ، بالاستيلاء على الدولة والاستئثار بكل سلطة فعلية . ولكنه كان يرمى إلى أبعد من ذلك . فهو قد أصبح أعظم وأقوى رجل فى الدولة ، وقد جمع بين يديه سائر السلطات السياسية والعسكرية . وكان الجيش وهو عماد السلطان والدولة ، يتكون معظمه من البربر والنصارى المرتزقة ، ويدين للمنصور بمنتهى الولاء والإخلاص ، وهو الذى عنى بإنشائه وتنظيمه ، وقاده إلى ميادين النصر عشرين عاماً . وإذاً فقد كان يبدو من هذه الظروف كلها ، أنه لم يك ثمة ما يحول دون أن يحقق المنصور غايته الأخيرة ، فيتوج حكمه بالصفة الشرعية ، وينتزع لنفسه ما بقى من رسوم الملك والخلافة ، ويؤسس بذلك لنفسه ولعقبه دولة جديدة ، تحل مكان الدولة الأموية المحتضرة .

وهنالك ما يدل على أن المنصور ، كان يعتزم بالفعل أن يتخذ سمة الخلافة ؛ وهذا ما يقرره الفيلسوف ابن حزم ، ويروى تفاصيله نقلا عن أبيه الوزير ابن حزم وزير المنصور . وملخص روايته أن المنصور جمع للمشورة فى ذلك الأمر قوماً من خواصه منهم ابن حزم ، وابن عياش ، وابن فطيس من الوزراء ، وبعض الفقهاء ؛ وقد صوّب رأيه ابن عياش وابن فطيس ، ولكن ابن حزم

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣١٥ و ٣١٦ .

عارض فيه ، وأعرب عن خوفه من أن يحرك ذلك ساكن الأحوال ، وأن المنصور ليس فى حاجة إلى مثله ، وبيده سائر الأمور ؛ وتردد رأى الفقهاء بين الاعتراض والموافقة[١] .

على أنه يبدو من جهة أخرى ، من تريث المنصور وتمهله فى اتخاذ الخطوات المذكورة ، أنه كان يخشى نتائج العنف والتسرع . فما الذى كان يخشاه المنصور إذاً ، وقد اجتمعت فى يده كل السلطات ، وأضحى يسيطر على سائر القوى ؟ لقد كان نهوض المنصور وتقدمه فى سبيل السلطان ، مقترناً بظروف لا تساعد على اكتساب محبة الشعب وتأييده الخالص . فقد وقع عن طريق اتصاله بصبح ، بالمرأة التى كانت تسيطر على الدولة ، والتى كانت علائقه بها تثير كثيراً من الهمس والتعليق اللاذع ، وقد وقع على حساب الخليفة الطفل هشام المؤيد ، الذى استلب ابن أبى عامر سلطانه وحقوقه تباعاً ، ثم حجر عليه بطريقة قاسية تشبه الموت المدنى ، وقطع علائقه مع العالم ، ولم يكن يسمح له بمقابلة أحد ، أو بالخروج من القصر ؛ وفى الفرص النادرة التى كان يسمح بخروجه فيها ، كان يسير فى موكبه وعليه برنس يخفى شخصه ، ومن حوله صفوف كثيفة من الجند ، فلا يستطيع أحد أن يراه أو يقترب منه[٢] . وكان الشعب القرطبى يشهد أطوار هذه المأساة المؤلمة واجماً ناقماً ، ويعتبر الخليفة الشرعى ضحية وشهيداً ، يستحق كل عطفه ورثائه . ولم يكف كل ما حققه المنصور من مظاهر السلطان والمجد ، وما أحرزه من الظفر المتوالى ، وما أسبغه حكمه على الأندلس من أسباب السكينة والعزة والأمن والرخاء ، لم يكف ذلك كله لحمل الشعب على نسيان قضية خليفته الشرعى. أضف إلى ذلك كله ، تلك الوسائل الدموية المثيرة ، التى لجأ إليها ابن أبى عامر للتخلص من خصومه ومنافسيه ، فقد كانت تباعد بينه وبين الشعب ؛ ولم يكن الشعب ، إزاء هذه الظروف والعوامل كلها ، ليمنح ابن أبى عامر حبه وولاءه ، وإن كان من جهة أخرى يخشاه ويرهبه ، بل ويعجب بحزمه وعزمه وعبقريته فى تسيير الأمور ، وفى تأمين البلاد ، وإذلال العدو .

ومن ثم كان تريث ابن أبى عامر وتحوطه . فإنه لم يكن واثقاً من إغضاء

---

(١) راجع نقط العروس لابن حزم ص ٧٧ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٤١ ، ونفح الطيب ج ١ ص ٢٧٦ .

الشعب ، عن انقلاب حاسم يقضى به على آخر مظاهر الخلافة الشرعية ، وينتزع به تراث بنى أمية . ومن جهة أخرى ، فقد كانت هناك صبح أم الخليفة المعتقل ، المحروم من كل حقوقه وسلطانه ؛ وكانت صبح قد غدت بمضى الزمن ألد خصوم ابن أبى عامر وأخطرهم . وقد رأينا كيف بدأت تعمل لمقاومته ، مذ شعرت بخطورة مشاريعه ، على مركز ولدها ، وتحاول أن تجمع من حولها كلمة الناقمين والمعارضين لابن أبى عامر ، باسم حماية الخليفة الشرعى ، وإنقاذه من نير المتغلب ، وكيف وقعت أول محاولة حقيقية لمقاومة ابن أبى عامر ، فى انقلاب صهره القائد غالب عليه ومحاربته إياه ، ولم تبذل من ذلك الحين أية محاولة أخرى فى هذا السبيل . هذا وسلطان المنصور على كر الأعوام يتوطد ، ومركز هشام المؤيد يزداد سوءاً وانحلالا ، وتغيض ذكريات الخلافة ورسومها شيئاً فشيئاً .

فلما عمد المنصور أخيراً إلى اتخاذ ألقاب السيادة والملك ، شعرت صبح بأن الضربة القاضية أضحت على وشك الوقوع ، واعتزمت ان تضاعف العمل فى سبيل حماية ولدها ، وتحريره من قبضة المتغلب . فكررت ضد المنصور دعايتها القديمة ، واتهمته على يد دعاتها وأعوانها ، باغتصاب سلطان الخلافة ، ومقاومة رغبة الخليفة فى تولى الحكم بنفسه ؛ وخطر لها فى نفس الوقت أن تتصل بزيرى ابن عطية حاكم المغرب ، وأن تدفعه إلى مناوأة المنصور ، فبعثت إليه رسلها ، وأنفذت إليه الأموال سراً ، ليحشد الجند ويتأهب للعبور إلى الأندلس . وكان زيرى من أولياء بنى أمية ومن أشد المخلصين لقضيتهم ، وكان ينقم على المنصور سياسته فى الحجر على هشام ؛ وفوق ذلك فقد كان غاضباً على المنصور ، لما أساء به فى حقه حين زيارته إلى قرطبه ؛ وإذاً فقد لبى زيرى دعوة صبح ، وأخذ يشهر بالمنصور وسياسته ، وحجره على الخليفة ، ويدعو إلى مقاومته ، ورد الأمر إلى الخليفة الشرعى[1] .

وكان المنصور يقظاً ، فلم يفته شىء من خطط صبح وأعوانها . وكان أول همه أن يرفع يدها عن الأموال ، التى أخذت تفتن فى تهريبها بواسطة فتيان القصر ، وكان المنصور مريضاً ، فبعث ولده عبد الملك فى قوة من الجيش إلى قصر الخلافة بقرطبة ، ومعه جمهرة من الفقهاء والوزراء ، ثم دخل بهم إلى مجلس الخليفة ،

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٢ ، و « نبذ تاريخية فى أخبار البربر » ص ٢٧ .

وخاطبه فى الأمر ، فأنكر هشام ذلك ، وتبرأ من خصومة المنصور ، ووافق على نقل المال ، فنقل فوراً إلى الزاهرة ، ولم يبق منه فى خزائن القصر شىء ، ولم تجد توسلات صبح ، ولا وعيدها ، وتطاولها على عبد الملك شيئاً ، ويقال إن ما حمله المنصور يومئذ من المال بلغ عدة ملايين[1] .

ولما أبل المنصور من مرضه بعد ذلك بقليل ، سار إلى قصر قرطبة مع ابنه عبد الملك وسائر عظماء الدولة ، وانفرد بالخليفة فى مجلسه ، فاعترف له هشام بالفضل ، وحمد اضطلاعه بشئون الدولة ، وأقره على سياسته . ثم عمد المنصور إلى اتخاذ خطوة جريئة أخرى ، فأخرج هشاماً من القصر ، وأركبه فى زى الخلافة فى موكب عظيم ، وركب إلى جانبه ، وأمامه ولده عبد الملك ، وسار الجيش أمام الموكب ومن خلفه ، وتبع الموكب جموع عظيمة من طوائف الجند والفتيان الصقالبة . وشق هذا الموكب الخليفى شوارع قرطبة ، بين جموع حاشدة مستبشرة من الشعب ، وكان يوماً عظيماً مشهوداً ، وكان آية الظفر للمنصور وسياسته[2] .

وهكذا فشلت صبح فى محاولتها ، ولم يسفر ذلك الصراع المتأخر إلا عن توطيد سلطان المنصور ، وسحق البقية الباقية من خصومه ومعارضيه . ولم تك صبح فى الواقع أهلا لمقاومة ذلك الرجل القوى ، خصوصاً بعد أن مكن له فى كل شىء ، ولم يبق للخليفة الأموى من السلطان سوى الاسم . ولما أيقنت صبح أن المقاومة عبث ، وأنه لا منقذ لولدها من ذلك النير الحديدى ، لجأت إلى السكينة والعزلة ، فلا نسمع عنها بعد ذلك فى سير الحوادث ، ولا نعرف تاريخ وفاتها بالتحقيق ، ولا نعرف إن كانت وفاتها قبل وفاة المنصور أو بعدها ؛ وكل ما تقوله الرواية الإسلامية فى ذلك ، هو أن وفاتها كانت أيام ولدها هشام . والظاهر أنها توفيت بعد ذلك بقليل قبل وفاة المنصور ، حوالى سنة ٣٩٠ هـ ( ١٠٠٠ م ) ، لأننا لا نعثر باسمها بعد ذلك فى حوادث الأندلس . وقد نظم شاعر العصر أبو عمر محمد ابن دراج القسطلى ، قصيدة مؤثرة يرثى فيها صبحاً « أم هشام المؤيد بالله » ، ومما جاء فيها :

---

( ١ ) الذخيرة ( عن ابن حيان ) المجلد الرابع القسم الأول ص ٥٢ — ٥٤ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٩٥ .

( ٢ ) الذخيرة المجلد الرابع القسم الأول ص ٥٤ .

هل الملك يملك ريب المنو ... ن أم العز يصرف صرف القضاء
ألم تر كيف استباحت يدا ... ه حريم الملوك وعلق النساء
هو الرزء أودى بعزم الماو ... ك مصاباً وأودى بحسن العزاء
لبيض أياديك فى الصالحا ... ت تمساك وجه الضحى بالضياء
فتلك مآثرها فى التقى ... وبذل اللهى ما بها من خفاء
جزاك بأعمالك الزاكيا ... ت خيرُ المجازين خيرَ الجزاء
ولقيت من ضنك ذاك الضريح ... نسيم النعيم وطيب الثواء[1]

هذا وأما عن موقف زيرى بن عطية ، وتطاوله على المنصور ، فقد رد المنصور بأن قطع عنه رزق الوزارة ، ومحا اسمه من ديوانه ، واعتبره خارجاً عاصياً ؛ ورد زيرى على ذلك بأن قطع ذكر المنصور من الخطبة ، وطرد عماله بالمغرب ، وأعلن الخروج والثورة . فجهز المنصور لقتاله جيشاً عظيماً بإمرة مولاه الفتى واضح ، وأمده بالأموال والذخائر ؛ وعبر واضح البحر فى قواته إلى طنجة ، وهناك انضمت إليه جموع غفيرة من بربر غمارة وصنهاجة ، وحالفته على قتال زيرى . وخرج زيرى فى قواته والتقى الجمعان بوادى زارات جنوبى طنجة ، ونشبت بينهما معارك شديدة متصلة مدى ثلاثة أشهر ، ثم انتهت بهزيمة واضح وتمزيق جيشه ، ففر فى فله إلى طنجة ، وكتب إلى المنصور يستصرخ به.

فخرج المنصور من قرطبة إلى الجزيرة الخضراء ، وتوافدت إليه الجيوش ، ثم أجاز ابنه عبد الملك بمعظم قوات الأندلس وقوادها ، وأمره بالتشدد فى محاربة زيرى والقضاء عليه ؛ فعبر عبد الملك البحر فى قواته إلى سبتة ، واتصل خبره بزيرى فتأهب للقائه ، وبعث إلى جميع بطون زناتة يستصرخهم لنصرته ، فهرعت إليه الوفود والقوات من سائر النواحى ، وسار لقتال عبد الملك فى جموع عظيمة . وزحف عبد الملك من طنجة ، ومعه الفتى واضح فى قوات لا تحصى ، والتقى الفريقان بوادى منى من أحواز طنجة ، ونشبت بينهما معارك هائلة هزم البربر فى نهايتها شر هزيمة ، وقتل منهم عدد ضخم ، وجرح زيرى واستولى عبد الملك على معسكره ، ثم طارده حتى مكناسة ، ففر إلى الصحراء مع نفر من أصحابه ؛

---

(١) وردت هذه القصيدة بأكملها فى ديوان ابن دراج المنشور بعناية الدكتور محمود على مكى (ص ١١٩ — ١٢٣ ) ووردت كذلك فى يتيمة الدهر ( القاهرة ١٩٤٧ ) ج ٢ ص ١٠٩ و ١١٠ .

وقد أشاد شاعر العصر ابن دراج القسطلي بعبقرية المنصور وأهباته العسكرية ضد زيرى بن عطية فى قصيدة طويلة هذا مطلعها :

لك الله بالنصر العزيز كفيـــل أجـــد مقام أم أجـــد رحيل
هو الفتح أما يومـــه فمعجـــل إليك وأما صـــنعه فجـــزيل
وآيات نصر ما تزال ولم تزل بهن عمايات الضـــلال تزول
سيوف تثير الحق أنى انتضيتها وخيل يجول النصر حيث تجول

ومنهـــا :

لئن صديت الباب قوم ببغيهـــم فسيف الهدى فى راحتيك صقيل
فإن يحيي فيهم بغى جالوت جدهم فأحجار داود لديك مثـــول
هدًى وتقى يؤدى الظلام لديهما وحق بدفع المبطلين كفيـــل
يجمع له منه قائد النصر عاجل إليه ومن حسن اليقين دليـــل
تحمل منه البحر بحـــراً من القنا يروع بهـــا أمواجه ويهـــول
بكل معـــالاة الشراع كأنها وقد حملت أسد الحقائق غيل[١]

ودخل عبد الملك مدينة فاس ظافراً ، فى نهاية شوال سنة ٣٨٧ ﻫ ( نوفمبر ٩٩٧ م ) وكتب إلى أبيه المنصور بالفتح ، فكتب إليه بعهده على المغرب ، وعاد واضح بالجيش إلى قرطبة . ولبث عبدالملك والياً للمغرب ستة أشهر فقط ، نظم خلالها شئونه ، ووطد أمره ، ثم عاد إلى الأندلس ، وخلفه على المغرب عيسى ابن سعيد صاحب الشرطة ، فلبث فى ولايته حتى وائل سنة ٣٨٩ ﻫ . ثم أقيل وخلفه الفتى واضح .

وفى تلك الأثناء كان زيرى بن عطية قد جمع فلوله من قوات زناتة ، ووافته جموع كثيرة من مغراوة ، وكانت صنهاجة قد اختلفت على أمرها ، فانتهز زيرى هذه الفرصة وزحف شرقاً على بلاد صنهاجة ، وأوغل فيها ، واستولى على تاهرت وتلمسان وبعض بلاد الزاب ، وأقام بها الدعوة لهشام المؤيد وللمنصور ، ثم كتب إلى المنصور يتقرب إليه ويسترضيه ، ويؤكد حسن طاعته من جديد ، فعفا عنه المنصور ، وأعاده لولاية المغرب ، بيد أنه لم يعش طويلا فتوفى فى سنة ٣٩١ ﻫ ( ١٠٠١ م ) ، متأثراً بجراحه التى أصابته فى موقعة وادى منى . وخلفه فى

( ١ ) وردت هذه القصيدة فى ديوان ابن دراج المشار إليه ( ص ٣ — ٩ ) .

الولاية ولده المعز : فأقره المنصور ، ولبث المعز والياً للمنصور ، مقيما على دعوة بنى أمية ، يعمل على توطيدها بالمغرب ، إلى أن اضطرب حبل الخلافة بالأندلس[(١)].

* * *

وبينما كان عبد الملك المنصور بالمغرب يتم إخضاع زيرى وشيعته ، كان المنصور يتخذ الأهبة لأعظم غزاته . وكانت منطقة جليقية فى قاصية اسبانيا الغربية ، تعتبر لنأيها ووعورتها ، أمنع مناطق اسبانيا النصرانية ، وأبعدها عن متناول الفاتحين . ولم يفكر أحد من الغزاة المسلمين ، منذ أيام طارق أن يقصد إلى تلك المنطقة الجبلية الوعرة ، لما يعترض الوصول إليها من الصعاب الهائلة . ولكن المنصور اعتزم أن يسير إلى جليقية لسببين : الأول أنها كانت ملاذاً وملجأ لملوك ليون ، يمتنعون به كلما أرهقتهم الغزوات الإسلامية ، والثانى أنها كانت مستقراً لمدينة شنتياقب (أو شنت ياقب) الدينية ، كعبة إسبانيا النصرانية ومزارها المقدس ، ورمز زعامتها الروحية . وقد سبق أن عرضنا إلى نشأة هذه المدينة المقدسة ، وإلى أسطورة القديس ياقب ( أو يعقوب الحوارى) التى اتخذت أساساً لإنشائها ، وكيف زعمت الأسطورة أن قبر القديس يعقوب ، قد اكتشف بمعجزة وقعت فى هذه المنطقة ، فأنشئت فوقه كنيسة ، وأنشئت حول الكنيسة مدينة مقدسة ، سميت باسم القديس ، وغدت عاصمة اسبانيا الدينية ، ومزاراً شهيراً يقصده النصارى من سائر الأنحاء[(٢)]. وقد شاء المنصور أن يضرب اسبانيا النصرانية فى صميم معقلها القاصى ، وفى صميم زعامتها الروحية ، بغزو جليقية ، واقتحام مدينتها المقدسة . فخرج من قرطبة فى الثالث والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٣٨٧ هـ ( ٣ يوليه ٩٩٧ م ) على رأس قوى الفرسان ، وفى الوقت نفسه تحرك الأسطول الأندلسى ، الذى أعده المنصور لهذه الغزوة الكبرى ، من مرساه أمام قصر أبى دانس Alcacer do Sal فى مياه البرتغال الغربية ، شمالا بحذاء الشاطىء البرتغالى ، يحمل المشاة والأقوات والذخيرة ؛ واخترق المنصور اسبانيا الغربية شمالا ، وهو يعبر الجبال والأنهار العظيمة تباعاً ، حتى وصل إلى مدينة

---

(١) راجع حوادث المغرب فى البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٢ ، وابن خلدون ج ٧ ص ٣٣ ، والإستقصاء ج ١ ص ٩٣ و ٩٤ ، و « نبذ تاريخية فى أخبار البربر » ص ٣٠ – ٣٥ .

(٢) راجع تفاصيل ذلك فى القسم الأول من العصر الأول من « دولة الإسلام فى الأندلس » ص ٢٢٠ و ٢٢١ .

قورية ؛ ثم زحف نحو الشمال الغربى ، واستولى فى طريقه على مدينتى بازو وقلمرية[1]. وهنا وفد على المنصور ، عدد كبير من القوامس ( الكونتات ) النصارى المعترفين بطاعته ، وهم الواقعة أملاكهم فى أراضى البرتغال ما بين نهرى دويرة ومنيو ، وانضموا مع قواتهم إلى جيشه . ثم سار المنصور شمالا حتى وصل إلى نهر دويرة ، وهنالك وافاه الأسطول ، مخترقاً النهر من مصبه عند ثغر بورتو ، فجعل منه جسراً مريحاً لعبور جيشه وعدده وأقواته ، واتجه الجيش الإسلامى بعد ذلك صوب جلّيقية ، وهو يقتحم السهل والوعر فى شعب الجبال ، ثم عبر نهر منيو ( منهو ) ، وسار بحذاء شاطىء المحيط ، واستولى فى طريقه على بعض الحصون ، وخرب عدداً من الأديرة التاريخية فى تلك المنطقة . وكانت جموع كبيرة من النصارى ، قد فرت إلى الجزائر المقابلة للشاطىء ، فعبر المسلمون إليهم من بعض الخائض وأسروا معظمهم ، واخترقوا مفاوز الجبال المجاورة للمحيط ، واستخرجوا من لجأ إليها من النصارى ، واستصفوا غنائمها ؛ ثم اقتحموا الجبال إلى السهل ، وخربوا بلدة إيليا ( إيريا ) ونهبوها ، وهى أيضاً من المزارات الدينية الشهيرة . وأشرف المسلمون على مدينة شنت ياقب فى يوم الأربعاء الثانى من شعبان ( ١١ اغسطس ) ، فوجدوها خالية من أهلها ، وكانوا قد غادروها حين اقتراب الغزاة ، فدخلها المسلمون ، وهدموا أسوارها وصروحها التاريخية ، وكنيستها العظمى ، واستولوا على سائر ما فيها من الذخائر والتحف ، وأمر المنصور بصون قبر القديس ياقب القائم وسط الكنيسة العظمى ، والمحافظة عليه . ولم يجد المنصور بالكنيسة إلا شيخاً من الرهبان يجلس على القبر فسأله عن مقامه ، فقال أؤانس يعقوب ، فتركه وأمر بالكف عنه . وأخذ المسلمون أبواب المدينة ، ونواقيس الكنيسة العظمى ، وحملها الأسرى النصارى على كواهلهم حتى قرطبة ، فوضعت الأبواب فيما بعد ، فى سقف الزيادة التى أنشأها المنصور بالمسجد الجامع ، وعلقت به النواقيس رؤوساً للثريات الكبرى[2].

وسار المنصور بعد ذلك مخترقاً أراضى برمودو التى امتنع بها وعاش فيها.

---

( ١ ) هما بالإفرنجية على التوالى **Viseu** و **Coimbra**

( ٢ ) تتبعنا حوادث هذه الغزوة حسبما أوردها ابن عذارى فى البيان المغرب ج ٢ ص ٣١٦ — ٣١٩ . وراجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٨١ ، وأعمال الأعلام ص ٦٧ و ٦٨ ، ونفح الطيب ج ١ ص ١٩٣ — ١٩٥ . وكذلك **Crónica Ceneral ; ibid; Vol. II. p. 448 & 449**

ولم يستطع أحد أن يقف فى سبيله ، ووصل إلى شاطىء المحيط على مقربة من بلدة كرونية ( قرجيطة ) . ثم انحدر جنوباً حتى وصل إلى أراضى الزعماء النصارى ( القوامس ) الموالين له ، والذين صحبوه فى غزوته ، فأمر بالكف عنها ، وتابع سيره حتى وصل إلى مدينة لاميجو فى شمال البرتغال الحديثة ( وتسميها الرواية الإسلامية لميقة ) ، وهنالك وزع الهدايا والكسى الفاخرة على الزعماء النصارى ، وصرفهم إلى بلادهم ، وكتب بالفتح إلى دار الخلافة ، ثم عبر نهر دويرة على النحو الذى تقدم وصفه ، وقفل راجعاً إلى قرطبة ، وفى ركبه عدد كبير من الأسرى ، ومقادير عظيمة من الغنائم . وكانت غزوة عظيمة ، استبشر بها المسلمون ، وقرت نفوسهم ، واهتزت لها اسبانيا النصرانية من أقصاها إلى أقصاها ، ولبث أثرها العميق أعواماً بعيدة ، وكانت غزوة المنصور الثامنة والأربعون .

ونظم ابن دارج القسطلى فى تهنئة المنصور بغزوة « شنتياقُه » ( شنت ياقب ) قصيدة طويلة هذا مطلعها :

| | |
|---|---|
| اليوم أنكص إبليسٌ على عقبه | مُبرّءاً سبَبُ الغاوين من سببه |
| واستيقنت شيع الكفار حيث نأت | فى الشرق والغرب أن الشرك من كذبه |
| بشنتياقة لما أن دلفتَ له | بالبيض كالبدر يسرى فى سنا شهبه |
| وجلة الدين والإسلام عاطفة | عليك كالفَلَك الجارى على قُطُبه(١) |

وعلى أثر غزوة شنت ياقب اضطر برمودو ملك ليون ، بعد الذى أصاب بلاده من الهزائم والمحن ، أن يسعى إلى طلب الصلح ، فبعث ولده بلايو صحبة معن بن عبد العزيز حاكم سمّورة المسلم ، إلى قرطبة طالباً عقد الصلح ، فأجابه المنصور إلى ما طلب ، وانصرف راجعاً إلى أبيه(٢) . ولم يعش برمودو طويلا بعد ذلك ، فتوفى سنة ٩٩٩ م : وخلفه فى الملك ولده الطفل ألفونسو الخامس ، تحت وصاية أحد الأشراف ، ولزم مكانه فى قاصية جلّيقية .

وقام المنصور بعد ذلك بعدة غزوات أخرى فى أراضى النصارى ، بيد أننا لا نظفر فى شأنها بتفاصيل دقيقة واضحة . والظاهر من إشارة أوردها صاحب

---

(١) وردت هذه القصيدة فى ديوان ابن دراج المتقدم ذكره ( ص ٤٤٠ – ٤٤٣ ) . ويلاحظ أنه قد ورد بها اسم « شنت ياقب » ، « شنتياقة » وهو أقرب إلى رسمه الإسبانى **Santiago**

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٨١ .

البيان المغرب ، أن المنصور قام بغزوة إلى نافار فى سنة ٣٨٩ هـ (٩٩٩ م)[١] .
وفى العام التالى أعنى فى سنة ٣٩٠ هـ ( ١٠٠٠ م ) سار المنصور إلى أراضى قشتالة فى جيش ضخم : وذلك أن الملوك والأمراء والنصارى « من حيز بنبلونة إلى أسترقة » ، اتفقوا جميعاً بزعامة سانشو غرسية كونت قشتالة ، على مقاومة المنصور والتفانى فى قتاله ، وحشد سائر أمراء البشكنس وقشتالة وليون قواتهم ، وجمع سانشو غرسية سائر قواته فى وسط قشتالة ، فى وادى دوبرة الأدنى خلف الحاجز الجبلى الوعر المسمى « صخرة جربيرة » Peña Cervera ، وتعاهد الملوك والأمراء النصارى على الثبات وعدم الفرار . ورأى المنصور كعادته أن يبادر أعداءه بالقتال ، فسار فى قواته توا إلى مدينة سالم ، ونفذ شمالا إلى أراضى قشتالة حيث رابط أعداؤه ، فلما أشرف على صخرة جربيرة ، هاله ما رأى من وعورتها ، وحصانة المراكز التى يحتلها العدو ، ووفرة جموعه وعدده . ورأى سانشو أن يعجل بمهاجمة المسلمين ، قبل أن يوطدوا مراكزهم ، فاندفع النصارى فى هجوم عنيف خاطف على المسلمين ، فاضطربت ميمنة المسلمين وميسرتهم ، ودب الخلل إليهم ، وعمد إلى الفرار كثير منهم ، وكادت تدور عليهم الدائرة . ولكن القلب ، وكان يقوده ابنا المنصور عبد الملك وعبد الرحمن ، ويتألف معظمه من فرق البربر القوية الباسلة ، صمد أمام الموجة الهائلة ، وهرع المنصور إلى رابية مشرفة على الموقعة ، ومن ورائه خاصته وحاشيته ، وهو يحث رجاله وقادته على الثبات ، فلم يمض سوى قليل حتى انقلبت الآية ، وارتد العدو فى غير نظام ، وتمكن أحد الزعماء البربر من قتل أحد كونتات بنى غومس[٢] وجاء برأسه ؛ فضاعف المسلمون جهودهم ، وشددوا الوطأة على النصارى ، وأمعنوا فيهم قتلا وأسراً ، وطاردوهم إلى عدة مراحل حتى مزقوهم شر ممزق . وكانت هذه الوقيعة فى اليوم الرابع والعشرين من شهر شعبان سنة ٣٩٠ هـ ( ٣٠ يوليه سنة ١٠٠٠ م ) . وخسر المسلمون فى الموقعة أكثر من سبعمائة قتيل .

وتابع المنصور زحفه فى أراضى قشتالة ، وهو يدمر كل شىء فى طريقه ،

---

( ١ ) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٢١ .

( ٢ ) بنى غومس يسمون كذلك فى الرواية العربية ، وهم أبناء غومس ديات Gomez Diaz أحد زعماء ليون . وقد تزوج ابنة كونت قشتالة فرنان كونثالث ، وأصبحوا خلفاء له ، وكانت أملاكهم فى سالدانيا وكريون وسمورة .

حتى اقتحم عاصمتها « برغش » وذلك فى يوم عيد الفطر ( ٤ سبتمبر ) ، ثم واصل سيره إلى سرقسطة ، وقام من هنالك بغزوة فى أراضى ناڤار ، حتى أشرف على عاصمتها بنبلونة . وكل ذلك دون أن يجرأ أحد من النصارى على الوقوف فى سبيله. ثم عاد إلى قرطبة وقد أنفق فى هذه الغزوات مائة يوم وتسعة أيام . ووجه على أثر عوده إلى قواده ، كتاباً ليقرأوه فى الجيش . وفيه ينحى المنصور باللائمة على جنده، لما بدا منهم من التخاذل والنكوص، ويذكرهم بأنه لولا شجاعة فئة قليلة ، منهم ، عاونت بثباتها على إحرار النصر ومحو العار ، لانتهى بإقالتهم جميعاً[1] .

وكان لهذه الغزوة، وما لابسها من الظروف الدقيقة ، أعظم وقع فى الأندلس . وكان لنصر جربيرة مغزى أعمق من أى نصر أحرزه المنصور . وفيه يقول صاعد شاعر المنصور مهنئاً ، من قصيدة تعتبر من غرر قصائده :

جددت شكرى للهوى المتجدد ... وعهدت عندك منه ما لم يعهد
اليوم عاش الدين وابتـدأ الهدى ... غضاً وعاد الملك عذب المورد
ووقفت فى ثانى حنين وقفـة ... فرأيت صنع الله يؤخذ باليـد
من فاته بدر وأدرك عمـره ... جربير فهو من الرحيل الأسعد
خملت ميامنهم عليك نشـيجة ... كالسيل يحطم جلمداً عن جلمد
ما ناجزوك وفى الجوانح موضع ... لتصبـر ومكانة لتجلـد
طال الشـقاء عليهم وتبرمـوا ... بالجيش فى الذل المقيم المقعد
فتحالفوا لحنث وتجمعـوا ... لمفـرق وتألفـوا لمبـدد

وفى ربيع سنة ٣٩٢ هـ ( ١٠٠٢ م ) خرج المنصور إلى الغزو لآخر مرة ، فاخترق أراضى قشتالة شمالا ، ووصل فى زحفه حتى بلدة قناليش الواقعة جنوبى ناجرة ، ثم سار غرباً فى اتجاه برغش وعاث فى تلك المنطقة[2]. ولا تقدم الرواية الإسلامية عن هذه الغزوة تفاصيل أخرى ، ولا تحدثنا بالأخص عن أية موقعة حاسمة ، وقعت بين المسلمين والنصارى . ولكن بعض الروايات النصرانية الإسبانية القديمة ، تذكر لنا فى هذا الموطن ، أن القوات النصرانية المتحدة ، المكونة من جيوش برمودو ملك ليون ، وغرسيه فرناندز كونت قشتالة ،

---

( ١ ) راجع فى تفاصيل هذه الموقعة للتمييز : أعمال الأعلام ص ٦٩ — ٧٢ .

( ٢ ) راجع الإحاطة فى أخبار غرناطة لابن الخطيب (طبعة القاهرة القديمة ) ج ٢ ص ٧٢ .

وغرسية سانشيز ملك ناڤار، وقفت فى وجه المنصور فى ظاهر بلدة صغيرة تسمى «قلعة النسور»[١] ، وتقع فى غربى مدينة سرية ، وأنه وقعت بين المسلمين والنصارى ، موقعة هزم فيها المسلمون ، وقتل منهم عدة آلاف ، وأن المنصور انسحب فى قواته تحت جنح الظلام ، ثم توفى بعد ذلك بقليل حزناً وغماً ، أو من الجراح التى أصابته فى الموقعة[٢] .

ولا بأس من أن نقدم هنا خلاصة لما تذكره الرواية النصرانية من تفاصيل الموقعة ، وإليك ما يقوله فى ذلك المؤرخ لافونتى . ومما هو جدير بالذكر أنه يرجع بداية حوادثها إلى سنة ١٠٠١ م ، وفى هذا الوقت كان ملك ليون ألفونسو الخامس الطفل ولد برمودو الثانى ، وكان تحت وصاية منندو كونثالث كونت جليقية وزوجته دونيا مايور ؛ وكان يحكم قشتالة الكونت سانشو غرسيس ولد غرسى فرناندز ، ويحكم ناڤار الملك سانشو غرسيس الكبير .

يقول لافونتى : إنه فى هذه السنة أعنى سنة ١٠٠١ م ، بدت فى قلب اسبانيا المسلمة طلائع استعدادات عظيمة ، وجمع ولاة شنترين وبطليوس وماردة كل قواتهم ، وعبرت حشود عظيمة من الجند البربر إلى الجزيرة ، وكانت هى الأمداد التى وعد بإرسالها المعز بن زيرى من المغرب إلى المنصور ، واجتمعت جيوش إفريقية والأندلس والبرتغال المسامة فى طليطلة ، فهل كان المنصور يزمع أن يضرب قشتالة التى أتعبته مقاومتها الضربة الأخيرة ؟ لقد تفاهم سانشو أمير قشتالة مع قريبيه ملكى ليون وناڤار على التعاون على مقاومة الجيش الإسلامى العظيم ، وأدرك الجميع ضرورة الاتحاد والتحالف . واجتمعت الجيوش النصرانية المتحدة فى السهل الواقع جنوب مدينة سرية عند منابع دويرة ، قريباً من مدينة نوماثيا القديمة Numacia ؛ وكان يقود جيوش ليون وجليقية والأسترياس الكونت منندو وصى الملك الطفل ألفونسو الخامس ، ويقود قوات قشتالة وناڤار ، كل ملكها .

وقدم المسلمون ، وقد انقسمت قواتهم إلى شطرين ، قوات الأندلس وقوات البربر ؛ وساروا تواً نحو ضفاف نهر دويرة ، حتى التقوا بالنصارى فى

---

(١) وهى بالإسبانية Calatanazor

(٢) Crónica General ; Ibid ; Vol. II. p. 449

مكان يسمى « قلعة النسور » . ثم وقعت بين الفريقين مناوشات ختمها مقدم الليل ، وفى فجر اليوم التالى تأهب كل فريق ، وحشد قواته ، واختلط ضجيج المسلمين بصيحات النصارى ، وأصوات المزمار بدوى الطبول . واشتبك الفريقان بعنف ، وأخذ زعماء كل فريق يحث رجاله ويشجعهم . وكان المنصور يثب هنا وهنالك كأنه نمر ، وقد شقت فرسانه صفوف القشتاليين ، وساءه ما لقى من مقاومة ، فاندفعت قواته إلى الهجوم بعنف ، واستمر القتال تحت جو قاتم من الغبار المتصاعد ، حتى دخل الليل ، فانفصل الجيشان دون أن يكتب النصر لأحدهما .

وأصيب المنصور خلال القتال بجراح عديدة ، فأوى إلى خيمته ، وقد علم أن كثيراً من قادته قتلوا ، وأدرك مبلغ الخسارة الفادحة التى حاقت بجيشه ؛ فأصدر أوامره قبل الصبح بالارتداد . وعبر نهر دويرة ، وهو على أهبة الحرب حتى لا يفكر النصارى فى مطاردته . ثم شعر المنصور خلال السير بالإعياء والخور ، ولم يستطع أن يستمر فوق صهوة جواده لخطورة جراحه ، فحمل فى محفة إلى مدينة سالم .

ثم يقول لافونتى : إن بعض مؤرخينا ومنهم ماريانا يحاول أن يرد هذه الموقعة إلىما قبل ذلك بثلاثة أعوام، وأنه يوجد منهم من يقرنها بأخطاء ومغامرات خرافية بل مضحكة .

تلك هى خلاصة التفاصيل التى تسبغها الرواية النصرانية على موقعة قلعة النسور . ويلاحظ أن هذه الرواية ترجع الموقعة إلى سنة ١٠٠١ م ، وأن المؤرخ يتحدث هنا عن طبقة جديدة من الملوك النصارى ، وهم خلفاء أولئك الذين تزعم الروايات النصرانية الأخرى تحالفهم على قتال المنصور(١) .

وقد حاول بعض الباحثين الإسبان المحدثين ، مثل ساقدرا وكودرا التدليل على صحة هذه الرواية وقبولها . ولكن فريقاً آخر من أقطاب البحث الحديث وفى مقدمتهم دوزى ، يرون بطلان هذه الرواية ، ومخالفتها للحقائق التاريخية الثابتة . ذلك أن برمودو ملك ليون كان قد توفى فى سنة ٩٩٩ م ، وتوفى غرسية فرناندز كونت قشتالة فى سنة ٩٩٥ م ، وتوفى غرسية سانشيز ملك ناڤار فى سنة ١٠٠٠ م ،

---

(١) Modesto Lafuente : Historia general de Espana. T, III. P. 24-26

فكيف تتحدث الرواية هنا عن تحالف الملوك الثلاثة ، وقد ماتوا جميعاً قبل الموقعة المزعومة ؟ هذا ومن جهة أخرى فإن الروايةٰ الإسلامية لا تذكر شيئاً عن هذه الموقعة ، وهى لا تضن علينا فى مواطن كثيرة بالتحدث عن هزائم المسلمين ، وصمتها فى هذا الموطن قرينة ، على أنه لم يك ثمة موقعة ولا هزيمة[١] . ويعلل مؤرخ إسبانى معاصر هو الأستاذ مننديث پيدال ، أصل هذه الأسطورة بكونه إنما يرجع إلى ما أحرزه سانشو غرسية كونت قشتالة ، من نجاح جزئى فى بعض الوقائع ، وقد حرصت الأساطير القشتالية على تسجيل هذا النجاح ، وعمدت إلى المبالغة فيه شيئاً فشيئاً[٢] .

وعلى أثر اختتام الغزوة ، ارتد المنصور بجيشه جنوباً ، وقد لحقه الإعياء ، واشتد به المرض ، فترك جواده ، وسار نحو أسبوعين محمولا على محفة ، حتى وصل إلى مدينة سالم ، وهى معقل الثغر المنيع ؛ وكان من أعز أمانى المنصور أن تدركه منيته خلال الغزو ، مجاهداً فى سبيل الله ، وكان دائماً يحمل معه أكفانه حيثما سار إلى الغزو ، وهى أكفان صنعت من غزل بناته ، واشتريت من خالص ماله الموروث . وقد استجاب الله دعاءه ، فما كاد يحل بمدينة سالم ، حتى شعر بدنو أجله ، فاستدعى ولده عبد الملك ، وألقى إليه نصائحه الأخيرة . وفى ليلة الإثنين ٢٧ رمضان سنة ٣٩٢ ، الموافق ١١ أغسطس سنة ١٠٠٢ ، توفى المنصور محمد بن أبى عامر ، ودفن كرغبته فى صحن قصر مدينة سالم ، وذلك لسبعة وعشرين عاماً من حكمه ، وعمره أربعة وستون عاماً ، إذ كان مولده فى سنة ٣٢٨ هـ ، ونقش على شاهد قبره هذان البيتان :

آثاره تنبيك عن أخباره　　حتى كأنك بالعيان تراه
تالله لا يأتى الزمان بمثله　　أبداً ولا يحمى الثغور سواه[٣]

ولبث قبر المنصور بمدينة سالم عصوراً ، مزاراً معروفاً ، وذلك بالرغم من

---

(١) راجع : Dozy : Recherches : Vol. I, p. 198-202 ; Hist. V. II. p. 263
وقد لخص العلامة المستشرق كونثالث بالانثيا آراء الفريقين فى كتابه :
Historia de la Espana Musulmana (4a Ed.) p. 57 & 58.

(٢) R.M. Pidal : Historia y Epopya p. 21

(٣) الحلة السيراء ص ١٥١ .

استيلاء النصارى على المدينة ، منذ أواخر القرن الحادى عشر. ويروى لنا ابن الخطيب ، أنه عهد إلى بعض رسله ممن وجههم إلى قشتالة ، لتأكيد عقد الصلح مع ملكها ، بأن يزور فى طريقه مدينة سالم ، وأن يشاهد قبر المنصور ، وأن هذا الرسول قد أخبره عند عوده ، أن القبر ما يزال قائماً فى مكانه إلا أن رسومه من شعر منقوش ، وتاريخ مثبوت ، قد عفت ومحيت آثارها ، وقد كان ذلك فيما يبدو فى وزارة ابن الخطيب الثانية فيما بين سنتى ١٣٦١ و ١٣٧٠ م[١].

(١) أعمال الأعلام ص ٨١ .

# الفصل الثانى

## خلال المنصــور ومآثره

الناصر والمنصور . المنصور يشق طريقه إلى السلطان . وسائله فى ذلك . جيش المنصور وأهباته . شغفه بالجهاد . نتائج غزواته . الصوائف الإسلامية . عقمها وأثرها فى إنهاك الجيوش الإسلامية . عبقرية المنصور الإدارية . استقرار الأمن والرخاء فى عهدة . وزراء المنصور وكتابه . أعماله الإنشائية . توسيعه للمسجد الجامع . تجديده لقنطرة قرطبة وإنشاؤه لقنطرة إستجة . جوده وبذله . مفاخرته بنشأته المتواضعة . صرامته فى إقامة العدل . شغفه بالشراب . براعته العلمية والأدبية . رعايته للعلماء والأدباء . صاعد البغدادى شاعر المنصور . ديوان الندماء . مجالس المنصور الأدبية . شغفه بجمع الكتب . مقته للفلسفة والتنجيم . شعره ونثره . وصيته لابنه عبد الملك . وصيته لغلمانه . علائقه الدبلوماسية . مصاهرته لسانشو غرسية ملك نافار . وفود سانشو إلى الزاهرة . عبد الرحمن ولد المنصور وحفيد سانشو . إشادة الروايات الإسلامية بعظمة المنصور وخلاله . إشادة النقد الغربى بعبقريته السياسية والعسكرية .

كان المنصور بن أبى عامر عبقرية فذة ، تمثل ذروة النبوغ الشعبى ، والطموح الفردى ؛ فقد خرج المنصور من صفوف الطبقة الوسطى ، وشق طريقه بساعده وهمته إلى السلطان والرياسة ، ولم تسعفه فى ذلك نشأة ملوكية ، أو انقلاب عنيف ، ولم يكن عزمه فى بلوغ ذلك أقل شأناً من تألق طالعه ، وقد وصل المنصور إلى مرتبة من السلطان والقوة ، لم يصل إليها أحد قبله من أعاظم أمراء الأندلس حتى ولا عبد الرحمن الناصر نفسه . ويمكننا أن نقول إنه إذا كان عهد الناصر ألمع صفحة فى تاريخ اسبانيا المسلمة ، من النواحى السياسية والحضارية ، فإن عهد المنصور لايقل عنه لمعاناً وتألقاً ، بل ربما امتاز على عهد الناصر ، بما أحرزته اسبانيا المسلمة خلاله ، من تفوق عظيم فى السلطان والقوى العسكرية ، فى شبه الجزيرة الإسبانية . فقد استطاعت إسبانيا النصرانية فى عهد الناصر ، أن تنتهز فرصة الفتن الداخلية بالأندلس ، وأن توطد قواها العسكرية ، وأن تغزو الأندلس غير مرة غزوات مخربة ، وقد لقى الناصر على يد النصارى غير هزيمة فادحة ؛ أما فى عهد المنصور ، فقد انتهت اسبانيا النصرانية إلى حالة يرثى لها من التفكك والضعف ، واستمرت زهاء ثلث قرن تتلقى ضربات المسلمين الساحقة

المتوالية . وقد وصل المنصور فى غزواته فى شبه الجزيرة الإسبانية ، إلى مواطن لم يبلغها فاتح مسلم من قبل .

بدأ المنصور حياته فى حلبة العلم والدرس ، ولكن سرعان ما تفتحت مواهبه الإدارية والسياسية ، فجاز مراتب المناصب السلطانية بسرعة ، وظهر فى كل منها بفائق كفايته وحزمه . وما كاد يختفى الحكم المستنصر من الميدان ويقوم ولده الطفل هشام فى الخلافة ، حتى تبلورت مطامع المنصور ، واتجهت تواً إلى غايتها البعيدة ، فكان الصراع مع الفتيان الصقالبة ، ثم مع الحاجب جعفر ، ولم يتح بعد ذلك لأية قوة معارضة أن تقف فى سبيله . ولما اجتمعت سائر السلطات فى يده ، اتشح بثوب الحاكم المطلق ، الذى لايطيق أية مشاركة فى سلطانه أو أى اعتراض لرأيه ، ولم يدخر وسعاً فى أن يخمد أية نزعة للخروج أو الثورة على حكمه . وهنا تبرز النواحى القاتمة فى عبقرية المنصور ، فنراه يلجأ فى تدعيم سلطانه وحمايته إلى نفس الوسائل المكيافيللية التى يلجأ إليها الطغاة دائماً فى كل قطر ، وفى كل عصر : إلى القتل ، والغيلة ، والخديعة ، وكل ضروب العنف المثير ، ونراه يسير إلى تحقيق الغاية بأى الوسائل ، ولايعف فى ذلك السبيل عن ظلم يقع ، أو دم يسفك ، حتى ولو كان دم ولده بالذات .

على أن هذه الوسائل المثيرة التى كانت سياجاً لسلطان المنصور ، ودعامة لدولته ، والتى هى دائماً من لوازم الحكم المطلق ، يجب ألا تحول أنظارنا عن حقيقة ناصعة أخرى ، وهى أن المنصور لم يستخدم هذا السلطان إلا لخير دينه ، وخير الأمة التى نصب نفسه حاكماً عليها ، ومشرفاً على مصايرها ؛ ولعل الإسلام فى شبه الجزيرة الإسبانية ، لم يظفر قط بمجاهد فى بطولة المنصور ، وتفانيه فى الذود عن دينه ، وإعلاء كلمته ، ولعل الأندلس لم تر قط مثل المنصور ، زعيماً أخلص فى خدمتها ، وكرس جهوده ومواهبه فى بناء قوتها وعظمتها ، وسحق عدوها ، وتحقيق أمنها ورخائها .

وقد أدرك المنصور منذ البداية ، أنه يجب لتحقيق سلام الأندلس وأمنها ، وردع الممالك النصرانية عن عدوانها المستمر ، أن يكون للأندلس قوة عسكرية عظيمة ، تكفى لإرهاب عدوها ، وإعزاز دينها ، ومن ثم فقد بذل جهده لإصلاح الجيش الأندلسى ، وتقويته ، وتزويده بأفضل العناصر المحاربة . وقد رأى

المنصور أن يعتمد على البربر بالأخص ، لما كانوا يتصفون به من البداوة والشجاعة ، فاستقدمهم من العدوة ، ورغبهم بوفرة البذل والعطاء[1]. وكذلك استخدم المرتزقة من النصارى الإسبان ، ومنحهم الأجور والجرايات السخية ؛ وكان يجمع فى جيشه الكثير منهم ، ومعظمهم من المستعربين ، وكان يحرص على رضائهم بتوسيع النفقة عليهم ، ومعاملتهم بالمساواة والرفق[2] . واستطاع المنصور بما وضعه للجيش من أنظمة محكمة ، وما أفاض عليه من وافر النفقة والعدد ، أن ينشىء للأندلس قوة عسكرية عظيمة ، لم تعرفها فى أية عهد آخر . وكانت هذه القوة فضلا عن كونها دعامة سلطانه وحكمه ، دعامة الأندلس وأداتها للدفاع والغزو . ونستطيع أن نقدر أهمية الجيش الأندلسى وكفايته أيام المنصور ، متى ذكرنا أن المنصور لبث زهاء ربع قرن ، يقود قواته إلى الغزو المستمر ، فى أراضى الممالك النصرانية ، كل ربيع وكل صيف ، وأنه فى نفس الوقت كان يبعث الحملات العسكرية العظيمة إلى المغرب ، لتخوض سلسلة من الحروب الطاحنة . وقد بلغ من كثرة قوى الجيش النظامية وكفايتها ، أن أصدر المنصور فى سنة ٣٨٨هـ (٩٩٨ م) أمره بإعفاء الناس من إجبارهم على الغزو ، اكتفاء بعدد الجيش المرابط ، وقرأ الخطباء ذلك المرسوم على الناس ، إثر قراءة كتب الفتح ، وعرفوا فيه « بأن من تطوع خيراً ، فهو خير ، ومن خف إليه ، فمبرور ومأجور ، ومن تثاقل فمعذور »[3] .

وقد أورد لنا ابن الخطيب (عن التيجانى) بعض الإحصاءات الهامة عن جيش المنصور ، فذكر لنا أن الجيش المرابط (الثابت) بلغ فى عهده من الفرسان اثنى عشر ألف ومائة فارس من سائر الطبقات ، جميعهم مرتزقون فى الديوان ، يصرف لهم السلاح والنفقة والعلوفة . وكان عدد الحرس الخاص ستمائة فارس غير الأتباع . وانتهى عدد الرجالة فى الجيش المرابط إلى ستة وعشرين ألف راجل .

وكان عدد الجيش المرابط يتضاعف وقت الصوائف بما ينضم إليه من صفوف المتطوعة . وقد بلغ عدد الفرسان فى بعض الصوائف ستة وأربعين ألفاً ، وكان عدد المشاة يتضاعف كذلك ، وقد يبلغ المائة ألف أو تزيد .

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٩ و ٣١٥ و ٣١٦ .

(٢) **Simonet : Historia de los Mozarabes de Espana (Madrid 1897) p. 630**

(٣) أعمال الأعلام ص ٦٨ .

وأورد لنا ابن الخطيب أيضاً بيانات مفصلة عما كان يقتنيه المنصور من عتاق الخيل برسم الجهاد ، ومطايا الركوب ، ودواب الحمل ، وقد بلغت وحدها أربعة آلاف جمل خصصت لحمل الأثقال .

وأما عن عُدة الحرب ، فقد كان المنصور يحتفظ بكميات عظيمة من الخيام والسهام والدروع ، والتراس ، وعدد من المجانيق وغيرها من آلات الحصار[1].

وكان المنصور يضطرم شغفاً بالجهاد فى سبيل الله ، وكانت غزواته التى زادت على الخمسين ، فضلا عن كونها عنوان هذا الجهاد المستمر ، ترمى إلى غاية عسكرية وسياسية فطنة ، هى تحطيم قوى اسبانيا النصرانية ، وردعها بذلك عن العدوان على أراضى المسلمين . وقد تحققت هذه الغاية فى أواخر عهد المنصور على أكمل وجه . وقد عنى مؤرخ الأندلس الكبير ابن حيان — وقد عاش قريباً من ذلك العصر — بتفصيل هذه الغزوات فى مؤلف ضخم سماه « بالمآثر العامرية » واستخرجه من تاريخه الكبير « المقتبس »[2]. وكان من نتائج هذه الغزوات أن امتلأت الأندلس فى عصر المنصور بالغنائم والسبى من بنات الإسبان وأولادهم ونسائهم ، وتغالى الناس فى تجهيز بناتهم بالثياب والحلى والمال ، وذلك لرخص بنات الإفرنج وركود سوق الزواج[3] .

وبلغ من شغف المنصور بالجهاد ، أنه كان يتولى القيادة بنفسه فى سائر غزواته الصائفة والشاتية ، ولم يقعده شىء عن القيادة ، والإشتراك الفعلى فى كثير من المعارك ، حتى أننا نراه فى آخر غزواته يتولى القيادة بالرغم من مرضه ، ويسير محمولا على محفة ، ثم يقضى نحبه عقب الغزو ، بين يدى جنده وفى معقل الثغر ، بعيداً عن قصوره ، ومهاد راحته ونعمائه . وكان يحرص فى سائر غزواته ، على أن يستخلص ما يعلق بوجهه أو ثيابه من الغبار ، أثناء المعارك التى يخوضها ، فكان يمسحه بمناديل اجتمعت له منها رزمة كبيرة ، كان يحملها معه دائماً ، حتى

---

(١) أعمال الأعلام ص ٩٩ و ١٠١ و ١٠٢ .

(٢) جذوة المقتبس للحميدى ( القاهرة ١٩٥٢ ) ص ٧٤ ، والحلة السيراء ص ١٤٩ ، والمعجب لعبد الواحد المراكشى ص ٢١ . وذكر لنا ابن الخطيب اسم هذا المؤلف كاملا وهو : « أخبار الدولة العامرية المنسوخة بالفتنة البربرية وما جرى فيها من الأحداث الشنيعة » كما ذكر لنا أنه يحتوى على أكثر من مائة سفر ( أعمال الأعلام ص ٩٨ ) .

(٣) المعجب ص ٢١ .

إذا وافته المنية ضمت إلى أكفانه، ودفنت معه تنفيذاً لوصيته[1] .

ومما يؤثر عن علائق المنصور بجيشه ، أنه كان لقوة ذاكرته ، يعرف كثيراً من جنده بالإسم ، أو يعرف على الأقل كثيراً ممن امتاز منهم خلال المعارك بالإقدام والشجاعة ، ويدعوهم إلى مائدته فى المآدب الكبيرة ، التى اعتاد أن يقيمها لجنده عقب كل انتصار .

بيد أننا نستطيع أن نلاحظ بعد كل ذلك ، أن سياسة المنصور العسكرية وغزواته المتوالية المظفرة ، وإن كانت فى الأصل تنطوى على غاية عسكرية وسياسية بعيدة المدى ، هى سحق اسبانيا النصرانية ، لم تؤت ثمارها إلا فى حيز ضيق ، هو ردع اسبانيا النصرانية ، وكف عدوانها عن الأراضى الإسلامية ، ولم تقصد بالفعل إلى الغاية الحاسمة ، وهى القضاء على قوة اسبانيا النصرانية وسحقها بصورة نهائية ، وهى غاية قصرت سياسة اسبانيا المسلمة عن العمل لها منذ البداية ، ومن ثم فقد استطاعت الممالك الإسبانية النصرانية ، أن تعيش ، وأن تنمو قواها تباعاً ، وأن تغدو بمضى الزمن ، مناوئاً خطراً لاسبانيا المسلمة ، يستغرق قواها باستمرار ، ويشغلها فى كفاح مدمر مستمر .

وهنا ، وعلى ضوء هذا الكفاح العقيم الذى استمر أجيالا بين اسبانيا المسلمة واسبانيا النصرانية ، لانرى مندوحة ، من أن نحكم على سياسة الصوائف أو الغزوات الإسلامية العارضة ، التى كانت تقليداً عسكرياً إسلامياً ، فى معظم الدول الإسلامية المتاخمة للدول النصرانية ، فنقول إنها كانت من الناحية العسكرية تقوم على أسلوب خاطئ ، وقد كانت تنهك الجيوش الإسلامية بقدر ما تنهك جيوش العدو ، ولم يكن لها غاية محدودة مستقرة . وليس أدل على ذلك من تاريخ الصوائف أو الغزوات الإسلامية الموسمية أيام الدولة العباسية فى أراضى الدولة البيزنطية ، فقد كان معظمها حملات غازية تقصد إلى العيث فى أرض العدو ، وإلى إحراز الغنائم المؤقتة الإقليمية وغيرها ، ولم تنجح فى تحطيم قوى الدولة البيزنطية أو سحقها . وقد كان عقم هذه الغزوات العارضة أشد وأوضح فى الأندلس ، حيث لبثت الدولة الأندلسية ، إبان قوتها وتفوقها ، عصوراً ، تقتصر على الصوائف وما إليها من الغزوات الموسمية برسم الجهاد أو الانتقام من العدو ،

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣١٠ ، والمعجب ص ٢١ .

وتنهك بذلك قوى الجيوش الإسلامية ومواردها بصورة مستمرة ، وذلك دون أن تحقق غاية ثابتة مستقرة ، أو توفق إلى القضاء على القوى الخصيمة بصورة حاسمة .

ولقد اجتمعت لاسبانيا المسلمة فى عصر المنصور أعظم القوى والموارد العسكرية التى اجتمعت لها فى أى عصر سابق أو لاحق ، وكانت هذه القوى الزاخرة ، التى كان رائدها المنصور ، وهو أعظم شخصية سياسية وعسكرية ، أتيح لها أن تقود الأندلس ، وأن تسهر على مصايرها — كانت هذه القوى كفيلة بسحق الممالك الإسبانية النصرانية لو أنها وجهت نحو هذه الغاية توجيهاً صائباً . ويقدر النقد الإسبانى الحديث نفسه هذه الحقيقة ، فيقول لنا إن غزوات المنصور ودفعه حدود النصارى إلى ما وراء نهر دويرة ، وافتتاحه لقلمرية وسمورة وليون وشنت ياقب وكويانسا وشنت منكش وأوسمة وبرشلونة ، دفع اسبانيا النصرانية إلى حافة الخراب تقريباً ، وقضى هذا البعث لقوة الإسلام على كل أمل فى « الإسترداد » La Reconquista[1] .

ولكن غزوات المنصور على كثرتها ، وعلى ما أسبغ عليها من طابع النصر المستمر ، لم تخرج كثيراً عن حيز الصوائف والغزوات الإسلامية العارضة ، التى تحقق أية غاية مستقرة ثابتة .

وأما عن مقدرة المنصور فى الإدارة والحكم ، فإن الكلام فيها حرى بأن يطول ، فقد أبدى المنصور طوال حياته كفاية إدارية مدهشة ، وظهر فى سائر المناصب التى أسندت إليه ، مذ تولى وكالة هشام ولى العهد ، فأمانة دار السكة والخزانة ، ثم خطة المواريث ، فخطة القضاء ، ثم الشرطة ، فالإشراف على الحشم والخاص ؛ ظهر فيها جميعاً ببراعته وحصافته ، وحسن تصريفه ؛ ثم ظهرت هذه المقدرة على أتمها مذ ولى الحجابة ، واستأثر بسائر السلطات ، واحتمل فوق كاهله سائر المسئوليات الكبرى . فقد غدا المنصور زعيم الأندلس ، وحاكمها الأوحد ، والمشرف على مصايرها فى الحرب والسلم ؛ وقد أبدى المنصور فى اضطلاعه بتلك المهمة العظمى ، مقدرة فائقة ، لم يبدها أحد من أسلافه . فلم تر الأندلس من قبل استقراراً كالذى رأته فى عهد المنصور ، ولم تتمتع قط بمثل ما تمتعت به فى عهد المنصور ، من الأمن والطمأنينة والدعة . وكانت أيام المنصور بالأندلس كلها

---

(١) Simonet : Historia de los Mozarabes de Espana; p. 629

أيام فخار وظفر ورخاء ورغد ، لم تعان خلالها من غزوات العلو المخربة ، ولم تصب فيها بأية هزيمة ذات شأن ، ولم تضطرم فيها أية ثورة أو فتنة ؛ وفيها ازدهرت الزراعة والتجارة والصناعة ، وزهت العلوم والآداب ، وعم الخصب والرخاء فى جنبات الأندلس ، وفاضت خزائن قرطبة بالإموال ، ووصل محصل الجباية يومئذ إلى أربعة آلاف ألف دينار (أربعة ملايين) سوى رسوم المواريث ، وسوى مال السبي والغنائم ، وما ينتج من المصادرات وأمثالها مما لا يرجع إلى قانون . وكانت النفقات السلطانية تبلغ فى الشهر نحو مائتى ألف دينار ، فاذا دخل شهر يونيه ، وحلت الصائفة ، تضاعفت النفقة بسبب الاستعداد للغزو ، ووصلت إلى خمسمائة ألف فى الشهر أو أكثر[١].

وكانت حكومة المنصور تضم عدة من أقدر رجالات الأندلس فى هذا العصر ما بين وزراء وكتاب . وكان من وزرائه ، أبو مروان عبدالملك بن شهيد ، ومحمد بن جَهور ، وعيسى بن فُطيس وأبو ،عبدالله بن عياش ، وأحمد بن محمد ابن حدير ، ومحمد بن حفص بن جابر ، وأحمد بن سعيد بن حزم والد الفيلسوف الشهير ، وكان من أقدر وزراء المنصور وآثرهم لديه ، وكان المنصور قد استوزره قبل سائر أصحابه فى سنة ٣٨١ ﻫ ، وبلغ من ثقته به أن كان يستخلفه على المملكة فى أوقات معينة ، ويعهد إليه بخاتمه ؛ والظاهر أنه لما بلغ ذروة النفوذ والسلطان ، شمخ بأنفه ، وبدرت منه بوادر الدالة والاعتداد ، فتغير عليه المنصور ، وأقصاه عن خدمة الوزارة ، وبعثه إلى كورة الغرب لينظر فى شئونها ، ثم عاد بعد قليل فأعاده إلى حسن رأيه ، ورده إلى منصبه فى الوزارة ، وكان ابن حزم من أكابر أهل العلم والبلاغة[٢]. وكان من كتاب المنصور عيسى بن سعيد القطاع ، وهو من أقدم كتابه ، وكان من أنصاره ومعاونيه منذ أيام الحكم ، فبلغ فى ظله وتحت كنفه أرفع مكانة ، وكان فوق ذلك من أخصائه ورفاقه فى مجالس أنسه ترتفع بينهما الكلفة ؛ وكان منهم ، أبو مروان عبد الملك بن إدريس الخولانى ، وخلف ابن حسين بن حيان والد المؤرخ ، وغيرهم . وكانت هذه الصفوة من الوزراء والكتاب ، الذين ينتمى معظمهم إلى أسر عريقة تعاقب أبناؤها فى الوزارة ، مثل آل شُهيد ، وآل عبدَة ، وآل جَهور ، وآل فُطيس ، وآل حُدير وغيرهم ،

---

(١) أعمال الأعلام ص ٨٩ .

(٢) كتاب « إعتاب الكتاب » لابن الأبار – مخطوط الإسكوريال – لوحة ٥٣ و ٥٤ .

ممن حملوا عمد الدولة الأموية ، وعملوا على توطيد دعائمها ، تعمل مع المنصور على تسيير دفة الحكم بمقدرة فائقة . وكان من هؤلاء الوزراء من يتصل بالمنصور برباط المودة الشخصية الوثيقة ، ويشاطره شغفه بالشعر والأدب ، ويغشى مجالس أنسه وشرابه ، مثل عبد الملك بن شهيد ، وأبى عبد الله بن عياش ، وعيسى ابن سعيد . هذا وكان ممن اشترك مع المنصور فى الحجابة فى بداية عهده ، بعد المصحفى ، جعفر بن على بن حمدون الأندلسى ، والقائد غالب بن عبد الرحمن ، الذى جمع بين القيادة والحجابة حيناً ، وقد رأينا كيف لقى كل منهما مصرعه بعد ذلك على النحو الذى تقدم ذكره[1] .

• • •

ولم يحل انشغال المنصور طوال عهده بالغزو المستمر ، عن القيام بأعمال الإنشاء العظيمة . فقد أنشأ مدينة الزاهرة ، وقصورها المنيفة ، وحدائقها الغناء ، واتخذها كما تقدم مركزاً للإدارة والحكم . ثم ابتنى إلى جانبها منية جميلة ذات قصر وحدائق رائعة ، يرتادها للاستجمام والتنزه ، وسماها «بالعامرية» . وقد كان جمال هاتين الضاحيتين العامريتين ، مستقى للأوصاف الشعرية والنثرية الرائعة . ومما قيل فى العامرية أبيات لعمرو بن أبى الحباب أنشدها ، وقد دخل يوماً على المنصور بقصر المنية ، والروض قد تفتحت أزهاره :

لا يوم كاليوم من أيامك الأول ... بالعامرية ذات الماء والظلل

هواؤها فى جميع الدهر معتدل ... طيباً وأن حل فصل غير معتدل

ما إن يبالى الذى يحتل ساحتها ... بالسعد ألا تحل الشمس بالحمل

كأنما غرست فى ساعة وبدا السـ ... ـوسان من حينه فيها على عجل[2]

وكان من أعظم وأجل أعمال المنصور زيادة المسجد الجامع . وكانت قرطبة قد اتسعت رقعتها اتساعاً عظيماً منذ أيام الناصر ، واضطرد هذا الاتساع فى أيام المنصور حتى بلغت مبلغاً عظيماً ، وبلغت أرباض المدينة أعنى أحياؤها يومئذ

---

(١) راجع فى ذكر وزراء المنصور : البيان المغرب ج ٢ ص ٢٨٦ و ٢٨٧ و ٢٩٠ و ٢٩٩ ، وأعمال الأعلام ص ٧٠ و ٧٥ و ٨٠ ، ونفح الطيب ج ١ ص ٢٧٤ ، والذخيرة ، القسم الرابع ، المجلد الأول ص ١٧ و ٥٦ .

(٢) راجع بعض هذه القصائد والأوصاف فى البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٦ و ٢٩٧ ، ونفح الطيب ج ١ ص ٢٧٢ و ٢٧٣ .

إحدى وعشرين ربضاً «كل ربض فيها يعد أكبر مدينة من مدائن الأندلس» . وقد ذكر ابن الخطيب لنا أسماءها ومواقعها تفصيلا ، وبلغ خندقها المحيط بها ما عدا ناحية النهر سبعة وأربعين ألف وخمسمائة ذراع أى ستة عشر ميلا[1] ، وزاد سكانها فى نفس الوقت زيادة كبيرة ، ولاسيما منذ مقدم طوائف البربر الكثيرة عليها ، فى بداية عهد المنصور ، وضاقت رحبات المسجد الجامع بروّاده ، ولاسيما فى أيام الجمع . فرأى المنصور أن يقيم للجامع من ناحيته الشرقية جناحاً جديداً ، لأن ناحيته الغربية كانت متصلة بالقصور الملكية . وشرع فى إنشاء هذا الجناح فى سنة ٣٨٧ هـ (٩٨٧ م) ، فأقيم بحذاء الجامع من شماله إلى جنوبه ، على رقعة شاسعة تكاد تعدل مساحته الأصلية ، وروعيت فى إنشائه البساطة والمتانة قبل الزخرفة ، كما روعى التماثل والمطابقة للصرح القديم ؛ ونزعت من أجل ذلك ملكية عدد كبير من الأماكن والدور ، حرص المنصور على أن ينصف أصحابها فيما يستحقونه من ثمن أو معاوضة . وتضاعف حجم المسجد الجامع بهذه الزيادة ، وأضحى يحتل رقعة عظيمة شاسعة تبلغ فى الطول مائة وثمانين متراً ، وفى العرض مائة وخمسة وثلاثين متراً . وكان يشتغل فيه عدد كبير من الأسرى النصارى ، الذين أخذوا فى مختلف المعارك . وكان المنصور يشترك بنفسه أحياناً فى أعمال البناء . وبلغ عدد سواريه ما بين كبيرة وصغيرة ، ألف وأربعمائة وسبعة عشرة ، وبلغت ثرياته مابين صغيرة وكبيرة مائتان وثمانون ، وبلغ عدد المكلفين بالخدمة به فى عهد المنصور ، مابين أئمة ومقرئين وأمناء ومؤذنين وسدنة وغيرهم مائة وخمسون شخصاً ، وكان الجامع وما حوله يعتبر وحده ربضاً مستقلا يتولاه عريفه وحراسه على حدة[2]. ومازال جناح المنصور بمسجد قرطبة الجامع حتى اليوم ، قائماً بسائر رحابه وعقوده وسواريه ، وذلك بالرغم من تحويل عقوده الجانبية إلى كنائس وهياكل ، ويعرفه الأثريون «بمسجد المنصور»[3] .

وجدد المنصور قنطرة قرطبة القائمة على نهر الوادى الكبير ، ووراء المسجد

---

(١) أعمال الأعلام ص ١٠٣ .

(٢) أعمال الأعلام ص ١٠٣ .

(٣) راجع فى زيادة المنصور للمسجد الجامع ، البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٦ – ٣٠٨ ، ونفح الطيب ج ١ ص ٢٥٧ . وراجع كتابى « الآثار الأندلسية الباقية » حيث يوصف جامع قرطبة بحالته الحاضرة تفصيلا الطبعة الثانية ( ص ٢٠ – ٣١ ) .

الجامع ، وكانت فى الأصل قنطرة رومانية ، فجددها السمح بن مالك أمير الأندلس ثم جاء المنصور فجددها ، وأعاد بناءها ، وذلك فى سنة ٣٧٨هـ (٩٨٨ م) ، وتم بناؤها فى سنة ونصف ، وبلغت النفقة عليها مائة وأربعين ألف دينار ، وعظم بها نفع القرطبيين .

وابتنى المنصور كذلك قنطرة إستجة على نهر شنيل ، فرع الوادى الكبير ، واقتضى إنشاؤها كثيراً من الجهد والنفقة ، ولكنها حققت تسهيلات عظيمة ، فى مواصلات قرطبة بالقواعد والولايات الغربية والجنوبية[1] .

* * *

وكان المنصور ، على الرغم من صرامته ، وما لجأ إليه لتوطيد حكمه من الوسائل المثيرة ، يتسم بصفات عديدة مؤثرة ؛ فقد كان جواداً وافر الجود والبذل ، يغدق صلاته على من يستحقها من العاملين معه والمتصلين به ، وعلى الفقراء وذوى الحاجات ، وله فى ذلك حكايات كثيرة .

وكان يفاخر بنشأته المتواضعة ، ويقلل من شأن نفسه . وذكر المؤرخ ابن حيان فى كتابه فى «أخبار الدولة العامرية» عن والده خلف بن حيان كاتب المنصور ، أن المنصور لامه ذات يوم لأمر من الأمور ، فبدا عليه الفزع ، فأشفق عليه المنصور وهدأ من روعه ، ثم خلا به بعد أيام وقال له : «رأيت من ذعرك ما استنكرت ، ومن وثق بالله برئ من الحول ، والقوة لله ، وإنما أنا آلة من آلاته أسطو بقدرته ، وأعمل عن إذنه ، ولا أملك لنفسى إلا ما أملك ، ... فطأمن جأشك ، فإنما أنا ابن امرأة من تميم طالما تقوت بثمن غزلها ، أغدو به إلى السوق ، وأنا أفرح الناس بمكانه ، ثم جاء من أمر الله ما تراه ، ومن أنا عند الله لولا عطفى على المستضعف المظلوم ، وسيرى لجهاد الطاغية»[2] .

وكان ورعاً ، شديد الإيمان واليقين ، يخشى ربه ، ويزدجر إذا ذكر الله وعقابه . وكانت هذه أعجب الخلال فى رجل كالمنصور ، لم يعف عن سفك الدماء فى سبيل تحقيق أطماعه . ولكنها حقيقة تنوه بها الرواية الإسلامية وتؤكدها ، ومن دلائلها أن المنصور ، كان يحمل معه فى سائر غزواته وأسفاره مصحفاً

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٩ ، ونفح الطيب ج ١ ص ١٩١ ، وأعمال الأعلام ص ٧٦

(٢) إعتاب الكتاب لابن الأبار — مخطوط الإسكوريال — لوحة ٥٦ .

خطه بيده ، يقرأ فيه ويتبرك به فى كل مناسبة[1].

وكذلك تنوه الرواية بعدالة المنصور ، وصرامته فى إحقاق الحق ، والانتصاف لذوى المظالم . وقد أورد لنا صاحب البيان المغرب عدة أمثلة رفعت فيها الظلامات إلى المنصور ضد بعض أكابر خدمه وحاشيته ، ممن كانوا يظنون أن مراكزهم تحميهم من إجراء العدالة ، فأمر المنصور بالانتصاف منهم لذوى الظلامات. وكان يقترن بهذه الصفة ، خلة محمودة أخرى ، هى تذرعه بالحلم والصبر ، وضبط النفس فى أمور كثيرة ، وذلك بالرغم مما كان عليه من الهيبة والرهبة والسلطان[2].

ولكن الرواية تنعى على المنصور خلة سيئة ، هى شغفه بمعاقرة الخمر ، وقد لازمته هذه الرذيلة طوال حياته ، ولم يقلع عنها إلا قبل وفاته بعامين . ويصف لنا ابن الخطيب كيف كان المنصور يصل فى العمل يومه بليله ، وهو عاكف على الشراب ، فى تلك الفقرة البليغة : « وكانت الجزالة والرجولة ثوبه الذى لم يخلعه ، إلى أن وصل إلى ربه ، والحزم والحذر شعاره الذى لم يفارقه طول حياته ، والنصب والسهر شأنه فى يومه وليله ، لا يفضل لذة على تدبيره ، وحلاوة نهيه وأمره ، فينفذ الأمور ، والكأس تدور ، والجبال للطرب تمور »[3].

* * *

بقيت من خلال المنصور ناحية ربما كانت ألمع خلاله جميعاً ، وتلك هى الناحية العلمية .

نشأ المنصور حسبما رأينا فى بيت علم وأدب ، ودرس وفقاً لتقاليد أسرته دراسة حسنة ، وبرع فى الشريعة والأدب ، وكان حرياً به أن يتبوأ مكانه بين علماء عصره ، لولا أن شاءت الأقدار أن تدفع به إلى معترك السياسة والسلطان .

على أن المنصور لبث بالرغم من مشاغل هذا المعترك السياسى الخضم ، يحتفظ طول حياته بشغفه بالعلم والأدب ، ويوثق صلاته بالعلماء والأدباء والشعراء ويؤثرهم بحبه وعطفه ، ويجمعهم حوله فى أوقات فراغه وسويعات لهوه وأنسه ، ويساجلهم البحث والمناظرة ، ويطارحهم قرض الشعر ، ذلك لأن المنصور كان شاعراً أيضاً ، وله نظم حسن سوف نورد شيئاً منه .

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٩ و ٣١٠ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٤٧ .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٣١٠ – ٣١٢ ، والحلة السيراء ص ١٥١ .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٣١٠ ، وأعمال الأعلام ص ٧٥ .

وكان من أخص جلسائه الأدباء ، الكاتب البغدادى ، أبو العلا صاعد ابن الحسن . وكان قد وفد من المشرق على الأندلس سنة ٣٨٠ هـ ، والمنصور فى أوج سلطانه ، فأراد المنصور أن يجعل منه قريناً لأبى على القالى ، الوافد من قبل على الناصر والحكم ، فقربه وأذن له أن يجلس بجامع مدينة الزاهرة ، يملى كتابه المسمى « بالفصوص » على أدباء قرطبة ، وهو كتاب فى الآداب والأخبار والأشعار ، ولكن أدباء قرطبة أنكروا ما ورد فيه ، وكذبوه فى كثير مما يلقيه ، وفضحوا كثيراً من سرقاته الأدبية والشعرية[1]. ومع ذلك فقد كان صاعد أديباً بارعاً ، خفيف الروح ، متوقد الذهن ، حاضر البديهة ، وكان يأتى بكثير من غريب الشعر بداهة ، فأعجب به المنصور ، وأولاه رعايته ، وألحقه بديوان الندماء ، وأجرى عليه راتباً حسناً ؛ وكان بهذا الديوان بعض أدباء العصر مثل زيادة الله بن مضر الطبنى ، وابن العريف ، وابن التيانى ، وغيرهم . وغدا صاعد شاعر المنصور ينظم له المدائح والطرف ، ويصطحبه المنصور فى نزهاته برياض الزاهرة ، وينظمه فى مجالس أدبه وأنسه . وقد أورد لنا ابن بسام وصفاً مسهباً لهذه المجالس الأدبية ، التى يجتمع فيها المنصور بخلانه وندمائه ومنهم صاعد ، وأورد لنا كثيراً مما قيل فيها من النظم . وقد كان بعض الفتيان الصقالبة من بطانة المنصور ، يأخذ بقسط حسن من الشعر والأدب ، ويغشى مجالس المنصور الأدبية ويشترك فى المطارحات الشعرية ، وكان من أشهرهم الفتى فاتن ، وكان من أبرع العارفين منهم باللغة والأدب . وقد كان للفتيان الصقالبة فى الواقع تراث من الشعر والأدب ، واشتهروا بذلك أيام المنصور خاصة ،وأصدر أحدهم فى ذلك كتاباً سماه « الإستظهار والمغالبة على من أنكر فضل الصقالبة » ، ضمنه كثيراً من أشعارهم ونوادر أخبارهم [2].

ولبث صاعد على مكانته حتى وفاة المنصور ، ومن بعده حتى نهاية الدولة العامرية ، ثم أفل نجمه بعد ذلك ، وساءت أحواله عند ظهور الفتنة ، فغادر الأندلس متخفياً فى سنة ٤٠٣ هـ ، وجاز البحر إلى صقلية ، واتصل بأميرها فأولاه رعايته ، وحسنت حاله ، وكانت وفاته بها فى سنة ٤١٠ هـ .

---

(١) الصلة لابن بشكوال ( طبعة القاهرة ) رقم ٤٠ .

(٢) راجع الذخيرة . القسم الرابع المجلد الأول ص ٧ – ٢٢ ، والمعجب ص ١٦ و ١٧ .

وكان للمنصور ، فضلا عن مجالس الأدب والأنس العابرة ، مجلس أسبوعى يعقده للبحث والمناظرة ، ويشهده كثير من العلماء والأدباء[١] . وكان فى غزواته يستصحب بعض العلماء والأدباء من أصدقائه ، إذ كان شغف البحث والمناظرة ، يلازمه دائماً حتى فى ميدان الحرب ؛ وإلى جانب هذا الشغف الشخصى بالحياة العقلية ، كان المنصور مولعاً بالعمل على نشر العلم والمعرفة بين طبقات الشعب ، فأنشأ كثيراً من دور العلم بقرطبة ، وبالغ فى الإنفاق عليها ، وكان يزور المدارس والمساجد ، ويجالس الطلاب أحياناً ، ويمنح المكافآت النفيسة لمن يستحقها .

وإلى جانب هذا الشغف بالآداب والعلوم ونشر الحياة العقلية ، كان المنصور يشغف أيضاً بجمع الكتب ، وكان أكابر المؤلفين يهدون إليه كتبهم ، على نحو ما كان متبعاً أيام الحكم ، ومن ذلك أن صاعداً البغدادى أهدى إليه كتاب « الفصوص » المتقدم ذكره ، فأثابه عنه بخمسمائة دينار[٢].

وكان المنصور يمقت الفلسفة وما إليها ، ويرى أنها مخالفة للدين ، ويكره التنجيم والمنجمين ، وقد أمر بأن يستخرج من المكتبة الأموية العظيمة ( مكتبة الحكم المستنصر ) سائر كتب الفلاسفة والدهريين ، وأن تحرق بمحضر من كبار العلماء ، وفى مقدمتهم أبو العباس بن ذكوان ، وأبو بكر الزبيدى ، والأصيلى وغيرهم ، وكان ذلك بلا ريب عملا غير موفق ، وكان خسارة علمية فادحة . وينعى المستشرق سيمونيت على المنصور هذا التصرف ، فيقول : إنه إذا كان الحكم الثانى قد استطاع لنزعته العلمية والأدبية أن يحمى الفلاسفة ، فقد جاء المنصور من بعده فقام بحرق كتب الفلسفة التى كانت بمكتبة الحكم ، وذلك لكى يرضى الفقهاء والدهماء »[٣]. واشتد المنصور أيضاً فى مطاردة المنجمين ، وبلغه أن أحدهم وهو محمد بن أبى جمعة ، يهجس فى تنبؤاته بانقراض دولته ، فأمر بقطع لسانه وقتله ، فخرست ألسن المنجمين جميعاً[٤] .

---

( ١ ) راجع جذوة المقتبس للحميدى ص ٧٣ ، والمعجب ص ٢٠ .

( ٢ ) الصلة لابن بشكوال رقم ٤٠ .

( ٣ ) Simonet : Historia de los Mozarabes de Espana ; p. 351

( ٤ ) البيان المغرب ج ٣ ص ٣١٥ ، وأعمال الأعلام ص ٧٧ .

وللمنصور شعر جيد ، نظمه فى مختلف مناسبات حياته ، ومن ذلك قوله فى الفخر :

رميت بنفسى هول كل عظيمة ... وخاطرت والحر الكريم يخاطر
وما صاحبي إلا جنــان مشيع ... وأسمــر خطى وأبيض بــاتر
وإنى لزجاء الجيوش إلى الوغى ... أســود تلاقيها أسود خوادر
فسدت بنفسى أهل كل سيادة ... وفاخرت حتى لم أجد من أفاخر
وما شدت بنياناً ولكن زيادة ... على ما بنى عبد المليــك وعامر
رفعنــا العوالى بالعوالى مثلهــا ... وأورثناها فى القــديم معــافر

وقوله يتهدد الفاطميين بمصر ، ويمنى نفسه بفتح مصر والشام :

منع العــين أن تذوق المنــاما ... حبا أن ترى الصــفاء والمقاما
لى ديون بالشرق عنــد أناس ... قد أحلوا بالمشعــرين الحراما
إن قضــوها نالوا الأمانى وإلا ... جعــلوا دونها رقاباً وهــاما
عن قريب ترى خيول هشــام ... يبلغ النيــل خطوها والشــاما

وأما عن نثر المنصور ، فقد رأينا أن نورد نموذجاً له ، وصيته لولده عبدالملك حينما حضرته الوفاة ، وقد نقلها إلينا ابن حيان عن أبيه خلف بن حسين ، وهذا نصها :

« يا بنى : لست تجد أنصح لك ، ولا أشفق عليك منى ، فلا تعدّين وصيتى ، فقد جردت لك رأيى ورويتى ، على حين اجتماع من ذهنى ، فاجعلها مثالا بين عينيك . وقد وطأت لك مهاد الدولة ، وعدلت لك طبقات أوليائها ، وغايرت لك بين دخل المملكة وخرجها ، واستكثرت لك من أطعمتها وعددها ، وخلفت لك جباية تزيد على ما ينوبك لجيشك ونفقتك ، فلا تطلق يدك فى الإنفاق ، ولا تقبض لظلمة العمال ، فيختل أمرك سريعاً ، فكل سرف راجع إلى اختلال لا محالة ، فاقصد فى أمرك جهدك ، واستثبت فيما يرفع أهل السعاية إليك ، والرعية قد استقصيت لك تقويمها ، وأعظم مناها أن تأمن البادرة ، وتسكن إلى لين الجنبة . وصاحب القصر قد علمت مذهبه ، وأنه لا يأتيك من قبله شىء تكرهه ، والآفة ممن يتولاه ويلتمس الوثوب باسمه ، فلا تنم عن هذه الطائفة جملة ، ولا ترفع عنها سوء ظن وتهمة ، وعاجل بها من خفته على أقل بادرة ، مع

قيامك بأسباب صاحب القصر على أتم وجه . فليس لك ولا لأصحابك شيء يقيكم الحنث فى يمين البيعة ، إلا ما تقيمه لوليها من هذه النفقة ، فأما الانفراد بالتدبير دونه ، مع ما بلوته من جهله وعجزه عنه ، فإنى أرجو أنى وإياك منه فى سعة ما تمسكنا بالكتاب والسنة . والمال المخزون عند والدتك ، هو ذخيرة مملكتك وعدة لحاجة تنزل بك ، فأقمه مقام الجارحة من جوارحك التى لا تبذلها إلا عند الشدة ، تخاف منها على سائر جسدك . ومادة الخراج غير منقطعة عنك بالحالة المعتدلة . وأخوك عبد الرحمن قد صيرت إليه فى حياتى ما رجوت أنى قد خرجت له فيه عن حقه من ميراثى ، وأخرجته عن ولاية الثغر ، لئلا يجد العدو مساغاً بينكما فى خلاف وصيتى ، فيسرع ذلك فى نقض أمرى ، ويجلب الفاقرة على دولتى . وقد كفيتك الحيرة فيه ، فأكفه الحيف منك عليه ، وكذلك سائر أهلك فيما صنعت فيهم ، بحسب مما قدرت به خلاصى من مال الله الذى فى يدى . وخلافتك بعدى أجدى عليهم مما صرفته ، فلا تضيع أمر جميعهم ، والحظهم بعينى فإنك أبوهم بعدى. فان انقادت لك الأمور بالحضرة فهذا وجه العمل ، وسبيل السيرة ، وإن اعتاصت عليك ، فلا تلقين بيدك إلقاء الأمة ، ولا تبطر بك وأصحابك السلامة ، فتنسوا مالكم فى نفوس بنى أمية وشيعتهم بقرطبة . فإن قاومت من توثب عليك منهم ، فلا تذهل عن الحزم فيهم ، وإن خفت الضعف فانتبذ بخاصتك وغلمانك ، إلى بعض الأطراف التى حصنتها لك ، واختبر غدك إن أنكرت يومك . وإياك أن تضع يدك فى يد مروانى ما طاوعتك بنانك ، فإنى أعرف ذنبى إليهم » .

وهذه وصيته لغلمانه نقلها إلينا أيضاً ابن حيان عن أبيه :

«تنبهوا لأمركم واحفظوا نعمة الله عليكم ، فى طاعة عبدالملك أخيكم ومولاكم ولاتغرنكم بوارق بنى أمية ومواعيد من يطلب منهم شتاتكم ،وقدروا ما فى قلوبهم وقلوب شيعتهم بقرطبة من الحقد عليكم ، فليس برأسكم بعدى أشفق عليكم من ولدى. وملاك أمركم أن تنسوا الأحقاد ، وأن تكون جماعتكم كرجل واحد ، فإنه لا يفل فيكم »[1] .

---

(١) نقل إلينا ابن بسام ( عن ابن حيان ) هذين النصين فى الذخيرة ـ القسم الرابع المجلد الأول ص ٥٦ — ٥٨ . ونقلهما ابن الخطيب أيضاً فى أعمال الأعلام ص ٨١ و ٨٢ .

وفى وصية المنصور لولده وغلمانه ، يرتسم برنامج سياسته كلها ، وتبدو بالأخص نواحى توجسه وتخوفه ، فهو لم يكن يأمن جانب بنى أمية قط ، وقد لبث يتوقع الشر منهم حتى وفاته . ثم توفى وهو يتوقع الشر منهم لبنيه ودولته ؛ وقد كان المنصور فى ذلك صائب التقدير ، بعيد النظر .

* * *

هذا وأما علائق المنصور الدبلوماسية فإنه لم يتح له عقد الكثير منها ، ولم تفد إليه سفارات من ملوك النصارى على نحو ما حدث أيام الناصر والحكم المستنصر. ذلك لأن عهد المنصور كان كله عهد حروب مستمرة ، بين الأندلس وبين اسبانيا النصرانية ، ولم يقع بين الفريقين تهادن أو سلم طويل الأمد .

وكل ما نستطيع أن نسجله من ذلك حادثان متشابهان ، أولهما قدوم برمودو الثانى ملك ليون إلى قرطبة فى سنة ٩٨٥ م ، مستجيراً بالمنصور ليعاونه على مقاومة الأشراف الخارجين عليه وتوطيد عرشه . وقد أجابه المنصور إلى طلبه وبادر بمعونته . ومما هو جدير بالذكر أن برمودو قدم ابنته تريسا Teresa بعد ذلك إلى المنصور عروساً له ، فقبلها المنصور وتزوجها أو اتخذها سرية له (١).

والثانى ، وهو من أشهر الحوادث الشائقة التى وقعت أيام المنصور ، هو مقدم سانشو غرسية ملك نافار على المنصور ، معتذراً إليه ، لائذاً بعفوه ومهادنته. والوجه الشائق فى ذلك هو أن سانشو غرسية هذا كان صهراً للمنصور ، وكان تقرباً من المنصور ، واكتساباً لمودته قد قدم ابنته عروساً إليه ( ٩٨١ م ) فتزوجها المنصور ، واعتنقت الإسلام ، وسميت باسم « عبدة » ، وكانت من أحظى نسائه لديه ، ورزق منها بولده عبد الرحمن الذى سمى أيضاً « شنجول » أو «سانشول» أى شانجُه (سانشو) الصغير نسبة لجده ملك نافار . ثم ساءت العلائق بين المنصور وصهره ، وتابع المنصور غزو نافار مرة بعد مرة ، حتى اضطر سانشو إلى طلب الصلح ، وسار إلى قرطبة مستصرخاً المنصور ولائذاً بعفوه . ووصل سانشو إلى قرطبة فى الثالث من رجب سنة ٣٨٢ هـ (٤ سبتمبر سنة ٩٩٢ م) فسر المنصور بمقدمه سروراً عظيماً ، وبعث القواد والكبراء وطوائف الجند فى موكب فخم ، وعلى رأسهم ولده عبد الرحمن وهو طفل فى مهده ، لاستقباله ومرافقته

(١) R. M. Pidal : La Espana del Cid (Madrid 1947) p. 71

إلى قصر الزاهرة ، فلما وقعت عين سانشو على حفيده ، ترجل وقبل يده ورجله ؛ ثم رافق الركب إلى الزاهرة ، وقد اصطفت الجند على طول الطريق فى صفوف كثيفة زاهية كاملة السلاح والعدة ، واصطف الوصفاء والصقالبة من باب القصر إلى الداخل صفين. وسار سانشو ، وقد بهره كل ما رأى ، حتى وصل إلى مجلس المنصور فى عصر ذلك اليوم ، وقد جلس المنصور فى هيئة فخمة ، ومن حوله الوزراء وأعاظم رجال الدولة ؛ فلما أبصره سانشو هوى إلى الأرض فقبلها مرات متوالية ، ثم قبل يدى المنصور ورجليه ، فأمره بالجلوس على كرسى مذهب خصص له ، ثم انصرف الناس واختلى الملك النصرانى بالمنصور ، وأفضى كل إلى صاحبه بما أراد ، ثم خرج سانشو وفى أثره الخلع السلطانية ، وما انفض المجلس إلا عند دخول الليل .

وكان مقدم سانشو غرسية إلى قرطبة ، واستقباله بها ، من أيام الأندلس المشهودة ، وقد أعاد بروعته وما اقترن به من مغزى عميق بظفر الإسلام على أعدائه ، ذكرى أيام الناصر فى وفود الملوك النصارى عليه ، ملتمسين منه الصلح والمودة[1] .

* * *

وقد أجمعت الرواية الإسلامية ، الأندلسية والمشرقية ، على الإشادة بخلال المنصور وباهر صفاته . وهى جميعاً سواء أوجزت القول أو أفاضت ، تنم عن عميق التقدير والإعجاب . ثم هى مع ذلك لم تغفل التنويه بالجوانب القاتمة فى تلك العبقرية الفذة ، على أنها على العموم أكثر ميلا إلى إبراز محاسن المنصور ومواهبه ، والإشادة بما أسبغته على الأمة الأندلسية من ضروب العظمة والبهاء .

قال ابن الأثير يصف المنصور : « وكان شجاعاً ، قوى النفس ، حسن التدبير ، وكان عالماً محباً للعلماء ، يكثر مجالستهم ويناظرهم ، وقد أكثر العلماء ذكر مناقبه ، وصنفوا لها تصانيف كثيرة »[2]. وقال ابن خلدون : « وكان ذا عقل ورأى وشجاعة ، وبصر بالحروب ، ودين متين »[3] . ويصفه الفتح ابن خاقان فى « المطمح » فى تلك العبارات الشعرية : « وكان أمضاهم ( يعنى من

(١) أورد لنا ابن الخطيب فى « أعمال الأعلام » وصفاً شائقاً لهذا الحادث . ص ٦٦ و ٧٣ و ٧٤ .

(٢) ابن الأثير ج ٩ ص ٦١ .

(٣) ابن خلدون ـ ٤ ص ١٤٧ .

تقدمه ) وأذكاهم جناناً ، وأتمهم جلالا ، وأعظمهم استقلالا . قام بتدبير الخلافة ، وأقعد من كان له فيها إنافة . وساس الأمور أحسن سياسة ، وداس الخطوب بأخشن دياسة ، فانتظمت له الممالك ، واتضحت به المسالك ، وانتشر الأمن فى كل طريق ، واستشعر اليمن كل فريق . وملك الأندلس بضعاً وعشرين حجة ، لم تدحض لسعادتها حجة ، ولم تزخر لمكروه بها لجة ، وكانت أيامه أحمد أيام ، وسهام بأسه أشد سهام »[1] .

ويجمل ابن حيان حياة المنصور فى تلك الفقرة : « وامتثل رسم المتغلبين على سلطان ولد العباس بالمشرق من أمراء الديلم فى عصره . فنال بغيته ، وتهنأ معيشته ، وأورثه عقبه بعده ، عن غير اقتدار عليه ، بجند خاص ، ولا صيال بعشيرة ، ولا مكابرة بمال وعدة ، بل رمى الدولة من كنانها ، وعدا عليها بأعضادها ، وانتضلها بمشاقصها ، وأنفق على ضبطها أموالها وعددها ، حتى حولها إليه وسبكها فى قالبه ، وسلخ رجالها برجاله ، وعفى رسومها بما أوضح من رسومه »[2] .

هذا ، وقد أشاد ابن الخطيب بخلال المنصور فى مواطن وفقرات عديدة نقتطف منها ما يلى :

قال مشيراً إلى ولاية هشام : « فاستقر الأمر لهشام ، يكنفه الحاجب المنصور أسعد أهل الأندلس مولداً ، وأشهرهم بأساً ونداً ، وأبعدهم فى حسن الذكر مداً ، الحازم العازم ، العظيم السياسة ، الشديد الصلابة ، القوى المنة ، الثبت الموقف ، معود الإقبال ، ومبلغ الآمال ، الذى صحبته ألطاف الله الخفية فى الأزمات ، واضطرد له النصر العزيز فى نحو سبع وخمسين من الغزوات ، ولم تفارقه السعادة حالتى المحيا والممات » .

وقال : « فقد أجمع الشيخة أنه نهض بجد لا كفاء له ، وأصحب سعداً لا نحس يخالطه ، وأعطى إقبالا لا إدبار معه ، قد وثق بذلك فلم يلتفت إلى غيره ...

« وكان مهيباً وقوراً ، فإذا خلا كان أحسن الناس مجلساً ، وأبرهم بمن يحضر منادماً ومؤانساً ، وكان شديد القلق من التبسط عليه ، والدالة ، والامتنان ،

---

( ١ ) نقله البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٢ ، والمقرى فى نفح الطيب ج ١ ص ١٨٩ .

( ٢ ) نقله صاحب الذخيرة . القسم الرابع المجلد الأول ص ٤٣ .

لا يغفرها زلة ، ولا يحلم عنها جريرة ، ولم يكن يسامح فى نقصان الهيبة ، وحفظ الطاعة أحداً ، من ولد ولا ذى خاصة ، دعاه ذلك إلى قتل ولده عبد الله صبراً بالسيف بما هو معروف » .

« وكانت الجزالة والرجولة ، ثوبه الذى لم يخلعه ، إلى أن وصل إلى ربه ، والحزم والحذر شعاره ، الذى لم يفارقه طول حياته ، والنصب والسهر شأنه فى يومه وليله ، لا يفضل لذة على لذة تدبيره ، وحلاوة نهيه وأمره »(١) .

ولم يكن النقد الغربى أقل تقديراً لعظمة المنصور ، وقد أشاد بعبقريته ومواهبه كثير من المؤرخين والنقدة الغربيين ، وهذه نماذج من أقوالهم :

قال المؤرخ الإسبانى اليسوعى ماسديه مشيراً إلى المنصور : « وكان سياسياً كبيراً ، وقائداً عظيماً ، فقد أخمد نار الثورات التى كانت تعصف بالمملكة ، واكتسب حب الشعب بجميع طبقاته ، وتفوق فى شهرته وهيبته على أكبر القواد ، بما اجتمع فى أحكامه من الصرامة واللين والقصاص والعفو ، وكان يهدم المدن التى تقاوم جيوشه ويبيدها ، ولكنه لم يسمح قط لجنده بأن تسىء معاملة مدينة سلمت طوعاً »(٢) .

ويقول المؤرخ الإسبانى المعاصر الأستاذ مننديث پيدال معلقاً على عصر المنصور : « عاش الإسلام فى اسبانيا أروع أيامه وأسطعها ، وانتهى نصارى الشمال إلى حالة دفاع كانت دائماً مقرونة بالمحن ، ولاح كأنهم لم يعيشوا إلا لتأدية الجزية والسلاح والأسرى والمجد للخلافة الأموية »(٣) .

ويلاحظ الأستاذ پيدال فى نفس الوقت أن عبقرية المنصور العسكرية والسياسية كانت من عوامل القضاء على الروح القومية النصرانية المستعربة ، وذلك لما أغدقه المنصور من عطفه ورعايته على كثير من النصارى والمستعربين(٤) .

ويختم العلامة دوزى كلامه عن المنصور بالفقرة الآتية : « وعلى الجملة ، فإذا وجب أن نستنكر الوسائل التى لجأ إليها المنصور فى اغتصاب السلطة ، فمن

---

(١) راجع أعمال الأعلام ص ٥٨ و ٧٤ و ٧٥ .

(٢) J. F. Masdeu : Historia critica de Espana y de la Cultura Espanola

(٣) R. M. Pidal : La Espana del Cid, p. 72

(٤) R. M. Pidal : Origenes del Espanol, p, 423

الواجب أيضاً أن نعترف بأنه استخدمها بطريقة شريفة . وما كنا لنسرف فى لومه لو أن القدر خلقه على أريكة العرش ، ولعله كان يعتبر عندئذ من أعظم الملوك الذين عرفهم التاريخ . ولكنه خلق فى القرية ، واضطر لتحقيق أطماعه ، أن يشق لنفسه طريقاً تكتنفه آلاف الصعاب . ومن الأسف أنه من أجل تذليلها ، قلما راعى شرعية الواسطة . لقد كان المنصور رجلا عظيماً من وجوه كثيرة ، ولكن يستحيل علينا ، متى رجعنا إلى مبادئ الأخلاق الخالدة أن نحبه ، ومن الصعب أن نعجب به »(1) .

(1) Dozy : Hist. Vol. II. p. 275

# الفصل الثالث

## الممالك النصرانية الإسـبانية

## خلال القرن العاشر الميـلادى

نهوض اسبانيا النصرانية فى عهد الفتنة الأندلسية . وفاة أردونيو الثانى . الحرب الأهلية فى ليون . استقرار راميرو فى الملك . ولاية قشتالة . جهادها فى سبيل الاستقلال . الكونت فرنان كونثالث. ثورته ضد راميرو الثانى . هزيمته وأسره . ثورة قشتالة . الإفراج عن الكونت . طاعته للملك ليون . استمراره فى العمل لاستقلال قشتالة . وفاة راميرو . الحرب الأهلية بين ولديه أردنيو وسانشو . معاونة فرنان كونثالث لسانشو . انتصار أردونيو وفوزه بالملك . يعقد الصلح مع الناصر . وفاته وجلوس سانشو . موقف فرنان كونثالث . اضطراب الأحوال فى ليون . فرار سانشو وجلوس أردونيو الرابع . التجاء سانشو وجدته طوطة إلى الناصر . سانشو يسترد العرش بمعونة الناصر . نكثه لعهوده . فرنان كونثالث يعلن استقلال قشتالة . التجاء أردونيو إلى الحكم . اتحاد الأمراء النصارى . غزو الحكم لقشتالة ونافار . اضطرارهما لعقد الصلح . بداية الكفاح بين قشتالة والمملكة الإسلامية . الحكم يأذن بنقل رفات القديس بلايو . الثورة فى جليقية . مصرع سانشو وجلوس ولده راميرو . وفاة فرنان كونثالث وصفاته . وفود الأمراء النصارى وسفاراتهم على قرطبة . عدوان النصارى على أراضى المسلمين وردهم . النزاع بين راميرو وبرمودو على العرش . تدخل المنصور فى ذلك . غزو المنصور لشنت ياقب . برمودو يلتمس الصلح . وفاته وجلوس ولده ألفونسو . مملكة نافار . غرسية سانشيز وأمه طوطة . ولده سانشو غرسية . غزو المنصور لنافار . وفاة سانشو وجلوس ولده غرسية سانشيز . ولده سانشو الكبير . عناصر المجتمع فى اسبانيا النصرانية . طبقة الأشراف والفرسان والملاك والزراع الأحرار . طبقة الأرقاء . رقيق الضياع . التنظيم السياسى للمملكة النصرانية . السلطة الملكية . الأشراف . القضاء واشتراك الأشراف فى مزاولته . رجال الدين وسلطانهم الإقطاعى . مقارنة بين هذا النظام ونظام المملكة الإسلامية .

لما بلغت الثورات والفتن الداخلية بالأندلس ، ذروتها فى النصف الأخير ، من القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) ، فيما اصطلح على تسميته بالفتنة الكبرى ، وبددت قوى الأندلس ومواردها فى ذلك الصراع الداخلى المدمر ، أخذت اسبانيا النصرانية ، وقد أمنت شر الغزوات الإسلامية طوال هذه الفترة ، تتنفس الصعداء ، فاشتد ساعدها ، ونمت مواردها ، وتوطدت حكوماتها . ولم تأت فاتحة القرن العاشر الميلادى ، حتى كانت مملكة ليون ، التى خلفت مملكة جليقية ، وبسطت سلطانها على ولاية قشتالة ، فى أواسط اسبانيا الشمالية ، قد

بلغت مستوى من القوة والبأس ، يتيح لها أن تخوض مع المملكة الإسلامية صراعاً عنيفاً .

وقد رأينا كيف بلغ هذا الصراع ذروته فى عهد الناصر ، وكيف أنه بالرغم مما حققه الناصر من إخماد الفتنة ، وإحياء قوة الأندلس ، استطاع النصارى بقيادة ملكهم أردونيو الثانى ، أن يحرزوا على المسلمين نصرهم الخطير ، فى موقعة شنت إشتيبن فى سنة ٩١٧ م .

وكانت موقعة شنت إشتيبن ، وما تلاها من تكرر غزو النصارى للأراضى الإسلامية ، نذيراً خطيراً لحكومة قرطبة . ولكن وفاة أردونيو الثانى فى سنة ٩٢٥ م وضع حداً موقتاً لتلك الفورة القومية ، التى جاشت بها اسبانيا النصرانية . ذلك أن أخاه وخلفه فرويلا ، لم يحكم سوى عام واحد ، ثم توفى ، فاضطرم النزاع على العرش بين سانشو وألفونسو ولدى أردونيو ، وانتهى بأن فاز ألفونسو بالعرش بمعاونة صهره وحميه سانشو ملك نافار . ولكن سانشو لم ييأس ، فجمع جيشاً جديداً ، وتوج نفسه ملكاً فى شنت ياقب فى أقاصى جليقية ، ثم زحف على ليون فحاصرها واستولى عليها ، وارتقى العرش مكان أخيه . فعاد ملك نافار إلى موازرة ألفونسو ومعاونته ، حتى استطاع أن يهزم أخاه ، وأن يستولى على مدينة ليون مرة أخرى . بيد أن أخاه سانشو لبث محتفظاً بجليقية ، مصراً على دعواه فى الملك .

واستمرت الحرب الأهلية بين النصارى أعواماً ، وانتهى طورها الأول ، حينما توفى سانشو ابن أردونيو فى سنة ٩٢٩ م ، واستقر الملك لأخيه ألفونسو الرابع دون منازع . ثم بدأ طورها الثانى فى سنة ٩٣١ م ، ففى تلك السنة توفيت زوجة ألفونسو ، فحزن لفقدها أيما حزن ، وغلب عليه اليأس والزهد ، فتنازل عن العرش لأخيه راميرو ثانى ملوك ليون بهذا الإسم ، ولجأ إلى ديرساهاجون واعتنق الرهبانية ، ولكنه عافها بعد قليل ، فترك عزلة الدير ، ونادى بنفسه ملكاً فى حصن شنت منكش Simancas ، وكان عمله فى نظر الرهبان عاراً كبيراً ، فأثاروا عليه دعاية شديدة ، حتى اضطر أن يعود إلى الرهبانية . وقد كان ألفونسو فى الواقع « أميراً أصلح لقلنسوة الراهب منه لتاج الملك ، وأشد شغفاً بالمقدس منه بميدان الحرب » ، ولكنه ما لبث أن انتهز فرصة مسير أخيه راميرو إلى نجدة

ثوار طليطلة ، فغادر الدير ، وزحف فى بعض أنصاره على مدينة ليون واستولى عليها ، فعاد راميرو مسرعاً ، وحاصر أخاه فى ليون واستولى عليها بلوره . ثم أراد أن يضع حداً لمساعى ألفونسو ومحاولته فسمل عينيه ، وسمل كذلك أعين أبناء عمه الثلاثة ، وهم أولاد فرويلا الذين اشتركوا فى الثورة عليه .

ويعلق النقد الإسبانى الحديث على تلك القسوة بقوله : « وإنه ليروعنا ذكرى العقوبة التى أنزلها راميرو الثانى بأخيه ألفونسو ، وبأبناء عمه الثلاثة ، وإنه لن يكفى مر القرون لمحو ذكرى عقوبة سمل العينين التى ورثت عن التشريع القوطى ، قبل أن نراها تطبق بكثرة من جانب ملوكنا نحو ذوى قرباهم »(١) .

وهكذا استقر الملك لراميرو بعد صراع عائلى عنيف . وكان راميرو الثانى أو رذمير كما تسميه الرواية الإسلامية ، ملكاً شجاعاً مقداماً ، نذر نفسه للكفاح ضد المسلمين ، ومقارعتهم بكل الوسائل ، فتارة يغير على الأراضى الإسلامية ، وتارة يحرض الثوار على حكومة قرطبة ، أو يسير إلى إنجادهم بالفعل ، كما حدث حينما سار لمعاونة طليطلة على مقاومة الناصر (٩٣٠ م ) ، وتارة يشتبك مع المسلمين فى معارك طاحنة . وقد سبق أن فصلنا أدوار ذلك الصراع العنيف ، الذى اضطرم بين راميرو وبين الناصر ، والذى بلغ ذروته فى موقعة الخندق المشئومة ، التى دارت فيها الدائرة على المسلمين ، تحت أسوار مدينة سمورة فى سنة ٣٢٧ هـ ( ٩٣٩ م ) .

## ١ — نشأة مملكة قشتالة

لم يكن اضطراب الأمور فى مملكة ليون ، قاصراً على قسمها الغربى فى جليقية ، حيث كان الزعماء (الكونتات) الجلالقة ، يثورون على العرش من آن لآخر ، بغية توطيد سلطانهم المحلى ، بل كان يشمل أيضا قسمها الشرقى ، فى منطقة قشتالة ، التى كانت تسمى يومئذ « بردوليا » ثم سميت فيما بعد « قشتالة Castilla »(٢) ، وذلك لكثرة الحصون التى كانت تقام بها . وكانت هذه المنطقة ، التى استحالت فيما بعد إلى مملكة قشتالة ، تمتد شرقاً حتى هضاب نافار ، ومن

---

(١) M. Lafuente : Historia general de Espana (Barcelona 1889) T. II.p.360

(٢) كلمة Castillo الإسبانية معناها الحصن . وقد كانت تسمى فى الجغرافية العربية القلاع قبل أن تنتظم إلى مملكة قشتالة . وتسمى بالإضافة إلى ولاية « ألبة » Alava « ألبة والقلاع » .

ولاية ريوخا جنوباً ، حتى الأراضى التى سميت فيما بعد أراجون وسوبرابى ، وكان سكانها الأصليون من البشكنس وأهل ألبة . وكان ملوك الجلالقة أو ملوك أوبييدو قد غزوها وأضافوها إلى أملاكهم ، وكانت عاصمتها يومئذ مدينة برغش . وأبدى زعماء قشتالة منذ البداية ، مقاومة عنيفة للملوك الجلالقة ، وبذلوا جهدهم للمحافظة على استقلالهم المحلى ، وثاروا بالفعل فى عهد أردونيو الثانى فى أوائل القرن العاشر . فحاربهم أردونيو وأخضعهم ، وقبض على كثير منهم وأعدمهم ،واضطر الباقون إلى الالتزام بطاعته ، وكانوا يتمتعون بسلطات محدودة تحت سلطان زعيم محلى ، مقره فى « برغش » . وهو يخضع بدوره لملك ليون . ولكن هذا النظام المهين ، لم يرق لكونتات قشتالة ، فلبثوا يتحينون الفرص للثورة ، وتحقيق استقلالهم المنشود .

وعرضت هذه الفرصة ، وألفت قشتالة بطل ثورتها التحريرية ، فى شخص زعيمها الكونت فرنان كونثالث (وفى الرواية الإسلامية فرّان غنصالس) ، الذى غدت حياته مستقى للملاحم الشعرية ، والقصص الإسبانى فى العصور الوسطى ، فحشد الكونت أنصاره وقواته ، وأعلن الحرب على راميرو الثانى ملك ليون ، وولد أردونيو ؛ وكان راميرو يومئذ فى أوج قوته ، بعد انتصاره على المسلمين فى موقعة الخندق ، فلم يلق مشقة فى هزيمة الكونت وسحق قواته ، وأسر فرنان كونثالث ، وزجه راميرو إلى ظلام السجن فى مدينة ليون ، وعين لحكم قشتالة آسور فرناندز كونت مونزون ، ثم عين بعد ذلك لحكمها ولده سانشو ، وأمره أن يعامل القشتاليين بالرفق والحسنى ؛ ولكن ذلك لم يخمد جذوة الوطنية القشتالية . ولبث القشتاليون مخلصين لأميرهم المأسور ، واستمروا فى الثورة والقتال ، وزحفت جموعهم بالفعل على ليون ، فخشى راميرو العاقبة ، وأطلق سراح فرنان كونثالث ، ولكن بشروط فادحة ، هى أن يقسم يمين الطاعة لملك ليون ،وأن يتنازل عن كل أملاكه ،وأن يزوج ابنته أوراكا لأردونيو ولد راميرو الأكبر . وقبل فرنان كونثالث هذه الشروط مرغماً . وظل أهل قشتالة على بغضهم لملك ليون ،وولائهم لأميرهم . وفقد راميرو بذلك عون الزعماء القشتاليين ومساهمتهم المخلصة فى الدفاع عن البلاد ، واستطاع المسلمون خلال ذلك الإغارة مرراً على أراضى ليون والعيث فيها ، وقام الناصر بتجديد مدينة سالم ، ثغر

الحدود بين أراضى قشتالة والأراضى الإسلامية ، وتحصينها ( سنة ٩٤٦ م ) . واضطر راميرو أن يلتزم خطة الدفاع ، إزاء الغزوات الإسلامية المتوالية .

وكان فرنان كونثالث ، يعمل أثناء ذلك ، على توطيد مركزه ، وضم كونتيات قشتالة كلها تحت لوائه ، ليجعل منها وحدة سياسية ، أو بالحرى إمارة مستقلة ، يغدو عرشها من بعده وراثياً فى أسرته . وقد استطاع غير بعيد أن يحقق هذه الغاية[١] .

## ٢ — مملـــكة ليون

وفى أوائل سنة ٩٥٠ م توفى راميرو الثانى ملك ليون ، فنشبت الحرب الأهلية مرة أخرى بسبب وراثة العرش . وذلك أن راميرو ترك ولدين أولهم أردونيو ، وهو ولد زوجه الأولى تاراسيا ، وسانشو وهو ولد زوجه الثانية أوراكا أخت غرسية ملك نافار . فادعى أردونيو أنه أحق بالعرش باعتباره أكبر الأخوين ، ولكن سانشو نازعه فى ذلك ، معتمداً على عون أخواله النافاريين ، وجدته طوطة ملكة نافار ، وكذلك على عون الكونت فرنان كونثالث وأهل قشتالة . وكان الكونت غير ميال إلى معاونة أردونيو ، بالرغم من كونه زوج ابنته ، إذ كان قد أرغم على تلك المصاهرة كما تقدم ، وقد آثر أن يقف إلى جانب سانشو ، إذ وعده بأن يرد إليه أملاكه ، وأن يحقق أمانيه فى الاستقلال ، ومن ثم فقد كان من الطبيعى أن يعمل على إضعاف مملكة ليون لكى يدعم بذلك استقلاله . وهكذا نشبت الحرب بين أردونيو وبين جيش متحد من قوات سانشو ، ونافار ، وقشتالة . ولكن أردونيو هزم أعداءه ، وأخضع سائر الخارجين عليه واستقر فى العرش ، ورأى انتقاماً لخيانة فرنان كونثالث أن يطلق زوجه الملكة إبنة الكونت ، وبذلك كفرت هذه الأميرة عن خصومة أبيها لمملكة ليون .

وانتهز المسلمون فرصة الحرب الأهلية ، فتوالت غزواتهم لأراضى ليون ؛ ومن جهة أخرى فقد كان أشراف ليون فى تمرد مستمر على ملكهم ؛ وخشى أردونيو العاقبة ، فبعث سفيراً إلى قرطبة فى أوائل سنة ٩٥٥م يطلب عقد الصلح مع الناصر ، فأجابه الناصر إلى طلبه ، وبعث إليه سفيره محمد بن الحسين ، فعقد معه

---

(١) R. M. Pidal : La Espana del Cid p. 70 ; Altamira : Hisroria de Espana, Vol. I. p. 244—245.

معاهدة صلح ، تعهد فيها أردونيو بأن يصلح بعض القلاع الواقعة على الحدود ، وأن يهدم البعض الآخر . ثم توفى أردونيو بعد ذلك بقليل ، وخلفه أخوه سانشو فى الملك ؛ وكان أول ما عمل أن رفض تنفيذ المعاهدة التى عقدها أخوه مع الناصر ، فاضطر الناصر إلى إعلان الحرب ، وبعث حاكم طليطلة أحمد بن يعلى فى الجيش إلى ليون ، فغزاها ، وتوغل فى أراضيها ، واضطر سانشو أن يعقد الصلح ، وأن يقر ما سبق أن تعهد به أخوه . وبذلك استقرت علائق السلم بين الفريقين .

ومن جهة أخرى فإن فرنان كونثالث لم يتحول عن سياسة العداء نحو ليون ؛ وقد كان قبل أن يرتقى سانشو العرش ، يؤازره ويناصره ضد أخيه أردونيو ، فلما تولى أردونيو عرش ليون ، انقلب إلى خصومته وفقاً لسياسته المأثورة ضد ليون ، وكان يبغى فى الوقت نفسه أن تعود ابنته أوراكا مطلقة أردونيو الثالث إلى العرش ، بعد أن تزوجت من ابن عمه الأمير أردونيو ، وقد عاونه القدر غير بعيد على تحقيق بغيته .

ذلك أن الأحوال ما لبثت أن ساءت فى مملكة ليون ، فقد ثار الأشراف بسانشو ونزعوه عن العرش ، واحتجوا لخلعه بهزيمته أمام المسلمين فى بعض المعارك التى خاضها ، وبأن بدانته الفائقة تمنعه من ركوب الخيل ، ومن تولى القيادة ، ففر سانشو إلى بنبلونة ، إلى جانب جدته طوطة ملكة ناڤار ، وقام الأشراف فى ليون وقشتالة ، باختيار ملك جديد هو أردونيو الرابع ، وهو ابن ألفونسو الرابع ، عم الملك المخلوع وصهر الكونت فرنان كونثالث ، وكان أحدباً دميماً سيىء الخلال ، حتى لقب بالردىء El Malo . ولجأ سانشوا إلى عون الناصر ، فأرسل إليه طبيباً يهودياً من قرطبة ، يتولى علاجه من بدانته ؛ وفى سنة ٩٥٨ م (٣٤٧ هـ) قصدت طوطة إلى قرطبة ، ومعها ولدها الفتى غرسية سانشيز ، الذى كانت تحكم ناڤار باسمه ، وسانشو ملك ليون المخلوع ، فاستقبلهم الناصر استقبالا حافلا ، وعقد السلم مع طوطة ، وأقر ولدها ملكاً على ناڤار ، ووعد سانشو بالعون على استرداد عرشه ، وذلك مقابل تعهده بأن يسلم للمسلمين ، بعض الحصون الواقعة على الحدود ، وأن يهدم البعض الآخر ؛ ثم أمده الناصر بالمال والجند ، فغزا ليون ، وغزا الناڤاريون فى الوقت نفسه ولاية قشتالة من ناحية الشرق ، وانتهت هذه الحرب الأهلية الجديدة ، بانتصار سانشو وجلوسه على العرش مرة أخرى ، وفر أردونيو إلى برغش ٥

ولكن سانشو نكث بعهده للمسلمين ، وأبى تنفيذ ما تعهد به ، ثم توفى الناصر بعد ذلك بقليل ، ولزمت ليون وناڤار السكينة حيناً . ولكن فرنان كونثالث اتجه وجهة أخرى . وكان قد انتهز فرصة الحرب الأهلية ، وأعلن استقلال قشتالة ، ونصب نفسه أميراً مستقلا عليها ، وأخذ يسعى إلى توسيع أملاكه بالإغارة على الأراضى الإسلامية . وكان يرى فى نزول ميدان الكفاح ضد المسلمين ، وسيلة لتدعيم هيبته فى نفوس النصارى المتعصبين ، فأخذ يغير على الأراضى الإسلامية مرة بعد أخرى .

وكان فرنان كونثالث ، على قول المؤرخ الإسبانى « ذا عبقرية تمازجها الغطرسة ، وروح تمازجها العجرفة ، معتداً بنفسه ، وعالماً بما يمكن أن يجنيه من قلبه وساعده ، محباً للاستقلال ، تملؤه فكرة تحرير بلاده قشتالة من نير ليون ، وأن يقيم لها سيادة خاصة »(1) .

وقد رأينا فيما تقدم ، كيف لجأ أردونيو الرابع ملك ليون المخلوع إلى الحكم ، وكيف استقبله الخليفة بقصر الزهراء فى حفل مشهود ، ووعده بأن يعاونه على استرداد عرشه ، لقاء عهود قطعها على نفسه ، وكيف خشى سانشو عاقبة هذا المسعى ، فبعث إلى الحكم يعرض عليه أن يعترف بطاعته ، وأن ينفذ ما تعهد به للناصر ، وكيف عاد بعد ذلك إلى نكثه السابق حينما توفى خصمه أردونيو .

وعندئذ لم يجد الحكم بداً من الحرب ، ولم يجد الأمراء النصارى بداً من الاتحاد . وقد فصلنا فيما تقدم كيف اجتاحت الجيوش الإسلامية ، أراضى قشتالة ، ومزقت جيوش أميرها فرنان كونثالث ، فى موقعة شنت إشتيبن ، وأرغمته هو وحليفه سانشو ملك ليون على طلب الصلح ، وكيف اجتاحت غربى ناڤار عقاباً لأميرها غرسية سانشيز على نكثه ، وإغارته على أراضى المسلمين ، وكيف توالت غزوات المسلمين لأراضى قشتالة ، ما بين سنتى ٩٦٣ ، و ٩٦٧ م .

وهنا نقف قليلا أمام تلك الحقيقة التاريخية الهامة ، وهى أننا نجد قشتالة إحدى ولايات مملكة ليون القديمة ، تحارب المسلمين لأول مرة كإمارة مستقلة . ومن ذلك التاريخ تحتل قشتالة مكانتها فى تاريخ الكفاح ، بين اسبانيا النصرانية

---

(1) Modesto Lafuente : ibid ; T. II. p. 361

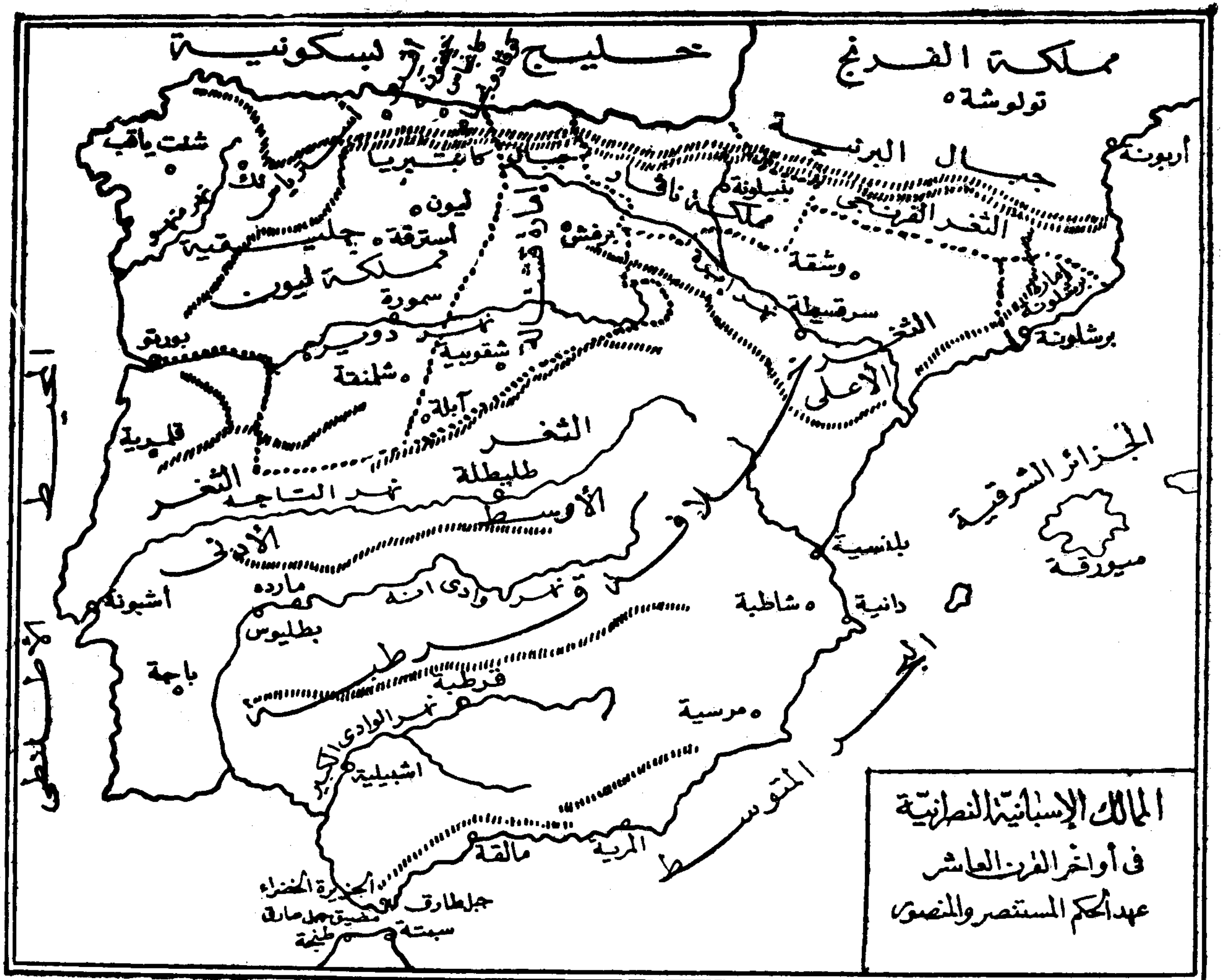
مملكة الفرنج
تولوشة
خليج بسكونية
جبال البرنية
أربونة
جبال كانتبريا
شنت ياقب
جليقية
مملكة ليون
ليون
استرقة
سمورة
نهر دويرة
بورتو
شلمنقة
شقوبية
آبلة
برغش
مملكة نافار
بنبلونة
الثغر الفرنجي
وشقة
نهر ابرة
سرقسطة
الثغر الأعلى
برشلونة
قلمرية
الثغر الأدنى
نهر التاجة
طليطلة
الثغر الأوسط
اشبونة
مارده
بطليوس
نهر وادي انه
باجة
قرطبة
نهر الوادي الكبير
اشبيلية
شاطبة
بلنسية
دانية
مرسية
المرية
مالقة
الجزيرة الخضراء
جبل طارق
مضيق جبل طارق
سبتة
طنجة
الجزائر الشرقية
ميورقة
البحر المتوسط
المحيط الأطلنطي
الممالك الإسبانية النصرانية
فى أواخر القرن العاشر
عهد الحكم المستنصر والمنصور

واسبانيا المسلمة ، وتغلو بالرغم من نشأتها المتواضعة شيئاً فشيئاً ، أعظم الممالك النصرانية رقعة ، وأوفرها قوة ومنعة ، وأشدها مراساً فى محاربة المسلمين ، وإنهاك قوى المملكة الإسلامية .

واستمر سانشو حيناً يحكم فى ظروف صعبة من جراء ثورات الزعماء والأشراف الخارجين عليه ، وكان بعد أن عقد الصلح مع الحكم ، قد أرسل إليه تحقيقاً لرغبة زوجه تريسا ، وأخته الراهبة إلبيرة ، سفارة يطلب إليه الإذن بنقل رفات القديس بلايو إلى ليون . وكان نصارى قرطبة قد عنوا بنقل رفات هذا القديس من الوادى الكبير ، فأجاب الخليفة سؤله ، ونقلت الرفات فى العام التالى فى حفل فخم ، وأودعت ليون بكنيسة خاصة أقامها الملك ، وسماها دير سان بلايو . ولم يحضر سانشو هذا الحفل لانشغاله بمقاومة الخوارج عليه . وكان من أشد خصومه والمحرضين عليه الحبر سسناندو أسقف شنت ياقب ؛ وكان هذا الأسقف قد حصن مدينته وقصره الأسقفى ، بحجة حمايتها وحماية مزار القديس ياقب من غارات النورمان ، ولكنه أعلن العصيان ، وعبثاً حاول سانشو استرضاءه ، بيد أنه اضطر أخيراً أن يفتح مدينته للملك حينما رأى فشل الزعماء الخارجين فى مقاومته .

وكان بين الزعماء الخارجين عليه من الأشراف وأشدهم مراساً ، الكونت جوندسالفو (غندشلب) سانشيز حاكم جليقية ، وكان قد استطاع أن يوطد استقلاله فى المنطقة الواقعة بين نهرى منيو ودويرة ، وأن يبسط حكمه على لاميجو وبازو وقلمرية ، الواقعة فيما وراء دويرة شمالى ولاية البرتغال ، فسار سانشو لقتاله ، ولكنه حينما عبر نهر منيو بقواته ، ألفى رسل الزعيم الثائر يعرضون عليه التسليم والطاعة ، مع رجاء واحد فقط هو أن يأذن الملك بمقابلة الكونت ، فقبل سانشو . وكان الكونت قد دبر مشروعاً دنيئاً لاغتياله . فدعاه إلى مأدبة أقامها وقدم إليه فاكهة مسمومة تناولها سانشو دون أن يخامره الريب ، وسرعان ما شعر بدبيب الموت يسرى إلى أحشائه ، فحمل فى الحال إلى ليون وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة ، ودفن بها تحقيقاً لرغبته . وكان ذلك فى سنة ٩٦٦ م(١) .

وهكذا توفى سانشو ملك ليون مسموماً ، بعد أن حكم اثنتى عشرة سنة ، فخلفه ولده راميرو الثالث ، طفلا فى الخامسة من عمره تحت وصاية عمته الراهبة

(١) Modesto Lafuente ; ibid, T. II. p 341—342

إلبيرة . ولكن معظم الأشراف أبوا الاعتراف بسلطانه . ونشبت في ليون طائفة من الثورات المحلية ، ولاسيما فى ولايات جليقية ، وحاول كثير من الزعماء الأقوياء الانفصال عن العرش ، وتوطيد سلطانهم المحلى . وكان مثل فرنان كونثالث فى الاستقلال بولاية قشتالة ، أقوى مشجع لهم ، ولبثت أخطر حركة من ذلك النوع ، هى ثورة جوندسالفو سانشيز (قاتل مليكه) حيث استمر على استقلاله بحكم المنطقة الواقعة بين نهرى منيو ودويرة ، وحكم القواعد الثلاثة الهامة لاميجو وبازو وقلمرية ، الواقعة فيما وراء نهر دويرة .

وفى خلال ذلك ، توفى الكونت فرنان كونثالث أمير قشتالة فى سنة ٩٧٠ م وخلفه فى الإمارة ولده غرسية فرناندز ، كما توفى غرسية سانشيز ملك ناڤار وخلفه ولده سانشو غرسية الثانى .

ويعلق المؤرخ لافونتى على عمل فرنان كونثالث مؤسس استقلال قشتالة وسياسته بقوله : « إن جميع الوسائل التى تذرع بها الكونت لتحقيق غايته لا تبدو مستحسنة فى نظرنا ، فإن معاملته للملوك ليون راميرو الثانى ، وأردونيو الثالث ، وسانشو الأول ، وأردونيو الردىء ، وكذلك معاملته لغرسية ملك ناڤار ، حليفاً وخصما بالتوالى لهؤلاء وهؤلاء ، وساعياً فى تولية وعزل هؤلاء وهؤلاء ، ومقسما للولاء وناقضاً له ، ولقد كانت مقتضيات السياسة وملابساتها فى صالحه ، وإن كان ذلك لايطابق حكم الأخلاق الصارم . بيد أننا نلاحظ أنه من مفاخر الكونت أنه لم يحالف المسلمين قط ، ولم يتهادن قط مع أعداء وطنه أو دينه . أما عن بدء عهد استقلال قشتالة ، فيمكن أن نضعه فى منتصف القرن العاشر ( الميلادى ) ، وهو الوقت الذى رأينا فيه الكونت يعمل لحسابه دون خضوع للملوك ليون »(١).

وأدركت الممالك النصرانية يومئذ ، وفى مقدمتها مملكة ليون ، التى شغلت بحوادثها الداخلية ، أنه لا مجال للعدوان على أراضى المسلمين ، ولزمت السكينة حيناً .

واتجه الملوك والأمراء النصارى إلى تحسين علائقهم مع بلاط قرطبة ، فتوالت زياراتهم وسفاراتهم على الحكم ، يسألون الصلح والمهادنة . وكان من الوافدين بأنفسهم على قرطبة أمير جليقية ، والراهبة إلبيرة الوصية على عرش ليون . وقد فصلنا من قبل قصة هذه الزيارات والسفارات فى موضعها .

(١) Madesto Lafuente : Ibid., T. II. p. 861

ولما توفى الحكم المستنصر ، وشغل المسلمون بعض الوقت بشئونهم الداخلية ، اعتقد النصارى أن الفرصة قد عرضت مرة أخرى لغزو أراضى المسلمين ، فأغار القشتاليون على الأراضى الإسلامية ، وتوغلوا فيها جنوباً وعاثوا فيها ؛ وهنا نهض محمد بن أبى عامر لرد عدوانهم ؛ فغزا أراضى قشتالة فى أوائل سنة ٩٧٧ م ( ٣٦٦ ﻫ ) ثم غزاها ثانية ، واقتحم مدينة شلمنقة فى العام التالى . وبدأت بذلك سلسلة الغزوات الشهيرة المتوالية ، التى شهرها المنصور بن أبى عامر ، على الممالك الإسبانية النصرانية ، واستغرقت طيلة حياته ، والتى فصلنا أخبارها فيما تقدم .

ونستطيع أن نشير هنا فيما يتعلق بمملكة ليون ، إلى ما وقع من إقدام راميرو الثالث ملك ليون ، على معاونة القائد غالب الناصرى ببعض قواته ، فى حربه مع المنصور ، فلما سار المنصور بعد ذلك لمحاربة راميرو ومعاقبته على هذا التحدى ، استغاث راميرو بغرسية فرناندز أمير قشتالة ، وسانشو غرسية ملك نافار ، فسار المنصور ، لمقاتلة القوات النصرانية المتحدة ، وهزمها فى موقعة شنت منكش فى سنة ٩٨١ م ( ٣٧١ ﻫ ) .

وعلى أثر ذلك ، رأى أشراف ليون ، أن راميرو لم يعد صالحاً لحكم المملكة ، فقرروا خلعه ، وتولية ابن عمه برمودو ملكاً عليهم (٩٨٢ م ) . ولكن راميرو لم يذعن لهذا القرار ، فجمع أنصاره واستعد للحرب ، واضطرمت بين برمودو وراميرو حرب أهلية ، انتهت بهزيمة راميرو ، وفراره إلى مدينة أسترقة ، وامتناعه بها . وحاول راميرو بعد ذلك ، أن يلجأ إلى المنصور ، وأن يستمد عونه لاسترداد عرشه . ولكنه توفى بعد ذلك بقليل ، وتخلص برمودو بذلك من منافسته .

بيد أن برمودو ، لم يشعر مع ذلك بالطمأنينة . فقد لبث فريق كبير من الأشراف على معارضتهم لحكمه ، ولبث النضال الداخلى مؤذناً بالخطر . وعندئذ قرر برمودو أن يلجأ إلى المنصور ، فالتمس منه التأييد والعون ، على أن يعترف بطاعته ، فأجابه المنصور إلى طلبه ، وبعث إليه بقوة من جنده ، حلت بمدينة ليون عاصمة المملكة ، وبذلك أصبحت ليون مملكة تابعة تؤدى الجزية .

ولكن برمودو حينما شعر بتوطد مركزه ، واشتداد ساعده ، قرر أن يتخلص

من نير المنصور ، فهاجم الحامية الإسلامية ، واستخلص مدينة ليون من يدها ، فنهض المنصور لمحاربته ، وسار إلى مدينة ليون فاقتحمها وخربها ، ومزق قوى النصارى ، ثم استمر يغزو أراضى ليون تباعاً ، ويوقع الهزائم المتوالية ببرمودو ، حتى اضطر برمودو إلى طلب الصلح ، والعودة إلى الاعتراف بالطاعة (٩٩٥ م) .

وقد رأينا كيف سار المنصور بعد ذلك ، إلى غزو مدينة شنت ياقب عاصمة إسبانيا النصرانية الروحية (٩٩٧ م) ، وكيف انضم إليه فى تلك الغزوة معظم أشراف جليقية . وعندئذ لم ير برمودو مناصاً فى النهاية ، من العود إلى التماس الصلح ، والاعتراف بالطاعة ، ونبذ كل مقاومة . فأجابه المنصور إلى طلبه . وعاش برمودو بعد ذلك عامين آخرين ، قضاهما فى إصلاح الكنائس والأديار والقلاع ، التى هدمت خلال الحرب . ثم توفى سنة ٩٩٩ م ، فخلفه ولده ألفونسو الخامس طفلا . وقام بالوصاية عليه الكونت منديث كونثالث أحد أشراف المملكة[١] .

### ٣ — مملكة ناڤار

أشرنا فيما تقدم إلى نشأة مملكة ناڤار المستقلة ، فى أواخر القرن التاسع الميلادى ، وكيف تولى عرشها سانشو غرسية (الأول) ، عقب اعتزال أخيه فرتون الملك فى سنة ٩٠٥ م . وقد عمل سانشو على توسيع أطراف مملكته الصغيرة ، واستطاع أن يدفع حدودها جنوباً حتى ناجرة ، وخاض مع المسلمين حروباً عديدة ، أيام الأمير عبد الله ، وفى أوائل عهد الناصر . وقد غزا الناصر ناڤار سنة ٩٢٠ م ، ثم بعد ذلك فى صائفة ٩٢٤ م ، ودخل عاصمتها بنبلونة وخربها ، وسحق قوى ناڤار ، وقضى على كل مقاومة من جانبها وكل نزعة للعدوان .

ولما توفى سانشو فى سنة ٩١٦ م ، خلفه ولده غرسية سانشيز طفلا ، وحكم أولا تحت وصاية عمه خمينو غرسيس ، ثم بعد ذلك تحت وصاية أمه الملكة طوطة ، التى لبثت تحكم باسمه طويلا ، حتى بعد أن بلغ سن الفتوة والنضج . وكانت ناڤار خلال ذلك ترتبط برباط المصاهرة ، مع المملكتين النصرانيتين الأخريين . فقد كان أردونيو الثالث ملك ليون متزوجاً من أوراكا إبنة الملكة طوطة وأخت غرسية . وكان فرنان كونثالث كونت قشتالة متزوجاً من إبنة أخرى لطوطة هى

---

(١) ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٨١ ؛ وكذلك **Altamira : ibid, Vol. I. p. 246**

سانشا : وكانت طوطة تحتل بذلك مقاماً ملحوظاً فى الممالك الثلاث . ولما توفى راميرو الثانى ملك ليون فى سنة ٩٥٠ م ، واضطرمت الحرب الأهلية حول وراثة العرش بين ولديه أردونيو وسانشو ، وقفت نافار إلى جانب سانشو ، ولد الملكة أوراكا النافارية ، ثم وقفت بعد ذلك إلى جانبه مرة أخرى ، بعد أن تولى العرش عقب وفاة أخيه ، وقام أشراف ليون بخلعه ، ولجأت الملكة طوطة فى معاونته إلى الناصر حسبما تقدم .

ثم اضطربت العلائق بين نافار وبين جارتها قشتالة ، ونشبت الحرب بينهما ، فهزم الكونت فرنان كونثالث أمير قشتالة ، وأسر فى موقعة نشبت بين الفريقين على مقربة من ناجرة ، واعتقل فى نافار مدة طويلة ضعفت فيها شوكة قشتالة ولزمت السكينة حيناً .

ولما توفى الناصر ، وتولى مكانه ولده الحكم المستنصر ، طالب ملك ليون بتسليم الحصون التى تعهد بتسليمها إلى أبيه ، وطالب ملك نافار بأن يسلمه أسيره فرنان كونثالث أمير قشتالة ، فرفض الملكان مطالب الحكم ، وأطلق غرسية أسيره فرنان كونثالث ، فهرع إلى برغش عاصمته ، وقبض على صهره أردونيو الرابع ، وأرسله مخفوراً إلى الحدود الإسلامية ، وهنالك التجأ إلى القائد غالب حاكم الثغر ، ثم سار معه إلى الحكم مستجيراً به ، واستقبله الحكم كما تقدم فى احتفال مشهود .

واستطال حكم غرسية سانشيز حتى سنة ٩٧٠ م ، واستمرت أمه الملكة العجوز طوطة ، محتفظة بإشرافها عليه ، ومشاركتها الفعلية فى الحكم ، حتى وفاتها فى سنة ٩٦٠ م .

ولما توفى غرسية سانشيز ، خلفه فى عرش نافار ولده سانشو غرسية الثانى . وكانت مملكة نافار قد اتسعت رقعتها عندئذ ، وأصبحت تشمل عدا ولاية نافار الأصلية ، ولايات كانتبريا ، وسوبرابى ، ورباجورسا ، ونمت مواردها وقواها حتى أن سانشو لم يحجم عن الإغارة على الأراضى الإسلامية ، ورد المنصور على هذه الجرأة ، فغزا نافار ، وتوغل فيها حتى اقتحم عاصمتها بنبلونة ، وذلك فى سنة ٩٨٧ م .

وخلف سانشو فى الحكم ولده غرسية سانشيز الثالث ، فلم يدم حكمه سوى

خمسة أعوام ، وفى عهده غزا المنصور نافار مرة أخرى ( ٩٩٩ م ) . ثم توفى غرسية فى العام التالى ، فخلفه ولده سانشو الثالث الملقب بالكبير .

٤ — عناصر المجتمع فى اسبانيا النصرانية

سبق أن تحدثنا فيما تقدم عن عناصر المجتمع فى اسبانيا المسلمة ، ويجدر بنا أن نتحدث هنا عن عناصر المجتمع فى اسبانيا النصرانية .

لم يكن فى اسبانيا النصرانية بعد الفتح الإسلامى ، ما يمكن أن يسمى بالحياة القومية العامة . وكانت كل ولاية أو مملكة ، تعيش وفق ظروفها ونظمها الخاصة ، وكان هذا التباين ذاته ، يقوم فى الداخل ، ويتفاقم أحياناً بما يحدث إلى جانبه من خلافات أخرى ، تصيب النظم والحياة الإجتماعية .

وقد بقى تكوين المجتمع النصرانى الإسبانى عقب الفتح ، على ما كان عليه أيام القوط ، فكان يتكون من عنصرين رئيسيين ، هما الأحرار ، والعبيد ؛ وكان الأحرار وهم الذين يستطيعون التصرف فى أشخاصهم ، والتنقل بحرية من مكان إلى آخر ، ينقسمون بدورهم إلى أشراف وعامة .

وكانت طبقة الأشراف ، تتكون أولا من الحكام ومن خاصة الملك ، وتتوقف فى تكوينها على الملك ، يمنحها الألقاب والأراضى والوظائف . ويلحق بهذه الطائفة كبار الملاك ، الذين يحصلون على أملاكهم سواء بالميراث أو الهبة . وكان للأشراف امتيازات كثيرة ، سواء بالنسبة لأشخاصهم أو أملاكهم ، فكانوا داخل أراضيهم سادة بكل معنى الكلمة ، لهم مطلق الحرية والتصرف ، بل كان لهم أن يتركوا خدمة الملك ، وأن ينتقلوا إلى مملكة أخرى ، إذا غضبوا منه لسبب من الأسباب . وكان من جراء ذلك ، أن كثيراً من الأشراف النصارى ، كانوا ينتقلون إلى الأراضى الإسلامية ، وينضوون تحت لواء الأمراء والخلفاء ، ويحاربون معهم ضد مواطنيهم وأبناء دينهم .

وكان هؤلاء الأشراف يعفون من الضرائب ، خلافاً لما كان عليه الأمراء فى عهد القوط ، وكانوا ملزمين فقط بمساعدة الملك وقت الحرب ، فينتظمون مع أتباعهم فى الجيش المحارب على نفقة الملك .

وكان يلحق بهذه الطبقة من الأشراف ، بعض طوائف أخرى أقل أهمية من الناحية الاجتماعية ، مثل الفرسان والمحاربين ، وهم الأشخاص الذين يستطيعون

أن يقتنوا لأنفسهم خيلا وسلاحاً ، ليشتركوا فى الحرب ، ثم يمنحون نظير هذا الاشتراك بعض الإمتيازات . وقد نمت هذه الطبقة فيما بعد . وكذلك كان ينتمى إلى الأشراف ، وينضوى تحت حمايتهم ، بعض الطوائف الميسورة ، مثل صغار الملاك ، وأصحاب الصناعات . ولم تكن هذه الحماية تقف عند الأشخاص أو الأسر المعينة فقط ، ولكنها كانت تشمل أحياناً بعض القرى والضياع ، فينضوى أهل القرية أو الضيعة ، تحت حماية الشريف بشروط معينة ، وكان هؤلاء يقدمون جزءاً من أملاكهم إلى السيد المتولى حمايتهم ، ويؤدون إليه إتاوات معينة ، وأعطية شخصية . بيد أنهم كانوا فى حل من تركه إذا قصر فى حمايتهم ، والانضواء تحت حماية سيد آخر .

ويلحق أخيراً بهذه الطبقة الشعبية الزراع الأحرار ، وهم الأشخاص الأحرار الذين لا يملكون أرضاً ، ولكن يتلقون من الملاك أرضاً لزرعها . وكذلك الأحرار الذين كانوا من قبل رقيقاً ، ثم وفقوا إلى تحقيق حريتهم ، وكان هؤلاء عليهم أن يؤدوا إلى السيد أو المالك ضرائب وإتاوات عينية فادحة ، بيد أنه كان فى وسعهم أن يتركوه متى شاءوا .

إلى جانب هذه الطبقات الحرة من المجتمع النصرانى ، كانت توجد الطبقة المستعبدة أو طبقة الأرقاء ، وقد بقيت أحوالها على ما كانت عليه أيام القوط تقريباً . وكانت تتكون من عناصر عدة ، فمنهم عبيد الدولة ، وعبيد الملك ، وعبيد الكنيسة والأديار (عبيد رجال الدين) ، ثم عبيد الأفراد وعبيد الأرض الملحقين بها . وكان عبيد الأفراد على الأغلب من أسرى الحرب ، ومنهم الأسرى المسلمون . وقد استمرت هذه الطوائف من الرقيق ، قائمة حتى القرن الثانى عشر ، ثم اندمجت بعد ذلك فى طائفة واحدة من الأرقاء ، هم رقيق الضياع .

وكان رقيق الضياع يعتبرون من مرافق الأرض ، وينتقلون معها بانتقال الملكية . وكانوا يزرعون الأرض على نفقتهم ، ويؤدون إلى السيد ، سواء أكان هو الملك ، أو الأشراف أو الكنيسة ، جزءاً من المحصول ، وإتاوات أخرى ، ويقدمون إلى جانب ذلك خدمات شخصية كثيرة ، مثل القيام بحرث أرض السيد ، أو ضم محاصيله وعصر نبيذه وزيته ، أو المعاونة فى بناء داره ، وتنحصر حقوقهم فى التمتع بالسكن ، والعيش فى الضيعة . وكان بيع الضيعة يغدو فى معظم

الأحيان بالنسبة لهم محنة أليمة ، إذ يفرق أحياناً بين الرجل وزوجه ، أو بينه وبين أولاده .

وكانت هذه الطبقة من الأرقاء تتكون من أبناء العبيد ، ومن المحكوم عليهم بالرق ، فى قضية مدنية أو جنائية ، ومن أسرى الحرب ، وقد كانوا أسوأ طوائف الرقيق حظاً .

وكان تحرير الرقيق ، يقع إما بالعتق أو بالفرار أو الثورة . على أن ثورات العبيد كانت قليلة ، وكان الأغلب أن يظفر العبيد بحرياتهم ، فى أعقاب الثورات التى يشتركون فيها . أما العتق فكان يجرى وفقاً لتعاليم الكنيسة . على أن هذه الطائفة من المتحررين ، لم تكن تتمتع بكامل حقوق الطوائف الحرة الأخرى ، فكان السيد يحتفظ لنفسه أحياناً قبل المعتوقين ببعض الخدمات أو الإتاوات .

وقد استمرت الطبقة الوسطى ، تنمو على كر الزمن ، بزيادة عدد المعتوقين أو الأحرار الأصائل ، حتى إذا كان القرن العاشر ، كانت هذه الطبقة ، تكون الجزء الأعظم من السكان ، وتتمتع بظروف وأحوال أفضل بكثير مما كانت عليه من قبل(١) .

### ٥ — تنظيم السلطات السياسية

أما من حيث التنظيم الأساسى ، وتوزيع السلطات السياسية ، فى الممالك الإسبانية النصرانية ، فقد كانت هذه السلطات موزعة ، بين ثلاث جهات رئيسية ، هى الملك ، والأشراف ، ورجال الدين .

وقد كان المفروض أن تكون السلطة الملكية ، هى أعلى السلطات وأشملها ، وقد كانت كذلك من الوجهة النظرية . فقد كان الملك ، هو رئيس الدولة الأعلى ، وله الولاية على كل فرد تضمه أرض المملكة . وكان الملك مصدر التشريع ، ومنه وباسمه تصدر القوانين العامة ، وكذا كان له حق الموافقة على القوانين المحلية ، التى يصدرها الأشراف بالنسبة للمنتمين إليهم ، وله أن يدعو رعاياه إلى الحرب ، وأن يرغمهم على الخدمة فيها ، وأن يصدر السكة ، وأن يباشر العدالة . وهو الذى يعين الأساقفة ويقيلهم ، ويؤسس الكنائس والأديار ، وهو الذى يقود الجيش ، وعلى الجملة فهو الذى يتولى سائر الوظائف السياسية والعسكرية والدينية والمدنية .

---

(١) Altamira : ibid ; Vol. I. p. 287-293

على أن هذه السلطات لم تكن متساوية فى جميع الأحوال والعصور ، وقد تعدلت بمضى الزمن ، وانتقصت أطرافها ، أحياناً بطريق التنازل من جانب الملوك ، وبخاصة لأن الملك لم يكن يزاول هذه السلطات بطريق مباشر :

وكان الأشراف يتمتعون داخل أملاكهم ، بقدر كبير من الاستقلال ، ويبسطون حكمهم على طائفة كبيرة من الأراضى والقرى والضياع والحصون : وكان السيد يعيش فى حصنه ، وهو يقع عادة فى موقع إستراتيجى حصين ، ويحيط به عدد من المساكن المحصنة ، ويخضع لسلطته سائر سكان المنطقة ، بعضهم كعبيد ، والبعض الآخر من المشمولين بحمايته . وكان يجبى منهم الضرائب ، والإتاوات العينية ، ويدعوهم للخدمة العسكرية متى دعاه الملك إلى الحرب ، ويباشر القضاء بينهم ، وله أن يوقع عليهم بعض الأحكام الجنائية التى تتصل بالقانون العام . وعلى الجملة فقد كان للشريف على سكان منطقته ، السيادة المطلقة ، وهو الذى يوزع بينهم مختلف المناصب والأعمال .

وأما القضاء قبل الأشراف أنفسهم ، فقد كان يزاوله بالنسبة للسيد ، أشراف من طبقته ، ولا يزاوله قضاة الملك ، لأنهم لم يكونوا من الأشراف . وكان للشريف أن يشهر الحرب على زملائه الأشراف ، إذا أصابه منهم حيف أو إهانة ، وله أن يترك خدمة الملك دون أن يخسر شيئاً من أملاكه ، بل كان له أن يشهر الثورة ضد الملك . ولم يكن يحد من هذه السلطة ، التى يمنحها الملك إياه سوى أمرين ، الأول الخيانة ، وفى هذه الحالة يجرد الشريف من أملاكه وامتيازاته ، والثانى متى ضمت لأملاكه أراض جديدة ، فإنه لا يستطيع أن يبسط عليها سلطته وامتيازاته إلا بموافقة الملك .

وكان الأشراف يشاركون فى مزاولة القضاء مشاركة فعلية ؛ فقد كانوا يؤلفون جزءاً من المحاكم العادية ، ويشتركون فى تشكيل المحاكم الملكية كلما اجتمعت ، ويحتلون كذلك بعض المناصب الإدارية الهامة : وكان لهذه المساهمة الخطيرة ، أثرها فى إذكاء شهوتهم إلى الاستئثار بالسلطة ، وتوطيد استقلالهم المحلى ، وكثيراً ما كانوا يلجأون إلى الثورة ، لفرض إرادتهم على العرش ، أو يتدخلون فى وراثة العرش بالقوة القاهرة .

ومع ذلك فقد كان الملوك ، يعمدون إلى الإغضاء فى أحيان كثيرة ، ولو كان

فى ذلك إضرار بالسلطة الملكية . ذلك أن ضعف الملوكية ، وضرورات الحرب ، ثم الحاجة إلى معاونة الأشراف أيام الحرب الأهلية حول وراثة العرش ، كانت ترغم الملوك على التسامح ، بل وأحياناً على زيادة المنح والامتيازات للأشراف ، وذلك حرصاً على استتباب الأمن والسكينة ، إذ كان الأشراف فى تلك العصور قوة يخشى بأسها .

وقد كانت طائفة الأشراف هذه ، بالرغم من مركزها الاجتماعى الممتاز ، تنطوى على عيوب ومثالب كثيرة ، فقد كانت تجنح إلى استغلال الرعايا ، وانتزاع ما فى أيديهم ، بل وقد كانت ترتكب الجرائم جهاراً ، فتعمد إلى نهب التجار والمسافرين ، وكان الأشراف يقتتلون فيما بينهم للفوز بثمار أمثال هذه الجرائم . وقد استمر هذا النظام الإجرامى الجائر عصوراً ، بالرغم من تدخل الملك . والأساقفة ، لحفظ الأمن فى كثير من الأحيان .

وإلى جانب الأشراف ، كان رجال الدين من الأساقفة والرهبان ومن إليهم ، يتمتعون كذلك فى أراضيهم بسلطان مستقل . وكان للكنائس والأديار أراض شاسعة خاصة ، ترجع إلى الهبات والنذور وغيرها ، وفيها تزاول السلطة بطريق مطلق ، وفقاً لروح هذا العصر الإقطاعى . وكان لها أيضاً كثير من العبيد والزراع تتمتع قبلهم كالأشراف ، بالحق فى تحصيل الجباية والمحاصيل وغيرها . وكان الملوك فى أحيان كثيرة يهبون بدافع الورع والحماسة الدينية ، إلى الكنائس والأديار ، رقاعاً شاسعة من الأرض ، فتبسط سلطانها على سكان المنطقة ، وتحصل منهم الإتاوات ، وتزاول بينهم القضاء . وكانت الكنائس والأديار ، تدفع هذه السلطات أحياناً إلى حدود مرهقة ، اجتناباً لافتئات الأشراف المجاورين . وكان رجال الدين ، على مثل الأشراف ، يلبون دعوة الملك إلى الحرب هم ورجالهم ، ويحشدون الصفوف من بين رعاياهم من الأحرار والزراع والأرقاء ، أو يعهدون بذلك إلى رئيس من غير رجال الدين . والخلاصة أن الأساقفة والرهبان كانوا كالأشراف ، سادة بكل معانى الكلمة ، وكانوا يمتازون فى ذلك على الأشراف ، بأن كان الملك يصدر الوثائق والمراسيم المكتوبة بامتيازاتهم ، وكان يتبع الكنيسة أحياناً مناطق كثيفة من السكان ، كما كان الشأن فى شنت ياقب ، حيث قامت حول الكنيسة مدينة عظيمة ، صارت تابعة لها هى وما حولها من الأراضى الشاسعة .

وكانت سلطة الأسقف تتخذ فى أحيان كثيرة صورة مطلقة فى المدينة وفى الحقل ، يزاولها على يد كونتات وموظفين وغيرهم . وكان له جيشه أو جنده الخاص ، يحمون أراضيه من الأجانب أو الأشراف المغيرين(١) .

ونلاحظ أن هذا التنظيم السياسى ، الذى تطبعه روح إقطاعية عميقة ، والذى ينطوى على توزيع السلطة بين مختلف الطوائف والعصبيات ، بصورة تجعل دولا عديدة داخل الدولة ، يتنافى فى جملته وتفاصيله مع التنظيم السياسى للدولة الأندلسية الإسلامية . فقد رأينا فيما تقدم ، كيف كان العرش يحرص منذ البداية على سلامة السلطة المركزية ، وكيف بذل أمراء بنى أمية ، منذ عبد الرحمن الداخل جهودهم ، لإخماد النزعة القبلية ، وتحطيم رياستها ؛ ثم جاء الناصر فحطم العصبية العربية ، وقضى على رياسة القبائل العربية بصورة نهائية ، واستخلص السلطة كلها للعرش ، ولم يكن العرش يتسامح بعد ذلك ، مع أية رياسة محلية تنزع إلى الاستقلال ، إلا ما كان بالنسبة لبعض الثغور النائية ، مثل طليطلة وسرقسطة ، وذلك لأسباب عملية واستراتيجية .

---

(١) R. Altamira : ibid, Vol. I. p. 293-299

# الفصل الرابع

## عبد الملك المظفر بالله

عبد الملك بن المنصور يتولى الحجابة وتدبير المملكة . إشادة الرواية الإسلامية بعهده وبخلاله . يحذو حذو أبيه فى سياسته نحو المغرب . يتابع سنته فى الغزو . خروجه إلى الغزو ومسيره إلى الثغر الأعلى . عيثه فى أراضى برشلونة . عوده إلى قرطبة واستقبال هشام له . جلوسه فى الزاهرة . سفارة أمير برشلونة . إحتكام أميرى قشتالة وجليقية إليه . غضب سانشو غرسية وعدوانه . مسير عبد الملك لغزو قشتالة . غزوه لمملكة ليون . غزوة بنبلونة . استقباله لسفير القيصر فى مدينة سالم . غزوة قلونية أو غزاة النصر . إتخاذ عبد الملك لقب المظفر بالله . قصة هذا اللقب ومرسومه . استئنافه للغزو واختراقه لقشتالة . الغزوة السابعة أو غزاة العلة . مرضه وتفرق جيشه . وفاته . ما قيل عن اغتياله بالسم . موقفه من الخليفة هشام . إنهماكه فى الشراب واعتماده على الغلمان والوزراء . الوزير عيسى ابن القطاع . المنافسة بينه وبين الفتيان . تغلب الفتى طرفة واستئثاره بالسلطة . تغير عبد الملك عليه . القبض عليه وإعدامه . ابن القطاع يسترد نفوذه وسلطانه . كبرياؤه وتعسفه . الوقيعة فى حقه . استظهار عبد الملك بالصقالبة والبربر . سخط الأسر العربية لذلك . تآمر ابن القطاع على إزالة بنى عامر . وقوف عبد الملك على المؤامرة . بطشه بالوزير وأصحابه . استرداده لسائر السلطات . صفات عبد الملك وخلاله .

لما توفى المنصور بن أبى عامر بمدينة سالم ، فى السابع والعشرين من رمضان سنة ٣٩٢ هـ ، بعد أن ألقى إلى ولده عبد الملك، وصيته ونصائحه الأخيرة ، بادر عبد الملك بالعودة إلى قرطبة ، تاركاً لأخيه الأصغر عبد الرحمن ، أمر العناية بمواراة أبيه ، والعودة بالجيش . وما كاد يصل إلى العاصمة ، حتى بادر برؤية الخليفة هشام المؤيد ، واستصدر منه المرسوم بتوليته الحجابة، وجلس فى الحكم مكان أبيه بالزاهرة . وتلى نص المرسوم بالمسجد الجامع ، وأنفذت الكتب إلى الجهات ، وإلى عدوة المغرب ، معرفة بوفاة المنصور وتولية ابنه عبد الملك تدبير المملكة مكانه . وكان لوفاة المنصور وقع عظيم بقرطبة ، فحزن الناس لفقده أيما حزن ، وأدرك العقلاء أن رزءاً فادحاً نزل بالإسلام وبالأندلس . واعتقد فريق من الفتيان المروانيين بالقصر ، وبعض الناقمين من العناصر الأخرى ، أن الفرصة قد سنحت ، للتحرر من نير الحكم القائم ، والعود إلى النظام الخلافى ، ولكن السلطات العامرية كانت ساهرة . فقبض فى الحال على عدد من المحرضين ،

وأبعدوا إلى العدوة ، واستتب الأمر لعبد الملك ، دون ما جهد أو اضطراب ، واستقبل الناس حكمه بالاستبشار والرضى .

وكان عبد الملك ، حينما خلف أباه المنصور فى الحكم ، فى الثامنة والعشرين من عمره ، إذ كان مولده بقرطبة فى سنة ٣٦٤ هـ ، ويكنى أبا مروان ويلقب بسيف الدولة وبالمظفر بالله ، وأمه حرة تدعى الذلفاء ؛ وقد رأينا كيف تمرس عبد الملك فى شئون الحكم أيام أبيه ، وكيف تولى القيادة ، واشترك معه فى كثير من غزواته ، ومن ثم فقد قبض عبد الملك على زمام الأمور بحزم وكفاية ، واعتزم أن يسير على خطى أبيه ، سواء فى تدبير الشئون الداخلية ، أو الاستمرار فى غزو الممالك النصرانية .

وتشيد الرواية الإسلامية بعهد عبد الملك على قصره ، وما بلغته الأندلس فيه من الرخاء والنعماء ، وتقدمه إلينا فى صور طيبة لامعة . فيقول لنا ابن حيان فى قوة وحماسة : « انصب منه الإقبال والتأييد على دولته انصباباً ، ما عهد مثله فى دولة . وسكن الناس منه إلى عفاف ، ونزاهة ، ونقى سريرة ، ووثوق فى بعد همته ، اطمأنوا بها إلى جنبه ، فى السر والعلانية ، فباحوا بالنعم ، واستثاروا الكنوز ، وتناهوا فى الأحوال ، وتناغوا فى المكاسب ، وتحاسدوا فى اقتناء الأصول ، وابتناء القصور ، وغالوا فى الفرش والأمتعة ، واستفرهوا المراكب والغلمان ، وغالوا فى الجوارى والقيان ، فسمت أثمان ذلك فى تلك المدة ، وبلغت الأندلس فيها الحد الذى فاق الكمال ؛ فهد تلك الدولة فى احتشاد النعم عندها ، وارتفاع حوادث الغير عنها ... فى كنف ملك مقتبل السعد ، ميمون الطائر ، غافل عن الأيام ، مسرور بما تتنافس فيه رعيته من زخرف دنياها . فاجتمع الناس على حبه. ولم يدهنوا فى طاعته ، ورضى بالعافية منهم ، وآتوه إياها فصفى عيشه ، وانشرح قلبه ، وخلصه الله من الفتنة » .

ويشيد ابن حيان بعد ذلك ، بعفة عبد الملك ، وورعه وتواضعه وشجاعته وحيائه ، وتورعه عما يشين الملك من المجون والاستهتار ، وبره بوالديه ، وثباته على عهد أبيه . كل ذلك فى عبارات تنم عن عميق تأثره وإعجابه[1].

بيد أن هذه الصور المشرقة التى تقدم إلينا عن خلال عبد الملك ، تغشاها

(١) نقله أعمال الأعلام ص ٨٤ و ٨٥ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ٣ .

من الناحية الأخرى خلة قاتمة ، هى شغفه بمعاقرة الشراب وانهماكه فى لذاته[1].

افتتح عبد الملك المنصور عهده ، بإجراء كان له فى نفوس الناس أطيب وقع ؛ وذلك أنه أسقط سدس الجباية عن سائر الناس ، فى سائر بلاد الأندلس . فكان لذلك أثره فى التخفيف عن الناس ، والرفق بهم ، وبث شعور الرضى والاستبشار بالعهد الجديد .

وحذا عبد الملك حذو أبيه المنصور نحو المغرب ، فى تأييد زناتة ومغراوة ، والإبقاء على ولائهم . وكان المنصور حينما توفى زيرى بن عطية زعيم مغراوة ، فى سنة ٣٩١ هـ ، قد أقر ولده المعز حاكماً على المغرب حسبما قدمنا . فلما تولى عبد الملك الحجابة ، أعلن المعز طاعته له ، ودعى له على منابر المغرب ، فكتب إليه عبد الملك بعهده ، على سائر ما يملكه من أقطار المغرب ( سنة ٣٩٣ هـ ) على أن يؤدى إلى حكومة قرطبة ، مقادير معينة من المال والخيل والدرق . واستمر المعز على الوفاء بعهوده ، أيام عبد الملك وأخيه عبد الرحمن من بعده[2].

واعتزم عبد الملك أن يسير على سنن أبيه فى متابعة غزو الممالك النصرانية ، وألا يترك لها فرصة لتذوق السلم والدعة . وكان الملوك النصارى قد تنفسوا الصعداء عند وفاة المنصور ، واعتقدوا أن الظروف قد تتغير ، وأن أخطار الغزوات الإسلامية قد تخبو ، ولكن سرعان ما تبدد هذا الأمل . ذلك أنه لم تمض أشهر قلائل على تولية عبد الملك ، حتى اتخذ الأهبة لغزوته الأولى ، واستعد لها استعداداً خاصاً ، ووفدت على قرطبة طوائف كبيرة ، من الزعماء والمتطوعة من العدوة ، للاشتراك فيها ، وأجزل لهم عبد الملك الصلات والأرزاق ، ووزع فيهم ما كان مخزوناً من السلاح .

وخرج عبد الملك بالجيش من مدينة الزاهرة ، فى شعبان سنة ٣٩٣ هـ ( يونيه ١٠٠٣ م ) . وتصف لنا الرواية مشهد خروجه فتقول لنا إنه « خرج على الناس شاكى السلاح ، فى درع جديد سابغة ، وعلى رأسه بيضة جديدة مثمنة الشكل مذهبة ، شديدة الشعاع ، وقد اصطفت القواد والموالى والغلمان الخاصة ، فى أحسن تعبئة ، فساروا أمامه ، وقد تكنفه الوزراء الغازون معه »[3]. وسار عبد الملك

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٣ .

(٢) نفح الطيب ج ٢ ص ١٩٨ ، والاستقصاء ج ١ ص ٩٥ .

(٣) البيان المغرب ج ٣ ص ٥ .

أولا إلى مدينة طليطلة ، ثم ارتد منها إلى مدينة سالم ، وهنالك انضم إليه الفتى واضح فى قواته ، ووفد عليه فى نفس الوقت قوة من النصارى ، أرسلها الكونت سانشو غرسية أمير قشتالة ، وفقاً لمعاهدته مع المنصور .

وتابع الحاجب عبد الملك سيره بعد ذلك نحو الثغر الأعلى ، واستراح أياماً فى سرقسطة ، ثم غادرها قاصداً إلى الثغر الإسبانى أو بعبارة أخرى إلى إمارة برشلونة التى بدت من أمرائها منذ أيام المنصور نزعة إلى العدوان ؛ وأشرف على سلسلة من الحصون القوية الواقعة جنوبى جبال مونسيش ، واستولت قوات الفتى واضح على حصن مدنيش[١] ، وحاصر الحاجب بقواته حصن ممقصر أو ممقصره[٢] ، واستولى عليه بعد قتال عنيف ، وأباد حاميته ، وعاث المسلمون بعد ذلك فى بسائط برشلونة ، وخربوا كثيراً من حصون العدو ، واستولوا على كثير من الغنائم والسبى .

وقضى الحاجب وجيشه عيد الفطر فى بسائط برشلونة ، واحتفل بالعيد احتفالا فخماً ، واستقبل طبقات الأجناد مهنئين ومسلمين . وبعث من معسكره رسالتين إلى قرطبة من إنشاء كاتبه أحمد بن برد يصف فيهما الفتح ، إحداهما برسم الخليفة هشام المؤيد ، والثانية لتقرأ على الكافة فى جامع قرطبة .

ثم قفل عبد الملك بجيشه عن طريق مدينة لاردة . واخترق الثغر الأعلى جنوباً إلى قرطبة ، فدخلها فى الخامس من ذى القعدة . وهنالك تلقاه الأكابر والعلماء مهنئين مستبشرين ؛ وقصد الحاجب من فوره إلى الخليفة هشام ، فاستقبله أحسن استقبال ، وأكرم منزله ، وخلع عليه من ثيابه وسلاحه ، فشكره الحاجب وقبل يده . وفى اليوم التالى جلس بقصر الزاهرة ، واستقبل مختلف الوفود ، وكان يوماً مشهوداً[٣] .

وقد نظم ابن دراج القسطلى فى التهنئة بهذه الغزوة قصيدة هذا مطلعها :

بدا ريح السعد واستقبل النجح    فبالله فاستفتح فقد جاءك الفتح

(١) هو باسمه الإسبانى حصن **Meya** .

(٢) هو باسمه الإسبانى حصن **Monmagastre** ؛ ويسميه ابن الخطيب حصن منقص ( أعمال الأعلام ص ٨٧ ) .

(٣) راجع فى أخبار هذه الغزوة : البيان المغرب ، ج ٣ ص ٥ – ٩ ، وأعمال الأعلام ص ٨٧ .

وقد قدّم النصر العـــزيز لواءه | وقبل طلوع الشمس ينبلج الصبح
فقـــد فى سبيل الله جيشاً كأنه | من الليل قطع طبق الأرض أوجنح
كتائب فى أقدامها النجح والهدى | وألوية فى عقدها اليمن والنجح(١)

ولم يمض قليل على ذلك ، حتى أرسل أمير برشلونة الكونت رامون بوريل الثالث ، سفارة إلى قرطبة يطلب عقد الصلح والمهادنة ، فاستقبل السفراء الفرنج استقبالا حافلا ، على نمط أسلافهم من السفراء النصارى . وكانت هذه آخر فرصة من نوعها أبديت فيها أبهة الخلافة وفخامتها(٢) .

وكان من أثر هيبة عبد الملك فى نفوس الملوك النصارى ، أن احتكم إليه أمير قشتالة الكونت سانشو غرسية ، ومننديث كونثالث زعيم جليقية ، والوصى على ملك ليون الطفل . وكان ملك ليون وهو ألفونسو الخامس ، يومئذ ما يزال حدثاً فى العاشرة من عمره ، وكانت أمه إلبيرة أختاً لسانشو غرسية ، وكان سانشو يرى بذلك أنه أحق بالوصاية على ابن أخته الملك الطفل ، من مننديث كونثالث . فلما احتكم الطرفان إلى عبد الملك ، ندب قاضى النصارى أصبغ بن سلمة ، لبحث النزاع والفصل فيه ، فقضى لمننديث كونثالث بأحقيته للوصاية ، واستمر بالفعل وصياً على ملك ليون حتى قتل غيلة فى سنة ٣٩٨ هـ ( ١٠٠٨ م ) (٣).

والظاهر أن سانشو غرسية لم يرضه هذا الحكم ، فبدت منه أعراض العدوان على أرض المسلمين ، أو هو قد اعتدى عليها بالفعل . ومن ثم فإنا نجد عبد الملك يخرج بقواته فى صيف سنة ٣٩٤ هـ (١٠٠٤ م) ويقصد إلى أراضى قشتالة ويعيث فيها ، ولم يبد سانشو أية مقاومة ، فقفل عبد الملك إلى قرطبة ، واضطر سانشو إلى طلب الصلح ، وقصد بنفسه إلى قرطبة ، فاستقبله عبد الملك أحسن استقبال ، وأعيد عقد الصلح والتهادن بين الفريقين ، وتعهد سانشو أن يعاون عبد الملك فى غزواته ضد مملكة ليون ، وضد خصومه من بنى غومس وغيرهم .

وفى العام التالى ( ٣٩٥ هـ — ١٠٠٥ م ) خرج عبد الملك فى قواته وسار

---

(١) تراجع هذه القصيدة بأكملها فى ديوان ابن دراج القسطلى الذى سبقت الإشارة إليه ص ٤٦٦ و ٤٦٧ .

(٢) الذخيرة . القسم الرابع ، المجلد الأول ، ص ٦٤ .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٨١ ؛ والبيان المغرب ج ٣ ص ١٠ .

صوب طليطلة ؛ وهنالك لحق به الفتى واضح وسانشو غرسية فى بعض قواته ، ثم سار شمالا نحو أراضى ليون ، وبعث واضحاً فى قواته إلى مدينة سمورة ، وكانت قد خربت منذ أيام المنصور ، وليس بها سوى قليل من النصارى يقيمون فى بعض أبراجها ، فقتل الرجال ، وسبى النساء . وعاث عبد الملك بعد ذلك فى أراضى ليون ، وإلى جانبه سانشو غرسية ، واقتحم أملاك بنى غومس ، ووصل فى زحفه فى جلّيقية ، إلى بلدة لونة الحصينة ، واستولى فى هذه الغزوات على كثير من الغنائم والسبى . ولكنه لم يحقق خلالها نتائج حربية ذات شأن[1] .

وفى أواخر سنة ٣٩٦ هـ ( صيف سنة ١٠٠٦ م) خرج عبد الملك إلى غزوته الرابعة . وتصف الرواية الإسلامية هذه الغزوة بأنها غزوة « بنبلونة » ، وبعبارة أخرى « بنبلونة » عاصمة نافار . وتقول لنا إن عبد الملك سار بجيشه إلى سرقسطة ثم إلى وشقة ، ثم إلى بربشتر ، ومنها نفذ إلى أرض العدو . ولكن هذا الإتجاه الذى اتخذه الجيش الإسلامى، لا يحمل على الاعتقاد بأنه كان يقصد إلى نافار أو بلاد البشكنس ، وإنما يبدو بالعكس أنه اتجه شمالا إلى أراضى ولاية « ريباجرسا » الصغيرة الواقعة شمال شرقى بربشتر ، وهى إحدى ولايات البرنيه الفرنجية . وتقول الرواية الإسلامية إن المسلمين اقتحموا فى هذه الغزوة بسيط أبنيونش وشنت يوانش ، (سان خوان) وعاثوا فى أرض العدو قتلا وسبياً وحرقاً ، ثم تقول لنا إن الجيش الإسلامى قد انقضت عليه يومئذ عاصفة مروعة من رعد وبرق ومطر غزير . تخللها قصف مفزع وبرد قارس ، وخشى أن تكون سبباً فى نكبته . ولكن تداركه لطف الله . وقفل عبد الملك راجعاً بجيشه إلى قرطبة . ولكن الشعب لم يبد فى استقباله شيئاً من الحماسة ، لضآلة النتائج التى ترتبت على هذه الغزوة ، ولكونها لم تسفر عن شىء من الغنائم والسبى ، التى كانت تملأ أسواق قرطبة أيام أبيه المنصور[2] .

ومما يتصل بأخبار هذه الغزوة ، أن عبد الملك عرج فى طريق العودة على مدينة سالم ، وقضى بها عيد الأضحى ، وهنالك وافاه سفير من قبل قيصر

---

(١) راجع أخبار هذه الغزوة فى الذخيرة . القسم الرابع ، المجلد الأول ص ٦٥ ؛ والبيان المغرب ج ٣ ص ١١ و ١٢ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١٢ و ١٣ ؛ وأعمال الأعلام ص ٨٧ .

قسطنطينية ، الإمبراطور بسيل الثانى ، ومعه كتاب مكتوب بالذهب يطاب فيه قيصر استئناف المودة والصداقة ، التى كانت قائمة بين ملوك بنى أمية ، وبين القياصرة ، ومعه كذلك هدية وعدد من الأسرى المسلمين الذين أسروا فى أطراف الجزائر التابعة لقيصر ، فسر عبد الملك لذلك ، وصرف السفير أجمل صرف[1].

ونمى إلى عبد الملك فى تلك الأثناء ، ماكان يجيش به أمير قشتالة سانشوغرسية من قصد إلى العدوان ، فرأى أن يعالجه بالغزو . فخرج من قرطبة فى صيف سنة ٣٩٧ هـ (١٠٠٧ م) فى غزوته الخامسة ، وهى المعروفة بغزوة قلونية ، أو غزوة النصر ، وسار مخترقاً أراضى قشتالة . ويبدو من أقوال الرواية الإسلامية أن عبد الملك لم يكن يواجه يومئذ أمير قشتالة فحسب ، ولكنه كان يواجه جبهة متحالفة من الملوك النصارى ، يشترك فيها سانشو غرسية ، وألفونسو الخامس ملك ليون ، وسانشو الثالث ملك نافار ، وعدد من الزعماء النصارى فى مقدمتهم بنوغومس[2] . ويشير صاحب البيان المغرب إلى هذه الغزوة بقولة «غزاة النصر التى لقى فيها ( أى عبد الملك ) شانجه بجميع النصرانية على اختلافها »[3]. ولا تقدم إلينا الرواية الإسلامية بعد ذلك شيئاً من التفاصيل ، سوى قولها إن الحاجب عبد الملك ، قد هزم النصارى فى تلك الموقعة هزيمة عظيمة فى ظاهر مدينة قلونية (كلونية) ، الواقعة شمال نهر دويرة على مقربة من شنت إشتيبن ، وأحرز عليهم نصراً مبيناً ، وافتتح الحصن صلحاً . ووصل كتاب الفتح إلى قرطبة ، وقرئ على الكافة كالعادة ، فكان له وقع عظيم ، وكان أهل قرطبة يخشون سوء العاقبة من اجتماع الجيوش النصرانية لقتال المسلمين. وقفل عبد الملك بالجيش إلى قرطبة ، فوصل إليها فى أواخر ذى الحجة من تلك السنة ، واتخذ على أثر ذلك لقبه « المظفر بالله » تنويهاً بما أحرزه من النصر العظيم[4] .

وقد ساق لنا المؤرخ الفقيه أبو المطرف ابن عون الله ، وهو من معاصرى هذه الحوادث ، قصة هذا اللقب ، فذكر أن عبد الملك كان مثل أبيه يسمو إلى

---

(١) الذخيرة ، القسم الرابع ، المجلد الأول ، ص ٦٥ و ٦٦ .

(٢) راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٨٢ .

(٣) البيان المغرب ج ٣ ص ١٤ .

(٤) ابن خلدون ج ٤ ص ١٨٢ ؛ والبيان المغرب ج ٣ ص ١٤ ؛ والذخيرة ، القسم الرابع ، المجلد الأول ص ٦٦ .

الألقاب السلطانية ، فتقدم إلى الخليفة هشام ، على أثر عوده من غزوة قلونية ، والتمس إليه إخراج الأمر له ، بأن يتسمى « بالمظفر » وهو اللقب الذى اختاره وآثره ، وأن يكنى فى سائر ما يذكر عنه « بأبى مراون » ، وأن ينعم على ابنه الغلام محمد ، الذى منح لقب الوزارة ، باقب « ذى الوزارتين » ، ويعلى بذلك مرتبته على سائر الوزراء ، وأن يكنى بأبى عامر ، كنية جده ، وكان الخليفة يقيم يومئذ عند الحاجب بقصر الزاهرة ، فى الجناح الفخم الذى أنشىء وقتها . فى منتصف المحرم سنة ٣٩٨ هـ ، تحرك الخليفة خفية إلى قصر ناصح من قصور الزاهرة ، واستدعى حاجبه ، وفاوضه فيما أراد . ولما انصرف من لدنه ، اتبعه فى الحال بمرسوم التكريم الذى التمسه ، فأذاع عبد الملك نص المرسوم ، وبعث بالكتب للعمل به ، وإليك نص هذا المرسوم ، وقد زعم البعض أنه كان بخط الخليفة هشام نفسه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من الخليفة هشام بن الحكم المؤيد بالله ، أتم الله عليك نعمه ، وألبسك عفوه وعافيته ، إنا أريناك ... من صنع الله الجسيم ، وفضله العظيم ، لنا عليك ما شفى الصدور ، وأقر العيون ، فاستخرنا الله سبحانه فى أن سميناك المظفر ؛ فنسأل الله تعالى سؤال إلحاف وضراعة وابتهال ، أن يعرفنا وإياك بركة هذا الاسم ، ويحليك معناه ، ويعطينا وإياك وكافة المسلمين ، فضل ما حملت منه ، وأن يخير لنا ولهم فى جميع أقضيته ، ويقرنه بيمنه وسعادته ، بمنه وخفى لطفه ، وكذلك أبحنا التكنى فى مجالسنا ومحافلنا ، وفى الكتب الجارية منك وإليك ، فى أعمال سلطاننا ، وسائر ما يجرى فيه اسمك معنا ودوننا ، إنافة بمحلك لدينا ، ودلالة على مكانك منا ، وكذلك ما شرفنا به فتاك أبا عامر ، محمد ابن المظفر تلادنا ، أسعده الله ، بالإنهاض إلى خطة الوزارتين ، وجمعناه بها فى التكنى على المشيخة والترتيب ، وآثرك فى الدولة ، وأنت الحقيق منا بذلك كله ، وبجميل المزيد عليه ، لأنك تربيتنا ، وسيف دولتنا ، وولى دعوتنا ، ونشىء نعمتنا ، وخريج أدبنا ، فأظهر ما حددناه لك فى الموالى ، وأهل الخدمة ، واكتب بها إلى أقطار المملكة ، وتصدقه بشكر النعمة ، أحسن الله توفيقك ، وأمتعنا طويلا بمعافاتك ، وآنسنا ملياً بدوام سلامتك ، إنه ولى قادر عزيز قاهر » .

وكانت الكتب تخرج من قبل عبد الملك على النحو الآتى : « من الحاجب

المظفر سيف الدولة أبى مروان عبد الملك بن المنصور» . فكان بذلك أول من اجتمع له لقبان ملوكيان من حكام الأندلس(١) . وكان صدور هذا المرسوم حادثاً مشهوداً ، أطلق عبد الملك على أثره الصلات والكسى ، وكثرت تهانى الشعراء ومدائحهم .

والظاهر أن عبد الملك لم يجن من هذا النصر ما كان يؤمل من إرغام أمير قشتالة على التزام السلم والهدوء ، وأن سانشوغرسية بالعكس استمر فى عدوانه . ومن ثم فإنه لم يمض سوى قليل ، حتى تأهب عبد الملك لاستئناف الغزو ، فخرج من قرطبة فى أوائل شهر صفر سنة ٣٩٨ هـ ( أكتوبر ١٠٠٧ م ) واخترق قشتالة الوسطى ، حتى ضفاف نهر دويرة ، وقصد إلى حصن شنت مرتين المنيع ، الواقع على مقربة من غربى قلونية على الضفة اليمنى من النهر ، فحاول النصارى فى البداية أن يردوا المسلمين فى ظاهر الحصن ، ولكن المسلمين صدوهم بعنف ، فالتجأوا إلى الحصن ، وحاولوا الدفاع من وراء الأسوار ، فهاجم المسلمون الحصن بشدة وثلموا أسواره بالمجانيق والنار ، واضطر النصارى إلى التسليم ، فأمر عبد الملك بقتل الجند وسبى النساء والذرية ، وإصلاح ما تهدم من الحصن ، وقفل راجعاً إلى قرطبة فوصلها فى أوائل شهر ربيع الآخر .

وفى شوال من نفس العام ( صيف ١٠٠٨ م ) ، خرج عبد الملك بالجيش ، وكانت غزوته السابعة والأخيرة ، وتعرف «بغزاة العلة» . ذلك أنه ما كاد يصل إلى مدينة سالم حتى اشتد به المرض ، فاستقر بها حيناً يرقب البرء . وفى أثناء ذلك دب الخلل إلى الجيش ، وتفرق عنه أكثر المتطوعة ، وأخفق مشروع الغزو ، واضطر عبد الملك أن يعود أدراجه إلى قرطبة ، عليلا ضعيفاً ، وذلك فى منتصف المحرم سنة ٣٩٩ هـ . ومع ذلك فما كاد عبد الملك يشعر بقليل من التحسن ، حتى عقد العزم على التأهب لاستئناف الغزو ، وخرج بالفعل من قرطبة فى منتصف شهر صفر ، ولكن أصابته عندئذ نكسة شديدة ، صحبتها نوبة سعال عنيف ، فحمل إلى قصر الزاهرة فى محفة ، ومن حوله خاصة غلمانه ، وتوفى على الأثر ، وكان أخوه عبد الرحمن حاضراً مع أكابر رجال الدولة ، وقيل إنه توفى مسموماً من شربة دست له بتحريض أخيه عبد الرحمن . وكانت وفاته فى ١٦ صفر سنة ٣٩٩ هـ

---

( ١ ) البيان المغرب ج ٣ ص ١٥ – ١٧ ؛ وأعمال الأعلام ص ٨٨ و ٨٩ .

(٢١ أكتوبر سنة ١٠٠٨ م)[١]، ولم يكن قد جاوز الرابعة والثلاثين من عمره .

• • •

حكم عبد الملك المظفر ستة أعوام وبضعة أشهر ، قضى معظمها فى متابعة الغزو ، ولم يكن لديه سعة من الوقت ليتناول تدبير الأمور بنفسه . وكانت الدولة قد توطدت منذ أيام أبيه المنصور ، ولم يقع تبدل فى طرق الحكم ، فكان الخليفة هشام ، كعهده أيام المنصور محجوباً فى قصره ، وكان عبد الملك يحرص على حجبه وإخفائه بين صفوف الجند ، كلما سنحت فرصة خروجه فى موكبه ، بيد أنه يبدو أن عبدالملك كان أكثر تودداً للخليفة ، ورفقاً به من أبيه ، فقدكان يدعوه إلى قصوره بالزاهرة للتريض والاستجام ، وكان هشام ينفق أوقاتاً فى ضيافته[٢].

وكان عبد الملك لانهماكه فى الشراب واللهو ، قد اعتمد فى تدبير شئون الدولة ، على خاصته من أكابر الفتيان العامريين أمثال طرفة ، وواضح، وزهير ، وخيران ، ومجاهد ، وعلى عيسى بن سعيد اليحصبى المعروف بابن القطاع ، وزيره ووزير أبيه من قبل . وكان عبد الملك لأول ولايته ، قد فوض أمره إليه ومنحه سائر السلطات العليا ، ثقة منه بإخلاصه ، واعتماداً على كفايته . ووطد حسن ظنه فيه ، ما أبداه عيسى من البراعة والحزم فى تدبير الأمور ، وتوطيد النظام والأمن . وكان الفتيان الصقالبة ، ولاسيما زعيمهم طرفة ، خادم عبد الملك الأكبر ، ينقمون على عيسى ، حظوته واستئثاره بالسلطة ، ويعملون ما وسعوا للنيل من مكانته . واضطرمت المنافسة بالأخص بينه وبين طُرفة ، وبذل طرفة جهوداً عنيفة لإفساد الجو بينه وبين الحاجب ، واستطاع مع استمرار الوقيعة والدس أن يزعزع ثقة عبد الملك فيه،وأن يصرفه عن الاعتماد عليه،وانتهى الأمر بأن تغلب طرفة على الوزير ، وحل محله فى تدبير الأمور ، واجتمعت السلطة فى يده شيئاً فشيئاً ، حتى غدا كل شىء فى القصر وفى الدولة ، وسما شأن الفتيان

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٣٧ ، والذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ٦٦ ، وأعمال الأعلام ص ٨٩ . وذكر المقرى أن وفاة عبد الملك كانت فى المحرم سنة ٣٩٩ (ج ١ ص ١٩٨) . ويؤيد ابن الأثير رواية وفاة عبد الملك بالسم ويقول لنا إن أخاه عبد الرحمن سمه فى تفاحة قطعها بسكين كان قد سم أحد جانبيها فتناول أخاه ما يلى الجانب المسموم ، وأخذ ما يلى الجانب الصحيح فأكله بحضرته ، فاطمأن المظفر وأكل ما بيده منها فمات (ج ٨ ص ٢٢٥) .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١٦ .

الصقالبة ، وغلبوا على من عداهم من الكبراء وأصحاب المناصب. ومرض الحاجب فى أوائل سنة ٣٩٦ هـ ، واستبد طرفة بالأمر ، وأمضى كثيراً من الأمور دون علم الحاجب أو موافقته ، وأبدى كثيراً من الاستهتار والتبذل والطيش ، فلما أبل الحاجب من مرضه ، كانت نفسه قد تغيرت على طرفة ، ولما خرج إلى الغزو فى شهر رمضان من هذا العام ، خرج معه الوزير عيسى ، واستطاع خلال الطريق أن يقنع عبد الملك بسوء مسلك طرفة وخطر مشاريعه ، وكان من المقرر أن يلتقى طرفة بسيده فى سرقسطة ، فقدم إليها فى بعض القوات فى نفس اليوم الذى وصل فيه الحاجب مع جيشه ؛ وما كاد يدخل إلى عبد الملك فى قصره ، حتى قُبض عليه ، وصُفد بالأغلال ، وحمل إلى إحدى جزر الشاطىء ، واعتقل حتى انتهى عبد الملك من غزوته ، فأمر بقتله ، وهو فى طريق العودة ، وأمر الحاجب فى نفس الوقت بقتل عبد الملك بن إدريس الجزيرى الكاتب البليغ أمين البلاط ، وكان من خاصة طرفة ، وكان الوزير عيسى قد حذر عبد الملك من ممالأته لطرفة ومعاونته على إفساد أمور الدولة[1].

وأضحى عيسى بن سعيد ، بعد قتل طرفة ، رجل الدولة الأول ، واسترد كامل حظوته وسلطانه ، على أنه لم ينعم طويلا بظفره . وكان هذا الوزير قد تقلب فى مناصب الدولة منذ أيام المنصور ، وحظى لديه ، وسما شأنه ، حسبما رأينا ، ثم تضاعف شأنه ، واستأثر بتدبير الأمور منذ بداية عهد عبد الملك ، وجمع الأموال الطائلة ، وزاد فى توطد سلطانه ونفوذه مصاهرته للحاجب ،حيث تزوج ابنه عبد الملك المكنى أبا عامر ، أخت عبد الملك الصغرى ، إحدى بنات المنصور . وهكذا بلغ الوزير أقصى مراتب النفوذ والثقة ، وكثر بذلك حساده والوشاة فى حقه . وكان عيسى يذكى من حوله عواطف الخصومة والنقمة . بما كان يجنح إليه من الصلف والخشونة والكبرياء ، والنكول عن قضاء حاجات الناس ، والنظر فى مظالمهم ، والتعالى عليهم ، وكان حجابه وعماله ، على شاكلته من الغلظة والتعسف فى معاملة الناس . فكان ذلك كله سبباً فى تسمم الجو حول الوزير ، وحول تصرفاته . أضف إلى ذلك أن الوزير ، لم يكن يشارك الحاجب فى مجالس شرابه وأنسه إلا فى القليل النادر ، لأنه كان مقلا للشراب ، فكان تخلفه بمهد

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٤ – ٢٦ .

لخصومه المقربين من الحاجب ، سبل الدس والوقيعة فى حقه . وقد كانت الذلفاء والدة الحاجب فى الوقت نفسه تبغض الوزير ، لأنه أيد ولدها عبد الملك فى الزواج من قينة حسناء من جواريه هام بها ، وكانت تعارضه فى ذلك . والخلاصة أن عبد الملك أخذ يفقد ثقته فى وزيره بسرعة ، وقد كان فيما يبدو كثير التأثر بالوشاية ، سريع التقلب والغدر ، وأخذ الوزير من جانبه يشعر بهذا النقص فى حظوته ويتوجس من عواقبه .

والظاهر أن عيسى بن سعيد ، كانت تحدوه فى نفس الوقت أطماع ومشاريع أخرى . فقد كان يشعر أنه غدا باجتماع سائر السلطات فى يده ، ومشايعة رؤساء الجند له ، أقوى رجل فى الدولة ، وأنه يستطيع أن يقف فى وجه بنى عامر ، وأن يغدو بطل المناهضة لحكمهم . والواقع أن حكم العامريين كانت تشتد وطأته على الناس يوماً بعد يوم . وكان عبد الملك جرياً على سنة أبيه المنصور ، قد مضى فى الاستظهار بالفتيان الصقالبة والبربر ، وبلغ الفتيان فى عهده نحو ألفى غلام ، ووفد عليه كثير من البربر ؛ وكان أهم من وفد إليه من زعمائهم زاوى بن زيرى بن مناد الصنهاجى ، عم أبى المعز بن باديس صاحب إفريقية ، وزعيم الفرقة الخارجة عليه ، وفد عليه مع إخوته ، فاستقبلهم عبد الملك ، وغمرهم بصلاته ، واستمروا بقرطبة حتى وقعت الفتنة ، وكان لهم فى حوادثها شأن يذكر (١). وفى رواية أخرى أن وفود زاوى وقومه على الأندلس ، كان فى أواخر أيام المنصور ، وأنه هو الذى أذن لهم فى الجواز (٢). وكانت الأرستقراطية العربية تمقت هذا الإيثار للصقالبة والبربر ، والاستظهار بهم ، وترى فيه افتئاتاً على حقوقها ومكانتها ، وكان كثير من الأسر العربية الكبيرة مثل آل حدير ، وآل فطيس ، وآل شهيد ، وغيرهم ، يتوقون إلى انتهاء حكم العامريين ، ورد الأمر إلى بنى أمية ، وكان عيسى بن سعيد ، وهو أيضاً من البطون العربية ، يعتنق فكرتهم ، ويعتقد أنه يستطيع أن يعمل على تحقيقها .

واعتزم عيسى بالفعل أن يعمل فى هذا السبيل ، واتجه ببصره إلى سليل من

---

(١) الذخيرة عن ابن حيان القسم الرابع المجلد الأول ص ٦١ .

(٢) كتاب التبيان أو مذكرات الأمير عبد الله بن بلقين ( القاهرة ١٩٥٥ ) ص ١٧ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٥٧ و ١٥٨ .

المروانية هو هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ، وكان بينهما مودة وصداقة . وكاشف عيسى هشاماً بمشروعه ، فى إزالة بنى عامر ، وإزالة الخليفة هشام المؤيد لعجزه وعقمه ، وإقامته مكانه فى الخلافة ، ورد الأمر بذلك إلى بنى أمية . فاستجاب هشام إلى دعوته ، وجرت بينهما المفاوضة بمنتهى التكتم والحذر . وكانت خطة عيسى ، تتلخص فى أن يدعو عبد الملك وأخاه عبد الرحمن وصحبه ، إلى حفل عظيم يقيمه بالمنية التى وهبه عبد الملك إياها بقرب قصر الزاهرة ، وذلك تيمناً بمولود رزق به ولده عبد الملك بن عيسى ، وأن يحيط المنية بطوائف من رجاله المسلحين ، فإذا حضر عبد الملك وأخوه وصحبه ، انقض عليهم أولئك الرجال وقضوا عليهم جميعاً ، وعندئذ يسير عيسى بصاحبه هشام إلى قصر الزاهرة فيجلسه فيه ، ويأخذ له البيعة بالخلافة ، وقد تقدم عيسى بالفعل بدعوته إلى عبد الملك فقبل الدعوة ، وحدد بالفعل يوم الحفل .

ولكن سرعان ما اتصل خبر المؤامرة بعبد الملك ، نقله رجل من ثقات عيسى إلى نظيف الفتى الصقلبى ، فأبلغه فوراً إلى سيده . وفى رواية أن عبد الملك بادر فى الحال فقتل عيسى . ولكن الرواية الراجحة هى أن عبد الملك وأخاه عبد الرحمن اتفقا على تدبير قتله ، فى مجلس شراب ينظم لهذا الغرض ، ونظم المجلس بالفعل فى بهو القصر الكبير المشرف على النهر ، وذلك فى ٢٠ ربيع الأول سنة ٣٩٧ هـ . واستدعى الحاجب وزيره عيسى إليه ؛ ومن غرائب القدر أن كان الوزير أيضاً يجلس مع بعض خاصته على الشراب ، ومنهم الكاتب أبو حفص ابن برد ، فبادر عيسى بالركوب إلى عبد الملك ، ومعه بعض خاصته ، فاستقبله عبد الملك بظاهر من الحفاوة . ثم أخذ بعد قليل فى عتابه ومحاسبته على ما عزى إليه ، ثم أغلظ له القول ، وعيسى يعتذر ويحتج ببطلان ما نسب إليه ، ويشدد القسم على ذلك ، ويناشد حقن دمه . وفجأة جذب عبد الملك سيفه من جانب الفراش وشهره على عيسى ، وطعنه فى وجهه ، فسقط على الأرض ، فانهال عليه الجماعة طعناً بسيوفهم ، ثم احتز رأسه ووضع جانباً ؛ وقتل الجماعة أيضاً صاحبيه خلف ابن خليفة ، وحسن بن فتح ، وألقيت جثث الثلاثة فى النهر ، بعد أن وضعت فى زنابيل مثقلة بالحجارة ، وأمر عبد الملك بأن ينصب رأس عيسى على باب مدينة الزاهرة ، عبرة للناس . وتركت معلقة فى مكانها حتى انقضت الدولة العامرية ،

ونفذ الجند فى الحال إلى منازل عيسى وأصحابه ، وصودر ما فيها ، وقبض على أبناء عيسى وزجوا إلى السجن ، وأرغم ولده عبد الملك على طلاق زوجته أخت الحاجب ؛ وجدت الشرطة فى أثر هشام بن عبد الجبار ، حتى قبض عليه ، ثم حمل إلى الزاهرة فأمر الحاجب باعتقاله فى سجن أعد له ، وهناك قتل خفية ، ولم يسمع له خبر بعد ذلك قط .

وكان لمقتل الوزير عيسى بن سعيد أعمق وقع فى قرطبة ، لما كان له من رفيع المنزلة والسلطان ، ولبثت الوفود أياماً تحضر إلى الزاهرة لمشاهدة رأسه[1] .

وثاب المظفر بعد مقتل وزيره إلى نفسه ، وعمل على جمع السلطة فى يده ، والحد من سلطة الوزراء والكتاب ، ومراقبتهم ومحاسبتهم ، وواظب على الجلوس بنفسه ، وهجر اللهو والراحة ؛ وكانت الأحوال المالية قد ساءت ، مما أسرف فيه من النفقة والصلات ، وبما أسقطه للناس من سدس الجباية ، فاقتصد فى النفقة ، واجتهد فى توفير المال ، وتنمية الموارد ، فنجحت المحاولة ، وتحسنت الأحوال المالية فى أواخر عهده[2]

وقد أشرنا من قبل إلى طرف من اخلاق عبد الملك ، وما جمعت من الصفات المشرقة والقاتمة معاً . ونزيد هنا ما رواه صاحب الذخيرة عن ابن حيان ، من أن عبد الملك كان عرياً عن العلم والمعرفة والأدب ، ولم يكن يجتمع فى مجالسه سوى الأعاجم من الحلالقة والبربر ومن إليهم ، ولم يكن يؤمها أحد من أهل المعرفة ، من الأدباء والعلماء . بيد أنه مع ذلك لبث يسبغ رعايته على من كان يتصل منهم بأبيه من العلماء والأدباء والندماء وغيرهم ، وأبقى لهم أرزاقهم ورواتبهم كما كانت أيام أبيه[3]. وكان يستمع إلى الشعر ، ويصل الشعراء ، وقد أبقى بالأخص على شاعر أبيه صاعد البغدادى ، وجعله شاعراً ونديماً له . وكان من خواص شعرائه أيضاً أبو عمر بن درّاج القسطلى ، والكاتب الشاعر أبو حفص ابن برد . وقد أورد لنا صاحب البيان المغرب نبذاً من الشعر ، نظمها صاعد وابن دراج تحقيقاً لرغبة

---

(١) راجع تفاصيل هذه المؤامرة وذيولها فى الذخيرة ، القسم الأول المجلد الأول ص ١٠٣ — ١٠٧ ، والبيان المغرب ج ١ ص ٢٧ — ٣٥ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٣٦ ، وأعمال الأعلام ص ٨٩ .

(٣) الذخيرة — القسم الأول المجلد الأول ص ٦٠ .

المظفر ، فى وصف مختلف صنوف الزهر ، من الآس ، والنرجس ، والبنفسج ، والورد والسوسن . ومما جاء فى قصيدة ابن دراج فى وصف السوسن ومديح الحاجب عبد الملك تلك الأبيات(١) :

إن كان وجه الربيع مبتسما     فالسوسن المجتـــلى ثناياه
ياحسنه بين ضاحك عبــق     يطيب ريح الحبيب ريّاه
ياحاجباً مذ براه خالقــه     توّجــه بالعــلى وحــلاه
إذا رآه الزمـــــان مبتهجاً     فقــد رأى كل ما تمنــاه
وإن رآه الهــــلال مطلــعاً     يقــول ربى وربــك الله

ونظم بعضهم فى وصف عهد عبد الملك الأبيات الآتية :

زمان جــديد وصنع جــديد     ودنيــا تروق ونعمى تزيد
وغيث يصوب وعيش يطيب     وعــز يدوم وعيــد يعود
ودهــر ينير بعبــد المليك     كشمس الضحى ساعدتها السعود

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٨ — ٢١ . وكذلك الروض المعطار ص ١٦٠ .

# الفصل الخامس

## عبد الرحمن بن المنصور

### وسقوط الدولة العامرية

نظام الطغيان العامرى . كيف كانت تلطفه عبقرية المنصور . ظهور مثالبه فى عهد عبد الملك . عبد الرحمن المنصور يخلف أخاه . يتقلد الحجابة . تلقيبه بشنجول أو شانجه الصغير . إنحرافه وسوء خلاله . تودده للخليفة هشام . تلقبه بالمأمون وناصر الدولة . شروعه فى اغتصاب ولاية العهد . ضغطه على هشام لتحقيق ذلك . مرسوم ولاية العهد ونصه . جلوس عبد الرحمن فى الزاهرة . عكوفه على الشراب واللهو . إرغامه الكبراء على لبس العمامة . خروجه إلى الغزو . يخترق أراضى ليون . إعتصام النصارى بالجبال . إرتداد عبد الرحمن . أنباء الانقلاب فى قرطبة . الاضطراب فى الجيش . سيره إلى قلعة رباح . سخط أهل قرطبة على بنى عامر . المؤامرة وعناصرها . الذلفاء والدة عبد الملك ودورها . ترشيح محمد بن هشام للخلافة . نضج المؤامرة وتهيؤ الظروف لتنفيذها . مهاجمة المتآمرين للقصر . مصرع عبد الله بن أبى عامر . موقف الخليفة هشام وتصرفه . إقتحام العامة للقصر . الزاهرة وتسليمها . إقتحام الجموع لها ونهبها . إستيلاء المهدى على أموالها ونفائسها ثم تدميرها . نبوءة المنصور بخراب الزاهرة . وقوف شنجول على خبر الانقلاب وحيرته . يناشد أهل الثغر تأييد هشام . تخلى زعماء الجند عن نصرته . شنجول وصديقه ابن غومس . مسيره صوب قرطبة . فرار البربر تحت جنح الظلام . مسيره إلى أرملاط . التجاؤه وابن غومس إلى الدير . وقوعهما فى يد فرسان المهدى . القبض على حشم شنجول ونسائه . مقتل شنجول وابن غومس . ما يقوله شاهد عيان عن هذه الحوادث . تأملات عن انهيار الدولة العامرية .

كانت وفاة عبد الملك المظفر ، فاتحة لفترة من أعجب فترات التاريخ الأندلسى وأشدها غموضاً واضطراباً ، وكانت نذراً بانقلاب من أعنف ماعرفت الأندلس وأشدها تقويضاً لبنائها وسلامها ورخائها .

مضت خمسة وثلاثون عاماً على حكم الطغيان المطبق ، الذى فرضه المنصور ابن أبى عامر على الشعب الأندلسى ، وقضى فى ظله على سلطان الخليفة الشرعى ، ومحيت رسوم الخلافة ، وسحقت العصبية العربية ، وطوقت أعناق الشعب بأغلال خانقة . وبالرغم مما نعمت به الأندلس أيام المنصور من الاستقرار والعزة والرخاء ، فإن الشعب لم يكن يرى فى المنصور ، سوى مغتصب للسلطة الشرعية ، وكان يتوق إلى التحرر من هذا الطغيان الذريع ، والتخلص من وطأة الصقالبة والبربر ، والعود

إلى الأوضاع الطبيعية المألوفة. وكانت شخصية المنصور العظيمة ، وعزمه الصارم ، وهمته البعيدة ، وخلاله الرفيعة ، وتفانيه فى الجهاد ، والعمل على إعزاز الأندلس وإسعادها : كانت تفرض نفسها على الناس ، وتخفف نوعاً من وطأة النظام وحدته ، وتبث فى نفوس الشعب نوعاً من الإعجاب المقرون بالإغضاء والتسامح . فلما توفى المنصور ، ونهض ولده عبد الملك بأعباء الحكم ، بدأ ينقشع هذا الشعور الملطف ، وبدت مثالب الحكم المطلق على أشدها ، وزاد إحساس الشعب بما يعانيه من ضروب الإرهاق والضغط ، وظهرت شخصية عبدالملك ضئيلة باهتة بالنسبة لشخصية أبيه العظيم ، وبدت بالرغم مما اضطلع به من الغزوات ، وما تمتعت به البلاد فى ظله من السلام والرخاء ، لا تحمل سوى الأوزار الظاهرة ، من عكوف على الشراب ، وانهماك فى الملاذ ، والمضى فى اغتصاب السلطة الشرعية ، وتمكين لنير الصقالبة والبربر ، والتطلع إلى ألقاب الملك ، بصورة تكشف عما وراءها من الأطماع الخطرة .

وجاء عبد الرحمن ابن المنصور إثر أخيه عبد الملك ، وقد كان أضعف منه شخصية ، وأسوأ خلالا ، ليتابع حكم الإرهاب والطغيان ، وجلس غداة وفاة أخيه بقصر الزاهرة ، كما يجلس خليفة العرش مكان سلفه ، فى السابع عشر من صفر سنة ٣٩٩ هـ (٢٢ أكتوبر سنة ١٠٠٨ م) . ومثل فى نفس اليوم لدى الخليفة هشام ، فخلع عليه الخلع السلطانية ، وقلده الحجابة ، ثم أقبل إليه الأكابر والأعيان بقصر الزاهرة ، مهنئين مبايعين .

وكان عبد الرحمن وكنيته أبو المطرِّف ، حينما تولى الحكم ، فتى فى الخامسة والعشرين من عمره . وكان يلقب منذ حداثته « بشنجول » (سانشول) أو شانجُه الصغير ، وذلك لأنه حسبما تقدم كان حفيداً لسانشو غرسية ملك نافار ، وكانت أمه الأميرة النافارية ، حينما تزوجت المنصور ، قد اعتنقت الإسلام ، وتسمت باسم « عبدة » ، وكان ولدها عبد الرحمن « أشبه الناس بجده » . وكان لهذه الأرومة الفرنجية الواضحة ، أثرها فى انصراف الناس عن محبته والعطف عليه ، وكان يزيد فى هذه الوحشة بين عبد الرحمن وبين الشعب ، إنحرافه وخلاله السيئة ، فقد كان فاجراً كثير الإستهتار والمجون ، يقضى معظم وقته فى الشراب واللهو ، يخرج من منية إلى منية ، ومن متنزه إلى متنزه ، مع الخياليين والمغنين

والمضحكين ، مجاهراً بالفتك ، وشرب الخمر »[1] .

وجرى عبد الرحمن على سنة أبيه وأخيه ، فى الحجر على الخليفة هشام وحجبه ، وفى الاستبداد بالرأى والحكم[2] ، ولكنه نهج فى معاملة الخليفة نهجاً جديداً ، فأكثر من الإتصال به ، والتقرب إليه ، وبالغ فى إرضائه وإرضاء حاشيته ، وتحقيق رغباتهم ؛ هذا فى حين أن المنصور كان يقتصر فى الاتصال بالخليفة على المواقف الضرورية ، ويقتصد فى رؤيته ، ويؤثر التظاهر بتوقيره مع البعد عنه ، ويحرص على عدم تدليله ، وكبح جماح حاشيته ؛ وجرى ولده المظفر على هذه السياسة . ولكن عبد الرحمن بالغ فى التودد لهشام ومخالطته ؛ ومن ذلك أنه استأذنه فى أن يقوم بالتنزه مع أهله فى قصور الملك بقرطبة ، ويكون الخليفة هنالك مع خاصته وجواريه . فأذن هشام بذلك ، وخرج مع الحاجب فى موكبه مستخفياً ، وقد ارتدى برنساً كالذى يرتديه الجوارى ، حتى لا يعرفه أحد ، واخترق الموكب شوارع قرطبة المقفرة ومن حوله الجند ، ونزل بقصر ناصح . وهنالك عرض عليه الحاجب شئون المملكة ، والتمس إليه أن يأذن له فى التلقب بالمأمون ، وأن يضاف إلى اسمه ناصر الدولة ، فخرجت رقعة الخليفة بذلك إلى الوزير الكاتب جهور بن محمد ، وتسمية عنوانها « الحاجب المأمون ناصر الدولة أبو المطرف حفظه الله » وأبلغت بعد ذلك إلى الجهات والكافة . وكان ذلك لعشرة أيام فقط من ولاية عبد الرحمن . فعجب الناس لهذه الجرأة ، وأنكر الناس على الحاجب هذا التسمى بألقاب الملك والخلافة ، واعتبروها افتئاتاً وغروراً ، ممن لا تؤهله خلاله لمثل هذا التكريم . ولكن سوف نرى أنها لم تكن سوى مقدمة لما هو أخطر وأبعد أثراً[3] .

ذلك أنه لم تمض على هذا الإجراء فترة يسيرة ، حتى غادر الخليفة هشام قصر ناصح بقرطبة ، إلى القصر الخليفى بمدينة الزهراء مستخفياً كعادته ، يتقدم موكبه الحاجب عبد الرحمن ، ونزل عبد الرحمن بمدينة الزاهرة . وأقام الخليفة بالزهراء يومين . وفى اليوم الثالث الموافق ١٤ ربيع الأول سنة ٣٩٩ هـ ، غادر القصر الخليفى فى أهله ، إلى منية جعفر المجاورة ، ومعه الحاجب . وكان عبد الرحمن

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٣٩ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ١٤٨ .

(٣) البيان المغرب ج ٣ ص ٤٠ – ٤٢ ؛ وأعمال الأعلام ص ٩٠ .

بعد أن حصل على ألقاب الملك ، يجيش بمشروع ضخم ، هو أن ينتزع ولاية العهد من الخليفة الضعيف الساذج ، وأن يقضى بذلك نهائياً على تراث بنى أمية ، وينقل رسوم الخلافة جملة إلى أسرة بنى عامر ، فتخلف أسرة بنى أمية فى ملك الأندلس . وقد رأينا فيما تقدم كيف أن أباه المنصور ، بالرغم من قوة نفسه ، وعريض سلطانه ، كان ينأى عن المغامرة بمثل هذه المشاريع الدقيقة ، لأنه كان يدرك بذكائه ، وبعد نظره ، أنها تنطوى على أخطر العواقب ، وأنه لم يقدم على اتخاذ ألقاب الملك إلا بعد طول روية وأناة ، وأنه كان أبداً حريصاً على الإبقاء على رسوم الخلافة وأوضاعها . وقد حذا ولده عبد الملك المظفر حذوه فى حرصه وتعقله . ولكن عبد الرحمن لم يكن إلا فتى طائشاً ، متعجلا ، كثير الغرور ، قصير النظر . وقد وصف لنا ابن حيان موقفه من المشروع فى تلك العبارات القوية : « وقد تقدم القول فى سبب تعلق هذا الجاهل بدعوى الخلافة ، عجرفية من غير تأويل ولا عقيدة ، وكيف استهواه كيد الشيطان ، وغرته قوة السلطان إلى أن ركبها عمياء مظلمة ، لم يشاور فيها نصيحاً ، ولا فكر فى عاقبة ، بل جرها بالعجلة »[1] .

وخلا عبد الرحمن بالخليفة ، وأطال التقرب منه ، وعرض عليه مشروعه ، ويقال إنه أقنعه بأنهما على صلة رحم من ناحية الخؤولة ، إذ ولد كلاهما من أم بشكنسية (ناڤارية)[2]. ويقال من جهة أخرى ، إن عبد الرحمن دس إلى الخليفة من هدده بالويل ، وأنذره بأن عبد الرحمن قد اعتزم الفتك به ، إذا لم يمنحه ولاية عهده[3]. ويقال أيضاً إن هشاماً استفتى فى ذلك فقهاء قرطبة وعلماءها ، فأقروه على ما طلب . وكان أشد الساعين لتأييد عبد الرحمن ، قاضى الجماعة أبو العباس ابن ذكوان ، وكاتب الإنشاء أبو حفص بن برد[4] . وعلى أى حال فقد استجاب هشام المؤيد إلى طلب عبد الرحمن . وخرج أصحابه عشية ذلك اليوم ، يذيعون الخبر على الملأ ، ويقولون إن الخليفة قد اختاره ولياً لعهده ، إذ ليس له ولد يؤمل خلافته ، وكثر الإرجاف لذلك .

---

(١) أعمال الأعلام ص ٩١ ؛ والبيان المغرب ج ٣ ص ٤٣ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٤٢ .

(٣) البيان المغرب ج ٣ ص ٣٩ .

(٤) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ١٥٠ .

وفى صباح اليوم التالى ، وهو اليوم الخامس عشر من ربيع الأول سنة ٣٩٩ هـ ( نوفمبر ١٠٠٨ م ) ، أحيط قصر الخليفة بصفوف كثيفة من الجند ، وأخرج عبد الرحمن هشاماً ، وأجلسه فى الساحة الكبرى ، وجلس من حوله الوزراء والقضاة والقادة وأكابر رجال الدولة ، فكان يوماً مشهوداً ، وصدر مرسوم ولاية العهد وهو من إنشاء كاتب الرسائل أبى حفص أحمد بن برد ، وذيل بشهادة قاضى الجماعة أحمد بن عبد الله بن ذكوان ، وشهادة الوزراء وهم تسعة وعشرون وزيراً ، ويليهم شهادة مائة وثمانين رجلا ، من أكابر أهل الدولة والحكام ، والفقهاء ، وغيرهم . وإليك نص هذا المرسوم الشهير :

« هذا ما عهد به أمير المؤمنين هشام المؤيد بالله — أطال الله بقاءه — إلى الناس عامة ، وعاهد الله عليه من نفسه خاصة ، وأعطى عليه صفقة يمينه ببيعة تامة ، بعد أن أمعن النظر وأطال الاستخارة ، وأهمه ما جعله الله إليه من إمامة المسلمين ، وخصه به من إمرة المؤمنين ، واتقى حلول القدر بما لا يؤمن ، وخاف نزول القضاء ، بما لا يصرف ، وخشى أن هجم محتوم ذلك عليه ، ونزل مقدور ذلك به ، ولم يرفع لهذه الأمة علماً تأوى إليه ، ولم يوردها ملجأ تنعطف عليه ، أن يكون يلقى الله مفرطاً فيها ، ساهياً عن أداء الحق إليها . ونفض عند ذلك طبقات الرجال من أحياء قريش وغيرهم ، ممن يستحق أن يسند الأمر إليه ، ويعول فى القيام به عليه ، ممن يستوجبه بدينه وأمانته وهديه وورعه ، بعد اطراح الهوادة ، والتبرئ من الهوى ، والتحرى للحق ، والزلفى إلى الله عز وجل بما يرضيه . وبعد أن قطع الأواصر ، وأسخط الأقارب ، عالماً بأن لا شفاعة عنده أعلى من العمل الصالح ، وموقناً أن لا وسيلة إليه أرضى من الدين الخالص ، فلم يجد أحداً أجدر أن يوليه عهده ، ويفوض إليه النظر فى أمر الخلافة بعده ، لفضل نفسه ، وكرم خيمه ، وشرف همته ، وعلو منصبه ، مع تقواه وعفافه ومعرفته وحزمه ، من المأمون الغيب ، الناصح الجيب ، النازح عن كل عيب ، ناصر الدولة أبى المطرف عبد الرحمن بن المنصور أبى عامر محمد بن أبى عامر وفقه الله ، إذ كان أمير المؤمنين قد ابتلاه واختبره ، ونظر فى شأنه واعتبره ، فرآه مسارعاً فى الخيرات ، مستولياً على الغايات ، جامعاً للمأثرات ، وارثاً للمكرمات ، يجذب بضبعية إلى أرفع منازل الطاعة ، وينمو بعينيه إلى أعلا درج النصيحة ،

أب منقطع القرين ، وصنو معدوم الغريم ، ومن كان المنصور أباه ، والمظفر أخاه ، فلا غرو أن يبلغ فى سبيل الخير مداه ، ويحوى من حلل المجد ما حواه ، مع أن أمير المؤمنين أكرمه الله بما طالعه من مكنون العلم ، ووعاه من مخزون الأثر ، أمل أن يكون ولى عهده القحطانى ، الذى حدّث عنه عبد الله بن عمرو ابن العاص ، وأن يتحقق به ما أسنده أبو هريرة إلى النبى — صلى الله عليه وسلم — ألا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه . فلما استوى له الاختبار ، وتقابلت عنده فيه الآثار ، ولم يجد عنه مذهباً ، ولا إلى غيره معدلا ، خرج إليه من تدبير الأمر فى حياته ، وفوض إليه النظر فى الخلافة بعد مماته ، طائعاً راضياً ، ومجتهداً متخيراً ، غير محاب له ، ولا مائل له بهواه ، ولا متّرك نصح الإسلام وأهله فيه . وجعل إليه الاختيار لهذه الأمة بولاية عهده فيها ، وأمضى أمير المؤمنين أعزه الله ، عهده هذا ، وأنفذه ، وأجازه ، وبتله ، لم يشترط فيه مثنوية ولا خياراً ، وأعطى على الوفاء بذلك فى سره وجهره ، وقوله وفعله ، عهد الله وميثاقه وذمة نبيه — صلى الله عليه وسلم — وذمة الخلفاء الراشدين من آله وآبائه ، وذمة نفسه ، بأن لا يبدل ولا يغير ، ولا يحول ولا يتأول . وأشهد على ذلك الله وملائكته ، وكفى بالله شهيداً . وأشهد عليه من أوقع اسمه فى هذا الكتاب . وهو — أعزه الله — جائز الأمر ، ماضى القول والفعل ، بمحضر من ولى عهده المأمون ناصر الدولة أبى المطرف عبد الرحمن بن المنصور — وفقه الله — وقبوله لما قلده ، والتزامه ما ألزمه ، وذلك فى شهر ربيع الأول سنة ٣٩٩ »(١)

• • •

وعلى أثر صدور هذا المرسوم الفذ فى تاريخ الخلافة الإسلامية ، خرج عبد الرحمن فى موكب عظيم من الوزراء والقادة وأكابر أهل الدولة ، إلى قصر الزاهرة وهو «يختال فى ثوب الخلافة ، يحسب أنها له نحلة ، وأنه مستحق لها ، وخليق بها »(٢) . وأقبل عليه المهنئون من الوزراء ورجال الدولة ، يتكلفون البشر ، والدعاء له بما أكرمه الله به ، وقلوبهم تفيض إنكاراً وسخطاً ، وأنفذت

(١) ورد نص هذا المرسوم فى أعمال الأعلام ص ٩١ — ٩٣ ؛ ونفح الطيب ج ١ ص ١٩٨ و١٩٩ ؛ وابن خلدون ج ٤ ص ١٤٩ ؛ والبيان المغرب ج ٣ ص ٤٤ — ٤٦ ؛ وقد اتبعنا نحن بالأخص النص الوارد فى أعمال الأعلام لأنه أوفاها وأصحها .

(٢) البيان المغرب عن ابن عون الله ج ٣ ص ٤٦ .

الكتب فى الحال إلى سائر نواحى الأندلس والعدوة ، بوجوب إذاعة المرسوم ، والدعاء لولى العهد على المنابر بعد الخليفة .

وفى اليوم التالى جلس عبد الرحمن بقصر الزاهرة فى هيئة الملك ، واصطف من حوله رجال الدولة وفق مراتبهم ، وأقبل وجوه قرطبة لتهنئته ، وفى مقدمتهم طائفة من المروانية المبعدين عن الخلافة ، وغيرهم من بطون قريش . يقول المؤرخ : « وخرجوا من عنده ، وقلوبهم ذؤوبة عليه ، موقدة ببغضه » . وبادر الشعراء وفى مقدمتهم أبو العلاء صاعد البغدادى ، برفع قصائد التهانى . وقد أورد لنا ابن حيان طرفاً مما قاله الشعراء فى ذلك(١) .

بيد أن شاعراً آخر ، هو ابن أبى يزيد المصرى ، نظم فى ذم ابن ذكوان وابن برد وهما المسئولان عن تحرير مرسوم البيعة هذين البيتين :

إن ابن ذكوان وابن برد قد ناقضا الدين عن عهد
وعاندا الحق إذ أقاما حفيد شنجه ولى عهد(٢)

وذهب عبد الرحمن فى غروره واختياله إلى أبعد مدى ، فعين ابنه الطفل عبد العزيز فى خطة الحجابة ، وأسبغ عليه لقب سيف الدولة ، وهو لقب عمه المظفر . واعتقد عبد الرحمن أنه حقق بذلك مشروعه العظيم ، فى تخليد ملك الدولة العامرية ، وأن الأمور قد دانت كلها له ، فأطلق العنان لأهوائه ، وانكب على لهوه وشرابه ، يحيط به نفر من البطانة السيئة ، والندماء الأسافل ، يصورون له الأحوال فى أبدع الصور وأحبها إلى نفسه .

وكان من الحوادث البارزة فى تلك الآونة ، حادث ظاهر البساطة فى ذاته ، ولكنه أذكى موجة جديدة من السخط . وذلك أن عبدالرحمن أصدر أمره إلى رجال الدولة وأكابر أهل الخدمة ، بأن يتركوا قلانسهم الطويلة ، المرقشة الملونة ، التى كانوا يضعونها على رؤوسهم ، ويمتازون بها على باقى الطوائف ، وأن يستبدلوها فوراً بالعمائم . وقد كانت العمائم هى غطاء الرأس عند البربر . فأنف الكبراء لذلك ، ولكنهم رضخوا للأمر كارهين ، وحضروا إلى قصر الزاهرة بالعمائم لأول مرة فى يوم ١٤ جمادى الأولى ، وعلق جمهور الشعب على ذلك بمختلف الأقوال والتأويلات .

---

(١) راجع البيان المغرب ج ٣ ص ٤٦ و٤٧ ؛ وأعمال الأعلام ص ٩٤ — ٩٦.

(٢) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ١٥٠ .

وكان عبد الرحمن أثناء ذلك قد فكر فى أن يشغل الناس بحديث الغزو أسوة بأبيه وأخيه ، وكان سانشو غرسية أمير قشتالة من جهة أخرى قد أبدى أنه لا يزمع احترام السلم المعقود ، وأخذ بالفعل يغير على الحدود الإسلامية . ولم تكن أخبار قرطبة ، وما يسودها من اضطراب الأحوال ، خافية على الملوك النصارى . واعتزم عبدالرحمن أن يسير إلى الغزو ، وأن يقصد إلى جلّيقية ، فاعترضه كبير الفتيان الصقالبة ، وحذره من مغادرة قرطبة فى هذا الوقت ، وأوضح له أن المروانية (بنى أمية) يأتمرون به ، ويدبرون انقلاباً ينتزعون به الحكم ، وأن كثيراً من الجند يميلون إليهم ، فلم يصغ إلى قوله ، وأمر بالخروج إلى الغزو[1] ، وعهد بإدارة الحكومة فى غيبته إلى ابن عم أبيه عبدالله بن أبى عامر المعروف بعسكلاجة . وكان خروجه من قرطبة فى ١٦ جمادى الأولى سنة ٣٩٩ هـ ( يناير سنة ١٠٠٩ م ) أعنى فى أعماق الشتاء ، وسار بالجيش صوب طايطلية فى طريقه إلى جليقية والأمطار تنهمر والبرد يهرأ الأجسام ، وهو على سجيته من اللهو والشراب . ثم اخترق حدود مملكة ليون ، ودخل جليقية . ولكن ملك ليون ألفونسو الخامس تحصن بقواته فى رؤوس الجبال ، ولم يتقدم لقتال المسلمين ، ولم يجد عبد الرحمن سبيلا لقتاله لفيضان الأنهار وكثرة الثلوج ، فقرر العودة بجيشه ، فارتد راجعاً أدراجه . وبالرغم من أنه لم يحقق فى غزوته هذه أية نتائج ذات شأن ، فقد نظم ابن دراج القسطلى ، على سجيته ، فى تلك الغزوة قصيدة طويلة ، يشيد فيها بعبد الرحمن ، وهذا مطلعها :

هو البدر فى فلك المجـــد دارا ... فما غســق الخطب إلا أنارا
تجــلى لنــا فأرتنــا السعود ... غيوب المنى فى سناه جهــارا
وأوفى فكادت صوادى القلوب ... تفوت العيون إليــه بــدارا
وحــل فحلت جســـام الفتو ... ح تبأى اختيالا وتزهى افتخارا[2]

وما كاد عبد الرحمن يصل إلى طليطلة ، حتى وافته الأنباء بأن انقلاباً حدث فى قرطبة ، وأن الثوار قد استولوا على مدينة الزاهرة ، ونهبوا ذخائرها ، وأضرموا النار فى صروحها . وتسربت الأنباء إلى الجند ، فوقع الاضطراب فى الجيش ،

---

(١) أعمال الأعلام ص ٩٦ .

(٢) وردت هذه القصيدة كاملة فى ديوان ابن دراج ( ص ٤٥٩ – ٤٦٣ ) .

واضطر عبد الرحمن أن يسير لفوره بالجيش إلى قلعة رباح ، فى طريقه إلى قرطبة .

— ٢ —

لم يكن ذلك الهدوء الظاهر ، الذى ساد قرطبة خلال هذه الأشهر القلائل التى اضطلع فيها عبد الرحمن بالأمر ، سوى الهدوء الذى يسبق العاصفة . وكان حكم الطغيان الذى فرضه بنو عامر على الأندلس قد أخذ منذ أيام عبد الملك ، يحدث آثاره المادية والأدبية ، فى نفوس الشعب ، ويبدو لهم بغيضاً مرهقاً . ولم يكن يستر هذه الآثار سوى سياج خفيف من الحذر والترقب . ذلك أن سلطان بنى عامر كان يستند دائماً إلى قوة عسكرية يخشى بأسها ، قوامها البربر والصقالبة ؛ فلما جاء عبد الرحمن ، وكشف عن نيته فى الاستئثار برسوم الملك ، واغتصاب ولاية العهد ، ألفت العناصر الناقمة ، وفى مقدمتها بنو أمية أصحاب الولاية الشرعية ، فى ذلك مادة جديدة ، للتنديد بحكم بنى عامر وطغيانهم واجترائهم ، وفى تلمس الوسائل الكفيلة بسحق دولتهم ؛ وكانت شخصية عبد الرحمن الهزيلة ، وأرومته الأجنبية ، وما أبداه من ضروب الاستهتار والمجون ، تذكى عاطفة السخط عليه ، سواء بين الخاصة أو الكافة ، وتمهد السبيل إلى الانقلاب المنشود .

وكانت خيوط المؤامرة التى اجتمعت حولها العناصر الناقمة ، تتوثق شيئاً فشيئاً ، وكان أهم مدبريها شخصيتين ، الأولى الذلفاء والدة عبد الملك المصور ، وقد كانت تعتقد اعتقاداً جازماً بأن ولدها قد توفى غيلة بالسم ، وأن قاتله هو أخوه عبد الرحمن ، وكانت لذلك تتوق إلى الانتقام ، والثانية هى شخصية فتى من بنى أمية هو محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ، وكان عبد الملك قد أمر بإعدام أبيه هشام بتهمة التآمر مع الوزير عيسى بن سعيد كما تقــدم .

وكانت الذلفاء امرأة ذكية قوية العزم ، كثيرة المال والوجاهة ، وكانت بالرغم مما أسبغه عبدالرحمن عليها وعلى أسرة ولدها وأخيه عبدالملك ، من ضروب الرعاية والإكرام ، تسعى دائبة للإيقاع به . فلما شعرت بأن الجو قد تهيأ للسعى بما ثار حول تصرفات عبد الرحمن من ضروب الإنكار والسخط ، اتصلت بوجوه بنى أمية ، وأخذت تحثهم على التحرك والقيام لاسترجاع دولتهم ، والانتقام من بنى عامر ، وكان صلة الوصل بينها وبينهم فتى من صقالبة العامريين يدعى بشرى

وكان من قبل من فتيان المراونة ، ثم انتقل إلى العامريين فيمن انتقل من فتيان القصر ، ولكنه بقى على ولائه لسادته الأقدمين . وتعهدت الذلفاء بأن تعاون المتآمرين بالمال والتدبير ؛ وسرعان ما استجاب بنو أمية للدعوة واختاروا من بينهم زعيماً هو محمد بن هشام بن عبد الجبار . وكان فتى جريئاً مغامراً فى الثالثة والثلاثين من عمره إذ كان مولده فى سنة ٣٦٦ هـ ، وأمه أم ولد تدعى مزنة[1]، وكان مذ قتل أبوه هشام ، يتحرز على نفسه ، ويختفى فى أحواز قرطبة وكهوفها ، ويجتمع حوله الصحب من المغامرين . فلما أجمع بنو أمية أمرهم على اختياره ، بايعوه سراً بالولاية والخلافة ، وكان له ولأبيه من قبل دعاة من أهل قرطبة من المروانية وغيرهم ، يدعون له ؛ واشتدت هذه الدعاية مذ أجمع المتآمرون رأيهم على اختياره . وكان خروج عبد الرحمن المنصور أو شنجول إلى الغزو فرصة سانحة للعمل ، فأخذ محمد بن هشام يحشد أنصاره ، ويجتمع بهم سراً فى كهوف جبل قرطبة . وكثر إرجاف دعاته فى المدينة أن دولة بنى عامر قد قضى عليها ، وأن الأمر سيعود إلى المروانية ، وكثر تشهيرهم بعبد الرحمن وقبيح تصرفاته . وكانت هذه الدعاية تجد لدى جمهور الكافة أذناً صاغية ، لما وقر فى نفوسهم من بغض عبد الرحمن وازدرائه . وإليك كيف يصف لنا ابن الخطيب موقف الشعب القرطبى ، وحالته النفسية إزاء العامريين ، وإزاء عبد الرحمن :

« وقد جبل الله أهل قرطبة على ملل ملوكها ، والقلق بذوى أمرها ، والإرجاف بما يتوقع لها . وكان سفهاؤهم بالأسواق والمجامع غير المحتشمة ، تؤثر عنهم فى العامريين نوادر حارة ، واستراحات عنهم ؛ كان المنصور وولده المظفر يستحضر لذلك مشيختهم ، ويأمرهم بإنهاء وعيده ، ويشافههم بإنكاره ، ولا يزال حكامه يبلغون فى تغيير ذلك وإنكاره أقصى المبالغ ضرباً للظهور ، وقطعاً للألسنة . فلما ذهب عبد الرحمن هذا المذهب ، وأطاع هذا الخرق ، كثر الحمل وشهرت البغضة »[2] .

ولم يكن المروانية ، وحدهم فى هذا التدبير الذى قصد به إلى سحق نير العامريين ودولتهم ، فقد كان إلى جانبهم سائر العناصر الناقمة من قريش ، ومن المضرية

(١) جذوة المقتبس ص ١٩ .
(٢) أعمال الأعلام ص ٩٠ .

واليمنية ، أو بعبارة أخرى من البيوت العربية ، التي عمل المنصور وآله على سحق رياستها ومكانتها الاجتماعية ، وإخضاعها لنفوذ البربر والصقالبة . وقد رأينا فيما تقدم أن هذه لم تكن أول مؤامرة أو محاولة من نوعها لتحطيم نير بني عامر ، وأن المنصور وولده عبد الملك ، استطاعا أن يقضيا على بعض المؤامرات الخطيرة ، التي دبرت لتحقيق هذه الغاية .

كانت الظروف قد تهيأت إذاً أمام المتآمرين للعمل . فقد خرجت معظم وحدات الجيش مع عبد الرحمن إلى الغزو ، ولم يبق منه سوى فرق قليلة ترابط في قرطبة والزاهرة ، وجمهور الشعب متأهب بعواطفه ونفسيته الضجرة المتذمرة لتأييد أي انقلاب .

ولما نضجت المؤامرة ، واتسع نطاق الدعوة لمحمد بن هشام ، وكثر الإرجاف بالانقلاب المنشود ، شعر الوزراء العامريون بالخطر ، وضاعفوا الأهبة والحرس حول قصور الزاهرة . وكان محمد بن هشام وأعوانه خلال ذلك يجتمعون سراً وينظمون خطتهم الأخيرة . وكان محمد هذا الذي اختاره بنو أمية زعيماً لهم ، قد فطر منذ نشأته على الشر والمغامرة ، لا يخالط سوى الزعانف والأشرار . وقد وصفه ابن الخطيب في قوله : « جرار جسور ، ثائر مخاطر ، خليع ، مداخل للصقورة والفتاك ، لا يدري في أي واد يهلك »(١) .

وفي يوم ١٦ جمادى الأولى سنة ٣٩٩ هـ (١٥ فبراير ١٠٠٩ م) جاءت الأنباء إلى قصر الزاهرة بأن عبد الرحمن قد عبر بجيشه إلى أرض النصارى ، فأدرك المتآمرون في الحال أن الفرصة قد سنحت للعمل ، واعتزم محمد بن هشام لفوره أن ينزل الضربة المنشودة . وكان قد بث نفراً من رجاله حول قصر قرطبة ، وقد تسلحوا تحت ثيابهم خفية . ففي عصر هذا اليوم ، كان محمد يكمن في الضفة الأخرى من النهر (نهر الوادي الكبير) قبالة القصر . وكانت خطة المتآمرين أن يسددوا الضربة الأولى لقصر قرطبة ، وهو يومئذ المقام الشتوي للخليفة هشام المؤيد ، وحوله قلة من الحرس ، ولأن ظروف العمل في قرطبة ، كانت أدعى إلى النجاح نظراً لعطف الكافة والدهماء وتأييدهم . وفي الوقت المحدد عبر محمد النهر ، والتف حوله من أصحابه اثنا عشر فتى ، منهم طرسوس المجوسي ، وهو أشدهم

---

(١) أعمال الأعلام ص ١٠٩ ؛ وراجع البيان المغرب ج ٣ ص ٥٢ .

جرأة وفتكاً ؛ فساروا حذرين حتى باب القصر ، ثم شهر طرسوس سيفه ، وهجم فى الحال على صاحب المدينة عبدالله بن أبى عامر (عسكلاجة) وانتزعه من مجلسه ، وكان يحتسى الخمر مع قينتين من جواريه ، وجىء به مخموراً إلى محمد بن هشام ، فأمر بضرب عنقه ، ورفع رأسه على رمح ، فلما أبصرت العامة رأسه مرفوعاً ، هرعت إلى محمد بن هشام ، والتف حوله منهم جمهرة كبيرة من السفلة والغوغاء ، فقويت بذلك عصبته ، ثم بادر باقتحام سجن العامرية ، وأفرج عمن فيه من القتلة واللصوص ، وتلاحق عليه أقاربه المروانية من كل صوب ، واستنهضوا الناس لنصرته ، حتى اجتمع حوله منهم طوائف غفيرة .

ونمى الخبر إلى الخليفة هشام المؤيد ، فأمر بإغلاق أبواب القصر ، وصعد إلى السطح ، ومن حوله خادمان يحمل كل منهما مصحفاً ، وحاول مخاطبة العامة ، فأسكتوه وأغلظوا له القول ، فانصرف عنهم إلى داخل القصر ، وأمر الخدم بالكف عن كل مقاومة حتى يقضى الله أمره . فأمر محمد بن هشام العامة بنقب أسوار القصر ، واقتحام أبوابه ، وبذل العامة فى ذلك جهوداً فادحة ، وأتوا بالسلالم ، وصعدوا إلى أعلا الأسوار ، وسيطروا على عدة نواح من سطح القصر ، وارتد الخدم أمامهم ، ووصلوا إلى خزائن السلاح فنهبوها واشتد ساعدهم . ولما سمع الخليفة بذلك ، خشى البادرة على نفسه وأهله ، فبعث إلى محمد بن هشام يعرض عليه أن يقصى بنى عامر عن الحكم ، وأن يشركه فى أمره ، فرفض محمد ذلك ، وطلب إلى فاتن محافظ القصر أن يفتح الأبواب ، فأذعن ودخل محمد القصر ، واحتل مجلسه ، ومن حوله خاصة أصحابه ، واعتزم أن يقضى ليله بين الشموع المضيئة . ثم قام بطرد العامة عن القصر وأجلاهم عن سطحه ، وكفهم عن انتهاك حرمه ، وعين ابن عمه محمداً بن المغيرة فى كرسى الشرطة ، وابن عمه الآخر عبد الجبار بن المغيرة فى خطة الحجابة ، ودعا سليمان بن هشام من قرابته فسماه ولى عهده ، وبعث إلى الخليفة هشام يعاتبه على إيثار بنى عامر ، ويدعوه إلى خلع نفسه ، منذراً مهدداً ، فارتاع هشام وبادر بالقبول ، واستدعى محمد فى الحال بنى عمومته ، وأكابر بيته ، ونفراً من الأعيان والوزراء والقضاة فى جوف الليل ، وأعلن هشام خلع نفسه بمحضر من بعضهم ، وقدم إلى محمد بعض حلله الخلافية الفاخرة ، فتم الخلع ، وذلك بعد أن مكث هشام فى الخلافة ثلاثة وثلاثين عاماً

وبضعة أشهر ، وآلت الخلافة فى تلك الليلة إلى محمد بن هشام بن عبد الجبار ابن عبد الرحمن الناصر ، وتلقب بالمهدى. وكان ذلك صبيحة يوم الأربعاء ١٧ جمادى الآخرة سنة ٣٩٩ هـ ( ١٦ فبراير سنة ١٠٠٩ م ) .

وهرعت الجموع من سائر أنحاء قرطبة إلى محمد بن هشام ، ملتفة حوله ، مؤيدة لبيعته ، واعتبروه بطلا منقذاً ، إذ كان أول من استطاع أن يثور فى وجه بنى عامر ، وأن يعمل لإزالة ملكهم ، وشعروا أن كابوس الإرهاب العامرى قد تقلص ، وأن عهداً جديداً سوف يبدأ ، ولم يخطر ببالهم قط ، أن هذا التحول كان نذير المحنة الغامرة ، التى سوف تطيح بكل ما نعموا به فى ظل الدولة العامرية من السكينة والأمن والرخاء .

وفى الوقت نفسه كانت مدينة الزاهرة ، معقل بنى عامر ، عرضة لهجوم مماثل . وكان القائمون على أمرها قد نمى إليهم ما وقع بقرطبة ، وبادر محافظ الزاهرة عبد الله بن مسامة إلى ضبط أسوارها وأبوابها ، وحشد ما لديه من الجند ، فبلغوا سبعمائة ، وتأهب للدفاع وبعث محمد بن هشام إلى الزاهرة جمهوراً غفيراً من العامة مع طائفة من أصحابه . فأحاطوا بها وحاولوا اقتحامها ، ولكن نظيفاً الخادم ، ونصراً المظفرى ، وهما من الفتيان العامريين ، استطاعوا فى قوة من الغلمان إجلاء العامة عن الأسوار ، ثم دخل الليل فحال بين الفريقين .

وفى صباح اليوم التالى ، ١٨ جمادى الأولى ، ندب محمد بن هشام أو الخليفة المهدى ، ابن عمه عبد الجبار بن المغيرة لمهاجمة الزاهرة ، فسار إليها على رأس قوة كبيرة من العامة ، الذين أقبلوا على التطوع فرساناً ومشاة ، ووزعت عليهم الأسلحة ، وأمامهم رأس عبدالله بن أبى عامر مرفوعاً فوق رمح ، وهاجموا قصر عبد الملك المظفر ، وكان خارج الأسوار ، وكان فيه أهله وأمه الذلفاء ، فنهبوه وتخاطفوا متاعه وذخائره ، وذلك بالرغم من أن الذلفاء هى التى أمدت محمداً بن هشام بعونها ومالها . فلما شعر أهل الزاهرة ، بأنه من العبث مقاومة هذه الجموع الهائلة ، عرضوا التسليم على أن يصدر لهم المهدى الأمان ، فبعث إليهم المهدى الأمان المنشود مكتوباً بخطه ، وكان ذلك وقت الظهر ، ففتحوا أبواب المدينة وسلموها ، ودخل عبد لجبار لفوره قصر الزاهرة ، واقتحمته الجموع ، ونهبت منه من المتاع والنفائس ما لا يقدر ولا يوصف ، واستأثر عبد الجبار

وصحبه المقربين من ذلك بأعظم نصيب ، واستولت العامة على خزائن الكسوة والمتاع والسلاح والحلى ، ولم يكف النهب إلا فى مساء اليوم التالى . وحرص عبد الجبار على أن يحيط بقواته بيوت الحُرم والمال وخاص المتاع والجوهر ، وأن يبعد العامة عنها ، وقد استولى المهدى على جميع محتوياتها ونقلها إلى قصر الخلافة بقرطبة . ويقال إنه حصل من أموال الزاهرة المنهوبة خمسة آلاف وخمسمائة ألف دينار من النقود ، ومن الذهب ما قيمته ألف ألف وخمسمائة ألف ؛ وأطلق المهدى الحرائر من بنى عامر ، واصطفى الجوارى لنفسه ، ووهب منهن لوزرائه وأصحابه ، وأذن للذلفاء أن تنتقل وأسرة ولدها عبد الملك وولده الصغير محمد ، مطلقة السراح إلى دورها بالمدينة ، وكانت لحرصها قد نقلت إليها معظم خزائن المال والمتاع .

ولم يكتف المهدى بذلك كله ، بل عمد بعد أن استصفى سائر ما فى الزاهرة من الخزائن والأموال الطائلة ، إلى هدم صروحها وأسوارها ، واستطالت الأيدى إلى كل نفيس من مرمر قصورها وطرائفها وأنقاضها وأبوابها ، فلم تمض أيام قلائل على ذلك السيل المدمر ، حتى اختفت صروح الزاهرة ومعالمها الضاحكة ، وغدت أطلالا دارسة ، وخرائب موحشة . وكان المهدى يتعجل إزالة رسوم بنى عامر بكل ما وسع ، خشية أن يعود عبد الرحمن المنصور ، قبل أن يتم إحكام ضربته وتوطيد مركزه .

وقد ذكرت لنا الرواية أن المنصور بن أبى عامر ، كان يتوقع ذهاب دولته وخراب الزاهرة ، وكان هذا الخاطر ينتابه من آن لآخر ، ويفضى به إلى خاصته ؛ وقد نقل إلينا الوزير أحمد بن حزم ، والد الفيلسوف الشهير ، أن المنصور كان يقول : « ويحاً لك يازاهرة الحسن ، لقد حسن مرآك ، وعبق ثراك ، وراق منظرك ، وفاق مخبرك ، وطاب تربك ، وعذب شربك ، فياليت شعرى من الذى يهدمك ، ويوهن جسمك ويعدمك » ، وأنه كان يؤكد لأصحابه صحة هذه النبوءة فى مناسبات كثيرة[1] .

— ٣ —

لما وصلت أنباء هذا الإنقلاب الخطير الذى وقع فى قرطبة ، إلى عبد الرحمن

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٦٥ .

المنصور أو شنجول ، وهو فى طيلطلة ، بادر بالسير فى قواته إلى قلعة رباح ، والحيرة تغلب عليه ، والاضطراب يسود صفوف الجنود ، وهنالك تمهل قليلا ، وأعلن فى الحال أنه ينزل عن ولاية العهد ، ويقتصر على الحجابة ، وبعث كتبه بذلك إلى طليطلة وأعمالها ، وفيها يناشد الناس أن يهرعوا إلى نصرة الخليفة المظلوم هشام ، وإلى التمسك بطاعته ، ويصف لهم ما ارتكبه محمد المهدى ودهماء قرطبة من العيث والسفك . فلم يعبأ أحد بدعوته ، وكان أول الخارجين عليه الفتى واضح مولى أبيه ، وهو يومئذ والى طليطلة . وحاول شنجول فى الوقت نفسه ، أن يأخذ العهد على زعماء الجند بنصرته والقتال معه ، ولا سيما زعماء البربر الذين يؤلفون سواد الجيش ، فتظاهروا بموافقته ، ولكنهم تعاهدوا فيما بينهم ، وعلى رأسهم كبيرهم محمد بن يعلى الزناتى زعيم زناتة ، أن يتخلوا عن شنجول وألا يغامروا بمحاربة أهل قرطبة ، وفيها أسرهم وأموالهم ، وخصوصاً بعد الذى ترامى إليهم عن التفاف الناس حول محمد بن هشام ، وتفانيهم فى نصرته ؛ وقوى هذا العزم لديهم ما أفضى إليهم القاضى أبو العباس بن ذكوان — وكان قد صحب شنجول فى غزاته — من أنه يتبرأ من شنجول ويقضى بفسقه ، وينكر عليه ما يدعو إليه من قتال المسلمين بقرطبة ، وفيهم العلماء والصالحون ، والنسوة والأطفال . ومما تجدر ملاحظته أن القاضى ابن ذكوان هذا ، كان من قبل من أخص رجال الدولة العامرية ، وكان من أشد المعاونين لعبد الرحمن المنصور على انتزاع ولاية العهد من هشام .

وكان إلى جانب شنجول فى معسكره ، زعيم من زعماء بنى غومس سادة مقاطعة كريون فى جلِّيقية ، وكان قد صحبه يرجو عونه على بعض خصومه من الزعماء المجاورين ، فلما رأى اضطراب أحوال الجند ، نصح شنجول بأن يعدل عن السير إلى قرطبة ، وأن يعود فى أصحابه إلى طليطلة فيتفق مع واضح ، فأبى شنجول نصحه ، وزعم أنه متى اقترب من قرطبة ، سارع الناس إلى نصرته . وقد بقى هذا الزعيم النصرانى إلى جانب شنجول حتى النهاية (١) .

وعلى أى حال فقد سار شنجول فى قواته صوب قرطبة ، حتى انتهى إلى «منزل هانى» ، وهى أقرب محلاته إلى المدينة . وما كاد الليل يرخى سدوله ،

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٧٠ .

حتى غادر معظم الجند البربر أمكنتهم تحت جنح الظلام ، وأسفر الصبح وهو صبح نهاية شهر جمادى الآخرة سنة ٣٩٩ هـ ( نهاية فبراير سنة ١٠٩٩ م ) فلم يبق إلى جانب عبد الرحمن سوى خاصته وحرمه وحشمه وجمع يسير من غلمانه ، وابن غومس فى نفر من أصحابه ، وغادر المعسكر تباعاً زعماء البربر ، والفتيان الصقالبة ووجوه الأندلسيين ، وهنا نصحه ابن غومس مرة أخرى بأن ينجو بنفسه وصحبه ، فأبى .

وسار شنجول فى أهله حتى وصل إلى أرملاط من مشارف قرطبة ، وقد تركه النفر القليل الذى بقى معه ، فاستولى عليه اليأس ، وأدخل حرمه قصر أرملاط ، ثم خرج مودعاً والصراخ يتبعه ، وسار ومعه ابن غومس ، وقد عول على الفرار ، فالتجأ ليلا إلى الدير القريب. وكان محمد بن هشام فى تلك الأثناء يتتبع أخباره وحركاته ، فلما نمى إليه أنه يزمع الفرار ، بعث فى الحال الحاجب ابن ذرى فى طائفة من الفرسان ، فصار مسرعاً إلى أرملاط ودهم الدير ، وقبض على شنجول وابن غومس . وأخذ نساء شنجول من القصر ، وهن سبعون جارية ، فبعث بهن إلى قرطبة . ولما شعر شنجول بأنه هالك أعلن أمام معتقله أنه يعترف بطاعة المهدى ، فاستاقه ابن ذرى هو وابن غومس ، ثم أمر بتوثيق يديه بالرغم من احتجاجه ، وفى خلال الطريق طلب شنجول أن يفك وثاق يديه قليلا ليستريح ، فأجيب إلى طلبه ، وعندئذ أخرج من خفه سكيناً بسرعة البرق ، وحاول أن يغمده فى صدره ، فتداركه الجند ، وأوثقوا يديه ، وأمر الحاجب بقتله ، فذبح فى الحال ، وفصل رأسه عن جسمه ، وقتل ابن غومس ، وحمل رأس شنجول إلى المهدى فى نفس المساء ، وحمل جسده معروضاً على بغل ، وأمر المهدى فحنطت الجثة ، وركب عليها الرأس ، وألبست كسوتها ، ونصبت على خشبة طويلة على باب السُّدة ، ونصبت رأس ابن غومس على سارية إلى جانبها . وكان مقتل عبد الرحمن المنصور فى اليوم الثالث من رجب سنة ٣٩٩ هـ (٣ مارس سنة ١٠٠٩ م ) .

وقد انتهت إلينا من تعليقات المعاصرين على تلك الحوادث المتوالية المدهشة تعليق شاهد عيان يقول فيه :

« ومن أعجب ما رأيت من عبر الدنيا ، أنه تم من نصف نهار يوم الثلاثاء

لأربع عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة المؤرخ إلى نصف نهار يوم الأربعاء ثتمة الشهر ، وفى مثل ساعته فتح مدينة قرطبة ، وهدم مدينة الزاهرة ، وخلع خليفة قديم الولاية وهو هشام بن الحكم ، ونصب خليفة جديد لم يتقدم له عهد ، ولا وقع عليه اختيار ، وهو محمد بن هشام بن عبد الجبار ، وزوال دولة آل عامر ، وكرور دولة بنى أمية ، وإقامة جنود من العامة المحشودة عورض بها أجناد السلطان أهل الدربة والتجربة ، ونكوب وزراء جلة ، ونصب ضدادهم ، تقتحمهم العين هجنة وقماءة . وجرى هذا كله على يدى بضعة عشر رجلا من أراذل العامة ، حجامين وخرازين ، وكنافين ، وزبالين ، تجاسروا عليه ، وقد تكفل المقدور بوقوعه ، فتم منه ما لم يكن فى حسبان مخلوق تمامه »[1] .

* * *

وهكذا انهارت الدولة العامرية بسرعة مدهشة لم يكن يتوقعها أحد ؛ فقد تولى عبد الرحمن المنصور الحكم عقب وفاة أخيه عبد الملك فى ١٧ صفر سنة ٣٩٩هـ والدولة محكمة النظام موطدة الدعائم ، والجيش على ولائه للدولة العامرية ، فلم تمض سوى ثلاثة أشهر حتى انهار ذلك الصرح الشامخ ، الذى شاده المنصور ابن أبى عامر ، والذى لبث خمسة وثلاثين عاماً معقد النظام والسلامة والأمن والرخاء للأندلس ، واستطاعت جموع يسيرة من الدهماء ، أن تحقق بسرعة البرق ما لم يجرؤ على تصوره أو محاولته من قبل ، أحد من أكابر خصوم الدولة العامرية والمتربصين بها . ومن الواضح أن الأسباب الجوهرية لمثل هذا الانقلاب الصاعق ، ترجع قبل كل شىء إلى العوامل الأدبية والنفسية ، فقد كان نظام الطغيان المطبق الذى فرضه المنصور على الأمة الأندلسية ، بالرغم من كل ما حققه للأندلس من السؤدد والرخاء ، يبدو كالكابوس المرهق ، وكان الشعب يتوق إلى التخلص من هذا النير ، الذى سلبه كل مظاهر الحرية . فلما تولى عبد الرحمن المنصور ، كانت النفوس قد أشبعت ببغض هذا النظام والرغبة فى زواله ، وكان سلوك عبد الرحمن وتصرفاته ومجونه واستهتاره ، عاملا جديداً فى إذكاء هذا البغض وهذه الرغبة . وكان لاجترائه على اغتصاب ولاية العهد ، أسوأ وقع فى نفوس قوم جبلوا على تقديس شعائر الخلافة وحقوقها الشرعية . فلما خرج عبد الرحمن إلى الغزو ، كان

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٧٤ .

الشعب يضطرم سخطاً وبغضاً وازدراء ، وكان يرقب أول بادرة للانفجار . فلما وقعت هذه البادرة بوثوب محمد بن هشام ، لبى الشعب لفوره دعوة الخروج والثورة ، ولم يفكر فى شىء من العواقب ، ولم يفكر إلا فى تحطيم هذا النير البغيض – نير بنى عامر – بأية وسيلة . وكان له ما أراد ، وقد حقق رغبته بأيسر أمر .

على أن الأمة الأندلسية لم تجن خيراً من هذا الانقلاب ، الذى حققه الشعب القرطبى دون تدبر ودون تحوط. ذلك لأنه لم يقف عند القضاء على دولة بنى عامر ، بل بالعكس كان نذيراً بانهيار دعائم النظام والأمن ، اللذين تمتعت بهما الأندلس فى ظل الدولة المنقضية ، ودفع الأمة الأندلسية إلى معترك مروع من الفتن المضطرمة ، والفوضى الشاملة ، التى انتهت بانهيار حكومتها المركزية ، وتمزيق وحدتها ، وواجهتها لأخطر مصير عرفته منذ قيامها فى شبه الجزيرة .

# الكتاب الرابع

# سُقوط الخلافة الأندلسيّة

## ودولة بني حمود

٣٩٩ – ٤٢٢ هـ : ١٠٠٩ – ١٠٣١ م

# الفصل الأول

## الخلافة فى معترك الفتنة والفوضى

غداة الانقلاب . اقتسام السلطان . الشعب القرطبى . شخصية المهدى . اضطهاده البربر . تحامل العامة عليهم . نفى المهدى للفتيان العامريين . إخفاؤه الخليفة هشام وادعاؤه بوفاته . عيثه وطغيانه . هشام بن سليمان . سعيه إلى خلع المهدى . القتال بين الفريقين . هزيمة هشام ومصرعه . تحريض المهدى على البربر والفتك بهم . مسيرهم إلى قلعة رباح . يرشحون سليمان بن الحكم للخلافة . استنصارهم بسانشو غرسية أمير قشتالة . الحرب بينهم وبين الفتى واضح . هزيمته وفراره . تأهب المهدى للدفاع . مسير البربر وحلفائهم النصارى إلى قرطبة . موقعة قنتش . هزيمة القرطبيين وتمزيق جموعهم . المهدى يظهر الخليفة هشام . فشل محاولته وفراره . مبايعة سليمان بن الحكم . المهدى وواضح يدبران محاولة جديدة . استنصارهما بأميرى برشلونة وأورقلة . مسير المهدى وحلفائه الفرنج إلى قرطبة . اللقاء بينهم وبين البربر . هزيمة البربر وفرار سليمان . تجديد البيعة للمهدى . مسيره لمطاردة البربر . هزيمته وارتداده إلى قرطبة . استعداده للدفاع . الوحشة بينه وبين واضح . ائتمار الفتيان به ومقتله . عود هشام المؤيد إلى الخلافة . واضح يتولى الحجابة . تمسك البربر بولاية سليمان . مسير البربر إلى الزهراء واحتلالها . عيثهم بأراضى قرطبة . هشام يقدم الحصون الأمامية لأمير قشتالة . حصار البربر لقرطبة . واضح يحاول الفرار . ضبطه ومقتله . ابن وداعة وابن مناو . هشام يحاول استرضاء البربر وسليمان . فشل المحاولة . اشتداد الحصار على قرطبة . مقتل حباسة بن ماكسن . هياج البربر . القتال بينهم وبين أهل قرطبة . هزيمة القرطبيين . اقتحام البربر للمدينة والفتك بأهلها . سليمان المستعين يسترد الخلافة . مصير هشام المؤيد . سليمان يتلقب بالظافر . تفكك عرى الدولة . توزيع الكور بين زعماء البربر . خلال سليمان وشعره .

تربع محمد بن هشام الملقب بالمهدى على كرسى الخلافة ، مكان الخليفة هشام المؤيد ، فى ١٧ جمادى الآخرة سنة ٣٩٩ هـ (١٦ فبراير سنة ١٠٠٩م) ، وانقضى عهد السلطة الثنائية — سلطة الخليفة الشرعى الإسمية ، وسلطة حاجبه والمتغلب عليه الفعلية — ليفسح مجالا لعود السلطة الموحدة . ولكن الظروف التى وقع فيها هذا الانقلاب الحاسم ، الذى أودى بين عشية وضحاها ، بسلطان دولة من أعظم الدول الأندلسية ، لم تكن تسمح لأية سلطة نظامية أن تثبت وأن تستقر ؛ فقد كان الخليفة الجديد ، شخصية مغامرة رخوة ، تحركها النزعات الوضيعة ، ولا تحدوها أية غاية مثلى ، وقد أطلقت سائر الأهواء المتوثبة من عقالها ، وأخذ كل حزب وكل فريق وكل طائفة ، تحاول أن تحصل نصيبها من

أسلاب الدولة المنهارة . فقد كان هناك المروانية أو بنو أمية ، يرون أنهم أصحاب السلطة الشرعية ، وأصحاب التراث المتخلف عن مغتصبيها ، بنى عامر ؛ وكان هناك الفتيان العامريون ، وأنصارهم من الصقالبة ، ومن إليهم من الجند المرتزقة ، وقد كانوا أولياء الدولة العامرية ، وكانوا من حيث العدد والعصبية قوة يعتد بها ؛ وكان هناك البربر ، وقد كانوا عماد الجيش العامرى ، وكان عددهم قد تضاعف فى أواخر أيام المنصور وبنيه ، وتوافد كثير من زعمائهم إلى شبه الجزيرة ؛ ثم كان هناك أخيراً الشعب القرطبى ، أو بعبارة أخرى كتلة العامة والدهماء الذين آزروا الخليفة الجديد والتفوا حوله ، وقد كانوا قوة خطرة متقلبة ، كثيرة الأهواء والنزعات ، لا تؤمن عواقبها .

استقبل الشعب القرطبى ، ولاية الخليفة الجديد ، بمظاهر السرور والرضى ، وأقاموا الحفلات والولائم ، وظنوا أنهم قد أفلتوا من أغلال النظام العامرى المرهق ، ليستقبلوا عهداً أكثر تسامحاً ، وأوسع آفاقاً ، وما دوروا أن القدر يتربص بهم ، وأن الأندلس سوف تجوز من تلك الساعة ، عهداً مليئاً بالمحن والأحداث المؤلمة .

والواقع أن الخليفة الجديد لم يكن رجل الموقف ، ولم تكن جرأته التى تذرع بها لانتزاع السلطة من هشام المؤيد ، والقضاء على سلطان بنى عامر ، جرأة زعيم مقدام يقدر المسئوليات التى أخذها على عاتقه ، ولكن جرأة مغامر متهور ، وزعيم عصابة غير مسئولة ، التفت حوله جموع الدهماء الصاخبة ، دون وعى ولا تدبر ، شأنها دائماً فى كل انقلاب وكل حدث جديد . ومن ثم فإنه ما كاد يشعر باستقرار أمره ، وتمكن سلطانه ، حتى أطلق العنان لطغيانه وأهوائه ، وجمع حوله بطانة سوء ، أخذت تتنكر للناس ، وتضطهدهم ، وتسومهم سوء الخسف ؛ وأبدى الموكلون بالقصر من رجاله نحو البربر بنوع خاص منتهى الشدة والفظاظة ، وكان المهدى ورجاله يخصون البربر بالبغض والزراية ، لأنهم كانوا عضد المنصور ، وسند نظامه الحديدى ، وكان أهل قرطبة ينساقون مع المهدى فى هذه العاطفة ضد البربر ، وينظرون إليهم شزراً .

وبدا سخط المهدى نحو البربر فى سوء معاملتهم ، والتشدد فى دخولهم القصر ، فكانوا يمنعون من الركوب عند الدخول ، وينزع سلاحهم ، ويوجه إليهم قارص

الكلام ، ولم يفرق فى ذلك بين أصاغرهم وزعمائهم ، حتى أن كبيرهم زعيم قبيلة صنهاجة ، زاوى بن زيرى بن مناد ، عند مقدمه إلى القصر ، مع جماعة من رجاله ، ردوا عند الباب بفظاظة ، وأهينوا ، فانصرفوا وقلوبهم تضطرم سخطاً .

وسرت إلى العامة عندئذ ، موجة من التحامل ضد البربر ، فهاجمت بعض جموعهم دور البربر فى ضاحية الرُّصافة ، ونهبوا بعضها ، وبادر صاحب المدينة بضبط الحال ورد الغوغاء ، وقتل ثلاثة منهم . وأسرع زاوى بن زيرى ، وحبوس بن ماكسن ، وأبو الفتوح بن ناصر ، وغيرهم من زعماء البربر بالدخول على محمد بن هشام ، وأخبروه بما وقع ، فاعتذر لهم ، ووعدهم برد ما نهب ، وقتل عدد من الغوغاء ، ولكن البربر لم تهدأ ثائرتهم ، وبقيت نفوسهم على اضطرامها .

وكان من أعمال العنف التى قام بها محمد بن هشام ، أن نفى عدداً من الفتيان الصقالبة العامريين. فغادروا قرطبة ، ولجأوا إلى أطراف الأندلس الشرقية ، وكان من تملكهم لبعض نواحيها ومدنها ما سنذكر فى موضعه . ولم يقبل منهم على مسالمة محمد بن هشام ومصادقته ، سوى الفتى واضح صاحب مدينة سالم والثغر الأوسط ، فإنه بعث إليه كتاباً يؤكد فيه طاعته ، ويبدى ابتهاجه بمصرع عبد الرحمن المنصور ، فرد عليه المهدى بالشكر ، وبعث إليه أموالا ومتاعاً ، ومرسوماً بولاية الثغر كله .

وعمد محمد بن هشام بعد ذلك إلى مطاردة الخليفة هشام المؤيد ، فحبسه فى القصر أولا ، وأخرج جواريه وفتيانه ، ودوابه المحبوبة ؛ ثم أخرجه بعد ذلك من القصر ، وأخفاه فى بعض منازل قرطبة . وتوفى فى ذلك الوقت رجل نصرانى أو يهودى ، قيل إنه كان يشبه هشاماً شبهاً قوياً ، فأعلن محمد بن هشام ، وفاة الخليفة ، وأحضر الوزراء والفقهاء فشهدوا بأنه هو الخليفة هشام المؤيد حقاً . ودفن هذا الخليفة المزعوم فى اليوم السابع والعشرين من شعبان سنة ٣٩٩ هـ[1] .

ولما شعر محمد بن هشام أن الأمر قد استتب له ، أطلق العنان لأهوائه ، وشهواته الوضيعة ، وانكب على معاقرة الخمر ، وبالغ فى الاستهتار والمجون ، والمجاهرة بالفسق والفجور ، بصورة مثيرة أفقدته عطف الكثيرين واحترامهم ،

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٧٧ ؛ و ابن الأثير ج ٨ ص ٢٥٢ .

وبطش بكثير من الناس ، وفى مقدمتهم ولى عهده سليمان بن هشام ، فقد سجنه وسجن معه جماعة من قريش ، وأخرج من الجيش نحو سبعة آلاف جندى ، أقيلوا وقطعت أرزاقهم ، وأضحوا عنصراً من عناصر التوتر والشغب ؛ وزاد فى التحامل على البربر ، والتعريض بهم والطعن فيهم ، فى كل فرصة وموطن ، حتى أصبح بغضه لهم ، وتربصه بهم ، من الأمور الذائعة ، وأخذ كل فريق يحترز من صاحبه ، ويتوقع منه الشر والغدر .

وكان هشام بن سليمان بن الناصر ، وهو والد سليمان ولى العهد المعتقل ، قد وجد على محمد بن هشام من جراء انحرافه وطغيانه ومجونه ، وخشى سوء العاقبة على بنى أمية ، وانهيار أمرهم ، فأخذ يسعى فى خلع محمد بن هشام ، وانضم إليه جماعة من الناقمين عليه ، وفى مقدمتهم جماعة العبيد العامريين ، وطوائف البربر ، ومن تغيرت نفوسهم على محمد بن هشام ، وحاصر الثوار محمد بن هشام فى قصره ، فبعث إلى هشام القاضى ابن ذكوان ، وأبا عمر بن حزم ، يعاتبانه على تصرفه ، وأمر بالإفراج عن سليمان بن هشام ، ووقع بين الرسولين وبين هشام حوار شديد ، أعلن فيه أنه أحق من محمد بالعرش ، فانصرفا عنه . والتفت العامة من الربض الغربى حول محمد ؛ وخرج محمد المهدى فى جموعه لمقاتلة خصومه ، ودار القتال بينهما يومين متواليين ، ثم أسفرت المعركة عن هزيمة هشام وجموعه من البربر والعامريين ، وأسر هشام وابنه وأخوه أبو بكر ونفر من الزعماء ، قتلهم المهدى جميعاً [1] . وانثالت الدهماء على دور البربر ، فأعملت فيها التدمير والنهب حتى دخل الليل ، وكان ذلك فى أواخر شوال سنة ٣٩٩ هـ (يونيه سنة ١٠٠٩ م) .

ودافع البربر عن أنفسهم ، ثم انسحب معظمهم إلى أرملاط [2] ضاحية قرطبة ، ووقع القتال بقرطبة بين من تبقى منهم وبين العامة ، وحرض المهدى على قتلهم ، وجعل لرؤوسهم أثماناً ، ففتك العامة بكثير منهم ، ومن بينهم عدة من الزعماء ، ونهبوا دورهم ، واغتصبوا النساء وسبوهن ، كل ذلك فى مناظر مثيرة من السفك والاعتداء الغاشم ؛ واختفى كثير من زعمائهم . وتوجس المهدى من العواقب ، فأصدر للبربر أماناً ، ونادى الكف عنهم ، ونصحهم بتغيير زيهم اتقاء

---

(١) البيان المغرب عن ابن حيان ج ٣ ص ٨٤ .

(٢) وهى بالإسبانية Guadimellato

الأذى ، وكتب إلى البربر فى أرملاط أماناً ، فلم يلتفتوا إليه ، وغادروا أرملاط وساروا شمالا إلى قلعة رباح ، وهناك أخذوا ينظمون أنفسهم ويتدبرون أمرهم .

وكان ممن فر من بنى أمية عقب هزيمة هشام بن سليمان ومصرعه ، ولد أخيه سليمان بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر ، وكان إماماً للبربر ، فسار معهم ، ورشحوه منذ البداية لتولى الأمر مكان المهدى ، ولقبوه بالمستعين . وكان سانشو غرسية أمير قشتالة يرقب تطور الحوادث فى قرطبة باهتمام ، متأهباً لمظاهرة الفريق الخارج على الآخر ، ففاوضه سليمان وزعماء البربر فى طليطلة على أن يمدهم بالجند ، وتعهدوا إليه بتسليم بعض الحصون الواقعة على الحدود ، فقبل معاونتهم ؛ وفى أثناء ذلك حاول الفتى واضح صاحب مدينة سالم أن يعرقل مسير البربر ، فأمر مدن الثغر أن تمنع المؤن عن البربر ، ولقوا من جراء ذلك شدة وإرهاقاً . وأمده المهدى ببعض قواته بصحبة غلامه بليق ، فجمع جموعه وسار لقتال البربر ، ولجأ البربر من جانبهم إلى حليفهم سانشو ، فأمدهم بالجند والمؤن الوفيرة . والتقى البربر وجيش واضح فى مكان يسمى شرنبة على مقربة من قلعة النهر أو قلعة هنارس الحالية Alcalá de Henares فهزم واضح هزيمة شنيعة ، واستولى البربر على محلته وسلاحه ، وفرت فلوله صوب قرطبة . وكان ذلك فى شهر ذى الحجة سنة ٣٩٩ هـ (١).

وارتاع المهدى لتلك الهزيمة ، وأخذ فى تحصين قرطبة ، وحفر حول فحص السرادق ، وهو محلة البربر خندقاً ، ورتب الرجال على الأبواب والأسوار ، وأخذ ينظم قواته النظامية ومن العامة . وكان واضح قد أتاه منهزماً فى أربعمائة فارس من الثغر ، انضمت إلى قواته . وسار سليمان بن الحكم من جهة أخرى فى جموع البربر ، ومعها القوات القشتالية بقيادة سانشو غرسية ، صوب قرطبة ، وعسكروا بشرقها فى سفح جبل يعرف بجبل قنتج أو قنتش وذلك فى يوم ١١ ربيع الأول سنة ٤٠٠ هـ . وبرز واضح فى جموعه من أهل قرطبة والثغر ، واشتبك الفريقان فى القتال يوم السبت ١٣ ربيع الأول ( ٥ نوفمبر ١٠٠٩ م ) ، واضطرمت بينهما معركة شديدة ، وسرعان ما دب الخلل إلى جيش قرطبة ، فارتد منهزماً إلى الوادى ، وتبعه البربر بعنف . فضاقت بهم المسالك ، وقتل منهم عدد جم

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٨٧ .

يقدره البعض بعشرة آلاف ، بينهم عدد كبير من العلماء والأئمة ، وقتل النصارى وحدهم نيفاً وثلاثة آلاف رجل ، وثبت واضح فى رجاله حتى دخل الليل ، فانسل تحت جنح الظلام وفر هارباً إلى الثغر (١) .

ولما رأى المهدى هزيمة جنده ، سقط فى يده ، وحاول أن ينقذ نفسه بحيلة سخيفة ، يدفع بها دعوى سليمان ، فأظهر الخليفة هشاماً المؤيد ، وكان قد أخفاه حسبما تقدم ، وزعم أنه مات ، وأجلسه فى مكان بارز فى شرفة القصر ، وبعث القاضى ابن ذكوان إلى البربر ، يخبرهم أن الخليفة هشاماً ما زال على قيد الحياة ، وأنه الإمام الشرعى ، وليس المهدى سوى نائبه وصاحبه ، فرده البربر بجفاء وسخرية ، وأبدوا تمسكهم بولاية سليمان . ولم ير المهدى أمامه سوى الفرار والنجاة بحياته ، فغادر القصر سراً ، واخترق قرطبة متنكراً ، ولحق بطليطلة . ودخل زاوى بن زيرى زعيم البربر القصر ، ودخل سليمان بن الحكم فى أثره فى يوم الإثنين الخامس عشر من ربيع الأول سنة أربعمائة ، وبايعه الناس بالخلافة ، وتلقب بالمستعين بالله ، واستقبله الشعب القرطبى القُلَّب بحماسة ، شأنه مع كل متغلب وظافر (٢) . ووكل سليمان بعض الفتيان الصقالبة بالمحافظة على هشام المؤيد فى بعض أجنحة القصر ، ونزل البربر فى الزهراء اتقاء للاحتكاك مع العامة . ومع ذلك فقد كانت حوادث الاعتداء تتوالى عليهم فى دروب قرطبة وأزقتها . وكان من أول أعمال سليمان أن أمر بإنزال جثة عبد الرحمن بن المنصور عن خشبتها ، فغسلت ودفن فى دار أبيه ؛ ووفد سانشو غرسية إلى القصر ، فاستقبل بحفاوة وخلع عليه وعلى أصحابه ، ثم عاد إلى معسكره ، ووعده البربر بتسليم الحصون التى تعهدوا بتسليمها متى استقر سلطانهم ، ثم غادر قرطبة بعد أن ترك من جنده مائة أنزلوا فى ربض منية العقاب .

أما محمد المهدى فما كاد يصل إلى طليطلة ، حتى أخذ يدبر أمره من جديد ، وكانت الثغور ما تزال باقية على طاعته ودعوته ، وانضم إليه واضح وأخذ الأمر بيده . ولما علم سليمان بما يدبره المهدى وواضح ، خرج فى قواته من قرطبة ،

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٩٠ ؛ ويقول ابن الخطيب إن النصارى قتلوا من أهل قرطبة ثلاثين ألفاً ، وهو رقم يحمل طابع المبالغة ( أعمال الأعلام ص ١١٣ ) .

(٢) الذخيرة لابن بسام . المجلد الأول القسم الأول ، ص ٣٠ و ٣١ ؛ والبيان المغرب ج ٣ ص ٨٩ و ٩٠ .

وصار صوب طليطلة ، ثم دعا أهلها إلى طاعته ، فأبوا . وانصرف سليمان بقواته إلى مدينة سالم ، فلقى نفس الفشل فى استمالة أهلها ، فارتد عندئذ إلى قرطبة اتقاء لأهوال الشتاء ( أواخر شعبان سنة ٤٠٠ هـ ) . وفى خلال ذلك كله كان الفتى واضح قد سار إلى طرطوشة من ثغور الثغر الأعلى ، واتصل بأمير برشلونة الكونت رامون بوريل وزميله أمير أورقلة الكونت أرمنجو ، واتفق معهما على أن يمداه بجيش لمقاتلة البربر فى قرطبة ، فقبلا معاونته بشروط باهظة ، من تقديم الطعام والشراب ، وأن يتناول كل منهما فى اليوم مائة دينار ، وأن يتناول كل جندى دينارين فى اليوم ، وأن يستولى الجند النصارى على ما يغنمونه من سلاح البربر وأموالهم ، وأخيراً أن يستولوا على مدينة سالم ، وقد احتلوها بالفعل فى طريقهم إلى طليطلة ، بعد أن أخلاها واضح من المسلمين(١) .

وسار الجيش الفرنجى برفقة واضح إلى طليطلة ، حيث انضم إليه المهدى فى قواته ، وسارت القوات المتحدة صوب قرطبة . وكان سليمان المستعين قد وقف على أهبة خصومه ، ووفرة القوات الزاحفة عليه ، فاستنفر الناس لنصرته ، فلقيت دعوته فتوراً ، فحشد ما استطاع من جموعه ، وخرج مع البربر لملاقاة خصومه . وكان اللقاء على قيد نحو عشرين كيلومتراً من شمالى قرطبة فى مكان يعرف « بعقبة البقر » ، وذلك فى منتصف شوال سنة ٤٠٠ هـ ( أواخر مايو سنة ١٠١٠ م ) ، واحتل البربر بقيادة زعيمهم زاوى بن زيرى المقدمة ، ورابط سليمان بقواته فى المؤخرة . واقتتل البربر مع الفرنج قتالا شديداً ، قتل فيه كثير منهم ، وفى مقدمتهم الكونت أرمنجو ( وتسميه الرواية العربية أرمقند ) ، ولكن جانباً من فرسان الفرنج اخترقوا صفوف البربر ، فظن سليمان أن الهزيمة وقعت بهم فارتد منهزماً وكشف بذلك مؤخرة البربر ، فلما رأى البربر فرار سليمان بقواته ، ارتدوا لفورهم نحو الزهراء ، فأخذوا أهلهم وأموالهم وغادروها إلى الجنوب مسرعين ، وفر سليمان فى بقية من صحبه شرقاً صوب شاطبة . وفى اليوم التالى دخل واضح ومحمد المهدى قرطبة ، وجدد المهدى البيعة لنفسه وعين واضحاً لحجابته(٢) .

واعتزم المهدى أن يقضى على البربر قبل أن يعودوا لمقارعته . فجمع الأموال

---

( ١ ) البيان المغرب ج ٣ ص ٩٤ .

( ٢ ) البيان المغرب ج ٣ ص ٩٤ و ٩٥ ؛ والذخيرة القسم الأول المجلد الأول ص ٣٢ .

من أهل قرطبة ، وأعطى الفرنج أعطياتهم ، وحشد كل ما استطاع من قواته ، وخرج لمطاردة البربر . وكان البربر قد وصلوا عندئذ إلى « وادى آره » أو وادى يارو[1] . على مقربة من مربلة فى طريقهم إلى الجزيرة الخضراء . وكان جيش المهدى يتكون من نحو ثلاثين ألف من المسلمين ، وتسعة آلاف من الفرنج . وهناك التقى الجمعان ، واشتبكا فى معركة طاحنة ، دارت فيها الهزيمة على المهدى وحلفائه ، وقتل من الفرنج نحو ثلاثة آلاف ، وغرق منهم عدد جم ، واستولى البربر على كثير من أسلحتهم وخيلهم ومتاعهم[2] ، ووقعت هذه الموقعة ، فى شهر ذى القعدة سنة ٤٠٠ هـ ( يونيه ١٠١٠ م ) ، وعلى أثرها ارتد المهدى إلى قرطبة ، وهنالك غادره حلفاؤه النصارى عائدين إلى بلادهم . وسار البربر جنوباً إلى ناحية ريُّه ، وهنالك لحق بهم سليمان المستعين بمن معه . وأخذ الفريقان يدبران معاً استئناف الصراع للاستيلاء على قرطبة .

وعكف المهدى على تحصين قرطبة ، وحفر حولها خندقاً ، أقيم وراءه سور ، وأخذ يستعد للدفاع ، ويحشد الجند توقعاً لمعاودة البربر الكرة . وكانت جموع من البربر فى أثناء ذلك تغير على نواحى قرطبة من آن لآخر . وفى أثناء ذلك كان واضح قد ضاق ذرعاً بتصرفات المهدى وحماقاته ، وسوء خلقه من عكوف على الشراب والمجون . وكان الفتيان العامريون وفى مقدمتهم واضح جميعاً ينقمون على المهدى ما فعله بهشام المؤيد ، وبنى عامر ؛ وكان قد وصل إلى قرطبة جملة منهم من شاطبة ، وفيهم بعض الفتيان البارزين مثل خيران وعنبر ، فأتمروا على الغدر بالمهدى ، وأخرجوا هشاماً من محبسه بالقصر ، وأجلسوه للخلافة ونادوا بولايته ، وأتوا بالمهدى بين يديه ، فضرب عنقه ، واحتز رأسه ، وألقى بجسده من أعلى السطح ، ورفعوا رأسه على قناة طيف بها فى الشوارع ، ووقعت هذه الجريمة فى الثامن من ذى الحجة سنة ٤٠٠ هـ ( ٢٣ يوليه ١٠١٠ م )[3] .

وهكذا استرد هشام المؤيد الخلافة ، بعد سلسلة من الخطوب والأحداث المثيرة ، وكان يومئذ كهلا فى نحو السابعة والأربعين من عمره ، وكان قد مضى

---

( ١ ) وبالإسبانية Ouadiaro

( ٢ ) البيان المغرب ج ٣ ص ٩٦ ؛ وأعمال الأعلام ص ١١٣ .

( ٣ ) ابن خلدون ج ٤ ص ١٥٠ ؛ وابن الأثير ج ٨ ص ٢٢٦ ؛ والذخيرة القسم الأول ، المجلد الأول ص ٣٢ ؛ والبيان المغرب ج ٣ ص ٩٦ و ٩٩ و ١٠٠ .

عليه مذ ولى الخلافة صبياً لأول مرة أربعة وثلاثون عاماً ، وفى تلك الفترة شهدت الأندلس طائفة من الأحداث الجسام ، لم تشهد مثلها من قبل : شهدت قيام الحاجب المنصور ودولته العامرية ، واختفاء سلطة الخلافة ، فى ظل نظام الطغيان المرهق الذى فرضه بنو عامر ، ثم شهدت الثورة الغامرة التى أطاحت بالدولة العامرية وعود الخلافة الأموية فى ثوبها الباهت المهلهل ، على يد مغامرين مثل محمد بن هشام المهدى ، وسليمان المستعين ، وشهدت وفاة هشام المزعومة ، ثم بعثه ، وعوده إلى تولى الخلافة ، شبحاً من أشباح الماضى ، وألعوبة فى يد واضح وزملائه الفتيان العامريين ، أصحاب الحول والسلطان ، بعد ابتعاد البربر ومصرع المهدى .

وتولى واضح بالطبع منصب الحجابة للخليفة الذى اصطنعه ، وسكنت الفتنة ، وهدأت الخواطر نوعاً ، وبعث الخليفة برأس المهدى إلى سليمان المستعين وحلفائه البربر ، وكتب إليهم يدعوهم إلى طاعته ، وأخذ يظهر فى شوارع قرطبة خلافاً لما كان عليه فيما مضى ، إظهاراً لهيبة الخلافة وسلطانها . ولكن البربر لم يقبلوا دعوته ، وأبدوا تمسكهم بولاية سليمان ، وكان البربر فى الواقع يضطرمون حقداً على أهل قرطبة لما أصابهم منهم من أنواع النكال ، ويزمعون الانتقام منهم بكل وسيلة . وحاول سليمان والبربر أن يحصلوا مرة أخرى على معاونة سانشو غرسيه أمير قشتالة ، وعرضوا أن يسلموه سائر الحصون الأمامية التى افتتحها الحكم والمنصور ، إذا ارتضى محالفتهم ومعاونتهم على استعادة قرطبة ، وخلع المؤيد ، ولكن سانشو لم يصغ إليهم فى تلك المرة ، معتزماً أن يوجه مطالبه إلى الخليفة القائم . وعندئذ عول البربر على السير إلى قرطبة ، فسارت جموعهم حتى وصلت إلى الزهراء غربى قرطبة ، فهاجموها وقتلوا معظم الجند الذين بها ، واحتلوها وذلك فى شهر ربيع الأول سنة ٤٠١ هـ (نوفمبر سنة ١٠١٠ م) ، واستمروا بها بضعة أشهر حتى أواخر شعبان من تلك السنة ، ثم زحفت جموعهم على أرباض قرطبة ، يعيثون فيها تخريباً ونهباً وقتلا ، ويجتنبون الاشتباك مع جند واضح ، وضج أهل قرطبة لهذا الاعتداء ، وزادت نفوسهم حقداً على البربر ، وتحرقاً للانتقام منهم ، وانتشرت جموع البربر فى نفس الوقت جنوباً ، حتى وصلت إلى أحواز غرناطة ومالقة وهى تنشر الخراب والدمار أينما حلت .

وفى تلك الأثناء وصل سفراء سانشو غرسية أمير قشتالة إلى قرطبة ، يطالبون بالحصون الواقعة على الحدود ، والتى افتتحها المسلمون منذ أيام الحكم حتى نهاية عهد بنى عامر . ولم ير هشام وواضح بداً من إجابة سانشو إلى طلبه ، اتقاء لعدوانه من جهة ، واتقاء لتحالفه مع البربر من جهة أخرى . وعقد مجلس من الفقهاء والقضاة ، وكتب محضر رسمى بتسليم عدد كبير من الحصون إلى النصارى ، يقال إنها أربت على المائتين(١) ، ومنها معاقل هامة ، كانت قواعد أمامية للمسلمين ، مثل شنت إشتيبن ، وقلونية ، وأوسمة ، وغرماج وغيرها ، وخسرت الأندلس بذلك خط دفاعها الأول ، وتركت حدودها الشمالية مفتوحة لغزوات النصارى .

واستمر البربر على حصارهم لقرطبة ، وعيثهم فى أرباضها الخارجية ، وكانت الحالة تسوء من يوم إلى يوم ، وكان الناس فى قرطبة ، جيشاً وشعباً ، يزمعون مقارعة البربر ، والقضاء عليهم بكل ما وسعوا ، ويرفضون كل رأى أو مسعى يتجه إلى مسالمتهم أو التفاهم معهم ، ولم يجد المؤيد وواضح بداً من الانسياق مع التيار العام ، واتخاذ كل وسيلة ممكنة للدفاع عن المدينة ، ولكن الموارد كانت تقل يوماً عن يوم ، حتى اضطر المؤيد إلى إخراج سائر نفائس القصر وتحفه ورياشه ، ليقتنى بثمنها الخيل والسلاح ، وفضلا عن ذلك فقد أرهق القرطبيون بالمطالب والمغارم حتى ضاقوا ذرعاً ؛ وأخيراً شعر واضح بأنه يواجه حالة مستحيلة ، واعتزم أن يغادر قرطبة سراً ، إلى بعض نواحى الثغر ، ولكن بعض أكابر الجند وقفوا على مشروعه ، فنهض أحدهم ، وهو على بن وداعة مع نفر من زملائه ، فعاتبوه على ما بدد من الأموال ، وما أساء من تصرف ، ثم قتلوه واحتزوا رأسه ، وطيف بها فى الشوارع ، ونهبت دوره ودور أصحابه ، فوجد بها مال كثير معبأ كان يعتزم الفرار به . وهكذا كفر واضح بدمه عن جريمته فى اغتيال المهدى ، وهكذا أضحت الجريمة وسيلة ذائعة فى بلاط قرطبة ، لاقتناص السلطان أو التخلص من صاحبه(٢) .

وعلى أثر ذلك ولى المؤيد ابن وداعة شرطة المدينة ، فاستعمل الحزم والشدة ، فى قمع الشغب وصون النظام والأمن ، فهابته العامة ، وقلت حوادث الشغب ، وتولى تدبير الأمور للمؤيد رجل من موالى العامريين يسمى ابن مناو ؛ ثم جاءت

(١) أعمال الأعلام ص ١١٧ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١٠٣ و ١٠٤ ؛ وأعمال الأعلام ص ١١٧ و ١١٨ .

إلى قرطبة كتب من أهل الثغور يعتذرون فيها عن عجزهم عن إرسال الأمداد ، وينصحون المؤيد إما بمصالحة البربر ، أو التفاوض مع أمير قشتالة ؛ فكتب هشام إلى زاوى بن زيرى يحثه على عقد الصلح ، ويعده بما شاء من مال أو ولاية ، فرد زاوى بأنه لايستطيع مخالفة أصحابه ، وأنه مع ذلك لايدخر وسعاً فى العمل لتأليف كلمة المسلمين وحقن الدماء[1] .

ثم بذلت محاولة مماثلة لدى سليمان بن الحكم والبربر ، إذ كتب أهل قرطبة على لسان هشام وابن مناو كتابين ، وجه أحدهما من هشام إلى سليمان ، وفيه يرجو العمل على إخماد الفتنة ، وتسليم الأمر إليه ، وعلى أن يغدو سليمان ولى عهده والقائم بأعباء الخلافة عنه ، ووجه الثانى من وزراء قرطبة إلى وزراء البربر ، فلم يحفل سليمان بكتاب هشام ، وقال للرسل بل إنه هو أمير المؤمنين والخليفة ، وأنه لا يعترف لهشام بصفة ما .

كل ذلك والأمر يشتد على أهل قرطبة . ودخل الوزراء ووجوه الجند والفتيان على هشام ، وكشفوا له خطورة الحالة ، واشتداد ضغط البربر على المدينة وأرباضها ، وتفاقم الضيق والغلاء ، وقصور الثغور عن إنجاد المدينة ، وكون الشعب منقسم على نفسه ما بين راغب فى الكفاح ، وراغب فى الصلح ، فبكى هشام فيما قيل ، واعتذر لعجزه وقصوره ، وقال لهم افعلوا ما ترون .

وعجل باضطرام النار حادث وقع فى آخر ذى الحجة سنة ٤٠٢ هـ ، إذ تقدم جماعه من وجوه البربر وفى مقدمتهم حباسة بن ماكسن ابن أخى زاوى ، وكان من أشجع قادة البربر ، ومعه جماعة قليلة من الفرسان ، ونزلوا فى بقعه قريبة من الأسوار ، فرآهم أهل قرطبة من وراء الخندق ، فاجتمع منهم عدد عظيم ، وانقضوا على حباسة وصحبه ، فدافعوا عن أنفسهم دفاعاً عظيماً ، ولكنهم غلبوا فى النهاية على أمرهم ، وأسر حباسة ، فلماعرفه القوم قتلوه بوحشية ، وقطعوا جسده إرباً لعظيم حقدهم عليه ، ولما قاسوه من شدة قتاله ونكايته ، فلما وقف أخوه حبوس وعمه زاوى على الخبر ، اضطرب البربر ، واستعدوا للقتال ، وفى اليوم التالى اشتبكوا مع أهل قرطبة فى عدة معارك ، وفتكوا بكثير منهم ،

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٠٧ و ١٠٨ .

واستمرت المعارك من ذلك الحين بين الفريقين سجالا ، وأهل قرطبة يخرجون من المدينة مرة بعد أخرى ، ويقاتلون البربر محاولين تحطيم الحصار المرهق ، والبربر من جانبهم ينزلون بهم أشد الضربات . وفى ٢٦ شوال سنة ٤٠٣ هـ ( مايو سنة ١٠١٣ م ) نشبت بين الفريقين معركة عامة ، وقاتل أهل قرطبة قتالا شديداً ، ولكنهم هزموا بعد معارك طاحنة ، وقتل منهم عدد جم ، وساد الاضطراب أرجاء المدينة ، وفتحت أبوابها ؛ وخرج القاضى ابن ذكوان مع جماعة من الفقهاء وساروا إلى معسكر البربر ، وطلبوا الأمان من سليمان وزعماء القبائل البربرية ، فمنح الأمان لقاء مبالغ عظيمة فرضت على المدينة ، ودخل البربر المدينة دخول الوحوش المفترسة ، فقتلوا كثيراً من سكانها ، ولم يفروا الأطفال والشيوخ ، وأوقعوا بها السلب والنهب ، وأحرقوا الدور ، واغتصبوا النساء والبنات ، وارتكبوا أشنع ضروب السفك والإثم ، وكانت محنة من أروع ما قاسته عاصمة الخلافة .

وفى اليوم التالى دخل سليمان المستعين قصر قرطبة ، واستدعى هشاماً المؤيد وعنفه على موقفه ، فاعتذر بأنه مغلوب على أمره . وهنا تختلف الرواية فى مصير هشام ، فالبعض يقول إن سليمان أخفاه حيناً ، ثم قتله ولده محمد بن سليمان ، والبعض الآخر بأنه فر من محبسه ، وقصد إلى ألمرية حيث عاش حيناً فى خمول وبؤس حتى توفى . بيد أننا نرجح الرواية الأولى ، وإن كان اسم هشام سوف يظهر بعد ذلك على مسرح الحوادث .

ولما استتب الأمر لسليمان ، وهدأت الخواطر نوعاً ، تلقب بالظافر بحول الله مضافاً إلى المستعين ، وانتقل إلى مدينة الزهراء بحاشيته وقواد البربر وجندهم ، فاحتلوها وما حولها ؛ ونزل على والقاسم ابنا حمود قائدا فرقة العلوية بشقندة ضاحية قرطبة ، وأخذ سليمان ينظم شئون الحكومة المضطربة . وكانت الفوضى قد سرت إلى جميع النواحى ، وتفككت عرى الدولة ، وقصر نفوذ الحكومة إلا عن قرطبة وما يجاورها ، وقبض البربر الذين رفعوا سليمان إلى العرش ، على السلطة الحقيقية ، فتولوا مناصب الحجابة والوزارة ، وسائر المناصب الهامة ؛ ورأى سليمان إرضاء لهم من جهة ، وإبعاداً عن قرطبة من جهة أخرى ، أن

---

( ١ ) راجع فى سقوط قرطبة ومصير هشام ، ابن خلدون ج ٤ ص ١٥١ ؛ وابن الأثير ، ج ٩ ص ٧٥ والمراكشى ص ٢٢ — ٢٥ ؛ وأبو الفدا ج ٢ ص ١٣٩ ؛ والبيان المغرب ج ٣ ص ١١٢ و ١١٣ ؛ وأعمال الأعلام ص ١١٨ — ١٢٠ .

يقطعهم كور الأندلس ، وكانوا ست قبائل رئيسية ، فأعطى قبيلة صنهاجة وزعماؤها بنى زيرى ، ولاية إلبيرة ( غرناطة ) ، وأعطى مغراوة جوف البلاد ، وبنى برزال وبنى يفرن ولاية جيان ومتعلقاتها ، وبنى دُمَّر وازداجة منطقة شذونة ومورور ؛ وأقر المنذر بن يحيى التجيبى على ولاية سرقسطة والثغر الأعلى ، وكان قد انضم إلى سليمان ، وحارب مع البربر من أجل قضيته ، وولى بنى حمود الأدارسة ثغور المغرب ، فولى علياً بن حمود على ثغر سبتة ، وأخاه القاسم بن حمود على ثغور الجزيرة الخضراء ، وطنجة وأصيلا ، وهكذا سيطر البربر على ولايات الأندلس الجنوبية والوسطى ، وأخذوا يحتلون فى شئونها مكانة لها خطرها(١) .

وكان الفتيان العامريون لما رأوا غلبة البربر على حكومة قرطبة الجديدة ، قد توجسوا من غدرهم ، وفر معظمهم إلى شرق الأندلس ، بعيداً عن سلطان الحكومة المركزية ، وأنشأوا هنالك فى القواعد الشرقية ، حكومات محلية حسبما نذكر بعد .

وقضى سليمان المستعين فى الحكم للمرة الثانية نحو ثلاثة أعوام ، استمرت خلالها حال الاضطراب والفوضى فى قرطبة وسائر أنحاء الأندلس . ولم تهدأ الخواطر ولم تطمئن النفوس . وغلب سلطان البربر ، واشتد طغيانهم وتحكمهم ، ولبثت الأهواء المتوثبة تجيش فى صدور الطامعين من زعمائهم ، حتى تمخضت غير بعيد عن انقلاب جديد فى مصاير الخلافة .

وكان من أبرز صفات سليمان ، مواهبه الأدبية الرفيعة ، فقد كان أديباً متمكناً ، وشاعراً مطبوعاً ، قال فيه ابن بسام إنه «أحد من شَرَّف الشعر باسمه ، وتصرف على حكمه » وأورد له القصيدة الآتية ، وهى الوحيدة التى عثر بها من نظمه ، وفيها يعارض قطعة الرشيد « ملك الثلاث الآنسات عنانى » وفيها تبدو براعته ورقة خياله :

عجباً يهاب الليث حدّ سنانى ... وأهاب لحظ فواتر الأجفان
فأقارع الأهوال لا متهيباً ... منها سوى الإعراض والهجران
وتملكت نفسى ثلاث كالدمى ... زهر الوجوه نواعم الأبدان
ككواكب الظلماء لُحن لناظرى ... من فوق أغصان على كثبان
هذى الهلال ، وتلك بنت المشترى ... حسناً وهذى أخت غصن البان

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١١٣ – ١١٥ ؛ وأعمال الأعلام ص ١١٩ .

حاكمت فيهن السلو إلى الصبا ... فقضى بسلطان على سلطانى
فأبحن من قلبى الحمى وتركننى ... فى عز ملكى كالأسير العانى
لا تعذلوا ملكاً تذلل للهوى ... ذل الهوى عزٌ وملك ثانى
ما ضر أنى عبدهن صبابة ... وبنو الزمان وهن من عبدانى
إن لم أطع فيهن سلطان الهوى ... كلفاً بهن فلست من مروان
وإذا الكريم أحب أمّن إلفه ... خطب القلى وحوادث السلوان
وإذا تجارى فى الهوى أهل الهوى ... عاش الهوى فى غبطة وأمان(١)

---

(١) ابن بسام فى الذخيرة . المجلد الأول القسم الأول ص ٣٣ و ٣٤ ؛ والمراكشى ص ٢٥ .

# الفصل الثانى

## دولة بنى حمـــود

ظهور البربر فى الميدان . على والقاسم ابنا حمود . بنو حمود ونسبتهم . ولاية الثغور بين البربر والفتيان العامريين . استيلاء البربر على قرطبة باسم سليمان . خيران العامرى ينتزع ألمرية ويدعو للمؤيد . على بن حمود يزعم أنه تلقى ولاية العهد من هشام . تحالفه مع خيران وعبوره إلى الجزيرة . مسير القوات المتحالفة إلى قرطبة . القتال بينها وبين البربر . هزيمة البربر وسليمان . على بن حمود يدخل القصر . اشتداده فى معاملة البربر . خيران يخرج عليه ويدعو لعبد الرحمن المرتضى . انضمام الثغور الشرقية وسرقسطة لهذه الدعوة . القتال بين المرتضى وصنهاجة . انتصار البربر ومقتل المرتضى . اضطهاد على لأهل قرطبة . مصرعه . أخوه القاسم يخلفه . جنوحه إلى سياسة اللين والتفاهم . غلبة البربر عليه . خروج يحيى بن على واستيلاؤه على الخلافة . التجاء القاسم إلى إشبيلية . خلع المعتلى وعود القاسم . اصطفاؤه للبربر . سخط أهل قرطبة . محاربتهم وهزيمتهم للبربر . مسير القاسم إلى إشبيلية ثم إلى شريش . يحيى المعتلى يطارده ويأسره . إستقرار المعتلى فى الثغور الجنوبية . رد الأمر لبنى أمية . خلافة عبد الرحمن المستظهر . وصف ابن حيان لبلاطه . عطفه على البربر . فتك القرطبيين بهم . فرار المستظهر ومصرعه . خلافة المستكفى . إضطهاده للزعماء . خلعه وفراره . يحيى بن حمود يحتل قرطبة . فتك القرطبيين بالحامية البربرية . رد الأمر لبنى أمية . بيعة هشام المعتد بالله . وزيره حكم بن سعيد . سوء مسلكه ومصرعه . خلع هشام ومصيره . الإجماع على إبطال الخلافة والتخلص من بنى أمية . استيلاء يحيى المعتلى على قرمونة . الحرب بينه وبين ابن عباد . هزيمة يحيى ومصرعه . خلافة إدريس المتأيد بالله . غزو إدريس وحلفائه لأحواز إشبيلية . الحرب بين زهير العامرى وباديس أمير غرناطة . مصرع زهير . الحرب بين ابن عباد والبربر . هزيمة ابن عباد ومقتل ولده إسماعيل . وفاة إدريس وخلافة ولده يحيى . خروج حسن بن يحيى ومبايعته بالخلافة . مقتل الوزير ابن بقنه . مصرع حسن . محاولة الحاجب نجا ومصرعه . خلافة إدريس العالى . الثورة عليه وخلعه . خلافه محمد بن إدريس المهدى . طغيانه والسخط عليه . مصرعه . خلافة إدريس السامى . عودة إدريس العالى . خلافة المستعلى . إستيلاء باديس على مالقة . حكومة بنى القاسم بن حمود بالجزيرة . إستيلاء ابن عباد على الجزيرة . إنقراض دولة بنى حمود . تفكك الأندلس وانقسامها .

لما قضى على دولة الأدرسة بالمغرب الأقصى أيام الحكم المستنصر ، ثم بعد ذلك أيام المنصور بن أبى عامر ، وأصبح المغرب ولاية أندلسية تخضع لحكومة قرطبة ، تفرق كثير من زعمائه فى مختلف الجهات ، ولاذوا بالاختفاء ، بعيداً عن بطش السلطة الجديدة ، وأخذوا يرقبون الفرص لاستعادة سلطانهم ؛ وهاجر

عدد كبير منهم إلى الأندلس ، من البربر والمغاربة ، وانضووا تحت لواء الدولة العامرية فى أواخر عهدها ، وعاونوا فى توطيد سلطانها وتدعيم جيشها .

ولما انهارت الدولة العامرية ، وعم الاضطراب والفوضى فى قرطبة ، ظهر البربر طرفاً بارزاً من أطراف المعركة ، التى اضطرمت حول السلطان والخلافة ؛ ولما نجح بنو أمية فى تحقيق ضربتهم الأولى على يد محمد بن هشام المهدى ، انحاز البربر للفريق المعارض ، لما نالهم من مطاردته واضطهاده ، وكانت الخصومة تضطرم فى الواقع منذ بعيد بين الأمويين والبربر ، لاعتقاد الأمويين أن البربر كانوا أكبر عضد للمنصور ، فى اغتصاب السلطة والقضاء على سلطان بنى أمية . ولما فشل البربر فى محاولتهم الأولى للقضاء على رياسة المهدى ، التفوا حول خصيمه سليمان المستعين ، ليكون مرشحهم الشرعى ، ووسيلتهم إلى انتزاع السلطة ، وانتهى الصراع بين الفريقين ، آخر الأمر بانتصار البربر ، واستيلاء مرشحهم سليمان على الخلافة ، وحصولهم على نصيبهم من أسلاب السلطة ، بتولى رياسة الولايات والثغور الجنوبية .

وكان من بين الزعماء المغاربة ، الذين قادوا جموع البربر فى معركة قرطبة المظفرة ، رجلان من عقب الأدارسة ، هما على والقاسم ابنا حمُّود بن ميمون ابن حمود . ونحن نعرف أن الأدارسة يرجعون نسبتهم إلى الحسن بن على بن أبى طالب ؛ وإذاً ، فقد كان على والقاسم ، وفقاً لهذا القول ، علويين من سلالة آل البيت . وهذا ما يقوله العلامة النسابة ابن حزم ، إذ يرجع نسبة على والقاسم ، إلى إدريس بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن على(١) ، ويقوله أيضاً عبد الواحد المراكشى وابن عذارى ، وابن الخطيب(٢) .

بيد أنه بالرغم من هذه النسبة العلوية ، وهذه الأرومة العربية العريقة ، التى ينتحلها بنو حمود ، فإنهم ، إذا تركنا مسألة النسبة والسلالة جانباً ، كانوا ينتمون فى الواقع من حيث النشأة والعصبية والمصير ، إلى البربر ، وكان الطابع البربرى غالباً عليهم ، حتى أنهم لم يكونوا يتكلمون العربية ، وإنما كانوا يتكلمون باللهجة البربرية ، وقد أشار ابن الخطيب إلى ذلك فى حديثه عن على بن حمود(٣) .

---

(١) راجع جمهرة أنساب العرب (القاهرة) ص ٤٣ و ٤٤ .

(٢) المراكشى فى المعجب ص ٢٤ ؛ وابن عذارى فى البيان المغرب ج ٣ ص ١١٩ ؛ وابن الخطيب فى أعمال الأعلام ص ١٢٨ .

(٣) أعمال الأعلام ص ١٢١ .

وقد رأينا أن سليمان المستعين حينما استرد الخلافة ، عقب انتصار البربر على أهل قرطبة ، خص علياً والقاسم ، بولاية الثغور المغربية ، وندب علياً لحكم سبتة ، وندب القاسم لحكم الجزيرة الخضراء وطنجة وأصيلا ، وذلك فى أوائل سنة ٤٠٤ هـ (١٠١٣ م) .

وفى الوقت الذى استولى فيه البربر ، على الولايات والثغور الجنوبية ، كان الفتيان العامريون ، منذ اضطرام الفتنة ، قد استقروا بشرقى الأندلس ، واستولى كثير منهم على الثغور الشرقية ، وفى مقدمتهم مجاهد الذى استولى على دانية والجزائر الشرقية فيما بعد ، وخيران ، الذى استولى على ألمرية ومرسية . وكان خيران حينما استولى محمد بن هشام المهدى على الخلافة للمرة الثانية ، بمؤازرة واضح والجند النصارى ، وتولى واضح منصب حجابته ، قد عاد إلى قرطبة مع نفر من الفتيان العامريين ، وانضموا إلى وضح ثم اشتركوا معه فى تدبير اغتيال المهدى ، وإعادة هشام المؤيد إلى كرسى الخلافة حسبما تقدم . وكان أولئك الفتيان يعتبرون هشاماً إمام دولتهم بعد ذهاب المنصور . فلما قتل واضح واستولى البربر على قرطبة ، وانتزع سليمان المستعين الخلافة من هشام المؤيد ، غادر خيران ومعه عدة كبيرة من الفتيان قرطبة ، اتقاء بطش البربر ، وسار إلى شرقى الأندلس ، وانضم إليه حال سيره كثير من الناقمين من بنى أمية وغيرهم ، ثم زحف على ألمرية ، وكانت بيد أفلح الصقلبى ، فانتزعها منه ، واستولى على كثير من الأماكن المجاورة ، واشتد بأسه فى تلك الناحية ، ودعا لهشام المؤيد .

وكان تمزق الأندلس على تلك الصورة ، وانتثار السلطة بين الأمويين والبربر ، والفتيان العامريين ، مما يفسح المجال لأطماع الطامعين والمتغلبين ، وكانت تلك الأطماع تجيش فى الواقع ، فى صدور أولئك الذين رأوا فى ضعف السلطة المركزية ، وذيوع الخلاف والفوضى ، فرصة يمكن انتهازها . وكان على ابن حمّود الحسنى ، قد ولى حكم سبتة ، وولى أخوه الأكبر القاسم ، حكم الجزيرة الخضراء ، لا يفصلهما سوى مضيق جبل طارق . وكان على يطمح إلى أكثر من حكم مدينة ، ويتطلع إلى الوثوب بحكومة قرطبة المضطربة المتداعية . وكان يرى فى الفتيان العامريين خصوم سليمان المستعين حلفاءه الطبيعيين ، فكاتب كبيرهم خيران صاحب ألمرية ، وأظهر كتاباً زعم أنه تلقاه من الخليفة هشام المؤيد يوليه

فيه ولاية عهده ، ويطلب إليه أن ينقذه من أسر البربر وسليمان ؛ ويقول لنا ابن حيان ، إن هشاماً المؤيد لما رأى اضطراب أمره وتصرم دولته ، قد منح على ابن حمود ولاية عهده ، وأوصى إليه بالخلافة من بعده ، وأرسل إليه ذلك بسبتة سراً ، وولاه طلب دمه ، واستكتمه السر حتى يحين الأوان لذلك[1] . فذاعت دعوة على ، ولباها بعض حكام الثغور الجنوبية مثل ، عامر بن فتوح الفائقي مولى الحكم المستنصر ووزير ولده المؤيد ، وكان يومئذ حاكماً لمالقة . وكتب إليه خيران أن يعبر إليهم . فعبر على من سبتة إلى الجزيرة الخضراء فى أواخر سنة ٤٠٦ هـ (١٠١٦ م) وسار فى أشياعه من البربر إلى مالقة ، فسلمها إليه عامر ابن فتوح ، ودعا له بولاية عهد المؤيد حالة ظهوره حياً ، وسار خيران فى قواته والتقى بعلى فى ثغر المنكب الصغير ، ما بين مالقة وألمرية ، فجمع الزعيمان قواتهما ونظما خطتهما للزحف على قرطبة ، وبويع على بن حمود على طاعة المؤيد . ثم سارت القوات المتحدة صوب قرطبة ، وانضم إليها خلال السير زاوى بن زيرى وحبوس الصنهاجى فى قوة من بربر غرناطة . وكان سليمان المستعين ، قد ترامت إليه أنباء أولئك الخوارج عليه ، وزحفهم لقتاله ، فخرج من قرطبة للقائهم فى جند البربر ، والتقى الفريقان فى ظاهر قرطبة على قيد عشرة فراسخ منها ، ونشبت بينهما معركة شديدة ، انتهت بهزيمة سليمان ، وقتل عدد جم من أنصاره ، وكان سليمان وأبوه الحكم ، وأخوه عبد الرحمن ، بين الأسرى .

ودخل على بن حمود قصر قرطبة فى الثامن والعشرين من محرم سنة ٤٠٧ هـ (أول يوليه سنة ١٠١٦ م) وبحث عن هشام المؤيد فلم يجده ، وكان الاعتقاد سائداً بأن سليمان أخفاه ولم يقتله ، فلما علم بأنه قُتِل ، أتى بسليمان وأبيه وأخيه وقتلهم بنفسه انتقاماً للمؤيد . ثم أعلن وفاة المؤيد ، ودعا إلى البيعة لنفسه ، فبويع بالخلافة وتلقب بالناصر لدين الله ، وكانت مدة خلافة سليمان الثانية مذ دخل قرطبة إلى أن قتل ثلاثة أعوام وبضعة أشهر ، وكانت أمه أم ولد تدعى ظبية ومولده فى سنة ٣٥٤ هـ[2] .

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١١٤ و ١١٦ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١١٦ و ١١٧ و ١١٩ و ١٢٠ ؛ وابن خلدون ج ٦ ص ٢٢١ و ج ٤ ص ١٥٣ ؛ والمراكشى ص ٢٤ ؛ وأعمال الأعلام ص ١٢٩ ؛ ونفح الطيب ج ١ ص ٢٢٤ ، وجذوة المقتبس ص ٢٠ .

وهكذا اختتمت الدولة الأموية حياتها بالأندلس بعد أن عاشت منذ عصر الإمارة حتى نهاية عصر الخلافة مائتين وثمانية وستين عاماً ، وانهارت دعائم الخلافة الأموية نهائياً ، بعد أن لبثت منذ عصر هشام المؤيد أربعين عاماً ، ستاراً للمتغلبين من بنى عامر ، ثم شبحاً هزيلا يضطرب فى غمر الفتنة والفوضى .

ولما قبض على بن حمود على زمام الحكم ، اشتد فى معاملة البربر ، وإخماد تمردهم وشغبهم ، وحماية السلطة المركزية من عدوانهم ، فهابوه ولزموا السكينة ، وقضى بمنتهى الشدة على كل نزعة إلى الخروج والعصيان ، وفتك بالمعارضين له ، سواء فى ذلك العرب أو البربر ، وأذل الزعماء واستأثر بالسلطة . وحاول من جهة أخرى أن يحسن معاملة القرطبيين ، وأن يقيم العدل ، ويقمع الفوضى ، وكان من معاونيه فى الحكم ، جماعة من أولياء الخلافة السابقين مثل أبى الحزم بن جهور ، وأحمد بن برد وغيرهما .

على أن الحوادث ما لبثت أن تطورت بسرعة . ذلك أن خيران العامرى ، لما دخل قرطبة مع على بن حمود ولم يجد الخليفة هشاماً المؤيد على قيد الحياة ، خشى سطوة الناصر وغدره ، فغادر قرطبة ، معلناً الخلاف ، وسار إلى شرقى الأندلس حيث يحتشد معظم الزعماء العامريين وأنصارهم ، وأعاد الدعوة لبنى أمية فى شخص مرشح جديد منهم ، هو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله ابن عبد الرحمن الناصر ، باعتباره أصلح من بقى منهم ، وكان قد فر خفية من قرطبة إلى جيان ، فاستدعاه خيران وبايعه وجمع كبير من أصحابه بالخلافة ، ولقبوه بالمرتضى ، وانضم إليهم فى تلك الحركة المنذر بن يحيى التجيبى والى سرقسطة والثغر الأعلى ومعه قوة من المرتزقة النصارى ، وكذلك ولاة شاطبة وبلنسية وطرطوشة وألبونت وغيرها . وأعلن المرتضى الخلاف على الناصر ، وسار فى جموعه أولا إلى غرناطة ليحارب جيش صنهاجة القوى ، فلقيه أميرها زاوى بن زيرى فى قواته ونشبت بينهما معركة طاحنة استمرت أياماً ، وانتهت بهزيمة أهل الأندلس ، ومقتل المرتضى ، وتمزق جموعه ، وسقوط معسكره فى أيدى البربر . وفى رواية أخرى أن المرتضى استطاع الفرار ناجياً بحياته ، فبعث خيران فى أثره بعض أعوانه فقتلوه على مقربة من وادى آش ، وحملوا رأسه إلى خيران . وكان خيران والمنذر قد حقدا عليه لما رأيا من حدته وصرامة نفسه ، وخشيا من غدره(١).

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٢٧ .

وسار خيران وللمنذر فيمن بقى من أصحابهما ولحقا بألمرية . وسار الإفرنج المرتزقة حلفاء المنذر إلى الشمال . قال ابن حيان « فحل بهذه الوقيعة على جماعة الأندلس مصيبة أنست ماقبلها ، ولم يجتمع لهم جمع بعد ، وأقروا بالإدبار ، وباؤا بالصغار » واستطاع أخ للمرتضى ، وهو أبو بكر هشام بن محمد ، أن ينجو من الموقعة ، فى بعض أصحابه إلى ألبونت ، حيث دعا لنفسه بالخلافة ، وأقام بها يرقب الحوادث[١] .

وتغفل معظم الروايات الإسلامية تاريخ هذه الموقعة ، ولكن الظاهر من سياق الحوادث ، ومما ذكره صاحب البيان المغرب ، أن سير المرتضى من شرقى الأندلس صوب قرطبة ، كان فى سنة ٤٠٩ هـ[٢] ، وأن الموقعة حدثت فى أواسط هذا العام ، وفى خلافة القاسم بن حمود ، بعد مقتل أخيه على حسبما يجىء .

وكان على بن حمود ، حينما ترامت إليه أنباء خروج المرتضى ومسيره لقتاله ، قد انقلب على أهل قرطبة خشية من غدرهم ، ولما آنسه من ميلهم إلى المرتضى ، وعاد فأطلق يد البربر ، واشتد على أهل قرطبة ، ونزع سلاحهم ، واعتقل كثيراً من أعيانهم ، وفى مقدمتهم وزيره أبو الحزم بن جهور ، وصادر أموالهم ، وهبت على القرطبيين ريح من الإرهاب والروع فلزموا السكينة حيناً[٣] .

ولكن القدر كان يتربص بعلى بن حمود ؛ ذلك أنه بينما كان يتأهب لقتال خصومه ، المجتمعين يومئذ فى منطقة جيان حول راية المرتضى ، إذ ائتمر به نفر من فتيان القصر الصقالبة من موالى بنى أمية ، وتسلل ثلاثة منهم إليه وهو فى الحمام وقتلوه ، وذلك فى الثانى من ذى القعدة سنة ٤٠٨ هـ ( ٢٣ مارس سنة ١٠١٨ م ) ، وكان سنه وقت مقتله خمس وخمسون سنة ، ولم يمكث فى الخلافة سوى عام وتسعة أشهر .

فبعث زعماء زناتة إلى أخيه القاسم بنبأ موته ، وكان يكبره ببضعة أعوام ، وكان يومئذ والياً لإشبيلية ، فحضر مسرعاً ، وبويع بالخلافة فى الثامن من ذى القعدة ، أعنى لستة أيام من مقتل أخيه ، وتلقب بالمأمون ، وقبض على الفتيان

---

( ١ ) البيان المغرب ج ٣ ص ١٢٥ و ١٢٦ و ١٢٧ .

( ٢ ) البيان المغرب ج ٣ ص ١٢٥ . وذكر ابن الخطيب وحده أن الموقعة حدثت بالفعل فى سنة ٤٠٩ هـ ( أعمال الأعلام ص ١٣١ ) .

( ٣ ) البيان المغرب ج ٣ ص ١٢٣ ؛ وأعمال الأعلام ص ١٢٩ .

الثلاثة الذين قتلوا أخاه وأعدمهم لوقته . وكان يحيي بن على ، ولد الخليفة القتيل والياً على سبتة ، وولده الآخر إدريس والياً على مالقة ، فاختلف البربر فى البداية على مسألة الخلافة ، ولكن أكثرهم انضم إلى جانب القاسم لأنه غبن أولا ، وقدم عليه أخوه الأصغر .

وهكذا استتب الأمر للقاسم ، فعدل عن سياسة الشدة إلى سياسة اللين والمسالمة ، وأحسن إلى الناس ونادى بالأمان وبراءة الذمة ممن تسور على أحد ، وأسقط كثيراً من المكوس . فهدأت الخواطر ، واطمأن الناس نوعاً ، وكانت حركة المرتضى قد وصلت خلال ذلك إلى ذروتها ، ووقعت الحرب بين جموع المرتضى وحليفه خيران والمنذر بن يحيي التجيبي ، وبين قوى صنهاجة على مقربة من غرناطة ، وانهزم أهل الأندلس وقتل المرتضى ، وبعث زاوى بن زيرى إلى القاسم بما وقع مع سهمه من الغنائم ، ومنها سرادق المرتضى ، فسر القاسم لذلك ، وعرض سرادق المرتضى على نهر قرطبة ليراه الناس[1]. وعمد القاسم إلى استمالة خيران واستعطافه ، ولكنه بقى معتصما بألمرية ، وأقطع زميله زهيراً العامرى ولاية جيان وقلعة رباح ، محاولا بذلك أن يعقد السلم مع الفتيان العامريين ، وأن يأمن خصومتهم وكيدهم .

واتخذ القاسم بطانة من السود ، وأسند إليهم مناصب الرياسة والقيادة ، ولكنه لم يتخلص من قبضة البربر وسيطرتهم عليه ، فضعف أمره وتكاثرت الصعاب من حوله . وكان ابن أخيه يحيي بن على والى سبتة ، يرقب الفرصة للخروج عليه ، فاتفق مع أخيه إدريس والى مالقة ، على أن يتركها له ، لتكون قاعدة للعمل ، وأن يستقر إدريس مكانه فى سبتة . وأخذ يحيي يحشد أنصاره تباعاً فى مالقة حتى اجتمع له جيش قوى. وفى أثناء ذلك كان عمه القاسم يشكو أمره إلى زعماء البربر ، ولكنهم عجزوا عن التوفيق بينهما ؛ وزحف يحيي فى قواته على قرطبة ، وخشى القاسم العاقبة فآثر الانسحاب على الحرب ، وغادر قرطبة إلى إشبيلية فى ٢٣ ربيع الثانى سنة ٤١٢ هـ ( أغسطس سنة ١٠٢٢ م ) ، وضبط البربر القصر حتى مقدم أخيه يحيي .

ودخل يحيي بن على بن حمود قرطبة بعد ذلك بأيام قلائل ، فى مستهل جمادى

---

(١) أعمال الأعلام ص ١٣١ .

الأولى سنة ٤١٢ هـ . وبويع بالخلافة ، وتلقب بالمعتلى بالله ، وكان فى الثانية والأربعين من عمره . واستقبل البربر والأندلسيون معاً رياسته بالاستبشار والرضى . وكان المعتلى فارساً بارعاً يتحلى بخلال الفروسية ، ويجانب العصبية ، ويؤثر العدل ، ويجزل العطاء لمن وفد عليه ، أومدحه بشعره ، فأحبه الناس ؛ وكان من وزرائه أبو العباس أحمد بن برد ، والكاتب محمد بن الفرضى ، ولكنه وقع مثل عمه القاسم تحت نفوذ البربر وإمرتهم ، فاستبدوا به ، وضيقوا عليه .

وكان القاسم بن حمود أثناء ذلك قد استقر فى إشبيلية ، وتسمى بالخلافة ، وتلقب بالمستعلى ، وأخذ يرقب سير الحوادث . ومن الغريب أن القاسم وابن أخيه يحيى ، تهادنا واتفقا على أن يعترف كلاهما بصفة صاحبه . ويعلق الفيلسوف ابن حزم على ذلك بأنه لم يسمع بخليفتين تصالحا « وهو أمر ، لم يسمع فى الدنيا بأشنع منه ، ولا أدل على إدبار الأمور »(١) .

على أن هذا الوضع الشاذ لم يدم طويلا . ذلك أن البربر أعلنوا خلع يحيى المعتلى فى الثانى عشر من ذى القعدة سنة ٤١٣ هـ ، ولم يكن قد مضى على خلافته سوى عام ونصف ، فبادر يحيى بمغادرة قرطبة إلى مالقة . وفى الحال تحرك عمه القاسم من إشبيلية تلبية لدعوة البربر ، ودخل قرطبة فى الثامن عشر من ذى القعدة المذكور ، وجددت له البيعة وتسمى بأمير المؤمنين .

ولكن القاسم لم يوفق فى سياسته أيضاً فى تلك المرة . ذلك أنه اصطفى البربر ، ومكنهم من أهل قرطبة ، فاشتدوا فى معاملتهم ومطاردتهم ، وضاق أهل قرطبة فى النهاية ذرعاً بتلك الحالة ، فثاروا بالبربر ، واستعدوا لقتالهم ، وأعلنوا خلع القاسم ، واستمرت المعارك حيناً حتى استطاع القرطبيون إرغام القاسم على مغادرة القصر ، وذلك فى جمادى الثانية سنة ٤١٤ هـ ( سبتمبر سنة ١٠٢٣ م ) . فانقلب البربر إلى محاصرة المدينة بعد أن أغلق القرطبيون أبوابها . واستمر الحصار خمسين يوماً ، والمعارك فى كل يوم تتجدد ، وأخيراً خرج القرطبيون واشتبكوا مع البربر فى معركة كبيرة حاسمة ، وقاتلوا قتال اليائسين ، حتى هزموا البربر ومزقوا جموعهم ، وتفرقت بقايا البربر وانفضت عن القاسم ، فسار القاسم فى نفر من صحبه إلى إشبيلية ، وكان بها إبناه محمد والحسن ، فأغلقت المدينة أبوابها دونه ،

---

(١) راجع نقط العروس ص ٨٠ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٣٢ و ١٣٣ .

وأخرج منها إبناه ومن معهم من البربر ، وقام أعيان المدينة ، وعلى رأسهم قاضيها محمد بن إسماعيل بن عباد ، بضبط الأمور فيها ، وسار القاسم وصحبه إلى بلدة شريش[1].

وفى تلك الأثناء كان يحيى المعتلى ، قد سار من مالقة إلى الجزيرة الخضراء ، وكانت بها أموال عمه القاسم وأسرته فاستولى عليها ، واستولى أخوه إدريس والى سبتة ، على ثغر طنجة ، وكانت أيضاً من أعمال القاسم ، وكان يعدها ملجأ له وملاذاً يحتمى به إذا ما ذهب سلطانه بقرطبة ؛ ولما انقلب القاسم فى فلوله إلى شريش سار يحيى المعتلى لقتاله ، وحاصر شريش حتى سلمت ، وقبض على عمه وبنيه ، وحملهم فى الأصفاد إلى مالقة ، وهناك أودعهم السجن ، وانفرد يحيى برياسة البربر ، وبسط سيادته على شريش ومالقة ، وسبتة وطنجة من ثغور المغرب ، وبايعه البربر بالخلافة ، وسموه المعتلى بالله ، وبقى القاسم يرسف فى سجنه ردحاً طويلا من الزمن ، حتى قتل خنقاً فى سنة ٤٣١ هـ ، وهو فى نحو الثمانين من عمره[2].

وكان أهل قرطبة قد سئموا عندئذ حكم البربر وأشياعهم ، وأجمعوا على رد الأمر إلى بنى أمية . وكان ثمة ثلاثة من المرشحين الذين اعتبروا أصلح من بقى من بنى أمية لتولى الخلافة ، هم سليمان بن المرتضى ، ومحمد بن العراقى ، وعبد الرحمن ابن هشام بن عبد الجبار بن الناصر لدين الله ، فقرر القرطبيون أن يختاروا أحدهم بطريق الشورى ، وعقدت لذلك جلسة كبرى بالمسجد الجامع ، حضرها الوزراء والأكابر والخاصة والعامة . وحضر سليمان المرتضى ومحمد العراقى فى البداية ، وكاد الاختيار يقع على أولهما ، وبدئ بالفعل فى تحرير مرسوم البيعة ، لولا أن حضر عندئذ عبد الرحمن بن هشام فى كبكبة عظيمة ، ومن حوله طائفة كبيرة من الجند شاهرة السلاح ، فدخل المقصورة ، وعقدت له البيعة فى الحال ، بين دهشة الحضور واضطرابهم ، وذلك فى السادس عشر من رمضان سنة ٤١٤ هـ ( ديسمبر سنة ١٠٢٣ م ) . ثم خرج من المسجد إلى القصر وقد اصطحب معه ابنى عمه سليمان والعراقى ، فاعتقلهما لديه . ويصف لنا ابن حيان هذا الحفل الشهير ، وكان من شهوده ، بإفاضة ممتعة[3] .

---

( ١ ) البيان المغرب ج ٣ ص ١٣٤ و ١٣٥ ؛ وأعمال الأعلام ص ١٣٣ .

( ٢ ) راجع البيان المغرب ج ٣ ص ١٣٥ و ١٤٤ ؛ والمراكشى ص ٢٩ .

( ٣ ) راجع الذخيرة ، القسم الأول المجلد الأول ص ٣٥ و ٣٦ . ويقول لنا ابن حيان إن الحفل عقد فى الرابع من رمضان ، والظاهر أن هناك تحريفاً ، لأنه يقول لنا بعد ذلك عند مقتل=

واتخذ عبد الرحمن لقب المستظهر بالله، وكان يوم جلوسه فتى فى الثالثة والعشرين من عمره ، وندب للوزارة بعض القدامى من وزراء بنى أمية السابقين مثل أحمد ابن برد ، وجماعة من الفتيان الطامحين الأغمار ، مثل أبى عامر بن شهيد ، وأبى محمد ابن حزم (وهو الفيلسوف المستقبل) ، وابن عمه عبد الوهاب بن حزم، وقد كانا على قول ابن حيان «من أكمل فتيان الزمان فهماً ومعرفة، ونفاذاً فى العلوم الرفيعة» . فقدمهم على سائر رجاله، وأولاهم منتهى النفوذ والثقة ؛ ويورد لنا ابن حيان ثبت المناصب الوزارية والرئيسية يومئذ على النحو الآتى :

خدمة المدينتين، الزهراء والزاهرة، وخدمة كتابة التعقب والمحاسبة، وخدمة الحشم ، وخدمة القطع بالناض والطعام ، وخدمة مواريث الخاصة ، وخدمة الطراز . وخدمة المبانى ، وخدمة الأسلحة وما يجرى مجراها، وخدمة الخزانة القبض والنفقة . وخدمة الوثائق ورفع كتب المظالم ، وخدمة خزانة الطب والحكمة . وخدمة الأنزال والنزائل ، وخدمة أحكام السوق .

ثم يعلق ابن حيان على ذلك بقوله : « وهذا زخرف من التسطير وضع على غير حاصل، ومراتب نصبت لغير طائل ، تنافسها طالبوها يومئذ بالأمل ، فلم يتحلوا منها بنائل، ولاقبضوا منها مرتزقاً ، ولا نالوا بها مرتفقاً ، وغرهم بارق الطمع وسط بلد محصور ، وعمل معصوب ، وخراب مستول ، ومع سلطان فقير ، لا يقع بيده درهم إلا من صبابة ، مستغل جوف المدينة، أو نهب مغلول ممن تقلقل عنها ، يقيم منها رمقه، ويفرق جملته على من تكنفه من جنده ودائرته، ويتطرق إلى ما يقبح من ظلم رعيته، فلم يلبث الأمر أن تفرى به فسفك دمه ، وانحسم الأمل من دولته »(١) .

تلك هى الصورة القوية التى يقدمها إلينا المؤرخ الأندلسى المعاصر عن بلاط المستظهر ، وظروف ولايته . والواقع أن هذا الخليفة الفتى كان يتمتع بخلال باهرة ، وكان ممكناً أن يكون معقد الآمال ، لو أتيح له من السلطان وحرية التصرف ما طاب، ولكن الظروف عاجلته وغلبته على أمره ؛ وكان قد بدأ ولايته بأن أرسل إلى المدن والثغور يدعو إلى تأييد بيعته، فلم تثمر دعوته أو لم يتسع

---

= المستظهر إن خلافته كانت سبعة وأربعين يوماً ، ومقتله فى الثالث من ذى القعدة . وهو ما يرد تاريخ البيعة إلى السادس عشر من رمضان ( راجع البيان المغرب ج ٣ ص ١٣٥ ) .

(١) نقله فى الذخيرة . القسم الأول المجلد الأول ص ٣٦ و ٣٧ .

الوقت لذلك ، وقبض على عدد من الوزراء والأكابر وصادر أموالهم، وكان يرجو بإزالتهم تمكين نفوذه وسلطانه، ثم قبض على عدد من أبناء عمه المروانية ، واعتقلهم بالقصر مع ابنى عمه سليمان والعراقى ، وكانت هذه البوادر المكدرة تقضى على هيبته بسرعة، وتذكى السخط عليه فى صدور الخاصة والعامة معاً . ثم وقع حادث كان نذير الاضطرام . وذلك أنه استقبل عدة من الفرسان البربر فأكرم وفادتهم وأنزلهم بالقصر ، فغضب لذلك الكبراء، وأوغروا صدور العامة قائلين لهم ؛ إننا حاربنا البربر وقهرناهم، وهذا الرجل يسعى فى ردهم إلينا ، وتمكينهم من أمرنا . فهاجت العامة، وزحفت جموعهم على القصر، واقتحموه على غرة، وقتلوا البربر حيث وجدوا ، وفتحوا المطبق وأخرجوا من كان به من المعتقلين، ووثبوا إلى جناح الحرم ، وأدرك عبدالرحمن المستظهر أنه هالك، فاختبأ فى أتون الحمام ، واعتدى الثوار على آل عبد الرحمن وحريمه، وسبوا أكثرهن ، وكانت مناظر شنيعة مروعة[1] .

ولما اختفى المستظهر بالله ، ظهر ابن عمه محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله ابن الناصر ، وكان مختفياً خشية البطش به، فأخذ إلى القصر، وأجلس فى مجلس الملك ، وبويع بالخلافة فى اليوم الثالث من ذى القعدة سنة ٤١٤هـ (١٧ يناير ١٠٢٤ م) ، وتلقب بالمستكفى بالله . وبحث عن المستظهر حتى عثر به فى أتون الحمام فى حالة مزرية ، فأخذ إلى حضرة الخليفة الجديد، وأعدم أمامه، وكانت إمارته مذ ولى حتى قتل سبعة وأربعين يوماً، لم يحدث فيها حدث هام، ولم يجاوز سلطانه مدينة قرطبة .

وكان عبد الرحمن المستظهر أديباً شاعراً من الطراز الأول ، وقد نوه ابن بسام بمواهبه الأدبية الرفيعة ، وأورد له طائفة من القصائد الجيدة[2] .

ومن شعره من قصيدة طويلة قالها فى ذكر ابنة عمه أم الحكم بنت المستعين أيام خطبته لها :

حمامة بنت العبشميين رفرفت ... فطرت إليها من سراتهم صقرا
تقل الثريا أن تكون لها يدا ... ويرجو الصباح أن يكون لها نحرا

---

(١) الذخيرة القسم الأول المجلد الأول ص٣٨ و٣٩ ، والبيان المغرب ج ٣ ص١٤٨ و١٣٩ .
(٢) راجع الذخيرة . القسم الأول المجلد الأول ص ٤٠ — ٤٣ .

وإنى لطعان إذا الخيــل أقبلت     جوانبها حتى ترى جونها شقرا
ومكرم ضيفى حين ينزل ساحتى     وجاعل وفدى عند سائله وفرا

وكان المستكفى يوم ولايته فى الثانية والأربعين من عمره إذ كان مولده فى سنة ٣٦٦هـ ، وأمه أم ولد تسمى حوراء . وكان عاطلا من الخلال الحسنة ، ميالا إلى البطالة ، شغوفاً بالمجون والشراب ، عاجزاً سيئ الرأى ، وقد شبهه ابن حزم ، فى سوء خلاله ، وفى مجونه وفسقه ، وفى خضوعه لغانية خبيثة ، بسميه المستكفى العباسى ، وقد كان كلاهما فى نفس السن ، وحكم كل منهما نحو سنة وخمسة أشهر(١) .

ولم تقع خلال ولاية المستكفى القصيرة ، أحداث ذات شأن . وكان مما عمله أن أمر بخنق ابن عمه محمد العراقى ، ونعاه للناس ، وندب لولاية عهده ابن عمه سليمان بن هشام بن عبيد الله بن الناصر . وفى أيامه هدمت القصور الناصرية ، وخربت قصور المنصور بالزاهرة ، فسادتها الوحشة والخراب .

واضطهد المستكفى معظم الرجال البارزين من الساسة القدماء ، ومن المفكرين ، وغادر كثير منهم قرطبة ، ولجأوا إلى بلاط يحيى بن حمود بمالقة ، وكان من هؤلاء الوزير السابق والشاعر اللامع أبو عامر بن شهيد ؛ ووصف هؤلاء ليحيى ابن حمود سوء الأحوال فى قرطبة . ومع أن يحيى لم يكن متحمساً لفكرة السير إلى قرطبة ، فإن الأنباء ترامت إلى القرطبيين بأنه يتخذ أهباته لاسترداد عاصمة الخلافة ؛ وعلى أى حال فقد سئم القرطبيون ولاية المستكفى العاطلة الماجنة الفاسدة ونادوا بخلعه . فدخل عليه الوزراء والكبراء ، وأغلظوا له فى القول ، وطلبوا إليه التخلى ، فاستعطفهم بإبن التمول ، ثم غادر قرطبة فى نفس اليوم متنكراً فى زى امرأة . وكان ذلك فى اليوم الخامس والعشرين من ربيع الأول سنة ٤١٦هـ ( مايو سنة ١٠٢٥ م ) . وسار المستكفى صوب الثغر فى نفر من صحبه ، ووصل إلى إقليج من أحواز قرطبة ، وهنالك اغتاله بعض مرافقيه ، لاعتقادهم أنه يحمل مالا . وكان مقتله لسبعة عشر يوماً فقط من خلعه(٢) .

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٤١ ، وأعمال الأعلام ص ١٣٦ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١٤٢ و ١٤٣ ؛ وأعمال الأعلام ص ١٣٦ .

ومما هو جدير بالذكر أن محمد بن عبد الرحمن المستكفى هو والد الأديبة والشاعرة الأندلسية الكبيرة « ولادة » التى اشتهرت بروعة أدبها وشعرها ، والتى أوحت إلى الوزير الشاعر ابن زيدون =

ومضت بضعة أشهر ؛ والحكومة فى قرطبة فوضى لا ضابط لها . وأخيراً قرر يحيى بن حمود أن يسير إلى العاصمة ، فقصد إليها فى قواته ودخل القصر فى الخامس عشر من رمضان من نفس العام (٩ نوفمبر سنة ١٠٢٥م) ، وبقى بها إلى نهاية هذا العام ، ثم غادرها فى أوائل المحرم سنة ٤١٧ھ قاصداً إلى مالقة ، وترك بها وزيريه أحمد بن موسى ، ودوناس بن أبى روح ، يدبران شئونها ، ومعهما حامية صغيرة من البربر ، بيد أنه لم يمض زهاء شهرين حتى تجهمت الحوادث كرة أخرى .

ذلك أن خيران وزهير الفتيين العامريين ، قصدا إلى قرطبة ، وأوعزا إلى القرطبيين بالتخلص من البربر ، فثار القرطبيون فجأة ، وفتكوا بالحامية البربرية ، وكانت زهاء ألف رجل ، وفر أحمد بن موسى وزميله دوناس إلى مالقة ، وكان ذلك فى العشرين من ربيع الأول من سنة ٤١٧ ھ .

وأجمع القرطبيون على أثر ذلك على رد الأمر لبنى أمية ، وكان عميدهم فى ذلك الوزير أبو الحزم جَهْوَر بن محمد بن جهور ، واتفقوا على مبايعة هشام بن محمد ابن عبد الله بن عبد الرحمن الناصر ، أخى عبد الرحمن المرتضى . وكان عند مقتل أخيه فى سنة ٤٠٩ھ ، قد فر من قرطبة فى نفر من صحبه ، ولجأ إلى مدينة ألبونت فى شمال شرقى الأندلس ، واستظل من ذلك الحين بحماية واليها عبد الله بن قاسم الفهرى . وبعث إليه أهل قرطبة بالبيعة ، وهو بمقره بحصن ألبونت ، فتلقاها فى ٢٥ ربيع الآخر سنة ٤١٨ھ ، وتلقب بالمعتد بالله ، وبقى بمقره بألبونت مدة سنتين وسبعة أشهر ، وهو يخطب له بقرطبة ، ثم قدم إليها فى شهر ذى الحجة سنة ٤٢٠ھ(١) فجددت له البيعة ، واستمر فى كرسى الخلافة عامين آخرين . وسر القرطبيون لمقدمه فى البداية ، ولكنه ألقى زمام الأمور إلى رجل من الموالى يسمى حكم بن سعيد القزاز ، فاستأثر بكل سلطة ، وأطلقت يده فى الأموال ، وكان أخرق عسوفاً ، فجمع حوله نفراً من السفهاء العاطلين عن كل إخلاص وحزم ، وأطلق العنان لغواياته وأهوائه ، فاضطربت الشئون وامتعض العقلاء ،

=المتيم بها طائفة من غرر قصائده . وقد لبثت ولادة عصراً تخلب بجمالها وأدبها وشعرها ألباب المجتمع القرطبى الرفيع . وتوفيت فى سنة ٤٨٤ ھ (١٠٩١ م) (راجع الصلة لابن بشكوال رقم ١٥٤٠ ؛ وقلائد العقيان ص ٧٠ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٤٤٧ – ٤٤٩) .

(١) جذوة المقتبس ص ٢٦ و ٢٧ .

وزعماء البيوتات الكبيرة ، وشعروا بما نالهم على يده من ضروب الإهانة والنيل ؛ وأحاط هذا الوزير المستبد الماجن الخليفة برجاله، وأبعد عنه الصحب وذوى الحجى ، ودفعه بالرغم من شيخوخته، إلى تيار الشراب والمجون ، حتى ساءت الأمور إلى الذروة ، وفقدت الخلافة والحكومة، كل عطف وهيبة ، وتهامس الناس فى وجوب إزالة هذه الحالة ، والتخلص من أوزارها وعواقبها . والتفت جماعة الناقمين حول فتى من أبناء عمومة هشام، هو أمية بن عبد الرحمن العراقى ، من أحفاد الناصر ، وكان فتى شديد التهور والجهالة ، ولكن بعيد الأطماع ؛ وفى ذات يوم تربصت تلك الجماعة الناقمة بالوزير حكم بن سعيد وفتكت به ، وطافت برأسه فى المدينة، وتركوا جثته فى العراء ( ذو القعدة سنة ٤٢٢ هـ — نوفمبر سنة ١٠٣١ م ) . ثم سار أمية فى جموعه إلى القصر، والخليفة هشام عاكف على شرابه ونسائه، فنهبت العامة بعض أجنحة القصر ، ولولا أن زجرهم الوزير الشيخ ابن جهور ونصحهم بالكف عنه، لما أبقوا على شىء . وخشى هشام المعتد على نفسه ، فبادر إلى الخروج من القصر مع ولده ونسائه، وهو يناشد الجماعة أن يحقنوا دمه، ولجأ إلى ساباط الجامع واجتمع رأى الناس جميعاً كباراً وصغاراً على خلعه، والتخلص جملة من بنى أمية، وإبطال رسم الخلافة ، وعلى نفى بنى أمية وإجلائهم جميعاً عن المدينة، وكان رائد الجماعة وناصحهم فى ذلك أبو الحزم ابن جهور ، وكان هذا الوزير النابه يستأثر نظراً لماضيه التالد ، وأسرته العريقة، ورأيه الناضج ، بمحبة الشعب وثقته وتأييده ، وسنرى فيما بعد أى دور خطير يلعبه ابن جهور فى مصاير قرطبة .

وانتهى القوم إلى خلع هشام المعتد، وإبعاده وأهله إلى أحد الحصون القريبة، ثم غادره بعد أيام قلائل، وسار إلى الثغر ، حيث التجأ إلى سليمان بن هود صاحب لاردة من أعمال الثغر الأعلى ، وقضى هنالك بقية أيامه حتى توفى فى سنة ٤٢٨ هـ دون عقب ؛ وأبعد أمية بن عبد الرحمن عن القصر ، وكان يهجس بتولى كرسى الخلافة مكان المعتد ، فلما رأى وعيد القوم ، اختفى وغادر قرطبة إلى حيث لا يعلم أحد . ونودى فى سائر أحياء قرطبة وأرباضها بأن لا يبقى بها أحد من بنى أمية، ولا يأويهم أحد، وتولى ابن جهور تنفيذ هذا الأمر بمنتهى الحزم، حتى أجلاهم عن المدينة ومحا رسومهم[1] .

---

(١) راجع البيان المغرب ج ٣ ص ١٤٥ — ١٥٢ ؛ وأعمال الأعلام ص ١٣٨ — ١٤٠ .

وبخلع هشام المعتد ، تنتهي رسوم الدعوة الأموية بصورة نهائية ، وينقطع ذكرها إلى الأبد من منابر الأندلس والمغرب الأقصى .

• • •

ولنعد الآن قليلا إلى الوراء لنتتبع مصاير دولة بني حمود في جنوبي الأندلس ، وقد رأينا أن يحيى بن علي بن حمود الملقب بيحيى المعتلي ، بعد أن خلع عمه القاسم من الخلافة ، وأرغم على مغادرة قرطبة في سنة ٤١٤ هـ ، سار إلى بلدة شريش ، فسار يحيى في أثره ، وما زال به حتى هزمه وقبض عليه ، ثم قتل في سجنه فيما بعد ، واستولى يحيى على سائر ما كان بيده من البلاد والثغور ، وانفرد برياسة البربر في الأندلس . ثم عاد فدخل قرطبة مرة أخرى على أثر خلع المستكفي في سنة ٤١٦ هـ . ولكنه غادرها بعد ذلك إلى مالقة ، التي غدت من ذلك الحين معقله وعاصمة ملكه ، في أوائل سنة ٤١٧ هـ ، واستمر بها مدى حين .

وكان يحيى المعتلي يخشى بالأخص على مملكته الفتية ، من مطامع القاضي محمد بن إسماعيل بن عباد ، الذي استقل برياسة إشبيلية ، حسبما تقدم . فسار بقواته إلى قرمونة حصن إشبيلية من الشمال الشرقي ، وانتزعها من يد حاكمها محمد ابن عبد الله البرزالي كبير بني برزال ، واستقر بها يرقب الفرصة للوثوب بابن عباد وتحطيمه ، فسار البرزالي إلى ابن عباد وتحالف معه على قتال يحيى . وكان يحيى قد استسلم إلى لهوه وملاذه ، وعكف على معاقرة الشراب والمجون المستمر ، وجنوده تغير على إشبيلية من آن لآخر . ورأى القاضي ابن عباد أن يدحض دعوى المعتلي في الخلافة أولا ، فأظهر في أواخر سنة ٤٢٦ هـ شخصاً زعم أنه هشام المؤيد ، وأنه كان مختفياً ولم يمت ، وبايعه بالخلافة ، ودعا الناس إلى الدخول في طاعته . ثم سير ابن عباد إلى قرمونة بعض قواته مع ابنه إسماعيل ، ومعها طائفة من قوات البربر المتحالفة معه ، فطوقت المدينة ليلا ، وكمن معظمها في أماكن مستورة ، ووقف يحيى على الخبر فخرج في قواته وهو ثمل ، واشتبك مع المهاجمين في معركة حامية وكاد يوقع بهم الهزيمة ، لولا أن ظهرت قوات ابن عباد من كمينها ، وأطبقت عليه ، فانهزم أصحابه ، وقتل في المعمعة واحتز رأسه ، وحمل سريعاً إلى ابن عباد في إشبيلية ( المحرم سنة ٤٢٧ هـ — نوفمبر سنة ١٠٣٥ م ) ، واستمر فتك جند ابن عباد بالبربر أمام أسوار قرمونة ، ولم يقف إلا حينما تدخل محمد بن عبد الله

البرزالى ، وقد ساءه هذا الفتك الذريع بقومه ، فكف ابن عباد مرغماً ، ودخل البرزالى قرمونة ، واستولى على ما فيها من مال ومتاع ، وسبى نساء يحيى وجواريه(١) .

ولما قتل يحيى المعتلى على هذا النحو ، سارع وزيراه أبو الفوز نجا الصقلبى ، وأبوجعفر أحمد بن موسى بن بقنّة البربرى ، باستدعاء أخيه إدريس لتولى الملك مكانه ، وكان واليا لسبتة . وكان ليحيى ولدان حدثان هما إدريس وحسن ؛ وفى رواية أنه كان قد أوصى بولاية عهده لولده حسن ، ولكن حداثة سنه حالت دون ولايته . وهكذا بويع إدريس بالخلافة فى مالقة ، قاعدة المملكة الحمودية وتلقب بالمتأيد بالله ، وعين ابن أخيه حسناً لحكم سبتة وأعمالها ، وندب لمعاونته الحاجب نجا ، واقترنت بولايته رندة والجزيرة ، وكان من حلفائه المعترفين ببيعته الفتى زهير العامرى صاحب ألمرية ، وحبوس بن ماكسن زعيم صنهاجة وصاحب غرناطة ؛ وقد سارا فى قواتهما لمعاونة إدريس على محاربة ابن عباد ، وانضم إليهما البرزالى صاحب قرمونة . وفى شهر ذى القعدة سنة ٤٢٧هـ (١٠٣٦م) سارت القوات المتحالفة إلى أحواز إشبيلية وعاثت فيها ، واحتلوا قرية طشّانة ، ثم احتلوا «القلعة» ، الواقعة شرقى إشبيلية ، وأحرقوا طَريانة الواقعة فى جنوبها ، ثم احتلوا حصن القصر ، وانصرف زهير بعد ذلك إلى ألمرية .

وفى العام التالى توفى حبوس بن ماكسن ، وخلفه فى حكم غرناطة ولده باديس ، وبعث باديس وأخوه بُلُقّين إلى زهير يطلبان تجديد التحالف الذى كان بينه وبين أبيهما ، ولكن زهيراً سار فى قواته إلى غرناطة ، والتقى بباديس وأخيه فى قرية من أحواز غرناطة تسمى «ألفنت»(٢) . والظاهر أنه وقع بين الفريقين نوع من سوء التفاهم ، واعتبر باديس أن زهيراً توغل فى أرضه بقواته أكثر مما يجب ؛ أو أن باديس وأخاه بلقين ، قد وضعا خطة للغدر بزهير . وعلى أى حال فقد عمل باديس على قطع طريق الرجعة على زهير ، ووضع له الكمائن فى المضايق . ووقع القتال بين زهير والبربر ، فهزم زهير وقتل ، ولم يعثر على جثته ، واحتوى باديس على معسكره ، واستولى على غنائم هائلة من الخيل والسلاح والمتاع ، وقبض باديس على كاتب

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٨٨ و ١٨٩ و ١٩٠ ؛ وأعمال الأعلام ص ١٣٧ .

(٢) وهى بالإسبانية Dalfontes ، وهى تقع على قيد نحو خمسة كيلو مترات من شمالى غرناطة .

زهير أحمد بن عباس ثم قتله بعد ذلك . وحدثت هذه الواقعة فى أواخر سنة ٤٢٩ هـ ( ١٠٣٨ م )[١] .

وكان القاضى ابن عباد ، المتغلب على إشبيلية ، بعد قتل منافسه يحيى المعتلى قد خلا له الجو ، واشتد بأسه ، وأخذ يطمح إلى التغلب على ما يجاور إشبيلية من المدن والمقاطعات . فبدأ بأن سير ولده إسماعيل فى جيش زحف على قرمونة حصن إشبيلية ، من الشمال الشرقى ، وكان بها محمد بن عبد الله البرزالى ، فاستولى عليها ، واستولى كذلك على إستجة الواقعة فى شرقها . فاستغاث البرزالى بإدريس المتأيد ، وباديس أمير غرناطة ، وهرعت الجند البربر من مالقة وغرناطة استجابة لدعوته . ونشبت بين البربر وبين جند ابن عباد الأندلسيين وقائع عديدة ، انتهت بهزيمة الأندلسيين ومقتل إسماعيل بن عباد ، وذلك فى أوائل المحرم سنة ٤٣١ هـ ( أواخر سنة ١٠٣٩ م )[٢] .

ولم تمض على ذلك أيام قلائل حتى توفى إدريس المتأيد فى قلعة ببشتر ، وكان قد نقل إليها مريضاً من مالقة . وكانت وفاته فى السادس عشر من محرم سنة ٤٣١ هـ .

وعلى أثر وفاته بويع ولده يحيى بالخلافة فى مالقة ، وذلك بترتيب وزيره أبى جعفر ابن بقنّة وسعيه . وتلقب يحيى بالقاسم بأمر الله ، وكان فتى حدَثاً قليل الخبرة والحزم ، ولكن ابن بقنّة سارع برفعه إلى العرش استبقاء لسلطانه الذى تأثل فى ظل أبيه . بيد أن الحوادث ما لبثت أن تطورت بسرعة . ذلك أن نجا الحاجب الصقلبى ، وكان يومئذ بسبتة ، لم يرقه هذا الاختيار ، فبادر بالدعوة إلى حسن بن يحيى المعتلى ( ابن أخى إدريس ) . وكان إدريس قد اختاره لولاية عهده ، وكان وقت وفاة عمه حاكماً لسبتة والثغور المغربية ، فبويع حسن بالخلافة ، وجهز الحاجب جيشاً ، وسار بقواته مع حسن فى أسطول يمم شطر مالقة ، ونزلت القوات إلى البر ، وحاصرت مالقة من البر والبحر ، ولم تمض أسابيع قلائل حتى اضطر يحيى إلى التسليم والتنازل عن الخلافة ، ثم سار إلى قمارش ، وأقام بها .

---

( ١ ) راجع فى تفصيل هذه الحوادث : البيان المغرب ج ٣ ص ١٩٠ و ١٩١ و ٢٩٣ ، والإحاطة فى أخبار غرناطة لابن الخطيب ( القاهرة ١٩٥٦ ) ج ١ ص ٢٦٩ و ٥٢٧ و ٥٢٨ .

( ٢ ) البيان المغرب ج ٣ ص ١٩٩ .

وبويع حسن بن يحي بالخلافة فى مالقة فى جمادى الثانية سنة ٤٣١هـ ، وتلقب بالمستنصر بالله ، واعترفت بطاعته غرناطة وغيرها ، وعهد بتدبير الأمور إلى الوزير أبى جعفر بن بقنة ، وعهد إلى الحاجب نجا بحكم الثغور المغربية . وكان حسن أميراً حازماً ، قوى النفس ، فنظم الإدارة ، واستكثر من الجند ، وجبى الأموال . واستراب بوزيره أبى جعفر ، وكان يسر له نصرته ليحيي ، فدبر مقتله ، وذلك فى يوم عيد الفطر سنة ٤٣٣هـ (١) ، ثم أمر بقتل يحي القاسم ، فقتل فى ربيع الثانى سنة ٤٣٤هـ . وكانت أخته زوجة للمستنصر ، فما لبثت أن دبرت مقتله انتقاماً لأخيها ، وهلك حسن بالسم فى جمادى الأولى سنة ٤٣٤ هـ ( ديسمبر سنة ١٠٤٢ م ) .

والروايات بعد ذلك متضاربة ، فمنها ما يقول بأن الحسن لم يعقب ذرية(٢) ومنها ما يقول إنه ترك ولداً صغيراً بسبتة . وعلى أى فقد نهض الحاجب نجا على أثر وفاة المستنصر ، وعبر البحر فى قواته من سبتة إلى الجزيرة ؛ وهنا يقال إنه نهض ليؤيد دعوة ولد الخليفة المتوفى ، ويقال من جهة أخرى إنه نهض ليستخلص تراث الحموديين لنفسه ، بعد أن اضطربت شئونهم . وسار نجا إلى الجزيرة وفيها ابنا القاسم بن حمود ، فخرجت إليه أمهما سبيعة ، وعنفته على مسلكه وعدم ولائه لسادته ، فاستحى منها ، وغادر الجزيرة ميمماً شطر مالقة . وكان معظم جنده من قبيلة برغواطة البربرية ، أخوال حسن بن يحي ، فاسترابوا منه ومن مقاصده وائتمروا به ، وقتلوه فى الطريق . ثم ساروا إلى مالقة ، وكان حسن بن يحي أيام خلافته قد قبض على أخيه إدريس ، وزجه إلى السجن ليأمن منافسته . فأخرجه الجند من سجنه وبويع بالخلافة . وتلقب بالعالى ، وذلك فى جمادى الثانية سنة ٤٣٤هـ ( يناير سنة ١٠٤٣م ) ، وأطاعته البربر فى غرناطة وقرمونة وجيان وغيرها . وهو الممدوح بالقصيدة المشهورة ، التى نظمها عبد الرحمن بن مُقانا القبذاقى الأشبونى فى مدحه ومطلعها :

ألبرقٍ لائحٍ من أندرينْ ... ذرفتْ عيناك بالماء المعين
لعبت أسيافه عارية ... كمخاريق بأيدى اللاعبين

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٩٠ ؛ والمراكشى ص ٣٦ .
(٢) المراكشى ص ٣٧ .

| | |
|---|---|
| والصوت الرعد زجر وحنين | وبقلبي زفرات وأنين |
| وأناجي فى الدجى عاذلتى | ويلك لا أسمع قول العاذلين(١) |

ومنها :

| | |
|---|---|
| عيرتني بسقام وضنى | إن هذين لدين العاشقين |
| قد بدا لى وضح الصبح المبين | فاسقنيها قبل تكبير الأذين |
| إسقنيها مرة مشمولة | لبثت فى دنها بضع سنين |
| مع فتيان كرام نجب | يتهادون رياحين المجون(١) |

وكان العالى أميراً رقيق الخلال ، جواداً كثير الصلات ، أديباً ينظم الشعر ؛ ومع ذلك فقد كان يجمع حوله بطانة سيئة ، وصحاباً من أراذل القوم . وكان ضعيف الرأى ، متهاوناً فى شئون الحكم ، فسرى التفكك إلى سلطانه ، وفى أواخر سنة ٤٣٨هـ ( ١٠٤٦م ) ، ثار عليه ابن عمه محمد بن إدريس بن على بن حمود ، فخرج إدريس فى صحبه من مالقة إلى حصن ببشتر ، وعاونه باديس بن حبوس أمير غرناطة بجنده ليسترد سلطانه . فغزا مالقة ولكنه لم يفز بطائل ، فارتد مع أهله وصحبه إلى سبتة .

وبويع محمد بن إدريس فى شعبان سنة ٤٣٨هـ . وتلقب بالمهدى ، وتوطد أمره بمالقة ؛ ولكن بعض النواحى نكلت عن تأييده ، ولا سيما غرناطة ؛ وكان أميرها باديس من أشد معارضيه . وكان يشعر أنه أحق من غيره بزعامة البربر ؛ وأبدى المهدى عزماً فى تنظيم الحكومة وإصلاح الأمور ، ولكنه كان طاغية سفاكاً للدماء يسرف فى قتل مواطنيه البربر ، حتى كرهه معظمهم ، واجتمع رأى معارضيه من الزعماء وعلى رأسهم باديس على وجوب خلعه ، والاعتراف بطاعة محمد بن القاسم بن حمود صاحب الجزيرة الخضراء ، واتفق رأى البعض الآخر ومنهم أبو نور بن أبى قرة اليفرنى صاحب رندة ، على الاعتراف بطاعة إدريس بن يحيى العالى . وهكذا ادعى الخلافة ثلاثة من أمراء بنى حمود فى وقت واحد ، وفى مناطق صغيرة متقاربة ، وهذا إلى الخليفة المزعوم الذى أقامه ابن عباد صاحب إشبيلية باسم هشام المؤيد ؛ ويستعرض الفيلسوف ابن حزم هذه الحالة وهو معاصر لها فى مرارة وتهكم ، ويصفها بأنها « فضيحة لم يقع فى العالم

---

( ١ ) راجع هذه القصيدة بأكملها فى نفح الطيب ج ١ ص ٢٠٢ و ٢٠٣ .

إلى يومنا مثلها: أربعة رجال فى مسافة ثلاثة أيام فى مثلها ، كلهم يتسمى بأمير المؤمنين ، ويخطب لهم فى زمن واحد »[١] .

واستمر محمد بن إدريس المهدى فى كرسى الخلافة زهاء ستة أعوام . ولما لم يرخصومه وسيلة للتغلب عليه ، لجأوا إلى الغيلة ، فدسوا عليه من قتله بالسم ، وذلك فى أواخر سنة ٤٤٤ هـ (أوائل سنة ١٠٥٣ م) .

فبويع من بعده ولد أخيه وهو إدريس بن يحيى بن إدريس بن على بن حمود ، وتلقب بالسامى ، وأقام حيناً بمالقة ، ثم أصابته فيما يظهر لوثة ، فغادر مالقة ، وهام على وجهه فى صفة تاجر ، وغادر البحر إلى شاطئ العدوة ، فأخذ إلى سبتة ، حيث قتله حاكمها سواجات البرغواطى[٢] .

وكان إدريس بن يحيى العالى ، قد لجأ على أثر خلعه إلى سبتة ، فأقام بها فى كنف سواجات ، وأقام كذلك حيناً فى رندة ، فى كنف حاكمها أبى نور بن أبى قرة ، فلما هلك السامى ، سار إلى مالقة واستقبله أهلها بحماسة ، ودعى له بالخلافة مرة أخرى ، واستمر فى الحكم حتى توفى سنة ٤٤٦ هـ (١٠٥٤م) بعد أن عهد بالخلافة لابنه محمد .

فخلفه ولده محمد ، وتلقب بالمستعلى ، وأقرت بيعته ألمرية ورندة ، ولكن معظم الزعماء البربر ، وفى مقدمتهم باديس صاحب غرناطة نكلوا عن طاعته . وفى سنة ٤٤٩ هـ (١٠٥٧م) ، سار باديس فى قواته إلى مالقة ، واستولى عليها وضمها إلى إمارته ، وغادرها المستعلى ، وسار إلى ألمرية ، ثم عبر منها البحر إلى مليلة فقبله أهلها حاكماً عليهم ، واستمر بها حتى توفى سنة ٤٥٦ هـ (١٠٦٤م) والمستعلى هو آخر من حكم فى مالقة من أمراء بنى حمود .

وفى أثناء ذلك كان رأى الزعماء البربر ، وفى مقدمتهم باديس صاحب غرناطة وإسحاق بن محمد بن عبدالله البرزالى صاحب قرمونة ، ومحمد بن نوح صاحب مورور ، وعبدون بن خزرون صاحب أركش ، قد اجتمع على البيعة لبنى محمد بن القاسم بن حمود صاحب الجزيرة الخضراء . وكان يحيى المعتلى حينما خلع

---

(١) ابن حزم فى رسالته « نقط العروس » ص ٨٣ . وراجع البيان المغرب ج ٣ ص ٢١٧ و ٢٤٤ ؛ وأعمال الأعلام ص ١٤١ .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٢١٧ ؛ وأعمال الأعلام ص ١٤٢ .

عمه القاسم بن حمود، قد قبض على ولديه محمد وحسن، واعتقلهما بالجزيرة، فلما توفى يحيى، أفرج عنهما. وتولى محمد حكم الجزيرة، وذلك فى الوقت الذى قامت فيه دولة المهدى فى مالقة. ثم حاول محمد أن ينتزع الخلافة لنفسه، فسار فى أنصاره إلى مالقة يحاول انتزاعها من يد المهدى، ولكنه أخفق فى محاولته، فارتد إلى الجزيرة، وتوفى بها فى سنة ٤٤٠ هـ.

فخلفه محمد ولده وحكم الجزيرة فترة قصيرة؛ ثم خلفه ولده القاسم، وتلقب بالواثق، وكانت خلافته هزيلة ضيقة الرقعة والموارد، ولم يتح لها من البقاء سوى فترة يسيرة. ذلك أن ابن عباد صاحب إشبيلية اعتزم أن يقضى على خلافة الحموديين بصفة نهائية، فبعث قواته إلى الجزيرة الخضراء فطوقتها من البر والبحر واضطر القاسم سراعاً إلى التسليم، وغادر الجزيرة بالأمان مع أهله وصحبه (٤٤٦هـ — ١٠٥٥م) وسار إلى ألمرية حيث التجأ الى حماية صاحبها المعتصم ابن صمادح، ولبث بها حتى توفى سنة ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م).

وفى نفس الوقت كان باديس أمير غرناطة قد استولى على مالقة من يد المستعلى (٤٤٩هـ)، وانهار بها سلطان الحموديين، وهكذا انقرضت دولة بنى حمود من مالقة والجزيرة معاً، وانتهى بذلك سلطانهم بالأندلس بعد أن حكموا المثلث الإسبانى الجنوبى، وثغور العدوة الشمالية، زهاء نصف قرن[1].

* * *

وهكذا انحدرت إسبانيا المسلمة، فى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) عقب انهيار دعائم الخلافة الأموية والدولة العامرية، إلى معترك مروع من التمزق والفوضى، واستحالت الأندلس بعد أن كانت كتلة موحدة، تمتد من ضفاف دورة شمالا إلى مضيق جبل طارق جنوباً، ومن شاطئ البحر المتوسط منذ طركونة شرقاً حتى شاطئ المحيط الأطلنطى غرباً، إلى أشلاء ممزقة، ورقاع متناثرة، وولايات ومدن متباعدة متخاصمة، يسيطر على كل منها حاكم سابق استطاع أن يحافظ على سلطته المحلية خلال الانهيار،

---

(١) راجع فى تفاصيل الحوادث المتقدمة، البيان المغرب ج ٣ ص ٢٨٨ و ٢٩١ و ٢٩٢؛ وابن خلدون ج ٤ ص ١٥٤ و ١٥٥؛ وابن الأثير ج ٩ ص ٩٦ و ٩٧؛ والمراكشى ص ٣٧ — ٣٩، وأعمال الأعلام ص ١٤٢ و ١٤٣. وراجع بحثا بالإسبانية للأستاذ المستشرق الغرناطى ميكودى لوثينا عن دولة بنى حمود عنوانه: **Los Hammudies, Senores de Málaga y Algeciras, p. 47-53**

أو متغلب من الفتيان الصقالبة أو القادة ذوى السلطان السابق، أو زعيم أسرة محلى من ذوى الجاه والعصبية . وسيطر البربر من جانبهم على أراضى المثلث الإسبانى الجنوبى ، وما كان منه بيد الدولة الحمودية ، وأنشأوا هنالك إمارات عدة ، ما لبثت أن نزلت إلى ميدان الصراع العام ، الذى شمل هذه المنطقة . وهكذا قامت على أنقاض الدولة الأندلسية الكبرى دول عديدة هى دول «الطوائف» ، وذلك منذ أوائل الربع الأول من القرن الخامس ، حتى الفتح المرابطى ، زهاء سبعين عاماً ، قضتها جميعاً فى سلسلة لا نهاية لها من المنازعات الصغيرة ، والخصومات والحروب الأهلية الانتحارية ، وكادت بتنابذها وتفرقها ومنافساتها ، تمهد لسقوط الأندلس النهائى . وقد كان من رحمة القدر ، أن اسبانيا النصرانية ، كانت فى نفس الوقت الذى انتثرت فيه وحدة الأندلس على هذا النحو الخطر ، تعانى من انقسام الكلمة ، وتعصف بها ريح الخلاف والتفرق ، فلم تتح لها فرصة للوثوب بالأندلس الممزقة ، إلى أن كان الوقت الذى بلغ فيه تنابذ الطوائف ذروته ، واشتد ساعد اسبانيا النصرانية كرة أخرى ، واستطاعت أن تضرب ضربتها القوية بانتزاع طليطلة ، أول قاعدة إسلامية كبيرة (٤٧٨هـ — ١٠٨٥ م) ؛ وعندئذ تطورت الحوادث بسرعة واتجهت الأندلس الجريح ، فى توجسها وانزعاجها ، إلى إخوانها المسلمين فيما وراء البحر ، بعدوة المغرب ، تستدعيهم لنصرتها . وكان أن تدفقت الجيوش المرابطية من المغرب على شبه الجزيرة الإسبانية ، وكان أن أنقذت دولة الإسلام فى الأندلس .

# الكتاب الخامس

# النظم الإداريّة والحركة الفكريّة
# في عصري الإمارة والخلافة

# الفصل الأول

## نظم الحكم

### والأوضاع السياسية والإدارية والعسكرية والاقتصادية

### فى عصرى الإمارة والخلافة

— ١ —

تعاقبت خلال هذه الفترة الطويلة التى سردناها من تاريخ الأندلس ، على الأمة الأندلسية ، أنواع من نظم الحكم ، ومن الأوضاع السياسية والإدارية ، كانت تسير طوراً بعد طور مع مختلف الحوادث ، والحروب والانقلابات المتوالية . وبالرغم من أنه لم يفتنا أن نشير فى مختلف المواطن إلى تلك التغييرات المتوالية ، التى شهدتها الأمة الأندلسية ، فإنه يجدر بنا أن نتحدث عنها حديثاً خاصاً ، وأن نقدم منها إلى القارئ صورة مجتمعة متماسكة .

كانت الأندلس عقب الفتح ولاية تتبع إفريقية ، ويقوم باختيار حاكمها والى إفريقية . وقد استمر هذا الوضع نحو ثمانية أعوام فقط ، تعاقب فيها على ولاية الأندلس ثلاثة من الولاة هم عبد العزيز بن موسى ، وأيوب بن حبيب اللخمى ، ثم الحر بن عبد الرحمن الثقفى . غير أنه كان من الواضح أن هذا النظام لم يكن يلائم قطراً ضخماً كالقطر الأندلسى ، وخصوصاً بعد ما بدأت الغزوات الإسلامية لغاليس ( جنوب فرنسا ) ، وبدأت الأندلس تخوض الصراع مع مملكة الفرنج فيما وراء البرنيه ، ومع نصارى الشمال . ومن ثم فقد رأت خلافة دمشق أن تكون الأندلس ولاية مستقلة تتبع الخلافة مباشرة ، ويقوم الخليفة بتعيين واليها . وكان الخليفة عمر بن عبد العزيز هو الذى أصدر هذا القرار شعوراً منه بأهمية الأندلس السياسية والعسكرية والاجتماعية .

وكان أول ولاة الأندلس من قبل الخلافة ، هو السمح بن مالك الخولانى ، وقد ندبه عمر بن عبد العزيز لولايتها فى سنة مائة من الهجرة (٧١٩م) . بيد أنه

لما توفى عمر بن عبد العزيز ( ١٠١ هـ ) عاد الأمر فى تعيين ولاة الأندلس إلى ولاة إفريقية ، ولكن بمصادقة الخليفة . وكان الوالى عادة هو قائد الجيش العام ، وإليه يرجع أمر الغزو فى الشمال . ولما وقعت نكبة بلاط الشهداء فى سنة ١١٤ هـ ( ٧٣٢ م ) ، أخذت الخلافة مرة أخرى بيدها تعيين والى الأندلس ، واختار الخليفة هشام بن عبد الملك لولايتها عبد الملك بن قطن . واستمر الأمر بعد ذلك حيناً يرجع إلى والى إفريقية ، وأحياناً إلى اختيار الجماعة ، أعنى جماعة الزعماء والقادة فى شبه الجزيرة ، وكان ذلك يحدث بالأخص حين تضطرب الأمور ، ويقع الخلاف بين مختلف القبائل والزعامات . ولما اضطرمت الفتنة بين الشاميين والبلديين ، وأخذ الفريقان يتبادلان الرياسة ، ضعف أمر السلطة المركزية ، ولم تهدأ الأمور حتى عين أبو الخطار الكلبي والياً للأندلس ( ١٢٥ هـ ) . ولكن أبا الخطار كان يمنياً فمال إلى اليمنية ، واضطرمت الفتنة بين اليمنية والمضرية ، ولما تفاقم الأمر ، وخشى الزعماء عاقبة الفتنة والحرب الأهلية ، اتفقوا على تعيين يوسف بن عبد الرحمن الفهرى من المضرية للولاية ، وذلك دون موافقة أو مصادقة لا من والى إفريقية ، ولا من الخلافة ، وكان ذلك فى سنة ١٢٩ هـ ( ٧٤٧ م ) .

واستمر يوسف بن عبد الرحمن الفهرى والياً للأندلس زهاء عشرة أعوام ، وهو يزاول سلطة شبه مطلقة . وقد استطاع بعزمه وحزمه ، أن يعيد إلى الأندلس نوعاً من الاستقرار والسكينة . ولكن القدر كان يدخر للأندلس مصيراً آخر ، فى ظل سلطة أخرى ، لم تكن تخطر ليوسف أو غيره من الزعماء المتطلعين إلى الرياسة . وذلك أن عبد الرحمن الأموى عبر إلى الأندلس فى ربيع الآخر سنة ١٣٨ هـ ( سبتمبر سنة ٧٥٥ م ) ، وهرع فى الحال إلى لوائه جمع من الصحب والأنصار ، ووقع الحدث الحسم فى موقعة المسارة فى العاشر من ذى الحجة سنة ١٣٨ هـ ( ١٣ مايو سنة ٧٥٦ م ) فهزم يوسف الفهرى وصحبه ، وأنتهت رياسته للسلطة ، وكتب النصر لسليل بنى أمية ، فبويع عبد الرحمن الأموى فى الحال بالإمارة ، وبعثت من ذلك التاريخ دولة بنى أمية بالأندلس ، بعد أن سقطت بالمشرق قبل ذلك ببضعة أعوام .

ومن ذلك التاريخ تقوم الدولة الأموية فى الأندلس ، وتستقر قواعدها تباعاً ، بعد معارك طويلة متعددة ، بينها وبين الزعامات المحلية والعناصر الثائرة . وقد

بقيت الدولة الأموية عصراً تتشح بثوب الإمارة ، وذلك وفقاً لما قرره مؤسسها عبد الرحمن الداخل . وبالرغم من أن بلاط قرطبة ، بلغ فى عصر أمراء مثل الحكم ابن هشام ، وولده عبد الرحمن ، مبلغاً عظيماً من القوة والبهاء ، وأضحى ينافس بلاط بنى العباس فى الأخذ بزعامة الإسلام ، فإن أمراء بنى أمية لبثوا على مبدئهم من الاكتفاء بلقب الإمارة ، إلى أن كان عهد عبد الرحمن الثالث ( الناصر ) فعندئذ تغيرت أوضاع الغرب الإسلامى بقيام الخلافة الفاطمية فى الضفة الأخرى من البحر ، على مقربة من الأندلس . وكان هذا الحدث الخطير فى ذاته أول حافز للناصر على اتخاذ سمة الخلافة ، وصدر مرسومه بذلك فى اليوم الثانى من شهر ذى الحجة سنة ٣١٦ هـ ( يناير ٩٢٩م ) وبذا تحولت الدولة الأموية من إمارة إلى خلافة ، وكان عبد الرحمن الناصر أول من تلقب من أمرائها « بأمير المؤمنين » .

وقد تميزت الخلافة الأمويه بعدة خصائص ، أولها الاعتماد فى توطيد سلطانها على الموالى والصقالبة ، وهى سياسة بدأت فى عهد الإمارة منذ عبد الرحمن الداخل ، ووصلت إلى ذروتها فى عهد الناصر ، وذلك حسبما فصلناه فى موضعه ، وثانيها الاسترابة بالقبائل والزعامات العربية ، والعمل المستمر على إخضاعها ، والقضاء على سلطانها ونفوذها ، وذلك لما لقيه بنو أمية منذ البداية من معارضة هذه القبائل والزعامات ، وانتقاضها المتوالى ، وثوراتها المتعددة ، وثالثاً عطفها الواضح على أهل الذمة وهم النصارى واليهود ، وكفالة حرياتهم الدينية والاجتماعية ، وهذه السياسة أيضاً ترجع إلى عصر الإمارة ، حيث أنشىء منذ عهد الحكم بن هشام أو قبله بقرطبة ، منصب خاص لإدارة شئون أهل الذمة يعرف صاحبه « بالقومس » ، وقد كان للنصارى المعاهدين ، فوق ذلك قاض خاص ، وقد يكون أسقفهم فى نفس الوقت ؛ وعين بعد ذلك للنصارى مطران خاص ، مركزه بمدينة إشبيلية . وقد استمر هذا التسامح نحو النصارى المعاهدين عصوراً ، وذلك بالرغم مما كانوا يدبرونه فى بعض الأحيان ضد الحكومة المسلمة من الدسائس والمؤامرات ويعقدون من الصلات المريبة مع نصارى الشمال .

وبلغت الخلافة الأموية بالأندلس ذروة قوتها ونفوذها السياسى والأدبى فى عهد الناصر وولده الحكم المستنصر . بيد أنه بوفاة المستنصر ( ٣٦٦ — ٩٧٦م ) وولاية ولده الحدث الضعيف هشام المؤيد ، تبدو طلائع ذلك الانقلاب الحاسم

الذى كان يدخره القدر لمصير الخلافة الأموية . ذلك أن محمد بن أبى عامر ، الذى أخذ يبزغ نجمه منذ أواخر أيام الحكم ، ما كاد يلى منصب الوزارة ، حتى أخذ يستجمع أزمة السلطة فى يده تباعاً ، ويحطم كل معارضة لسلطانه ، وانتهى الأمر بأن فرض ابن أبى عامر نفسه حاكماً مطلقاً للأندلس ، وأنشأ مدينة الزاهرة ، لتكون له قاعدة جديدة للحكم ، واتخذ سمة الملك ، وتسمى بالحاجب المنصور ( ٣٧١هـ – ٩٨١م ) ، وبالرغم من أنه لم يتعرض بشىء للخلافة الأموية أو رسومها ، فإن الخلافة لم تكن فى ظل حكمه سوى شبح باهت ، واسم بلا مسمى . وهكذا قامت الدولة العامرية واستمرت فى ظل المنصور ، ثم ولده عبد الملك المظفر ، فأخيه عبد الرحمن زهاء ثلاثين عاماً ، ثم انتهت بمصرع عبد الرحمن المنصور فى رجب سنة ٣٩٩ هـ ( ١٠٠٩ م ) .

وهنا استعادت الخلافة الأموية سلطانها بقيام محمد بن هشام الملقب بالمهدى ، وتربعه فى كرسى الخلافة مكان الخليفة هشام المؤيد ، وانتهى بذلك عهد السلطة الثنائية ، سلطة الخلافة الأموية الإسمية ، وسلطة بنى عامر الفعلية ، ولكن عودة الخلافة الأموية على هذا النحو لم يكن سوى بداية مأساة مروعة ، استمرت زهاء أربعين عاماً ، اضطرمت الأندلس فيها بالفتن المدمرة ، وغدت الخلافة الإسمية ، والسلطة الفعلية ، غنماً متداولا بين بنى أمية ، والفتيان العامريين ، والبربر ، وبنى حمود ؛ وانتحل بنو حمود ألقاب الخلافة ، وقامت فى وقت واحد بالأندلس أكثر من خلافة فى قرطبة ، ومالقة ، وإشبيلية ، وغدت قرطبة والأندلس كلها مسرحاً لمعارك وحروب أهلية متوالية ، ودمرت خلال ذلك مدينة الزهراء الخلافية ، وعدة من أحياء قرطبة ، وسادت الفوضى كل جنبات ، الأندلس ، واستمرت هذه المحنة زهاء أربعين عاماً ، ثم تمخضت فى النهاية عن مأساة جديدة . وهى تمزق الأندلس إلى ولايات ومدن عديدة مستقلة ، يحكم كل منها زعيم أو أمير مستقل ، وبدأ بذلك عهد الطوائف .

تلك خلاصة وجيزة للأوضاع النظامية ، وأنواع الحكم المتوالية ، التى عاشت فى ظلها الأمة الأندلسية زهاء ثلاثة قرون منذ فتح الأندلس فى سنة ٩٢ هـ ( ٧١١م ) حتى قيام دول الطوائف ، فى الربع الثانى من القرن الرابع الهجرى .

— ٢ —

## الحجابة والوزارة

كانت حكومة الأندلس فى عصر الولاة ، هيئة إدارية محلية قوامها الحاكم ( الوالى ) وقادة الجيش . ولم تك ثمة مناصب وزارية بالمعنى المعروف ، إذ لم يكن الوالى سوى رئيس موقت لإدارة الإقليم ، وقد كان الوالى فى معظم الأحيان هو قائد الجيش العام . ولم تظهر المناصب الوزارية إلا فى بداية عصر الإمارة مذ قامت الدولة الأموية بالأندلس ، على يد مؤسسها عبد الرحمن الداخل . وقد اقتبس الداخل لنظام حكومته ، من أنظمة الحكومة الأموية بالمشرق ، وأنشأ منصب الحجابة ، ولكنه لم ينشئ مناصب الوزارة ، بل اكتفى بنعيين نفر من أخلص أنصاره كمعاونين ومستشارين ، يعاونونه فى القيام بأعباء الحكم ، ويبذاون له النصح فى مهام الأمور . وعين للجيش أيضا قائده العام . بيد أنه كان يقود الجيش بنفسه فى مواطن كثيرة . وقد امتازت حكومة الداخل بالاعتماد على الموالى والاستزابة بالعرب ، لما لقيه الداخل من خصومتهم ومناوأتهم . وقد غدت هذه الظاهرة فيما بعد ، ظاهرة الاسترابة بالعرب ، من مميزات الحكومة الأموية بالأندلس ، سواء فى عهد الإمارة أو عهد الخلافة ، واتخذت أسطع مظاهرها فى عهد عبد الرحمن الناصر .

واتجهت الحكومة الأموية ، إلى جانب الاعتماد على الموالى ، إلى اصطناع الصقالبة ، واتخذ هذا الاتجاه طابعه القوى منذ عهد الحكم بن هشام ، وظهر الصقالبة لأول مرة بكثرة فى البلاط الأموى ، واحتلوا معظم مناصب القصر والخاص . غير أن الاعتماد على الصقالبة لم يمنع قيام الحجابة والوزارات القوية . فكان منصب الحجابة فى الواقع هو أهم المناصب التنفيذية ، وكان يليه فى معظم الأحيان رجال من الطراز الأول ، أحياناً من رجال السيف ، مثل عبد الكريم ابن عبد الواحد بن مغيث وعبد العزيز بن أبى عبدة حاجبا الحكم ، وأحياناً من رجال القلم مثل عيسى بن شهيد حاجب عبد الرحمن بن الحكم ، والحاجب جعفر المصحفى ، حاجب الحكم المستنصر ، وأحياناً يجمع الحاجب بين السيف والقلم مثل الحاجب عبد الكريم ، وهاشم بن عبد العزيز حاجب الأمير محمد بن عبد الرحمن .

وكان يعاون الحاجب، وهو بمثابة رئيس الوزارة ، عدة من الوزراء ، يتولون مختلف المناصف الوزارية . وقد بلغت الوزارة فى ظل الحكومة الأموية الأندلسية شأواً بعيداً ، وتعاقب فى ولايتها جمهرة من أعظم الرجال ، وألمعهم خلالا ، وكانت تضم عدة من أخطر مناصب الدولة ، مثل منصب كبير الخاص. وكان يشغله على الأغلب فتيان الصقالبة . وخطة الخيل . وخطة الكتابة أو الكتابة العليا ، وكان يتولاها وزير من الكتاب النابهين. وخطة صاحب المدينة أو حاكم قرطبة ، وصاحب المدينة بالزهراء ، وكانتا من أهم المناصب الوزارية . وخطة المظالم ، وكانت قبل عهد الناصر خطة مفردة تتضمن العرض والمظالم ، ولكنها فى عهد الناصر ، قسمت إلى خطتين (٣٢٥هـ) ، وجعل العرض خطة مستقلة بذاتها ، وكذلك المظالم أضحت خطة مستقلة، وكان أول من وليها مستقلة محمد بن قلمسم بن طملس ، وكان يتولى المظالم وزير، وقد وليها قبله أيام الناصر جماعة من الوزراء النابهين مثل أحمدبن حدير ، وعبد الملك بن جهور . وخطة الشئون المالية . وخطة الشرطة ، وكانت من أهم المناصب الإدارية المتعلقة بضبط النظام والأمن ، وكانت قبل عهد الناصر تنقسم إلى مرتبتين : الشرطة العليا ، والشرطة الصغرى، ولكنها منذ سنة ٣١٧ هـ فى عهد الناصر لدين الله ، قسمت بحسب أهميتها إلى ثلاث مراتب : الشرطة العليا ، والشرطة الوسطى، والشرطة الصغرى ؛ وقد رتب رزق الشرطة الوسطى، وسطاً بين رزقى العليا والصغرى، وكان أول من تقلدها سعيد بن سعيد بن حدير . وخطة القضاء ، وتتبعها خطة المواريث ، وكذلك خطة السوق أو الحسبة . وخطة الشورى ، وكانت من الخطط العارضة ، ومن المناصب ذات النفوذ العلمى والأدبى قبل كل شىء ، وتسند عادة إلى من يعتبر فى وقته عميد العلماء وشيوخهم، وكان أشهر من وليها رجال مثل بقى بن مخلد . وفى أيام المنصور بن أبى عامر ، كان ثمة ديوان يسمى ديوان الندماء، كان يلحق به كل أديب وشاعر ممن يؤثرهم الأمير بصحبته ومجالسته . وفى أواخر الدولة العامرية، غلب الصقالبة فى تولى الخطط الكبرى من حجابة ووزارة ، وبدأ ذلك بنوع خاص فى عهد عبد الملك المنصور . ولما انهارت الدولة العامرية استمرت هذه الظاهرة حيناً ، وتولى أولئك الفتيان الحجابة للخلفاء الأخيرين من بنى أمية، وغلبوهم على أمرهم ، ثم استبدوا فيما

بعد ، عند انهيار الدولة ، برياسة طائفة من المدن والولايات ، وكان من هؤلاء أمراء للطوائف ، مثل مجاهد العامرى صاحب دانية ، وخيران العامرى صاحب ألمرية . وظهرت فى الدولة العامرية بدعة أخرى ، هى إسناد منصب الحجابة إلى الأطفال. فقد استصدر عبد الملك المنصور من الخليفة المحجور هشام المؤيد ، مرسوماً بتعيين ولده الطفل محمد فى منصب الحجابة ، ولقب بذى الوزارتين ، وعين عبد الرحمن المنصور ولده الطفل عبد العزيز فى منصب الحجابة ، وأسبغ عليه لقب سيف الدولة . وكانت هذه المهازل وأمثالها دليلا على تصدع ذلك الصرح الإدارى المحكم الذى شاده الأمراء والخلفاء من بنى أمية ، خلال قرنين من الجهود المتوالية . وفى أيام الخليفة المستظهر العابرة ( رمضان — ذو القعدة ٤١٤ هـ ) استحدث بالوزارة عدة خطط جديدة مثل : خطة خدمة المدينتين الزهراء والزاهرة ، وخدمة كتابة التعقب والمحاسبة ، وخدمة الحشم ، وخدمة مواريث الخاصة ، وخدمة الطراز ، وخدمة المعالى ، وخدمة الأسلحة ، وخدمة الخزانة ، وخدمة الوثائق ، ورفع كتب المظالم ، وخدمة خزانة الطب والحكمة ، وخدمة أحكام السوق ، وهى خطط يصفها ابن حيان بأنها عبث وزخرف من التسطير وضع على غير حاصل ، ومراتب نصبت لغير طائل .

— ٣ —

## الجيش ، نظامه وتكوينه

كان أول جيش إسلامى عبر إلى شبه الجزيرة لفتح الأندلس ، مكوناً من العرب والبربر ، وكان قائد الجيش الفاتح ، طارق بن زياد ، فيما يرجح بربرياً من قبيلة نفزة . وقد لعب البربر منذ البداية فى تكوين قوى الأندلس الغازية والدفاعية أعظم دور ، وكان تدفقهم من الضفة الأخرى من البحر — من المغرب على شبه الجزيرة أسرع وأغزر من تدفق المتطوعة العرب ، وكانوا يؤلفون الكثرة فى جيش الغزو . ولما نظم عبد الرحمن الغافقى جيشه الضخم لغزو بلاد الفرنج ، كان البربر من عناصره المختارة الغالبة ، وكانت القيادة دائماً بيد الضباط العرب ، وكان الخلاف الذى اضطرم منذ بداية الفتح بين العرب والبربر ، يعمل عمله المقوض بين صفوف الجيش ، وقد بدأ تكوين الجيوش الغازية الضخمة ، منذ عهد السمح بن مالك الخولانى والى الأندلس ، وكان أعظم هذه

الجيوش ، الجيش الضخم الذى حشده عبد الرحمن الغافقى لغزو مملكة الفرنج . وبالرغم من أن البربر كان لهم فى إنجاح معظم الغزوات الشمالية أثر فعال ، فإنهم كانوا أيضاً فى بعض الأحيان عنصراً خطراً على سلامة الجيش، لما كان يسودهم فى بعض الأحيان من البغض وعدم التعاون لقادتهم العرب . وكان أسطع مثل لذلك الخلاف المدمر ، ما حدث فى موقعة بلاط الشهداء ( ١١٤هـ — ٧٣٢ م ) من تخاذل البربر وتخلفهم عن القتال أمام الفرنج ، وإرغامهم هيئة الجيش على الانسحاب بعد مقتل قائده البطل عبد الرحمن الغافقى . ولما قامت ثورة البربر فى المغرب ، وهزم العرب فى منطقة طنجة ، وعبرت فلول الجيش المنهزم وهم من الشاميين بقيادة بلج بن بشر القشيرى إلى الأندلس ، وذلك بدعوة الوالى ابن قطن ، ليستعين بهم على مغالبة البربر فى الأندلس ، رجحت كفة العناصر العربية فى الجيش مدى حين . ولكن جيش الأندلس ما لبث أن انقسم إلى قسمين ، معسكر الشاميين وهم أنصار بلج ، ومعسكر العرب والبربر المحليين . ولبثت الحرب الأهلية تضطرم حيناً ، حتى قام يوسف بن عبد الرحمن الفهرى فاستقر فى ولاية الأندلس ، وقام بإصلاح الجيش وتنظيمه ، ليعود كما كان جيشاً أندلسياً ، يضطلع بالغزو ورد هجمات نصارى الشمال .

وعنى عبد الرحمن الداخل بتنظيم الجيش أشد عناية ، وحشد له المتطوعة والمرتزقة من سائر الطوائف . وبلغت قواته يومئذ نحو مائة ألف مقاتل . وهذا عدا الحرس الخاص ، الذى يتكون من الموالى والبربر والرقيق ، وقد بلغت قواته نحو أربعين ألفاً . ووضع عبد الرحمن الداخل أيضاً نواة الأسطول الأندلسى بما أنشأ من قواعد لبناء السفن فى بعض الثغور النهرية والبحرية . ولكن بداية قيام الأسطول الأندلسى الفعلية ترجع إلى ما بعد ذلك بنحو نصف قرن ، حينما فاجأ النورمانيون الأندلس بغزو الثغور الغربية ، ثم بغزو إشبيلية ، والفتك بأهلها . وكان ذلك فى سنة ٢٣٠هـ ( ٨٤٣م ) فى عهد عبد الرحمن بن الحكم ، فعندئذ أدركت الحكومة الأندلسية وجوب العناية بأمر الأسطول والتحصينات البحرية وبدئ بإنشاء السفن الحربية . وكانت أكبر دور الصناعة لإنشاء السفن فى مياه الوادى الكبير تجاه إشبيلية . ومن ذلك الحين يقوم الأسطول الأندلسى بدوره فى شئون

الغزو والدفاع ، وقد بلغت وحداته فى عهد عبد الرحمن الناصر زهاء مائتى سفينة .

ومما تجدر ملاحظته أن الجيش الأندلسى ، قد تلقى خلال عهد الفتنة الكبرى التى شملت سائر نواحى الأندلس ، ولاسيما المنطقة الجنوبية ، واستمرت تضطرم زهاء ستين عاما ، منذ عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن ( ٢٣٨–٢٧٣هـ ) كثيراً من الدربة والتجارب المريرة فى معاركه المستمرة مع جيوش الثوار ، وأضحى فى أواخر هذه الحقبة فى عهد عبد الرحمن الناصر ، من حيث العدد والكفاية قوة لها خطرها . وقد بذل الناصر جهوداً عظيمة لإصلاح الجيش وتقويته ، ومده بالأسلحة والعتاد الوفير . وعنى فى الوقت نفسه بأمر الأسطول ، فأنشأ له وحدات جديدة ، وجعل مركزه الرئيسى ثغر ألمرية ، وأنشأ بها أعظم دار للصناعة ، وبلغ الأسطول الأندلسى فى عهد الناصر ، حسبما تقدم ، زهاء مائتى سفينة مختلفة الأنواع والأحجام ، وهذا عدا أسطول آخر خصص لشئون المغرب البحرية ، وكان الأسطول الأندلسى يومئذ من أقوى الأساطيل ، وكان يسيطر على مياه إسبانيا الشرقية والجنوبية .

وفى عهد المنصور بن أبى عامر ، بلغ الجيش الأندلسى المرابط ذروة القوة والضخامة ، وقد رأى المنصور أن يعتمد بالأخص فى تكوين الجيش على حشود البربر ، فاستقدمهم من العدوة ، وبذل لهم الأعطية السخية ، وكذلك حشد فى جيشه كثيراً من المرتزقة النصارى ، ومعظمهم من المستعربين رعايا الحكومة الأندلسية ، واستطاع المنصور ، بما بذله من جهود عنيفة متوالية ، ومن أموال وفيرة ، أن ينشىء للأندلس قوة عسكرية هائلة لم تعرفها الأندلس فى أى عصر سابق ، أو لاحق . وقد نقلت إلينا الرواية بعض أرقام عن الجيش الأندلسى المرابط فى عهد المنصور ، من ذلك أن الفرسان بلغ عددهم إثنى عشر ألف ومائة فارس من سائر الطبقات ، تصرف لهم النفقة والسلاح والعلافة ، وبلغ عدد الرجالة ( المشاة ) فى الجيش المرابط ستة وعشرين ألف مقاتل . وكان عدد الجيش المرابط ، يتضاعف وقت الصوائف مراراً بما ينضم إليه من صفوف المتطوعة ، وقد بلغ عدد الفرسان فى بعض الصوائف ، ستة وأربعين ألفاً ، وكان عدد المشاة يتضاعف أيضاً ، وقد يعدو المائة ألف أو تزيد .

— ٤ —

## الموارد الاقتصادية
## وصنوف الجباية

لما افتتح المسلمون الأندلس ، كان الشعب الإسبانى المغلوب ، ما يزال يعيش فى ظل بقايا النظم الرومانية ، التى اتخذها القوط أساساً لتشريعاتهم ونظمهم الإدارية . وكان عبء الضرائب يقع معظمه على طبقات الشعب الدنيا ، ولا يكاد يقع شىء منه على عاتق الأشراف ورجال الدين ، ومن إليهم من الطبقات الممتازة . فلما افتتح المسلمون شبه الجزيرة ، فرضت الضرائب على قاعدة المساواة دون تمييز بين طبقة وأخرى ، وفرضت الجزية على من لم يعتنق الإسلام من أبناء الشعب المغلوب . وفى خلال الحقبة الأولى ، التى تميزت باستمرار الغزوات الإسلامية ، وما تقتضيه من حشد الجيوش المستمرة ، لم تكن موارد القطر المفتوح قد حققت كلها واستغلت . وقد كان من الواضح منذ البداية أن القطر المفتوح قطر زراعى قبل كل شىء . وكان خراج الأرض الزراعية ، والجزية ، وأخماس الغنائم ، هى المصادر الرئيسية للدخل ، وقد ازدهرت الزراعة بالأخص عقب الفتح لما حدث من توزيع أفضل للأرض ، وتحسين أحوال العاملين فيها ، وكان يوسف الفهرى آخر الولاة ، أول من عدل نظام الضرائب القديم ، ففرض على كل ولاية ، أن تقدم ثلث الدخل ، ورفع الجزية عمن توفوا من النصارى ، وقسم الأندلس من الناحية الإدارية إلى خمس ولايات حسبما أسلفنا ذلك فى موضعه . وكانت حكومة قرطبة الإسلامية تسيطر على أخصب وأغنى وديان شبه الجزيرة الإسبانية ، وكان أهم المحاصيل الزراعية هى القمح والزيتون والفاكهة وغابات الأشجار الخشبية ، وما تزال هذه المحاصيل إلى اليوم هى أهم موارد اسبانيا الزراعية . وكذا كان تربية الماشية مورداً من أهم موارد الدخل القومى . ولما استقرت الأمور ، واستطاع الفاتحون أن يضعوا أيديهم على موارد البلاد وثرواتها الطبيعية ، وأن يستغلوها بمقدرة وذكاء ، لم تبق الزراعة هى المورد الوحيد ، وإن لبثت دائماً هى المورد الرئيسى . ذلك أن شبه الجزيرة الإسبانية ، تضم ثروات متنوعة من المعادن ، كانت تستغل منذ أيام الرومان ، فكان يستخرج

بها الفضة والرصاص والحديد والذهب والزئبق ، والقصدير من أنحاء مختلفة ، فى الشمال والجنوب ، فكانت الفضة والنحاس تستخرج فى الشمال ، وفى جهة قرطبة ، وكورة تدمير ، وكان الزئبق يستخرج من جبال البرانس ، والقصدير بجهة أكشونبة من ولاية الغرب ، وكان البلاور يستخرج فى منطقة لورقة ، والرخام من جبل قرطبة وباغة ومن جبال سيرّا مورينا . وكانت تقوم إلى جانب الزراعة صناعات هامة ، مثل صناعة النسيج والملابس والأثاث والفخار والزجاج والورق(١) ، وكانت التجارة تزدهر فى نفس الوقت داخل شبه الجزيرة ، وخلال موانيها الشرقية والجنوبية ولاسيما مالقة وألمرية ، وتجبى الدولة من المكوس التجارية ، سواء على التجارة الداخلية أو الخارجية أو على السفن الصادرة والواردة مقادير عظيمة .
ولم تأت أوائل القرن الثالث الهجرى ( التاسع الميلادى ) ، فى عصر عبد الرحمن ابن الحكم ، حتى كانت إسبانيا المسلمة ، قد بلغت مبلغاً عظيماً من الرخاء ، وتضاعفت مواردها من الدخل القومى ، وبلغت حصيلة الجباية من المكوس وحدها زهاء ألف ألف دينار فى السنة ، وبلغت فى عهد عبد الرحمن الناصر من الكور والقرى خمسة آلاف وأربعمائة ألف وثمانين ألف دينار . وبلغت من المستخلص ( وهى الأملاك السلطانية ) سبعمائة ألف وخمسة وستين ألف دينار ، وقد ذكرنا فيما تقدم ، فى موضعه ، أن الناصر خلف عند وفاته فى بيت المال عشرين مليوناً من الذهب ، هذا عدا ما أنفقه من الأموال الطائلة فى مختلف الغزوات ، وفى مختلف المنشآت الباذخة التى أقامها ، وفى مقدمتها مدينة الزهراء الملوكية ، وهى مما يدل على ضخامة الموارد المالية للأندلس فى عصر الخلافة .
وفى أيام المنصور بن أبى عامر ، فى أواخر عصر الخلافة ، حققت موارد الدخل زيادة عظيمة ، ووصل محصل الجباية وحده إلى أربعة آلاف ألف دينار (أربعة ملايين ) ، سوى رسوم المواريث وسوى مال السبى والغنائم ، واستمرت هذه الزيادة فى عهد ولده عبد الملك . ثم كان انهيار الدولة العامرية ، وانهيار الخلافة الأموية ، واضطرام الفتنة فى كل مكان ، فتحطمت موارد الدخل ، وكسدت التجارة والصناعة ، وغاضت أسباب الرخاء .

---

( ١ ) راجع كتاب الأستاذ ليڤى بروڤنسال **L'Espngne Musulmane aux xème Siècle; p. 176, 183 & 184** ، وكذلك نفح الطيب ج ١ ص ٧٨ و ٩٣ .

# الفصل الثانى

## الحركة الفكرية الأندلسية

### فى عصرى الإمارة والخلافة

— ١ —

لبثت الأندلس عقب الفتح ، ردحاً من الزمن ، بعيدة عن أن تكون مهداً لنشوء الحركة الفكرية . ذلك أنه خلال عصر الولاية ، لم تكن الأمور قد استقرت بعد ، ولم تترك مشاغل الغزو ، والخلافات الحزبية ، والانقلابات المتوالية فى الرياسة ، كبير مجال لاتجاه الأذهان إلى التفكير والأدب ، ومن ثم فإنا لا نجد فى هذا العصر كتاباً أو شعراء أو مفكرين ذوى خطر ، وإن كنا نجد بعض الآثار الشعرية القليلة ، التى ترد على ألسنة بعض الولاة أو الزعماء .

ويمكننا أن نرجع الحركة الفكرية الأندلسية ، إلى عصر عبد الرحمن الداخل المتوفى سنة ١٧٢ هـ . ذلك أن هذا الأمير القوى اللامع ، منشئ الدولة الأموية بالأندلس ، كان أول شخصية بارزة ظهرت فى ميدان التفكير والأدب والشعر ، ويمكن أن نعتبره بحق رائد النهضة الأدبية النثرية والشعرية ، التى تفتحت فيما بعد ، وازدهرت فى عهد خلفائه ، ولنا فيما أوردناه من نماذج قليلة ، من نثره ، ومن نظمه ، ما يدل على براعته وتفوقه فى هذا الميدان .

ومن بين أمراء بنى أمية بالأندلس ، كان الرواد الأوائل فى الحديث والفقه ، فقد كان الداخل ، فوق براعته الأدبية عالماً بالشريعة ، وكان ولده هشام بن عبد الرحمن المتوفى سنة ١٨٠ هـ ( ٧٩٦ م ) مبرزاً فى الحديث والفقه . وفى عصر هذا الأمير ظهرت طلائع النهضة الأولى فى ميدان التفكير والأدب ، وكان يغلب على هذه النهضة فى البداية ، الطابع الدينى قبل كل شىء ، وكان قد رحل فى عصر الداخل جماعة من فقهاء الأندلس إلى المشرق ، ودرسوا بالمدينة على الإمام مالك وغيره من أقطاب المشرق ، واستقوا من علم مالك واجتهاده ، ونقلوا عنه كتابه ( الموطأ ) ، وكان فى مقدمة هؤلاء فقهاء مبرزون ، مثل زياد بن عبد الرحمن ،

وعيسى بن دينار ، ويحيى بن يحيى الليثى ، وكان زياد بن عبد الرحمن عميد فقهاء الأندلس فى وقته ، وكان الأمير هشام بن عبد الرحمن يوقره ويجله لعلمه وورعه وزهده ، وتوفى فى سنة ٢٠٤ هـ(١) . وكذا كان عيسى بن دينار ، وأصله من طليطلة ، وسكن قرطبة ، عالماً راسخاً ، وكان أستاذ الفتيا فى وقته لا يتقدمه فيها أحد ، وكان ممن اتجهت إليهم الريبة فى ثورة الربض فهرب واستخفى حيناً ، ثم عفا عنه الأمير الحكم وأمّنه ، فعاد إلى قرطبة وتوفى سنة ٢١٢ هـ(٢) . وأما يحيى بن يحيى الليثى فقد رحل كزميله إلى المشرق ، وسمع من مالك ، والليث ابن سعد ، وعبد الله بن وهب وغيرهم ، وعاد إلى الأندلس ليشغل بين فقهائها مركز الصدارة ، وكان ذهناً حراً يعتز بحريته واستقلاله ، فلم يل قضاءً ، ورفض كل دعوة إلى توليه ، وتوفى فى سنة ٢٣٤ هـ(٣) . وعلى يد أولئك الفقهاء والرواد ، ذاع مذهب مالك بالأندلس منذ عصر هشام . وكان هشام نفسه كثير الإجلال لمالك ومذهبه ، فزاد ذلك فى ذيوع المذهب ، وفى تمكين مكانته بالأندلس . وكان هذا بداية لنفوذ الفقهاء فى شئون الدولة ، وهو نفوذ اشتد فيما بعد ، وكان له أثر عميق فى تحريك القوى المعارضة ، التى انتهت باضطرام ثورة الربض ضد الحكم بن هشام ، فى سنة ٢٠٢ هـ ( ٨١٨ م ) ، وذلك حسبما أوضحنا فى موضعه .

وفى عصر الحكم بالذات ، تتخذ الحركة الفكرية طابعاً أوسع أفقاً ، وتظهر طوالع النزعة الأدبية إلى جانب العلوم الدينية ، ويظهر الأدباء والشعراء إلى جانب الفقهاء والمحدثين . وكان فى مقدمة من ظهروا فى تلك الفترة عبد الملك ابن حبيب بن سليمان السلمى ، وأصله من إلبيرة وسكن قرطبة ، ثم رحل إلى المشرق وسمع الكثير من علمائه . ولما عاد إلى الأندلس عمل مشاوراً مع يحيى ابن يحيى ، وسعيد بن حسان ، وكان حافظاً للفقه على مذهب المدنيين ، بيد أنه كان إلى جانب الفقه ، بارعاً فى النحو والعروض والشعر ، حافظاً للأخبار والأنساب والأشعار ، متصرفاً فى عدة فنون . وكتب عدة مؤلفات فى الفقه والتاريخ منها « الواضحة » و « الجوامع » وكتاب فى « فضائل الصحابة » ، وكتاب فى « غريب الحديث » ، وكتاب « حروب الإسلام » ، وكتاب « طبقات

---

( ١ ) راجع علماء الأندلس لابن الفرضى ( مصر ) رقم ٤٥٨ .

( ٢ ) راجع علماء الأندلس رقم ٩٧٥ .

( ٣ ) جذوة المقتبس للحميدى ( مصر ) رقم ٩٠٨ .

الفقهاء والتابعين » و « مصابيح الهدى » وغيرها ، وكان محمد بن عمر بن لُبابة يقول فيه : عبد الملك بن حبيب عالم الأندلس ، ويحيي بن يحيي عاقلها ، وعيسى ابن دينار فقيهها . وتوفى عبد الملك بن حبيب فى سنة ٢٣٨ هـ[١] .

وفى عصر الحكم بن هشام تتخذ الحركة الفكرية ، التى غلب عليها الطابع الدينى ، حتى ذلك الوقت ، طابعاً أدبياً واضحاً ، ويبدأ ظهور الكتّاب والشعراء المبرزين ، وكان الحكم نفسه فى مقدمة شعراء عصره وأدبائه ، وكان له نظم بارع أوردنا فيما تقدم طرفاً منه . ومن شعراء هذا العصر ، عباس بن ناصح الجزيرى المصمودى ، وهو من أهل الجزيرة ، وقد رحل إلى مصر والحجاز والعراق ، وتلقى على علمائها ، ودرس الفقه ، ولقى الأصمعى وغيره ببغداد ، ثم عاد إلى الأندلس ، ومدح الأمير الحكم فندبه لقضاء الجزيرة ، وكان بارعاً فى اللغة وشاعراً جزلا ، يسلك فى شعره مسلك العرب القديمة ، وكان له أيضاً حظ من الفقه[٢] . وكان ولده عبد الوهاب بن عباس بن ناصح أيضاً ، فقيهاً وشاعراً محسناً[٣] ، وكان من الكتاب والشعراء أيضاً حاجب الحكم وقائده عبد الكريم ابن عبد الواحد بن مغيث ، ومؤمن بن سعيد . وكان مؤمن شاعراً مبرزاً كثير الشعر . وكان حاد النكتة والنادرة ، ومن شعره قوله :

حرمتك ما عدا نظراً مضراً ... بقلب بين أضلاعى مقـــيم
فعينى منك فى جنات عدن ... مخلدة وقلبى فى الجحيم[٤]

وبلغ الشعر فى عصر الحكم ذروته ، على يد شاعرين كبيرين ، هما العلامة عباس بن فرناس ويحيي الغزال الجيّانى . وكان أولهما عالماً بالفلسفة والفلك والكيمياء الصناعية والموسيقى . وقد أشرنا فيما تقدم إلى مخترعاته العلمية ، وإلى محاولته اختراع طريقة لطيران الإنسان . وكان ثانيهما كذلك عالماً بالفلسفة والفلك ، وقد عاش كلاهما طويلا بعد عصر الحكم ، وفيما أوردناه فيما تقدم من شعرهما دليل على براعتهما فى هذا الميدان .

---

(١) راجع ابن الفرضى ، علماء الأندلس ، رقم ٨١٦ .
(٢) راجع ابن الفرضى رقم ٨٨١ .
(٣) ابن الفرضى رقم ٨٨١ .
(٤) راجع جذوة المقتبس للحميـدى رقم ٨٢٦ ، وقضاة قرطبة للخشنى ( مصر ) ص ١٠٣ و ١٠٥ .

وفى عصر عبد الرحمن بن الحكم، بلغت الحركة الفكرية الأندلسية الأولى ذروتها ، ففى ميدان الكتابة احتشد فى بلاط الحكم عدة من أكابر الكتاب المبرزين ، وفى مقدمتهم الحاجب عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث، ومحمد ابن سليمان الزجالى ، وفى ميدان العلوم الدينية ظهر فى عهد عبد الرحمن، جمهرة من أكابر الفقهاء ، مثل محمد بن يوسف بن مطروح، ومحمد بن حارث ، وعبد الأعلى بن وهب ، وبقىّ بن مخلد ، ومحمد بن وضاح ، وغيرهم، وكان عميد هذه الجمهرة من الفقهاء بقى بن مخلد، وهو من أهل قرطبة، ودرس على علماء الأندلس وإفريقية، وبرع فى الحديث والرواية، ويمكننا أن نعتبره رائد علم الحديث فى الأندلس. وقد أنكر عليه بعض خصومه ما أدخله من كتب الاختلاف وغريب الحديث بالأندلس، ووشوا به للأمير محمد بن عبد الرحمن. وقد أشرنا فيما تقدم إلى ما كان من مناظرته لخصومه ، وإلزامهم الحجة، وإلى ما حباه به الأمير من عطفه وحمايته، وقد كان ذلك من أسباب انتشار الحديث بالأندلس. ولبقى بن مخلد عدة مؤلفات فقهية . وله تفسير للقرآن ومسند للنبي ، وينوه العلامة ابن حزم فى رسالته بعلم بقى وأهمية كتبه، ويقول لنا إن تفسيره للقرآن لم يؤلف فى الإسلام مثله[١] . وسمع على بقى جمهرة من فقهاء الأندلس، وكان ورعاً زاهداً ، وتوفى سنة ٢٧٦ هـ[٢] .

وكان من أعلام الفقهاء فى هذا العصر، محمد بن عبد السلام الخشنى وهو من أهل قرطبة ، ورحل إلى المشرق وسمع ، فى البصرة وبغداد ومصر ، وكان فصيحاً جزل البيان، بارعاً فى اللغة ، ورواية الحديث، وكان أنوفاً منقبضاً عن السلطان ، وقد رفض أن يتولى القضاء للأمير محمد بن عبد الرحمن ، وتوفى فى سنة ٢٨٦ هـ[٣] .

وقد سبق أن أشرنا إلى ما كان يتمتع به الأمير عبد الرحمن بن الحكم من المواهب الأدبية والشعرية ، وأوردنا فيما تقدم طرفاً من شعره. وكان من ألمع شعراء عصره، صديقه وشاعره عبد الله بن الشمر بن نمير ، وهو من أهل وشقة، وكان

---

(١) راجع رسالة ابن حزم عن علماء الأندلس فى نفح الطيب ج ٢ ص ١٣١ .

(٢) راجع ابن الفرضى رقم ٢٨٣ .

(٣) ترجمته فى ابن الفرضى رقم ١١٣٤ . وهو غير محمد بن حارث الخشنى صاحب « قضاة قرطبة » المتوفى سنة ٣٦١ هـ

عالماً متمكناً وشاعراً محسناً . وله شعر جيد كثير وقد أخذ الناس من شعره[1] .

وكان من أبرز الظواهر الأدبية فى هذا العصر ، انتشار اللغة العربية وآدابها بين طائفة المستعربين أو النصارى المعاهدين ، ونبوغ الكثير منهم فيها ، وبلوغهم مرتبة البراعة فى كتابتها ، ويمكننا أن نذكر من كتابهم المبرزين فى هذا العصر ، الأسقف جومث بن أنتنيان، قومس أهل الذمة ، وكان أديباً بارعاً ، وكاتباً مقتدراً ، ومن كتاب الأمير عبد الرحمن .

وكانت الفتنة الكبرى فى عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن ( ٢٢٨ — ٢٧٣ هـ ) وولده الأمير عبد الله ( ٢٧٥ — ٣٠٠ هـ ) عاملا هاماً فى اضطرام النهضة الأدبية، والشعرية بنوع خاص . وكان من أبرز شعراء عهد الفتنة الأول عباس ابن فرناس، وقد أوردنا قصيدته فى موقعة طليطلة ، التى سحق فيها الثوار . وفى أواسط عهد الفتنة ظهر شاعر من أعظم شعراء الأندلس ، وأديب من أعظم أدبائها، هو الفقيه أبو عمر أحمد بن عبد ربه ( ٢٤٦ — ٣٢٨ هـ ) صاحب كتاب « العقد الفريد » الذى يعتبر من أعظم آثار الأدب الأندلسى . ويمكننا أن نعتبر ابن عبد ربه شاعر الدولة المروانية، منذ عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن حتى عهد عبد الرحمن الناصر ، وقد ظهر بشعره فى موقعة إستجة التى سحق فيها الثائر عمر بن حفصون ، وذلك فى سنة ٢٧٨ هـ ( ٨٩١ م ) ، وظهر بمدائحه للأمير عبد الله، ثم حفيده عبدالرحمن الناصر ، وقد كان معلمه فى صباه، وبأرجوزته فى غزوات الناصر ومآثره . وقد أوردنا من نظمه فيما تقدم عدة من قصائده . وأما كتابه « العقد الفريد » فإنه يعتبر بمحتوياته وتنوعه ، من أمتع الكتب فى الأدب العربى ، وبالرغم من أن موضوعاته ، يغلب عليها طابع الأدب المشرقى ، فإنه يعتبر عنواناً بارزاً للأدب الأندلسى فى مرحلته الأولى . وقد انتقد بعضهم العقد الفريد لأنه « لم يجعل فضائل بلده ، واسطة عقده ، ومناقب ملوكه يتيمة ملكه »[2] ويعتبر العقد الفريد بطابعه المشرقى ، على النقيض من كتاب « الذخيرة » لابن بسام الشنترينى ، المتوفى سنة ٥٤٢ هـ ، والذى يعتبر بمحتوياته وروحه ، مثلا ساطعاً للأدب الأندلسى .

---

( ١ ) ابن الفرضى رقم ٦٩١ .

( ٢ ) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ١٢٦ .

ومن شعراء عهد الفتنة وأدبائها البارزين سوّار بن حمدون القيسى ، وسعيد ابن سليمان بن جودى ، وهما من زعماء الفتنة العرب ، وكان كلاهما إلى جانب فروسيته من أعلام البيان والنظم فى وقته، وقد نقل إلينا ابن الأبار نماذج من نظمهما(١) .

وكان من أعلام الأدب فى تلك الفترة أيضاً محمد بن أضحى الهمدانى ، وهو من زعماء العرب بكورة إلبيرة . وكان بارعاً فى الأدب، خطيباً مفوهاً ، يخطب بين يدى الأمراء فى المحافل ، وكان خلال الفتنة قد انضوى تحت لواء الأمير عبد الله ، ثم انضوى بعد ذلك تحت طاعة الناصر فيمن خضع من ثوار النواحى(٢).

وكان الأمير عبد الله نفسه من ألمع شعراء عصره . وكان بارعاً فى العربية، حافظاً للغريب من الأخبار ، وقد نوه المؤرخ ابن حيان بشاعريته ، ورفيع أدبه ، وأوردنا نحن فيما تقدم نماذج رقيقة من شعره .

— ٢ —

وكان عصر عبد الرحمن الناصر ، من ألمع عصور الدولة الأموية بالأندلس ، وفيه زهت العلوم والآداب ،وظهرت جمهرة من أكابر الشعراء والعلماء . وكان من أعلام تلك الفترة ، إلى جانب عميدهم ابن عبد ربه ، صاحب العقد الفريد ، محمد بن عمر بن لُبابة ، وهو من أهل قرطبة . وكان إماماً فى الفقه ، متمكناً من حفظ الرأى ، والبصر بالفتيا، وكان مشاوراً أيام الأمير عبد الله ، ثم انفرد بالفتيا أيام الناصر ، فلم يكن يشاركه أحد فى الرياسة والقيام بالشورى ، وكان حافظاً لأخبار الأندلس ، وله حظ من النحو والشعر . وقد وُلى الصلاة بالمسجد الجامع ، وتوفى فى سنة ٣١٤هـ . ومن مؤلفاته كتاب المنتخب فى روايات مذهب مالك(٣).

وقد حدثنا ابن حيان فى المقتبس عن شعراء عصر الناصر الذين التفوا حول بلاطه ، وأشادوا بمديحه ، فقال: إن « فى مقدمتهم معلمه فى الصبا أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه، ويليه من نمطه عبيد الله بن يحيى بن إدريس، وعبد الملك بن سعيد المرادى ، وإسمعيل بن بدر ، وأغلب بن شعيب ، وحسان بن

(١) راجع الحلة السيراء ( طبعة دوزى ) ص ٨٠ - ٨٧ .
(٢) الحلة السيراء ص ٩٨ .
(٣) ابن الفرضى رقم ١١٨٩ .

حسان [السناط] وغيره ، ومن كبار الطارئين عليه من المشرق ، طاهر بن محمد المهند البغدادى ، ومحمد بن حسين الطبنى الإفريقى ، وغيرهما ، أسلفوا فى الناصر لدين الله إحساناً كثيراً .

فمن قول أبى عثمان عبيد الله يحي بن إدريس فى الناصر لدين الله ، وقد غزا الروم فى شهر رمضان ، وأدركه الفطر فى بلاد العدو ، فلم يتورع ، وصمد إلى لقايهم ، وقد اجتمعوا :

يهنى الخلافة سعى خير إمام ... لله مسعاه وللإسلام
ملك تمكن فى المكارم والعلى ... كتمكن الأرواح فى الأجسام
عزم الرحيل مصمماً فى عيده ... لشفاء غلة سيفه الصمصام
يصل الترحل بالترحل دائباً ... فى الحل يحكمه وفى الإبرام
ليعز دين الله فى كنف العلى ... ويذب عن حرم الهدى ويحام
مستنجزاً وعد الإله بنصره ... فى شيعة الإشراك والإحرام

وقوله حينما نزل الناصر بجيوشه طايطلة ، وارتياع الحلاقة لمقدمه ، من قصيدة :

على أى فتح تقدما أتت ... لك فتوح الثغر فذاً وتوءما
تباشر تترى من فتوح تواترت ... كما تابع النثر الجمان المنظما

ومن نظم أبى الحسن جعفر بن عثمان المعروف بالمصحفى كاتب ولى العهد الحكم بن الناصر لدين الله ، السامى المحل فى الاشتمال على متن البلاغة ، من النثر والنظم بالتبريز ، ما نظمه وقت انتقال الناصر لدين الله عن سرقسطة :

على أيمن الأوقات كان ارتحالك ... وفى أيمن الساعات كان احتلالكا
تنقلت عن دار الشقاق مظفراً ... وقد صال بالمخذول فيها صيالكا
وحاربت ذا السيف العريض بميتة ... أرت مستجيش الشرك كيف اغتيالكا
وأقفلت عنهم والمنايا صوايب ... تسيل بها فى ساحتيهم سجالكا
إذا ماالقرى رام اغتلاق جفونهم ... فخطفه بالخوف عنها خيالكا
وإن ذهبوا للسير فى الأرض مذهبا ... تراءى لهم فى كل أفق مثالكا
هل الأجل المرهوب إلا صيالكا ... أم الأمل المرغوب إلا نوالكا
بقيت أمير المؤمنين مملكاً ... فما الروضة الزهراء إلا جلالكا

وقال إسمعيل بن بدر فى مديح الناصر وذكر غزوته للجزيرة الخضراء :

تطوى المراحل إدلاجاً وتنحيرا مشمراً فى رضى الرحمن شميرا

بدر الملوك الذى إشراق سنته تجلو عن الدين والدنيا الدياجيرا

من قد قضى الله فى ماضى شبيبته لا يزال على الأعداء منصورا

قال ابن حيان : « والشعر فى الناصر لدين الله رحمة الله عليه، كثير جداً ، محمول عن فحول يقدمهم ابن عبدربه، وابن إدريس، ومهند والطبنى ونمطهم... فى تجويد صناعتهم بفضل ما ألفوا لديه من التوسعة عليهم، والإحسان إليهم ، فكل منهم كمل فيما صاغه فيه ديواناً بذاته ، عفى رسومها، وغيض معينها من الليالى وانصرام الدولة، وتسلط الفتن البربرية، والمطاولة على التواريخ الملوكية، التى كانت له قاصمة وجامعة ، حتى مزقت كل ممزق بأيدى الجهال، فهل من باقية »[1] .

وكان بين وزراء الناصر وحجابه، عدة من أكابر الكتاب والأدباء، مثل الحاجب موسى بن محمد بن حدير ، وقد كان من أهل الأدب والشعر ، فضلا عن كونه من بيت رياسة وجلالة[2] وعبد الملك بن جهور ، وقد كان وزيراً جليلا ، وأديباً وشاعراً محسناً ، ومن شعره :

إن كانت الأبـدان نائمـة فنفوس أهل الظرف تأتلف

يارب مفترقـين قد جمعت قلبيهما الأقـلام والصحف[3]

وكان من أعلام تلك الفترة أيضاً القاضى منذر بن سعيد البلوطى ( ٢٦٥ — ٣٥٥هـ ) ، وكان بارعاً فى علوم القرآن والسنة ، وظهر فوق ذلك بفصاحته وجزالة شعره . وقد أشرنا فيما تقدم إلى موقفه الخطابى الرائع ، فى حفل استقبال سفارة قيصر الروم ، وما حباه به الناصر من أجل ذلك ، من عطف ، وتقدير ، وتوليه للخطابة والقضاء . ومن مؤلفاته «كتاب الإبانة عن حقائق أصول الديانة » .

وفى عصر الناصر ظهرت حركة دينية ، على رأسها أبى عبد الله محمد بن عبد الله بن مسرة الجبلى من أهل قرطبة . وكان مولده بها فى سنة ٢٦٩ هـ . وقد

---

( ١ ) ابن حيان فى المقتبس — السفر الخامس — مخطوط الخزانة الملكية — لوحات ٢٧ و ٣١.

( ٢ ) جذوة المقتبس رقم ٧٨٧ .

( ٣ ) جذوة المقتبس رقم ٦٢٦ .

برع ابن مسرة فى العلوم الدينية ، ولكنه جاهر ببعض الآراء المغرقة ، فى التأويل والقدر وغيرها ، فاتهم بالزندقة وغادر الأندلس . فاراً إلى المشرق وذلك فى سنة ٢٩٨ هـ ، ودرس هنالك على أيدى المعتزلة ، والكلاميين وأهل الجدل . ثم عاد إلى الأندلس وهو يخفى نحلته وآراءه الحقيقية ، تحت ستار من النسك والزهد . وكان يتخذ لنفسه غاراً يتعبد فيه على مقربة من جبل قرطبة ، حتى سمى بالجبلى . واختلف إليه الطلاب من كل صوب . وكان يستهويهم بغزير علمه وجزالة بيانه ، حتى ذاعت شهرته ، وتبعه الكثيرون من الصحب و التلاميذ . وقد اختلف فى أمر ابن مسرة ، فبعضهم يسمو به إلى مرتبة الإمامة فى العلم والزهد والورع ، ومنهم من كان يرميه بالزندقة وترويج البدع . وتوفى ابن مسرة بقرطبة سنة ٣١٩ هـ ( ٩٣١م )[١] . على أن تعاليم ابن مسرة لبثت بعد ذلك حية ذائعة ، طوال عهد الناصر ، وقام جمهرة من أهل السنة ، بمعارضة تعاليمه وإنكارها ، ووصل صوتهم فى ذلك إلى الخلافة ، واضطر الناصر إلى أن يصدر باسمه بياناً فى سنة ٣٤٠هـ ، يستنكر فيه تعاليم ابن مسرة وتلاميذه ، ويرميهم بالمروق ، والخروج عن تعاليم السنة الحقيقية ، وقد أورد لنا ابن حيان هذا البيان الفريد فى المقتبس[٢] ، وقد تحدثنا فيما تقدم عن ابن مسرة وحركته ، ولخصنا كتاب الناصر فى شأنها .

وفى عصر الناصر بالذات ظهر شاعر من أعظم شعراء الأندلس ، هو أبو القاسم محمد بن هانىء الأزدى الإشبيلى ، وقد ولد بإشبيلية فى سنة ٣٢٦ هـ ، وظهر منذ حداثته ببراعة شعره وروعة افتنانه ، ولكنه اتهم بالكفر والزندقة . فغادر الأندلس ، ولحق بالبلاط الفاطمى بالمهدية ، والخليفة المعز لدين الله يتأهب عندئذ لفتح مصر ، فأغدق عليه المعز عطفه ورعايته . ولما سار المعز إلى مصر ، سار ابن هانىء للحاق به ، ولكنه توفى فى طريقه فى سنة ٣٦٢ هـ . وقد شُبه ابن هانىء بالمتنبى فى رصانة شعره ، وروعة افتنانه ، ومن أشهر قصائده قصيدته التى يصف فيها جيش المعز الذاهب إلى فتح مصر ، بقيادة جوهر الصقلى ، والتى يقول فيها :

( ١ ) ابن الفرضى رقم ٦٦٢ .

( ٢ ) وذلك فى النسخة الخطية من السفر الخامس من المقتبس المحفوظة بخزانة القصر الملكى بالرباط بالمغرب وقد نقلناه منه ، ونشرناه فى آخر الكتاب .

رأيت بعيني فوق ما كنت أسمع وقد راعني يوم من الحشر أروع
غداة كان الأفق سد بمثله فعاد غروب الشمس من حيث تطلع
فلم أدر إذ ودعت كيف أودع ولم أدر إذ شيعت كيف أشيع
ألا إن هذا حشد من لم يذق له غرار الكرى جفن ولا بات يهجع
إذا حل فى أرض بناها مدائنا وإن سار عن أرض غدت وهى بلقع
تحل بيوت المال حيث محله وجم العطايا والرواق المرفع
رحلت إلى الفسطاط أول رحلة بأيمن فأل فى الذى أنت تجمع
فإن يك فى مصر ظمأ لمورد فقد جاءهم نيل سوى النيل يهرع
ويمنهم من لا يغار بنعمة فيسلبهم لكن يزيد فيوسع

وكان من أعلام الشعر فى عصر الناصر أيضاً الوزير جعفر بن عثمان المصحفى، الذى تولى الحجابة فيما بعد لولده الحكم المستنصر، وتوفى فى سنة ٣٧٢هـ فى سجن الزهراء، ضحية لمنافسه القوى محمد بن أبى عامر المنصور. وقد أوردنا من شعره فيما تقدم فى غير موطن.

وظهر فى عصر الناصر عدد من أكابر الكتاب البلغاء، فى مقدمتهم كاتب الناصر الأثير عبد الله بن محمد الزجّالى، وهو الذى أنشأ عن لسانه البيان الخاص بمروق ابن مسرة الذى سبقت الإشارة إليه.

وكان الناصر نفسه عالماً أديباً، يهوى الشعر وينظمه، ويقرب الأدباء والشعراء. وكان فى مقدمة شعراء دولته وآثرهم لديه الفقيه ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد، وذلك حسبما أشرنا فى موضعه.

وظهر فى عهد الناصر عدة من أعلام المؤرخين الذين وضعوا أسس الرواية الأندلسية. أولهم أحمد بن محمد بن موسى الرازى، وقد ولد الرازى سنة ٢٧٤ هـ وتوفى سنة ٣٤٤هـ. ومن تصانيفه «أخبار ملوك الأندلس وخدمتهم وغزواتهم ونكباتهم»، وكتاب «الإستيعاب فى أنساب أهل الأندلس»، وكتاب فى «صفة قرطبة وخططها ومنازل الأعيان بها». وقد كانت رواية الرازى مستقى خصباً لمؤرخى الأندلس، وفى مقدمتهم عميدهم ابن حيان.

وظهر قرينه ومعاصره ابن القوطية، وهو أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز بن عيسى بن مزاحم؛ ويعرف بابن القوطية لانتسابه بطريق النسب إلى

سارة القوطية إبنة وتبزا ملك القوط . وقد ولد بقرطبة وتوفى بها سنة ٣٦٧ هـ (٩٧٧م) ، وكان راوية متمكناً حافظاً لأخبار الأندلس . وسير أمرائها وأخبار علمائها وفقهائها وشعرائها . وقد كتب تاريخه المسمى « تاريخ افتتاح الأندلس » .
وكان فوق ذلك من أئمة عصره فى اللغة والنحو ، وله فى ذلك مؤلفات قيمة ، وكانت كتب اللغة أكثر ما تقرأ عليه ، وتؤخذ عنه .

ومن أعلام المؤرخين فى ذلك العصر أيضاً أحمد بن موسى العروى المتوفى سنة ٣٨٨ هـ ، وقد ألف كتاباً عنوانه « تاريخ الأندلس » .

واستمرت النهضة الفكرية ، التى ازدهرت فى عصر الناصر ، وفى عهد ولده الحكم المستنصر ( ٣٥٠ — ٣٦٦ هـ ) وازدادت قوة وازدهاراً . وكان الحكم ، وهو الخليفة الأديب العالم ، رائد هذه الحركة الفكرية العظيمة . وكان من ظواهرها قيام جامعة قرطبة العظيمة ، واحتشاد أكابر الأساتذة بين عقودها ، وإنشاء المكتبة الأموية الكبرى ، التى بذل الحكم فى إنشائها من الجهود العظيمة والأموال الزاخرة ما لم يسمع بمثله ، حتى بلغت محتويات هذه المكتبة الفريدة زهاء أربعمائة ألف مجلد ، من مختلف أصناف العلوم والفنون . وكثرت المكتبات العامة والخاصة ، وبلغ شغف اقتناء الكتب أشده فى ذلك العصر ، واحتشد حول بلاط الحكم ، جمهرة من أكابر العلماء ، فى مقدمتهم الحافظ أبو بكر بن معاوية القرشى ، وأبو على القالى ضيف الأندلس يومئذ ، والأديب المؤرخ محمد بن يوسف الحجارى ، وإمام النحو والرواية ابن القوطية ، وربيع بن زيد الفيلسوف والعلامة الفلكى النصرانى ، وغيرهم .

وظهر فى تلك الفترة جمهرة من الشعراء المبرزين ، وكان فى مقدمتهم طاهر ابن محمد البغدادى ، الوافد من المشرق إلى الأندلس ، وكان يعرف بالمهند . وكان شاعراً محسناً ، مدح الحكم المستنصر ، ثم مدح المنصور بن أبى عامر بعد ذلك ، وحظى لديه ، وقد اتهم بالغلو فى بعض الآراء الدينية . ومن شعره قوله :

متى أشكر النُّعمى التى هى جنتى ... فى ظلها أمسى وفى ضوئها أضحى
إذا قلت قد جازيت بالشكر نعمة ... شفعت بأخرى منك دائمة السفح
فحمدى لا ينأى وفضلك لا ينى ... وأرضى لا تصدى وأفقك لا يضحى [١]

ومنهم محمد بن مطرف بن شخيص ، وكان من أهل الأدب البارع ، ومن

(١) راجع جذوة المقتبس للحميدى ( مصر ) رقم ٥١٥ ، وبغية الملتمس رقم ٨٥٩ .

أعيان الشعراء المجيدين ، كان متصرفاً فى القول ، متقناً لأساليب الجد والهزل ، وكان من أخص شعراء بلاط الحكم ، وله شعر كثير ، ومن شعره فى تهنئة الحكم بوفود جعفر ويحيى ابنى حمدون ، وتقدم طاعتهم إليه ، قصيدة طويلة ، هذا مطلعها :

بأيمن إقبـال وأسـعد طائر ... تباشـير محتوم من الأمر واقع
توافت بملك من معـدٍّ مفوض ... لملك إلى مهدى مروان راجـع
فيا لك من بشرى سرور تضمنت ... بلوغ الأمانى عن سعود الطوالع

ومن قوله فى الغـزل :

فهل من شفيع عند ليلى إلى الكرى ... لعلى إذا ما نمت ألقى خيـالها
يقولون لى صبراً على مطل وعدها ... وما عدت ليلى فأشكو مطالها
وما كان ذنبى غير حفظ عهودها ... وطى هواها واحتمالى دلالها(١)

ومنهم محمد بن الحسين التميمى الطبنى ، أصله من طبنة ، بلد بأرض الزاب بالمغرب ، وكان شاعراً محسناً ، وأديباً بارعاً من بيت أدب وجلالة ورياسة ، وكان من شعراء الحكم الأثيرين . ومن شعره يهنىء الحكم بحلول عيد الأضحى :

بخلت بجوهر لفظها أن يلقطا ... لما رأته من الجـواهر أبسطا
يا أيها الملك المتوج بالهـدى ... نوراً على غسق الظـلام مسلطا
صل عيدك البهيج السنا فى غبطة ... وازدد من الأعياد ألفا مغبـطا(٢)

ومنهم يحيى بن هذيل ، وكان من أهل العلم والأدب والشعر الجيد ؛ وتوفى سنة ٣٨٦ هـ ، ومن شعره :

لم يرحلوا إلا وفوق رحالهـم ... غيم حكى غبش الظلام المقبـل
وعلت مطارفهم مجاجات الندى ... فكأنما مطرت بدرٍّ مرسـل
لما تحركت الحمول تناثرت من ... فوقهم فى الأرض تحت الأرجل
فبكيت لو عرفوا دموعى بينها ... لكنها اختلطت بشكل مشكل(٣)

ومنهم ، ومن أشهرهم يوسف بن هارون الرمادى القرطبى المعروف بأبى جنيش ، كان من أشهر شعراء الأندلس فى وقته ، واشتهر بالأخص بشعره

---

(١) جذوة المقتبس رقم ١٤٤ . وبغية الملتمس رقم ٢٧٦ ، والمقتبس، قطعة أكاديمية التاريخ ص ٥٤ و ٦٠ .
(٢) جذوة المقتبس رقم ٣٨ ، والمقتبس – قطعة أكاديمية التاريخ ص ٩٤ .
(٣) جذوة المقتبس رقم ٩٠٧ ، وبغية الملتمس رقم ١٤٩٤ .

الهجائى ، وكان سريع البديهة مشهوراً عند العامة والخاصة ، لسلوكه فى فنون مختلفة من المنظوم . ومدح الرمادى الحكم المستنصر ، ولكنه وقع تحت طائلة غضبه لما صدر منه من شعر قاذف فى حقه ، وأمر باعتقاله مع باقى الشعراء الهجائين ، حماية للناس من ألسنتهم ، وزج الرمادى إلى السجن مدة ، وكتب خلال اعتقاله كتاباً سماه « كتاب الطير » وصف فيه كل طائر معروف . ثم عفا عنه الحكم وأطلقه مع باقى إخوانه . وتوفى الرمادى فقيراً معدماً أيام الفتنة فى سنة ٤٠٣ هـ . ومن شعره قوله :

لا تنكروا غزر الدموع فكل ما … ينحل من جسمي يصير دموعا
والعبد قد يعصي وأحلف أنني … ما كنت إلا سامعاً ومطيعا
قولوا لمن أخذ الفؤاد مسلماً … يمنن على برده مصدوعا(١)

ونبغ فى تلك الفترة عالم من أعظم علماء اللغة بالأندلس ، هو أبو بكر محمد ابن الحسن الزبيدى النحوى الإشبيلى . وقد وضع فى اللغة والنحو عدة كتب مشهورة منها « الواضح » و « لحن العامة » « وأخبار النحويين » ، كما وضع مختصراً لكتاب « العين » ، إلى غير ذلك . وكان فى نفس الوقت أديباً بارعاً ، وشاعراً محسناً ، وقد أورد لنا الحميدى شيئاً من نظمه ، وندبه الخليفة الحكم ، حسبما أسلفنا فى موضعه لتدريس اللغة لولده هشام ، وألزمه بالبقاء فى قرطبة ، ولم يأذن له بالرجوع إلى وطنه إشبيلية . وتوفى الزبيدى قرابة سنة ٣٨٠ هـ .(٢)

وكان الخليفة الحكم المستنصر نفسه ، فوق تمكنه من العلوم الشرعية وتحقيق الأنساب ، أديباً ينظم الشعر الرائق. وقد أوردنا من قبل فى موضعه شيئاً من نظمه.

ثم كان الانقلاب العظيم ، فى مصاير الخلافة الأموية ، وتغلب محمد بن أبى عامر أو الحاجب المنصور على الدولة ، وكان من حسن الطالع أن المنصور بنشأته وخلاله العلمية اللامعة ، كان من أعظم رواد الحركة الفكرية ، وكان المنصور عالماً متمكناً من الشريعة والأدب ، بارعاً فى النثر والنظم ، وقد ذكرنا فيما تقدم شيئاً من نثره ونظمه . وكان يعشق مجالس العلماء والأدباء ، حتى أنه كان خلال الغزو ، يصطحب معه طائفة من الكتاب والشعراء ، ينتظمون فى مجلسه خلال

(١) الصلة لابن بشكوال رقم ١٤٩١ ، وجذوة المقتبس رقم ٨٧٨ .
(٢) جذوة المقتبس رقم ٣٤ .

السير ، وكان شاعره الأثير أبو العلاء صاعد بن حسن البغدادى المتوفى سنة ٤١٧ هـ ؛ وكان قد وفد من المشرق على الأندلس ، فى أوائل عهد المنصور ، وكان عالماً باللغة والأدب والتواريخ ، فقربه المنصور ، وأغدق عليه عطفه ، وجمع له صاعد كتاباً سماه « بالفصوص فى الآداب والأشعار والأخبار » فأثابه عنه المنصور بخمسة آلاف دينار ، وأمر أن يقرأه على الناس بمسجد الزاهرة[1] .

بيد أن المنصور ، بالرغم من شغفه بالعلم والأدب ، لم يبد تسامحاً إزاء الفلسفة والفلاسفة ، أو بعبارة أخرى إزاء الأفكار الحرة . وقد كانت هذه النزعة الضيقة الأفق ، تمثل نفس التيار الذى يندفع فيه كل حاكم مطلق . وقد رأينا فيما تقدم كيف طورد عباس بن فرناس ، فى عهد عبد الرحمن بن الحكم ، واتهم بالزندقة لما أبداه من براعة علمية وفنية خارقة ، وكيف طورد تلاميذ ابن مسرة وطوردت تعاليمه فى عهد الناصر ، وأصدر الناصر منشوره بتكفيره وتكفير تلاميذه ، وقد استمر هذا التيار الرجعى فيما بعد فى عهد الطوائف ، حيث أحرقت كتب ابن حزم ، وفيما تلا بعد ذلك من عهود ، وذلك حسبما نذكره فى موضعه .

وكان من أعظم شعراء الأندلس فى عصر المنصور أبو عمر أحمد بن محمد ابن درّاج القسطلى . وكان كاتباً بليغاً من كتاب ديوان الإنشاء ، وشاعراً لامعاً فى نفس الوقت . وقد نبغ فى ميدان الشعر نبوغاً جعله عمدة شعراء عصره . وكان من شعراء المنصور المقربين ، وله فيه مدائح رائعة ، نقلنا بعضها فيما تقدم ، ولما توفى المنصور فى سنة ٣٩٢ هـ ، تجول ابن دراج فى أنحاء الأندلس ، ومدح بعض أمراء الطوائف ، مثل خيران العامرى صاحب ألمرية ، ومبارك ومظفر صاحبا بلنسية ، والمنذر بن هود صاحب سرقسطة . وقد قال العلامة ابن حزم فى حقه ، إنه لم يكن بالأندلس أشعر من ابن دراج ، وتوفى ابن دراج فى سنة ٤٢٠ هـ ( ١٠٢٩ م )[2] .

وكان من أكابر الفقهاء والحفاظ فى عصر المنصور ، عبد الرحمن بن فطيس قاضى الجماعة بقرطبة ، وكان من أئمة المحدثين وكبار العلماء ، حافظاً متمكناً من الحديث ، عارفاً بأسماء الرجال ، وله مشاركة فى مختلف العلوم ، وتقدم فى

---

( ١ ) كتاب الصلة لابن بشكوال ( مصر ) رقم ٥٤٠ .

( ٢ ) راجع جذوة المقتبس للحميدى رقم ١٨٦ ، وبغية الملتمس للضبى رقم ٣٤٢ .

معرفة الآثار والسير والأخبار ، وكان جمّاعة للكتب ، وقد جمع منها ما لم يجمعه أحد من أهل عصره بالأندلس . تقلد قضاء الجماعة بقرطبة سنة ٣٩٤ هـ ، مقروناً بولاية الصلاة والخطبة ، وذلك إلى جانب عمله فى الوزارة ، وذلك أيام المظفر عبد الملك المنصور ، وكان مشهوراً فى أحكامه بالنزاهة والصلابة فى الحق ، ونصرة المظلوم ، وله مؤلفات كثيرة منها كتاب « أسباب نزول القرآن » و « كتاب فى فضائل الصحابة » و « أعلام النبوة ودلالات الرسالة » و « مسند حديث محمد بن فطيس » وغيرها ، وتوفى ابن فطيس أثناء الفتنة البربرية فى سنة ٤٠٢ هـ (١) .

* * *

ولما انقضى عهد الدولة العامرية ، وانهارت الخلافة الأموية ، واضطرمت الفتنة بالأندلس ، انكمشت الحركة الفكرية ، وشغلت الأمة الأندلسية بما دهاها من أمر الفتن المتوالية ، وتعاقب الرياسات ، ومع ذلك فى غضون الفتنة ، نجد من الخلفاء من يتذوق الشعر وينظمه . فقد كان الخليفة سليمان المستعين ، أديباً متمكناً ، وشاعراً مطبوعاً ، أشاد ابن بسام بأدبه وشاعريته . وقد أوردنا له فيما تقدم قصيدته الرائعة التى يعارض فيها شعر الخليفة الرشيد . وكذلك كان الخليفة المستظهر أديباً شاعراً من الطراز الأول ، وقد نوه ابن بسام بمواهبه الأدبية ، وأورد له طائفة من القصائد الجيدة .

وحتى فى ظل الخلافة الحمودية البربرية ، كان للأدب والشعر دولة ومكانة ، وكان الخليفة العالى خليفة مالقة أديباً ينظم الشعر . وكان من شعراء دولته الشاعر الكبير ، عبد الرحمن بن مقانا الأشبونى ، وكان أديباً بارعاً ، وشاعراً متقناً ، وهو الذى مدح العالى بقصيدته الشهيرة التى مطلعها :

ألـبرق لائح من أنـدرين ذرفت عيناك بالمـاء المعين

ونكتفى بتلك الصورة الموجزة ، عن سير الحركة الفكرية الأندلسية ، فى عهد الإمارة ، وعهد الخلافة . وقد ذكرنا فيما تقدم أثناء استعراضنا لتاريخ هذين العهدين كثيراً من تفاصيلها ، وأشرنا إلى كثير من أعلام الفكر والأدب ، ممن لم نر أن نعود إلى ذكره فى هذا الفصل .

---

(١) الصلة لابن بشكوال رقم ٦٨٢ .

# الوثائق والملحقات

# وثائق تاريخيـــة

## — ١ —

## كتاب الخليفة الناصر لدين الله
## بشـــأن حـــركة ابن مسرة

( منقول عن السفر الخامس من كتاب « المقتبس » لابن حيان ، وهو المخطوط المحفوظ بالخزانة الملكية بالرباط لوحات ١٣ و ١٤ و ١٥ ) .

« وأنفذ الخليفة الناصر لدين الله إلى آفاق مملكته بشأن هؤلاء المبتدعة ( يعنى تلاميذ ابن مسرة ) كتاباً طويلا قرئ عليهم بأمصارهم ، من إنشاء الوزير الكاتب عبد الرحمن بن عبد الله الزجّالى ، نسخته :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد ، فإن الله تعالى جده ، وعز ذكره ، جعل دين الإسلام أفضل الأديان ، فأظهره وأعلاه ، ولم يقبل من عباده غيره ، ولا رضى منهم سواه ، فقال فى محكم تنزيله : « ومن يتبع غير الإسلام ديناً ، فلن يقبل منه ... » الآية ، وقضى فى محتوم أمره ، ونفاذ حكمه ، أن تنسخ به الديانات ، ويختتم برسالته الرسالات ، فبعث محمداً خاتم النبيين ، وأكرم الأكرمين ، وأعز الخلايق على رب العالمين ، بأن كتب الصلاة والسلام عليه فى عرشه قبل أن يخلقه ، واصطفاه لأمانته قبل أن يكونه ، وأرسله بأفضل دين سماه حنيفاً إلى خير أمة اختارها ... كما قال عز من قائل ، إذ عرّفنا فضل ما هدانا إليه من الدين ، وكرمنا به على ساير الأمم : « كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ... الآية » . فله جل جلاله ، وتقدست أسماؤه ، الشكر على خصايص هذه الفضيلة ، والحمد بالمنة الجليلة ، فقد استنقذ من الغواية وهدى ، فأحسن الهداية ، وأبان الحجة ، وكفانا بواضح المناهج مؤنة الفكرة ، ونظم زمام الأمة ، وجمع وجوه السعادة العاجلة ، والنجاة الآجلة فى تأليف الجماعة ، واجتبا فيهم رعاية الفرقة ، حيث يقول عز وجهه ، لنبيه صلى الله عليه وسلم .. به وبعباده المخصوص بهداه ، ورأفة بسطها على خير .. وإعلاما لهم ... بتواصل الدين من قبله لأنبيائه ... وكراهته لاختلافهم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً ، والذى أوحينا

إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ... الآية » . فخوف وحذر ، ونهى عن افتراق الكلمة ، ونبه على البعد ، ونفى الله الخبيث عنها ، وفضلها على سائر البلدان ، واستقر فيها الدين ، كهيئته يوم أكمله الله لعباده . ولما استوسقت الطاعة ، وشملت النعمة ، وعم الأقطار ، بعدل أمير المؤمنين ،السكون والدعة ، طلعت فرقة لا تبتغى خيراً ، ولا تأتمر رشداً ، من طغام السواد ، ومن ضعف آرائهم ، ومن خشونة الأوغاد ، كتباً لم يعرفوها ، ضلت فيها حلومهم ، وقصرت عنها عقولهم ، وظنوا أنهم فهموا ما جهلوا ، وتفقهوا فيما لم يدركوا ، واستولى عليهم الخذلان ، وأحال عليهم بخيله ورجله الشيطان ، فزينوا لمن لا تحصيل لهم ، ولقوم آمنين لا علم عندهم ، فقالوا بخلق القرآن ، واستيئسوا ، وآيسوا من روح الله ، ولا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ، وأكثروا الجدل فى آيات الله ، وحرموا التأويل فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبريت منهم الذمة بقوله تقدست أسماؤه : « ألم تر إلى الذين يجادلون فى آيات الله أنى يصرفون ، الذين كذبوا بالكتاب ، وما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون ، إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون . فى الحميم ثم فى النار يُسجرون . فهذا أبلغ الوعيد ، وأفظع النكال ، لمن جادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ثانى عطفه : ليضل عن سبيل الله له فى الدنيا خزى ، ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ... » ثم تجاوزوا فى البهتان ، وسدوا على أنفسهم ألوان الغفران ، فأكذبوا التوبة ، وأبطلوا الشفاعة ، ونالوا محكم التنزيل ، وغامض متن التأويل ، بتقدير عقولهم : فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة ، وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون فى العلم ، يقولون آمنا به ، كل من عند ربنا ، وما يذكر إلا أولو الألباب . فصاروا بجهل الآثار ، وسوء حمل الأخبار إلى القدح فى الحديث ، وترك نجح السبيل ، فأساءوا الفهم عن العوام ، وأقدموا بمكروه القول فى السلف الصالح ، واستبدلوا على نقلة الحديث ، ووضعوا من الكتب لوضعها ، وتابعوا شهواتهم فيها ،وتتابعوا فيما...وورطهم،ورأوا لتخضع وحشة بحثها الازم الضلالة ، وداعية الهلكة ، والشذوذ عن مذهب الجماعة ، من غير نظر نافذ فى دين ، ولا رسوخ فى علم ، حتى تركوا رد السلام على المسلمين ، وهى التحية التى نسخت تحية الجاهلين . خلافاً على أدب الله تعالى ، وقوله جل جلاله : وإذا حييتم

بتحية ، فحيوا بأحسن منها أو ردوها ، وقالوا بالاعتزال عن العامة وشدوا ... وكشفوا بتكررهم الذين يستمعون القول ، فيتبعون أحسنه ، فلجوا فى جهالتهم ، وتاهوا فى غيهم ، ونكسوا على رؤوسهم ، حقداً على الأمة الحنيفة ، واعتقاداً لبغضتها ، واستحلالا لدمائها ، وزرعاً إلى انتهاك حرمها ، وسبى ذراريها ، قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر ، لولا أن سيف أمير المؤمنين من ورائهم ، ونظره محيط . ولما صار غيهم فاشيا ، وجهلهم شايعا ، واتصل بأمير المؤمنين من قدحهم فى الديانة ، وخروجهم عن الحادة ، فأشغل نفسه ، وأقض مضجعه ، وأسهد ليله ، أغلظ أمير المؤمنين فى الأخذ فوق أيديهم ، وأوعز إيعازاً شديداً ، وأنذر إنذاراً فظيعاً ، وعهد عهداً مؤكداً شافياً كافياً ، نظر به لوجهه تبارك اسمه ، وقدم فيه بين يدى العقاب الشديد ، وأمر بقراءة كتابه هذا على المنبر الأعظم بحضرته ، ليفزع قلب الجاهل ، ويفت كبد المستهتر الحاير ، وينقض عزم العاند المعاجل ، ويضطر الغواة إلى الإثابة الصحيحة ، التى يتقبلها الله منهم ، أو يكشف عن الأذهان سرارهم فيكون عليهم شهيداً ، ويأتهم عذاب غير مردود . ورأى أمير المؤمنين أن يشمل بنظره أقطار كوره ، ورسله فى بدوه وحضره ، وأن ينفذ عهوده إليك ، وإلى ساير قواده ، وجميع عماله بها ، يقرأ على منابر المسلمين ، ولا يحرم القاصى ما عم الدانى من تطهير هذا الرجز وتمحيصه ، وكفاية المسلمين شبهته وفتنته ، فلم يحل الديار ، ولا تعقب الآثار ، ولا استحق البلا على قوم ، ولا أهلك الله أمة من الأمم ، إلا بمثل ما تكشف هذه الطغمة الخبيثة ، من التبدبل للسنة ، والاعتداء فى القرآن العظيم ، وأحاديث الرسول الأمين ، صلوات الله عليه وسلم ، هذا عند وروده عليك فى قبلك ، ونشره فى سماع رعيتك ، وتتبع هذه الطايفة بجميع أعمالك ، وابثث فيهم عيونك ، وطالب فيهم غورهم جهدك ، فمن تحلى منهم بما انتسب إليهم ، وقامت عليه البينات بذلك عندك ، فاكتب إلى أمير المؤمنين بأسمائهم ومواضعهم ، وأسماء الشهود عليهم ، ونصوص شهاداتهم ، لنعهد باستجلابهم إلى باب سدته ، لينكلوا بحضرته ، فيذهب غيظ نفسه ، ويشفى حنين صدره ، وإياك أن تهون من أهل الريبة ، وتتخطاهم إلى ذوى السلامة والأحوال الصالحة ، فإن فرطت فى أحد الأمرين أو كليهما . فقد برى الله منك ، وأحل دمك ، ومالك ، فاعلمه ، واعتد به إنشاء الله تعالى » .

— ٢ —

## كتاب الخليفة الناصر لدين الله
## عن غـــزوة الخنـــدق

( منقول من السفر الخامس من كتاب «المقتبس» لابن حيان ، وهو المخطوط المحفوظ بالخزانة الملكية بالرباط ، فى حوادث سنة ٣٢٧ هـ ) .

قال ابن حيان : وأما لفظ كتاب الفتح الوارد من قبل الناصر لدين الله إلى الحضرة بخبر هذه الغزوة من إنشاء عيسى بن فطيس الكاتب ، فإن الفصل الذى رفع فيه خبر هذه الوقعة ، وقع كما أثبته هاهنا :

« واستعزم الله أمير المؤمنين ليلته ، واستخاره عن رحمته فى النهوض إلى مدينة شنت مانكش دار الكفرة ومجمع النصرانية ، إلى إليها استركن عدو الله ، وضاقت الحيل عليهم ، ووثقوا بحصانته ، ليعلمهم أن كلمة الله هى إظهار دينه ، ونصر أوليائه ، وإعزاز خلفايه ، فى مشارق الأرض ومغاربها ، ولو كره المشركون، فضم صاحب المقدمة عمال الثغور عندهم وفرسانهم وخيلهم ، واكتنف الجمع فى مجنبتى العسكر مع من والاهم ، وجرد الرجالة من الخيول بأسلحتهم ، وصمد لجمع المشركين ، فاستقبلهم بنية صادقة ، ونفس صابرة ، وجموع كثيفة ، وكتايب تملأ الفضا ، ومغانب تضيق عنها الشعاب ، ويصبر فى سهل الأرض كالآكام ، تتألق عليهم سوابغ الدروع ، فإذا تداعوا ، قلت موج تراكم ، وإذا وقفوا فكأنما النقع عليهم ليل مظلم . فلما قربت العساكر من محل الخنازير ، ثابوا فيما بينهم ، وثاروا إلى خيولهم ، وعلوا الشراقين ، ينظرون إلى كتايب دين الله ، بقلوب قد خلعها الذعر ، وقبضهم عن التقدم الوجل ، وجعلوا بينهم وبين المسلمين وادى بشرقه ، ثقة بوعورته ، وقلة مخاوضه ، فلم ترعهم إلا مقدمة الجيش وراءه ، قد سهل الله عليهم جوازه ، وتبعتهم الأثقال ، وتحيز أمير المؤمنين كدية سامية ، يتطلع منها على عسكر المسلمين ، فأمر بالاضطراب فيها للعسكر ، وتقدمت الخيول بين يديه ، وقد تلاحقت جموع الكفرة ، وقدموا صلبانهم ، ووثقوا بشيطانهم الذى غرهم . وكان المسلمون على نشطة إلى لقائهم ، فلم ينتظر أولهم إلى أن توافى آخرهم ، ولا فارسهم أن يتمتعد براجلهم ، وتخطوا

الرماح إلى السيوف ، والطعن إلى الضرب ، وكروا فى حومة المنايا ، كرّ من يحمى حليله ، ويخشى بعد ساعة أن تسبي ذريته ، فلم ير المسلمون حرباً مثلها ، ولا شهدوا يوم وغى أطول من يومهم ذاك . ونصر الله تعالى يهون عليهم ما هم فيه ، حتى فضوا جموع المشركين ( لوحة ١٤٣ أ ) ، وزلزلوا ردوْهم التى كانت أكاليل الجبال ، وردم الشعاب ، وضمهم إلى معسكرهم ، وأثارت سنابك الخيل من القتام ، ما غيب من كان فى القلب عمن يليه من يمين الحرب ويسارها . وكان محمد بن هاشم فى وقدتها حاثاً سعيره قد طال به مدامها ، واستدارت حوله رحامها ، فكبا به فرسه ، ولم يعلم أحد بمصرعه ، فصار فى أيدى الخنازير أسيراً ، فاستشفوا به الحياة بعد اليأس منها ، فجالدوا بنفوس قد عاودتها رمقها ، وانحاز المسلمون إلى معسكرهم ، قد قتلوا من أعلام المشركين وقوامسهم وأهل البأس من فرسان الحرب ، ومن صبر لوقع السيف ، فكانت مصيبتهم بمن قتل منهم عظيمة ، فلما أصبح أمير المؤمنين لمحلته ، أمر بحمل من عقر فرسه ، وصلة من أغنى فى حربه ، وتعرض المشركون للحرب تعرض من قد تنخل لعدو قد أصابهم ، ونكايته قد فلقت قلوبهم . فلما كان فى اليوم الثالث من احتلاله ، عهد أمير المؤمنين إلى صاحب العسكر بمصاحبتهم بالحرب ، وقد تلاحقت بهم المدود من أقصى بنبلونة وألبة والقلاع ، وأهل قشتيلة ، إلى مشركى قلمرية ، وكل صنف من أصناف العجم معهم ، وهتف على المسلمين بالخروج تحت راياتهم ، والتأهب للقاء عدوهم ، وأغدوا فى نهوضهم ، ونزل صاحب العسكر ، فرتب تعيينهم ، فكثف الردوء ، وضم إليها الرجال ، وألزم القلب بنفسه ، وميز فيه خيل الميمنة والميسرة ، وقدم إليهم المقاتلة ، وأقام بين يديه حملة الخيل عدة ، فإذا رأى فى جهة من جهات الحرب خللا سده واستدركه ، أو فتقا رتقه ، حتى كانت أيدى المسلمين فى المآقط عالية ، فتلظت الحرب واحتدمت ، وكأن المنايا إنما قصدت فيها أعلام الكفرة وقوامسهم ، فصرع قومس غرماج ، وابن أخى الخنزير ابن فرذلند ، وشيخ النصرانية وعميدها ابن دخبر ، إلى العدد الجم من فرسانهم ، وأهل الصبر منهم ، وانجلت الحرب عن هزيمتهم ، وانكشاف أجبل قد كانوا علوها ، وسدوا بالخيل والرجال ما بينها ، وظنوا أن لا غالب لهم ، فزلزلوا زلزالا شديداً ، وانصرف المسلمون بعد الظفر والسلامة فى المنقلب ،

فباتوا بأنعم بال ، وأسكن حال . فلما ظن أعداء الله أن قد ملوا حربهم ، وتجددت لهم مدودهم ، رفعوا معسكرهم ، وقدموا صلبانهم ، وخرجوا بفارسهم وراجلهم فألقوا إلى ما يلى منهم العسكر ، سراع خيولهم ، فبادر المسلمون إليهم تبادر الأسود الضارة ، فغادروا موقفهم ، وجالدوا بسيوفهم ، حتى انفرج الموقف عن قتل عظيم من عظمائهم ، أعولوا عليه ، واستداروا حواليه ، وانصرفوا قد أذلهم الله ، ووهنهم ، وهون عليهم جمعهم ، ووفور مددهم ، فى ضبط المعيشة ، وقلة التبسط ، ومصابحة الحرب ومماساتها ، حتى كأنهم أهل حصن حوصروا فيه ، أو فل جيش لا يستطيعون الرجوع إليه . وأقام أمير المؤمنين ومن معه من جيوشه وحشده ، وأهل البصاير والحفايظ ، وبلغ أمير المؤمنين أقصى أمله من إذلال جميع المشركين ، والاحتلال بساحتهم ، وانحياز طاغيتهم فى أعلى شاهق ، يرجو النجاة بنفسه ، فأمر بالرحيل وقد ضاعف النظر ، والعدو فى ضبط ساقة جيشه لما توقع خروج الكفرة فى أثره . وأصبح منتقلا ، فما أقدم أعداء الله أن ينظروا من الجيش إلا من بعد على رأس جبل ، ونهض يطأ بلادهم وطأة متثاقل ، حتى انصرف إلى نهر دويرة ، واستقبل عمارته من حصن مانكش التى اتصلت بنكاية أهله ، فلم يدع فى جليقية حصناً إلا هدمه ، ولا معاشاً إلا انتسفه ، حتى انتهى إلى مدينة روضة ، وهى خالية على عروشها ، فأقام على هدمها ، وهدم حصن دبيلش معها ، يومين كانا أطول على أعداء الله من عامين ، لما غير فيهما من نعمهم ، وهدم من مساكنهم ، وقطع من شجرهم . وكان أمير المؤمنين يرى التقدم على نهر دويرة إلى شنت إشتين وغرماج لنقص الزروع لديه وضيق (١٤٣ ب) العلف بإفساده . فرفع إليه من حضره من أهل مدينة الفرج وحصونها ، يشكون ما يلقونه من مشركى وادى أبينه ، ومعاقلها ، وترددوا عليه ضارعين إليه ، أن يجعل ممر الجيش المؤيد على حصونهم وعماراتهم ، وذكروا أن ذلك أنفع لهم ولأهل الثغور معهم ، من الإيغال فى بلد المشركين ، ونكاية من لا ينالهم بغارة ، ولا ينهض إليهم بقوة ، فصرف الجيوش عند ذلك إلى وادى أبينه ، فلم يدع فيها حصناً إلا هدم ، ولا قرية إلا هدمت ، ولا معاشاً إلا استقصى جميعه . فلما صار فى آخره ولم يبق موضع يقوم الجيش بالتردد عليه ، أمر الأدلاء بالكشف عن أفضل الطرق إلى حصن أنتيشه ، وأرفقها بالمسلمين فى منصرفهم برازح ظهرهم ، وأحوط عليهم فى

طريقهم ، وأجمعوا على قصد حصن قشترب ، وأيأسوا من الخروج على غيره ، فلما استقبل أمير المؤمنين لامه ، وقطع بعض محلته ، استقبل شعْراء لا يتخللها المتفرد بحمده ، ولا يتخلص منها المخف ، لو لم يكن أحد يعترضه . ثم أشرف على خنادق قفرة ومهاو تتقاذفه ، وأجراف منقطعة قد عرفها المشركون وقدموا إليها ، وألقوا إلى ساقة الجيش فرسانهم ، فدارت عليهم الحرب ، وصرع فيها من جلة فرسانهم ، ومتقدمى رجالهم جملة ، لو أصيبت بحيث يتراء الجمعان لكانت سبب هزيمتهم ، ولاكنهم وثقوا بالوعد ، وانتظروا تقدم الحماة وترادف الأثقال . فحامى أمير المؤمنين برجاله وخاصته عن المسلمين ساعات من النهار ، حتى تقدم أكثرهم ، وجازت الخندق لقتالهم ، إلا من ضعفت دابته ، أو ضعفت تعبئته عن استنفارها . فلما رأوا الخلل تصايحوا من قنن الجبال ، وانحطوا من أعاليها انحطاط الأوعال ، فأصابوا من الأمتعة والدواب المثقلة ، ما لو أصابوا مثله فى مجال حرب أو سهل من الأرض ، لما أنكر مثله عند مقارعة الرجال ، وتصرف الأحوال . وحامى صاحب العسكر عن كل من أجاز الخندق وخلص من مضايقة ، حتى أسهلوا ، واجتمع لأمير المؤمنين جيوشه وانتظمت جموعه ، وسلم الله رجاله ، فلم يصب منهم أحد . وفى ذلك دليل للسامع عن الوقعة أنها لم تدر بغلبة ، ولا ظفر المشركون أظفروا به فيها عن مساواة ولا كثرة ، ولكن ضيق المسالك ، ووعر الطريق ، وسوء فهم الدليل ، خلى لما جلبه إلى أقدار الله تعالى التى لا تصرف ، ومحنه التى لم يزل يمتحن بها أولياءه ، ليعظهم ، ويبتلى عبيده ليرهبهم ، وأمير المؤمنين ، شاكر لله تعالى على عظيم نعمه ، وواقف على تصرف محنته ، مستسهل ما اختص به فى حب طاعته ، ضارع إلى الله فى التقبل لقوله وفعله . وكتابه إليك ، وهو قافل بالمسلمين على أحسن أحوالهم ، وأسهل طريقهم ، وأجمعه بمعايشهم ، إن شاء الله . فأمر بقراءة كتاب أمير المؤمنين على الناس قبلك أثر صلاة الجمعة ليشكروا الله على ما أنعم به من نصر إمامهم ، وسلامة إخوانهم ، والصنيع الذى عمهم ، فإنه يحب الشاكرين ، ويزيد الحامدين . واعهد نسخه إلى عمال الكور حولك إن شاء الله تعالى ، والله المستعان . وكتب يوم الإثنين لثمان خلون من ذى القعدة سنة سبع وعشرين وثلاثماية » .

# ثبت المراجـــع

## ١ – مراجع أندلسية وإسلامية عامة


تاريخ ابن خلدون المسمى « كتاب العبر » ( بولاق ) .

تاريخ الكامل لابن الأثير ( الطبعة الأهلية ١٣٠٣ هـ ) .

تاريخ الطبرى المسمى « تاريخ الأمم والملوك » ( الطبعة الأهلية ) .

تاريخ أبى الفدا المسمى « المختصر فى أخبار البشر » ( الطبعة الأهلية ) .

فتوح البلدان للبلاذرى ( القاهرة ١٩٣٢ ) .

مروج الذهب للمسعودى ( بولاق ) .

نهاية الأرب للنويرى ( القسم التاريخى ومعظمه ما زال مخطوطاً ) .

وفيات الأعيان لابن خلكان ( بولاق ) .

كتاب الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة ( القاهرة ١٣٢٥ هـ ) .

كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار لتقى الدين المقريزى ( الطبعة الأهلية ١٣٢٤ هـ ) .

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة لابن تغرى بردى (طبعة دار الكتب) .

فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم المصرى ( طبع لجنة ذكرى جب ) .

يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر للثعالبى ( القاهرة ١٩٤٧ ) .

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقرى ( القاهرة ١٣٠٢ هـ ) .

أخبار مجموعة فى فتح الأندلس لمؤلف مجهول ( مدريد ١٨٦٧ ) .

تاريخ افتتاح الأندلس لأبى بكر بن القوطية ( مدريد ١٨٦٨ ) .

البيان المغرب فى أخبار ملوك الأندلس والمغرب لابن عذارى المراكشى ( الجزء الأول الخاص بإفريقية والثانى الخاص بالأندلس المنشوران بعناية العلامة دوزى ( ليدن ١٨٤٨ – ١٨٤٩ ) والثالث المنشور بعناية الأستاذ ليڤى بروڤنسال .

بغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الأندلس لابن عميرة الضبى ( ضمن المكتبة الأندلسية ) .

كتاب الصلة لابن بشكوال ( ضمن المكتبة الأندلسية ، والقاهرة سنة ١٩٥٥ )

قضاة قرطبة لأبى عبدالله الخشنى المنشور بعناية الأستاذ ربيرا (مدريد ١٩١٤).

المقتبس فى تاريخ رجال الأندلس لابن حيان ، السفر الثالث المنشور بعناية الأب ملشور أنتونيا ( باريس ١٩٣٧ ) .

الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة لابن بسام الشنترينى ( المجلدات الثلاثة المطبوعة بعناية جامعة القاهرة ) .

الحلة السيراء لابن الأبار القضاعى (القسم المطبوع بعناية العلامة دوزى) ؛

المعجب فى تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشى (القاهرة ١٣٣٢هـ) ؛

جذوة المقتبس للحميدى ( طبع القاهرة ) .

العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسى ( طبع القاهرة ١٩٢٨ ، وكذلك طبعة لجنة التأليف والترجمة ) .

المطرب من أشعار أهل المغرب لابن دحية البلنسى ( المطبوع بعناية وزارة التربية المصرية ) .

أعمال الأعلام لابن الخطيب ( طبع بيروت ١٩٥٦ ) .

الإحاطة فى أخبار غرناطة لابن الخطيب (القاهرة ١٩٠٤ و ١٩٥٦ ) .

الإستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى للسلاوى ( القاهرة ١٣٠٦ هـ ) .

نبذ تاريخية فى أخبار البربر فى القرون الوسطى ( الرباط ١٩٣٤ ) .

جمهرة أنساب العرب لابن حزم ( القاهرة ١٩٤٨ ) .

رسالة نقط العروس لابن حزم ( المنشور بمجلة كلية الآداب بالقاهرة فى عدد ديسمبر سنة ١٩٥١ ) .

نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار لأحمد بن عمر العذرى ( منشور بعناية الدكتور عبد العزيز الأهوانى — مدريد سنة ١٩٦٥ ) ؛

طوق الحمامة لابن حزم ( دمشق ١٣٤٩ هـ ) .

معجم البلدان لياقوت الحموى ( القاهرة ١٣٢٣ — ١٣٢٥ هـ ) .

الروض المعطار ( صفة جزيرة الأندلس ) لأبى عبد الله محمد بن عبد المنعم الحميرى ( القاهرة ١٩٤٨ ) .

مختصر نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق للشريف الإدريسى (طبع رومة ١٥٩٢) .

وصف الأندلس للإدريسى ( المطبوع بعناية المستشرق ساڤدرا ) .

المسالك والممالك لابن حوقل ( المكتبة الجغرافية ) .

المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب المستخرج من كتاب المسالك والممالك لأبى عبيد البكرى والمنشور بعناية المستشرق دى سلان .

مصـــادر مخطوطة

تاريخ ابن حيان : « المقتبس فى تاريخ أهل الأندلس » ، مجموعة أوراق مخطوطة من « السفر الأول» تشمل حوادث سنة ١٨٠ –٢٣١هـ ، عثر بها المرحوم الأستاذ ليڤى بروفنسال ، ونقلت منها وقد ضاعت الآن .

تاريخ ابن حيان : « السفر الثانى » من المقتبس وهو يشمل حوادث سنى ٢٣٣ – ٢٦٧ هـ قطعة مخطوطة محفوظة بمكتبة جامع القرويين بفاس .

قطعة ثالثة مخطوطة من تاريخ ابن حيان محفوظة بمكتبة أكاديمية التاريخ بمدريد تتعلق بحوادث سنة ٣٦٠– ٣٦٤هـ . وقد نشرت أخيراً ببيروت (١٩٦٥) بعناية الأستاذ عبد الرحمن الحجى .

السفر الخامس من « المقتبس » وهو مخطوط الخزانة الملكية بالرباط ويتعلق بعهد عبد الرحمن الناصر ، ويسرد حوادث الأندلس من سنة ٣٠٢ إلى سنة ٣٢٩هـ ويحمل رقم 87.

إعتاب الكتاب لابن الأبار (مخطوط محفوظ بمكتبة الإسكوريال رقم١٧٣١ الغزيرى ) .

كتاب تحفة الأنفس وشعار أهل الأندلس لعلى عبد الرحمن الهذيل ( مخطوط محفوظ بمكتبة الإسكوريال رقم ١٦٥٢ الغزيرى ) .

شذور مخطوطة لابن حزم نشرها الأستاذ ميجل آسين بلاثيوس فى مجلة الأندلس ( سنة ١٩٣٤ ) .

## ٢ — المراجع الأوربية

رجعنا فيما يتعلق بالروايات الإسبانية اللاتينية إلى موسوعة الأب Enrique Florez الكنسية الكبرى وهى :

España Sagrada (Madrid 1747—1886, 51 Tomos)

وقد تضمنت الروايات التاريخية الآتية :


Isidorus Pacensis Crónicon — رواية إيزيدور الباجى
Chrónicon Compostellanum — رواية كومبستيلا (اشنت ياقب)
Annales Toledanes — الأخبار الطليطلية
Chronicon Lusitanum — الرواية اللوستيانية البرتغالية
Chronicon Adefonsi — الرواية الأدفونشية
Rodericus Toletanus : Historia Arabum. — رواية ردريك الطليطلى ( تاريخ العرب )
Lucas Tudensis : Chronicon Mundi. — رواية لوقا التطيلى ( تاريخ العرب )
Crónica General de España- (Ed. Pidal) — تاريخ أسبانيا العام لألفونسو العالم

Padre Mariana : Historia General de Espana (Madrid 1855).
Conde : Historia de la Dominación de los Arabes en Espana.
F.J. Simonet : Historia de los Mozárabes de España (Madrid 1897).
Modesto Lafuente : Historia General de Espana (Barcelona 1889).
Julian Ribera : Disertaciónes y Opúsculos (Madrid 1928).
R. Altamira : Historia de España y de la Civilización Espanola (Barcelona 1900).
R.M. Pidal : La España del Cid (Madrid 1947).
" " " : La Chanson de Roland y el Neotradicionalismo (Madrid 1959).
" " " : Origenes del Espanol.
" " " : Historia y Epopya.
Una Crónica anonima de Abd Al-Rahman Al-Nasir (Madrid-Granada 1950).
F. Codera : Embajadas de Principes cristianos en Córdoba en los ultimos anos de Al-Haquam II (B.R.A.H. XIII, 1886).
F. Codera : Embajadores de Castilla encarcelados en Córdoba en los ultimos anos de Al-Haquam II (B.R.A.N., XIV, 1887).
A.G. Palencia : Historia de la España Musulmana.

L.S. de Lucena : Los Hammudies Senores de Málaga y Algeciras. (Málaga 1955).
Cardonne : Histoire de l'Afrique et de l'Espagne sous la Domination des Arabes.
Camille Julian : Histoire de la Gaule.
Dom Vissette : Histoire de Languedoc.
Reinaud : Histoire des Invasions des Sarrazins en France,
Dozy : Histoire des Musulmans d'Espagne jusqu'à la Coquête des Almoravides (Ed. Lévy-Provençal 1932).
Dozy : Recherches sur l'Histoire et Littérature de l'Espagne pendant le moyen-âge. (3e Ed ).
Zeller : Histoire de l'Allemagne.
Aschbach : Geschichte der Omajaden in Spanien.
Schlegel : Philosophie der Geschichte.
Gibbon : Decline and Fall of the Roman Empire.
Lane-Poole : The Moors in Spain.
Scott : Moorish Empire in Europe.
H. Ch. Lea : History of the Inquisition of Spain.
Creasy : Decisive Battles of the World.
Finlay : Byzantine Empire.
Hodgkin : Charles the Great.
Casiri : Bibliotheca Arabico-Hispana Escurialensis.
Encyclopédie de l'Islam.
Bayle : Dictionnaire Historique et Critique.
Bouquet : Receuil des Historiens de la Gauie et de la France.

# فهرست الوثائق التاريخية

## للقسمين الأول والثانى


صفحة

الخطبة المنسوبة لطارق بن زياد.. ... ... ... ... ... ... ... ... ٤٦
معاهدة الصلح بين عبد العزيز بن موسى وتيودمير.. ... ... ... ... ... ٥٥
خطاب يوسف الفهرى إلى عبد الرحمن الأموى ... ... ... ... ... ... ١٥٣
الأمان الذى أصدره عبد الرحمن الداخل للنصارى... ... ... ... ... ... ١٩٩
كتاب الحكم بن هشام عن ثورة الربض... ... ... ... ... ... ... ٢٤٥
وصية الحكم بن هشام لابنه عبد الرحمن... ... ... ... ... ... ... ٢٤٨
كتاب عبد الرحمن بن الحكم إلى قيصر قسطنطينية... ... ... ... ... ... ٢٨٣
عهد الناصرلا بن حفصون... ... ... ... ... ... ... ... ... ٣٨١
كتاب الناصر عن فتح ببشتر... ... ... ... ... ... ... ... ٣٨٧
أمان الناصر لمحمد بن هاشم التجيبى.. ... ... ... ... ... ... ... ٤١٠
كتاب الناصر عن اتخاذه سمة الخلافة ... ... ... ... ... ... ... ٤٣٠
كتاب الناصر عن موقعة الخندق ... ... ... ... ... ... ... ... ٤١٦ و٧١١
كتاب الناصر إلى العمال بعمل الاستسقاء.. ... ... ... ... ... ... ٤٢٣
كتاب الناصر عن فتنة ابن مسرة ... ... ... ... ... ... ... ٤٣٣ و٧٠٨
كتاب القيصر قسطنطين السابع إلى الناصر ... ... ... ... ... ... ٤٥٣
كتاب الحكم المستنصر عن انتصاره على الأدارسة... ... ... ... ... ٤٩٨
وصية المنصور بن أبى عامر لابنه عبد الملك ... ... ... ... ... ... ٥٨١
وصية المنصور بن أبى عامر لغلمانه... ... ... ... ... ... ... ٥٨٢
مرسوم الخليفة هشام المؤيد لعبد الملك المنصور بتسميته بالمظفر ... ... ٦١٤
مرسوم الخليفة هشام المؤيد بالله إلى عبد الرحمن المنصور بولاية عهده... ٦٢٦

# فهرست الشعر والشعراء

صفحة


نصر بن سيار
أرى تحت الرماد وميض نار ١٤٤
عبد الرحمن بن أمية ( الداخل )
سعدى وحزمى والمهند والقنا ٢٠٢
شتان من قام ذا امتعاض ٢٠٢
أيها الركب الميمم أرضى ٢٠٢
تبدت لنا وسط الرصافة نخلة ٢٠٣
عباس بن ناصح الجزيرى
نكد الزمان فآمنت أيامه ٢٤٢
الحكم بن هشام
رأيت صدوع الأرض بالسيف واقعاً ٢٤٦
غناء صليل البيض أشهى إلى الأذن ٢٥٠
قضب من البان ماست فوق كثبان ٢٥٠
غريب بن عبد الله
يا أهل قرطبة الذين تواكلوا ٢٤٧
موٌمن بن سعيد
يطم على العنقاء فى طيرانها ٢٥٢
حرمتك ما عدا نظرا مضرا ٦٩٣
يحيى الغزال الجيانى
لست تلقى الفتميه إلا غنيا ٢٥٣
ياليت شعرى أى شيء محصل ٢٥٣
كأن الملوك الغلب عندك خضعاً ٢٥٣
وأغيد لين الأطراف رخص ٢٨٣
يانود ياورود الشباب التى ٢٨٥

| | صفحة |
|---|---|
| عبد الرحمن بن الحكم | |
| إذا ما بدت لى شمس النهار | ٢٧٨ |
| ولقد تعارض أوجه لأوامر | ٢٨٠ |
| فكم قد تخطيت من سبسب | ٢٨٠ |
| قتلتنى بهواكا | ٢٨٠ |
| عباس بن فرناس | |
| ومؤتلف الأصوات مختلف الزحف | ٢٩٣ |
| كأن قصور الأرض بعد تمامه | ٣١٤ |
| أبو عمر ابن عبد ربه | |
| ألما على قصر الخليفة فانظرا | ٣١٥ |
| نجا مستكناً تحت جنح من الدجى | ٣٢٦ |
| ألا إن إبراهيم لجة ساحل | ٣٣٤ |
| بدا الهـــلال جديداً | ٣٧٤ |
| هلال نماه البدر واختاره الفجر | ٣٧٨ |
| خليفة الله وابن عم رسول الله | ٣٨٠ |
| يا ابن الخلايف والصيد الصناديد | ٤٠٨ |
| قد أوضح الله للإسلام منهاجاً | ٤٦٢ |
| هاشم بن عبد العزيز | |
| سأرضى بحكم الله فيما ينوبنى | ٣١٨ |
| سعيد بن جودى | |
| يابنى مروان جدوا فى الهرب | ٣٢٩ |
| الأمير عبد الله بن محمد | |
| يامهجة المشتاق ما أوجعك | ٣٥٠ |
| ويحى على شادن كحل | ٣٥١ |
| يا من يراوغه الأجل | ٣٥١ |

صفحة

أحمد بن محمد الرازى
تبدى لمرأى العين مجسماً ٣٨٦
إسماعيل بن بدر
وقيدت زعيمتهم إليه ٤٠٢
تطوى المراحل إدلاجاً وتنحيراً ٦٩٨
أبو عثمان عبيد الله بن يحيى بن إدريس
نعم الشفيع إلى الرحمن فى المطر ٤٢٤
يهى الخلافة سعى خير إمام ٦٩٧
على أى فتح بعد فتح تقدما ٦٩٧
عبد الرحمن الناصر
همم الملوك إذا ما أرادوا ذكرها ٤٣٦
أبو الوليد بن زيدون
خليلى لا فطر يسر ولا أضحى ٤٤٠
محي الدين بن عربى ( نقلا عنه )
ديار بأكناف الملاعب تلمع ٤٤١
منذر بن سعيد البلوطى
مقالى كحد السيف وسط المحافل ٤٥٥
عبد الملك بن سعيد المرادى
ملك الخليفة آية الإقبال ٤٨٦
جعفر بن عثمان المصحفى
إلا أن أياماً هفت بإمامها ٤٦٣
أطلع البدر فى سحابه ٥٠٣
صبرت على الأيام لما تولت ٥٣٠
على أمن الأوقات كان ارتحالك ٦٩٧
الحكم المستنصر
إلى الله أشكو من شمائل مسرف ٥١٢
عجبت وقد ودعتها كيف لم أمت ٥١٣

صفحة

. . . . . . . . . . . . . .
أبنى أمية أين أقمار الدجى ٥٣١
. . . . . . . . . . . . . . .
أليس من العجائب أن مثلى ٥٣٦
. . . . . . . . . . . . . . .
اقترب الوعد وحان الهــلاك ٥٣٧
أبو العلا صاعد بن حسن البغدادى
يا حرز كل مخوف وأمان كل ٥٥٢
جددت شكرى للهوى المتجدد ٥٦٣
أبو عمر بن دراج القسطلى
هل الملك يملك ريب المنون ٥٥٧
لك الله بالنصر العزيز كفيل ٥٥٨
اليوم أنكص أبليس على عقبه ٥٦١
بدا ريح السعد واستقبل النجح ٦١٠
إن كان وجه الربيع مبتسما ٦٢١
هو البدر فى فلك المجد دارا ٦٢٩
ما نقش على قبر المنصور
آثاره تنبيك عن أخباره ٥٦٦
عمرو بن أبى الحباب
لا يوم كاليوم من أيامك الأول ٥٧٥
المنصور بن أبى عامر
رميت بنفسى هول كل عظيمة ٥٨١
منع العين أن تذوق المناما ٥٨١
. . . . . . . . . . . .
زمان جديد وصنع جديد ٦٢١
ابن أبى يزيد المصرى
إن ابن ذكوان وابن برد ٦٢٨

| | صفحة |
|---|---|
| سليمان المستعين | |
| عجباً يهاب الليث حد سناني | ٦٥٤ |
| عبد الرحمن بن مقانا | |
| البرق لائح من أندرين | ٦٧٣ |
| عبد الملك بن جهور | |
| إن كانت الأبدان نائمة | ٦٩٨ |
| محمد بن هانئ الإشبيلي | |
| رأيت بعيني فوق ما كنت أسمع | ٧٠٠ |
| طاهر بن محمد البغدادى | |
| متى أشكر النعمى التي هي جنتي | ٧٠١ |
| محمد بن مطرف بن شخيص | |
| بأيمن إقبال وأسعد طائر | ٧٠٢ |
| فهل من شفيع عند ليلى إلى الكرى | ٧٠٢ |
| محمد بن الحسين التميمى الطبنى | |
| بخلت بجوهر لفظها أن يلقطا | ٧٠٢ |
| يحيي بن هذيل | |
| لم يرحلوا إلا وفوق رحالهم | ٧٠٢ |
| يوسف بن هارون الرمادى | |
| لا تنكروا غزر الدموع فكل ما | ٧٠٣ |

# فهرست الأعلام الجغرافية والتاريخية الأندلسية
## ومقابلها الإفرنجي

| | |
|---|---|
| Alava | ألبــة |
| Álava et Castella Vetula | ألبة والقلاع |
| Albacete | البسيط |
| Albarracin | شنتمرية الشرق<br>شنتمرية ابن رزين |
| Alcacer do Sal | قصر أبي دانس |
| Alcalá de Henares | قلعة النهر |
| Alcántra | القنطرة |
| Alcázar | القصر |
| Alfonso Raimundez | أدفنش بن رمند |
| Algarve | كورة الغرب |
| Algeciras | الجزيرة الخضراء |
| Alicante | لقنت |
| Almeria | ألمرية |
| Almodavar | المدوّر |
| Almodavar del Rio | حصن المدور |
| Almoravides | المرابطون |
| Almunecar | المنكّب |
| Alphonso - Alfonso | أدفنش ، أذفنش ، ألفنش |
| Alpujurras<br>Alpuxarras | البشرّات البشرة |
| Aquitaine | أكوتين |
| Aragon | بلاد أرغن . أرغن . الثغر الأعلى |
| Astorga | أسترقة |
| Asturias | أشتوريش |
| Avenpace | ابن باجة |
| Avignon | صخرة أبنيون |
| Avila | آبلــة |
| Badajoz | بطليوس |
| Baeza | بياســة |
| Baleares | الجزائر الشرقية |
| Barcelona | برشلونة — برشنونة |
| Beja | باجة |
| Berbastro | بربشتر |
| Bermudo | برمنــد |
| Bicsay – Viscaya | بسكونية — بسكونس |
| Bobastro | ببشــتر |
| Burgos | برغش |
| Cabra | قبرة |
| Calahorra | قلهرّة |
| Calatayud | قلعة أيوب |
| Calatrava | |

| | |
|---|---|
| Calatanazor | قلعة النسور |
| Carcassone | قرقشونة |
| Carmona | قرمونة |
| Carthage | قرطاجنة القديمة |
| Cartagena | قرطاجنة الأندلس |
| Castellon | قسطلونة |
| Castile— Castilla | قشتالة |
| Catalonia Cataluna | قطلونية |
| Cardegna— Cerdana | شرطانيه |
| Ceuta | سبتة |
| Charlemagne Karl— Charles | قارله — شارلمان |
| Cintra | شنترة |
| Colmbra | قُلُمرية — قلنبرية |
| Cordova Córdoba | قرطبة |
| Coria | قورية |
| Corsica | قورسقة |
| Cuenca | قونقة — كونكة |
| Daroca | دروقة |
| Denia | دانية |
| Duero·Douro | نهر دورة |
| Ebro | نهر إبره |
| Ecija | إستجة |
| Elvira | إلبيرة |
| Evora | يابرة — يافورة |
| Favila | فاقلـــة |
| Fernando. Ferdinand | فرذلند |
| Fernan Gonzales | فرنان غنصالص |
| Froila | فرويلة |
| La Frontera | ألفرنتيره |
| Galicia | جلّيقية |
| Garcia | غرسية |
| Gaule | غاليس |
| Gerona | جيرندة |
| Gilbraltar | جبل طارق — جبل الفتح |
| Goths— Godos | القوط — الغوط |
| Granada | غرناطة |
| Gregorlus | جرجير |
| Guadalajara | وادى الحجارة |
| Guadalete | وادى لكّه |
| Guadalquivir | الوادى الكبير — النهر الأعظم |
| Guadarrama | وادى الرملة |
| Guadiana | وادى يانة — وداى أنة |
| Guadix | وادى آش |
| Huesca | وشقة |
| Ivica-Ibiza | جزيرة يابسة |
| Jaca | جاقة |
| Jaen | جيّان |
| Jódar | شوذر |
| Lamigo | لميقة |
| Lausitania | البرتغال القديمة |
| León | ليون ( جليقية )|

Lerida — لاردة
Lisbon-Lisboa — أشبونة — لشبونة
Lombardy — بلاد اللنبرد — أنكبردية
Lopez — لب
Lorca — اورقة
Lugo — لُك
Lyon — اوذون — لوطون
Madelin — حصن مادلين
Magerit — مجريط
Majorca-Mallorca — جزيرة ميورقة
Málaga — مالقة
Martos — مرتش
Mauretania — المغرب الأقصى
Medinaceli — مدينة سالم
Medina-Sidonia — شذونة
Mérlda — ماردة
Mertola — مارتلة — ميرتلة
Minorca — جزيرة منورقة
Monzon — منتشون
Montimayor — منتميور
Montileon — منتلون
Morón — مورور
Mozárabes — المستعربون أو النصارى المعاهدون
Mula — مولة
Murcia — مرسية
Narbonne — أربونة
Navarra — بلاد البشكنس — نبرة
Niebla — لبلة
Normans — الأردمانيون — المجوس
Ocsonoba — أكشونبة
Orelius — أورالى
Oria — أوْرية
Orihuela — أوريوله
Pallares — بليارش
Pamplona — بنبلونة
Pedro — بِطْرُه
Pelaglus-Pelayo — بلاى — بلايو

Priego — باغة
Pyrenees Pirineos — جبال البرنيه أو البرت أو البرتات
Poley — بلاى — بلى
Rejio — ريُه (كورة)
Ramiro — ردمير — رذمير
Ramon Berenguer — رمند
Rhône — نهر (وادى) رذونة
Roderic — لذريق — رذريق
Roncesvalles — باب شزروا — باب الشزرى
Ronda — رندة
Rueda — حصن روطة
Salmanca — شلمنقة
Sancho — شانجُه
San Esteban — شنت إشتيبن
Santa Maria de Algarve — شنتمرية الغرب

| | | | |
|---|---|---|---|
| Santarein-Santarem | شنترين | Toulouse | تولوشة |
| Santaver | شنت برية | Trujilllo | تَرجالُه |
| Santiago | شنت ياقب | Tudela | تُطيلة |
| Saragossa-Zaragoza | سرقسطة | Tudmir | تدمير |
| Sardegna | جزيرة سردانية | Ubeda | أبّدة |
| Sicilia | صقلية | Urgel | أرقلة |
| Ségovia | شَقوبية | Vacasorra | بقسرّة |
| Seville-Sevilla | إشبيلية | Valencia | بلنسية |
| Sierra de Almaden | جبال البرانس | Valtierra | بلتيرة |
| Sierra Morena | جبل الشارّات | Valladolid | بلد الوليد |
| Sierra Nevada | جبل شلير—جبل الثلج | Viguera | بقيرة |
| Tagus-Tajo | نهر التاجه أو التاجو | Villanueva | بلّة نوبه |
| Tanger — Tangier | طنجة | Viseu | بازو |
| Tarifa | جزيرة طريف — طريف | Xativa-Jativa | شاطبة |
| Tarragona | طرّكونة | Xenil-Genil | نهر شنيل |
| Toledo | طليطلة | Xeres-Jerez | شريش |
| Torrox | طرّش | Xecunda | شقندة |
| Tortosa | طرطوشة | Zamora | سمّورة |

# فهرست الموضوعات

( للقسم الثانى من الكتاب )


## الكتاب الثانى

### الدولة الأموية فى الأندلس

### القسم الثالث – عبد الرحمن الناصر وقيام الخلافة الأندلسية

الفصل الأول : ولاية عبد الرحمن الناصر وقيام الخلافة الأندلسية.. ... ٣٧٢

الفصل الثانى : خلال الناصر ومآثره ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٤٣٥

الفصل الثالث : غزوات المسلمين فى غاليس وشمال إيطاليا وسويسره... ٤٦٤

## الكتاب الثانى

### الدولة الأموية فى الأندلس

### القسم الرابع – ربيع الخلافة الأندلسية

الفصل الأول : الحكم المستنصر بالله. ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٤٨٢

الفصل الثانى : هشام المؤيد بالله ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٥١٧

## الكتاب الثالث

### الدولة العامرية

الفصل الأول : الحاجب المنصور ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٥٣٤

الفصل الثانى : خلال المنصور ومآثره . ... ... ... ... ... ... ... ... ٥٦٨

الفصل الثالث : الممالك النصرانية الإسبانية خلال القرن العاشر الميلادى... ٥٨٨

١ – نشأة مملكة قشتالة . ... ... ... ... ... ... ... ... ٥٩٠

٢ – مملكة ليون ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٥٩٢

٣ – مملكة ناقار ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٥٩٩

صفحة

٤ — عناصر المجتمع فى اسبانيا النصرانية.. ... ... ... ٦٠١
٥ — تنظيم السلطات السياسية . ... ... ... ... ... ٦٠٣
الفصل الرابع : عبد الملك المظفر بالله. ... ... ... ... ... ... ... ٦٠٧
الفصل الخامس: عبد الرحمن بن المنصور وسقوط الدولة العامرية ... ... ٦٢٢

## الكتاب الرابع

### سقوط الخلافة الأندلسية ودولة بنى حمّود

الفصل الأول : الخلافة فى معترك الفتنة والفوضى... ... ... ... ... ٦٤٢
الفصل الثانى : دولة بنى حمود. ... ... ... ... ... ... ... ... ٦٥٦

## الكتاب الخامس

### النظم الإدارية والحركة الفكرية فى عصرى الإمارة والخلافة

الفصل الأول : النظم الدستورية والعسكرية الاقتصادية فى عصرى الإمارة والخلافة ... ... ... ... ... ... ... ... ٦٨٠
الفصل الثانى : الحركة الفكرية الأندلسية فى عصرى الإمارة والخلافة... ٦٩١

### وثائق تاريخية

١ — كتاب الناصر بشأن فتنة ابن مسرة... ... ... ... ... ... ٧٠٨
٢ — كتاب الناصر عن موقعة الخندق ... ... ... ... ... ... ٧١١
ثبت المراجع ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٧١٥
فهرست الوثائق التاريخية ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٧٢٠
فهرست الشعر والشعراء ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٧٢١
فهرست الأعلام الجغرافية والتاريخية الأندلسية ... ... ... ... ... ٧٢٦

## فهرست الخرائط

١ — خريطة قرطبة الإسلامية ... ... ... ... ... ... ... ... ٤٤٩
٢ — الممالك الإسبانية النصرانية فى القرن الحادى عشر الميلادى ... ... ٥٩٥

# فهرست الكتب


الإحاطة فى أخبا غرناطة ، لابن الخطيب ؛ ٩
أخبار كورة البيرة لمطرف بن عيسى الغسانى ؛ ٥٠٥
أخبار ملوك الأندلس وخدمتهم وغزواتهم ونكباتهم لأحمد بن موسى الرازى ؛ ٧٠٠
أخبار النحويين لأبى بكر الزبيدى ؛ ٧٠٣
أسباب نزول القرآن لعبد الرحمن بن فطيس ؛ ٧٠٥
الاستظهار المغالبة ، على من أنكر فضل الصقالبة ؛ ٥٧٩
الإستيعاب فى أنساب أهل الأندلس لأحمد بن موسى الرازى ؛ ٧٠٠
أعلام النبوة ودلالات الرسالة ، لعبد الرحمن بن فطيس ؛ ٧٠٥
أعمال الأعلام لابن الخطيب — ٩ ؛ ٤١٩
الإمامة والسياسة لابن قتيبة الدينو — ٢٤
أنساب بنى أمية لأبى الفرج الأصفهانى ؛ ٥٠٥
أنشودة رولان ؛ ١٧٨ ، ١٨١ ، ١٨٢
البيان المغرب لابن عذارى المراكشى ؛ ٩ ، ٨٥ ، ٥١١ ، ٥٧٨ ، ٦١٣ ، ٦٢٠ ، ٦٦١
تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ؛ ٧٠١
تاريخ الأندلس لأحمد بن موسى العروى ؛ ٧٠١
تاريخ أورسيوس ؛ ٤٥٣ ، ٤٥٤
تاريخ ألفونسو الحكيم ؛ ٤١٩
تاريخ النصارى المعاهدين للمستشرق سيمونيت ؛ ٢٦٨ ، ٣٨٣
تفسير القرآن لبقى بن مخلد ؛ ٦٩٤
جمهرة أنساب العرب ، لابن حزم القرطبى ؛ ٥٠٤
الجوامع — حروب الإسلام — غريب الحديث — فضائل الصحابة — طبقات الفقهاء والمحدثين — مصابيح الهدى — الواضحة ؛ لعبد الله بن حبيب السلمى ؛ ٦٩٢
الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، لابن بسام ؛ ٩ ، ٦٢٠ ، ٦٩٥
رواية إيزيدور الباجى ؛ ٣٤ ، ٦٣ ، ٧٦ ، ٨٢ ، ٢٠٩
الرواية — الروايات اللاتينية — ١٦٩ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٧٥-١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨٣
صفة قرطبة وخططها ومنازل الأعيان فيها ، لأحمد ابن موسى الرازى ؛ ٧٠٠
العقد الفريد ، لأبى عمر بن عبد ربه ٢٢٤ ، ٣١٥ ، ٣٢١ ، ٣٥١ ، ٦٩٥ ، ٦٩٦ ، ٧٠٠
كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى — ٥٠٥
كتاب الحشائش الطبية ، لديسقوريدس — ٤٢٣ ، ٤٥٤
كتاب الحكم المستنصر فى الأنساب — ٥٠٤
كتاب الطير ليوسف بن هارون الرمادى ؛ ٧٠٣
كتاب «الفصوص» فى الآداب والأشعار والأخبار لصاعد بن الحسن البغدادى ؛ ٥٧٩ ، ٥٨٠ ، ٧٠٤
كتاب فى فضائل الصحابة لعبد الرحمن بن فطيس ؛ ٧٠٥
كتاب قضاة قرطبة ، لابى عبد الله الخشنى ؛ ٥٠٥
المآثر العامرية ، أو أخبار الدولة العامرية ، لابن حيان ؛ ٥٧١ ، ٥٧٧
مختصر ابن عبد الحكم ، للقاضى الأبهرى ؛ ٦٠٥
لحن العامة لأبى بكر الزبيدى ؛ ٧٠٣
مسند النبى لبقى بن مخلد ؛ ٦٩٤
مسند حديث محمد بن فطيس ؛ ٧٠٥
المنتخب فى روايات مذهب مالك لمحمد بن عمر بن لبابة ؛ ٦٩٦
مطمح الأنفس للفتح بن خاقان ؛ ٥٠٤
المقتبس فى تاريخ رجال الأندلس ، لابن حيان ؛ ٧ ، ٨ ، ٤١٥ ، ٥١١ ، ٥٧١ ، ٦٩٦ ، ٦٩٩
منظومة الشاعر سوذى عن ردريك ؛ ٩٧
موطأ مالك ؛ ٢٢٩
نزهة المشتاق ، فى اختراق الآفاق ، للإدريسى ؛ ٤٨
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب — ٩ ، ١٠
الواضح لأبى بكر الزبيدى ؛ ٧٠٣

# فهرست القبائل والطوائف والدول

## ا ـ ب ـ ت


الإباضية ؛ ٦٩ ، ١١٨ ، ٥٠١

الأدارسة ؛ ٤٢٦ ، ٤٩٢ ، ٤٩٦ — ٤٩٨ ، ٥٠١ ، ٥٤٤ ، ٥٤٥ ، ٦٥٦ ، ٦٥٧

الأردمانيون ؛ انظر النورمانيون

الأسالمة ، المسالمة ؛ انظر النصارى المعاهدون

الإسبان ؛ ٢٠٦ ، ٢١٠ ، ٢٣٨ ، ٤٤٢

الأسرة الكارلية ؛ ٧٩ ، ٨٠ ، ١٧١

الأسرة الميروفنجية ؛ ٧٨ ، ٧٩ ، ٨١ ، ١١٦

الإسلام ؛ ١٨ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٣١ ، ٣٦ ، ٤٠ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٤٨ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٧—٦٩ ، ٨٣ ، ٩٢ — ٩٤ ، ٩٦ ، ٩٩ ، ١٠٦ ، ١٠٨ — ١١٤ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤٢ ، ١٤٧ ، ١٥٥ ، ١٧٠—١٧٢ ، ١٨٧ ، ١٩٧ ، ٢٠٨ ، ٢١٤ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٣٨ ، ٢٧٣ ، ٣٠٥ ، ٣٣٧ ، ٣٨٢ ، ٣٨٤ ، ٣٨٦ ، ٣٨٧ ، ٤٢١ ، ٤٣٣ ، ٤٣٥ ، ٤٤٢ ، ٤٥٠ — ٤٥٢ ، ٤٥٤ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ — ٤٥٩ ، ٤٧٢ ، ٤٨٥ ، ٥٠٥ ، ٥٠٧ ، ٥١٥ ، ٥١٩ ، ٥٦٩ ، ٥٧٣ ، ٥٨٤ ، ٦٠٧

الأشراف ؛ ٦٠١ — ٦٠٥

الآقار ؛ ١٧٢

إفرنجه ؛ انظر الفرنج

الآلان ؛ ٢٩ ، ٩٤

آل البيت ؛ ١٤١ ، ١٤٤ ، ١٤٦ ، ٤٢٩ ، ٦٥٧

الألمان ؛ ٤٥٠

الألمانى ، قبائل ؛ ٧٨

إمارة جليقية ؛ انظر مملكة جليقية

إمارة قرطبة ؛ ١٨٤ ، ٢١٤ ، ٢٩٠ ، وانظر الخلافة الأندلسية

الإمامية ؛ ١٤٢

إمارة قطلونية ( وبرشلونة ) ؛ ٥٤٣ ، ٦٠٩

الإمبراطورية الجرمانية ؛ ٤٥٠

الإمبراطورية الرومانية ؛ انظر الدولة الرومانية

الأمويون ؛ انظر بنو أمية

الأندلسيون ، ٢٤٥ ، ٢٩٠ ، ٤٩٥ ، ٦٦٣

الأوس ؛ ٦٨

إياد ؛ ٦٨

الإيطاليون ؛ ٤٥٠

البابوية ؛ ٣٥٩ ، ٤٧٢

البرانس ، قبيلة ؛ ٢٠٥ ، ٣٩٣

البربر ؛ ١٧ — ٢٢ ، ٢٥ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٩ ، ٦٦ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٧٥ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ١٠٠ ، ١١٧ — ١٢٥ ، ١٣٥ ، ١٤٢ ، ١٥٥ ، ١٥٨ ، ١٦٠ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٨ ، ١٨٥ ، ١٩٤ ، ١٩٨ ، ٢٠٠ ، ٢٠٣ — ٢٠٦ ، ٢١٢ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٢٣٣ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٥٧ — ٢٥٩ ، ٢٦٩ ، ٢٧٥ ، ٢٩٠ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٣ ، ٣٣١ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٦٠ ، ٣٧٥ ، ٣٩١ ، ٣٩٤ ، ٤٢٦ ، ٤٤٠ ، ٤٤٥ ، ٤٤٨ ، ٤٩٥ ، ٤٩٦ ، ٥٠١ ، ٥٠٩ ، ٥١٠ ، ٥١٣ ، ٥١٨ ، ٥٣١ ، ٥٣٦ ، ٥٣٨ ، ٥٣٩ ، ٥٤٢ ، ٥٤٥ ، ٥٤٦ ، ٥٥٣ ، ٥٥٧ ، ٥٦٢ ، ٥٦٤ ، ٥٧٠ ، ٥٧٦ ، ٦١٨ ، ٦٢٠ ، ٦٢٢ ، ٦٢٨ ، ٦٣٠ ، ٦٣٢ ، ٦٣٧ ، ٦٤٣ — ٦٥٧ ، ٦٦٤ ، ٦٦٦ ، ٦٦٨ ، ٦٧٠ — ٦٧٤ ، ٦٨٣ ، ٦٨٦ — ٦٨٨

البرجونيون ؛ ١١٥

برغواطة ؛ ٦٧٣

البريطانيون ؛ ١٠٩
البشكنس ؛ ٨٣ ، ١٣٣ ، ١٤٦ ، ١٧٣ ، ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨٢ ، ٢١٤ ، ٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٢٢٦ ، ٢٣٥ ، ٢٤٢ ، ٢٥٦ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٦ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٧ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٤٠٥ ، ٤٠٨ ، ٥٠١ ، ٥٣٩ ، ٥٤٧ ، ٥٤٨ ، ٥٩١ ،
البلديون ؛ ٦٧ ، ١٢٤ه ، ١٢٥ ، ٢٠٤ ، ٦٨١ ، وانظر المولدون
البيزنطيون ؛ ٢٤٥ ، ٤٥٦
بنو أبي عبدة ؛ ٢٠٥ ، ٣١٢ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٤٧ ، ٥٧٤
بنو أسد ؛ ٦٨
بنو إسرائيل ، انظر اليهود
بنو أمية ؛ ٦٩ ، ١٣٠ ، ١٣٦ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٣ — ١٤٦ ، ١٤٨ — ١٥١ ، ١٥٣ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٧٠ ، ١٨٦ ، ١٨٩ ، ١٩٤ ، ١٩٦ — ١٩٨ ، ٢٠٠ — ٢٠٢ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٣٦ ، ٢٤٨ ، ٢٧٥ ، ٢٨٢ ، ٢٨٩ ، ٢٩١ ، ٣٠٧ ، ٣١٠ ، ٣٢٢ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٤٤ ، ٣٤٧ ، ٣٥٠ ، ٣٧٣ ، ٣٨٣ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ٤٨٢ ، ٤٩٢ ، ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٤٩٦ ، ٥٠٥ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩ ، ٥٣١ ، ٥٤٤ ، ٥٥١ ، ٥٥٥ ، ٥٥٩ ، ٥٨٢ ، ٥٨٣ ، ٦٠٦ ، ٦١٣ ، ٦١٨ ، ٦١٩ ، ٦٢٥ ، ٦٢٨ ، ٦٣٣ ، ٦٤٣ ، ٦٤٥ ، ٦٤٦ ، ٦٥٧ ، ٦٥٨ ، ٦٦٠ ، ٦٦١ ، ٦٦٤ ، ٦٦٦ ، ٦٦٨ ، ٦٦٩ ، ٦٨١ — ٦٨٦ ، ٦٩١
بنو برزال ؛ ٥٠١ ، ٥١٨ ، ٥٢٦ ، ٦٥٤ ، ٦٧٠
بنو بسيل ؛ ٢٠٥
بنو تجيب ؛ انظر بنو هاشم
بنو جفنة ؛ ٦٨
بنو الجليق ؛ ٣٠٤ ، ٣٣٩ ، ٣٨٩
بنوجهور ؛ ٢٠٥ ، ٥٧٤
بنو حجاج ؛ ٣٣١ — ٣٣٣ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧
بنو حذير ؛ ٥٧٤ ، ٦١٨
بنو حفصون ؛ ٣٢٠
بنو حمدان ؛ ٤٤٧
بنو حمود ؛ ٦٥٤ ، ٦٧٣ ، ٦٧٤ ، ٦٧٦ ، ٦٨٣
بنو خزر ؛ ٤٩٣ ، ٤٩٤
بنو خلدون ؛ ٣٣١ ، ٣٣٢
بنو دانس ؛ ٣٠٥
بنو دمر ؛ ٦٥٤
بنو ذو النون ؛ ٣٠٧ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٩٠ ، ٣٩٨ ، ٤٠٠ ، ٤٣٦
بنو رزين ؛ ٤٢٦
بنو رستم ؛ ٣١٤
بنو زروال ؛ ٤٢٦
بنو شبريط (بنو الطويل) ؛ ٣١٩ ، ٣٤٢ ، ٤٢٦
بنو شهيد ؛ ٢٠٥ ، ٣١٢ ، ٣١٨ ، ٥٧٤ ، ٦١٨
بنو عامر ؛ ٦٣٠ ، ٦٣٢ — ٦٣٤ ، ٦٣٩ ، ٦٤٣ ، ٦٤٩ — ٦٥١ ، ٦٦٠ ، ٦٨٣
بنو العباس ؛ ١٣٠ ، ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٥٠ ، ١٦٢ ، ١٨٥ ، ١٩٧ ، ٢٢٩ ، ٣١٤ ، ٣١٨ ، ٤٢٩ ، ٦٨٢
بنو عصام ؛ ٤٢٥
بنو عمروس ؛ ٣٠١ ، ٣١٩
بنو عمريل بن تيملت ؛ ٤٩٩
بنو غزوال ؛ ٤٢٦
بنو غومس ؛ ٥٦٢ ، ٦١١ ، ٦١٢ ، ٦٣٦
بنو فطيس ؛ ٥٧٤ ، ٦١٨
بنو قسي ؛ ٢٣٨ ، ٢٥٦ ، ٣٠٠ — ٣٠٢ ، ٣١٤ ، ٣١٩ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ — ٣٤٣ ، ٣٤٦ ، ٣٥٧ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦٣ ، ٤٦٧ ، ٥٤٥
بنو كلاب ؛ ١٣٥
بنو كنانة ؛ ٦٨
بنو لخم ؛ انظر لخم
بنو مدرار ؛ ٣١٤
بنو مطروح ؛ ٣٢٠
بنو مغيث ؛ ٢٠٥
بنو المنذر ؛ ٦٨
بنو هاشم التجيبيون ؛ ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٩٩ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤٠٨ ، ٤١٢ ، ٤٢٦ ، ٥٤٩ ، ٥٥٠

بنو يفرن ؛ ٥٤٥ — ٥٤٧ ، ٦٥٤
التابعون ؛ ٥٣ ، ١٠٦ ، ١٠٧
تبع ؛ ٦٨
التروبادور ؛ ٤٧٨
تميم ؛ ٦٨ ، ٥٧٧
ثقيف ؛ ٦٨

## ج — ز

جذام ؛ ٦٨
جراوة ؛ ٢٢
الجرمان ؛ ٦٣ ، ١٧٣
الجلالقة ؛ ٢١٠ ، ٢١٣ ، ٢٢١ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٢٤٢ ، ٢٥٩ ، ٣٥٤ ، ٤٠٩ ، ٤٥٠ ، ٥٠١ ، ٦٢٠ ، ٦٩٧
الحبشة (الأحباش) ؛ ٦٨
الحجازيون ؛ ٧١
الحرورية ؛ ١١٨
حمير ؛ ٦٧ ، ٦٨ ، ٨٥ ، ١٤٢
خثعم ؛ ٨٧
خزاعة ؛ ٦٨
الخزرج ؛ ٦٨
الخلافة (العامة) ؛ ١٨ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٨٢ ، ٩٣ ، ٩٦ ، ١٠٦ ، ١٠٩ ، ١١٢ ، ١١٧ ، ١١٩ ، ١٣٠ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٤٢٩ ، ٤٣٥ ، ٤٤٠ ، ٤٥٤ ، ٥٤٠ ، ٥٤٦ ، ٥٥٥ ، ٦١٧ ، ٦٢٢ ، ٦٢٥ ، ٦٢٧ ، ٦٣٤ ، ٦٥٠ ، ٦٥٨ ، ٦٦٩
الخلافة الأموية ؛ ١٢٨ ، ١٣٤ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٥٠ ، ١٥٥ ، ١٩٦ ، ٤٢٩ ، ٤٤٠ ، ٥١٦ ، ٥٢٤ ، ٥٤١ ، ٦٥٠ ، ٦٦٠ ، ٦٧٦ ، ٦٨٠ ، ٦٨٢ — ٦٨٤ ، ٦٩٠
الخلافة الأندلسية ؛ ٤١٢ ، ٤٤٢ ، ٤٥٢ ، ٤٨٢ ، ٤٩١ ، ٥١٥ ، ٥١٩
الخلافة العباسية ؛ ١٧٠ ، ١٩٧ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤
الخلافة الفاطمية ؛ ٤٢٩ ، ٤٩٤ ، ٦٨٢
الخوارج ؛ ٦٩ ، ١١٧
الدولة الأموية ؛ ١٤٠ — ١٤٢ ، ١٤٦ ، ١٩٠ ، ١٩٣ ، ٢٠٤ ، ٢٢٤ ، ٢٨١ ، ٣٤٤ ، ٣٥١ ، ٤٤٠ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٤٦٠ ، ٤٦٢ ، ٤٦٥ ، ٥١٩ ، ٥٧٥ ، ٦٣٨ ، ٦٥٩ ، ٦٦٠ ، ٦٨١ — ٦٨٤ ، ٦٩١ ، ٦٩٥
الدولة البيزنطية ؛ ٥٤ ، ٢٨٢ ، ٤٢٦ ، ٤٥٦ ، ٥٧٢ .
الدولة الرومانية الشرقية ؛ ١٤ ، ١٦ — ١٩ ، ٢٩ ، ٩٣
الدولة الرومانية الغربية ؛ ١٧ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٦
الدولة العامرية ؛ ٤٤٠ ، ٥٧٩ ، ٦١٩ ، ٦٢٨ ، ٦٣٤ ، ٦٣٦ — ٦٣٨ ، ٦٤٣ ، ٦٥٠ ، ٦٥٧ ، ٦٧٦ ، ٦٨٣ ، ٦٨٥ ، ٦٩٠
الدولة العباسية ؛ ١٤٦ ، ٢٣٤ ، ٢٨٢ ، ٤٢٩ ، ٤٥١ ، ٤٥٦ ، ٥٧٢ .
الدولة الفاطمية ؛ ٤٢٦ ، ٤٥١ ، ٤٥٦
دولة الفرس ؛ ٩٢
الذميون ؛ ٢٠٦
ربيعة ؛ ٦٨
الرقيق ؛ ٦٤ ، ٦٠٢ ، ٦٠٣ ، ٦٨٧
الروم ؛ ١٥ ، ١٦ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٥ ، ٦٨ ، ١٠٧ ، ٤٥٣ ، ٤٥٤ — وانظر الرومان .
الرومان ؛ ٥١ ، ٥٦ ، ٧٠ ، ٩٥ ، ١٧٧ ، ٣٨٣ ، ٦٨٩
زناتة ، قبيلة ؛ ٢٥ ، ١١٩ ، ١٥١ ، ٢٠٥ ، ٤٢٦ ، ٤٢٨ ، ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٥٣١ ، ٥٣٨ ، ٥٤٥ ، ٥٤٦ ، ٥٥٧ ، ٥٥٨ ، ٦٠٩ ، ٦٣٦ ، ٦٦١
زويلة ، قبيلة ؛ ١٦

## س — غ

السكسون ؛ ١١٦ ، ١٦٥ ، ١٧٠ ، ١٧٥ ، ١٨٣ ، ١٨٨
السوابيون ؛ ٢٩ ، ٩٤
الشاميون ؛ ١٢٠ ، ١٢٣ — ١٢٦ ، ١٥١ ، ٢٠٤ ، ٦٨١ ، ٦٨٧
الشيعة ؛ ١٤١ — ١٤٦ ، ٣٨٨ ، ٤٢٧ ، ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٤٩٨ ، ٥٠٠ ، ٥٤٤ ، ٥٤٥
الصفرية ؛ ٦٩ ، ١١٨
الصقالبة ؛ ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٤٩ ، ٢٧٩ ،

٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٣١٢ ، ٤١٣ ، ٤٤٨ ، ٤٥٠ ، ٤٥١ ، ٤٥٦ ، ٤٥٨ ، ٤٦١ ، ٤٨٣ ، ٤٩٨ ، ٥١٤ ، ٥١٧ ، ٥١٨ ، ٥٢٤ ، ٥٢٦ ، ٥٢٧ ، ٥٣١ ، ٥٣٦ ، ٥٥٦ ، ٥٦٩ ، ٥٧٩ ، ٥٨٤ ، ٦١٨ ، ٦٢٢ ، ٦٣٠ ، ٦٣٢ ، ٦٤٣ ، ٦٨٤ ، ٦٨٥

الصليبيون ؛ ٤٧٩

صنهاجة ؛ ٢٥ ، ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٥٣١ ، ٥٥٧ ، ٥٥٨ ، ٦٤٤ ، ٦٥٤ ، ٦٦٠ ، ٦٦٢ ، ٦٧١

الطوائف ، ملوك ودول ؛ ٢٠٥ ، ٢٨١ ، ٣٠٧ ، ٣٤٠ ، ٤٧٥ ، ٥١٦ ، ٦٧٧ ، ٦٨٣ ، ٦٨٦ ، ٧٠٤

العبيديون ؛ أنظر الفاطميون

العجم ؛ ٦٨

العراقيون ؛ ٧٠

العرب ؛ ١٤ — ١٦ ، ٢٠ — ٢٢ ، ٢٥ — ٢٧ ، ٣٣ — ٣٨ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٧ — ٤٩ ، ٥٢ — ٥٤ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٣ — ٦٩ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٨١ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠١ — ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١٠٩ — ١١١ ، ١١٤ — ١١٩ ، ١٢١ — ١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٣٣ ، ١٣٥ ، ١٤٢ ، ١٥٨ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٧ ، ١٨١ ، ١٩٤ ، ١٩٨ ، ٢٠٣ — ٢٠٦ ، ٢٠٨ ، ٢١٢ ، ٢٢٧ ، ٢٣٠ ، ٢٣٨ ، ٢٤٩ ، ٢٦٩ ، ٢٧١ ، ٢٩٢ ، ٣١٩ ، ٣٢٣ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٥ ، ٣٤٤ ، ٣٧٦ ، ٣٨٢ ، ٣٩١ ، ٤٢٩ ، ٤٤٨ ، ٤٥١ ، ٤٥٤ ، ٤٦٤ ، ٤٦٩ ، ٤٧٣ ، ٤٧٤ ، ٤٧٧ ، ٤٧٨ ، ٤٧٩ ، ٤٨٢ ، ٥٠٤ ، ٥٠٧ ، ٥٠٨ ، ٥٣١ ، ٦٦٠ ، ٦٨٤ ، ٦٨٦ ، ٦٨٧ ، ٦٩٦

الغاليون ؛ ٩٥ ، ١٠٩

غسان ؛ ٦٨

الغسقونيون ؛ ٢٦٦

غطفان ؛ ٦٨

غمارة ، قبيلة ؛ ٤٩٦ ، ٥٥٧

## ف — ق — ك

الفاطميون ؛ ٤٠١ ، ٤٠٩ ، ٤٢٥ — ٤٢٧ ، ٤٨٨ ، ٤٩٢ ، ٥٤٤ ، ٥٤٦

الفتيان الصقالبة ( والعامريون ) ؛ ٣٤٨ ، ٤٣٩ ، ٦١٦ ، ٦١٨ ، ٦٣٧ ، ٦٤٣ ، ٦٤٤ ، ٦٤٧ ، ٦٤٩ ، ٦٥٠ ، ٦٥٤ ، ٦٥٨ ، ٦٦٢ ، ٦٧٧ ، ٦٨٣ ، ٦٨٥

الفرس ؛ ٦٨ ، ٧٠

الفروسية الأندلسية ؛ ٢٧٤

الفرنج ؛ ٢٩ ، ٥٣ ، ٦٣ ، ٧٦ — ٨٣ ، ٨٩ ، ٩٣ — ٩٦ ، ٩٨ — ١٠٤ ، ١٠٦ — ١٠٨ ، ١١٠ ، ١١٣ — ١١٦ ، ١٣٣ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٤٧ ، ١٥٥ ، ١٧٠ — ١٧٦ ، ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٦ ، ٢٠٥ ، ٢٠٩ ، ٢١٢ ، ٢٢٦ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٩ ، ٣٦١ ، ٤٠٤ ، ٤٠٦ ، ٤٦٤ ، ٤٦٥ ، ٥٤٣ ، ٦٤٨ ، ٦٨٧

الفرنسيون ؛ ٤٥٠ ، ٥٤٨

الفهرية ؛ ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٦٢ ، ١٨٦ ، ١٩٠ ، ١٩١

الفيكنج ؛ ٢٦١

القرامطة ؛ ٥٤٤

قريش ؛ ٦٨ ، ٦٢٦ ، ٦٢٨ ، ٦٣١ ، ٦٤٥

القشتاليون ؛ ٤٨٧ ، ٥٠٠ ، ٥٠١ ، ٥٢٧ ، ٥٦٥ ، ٥٩١ ، ٥٩٨

قضاعة ؛ ٦٨

القوط ؛ ٢١ ، ٢٦ — ٢٩ ، ٣١ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٤ — ٤٧ ، ٤٩ ، ٥١ — ٥٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٧٠ ، ٧٥ ، ٧٨ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٩ ، ٩٤ ، ١١٦ ، ١٢٦ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٧ ، ١٧٣ ، ٢٠٩ ، ٢٢١ ، ٢٣٧ — ٢٣٩ ، ٢٣٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦٨ ، ٢٩٥ ، ٥١٥ ، ٦٠١ ، ٦٠٢ ، ٦٨٩

القيسية ؛ ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٩٠

كتامة ؛ ٣٣٩ ، ٤٩٧

الكرسى الرسولى ؛ ٣٥٩
الكلاميون ؛ ٤٣١

## ل — ى

لخم ؛ ٢٣ ، ٢٧ ، ١٢٣ ، ٣٣١
اللومبارد ؛ ١١٦ ، ١٧٣ ، ٤٥٠
المجر ؛ ٤٧١ ، ٤٧٩
المجوس ؛ انظر النورمان
مدغرة ، قبيلة ؛ ٢٠٥
مديونة ، قبيلة ؛ ٢٠٥
المروانية ؛ انظر بنو أمية
المستعربون ؛ انظر النصارى المعاهدون
المسلمون ؛ ١٦ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٣٩ ، ٤٢ ، ٤٧ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٤ ، ٦٢ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٧١ – ٧٥ ، ٨٠ – ٨٣ ، ٨٦ ، ٨٩ ، ٩٦ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٣ – ١٠٨ ، ١١٤ – ١١٦ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٦ ، ١٣٨ ، ١٧٠ ، ١٧٣ ، ١٧٦ – ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ٢٠٥ ، ٢١٠ – ٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢١ ، ٢٢٧ ، ٢٢٩ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٤٠ – ٢٤٢ ، ٢٤٥ ، ٢٦٠ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٦ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٩٢ ، ٢٩٦ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٤٤ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ – ٣٥٧ ، ٣٥٩ ، ٣٦١ – ٣٦٣ ، ٣٨٣ ، ٣٨٨ ، ٣٩١ – ٤٠١ ، ٤٠٣ – ٤٠٦ ، ٤١٢ ، ٤١٤ ، ٤١٦ ، ٤١٧ ، ٤١٩ ، ٤٢٠ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣ ، ٤٦٥ ، ٤٦٨ – ٤٧٤ ، ٤٧٧ ، ٤٧٨ ، ٤٨٤ ، ٤٨٦ – ٤٩٠ ، ٤٩٨ ، ٥٠٢ ، ٥١٥ ، ٥٢٧ ، ٥٣٩ ، ٥٤٣ ، ٥٤٤ ، ٥٤٧ ، ٥٤٨ ، ٥٥٢ ، ٥٦٠ – ٥٦٦ ، ٥٦٨ ، ٥٧١ ، ٥٩٠ ، ٥٩٦ ، ٥٩٨ ، ٥٩٩ ، ٦١٠ ، ٦١٢ ، ٦١٣ ، ٦١٦ ، ٦٢٩ ، ٦٤٨ ، ٦٥١ ، ٦٥٢ ، ٦٨٩
المصريون ؛ ٧٤
مصمودة ؛ ٣٥٧ ، ٢٧٦ ، ٣٠٥ ، ٣٣٩ ، ٣٩٣
مضر ، المضرية ؛ ٦٨ ، ٨٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣٥ ، ١٤٤ ، ١٥٣ ، ١٥٧ ، ٢٠٤ ، ٢٢٥ ، ٢٥٥ ، ٢٦٠ ، ٦٣١ ، ٦٨١
المعتزلة ؛ ٤٣١
مغراوة ، قبيلة ؛ ٥٤٥ – ٥٤٧ ، ٥٥٨ ، ٦٠٩ ، ٦٥٤
مكناسة ، قبيلة ؛ ٢٠٥
مملكة أراجون ؛ ٢٣٦ ، ٥٤٤
مملكة آرل ؛ ٤٦٨
المملكة الإسبانية النصرانية ؛ ٥٥ ، ٨٣ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٣ – ٢١٥ ، ٢٢٠ – ٢٢٢ ، ٢٣٦ ، ٢٦١ ، ٣٥٣ – ٣٥٨ ، ٣٦٠ – ٣٦٢ ، ٤٦٥
مملكة أشتوريش ؛ ٣٦١
مملكة أكوتين ؛ ٢٠٩
مملكة جليقية ؛ ١٧٣ ، ٢٠٩ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٨ ، ٣١١ ، ٣٥٤ ، ٣٥٧ ، ٣٨٨
مملكة غرناطة البربرية ؛ ٢٠٦
مملكة الفرنج ؛ ٥٣ ، ٥٤ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٩٣ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ١٧١ ، ١٨٣ ، ٢٠٩ ، ٢٣٤ ، ٣٦١ ، ٤٥١ ، ٤٦٥ ، ٦٨٠
المملكة القوطية ؛ ٣٠ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٢٠٨
مملكة ليون ؛ ٢٦١ ، ٢٨٥ ، ٣٠٣ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٩١ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥ ، ٤١٣ ، ٤٨٤ ، ٤٨٩ ، ٥٢٩ ، ٥٤١ ، ٥٤٣ ، ٥٤٨ ، ٥٨٨ ، ٥٩٠ ، ٥٩٢ ، ٥٩٣ ، ٥٩٤ ، ٥٩٦ ، ٥٩٨ ، ٦١١ ، ٦١٢ ، ٦٢٩
مملكة نافار (نبره) ؛ ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٩١ ، ٥٩٩ ، ٦٠٠
الموالى ؛ ١٢١ ، ١٩٨ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٤٩ ، ٢٧٩ ، ٣٢٨ ، ٤٤٨ ، ٤٥٠ ، ٤٦١ ، ٥١٤ ، ٦٨٤ ، ٦٨٧
المولدون ؛ ٦٧ ، ٢٠٣ ، ٢٠٦ ، ٢٣٠ ، ٢٣٩ ، ٢٤٣ ، ٢٦٠ ، ٢٦٩ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤ ، ٣٠٠ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٣ ، ٣٢٨ – ٣٣٠ ، ٣٣٢ ، ٣٣٥ ، ٣٤٢ ، ٣٥٦ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ،

٣٨٢ ، ٣٨٩ ، ٤٥٨ ، ٤٨٢ ، ٥١٤ ، ٥١٥
الناڤاريون ؛ ١٧٣ ، ١٧٦ ، ٥٩٣
النصارى ؛ ٢٥ ، ٣٦ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٤ ، ٦٢ ، ٦٦ ، ٨١ ، ٨٥ ، ٨٩ ، ١٠٥ ، ١١٩ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٨٧ ، ١٩٨ ، ٢١١ — ٢١٦ ، ٢٢١ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٤ ، ٢٤٢ ، ٢٤٩ ، ٢٥٩ ، ٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ — ٢٧٣ ، ٢٨٨ ، ٢٩٢ — ٢٩٤ ، ٢٩٦ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٣ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣١٠ ، ٣١٦ ، ٣٢٨ ، ٣٣٠ ، ٣٤٢ ، ٣٤٤ ، ٣٤٦ ، ٣٥٤ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٥٩ ، ٣٧٩ ، ٣٨٢ — ٣٨٤ ، ٣٩١ — ٤٠٠ ، ٤٠٣ ، ٤٠٥ — ٤٠٧ ، ٤١٢ ، ٤١٤ ، ٤١٥ ، ٤١٧ ، ٤٢٠ — ٤٢٥ ، ٤٦٨ ، ٤٧٤ ، ٤٧٨ ، ٤٧٩ ، ٤٨٢ ، ٤٨٤ ، ٤٨٧ ، ٤٩٠ ، ٤٩٨ ، ٥٠٠ — ٥٠٢ ، ٥٠٦ ، ٥٢٨ ، ٥٣٩ ، ٥٤٠ ، ٥٤١ ، ٥٤٤ ، ٥٤٧ ، ٥٤٩ ، ٥٦٠ ، ٥٦٣ — ٥٦٥ ، ٥٦٧ ، ٥٦٨ ، ٥٧٣ ، ٥٨٩ ، ٥٩٤ ، ٥٩٨ ، ٦١٣ ، ٦١٦ ، ٦٤٩ ، ٦٥١ ، ٦٨٢ ، ٦٨٩ ، ٦٩٧
نصارى الشمال ؛ ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٣٩ ، ٢٤١ ، ٢٦١ ، ٢٩٥ ، ٦٨٠ ، ٦٨٧
النصارى المعاهدون ؛ ٦٦ ، ١٩٨ ، ٢٠٦ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٦٨ — ٢٧٠ ، ٢٩٥ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ٥١٥ ، ٥٧٠ ، ٦٨٢ ، ٦٨٨ ، ٦٩٥
النصرانية ؛ ١٧ ، ٢٨ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٤٤ ، ٦٤ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٦ ، ١٠١ ، ١٠٦ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١٣٧ ، ١٦٩ ، ١٧١ ، ٢٠٦ ، ٢٢١ ، ٢٣٤ ، ٢٦٧ ، ٣٠٥ ، ٣٣٧ ، ٣٨١ ، ٤٥٢ ، ٤٥٧ — ٤٥٩ ، ٤٧٤
نفزة ، قبيلة ؛ ١٥٠ ، ٢٠٥ ، ٢٧٦
النورمان ؛ ٢٦١ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٧٧ ، ٢٧٩ ، ٢٨٤ ، ٢٨٨ ، ٢٩٦ — ٢٩٨ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٤٧٩ ، ٤٨٨ ، ٤٨٩ ، ٥٩٥ ، ٦٨٧
هوارة ، قبيلة ؛ ٢٠٥ ، ٣٣٩
هوازن ، قبيلة ؛ ٣٢٩
الهون ؛ ٢٨
الوثنية ؛ ١٧
الوندال ؛ ١٧ ، ١٨ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٦٤ ، ٩٤
يثرب ؛ ٦٨
اليمنية ؛ ٦٧ ، ٦٨ ، ٨٣ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣٥ ، ١٤٤ ، ١٥١ — ١٥٣ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٩٤ ، ٢٠٤ ، ٢٢٥ ، ٢٥٥ ، ٣٣١ ، ٦٣٢ ، ٦٨١
اليهود ؛ ٣١ ، ٣٢ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٦٥ ، ٢٠٦ ، ٢٢٩ ، ٢٤٩ ، ٥٠٦ ، ٥١٥ ، ٥١٦ ، ٦٨٢
اليهودية ؛ ١٧ ، ٣٢

# فهرست البلدان والأماكن


— ا —

أبدة ؛ ٣٨٣ ، ٣٨٤

آبلة ؛ ٢١٥

ابنيونش ؛ ٦١٢

أجدة ؛ ٧٠ ، ١١٥ ، ١٣٣

أراجون ؛ ٥٩١ ، وانظر الثغر الأعلى

أربونة ؛ ٥٣ ، ٧٠ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٨٢ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١١٤ — ١١٦ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٧٠ ، ١٨٧ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢٢٧ ، ٢٥٠ ، ٤٦٤ ، ٤٧٤

الأردن ؛ ١٢٦

أرشدونة ؛ ٣١٨ ، ٣٢٠ ، ٣٢٤ ، ٣٣٦

أرقلة ؛ ٧٠ ، ١٣٣

أركش ؛ ٦٧٥

آرل ؛ ٩٠ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ٢٩٧ ، ٤٦٦

أرملاط ؛ ٤١٦ ، ٦٣٧ ، ٦٤٥ ، ٦٤٦

إسبانيا ؛ ١٧ ، ٢١ ، ٢٦ — ٣٩ ، ٤٦ ، ٥١ — ٥٥ ، ٥٩ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٨٣ ، ٩٣ ، ٩٦ ، ١٠٢ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١٣ ، ١١٧ ، ١٢٣ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٥٥ ، ١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٦ ، ١٨١ ، ١٨٦ — ١٨٨ ، ١٩١ ، ١٩٤ ، ٢٠٧ — ٢٠٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٧ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٨ ، ٢٦٢ ، ٢٩٠ ، ٣٥٣ ، ٣٧٩ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ٣٩١ ، ٤١٤ ، ٤٢٢ — ٤٢٤ ، ٤٣٥ ، ٤٤٦ ، ٤٦٩ ، ٤٧٧ ، ٤٧٨ ، ٤٨٩ ، ٤٩١ ، ٥٠٨ ، ٥٤٤ ، ٥٥٩ ، ٥٦١ ، ٥٦٨ — ٥٧٣ ، ٥٨٨ ، ٥٨٩ ، ٥٩٤ ، ٥٩٩ ، ٦٠١ ، ٦٧٥ ، ٦٧٦ ، ٦٧٧ ، ٦٨٩

إسبانيا المسلمة ؛ ١١١ ، ١٧٠ — ١٧٢ ، ١٨٣ ، ٢٣٣ ، ٢٣٥ ، ٢٣٨ ، ٢٦١ ، ٣٩١ ، ٤٤٢ ، ٤٨٣ ، ٥٦٤ ، ٥٦٨ ، ٥٧٢ ، ٥٧٣ ، ٥٩٤ ، ٦٠١ ، ٦٧٦ ، ٦٩٠

إستبة ؛ ٣٣٧

إستجة ؛ ٤٩ ، ٧٠ ، ١٣٢ ، ١٦٣ ، ٢٣٣ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٨ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٧٥

أسترقة ؛ ٥١ ، ٧٠ ، ١٣٢ ، ١٣٨ ، ٢١٢ ، ٢١٤ ، ٢٢٨ ، ٣٥٦ ، ٣٥٨ ، ٣٩١ ، ٥٤٢ ، ٥٥٢ ، ٥٦٢ ، ٥٩٨

أستورياس ( اشتوريش ) ؛ ٥١ ، ٧٥ ، ٨٣ ، ٨٥ ، ١٣٨ ، ٢٠٨ ، ٢١٠ — ٢١٢ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٥٦٤

إسكتلندا ؛ ٩١

الإسكندرية ؛ ٢٤٥

اسكندناوة ؛ ٢٨ ، ٢٦٠ ، ٢٨٤

آسيا الصغرى ؛ ٥٤ ، ٩٢ ، ٩٣

أشبونة ؛ ٧٠ ، ٧١ ، ١٣٢ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٣٠٦ ، ٣٥٤ ، ٤٨٨

إشبيلية ؛ ٣٤ ، ٥٢ ، ٥٦ ، ٧٠ ، ٧١ — ٧٣ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٥٣ ، ١٥٨ ، ١٦٠ — ١٦٦ ، ١٩٤ ، ٢٠٠ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٧٧ ، ٢٨٤ ، ٢٩٦ ، ٣٢٣ ، ٣٣١ ، ٣٣٥ ، ٣٣٧ ، ٣٣٩ ، ٣٤٤ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٤٨٨ ، ٤٨٩ ، ٤٩٧ ، ٥٢٢ ، ٦٦١ — ٦٦٣ ، ٦٧٠ — ٦٧٢ ، ٦٧٦ ، ٦٨٢ ، ٦٨٣ ، ٦٨٧ ، ٧٠٣

أشبونة ؛ ٣٨٦

أصبهان ؛ ١٤٣ ، ١٤٤

الأصنام ؛ ١٢٠

أصيلا ؛ ٤٢٦ ، ٤٩٥ ، ٦٥٤ ، ٦٥٨

إفريقية ؛ ١٥ — ٢٠ ، ٢٢ — ٢٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٥٩ ، ٦٩ ، ٧٤ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٩٣ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١٧ — ١٢٣ ، ١٢٦ — ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣٤ ، ١٤٠ ،

١٤٣ ، ١٥٠ ، ١٨٥ ، ٢٠٠ ، ٢٣١ ، ٢٤١ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٨ ، ٣٩٥ ، ٤٢٥ — ٤٢٨ ، ٤٥٩ ، ٤٧٤ ، ٤٧٨ ، ٤٧٩ ، ٤٩٢ — ٤٩٤ ، ٥٤٤ ، ٥٤٥ ، ٥٦٤ ، ٦١٨ ، ٦٨٠ ، ٦٨١ ، ٦٩٤

أفنيون ؛ ١١٥ ، ١١٦

إقريطش ؛ ٢٤٢ ، ٢٨٢ ، ٤٧٦

إفليش ؛ ٣٤٠

أكشونبة ؛ ١٢٦ ، ٢٥٧ ، ٣٠٦ ، ٣٣٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩٣ ، ٦٩٠

أكسفورد ؛ ٩١

أكوتين ؛ ٧٦ ، ٧٩ — ٨١ ، ٨٦ ، ٨٨ ، ٩٠ ، ٩٤ ، ٩٥ — ٩٨ ، ١١٣ ، ١١٥ ، ١٣٣ ، ١٣٧ ، ١٧٣ ، ٢٠٩ ، ٢٢٧ ، ٤٧٦

آكى ؛ ٤٦٩

آلانديجا ؛ انظر الخندق ، وموقعة الخندق

ألبة والقلاع ؛ ٢١٦ ، ٢١٩ ، ٢٢٦ ، ٢٣١ ، ٢٤١ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٩ ، ٢٩٤ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٣ ، ٣٥٤ ، ٣٥٦ — ٣٥٩ ، ٣٩٦ ، ٤٠٣ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩ ، ٤١١ ، ٤١٢ ، ٤١٧ ، ٤٨٧

ألبونت ؛ ٦٦٠ ، ٦٦١ ، ٦٦٨

إلبيرة ، وكورة ؛ ٥٠ ، ٧٠ ، ١٢٦ ، ١٣٢ ، ١٣٦ ، ١٥١ — ١٥٣ ، ١٥٦ ، ١٥٨ ، ١٨٦ ، ١٩٤ ، ٣١١ ، ٣٢٣ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٨ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٥٠٢ ، ٥٤٣ ، ٦٥٤ ، ٦٩٢ ، ٦٩٦

ألحامة ؛ ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣٢٩ ، ٣٧٩

ألفونت ؛ ٦٧١

ألمانيا ؛ ٧٨ ، ٩٤ ، ٢٦١ ، ٢٨٤ ، ٤٥٦ — ٤٥٨

ألمرية ؛ ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٣٧ ، ٤٤٦ ، ٤٨٨ ، ٤٨٩ ، ٤٩٩ ، ٦٥٣ ، ٦٥٨ ، ٦٦١ ، ٦٦٢ ، ٦٧١ ، ٦٧٥ ، ٦٧٦ ، ٦٨٨ ، ٦٩٠ ، ٧٠٤

أنتيب ؛ ٤٧٤

أنتيسة وحصن ؛ ٣٩٥ ، ٣٩٨ ، ٤١٧ ، ٤٨٦ ، ٥٣٨

الأندلس ؛ ١٧ ، ٣٨ — ٤١ ، ٤٦ ، ٤٨ ، ٤٩ — ٥٢ ، ٥٥ — ٦١ ، ٦٤ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٣ — ٧٥ ، ٨١ — ٨٤ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٩٨ ، ١٠٦ — ١٠٩ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١٢٢ — ١٢٥ ، ١٢٧ — ١٣٠ ، ١٣٤ — ١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥٠ — ١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٩ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٦ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٨٣ — ١٨٥ ، ١٩٢ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٩ — ٢٠١ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٨ ، ٢١٢ — ٢١٤ ، ٢٢٤ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨ — ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٤١ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٢ ، ٢٥٧ ، ٢٦١ — ٢٦٥ ، ٢٧٩ ، ٢٨١ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٨ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٧ ، ٣٠٩ — ٣١٢ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣١٨ ، ٣٢١ — ٣٢٣ ، ٣٢٨ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٤٤ ، ٣٤٦ ، ٣٤٩ ، ٣٥٤ — ٣٥٩ ، ٣٦٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٥ ، ٣٧٨ — ٣٨٠ ، ٣٨٢ ، ٣٩١ ، ٣٩٢ ، ٣٩٨ ، ٤٠٤ ، ٤٢٠ ، ٤٢٢ ، ٤٢٥ ، ٤٢٧ — ٤٣١ ، ٤٣٥ ، ٤٤٠ ، ٤٤٢ ، ٤٤٦ — ٤٤٨ ، ٤٥١ ، ٤٥٢ ، ٤٥٤ ، ٤٥٦ ، ٤٥٨ ، ٤٦٠ ، ٤٦٤ ، ٤٦٥ ، ٤٦٧ ، ٤٧٤ ، ٤٨٢ ، ٤٨٨ ، ٤٨٩ ، ٤٩٢ ، ٤٩٣ ، ٤٩٧ — ٤٩٩ ، ٥٠١ — ٥٠٦ ، ٥٠٩ ، ٥١٢ ، ٥٢١ ، ٥٢٨ ، ٥٣٨ ، ٥٤٠ ، ٥٤٣ ، ٥٤٥ ، ٥٤٦ ، ٥٤٧ ، ٥٤٩ ، ٥٥٤ — ٥٥٩ ، ٥٦٣ ، ٥٦٤ ، ٥٦٨ — ٥٧٤ ، ٥٧٦ ، ٥٧٩ ، ٥٨٤ ، ٥٨٨ ، ٥٨٩ ، ٦٠٨ ، ٦٠٩ ، ٦١٥ ، ٦١٨ ، ٦٢٢ ، ٦٢٣ ، ٦٢٥ ، ٦٢٨ ، ٦٣٠ ، ٦٣٨ ، ٦٣٩ ، ٦٤٣ ، ٦٥٠ ، ٦٥١ ، ٦٥٤ ، ٦٥٧ ، ٦٥٨ ، ٦٦٠ ، ٦٧٠ ، ٦٧٦ ، ٦٧٧ ، ٦٨٠ — ٦٨٤ ، ٦٨٦ — ٦٨٩ ، ٦٩١ — ٦٩٦ ، ٦٩٩ ، ٧٠١ ، ٧٠٤

أنة ؛ ٥٥

أنيسون ؛ ١٠٥

أوبيدو ؛ ٢١٨ ، ٣٠٣ ، ٣٠٦ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٥٩١
أوتون ؛ ٨٢ ، ٨٤
أوربا ؛ ٢٨ ، ٥٣ ، ٥٩ ، ٦٤ ، ٩٣ ، ١١٠ ، ٢٦٦ ، ٤٢٠ ، ٤٥٢ ، ٤٧٢ ، ٤٧٩
أوريولة ؛ ٥٠ ، ٥٥ ، ١٣٢ ، ٢٠٤ ، ٢٩٧
أوزونه ؛ ٢٣٥
أوستراسيا ؛ ٧٩ ، ٩٦ ، ١٠٢
أوستريا ؛ ٨٠
أوسمة ، ووادى ؛ ٣٩٦ ، ٤٠١ ، ٤٠٣ ، ٥٥٠ ، ٥٧٣ ، ٦٥١
أوسيز ؛ ١١٥
إيج مورت ؛ ٤٦٨
إيريا ؛ ٢٢٠ ، ٥٦٠
إيطاليا ؛ ٢٨ ، ٥٣ ، ٧٨ ، ٩٤ ، ١١٠ ، ٢٦٦ ، ٤٢٧ ، ٤٥٨ ، ٤٦٦ ، ٤٦٨ — ٤٧٠ ، ٤٧٣ ، ٤٧٦ — ٤٧٩
إيكس ؛ ٤٦٨
إيكسلا شابيل ؛ ٢٣١


## ب — ت — ث


باب الجنان ؛ ٤٤٨ ، ٤٨٥
باب الجوند ؛ ٤٤٨
باب الزاهرة : ٥٤٠
باب الساباط ؛ ٤٤٨
باب السدة ؛ ٣٧٥ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٤١٦ ، ٤٤٨ ، ٤٨٣ ، ٤٨٥ ، ٤٩٨ ، ٥٢٦ ، ٦٣٧
باب شيزروا ( الشزرى ) ؛ ١٧٧ ، ١٧٨ ، ٢٢٧ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٥٦
باب الشزرى ، موقعة ؛ ١٨٣ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ٢٥٦
باب الصناعة ؛ ٤٤٨
باب طليطلة ؛ ٤٤٨
باب عامر ؛ ٤٤٨
باب عبد الجبار ؛ ٤٤٨
باب العدل ؛ ٤٤٨
باب العطارين ؛ ٤٤٨
باب قرطبة ؛ ٣٨٥
باب القنطرة ؛ ٤٤٨
باب الملك ؛ ٤٤٨
باب النخيل ؛ ٢٧٩ ، ٤٤٥
باب اليهود ؛ ٤٤٨
باجة ؛ ٧٠ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٨٦ ، ٢٠٩ ، ٢٤٢ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٦٣ ، ٢٩٦ ، ٣٠٦ ، ٣٢٣ ، ٣٣٠ ، ٣٣٥ ، ٣٣٩ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩٢ ، ٣٩٣
بادربورن ؛ ١٦٩ ، ١٧٤
بارى ؛ ٤٧٦
باريس ؛ ٧٨ ، ٩٠
بازو ؛ ٣٥٨ ، ٥٦٠ ، ٥٩٦ ، ٥٩٧
باطقة ؛ ١٣٢
باغة ؛ ٣١١ ، ٣٢٠ ، ٣٣٠ ، ٣٣٧ ، ٦٩٠
باڤاريا ؛ ٧٨ ، ٨٠
بالش ؛ ٤٠٤
ببشتر ؛ ٣٠٩ ، ٣٢٠ — ٣٢٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٨ ، ٣٨٠ ، ٣٨٣ — ٣٨٨
بجاية ؛ ٤٩٤
بحر الزقاق ؛ ٤٢٧ ، ٤٩٢
البحيرة ؛ ٢٩٧
بحيرة چنيڤ ؛ ٤٦٩
بحيرة خندة ؛ ٤٢ ، ٤٤
بحيرة كونستانس ؛ ٤٧٢
البراجلة ؛ ٣٢٨
براڤيا ؛ ٢١٩
بربشتر ؛ ٣٤٢ ، ٦١٢
البرتغال ( وبرتقال ) ؛ ٤٥ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٢١٥ ، ٣٠٤ ، ٤٨٨ ، ٥٤٧ ، ٥٥٩ ، ٥٦٠ ، ٥٦٤ ، ٥٩٦
برجة ؛ ٢٦٥
برجونية ؛ ٧٨ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٩٠ ، ٩٤ ، ٩٦ ، ١١٠ ، ١١٥ ، ٤٦٩ — ٤٧١ ، ٤٧٣
بردال ؛ انظر بوردو
بردوليا ؛ ٣٥٥ ، ٣٥٦
برشلونة ؛ ٥٣ ، ٧٠ ، ١٣٣ ، ١٦٨ ،

١٦٩ ، ١٧٤ ، ١٨٦ ، ٢٢٦ ، ٢٣٥ ،
٢٣٦ ، ٢٤١ ، ٢٥٧ ، ٢٦٥ ، ٢٩٤ ،
٣٤٣ ، ٤٠٤ ، ٤٠٦ ، ٤١١ ، ٤٢٢ ،
٤٦٥ ، ٥٤٣ ، ٥٤٤ ، ٥٤٨ ، ٦١٠
برغش ؛ ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٤٠٣ ، ٤٨٤ ،
٥٦٣ ، ٥٧٣ ، ٥٩١ ، ٥٩٣ ، ٦٠٠
البرنيه ؛ انظر جبال البرنيه
بروڤانس ؛ ١١٥ ، ١٦٦ ، ٢٦٦ ، ٢٩٧ ،
٤٦٦ — ٤٦٨ ، ٤٧٠ — ٤٧٤ ، ٤٧٧ ،
٤٧٨
بريتانيا ؛ ١٧٣ ، ١٧٥
بريجور ؛ ٩٩
بزييه ؛ ٧٠ ، ٧٤ ، ١١٥ ، ١٣٣
بسطة ؛ ٧٠ ، ٥٤٣
بسكرة ؛ ٤٩٤
بسكونية ؛ انظر بلاد البشكنس
البصرة ( بالعراق ) ؛ ٢٣ ، ٢٤ ، ٦٩٤
البصرة ( بالمغرب ) ؛ ٤٢٦ ، ٤٩٤ ، ٤٩٦ ،
٤٩٧
بطليوس ؛ ٧١ ، ٢٥٧ ، ٣٠٣ — ٣٠٧ ،
٣٢٣ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٨٩ ، ٣٩٢ ،
٣٩٣ ، ٤٠٩ ، ٥٦٤
بغداد ؛ ١٧١ ، ٢٨١ ، ٤٣٥ ، ٤٣٧ ، ٥٠٥ ،
٦٩٣
بقسرة ؛ ٥٥
بقيرة ؛ ١٨٧ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩
بلاد البشكنس ؛ ٧٤ ، ١١٣ ، ١٣٣ ، ١٧٣ ،
١٧٤ ، ١٧٦ ، ١٨٧ ، ٢١٠ — ٢١٣ ،
٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٢ ، ٢٣٠ ،
٢٥٦ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٣٥٤ — ٣٥٦ ،
بلاد الفرنج ؛ انظر فرنسا
بلاد اللونبارد ؛ ٢٤٥ ، ٤٧٠ ، ٤٧١ ،
٤٧٣ ، ٤٧٥
بلاد المجوس ؛ ٢٨٤
بلاط الشهداء ، موقعة ؛ ٥٩ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ،
١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١١ — ١١٤ ، ٢١٢ ،
٤٦٤ ، ٤٧٧ ، ٦٨١ ، ٦٨٧
بلاى ، موقعة ؛ ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٣٠ ،
٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٤٧
بلتيرة ؛ ٣٩٥
بلد الوليد ؛ ٧٠
البلدة ، موقعة ؛ ٣٦٢
البلقان ؛ ٢٧
بلنتلة ؛ ٥٥
بلنسية ، وكورة ؛ ٥٥ ، ٧٠ ، ١٣٣ ،
٢٠٤ ، ٢٣٣ ، ٣٧٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩٩ ،
٦٦٠ ، ٧٠٤
بله نوبه ؛ ١٥٤
البليار ؛ انظر الجزائر الشرقية
بليارش ؛ ٣٤٢ ، ٣٤٣
بنبلونة ؛ ٩٠ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٦ —
١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨٧ ، ٢٥٦ ، ٢٦٠ ،
٢٦١ ، ٢٦٤ ، ٢٦٦ ، ٢٨٩ ، ٢٩٧ ،
٢٩٨ ، ٣٠٢ ، ٣٤٢ ، ٣٥٥ ، ٣٥٧ ،
٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٩٠ ، ٣٩٧ ، ٣٩٨ ،
٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠٢ ، ٤٠٨ ، ٤١١ ،
٤١٧ ، ٥٤٨ ، ٥٦٢ ، ٥٩٣ ، ٥٩٩ ،
٦٠٠
البهو الذهبى ؛ ٤٨٣
بواتو ؛ ٩٩
بواتييه ؛ ٩٩ ، ١٠٢ ، ١٠٩ ، ١١١
بورتو ؛ ٥٦٠
بورتيلادى آرناس ؛ ٥٤٢
بوردو ؛ ٩٠ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١١٤ ، ١٧٣
بوصير ؛ ١٤٦
بولونيا ؛ ٩١
بون : ٨٤
بونتومو ، موقعة ؛ ٢١٦
بياسة ؛ ٣٧٦ ، ٥٢٦
البيت الحرام ؛ ١٤١
بيت المقدس ؛ ٢٢٠
بيزانصون ؛ ٩٠
بيزنطية ؛ ٩٣ ، ٢٨٢
البيضاء ، موقعة ؛ ٢٦٧
بيطرالتة ؛ ٣٩٩
بييمون ؛ ٤٦٨ — ٤٧١
تارنت ؛ ٤٧٦
تارانتير ؛ ٤٦٩

تاكرونا ؛ ٢٢٧ ، ٢٥٢ ، ٣٠٨ ، ٣١١
تاهرت ؛ ٣١٤ ، ٤٢٦ ، ٤٩٤ ، ٥٥٨
تدمير ، الأندلس ، وولاية ؛ ٥٠ ، ٧١ ، ١٢٦ ، ١٨٦ ، ٢٢٥ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٨٢ ، ٢٩٧ ، ٣١١ ، ٣٣٠ ، ٣٣٥ ، ٣٧٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩٩ ، ٥٤٣ ، ٦٩٠
تدمير الشام ؛ ١٤٩
تراقية ؛ ٢٨ ، ٢٩
ترجاله ؛ ٣١٨
تطيلة ؛ ٢٥٦ ، ٢٥٩ — ٢٦١ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٩٤ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٦٣ ، ٣٩٥ ، ٣٩٦ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠٨ ، ٤١٠
تطوان ؛ ٤٩٢
تلمسان ؛ ٥٤٧ ، ٥٥٨
تقودة ؛ ٣٥٦
تور ؛ ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، ١١١ ، ٤٧٧
تور ، موقعة ؛ انظر موقعة بلاط الشهداء
تورتور ؛ ٤٧٤
تورنجن ؛ ٤٥٧
تورنى ؛ ٧٧
تورينو ؛ ٤٦٩
تولوشة (تولوز) ؛ ٢٩ ، ٧٦ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٩ ، ١٠٤ ، ٢٢٧
تولوشة ، موقعة ؛ ٨٢ ، ٩٧
تونس ؛ ١٢٦ ، ١٣٠ ، ٤٢٥ ، ٤٣٧ ، ٤٩٩
الثغر الأدنى ؛ ٢٤١ ، ٢٥٨ ، ٣٣٩ ، ٤٠٧
الثغر الأعلى ؛ ٧١ ، ٨٩ ، ١١٣ ، ٢٣١ ، ٢٣٥ — ٢٤٠ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٩٤ ، ٢٩٨ ، ٣٠٠ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٩ ، ٣١٤ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٣ ، ٣٢٥ ، ٣٤٣ ، ٣٤٦ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٧ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦٣ ، ٣٦٣ ، ٣٩٠ ، ٣٩٥ ، ٣٩٩ ، ٤٠٢ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤١٢ ، ٤١٣ ، ٤٢١ ، ٤٦٥ ، ٤٦٦ ، ٤٦٧ ، ٤٨٤ ، ٥٣٠ ، ٥٣٧ ، ٥٣٨ ، ٥٤٧ — ٥٤٩ ، ٦١٠ ، ٦٤٨ ، ٦٥٤ ، ٦٦٠ ، ٦٦٩
الثغر الأوسط ؛ ٧١ ، ٢٣٧ ، ٢٤٠ ، ٣٠٧ ، ٣٣٩ ، ٣٩٦ ، ٤٨٤ ، ٦٤٤
الثغر القوطى (الفرنجى) ؛ ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٥٧ ، ٢٦٥ ، ٤٠٤ ، ٤٢٢ ، ٥٤٣

## ج — خ

جارد فرينيه ؛ ٤٦٧
چاقة ؛ ٣٤٢
جامع إستجة ؛ ٣٠٤
جامع إشبيلية ؛ ٢٧٩
جامع الزهراء ؛ ٤٣٢
جامع شذونة ؛ ٣١٤
جامع قرطبة ؛ ٢٠١ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٣١٤ ، ٣٥٢ ، ٤٢٣ ، ٤٢٩ ، ٤٣٢ ، ٤٣٨ ، ٤٤٢ ، ٤٤٥ ، ٤٤٨ ، ٤٨٣ ، ٤٨٤ ، ٤٩٧ ، ٥٠٧ ، ٥١٠ ، ٥٦٠ ، ٥٧٥ ، ٥٧٦ ، ٦٠٧ ، ٦١٠ ، ٦٦٤ ، ٦٦٩ ، ٦٩٦
جامع القيروان ؛ ٢٢
جامعة قرطبة ؛ ٥٠٦ ، ٥٠٧ ، ١٠٧
چان دى لابور ؛ ١٧٣
جبال الألب ؛ ١١٥ ، ٤٦٧ ، ٤٦٨ ، ٤٧٠ ، ٤٧٢ — ٤٧٤ ، ٤٧٧
جبال البرنيه ؛ ٣١ ، ٥٣ ، ٦٥ ، ٧٠ ، ٧٣ ، ٧٥ ، ٧٨ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٨٨ — ٩٠ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ١١٣ ، ١١٦ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٧ ، ١٥٥ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٨٣ ، ٢٠٥ ، ٢١٠ ، ٢١٤ ، ٢٢٦ ، ٢٣١ ، ٢٣٣ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٥٦ ، ٣١٤ ، ٣٤٢ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٤٦٤ — ٤٦٦ ، ٤٨٧ ، ٦١٢
جبال بلنسية ؛ ١٨٦ ، ٢٢٥
جبال چورا ؛ ٤٦٩ — ٤٧١
جبال رندة ؛ ٣٠٨

جبال كانتبريا ؛ ٢١٦
جبال المعدن ؛ ٢٠٥
جبال مونشيس ؛ ٦١٠
جبال وادى الحجارة ؛ ١٣٢
جبال وادى الرملة ؛ ٤٨٦
جبل الأخوين ؛ ٢٩١
جبل أشيروغرة ؛ ٣٠٧
جبل أوراس ؛ ١٧ ، ٢٢
جبل بيشتر ؛ ٣٠٧ – ٣٠٩ ، ٣٨٥
جبل الشارات ؛ ٥١ ، ٣٥٩ ، ٦٩٠
جبل شمنتان ؛ ٣٣٠
جبل طارق والمضيق ؛ ٤١ ، ٩١ ، ٥٢١ ،
٦٥٨ ، ٦٧٦
جبل العروس ؛ ٣٧
جبل قرطبة ؛ ١٣٢ ، ٦٣١ ، ٦٩٠
جبل قنتش ؛ ٦٤٦
جراوة ؛ ٤٢٦
جربيره ؛ ٤١٦ ، ٥٦٢ ، ٥٦٣
جرمانيا ؛ ١١٠
جرزون ؛ ٤٦٩
جريزيقودان ؛ ٤٧٠ ، ٤٧٣
جرينوبل ؛ ٤٧٠ ، ٤٧٣
الجزائر الشرقية ؛ ٢٥ ، ٣٩ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ،
٢٩٧ ، ٣٤٦ ، ٤٢٢ ، ٤٦٥ ، ٤٦٦ ،
٤٧٥ ، ٦٥٨
الجزر البريطانية ؛ ٢٦٢
الجزيرة (العراق) ؛ ٢٣ ، ٤٤٧ ، ٦٩٣
الجزيرة ؛ ٢٩٧
الجزيرة الخضراء ، ٤٠ ، ٤١ ؛ ٥٢ ، ٧٠ ،
١٢٣ ، ١٢٦ ، ١٣٥ ، ١٦٠ ، ١٨٧ ،
٢٥٢ ، ٢٥٦ ، ٢٩٦ ، ٣٠٨ ، ٣١١ ،
٣٢٥ ، ٣٣٦ ، ٣٧٧ ، ٤٢٥ ، ٤٢٨ ،
٤٩٥ ، ٤٩٦ ، ٤٩٧ ، ٥٢١ ، ٥٥٧ ،
٥٦٤ ، ٦٤٩ ، ٦٥٤ ، ٦٥٨ ، ٦٥٩ ،
٦٦٤ ، ٦٧١ ، ٦٧٣ – ٦٧٥ ، ٦٩٨
جزيرة طريف ؛ ٤٠
الجزيرة العربية ؛ ١٨ ، ٢٠٥
جزيرة كاماراج ؛ ٤٦٧
جزيرة ليران ؛ ٤٧٤
جزيرة ميورقة ؛ ٤٠٤

جليقية ؛ ٢٩ ، ٥١ ، ٥٣ – ٥٥ ، ٧٠ ،
٧٥ ، ٨٣ ، ٨٩ ، ١١٤ ، ١٢٣ ،
١٣٢ ، ١٣٦ ، ١٣٨ ، ٢٠٨ ، ٢١٠ –
٢١٣ ، ٢١٦ ، ٢١٩ – ٢٢١ ، ٢٢٨ ،
٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٥٥ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ،
٢٦٥ ، ٢٩٦ ، ٣٠٤ ، ٣٤٥ ، ٣٥٤ –
٣٥٦ ، ٣٥٨ ، ٣٦٠ – ٣٦٢ ، ٣٩٢ ،
٤٠٥ ، ٤١١ ، ٥١٢ ، ٥٤٢ ، ٥٤٨ ،
٥٥٩ – ٥٦١ ، ٥٦٤ ، ٥٨٩ ، ٥٩٧ ،
٦١٢
جليقية الغربية ؛ ٢١٨ ، ٢١٩
جنوة ؛ ٤٦٩
جورزنى ؛ ٤٥٦
جويان ؛ ٩٩
جيان ، وكورة ؛ ٧٠ ، ١٢٦ ، ١٣٢ ،
١٥٤ ، ١٥٧ ، ١٩٠ ، ٢٥٣ ، ٢٩٢ ،
٣١١ ، ٣١٨ ، ٣٢٠ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ،
٣٣٠ ، ٣٣٨ ، ٣٤٠ ، ٣٧٥ ، ٣٧٧ ،
٦٥٤ ، ٦٦٠ – ٦٦٢ ، ٦٧٣
جيرندة (چيرونه) ؛ ١٣٣ ، ١٧٤ ، ٢٢٧ ،
٢٣١ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٥٧ ، ٢٦٥ ،
٤٢٢
چيروند ، مقاطعة ؛ ١٠٢
الجيزة ؛ ١٤٦
الحجاز ؛ ٢٣ ، ٥٨ ، ٦٨ ، ٤٢٩ ، ٦٩٣
الحرة ، موقعة ؛ ١٢٣
الحرمين ؛ ١٩٧ ، ٤٢٩
حصن الأجم ؛ ١٩
حصن أرنيط ؛ ٣٩٧
حصن أشرس ؛ ٣٢٠
حصن أشكر ؛ ٤١٥
حصن أشكفيرش ؛ ٤٠٣
حصن أطلة ؛ ٤١٥
حصن أنتيسة ؛ ١٤٧
حصن أندة ؛ ٢٩٢
حصن أنة ؛ ٤٠٣
حصن أوريولة ؛ ٣٧٩
حصن إيلاس ؛ ٣٤٢
حصن بالجش ؛ ٣٩٩
حصن بيشتر ؛ ٦٧٤

حصن برتيل ؛ ٤١٥
حصن بطرسة ؛ ٣٠٦
حصن بقيرة ؛ ٢٩٨
حصن بلاى ؛ ٣٢٤
حصن البلدة ؛ ٢٩٢
حصن حالولاء ؛ ١٩
حصن ألحامة ؛ ٥٢٧
حصن دسة ؛ ٤٩٩
حصن روطة ؛ ٣٠٢ ، ٣٤٣ ، ٤٠٢ ، ٤١٢
حصن سمسطا : ٢٥٨
حصن شبطران ؛ ١٦٦ ، ٤١٦
حصن الشط ؛ ٣٨٥
حصن شلوبانية ؛ ٣٣٦
حصن شمنتان ؛ ٣٧٦
حصن شنت إشتيبن ، وقلعة ؛ ٣١١ ، ٣٧٦ ، ٣٩٤ — ٣٩٦ ، ٤٠٠ — ٤٠٢ ، ٤١٧ ، ٤٨٦ ، ٤٨٧ ، ٥٥٠ ، ٥٥١ ، ٦١٣ ، ٦٥١
حصن شنت بجنت ؛ ٥٣٨
حصن شنت برية ؛ ٣٩١
حصن شنت مرتين ؛ ٦١٥
حصن شنت منكش ؛ ٤١٣ ، ٤١٥ ، ٤١٧ ، ٥٨٩
حصن شندلة ؛ ٣٩٢
حصن طرش ؛ ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٥٢١
حصن طلمنكة ؛ ٣١١
حصن غرمانج ؛ ٤٠٣ ، ٤٨٧ ، ٥٠١ ، ٥٠٢ ، ٥١٢ ، ٦٥١
حصن فراكسنيه ؛ ٤٦٧ ، ٤٦٩ — ٤٧٤
حصن فرانكش ؛ ٢٥٧
حصن قرقشتال ؛ ٣٩٩
حصن قسطلونة ؛ ٣٣٠ ، ٣٤٠
حصن قشتيل ؛ ٣٤٢
حصن القصر ؛ ٤٠٣ ، ٦٧١
حصن قلقرة (وقلعة) ؛ ٣٩٧ ، ٣٩٩
حصن قلهرة ؛ ٣٩٩
حصن كركبوليه ؛ ٣٣٠
حصن كركى ؛ ٣٠٥
حصن لورة ؛ ٣٧٧
حصن ماومندة ؛ ٤٠٢
حصن مجريط ، وقلعة ؛ ١٦١ ، ٤٠١ ، ٤٠٧ ، ٥٢٨
حصن مدلين ؛ ٣٩٣
حصن مدنيش ؛ ٦١٠
حصن المدور ؛ ١٥٩
حصن مرتش ؛ ٢٧٢ ، ٣٧٥
حصن مسرة ؛ ٤٠٠
حصن المنار ؛ ٤٠٣
حصن منت بطروش ؛ ٣٤٣
حصن ممقصر ؛ ٦١٠
حصن منت سلود ؛ ٣٠٥ ، ٣٠٦
حصن منت شقند ؛ ٣٢٨
حصن منتشون ؛ ٣٤٢
حصن المنتلون ؛ ٣٣٨ ، ٣٧٥
حصن منتيشة ؛ ٣٢٣ ، ٣٣٠ ، ٣٦٧
حصن مورور ؛ ١٨٦
حصن موله ؛ ٥٥ ، ٣٤٢ ، ٥٢٨
حصن مونت ميور ؛ ٣٨٥
حصن يبة ؛ ٤٨٧
حضرموت ؛ ٣٣١
الحضرة ، موقعة ؛ ٢٤٠ ، ٢٤٢ ، ٣٠١
حلب ؛ ٤٤٧
حمص ؛ ٧٠ ، ١٢٦
الحيرة ؛ ٦٨
حى العرب ؛ ٤٧٠
خراسان ؛ ١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٤٤ ، ١٤٥
خليج بسكونية ؛ ٥١ ، ٢١٣
خليج سانت ترويبه ؛ ٤٦٧ ، ٤٧٠
خليج قادس ؛ ٤٢
الخندق ، موقعة ؛ ٣٤٠ ، ٤١٤ ، ٤١٥ ، ٤١٩ ، ٤٤٢ — ٤٥١ ، ٤٦٠ ، ٥٩٠ ، ٥٩١
خندق شنت منكش ؛ ٤١٧ — ٤٢٠
خونكيرا ؛ ٣٩٧
خيخون ؛ ٥١ ، ٨٥

## د — ز

دار الروضة ؛ ٤٣٦
دار السكة ؛ ٤٤٧
دار الناعورة ؛ ٤٨٥
داسيا ؛ ٢٨

الدانماركة ؛ ٢٨٤ ، ٤٨٨
دانية ؛ ٧٠ ، ١٣٢ ، ٤٧٥ ، ٦٥٨ ، ٦٨٦
درنة ؛ ٢٤
دروقة ؛ ٣٤١
دمشق ؛ ٢١ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ١١٢ ، ١٢٨ ، ١٤٦ ، ٢١٠ ، ٥٠٥
دوفينه ؛ ٤٦٧ ، ٤٦٨ ، ٤٧٠ ، ٤٧٢ ، ٤٧٣
دير أجون ؛ ٤٦٩
دير إسلونزا ؛ ٥٤٨
دير بالمودى ؛ ٤٦٨
دير ديزنتى ؛ ٤٦٩
دير خنان ؛ ١٤٩
دير سانتا روفينا ؛ ٧٢
دير سان خيرمو ؛ ٤٤٢
دير ساهاجون ؛ ٥٤٨ ، ٥٨٩
دير كلونى ؛ ٤٧٣
دير نوفاليس ؛ ٤٦٨ ، ٤٧١
رباجورسا ؛ ٦٠٠ ، ٦١٢
رباط الثغر ؛ ٢٣٥
الربض ، قمة ؛ ٢٤٥ — ٢٤٧ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٥
ربض قرطبة ، الربض ؛ ١٥٨ ، ١٧٣ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ٤٥٢
الرصافة ؛ ٢٠٠ ، ٢٠٣ ، ٣١٤ ، ٤٣٦ ، ٥٢٣ ، ٥٣٠ ، ٦٤٤
رندة ؛ ٢٢٧ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣١٠ ، ٣٨٢ ، ٦٧١ ، ٦٧٥
رورية ؛ ٢٥٨
روسيون ؛ ٧٥
روضة ؛ ٥٤١
رومة ؛ ١٧ ، ٢٧ — ٢٩ ، ٣١ ، ٥٣ ، ٩٤ — ٩٦ ، ١٠٨ ، ٤٣٩ ، ٤٦٨ ، ٤٧٣
رونسفال ؛ ١٧٣ ، ١٧٦ ، ١٧٧
الريف ، بلاد ؛ ٤٩٢ ، ٤٩٧
الريفيرا ؛ ٤٧٨
ريه ، وكورة ؛ ٧٠ ، ١٢٦ ، ١٣١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ٢٣٨ ، ٣٠٨ — ٣١١ ، ٣١٨ ، ٣٢٠ ، ٣٢٣ ، ٣٣٦ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٤٣٠ ، ٦٤٩
ريوخا ؛ ٥٩١
الزاب ، بلاد ؛ ٥٥٧
الزاهرة ؛ ٤٣٩ ، ٥٣٥ ، ٥٣٦ ، ٥٤٠ ، ٥٥٦ ، ٥٧٥ ، ٥٧٩ ، ٥٨٤ ، ٦٠٧ ، ٦٠٩ ، ٦١٤ ، ٦١٩ ، ٦٢٠ ، ٦٢٤ ، ٦٢٩ ، ٦٣٢ ، ٦٣٤ ، ٦٣٥ ، ٦٣٨ ، ٦٦٦ ، ٦٦٧ ، ٦٨٣
الزهراء ، مدينة ؛ ٤٣٥ — ٤٤٦ ، ٤٥١ ، ٤٩٨ ، ٥٠٦ ، ٥١٣ ، ٥٣٥ ، ٥٣٦ ، ٦٢٤ ، ٦٤٧ ، ٦٤٨ ، ٦٥٠ ، ٦٥٣ ، ٦٨٣ ، ٦٨٥ ، ٦٩٠
زويلة ؛ ١٦


## س — غ


الساباط ؛ ٣٥٢
ساڤوا ؛ ٤٦٩ ، ٤٧٠ ، ٤٧٢
سان برنار ؛ ٤٧٠ ، ٤٧٢
سانتونج ؛ ٩٩
سان جالن ؛ ٤٧٢
سبتمانيا ؛ ٥٣ ، ٧٤ — ٧٨ ، ٨٠ — ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٩٤ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ١٠١ ، ١١٥ ، ١٣٣ ، ١٣٦ ، ٢١٢ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ٢٣٣ ، ٣١٤ ، ٤٦٤ — ٤٦٦ ، ٤٧٧
سبتة ؛ ٢٦ ، ٣٣ — ٣٥ ، ٣٨ — ٤١ ، ٤٩ ، ٦٠ ، ١٢٠ ، ١٢٣ ، ٤٠٤ ، ٤٢٥ — ٤٢٨ ، ٤٩٢ ، ٤٩٥ ، ٥٤٥ ، ٥٥٧ ، ٦٥٤ ، ٦٥٨ ، ٦٥٩ ، ٦٦٢ ، ٦٦٤ ، ٦٧١ ، ٦٧٣ — ٦٧٥
سبيطلة ؛ ١٦
سجلماسة ؛ ٣١٤
سردانية ؛ ٢٦ ، ٣٩ ، ١١٩ ، ١٣٠ ، ٢٦٦ ، ٤٦٦ ، ٤٧٥
سرقسطة ؛ ٥٣ ، ٧٠ ، ١٢٤ ، ١٣١ ، ١٣٦ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٦٩ ، ١٧٤ — ١٧٦ ، ١٧٨ ، ١٨٧ ، ١٩٨ ، ٢٠٠ ، ٢١٨ ، ٢٢٦ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٦٠ ، ٢٦٥ ، ٢٨٩ ، ٢٩٨ ، ٣٠٠ ، ٣٠٣ ، ٣١٨ ،

٣٤٠ – ٣٤٢ ، ٣٤٤ ، ٣٥٩ ، ٣٩٩ ،
٤٠٢ ، ٤٠٥ – ٤١٣ ، ٤١٨ ، ٤٢٢ ،
٤٦٦ ، ٥٤٨ ، ٥٤٩ ، ٥٦٣ ، ٦٠٦ ،
٦١٠ ، ٦١٢ ، ٦١٧ ، ٦٥٤ ، ٦٦٠ ،
٦٩٧ ، ٧٠٤
سرية ؛ ٣٠٠ ، ٣٢٨ ، ٣٩٠ ، ٥٦٤
سكسونية ؛ ٨٠ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١٧٣
سمرقند ؛ ١٤٥
سمورة ؛ ١٣٢ ، ٢١٥ ، ٣٤٥ ، ٣٥٨ ،
٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٩١ ، ٤١٤ ، ٤١٩ ،
٤٢٠ ، ٥٤١ ، ٥٤٨ ، ٥٥٢ ، ٥٦١ ،
٥٧٣ ، ٥٩٠ ، ٦١٢
السند ؛ ٩٢ ، ٩٦ ، ١٤٠ ، ١٤٣
السوس ؛ ١١٩
سوسة : ١٩
سوق العطارين ؛ ٤٢٥
سولسونة ؛ ٢٣٥
السهلة ؛ ٧١ ، ٢٠٥
سوبرابى ؛ ٣٤٢ ، ٥٩١ ، ٦٠٠
سويسرة ؛ ٤٥٧ ، ٤٥٨ ، ٤٦٥ ، ٤٦٩ –
٤٧٢ ، ٤٧٤ ، ٤٧٥
سيرا مورينا ؛ انظر جبل الشارات
سيرا نڤادا ؛ ٣٧٦
شاطبة ؛ ٧١ ، ١٣٢ ، ٣٩٠ ، ٦٤٨ ، ٦٤٩ ،
٦٦٠
شالون ، موقعة ؛ ٢٩ ، ٨٤
الشام ؛ ١٤ ، ١٥ ، ١٧ ، ١٨ ، ٢٤ ، ٥٧ ،
٧٢ ، ٩٣ ، ١٢٣ ، ١٢٧ ، ١٣٠ ،
١٤٦ ، ١٤٨ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٥ ،
٢٣٠ ، ٢٦٠ ، ٣١٤ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨ ،
٥٤٤
شبه الجزيرة الإسبانية ، انظر إسبانيا
شبه الجزيرة العربية ؛ ٦٩ ، ١٤١ ، ٢٠٥
شذونة ؛ ٤٢ ، ٥٢ ، ٧٠ ، ٧١ ، ١٢٣ ،
١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٣٢ ، ١٥٣ ، ١٦٠ ،
١٦٢ – ١٦٤ ، ٢٦٣ ، ٣١١ ، ٣٣٠ ،
٣٣٧ ، ٦٥٤
شذونة ، موقعة ؛ ٤٦
شرطانية ؛ ١٨٦ ، ٤١٧
الشرق ؛ ٩٩ ، ١١١ ، ٢٣٤

شرنبة ؛ ٦٤٦
شريش ؛ ٤٣ ، ٧٠ ، ٣١١ ، ٦٦٤ ، ٦٧٠
شريش ، موقعة ؛ ٢٠٨ ، ٢١٠
شقندة ؛ ١٣١ ، ١٣٥ ، ٢٤٣ ، ٣٢٤ ، ٦٥٣
شقوبية ؛ ٧٠ ، ١٣٢ ، ٢١٥ ، ٣٩١
شلب ؛ ٢٨٤
شلمنقة ؛ ٧٠ ، ١٣٢ ، ٢١٥ ، ٣٥٧ ،
٣٥٨ ، ٣٩١ ، ٤٢٠ ، ٥٢٧ ، ٥٢٩ ،
٥٤١ ، ٥٩٨
شميط ؛ ٣٤١
شنت إشتبين ، موقعة ؛ ٣٩٥ ، ٥٨٩ ، ٥٩٤
شنت برية ؛ ١٦٤ ، ١٦٦ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨ ،
٣٠٧ ، ٣٤٠ ، ٣٩٠ ، ٤٠٠
شنترين ؛ ٤٠٩ ، ٥٠٣ ، ٥٦٤
شنتمرية الغرب ؛ ٣٣٠ ، ٣٣٩
شنت منكش ، وموقعة ؛ ٣٦١ ، ٤١٨ – ٤٢٠ ،
٥٤١ ، ٥٧٣ ، ٥٩٨
شنت ياقب ؛ ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٥٨ ، ٢٨٥ ،
٥٤٢ ، ٥٥٩ ، ٥٦٠ ، ٥٧٣ ، ٥٨٩ ،
٥٩٩ ، ٦٠٥
شنت ياقب ، غزوة ؛ ٥٦١
شنت يوانش ؛ ٦١٢
صانص ؛ ٨٢ ، ٩٠
الصخرة ؛ ١١٤ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢٢٨
الصخرة ، موقعة ؛ ٣٥٤
صقلية ؛ ٢١ ، ٢٦ ، ٣٩ ، ١١٩ ، ١٣٠ ،
٣٥٩
طبنة ؛ ٧٠٢
طرابلس ؛ ١٥ ، ١٦ ، ١١٩ ، ١٥٠
طرسونة ؛ ٢٦٥ ، ٣٤١ ، ٤٠٢
طرش ؛ ١٥٢ ، ١٥٣ ، ٣٧٧
طرطوشة ؛ ٧٠ ، ١٣٣ ، ٢٠٠ ، ٢٢٥ ،
٢٢٦ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٦٥ ، ٣٩٩ ،
٤٠٤ ، ٤٦٥ ، ٦٤٨ ، ٦٦٠
طرف الغار ؛ ٤٤
طركونة ؛ ٧٠ ، ١٣٣ ، ٢٠٠ ، ٢٣٥ ،
٢٦٦ ، ٤٦٦ ، ٦٧٦
طريانة ؛ ٦٧١
طشانة ؛ ٦٧١
طلبيرة ؛ ١٢٣ ، ٢٣٩ ، ٢٩٤ ، ٣١٨ ،
٣٤٥ ، ٣٩٤ ، ٤٠٧

طاجير ؛ ٣٨٧
طلياطة ؛ ٢٦٣
طليطلة ؛ ٢٩ ، ٣١ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٤١ ، ٥٠ — ٥٢ ، ٦٠ ، ٦٤ ، ٧٠ ، ٧١ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٣٦ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٤ ، ١٥٧ — ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٨٧ ، ١٩٠ ، ٢٠٦ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥ ، ٢٣٧ — ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٥٤ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٩ ، ٢٧١ ، ٢٨٥ ، ٢٩١ ، ٢٩٣ — ٢٩٦ ، ٣٠١ ، ٣٠٧ ، ٣١١ ، ٣١٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٥ ، ٣٥٦ ، ٣٨٩ ، ٣٩٦ ، ٤٠١ ، ٤٠٧ ، ٤١٤ ، ٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤٨٦ ، ٥٢٩ ، ٥٤٩ ، ٥٦٤ ، ٥٩٠ ، ٦٠٦ ، ٦٠٩ ، ٦١٢ ، ٦٢٩ ، ٦٣٦ ، ٦٤٦ — ٦٤٨ ، ٦٧٦ ، ٦٧٧ ، ٦٩٢ ، ٦٩٧
طنجة ؛ ١٦ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٩ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٣ ، ٤٠٤ ، ٤٢٥ ، ٤٩٥ ، ٤٩٧ ، ٥٤٦ ، ٥٥٧ ، ٦٥٤ ، ٦٥٨ ، ٦٦٤ ، ٦٨٧
طولون ؛ ٤٦٩
العامرية ؛ ٥٧٥
عدوة المغرب ، العدوة ؛ ٢٣١ ، ٢٤٥ ، ٢٦٤ ، ٢٩٠ ، ٢٩٧ ، ٣٧٧ ، ٤٠٤ ، ٤٠٩ ، ٤٢٥ ، ٤٢٦ ، ٤٢٨ ، ٤٩٢ ، ٤٩٦ — ٤٩٩ ، ٥٠٢ ، ٥٣٨ ، ٥٤٦ ، ٥٧٠ ، ٦٠٧ — ٦٠٩ ، ٦٢٨ ، ٦٧٥ — ٦٧٧ ، ٦٨٨
العراق ؛ ٢٤ ، ٦٩ ، ٧٢ ، ١١٨ ، ١٤٥ ، ٤٥٤ ، ٥٠٥ ، ٦٩٣ ، ٦٩٤
عقبة البقر ؛ ٦٤٨
العليا ؛ ١٤٩
عين التمر ، موقعة ؛ ٢٣
غاليس (غاليا) ؛ ١٧ ، ٢٩ ، ٣٦ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٩٠ ، ٩٤ ، ١١٠ ، ١١٤ ، ١٣٣ ، ١٣٧ ، ١٧٢ ، ١٧٧ ، ٢٣٣ ، ٢٣٥ ، ٤٥٨ ، ٤٦٤ ، ٤٦٧ ، ٤٧٠ ، ٤٧٤ — ٤٧٦ ، ٦٨٠
الغرب ؛ ٩٩ ، ١٠٩ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٦ ، ١٦١ ، ١٩٠ ، ٢٢٥ ، ٢٣٤ ، ٣٠٦ ، ٣٢٨ ، ٣٨٩ ، ٣٩٢ ، ٤٠٩ ، ٤٥٢ ، ٤٥٩
الغرب ، ولاية ؛ ٤٨٨ ، ٤٨٩
غرناطة ؛ ٥٠ ، ٢٠٤ ، ٢١٣ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٧٦ ، ٦٦٠ ، ٦٦٢ ، ٦٧١ ، ٦٧٢ ، ٦٧٣ ، ٦٧٤ ، ٦٧٦

## ف ـ ك ـ ق

فارس ؛ ٧٢ ، ١٤٠ ، ١٤٥
فاس ؛ ٤٢٧ ، ٤٩٢ ، ٤٩٧ ، ٥٤٥ — ٥٤٧ ، ٥٥٨
ڤالانس ؛ ١١٥ ، ٢٩٧
ڤاليه ؛ ٤٦٩ ، ٤٧٠
فج سراج ؛ ٤١٦
فج المركور ؛ ٢٩٩
فحص أندوجر ؛ ٢٩٢
فحص البلوط ؛ ٣١١
فحص سراج ؛ ٤١٦
فحص السرادق ؛ ٦٤٦
فحص مهران ؛ ٤٩٥
فحص الناعورة ؛ ٥٩٨
فراشنديلوم ؛ ٤٧١
فرتش ؛ ٣٤١
فرنسا ؛ ١٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٧٨ ، ٨٢ ، ٨٥ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٤ — ١٠٤ ، ١٠٨ ، ١١٢ ، ١٧٠ — ١٧٢ ، ١٨٣ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢٣٥ ، ٢٦٦ ، ٣١٤ ، ٣٥٧ ، ٤٥٧ ، ٤٦٥ ، ٤٦٦ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ٤٧٤ ، ٤٧٧ — ٤٧٩
الفرنتيرة ؛ ٤١ ، ٤٢ ، ٧١ ، ٢٠٦
فريجوس ؛ ٤٦٩
فريزيا ؛ ٨٠ ، ١١٤
الفسطاط ؛ ٥٧
ڤڤيبه ؛ ١١٥
فلاندر ؛ ٧٧
فلسطين ؛ ٧٠ ، ١٢٦ ، ١٤٦ ، ١٥٠
فناء النارنج ؛ ٢٧٩
فنجيط ؛ ٢٣٣
ڤيل دنى ؛ ٢٢٧
قابس ؛ ٢٢ ، ١٢٠
قادس ؛ ٢٦٣

قاسترو مورش ؛ انظر حصن شنت اشتين
القاهرة ؛ ٥٠٥
قبرس ؛ ٢٣
القبر المقدس ؛ ٢٣٤
قبر القديس ياقب ؛ ٥٦٠
قبر المنصور ؛ ٥٦٧
قبره ؛ ٣١١ ، ٣٢٠ ، ٣٢٤ ، ٣٣٨
قرجيطة ؛ ٥٦١
قرطاجة القديمة : ١٦ ، ٢١ ، ٢٥ ، ٤٣٧
قرطاجنة الأندلس ؛ ١٠ ، ١٣٢ ، ٢٠٠
قرطبة ؛ ٣٣ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٩ ، ٦٣ ،
٦٤ ، ٧٠ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٨٩ ، ١١٣ ،
١١٦ ، ١٢٣ — ١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٣١ ،
١٣٢ ، ١٣٦ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٧ —
١٦٧ ، ١٧٠ ، ١٨١ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ،
١٩٠ ، ١٩٤ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠٤ ،
٢٠٦ ، ٢٢٤ — ٢٢٧ ، ٢٣٠ ، ٢٣٣ ،
٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤٢ — ٢٤٤ ،
٢٤٧ ، ٢٥٥ — ٢٥٧ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ،
٢٦٧ — ٢٧٠ ، ٢٧٣ ، ٢٧٥ ، ٢٧٩ ،
٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٥ ، ٢٩١ ، ٢٩٥ —
٢٩٦ ، ٢٩٨ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ - ٣٠٥ ،
٣٠٧ ، ٣١٠ ، ٣١٥ ، ٣١٧ ، ٣٢٠ —
٣٢٢ ، ٣٢٤ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٦ —
٣٣٩ ، ٣٥٥ ، ٣٦٢ ، ٣٧٥ ، ٣٧٧ ،
٣٧٨ ، ٣٨٠ ، ٣٨٤ — ٣٨٦ ، ٣٨٩ —
٣٩١ ، ٣٩٥ ، ٣٩٦ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ،
٤٠٢ ، ٤٠٥ ، ٤٠٧ ، ٤١٣ ، ٤١٨ ،
٤٢٠ — ٤٢٢ ، ٤٢٥ ، ٤٣١ ، ٤٣٢ ،
٤٣٥ — ٤٣٨ ، ٤٤٠ — ٤٤٢ ، ٤٤٧ ،
٤٤٨ ، ٤٥٠ ، ٤٥٤ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ ،
٤٥٩ ، ٤٦٦ ، ٤٦٧ ، ٤٨٠ ، ٤٨٥ ،
٤٨٧ ، ٤٨٨ — ٤٩٠ ، ٤٩٨ — ٥٠٠ ،
٥٠٢ — ٥٠٦ ، ٥٠٩ ، ٥١٣ — ٥١٦ ،
٥٢٣ ، ٥٢٤ ، ٥٢٦ ، ٥٢٩ ، ٥٣٥ —
٥٣٧ ، ٥٤٣ ، ٥٤٦ ، ٥٤٩ ، ٥٥١ ،
٥٥٢ ، ٥٥٥ — ٥٥٧ ، ٥٥٩ — ٥٦١ ،
٥٦٧ ، ٥٧٤ ، ٥٧٥ ، ٥٧٧ ، ٥٨٠ ،
٥٨٣ ، ٥٨٤ ، ٥٩٣ ، ٥٩٧ ، ٦٠٧ —
٦١٣ ، ٦١٥ ، ٦١٨ ، ٦٢٠ ، ٦٢٤ ،
٦٢٥ ، ٦٢٩ — ٦٣٢ ، ٦٣٤ ، ٦٣٦ —
٦٣٨ ، ٦٤٣ — ٦٥٤ ، ٦٥٧ — ٦٦٤ ،
٦٦٧ — ٦٧٠ ، ٦٨٢ — ٦٨٥ ، ٦٨٩ —
٦٩٤ ، ٦٩٦ — ٦٩٩ ، ٧٠١ ، ٧٠٣
قرطبة القديمة ؛ ٤٤٢
قرقشونة ؛ ٥٣ ، ٧٠ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٨٢ ،
١٠٤ ، ١٣٣ ، ٢٢٧
قرمونة ؛ ٥٢ ، ١١٦ ، ١٦٢ ، ٢٧٧ ،
٣١١ ، ٣٣٣ ، ٣٣٧ ، ٣٧٧ ، ٣٨١ ،
٦٧٠ — ٦٧٢ ، ٦٧٣ ، ٦٧٥
قسطلونة ؛ ١٩٠
قسطنطينية ؛ ١٦ ، ١٧ ، ٢٨ ، ٥٤ ، ٥٧ ،
٥٩ ، ٩٣ ، ١٠٩ ، ١١١ ، ١١٢ ،
٢٨٢ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٥١ ، ٤٥٢ ،
٤٥٦ ، ٤٥٧
قشتالة ؛ ٥١ ، ٢١٣ ، ٢١٥ ، ٢٦٤ ،
٣٩٤ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٣ ، ٤١٥ ،
٤١٧ ، ٤٨٤ ، ٤٨٦ ، ٤٨٧ ، ٤٩٩ ،
٥٠٢ ، ٥٢٧ ، ٥٢٨ ، ٥٣١ ، ٥٣٨ ،
٥٤٩ ، ٥٥٢ ، ٥٦٢ — ٥٦٤ ، ٥٦٧ ،
٥٨٨ ، ٥٩٠ ، ٥٩١ ، ٥٩٢ — ٥٩٤ ،
٥٩٧ ، ٥٩٨ ، ٦٠٠ ، ٦١١ ، ٦١٣ ، ٦١٥
قصر أبي دانس ؛ ٤٨٨ ، ٥٥٩
القصر الزاهر ؛ ٤٣٥
قصر الزاهرة ؛ ٥٣٥ ، ٥٣٦ ، ٥٨٤ ، ٦١٠ ،
٦١٤ ، ٦١٥ ، ٦١٩ ، ٦٢٣ ، ٦٢٨ ، ٦٣٢
قصر الزهراء ؛ ٤٣٨ ، ٤٤٠ ، ٤٤٢ ، ٤٥٢ ،
٤٥٥ ، ٤٥٩ ، ٤٨٣ ، ٤٨٥ ، ٤٩٠ ،
٤٩٨ ، ٥٠٣ ، ٥٠٩ ، ٥٣٥ ، ٥٣٦ ،
٥٩٤
قصر الفاتيكان ؛ ٤٣٩
قصر قرطبة ؛ ١٥٤ ، ١٥٨ ، ١٦٤ ، ٢٤٤ ،
٢٤٧ ، ٢٤٩ ، ٢٥٥ ، ٢٧٥ ، ٢٧٧ ،
٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٣٠٢ ، ٣٣٣ ، ٣٥٢ ،
٣٧٤ ، ٣٩٠ ، ٣٩٨ ، ٤٠٠ ، ٤٠٢ ، ٤١٣ ،
٤١٦ ، ٤٣٧ ، ٤٤٨ ، ٤٥٣ ، ٤٥٨ ،
٤٨٥ ، ٥٠٦ ، ٥٠٩ ، ٥١٣ ، ٥١٧ ،
٥١٨ ، ٥٢٢ ، ٥٢٦ ، ٥٢٧ ، ٥٤٠ ،

٥٥٦ ، ٦٣٢ ، ٦٣٥ ، ٦٤٤ ، ٦٤٧ ،
٦٥٣ ، ٦٥٩ ، ٦٦٢ ، ٦٦٣ ، ٦٦٦ ،
٦٦٨ ، ٦٦٩
قصر مدينة سالم : ٥٦٦
قصر معمودة ؛ ٤٩٦
القصر المؤنس ؛ ٤٤٣
قصر ناصح ؛ ٦١٤ ، ٦٢٤
قطاوية ؛ ٢٢٦ ، ٢٤١ ، ٢٥٧ ، ٣٤٣ ،
٤٥٧ ، ٥٤٤
قنممة ؛ ١٦
قلعة ألانية (الخنش) ؛ ٣٠٤ ، ٣٩٣
قلعة أوبييدو ؛ ٣٥٩
قلعة أيوب ؛ ٣٤١ ، ٤٠٦ — ٤٠٨
قلعة بيشتر ؛ ٦٧٢
قلعة جلمانية ؛ ٣٠٤
قلعة حجر النسر ؛ ٤٩٢ ، ٤٩٦ ، ٤٩٧
قلعة رباح ؛ ١٩٠ ، ٢٥٩ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤ ،
٣٢٨ ، ٣٣٩ ، ٣٧٥ ، ٦٣٠ ، ٦٣٦ ،
٦٤٦ ، ٦٦٢
قلعة رعواق ؛ ١٦٣
قلعة شنت منكش ؛ ٥٤١
قلعة ماردة ؛ ١٢٥
قلعة مزورتة ؛ ٤٠٣
قلعة مويش ؛ ٣٩٧
قلعة النسور ، وموقة ؛ ٥٦٤ ، ٥٦٥
قلعة هنارس ؛ ٦٤٦
قلمرية ؛ ٧٠ ، ٧٥ ، ٢٤١ ، ٣٠٥ ، ٣٥٤ ،
٣٥٨ ، ٤١٧ ، ٥٤٧ ، ٥٦٠ ، ٥٧٣ ،
٥٩٧
قلهرة ؛ ٢٣١ ، ٢٩٨ ، ٣٥٦ ، ٣٩٧ ،
٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠٢ ، ٤٨٧
قلورية ؛ ٤٢٧
قلونية ؛ ٣٩٦ ، ٤٠٣ ، ٥٥١ ، ٦١٥ ، ٦٥١
قليانة ؛ ٤١٦
قمارش ؛ ٦٧٢
قناليش ؛ ٥٦٣
قنسرين ؛ ٧٠ ، ١٤٩
قنطرة استجة ؛ ٥٧٧
قنطرة قرطبة ؛ ٧٥ ، ٢٢٨ ، ٢٧٨ ، ٥١١ ،
٥٧٦
قورسنة ؛ ٢٦٦ ، ٤٦٦ ، ٤٧٥
قورية ؛ ١٢٣ ، ١٣٢ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ،
١٩٠ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٥٦٠
قونة ؛ ٧٠ ، ٧١ ، ٣٠٧
القيروان ؛ ٢٠ — ٢٢ ، ٨٧ ، ١٢٠ ، ١٣٠ ،
١٦٢ ، ٤٩٩
كامارا ج ؛ ٤٧٨
كانتابريا ؛ ١٣٢ ، ٢٠٨ ، ٢١٠ ، ٢١٣ ،
٢١٤ ، ٣٦١ ، ٧٠٠
كانجاس ؛ ٢١٨
كتدرائية شنت ياقب ؛ ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٣٦١ ،
٥٦٠
كربلاء ؛ ١٢٧
كرونية ؛ ٥٦١
كلافينجو ؛ ٣٥٦
كلونية ؛ ٨٠
كوفادنجا ؛ ٢١٠ ، ٢١١
الكوفة ؛ ١٢٧ ، ١٤٣ — ١٤٥
كويانسا ؛ ٥٧٣

## ل — ى

لاردة ؛ ١٣٣ ، ٢٣٥ ، ٣٠٢ ، ٣٤٢ ،
٤١٠ ، ٦١٠ ، ٦٦٨
لامجو ؛ ٥٦١ ، ٥٩٦ ، ٥٩٧
لبلة ؛ ١٢٦ ، ١٣٢ ، ١٦٥ ، ٣٣٠ ، ٣٧٩ ،
٣٨٠ ، ٥٢٢ ، ٦٦٩
لزمة ؛ ٤٠٣
لقنت ؛ ٥٥ ، ٧٠ ، ٧١ ، ١٣٢ ، ١٦٠
لك ؛ ٧٠ ، ٢١٥ ، ٣٥٥
لوجدانيا ؛ ١٣٢
لوديف ؛ ٧٠
لورقة ؛ ٥٥ ، ٧٠ ، ١٣٢ ، ٣٢٣ ، ٣٣٠ ،
٣٩٩ ، ٥٤٣ ، ٦٩٠
لوزيتانيا ؛ ٧٠ ، وانظر البرتغال
لوس بانيوس ؛ ٥٢٧
لوشة ؛ ٣٢٠
لوطون (ليون فرنسا) ؛ ٥٣ ، ٨٤ ، ٩٠ ،
١٠٥ ، ١١٥
لونة ؛ ٦١٢
ليجوريا ؛ ٤٦٦ ، ٤٦٩ ، ٤٧١
ليون ، مدينة ؛ ٣٥٤ ، ٣٥٦ ، ٣٥٨ ،

٣٦١ ، ٥٣١ ، ٥٤١ ، ٥٤٢ ، ٥٤٨ ،
٥٥٢ ، ٥٥٩ ، ٥٦٤ ، ٥٧٣ ، ٥٨٩ ،
٥٩٠ ، ٥٩١ ، ٥٩٦ ، ٥٩٨ ، ٥٩٩ ،

ليون ، القطر ؛ ٥١ ، ٧٥ ، ١٦٩ ، ٢٦٥ ،
٣٠٤ ، ٣٠٦ ، ٣٩٦ ، ٤٠٣ ، ٤٠٥ ،
٤٠٦ ، ٤١٣ ، ٤٢٠ ، ٤٢٢ ، ٤٥٩ ،
٥٤٢ ، ٥٤٧ ، ٥٥٢ ، ٥٩١ ، ٥٩٢ ،
٥٩٧

ماجلون ؛ ٧٠ ، ١١٥ ، ١٣٣

ماردة ؛ ٥٢ ، ٧٠ ، ٧١ ، ١٢٣ ، ١٢٥ ،
١٣٢ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ،
٢٣٣ ، ٢٣٧ ، ٢٥٧ ، ٢٥٩ ، ٢٨٢ ،
٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٦ ، ٣٣٩ ، ٣٥٨ ،
٣٩٣ ، ٥٦٤

ماسون ؛ ٨٤ ، ٨٥

مالقة ؛ ٥٠ ، ٥٥ ، ٧٠ ، ١٣٢ ، ٣٠٧ ،
٣٠٨ ، ٣١٨ ، ٦٥٠ ، ٦٥٨ ، ٦٥٩ ،
٦٦٢ — ٦٦٤ ، ٦٦٧ ، ٦٦٨ ، ٦٧٠ ،
٦٧١ ، ٦٧٢ — ٦٧٦ ، ٦٨٣ ، ٦٩٠

متز ؛ ١٧١

المجلس الزاهر ؛ ٤٥٣

المجلس الشرقي ؛ ٤٨٥ ، ٤٩٠ ، ٤٩٨ ، ٥١٣

مخارس ؛ ٤١٦

مخاضة الفتح ؛ ١٩٠

مدلين ؛ ١٦٥

مدينة الباب ؛ ٨٨

المدينة ، موقعة ؛ ٣٢٨

مدينة سالم ؛ ٢٥٦ ، ٣١١ ، ٣٢٣ ، ٣٥٤ ،
٣٥٦ ، ٣٩٦ ، ٣٩٧ ، ٤٢٢ ، ٤٨٥ ،
٤٩٩ ، ٥٠٢ ، ٥١٢ ، ٥٢٨ ، ٥٣٧ ،
٥٣٨ ، ٥٦٢ ، ٥٦٥ — ٥٦٧ ، ٦٠٧ ،
٦٠٩ ، ٦١٢ ، ٦٤٤ ، ٦٤٦ ، ٦٤٨

مدينة الفرج ؛ انظر وادى الحجارة

المدينة المنورة ؛ ١٤١ ، ٢٢٩

مربلة ؛ ٦٤٩

مرتش ؛ ٢٧٢

مرج راهط ، موقعة ؛ ١٥٤

مرسيليا ؛ ٢٦٦ ، ٤٦٦ ، ٤٦٨ ، ٤٧٤

مرسية ؛ ٥٠ ، ٧٠ ، ١٣٢ ، ٣٢٣ ، ٣٩٩ ،
٤٣٠ ، ٥٤٣ ، ٦٥٨

مرو ؛ ١٤٤ ، ١٤٥

المسارة ، موقعة ؛ ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٦٠ ،
١٦٤ ، ١٩٨ ، ٢٠٢ ، ٦٨١

مسجد أبي هرون ؛ ٤٢٥

مسجد بيشتر ؛ ٣٨٦

مسجد الزادرة ؛ ٥٣٥ ، ٥٧٩ ، ٧٠٤

مسجد الزهراء ؛ ٤٣٨ — ٤٤٠

مسجد سرقسطة ؛ ٤١١

مسنيط ؛ ٤٠٤

المسيلة ؛ ٤٩٣ ، ٤٩٤

المشرق ؛ ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٧١ ، ٧٢ ،
٩٣ ، ١٣١ ، ١٤٢ ، ١٤٦ — ١٤٨ ،
١٦٦ ، ١٧٠ ، ١٨٧ ، ١٩٧ ، ٢٠٠ ،
٢٣٠ ، ٢٧٦ ، ٢٧٩ ، ٢٨١ — ٢٨٣ ؛
٣١٥ ، ٤٣١ ، ٤٣٥ ، ٤٧٨ ، ٤٩٩ ،
٥٧٩ ، ٦٨١ ، ٦٨٤ ، ٦٩٢ ، ٦٩٤ ،
٦٩٩ ، ٧٠١ ، ٧٠٤

مصر ؛ ١٤ ، ١٥ ، ٢٠ ، ٢٣ — ٢٥ ؛
٧٢ ، ١٠٦ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٦ ،
١٤٦ ، ١٥٠ ، ٢٤٥ ، ٤٩٤ ، ٤٩٩ ،
٥٤٤ ، ٥٤٥ ، ٦٩٣ ، ٦٩٤ ، ٦٩٩

مطونية ؛ ٣٩٦

المغرب ؛ ٢٠ — ٢٢ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٤١ ،
٥٤ ، ٩٣ ، ٩٦ ، ١٢٢ ، ١٣١ ،
١٤٢ ، ١٥٠ ، ٩٧٠ ، ٢٤١ ، ٢٨١ ،
٣١٤ ، ٣٣٧ ، ٤٢٥ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ ،
٤٣٩ ، ٤٩٢ — ٤٩٤ ، ٤٩٦ — ٤٩٩ ،
٥٠٦ ، ٥٠٩ ، ٥٤٤ — ٥٤٨ ، ٥٥٥ ،
٥٥٧ — ٥٥٩ ، ٥٧٠ ، ٦٠٩ ، ٦٥٦ ،
٦٦٤ ، ٦٧٧ ، ٦٨٧ ، ٦٨٨ ، ٧٠٢

المغرب الأقصى ؛ ١٩ ، ٢٢ ، ٢٥ ، ٣٨ ،
٤١ ، ٦٦ ، ١١٨ — ١٢٠ ، ١٥١ ،
٤٠١ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠ ، ٤٥٦ ، ٤٨٨ ،
٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٥١٢ ، ٥١٩ ، ٥٤٤ —
٥٤٧ ، ٦٥٦ ، ٦٦٨ ، ٦٧٠

المغرب الأوسط ؛ ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٥٤٧

المكتبة الأموية ؛ ٢٨٢ ، ٥٠٤ — ٥٠٦ ،
٥٠٨ ، ٥٠٩ ، ٥٨٠ ، ٧٠١

مكناسة ؛ ١٦٤ ، ٥٥٧

مكة ؛ ٦٨ ، ١٤١ ، ١٤٣ ، ١٦٣

ملقون ؛ ٤١٦

مليلة ؛ ٤٢٦ ، ٥٤٧ ، ٦٧٥
منزل هانئ ؛ ٦٣٦
المنكب ؛ ١٥٢ ، ١٥٣ ، ٦٥٩
منورقة ، جزيرة ؛ ٢٥ ، ٢٦٢
منية جعفر ؛ ٦٢٤
منية العقاب ؛ ٦٤٧
منية كنتش ؛ ٣١٥
منية ناصح ؛ ٥٠٩
منية الناعورة ؛ ٥٠٩
منية نصر ؛ ٤١٦
مورور ؛ ٣١١ ، ٦٥٤
الموصل ؛ ١٤٥
مون سنى ؛ ٤٦٨
مونسراتو ؛ ٤٦٩
المهدية : ٦٩٩
ميرانده ؛ ٣٩١
ميرتلة ؛ ٣٣٠
ميزيا ؛ ٢٨
ميورقة ، جزيرة ؛ ٢٥ ، ٢٦٥ ، ٥١١
ناجرة ؛ ٣٩٥ ، ٣٩٨ ، ٥٦٣ ، ٥٩٩
نافار (نبرة) ؛ ٧٤ ، ٢١٠ ، ٣٠١ ، ٣٤٢ ،
٣٤٣ ، ٣٥٤ ، ٣٦١ — ٣٦٣ ، ٣٩٩ ،
٤٠٠ ، ٤٠٢ ، ٤٨٧ ، ٤٩٠ ، ٥٣١ .
٥٤٨ ، ٥٤٩ ، ٥٦٢ ، ٥٦٣ ، ٥٦٤ ،
٥٨٣ ، ٥٩٠ ، ٥٩٩ ، ٦٠٠ ، ٦٠١ ،
٦١٢
نكور ؛ ٤٢٦
نهر أرون ؛ ٢٤٢
نهر الإيزر ؛ ٤٧٠
نهر بارباق ؛ ٤٢ ، ٤٤
نهر بارسياس ؛ ٣٥٥
نهر بو ؛ ٤٧١
نهر التاجه ؛ ٧٠ ، ٧١ ، ١٣٢ ، ١٦٥ ،
٢٤١ ، ٢٩٣ ، ٢٩٥ ، ٣٤٦ ، ٣٥٨ ،
٣٩٣ ، ٤١٣
نهر التيمز ؛ ٩١
نهر الجارون ؛ ٢٩ ، ٧٤ ، ٩٠ ، ٩٣ ،
١٠٢ ، ١٠٣ ، ٢٦٢
نهر الدانوب ؛ ٢٨ ، ٣٠ ، ٥٣ ، ٢٤٩
نهر دجلة ؛ ١٤٥
نهر دويرة ؛ ٧٠ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ٢١٣ —
٢١٥ ، ٢٢٢ ، ٢٤١ ، ٣٠٦ ، ٣٥٤ ،
٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٩١ ، ٣٩٣ ، ٣٩٦ ،
٤١١ ، ٤١٧ ، ٤٢٠ ، ٤٨٧ ، ٥٠١ ،
٥٤٨ ، ٥٥٢ ، ٥٦٠ ، ٥٦١ ، ٥٦٤ ،
٥٦٥ ، ٥٧٣ ، ٥٩٦ ، ٥٩٧ ، ٦١٣ ،
٦١٥ ، ٦٧٦ .
نهر الرون ؛ ٥٣ ، ٩٠ ، ٩٣ ، ٩٦ ، ١١٤ ،
١١٦ ، ١٣٣ ، ٢٩٧ ، ٤٥٧ ، ٤٦٥ — ٤٦٧
نهر الرين ؛ ٧٧ ، ٧٨ ، ٩١ ، ٩٥ ، ١٧١ ،
١٧٦
نهر الزاب ؛ ١٤٥
نهر شلب ؛ ٤٨٨
نهر شنت مانكش ؛ ٤١٥
نهر شنيل ؛ ٣٢٣ ، ٣٣٧ ، ٣٧٧
نهر الفرات ؛ ٩١ ، ١٤٥ ، ١٥٠
نهر الفوشكة ؛ ٣٢٥
نهر اڤين ؛ ٩٩ ، ١٠٠
نهر الكريز ؛ ٩٩
نهر الكاين ؛ ٩٩ ، ١٠٠ ، ١١٥
نهر اللوار ؛ ٢٩ ، ٧٨ ، ٨١ ، ٩٠ ، ٩٩ ،
١٠٠ ، ١٠٤ ، ٢٦٢ ، ٤٦٦
نهر الموزل ؛ ٧٧
نهر منهو ؛ ٣١١ ، ٥٦٠ ، ٥٩٦ ، ٥٩٧
نهر النيل ؛ ٩١
نهر نيني ؛ ٢٢
نهر الوادى الكبير ؛ ٧٠ ، ٧٥ ، ١٥٤ ،
١٥٩ ، ١٦٦ ، ١٩٠ ، ٢٦٣ ، ٢٧٨ ،
٢٩٢ ، ٢٩٦ ، ٣٢٥ ، ٤٤٢ ، ٤٨٨ ،
٤٨٩ ، ٥١١ ، ٥٣٥ ، ٥٧٦ ، ٦٣٢ ،
٦٨٧
نهر وادى لكه ؛ ٤٢ ، ٤٤ ، ٥٢٧
نهر وادى ياره ؛ ٥٢١ ، ٦٤٩
نهر وادى يانة ؛ ٧٠ ، ١٣٢ ، ١٦٥ ، ٦٥٨
نوستريا ؛ ٧٩ ، ٨٠ ، ٩٦
نيس ؛ ٤٧٠
نيسابور ؛ ١٤٥
نوماثيا ؛ ٥٦٤
نيمة ؛ ٧٠ ، ٧٤ ، ١١٥ ، ١٣٣ ، ٦٩٧
همذان ؛ ٤٠

وادى الأحمر ؛ ١٩٠
وادى آش ؛ ٢٠٤ ، ٣٣٦ ، ٣٧٦ ، ٦٦٠
وادى بلون ؛ ٣٣٨
وادى الحجارة ؛ ١٣٢ ، ٢٠٦ ، ٢٩٩ ، ٣١١ ، ٣٥٤ ، ٣٩٦ ، ٤٠١ ، ٤٠٧ ، ٤١٦ ، ٤١٨ ، ٥٢٨ ، ٥٤٩
وادى الرون ؛ ٨٢ ، ٨٤ ، ٩٧ ، ١٠٥
وادى زارات ؛ ٥٥٧
وادى سبسر ؛ ١٢٠
وادى سلف ؛ ١١٩
وادى سليط ، وموقة ؛ ١٢٤ ، ٢٩٣ ، ٣٥٦
وادى قيس ؛ ١٦٠
وادى ملوية ؛ ٤٩٣
وادى منبس ؛ ١٦٦
وادى منى ؛ ٥٥٧ ، ٥٥٨
وبذة ؛ ٣٤٠
وجدة ؛ ٥٤٧
وشقة ؛ ٧٠ ، ١٣٣ ، ١٧٤ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٩ ، ٢٩٨ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٤٢ ، ٤٠٧ ، ٤٨٧ ، ٦١٢
وستفاليا ؛ ١٦٩
يابرة ؛ ٧٠ ، ٣٩٢
اليمن ؛ ٧٠
اليوكرين ؛ ٢٨
اليونان ؛ ٢٨

# فهرست الأعلام


— ا —

أبان بن عبد الله ؛ ٣٣٦ ، ٣٣٨

أبدال ؛ ١٧٢ ، ١٧٥

إبراهيم الإمام ؛ ١٤٣ – ١٤٥

إبراهيم بن حجاج ؛ ٣٣١ – ٣٣٤ ، ٣٣٧ ، ٣٧٧

إبراهيم بن شجرة ؛ ١٨٦

إبراهيم بن عثمان بن بشار ؛ انظر أبو مسلم .

أبلو ، الكونت ؛ ٢٥٦

ابن الأبار القضاعي ؛ ٤٦٠ ، ٥١١ ، ٦٩٦

ابن أبي عمروس العريف ؛ ٥١٢

ابن أبي يزيد المصر ؛ ٦٢٨

ابن الأثير ؛ ٤٨ ، ١٠٦ ، ١٤٩ ، ٢١٥ ، ٣٢٢ ، ٤٦٣ ، ٥٨٤

ابن الأغلب ؛ ٢٣١ ، ٣١٨

ابن التيانى النديم ؛ ٥٧٩

ابن الحبحاب ، عبيد الله ؛ ١٠٦ – ١٠٨ ، ١١٣ ، ١١٧ – ١١٩

ابن الخطيب ، لسان الدين ؛ ٣٤٤ ، ٤١٥ ، ٤١٩ ، ٤٢٠ ، ٤٥١ ، ٥٠٤ ، ٥١٠ ، ٥١٩ ، ٥٢٥ ، ٥٦٧ ، ٥٧٠ ، ٥٧١ ، ٥٧٦ ، ٥٧٨ ، ٥٨٥ ، ٦٣١ ، ٦٣٢ ، ٦٥٧

ابن الزبير ، عبد الله ؛ ١٩ ، ٢١ ، ١٥٤

ابن الطربيشة ؛ ٣٤٠

ابن العراف النديم ؛ ٥٧٩

ابن الفرضي ؛ ١٢٩

ابن القط ، أحمد بن معاوية ؛ ٣٤٥ ، ٣٦٠

ابن القوطية ، أبو بكر ؛ ٦١ ، ١٢٩ ، ٢٤٣ ، ٢٧٥ ، ٣٢١ ، ٥٠٧ ، ٥٢١ ، ٧٠٠ ، ٧٠١

ابن بسام ؛ ٦٥٤ ، ٦٦٦ ، ٦٩٥

ابن بشكوال ؛ ١٠٨

ابن بقنة ، أبو جعفر ؛ ٦٧١ ، ٦٧٢ ، ٦٧٣

ابن جلجل ، سليمان بن حسان ؛ ٤٥٣ ، ٤٥٤

ابن حزم ، أحمد بن سعيد الوزير ؛ ٤٣٨ ، ٥٣٩ ، ٥٥٣ ، ٥٧٤ ، ٦٣٥

ابن حزم ، الفيلسوف ؛ ١٢٩ ، ٢٥١ ، ٢٦٠ ، ٢٧٨ ، ٣٢١ ، ٣٤٩ ، ٥٠٤ ، ٥٠٦ ، ٥٣٩ ، ٥٤٠ ، ٥٥٣ ، ٦٥٧ ، ٦٦٣ ، ٦٦٥ ، ٦٦٧ ، ٦٩٤ ، ٧٠٤

ابن حمدون ؛ ٣٠٩

ابن حوقل ؛ ٤٣٩ ، ٤٤٧

ابن حيان ؛ ١٠٨ ، ١٢٩ ، ١٩٩ ، ٢٤١ ، ٢٦٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٧ ، ٢٩٩ ، ٣٠٨ ، ٣١٠ ، ٣٢٥ ، ٣٤١ ، ٣٤٩ – ٣٥١ ، ٣٧٨ ، ٣٩٥ ، ٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤١٨ ، ٤٢١ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٢٧ ، ٤٣١ ، ٤٣٢ ، ٤٣٤ ، ٤٣٨ ، ٤٦١ ، ٤٦٢ ، ٤٨٩ ، ٤٩٧ ، ٤٩٨ ، ٥٠٤ ، ٥٠٥ ، ٥١٠ ، ٥١١ ، ٥١٣ ، ٥١٩ ، ٥٢٢ ، ٥٢٧ ، ٥٣٠ ، ٥٧١ ، ٥٨١ ، ٥٨٢ ، ٥٨٥ ، ٦٠٨ ، ٦٢٠ ، ٦٢٥ ، ٦٢٨ ، ٦٥٩ ، ٦٦١ ، ٦٦٤ ، ٦٦٥ ، ٦٨٦

ابن خطاب ( أحمد بن عبد الرحمن ) ؛ ٥٤٣

ابن خلدون ؛ ١٧ ، ٤٨ ، ٥٣ ، ٦٨٩ ، ٦٩ ، ٨٣ ، ١٠٦ ، ١١٧ ، ١٤٩ ، ١٩٧ ، ٢١٠ ، ٢١٥ ، ٣٣١ ، ٤٦٠ ، ٤٨٧ ، ٥٣١ ، ٥٤٠

ابن خلكان ؛ ١٠٥ ، ١٠٧ ، ١٤٩

ابن دحية البلنسي ؛ ٢٨٤ ، ٢٨٥

ابن دراج القسطلي ؛ ٥٥٦ ، ٥٥٨ ، ٥٦١ ، ٦١٠ ، ٦٢٠ ، ٦٢١ ، ٦٢٩ ، ٧٠٤

ابن ذكوان ، أبو العباس ؛ ٥٨٠ ، ٦٢٥ ، ٦٢٦ ، ٦٢٨ ، ٦٣٦ ، ٦٤٥ ، ٦٤٧ ، ٦٥٣

ابن راشد ؛ ٣٩٣

ابن ذرى الحاجب ؛ ٦٣٧

ابن زيان ؛ ٨٨

ابن زيدون ؛ ٤٤٠

ابن سالم ؛ ٢٩٩
ابن شاكر ؛ ٣٠٠
ابن شكوح ، أمير البحر ؛ ٢٩٦
ابن عبد البر ؛ ٢٩١
ابن عبد الحكم ؛ ٤٧ ، ٥٧ ، ٣٠٧
ابن عبد ربه ، أبو عمر ؛ ٢٢٤ ، ٣١٥ ، ٣٢١ ، ٣٢٦ ، ٣٣٤ ، ٣٥١ ، ٣٧٤ ، ٣٧٨ ، ٣٨٠ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤٦٢ ، ٦٩٥ ، ٦٩٦ ، ٧٠٠
ابن عربي ، محيي الدين ؛ ٤٤١
ابن عذارى المراكشي ؛ ١٠٧ ، ٦٥٧
ابن عطاف ؛ ٣٧٦
ابن عياش ، أبو عبد الله ؛ ٥٥٣ ، ٥٧٤ ، ٥٧٥
ابن غالب ؛ ٢٠٤
ابن غومس ؛ ٦٣٧
ابن محمد القاضي ؛ ٤٥٠
ابن مسرة الجبلي ؛ ٤٣٠-٤٣٢ ، ٤٣٤ ، ٦٩٨ - ٧٠٠ ، ٧٠٤
ابن مناو ؛ ٦٥١ ، ٦٥٢
ابن ميمون ؛ ٢٠٦
ابن هبيرة ؛ ١٤٥
ابن وضاح ؛ ٤٣١
ابن وليد الكلبي ؛ ٤٧٤
ابن يحيى أمير سرقسطة ؛ ٤١٩ ، ٤٢٠
ابن يصل ؛ ٤٢٦
أبو الاصبغ موسى بن خطاب ؛ ٥٤٣
أبو الخطار الكلبي ( حسام بن ضرار ) ؛ ٦١ ، ١٢٥ — ١٢٧ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ٦٨١
أبو الشماخ زعيم اليمنية ؛ ٢٥٤
أبو الصباح بن يحيى اليحصبي ؛ ١٥٣ ، ١٦٤ - ١٦٦ ، ١٩٤
أبو العيش بن أيوب ؛ ٤٩٧
أبو العيش الحسني ؛ ٤٢٦
أبو الفتوح بن ناصر ؛ ٦٤٤
أبو الفرج الأصفهاني ؛ ٥٠٥
أبو القاسم بن يوسف الفهري ؛ ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٩٠
أبو المطرف بن عون الله ؛ ٦١٣
أبو المهاجر الأنصاري ؛ ٢٠
أبو بكر الأبهري ؛ ٥٠٥
أبو بكر الزبيدي : ٥٠٣ ، ٥٨٠
أبو بكر بن معاوية القرشي ؛ ٥٠٧ ، ٥٢١ ، ٧٠١
أبو ثور بن قسي ؛ ١٧٤ ، ٢٢٧
أبو جعفر المنصور ؛ ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٤٦ ، ١٦١ — ١٦٣ ، ١٧١ ، ١٩٤ ، ١٩٧ ، ٢٣٤ ، ٢٥٠
أبو حفص البلوطي : ٢٤٥ ، ٢٨٢
أبو صفوان ، حاكم سرقسطة ؛ ٢٣٢
أبو عامر بن شهيد ؛ ٦٦٥
أبو عثمان : أنظر عبيد الله بن عثمان
أبو علي القالي ؛ ٤٥٤ ، ٥٠٥ ، ٥٠٧ ، ٥٢١ ، ٥٧٩ ، ٧٠١
أبو عمر بن أبي عمر ؛ ٤٠٧
أبو عون عبد الملك بن يزيد ؛ ١٤٥
أبو كعب بن عبد البر ؛ ٢٣٦
أبو مسلم الخراساني ؛ ١٤٣ — ١٤٦
أبو نصر الرامي ؛ ٣٨٥
أبو نور بن أبي قرة اليفرني ؛ ٦٧٤ ، ٦٧٥
أبو هاشم عبد الله ؛ ١٤٣
أبو يحيى التجيبي ( الأنقر ) : ٣٤٠ ، ٣٤١
أناناجلد بن تيودمير ؛ ١٢٦
أتيلا التترى ؛ ٢٩
أجنهارت ؛ ١٧٢ ، ١٨١
أچيكا ؛ ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣
أحمد بن أحمد بن بقي بن مخلد ؛ ٤٢٩
أحمد بن اسحاق القرشي ؛ ٣٨٩ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩
أحمد بن الأسعد ؛ ٤٩١
أحمد بن البراء ؛ ٣٤١
أحمد بن برد ( أبوحفص ) ؛ ٦١٠ ، ٦١٩ ، ٦٢٠ ، ٦٢٥ ، ٦٢٦ ، ٦٢٨ ، ٦٦٠ ، ٦٦٣ ، ٦٦٥
أحمد بن خالد بن أمية بن عيسى بن شهيد ؛ ٤٦١
أحمد بن زياد اللخمي ؛ ٣٧٤
أحمد بن سهل بن محمد ؛ ٤٦١
أحمد بن عباس ؛ ٦٧٢
أحمد بن عبد الله ( عم الناصر ) ؛ ٣٨٤
أحمد بن عبد الله ( عامل ريه ) ؛ ٣٠٨

أحمد بن عبد ربه ؛ أنظر ابن عبد ربه
أحمد بن عبد الملك بن شهيد ؛ ٤٦١ ، ٤٦٢ ، ٥١١
أحمد بن عبد الوهاب بن عبد الرؤوف ؛ ٤٦٢
أحمد بن عيسى بن أبي عبدة ؛ ٣٤٧ ، ٣٨٦
أحمد بن محمد بن أبي عبدة ؛ ٣٢٤ ، ٣٣٦ — ٣٣٨ ، ٣٧٩ ، ٣٩٤ ، ٤١٥ ، ٤٦٠
أحمد بن محمد بن إلياس ؛ ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤٠٩ ، ٤٢٤ ، ٤٦١ ، ٤٦٢
أحمد بن محمد بن حدير ؛ ٣٧٤ ، ٣٨٦ — ٣٨٨ ، ٣٩٩ ، ٤٤٧ ، ٤٦٠ ، ٤٦٢ ، ٥٢٣ ، ٥٢٩ ، ٥٧٤ ، ٦٨٥
أحمد بن محمد الرازى ؛ ٣٨٦ ، ٣٨٨ ، ٧٠٠
أحمد بن محمد بن زياد ؛ ٣٧٨ ، ٤٦١
أحمد بن محمد بن عيسى ؛ ٤٦١
أحمد بن محمد القسطلى ؛ ٥٠٣
أحمد بن مسلمة ؛ ٣٧٧
أحمد بن موسى ؛ ٦٦٨
أحمد بن موسى العروى ، ٧٠١
أحمد بن هاشم بن عبد العزيز ؛ ٣٣٢ ، ٣٣٨
أحمد بن يعلى ؛ ٤٢٣ ، ٤٢٧ ، ٥٩٣
أدريان ، الإمبراطور ؛ ٥٠٨
إدريس بن إدريس الحسنى ؛ ٢٤١
إدريس بن عبد الله بن الحسن ؛ ٦٥٧
إدريس بن على بن حمود المتأيد ؛ ٦٦٢ ، ٦٦٤ ، ٦٧١ ، ٦٧٢
إدريس بن يحيى المعتلى (العالى) ٦٧١، ٦٧٣—٦٧٥
إدريس بن يحيى بن أدريس (السامى) ؛ ٦٧٥
الإدريسى ، الشريف ؛ ٤٨ ، ٤٩ ، ٤٤١
أدلبرت ؛ ٤٧٣
إديكو ؛ ٤١
أرخنتا بنت عمر بن حفصون ؛ ٣٨٣ ، ٢٨٧
أرده نيو الأرل (ملك ليون) ؛ ٢٩٢ ، ٢٩٧ — ٢٩٩ ، ٣٤٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٦٢
أردونيو الثانى ؛ ٢٩٢ — ٢٩٨ ، ٤٠٠ ، ٥٨٩ ، ٥٩١
أردونيو الثالث ؛ ٤٥٩ ، ٤٨٤ — ٤٨٦ ، ٥٩٣ ، ٥٩٧ ، ٥٩٩ ، ٦٠٠
أرد نيو الرابع ؛ ٥٩٣ ، ٥٩٤ ، ٥٩٧
أرذبلش الوياحى ؛ ٣٧٥
أرمانيوس ( ومانوس ) ، القيصر ؛ ٤٥٣ ، ٤٥٤
أرموزندة ؛ ٢١٣
أرمنجو ، الكونت ؛ ٦٤٨
أرميخو الأسقف ؛ ٣٩٧
أرنولد ؛ ١١٠
أروزندا ؛ ٢١٨ ، ٢١٩
أزنار ؛ ٢٥٦
ازوار ؛ ٣٦٢
اسحاق الموصلى ؛ ٢٨١
اسحاق بن إبراهيم ؛ ٣٣٠
اسحاق بن محمد البرزالى ؛ ٦٧٥
اسحاق بن محمد القرشى ؛ ٣٧٩
اسحاق بن المنذر ؛ ٢٥١
أسد بن الحرث ؛ ٣٠٧
اسكندر سيڤروس ، الإمبراطور ؛ ٢٨
أسلم بن عبد العزيز بن هشام ؛ ٤٦١
أسماء بنت غالب ؛ ٥٢٩
إسماعيل بن بدر ؛ ٤٠٢ ، ٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٦٩٦ ، ٦٩٨
إسماعيل بن الحبحاب ؛ ١١٩
إسماعيل بن عباد ؛ ٦٧٠ ، ٦٧٢
إسماعيل بن عبيد الله ؛ ١١٩
إسماعيل بن لب ؛ ٢٩٩
إسماعيل بن موسى بن ذى النون ؛ ٢٦٥ ، ٢٩٩ ، ٣٠١ — ٣٠٣
أسنار ، الكونت ؛ ٣٤٣
آسورفرناندز ؛ ٥٩١
اصبغ بن سلمة ؛ ٦١١
أصبغ بن عبد الله بن وانسوس ؛ ٢٣٧
الأصمعى ؛ ٦٩٣
الأصيلى ؛ ٥٨٠
أغلب بن شعيب ؛ ٦٩٦
أفلح الصقلبى ، الوصيف ؛ ٣٤٨
أفلح صاحب الخيل ؛ ٤٥١ ، ٥٠٠
أفلح الفتى ، حاكم المرية ؛ ٦٥٨
ألاريك ؛ ٢٨ — ٣٠ ، ٤٤ ، ٧٨
ألبرو القرطبى ؛ ٢٦٩ ، ٢٧١
إلبيرة ، الراهبة ؛ ٤٨٩ — ٤٩١ ، ٥٩٦ ، ٥٩٧

إلبيرة ، والدة ألفونسو الخامس ؛ ٢١١
ألتاميرا ، ؛ افائيل ؛ ٦٦ ، ٧٤ ، ٢١٢ ، ٢٢١ ، ٢٧٠
ألفايدة ؛ ٨٠
ألفونسو ، أمير ليون ؛ ١٦٩
ألفونسو الأ ل ، دوق كانتبريا ؛ ١٣٨ ، ١٦٩ ، ٢١٣ — ٢١٥ ، ٢١٨ — ٢٢٠ ، ٣٥٤
ألفونسو الثانى ، العفيف ؛ ٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٢٣٥ ، ٢٤١ ، ٢٥٥ ، ٢٥٨ ، ٢٦١ ، ٣٥٣ — ٣٥٥
ألفونسو الثالث الكبير ؛ ٢٩٩ ، ٣٠٢ — ٣٠٤ ، ٣٠٦ ، ٣٢٧ ، ٣٤٢ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٥٨ — ٣٦١ ، ٣٩١
ألفونسو الرابع ؛ ٥٨٩ ، ٥٩٠ ، ٥٩٣
ألفونسو الخامس ؛ ٥٦١ ، ٥٦٤ ، ٥٩٩ ، ٦١١ ، ٦١٣ ، ٦٢٩
ألفونسو العالم (العاشر) ؛ ٣٤ ، ٣٧ ، ٤٩٩
ألفونسو القس ( جد ابن حفصون ) ٣٠٨
الإقطاع ؛ ١٩٤
أم الأصبغ أخت عبد الرحمن ؛ ١٥٠
أم الحكم بنت المستعين : ٦٦٦
أمية بن اسحاق ؛ ٤٠٨ ، ٤٠٩ ، ٤١٣ ، ٤٢٠ ، ٤٢١
أمية بن الحكم ؛ ٢٥٨
أمية بن عبد الرحمن ؛ ٢٣٧
أمية بن عبد الرحمن العراقى ؛ ٦٦٩
أمية بن عبد الغافر بن أبى عبدة ؛ ٣٣١ ، ٣٣٢
أمية بن عبد الملك بن قطن ؛ ١٢٣ — ١٢٦ ، ١٦٢
أمية بن عيسى بن شهيد ؛ ٣١٣
أمية بن معاوية بن هشام ؛ ٢٥٦
آنزيموند ، الكونت ؛ ١٣٣ ، ١٣٧
أنسلم ؛ ١٨١
أنشودة رولان ؛ ١٧٨ ، ١٨٠ — ١٨٢
أنجه الفرنجى ؛ ٤٢١
أنزجو أريستا ؛ ٣٦٢
أوباس ؛ ٣٤ ، ٤٥ ، ٥١ ، ٦٠ ، ٢١١
أوتو الأكبر ؛ ٤٥٦ — ٤٥٨ ، ٤٧٢ ، ٤٧٣ ، ٤٩١
أوتو الثانى ؛ ٤٩١
أودلرادو ؛ ٥٤٤
أودو ، أمير أكوتين ؛ ٨٠ ، ٨١ ، ٨٦ — ٩٠ ، ٩٦ — ٩٨ ، ١٠١ — ١٠٣ ، ١٠٣ ، ١٠٨ ، ١١٣ — ١١٥ ، ١٣٧
أوراكا ابنة طوطة ملكة نافار ؛ ٥٩٢ ، ٥٩٩ ، ٦٠٠
أوراكا بنت فرنان كونثالث ؛ ٥٩١ ، ٥٩٣
أورسيوس المؤرخ ؛ ٤٥٣ ، ٤٥٤ ، ٥٠٥
أورليوس ؛ ٢١٨ ، ٢٢٠
أورية بنت موسى القسوى ؛ ٣٠٠
الاوزاعى ، الإمام ؛ ٢٢٩
أوغسطوس ، الإمبراطور ؛ ٥٠٨
أوليڤر ؛ ١٨١ ، ١٨٢
أولولنخيو ، سان ؛ ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٩ ، ٢٩٣ ، ٢٩٦ ، ٣٠٣
إيجلونا ؛ ٧١ ، ٧٢
ايجهارد ؛ ١٨١
إيزيدور الباجى ؛ ٣٤ ، ٣٧ ، ٤٥ ، ٦٣ ، ٧٦ ، ٨٢ ، ٩٠ ، ٢٠٩
إيڤا ؛ ٣٤ ، ٤٤ ، ٦٠ ، ٦١
إيمون ؛ ٤٧١
أيوب بن حبيب اللخمى ؛ ٧٣ ، ٦٨٠
أيوب بن عمر بن حفصون ؛ ٣٨٣


## ب — ت — ث


باديس بن حبوس ؛ ٥٠٧ ، ٦٧١ ، ٦٧٢ ، ٦٧٤ — ٦٧٦
باسيه ، المستشرق ؛ ١٨٢
ببين القصير ، الملك ؛ ١٣٣ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٤ ، ٢٣٤ ، ٢٦٦
ببين دى هرشتال ، محافظ القصر ؛ ٨٠
ببين بن شارلمان ؛ ٤٦٦
بترُوس ، الدوق ؛ ٢٠٨ ، ٢١٠ ، ٢١٣
بدر الصقلبى ؛ ٣٤٧
بدو القائد ؛ ٢١٨
بدر مولى عبد الرحمن الداخل ؛ ١٥٠ — ١٥٢ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٨٧ ، ١٩٣ ، ١٩٨ ، ٢٠١ ، ٢١٦

بدر بن أحمد الحاجب ؛ ٣٧٧ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٩٥ ، ٤٦٠ ، ٤٦١

برت ، ملكة برجونية ؛ ٤٦٥

برمودو بن فرويلا ؛ ٢٢٠ ، ٢٢٦

برمودو الثانى ؛ ٥٤٢ ، ٥٤٧ ، ٥٤٨ ، ٥٥١ ، ٥٥٢ ، ٥٦٠ ، ٥٦١ ، ٥٦٣ — ٥٦٥ ، ٥٨٣ ، ٥٩٨

برنار ، القديس ؛ ٤٧٣

برنهارت ؛ ٢٥٧

بريهة بنت يحيى ، أم المنصور ؛ ٥٢١

بسيل الثانى ، القيصر ؛ ٦١٣

بشر بن صفوان الكلبى ؛ ٨٢ ، ٨٣

بشر بن مروان ؛ ٢٣ ، ٢٤

بشرى العامرى ، الفتى ؛ ٦٣٠

بطرس ، ملك الصقالبة ؛ ٤٥٦

بقى بن مخلد ؛ ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣٥١ ، ٦٨٥ ، ٦٩٤

بكر بن وائل ؛ ٢٣

بكر بن يحيى بن بكر ؛ ٣٣٠

بكير بن ماهان ؛ ١٤٣

بلاجيوس ، دوق كانتبريا ؛ ٣٣

البلاذرى ؛ ٤٨ ، ١٠٦

بلايو (أو بلاجيوس) ؛ ٨٣ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ١١٤ ، ١٣٨ ، ٢٠٨ — ٢١٣

بلايو بن برمودو ؛ ٥٦١

بلايو ، القديس ؛ ٥٩٦

بلج بن بشر القشيرى ؛ ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٣٠ ، ٦٨٧

بلقين بن جيوس ؛ ٦٧١

بلكترود ؛ ٨٠

بلكين بن زيرى بن مناد ؛ ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٤٩٩ ، ٥٤٥

بليزاريوس ؛ ١٨

بليط الفرنجى ؛ ٤٠٤

بليق الغلام ؛ ٦٤٦

بهار ، الجارية ؛ ٣٢٢

بهلول بن مروان ؛ ٢٣١

بهير ، الجارية ؛ ٢٨٩

بوبون ؛ ٤٧٣

بوريل بن سونير ، الكونت ؛ ٤٩١ ، ٤٩١ ، ٥٤٤

بوسون ؛ ٤٦٧ ، ٤٦٨

بون فيلى ؛ ٤٩٢

بيدال ، المؤرخ ؛ ١٧٢ ، ١٧٥ ، ١٧٨ ، ١٨٤ ، ٤٩١ ، ٥٦٥ ، ٥٨٦

بيرانجيه ؛ ٤٧٠ ، ٤٧٣

تاسيتوس : ٢٨

تدفيليا بن أدفونش ؛ ٢١٥

تراچان ، الإمبراطور ؛ ٥٠٨

التروبادور ؛ ٤٧٨

تريسا بنت برمودو زوجة المنصور ؛ ٥٨٣

تريسا زوجة سانشو ملك ليون ؛ ٥٩٦

تليد الفتى ؛ ٥٠٦

تمام الفتى ؛ ٤٥١ ، ٤٥٢

تمام بن عامر الثقفى ؛ ٣١٣

تمام بن علقمة اللخمى ؛ ١٥٢ ، ١٥٨ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٩٨ ، ٢١٦

تميم بن معبد الفهرى ؛ ١٣٥

تود ڤالد ؛ ٨٠

التيجانى ؛ ٥٧٠

تيودورا ، القيصرة ؛ ٢٨٣

تيودريك الأول ؛ ٢٩

تيودوريك الثانى ؛ ٢٩

تيودريك الرابع ؛ ٩٨

تيودوفرد ، دوق ؛ ٣٣

تيودمير القوطى ؛ ٣٣ ، ٤١ ، ٥٠ ، ٥٥ ، ١٢٦

تيودمير ، أسقف إيريا ؛ ٢٤٠

تيودوسيوس ، الإمبراطور ؛ ١٧

تيوفيلوس ، القيصر ؛ ٢٨٢

ثعلبة بن سلامة الجذامى ؛ ١٢٠ ، ١٢٤ — ١٢٦

ثعلبة بن عبيد الجذامى ؛ ١٦٨ — ١٧٠ ، ١٧٥ ، ١٨٣ ، ١٨٨ ، ١٩٨

ثوابة بن سلامة الجذامى ؛ ١٢٧


## ج — ح — خ


جانلون ؛ ١٨١ ، ١٨٢

جاينجوس ، المستشرق ؛ ١٠ ، ٦٤

جدار بن عمرو المذحجى ؛ ١٥٢ ، ١٩٨
جريجورى الثانى ، البابا ؛ ١٠٨
جريجوريوس (جرجير) ؛ ١٦
جريمولد ؛ ٨٠
الجزية ؛ ٦٣ ، ٦٥ ، ٧٥ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٩٠
جعد بن عبد الغافر ؛ ٣٢٨ ، ٣٢٩
جعفر ، أم المؤيد ؛ راجع صبح أم المؤيد
جعفر بن دميان ؛ ٣٠٨
جعفر بن عبد الرحمن الصقلبى ؛ ٥١١
جعفر بن عثمان المصحفى ؛ ٤٦٣ ، ٤٩٧ — ٤٩٩ ، ٥٠٣ ، ٥١٠ — ٥١٢ ، ٥١٧ — ٥٢٣ ، ٥٢٦ — ٥٣١ ، ٥٦٩ ، ٦٨٤ ، ٦٩٧ ، ٧٠٠
جعفر بن على بن حمدون الأندلسى ؛ ٤٩٣ ، ٥٠٠ ، ٥٠١ ، ٥٣٨ ، ٥٣٩ ، ٥٤٢ ، ٥٤٥ ، ٥٧٥ ، ٧٠٢
جعفر بن عمر بن حفصون ؛ ٣٣٠ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤
جعفر بن مقسم ؛ ٣٨٠
جميلة العذراء ؛ ٢٥٧ ، ٢٥٨
جند سالقوس بن ألفونسو الثالث ؛ ٣٦٠
جنسريك ؛ ١٧
جهور بن عبد الله بن أبى عبدة ؛ ٤٦١
جهور بن عبد الملك البختى ؛ ٤٦٠ ، ٤٦١
جهور بن محمد بن جهور ، أبو الحزم ؛ ٦٦٠ ، ٦٦١ ، ٦٦٨ ، ٦١٩
جوذر الفتى ؛ ٥١٧ ، ٥١٨ ، ٥٢٦
جومث بن أنطونيان ؛ ٢٧٠ ، ٢٧٦ ، ٣١٦ ، ٦٩٥
جوند سالقوسانشيز ؛ ٥٩٦ ، ٥٩٧
جونزالفو كونثالث ؛ ٥٤٨
جوهر الصقلى ؛ ٤٩٢ ، ٦٩٩
جيبون ، إدوارد ؛ ٤٤ ، ٩١ ، ١٠٩
جيرولدوس ؛ ٤٧٣
جيوم ؛ ٤٧٣
جيوم دى تولوز ؛ ٢٢٧ ، ٢٣٥ ، ٢٥٧
جيين دى تولوز ؛ ٢٦٥
الحاجب المنصور ؛ أنظر محمد بن أبى عامر
حارث بن بزيغ ؛ ٢٩١ ، ٢٩٢

الحباب بن رواحة الزهرى ؛ ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٥٢
حباسة بن ماكسن ؛ ٦٥٢
حبوس بن ماكسن ؛ ٦٤٤ ، ٦٥٢ ، ٦٥٩ ، ٦٧٣
حبيب الخصى ؛ ٢٩٠
حبيب بن أبى عبدة الفهرى ؛ ٧٢ ، ١١٨ — ١٢٠ ، ١٢٩
حبيب بن سوادة ؛ ٣٧٧ ، ٣٨١
حبيب بن عبد الملك ، ١٦١ ، ١٨٧
الحجاج الثقفى ؛ ٢٤
حذيفة بن الأحوص القيسى ؛ ٨٣
الحر بن عبد الرحمن الثقفى ؛ ٦٠ ، ٧٣ — ٧٥ ، ١٥٨ ، ٢١١ ، ٦٨٠
حزم بن وهب ؛ ٢٤٢
حسان بن حسان ؛ ٦٩٦
حسان بن مالك الكلبى ؛ ١٥٢ ، ١٩٨
حسان بن النعمان الغسانى ؛ ٢١ — ٢٥
حسداى بن اسحاق ؛ ٤٢٢
حسداى بن شبروت ؛ ٥٠٦ ، ٥١٥
الحسن بن أحمد بن عبد الودود السلمى ؛ ٥٤٦
حسن بن عبد الغافر بن أبى عبدة ؛ ٢٧٤
الحسن بن القاسم بن حمود ؛ ٦٦٣ ، ٦٧٦
الحسن بن كنون ؛ ٤٩٢ ، ٤٩٤ ، ٤٩٥ — ٤٩٩ ، ٥٤٤ ، ٥٤٥
الحسن بن على بن أبى طالب ؛ ٦٥٧
حسن بن فتح ؛ ٦١٩
حسن بن يحيى المعتلى ؛ ٦٧١ ، ٦٧٢ ، ٦٧٣ ،
الحسين بن على بن أبى طالب ؛ ١٢٧ ، ١٤١ ، ١٤٣ ، ١٦٤
الحسين بن يحيى الأنصارى ؛ ١٧٤ — ١٧٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨
حشحاش ، أمير البحر ؛ ٢٩٦
الحصين العقيلى ؛ ١٣٣ ، ١٣٤
الحصين بن الدجن ؛ ٢١٤
حفص بن عمر بن حفصون ؛ ٣٨٣ ، ٣٨٥ — ٣٨٨
حفص بن المرة ؛ ٣٢٩ ، ٣٣٦
حكم بن حفصون ؛ ٣٨٦
حكم بن سعيد القزاز ؛ ٦٦٨ ، ٦٦٩

الحكم بن محمد ؛ ٢٩٩ ، ٣٠٠
الحكم بن عبد الرحمن بن الحكم ؛ ٢٩٢
الحكم المستنصر : ٣٧٨ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٣٩٩ ، ٤٠٢ ، ٤٣٧ ، ٤٣٩ ، ٤٥٠ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣ ، ٤٨٣ – ٤٩٠ ، ٤٩٢ – ٤٩٤ ، ٤٩٦ ، ٤٩٨ ، ٤٩٩ ، ٥٠٠ ، ٥٠٢ ، ٥٠٣ ، ٥٠٥ ، ٥٠٧ ، ٥٠٨ ، ٥١٠ ، ٥١٢ – ٥٢٤ ، ٥٢٧ ، ٥٢٩ ، ٥٤٤ ، ٥٦٩ ، ٥٧٨ ، ٥٨٣ ، ٥٩٤ ، ٥٩٧ ، ٥٩٨ ، ٦٠٠ ، ٦٥٠ ، ٦٥٦ ، ٦٨٢ – ٦٨٤ ، ٦٩٧ ، ٧٠٠ – ٧٠٣
حكم بن منذر ؛ ٤٠٨
الحكم بن هشام ؛ ٢٣٠ – ٢٣٣ ، ٢٣٥ – ٢٣٧ ، ٢٣٩ – ٢٤٣ ، ٢٤٥ ، ٢٤٧ – ٢٥٢ ، ٢٥٤ ، ٢٧٤ ، ٢٧٦ ، ٢٨١ ، ٣١٣ ، ٣٥٤ ، ٤٢٩ ، ٤٣٨ ، ٤٤٨ ، ٤٦٥ ، ٥٤٣ ، ٦٨٢ ، ٦٨٤ ، ٦٩٢ ، ٦٩٣
حلاوة ، الجارية ؛ ٢٥٤
حلل ، الجارية ؛ ٢٢٤
حلويرة أو حلورية ؛ أنظر إلبيرة الراهبة
حمدون بن بسيل ؛ ٣١٢
الحميدي ، أبو عبد الله ؛ ١٠٧
حنظلة بن صفوان الكلبي ؛ ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٣٠
حنون بن أحمد بن عيسى ؛ ٤٩٨
حيوة بن ملامس الحضرمي ؛ ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٦
خالد بن أمية بن شهيد ؛ ٤٦١ ، ٤٦٢
خالد بن حبيب ؛ ١١٩
خالد بن حميد الزناتي ؛ ١١٩
خالد بن عثمان بن خلدون ؛ ٣٣١ – ٣٣٣
خالد بن الوليد ؛ ٢٣
الخشني ، أبو عبد الله ؛ ٣١٥ ، ٤٣١ ، ٥٠٥
خلف بن بكر ؛ ٣٩٠
خلف بن حسين بن حيان ؛ ٥٧٤ ، ٥٨١
خلف بن خليفة ؛ ٦١٩
خليفة بن مروان ؛ ١٦٣
خمينا ، الملكة ؛ ٣٦٠
خمينو غرسيس ؛ ٥٩٩
خير بن شاكر ؛ ٣٢٤
خيران العامري ؛ ٦١٦ ، ٦٤٩ ، ٦٥٨ – ٦٦٢ ، ٦٦٨ ، ٦٨٦ ، ٧٠٤

## د – ز

داجوبيرت ؛ ٧٨ ، ٧٩
داود بن هلال ؛ ١٦٧
دحية الغساني ؛ ١٦٨
دري بن عبد الرحمن الصقلبي ؛ ٣٩٠ ، ٤٠٧ ، ٤٥١ ، ٥١٤ ، ٥٢٦
دوزي ، المستشرق ؛ ٦٣ ، ١١٨ ، ١٩٤ ، ٢٦٧ ، ٣٨٣ ، ٤٤٧ ، ٤٦٣ ، ٥٠٧ ، ٥٦٥ ، ٥٨٦
دوامديو الأسقف ؛ ٣٩٧
دوناس بن أبي روح ؛ ٦٦٨
ديبل الزعيم الشعبي ؛ ٢٣٧
ديسقوريدس ؛ ٤٥٣ ، ٤٥٤ ، ٥٠٥ ، ٥١٥
ديسم بن إسحاق ؛ ٣٣٠
ديسيوس ، الإمبراطور ؛ ٢٨
ذكاء الفتى ؛ ٥٠٣
الذلفاء ، أم عبدالملك المنصور ؛ ٦٠٨ ، ٦١٨ ، ٦٣٠ ، ٦٣١ ، ٦٣٤ ، ٦٣٥
ذو النون بن سليمان الهواري ؛ ٣٠٧
راتبود ، زعيم فريزيا ؛ ٧٩
راجنفرد ؛ ٨٠
الرازي ، عيسى بن أحمد ؛ ١١٧ ، ١٢٩ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٨ ، ٢٩٤ ، ٣١٠ ، ٣٧٨ ، ٣٨١ ، ٣٨٤ ، ٣٩٢ ، ٤١٥ ، ٤١٦
رامون بوريل الثالث ؛ ٦١١ ، ٦٤٨
راميرو الأول ( رذمير ) ؛ ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٣٥٤ – ٣٥٦
راميرو الثاني ؛ ٤٠١ ، ٤٠٣ ، ٤٠٥ – ٤٠٧ ، ٤٠٩ ، ٤١٣ ، ٤١٨ – ٤٢٠ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣ ، ٥٨٩ ، ٥٩٠ ، ٥٩١ ، ٥٩٢ ، ٥٩٧ ، ٦٠٠
راميرو الثالث ؛ ٤٨٩ ، ٤٩٠ ، ٥٣٨ ، ٥٤١ ، ٥٤٢ ، ٥٩٦ ، ٥٩٨
راميرو أباركا ؛ ٥٣٩

واتكة المؤرخ ؛ ١١٠
ربيع بن تدلف القومس ؛ ٢٥١
ربيع بن زيد الأسقف ؛ ٢٤٣ ، ٢٥٥ ، ٤٣٨ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ ، ٥٠٧
رتشارد ملك النورمان ؛ ٤٨٨
رذريك ملك القوط ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٧١ ، ٩٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩
ردريك الطليطلى ؛ ٣٣ ، ٣٥ ، ٣٧
رزق بن النعمان الغسانى ؛ ١٦
الرشيد ، هارون ؛ ١٧٤ ، ٢٣٤ ، ٢٨٩
الرماحس بن عبد العزيز الكنانى ؛ ١٨٧
روتبالدس الكونت ؛ ٤٧٠
رولان ؛ ١٨١ ، ١٨٢
رولو ملك النورمان ، ٤٨٨
رومانوس الثانى ، القيصر ؛ ٤٨٤
ريان الفتى ؛ ٣٤٨
الرياحى (اوذبلش) ؛ ٣٧٥
ريثموندو الإلبيرى ؛ أنظر ربيع بن زيد
ريكافود ؛ ٢٧١
رينو ، المستشرق ؛ ٤٧٩
ريوتيانوس ، الكونت ؛ ٣٥٥
زاو بن زيرى بن مناد ؛ ٦١٨ ، ٦٤٤ ، ٦٤٧ ، ٦٤٨ ، ٦٥٢ ، ٦٥٩ ، ٦٦٠ ، ٦٦٢
زخرف ، الجارية ؛ ٢٣٠
زروال بن عمريل ؛ ٤٩٩ ، ٥٠١
زرياب (أبو الحسن على بن نافع) ؛ ٢٨١
زكريا بن عمروس ؛ ٣٠١
الزهراء (جارية الناصر) ؛ ٤٣٦
زهير العامرى ؛ ٦١٦ ، ٦٦٢ ، ٦٦٨ ، ٦٧١ ، ٦٧٢
زهير بن قيس البلوى ؛ ٢٠ ، ٢١
زياد بن أفلح ؛ ٤٨٩ ، ٥٩٧
زياد بن عبد الرحمن ؛ ٢٢٩ ، ٦٩١ ، ٦٩٢
زيادة الله بن مضر الطبنى ؛ ٥٧٩
زيرى بن عطية ؛ ٥٤٥-٥٤٧ ، ٥٥٧ — ٥٥٩ ، ٦٠٩
زيرى بن مناد الصنهاجى ؛ ٤٩٣ ، ٥٠١
زيلير ، المؤرخ ؛ ١١٠


## س — ط


سابور الفتى ؛ ٥٠٧
ساجيتوس ؛ ٤٦٨
سارة القوطية ؛ ٦١ ، ٣٣١ ، ٧٠٠
ساقدرا ، المستشرق ؛ ٥٦٥
سالم ، مولى عبد الرحمن ؛ ١٥٠
سانشا ، دونيا ؛ ٣٤٣
سانشا ابنة طوطة ملكة نافار ؛ ٦٠٠
سانشو زعيم نافار ؛ ٣٦٢
سانشو الأول ملك نافار ؛ ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٦٢ ، ٣٩٤ ، ٣٩٦ — ٤٠٠ ، ٤٠٢
سانشو الثانى ملك نافار ؛ ٥٤١ ، ٥٤٧
سانشو الكبير ، ملك نافار ؛ ٦٠١
سانشو الأول ملك ليون ؛ ٤٢٣ ، ٤٥٩ ، ٤٨٤ — ٤٨٧ ، ٤٨٩ ، ٥٩٣ ، ٥٩٤ ، ٥٩٦ ، ٥٩٧ ، ٦٠٠
سانشو غرسية بن فرتون ؛ ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٥٩٩
سانشو غرسية ملك نافار ؛ ٤٩٠ ، ٤٩١ ، ٥٨٣ ، ٥٨٤ ، ٥٨٩ ، ٥٩٧ ، ٥٩٨ ، ٦٠٠ ، ٦٢٣
سانشو غرسية ، أمير قشتالة ؛ ٥٥١ ، ٥٥٢ ، ٥٦٢ ، ٥٦٤ ، ٥٦٦ ، ٦١٠ — ٦١٣ ، ٦١٥ ، ٦٢٩ ، ٦٤٦ ، ٦٤٧ ، ٦٥٠ ، ٦٥١
سانشو غرسيس ملك نافار ؛ ٥٦٤
سباجريوس ؛ ٧٧
سترابون الجغرافى ؛ ١٧٣
سبيعة ، زوجة القاسم بن حمود ؛ ٦٧٣
السرى بن الحكم ؛ ٢٤٥
سسموند ، المؤرخ ؛ ١١٠
سسناندو ، الأسقف ؛ ٥٩٦
سعد الخادم ؛ ٥٥٠
سعد بن عبادة ؛ ١٦٨
سعدون الرعينى ؛ ٢٣٥

سعدون بن عامر السرنباق ؛ ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦
سعيد بن أبي هند ؛ ٢٢٩
سعيد اليحصبي ( المطرى ) ؛ ١٦٣
سعيد بن الحسين الأنصاري ؛ ١٨٧ ، ١٨٨ ، ٢٢٥
سعيد بن الحكم الجعفري ؛ ٥١٢
سعيد بن أيوب ؛ ٤٤٦
سعيد بن حسان ؛ ٦٩٢
سعيد بن سعيد بن حدير ؛ ٦٨٥
سعيد بن سليمان بن جودى ؛ ٣٢٩ ، ٦٩٦
سعيد بن عباس القرشي ؛ ٣٠٠
سعيد بن عبد ربه ؛ ٣٥١
سعيد بن عمرو العكي ؛ ٣٥١
سعيد بن الأمير محمد ؛ ٢٩١ ، ٢٩٢
سعيد بن محمد بن أبي السليم ؛ ٣٤٧
سعيد بن مستنة ؛ ٣٣٠ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨
سعيد بن المنذر القرشي ؛ ٣٨٦ ، ٣٩٦ ، ٤٠٧ ، ٤٦١ ، ٤٦٢
سعيد بن هذيل ؛ ٣٧٥
سعيد بن يونس بن سعديل ؛ ٤٢٤
السفاح ؛ أنظر عبد الله بن محمد بن على
سفيان بن عبد ربه ؛ ٢٧٥
سكوت ، المؤرخ ؛ ٦٤
سلمة بن على بن أبي عبدة ؛ ٣٤٧
السلمى القائد ؛ ١٨٧
سليط بن عبد الله بن عباس ؛ ١٤٤
سليمان بن الحكم المستعين ؛ ٤٤٠ ، ٦٤٦ — ٦٥٠ ، ٦٥٢ — ٦٥٤ ، ٦٥٧ — ٦٥٩
سليمان بن المرتضى ؛ ٦٦٤ ، ٦٦٦
سليمان بن شهاب ؛ ١٣٣ ، ١٣٤ ، ٢١٤
سليمان بن عبد الرحمن بن معاوية ؛ ٢٠٠ ، ٢٢٣ — ٢٢٥ ، ٢٣١ ، ٢٣٣ ، ٤٦٥
سليمان بن عبد الملك ؛ ٥٧ — ٥٩ ، ٧١ — ٧٣ ، ٩٣ ، ١١١ ، ١٤٠ ، ١٤٣
سليمان بن عبدوس ؛ ٣٠٠
سليمان بن عثمان ؛ ١٦٥
سليمان بن عمر بن حفصون ؛ ٣٨٣ — ٣٨٦ ، ٣٩٨
سليمان بن مرتين ؛ ٢٥٧ ، ٢٥٩
سليمان بن هشام ؛ ٦٣٣ ، ٦٤٥
سليمان بن هشام بن عبد الله بن الناصر ؛ ٦٦٧
سليمان بن هود ؛ ٦٦٩
سليمان بن وانسوس ؛ ٣١٣ ، ٣٤٧
سليمان بن يقظان الكلبي ؛ ١٦٨ — ١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٧٤ — ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨٦ ، ١٨٧
السمح بن مالك الخولاني ؛ ٧٤ — ٧٦ ، ٨١ ، ٨٤ ، ٨٩ ، ٩٧ ، ٢٢٨ ، ٥٧٧ ، ٦٨٠ ، ٦٨٦
سواجات البرغواطي ؛ ٦٧٥
سوار بن حمدون القيسي ؛ ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٦٩٦
سوذى الشاعر ؛ ٥٧
سيزيوت ابن وتيزا ؛ ٣١ ، ٣٤ ، ٤٤ ، ٦٠ ، ٦١
سيلو ، ملك جليقية ؛ ٢١٨
سيمونيت ، المستشرق ؛ ٦٦ ، ٧١ ، ٢٠٨ ، ٢٣٨ ، ٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٩ ، ٣٨٣ ، ٥٧٠
شارل الأصلع ؛ ٢٦٥ ، ٣١٤ ، ٣٥٧ ، ٤٦٦
شارلمان ( كارل الأكبر ) ؛ ١٧١ — ١٧٦ ، ١٧٨ ، ١٨٠ — ١٨٤ ، ١٨٨ ، ٢١٨ ، ٢٢٧ ، ٢٣١ ، ٢٣٣ — ٢٣٥ ، ٢٤٣ ، ٢٥٦ ، ٤٦٥
شبريط ؛ ٣٤٢
شفاء ، الجارية ؛ ٢٧٨
شقنا بن عبد الواحد ( الفاطمى ) ؛ ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٧ ، ١٦٨
شلدبراند ؛ ١١٥ ، ١١٦
شلدريك الثالث ؛ ١٣٣
شمر بن ذى الجوشن ؛ ١٢٧
شنجول ؛ أنظر عبد الرحمن المنصور
شنير ، الكنت ؛ ٣٤٣
شنير بن منفرد ؛ ٤٢٣
شهيد بن عيسى بن شهيد ؛ ١٩٨
صاعد بن الحسن البغدادى ؛ ٥٥١ ، ٥٥٢ ، ٥٦٣ ، ٥٧٩ ، ٥٨٠ ، ٦٢٠ ، ٦٢٨ ، ٧٠٤
صالح بن على ؛ ١٤٦
صبح أم المؤيد ؛ ٥٠٢ ، ٥٠٣ ، ٥٢٠ — ٥٢٥ ،

٥٢٩ ، ٥٣٦ ، ٥٣٧ ، ٥٥٤ – ٥٥٦
صقر قريش ؛ ١٩٥ ، ١٩٦
صمويل ، اسم ابن حفصون النصرانى ؛ ٣٣٧
الصميل بن حاتم ؛ ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ،
١٣١ ، ١٣٤ – ١٣٦ ، ١٥١ – ١٥٤ ،
١٥٦ – ١٦٠
الضبى ، أحمد بن يحيى ؛ ١٠٧
الضحاك بن قيس الفهرى ؛ ١٥٤
طارق بن زياد الليثى ؛ ٢٥ ، ٤٠ – ٤٢ ،
٤٥ – ٥٤ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٨٦ ،
٢١٠ ، ٥٢١ ، ٥٥٩ ، ٦٨٦
طالوت المعافرى ؛ ٢٣٦ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤
طاهر بن محمد البغدادى ؛ ٦٩٧ ، ٦٩٨
الطبرى ؛ ١٠٦
طرسوس المجوسى ؛ ٦٣٣
طرفة الفتى ؛ ٦١٦ ، ٦١٧
طرفة بن لقيط ؛ ٢٥١
طروب الجارية ؛ ٢٧٥ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٨٩
طريف بن مالك ؛ ٤٠ ، ٤٨
طوطة ملكة نافار ؛ ٤٠٢ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ،
٤٠٨ ، ٤١٤ ، ٤٢٠ ، ٤٥٩ ، ٥٩٢ ،
٥٩٣ ، ٥٩٩ ، ٦٠٠

## ع – غ

عاصم بن مسلم الثقفى ؛ ١٩٨
عامر بن أبى جوشن ؛ ٣٩٠ ، ٣٩١
عامر بن عامر ؛ ٣٠٩
عامر بن عمرو العبدوى ؛ ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٥٢
عامر بن فتوح الفائقى ؛ ٦٥٩
عامر بن كليب ؛ ٢٦٠
عائشة بنت أحمد بن قادم ؛ ٥١٦
عباس بن الوليد ؛ ٢٦٥
عباس بن عبد العزيز القرشى ؛ ٣٧٥
العباس بن عبد الله ؛ ٢٥١
العباس بن عبد المطلب ؛ ١٤٣
عباس بن فرناس ؛ ٢٥٢ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ،
٢٩٣ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٦٩٣ ، ٦٩٥ ، ٧٠٤
عباس بن ناصح الجزيرى ؛ ٢٤١ ، ٢٤٢ ،
٢٥٢ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٦٩٣
عبد الأعلى بن وهب ؛ ٢٧٦ ، ٦٩٤
عبد الجبار بن المغيرة ؛ ٦٣٣ – ٦٣٥
عبد الحميد بن بسيل ؛ ٣٨٥ ، ٣٩٠ ، ٣٩٩ ،
٤٠٦ ، ٤٠٩ ، ٣٦١ ، ٤٦٢
عبد الحميد بن مغيث ؛ ٣١١
عبد الرحمن الناصر ؛ ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٠٤ ،
٢٩٥ ، ٢٦٤ ، ٢٧٤ ، ٢٧٩ ، ٣٢٩ –
٣٣١ ، ٣٣٤ ، ٣٣٩ – ٣٤١ ، ٣٤٣ ،
٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٥١ ، ٣٦٣ ، ٣٧٣ –
٣٨١ ، ٣٨٤ ، ٣٨٦ – ٣٩٠ ، ٣٩٢ ،
٣٩٤ ، ٣٩٤ – ٣٩٦ ، ٣٩٩ – ٤٠٨ ،
٤٠٩ – ٤١٢ ، ٤١٧ – ٤٢٩ ، ٤٣١ –
٤٣٩ ، ٤٤٦ – ٤٤٨ ، ٤٥٠ ، ٤٦٣ ،
٤٧٢ ، ٤٨٢ – ٤٨٧ ، ٤٩١ ، ٤٩٢ ،
٥٠٤ ، ٥٠٥ ، ٥١١ – ٥١٦ ، ٥٣١ ،
٥٤٤ ، ٥٤٩ ، ٥٥١ ، ٥٧٩ ، ٥٨٣ ،
٥٨٤ ، ٥٨٩ ، ٥٩٠ – ٥٩٣ ، ٥٩٩ ،
٦٠٠ ، ٦٠٦ ، ٦٦٩ ، ٦٨٢ ، ٦٨٤ ،
٦٨٥ ، ٦٨٨ ، ٦٩٠ ، ٦٩٥ – ٧٠١
عبد الرحمن بن إبراهيم بن حجاج ؛ ٣٣٤ ،
٣٣٨ ، ٣٧٧
عبد الرحمن بن أحمد بن زكريا ؛ ٤٦١
عبد الرحمن بن بدر ؛ ٤٦٠
عبد الرحمن بن الحكم ؛ ١٩٧ ، ٢٣٨ – ٢٤٠ ،
٢٤٤ ، ٢٤٧ ، ٢٥١ – ٢٥٥ ، ٢٥٧ –
٢٦٥ ، ٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ – ٢٨٤ ،
٢٨٩ ، ٢٨٩ ، ٢٩١ ، ٢٩٤ ، ٢٩٦ ،
٣٠٤ ، ٣١٢ – ٣١٤ ، ٣١٦ ، ٣٤٦ ،
٣٥٤ – ٣٥٦ ، ٣٧٣ ، ٤٢٩ ، ٤٥٦ ،
٤٦٥ ، ٤٦٦ ، ٤٨٤ ، ٤٨٨ ، ٥١٥ ،
٦٨٢ ، ٦٨٤ ، ٦٨٧ ، ٦٩٠ ، ٦٩٤ ،
٦٩٥ ، ٧٠٤
عبد الرحمن بن الحكم المستنصر ( الطفل ) ؛ ٥٠٢ ،
٥٢٠ ، ٥٢١
عبد الرحمن بن المنصور ؛ ٥٥٣ ، ٥٦٢ ، ٥٨٣ ،
٦٠٧ ، ٦٠٩ ، ٦١٥ ، ٥١٩ ، ٦٢٣ –
٦٣٢ ، ٦٣٥ – ٦٣٨ ، ٦٤٤ ، ٦٤٧ ،
٦٨٣ ، ٦٨٦
عبد الرحمن بن أمية بن شهيد ؛ ٣١٨ ، ٣٤٧
عبد الرحمن بن حبيب الفهرى ؛ ١٢٠ ، ١٢٤ –

١٢٧، ١٢٩، ١٣٠ ، ١٥٠ ، ١٦٢ ، ١٧١
عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة ؛ ١٢٩
عبد الرحمن بن حبيب الصقلبي ؛ ١٨٥ ، ١٨٦
عبد الرحمن بن حفصون ؛ ٣٨٣ ، ٣٨٤
عبد الرحمن بن حمدون بن أبي عبدة ؛ ٣٤٧
عبد الرحمن بن رستم ؛ ٢٧٤ ، ٢٧٥
عبد الرحمن بن رماحس ؛ ٤٨٨ ، ٤٨٩ ، ٥٠٤ ، ٥٠١
عبد الرحمن بن سعيد بن مالك ؛ ٣٩٠
عبد الرحمن بن عبد العزيز التجيبي ؛ ٣٤١
عبد الرحمن بن عبد الله الخليق ؛ ٣٨٩
عبد الرحمن بن عبد الله الزجالي ؛ ٤٦٢
عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي ؛ ٨١ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٨ — ٩٠ ، ٩٦ — ١١٠ ، ١١٣ ، ٢١٢ ، ٦٨٦ ، ٦٨٧
عبد الرحمن بن علقمة اللخمي ؛ ١١٤ ، ١١٥ ، ١٢٤ — ١٢٦ ، ١٣٤ ، ١٣٧
عبد الرحمن بن غانم ؛ ٣١٢
عبد الرحمن بن فطيس ؛ ٧٠٤
عبد الرحمن بن كثير اللخمي ؛ ١٢٨
عبد الرحمن بن الأمير محمد ؛ ٢٩٩
عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن الناصر ؛ أنظر المرتضى بالله
عبد الرحمن بن مروان الجليقي ؛ ٣٠٠ ، ٣٠٣ — ٣٠٧ ، ٣١٣ ، ٣٣٠ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩
عبد الرحمن بن مطرف التجيبي ؛ ٥٤٩ ، ٥٥٠
عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) ؛ ١٣٦ ، ١٤٩ — ١٧٠ ، ١٨٥ — ٢٠٥ ، ٢١٤ — ٢١٦ ، ٢١٩ ، ٢٢٣ — ٢٢٥ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٣ ، ٢٣٩ ، ٢٤٩ ، ٢٥٢ ، ٢٥٦ ، ٢٧٤ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨٥ ، ٣١٤ ، ٣٣٢ ، ٣٤٤ ، ٤٢٩ ، ٤٣٦ ، ٤٤٨ ، ٤٦٠ ، ٤٦٤ ، ٤٨٤ ، ٥٠٤ ، ٥٠٨ ، ٥١٤ ، ٥٥١ ، ٦٠٦ ، ٦٨١ ، ٦٨٢ ، ٦٨٤ ، ٦٨٧ ، ٦٩٠
عبد الرحمن بن مغيث ؛ ١٩٨
عبد الرحمن بن متاذا ؛ ٦٧٣ ، ٧٠٥
عبد الرحمن بن هاشم ؛ ٤٠٩
عبد الرحمن بن هشام (المستظهر) ؛ ٦٦٤ ، ٦٦٥
عبد الرحمن بن وضاح ؛ ٣٩٩
عبد الرحمن بن يوسف الفهري ؛ ١٣٦ ، ١٥٢ ، ١٥٤ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ٢١٣
عبد الرحمن بن يوسف بن أرمطيل ؛ ٤٩٥
عبد السلام بن بسيل الرومي ؛ ١٩٨
عبد السلام بن يزيد بن هشام ؛ ١٨٩ ، ١٩٤
عبد العزيز بن أبي عبدة ؛ ٢٥١ ، ٦٨٤
عبد العزيز بن الناصر ؛ ٥٠٦
عبد العزيز بن عباس ؛ ٣٠٩
عبد العزيز بن عبد الرحمن التجيبي ؛ ٣٤١
عبد العزيز بن عبد الرحمن المنصور ٦٢٧ ، ٦٨٦
عبد العزيز بن مروان ؛ ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥
عبد العزيز بن موسى بن نصير ؛ ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٨ ، ٧١ — ٧٣ ، ١٢٦
عبد الغافر اليماني ؛ ١٦٠
عبد الغافر اليحصبي ؛ ١٦٦
عبد الغافر بن عبد العزيز ؛ ٣٠١
عبد القادر بن أبان ؛ ٢٢٧
عبد الكريم بن مهران الغساني ؛ ١٥٨
عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث ؛ ٢٢٨ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٥١ ، ٢٥٤ — ٢٥٦ ، ٢٧٤ — ٢٧٦ ، ٣٥٤ ، ٦٨٤ ، ٦٩٣ ، ٦٩٤
عبد الله بن أبي عامر ؛ ٥٤٥ ، ٦٢٩ ، ٦٣٣ ، ٦٣٤
عبد الله بن أحمد بن محمد بن عيسى ؛ ٤٦١
عبد الله بن أصبغ ؛ ٣٨٠
عبد الله البلنسي ؛ ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٥ ، ٢٤١ ، ٢٥٥ ، ٤٦٥
عبد الله بن الشمر بن نمير ؛ ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٦٩٤
عبد الله بن بدر ؛ ٤٦٠ ، ٤٦١
عبد الله بن حبيب ؛ ٣١٥
عبد الله بن حجاج ؛ ٣٢١ ، ٣٣٢
عبد الله بن خالد ؛ ١٥١ ١٥٣ ، ١٦٤ ، ١٩٨
عبد الله بن سعد بن أبي سرح ؛ ١٥ ، ١٦
عبد الله بن طاهر ؛ ٢٤٥
عبد الله بن عباس بن أحمد بن أبي عبدة ؛ ٤٦١

عبد الله بن الأمير عبد الرحمن ؛ ٢٨٩ ، ٢٩٠
عبد الله بن عبد الرحمن الناصر ؛ ٤٠٢ ، ٤٥٠
عبد الله بن عبد العزيز المرواني ؛ ٥٤٩ ، ٥٥١ ، ٥٥٢
عبد الله بن عبد الملك بن مروان ؛ ١٩ ، ٢٣
عبد الله بن عمرو بن العاص ؛ ٦٢٧
عبد الله بن عمرو بن مسلمة ؛ ٣٩٠
عبد الله بن قاسم الفهري ؛ ٦٦٨
عبد الله بن قرلمان بن بدر ؛ ٢٨٠
عبد الله بن كليب ؛ ٢٦٠ ، ٢٦٣ ، ٢٦٥
عبد الله بن محمد ، الأمير ؛ ٣٠٤ ، ٣٠٨ ، ٣١٦ ، ٣١٨ ، ٣٢٠ — ٣٢٢ ، ٣٢٤ — ٣٢٦ ، ٣٢٩ — ٣٣٣ ، ٣٣٦ — ٣٣٨ ، ٣٤٠ ، ٣٤٢ ، ٣٤٤ ، ٣٤٦ — ٣٥١ ، ٣٦٠ ، ٣٦٣ ، ٣٧٣ ، ٣٧٦ ، ٣٩٢ ، ٥٤٩ ، ٥٥١ ، ٥٩٩ ، ٦٩٥ ، ٦٩٦
عبد الله بن محمد بن أبي حوثرة ؛ ٢٧٦
عبد الله بن محمد بن أمية ؛ ٢٧٦
عبد الله بن محمد الزجالي ؛ ٤٦٠ ، ٧٠٠
عبد الله بن محمد بن علي (السفاح) ؛ ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ٢٠٢
عبد الله بن محمد بن لب ؛ ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٦٣ ، ٣٩٨
عبد الله بن محمد بن مروان الجليقي ؛ ٣٢٩ ، ٣٨٩ ، ٣٩٢ ، ٣٩٣
عبد الله بن مروان ؛ ١٩ ، ٢٣
عبد الله بن مسلمة ؛ ٦٣٤
عبد الله بن المنصور ؛ ٥٤٩ ، ٥٥٠ ، ٥٥١
عبد الله بن موسى بن نصير ؛ ٢٥ ، ٥٦ ، ٥٨ ، ٧١ ، ٧٣
عبد الله بن وهب ؛ ٢٧٦ ، ٦٩٢
عبد الله بن يحيى ؛ ٢٦٥
عبد الله بن يحيى بن إدريس الخالدي ؛ ٣٥١ ، ٤٢٤ ، ٤٦١
عبد الملك بن أبي الجواد ؛ ٣٣٠ ، ٣٣٩
عبد الملك بن إدريس الجزيري ؛ ٦١٧
عبد الملك بن إدريس الخولاني ؛ ٥٧٤
عبد الملك بن جهور ؛ ٣٥١ ، ٤٦٢ ، ٦٠٥ ، ٦٩٨
عبد الملك بن حبيب ؛ ٢٧٦
عبد الملك بن حبيب السلمي ؛ ٦٩٢ ، ٦٩٣
عبد الملك بن سعيد بن أبي حمامة ؛ ٤٠٤ ، ٤٢٦
عبد الملك بن سعيد المرادي ؛ ٤٨٦ ، ٦٩٦
عبد الملك بن شهيد ؛ ٣٥١ ، ٥٧٤ ، ٥٧٥
عبد الملك بن عامر المعافري ؛ ٥٢١
عبد الملك بن العباس القرشي ؛ ٢٩٩
عبد الملك بن عبد الله بن أمية ؛ ٣١٣ ، ٣٣٢ ، ٣٤٧ ، ٣٤٩
عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث ؛ ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٤٦٥
عبد الملك بن عمر بن مروان (المرواني) ؛ ١٥٨ ، ١٦٣
عبد الملك بن عيسى بن سعيد ؛ ٦١٧ ، ٦٢٠
عبد الملك بن قطن الفهري ؛ ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١٢٠ ، ١٢٢ — ١٢٤ ، ٦٨١ ، ٦٨٧
عبد الملك بن مروان ؛ ٢٠ — ٢٤ ، ١٩٦ ، ١٩٧
عبد الملك بن المنصور (المظفر) ؛ ٥٤٥ ، ٥٤٨ ، ٥٥٣ ، ٥٥٥ — ٥٥٩ ، ٥٦٢ ، ٥٦٦ ، ٥٨١ ، ٦٠٧ — ٦١٢ ، ٦١٤ ، ٦١٦ — ٦٢٣ ، ٦٢٥ ، ٦٣٠ ، ٦٣٤ ، ٦٣٥ ، ٦٣٨ ، ٦٨٣ ، ٦٨٥ ، ٦٨٦ ، ٦٩٠
عبد الملك بن موسى بن نصير ؛ ٥٦
عبد الملك بن هشام ؛ ٢٢٨
عبد الملك بن يزيد الأزدي ، أنظر أبو عون
عبد الواحد الروطي ؛ ٣٠٢
عبد الواحد المراكشي ؛ ٦٥٧
عبد الواحد بن اسحاق الضبي ؛ ٢٨١
عبد الواحد بن يزيد الإسكندراني ؛ ٢٧٤
عبد الواحد بن يزيد الهوار ؛ ١٢٠ ، ١٢١
عبد الوهاب بن أحمد بن مغيث ؛ ٣٠١
عبد الوهاب بن حزم ؛ ٦٦٥
عبد الوهاب بن عباس ؛ ٢٥٢ ، ٦٩٣
عبد الوهاب بن عبد الرؤوف ؛ ٣٢٣
عبد الوهاب بن محمد بن بسيل ؛ ٤٦١
عبدون عامل الثغر ؛ ٢٤١
عبدون بن خزرون ؛ ٦٧٥

عبده النذقارية ، زوجة المنصور ؛ ٥٨٣ ، ٦٢٣
عبيد الله المهدى ؛ ٤٢٥ ، ٤٢٦
عبيد الله بن أبان بن معاوية ؛ ١٨٩ ، ١٩٤
عبيد الله بن أحمد الزجالى ؛ ٤٦٠
عبيد الله بن عبد الله البلنسى ؛ ٢٣٢ ، ٢٤٣ ، ٢٥٧
عبيد الله بن عثمان ؛ ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٦٤ — ١٦٦ ، ١٨٩ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٨ ، ٢٢٦
عبيد الله بن قاسم ؛ ٤٩٠
عبيد الله بن محمد بن أبي عبدة ؛ ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٤٧
عبيد الله بن يحيى بن إدريس ؛ ٦٩٦ — ٦٩٨
عبيدة ، والى إفريقية ؛ ١٠٦
عبيدة بن حميد ؛ ٢٣٩
عبيدة بن عبد الرحمن السلمى ؛ ٨٣ ، ٨٤
عثمان بن أبي نسعة الخثعمى ؛ ٨٣ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ١٠٣
عثمان بن عفان ؛ ١٥ ، ١٨ ، ١١٨ ، ١٩٦
عثمان بن عمرون ؛ ٣٣٠
عثمان بن نصر ؛ ٣٧٩ ، ٣٨٠
عثمان بن نصر المصحفى ؛ ٥١١
العذرى ، أحمد بن عمر ؛ ٣٤١
عروة بن الوليد الذمى ؛ ١٣٤ ، ١٣٥
عزرة بن عبد الله الفهرى ؛ ٨٣
العزيز بالله الفاطمى ؛ ٤٩٩ ، ٥٤٤ ، ٥٤٥
عصام الخولانى ؛ ٣٤٦
عقبة بن الحجاج السلولى ؛ ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١٢٢ ، ٢١٢
عقبة بن نافع الفهرى ؛ ١٥ ، ١٩ ، ٢٠
عكاشة الفزارى ؛ ١٢٠ ، ١٢١
العلاء بن مغيث اليحصبى ؛ ١٦١ — ١٦٣ ، ١٨٦ ، ٢١٥
على بن أبي طالب ؛ ١٨ ، ١٤١ — ١٤٣
على بن حمود ؛ ٦٥٣ ، ٦٥٤ ، ٦٥٧ — ٦٦١
على بن وداعة ؛ ٦٥١
عمر بن حفصون ؛ ٣٠٣ ، ٣٠٧ — ٣١٠ ، ٣١٧ — ٣١٩ ، ٣٢١ ، ٣٢٣ — ٣٢٥ ، ٣٢٨ — ٣٣٠ ، ٣٣٣ ، ٣٣٥ — ٣٣٨ ، ٣٤٠ ، ٣٤٥ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٦٢ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٣ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ، ٦٩٥
عمر بن الخطاب ؛ ١٤ ، ٢٣ ، ١٩٦
عمر بن طالوت ؛ ١٦٦
عمر بن عبد العزيز ؛ ٧٤ ، ٧٥ ، ٨٢ ، ٢٢٥ ، ٦٨٠ ، ٦٨١
عمر بن عبد الله ؛ ١١٩
عمرو بن العاص ؛ ١٤ ، ١٥
عمرو بن أبي الحباب ؛ ٥٧٥
عمر بن عبد الله بن أبي عامر (عسكلاجة) ؛ ٥٢٨ ، ٥٤٥
عمروس بن عمرو بن عمروس ؛ ٣٠١
عمروس بن يوسف ؛ ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٣٠١
عمريل بن تيمات ؛ ٥٠٠
عنبر العامرى ؛ ٦٤٩
عنبسة بن سحيم الكلبى ؛ ٨٢ ، ٨٣
عيسى بن أحمد بن أبي عبدة ؛ ٤٦١ ، ٤٦٢
عيسى بن أحمد الرازى ؛ ٢٨٩
عيسى بن الحسن بن أبي عبدة ؛ ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٦ ، ٢٩٩ ، ٣١٢
عيسى بن دينار ؛ ٢١٩ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٧٦ ، ٣١٥ ٦٩٢ ، ٦٩٣
عيسى بن سعيد (ابن القطاع) ؛ ٥٥٨ ، ٥٧٤ ، ٥٧٥ ، ٦١٦ — ٦٢٠ ، ٦٣٠
عيسى بن شهيد ؛ ٢٦٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٣١٢ ، ٦٨٤
عيسى بن فطيس ؛ ٤١٦ ، ٤٦١ ، ٥١٢ ، ٥٥٣ ، ٥٧٤
عيسى بن قرلمان ؛ ٤٩١
عيسى بن مزاحم ؛ ٦١
عيسى بن مساور ؛ ١٥٣
عيسى بن منصور ؛ ٤٩٠
عيشون بن سليمان بن يقظان ؛ ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٨٠ ، ١٨٧
عيشون حاكم أرشدونة ؛ ٣٢٠
غاتون ، الكونت ؛ ٢٩٢
غالب ، أمير البحر ؛ ٤٢٧

غالب بن تمام بن علقمة ؛ ١٩٨
غالب بن عبد الرحمن الناصرى ؛ ٤٨٥ ، ٤٨٧ ، ٤٨٩ ، ٤٩٦ — ٤٩٨ ، ٥٠٢ ، ٥١٢ ، ٥٢٨ — ٥٣٠ ، ٥٣٧ — ٥٣٩ ، ٥٤١ ، ٥٤٢ ، ٥٥٥ ، ٥٧٥ ، ٥٩٨ ، ٦٠٠
غرسى فرناندز ؛ ٥٦٣
غرسية ، أمير نافار ؛ ٢٥٩ ، ٢٦١
غرسية إنجيز ؛ ٣٤٣ ، ٣٦٢
غرسية الأول ملك نافار ؛ ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٥٧
غرسية الثانى ملك نافار ؛ ٤٠٢ ، ٤٢٢ ، ٤٥٩
غرسية ابن ألفونسو الثالث ؛ ٣٦٠ ، ٣٦١
غرسية ملك ليون ؛ ٣٩١
غرسية سانشيز ، ملك نافار ؛ ٤٨٦ ، ٤٨٧ ، ٤٩٠ ، ٥٦٤ ، ٥٦٥ ، ٥٩٣ ، ٥٩٤ ، ٥٩٩ ، ٦٠٠
غرسية سانشيز الثانى ، أمير قشتالة ؛ ٦٠٠
غرسية سانشير الثالث ، أمير قشتالة ؛ ٦٠٠ ، ٦٠١
غرسية سانشير الثالث ملك نافار ؛ ٦٠٠ ، ٦٠١
غرسية فرناندیز ، أمير قشتالة ؛ ٤٩٠ ، ٤٩١ ، ٤٩٩ ، ٥٠٠ ، ٥٠٥ ، ٥٤١ ، ٥٥٠ — ٥٥٢ ، ٥٦٥ ، ٥٩٧ ، ٥٩٨
غريب بن عبد الله ؛ ٢٤٧
غريب بن مسعود ؛ ٤١٨
غزاة البياض ؛ ٥٤٨
غزاة العلة ؛ ٦١٥
غزوة بنبلونة ( الناصر ) ؛ ٤٠٠
غزوة بنبلونة ( عبد الملك المنصور ) ؛ ٦١٢
غزوة شنت ياقب ؛ ٥٦١
غزوة قلونية ( عبدا لملك المنصور ) ؛ ٦١٣ ، ٦١٤
الغزيرى ، ميخائيل ؛ ٥٥
الغمر بن يزيد بن عبد الملك ؛ ٢٠٢
غياث بن علقمة ، اللخمى ؛ ١٥٣ ، ١٦٢ ، ١٦٣


## ف — ق — ك


فاتن ، الفتى ؛ ٥٧٩ ، ٦٣٣
فاطمة بنت الرسول ؛ ١٦٤
الفاطمى ؛ أنظر شقنا بن عبد الواحد
فاڤيلا ابن بلايو ؛ ١٣٨ ، ٢١٣
ڤافيلا والد بلايو ؛ ٢٠٧
ڤاليا ، ملك القوط ؛ ٢٩
ڤالينس ، الإمبراطور ؛ ٢٨
ڤاميا ، ملك القوط ؛ ٣٤
فائق الفتى ؛ ٥١٧ ، ٥١٨ ، ٥٢٦
الفتح بن خاقان ؛ ٤٤١ ، ٥٨٤
الفتح بن موسى بن ذى النون ؛ ٣٤٠ ، ٣٧٥
فخر الجارية ؛ ٢٧٨
فرتون إنيجيز ؛ ٢٦٥
فرتون بن لب بن موسى ؛ ٢٩٩
فرتون بن غرسية ؛ ٢٩٨ ، ٣٦٢ ، ٥٩٩
فرتون بن محمد الطويل ؛ ٤١٦
فرتون بن موسى القوى ؛ ٢٩٩ ، ٣٠٢
فرنان كونثالث ( فردلند القومس ) ؛ ٤٨٤ ، ٤٨٧ ، ٤٥٠ ، ٥٩١ — ٥٩٤ ، ٥٩٧ ، ٥٩٩ ، ٦٠٠
فرنان لينيز ؛ ٤٩١
فرويلا ، أمير استورية ؛ ٨٧
فرويلا ، أمير كانتابريا ؛ ٢١٤ ، ٢١٥
فرويلا ، الكونت ؛ ٣٥٨
فرويلا ابن ألفونسو الثالث ؛ ٣٦٠
فرويلا الأول ؛ ٢١٥ — ٢١٨ ، ٢١٩
فرويلا ، ملك ليون ، ٤٠٠
فرويلا بن برمند ؛ ٣٥٨
فطيس بن اصبغ بن فطيس ؛ ٤٦٢
فلورا ، الفتاة المتنصرة ؛ ٢٧٢ ، ٢٧٣
فلورندا القوطية ؛ ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧
فنلى ، جورج ؛ ١١٠
فون شليجل ؛ ١١٠
ڤيدوكنت ؛ ١٦٩ ، ١٧٣ ، ١٨٣ ، ١٨٨
قارله ، قلدوس ؛ أنظر كارل الأكبر
قارله بن ببين ؛ ٢٨٩
القاسم بن حمود ، المستعلى ؛ ٦٥٣ ، ٦٥٤ ، ٦٥٧ ، ٦٦١ — ٦٦٤ ، ٦٧٠ ، ٦٧٣ ، ٦٧٦
قاسم بن محمد ؛ ٥١٨
القاسم بن محمد بن عبد الرحمن ؛ ٣٤٩ ، ٣٥٠
القاسم بن محمد ( الواثق ) ؛ ٦٧٦

قاسم بن مطرف بن ذى النون ؛ ٤٨٧
القاسم بن المنذر ؛ ٢٣١
القاسم بن يوسف الفهرى ؛ ١٥٩ ، ١٦٠
القائم الفاطمى ؛ ٤٢٦
قسطنطين الأكبر ؛ ٢٨
قسطنطين السابع ؛ ٤٥٢ ، ٤٥٣ ، ٤٥٦
قسطنطين الملكى ؛ ٤٩١
قسى ، الكونت ؛ ٢٦٠
قطن بن عبد الملك بن قطن ؛ ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٦
كابا ، وصيفة فلورندا ؛ ٣٦
كاردون ، المستشرق ؛ ١٠٥
كارديناس ، المستشرق ؛ ٦٦
كارل مارتل ؛ ٨١ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٩٦ — ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، ١١٤ — ١١٦ ، ١٣٧ ، ١٧١
كارل الأكبر ؛ أنظر شارلمان
الكاهنة ؛ ١٧ ، ٢٢
الكرسى الرسولى ؛ ٢٥٩
كريب بن عثمان بن خلدون ؛ ٣٣١ — ٣٣٣ ، ٣٣٩
كريزى ، إدوارد ؛ ١١٠
كسيلة بن لمزم ؛ ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢
كلثوم بن عياض القشيرى ؛ ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٣ — ١٢٦
كاوتير الثانى ؛ ٧٨
كلوڤيس ؛ ٧٧ ، ٩٥
كنانة بن سعيد ؛ ١٦٧
كوديرا ، المستشرق ؛ ٥٦٥
كوندى ، يوسف ؛ ٣٦ ، ٩٩ ، ١٠٢
كونراد ، ملك برخونة ؛ ٤٦٩

## ل — م

لا فونتى ، موديستو ؛ ٥٠٨ ، ٥٦٤ ، ٥٦٥ ، ٥٩٧
لامبجيا ؛ ٨٧ ، ٨٨
لاين بول ؛ ٦٤
لب بن الطربيشة ، ٣٨٩
لب بن زكريا بن عمروس ؛ ٣٠١
لب بن مد بن لب ؛ ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٤٦ ، ٣٦٣
لب بن موسى بن فرتون ؛ ٣٦٢
لب بن موسى بن موسى ؛ ٢٩٩
الليث بن سعد ؛ ١٠٦ ، ٢٧٦ ، ٦٩٢
لوتبراند ، ملك اللومبارد ؛ ١١٦
لوتبراند ، المؤرخ ؛ ٤٥٨ ، ٤٦٩ ، ٤٧٢
لوقا التطيلى ؛ ٣٥
لوقا التوجى ؛ ٤١٩
لويس بن شارلمان ؛ ٢٢٧ ، ٢٣١ ، ٢٤٠ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٦٦ ، ٤٦٦
لويس الرابع ؛ ٤٥٦
ليوكريسيا ؛ ٢٩٦ ، ٣٠٣
ليون الثالث ، البابا ؛ ١١٠
ماردة أم المعتصم ؛ ٢٨٢
ماسدى ، المؤرخ ؛ ٣٤ ، ٣٦ ، ٥٨٦
ماركوس أوريليوس ؛ ٥٠٨
ماريا ، فتاة قرطبة ؛ ٢٧٣
ماريا ، والدة الناصر ؛ ٣٧٣
مارياڤا ، المؤرخ ؛ ٣٦ ، ٨٩ ، ٥٦٥
مالك بن أنس ، الإمام ؛ ٢٢٩ ، ٢٧٦ ، ٦٩١ ، ٦٩٢
مالك بن يزيد التجيبى ؛ ٢٣٦
المأمون العباسى ؛ ٢٤٥ ، ٢٨٢ ، ٧٨٣
مايبل ، القديس ؛ ٤٧٣
مايور ، دونيا ؛ ٥٦٤
متعة ، الجرية ؛ ٢٧٨
المتنبى ؛ ٦٩٩
مجاهد العامرى ؛ ٤٧٤ ، ٤٧٥ ، ٦١٦ ، ٦٥٨
محافظ القصر ؛ ٧٩ ، ٨٠ ، ٩٦
محمد ، النبى العربى ؛ ٩١ ، ٩٢ ، ٩٦ ، ١١٠ ، ٢٧٠ — ٢٧٣
محمد بن الحسين ؛ ٤٥٩ ، ٥٩٢
مد بن الحنفية ؛ ١٤٣
محمد بن الخير بن خزر ؛ ٤٢٨ ، ٤٩٤
محمد بن السام ؛ ٢٧٤
محمد بن السليم ، أبو بكر ؛ ٥١٢
محمد العراق ؛ ٦٦٤ ، ٦٦٥ ، ٦٦٧
محمد بن الفرضى ؛ ٦٦٣
مد بن القاسم المروانى ؛ ٢٣٦

محمد بن إبراهيم بن حجاج ؛ ٣٢٤
محمد بن أبي جمعة ؛ ٥٨٠
محمد بن أبي سليمان الزجالي ؛ ٢٧٦
محمد بن أبي عامر (المنصور) ؛ ٢٠٥ ، ٢١٥ ، ٤٣٥ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ٤٨٤ ، ٤٩٦ ، ٥١٨ — ٥٣١ ، ٥٣٥ — ٥٦٦ ، ٥٦٨ — ٥٧٦ ، ٥٧٨ — ٥٨١ ، ٥٨٤ — ٥٨٧ ، ٥٩٨ — ٦٠١ ، ٦٠٧ ، ٦٠٨ — ٦١٠ ، ٦١٢ ، ٦١٦ — ٦١٨ ، ٦٢٢ — ٦٢٥ ، ٦٢٧ ، ٦٣٢ ، ٦٣٥ ، ٦٣٨ ، ٦٤٢ ، ٦٥٠ ، ٦٥٦ ، ٦٥٨ ، ٦٦٧ ، ٦٨٣ ، ٦٨٨ ، ٦٩٠ ، ٧٠٠ ، ٧٠١ ، ٧٠٣ ، ٧٠٤
محمد بن أبي عبد الله بن عيسى ؛ ٤٢٤
محمد بن أحمد بن قابوس : ٤٦١
محمد بن إدريس المستعلي ؛ ٦٧٥ ، ٦٧٦
محمد بن إدريس ، المهدي ؛ ٦٧٤ — ٦٧٦
محمد بن إسماعيل بن عباد ؛ ٦٦٤ ، ٦٧٠ — ٦٧٢ ، ٦٧٤ ، ٦٧٦
محمد بن إسماعيل بن موسى ؛ ٣٤٠
محمد بن أضحى الهمذاني ؛ ٣٢٩ ، ٦٩٦
محمد بن أفلح ؛ ٤٩١
محمد بن بشير ؛ ٢٤٩
محمد بن تاجيت ؛ ٣٩٢
محمد بن تاكيت المصمودي ؛ ٣٣٩
محمد بن جعفر المصحفي ؛ ٥٢٨ ، ٥٢٩
محمد بن جهور بن عبد الملك البختي ؛ ٤٦١ ، ٥٧٤
محمد بن حارث ؛ ٢٧٦ ، ٦٩٤
محمد بن الحسن الزبيدي ؛ ٧٠٣
محمد بن حسين الطبني ؛ ٤٩٧ ، ٦٩٧ ، ٦٩٨ ، ٧٠١ ، ٧٠٢
محمد بن حفص بن جابر ؛ ٥٧٤
محمد بن رستم ؛ ٢٥٨ ، ٢٦٣
محمد بن سليمان الزجالي ؛ ٦٩٤
محمد بن سليمان بن وانسوس ؛ ٤٦١
محمد بن سعيد بن المنذر ؛ ٤٦١
محمد بن عباس بن محمد بن أبي عبدة ؛ ٣٦١
محمد بن عبد الرحمن ، الأمير ؛ ٢٥٢ ، ٢٦١ ، ٢٦٥ ، ٢٧٦ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٣ — ٣١٤ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣٢٥ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤١ ، ٣٤٧ ، ٣٥١ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٥٩ ، ٤٦٢ ، ٥٠٤ ، ٦٨٤ ، ٦٨٨ ، ٦٦٤ ، ٦٩٥
محمد بن عبد الرحمن التجيبي ؛ ٤٠٥
محمد بن عبد الرحمن بن عبيدالله بن الناصر ؛ ٦٦٦
محمد بن عبد السلام بن بسيل ؛ ٢٧٤
محمد بن عبد السلام بن كليب ؛ ٤٦١
محمد بن عبد السلام الخشني ؛ ٦٩٤
محمد بن الأمير عبد الله ؛ ٣٢١ ، ٣٣٢ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٧٣ ، ٣٨٠
محمد بن عبد الله الأشجعي ؛ ٨٤
محمد بن عبد الله البرازلي ؛ ٦٧٠ — ٦٧٢
محمد بن عبد الله بن موسى ، ٤٦١
محمد بن عبد الملك المنصور ؛ ٦٣٥
محمد بن عبد الملك بن أبي عبده ؛ ٤١٠
محمد بن عبد الملك بن شبريط (الطويل) ؛ ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٦٣
محمد بن عبد الوهاب ؛ ٣٠١
محمد بن علي بن عبد الله بن العباس ؛ ١٤٣ ، ١٤٤
محمد بن عمر بن لبابة ؛ ٣١٥ ، ٦٩٣ ، ٦٩٦
محمد بن القاسم بن حمود ؛ ٦٧٤ — ٦٧٦
محمد بن القاسم بن طملس ؛ ٤٦١ ، ٤٩٥ ، ٦٨٥
محمد بن لب بن موسى ؛ ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٩ ، ٣١٨ ، ٣٣٦ ، ٣٤٠ — ٣٤٢ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٩٧
محمد بن محمد التجيبي ؛ ٤٩٧
محمد بن محمد بن أبي زيد ؛ ٣٧٤
محمد بن محمد بن ذي النون ؛ ٣٩٠
محمد بن مروان بن عبد الله بن بسيل ؛ ٤٦١
محمد بن مسعود ؛ ٣٨٧
محمد بن مطرف بن شخيص ؛ ٧٠١
محمد بن المغيرة ؛ ٦٣٣
محمد بن نوح ؛ ٦٧٥
محمد بن هاشم التجيبي ؛ ٤٠٥ ، ٤٠٧ ، ٤٠٩ ، ٤١١ ، ٤١٣ ، ٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤١٨ ، ٤٢٠ ، ٤٢١
محمد بن هانيء الأزدي ؛ ٦٩٩
محمد بن هشام بن عبد الجبار (المهدي) ؛ ٦٣٠ — ٦٣٩ ، ٦٤٢ — ٦٥١ ، ٦٥٧ ، ٦٥٨ ، ٦٨٣

محمد بن صماح ؛ ٢٧٦
محمد بن يزيد ؛ ٧٣
محمد بن يعلى الزناتى ؛ ٦٣٦
محمد بن يوسف الحجار ؛ ٥٠٦ ، ٧٠١
محمد بن يوسف الفهر ، أبو الإسود ؛ ١٣٣ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٩٠
محمد بن يوسف بن مطروح ؛ ٢٧٦ ، ٦٩٤
محمود بن عبد الجبار ؛ ٢٥٧ ، ٢٥٨
مراجل أم المأمون ؛ ٢٨٢
المرتضى بالله ، عبد الرحمن ؛ ٦٦٠ — ٦٦٢
مرجان الرومية ؛ ٣٧٨ ، ٣٨٣
مروان بن جهور بن عبد الملك البختى ؛ ٤٦١
مروان بن الحكم ؛ ١٥٤
مروان بن حيان ، أبو سعد ؛ ٤١٦
مروان بن عبد الرحمن الجليق ، ٣٣٩
مروان بن عبد الملك ؛ ٣٩٢
مروان بن محمد ؛ ١٣٠ ، ١٤٤ — ١٤٦
مروان بن يونس الجليق ؛ ٢٤٢ ، ٣٠٤
المستظهر بالله ؛ ٦٨٦
المستكفى بالله الأموى ؛ ٦٦٦ ، ٦٦٧ ، ٦٧٠
المستكفى بالله العباسى ؛ ٦٦٧
المستنصر بالله الفاطمى ؛ ٤٥٩
المسعودى ، المؤرخ ؛ ١٩٧ ، ٤١٤
مسعود بن سعدون السرنباق ؛ ٣٩٣
مسعود بن عبد الله ؛ ٢٩٤
مسلم بن عقبة المرى ؛ ١٤١
مسلمة بن عبد الرحمن الأموى ؛ ٢٣٧
مسلمة بن مخلد ؛ ٢٠
مسوقة بن مطرف ؛ ٢٩١ ، ٢٩٢
المسيح ؛ ٤٥٣ ، ٤٥٤
مضاء بن عمريل ؛ ٤٩٩
المطرف بن عبد الرحمن ؛ ٢٦١ ، ٢٧٨
المطرف بن الأمير عبد الله ؛ ٣٢١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٦ ، ٣٤٧ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٧٣
مطرف بن عيسى الغسانى ؛ ٥٠٥
مطرف بن لب بن موسى ؛ ٢٩٩ ، ٣٤٠
المطرف بن محمد بن لب ؛ ٣٤١ ، ٣٦٣
مطرف بن منذف التجيبى ؛ ٤٠٦ — ٤٠٨
مطرف بن موسى القسوى؛ ٢٩٩ ، ٣٠١ ، ٣٠٢
المطرف بن موسى بن ذى النون ؛ ٣٤٠ ، ٣٩٨
مطروح بن سليمان بن يقظان ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٨٠ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧
مظفر بن موسى بن ذى النون ؛ ٣٠٧
معاوية بن أبى سفيان ؛ ١٨ — ٢٠ ، ٢٣ ، ٩٣ ، ١٩٣ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ٢١٠
معاوية بن حديج ؛ ١٩
معاوية بن لب ؛ ٤٩٠
معاوية بن هشام ؛ ٢٢٥
معاوية بن هشام ، المؤرخ ؛ ٣١٠
المعتصم العباسى ، ٢٨٢ ، ٢٨٣
المعتصم بن صمادح ؛ ٦٧٦
المعز لدين الله الفاطمى ؛ ٤٩٣، ٤٩٤ ، ٦٩٩
المعز بن باديس ؛ ٦١٨
المعز بن زير بن عطية ؛ ٥٤٦ ، ٥٥٩
معن بن عبد العزيز التجيبى ؛ ٥٥٢ ، ٥٦١ ، ٦٠٩
المغيرة بن الحكم ؛ ٢٤٨
المغيرة بن الوليد بن معاوية ؛ ١٨٩ ، ١٩٤
المغيرة بن عبد الرحمن الناصر ؛ ٥١٧ ، ٥١٨ ، ٥٢٤ ، ٥٢٦ ، ٥٣٠
مغيث الروى؛ ٤٩ ، ٥٧، ٥٩ ، ٦٠ ، ٢٧٥
المقر ، المؤرخ ؛ ٤٨ ، ٨٥ ، ١٠٧ ، ٥٣٧
مكحول بن عمر ؛ ٣٠٠ ، ٣٠٤
المنذر بن الناصر ؛ ٥٠٦
منذر بن إبراهيم ؛ ٣٣٠
منذر بن سعيد البلوطى ؛ ٤٥٤ ، ٤٥٥ ، ٤٦١ ، ٥١٢ ، ٦٩٨
المنذر بن عبد الرحمن ؛ ٢٦١ ، ٢٧٨ ، ٢٩٩ ، ٣١٠
المنذر بن محمد بن عبد الرحمن ؛ ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣٢٠ ، ٣٢٢ ، ٣٣٩ ، ٣٤١ ، ٣٤٧ ، ٣٤٩ ، ٣٥٧ ، ٣٦٠
المنذر بن يحيى التجيبى ؛ ٦٥٤ ، ٦٦٠ — ٦٦٢
المنصور بن أبى عامر ؛ انظر محمد بن أبى عامر
المنصور العباسى ، أنظر أبو جعفر المنصور
منصور الحصى ؛ ١٩٨

منندو كونثالث ؛ ٥٦٤ ، ٥٩٩ ، ٦١٠
منوسة ؛ ٨٥ — ٨٩ ، ٢١٢ ، ٢١٣
منينا ؛ ٨٧
مووجات ؛ ٢١٩ ، ٢٢٠
مورنتوس ، الدوق ؛ ١١٥ ، ١١٦
موسى بن أبي العافية ؛ ٣١٦
موسى بن حنوش ؛ ٥١٦
موسى بن ذى النون ؛ ٣٠٧ ، ٣٣٩
موسى بن سالم الخولانى ؛ ٢٣٦ ، ٢٤٣
موسى بن غلند ؛ ٣٠١
موسى بن فرتون بن قسى ؛ ٣٦٢
موسى بن فرقوق ؛ ٢٢٥
موسى بن محمد بن حدير ؛ ٣٥١ ، ٣٧٤ ، ٤٦٠ ، ٦٩٨
موسى بن موسى بن قسى ؛ ٢٥٩ — ٢٦١ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٩٤ ، ٢٩٨ ، ٣٠٠ ، ٣٥٧
موسى بن نصير اللخمى ؛ ٢٣ — ٢٦ ، ٣٥ ، ٣٨ — ٤٢ ، ٤٥ ، ٥١ — ٦٠ ، ٧١ — ٧٣
موسيتو ، موجيتوس ؛ أنظر مجاهد العامرى
مؤمرة الجارية ؛ ٢٧٨
مؤمن بن سعيد ؛ ٢٥٢ ، ٣١٥ ، ٦٩٣
مونتيخار ؛ ٣٦
مؤنس الكاتب ؛ ٤٩١
مونيا ؛ ٢١٨
ميسرة المدغرى ؛ ١١٩
ميسرة الفتى الصقلبى ؛ ٢٥٩
ميسور الصقلبى ؛ ٤٢٦ ، ٤٦١ ، ٥٠٩
ميخائيل ، القيصر ؛ ٢٨٣
ميشليه ، المؤرخ ؛ ١١٠

## ن — ى

نجا الصقلبى ، أبو الفوز ؛ ٦٧١ ، ٦٧٢ ، ٦٧٣
نجدة بن حسين الصقلبى ؛ ٤١٢ ، ٤١٣ ، ٤٢٠ ، ٤٥١ ، ٤٦١
نصر الخصى ؛ ٢٥١ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٧ ، ٢٨٩
نصر بن سيار ؛ ١٤٤ ، ١٤٥
نصير اللخمى ؛ ٢٣
نصر المظفرى ؛ ٦٣٤
نظيف الفتى ؛ ٦١٩ ، ٦٣٤
نود ، ملكة النورمان ؛ ٢٨٥
نونيو ، الكونت ؛ ٣٦٠
هادريان ، البابا ؛ ١٧٣
هاشم الضراب ؛ ٢٥٨
هاشم بن عبد العزيز ؛ ٢٧٤ ، ٢٩١ ، ٣٠٢ — ٣٠٩ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٥ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٦٨٤
هاشم بن محمد التجيبى ؛ ٤٩٧
هذيل بن الصميل ؛ ١٨٩
هذيل بن محمد التجيبى ؛ ٤٩٧
هرودلاند ، أنظر رولان
هروسوڤيتا ؛ ٤٤٨
هشام الفهرى ؛ ١٦٣
هشام المصحفى ؛ ٤٨٥ ، ٥٣٠
هشام ، المعتد بالله ؛ ٦٦٨ — ٦٧٠
هشام ، المؤيد بالله ؛ ٤٤٠ ، ٤٥٣ ، ٥٠٣ ، ٥٠٩ ، ٥١١ ، ٥١٤ ، ٥١٧ — ٥٢٠ ، ٥٢٢ — ٥٢٦ ، ٥٣١ ، ٥٣٥ ، ٥٣٦ ، ٥٥٤ — ٥٥٦ ، ٥٥٨ ، ٥٦٩ ، ٥٧٣ ، ٥٨٥ ، ٦٠٧ ، ٦١٠ ، ٦١٤ ، ٦١٦ ، ٦٢٣ — ٦٢٦ ، ٦٣٢ ، ٦٣٣ ، ٦٣٦ ، ٦٣٨ ، ٦٤٢ — ٦٤٤ ، ٦٤٧ ، ٦٤٩ — ٦٥٣ ، ٦٥٨ — ٦٦٠ ، ٦٧٠ ، ٦٧٤ ، ٦٨٢ ، ٦٨٣ ، ٦٨٦ ، ٧٠٣
هشام بن الحكم ؛ ٢٤٢
هشام بن سليمان بن الناصر ؛ ٦٤٥ ، ٦٤٦
هشام بن عبد الجبار بن الناصر ؛ ؛ ٦١٩ ، ٦٢٠ ، ٦٣٠ ، ٦٣١
هشام بن عبد الرحمن الأموى ؛ ٢٢٠ ، ٢٢٣ — ٢٣١ ، ٢٥٠ ، ٢٥٦ ، ٢٦١ ، ٢٦٦ ، ٣٤٥ ، ٣٥٤ ، ٤٦٥ ، ٦٩١ ، ٦٩٢
هشام بن عبدالرحمن بن الحكم ؛ ٢٦٤ ، ٣٣٠ ، ٣٣٢
هشام بن عبدالملك ، ٦١ ، ٨٤ ، ٨٨ ، ١١٢ ، ١١٧ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٥ ، ١٤٠ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ٢٠٠ ، ٦٨١
هشام بن عزرة الفهرى ؛ ١٥٧ ، ٦٦١ ، ١٦٣

هشام بن محمد بن عبد الرحمن ؛ ٣٤٩
هشام بن محمد بن عثمان ؛ ٥١٨
هشام بن المنذر ؛ ٣٢١
هشام بن هذيل ؛ ٤٥٦
هلال الميديونى ؛ ١٦٥
هوج ، ملك بروڤانس ؛ ٤٦٩ ، ٤٧٠
هوريك ، ملك النورمان ؛ ٢٨٤
هونالد ، دوق أكوتين : ١١٤
هونوريوس ، الإمبراطور ؛ ٢٨
الهيثم بن عبيد الكلابى ؛ ٨٣ — ٨٥ ، ٢١١
هيرود ؛ ٢٢٠
واضح الفتى ؛ ٤٤٠ ، ٥٠٩ ، ٥٥٧ ، ٥٥٨ ، ٦١٠ ، ٦١٢ ، ٦١٦ ، ٦٣٦ ، ٦٤٤ ، ٦٤٦ ، ٦٤٧ ، ٦٤٩ — ٦٥١ ، ٦٥٨
الواقدى ، المؤرخ ؛ ١٠٦
وانسوس البربرى ؛ ١٥١
وتيزا ، ملك القوط ؛ ٣٢ ، ٣٥ ، ٤٢ ، ٥١ ، ٦٠ ، ٢٠٨
ودنا بن عطاف ؛ ٣٨٠
الوليد بن الحكم ؛ ٢٥٩
وليد بن خيزون ؛ ٤٨٥
الوليد بن عبد الملك ؛ ٢٣ ، ٢٤ ، ٤٧ ، ٥٠ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ١٤٠ ، ١٤٣
وليد بن غانم ؛ ٣١٣
وليد بن معاوية ؛ ١٨٩
الوليد بن يزيد بن عبد الملك ؛ ١٣٠
ونقة بن شانجه ؛ أنظر إنيجواريستا
وهب بن عامر ؛ ١٣٦
وهب الله بن حزم ؛ ٢٦٢
ياسر ، الفتى ؛ ٤٥١ ، ٤٥٢
ياقب ، القديس ؛ ٢٢٠ ، ٥٥٩ ، ٥٩٦
ياقوت الحموى ؛ ٤٤١
يحيى الغزال ( يحيى بن الحكم ) ؛ ٢٥٣ ، ٢٦٤ ، ٢٨٢ — ٢٨٥ ، ٦٩٣
يحيى بن إبراهيم بن مدين ؛ ٢٧٦
يحيى بن إدريس المتأبد ؛ ٦٧٢ ، ٦٧٣
يحيى بن إسحاق ؛ ٣٨٠ ، ٤٦٢
يحيى بن حبيب ؛ ٢٨٤
يحيى بن حريث الجذامى ؛ ١٣١
يحيى بن الحسين الأنصارى ؛ ١٨٨
يحيى بن سلمة الكلبى ؛ ٨٣
يحيى بن صقالة القيسى ؛ ٣٢٨
يحيى بن عبد الرحمن التجيبى ؛ ٥٥٠
يحيى بن عبد الله ؛ ٢٥٥
يحيى بن عبد الله بن يحيى ؛ ٥٠٣
يحيى بن على بن حمدون الأندلسى ؛ ٤٩٣ ، ٥٠٠ ، ٥٠١ ، ٥٣٩ ، ٧٠٢
يحيى بن على بن حمود ( المعتلى ) ؛ ٦٦٢ — ٦٦٤ ، ٦٦٨ ، ٦٧٠ — ٦٧٢ ، ٦٧٥
يحيى بن محمد التجيبى ؛ ٤٨٧ ، ٤٩٧ ، ٤٩٨ ، ٥١٢
يحيى بن نصر القيسى ؛ ٢٣٦
يحى بن موسى بن ذى النون ؛ ٣٤٠ ، ٤٠٠
يحيى بن نصر اليحصبى ؛ ٢٤٣
يحيى بن هاشم ؛ ٤٠٢ ، ٤١٠ ، ٤٢٢
يحيى بن هذيل ؛ ٧٠٢
يحيى بن يحيى بن إسحاق ؛ ٤٠٥
يحيى بن يحيى بن بكر ؛ ٣٣٩
يحيى بن يحيى الليثى ؛ ٢٢٩ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٧٦ ، ٦٩٢ ، ٦٩٣
يدو بن يعلى ؛ ٥٤٦ ، ٥٤٧
يزيد بن الوليد ؛ ١٣٠
يزيد بن عبد الملك ؛ ٨٢
يزيد بن معاوية ؛ ٢٠ ، ١٢٣
يزيد بن المهلب ؛ ٥٧ ، ٥٨
يعقوب الحوارى : أنظر ياقب القديس
يعقوب بن أبى خالد التوزرى ؛ ٣٩٩
يعقوب بن كلس ؛ ٥٣٥
ينقة بن ونقة ؛ ٢٦٠
يوحنا ، حاكم قرطاجنة ؛ ٢١
يوحنا الجورزينى ؛ ٤٥٦ — ٤٥٨ ، ٤٧٢
يوحنا الثامن ، البابا ؛ ٣٥٩
يوحنا الثانى عشر ، البابا ؛ ٤٥٩
يوحنا زمسكى ، القيصر ؛ ٤٩١
يوستنيان ، الإمبراطور ؛ ١٨

يوسف العبسى ؛ ٢٢٥
يوسف بن إسماعيل بن نغرالة ؛ ٥٠٧
يوسف بن بخت ؛ ١٥٢ ، ١٩٨ ، ٢٢٦ ، ٢٧٤
يوسف بن عبد الرحمن الفهرى ؛ ١٢٩ – ١٣٢ ، ١٣٤ – ١٣٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥١ – ١٦٠ ، ١٦٢ ، ١٦٩ ، ١٨٦ ، ١٩٦ ، ٢١٤ ، ٦٨١ ، ٦٨٧ ، ٦٨٩
يوسف بن عمر الأزرق ؛ ١٣٤
يوسف بن محمد التميمى ؛ ٤٩٧
يوسف بن هارون البطليوسى ؛ ٤٩١
يوسف بن هارون الرمادى ؛ ٧٠٢ ، ٨٠٣
يوليان ، الكونت ؛ ٢٦ ، ٣٣ – ٣٥ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٥ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٦٠

# موسوعة الأندلس

تأليف الأستاذ محمد عبد الله عنان

تشتمل على سبعة مجلدات هى الآتية :

دولة الإسلام فى الأندلس المجلدان الأول والثانى ( الطبعة الرابعة )

دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطى ( الطبعة الثانية )

عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس ( مجلدان )

نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين ( الطبعة الثالثة )

الآثار الأندلسية الباقية فى اسبانيا والبرتغال ( الطبعة الثانية )

ويلحق بهذه المجموعة كتاب :

لسان الدين بن الخطيب ، حياته وتراثه الفكرى

(١١)

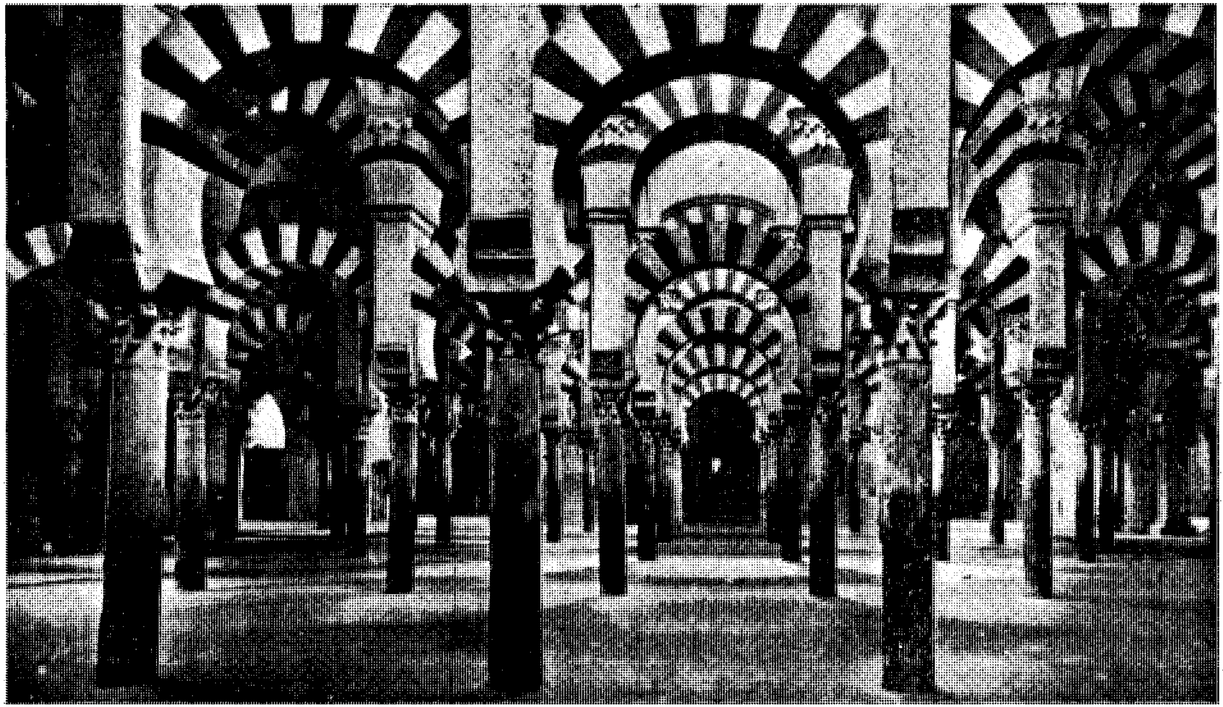

قرطبة : المسجد الجامع . الجناح القديم الذى أنشأه عبد الرحمن الداخل وولده هشام سنة ١٧٠ - ١٧٧ هـ (٨٧٦ - ٧٩٣ م)

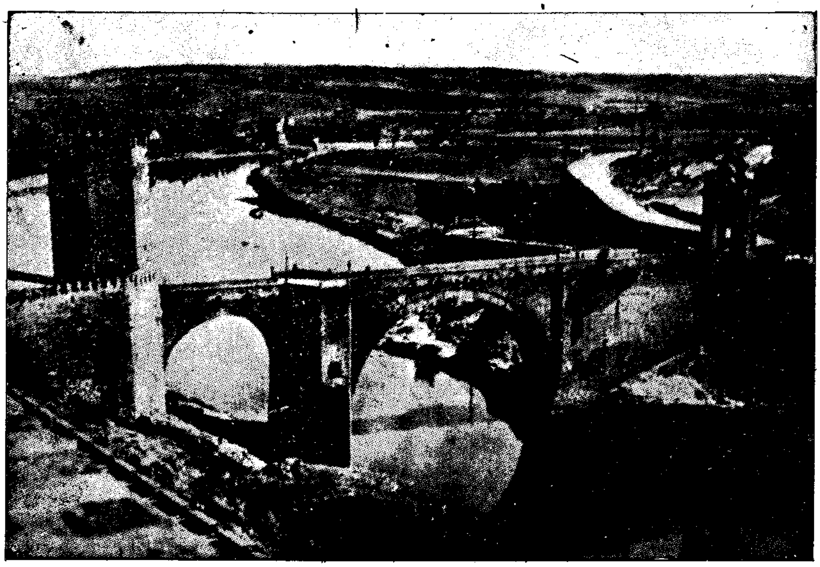

طليطلة : القنطرة الأندلسية المسماة قنطرة « القنطرة » **Alcántara** القائمة فوق نهر التاجه

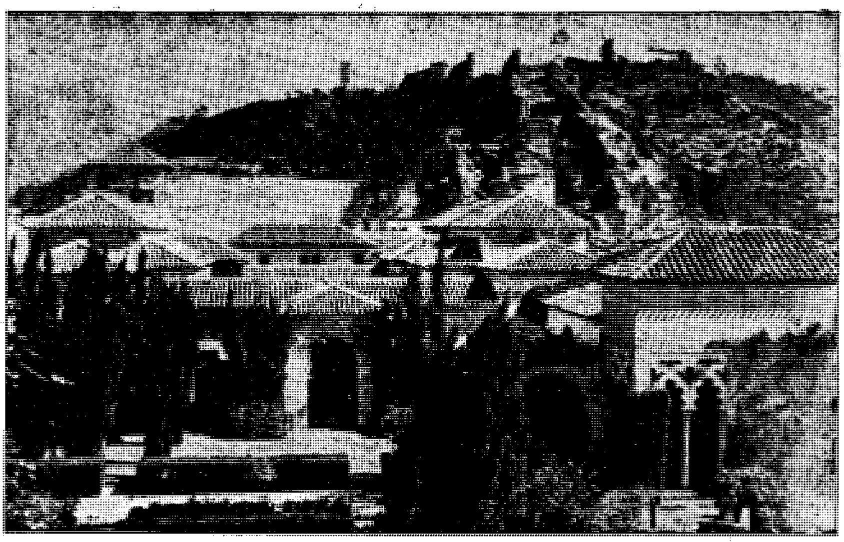

مالقة : منظر عام لواجهة القصبة الأندلسية وقد ظهر فى أيمنها بهو وعقود يظن أنها من بقايا قصر بنى حمود

مدينة الزهراء : بعض العقود والزخارف التي وجدت بين انقاض المجلس المؤنس بالقصر الخليفي وأعيد تركيبها فيما يسميه الأثريون الإسبان بهو عبد الرحمن الناصر أو « بهو السفراء »

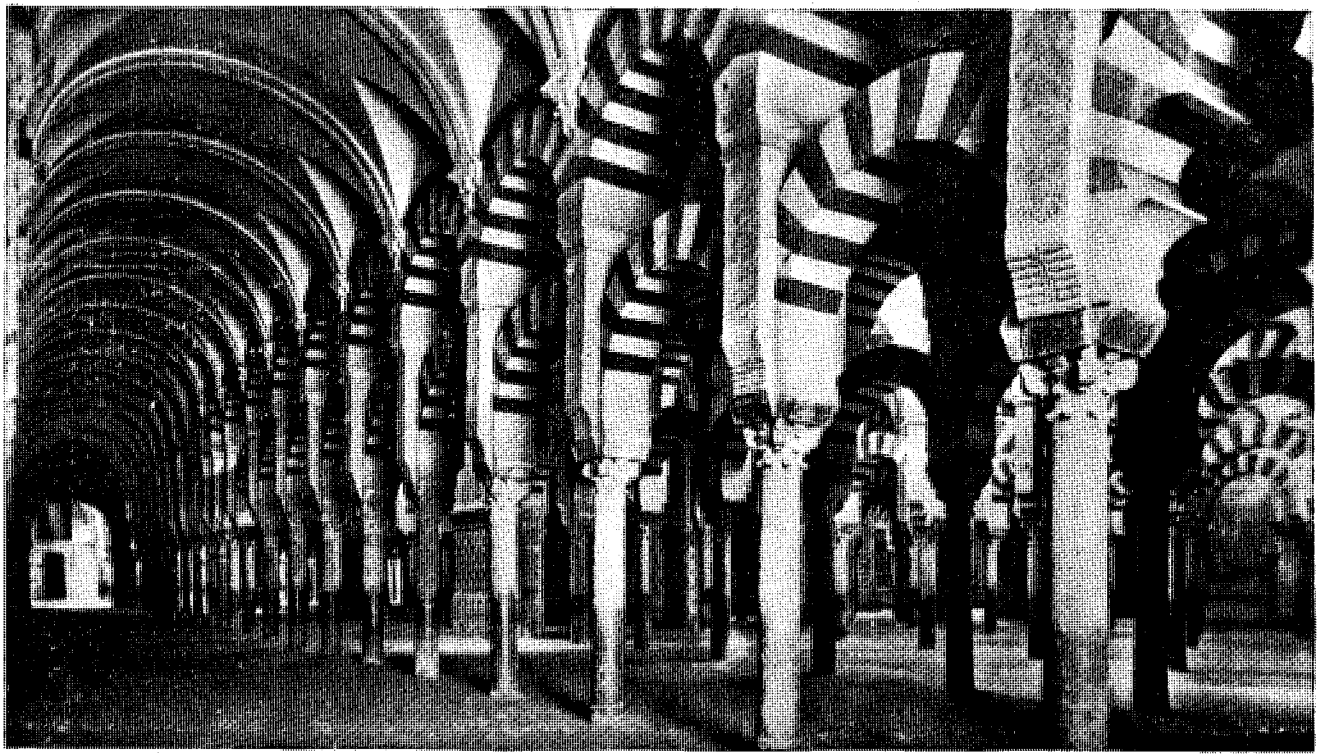

قرطبة : المسجد الجامع . الجناح الشرقي المسمى « جامع المنصور » وهو الذى أنشأه المنصور بن أبي عامر شرق جامع قرطبة الكبير سنة ٣٧٧ – ٣٨٠هـ ( ٩٨٧ – ٩٩٠ م ) وما يزال قائماً على حاله حتى اليوم .

# دولة الإسلام في الأندلس

تأليف

محمد عبد الله عنان

العصر الثاني

# دول الطوائف

منذ قيامها حتى الفتح المرابطي

الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة

حقوق الطبع محفوظة للناشر

الطبعة الرابعة

١٤١٧ هـ = ١٩٩٧ م

رقم الإيداع : 90/8988

الترقيم الدولى : 977-505-082-4

مطبعة المدني المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة . ت : ٤٨٢٧٨٥١

بسم الله الرحمن الرحيم

# مقدمة

## الطبعة الأولى

إن عصر الطوائف من بين عصور التاريخ الأندلسى ، أكثرها تشعباً وأوفرها تبايناً واضطراباً ، لاتكاد تجمع بين وحداته المتناثرة جامعة مشتركة ، ولكل وحدة منها ظروفها وسيرتها الخاصة ، ومن ثم كانت الإحاطة بأحداث هذا العصر ، وتنسيقها وربط حلقاتها ، واستخراج خواصها ، من أشق المهام التاريخية .

وهـذا المجلد من «دولة الإسلام فى الأندلس» يتضمن تاريخ هـذا العصر المضطرب – عصر الطوائف – ، وهو يكون «العصر الثانى» من تاريخ الأندلس . وإنه ليسعدنى أن أضعه اليوم بين أيدى القراء ، بعد هذه الأعوام العديدة ، التى انقضت منذ ظهور العصر الأول . على أن هذه الأعوام لم تذهب بحمد الله سدى ، فقد أخرج خلالها العصر الرابع والأخير من «دولة الإسلام فى الأندلس» باسم «نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين» ، ولم يبق علينا لاستكمال هذه الموسوعة من التاريخ الأندلسى إلا أن ننجز العصر الثالث منها ، وهو المتضمن «تاريخ الأندلس فى عصر المرابطين والموحدين» .

ويشغل عصر الطوائف من تاريخ اسبانيا المسلمة زهاء سبعين أو ثمانين عاماً ، منذ انهيار الخلافة الأندلسية ، على إثر انهيار الدولة العامرية (سنة ٣٩٩ هـ – ١٠٠٩ م) وتفكك الدولة الأندلسية الكبرى ، وانقسامها إلى وحدات متعددة ، تقوم فى كل وحدة منها دولة أو مملكة من ممالك «الطوائف» ، تزعم لنفسها الاستقلال والرياسة المطلقة ، ولا تربطها بجاراتها أو زميلاتها ، أية رابطة ، إلا أن تكون المنافسة ، أو الحرب الأهلية فى سبيل الغنم والتوسع . وهذا البحر الخضم من المنافسات والمنازعات والحروب الأهلية الإنتحارية ، هو قوام عصر الطوائف .

وقد مضينا فى تتبع أحداث هذه الحقبة المؤلمة من تاريخ الأندلس ، حتى مقدم المرابطين إلى شبه الجزيرة ، استجابة لصريخ الطوائف ، ونصرة للأندلس ، وإنقاذاً لها من خطر الفناء الداهم ، الذى لاح لها قوياً منذراً ، ولاسيما بعد سقوط

طليطلة فى أيدى النصارى ، ثم تحول حملات الإنقاذ المرابطية بعد ذلك إلى حملات غازية ، واستيلاء المرابطين على الأندلس تباعاً ، وضمها إلى الإمبراطورية المغربية الكبرى ، وذلك فيما بين سنتى ٤٨٣ — ٥٠٢ هـ (١٠٩٠ — ١١٠٨ م) .

وقد راعينا فى كتابة تاريخ هذا العصر ، أن نتناول ممالك الطوائف ، كل على حدتها ، وأن نستكمل سيرتها منذ قيامها حتى مقدم المرابطين إلى شبه الجزيرة ، ثم سقوطها فى أيديهم ، ورأينا أن هذه الطريقة تحقق من الدقة والوضوح والاستيعاب ، ما لا يحققه الأسلوب المشترك ، الذى سار على نهجه بعض الكتاب الغربيين . وقد اقتضت هذه الطريقة ، فى بعض الأحيان ، شيئاً من التكرار ، فى هذا الفصل أو ذاك ، ولكنه تكرار بسيط وغير ممل ، فضلا عن ضرورته لاستكمال السياق .

وأود أن أذكر هنا أنى قد زرت سائر قواعد الطوائف ومدنها ، خلال رحلاتى المتوالية فى شبه الجزيرة الإسبانية ، ودرست مواقعها وخواصها ومواصلاتها . وقد كان لهذه الدراسة الإقليمية ، أكبر الأثر فى تيسير فهم طبيعة الحروب الأهلية التى كانت تقوم بين ممالك الطوائف ، ودوافعها الجغرافية ، وتحديد مواقعها ، وكذلك فى تيسير مهمة الكتابة عنها ، واستيعاب بواعثها وتفاصيلها .

وقد رجعت فى كتابة هذا القسم من تاريخ الأندلس إلى مادة غزيرة منوعة . ومن حسن الحظ أن قد انتهت إلينا من كتابات المعاصرين عدة آثار هامة ، فى مقدمتها تاريخ ابن حيان معاصر فتنة الطوائف ومؤرخها قبل كل شىء ؛ وإذا لم يكن هذا التاريخ قد وصل إلينا كله بالذات ، فان ما نقل إلينا منه عن طريق الكتاب اللاحقين ، ولاسيما ابن بسام وابن عذارى يحمل إلينا منه مادة قيمة . وكذلك الفيلسوف ابن حزم ، وهو مثل ابن حيان معاصر للفتنة ، ومتتبع لأدوارها ، ودارس لظواهرها وتطوراتها ، وقد انتهت إلينا منه نبذ تاريخية ، وملاحظات نقدية عديدة عن خواص عصر الطوائف ، تمتاز بدقتها وعميق نظراتها . ويلحق بهذين الكاتبين المعاصرين اثنان آخران عاشا فى أواخر عصر الطوائف ، وشهدا خواتيمه ، هما ابن بسام الشنترينى ، والفتح بن خاقان . ويقدم لنا ابن بسام فى مؤلفه الجامع «الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة» ، فضلا عما ينقله إلينا من الشذور التاريخية العديدة عن ابن حيان وغيره ، وما يقدمه إلينا من نبذ تاريخية بقلمه ، أروع صور لتاريخ عصر الطوائف الأدبى والاجتماعى ، ومجموعة حافلة

من تراجم أمرائه وأعيانه ووزرائه وكتابه وشعرائه ، ومختارات عديدة من رسائلهم ، ومنثورهم ومنظومهم . وقد كان كتاب «الذخيرة» سواء بما نشر منه ، أو بأجزائه المخطوطة ، من أقيم مصادرنا وأغزرها ، ولاسيما قسمه الثالث ، وهو المتعلق «بالجانب الشرقى من جزيرة الأندلس» . وقد رجعنا فى هذا القسم — وهو ما يزال مخطوطاً — إلى نسخته المحفوظة بمكتبة أكاديمية التاريخ بمدريد (مجموعة جاينجوس) . أما الفتح بن خاقان ، فيقدم لنا فى كتابه «قلائد العقيان» تراجم طائفة كبيرة من أمراء عصر الطوائف ووزرائه وفقهائه ، وهو يقدمها إلينا فى أسلوب مسجع متكلف ، بيد أنه ينطوى من آن لآخر ، على بعض المعلومات والحقائق التاريخية ؛ كما يقدم إلينا فى كتابه «المطمح» بضعة تراجم أخرى من تراجم رجالات الطوائف .

ونكتفى فيما يتعلق بالمصادر ، بهذه الإشارة إلى المصادر المعاصرة . وأما المصادر العديدة الأخرى ، التى رجعنا إليها ، من عربية وأجنبية ، ومن مخطوطة ومطبوعة ، فقد سجلناها فى أماكنها ، ثم أثبتناها مجتمعة فى نهاية الكتاب . ونود أن نشير بهذه المناسبة إلى أنه قد أتيح لنا خلال بحوثنا بمكتبة الإسكوريال ، أن نراجع بعض المصادر المخطوطة ، وفى مقدمتها كتاب الحلة السيراء لابن الأبار ؛ وقد راجعنا فيه سائر التراجم المخطوطة التى حذفها دوزى من النسخة المطبوعة . وضمنها مصنفه عن بنى عباد Historia Abbadidarum ، كما أتيح لنا أن نقف على بعض النصوص والوثائق الهامة ، وذلك بالأخص فى مجموعتين مخطوطتين ، تحمل أولاهما رقم ٤٨٨ الغزيرى ، وهى مجموعة ناقصة من أولها وليس لها عنوان معين ، والثانية رقم ٥٣٨ الغزيرى وعنوانها «مجموعة رسائل تاريخية وأدبية» . وقد انتفعنا بالأخص فى المجموعة الأولى بعدة رسائل مرابطية هامة وردت بها ، وفى مقدمتها رسالة يوسف بن تاشفين عن موقعة الزلاّقة ، وكذلك بعض رسائل أخرى تتعلق بالطوائف ، وبها تصحيحات لبعض الوقائع والحوادث التاريخية . وقد أثبتنا بعض هذه الرسائل فى نهاية الكتاب فى باب الوثائق .

وقد عنيت وفقاً لما سرت عليه فى العصر الأول «من دولة الإسلام فى الأندلس» بكتابة تاريخ اسبانيا النصرانية ، خصوصاً وقد اجتازت فى عصر الطوائف ، عدة تطورات هامة ، وشغلت مركز الصدارة والغلبة ، وبدأت تنفذ

سياسة « الإسترداد » La Reconquista بقوة . ولا سيما بعد استيلائها على مدينة طليطلة ، أولى القواعد الأندلسية العظيمة الذاهبة .

كما عنيت بأن أثبت بعض الخرائط التاريخية الموضحة للتطورات الجغرافية ، التي جازتها شبه الجزيرة الإسبانية في عصر الطوائف ، وخريطة للإمبراطورية المرابطية الكبرى بعد افتتاح الأندلس .

وإني لأرجو وأنا أقدم إلى قراء العربية هذا العصر الجديد من « دولة الإسلام في الأندلس » ، أن يتاح لي أن أنجز بعون الله في المستقبل القريب ، عصره الثالث ، وهو عصر المرابطين والموحدين ، وبذلك تكمل هذه الموسوعة التاريخية الأندلسية بسائر عصورها [1] .

القاهرة في ربيع الأول سنة ١٣٨٠
الموافق سبتمبر سنة ١٩٦٠

محمد عبد الله عنان

---

(١) وقد ظهر كتاب «عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس» بالفعل في مجلدين كبيرين (سنة ١٩٦٥) ، وبذلك تمت الموسوعة الأندلسية بسائر عصورها .

# تصـــدير

مضت عدة أعوام منذ صدرت الطبعة الأولى من كتاب «دول الطوائف» فى سنة ١٩٦٠ متضمناً للعصر الثانى من «دولة الإسلام فى الأندلس»، وشغلت خلال هذه الأعوام بإخراج العصر الثالث من هذه السلسلة ، وهو «عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس » وتمت بظهوره بحمـــد الله وعونه ، موسوعة الأندلس بعصورها الأربعة .

واليوم نقدم الطبعة الثانية من «دول الطوائف» . وبالرغم من أننا كنا قد استوفينا فى الطبعة الأولى ، سائر ما قصدنا إليه من استيعاب تاريخ هذه الدويلات الأندلسية ،استيعاباً مفصلا ودقيقاً ، فإنه عرضت لنا ، خلال الأعوام الأخيرة طائفة من التعديلات والإضافات رأيناها جديرة بالتدوين ، ومعظمها مستقى من المصادر المخطوطة . وقد تمت هذه الإضافات بالأخص بالنسبة للفصل الثالث من الكتاب الثالث المتعلق بتاريخ مملكة دانية والجزائر ، وبالنسبة للفصل المتعلق بخواص الطوائف السياسية والاجتماعية والحضارية (الخاتمة ) . وقد ألحقنا بباب الوثائق وثيقة جديدة هامة ، هى رسالة أبى عامر بن غرسية الشهيرة فى تفضيل العجم على العرب ، وذلك بعد أن ناقشنا محتوياتها ، وأوردنا طائفة من الآراء والتعليقات الخاصة بها ، وذلك فى موضعها عند الكلام على تاريخ مملكة دانية .

وفى اعتقادنا أن الكتاب بصورته الجديدة ، وبما أدخل عليه من الزيادات ، يلقى أضواء جديدة على تاريخ دول الطوائف ، وتاريخ رجالات هذا العصر وأحواله ، وكل ضوء يلقى على تاريخ هذا العصر ، يمهد لنا السبيل لدراسة العصر اللاحق ، وهو عصر الفتح المرابطى والرياسة المرابطية للأندلس .

وقد علمت خلال قيامى بإعداد هذه الطبعة ، من صديقى العلامة المستشرق الإسبانى الكبير الأستاذ أمبروسيو هويثى ميرانده ، أنه يعتزم أن يترجم هذا الكتاب

إلى اللغة الإسبانية ؛ ليتيح للباحثين الإسبان فرصة الاطلاع بلغتهم على النصوص والمصادر العربية ، وعلى وجهات النظر الأخرى . لكى تتسم بحوثهم فى هذا الميدان بالانصاف وسعة الأفق .

وانى لأرجو لصديقى العلامة الكبير التوفيق فى مهمته الجليلة . كما أرجو أن يجد القراء فى هذه الطبعة الجديدة . مزيداً من الضوء على تاريخ الطوائف وأحوال دولهم وعصرهم .

**محمد عبد الله عنان**

القاهرة فى رجب سنة ١٣٨٩
الموافق سبتمبر سنة ١٩٦٩

صفحتان من القسم الثالث من كتاب الذخيرة لابن بسام من النسخة المخطوطة المحفوظة بمكتبة أكاديمية التاريخ بمدريد ( مجموعة جاينجوس )

صفحتان من رسالة ابن غرسية الموجودة بالمخطوط رقم ٥٣٨ الغزيرى المحفوظ بمكتبة الإسكوريال

# تمهيد

## نذر الانحلال والتفكك

— ١ —

فى فترة قصيرة لا تتجاوز نصف القرن ، تقلبت الأندلس بين مرحلتين متباينتين كل التباين . فهى فى منتصف القرن الرابع الهجرى وحتى أواخر هذا القرن ، تبلغ ذروة القوة والتماسك ، فى ظل رجال عظام مثل عبد الرحمن الناصر والحكم المستنصر ، والحاجب المنصور ؛ ثم هى منذ أوائل القرن الخامس ، تنحدر فجأة إلى معترك لا مثيل له ، من الاضطراب والفتنة والحرب الأهلية المدمرة ، لتخرج من هذه الغمار بعد فترة قصيرة ، أشلاء لا تربطها أية رابطة مشتركة .

وإنه لمنظر مروع مؤسٍ معاً ، ذلك الذى تقدمه إلينا الأندلس فى تلك الفترة العصيبة من تاريخها ، منظر القواعد والمدن الأندلسية ، التى كانت من قبل تلتئم فى عقد منتظم واسطته مدينة قرطبة العظيمة ، وتسطع فى ظل حكومة الخلافة القوية ، وتلتف حول عرش الخلفاء المؤثل . وهى تغدو حبات متفرقة منفردة حائرة ، تقوم فى كل منها حكومة محلية هزيلة ، على رأسها متغلب من أهل العصبية أو الرياسة ، يسيطر على أقدارها لحساب نفسه . ثم هى بعد ذلك كله ، تخوض غمار سلسلة لا نهاية لها من الفتن والحروب الأهلية الصغيرة ، وتنسى فى خلال هذه الفترة الخطيرة المؤسية من حياتها أو تتناسى ، قضية الأندلس الكبرى ، قضية الحياة والموت ، أو بعبارة أخرى قضية الصراع ضد العدو الخالد — أعنى اسبانيا النصرانية .

بيد أن انتثار شمل الأندلس على هذا النحو ، لم يكن سوى نتيجة طبيعية للعوامل السياسية والاجتماعية التى توالت فى الحقبة السابقة . بل نستطيع أن نرجع هذه العوامل إلى بداية قيام الدولة الأموية ذاتها ، أعنى إلى عهد عبد الرحمن الداخل . فقد رأينا هذا الزعيم القوى ، بعد أن استولى على تراث الأندلس ، واستتب له الأمر ، يعمل بكل ما وسع للاستئثار بالسلطة ، وإخماد النزعة القبلية ، وتحطيم الزعامات والرياسات العربية المحلية . وقد حذا خلفاؤه من أمراء بنى أمية حذوه

فى تتبع العصبية العربية والقضاء عليها . وقد بلغ هذا الصراع بين السلطة المركزية ، وبين المتنزين عليها ، ذروته فى أواخر القرن الثالث الهجرى ، إبان اضطرام الفتنة الكبرى ، وتفاقم ثورة المولدين والعرب ، فى عهد الأمير عبد الله بن محمد ابن عبد الرحمن (٢٧٥ — ٣٠٠ هـ) ، حينما اندلع لهيب الثورة ، فى كل ناحية من نواحى الأندلس ، وظهر الزعماء العرب والبربر فى معظم النواحى ، واستقلت معظم الكور والمدن الكبيرة عن قرطبة . وقد استطاع عبد الله أن يخمد الثورة فى كثير من النواحى ، وأن ينقذ سلطان بنى أمية من الخطر الداهم . ثم جاء من بعده عبد الرحمن الناصر ، فأتم المهمة ، وقضى على جذور الفتنة من أساسها ، وعمل على تدعيم سلطانه بكل الوسائل ، فاشتد فى مطاردة القبائل والأسر العربية ذات البأس والعصبية ، وقضى على رياستها وزعامتها المحلية ، ومال إلى اصطناع الموالى والصقالبة ، وأولاهم النفوذ والثقة ، فاستأثروا فى عهده بأرفع المناصب فى القصر وفى الحكومة والجيش ، وكان من جراء ذلك أن انصرفت القبائل العربية عن الولاء له ، وكان تخاذلها فى نصرته يوم موقعة الخندق الشهيرة (٣٢٧ هـ) ، يرجع من وجوه كثيرة ، إلى سخط الزعماء العرب لسياسته ، فى إذلالهم وسحق نفوذهم ومكانتهم .

ولم يحد المنصور بن أبى عامر ، حين استولى على السلطان ، عن هذه السياسة فى تدعيم الحكومة المركزية ، وسحق كل سلطة محلية . وبالرغم من أنه ينتمى إلى بيت من أكرم البيوتات العربية ، فإنه عمل على سحق العصبية العربية ، وعمل فى نفس الوقت على سحق عصبية الفتيان الصقالبة ، ولم يستبق منهم إلا أقلية مخلصة . وآثر أن يعتمد فى الحملة على ولاء البربر ، فكان منهم معظم قادة الجيش ، وكان منهم خلفاء المنصور وعماله فى المغرب . وفضلا عن ذلك فقد كان من جراء نظام الطغيان المطلق الذى فرضه المنصور على الأندلس ، قرابة ثلاثين عاماً ، أن توارت معظم الزعامات والعناصر النابهة فى المجتمع الأندلسى من الميدان ، ولكنها لبثت فى مكامنها وعزلتها ، ترقب فرص الظهور والعمل .

ومن جهة أخرى فقد كان هذا النظام المطلق ، الذى فرضه المنصور على الأمة الأندلسية ، يخفى فى ثنياته كثيراً من عوامل الهدم والانتقاض . فقد كانت سائر العناصر التى تعاونت فى إقامته وتدعيمه ، يتربص بعضها ببعض ، ويخشى كل منها على مركزه وسلطانه . وكانت ثمة معارك خفية تجرى بين البربر

وخصومهم من الصقالبة ، فى القصر وفى الحكومة . وكان بنو أمية يميلون إلى الصقالبة مواليهم القدماء ، ويكرهون البربر ، إذ كانوا سنداً للمنصور فى استلاب سلطانهم ، وكانت البطون العربية تكره هؤلاء وهؤلاء . ولكنها ترى فى البربر خصمها الأساسى ، وهو من آثار الخصومة القديمة ، التى لبثت تضطرم بين العنصرين منذ عصر الفتح .

وهكذا اجتمعت هذه العوامل لتحدث أثرها فى الوقت الملائم ، واجتمعت فى ظلها العناصر الناقمة من سائر الطبقات . فلما وقع الانفجار ، وانهارت دعائم الطغيان العامرى ، ظهرت فى ميدان النضال ثلاث قوى : بنو أمية يلتفون حول علم خلافتهم وتراث بيتهم المغصوب . وطوائف البربر تحاول الاحتفاظ برياستها وامتيازاتها . والأسر العربية التى اضطهدت وأبعدت عن الميدان ، تحاول استرداد مكانتها وزعامتها القديمة . وظهرت إلى جانب هذه القوى الثلاث ، طائفة أقل شأناً ، ولكنها استطاعت أن تنتزع نصيبها من أسلاب السلطة ، وهى طائفة الفتيان الصقالبة أو الفتيان العامريين .

ولم يصمد بنو أمية فى ميدان النضال طويلا . ذلك انه لم تكن لهم ، بعد العوامل الأدبية ، التى جمعت بعض طوائف الشعب تحت لوائهم ، قوة مادية يعتد بها ، ومن ثم فإنه لم تمض بضعة أعوام (٣٩٩ — ٤٠٧ هـ ) تولى الخلافة خلالها محمد ابن هشام المهدى ، فسليمان المستعين ، فهشام المؤيد ، ثم سليمان للمرة الثانية ، حتى استطاع بنو حمود البربر أن ينتزعوا الخلافة ، وأن يتزعموا حكومة قرطبة لفترة قصيرة . ثم تطورت الحوادث بسرعة ، وعاد بنو أمية فاستردوا الخلافة ، وحكموا فى قرطبة عدة أعوام أخرى (٤١٤ — ٤٢٢ هـ) ، وتولى الخلافة منهم المرتضى . فالمستظهر . فالمستكفى بالله . فهشام المعتد بالله ، وهو آخرهم . وبخلعه فى أواخر سنة ٤٢٢ هـ (١٠٣١ م) ، تختتم الدولة الأموية رياستها فى الأندلس بصورة نهائية ، بعد أن دامت منذ قيام عبد الرحمن الداخل فى سنة ١٣٨ هـ (٧٥٦م) مائتين وأربعة وثمانين عاماً .

وهكذا اختفت القوة الأولى — أعنى بنى أمية — من ميدان النضال بسرعة ، وقد كان واضحاً منذ البداية ، أنها لم تكن قوة ذات شأن ، ولم تكن سوى رمز تحيط به هالة باهتة من الجلال القديم ، ومن الاعتبارات الشرعية والأدبية . ولم تحقق ظفرها القصير المضطرب ، إلا بالاعتماد على قوى وعناصر أخرى ، ذات

ولاء مريب قلب. وتركت بعد اختفائها من الميدان القوتين الأخريين، وهما البربر والعصبية العربية، وجهاً لوجه.

واستطاع البربر بزعامة بنى حمود، أن يسيطروا زهاء ثلث قرن، على المثلث الجنوبى فى شبة الجزيرة الإسبانية، وأن يقيموا لهم ملكاً وخلافة، آناً بقرطبة وإشبيلية، ثم بمالقة والجزيرة. وكانت إمارة باديس بن حبوس الصنهاجى بغرناطة، تحمى الجناح الشمالى الغربى، لتلك الخلافة البربرية، فلما انتهت دولة بنى حمود سنة ٤٤٩ هـ (١٠٥٧ م) كان البربر أثناء ذلك، وبعد أن خسروا معركة قرطبة، قد بسطوا سلطانهم على معظم القواعد الواقعة جنوبى نهر الوادى الكبير، وامتداده لنهر شنيل، مثل قرمونة وإستجة ومورور، وأركش، ورندة، ومالقة، وأن ينتزعوا الرياسة فى نفس الوقت، فى بعض المناطق الشرقية والغربية الشمالية، على نحو ما نفصل بعد.

وأسفر النضال بين هذه القوى الخصيمة، بعد فوز البربر برياسة المناطق التى سبق ذكرها، عن فوز الأسر العربية، بمعظم القواعد الأندلسية الكبرى، مثل قرطبة وإشبيلية وسرقسطة وبلنسية ومرسية وألمرية. واستطاع الفتيان العامريون أن يبسطوا سلطانهم على معظم المناطق الشرقية وعلى ألمرية لفترة قصيرة.

— ٢ —

وأضحت الأندلس فى أواخر النصف الأول من القرن الخامس الهجرى، تقدم إلينا ذلك المنظر المدهش الذى أشرنا إليه فيما تقدم: منظر الصرح الشامخ، الذى انهارت أسسه، وتصدع بنيانه، وقد اقتصت أطرافها، وتناثرت أشلاؤها، وتعددت الرياسات فى أنحائها، لا تربطها رابطة، ولا تجمع كلمتها مصلحة مشتركة؛ لكن تفرق بينها بالعكس، منافسات وأطماع شخصية وضيعة، وتضطرم بينها حروب أهلية صغيرة، والأندلس خلال ذلك كله تفقد مواردها وقواها القديمة تباعاً، ويحدق بها خطر الفناء من كل صوب.

هذه الدول الصغيرة، المتخاصمة المتنابذة، التى قامت على أنقاض الدولة الأندلسية الكبرى، تعرف بدول الطوائف، ويعرف رؤساؤها بملوك الطوائف وهم ما بين وزير سابق، وقائد من ذوى النفوذ والصحب، وحاكم لإحدى المدن، وشيخ للقضاء، وزعيم من ذوى المال والحسب. وقد ظهروا جميعاً إبان

الفتنة ، وبسط كل سلطانه ، على ما أتيح له من المدن والأراضى ، وأخذ يعمل على تدعيم ذلك السلطان وتوسيعه ، وتأسيس الملك لبنيه .

وليس أبلغ تعبيراً فى وصف حال الأندلس عقب الفتنة وقيام دول الطوائف من تلك النبذة التى يقدمها إلينا ابن الخطيب حين يقول :

«وذهب أهل الأندلس من الانشقاق والانشعاب والافتراق ، إلى حيث لم يذهب كثير من أهل الأقطار ، مع امتيازها بالمحل القريب ، والخطة المجاورة لعبّاد الصليب ، ليس لأحدهم فى الخلافة إرث ، ولا فى الإمارة سبب ، ولا فى الفروسية نسب ، ولا فى شروط الإمامة مكتسب . اقتطعوا الأقطار ، واقتسموا المدائن الكبار ، وجبوا العمالات والأمصار ، وجندوا الجنود ، وقدموا القضاة ، وانتحلوا الألقاب ، وكتبت عنهم الكتاب الأعلام ، وأنشدهم الشعراء ، ودونت بأسمائهم الدواوين ، وشهدت بوجوب حقهم الشهود ، ووقفت بأبوابهم العلماء ، وتوسلت إليهم الفضلاء . وهم ما بين مجبوب ، وبربرى مجلوب ، ومجند غير محبوب ، وغفل ليس فى السراة بمحسوب ، ما منهم من يرضى أن يسمى ثائراً . ولا لحزب الحق مغايراً ، وقصارى أحدهم يقول : «أقيم على ما بيدى ، حتى يتعين من يستحق الخروج به إليه» ، ولو جاءه عمر بن عبد العزيز لم يقبل عليه ، ولا لقى خيراً لديه . ولكنهم استوفوا فى ذلك آجالا وأعماراً ، وخلفوا آثاراً ، وإن كانوا لم يبالوا اغتراراً ، من معتمد ومعتضد ومرتضى وموفق ومستكف ومستظهر ومستعين ومنصور وناصر ومتوكل ، كما قال الشاعر :

مما يزهدنى فى أرض أندلس ... أسماء معتضد فيها ومعتمد

ألقاب مملكة فى غير موضعها ... كالهر يحكى انتفاخاً صَوْرَةَ الأسد[1]

ومما أشار به ابن حيان ، معاصر الفتنة التى أسفرت عن قيام دولهم ومؤرخها ، إلى تلك الفتنة ، وإلى هاته الدول بأسلوبه القوى اللاذع ، إذ يقول فى مقدمة تاريخه الكبير :

«فركبت سنن من تقدمنى ، فيما جمعت من أخبار ملوك هذه الفتنة البربرية ، ونظمته وكشفت عنه ، وأوعيت فيه ذكر دولهم المضطربة ، وسياستهم المنفرة ،

(١) أعمال الأعلام (طبع بيروت) ص ١٤٤ . وقائل هذين البيتين هو أبو الحسن بن رشيق القيروانى . وتروى الشطرة الثانية من البيت الأول بصورة أخرى هى : «أسماء مقتدر فيها ومعتضد» (المعجب للمراكشى ص ٤) .

وأسباب كبار الأمراء المتنزين فى البلاد عليهم ، وسبب انتقاض دولهم ، حال فحال بأيديهم ، ومشهور سيرتهم وأخبارهم ، وما جرى فى مددهم وأعصارهم ، من الحروب والطوائل ، والوقائع والملاحم ، إلى ذكر مقاتل الأعلام والفرسان ، ووفاة العلماء والأشراف ، حسب ما انتهت إليه معرفتى ونالته طاقتى »(١) .

ونستطيع القول بأن تمزق الأندلس على هذا النحو ، كان ضربة ، لم تنهض الأندلس من آثارها قط ، بل كان بداية عهد الانحلال الطويل الذى لبثت تتقلب فيه بعد ذلك زهاء أربعة قرون أخرى . وبالرغم من أن عهد الطوائف الحقيقى ، لم يطل أكثر من سبعين عاماً ، وبالرغم من أن الأندلس ، قد التأم شملها بعد ذلك فى ظل المرابطين ثم الموحدين من بعدهم ، وبالرغم من أنها استطاعت أن تسترد تفوقها العسكرى القديم فى شبه الجزيرة الإسبانية فى فترات قصيرة : بالرغم من ذلك كله ، فإن الأندلس لم تستطع أن تسترد وحدتها الإقليمية القديمة ، ولا تماسكها القديم قط ، بل لبثت بالعكس ، خلال صراعها الطويل مع اسبانيا النصرانية ، تفقد قواها ومواردها تباعاً ، وتنكمش رقعتها الإقليمية تدريجياً . حتى إذا كان منتصف القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) ، رأينا رقعة الوطن الأندلسى ، ترتد إلى ما وراء نهر الوادى الكبير ، وتنحصر فى مملكة غرناطة الصغيرة ، ورأينا قواعد الأندلس القديمة الكبرى مثل قرطبة وإشبيلية وسرقسطة وبلنسية ومرسية وغيرها ، تغدو مدناً إسبانية نصرانية ، ويغدو ميزان القوى فى شبه الجزيرة الإسبانية بيد مملكة قشتالة الكبرى .

— ٣ —

والواقع أن تاريخ الطوائف ، يبدأ منذ سقوط الدولة العامرية ، فى نهاية المائة الرابعة . ذلك أن قيام الخلافة الأموية ، خلال الفترة القصيرة التى عاشتها فى أعقاب الفتنة ، لم يكن سوى حادثاً محلياً ، ولم يتعد أثره الفعلى قرطبة وأرباضها . وقد رأينا كيف استطاعت الدولة الحمودية ، أن تقيم سلطانها فى نفس الوقت فى قرطبة وإشبيلية ثم فى مالقة والجزيرة ، وكيف قامت كذلك دولة بنى مناد البربرية فى غرناطة ، وسيطرت عناصر أخرى من البربر ، فى معظم القواعد الأندلسية الواقعة جنوبى الوادى الكبير . وإلى جانب هذه الدول البربرية ، التى قامت منذ أوائل المائة

(١) نقله ابن بسام فى الذخيرة ( القسم الأول – المجلد الثانى ص ٨٨ ) .

الخامسة ، كانت ثمة دول أو دويلات عديدة أخرى ، تتكون تباعاً فى معظم قواعد الأندلس الأخرى الشرقية والغربية والوسطى ، فى الوقت الذى كانت تقوم فيه خلافة قرطبة ، بيد أنها لم تنزع ولاءها الرسمى للحكومة المركزية ، ولم تتخذ طابعاً واضحاً من الاستقلال المحلى ، إلا بعد سقوط الخلافة النهائى .

ونحن إذا ألقينا نظرة على الخريطة ، ألفينا رقعة الوطن الأندلسى الكبرى ، وقد انقسمت عقب الفتنة من الناحية الإقليمية إلى ست مناطق رئيسية : الأولى منطقة العاصمة القديمة قرطبة وما إليها من المدن والأراضى الوسطى ، والثانية منطقة طليطلة أو الثغر الأوسط ، والثالثة إشبيلية وغربى الأندلس وما إليها من الأراضى حتى المحيط الأطلنطى ، والرابعة غرناطة وريُّه والفرنتيرة ، والخامسة منطقة شرقى الأندلس أو منطقة بلنسية وما إليها شمالا وجنوباً ، والسادسة منطقة سرقسطة والثغر الأعلى . وهذا كله إلى عدد كبير من المدن والقواعد الأندلسية التى استقلت بنفسها ، واعتبرت إمارات قائمة بذاتها داخل منطقة ، أو أخرى ، ثم اختفت تباعاً بالانضمام أو الخضوع إلى إحدى الإمارات الأخرى .

وهكذا نجد أن كل منطقة من المناطق المشار إليها ، تضم من الناحية الإقليمية إمارة أو أكثر من إمارات الطوائف ، وتختلف من حيث الرقعة ، والأهمية السياسية ، والعسكرية ، والاجتماعية .

وإذا لم تكن قرطبة ، من حيث رقعتها الإقليمية ، ومواردها الاقتصادية والعسكرية ، أهم دول الطوائف ، فقد كانت من الناحية الأدبية بين دول الطوائف ذات أهمية خاصة ، نظراً إلى كونها كانت مقر الخلافة ، وقاعدة الحكومة المركزية ؛ وفى وسعها من الناحية الأدبية أيضاً ، أن تدعى الولاية — الاسمية على الأقل — على باقى الإمارات والمدن الأندلسية الأخرى ، وهو ما ادعته حكومة قرطبة المحلية بالفعل . ومن ثم فقد رأينا لهذه الاعتبارات الأدبية والتاريخية ، أن نبدأ الحديث عن دول الطوائف بالكلام عن إمارة قرطبة .

# الكتاب الأول

# قرطبة

## ودول الطوائف في الأندلس الغربية والوسطى

# الفصل الأول

## دولة بنى جهـــور فى قرطبة

نهاية الخلافة الأموية ، أبو الحزم بن جهور واختياره لرياسة الحكومة . نشأته ونباهة بيته . ولايته قرطبة . حكومة الجماعة . أوضاعها ورسومها . مثيلاتها فى الجمهوريات الإيطالية ، سياسة ابن جهور وإجراءاته الإدارية والمالية . موقفه من أسطورة ظهور هشام المؤيد . وفاته وقيام ولده أبى الوليد مكانه . وزراؤه . ابن حيان وابن زيدون . محنة ابن زيدون وفراره . ابن السقاء يتولى الأمور . مصرعه . الخلاف بين عبد الملك وعبد الرحمن ولدى أبى الوليد . المأمون بن ذى النون يحاول غزو قرطبة . استنصار عبد الملك بابن عباد . غدر ابن عباد واستيلاء جنده على المدينة . نهاية الدولة الجهورية . موقف المؤرخ ابن حيان وتعليق ابن بسام عليه .

حدثنا فيما تقدم ، فى الفصل الثانى من الكتاب الرابع من « دولة الإسلام فى الأندلس» ، عما حدث من تقلب خلافة قرطبة بين أعقاب بنى أمية ، وبين المتغلبين من بنى حمود . وكيف أنه عندما غادر على بن حمود قرطبة فى المحرم سنة ٤١٧ هـ إلى مالقة ، ثار القرطبيون وفتكوا بالحامية البربرية ، وأجمعوا على رد الأمر لبنى أمية ، وكان عميدهم فى ذلك الوزير أبو الحزم جَهْوَر بن محمد بن جهور .

وفى ظل هذا التحول ، بويع بالخلافة هشام بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن الناصر (ربيع الأول ٤١٨ هـ) ، وتلقب بالمعتد بالله ، وقدم من منفاه فى ألبونت إلى قرطبة فى أواخر سنة ٤٢٠ هـ ، ولبث فى الخلافة زهاء عامين ، أساء فيهما السيرة ، حتى سخط عليه أهل قرطبة وقرروا خلعه ، فغادر المدينة ناجياً بنفسه وولده ( ذو القعدة ٤٢٢ هـ) . وأجمع القرطبيون بعد فشل هذه التجربة الأخيرة ، على إلغاء الخلافة والتخلص نهائياً من بنى أمية ، وإجلائهم جميعاً عن المدينة . وكان عميدهم ورائدهم فى ذلك هو أيضاً أبو الحزم بن جهور ، وكان هذا الوزير القوى النابه ، يستأثر نظراً لماضيه التالد ، ورفيع مكانته ، ووفرة حزمه ونضجه ، بمحبة الشعب وثقته وتأييده .

وغدت قرطبة على أثر ذلك دون خلافة ودون حكومة . وكانت الأنظار كلها تتطلع إلى ذلك الزعيم ، الذى عاون غير مرة برأيه وحسن تدبيره ، فى

مواجهة الأزمات وصون المدينة من شر الدمار والفوضى ، ليتولى الحكم وتدبير الأمور فى تلك الآونة العصيبة . وهكذا اختير ابن جهور ، باجماع الرأى ، للاضطلاع بتلك المهمة الدقيقة .

وينتمى ابن جهور إلى بيت من أعرق بيوتات الموالى الأندلسية . وهو أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور بن عبيد الله بن أحمد بن محمد ، وكان جدهم الداخل إلى الأندلس ، يوسف بن بخت بن أبى عبدة الفارسى ، مولى عبدالملك بن مروان . دخل فى كنف الطالعة البلجية ، وكان من أنصار عبد الرحمن الداخل ، ثم ولاه عبد الرحمن حجابته ، ثم تولى القيادة فى عهد ولده هشام . وتولى أبناؤه بعد ذلك مناصب الوزارة والقيادة تباعاً فى ظل امراء بنى أمية وخلفائهم . فتولى حفيده عبد الملك بن جهور الوزارة للأمير عبد الله بن محمد ، ثم كان من وزراء الناصر لدين الله . وتولى ولده جهور بن عبد الملك البختى أيضاً الوزارة فى عهد الناصر . ووليها كذلك فى أواخر عهد الناصر ، ولداه مروان بن جهور بن عبد الملك ، ومحمد بن جهور بن عبد الملك . ومحمد هذا ، وهو أبو الوليد ، هو والد أبى الحزم جهور ، وقد تولى الوزارة أيضا ، فى عهد المنصور بن أبى عامر . ثم تولى ولده أبو الحزم جهور الكتابة لعبد الرحمن المنصور فى نهاية المائة الرابعة ، حتى كانت الفتنة وانهيار الدولة العامرية ، وعاصر الحوادث والانقلابات العاصفة ، التى شهدتها عاصمة الخلافة من ذلك الحين . وتولى خلال ذلك الوزارة لعلى بن حمود مؤسس الدولة الحمودية . وقد نقم عليه واعتقله وصادر أمواله . ولما ثار أهل قرطبة بعد ذلك ببنى حمود وأنصارهم من البربر ، كان عميدهم فى ذلك حسبما تقدم هو أبو الحزم جهور . وكان جهور خلال ذلك كله يتمتع بمكانة بارزة فى الزعامة الشعبية ، حتى غدا فى نهاية الأمر «شيخ الجماعة» وزعيم المدينة الحقيقى . وكان كثيراً ما يؤثر برأيه فى تطور الشئون والأحوال ، فى تلك الأعوام الأخيرة ، التى كانت تحتضر فيها خلافة قرطبة ، وتسير سراعاً إلى نهايتها المحتومة .

وألقى جهور نفسه ، بعد أن أجمع الشعب على اختياره ، رئيساً لحكومة قرطبة الجديدة . وكانت هذه الحكومة التى قامت على أنقاض الخلافة الأموية ، تبسط سلطانها على رقعة متوسطة من الأندلس ، تمتد شمالا حتى جبل الشارات ( سيرا مورينا ) ، وشرقاً حتى منابع نهر الوادى الكبير . وغرباً حتى قرب إستجة

وجنوباً حتى حدود ولاية غرناطة ، وتشمل من المدن عدا قرطبة ، جيان وأبّدة وبيّاسة والمدور وأرجونة وأندوجر.

بيد أن جهوركان رئيس حكومة من نوع خاص ، فانه لم ينفرد بالرياسة ولم يستأثر بتدبير الأمور والبت فيها ، ولكنه جمع حوله صفوة الزعماء والقادة ، يتحدث باسمهم ، أو باسم «الجماعة» ، ويرجع إليهم فى الأمور ، ويصدر القرارات باسمهم ؛ فاذا طُلب منه مال أو مضاء أمر من الأمور ، قال ليس لى عطاء ولا منع إنما هو «للجماعة» وأنا أمينهم ، وإذا رابه أمر عظيم ، أو اعتزم تدبير مسألة خطيرة ، استدعاهم وشاورهم ، وإذا خوطب بكتاب ، لا ينظر فيه إلا أن يكون باسم الوزراء وهكذا كان جهور يتحدث فى كل أمر ، ويمضى كل أمر لا باسمه ، ولكن باسم الجماعة . وقرن جهور ذلك كله باجراء بارع آخر ، هو أنه لم يفارق رسم الوزارة ولم ينتقل من داره إلى قصور الخلفاء ، واكتفى بأن رتب عليها الحجاب والحشم ، على ما كانت عليه أيام الخلافة ، وجعل نفسه ممسكا للموضع إلى أن يجىء مستحق يتفق عليه فيسلم إليه ، وجعل ما يرتفع من الأموال السلطانية بأيدى رجال رتبهم لذلك وهو المشرف عليه [١] ، ولم يتخذ أى عنوان أو إجراء يبرز رياسته ، أو يحيط نفسه بأى مظهر من مظاهر الأبهة والفخامة ، بل لبث على سابق رسمه ، من الانزواء والتواضع ، والقناعة وخفض الجناح ، ومعاملة الجميع بالرفق والحسنى .

وقد عُرفت هذه الحكومة الفريدة فى صحف التاريخ الإسلامى «بحكومة الجماعة» . وسواء أكان الباعث لدى الوزير جهور فى إقامتها على هذا النحو ، يرجع إلى ضرب من بعد النظر والدهاء البارع ، يحاول به جمع الكلمة ، واتقاء منافسة الزعماء الأقوياء ، أم كان راجعاً حقاً إلى محبته للشورى والتضامن ؛ فإنها كانت بلا ريب نموذجاً بديعاً من حكم الشورى أو حكم الأقلية الأرستقراطية ، فى عصر سادت فيه نزعة الرياسة الفردية والحكم المطلق . وكان من أبرز مزاياها أن يستطيع الرئيس أن يتنصل من المسئولية ، وأن يستظل بلواء الجماعة ، إذا ما ساءت الأمور ، وأن يحرز الثناء وجميل الذكر ، إذا حسنت العواقب .

ويمكننا أن نتبين ملامح هذا النوع من حكم «الجماعة» أو حكم الأقلية الأرستقراطية الذى ابتدعه أبو الحزم بن جهور ، فى بعض الحكومات التى قامت

(١) راجع جذوة المقتبس للحميدى (مصر) ص ٢٧ .

فيما بعد ، فى بعض الولايات الإيطالية أيام عصر الإحياء مثل حكومة «الكومونى» فى جنوة ، وحكومة «السنيوريا» فى فلورنس أيام حكم آل مديتشى . وقد كان هذا النظام فى الواقع أقرب النظم إلى حكومة الجماعة ، فقد كان آل مديتشى ، يحكمون وفق إرادتهم حكماً مطلقاً ، ولكن يحتجبون فى نفس الوقت وراء هيئة منتخبة من النبلاء أو الزعماء الذين يعملون بوحيهم تسمى Balie أو Signoria أى جماعة الحكام أو السادة . ولسنا نود أن نقول إن هذه الحكومات الإيطالية ، كانت مأخوذة أو مقتبسة من حكومة الجماعة القرطبية ، فليس ثمة دليل على ذلك ، ولكنا نود أن نقول إنها قامت فى ظروف مشابهة ، ولمثل البواعث التى أوحت بقيامها فى قرطبة .

وسلك جهور فى حكومته مسلك الأصالة والحزم ، وكان أول همه أن يقمع الشغب ، وأن يوطد دعائم النظام والأمن ، فصانع زعماء البربر واستمالهم بالرفق وخفض الجناح ، اتقاء لدسائسهم وتهدئة لثورات أطماعهم ، فحصل على محبتهم وسلمهم ، وجعل أهل الأسواق جنداً ، وفرق السلاح فيهم ، وفى البيوت ، حتى إذا دهم أمر فى الليل أو النهار ، استطاع أهل المدينة الدفاع عن أنفسهم ، وأصلح القضاء، وعمل على حفظ العدالة بين الناس، وقضى على كل مظاهر البذخ والإسراف ، وخفف أعباء المكوس ، وعمل على حفظ الأموال العامة ، ولا سيما الأموال السلطانية ، حيث عهد بتحصيلها وحفظها ، إلى رجال ثقاة يشرف عليهم بنفسه ، وعمل على تشجيع المعاملات والتجارة ، ومن ذلك أن فرق الأموال على التجار لتكون بيدهم دينا عليهم، يستغلونها ويحصلون على ربحها فقط ، وتحفظ لديهم ، ويحاسبون عليها من وقت إلى آخر . وكان من نتائج هذه الإجراءات ، أن حل الرخاء مكان الكساد ، وازدهرت الأسواق وتحسنت الأسعار ، وغلت الدور ، ونمت الموارد . ويبدى ابن حيان ، وقد كان من شهود هذا التحول ، دهشته من تحقق الأمن والنظام والرخاء على هذا النحو فى قوله : «فعجب ذو التحصيل للذى أرى الله فى صلاح الناس من القوة ، ولما تعتدل حال ، أو يهلك عدو ، أو تقو جباية ، وأمر الله تعالى بين الكاف والنون» . ومع ذلك فإن ابن حيان يلاحظ أن جهوراً لم يفته خلال ذلك كله أن يستغل الظروف ، وأن يعمل على جمع المال «حتى تضاعف ثراؤه وصار لا تقع العين على أغنى منه» ، وإن كان

يقرن ذلك «بالبخل الشديد ، والمنع الخالص ، الذى لولاهما ما وجد عائبه فيه طعناً ، ولكمل لو أن بشراً يكمل» [١] .

واستمرت حكومة الجماعة هذه برياسة أبى الحزم جهور تدبر الأمور فى قرطبة وأراضيها ، زهاء اثنى عشرة عاماً ، وقد سادت بها السكينة والدعة والأمن ، وجهور لا يتحول عن خطته فى التزام المسالمة والتواضع والتقشف ، والشعب القرطبي يؤيده بطاعته ومحبته . وكانت قرطبة فى أيامه ملاذ الزعماء اللاجئين والرؤساء المخلوعين ، وكان من هؤلاء عبد الله بن سابور صاحب أشبونة من أعمال الغرب ، حينما انتزعها منه ابن الأفطس صاحب بطليوس ، فإنه لجأ إلى قرطبة ، وأقام بها آمناً فى كنف جهور ، وكذلك عبد العزيز البكرى صاحب ولبة وجزيرة شلطيش ، فانه التجأ إليها فيما بعد ، حينما حاصره ابن عباد ونزعه سلطانه ، والتجأ إليها كذلك القاسم بن حمود صاحب الجزيرة الخضراء حين استولى عليها ابن عباد [٢] .

وكان للرئيس جهور موقف خاص من أسطورة ظهور هشام المؤيد بالله وإعلانها على يد القاضى ابن عباد صاحب إشبيلية . ذلك أن ابن عباد ، حينما شعر بخطورة مطامع بنى حمود فى رياسة جنوبى الأندلس ، واتشاحهم بثوب الخلافة ، وحينما أرهقه يحيى بن على بن حمود ( المعتلى ) بغاراته المتوالية ، رأى أن يدحض دعاوى أولئك الحمّوديين ، فأعلن فى سنة ٤٢٦ هـ ، أن الخليفة هشام المؤيد ، حى لم يمت ، وأظهر بالفعل شخصاً يشبه هشاماً كل الشبه ، وبايعه بالخلافة ودعا الناس للدخول فى طاعته ، وبعث بذلك إلى رؤساء الأندلس ، فاستجاب بعضهم للدعوة ، وكان منهم عبد العزيز بن أبى عامر صاحب بلنسية ، ومجاهد العامرى صاحب دانية والجزائر الشرقية ، والوزير أبو الحزم بن جهور رئيس قرطبة . وعقدت البيعة فى قرطبة بالفعل لهشام المؤيد . والظاهر أن جهوراً لم يكن يؤمن حقاً بصحة هذه الدعوى ، ولكنه استجاب لها ، وأقرها لنفس البواعث التى حملت ابن عباد على انتحالها ، وهو العمل على دفع خطر الحموديين . ويقال إن جهوراً فوق ذلك ، قد اصطنع شهادات لتأييد صحتها . بيد أنه ندم على ذلك فيما بعد ، حينما طلب إليه ابن عباد أن يدخل فى طاعته ، وأعلن تبرؤه من ذلك الدعى [٣] .

---

(١) الذخيرة القسم الأول — المجلد الثانى ص ١١٦ و ١١٧ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٢١٣ و ٢٣٧ و ٢٤٠ .

(٣) البيان المغرب ج ٣ ص ١٩٠ و ١٩٨ و ٢١٠ .

وتوفى الرئيس أبو الحزم جهور بن محمد فى المحرم سنة ٤٣٥ هـ (١٠٤٤ م) وقرطبة رافلة فى حلل السلم والرخاء . فخلفه فى الرياسة ابنه أبو الوليد محمد ابن جهور ، فحاول فى البداية أن يقتفى سياسة أبيه ، وأقر الحكام وأرباب المراتب فى مناصبهم ، وكان من معاونيه فى ديوان السلطان المؤرخ الكبير أبو مروان بن حيان . حسبما يذكر لنا فى حديثه عن الدولة الجَهْورية ، وكان من محاسن الدولة الجهورية أيضاً ، أن وزر لها الكاتب والشاعر الكبير أبو الوليد بن زيدون . وكان فى بداية عهده بالخدمة قد وقع له حادث اصطدم فيه بأحد حكام قرطبة ، فقضى عليه بالسجن ، فاستغاث بأبى الوليد فى حياة والده أبى الحزم ، فشفع له وأقاله من عثرته . فلما ولى أبو الوليد الأمر بعد والده قرب إليه الشاعر ، وعهد إليه بالنظر على أهل الذمة لبعض الأمور العارضة . ثم رفع مكانته وضاعف جرايته ، وعهد إليه بالسفارة بينه وبين رؤساء الأندلس . والترسل إليهم . فلمع فى منصبه ، واشتهر ببارع رسائله ومحاوراته ، كما اشتهر بروائع نظمه . والظاهر أن ابن زيدون كان يحيا حياة مضطربة تثير من حوله الشبهات ، فهو من جهة قد هام بحب ولادة ابنة الخليفة الأموى السابق المستكفى ، وكانت قد ظهرت فى مجتمع قرطبة ببهوها الأدبى ، الذى يزينه جمالها وشعرها الرائق ، وأحدث هيامه بها وشعره المتيم فيها ، حول سيرته الوزارية نوعاً من الفضيحة الغرامية ، ومن جهة أخرى فانه يبدو أن خصوم ابن زيدون فى الحكومة وفى المجتمع ، قد استطاعوا أن يصوروه لدى بنى جهور ، رجلا ناقص الولاء يجيش بمشاريع لا تتفق مع أهدافهم ، وعلى أى حال فقد سخط الوزير أبو الوليد على وزيره الشاعر وألقاه إلى السجن . وأنفق ابن زيدون فى ظلمات السجن عاماً وبعض عام ، وهو يستعطف الوزير بقصائد ورسائل تذيب الجماد دون أن يتأثر بها . وفى النهاية حزم أمره على الفرار ، وفر من سجنه بمعاونة بعض أصدقائه الأوفياء ، وقصد إلى إشبيلية (سنة ٤٤١ هـ — ١٠٤٩ م) والتجأ إلى أميرها المعتضد بن عباد ، فولاه وزارته . وألقى إليه مقاليد الأمور ، حسبما نذكر بعد فى موضعه (١) .

---

(١) إعتاب الكتاب لابن الأبار (مخطوط الإسكوريال) لوحة ٥٩ و ٦١ . وراجع الذخيرة المجلد الأول من القسم الأول ص (٢٩٠ و ٢٩١ و ٣٥٧) حيث يورد أقوال ابن حيان فى علاقة ابن زيدون بدولة الجهاورة وهى أقوال غامضة لا نتضح منها حقيقة أدوار هذه العلاقة . ولم يشر ابن حيان من جهة أخرى إلى نكبة ابن زيدون التى ألقى بسببها إلى السجن ولا إلى فراره . ولكن الفتح يشير إلى ذلك صراحة فى القلائد (ص ٧١) وقد أورد ابن بسام كثيراً من قصائده التى وجهها فى سجنه إلى ابن جهور .

وكان ابن زيدون أيام تمتعه بثقة بنى جهور . قد أنشأ فى مديحهم عدة من غرر قصائده ، ومنها الأبيات الآتية :

لولا بنو جهور ما أشرقت بهم ... غيد السوالف فى أجيادها تلمع
قوم متى تحتفل فى وصف سؤددهم ... لا يأخذ الوصف إلا بعض ما يدع
أبو الوليد قد استوفى فى مناقبهم ... فللتفاريق منها فيه مجتمع
من مهذب أخلصته أوّليته ... كالسيف بالغ فى أخلاصه الصنع
إن السيوف إذا طاب جوهرها ... فى أول الطبع لم يعلق بها الطبع

واستمرت الأحوال على انتظامها حيناً ، ولكن أبا الوليد ما لبث أن تنكب عن سياسة أبيه ، فقدّم على الناس ولده عبد الملك ، وأخذ عليهم العهد له ، فأساء عبد الملك السيرة ، واستبد بالسلطة ، وأفسح المجال للأوغاد ، وأهمل الشئون ، وتسمى بذى السيادتين المنصور بالله ، الظافر بفضل الله ، وخطب له على المنابر ، وذلك خلافاً لما جرى عليه أبوه وجده من قبل، من الاعتصام بالحلم والتواضع ، والزهد فى مظاهر السلطان . وفى سنة ٤٤٠ هـ ، فوض عبد الملك النظر فى الأمور إلى وزير أبيه إبراهيم بن يحيى المعروف بابن السقاء ، فضبطها وأصلحها ، وعمل على تهدئة الأحوال ، وتوطيد الأمن والنظام ، واستمر ابن السقاء فى النظر مدة طويلة . وكان المعتضد ابن عباد أمير إشبيلية يشعر بأن استمرار هذا الوزير القوى على هذا النحو فى رياسة حكومة قرطبة ، يحول دون تحقيق مشاريعه فى الاستيلاء عليها ، فسعى لدى عبد الملك فى حق ابن السقاء، وحذره من أطماعه واستئثاره بالسلطة وأغراه بقتله ، وكان عبد الملك سيىء الرأى والتقدير ، فاستمع لتحريض ابن عباد ، وقتل وزيره فى كمين دبره (٤٥٥ هـ — ١٠٦٣ م)[١] .

وهنا بدأت عوامل الفساد تدب إلى جهاز الحكم ، وزاد فى سوء الحال ما حدث من التنافس بين عبد الملك وأخيه الأكبر عبد الرحمن . وكان أبو الوليد يؤثر ولده الأصغر عبد الملك بمحبته ، وكان عبد الرحمن من جانبه يدعى أنه أحق بالولاية من أخيه ، فوقع التنافس بين الأخوين ، وأخذ كل منهما يستميل طائفة من الجند ، ويؤلف الأحزاب لمناصرته ، فلما تفاقم الأمر ، وخشى أبو الوليد العواقب ، عمد

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٣٢ و ٢٥١ و ٢٥٦ ، وأعمال الأعلام ص ١٤٩ .
(٢) الذخيرة القسم الأول المجلد الثانى ص ١١٨ .

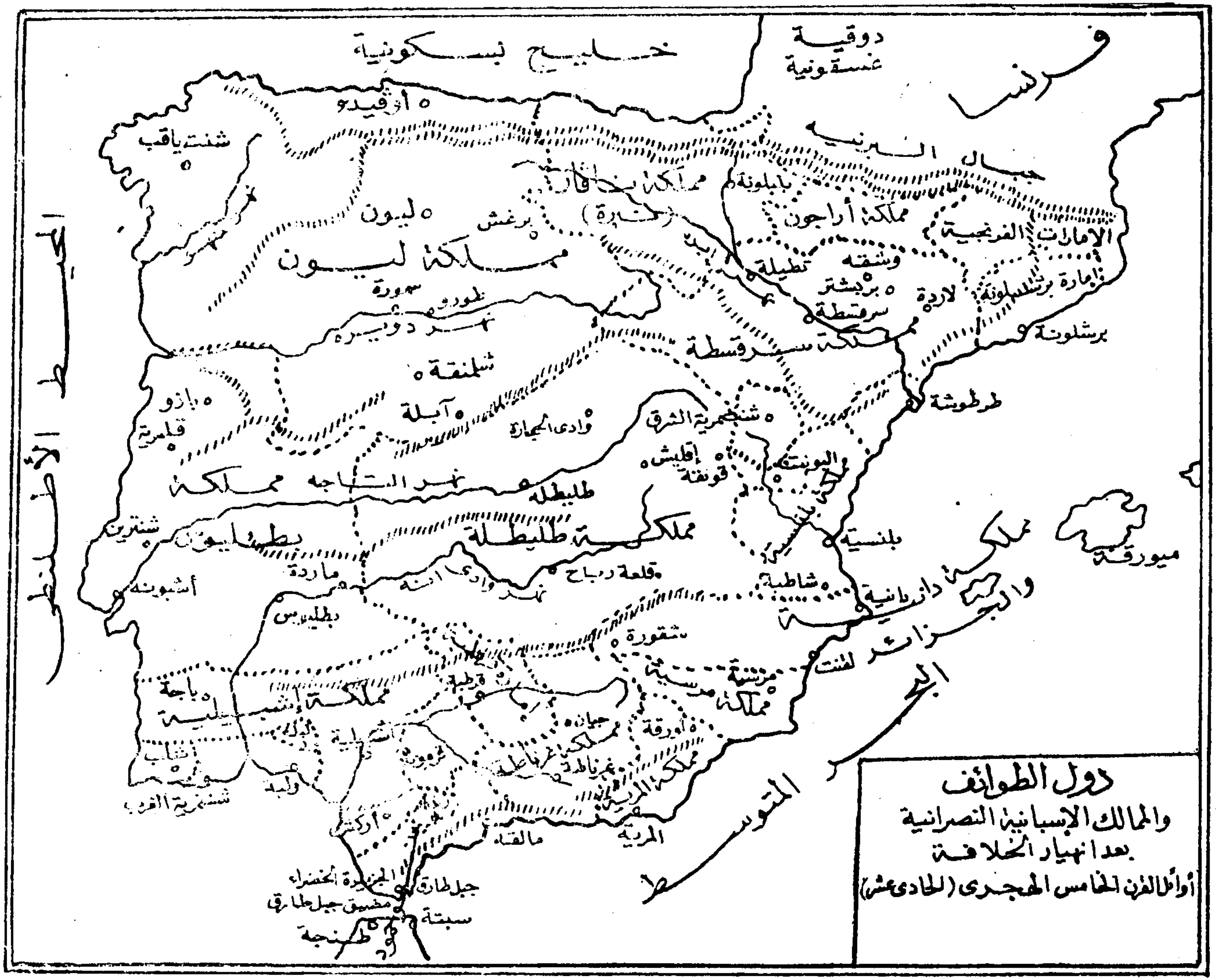

دول الطوائف
والممالك الإسبانية النصرانية
بعد انهيار الخلافة
أوائل القرن الخامس الهجري (الحادي عشر)
خليج بسكونية
دوقية غشقونية
فرنسا
جبال البرينيه
المحيط الأطلنطي
البحر المتوسط
شنت ياقب
أرقيدو
ليون
برغش
مملكة ليون
مملكة نبارة
(نبارة)
بنبلونة
مملكة أراجون
الإمارات الفرنجية
إمارة برشلونة
برشلونة
وشقه
بربشتر
لاردة
تطيلة
سرقسطة
مملكة سرقسطة
سمورة
نهر دويره
شلمنقة
آبلة
وادي الحجارة
شنتمرية الشرق
إقليش
قونقة
البونت
طرطوشة
بازو
قلمرية
نهر التاجه
مملكة بطليوس
طليطلة
مملكة طليطلة
شنترين
أشبونة
ماردة
بطليوس
قلعة رباح
نهر وادي آنة
بلنسية
شاطبة
مملكة بلنسية
دانية
مملكة دانية والجزائر
ميورقة
شقورة
مرسية
مملكة مرسية
لقنت
باجة
مملكة إشبيلية
جيان
أوريولة
مملكة غرناطة
غرناطة
مملكة المرية
المرية
شنتمرية الغرب
ولبة
أركش
مالقة
الجزيرة الخضراء
جبل طارق
مضيق جبل طارق
سبتة
طنجة

إلى تقسيم السلطة بين ولديه . فخص أكبرهما عبد الرحمن بالنظر فى أمر الجباية ، والإشراف على أهل الخدمة ، وفى التوقيع فى الصكوك السلطانية ، والدخل والخرج وجميع أبواب النفقات ؛ وخص عبد الملك بالنظر فى شئون الجند . والإشراف على أعطياتهم ، وتجريدهم فى البعوث وجميع ما يخصهم ، وارتضى الأخوان هذا الحل .

بيد أن عبد الملك لم يلبث أن غلب على أخيه عبد الرحمن ، وسجنه فى منزله واستبد بالأمر دونه ؛ وخلا الجو لعبد الملك ، وأطلق العنان لسلطانه وأهوائه ، واستولى صحبه من الأوغاد والسفلة ، على أزمة الحكم ، وبدأ الشعب القرطبى ينصرف عن آل جهور . كل ذلك والرئيس الشيخ أبو الوليد ملتزم داره لشلل أقعده . وكان عبد الملك يعتمد فى مشاريعه وتحقيق خططه، على مصادقة ابن عباد وتشجيعه ، وقد زاره فى إشبيلية ، فبالغ ابن عباد فى إكرامه والتودد إليه ، وكان عبد الملك يظن أنه يستطيع الاعتماد على صداقته ومحالفته ، ضد أطماع بنى ذى النون أصحاب طليطلة ، ومشاريعهم للاستيلاء على قرطبة ، ولم يكن يدور بخلده أن بنى عباد يضمرون ضده مثل هذه المشاريع .

وأخيراً تكشفت الأمور ، وخرج المأمون يحيى بن ذى النون فى قواته من طليطلة ، قاصداً غزو قرطبة ، واستولى فى طريقه على حصن المدوّر الواقع غربى قرطبة . وكان المعتضد بن عباد صاحب إشبيلية قد توفى سنة ٤٦١ هـ ، وخلفه ولده المعتمد ، فسار على سياسة أبيه من إبداء المودة والتحالف لبنى جهور . فلما شعر عبد الملك بالخطر الداهم ، استغاث بحليفه ابن عياد ، فبعث إليه المعتمد بالمدد من الفرسان تحت إمرة قائديه خلف بن نجاح ومحمد بن مرتين، فنزلا بالربض الشرقى من قرطبة . وأشرف ابن ذى النون بجنده على المدينة ، فألفاها قد استعدت لقتاله بقوات لاقبل له بها ، فارتد أدراجه محنقاً ، بعد قتال يسير . وكان قد وقع الاتصال أثناء ذلك بين قائدى جيش إشبيلية وبين بعض الناقمين من زعماء قرطبة . فى التخلص من بنى جهـــور ، والانضواء تحت ظل بنى عباد ؛ والظاهر أيضاً أن كانت لدى القائدين أوامر سرية بتدبير الخطة للاستيلاء على المدينة ؛ وعلى أى حال فإنه ما كاد ابن ذى النون يرتد بقواته ، حتى تظاهر القائدان بأنهما يزمعان العودة ، وسارا فى بعض قواتهما إلى وداع عبد الملك بباب المدينة ، وعندئذ

اقتحم العباديون الأبواب وملكوها ، ودخلوا المدينة واحتلوها ، وعاثوا فى أنحائها نهباً وهتكاً وسبياً ، وكان ذلك فى شعبان سنة ٤٦٢ هـ (١٠٧٠ م) . وأدرك عبد الملك مبلغ خديعته ، وأيقن أن النهاية قد حلت ، فطلب الأمان لنفسه وذويه ، فاعتقل وأخوه عبد الرحمن وسائر الأهل والولد ، وأرسلوا فى الحال إلى إشبيلية ، ثم اعتقل أبوهما الشيخ المريض المقعد أبو الوليد بن جهور ومن معه ، ونفى الجميع إلى جزيرة شلطيش ، الواقعة فى مصب نهر أراد تجاه ولبة ، وهناك توفى ابن جهور الشيخ لأربعين يوماً فقط من نكبته وسقوط دولته .

وهكذا انتهت دولة بنى جهور بقرطبة ، بعد أن لبثت أربعين عاماً . وكانت أول دولة تسقط من بين دول الطوائف الرئيسية . وكانت دولة نموذجية ، ولا سيما فى عهد مؤسسها الوزير أبى الحزم بن جهور . وكانت تتمتع بين دول الطوائف بمركز أدبى خاص ، وتتخذ فى أحيان كثيرة مركز الوسيط والحكم ، وتعمل بهيبتها وهيبة رئيسها الوزير المحنك ، على فض المنازعات وإقرار السلم بين الأمراء . ومن ذلك ما بذله أبو الحزم من المساعى المتكررة لحسم النزاع بين المعتضد ابن عباد والمظفر بن الأفطس ، حينما نشب القتال بينهما بشأن لبلة التى هاجمها ابن عباد ، واستغاث صاحبها ابن يحيى بصديقه المظفر ، وقد كاد الأمر بينهما يتطور إلى فتنة هوجاء لولا تدخل أبى الحزم ونصحه المتكرر[١] .

وندب المعتمد بن عباد ولده الفتى عباداً الملقب بالظافر وسراج الدولة لحكم قرطبة ، التى يتصل تاريخها من ذلك الحين بتاريخ مملكة إشبيلية .

وقد تناول ابن حيان ، وكان حسبما تقدم من وزراء عبد الملك بن جهور ، وشهد بنفسه سائر هذه الحوادث ، مأساة سقوط الدولة الجهورية ، فى كتاب خاص سماه «البطشة الكبرى» يمتاز بقوته وبلاغته[٢] .

ولما فشل مشروع المأمون بن ذى النون فى افتتاح قرطبة ، واستولت عليها

(١) أعمال الأعلام ص ١٥١ : والبيان المغرب ج ٣ ص ٢١٠ . وراجع فى أخبار دولة بنى جهور : الذخيرة القسم الأول المجلد الثانى ص ١١٤ – ١٢٦ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٨٥ – ١٨٧ و ٢٠٩ و ٢١٠ و ٢٥٩ – ٢٦١ ، وأعمال الأعلام ص ١٤٥ – ١٥١ ، والحلة السيراء ( ليدن ) ص ١٦٨ – ١٧٠ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٥٩ .

(٢) الذخيرة القسم الأول المجلد الثانى ص ١٢٩ ، وأعمال الأعلام ص ١٥١ .

جنود ابن عباد ، وتولى حكمها ولده سراج الدولة ، وجه ابن حيان إلى المعتمد رسالة تهنئة يقول فيها : «لو أن فتحاً اعتلى عن تهنئة ممنوحة بارتفاع قدر ، أو جلالة صنع ، أو فرط انتقام مستأصل ، أو تنزل حكم من الرحمن فاصل ، لكان فتحه هذا لك ، على عدو أسود الكيد ، مظاهر البغى على الحسد ، طالما استحييته لا من خجل ، وتنكبته لا عن وهل ، فأبى رأيه الفائل ، وجده العاثر ، وحينه المجلوب ، وضربه المكبوب ، إلا اكتساب العار ، ومماتنة محصد الأقدار» . ثم يحمل ابن حيان بعد ذلك على المأمون بن ذى النون ، وينوه بتوفيق ابن عباد ويمنه فى هزيمته ورد مكيدته ، وذلك فى عبارات ملتهبة لاذعة (١) .

وإنه لما يلفت النظر فى ذلك حقاً أن ابن حيان ، يهدى مؤلفه التاريخى العظيم فى مقدمته إلى المأمون بن ذى النون ، ويصفه «بالأمير المؤثل الإمارة ذى المجدين ، الكريم الطرفين » (٢) . وقد انتهز ابن بسام هذه الفرصة للحملة على ابن حيان ، والتنويه بمواقفه المتناقضة فى تاريخه لملوك الطوائف . وفى رأيه أن هذا التاريخ ، بالرغم مما لقيه لدى بعض أولئك الملوك من ترحاب وتقدير ، وما أجزلوه عنه من صلات ، فإن ابن حيان «قد أخطأ التوفيق ، وما أصاب» ، إذ جاءت معظم أقواله كالسهام المرسلة ، من قدح مغرض فى الأحساب والأعراض ، وطمس للمعالم والأنوار ، وأنه قد ارتكب بذلك إثماً وظلماً ، وإن كان قد سلم من لسانه «أمير بلده ، وأكبر أهل زمانه» أبو الحزم بن جهور ، وابنه من بعده ، فقد جرى لهما «بأيمن طائر ، ولم يعرض لذكرهما إلا بخير» (٣) .

---

(١) تراجع هذه الرسالة فى الذخيرة ، القسم الأول المجلد الثانى ص ٨٩ — ٩١ .

(٢) الذخيرة ، القسم الأول المجلد الثانى ص ٨٨ .

(٣) الذخيرة ، القسم الأول المجلد الثانى ص ٨٤ و ٨٥ و ١١٣ و ١١٤ .

# الفصل الثانى

## بنو عباد ومملكة إشبيلية

### القسم الأول

ظهور القاضى ابن عباد فى إشبيلية . بنو عباد وأصلهم ونشأتهم . القاضى اسماعيل بن عباد ينتزع الرياسة فى إشبيلية . بنو حمود وسلطانهم على إشبيلية . صد المستعلى بن حمود عن دخولها . تقديم القاضى ابن عباد عليها . حكمه وأهباته . ولده أبو القاسم محمد . الخلاف بين أبى القاسم بن عباد وابن الأفطس والحرب بينهما . البرزالى صاحب قرمونة . تعليق ابن حيان على عصابات البربر . استيلاء المعتلى ابن حمود على قرمونة . إعلان القاسم بن عباد ظهور هشام المؤيد . قصة هشام والغموض حول مصيره . استرداد ابن عباد لقرمونة ومصرع المعتلى . استيلاؤه عليها وعلى إستجه . الحرب بين ابن عباد والبربر. هزيمة جند ابن عباد ومصرع ولده اسماعيل . وفاة أبى القاسم محمد بن عباد ، وقيام ولده المعتضد مكانه . المعتضد بن عباد حسبما يصوره ابن حيان . حملة ابن بسام عليه . قسوته وصرامته . إمارات الطوائف فى غربى الأندلس . إمارة لبلة ومهاجمة المعتضد لها . تدخل ابن الأفطس والحرب بينه وبين المعتضد . استيلاء المعتضد على لبلة . لبلة وأسوارها الأندلسية . إمارة ولبة وجزيرة شلطيش . استيلاء المعتضد عليها . استيلاؤه على شنتمرية الغرب . استيلاؤه على باجة . إمارة شلب واستيلاؤه عليها . الإمارات البربرية . خطة ابن عباد فى الاستيلاء عليها . كين المعتضد للأمراء البربر وإهلاكهم . استيلاؤه على أركش ومورور . استيلاؤه على رندة ثم قرمونة . استيلاؤه على الجزيرة الخضراء. اتساع مملكة إشبيلية . ضغط ملك قشتالة على الطوائف . المعتضد وزملاؤه يؤدون له الجزية . خروج اسماعيل بن المعتضد على أبيه . اعتقاله وإعدامه . رسالة المعتضد عن الحادث لرؤساء الأندلس. قطع المعتضد الدعوة لهشام المؤيد . تهكم ابن حيان على قصة هشام . شخصية المعتضد وخلاله وسياسته . قسوته المروعة . قصة الرؤوس المحنطة . قصور بنى عباد . صفة المعتضد . شغفه بالنساء . أدبه وشاعريته . وزراؤه وكتابه الأعلام . ابن زيدون وابن عبد البر والبزليانى . وزيره ششفند .

كانت مملكة إشبيلية أو غربى الأندلس ، من حيث الرقعة الإقليمية ، والزعامة السياسية ، والقوة العسكرية ، أهم دول الطوائف وأعظمها شأناً ، وفضلا عن هذا التفوق الإقليمى والسياسى ، فقد سطعت مملكة إشبيلية بين دول الطوائف زهاء نصف قرن ، بفخامة بلاطها ، وروعة رسومها ، وكان للأدب والشعر بها دولة زاهرة ، طبعت هذه الحقبة القصيرة من تاريخها ، بطابعها الخالد .

وإذا كنا سوف نخص مملكة إشبيلية بالحديث فيما يلى ، فإن هذا الحديث سوف يكون مشعباً متعدد النواحى ، وسوف يمتد إلى إمارات ودول أخرى ، ليس فقط داخل منطقة الغرب أو غربى الأندلس ، التى كانت تسيطر عليها مملكة إشبيلية ، ولكن إلى مناطق وممالك رئيسية أخرى .

— ١ —

بدأت جذور مملكة إشبيلية مبكرة ، منذ انهيار الدولة العامرية فى نهاية المائة الرابعة . وفى الوقت الذى كانت تضطرم فيه عاصمة الخلافة قرطبة ، بالفتن والانقلابات المتعاقبة ، كان قاضى إشبيلية أبو الوليد اسماعيل بن عباد ، يعمل فى هدوء وصمت ، على جمع خيوط الرياسة فى يده ، وعلى الاستئثار بحكم المدينة العظيمة ، التى تركت كباقى القواعد الأخرى لمصيرها .

كان اسماعيل بن عباد يتولى خطة القضاء بإشبيلية منذ أيام المنصور بن أبى عامر ، وكان فضلا عما يمتاز به من العلم والحكمة والورع ، ينتمى إلى بيت من أعظم البيوتات العربية الأندلسية . فلما وقعت الفتنة وسادت الفوضى كل ناحية من نواحى الأندلس ، استمر إسماعيل فى خطة القضاء ، وأخذ فى نفس الوقت يعمل على حفظ النظام ، وضبط الأمور فى المدينة . وكان على بن حمود حينما دخل قرطبة وتولى الحكم بها سنة ٤٠٧ هـ ، تولى أخوه القاسم حكم إشبيلية ، وبقى ابن عباد على حاله فى منصب القضاء . ولما قتل على بن حمود ، تولى أخوه القاسم مكانه فى الخلافة فى قرطبة ، وخلا الجو ثانية لابن عباد . وكان فى خلال الفترة التى كانت فيها خلافة الحموديين تتردد بين قرطبة وإشبيلية ، وما تخللها من الأحداث المتوالية ، يعمل على توطيد مركزه وتدعيم رياسته ، ويعمل بالأخص على حماية المدينة من أطماع البربر وعيثهم ، ويجمع حوله كلمة الزعماء حتى لا تغدو إشبيلية كما غدت قرطبة مسرحاً للفتنة ، ومرتعاً لأطماع البربر . وقد وفق فى خطته كما سنرى أعظم توفيق .

ويجدر بنا قبل أن نتحدث عن عهد بنى عباد أمراء إشبيلية ، أن نذكر كلمة عن أصلهم ، وأوليتهم .

كان بنو عباد ، وفقاً لأقوال علماء النسب ، ينتمون إلى لخم . ومؤسس دولتهم ومنشىء مجدهم ، هو القاضى أبو القاسم محمد بن اسماعيل بن قريش بن عباد

ابن عمرو بن أسلم بن عمرو بن عِطاف بن نعيم . وعطاف هو جدهم الداخل إلى الأندلس فى طالعة بَلْج بن بشر القشيرى . وأصله من أهل حمص الشام، لخمى النسب صريحاً . ولما دخل إلى الأندلس نزل بقرية «يومين» بقرب بلدة طشانة Tocina من أعمال إشبيلية ، وهى واقعة على ضفة نهر الوادى الكبير . ونحن نعرف أن جند الشام قد نزلوا لأول الفتح باشبيلية أو حمص كما سموها يومئذ ، نظراً لما بينها وبين حمص الشام من شبه قوى فى الطبيعة والإقليم . وفى رواية أخرى أن بنى عباد هم من ولد النعمان بن المنذر بن ماء السماء ، وبذلك كانوا يفخرون ويمدحون ، وهذا ما يؤيده قول شاعرهم ابن اللبانة :

من بنى المنذر بن ما السماء وهو انتساب زاد فى فخره بنو عباد
نبتة لم تلد سواها المعـالى والمعـالى قليلة الأولاد

وتألق نجم بنى عباد ، فى أعقاب الفتنة ، على يد جدهم أبى الوليد اسماعيل قاضى إشبيلية ، وكان قد تقلب قبل انهيار الخلافة فى عدة من الوظائف الكبرى ، فولى الشرطة لهشام المؤيد ، ثم ولى خطة الإمامة والخطابة بالجامع الأعظم ، ثم ولى قضاء إشبيلية . ولما اضطرمت الفتنة ، وتجهمت الظروف ، استطاع بحزمه ودهائه ، ووجاهته وبذله ، أن يستغل ظروف الفتنة على أكمل وجه ، وأن يجمع فى يده أزمة الرياسة والحكم شيئاً فشيئاً ، معتمداً فى ذلك على عراقة بيته ، ورفيع مكانته ، وواسع ثرائه ، ومعاونة الزعماء والأكابر الذين استمالهم إلى جانبه ، بلينه وجوده ولباقته ؛ ويصفه ابن حيان بأنه «رجل الغرب (أى غرب الأندلس) قاطبة، المتصل الرياسة فى الجماعة والفتنة» ، وينوه بوفور عقله وسبوغ علمه ، وركانته ودهائه وبعد نظره ، ويقول لنا إنه كان «أيسر من بالأندلس وقته ، ينفق من ماله وغلاته ، لم يجمع درهماً قط من مال السلطان ولا خدمه» .

ولما شعر القاضى ابن عباد بأنه حقق بغيته ، من توطيد قدمه فى الرياسة ، وأثقلته السنون ، وكف بصره أوكاد ، ندب ولده أبا القاسم محمد ليشغل مكانه خطة القضاء . وكان سلطان بنى حمود ما يزال ثمة يتردد بين قرطبة وإشبيلية ، ويخفق علم خلافتهم هنا وهناك . وقد رأينا أن القاسم بن حمود قد تولى الخلافة فى قرطبة عقب مقتل أخيه على (أواخر سنة ٤٠٨ هـ) . وفى أوائل سنة ٤١٢ هـ ، ثار عليه ابن أخيه يحيى بن على ، وزحف بقواته على قرطبة ، فغادرها القاسم فى نفر من صحبه ، وقصد إلى إشبيلية ، وهناك تسمى بالخلافة وتلقب بالمستعلى .

بيد أنه ما لبث أن استدعى ثانية إلى قرطبة ، على أثر خلع ابن أخيه يحيى ، وهنالك جددت له البيعة (ذو الحجة سنة ٤١٣ هـ) . وكان المستعلى حينما استقر بإشبيلية قد اصطنع أبا القاسم بن عباد بعد موت أبيه اسماعيل ، وقربه إليه ، وأقره فى ولاية القضاء . وكان أبو القاسم يشعر من جانبه أن استمرار سلطان الحمّوديين ، يهدد رياستهم وينذر بالقضاء عليها . فلما استدعى المستعلى ليتولى الخلافة ثانية فى قرطبة ، اجتمع رأى أهل إشبيلية على ثلاثة من الزعماء هم القاضى اسماعيل بن عباد ، والفقيه أبو عبد الله الزبيدى ، والوزير أبو محمد عبد الله بن مريم ، يتولون حكمها وضبط الشئون فيها ، فكانوا يحكمون بالنهار فى القصر ؛ وتنفذ الكتب تحت أختامهم الثلاثة ، ومع ذلك فقد كان القاضى ابن عباد ، بمركزه ووفرة ثرائه ووجاهته ، أقواهم سلطاناً ، وأعلاهم يدا . فعكف على العمل على توطيد سلطانه ، وعلى إضعاف سلطة البربر فى المدينة . ولما عاد المستعلى بعد قليل لاجئاً مع فلوله إلى إشبيلية ، بعد أن خلعه القرطبيون ، وطلب أن تخلى له ولأصحابه الدور ، اتفق زعماء المدينة ، وعلى رأسهم أبو القاسم على إغلاق أبوابها ، وصد المستعلى وصحبه البربر عن الدخول إليها ، وأخرج من كان بها من ولد المستعلى وأهله، ومن زعماء البربر وأكابرهم . واتفق أهل إشبيلية ، اتقاء لعدوان المستعلى وأشياعه من البربر ، على أن يؤدوا له قدراً من المال ، وينصرف عنهم ، وتكون له الخطبة والدعوة ، ولا يدخل بلدهم، ولكن يقدم عليهم من يحكمهم ويفصل بينهم، فقدم عليهم القاضى أبا القاسم بن عباد ، ورضى به الناس ، وبذا انفرد ابن عباد أيضاً بالرياسة الشرعية ، وقد كان منفرداً بها من الناحية الفعلية ؛ وكان ذلك فى أواخر سنة ٤١٤هـ (١٠٢٣ م) وبذلك انتهت رياسة البربر فى إشبيلية ، كما انتهت من قبل فى قرطبة[١] .

---

(١) راجع فى أصل بنى عباد وظهورهم : ابن الأبار فى الحلة السيراء (مخطوط الإسكوريال رقم ١٦٥٤ ) لوحة ٦٥ أ ، ونقله دوزى فى كتابه : Scriptorum Arabum loci de Abbaditis (الكتابات العربية المتعلقة ببنى عباد) ، والمسمى أيضاً Historia Abbadidarum (تاريخ بنى عباد) (ليدن سنة ١٨٤٦–١٨٦٣ فى ثلاثة مجلدات) ج ١ ص ٢٢٠ و ٢٢١ . وراجع ا لسيراء (القاهرة) ج ٢ ص ٣٤ — ٣٨ . وراجع أيضاً جمهرة أنساب العرب لابن حزم ( القاهره) ص ٣٩٨، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٩٤ — ١٩٦ و ٣١٤ و ٣١٥ ، وأعمال الأعلام لابن الخطيب ( طبع بيروت ) ص١٥٢ و١٥٣ .

ونود أن نلاحظ بهذه المناسبة أن العلامة رينهارت دوزى قد عمد إلى تمزيق كتاب «الحلة السيراء» ، فاستخرج منه تراجم عديدة نشرها فى كتابه Hist. Abbadidarum (تاريخ بنى عباد) ، ونشر بعضها فى كتـــابه : Recherches ، ثم نشر معظم ما تبقّى بعـــد ذلك من التراجم فى مجلد —

ونظم ذو الوزارتين أبو القاسم بن عباد حكم المدينة ، بعد أن غدا قاضيها وحاكمها السياسى معاً ، معتمداً فى ذلك على تأييد زعماء البيوتات العربية ومعاونتهم ، وعلى تأييد الشعب والتفافه من حوله . وكان بالرغم من استئثاره بالسلطة ، يبدى فى أحكامه وتصرفاته كثيراً من اللين والرفق ، وكان يعمل فى هدوء وأناة على التخلص من سائر منافسيه ، والقضاء عليهم واحداً بعد الآخر . وعمد فى نفس الوقت إلى شراء العبيد ، وحشد الرجال ، واقتناء السلاح ، ولم يكن يخفى عليه أن الحمّوديين ، وشيعتهم من البربر يتربصون به ، ويطمحون إلى امتلاك إشبيلية . وكان بنو حمود من جانبهم يخشون بأسه وأطماعه على مملكتهم ، ومن جهة أخرى فإن أطماع ابن عباد لم تكن تقف عند حكم إشبيلية وحدها ، بل كانت تتجه إلى التوسع ، ولاسيما فى ناحية الغرب ، التى كانت بطبيعتها الإقليمية تتبع إشبيلية ، وكانت من جهة أخرى خالية من المنافسين الأقوياء .

وكان أول صدام عسكرى خطير اشترك فيه أبو القاسم بن عباد ، قتاله مع بنى الأفطس أصحاب بَطَلْيوس ، وهم جيرانه من الشمال . ومما يجدر ذكره أن ابن عباد مع خصومته للبربر ، كان يعتمد على محالفة محمد بن عبد الله البرزالى البربرى صاحب قرمونة ، أولا لأن قرمونة كانت حصن إشبيلية من الشرق ، وثانياً لأن البرزالى كان يخشى سطوة بنى حمود وأطماعهم فى المدينة ، ومن ثم فقد كانت تجمعه مع ابن عباد مصلحة جوهرية مشتركة ؛ ولما وقعت الخصومة بين ابن عباد ، والمنصور بن الأفطس صاحب بطليوس ، بشأن الاستيلاء على مدينة باجة ، التى وقع الخلاف بين أهلها على الرياسة ، بعث ابن عباد لقتاله ولده اسماعيل

---

= بعنوان : Exttaits de l'Ouvrage intitulé Al-Hollato, S'Syiara. « نبذ من الكتاب المسمى الحلة السيراء » (ليدن ١٨٤٧ — ١٨٥١ ) باعتباره يضم تراجم «الإسبانيين» أى الأندلسيين وليس المغاربة . ولم يكتف دوزى بذلك ، بل عمد إلى تمزيق كثير من التراجم ، فنشر أقساماً منها فى .Hist. Abbad وكذلك فى Recherches ، ونشر باقيها فى المجموعة المشار إليها . وفى اعتقادنا أن ذلك لم يكن عملا سليماً من الناحية العلمية ، إذ ترتب عليه تمزيق الكتاب وبعثرة محتوياته ومن ثم فقد اضطررنا فى الطبعة الأولى أن نرجع أحياناً إلى الأصل المخطوط ، وأحياناً إلى أجزائه المطبوعة المبعثرة هنا وهناك .

هذا ومما يدعو إلى الغبطة أن كتاب الحلة السيراء قد صدر أخيراً فى طبعة كاملة محققة فى مجلدين كبيرين (القاهرة سنة ١٩٦٤) بعناية الدكتور حسين مؤنس مدير معهد الدراسات الإسلامية بمدريد . ومن ثم فقد رأينا أن نرد المراجع التى أثبتناها مخطوطة فى الطبعة الأولى ، خلال الكتاب ، إلى هذه النسخة الجديدة المطبوعة .

على رأس نخبة من جنده ، واشترك معه البرزالى بقواته ، وحاصرت القوات المشتركة مدينة باجة التى احتلتها قوات ابن الأفطس ، وقتلت وأسرت معظمهم ، وكان بين الأسرى ولد ابن الأفطس ، فاعتقل لدى البرزالى حيناً بقرمونة ثم أطلق سراحه ، وكذلك كان منهم أخ لابن طيفور صاحب ميرتُلة وقد صلب بإشبيلية (٤٢١ هـ) .

ثم عادت الحرب فاضطرمت بين الفريقين بعد ذلك بأربعة أعوام . وكان ابن الأفطس وهو من الأصول البربرية ، يعتمد أيضاً فى جيشه على فريق من البربر ؛ وسارت قوات إشبيلية بقيادة إسماعيل بن عباد شمالا إلى أراضى ابن الأفطس وتوغلت فيها ، ولكنه حين العودة فاجأته قوات كثيفة لابن الأفطس ، ومزقت عسكره ، ففر مع فلوله إلى مدينة أشبونة ، وامتنع بها حيناً ، وكانت هزيمة ساحقة لبنى عباد (٤٢٥ هـ — ١٠٣٤ م) .

وكان محمد بن عبد الله البرزالى صاحب قرمونة ، من أكبر محرضى ابن عباد ومعاونيه فى تلك المعارك . ويصفه ابن حيان «بقطب رحى الفتنة» وينوه بفتكه وعيثه وقبح آثاره فى تلك المنطقة ، وأنه كان من خصوم الخلافة ، لا يروم قيامها بقرطبة بأى وجه «رسوخاً فى الخارجية ودفعاً لأمر الله» ، وأنه كان يقطع السبل على قرطبة ، ويضيق عليها الحصار ، حتى اضطر وزراء قرطبة إلى الاستعانة ضده بفريق من بربربنى برزال بشذونة ، واعتضدوا بهم مدة . واعتضد ابن الأفطس بطائفة أخرى منهم . ويقول ابن حيان معلقاً على تلك الحالة فى تسرب البربر إلى سائر الجهات : «فكان فى كل بلد جملة منها ، سالت عن أهل البلاد سيول بها ، وخلطوا الشر بين رؤسائها ، واستخرجوا بذلك ما أظهروه من دنانيرهم وخلعهم ، وجاحوا ذات أيديهم وعلموهم كيف يوكل الكتف ، فطال العجب عندنا بقرطبة وغيرها من صعاليك ، قليل عددهم ، منقطع مددهم ، اقتسموا قواعد الأرض فى وقت معاً ، مضربين بين ملوكها ، راتعين فى كلاها ، باقرين على فلذتها ، حلوا محل الملح فى الطعام بيأسهم الشديد ، وقاموا مقام الفولاذ فى الحديد ، فلا يقتل الأعداء إلا بهم ، ولا تعمر الأرض إلا فى جوارهم ، فطائفة عند ابن الأفطس تقاوم أصحابها قبل ابن عباد ، وطائفة عندنا بقرطبة تحز أهلها عن الأضداد ، فسبحان الذى أظهرهم ، ومكن فى الأرض لهم ، إلى وقت وميعاد»(١) .

(١) نقلها دوزى عن الذخيرة : راجع : Historia Abbadidarum V. I. p. 221

وكان من أشهر أعمال القاضى ابن عباد فى تلك الفترة ، إعلانه لظهور هشام المؤيد ، وإقامته خليفة بإشبيلية ، وكان يحيى بن حمود الملقب بالمعتلى ، قد استقر فى مالقة حسبما أسلفنا ، وجعلها مقر ملكه ، وبسط حكمه على معظم قواعد الأندلس الغربية الجنوبية . وكان يخشى مشاريع ابن عباد ، ويرى فيه خصمه الحقيقى . فلما توثقت عرى التحالف بين البرزالى صاحب قرمونة وابن عباد ، أخذ يتوجس شراً ، ومن ثم فقد انتهز أول فرصة ، وسار إلى قَرْمونة ، وانتزعها من يد صاحبها محمد بن عبد الله البرزالى ، فلجأ محمد إلى إشبيلية واستغاث بحليفه ابن عباد . ولما شعر ابن عباد بخطورة الموقف ، وأخذ يحيى المعتلى يرهقه بغاراته المتوالية على أراضى إشبيلية ، ويردد النذير بوجوب استردادها باعتبارها من أملاك الحمّوديين ، أعلن ذات يوم أن هشاماً المؤيد قد ظهر ، وأنه كان مختفياً ولم يمت (أواخر ٤٢٦ هـ — ١٠٣٥ م) ، وذلك لكى يدحض دعوى الحموديين فى الخلافة بظهور الخليفة الشرعى . وقد ساقت إلينا التواريخ المعاصرة تفاصيل هذه القصة أو بالحرى هذه الأسطورة . ونحن نعرف مما تقدم أن سليمان المستعين حينما دخل قصر قرطبة فى أواخر سنة ٤٠٣ هـ ، قبض على هشام المؤيد وأخفاه . وأن الرواية تختلف بعد ذلك فى مصيره ، فيقال إنه قتل بعد ذلك بيد محمد بن سليمان ، ويقال من جهة أخرى ، إنه فر من محبسه ، وعاش حيناً فى ألمرية حتى توفى . وعلى أى حال فقد استمر هذا الغموض الذى يحيط بمصير هشام مدة طويلة ، ومختلف الروايات والقصص تنسج من حوله ، يذيعها بنو عمه المروانية ، وفتيان القصر وجواريه السابقين ، ومؤداها أن هشاماً لم يمت ، وأنه مختف وسوف يظهر فى الوقت المناسب . وعلى أساس هذه الروايات ، أظهر ابن عباد شخصاً زعم أنه هشام المؤيد ، وجمع حوله نفراً من خدم القصر السابقين ، فأيدوا روايته وشهدوا بصدق زعمه ، ويقال إن هذا الشخص كان بالفعل يشبه هشاماً شبهاً كبيراً . وكان هذا الرجل يعمل مؤذناً بمسجد فى قرية من قرى إشبيلية ، فاستقبل عند خروجه من المسجد ، وألبس الثياب الخلافية ، وقبل ابن عباد وولده وصحبه الأرض بين يديه ، وخوطب بألقاب الخلافة ، ثم أخذ إلى القصر ، حيث أقبل الناس أفواجاً لبيعته ، وهو يخاطبهم من وراء حجاب ، ويخبرهم بأنه قد عهد بحجابته إلى إسماعيل بن عباد . ويقول لنا ابن القطان إن هذا الدعى كان يسمى خلف الحصرى ، وإنه كان يشبه هشاماً ، وإنه حينما أتى به إلى إشبيلية ، نودى فى

الناس ، أن اشكروا الله على ما أنعم عليكم به ، فهذا مولاكم أمير المؤمنين هشام قد صرفه الله عليكم ، وجعل الخلافة ببلدكم لمكانه فيكم ، ونقلها من قرطبة إليكم ، فاشكروا الله على ذلك (١) .

وذاعت قصة ظهور هشام فى سائر الأنحاء ، وبعث ابن عباد بكتبه إلى سائر قواعد الأندلس ، يطلب من رؤسائها الاعتراف والبيعة لهشام المؤيد . فلم يعترف بها سوى بعض الفتيان العامرين السابقين ، واعترف بها الوزير أبو الحزم بن جهور لنفس البواعث ، التى حملت ابن عباد على اختراعها ، وهو العمل على دفع دعاوى الحموديين ومطامعهم حسبما سبقت الإشارة إليه .

ويندد الفيلسوف ابن حزم بقصة هذا الخليفة المزعوم ، ويصفها بأنها «أخلوقة لم يقع فى الدهر مثلها» . ثم يقول إنها لفضيحة لم يقع فى العالم إلى يومنا مثلها ، أن يقوم أربعة رجال فى مسافة ثلاثة أيام فى مثلها ، كلهم يتسمى بإمرة أمير المؤمنين ، ويخطب لهم فى زمن واحد ، وهم : خلف الحصرى بإشبيلية على أنه هشام بن الحكم ، ومحمد بن القاسم بن حمود بالجزيرة ، ومحمد بن إدريس بن على بن حمود بمالقة ، وإدريس بن يحيى بن حمود ببشتر (٢) .

وعلى إثر ذلك استعد ابن عباد لاسترداد قَرْمونة من يد يحيى المعتلى ، فسير بعض قواته مع ولده إسماعيل ، ومعها طائفة من البربر المتحالفين معه . فطوق قسم منها المدينة ليلا ، وكمن القسم الثانى فى أماكن مستترة . وكان يحيى المعتلى داخل المدينة ، وهو عاكف على لهوه وشرابه ، فلما وقف على الخبر ، خرج مع قواته وهو ثمل ، واشتبك مع المهاجمين فى معركة حامية ، وعندئذ ظهرت قوات ابن عباد من مكمنها وأطبقت عليه ، فمزقت قواته وقتل خلال المعركة ، واحتز رأسه وحمل إلى القاضى ابن عباد (المحرم سنة ٤٢٧ هـ) ورد ابن عباد قرمونة إلى صاحبها السابق ، حليفه محمد بن عبد الله البرزالى .

بيد أنه لم تمض على ذلك أعوام قلائل حتى ساء التفاهم بين ابن عباد والبرزالى . وكان ابن عباد يرى أن قرمونة ، وهى حصن إشبيلية من الشرق يجب أن تكون فى حوزته ، فسير ولده إسماعيل فى حملة قوية إلى قرمونة فاستولى عليها . ثم استولى بعد ذلك على مدينة إستجة الواقعة فى شرقها وكذلك على مدينة أشونة الواقعة

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٩٩ و ٢٠٠ ، وأعمال الأعلام ص ١٥٤ .
(٢) نقط العروس لابن حزم (المنشور بمجلة كلية الآداب ديسمبر ١٩٥١) ص ٨٣ و ٨٤ .

جنوبى إستجة ، فاستغاث البرزالى بزملائه من الزعماء البربر ، وهرع إلى نصرته إدريس المتأيد صاحب مالقة ، وباديس بن حبوس صاحب غرناطة ، وكان كلاهما يتوجس من مشاريع ابن عباد وأطماعه ، ووقعت بين البربر وجند إشبيلية عدة معارك عنيفة ، واستطاع البربر أن يخترقوا أراضى إشبيلية حتى قلعة جابر (١) حصنها من الشرق ، وانتهى الأمر بأن هزم الإشبيليون ، وقتل أميرهم إسماعيل ابن عباد ، واحتز رأسه وحمل إلى باديس ، وذلك أسوة بما حدث ليحيى المعتلى ، وكان ذلك فى أوائل المحرم سنة ٤٣١ هـ (أواخر سنة ١٠٣٩ م) (٢) .

فكان لتلك النكبة أسوأ وقع فى نفس القاضى ابن عباد ، فندب ولده الثانى عباداً لتدبير الشئون ، وقيادة الجيش ، فأبدى قوة وحزماً ، ولبث زهاء عامين مضطلعاً بمهمته ، حتى توفى أبوه فى نهاية جمادى الأولى سنة ٤٣٣هـ (يناير ١٠٤٢م).

وكان القاضى ابن عباد عالماً أديباً ، وشاعراً مطبوعاً ، ومن قوله فى الفخر :

ولابد يوماً أن أسود على الورى ... ولو رد عمرو للزمان وعامر
فما المجد إلا فى ضلوعى كامن ... ولا الجود إلا فى يمينى ثابر
بجيش العلى بين جنبى جايل ... وبحر الندى أسير كفى زاخر

ويمكننا أن نعتبر القاضى محمد بن إسماعيل بن عباد ، مؤسس دولة بنى عباد الحقيقى ، ومنشىء ملكهم ورسوم مملكتهم ، وعلى يده اتخذ سلطان بنى عباد ألوانه الملوكية المدعمة بالقوى العسكرية ، وإن لم يصل بعد إلى غايته من الروعة والضخامة ، وأصبح ملوكية وراثية راسخة ، بعد أن كان يتخذ فقط صورة الزعامة ، والرياسة القبلية .

— ٢ —

فولى الأمر من بعده ولده أبوعمرو عباد بن محمد بن إسماعيل ، وتلقب أولا بفخر الدولة ، ثم بالمعتضد بالله ، وكان يوم ولايته فتى فى السادسة والعشرين ، وكان مولده فى صفر سنة ٤٠٧ هـ (١٠١٦ م) . وقد أجمعت الروايات المعاصرة والقريبة من العصر ، على الإشادة بخلال المعتضد الباهرة ، وصفاته المثيرة معاً . ويصفه ابن حيان ، وهو معاصره ، ومتتبع لأحداث حياته وحروبه ، بأنه «زعيم جماعة أمراء الأندلس فى وقته ، أسد الملوك ، وشهاب الفتنة ، وداحض العار ، ومدرك الأوتار ،

---

(١) هى بالإسبانية Alcalà de Guadaira ، وما تزال أطلالها قائمة حتى اليوم .
(٢) جذوة المقتبس ص ٢٩ و ٣٠ .

وذو الأنباء البديعة ، والجرائر الشنيعة ، والوقائع المثيرة ، والهمم العلية ، والسطوة الأبية» . وابن حيان أميل إلى تزكية المعتضد منه إلى الحكم عليه ، حسبما يبدو ذلك من قوله «فلقد حمل عليه على ممر الأيام فى باب فرط القسوة ، وتجاوز الحدود والابلاغ فى المثلة ، والأخذ بالظنة ، والإحتقار للذمة ، حكايات شنيعة لم يبد فى أكثرها للعالم بصدقها دليل يقوم عليها ، فالقول ينساق فى ذكرها ، ومهما برىء من مغيبها فلم يبرأ من فظاعة السطوة ، وشدة القسوة ، وسوء الاتهام على الطاعة ، سجايا من جبلّته لم يحاش فيهن ذو رحم واشجة» . بيد أن ابن بسام، وقد عاش قريباً من عصر المعتضد ، يبدو أشد قسوة فى الحكم عليه إذ يصفه فيما يلى : «قطب رحى الفتنة ، ومنتهى غاية المحنة ، من رجل لم يثبت له قائم ولا حصيد ، ولا سلم عليه قريب ولا بعيد ، جبار أبرم الأمر وهو متناقض ، وأسد فرس الطلى وهو رابض ، متهور تتحاماه الدهاة ، وجبان لا تأمنه الكماة ، متعسف اهتدى ، ومنبت قطع فما أبقى ، ثار والناس حرب ، وكل شيء عليه ألب ، فكفى أقرانه وهم غير واحد ، وضبط شأنه بين قائم وقاعد ، حتى طالت يده ، واتسع بلده ، وكثر عديده وعدده ، حربه سم لا يبطىء ، وسهم لا يخطىء ، وسلمه شر غير مأمون ، ومتاع إلى أدنى حين» (١) .

وافتتح المعتضد عهده بأمور كشفت عن صرامته وعنف وسائله ، منها قتل حبيب وزير أبيه ، ومنها اضطهاد الزعماء القدماء ونكبتهم ، وقد كان فى مقدمة هؤلاء الفقيه أبو عبد الله الزبيدى ، وأبو محمد عبد الله بن مريم زميلا جده القاضى ابن عباد فى الرياسة ، وذلك حتى لا يقوم لأحد من ذوى العصبيات القوية قائمة . ثم وضع خطته الشاملة للاستيلاء على قواعد الغرب من أمرائها الأصاغر ، حتى يخلص الغرب كله من الوادى الكبير إلى المحيط لسلطان بنى عباد .

## إمارات غربى الأندلس

وكانت أولى هذه القواعد مدينة لبلة الواقعة غربى إشبيلية ، وشمال شرق ثغر ولبة ، وكان قد ثار بها أيام الفتنة ، أبو العباس أحمد بن يحيى اليحصى المعروف باللبلى ، أحد كبرائها ، وضبطها ، وبايعه أهلها (سنة ٤١٤ هـ) وبسط سلطانه

---

(١) أورده ابن بسام فى ترجمة المعتضد فى الذخيرة، وأورده دوزى فى Historia Abbadidarum, V. I. p. 241 & 242 وأورده ابن الأبار فى الحلة السيراء (القاهرة) ج ٢ ص ٤٠ و ٤١ .

على ماحولها من الأراضى ومنها «جبل العيون»(١)، واستمر فى حكم دولته الصغيرة زهاء عشرين عاماً ، ثم توفى سنة ٤٣٤ هـ ، وأوصى بالحكم من بعده لأخيه أبى عبد الله محمد بن يحيى اليحصى الملقب بعز الدولة، فمضى فى حكمها على ما كان عليه من النظام والرخاء والأمن، حتى بدأ المعتضد بن عباد يرهقه بمطالبه وغاراته، ثم كشف المعتضد القناع ، وهاجم لَبلة بقواته . فاستغاث ابن يحيى بصديقه المظفر ابن الأفطس صاحب بطليوس ، فلبى نداءه وسار إلى نجدته بقواته ، وحرك فى نفس الوقت بعض حلفائه البربر إلى مهاجمة إشـبيلية . ولما وقف الوزير أبو الوليد بن جهور على تلك الحركة أهمته ، وتوجس من عواقبها ، فأرسل إلى الزعماء المتخاصمين رسله ينصحهم بوجوب التريث ، والتمسك بأهداب التفاهم والسلم ، ويحذرهم من عواقب الفتنة ، فلم يصغ إليه أحد منهم ، وبادر المعتضد ، فى الوقت الذى سارت فيه قوات ابن الأفطس إلى إنجاد ابن يحيى ، فأرسل قواته لمهاجمة أراضى ابن الأفطس ، فعاثت فيها وخربتها ، ثم سار المعتضد بنفسه إلى لبلة ، ووقعت بين الفريقين معارك شديدة ، هزم فيها ابن الأفطس أولا ، ثم دارت الدائرة بعد ذلك على المعتضد ، وقتل عدد كبير من جنده (٤٣٩ هـ — ١٠٤٧ م) . وسارت بعض طوائف البربر فى نفس الوقت ، وعاثت فى شرق إشبيلية ، وقطعت الطرق ، وفتكت بالسابلة ، وساءت الأحوال فى المنطقة كلها .

والظاهر أن ابن يحيى ، رأى فى النهاية أن يتفاهم مع المعتضد بعد الذى نزل ببلاده من الخراب والعيث، فعقد معه الصلح . ولكن ذلك لم يرض المظفر بن الأفطس ، فأبى أن يرد إلى ابن يحيى ودائعه وأمواله ، التى أودعها عنده حينما هاجمه المعتضد ، ثم أرسل قواته لمهاجمة لبلة ، فاستغاث ابن يحيى بالمعتضد فأرسل إليه الأمداد ، واستمرت المعارك بين الفريقين حيناً .

ثم عادت الحرب فاضطرمت بين المعتضد وابن الأفطس فى سنة ٤٤٢ هـ (١٠٥٠ م) وعاث المعتضد فى أراضى ابن الأفطس ، وافتتح منها عدة حصون ضمها إلى مملكته ، وأتلف الزروع وخرب كثيراً من القرى ، وقتل الكثير من جند ابن الأفطس ، ونضبت موارده ، فانتهى إلى الاعتصام بحاضرته بطليوس وذلك على ما نفصله فيما بعد فى أخبار مملكة بطليوس . وأخيراً تدخل الوزير

---

(١) وهى بالإسبانية Gibraléon

ابن جهور بين الفريقين ، واستمر فى مساعيه الحثيثة حتى عقد الصلح بين المعتضد وابن الأفطس فى ربيع الأول سنة ٤٤٣ هـ (١٠٥١ م) .

والتفت المعتضد بعد ذلك إلى لبلة فضيق الخناق عليها ، وفى النهاية اضطر أميرها عز الدولة أن يتنازل عن حكمها لابن أخيه أبى نصر فتح بن خلف اليحصبى الملقب بناصر الدولة ، على أن يعقد السلم مع المعتضد ، وأن يؤدى له جزية سنوية . وانتقل بأهله وأمواله إلى قرطبة ، ليعيش هناك فى كنف الوزير أبى الوليد بن جهور وذلك فى أواخر سنة ٤٤٣ هـ .

على أن المعتضد لم يقنع بهذا الحل ، ولم يمض سوى القليل حتى نقض السلم المعقود ، وبعث قواته فهاجمت لبلة ، واضطر ناصر الدولة أن يدافع عن نفسه ، واستمرت الحرب بينهما حيناً ، حتى خربت بسائط لبلة وقتل كثير من جندها ، وسبى كثير من أهلها ، وذلك بالرغم مما بذله ناصر الدولة من جهود يائسة للدفاع عن ملكه ، وما قام به من غارات متعددة على أراضى إشبيلية . وفى النهاية اضطر ناصر الدولة أن ينزل على حكم القوة القاهرة ، وأن يسلم لبلة إلى خصمه القوى ، وأن يغادرها إلى قرطبة ، ليعيش هناك إلى جانب عمه . وكان سقوط لبلة فى يد المعتضد بن عباد سنة ٤٤٥ هـ (١٠٥٣ م) (١) .

هذا وربما كانت لبلة هى الوحيدة بين مدن الأندلس المسلمة، التى ما زالت تحتفظ حتى اليوم بأسوارها الأندلسية كاملة . وقد زرناها وشهدنا أسوارها العتيقة الضخمة التى تحيط بها من كل ناحية إلا من ناحيتها الشرقية على النهر المسمى «النهر الأحمر» Rio Tinto . وتمثل هذه الأسوار، التى جددها الموحدون فى القرن الثانى عشر ، منعة لبلة الأندلسية وموقعها الحصين فوق الربوة العالية التى تحتلها ، وهو منظر رائع حقاً لا يدانيه فى روعته سوى أسوار مدينة آبلة الرومانية العربية . وثمة خاصة أخرى تمتاز بها لبلة ، وهى أنه لم يطرأ على خططها الأندلسية القديمة كثير من التغيير ، فهى ما زالت تحتفظ داخل الأسوار بطابعها الأندلسى المحض .

وعنى المعتضد فى الوقت نفسه بالاستيلاء على إمارتين صغيرتين أخريين من

---

(١) راجع ما نقله ابن بسام فى الذخيرة (عن ابن حيان) فى دوزى : Historia Abbadidarum V. I. p. 244—252 ، والبيان المغرب ج ٣ ص ٢٠٩ و ٢١٠ و ٢١١ و ٢٣٤ و ٢٤٠ و ٢٩٩ و ٣٠٠ و ٣٠١ ، وأعمال الأعلام ص ١٥٦ ، وابن حيان (نقله ابن بسام فى الذخيرة القسم الأول المجلد الأول ص ٣٦٠ .

إمارات ولاية الغرب ، أولهما إمارة ولبة وجزيرة شلطيش ، الواقعة جنوب غربى لبلة ، وإمارة شنتمرية الغرب فى غربها .

فأما إمارة ولبة وجزيرة شلطيش الواقعة تجاهها فى المحيط فى مصب نهر أوديل فقد آلت فى أعقاب الفتنة إلى أبى زيد عبد العزيز البكرى — كبير زعمائها — وبويع بها فى سنة ٤٠٣ هـ ، واستمر مضطلعاً بحكمها مدة طويلة ، والسلام يرفرف على أرجائها . فلما قوى سلطان بنى عباد بإشبيلية ، واتجهت أطماعهم إلى الاستيلاء على إمارات الغرب ، أخذ المعتضد يضيق الخناق على ثغر ولبة ، ويرهقه بغاراته ، ويقطع السبل إليه . فساءت أحوال الإمارة الصغيرة ، ولم يجد البكرى سبيلا إلا مفاوضة ابن عباد فى عقد الصلح على أن يسلم إليه ثغر ولبة ، ويكتفى هو بجزيرة شلطيش ، فوافق ابن عباد على ذلك ، ولكنه ما لبث أن أخذ فى مضايقة البكرى فى جزيرته ، وفرض عليه نوعاً من الحصار . وعندئذ اضطر البكرى أن يفاوضه مرة أخرى فى التنازل عن جزيرة شلطيش ، وانتهى إلى أن باعه أملاكه وسفنه وأثقاله بعشرة آلاف مثقال من الذهب ، وغادر الجزيرة ، بأهله وأمواله ، إلى قرطبة ليعيش هناك فى كنف ابن جهور أسوة بزميله ابن يحيى أمير لبلة (٤٤٣ هـ — ١٠٥١ م ) . وفى رواية أخرى أن البكرى سار إلى إشبيلية وعاش بها فى كنف ابن عباد إلى أن توفى بها فى سنة ٤٥٠ هـ . بيد أننا نؤثر الرواية الأولى وهى رواية ابن حيان ، معاصر هذه الحوادث ومدونها بطريق العلم والتحقيق [١] .

هذا وقد اختفت جزيرة شلطيش من مصب نهر أوديل ولم يبق لها اليوم وجود .

وأما إمارة شنتمرية الغرب الصغيرة الواقعة على المحيط فى جنوبى البرتغال ، فقد بويع بها أبو عبد الله محمد بن سعيد بن هارون سنة ٤٣٣ هـ خلفاً لأبيه سعيد ابن هارون ، ولبث فى حكمها بضعة أعوام إلى أن بدأ المعتضد فى مضايقته ومحاربته . وألفى ابن هارون أن لا قبل له بمقاومة هذا الأمير الباغى ، فنزل له عن ثغره ، وخرج بأهله وصحبه إلى إشبيلية (٤٤٣ هـ — ١٠٥١ م) وهناك توفى بعد أشهر قلائل . وقيل إن خروج ابن هارون من شنتمرية كان فى سنة ٤٤٩ هـ [٢] . وتقوم اليوم مدينة فارو البرتغالية فوق موقع شنتمرية الأندلسية .

ولم يبق من إمارات الغرب بعد ذلك سوى إمارة شلب ، وكانت فى الواقع

---

(١) ابن حيان ، ونقله دوزى فى : Hist. Abbadidarum V. I. p. 252—253

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٠٥ و ٢٩٨ ، ٢٩٩ .

أهم إمارات الغرب بعد إشبيلية، وكانت تشمل فضلا عن كورة شِلْب[١]، وهى الواقعة فى قاصية جنوبى البرتغال، كورة باجة. وكان الحاجب عيسى بن محمد قد تغلب فى أعقاب الفتنة على هذه المنطقة النائية، وأقام بها دولة، واستمر مسيطراً عليها حتى توفى فى سنة ٤٣٢ هـ. فخلفه فى حكمها ولده محمد بن عيسى الملقب بعميد الدولة، واضطر اتقاء لعدوان ابن عباد أن ينزل له عند مدينة باجة وأن يكتفى بحكم شلب. وكان ابن عباد قد استولى قبل ذلك على ميرتلة قاعدتها الجنوبية من يد صاحبها ابن طيفور فى سنة ٤٣٦ هـ، وأصبحت باجة تحت رحمته. واستمر عميد الدولة فى حكم شلب حتى توفى سنة ٤٤٠ هـ. وعندئذ ثار بها القاضى عيسى بن أبى بكر بن مُزَيْن فبايعه أهلها، وبسط حكمه عليها، وتلقب بالمظفر واستمر حكمه خمسة أعوام، وابن عباد دائب على مهاجمته وشن الغارات عليه، وهو يرده ما استطاع، حتى قتل فى أواخر سنة ٤٤٥ هـ، مدافعاً عن مدينته. فخلفه ولده محمد بن عيسى وتلقب بالناصر، وحكم حتى توفى سنة ٤٥٠ هـ، فخلفه ولده عيسى وتلقب بالمظفر، وسار فى الحكم على نهج أبيه وجده، من ضبط الأمور، وإقامة العدل. بيد أن المعتضد ما لبث أن كرر حملاته على شلب، ثم ضرب الحصار حولها، وقطع عنها سائر الأمداد، حتى اشتد الأمر على أهلها، وانتهى بأن اقتحمها بعد أن هدم أسوارها، ودخل القصر وقتل عيسى المظفر، وذلك فى شوال سنة ٤٥٥ هـ (١٠٦٣ م)، وبذلك انتهت دولة بنى مُزَيْن[٢].

## الإمارات البربرية

وهكذا استطاع المعتضد بن عباد، فى نحو عشرين عاماً، أن يقضى على سائر إمارات الغرب الصغيرة، وأن يبسط سلطانه عليها، وأصبحت مملكة بنى عباد، تشمل سائر الأراضى الممتدة من شاطىء نهر الوادى الكبير غرباً حتى المحيط الأطلنطى، هذا عدا رقعة تقع شرقى الوادى الكبير. على أن المعتضد لم يقنع بهذا التوسع الكبير فى اتجاه الغرب، وإنما كان يضع الخطط فى نفس الوقت للقضاء على الإمارات البربرية الصغيرة القائمة فى شرقى الوادى الكبير فى جنوبى الأندلس، حتى يقضى على خططهم وأطماعهم، وحتى يؤمن جناحه الدفاعى فى تلك الناحية، ويغدو حراً فى العمل والحركة فى اتجاه الشمال والشرق.

---

(١) وهى بالبرتغالية Silves

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١٩٢ و٢٩٦ — ٢٩٨. والحلة السيراء لابن الأبار ص ١٨٦.

وكانت هذه الإمارات البربرية التي استولى عليها وضبطها الزعماء البربر ، المتخلفون من عصبة المنصور بن أبي عامر ، فضلا عن مملكة بنى حمود فى مالقة والجزيرة ، ومملكة باديس بن حبوس فى غرناطة ، تنحصر فى أربعة وهى إمارة بنى يفرن فى رندة ، وإمارة بنى دمَّر فى مورور ، وإمارة بنى خزرون فى شذونة وأركش ، وإمارة بنى برزال فى قرمونة . وكان بنو عباد فى بداية أمرهم ، يخطبون ود هؤلاء الزعماء البربر ، ويعتمدون أحياناً على محالفتهم كما حدث عندما تحالف القاضى ابن عباد مع أمير قرمونة على قتال بنى الأفطس ، ثم على قتال يحيي بن حمود فيما بعد . ثم كان بين أبي نور هلال بن أبي قرة اليفرنى صاحب رندة ، وبين المعتضد بن عباد صداقة ومودة وثيقة العرى ، وكان المعتضد يبعث إليه ، وإلى باقى الأمراء البربر ، بالهدايا والصلات الجزيلة ، وكل ذلك لكى يكسب حيادهم ومودتهم ، وهو فى أعماق نفسه يضمر لهم غاية الكيد والشر ، ويتحين الفرص للإيقاع بهم .

وفى سنة ٤٤٥ هـ ، دبر المعتضد كمينه لأولئك الأمراء ، فدعاهم إلى زيارته بإشبيلية ، فلبى الدعوة ثلاثة منهم هم أبو نور بن أبي قرة صاحب رندة ، ومحمد بن نوح الدمَّرى صاحب مورور ، وعبدون بن خزرون صاحب أركش ، وقد ساروا إلى إشبيلية فى أحسن زى ، وأفخم مظهر ، ومعهم نحو مائتى فارس من رؤساء قبائلهم . فاستقبلهم المعتضد أحسن استقبال ، وأنزل الأمراء بقصر من قصوره ، وفى اليوم الثالث استدعاهم إلى مجلسه ، وأخذ يؤنبهم على تقصيرهم فى محاربة أعدائه ، ولما هموا بالرد أمر بالقبض عليهم ، وتكبيلهم بالأغلال ، ووضعهم فى السجن فرادى ، واستولى على سائر متاعهم وخيلهم وسلاحهم ؛ وبعد مدة من اعتقالهم ، أمر بادخالهم فى الحمام ، وبناء منافذه ، وإضرام النار فيه حتى هلكوا ؛ ويقال إنه أطلق ابن أبي قرة ، وهلك صاحباه فقط فى الحمام ، وهما محمد بن نوح ، وعبدون بن خزرون . وكان لغدر ابن عباد بالزعماء البربر على هذا النحو ، أسوأ وقع فى القبائل البربرية ، وفى إذكاء سخطها على ابن عباد وتوجسها منه ومن مشاريعه .

واستمر المعتضد بعد ذلك فى سعيه للاستيلاء على أملاك أولئك الأمراء ؛ فأما أركش فقد حل فى حكمها محمد بن خزرون مكان أخيه عبدون ، فابتنى

ابن عباد قلعة حصينة على مقربة منها ، وأخذ رجاله يغيرون منها على أركش ويرهقون أهلها ، فسار بنو يرنيان ، وهو اسم قبيلة البربر النازلة بها ، إلى كبيرهم باديس فى غرناطة ، واتفقوا معه على أن يسلموه أركش على أن يفسح لهم مقاماً فى مملكته ينزلون به ، وخرجوا من أركش بأموالهم ومتاعهم وحريمهم ، وسلموها إلى جند باديس ، فلما بعدوا عنها بمسافة نحو عشرين ميلا ، تعرضت لهم جند ابن عباد ووقع القتال بينهم وبينه ، ودافع البربر عن أنفسهم دفاعاً شديداً ، حتى أبيد أكثرهم ، وقتل زعيمهم محمد بن خزرون ، وقتل قائد باديس الذى كان معهم ، وملك ابن عباد أركش وشذونة وسائر هذه المنطقة ، وكان ذلك فى أواخر سنة ٤٥٨ هـ (١٠٦٦ م)[١] .

وأما مورور أو مورون ، وهى منزل بنى دمَّر ، فإنه بعد أن هلك أميرها محمد بن نوح فى سنة ٤٤٥ هـ ، أو على قول آخر فى سنة ٤٤٩ هـ ، فى حبس ابن عباد ، خلفه ولده مناد بن محمد بن نوح الملقب بعماد الدولة ، وضبط مورور وحسنت سيرته ، وقصد إليه البربر من إشبيلية ومن إستجة وغيرهما ، فكثر جمعه ، هــذا والمعتضد يتربص الفرصة للإيقاع به ، ويرسل جنده للإغارة عليه ، وانتساف زروعه ، وحرق قراه ، وأخيراً حاصرت جند ابن عباد مورور حصاراً شديداً ، وضيقت عليها المسالك ، حتى اضطر عماد الدولة أن يذعن إلى التسليم ، على أن يعيش فى إشبيلية ، فى كنف المعتمد وتحت حمايته ، فأجابه المعتضد إلى طلبه ، وسلم إليه المدينة (٤٥٨ هـ) وقصد إلى إشبيلية بأهله وماله ، وعاش بها حتى توفى فى سنة ٤٦٨ هـ[٢] .

وأما رندة ، وهى أهم هذه الإمارات الجنوبية وأمنعها ، فكانت منزل بنى يفرن . ولما وقع أميرها أبو نور هلال بن أبى قرة اليفرنى فى اعتقال المعتضد سنة ٤٤٥ هـ ، قام ولده باديس مكانه فى رندة ، ولكنه كان فاجراً سفاكاً ، فسطا على الأموال والأعراض ، وعاث رجاله فى المدينة سبياً ونهباً ، ولم يعف عن الاعتداء على أقرب الناس إليه . فلما أفرج عن أبيه ، عاد إلى رندة ، وقتل ولده الفاسق (٤٤٩ هـ) ، ولكنه لم يعش بعده سوى أشهر قلائل وتوفى فى نفس العام ، فخلفه ولده أبو نصر فتوح ، وبويع له فى رندة ، وفى سائر بلاد ريُّه ، وكان

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٩٤ .
(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٩٥ و ٢٩٦ .

محسناً عادلا ، ولكنه كان شغوفاً بالشراب ، مخلداً إلى الراحة ، فدس عليه المعتضد رجلا من أقرب صحبه يدعى ابن يعقوب ، فهجم عليه فى أصحابه ذات يوم ، وهو يصيح بشعار ابن عباد ، فألقى أبو نصر نفسه من أعلى القصبة فمات ، ولم يبد أهل المدينة أية مقاومة ، وخلصت رندة وأعمالها على هذا النحو ، إلى المعتضد ، وذلك فى سنة ٤٥٧ هـ (١٠٦٥ م) (١) .

وأما قَرْمونة فكانت حسبما تقدم فى يد بنى برزال . وتقع قرمونة على مقربة من شمالى شرقى إشبيلية ، وتعتبر لمنعتها الفائقة حصن إشبيلية من الشرق ، وما يزال يقوم بها حتى اليوم ، بابها الغربى المواجه لطريق إشبيلية ، والمسمى حتى اليوم باسمه الأندلسى باب إشبيلية ، وهو يعتبر بعقده الشاهق وواجهته العظيمة ، من أمنع الأبواب الأندلسية الباقية . وكان أمير قرمونة أيام القاضى ابن عباد ، محمد بن عبد الله البرزالى ، الذى سبق أن أشرنا إلى قصة تحالفه مع ابن عباد ضد بنى الأفطس وضد يحيى بن حمود . واستمر فى حكم قرمونة وأعمالها مثل إستجة ومرشانة حتى توفى سنة ٤٣٤ هـ ، فخلفه ولده عزيز الملقب بالمستظهر ، وانتظمت الأحوال وعم السلم والرخاء فى عهده ، إلى أن بدأ المعتضد فى مضايقته وغزو أراضيه . ولم تزل الحرب بينهما بضعة أعوام حتى خربت البلاد ، وفنى كثير من البربر ، واضطر المستظهر أن يذعن إلى التسليم ، فخرج من قرمونة وسلمها إلى ابن عباد ، وذلك فى سنة ٤٥٩ هـ (١٠٦٧ م) ، وتوفى بعد قليل فى إشبيلية (٢) .

هذا وسوف نعود إلى تناول هذه الإمارات البربرية فى فصل خاص بها .

وكان المعتضد قد استولى قبل ذلك على الجزيرة الخضراء . وكان أميرها القاسم بن محمد بن حمود ، قد خلف أباه فى حكمها فى سنة ٤٤٠ هـ ، وكان المعتضد يسعى إلى القضاء على سلطان الحموديين وخلافتهم . ومن جهة أخرى فقد كان يهمه الاستيلاء على الجزيرة ، وهى باب الأندلس من الجنوب ، فبعث قواته إليها فطوقتها من البر والبحر ، وضيقت عليها الحصار ، حتى اضطر القاسم إلى طلب الأمان والتسليم إلى قائد المعتضد عبد الله بن سلام ، فأجابه إلى مطلبه . وخرج

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٠٨ و ٢١٢ و ٣١٣ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٣١٢ .

القاسم بأهله وأمواله فى مركب أعده له ابن سلام ، وسار إلى ألمرية حيث التجأ إلى أميرها المعتصم بن صمادح ، وعاش بها حتى توفى . وكان استيلاء ابن عباد على الجزيرة الخضراء فى سنة ٤٤٦ هـ (١٠٥٤ م) (١) .

وهكذا أضحت مملكة إشبيلية أو مملكة بنى عباد تضم من أراضى الأندلس القديمة رقعة شاسعة تشمل المثلث الجنوبى من شبه الجزيرة ، وأرض الفرنتيرة شمالاً حتى شواطىء الوادى الكبير ، ثم تمتد بعد ذلك من عند منحنى الوادى الكبير ، غرباً حتى جنوبى البرتغال وشاطىء المحيط الأطلنطى ، وبذلك أضحت أعظم ممالك الطوائف ، وأغناها من حيث الموارد الطبيعية ، وأقواها من حيث الطاقة الحربية .

ولم يكن يغشى هذه المكانة التى بلغتها إشبيلية من الضخامة والقوة والغنى ، سوى ناحية قاتمة واحدة ، هى موقفها من ملك قشتالة فرناندو الأول (٢) . ذلك أن هذا الملك القوى كان يطمح إلى أن يبسط سيادته على اسبانيا كلها ، وكان يرى فى ممالك الطوائف ، وما يسودها من الخلاف والتفرق ، فرائس هينة . ففى سنة ١٠٦٢ م (٤٤٤ هـ) ، خرج من قشتالة بجيش كبير من الفرسان والرماة ، وغزا مملكة طليطلة ، وعاث فيها وخرب سهولها وزورعها ، حتى اضطر ملكها المأمون ابن ذى النون ، أن يطلب الصلح ، وأن يتعهد بدفع الجزية . وفى العام التالى ، سنة ١٠٦٣ م (٤٥٥ هـ) عاد فغزا أراضى مملكتى بطليوس وإشبيلية ، واضطر المعتضد بن عباد ، أن يحذو حذو المأمون ، فى طلب الصلح والتعهد بدفع الجزية ، وقصد المعتضد بنفسه إلى معسكر ملك قشتالة ، وقدم إليه عهوده شخصياً ، وطلب إليه ملك قشتالة بهذه المناسبة أن يسلمه رفات القديسة «خوستا» شهيدة إشبيلية ، فوعده بتحقيق رغبته . ولما توفى فرناندو بعد ذلك بثلاثة أعوام وخلفه ولده سانشو (شانجه) فى حكم مملكة جليقية ، كان المعتضد يؤدى إليه الجزية أسوة بأبيه ، واستمر فى تأديتها حتى وفاته (٢) .

— ٣ —

وحدثت خلال هذه الفترة التى قضاها المعتضد بن عباد فى افتتاح الإمارات

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٤٢ و ٢٤٣ .

(٢) ويسمى فى الرواية العربية فرذلند أو فرانده .

(٣) راجع : R. Menendez Pidal : La Espana del Cid, p. 135 & 140

الغربية ، والإمارات البربرية ، عدة حوادث داخلية هامة ، كان فى مقدمتها بطش المعتضد بولده اسماعيل .

وقد ساق إلينا ابن حيان قصة هذه المأساة، وكان معاصراً لها، متتبعاً لحوادثها، فى خبر طويل ، خلاصته أنه فى سنة ٤٥٠ هـ ، تواترت الأنباء فى قرطبة بأن المعتضد قد دبر نزول قواته بمدينة الزهراء ضاحية قرطبة الغربية تمهيداً لافتتاحها، وندب ولده وولى عهده إسماعيل الملقب بالمنصور للقيام بهذه المهمة . ولكن إسماعيل لم يشأ أن يقوم بهذه المهمة، لأنه وفقاً لبعض الروايات كان يحقد على أبيه ويستوحش منه لأسباب خاصة ، أو لأنه وفقاً لرواية أخرى كان يرى أن مهاجمة قرطبة على هذا النحو مغامرة خطيرة يرجح فشلها، ولاسيما لما كان بين آل جهور سادة قرطبة ، وبين باديس أمير غرناطة من محالفة وثيقة العرى . ومن ثم فقد راجع إسماعيل أباه وحذره من العواقب ، فأغلظ له أبوه فى القول ، وألزمه المسير، وأنذره بالقتل إذا نكل، فعندئذ ثارت نفس إسماعيل، وعول على الفرار مع بعض خواصه . ويقال إن الذى شجعه على ذلك وزير أبيه وكاتبه ، أبوعبد الله محمد بن أحمد البزليانى ، حينما شكا إليه ما يلقاه من غلظة والده وقسوته ، فحسن له العقوق والعصيان ، والسير إلى أطراف المملكة ، حيث ينفرد بنفسه ، وعندئذ دبر إسماعيل أمره ، وانتهز فرصة غياب أبيه إلى مكان متنزهه فى حصن الزاهر ، فى الضفة الأخرى من النهر ، فحزم قدراً كبيراً من المال والذخائر والمتاع ، وأخذ أمه وحرمه ، وخرج من إشبيلية تحت جنح الليل ، ومعه الوزير البزليانى ، وثلة من نحو ثلاثين فارساً ، وسار فى طريق الجزيرة الخضراء ؛ وعلم أبوه بالخبر بعد وقت ، فبادر باخراج عدة من فرسانه فى أثره ، وبعث ينذر قواد الحصون . وكان إسماعيل قد وصل خلال ذلك إلى قلعة من قلاع كورة شذونة، وطلب إلى حاكمها ابن أبى حصاد ، أن يجيره ، فاستقبله وأنزله بالقلعة هو ومن معه ، وبادر فكتب إلى المعتضد بحصول إسماعيل فى يده ، وأنه نادم على ما فعل ، ورجاه فى العفو عنه ، فسر المعتضد ، واستجاب إسماعيل لدعوة أبيه إليه بالعودة ، ودخل إشبيلية بسائر ماله ومتاعه ، فاعتقله أبوه فى بعض الدور ، واسترد المال والمتاع ، وعجل بإعدام الوزير البزليانى لفرط حنقه عليه ، وقتل معه نفراً من خواص إسماعيل ، فلم يشك إسماعيل عندئذ فى مصيره . ودبر مع بعض الموكلين به مؤامرة لدخول القصر والفتك بأبيه والجلوس مكانه، واستطاع بالفعل أن يدخل

القصر ليلا مع بعض أعوانه ، ولكنه سقط مرة أخرى فى يد أبيه الساهر الحذر . وعندئذ قرر المعتضد قتل ولده ، وقتله بنفسه ، وأخفى جثته ، فلم يقف أحد على أثره ، وعذب شركاءه أشنع عذاب ، وقطع أطرافهم ، ثم أعدمهم ، وأعدم كذلك نفراً من حرمه ونسائه ، حتى قطع دابر كل من كانت له بولده علاقة أو صلة ، وكانت مأساة مروعة ، وكان لها فى قواعد الأندلس أعمق صدى(١) .

وقد أورد لنا ابن بسام فى الذخيرة صورة كتاب أمر المعتضد بكتابته عن المأساة إلى رؤساء الأندلس يصف فيه أطوار الحادث ويبرر تصرفه فى إزهاق ولده «الخائن الغادر» حسبما يصفه . وقام بإنشاء هذه الرسالة ابن عبد البر كاتب المعتضد ، وذلك ارتجالا ، بين يدى المعتضد ، وبمحضر من الوزراء والكتاب ، فجاءت قطعة من البلاغة الرفيعة ، وإليك بعض ما ورد فيها :

«إن الغوى اللعين ، العاق الشاق ، إسماعيل ابنى بالولاد ، لا بالوداد ، ونجلى بالمناسب لا بالمذاهب ، كنت قد ملت بهواى إليه ، وقدمته على من هو أسنى منه ، وحبك الشيء يعمى ويصم ، والهوا يطمس عين الرائى ، إذ يلم ، فآثرته بأرفع الأسماء والأحوال ، ووسعت عليه فى خطيرات الذخائر والأموال ، وأخضعت له أكابر رقاب الجند ووجوه الرجال ، ودربته فى مباشرة الحروب ، وأجريته على مقارعة الخطوب ، ولم يكن مما أحسبه أنى إنما أشحذ على نفسى منه الشفرة ، وأوفد بالتدريب والتخريج تحت حصى الجمرة ، وما كنت خصصته بالإيثار ، واستعملته بالمكافحة والقرار ، إلا لجزالة كنت أتوسمها فيه ، كانت عينى بها قريرة ، وشهامة كنت أتوهمها فيه كانت نفسى بها مسرورة ، فإذا الجزالة جهالة ، والشهامة شرة وكهامة ، وقد تفتن الآباء بالأبناء ، وينطوى عنهم ماينطوون عليه من الأسواء ، مع أن الآراء قد تنشأ وتحدث ، والنفوس قد تطيب وتخبث ، بقرين يصلح أو يفسد ، وخليط يغوى أو يرشد ، كما أن داء العرق قد يعدى ، كذلك قرين السوء قد يردى ، ومن اتخذ الغاوى خديناً ، عاد غاوياً ظنيناً ، ومن يكن الشيطان له قريناً ، فساء قريناً» .

ويصف الكتاب بعد ذلك أدوار المؤامرة التى دبرها إسماعيل منذ فراره وعوده ، وعفو والده عنه ، ويقول «فإذا به كالحية لا تغنى مداراتها ، والعقرب لا تسالم

---

(١) راجع رواية ابن حيان فى دوزى Historia Abbadidarum, V. I. P. 256 — 259 وكذلك البيان المغرب ج ٣ ص ٢٤٤ و ٢٤٨ و ٢٤٩ .

شبابها ، وكأنه قد استصغر ما أتى ، واستحقر ما جنى ، فزرا وسرا ما صارت به الصغرى ، التى كانت العظمى» . ثم يصف ائتماره بأبيه وتسوره القصر ليلا ، وفشل المؤامرة ، والقبض على المتآمرين ، «حتى أظفر الله بهم ، وأقمت حدود الله تعالى على الجميع منهم ، وأنفذت حكم العدل فيهم» .

ثم يحاول أن يبرر تصرفه فيما يلى : «فاعجب يا سيدى لأبناء الزمن ، وأنباء الفتن ، وانقلاب عين الإبن المقرب الودود ، إلى حال الواتر المحسود ، والثائر الحقود ، واعتبر فى ورد المساءة ، من موطن المسرة ، وطلوع المحنة . وقد أربت هذه الحال على كل ما جر عليه عقوق من الأبناء والبنين ، من السلف المتقدمين ، فلم يكن أكثر مما وجدناه من ذلك فى الأخبار والآثار ، استيحاشاً وشروداً ، ونبوا ونددوا ، إلا ما شذ لأحد ملوك الفرس ، وآخر من بنى العباس . وجمع هذا اللعين فى إرادته ومحاولته ، بين الشاذ والنادر ، والمنكر الدائر ، وزاد إلى استيحاشه الذم ، التعرض لإباحة الحرم ، وإلى ما رام من إتلاف المهجات ، السافح فيها كان يجرى على العورات المصونات ، وهو زمان فتنة ، وشمول إحنة ودمنة ، والناس بأزمانهم أشبه منهم بآبائهم ، وأصدق من هذا قوله تعالى : «إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم ، فاحذروهم» نفثت يا سيدى نفثة مصدور ، وأطلت فى الشرح والتفسير ، خروجاً إليك عن هذا الخطب الخطير ، والملم الكبير ، وهو خبر فيه معتبر» (١) .

ونحن نعرف أن فتك المعتضد بن عباد بولده لم يكن هو أول مثل من نوعه فى تاريخ الأندلس . فقبل سبعين عاما ، قتل المنصور بن أبى عامر ولده عبد الله ، ومن قبل ذلك قتل الناصر لدين الله ولده عبد الله أيضاً ، وكلاهما فى مثل هذه الظروف ، ولمثل هذه الأسباب ، أعنى لتطلعه إلى انتزاع السلطان من يد أبيه ، وائتماره بحياته . بيد أن المعتضد هو أول أمير من هؤلاء يعنى بشرح موقفه وظروفه ، وتبرير تصرفه الدموى ، فى هذه الوثيقة أو هذه الرسالة ، التى وجهها إلى ز ملائه أمراء الأندلس . وقد كان من الطبيعى أن يتوجس أمير مستبد ، صارم عنيف الأهواء ، مثل المعتضد بن عباد ،

---

(١) راجع دوزى Historia Abbadidarum, V. I. p. 253—256 ، والبيان المغرب ج ٣ ص ٢٤٥ و ٢٤٨ .

من تصرف ولده الحاقد الناقم ، المتربص به ، ولا سيما إذا صحت الوقائع التي تسوقها إلينا الرواية المعاصرة عن ائتماره بأبيه ، وتسوره القصر ليلا للفتك به ، وهي رواية مؤرخ معاصر محايد معاً ، هو ابن حيان القرطبي .

وفى سنة إحدى وخمسين وأربعمائة ، قطع المعتضد بن عباد الدعوة لهشام المؤيد فى سائر أنحاء مملكة إشبيلية ، وقد كان يدعى له بها منذ نحو خمسة وعشرين عاماً ، أعنى منذ زعم القاضى ابن عباد فى سنة ٤٢٦ هـ ، أنه عثر بهشام المؤيد حياً ، وبايعه ودعا له . وقيل فى ذلك إن المعتضد دعا وجوه دولته إلى مجلسه ، ونعى لهم هشاماً ، وأنه قد مات بالفعل قبل ذلك من علة مزمنة ، ولكن لم يعلن وفاته يومئذ ، لاشتداد الفتنة ، واضطرام النضال بينه وبين الأمراء المتألبين عليه ، فلما سكنت الفتنة وجب التصريح بالحق . ومن ذلك الحين يصبح هشام فى ذمة التاريخ ، وينقطع ذكره بصفة نهائية . ويعلق ابن حيان على ذلك متهكماً فى قوله : «وصارت هذه الميتة لحامل هذا الاسم الميتة الثالثة ، وعساها أن تكون إن شاء الله الصادقة ، فكم قتل وكم مات ، ثم انتفض من التراب ، ومزق الكفن قبل نفخة الصور» .

وقد قال بعضهم فى ذلك :

ذاك الذى مات مراراً ودفن    فانتفض الترب ومُزق الكفن

فقد أعلنت وفاته لأول مرة على يد منتزع عرشه محمد بن هشام المهدى ، ودفن بمحضر من العلماء والفقهاء فى شعبان سنة ٣٩٩ هـ ، ونشر بعد نحو عام على يد الفتى واضح ، وتولى الخلافة ؛ وتوفى للمرة الثانية قتيلا بيد سليمان المستعين أو ولده محمد بن سليمان فى سنة ٤٠٣ هـ ، ودفن خفية ؛ ولما دخل على بن حمود قرطبة ، وكان الاعتقاد سائداً بأن هشاماً لم يمت وأنه قد اختفى ، ولم يجد هشاماً بعد البحث عنه ، أعلن وفاته ودعا لنفسه بالخلافة (٤٠٧ هـ) . ثم جاء القاضى ابن عباد بعد ذلك فى سنة ٤٢٦ هـ ، فأعلن ظهور هشام ، ودعا له ، احتماء بظل الخلافة ، ودفعاً لدعاوى بنى حمود (١) .

— ٤ —

وقد أشرنا من قبل فى بداية حديثنا عن المعتضد بن عباد إلى ما نسب إليه من

---

(١) راجع رواية ابن حيان وتعليقاته على ذلك فى دوزى : Historia Abbadidarum V.I. p. 250 ، والبيان المغرب ج ٣ ص ٢٤٩ .

الصفات الباهرة المثيرة معاً ، ونود هنا أن نستعرض فى شىء من التفصيل خواص هذه الشخصية القوية العنيفة .

كان المعتضد بن عباد ، بلامراء ، أعظم ملوك الطوائف فى عصره ، وأوفرهم عزماً ودهاء ، وأبعدهم مطامع . وتقدمه إلينا الروايات المعاصرة فى صور قاتمة ، يتجلى فيها عنفه ، وقسوته وغدره ، والتجاؤه إلى أى الوسائل لتحقيق غاياته ، مهما كانت مجافية لمبادىء الأخلاق والشهامة والفروسية . وقد رأينا فيما تقدم فى تطبيق سياسته ، وفى حروبه ، وفى تصرفاته ، ما يؤيد هذه الصفات المثيرة . ويقول لنا ابن حيان إن المعتضد كان يتخذ سيرة سميه الخليفة المعتضد بالله العباسى قدوة له (١) ، ويهتدى بأخباره السياسية «التى أضحت عند أهل النظر أمثلة هادية إلى الاحتواء على أمد الرياسة ، فى صلابة العصا ، وشناعة السطا ، فجاء منها بمهولات تذعر من سمع بها ، فضلا عمن عاينها» . ثم يستدرك فيقول : «نسبوا إلى هذا الأمير الشهم عباد أمثالها من غير دلالة» (٢) . وقد رأينا فيما تقدم أن ابن حيان يميل أحياناً إلى الدفاع عن المعتضد ، بالرغم مما يقصه من أخبار بطشه وقسوته المروعة .

وقد أنفق المعتضد بن عباد معظم حكمه فى محاربة جيرانه من أمراء الطوائف ، وكشف فى محاربتهم عن قوة عزمه ، وضخامة عدته ، وإحكام خططه ، ولكنه كشف فى نفس الوقت عن قسوته وغدره ، وروعة وسائله . وعلى أى حال فقد استطاع المعتضد بهذه الوسائل المثيرة أن يحقق أطماعه ، وأن ينشىء مملكة إشبيلية الكبرى ، أعظم ممالك الطوائف ، وأن يوطد بها ملك أسرته ، وأن يسبغ عليها نوعاً من الزعامة السياسية والأدبية لاسبانيا المسلمة كلها .

ويبدى ابن حيان حماسة فى وصف سياسة المعتضد إذ يقول : «وسياسته أعيت على أنداده من أملاك الأندلس ، فخرج منهم رجالا مساعير حرب أباد بهم أقتاله ، ومن نادر أخباره المتناهية الغرابة ، أن نال بغيته ، وأهلك تلك الأمم العاتية ، وإنه لغائب عن مشاهدتها ، مترفه عن مكابدتها ، مدبر فوق أريكته ، منفذ

---

(١) قال ابن الأثير فى وصف الخليفة المعتضد العباسى ما يأتى : «وكان شهماً شجاعاً مقداماً ذا عزم ، وكان فيه شح ، وكان مهيباً عند أصحابه ، يتقون سطوته ، ويكفون عن الظلم خوفاً منه» (ج ٧ ص ١٦٩ و ١٧٠) .

(٢) ابن حيان ، ونقله دوزى فى Hist. Abbadidarum, V. I. p, 243

لحيلها ، من جوف قصره ، ما مشى إلى عدو أو مغلوب من أقتاله غير مرة أو مرتين ، ثم لزم عريسته يدبر داخلها أموره ، جرد نهاره لإبرام التدبير ، وأخلص ليله لتملى السرور ، ... وهو واصل نعم ليله ، بإجابة كيده ، ومبتدع نشاط لهوه بقوة أيده ، له فى كل شىء شوين ، وعلى كل قلب سمع وعين . ما أن سبر أحد من دهاة رجاله غوره ، ولا أدرك قعره ، ولا أمن مكره ، لم يزل هذا دأبه منذ ابتدائه إلى انتهائه » (١) .

وقال ابن القطان : «كان ذا سطوة كالمعتضد العباسى ببغداد ، وكان ذا سياسة ورأى يدبر ملكه من داره . وكان يغلب عليه الجود ، فلم يعلم فى نظرائه أبذل منه للمال» (٢) .

ووصفه ابن الخطيب بأنه : «كان شديد الجرأة ، قوى المنة ، عظيم الجلادة ، مستهيناً بالدماء»(٣) .

وقد انتهت إلينا عن قسوة المعتضد بن عباد قصة مروعة ، هى قصة حديقة الرؤوس المحنطة ، رؤوس أعدائه الذين سقطوا فى ساحة الحرب ، أو قتلوا غيلة ، وحملت إليه رؤوسهم . ويقول لنا ابن حيان ، إن المعتضد كان له بهذه الحديقة التى تملأ قلوب البشر ذعراً ، مباهاة أكرم لديه من خزانة جواهر مكنونة ، وقد أودعها هام الملوك الذين أبادهم بسيفه ، منها رأس محمد بن عبد الله البرزالى ، ورؤوس الحجاب ابن خزرون ، وابن نوح ، وغيرهم ممن قرن رؤوسهم برأس إمامهم الخليفة يحيى بن على بن حمود ، فخص رؤوسهم بالصون بعد إزالة جسومهم الممزقة ، وبالغ فى تطييبها وتنظيفها ، وأودعها المصاون الحافظة لها ، فبقيت عنده ثارية تجيب سائلها اعتباراً . ثم يقول لنا إن هذه الرؤوس الفانية كانت تحمل إلى المعتضد فى ليالى أنسه وسروره ، يشاهدها وهو يترع كؤوس الزاح ، فترتاح نفسه لمعاينتها ، والخلق يذعرون من التماحها(٤) . ويضيف

---

(١) ابن حيان ، ونقله دوزى فى : Hist. Abbad. V. I. p. 243—244

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٨٤ .

(٣) أعمال الأعلام ص ١٥٦ .

(٤) ابن حيان ونقله دوزى فى Hist, Abbadidarum, V. I, p. 243—244 ، والبيان المغرب ج ٣ ص ٢٠٥ و٢٥٦ .

ابن بسام إلى ذلك أنه لما افتتحت إشـــبيلية ، وخلع المعتمد بن عباد ، عثر المرابطون بهذه الرؤوس فى جوالق وأوعية ، ظن فى البداية أن بها أموال أو جواهر ، فهالهم الأمر ، وسلم كل رأس منها لمن بقى من عقب أصحابها (١) .

على أن هذه النواحى القاتمة لم تكن كل شىء فى شخصية المعتضد ، فقد كانت ثمة فى هذه الشخصية نواح أخرى لامعة عنى ابن حيان أيضاً بالإشارة إليها . من ذلك ما سمت إليه همته من إنشاء القصور الباذخة ، والرباع العظيمة المغلة ، وما عنى به من تنظيم بلاط بنى عباد ، وتجهيزه بالعدد والمظاهر الملوكية الفخمة ، ونفيس المتاع والرياش ، حتى غدا أعظم وأفخم بلاط بين قصور الطوائف .

وقد اشتهرت قصور بنى عباد فى التاريخ والشعر ، وقد كانت منها بمدينة إشبيلية قاعدة ملكهم عدة ، منها قصر الإمارة وهو «القصر المبارك » ، وقد كان يقع فى شرقى نهر الوادى الكبير ، فى المكان الذى يشغله اليوم قصر إشبيلية الشهير El Alcàzar . والظاهر أنه كان من إنشاء المعتضد بن عباد ، أو أنه هو الذى زاد فيه وأسبغ عليه رونقه وفخامته التى اشتهر بها . وقد كان ثمة أيضاً قصر الزاهى ، وهو القصر الذى كان يتخذه المعتضد ، ومن بعده ولده المعتمد ، مكاناً للهو والقصف ، وقد كان يقع على الضفة الأخرى من النهر ، وتحيط به حدائق غناء (٢) . وقد ذكر لنا ابن زيدون فى شعره ، وذكر لنا المقرى أسماء قصور أخرى تتصل بعصر المعتضد ، وهى على الأغلب من إنشائه ، ومن ثم فإنا نرجىء ذكرها إلى موضعها . وقد اقتنى المعتضد كثيراً من الجياد الصافنات ، والغلمان والحشم ، وأنشأ له جيشاً منتخباً من أبرع الفرسان والمقاتلة ، وبذل لهم الصلات الوفيرة ، فكان له ما شاء من التفوق العسكرى على أنداده وخصومه ، وكان جواداً «يبارى جوده السحاب» .

وأما عن شخص المعتضد ، فقد ترك لنا عنه معاصره ابن حيان تلك الصورة الرائعة ، قال : « وكان عباد قد أوتى من جمال الصورة ، وتمام الخلقة ، وفخامة الهيئة ، وسباطة البيان ، وثقود الذهن ، وحضور الخاطر ، ما فاق

(١) ابن بسام فى الذخيرة ونقله نفس المصدر ص ٢٤٠ . والبيان المغرب ج ٣ ص ٢٠٥ و ٢٠٦ .

(٢) قلائد العقيان ص ٢٤ .

به أيضاً على نظرائه» . وقد اشتهر المعتضد بشغفه بالنساء ، فكان إلى جانب زوجه الحسناء الأثيرة لديه ، إبنة مجاهد العامرى ، وأخت ولده على إقبال الدولة صاحب دانية ، يقتنى فى قصوره الفخمة ، عدداً كبيراً من الجوارى البارعات فى الحسن والسحر ، من سائر الأجناس والملل ، بلغ عددهن حسبما قيل ، نحواً من السبعين ، وكان له من الولد الذكور نحو العشرين ، وكذلك مثلهم من الإناث(١) .

بقيت من صفات المعتضد ، خلة لامعة ، تبعث إلى الإعجاب والعطف فى تلك الشخصية التى لا توحى معظم صفاتها إلا شعور المقت والروع ، تلك هى أدبه الرفيع ونظمه الرائق . وهنا أيضاً نستعير قلم ابن حيان إذ يقول : «ونظر مع ذلك فى الأدب قبل ميل الهوى به إلى طلب السلطان ، أدنى نظر ، بأذكى طبع حصل منه لثقوب ذهنه ، على قطعة وافرة علقها من غير تعهد لها ، ولا إمعان فى عمارها ، ولا إكثار من مطالعتها ، ولا منافسة فى اقتناء صحائفها ، أعطته سجيته على ذلك ما شاء من تحبير الكلام ، وقرض قطع من الشعر ذات طلاوة ، فى معان أمدته فيها الطبيعة ، وبلغ فيها الإرادة ، واقتبسها الأدباء للبراعة» (٢) .

وقال الحميدى : «كان أبو عمرو بن عباد صاحب إشبيلية ، من أهل الأدب البارع ، والشعر الرائع ، والمحبة لذوى المعارف . وقد رأيت له سفراً صغيراً فى نحو ستين ورقة من شعر نفسه» (٣) .

وقال ابن القطان : «وكان لأهل الأدب عنده سوق نافقة ، وله فى ذلك همة عالية ، ألف له الأعلم أديب عصره ، ولغوى زمانه ، شرح الأشعار الستة ، وشرح الحماسة ، وألف له غيره دواوين وتصانيف لم تخرج إلى الناس»(٤) .

والأدب والشعر من محاسن الأسرة العبادية ومآثرها العريقة ، فقد نبغ معظم رجالاتها فى النثر والنظم ، ولم تكن براعة المعتضد فى الشعر إلا قبساً من تراث أسرته ؛ ولقد بلغ ولده المعتمد ، فيما بعد ، فى عالم الشعر أسمى مراتبه ، وكان من أعظم شعراء الأندلس فى عصره . وذكر لنا ابن بسام أن شعر المعتضد قد جمع بعناية ولد أخيه اسماعيل فى ديوان أطلع عليه(٥) ، واختار منه ما اختار فى الذخيرة

---

(١) ابن حيان ، ونقله دوزى فى المصدر السابق ص ٢٤٥ . وفى الحلة السيراء (١٩٦٤) ج ٢ ص ٤٣ .
(٢) ابن حيان ، ونقله دوزى فى المصدر السابق ص ٢٤٥ . وفى الحلة السيراء ج ٢ ص ٤٢ .
(٣) فى جذوة المقتبس رقم ٦٧٢ ، ونقله البيان المغرب ج ٣ ص ٢٨٥ .
(٤) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٨٤ .
(٥) وهذا ما ذكره أيضاً ابن الأبار فى الحلة السيراء (١٩٦٤) ج ٢ ص ٤٣ .

من المقطوعات . وهذه المقطوعات منوعة بين الفخر والغزل والوصف وغيرها ، وكلها تدل على افتنان المعتضد ، ومقدرته الشعرية الممتازة . فمن قوله فى الفخر :

حميت ذمار المجد بالبيض والسمر  وقصرت أعمار العداة على قسر
ووسعت سبل الجود طبعاً وصنعة  لأشياء فى العلياء ضاق بها صدرى
فلا مجد للإنسان ما كان ضده  يشاركه فى الدهر بالنهى والأمر

ومن قوله حين استولى على رندة ، وهو مما يتفق مع عنفه وصرامته :

لقــد حصــلت يارندة  فصرت لملكنــا عقــدة
سأفنى مــدة الأعــداء  إن طالت بى المــدة
وتبــلى بى ضــلالتهم  ليزداد الهــوى جــدة
فكم من عــدة قتلـــت  منهم بعــدها عــدة
نظمت رؤوسهم عقــدا  فحلت لبـــة الســدة (١)

وربما كان لهذه السجية الأدبية أكبر أثر فى أن المعتضد قد نظم فى سلك وزرائه جماعة من أعظم شعراء العصر وكتابه . وكان فى مقدمة هؤلاء أبو الوليد بن زيدون إمام الشعر وقطبه ، وكان قد انتظم من قبل فى وزارة بنى جهور بقرطبة ، ثم ساءت أحواله فغادر قرطبة إلى إشبيلية فى سنة ٤٤١ هـ ، فأكرم المعتضد وفادته ، وعينه فى وزارته ، وغمره بثقته وعطفه ، وما زال متمتعاً برفيع مكانه ونفوذه حتى وفاة المعتضد . بيد أنه يبدو أنه لم يكن مطمئناً على نفسه فى خدمة هذا الطاغية الخطر ، حتى أنه لما توفى المعتضد نظم هذين البيتين ابتهاجاً بذهابه ، ولم يظهرهما يومئذ «لأنه كان غير مأمون على الدماء ، ولا حافظاً لحرية الأولياء» .

لقد سرنى أن النعى موكل  بطاغية قد حم منــه حمام
تجانب صوب الغيث عن ذلك الصدا  ومر عليه المزن وهو جهــام(٢)

ومنهم أبو محمد عبد الله بن يوسف بن عبد البر ولد أبى عمر ، صاحب كتاب «بهجة المجالس وأنس المجالس» . نظمه المعتضد فى سلك وزرائه ، وكان كاتبه

(١) تراجع مقطوعات أخرى من شعر المعتضد فيما أورده ابن بسام فى الذخيرة ونقله دوزى فى: Hist. Abbadidarum V. II. p. 48 -60 وكذلك فى الحلة السيراء (١٩٦٤) ج ٢ ص٤٣ — ٤٩ .

(٢) راجع ما أورده ابن بسام ، ونقله دوزى فى Hist. Abbadidarum, V. II. p.48 وراجع قلائد العقيان ص ٧١ .

ولسانه لدى الرؤساء ، وقد اشتهر برائق نثره وروعة أسلوبه . وقد رأينا نموذجاً من نثره فيما اخترناه من مقتطفات رسالته ، عن مصرع إسماعيل ابن المعتضد . بيد أنه لم يكن أيضاً سعيداً ولا مطمئناً ، لخوفه المستمر من أن يبطش به المعتضد ، ومن ثم فقد عول فى النهاية على الفرار ، وغادر إشبيلية ناجياً بنفسه (١) .

ومنهم أيضاً الكاتب البارع أبو عبد الله البزلياني الذى يصفه ابن بسام بأنه «أحد شيوخ الكتاب ، وجهابذة أهل الأدب» . وقد رأينا كيف ساق سوء الطالع هذا الوزير الكاتب إلى الاشتراك مع إسماعيل ولد المعتضد فى مؤامرته وفراره ، وكيف قبض عليه المعتضد وأعدمه لفوره .

ومما هو جدير بالذكر أنه كان بين وزراء المعتضد أو معاونيه ، رجل من النصارى المستعربين ، هو سسنندو داڤيدس (أوششنند) الذى اشتهر فيما بعد فى قصور الطوائف . وأصله من مقاطعة بيرة فى شمالى البرتغال ، وأسر حدثاً فى غارة قام بها القاضى ابن عباد فى منطقة قُلُمرية ، ثم أخذ إلى إشبيلية وربى مع «فتيان» القصر ، واشتغل فى شئون الخاص . ولما تولى المعتضد ، قدر مواهبه ، ومعرفته بشئون الجزيرة ، فنظمه بين وزرائه أو معاونيه ، فنال ثقته ، وتمكن نفوذه ، وعلت مكانته فى البلاط العبادى بسرعة . ولكنه لم يلبث أن تعرض لخصومة بعض رجال البلاط وسعايتهم ، فخشى العاقبة ، وفر من إشبيلية إلى الشمال ، ولجأ إلى بلاط فرناندو ملك قشتالة ، فرحب به ، ونظمه بين مستشاريه ، وكان له فيما بعد أكبر أثر فى تكييف سياسته نحو ملوك الطوائف (٢) .

وتوفى المعتضد بن عباد فى الثانى من جمادى الآخرة سنة إحدى وستين وأربعمائة (مارس ١٠٦٩ م) . ويقول لنا ابن حيان إن وفاته كانت بسبب ذبحة قصيرة الأمد ، ترتبت على الإجهاد ، وكانت شبه البغت . وكانت ولايته زهاء ثمانية وعشرين عاماً .

---

(١) راجع قلائد العقيان ص ١٨١ و ١٨٣ .

(٢) الذخيرة ، القسم الرابع المجلد الأول ص ١٢٩ وكذلك : Isidro de las Cagigas Los Mozarabes (Madrid 1947) p. 456—457.

# الفصل الثالث

## بنو عباد ومملكة إشبيلية

### القسم الثانى

المعتمد بن عباد . شخصيته وخلاله . ذكرياته بشلب . استيلاؤه على قرطبة . النضال بين بنى عباد والبربر . عوامل الخصومة بينهما . محاربة المعتمد لغرناطة واستيلاؤه على جيان . اتفاقه مع ألفونسو السادس على فتح غرناطة . الوزير ابن عمار . نشأته وشاعريته . مقدرته ودهاؤه . سعيه إلى فتح مرسية . اتفاقه مع أمير برشلونة على غزوها . فشل هذه المحاولة . استعانته بابن رشيق فى فتحها . محاولته الاستقلال بحكمها . تغلب ابن رشيق عليها . فرار ابن عمار والتجاؤه إلى بنى هود . محاولته فتح حصن شقورة . سقوطه فى يد صاحب الحصن . تسليمه لابن عباد . اعتماد الرميكية وابن عباد . تغدو ملكة إشبيلية . الوحشة بينها وبين ابن عمار . هجاء ابن عمار للمعتمد والرميكية . استعطاف ابن عمار للمعتمد وشعره فى ذلك . قسوة المعتمد وقتله لوزيره . تعليقات على الحادث . ابن عمار وعبقريته . مقدرته الأدبية والشعرية . غزو المعتمد لأراضى طليطلة . يؤدى الجزية لملك قشتالة . يعقد حلفاً معه . موضوع هذا الحلف . مطالبة ألفونسو للمعتمد بالجزية . والخلاف على قيمها . تنكيل ابن عباد برسل ألفونسو . غزو ألفونسو لأراضى إشبيلية . خطته فى إضعاف الطوائف والقضاء عليهم . إدراك المعتمد لخطته وتفكيره فى الاستعانة بالمرابطين . وعيد ألفونسو له ورد المعتمد عليه . ذيوع فكرة استدعاء المرابطين بين أمراء الأندلس وشعوبها . سفارة أمراء الأندلس لعاهل المرابطين . الإتجاهات المختلفة والآراء المعارضة . ما ينسب لابن عباد من رسائل وجهها إلى أمير المسلمين . استجابة أمير المسلمين لنداء الأندلس . عبوره إلى شبه الجزيرة الإسبانية .

— ١ —

لما توفى المعتضد بن عباد ، خلفه يوم وفاته ولده ، محمد بن عباد ، الملقب بالظافر ، والمؤيد بالله ، والمعتمد على الله ، وهو اللقب الذى غلب عليه واشتهر به طول حياته .

وكان المعتمد يوم جلوسه على عرش مملكة إشبيلية ، فتى فى الثلاثين من عمره ، وكان مولده بمدينة باجة فى سنة ٤٣١ هـ (١٠٤٠ م) وقيل بل فى ربيع الأول سنة ٤٣٢ هـ (١) . وكان مثل أبيه ، فى حسن القوام ، وروعة المظهر ، وعنفوان

(١) يقول بالرواية الأولى النويرى ، وبالرواية الثانية ابن زيدون وابن اللبانة شاعرا المعتمد . راجع دوزى : Historia Abbadidarum V. II, p, 61 & 131 ، وكذلك ابن الأبار فى الحلة السيراء ج ٢ ص ٥٣ .

الصبا ، ولكن لم يكن مثله فى الصرامة والقسوة والاستهتار بالدماء ، بل كان بالعكس وديعاً ، يعف عن الدماء ، بعيداً عن قبول السعايات .

ويقول لنا ابن الأبار فى وصف المعتمد ما يأتى : « وكان المعتمد من الملوك الفضلاء ، والشجعان العقلاء ، والأجواد الأسخياء المأمونين ، عفيف السيف والذيل مخالفاً لأبيه فى القهر والسفك ، والأخذ بأدنى سعاية ، رد جماعة ممن نفى أبوه ، وسكن وما نفر ، وأحسن السيرة ، وملك فأسجح ، إلا أنه كان مولعاً بالخمر ، منغمساً فى اللذات ، عاكفاً على البطالة ، مخلداً إلى الراحة ، فكان ذلك سبب عطبه ، واصل هلاكه » (١) .

وقد خاض المعتمد مثل أبيه ، سلسلة طويلة من الحروب والأحداث ، وتقلب فى غمار الخطوب والجدود ، وكان عهده عهد الحسم فى تاريخ دول الطوائف ، وفى تاريخ الأندلس قاطبة ؛ ولكنه لم يشتهر فى ميدان الحرب والسياسة ، قدر ما اشتهر فى ميدان الأدب والشعر ، والفروسية ، والجود . ومهما كانت وجوه الضعف الشخصية التى كان ينطوى عليها ، من عكوف على الشراب ، وانغماس فى مجالى اللهو والترف ، ومهما كانت أخطاؤه السياسية الفادحة ، التى ترتبت عليها محنة الأندلس ، ثم محنته الخاصة : مهما كان من هذه الصفات القاتمة فإن شخصية المعتمد بن عباد ، تبرز لنا من خلال هذه الغمار ، ومن الناحية الأخرى ، مشرقة وضاءة ، تتوجها عبقريته الأدبية والشعرية ، وتزينها صفاته الإنسانية الرقيقة وتطبعها محنته المؤلمة ، بالرغم من كل أوزاره وأخطائه ، بطابع الاستشهاد المؤثر .

وكان المعتمد أثناء حياة أبيه المعتضد ، والياً لمدينة شلب ، ولها عقب استيلاء بنى عباد عليها فى سنة ٤٥٥ هـ (١٠٦٣ م) ، وكان يعاونه خلال تلك الفترة فى إدارة ولاية شلب وزيره أو أمينه أبو بكر بن عمار ، الذى تولى وزارته بإشبيلية فيما بعد ، واشتهر ذكره ، واضطلع له بأخطر المهام السياسية والعسكرية .

وقد تركت حياة المعتمد فى شلب ، تلك المدينة البرتغالية الجميلة النائية ، وهو يومئذ فى عنفوان فتوته ، يتقلب خلالها فى مجالى اللهو والأنس ، فى نفسه ذكريات لا تمحى ، صورها لنا فيما بعد ، فى بعض قصائده . ومن ذلك قوله مخاطباً وزيره ابن عمار حين وجهه إلى شلب ليتفقد أعمالها :

ألا حى أوطانى بشلب أبا بكر        وسلهن هل عهد الوصال كما أدرى

(١) فى الحلة السيراء ج ٢ ص ٥٤ .

وسلم على قصر الشراجيب من فتى | له أبداً شوق إلى ذلك القصر
منازل آساد وبيض نواعم | فناهيك من غيل وناهيك من خدر
فكم ليلة قد بت أنعم جنحها | بمخصبة الأرداف مجدبة الخصر
وبيض وسمر فاعلات بمهجتى | فعال الصفاح البيض والأسل السمر
وليل بسد النهر لهواً قطعته | بذات سور مثل منعطف البدر
نضت بردها عن غصن بان منعم | نضير كما انشقت الكمام عن الزهر
وباتت تسقينى المدام بلحظها | فمن كأسها حينا وحيناً من الثغر

وكان أول عمل قام به المعتمد عقب ولايته ، هو تدخله فى حوادث قرطبة ، حينما هددها المأمون بن ذى النون بقواته ، فبعث إليه عبد الملك بن جهور يستنجد به ، فوجه إليه الأمداد مع قائديه خلف بن نجاح ومحمد بن مرتين ، وانتهى الإمر باستيلاء قوات إشبيلية على قرطبة ، وفقاً لخطة سرية وضعت من قبل ، وبالقضاء عل دولة بنى جهور ، وضم قرطبة إلى مملكة إشبيلية (٤٦٢ هـ — ١٠٧٠ م) . وندب المعتمد ولده عباداً الملقب بسراج الدولة لحكم المدينة . وقد فصلنا عند الكلام عن دولة بنى ذى النون ، كيف دبر المأمون بن ذى النون استرداد قرطبة على يد ابن عكاشة ، وكيف قتل سراج الدولة ولد المعتمد مدافعاً عنها ، ثم دخلها المأمون فى سنة ٤٦٧ هـ (١٠٧٥ م) ثم توفى بها بعد ذلك بأشهر قلائل ، وأخيراً كيف عاد المعتمد ، فسار على أثر ذلك إلى قرطبة فى قواته، واستولى عليها ، وقتل ابن عكاشة انتقاماً لولده ، وبذلك عادت قرطبة إلى مملكة إشبيلية .

على أن أهم ما شغل به المعتمد ، فى تلك الفترة الأولى من ولايته ، هو النضال ضد مملكة غرناطة البربرية . ونحن نعرف أن الخصومة بين بنى عباد وبين الإمارات البربرية قد بدأت فى عصر مبكر ، وقد فصلنا من قبل كيف اشتبك القاضى ابن عباد مع يحيى بن حمود المعتلى حول قرمونة ، فى معركة دموية قتل فيها المعتلى ، واستولى ابن عباد على قرمونة ، وأعطاها لصاحبها البرزالى حليفه يومئذ ، وكيف نشبت الخصومة فيما بعد بين ابن عباد والبرزالى ، فلما أراد ابن عباد استرداد قرمونة باعتبارها حصن إشبيلية من الشرق ، وسير إليها قواته ، استغاث البرزالى بإدريس المتأيد صاحب مالقة ، وباديس بن حبوس صاحب غرناطة ، ووقعت بين البربر وجند إشبيلية معارك طاحنة هزم فيها الإشبيليون ، وقتل أميرهم إسماعيل بن عباد ، وذلك فى أوائل سنة ٤٣١ هـ .

ولما تولى المعتضد بن عباد ، عقب وفاة والده القاضى محمد بن اسماعيل ابن عباد فى سنة ٤٣٣ ﻫ ، كان من أبرز أعماله القضاء على مختلف الولايات البربرية الشرقية ، والجنوبية الشرقية ، وهى مورون وأركش ورندة . واستولى على الجزيرة الخضراء من يد أميرها القاسم بن حمود (٤٤٦ ﻫ) ، ثم استولى على قرمونة وأعمالها فى سنة ٤٥٩ ﻫ (١٠٦٧ م) .

وبذلك تم القضاء على سائر الإمارات البربرية المتاخمة لإشبيلية من الشرق والجنوب الشرقى ، وتم تأمين جناحها الدفاعى من هذه الناحية ، ولم يبق فى جنوبى الأندلس من الإمارات البربرية ، سوى مملكة باديس فى غرناطة ومالقة .

وحاول المعتضد فى نفس الوقت أن ينتزع مالقة من باديس ، وسير إليها قواته بالفعل تحت إمرة ولديه جابر والمعتمد ، وكادت مالقة تسقط بالفعل فى أيدى الهاجمين ، ولكن باديس قدم فى قواته مسرعاً ، فانقلبت الآية وهزم جند إشبيلية هزيمة شديدة ، وفشلت المحاولة (٤٥٨ ﻫ) (١) .

وكان المعتمد بن عباد يتابع سياسة أبيه وجده فى التوجس من البربر والقضاء على سلطانهم . وكان يخشى أن تغدو مملكة غرناطة البربرية ، مهبطاً للقبائل والقوات البربرية ، التى تفد من وراء البحر باحثة عن طالعها وأرزاقها . هذا من ناحية العوامل المادية ، وأما من ناحية العوامل الأدبية ، فنستطيع أن نشير بهذه المناسبة ، إلى ما كان بين العرب والبربر من خصومة قديمة مؤثلة ترجع إلى عصر الفتح ذاته ، وقد شرحنا عوامل هذه الخصومة فى «العصر الأول» من كتابنا . ونزيد هنا أن بنى عباد ، كانوا حسبما أشرنا من قبل ، ينتمون إلى لخم ، من أكرم وأشرف القبائل العربية ، وكانوا من أهل العلم والأدب المؤثل ، حماة للعلوم والآداب والفنون ، يغص بلاطهم بأقطاب العصر وشعرائه ، وتتمتع فى ظلهم مملكة إشبيلية بحضارة زاهرة ، وثقافة رفيعة . أما القبائل البربرية فلم تكن راسخة فى تعاليم الإسلام ، وكانت بعيدة عن العربية وثقافتها وتراثها ، يؤثرون التمسك بعجمتهم وبداوتهم ، وكانت قصورهم عاطلة عن ذلك الجو الفكرى والأدبى ، الذى تزدان به قصور الأصول العربية ، وكان هذا التباين يبدو بالأخص بين بلاط غرناطة البربرى ، وبين بلاط إشبيلية العربى .

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٧٤ و ٢٧٥ .

اجتمعت هذه العوامل المادية والأدبية ، لتذكى ضرام النضال بين مملكة غرناطة ، حصن البربر فى الجنوب ، وبين مملكة إشبيلية . وكانت مملكة غرناطة قد بلغت ذروة قوتها فى عهد ملكها باديس بن حبوس الصنهاجى ، وكان باديس قد رشح ولده بُلُقِّين للأمر من بعده ولقبه سيف الدولة ، ولكنه توفى بالسم فى حادث غامض . وفى خلال ذلك كان النضال مستمراً بين المعتضد بن عباد وبين البربر ، وقوة باديس تضعف شيئاً فشيئاً . فلما توفى باديس فى سنة ٤٦٥ هـ (١٠٧٣ م) ، خلفه فى حكم غرناطة حفيده عبد الله بن بُلُقِّين ، وفى حكم مالقة حفيده تميم ، ولم يمض على وفاته سوى عام ، حتى سار المعتمد بن عباد فى قواته إلى جيان ، أهم قواعد مملكة غرناطة الشمالية واستولى عليها (٤٦٦ هـ — ١٠٧٤ م) ولم يبق من مملكة غرناطة سوى العاصمة ورباضها . وعندئذ فكر أمير غرناطة فى الإستعانة بالنصارى ، وتوصل بواسطة المأمون بن ذى النون ، إلى أن يعقد مع ألفونسو السادس ملك قشتالة ، معاهدة صداقة وتحالف ، يتعهد فيها بدفع الجزية . وحدث فى نفس الوقت أن ظفر المأمون بن ذى النون ، بانتزاع قرطبة من ابن عباد (٤٦٧ هـ) ، فكانت هزيمة المعتمد ، سبباً فى انقشاع الخطر نوعاً عن غرناطة .

وخرج عبدالله بن بُلُقِّين بعد ذلك فى قواته ومعه سرية من حلفائه النصارى ، وأغار على أراضى ابن عباد ، وعاث فيها ، واستطاع أن يسترد حصن قبرة القريب من جيان (١) .

بيد أن المعتمد لم يقف مكتوفاً إزاء هذه الحركة ، فاتجه بدوره إلى النصارى ، وأرسل وزيره الشهير أبا بكر بن عمار إلى ملك قشتالة ألفونسو السادس ، فعقد معه حلفاً دفع مقابل عقده خمسين ألف دينار . ويقضى هذا الحلف بأن يتعاون المعتمد وألفونسو السادس ، على افتتاح غرناطة ، وأن تكون المدينة ذاتها للمعتمد ، وأن تكون ذخائر القلعة الحمراء لألفونسو . وظهر أثر هذه المعاهدة على الفور ، إذ عمد النصارى إلى تخريب بسائط غرناطة ، ولاسيما أراضى مرجها الشهير La Vega (٢) .

(١) R. Menendez Pidal : La Espana del Cid, p, 257 & 260

(٢) R. M. Pidal : ibid ; p, 257

ولا بد لنا قبل أن نمضى فى تتبع أخبار المعتمد ، أن نتحدث عن الوزير ابن عمار ،وهو الذى اضطلع بأخطر دور فى تنفيذ مشاريع المعتمد . فهو أبو بكر محمد بن عمار بن الحسين بن عمار المهرى ، وأصله من قرية من أرباض شلب تسمى «شنبوس» (١) ، ولد بها سنة ٤٢٢ هـ (١٠٣١ م) ، فى أسرة متواضعة لم يكن لها فى الظهور شأن ، ووفد على مدينة شلب فنشأ بها وتلقى دراسته الأولى ، ثم رحل إلى قرطبة ، فأكمل دراسته على جماعة من شيوخ العصر ، وبرع فى الأدب ، ونظم الشعر فتى ، واتخذه وسيلة للتكسب ، فكان يمدح كل من وصله ، مهما كانت مكانته أو مركزه . ثم قصد إشبيلية ومدح المعتضد ، فنظمه فى سلك شعرائه وأمنائه ، ولما ندب المعتضد ولده المعتمد لحكم شلب على أثر افتتاحها ، اتصل به ابن عمار وألفى المعتمد فى صفاته وأدبه ورقيق نظمه ما حببه إليه ،فعهد إليه بوزارته ، وتوثقت بينهما علائق المودة والصفاء ، حتى غدا أثير المعتمد ، ينظمه فى مجالس أنسه ، ولا يصبر على فراقه ، وكانت براعة ابن عمار فى النظم هى أحب صفاته لأميره الشاعر . ولما توفى المعتضد ، وخلفه ولده المعتمد فى الملك ، عين ابن عمار أولا والياً لبلده شلب ، ولكن مقامه بها لم يطل ، إذ لم يصبر المعتمد على فراقه ، فاستدعاه إلى إشبيلية وولاه وزارته . فظهر ابن عمار يومئذ بمقدرته ودهائه ، فكان المعتمد يعهد إليه بمهام الأمور ويندبه إلى سفاراته ،وتنفيذ مشاريعه الخطيرة ، فيؤديها ابن عمار على أحسن وجه . واستمر ابن عمار على حظوته ومكانته لدى المعتمد أعواماً طويلة ، إلى أن فسد الجو بينهما ، بتدخل اعتماد الرميكية زوجة المعتمد ، فكان ذلك إيذاناً بنكبته على ما نذكره بعد .

وكان من أهم المشاريع التى اضطلع بها ابن عمار يومئذ ، استيلاؤه على مدينة مرسية باسم ابن عباد . وهنالك ما يدل على أن مملكة إشبيلية كانت تمتد فى ذلك الوقت حتى لورقة وشقورة (٢) على مقربة من مرسية . وكانت مرسية بعد أن غادرها خيران العامرى ، قد تغلب عليها أبو بكر بن طاهر ، ثم ولده أبو عبد الرحمن بن طاهر من أعيانها ،ولكنه لم يوفق إلى إخماد العناصر الناقمة ،فكتب بعض هؤلاء إلى المعتمد بن عباد يستدعونه لفتحها ،وشرحوا له ضعف ابن طاهر وقلة أهباته الدفاعية ، فعهد المعتمد إلى ابن عمار بوضع الخطة اللازمة لتحقيق

---

(١) وهى اليوم بلدة Estombar البرتغالية الواقعة جنوبى شلب .

(٢) قلائد العقيان ص ٩ ، ودوزى فى : Hist. Abbadidarum, V, II, p, 86

هذه الغاية ، فسار ابن عمار ، وعقد مع الكونت رامون برنجار أمير برشلونة صفقة ، يتعهد فيها بأن يعاونه بفرسانه على فتح مرسية ، مقابل عشرة آلاف مثقال من الذهب تدفع إليه ، واتفق الطرفان ، أن يقدم كل منهما رهينة إلى الآخر ضماناً بالوفاء ، فقدم المعتمد ولده الرشيد ، وقدم الكونت ابن أخيه ، وبعث المعتمد بقواته ، وعلى رأسها ابن عمار ، ولحقت بها قوات الكونت ، وحاصرت القوات المتحالفة مدينة مرسية ، ولكن ابن عباد تأخر فى أداء المال ، واعتقد الكونت أنه قد غرر به ، فقبض على ابن عمار وعلى الرشيد ، وارتد بقواته عن المدينة . وعلم ابن عباد بالأمر ، وهو على رأس قواته على ضفاف نهر الوادى الكبير على مقربة من شقورة ، وبادر بأداء المال ، وبعث معه رهينة الكونت ، وأفرج عن الرشيد وابن عمار ، وأخفقت هذه الحملة الأولى فى فتح مرسية ، وجهز المعتمد بإشارة وزيره حملة أخرى على رأسها ابن عمار ، واتصل ابن عمار فى طريقه بقائد حصن بَلَج أو بُليج ، Vélez Rubio وهو يومئذ عبد الرحمن بن رشيق ، فسار معه ، وندبه للقيادة ، وحاصر ابن رشيق مرسية ، واستمر فى إرهاقها ، وفى تحريض أهلها على القيام ضد ابن طاهر ، حتى تم له الأمر ، وفتحت المدينة أبوابها بطريق الخيانة ، ودخلها جند ابن عباد ، وقبض على ابن طاهر ، واعتقل حتى أذن ابن عباد بتسريحه ، فلحق ببلنسية ، وكان افتتاح مرسية على هذا النحو فى سنة ٤٧١ هـ (١٠٧٨) (١) .

على أن الأمر لم يقف عند ذلك الحد . ذلك أن ابن عمار سولت له نفسه ، أن يستقل بحكم هذه المدينة النائية ، بعيداً عن سلطان مليكه ، وعمد بالفعل إلى حكمها حكم أمير مستقل ، وتجاهل أوامر ابن عباد ورغباته ، وأخذ يدس الدسائس بين أمراء هذه الناحية ، ولكن هذه المغامرة لم يطل أمدها ؛ ذلك أن ابن رشيق ، وهو فاتح المدينة الحقيقى ، كان يتربص بابن عمار ، ويتحين فرصته ، وفى ذات يوم غادر ابن عمار مرسيه لتفقد بعض الحصون الخارجية ، فوثب ابن رشيق واستولى على المدينة ، وأغلق أبوابها فى وجه ابن عمار ، فكانت تلك الضربة خير جزاء له على خيانته .

---

(١) راجع فى فتح مرسية : أعمال الأعلام ص ١٦٠ ، والمراكشى فى المعجب ص ٦٥ ، ودوزى عن الشلبى فى Hjst. Abbadidarum, V. II. p, 86 — 87 : وكذلك R.Menedez Pidal : Piles Ibars : Murcia Arabe, V. I. p. 189 - 191, La Espana del Cid p. 259 & 281

ولم ير ابن عمار أمامه سوى الفرار ، فسار صوب الشرق وقضى وقتاً قصيراً في بلاط ألفونسو السادس ، فلم يلق منه عوناً ، ثم قصد إلى سرقسطة ، والتجأ إلى أميرها المقتدر بن هود ، فأكرم وفادته ، واستخدمه في شئونه ، ولكنه توفي بعد قليل في سنة ٤٧٥ هـ (أواخر ١٠٨١ م) وقسمت مملكته بين أولاده، فاختص المؤتمن بسرقسطة ، وبقى ابن عمار معه على ما كان عليه . ولم يطل مكث ابن عمار حتى أغراه على سجيته ، بفتح حصن شَقُورة ، وهو يومئذ من أعمال دانية ، وقصد ابن عمار إلى ذلك الحصن ، في جماعة قليلة من أصحابه ، وكان حاكمه رجل وافر الدهاء يدعى ابن مبارك ، فدعا ابن عمار وصحبه إلى الدخول ، وهش لاستقباله ، فخدع ابن عمار بموقفه ، وما كاد يستقر في الحصن ، حتى هوجم وقبض عليه ، ووضعت في يده الأغلال ، وزج إلى ظلام السجن ، وكان ذلك في ربيع الأول سنة ٤٧٧ هـ (يوليه ١٠٨٤ م) .

ووقف ابن عباد على ذلك الخبر ، فبعث إلى ابن مبارك يطلب إليه تسليم ابن عمار وبعث إليه مالا وخيلا ، فاستجاب لدعوته ، وسلم ابن عمار لرسله ، وعلى رأسهم ولده يزيد الراضي ، فأخذ أولا إلى قرطبة حيث كان المعتمد يومئذ ، وأدخل إليها مكبولا في هيئة زرية ، وقد احتشد الألوف من أهلها لرؤيته ، وقد كانت تهتز لموكبه حين كان يدخلها أيام عزه . ثم أخذ بعد أيام قلائل إلى إشبيلية ، فأودعه المعتمد مكاناً خاملا في قصره ، وكان يستحضره من آن لآخر ، ويبالغ في عتبه وتأنيبه ، وابن عمار يمعن في استعطافه واسترحامه . ويقال إن المعتمد تأثر في النهاية بمحنته، ووعده بصفحه، ولكن عاد فنقم عليه لأنه نقل إلى بعضهم ذلك الوعد ، أو على قول راجح ، لأن خصوم ابن عمار الساعين في هلاكه ، وفي مقدمتهم الوزير أبو بكر بن زيدون وهو ولد الشاعر ، ضاعفوا سعايتهم ، وأبرزوا للمعتمد ، أبياتاً بخط ابن عمار ، نظمها أيام أن كان بمرسيه ، وفيها يتعرض بالهجو اللاذع لبني عباد ، ولاعتماد الرُّميكية زوجة المعتمد[1] .

وقد أشرنا من قبل إلى ما كان بين اعتماد الرميكية ، وبين ابن عمار من

(١) راجع دوزى : Hist. Abbadidarum, V. II, p. 90, 91, 100-104 ، وابن الابار في الحلة السيراء ج ٢ ص ١٥٠ و ١٥١ ، وأعمال الأعلام ص ١٦٠ و ١٦١ ، والمراكشي في المعجب ص ٦٦ ، وقلائد العقيان ص ٨٣ و ٩٠ و ٩١ و ٩٧ و وكذلك R. Menendez Pidal : La Espana del Cid. p.289

وحشة كانت تزداد على مر الأيام . وكانت الرميكية ، وهى ملكة إشبيلية الأثيرة ، تحتل مكانة بارزة فى حياة المعتمد ، وفى بلاط إشبيلية . ولزواج المعتمد بهذه المرأة الموهوبة اللامعة ، التى شاطرته أيام عزه ومجده وأيام محنته ، وأنجبت له أولاده الملوك ، قصة تتردد بين التاريخ والأسطورة . فأما التاريخ فتقول لنا الرواية ، إن المعتمد حينما كان ولياً للعهد ، أيام والده المعتضد ، رأى اعتماداً ذات يوم صحبة مولاها رُميك وهو من وجهاء إشبيلية ، فراقت لديه ، فاشتراها منه وهام بها حباً ، وتزوجها . بيد أن هناك رواية أخرى أكثر طرافة ، وأقرب إلى لون الأسطورة ، وهى أن المعتمد كان يتنزه ذات يوم مع وزيره ابن عمار فى نهر إشبيلية ، وهو نهر الوادى الكبير ، وهما يتبادلان طرائف الشعر ، وكانت الريح قد جعلت ماء النهر أشبه بالزرد ، فنظم المعتمد هذه الشطرة :

«صنع الريح من الماء زرد»

وطلب إلى ابن عمار أن يكملها ، فعجز الوزير الشاعر ، وكانت ترقبهما فتاة حسناء ممن يغسلن ثيابهن فى النهر ، فردت على الفور :

«أى درع لقتال لو جمد»

فدهش المعتمد ، وأعجب ببراعة الفتاة وسرعة خاطرها ، كما أعجب بحسنها وخفة روحها ، وسألها إن كان لها زوج ، فأجابت بالنفى ، فعندئذ استدعاها إلى قصره وتزوجها(١) .

وهكذا شاء القدر أن تغدو اعتماد الرُّميكية زوجة للمعتمد بن عباد ، وأن تغدو سيدة قصر إشبيلية . ولما تولى المعتمد الملك ، كانت الرميكية تحتل مكانة بارزة فى البلاط ، وفى الشئون ، وكانت لسمو مكانتها ، وتمكن نفوذها يطلق عليها لقب «السيدة الكبرى»(٢) ، وكانت تشاطر زوجها هوى الشعر ونظمه ، وكانت تعيش فى هذا الأفق الأدبى الرفيع الذى يسيطر على بلاط إشبيلية ، ويجتمع فى ظله أعظم شعراء العصر ، وتشترك فى كثير من الأحيان فى مجالس الشعر والأدب ، التى كان يشغف بعقدها المعتمد ، وتزدان فى أحيان كثيرة بحضور زوجه الحسناء الساحرة ؛ وكانت اعتماد فوق ذلك بنفوذها وحظوتها لدى المعتمد تشترك فى توجيه الشئون . وكان الوزير ابن عمار ، وهو يومئذ فى إبان مجده

---

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ٤٥١ .

(٢) المعجب ص ٧٧ . وكان هذا اللقب يطلق على والدة المعتمد ابنة مجاهد العامرى .

ونفوذه ، من أساطين هذه المجالس الأدبية ، وكان يستأثر لدى المعتمد بثقته ويملك عليه كل حبه وعطفه ، وكانت الرُّميكية تنظر إلى مكانته وتمكن نفوذه بعين السخط ، وكان ابن عمار من جانبه يحقد عليها ويخشى بأسها وسعايتها ؛ واستمرت معركة الدسائس والمنافسة حيناً بين اعتماد وابن عمار ، لتسفر عن نتيجتها الطبيعية ، وهى هزيمة الوزير وتغير مليكه عليه. ويقال إن الأبيات الطاعنة التى نسبت إلى ابن عمار ، قد نظمها فى ذلك الوقت سراً فى هجو الرميكية ، ونمى خبرها إلى المعتمد ، ويقال من جهة أخرى إن ابن عمار نظمها أيام وجوده فى مرسية ، ونجح خصمه أبو بكر بن عبد العزيز صاحب بلنسية فى الحصول على أصولها مكتوبة بخطه وبعثها إلى المعتمد .

وقد أورد لنا ابن الأبار فى ترجمته لابن عمار ، تلك القصيدة التى قيل إنها كانت سبباً فى نكبة ابن عمار ومصرعه ومطلعها :

ألا حَىِّ بالغرب حياً حلالا ... أناخوا جمالا وحازوا جَمالا
وعرِّج بيومين أم القـرى ... ونم فعسى أن تراها خيالا
لتسأل عن ساكنيها الرمـاد ... ولم تر للنار فيها اشتعالا

ويومين قرية من قرى إشبيلية ومنها كانت أوّلية بنى عباد .

ومنها فى هجو الرميكية :

تخيرتها من بنات الهجين ... رميكيـة ما تسـاوى عقالا
فجاءت بكل قصيـر العذار ... لئيم النجـادين عمًّا وخالا
قصـار القـدود ولكنهم ... أقاموا عليهـا قروناً طوالا

ثم يشير إلى أيام شبابه مع المعتمد إشارات بذيئة ويخاطبه بقوله :

سأكشف عرضك شيئاً فشيئاً ... وأهتك سـترك حالا فحالا(١)

وعلى أى حال فقد اجتمعت العوامل السياسية والشخصية ، لتؤكد محنة ابن عمار . وقد وجه ابن عمار من سجنه إلى المعتمد قصائد فى الاستعطاف تذيب الجماد ، أو على قول ابن الخطيب «تعالج بمرامها جراح القلوب ، وتُعفِّى على هضبات الذنوب ، لولا ما فرغ عنه من القدر المكتوب ، والأجل المحسوب» ، ومن أشهرها تلك القصيدة المؤثرة التى تهز أوتار القلوب ، والتى مطلعها :

(١) الحلة السيراء (مخطوط الإسكوريال) لوحة ٧٤ و ١٠٢ ، وراجع دوزى : Hist. Abbadidarum V. II. p. 117 وكذلك نفح الطيب ج ٢ ص ٤٥١ و ٤٥٢ .

سجاياك إن عافيت أندى وأسمح ... وعذرك إن عاقبت أجلى وأوضح
وإن كان بين الخطتين مزية ... فأنت إلى الأدنى من الله تجنح
حنانيك فى أخذى برأيك لا تطع ... عداى ولو أثنوا عليك وأفصحوا

ومنهـــا :

أقلنى بما بينى وبينك من رضى ... له نحو روح الله باب مفتح
وعفِّ على آثار جرم سلكتها ... بهبة رحمى منك تمحو وتصفح
ولا تلتفت قول الوشاة وزورهم ... كل إناء بالذى فيـــه يرشح

ومنهـــا :

إلا أن بطشاً للمؤيد يرتمى ... ولكن حلماً للمؤيد يرجح
وبين ضلوعى من هواة تميمة ... ستشفع لو أن الحمام مجلح
سلام عليه كيف داربه الهوى ... إلى فيـــدنو أو على فينتزح
ليهنئه إن مت السلوُّ فإننى ... أموت ولى شوق إليه مبرِّح (١)

على أن تضرع ابن عمار لم يؤثر فى مليكه الصارم ، ولم تجد الرحمة سبيلا إلى قلبه ؛ ويقال إنه مما قضى على عطف المعتمد ، وحفزه إلى التعجيل بالقضاء على وزيره ، هو أن ابن عمار ، حينما وعده المعتمد بصفحه ، حدّث بذلك ولده الرشيد ، وذاعت القصة بعد ذلك ، ونقلها أبو بكر بن زيدون عدو ابن عمار الألد إلى المعتمد ، فاضطرم سخطاً على ابن عمار ، ونهض من فوره ، وفى يده طبرزين(٢) كان قد أهداه إليه ألفونسو ملك قشتالة ، وذهب إلى حيث كان ابن عمار يرسف فى أغلاله ، ففزع ابن عمار لرؤيته ، وارتمى على رجليه يقبلهما ويبللهما بدموعه ، ولكن المعتمد أخذ يضربه بتلك الآلة حتى أجهز عليه ، ولم يتركه إلا جثة هامدة تضرجها الدماء ، ثم أمر به فغسل وكفن ، ودفن فى ركن من « القصر المبارك » . وكان مصرع ابن عمار على هذا النحو المؤسى فى أواخر سنة ٤٧٧ هـ ( أوائل ١٠٨٥ م )(٣) .

---

(١) وردت هذه القصيدة فى قلائد العقيان ص ٩٨ ، وأعمال الأعلام ص ١٦١ ، وفى المعجب ص ٦٧ و ٦٨ .

(٢) هو آلة أشبه بالبلطة .

(٣) راجع دوزى : Hist. Abbadidarum, V. II. p. 118-119 ، والمعجب ص ٦٨ و ٦٩ . ويقول لنا المراكشى إن مصرع ابن عمار وقع فى سنة ٤٧٩ هـ . وراجع ترجمة ابن عمار وأحداث حياته كلها مفصلة فى الحلة السيراء ج ٢ ص ١٣١ — ١٦٥ . ونقلها دوزى بنصها فى : Hist. Abbad. (ص ٨٨ — ١٢٣) .

وهكذا قتل المعتمد بن عباد بيده ، وزيره الشاعر المبرز ، رفيق صباه ، ويده اليمنى فى كثير من المشاريع الخطيرة ، فى بادرة من الحقد المضطرم ، والقسوة التى لا تخبو ، وكانت هذه الضربة الدموية من أفدح أخطائه ؛ ويقال إن المعتمد ندم فيما بعد على تسرعه ، ونغصت عليه هذه الفعلة صفاء حياته . ويحاول الأمير عبد الله بن بُلُقّين أمير غرناطة وهو معاصر للحادث وعليم بظروفه، أن يوضح لنا سبب حقد المعتمد على وزيره فى الفقرة الآتية : « وكانت العداوة الواقعة بينه (أى ابن عمار) وبين المعتمد على يد الرشيد ابنه ، فإنه بفسوقه كان يتكبر على أولاده ، ويضيق عليهم ، ويسىء الصنيعة مع من يجب عليه إكرامه من قرابة سلطانه ، والمعتمد فى هذا كله يصبر له ، ولأنه قد استمال النصارى ، واندخل معهم بحيلته ، فتى ما دهم أمر من قبلهم ، وجهه إليهم ، فيتجلى من أمرهم ما يضيق الصدر به ، وكل ذلك بأموال رئيسه وسعادة أيامه ، وهو بجهله يعتقد أن ذلك لا يتهيأ إلا بسببه ، ويرد الحس كله إلى نفسه ؛ وكانت هذه المعانى مما أحنق عليه المعتمد ، حتى عقب عليه بما كان جديراً به ، وأمكنه الله منه ، وجازاه بما لم يكون له منه بد ، ولا رآه لغيره أهلا» (١) .

ويعلق ابن الخطيب ، على ذلك وقد كان أيضاً من الوزراء الذين عرفوا نزعات الملوك ونقمتهم بقوله : «وسبحان الذى جعل نفوس أكثر الملوك تنقاد فى أزمة حب التشفى ، وطلب الإنصاف ، فلا تتوقف فى مطاوعته ، وذلك لأنها نفوس غير مقهورة بالرياضة والملكات ، ولا مرغمة بفراق الشهوات ، إلا القليل النادر ، ممن كانت نفسه متصفة بالرحمة فى أصل جبلتها ، فهى ساكنة الفورة»(٢) .

وكان ابن عمار من أعظم رجالات الأندلس فى عهد الطوائف ، فكان وزيراً نابهاً ، وقائداً مجرباً يقود الحملات العسكرية الناجحة ، وسياسياً بارعاً ، ومفاوضاً لا نظير له ، يعقد الصلات البعيدة المنال ، ويذلل المشكلات الصعبة ، وقد ذاع صيته فى سائر بلاد الأندلس ، وكذلك فى ممالك اسبانيا النصرانية ، حتى كان ألفونسو السادس ملك قشتالة ، إذا ذكر عنده ابن عمار ، قال «هو رجل الجزيرة» (٣) . بيد أنه كان فى نفس الوقت ، سياسياً مغامراً ، قليل الولاء

---

(١) كتاب البيان أو مذكرات الأمير عبد الله المنشورة بعناية الأستاذ ليفى بروفنسال (القاهرة ١٩٥٥) ص ٨١ .
(٢) أعمال الأعلام ص ١٦٢ .
(٣) المعجب ص ٦٣ .

والوفاء ، مكيافيلّيا ، يسعى إلى تحقيق غايته بأى الوسائل ، دون اعتبار لخلق أو مبدأ .

وكانت مواهبه الأدبية والشعرية ، ألمع ما فى خلاله ، وقد كان ابن عمار بلا ريب من أعظم شعراء الأندلس فى عصره ، وكان هذا العصر الذى سطعت فيه قصور الطوائف عصراً ، اجتمع فيه بالأندلس من أكابر الشعراء ، جمهرة لم تجتمع فى أى عصر آخر ، ويكفى أن نذكر من هؤلاء بنو عباد، وفى مقدمتهم المعتمد، وابن زيدون، وولاّدة بنت المستكفى، وأبو بكر بن اللبانة، والمعتصم ابن صمادح وولده رفيع الدولة، وبنو القبطرنة، وابن عبدون . وكان ابن عمار فى طليعة هذه الجمهرة الشاعرة، وقد ملأ الأندلس بروائع شعره، كما ملأها بذكر أعماله ومغامراته. وقد جمع شعر ابن عمار، ورتبه فى ديوان خاص، أبو الطاهر محمد بن يوسف التميمى(١)، وأورد لنا ابن بسام فى الذخيرة طائفة كبيرة من أخبار ابن عمار، كما وضع تأليفاً خاصاً فى تاريخه(٢) وكذلك وضع ابو بكر ابن قاسم الشلبي مجموعاً فى تاريخ ابن عمار(٣) . وهذه العناية بسيرة ابن عمار وتراثه الشعرى من معاصريه، ومن إليهم ، تنبي عن أهمية هذه الشخصية البارزة فى تاريخ الطوائف ، وعن رفيع مكانتها السياسية والأدبية .

— ٢ —

إلى ذلك الحين استطاع المعتمد بن عباد أن يؤسس أعظم مملكة للطوائف، تمتد فى قلب النصف الجنوبى من شبه الجزيرة، من غرب ولاية تدمير شرقاً، حتّى المحيط الأطلنطى، ومن ضفاف وادى يانة جنوباً حتّى أرض الفرنتيرة. وكان المعتمد قد استطاع فى الواقع فى أواخر أيام الملك العاجز الضعيف القادر ابن ذى النون، أن يستولى على معظم أراضى مملكة طليطلة الجنوبية الشرقية، من المعدن شرقاً حتّى مدينة قونقة. ولعل المعتمد كان يفكر فى غزوات وفتوح أخرى، ينتزع فيها ما استطاع من أراضى جيرانه، لولا أن أيقظه سقوط طليطلة من غمار أحلامه وأطماعه. أجل، لم يكن خافياً على المعتمد ، وعلى أمراء

---

(١) دوزى : Hist. Abbadidarum, V. II. p. 89

(٢) دوزى Hist. Abbadidarum, V. II. p. 105

(٣) الحلة السيراء ج ٢ ص ١٧٣ .

الطوائف جميعاً، أن مملكة طليطلة ، كانت بظروفها وارتماء ملكها الضعيف فى أحضان النصارى، صائرة حتما إلى الفناء، وأن عاصمتها التالدة — طليطلة — سوف تسقط حتما فى يد ملك قشتاله، وكان ابن عباد يشهد تطور هذه المأساة جامداً، بما ينسب إليه من عهود قطعها فى ذلك للملك قشتاله. وربما كان هذا التصرف من المعتمد نحو قضية طليطلة من بين أخطائه السياسية العديدة ،أخطرها جريرة ، وأبلغها دلالة على استهتاره وتهاونه نحو أمته ودينه.ولكن طليطلة ما كادت تسقط فى أيدى القشتاليين ، حتى أدرك المعتمد فداحة الخطأ الذى ارتكبه فى سياسته ، وشعر أن هذه النكبة، ليست إلا نذيراً قوياً له، ولسائر ملوك الطوائف .

وقد سبق أن ذكرنا فيماتقدم أن المعتضد بن عباد تعهد بأداء الجزية لفرناندو ملك قشتالة منذ سنة ٤٥٥هـ (١٠٦٣ م )، وأنه كان يؤدى إليه هذه الجزية بانتظام حتى وفاته فى سنة ١٠٦٥ م، ثم بعد ذلك إلى ولده سانشوملك جليقية . ولما استطاع ألفونسو التغلب على أخويه، وأضحى ملكاً لقشتالة ، كان المعتمد ابن عباد يؤدى إليه الجزية التى كان يدفعها أبوه. وكان ألفونسو يرسل فى كل عام رسله لقبضها من المعتمد . ومما هو جدير بالذكر أن رسول ألفونسو إلى المعتمد بقبض الجزية فى سنة ٤٧٢هـ ( ١٠٧٩ م ) لم يكن سوى الفارس القشتالى الشهير ردريجو بيبار الملقب بالسيد الكمبيادور، أو السيد الكنبيطور كما تسميه الرواية العربية. ولما وفد السيد عندئذ إلى إشبيلية ، كانت قوات ملك غرناطة البربرية تغير على أراضى إشبيلية مع سرية من الفرسان النصارى ، فطلب السيد من مواطنيه الكف عن هذا العدوان تحقيقاً لمقتضيات الصداقة والرعاية ، التى يكنها الملك ألفونسو لصديقه ملك إشبيلية، ولما لم يصغ المغيرون إليه خرج إلى قتالهم فى بعض القوات القليلة التى كانت معه، واستطاع أن يوقع بهم الهزيمة ، فسر المعتمد من تصرفه ، وأدى إليه عدا الجزية ، طائفة كبيرة من التحف والهدايا برسم ملك قشتالة (١) .

وهكذافإن المعتمد،على الرغم من ضخامة ملكه،واتساع موارده،لم يستطع أن ينجو من ذلك النير المرهق، الذى استطاع ألفونسوالسادس أن يفرضه على سائر ملوك الطوائف، ونعنى تأدية الجزية، بل يبدو أن المعتمد رأى فوق ذلك، أنه لن

---

(١) R. Menendez, Pidal : La Espana del Cid. p. 250,259-261

يستطيع أن يمضى فى حكم مملكته آمناً إلا بتوثيق أواصر المودة مع ألفونسو ومحالفته. وتقدم إلينا الرواية القشتالية موضوع ذلك الحلف ولكنها لا تقدم إلينا تاريخه ، وتقول لنا إن الوزير ابن عمار ذهب إلى ليون وتولى المفاوضة فى عقده. وخلاصة ماتم الانفاق عليه، هو أن يقوم ملك قشتالة بمعاونة المعتمد فى حروبه ضد سائر أعدائه من الأمراء المسلمين، وأن يؤدى إليه المعتمد جزية سنوية كبيرة ، وأن يقوم بغزو أراضى مملكة طليطلة الجنوبية،وأن يسلم منها إلى ملك قشتالة الأراضى الواقعة شمال جبال سيرا مورينا (جبل الشارّات) . وتزيدالروايات القشتاليه على ذلك بأن المعتمد قدم فى هذه المناسبة (أو فى مناسبة لاحقة) إحدى بناته لتكون زوجة أو حظية لملك قشتالة، وهى التى تعرفها الروايات القشتالية باسم «زائده» ، وهى قصة سوف نتناولها فى موضعها المناسب(١) .

بيد أن الأمور لم تسر حسبما كان يرجو المعتمد ، فنى سنة٤٧٥هـ (١٠٨٢م) وجه ألفونسو السادس سفارته المعتادة إلى المعتمد بطلب الجزية، وعلى رأسها يهودى يدعى ابن شاليب ، وعسكر رسل ملك قشتالة فى ظاهر المدينة ، فأرسل إليهم المعتمد المال مع بعض أشياخ المدينة، وفى مقدمتهم الوزير ابن زيدون . فلما شاهد ابن شاليب المال والسبائك ، رفض تسلمها بغلظة ،بحجة أنها من عيار زائف ، وهدد بأنه إذا لم يقدم له المال من عيار حسن ، فسوف تحتل مدائن مملكة إشبيلية ، حتى يتم الدفع على الوجه المرغوب . فلما وقف المعتمد على ذلك بعث رجاله فقبضوا على ابن شاليب ، ومن معه من الفرسان القشتاليين ، وأمر باليهودى ، فصلب ، وألقى الفرسان النصارى إلى السجن . ولما علم ملك قشتالة بما وقع لسفرائه ، اضطر أن يرد حصن المدوّر القريب من قرطبة إلى المعتمد ، ثمناً لإطلاق سراحهم ، بيد أنه أقسم أن ينتقم من المعتمد ، أروع انتقام ، وأن يخرب أراضى مملكة إشبيلية كلها حتى المجاز ، ثم بادر تنفيذاً لوعيده ، فحشد جيشاً ضخماً من الجلالقة ، والقشتاليين ، والبشكنش ، وبعث سرياته فعاثت فى أحواز باجة ولبلة، وسار هو إلى أراضى إشبيلية ، وهو يحرق القرى ، وينتسف الزروع ، ويسبى كل من وقع فى يده من المسلمين ، ثم حاصر إشبيلية نفسها مدى ثلاثة أيام، ثم عاث فى أراضى شذونة، وانحدر جنوباً ، وهو يخرب كل

(١) Modesto Lafuente: Historia general de Espana (Madrid 1881) V. II p. 404

ما يقع فى طريقه، حتى وصل إلى مدينة طريف ،فوقف على شاطئ بحر الزقاق، والموج يضرب قوائم فرسه ، والمعتمد طيلة هذه العاصفة الهوجاء يلتزم الدفاع[١]

وكانت خطة ألفونسو السادس فى إضعاف ملوك الطوائف، تقوم أولا على استصفاء أموالهم باقتضاء الجزية،وقد انتهى إلى أن فرض الجزية عليهم جميعاً، ثم على تخريب أراضيهم، وانتساف زروعهم وأقواتهم ومحاصيلهم ، بالغارات المخربة الناهبة، وأخيراً على اقتطاع حصونهم وأرضيهم كلما سنحت الفرص ، وقد نجحت خطته فى ذلك كل النجاح،وبدا ضعف ملوك الطوائف إزاء قوته وعدوانه المنظم، واضحاً ملموساً. وكان لاعتداده بقوته وسلطانه ، ويقينه من تفرق الطوائف وتخاذلهم، يخاطبهم بلغة السيد، ويتسمى فى خطاباته إليهم بالإمبراطور ملك الملتين ،ويجاهر باحتقارهم، والاستهانة بهم. ومما يروى فى ذلك، أنه قال لسفير المعتمد إليه، وهو يهودى يدعى بابن مشعل «كيف أترك قوماً مجانين . تسمى كل واحد منهم باسم خلفائهم وملوكهم وأمرائهم، المعتضد ، والمعتمد ، والمعتصم ، والمتوكل ، والمستعين ، والمقتدر ، والأمين ، والمأمون ، وكل واحد منهم لا يسل فى الذب عن نفسه سيفاً، ولا يرفع عن رعيته ضيما ولا حيفاً ، قد أظهروا الفسوق والعصيان، واعتكفوا على المغانى والعيدان ، وكيف يحل البشر أن يقر منهم على رعيته أحداً ، وأن يدعها بين أيديهم سُداً» [٢] .

وهنا أدرك المعتمد ، فداحة الأخطاء التى تردى فيها بمصانعة ألفونسوا ومحالفته واستعدائه على زملائه أمراء الطوائف ، ولاحت له طوالع المصير المروع الذى سوف ينحدر إليه ،إذا لم تتداركه يد العناية بعون أو نجدة غير منتظرة ، والظاهر أنه فكر عندئذ ولأول مرة ،أن يستنصر بإخوانه المسلمين فيما وراء البحر، فى عدوة المغرب ، فكتب إلى عاهل المرابطين يوسف بن تاشفين ينبئه بما آلت إليه أحوال الأندلس من الخطورة ، وما رزئت به من فقد قواعدها وثغورها ، ويلتمس إليه الإنجاد والعون[٣] . وقد تطورت هذه الفكرة فيما بعد إلى خطة عملية التف حولها سائر ملوك الطوائف وشعب الأندلس كله حسبما نوضح فى موضعه.

---

(١) الحلل الموشية ص٢٥ و ٢٦ . ودوزى Hist. Abbadidarum V. II. p. 174, 187, 188-231 ، وراجع ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٦ .

(٢) دوزى عن كتاب « الاكتفاء» فى Hist. Abbadidarum : V II. p. 20 . وراجع R. Menendez Pidal : La Espana del Cid, p. 259, 318 & 319

(٣) روض القرطاس (طبعة أبسالة ١٨٤٣) ص ٩٢ .

وكان استيلاء ألفونسو السادس على طليطلة معقد نجاحه، وذروة ظفره، فما كاد يدخل عاصمة القوط القديمة، حتى لاح له أن نهاية الطوائف كلها قد دنت، وأنه سوف يتبع نصراً بنصر، ويلتهم مدينة بعد أخرى، ومن ثم فقد بدأ يضع خطته لتنفيذ الخطوة التالية، وذلك بالاستيلاء على مملكة إشبيلية، أهم دول الطوائف، وأقواها يومئذ. فوجه إلى المعتمد بن عباد، رسالة ملؤها الوعيد والنذير، يطالبه بتسليم أعماله، ويحذره من مثل طليطلة ومحنتها، وهى فيما يبدو من إنشاء بعض النصارى المعاهدين أو اليهود الذين يخدمون فى بلاط قشتالة، وقد نقل إلينا صاحب الحلل الموشية، نص هذه الرسالة، كما نقل إلينا رد المعتمد عليها، وإليك نص هاتين الرسالتين، اللتين تنمان عن روح العصر، وأساليبه :

قال ألفونسو فى رسالته: « من الإنبيطور ذى الملتين، الملك المفضل، أذفنش بن شانجه، إلى المعتمد بالله، سدد الله آراءه وبصره مقاصد الرشاد، سلام عليك من مشيد ملك شرفته القنى، ونبتت فى ربعه المنى، باغترار الرمح بعامله، والسيف بساعد حامله، وقد أبصرتم بطليطلة نزال أقطارها، وما حاق بأهلها حين حصارها. فأسلمتم إخوانكم، وعطلتم بالدعة زمانكم، والحذر من أيقظ باله، قبل الوقوع فى الحبالة، ولولا عهد سلف، بيننا نحفظ ذمامه، ونسعى بنور الوفاء أمامه، لنهض بنا نحوكم ناهض العزم ورائده، ووصل رسول الغزو ووارده، لكن الأقدار تقطع بالأعذار، ولا يعجل إلا من خاف الفوت فيما يرومه، وخشى الغلبة على ما يسومه، وقد حملنا الرسالة إليك القرمط ألبرهانس؛ وعنده من التسديد الذى تلقى بأمثالك، والعقل الذى تدبر بلادك به ورجالك، مما أوجب استنابته فيما يدق ويجل، وفيما يصلح لا فيما يخل، وأنت عند ما تأتيه من آرائك، والنظر بعد هذا من ورائك، والسلام عليك، يسعى بيمينك وبين يديك » .

وأجاب المعتمد على رسالة ملك النصارى بالرسالة الآتية : « من الملك المنصور بفضل الله المعتمد على الله، محمد بن المعتضد بالله أبى عمرو وابن عباد، إلى الطاغية الباغية أذفنش بن شانجه، الذى لقب نفسه بملك الملوك وسماها بذى الملتين، قطع الله بدعواه، سلام على من اتبع الهدى. أما بعد فان أول ما يبدأ من دعواه أنه ذو الملتين، والمسلمون أحق بهذا الاسم، لأن الذى تملكوه من أمصار البلاد، وعظيم

الاستعداد، ومجي المملكة ، لا تبلغه قدرتكم ، ولا تعرفه ملتكم ، وانما كانت سنة سعد، أيقظ منها مناديك، وأغفل عن النظر السديد جميل مباديك، فركبنا مركب عجز نسخه الكيس، وعاطيناك كؤوس دعة، قلت فى أثنائها ليس ، ولم تستح أن تأمر بتسليم البلاد لرجالك، وإنا لنعجب من استعجالك برأى لم تحكم أنحاؤه، ولا حسن انتحاؤه، وإعجابك بصنع وافقتك فيه الأقدار ، واغتررت بنفسك أسوأ الاغترار ، وتعلم أنا فى العدد والعديد، والنظر السديد، ولدينا من كماة الفرسان، وحيل الإنسان، وحماة الشجعان، يوم تلتقى الجمعان، رجال تدرعوا الصبر، وكرهوا القبر، تسيل نفوسهم على حد الشفار ، وينعاهم المنام فى القفار، يريدون رحى النون بحركات العزائم ، ويشفون من خيط الجنون بخواتم العزائم، قد أعدوا لك ولقومك جلاداً رتبه الاتفاق، وشفاراً حداداً شحذها الإصفاق، وقد يأتى المحبوب من المكروه، والندم من عجلة الشروه، نبهت من غفلة طال زمانها ، وأيقظت من نومة تجدد إيمانها . ومتى كانت لأسلافك الأقدمين مع أسلافنا الأكرمين ، يد صاعدة أو وقفة متساعدة، إلا ذل تعلم مقداره ، وتتحقق مثاره، والذى جرأك على طلب ما لا تدركه قوم كالحمر ، لا يقاتلونكم جميعاً، إلا فى قرى محصنة ، أو من وراء جدر ، ظنوا المعاقل تعقل ، والدول لا تنتقل، وكان بيننا وبينك من المسالمة ، ما أوجب القعود عن نصرتهم، وتدبير أمرهم، ونسأل الله المغفرة فيما أتيناه فى أنفسنا؛ وفيهم من ترك الحزم وإسلامهم لأعاديهم، والحمد الله الذى جعل عقوبتنا ، توبيخك وتقريعك ، بما الموت دونه، وبالله نستعين عليك ، ولا نستبطئ فى مسيرنا إليك، والله ينصر دينه، والسلام على من علم الحق فاتبعه ، واجتنب الباطل وخدعه »(١) .

— ٣ —

وعلى أثر هذا النذير ، جد المعتمد فى حشد رجاله، وتقوية جيشه، وإصلاح حصونه، واتخاذ كل ما يستطاع من الأهبات الدفاعية. على أنه كان يوقن، كما

---

(١) أورد نص هاتين الرسالتين صاحب «الحلل الموشية» . وقد اعتمدنا فى نقلهما على النص الذى نقله دوزى عن مخطوطات باريس ، وليدن، وجاينجوس (مدريد) ، وهو فيما يبدو أصح وأدق من النص الذى ورد فى طبعة تونس . راجع : Hist. Abbadidarum, V. II. p. 185, 186 & 187
وفى طبعة تونس (ص ٢٣ — ٢٥) .

يوقن زملاؤه ملوك الطوائف، أن ملك قشتالة يعتزم العمل على إبادتهم جميعاً ، وأنهم بقواتهم ومواردهم المحدودة، وصفوفهم الممزقة، لن يستطيعوا له دفعاً .

فى هذه الآونة العصيبة، قرر المعتمد أن ينفذ فكرته فى الاستنصار بإخوانه فيما وراء البحر ، فى عدوة المغرب ، وهم يومئذ المرابطون ، وعاهلهم يوسف ابن تاشفين. وكانت هذه الفكرة قد خطرت لأكثر من أمير من أمراء الطوائف ، وخطرت لكثيرين من زعماء الأندلس وعلمائها . ويقول لنا الأمير عبد الله بن بلقين إن أخاه تميماً أمير مالقة ، كان أول من فكر فى الاستنصار بالمرابطين لينتقم منه[1]، ولكن فكرة الاستنصار بالمرابطين لمقاتلة النصارى كانت أعم وأخطر ، وكانت قد شاعت فى الأندلس على أثر سقوط طليطلة، وما أشاعته تلك النكبة فى الناس من ذعر ويأس، وذاعت بعد الأمراء ، بين سائر الزعماء والفقهاء وطبقات الكافة. وعقد عندئذ فى قرطبة اجتماع كبير من الزعماء والفقهاء، واجتمع رأيهم على وجوب الاستنصار بالمرابطين ، وقدم ابن عباد على أثر ذلك إلى المدينة، وأقر ما ارتأته «الجماعة» . وانضم إلى المعتمد فى ذلك عدة من زملائه رؤساء الطوائف ، ولاسيما أميرى بطليوس وغرناطة . واتفق الرأى على أن ترسل إلى عاهل المرابطين سفارة مشتركة من قضاة قرطبة وبطليوس وغرناطة ، ومعهم أبو بكر بن القصيرة الكاتب (وفى رواية أخرى الوزير أبو بكر بن زيدون) . وهنا تختلف الرواية فى التفاصيل فتقول إحداها إن سفارة الأندلس عبرت البحر ، ولقيت أمير المسلمين بسبتة، وكان قد وصل إليها إثر افتتاح جيشه لها ، من يد واليها يحيى بن سكوت البرغواطى، وشرح له السفراء ما يلقاه أهل الأندلس من الإرهاق والذلة على يد النصارى، وما يهددهم به ملك قشتالة من أخذ بلادهم، وإبادتهم، وأنهم يعتمدون على نصرته وحسن بلائه، فى دفع هذا الخطر عن الأندلس المسلمة. وفى رواية أخرى أن المعتمد بن عباد نفسه، قد عبر البحر فى جماعة من الزعماء، وسار إلى سبتة أو إلى فاس لمقابلة أمير المسلمين ، وأنه هو الذى استنصره بنفسه للجهاد وإنقاذ الأندلس[2] .

---

(١) مذكرات الأمير عبد الله ص ١٠٢ .

(٢) راجع فى ذلك ما نقله دوزى عن النويرى : Hist. Abbadidarum: V. II. p. 143 وما ورد فى الإستقصاء للسلاوى ج ١ ص ١١١ ، ومذكرات الأمير عبد الله ص ١٠٢ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٨٦ . وقد أشار ابن الأبار إلى ذلك أيضاً (الحلة السيراء ج ٢ ص ١٨٦) .

ومن جهةأخرى، فإنه يقال لنا إن المعتمد كان يعارضه فى هذا الاتجاه ولده الرشيد وجماعة من زعماء إشبيلية، وأنه حين خاطب الزعماء فى أمر استدعاء المرابطين أشاروا عليه بأن الأفضل، أن يسعى إلى التفاهم مع ملك قشتالة، وأن يعقد معه الصلح والمهادنة، بأى وسيلة، وكيفما كان الأمر. ولما خلا بولده الرشيد ،أفضى إليه بمخاوفه من سطوة ملك قشتالة، وأنه بعد أن استولى على طليطلة وعادت دار كفر ، قد رفع رأسه، وأخذ يتجه إلى أخذ إشبيلية ، وأنهم فى هذه الجزيرة لا ناصر لهم، وليس فى ملوك الطوائف نفع ولا عون يرتجى، وأنه لا مناص من استدعاء المرابطين لردع ملك قشتالة، فاعترض الرشيد على رأيه وقال له : «ياأبت أتدخل علينا فى أندلسنا من يسلبنا ملكنا، ويبدد شملنا»، فقال المعتمد لولده : «أى بنى والله لا يسمع عنى أبداً أنى أعدت الأندلس دار كفر ولا تركتها للنصارى ، فتقوم اللعنة على فى الإسلام ؛ مثل ما قامت على غيرى . حرز الجمال عندى والله خير من حرز الخنازير». وانتهى الرشيد بأن فوض لأبيه الرأى فيما يجب عمله(١) .

وأما عن أمراء الأندلس، فقد كان يتفق فى الرأى مع المعتمد، على استدعاء المرابطين حسبما رأينا، عبد الله بن بلقين أمير غرناطة ،وقد أوفد رسله مع رسل ابن عباد إلى أمير المسلمين ، وكذلك عمر المتوكل أمير بطليوس ، فقد كان فى مقدمة المؤيدين ، لوقوع بلاده فى منطقة الخطر ، ولاشتداد ملك قشتالة فى إرهاقه . وأما ابن صمادح أمير ألمرية، فلم يكن من المتحمسين لهذا الاستدعاء(٢) ، وكانت ثمة آراء معارضة أخرى ، شعارها التوجس من مقدم المرابطين وأطماعهم .

وقد أورد لنا صاحب الحلل الموشية نصوص رسائل، قيل أن المعتمد بن عباد بعثها إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، بعضها من إنشائه ، وبعضها من إنشاء وزرائه، ومنها رسالة مؤرخة فى جمادى الأولى سنة ٤٧٨هـ، أعنى بعد سقوط طليطلة بأشهر قلائل، وفيها يصف له حال الأندلس، وما أصاب أهلها من الخلاف والتمزق، وما دهاها من عدوان النصارى وإرهاقهم. بيد أنه قد

(١) الحلل الموشية ص٢٧ و ٢٨ ونقلت فى دوزى : Hist. Abbadidarum: V. II. p. 188-189

(٢) راجع مذكرات الأمير عبد الله ص ١٠٣ و ١٠٤ .

وردت من بينها رسالة، لنشك كل الشك فى أنها صادرة من المعتمد بن عباد إلى يوسف بن تاشفين، لأنها قد صدرت بنصها ، بعد ذلك بنحو قرنين من محمد الفقيه (ابن الأحمر) ملك غرناطة، إلى السلطان أبى يوسف المرينى ملك المغرب ، يستنصره ويستنجد به على النصارى(١) .

وقد تتبعنا هنا فكرة استنصار الأندلس بالمريطين بالأخص من ناحية ارتباطها بالمعتمد بن عباد وسياسته. وسوف نعود إلى تتبع مراحلها من الناحية الأخرى ، ناحية ارتباطها بتاريخ المرابطين .

وعلى أى حال فقد استجاب زعيم المرابطين، بعد مشاورات ومباحثات طويلة مع الزعماء والفقهاء، لدعوة أمراء الأندلس ،واعتبر الصريخ ، دعوة إلى المشاركة فى الجهاد، والذود عن الدين المشترك، بيد أنه عملا بنصح وزيره عبد الرحمن بن أسبط ، وهو أندلسى من أهل ألمريه ، خبير بشئون الجزيرة ، اشترط لإجابة الدعوة ، وعبوره إلى الأندلس ، أن يسلم إليه ثغر الجزيرة الخضراء ، ليكون قاعدة لعبوره فى الذهاب والإياب . فنزل المعتمد عند هذه الرغبة بالرغم من معارضة ولده الرشيد ، وكان حاكم الجزيرة يومئذ هو ولده يزيد الراضى ، فأمره باخلائها والانتقال عنها ، لكى تحتلها جنود أمير المسلمين(٢) .

وفى تلك الأثناء كان زعيم المرابطين يوسف بن تاشفين يحشد جنده وعدده ، ويرسلها تباعاً إلى الشمال. فلما تكاملت الحشود ، بعث يوسف بقوة من الفرسان تحت إمرة قائده داود بن عائشة، فعبرت البحر ، واحتلت ثغر الجزيرة الخضراء وفقاً لما تعهد به المعتمد. وفى شهر ربيع الآخر سنة ٤٧٩هـ ( أغسطس ١٠٨٦م ) بدأت الجيوش المرابطية وعلى رأسها زعيمها البطل الشيخ، تعبر البحر من سبتة تباعاً إلى ثغر الجزيرة، وما كادت السفن تتوسط ماء المضيق (مضيق جبل طارق) تتقدمها سفينة يوسف ، حتى نهض الزعيم المرابطى ، وبسط يديه نحو السماء

---

(١) راجع الحلل الموشية ص٣٠ و ٣١، ودوزى Hist. Abbad. V. II. p. 190-191 . وقد وردت الرسالة بنفسها منسوبة إلى محمد بن الأحمر فى «الذخيرة السنية» ص ١٥٩ — ١٦١ . وراجع نهاية الأندلس لمحمد عبد الله عنان الطبعة الثالثة ص ٩٨ .

(٢) الحلل الموشية ص ٣٢ و ٣٣ . وكذلك فى دوزى Hist. Abb. V. II. p. 192-193، وابن الخطيب فى أعمال الأعلام ص ١٥٩ .

قائلا : «اللهم إن كنت تعلم أن فى جوازى هذا خيراً وصلاحاً للمسلمين ، فسهل على جواز هذا البحر ، وأن كان غير ذلك فصعبه على حتى لا أجوزه» . ويروى أن البحر قد هدأ على أثر هذا الدعاء ، وسارت السفن فى ريح طيبة ، حتى رست على الشاطئ ، وما كاد يوسف يعبر إلى أرض الأندلس ، حتى صلى لله شكراً (١) ، ثم نزل بالجزيرة الخضراء ، وشرع فى تحصينها وإصلاح خططها.

هذا وسوف نتتبع ما تلا ذلك من الحوادث فيما سيأتى بعد ، فى حديثنا عن موقعة الزلاّقة .

(١) راجع روض القرطاس ص ٩٣ . وهذا ما رواه يوسف نفسه فى رسالته التى بعث بها عقب انتصاره فى موقعة الزلاقة ، الى المعز بن باديس أمير تونس والتى ، نشرناها فى آخر الكتاب.

# الفصل الرابع

## بنو الأفطس ومملكة بطليوس

مملكة بطليوس. الفتى سابور الفارسى وتغلبه على تلك المنطقة. وزيره عبد الله بن مسلمة يخلفه فى الحكم. بنو الأفطس وأصلهم. ابن الأفطس وابن عباد. الحرب بينهما حول باجة وبعدها. انشغال ابن عباد بقتال البربر. الثورة فى أشبونة وإخمادها. المظفر بن الأفطس. حروبه مع المعتضد بن عباد. موقعة يابرة وهزيمة المظفر. توسط ابن جهور وعقد الصلح بين الفريقين. غزو ملك قشتالة لشمالى مملكة بطليوس. استيلاؤه على بازو ومليقة. غزوه لمدينة شنترين. إذعان المظفر لدفع الجزية. مسير فرناندو لفتح قلمرية. اقتحامها وأسر حاميتها. وفاة فرناندو ملك قشتالة. وفاة المظفر. مقدرته الشعرية والأدبية. المنصور بن الأفطس. وفاته وقيام أخيه عمر المتوكل مكانه. المتوكل وشهرته فى عالم الشعر والأدب. وزراؤه الشعراء. سيادة الأمن والرخاء فى عهده. وزيره ابن الحضرمى. طغيانه وعزله. حوادث مملكة طليطلة. اضطلاع المتوكل بحكمها. محاولة المتوكل إنجاد طليطلة. سقوط طليطلة. تجبر ألفونسو ووعيده. رد المتوكل عليه. اتفاق ملوك الطوائف على استدعاء المرابطين

كان يجاور مملكة إشبيلية من الشمال، مملكة بطليوس، تفصلها عنها جبال الشارّات الكبرى (سيرّا مورينا). وكانت مملكة بَطَلْيوس، تشمل رقعة كبيرة تمتد من غرب مملكة طليطلة، عند مثلث نهر وادى يانة، غرباً حتى المحيط الأطلنطى، وتشمل أراضى البرتغال[1] كلها تقريباً حتى مدينة باجة فى الجنوب، وكانت العاصمة بطليوس تتوسط هذه الرقعة الكبيرة التى تشمل عدا العاصمة، عدة مدن هامة أخرى مثل ماردة، ويابرة، وأشبونة، وشنترين، وشنترة، وقُلُمرية، وبازو، وغيرها.

كان بنو مسلمة، أو بنو الأفطس، كما اشتهر اسمهم، سادة هذه المملكة الشاسعة، حكموها نيفاً وسبعين عاماً، وسطع بلاطهم أيام الطوائف. وكان استيلاؤهم على حكمها من المصادفات المحضة. ذلك أن هذه المنطقة، وهى النصف الشمالى، من ولاية الغرب الأندلسية، كان يحكمها عند اضطرام الفتنة، واليها الفتى سابور الفارسى، أحد صبيان فائق الخادم مولى الحكم المستنصر، وقد استبد بحكمها

(1) ويسميها ابن الخطيب أرض «برتقال» (أعمال الأعلام ص ١٨٣).

منذ انهيار الخلافة، واستمر قائماً بأمرها ثلاث عشرة عاماً. وكان فارساً شجاعاً، ولكن عاطلا عن المعرفة والخبرة بشئون الحكم، فكان يعاونه فى تدبير الشئون وزيره عبد الله بن محمد بن مسلمة، وكان من قبل والياً لماردة، وكان هو الحاكم الحقيقى. وتوفى سابور فى سنة ٤١٣هـ ( ١٠٢٢ م) ، وترك ولدين حدثين هما عبد الملك وعبد العزيز، وأوصى أن يستمر وزيره فى الحكم، حتى يبلغا أشدهما. فاستولى عبد الله على الأمور وضبط المملكة، واحتوى على تراث سابور لنفسه، وتلقب بالمنصور ، وأضحى سيد المملكة الحقيقى .

وينتمى أبو محمد عبد الله بن مسلمة المعروف بابن الأفطس، إلى قبيلة من قبائل مكناسة المغربية ، وأصله من بلدة فحص البلوط من ولاية قرطبة ، من أسرة متواضعة لم يكن لها نصيب فى النباهة والمعرفة . بيد أن بنى الأفطس كانوا بالرغم من ذلك يرجعون نسبتهم إلى تجيب ، وقد مدحتهم الشعراء بهذا الصفة ، وهذا ما يثير تعجب ابن حيان ، وما يصفه « بالغريب النادر » (١) .

وكان عبد الله بن الأفطس مع ذلك رجلا كثير المعرفة والدهاء، بعيد النظر، وافر الحزم والسياسة، فلما استولى على حكم هذه المنطقة الشاسعة بعد وفاة سابور، أبدى فى ضبطها وإدارتها مقدرة وبراعة. بيد أنه كان يرقب حركات جاره من الجنوب القاضى أبى القاسم بن عباد ونمو قوته، فى حذر وتوجس. ذلك أنه كان بالرغم من مناعة حاضرته بطليوس، ومناعة أسوارها وقصبتها الضخمة ، فإن اتساع رقعة مملكته، وتباعد قواعدها الأخرى فى الجنوب والشرق ، كان يجعل من الصعب عليه الدفاع عنها إزاء أطماع جاره القوى . وسرعان ما بدأت تتحقق مخاوفه. ذلك أن القاضى ابن عباد انتهز قيام ثورة محلية فى مدينة باجة، وقعت بين أهلها بسبب الرياسة ، وسير إليها حملة بقيادة ولده إسماعيل ، ومعه قوة من جند حليفه البرزالى صاحب قرمونة. وكان ابن الأفطس قد استطاع خلال تلك الفترة أن يحتل باجة بجنده ، إذ هى أقرب إليه، وأكثر اتصالا بمنطقته من بمنطقة بنى عباد ، فهاجمت قوات إشبيلية المشتركة مدينة باجة ، وحاصرت قوات ابن الأفطس ، ووقع بينهما قتال عنيف انتهى بتمزيق قوات ابن الأفطس وأسر معظمها ، وكان محمد بن الأفطس ولد المنصور بين الأسرى، فاعتقل حيناً لدى

---

(١) ابن الأبار فى الحلة السيراء (المخطوط) لوحة ٨٥ أ . وفى المطبوع ج ٢ ص ٩٧ .

البرزالى فى قرمونة حتى أطلق سراحه (سنة ٤٢١ هـ) ، وعاد إلى بطليوس وقد صقلته المحنة ، وشحذت عزمه ، لمقاومة بنى عباد ومحاربتهم .

ثم عادت الحرب فاضطرمت بعد ذلك ببضعة أعوام بين ابن عباد وابن الأفطس، ذلك أن حملة جديدة بقيادة إسماعيل بن عباد، توغلت شمالا فى أراضى ابن الأفطس وعاثت فيها ، وعندما سار فى طريق العودة، خرج عليه ابن الأفطس فى قوة كثيفة ، وطارده بشدة ، ففر إسماعيل فى قلة من فلوله ، وأسر معظم عسكره، وفتك ابن الأفطس بهم كما فتك النصارى بكثير منهم، وكانت محنة شنيعة لبنى عباد (٤٢٥ هـ — ١٠٣٤ م) .

وشغل أبو القاسم بن عباد فى الأعوام التالية، عن محاربة الأفطس بمحاربة البربر ، فاشتبك أولا مع يحيى المعتلى ، وانتزع منه قرمونة (٤٢٧ هـ) ، ليردها إلى صاحبها حليفه محمد بن عبد الله البرزالى . بيد أنه عاد فسير قواته إلى قرمونة واستولى عليها. وعندئذ هرع البربر لنصرة البرزالى، وفى مقدمتهم إدريس المتأيد صاحب مالقة، وباديس بن حبوس صاحب غرناطة ، ووقعت بين البربر وجند إشبيلية موقعة دموية، هزم فيها الإشبيليون وقتل أميرهم إسماعيل بن عباد (٤٣١هـ) وذلك كله حسبما فصلناه من قبل فى أخبار الدولة العبادية .

وأما ابن الأفطس، فقد شغل بقيام الثورة فى أشبونة . أقصى ثغور مملكته . ذلك أن عبد الملك وعبد العزيز ابنى سابور ، حينما توفى والدهما، واستولى ابن الأفطس على تراثه ، غادرا بطليوس ولجآ إلى ثغر أشبونة ، ثم ثار عبد العزيز واستولى على حكم المدينة ، واستمر فى حكمها بضعة أعوام. ولما توفى حل أخوه عبد الملك مكانه ، ولكنه كان سيئ الحكم والإدارة ، فاختل النظام ، وغلبت الفوضى ، وكتب أهل أشبونة سراً الى ابن الأفطس، أن يرسل إليهم والياً من عنده ، فسير إليهم ولده محمداً فى قوة كثيفة، ودخل محمد أشبونة دون صعوبة، ورأى عبد الملك بن سابور أن يذعن إلى التسليم، على أن يؤمن فى نفسه وأهله وماله؛ فمنح ما طلب ، وسمح له بأن يسير إلى حيث شاء ، فقصد إلى مدينة قرطبة ، واستأذن الوزير ابن جهور فى الالتجاء إليها ، فأذن له ودخلها بأهله وأمواله ، ونزل دار أبيه سابور ، وعاش هناك حتى توفى (١) .

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٣٧ .

وكان عبد الله بن الأفطس المنصور، خلال ذلك يمضي في تنظيم مملكته الشاسعة وفى تحصينها، وفى تقوية جيوشة وأهباته ، وذلك كله توقعا لعدوان بني عباد، ولا سيما بعد أن خلف المعتضد بن عباد أباه القاضي أبا القاسم فى الحكم، وظهرت إمارات توثبه ونياته العدوانية . ثم توفى المنصور فى جمادى الأولى سنة ٤٣٧ هـ ( ١٠٤٥ م) .

فخلفه ولده محمد بن عبد الله بن الأفطس وتلقب بالمظفر .وكان عالماً وفارساً شجاعاً، وقد عركته خطوب الحرب والأسر الذى عاناه. فسار فى الحكم سيرة أبيه من العمل على ضبط النظام ، والدفاع عن الثغور.وكان مثل أبيه يرى فى بني عبادخصومه الأوائل، ويعمل على تقوية أهباتهالدفاعية لاتقاء عدوانهم.وقد رأينا فيما تقدم ، كيف دبر المعتضد بن عباد خطته للاستيلاء على إمارات الغرب الصغرى ،وبدأ فى ذلك بمهاجمة مدينة لبلة،وكيف أن المظفر بن الأفطس هرع إلى نجدة صاحبها ابن يحيى ،وبعث بعض قواته من البربر لمهاجمة إشبيلية،وكيف حاول الوزير ابن جهور عبثاً أن يحول بتدخله،ونصحه للفريقين،دون نشوب الحرب بينهما.وهكذا اضطرم القتال بين المعتضد وابن الأفطس،وعاث كل منهما فى أراضى الآخر،وهزم ابن الأفطس أولا،ولكنه استأنف الكرة ، واستطاع أن يوقع بالمعتضد هزيمة شديدة قتل فيها كثير من جنده (٤٣٩ هـ — ١٠٤٧ م) .

ثم تطورت الحوادث وساء التفاهم بينابن يحيى وابن الأفطس،حيث أبى أن يرد إلى حليفه القديم ، ما ائتمنه عليه من أمواله وذخائره أيام الحرب ، ولم يكتف ابن الأفطس بذلك بل أرسل قواته من الفرسان لمهاجمة لبلة ، فاستغاث ابن يحيى بالمعتضد ، فلبى دعوته وأرسل قواته،فاشتبكت مع خيل ابن الأفطس فمزقتهم وأفنتهم ، واحتزت من رؤوسهم ، نحو مائه وخمسين . وجهز المعتضد بعد ذلك قوة كبيرة على رأسها ولده إسماعيل ووزيره ابن سلام ، وعبرت القوات العبادية نهر وادى يانة ، وتوغلت فى أراضى ابن الأفطس شمالا ، حتى مدينة يابُرة،وحشد ابن الأفطس فى الوقت نفسه سائر قواته، واستعان بقوة بعثها إليه حليفه إسحق بن عبد الله البرزالى تحت قيادة ولده المعز ، والتقى الفريقان دون أهبة ولا نظام على مقربةمن يابرة ، فهزم ابن الأفطس وفشا القتل فى جنده ، وقتل المعز بن إسحق، وحز رأسه وأرسل إلى إشبيلية ، وقتل عم لابن الأفطس

وأرسل رأسه كذلك ، ولجأ ابن الأفطس فى بقية فرسانه إلى يابرة ، تحت كنف صاحبها عبيدالله الخراز . وكانت موقعة دموية شنيعة قدر فيها عدد القتلى بأكثر من ثلاثة آلاف ، وكان وقوعها فى سنة ٤٤٢ هـ ( ١٠٥٠ م ) .

واستمرت الحرب بين الفريقين بعد ذلك عدة شهور أخرى، استطاع المعتضد خلالها أن يوقع بقوات ابن الأفطس غير مرة وأن يعيث فى أراضيه، وأن يفتح منها عدة حصون . وتفاقمت الحال ، بما أصاب مملكة بطليوس من تخريب الزروع ،وهلاك الأقوات ونضوب الموارد ، ووقوع القحط، واضطر المظفر بن الأفطس فى النهاية ، أن يعتصم بقاعدته بطليوس،بعد ما نكل سائر أصدقائه عن معونته .ولم ينقذه من عدوان المعتضد سوى تدخل الوزير أبى الوليد ابن جهور ، حيث لبث موالياً لسعيه فى درء الفتنة،وحقن الدماء ، حتى كلل سعيه فى النهاية بالنجاح ، وعقد الصلح بين المعتضد بن عباد والمظفر بن الأفطس فى ربيع الأول سنة ٤٤٣ هـ ( ١٠٥١ م ) [١] .

وكان المظفر فى نفس الوقت عرضة لمضايقة المأمون بن ذى النون صاحب طليطلة وعدوانه.وقد أغار المأمون مراراً على أراضى ابن الأفطس،ووقعت بينهما معارك محلية كثيرة.ولم نعثر على تاريخ هذه المعارك بطريقة قاطعة . ولكن الظاهر أنها وقعت بعد الصلح بين ابن عباد وابن الأفطس ، أعنى بعد سنة ٤٤٣ هـ[٢] .

على أن المظفر ماكاد يفيق من تلك الحروب المدمرة،حتى بدأت الحوادث والأزمات الخطيرة فى أطراف مملكته الغربية والشمالية . وكان خصومه فى تلك المرة هم النصارى،جيرانه من الشمال . وكان فرناندو الأول ( فرديناند أوفرذلند) ولد سانشو الكبير ، بعد أن استتب له ملك قشتالة وليون ، يرقب تطور الحوادث لدى جيرانه المسلمين باهتمام ، ويتحين فرص العمل ، وكانت أطراف مملكة بطليوس الشمالية الواقعة فيما بين نهر التاجُه ونهر دويرة ، تشمل منطقة نائية مجردة من وسائل الدفاع القوية،وتكاد تكون قواعدها المنعزلة المستقلة معتمدة فى الدفاع على نفسها . فاتجهت أنظار فرناندو ،إلى تلك المنطقة ، ولم يلبث أن اخترقها بقواته وذلك فى سنة ٤٤٩ هـ ( ١٠٥٧ م ) واستولى أولا على مدينتى لاميجو ( مليقة )

---

(١) راجع مانقل فى الذخيرة عن ابن حيان،المجلد الأول للقسم الأول ص ٣٦١ – ٣٦٥ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ٢١١ – ٢١٣ و٢٣٤ و٢٣٥ .

(٢) راجع البيان المغرب ج ٣ ص ٢٨٢ و ٢٨٣ .

وبازو الواقعتين فى شمال البرتغال ، واللتين عمرهما المسلمون منذ أيام المنصور ؛ ولم يلق الغزاة دفاعاً يذكر، ولم يتحرك ابن الأفطس ليقينه من عقم المحاولة . واسترق فرناندو ، سكان المدينتين الإسلاميتين ، وأسكن بهما النصارى .

ولم تمض بضعة أعوام أخرى حتى بعث فرناندو بحملة قوية إلى تلك المنطقة تقدر بعشرة آلاف فارس ، وكان ابن الأفطس قد رفض أداء الجزية لملك قشتالة، فسارت قوة من الفرسان النصارى جنوباً، صوب مدينة شنترين الواقعة على نهر التاجُه، وهى من أهم قواعد مملكة بطليوس البرتغالية، وكان ابن الأفطس على علم بتحرك النصارى، فهرعت قواته إلى شنترين قبل أن يصلوا إليها . ولما أشرف عليها النصارى بعث قائدهم « القومس » إلى ابن الأفطس للمفاوضة ، فاجتمع الاثنان فى نهر التاجُه ، وانتهت المفاوضة بينهما على عقد الهدنة ، وعلى أن يدفع ابن الأفطس لملك قشتالة جزية سنوية مقدارها خمسة آلاف دينار .

على أن أعظم خطب نزل بالمسلمين وبمملكة بطليوس يومئذ، هو فقد مدينة قُلُمرية أعظم مدن البرتغال الشمالية ، وكان قد افتتحها المنصور بن أبى عامر منذ ثمانين عاماً فى سنة ٣٧٥هـ. وكانت يومئذ تحت حكم مولى من موالى ابن الأفطس يدعى راندة، ولديه للدفاع عن المدينة نحو خمسة آلاف جندى. ويقال إن الذى أشار على فرناندو بغزو قلمرية هو مستشاره المستعرب سسنندو الذى سبق ذكره، وكان فى الأصل من أهل هذه الناحية. وسار فرناندو بنفسه إلى قلمرية فى قوات كثيفة وضرب حولها الحصار، واستمر الحصار زهاء ستة أشهر، والضيق يشتد بالمدينة المحصورة يوماً عن يوم. وفى النهاية تفاهم راندة مع فرناندو سراً على أن يخرج من المدينة آمناً على نفسه وأهله ، وأصبح أهل المدينة فلم يجدوا قائدهم ، فعرضوا التسليم على أن يمنحوا الأمان ، فرفض فرناندو واستمر فى الحصار ، حتى فتك الضيق ونفاد الأقوات بالحامية وأهل المدينة ، وأخيراً اقتحم النصارى المدينة عنوة ، فسلمت الحامية ، واعتبر جنودها أسرى ، وسبى الكثير من أهلها نساء ورجالا. وخرج منها من استطاع منهم تاركين متاعهم وأموالهم ، ووقعت هذه الحادثة بالمسلمين فى سنة ٤٥٦هـ ( ١٠٦٤ م ) . وعين فرناندو مستشاره سسنندو حاكما لقلمرية وأعمالها ، ومنحه عندئذ لقب « الكونت» أو « الوزير» . ثم عمد فرناندو بعد ذلك إلى إخراج السكان المسلمين من سائر الأراضى الواقعة

بين نهرى دويرة ومنيو ( منديجو ) وذلك تنفيذاً لخطته فى إجلاء المسلمين عن الأراضى المتاخمة لمملكته شيئاً فشيئاً .

ولما سقطت قلمرية فى يد العدو ، قصد واليها السابق راندة إلى بطليوس ، وكان قد لجأ إلى المعسكر النصرانى ، ثم غادره طمعاً فى عفوسيده ، فاستقبله ابن الأفطس بجفاء وأنبه على شنيع مسلكه ، ثم أمر بضرب عنقه جزاء خيانته(١) .

هذا وسوف نعود إلى تفصيل حوادث سقوط قلمرية فى أخبار فرناندو ملك قشتالة .

وهدأ ضغط النصارى على أراضى ابن الأفطس بوفاة فرناندو ملك قشتالة بعد ذلك بنحو عامين فى سنة ١٠٦٥م .ووقعت بين أبنائه الثلاثة حرب استمرت بضعة أعوام،شغل خلالها النصارى عن عدوانهم على أراضى المسلمين. ولما خلص عرش قشتالة وليون بعد ذلك إلى ولده ألفونسو ، تحولت دفة هذا العدوان إلى مملكتى طليطلة ، وإشبيلية ، حسبما نفصل بعد .

وتوفى المظفر بن الأفطس فى سنة ٤٦١هـ ( ١٠٦٨ م) ، فخلفه ولده يحيي الملقب بالمنصور .

ولابد لنا قبل أن نترك الكلام على المظفر بن الأفطس، أن نذكر ذلك الجانب اللامع الوضاء فى حياته،ونعنى الناحية الفكرية . فقد كان المظفر من أعلم أهل عصره ، وكان شغوفاً بالشعر والأدب ، وكان ينكر الشعر على قائله فى زمانه، ويقول : « من لم يكن شعره مثل شعر المتنبى أو المعرى فليسكت »،ولا يرضى بدون ذلك . وقد اشتهر فى عالم الأدب بكتابه الضخم الموسوم « بالمظفرى» نسبة إلى اسمه ، وهو موسوعة أدبية وتاريخية عظيمة تحتوى على كثير من الأخبار والسير والنبذ المختارة،والطرائف المستملحة،والغرائب الملوكية،والنوادر اللغوية.وأنفق المظفر فى تصنيفه أعواماً،وانتفع فى تصنيفه بسائر ما تحتويه خزائنه الزاخرة بنفائس الكتب ،ولم يستعن فى وضعه إلا بكاتبه أبى عثمان سعيد بن خيره.وقيل إن« المظفرى »كان يحتوى على خمسين مجلداً،وقيل بل على عشرة أجزاء ضخمة وقد لبث هذا المصنف الكبير عصوراً ، معروفاً متداولا ، تذكره التواريخ

(١) راجع فى سقوط قلمريه وما تقدمه من حوادث : البيان المغرب ج ٣ ص٢٣٨ و٢٣٩، وأعمال الأعلام ص ١٨٤ ، ودوزى فى Hist. des Musulmans d' Espagne, V. III. p. 67-77

الأندلسية، بيد أنه قد غاض ودثر فى النهاية، ولم تصل إلينا منه سوى شذور قليلة(١) .

وما كاد المنصور بن الأفطس يبدأ حكمه حتى ثار به أخوه عمر، وكان يرى نفسه أحق منه بالملك والحكم. وكان عند وفاة والده المظفر حاكماً لمدينة يابرة وما إليها، فنهض لمناوأة أخيه . واستمر النزاع بينهما بضعة أعوام حتى تفاقم . ولجأ عمر إلى معاونة المأمون بن ذى النون صاحب طليطلة ، واتجه المنصور إلى معاونة المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية ، واضطرمت الفتنة، وكادت تدمر كل شئ ، لولا أن توفى يحيى المنصور فجأة سنة ٤٦٤هـ (١٠٧٢م) ، فخمدت الفتنة ودخل عمر بطليوس، وتولى الحكم مكان أخيه دون منازع ، وتلقب بالمتوكل على الله ، وندب ابنه العباس حاكماً ليابرة .

وكان المتوكل بن الأفطس من أشهر ملوك الطوائف وأبقاهم ذكراً، وهو لم يشتهر بحروبه وأعماله السياسية ، وإنما اشتهر بعلمه وأدبه وشعره ، وبلاطه الزاهر، الذى كان جامعة أدبية أكثر منه قصراً ملوكياً . وقد وصفه لنا معاصره الفتح بن خاقان فى تلك العبارات الشعرية : « ملك جند الكتائب والجنود ، وعقد الألوية والبنود ، وأمر الأيام فائتمرت، وطافت بكعبته الآمال واعتمرت إلى لسن وفصاحة ، ورحب جناب للوافد وساحة ، ونظم يزرى بالدر النظيم، ونثر تسرى رقته سرى النسيم ، وأيام كأنها من حسنها جمع ، وليال كان فيها على الأنس حضور مجتمع ، راقت إشراقاً وتبلجاً، وسالت مكارمه أنهاراً وخلجاً»(٢)

وقال ابن الخطيب : « وكان المتوكل ملكاً عالى القدر، مشهور الفضل ، مثلا فى الجلالة والسرو، من أهل الرأى والحزم والبلاغة، وكانت مدينة بطليوس فى مدته دار أدب وشعر ونحو وعلم » .

ونقل إلينا ابن الخطيب تلك التحفة الأدبية من نظم المتوكل، رواها وزيره أبو طالب ابن غانم قال: كتب إلى المتوكل بهذين البيتين فى ورقة كرنب من بعض البساتين :

انهض أبا طالب إلينا ... واسقط سقوط الندى علينا

فنحن عقد بغير وسطى ... ما لم تكن حاضراً لدينا(٣)

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٣٦، ٢٣٧ ، وأعمال الأعلام ص ١٨٣ ، ١٨٤ والمعجب لعبد الواحد المراكشى ص ٤١ ، ٤٢ .

(٢) قلائد العقيان ص ٣٦ .

(٣) أعمال الأعلام ص ١٨٥ .

وحسبك أن تعلم أنه كان من بين وزراء المتوكل، الكاتب والشاعر الكبير أبو محمد عبد المجيد بن عبدون «عظيم ملكهم، ونظيم سلكهم» حسبما يصفه صاحب القلائد، وصاحب مرثيتهم الرائعة التى نشير إليها فيما بعد، وهو من أبناء مدينة يابرة، وبنو القبطرنة وهم الشاعر المبدع أبو بكر بن عبد العزيز البطليوسى، وأخواه أبو محمد وأبو الحسن، وكلاهما أيضاً شاعر رائق النظم.

وفى عهد المتوكل على الله تمتعت مملكة بطليوس بفترة من السلام والأمن والرخاء، وسطع بلاطها فى ظل أميرها الحكيم العالم. والواقع أن مملكة بطليوس كانت بالرغم مما نزل بها من الأحداث والخطوب، فى عهد المظفر بن الأفطس، تتفوق من حيث انتظام الأحوال وسيادة الأمن والرخاء، على كثير من دول الطوائف الأخرى. وفى ذلك يقول المؤرخ «وكانت أيام بنى المظفر (يقصد بنى الأفطس) بمغرب الأندلس أعياداً ومواسم، وكانوا ملجأ لأهل الأدب، خلدت فيهم، ولهم قصائد شادت مآثرهم، وأبقت على غابر الدهر حميد ذكرهم» (١):

وكان معاونه فى الحكم الوزير ابن الحضرمى، قد أساء السيرة، وتجبر وطغى وتعسف فى معاملة الناس فأقاله، وأبعده عن خدمته. فكتب إليه الوزير يستعطفه فراجعه المتوكل بخطاب جاء فيه: «ياسيدى وأكرم عددى، الشاكى ما جنته يده لا يدى، ومن أسأل الله التوفيق فى ذاته إذ حرمه فى ذاتى ... نعم فإنى رأيت الأمر قد ضاع، والإهمال قد انتشر وذاع، فأشفقت من التلف، وعدلت إلى ما يعقب إن شاء الله الخلف، وأقبلت استدفع من مواقع أنسى، وأشاهد ما ضيعته بنفسى، فلم أر إلا لججاً قد توسطتها، وغمرات قد تورطتها، فشمرت عن الساق للججها، وخدمت النفس بمهجتها، حتى خضت البحر الذى أدخلنى فيه رأيك، ووطئت الساحل الذى كان يبعدنى عنه سعيك .... وقد أطمعت فى العدو ولبست لأهل دهرى الاستكبار والعتو، واستهنت بجيرانك، وتوهمت أن المروءة فى التزام زهوك، وتعظيم شأنك، حتى أخرجت النفوس على وعليك، فانجذب مكروه ذلك إليك، ومع ذلك فليس لك عندى إلا حفظ الحاشية وإكرام الغاشية» (٢).

ووقعت أيام المتوكل فى جارته مملكة طليطلة أحداث كان لها صدى فى مملكته.

---

(١) المراكشى فى المعجب ص ٤٢ .
(٢) قلائد العقيان ص ٤١ .

ذلك أن يحيي بن ذى النون صاحب طليطلة الملقب بالقادر بالله ، كان أميراً ضعيفاً سيئ الخلال، وكانت تناهضه عصبة قوية من الأعيان . وفى سنة ٤٧٢هـ قامت ثورة فى طليطلة أضرمها أولئك الخصوم الناقمون، وحاولوا الاعتداء عليه، ففر من المدينة ناجياً بنفسه، ولجأ إلى بعض حصونه الخارجية، وخشى أعيان المدينة انهيار النظام ، وذيوع الفوضى ، فاتجهوا إلى المتوكل، واستدعوه لضبط المدينة، فأجابهم كارهاً، وغادر بطليوس إلى طليطلة ، وأقام بها زهاء عشرة أشهر يدبر شئونها ، حتى تهيأت لأميرها المنفى سبل العودة ، فغادرها المتوكل ، وقد حصل من أسلاب ابن ذى النون وذخائره على قسط وافر(١) .

وكان ألفونسو السادس خلال ذلك يشدد الضغط على مملكة طليطلة، ويرهقها بغاراته المتوالية ، وينتسف زروعها وأقواتها، تمهيداً لمشروعه الضخم فى الاستيلاء عليها . وكان القادر بن ذى النون يدافع العدو ما استطاع ، ويتطلع حوله للاستنجاد بجيرانه المسلمين ، فلا يجد سميعاً أو منجدا. ولم يتقدم لإغاثته سوى المتوكل بن الأفطس، فقد سار بجنده لمدافعة جند قشتاله. بيد أن ألفونسو السادس لم يشأ الدخول فى معارك عقيمة ، وآثر الانسحاب مؤقتاً، حتى تحين الفرصة المنشودة .

بيد أنه لم تمض على ذلك بضعة أعوام، حتى حلت النكبة بمملكة بنى ذى النون، واستولى ألفونسو السادس ملك قشتالة على طليطلة، وذلك فى المحرم من سنة ٤٨٧هـ (١٠٨٥ م) حسبما نفصل فى موضعه. وشعر ملك قشتالة على أثر إنزال هذه الضربة الفادحة بالمسلمين، أنه أضحى قادراً على تحدى دول الطوائف جميعاً، والقضاء عليها ، واحدة بعد أخرى. وكان من أثر ذلك أن أرسل إلى المتوكل يطلب إليه تسليم بعض قلاعه وحصونه ، وأن يؤدى له الجزية، ويتوعده بشر العواقب إذا رفض ، ولم يك ثمة شك فى خطورة هذا الوعيد، بعد أن سقطت طليطلة حصن الأندلس على نهر التاجُه، وعبر النصارى نهر التاجُه لأول مرة، ومع ذلك أبى المتوكل أن يستجيب إلى الوعيد ، ورد على ملك قشتالة برسالة قوية حازمة ، تفيض شجاعة وإباء ونبلا يقول فيها :

«وصل إلينا من عظيم الروم كتاب مدع فى المقادير وأحكام العزيز القدير ، يرعد

---

(١) أعمال الأعلام ص ١٨٠ .

ويبرق، ويجمع تارة ثم يفرق، ويلدد بجنوده الوافرة، وأحواله المتظافرة، ولو علم أن لله جنوداً أعز بهم الإسلام، وأظهر بهم دين نبينا محمد عليه السلام أعزة على الكافرين، يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون ...

أما تعييرك للمسلمين فيما وهى من أحوالهم، فبالذنوب المركوبة، ولو اتفقت كلمتنا مع سائرنا من الأملاك، علمت أى مصاب أذقناك، كما كانت آباؤك تتجرعه، فلم نزل نذيقها من الحمام ضروب الآلام شؤماً تراه وتسمعه، وإذا المال تتورعه. وبالأمس كانت قطيعة المنصور على سلفك، أهدى ابنته إليه مع الذخائر التى كانت تفد كل عام عليه، وأما نحن إن قلت أعدادنا، وعدم من المخلوقين استمدادنا، فما بيننا وبينك بحر نخوضه، ولا صعب نروضه، إلا السيوف تشهد بحدها رقاب قومك، وجلاد تبصره فى ليلك ويومك، وبالله تعالى وملائكته المسومين، فنقوى عليك ونستعين ... وما تربصون بنا إحدى الحسنيين، نصر عليكم فيالها من نعمة ومنة، أو شهادة فى سبيل الله، فيالها من جنة، وفى الله العوض مما به هددت، وفرج يفتر بما مددت، ويقطع بك فيما أعددت » (١).

وندب المتوكل قاضيه العلامة والفقيه الأجل، أبا الوليد الباجى، ليطوف بحواضر الأندلس، ويتصل بالرؤساء، ويدعوهم إلى لم الشعث، وتوحيد الكلمة ومدافعة العدو، فقام بالمهمة، واتصل بسائر الرؤساء، ولم يدخر وسعاً فى نصحهم ووعظهم (٢).

ومع ذلك فان المتوكل لم يجد من زملائه المسلمين من يستنصر به، وقد روعهم جميعاً ماحل بطليطلة، وكان ملك قشتالة قد استولى منذ سنة ١٠٨٠ م (٤٧٣ هـ) على مدينة قورية وقلاعها، وهى من أطراف مملكة بطليوس الشمالية وحصنها على نهر التاجه، وأضحى السبيل بذلك أمامه ممهداً لكى يجتاح أراضيها بسهولة. وكان المعتمد بن عباد قد تلقى منه مثل المطالب والنذر التى تلقاها المتوكل، ورد عليه بمثل رد المتوكل أو أشد. وكان أن تطورت الحوادث بسرعة، واعتبر ملوك الطوائف بالخطب الداهم، وانتهى بهم الأمر إلى ذلك القرار الخطير، الذى شاء القدر أن يكون نقطة تحول فى حياة الأندلس وفى تاريخها، ونعنى استدعاء المرابطين.

---

(١) تراجع هذه الرسالة فى الحلل الموشية (تونس ١٣٢٩ هـ) ص ٢٠ — ٢٢.
(٢) ابن الأبار فى الحلة السيراء (القاهرة) ج ٢ ص ٩٨.

وقد كان عمر المتوكل، إلى جانب زميله المعتمد بن عباد ، وكلاهما يومئذ هدف لأخطر عدوان مباشر من جانب ملك قشتالة ، فى مقدمة المؤيدين لهذه الخطوة، وقد كتب إلى أمير المسلمين ، كما كتب المعتمد ، يلتمس عونه وغوثه. والظاهر أن المتوكل وجه صريخه لأمير المسلمين قبل سقوط طليطلة ، حسبما يبدو ذلك من رواية صاحب الحلل الموشية[1]، وقد انتهت الينا من قلم هذا الأمير العالم تلك الرسالة البليغة المؤثرة يصف فيها لأمير المسلمين محنة الأندلس ، وما دهاها من التفرق والانحلال ، ويستنصره إلى الجهاد ، والإنجاد العاجل :

« لما كان نور الهدى، أيدك الله ، دليلك ، وسبيل الخير سبيلك، ووضحت فى الصلاح معالمك، ووقفت على الجهاد عزائمك، وصح العلم بأنك لدعوة الإسلام أعز ناصر ، وعلى غزو الشرك أقدر قادر ، وجب أن تستدعى ، لما أعضل الداء ، وتستغاث لما أحاط بالجزيرة من البلاء ، فقد كانت طوائف العدو المطيف بأنحائها «أهلكهم الله»[2]، عند إفراط تسلطها واعتدائها[3]، وشدة كلبها واستشرائها، تلاطف بالاحتيال، وتستنزل بالأموال، ويخرج لها عن كل ذخيرة، وتسترضى بكل خطيرة[4] ، ولم يزل دأبها التشطط والعناد ، ودأبنا الإذعان والانقياد، حتى نفد[5] الطارف والتلاد ، وأتى على الظاهر والباطن النفاد ، وأيقنوا الآن بضعف المنن ، وقويت أطماعهم فى افتتاح المدن ، واضطرمت فى كل جهة نارهم ، ورويت من دماء المسلمين أسنتهم وشفارهم ، ومن أخطأه القتل منهم ، فإنما هم بأيديهم أسارا وسبايا، يمتحنونهم بأنواع المحن والبلايا، وقد هموا بما أرادوه من التوثب، وأشرفوا على ما أملوه من التغلب ، فيالله ويالله للمسلمين ، أيسطوا هكذا بالحق الإفك ، ويغلب التوحيد الشرك ، ويظهر على الإيمان الكفر ، ولا يكشف هذه البلية النصر ، ألا ناصر لهذا الدين المهتضم ، ألا حامى لما استبيح من الحرم ، وأنا لله على ما لحق عرشه من ثل، وعزه من ذل، فإنها الرزية التى ليس فيها عزاء، والبلية التى ليس مثلها بلاء . ومن قبل هذا ما كنت خاطبتك، أعزك الله، بالنازلة فى مدينة قورية ، أعادها الله ، وأنها مؤذنة للجزيرة بالخلا ، ومن فيها من المسلمين بالجلا ، ثم مازال ذلك التخاذل يتزايد، والتدابر يتساند ، حتى تخلصت

---

(١) الحلل الموشية ص ٢٠ . (٢) الزيادة من البيان المغرب (الأوراق المخطوطة)

(٣) البيان المغرب «واعتزازها» (٤) البيان المغرب «نفيسة» . (٥) البيان المغرب «استصفى» .

القضية ، وتضاعفت البلية ، وتحصلت فى يد العدو مدينة سُرية ، وعليها قلعة تجاوزت حدالقلاع ، فى الحصانةوالامتناع ، وهى من المدينة كنقطة الدائرة « وواسطة القلادة» تدركها من جميع نواحيها ، ويستوى فى الأرض بها قاصيها ودانيها ، وماهو إلا نفس خافت ، وزمر داهق ، استولى عليه عدو مشرك ، وطاغية منافق ، إن لم تبادروا بجماعتكم عجالا ، وتتداركوها ركباناً ورجالا ، وتنفروا نحوها خفافاً وثقالا ، وما أحضكم على الجهاد بما فى كتاب الله ؛ فإنكم له أتلى ، ولا بما فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنكم إلى معرفته أهدى ، وكتابى إليكم هذا يحمله الشيخ الفقيه الواعظ ، يفصلها ويشرحها ، ومشتمل على نكتة هو يبينها ويوضحها ، فإنه لما توجه نحوك احتساباً ، وتكلف المشقة إليك طالباً ثواباً ، عولت على بيانه ، ووثقت بفصاحة لسانه والسلام »[(١)] .

والظاهر أن المتوكل ، تلقى كما تلقى ابن عباد من أمير المسلمين ، كتاباً يعده فيه بالجواز والإنجاد .

ونحن نقف فى سرد أخبار المتوكل ومملكة بطليوس عند ذلك الحد ، إذ هى تندمج عندئذ فى تيار الحوادث العامة ، الذى جرف الأندلس وملوك الطوائف جميعاً ، وهو ما سنعنى بتفصيله فى موضعه .

---

(١) البيان المغرب — فى الأوراق المخطوطة التى عثرنا بها فى مكتبة القرويين .

# الفصل الخامس

## مملكة بنى ذى النون فى طليطلة

مملكة طليطلة وأهمية موقعها . بنو ذى النون . أصلهم وظهورهم . عبد الرحمن بن ذى النون وولده إسماعيل . أحوال طليطلة عقب الفتنة . استدعاء أهلها لإسماعيل . ولايته لطليطلة ، وتلقبه بالظافر . كبير الجماعة أبو بكر الحديدى . وفاة إسماعيل وقيام ولده المأمون . الحرب بين المأمون وابن هود . هزيمة المأمون وارتداده . استعانته بفرناندو ملك قشتالة . عيث النصارى فى أراضى ابن هود . التحالف بين المأمون وابن عباد . استعانة ابن هود بملك قشتالة وعيثه فى أراضى طليطلة . تحالف المأمون مع غرسية ملك نافار . عيث النصارى فى أراضى طليطلة وسرقسطة . سعى أهل طليطلة للصلح . مهاجمة ابن هود لمدينة سالم . غزو القشتاليين لأراضى طليطلة . غزو النافاريين لأراضى سرقسطة . وفاة ابن هود وانتهاء الفتنة . النزاع بين المأمون وبين ابن الأفطس . إغارة ملك قشتالة على أراضى طليطلة . تعهد المأمون له بالجزية . استيلاء المأمون على بلنسية . تختلف الروايات فى ذلك . وفاة فرناندو ملك قشتالة والنزاع بين أولاده . فرار ألفونسو . التجاؤه إلى المأمون . محاولة المأمون غزو قرطبة وفشله . مؤامرة ابن عكاشة . استيلاؤه على قرطبة واستدعاؤه للمأمون . مقتل سراج الدولة ابن المعتمد . دخول المأمون قرطبة ثم وفاته . زحف ابن عباد على قرطبة واقتحامه إياها . مصرع ابن عكاشة . المأمون وخلاله . ثراؤه وقصوره الباذخة . ما ينسب إليه من البخل . ابن حيان يهدى إليه كتابه . يحيى القادر حفيد المأمون وخلفه . الوزيران ابن الفرج وابن الحديدى . بطش القادر بابن الحديدى . القلاقل والمؤامرات ضد القادر . ضغط ابن هود عليه . يلتمس حماية ملك قشتالة ويعترف بطاعته . الثورة فى طليطلة وفرار القادر . المتوكل بن الأفطس يتولى حكم طليطلة . استعانة القادر بألفونسو واسترداده لعرشه . مشروع ألفونسو لغزو طليطلة . المعتمد بن عباد يعقد حلفاً مع ألفونسو خضوع ملوك الطوائف لملك قشتالة . اختلاف أهل طليطلة . الحزب الموالى للنصارى . تخريب ألفونسو لأراضى طليطلة . انصراف ملوك الطوائف عن غوثها . أبو الوليد الباجى ودعايته . عمر المتوكل يحاول إنجادها . حصار ألفونسو لطليطلة . القادر وموقفه المريب . تفاقم الخطب . محاولة أهل المدينة التفاهم مع ألفونسو . إصرار ألفونسو على التسليم . عروض التسليم وشروطه . ألفونسو السادس يدخل طليطلة . مغادرة القادر إياها . سقوط طليطلة وآثاره المادية والأدبية . طليطلة حاضرة قشتالة . أثر النكبة فى موقف الطوائف . فجيعة الشعر الأندلسى .

لم تكن أهمية مملكة بنى ذى النون . فى طليطلة وأعمالها ، فى ضخامة رقعتها ، وإن كانت أيضاً من أكبر دول الطوائف رقعة ، ولكن فى موقعها الحربى ( الاستراتيجى ) على مشارف الأندلس الشمالية الوسطى . ونحن نعرف أن طليطلة وأعمالها ، كانت منذ قيام الدولة الإسلامية بالأندلس تعرف بالثغر الأوسط

لمتاخمة حدودها للممالك الإسبانية النصرانية ، واعتبارها بذلك حاجز الدولة الإسلامية وجناحها الشمالى الأوسط ، ضد عدوان النصارى .

ولم يتغير هذا الوضع بقيام دولة بنى ذى النون، على أثر انهيار الخلافة ، وتمزق الأندلس ، فى تلك المنطقة ، ومن ثم كانت أهمية مملكة طليطلة. وكانت هذه المملكة تشمل رقعة كبيرة فى قلب الأندلس ، تمتد شرقى مملكة بطليوس، من قورية وترجالُه نحو الشمال الشرقى ، حتى قلعة أيوب وشنتمرية الشرق، جنوب غربى مملكة بنى هود فى الثغر الأعلى ، وتمتد شمالا بشرق فيما وراء نهر التاجُه متاخمة لقشتالة القديمة ، وجنوباً بغرب حتى حدود مملكة قرطبة ، عند مدينتى المعدن والمدور ، وتتوسطها عاصمتها طليطلة . ومن أعمالها مدينة سالم ووادى الحجارة وقونقة ووبذة وإقليش ومورة وطلبيرة وترجالُه وغيرها .

كانت هذه المنطقة الشاسعة الهامة وقت الفتنة غنما لبنى ذى النون ، أقاموا بها مملكة لامعة زاهية ، ولكن سيئة الطالع ، قصيرة الأمد . وقد كان بنوذى النون من أصول البربر ، من قبائل هوارة، ويقال إن أصل لقبهم هو زنون ، فتطور بمضى الزمن إلى رسمه المعروف ، أعنى ذى النون ، وقد ظهروا وفقاً لأقوال الرواية ، منذ أيام الدولة الأموية ، حيث كان جدهم الأعلى ذو النون بن سليمان حاكما لحصن إقليش، منذ أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن. وظهر جدهم ذو النون هذا ، ونال عطف الأمير محمد عن طريق حادث عارض ، خلاصته أن الأمير محمدا، عند اجتيازه فى بعض غزواته لأرض شنت برية (١) ، موطن ذى النون اعتل له خصى من أكابر خصيانه، وهو فى طريق العودة من غزاته ، فتركه عند ذى النون حتى يبرأ من علته أو يموت ، فاعتنى به ذو النون عناية فائقة حتى برئ ، ثم أخذه بنفسه إلى قرطبة ، فسر الأمير محمد بمروءته ، وكافأه على صنيعه بأن أهدى له سجلا بولايته على ناحيته ، واعتباره زعيم قومه ، وارتهن بعض أولاده كفالة بحسن طاعته، ومن ذلك الحين يظهر اسم بنى ذى النون على مسرح الحوادث . ومنها أن موسى بن ذى النون ، اشترك أيام الفتنة فى الخلاف

(١) شنت برية وبالإسبانية Santaver ، هى بلدة حصية كانت تقع شمالى غربى قونقة ، وجنوبى شرقى وادى الحجارة على مقربة من منابع نهر التاجه، وقد كانت قاعدة للكورة الأندلسية التى تسمى بهذا الاسم ، والتى تشغل منطقة قونقة وإقليش حتى شرقى طليطلة .

وخرج عن الطاعة ، وذلك فى سنة ٢٦٠ هـ ، وأخضعه الأمير محمد [١] . ومن ذلك أيضاً أن ابنه الفتح بن موسى ، خرج فى مستهل عهد الناصر بقلعة رباح وأحوازها ، فبعث إليه الناصر بحملة طاردته وانتهت بإخضاعه .

ويقول لنا ابن الخطيب إن بنى ذى النون لم يكن لهم رياسة ولانباهة إلا فى دولة المنصور بن أبى عامر ، ولكن ابن حيان يذكر لنا من جهة أخرى «أنه فى شهر جمادى الأولى سنة ٣٦٣ هـ فى عهد الحكم المستنصر بالله سجل لمطرف بن اسماعيل ابن عامر ذى النون على وبذة »[٢] وحصنه ، وأضيفت اليه أكثر حصون شنت برية وقراها[٣] . ويقع حصن وبذة هذا على مقربة من شمال حصن إقليش معقل بنى ذى النون فيما بعد . وعلى أى حال ففى أيام المنصور، ظهر عبد الرحمن ابن ذى النون وولده إسماعيل، وخدم فى ظل المنصور، والظاهر أن عبد الرحمن هذا هو ولد مطرف بن إسماعيل بن ذى النون السابق ذكره . فلما انقرضت الدولة العامرية، لحق بالثغر، واجتمع إليه بنو عمه ، ومنحه سليمان الظافر حكم إقليش. ولما مات الفتى واضح العامرى حاكم قلعة قونقة ، استولى عليها إسماعيل بن عبد الرحمن بن ذى النون، وضبطها حتى يجىء بزعمه من يولى عليها . وأخذ إسماعيل يستولى على الأنحاء المجاورة شيئاً فشيئاً، حتى بسط حكمه على كورة شنتبرية كلها . وأولاه سليمان الظافر عطفه ، فمنحه رتبة الوزارة، ولقبه بناصر الدولة . ونحن نعرف أن البربر كانت لهم فى أيام سليمان الغلبة والكلمة العليا ، فلما اضطرمت الفتنة وانهارت السلطة المركزية ، أعلن إسماعيل استقلاله بما فى يده من الأراضى ، وجبى الأموال ، واتسعت أعماله . وينوه ابن حيان ، ببخله وإمساكه فى النفقة، ثم يصفه فيما يلى : « ولم يرغب فى صنيعة ، ولا سارع إلى حسنة ، ولا جاد بمعروف ، ولا عرّج عليه أديب ولا شاعر ، ولا امتدحه ناظم ولا ناثر ، ولا استخرج من يده درهم فى حق ولا باطل، ولا حظى أحد منه بطائل ، وكان

---

(١) نقل إلينا ابن حيان هذه المعلومات عن عيسى بن أحمد الرازى ، ووردت فى القطعة المخطوطة من تاريخ ابن حيان المحفوظة بمكتبة جامع القرويين (لوحة ٢٧٢ ب) .

(٢) وهى بالأسبانية Huete

(٣) ورد ذلك فى المقتبس لابن حيان — قطعة مكتبة أكاديمية التاريخ بمدريد المنشورة بعناية الأستاذ عبد الرحمن الحجى ( بيروت ١٩٦٥ ) ص ١٥٠ .

مع ذلك سعيد الجد ، تنقاد إليه دنياه ، وتصحبه سعادته ، فينال صعاب الأمور بأهون سعيه ، وهو كان فرط الملوك فى إيثار الفرقة ، فاقتدى به من بعده ، وأموا فى الخلافة نهجه، فصار جرثومة النفاق ،ومنه تفجر ينبوع الفتن والمحن » وهكذا كان مؤسس مملكة بنى ذى النون (١) .

وكانت طليطلة حينما اضطرمت الفتنة، وانهار سلطان الحكومة المركزية، قد قام بالأمر فيها وضبطها قاضيها أبو بكر يعيش بن محمد بن يعيش الأسدى. بيد أنه يبدو أنه لم يكن منفرداً بالرياسة ، وأنه كان يحكم معه جماعة من الرؤساء على نحو ما كانت الجماعة فى بدايتها بقرطبة، وكان من هؤلاء ابن مسرّة، وعبد الرحمن ابن متيوه . ثم وقع الخلاف بين الجماعة ، وعزل القاضى ابن يعيش ، وسار إلى قلعة أيوب وتوفى بها فى سنة ٤١٨ هـ (٢) . ولما توفى عبد الرحمن بن متيوه ، خلفه فى الحكم ولده عبد الملك ، وأساء السيرة ، واضطربت الأمور ، فرأى أهل طليطلة أن يتخلصوا من أولئك الزعماء جملة ، وبعثوا رسلهم إلى عبد الرحمن ابن ذى النون فى شنتبرية يستدعونه لتولى الرياسة ، فوجه إليهم ولده إسماعيل، وكان ذلك فى سنة ٤٢٧ هـ ( ١٠٣٦ م ) .

وهكذا تولى إسماعيل بن ذى النون حكم طليطلة وأعمالها ، وتلقب بالظافر وامتدت رياسته شرقاً حتى قونقة وجنجالة ، واعتمد فى تدبير الأمور على كبير الجماعة بطليطلة أبى بكر بن الحديدى ، وكان عالماً وافر العقل والدهاء ، يحظى بتأييد الكثرة الغالبة من أهل المدينة، فكان إسماعيل لا يقطع أمراً دون رأيه ومشورته . ولم يطل أمد اسماعيل فى الملك أكثر من بضعة أعوام ، إذ توفى فى سنة ٤٣٥ هـ ( ١٠٤٣ م ) . وفى عهده ذاعت قصة ظهور هشام المؤيد ، وكان هشام المزعوم هذا بقلعة رباح من أعمال مملكته ، فأخرج منها وأخذ إلى إشبيلية ، حيث أظهره القاضى ابن عباد ، وأخذ له البيعة وأعلن خلافته ، حسبما ذكرنا ذلك فى موضعه .

فخلفه ولده يحيى بن إسماعيل ، وتلقب بالمأمون ، وسار على سنة أبيه فى

---

(١) راجع فى أصل بنى ذى النون ونشأتهم : الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ١١٠ و ١١١ ، وأعمال الأعلام ص ١٧٦ و ١٧٧ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٦١ .

(٢) ابن بشكوال فى الصلة رقم ١٥٢٠ .

تقديم وزيره ابن الحديدى ، والاعتماد على رأيه فى مهام الشئون . وكان ثمة إلى جانب ابن الحديدى ثلاثة وزراء آخرين ، أوصى أبوه إسماعيل بأن يشركهم فى رأيه ، ويعتمد على عونهم ، وهم الحاج بن محقور ، وابن لبون ، وابن سعيد ابن الفرج[1]. وفى عهد المأمون اتسعت حدود مملكة طليطلة، وترامت شرقاً حتى بلنسية ، وأضحت من أعظم دول الطوائف رقعة وموارد ، وساد بها الأمن والرخاء .

بيد أن عهد المأمون الذى استطال ثلاثة وثلاثين عاماً، كان فى الوقت نفسه مليئاً بالحروب والخصومات ، التى اضطرمت بين المأمون ، وبين منافسيه القويين ابن هود صاحب سرقسطة والثغر الأعلى ، وابن عباد صاحب إشبيلية . ووقع النزاع بادئ بدء بين المأمون، وبين ابن هود جاره من الناحيه الشمالية الشرقية . وكانت سلسلة المدن والقلاع الحصينة التى تمتد بين الثغر الأعلى ، وبين مملكة طليطلة، منذ قلعة أيوب حتى وادى الحجارة ، موضع الاحتكاك بين الفريقين ، وكانت مدينة وادى الحجارة بالأخص مثار نزاع بينهما، وبالرغم من أنها كانت من أعمال مملكة طليطلة، إلا أن فريقاً من أهلها كانوا ينزعون إلى الانضواء تحت سلطان سليمان بن هود صاحب سرقسطة ، وكان سليمان يعمل على بث الاضطراب فيها، على يد رسله وأعوانه ، فلما نضجت دعوته أرسل إليها قوة من جيشه بقيادة ولده وولى عهده أحمد فنازلتها ، ثم دخلتها بمعاونة بعض أهلها الضالعين معه ( ٤٣٦هـ — ١٠٤٤ م ) . وما كاد المأمون بن ذى النون يقف على هذا الاعتداء، حتى هرع فى قواته إلى وادى الحجارة ، ونشبت بينه وبين أحمد بن هود معارك كانت الغلبة فيها لابن هود ، فارتد بقواته ، وابن هود يطارده حتى حصره فى مدينة طلبيرة ، الواقعة على نهر التاجه غربى طليطلة ؛ وشدد ابن هود فى الضغط على المأمون ومضايقته، ثم كتب إلى أبيه يخبره بما تهيأ له ،فكتب إليه أبوه أن يرفع الحصار عن طلبيرة ، وأن يترك المأمون وشأنه ، فصدع بالأمر ، وارتد بقواته عائداً إلى سرقسطة ، ونجا المأمون من مأزق شديد الحرج .

ولم يشأ المأمون أن يقف عند هذا الحد، بل صمم على متابعة الحرب والانتقام من ابن هود ، ففاوض فرناندو الأول ملك قشتالة ، وطلب عونه ، وتعهد

---

(١) أعمال الأعلام ص ١٧٧ ، والذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ١١٣ .

بأن يقر بسيادته ، وأن يؤدى له الجزيه(١) ، فاستجاب فرناندو لدعوته؛ وبعث سريات من جنده ، فعاثت فى أراضى ابن هود المتاخمة لقشتالة، وأمعنت فيها تخريباً ، وكان ذلك فى أوان الصيف والزروع على وشك الحصاد، فقام الجند النصارى بحصدها ، ونقلها إلى بلادهم ، وجردت المنطقة من سائر الزروع والأقوات ، وقتل النصارى ، وسبوا ما استطاعوا ، ثم عادوا إلى بلادهم ؛ كل ذلك وابن هود ممتنع فى حصونه مجتنب الاشتباك مع المعتدين . وانتهز المأمون هذه الفرصة ، فأغار بدوره على أراضى ابن هود المتاخمة له وعاث فيها :

ورأى المأمون فى نفس الوقت أن يقوى أواصر الصداقة مع المعتضد بن عباد صاحب إشبيلية ،طمعاً فى عونه ونصرته على ابن هود ، فوعده ابن عباد بما طلب ، وأسفرت المفاوضات بينهما ، عن اعتراف المأمون بالدعوة الهشامية ، التى احتضنها ابن عباد ، ورفضها فى البداية إسماعيل بن ذى النون ، وأخذت البيعة لهشام المؤيد فى طليطلة، ودعى له على منابرها(٢) . بيد أن ابن عباد ما لبث أن شغل بحروبه مع ابن الأفطس ، ولم ينل المأمون من عونه شيئاً .

وأما ابن هود فإنه مالبث أن انحدر إلى نفس الطريق الذى انحدر إليه المأمون وسعى بدوره إلى محالفة النصارى، واستعدائهم على خصمه ابن ذى النون؛ وبعث إلى فرناندو أموالا وتحفاً طائلة ، على أن يغير على أراضى ابن ذى النون ، فاستجاب فرناندو إلى دعوته ، وبعث سرياته فاخترقت أراضى طليطلة شمالا ، حتى وادى الحجارة ، وقلعة النهر ( قلعة هنارس ) ، وأمعنت فيها عيثاً وتخريباً ، فاستشاط المأمون غيظاً ، والتمس محالفة غرسية ملك ناڤار أخى فرناندو ملك قشتالة ، وبعث إليه بالأموال والتحف ، فأغار بقواته على أراضى ابن هود المتاخمة له، فيما بين تطيلة ووشقة وعاث فيها، وافتتح منها قلعة قلهرّة (٤٣٧هـ — ١٠٤٥ م ) ، وكانت مما افتتحه المنصور بن أبى عامر من أعمال ناڤار الجنوبية ، وقام فرناندو ملك قشتالة مرة أخرى بالإغارة على أحواز طليطلة وتخريبها . وهكذا استباح النصارى أراضى المملكتين الإسلاميتين ، بمساعى ابن هود وابن ذى النون الذميمة ، وانهارت فيها خطوط الدفاع ، وساءت أحوال المسلمين إلى

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٧٨ ، وكذلك: P. y Vives : Los Reyes de Taifas, p.53

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٢٠ .

أبعد حد. واضطر أهل طليطلة أن يبعثوا إلى سليمان بن هود بعض كبرائهم، سعياً إلى طلب الصلح والمهادنة، فقصدوا إليه فى سرقسطة فناشدوه السلم، وحذروه من العواقب، ومما تهيأ للنصارى من الظفر، فتظاهر بالقبول، وكذلك أبدى ابن ذى النون ميله إلى المهادنة والصلح، وصرف حلفاءه النصارى إلى بلادهم.

على أن ابن هود لم يكف عن خطته، فخرج بقواته مع سرية من حلفائه النصارى. وهاجم مدينة سالم، وهى نهاية أعمال طليطلة المتاخمة له، وقتل معظم المدافعين عنها، ثم استولى على سائر الحصون التى كان قد انتزعها منه المأمون، وكان معه فى تلك الغزوة، عبد الرحمن بن إسماعيل بن ذى النون، أخو المأمون الثائر عليه يدله على عوراته وثغراته. وهرع المأمون بقواته إلى مدينة سالم للدفاع عنها، وانتهز النصارى من حلفاء ابن هود هذه الفرصة، فعاثوا فى أراضى طليطلة كرة أخرى، واشتد الخراب والكرب بأهل طليطلة، فبعثوا إلى فرناندو يسألونه الصلح والمهادنة، فطالب منهم أموالا كثيرة، واشترط شروطاً فادحة، عجزوا عن قبولها، وبعثوا يقولون له، لو كانت لدينا هذه الأموال، لأنفقناها على البربر، واستدعيناهم للدفاع عنا، فرد عليهم فرناندو بما يأتى، وهى أقوال تمثل سياسة اسبانيا النصرانية نحو الأندلس أصدق تمثيل:

« أما استدعاؤكم البرابرة، فأمر تكثرون به علينا، وتهددونا به، ولا تقدرون عليه، مع عداوتهم لكم، ونحن قد صمدنا إليكم ما نبالى من أتانا منكم، فإنما نطلب بلادنا التى غلبتمونا عليها قديماً فى أول أمركم، فقد سكنتموها ما قضى لكم، وقد نصرنا الآن عليكم برداءتكم، فارحلوا إلى عدوتكم، واتركوا لنا بلادنا فلا خير لكم فى سكناكم معنا بعد اليوم، ولن نرجع عنكم، أو يحكم الله بيننا وبينكم » (١).

وفى الوقت نفسه كانت قوات غرسية ملك ناڤار، حليف ابن ذى النون، تغير على أراضى ابن هود، وتعيث فيها. وهكذا استمرت الفتنة والنضال بين « هذين الأميرين المشئومين على المسلمين » ثلاثة أعوام من سنة ٤٣٥ إلى آخر سنة ٤٣٨ هـ، ولم تنقطع إلا بموت سليمان بن هود فى العام ذاته، وكانت فتنة

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٨٢.

وضيعة كبيرة ، ونموذجاً صارخاً لتلك الحروب والمنافسات الإنتحارية المدمرة التى انحدر إليها ملوك الطوائف (١) .

وتنفس المأمون بن ذى النون الصعداء لوفاة خصمه الألد ، وهدأت الأمور فى الثغر الأعلى ، إذ قسمت مملكة ابن هود بين أولاده الخمسة كما سيجئ ، بيد أن المأمون لم يلتزم السلم والهدوء طويلا ، بل اتجه إلى مخاصمة بنى الأفطس جيرانه من الغرب ، ونشبت بينه وبين المظفر بن الأفطس صاحب بطليوس سلسلة من المعارك المحلية ، لم تسفر عن أية نتائج ذات شأن . وقد أشرنا فيما تقدم إلى أن هذه المعارك ، قد نشبت بين الفريقين على الأرجح بعد سنة ٤٤٣هـ ( ١٠٥١ م ).

وكان فرناندو ملك قشتالة ، قد عاد فى تلك الآونة إلى الإغارة على أراضى مملكة طليطلة ، ولكن فى تلك المرة لحسابه الخاص ، وكان هذا الملك القوى ، يطمح إلى إخضاع ممالك الطوائف الضعيفة المتخاصمة ، أو على الأقل إلى أن يرهقها بمطالبه فى أداء الجزية ، ثم يتوصل باستصفاء أموالها إلى إضعافها. فى سنة ١٠٦٢م ( ٤٥٤ هـ ) خرج فى جيش قوى من الفرسان والرماة ، وانقض على أراضى مملكة طليطلة الشمالية ، فخربها وعاث فيها عيثاً شديداً ، ولم يجد المأمون فى النهاية بداً من أن يذعن إلى طلب الصلح ، وأن يتعهد بأداء الجزية .

وكان من أهم أعمال المأمون بعد ذلك ، استيلاؤه على بلنسية وأعمالها. وكانت بلنسية يومئذ تحت حكم عبد الملك بن عبد العزيز بن أبى عامر ، وهو حفيد للمنصور وكان قد ولى حكمها على أثر وفاة أبيه عبد العزيز فى آخر سنة ٤٥٢ هـ ، وكان صهراً للمأمون بن ذى النون ، تزوج ابنته عقب وفاة أخيه زوجها الأول ، فأهانها وأساء عشرتها ، لما كان عليه من ذميم الصفات ، والخلاعة ، والانهماك فى الشراب ، والانحطاط فى مهاوى اللذات الوضيعة . فحقد عليه المأمون وأضمر له الشر ، وكانت ثمة أسباب سياسية أخرى لغضب المأمون على صهره ، خلاصتها أنه طلب إليه أن يعاونه بالجند فاعتذر عبد الملك بأنه لا يستطيع بذل مثل هذه المعاونة ، نظراً لتحالف الفتيان العامريين أمراء قسطلونة وشاطبة ومربيطر ضده ، وتربصهم به . فاعتزم المأمون أمره ضد صهره ، وهنالك فى استيلاء

---

(٢) راجع فى حروب المأمون وابن هود ، البيان المغرب ج ٣ ص ٢٧٨-٢٧٢ ، وأعمال الأعلام ص ١٧٨ . وراجع دوزى: Hist. des Musulmans d' Espagne V. III. p. 74—75

المأمون على بلنسية روايتان الأولى ، أنه قدم إلى بلنسية زائراً لصهره ، فاستقبله عبد الملك هو وغلمانه وعبيده بقصره ، فأقام لديه أياماً ، ثم دبر له فى ذات ليلة كميناً ، فقبض عليه وعلى ابنه ، وأخرجهما ليلا إلى بلدة شنت برية ، واستولى بذلك على بلنسية بأيسر أمر .

وأما الرواية الثانية فتقول لنا إن المأمون استعد سراً لغزو بلنسية، واستعان بفرقة من الجند النصارى أمده بها حليفه فرناندو الأول وصاحب السيادة الاسمية عليه ، وأن القوات المتحالفة دهمت بلنسية ، والبلنسيون مثل أميرهم غافلون غارقون فى اللهو واللعب، فلم يستطع البلنسيون دفاعاً، ومزقت قواتهم، وقتل منهم عدد جم، وأسر عبد الملك بن أبى عامر وآله ، ولم ينقذ حياته سوى تدخل زوجه ابنة المأمون . وتسمى الرواية هذه الموقعة بموقعة بطرنة ، وهى بلدة من ضواحى بلنسية، وتنسب وقوعها إلى سنة ٤٥٥ هـ أو ٤٥٧ هـ أو ٤٥٨ هـ ، بيد أن المرجح أنها وقعت فى ذى الحجة سنة ٤٥٧ هـ ( أكتوبر سنة ١٠٦٥ م ) . وتختلف الرواية فى مصير عبد الملك بن أبى عامر ، فيقال إن صهره المأمون اعتقله فى شنت برية أو قلعة إقليش ، أو قلعة قونقة[١] .

ولم يمض قليل على ذلك حتى توفى فرناندو ملك قشتالة (ديسمبر ١٠٦٥)، وثارت بين أولاده الثلاثه سانشو ملك قشتالة ، وألفونسو ملك ليون ، وغرسية ملك جليقية ، حرب أهلية استمرت أعواماً ، وانتهت مرحلتها الأولى فى سنة ١٠٧١ م ، بانتصار سانشو واغتصابه ملك أخويه ، والتجأ غرسية إلى حماية ابن عباد ملك إشبيلية ، والتجأ ألفونسو إلى حماية المأمون بن ذى النون ، وعاش فى بلاط طليطلة زهاء تسعة أشهر معززاً مكرماً ، حتى توفى أخوه سانشو قتيلا تحت أسوار سمورة ، حينما أراد انتزاعها من يد أخته أوراكا ، فغادر طليطلة إلى ليون واسترد عرشه . ويقال إنه حينما وصل إليه نبأ وفاة أخيه وهو بطليطلة أخفاه ، وأراد أن يغادرها سراً ، ففطن المأمون إلى ذلك ، وحاول اعتقاله ، ولكنه استطاع الفرار . وعلى أى حال ، فإن ألفونسو ، استطاع خلال إقامته بطليطلة فى ضيافة صديقه وحاميه المأمون ، أن يدرس أحوالها وأحوال بلاطها،

---

(١) راجع البيان المغرب ج ٣ ص ٢٥٢ و٢٥٣ و٢٦١ و٢٦٧ و٣٠٣ ، ودوزى : Hist. des Musulmans d' Espagne V. III. p. 79 وراجع أيضاً اشباخ : تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين (الطبعة الثانية سنة ١٩٥٨) ص ٤٩ .

ومواطن ضعفها ، وأن يستغل ذلك فيما بعد ، فى تدبير القضاء على مملكة المحسن إليه[١] .

وقد أشرنا من قبل عند الكلام على دولة بنى جهور بقرطبة ، إلى ماحدث من محاولة المأمون بن ذى النون غزو قرطبة ، وانتزاعها من يد الجهاورة ، وكيف استغاث عبد الملك بن جهور بصديقه ابن عباد ، فبعث إليه بالمدد تحت إمرة قائديه خلف بن نجاح ومحمد بن مرتين ، ورد المأمون عن المدينة ، ولكن قوات ابن عباد استولت عليها بطريقة غادرة ، وفقاً لخطة سرية وضعها المعتمد ابن عباد من قبل،وانتهى الأمر بالقضاء على دولة الجهاورة (٤٦٢ هـ — ١٠٧٠ م) وندب المعتمد لحكمها ولده الحاجب سراج الدولة عباداً بن محمد بن عباد ، وأبقى معه حامية بقيادة ابن مرتين .

ولكن المأمون بن ذى النون لم يقف عند هذا الحد ، ولبث يتحين الفرصة لتنفيذ مشروعه فى الاستيلاء على قرطبة ، وهنا لجأ إلى سلاح التآمر والدس، فاتصل برجل من رجاله يدعى حكم بن عكاشة ، وكان مغامراً وافر الجرأة ، وكان من قبل من معاونى ابن السقاء ، وزير بنى جهور ، فلما قتل ابن السقاء ، قبض عليه فيمن قبض عليهم ، وزج إلى السجن ، ففر من محبسه ولحق بالمأمون ابن ذى النون ، فاستخدمه وولاه أحد الحصون القريبة من قرطبة ،وكان «شهماً صارماً » . وتفاهم المأمون مع ابن عكاشة ، على تدبير مؤامرة للفتك بالعباديين وأميرهم ، والاستيلاء على قرطبة . فوضع ابن عكاشة خطته ، ولبث يدبر أمره،ويحشد إلى جانبه من استطاع من المغامرين،وفى ذات ليلة دخل المدينة فى جمع من شيعته بواسطة رجال من أنصاره فتحوا له الأبواب،ولم يفطن قائد العباديين ابن مرتين إلى ما يحدث من حوله ، وكان رجلا متهاوناً ، عاكفاً على لهوه وشرابه . وقصد المغيرون دار ابن جهور حيث كان يقيم سراج الدولة ، ودهموه على غرة ، فلقيهم فى نفر من رجاله ، وقتل مدافعاً عن نفسه . ثم قصدوا بعد ذلك إلى دار ابن مرتين ، وكان منكباً على لهوه ، فلما وقف على الخبر ، فر تحت جنح الظلام ، ولكنه أخذ بعد أيام قلائل وقتل . وفى صباح اليوم التالى

---

(١) راجع البيان المغرب ج ٢ ص ٢٣٢ ، والذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ١٢٤ ، وكذلك : P.y Vives : Los Reyes de Taifas p. 53

كانت خطة ابن عكاشة قد كللت بالنجاح ، فبسط حكمه على المدينة ، وانضم إليه كثيرون من الدهماء ، ودعا الناس إلى بيعة المأمون بن ذى النون وطاعته ، وبعث إليه برأس سراج الدولة . وكان المأمون يقيم يومئذ فى بلنسية ، فقدم على عجل ، ودخل قرطبة فى موكب عظيم ، وذلك فى أواخر جمادى الآخرة سنة ٤٦٧ هـ ( ١٠٧٥ م ) . ولكنه لم يلبث طويلا حتى مرض وتوفى بعد ذلك بأشهر قلائل ، فى أواخر ذى القعدة من نفس العام . واحتمل جثمانه إلى طليطلة ودفن بها . ويقال إنه توفى مسموماً . وتولى ابن عكاشة من بعده حكم قرطبة ، نائباً عن يحيى القادر بن ذى النون حفيد المأمون وخلفه فى حكم طليطلة . وكانت وفاة المأمون إيذاناً بتطور الحوادث . ذلك أن المعتمد بن عباد ، مذ قتل ولده وضاعت قرطبة ، كان يضطرم رغبة فى استرداد المدينة والانتقام لولده ، وكان جماعة من أهل قرطبة قد بعثوا إليه يدعونه للقدوم ، فما كاد المأمون يختفى من الميدان ، حتى زحف على قرطبة فى قواته ، وأدرك ابن عكاشة أن لا طاقة له بالمقاومة ، ففر من المدينة ، ودخلها جند ابن عباد على الأثر ، وبعث المعتمد فى أثر ابن عكاشة سرية من الفرسان طاردته حتى ظفرت به وقتلته ، وجيء به فصلب مع كلب إمعاناً فى الزراية به ، وفر ولده حريز بن عكاشة إلى طليطلة ، فولاه يحيى بن ذى النون حاكماً لقلعة رباح (١) ، وكان حريز هذا شاعراً مطبوعاً ذكره الفتح فى « مطمح الأنفس » (٢) .

وكان المأمون بن ذى النون من أعظم ملوك الطوائف ، وأطولهم عهداً ، إذ حكم ثلاثة وثلاثين عاماً ، وامتدت رقعة مملكة طليطلة فى عهده حتى وصلت شرقاً إلى بلنسية ، وازدهرت وعمها الرخاء . وجمع المأمون ثروات طائلة ، وابتنى بعاصمته قصوراً باذخة اشتهرت فى ذلك العصر بروعتها وفخامتها . وكان منها مجلسه الشهير المسمى « المكرم » كان آية فى الروعة والبهاء . وقد نقل إلينا ابن حيان عن ابن جابر ، وقد كان من شهوده فى حفلة من حفلات المأمون الباذخة ، بعض أوصافه . قال : « وكنت ممن أذهلته فتنة ذلك المجلس ، وأغرب ما قيد لحظى

---

(١) أعمال الأعلام ص ١٥٨ و ١٥٩ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٦١ ، وراجع دوزى :
Hist. Abbadidarum V. II. p. 122 — 126

(٢) ابن الأبار فى الحلة السيراء (دوزى) ص ١٩٦ . والقاهرة ج ٢ ص ١٧٩ .

من بهى زخرفه ، الذى كاد يحبس عينى عن الترقى عنه ، إلى ما فوقه ، إزاره الرائع الدائر بأسّه حيث دار ، وهو متخذ من رفيع المرمر الأبيض المسنون ، الزارية صفحاته بالعاج فى صدق الملاسة ، ونصاعة التلوين ، قد خرمت فى جثمانه صور البهائم وأطيار وأشجار ذات ثمار ، وقد تعلق كثير من تلك التماثيل المصورة بما فيها من أفنان أشجار وأشكال الثمر . وكل صورة منها منفردة عن صاحبتها ، متميزة من شكلها ، تكاد تقيد البصر عن التعلى إلى ما فوقها . قد فصل هذا الإزار عما فوقه كتاب نقش عريض التقدير ، مخرم محفور ، دائر بالمجلس الجليل من داخله ، مرقوم كله بأشعار حسان ، قد تخيرت فى أماديح مخترعه المأمون . وفوق هذا الكتاب الفاصل فى هذا المجلس ، بحور منتظمة من الزجاج الملون الملبس بالذهب الإبريز ، وقد أجريت فيه أشكال حيوان وأطيار ، وصور أنعام وأشجار ، يذهل الألباب ويقيد الأبصار . وأرض هذه البحار مدحوة من أوراق الذهب الإبريز ، مصورة بأمثال تلك التصاوير من الحيوان والأشجار بأتقن تصوير ، وأبدع تقدير ».

ثم قال : « ولهذه الدار بحيرتان ، قد نصت على أركانهما صور أسود مصنوعة من الذهب الإبريز ، أحكم صياغة تتخيل لمتأملها ، كالحة الوجوه ، فاغرة الشدوق ، ينساب من أفواهها نحو البحيرتين الماء ، هوناً كرشيش القطر أو سحالة اللجين. وقد وضع فى قعر كل بحيرة منها حوض رخام يسمى المذبح ، محفور من رفيع المرمر ، كبير الجرم ، غريب الشكل ، بديع النقش ، قد أبرزت فى جنباته ، صور حيوان وأطيار وأشجار ... » .

وذكر ابن بدرون أن المأمون يحيى بن ذى النون صاحب طليطلة ، بنى بها قصراً تأنق فى بنائه ، وأنفق فيه مالا كثيراً ، وصنع فيه بحيرة ، وبنى فى وسطها قبة ، وسيق الماء إلى رأس القبة على تدبير أحكمه المهندسون ، فكان الماء ينزل على القبة حوالها محيطاً بها ، متصلا بعضه ببعض ، فكانت القبة فى غلالة من ماء سكب لا يفتر ، والمأمون قاعد فيها لا يمسه من الماء شئ ، ولو شاء أن يوقد فيها الشمع لفعل(١) .

(١) نقله نفح الطيب ج ٢ ص ٥٢٣ . وراجع «سراج الملوك» للطرطوشى (القاهرة) ص ٤٥ .

ونقل إلينا ابن حيان أيضا ، عن ابن جابر أوصاف ذلك الحفل الباهر الذى أقامه المأمون ، احتفالا بختان حفيده يحيى ، الذى تولى الحكم فيما بعد باسم القادر ، وفيه من صور البذخ والإغداق والسعة ما ينم عن الغنى الطائل ، الذى حققه بنو ذو النون، واتسم به بلاطهم. بيد أن المأمون كان بالرغم من ذلك ينسب إلى التقتير والشح ، وكان قليل من الشعراء يقصدون إليه للمديح « لقلة نائله ، وتفاهة طائله » على حد قول ابن بسام (١) .

والواقع أنه لم يكن ببلاط بنى ذى النون للشعر والأدب دولة زاهرة، كما كان الشأن فى إشبيلية وألمرية وبطليوس . بيد أننا نجد مع ذلك أكابر شعراء العصر وعلمائه يعيشون فى ظل المأمون، وكان من هؤلاء شاعره ابن أرفع رأس، صاحب الموشحات المشهورة، والعلامة الرياضى ابن سعيد مؤلف تاريخ العلوم المسمى «طبقات الأمم»، وكان يلقى دروسه فى المسجد الجامع، والعلامة النباتى ابن بصّال الطليطلى .

وقد رأينا فيما تقدم كيف ينوه ابن حيان أيضا، بما جبل عليه مؤسس دولة بنى ذى النون اسماعيل ، من البخل والتقتير، ومع ذلك فإنه مما يلفت النظر حقاً، أن ابن حيان لم يجد من يهدى إليه مؤلفه التاريخى الضخم ، سوى المأمون بن ذى النون، إذ يقول لنا فى مقدمته إنه كان بعد تأليفه ينوى الاستئثار به لنفسه ، وأن يخبئه لولده ضناً بفوائده الجمة على من تنكب إحماده به إلى ذمه ومنقصته ، ثم يقول : « إلى أن رأيت زفافه إلى ذى خطبة سنية ، أثنى على بعد الدار ، أكرم خاطب ، وأسنى ذى همة ، الأمير المؤثل الإمارة ، المأمون ذى المجدين ، الكريم الطرفين يحيى بن ذى النون »(٢) .

— ٢ —

وخلف المأمون حفيده يحيى بن ذى النون الملقب بالقادر. ذلك أن هشاماً ولد المأمون، توفى قبل وفاته أو أنه قد حكم بضعة أشهر فقط ثم توفى (٣) . وكان القادر

(١) راجع ما نقله ابن بسام فى الذخيرة عن ابن حيان ، فى أوصاف الحفلات والقصور المأمونية ، القسم الرابع المجلد الأول ص ٩٩ — ١٠٤ و ١١٤ .

(٢) الذخيرة القسم الأول المجلد الثانى ص ٨٨ .

(٣) راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٦١ ، وأعمال الأعلام ص ١٧١ . وكذلك :
**P. y Vives: Los Reyes de Taifas (Cit. Cronica general p. 54, nota)**

فتى حدثاً ، قليل الخبرة والتجارب قد ربى فى أحجار النساء، ونشأ بين الخصيان والغانيات ، فغلب على أمره العبيد والموالى . وكان يحكم مملكة عظيمة ولكن مفككة . وكان المأمون قد قسم الأعمال بين وزيريه الأثيرين ، وهما ابن الفرج والفقيه أبو بكر بن الحديدى ، وكان الأول يختص بتدبير الأجناد ، والنظر فى طبقات القواد ، والشئون السلطانية ، والأعمال الديوانية ، ويختص الثانى بالنظر فى الشئون المالية وشئون الرعية ، وإبداء الرأى والمشورة . وأوصى المأمون قبل وفاته حفيده ، بأنه متى اضطلع بالحكم ، أن يعتمد على عون ابن الحديدى ونصحه ، وأن يأخذ رأيه فى كل أمر ، واتخذ العهود الوثيقة على ابن الحديدى ، أن يخلص النصح لحفيده ، وأن يشد أزره بكل ما وسع . بيد أنه لم يمض سوى قليل ، حتى بدأ نفر من خاصة القادر يسعون لديه فى حق ابن الحديدى ، ويوغرون صدره عليه ، ويقنعونه بأنه لا يمكن أن يحكم بصورة حقيقية، حتى يتخلص من نير ابن الحديدى وطغيانه ؛ وكان المأمون قد قبض من قبل بإيعاز ابن الحديدى على جماعة من أعيان طليطلة ، واعتقلهم بالمعتقل خشية انتقاضهم فرأى القادر بعد أن استقرت لديه فكرة التخلص من ابن الحديدى ، أن يستظهر بهم عليه ، فأطلقهم واستدعاهم إلى مجلسه ، فلما حضر ابن الحديدى ورآهم ، استشعر الخطر ، وحاول أن يلوذ بحماية القادر ، فغادر القادر المكان ، وفتك الحضور بابن الحديدى ، ونهبت دوره ، وكان ذلك فى أوائل المحرم سنة ٤٦٨ هـ ( ١٠٧٦ م ) .

ولم يلبث القادر أن أدرك سقطته ؛ وأخذ يجنى ثمار جريمته . فقد وهم أنه تخلص من نير ابن الحديدى ، ولكنه وقع فى براثن تلك الطغمة التى آزرته فى الجريمة ، وبدأ أولئك الأعيان الحاقدون ، خصوم جده القدماء ، يحيكون له الدسائس ، ويضعون الصعاب فى طريقه ، ويثيرون الشعب ضده ، حتى ضعف سلطانه ، وبدأت أعراض الثورة تبدو فى النواحى . وكان ابن هود صاحب سرقسطة ، يرهقه بمطالبه وغاراته ، ويستعين ضده بالجند النصارى ، حتى انتهى بأن انتزع منه مدينة شنتبرية . ومن جهة أخرى فقد ثار أبو بكر بن عبدالعزيز ببلنسية وخلع طاعة بنى ذى النون، ونادى بنفسه أميراً مستقلا ، فداخله ابن هود وخطب إليه ابنته أملا فى أن يستطيع بذلك التغلب على بلنسية . وكادت مدينة

قونقة تسقط فى يد سانشو راميرز ملك أراجون ، لولا أن افتداها أهلها بمبلغ كبير من المال . وحاول القادر أن يرد خصومه ، فبعث جنده تحت إمرة الفتى بشير لمقاتلة ابن هود وراميرز ، ولكنهما انصرفا دون قتال . وعندئذ اضطر القادر أن يتجه ببصره إلى ألفونسو السادس ملك قشتالة ، وأن يلتمس عونه وحمايته . وكان المأمون قد اعترف بطاعته من قبل ، وقبل تأدية الجزية . وحذا القادر بالطبع حذوه ، ولكن ملك قشتالة أخذ عندئذ يشتط فى مطالبه ، ويطالب القادر بالمال تباعاً ، وبتسليم بعض حصونه القريبة من الحدود ، وقد تسلم منها بالفعل حصون سرية وقتورية وقنالش ، كل ذلك والقادر عاجز عن رده ، مرغم على إرضائه ، حتى كادت خزائنه تنضب ، وكان خصومه فى الداخل من جهة أخرى يدبرون السعى لإسقاطه . وأخيراً اضطرمت طليطلة بالثورة ، فاضطر القادر أن يلوذ بالفرار ، وأن يلجأ مع أهله وولده إلى حصن من حصونه الشرقية ، هو حصن وبذة ( ٤٧٢ هـ ) وألفى أهل طليطلة أنفسهم بلا أمير ، ولا حكومة تقى المدينة شر الفوضى ، فرأى جماعة منهم أن يستدعوا المتوكل بن الأفطس أمير بطليوس ، ليتولى أمرهم ، وقبل المتوكل هذه المهمة كارهاً ، وقدم إلى طليطلة ، وقام بالأمر فيها .

وفى تلك الأثناء سار القادر بن ذى النون من ملجئه إلى مدينة قونقة ، وكتب إلى ألفونسو ملك قشتالة يذكره بسالف الود بينه وبين جده المأمون ، وما كان للمأمون من فضل فى عونه وإغاثته ، ويطلب منه العون فى محنته . فاستجاب ألفونسو لدعوته ، وهو يزمع فى قرارة نفسه ، أن ينتهز كل فرصة سانحة ، وسار معه إلى طليطلة فى سَرِيَّة من فرسانه . وكان المتوكل بن الأفطس خلال ذلك يجد فى اقتناص كل ما يستطيع اقتناصه من أسلاب القادر ، من أثاث وفراش وآنية وسلاح وكتب وغيرها ، حتى بعث منها إلى بطليوس المقادير الجمة . فلما شعر بحركة ألفونسو ومقدم القادر ، غادر طليطلة مسرعا إلى حاضرته ، وذلك بعد أن قضى فى حكمها زهاء عشرة أشهر ، ويقال إن ألفونسو حاصر طليطلة بقواته ، واضطر ابن الأفطس أن يغادرها بطريق الفرار ( إبريل ١٠٨٠ )[١].

(١) ابن الخزرجى فى كتاب الاكتفاء فى أخبار الخلفاء ، ونقله دوزى فى : Hist. Abbadidarum V. II. p. 16

ودخل القادر طليطلة فى حمى ألفونسو وجنده النصارى ، بعد أن تصدى له أهلها وحاولوا رده بالقوه ، فنكلت بهم الجند النصارى ، ومزقوهم شرممزق ، وجلس القادر مرة أخرى على عرشه المضطرب الواهى ، والفوضى تسود المدينة ، وأهلها فى كدر ووجوم ، يتوقعون من تلك الحال سوء المصير ، وكان ذلك فى آخر سنة ٤٧٤ هـ ( ١٠٨١ م )(١) .

— ٣ —

والواقع أن كل شيء كان ينذر بوقوع النكبة المرتقبة . ذلك أن ألفونسو السادس ملك قشتالة كان يدبر خطته الكبرى للاستيلاء على طليطلة ، وكانت وهى فى يد ملكها الضعيف المتخاذل ، تبدو له ثمرة دانية القطوف ، بعد أن غدا القادر فى يده شبه أسيره . وتقول لنا الروايات القشتالية إن القادر كان حينما طلب من ألفونسو معاونته على استرداد المدينة ، قد تعهد له بأن يحكمها باسمه ، وأن يسلمها إليه متى شاء ، على أن يعاونه على استرداد بلنسية لتكون مقر إمارته . بيد أن الحوادث التالية ، وموقف القادر فى الدفاع عن مدينته ، يجعلنا نشك فى أنه قطع مثل هذا العهد . وعلى أى حال فإن سقوط طليطلة فى يد القشتاليين ، لم يحدث دون ممهدات ووقائع عنيفة .

وكان ألفونسو إلى جانب خططه العسكرية ، قد مهد لمشروعه بأعمال السياسة . وكان المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية ، لما رأى من استفحال قوة ألفونسو ، وتغلبه على سائر ممالك الطوائف المتاخمة لمملكته ، قد خشى أن ينساب تيار الغزو إلى أراضيه ، ورأى أن عقد المهادنة والصلح مع ملك قشتالة ، هو خير ضمان لاتقاء شره ، وسلامة مملكته . فبعث وزيره البارع ابن عمار إلى ليون ليفاوض ملك قشتالة ، وانتهى ابن عمار إلى أن عقد معه معاهدة ، يتعهد فيها ملك قشتالة بأن يعاون ابن عباد بالجند المرتزقة ضد سائر أعدائه من الأمراء المسلمين ، ويتعهد ابن عباد مقابل ذلك ، بأن يؤدى إلى ملك قشتالة جزية كبيرة ، ويتعهد بالأخص بما هو أهم ، وهو أن يتركه حراً طليقاً فى أعماله ضد طليطلة ، وألا يعترض مشروعه فى الاستيلاء عليها . وربما كان فى الرسالة التى بعث بها المعتمد فيما بعد إلى

---

(١) الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ١٢٤ — ١٢٧ .

ألفونسو السادس ما يؤيد هذه الرواية، حيث يعرب المعتمد عن ندمه لمسالمة ملك قشتالة، وقعوده عن نصرة إخوانه . وتزيد الروايات القشتالية على ذلك أن المعتمد ابن عباد قدم فى هذه المناسبة أو فى مناسبة لاحقة ، إحدى بناته لتكون زوجة أو حظية لملك قشتالة ، وهى التى تعرفها التواريخ القشتالية « بزائدة » وذلك لكى يكون مهرها مااستولى عليه من أراضى طليطلة ، حتى لاينزع النصارى منه هذه الأراضى ، وهى قصة سوف نتناولها فى موضعها ، عند الكلام على الفتح المرابطى لمملكة إشبيلية .

وفى هذا الوقت كان معظم ملوك الطوائف ، قد خضعوا لوعيد ملك قشتالة، وتعهدوا بأن يؤدوا له الجزية ، إلا ملك بطليوس الشهم عمر المتوكل ، حسبما ذكرنا ذلك فى موضعه، فكان ألفونسو السادس بذلك على يقين من أن الجو قد أضحى ممهداً لتنفيذ مشروعه ، وأنه لن يجرأ أحد أن يقف فى طريقه . وكان مما يقوى أمله أن أهل طليطلة ، لم يكونوا على وفاق فيما بين أنفسهم ، وأن حزباً قوياً منهم يناصر سياسته وأطماعه ، ويشجعه على العمل ، وكانت الغزوات والحملات المتوالية ، التى شنها ألفونسو على أراضى طليطلة ، حتى ذلك الحين، سواء لحسابه الخاص ، أو بحجة معاونة القادر ضد الثوار عليه، قد نالت من هاتيك السهول ، وخربت كثيراً من ربوعها النضرة ، وأشاعت فيها الضيق والحاجة ، وأخذت العاصمة طليطلة ، تتأثر بهذا الضغط على مواردها ، بيد أن ألفونسو كان يزمع أن يستمر فى حملاته المخربة حتى يتم تجريد المدينة العظمى من سائر مواردها . وقد بدأت هذه الحملات الجديدة منذ سنة ٤٧٤هـ (١٠٨١ م)، أى منذ عاد القادر إلى عرشه ، واستمرت أربع سنوات كاملة ، وكانت تنظم بتواطىء الحزب الموالى من أهل طليطلة، وهو الحزب الذى تصفه الرواية القشتالية بالحزب « المدجّنى » أى الموالى لملك النصارى، وفى كل عام يجتاح ألفونسو بقواته أراضى طليطلة من سائر جنباتها ، ويخرب الضياع ، ويقطع الأشجار ، ويبيد الزروع ، ويسبى الذرية ، ولا يجد أمامه من يرده عن ذلك العيث .وكان من الواضح أن هذه الأعمال المدمرة ، سوف تنتهى بالقضاء على كل موارد طليطلة ، وبتجريدها من وسائل الدفاع ، وهو ماكان يرمى إليه ملك النصارى .

وكان موقف ملوك الطوائف فى تلك الآونة العصيبة من حياة اسبانيا المسلمة،

موقفاً يثير الألم والحسرة معاً .فقد كان أعظمهم وأقواهم المعتمد بن عباد ، بعد أن تفاهم مع ألفونسو السادس ، على تركه وشأنه فى مشاريعه نحو طليطلة ، مشغولا بمحاربة عبد الله بن بلقين بن باديس صاحب غرناطة .وكان المقتدر بن هود أقوى الأمراء المتاخمين لمملكة طليطلة من ناحية الشمال والشرق ، مشغولا بنضاله المستمر ضد هجمات ملك أراجون وأمراء برشلونة . وكانت دول الطوائف الشرقية والجنوبية ، بعيدة عن ميدان الخطر ، لاتستطيع حتى إذا شاءت ، لبعد الشقة ، أن تقوم بإنجاد طليطلة بصورة ناجعة . وهكذا عدمت طليطلة كل مصدر للعون الحقيقى .كل ذلك والموقف يتحرج ، وألفونسو السادس ماض فى غزواته المدمرة ، حتى أضحت سهول طليطلة كلها خراباً يباباً . ولم يكن يخفى على عقلاء المسلمين أن الموقف عصيب ، وأن سقوط طليطلة إحدى قواعد الأندلس العظمى فى يد قشتالة ، إنما هو نذير السقوط النهائى ، وأن انهيار الحجر الأول فى صرح الدولة الإسلامية ، إنما هو بداية انهيار الصرح كله ، فبادر جماعة منهم إلى الحث على الاتحاد واجتماع الكلمة إزاء الخطر المشترك ، ونهض القاضى العلامة أبو الوليد الباجى ، بإشارة المتوكل بن الأفطس ، حسبما تقدم ، فطاف بالولايات والقواعد الأندلسية صائحاً منذراً ، محذراً من عواقب التفرق ، وهو يهيب بملوك الطوائف وشعوبها ، أن يبادروا إلى نجدة طليطلة ، مؤكداً أن ملك قشتالة سوف يسحق دول الطوائف كلها ، واحدة بعد الأخرى . ولكن جهود أولئك الرسل العقلاء الذين كانوا يستشفون ببصرهم الثاقب ، ما يضمره المستقبل من ويل ، ذهبت كلها سدى ، وغلبت الأطماع والأهواء الشخصية ، على كل تفكير سليم ومبدأ حكيم ، ولبث ملك إشبيلية وهو أولى وأقرب من تقع عليه تبعة الإنجاد ، يشهد تفاقم الخطب جامداً معرضاً ، وكل همه أن يحتفظ بما انتزعه من أراضى مملكة طليطلة الجنوبية ، ولم يتقدم لإنجاد القادر وإنجاد أهل طليطلة ، سوى أمير بطليوس الشهم عمر المتوكل بن الأفطس ، فقد نزل إلى ميدان النضال ضد ألفونسو السادس ، وحاول مدافعته ، فبعث ولده الفضل والى ماردة فى جيش قوى ، ليحاول رد ألفونسو عن طليطلة . ولكنه لم يستطع مغالبة قوى النصارى المتفوقة عليه فى العدد والعدة ، فارتد آسفاً بعد أن خاض معارك دامية . وكان المتوكل قد بذل مثل هذه المحاولة قبل ذلك ببضعة أعوام فى سنة ٤٧١ هـ ، وتغلب عليه

أيضاً ألفونسو السادس ، وانتزع منه مدينة قورية من أملاكه الشمالية المجاورة لأراضى طليطلة .

وهكذا تركت المدينة المنكوبة لمصيرها . وفى خريف سنة ٤٧٧ هـ (١٠٨٤ م) اقترب ألفونسو السادس بقواته من المدينة ، ونزل بالمنية المسورة الواقعة فى منحنى نهر التاجُه ، وهى المنية الشهيرة التى كان المأمون بن ذى النون قد زودها بالقصور الفخمة والبساتين اليانعة ، وجعل منها جنة يخلد إليها أيام أنسه ولهوه ، وهى التى تعرفها الرواية القشتالية ببستان الملك Huerta del Rey. ويقول ابن بسام فى وصفها « المنية المسورة ، التى كان المأمون يحشد إليها كل حسن ، ويباهى بها جنة عدن »(١) . وضرب ألفونسو الحصار حول طليطلة. ثم دخل الشتاء، وشحت الأقوات ، واشتد الأمر بأهل المدينة . وكان موقف القادر بن ذى النون مريباً ، ولم يكن دون شك متفقاً فى الشعور مع الحزب المناوىء لملك قشتالة المتشدد فى مقاومته ، وكان جماعة من هؤلاء يعملون بكل ما وسعوا لإطالة أمد المقاومة ، عسى أن يمل ملك قشتالة ويخبو عزمه ، أو أن يتقدم لإنجادهم أحد . وكان الأمر يشتد بالمدينة المحصورة يوماً عن يوم ، حتى تحرج الموقف، واضطر الزعماء والقادة بالاتفاق مع القادر أن يرسلوا إلى ملك قشتالة وفداً للتحدث فى أمر الصلح ، فأبى أن يستقبلهم ، واستقبلهم وزيره سسندو (ششنند) . وكان هذا الوزير فى الأصل من النصارى المستعربين ، أسر حدثاً وربى فى بلاط إشبيلية ، وظهر أيام المعتضد بن عباد ، وسفر بينه وبين فرناندو ملك قشتالة ، ثم نزح إلى جليقية ، وخدم فرناندو ، ثم من بعده ولده ألفونسو ، وكان داهية ذا براعة فائقة ، فانتهى بأن وطد صولة ألفونسو لدى معظم ملوك الطوائف ، والتزموا بأداء الجزية . فلما قصد إليه وفد طليطلة استمع إليهم ، وأبدى أنه لا فائدة من المفاوضة ، وأنه لا أمل بأن يتزحزح الملك النصرانى عن موقفه قيد شعرة ، وأنه لابد من تسليم المدينة . ويقول لنا ابن بسام فى هذه المناسبة إن سسندو أدخل زعماء طليطلة لدى مليكه ، وأن ألفونسو حين أفضوا إليه أنهم ينتظرون العون والإنجاد من بعض ملوك الطوائف ، أنبهم وسخر منهم ، واستدعى من خيامه

(١) ابن بسام فى الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ١٢٨ . ويقوم اليوم مكانها حصن سان سرفاندو San Servando

سفراء ملوك الطوائف ، وقد كانوا جميعا يومئذ لديه يسعون إلى خطب وده ، ويقدمون إليه الأموال ، وأن زعماء طليطلة خرجوا من لدنه ، يتعثرون فى أذيالهم ، وقد فقدوا كل أمل وأيقنوا بسوء المصير(١) .

وكان قد مضى على حصار القشتاليين للمدينة يومئذ زهاء تسعة أشهر ، وقد تفاقم الخطب ، وبلغت الشدة بالمحصورين أقصاها ، وتحطمت كل محاولة لعقد الصلح مع ملك قشتالة ، سواء من جانب القادر للاعتراف بطاعته والحكم باسمه ، أو من جانب زعماء المدينة ، ولم تجد صلابة أولئك الذين تمسكوا بالمقاومة والدفاع حتى الموت شيئاً ، وغلب صوت العامة الذين أضناهم الجوع والحرمان . ولم تمض ثلاثة أيام على تلك المقابلة ، حتى عرضت المدينة التسليم لملك قشتالة. ويلخص الأب ماريانا ، وهو من أقدم المؤرخين الذين كتبوا عن سقوط طليطلة شروط التسليم فيما يلى : « أن يسلم القصر وأبواب المدينة والقناطر وحديقة الملك ( وقد كانت حديقة نضرة غناء على ضفة التاجه ) إلى الملك ألونسو ( ألفونسو ) ، وأن يذهب الملك المسلم حراً إلى مدينة بلنسية وفقاً لرغبته ، وأن يسمح بالحرية لمن شاء أن يتبعه من المسلمين ، وأن يأخذوا معهم أموالهم . وأما الذين يقيمون فى المدينة ، فلا تؤخذ منهم أمتعتهم ولا أملاكهم ، وأن يبقى المسجد الجامع بأيدى المسلمين يقيمون فيه شعائرهم ، وألا تفرض عليهم ضرائب أكثر مما كانوا يدفعونه لملوكهم ، وأن تجرى عليهم أحكام شريعتهم ، وعلى يد قضاتهم المسلمين دون غيرهم ، وأن يقسم الطرفان كل وفق تقاليده على احترام هذه العهود ، وأخيراً أن يقدم أهل المدينة لفيفاً من أعيانهم كرهائن » . على أن هذا النص الذى يقدمه ماريانا ينقصه شىء من الدقة فى بعض تفاصيله . والمتفق عليه ، أن شروط تسليم طليطلة قد صيغت على النحو الآتى : أن يؤمن أهل المدينة فى النفس والمال ، وأن يغادرها من شاء منهم حاملين أموالهم ، وأن يسمح لمن عاد منهم باسترداد أملاكهم ، وأن يؤدى المقيمون بها إلى ملك قشتالة ما كانوا يؤدونه لملوكهم من الضرائب والمكوس ، وأن يحتفظ المسلمون إلى الأبد بمسجدهم الجامع ، وأن يتمتعوا أحرارا بإقامة شعائرهم وأن يحتفظوا بقضاتهم وشريعتهم ، وأن يسلموا إلى ملك قشتالة سائر القلاع

(١) الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ١٢٩ و ١٣٠ .

والحصون والقصر الملكى ، والمنية المسورة التى كان ينزل بها ملكهم . وأما بالنسبة للقادر فقد تكفل ملك قشتالة بأن يمكنه من الاستيلاء على بلنسية ، وقيل بل عرض عليه أيضاً أن يحصل له على دانية وشنتمرية الشرق ، إذ كان يعرف جيداً أنها إذا خلصت للقادر ، فستكون فى الواقع ملكاً له ورهن تصرفه ، وأن القواعد الشرقية كلها سوف تخضع له عن طريق ملكها الإسمى الضعيف ، أعنى القادر(١)

تلك هى الشروط التى اتفق عليها لتسليم طليطلة ، وتظاهر ملك قشتالة بقبولها ، وتعهد باحترامها وعدم النكث بها . وكان ذلك فى اليوم السادس من شهر مايو سنة ١٠٨٥ م . ومضى على ذلك زهاء أسبوعين آخرين ، كان يستعد خلالها القادر لتهيئة أسباب الرحيل ، وإخلاء المدينة . وفى يوم الأحد الخامس والعشرين من مايو ( فاتحة شهر صفر سنة ٤٧٨ هـ ) دخل ألفونسو السادس مدينة طليطلة ظافراً ، ونزل فى الحال بقصرها المشهور ، وهو الذى كان ينزل به أيام محنته فى ضيافة المأمون ، وعهد بحكم المدينة إلى سسنندو ، فسلك مع أهلها مسلك المودة واللين ، وبذل جهده ليخفف عنهم وقع هذا التبديل فى مصايرهم ، فاستمال قلوب الكثيرين منهم ، وأقبل بعض العامة على التنصر ، ونصح سسنندو إلى مليكه أن يلتزم الاعتدال والروية فى معاملة المدينة المفتوحة ، وأن يقف مؤقتا عند هذا الحد ، وألا يلح على ملوك الطوائف خوفاً من أن تنقلب الآية ، فيتجهوا بأبصارهم إلى وجهة أخرى(٢) .

واستتبع استيلاء ألفونسو على طليطلة استيلاؤه على سائر أراضى مملكة طليطلة ، الباقية بعد الذى استولى عليه منها ابن عباد صاحب إشبيلية ، أعنى قسمها الواقع شمال نهر التاجه من طلبيرة غرباً حتى وادى الحجارة وشنتبرية شرقاً ، وهى تتضمن ثمانين موضعاً بها مساجد ، هذا عدا القرى والضياع(٣) .

أما الملك المنكود يحيى القادر بن ذى النون ، فقد غادر طليطلة بأهله وأمواله ، ومعه جماعة كبيرة من الكبراء والأشراف الذين آثروا مغادرة المدينة المفتوحة

---

(١) Mariana : Historia general de Espana ( Cap .16 ) . وكذلك :
R. Menendez Pidal : La Espana del Cid (Madrid 1947) p. 306

(٢) الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ١٣١ .

(٣) كتاب الإكتفاء للخزرجى ، ونقله دوزى فى : Hist. Abbadidarum V. II. p. 29

قاصداً إلى بلنسية ، واستقر أياماً بمحلة ملك قشتالة واضعاً نفسه تحت حمايته ، وكان ملك قشتالة قد وعده بأنه إذا تعذر تحقيق غايته فى الحصول على بلنسية بطريقة سلمية ، فإنه سوف يبعث لمعاونته قائده الشهير ألبرهانيس . وقد ظهر للقادر بالفعل ، خلال مسيره من موقف الحصون المختلفة ، أنها جميعاً تقف ضده ولم يبق على ولائه منها سوى حصن قونقة ، فنزل به القادر وصحبه ، حتى تتهيأ له ظروف العمل . وسوف نعود إلى تتبع أخباره فيما بعد .

ويصف لنا ابن بسام خروج القادر من طليطلة فى تلك العبارات اللاذعة: « وخرج ابن ذى النون خائباً مما تمناه ، شرقاً بعقبى ما جناه ، والأرض تضج من مقامه وتستأذن فى انتقامه ، والسماء تود لو لم تطلع نجماً إلا كدرته عليه حتفاً مبيداً ، ولم تنشىء عارضاً ، إلا مطرته فيه عذاباً شديداً ، واستقر بمحلة أذفنش ، مخفور الذمة ، مذال الحرمة ، ليس دونه باب ، ولا دونه حرمه ستر ولا حجاب »(١) .

ويبدى ابن الخطيب شماتته فى القادر وفى أهل طليطلة حين يقول : « واقتضاه الطاغية الوعد ، وسلبه الله النصر والسعد . وهلكت الذمم ، واستؤصلت الرمم ، ونفذ عقاب الله فى أهلها جاحدى الحقوق ، ومتعودى العقوق ، ومقيمى أسواق الشقاق والنفاق ، والمثل السائر فى الآفاق »(٢) .

* * *

وهكذا سقطت الحاضرة الأندلسية الكبرى ، وخرجت من قبضة الإسلام إلى الأبد ، وارتدت إلى النصرانية حظيرتها القديمة ، بعد أن حكمها الإسلام ثلاثمائة وسبعين عاماً . ومن ذلك الحين تغدو طليطلة حاضرة لمملكة قشتالة ، ويغدو « قصرها » منزلا للبلاط القشتالى ، بعد أن كان منزلا للولاة المسلمين . وقد كانت بمنعتها المأثورة ، وموقعها الدفاعى الفذ ، فى منحنى نهر التاجه ، حصن الأندلس الشمالى ، وسدها المنيع الذى يرد عنها عادية النصرانية ، فجاء سقوطها ضربة شديدة لمنعة الأندلس وسلامتها . وانقلب ميزان القوى القديم ، فبدأت قوى الإسلام تفقد تفوقها فى شبه الجزيرة ، بعد أن استطاعت أن تحافظ

---

(١) الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ١٣٠ .

(٢) أعمال الأعلام ص ١٨١ .

عليه زهاء أربعة قرون ، وأضحى تفوق القوى النصرانية أمراً لاشك فيه .ومن ذلك الحين تدخل سياسة الإسترداد الإسبانية « لاريكونكستا La Reconquista » فى طور جديد قوى ، وتتقاطر الجيوش القشتالية لأول مرة ، منذ الفتح الإسلامى، عبر نهر التاجه ، إلى أراضى الأندلس ، تحمل إليها أعلام الدمار والموت، وتقتطع أشلاءها تباعاً ، فى سلسلة لاتنقطع من الغزوات والحروب .

وكان لظفر ألفونسو السادس بالاستيلاء على طليطلة ، فضلا عن آثاره المادية الخطيرة ، وقع أدبى عميق فى سائر ممالك اسبانيا النصرانية ، فقدكانت طليطلة عاصمة المملكة القوطية القديمة ، وكانت إلى جانب ذلك حاضرة اسبانيا الدينية ، وقد وطد استيلاء ملك قشتالة عليها ، مركز الصدارة الذى يتمتع به بين زملائه ملوك اسبانيا النصرانية ، ووطد هيبته الملوكية والإمبراطورية ، فأضحوا جميعاً يقرون له بلقب الإمبراطور ، الذى اتخذه لنفسه . ومن جهة أخرى ، فقدكان لتلك النكبة التى حلت بالإسلام فى اسبانيا ، أعظم وقع فى جنبات الأندلس ، وفى سائر أنحاء العالم الإسلامى، وقد ارتاع لها ملوك الطوائف جميعاً ، وأدركوا بعد فوات الوقت ، أنها نذير بالقضاء عليهم واحداً بعد الآخر ، وأدرك المعتمد بن عباد بالأخص ، وهو أشد ملوك الطوائف مسئولية عما حدث ، أنه لن يمضى وقت طويل حتى يواجه نفس الخطر الداهم . بيد أن النكبة كانت فى نفس الوقت نقطة تحول عظيم فى تفكير أولئك الأمراء المتخاصمين المتنابذين ، ملوك الطوائف ، وفى زوجهم ، فجنحوا جميعاً ولأول مرة إلى اجتماع الكلمة ، ونبذ الشقاق ، واتجهوا بأنظارهم جميعاً ، إلى ماوراء البحر يلتمسون غوث إخوانهم فى الدين ، إلى أولئك البربر المرابطين ، الذين كان لتدخلهم فى سير الحوادث بالأندلس، أعظم الآثار(١) .

واذكى رزء الأندلس بفقد طليطلة، فجيعة الشعر الأندلسى ،ونظمت فى بكائها القصائد الرائعة . وكان من أشهرها هذه القصيدة الرائية الكبرى ، التى مطلعها :

---

(١) راجع فى حوادث سقوط طليطلة : الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ١٢٧ — ١٣٢ ، وأعمال الأعلام ص ١٨١ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٦١ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٢٢ و٥٢٣ ، وراجع أيضا R.Menendez Pidal : La Espana del Cid p. 303-307 ، و دوزى Hist. des Musulmans de l'Espagne, V. III. p. 120 et suiv. وكذلك P. y Vives : Los Reyes des Taifas p. 54&56

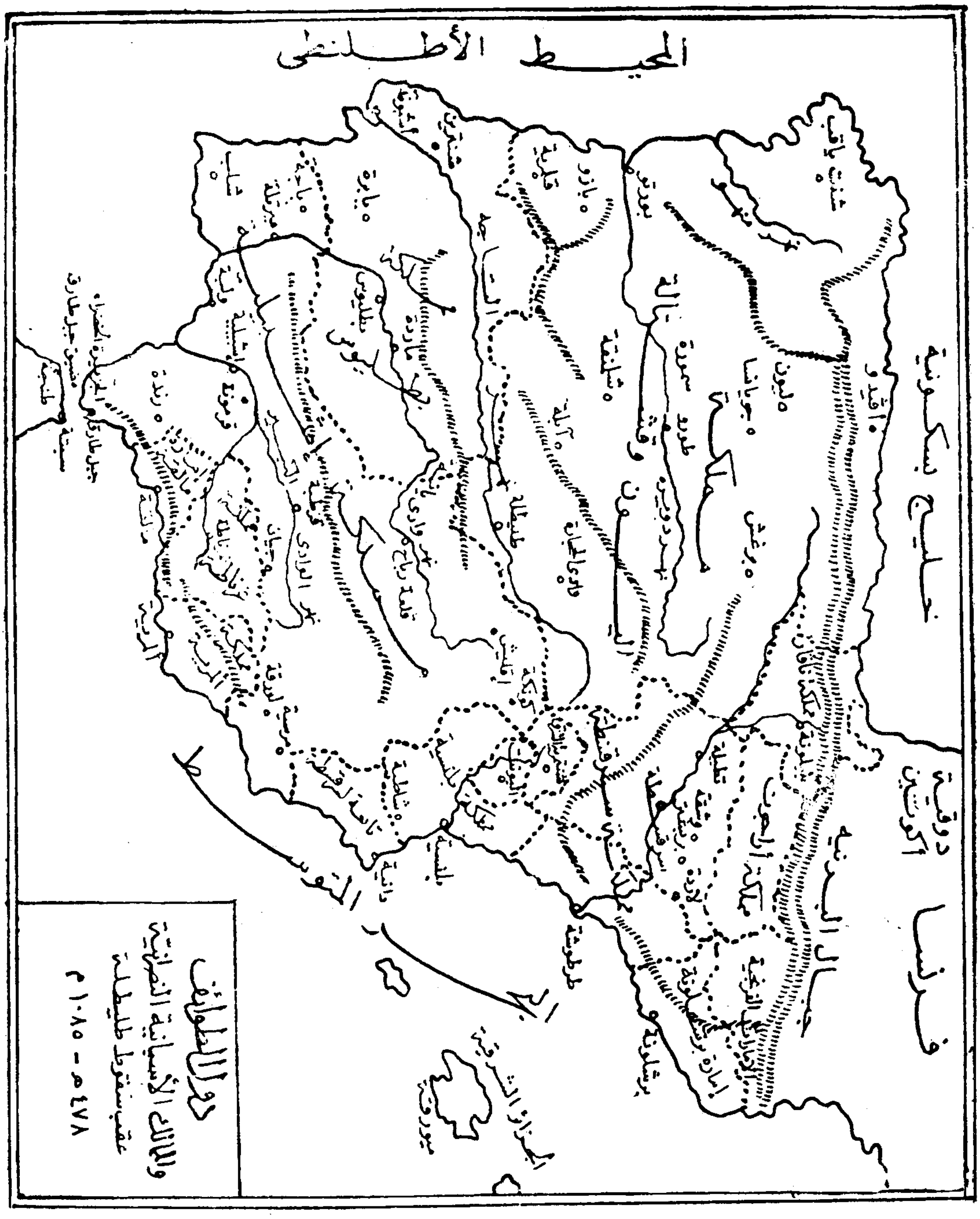
دول الطوائف
والممالك الأسبانية النصرانية
عقب سقوط طليطلة
٤٧٨هـ - ١٠٨٥م
المحيط الأطلسي
خليج بسكونية
فرنسا
دوقية أكوتين
البحر المتوسط
طليطلة
سرقسطة
بلنسية
طرطوشة
برشلونة
جبل طارق
سبتة
طنجة

لثكلك كيف تبتسم الثغــور ... سرورا بعد ما يئست ثغــور
أما وأبى مصاب هد منــه ... ثبير الدين فاتصــل الثبــور

ومنهــا :

طليطلة أباح الكفر منهـــا ... حماها إن ذا نبــأ كبير
فليس مثالهـــا إيوان كسرى ... ولا منهـــا الخورنق والسدير
محصنة محسنة بعيـــد ... تنــاولهـــا ومطلبهـــا عسير
ألم تك للدين صـــعباً ... فذلله كما شـــاء القـــدير
وأخرج أهلهـــا منها جميعاً ... فصاروا حيث شاء بهم مصير
وكانت دار إيمـــان وعلم ... معـــالمها التى طمست تنـــير
مساجدها كنائس أى قلب ... على هـــذا يقر ولا يطير
فيا أســـفاه يا أسفاه حزنا ... يكرر ماتكررت الدهـــور

ومنهـــا :

كفى حزناً بأن النـــاس قالوا ... إلى أين التحـــول والمسير
أنترك دورنا ونفر عنهـــا ... وليس لنا وراء البحر دور
ولا ثم الضـــياع تروق حسنا ... نباكرها فيعجبنـــا البكور
لقد ذهب اليقين فلا يقين ... وغر القـــوم بالله الغـــرور
فلا دين ولا دنيـــا ولكن ... غرور بالمعيشـــة ما غرور
رضـــوا بالرق يالله ماذا ... رآه وما أشـــار به مشير
مضى الإسلام فابك دماً عليه ... فما ينفى الجوى الدمع الغزير
ونح واندب رفاقاً فى فلاة ... حيـــارى لاتحط ولا تســـير
ولا تجنح إلى ســـلم وحارب ... عسى أن يجبر العظم الكسير[١]

---

(١) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ٥٩٣ وما بعدها حيث يورد القصيدة بأكملها، وهى فى أكثر من سبعين بيتاً

# الكتاب الثاني

# الدّول البربريّة

## في جنوبي الأندلس

# الفصل الأول

## دولة بنى منـــاد البربرية

## فى غرناطـــة ومالقـــة

البربر ونصيبهم من أنقاض الخلافة . بنو مناد . الخلاف بين باديس المنصور وقومه . هجرة زادى بن زيرى إلى الأندلس . انضواؤهم تحت لواء المنصور . اشتراك البربر فى معركة الخلافة . محاصرتهم لقرطبة وظفر مرشحهم سليمان بالخلافة . تفريق سليمان لهم . نزول زاوى وقومه بالبيرة . إنشاء مدينة غرناطة ونزولهم بها. الحرب بين المرتضى وصنهاجة.هزيمة أهل الأندلس ومصرع المرتضى . توجس زيرى من البقاء فى الأندلس . رحيله إلى إفريقية . استيلاء حبوس بن ماكسن على غرناطة . حكمه وصفاته . ولده باديس يخلفه . ائتمار ابن عمه يدير به . فشل المؤامرة . الخلاف بين باديس وزهير العامرى . مسير زهير إلى غرناطة . الحرب بينه وبين باديس . هزيمته ومصرعه . مصرع وزيره ابن عباس . استيلاء باديس على جيان . الحرب بين باديس وابن عباد . تدخل باديس فى شئون مالقة ثم استيلاؤه عليها . مهاجمة ابن عباد لمالقة وفشله . استيلاؤه على أركش . الوزير اسماعيل بن نغرالة اليهودى . صفاته وكفاياته . ولده يوسف . بغض بلقين ولد باديس له وسعيه إلى إسقاطه . يوسف يدبر مصرعه بالسم . الخصومة بين يوسف والناية . تغير باديس على يوسف . اتجاه يوسف إلى ابن صمادح . سخط صنهاجة على يوسف وسعيهم إلى إسقاطه . سخط أهل غرناطة على اليهود . قصيدة الإلبيرى فى التحريض على اليهود . افتضاح مؤامرة يوسف ومصرعه . مذبحة اليهود فى غرناطة . استرداد باديس لوادى آش . حوادث جيان . تولى الناية الوزارة . إئتمار الوزراء به ومصرعه . وفاة باديس . أعماله ومنشآته . عمله لتوطيد زعامة البربر . النزعة العنصرية بين البربر وأهل الأندلس . صفات باديس وخلاله . ولاية حفيده عبد الله بن بلقين . استيلاء ابن عباد على جيان. إغارته على غرناطة ورده . تحالف عبد الله مع ألفونسو السادس . اتفاق ابن عباد وألفونسو على فتح غرناطة . فشل المحاولة . تعهد عبد الله بتأدية الجزية لألفونسو . عبد الله والشئون الداخلية . الخلاف بين عبد الله وأخيه تميم صاحب مالقة . الصلح بين عبد الله وابن عباد . سقوط طليطلة وتأثيره . اتفاق عبد الله مع ملوك الطوائف على استدعاء المرابطين . حملة ابن الخطيب على عبد الله .

كان انهيار الخلافة الأموية ، والسلطة المركزية ، وما اقترن بذلك من الفوضى الغامرة ، فرصة سانحة لظهور الزعامات البربرية ، فى ميدان النفوذ والسلطان . وقد ظهر البربر فى الواقع ، منذ أيام المنصور بن أبى عامر ، واحتلوا مراكز الصدارة فى الجيوش الأندلسية ، واتخذهم المنصور له عضداً وسنداً ، وآزر المنصور القبائل الموالية فى المغرب لبنى أمية ، ضد أولياء الدعوة الفاطمية ،

وشد أزرهم بالمال والجند ، واستطاع أن يجعل من المغرب ولاية أندلسية . فلما انهار صرح الخلافة الأموية ، بعد انهيار صرح الدولة العامرية ، وتواثب الزعماء والخوارج الطامحون ، إلى انتزاع أشلائها ، واقتسام سلطانها ، استطاع الزعماء البربر أن يظفروا من ذلك بنصيب وافر . فقامت منهم دولة بنى حمّود فى جنوبى الأندلس ، وأنشأت خلافة جديدة ، أحياناً فى قرطبة ، وأحياناً فى إشبيلية ومالقة ، وقامت خلالها ومن بعدها ، عدة دول بربرية محلية ، فى غَرناطة ، وفى رندة ، وفى مورور وشذونة ، وفى قرمونة ، وقامت دولة بنى ذى النون فى طليطلة ، وحيناً فى شرقى الأندلس ، وقامت كذلك دولة بربرية صغيرة فى أرض السهلة فى شنتمرية الشرق ، وإذا نحن اعتبرنا دولة بنى الأفطس فى بَطَلْيوس من الدول البربرية ، وإنها لكذلك على أرجح الآراء ، استطعنا أن نقدر المدى العظيم ، الذى وصل إليه سلطان القبائل البربرية بالأندلس فى عصر الطوائف .

وقد أتينا فيما تقدم على أخبار دولة بنى حمود ، وأخبار الدويلات البربرية ، التى قامت فى المنطقة الوسطى والجنوبية ، على أنقاض دولة بنى حمود ، وبينا كيف استطاع المعتضد بن عباد ، أن يقضى على هذه الدويلات واحدة بعد الأخرى ، وأن يضمها جميعاً إلى مملكة إشبيلية الكبرى . وبقى علينا أن نتناول فى هذا الفصل ، أخبار دولة بنى مناد فى غرناطة ، وقد كانت بعد دولة بنى حمود ، أقوى الدول البربرية فى الجنوب .

— ١ —

إن بنى مناد يرجعون فى الأصل إلى قبيلة صَنْهاجة البربرية الشهيرة ، وهى بطن من بطون قبيلة البرانس الكبرى ، وكان منْزلهم بأواسط المغرب . فلما غلب العبيديون ( الفاطميون ) على إفريقية ، وقامت دولتهم بها ، انحاز بنى مناد إليهم ، وحاربوا إلى جانبهم الخوارج عليهم . وكان زعيمهم زيرى بن مناد من أعظم أمراء البربر ، وقد حارب قبائل المغرب المخالفة للعبيديين مع جوهر قائدهم ، وقتل فى بعض المعارك ، فخلفه ولده بُلُكّين . ولما سار المعز لدين الله فى سنة ٣٦٢هـ إلى مصر ، بعد افتتاحها على يد جوهر ، اختار بلكين لولاية إفريقية ، ثم خلفه على ولايتها ولده المنصور ، ثم خلف المنصور ولده باديس . وفى خلال ذلك ، كانت المعارك تضطرم فى ربوع المغرب باستمرار ، بين أمراء صنهاجة هؤلاء ،

وبين خصومهم من أمراء زناتة وغيرها ، من القبائل الموالية لبنى أمية خلفاء قرطبة . وقد تتبعنا فيما تقدم أدوار تلك المعركة ، التى نشبت فى المغرب ، بين الدعوة الفاطمية ، وبين الخلافة الأندلسية ، منذ أيام الناصر لدين الله ، واستعر لظاها بالأخص أيام الحكم المستنصر ، ثم المنصور بن أبى عامر ، وكانت صنهاجة تحمل دائما ، وعلى يد بنى مناد ولاة إفريقية، علم الدعوة الفاطمية ،وتحمل زناتة وحلفاؤها علم الخلافة الأندلسية .وقد انتهت هذه المعركة أيام المنصور ، حسبما رأينا ، إلى هزيمة صنهاجة ، وتوطيد سلطان الدعوة المروانية بالمغرب .

وقد حدث أيام ولاية باديس بن المنصور على إفريقية ، حادث كان له فيما بعد أكبر صدى ، فى حوادث الأندلس . ذلك أن باديس استبد بقومه آل مناد ، ووقعت بينه وبين أعمامه وأعمام أبيه ، فتن ومعارك ، قتل فى أثنائها ، عم أبيه ماكسن بن زيرى بن مناد ، فاستوحش الباقون من عاديته ، وعولوا على مغادرة إفريقية ، وكتب شيخهم زاوى بن زيرى إلى المنصور بن أبى عامر ، يستأذنه الجواز بقومه إلى الأندلس ، للجهاد فى سبيل الله ، فأذن لهم ، وعبر زاوى ابن زيرى ومعه أبناء أخيه ماكسن المقتول ،حُباسة وحَبُّوس وماكْسَن فى أهلهم وأموالهم إلى الأندلس سنة ٣٩١ هـ ، فأكرمهم المنصور وأنزلهم منزلا حسناً (١)، واتخذهم له بطانة وعوناً ، ونظمهم مع زناتة ، وسائر بطون البربر الأخرى ، وقويت شوكتهم فى أواخر أيام المنصور ، ثم فى أيام ولديه عبد الملك ، وعبد الرحمن ، ورجحت كفتهم فى الجيش ، وغدوا للدولة عضداً . وقد كان إذن المنصور لزيرى وقومه ، وهم من صنهاجة ألد خصوم الدعوة المروانية والدولة العامرية ، بالجواز إلى الأندلس ، عملا من أعمال السياسة المستنيرة ، وكان غنما مادياً وأدبياً للدولة العامرية .

(١) كتاب التبيان أو مذكرات الأمير عبد الله ص ١٧ ، وابن خلدون فى كتاب العبر ٦ ص ١٥٧ و ١٥٨ و ١٥٩ . ولكن هناك رواية أخرى تقول إن زاوى وقومه وفدوا على عبد الملك المظفر بن المنصور ، وأنه هو الذى أذن لهم بالجواز . وهذه هى رواية ابن حيان التى أوردها صاحب الذخيرة (المجلد الأول القسم الرابع ص ٦١ ) ، ويتابعه فيها صاحب البيان المغرب (ج ٣ ص ٢٦٣ ) وكذلك ابن الخطيب فى الإحاطة (القاهرة) ج ١ ص ٤٤٠ و ٥٢١ . وقد أخذنا نحن بالرواية الأولى ، أولا لأنها رواية عبد الله بن بلكين ، وهو حفيد ماكسن أخى زاوى ، وأدرى بتاريخ أسرته ، وثانياً لأن ابن خلدون ، وهو حجتنا الأولى فى تاريخ البربر ، يأخذ بها ، ويحدد لنا سنة الجواز فى سنة ٣٩١ هـ ، أعنى قبل وفاة المنصور بنحو عامين .

بيد أن الدولة العامرية لم تعمر طويلا ، فكان السقوط ، وكان انهيار السلطة المركزية ، وبداية عهد الفتنة والفوضى ، وقام محمد بن هشام الملقب بالمهدى، باغتصاب الخلافة من هشام المؤيد سنة ٣٩٩ هـ (١٠٠٩ م) . ومن ذلك الحين يأخذ البربر بقسط بارز فى تلك المعركة المضطرمة المشعبة ، التى تدور حول عرش الخلافة . وكان أول باعث لإقحام البربر فى تلك المعارك ، ما خصهم به المهدى من الاضطهاد وسوء المعاملة ، ثم تحريض عامة قرطبة على مطاردتهم ، والتف البربر عندئذ حول سليمان بن الحكم خصم المهدى ومنافسه ، وتوالت الخطوب والمعارك ، وفتك أهل قرطبة خلال ذلك بحباسة بن ماكسن ابن أخى زيرى ، فازدادوا نقمة واضطراماً ، وحاصر البربر قرطبة ، وفتكوا بأهلها ، ثم دخلوها فى مناظر مروعة من العيث والسفك ، وانتهى الأمر بجلوس مرشحهم سليمان على عرش الخلافة ، وتلقب بالمستعين ، وذلك فى شوال سنة ٤٠٣ هـ (مايو سنة ١٠١٣م) ، وقبض البربر ، وهم الذين عاونوه ونصروه ، على سائر السلطات فى القصر وفى الحكومة .

وعندئذ رأى سليمان المستعين ، أن يعمل على تفريق البربر فى الكور والثغور ، إرضاء لهم من جهة ، وتفريقاً لشملهم وإبعاداً لهم عن قرطبة ، من جهة أخرى ، فأقطع قبيلة صنهاجة وزعماءها بنى زيرى بن مناد ولاية إلبيرة (غرناطة) ، وأقطع بنى برزال وبنى يفرن ولاية جيان ، وبنى دمر وإزداجة منطقة مورور وشذونة ، وأقطع آل حمود الأدارسة ثغور المغرب ، وذلك كله حسبما فصلناه من قبل فى مواضعه ، فى أخبار سقوط الخلافة الأندلسية[1] .

ويقول لنا الأمير عبد الله بن بلكين فى مذكراته ، إن صنهاجة حينما رأت تفكك الدولة ، واستقلال كل أمير ببلده ، اعتزموا الرحيل عن الأندلس ، ولكن أهل إلبيرة ، وقد كانت ولايتهم تتمتع بسعة الرقعة والخصب والنماء ، ولم يكن لهم من يدافع عنهم ، لجأوا إلى زاوى بن زيرى ، ودعوه وقومه إلى الإقامة بأرضهم ومشاركتهم فى خيراتهم ونعائمهم ، والدفاع عنهم ، وقبل زيرى وقومه دعوتهم ، واستبشروا بالنزول فى تلك الأرض ، وطابت لهم ربوعها ، وأجمعوا على الدفاع عنها .

(١) راجع الفصل الأول من الكتاب الرابع من «دولة الإسلام فى الأندلس» .

وأنهم بعد أن نزلوا بأرض إلبيرة ، رأوا أنها بموقعها لاتصلح للدفاع ، واتفق رأيهم على أن يبتنوا فى البسيط الواقع على مقربة منها ، فى وادى شَنيل المنحدر من جبل شُلَّير(١)، وهو البسيط الذى يحجبه الجبل ،مدينة جديدة ينزلون بها ، وتكون معقلهم، فشرعوا فى بنيانها . وهكذا قامت مدينة غَرناطة ، وكان قيامها نذيراً بخراب إلبيرة ، فعفت منازلها بسرعة ، وأسبل عليها النسيان ذيله ، وأخذت غرناطة تنمو بسرعة وتحتل مكانها(٢) .

استقر بنو مناد إذاً فى كورة غرناطة ، لكنهم لم يكونوا بمعزل عن حوادث قرطبة . ذلك أن علياً بن حمود الإدريسى ، لما استولى على عرش الخلافة فى المحرم سنة ٤٠٧ هـ ( يوليه ١٠١٦ م ) ، وقتل سليمان آخر الخلفاء الأمويين بالأندلس ، نهض خيران العامرى ، فأعلن الخلاف ، وأعاد الدعوة لبنى أمية فى شخص عبد الرحمن بن محمد من أحفاد الناصر ، ولقبه بالمرتضى ، وانضم إليه فى تلك الحركة منذر بن يحيى التجيبى أمير الثغر ، وعدة من ولاة شرقى الأندلس، وسار فى جموع كبيرة لمقاتلة الحمّوديين ، ولكنه عرج فى جموعه أولا على غرناطة لمقاتلة جيش صَنهاجة القوى ، فلقيه أميرها زاوى بن زيرى فى قواته ، ونشبت بينهما معركة شديدة استمرت أياما ، وانتهت بهزيمة أهل الأندلس وتمزيق جموعهم ، ومقتل خليفتهم المرتضى ، وكان ذلك فى سنة ٤٠٩ هـ ( ١٠١٩ م ) .

على أن هذه المعركة كان لها أثر عميق فى نفس زاوى ، فبدلا من أن يرى فى كسبها دليل التفوق والاستقرار ، شعر بالعكس مما آنسه من مرارة القتال وروعته أن هذا النصر إن كان بداية طيبة ، فقد تعقبه نكسات ومحن لايستطيعون الصمود لها ، وأن أهل الأندلس لن يتركوا مقارعة البربر ، حتى يفوزوا بالقضاء عليهم. وقال زيرى لقومه ، حسبما يروى لنا الأمير عبد الله : « وقد علمت وأيقنت أن هذا يكون دأبهم أبداً ( أى أهل الأندلس ) ، وإن كنا قد منحنا الظفر فى أول صفقة ، لم نأمنهم على أنفسنا وديارنا فى كل حين ، وهم إن قتل منهم واحد خلفه ألف ، مع ميل جنسيتهم من الرعايا إليهم » . وهو مايورده ابن حيان على لسان زيرى على النحو الآتى : « إن انهزام من رأيتموه لم يكن عن قوة منا ، إنما جره مع القضاء ،غدر ملوكهم لسلطانهم ليهلكوه كما فعلوا . فإنى عرفت ذلك من يوم

(١) هو بالإسبانية Sierra Nevada أو جبل الثلج .

(٢) راجع كتاب التبيان أو مذكرات الأمير عبد الله ص ١٨ — ٢٢ .

نزولهم ، ولذلك ماكنت أقوى نفوسكم ، وقد نجانا منهم برحمته ، ومضى القوم ولم يعدموا إلا رئيسهم ، واستخلافه هين عليهم ، ولست آمن عودهم حملة إليكم فيما بعد ، فلا يكون لنا قوام بهم» . هذا ومن جهة أخرى فقد كان زاوى يخشى من غدر بربر زناتة أعدائهم الحقيقيين ، ويخشى بالأخص أن يتحالفوا ضدهم مع أهل الأندلس ، فتكون الطامة الكبرى عليهم . وأخيراً فقد كان زاوى يرى بعد وفاة باديس بن المنصور أمير إفريقية ، الذى اضطهده وقومه ، وولاية ولده الطفل المعز حفيد أخيه بلكين ، أن الجو قد تهيأ لعودته ، واحتلال مكانته فى وطنه . ومن ثم فقد اعتزم زاوى أن يغادر الأندلس إلى إفريقية ، وقال لقومه : « فالرأى الخروج عن أرضهم ، واغتنام السلامة مع إحراز الغنيمة ، والرجوع إلى الحملة التى انفصلنا عنها »(١) .

وهكذا قرر زاوى بن زيرى العودة إلى إفريقية بالرغم من معارضة ولده ووجوه قومه . وخرج عن غرناطة فى أهله وأمواله ، مستخلفاً عليها بعض شيوخ قومه ، وركب البحر من المنكب ، ومعه الكثير من الأموال والذخائر . وكان خروجه من الأندلس فى سنة ٤١٠ هـ ( ١٠٢٠ م ) . واستقبله حافد أخيه المعز ابن باديس صاحب إفريقية وبنو عمه أجمل استقبال ، وأنزل فى القيروان أجمل منزل ، وكان بعد مهلك الشيخة من بنى عمه وذوى قرابته زعيم القوم ، وكان النساء من محارمهم نحو ألف امرأة لا يحتجبن عنه . بيد أنه لم يلق بالقيروان فى ظل المعز ، ماكان يؤمل من رياسة وسلطان(٢) .

قال ابن الخطيب : « وكان زاوى كبش الحروب ، وكاشف الكروب ، خدم قومه ، شهير الذكر أصيل المجد ، المثل المضروب فى الدهاء ، والرأى ، والشجاعة والأنفة والحزم »(٣) .

وعلى أثر ارتحال زاوى سعى الفقيه ابن ابى زمنين قاضى غرناطة ، فى أن يعين لولايتها حبوس بن ماكسن ابن أخى زيرى ، فلحق به فى حصن أشتر على مقربة

(١) راجع التبيان أو مذكرات الأمير عبد الله ص ٢٤ و ٢٥ ، والذخيرة القسم الأول المجلد الأول ص ٤٠٢ و ٤٠٣ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٢٨ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٨٠ .

(٢) الذخيرة القسم الأول ، المجلد الأول ص ٤٠٢ ، والإحاطة (القاهرة ١٩٥٦) ج ١ ص ٥٢٥ .

(٣) الإحاطة ج ١ ص ٥٢٢ .

من وادى آش . وكان يرابط هنالك مترقباً رحيل عمه . فبادر بالسير إلى غرناطة، ودخلها فى موكبه وطبوله ، واحتلها فلم يعارضه أحد من قومه ، وتربع فى رياستها من وقته . وقيل إن عمه زاوى اختاره ليخلفه قبل رحيله . وقيل من جهة أخرى إن نزاعاً حدث بسبب ذلك ، بينه وبين ابن عمه جلالى بن زاوى، ولكنه انتهى برحيل جلالى ولحاقه بأبيه ، وخلصت له الرياسة ، ومن ذلك الحين تبدأ بغرناطة دولة بنى زيرى بن مناد(١) .

وبدأت ولاية حبّوس لغرناطة فى سنة ٤١١ هـ ، حسبما تقدم فى أخبار الفتنة، فسار حبوس سيرة حسنة ، وضبط النظام والأمن ، وقسم الأعمال بين أقاربه وبنى عمه ، واتسعت رقعة مملكته ، فغلب على قبره ونواحيها وعلى مدينة جيان ، وأتم بناء غرناطة ، وحشد الجند ونظم الجيش ، وكان يشرك بنى عمه فى الرأى ، ويجرى فى حكمه على طريق الشورى . ووطد حبوس ملك قومه بغرناطة ، وأقام له بلاطاً فخماً ، وعقد علائق المودة والتحالف مع سائر جيرانه من رؤساء البربر وفى مقدمتهم بنى حمود أصحاب مالقة ، وعقد الصداقة أيضاً مع زهير الفتى العامرى صاحب ألمرية . ولما قتل يحيى بن حمود ( المعتلى ) أمام أسوار قرمونة سنة ٤٢٧هـ على يد القاضى ابن عباد ، وخلفه فى الملك ولده إدريس المتأيد بالله ، كان حبوس وحليفه زهير العامرى من المعترفين ببيعته ، وقد سارا لمعاونته على محاربة ابن عباد، وسار معهما البرزالى صاحب قرمونة فى قواته ، وزحفت القوات المتحدة على إشبيلية ، وعاثت فى بسائطها ، ثم عاد كل إلى قواعده ، وذلك فى أواخر سنة ٤٢٧ هـ (١٠٣٦ م) . وفى العام التالى ( ٤٢٨ هـ ) توفى حبوس بن ماكسن، وخلفه فى حكم غرناطة ولده باديس(٢) .

ويشيد ابن حيان ، وقد عاصر هذا العهد ، بخلال حبّوس ، فيقول لنا إنه كان أحد نائبى برابرة الأندلس الذين يعتد بهم ، وإنه كان على قسوته «يصغى إلى الأدب ، وينتمى فى العرب ، للأثر المقفو فى قومه صنهاجة . وكان وقوراً حليماً فظاً مهيباً ، نزر الكلام ، قليل الضحك ، كثير الفكر ، شديد الغضب ،

(١) الذخيرة المجلد الأول القسم الأول ص ٤٠٣ ، والإحاطة ج ١ ص ٤٨٥ .

(٢) راجع فى أخبار حبوس بن ماكسن : التبيان ص ٢٥ و ٢٦ ، والإحاطة ج ١ ص ٤٨٥ والبيان المغرب ج ٣ ص ٢٦٤

شجاعاً ، حسن الفروسية ، جبارا متكبراً ، داهية واسع الحيلة ، كامل الرجولة ، له فى كل ذلك أخبار مأثورة »(١) .

— ٢ —

فخلفه فى حكم غرناطة ولده باديس ، الذى قدر له أن يكون أقوى ملوك البربر فى جنوبى الأندلس ، وأعظمهم شأناً ، فى تلك الفترة التى كثرت فيها الممالك والرياسات ، ولم ينازعه فى الملك أخوه بُلُقِّين بن حبوس ، ولكن كان له فى الملك منافس من قومه ، هو ابن عمه يدِّير بن حُباسة بن ماكسن . وكان يدير ومن ورائه بعض شيوخ غرناطة يحاول منذ أيام عمه حبوس ، أن ينتزع السلطة لنفسه ، فلما فشل أيام حبوس ، حاول أن يعيد الكرة فى أوائل عهد باديس . وكان من مشجعيه ومحرضيه الكاتب أبو الفتوح ثابت بن محمد الجرجانى ، وهو من علماء المشرق الذين وفدوا على الأندلس أيام الفتنة ، ولحق بغرناطة . وكان فضلا عن أدبه الغزير ، يعنى بدراسة الفلك والحكمة ، ويلقى بنبوءاته فى روع يدير ، أنه سوف يظفر بعرش غرناطة ، ويحكمها ثلاثين عاماً(٢) .

وكان لأبى العباس كاتب حبوس ، مساعد من اليهود يدعى أبو إبراهيم يوسف ابن اسماعيل بن نغرالة كان يتولى جمع المال ، وكان رجلا متواضعاً حسن السيرة ، فلما توفى أبو العباس تقدم مكانه ، وعلت منزلته ، ولما ولى باديس زادت حظوته وظهرت همته فى جمع الأموال . فلما دبر القوم مؤامرتهم لانتزاع السلطة من باديس وإجلاس يدير مكانه ، لجأوا إلى أبى إبراهيم ، وحاولوا ضمه إليهم ، فتظاهر بالقبول ، وأخطر مولاه باديس ودبر اجتماعهم بمنزله ، وحضور باديس ليسمع بنفسه مشاوراتهم من مكان معين ، ومن ذلك الحين غدا ذلك اليهودى أثيراً عند باديس ، وصار ناصحه الأول ، لايبرم أمراً دون رأيه .

وكان المتآمرون قد اعتزموا أمرهم لقتل باديس ، أثناء تنزهه ، بمكان بالضاحية يعرف بالرملة ، وكان ممن رشوه لذلك شيخ من صنهاجة يدعى فرقان . فأفضى بالأمر لباديس وحذره فى الوقت المناسب ، وعلم المتآمرون بافتضاح تدبيرهم ، ففروا إلى خارج غرناطة ، وفى مقدمتهم يدير بن حباسة والكاتب أبو الفتوح

---

(١) الذخيرة القسم الأول المجلد الأول ص ٤٠٤ .

(٢) الإحاطة ج ١ ص ٤٦٣ و ٤٦٥

الجرجانى ، وقد فرا معاً إلى إشبيلية . ووقف باديس على أسماء كثير ممن شاركوا فى المؤامرة من شيوخ صنهاجة ورجالها ، وهم بقتلهم جميعاً ، فرده أبو إبراهيم عن عزمه ، وحذره من اتساع نطاق الفتنة ، لأنهم رجاله وجنده وأولى أن يلاينهم وأن يغمرهم بالعطايا ، وأن يضرب بعضهم ببعض ، فنزل عند نصحه ، واستتب له الأمر دون منازع[١] .

وكان أول حادث خطير واجه باديس ، هو حربه مع زهير العامرى صاحب ألمرية . وكان زهير من أخص الفتيان العامريين الذين تفرقوا عقب الفتنة ، واحتلوا معظم القواعد الشرقية ، وكان قد ولى حكم ألمرية بعد وفاة صاحبها الفتى خيران فى سنة ٤١٩ هـ (١٠٢٨ م) ، وامتد سلطانه شرقاً حتى شاطبة ، وشمالا حتى بياسة وقرطبة . وكان يرتبط بعلائق المودة بجيرانه الأقربين بنى حمود أصحاب مالقة ، وبنى زيرى أصحاب غرناطة . وقد رأينا كيف تحالف زهير مع حبوس ابن ماكسن على قتال ابن عباد ، فلما توفى حبوس وخلفه باديس ، بدأت العلائق بين زهير وباديس فى الفتور ، وذلك لما عمد إليه زهير من إيواء عدو باديس الألد محمد بن عبد الله زعيم زناتة وحمايته ، وأرسل باديس إلى زهير رسوله يعاتبه ، ويطلب إليه تجديد المحالفة التى كانت بينه وبين أبيه حبوس[٢] ، ولم يمض قليل على ذلك ، حتى خرج زهير من ألمرية فى قواته ومعه كاتبه ومستشاره الأثير أحمد ابن عباس ، وسار متجهاً صوب غرناطة . ولم توضح لنا الرواية غرض زهير من تلك الحركة . ولكن الأمير عبد الله بن بلقين حفيد باديس ، يقول لنا فى مذكراته ، إن زهيراً « أدركه الطمع فى عرناطة » عقب موت حبوس[٣] . وإذاً فقد كان زهير يرمى إلى غزو غرناطة ، وافتتاحها . وعلى أى حال فقد استمر زهير فى السير بقواته ، واخترق أراضى غرناطة من شرقها حتى وصل إلى قرية ألفنت[٤] الواقعة على مقربة من شمال غرناطة . وكان باديس فى أثناء ذلك قد عبأ قواته وقد ملأته الدهشة والريب ، لاقتحام زهير أراضيه على هذا النحو ، وشعر أنه قد غدا

---

(١) فصل لنا الأمير عبد الله أدوار هذه المؤامرة بإفاضة (التبيان ص ٣١ — ٣٤) .

(٢) ابن حيان فى الذخيرة ، القسم الأول المجلد الثانى ص ١٦٦ ، ونقلها البيان المغرب ج ٣ ص ١٦٩ .

(٣) كتاب التبيان ص ٣٤ .

(٤) هى بالإسبانية Daifontes وهى تقع على قيد عشرين كيلوا متراً شمالى غرناطة .

فى قبضته وتحت رحمته . ولكنه بدأه بالجميل والمودة، وزوده هو ورجاله بالصلات والقرى ، ثم لقيه ووقعت بينهما المناظرة ، ومن حول كل رجال دولته ، فاشتط زهير ، وأغلظ لباديس فى القول ، وكان كاتبه أحمد بن عباس هو الذى أشار عليه بهذا المسلك ، فغادره باديس مقضباً ، وقد عول على الحرب ، ووافقه قومه شيوخ صنهاجة . وكان باديس قد حشد قواته ورتبها ترتيباً محكماً ، وهدم رجاله قنطرة فى مؤخرة القوات الهاجمة ، قطعاً لخط رجعتها ، ورتب من ورائها الكمائن فى المفاوز المستترة . كل ذلك وزهير فى غروره وعجبه ، لايشعر بما يدبره خصومه . وفى صباح اليوم التالى ، فاجأت قوات صنهاجة جيش زهير بهجومها العنيف ، وكان يقودها بلقين بن ماكسن أخو باديس، فلقيها زهير بعزم وثبات ، ودفع لردها قائده هذيلا الصقلبي فى خيرة قواته من الفتيان العامريين والصقالبة ، ووقعت بين الفريقين معركة هائلة ، صدمت فيها قوات الصقالبة وأسر قائدهم هذيل، وقتل فى الحال بأمر باديس ، فدب الخلل فى قوات زهير ، ونكصت على أعقابها ، والبربر من ورائها يحصدونها حصداً ، وفر زهير فيمن فر من أصحابه إلى شعب الجبال المجاورة ، ولكنه أخذ وقتل ، ولم يعثر بجثته ، وأبيد معظم قواته قتلا وأسراً ، وظفر البربر بغنائم هائلة من المال والسلاح والعدة والغلمان والخيام ، وأمر باديس بقتل القواد والفرسان من الأسرى ، وكان من بين الأسرى عدة من الكتاب فى مقدمتهم أحمد بن عباس وابن حزم والد الفيلسوف وأبو عمر الباجي وغيرهم ، فأطلق باديس سراحهم جميعاً ماعدا ابن عباس وعدة آخرين من الأسرى ، فقد زجهم فى الأصفاد إلى المعتقل . وتمت هذه الوقيعة الساحقة على زهير العامرى وأصحابه ، فى آخر يوم من شوال سنة ٤٢٩ هـ( ١٠٣٨ م )(١)

ولم تمض أسابيع قلائل على ذلك حتى قتل ابن عباس فى معتقله بالقصبة . قتله باديس بيده تشفياً منه ، لتيقنه من أنه هو ناصح زهير والمحرض له على غزوه . ولم ينقذه ماعرضه لافتداء نفسه من المبالغ الضخمة ، ولم تنجح شفاعة الوزير ابن جهور عميد قرطبة لدى باديس للإبقاء على حياته . وكان ابن عباس من أعلام كتاب عصره ، وافر المعرفة والأدب ، عظيم الوجاهة ، والسراوة ،

(١) الذخيرة القسم الأول المجلد الثانى ص ١٦٦ — ١٦٩ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٦٩ — ١٧٣ ، والإحاطة ج ١ ص ٥٢٦ — ٥٢٨ ، والتبيان ص ٣٤ و ٣٥ .

وكان له فى حكومة ألمرية ، فى ظل صاحبها زهير ، أعظم نفوذ وسلطان[١] .

وكان من أثر مصرع زهير، وانهيار حكومته على هذا النحو ، أن استولى باديس على القسم الغربى من أراضى مملكة ألمرية المتاخمة لمملكته ، وهى تشمل مدينة جيّان وأعمالها ، وكذلك جزءاً من أراضى ولاية قرطبة الجنوبية .

* * *

وكان لهذا النصر الباهر الذى أحرزه باديس فى بداية حكمه ، أعظم أثر فى توطيد سلطانه وإذاعة ذكره . وكان باديس ، مثل معظم أمراء البربر فى جنوبى الأندلس ، يتوجس من أطماع القاضى ابن عباد صاحب إشبيلية ومشاريعه . وكانت المعركة الحقيقية ، تدور فى هذا القسم من اسبانيا المسلمة ، بين بنى عباد والبربر ، وقد بدأت منذ الساعة الأولى بين بنى عباد وبنى حمود ، الذين يمثلون زعامة البربر . ومن ثم فقد كان باديس ، ومن قبله والده حبوس ، ينضوى تحت لواء الحموديين ، ويشد أزرهم كلما دعت الظروف ، وقد أشرنا من قبل إلى ما كان من مسير حبوس فى قوات صنهاجة لمعاونة إدريس المتأيد بالله على محاربة ابن عباد ( ٤٢٧ هـ ) . ولما سير القاضى ابن عباد قواته تحت إمرة ولده إسماعيل لغزو مدينة قرمونة ، وانتزاعها من يد صاحبها محمد بن عبد الله البرزالى ، استعان البرزالى بإدريس المتأيد وباديس ، فهرعا إلى إنجاده ، وكانت قرمونة قد سقطت بالفعل فى يد إسماعيل بن عباد ، ونشبت بين قوى العباديين وبين البربر على مقربة من إستجة معارك شديدة انتهت بهزيمة جيش ابن عباد ، ومقتل قائدهم إسماعيل ، وذلك فى المحرم سنة ٤٣١ هـ ( أواخر سنة ١٠٣٩ م )[٢] . وهكذا أكد باديس مرة أخرى تفوقه وتفوق قومه صنهاجة على قوات الأندلس المناوئة للبربر .

ومما هو جدير بالذكر أنه على أثر انتهاء المعركة ، ووجود باديس تحت أسوار إستجة ، وفد على مخيمه فجأة الكاتب أبو الفتوح الجرجانى ، وكان قد فر حسبما تقدم عند اتهامه بالتآمر مع يدّير لى إشبيلية ، وهنالك علم أن باديس أمر بالقبض

---

(١) راجع فى ترجمة أحمد بن عباس : الإحاطة ج ١ ص ٢٦٧ – ٢٧٠ ، والذخيرة القسم الأول المجلد الثانى ص ١٧٥ – ١٨٠ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١٩٩ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٨٠ ، والمعجب للمراكشى ص ٥٠ .

على زوجه وأولاده ونفيهم إلى المنكب . وكانت زوجه أندلسية بارعة الحسن ، وله منها ولدان ، وكان يعبدها حباً . فلما اقترب باديس من إشبيلية هرع أبو الفتوح إليه يستأمنه ويستجير به . ولكن باديس استقبله بجفاء ، وبعث به مخفوراً إلى غرناطة ، وهناك شُهر وعذب ثم اعتقل أياماً ، دخل من بعدها باديس إلى مطبقه ، وأخذ فى تأنيبه وسبه ، ثم قتله بيده ، واحتز رأسه (آخر المحرم سنة ٤٣١ هـ)(١) .

ولما اضمحل شأن بنى حمود وافترقت كلمتهم ، بدأ باديس بالتدخل فى شئون مملكة مالقة ، تحيناً للفرصة فى أخذها . ومن ذلك أنه حينما ثار على إدريس ابن يحيى العالى ، ابن عمه محمد بن إدريس فى سنة ٤٣٨ هـ ( ١٠٤٦ م ) ، واستطاع أن ينتزع منه الملك ، تقدم باديس لمعاونة الملك المخلوع ، وسار معه فى بعض قواته إلى مالقة ، ولكنهما لم يفوزا بطائل ، فلجأ إدريس عندئذ إلى سبتة ، وبويع محمد بن إدريس وتلقب بالمهدى ، ولكنه لم يفز عندئذ بإجماع الزعماء البربر على مبايعته ، وكان باديس أشدهم معارضة فى إقامته ، ذلك لأنه كان يشعر عندئذ ، وبعد أن ضعف شأن بنى حمود ، أنه أحق برياسة البربر فى الأندلس ، وأخذ من ذلك الحين يتحين الفرصة لتسديد الضربة القاضية لرياسة بنى حمود ، وذلك بانتزاع مالقة مقر سلطانهم .

وتم له ذلك فى سنة ٤٤٩ هـ (١٠٥٧ م) ، وذلك بعد أن ارتقى عرش مالقة ، بعد محمد بن إدريس المهدى ، ثلاثة أخر من بنى حمود ، وهم إدريس ابن يحيى الملقب بالسامى ، ثم إدريس بن يحيى العالى ، ثم ولده محمد المستعلى . فلما تولى المستعلى نكل الزعماء البربر عن مبايعته ، وفى الحال سار باديس فى قواته إلى مالقة واستولى عليها ، وضمها إلى إمارته ، وغادرها المستعلى وعبر البحر إلى المغرب ، وانتهت بذلك مملكة بنى حمود فى مالقة ، وبقيت بعد ذلك فى الجزيرة الخضراء فترة قصيرة أخرى ، حتى بعث ابن عباد قواته إلى الجزيرة فطوقتها ، من البر والبحر ، واضطر صاحبها القاسم بن حمود أن يغادرها بالأمان مع أهله وصحبه ، وذلك فى سنة ٤٤٦ هـ ( ١٠٥٥ م ) ، وبذلك انتهت دولة بنى حمود فى الجزيرة أيضاً ، وطويت صفحتهم بالأندلس .

ولما استولى باديس على مالقة ، عنى بتحصينها ، وشيد قصبتها على أجمل

(١) الإحاطة ج ١ ص ٤٦٥ و ٤٦٦ ، والذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ٩٦ .

طراز وأمنعه ، حماية لها من أطماع الطامعين من أمراء الأندلس ، ولاسيما بنى عباد . وقد كان أهل مالقة بالفعل قد سئموا حكم البربر ، وتاقت نفوسهم للتخلص منه ، فبعثوا إلى المعتضد بن عباد رسلهم سراً يستحثونه على افتتاح مالقة ، واستجاب المعتضد لدعوتهم ، وسير إليها حملة بقيادة ولديه جابر والمعتمد ، فزحفت على مالقة وطوقتها ، وكادت المدينة تسقط فى أيديهم ، لولا أن اعتصمت حاميتها من البربر والسود بقصبتها المنيعة ، ودافعت دفاعاً شديداً ، بقيادة قائدها الشجاع مخلوف بن ملول ، وهرع باديس فى قواته إليها ، ونشبت بينه وبين المهاجمين معركة شديدة مزق فيها جند إشبيلية ، وقتل وأسر منهم عدد جم ، وأسرع جابر والمعتمد ابنا عباد بالفرار فى فل جندهما إلى رندة [١] . وكان ذلك فى سنة ٤٥٨ هـ (١٠٦٦ م) . وبعث محمد بن عباد (المعتمد) إلى والده المعتضد من رندة ، قصيدته الشهيرة ، يستعطفه فيها ويعزيه فى مصابه وهذا مطلعها :

| | |
|---|---|
| سكن فؤادك لا تذهب بك الفكر | ماذا يعيد عليك البث والحذر |
| وازجر جفونك لا ترض البكاء لها | واصبر فقد كنت عند الخطب تصبر |
| فان يكن قدرٌ قد عاق عن وطر | فلا مرد لما يأتى به القــدر |
| وإن تكن خيبة فى الدهر واحدة | فكم غزوت ومن أشياعك الظفر [٢] |

وكان من مظاهر هذه المعركة ، التى اضطرمت بين باديس وبنى عباد ، ماحدث فى نفس هذا العام ، من التجاء بنى برزنيان وأميرهم محمد بن خزرون أصحاب أركش ، حينما أرهقهم ابن عباد بغاراته ، إلى باديس ليتسلم هو قاعدة أركش ، ويعطيهم بدلا منها ، مكاناً ينزلون به فى أراضى غرناطة ، وقد استجاب باديس لرغبتهم وتسلم منهم أركش ، وخرجوا عنها باهلهم وأموالهم ومتاعهم ، فدهمتهم قوات ابن عباد فى الطريق ومزقتهم ، وانتزعت حصن أركش من يد قائد باديس ، وسيطر ابن عباد بذلك على سائر منطقة شذونة ، وكانت من قبل تحت سيطرة البربر [٣] .

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٧٤ و ٢٧٥ . وراجع كتاب التبيان ص ٤٣ .

(٢) وهى طويلة . وقد أوردها ابن الأبار فى الحلة السيراء (القاهرة) ج ٢ ص ٥٦ — ٥٨ .

(٣) البيان المغرب ج ٣ ص ٣٧٢ و ٢٧٣ .

— ٣ —

وكان باديس قد قطع إلى ذلك الحين ثلاثين عاماً فى الحكم ،وكانت مملكته تمتد يومئذ من بسطة شرقاً ، حتى رندة غرباً ، ومن جيّان شمالا إلىالبحر جنوباً، وكان قد شاخ وأخلد إلى الراحة ، وانهمك فىالشراب، وترك مقاليد الأمور كلها لوزيره اليهودى يوسف بن نغرالة[1] ، وكان يوسف قد حل فى المنصب مكان أبيه اسماعيل بن نغرالة وزير حبوس ثم باديس ، وكان هذا الوزير اليهودى قد استأثر بعطف باديس وثقته ، فرفعه فوق سائر كتابه ووزرائه ،وفوضه فى جميع أموره ،وعين معظم المتصرفين والعمال من اليهود، واستطاع بمهارته وحنكته أن يملأ خزائن باديس بالمال ، وأن يمكنه من الإنفاق على جيشه ، ومن تحقيق مشاريعه الإنشائية . وكان اسماعيل فوق ذلك من أهل الأدب والشعر ، وكان حسن السيرة رضى الأخلاق ، وافر الأناة والحلم ،فلم يثر من حوله خصومة ولا منافسة . ويقدم إلينا ابن حيان ، وهو المؤرخ المعاصر عن ابن نغرالة ، الصورة الآتية : « وكان هذا اللعين فى ذاته ، على مازوى الله عنه من هدايته ، من أكمل الرجال علما وحلماً وفهماً،وذكاءودماثة ،ورصانة ودهاء،ومكراًوملكاً لنفسه ،وبسطاً من خلقه،ومعرفة بزمانه ،ومداراة لعدوه ،واستسلالا لحقودهم بحلمه » . ثم يقول لنا إنه كان بارعاً فى الآداب العبرية والعربية ،وإنه شغف بالعربية ونظر فيها ، وقرأ كتبها ، وألف فيها ،وكتب رسائل يشيد فيها بالإسلام وفضائله ، ودرس الرياضة والفلك والهندسة والمنطق ،وكتب كتاب « السجيح فى علوم الأوائل الرياضية » . وأخيراً إنه كان بارعاً فى الجدل يتفوق فيه على سائر الناس ، قليل الكلام ، ماقتاً للسباب ، دائم التفكر ، جماعة للكتب[2]. وقد ساعدته هذه الصفات كلها ، بلاريب ،على الاستئثار بعطف الأمير وإعجابه وثقته وخلقت من حوله جوا من العطف بين سائر ممن يتصلون به أويتعامل معهم . واستمر ابن نغرالة عن مكانته حتى توفى ، فندب باديس ولده يوسف للاطلاع بمنصبه . وكان يوسف فتى جميلا غض الإهاب ،وافر الذكاء والبراعة، فقام بالأعمال خير قيام ، واستعمل اليهود كذلك على الأعمال ،وأبدى فى جمع المال همة مضاعفة، فتمكنت منزلته لدى باديس، واجتمعت فى يده السلطات شيئاًفشيئا

(١) كتاب التبيان ص ٤٢ .

(٢) الإحاطة عن ابن حيان ج ١ ص ٤٤٦ و ٤٤٧ .

حتى غدا كأبيه من قبل ،أول رجل فى الدولة ، وأمضاهم تصرفاً فى شئونها .

وكان بُلُقّين ولد باديس الأكبر الملقب بسيف الدولة ، والمرشح من بعده لولاية عهده ، ينظر إلى استئثار الوزير اليهودى بزمام الأمور ، واستئثار بنى جنسه بالتصرف فى الأعمال ، وسيطرتهم التامة على الدولة ، ينظر إلى ذلك كله بعين السخط والحسد ، وكان يجاهر ببغضه لابن نغرالة ، وسعيه إلى إسقاطه ،ويفضى أحياناً إلى خاصته برغبته فى إزالته وقتله ، وكان يذكى فيه هذا الشعور تحريض وزراء الدولة ، ولاسيما على وعبد الله ابنا إبراهيم الشيخ ، وإلقاؤهم فى روعه أنه أحق بهذا النفوذ ، وهذه الأموال التى يتمتع بها اليهود ، وأنه قد أخمله وأخمل سائر رجال الدولة بسيطرته عليها(١) .

وكان يوسف من جانبه ، يضع عيونه وجواسيسه من خاصة باديس فى القصر وفى الحريم ، فلا يكاد باديس يأتى بحركة أو تصدر عنه كلمة ، حتى يقف عليها لفوره ، وكان فى نفس الوقت يحيط بلقين بعيونه ، ويتقصى سائر حركاته وسكناته ، ويقف على نياته نحوه . وكان بلقين مع بغضه ليوسف، يبدى له المودة ويتردد على داره ، ويشاطره الشراب ، وكان منهمكاً مدمناً .فاعتزم يوسف أن يتلخص من بلقين ، قبل أن يقضى هو عليه ، ودعاه ذات يوم مع خاصته وصحبه ، إلى مجلس شراب حافل ، ودس له السم فى كأسه ، فما كاديغادر مجلسه حتى ملكه قىء شديد ، وما كاد يصل إلى داره ، حتى لزم فراشه ، ثم توفى بعد يومين . فروع باديس لمهلك ولده ، على هذا النحو المفاجئ ،واستطاع يوسف أن يقنعه باتهام بعض فتيان ولده وجواريه وقرابته ، فقتل منهم باديس عدة ، وفر الباقون . وكان مصرع بلقين بن باديس فى سنة ٤٥٦هـ ( ١٠٦٤ م)(٢)

وكان هذا الحادث مقدمة لحادث أخطر وأوسع مدى ، وهو الذى اتسم به عهد باديس قبل كل شىء . ذلك أن باديس ترك المجال لوزيره يوسف ، وزاد بفقد ولده انطواؤه على نفسه ، وزاد يوسف بذلك استئثارا وسيطرة على الدولة ، وبُسط على غرناطة وأعمالها نوع من الطغيان اليهودى المرهق ، واستسلم سائر الوزراء والشيوخ إلى هذا السلطان . ولم يكن يناوئ يوسف ويحاول مقاومته سوى « الناية » وهو شخصية غامضة ،وأصله من عبيد المعتضد بن عباد ،

(١) التبيان ص٣٩ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص٢٦٥ ، والتبيان ص٤٠ ،وأعمال الأعلام لابن الخطيب ص٢٣١.

وكان متهماً فى المؤامرة التى دبرها ضده ولده اسماعيل ، ففر من إشبيلية ، والتجأ إلى باديس وخدمه وحظى عنده ، وعهد إليه ببعض المهام الخطيرة . ثم وقع التنافس بينه وبين يوسف ، وكان النابة يحرض على قتاه . ويفضى إلى الأمير بذلك كلما سنحت الفرص . وشعر يوسف بتغير الأمير عليه . وبأن منزلته أخذت فى الضعف ، ففكر فى التفاهم مع أبى يحيى بن صمادح صاحب ألمرية ، واستدعائه للاستيلاء على غرناطة . وكانت تربط ابن صمادح وباديس علائق مودة قديمة ، إذ كان باديس قد وقف إلى جانبه حينما أراد ابن أبى عامر محاربته واسترداد ألمرية منه ، ومهد يوسف لمشروعه بأن عمل على تعيين زعماء صنهاجة ،الذين يخشى بأسهم ، فى الأعمال البعيدة ، واستطاع ابن صمادح بالفعل أن ينتزع وادى آش ، الواقعة شمال شرقى غرناطة ، وأن يشحنها برجاله ، ومضى يوسف فى مفاوضته وهو محجم متهيب من تنفيذ المشروع . كل ذلك وباديس غارق فى لهوه، منكب على لذاته(١) ، وخصوم يوسف من صنهاجة ، وسائر أهل غرناطة ، يضطرمون سخطاً على الطاغية اليهودى ، ويترقبون الفرص لإسقاطه . ولقى سخط الشعب الغرناطى على اليهود فى تلك الآونة ، متنفسه فى الشعر ، ونظم الفقيه الورع الزاهد أبو إسحاق الإلبيرى(٢) قصيدته الشهيرة فى التحريض على سحق اليهود ، والتخلص من طغيانهم ، وإليك بعض ماورد فى تلك القصيدة التى ذاعت يومئذ ذيوع النار فى الهشيم ، وألهبت مشاعر الشعب الغرناطى ، وكانت كالشرارة التى أضرمت الحريق ، وأثارت الانفجار :

ألا قل لصنهاجة أجمعين ... بدور الزمان وأسد العرين
لقد زل سيدكم زلة ... تقر بها أعين الشامتين
تخير كاتبه كافراً ... ولو شاء كان من المؤمنين
فعز اليهود به وانتخوا ... وتاهوا وكانوا من الأرذلين

(١) راجع كتاب التبيان ص ٤٦ و ٤٧ و ٥٠ — ٥٣ .

(٢) هو أبو إسحاق إبراهيم بن مسعود بن سعيد التجيبى الإلبيرى . كان فقيهاً ومحدثاً وأديباً وشاعراً . سعى به الوزير يوسف بن نغرالة لأمور نقمها منه لدى سلطانه باديس ، فأبعده عن غرناطة فسكن إلبيرة القريبة منها ، وانقطع إلى العبادة والزهد . ولكنه لبث يحرض صنهاجة على اليهود فى شعره ووعظه ، حتى وقع الانفجار ، وتم الفتك بهم . وتوفى الإلبيرى فى أواخر سنة ٤٥٩ ، بعد أن شهد آثار تحريضه فى بطش صنهاجة باليهود .

ونالوا منــاهم وحازوا المدى وقد جــاز ذاك وما يشعرون

ومنهــا :

أباديس أنت امرء حــاذق تصيب بظنك مرمى اليقـــين
فكيف تحب فــراخ الزنا وقد بغضـــوك إلى العالمين
وكيف استنمت إلى فاســق وقارنته وهو بئس القرين
وقد أنزل الله فى وحيــه يحــذر من صحبة الفاسقين
فلا تتخــذ منهم خادمــاً وذرهم إلى لعنـــة اللاعنين
فقد ضجت الأرض من فسقهم وكادت تميــد بنا أجمعين
وكيف انفردت بتقــريبهم وهم فى البلاد من المبعــدين
وإنى احتللت بغرناطة فكنت أراهم بهــا عابثين
وقد قسموها وأعمالها فمنهم بكل مكان لعــين
وهم يقبضون جبــاياتهــا وهم يخصمون وهم يقصمــون
وهم يلبســـون رفيع الكسا وأنتم لأوضــاعها لابســون
وهم أمنــاكم على سركم وكيف يكون أمينــاً خؤون
وقد لابســوكم بأسحارهم فما تسمعــون ولا تبصرون

ومنها فى التحريض على ابن نغرالة وقومه :

فبادر إلى ذبحــه قــربة وضح به فهــو كبش سمين
ولاترفع الضغط عن رهطه فقد كنزوا كل علق ثمين
وفرق عــراهم وخــذ مالهم فأنتم أحــق بما يجمعــون
ولا تحسبن قتلهم غــدرة بل الغــدر فى تركهم يعبثون
فقد نكثوا عهــدنا عندهم فكيف تلام على النــاكثين
فلا ترض فينــا بأفعالهم فأنت رهين بمــا يفعلــون
وراقب إلهــك فى حزبه فحــزب الإله هم المفلحون(١)

ووقع الانفجار فى مساء يوم السبت العاشر من شهر صفر سنة ٤٥٩ هـ

(١) نشر ابن الخطيب فى أعمال الأعلام هذه القصيدة بأكلها وهى فى ثلاثة وأربعين بيتاً ص ٢٣١ — ٢٣٣ ، ونشرها دوزى فى كتابه Recherches; V, I. App. XXVI

( ٣٠ ديسمبر ١٠٦٦ م ) . فى تلك الليلة اجتمع يوسف بن نغرالة بالقصبة على الشراب مع طائفة من صحبه من الضالعين معه من عبيد باديس وخاصته. والظاهر أن مشروعه لاستدعاء ابن صمادح إلى غرناطة كان قد نضج ، وأن ابن صمادح كان يكمن مع نفر من صحبه فى مكان قريب من المدينة ، ينتظر النذير باستدعائه. وكان ثمة فى نفس الوقت جماعة من صنهاجة ، ممن يرتابون فى مشاريع يوسف ونياته ، وينقمون على أميرهم تهاونه وتخاذله ، يرقبون حركات اليهودى وسكناته . فحدث والمتآمرون فى مجلسهم ، أن وقعت مشادة بين عبد من الحضور ، وبين حاشية اليهودى ، فانطلق العبد إلى خارج القصبة ، وهو يصيح : لقد غدر اليهودى ودخل ابن صمادح البلدة . وفى الحال هرع الناس وهم يتصايحون ، وفى مقدمتهم رهط صنهاجة المناوئين لليهودى ، واقتحموا القصبة ، فاستغاث يوسف لفوره بباديس ، وحاول الأمير عبثاً أن يهدىء الهاجمين ، فهرب يوسف إلى داخل القصر ، ومن ورائه مطاردوه ، حتى عثروا به فى بعض خزائن الفحم وقد تنكر وصبغ وجهه بالسواد فعرفوه وقتلوه ، وأخذوه وصلبوه على باب غرناطة . وكان الجند والمدينة بأسرها ، قد ماجت عندئذ ، وتخاطف الناس السلاح ، وهجموا على بيوت اليهود فى كل مكان ، وأمعنوا فيهم تقتيلا وتعذيباً، ونهبوا دار يوسف ، وكانت غاصة بالنفائس والذخائر ، ووجدت له فيما وجد خزانة جليلة من كتب العلوم الإسلامية ، ونهبوا سائر دور اليهود وحوانيتهم ، وطاردوهم وفتكوا بهم فى كل مكان ، واستولوا من أموالهم على مقادير هائلة . وهلك من اليهود أكثر من ثلاثة آلاف أو أكثر من أربعة آلاف على قول آخر ، فى تلك المذبحة التى يصفها ابن بسام بأنها ، « ملحمة من ملاحم بنى اسرائيل ، باءوا بذلها ، وطال عهدهم بمثلها » . وعاد ابن صمادح أدراجه بعد أن انهار مشروعه (١) .

قال ابن الخطيب : « وقبره اليوم ( أى قبر يوسف ) وقبر أبيه يعرف أصلا من اليهود ، ينقلونه بتواتر عندهم أمام باب إلبيرة ، على غلوة يعترض الطريق ،

---

(١) راجع أخبار هذه المذبحة فى التبيان ص ٥٤ ، وفى الذخيرة ، القسم الأول المجلد الثانى ص ٢٧١ و ٢٧٢ ، وابن الخطيب فى الإحاطة ج ١ ص ٤٤٧ و ٤٤٨ ، وفى أعمال الأعلام ص ٢٣٣ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ٢٦٦ و ٢٧٥ و ٢٧٦ وقد اتبعنا ما ورد من التفاصيل فى التبيان والذخيرة . وجاء فى المصادر الأخرى أن اجتماع ابن نغزالة فى أصحابه كان فى داره ، وأنه هوجم وقتل بها .

ومكانه من الترفـه والترف ، والظرف والأدب ، معروف »(١) .

— ٤ —

وأفاق باديس بعد هذا الحادث من خموله وتهاونه، ونهض لاسترداد وادى آش من يد ابن صمادح ، فسار إليها فى قواته ، واستنصر بالمأمون بن ذى النون صاحب طليطلة ، فوافاه فى بعض قواته على مقربة منها . وضرب باديس الحصار حول وادى آش ، وشدد فى إرهاقها ، وكان بها فضلا عن الحامية ، بعض وزراء ابن صمادح وأكابر دولته ، ولما اشتد الضيق بالمحصورين بعث زعماؤهم إلى المأمون يرجونه أن يتوسط لهم لدى باديس فى تسليم المدينة ،والخروج بالأمان، ففعل وأخلى جند ابن صمادح المدينة ، وسلمت إلى باديس ، واقتطع المأمون من باديس مدينة بسطة ثمناً لمؤازرته ، وبعث ابن صمادح إلى باديس يستسمحه ويعتذر عن تصرفه ، ثم وافاه إلى غرناطة ، وعاد الوئام بين الرجلين(٢) .

وكانت مدينة جيان قد خرجت عن الطاعة،وكان قد لجأ إليها ماكْسَن الابن الأصغر لباديس حينما سخط عليه أبوه ونفاه من غرناطة،لارتيابه فى ولائه وتوجسه من مشاريعه(٣) . فنزل فى جيان فى كنف حاكمها مسكن بن حبوس،واستبد مسكن بحكم المدينة ، ولم يجد ماكسن سبيلا إلى منافسته ،وقنع بالسلامة والدعة، وأخيراً تمكن باديس من إغراء الحامية بالمال والوعود ، فثارت على مسكن وماكسن معاً ، ونادت بالطاعة لباديس، ففر كلاهما من المدينة ناجياً بنفسه،وقصد ماكسن إلى طليطلة، حيث لجأ إلى ابن ذى النون وخدم فى جيشه ، وعادت جيان بذلك إلى سلطان باديس .

وكان باديس بعد مقتل وزيره ابن نغرالة ، قد استوزر الناية ، فعلا سلطانه بسرعة ، وانتهى إلى الاستئثار بالأمور على نحو ما كان ابن نغرالة . وقدّم الناية بنى برزال ، وأخر صنهاجة وأهلهم ، فسخطوا عليه ، وأخذوا يترقبون الفرص لإهلاكه . وكان من مشاريع الناية أن يفتتح مدينة بياسة القريبة من جيان ،وكانت عندئذ من أملاك إقبال الدولة على بن مجاهد العامرى ، ووافق باديس على مشروع

(١) الإحاطة ج ١ ص ٤٤٨ ، وباب إلبيرة ما يزال إلى اليوم قائماً بمدينة غرناطة .

(٢) التبيان ص ٥٥ — ٥٧ .

(٣) التبيان ص ٤٩ .

وزيره كارهاً ؛ وانتهى النابة بالاستيلاء على بياسة بعد جهود ونفقات طائلة ، وازدادت بذلك مكانته لدى باديس توطداً . وهنا شعر وزراء الدولة ،وحكام المدن،أن سلطان النابة يكاد يحجب سلطان باديس ذاته . وخشوا عاقبة تمكنه ، وأذاعوا أنه طامع فى الرياسة بالائتمار مع بنى برزال ؛ ودبروا مؤامرة لقتله والتخلص منه ؛ واتفق على أن يقوم واصل حاكم وادى آش وهو صديق النابة وموضع ثقته بتنفيذ الجريمة ، ووعدوه بالوزارة . ولم يمض سوى قليل ، حتى وفد النابة على وادى آش لتحقيق بعض الأمور السلطانية ؛ ونزل عند واصل، فانتهز واصل الفرصة السانحة . وقتل ضيفه بالليل وهو سكران .وطار الخبر إلى غرناطة ، فانزعج باديس ؛ وأوضح له رجال الدولة أن الجريمة تمت لخيره ، وإنقاذه من استبداد وزيره . فتظاهر بالاقتناع مرغماً ؛ وعهد إلى واصل بمنصب قائد الفرسان .

واستطال حكم باديس بضعة أعوام أخرى ، وتوفى فى العشرين من شوال سنة ٤٦٥ هـ ( يونيه ١٠٧٣ م )[١] بعد حكم دام سبعاً وثلاثين سنة .

وكان باديس بن حبوس أعظم ملوك البربر فى عصر الطوائف وأقواهم جانباً ، وكانت مملكته من أكبر ممالك الطوائف رقعة ؛ إذ كانت تمتد من بسطة شرقاً حتى إستجة ورندة غربا ؛ ومن بياسة وجيان شمالا حتى البحر جنوباً . وباديس هو الذى مصّر مدينة غرناطة ، وغدت منذ عهده من أهم قواعد الأندلس الجنوبية،وأنشأ قصبة غرناطة فوق أنقاض قلعتها القديمة ، وسميت باسمها القديم « القلعة الحمراء» وهو الاسم الذى خلد على كر العصور ؛ وغدا فيما بعد علماً على حمراء غرناطة ، وأقام داخل القصبة قصره ومسجده الذى دفن فيه ، وأنشأ سوراً ضخماً حول الربوة التى تقع عليها القصبة[٢] . وأنشأ حسبما قدمنا قصبة مالقة المنيعة ، التى مازالت آثارها باقية إلى اليوم ؛ وأنشأ له جيشاً قوياً مرابطاً من قومه صنهاجة وغيرهم ، وبذل له المال الوفير ؛ ووطد الدولة ، ونظم مراتبها وعمالاتها . بيد أن بلاطه لم يسطع كما سطعت قصور ملوك الطوائف الأخرى ، ولم يسطع بالأخص، كما سطعت دولة بنى ذى النون البربرية فى الشمال، ولم يجتمع حوله

(١) الإحاطة ج ١ ص ٤٥٠. وفى ابن خلدون أنه توفى سنة ٤٦٧هـ (ج ٤ ص ١٦١) .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٠ .وراجع كتابى « نهاية الأندلس » الطبعة الثالثة ص ٢٨٩ .

الكتاب والشعراء كما اجتمعوا فى قصور الطوائف الأخرى ، ذلك أن بلاط غرناطة البربرى . لبث محتفظاً بطابع البداوة والخشونة ، الذى كان يغلب على دولة آل زيرى ، ولم تعرف دولتهم تلك الخواص الحضارية والأدبية الرفيعة ، التى امتازت بها دول الطوائف الأخرى .

ومما هو جدير بالذكر أن سياسة باديس ، كانت متأثرة بالروح العنصرى ، وكانت ترمى قبل كل شىء إلى تأييد زعامة البربر وسلطانهم فى جنوبى الأندلس. وكان يقابل هذا الاتجاه لدى الأمراء الأندلسيين اتجاه مماثل ، فقد كانوا جميعاً يداً واحدة ضد البربر ، فى تلك المعركة التى اضطرمت زهاء نصف قرن ، منذ استطاع بنو حمود أن يقيموا سلطانهم وخلافتهم فى جنوبى الأندلس. ولما انضاءل سلطان بنى حمود ، تولى باديس زعامة البربر ، وأخذ يقود نفس المعركة القديمة ضد أمراء الأندلس . وقد كان هؤلاء الأندلسيون ، على قول ابن حيان ، معاصر هذه الأحداث ، « نمطاً واحداً متظاهرين على عظيم البرابرة يومئذ باديس ابن حبوس الصنهاجى صاحب غرناطة ، ومن تميز معه من البربر ، وكانوا متعاضدين متناصرين على من يباينهم من الأمراء سواهم ، على اختلافهم فى الرأى والدعوة» . ويسوق لنا ابن حيان دليل هذا التحزب فى موقف الأندلسيين والبربر من الخلاف ، فقد كان أمراء الأندلس يدعون للخليفة هشام الذى نصبه ابن عباد فى إشبيلية ، وكان باديس ومن والاه من أمراء البربر يدعون لإمامهم بمالقة ، وهو إدريس بن يحيى بن حمود .

وكانت هذه النزعة العنصرية تحمل باديس فى بعض الأحيان ، على أخطر القرارات والمشاريع . ومن ذلك ما حدث حينما قام أحد الفرسان باغتيال أمير رندة البربرى أبى نصر بن أبى نور وذلك بتحريض من المعتضد بن عباد صاحب إشبيلية. فقد ثار باديس لذلك الحادث أيما ثورة ، وجال بخاطره أن يفتك برعاياه الأندلسيين فى غرناطة ، وأن يزهقهم جميعاً تخلصاً من شرهم ومؤامراتهم ، ورتب الخطة لتنفيذ هذا العزم الدموى ، وذلك حين اجتماع الغرناطيين بالمسجد الجامع يوم الجمعة ، ولم يقتنع بنصح وزيره اليهودى اسماعيل بن نغرالة وتحذيره من عواقب عمله ، وحشد الجند للتنفيذ ، ولكن ابن نغرالة سبقه ، فدس بعض النساء إلى دور زعماء الأندلسيين وغيرهم ، لتحذيرهم من الحضور إلى المسجد ، وهكذا

فشل تدبيره ، ثم عدل عنه بعد ذلك حينما أيد نصح وزيره بعض شيوخ صنهاجة(١)

وتشيد الروايات المعاصرة والقريبة من العصر ، بما كان عليه باديس من القوة والطغيان والجبروت . فيقول لنا عنه معاصره ابن حيان : « إنه أرفع أملاك البرابرة فى هذا الوقت شأناً ، وأشدهم سلطاناً ، وأكثرهم رجالا ، وأوسعهم أعمالا أملى النصر العزيز على الأعداء إملاء واختياراً ، فابسه بغياً واستكباراً ، وأساء الانتقام ، ولم يقل العثرة ، وأخذ بالظنة ، وأسرف فى العقوبة ، وشد يداً بالعصبية وتقلد الحمية الجاهلية ، واستأثر بالقسوة والجبرية ، فأسلف فى ذلك كله أخباراً مأثورة »(٢) . ويقول لنا الفتح فى القلائد بعبارته المسجعة المنمقة : « كان باديس ابن حبوس بغرناطة ، عاتياً فى فريقه ، عادلا عن سنن العدل وطريقه ، يجترى على الله غير مراقب ، ويسرى إلى ما شاء غير ملتفت للعواقب ، قد حجب سنانه لسانه ، وسبقت إساءته إحسانه ، ناهيك من رجل لم يبت من ذنب على ندم ، ولم يشرب الماء إلا من قلب دم . أحزم من كاد ومكر ، وأجرم من راح وابتكر ، ومازال متقداً فى مناحيه ، مفتقداً لنواحيه ، لايرام بريث ولا عجل ، ولايبيت له جار إلا على وجل »(٣) .

ويقدم إلينا عنه ابن الخطيب تلك الصورة القوية الجامعة : « كان رئيساً يبساً ، طاغية جباراً شجاعاً ، داهية ، حازماً ، جلداً شديد الأمر ، سديد الرأى ، بعيد الهمة ، مأثور الإقدام ، شره السيف ، وارى زناد الشر ، جماعة للمال ، ضخمت به الدولة ، ونبهت الألقاب ، وأمنت لحمايته الرعايا ، وطم تحت جناح سيفه العمران ، واتسع بطاعته المرهبة الجوانب بيأسه النظر ، وانفسخ الملك ، وكان ميمون الطائر ، مطعم الظفر ، مصنوعاً له فى الأعداء ، يقنع أقتاله بسلمه ، ولايطمع أعداؤه فى حربة »(٤) .

على أن حفيده الأمير عبد الله بن بلقين ، يحاول أن يقدمه إلينا فى صورة أقل جفاء ، وأكثر إشراقاً حين يقول : « وكان باديس بن حبوس — جدنا رحمه الله ، كبير النفس ، عالى الهمة ، حاد المزاج ، لايستطيع أحد أن يمخرق عليه فى أمر

---

(١) الإحاطة ج ١ ص ٤٤٥ و ٤٤٦ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ٣١٤ .
(٢) نقله أعمال الأعلام ص ٢٣٠ .
(٣) قلائد العقيان ص ١٨ .
(٤) الإحاطة ج ١ ص ٤٤٣ .

من الأمور ، ولا ينكسر لأحد من بنى عمه ، ثقة منه بسعادته ، وأن الانخضاع والتمريض فى القول لايعنيه . ولا يزيد فى أيامه . وكان ذلك كله منه فى حزم وروية ، لايفسد جانباً حتى يصلح آخر ، ويضرب بعضهم ببعض ، فوجست أنفس البعض منه ، وأشربوا هيبته ومخافته »[١] .

والخلاصة أن باديس كان طاغية من أقوى الطغاة البربر ، الذين عرفتهم الأندلس ، ومن أشدهم دهاء وقسوة وإقداماً ، ومن أكثرهم ظفراً فى الحروب .

وكان أسوة بسائر ملوك الطوائف ، قد اتخذ ألقاب الملك ، وتلقب بالمظفر بالله ، الناصر لدين الله .

— ٥ —

ولما توفى باديس المظفر بالله ، اتفق رجال الدوله وشيوخ صنهاجة على تولية حفيده عبد الله بن بُلُقِّين مكانه ، وكان صبياً حدثاً . وكان أخوه الأكبر تميماً يتولى حكم مالقة منذ أيام جده . أما ماكسن ولد باديس ، فقد كان خارجاً على أبيه حسبما ذكرنا من قبل ، وكان قد عاد إلى مدينة جيان ، وامتنع بها ، وكان سيئ الخلال والسيرة ، فلم يلتفت إليه ، ولم يقم أحد بدعوته ، وتولى تدبير الدولة ورعاية الملك الصبى ، الوزير سماجة أحد شيوخ صنهاجة ، وكان هذا الوزير رجلا حازماً ، قوى العزم ، شديد السطوة ، مرهوب الجانب ، فضبط الدولة ، واستأثر بالسلطة ، وأحسن السيرة .

وكان المعتمد بن عباد يرقب سير الحوادث فى غرناطة . فلما توفى باديس ، وخلفه حافده الصبى ، أدرك أن الفرصة قد سنحت لتحقيق مشاريعه ، فسار فى قواته إلى مدينة جيان ، أهم قواعد مملكة غرناطة الشمالية ، واستولى عليها ( ٤٦٦ هـ — ١٠٧٤ م ) . ثم سار بعد ذلك إلى غرناطة فى قوات كبيرة ، وابتنى بعض الحصون على مقربة منها ، لكى يستطيع بواسطتها إرهاق المدينة . فحشد الوزير سماجة قوات صنهاجة ، وأبدى منتهى العزم فى مقاومة المغيرين ، فاضطر ابن عباد أن يعود أدراجه دون طائل[٢] . ورأى الأمير عبد الله بتوجيه وزيره سماجة ، أن يعقد مع ألفونسو السادس ملك قشتالة ، على نسق معظم أمراء الطوائف ، معاهدة

(١) كتاب التبيان ص ٢٧ .

(٢) أعمال الأعلام ص ٢٣٤ .

حلف وصداقة ، يتعهد فيها بتأدية جزية قدرها عشرون ألف دينار . وعلى أثر ذلك سار عبد الله فى قوات صنهاجة ، ومعها سرية من الجند النصارى أمده بها ألفونسو السادس ، وأغار على أراضى إشبيلية المجاورة ، واستطاع أن يسترد حصن قبرة الواقع فى جنوب غربى جيان .

وفى العام التالى سار ألفونسو إلى إشبيلية وغرناطة ، ومعه وزيره ومستشاره النصرانى المستعرب الكونت سسنندو ( ششنند ) ، وهو الذى سبق ذكره فى حوادث سقوط طليطلة ، ليطالب بأداء الجزية المفروضة . ويقول لنا الأمير عبد الله فى مذكراته ، إنه أبى أن يدفع تلك الجزية ، وإنه لم يخش يومئذ ضراً من ألفونسو ، وذلك أسوة بما فعل غيره من ملوك الطوائف[١] . وهنا يقوم المعتمد بن عباد بدوره المأثور فى انتهاز الفرصة ، وفى استعداء ملك قشتالة . ذلك أنه بعث وزيره ابن عمار إلى ألفونسو السادس ، فعقد معه اتفاقا وحلفاً ، خلاصته أن يتعاون الفريقان فى افتتاح غرناطة ، وأن تكون المدينة ذاتها لابن عباد ، وأن يكون سائر ما فيها من الأموال لملك قشتالة ، وأن يؤدى ابن عباد إليه فوق ذلك جزية قدرها خمسون ألف دينار[٢] .

وأمد ملك قشتالة ابن عمار بسرية من جنده ، وبدأ بتنفيذ الخطة بإنشاء حصن على مقربة من غرناطة ، شحنه بالجند لإرهاق المدينة . وحاول ابن عباد أن يؤثر بواسطة هذا الحصن فى أهل المدينة ، ولكنه لم ينل منها مأربا بالرغم مما أحاق بها من الضيق . ولما منى ابن عباد بالهزيمة فى قرطبة على يد ابن ذى النون (٤٦٧ هـ) اضطر أن يخلى الحصن ، فاحتلته جنود غرناطة .

ثم عاد ابن عمار فحرض ألفونسو السادس على غزو أراضى غرناطة ، وزين له سهولة افتتاحها ، وعندئذ رأى عبد الله بن بلقين أن يتفاهم مع الملك النصرانى ، فسار إليه بنفسه ، وأسفرت المفاوضات بينهما عن تعهد عبد الله بأن يؤدى جزية سنوية قدرها عشرة آلاف مثقال من الذهب ، وأن يسلم بعض الحصون الواقعة جنوب غربى جيان ، وهذه باعها الملك النصرانى إلى ابن عباد .

وينقل إلينا الأمير عبد الله بهذه المناسبة ، ما سمعه من أقوال الكونت سسنندو ( ويسميه ششلاند ) مستشار ألفونسو ، شرحاً لسياسة مليكه فى الاستيلاء

---

(١) كتاب التبيان ص ٦٩ .

(٢) التبيان ص ٧٠ .

على الأندلس ، على النحو الآتى ، قال : « وإنما كانت الأندلس للروم فى أول الأمر ، حتى غلب عليهم العرب ، وألحقوهم بأنحس البقاع ، جليقية ، فهم الآن عند التمكن طامعين بأخذ ظلاماتهم ، فلا يصح ذلك إلا بضعف الحال والمطاولة ، حتى إذا لم يبق مال ولا رجال ، أخذناها بلا تكلف[١] .

والتفت عبد الله للشئون الداخلية ، فعمل أولا على إزالة وزيره سماجة ، وكان هذا الوزير قد غلا فى الاستئثار بالسلطة ، والاستبداد بالأمور ، حتى شعر عبد الله بأنه لم يبق له سلطان إلى جانبه . ومن جهة أخرى ، فقد كان هذا الاستبداد يثير سخط رجال الدولة وطوائف الشعب عليه ، حسبما يحدثنا بذلك الأمير فى مذكراته ، ومن ثم فقد عمل عبد الله على إقالة وزيره بالحسنى ، وسمح له أن يسير فى أهله وأمواله الطائلة إلى ألمرية ، حيث نزل بها فى كنف صاحبها ابن صمادح ، واستقر هناك بحال ثروة وغناء[٢] .

وحاول عبد الله أن يعمل فى نفس الوقت على تنظيم الإدارة ، وعزل الحكام الظلمة ، وبدأ فى ذلك بوادى آش ، فعزل حاكمها ابن أبى جوش واعتقله ، ثم عزل حاكم المنكب وعين حكاما آخرين يظن فيهم العدل وحسن السيرة . وعقد الصلح والمودة مع ابن صمادح صاحب ألمرية ، بعد أن سوى النزاع بينهما على حصون الحدود مما يلى فنيانه[٣] .

وكان تميم بن بلقين أخو عبد الله ، قد استقل فى تلك الأثناء بحكم مالقة وأعمالها ، وتلقب بالمنتصر بالله ، واستبد وساء فى حكمه السيرة ، وأخذ يغير على نواحى المنكب وغيرها مما هو واقع تحت حكم أخيه . فسار إليه عبد الله فى بعض قواته ، واستولى على بعض حصون مالقة الأمامية ، ثم وقع القتال بين قوات الأخوين أمام مالقة وهزم عبد الله أولا ، ولكنه عاد فهزم جند مالقة ، وضيق على المدينة ، فبعث إليه أخوه يستعطفه ، وتدخلت والدتهما فى الأمر ، وخشى عبد الله من جهة أخرى أن يتحول أخوه إذا اشتد عليه ، إلى محالفة ابن عباد ، فمال إلى مهادنته ، وترك له حكم مالقة ونواحى الغربية أى غربى مالقة .

---

(١) كتاب التبيان ص ٧٣ .

(٢) كتاب التبيان ص ٨٧ و ٨٨ ، وأعمال الأعلام ص ٢٣٥ .

(٣) كتاب التبيان ص ٨٩ و ٩٠ .

وثار فى نفس الوقت كباب بن تميت حاكم أرشدونة ( أرجدونة ) وأنتقيرة وعاث فساداً فى تلك المنطقة ، فسار إليه عبد الله ، وضيق عليه ، حتى خضع ، وأخرج بالأمان .

وأخيراً تم عقد الصلح والمهادنة بين عبد الله بن بلقين والمعتمد بن عباد ، ولم يتيسر ذلك إلا بعد مصرع ابن عمار وزير المعتمد ، وهو الذى يصفه عبد الله « بالفاسق » ، وبأنه كان أس الفتنة ، وسويت بين الفريقين سائر وجوه النزاع ، من حدود وغيرها ( أواخر سنة ٤٧٧ هـ ) .

ولم تمض أسابيع قلائل على ذلك ، حتى وقع الحادث بسقوط طليطلة فى يد ألفونسو السادس ملك قشتالة ، وذلك فى فاتحة صفر سنة ٤٧٨ هـ (٢٤ مايو سنة ١٠٨٥ م ) ، فاهتزت الأندلس من أقصاها إلى أقصاها ، وأفاق ملوك الطوائف لأول مرة من تلك الغمرة التى خدرت مشاعرهم ، وأعمت بصائرهم مدى نصف قرن ، سادت فيه بينهم الفتن والحروب الأهلية ، ولبثوا يمزقون بعضهم بعضاً ، والعدو الخالد يضرب بينهم ، ويؤلب بعضهم على بعض ويتربص الفرصة لانتزاع كل ما يمكن انتزاعه من أراضى ذلك الوطن الذى نسوا قضيته ، وضحوا بمصلحته العليا ، استبقاء لمصالحهم الخاصة ، وأطماعهم الدنيا .

كان سقوط الحاضرة الأندلسية الكبرى — طليطلة — إذن نذير الخطر العام فنهض المعتمد بن عباد — وقد كان يحمل فى وقوع تلك المحنة أكبر الأوزار — ونهض زملاؤه أمراء الطوائف ، يحاولون جمع الكلمة ، ويزمعون الاستنجاد بإخوانهم فيما وراء البحر ، ويبعثون بصريخهم ، إلى عاهل المرابطين الأمير يوسف ابن تاشفين ، حسبما فصلنا ذلك من قبل فى أخبار مملكة إشبيلية .

ويقول لنا الأمير عبد الله فى مذكراته ، إن أول من خطر له الاستنصار بالمرابطين من أمراء الأندلس ، هو أخوه الأمير تميم والى مالقة ، وأنه أراد أن يستعين بهم ضده ليستدرك ما فاته من مملكة جده باديس ، ولكن أمير المسلمين لم يلتفت إلى دعوته [١] .

وقد كان عبد الله على اتفاق مع زملائه أمراء الطوائف فى استدعاء المرابطين ، وقد أرسل رسله مع رسل ابن عباد إلى أمير المسلمين ، وتم الاتفاق فيما بين

---

(١) كتاب التبيان ص ١٠٢ .

أمراء الأندلس ، وبين أمير المسلمين على أن يتحدوا جميعاً بمعونته على غزو قشتالة ، وعلى أنه لايعرض لأحدهم فى بلده ، ولايشجع أحداً ممن يروم الخروج عليه[١] .

ويحمل ابن الخطيب على الأمير عبد الله،ويقول إنه كان جباناً مغتمد السيف متكاسلا عن الخيل ، زاهداً فى النساء ، موصوفاً بالضعف ، لكنه يكتب ويشعر ويتحدث فيما يتحدث فيه الطلبة، ثم يقول لنا إنه وقف خلال زيارته لبلده أغمات على ديوان لعبد الله بخطه « ألفه بعد خلعه ، وقرر فيه أحواله والحادثة عليه ، مما يستظرف من مثله » مشيراً بذلك إلى مذكراته ، وهى التى رجعنا إليها فى مختلف المواطن[٢] .

ونستطيع أن نستشف من هذه المذكرات التى تركها لنا الأمير عبد الله بعنوان «كتاب التبيان » والتى كتبها فيما بعد خلال إقامته فى منفاه بأغمات ، وسرد فيها تاريخ آبائه ، وأحوال حكمه ، وحوادث الأندلس فى عصره : نستطيع أن نستشف منها مايؤيد قول ابن الخطيب فى جنوح الأمير عبد الله إلى السلم والملاينة والدعة ، وفى مجانبته للإقدام ، وتخوفه من الحروب وعواقب النضال ، وحبه للسلامة والعافية، وإنه ليشكر الله فى آخر مذكراته أن نجا من المصير الذى حل بابن الأفطس ، حيث فقد حياته مدافعاً عن نفسه ضد المرابطين[٣] .

---

(١) التبيان ص ١٠٣ .
(٢) راجع أعمال الأعلام ص ٢٣٥ .
(٣) كتاب التبيان ص ١٧٦ .

# الفصل الثانى

## الإمارات البربرية الأخرى
## فى جنـــوبى الأندلس

الإمارات البربرية فى الجنوب. خواصها وتكتلها. إمارة قرمونة. بنو برزال وجوازهم إلى الأندلس. ولاية عبد الله البرزالى لقرمونة. استبداده بها. حكمه وسيرته. التحالف بين البرزالى وابن عباد. انقلاب ابن عباد عليه. الحرب بين ابن عباد والبربر. وفاة البرزالى وولاية ولده إسحاق. ولاية عزيز المستظهر. إرهاق ابن عباد له. نزوله عن قرمونة لابن ذى النون. نزول ابن ذى النون عنها إلى ابن عباد. بنو يفرن وجوازهم إلى الأندلس. نزولهم أيام الفتنة برندة. زعيمهم أبو نور هلال. مصانعة ابن عباد للبربر ثم غدره بهم. باديس ولد أبى النور. عود أبى النور إلى رندة ووفاته. ولده أبو نصر فتوح ومصرعه. استيلاء ابن عباد على رندة. بنو دمر وهجرتهم إلى الأندلس. نزولهم بمورور. أبو تزيرى الدمرى وولده نوح. محمد بن نوح ومصرعه فى كمين ابن عباد. ولده مناد يخلفه. غارات المعتمد على مورور. إذعان مناد ونزوله عنها إلى ابن عباد. بنو خزرون وتغلبهم على أركش. محمد بن خزرون وخلفاؤه. غارات ابن عباد على أركش. تخلى بنى خزرون عنها وخروجهم منها. مداهمة ابن عباد لهم. استيلاء ابن عباد على أركش وأراضيها. انتهاء الدول البربرية فى تلك المنطقة.

إلى جانب دولة بنى مناد أو بنى زيرى فى غرناطة، كانت تقوم ثمة عدة إمارات بربرية أخرى فى هذه المنطقة الجنوبية من الأندلس، منطقة المثلث الإسبانى الواقع جنوب نهر الوادى الكبير، والممتد من غربى مملكة غرناطة شرقاً، حتى مصب الوادى الكبير غرباً، ومن الوادى الكبير شمالا، حتى ثغر مريلة وأرض الفرنتيرة جنوباً.

ومن الواضح أن اجتماع هذه الممالك البربرية الصغيرة فى هذه المنطقة، يرجع إلى عوامل جغرافية وعسكرية. ذلك أن المثلث الإسبانى هو أقرب مناطق شبه الجزيرة إلى المغرب، بحيث تغدو مغادرة الأندلس وقت الخطر أو عند الضرورة أمراً ميسوراً، وكذلك تستطيع الأمداد من أقوامها أن تعبر البحر من المغرب إلى الأندلس بسرعة وسهولة. ومن جهة أخرى فإن اجتماع هذه الإمارات فى هذه المنطقة جنباً إلى جنب، كان يحمل معنى التكتل القبَلى أو العنصرى بصورة واضحة، ويمكنها وقت الخطر من توحيد الصفوف، والتعاون على رد العدو

المهاجم . وهذا مارأينا ينطبق بصورة عملية فى المعارك التى لبثت طوال أيام الطوائف، تضطرم فى هذه المنطقة بين البربر وبين خصومهم الألداء بنى عباد، وهم أقوى الممالك الأندلسية المناهضة لهم فى معظم النواحى .

وقد قامت هذة الممالك البربرية الصغيرة إلى جانب شقيقتها الكبرى ، دولة بنى مناد فى غرناطة، وفى مثل الظروف التى قامت فيها ، وكانت مملكةغرناطة تتولى حمايتها والدفاع عنها كلما دهمها خطر بنى عباد ، وكانت هى تلتف فى نفس الوقت حول غرناطة ، كلما دعت إلى ذلك ضرورة سياسية أو عسكرية .

ولم تكن هذه الإمارات البربرية تملك مقومات الدولة الراسخة المستقرة، ولكنها كانت فى الواقع أقرب إلى سيادة العصبة القبلية، أو رياسة الأسرة ذات البأس والجاه ، ولم يكن لها حكومات أوجيوش منظمة بالمعنى الصحيح، وإنما كانت تستند فى سلطانها إلى حشود القبيلة أو الأسرة المسيطرة ، وكانت تجرى فى الحكم على قاعدة الإستبداد المطلق ، وأصول العرف البدوى الساذج ، ومن ثم فإنها لم تكن محبوبة من رعاياها الأندلسيين . الذين عرفوا منذ بعيد مزايا الحكم المنظم ، ورفاهة العيش المتحضر .

وكانت ثمة من هذه الإمارات — غير مملكة غرناطة — أربع تقوم من حولها وهى إمارة قرمونة ،وإمارة رندة ،وإمارة مورور ، وإمارة شذونةوأركش .

## ١ — دولة بنى برزال فى قرمونة

وكان أهم هذه الإمارات ، إمارة قرمونة الواقعة فى منحنى الوادى الكبير ، بين إمارة قرطبة شرقاً ، ومملكة إشبيلية غرباً ، وقاعدتها مدينة قرمونة الحصينة الواقعة شمال شرقى إشبيلية . وكانت تشمل غير قرمونة ، مدينة إستجة الواقعة فى شرقها . ومدينة المدوّر الواقعة غربى قرطبة على نهر الوادى الكبير.

وكانت مدينة قرمونة منذأيام هشام المؤيد ، وقبل انهيار الدولة العامرية ، بيد حاكمها الحاجب أبى عبد الله محمد بن عبد الله بن برزال المعروف بأبى عبد الله البرزالى، وكان بنو برزال هؤلاء ينتمون إلى بطن من بطون زناتة من بنى يفرن، وكانوا يقطنون بالمغرب بأرض المسيلة والزاب الأسفل . ونحن نعرف أن زناتة كانت أيام الدولة الأموية من القبائل المشايعة لها بالمغرب ضد خصومها الشيعة العبيديين أو الفاطميين ، وكان من خصوم الشيعة فى نفس الوقت جعفرويحى

ابنا على بن حمدون الأندلسى ، صاحب المسيلة وما جاورها من أراضى المغرب الأوسط .فلما اضطرمت الحرب بين بنى زيرى زعماء صنهاجة وأولياء العبيديين. وبين زناتة وحلفائها ، ومنهم جعفر ويحيى ابنا حمدون ، فى أواخر أيام الحكم المستنصر ، وهزمت صنهاجة وقتل كبيرهم زيرى بن مناد (سنة ٣٦٠ هـ) ، هاجر جعفر ويحيى فى الأهل والصحب والمال إلى الأندلس ، خوفاً من انتقام صنهاجة ، وخدما الحكم المستنصر ، وحظيا فى دولته ،وذلك حسبما ذكرنا من قبل فى أخبار الحكم .

ولما استطالت صنهاجة على المغرب الأوسط ، شعر بنو برزال الزناتيين باشتداد وطأتها ، فكتبوا إلى جعفر بن على الأندلسى ، أن يسعى فى جوازهم إلى الأندلس لدى الخليفة الحكم ، فعمل جعفر على تحقيق رغبتهم ، ووصفهم لدى الحكم بالشجاعة والإنقياد إلى الطاعة ، فأذن لهم بالجواز ، وانتظموا فى خدمة الجيش تحت يد جعفر ، واستمروا كذلك أيام الحكم ثم المنصور ، حتى ندب كبيرهم الحاجب أبوعبد الله محمد بن عبدالله بن برزالى أو البرزالى لحكم مدينة قرمونة فى أواخر الدولة العامرية ، واستقر أهله وصحبه هنالك فى كنفه ، إلى أن وقعت الفتنة ، فخاض بنو برزال غمارها إلى جانب أضرابهم من البطون البربرية الأخرى ، ولما انتثر عقد الأندلس،واحتفظ كل رئيس بمدينته ، دعا أبو عبد الله لنفسه فى قرمونة ، وذلك فى سنة ٤٠٤ هـ (١٠١٣ م) ، واستبد بحكمها ، وضبط شئونها ، ورتب جندها[١] . وفى بعض الروايات المتعلقة بالطوائف أن أبا عبد الله سار فى حكمه سيرة حسنة ،وعامل الرعية بالرفق والعدل فمالت إليه النفوس ، وعمرت قرمونة ، وسادها الأمن، وبايعته مدينة إستجة ثم أشونة والمدور وغيرها من البلاد[٢] ، وغدت قرمونة بذلك إمارة لها خطرها وأهميتها فى تلك المنطقة ، وغدت بعد غرناطة ، ثانى الإمارات البربرية .

ولكن ابن حيان ، وهو المؤرخ المعاصر ، يحمل على أبى عبد الله البرزالى ويصفه « بقطب رحى الفتنة » وبنوه بفتكه وعيثه ، وقبح آثاره فى تلك المنطقة ،

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٦٧ و ٢٦٨ : ونبذ تاريخية فى أخبار البربر (الرباط ١٩٣٤) ص ٤٤ .

(٢) نشرت هذه الرواية المتعلقة بالطوائف ، وهى لكاتب مجهول فى نهاية الجزء الثالث من البيان المغرب . راجع منها ص ٣١١ و ٣١٢ .

وقطعه للسبل إلى آخر ماجاء فى أقواله ، مما سبق أنذكرناه فى موضعه من قبل[١] .
وعلى أى حال فإنه يبدو أن البرزالى ، كان زعيما قوياً ، وافر الإقدام والعزم والشجاعة . وهذا ما يقرره لنا ابن الخطيب ، إذ يصفه بأنه كان يلى باديس فى جلالة الشأن ، وقوة السلطان ، « بقية أمراء البربر المسلطين فى هذه الفتنة ، وأعظمهم شأناً فى الدهاء والرجولة ، وأبصرهم بتدبير العساكر ، وأربطهم جأشاً على الخطوب المقلقة »[٢] .

وقد رأينا من قبل كيف كان القاضى ابن عباد صاحب إشبيلية ، يعتمد فى البداية على محالفة البرزالى ضد خصومه ، وكيف كان البرزالى من جانبه يرحب بهذه المحالفة ، اتقاء لشر بنى حمود وأطماعهم فى إمارته . وكان من آثار هذا التحالف أن حارب البرزالى إلى جانب ابن عباد ضد بنى الأفطس أصحاب بطليوس ، فى حملته ضد باجة سنة ٤٢١ هـ ، وكان من آثاره أيضاً أن توجس يحيى ابن حمود المعتلى صاحب مالقة شراً من مشاريع ابن عباد ، فسار فى قواته إلى قرمونة وانتزعها من يد البرزالى ، فاستغاث البرزالى بحليفه ابن عباد ، وبعث ابن عباد قواته مع ولده إسماعيل ، ونشبت بينه وبين المعتلى معركة قتل فيها المعتلى ، واستردت قرمونة وأعيدت إلى البرزالى ، وذلك فى المحرم سنة ٤٢٧هـ ( ١٠٣٦ م ) .

ولكن ابن عباد كانت له نحو قرمونة مشاريع أخرى ، فقد كانت قرمونة حصن إشبيلية من الشرق ، وكان وجودها بيد هذا الزعيم البربرى أمرلا يحتمل ، ومن ثم فقد تحول ابن عباد فجأة إلى مخاصمة البرزالى ، وسير إليه قواته فاستولت على إستجة ، ثم استولت بعد ذلك على مدينة قرمونة ، وعندئذ استغاث البرزالى بزملائه البربر ، وهرع إلى نصرته باديس صاحب غرناطة ، وإدريس المتأيد صاحب مالقة ، ووقعت بين الفريقين معارك شديدة ، انتهت بانتصار البربر وهزيمة الإشبيليين ومقتل أميرهم إسماعيل بن عباد ، واسترداد قرمونة ، وذلك فى أوائل المحرم سنة ٤٣١ هـ ( أواخر سنة ١٠٣٩ م ) .

وتوفى أبو عبد الله محمد البرزالى بعد ذلك بثلاثة أعوام سنة ٤٣٤ هـ ( ١٠٤٢ م ) بعد أن حكم قرمونة وأعمالها ثلاثين عاماً .

---

(١) راجع ص ٣٦ من هذا الكتاب . وراجع البيان المغرب ص ٢٠٦ .

(٢) أعمال الأعلام ص ٢٣٦ .

فخلفه والده الأكبر إسحق بن محمد ، وهو فى سن الكهولة . ويصفه ابن حيان بأنه كان رئيساً حازماً وافر الكفاية والبأس والفروسية ، ولكن دون أبيه محمد فى القسوة والفظاظة « وكلاهما على ذلك موصوف بالعفة والنزاهة ، والبعد عن آفات الملوك الشائنة »(١) . والظاهر أنه لم يحكم طويلا . بل إن صاحب الرواية الخاصة بالطوائف ، التى سبقت الإشارة إليها ، يغفل ذكره تماماً ، ويقول لنا إن الذى خلف أبا عبد الله البرزالى ، هو ولده عزيز الملقب بالمستظهر وإن أخاه إسحق بايعه ، وتم له الأمر(٢) .

وسار المستظهر فى حكمه سيرة حسنة ، وبايعت له البلاد التى كانت تحت حكم أبيه ، وساد الأمن والرخاء فى أيامه ، بيد أنه لم يلبث أن بدأ المعتضد بن عباد فى مضايقته وإرهاقه بغزو أراضيه وانتساف زروعه ، واستمرت المعارك بينهما أعواماً ، وهلك فى ذلك النضال كثير من البربر ، واضطربت الأحوال فى مملكة قرمونة ، وعندئذ بعث عزيز المستظهر إلى المأمون بن ذى النون صاحب طليطلة ، يعرض عليه أن يسلمه قرمونة ، نكاية فى ابن عباد ، على أن يعوضه عنها ابن ذى النون قسما من أراضيه الجوفية ، فقبل المأمون هذا العرض ، وانتقل عزيز بأهله وأمواله إلى حصن المدور شمالى إستجة من أراضيه ، وعاش هنالك حتى توفى . وفى أثناء ذلك وقعت المفاوضة بين ابن عباد ، والمأمون ، وتفاهما على أن ينزل المأمون للمعتضد عن قرمونة لقربها من أراضيه ، وأن يتعاون الاثنان على افتتاح قرطبة ، واستلم ابن عباد قرمونة ولكنه لم يف للمأمون بشىء من عهوده(٣) .

وفى رواية أخرى ، أن المستظهر اضطر فى النهاية أن ينزل مباشرة عن قرمونة إلى ابن عباد ، بعد ما يئس من القدرة على الاحتفاظ بها ، وأنه سار بأمان ابن عباد إلى إشبيلية ، وهنالك توفى بعد قليل . وكان استيلاء ابن عباد على قرمونة فى سنة ٤٥٩ هـ ( ١٠٦٧ م ) . وبذلك انتهت دولة بنى برزال فى هذا القطاع من المثلث الأندلسى ، واختفت واحدة من الإمارات البربرية(٤) .

---

(١) نقله أعمال الأعلام ص ٢٣٧ .

(٢) ذيل البيان المغرب ج ٣ ص ٣١٢ .

(٣) راجع أعمال الأعلام ص ٢٣٨ .

(٤) راجع فى أخبار مملكة قرمونة ، أعمال الأعلام ص ٢٣٦ — ٢٣٨ ، وذيل البيان المغرب ص ٣١١ و ٣١٢ . وكذلك : P. y Vives : Historia de los Reyes de Taifas; p.23

## ٢ – دولة بنى يفرن فى رندة

وبنو يفرن هم أيضاً بطن من بطون زناتة، وكانوا بالمغرب من أولياء الدعوة الفاطمية، وقد اشتركوا فى الحرب التى وقعت بالمغرب أيام المنصور بن أبى عامر، وقاتلهم زيرى بن عطية أمير مغراوة وعامل المنصور على المغرب، حتى هزمهم بعد معارك هائلة، وهلك أميرهم يدّو بن يعلى وذلك فى سنة ٣٨٣ هـ. وعلى أثر ذلك افترقوا إلى شقين، وجنحت منهم شيعة إلى الانحياز إلى الدعوة المروانية، واستأذنوا المنصور فى الجواز إلى الأندلس، فأذن لهم وخدموا فى الدولة والجيش أسوة بباقى الوافدين من القبائل البربرية. ولما انتهت الدولة العامرية، واضطربت نار الفتنة، وتفرقت القبائل البربرية فى النواحى، استقر بنو يفرن فى ولاية تاكرونّا، واتخذوا من قلعتها رندة مركزاً لرياستهم[1]، وكان زعيمهم يومئذ هو أبو نور هلال بن أبى قرة بن دوناس اليفرنى. وكان زعيما «جسوراً جشعاً، مقداماً، عزيز الجانب ببأس رجاله ووعورة رحاله، وحصانة قلاعه»، ولكنه كان فى نفس الوقت عاطلا عن كل فضيلة وكل خلة حسنة. وبدأ هلال رياسته لمنطقة تاكرونّا، حسبما يقول لنا صاحب الرواية المتعلقة بتاريخ الطوائف، عقب وفاة إدريس بن على بن حمود فى سنة ٤٣١هـ (١٠٣٩ م)[2]، وكانت تشمل أراضى ولاية ريُّه، ما بين نهر وادى لكه والبحر، وكانت قاعدتها رندة من أمنع معاقل الأندلس الجنوبية. وقد رأينا القاضى ابن عباد يخطب منذ البداية ود أولئك الأمراء البربر الذين يحتلون أراضى القطاع الأندلسى الجنوبى المتاخم لأراضيه. وجرى ولده المعتضد على سياسته فى توثيق أواصر المودة معهم. بيد أن سياسة بنى عباد، لم تكن تقوم فى ذلك حسبما رأينا، على الصدق والولاء، وإنما كانت تقوم على الخديعة والمصانعة، وقد تجلت حقيقتها فى حوادث مملكة قرمونة. وهكذا كان المعتضد يبدى مودته لأبى نور زعيم بنى يفرن، وزملائه أمراء بنى دمر أصحاب ولاية مورو، وبنى خزرون أصحاب ولاية شذونة وأركش،

---

(١) نبذ تاريخية فى تاريخ البربر ص ٤٥.

(٢) راجع ذيل البيان المغرب ج ٣ ص ٣١٢. ويقول صاحب الرواية إن هلالا قد بويع له بعد موت إدريس بن على بن حمود سنة ست وأربعمائة وهو تحريف. فقد توفى إدريس سنة ٤٣١ هـ (١٠٤٩م).

وكان يستميلهم بالصلات والدعوات الودية . وفى سنة ٤٤٥ هـ (١٠٥٣ م وجه المعتضد دعوته لأبى نور ، ولمحمد بن نوح الدمرى صاحب مورور ، والقائم ابن محمد بن خزرون أمير بنى أرنيان وصاحب شذونة وأركش ، لزيارته فى إشبيلية ، فساروا إليه فى صحبهم وفرسانهم فى أحسن زى وأكمل هيئة ، وكان المعتضد قد دبر كمينه لاغتيالهم حسبما فصلناه من قبل فى أخبار مملكة بنى عباد ، وانتهت هذه الدعوة الغادرة بالقبض على أولئك الأمراء وصحبهم وتكبيلهم بالأغلال ثم هلاك اثنين منهم ، وهما ابن نوح وابن خزرون ، فى الحمام ، وأفلت منهم هلال أبو نور ، حيث أطلق المعتضد سراحه وأخلى سبيله .

وفى خلال ذلك كان باديس ولد هلال أبى نور ، قد قام بالرياسة فى غيبته أثناء اعتقاله بإشبيلية ، وكان « فاسقاً مجرماً » فاستبد بالأمر ، وأرهق الناس ببغيه وطغيانه ، وأطلق العنان لشهواته الدنيئة ، فاستباح الحرم وسطا على الأعراض هو وصحبه ، فكانوا يأخذون الزوجات من أزواجهن ، والبنات من آبائهن ، ولم يفر حتى أقرب الناس إليه من خاصة محارمه . فلما تخلص أبو نور من الأسر ، وعاد إلى رندة ، وعلم بما وقع من ولده من العظائم ، أمر فى الحال بالقبض عليه وإعدامه وذلك فى سنة ٤٤٩ هـ (١٠٥٧ م) . انه لم تمض أشهر قلائل على ذلك حتى توفى أبو نور نفسه ، وخلفه فى الإمارة ولده أبو نصر فتوح بن أبى نور(١) .

واستطال حكم أبى نصر زهاء ثمانية أعوام . وكان عادلا حسن السيرة . بيد أنه كان ميالا إلى الدعة منهمكاً فى الشراب . وكان المعتضد بن عباد من جهة أخرى يتربص به ويترقب الفرصة لهلاكه ، وانتهى بأن دس عليه رجلا من دعاته برندة يدعى ابن يعقوب ، وكان فارساً مقداماً ، فدهم أبا نصر ذات يوم فى جماعة من صحبه ، وهو فى إحدى شرفات القصبة العليا ، وصاحوا بشعار بنى عباد ، فحاول أبو نصر الفرار ، ووثب من الشرفة فهوى إلى أسفل ، فارتطم بالصخر وزهق على الأثر ، ولم يأبه الناس لما حدث ، ولم يتعرض للقتلة أحد ، وانتهت بذلك دولة بنى يفرن ، واستولى ابن عباد على رندة وأعمالها بأيسر أمر ، وكان ذلك فى سنة ٤٥٧ هـ (١٠٦٥ م)(٢) . ونظم المعتضد بهذه المناسبة قصيدته التى مطلعها

لقد حصلت يارندة      فصرت لملكنـــا عقدة

---

(١) ذيل البيان المغرب ج ٣ ص ٣١٣ .

(٢) ذيل البيان المغرب ج ٣ ص ٣١٣ و ٣١٤ .

## ٣ – دولة بنى دمّر فى مورون

وكانت ثالثة الإمارات البربرية فى تلك المنطقة من الأندلس الجنوبية ، هى إمارة بنى دمر فى مورور أو مورون[١] . وكانت تشغل رقعة صغيرة تمتد حول مدينة مورور ، وجنوباً حتى وادى لكه . وقام بها أيام الفتنة نوح بن أبى تزيرى الدمّرى زعيم بنى دمّر . وقد كان بنو دمر من بربر تونس ومن بطون زناتة ، وهم خوارج إباضية . وفد جدهم أبو تزيرى إلى الأندلس أيام المنصور ، وخدم كسائر زملائه الزعماء البرابرة فى الجيش ، وانحاز منذ أيام الفتنة إلى تلك المنطقة ، واستقر بها وبسط عليها سلطانه . ولما توفى فى سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٣ م) خلفه ولده نوح بن أبى تزيرى ، واستمر فى حكمها زهاء ثلاثين عاماً ، ثم توفى سنة ٤٣٣ هـ (١٠٤١ م) فخلفه ولده محمد بن نوح . وكان محمد فتى غرا ، وجندياً جاهلا ، خالواً من الفضائل . بيد أنه كان مقداماً جسوراً ، « وافر العنف والفتاك »[٢] . وكان حديث عهد بالإمارة ، فاستبد وبغى وتلقب بعز الدولة ، واستطاع بجرأته وصرامته ، أن يحافظ على سلطانه وعلى أراضيه . وكان المعتضد بن عباد صاحب إشبيلية ينظر بعين السخط إلى قيام تلك الإمارات الصغيرة بجوار مملكته القوية الشاسعة ، ويعمل الفكرة فى إزالتها ، وكان حسبما تقدم يصانع أولئك الأمراء البربر أحياناً ويهاجمهم أحياناً أخرى ، وقد ذكر لنا صاحب الذخيرة أنه استغل هذه السياسة المزدوجة تجاه إمارة مورور الصغيرة ، فأغارت قواته على أراضى مورور ، واستقبل محمد بن نوح هذا العدوان بالحلم والصبر ، ولم يقابله بمثله[٣] . وجنح المعتضد بعد ذلك إلى مصانعة ابن نوح ، واستمالته بالصلات والهدايا ، كما فعل ذلك مع زميليه ، أبى نور صاحب رندة ، وعبدون بن خزرون صاحب أركش ، ثم دعاهم وصحبهم كما تقدم إلى زيارته فى إشبيلية ، ثم قبض عليهم وغدر بهم ، وهلك فى ذلك الكمين الخائن الذى رتبه المعتضد فى سنة ٤٤٥ هـ (١٠٥٣ م) محمد بن نوح وابن خزرون . وفى رواية أخرى أن محمداً بن نوح لبث فى

---

(١) وهى بالإسبانية Morón .

(٢) أعمال الأعلام ص ٢٣٩ ، وذيل البيان المغرب ج ٣ ص ٢٩٥ .

(٣) نقله صاحب البيان المغرب ج ٣ ص ٢١٤ .

معتقل المعتضـــد حتى توفى فى سنة ٤٤٩ هـ ( ١٠٥٧ م ) .

فخلفه فى الإمارة ولده مناد بن محمد بن نوح ، وتلقب بعماد الدولة ،وسار على سنة أبيه من الصرامة والحزم ، وقصده البربر من إشبيلية وإستجة وزادت جموعه ، واستمر محافظاً على سلطانه ، والمعتضد بن عباد يكرر الإغارة على أراضيه ، ويحرق بلاده وزروعه ، ويرهقه بطريقة قاسية منظمة . فلما ضاق بهذا العدوان المستمر ، ولما شعر فى النهاية أنه عاجز عن الدفاع عن إمارته ، كتب إلى المعتضد ، يسأله الأمان والمسالمة على أن يسلمه أراضيه ، ويخرج إلى إشبيلية ، يعيش فيها تحت كنفه ، فأجابه المعتضد إلى رغبته ، وسلم إليه عماد الدولة حصن مورور ، وما يتبعه من حصون وأعمال ، وذلك فى سنة ٤٥٨ هـ ( ١٠٦٦ م ) ، وانتهت بذلك مملكة بنى دمّر الصغيرة ، وأضيفت إلى أعمال مملكة إشبيلية الشاسعة. وسار عماد الدولة إلى إشبيلية فى أهله وأمواله ، وبالغ المعتضد فى إكرامه والتوسعة عليه ، وعاش هناك حتى توفى فى سنة ٤٦٨ هـ ( ١٠٧٥م ) .

### ٤ — دولة بنى خزرون فى أركش

وكانت دولة بنى خزرون هى رابعة الإمارات البربرية الصغيرة فى تلك المنطقة . وبنو خزرون هم من أبناء قبيلة يرنيان أو إرنيان من زناتة ، وكان زعيمهم أبو عبد الله محمد بن خزرون بن عبدون الخزرى ، وهو كغيره من زعماء البربر الوافدين على الأندلس أيام الدولة العامرية ، قد ظهر أيام الفتنة بمدينة قلشانة بكورة شذونة على مقربة من أركش ، وذلك فى سنة اثنتين وأربعمائة. ثم تغلب على مدينة أركش المنيعة ، وأقام بها حكومة مستقلة تشمل الأنحاء المجاورة ، وتلقب بعماد الدولة ، وكان زعيما جسورا مقداما ، سفاكاً للدماء ، فهابه الناس واستمر يحكم تلك المنطقة حتى توفى فى سنة ٤٢٠هـ (١٠٢٩م) . فخلفه ولده عبدون ابن خزرون ، وبايعته البلاد المجاورة لأركش وقلشانة وشريش ، واستمر حكمه زهاء خمسة وعشرين عاماً ، إلى أن هلك بإشبيلية فى الكمين الشائن ، الذى استدرجه إليه المعتضد بن عباد هو وزميلاه محمد بن نوح الدمرى ، وأبو نور بن أبى قرة ، حسبما أشرنا إلى ذلك غير مرة ، وكان ذلك فى سنة ٤٤٥ هـ ( ١٠٥٣ م ) .

فتولى الأمر من بعده أخوه محمد بن خزرون وتلقب بالقائم ، وأخذ يحصن بلاده ، ويتأهب لمقاومة ابن عباد بعد الذى بدا من غدره . والواقع أن

ابن عباد ما فتىء يترقب الفرصة للاستيلاء على هذه المنطقة التى تجاوره من الجنوب الشرقى ، وتفصله عن إمارة رندة ، وهى التى كان يطمح إلى أخذهافى نفس الوقت ، فعمد إلى الإغارة عليها ، وتخريب أراضيها وإرهاقهابكل الوسائل وابتنى حصناً على مقربة من أركش وشحنه بالمقاتلة لمضايقتها بطريقة منظمة ، والقائم صامد يدافع عن أراضيه ما استطاع . وأخيراً ألفى القائم أنه لا يستطيع مدافعة ابن عباد إلى النهاية ، فلجأ إلى باديس بن حبوس أمير غرناطة ،واتفق معه على أن يعطيه قلعة أركش وسائر البلاد التى تحت حكمه ، على أن يعطيهم أرضاً من بلاده ينزلون بها ويقيمون فيها ، وبعث باديس بقوة كبيرة من جنده ليعاونهم على الجلاء . وخرج بنو إرنيان من أركش بأهلهم وأموالهم ، يقصدون إلى أرض غرناطة . وكان ابن عباد قد رتب الكمائن لاعتراضهم ، فما كادوا يبتعدون بأحمالهم عن القلعة حتى خرجت كمائن ابن عباد ، ونشب بين الفريقين قتال مرير ، دافع فيه بنو إرنيان عن أنفسهم وعن أموالهم وحريمهم أشد دفاع ، بيد أنهم مزقوا فى النهاية ، وقتل أميرهم محمد بن خزرون وقتل معه قائد جند باديس ، وأبيد معظمهم . ومما يذكر أن محمداً بن خزرون لما شعر بالهلاك أمر غلامه أن يقتل زوجته وكانت رائعة الحسن ، وكذلك أخته ، حتى لاتقعا فى أيدى العدو ، واكتفى ابن عباد بتمزيق بنى إرنيان وترك فلولهم دون مطاردة ، ودخل أركش واستولى على سائر البلاد التابعة لها ، وذلك فى سنة ٤٦١ هـ (١٠٦٨ م)(١)

وهكذا سقطت الإمارات البربرية الصغيرة الأربع ، التى تقع فى منطقة المثلث الإسبانى الجنوبى ، وضمت كلها تباعاً إلى مملكة إشبيلية القوية ، وذلك خلال أعوام قلائل فقط ، رندة فى سنة ٤٥٧ هـ ، ومورور سنة ٤٥٨ هـ ، وقرمونة سنة ٤٥٩ هـ ، وأركش فى سنة ٤٦١ هـ .

وأضحت مملكة إشبيلية ، بعد الاستيلاء على تراث هذه الإمارات ، تمتد من ولاية تدمير شرقاً ، حتى المحيط الأطلنطى غرباً ، ومن وسط الأندلس ، من شرقى مملكة طليطلة ، وغربى مملكة قرطبة شمالا ، حتى أرض الفرنتيرة ، وثغر الجزيرة جنوباً ، وإذا استثنينا مملكتى ألمرية وغرناطة ، فان مملكة إشبيلية كانت تضم معظم تراث الدولة الأموية الذاهبة فى وسط الأندلس وفى جنوبها .

---

(١) راجع أعمال الأعلام ص ٢٣٩ و ٢٤٠ ، والبيان المغرب ج ٤ ص ٢٧١ و ٢٧٢ وذيله ج ٣ ص ٢٩٤ و ٢٩٥ .

# الكتاب الثالث

# دول الفتيان الصقالبة وخلفائهم

## في شرقي الأندلس

# الفصل الأول

# مملكة ألمرية

الفتيان الصقالبة . اشتراكهم فى حوادث قرطبة . نزوحهم إلى شرق الأندلس . استيلاء خيران العامرى على أوريولة ومرسية وألمرية . يؤيد خلافة المرتضى . اختيار الفتيان لعبد العزيز المنصور زعيماً لهم . خيران يبايع محمد بن عبد الملك ثم يختلف معه . حكم خيران فى ألمرية ومنشآته . شجاعته وإقدامه.وفاته وولاية زهير العامرى مكانه.صفاته.وزيره أحمدبن عباس.حملته إلى غرناطة ومصرعه استيلاء عبد العزيز بن أبى عامر على ألمرية . استخلافه لوزيره ابن صمادح عليها . تغلب ابن صمادح على ألمرية . بنو صمادح وزعيمهم أبى يحيى عامل وشقة.ولده معن يتولى الوزارة لصهره عبد العزيز ثم ينتزع منه ألمرية . وفاته وقيام ولده أبى يحيى المعتصم مكانه. صداقته لباديس صاحب غرناطة . خلافه مع عبد العزيز صاحب بلنسية . الثورة فى لورقة . تأييد عبد العزيز لها . الحرب بينه وبين المعتصم وباديس. استقلال الثوار بحكم لورقة . الخلاف بين المعتصم وباديس . استيلاء المعتصم على أراضى غرناطة الشرقية . إستيلاؤه على جيان . الخلاف بين المعتصم وعبد الله صاحب غرناطة والصلح بينهما . أدب المعتصم وشاعريته . أقوال ابن بسام . سقوط طليطلة وموقف المعتصم من استدعاء المرابطين . تنافسه مع ابن عباد لدى أمير المسلمين . مساهمة جنده فى موقعة الزلاقة . مساهمته فى حصار حصن لييط . وفاته وما يروى حولها . ولده معز الدولة . فراره من ألمرية عند مقدم المرابطين .

## ١ — عهد الفتيان العامريين

لما وقعت الفتنة ، وانتهت الدولة العامرية ، بتربع محمد بن هشام المهدى على كرسى الخلافة ، فى جمادى الآخرة سنة ٣٩٩ هـ ( فبراير ١٠٠٩ م ) ، ومقتل عبد الرحمن بن المنصور ، بعد ذلك بأيام قلائل ، غادر معظم الفتيان الصقالبة قرطبة ، فراراً من اضطهاد العهد الجديد ، وقصدوا إلى شرق الأندلس ، حيث كانت الأحوال أهدأ وأكثر استقراراً ، وجو العمل والمغامرة أكثر انفساحاً . وكان منهم عدة من الفتيان الفحول والخصيان الأذكياء ، ذوى الإقدام والعزم ، مثل مجاهد ، وقد غلب على مدينة دانية والجزائر الشرقية ، ولبيب وقد غلب على طرطوشة . ومظفر ومبارك وقد غلبا على بلنسية ، ونبيل وقد غلب على شاطبة ، وخيران ، وقد غلب على ألمرية ومرسية وأوريولة .

وإنما يهمنا هنا ، من هذه الجمهرة من الفتيان الصقالبة، خيران العامرى ،

وقد كان من أقواهم عزماً ،وأنشطهم إلى خوض غمار الحوادث ، التى تلت سقوط الدولة العامرية . ونحن نعرف أن محمداً بن هشام المهدى حينما تولى الخلافة ثار عليه سليمان بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر فى أنصاره ومرشحيه من البربر ، ووقعت بين الفريقين معارك شديدة حول قرطبة وفى الزهراء ،هزم فيها سليمان وحزبه فى البداية . وكان الفتيان العامريون ينقمون على المهدى ما فعله بهشام المؤيد من حبسه بالقصر واضطهاده ، وما فعله بعبد الرحمن المنصور وبنى عامر ، فائتمروا به وقتلوه ، وكان من بين مدبرى هذه المؤامرة الحاجب واضح الفتى ، وزميلاه عنبر وخيران ، وكانا قد قدما من شرقى الأندلس إلى قرطبة مع عدد آخر منهم ، ليشتركوا فى حوادث قرطبة ، وليبحثوا عن طالعهم فيها .

ورفع الفتيان الصقالبة ، هشاماً المؤيد إلى كرسى الخلافة مرة أخرى،وتولى واضح حجابته . ولكن البربر تمسكوا بموقفهم وبمرشحهم سليمان ، واستأنفوا هجومهم على قرطبة وحاصروها ، وقاتلوا أهلها بمنتهى الشدة ، ودافع القرطبيون عن أنفسهم بمنتهى البسالة ، ولكنهم ضاقوا بالحصار والعدوان ذرعاً ، ووجه اللوم فى ذلك إلى الحاجب واضح ، فقتله زملاؤه ، وفى النهاية تغلب البربر على كل مقاومة ، واعتلى سليمان كرسى الخلافة باسم المستعين،وذلك فى شوال سنة ٤٠٣ هـ (مايو ١٠١٣ م) .

وكان الفتيان العامريون قد خشوا العاقبة بعد مقتل واضح،وهالهم فى نفس الوقت، ما ارتكبه سليمان وصحبه البربر من العيث والسفك ، وجرح الكثير منهم خلال القتال ومنهم خيران ، فغادروا قرطبة ناجين بأرواحهم ، وقصدوا إلى شرقى الأندلس مرة أخرى .

وسار خيران أولا إلى أوريولة فى شرقى الأندلس فاستولى عليها ، ثم وثب منها على مدينة مرسية عاصمة تدمير ، فأخضعها لسلطانه (٤٠٣ هـ) ، وخرج منها بعدئذ بقواته إلى ثغر ألمرية . وكان عليها أفلح الصقلبى ، وهو حسبما تصفه الرواية غرٌ جلف ، قد ذهب به العجب كل مذهب ، وكان يدل على زملائه الفتيان الصقالبة بقدمه وشيخوخته ، فهاجمه خيران ، وقتله هو وولده ، وانتزع منه ألمرية ، وذلك فى المحرم سنة ٤٠٥ هـ (يوليه ١٠١٤ م) وغدت ألمرية من ذلك الحين قاعدته الرئيسية،ومستودع أمواله وعدته ، كما غدت مركز الدعوة

لإمامة هشام المؤيد ، وهو الذى كان يعتبره فتيان الصقالبة إمامهم ومولاهم .

وقد رأينا فيما تقدم من أخبار الدولة الحمودية، كيف ادعى علي بن حمود الحسنى حاكم سبتة أيام الفتنة ، أنه تلقى عهد هشام ، وكيف تحالف معه خيران ثم عاونه بقواته ، كما عاونه بربر غرناطة ، وانتهى الأمر بأن زحفت القوات المتحدة على قرطبة ، وكتب النصر لعلى بن حمود ، ودخل قرطبة ، ولما لم يعثر على هشام المؤيد بالقصر ، دعا لنفسه بالخلافة، وبدأت بذلك دولة بنى حمود ( سنة ٤٠٧ هـ ) .

ثم رأينا كيف غادر خيران قرطبة مغضباً متوجساً من غدر على بن حمود، وقصد إلى جيان ، ودعا أصحابه بالخلافة لعبد الرحمن المرتضى ، وأيده فى تلك الحركة عدة من ولاة الثغور ، ثم وقعت الحرب بين قوات المرتضى وبربر غرناطة ، فهزم المرتضى ثم قتل ، وعندئذ سار خيران فى أصحابه ، وقصد إلى ألمرية مرة أخرى ، وكان ذلك فى سنة ٤٠٩ هـ ( ١٠١٩ م ) .

والظاهر أن خيران ، بالرغم من اتخاذه ألمرية قاعدته الرئيسية ، قد لعب فى حوادث شرقى الأندلس دوراً ملحوظاً . ذلك أن الفتيان العامريين فى شرقى الأندلس ، قد اتفق رأيهم على أن يتخذوا لهم رئيساً من سلالة مولاهم العظيم ، المنصور بن أبى عامر ، ينضوون جميعاً تحت لوائه من الناحية الأدبية ، فوقع اختيارهم فى ذلك على عبد العزيز بن عبد الرحمن بن المنصور ، وكان فتى حدثاً ونحن نذكر أنه كان أيام أبيه عبد الرحمن المنصور طفلا ، ومع ذلك فلقد أسبغ عليه والده لقب الحجابة ، ولقبه بسيف الدولة ، وكان منذ مصرع أبيه قد غادر قرطبة سراً ، وسار إلى سرقسطة ، وأقام بها فى كنف صاحبها منذر ابن يحيى التجيبى ، فلما اختاره الفتيان العامريون زعيما لهم، غادر سرقسطة ، ولحق بشاطبة ، حيث أعلنت بيعته، وذلك فى سنة ٤١١هـ ( ١٠٢١ م ) . وفى رواية أخرى أن سليمان بن الحكم المستعين ، حينما ولى الخلافة لأول مرة ، عمل على رد اعتبار بنى عامر ، فدفن شلو عبد الرحمن المنصور بالتكريم ، وآوى ولده الطفل عبد العزيز ، وابن عمه الطفل محمداً بن عبد الملك تحت رعايته، فبقيا فى كنفه وقتاً قصيراً ، حتى خلع ، واسترد محمد بن هشام الخلافة . فعندئذ غادر الطفلان قرطبة [1] . ولسنا نعرف ماهو الدور الذى أداه خيران فى اختيار عبد العزيز

---

(١) أعمال الأعلام ص ١٩٣ .

للزعامة ، وهل كان من مؤيديه أم من خصومه . ذلك أنه لم يمض قليل على ذلك حتى اختلف خيران مع عبد العزيز ، وأعلن الخروج عليه ، وسار من ألمرية إلى مرسية ، وهنالك بايع بالزعامة محمداً بن عبد الملك بن المنصور ، وهو ابن عم عبد العزيز ، وكان قد غادر قرطبة ولجأ إليه ، فقدمه وصحبه إلى مرسية ، وثار فى نفس الوقت أهل شاطبة بعبد العزيز فغادرها سراً إلى بلنسية . وتسمى محمد بالمؤتمن ، ثم بالمعتصم . ثم تنكر له خيران ، وأخرجه من مرسيه ، واستولى الفتيان على أمواله ، فسار إلى غرب الأندلس ، وعاش هنالك حتى توفى(١)

وهكذا لم يكن خيران ، وهو فى عمالته فى شرقى الأندلس ، دائما على وفاق مع أصحابه الفتيان العامريين ، وكانت علائقه بالأخص سيئة مع مجاهد صاحب دانية ، وكانت تقع بينهما المناوشات والمعارك من آن لآخر .

* * *

ولنتبع بعد ذلك حكم خيران فى ألمرية ، بعد أن فصلنا الحوادث التى خاضها منذ اضطرام الفتنة ، والتى تدل فى مجموعها على ماكان يتمتع به هذا الزعيم الصقلبى من الحصافة ، والإقدام ، وقوة العزم .

استقر خيران فى ألمرية ، وبسط حكمه على أعمالها ، وكانت إمارة ألمرية تشمل يومئذ المنطقة الممتدة من شاطىء اسبانيا الشرقى الجنوبى ، على هيئة مثلث كبير ، غرباً حتى وادى آش وحدود مملكة غرناطة ، وشمالا حتى بسطة وجيان ، وقد كانا أهم قواعدها بعد ألمرية ، وهذا عدا أوريولة ومرسية ، وقد كان يحكمهما بالنيابة زهير العامرى . وأبدى خيران فى ضبط ألمرية وتنظيمها همة فائقة ، وحصن ألمرية ، وأصلح قصبتها الشهيرة ، وزاد فيها حتى غدت من أعظم القصبات الأندلسية ، وأودعها أمواله وذخائره ، ومازالت أطلالها الماثلة إلى اليوم تشهد بما كانت عليه من الروعة والحصانة . وزاد خيران فى قبلة جامع ألمرية زيادة اتسع لها الجامع ، وبنى السور الهابط من الجبل إلى البحر ، وجعل له أربعة أبواب منها باب يخرج منه إلى بجانة(٢) ونظم خيران جيشه ، واستوزر

---

(١) يراجع فى هذه الحوادث أعمال الأعلام ص ٢١٠ و ٢١١ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٦٢ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٦٤ . وكذلك : Gaspar Remiro : Historia de Murcia Musulmana (Zaragoza 1905) p. 96-98.

(٢) كتاب ترصيع الأخبار للعذرى ( نصوص عن الأندلس نشرت منه بعناية الدكتور عبد العزيز الأهوانى ) ( مدريد ١٩٦٥ ) ص ٨٣ .

الكاتب البليغ أحمد بن عباس بن أبي زكريا ، وعامل رعيته بالرفق والعدل ، وفى أيامه بلغت المرية منتهى العمران والرخاء ، وغدت من أمنع وأجمل ثغور الأندلس .

وكان خيران رئيساً وافر الدهاء والشجاعة ، والحصافة ، وحسن التدبير ، وكان بصيراً بالحروب ومكايدها ، وقد جرت بينه وبين جيرانه البربر أصحاب غرناطة ، وقائع أبدى فيها قوته وصرامته ، فهابوه ، ولم يفكروا فى مناوأته . وكان فوق ذلك كله متواضعاً زاهداً فى الألقاب ، فلم يتسم بشىء من تلك الألقاب الضخمة ، التى اتسم بها سائر أمراء الطوائف فى عهده ، واكتفى بما كان يوصف به من « الخليفة » و« الفتى الكبير »(١) .

وقد مدحه شاعر العصر الكبير ، أبو عمرو أحمد بن درّاج القسطلى ، بقصيدته الشهيرة ، التى مطلعها :

| | |
|---|---|
| لك الخير قد أوفى بعهدك خيران | وبشراك قد وافاك عزٌ وسلطان |
| هو النجم لايدعي إلى الصبح شاهد | هو النور لايُبغى على الشمس برهان |
| إليك شحنّا الفلك تهوى كأنهـــا | وقد ذعرت عن مغرب الشمس غربان |
| على لجج خضر إذا هبت الصـــبا | ترامى بنا فيها ثبير وثهلان(٢) |

وتوفى خيران العامرى بالمرية فى جمادى الآخرة سنة ٤١٩ هـ ( ١٠٢٨ م ) ، فاجتمع فى الحال رجال الدولة ، وعلى رأسهم الوزير أحمد بن عباس ، ونبأهم بأن خيران ، قد أوصى قبل وفاته بأن يخلفه أخوه زهير العامرى ، واتفق الجميع بذلك على تولية زهير . وكان خيران حينما شعر بدنو أجله قد بعث بالفعل يستدعى زهيراً ، نائبه فى مرسية وجيان ، فقدم زهير على عجل ، وأدرك خيران قبيل وفاته ، فلما توفى قام فى الحال مكانه ، وتسلم زمام السلطان ، ورضى به الناس ورجال الدولة(٣) .

وكان زهير ويكنى أبا القاسم ، من أهم الفتيان العامريين ، وأشدهم بأساً ، « وكان شهماً داهية » بعيد النظر ، وقد لعب فى حوادث الفتنة بقرطبة أدواراً أشرنا إليها فى مواضعها ، ولما تولى حكم المرية اقتفى أثر صاحبه خيران فى حسن

(١) أعمال الأعلام ص ٢١٢ .

(٢) وردت هذه القصيدة بأكملها فى ديوان ابن دراج المنشور بعناية الدكتور محمود على مكى ( دمشق ١٩٦١ ) ص ٨٦ — ٨٨ ، ووردت فى الذخيرة ( القسم الأول المجلد الأول ص ٧٤ — ٧٨ ) ، وكذلك ابن الخطيب فى أعمال الأعلام (ص ٢١٢ — ٢١٥ ) وهى طويلة جداً .

(٣) ابن الخطيب فى الإحاطة ج ١ ص ٥٢٥ و ٥٢٦ .

السيرة وحفظ النظام ، وهو الذى زاد فى المسجد الجامع بألمرية من غربيه وشرقيه وجوفيه ، وعظم المسجد بذلك . وبنى السقاية ، وكثر الماء فى ألمرية . وكان يكرم الفقهاء ويشاورهم فى الأمر .

وكانت مملكة ألمرية وقت أن تولى حكمها زهير ، تمتد من ألمرية حتى شاطبة، شرقاً ، وتمتد شمالا حتى جيّان وبيّاسة ، وحتى أعمال طليطلة ، ولو أن زهيراً استمع إلى صوت العقل والحكمة ، وقنع بتدبير مملكته الكبيرة ، لكان له فى تاريخ الطوائف شأن آخر ، ولكنه كان يقع تحت نفوذ وزيره الكاتب أحمد بن عباس ، وقد كان هذا الوزير ، بالرغم من صفاته العلمية والأدبية اللامعة ، ميالا إلى التهور والمغامرة ، وكان يلقى فى روع أميره مشاريع خطيرة ، ويحرك أطماعه بتحريضه وسيئ نصحه ، والظاهر أنه هو الذى بعث إليه فكرة غزو غرناطة ، على أثر موت أميرها حبوس بن ماكسن ، وتولى ولده باديس الحكم مكانه فى سنة ٤٢٨ هـ (١٠٣٧ م) . فنظم زهير حملته المشئومة إلى غرناطة ، ولم يلتفت إلى ما طلبه إليه باديس وأخوه بُلُقّين ،من تجديد أواصر المودة والصداقة التى كانت معقودة بينه وبين أبيهما حبوس ، ثم سار إليها فى قواته الكبيرة ، وقد أخذه الغرور والعجب ، حسبما فصلناه فى أخبار غرناطة . وهنالك التقى بقوات باديس فى ظاهر قرية ألفنت القريبة من غرناطة، وذلك فى آخر شوال سنة ٤٢٩هـ (١٠٣٨ م) ونشبت بينهما الموقعة الهائلة التى انتهت بهزيمة زهير ومصرعه وتمزيق قواته ، وأسر أكابر رجاله،وفى مقدمتهم وزيره ابن عباس ، وقد قتله باديس أيضاً بعد ذلك بأسابيع قلائل(١) .

فكانت هذه النكبة ضربة أليمة لمملكة ألمرية ، وكان من أثرها أن استولى باديس على الجزء الشمالى الغربى من أراضى ألمرية ، وفيها مدينة جيان أكبر قواعدها الشمالية .

ولما فقدت ألمرية أميرها ووزيرها على هذا النحو ، اجتمع أهلها ،وأسندوا رياستهم إلى شيخ الجماعة أبى بكر الرميمى،فتولى شئونها ، وضبط النظام والأمن . ثم كتب أهل ألمرية إلى عبد العزيز بن أبى عامر صاحب بلنسية يستدعونه لحكم مدينتهم . وكان عبد العزيز يعتبر أنه صاحب الحق الشرعى فى تراث الفتيان العامريين ، وذلك بحق الميراث والولاء باعتبارهم موالى أسرته ، وكان مذ هلك

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٦٨ — ١٧٢ .

زهير ،قد بعث وزيره ابن صمادح إلى باديس ، يلح عليه فى إعدام أكابر الأسرى من زعماء ألمرية الذين وقعوا فى يده ، ولاسيما الوزير ابن عباس ، حتى لايعارضه منهم أحد بعد فى امتلاك ألمرية ، وبادر عبد العزيز على أثر ذلك إلى ألمرية ، فبايعه أهلها ودخلها فى آخر ذى القعدة سنة ٤٢٩هـ ، ووجد بيت مالها مليئاً بالمال المضروب والذخائر فنقلها جميعا إلى بلنسية(١) ، وترك عليها والياً من قبله هو صهره ووزيره أبو الاحوص معن بن صمادح التجيبي ، فكانت ولايته إيذاناً بتطور مصاير مملكة ألمرية .

## ٢ — عهد بنى صمادح التجيبيين

ذلك أن عبد العزيز بن أبى عامر صاحب بلنسية ، لم يكد يفرغ من شئون ألمرية ، حتى جاءته الأنباء بأن منافسه وخصيمه مجاهد العامرى صاحب دانية وجزائر البليار ، قد تحرك لغزو أراضيه . وكان مجاهد يرقب تقدم عبد العزيز واتساع ملكه بعين الحسد ، فلما شغل بما آل إليه من تراث الفتيان فى ألمرية ، خرج مجاهد فى قواته صوب بلنسية ، فهرع عبد العزيز إلى مدافعته ، وترك صهره ووزيره أبا الأحوص معن بن صمادح ليرعى شئون ألمرية . وكان معن رجلا قليل الولاء كثير المطامع ، فما كاد عبد العزيز يغادر ألمرية ، حتى وضع مشروعه للاستئثار بالسلطة ، والاستيلاء على مملكة ألمرية ، وما زال يوطد الأمر لنفسه حتى جاهر بخلع الطاعة ، ودعا لنفسه واستجاب الناس لدعوته ، واستولى على ألمرية وأعمالها وذلك فى سنة ٤٣٣ هـ ( ١٠٤١ م ) ، وكان من مؤيديه ومعضديه فى هذا الانقلاب باديس صاحب غرناطة . ودخلت مملكة ألمرية بذلك فى عهد جديد من تاريخها .

وكان هذا الرئيس الجديد الذى سيطر على أقدار ألمرية، ينتمى إلى بيت من أعرق البيوتات العربية ، وكان حسبما يوصف من أهل الدهاء والفضل والعلم والأدب(٢). وهو معن بن محمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن ابن صمادح ، وبه عرف بيتهم . وصمادح هذا هو ولد عبد الرحمن بن عبد الله

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٢ ، وأعمال الأعلام ص ٢١٧ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٧٢ وراجع دوزى : Hist. ; V. III ; p.28

(٢) العذرى فى « نصوص عن الأندلس » من كتاب ترصيع الأخبار ص ٨٤ .

ابن المهاجر بن عميرة ، وهو جدهم الداخل إلى الأندلس . وفى عبد الرحمن ابن عبد الله يجتمعون مع بنى هاشم التجيبيين أصحاب سرقسطة، فهم مثلهم ينتمون إلى تجيب(١) . وكان والده أبو يحيى محمد بن أحمد بن صمادح حاكم مدينة وشقة وأعمالها منذ أواخر أيام هشام المؤيد بالله . ولما تولى سليمان الظافر الخلافة فى سنة ٤٠٣ هـ أقره على ولايته ، وكانت بينه وبين ابن عمه منذر بن يحيى التجيبى صاحب سرقسطة فى البداية علائق مودة وسلام ، فلما انتهت أيام سليمان ، واغتصب بنو حمود الخلافة القرطبية فى سنة ٤٠٧ هـ ، وعادت الأمور إلى اضطرابها ، ساءت العلائق بين منذر وأبى يحيى ، وسار منذر إلى وشقة فى قواته واستولى عليها ، وفر أبو يحيى فى أهله وولده ناجياً بنفسه . فكان على قول ابن حيان « أول ساقط من الثوار لم يتملأ سلطانه ولا أورثه من بعده » . وكان أبو يحيى مع رياسته عالما محدثا من أهل الفضل والأدب ، روى عنه ابنه أبو الأحوص معن ، وله مختصر قيم فى غريب القرآن . وقد اشتهرت وصيته لابنيه معن وصمادح بأسلوبها البارع ، ومحتوياتها الجامعة لمعظم آداب الدنيا والدين ، ودلالتها على وفور علمه ، وجلالة معارفه ، وسمو نفسه(٢) . ووصف لنا ابن بسام فى الذخيرة أبا يحيى بأنه كان فارساً مقداماً، وكان أديباً ذلقاً حسن البيان، ولكنه كان منكود الطالع ، فلم تدم رياسته طويلا(٣) .

ولجأ أبو يحيى إلى عبد العزيز بن أبى عامر صاحب بلنسية ، فأكرم وفادته وتوثقت علاقتهما بالمصاهرة ، إذ تزوج ولداه معن أبو الأحوص ، وصمادح أبو عتيبة بأختى عبد العزيز . ثم أراد أبو يحيى اللحاق بالمشرق ، فمات غرقاً فى البحر . وذكر لنا ابن حيان أنه هلك غرقا فى البحر الرومى، فيما بين جزيرة يابسة

---

(١) ابن الأبار فى الحلة السيراء ( مخطوط الإسكوريال ) فى ترجمة المعتصم بن صمادح ، لوحة ٨٠ و ٨١ ، ونقلها دوزى مقتضبة فى كتابه : Recherches, V. II. App. XX . وذكر ابن الخطيب أن صمادح إنما هو اسم امرأة هى صمادح بنت عبد الرحمن بن عبد الله إلى آخر نسبتهم، وأنهم عرفوا باسم أمهم المذكورة ( أعمال الأعلام ص ١٨٩ ) . ولكنا لم نجد تأييداً لهذه الرواية . وبالعكس فان النسابة ابن حزم يقرر أن صمادح هو جدهم ( جمهرة أنساب العرب ص٤٠٥ ) . ويوافقه ابن الأبار حسبما تقدم . وراجع الحلة السيراء ( القاهرة ) ج ٢ ص ٧٨ — ٨١ .

(٢) ابن عبد الملك المراكشى فى «الذيل والتكملة» — الجزء الأول — مخطوط مكتبة باريس الوطنية .

(٣) الذخيرة القسم الأول المجلد الثانى ص ٢٣٦ .

وشاطىء الأندلس ، وكان قد ركبه من ثغر دانية ، فى مركب تأنق فى صنعه واستجادة آلته وعدته ، مع نفر عديد من صحبه ، فغرق معظمهم ، ولم ينج منهم سوى القليل، وذلك فى جمادى الأولى سنة ٤١٩ هـ(١) وبقى ابنه معن فى كنف صهره عبد العزيز، وقد ولاه وزارته ، فلما قتل زهير العامرى ، واستولى عبد العزيز على ألمرية ، استخلف عليها وزيره معن . قال ابن حيان : « فكان شر خليفة استخلف . لم يكد يواري وجهه عبد العزيز عنه ، حتى خان الأمانة ، وطرده من الإمارة ، ونصب له الحرب، فغرّب فى اللؤم ما شاء . وتنكب ابن أبى عامر التوفيق لاسترعائه الذئب الأزل على ثلته ، ومسترعى الذئب أظلم ، وكان من العجب أن تملاها ابن صمادح ، وخلفها ميراثا فى عقبه »(٢) ، وانتهى الأمر باستيلاء معن على ألمرية والدعاء بها لنفسه حسبما تقدم . واستمر معن فى حكم ألمرية وأعمالها زهاء عشرة أعوام . وكانت بينه وبين باديس صاحب غرناطة علائق مودة وصداقة . وتوفى سنة ٤٤٣ هـ ( ١٠٥١ م ) بعد أن وطد رياسته ، ومهد الملك لعقبه .

فخلفه ولده أبو يحيى محمد بن معن بن صمادح بإجماع القرابة ورجال الدولة، ولما يستكمل الثامنة عشرة من عمره ؛ وكان أبوه قد أخذ له البيعة بولاية عهده ، بعد أن عرضها على أخيه صمادح أبى عتبة ، فاعتذر عن قبولها ، واتخذ من الألقاب الملوكية لقبين ، هما المعتصم بالله والواثق بفضل الله ، والرشيد على قول آخر ، وتوطدت فى بداية حكمه علائق المودة بينه وبين باديس صاحب غرناطة ، على ما كانت بينه وبين أبيه(٣) . ولكن الخلاف لبث بالعكس مستحكما بينه وبين خاله عبد العزيز بن أبى عامر صاحب بلنسية ، وكان باديس يعمل على إذكاء هذا الخلاف وتقويته كلما بدت بوادره . ذلك أنه كان باعتباره زعيم البربر يكره الجبهة الأندلسية، ويحاول دائماً أن يعمل على إضعافها، وكان من أبرز الحوادث المتصلة بهذا الخلاف ثورة ابن شبيب صاحب لورقة على المعتصم وذلك فى سنة ٤٤٣ هـ ( ١٠٥١ م ) . وكان من الواضح أن هذه الثورة لم تكن بعيدة عن وحى

---

(١) ابن عبد الملك المراكشى فى «الذيل والتكملة» — ج ١ من مخطوط مكتبة باريس الوطنية .

(٢) الذخيرة القسم الأول من المجلد الثانى ص ٢٣٧ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٧٤ وأعمال الأعلام ص ١٩٠ .

(٣) كتاب التبيان ص ٤٥ .

عبد العزيز . ذلك أن لورقة، وهى آخر قواعد مملكة ألمرية الشمالية الشرقية، تقع على حدود مملكة بلنسية ، وقد استنصر الثائر بعبد العزيز ، فبادر بتلبية دعوته ، وأمده ببعض قواته ، وزحف المعتصم فى جيشه على لورقة ، وأمده باديس من جانبه بقواته ، ونشبت بين الفريقين معارك انتهت بهزيمة ابن شبيب واستيلاء المعتصم على حصون لورقة ، وعودتها إلى حظيرة مملكة ألمرية(١) . بيد أنه يبدو أن ابن شبيب قد استأنف الثورة بعد ذلك ، واستطاع أن يستقل بحكم لورقة ، وخلفه إخوته الثلاثة فى حكمها بالتعاقب ، واعترف آخرهم بطاعة ابن عباد صاحب إشبيلية ، واستمر على حكمها باسمه ، حتى سقطت إشبيلية فى يد المرابطين فى سنة ٤٨٤ هـ ( ١٠٩١ م )(٢) . فلما توفى عبد العزيز فى سنة ٤٥٢ هـ ( ١٠٦٠ م ) ، وخلفه فى حكم بلنسية ، ولده عبد الملك الملقب بالمظفر ، بعث المعتصم بن صمادح بعض قواته فأغارت على بعض حصونه فى تدمير ، وساعده فى تلك الحركة أيضا باديس ، ولكنه باء بالفشل ، وردت جنده على أعقابها(٣) .

ثم تطورت العلائق بعد ذلك بين المعتصم وباديس ، وثابت للمعتصم أطماع فى الاستيلاء على أراضى غرناطة المجاورة لمملكته . والظاهر حسبما يحدثنا الأمير عبد الله بن بلقين أمير غرناطة فى مذكراته ، أن الذى كان يوحى إليه بتلك الأطماع ويشجعها ، هو يوسف بن نغرالة اليهودى ، وزير باديس ، بل يقول لنا الأمير إن مشروع ابن نغرالة كان يرمى إلى تمكين المعتصم من الاستيلاء على غرناطة ذاتها(٤) . وعلى أى حال فقد استطاع المعتصم أن يستولى على بعض أراضى غرناطة الشرقية وعلى حصن وادى آش . وقد رأينا فيما تقدم من أخبار باديس أنه ركن إلى الدعة فى أواخر عهده ، ووقع التفكك فى مملكته . وهو قد استرد وادى آش من ابن صمادح فيما بعد ، ولكن الظاهر أنه فقد جيان فى أواخر عهده ، واستولى عليها المعتصم بمداخلة الخوارج فيها . وكانت مملكة ألمرية تشمل

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٢ .

(٢) Gaspar Remiro : Murcia Musulmana ; p. 105

(٣) الذخيرة القسم الأول المجلد الثانى ص ٢٣٩ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٧٤ .

(٤) كتاب التبيان ص ٥٣ .

عندئذ من القواعد الهامة غير ألمرية ، لورقة ، وجيان ، وبياسة(١) التى استطاع المعتصم أن ينتزعها من أملاك على بن مجاهد العامرى صاحب دانية ، بيد أنه لم يحتفظ طويلا بمدينة جيان التى استولى عليها المعتمد بن عباد فيما بعد .

ولما توفى باديس وخلفه حفيده عبد الله بن بلقين ، وقعت بين المعتصم وعبد الله منازعات كثيرة بسبب الحصون الغرناطية الواقعة على الحدود مما يلى فنيانة ، وانتهى الأمر بأن أرغم عبد الله على هدم تلك الحصون استبقاء للمهادنة والسلم بينه وبين أمير ألمرية(٢) .

وبذل المعتصم جهوداً عظيمة ، فى توسيع قصبة ألمرية وتجميلها ، وأنشأ بها قصره الكبير الممتد حتى الجبل ، وإلى جانبه بستانه العظيم ، وأنشأ مجلسا رحبا مفروشاً بالرخام الأبيض ، ومجلسا آخر مقرنساً بالرفوف المذهبة ، ويليه من الجهة القبلية أبواب عليها شراجب يمكن منها أن يرى جميع مدينة ألمرية ، وبحرها ، وإقبال السفن إلى مرساها وخروجها منه . وجلب المعتصم الماء إلى المدينة ووصلها إلى جامع ألمرية ، وجلب منها فرعا إلى ما وراء القصبة ، ونظم وصول الماء إلى الرياض الملحقة بالقصر ، كما ابتنى بخارج ألمرية قصوراً فخمة ، وإلى جوارها بساتين تغص بغرائب الأشجار والثمار ، وفى إحداها بحيرة عظيمة عليها مجالس مفتوحة ، مفروشة بالرخام الأبيض ، وكان ذلك البستان الفخم يسمى « بالصمادحية » وهو قريب من ألمرية(٣) .

على أن أهم ما يشتهر به المعتصم بن صمادح هو أدبه وشعره ، وحمايته لدولة الشعر والأدب . وقد كان بلاطه الصغير بألمرية ، ينافس فى مجالسه الأدبية وفى رعايته للأدباء والشعراء ، بلاط إشبيلية .

وكان بلاط المعتصم منتدى لطائفة من أكابر شعراء العصر ، فقد كان وزيره أبو الأصبغ عبد العزيز بن أرقم شاعراً مقتدراً يجيد الوصف والمديح ، وكان من شعرائه المختصين به ، أبو عبد الله محمد بن عبادة المعروف بابن القزاز ، إمام الموشحات ، وأبو الفضل جعفر بن شرف ، وهو من أهل برجة ، وكانت

---

(١) A. R Ibars : Valencia Arabe (Valencia 1901) p. 167

(٢) كتاب التبيان ص ٨٩ و ٩٠ .

(٣) العذرى فى كتاب « ترصيع الأخبار » ص ٨٥ .

مدائحه للمعتصم تمتاز بطرافتها ، وبديع تصويرها ، وأبو القاسم خلف بن فرج المعروف بالميسر ، أصله من إلبيرة ، وكان يجيد شعر التهكم اللاذع ؛ وابن الحداد الوادى آشى ، وقد قضى معظم حياته فى بلاط المعتصم ، ولكن غضب عليه المعتصم ذات يوم لزلة ارتكبها فى شعره ، فغادر ألمرية ، ولجأ حيناً إلى بلاط المقتدرين بن هود بسرقسطة ، ثم عاد إلى ألمرية ، وكان فضلا عن شاعريته التى تبدو فى مدائحه الكثيرة للمعتصم ، عالماً بالفلسفة . ومن مديحه للمعتصم قوله من قصيدة طويلة :

لعلك بالوادى المقدس شاطىء ... فكالعنبر الهندى ما أنا واطىء
وإنى فى رؤياك واجد ريحهم ... فروح الهوى بين الجوانح ناشىء
ولى فى السُّرى من نارهم ومنارهم ... هداة حداة والنجوم طوافىء
لذلك ماحنت ركابى وحمحمت ... عرابى وأوحى سيرها المتباطىء[١]

وقد نوهت الروايات المعاصرة والقريبة من العصر ، بحماية المعتصم لدولة الشعر والأدب . فمثلا يقول لنا ابن بسام : « ولم يكن أبو يحيى هذا من ملوك الفتنة ، أخلد إلى الدعة ، واكتفى بالضيق من السعة ، واقتصر على قصر يبنيه ، وعلق يقتنيه ، وميدان من اللذة يستولى عليه ويبرز فيه . غير أنه كان رحب اللقاء ، جزل العطاء ، حليما عن الدماء والدهماء ، طافت به الآمال ، واتسع فى مدحه المقال ، وأعملت إلى حضرته الرحال ، ولزمته جملة من فحول شعراء الوقت كأبى عبد الله بن الحداد ، وابن عبادة ، وابن الشهيد وغيرهم .. » .

ويزيد ابن بسام على ذلك ، أن ما خاضه المعتصم من الفتن والحروب مع خصومه من ملوك الطوائف ، لم يكن مما يتفق وطبيعته الوادعة ، وإنما استدرج إليها ، وأكره عليها إكراهاً[٢] .

وقد كان المعتصم فى الواقع يؤثر العيش الهادىء بقصره الأنيق المشرف على البحر والمسمى ، « بالصمادحية » وينفق كثيراً من وقته فى المجالس الشعرية والأدبية .

---

(١) أوردها ابن بسام فى الذخيرة — القسم الأول المجلد الثانى ص ٢١٨ ، وأورد من بعدها قصائد أخرى من مدائحه للمعتصم ( ص ٢١٨ — ٢٣٣) وراجع أيضاً نفس المصدر ص ٢٤١ و ٢٤٢ و ص ٣٧٢ — ٣٨٠ .

(٢) الذخيرة القسم الأول المجلد الثانى ص ٢٣٩ ، والحلة السيراء (دوزى) ص ١٧٢ ، ( والقاهرة ) ج ٢ ص ٨٢ و ٨٣ ، وقلائد العقيان ص ٤٧ .

ولم تقتصر حماية المعتصم ورعايته على دولة الشعر والأدب ، ولكن بلاطه كان فى نفس الوقت مقصد المفكرين والعلماء من كل ضرب ، ومن هؤلاء أبو عبيد عبد الله البكرى أعظم جغرافى الأندلس ، وصاحب المعجم الجغرافى اللغوى الشهير ، فقد عاش حيناً فى ألمرية فى كنف المعتصم ، وكان صديقه الأثير ، وأغدق عليه المعتصم فيض رعايته وصلاته .

وكان بنو صمادح أنفسهم جميعاً من نجوم الشعر والأدب ، فقد كان المعتصم ، وبنوه معز الدولة ورفيع الدولة ورشيد الدولة من شعراء العصر . ولهم جميعاً آثار شعرية انتهى إلينا الكثير منها . وكانت أم الكرام بنت المعتصم كذلك شاعرة عصرها(١)

وكان المعتصم فوق ذلك كله ، معنياً بشئون الدين ، وإقامة أحكام الشريعة ، يعقد المجالس بقصره للمذاكرة ، ويجلس يوماً فى كل أسبوع للفقهاء والخواص ، يتناظرون بين يديه فى كتب التفسير والحديث(٢) .

واشتهر المعتصم بن صمادح بشعره وطرائفه الأدبية ، وقد أورد لنا صاحب الذخيرة ضمن ما أورده من بعض قصائده ، الأبيات الغزلية الآتية :

وتحت الغلائل معنى غريب ... شفاء الغليل وبرء العليـــل
فهــل لى من نيــله نائل ... ولابن السبيل اليـــه سـبيل
فما لى إلا الهـــوى متجر ... فغـــير الغوانى متــاع قليل
فيـــاربة الحسن فى غاية ... وعصر الشباب وظل المقيل
ذرينى أعانق منــك القضيـ ... ـب وأرشف من ثغرك السلسبيل(٣)

ولما تطورت الحوادث ، وأدت الفتن والحروب بين ملوك الطوائف ، إلى عاقبتها المحتومة ، واستأسد عليهم ألفونسو السادس ملك قشتالة ، وأخذ يضرب بعضهم ببعض ، حتى ظفر بالاستيلاء على طليطلة ( صفر ٤٧٨ھ ) ، واتجه ملوك الطوائف وفى مقدمتهم المعتمد بن عباد ، إلى الاستنصار بأمير المسلمين يوسف

---

(١) نقل إلينا ابن بسام فى الذخيرة كثيرا من قصائدهم (القسم الأول المجلد الثانى ص ٢٤١ - ٢٤٤ ) . وكذلك فى المغرب فى حلى المغرب ج ٢ ص ١٩٦ - ٢٠٣ ، وابن الأبار فى الحلة السيراء ( المخطوط ) لوحات ٨٢ و ٨٣ و ٨٤ .

(٢) الحلة السيراء ( القاهرة ) ج٢ ص ٨٢

(٣) الذخيرة القسم الأول المجلد الثانى ص ٢٤١ .

ابن تاشفين المرابطى ، لم يكن المعتصم فيما يبدو من المتحمسين لتلك الفكرة . ذلك أنه نظراً لموقع مملكته فى الطرف الجنوبى فى شبه الجزيرة ، لم يكن قد آنس بعد خطر النصارى الداهم ، كما آنسه ابن عباد وابن الأفطس ، وكان فضلا عن ذلك يشعر كما يشعر معظم أمراء الطوائف بما يقترن بمقدم المرابطين إلى شبه الجزيرة من الاحتمالات الخطيرة[١] . ومع ذلك فإن المعتصم ، حينما عبر أمير المسلمين إلى الأندلس فى شهر ربيع الآخر سنة ٤٧٩ هـ (١٠٨٦ م ) لم يتقاعس عن المساهمة فى القوات الأندلسية التى حشدت للتعاون مع الجيش المرابطى ، وذلك حسبما نفصل بعد فى موضعه ، ثم إنه بعد ذلك تقرب من أمير المسلمين يوسف بالهدايا والتحف الجليلة ، والتلطف فى خدمته ، حتى قربه إليه وأغدق عليه عطفه. وكان يوسف يبدى عطفه وتقديره بالأخص لرجلين من أمراء الطوائف هما المعتصم والمعتمد بن عباد، وكان يقول عنهما لأصحابه إنهما رجلا الجزيرة . ويقول لنا عبد الواحد المراكشى ، إن المعتصم وابن عباد كان يشعر كل منهما نحو الآخر بعاطفة من المرارة والتحاسد ، وأنهما حاولا غير مرة أن يتصافيا باللقاء، وأن المعتمد زار المعتصم بقصره بألمرية، واحتفل المعتصم بإكرامه أعظم احتفال ،ومع ذلك فقد لبث الضغن كامناً فى نفسيهما . فلما شعر المعتصم بتمكن منزلته لدى أمير المسلمين فيما بعد ، أخذ يدس لديه فى حق المعتمد ، ويحاول أن يغير نفسه عليه ، وقد كان فى ذلك فاسد التدبير قصير النظر ، حسبما أثبتت الحوادث فيما بعد[٢] .

ولم يشهد المعتصم موقعة الزلاّقة، معتذراً لدى أمير المسلمين بضعفه وكبر سنه ، ولكن قواته ساهمت فيها بقيادة ولده معز الدولة .واستمر المعتصم بعد ذلك فى الحكم بضعة أعوام أخرى . وكان ألفونسو السادس بعد هزيمته المروعة فى الزلاّقة ، قد استطاع أن ينهض من عثارها بسرعة ، وتحول عدوانه عندئذ إلى شرق الأندلس ، حيث كان الضعف يسود الإمارات الأندلسية الصغيرة . وكانت القوات القشتالية، قد رابطت فى حصن لييط[٣] المنيع الواقع فيما بين مرسية ولورقة ، وأخذت ترهق الأنحاء القريبة بغاراتها المتوالية ، وكان أمير المسلمين قد

(١) راجع كتاب التبيان ص ١٠٤ . وراجع كذلك دوزى : Hist., V. III. p. 124

(٢) راجع المعجب ص ٧٣ و ٧٤ .

(٣) هو بالإسبانية Alédo ، ومازالت أطلال هذا الحصن قائمة حتى اليوم .

عاد على أثر موقعة الزلاقة إلى المغرب ، فلما وقف على اضطراب شئون الأندلس وتفككها بعد رحيله ، واشتداد عدوان النصارى فى المنطقة الشرقية ، عاد فعبر البحر إلى الأندلس فى قواته (٤٨١ هـ) ، وتعاونت القوات الأندلسية مع القوات المرابطية فى حصار حصن لييط ، وكان المعتصم فى مقدمة الأمراء الذين هرعوا إلى المساهمة فى ذلك الحصار ، وخصوصاً لقرب ذلك الحصن من أراضيه ، وتعرضها بذلك لعيث النصارى . وطال الحصار مدى أربعة أشهر ، ولم ينجح المسلمون فى اقتحام لييط ، بالرغم من وفرة قواتهم وعددهم ، واضطروا إلى ترك الحصار ، بعد أن فنيت معظم حاميته ، واضطر ألفونسو بعد ذلك إلى إخلائه لعقم الدفاع عنه .

وتوفى المعتصم بن صمادح فى ربيع الآخر سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩١ م) بعد أن حكم إحدى وأربعين عاماً . بيد أنه شهد قبل أن يثوى إلى قبره نذر الخاتمة المشئومة تبدو فى الأفق . ذلك أن يوسف بن تاشفين عبر البحر للمرة الثالثة (٤٨٣ هـ) لا لينجد أمراء الأندلس هذه المرة ، ولكن ليقضى عليهم وعلى دولهم المنحلة المفككة ، وبدأ فى ذلك بإمارة غرناطة واستولى عليها ، ثم بعث قواته إلى إشبيلية لتقضى هنالك على دولة بنى عباد . وهنالك روايتان فيما يتعلق بسقوط المرية ، الأولى أن المرابطين حاصروها بالفعل ، وامتلكوا معظم حصونها ، وضيقوا على المعتصم ، وهو ملازم سريره يعانى مرض موته ، وأنه ألقى عندئذ عبارته المشهورة : « نُغص علينا كل شىء حتى الموت » . وحينما ألفى جاريته تبكى عند رأسه قال هذا البيت :

ترفق بدمعك لا تفنه　　فبين يديك بكاء طويل[1]

ومما قاله أيضاً حينما شعر بدنو أجله :

تمتعت بالنعماء حتى مللتها　　وقد أضجرت عينىّ مما سئمتها
فيا عجباً لما قضيت قضاءها　　وملّيتُها عمرى تصرم وقتها

وأما الرواية الثانية فتقول بأن المعتصم توفى قبل مقدم المرابطين ، وأنه أوصى

(١) الذخيرة القسم الأول المجلد الثانى ص ٢٤٠ و ٢٤١ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٦٨ ، وأعمال الأعلام ص ١٩٣ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٦٢ .

قبل وفاته ولده معز الدولة أحمد ، بأنه متى علم بسقوط إشبيلية وخلع أميرها المعتمد وهو قطب الجزيرة ، أن يعبر البحر فى أهله وأمواله إلى أمراء بنى حماد أصحاب القلعة بشرقى العدوة ، وأن معز الدولة تولى حكم ألمرية بعد وفاة أبيه بضعة أشهر . فلما سقطت إشبيلية ، وأسر أميرها المعتمد ، وذلك فى رجب سنة ٤٨٤ هـ ، بادر معز الدولة باتخاذ أهبة الفرار ، ثم ركب البحر فى أهله وأمواله فى ثلاث سفن أعدها لذلك ، وأحرق السفن الباقية خشية المطاردة ، واستطاع أن يغادر ألمرية قبل أن يطوقها المرابطون وذلك فى رمضان سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩١م) ونزل على آل حماد أمراء القلعة على مقربة من بجاية ، فأكرمت وفادته ، وعاش هناك حتى توفى (١)

(١) أورد هذه الرواية صاحب الحلة السيراء (دوزى) ص ١٧٤ والقاهرة ج٢ ص٨٩ و ٩٠ وراجع روض القرطاس ( طبعة أبسالة ١٨٤٣ ) ص ١٠١ .

# الفصل الثاني

## مملكة مرسية

مدينة مرسية وانشاؤها. تغلب خيران العامرى عليها أيام الفتنة. اختياره محمد بن عبد الملك للزعامة ثم تنكره له . زهير العامرى يتولى حكم مرسية وأوريولة . إمارته لألمرية . نائبه أبو بكر بن طاهر بمرسية . عراقة ابن طاهر وأدبه . مصرع زهير وقيام عبد العزيز المنصور مكانه فى ألمريه. إقراره لولاية ابن طاهر لمرسية. حزم ابن طاهر وسراوته . ولده أبو عبدالرحمن يخلفه . استيلاء ابن ذى النون على بلنسية وعزل صاحبها عبد العزيز المنصور . استقلال ابى عبد الرحمن بمرسية . خلاله وعلمه وأدبه . مطامع ابن عباد فى مرسية . اتفاق وزيره ابن عمار وأمير برشلونة على افتتاحها . فشل المحاولة . ابن عباد يستأنف الكرة . ابن رشيق يفتتح مرسية . القبض على ابن طاهر ثم الإفراج عنه . ندب ابن عمار لحكمها . طمعه فى الاستقلال بها . تحريضه لأمراء النواحى . تحريضه لأهل بلنسية على الثورة . قصيدته فى ذلك . متاعب ابن عمار فى مرسية . غدر ابن رشيق به واستيلاؤه على المدينة . فرار ابن عمار والتجاؤه إلى سرقسطة . محاولته فتح حصن شقورة . القبض عليه وتسليمه لابن عباد ثم مصرعه . أستبداد ابن رشيق بمرسية . يشترك مع المرابطين فى حصار حصن لييط . اتهامه لدى أمير المسلمين بالخيانة . تسليمه لابن عباد ثم فراره . استيلاء المرابطين على مرسية . حياة ابن طاهر فى بلنسية ثم وفاته بها .

إن مدينة مُرْسِية ، قاعدة ولاية مرسية أو ولاية تدمير القديمة الواقعة فى شرقى الأندلس ، هى مدينة أندلسية محضة ، نشأت وترعرعت فى ظل الأندلس المسلمة ، ولم يكن لها وجود عند الفتح . وكانت قاعدة ولاية تدمير عند الفتح هى مدينة أوريولة . وفى سنة ٢١٦هـ ( ٨٣١ م )، أنشأ الأمير عبد الرحمن بن الحكم مدينة مرسية لتكون عاصمة لتدمير ، ومقراً للعمال والقواد ، وقام على إنشائها عامله مالك بن جابر بن لبيد ، وسميت فى البداية بتدمير ، على نسق تدمير الشام[1] . وكان إنشاء مرسية فى بسيط أخضر من الأرض ، يقع فى منحنى نهر شقورة ، على مسافة قريبة من جنوب غربى أوريولة ، الواقعة على نفس النهر ، قبيل مصبه فى البحر الأبيض المتوسط ، ومازالت مرسية حتى اليوم تحتفظ بطابع أندلسى عميق .

(١) الروض المعطار ، صفه جزيرة الأندلس ، ( القاهرة ) ص ١٨١ ، بقيت فى معجم البلدان تحت كلمة مرسية .

ولما انهارت الدولة العامرية ، واضطرمت الفتنة فى نهاية المائة الرابعة ، وشعر الفتيان العامريون ، أنه لاأمل لهم فى النهوض والسلطان، خلال الفوضى الشاملة ، التى غمرت قرطبة عاصمة الخلافة القديمة ، سار معظمهم إلى شرقى الأندلس . وكان من هؤلاء كبيرهم خيران العامرى ، فسار أولا إلى أوريولة ، وهى أمنع قواعد ولاية تدمير ، وبسط عليها سلطانه ، ثم سار منها إلى مرسية واستولى عليها ، وذلك فى سنة ٤٠٣ هـ ( ١٠١٢ م ) . واستخلف عليها نائبه ، وزميله زهيراً العامرى ، ثم سار منها فى قواته إلى ألمرية ، وانتزعها من صاحبها أفلح الصقلبى ، على نحو ماذكرنا فى موضعه ، وغدت ألمرية من ذلك الحين قاعدته الرئيسية ، تتبعها مرسية وأوريولة من شرقى الأندلس .

وقد ذكرنا فيما تقدم ، كيف أجمع الفتيان العامريون ، الذين تغلبوا على شرقى الأندلس ، على أن يتخذوا لهم زعيما ، من بيت مولاهم العظيم المنصور ابن أبى عامر، وكيف وقع اختيارهم فى ذلك على عبد العزيز بن عبد الرحمن بن المنصور ، فتمت بيعته فى شاطبة ، ثم لحق بعد ذلك ببلنسية ، وبسط سلطانه عليها بتأييد الفتيان ، وتسمى بالمنصور ، وذلك فى سنة ٤١١ هـ ( ١٠٢١ م ) .

ثم أشرنا إلى موقف الخصومة ، الذى وقفه خيران بعد ذلك من زعامة عبد العزيز المنصور ، وإلى ما عمد إليه من ترشيح ابن عمه محمد بن عبد الملك المظفر بن المنصور للزعامة مكانه ، واستقدامه إلى شرقى الأندلس ، ونزوله له عن رياسة مرسية وأوريولة . وتلقب محمد بالمعتصم ، بيد أن أمد رياسته لم يطل، إذ تنكر له خيران ، كما تنكر من قبل لابن عمه عبد العزيز المنصور ، ثم سار إليه فى قواته ، وضيق عليه ، حتى اضطر إلى مغادرة مرسية، ولجأ إلى أوريولة ، فشدد خيران فى مطاردته حتى فر منها ، وسار إلى دانية ، فعاش حيناً فى كنف أميرها مجاهد العامرى : ثم غادرها إلى غربى الأندلس ، وهنالك عاش بقية حياته ، وتوفى فى سنة ٤٢١ هـ ( ١٠٣٠ م )(١) .

وعاد زهير العامرى نائباً لخيران على مرسية وأوريولة : واستقر خيران بألمرية أميراً عليها ، حتى توفى سنة ٤١٩ هـ ( ١٠٢٨ م ).

وعندئذ خلفه فى حكم مملكة ألمرية ، وفى حكم مرسية وأوريولة بالأصالة ،

---

(١) أعمال الأعلام ص ١٩٣ و ١٩٤ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٦٢ .

زهير العامرى ، واستمر حكمه عليها حتى مصرعه فى حربه مع باديس بن حبوس صاحب غرناطة فى سنة ٤٢٩ هـ (١٠٣٨ م) .

— ١ —

وكان يتولى حكم مرسية وقت أن كان زهير أميراً لألمرية ، نائبه أبوبكر أحمد بن إسحاق بن طاهر . وكان بنوطاهر هؤلاء ، من أعيان ولاية تدمير وسراتها ، وينتمون إلى قيس ، وكان منزلهم بمرسية ، وقد اشتهروا بالعلم والوجاهة . ولما توفى خيران العامرى ، وغادر نائبه زهير مرسية ليتولى مكانه إمارة ألمرية ، كان رئيس الجماعة بمرسية أبوعامر بن خطاب ، فخشى زهير ، إن تركه خلفه بمرسية ، أن يثور بها وينتزعها منه ، فصحبه معه إلى ألمرية ، وأسكنه بها حافظاً عليه مكانته ونعمته . والظاهر أن أبا عامر هذا هو حفيد أبى عمر أحمد بن خطاب كبير أعيان مرسية وسراتها أيام المنصور بن أبى عامر ، وهو الذى استضاف المنصور وجيشه عند مروره بمرسية سنة ٣٧٤ هـ ، فى طريقه إلى غزوة برشلونة ، وأبدى يومئذ من وافر الشهامة والجود ، ما غدا مضرب الأمثال [١] . واستخلف زهير على ألمرية أبا بكر بن طاهر ، ندّ أبى عامر وخصيمه لثقته بولائه وأمانته ، وكان قد استطاع يومئذ أن يفتدى نفسه من أسر مجاهد العامرى صاحب دانية ، وأن يعود إلى مرسية[٢] . والظاهر أن ابن طاهر وقع فى الأسر حينما غزا مجاهد مرسية ، على أثر وفاة صاحبها خيران ، وتوجسه من مشاريع خليفته زهير ، وكان ابن طاهر عندئذ حاكماً لمرسية حسبما يبدو ذلك من إشارة لابن الأبار ، من أنه بعد عوده من الأسر « عاد إلى حاله ونعمته ، وأعانه زهير على لم شعثه ، ووفى بعهده »[٣] .

وضبط أبوبكر بن طاهر مرسية ، وسار فى حكمها سيرة حسنة . وكان فضلا عن عراقة بيته ، وأرومته العربية المؤثلة ، وثرائه الواسع ، من أكابر علماء عصره ومن أغزرهم أدباً ، وأبلغهم بياناً ، وكان الشعب المرسى يحيطه بتقديره وحبه ، لما كان يراه من نبيل صفاته ، ووفرة حزمه ولينه وصيانته . وبالرغم من أنه كان

(١) الحلة السيراء (دوزى) ص ٢٥١ و ٢٥٢ . (والقاهرة) ج ٢ ص ٣١١ و ٣١٢

(٢) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ١٨٧ . (والقاهرة) ج ٢ ص ١١٧

(٣) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ١٨٧ .

يستأثر بسائر السلطات ، فإنه لم يتخذ شيئاً من مظاهر السلطان والإمارة ، ولم يتخذ لقباً من الألقاب الملوكية التي كان يشغف بها أضرابه من رؤساء الطوائف، وإنما كان يسمى فقط بالرئيس [١] .

ولما توفى زهير العامرى قتيلا فى حربه مع باديس بن حبوس صاحب غرناطة فى سنة ٤٢٩ هـ (١٠٣٨ م) ، واستطاع عبد العزيز المنصور صاحب بلنسية ، أن يخلفه فى إمارة ألمرية ، كانت مرسية وأوريولة من البلاد التابعة لها . وقدر عبد العزيز حزم ابن طاهر ، ورسوخ مكانته ، فلم يتعرض له بشىء ، وأقره على حكم مرسية . وكان ابن طاهر ، مع ولائه الظاهر لعبد العزيز المنصور ، يسير فى رياسته وحكمه على قاعدة الاستقلال التام ، ولا ينفذ من أوامر عبد العزيز إلا مايراه متفقاً مع رأيه وظروف بلده ، ويرسل إلى بلنسية فائض الدخل ، ويقوم بالنفقة على من ينزل طرفه من الجند ، وكان عبد العزيز يقنع منه بهذا المسلك المتسم بالحزم والكرامة والاحترام المتبادل . وفى خلال حكمه الطويل الذى استمر نحو ستة وثلاثين عاماً ، ازدهرت أحوال مرسية ، وعمها الأمن والرخاء ، وذاعت بها العلوم والآداب لقدوة أميرها الأديب العالم، واجتمعت له محبة الشعب وتقديره ، وهو ما كان يندر يومئذ فى دول الطوائف . وأضحى ابن طاهر فى أواخر أيامه من أقوى الرؤساء جانباً ، ومن أغنى سراة الأندلس، حتى لقد كان يمتلك وحده نصف أراضى بلده ، وكان يعاونه فى الحكم والإدارة ولده النابه أبو عبد الرحمن محمد ، ولاسيما فى أواخر عهده حيث أصيب بالفالج ، وطالت علته أعواماً ، وتوفى فى شهر رمضان سنة ٤٥٥ هـ (١٠٦٣ م) [٢] .

فخلفه فى حكم مرسية ولده أبو عبد الرحمن محمد بن طاهر ، وكان عبد العزيز المنصور قد توفى قبل ذلك فى شهر ذى الحجة سنة ٤٥٢ هـ (١٠٦١ م) ، وخلفه فى حكم بلنسية ولده عبد الملك الملقب بالمظفر ، فأقر عبد الرحمن مكان أبيه على حكم مرسية . وكان أبو عبد الرحمن بن طاهر ، صنو أبيه فى السراوة والحزم والهيبة ، فسار فى الحكم سيرته ، مستقلا عن حكومة بلنسية ، معترفاً بطاعتها فى نفس الوقت . ونحن نعرف أنه لم يمض على ولاية عبد الملك المظفر لبلنسية أعوام قلائل ، حتى زحف فرناندو ملك قشتالة فى قواته على بلنسية وحاصرها ، ثم

---

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ١٠٠ .

(٢) الحلة السيراء (دوزى) ص ١٨٧ و ١٨٨ ، وأعمال الأعلام ص ٢٠١ .

هزم البلنسيين هزيمة شديدة فى موقعة بطرنة ( ٤٥٧ هـ — ١٠٦٥ م ) ، وعلى أثر ذلك نفذ المأمون بن ذى النون مشروعه لانتزاع بلنسية من صهره ، زوج ابنته عبد الملك المظفر ، فدخل بلنسية على أثر ارتحال القشتاليين عنها ، وقبض على عبد الملك وولده ، ونفاهما إلى إحدى قلاعه ، وضمت بلنسية عندئذ إلى مملكة طليطلة .

وهنا ألفى أبوعبد الرحمن بن طاهر ، الفرصة سانحة للاستقلال التام عن حكومة بلنسية وإنهاء ولائه الاسمى لها ، وسار فى حكم مرسية وأعمالها أميراً مطلقاً لها . وكانت إمارة مرسية تشمل عندئذ مدينة أوريولة المنيعة ، الواقعة فى شمالها الشرقى ، وكذلك بلدة مولة الواقعة فى شمالها الغربى تجاه أوريولة ، وإلش وكتندة . بيد أنها لم تكن تشمل لورقة الواقعة فى جنوبها الغربى ، وقد كانت لورقة مثل مرسية فى البداية تابعة لمملكة ألمرية ، بيد أنها انفصلت عن ألمرية على يد ابن شبيب الثائر بها فى سنة ٤٤٣ هـ ( ١٠٥١ م ) ، وحكمها ابن شبيب المذكور ، واخوته الثلاثة من بعده ، بالتعاقب ، واعترف آخرهم بطاعة ابن عباد صاحب إشبيلية ، حسبما ذكرنا فى موضعه ، واستمرت لورقة بذلك طوال هذه المدة منفصلة عن حكومة مرسية (١) .

وكما أن أبا عبد الرحمن ، كان قرين أبيه فى السراوة والقوة والحزم ، فكذلك كان قرينه فى العلم والأدب ، بل كان يفوقه فى ذلك المضمار . وقد كان أبو عبد الرحمن بن طاهر فى الواقع من أعظم علماء الأندلس وكتابها فى عصره ، وقد أشاد معاصره ابن بسام بذكره وذكر أدبه فى الذخيرة ، وشبهه فى أسلوبه بالصاحب بن عباد بالمشرق ، ونوه بروعة رسائله ونبلها ، ولاسيما رسائله الهزلية ، فإنه يتقدم فيها على الجماعة ، ثم وضع عنه كتاباً ضمنه رسائله فى أعلام رؤساء الأندلس بخلاصه من محنة اعتقاله (حسبما نذكر بعد) ، وشكر ابن عبدالعزيز صاحب بلنسية على السعى فى إنقاذه منها ، وهى عدة من الرسائل البارعة ، ضمها ابن بسام مع سواها من رسائله فى كتاب عنوانه «سلك الجواهر من نوادر وترسيل ابن طاهر» . ويشير إليه ابن عبد الملك فى ترجمته بقوله : « وكان أحد المتقدمين فى البلاغة ، بارع الكتابة ، فصيحا ، خطيبا ، وكانت أيامه أيام عدل وأفضال ،

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٢ ، وراجع : Gaspar Remiro : Murcia Musulmana, p. 105

ودفع باس ، وتسويغ آمال » . ويقول لنا ابن الأبار ، إنه كان من أهل العلم والأدب البارع ، يتقدم رؤساء عصره فى البيان والبلاغة (١) .

ويصفه ابن الخطيب بقوله : « وكان صدر زمانه ، والمثل السائر فى بلاغته وبيانه » . وكان أسلوب ابن طاهر يميل إلى الدعابة . « وأجود رسائله ما اشتمل على الهزل لميل طبعه إليه » : وكان بلاط مرسية فى عهده منتجع الأدباء والشعراء ، يقصدون إليه ، ويلتفون حوله ، ويغمرونه بمدائحهم ، فيغمرهم برعايته وصلاته . وكان ممن وفد عليه بمرسية الوزير الشاعر ابن عمار ، وزير المعتمد ، وفد عليه أيام خموله ، فأثابه ، ودرس ابن عمار يومئذ أحوال مرسية ، ووقف على قصور معداتها الدفاعية ، ثم دبر مشروعه لافتتاحها فيما بعد (٢) .

— ٢ —

واستمر أبوعبد الرحمن بن طاهر أميراً على مرسية زهاء خمسة عشر عاماً ، يتسم عهده بالسلم والرخاء . بيد أنه كان ثمة بعض العناصر الناقمة من خصوم ابن طاهر يسعون إلى نكبته وإسقاطه . وكانت حدود مملكة إشبيلية الكبرى قد امتدت يومئذ ، بعد استيلاء أميرها المعتمد بن عباد على قرطبة وجيان ، حتى نهر شقورة ومدينة لورقة القريبة من مرسية . وكان زعيم لورقة ابن شبيب قد اعترف بطاعة المعتمد ، وأضحى سلطان المعتمد فى هذه الأنحاء يهدد مملكة مرسية بطريق مباشر ، فكتب الناقمون من أهل مرسية إلى ابن عباد يدعونه لافتتاحها (٣) ، ويؤكدون له ضعف وسائلها الدفاعية ، وهذا إيضاح لمشروع المعتمد فى فتح مرسية . وهناك إيضاح آخر خلاصته أن صاحب هذا المشروع هو أبوبكر ابن عمار وزير المعتمد ، وأنه كان يضطرم برغبة خفية فى الحصول على السلطان والإمارة ، أو على حد قول ابن بسام : « كان يطلب سلطاناً ينثر فى يديه سلكه ، وملكاً يخلع على عطفيه ملكه » . ويؤيد ابن الأبار هذه الرواية ويقول لنا إن ابن عمار

---

(١) ابن عبد الملك فى « الذيل والتكملة » — المجلد الرابع من مخطوط المكتبة الوطنية بباريس . وابن الأبار فى الحلة السيراء (القاهرة) ج ٢ ص ١١٨ .

(٢) الذخيرة ، القسم الثالث — المخطوط — لوحة ٩٥ ، والحلة السيراء ص ١٨٨ و ١٨٩ ، وأعمال الأعلام ص ٢٠١ .

(٣) أعمال الأعلام ص ١٦٠ .

قد أشار على المعتمد بفتح مرسية[١] . وعلى أى حال فقد اعتزم المعتمد أن يسعى إلى فتح مرسية ، وعهد إلى وزيره القوى الماكر ابن عمار ، أن يقوم بتنفيذ المشروع . واتباعاً للخطة التى كانت سائدة يومئذ بين ملوك الطوائف فى الاستعانة بالأمراء النصارى ، على مشاريعهم الباغية ، بعث المعتمد وزيره ابن عمار ، إلى الكونت رامون برنجير أمير برشلونة ، ومر الوزير الماكر فى طريقه بمرسية ، فأكرم ابن طاهر منزله . والظاهر أن ابن عمار كان يرمى من وراء هذه الزيارة إلى دراسة أحوال مرسية الدفاعية ، وإلى الاتصال سراً ببعض الزعماء الناقمين خصوم ابن طاهر . ولما وصل ابن عمار إلى برشلونة عقد مع أميرها الكونت برنجير اتفاقاً على أن يؤدى له المعتمد عشرة آلاف مثقال من الذهب ، لقاء معاونته على فتح مرسية ، وأن يقدم كل من الطرفين إلى الآخر رهينة بالوفاء . وتنفيذاً لهذا الاتفاق قدم المعتمد ولده الرشيد ، وقدم الكونت ابن أخيه ، وبعث المعتمد بقسم من قواته صوب مرسية بقيادة ابن عمار ، ولحقت بها قوة جهزها الكونت برنجير ، وطوقت القوات المتحدة مدينة مرسية ، ولكن ابن عباد لم يسعف برنجير بأداء المال المطلوب ، فارتاب فى الأمر ، واعتقد أنه قد غرر به ، وانسحب بقواته عن المدينة المحصورة ، بعد أن قبض على ابن عمار ، وعلى الرشيد ولد المعتمد .

وكان المعتمد بن عباد يسير عندئذ بقواته صوب مرسية ، وكان قد وصل إلى مقربة من شقورة ، حينما وفد إليه رسل ابن عمار مع بعض الهاربين من جنده من حملة مرسية ، وأعلموه بما حدث ، فارتد بقواته إلى جيان ، ووضع ابن أخى الكونت برنجير ، المودع لديه رهينة ، فى الأصفاد ، ثم وقعت المفاوضات بين الفريقين ، وانتهى المعتمد بأداء المال المطلوب للكونت ، وأفرج عن ابن عمار والرشيد ، وأفرج المعتمد من جانبه عن ابن أخى الكونت .

بيد أن إخفاق هذه الحملة الأولى على مرسية لم يثن ابن عمار عن عزمه ، فما زال بالمعتمد يحثه على إعداد حملة ثانية ، ويؤكد له أنه تلقى رسائل كثيرة من أهل مرسية يدعونه لافتتاحها ، حتى نزل المعتمد أخيراً على رغبته ، وجهز له حملة قوية ، وعينه حاكماً لمرسية ، وسائر البلاد التى يفتتحها .

وسار ابن عمار فى قواته إلى مرسية ، واصطحب معه حين مروره بقرطبة ،

---

(١) الحلة السيراء ( القاهرة ) ج ٢ ص ١٤٠ .

سَرية من الفرسان ، أمده بها حاكمها الفتح ولد المعتمد ، ومر فى طريقه بحصن بلج ، فاحتفى به حاكمه عبد الرحمن بن رشيق ، وصحبه فى قواته إلى مرسية ، فندبه ابن عمار للقيادة، وعاد إلى إشبيلية . وكان ابن رشيق رجلا وافر الدهاء، والمقدرة ، وكانت له أطماع دفينة يخفيها تحت ثوب من الرياء والخديعة . وطوقت جند ابن عباد مرسية ، وشددت الحصار عليها . واستطاع ابن رشيق أن يحقق نجاحه الأول ، بالاستيلاء على بلدة مولة الواقعة فى شمالها الغربى ، والتى كانت تمدها بالأقوات والمؤن . وعندئذ انهار خط مرسية الدفاعى ، واشتد بداخلها الضيق والحرمان ، واستمر ابن رشيق فى إرهاقه للمدينة المحصورة ، وفى تحريض أهلها على الوثوب بابن طاهر ، وأخيراً عاونه بعض الخونة من أوليائه على فتح بعض أبواب المدينة ، وانتهى الأمر بسقوطها على هذا النحو فى أيدى جند ابن عباد ، وذلك فى سنة ٤٧١ هـ ( ١٠٧٨ م ) (١) .

ودخل ابن رشيق مرسية ، وقبض على أبى عبد الرحمن بن طاهر وألقاه إلى السجن ، وأعلن بيعة المعتمد ، وكتب إلى بن عمار بالفتح . فسار ابن عمار من فوره إلى المدينة المفتوحة ، التى عين حاكماً لها من قبل ، وتقرب من أهلها بالهدايا ولين القول . بيد أنه جنح غير بعيد إلى تحقيق فكرة كانت تخالجه من قبل ، وهو أن يستأثر بحكم هذه المدينة النائية ، البعيدة عن متناول أميره ، ويغدو كباقى الرؤساء أميراً مستقلا ، وأخذ بالفعل فى تنفيذ فكرته ، فتجاهل رغبات ابن عباد وأوامره ، وتصرف فى سائر الأمور تصرف الحاكم المستقل ، وبدا نداً لأميره السابق ، أوعلى قول ابن بسام : « وقعد له مقعد الرؤساء، وخاطب سلطانه مخاطبة الأكفاء ، مستظهراً بجر الأذيال ، وإفساد قلوب الرجال، معتقداً أن الرياسة كأس يشربها ، وفلاة ينتجعها » . وأخذ فضلا عن ذلك يدس لأمراء تلك النواحى ، ويوقع بينهم ، ويحرض أهل بلنسية بنوع خاص، على الوثوب

---

(١) راجع فى حوداث فتح مرسية : أعمال الأعلام ص ١٦٠ و ١٦١ ، وعبد الواحد المراكشى فى المعجب ص ٦٥، ودوزى عن الشلبى فى : Hist. Abbadidarum. V. ll. p. 86 & 87
و Hist. des Musulmans d' Espagne; V. III. p. 108-109
وكذلك : M. Gaspar Remiro : Murcia Musulmana, p. 109-110
و R. M. Pidal : La Espana del Cid; p. 259 & 281
و A. P.. lbars : Valencia Arabe, p. 189-191

بالوزير أبي بكر بن عبد العزيز المتغلب عليها يومئذ . وكان قد شفع لدى المعتمد فى أمر ابن طاهر حينما قبض عليه ، فأذن بتسريحه ، وسار إلى بلنسية ، ملتجئاً إلى حمايته . وفى رواية أخرى أن ابن طاهر ، نجح فى الفرار من سجنه بمعاونة ابن عبد العزيز ، وسار خفية إلى بلنسية . وقد كان لفوز ابن طاهر باسترداد حريته ، وقع طيب فى مختلف الدوائر الرفيعة، ولاسيما دوائر العلم والأدب . وفى ذلك يقول أبو جعفر البتى من قصيدة :

أترضى عن الدنيا فقد تتشوف ... لعمر المعـالى أنها بك تكلف
يقولون ليث الغاب فارق غيله ... فقلت لهم أنتم له الآن أخوف
ولن ترهبوا الصمصام إلا إذا ... غدا لكم بارزا من غمده وهو مرهف
إذا غضبت أقلامه قالت القنى ... فديناك إنا بالمفاصل أعـرف
فتكشف ،عن سر الكتيبة مثل ما ... رأيناك عن سر البلاغة تكشف
رويداً قليلا يازمان فإنه ... يغصـك منه بالذى أنت تعرف (١)

هذا ، وقد أسرّ ابن عمار لأبى بكر بن عبد العزيز ، هذا المسعى الجميل فى العمل على تسريح ابن طاهر ، وأخذ يكيد له ويحرض أهل بلنسية عليه ، وقد وجه إليهم فى ذلك قصيدة ملتهبة من نظمه يقول فيها :

بشّر بلنسية وكانت جنـة ... أن قد تدلت فى سواء النـار
جاروا بنى عبـد العزيز فإنهم ... جرّوا إليكم أسوأ الأقـدار
ثوروا بهم متـأولين وقلدوا ... ملكاً يقـوم على العدو بثار
هـذا محمد أو فهذا أحمد ... وكلاهما أهـل لتلك الدار
جاء الوزير بها يكشف ذيلها ... عن سوأة سوءى وعار عار
نكث اليمين وحاد عن سنن العلا ... وقضى على الإقبال بالإدبار
آوى لينصر من نأى المثوى به ... ودهاه خذلان من الأنصـار
ماكنتم إلا كأمـة صـالح ... فرميتم من طـاهر بقـدار
هـذا وخصكم بأشأم طائر ... ورمى دياركم بالأم جـار

(١) أوردها ابن عبد الملك فى ترجمة ابن طاهر فى «الذيل والتكملة» — الجزء الرابع من مخطوط المكتبة الوطنية بباريس . ووردت أيضا فى « قلائد العقيان » ص ٦١ .

بر اليمين ولم يعرض نفسه ونفوسكم لمصارع الفجار
لابد من مسح الجبين فإنما لطمته عذراً غير ذات سوار

ثم يقول فى ختامها :

وأنا النصيح فإن قبلتم فاتركوا آثارها خبراً من الأخبار
قوموا إلى الدار الخبيثة فانهبوا تلك الذخائر من خبايا الدار
وتعوضوا من صفرة حبشية بأغر وضاح الجبين نضار[١]

ومضى ابن عمار فى خطته من تحدى ابن عباد ، والاستئثار بشئون مرسية ، واستعمل عبيده على الحصون وأقطعهم الضياع ، وانهمك فى الشراب واللذات ، وأعرض عن كل نصح[٢] . وكان ابن رشيق ، وهو قائد الجند وفاتح المدينة الحقيق ، يرقب الموقف ، ويتحين الفرص . وكان أبو بكر بن عبد العزيز ، انتقاماً من ابن عمار ، يحرضه على الوثوب به ،وانتزاع حكم المدينة منه ،وفضلا عن ذلك فقد استطاع أبو بكر أن يحصل بواسطة يهودى من عملائه فى مرسية ، على النسخة الأصلية من قصيدة هجاء مقذع ، وضعها ابن عمار طعناً فى ابن عباد وزوجه اعتماد الرُّميكية ، وأن يرسلها إلى ابن عباد فى إشبيلية . وقد سبق أن أشرنا إلى هذه القصيدة فى أخبار مملكة إشبيلية ، وأوردنا بعض محتوياتها اللاذعة . وهكذا كان الجو يظلم حول ابن عمار من كل ناحية ، وزاد الموقف خطورة ، حينما بدأ الجند بتحريض ابن رشيق فى المطالبة بأجورهم المتأخرة،واشتطوا فى ذلك، وابن عمار عاجز عن تهدئتهم . فعندئذ خشى ابن عمار البادرة على نفسه ، وخرج من مرسية ، بحجة تفقد الحصون الخارجية ، فانتهز ابن رشيق الفرصة لفوره ، واستولى على القصر وضبط المدينة وأغلق أبوابها . ولم ير ابن عمار أمامه سبيلا سوى الفرار .

وهكذا لقى ابن عمار جزاء غدره ، من غادر مثله . ويصف لنا ابن بسام هذه الضربة الغادرة من ابن رشيق بقوله : « فقيض له (أى ابن عمار) من عبد الرحمن بن رشيق عدواً فى ثياب صديق ، من رجل قدرة ختر ، وجزيل خديعة ومكر ، فلم يزل يطلع عليه من الثنايا والشعاب ، حتى أخرجه من

(١) نشرت القصيدة بأكلها فى قلائد العقيان ص ٦١ و ٦٢ .
(٢) ابن الأبار عن ابن بسام فى الحلة السيراء ج ٢ ص ١٤٢ .

مرسية كالشهاب » . وطوحت الخطوب عندئذ بابن عمار ، فقصد إلى ألفونسو السادس ملك قشتالة ، وقضى حيناً فى بلاطه ، ثم قصد بعد ذلك إلى سرقسطة ، والتجأ إلى أميرها المقتدر بن هود ، فأكرم وفادته ، واستخدمه فى بعض شئونه ، ولكنه توفى بعد قليل فى سنة ٤٧٥ ( ١٠٨١ م ) . فلبث فى خدمة ولده المؤتمن فترة أخرى ، ولم يهدأ له بال حتى أغراه على سجيته بافتتاح حصن شقورة الواقع شمال غربى مرسية ، وهو من أعمال دانية ، فبعث معه المؤتمن سرية من جنده ، ولما وصل ابن عمار إلى شقورة ، احتال عليه صاحبها ابن مبارك ، وكان رجلا وافر الدهاء ، واستقبله داخل حصنه بترحاب ومودة ، ثم قبض عليه وزجه إلى السجن . وما كاد ابن عباد يقف على ذلك الخبر ، حتى فاوض ابن مبارك فى تسليم ابن عمار ، وانتهى الأمر بحصوله فى يده ، ثم حمله المعتمد إلى إشبيلية ، واعتقله بقصره ، ومازال يمعن فى تأنيبه وتقريعه حتى انتهى إلى قتله بيده ، على النحو المؤسى الذى فصلناه من قبل فى أخباره ، وذلك فى أواخر سنة ٤٧٧ هـ ( أوائل سنة ١٠٨٥ م ) [١] .

وخلصت مرسية لابن رشيق ، واستبد بحكمها وأعلن خلع طاعة المعتمد ، واستمر بحكمها وأعمالها أعواماً بقوة وحزم ، حتى كان عبور المرابطين إلى اسبانيا وانتصار الجيوش المرابطية والأندلسية المتحدة فى موقعة الزلاقة على الجيوش النصرانية المتحدة ، وذلك فى رجب سنة ٤٧٩ هـ ( أكتوبر سنة ١٠٨٦ م ) ، وكان شرقى الأندلس يومئذ مايزال بمعزل عن حوادث الغرب . ولما شعر ألفونسو السادس ملك قشتالة بانهيار قواه ومشاريعه العسكرية فى غربى الأندلس ، رأى أن يتحرك إلى شرقى الأندلس ، حيث كان يسوده الاضطراب والتفرق والضعف. وكان المعتمد بن عباد يتوق إلى استرداد مرسية ، وتوطيد سلطانه فى هذا القطاع النائى من مملكته . وهناك فيما يتعلق بمصير مرسية روايتان الأولى : هى أن ابن عباد حرض صاحب لورقة القائد أبا الحسن بن اليسع ، وكان قد اعترف ببيعته ، والتجأ إلى حمايته ، على مهاجمة مرسية ، وأنه نجح فى انتزاعها من ابن رشيق ،

(١) راجع فى محنة ابن عمار ومصرعه : أعمال الأعلام ص ١٦٠ و ١٦١ ، والمراكشى فى المعجب ص ٦٦ ، وقلائد العقيان ص ٨٣ و ٩٠ و ٩١ و ٩٧ . وكذلك دوزى Hist. Abbadidarum V. II. p.90, 91, 100 & 101.

وكذلك R. M Pidal : La Espana del Cid, p. 244

وحكمها باسم المعتمد وموافقته، واستمر فى حكمها حتى استولى عليها المرابطون[١] والثانية ، هى أنه لما عبر أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى الأندلس للمرة الثانية فى سنة ٤٨١ هـ ( ١٠٨٩ م ) ، استجابة لصريخ أمراء الطوائف ، ولاسيما أصحاب القواعد الشرقية ، لقمع غارات النصارى فى شرقى الأندلس ، والقضاء على مركز عدوانهم فى حصن ليبط ( أليدو ) الواقع بين مرسية ولورقة ، وتعاونت القوات الأندلسية مع القوات المرابطية فى محاصرة الحصن المذكور ، كان ابن رشيق ضمن الأمراء الذين اشتركوا فى الحصار بقواتهم . ولما انتهى هذا الحصار بالفشل ، وهمت الجيوش الأندلسية بالعودة إلى بلادها ، شكى المعتمد ابن رشيق إلى أمير المسلمين يوسف ، واتهمه بالتحالف سراً مع النصارى ، ومعاونتهم على الصمود فى الحصن ، هذا فضلا عن كونه كان مغتصبا لولاية مرسية منه ، وطلب تسليمه إليه ، لمعاقبته ، واستشار يوسف الفقهاء فى الأمر ، فوافقوا على طلب ابن عباد ، وأمر يوسف بتسليمه ابن رشيق مع اشتراط الإبقاء على حياته ، وارتدت القوات المرسية غاضبة إلى بلدها . وحمل ابن عباد معه ابن رشيق إلى إشبيلية ، واعتقله هناك ، ولكنه فر غير بعيد من سجنه ، وعاد إلى مرسية ، وعاش بها حتى توفى . واستولى المرابطون على مرسية فى شوال سنة ٤٨٤ هـ ( أكتوبر ١٠٩١ م ) . واستولوا فى نفس العام على معظم أعمالها [٢] . وهنا يقدم لنا ابن الخطيب رواية أخرى ، هى أن ابن رشيق نزل من تلقاء نفسه عن مرسية لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، حين جوازه الثانى إلى الأندلس وهو مايدلى بأن ابن رشيق كان عندئذ هو المتولى حكمها [٣] . وكان القائد ابن عائشة أول حاكم لمرسية من المرابطين . وكانت مرسية قاعدة لتحركات الجيوش المرابطية ، التى حشدت لمقاومة عدوان السيد الكمبيادور ، واسترداد بلنسية من قبضته ، حسبما فصلنا ذلك فى موضعه .

أما ابن طاهر صاحب مرسية السابق ، فإنه كان قد استقر عقب فراره حيناً

---

(١) راجع المغرب فى حلى المغرب (القاهرة ١٩٥٥) ج ٢ ص ٢٤٨ و ٢٥٠ .

(٢) راجع روض القرطاس لابن أبى زرع (طبعة أوبسالة ١٨٤٣) ص ١٠١ ، وكذلك دوزى :
M. Gaspar Remiro : Murcia Musulmana ; p. و Hist.; Vol. III. p. 132—133
136 & 140,

(٣) أعمال الأعلام ص ١٦٠ .

ببلنسية ، فى كنف الوزير أبى بكر بن عبد العزيز . ثم فى كنف ولده أبى عمرو عثمان . ولما استولى القادر بن ذى النون على المدينة ، تقرب إليه ،واستمر على حاله من الكرامة والدعة . فلما ثار القاضى ابن جحاف ،وقتل القادر،واستولى على الحكم ، لم يكن ابن طاهر من أنصار هذا الانقلاب ،وكان يأخذ بالأخص على ابن جحاف أنه سفك دم القادر ، وله فى ذلك أبيات يقول فيها :

أيها الأخيف مهـــلا فلقـــد جئت عويصا
إذ قتلت الملك يحيى وتقمصـــت القميصا
رب يوم فيه تجـزى لم تجـد عنـه محيصا

ومن ثم فقد كان ابن جحاف يتوجس منه ، ويخشى مناوأته ، ويتهمه بالاتصال بالسيد والقشتاليين ، والتآمر معهم ضده . وقد كانت هذه التهمة باطلة . ذلك أنه لما دخل السيد وجنده القشتاليون بلنسية فى سنة ٤٨٧ هـ ( ١٠٩٤ م ) ، لم يستطع ابن طاهر أن يروض نفسه على البقاء فيها ، فغادرها فيمن غادرها من الأكابر . وفى رواية أنه كان ضمن من قبض عليهم السيد من أكابرالمدينة ثم أفرج عنه بعد ذلك فسار إلى شاطبة ، واستقربها حيناً ، حتى تطورت الحوادث،ومات السيد ، واستولى المرابطون على بلنسية ، وعادت إليها سلطة الإسلام ، فعندئذ عاد إليها ابن طاهر ،وقد أثقلته السنون، وهدمه الإعياء والمرض،فعاش بها أعواماً أخرى فى عزلة واعتكاف ، ثم توفى فى سنة ٥٠٧ هـ ( ١١١٣ م ) ، وقد أربى على التسعين (١) .

ويلخص ابن بسام المرحلة الأخيرة من حياة ابن طاهر فى الفقرة الآتية : « ومد لأبى عبد الرحمن بن طاهر فى البقاء ، حتى تجاوز مصارع الرؤساء ، وشهد محنة المسلمين ببلنسية على يد الطاغية الكنبيطور قصمه الله ، وجعل بذلك الثغر فى قبضته سنة ثمانية وثمانين » (٢) .

---

(١) راجع فى ترجمة أبى عبد الرحمن بن طاهر : الحلة السيراء — ليدن — ص ١٨٦ — ١٨٩ ، ( والقاهرة ) ج ٢ ص ١١٦—١٢٨ ، وقلائد العقيان ص ٥٦ ومابعدها . وقد أورد له كثيراً من الرسائل البليغة . وكذلك المغرب فى حلى المغرب ص ٢٤٧ و ٢٤٨ ، وأعمال الأعلام ص ١٦٠ .

(٢) الذخيرة — القسم الثالث المخطوط لوحة ٥ أ

# الفصل الثالث

## مملكة دانيـــة والجزائر

مدينة دانية وخواص موقعها . مجاهد العامرى . أصله ونشأته . نزوحه إلى شرق الأندلس . تغلبه على دانية والجزائر الشرقية . الفقيه أبو عبد الله المعيطى . مشروع مجاهد لغزو سردانية . استعداداته البحرية.أسطوله الغازى.سردانية وغزوات المسلمين.مسير مجاهد إلى سردانية واقتحامها . المعارك داخل الجزيرة وافتتاحها . حلف البابوية وجنوة وبيزة لطرد المسلمين . الحرب الصليبية . مقاومة مجاهد ومتاعبه.هزيمته وتحطيم أسطوله.أسر ولده وحريمه.غزوات مجاهد للشواطىء الإيطالية والفرنسية . الفقيه المعيطى وعزله ونفيه . مجاهد يفتدى زوجه وبناته . استطالة أسر ولده على ثم افتداؤه . عجمته وعوده إلى الإسلام. تثقيفه وإعداده لولاية العهد . تأييد مجاهد للخليفة المرتضى . اشتراكه فى محاربة البربر . اشتراكه فى حكم بلنسية ثم انفراده به.اختيار عبد العزيز المنصور لإمارة بلنسية . غزو مجاهد لمرسية وأسره لابن طاهر . محاربته لعبد العزيز صاحب بلنسية . وفاة مجاهد . عبقريته ومآثره العلمية . التفاف العلماء حوله . قصته مع أبى غالب النحوى. تفوقه فى الفروسية . براعته البحرية. ولده على إقبال الدولة يخلفه . الخلاف بينه وبين أخيه حسن. محاولته اغتيال بناته ومصاهراته .حكمه وصلاته.شئون الجزائر وحكامها.استجابة على لنداء المستنصر الفاطمى ورسالته إليه . تسامحه نحو النصارى . ابن غرسية ورسالته ضد العرب . بعض الآراء والتعليقات حولها . أطماع المقتدر بن هود فى دانية . خلافه مع صهره على . مسيره لافتتاح دانية واستيلاؤه عليها . اعتقال على ثم فراره إلى العدوة . ولده سراج الدولة . على ومواهبه وخلاله . الجزائر الشرقية واستقلال حاكمها المرتضى . خلفه مبشر بن سليمان . حكمه الزاهر . غارات البحارة المسلمين فى عهده . إغارة النرويج على الجزائر . بيزة ومشروعها لفتح الجزائر . أسطول الغزو النصرانى يهاجمها. استعداد مبشر للدفاع .استغاثته بعلى بن تاشفين.وفاة مبشر وولاية أبى ربيع . خروجه من الجزيرة وأسره.دخول النصارى مدينة ميورقة وفتكهم بأهلها.مقدم الأسطول المرابطى . انسحاب النصارى واستيلاء المرابطين على الجزائر .

تقع مدينة دانية فى شمال اللسان المثلث ، الممتد من ولاية لقَنت فى البحر الأبيض المتوسط ، وتبدو برقعتها الصغيرة ، وشوارعها القصيرة العريضة ، التى تظللها أشجار التوت الوارفة ، مدينة متواضعة هادئة ، لايتبادر إلى ذهنك ، وأنت تجوب أحياءها القليلة الصامتة ، أنها كانت ذات يوم عاصمة لدولة أندلسية بحرية كبيرة .

أجل قامت فى دانية ، أيام الطوائف ، مملكة تمتاز بصفتها الخاصة ، التى تميزها عن غيرها من ممالك الطوائف الأخرى . فقد كانت أولا تمتاز بموقعها المنعزل

فى شرقى الأندلس ، وتمتد رياستها عبر البحر إلى الجزائر الشرقية ، فكانت بذلك تغلب صفتها البحرية على صفتها البرية . ثم كانت بهذا الموقع المنعزل الحصين أبعد من أن تنزلق إلى معترك الحرب الأهلية، التى كانت تنحدر إليه ممالك الطوائف الأخرى ، وأبعد عن عدوان مملكة قشتالة ، الذى كان يهدد سائر الطوائف . ومن ثم فإن تاريخ مملكة دانية يتخذ طابعاً آخر ، غير ذلك الطابع الذى رأيناه يغلب على تاريخ ممالك الطوائف الأخرى .

وكانت دانية مثل معظم القواعد الأندلسية الشرقية ، عند اضطرام الفتنة وانهيار الخلافة ، من نصيب الفتيان العامريين . تغلب عليها منهم مجاهد العامرى فى أوائل عهد الفتنة . وقد كان مجاهد هذا من أكابر زعماء العامريين . وكان وفقاً لأرجح الروايات من فحول الموالى أو الفتيان العامريين . وقد كان معظم أولئك الفتيان من الصقالبة ، من أصول إفرنجية كالألمان واللنبارد والإيطاليين والجلالقة وأهل البلقان وغيرهم ، يؤتى بهم أطفالا ويربون فى البلاط تربية عربية إسلامية . وكان منهم الفحول والخصيان . وكان مجاهد ينتمى إلى الفريق الأول أعنى إلى الفتيان الفحول ، وقد نشأ وربى فى عهد المنصور بن أبى عامر . وفى رواية أخرى أن مجاهداً ينتمى إلى طائفة الموالى العامريين ، وقد رباه المنصور وعلمه ، وقيل أيضاً إنه كان مولى لعبد الرحمن المنصور ، أو أن أباه يوسف كان معتوقاً لعبد الرحمن (١) . وقيل من جهة أخرى إن مجاهداً كان «رومى» الأصل، أعنى من الفتيان الصقالبة(٢) . ويعتقد العلامة المستشرق أمارى بالاستناد إلى هذه الإشارة أن مجاهداً يرجع إلى أصل إسبانى محلى (٣) . بيد أنه مما يؤيد الرواية الأولى ، وهى نسبة مجاهد إلى الموالى ، وليس إلى الفتيان الصقالبة ، اسمه وكنيته ، فهو أبو الجيوش مجاهد بن يوسف بن على ، ويؤيدها أيضاً ما كانت تتمتع به شخصية مجاهد من عروبة قوية ، ومن تضلع فى علوم القرآن واللغة ، حسبما نبين بعد(٤) .

---

(١) جذوة المقتبس (مصر) ص ٣٣١ .

(٢) المراكشى فى المعجب ص ٤١ .

(٣) M. Amari : Storia dei Musulmani di Sicilia (Fierenze 1868) V. III. p. 4

(٤) ابن خلدون ج ٣ ص ١٦٤ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٥٦ . ويقدم إلينا ابن الابار مجاهداً بأنه أبو الجيش مجاهد بن عبدالله العامرى ( الحلة السيراء ج ٢ ص ١٢٨ ) .

وعلى أى حال فقد كان مجاهد عند اضطرام الفتنة، إلى جانب واضح وخيران وزهير ، وغيرهم من أكابر الفتيان أو الزعماء العامريين ، اندمج فى زمرتهم ، واشترك معهم فى بعض الأحداث التى أعقبت الفتنة ، وشاطرهم خطتهم فى النزوح إلى شرقى الأندلس . ويقول لنا ابن خلدون إن مجاهداً غادر قرطبة عند مقتل الخليفة محمد بن هشام المهدى فى أواخر سنة ٤٠٠ هـ (١٠١٠ م ) ، وإنه سار عندئذ إلى طرطوشة ، فتملكها ، ثم سار منها إلى دانية . وكان مجاهد كباقى الفتيان العامريين ، من شيعة الخليفة المؤيد بالله ، والخلافة الأموية بوجه عام ، وقد حارب معهم إلى جانب الخليفة المرتضى بالله ضد البربر والقاسم بن حمود ، فى الموقعة التى هزم فيها المرتضى ولقى مصرعه، وذلك فى سنة ٤٠٩هـ (١٠١٩م)(١) .

بيد أنه توجد رواية أخرى عن تغلب مجاهد على دانية خلاصتها ، أنه كان عند انهيار الخلافة واضطرام الفتنة ، والياً على الجزائر الشرقية ، وكان يشغل هذا المنصب منذ أيام المنصور بن أبى عامر ، فلما تمخضت الفتنة عن تمزق الأندلس ، سار من الجزائر إلى دانية ، وتملكها ، وأقام بها دولته (٢) .

وتقول بعض الروايات أيضاً إن مجاهداً ، كان وقت اضطرام الفتنة قائماً بشئون بلنسية ، فثار به عبدان من العبيد أو الفتيان العامريين ، هما مبارك ومظفر ، واستطاعا أن ينتزعا منه السلطة ، فخرج مجاهد من بلنسية إلى دانية وتغلب عليها .

والظاهر من مقارنة الروايات المختلفة أن مجاهداً نزل أولا فى دانية ، وغلب عليها ، ثم وثب منها على الجزائر الشرقية (جزائر البليار) وتملكها ، وذلك فى أواخر سنة ٤٠٥ هـ (أوائل ١٠١٥ م ) . وتتكون الجزائر الشرقية من أربع جزائر هى مِنُورقة ، وميورقة وهى أكبرها ، وبها مدينة ميورقة وهى عاصمة الجزائر كلها ، ويابسة ، وفرمنتيرا ، وهى أصغرها . وهنا وقبل أن نتتبع أخبار مجاهد ، يجب أن نذكر واقعة تدعو إلى التأمل ، وهو أن مجاهداً ندب إلى معاونته فى الحكم فقيهاً ورعاً هو أبو عبد الله بن عبيد الله بن الوليد ويعرف بالمعيطى ، وكان المعيطى هذا ينتمى إلى بنى أمية، وهو من أشراف قرطبة وفقهائها البارزين، وكان ممن أزعجته الفتنة ، فغادرها إلى شرقى الأندلس . والظاهر أن مجاهداً كان

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٤ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١٥٥ .

بحيط هذا الفقيه بنوع من التقدير والإجلال . ذلك أنه نصبه «خليفة» بدانية والجزائر وسائر أعماله ، وأخذ له البيعة على الناس ، وسماه بأمير المؤمنين المستنصر بالله ، ونقش اسمه فى سكته وفى أعلامه ، وذلك فى جمادى الآخرة من سنة ٤٠٥ هـ (١) . ويقال إن مجاهداً صحب معه المعيطى فى حملته إلى الجزائر الشرقية ، وإنه كان ساعده الأيمن فى الاستيلاء عليها . بل يقال إنه هو الذى أوعز إليه بغزو سردانية .

— ١ —

وبينما كانت دول الطوائف الأخرى ، سواء فى شرقى الأندلس ، أو فى غربها ، تخوض غمار المنازعات والحروب المحلية الصغيرة ، كان مجاهد العامرى يفكر فى مشروع ضخم ، ربما كان أعظم مشروع فكر فيه أمير من أمراء الطوائف ، ذلك هو غزو جزيرة سردانية وافتتاحها . وقد كان مجاهد ، زعيما قوى النفس ، وكان فيما يبدو بحاراً مجرباً ، وكان يرى أن مملكته الساحلية ، وأملاكه البحرية ، تقتضى أن يكون اعتمادها فى القتال على الأساطيل قبل كل شىء ، ومن ثم فقد اقتضت همته أن يجدد دار الصناعة القديمة (دار صناعة السفن) التى كانت بدانية ، وأن يضاعف طاقتها لتمده بالسفن المقاتلة والناقلة من مختلف الأحجام ، واستكثر من السفن والمعدات الحربية ، واستطاع فى فترة قصيرة أن ينشئ أسطولا كبيراً يرابط فى مياه دانية والجزائر ، وغدت دانية فيما بعد ، فى عصره ، وعصر ولده على ، أعظم مركز للأساطيل الأندلسية . وكان مجاهد يتطلع بعيداً من جزائره الشرقية إلى ما وراء هذه المياه من الجزائر الكبيرة الغنية ولاسيما جزيرة سردانية العظيمة ، التى عرفها البحارة المسلمون من قبل ، فى كثير من الغزوات المتعاقبة .

وضع مجاهد خطته لغزو هذه الجزيرة الكبيرة ، فحشد أسطولا قوامه مائة وعشرين سفينة ، وقوة من ألف فارس ، وأقلعت السفن الغازية من دانية والجزائر فى ربيع الأول سنة ٤٠٦ هـ (أغسطس ١٠١٥ م ) ، وعلى الأسطول قائده أمير البحر أبو خروب . وكانت المسافة بين مياه دانية والجزائر وبين سردانية ، يومئذ تستغرق ثمانية أيام . وكانت جزيرة سردانية موضع اهتمام

(١) أعمال الأعلام ص ٢٢٠ .

الغزاة العرب منذ فتح الأندلس ، وقد غزاها العرب لأول مرة فى سنة ٧١١ م ، أيام موسى بن نصير . ثم توالت غزوات البحارة المسلمين لسردانية ، فغزوها فى سنة ٧٥٢ م ، ثم فى سنى ٨١٣ و٨١٦ و٨١٧ و٨٣٨ م . بيد أن هذه كانت كلها من الغزوات العارضة ، التى يقنع الغزاة فيها بالسبى والغنائم ، وكانت المقاومة العنيفة التى يلقونها من أهل الجزيرة تحول دون احتلالها والاستقرار فيها . وكانت سردانية فى البداية تحت حكم الدولة البيزنطية ، فلما ضعف سلطانها فى تلك المياه ، وقعت سردانية تحت حكم اللونبارد ، ثم تحت حكم الفرنج . بيد أن هذه لم تكن سوى حماية اسمية . وكان يحكم الجزيرة منذ القرن الثامن قضاة أو أمراء محليون . وكانت طبيعتها الوعرة ، وشجاعة أهلها الجبليين ، واعتزازهم بحرياتهم ، مما يعاون فى دفع الغزاة ، ورد الحملات الغازية العارضة .

بيد أن هذه الحملة ، التى سيرها مجاهد العامرى إلى الجزيرة ، كانت تمتاز بضخامتها ، وضخامة عُددها ، وتمتاز بالأخص بما يقترن بها من عزم راسخ على الفتح والاستقرار . ومن ثم فإنه ما كادت السفن الغازية ترسو على شواطىء الجزيرة — والظاهر أنها رست فى خليج كاليارى فى جنوبى الجزيرة — حتى شق الغزاة طريقهم إلى الداخل بمنتهى العنف ، ووقعت بينهم وبين أهل الجزيرة معارك دموية هائلة قتل فيها عدد جم ، وكان قائدهم مالوتو فى مقدمة القتلى ، وأسر الغزاة جموعاً غفيرة ، وسبوا كثيراً من النساء والأطفال . واستطاع الغزاة أن يحتلوا معظم أراضى الجزيرة ، بالرغم من المقاومة العنيفة التى لقوها ، وأن يسيطروا على معظم حصونها (١) .

وهكذا فتحت سردانية على يد مجاهد العامرى ، وذلك فى شهر أغسطس أو سبتمبر سنة ١٠١٥ م ( ربيع الثانى سنة ٤٠٦ هـ ) (٢) . وكان أول فتح إسلامى لهذه الجزيرة الكبيرة . وتقول لنا الرواية الإسلامية إن مجاهداً غلب على معظم أنحاء سردانية وافتتح معاقلها ، ثم قرر البقاء فى الجزيرة ، حتى يوطد مركزه بها ، واختط بها بالفعل مدينة واسعة شرع فى بنائها ، وانتقل إليها بأهله وولده ، وأنه أحرز من الغنائم والسبى مالا يأخذه الحصر ، حتى كسد السبى فى زمانه ،

(١) Amari : ibid., V. III. p. 6 & 7

(٢) وفى جذوة المقتبس أن الفتح وقع سنة ٤٠٦ أو ٤٠٧ هـ ( ص ٣٣١ ) .

وانحطت أثمانه (١) . ومن المحقق على أى حال أن مجاهداً لبث فى سردانية حتى نهاية سنة ٤٠٦ هـ ، أعنى نحو عشرة أشهر . وفى خلال ذلك كانت البابوية والدول الإيطالية القريبة ، قد اهتزت لهذا الحادث الخطير ، وزاد فى روعها وسخطها ما عمد إليه مجاهد من الإغارة بسفنه على الشاطىء الممتد بين جنوة وبيزة واقتحام مدينة لونى ونهبها ، وكانت جنوة وبيزة يومئذ هما أقوى الدول البحرية فى هذه المياه ، ولكلتاهما مصالح تجارية عظيمة تحرص على حمايتها . وفى الحال أعلن البابا ، وهو يومئذ بندكتوس الثامن ، الحرب الصليبية ضد المسلمين ، وعقد تحالفاً مع جنوة وبيزة على محاربة المسلمين وطردهم من الجزيرة . ومما يروى بهذه المناسبة ، أن مجاهداً العامرى أرسل إلى البابا كيساً مملوءاً بحبات القسطل ، معلناً أنه سوف يعود بعدها ، وأن البابا رد بأن بعث إليه كيساً مملوءاً بالحشائش الرفيعة ، قائلا إنه سوف يلقى بعددها ممن يرتدون الخوذات . وهكذا عقدت الدول الإيطالية بزعامة البابا ، العزم على تحطيم الغزاة المسلمين ، ورد خطرهم عن هذه المياه .

وهنا يحيط الغموض بالفترة القصيرة ، التى قضاها مجاهد العامرى فى سردانية . ففى بعض الروايات أن مجاهداً عاد بعد هذه الحملة الأولى إلى دانية وجهز حملة ثانية إلى سردانية، فى صيف العام التالى أعنى فى سنة ٤٠٧هـ (١٠١٦م) وذلك لكى يقضى على كل مقاومة فى الجزيرة ، وهذه رواية يصعب تصديقها ، وليس فى سير الحوادث ما يؤيدها . والحقيقة هى أن مجاهداً لبث بعد غزو الجزيرة ، يبذل جهده فى تحصينها ، وفى الاستعداد للدفاع عنها ، واستمر طوال الوقت فى كفاح دائم مع أهل الجزيرة . ولما قدمت السفن الجنوبية والبيزية والسفن النصرانية الأخرى من مختلف الأمم ، ودخلت مياه كاليارى ، استعد مجاهد للمعركة الحاسمة ، ولكن مقاومة أهل الجزيرة من الداخل ، وتمرد الجند المرتزقة النصارى فى أسطوله ، وتوالى العواصف القاصفة ، كانت كلها عوامل فتت فى عضده ، وحطمت خطط دفاعه ، فلم يقو طويلا على المقاومة ، وأصابته السفن النصرانية بهزيمة فادحة . وتقول لنا الرواية الإسلامية إن أمير البحر أباخروب حذر مجاهداً من دخول مياه كاليارى بسفنه ، ولكنه لم يأخذ بهذا

---

(١) أعمال الأعلام ص ٢١٩ . وجذوة المقتبس ص ٣٣١ .

النصح ، وكانت الريح تقذف بمراكبه تباعاً ، والروم لا عمل لهم سوى قتل المسلمين وأسرهم ، ومجاهد خلال ذلك يبكى (١) . وهكذا تحطمت معظم سفنه وأسرت أو أغرقت ، وقتل معظم أصحابه . واستولى العدو على سائر غنائمه وسبيه ، وعلى أهله وحريمه وولده وفيهن نساؤه وبناته ، وعلىّ ولده ، وجود أمه النصرانية ، ولم ينج من أسطوله الضخم سوى بضع سفن ، شقت به عرض البحر مسرعة . ووقعت هذه الهزيمة الساحقة على مجاهد العامرى فى شهر يونيه أو يوليه سنة ١٠١٦ م .

ويقدم إلينا العلامة المستشرق أمارى رواية أخرى خلاصتها أن مجاهداً لبث فى سردانية عاماً آخر حتى مايو سنة ١٠١٧ م ، وأنه حينما سمع بأمر الأساطيل الضخمة التى جهزت لقتاله ، أنشأ بالجزيرة قلعة يستعين بها على الدفاع . ولكن جنده كانوا خلال ذلك، قد سئموا المقام بالجزيرة لقلة الغنائم ورداءة الطقس، وساد بينهم التذمر . وفى شهر مايو سنة ١٠١٧ م ، أقبل أسطول البيزيين . والجنويين الضخم ، وعول مجاهد على الانسحاب . ولكنه حينما خرج بأسطوله وذلك فى شهر يونيه ، اصطدم بالأساطيل الإيطالية ، وفاجأته فى نفس الوقت عاصفة شديدة ، أغرقت كثيراً من سفنه ، واصطدم الكثير منها بالشاطىء ، فسار فى فلول أسطوله صوب دانية تاركاً فى الأسر ولده وأخاه وزوجه (٢) .

وهكذا تحطم هذا المشروع الضخم، ولم يتح للمسلمين أن يستقروا فى سردانية كما أتيح لهم من قبل أن يستقروا فى صقلية . ولو نجح مجاهد العامرى فى مشروعه، واستقر المسلمون فى سردانية ، لكان مرجحاً أن تزدهر بها حضارة إسلامية ، كتلك التى ازدهرت فى صقلية ، بل وكان مرجحاً أن يطول عهد الإسلام فى صقلية ، وأن يتأخر سقوطها فى أيدى النورمان عصوراً أخرى . ولكن المشروع كان فى الواقع أضخم من مقدرة أمير من أمراء الطوائف ، وكانت الدول النصرانية كلها تتحفز لحماية هذه الجزائر ، كى تمنع انسياب الأساطيل الإسلامية إلى المياه الإيطالية ، وكان فى تفوق الجمهوريات الإيطالية البحرى ، فى هذه العصور ، ما يكفل تحقيق هذه الغاية (٣) .

(١) راجع جذوة المقتبس ص ٣٣١ .

(٢) Amari : ibid.; V. III. p. 9

(٣) راجع أعمال الأعلام ص ٢١٩ و ٢٢٠ ،وابن الأثير ج ٩ ص ١٠٠ ، وابن خلدون —

على أن غزو مجاهد الجرىء لسردانية ، وغاراته المتكررة بعد ذلك على الشواطىء الإيطالية وشواطىء بروڤانس ، جعلت منه شخصية خيالية مروعة ، وتفيض الروايات النصرانية المعاصرة ، من إيطالية ولاتينية ، فى غزوات مجاهد وغاراته البحرية ، وتعرفه باسم موجيتوس Mogetus أو موسيتو Museto وتحيطه بهالة من البطولة والروع .

وفى بعض الروايات أن المسلمين غزوا سردانية بعد ذلك مرتين أخريين ، فى سنة ١٠١٩ م ، ثم فى سنة ١٠٤٩ م ، وذلك بقيادة مجاهد العامرى أيضاً ، وأن مجاهداً سقط أخيراً فى أيدى النصارى ، وهى رواية لا سند لها . ثم إنه يروى أيضاً أن البحارة المغامرين أو القراصنة حسبما يسمونهم ، من دانية والجزائر ، لبثت تتكرر غاراتهم على الشواطىء الغربية للبحر المتوسط مدة طويلة ، يظللها دائماً اسم «موجيتو» أى مجاهد ، على أنه ملك إفريقية . وإذا كان لنا أن نستخلص من ذلك شيئاً ، فهو الروع الذى كان يبثه اسم هذا البحار الجرىء — مجاهد العامرى — فى ثغور البحر المتوسط الغربية ، فى ذلك العصر .

ومن الأسف أن الرواية الإسلامية تنقصها الإحاطة فى هذا الجانب الشائق من حياة مجاهد ، وهى حياته كبحار من أعظم بحارى العصر ، فهى لا تقدم لنا عنه سوى نبذة يسيرة متناقضة ، وهى أكثر اهتماماً بنواحيه العلمية والأدبية .

وعاد مجاهد العامرى من غزوته المنكوبة لسردانية ، ليلقى الأمور فى دانية قد اضطربت وتعقدت . ذلك أن الفقيه أبا عبد الله المعيطى ، لم يحفظ العهد ، ولم يرع الأمانة ، فاستبد بالحكم ، واغتصب السلطة لنفسه ، ومحا اسم مجاهد ورسومه ، وكثرت مظالمه وعيثه ، وابتزازه للأموال ، ومجاهرته بالمعاصى . وما كاد مجاهد يقف على ذلك ، حتى بادر بالقبض على المعيطى ، ونزعه كل سلطة وصفة ، واشتد فى تأنيبه وتعنيفه ، ثم أرسله مخفوراً إلى العدوة فى سفينة أنزلته فى بجاية ، وهنالك لجأ إلى البربر ، وعاش مغموراً حتى توفى (١) .

---

— ج ٤ ص ١٦٤ ، والمقدمة ص ٢١٢ . وراجع بحثاً بالإسبانية عن مجاهد العامرى وعلى ابنه : Roque Chabas : Mochahid ijo de Yusuf y Ali ijo de Mochahid en (Estudios de Erudición Oriental) Homenaje a Fr. Codera P. 4—14 . وراجع أيضا : Amari : ibid., V. III

(١) أعمال الأعلام ص ٢٢٠ .

وعمد مجاهد إلى تنظيم شئون مملكته ، والعمل على النهوض من عثرته . وكانت أعوص محنه يومئذ أسر ولده وأهله فى سردانية ، وقد استطاع أن يفتدى زوجته وبناته وإخوته فى مدة قريبة . ورفضت أمه وكانت نصرانية العود إليه ، وكذلك أختها ، وآثرتا العيش فى أرض نصرانية ، فأعرض عنهما . وبقيت مشكلة ولده على . وكان وقت أسره فى سردانية طفلا فى السابعة من عمره ، وكان وحيده يومئذ ، وكانت أمه نصرانية كذلك . وقد رفض السرادنة كل عرض لافتدائه ، وأخفق كل مجهود بذله مجاهد لرده . ومضت الأعوام والغلام يعيش فى الأسر بين النصارى ، يربى على دين النصرانية ، ويتحدث لغة القوم . وأخيراً وفق مجاهد إلى إقناع السرادنة بقبول افتدائه وإطلاق سراحه ، وذلك بعد عشرة أعوام من أسره . وكانت وجهة نظر السرادنة فى احتجاز الغلام على هذا النحو ، هى استبقاؤه رهينة ثمينة ، لمنع مجاهد من القيام بأية مغامرة أخرى ، ولم يرتضوا إطلاق سراحه ، إلا بعد أن دفع لهم مجاهد فدية هائلة ، وقطع على نفسه أوثق العهود بأن يتركهم فى سلام ، وألا يعود إلى إزعاجهم بأية صورة . وخرج على من الأسر ، وهو فتى يتكلم بلسان «الروم» الذى ربى بينهم ، ويتزيا بزيهم ، ويعتنق دينهم . فلما وصل إلى دانية عرض عليه أبوه الإسلام ، فقبله ، وحسن إسلامه ، وعنى مجاهد بتأديبه وتثقيفه . وكان قبل افتدائه من الأسر ، قد اختار لولاية عهده ولده الأصغر حسناً الملقب بسعد الدولة ، ولكنه عدل عن هذا الاختيار لما آنسه فى ولده الأكبر على من مخايل الشجاعة والذكاء والعزم ، فقدمه على أخيه الأصغر ، وعينه لولاية عهده ، وعهد إليه بقيادة الجيش . وكان لذلك فيما بعد أثره فى توتر العلائق بين الأخوين (١) .

— ٢ —

كانت غزوة سردانية أعظم أعمال مجاهد العامرى ، وهى ألمع صفحة فى تاريخه . بيد أنه مذ عاد إلى دانية ، قدر له أن يخوض سلسلة من الحوادث والأعمال الأخرى .

---

(١) أعمال الأعلام ص ٢٢١ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٥٧ . وبحث الأستاذ Chabas السالف الذكر . ويقول لنا ابن بسام إن الذى افتدى علياً من الأسر ، هو أحد آل حماد أمراء بنى مناد بالمغرب الأوسط ، وأنه أسدى بذلك إلى والده يداً بيضاء ( راجع الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ٢٠٦ ) .

ففى سنة ٤٠٨ هـ ، اجتمع رأى الفتيان العامريين، وعلى رأسهم زعيمهم خيران صاحب ألمرية ، على معارضة خلافة على بن حمود الناصر فى قرطبة ، والدعوة لخلافة مرشح أموى جديد هو عبد الرحمن بن محمد بن عبـــد الله ابن عبد الرحمن الناصر ، وكان قد فر خفية من قرطبة إلى جيان ، فأعلن خيران بيعته ، وأيده فى بيعته المنذر التجيبى صاحب سرقسطة ، وولاة بلنسية ودانية وطرطوشة وألبونت وغيرها ، وكان ذلك فى مؤتمر عقد فى بلنسية ، وتلقب الخليفة الجديد بالمرتضى ، وأعلن الخلاف على الناصر ، وسار على رأس جيش متحد من حلفائه ومؤيديه ، ومنهم مجاهد العامرى. والتقى جيش الفتيان وحلفائهم فى ظاهر غرناطة بجيش البربر ، بقيادة زاوى بن زيرى الصنهاجى ، فهزم جند الأندلس هزيمة فادحة ، وقتل المرتضى خلال فراره ( ٤٠٩ هـ ) ، وانهارت بذلك حركة الفتيان لمعارضة خلافة البربر ، وعاد مجاهد إلى دانية .

وفى خلال ذلك تطورت الحوادث فى بلنسية ، وكانت تحت حكم الفتيين العامريين مظفر ومبارك ، فتوفى مظفر أولا ثم تبعه مبارك فى حادث قتل فيه ، وذلك فى شهر ذى الحجة سنة ٤٠٨ هـ حسبما فصلنا من قبل فى موضعه . فعندئذ خلفه فى حكم بلنسية الفتى لبيب العامرى صاحب طرطوشة ، ثم شاركه فى حكمها مجاهد العامرى ، وكانت الخطبة تصدر باسميهما ، ثم وقع الخلاف بينهما ، وسخط أهل بلنسية على لبيب ، لوقوعه تحت نفوذ صاحب برشلونة النصرانى ، ففر لبيب إلى طرطوشة، وانفرد مجاهد بحكم بلنسية ، إلى جانب مملكته فى دانية ، واستمر على ذلك زهاء عامين ، حتى اجتمع الفتيان العامريون مرة أخرى ، وعقدوا البيعة لحفيد مولاهم عبد العزيز بن عبد الرحمن المنصور ، وندبوه أميراً لبلنسية ، وذلك فى سنة ٤١١ هـ ( ١٠٢١ م ) ، وعندئذ تخلى مجاهد عن حكمها .

ولسنا نجد بعد ذلك تفصيلا شافياً لأعمال مجاهد فى الأعوام التالية ، بيد أن هنالك واقعتين واضحتين ، الأولى أن مجاهداً غزا مرسية ، والثانية أنه خاض حرباً مع عبد العزيز المنصور صاحب بلنسية . فأما عن الواقعة الأولى ، فإنه يبدو من إشارة لابن الأبار ، أن مجاهداً سار إلى غزو مرسية ، وقت أن كان عليها أبو بكر بن طاهر نائباً عن زهير العامرى صاحب ألمرية . ولا توضح لنا الرواية أسباب هذا الغزو ، ولا تاريخه بالضبط ، ولكن الظاهر أنه وقع حوالى سنة

٤٢٠ هـ ( ١٠٢٩ م ) فى أوائل ولاية زهير لألمرية ومرسية عقب وفاة خيران العامري . وقد كان النزاع قائماً داخل مرسية حول حكمها بين بنى طاهر ، وبنى خطاب ، وكان مجاهد فيما يبدو من مؤيدى بنى خطاب ، فلما غلب بنو طاهر على المدينة سار مجاهد لغزوها ، وأسر أبا بكر بن طاهر ، وحمله معه إلى دانية ، ولم يطلقه إلا لقاء فدية طائلة ، بيد أنه ليس هنالك مايدل على أن مجاهداً حكم مرسية أو استقر بها طويلا . وعندئذ ندب زهير أبا بكر بن طاهر لحكم المدينة واصطحب معه خصمه ومنافسه أبا عمرو بن خطاب إلى ألمرية حسما للنزاع ، وضماناً للسكينة والسلام فى مرسية (١) .

ولما توفى زهير العامرى فى سنة ٤٢٩ هـ ، قتيلا فى حربه مع باديس صاحب غرناطة ، واستولى عبد العزيز المنصور من بعده على ألمرية وأعمالها ، وعلى مرسية وأوريولة ، شعر مجاهد بأن تضخم مملكة بلنسية على هذا النحو سوف يغدو خطراً على مملكته ، فساءت بينهما العلائق بسرعة وانتهت إلى الحرب . وسار مجاهد فى قواته من دانية ، واخترق أراضى مملكة بلنسية الوسطى من شاطبة إلى لورقة . وكان عبد العزيز المنصور يومئذ فى ألمرية ، فغادرها فى قواته ، وكانت شاطبة ولورقة وشوذر (٢) من أعمال مملكته ، قد خرجت كلها عليه وانضمت إلى مجاهد . ووقعت الحرب بين الفريقين ( ٤٣٣ هـ — ١٠٤١ م ) وانتصر عبد العزيز فى النهاية على خصومه ، واستعان فى محاربته لمجاهد ببعض سريات من المرتزقة النصارى أمده بها ملك قشتالة ، وعاد مجاهد إلى دانية ، دون أن يفوز بشىء .

وولى مجاهد حكم ميورقة ( الجزائر الشرقية ) ابن أخ له يدعى عبد الله . وكانت الجزائر الشرقية من أهم أعمال مجاهد ، وبها كانت مرافىء معظم أساطيله ، لأن مياه دانية لاتصلح لرسو السفن الكبيرة . واستمر عبد الله على ميورقة خمسة عشر عاماً حتى عزل فى سنة ٤٢٨ هـ ، وندب مجاهد لحكمها مولاه الأغلب فاستمر فى منصبه بقية عهد مجاهد ، وقسما من عهد ولده على (٣) .

---

(١) ابن الأبار فى الحلة السيراء ( دوزى ) ص ١٨٧ ، وطبعة القاهرة ج ٢ ص ١١٦ و ١١٧ . وكذلك الروض المعطار ( صفة جزيرة الأندلس ) ص ١٨٢ .

(٢) وهى بالإسبانية Jôdar

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٧ .

وتوفى مجاهد العامرى سنة ٤٣٦هـ ( ١٠٤٤م ) بعد أن حكم مملكة دانية والجزائر زهاء ثلاثين عاماً ، ساد فيها النظام والأمن والرخاء .

وقد أشادت التواريخ المعاصرة واللاحقة ، بخلال مجاهد العامرى ، وعبقريته الحربية والسياسية ، ومآثره العلمية والأدبية ، وكان أكبرهم تنويها بشأنه، معاصره المؤرخ الكبير أبو مروان ابن حيان ، وإليك نبذة مما قاله فى ذلك ، نقلها إلينا ابن بسام فى الذخيرة ، قال : «كان مجاهد فتى أمراء دهره ، وأديب ملوك عصره ، لمشاركته فى علم اللسان ، ونفوذه فى علم القرآن ، عنى بذلك من صباه ، وابتداء حاله إلى حين اكتهاله ، ولم يشغله عن التزيد ، عظيم ما مر به فى الحروب براً وبحراً ، حتى صار فى المعرفة نسيج وحده ، وجمع من دفاتر العلوم خزائن جمة ، وكانت دولته أكثر الدول خاصة ، وأسراها صحابة ، لانتحالهم الفهم والعلم ، فأمه جلة العلماء وأنسوا بمكانه ، وخيموا فى ظل سلطانه ، واجتمع عنده من طبقات علماء أهل قرطبة وغيرها ، جملة وافرة ، وجلة ظاهرة، إلا أنه كان مع أدبه من أزهد الناس فى الشعراء، وأحرمهم لأهله ، وأنكرهم على منشده فأقصر الشعراء عن مدحه ، وخلا الشعر من ذكره »[١] .

وذكر لنا فى نبذة أخرى نقلها إلينا ابن الخطيب ، أنه كان بين أعلام العصر الذين يلتفون حول مجاهد ، أبو عمرو بن سعيد الدانى صاحب القراءات، وأبو عمر ابن عبد البر ، وابن مغمر اللغوى ، وابن سيده صاحب كتاب المحكم وغيرهم[٢]. وكان منهم أيضاً الفقيه الكاتب أبو العباس أحمد بن رشيق ، وكان يحتل فى دولة مجاهد أرفع منزلة ؛ وقد ولاه ميورقة فحكمها بالسياسة والعدل ، واشتغل هنالك بالحديث والفقه[٣] وكان بعض هؤلاء العلماء منقطعاً إليه ، متفرغاً للعمل فى كنفه ، مثل ابن سيده الذى ألف معظم كتبه تحت رعايته ، ولازمه حتى توفى ، ثم غادر دانية بعد وفاته خوفا من سطوة ولده على[٤] . « فشاع العلم فى حضرته

---

(١) الذخيرة ، القسم الثالث، المخطوط لوحة ٥ أ. ونقلها صاحب البيان المغرب ج ٣ ص ١٥٦ .

(٢) توفى أبو عمرو الدانى سنة ٤٤٤ هـ ، وابن عبد البر سنة ٤٦٣ هـ ، وابن سيده سنة ٤٥٨ هـ.

(٣) هذا قول ابن الأبار (الحلة السيراء ج ٢ ص ١٢٨) ولا نعرف متى كانت هذه التولية . ولعلها كانت فى أوائل عهد مجاهد . وقد توفى ابن رشيق بعد سنة ٤٤٠ هـ .

(٤) المقرى عن المطمح فى نفح الطيب ج ٢ ص ٣٥٧ .

حتى فشا فى جواريه وغلمانه ، فكان له من المصنفين عدة ، يقومون على قراءة القرآن ، ويشاركون فى فنون من العلم ، يحملونه بها ويشرفون دولته ، .

ومما يذكر عن علائق مجاهد بعلماء عصره ، قصته مع إمام اللغة والنحو فى عصره ، أبى غالب بن غالب المعروف بابن التيانى المرسى . فإن مجاهداً أثناء تغلبه على مرسية ، وأبو غالب إذ ذاك بها ، أرسل إليه ألف دينار، على أن يزيد فى ترجمة كتابه « الموعب » أنه ألفه لأبى الجيش مجاهد . فرد عليه المال ، وأنف من ذلك قائلا ، « والله لو بذلت لى الدنيا على ذلك ما فعلت ، ولا استجزت الكذب ، فانى لم أجمعه لك خاصة ، وإنما جمعته لكل طالب علم »(١) .

ولم تقف إشادة المؤرخ المعاصر بخلال مجاهد عند مآثره العلمية ، ولكنه ينوه فى نفس الوقت بخلاله كفارس من أعظم فرسان عصره . ويقول لنا ابن حيان إنه «كان بهمة ، وأكثر الناس علما بالثقافة ، فلا يضم من الفرسان إلا الأبطال الشجعان ، وإنه لم يكن فى ملوك الزمان فارس يعدله شكلا ولباقة ورواء وهيبة ، وحسن عمل فى السلاح ، وتقليباً له ، إلى حذق بأبواب الثقافة والرماية ، وتدقيق لمعانيها »(٢) .

كذلك فإنه يبدو أن مجاهداً كان من أذكى ملوك الطوائف وأحذقهم بالشئون المالية والتجارية . وكان نشاطه التجارى الواسع ، المترتب على نشاط سفنه التجارية الكثيرة فى مياه غربى البحر المتوسط ، يحقق له ثروات طائلة ، وكانت مملكة دانية فى الواقع من أغنى ممالك الطوائف ، وأكثرها تمتعا بالرخاء .

وقد رأينا مما ذكرناه فى غزوة ميورقة، وغارات مجاهد البحرية على الشواطىء الفرنسية والإيطالية ، أن مجاهداً كان كذلك بحاراً من أعظم بحارة عصره، وكان من أكثرهم تمرساً بالحروب والغارات البحرية . ويصفه دوزى ، بأنه كان أعظم « القراصنة » فى عصره، وبأنه قد اشتهر بغزواته لسردانية وشواطئ إيطاليا وكذلك بحمايته للأدباء(٣) .

ومع كل ما تقدم فإن ابن حيان لم يفر مجاهداً من نقده اللاذع ، إذ يبدو أنه

(١) راجع الروض المعطار (صفة جزيرة الأندلس) ص ١٨٢ ، ونفح الطيب ج ٢ص١٣٢.
(٢) الذخيرة ، القسم الثالث ، المخطوط لوحة ٥ أ . وأعمال الأعلام ص ٢١٨ .
(٣) Dozy : Hist. des Musulmans d'Espagne, V. III. p. 3

جنح فى أواخر عهده إلى نوع من التناقض والاستهتار ، فتارة يبدو ناسكاً ، معتكفاً متبرئاً من كل باطل ، وطوراً يعود خليعاً فاتكاً لا يساتر بلهو ولا لذة ، ولا يستفيق من شراب وبطالة ، شأنه فى ذلك شأن سائر ملوك الطوائف[١] .

وكان مجاهد العامرى يكنى حسبما قدمنا بأبى الجيوش ، وفى بعض الروايات بأبى الحسن[٢] ، ويلقب من الألقاب الملوكية بالموفق .

— ٣ —

وخلف مجاهد العامرى فى مملكة دانية والجزائر ، ولده على الملقب بإقبال الدولة . وقد سبق أن أشرنا إلى قصة أسره ، وهو صبى ، فى غزوة سردانية ، وعوده من الأسر بعد أعوام طويلة ، فتى تغلب عليه صفات الروم ولسانهم ، وكيف عنى أبوه مجاهد برده إلى حظيرة الإسلام ، وبتثقيفه وإعداده ليخلفه فى الملك .

وكان مجاهد ، قبل عود ولده على ، قد رشح أخاه الأصغر حسناً الملقب بسعد الدولة لولاية عهده ، فلما صار الأمر بعد ذلك إلى أخيه على ، تحطمت آماله ، وشعر نحو أخيه الأكبر ، بعاطفة بغض قوى ، ورغبة جامحة فى إزالته . وهناك فى الواقع بعض الغموض فيما يتعلق بمركز حسن من مسألة الحكم وولاية العهد ، ذلك أنه توجد قطع من النقود التى ضربت فى دانية سنة ٤٣٢ هـ ، وعليها اسم حسن سعد الدولة ، كما توجد نقود ضربت فى دانية وميورقة فى سنتى ٤٣٥ ، و٤٣٦ هـ ، تحمل اسمه واسم أخيه على وأبيهما مجاهد . وفى ذلك ما يدل على أن حسناً ، ربما ولى الحكم بالفعل خلال حياة أبيه نائباً عنه ، أو أنه كان مشاركاً لأخيه على فى ولاية العهد ، أو نحو ذلك[٣] . وعلى أى حال فقد سار حسن مغضباً إلى صهره ، وزوج أخته المعتضد بن عباد فى إشبيلية ، وأفضى إليه بمشروعه فى الوثوب على أخيه ، واسترداد حقه فى الملك ، فشجعه المعتضد ، وهو من عرفنا من الحزلة والإقدام على الكبائر ، ولعله كان يرى فى معاونته على تنفيذ مشروعه ، سبيلا إلى بسط حمايته فيما بعد على مملكة دانية . وبعث معه إلى دانية غلاماً فتاكاً من غلمانه ، ووضع حسن والغلام العبادى خطتهما لاغتيال على ،

(١) الذخيرة القسم الثالث المخطوط لوحة ٥ أ .

(٢) ابن الأثير ج ٩ ص ١٠ ، وراجع معجم ياقوت الجغرافى تحت كلمة « دانية »

(٣) P. y Vives : Los Reyes de Taifas ; p. 36

واتفقا على أن يكون ذلك يوم جمعة عقب خروج على من الصلاة . وكان من عادة على ، عقب الخروج من الصلاة ، أن يتنزه قليلا على شاطىء البحر ، وكان إذا ركب ، كان أخوه حسن وراءه فى الموكب ، فلما انتهى على فى ذلك اليوم من نزهته ، وسار عائداً إلى قصره ، انتهز حسن والغلام العبادى فرصة مروره فى زقاق ضيق ، وانقض حسن عليه بخنجره ، فأصابه فى يده ، ثم حاول أن يثنى الطعنة فلم يوفق ورده على ، وعندئذ حاول الغلام العبادى أن يطعن علياً بالرمح الذى يحمله ، فنشب الرمح فى الحائط لضيق الزقاق ، وانقض رجال علىّ على الغلام العبادى فقتلوه ، وفر حسن ناجياً بنفسه ، وسار مسرعاً إلى بلنسية ، حيث لجأ إلى صهره ، وزوج أخته الآخر ، عبد الملك بن عبد العزيز ، وهناك عاش فى كنف أخته مغموراً حتى توفى(١) .

وهكذا فشلت هذه المحاولة الغادرة فى اغتيال على بن مجاهد ، وبرىء على من جراحه واستقر فى ملكه ، واتفق الجميع على طاعته وتأييده . وحذا على حذو أبيه فى اتباع سياسة الحيدة والمودة مع جيرانه ، وحاول مثل أبيه أن يوثق علائقه مع ملوك عصره بالمصاهرة ، وكانت له بنات حسان يصفهن صاحب الذخيرة بأنهن كن « أحسن من الشموس ، وافتن من الطواويس » ويقول لنا إن ملوك الطوائف تنافسوا فى الزواج منهن ، وجعلهن والدهن على عيوناً له على أزواجهن ، معتمداً على ما تحققه له المصاهرة وصلة الرحم ، من الرعاية والحماية(٢) ، فزوج إحداهن للمعتمد بن عباد صاحب إشبيلية ، وأخرى إلى المعتصم بن صمادح صاحب ألمرية ، وتزوج هو من ابنة أحمد بن هود المقتدر بالله ، بيد أنه كان من غرائب القدر أن هذه السياسة ذاتها ، وهى سياسة المصاهرة ، كانت أيضاً هى السبب فى سقوط على وضياع ملكه .

ولم نعثر على أية تفاصيل شافية عن الأحداث التى مرت بمملكة دانية أيام على ابن مجاهد ، ولا عن أعمال على ذاته ، وكل ما نستخلصه من الإشارات القليلة المتعلقة بحكمه ، أنه جرى على نفس سياسة أبيه فى مخاصمة بنى طاهر أصحاب مرسية ، وأنه كان متحالفاً مع أصحاب بلنسية ومربيطر وشنتمرية الشرق . وأما عن

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٥٧ و ١٥٨ .

(٢) الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ٢٠٦ .

علائقه مع الملوك النصارى، فإنه كان على علائق المودة والصداقة مع ملك قشتالة، أسوة بالمأمون صاحب طليطلة، ولكن على مبدأ الاستقلال لا الخضوع، إذ كانت مملكة دانية، حسبما بينا من قبل، بموقعها النائى الحصين، بعيدة عن متناول عدوان قشتالة. وكذا كان يرتبط بمثل هذه العلائق الودية مع كونتات برشلونة، وهم أمراء آل بربخير.

وكان على يولى شئون الجزائر منتهى عنايته، وكان يشعر دائماً أنها أهم أقسام مملكته. وكان حاكمها وقت ولاية على، هو الأغلب مولى أبيه مجاهد، وكان قد ولى حكمها منذ سنة ٤٢٨هـ. وكان جندياً وبحاراً مجرباً، وكان دائب الإغارة بسفنه على الشواطىء النصرانية فى قطلونية وبروڤانس(١). ولما توفى مجاهد، استأذن الأغلب علياً بعد ولايته بقليل، أن يسير إلى الحج، فأذن له، وندب لحكم الجزائر صهره سليمان بن مشكيان، فاستمر فى حكمها خمسة أعوام أخرى حتى وفاته فى سنة ٤٤٢ هـ (١٠٥٠ م)، فولى على مكانه عبد الله المرتضى فحكمها مدة طويلة. ولما سقطت دانية فى يد ابن هود، وانقضت دولة على، حسبما يجىء، أعلن المرتضى استقلاله بحكم الجزائر، واستمر فى حكمها أميراً مستقلا حتى وفاته فى سنة ٤٨٦ هـ (١٠٩٢ م)، فخلفه فى حكمها مبشر بن سليمان الملقب بناصر الدولة حسبما نذكره فى موضعه(٢).

وكان من أبرز أعمال على بن مجاهد، استجابته لنداء المستنصر بالله خليفة مصر الفاطمى، أيام الشدة العظمى، التى نكبت فيها مصر بالوباء والمجاعة الغامرة، حيث دعاه إلى المساهمة فى إغاثة أهل مصر بالغلال والمؤن، فبادر على إلى الاستجابة، وبعث إلى الإسكندرية مركباً كبيراً مشحوناً بالمؤن والأطعمة، (٤٤٧ هـ — ١٠٥٥ م)، فردها إليه المستنصر مشحونة بالتحف والذخائر، وتبالغ بعض الروايات فتقول إنه أرسلها إليه مشحونة « بالأموال والذخائر، أو بالياقوت والجواهر والذهب »(٣).

وبعث على إلى المستنصر رسالة شكر تفيض بلاغة وإجلالا، مكتوبة بقلم

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٥.

(٢) راجع: A. P. Ibars: Valencia Arabe, p 171 & p172

(٣) راجع البيان المغرب ج ٣ ص ٢٢٨، وأعمال الأعلام ص ٢٢١ و ٢٢٢.

وزيره أبى الأصبغ بن أرقم ، يشيد فيها بمقام الخلافة الفاطمية وجلالها ، ومقام المستنصر بالله . وقد نقل إلينا ابن بسام نص الرسالة المذكورة ، ومما جاء فيها على لسان على :

« فالآن استمد المريد ، واستقر الضمير ، فتبسم مولى الحضره رياضاً عطراً ، وراد روضها زهراً ، وشام برقها ممطراً ، واستوضح هلالها مبدراً ، وارتشف ماءها حضراً ، فما الشكر وإن جزل ، يوف ثنايا ذلك الإفضال والإنعام ، ولا اللسان وإن جفل يتعاطى ذلك الشأو ، ولا الأقلام ، ولا الطوق يقوم بأعبائها حق القيام . وأى وسع يبارى البحر وهو طام ، وأى طوق يطيق ركنى شمام . ولو كانت للمولى بالقدر يدان وساعده إمكان ، وساعفه زمان ، لأم بشخصه كعبة الآمال ، واستقبل بقصده قبلة السعة والإقبال ، واستلم بيده ركن الإنعام والإفضال .. »(١)

وكان على يتبع سياسة المودة والتسامح المطلق نحو النصارى ، ونحو أمانيهم الدينية ، وربما كان ذلك راجعاً من بعض الوجوه إلى ظروف حياته ، وإلى نشأته خلال أسره الطويل ، بين نصارى سردانية ، واعتناق دينهم قبل أن يعود إلى الإسلام . ولدينا فى ذلك وثيقتان صادرتان منه ، الأولى بوضع سائر الكنائس والبيع التى بمملكة دانية والجزائر تحت رعاية أسقف برشلونة ، وأن يتولى هو تعيين سائر رجال الدين الذين يعملون بهذه الكنائس، والثانية بأن يسمح للنصارى المعاهدين فى أعمال مملكته ، بأن يذكروا اسم أسقفهم فى خطبهم ومواعظهم . ولدينا بالأخص النص العربى للوثيقة الثانية ، وقد جاء فيه : «أشهده إقبال الدولة ، أيده الله ، على أنه أجاب غلبرت الأسقف ببرشلونة . إلى أن يكون مذكوراً فى خطب النصارى فى بيعهم بجميع أعماله، وهو مما انعقد بالخط الأعلى ، وذلك فى شوال سنة تسع وأربعين وأربعمائة » ، ثم يلى ذلك أسماء الشهود (٢) .

---

(١) الذخيرة ، القسم الثالث ، المخطوط ، لوحة ٦٥ ب وما بعدها ، وهى طويلة .

(٢) تحفظ هذه الوثيقة بمحفوظات مكتبة الفاتيكان برومة . وراجع نصها الكامل فى بحث الأستاذ شاباس السالف الذكر عن مجاهد وابنه على فى كتاب : **Estudios de Erudición Oriental, Homenaje a Fr. Codera**

وراجع أيضاً فى هذا الموضوع **A. P. Ibars : Valencia Arabe, p. 175—176.**

وكان من أثر هذه الحرية الدينية المطلقة ، أن تحققت فى نفس الوقت حرية فكرية شاملة ، وانطلقت الأقلام بما شاءت . وفى هذا الجو المشبع بالتسامح والحرية ، كتب أبو عامر أحمد بن غرسية ، وهو مولد من كتاب شرق الأندلس ، يرجع إلى أصل نصرانى بشكنسى ، سبى من ماردة صغيراً ، ونشأ فى بلاط دانية ، فى كنف مجاهد العامرى صاحب مملكة دانية والجزائر ( ٤٠٠–٤٣٦هـ ) ، وولده على إقبال الدولة ( ٤٣٦ – ٤٦٨ هـ )(١) : كتب رسالته الشهيرة فى تفضيل العجم على العرب ، وهى رسالة قوية عجيبة ، تفيض تحاملا ضد الجنس العربى ، وتنوه بوضاعة منبته ، وخسيس صفاته ، وحقارة عيشه وميوله ، وانغماسه فى شهوات الجنس ، وتشيد بالعكس بصفات العجم ( والمقصود بها مختلف أجناس الفرنج ) ، وترفعهم عن الشهوات الدنية ، وفروسيتهم ، ونجدتهم ، وتبحرهم فى العلوم ، وغير ذلك . وقد وجه ابن غرسية هذه الرسالة إلى صديقه الكاتب الشاعر أبى عبد الله بن الحداد ، يعاتبه فيها ، لأنه يخص ابن صمادح دون مجاهد وولده على بمدائحه ، وصاغها فى أسلوب عنيف مقذع ، ينبىء بما كان يضمره هذا الكاتب المولد للجنس العربى من المقت والحقد والكراهية . ولا تحمل هذه الرسالة تاريخاً ما . ولكنا نعرف مما تقدم أن ابن الحداد ، الذى وجهت إليه ، كان شاعراً فى بلاط المعتصم بن صمادح أمير المرية ، الذى حكم من سنة ٤٣٣ — ٤٨٤هـ(٢) . والمرجح أنها وجهت إليه حوالى سنة ٤٥٠ إلى سنة ٤٦٠هـ ، وابن غرسية يقيم بدانية فى كنف على إقبال الدولة ، وإليك بعض ما جاء فى هذه الرسالة فى التنوية بفضائل العجم ، ونقائص العرب :

(١) المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد (القاهرة ١٩٥٥) ج ٢ ص ٤٠٦ و ٤٠٧ ، وأبو الحجاج البلوى فى كتاب الف با (القاهرة ١٢٨٧ هـ) ج ١ ص ٣٥٣ . وابن الأبار فى المعجم رقم ٢٨٢ فى ترجمة أبى العباس الجزيرى حيث يقول عنه «وكان بها (أى بدانية) يؤدب أبا جعفر أحمد بن غرسية الكاتب».

(٢) ان اسم ابن الحداد الذى وجه إليه ابن غرسية رسالته ، هو الذى ورد فى مخطوط الإسكوريال رقم ٥٣٨ الغزيرى الآتى ذكره . ولكن ورد فى الذخيرة لابن بسام (الجزء الثالث مخطوط أكاديمية التاريخ بمدريد) وكذلك فى كتاب الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشى (مخطوط باريس السالف الذكر) أن الذى وجهت إليه الرسالة هو أبو جعفر الجزار ، وهو باسمه الكامل أحمد بن محمد بن سهل السرقسطى ، وأنه كان من شعراء بنى هود ، وكان عالماً أديباً شاعراً ، وكان قد هبط من سرقسطة يريد المرية ليلحق بالمعتصم بن صمادح وقد عدل عن الورود إلى دانية ، والالتجاء إلى أميرها على بن مجاهد . بيد أننا نؤثر الأخذ بما ورد فى مخطوط الإسكوريال.

« أأحسبك أزريت، وبهذا الجيل البجيل ازدريت ، وما دريت أنهم الصهب الشهب، ليسوا بعرب ذوى أينق جرب ، أساورة أكاسرة ، مُجد ، نُجد، بُهم، لارعاة شويهات ، ولاتهم ، شغلوا بالماذى والمرّان ، عن رعى البعران، وبجلب العز عن حلب المعز ، جبابرة ، قياصرة ، ذوو المغافر والدروع ، للتنفيس عن روع المروع ، حماة السروح ، بناة الصروح، صقورة ، غلبت عليهم شقورة ، وشقورة الخرصان ، لكنهم خطبة بالخرصان ، شعر .

ما ضرهم أن شهدوا مجـادا  أوكافحوا يوم الوغى الأندادا
أن لايكون لونهم سوادا

« شرهوا برنات السيوف ، لابربات الشنوف ، وبركوب السروج الكلب والفرُوج، وبالنفير عن النقير ، وبالجنائب عن الحبايب ، وبالحب عن الحب ، وبالشليل عن السليل ، وبالأمر والذمر ، عن معاقرة الخمر والزمر ، وباللقيان عن العقيان ، وعن قنيان القيان، طياتهم خطياتهم ، وغلاتهم آلاتهم ، وحصونهم حصنهم ، أقيال آباؤهم من بين الأنام أقتال .

أولئك قومى أن بنوا شيدوا البناء  وان حاربوا جدوا وان عقدوا شدوا

حُلُم عُلُم ذوو الآراء الفلسفية الأرضية ، والعلوم المنطقية الرياضية كحملة الاسترلوميقى ، والموسيقى والعلمة بالأرتماطيقى ، والجومطريقى ، والقومة بالألوطيقى والبوطيقى ، ما شئت من تدقيق، وتحقيق ، حبسوا أنفسهم على العلوم البدنية والدينية لاعلى وصف الناقة الفدنية ، فعلمهم ليس بالسفساف كفعل نائلة وأساف ، أصغر بشأنكم، إذ بزقخرباع الكعبة أبو غبشانكم، وإذ أبورغالكم قاد فيل الحبشة إلى حرم الله لاستئصالكم .

أزيدك أم كفاك وذاك أنى  رأيتك فى انتحالك كنت أحمق

فلا فخر معشر العربان الذربان ، بالقديم المفرى للأديم ، ولكن الفخر يابن عمنا ، الذى بالبركة عمنا ، الإبراهيمى النسب ، الإسماعيلى الحسب الذى انتشلنا الله تعالى به وإياكم من العماية والغواية ، أما نحن فمن أهل التثليث وعبادة الصلبان ، وأنتم من أهل الدين المليث وعبادة الأوثان ، ولاغرو أن كان منكم حبره وسبره ، فى الرغام يلقى تبره ، والمسك بعض دم الغزال ، والنطاف العذاب مستودعات بمسك العزال :

لله ماقد برا صـــــفوة وصـــفوة الخلق بنو هاشم
وصفوة الصفوة من بينهم محمد النور أبو القاسم

بهذا النبي الأمى ، أفاخر من تفخر ، وأكابر من تقدم وتأخر ، الشريف السلفين ، والكريم الطرفين ، الملتى بالرسالة ، والمنتقى للأداء والدلالة ، أصلى عليه عدد الرمل ، ومدد النمل ، وكذلك أصلى على واصلى جناحه ، سيوفه ورماحه ، أصحابه الكرام ، عليهم من الله أفضل السلام » .

وقد أثارت رسالة ابن غرسية مرارة فى الأوساط الأدبية المعاصرة، ورد عليه من العلماء القريبين من عصره فى رسائل شديدة ، انتهى إلينا بعضها . ومن هؤلاء أبو جعفر أحمد بن الدودين البلنسى ، وقد عاش فى النصف الثانى من القرن الخامس ، وكان معاصراً لابن بسام ، وأورد لنا ابن بسام رده على ابن غرسية فى الذخيرة . ومنهم أبو الطيب عبد المنعم بن عبد الله القروى المتوفى سنة ٤٩٣ هـ ، وقد ورد رده فى الذخيرة أيضاً ، وفى مخطوط الإسكوريال ، فى رسالة عنوانها : «حديقة البلاغة ، ودوحة البراعة، بذكر المآثر العربية ونشر المفاخر الإسلامية» . ومنهم الوزير الكاتب أبو عبد الله بن أبى الخصال المتوفى سنة ٥٤٠ هـ ، وقد رد على ابن غرسية فى رسالة يوردها لنا صاحب الذخيرة ، وعنوانها : « خطف البارق ، وقذف المارق فى الرد على ابن غرسية الفاسق ». ومنهم الفقيه أبو يحيى ابن مسعدة من فقهاء الموحدين ، وقد عاش فيما يبدو فى النصف الثانى من القرن السادس ، فى رسالة طويلة وردت فى مخطوط الإسكوريال ، ومنهم أخيراً أبو مروان عبد الملك بن محمد الأوسى فى رسالة « الاستدلال بالحق فى تفصيل العرب على جميع الخلق »(١)

(١) توجد رسالة ابن غرسية ضمن مجموعة مخطوطة بمكتبة الإسكوريال لا عنوان لها ، وتحمل رقم ٥٣٨ الغزيرى ، وتحتوى على عدة رسائل تاريخية منوعة ، وتشغل بها اللوحات ٢٦—٢٩ وتليها رسالة ابى يحيى بن مسعدة فى الرد عليها وتشغل اللوحات من ٢٩ — ٤١ ، ثم يليها رسالة ثانية فى الرد على ابن غرسيه ، ثم رد ابى جعفر أحمد بن الدودين البلنسى ويشمل اللوحات ٥٣ — ٥٤ . وأورد لنا ابن بسام فى الذخيرة (القسم الثالث المخطوط المحفوظ بأكاديمية التاريخ بمدريد) رسالة ابن غرسيه ثم رد ابى جعفر أحمد بن الدودين ، ورد ابن عبد الله القروى . وقد نشر العلامة المستشرق جولد سيهر رسالة ابن غرسيه ما عدا الفقرة الأخيرة منها ضمن بحث له بالألمانية عنوانه : «الشعوبية عند مسلمى اسبانيا » = Die Su'ubijja unter den Mohammedanern in Spanien

وقد استمر صدى السخط على رسالة ابن غرسية عصوراً حتى أننا نجد كاتبا أندلسياً عاش بعد ذلك بقرنين هو أبو الحجاج يوسف بن محمد البلوى ، يتناول هذه القضية ، فى كتابه « ألف با » ، ويعقد فصلا خاصا عن « فضل العرب » يردد فيه ما قيل فى ذلك ، وما ينسب للعرب من الفروسية، والشجاعة ، وحب الحرية ، والإباء والجود ، وفصاحة اللسان والشاعرية ، وغير ذلك من الخلال المأثورة ثم يعطف على رسالة أبى عامر بن غرسية « البشكنسى الأصل » ، ويقول إنه قد « فسق فى رسالته وبدع ، وسب بسببها وجدع » ، ويعدد لنا من تصدوا للرد عليه ، ممن سبق ذكرهم وذكر رسائلهم، ثم يبدى دهشته من تسامح أهل العصر، وتركهم لابن غرسية وأمثاله دون عقاب ويقول : « والعجب من أهل ذلك الزمن ، كيف استقروا على هذه الفتن ، وأقروا هذا المحترى على هذا الاجتراء ، وما جاء به من الافتراء ، أم كيف أبلغوه ريقه ، وأوسعوا له طريقه ولم يهلكوه وفريقه »(١)

وقد عنى البحث الحديث بدراسة رسالة ابن غرسية والتعليق عليها ،وتناولها العلامة جولدسيهر فى بحثه « الشعوبية عند مسلمى اسبانيا » الذى سبقت الإشارة إليه . ويلاحظ جولدسيهر ، أنه يوجد بين عظماء الأمة الأندلسية كثيرون ممن يرجعون إلى أصول غير عربية وبخاصة المولدين ، ومن هؤلاء أئمة من المفكرين مثل بقى بن مخلد ، والعلامة ابن حزم ، وإمام اللغة ، أبومروان عبدالملك ابن السراج ، وغيرهم ، وكذلك كان الشأن فى عنصر الصقالبة ، الذى ازدهر، فى ظل أمراء بنى أمية ، وشغل منه الكثيرون أرفع المناصب من قيادة ووزارة وغيرهما . بيد أن عنصر المولدين، كان أهم العناصر غير العربية فى الأمة الأندلسية وكانت النزعة الشعوبية أكثر تمكنا لديهم من أى عنصر آخر . وتعتبر رسالة ابن غرسية من أبرز نماذج الشعوبية الأندلسية ، فقد كان مؤلفها مولدا يرجع إلى أصل نصرانى ، وهو يردد فى رسالته ما تضمنه أدب الشعوبية فى الشرق الإسلامى من الأسباب والمبادىء . بيد أن رسالةابن غرسية تمتاز بأنها فى تفضيل

— نشر بمجلة جمعية المستشرقين الألمانية (Z. der D. Morg. Gesell.) سنة ١٨٩٩ ص٦٠١–٦٢٠ ونشرها الأستاذ مختار العبادى ضمن بحث له عن «الصقالة فى اسبانيا» (مدريد ١٩٥٣) ونشرها أخيراً ، ونشر معها الردود التى سبقت الإشارة إليها الأستاذ عبد السلام هارون فى مجموعة نوادر المخطوطات، (المجموعة الثالثة) (القاهرة ١٣٧٣ هـ) . وقد نشرناها نحن فى نهاية الكتاب .

(١) أبو الحجاج البلوى فى كتابه «ألف با» ص ٣٤٧ – ٣٥٣ .

العجم على العرب ، تعنى قبل كل شىء بالإشادة بفضائل الروم أو بنى الأصفر أى النصارى ، فى حين أن معظم رسائل الشعوبية المشرقية تعنى بالمفاضلة بين العرب والعجم ( أى الفرس ) .

أما ما كتبه ابن غرسية فى نهاية رسالته من تمجيد النبى العربى ، والإشادة بمآثره ، ورسالته الروحية ، فيصفه جولدسيهر بأنه حجاب للتمويه ، وفى رأى ابن غرسية أن العروبة ليست مفخرة النبى ، « فى الرغام يلقى تبره ، والمسك بعض دم الغزال »[1] .

واستمر على إقبال الدولة فى حكم مملكته زهاء ثلاثين عاماً ، ثم ساءت العلائق بينه وبين صهره ، حميه أحمد بن سليمان بن هود المقتدر صاحب سرقسطة . وكان المقتدر أميراً صارماً وافر الأطماع ، فحارب أخوته واستولى على بعض أعمالهم ، وانتزع طرطوشة من صاحبها الفتى العامرى مقاتل ، وحاول أن ينتزع لاردة من أخيه المظفر . ثم اتجهت أبصاره إلى مملكة دانية ، وأخذ يكيد لعلى ويشتد فى مضايقته . وكانت أهم الأسباب التى انتحلها لخصومته ، هو أنه أى على قد استقبل بدانية بعض الأسر القوية ، التى فرت من لاردة بلد المظفر أخى المقتدر وخصيمه ، ولجأت إلى حمايته . وذكر لنا ابن بسام سبباً آخر لذلك ، وهو أن المقتدر طالب علياً ببعض القلاع الشمالية الواقعة فى مملكته ، والتى كان يريد أن يلحقها بثغر طرطوشة ، وأن علياً ، خشية من صولته ، سلم إليه تلك القلاع ، بيد أنه ضبط فيما بعد كتباً أرسلها على إلى أصحاب تلك القلاع يحثهم فيها على التحصن والمقاومة[2] . وأخيراً سار المقتدر فى قواته إلى دانية ، وحاصرها ، وشعر على أنه عاجز عن مقاومته ، فعرض عليه أن يسلمه المدينة والقصر بما فيه ، على أن يؤمنه فى نفسه وأهله ، فوافق المقتدر ، ودخل دانية واستولى عليها ، وذلك فى شعبان سنة ٤٦٨ هـ ( إبريل ١٠٧٦ م ) . وانتهت بذلك الدولة المجاهدية. وجلس المقتدر بالقصر ، وبايعه الناس خاصتهم وعامتهم ، وأقام بدانية وقتاً ينظم فيه شئونها ، ثم غادرها . وأخذ المقتدر معه صهره علياً وأهله ، إلى سرقسطة ، وأنزله فى كنفه ، فعاش هنالك محجوراً عليه حتى توفى ، وذلك فى

(١) I. Goldziher: Die Su'ubijja unter den Mohammedanern in Spanien (Z. der. Morg. Gesell.) B. 53 (1899) s. 607-615.

(٢) الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ٢٠٧ .

سنة ٤٧٤ هـ ( ١٠٨١ م ) . وفى رواية أخرى ، أنه استطاع الفرار من اعتقال المقتدر ، ولحق بالعدوة ، والتجأ إلى بنى حماد أصحاب بجاية وهنالك توفى[١] .

وحاول ابنه سراج الدولة ، وكان وقت سقوط دانية ، حاكماً لحصن شقورة ، أن يسعى إلى استرداد ملك أبيه ، فسار إلى برشلونة ، واستغاث بصاحبها الكونت برنجير ، فاستجاب إليه بشروط وأمده ببعض قواته ، واستطاع بالفعل أن يسترد بعض الحصون ، ولكن المقتدر كان له بالمرصاد . ويقال إن المقتدر استطاع أن يدس عليه من اغتاله بالسم ، فتوفى فى سنة ٤٦٩ هـ ، لنحو عام من خلع أبيه[٢] .

وكان على بن مجاهد أميرا فاضلا ، رفيع الخلال والمواهب ، وكان مثل أبيه من حماة العلوم والآداب ، وكان لطول إقامته بسردانية يتحدث ويكتب بالفرنسية والقشتالية ، وينظم الشعر بهما[٣] . وكان ميالا إلى السلم والدعة، بعيداً عن أحداث السياسة وتقلباتها ،مؤثراً لجمع المال، والاشتغال بالمشاريع التجارية[٤] وفى عهده ساد السلام والرخاء فى مملكة دانية ، وازدهرت أحوالها وتجارتها .وقد أشاد بذكره عبد الواحد المراكشى فى تلك العبارة المؤثره :« ثم ملكها ( أى دانية ) بعده ابنه على بن مجاهد وتلقب بالموفق ، لا أعلم فى المتغلبين على جهات الأندلس أصون منه نفساً ، ولا أطهر عرضاً ، ولا أنقى ساحة ، كان لايشرب الخمر ، ولايقرب من يشربها، وكان مؤثراً للعلوم الشرعية ، مكرماً لأهلها »[٥]

— ٤ —

ويجدر بنا قبل أن نختتم الكلام على مملكة دانية ، أن نتبع مصاير ولاية ميورقة أو الجزائر الشرقية ، التى كانت تؤلف أهم وحدة فيها .

وقد رأينا أنه كان على حكمها وقت أن سقطت دانية فى يد المقتدر بن هود فى سنة ٤٦٨ هـ ، عبد الله المرتضى الذى ندب لحكمها منذ سنة ٤٤٢ هـ . وعندئذ أعلن المرتضى استقلاله ، واستبد بحكم الجزائر ، وبعث إلى دانية ليستقدم

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٥ .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٥ .

(٣) A. P. Ibars : Valencia Arabe, p. 170, Note 3

(٤) الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ٢٠٦ .

(٥) المعجب ص ٤١ . وذكره أن علياً تلقب بالموفق من باب السهو، إذ هو لقب والده مجاهد.

أسرة سيده المخلوع على ، فأرسلت إليه ، وعاشت فى كنفه معززه مكرمة(١) . واستمر المرتضى بعد ذلك فى حكم الجزائر أعواماً طويلة أخرى ، حتى توفى سنة ٤٨٦ هـ ( ١٠٩٣ م ) .

فخلفه فى الإمارة مساعده مبشر بن سليمان . ويقول لنا ابن خلدون إن مبشراً هذا ، قد ولى على الجزائر فى أوائل عهد على إقبال الدولة فى سنة ٤٤٢ هـ ، وإنه كان من شرقى الأندلس ، وأسره النصارى صغيراً وجبوه ، وإن مجاهداً وقع عليه بين أسرى سردانية ، فأعجب بمواهبه ، وقربه واصطفاه ، وترقى فى خدمته(٢) . وفى هذه الرواية غموض وتحريف . والحقيقة فى أمر مبشر أنه كان من أهل قلعة حمير من أعمال لاردة ، وأسره النصارى فى صباه وجبوه ، وعاش فى برشلونة ، حتى تعرف عليه ذات يوم سفير المرتضى حاكم الجزائر ، وكان قد وفد مبعوثاً إلى الأمير برنجير فى بعض الشئون ، فأعجب بمواهب مبشر ، وافتداه من الأسر ، وأخذه إلى ميورقة وقدمه إلى المرتضى ، فسر بخلاله ومواهبه ، وأولاه ثقته ، واستعان به فى تصريف شئون الحكم ، واستمر على ذلك حتى توفى المرتضى ، فخلفه فى الإمارة حسبما تقدم .

وضبط مبشر شئون ميورقة ( الجزائر ) بحزم وكفايه ، واتخذ لقب ناصر الدولة . وفى تلك الأثناء كان المرابطون ، بعد أن أحرزوا نصرهم فى الزلاّقة ، قد استولوا على ممالك الطوائف الجنوبية والغربية ، ثم زحفت جيوشهم نحو شرقى الأندلس ، واستولت على مرسية ثم بلنسية وذلك فى سنة ٤٩٥ هـ ( ١١٠٢ م ) ، كل ذلك ومبشر ماض فى حكمه للجزائر ، يرقب سير الحوادث حذراً متأهباً .

والظاهر أن الجزائر تمتعت فى عهده بفترة من الأمن والرخاء ، واشتهر أمر مبشر ، وقصده الأدباء والشعراء ، ووفد إليه بميورقة أبو بكر بن اللبانة المعروف بالدانى شاعر المعتمد بن عباد ووزيره من قبل ، وامتدحه بقصيدة هذا مطلعها :

ملك يروعك فى حلى ريعانه     راقت برونقه صفات زمانه

وكانت حملات البحارة المجاهدين فى عهده ، وهم الذين تنعتهم التواريخ

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٥ ، وهو ينسب هذا التصرف إلى مبشر خلف المرتضى .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٥ .

الفرنجية بالقراصنة ، تخرج من ثغور الجزائر المختلفة ، وتغير من آن لآخر على شواطىء قطلونية ، وبروڤانس وليجوريا ، وكانت سفن النورمان والبيزيين والقطلان من جانبها تغير على شواطىء الجزائر وتعيث فيها . وكان من الحوادث الشهيرة فى هذا العهد أن طائفة من السفن النرويجية جاءت بقيادة الملك سيجورد ملك النرويج ، وعاثت فى شواطىء اسبانيا الغربية ، ثم عبرت مضيق جبل طارق ، وسارت إلى الجزائر الشرقية ، وهاجمت جزيرة فورمنتيرا الصغيرة المنيعة الواقعة جنوبى جزيرة يابسة ، وكانت قد أودعت بها أموال وذخائر كثيرة للمسلمين ، تقوم على حراستها حامية صغيرة ، فاقتحم سيجورد الجزيرة ، وأضرم فيها النار ، واستولى على ما فيها من الأموال ، ومات سائر المسلمين المدافعين عنها(١)

وكانت جمهورية بيزة الإيطالية أشد البلاد اهتماماً بالاستيلاء على الجزائر الشرقية ، ووضع حد لغاراتها المتكررة على الشواطىء الإيطالية ، وكان البابا يشجع هذا المشروع ويباركه . وعقدت بيزة من أجل ذلك حلفاً مع أمير برشلونة رامون برنجير الثالث . وفى صيف سنة ١١١٤ م ( أوائل ٥٠٨ هـ ) خرج من مياه بيزة أسطول الغزو وقوامه نحو ثلاثمائة سفينة ، ومعه وحدات بحرية أخرى من برشلونة ومن فرنسا ، وعرج الأسطول أولا على مياه الجزائر ، ونزلت بعض وحداته فى إحدى الجزر الصغيرة . ولما علم بذلك مبشر ، بعث رسله يعرض الصلح على الغزاة ، ويعرض تسليم الأسرى ، وأن يؤدى تعويضاً عن نفقات الحملة ، فرفض الغزاة ، وسارت سفنهم فرست فى مياه قطلوانية حتى اقترب الربيع ، ثم سارت بعد ذلك صوب جزيرة يابسة ، وكانت سفن الغزاة ، قد غدت يومئذ نحو خمسمائة سفينة ، ومع ذلك فقد عقد مبشر عزمه على المقاومة ، فحصن ميورقة ، وبذل جهده فى إعداد وسائل الدفاع . واستولى الغزاة على يابسة بسهولة ، ثم اتجهوا نحو ميورقة كبرى الجزائر ، ونزلوا فيها ، وضربوا الحصار حول مدينة ميورقة عاصمتها .

واستعد مبشر لحصار طويل الأمد ، وبعث فى الحال صريخه إلى أمير المسلمين

---

(١) راجع : Dozy : Recherches; V. II p. 323-326 . وكذلك A. Campaner y Fuentes : Bosquejo Historico de la Dominación Islamica en las Islas Baleares (Palma 1888) p. 44-96

على بن تاشفين ، يطلب إليه الغوث قبل أن تسقط الجزائر فى أيدى النصارى . وكان المرابطون قد استولوا عندئذ على شرقى الأندلس كله ، وأحرزوا انتصارهم الحاسم على القشتاليين فى موقعة إقليش ( ٥٠١ هـ — ١١٠٨ م ) ثم استولوا فى العام التالى على سرقسطة ( ٥٠٢ هـ ) ، وقضوا على ملك بنى هود ، وأضحوا يهددون منها مملكة برشلونة النصرانية . وقدر أمير المسلمين أهمية ميورقة ، وأمر بتجهيز الأساطيل لإنجادها ، ورأى المرابطون أن يضغطوا فى نفس الوقت على مملكة برشلونة التى كان أميرها برنجير الثالث يشترك بأسطوله فى حصار ميورقة ، فسارت قواتهم شمالا ، واخترقت أراضى قطلونية وعاثت فيها . ولكن الكونت برنجير ، اضطر إزاء ضغط حلفائه ، أن يبقى معهم حتى النهاية فى مياه ميورقة .

واشتد الحصار على ميورقة ، وطوقها النصارى بنطاق محكم من الآلات الضخمة وقطعوا عنها كل معونة ونجدة ، وقاسى المسلمون أهوالا من الجوع والحرمان ، ولكنهم صمموا أن يموتوا دفاعاً عن أرضهم ، وتوفى خلال ذلك الأمير مبشر ابن سليمان ، فخلفه فى الحكم أبو الربيع سليمان ، وصمم أن يمضى فى المقاومة ، وحاول أن يغادر الجزيرة مع بعض صحبه فى مركب صغيرة ، ليسعى إلى طلب النجدة ، فأسره النصارى . واستطاع النصارى أن يقتحموا السور الأول فى فبراير سنة ١١١٦ م ( أواخر سنة ٥٠٨ هـ ) ثم اقتحموا بقية الأسوار تباعاً . وفى أواخر مارس دخل النصارى مدينة ميورقة ، واحتلوا قصر المُدَينة قصر الحكم ، وعاثوا فيها تخريباً ونهباً وسبياً ، ثم أضرموا فيها النار ، ولم يكن بها عندئذ سوى الشيوخ والنساء والأطفال ، بعد أن هلك معظم المدافعين عنها فى الحصار ، فقتل النصارى منهم جملة كبيرة ، وكان الكونت برنجير صاحب برشلونة ، قد اضطر قبيل سقوط المدينة ، أن يعود إلى مملكته حين علم باشتداد ضغط المرابطين عليها ، وحصارهم لبرشلونة عاصمتها .

وفى أثناء ذلك كان أمير المسلمين على بن تاشفين ، قد تلقى صريخ مبشر على يد بحار جرىء هو عبد الله بن ميمون ، وكان قد استطاع أن يخترق الحصار بسفينته تحت جنح الظلام ، وأن يعبر البحر إلى المغرب . وبادر أمير المسلمين فجهز أسطولا ضخماً من خمسمائة سفينة ، وأقلعت السفن المرابطية بسرعة صوب الجزائر بقيادة أمير البحر ابن تفرتاش . وعلم البيزيون وحلفاؤهم بذلك ، فأدركوا

أنه لامحل لأن يخوضوا مع هذه القوات البحرية الضخمة ، معركة غير مأمونة العواقب ، فأقلعوا مثقلين بالسبي والغنائم ، بعد أن استصفوا ثروات الجزيرة ، وغادروها قاعاً صفصفاً . ودخل المرابطون على أثرهم ميورقة، وذلك فى أواخر سنة ١١١٦ م ( ٥٠٩ هـ ) ، وفى الحال شرعوا فى تعميرها ، وعاد إليها الفارون من سكانها، وكانت قد لجأت منهم إلى الجبال جموع غفيرة ، وعين أمير المسلمين حاكماً على الجزائر يدعى وانور بن أبى بكر اللمتونى ، ومن ذلك التاريخ تدخل الجزائر الشرقية أوميورقة فى حظيرة الإمبراطورية المرابطية الكبرى ،وهى التى كانت قد اشتملت يومئذ على سائر ممالك الطوائف الأندلسية(١) .

---

(١) تراجع أخبار غزو النصارى لميورقة واستردادها على يد المرابطين ، فى ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٥ ، وروض القرطاس ص ١٠٥ ، والروض المعطار (صفة جزيرة الأندلس) ص ١٨٨ وكذلك P. y Vives : Los Reyes و A. Campaner y Fuentes : ibid ; p. 105—135 ، de Taifas, p. 41

# الكتاب الرابع

# دول الطوائف

# فى منطقة بلنسية

# الفصل الأول

## مملكة بلنسية

### ١ – عهد الصقالبة وبنى عامر وبنى ذى النون

الصقالبة وشرق الأندلس . العبدان مظفر ومبارك . تغلبهما على بلنسية . اشتراكهما وامتزاجهما . تغلب مبارك على شاطبة . أحوال بلنسية فى عهدهما . وفود الصقالبة والموالى إليها . الحرب بين مبارك والمنذر التجيبى . وفاة مظفر . مصرع مبارك . بلاطهما ووزراؤهما . مديح الشعر لهما . لبيب العامرى ومجاهد يخلفان مبارك . اختلافهما وفرار لبيب إلى طرطوشة . مبايعة الفتيان العامريين لعبد العزيز المنصور بالزعامة . توليه إمارة بلنسية . خيران العامرى يقدم للزعامة محمد بن عبد الملك المنصور . توليه إمارة مرسية وأوريولة . تنكر خيران له ومغادرته لمرسية . عبد العزيز المنصور ووزراؤه . وفاة خيران وخلافة زهير له فى المرية . مصرع زهير . مبايعة أهل المرية لعبد العزيز . اتساع مملكة بلنسية وموقف مجاهد العامرى . عبد العزيز يعهد بشئون المرية إلى ابن صمادح . غدره واستيلاؤه على المرية . الحرب بين عبدالعزيز والفتيان العامريين . عبد العزيز وعلائقه بالملوك النصارى. وفاة عبدالعزيز وقيام ولده عبد الملك . وزيره ابن رويش . موقف المأمون بن ذى النون . مشروعه للاستيلاء على بلنسية . استيلاؤه عليها واعتقاله لصهره عبد الملك . تختلف الروايات فى ذلك . مهاجمة القشتاليين لبلنسية . موقعة بطرنة . مقدم المأمون بحجة إنجاد صهره . دخوله بلنسية واستيلاؤه عليها . وفاة ابن رويش وقيام ولده أبى بكر بن عبد العزيز . استبداده بحكم بلنسية . استيلاء المؤتمن بن هود على دانية . توجس ابن عبد العزيز والتجاؤه لألفونسو السادس . محاولة المؤتمن الاستيلاء على بلنسية وفشله . التفاهم بين أبى بكر والمؤتمن . وفاة أبى بكر وقيام ولده عثمان مكانه . تطور الحوادث . سقوط طليطلة فى يد ألفونسو السادس . وعده لصاحبها القادر باسترداد بلنسية . مسير القادر إلى بلنسية مع الجند النصارى . موقف أهل بلنسية . إعلان الجماعة خلع عثمان ومبايعة القادر . دخول القادر بلنسية واستيلاؤه عليها . استبداده واضطراب الأحوال فى عهده . مقدم المرابطين إلى الأندلس . رحيل القشتاليين عن بلنسية . أطماع المنذر بن هود فى بلنسية . مسيره إليها ومحاصرتها بمعونة الجند القطلان . موقف القادر واستغاثته بألفونسو السادس والمستعين بن هود . المستعين بن هود ومشروعه فى الاستيلاء على بلنسية .

كانت دول الطوائف التى قامت فى شرقى الأندلس ، تمتاز بغلبة العنصر الصقلبى ، وتفوته فى سيادتها ، وفى تكييف أحداثها ، وكانت هذه العناصر الصقلبية التى ألفت فى شرقى الأندلس ، ميدانا لنشاطها وأطماعها ، هى نفس العناصر التى ظهرت بادىء ذى بدء فى ميدان الفتنة القرطبية ، وساهمت فى أحداثها

بقسط بارز ، ثم غادرت قرطبة ، حينما غلبت هنالك على أمرها ، وألفت ملاذها فى ذلك الركن النائى من الأندلس ، بعيداً عن موجة الطغيان البربرية التى اجتاحت قرطبة ، وجنوبى الأندلس .

وكانت بلنسية ، وهى أعظم القواعد الشرقية ، مركز التجاذب فى معركة السلطان التى اضطرم لظاها فى تلك المنطقة ، وكانت هذه المعركة فى البداية متواضعة محدودة المدى ، ثم لم تلبث أن انسابت إلى شرقى الأندلس كله ، من طركونة شمالا حتى مرسية ولورقة جنوباً ، بيد أنها فيما عدا بعض اتصالات محدودة بأحداث المنطقة الغربية، حافظت على سيرها المستقل ، وطابعها الخاص .

وذلك أنه لما اضطرمت الفتنة ، وانهارت الدولة العامرية فى أوائل سنة ٣٩٩ (١٠٠٩ م) ، واستطاع محمد بن عبد الجبار المهدى أن ينتزع الخلافة لنفسه من هشام المؤيد ، كان على بلنسية — وفقاً لبعض الروايات — فتى من الفتيان العامريين هو مجاهد العامرى ، فثار به عبدان من العبيد العامريين أيضاً هما مبارك ومظفر ، واستطاعا أن ينتزعا منه السلطة ، فغادر مجاهد بلنسية إلى دانية ، وتربع العبدان — ويسميهما ابن الخطيب بالأميرين — مكانه فى حكم المدينة . ويقدم إلينا ابن حيان رواية أخرى عن تغلب مبارك ومظفر على بلنسية، خلاصتها أنهما كانا يتوليان وكالة الساقية بالمدينة ، أيام ولاية عبد الرحمن ابن يسار عليها ، ثم ضرب الدهر ضرباته ، وشاء القدر أن ينتزع الإمارة مبارك . ويصف ابن حيان الحادث بأنه « من غرائب الليالى والأيام ، اللاعبة بالأنام » . ثم يقول لنا إن العبدين مبارك ومظفر توليا هما حكم بلنسية، وامتزجا فى ذلك امتزاج الإخوة وعشاق الأحبة ، ونزلا فى قصر الإمارة مختلطين « تجمعهما فى أكثر الأوقات مائدة واحدة ، ولا يتميز أحدهما عن الآخر فى عظيم ما يستعملانه من كسوة وحلية وفرش ومركوب وآلة ؛ لاينفردان إلا فى الحرم خاصة ؛ على أن جماعة حرمهما كن مختلطات فى منازل القصر ، ومستويات فى سائر الأمر » . وكان لمبارك مع ذلك التقدم فى المخاطبة ورسوم الإمارة لصرامته وشدته ، ولدماثة مظفر وانصياعه لزميله فى سائر الأمور .

وذكر فى بعض الروايات أن مظفراً ومباركاً كانا يقتسمان فيما بينهما حكم الولاية ، فكان مظفر يختص بحكم بلنسية ، ومبارك بحكم شاطبة(١) . وذكر لنا

(١) A. P. Ibars : Valencia Arabe, V. I. p. 152

ابن الخطيب من جهة أخرى ،أن شاطبة كان يتولى حكمها منذ انقراض الدولة العامرية ، الفتى خيرة الصقلبي ، وتوطد بها أمره ، وكان مبارك يتوق إلى إزالته عنها ، ففي ذات يوم زار خيرة بلنسية، واستضافه مبارك ودس له السم فى الطعام فهلك بعد أيام قلائل ، وتولى نائبه عبد العزيز بن أفلح حكم شاطبة مكانه تحت رعاية مبارك ، وتركه مبارك على حاله إلى أن استولى عليها مجاهد العامرى(١). وعلى أى حال ، فإنه يبدو ، أن مظفراً ومباركاً كانا وفقاً لرواية ابن حيان المتقدمة ، يحكمان معاً مدينة بلنسية بصفة فعلية .

وبلغت جباية بلنسية فى عهدهما مائة وعشرين ألف دينار فى الشهر ، سبعون منها من بلنسية ذاتها ، وخمسون من شاطبة التابعة لعمالتها ، وكانا يشتدان فى تحصيل هذه الأموال ، حتى أرهقت الرعية وأثقل كاهلها .

على أن هذين العبدين لم يقصرا فى تحصين بلنسية وصيانتها ، فابتنيا سورها وزود بأبواب حصينة ، فارتفع طمع الطامعين عنها ، ووفد إليها الناس بأموالهم ، واستقروا بها ، وابتنوا المنازل والقصور الفخمة ، والرياض الزاهرة ، وكان مبارك ومظفر قدوة فى ذلك فأنشآ القصور الفخمة ، واقتنيا نفيس المتاع والرياش والآلات . وكان موكبهما إلى المسجد الجامع ببلنسية ، يذكر الناس بفخامته وأناقته ، وفاخر ما يرتديانه من اللباس ، بمواكب مولاهما عبد الملك المظفر ابن المنصور نفسه .

ووفدعلى بلنسية فى ظل مبارك ومظفر ، كثيرمن الموالى والصقالبة من الإفرنج والبشكنس وغيرهم ، من طائفهم وعشيرتهم ، وكثير من العبيد الآبقين من مختلف نواحى الأندلس ، وكان من هؤلاء الصقالبة ، الوافدين المشردين ، كثير من الفرسان الشجعان ، وانتسب معظمهم إلى ولاء بنى عامر ،واكتسبوا بذلك نفوذاً ، ووفد على المدينة أيضاً كثير من أرباب المهن والحرف ، وكان لذلك كله أثره فى تقدم العمران والرخاء بالمدينة(٢) .

وكان من أهم أعمال مبارك العسكرية محاربته لمنذر بن يحيى التجيبى صاحب

---

(١) أعمال الأعلام ص ٢٢٦ .

(٢) الذخيرة القسم الثالث — المخطوط — اللوحة ٣ أ و ب و ٤ أ . وراجع أيضاً البيان المغرب ج ٣ ص ١٥٨ — ١٦١ .

سرقسطة . وذلك أن الفتى لبيباً العامرى كان يحكم طرطوشة من أعمال الثغر الأعلى، فثابت لمنذر رغبة فى الاستيلاء عليها ، وهاجمها ، ففر عنها لبيب وسار إلى بلنسية واستغاث بمبارك ، فخرج معه فى خمسمائة من خيرة فرسانه ، ولقيهم منذر فغلبوا عليه وهزموه هزيمة شنيعة ، وعاد مبارك إلى بلنسية ظافراً ، واستفحل أمره ، ودانت له جماعة الموالى[١] .

واستمر مبارك ومظفر فى حكم بلنسية بضعة أعوام ، ثم توفى مظفر ، واستمر مبارك من بعده ، فترة يسيرة . وفى ذات يوم خرج للنزهة فحدث حين عبوره فوق قنطرة النهر ، أن عثرت به فرسه ، فسقط منها ، واصطدم ببعض أخشاب خرجت من القنطرة فشج وجهه وبطنه ومات لساعته ، وكان مصرعه فى شهر ذى الحجة سنة ٤٠٨ هـ ( ١٠١٧ ) م[٢] .

ومن الغريب أن مباركاً ومظفراً بالرغم من جهلهما ، وبعدهما عن ميدان التفكير والأدب ، كانا يستخدمان فى بلاطهما طائفة من كتاب العصر النابهين مثل ابن التاكرنى ، وابن مهلب ، وابن طالوت . وكانا يرتبان هؤلاء الكتاب فى دولتهم على نسق مشيخة الوزراء فى قرطبة ، ويرجعان إلى رأيهم ومشورتهم فى معظم الأمور ، وكانا يعملان فى حكم بلنسية مستقلين تمام الاستقلال ، لا يعترفان فى ذلك برياسة قرطبة أو غيرها .

ومما هو جدير بالذكر أيضاً أن مباركاً ومظفراً كان لهما نصيب من مديح الشعر المعاصر ، وقد مدحهما شاعر العصر ، أبو عمر بن دراج القسطلى بقصيدة رائعة هذا مطلعها :

أنورك أم أوقدت بالليل نارك ... لباغ قراك أم لبـاغ جوارك
ورياك أم عرف المجامر أشعلت ... بعـود الكباء والألوة نارك
ومبسمك الوضاح أم ضوء بارق ... حداه دعائى أن يجـود ديارك
وطرة صبح أم جبينك سافراً ... أعرت الصباح نوره أم أعارك[٣]

(١) أعمال الأعلام ص ٢٢٦ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٣٠٢ . ويقول لنا ابن الخطيب إن مظفراً توفى بعد مبارك وإنه على أثر مصرع مبارك ، ثار العامة ونهبوا القصر وقتلوا مظفراً (أعمال الأعلام ص ٢٢٥) .

(٣) نقل ابن الخطيب فى أعمال الأعلام أقوال ابن حيان التى نقلها صاحب البيان المغرب ، ورجعنا إليها ، وقد نشر جزءاً كبيراً من قصيدة ابن دراج القسطلى (راجع ص ٢٢٢ — ٢٢٥) . وردت القصيدة كلها بديوان ابن دراج المنشور بعناية الدكتور محمود على مكى (دمشق ١٩٦١) ص ١٠١ — ١٠٨ ، وهى من غرر قصائده .

ولما توفى مبارك ، خلفه فى حكم بلنسية الفتى لبيب العامرى صاحب طرطوشة ثم شاركه فى حكمها مجاهد العامرى ، وكانت الخطبة تصدر باسميهما معاً، ثم وقع الخلاف بينهما ، ففر لبيب إلى طرطوشة واستأنف رياسته بها ، وانفرد مجاهد بحكم بلنسية مع حكمه لدانية فى نفس الوقت . بيد أنه لم يمض سوى قليل ، حتى خرج عليه الفتيان العامريون ، وعقدوا البيعة لسيدهم وحفيد مولاهم ، عبد العزيز ابن عبد الرحمن المنصور ، وذلك فى سنة ٤١١هـ (١٠٢١ م) .

وقد سبق أن أشرنا إلى تعلق الفتيان الصقالبة بتراث الدولة العامرية ، وولائهم لإمامة هشام المؤيد بالله ، وإلى الدور الذى قام به زعماؤهم مثل واضح وخيران ، فى تطورات الخلافة القرطبية ، وقد كانت بيعتهم لعبد العزيز المنصور أثراً من آثار هذا الولاء الراسخ لبنى عامر . وكان عبد العزيز وقت مبايعته ، فتى حدثاً فى نحو الخامسة عشرة من عمره ، إذ كان مولده سنة ٣٩٧ هـ[(١)] ، وكان حينما نزلت النكبة بأسرته قد حمل سراً إلى سرقسطة ، وهنالك عاش فى كنف صاحبها منذر بن يحيى التجيبى ، فلما استدعاه الفتيان العامريون لبيعته لحق بشاطبة ، وهنالك تمت بيعته أميراً لبلنسية ، وزعيما لبنى عامر .

على أن هذه البيعة لم تلبث طويلا دون منازع . ذلك أن خيران العامرى ، وكبير الفتيان العامريين ، وصاحب ألمرية ومرسية وأوريولة ، لم يكن على وفاق مع عبد العزيز . والظاهر أنه خشى على سلطانه فى مرسية ، وأوريولة ، من هذه الزعامة الحديدة ، أو أنه لم يحصل على ماكان يرجوه فى ظلها من نفوذ . ومن ثم فإنه قدم للزعامة فى شرق الأندلس ، مرشحاً جديداً من بنى عامر ، هو محمد ابن عبد الملك المظفر بن المنصور ، وهو ابن عم عبد العزيز ، وكان يومئذ فتى فى نحو العشرين من عمره ، وكان قد فر من قرطبة فى عهد القاسم بن حمود ، ومعه أموال جليلة كانت لأمه ، ولجأ إلى حماية خيران ، فلما وقع الخلاف بين خيران وعبد العزيز ، نادى خيران بزعامة محمد ، ونزل له عن حكم مرسية وأوريولة، ولقبه بالمؤتمن ثم بالمعتصم . بيد أنه لم يمض طويل على ذلك حتى اضطربت الأمور فى تلك المنطقة ، فثارت شاطبة ضد عبد العزيز ، واضطر أن يغادرها إلى بلنسية ، وتنكر خيران فى الوقت نفسه لمرشحه الجديد محمد المعتصم ، وغادره

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٣٠١ .

مغضباً إلى ألمرية ، ثم عاد فى قواته إلى مرسية ، وضيق على المعتصم حتى اضطره إلى الخروج عنها، وذلك فى ربيع الأول سنة ٤١٣هـ ( ١٠٢٢ م )، واستولى الفتيان على سائر أمواله ، ولجأ المعتصم إلى أوريولة فطارده خيران ، وألح عليه ، ففر منها ، ولحق بدانية ، والتجأ حيناً إلى أميرها مجاهد العامرى ، ثم غادرها ، وسار إلى غربى الأندلس ، وهناك عاش بضعة أعوام أخرى حتى توفى فى سنة ٤٢١ هـ (١٠٣٠ م )[1] .

— ١ —

واستقر عبد العزيز المنصور فى حكم بلنسية دون منازع . وكانت له فى بداية حكمه علائق مودة متبادلة مع القاسم بن حمود الخليفة بقرطبة ، كذلك انضوى تحت لوائه مجاهد العامرى حيناً ، ثم اختلفا وناصبه العداء، وأخذ مجاهد يتربص الفرص لمهاجمته والإيقاع به . وعمل عبد العزيز على جمع المشردين من أهل بيته ، فآواهم ، وأولاهم صادق المحبة ، وأغدق عليهم الأرزاق الوفيرة ، حتى غدا فى ذلك أجمل قدوة لأمراء عصره ، واستخدم فى ديوانه أربعة من أشهر كتاب عصره ، كانوا يعرفون بالطبائع الأربع ، وهم ابن طالوت ، وابن عباس ، وابن عبد العزيز ، وابن التاكرنى كاتب رسائله . ولما أعلن القاضى ابن عباد صاحب إشبيلية فى سنة ٤٢٦هـ ( ١٠٣٥ م ) ظهور هشام المؤيد ودعا لخلافته ، كان عبد العزيز المنصور فى مقدمة الأمراء الذين بايعوه ، واعترفوا بخلافته[2] .

وكانت تطورات الحوادث فى مملكة ألمرية ، أهم ميدان لجهود عبد العزيز السياسية والعسكرية . ونحن نعرف أن مملكة ألمرية ، كانت وقت أن ظفر عبد العزيز برياسة بلنسية ، تحت حكم الفتى خيران العامرى ، وهو فى نفس الوقت صاحب مرسية وأوريولة ، فلما توفى خيران فى سنة ٤١٩ هـ ، خلفه فى رياسة مملكة ألمرية ، نائبه وزميله الفتى زهير العامرى ، وقد كان مثل خيران من أكابر الفتيان العامريين ، وأكثرهم إقداماً وعزماً . ونحن نعرف كيف

---

(١) راجع فى هذه الحوادث : ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٢ ، وأعمال الأعلام ص ١٩٣ و ١٩٤ . وكذلك : Gaspar Remiro : Murcia Musulmana, p.97&98

(٢) الذخيرة ، القسم الثالث ، المخطوط لوحة ٤٩ ب ، وأعمال الأعلام ص ١٩٥ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٦٤ و ١٦٥ .

حدثت زهير نفسه بالسير إلى غرناطة لافتتاحها ، وكيف لقى مصرعه فى المعركة التى نشبت بينه وبين باديس بن حبوس صاحب غرناطة ، وذلك فى سنة ٤٢٩هـ (١٠٣٨ م) . وهنا لاحت لعبد العزيز المنصور ، الفرصة السانحة لتوسيع مملكته ، وكتب إليه أهل ألمرية يدعونه لرياستهم ، وبعث وزيره وصهره زوج أخته معن بن صمادح إلى باديس يحثه على إعدام الأسرى من وزراء زهير وقواده وفى مقدمتهم كاتبه أحمد بن عباس، خشية أن يعود أحد منهم إلى مناوأته فى حكم ألمرية . فكان له ما أراد ، وخلصت له ألمرية أولا لمبايعة أهلها له، وثانيا لأنها باعتبارها من أملاك الفتيان العامريين موالى أبيه وجده ، تعتبر له ميراثاً شرعياً . وهكذا استولى عبد العزيز على ألمرية وأعمالها ، ماعدا ولاية جيان التى انتزعها باديس لنفسه عقب مصرع زهير .

وغدت مملكة بلنسية بإضافة ألمرية إليها من أعظم ممالك الطوائف .وهنا شعر مجاهد العامرى صاحب دانية والجزائر الشرقية ، بخطر هذه المملكة القوية الجديدة على سلطانه ، فنهض لمهاجمتها ومحاربتها ، وزحف عليها بقواته ،واجتاح رقعتها الوسطى من شاطبة إلى لورقة ، وثارت حصون شاطبة ولورقة وشوذر على عبد العزيز . وكان عبد العزيز عندئذ فى ألمرية ينظم شئونها مع وزيره معن ابن صمادح ، فبادر بمغادرة ألمرية للدفاع عن أرضه ، وندب وزيره معناً ليسهر على شئون ألمرية ، فكان أن خان ابن صمادح عهد أميره ، وانتزع لنفسه رياسة ألمرية حسبما فصلناه فى أخباره .

وخرج عبد العزيز من ألمرية فى سنة ٤٣٣ هـ (١٠٤١ م) لملاقاة خصومه ، وزحف توا على شاطبة ،فخرج إليه العبيد العامريون،وهزموه فى أول موقعة نشبت بينهما ، ولكنه جمع فلوله وعاد فكرّ عليهم ، وظفر بهم، وقتل منهم جملة كبيرة ، ودخل شاطبة(١) . وكانت مدينة مرسية تابعة حسبما تقدم لمملكة بلنسية، وكان عليها من قبل زهير ،نائبه أبوبكر أحمد بن إسحاق بن طاهر ،وكان حسبما تقدم رجلا وافر العلم والوجاهة والسراوة ، فضبط المدينة وحكمها بحزم وبراعة ، دون أن يتخذ ألقاباً أويبدو فى ثوب الإمارة ، فأقره عبد العزيز على ولايته .

وكان عبد العزيز على علائق طيبة مع ملوك اسبانيا النصرانية ، ولاسيما

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٣٠٢ ، وراجع دوزى : Hist. V. III. p. 30

فرناندو الأول ملك قشتالة ، وقد استعان عبد العزيز فى محاربة خصمه مجاهد العامرى ببعض سريات من المرتزقة النصارى . ولم تصب أراضى بلنسية فى عهده بشىء من الغزوات المخربة ، التى كانت تجتاح ولايات الأندلس الغربية والوسطى . وربما كان ذلك راجعا من بعض النواحى إلى أرومته وقرابته عن طريق جدته ، إلى الملوك النصارى(١)

واستطالت إمارة عبد العزيز المنصور لبلنسية زهاء أربعين عاماً . ثم توفى فى شهر ذى الحجة سنة ٤٥٢ هـ ( يناير ١٠٦١ م ) .

فخلفه ولده عبد الملك بإجماع أهل الدولة ، وبويع فى بلنسية وشاطبة ، واستقر فى بلنسية ، ولقب بنظام الدولة ، وبالمظفر . وكان حدثاً يافعاً ، فتولى تدبير الدولة ، وزير أبيه أبو عبد الله محمد بن مروان بن عبد العزيز القرطبى المشهور بابن رويش ، وكان رجلا وافر العلم والحنكة ، فأحسن تدبير الأمور ، واستقر على يديه النظام والأمن ، بالرغم مما كانت تعانيه بلنسية من نقص فى المواد والرجال ، وفساد فى الأعمال . وكان يولى المأمون بن ذى النون صاحب طايطلة القوى مكانة خاصة ، إذ كان صهر عبد الملك وحماه ، وكان يبدى نحوه عطفاً واهتماماً بمعاونته والدفاع عنه ، وكان عقب وفاة عبد العزيز ، قد سار فى بعض قواته إلى قلعة قونقة القريبة من بلنسية ، ليكون قريباً من صهره ، ثم أوفد إلى بلنسية أحد قواده فى جماعة قوية من الجند ، وكاتبه ابن مثنى ، ليكونوا إلى جانب عبد الملك ، بحجة معاونته وشد أزره ، والمحافظة على السكينة والنظام(٢) .

بيد أن المأمون كان يضمر نحو صهره ونحو بلنسية نيات أخرى ، وكان يُسر له بالأخص أنه يسىء معاملة ابنته ، ويبالغ فى إهانتها وإيلامها . وكان عبد الملك حسبما يخبرنا ابن حيان « منهمكاً فى الشراب ، غارباً عن الخصال المحمودة مع رقة الديانة ونقص المروءة ، وكثرة الاستمهال ، والانحطاط فى مهاوى اللذات »(٣) ثم كان يُسر له أيضاً أنه يأوى فى بلنسية بعض خصومه من السياسيين الفارين من طليطلة ، وأخيراً فقد طلب المأمون إلى صهره أن يعاونه بجنده فى حملته ضد ابن عباد ، فأبى عليه ذلك وفقاً لنصح وزيره ، واعتذر بأنه يخشى عدوان أمير

---

(١) أعمال الأعلام ص ١٩٥ .

(٢) الذخيرة القسم الثالث المخطوط لوحة ٤٩ ب ، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٦٥ و ١٦٦ .

(٣) البيان المغرب ج ٣ ص ٣٠٣ .

دانية ومن يحالفه من الفتيان أصحاب المدن القريبة . كل ذلك حمل المأمون على أن يضع مشروعه للاستيلاء على بلنسية .

وقد سبق أن ذكرنا فى أخبار مملكة طليطلة ، خلاصة الروايتين المتعلقتين باستيلاء المأمون على بلنسية ، وأولاهما أن المأمون سار إلى بلنسية فى بعض قواته بحجة زيارة صهره ، وأنه خلال إقامته بالقصر ، دبر كميناً لصهره ، وقبض عليه ، وأرسله إلى شنتبرية ، وسيطر بذلك على بلنسية . والثانية أنه زحف على بلنسية بمعاونة الجند القشتاليين ، ودهم المدينة وهى فى غفلة ، فاقتحمها ، وأسر صهره عبد الملك وآله ، وهم بقتله لولا أن شفعت فيه زوجه ابنة المأمون ، فبعث به إلى إحدى قلاعه فى قونقة ، أو إقليش ، واعتقله هناك[١] .

ونود أن نعرض الوقائع مفصلة وعلى ضوء الروايات القشتالية التى تقدمها إلينا بصورة أخرى .

ذلك أن فرناندو الأول ملك قشتالة خرج بقواته فى أوائل سنة ١٠٦٥ م ، ( ٤٥٧ هـ ) متجهاً صوب أراضى مملكة سرقسطة لمعاقبة أميرها المقتدر بن هود ، لتخلفه عن دفع الجزية التى كان متعهداً بأدائها ، ولأنه من جهة أخرى قد وقع الاعتداء على النصارى فى سرقسطة وغيرها من بلاد مملكته ، وقتلت منهم جموع غفيرة ، وعاث فرناندو فى أراضى مملكة سرقسطة الجنوبية ، وخربها بشدة وأحرق المزارع والقرى ، واجتاح على هذا النحو سائر الرقاع والوديان الواقعة خارج الحصون والقلاع المسورة ، وأشرف فى غزوته المخربة على ظاهر بلنسية فى الربيع ، وضرب القشتاليون الحصار حول المدينة ، وروع البلنسيون ، وروع ملكهم الضعيف عبد الملك داخل الأسوار ، وتأهبوا للدفاع عن مدينتهم . ولما رأى القشتاليون مناعة الأسوار ، وأهبة أهل المدينة لجأوا إلى الحيلة ، فتركوا الحصار ، وتظاهروا بالارتداد نحو الشمال إلى بلدة تسمى «بطرنة» ، واعتقد أهل بلنسية أن القشتاليين قد ارتدوا عن مدينتهم خائبين ، فخرجوا وعلى رأسهم أميرهم عبد الملك ، لمطاردة الفارين فى ثياب فخمة وكأنهم فى عيد ، وعندئذ فاجأهم القشتاليون وهاجموهم بشدة ، وأمعنوا فيهم قتلا وأسراً ، فارتدوا إلى مدينتهم والقتل يعمل فيهم ، واستطاع عبد الملك أن ينجو بحياته ، وعاد القشتاليون إلى محاصرة المدينة .

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٢٦ و ٢٦٧ و ٣٠٣ .

وفى تلك الأثناء كان المأمون بن ذى النون قد هرع بقواته لإنجاد صهره والدفاع عن المدينة المحصورة ، وذلك بالرغم من أنه كان مقراً بسيادة فرناندو ، ويؤدى له الجزية ، وكان فرناندو قد شعر وهو تحت أسوار المدينة بالمرض يدهمه ، فآثر الارتداد بقواته إلى ليون ، وهناك توفى بعد قليل فى ديسمبر سنة ١٠٦٥ م .

وهنا رأى المأمون بن ذى النون أن يحقق مشروعه القديم فى الاستيلاء على بلنسية . وكان يدفعه إلى ذلك أسباب عديدة سبق أن أشرنا إليها ، فدخلها فاتحاً لا منقذاً ، وعزل صهره عبد الملك ، ثم قبض عليه وعلى ولده ، ونفاهما إلى قلعة إقليش أو قونقة . وفى رواية أنه أشفق عليه ، وعينه والياً لقصبة شلبة الواقعة شمالى غربى بلنسية ، وضمت بلنسية وأعمالها بذلك إلى مملكة طليطلة ، وكان ذلك فى شهر ذى الحجة سنة ٤٥٧ هـ ( نوفمبر سنة ١٠٦٥ م )(١) .

وعهد المأمون بتدبير شئون بلنسية إلى أبى بكر محمد بن عبدالعزيز (ابن رويش) وكان ابن عبد العزيز قد توفى قبل هذه الحوادث بقليل فى أوائل سنة ٤٥٦ هـ . ويقول لنا عنه معاصره المؤرخ ابن حيان « إنه كان على خمول أهله فى الجماعة من أرجح كبار الكتاب الطالعين فى رمس هذه الفتنة المدلهمة ، وذوى السداد من وزراء ملوكنا ، ذا حنكة ومعرفة وارتياض وتجربة وهدى وقوام سيرة ، إلى ثرى وصيانة » . وفى بعض الروايات أن هذا الوزير النابه توفى منتحراً لما توقعه من سوء العواقب . فخلفه فى الوزارة ولده أبو بكر بن عبد العزيز ، ولم يمكث فى منصبه طويلا حتى سقطت بلنسية فى يد المأمون ، ويقال إنه غدر بأميره عبد الملك ، وعاون المأمون فى أخذها ، فكافأه المأمون عن خيانته بأن عينه نائباً عنه فى حكم المدينة . وكان أبو بكر مثل أبيه عالماً حازماً ؛ فضبط بلنسية ، وسار فى حكمها سيرة حسنة ، واتبع الرفق والعدل ، وأجزل العطاء للعمال والجند . وشغل عنه المأمون بمغامراته فى سبيل فتح قرطبة ، وانتزاعها من يد بنى عباد المتغلبين عليها . واستمر فى محاولاته حتى انتهى أخيراً إلى تحقيق مشروعه فى الاستيلاء على عاصمة

---

(١) راجع فى تفصيل هذه الحوادث Modesto Lafuente : Historia general de Espana (Madrid, 1861) V. II. p. 390
و A. P. Ibars : Valencia Arabe, V. I. p. 178—180
و R. M. Pidal : La Espana del Cid V. I. p. 151
وكذلك : P. y Vives : Los Reyes de Taifas, p. 41

الخلافة القديمة ، ودخلها ظافراً وذلك فى سنة ٤٦٧ هـ ( ١٠٧٥ م ) . بيد أنه لم يلبث أن مرض وتوفى بعد ذلك بأشهر قلائل فى أواخر ذى القعدة من نفس هذا العام . وانتهز أبو بكر بن عبد العزيز هذه الفرصة ، فأعلن استقلاله بحكم بلنسية ، وأصلح أسوارها ، ودانت له المدينة بالطاعة ، واستمر فى حكمها دون منازع .

ولما غزا المقتدر بن هود صاحب سرقسطة والثغر الأعلى مدينة دانية، واستولى عليها من صاحبها على إقبال الدولة بن مجاهد العامرى فى سنة ٤٦٨ هـ ( ١٠٧٦ م )، توجس أبو بكر من سطوته وطمعه فى بلنسية ، فخاطب ألفونسو السادس وانضوى تحت حمايته ، وتعهد له بأداء الجزية . وكان المؤتمن ولد المقتدر يتطلع بالفعل إلى امتلاك بلنسية ، يدفعه إلى ذلك صحبه ومستشاروه، وذلك لأهمية موقعها ووفور غلاتها ، فخاطب بدوره ملك قشتالة، ودفع إليه مائة ألف دينار ليعاونه على فتحها ، وزحف فرناندو بالفعل على بلنسية ، فخرج إليه أبو بكر بنفسه ، وخاطبه برقة ولباقة ، وأقنعه بعقم محاولته ، فانصرف عنه ، ووعده بحمايته وفشلت محاولة المؤتمن . وكان ملك قشتالة يقدر أبا بكر ويعجب بخلاله ، وكان يقول فى مختلف المناسبات ، رجال الأندلس ثلاثة : أبو بكر بن عبد العزيز ، وأبو بكر بن عمار ، وششناندو[١] .

وعندئذ رأى أبوبكر أن يلتمس حماية المؤتمن نفسه ، ففاوضه ، وقدم إليه ابنته عروساً لابنه أحمد المستعين. فوافقه المؤتمن، ورأى من جانبه أن هذه المصاهرة قد تكون سبيلا لضم المملكتين سرقسطة وبلنسية فى مملكة قوية موحدة. واحتفل بعقد هذا الزواج بسرقسطة فى حفلات شائقة كانت مضرب الأمثال فى البذخ والبهاء ( رمضان ٤٧٧ هـ — فبراير ١٠٨٥ م ) . ولم يعش أبوبكر طويلا بعد ذلك ، إذ توفى فى السابع من صفر سنة ٤٧٨ هـ ( يونيه ١٠٨٥ م ) بعد أن حكم عشرة أعوام[٢] .

---

(١) الذخيرة القسم الثالث — المخطوط — لوحة ٩ أ و ب

(٢) راجع البيان المغرب ج ٣ ص ٣٠٣ و ٣٠٤ . وقد وهم ابن عذارى فى حقيقة شخصية أبى بكر بن عبد العزيز ، فذكر أنه أبو بكر محمد بن عبد العزيز بن المنصور بن أبى عامر ، ونسبه بذلك إلى بنى عامر ، وهو خطأ واضح . وراجع فى هذه الحوادث : R.M.Pidal; ibid; V.I.p.310 وكذلك : A.P. Ibars : Valencia Arabe; و P. y Vives : Los Reyes de Taifas p.57 p. 187 & 188

— ٣ —

فخلفه فى حكم بلنسية وأعمالها ولده أبو عمرو عثمان بن أبى بكر. وبويع فى التاسع من صفر ، لأيام قلائل فقط من سقوط مدينة طليطلة ، فى يد القشتاليين فى فاتحة صفر ٤٧٨ هـ . وكان هذا الحادث الجلل الذى هز الأندلس من أقصاها إلى أقصاها نذير تطورات خطيرة فى شرقى الأندلس ، وفى مصاير مملكة بلنسية بوجه خاص .

وقد كان ألفونسو السادس ، حينما استولى على طليطلة من يد صاحبها القادر ابن ذى النون، حفيد المأمون، قد تعهد له أو وعده، ضمن عهوده لقاء الاستيلاء على المدينة ، أن يمكنه من استرداد بلنسية التى خرجت عن طاعته ، بل قيل إنه وعده بمعاونته، على افتتاح دانية وشنتمرية الشرق ، إذ كان يعلم أنه بتمكين القادر من الاستيلاء على هذه المدن، فإنها تغدو فى الواقع تحت حمايته، ويغدو شرقى الأندلس كله ، واقعاً تحت سيادته ، عن طريق القادر. وخرج القادر فى آله وصحبه ومتاعه قاصداً إلى بلنسية ، وصدته خلال الطريق سائر القلاع القديمة ، التى كانت تحت حكمه وأغلقت أبوابها دونه ، ماعدا قلعة قونقة ( كونكة ) ، فقد لبثت على طاعته ، ورحب به صاحبها ابن الفرج ، وأكرم منزله . ورأى القادر أولا أن يسبر غور الأحوال فى بلنسية ، فبعث إليها ابن الفرج ليداخل صاحبها عثمان ابن عبد العزيز ، وحاول ابن الفرج أن يروج لقضية سيده ، وهو حاكم المدينة الشرعى ، فكثر الجدل وافترق الرأى ، ورأى فريق من الشعب أن تنضوى بلنسية تحت حماية المستعين بن هود ، وانحاز فريق آخر إلى القادر ، وسرت الفوضى إلى المدينة . وفى خلال ذلك عاد ابن الفرج إلى قونقة ، ودعا القادر إلى السير إلى بلنسية ، لانتهاز الفرصة السانحة ، فسار القادر إلى المدينة ومعه سرية قوية من الجند النصارى أمده بها ألفونسو السادس، تحت إمرة قائده ألبار هانيس الذى تسميه الرواية الإسلامية ألبرهانس . ولما وصل القادر فى ركبه إلى المدينة ، بعث إلى أهلها رسوله برسالة ، يتودد فيها إليهم ، ويقدم إليهم أطيب الوعود ، فاجتمع أهل المدينة ، وتشاوروا فى الأمر . ورأى « الجماعة » قبول مطالب القادر ، باعتباره صاحب الولاية الشرعية من قبل ، واستبعاد مطالب ابن هود ، وإن كان ابن هود لم ينقطع عن المجاهرة بها ، والترويج لها ، وخشية من أن تتعرض المدينة لهجوم القشتاليين ، أعلنت « الجماعة » خلع عثمان بن

عبد العزيز ، وكان قد قضى فى منصبه تسعة أشهر فقط ، وبعثت إلى القادر توافق على مقدمه وتسلمه للمدينة . فسار القادر فى موكبه إلى بلنسية، ودخلها فى مظاهر حافلة ، وتسلم القصر من القاضى ابن لبون ، ونزل فرسانه فى بيوت المدينة ، ونزل ألبارهانيس وجنده القشتاليون فى ضاحية الرُّصافة على مقربة منها ، وكان ذلك فى شوال سنة ٤٧٨ هـ ( فبراير ١٠٨٦ م )(١) .

وهكذا استولى يحيى القادر على بلنسية ، وقامت دولة بنى ذى النون ، مرة أخرى فى شرق الأندلس ، بعد أن درست فى طليطلة ، وقامت على يد ملكها الشريد الخانع — القادر — فى مثل الظروف التى كانت عليها فى أواخر أيامها بطليطلة ، دولة ضعيفة تابعة ، تدين بوجودها لملك قشتالة ، ولحراب الجند النصارى . وما لبث القادر أن أبدى صولة الضعيف إذا تحكم ، ففرض على المدينة حكم طغيان شامل ، وتولى القاضى ابن لبون حجابته ، وغدا يده اليمنى ، وتقرب إليه الأعيان والقضاة بالأموال والهدايا . وثقلت وطأة القشتاليين على المدينة فى نفس الوقت ، وأرهقوها بمؤنهم ومغارمهم ، وفرضت لذلك ضريبة خاصة على سائر الناس ، وعاث النصارى فى المدينة وضواحيها ، فاشتد السخط على القادر ، وعلى شيعته القشتاليين ، واضطرب حبل النظام والأمن . ومع ذلك فقد مضى القادر فى عسفه وطغيانه ، فمال على الأعيان والأكابر ، يطاردهم بطلب المال سداداً لمطالب القشتاليين ، وقبض على بعضهم من أجل ذلك ، واعتقل ولدى ابن عبد العزيز وغيرهم ، وحشد حوله كثيراً من أوباش الجند المرتزقة يعيثون فى المدينة ، ويعتدون على الأموال والأنفس ، وغدت السيادة الحقيقية على المدينة لألبارهانيس وجنده ، وغادر كثير من الأعيان والأكابر ، بلنسية فراراً من هذا الطغيان المرهق(٢) .

وفى خلال ذلك كانت تجرى فى جنوب الجزيرة حوادث هامة ، فقد عبر المرابطون بقيادة عاهلهم يوسف بن تاشفين إلى الأندلس فى ربيع الآخر سنة ٤٧٩ هـ ( أغسطس ١٠٨٦ م ) غياثاً لأمرائها ، وللإسلام ، وأخذ ملك قشتالة يجمع الجند من كل ناحية ، لرد هذا السيل المنهمر ، وغادر ألبارهانيس وجنده بلنسية

---

(١) الذخيرة — القسم الثالث — المخطوط لوحة ١٨ ب . وراجع R.M. Pidal : ibid; V.I p. 306 & 310-312 وكذلك: P. y Vives : Los Reyes de Taifas, p. 57

(٢) R. M. Pidal : ibid; V. I. p. 313-316

ليخوضوا المعركة إلى جانبه ، وكان أن كتب النصر الباهر لجيوش الإسلام على جيوش النصرانية فى موقعه الزلاّقة وذلك فى رجب سنة ٤٧٩ هـ ( أكتوبر ١٠٨٦ م ).

وتنفس أهل بلنسية الصعداء لرحيل القشتاليين ، وانتعشت نفوسهم لانتصار المسلمين ، وتحطيم قوى ملك قشتالة ، وبادر القادر من جانبه ، فبعث إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، يلتمس صداقته ومحالفته ، أسوة بباقى أمراء الأندلس . بيد أن هذه المحالفة النظرية ، لم تفده بشيء لأن أمير المسلمين ، كان ما يزال فى شغل شاغل عن الالتفات إلى شئون شرقى الأندلس .

سرى الاضطراب إلى بلنسية ، وبدأ حكام الحصون المختلفة ، فى التحرك والعصيان ، وشعر القادر أنه عاجز عن أن يملك زمام الموقف ، وأن الأمور سوف تنتهى به إلى أسوأ العواقب ، إذا تركت بلنسية إلى مصيرها ، وقد كانت بلنسية فى الواقع فى هذه المحاولة التى افتقدت فيها كل زعامة قوية ، وكل إدارة حازمة ، تضطرم حولها الأطماع من كل صوب .

ذلك أن المنذر بن هود صاحب لاردة وطرطوشة ، كان يرقب فرص الاستيلاء على بلنسية ، وخصوصاً منذ استطاع أبوه أن يتغلب على مملكة دانية ، وأن يضمها إلى أراضيه وذلك فى سنة ٤٦٩ هـ ( ١٠٧٦ م ) ، وبذلك امتدت مملكته من لاردة شمالا حتى دانية وأعمالها جنوبا ، وكانت بلنسية بذلك تشطر مملكته إلى شطرين ، وتحول دون وحدة أراضيها . فلما رأى المنذر اضطراب الأحوال فى بلنسية ، شعر أن الفرصة المنشودة قد سنحت ، فسار فى قواته صوب بلنسية ، ومعه سرية من المرتزقة القطلان ، وضرب الحصار حول المدينة ( ١٠٨٨ م ) ، وكان يؤازره فى داخلها كثير من الأنصار ، كانوا يؤيدون قضيته ، ويودون أن تسلم إليه .

وهنا استولى الاضطراب والذعر على القادر ، وفكر بالفعل فى تسليم المدينة ، لولا أن نصحه ابن طاهر صاحب مرسية السابق ، وكان قد لجأ إلى بلنسية مذ غلب عليه ابن عمار وزير المعتمد ، بالتريث وشجعه على الصمود والدفاع . وبعث القادر فى نفس الوقت إلى ألفونسو ملك قشتالة يستغيث به ، وبعث بنفس الصريخ إلى المستعين بن هود صاحب سرقسطة ، وخصيم المنذر : وكان المستعين يتوق إلى افتتاح بلنسية ، ويشعر دائما بالأسف والألم لفشل محاولة

أبيه المؤتمن فى هذا السبيل ، وضياع الأموال الطائلة التى دفعها من أجل ذلك للملك قشتالة ، وكان له بسبب مصاهرته لأبى بكر بن عبد العزيز صاحب بلنسية السابق ، داخل المدينة حزب يناصره ، ويود أن تنضم بلنسية إلى مملكة سرقسطة ، فلما تلقى صريخ القادر ، بادر بالإستجابة ، وهرع إلى بلنسية فى بعض قواته ، فتظاهر بالسير إلى إنجادها ، وهو يبطن نية الاستيلاء عليها(١) .

(١) R. M. Pidal : ibid ; V. I. p. 351

# الفصل الثاني

## مملكة بلنسيـــــة

### ٢ – السيد إلكمبيادور وعهد السيادة القشتالية

السيد إلكمبيادور . أصله ونشأته . بدء حياته الحربية . وسول ألفونسو السادس إلى ابن عباد . تغير ألفونسو عليه وإبعاده عن قشتالة . ملوك الطوائف واستعانتهم بالجند النصارى. مسير السيد إلى شمال شرق الأندلس . التحاقه بخدمة المقتدر بن هود . وفاة المقتدر . الحرب الأهلية بين ولديه المؤتمن والمنذر . إنضمام السيد إلى المؤتمن ونفوذه لديه . وفاة المؤتمن وقيام ولده المستعين . التحاق السيد بخدمته . حملة ابن بسام على بنى هود . مسير المستعين والسيد إلى بلنسية . يعقدان ميثاقا بشأنها . مقدمهما فى قواتهما إلى بلنسية . انسحاب المنذر بن هود عنها . موقف القادر بن ذى النون ومساعيه السرية . المستعين يكشف للسيد عن حقيقة مشروعه . موقف السيد ومطله . السيد يبدو على حقيقته . مخادعاته ومفاوضاته السرية. مسيره إلى قشتالة وتفاهمه مع ألفونسو. وقوف المستعين على غدر السيد ومقاطعته. تحالفه مع الكونت برنجير . عود السيد ونزوله بأراضى السهلة . يخضع ابن رزين لأداء الجزية . السيد يغدو قائد عصابة ناهبة . السيد والكونت برنجير . مسير السيد إلى بلنسية . إخضاعه لمربيطر ونزوله فى الكدية . القادر يضع نفسه تحت حمايته ويمده بالأموال الوفيرة . قصة أموال القادر . خروج السيد إلى ألبونت وإرغامه صاحبها على أداء الجزية . فرضه الجزية على سائر النواحى المجاورة . صدى أعمال السيد فى قشتالة . تغير ألفونسو عليه . تطور الأمور فى الثغر الأعلى . توجس المستعين ابن هود من المرابطين . عوده إلى الاستعانة بالسيد . مقدم السيد إلى سرقسطة وتحالفه مع الملوك المجاورين . تعليق ابن بسام . شروع ألفونسو السادس لغزو بلنسية وتحطيم نفوذ السيد . تحالفه مع جنوه وبيزه . مسيره إلى بلنسية . رسالة السيد إلى ألفونسو . حرج موقف ألفونسو وتركه لحصار بلنسية . عيث السيد فى أراضى قشتالة . عود ألفونسو إلى مصانعته والعفو عنه . الاضطراب فى بلنسية . القاضى ابن جحاف يتزعم الثورة ضد القادر والســيد . مفاوضته للمرابطين . دخــول قوة مرابطية بلنسية . ابن جحاف يقتحم القصر بجموعة . مقتل القادر واستيلاء ابن جحاف على ذخائره . اختيار ابن جحاف لحكم المدينة . استعداده للطوارىء . مسير السيد إلى بلنسية ومحاصرتها . المفاوضة بين ابن جحاف والسيد . شروط الإتفاق بينهما . نكث السيد وغدره . مطالبه المرهقه لابن جحاف والخلاف بينهما . ابن جحاف يغلق المدينة . استغاثته بالمرابطين وغيرهم . اشتداد السيد فى محاصرة المدينة وعيثه فى أحوازها . عصف الحصار بأهل بلنسية . المفاوضة بين أهل بلنسية والسيد . شروط الهدنة والتسليم . انتهاء الهدنة وتوقيع عهد التسليم . دخول السيد بلنسية . وعوده الخلابة . تسلمه أموال القادر من ابن جحاف . مطالبته له بباقيها واستحلافه عليها . حلف ابن جحاف بالنفى . اكتشاف السيد لمخبأ الأموال والحلى . قبضه على ابن جحاف وإحراقه . أقوال ابن بسام . إحراق بعض أعلام بلنسية . طغيان السيد وعسفه . شعر فى محنة بلنسية . صدى سقوط بلنسية فى الأندلس والمغرب . اعتزام

أمير المسلمين العمل لاسترادادها . إرساله حملة آلى الأندلس . مسير المرابطين إلى بلنسية . الذعر بين النصارى فى بلنسية . حصار المرابطين لها . مفاجأة السيد للمحاصرين . استغاثة السيد بملك أراجون وألفونسو السادس . المعارك بين السيد وبين المرابطين . غزو المرابطين لأراضى طليطلة وقونقة . مرض السيد ووفاته . زوجه خمينا تتولى الدفاع عن المدينة . استغاثتها بألفونسو . قدوم ألفونسو فى قواته إلى بلنسية . اجتماع القوات المرابطية بقيادة المزدلى . توجس ألفونسو واعتزامه الانسحاب . مغادرة خمينا المدينة ومعها أموال القادر . انسحاب ألفونسو وجنده . إحراقه للمدينة . دخول المرابطين بلنسية وانتهاء مغامرات النصارى . السيد وشخصيته . اختلاف الآراء فى تصويره وتقديره . مبالغة الرواية القشتالية فى تصوير بطولته . الأساطير القشتالية حولها . السيد فى الشعر وفى الأغانى . حقيقة السيد . السيد جندى قدير . أوصاف ابن بسام للسيد. السيد مغامر لا ذمام له ولا مبدأ . نزعته المكيافيلية . السيد ليس بطلا قومياً . السيد والتفكير الغربى . رأى دوزى ورينان . رأى منندیث بيدال . السيد فى الرواية العربية . تاريخ بلنسية لابن علقمة .

لم يسر المستعين بن هود وحده إلى إنجاد بلنسية ، بل كان معه جيش آخر ، يسير أيضاً لإنجاد بلنسية فى الظاهر ، وكان على رأس هذا الجيش صديق المستعين وحليفه . وصديق أبيه المؤتمن ، وجده المقتدر من قبل ، الفارس القشتالى الأشهر ، السيد إلكمبيادور.

إن قصة السيد الكمبيادور ، تملأ فراغاً كبيراً فى الروايات والتواريخ القشتالية ، ونجد كذلك صداها فى التواريخ العربية . وقد اقترنت سيرة السيد بالأخص بمغامراته فى بلنسية ، وافتتاحه إياها ، وسيطرته عليها بضعة أعوام ، ثم وفاته ، مدافعاً عنها ضد المرابطين . فهذه الأحداث هى ألمع صفحة فى تاريخ السيد ، وهى التى اتخذت منها التواريخ القشتالية عناصر بطولته ، بل هى التى رفعته فى نظر التواريخ والأساطير القشتالية إلى مرتبة بطل اسبانيا القومى ، ومن ثم فإنه يجدر بنا قبل أن نمضى فى تسطير هذه الأحداث ، أن نقول كلمة موجزة فى نشأة السيد وحياته الأولى .

إن السيد ، هو فارس قشتالى ، واسمه الأصلى رودريجو أو روى دياث دى بيبار ، أما تلقبه « بالسيد » El Cid فهو تحريف لكلمة « السيد » العربية ، وقد أطلقها عليه المسلمون الذين كان يخدم بينهم ، ويحارب معهم ، وأما وصفه بالكمبيادور ، El Campeador ، فمعناها المحارب الباسل ، وقد أطلقت عليه لشجاعته وجرأته وشغفه بالقتال[1] . وقد ولد « السيد » فى مدينة

(١) ويعرف السيد الكمبيادور فى الرواية العربية «بالقنبيطور» ( نفح الطيب ج ٢ ص ٥٧٧ ) ويسميه ابن بسام رذريق الكنبيطور ، وهو أدق تعبير للاسم القشتالى ، « رودريجو إلكمبيادور » =

برغش على ما يرجح فى سنة ١٠٤٣ م ، وكان أبوه لايان كالفو قاضى قشتالة فى عهد الملك فرويلا الثانى . ولايعرف التاريخ شيئاً عن حياته الأولى ، بل كل ما فيها يرجع إلى الأسطورة والقصة . وكان بدء ظهوره فى ميدان الحوادث ، عقب وفاة فرناندو الأول ملك قشتالة وليون فى أواخر سنة ١٠٦٥ م ، ونشوب الخلاف بين أولاده، فقد انضم «السيد» يومئذ إلى ولده سانشو ( شانجه ) وسار مع قوات حليفه أحمد بن سليمان بن هود صاحب سرقسطة ، لمحاربة راميرو ملك أرجوان ، وقد هزم فى جرادوس سنة ١٠٦٨م . ثم كان إلى جانب أخيه سانشو سنة ١٠٧١م ، حينما نشبت الحرب ، بينه وبين أخيه ألفونسو ملك ليون، وقد هزم سانشو فى البداية، ولكنه عاد وجمع فلوله تحت جنح الظلام ، ودهم أخاه بإرشاد « السيد » وهزمه وأسره .

ولبث « السيد » يحارب إلى جانب سانشو ملك قشتالة ، حتى قتل هذا الملك أمام أسوار سمورة فى العام التالى ( ١٠٧٢م ) . فانتقل إلى خدمة أخيه ألفونسو . الذى تولى عرش قشتالة أيضاً بعد مصرع أخيه . ولما اشتد بأس ألفونسو على ملوك الطوائف ، وأخذ يرهقهم بمطالبه فى الجزية ، كان رسوله إلى ابن عباد صاحب إشبيلية فى سنة ١٠٧٩ م هو « السيد » نفسه ، وقد اشترك « السيد » يومئذ مع قوات ابن عباد ، فى معركة وقعت بينه وبين الأمير عبد الله صاحب غرناطة ، وقد كان يغير على أراضيه مع سرية من الفرسان النصارى ، فهزم عبد الله ، وسر المعتمد لذلك ، وأدى الجزية المطلوبة مع طائفة كبيرة من التحف والهدايا برسم ملك قشتالة(١) .

وقضى السيد فى بلاط ملك قشتالة ، عامين آخرين . ولكن الظاهر أن الدسائس كانت تعمل ضده حتى قيل إنه احتجز لنفسه الهدايا والتحف ، التى تلقاها من المعتمد برسم مليكه . هذا إلى أن الملك ألفونسو لم ينس له قط وقوفه ضده إلى جانب أخيه سانشو ، وانتصاره عليه ، وقد كان يشعر من ذلك الحين

---

= (الذخيرة القسم الثالث – المخطوط لوحة ١٩ أ) . وكذا يسميه ابن الأبار بالكنبيطور (الحلة السيراء ، دوزى ص ١٨٩ ، والقاهرة ج ٢ ص ١٢٥) ، وابن الخطيب فى أعمال الأعلام ص ٢٠٣ . ويقول لنا ابن عذارى إن كلمة «القنبيطور» معناها « صاحب الفحص » ج ٣ ص ٣٠٥ .

(١) R.M. Pidal : ibid, p. 256 & 261

بعاطفة من الحسد إزاء هذا الفارس المظفر ، لازمته طول حياته(١)، ومن ثم فقد انتهى إلى إبعاد « السيد » عن بلاطه ، وعن سائر أراضيه ،وذلك فى سنة١٠٨١م .

وهنا يبدأ الفصل الروائى حقاً فى حياة السيد إلكمبيادور ، فيبدو مغامراً يبحث وراء طالعه ، ويخرج على كل اعتبار دينى أو قومى ، فيؤجر نفسه وصحبه ، تارة للأمراء المسلمين وتارة للأمراء النصارى ، ويندس إلى كل ثورة تنشب أو حرب تضطرم هنا وهنالك ، ويطلب الغنم والسلطان ، حيثما استطاع ، وبأى الوسائل . وكانت ظروف اسبانيا المسلمة ، يومئذ مما يفسح المجال لأطماع ، جندى مغامر كالسيد . فهناك الحروب الأهلية المستمرة ، وهناك الرغبة المستمرة فى الاستعانة بالجند النصارى ، وإغداق الأموال عليهم ، وقد رأينا فى أخبار دول الطوائف ، وأخبار ملوكهم ، ما يؤيد هذه الحقيقة المؤلمة كل التأييد .وكانت هذه الحروب الإنتحارية تجرى يومئذ فى سائر أنحاء الأندلس ، وكانت فى الوقت الذى خرج فيه السيد بعصابته من قشتالة تضطرم بنوع خاص فى الإمارات الشمالية ، التى استقر فيها بنوهود ، فيما بين سرقسطة ، وثغور الشاطىء ، وفيما بينها وبين بلنسية . فإلى هذا الميدان المضطرم ، هبط السيد وجنوده المرتزقة ، والتحق أولا بخدمة المقتدر بن هود أمير سرقسطة ، وكان المقتدر قد استعان على محاربة أخيه المظفر صاحب لاردة ، بجنود من البشكنس والقطلان حتى هزمه أخيراً وأسره ، فكان المظفر أسيراً وقت أن حل السيد ببلاط المقتدر . ثم توفى المقتدر بعد قليل سنة ٤٧٤ هـ ( ١٠٨١ م ) بعد أن قسم مملكته بين ولديه ، فخص ولده المؤتمن بسرقسطة وأعمالها ، وأخاه المنذر بدانية وطرطوشة ولاردة. ثم وقعت الحرب الأهلية بين الأخوين ، فاستعان المنذر بسانشو رامبرز ملك أراجون وكونت برشلونة ، وحارب السيد إلى جانب المؤتمن ، ولد حاميه والمحسن إليه ، وانتهى الأمر بهزيمة المنذر، وعاد السيد إلى سرقسطة ظافراً ، فاحتفى به أهلها أيما احتفاء ، وبالغ المؤتمن فى إكرامه وإثابته . وكان المؤتمن يعتز بصداقة السيد ومحالفته ، ويعلى من شأنه ويأخذ بنصحه فى معظم الأمور ، ولايرى فى ذلك غضاضة وانحرافاً ، وكان المنذر من جهة أخرى يبغض السيد أشد البغض ، ويستعين فى محاربته بالأمراء القطلان أصحاب برشلونة . ولما توفى

---

(١) R. M. Pidal : Ibid; p. 261, 580 & 590

المؤتمن فى سنة ٤٧٨ هـ ( ١٠٨٥ م ) ، خلفه فى سرقسطة وأعمالها ولده المستعين ، والتحق السيد بخدمته أيضاً ، واستمر على نفوذه ومكانته فى المملكة . ويحمل ابن بسام على حماية بنى هود للسيد ، واستخدامهم إياه ، وإعلائهم لشأنه فى قوله : « وكان بنو هود قديماً هم الذين أخرجوه ( أعنى السيد ) من الخمول ، مستظهرين به على بغيهم الطويل ، وسلطوه على أقطار الجزيرة ، يضع قدمه على صفحات أنجادها ، ويركز علمه فى أفلاذ أكبادها ، حتى غلظ أمره ، وعم أقاصيها ودانيها شره »[١] .

ولسنا نعرف شيئاً عن أعمال السيد فى خدمة المستعين فى بضعة الأعوام التالية . بيد أننا نرى السيد والمستعين فى سنة ١٠٨٨ م ، كلاهما يسير فى قواته صوب بلنسية . وهناك رواية خلاصتها أن المستعين والسيد ، حينما ورد صريخ القادر ، عقدا ميثاقاً سرياً على غزو بلنسية وافتتاحها ، نص فيه على أن تكون الأسلاب كلها من نصيب السيد ورجاله ، وأن تكون المدينة ذاتها من نصيب المستعين[٢] . وهناك رواية أخرى ، هى أن المستعين دعا السيد إلى مرافقته فى جيشه لإغاثة بلنسية ، دون أن يفضى اليه بنيته فى الاستيلاء على المدينة ، وقدم إليه أموالا جليلة لكى يحشد بها القوات اللازمة ، وكان السيد فى هذا الوقت بالذات يدعو الجند إلى رايته ، للمحاربة مع المسلمين ، وقد اجتمع له منهم ، حسبما يخبرنا ابن علقمة مؤرخ مأساة بلنسية عدد كبير ، وكانت قوة المستعين لاتعدو أربعمائة فارس ، أما جيش السيد فكان يضم ثلاثة آلاف فارس ، وهى قوة ضخمة وفقاً لمقاييس العصر .

وهكذا أشرف المستعين والسيد فى قواتهما على بلنسية ، إجابة لصريخ مليكها وإنجاداً له فى الظاهر ، وكلاهما يضطرم فى الواقع بنيات ومشاريع أخرى . وكان المنذر صاحب لاردة وطرطوشة ، ما يزال مرابطاً بقواته حول المدينة ، فلما علم بمقدم السيد ، وابن أخيه المستعين ، أدرك أنه لاطائل من الانتظار وعول على الانسحاب[٣] ، وبعث إلى القادر يعرض عليه صداقته ومحالفته ، « استعداده

---

(١) الذخيرة القسم الثالث — المخطوط — لوحة ١٨ ب .

(٢) وردت هذه الرواية فى كتاب «الاستكفاء» لابن الكردبوس . ونقله دوزى فى : Recherches ; V. II App. II.

(٣) رواية ابن الكردبوس السالفة الذكر .

لمعاونته ضد ملك سرقسطة ، فأجابه القادر إلى عقد الحلف المنشود ، ولكنه لما رأى المنذر بعد ذلك يبتعد بقواته عن بلنسية فى طريق العودة إلى بلاده ، أدرك أنه لا مفر من الالتجاء إلى القشتاليين ، وأنهم هم وحدهم الذين يستطيعون إنجاده وإنقاذه .

ودارت عندئذ سلسلة من المفاوضات والمواثيق السرية ، بين أولئك الزعماء المخادعين المخاتلين ، فبعث القادر إلى السيد خفية عندما اقترب من بلنسية ، يرجوه عقد المودة والتحالف بينهما سراً ، ودون علم المستعين ، وبعث إليه فى الوقت نفسه طائفة من الأموال والتحف الجليلة . ولما وصل السيد والمستعين إلى بلنسية ، أفضى إليه المستعين بحقيقة نياته ، وأنه إنما قدم إلى بلنسية لا لإنجادها ولكن لافتتاحها ، وطلب إليه النصح والعون ، ولكن السيد ماطل فى مهاجمة المدينة بحجة أن القادر مستظل بحماية ألفونسو ، وأن المدينة فى الواقع هى من أملاك ألفونسو وقد أعطاها للقادر ، فأية محاولة لافتتاحها تعتبر اعتداء على حقوق الملك ألفونسو نفسه ، وأنه لابد قبل إجراء مثل هذه المحاولة ، أن يأذن الملك ألفونسو نفسه بذلك ، وأخيراً أنه لايستطيع أن يقوم بعمل ضد مليكه وسيده الطبيعى ، أعنى ملك قشتالة .

وهنا يبدو السيد على حقيقته ، ويكشف عن خلاله الأصيلة ، خلال مغامر لا ذمام له يبيع العدو والصديق معا ، وينتهز الفرصة بأى ثمن ، فهو ينصح القادر سراً بألا يسلم المدينة لأحد ، وهو يعد القادر والمستعين كل بمعزل عن الآخر أنه سوف يعاونه على تحقيق بغيته فى الوقت الملائم ، ويؤكد للمستعين أنه على أهبة لأن يساعده على أخذ بلنسية ، إذا حصل على موافقة الملك ألفونسو ، ثم يعتزم السيد أن يقطع علائقه القديمة مع صديقه وحاميه المستعين ، ويبعث سراً إلى عمه وخصيمه المنذر بن هود ، يعقد معه اتفاقاً بالصداقة والتحالف ، وأخيراً يبعث السيد إلى ألفونسو ملك قشتالة ، يؤكد له أنه فيما يعمله ويغنمه ، إنما هو تابع له ، وأن أولئك الفرسان الذين يقودهم فى أراضى المسلمين ، دون أية نفقة من الملك — إنما هم تحت تصرف الملك ، ينزلون ضرباتهم « بالكفرة » ، وفى وسعهم أن يحصلوا على شرقى الأندلس بسهولة . وقد وافق ألفونسو على

رسالة السيد ، وأذن له أن يجول بفرسانه حيث شاء فى أراضى المسلمين[١] .

ولم يكتف السيد بذلك ، بل رأى بعد أن قام بعدة غارات ناهبة فى الأنحاء القريبة ، ودرس طبيعتها وأحوالها ، أن يذهب بنفسه إلى الملك ألفونسو ، ليعقد معه الإتفاق اللازم لإخضاع هذه المناطق ، فسار إلى قشتالة ، واستطاع أن يحصل من الملك ألفونسو على وثيقة الموافقة ، وفيها يصرح للسيد ويؤكد ، بأن كل الأراضى والحصون التى يستطيع السيد أن ينتزعها من المسلمين ، تغدو ملكاً خاصاً له ، ثم لأولاده وبناته وسائر عقبه من بعده ، ميراثاً شرعياً .

وأدرك المستعين خلال ذلك ، مدى نفاق السيد وغدره ، وانصرافه إلى العمل لصالحه وصالح قشتالة ، فقطع علائقه معه ، واتجه إلى محالفة برنجير كونت برشلونة ، وكان من ألد أعداء السيد ، وعقدت بينهما ، أواصر التحالف ، وقدم المستعين إلى الكونت أموالا جزيلة ، وبعثه إلى محاصرة بلنسية . ولكن القادر اعتزم أن يصمد لهذا الحصار الجديد ، حتى يعود السيد من قشتالة . وأخيراً عاد السيد من قشتالة ومعه سبعة آلاف مقاتل ، ونزل بجيشه فى أراضى السهلة ، التابعة لابن رزين صاحب شنتمرية الشرق ( مايو ١٠٨٩م ) فخرج إليه ابن رزين ، وتعهد من جديد بأداء الجزية لملك قشتالة ، وكان يؤديها قبل موقعة الزلاّقة ، واتفق على أن تكون الجزية عشرة آلاف دينار فى العام ، فقبل السيد عهده ، وغادر أراضى السهلة وسار بجيشه صوب بلنسية .

وغدا السيد عندئذ قائد جيش خطير من المرتزقة ، أو بالحرى رئيس عصابة ناهبة ، تجوب أنحاء الولايات الشرقية طلباً للغنيمة والسلب ، وهابه سائر الأمراء والحكام فى تلك النواحى ، وأخذوا جميعاً يترقبون الفرص لمقاومته وسحقه . وكان أشدهم نشاطاً فى ذلك خصمه القديم الكونت برنجير أمير برشلونة ، وكان الكونت يحاصر بلنسية بقواته منذ حين ، والظاهر أنه حين اقترب السيد بقواته من بلنسية ، وقعت بينه وبين الكونت معركة هزم فيها الكونت ، وأسر مع نفر من بطانته ، ولم يطلقهم السيد إلا لقاء فدية كبيرة ، ثم انتهى الأمر بينهما إلى التفاهم ، ورفع الكونت الحصار عن بلنسية ، وعاد بجيشه شمالا إلى برشلونة .

---

(١) R.M. Pidal : ibid, p. 352-354 . وقد نقل الأستاذ بيدال هذه الفقرة الأخيرة المتعلقة برسالة السيد إلى الملك الفونسو ، من أقوال ابن علقمة صاحب تاريخ بلنسية المفقود ، الذى نقلت منه شذور كثيرة فى التواريخ القشتالية .

وكان السيد قد عسكر بقواته أولا تجاه مربيطر شمالى بلنسية ، ثم سار بعد ذلك جنوباً إلى بلنسية ، وأخضع فى طريقه مربيطر ، وأرغم صاحبها ابن لبُّون على أن يؤدى له جزية سنوية قدرها ثمانية آلاف دينار . ونزل أخيراً بجنده فى « الكُدية » ضاحية بلنسية الشمالية التى يفصلها عن المدينة نهر « طوريا » ، فى الحال بعث إليه القادر بالأموال والتحف ، وأبلغه أنه يضع نفسه تحت حمايته ، ويؤدى له الجزية ، واتفق على أن يدفع له فى كل أسبوع ألف دينار ، على أن يقوم بحمايته من سائر أعدائه . وقيل إن الجزية التى ارتضى القادر أن يؤديها للسيد مقابل حمايته بلغت مائة ألف دينار فى العام ، وهو مبلغ طائل فى هذا العصر(١) .

وهنا يسوغ لنا أن نتساءل عن مصدر هذه الأموال الوفيرة التى كان يغدقها القادر فى كل مناسبة على السيد وغيره ، ممن كان يستصرخهم لحمايته . والجواب عن ذلك أن القادر ورث عن جده المأمون صاحب طليطلة أموالا طائلة ، وطائفة عظيمة من الحلى والجواهر والتحف . وكان ألفونسو ملك قشتالة حينما عاون القادر على استرداد عرشه فى طليطلة ، عند ما أقصته الثورة عنه ، يرهق القادر بمطالبه المالية المتوالية ، لما كان يعلمه من غناه الطائل ، وكانت سياسة ألفونسو ترمى إلى استصفاء أموال ملوك الطوائف بطريقة إرغامهم على دفع الجزية ، وغيرها من أنواع الإبتزاز السياسى والعسكرى ، وقد رأيناهم جميعاً يسارعون إلى الأداء، ويجمع ملك قشتالة منهم الأموال الوفيرة . وكان القادر من أكثرهم ثراء واقتداراً . وكان يخفى أموالا طائلة حملها معه حينما سار منفياً إلى بلنسية ، بعد أن فقد ملكه فى طليطلة ، وهناك أخفاها بمنتهى الحيطة والحذر ، وقد أثارت هذه الأموال الدفينة فيما بعد شره السيد ، واستطاع أن يحصل عليها عقب دخوله بلنسية حسبما نفصل بعد .

وخرج السيد من مقره فى « الكدية » إلى جبال ألبونت القريبة ، حيث كان يحكم عبد الله بن قاسم ، وعاث فى أراضية، وأرغمه على أن يدفع له جزية سنوية قدرها عشرة آلاف دينار ، ثم عاد جنوباً وعسكر فى بلدة « ركّانة » الواقعة غربى بلنسية . وهكذا أخضع السيد لصولته سائر إمارات هذه المنطقة :

---

(١) هذا ما ذكره ابن الكردبوس فى روايته السالفة الذكر : Recherches; V.II. App, II.

بلنسية ومربيطر ، وألبونت وشنتمرية الشرق ، وفرض عليها جميعاً الإتاوات الفادحة ، واستقر بقواته على مقربة منها تتردد بعوثه فى أراضيها ،وتشعرها بصفة مستمرة أنها رهينة سلطانه ورحمته .

فى ذلك الحين تطورت الأمور فى قشتالة ، وكان لهذا النجاح الضخم الذى أحرزه السيد على هذا النحو فى شرق الأندلس صداه السيء فى نفس الملك « الإمبراطور » ألفونسو السادس[١] ، وكان السيد قد تخلف عن معاونة ألفونسو فى معركة حصن لييط « أليدو » التى نشبت بينه وبين المرابطين سنة ٤٨١ هـ (١٠٨٨ م ) ، وانتهز خصوم السيد فى البلاط هذه الفرصة ، فأثاروا نفس الملك عليه ، وصوروا له تصرفه بالعقوق والخيانة ، وأوعزوا إليه بمعاقبته.وفعلا أمر الملك بإخلاء سائر الحصون والدور الخاصة بالسيد ، وبالقبض على زوجه وأولاده الصغار ، وذلك لأن القانون القديم كان ينص على تضامن الأسرة فى الأمور الجنائية ، ولايسمح بذرة من التهاون أو الرأفة فى تهمة الخيانة[٢] .

وتطورت الأمور أيضاً فى الثغر الأعلى،وشعر المستعين بن هود ملك سرقسطة بأن المرابطين بعد استيلائهم على مرسية وحصن لييط ، أضحوا على مقربة منه ، وأضحوا يهددون سلامته وملكه ، فعندئذ استغاث بالسيد مرة أخرى ، وعقد معه صلحاً وحلفاً جديداً . وسار السيد فى جيشه إلى سرقسطة ، وعسكر على مقربة منها على ضفة النهر الأخرى ، وهنالك عقد محالفة مع ملك أراجون وأخرى مع ملك نافار ، وكان الغرض من هذه الأحلاف جميعاً هو التعاون على دفع خطر المرابطين الداهم ، وإنقاذ شرق الأندلس من سلطانهم . ولبث السيد حيناً فى سرقسطة ينظم شئونها وخططها الدفاعية . وهذا ما يشير إليه ابن بسام فى الذخيرة بقوله المسجع : « ولما أحس أحمد بن يوسف بن هود المنتزى إلى وقتنا هذا على ثغر سرقسطة ، بعساكر أمير المسلمين تنسل من كل حدب ، وتطلع على أطرافه من كل مرقب ، آسد كلباً من أكلب الجلالقة ، يسمى بلذريق ويدعى بالكنبيطور ، وكان عقالا ، وداء عضالا له فى الجزيرة وقائع ، وعلى طوائفها بضروب المكاره إطلاعات ومطالع »[٣] .

---

(١) R. M. Pidal : ibid. p. 360

(٢) R. M. Pidal : ibid, p. 367 & 368

(٣) الذخيرة — القسم الثالث — المخطوط ، لوحة ٨ ب و ١٩ . وراجع :
R. M. Pidal : ibid; p. 415 & 416

ولم يجد ألفونسو ملك قشتاله لمعاقبة السيد، على مطله وغدره وخيانته، ولتحطيم نفوذه البالغ ، الذى أخذ يزعجه ويثير حفيظته ، خيراً من أن يفتتح بلنسية ، التى كان السيد فى الواقع سيدها الحقيقى ، وكانت أمنع معقل لسيادته ونفوذه ، وأخصب مصدر لموارده ، فعقد حلفاً مع جمهوريتى جنوه وبيزه ، لكى يعاونانه بأساطيلهما من البحر على أخذها ، ثم سار فى قواته إلى بلنسية ، وعسكر فى جُبالة أو « كبولا » من ضواحيها ، وطلب من أصحاب القواعد والحصون المجاورة أن يؤدوا إليه الجزية التى كانوا يدفعونها للسيد ، وبعث إلى القادر بأن يحجز الجزية وسائر الإيرادات التى كان يتلقاها السيد . فلما علم السيد بذلك وهو فى ظاهر سرقسطة ، وبأن ملك قشتالة جاء لينتزع نفس المنطقة التى أعطاه إياها ، اعتزم أن يقابل القوة بالقوة ، وبعث إلى ألفونسو يعرب له عن دهشته واستنكاره وعن ثقته بالله ، وينذره بأنه لن يصبر على تلك الإهانة بل سينتقم لها ، وبأنه سوف يرى كيف أسيء نصحه وتوجيهه(١) .

والواقع أنه لم يمض قليل على ذلك حتى شعر ألفونسو بحرج موقفه . وذلك أن السفن الجنوية والبيزية لم تأت حسبما تقرر ، وقد قلت المؤن فى عسكره ، وأخذ يعانى الصعاب ، فعندئذ أمر برفع الحصار ، وغادر بلنسية لدهشة قواده وصحبه ، وارتد راجعاً إلى قشتالة . وما كاد يبتعد عنها حتى أشرفت السفن الحليفة وكانت نحو أربعمائة . بيد أنها لم تستطع أن تعمل شيئاً . فغادرت بلنسية وسارت إلى طرطوشة ، ولكنها استطاعت أن تصمد لها . وفضلا عن ذلك فقد أراد السيد أن ينتقم من الملك ومستشاريه ، فسار نحو قلهرّة ولوجرنيو ، وضرب الأراضى التابعة لرجال البلاط من خصومه ، وعاث فى أحواز قشتالة ، واجتاح منها منطقة شاسعة ، وأمعن فيها قتلا وتخريباً(٢) . فعندئذ رأى ألفونسو أن يعود إلى سياسة اللين ، وأصدر عفوه عن السيد ، وكتب إليه بذلك ، وبأنه قد رفع الحظر عن أملاكه ، وسمح له بأن يعود إلى قشتالة متى شاء ، فكتب إليه السيد بشكره ويرجوه ألا يصغى لنصحاء السوء . وكان ذلك فى أوائل سنة ١٠٩٢ م (٤٨٥ هـ) .

* * *

(١) R. M. Pidal : ibid, p. 418

(٢) رواية ابن الكردبوس السالفة الذكر فى : Recherches; V. II. App. II

وفى ذلك الحين اشتد الاضطراب فى بلنسية ، واعتزم البلنسيون أن يحطموا ذلك النير المرهق الذى فرضه السيد على المدينة . وكان قاضى المدينة أبو أحمد جعفر بن عبد الله بن جحّاف المعافرى ، يتزعم أقوى الأحزاب فى المدينة ، وهو الحزب المناوئ للسيد والقشتاليين بوجه عام ، ويناهض الحزب « الإسبانى » أو الحزب الذى يلتف حول القادر ، وكان يثير فى الجموع روح الثورة ، ويتطلع إلى انتزاع السلطة ، وكان المرابطون قد اقتربوا فى ذلك الوقت من بلنسية ، باستيلائهم على مرسية ودانية ، ففاوض ابن جحاف قائد المرابطين ابن عائشة، ووعده بتسليم بلنسية إذا ساعده على محاربة القادر والسيد ، فاستجاب ابن عائشة لدعوته ، وبعث إليه سرية من الجند المرابطين بقيادة أبى ناصر المرابطى ، فما كادت تدخل بلنسية حتى اشتد بها الهرج والاضطراب، وقاد ابن جحاف جموع الثائرين ، وقبض على ابن الفرج مندوب « السيد » فى المدينة ، واقتحم القصر ، وبحث عن القادر حتى عثر به ، وكان قد اختفى فى بعض حمامات القصر ، ومعه صندوق من الحلى والجواهر الخاصة بزوجه السلطانة زبيدة. فقتل فى الحال ، وحملت رأسه على رمح وطيف بها فى شوارع بلنيسة ، وذلك فى اليوم الثالث والعشرين من رمضان سنة ٤٨٥ هـ ( ٢٨ أكتوبر سنة ١٠٩٢ ) . واحتوى ابن جحاف على طائفة عظيمة من الأموال والذخائر والتحف التى كان يحتفظ بها القادر . وآلت السلطة بذلك إلى « الجماعة » . وفى اليوم التالى ، الرابع والعشرين من رمضان ، اختير ابن جحاف رئيساً للجماعة ، فتولى زمام الأمور ، وأخذ يحشد الجند ، ويحصن أطراف المدينة ، ويستعد للطوارئ .(١)

ولما علم السيد بهذه التطورات المزعجة ، سار فى الحال فى قواته صوب بلنسية ، وفرض المغارم والأقوات على سائر الحصون الواقعة فى طريقه ، ونزل فى « جبالة » (كبولا ) ، وهنالك اجتمع إليه أنصار الملك المقتول (أواخر سنة ١٠٩٢ م ) . وفى الحال ضرب الحصار حول المدينة ، بعد أن أحرق ما حولها من الضياع والمروج ، واستولى على معظم الأنحاء القريبة ، واقتحم « الكدية » ضاحية المدينة الشمالية ، وفرض عليها سلطانه . وأنشأ ابن جحاف داخل المدينة فرقة من ثلاثمائة فارس من المرابطين وغيرهم ، لتقاوم الحملات المخربة التى كان

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٣٠٥ . و R. M. Pidal : ibid ; p. 434

يشنها السيد على أحواز المدينة . وكثر الجدل فى الداخل بين مختلف الأحزاب والطوائف . وبعث السيد سراً إلى ابن جحاف يطلب إليه طرد المرابطين ، ويتعهد له بأن يتركه ملك بلنسية الوحيد ، وأن يمده بالعون والحماية ، فجنح ابن جحاف إلى التفاهم ، وأخذ يدبر الأمر ، وآثر البلنسيون كذلك التفاهم والصلح ، وانتهت المفاوضات بين السيد وأهل بلنسية على ما يأتى : أن يغادر المرابطون المدينة آمنين ، وأن يعطى ابن جحاف إلى السيد ثمن ما كان مودعاً بمخازنه من المؤن وقت مقتل القادر ، وأن تؤدى له الجزية السابق تقريرها ، ومقدارها ألف دينار فى الأسبوع مع متأخراتها ، من وقت أن بدأت الحرب ، وأن تبقى ضاحية الكدية بيد السيد ، وأن يرتد الجيش القشتالى إلى « جبالة » ويبقى هنالك ومعه السيد . وهكذا عقدت شروط التسليم ، وعادت بلنسية بمقتضاها ، كما كانت بلداً خاضعاً يؤدى الجزية كما كان أيام القادر(١) .

ولم يمانع المرابطون فى عقد الصلح على هذا النحو ، لما تولاهم من السأم فى بلد لاتهدأ له ثائرة ، وغادروا المدينة بسلام . وعاد السيد فرابط بقواته فى « جبالة » . ولكن سرعان ما نقض عهوده ، شيمته التى تلازمه فى كل عمل وكل موطن ، وأخذ يتردد فى جنده على ضواحى المدينة ويعيث فيها ، ويرهق ابن جحاف بمطالبه المالية ، التى لايرتوى منها شرهه قط ، وابن جحاف يعانى فى نفس الوقت من الاضطراب الداخلى ، ومن مناوأة الزعماء المحليين ، ولاسيما بنى طاهر أصحاب مرسية السابقين النازلين ببلنسية ، وكان هؤلاء يتصلون سراً بالسيد ، ويتآمرون معه على ابن جحاف . ثم طلب السيد من ابن جحاف أن يأذن له بالنزول مع بعض صحبه فى قصر وحدائق « بله نوبه » وهى ضاحية بلنسية فى الشمال الشرقى ، وينزل باقى جنده فى « ريوسا » فى جنوبها الغربى تجاه الرصافة ، فوافق ابن جحاف مرغماً ، وكان السيد يرمى بذلك إلى إحكام تطويق المدينة ، لاسيما وهو يحتكم من قبل على ضاحية الكدية . وعاد السيد بعد ذلك فاشتط فى مطالبه ، وطلب إلى ابن جحاف أن يسلم كل موارد المدينة ، وأن يقدم إليه ابنه رهينة بولائه . فعندئذ رفض ابن جحاف ، وأغلق أبواب المدينة ، وكتب إلى ابن عائشة قائد المرابطين يستغيث به ، وبعث بنفس الصريخ إلى المستعين ملك

---

(١) R. M. Pidal : ibid ; p. 449

سرقسطة ، فأرسل إليه يعده خيراً ، وكتب كذلك إلى ألفونسو السادس ، فبعث إليه يعده بالعون . واعتزم ابن جحاف مقاومة السيد إلى آخر لحظة ، واستؤنفت الأعمال العدوانية بين الفريقين ، وضرب السيد حول المدينة حصاراً صارماً ، وعاث فى الأنحاء المجاورة ، ولم يدخر وسعاً فى قطع الأقوات عن المدينة المحصورة خوفاً من أن تصمد له حتى يدهمه المرابطون ، واستمر الحصار على هذا النحو عشرين شهراً ، حتى بلغ الضيق بالبلنسيين المنتهى ، وفتك بهم الجوع أيما فتك ، « وأكلوا الفيران والكلاب والجيف » وغدوا كالأشباح هزالا[١] . وقد وصف المؤرخ البلنسي المعاصر ، محمد بن علقمة فى تاريخه الذى سوف نشير إليه فيما بعد ، بعض ما قاساه البلنسيون من المحن فى تلك الآونة العصيبة ، فذكر « أن رطل القمح بلغ ثمنه مثقال ونصف ، وأوقية الجبن ثلاثة دراهم ، ورطل البقل بخمسة دراهم ، وبيضة الدجاجة بثلاثة دراهم ، ورطل اللحم بستة دنانير . وفى ربيع الأول ( ٤٨٦ هـ ) عظم البلاء ، وتضاعف الغلاء ، واستوى فى عدم القوت الفقراء والأغنياء ، فأمر ابن جحاف اقتحام الدور بحثاً عن القوت . وأعاد استصراخ ابن هود ، ورغبه فى المال والبلد مع الأجر فى استنقاذ المسلمين من القتل والأسر . وترمق ساير الناس بالجلود والأصماغ وعروق السوس ، ومن دون هؤلاء بالفيرة والقطط وجيف بنى آدم . وهجم على نصرانى وقع فى الحفير فأخذ باليد ، ووزع لحمه . وجد الطاغية فى حرق من خرج من المدينة إلى المحلة ليلا يخرج الضعفاء ، ويتوفر القوت على الأغنياء . وبان على الناس الإحراق بالنار ، فعيث فيهم بالقتل ، وعلقت جثثهم على صوامع الأرباض وبواسق الأشجار . ودخل جمادى الأولى وعدمت الأقوات بالجملة ، وهلك الناس ، ولم يبق من ذلك الجم إلا النزر اليسير ، وتوالى اليبس واستحكم الوباء . ولما بلغ الأمر إلى هذا القدر ، وابن هود يخاطب بالتسويف والمطل ، اجتمع الناس إلى الفقيه أبى الوليد الوقشى فى التكلم لابن جحاف[٢] وعندئذ اجتمع أعيان المدينة ، وأرغموا ابن جحاف على مفاوضة السيد فى التسليم وعقد الصلح ، فأذعن وترك لهم المفاوضة ، فذهب وفد منهم لمفاوضة السيد ، وتم الاتفاق على أن يبعث البلنسيون رسلهم إلى ملك سرقسطة ،

---

(١) الذخيرة لابن بسام ، القسم الثالث ، المخطوط لوحة ١٩ ب ، والبيان المغرب ج ٣ الملحق ص ٣٠٥ .

(٢) من أوراق مخطوطة من البيان المغرب عثر بها المؤلف بخزانة جامع القرويين بفاس .

وإلى ابن عائشة قائد المرابطين فى مرسية، فى طلب الغوث والإنجاد ، وذلك فى مدة خمسة عشر يوماً ، وأن يقوم ابن عديس خلال ذلك بالإشراف على المدينة ، وأن تسلم الأبواب ليحتلها الروم المحليون، فإذا لم يحضر أحد للنجدة فى خلال المدة الممنوحة سلمت بلنسية بالشروط الآتية :

« أن يبقى ابن جحاف قاضياً للمدينة وحاكماً لها ، وأن يؤمن فى نفسه وماله وأهله ، وأن يؤمن السكان فى أنفسهم وأموالهم ، وأن يتولى مندوب السيد الإشراف على تحصيل الضرائب ، وأن تحتل المدينة حامية من النصارى المعاهدين (المستعربين) الذين يعيشون بين المسلمين ، وأن يرابط السيد بجيشه فى « جبالة » (كبولا) وألا يغير شيئاً من شرائع المدينة وأحكامها » .

عقدت الهدنة على هذه الشروط ، وسافر الرسل فى طلب النجدة ، ولكن مضت الخمسة عشر يوماً دون أن يعود أحد منهم . فى صباح اليوم التالى، وهو يوم الخميس ١٥ يونيه سنة ١٠٩٤م ( ٢٨ جمادى الأولى سنة ٤٨٧ هـ)[١]، خرج ابن جحاف ومعه عدد من أعيان المسلمين والنصارى ، ووقعوا عهداً بتسليم المدينة ، على أن يؤمن سكانها فى أنفسهم وأموالهم ، وأن يسلم ابن جحاف إلى السيد سائر أموال القادر . وفى الظهر فتحت بلنسية أبوابها للسيد إلكمبيادور وجنده ، واحتشد البلنسيون ، وهم كالأشباح هزالا ، أوكأنهم كالموتى خرجوا يوم الحشر من القبور ليمثلوا أمام الخالق[٢] ، ليشهدوا دخول القشتاليين الظافرين بلدهم .

ودخل السيد وجنده بلنسية ، وفى الحال احتلوا أبراجها خلافاً لشروط المعاهدة ، ونزل السيد بالقصر ، ثم جمع أشراف المدينة وألقى فيهم خطاباً وعد

---

(١) تختلف الرواية الإسلامية فى تاريخ دخول السيد بلنسية . فيقول ابن بسام وهو معاصر الحادث أنه وقع فى سنة ٤٨٨ هـ ( ١٠٩٥ م ) – الذخيرة القسم الثالث – المخطوط لوحة ١٩ ب . ويوافقه صاحب الذيل فى البيان المغرب ج ٣ ص ٣٠٦ . ولكن ابن الأبار يقول لنا إن دخول السيد بلنسية كان فى سنة ٤٨٧ هـ – ١٠٩٤ م (الحلة السيراء دوزى ص ١٨٩ والقاهرة ج ٢ ص ١٢٥) . وهذه أيضاً رواية ابن الكردبوس فى « كتاب الاكتفاء » Recherches, V, II. App. II . وهذا التاريخ هو الأرجح ، وهو يوافق الرواية القشتالية ، وبه يأخذ الأستاذ مننديث بيدال مؤرخ السيد ، فيقول إن دخول السيد بلنسية كان فى ١٥ يونيه سنة ١٠٩٤ م . (Pidal : ibid; p. 485)

(٢) وهو تصوير ابن علقمة مؤرخ مأساة بلنسية ، وقد نقلت روايته المفقودة فى التواريخ القشتالية ( Pidal : ibid; p. 484 ) .

فيه أن يسير شئون المدينة بالعدل ، وأن يستمع لظلامات أهلها ، وأن يحميهم ، وأن يرد إلى كل ذى حق حقه ، إلى غير ذلك من الوعود الخلابة . ومع ذلك فقد احتل النصارى معظم دور المدينة وضياعها ، ولم يستمع أحد إلى تذمر أو ظلامة ، وتسلم السيد من ابن جحاف أموال القادر وذخائره ، وأبقاه فى منصبه قاضياً للمدينة ، ولكنه شدد عليه فى السؤال عما إذا كان قد بقى لديه شىء منها ، وطلب إليه الحلف أمام أعيان الشهود من الملتين ، فحلف ابن جحاف بأنه لم يخف شيئاً وليس لديه شىء منها . وأنذره السيد بأنه إن وجد لديه شيئاً مما تقدم ، فإنه سوف يستبيح دمه ، ووافق على هذا العهد أعيان الملتين ، المسلمون والنصارى . وشاءت الأقدار أن يقع السيد بعد ذلك بقليل على مخبأ الحلى والذخائر التى انتزعها ابن جحاف من القادر حين مقتله، فكان ذلك نذيراً بنكبته المروعة ، التى ترك لنا عنها المؤرخ البلنسى المعاصر ، وشاهد العيان السابق ذكره أبو العباس بن علمقة ، صوراً مؤسية مبكية .

ذلك أن السيد أمر فى الحال بالقبض على ابن جحاف وأفراد أسرته ، وعذبه عذاباً شديداً ، ثم أمر بإعدامه حرقاً ، فأقيمت له وقدة كبيرة فى ساحة المدينة وأحرق فيها بصورة مروعة ، ولقى هذا القاضى المجاهد مصيره بشجاعة مؤثرة . قال ابن علقمة، وكان من شهود المأساة « إن القنبيطور أمر بتعذيبه أى ابن جحاف فعذب عذاباً شديداً ، ثم أمر به فجمع له حطب كثير ، وحفرت له حفرة وأقيم فيها ، وأصير الحطب حوله ، وأوقدت فيه النار فكان يضم النار إليه بيديه ليكون ذلك أسرع لخروج روحه »(١) . وقال ابن بسام، بعد أن ذكر واقعة إحراق ابن جحاف : « أخبرنى من رآه فى ذلك المقام، وقد حفر له إلى مرفقيه ، وأضرمت النار حوله ، وهو يضم ما بعد من الحطب بيديه ، ليكون أسرع إلى ذهابه ، وأقصر لمدة عذابه ، كتبها الله له فى صحيفة حسناته، ومحا به سالف سيئاته ، وهم الطاغية يومئذ بتحريق زوجه وبناته ، فكلمه فيهن بعض طغاته ، فبعد لأى ما لفته عن رأيه ، وتخلصهن من يدى نكراته . وأضرم هذا المصاب الجليل أقطار الجزيرة يومئذ ناراً ، وجلل سائر طبقاتها حزناً وعاراً »(٢) .

---

(١) أورده البيان المغرب فى الذيل ج ٣ ص ٣٠٦ .

(٢) الذخيرة – القسم الثالث المخطوط لوحة ١٩ ب .

وأمر السيد كذلك بإحراق جماعة من أعلام بلنسية ، ومنهم أبو جعفر البتى الشاعر المشهور[١] ، وبدا السيد عندئذ فى ثوبه الحقيقى ، ثوب الفاتح المتجبر والطاغية المنتقم ، فمال على البلنسيين ، وأذلهم ، واشتط فى إرهاقهم بصنوف المظالم والمغارم . وكان من الظواهر المؤلمة يومئذ ، أن التف حول السيد رهط من الخونة المسلمين ، ومعظمهم من الأشرار والسفلة ، انضووا تحت لوائه ، وأخذوا يعيثون فى المدينة فساداً ، ويعتدون على إخوانهم ، يقتلون الرجال ، ويسبون النساء والأطفال ، وقد ارتد عن الإسلام جماعة منهم ، وكان يطلق يومئذ على تلك العصابات المجرمة اسم « الدوائر »[٢] ، وغادر بلنسية كثير من أهلها المسلمين ، واحتل النصارى دورهم وأحياءهم ، وغدا السيد ، وهو يزاول سلطانه بالقصر ، كأنه ملك متوج ، وسيد مملكة عظيمة ، وغدا باستيلائه على بلنسية سيد شرق الأندلس كله .

وفى محنة بلنسية يومئذ يقول الشاعر المعاصر أبو إسحاق بن خفاجه :

عاثت بساحتك العــدا يا دار ... ومحا محاسنك البلى والنار

فإذا تردد فى جنابك ناظر ... طال اعتبار فيك واستعبــار

أرض تقاذفت الخطوب بأهلها ... وتمحصت بخرابهــا الأقدار

كتبت يد الحدثان فى عرصاتها ... لا أنت أنت ولا الديار ديار

وروعت الأندلس لسقوط بلنسية فى أيدى النصارى ، كما روعت من قبل بسقوط طليطلة ، وتوالى على أمير المسلمين يوسف بن تاشفين صريخ الأندلس ، ورسائل أعيانها ، تصف ماأصاب بلنسية وشرق الأندلس من الدمار ، وتقطيع الأوصال ، والذل على يد النصارى . قال ابن بسام : « وتجرد أمير المسلمين عندما بلغه هذا النبأ الفظيع ، واتصل به هذا الرزء الشنيع ، فكانت قذى أجفانه وجماع شأنه ، وشغل يده ولسانه » . واعتزم أمير المسلمين أن يسترد المدينة الأندلسية العظيمة ، فسار إلى سبتة وحشد الجند ، وندب ابن أخيه محمداً بن تاشفين ليقود الحملة ، وكتب إلى حاكم غرناطة المرابطى ، وإلى أمراء شرق

(١) وهو أحمد بن عبد المولى البتى نسبة إلى بتة من قرى بلنسية . وكان من أكابر الأدباء وعلماء اللغة .

(٢) راجع رواية ابن الكردبوس السالفة الذكر : Recherches; V. II. App. II

الأندلس ، أصحاب شنتمرية الشرق ، وألبونت ، ولاردة ، وطرطوشة ، أن يجمعوا الجند للسير إلى استنقاذ بلنسية . وعبرت الجند المرابطية إلى الجزيرة فى سبتمبر سنة ١٠٩٤م ، أعنى لثلاثة أشهر فقط من سقوط بلنسية ، واجتمعت الحشود الأندلسية ، وسارت القوات المتحدة صوب بلنسية ، فوصلت إلى «كوارت» ثم إلى «مسلاته» ، الواقعتين غربى بلنسية جنوبى النهر ، فى شهر أكتوبر (رمضان ٤٨٨ هـ) ، وصلوا صلاة الفطر فى مسلاته ، ثم بدأ الهجوم على بلنسية .

وكانت الأنباء قد وصلت إلى بلنسية بمقدم الجيش المرابطى . فشاع الذعر بين النصارى ، وأمر السيد بأن يجمع من أهل بلنسية ، سائر السلاح والقطع الحديدية ، وأخرج من المدينة سائر المسلمين الذين يشك فى ولائهم . وتكررت هجمات المرابطين على المدينة بشدة ، ولما رأى محمد بن تاشفين مناعة المدينة وصمودها الراسخ ، ضرب حولها الحصار المطبق . ولم تمض أيام قلائل ، حتى خرج السيد فى قواته بالليل ، وفاجأ المعسكر الإسلامى ، وهاجمه بشدة ، فأوقع فيه الاضطراب والذعر ، واستولى على غنائم عظيمة من الخيل والسلاح والعتاد والمؤن ، وقتل من المسلمين عدد جم ، ثم عاد فامتنع داخل المدينة .

واستمر الحصار طويلا . وبعث السيد إلى پيدرو الأول ملك أراجون يستصرخه للغوث ، وعقدت بينهما محالفة ضد المسلمين ، وكتب أيضاً إلى ألفونسو السادس . وتجددت المعارك بين المرابطين والقشتاليين فى أحواز بلنسية ، واستولى السيد خلالها على مربيطر ، وعلى عدد آخر من الحصون . وفى يناير سنة ١٠٩٧ م وقعت بين قوات السيد وحليفه پيدرو ملك أراجون ، وبين المسلمين ، معركة شديدة عند جبل «مندير» ، هزم فيها المسلمون ، وعاد پيدرو إلى بلاده ، وعاد السيد إلى بلنسية .

وفى تلك الأثناء كان جيش مرابطى قد سار من الجنوب نحو أراضى طليطلة وعاث فيها ، وهزم قوات ألفونسو السادس عند «كونسوبجرا» ، وفى تلك الموقعة قتل دون ديجو ابن السيد الوحيد . وفى نفس الوقت سار ابن عائشة حاكم مرسية فى جيش ضخم إلى أحواز قونقة ، وهزم القشتاليين بقيادة ألبارهانيس ثم اخترق أراضى مملكة بلنسية حتى «الجزيرة» ، وهنالك التقى بفرقة من جنود السيد ، فأبادها تقريباً ولم ينج منها إلا عدد يسير فروا عائدين إلى بلنسية .

وكان السيد قد اشتد عليه المرض يومئذ ، وهدمه الإعياء ، وأدمى قلبه مصرع ولده الوحيد، فتوفى غماً وألماً، وذلك فى يوليه سنة ١٠٩٩ . فتولت مكانه زوجه خمينا الدفاع عن المدينة ، واستطاعت أن تصمد أمام هجمات المرابطين ، زهاء عامين آخرين . وأخيراً بعثت إلى ألفونسو السادس تستصرخ به، وتعرض تسليم المدينة إليه ، فهرع ألفونسو إلى بلنسية فى بعض قواته ، ودخل بلنسية فى مارس سنة ١١٠٢ م . وكانت القوات المرابطية قد اجتمعت قبل ذلك ببضعة أشهر ، تحت إمرة قائدها الأمير أبى محمد المزدلى ، تستعد للوثبة الحاسمة ، فلما قدم ألفونسو بقواته ، اجتنبت لقاءه ، وعسكرت فى كوليرا الواقعة على البحر بين بلنسية وشاطبة . وقضى ألفونسو شهراً فى بلنسية ، ثم خرج إلى أحواز كوليرا ، وانتسف زروعها ، وهالته ضخامة الجيش المرابطى ، فارتد إلى المدينة وهو عازم على إخلائها ، ولم يشأ أن يغامر بجيشه مع العدو القوى فى مواقع نائية . وغادر بلنسية سكانها النصارى ، يحملون أمتعتهم وأموالهم ، وخرجت خمينا زوجة السيد ، ومعها ذخائر القادر بن ذى النون ، والأموال العظيمة التى انتهبها السيد خلال غزواته ومغامراته ، وقد استولى ألفونسو فيما بعد على معظمها ، ثم خرج ألفونسو وجنده ، وخرج معه فرسان السيد يحملون رفات زعيمهم لتدفن فى أراضى قشتالة ( ٤ مايو سنة ١١٠٢ م ) . بيد أنه أمر قبل خروجه بإحراق المدينة ، ولم يغادرها إلا بعد أن غدا معظمها أطلالا دارسة .

وفى اليوم التالى ، الخامس من شهر مايو سنة ١١٠٢ م ، الموافق شعبان سنة ٤٩٥ هـ(١) ، دخل المرابطون بلنسية وعاد الثغر العظيم بذلك إلى حظيرة الإسلام مرة أخرى ، وعاد السلم يخيم على تلك الربوع ، وانهار باختفاء السيد ، أكبر عامل فى بث الروع والاضطراب إلى شرقى الأندلس ، ووقفت مغامرات النصارى فى تلك الأنحاء مدى حين(٢) .

* * *

(١) يقول صاحب الذخيرة إن استرداد المرابطين لبلنسية كان فى رمضان سنة ٤٩٥ هـ ، ولكنا باحتساب التوافق بين التاريخين الميلادى والهجرى ، نجد أن شهر مايو سنة ١١٠٢ م يوافق شعبان سنة ٤٨٥ هـ . ويأخذ ابن خلدون بنفس التاريخ ، فيضع استرداد بلنسية فى سنة ٤٩٥ هـ (ج ٤ ص ١٦٢) .

(٢) يراجع فيما تقدم ، الذخيرة لا بن بسام — القسم الثالث المخطوط — لوحة ٢٦ أ و ب وكذلك : R. M. Pidal : ibid; p.508, 533, 538, 539 & 581

والآن وقد انتهينا من تتبع حوادث مملكة بلنسية منذ قيامها فى ظل الطوائف وفصلنا بهذه المناسبة أخبار السيد إلكمبيادور ، مذ ظهر فى كنف بنى هود أصحاب سرقسطة ، حتى غلب على شرقى الأندلس ، ثم افتتح بلنسية ، وحكمها حتى وفاته بضعة أعوام ، نود أن نقول الآن كلمة عن شخصية السيد ، وعن خلاله .

لقد اختلفت الآراء فى تصوير السيد وتقدير بطولته . فالآداب النصرانية ، والآداب القشتالية ، بوجه خاص ، تحاول أن تجعل منه مثلا أعلى للبطولة القومية ، وتحيط تاريخه بطائفة من الأساطير المغرقة ، وتذهب فى بعض الأحيان إلى اعتباره ، فضلا عن كونه بطلا قومياً لإسبانيا النصرانية ، قديساً يحيط الجلال بسيرته ، وتروى لنا أن الناس كانوا على هذا الاعتبار ، يحجون إلى مزاره ، ويلتمسون البركة من رفاته . وكان قد دفن أولا فى دير سان پيدرو دى كاردينا على مقربة من برغش ، ثم نقلت رفاته بعد ذلك إلى بناء بلدية برغش . ومما يروى فى ذلك أن تابوت السيد فتح فى أيام الإمبراطور شارلكان، فى سنة ١٥٤١ ، فانتشرت منه رائحة ذكية ، ووجدت الجثة ملفوفة فى رداء عربى ، ومعها سيف ورمح ، وكان الشرق عظيما فى تلك الآونة ، فما فتح التابوت حتى هطل مطر غزير ، روى جميع أرجاء قشتالة . وأشد ماتبدو هذه الأساطير فى الشعر ، وفى الملاحم والأغانى القشتالية ، التى وضع معظمها بعد وفاة السيد بنحو قرون . ففيها يصور السيد ، بأنه الفارس الكامل ، الشهم ، الذى لايقهر فى الحرب ، وبأنه مثل الوطنية الحقة، وزهرة الخلال والفضائل النصرانية . ومن أشهر الملاحم التى وضعت عن السيد، وأقربها إلى عهده، قصيدة أوملحمة، Mio Cid ( سيدى ) الشهيرة ، التى كتبت بأراضى مدينة سالم بعد وفاة السيد بنحو أربعين عاماً فقط ، وهى فضلا عما تحتويه من مختلف صور العصر وحوادثه وعاداته ، تقدم لنا صورة كاملة لخلال السيد ، وتشيد بوطنيته وإخلاصه ، بالرغم من جور مليكه ، كما تصف رفقه ولينه ، وهو الظافر ، نحو المسلمين المغلوبين، وما ينطوى عليه قلبه ، وهو الفارس الأمثل ، من الحب العائلى ، حتى انه كان خلال المعارك ، يتصور أعين زوجته خمينا وبناته ، متطلعات إليه ، إلى غير ذلك من الصور والنعوت(١) .

(١) راجع كتاب الأستاذ بيدال ، R. M. Pidal : ibid; p. 8

بيد أننا إذا جردنا السيد من إغراق الأسطورة، ومن أضواء الملاحم والأغانى، وإذا أردنا أن نحكم على شخصيته من حوادث حياته ، فإن الرأى المنزه المجرد من المؤثرات القومية والدينية ، يحملنا فى الحال على الحكم عليه ، وعلى خلاله بأقسى النعوت الأخلاقية والأدبية . لقد كان السيد جنديا عظيما ، وقائداً بارعاً ، ما فى ذلك من ريب، ولقد أشادت الرواية الإسلامية المعاصرة ذاتها بخلاله كفارس وقائد مظفر ، فيقول لنا ابن بسام مثلا فى وصفه ما يأتى : « وكان هذا البائقة وقته ، فى درب شهامته ، واجتماع حزامته ، وتناهى صرامته ، آية من آيات ربه ... وكان — لعنه الله — منصور العلم ، مظفراً على طرائق العجم ، لقى زعماءهم ، ففل حد جنودهم ، وقتل بعدده اليسير ، كثير عديدهم ، وكانت تدرس بين يديه الكتب ، وتقرأ عليه سير العرب ، فإذا انتهى إلى أخبار المهلب استخفه الطرب ، وطفق يعجب منها ويعجب » . ويزيد ابن بسام على ذلك أنه بلغه أن السيد كان يقول ، وقد طما طمعه ولج به جشعه : « على لذريق فتحت الأندلس ، ولذريق يستنقذها »(١) . ولكن من الحق أيضاً أن نذكر أن السيد ، كان إلى جانب هذه الجرأة ، والبراعة العسكرية والمغامرات المظفرة ، يتصف بكثير من الرذائل والصفات الذميمة التى تأباها خلال الفروسة ، فهو حسبما رأينا من وقائع حياته التى استقيناها من أوثق المصادر ، ولاسيما من أعظم مؤرخيه المعاصرين الأستاذ مننديث پدال ، يبدو مغامراً لا مبدأ له ولاذمام ، يسعى إلى الكسب أينما كان، وهو يبدأ حياته فى خدمة الملوك المسلمين أعداء أمته ودينه ثم يخرج عليهم ، ويتنكر لهم ، وهو يقطع مختلف العهود ، ثم ينقضها ، متى رآها عقبة فى سبيل أهوائه ، وهو يبيع العدو والصديق لكسب المال ، ويبدو فى معظم حملاته العسكرية ، قاطع طريق ، ورئيس عصابة ناهبة ، أكثر منه قائد جيش مجاهد منظم ، وهو جشع لاقتناء المال ، لايخبو له فى سبيل ذلك ظمأ ، وهو يناوىء مليكه وأمته ، ويخرج عليه غير مرة ، ويعيث فى أراضى بلاده، وينتهك حرماتها ، تحقيقاً لمآربه الشخصية ، وأغراضه المادية . وعلى العموم ، فهو يبدو مغامراً ، يجمع فى شخصه كل رذائل عصره ، وهو بذلك أبعد من أن يبدو بطلا قومياً مثالياً ، وأشد بعداً من أن يبدو قديساً خارقاً .

---

(١) الذخيرة — القسم الثالث — المخطوط لوحة ١٩ أ و ب .

والتفكير الغربي نفسه يختلف فى تقدير السيد ومنزلته من البطولة، فالعلامة المستشرق دوزى مثلا يخصص لحوادث حياته كتابا[١] ، وينتهى فيه إلى أن السيد ليس إلا جندياً مغامراً يبحث وراء طالعه ، ويجمع فى شخصه من رذائل عصره أكثر مما يجمع من فضائله. ويجاريه فى هذا الرأى العلامة الفرنسى رينان ، ويقول « إنه لم يفقد بطل بخروجه من حيز الأسطورة إلى حيز التاريخ قدرما فقد السيد » . ولكن العلامة مننديث پيدال ، مؤرخ السيد ، يخالف كل هذه الآراء ، ويبالغ فى تقدير السيد ، ويخصص لتقدير بطولته شذوراً طويلة ، ويقول « إن الشعر والتاريخ يتفقان فى شأنه ، وأنه بالعكس لايوجد بطل ملاحم أكثر لمعاناً فى ظل التاريخ »[٢] .

ويخصص ابن بسام ، وهو معاصر لمعظم الأحداث التى خاضها السيد ، لشخصية السيد وأعماله ، شذوراً كثيرة . بيد أنه قد كتبت عن السيد ، وعن مأساة بلنسية بالأخص وثيقة عربية مؤثرة ، كتبها مؤرخ بلنسى ، وشاهد عيان للحوادث ، هو أبو عبد الله محمد بن خلف الصدفى المعروف بابن علقمة. وقد ولد ابن علقمة ببلنسية فى سنة ٤٢٨ هـ (١٠٣٧م )، وتوفى بها سنة ٥٠٩هـ (١١١٥م ) وكان أديباً شاعراً . وقد هزته الحوادث والخطوب المفجعة التى مرت بوطنه بلنسية ، والتى شهدها عن كثب ، فألف تاريخاً لحوادث عصره ، ولاسيما تغلب السيد على بلنسية ، وما اقترن به من المآسى ، أوكما يقول ابن الأبار ، إنه « ألف تاريخاً فى تغلب الروم على بلنسية، سماه « البيان الواضح فى الملم الفادح » ، وذلك قبل سنة ٥٠٠ هـ[٣] . وقد نوه بتاريخ بلنسية هذا ، الذى ضاع ولم يصلنا ، فضلا عن ابن الأبار ، وهو بلنسى أيضاً ، كثير من المؤرخين اللاحقين ، ومنهم صاحب رواية الطوائف الواردة بذيل البيان المغرب ، حيث يقول : « وقد

---

(١) كتاب دوزى المشار إليه «هو » : Le Cid d'aprés de nouveaux documents (Leyde 1860)

وقد نشر بتمامة فى الطبعة الثالثة من كتاب دوزى : Recherches; V. II. p. 1—233

(٢) R. M. Pidal : La Espana del Cid; V. II. p 593 - 604

(٣) راجع « التكلة » لابن الأبار ج ١ رقم ٥١٤ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ٣٠٥ و٣٠٦ ، وابن الخطيب فى «الإحاطة» ( القاهرة ١٩٥٦ ) ج ١ ص ٩١ . وراجع أيضاً : Pons Boigues Ensayo Bio-Bibliografico sobre los Historiadores y Geograficos Arabigo-Espanoles ; (Madrid 1898) p. 175

ألف ابن علقمة كتاباً فى أمرها وحصارها (أى بلنسية) يبكى القارئ ويذهل العاقل » ، ثم ينقل عنه قصة القاضى ابن جحاف[1] . وكذلك ابن الخطيب فإنه يذكره فى مقدمة « الإحاطة » ضمن تواريخ المدن الخاصة[2] . هذا وقد أثبت البحث الحديث أن التواريخ القشتالية المعاصرة واللاحقة، قد نقلت كثيراً مما ورد فى تاريخ ابن علقمة ، ولاسيما تاريخ ألفونسو العالم Crónica General عن السيد وعن حوادث بلنسية[3] .

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٣٠٥ و ٣٠٦ .

(٢) كتاب الإحاطة فى أخبار غرناطة ج ١ ص ٩١ .

(٣) يراجع فى تاريخ السيد وحوادث بلنسية : البيان المغرب ج ٣ ص ٣٠٥ و ٣٠٦ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٧٧ ، وأعمال الأعلام ص ٢٠٣ و ٢٠٤ . والذخيرة ، القسم الثالث ، المخطوط، اللوحات ١٩أ إلى ٢٦ب . وكذلك : دوزى فى كتابه المشار إليه : "Le Cid" و Recherches sur l'Histoire et Littéiature d'Espagne au moyen Age. (V. II. App. I-XVIII) وكتاب الأستاذ بيدال السابق ذكره ، وهو مؤلف ضخم فى نحو ألف صفحة .

وأخيراً يراجع كتاب A. P. Ibara. : Valencia Arabe; Vol. I. p. 227-332

# الفصل الثالث

## إمارة شنتمرية الشرق

بنو رزين . نزولهم بأرض السهلة . كبيرهم هذيل بن عبد الملك.قيامه بشنتمرية وتلقبه بالحاجب عز الدولة . الخصومة بين هذيل ومنذر التجيبى . هذيل واتباعه لسياسة الحياد . صفاته وبذخه . جواريه وجلساته الفنية.وفاته وقيام ولده أبي عبد الملك مروان مكانه . تلقبه بالحاجب جبرالدولة.حكمه الطويل وصموده للحوادث . صفاته بين الذم والمديح . تأديته الجزية لألفونسو السادس . نكوله عقب موقعة الزلاقة . السيد يغير على أراضيه ويعيث فيها . اتفاقه مع السيد وعوده إلى دفع الجزية . ابن لبون صاحب مربيطر يلتجىء إلى حماية عبد الملك ويسلمه حصنه . شروط هذا التسليم ونكث عبد الملك بعهوده . مشاريع عبد الملك نحو بلنسية . إغارة السيد على أراضيه . خضوعه وعوده إلى دفع الجزية . صهره يحاول اغتياله . نجاته ثم وفاته . عبد الملك والشعر . يحيى بن عبد الملك الملقب بحسام الدولة . مصانعته لملك قشتالة وهديته إليه . استيلاء المرابطين على بلنسية . زحفهم نحو الثغر الأعلى . استيلاؤهم على شنتمرية الشرق وخلعهم لأميرها يحيى . انتهاء دولة بنى رزين .

كانت هذه الإمارة الصغيرة — إمارة شنتمرية أوشنتمرية ابن رزين(١) — تقع فى بسيط سهل خصيب من الأرض ، يقع فى جنوبى الثغر الأعلى ، وفى شمال شرقى الثغر الأوسط ، عند منابع نهر خالون فرع إبرة ، وتحدها من الشرق سلسلة من الجبال تسمى بنفس الاسم، أى جبال بنى رزين، وقد عرف بنو رزين هؤلاء أصحاب شنتمرية الشرق ، باسم جدهم الأعلى رزين البرنسى ، أحد أكابر رجال البربر الداخلين إلى الأندلس فى جيش طارق بن زياد ، وهو ينتمى إلى هوارة إحدى بطون قبيلة البرانس البربرية الكبرى ، وكان منزل بنى رزين بقرطبة ، ولجدهم رزين بها آثار كثيرة(٢) ، ثم نزحوا إلى الثغر ، ونزلو بأراضى السهلة ، وهى التى تتوسطها شنتمرية ، واستقروا هنالك سادة وحكاماً .

ولما انتثر عقد الأندلس الكبرى إبان اضطرام الفتنة ، تطلع كبيرهم يومئذ أبو محمد هذيل بن عبد الملك بن خلف بن لب بن رزين المعروف بابن الأصلع

(١) سميت شنتمرية الشرق تمييزاً لها من شنتمرية الغرب ، وهى الواقعة فى جنوب غربى ولاية الغرب الأندلسية على المحيط الأطلنطى ، وتشغل مكانها اليوم مدينة فارو البرتغالية ، وتعرف شنتمرية الشرق الإسبانية بمدينة Albarracin وهو تحريف لاسم بنى رزين أمرائها أيام الطوائف .

(٢) تاريخ ابن حيان — مخطوط مكتبة القرويين — لوحة ٢٤٥ ب .

إلى الاستقلال بما فى يده من الأراضى ، أسوة بما فعله جاره اسماعيل بن ذى النون ، فأعلن استقلاله عن حكومة قرطبة ، واستبد بحكم شنتمرية وأعمالها ، وذلك فى سنة ٤٠٣ هـ ( ١٠١٢ م ) ، وتلقب بالحاجب عز الدولة . واعترف فى نفس الوقت بطاعة الخليفة سليمان المستعين الاسمية ، وقنع منه سليمان بذلك ، وأقره على ما بيده من الأعمال ، وحاول الحاجب منذر بن يحيى التجيبى صاحب الثغر الأعلى ، أن يخضعه لصولته ، أسوة بما تم له نحو بعض أصاغر أمراء الثغر ، فأبى هذيل ووقف فى سبيل أطماعه . واضطرمت بينهما الخصومة ، وامتنع هذيل بعاصمته المنيعة ، وتحالف مع الموالى العامريين أعداء منذر ، واعترف معهم بدعوة هشام المخلوع ، وقطع دعوة سليمان ، واستطاع بيقظته ، وموقع بلده البعيد عن متناول العدوان ، أن يجتنب عوامل الشر ، وأن يسير فى حكم إمارته آمنا مطمئناً .

وكان له فى خصب أراضيه ، وانتظام عمارتها ، موارد طيبة للجباية ، فكثرت أمواله ، وغدا ينافس فى ذلك جاره إسماعيل بن ذى النون ، وكان مثله فى طغيانه وصرامته ، وشدة بخله ، وكان يتبع سياسة الحيدة المطلقة ، ولا يتدخل فى أى نزاع أو حلف ، مما ينساق إليه زملاؤه أمراء الطوائف ، وقد استطاع بهذه الوسيلة أن يحافظ على سلام مملكته ، واستطاع بالأخص أن ينجو من ضغط قشتالة ومطالبها فى اقتضاء الجزية .

وكما أن الرواية تشيد بطغيان هذيل ، وجبروته ، وجهله وفظاظته ، حتى زعموا أنه قتل والدته بيده ، فهى كذلك تقدمه إلينا فى صورة أخرى أكثر بهجة وإشراقاً ، فتقول لنا إنه كان فتى بارع الجمال ، حسن الخلق ، جميل العشرة ، ظاهر المروءة ، لم ير فى الأمراء أبهى منه منظراً ، ثم تشيد بطلاقة لسانه ، وحسن توصله بالكلام إلى حاجته دون معرفة . وقد اشتهر هذيل بالأخص بحياته المترفة الناعمة ، ورفيع ذوقه فى الفنون ، وشغفه باقتناء أجمل وأروع الجوارى والقينات فى عصره ، حتى لقد ذكروا أنه اشترى جارية الطبيب أبى عبد الله الكنانى بعد أن أحجمت عنها الملوك لغلاء ثمنها ، ودفع فيها ثلاثة آلاف دينار ، وكانت وحيدة عصرها . وقد وصف لنا ابن حيان فى تاريخه تلك القينة الشهيرة فقال : « لم ير فى زمانها ، أخف منها روحاً ، ولا أسرع حركة ؛ ولا ألين عطافاً ،

ولا أطيب صوتاً ، ولا أحسن غناء ، ولا أجود كتابة ، ولا أبدع أدبا ، ولا أحضر شاهداً ، مع السلامة من اللحن فى كتبها وغنائها ، لمعرفتها بالنحو واللغة والعروض ، إلى المعرفة بالطب وعلم الطبائع والتشريح وغير ذلك، مما يقصر عنه علماء الزمان ، وكانت محسنة فى صناعة الثقاف ، والمجادلة بالتراس ، واللعب بالرماح والسيوف أو الخناجر المرهفة ، لم يسمع لها فى ذلك بنظير »[1] ، وكان هذيل يقتنى أروع مجموعة فى عصره من الجوارى والقينات البارعات فى الحسن ، وفى الغناء والموسيقى ، وكانت « ستارته » أعنى جلساته الفنية أشهر ستائر ملوك الأندلس . وقيل عنه اجتمعت لديه منهن مائة وخمسون، وكان لديه من الوصفاء الصقالبة ستون وصيفاً ، لم تجتمع عند أحد من نظائره . وكان إلى جانب ذلك ، وافر الجود والكرم ، فسيح الجناب للقصاد ، وعلى الجملة فقد كان هذيل من أحب أمراء عصره إلى شعبه ، وقد استمر فى حكم إمارته الصغيرة ثلاثة وثلاثين عاماً ، مرت كلها فى أمن وسلام ورخاء ، وتوفى بالسهلة فى سنة ٤٣٦ هـ ( ١٠٤٥ م )[2] .

فخلفه فى الإمارة ولده أبو مروان عبدالملك بن هذيل بن رزين ، وكان فى حياة أبيه يسمى حسام الدولة ، وتلقب عند ولايته بذى الرياستين الحاجب جبر الدولة . وقد حكم أبومروان مملكة شنتمرية الشرق زهاء ستين عاماً ، وشهد طائفة كبيرة من الأحداث تجتاح هذه المنطقة ، ولاسيما فى الثغر الأعلى وفى مملكة بلنسية ، وشاء حسن الطالع أن يصمد للأحداث ، وأن يبقى فى رياسته ، بل أن يوسع نطاقها . وقد اختلف الرأى فى تصوير أبى مروان وخلاله ، فنرى معاصره ابن حيان ، يحمل عليه بشدة ، وفى عبارات لاذعة ، ويقول لنا إنه « كان سيئة الدهر ، وعار العصر ، جاهلا لامتجاهلا ، وخاملا لامتخاملا ، قليل النباهة ، شديد الإعجاب بنفسه ، بعيد الذهبة بأمره ، زاريا على أهل عصره ، إن ذكرت الخيل فزيدها ، أوالدهاة فسعدها وسعيدها ، أو الشعراء

---

(١) الذخيرة ، القسم الثالث، المخطوط لوحة ٢١ أ و ب و ٢٢ أ و ب . ونقله البيان المغرب ج ٢ ص ١٨١ — ١٨٤ .

(٢) راجع فى أخبار هذيل بن رزين : الحلة السيراء (دوزى) ص١٧٩—١٨٢، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٨١ — ١٨٣ ، والذخيرة القسم الأول المجلد الأول ص٨٨ ، وأعمال الأعلام ص ٢٠٥ و ٢٠٦ . وكلها مشتقة من أقوال ابن حيان على اختلاف فى النقل والتلخيص .

فجريرها وأسيدها ، أو الأمراء فزيادها ويزيدها ، أو الكتاب فيه فبديع همذان ، أو الخطابة فقس سحبان ، أو النقد فقدامة العلم ، أو العلم فليس منه ولا كرامة ، خلى من المعارف ، وشعره أهتف من كل هاتف»[١] . هذا بينما يقدم لنا عنه ابن الأبار صورة أفضل ، مما سمعه من الرواة ، فيقول لنا « إن أبا مروان هذا كانت له نجدة وصرامة وإقدام ، قرب جنده من نفسه ، وتحبب إليهم ، واختلط بهم ، حتى كان لايمتاز عنهم فى مركب ولاملبس ، ووقائعه فى الثغر مشهورة »[٢] .

ويغرق الفتح بن خاقان كعادته فى مديحه ومديح دولته ، ويقول لنا إنه كان منتهى فخار قومه ، وقطب مدارهم ، وإنه رجل « اتخذته البسالة قلباً ، وضمت عليه شفافاً وخلباً ، لايعرف جبناً ولا خوراً ، ولايتلو غير سور الندى سوراً . وكانت دولته موقف البيان ، ومقذف الأعيان ، ترتضع فيه المكارم أخلاف ، وتدار بها للأمانى سلاف » . إلى غير ذلك من العبارات الرنانة[٣] . ويشاطره ابن بسام بعض هذا المديح فيقول لنا إن أبا مروان « كان له طبع يدعوه فيجيب ، ويرمى بغرة الصواب عن قوسه فيصيب ، على ازدراء كان منه بالأمة ، وقلة إستجداء لمن عنى بالأخذ عنه من الأئمة » . ويزيد ابن بسام على ذلك أنه كان شاعراً مجيداً[٤] .

ولم نعثر فى مختلف المصادر ، على كثير من التفاصيل ، المتعلقة بأخبار عبد الملك بن هذيل وأعماله ، خلال حكمه الطويل ، وكل ما وقفنا عليه من ذلك يتلخص فى أنه استمر فى حكم مملكته ، بعيداً عن الأحداث والعواصف التى هزت ممالك الطوائف الأخرى . بيد أنه اضطر عقب سقوط طليطلة فى يد ألفونسو السادس فى سنة ٤٧٨ هـ ، أن يؤدى له الجزية أسوة بسائر ممالك الطوائف فلما وقعت الهزيمة الساحقة على ألفونسو فى الزلاقة ، فى العام التالى ، وهيض جناحه نوعاً ، نكل عبد الملك عن دفع الجزية . وفى تلك الأثناء كانت أعمال السيد إلكمبيادور ومغامراته فى منطقة بلنسية ، تزعج سائر الإمارات الإسلامية

---

(١) نقله ذيل البيان المغرب ج ٣ ص ٣٠٩ .

(٢) الحلة السيراء ص ١٨٥ .

(٣) قلائد العقيان ص ٥١ .

(٤) الذخيرة ، ونقله البيان المغرب ج ٣ ص ١٨٤ .

المجاورة . ونحن نعرف أن السيد سار إلى قشتالة ليسوى شئونه مع الملك ألفونسو السادس ، وليحصل منه على حق فتح بلنسية ، وأنه خرج من قشتالة فى ربيع سنة ١٠٨٩ م ( ٤٨٢ هـ ) ، عائداً إلى شرق الأندلس ، ومعه سبعة آلاف مقاتل واخترق فى طريقه أراضى السهلة ( شنتمرية ) ، وعسكر فى « كالاموشا » فى شمالها الشرقى ، ولبث حيناً فى تلك الوديان النضرة ، يجمع محاصيلها ، وأقواتها . ولما شعر أبو مروان بما يهدد مملكته من الخراب والإمحال ، قصد بنفسه إلى معسكر السيد ، واتفق معه على أن يتركه فى سلام ، على أن يؤدى الجزية للملك ألفونسو كما كان الشأن قبل موقعة الزلاّقة ، وأن يدفع فى الحال إلى السيد بصفته نائباً عن الملك مبلغ عشرة آلاف دينار . وعندئذ رفع السيد معسكره ، وغادر أراضى السهة إلى بلنسية(١) .

ولما اشتدت وطأة السيد على بلنسية والأنحاء المجاورة لها ، شعر القائد أبو عيسى بن لبّون صاحب مربيطر ( ساجنتو ) ، أنه لا يستطيع الصمود لهذا الإرهاق ، وأنف من مفاوضة السيد ، وآثر أن ينتمى إلى حماية أبى مروان عبد الملك ، وأن يسلمه حصنه ، فقبل عبد الملك هذا العرض ، وتعهد لابن لبون ، بحمايته ورعايته وأن يجرى عليه رزقاً كافياً ، وتسلم منه حصن مربيطر فى نوفمبر سنة ١٠٩٢ م ( أواخر ٤٨٦ هـ ) ، ثم سار إلى السيد ، وفاوضه فى عقد المودة والإبقاء على الحصن ، على أن تكون سائر الحصون الواقعة فى أراضيه مفتوحة للبيع والشراء ، وأن تقدم إلى جنود السيد ما يحتاجونه من المؤن . وسار ابن لبون بعد ذلك فى أهله وأمواله صحبة عبد الملك إلى عاصمته ونزل فى كنفه . بيد أنه لم يمض سوى قليل حتى تنكر له عبد الملك ، وأخذ فى مضايقته والتقتير عليه ، وقاسى ابن لبون من ذلك حتى كره البقاء ، ومما نظمه يومئذ فى محنته :

نفضت كفى عن الدنيا وقلت لها ... إليك عنى فما فى الحق أغتبن
من كسر بيتى لى روض ومن كتبى ... جليس صدق على الأسرار مؤتمن
أدرى به ما جرى فى الدهر من خبر ... فعنده الحق مسطور ومختزن
وما مصابى سوى موتى ويدفننى ... قوم وما لهم علم بمن دفنوا

ولما استولى عبد الملك على مربيطر ، ورأى اضطراب الأحوال فى بلنسية ،

(١) R. M. Pidal : La Espana del Cid; p. 357—359

ثابت له فكرة فى محاولة الاستيلاء عليها ، فنكل عن أداء الجزية المتفق عليها إلى السيد ، وفاوض پيدرو ( بطره ) ملك أراجون فى معاونته على تحقيق مشروعه ، وعرض عليه مبلغاً كبيراً من المال ، فلما وقف السيد على هذه التطورات انقض بقواته على أرض السهلة ، وعاث فيها ، وانتسف الزروع واستاق الماشية ، وسبى جموعاً كبيرة ، وبعث الجميع إلى « جُبالة » على مقربة من بلنسية حيث كان معسكره الرئيسى ، وعندئذ اضطر عبد الملك مرة أخرى إلى الخضوع اجتناباً لهذا السيل المدمر ، وصوناً لأراضيه ورعيته (١٠٩٣ م — ٤٨٦ هـ )(١) .

وفى أواخر حكمه ، وقد شاخ يومئذ ، وقع عليه حادث اغتيال كاد يودى بحياته . وذلك أن صهره ، زوج أخته ، عبيد الله حاكم إذكون الواقعة شمال شرقى العاصمة ، كان يضمر له الشر ، ويود إزالته ليحكم مكانه ، فدعاه ذات يوم إلى حفل عقده بحصنه ، فحضر ومعه جماعة منهم ابن لبون ، فلما تمكن الشراب من عبد الملك ، وثب به عبيد الله وصحبه فطعنوه بسيوفهم ، واتفق أن كانت أخته حاضرة ، وهى زوج عبيد الله القاتل ، فصعدت إلى شرفة عالية ، وصاحت واقتيلاه ، فهرع الناس إلى مكان الجريمة ، وألفوا عبد الملك وقد أثخن جراحاً ، وبه رمق ، فأرادوا الفتك بقاتله ، فأمرهم بالقبض فقط على عبيد الله وابنه ، ثم برىء عبد الملك من جراحه ، وخرج دميما مشوها ، فأمر بصهره فقطعت يداه ورجلاه ، وسملت عيناه ، ثم صلب ، وقطعت رجل ابنه . وتوفى عبد الملك بعد ذلك بقليل فى سنة ٤٩٦ هـ ( ١١٠٣ م ) بعد أن حكم نحو ستين عاماً(٢) .

وكان عبد الملك بن رزّين ينظم الشعر ، وكان حسبما يصفه ابن بسام شاعراً مجيداً ، وهو وصف يأباه عليه ابن حيان ، إذ يصف شعره بأنه « أهتف من كل هاتف » . ويقول لنا ابن الأبار « إن ضعيف منظومه أكثر من قويه » . وكان على الرغم من أدبه وشعره ، متعسفاً مع الشعراء مقصراً فى إجازتهم . ومن نظمه فى الفخر وهو ما يصفه ابن حيان بالسخف :

أنا ملك تجمع فىّ خمس … هى للأنام محيٍ مميت
هى ذهن وحكمة ومضاء … وكلام فى وقته وسكوت

(١) R. M. Pidl; ibid; p. 453—455

(٢) الحلة السيراء ( دوزى ) ص ١٨٥ و ١٨٦ . والقاهرة ج ٢ ص ١١٤ و ١١٥ .

وقوله :

يارب ليل أطال الهجر مدته ... فأيأس القلب عن إدراك منتصفه
ليل تطاول حتى قد تبين لى ... عند التأمل أن الدهر من سدفه

وقوله فى الغزل :

أترى الزمان يسرنا بتلاقى ... ويضم مشتاقاً إلى مشـتاق
وتعض تفاح الخدود شفاهنا ... ونرى منى الإحداق بالأحداق
وتعود أنفسنا إلى أجسامها ... فلطالما شردت على الآفاق[1]

وخلف عبد الملك بن رزين ولده يحيى الملقب بحسام الدولة ، وكان أميراً عاجزاً ضعيف العقل ، مدمنا للشراب ، وكان يسعى إلى مصانعة ملك قشتالة ألفونسو السادس ، والتماس مودته ، واجتناب سطوته ، فبعث إليه بهدية حافلة من الحلى والخيل والبغال ، ومختلف التحف النادرة ، فكافأه عنها ألفونسو بأن بعث إليه قرداً هدية منه إليه . فكان يحيى لسخفه وسقم عقله ، يفخر باقتناء هذا القرد ، ويفخر بأن هاداه ملك قشتالة[2] . والواقع أن مُلك بنى رزين كان يدنو عندئذ من نهايته بسرعة . ذلك أن المرابطين كانوا قد اجتاحوا يومئذ شرق الأندلس كله ، وتوجوا سلطانهم فى تلك المنطقة بالاستيلاء على بلنسية فى شعبان سنة ٤٩٥هـ (١١٠٢م) ، وأخذوا يضعون خططهم للاستيلاء على قواعد الثغر الأعلى . وكان عبد الملك بن رزين ، قد أعلن قبيل وفاته طاعته لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين[3] ، ولكن هذا الاعتراف لم يكن كافيا لتحقيق خطة المرابطين فى القضاء على سائر دول الطوائف . ومن ثم فقد تابع المرابطون زحفهم نحو الشمال ، وفى اليوم الثامن من رجب سنة ٤٩٧هـ (إبريل ١١٠٤ م) دخل المرابطون مدينة شنتمرية ، وخلعوا أميرها يحيى بن عبدالملك بن رزين ، وانتهت بذلك دولة بنى رزين الصغيرة بعد أن عاشت زهاء تسعين عاماً ، ولم يبق من بعدها من دول الطوائف العديدة سوى مملكة سرقسطة ، وقد كانت هى الأخرى تدنو سراعاً من الخاتمة المحتومة .

---

(١) راجع الذخيرة – القسم الثالث – المخطوط لوحة ٢١ أ و ب ، والحلة السيراء ص ١٨٢ و ١٨٣ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٨٤ و ٣٠٩ و ٣١٠ ، وقلائد العقيان ص ٥٣ – ٥٦ ، وقد ورد بها الكثير من شعر ابن رزين .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٣١١ . وينسب دوزى هذه الواقعة إلى عبدالملك بن هذيل ، ويقول لنا إنه حمل هديته بنفسه إلى ألفونسو وهو مشرف على أخذ طليطلة : Hist. V. III. p. 121

(٣) ابن الأبار فى الحلة السيراء (دوزى) ص ١٨٢ . والقاهرة ج ٢ ص ١١٠ .

# الفصل الرابع

## إمارة ألبونت

ألبونت وموقعها . قيام عبد الله بن قاسم بها . انضواؤه تحت لواء الخلافة الأموية . إيواؤه المرتضى وأخيه المعتد بالله قبل توليهما للخلافة . وفاة عبد الله وقيام ولده محمد مكانه . تلقبه بيمن الدولة . ولده أحمد بن محمد الملقب بعز الدولة . وفاته وولاية ولده الطفل . خلع الأمير الطفل وولاية عمه عبد الله بن محمد . حكمه الطويل . زحف السيد على ألبونت . خضوع عبد الله واعترافه بطاعة ملك قشتالة وأداؤه الجزية . استيلاء المرابطين على ألبونت. عبد الله بن محمد ومواهبه الأدبية والشعرية .

على مقربة من شنتمرية الشرق ، وإلى الجنوب الشرقى منها، كانت تقع إمارة صغيرة أخرى من إمارات الطوائف ، هى إمارة ألبونت أو ألبنت . وتقع مدينة ألبونت[1] هذه ، فى وسط الطريق بين قسطلونة وقونقة ، على مقربة من نهر طورية فى حمى الجبال . وقد قام بها منذ بداية الفتنة عبد الله بن قاسم الفهرى ، وهو من زعماء البيوت العربية فى تلك المنطقة ، فحكمها واستقل بها وبما حولها من الأراضى . وقد كان بنو قاسم هؤلاء من نسل عبد الملك بن قطن الفهرى ، الذى ولى إمارة الأندلس عقب موقعة بلاط الشهداء ، ومقتل أمير الأندلس عبد الرحمن الغافقى ، وذلك فى أواخر سنة ١١٤ هـ ( ٧٣٢م )[2] . ولم يشترك عبد الله فى شىء من الحوادث ، التى كانت تجرى يومئذ ، فى شرق الأندلس أو جنوبه ، نظراً لبعد إمارته عن مسرح الحوادث . بيد أنه كان من أنصار الخلافة الأموية ، يعترف بطاعتها ويدعو لها ، مع طائفة الفتيان العامريين. وكانت بلدة ألبونت منزل عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن الناصر ، وأخيه هشام ، يعيشان فى كنفه ، وتحت رعايته ، ومن ألبونت خرج عبد الرحمن حينما رشحه خيران وزملاؤه الفتيان العامريون للخلافة ، باسم المرتضى . ولما قتل المرتضى فى المعركة التى نشبت بين أنصاره ، وبين البربر أمام غرناطة ، فى سنة ٤٠٩ هـ ، لجأ أخوه هشام إلى حماية عبد الله بن قاسم ، ولبث فى ألبونت

---

(١) وهى بالإسبانية Alpuente

(٢) المقرى نقلا عن الحجارى فى نفح الطيب ج ٢ ص ٥٨ .

حتى اختاره أهل قرطبة للخلافة ، وذلك فى ربيع الآخر سنة ٤١٨ هـ ، وعندئذ تلقب بالمعتد بالله ، ولبث مقيما فى ألبونت مدة عامين وسبعة أشهر ، وهو يخطب له فى قرطبة . ثم سار بعدئذ إلى قرطبة ، ودخلها فى ذى الحجة سنة ٤٢٠ هـ ، حيث جددت له البيعة ، واستمر فى كرسى الخلافة عامين آخرين(١) .

واستمر عبد الله بن قاسم فى حكم إمارته الصغيرة ، حتى توفى سنة ٤٢١ هـ ( ١٠٣٠ م ) ، فخلفه ولده محمد بن عبد الله الملقب بيمن الدولة ، وحكم ألبونت زهاء اثنتى عشرة عاما . ولم تدون لنا الرواية أية حوادث وقعت فى عهده . ولما توفى فى سنة ٤٣٤ هـ ( ١٠٤٢ م ) ، خلفه فى الحكم ولده أحمد بن محمد بن عبد الله الملقب بعز الدولة ، وحكم حتى وفاته فى سنة ٤٤٠ هـ ( ١٠٤٨ م ) ، فأقام بعض أصحابه للحكم مكانه ولده الطفل محمداً ، وكان فى نحو السابعة من عمره ، وقام بالوصاية عليه جده لأمه المدعو قاسم ، وهو الذى دبر ولاية الأمير الطفل . ولكن هذا العمل لم يرق فى نظر عبد الله بن محمد عم الأمير الطفل ، وأخى والده أحمد ، وكان يرى نفسه أحق بالولاية ، وتؤازره فى ذلك جماعة قوية من الأنصار ، فدبروا أمرهم ووثبوا بالوصى قاسم واعتقلوه ، وصرف الأمير الصبى إلى حجر أمه ، ولما يمض على حكمه بضعة أشهر ، وتسلم عبد الله مقاليد الحكم وتلقب بجناح الدولة ، أو نظام الدولة وفقاً لرواية أخرى ، وتزوج من والدة الصبى أرملة أخيه اتقاء لأطماعها ودسائسها ، وسار فى حكم الإمارة دون منازع .

واستمر عبد الله بن محمد فى حكم إمارة البونت أكثر من أربعين عاماً ، ولم تقع فى عهده الطويل حوادث ذات شأن ، إلا حينما غدت هذه المنطقة كلها فريسة لعدوان السيد إلكمبيادور ومغامراته ، حسبما فصلنا ذلك من قبل فى تاريخ مملكة بلنسية . ففى سنة ٤٨٢ هـ ( ١٠٨٩ م ) زحف السيد بقواته على إمارة ألبونت وعاث فيها وخرب أراضيها ، واضطر صاحبها عبد الله بن محمد إلى الاعتراف بطاعة ملك قشتالة ، وإلى أن يؤدى جزية قدرها عشرة آلاف دينار ، وذلك أسوة بما فرض على جاره أبى مروان بن زرين صاحب شنتمرية الشرق .

ولما استولى المرابطون على بلنسية فى سنة ٤٩٥ هـ ( ١١٠٢ م ) ، استولوا

---

(١) راجع البيان المغرب ج ٣ ص ١٢٧ و ١٤٥ .

بسرعة على معظم القواعد والحصون الواقعة فى تلك المنطقة ، ومنها ألبونت . وفى رواية أخرى أن آل قاسم أصحاب ألبونت استمروا فى حكمها حتى سنة ٥٠٠ هـ (١١٠٦ م)(١) . ولكن الرواية الأولى أرجح فيما يبدو ، لأن المرابطين استولوا على شنتمرية الشرق فى سنة ٤٩٧ هـ ، وأغلب الظن أنهم استولوا قبل ذلك على ألبونت الواقعة فى جنوبها ، وذلك فى سنة ٤٩٦ هـ (١١٠٣ م)(٢) .

وكان الأمير عبد الله بن محمد قاسم أديباً شاعراً جيد النثر والنظم ، وقد أورد له الحجارى صاحب « المسهب » هذه الأبيات :

خلعت عن الملك لكننى ... عن الصبر والمجد لا أخلع
رمانى الزمــان بأرزائه ... وغيرى من خطبه يجزع
فليس فؤادى بالملتظى ... ولا مقلتى حسرة تدمع
ولى أمل ليتـــه لم يكن ... فكم ذا يغر وكم يخـــدع

ومن قوله من قصيدة :

أما لكل نبيه فى العلا حيل ... تقضى الحقوق بها والمرء منقبض
كن كيف شئت فمن دأبى محافظة ... على الذمام وعهد ليس ينتقض
وهمة لم تضق ذرعاً بحادثة ... إن الكريم على العلات ينتهض
والحر حر وصنع الله منتظر ... والذكر يبقى وعمر المرء ينقرض(٣)

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢١٥ .

(٢) راجع فى أخبار إمارة ألبونت : البيان المغرب ج ٣ ص ١٢٧ و ١٤٥ و ٢١٥ ، وأعمال الأعلام ص ٢٠٨ . وكذلك : R. M. Pidal; ibid. p.360 & 448

(٣) راجع فى رسائل عبد الله وقصائده : قلائد العقيان ص ١٢٧ — ١٣٢ ؛ والمغرب فى حلى المغرب ج ٢ ص ٣٩٦ — ٣٩٨ .

# الكتاب الخامس

# دول الطوائف
# في الثغر الأعلى

# الفصل الأول

## مملكة سرقسطة

## حتى نهاية عصر المقتدر بن هود

### ١ – عهـد بني تجيب

مملكة سرقسطة أو الثغر الأعلى . بنو تجيب وتغلبهم عليه . مؤامرة عبد الرحمن التجيبى ضد المنصور وفشلها . ولده يحيى . المنذر بن يحيى وإمارته للثغر . تأييده للخلافة الأموية . محاربته مع الفتيان العامريين . تدخله فى حوادث بلنسية . مسالمته للملوك النصارى . بذخه وأبهته . مديح ابن دراج له . ولده يحيى . منذر بن يحيى الحاجب . مصرعه على يد سليمان بن حكيم . الفتنة فى سرقسطة . سليمان بن هود . استيلاؤه على سرقسطة وبداية عهد بنى هود. تلقبه بالمستعين. حروبه مع المأمون بن ذى النون. استغاثته بملك قشتالة . استعانة المأمون بملك نافار . تفاقم العدوان بين الفريقين . وفاة المستعين . تقسيمه لمملكته بين أولاده . الحرب الأهلية بينهم . أحمد بن هود المقتدر . الصراع بينه وبين أخيه المظفر . كينه لقوات أخيه وفتكه بها . إستيلاء المقتدر على طرطوشة . طرطوشة تحت حكم الفتيان العامريين. غزوة النورمانيين لبربشتر . أصل هذه الحملة وظروفها . صفتها الصليبية. حصار النورمانيين لبربشتر واقتحامهم لها . فظائع النورمانيين وفتكهم بأهلها. رواية ابن حيان. فداحة الغنائم والسبايا . تأملات ابن حيان عن الحادث . نظراته وتكهناته البعيدة . صدى النكبة فى الأندلس. نهوض المقتدر لاسترداد بربشتر وتقاطر المجاهدين إليها . استيلاء المقتدر على المدينة . الفتك بالنصارى وإبادتهم . إعتداء فرناندو ملك قشتالة على أعمال سرقسطة . خضوع المقتدر لأداء الجزية . المقتدر وعلاقته بالملوك النصارى. استعانته بهم . مشاريعه العسكرية . المقتدر وأخوه يوسف المظفر . السيد إلكمبيادور فى خدمة المقتدر . استيلاء المقتدر على مملكة دانية . وفاة المقتدر . تقسيمه المملكة بين ولديه . صفات المقتدر بن هود وخلاله . شغفه بالعلوم الرياضية . فخامة بلاطه . إنشاؤه لقصر الجعفرية ومجلس الذهب .

كانت مملكة سرقسطة أو الثغر الأعلى أعظم ممالك الطوائف وأهمها ، ليس فقط بضخامة رقعتها ، ولكن كذلك بموقعها الدقيق الخطر ، بين الدول الإسبانية النصرانية ، بين قطلونية من الشرق ، وناقارا أو نبرّه من الشمال الغربى ، وقشتالة من الجنوب والغرب ، وكانت فى الوقت نفسه أقدم الدول الأندلسية المستقلة ، وأرسخها جذوراً فى الاستقلال . ذلك أنها كانت بموقعها المنعزل النائى فى شمال شرقى الجزيرة ، وابتعادها بذلك عن مجموعة الدول الأندلسية

الأخرى ، تضطر دائماً إلى مضاعفة الجهود للذود عن حياتها ، والدفاع عن استقلالها ضد مختلف الأطماع المضطرمة من حولها .

وكانت مملكة سرقسطة ، قبل اضطرام الفتنة وانهيار الخلافة ، وقبل أن تنتظم فى سلك ممالك الطوائف ، تعرف بولاية الثغر الأعلى ، وهو يشمل فى الجغرافية الأندلسية ، مدينة سرقسطة وأعمالها ، تطيلة ، ووشقة ، وبربشتر ، ولاردة ، وأفراغة ، وطرّكونة ، وطرطوشة ، ويشغل المنطقة الواسعة الخصبة التى يخترقها نهر إيبرو ( إبرُه ) من مصبه عند مدينة طرطوشة، حتى مدخله عند مدينة قلهرّة فى ولاية نافار ، ويخترقها فرعه الشمالى الكبير نهر سجرى والأفرع الصغيرة الممتدة منه نحو بربشتر ووشقة، وفرعه الجنوبى خالون حتى قلعة أيوب ودَروقة : فى هذه المنطقة الشاسعة التى تكثر فيها الوديان اليانعة والمواقع الاستراتيجية ، كانت تقوم مملكة سرقسطة مكان ولاية الثغر الأعلى القديمة ، مشتملة على سائر نواحيها .

وقد لبثت ولاية الثغر الأعلى خلال القرن الثالث الهجرى ( التاسع الميلادى ) مسرحاً لمغامرات بنى قسىّ زعماء الثغر المولدين ، حسبما فصلنا ذلك فى مواضعه من العصر الأول(١) .

وفى أواخر هذا القرن ، فى عهد الأمير عبد الله بن محمد ، استطاع بنو تجيب أصحاب دروقة وقلعة أيوب من أعمال الثغر الجنوبية ، الاستيلاء على مدينة سرقسطة ، وذلك على يد زعيمهم أبى يحيى محمد بن عبد الرحمن التجيبى المعروف بالأنقر . وأقره الأمير عبد الله على حكم سرقسطة وأعمالها اكتساباً لولائه ، وكان بنو تجيب هؤلاء من زعماء البيوتات العربية العريقة فى الثغر ، واستمر بنو تجيب فى سرقسطة ، والمنتزون من زعماء المولدين فى باقى قواعد الثغر مثل تطيلة ووشقة ، أحياناً على ولائهم لحكومة قرطبة ، وأحياناً يخرجون على طاعتها ، حتى استطاع الناصر أن يقضى على ثوراتهم ، وأن يرغمهم على الخضوع والطاعة ، بيد أنه عفا عن بنى تجيب ، ورد زعيمهم محمد ابن هشام التجيبى إلى منصبه حاكما لسرقسطة ، لما كان يتمتع به من مقدرة إدارية ، ولما كان لبنى تجيب فى الشمال من العصبة والأنصار.

---

(١) راجع « دولة الإسلام فى الأندلس » ( العصر الأول ) .

وفى أيام المنصور بن أبى عامر ، شعر بنو تجيب بما يهدد سيادتهم فى الثغر من اتجاه المنصور إلى القضاء على سلطان الأسر العربية ، وزعامتها المحلية ، فحاول زعيمهم يومئذ وهو عبد الرحمن بن مطرّف التجيبى ، صاحب سرقسطة أن يسعى إلى إزالة المنصور بالتآمر مع ولده عبد الله . وقد فصلنا أخبار هذه المؤامرة فيما تقدم من أخبار الدولة العامرية[1] ، وبينا كيف استطاع المنصور أن يقبض على عبد الرحمن التجيبى ، وعلى عبد الله ، ثم قضى بإعدامهما ، بيد أنه مع ذلك ندب لحكم سرقسطة ، يحيى بن عبد الرحمن التجيبى استبقاء لولاء الأسرة جرياً على سياسة أسلافه ، وذلك فى سنة ٣٧٩ هـ ( ٩٨٩م ) .

واستمر يحيى التجيبى فى حكم سرقسطة وأعمالها حتى وفاته فى سنة ٤٠٨ هـ (١٠١٧ م )، وشهد قبل وفاته اضطرام الفتنة ، وانهيار الخلافة ، وتمزق الأندلس، وكان جل عنايته فى تلك الآونة العصيبة أن يحافظ على بلاده من عدوان النصارى ، وأن يوطد سلطانه فى مملكته النائية المنعزلة عن مسرح الحوادث . ولما توفى ، خلفه ولده المنذر بن يحيى التجيبى .

ويمكننا أن نعتبر المنذر بن يحيى التجيبى أول أمير للثغر فى عهد الطوائف. فحكم سرقسطة وأعمالها ، وتسمى بالحاجب ذى الرياستين ، وتلقب من الألقاب السلطانية بالمنصور ، ولما تطورت الحوادث فى قرطبة ودخلها على بن حمود بحجة إنقاذ الخليفة هشام المؤيد ، ودعا لنفسه بالخلافة ، كان المنذر بن يحيى إلى جانب خيران وزملائه الفتيان العامريين فى معارضته ومقاومته . ولما رشح هؤلاء للخلافة عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن الناصر ، وتلقب بالمرتضى ، وساروا معه هم وأنصارهم فى قواتهم لمقاتلة البربر ، وخلع على بن حمود ، سار معهم المنذر بن يحيى فى بعض قواته ، ومعه فرقة من المرتزقة النصارى بقيادة حليفه الكونت رامون أمير برشلونة ، وكان من ضباطه فى تلك الحملة رجل كان له فيما بعد أكبر شأن فى تطور الحوادث فى الثغر الأعلى هو سليمان بن هود. ونحن نعرف ما أسفرت عنه المعركة التى اضطرمت يومئذ فى ظاهر غرناطة بين القوات الأندلسية ، وجيش البربر بقيادة زاوى بن زيرى الصنهاجى ، وكيف

---

(١) راجع « دولة الإسلام فى الأندلس » ( العصر الأول ) .

انتهت بهزيمة أهل الأندلس ، ومقتل مرشحهم الخليفة المرتضى ( ٤٠٩ هـ — ١٠١٨ م )[١] .

وعاد المنذر وحلفاؤه النصارى إلى الشمال ، وقد أيقن أنه يؤازر قضية خاسرة ، وكانت حوادث بلنسية تؤذن يومئذ بأن تفتح ميداناً جديداً لنشاط المنذر . ذلك أنه لما توفى أميرها الفتى مبارك فى أواخر سنة ٤٠٨ هـ ، وخلفه فى حكمها الفتى لبيب العامرى صاحب طرطوشة بدعوة من أهلها ، ثم شاركه فى حكمها مجاهد العامرى صاحب دانية حسبما فصلنا ذلك فى موضعه ، عاد أهل بلنسية فسخطوا على لبيب ، لوقوعه تحت نفوذ صاحب برشلونة الكونت رامون برنجير ، وإفساحه له مجال التدخل فى شئونها بصورة ظاهرة ، وثاروا عليه ، ففر لبيب إلى طرطوشة ، واستمر مجاهد فى حكم المدينة بالإضافة لحكم دانية . ولكن أهل بلنسية لم يقنعوا بذلك ، واستدعوا لحكم المدينة المنذر بن يحيى ، فسار فى بعض قواته صوب بلنسية ، واستعد مجاهد للقائه ، ووقعت بينهما بعض معارك خشى الناس عواقبها ، ولم ينقذ ذلك الموقف إلا ما عمد إليه الفتيان العامريون من الاجتماع ، وعقد البيعة لحفيد مولاهم عبد العزيز بن عبد الرحمن ابن المنصور ، وتعيينه أميراً لبلنسية ، وذلك فى سنة ٤١١ هـ ( ١٠٢١ م ) وعندئذ انسحب مجاهد إلى دانية ، وعاد المنذر إلى سرقسطة[٢] .

واستمر المنذر فى حكم مملكة سرقسطة ثلاثة أعوام أخر حتى توفى فى سنة ٤١٤ هـ ( ١٠٢٣ م ) . وكانت تربط المنذر بجيرانه الأمراء النصارى ، ولاسيما رامون بوريل أمير برشلونة علائق مودة وثيقة ، وكذلك كانت تربطه مثل هذه العلائق بسانشو الكبير ( شانجه ) ملك نافار وولده فرناندو الأول ملك قشتالة ، وألفونسو الخامس ملك ليون . وقد بالغ المنذر فيما يبدو فى صداقته لأولئك الملوك النصارى ، حتى أنه نظم فى قصره بسرقسطة ، حفلا لعقد المصاهرة بين أميرين من أولئك الأمراء ، هما سانشو ملك نافار ورامون بوريل أمير برشلونة ، حضره الفقهاء والقساوسة وأعيان الملتين ، فسخط عليه الناس من أجل ذلك ، ورموه بألسنة حداد ، بيد أنه قد حقق بهذه السياسة لنفسه مسالمة

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٢٦ و ١٢٧ . وراجع Dozy : Hist. V. II. p 315—318

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١٦٣ و ١٦٤ .

أولئك الملوك النصارى ، وكف عاديتهم عن بلاده ، بل لقد استطاع أن يحملهم على اتباع سياسة الموادعة والسلم مع جيرانهم من الملوك المسلمين . ومن ثم فقد تمتعت سرقسطة فى عهده القصير بفترة من الدعة والرخاء، وغدت باتساع عمرانها وتقدم أحوالها، شبيهة بحضرة قرطبة الكبرى أيام الجماعة، وأدرك الناس بعد وفاته، بعد نظره وحسن تقديره للعواقب[1] .

وكان المنذر فوق ذلك يعشق الأبهة والبذخ ، فملأ قصره الفخم بالجوارى والغلمان والحشم ، ونفيس الذخائر والتحف ، وكان يتحف أصدقاءه ملوك النصارى بالهدايا الفاخرة ، ويؤكد بذلك مودتهم ورضاهم وكان بين وزرائه بعض أكابر كتاب العصر ، مثل أبى العباس بن مروس من تدمير ، وأبى عامر ابن أزرق ، وابن واجب وغيرهم .

وأنشأ شاعر العصر أبو عمر بن دراج القسطلى فى مديح المنذر حينما وفد عليه قصيدته المشهورة التى مطلعها :

بشراك من طول الترحل والسُّرى صبح بروح السَّفر لاح فأسفرا
من حاجب الشمس الذى حجب الدجى فجرا بأنهار الندى متفجرا

ومنهـــا :

فلئن تركت الليل فوق داجياً فلقد لقيت الصبح بعدك أزهرا
وحللت أرضاً بُدلت حصباؤها ذهباً يرف لناظرىّ وجوهرا
ضربوا قِداحهم علىّ ففاز بى من كان بالقِدْح المعلّى أجدرا[2]

ولما توفى المنذر ، خلفه ولده يحيى ، وتلقب بالمظفر ، وحكم سرقسطة وأعمالها بضعة أعوام أخرى ، وتوفى سنة ٤٢٠ هـ ( ١٠٢٩ م ) . والظاهر أنه لم يحكم سياسة الصداقة التى كان يتبعها أبوه مع جيرانه أمراء برشلونة ، حيث أغار صاحبها الكونت رامون بوريل على بعض أطراف مملكته ، واضطر أن ينزل له عن بعض القلاع والحصون .

وخلفه فى الملك ولده المنذر بن يحيى ، وتلقب بالحاجب معز الدولة . ولسنا نعرف شيئاً عن أعمال هذا الأمير فى المدة التى حكمها ، وهى نحو عشرة

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٧٦ و ١٧٧ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٦٣ . وراجع دوزى Recherches, V. I. App. XIV & XVII

(٢) وهى قصيدة طويلة رائعة . وقد وردت فى ديوان ابن دراج الذى سبقت الإشارة إليه ص ١٢٤ — ١٣٠ . وأورد لنا ابن بسام فى الذخيرة منها مقتطفات طويلة (الذخيرة — القسم الأول المجلد الأول — ص ٥٦ — ٥٨ ) .

أعوام . بيد أن لدينا تفاصيل مقتله ، وذهاب ملك بنى تجيب على يده . وكان ذلك فى غرة ذى الحجة سنة ٤٣٠ هـ ( أغسطس ١٠٣٩ م ) حينما نفذ إلى قصره فى ذلك اليوم رجل من بنى عمومته وقواده يدعى عبد الله بن حكيم ، جاء بزعم السلام عليه ، وكان يضمر له السوء منذ بعيد . وكان المنذر يجلس بين نفر قليل من خدمه الصقالبة ، وليس عليه إلا غلالة ، وهو يقرأ فى كتاب فى يده ، فانقض عليه وطعنه فى عنقه بسكين كان قد أعده ، فقطع أوداجه ، وفر الخدم فى الحال ولم يبق منهم إلا خادم واحد شهم حاول الدفاع عن سيده ، فصرعه عبد الله بخنجره ثم أجهز على منذر ، واحتز رأسه ، وأبرزها من شرفة فى القصر مرفوعة على عصا ، وهو يصيح هذا جزاء من عصى أمير المؤمنين هشاماً ، يريد بذلك الدّعى الذى نصبه القاضى ابن عباد فى إشبيلية ، وزعم أنه الخليفة هشاماً المؤيد ، وذلك فى سنة ٤٢٦هـ ( ١٠٣٥ م ) ، واعترف بخلافته عدد من أمراء الطوائف ، ورفض يحي التجيبي يومئذ الاعتراف به ، وتابعه فى ذلك ولده المنذر . ولما شهد الناس رأس منذر بهتوا وعقد الذعر ألسنتهم ، وأرسل القاتل فى الحال إلى القاضى والأعيان ، فحضروا إلى القصر والقاتل جالس على فراش قتيله ، وجثة منذر مضرجة بدمائها ملقاة إلى جانبه ، فأعلن لهم أنه فعل ما فعل فى سبيل الإصلاح العام ، ودعا بالحكم لسليمان بن هود ، وقيل بل دعا لنفسه واختاره بنو عمه للولاية فانصرف الناس ، وقد بيتوا القضاء عليه .

وفى تلك الأثناء كان نبأ مصرع المنذر بن يحي التجيبي قد ذاع فى كل مكان ، وهرع خاله إسماعيل بن ذى النون صاحب طليطلة إلى سرقسطة لتدارك الأمر ، واشتد الهرج فى سرقسطة ، وكادت تعصف بها الفتنة ، وهجم الناس على القصر لانتزاع القاتل ومعاقبته ، فتحصن بالقصبة ، وصمم على الدفاع عن نفسه ، بيد أنه لما أيقن أنه سوف يقع فى أيدى مهاجميه لامحالة ، جمع ما استطاع من ذخائر القصر وتحفه ، وخرج هارباً من باب خلفى فى القصر ، ولحق بقلعة روطة أحد معاقل سرقسطة المنيعة ، وكان قد أعدها لذلك بمعاونة نفر من صحبه ، وحمل معه فى نفس الوقت أخوين للمنذر ، وبعض أعيان منهم وزيره أبو المغيرة بن حزم ، فى الأصفهاد ليكونوا رهائن لديه ، واقتحم العامة قصر سرقسطة ونهبوه وخربوه ، وعم الهرج والفوضى .

وفى تلك الآونة ظهر فى الميدان رجل ، كانت تدخره الأقدار ليقمع الفتنة، وينتزع مقاليد الحكم . ذلك الرجل هو أبو أيوب سليمان بن محمد بن هود الجذامى ، وهو كبنى تجيب ينتمى إلى بيت عربى عريق ، وجدهم الأعلى هو هود وهو الداخل إلى الأندلس وينتسب إلى الأزد . وكان سليمان وقت وقوع الفتنة من كبار الجند بالثغر الأعلى ، فغلب على مدينة لاردة ، وقتل صاحبها يومئذ ، وهو أبو المطرِّف التجيبى ، ثم غلب على تُطيلة من أطراف الثغر ، وكان بها فى جمع من صحبه وقت مقتل المنذر التجيبى ، فلما وقف على ما حدث بسرقسطة ، هرع إليها فى صحبه ، وقيل بل كان وقت وقوع الحادث بمدينة لاردة ، وأن أهل سرقسطة هم الذين استدعوه للحضور . ويقدم لنا ابن خلدون رواية أخرى خلاصتها أن سليمان بن هود هو الذى ارتكب جريمة سرقسطة ، وأن الملك القتيل لم يكن هو المنذر معز الدولة ، وإنما كان أبوه يحيى المظفر ، وهو الذى كان يحكم يومئذ ، ويضع تاريخ هذا الحادث فى سنة ٤٣١ هـ[١] .

ولم يذكر ابن الخطيب واقعة القتل ، ويقول لنا إن أهل سرقسطة هم الذين ثاروا بيحيى بن المنذر بن يحيى ، وصرفوا طاعتها إلى سليمان بن هود[٢] . بيد أن هاتين الروايتين تنقضهما رواية ابن حيان المعاصرة ، وهى التى اتبعناها فيما تقدم ، وهى رواية يؤيدها صاحب البيان المغرب[٣] .

وعلى أى حال فقد هرع سليمان بن هود فى صحبه إلى سرقسطة ، واستولى عليها فى غرة المحرم سنة ٤٣١ هـ ( ٢٣ سبتمبر سنة ١٠٣٩ م ) وسواء أكان استيلاؤه عليها نتيجة لدعوة أهلها ، واختيارهم إياه لولايتها ، أم كان عملا من أعمال القوة وهو الأرجح ، فإن الواقع أنه استولى على مقاليد الحكم دون منازع ، وبذلك انتهت رياسة التجيبيين للثغر الأعلى ، بعد أن لبثت زهاء قرن ونصف ، وبدأت فى سرقسطة والثغر الأعلى رياسة أسرة جديدة هى أسرة بنى هود ، التى يخصها ابن الأبار دون غيرها من أسر الطوائف ، بغلبة الشجاعة والشهامة عليها[٤]

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٣.

(٢) أعمال الأعلام ص ١٧٠ .

(٣) راجع رواية ابن حيان مفصلة فى البيان المغرب ج ٣ ص ١٧٨ — ١٨١ ، وقد عاد صاحب البيان فأورد رواية مماثلة : ج ٣ ص ٢٢١ و ٢٢٢ .

(٤) الحلة السيراء (دوزى) ص ٢٢٤ . والقاهرة ج ٢ ص ٢٤٦ .

والتى لعبت فى عصر الطوائف ، ولاسيا فى حوادث الثغر الأعلى وشرقى الأندلس ، أعظم دور .

## ٢ — عهد بنى هود

جلس سليمان بن محمد بن هود على عرش سرقسطة فى غرة المحرم سنة ٤٣١ﻫ وحكم الثغر الأعلى ما عدا طرطوشة ، التى كانت بيد بعض الفتيان العامريين ، واتخذ من الألقاب السلطانية لقب المستعين بالله ، وظهر منذ البداية بقوة عزمه وشدة بأسه ، فاشتهر أمره ، وتوطد ملكه بسرعة ، واستمر فى حكم مملكته الجديدة ثمانية أعوام . وكان أهم ما وقع فيها حروبه مع المأمون بن ذى النون . وكانت المنطقة الواقعة بين المملكتين ، من ناحية الجنوب الغربى من مملكة سرقسطة وناحية الشمال الشرقى من مملكة طليطلة ، موضع الاحتكاك بين الفريقين . وقد أشرنا فيما تقدم إلى أن بنى ذى النون كانوا خؤولة للمنذر بن يحيى آخر أمراء سرقسطة من بنى تجيب ، وهو الذى احتل سليمان بن هود عرشه ، فكان ذلك عاملا آخر فى اشتداد هذه الخصومة . ووقعت المعارك بين الطرفين أولا حول مدينة وادى الحجارة ، وقد كانت من أعمال طليطلة ، فبعث إليها سليمان بن هود ولده أحمد فى جيش قوى فنازلها واحتلها ، وذلك فى سنة ٤٣٦ ﻫ ( ١٠٤٤ م ) ، وهرع إليها المأمون بن ذى النون فى قواته ، ونشبت بين الجيشين معارك هزم فيها ابن ذى النون ، فارتد فى قواته إلى طلبيرة ، وابن هود يطارده ، ويشدد الضغط عليه ، ولم ينج المأمون من هذا المأزق إلا حينما أمر سليمان ولده أحمد بتركه وشأنه .

وقد فصلنا فيما تقدم من أخبار مملكة طليطلة حوادث هذا النزاع ، وبينا كيف لجأ المأمون على أثر هزيمته إلى فرناندو الأول ملك قشتالة ، فاستغاث به واعترف بطاعته ، وكيف أمده فرناندو بجنده ، فعاثت فى أراضى مملكة سرقسطة وخربتها ، وعندئذ التجأ ابن هود بدوره إلى الاستعانة بملك قشتالة ، وبذل له أموالا وتحفاً جليلة ، فبعث فرناندو جنوده فعاثت فى أراضى طليطلة حتى وادى الحجارة وقلعة النهر ( قلعة هنارس ) . ورد المأمون على ذلك بأن التجأ إلى غرسية ملك ناڤار واستماله بالأموال الجليلة ، فأغار على أراضى مملكة سرقسطة المجاورة له ورد ملك قشتالة على ذلك بالإغارة على أراضى طليطلة مرة أخرى . وهكذا تفاقمت هذه الحرب الأهلية المدمرة بين ابن هود والمأمون ، الأميرين المشئومين

على المسلمين » وفقاً لقول ابن حيان ، وضج لها سائر أهل الأندلس . واستمر ملكا قشتالة ، وناڤار ، يعملان بكل ما وسعا على إذكاء هذه الفتنة ، فيغير الأول على أراضى طليطلة لحساب ابن هود ، ويغير الثانى على أراضى سرقسطة لحساب ابن ذى النون ، ولم تخمد هذه المعركة الانتحارية بين الأميرين المسلمين إلا بوفاة ابن هود وذلك فى سنة ٤٣٨ هـ ( ١٠٤٦ م ) ، وذلك كله حسبما فصلناه من قبل[١] .

وقسم سليمان بن هود قبيل وفاته أعمال مملكته بين أولاده الخمسة ، فاختص أحمد بولاية سرقسطة عاصمة المملكة ، ويوسف بولاية لاردة ، ولب بولاية وشقة ، والمنذر بولاية تُطيلة ، ومحمد بولاية قلعة أيوب[٢] ، واستقل كل بحكم مدينته ، وأعمالها . بيد أن تقسيم المملكة على هذا النحو لم يكن عملا سليما ، وكان بالعكس نذيراً بالخلاف والحرب الأهلية . وكان أحمد صاحب سرقسطة وهو الملقب بالمقتدر من بين إخوته الخمسة أشدهم أطماعاً ، وأنشطهم سعياً إلى انتزاع ما فى أيديهم . وقد استطاع بالفعل أن يحتال على ثلاثة من أخوته بالوعيد والختل ، وهم لب صاحب وشقة ، والمنذر صاحب تطيلة ، ومحمد صاحب قلعة أيوب ، وأن يستولى على مدنهم ، ثم سجنهم ، وبلغت به القسوة أن سمل أعينهم . بيد أن أخاه يوسف صاحب لاردة ، وهو الملقب بحسام الدولة وبالمظفر ، كان له نداً ، وكان بطلا شهما ، وهو الذى استطاع وحده أن يقف فى سبيل أطماعه ، وأن يحبط محاولاته ودسائسه .

وهنا وقعت الحرب الأهلية بين الأخوين ، وكان أهل الثغر حينما رأوا ما صنعه أحمد بأخوته ، وما لجأ إليه من الوسائل الغاشمة فى اغتصاب ولاياتهم ، قد سخطوا عليه ونادوا بخلعه ، وخرجت معظم القواعد عن طاعته ، وانضمت إلى أخيه ، ولم يتبق له سوى سرقسطة . فأخذ يرقب فرصة للتنكيل بأخيه ، وسنحت هذه الفرصة غير بعيد . ذلك أن مدينة تطيلة ، وهى من القواعد التى انضمت إلى يوسف المظفر ، دهمتها المجاعة والغلاء ، فاستغاث به أهلها ، فدعا أهل الثغور إلى جمع الأطعمة والمؤن ، فاجتمع منها قدر عظيم ، ورأى يوسف

---

(١) راجع فى أدوار تلك المعركة البيان المغرب ج ٣ ص ٢٧٧ — ٢٨٣ ، وأعمال الأعلام ص ١٧٨ . وكذلك Dozy : Histoire V III., p. 74 & 75

(٢) تسمى وشقة بالإسبانية Huesca ، وتطيلة Tudela ، وقلعة أيوب Calatayud

أنه لايستطيع إرسال هذه الأمداد إلى تطيلة عن طريق سرقسطة خوفاً من غدر أخيه ، ففاوض غرسية ملك نافار ، وبعث إليه مالا لكى يسمح بمرور هذه المؤن عبر أراضيه إلى تطيلة ، فأجابه إلى طلبه . وعلم أحمد بذلك فبعث سراً إلى غرسية ، يبذل له ضعف الأموال التى بعثها إليه أخوه ، على أن يمكنه من الفتك بقافلة المؤن حين مرورها داخل أرضه ، فاستجاب الملك النصرانى إلى ذلك الإغراء الدنىء ، وتم ما دبره أحمد . ذلك أن قافلة المؤن ، وكانت تتكون من بضع آلاف من الجند ، وعدد كبير من الخيل والدواب ، ماكادت تجوز أراضى نافار ، شمالى شرقى تطيلة ، حتى دهمتها قوات أحمد المقتدر التى رتبها بممالأة غرسية ، وفتكت بها ، وأبيد معظم رجالها قتلا وأسراً ، واستولى النصارى على أسلابهم وماكان معهم من المؤن ، ولم ينج منهم سوى القليل ، وكانت واقعة شنيعة تنبئ عما كانت تنطوى عليه طبيعة أحمد المقتدر من صفات الغدر والاستهتار . وكان من أثرها ، أن ضعف أمر يوسف ، وتوطد سلطان أحمد ، واشتد بأسه ، وهابه الناس ، واسترد القواعد التى كانت تحت يده[1] .

وكانت ضربة المقتدر التالية ، استيلاؤه على ثغر طرطوشة . وكان هذا الثغر الذى يعتبر مخرج سرقسطة إلى البحر ، إذا استثنينا ثغر طركونة الواقع على حدود إمارة برشلونة ، والذى كان من أعمال لاردة ، كان منذ عهد الفتنة بيد بعض الفتيان العامريين. وكان أول من استولى عليها منهم وحكمها لبيب العامرى ، وكان حازماً قوى البأس ، وحاول المنذر بن يحيى التجيبى أن ينتزعها منه فاستغاث بمبارك صاحب بلنسية فأمده بجنده ، ورد عنها المنذر ، ولما توفى مبارك فى سنة ٤٠٨ هـ ، خلفه لبيب فى حكم بلنسية بدعوة من أهلها ، ولما اختلف على ذلك مع زميله مجاهد العامرى ، عاد إلى طرطوشة واستمر فى حكمها حتى توفى فى ٤٣٣ هـ ( ١٠٤١ م ) ، فخلفه فى الحكم فتى آخر من الصقالبة العامريين يدعى مقاتل ، وتلقب بسيف الملك ، واستمر فى حكمها حتى وفاته فى سنة ٤٤٥ هـ ( ١٠٥٣ م ) . فخلفه الفتى يعلى من موالى العامريين أيضاً ، ثم حكمها من بعده الفتى نبيل . وكان المقتدر بن هود أثناء ذلك ينظر إلى سيطرة أولئك الفتيان الصقالبة على طرطوشة بعين السخط ، ويتحين الفرص لانتزاع هذا الثغر

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٢٣ و ٢٢٤ .

الهام من أعمال مملكته . وأخيراً سنحت هذه الفرصة ، حينما اضطرمت طرطوشة ضد الفتى نبيل بالثورة وزحف عليها المقتدر فى قواته فسلمها إليه نبيل فى الحال وخرج عنها ، وانتهت بذلك دولة الفتيان الصقالبة بها ( ٤٥٢ هـ — ١٠٦٠ م )[١].

* * *

على أن أعظمَ حادث أوبعبارة أخرى أعظم محنة نزلت بالمسلمين فى عهد المقتدر بن هود ، هو غزو النورمانيين لمدينة بربشتر[٢] ، وفتكهم بأهلها بأشنع وأفظع ما سجلت صحف التاريخ . وقد دون لنا ابن حيان ، وكان يعيش فى قرطبة وقت وقوع هذه المحنة ، تفاصيلها بإسهاب ، وبعبارات مؤثرة مبكية . ذلك أن حملة كبيرة من النورمانيين ( أو الأردمانيين فى الرواية العربية ) تقدرها الرواية بعشرة آلاف فارس ، بقيادة جيوم دى مونرى ، نزلت بشاطىء قطلونية وسارت نحو الشرق مخترقة أراضى مملكة سرقسطة الشمالية . وقد اختلفت الرواية فى تكييف ظروف هذه الحملة وفى مصدر قدومها ، وفيمن نظمها وقادها . بيد أنه يستخلص من مختلف الروايات الخاصة بها ، أنها حشدت فى ولاية نورمانديا الفرنسية ، حيث كان النورمان قد استقروا بها قبل ذلك العصر بموافقة ملك فرنسا ، وأن أولئك النورمان خرجوا عندئذ فى طلب المغامرة والكسب ومعهم جموع كبيرة من الفرسان الفرنسيين . أما قائد الحملة فهو الفارس جيوم دى مونرى . وكان جيوم دى مونرى هذا من أكابر فرسان عصره ، وقد وفد قبل ذلك على إيطاليا فى أواسط القرن الحادى عشر ، وخدم الكرسى الرسولى حتى أصبح قائد الجيوش الرومانية والبابوية . أما بواعث قيادته لهذه الحملة ، ولماذا قصدت إلى شاطىء قطلونية ، فما يحيط به الغموض . على أنه يبدو من جميع الظروف أنها كانت من الحملات الناهبة التى تستتر بالصفة الصليبية ، والتى تقصد العيث والنكاية ، والغنم والسبى فى أراضى المسلمين أينما كانت . ويؤيد البحث الحديث هذه الصفة الصليبية للحملة ، ويقول لنا إن الذى دفع إلى إعدادها هو البابا اسكندر الثانى[٣]. والرواية الإسلامية صريحة واضحة فى أن هذه الحملة قد قدمت

---

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٥٠ و ٣٠٢ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٦٣ . وكذلك :
P. y Vives : Los Reyes de Taifas ; p. 38 & 39

(٢) هى بالإسبانية : Berbastro

(٣) I. de las Cagigas : Los Mozarabes p. 453

من فرنسا . فهى تقول لنا « إن الفرنج خرجوا من الأرض الكبيرة ( أى فرنسا ) إلى الأندلس فى جموع كبيرة ليس لها حد ، ولا يحصى لها عدد إلا الله ، وانتشروا على ثغور سرقسطة »(١) . ثم إنه ليس من الواضح أيضاً ما إذا كانت هذه الحملة قد عبرت إلى اسبانيا من طريق جبال البرنيه ، أم جازت إلى قطلونية بطريق البحر . وعلى أى حال فقد نزل أولئك النورمان فى قطلونية واجتازوا إلى أراضى مملكة سرقسطة ، إذ كانت تحمى مؤخرتها أرض نصرانية هى مملكة برشلونة . وقصدوا أولا إلى مدينة وشقة إحدى قواعد سرقسطة الرئيسية ، فنازلوها أياماً ، ولما لم ينالوا منها مأرباً غادروها وساروا شرقاً حتى مدينة بربشتر ، وهى لا تقل عن وشقة أهمية وحصانة .

وتقع مدينة بربشتر على فرع صغير من أفرع نهر إبره بين مدينتى لاردة ووشقة ، فى الشمال الشرقى لسرقسطة ، وكانت يومئذ من أمتع القواعد الإسلامية الشمالية . فنزل عليها النورمان ، وضربوا حولها الحصار ، وذلك فى أوائل سنة ٤٥٦ هـ ( ربيع سنة ١٠٦٤ م ) . ولم يبادر المقتدر لإنجاد المدينة المحصورة ، إذ كانت من أعمال أخيه يوسف المظفر ، فكان ذلك منه جبناً ونذالة ، أدرك عواقبهما فيما بعد ، ولم يستطع يوسف نفسه إنجادها ، فتركها لمصيرها . واستمر الحصار أربعين يوماً ، والمسلمون صامدون داخل مدينتهم الحصينة ، وكانت حاميتها تخرج من آن لآخر ، وتخوض مع الأعداء معارك شديدة ، ثم ترتد إلى الداخل . ولما اشتد الضيق بالمدينة المحصورة ، وعزت الأقوات ، وقع الهرج والتنازع بين أهلها ، وعلم النورمان بذلك ، فشددوا قبضتهم وضاعفوا جهودهم ، واستطاعوا بعد قتال عنيف أن يقتحموا المدينة الخارجية ، واحتلها منهم نحو خمسة آلاف دارع ، ودافع المسلمون عن أنفسهم أشد دفاع ، وقتلوا من المهاجمين نحو خمسمائة ، ثم تحصنوا بالقصبة والمدينة الداخلية معولين على الدفاع عن أنفسهم لآخر لحظة ، لولا أن حدث حادث عجل بوقوع الكارثة . ذلك أن القصبة كان يمدها بالماء سرب داخلى تحت الأرض متصل بالنهر ، فوقف النورمان على سره من أحد الخونة فهدموه وألقوا فيه صخرة عظيمة ، وانقطع

(١) الحلل الموشية ص ٥٤ . وراجع أيضاً الروض المعطار (صفة جزيرة الأندلس) ص ٤٠ حيث يقول لنا فى كلامه عن بربشتر : « وقد غزاها على غرة وقلة عدد من أهلها وعدة ، أهل غاليش والروذمانون » . وغاليش هى فرنسا ، والروذمانون هم النورمان .

الماء عن المحصورين ، واشتد بهم الظمأ وبدا لهم شبح الموت جاثماً ، فبعثوا إلى النورمان يعرضون التسليم على أن يؤمنوا فى أنفسهم وأولادهم، وأن يخرجوا من المدينة دون مال ، فوافق النورمان على ذلك . وفى رواية أخرى أن النورمان أبوا ذلك ، واضطر المسلمون إلى مدافعتهم ، حتى اقتحموا عليهم المدينة .وعلى أى حال فقد دخل النورمان المدينة دخول الوحوش المفترسة ، وأمعنوا فى أهلها قتلا وسبياً ، ولم يطلقوا منها غير قائدها ابن الطويل ، وقاضيها ابن عيسى ، ونفر قليل من الأعيان .

وهنا تبسط الرواية الإسلامية القول فيما ارتكبه النورمان من الفظائع ، وتقدر عدد القتلى والأسرى من أهل المدينة بأربعين ألفاً(١) أو بخمسين ألفاً ، بل بمائة ألف فى رواية أخرى ، وهلك عدد كبير من النساء ، حينما تطارحن على الماء لإرواء ظمئهن، فكبسهم العدو للأذقان موتاً . ولما خرجت الجموع من المدينة فى ظل الأمان المقطوع ، ورأى قائد النصارى كثرتهم، هاله ذلك ،وخشى أن تأخذ الجموع الحمية ، فيهبوا لاستنقاذ أنفسهم ،فأمر ببذل السيف فيهم ليخفف من أعدادهم ، فقتل منهم عندئذ مايزيد على ستة آلاف . ومات خلال الزحام كثير من الشيوخ والأطفال، وتدلى كثير من الأسوار اتقاء الزحمة،وامتنع نحو سبعمائة رجل بالقصبة ، فمات معظمهم عطشاً . على أن ذلك لم يكن أشنع مانزل بالمسلمين بل كانت تنتظرهم فظائع أخرى لايخلق ارتكابها إلا بأخس المحاربين وأنذلهم ، ونحن نترك القول هنا لابن حيان ، يصف لنا بقلمه البليغ طرفاً من تلك المناظر البشعة المؤسية :

« ولما برز جميع من خرج عن المدينة بفناء بابها بعد من خفف منهم بالقتل ، وهلك فى الزحمة ، ظلوا قياماً ذاهلين ، منتظرين نزول القضاء فيهم ، نودى فيهم بأن يرجع كل ذى دار إلى داره وطنه بأهله ، وأزعجوا لذلك ،فنالهم من الازدحام ، قريباً مما نالهم فى الخروج عنها . ولما استقروا بالدور مع عيالهم وذرياتهم،اقتسمهم المشركون ، فأمر سلطانهم ، فكل من صارت فى حصته دار حازها ، وحازمافيها من أهل وولد ومال . فيحكم كل علج منهم فيمن سلط عليه من أرباب الدور بحسب ما يبتليه الله به منهم ، يأخذ كل ما أظهره إليه ،

(١) الحلل الموشية ص ٥٤ .

ويقرره عليه فيما أخفى ، ويعذبه أشد العذاب ، وربما زهقت نفس المسلم من دون ذلك فاستراح ، وربما أنذره أجله إلى أسوأ من مقامه بذلك . فإن عداة الله يومئذ ، كانوا يتولعون بهتك حرم أسراهم وبناتهم بحضرتهم ، وعلى أعينهم إبلاغاً فى نكايتهم ، يغشون الثيب ، ويفتضون البكر ، وزوج تلك ، وأبو هذه ، موثق بقيد أسره ، ناظر إلى سخنة عينيه ، فعينه تدمع ، ونفسه يتقطع . ومن لم يرض ذلك منهم أن يفعله ، أعطى من خوله وغلمانه يعبثون فيهم عبثته ، فبلغ الكفرة منهم يومئذ مالاتلحقه الصفة على الحقيقة ، والحول والقوة لله العظيم » .

واستولى النصارى على مقادير هائلة من السبي والغنائم ، ولاسيما النساء والأطفال . يقول ابن حيان « زعموا أنه صار لأكبرهم قائد خيل رومة فى حصته نحو ألف وخمسمائة جارية أبكاراً ، ومن أوقار الأمتعة والحلى والكسوة خمسمائة حمل » ثم يقول بعد ذلك « ولما عزم ملك الروم ( يريد قائد النورمان ) على القفول يومئذ من بربشتر إلى بلده ، تخير من بنات المسلمين الجوارى الأبكار والثيب ذوات الجمال ، ومن صبيانهم الأيفاع ، والخود الحسان ألوفاً عدة حملهم معه ليهديهم إلى من فوقه » . ويقول لنا صاحب الروض المعطار ، إنه قد أهدى من أبكار الجوارى المسلمين وأهل الحسن منهن إلى صاحب قسطنطينية خمسة آلاف ، ويقدرهن ياقوت بسبعة آلاف « بكر منتخبة »[1] .

وربما كان فى تلك الأرقام — أرقام القتلى والأسرى والسبايا — مبالغة . ولكنها تدل على أى حال ، مع ما اقترن بها من الأعمال الوحشية المروعة التى وصفها لنا المؤرخ المعاصر ، على فداحة الخطب الذى نزل بأهل بربشتر ، وعلى مبلغ تجرد أولئك الغزاة النورمان من أبسط الصفات الإنسانية ، وهو خطب كان حسبما يصفه ابن حيان « أعظم من أن يوصف أو يتقصى » . ولما وصلت أنباؤه إلى قرطبة فى أوائل رمضان ( ٤٥٦ هـ ) ، حيث كان يقيم المؤرخ ، وذاعت فى مختلف الأنحاء اهتزت الأندلس من أقصاها إلى أقصاها ، وسادها الاشمئزاز والروع لتلك الفظائع والشناعات التى لم يسمع بمثلها .

وقد كانت هذه المحنة مادة خصبة لتأملات ابن حيان ، ونظراته النقدية الصائبة ، وإليك من أقواله تلك الفقرة التى تدلى بالنذير والنبوءة الصادقة ، وتفيض

---

(١) راجع الروض المعطار ص ٤٠ . وراجع معجم البلدان لياقوت تحت كلمة بربشتر .

بالتوجع لأحوال عصره . قال : « قد استوفينا فى شرح هذه الفادحة مصائب جليلة ، مؤذنة بوشك القلعة ، طالما حذر أسلافنا لحاقها بما احتملوه عمن قبلهم من آثاره . ولاشك عند أولى الألباب ، ما أخفيناه مما دهانا من داء التقاطع ، وقد أخذنا بالتواصل والألفة ، فأصبحنا من استشعار ذلك والتمادى عليه ، على شفا جرف يؤدى إلى الهلكة لامحالة ، إذ قدر الله زماننا هذا بالإضافة إلى ماعهدنا فى القرن الذى سلخه من آخر أمد الجماعة ، على إدراك مالحق الذى قبله ، فنل دهرنا هذا — لاقدس — بهيم الشبه ، ما إن يباهى بعرجه ، فضلا عن نزوح خيره ، قد غربل ضمائرهم ، فاحتوى عليهم الجهل ، فليسوا فى سبيل الرشد بأتقياء ، ولا على معالى الغى بأقوياء . نشأ من الناس هامل يعللون أنفسهم بالباطل ، من أول الدلائل على فرط جهلهم ، اغترارهم بزمانهم ، وبعادهم عن طاعة خالقهم ، ورفضهم وصية نبيهم ، وغفلتهم عن سد ثغرهم ، حتى أطل عدوهم الساعى لإطفاء نورهم ، يتبجح عراص دورهم ، ويستقرى بسائط بقاعهم ، يقطع كل يوم طرفاً ، ويبيد أمة ، ومن لدينا وحوالينا من أهل كلمتنا صموت عن ذكراهم ، لهاة عن بثهم ، ما إن يسمع عندنا بمسجد من مساجدنا أو محفل من محافلنا ، مذكر لهم أوداع ، فضلا عن نافر إليهم أوماش لهم ، حتى كأنهم ليسوا منا ، أو كأن فتقهم ليس بمفض إلينا ، قد بخلنا عليهم بالدعاء بخلنا بالقناء ، عجائب فاتت التقدير ، وعرضت للتغيير ، ولله عاقبة الأمور وإليه المصير »(١) .

ولما غادر الغزاة النورمان بربشتر بعد اقتحامها ، والفتك بأهلها ، والاحتواء على أموالها ، تركوا لحمايتها ألفاً وخمسمائة من الفرسان وألفين من الرجالة ، وقيل بل تركوا ألف فارس وأربعة آلاف راجل ، واستقدموا إليها كثيراً من أهلهم وأقاربهم ومواطنيهم ، وساروا عائدين إلى بلادهم ، وفى ركبهم ألوف من سبى المسلمين نساء ورجالا ، ومقادير هائلة من الأموال والغنائم المختلفة .

بيد أنه لم تمض أشهر قلائل حتى وقعت المعجزة . وكان صدى النكبة قد نفذ

---

(١) نقلنا هذه الفقرة وما قبلها من أقوال ابن حيان وتفاصيل نكبة بربشتر ، عن الذخيرة القسم الثالث المخطوط لوحات ٣٤ ب إلى ٣٦ ب . وراجع فى ذلك أيضاً البيان المغرب ومعظمه أيضاً من أقوال ابن حيان السالفة الذكر ج ٣ ص ٢٢٥ و ٢٢٦ ، وأعمال الأعلام ص ١٧١ . وكذلك Dozy : Histoire V. III. p. 78 & 79 - Recherches; 3eme Ed. V. II. p. 335-353 وهو يترجم أيضاً رواية ابن حيان المشار إليها .

إلى الأعماق ، واهتز لها أمراءالأندلس قاطبة ، وفى مقدمتهم المقتدر بن هود ، وهو الذى شهدها عن كثب ، ولحقه من جرائها أكبر وزر ، واتجه إليه أشد اللوم لتقصيره فى إنجاد المدينة المنكوبة والدفاع عنها ، وهى من أخص قواعد ثغره . واستنفر الناس للجهاد ، واجتمع من مختلف بلاد الأندلس عدد جم من المتطوعة والرماة ، ساروا إلى الثغر جهاداً فى سبيل الله ، وبعث المعتمد بن عباد نجدة من خمسمائة فارس ، وسار المقتدر بن هود فى قواته ، وقوات الأمداد المختلفة إلى بربشتر ، وذلك فى جمادى الأولى سنة ٤٥٧ هـ ( ربيع سنة ١٠٦٥ م ) وضربوا حولها الحصار ، وامتنع النصارى داخل المدينة ، لما رأوه من كثرة جموع المسلمين ، وعالج المسلمون نقب أسوارها المنيعة العالية تحت حماية الرماة ، ونجحوا فى إحداث ثغرة كبيرة فيها ، ثم اقتحموا المدينة بشدة، فغادرها النصارى من الناحية الأخرى، وحملوا على محلة المسلمين ، ونشبت بين الفريقين معركة شديدة مزق فيها النصارى وهلك معظمهم ، وأسر من كان بالمدينة من أهلهم وأبنائهم ، وتقدر الرواية من قتل منهم بنحو ألف فارس وخمسة آلاف راجل ، فى حين أنه لم يقتل من المسلمين وفقاً لتقديرها سوى خمسين رجلا وهى مبالغة واضحة ، بيد أنه لم يكن ثمة شك على ضوء الظروف المتقدمة فى أن خسائر النصارى كانت فادحة ، وأن خسائر المسلمين كانت يسيرة ، وقيل فوق ذلك إنه حمل من سبايا النصارى إلى سرقسطة نحو خمسة آلاف ، كما حمل إليها ألف فرس وعدة وسلاح وأموال كثيرة . وكان استرداد بربشتر فى الثامن من جمادى الأولى سنة ٤٥٧ هـ ، بعد أن احتلها النصارى تسعة أشهر(١) . وبذلك جبر الصدع ، ورفعت المعرة ، وأثلجت صدور المسلمين . وعلى أثر هذا الفتح الجليل اتخذ بطله ابن هود لقب المقتدر بالله(٢) .

* * *

وشغل المقتدر بن هود فى الوقت نفسه بسلسلة من الوقائع التى اضطرمت بينه وبين جيرانه النصارى . وكانت مملكة سرقسطة لوقوعها بين الممالك الإسبانية النصرانية الثلاث ، أراجون ونافار وقشتالة ، هدفاً مستمراً لأطماع الملوك

---

(١) راجع الروض المعطار ص ٤١ .

(٢) الذخيرة القسم الثالث المخطوط لوحة ٣٦ ب و ٣٧ أ . والبيان المغرب ج ٣ ص ٢٢٧ و ٢٢٨ .

النصارى ، يبتزون منها الأموال طوراً باسم الجزية ، وطوراً يقتطعون بعض أطرافها . وفى خلال ذلك ، يعمل بنو هود على الاستعانة من آن لآخر بالجند النصارى ، وفقاً لمختلف الظروف والأحوال . وكان فرناندو الأول ملك قشتالة فى سنة ١٠٦٠م ( ٤٥٢ هـ ) قد زحف على حدود مملكة سرقسطة الجنوبية الغربية ، واقتطع منها حصن غرماج ، وبعض حصون أخرى ، فاضطر المقتدر أن يذعن لدفع الجزية . ولما توفى فرناندو فى سنة ١٠٦٥ ، وخلفه ولده سانشو فى ملك قشتالة ، وفى حقوق الجزية على سرقسطة ، حاول أن يتدخل فى شئون سرقسطة وبعث إليها بقواته فى سنة ١٠٦٧ فحاصرتها ، اقتضاء للجزية المطلوبة ، وكان يقود الجيش القشتالى يومئذ الفارس ردريجو دياث أو السيد إلكمبيادور ، الذى احتل فيما بعد مكانة بارزة فى حوادث شرقى الأندلس ، فاضطر المقتدر أن يبعث إليه مقادير كبيرة من الذهب والفضة والأحجار الكريمة ، والأقمشة الفاخرة ، أداء للجزية المطلوبة ، وأن يبعث برهائنه فى الوقت نفسه ، وبذا رفع الحصار عن سرقسطة(١) .

وكان المقتدر فى الوقت الذى تصفو فيه علائقه مع جيرانه النصارى ، يستمد العون منهم فى مشاريعه العسكرية ، وقد يستمد عون أحدهما على الآخر ، كما حدث فى سنة ١٠٦٣ م حينما غزا راميرو الأول ملك أراجون أراضى مملكة سرقسطة ، فاستغاث المقتدر بفرناندو ملك قشتالة ، فبعث إليه ولده سانشو فى بعض قواته ، ووقعت بين الفريقين تحت أسوار جرادوس موقعة هزم فيها راميرو وقتل ، وكان ردريجو دياث — السيد فيما بعد — يومئذ من ضباط الجيش القشتالى .

ولما خلص عرش قشتالة لألفونسو السادس بعد مقتل أخيه سانشو ، عاد يطالب سرقسطة بالجزية التى كانت لأخيه ، وكان يطالب بها فى نفس الوقت سانشو راميرز ملك أراجون ونافار ، بعد أن ورث عرش نافار ، وكان المقتدر يؤدى الجزية من قبل إلى سانشو ملك نافار . وكان يستعين فى محاربة أخيه يوسف المظفر صاحب لاردة بجنود من البشكنس ( النافاريين ) والقطلان ، واستمرت بينهما المعارك حتى انتهت أخيراً بهزيمة يوسف وأسره .

وقد وقفنا على نص رسالة مخطوطة ، كتب بها المقتدر إلى صديقه المعتمد

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٢٩ ، وكذلك R. M Pidal : ibid; p. 159 & 160

ابن عباد — وقد كانت بينهما فيما يبدو من لهجة الرسالة صلات ودية وثيقة — يخبره فيها بقصته مع أخيه المظفر، ويرميه فيها بالظلم والحسد، ومجانبة العدل والإنصاف، ويقول إنه حاول أن يسلك معه سبيل المودة والتفاهم، فأبى، واضطر إلى مقاتلته حتى ظفر به واستولى على قاعدته لاردة وألزمه البقاء فى قصبة منتشون. ثم يقول معتذراً عن مسلكه: « وللنفس يعلم الله مما حمانى عليه ارتماض وإشفاق، ولما يؤثره الرحم من ذلك إزعاج وإقلاق، إلا أنه لم يوجد إلى غير ذلك سبيلا، ولاجعلنى إلى سواه محيلا، وكان فيما يأتيه أعق، وبما جره القدر إليه بحكم اعتقاده أحق»(١) والظاهر أن الحوادث التى يشير إليها المقتدر فى رسالته قد وقعت فى سنة ٤٧٢ هـ ( ١٠٧٩ م ). وفى بعض الروايات القشتالية، أن المقتدر بعد أن استولى على أملاك أخيه اعتقله بقلعة روطة، وهنالك استمر فى اعتقاله حتى توفى بعد ذلك بثلاثة أعوام ( ٤٧٥ هـ ) ، بيد أنه من الواضح أن الصحيح هو ما يرويه المقتدر نفسه فى رسالته.

ولما أعيت المقتدر الحيل فى إرضاء أولئك الملوك المطالبين بالجزية، انتهى رأيه إلى الاستعانة بخدمات ذلك الفارس القشتالى، الذى عرفه من قبل بين ضباط قشتالة محارباً بارعاً، وهو ردريجو دياث دى بيبار، وكان يومئذ قد ساءت علائقه مع مليكه ألفونسو السادس وأقصاه عن بلاطه، فخرج يبحث عن طالعه، وهكذا عقدت العلاقة بين « السيد » وبين المقتدر، وكان المقتدر أول من أولاه رعايته واستخدمه من الملوك المسلمين، وكان ذلك فى سنة ١٠٨٠ م قبيل وفاة المقتدر بقليل(٢).

ويجب أن نذكر هنا أيضاً بين أعمال المقتدر العظيمة، استيلاءه على مملكة دانية من صهره، زوج ابنته على إقبال الدولة فى سنة ٤٦٨ هـ (١٠٧٦ م) حسبما فصلنا ذلك من قبل فى أخبار مملكة دانية. وقد غدت مملكة سرقسطة بهذا الفتح الكبير تمتد إلى شرق الأندلس، وغدت من أعظم ممالك الطوائف رقعة، بل ربما أعظمها جميعاً. وقد مهد لها هذا الامتداد إلى شرقى الأندلس، سبيل التطلع إلى مملكة بلنسية

(١) وردت هذه الرسالة فى المخطوط رقم ٤٨٨ الغزيرى المحفوظ بمكتبة الإسكوريال (لوحة ١١٨ و ١١٩).

(٢) الذخيرة القسم الثالث — المخطوط — لوحة ١٨ ب. وكذلك : R. M. Pidal : ibid ; p. 282 & 283

والتدخل فى شئونها ، حسبما سبق شرحه فى موضعه فى أخبار مملكة بلنسية ،
وتوفى أحمد بن سليمان بن هود المقتدر بالله فى سنة ٤٧٤ هـ ( ١٠٨١ م ) من كَلَب شديد أصابه من عضة كلب ، بعد أن حكم مملكة سرقسطة خمسة وثلاثين عاماً ، وكان قبيل وفاته قد ارتكب نفس الخطأ الذى ارتكبه أبوه بتقسيم مملكته بين ولديه ، فخص ولده الأكبر وهو يوسف المؤتمن بسرقسطة وأعمالها ، وخص ولده الأصغر المنذر بلاردة ومنتشون وطرطوشة ودانية .

ومما هو جدير بالذكر أن مملكة سرقسطة كانت فى ظل بنى هود ، لظروفها المترتبة على وقوعها بين الممالك النصرانية ، واضطرارها إلى مهادنتها ومصانعتها ، تؤثر سياسة التسامح الدينى ، وكان النصارى يعيشون فى ظل بنى هود ، فى ظروف حسنة ، ويتمتعون بسائر الحريات الفكرية والدينية ، وقد شجع هذا التسامح الذى أثر عن بنى هود نحو رعاياهم النصارى ، راهبا فرنسيا ، على أن يكتب إلى المقتدر بن هود رسالة يدعوه فيها إلى اعتناق النصرانية ، وبعث رسالته المذكورة مع راهبين من زملائه ليشرحا للمقتدر تعاليم الدين المسيحى ومزاياه[1] ، فاستقبل المقتدر الرسولين برفق وكياسة ، ولم يثر لما تضمنته رسالة الراهب من جرأة وتهجم صارخ ، بل عهد إلى العلامة الفقيه أبى الوليد الباجى ، وكان يومئذ يعيش فى سرقسطة فى كنفه وتحت رعايته ، بأن يكتب عن لسانه إلى الراهب ردا ، يفند فيه دعاوى الراهب فى رسالته ، ويبين ما تنطوى عليه هذه الدعاوى من بطلان وتناقض . فكتب الباجى رده المشهور على هذه الرسالة ، وهو رد مسهب ، يفيض منطقاً وبلاغة ، وفيه يفند الباجى مزاعم الدين المسيحى ، وألوهية المسيح وغيرها ، بقوة ، ويشرح تعاليم الإسلام بوضوح ، ويدعو الراهب بالعكس إلى اعتناق الإسلام ، وينوه بمعجزة القرآن وروعته ، ويدلل ببراعة على بطلان التعاليم المسيحية وتناقضها .

وكان المقتدر بن هود من أعظم ملوك الطوائف . ويصفه الحجارى فى المسهب بأنه « عميد بنى هود وعظيمهم ، ورئيسهم وكريمهم » . وكان فضلا عن

---

(١) وردت رسالة الراهب الفرنسى فى مخطوط الإسكوريال رقم ٥٣٨ الغزيرى ، عقب رسالة ابن غرسية والرد عليها ، ودونت من بعدها رسالة أبى الوليد الباجى فى الرد على الراهب المذكور ، وهو رد طويل يملأ خمس عشرة صفحة ، وقد نشر الأستاذ دنلوب D. M. Dunlop نص الرسالتين فى مجلة الأندلس Al-Andalus Vol. XVII, 1952 ، وقرنهما بترجمة انجليزية .

مقدرته السياسية والعسكرية التي رأيناها تبدو في كثير من أعماله ومشاريعه ، وبالرغم مما كانت تنطوي عليه هذه المشاريع والأعمال أحياناً من صفات سيئة ، يتمتع بكثير من الخلال البديعة ، فقد كان أميراً عظيماً يحيط نفسه بجو من المهابة والروعة ، وكان بلاطه من أعظم قصور الطوائف وأفخمها ، وكان يحيط نفسه بطائفة من أشهر العلماء والكتاب في عصره ، ومن هؤلاء العلامة الفقيه أبو الوليد الباجي ، ووزيره أبو المطرف بن الدباغ ، ووزيره الكاتب اليهودي المسلم أبو الفضل ابن حسداي السرقسطي ، وكان كلاهما من أعلام عصره في البلاغة والأدب . بل كان المقتدر نفسه من علماء عصره ، وكان يشغف بدراسة الفلسفة والرياضة والفلك ، وقد كتب كتباً في الفلسفة والرياضة(١) . وكان قصر المقتدر وهو المسمى بقصر « الجعفرية » نسبة إلى كنيته ، وهي « أبو جعفر » ، من أعظم وأفخر القصور الملكية في تلك العصور ، وقد اشتهر في تاريخ الفن الإسلامي باسم « دار السرور » ، وكان أروع ما فيه بهوه الرائع الذي زينت جدرانه بالنقوش والتحف الذهبية البديعة ، والذي كان يسمى لذلك بالبهو الذهبي ، أو مجلس الذهب.

وفيه يقول منشؤه المقتدر :

قصر السرور ومجلس الذهب    بكما بلغت نهاية الطرب
لو لم يحز ملكي خلافكما    لكان لدى كفاية الأرب

ولما سقطت سرقسطة في يد الإسبان شوهت معالم هذا القصر البديع ، وأدخلت فيه تعديلات وتغييرات عديدة قضت على محاسنه وزخارفه العربية . ومازالت بقاياه الدارسة تقوم حتى اليوم في قلب مدينة سرقسطة باسم قصر الجعفرية Palacio Aljafería ، وقد شهدناه خلال زيارتنا لسرقسطة ، ولم يبق من بنائه الإسلامي سوى بقية مشوهة من مسجده السابق .

وكان المقتدر ، فوق شغفه بالعلوم ، أديباً ينظم الشعر ، وقد نسب إليه الحجاري صاحب المسهب قوله :

لست لدى خالقي وجيهاً    هذا مدى دهري واعتقادي
لو كنت وجهاً لما براني    في عـالم الكون والفساد (٢)

(١) Dozy : Histoire ; Vol. III. p. 163-R. M. Pidal : ibid, p. 282

(٢) راجع المغرب في حلى المغرب ( القاهرة ) ج ١ ص ٤٣٧ .

# الفصل الثاني

## مملكة سرقسطة

## منذ عصر المؤتمن حتى سقوطها فى أيدى المرابطين

الصراع بين المؤتمن والمنذر . معركة قلعة المنار . حاكم روطة وكينه للنصارى. موقف السيد الكمبيادور . تحالف المنذر وسانشو راميرز . السيد ونفوذه لدى المؤتمن . حملة ابن بسام على بنى هود . وفاة المؤتمن . صفاته العلمية . ولده أحمد المستعين . مسير الفونسو السادس إلى سرقسطة ومحاصرته إياها . يرفع الحصار عند مقدم المرابطين . حروب المستعين . تطلعه إلى امتلاك بلنسية وفشل مشروعه . الخطر على مملكة سرقسطة . استيلاء ملك أراجون على منتشون . تهديده لوشقة . اتجاه المستعين إلى الاستنجاد بالمرابطين . سفارته لأمير المسلمين . استعانته بملك قشتالة . محاصرة سانشو راميرز لوشقة . وفاته ومتابعة ولده بيدرو للحصار . مسير المستعين وحلفاؤه لإنجادها . موقعة الكرازة . هزيمة المستعين وسقوط وشقة . إستيلاء المرابطين على ممالك الطوائف الجنوبية والغربية . استيلاؤهم على شرق الأندلس . استنصار المستعين بالسيد . انشغال السيد فى بلنسية . إتجاه المستعين إلى المرابطين . سفارته الثانية لأمير المسلمين . وفاة بيدرو ملك أراجون وقيام أخيه ألفونسو مكانه . مسيره إلى تطيلة . مسير المستعين لإنجادها . سقوط تطيلة ومقتل المستعين . ولده عبد الملك عماد الدولة . دعوة أهل سرقسطة أمير المسلمين لخلع بنى هود . استصراخ عماد الدولة لأمير المسلمين . زحف المرابطين على سرقسطة واستيلاؤهم عليها . انتهاء حكم بنى هود . التجاء عماد الدولة إلى حصن روطة . خضوعه لحماية ملك أراجون . ولده سيف الدولة . نزوله عن روطة لألفونسو ريمونديز . سرقسطة أيام بنى هود . اشتهارها بالدراسات الرياضية والفلسفية . ابن باجة وحياته العلمية . أبو بكر الطرطوشى وكتابه سراج الملوك . نظريته فى عصبية الدولة ورد ابن خلدون عليها . سرقسطة ومساهمتها فى الحركة الأدبية . دورها فى التبادل الحضارى والثقافى . دورها فى التبادل التجارى .

عادت الحرب الأهلية القديمة التى اضطرمت من قبل بين المقتدر وإخوته الأربعة من جراء تقسيم المملكة ، تضطرم من جديد بين يوسف المؤتمن صاحب سرقسطة ، وأخيه الحاجب المنذر صاحب لاردة .

وقد استعان كلا الأخوين فى تلك الحرب الانتحارية بالنصارى ، فكان المؤتمن يستعين بصديق أبيه وحليفه من قبل « السيد » وجيشه من المرتزقة القشتاليين وكان المنذر وهو منذ البداية من ألد أعداء السيد ، يستعين بسانشو راميرز ملك أراجون ، ورامون برنجير أمير برشلونة .

ووقعت أول معركة بين قوات الأخوين عند قلعة المنار على مقربة من لاردة، وكان المؤتمن قد حصن هذه القلعة ، وشحنها بالمقاتلة ، ولما شعر أخوه المنذر بخطرها على أملاكه سار فى قوة مشتركة من حلفائه ، أمير برشلونة وبعض صغار الأمراء الإفرنج فى شمال قطلونية ، وحاصر هذه القلعة ، فسار المؤتمن والسيد فى قواتهما لإنجادهما ، ووقعت بين الفريقين معركة هزم فيها المنذر ، وأسر أمير برشلونة رامون برنجير (١٠٨٢ م) .

ووقع فى ذلك الحين حادث كاد يقطع السيد من جرائه علائقه ببلاط سرقسطة. ذلك أن حاكم قلعة روطة التى كان معتقلا بها المظفر ، اعتزم الخروج والثورة بالتفاهم مع سجينه ، وأرسل إلى ألفونسو ملك قشتالة يطلب عونه ويعده بتسليم القلعة ، فسار ألفونسو إلى روطة فى بعض قواته ، وكان المظفر قد توفى عندئذ فجأة ، فعدل الحاكم عن مشروعه واعتزم أمراً آخر ، وبعث ألفونسو بعض أكابر ضباطه ، وعلى رأسهم الإنفانت راميرو أمير نافار لتسلم القلعة ، وما كادوا يجوزون إلى الداخل، حتى انهال عليهم وابل من الصخور، فقتلوا جميعاً (١٠٨٢م) وعاد ألفونسو ، وهو يضطرم أسى وتحرقاً إلى الانتقام .

وكان السيد عندئذ فى تطيلة ، فلما وقف على هذا الحادث الحزن ، هرع فى صحبه إلى ألفونسو يقدم عزاءه، ويلتمس العفو ، والإذن بالعود ، فعفا عنه الملك وصحبه معه إلى قشتالة . ولكن مقامه بها لم يطل . ذلك أن ألفونسو عادت إليه هواجسه القديمة نحو السيد ، وشعر السيد بتغيره عليه ، فغادر قشتالة وعاد إلى سرقسطة ، واستقبله المؤتمن بترحاب ومودة . ويحاول الأستاذ پيدال أن يستدل بتصرف السيد فى هذا الحادث على أنه لم يكن فى خدماته لبلاط سرقسطة جندياً أجيراً ، وإنما كانت هذه الخدمات بالعكس نوعاً من السياسة والتدخل على الطريقة القشتالية(١) .

وعاد السيد إلى مهمته القديمة فى محاربة أعداء المؤتمن ، وخرج مع المؤتمن فى قواته ، وعاثا فى أراضى أراجون ، ثم عادا إلى حصن مونتشون . ورد سانشو راميرز ملك أراجون على ذلك بالاستيلاء على جرادوس. وغيرها من حصون الحدود ( ابريل ١٠٨٣ م ) . ثم تحالف المنذر أخو المؤتمن مع سانشو راميرز ،

---

(١) R. M. Pidal : ibid; p. 290

وسارا فى قواتهما لمحاربة السيد ، والتقى الفريقان فى أحواز موريلا على مقربة من طرطوشة ، فهزم المنذر وحليفه، واستولى السيد على معسكرهما، وعلى كثير من الأسرى . واستقبل السيد عند عوده المظفر إلى سرقسطة أجمل استقبال .

وعلا شأن السيد فى بلاط سرقسطة،وتوطدت مكانته ، واشتد نفوذه على المؤتمن . فكان لايبرم أمراً من أعمال الحرب أو السياسة دون مشاورته : وغدا بجيشه الصغير قوة يحسب حسابها، بل غدا كأنه يفرض بحلفه ومعاونته على سرقسطة نوعاً من الحماية . وقد أشرنا فيما تقدم من أخبار مملكة بلنسية إلى هذه المكانة الممتازة التى أحرزها السيد فى بلاط سرقسطة ، وإلى الحملة اللاذعة التى شهرها ابن بسام من أجل ذلك على بنى هود[١] ، كما أشرنا إلى ما كان يجيش به المؤتمن من الأطماع نحو مملكة بلنسية، وما قدمه من المال إلى ملك قشتالة لأجل معاونته فى هذا المشروع وكيف استطاع أبو بكر بن عبد العزيز صاحب بلنسية بلباقته أن يحبط هذا المشروع وأن يعقد صلات الود والمصاهرة مع المؤتمن بتزويج ابنته من ولد المؤتمن ، أحمد المستعين .

ولم يدم حكم المؤتمن أكثر من أربعة أعوام ، إذ توفى فى سنة ٤٧٨ هـ ( ١٠٨٥ م ) . وكانت وفاته السريعة ضربة قاضية لمشاريعه ، فخلفه فى حكم سرقسطة وأعمالها ، ولده أحمد ، وتلقب بالمستعين ، وبقى الشق الآخر من مملكة سرقسطة بيد عمه المنذر .

وقد اشتهر يوسف المؤتمن بصفاته العلمية ، أكثر من اشتهاره بصفاته الملوكية فكان مثل أبيه المقتدر عالماً رياضياً، وفلكياً ممتازاً، وكتب فى العلوم الرياضية ، رسالته المسماة « الإستكمال »[٢] ، التى ترجمت إلى اللاتينية فى القرن الثانى عشر الميلادى، والتى توصف بأنها ترتفع من حيث قيمتها العلمية إلى مستوى إقليدس والمجسطى. بيد أن هذه الرسالة الملوكية لم تصل إلينا مع الأسف بأصلها العربى.

خلف المؤتمن ولده أحمد المستعين،ويعرف بالمستعين الأصغر . وما كاد يبدأ حكمه حتى ألفى نفسه أمام حدث خطير . ذلك أن ألفونسو السادس ما كاد ينتهى من الاستيلاء على طليطلة وتنظيم شئونها، وذلك فى صفر سنة ٤٧٨ هـ (مايو ١٠٨٥م)

---

(١) الذخيرة القسم الثالث المخطوط لوحة ١٨ ب .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٣ .

حتى اعتزم العمل لانتزاع سرقسطة ، فسار إليها فى قواته ، وضرب حولها الحصار ، وأقسم أنه لن يبرحها حتى تؤول إليه أو يموت .وحاول المستعين أن يرده عن عزمه ، وأن يقنعه برفع الحصار ، فعرض عليه أموالا جليلة فرفض ألفونسو ، وأصر على أخذ المدينة(١) ، وأذاع عماله فى سكان الأراضى المجاورة أنه سوف يطبق أحكام القرآن ، ولن يقتضى منهم من الضرائب إلا ما يجيزه الشرع ،وأنهم سوف يكونون مثل إخوانهم مسلمى طليطلة موضع عنايته ورعايته. واستمر ألفونسو على حصار سرقسطة حتى جاءته الأنباء فى أواخر صيف ١٠٨٦م ( أوائل ٤٧٩ هـ ) بمقدم المرابطين ، وأنهم عبروا إلى الأندلس ،فحاول عندئذ خديعة المستعين ، معتقداً أنه لم يعلم بالنبأ العظيم ، وبعث إليه يقول إنه يقبل الجزية التى عرضها ، فأجاب المستعين ، وكان على علم به ، أنه لن يدفع إليه درهما واحداً (٢) .

وعندئذ اضطر ألفونسو أن يرفع الحصار ، وأن يهرع فى قواته إلى الجنوب، بعد أن بعث بصريخه إلى أمراء الثغر النصارى ليلحقوا به فى قواتهم .

ثم كانت واقعة الزلاّقة ، وهزيمة ألفونسو الساحقة ، أمام القوات المرابطية والأندلسية المتحدة فى رجب سنة ٤٧٩ هـ ( أكتوبر ١٠٨٦ ) ، فضعف أمر قشتالة والملوك النصارى ، وانصرف المستعين حينا إلى محاربة عمه المنذر صاحب لاردة ودانية طوراً ، ومحاربة ملك أراجون طورا آخر . بيد أنه لم يظفر من وراء هذه المعارك بطائل ، وكانت الهزيمة نصيبه فى معظم الأحيان .

وأخذ المستعين بعد ذلك يتطلع إلى الاستيلاء على بلنسية ، منافساً فى ذلك لعمه المنذر . وقد فصلنا فيما تقدم من أخبار بلنسية مشاريع المستعين ومحاولاته فى هذا السبيل ، ومغامرات حليفه « السيد » ، وكيف تظاهر فى البداية بمعاونته على تحقيق مشروعه ، ثم أضناه بعد ذلك بمخادعاته وأساليب غدره ، وكيف حاول بعد ذلك أن يستعين بمحالفة برنجير كونت برشلونة على محاصرة بلنسية وأخذها ، وقد فشلت أيضاً هذه المحاولة ، وانتهى الأمر بأن غدا السيد وحده هو المسيطر على هذا الميدان، وهو المستأثر بتتبع الحوادث فى بلنسية ، وترقب فرص الاستيلاء عليها ، كل ذلك حسبما فصلناه من قبل تفصيلا شافياً .

---

(١) روض القرطاس ص ٩٣ .

(٢) R. M. Pidal : ibid; p. 331

وما كاد المستعين ينتهى من هذه المشاريع الفاشلة ، حتى بدا الخطر على مملكة سرقسطة داهماً من ناحيتين : ناحية جيرانها النصارى من الشمال ، وناحية المرابطين من الجنوب . فأما عن الشمال ، فقد بدأ سانشو راميرز ملك أراجون بالاستيلاء على منتشون فى سنة ٤٨١ هـ ( ١٠٨٩ م ) ، واضطر المستعين عندئذ أن ينضوى تحت حماية ألفونسو ملك قشتالة ، وأن يتعهد بأداء الجزية التى أباها من قبل . ولم تمض بضعة أعوام على ذلك حتى بدت مشاريع ملك أراجون أكثر خطورة . وذلك أنه قصد إلى مدينة وشقة ، وهى ثانى مدينة فى مملكة سرقسطة ، وابتنى إزاءها حصناً ، وكان من الواضح أنه يبغى الاستيلاء على هذه المدينة الهامة . والظاهر أن المستعين قد أدرك عندئذ أن الاعتماد على معاونة النصارى لايحقق له ما يطمح إليه من السلامة ، ورأى أن الاتجاه إلى معاونة المرابطين وهم أبناء دينه قد يغدو أنجع ، ولو أنه كان يتوجس من نياتهم ومشاريعهم نحو سرقسطة . ومن ثم فقد أرسل ولده عبد الملك إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين بالمغرب ومعه هدية جليلة ، وبعث إليه يطلب العون والإنجاد على مدافعة النصارى ، وإنقاذ وشقة ، وهى جناح سرقسطة الدفاعى ، ودرعها من الشمال . والظاهر أن أمير المسلمين قد أدرك من جانبه أهمية الاستجابة لصريخ المستعين ، ومنعه بذلك من الارتماء فى أحضان النصارى ومحالفتهم فى النهاية ضد المرابطين ، وأدرك فى نفس الوقت حكمة الإبقاء على سرقسطة وإنجادها لتبقى بذلك حاجزاً بين المرابطين وبين النصارى ، فاستقبل عبد الملك بترحاب ، وصرفه صرفاً جميلا ، ورد على المستعين بخطاب رقيق ، وبعث إلى ولاته فى شرق الأندلس بإرسال المدد المنشود ، وكان يتألف من ألف فارس وستة آلاف راجل من المرابطين . ولم ير المستعين فى نفس الوقت بأساً من الاستعانة بملك قشتالة ، فأمده بفرقة من جنده بقيادة الكونت غرسية أردونس الذى تجاور ولايته مملكة سرقسطة .

وفى تلك الأثناء كان سانشو راميرز قد سار إلى مدينة وشقة وضرب حولها الحصار ، مصمما على ألا يبرحها حتى تسقط فى يده . وكانت وشقة من أمنع قلاع الثغر الأعلى ، فصمدت للحصار بعزم وشدة ، ثم توفى سانشو راميرز فجأة ، وذلك فى شهر يونيه سنة ١٠٩٤ م (جمادى الأولى سنة ٤٨٧ هـ) ، فاستمر فى متابعة الحصار ولده بيدرو الأول . وتوالت الأشهر ، ووشقة صامدة كالصخرة .

وبعث أهل وشقة فى نفس الوقت بصريخهم إلى ملكهم أحمد بن هود المستعين ، فجهز حشودا عظيمة ، وأعد لها قوافل الميرة الضخمة ، وأمده حليفه ملك قشتالة بفرقة من الجند النصارى ؛ وسار المستعين فى قواته حتى اقترب من وشقة، وكان يظن أن العدو متى رأى حشوده ، وآنس وفرتها وحسن استعدادها، يعمد إلى المهادنة ويترك المدينة المحصورة وشأنها ، ولكن پيدرو عول بالعكس على خوض المعركة ، فترك الحصار، وسار فى قواته لملاقاة المسلمين، ونشبت بين الفريقين معركة عنيفة ، فى « الكرازة » الواقعة على مقربة من وشقة، استمرت من طلوع الشمس إلى غروبها ، واشتد فيها الطعان من الجانبين ، وكثر القتل بين المسلمين وحلفائهم ، وهزم المستعين فى النهاية هزيمة شديدة ؛ وقتل من المسلمين عدد جم تقدره الرواية باثنى عشر ألفا أو نحوها، وكان بين القتلى غرسية أردونس قائد جند قشتالة ؛ وتضع الرواية الإسلامية تاريخ هذه المعركة فى يوم الأربعاء أواخر ذى القعدة سنة ٤٨٩ هـ ، وتضع الرواية النصرانية هذا التاريخ فى ١٨ نوفمبر سنة ١٠٩٦ م ، وهو يوافق بالفعل شهر ذى القعدة ، الذى تحدده الرواية الإسلامية . وتقول الرواية الإسلامية : إن أهل وشقة لما عاينوا هزيمة المسلمين، يئسوا من النصرة ، والإنقاذ ؛ ولم تمض على ذلك ثلاثة أيام حتى حصلوا على الأمان . وسلمت وشقة للنصارى بعد حصار دام ثلاثين شهراً ، ودخلها پيدرو فى موكبه الظافر ، وفى الحال صير مسجدها الجامع كنيسة ، وجعلها عاصمة لمملكة أراجون(١)

هذا عن حوادث الشمال ، وأما عن حوادث الجنوب ، فقد عبر أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى الأندلس للمرة الثانية فى سنة ٤٨١ هـ ( ١٠٨٨ م ) وقام بالاشتراك مع قوات الأندلس بمحاصرة حصن لييط ؛ وانتهى بالاستيلاء عليه . ثم عاد فعبر إلى الأندلس للمرة الثالثة فى سنة ٤٨٣هـ ( ١٠٩٠م ) ،وفى تلك المرة استولى على ممالك الطوائف الجنوبية والغربية، غرناطة،وإشبيلية،والمرية، ثم

---

(١) نقلنا أقوال الرواية الإسلامية عن معركة وشقه من أوراق مخطوطة من البيان المغرب عثرنا بها فى خزانة القرويين بفاس . وراجع فى حوادث سقوط وشقة وما تقدمها : أعمال الأعلام ص ١٧٣ ، والحلل الموشية ص ٥٣ — ٥٥ ، وتاريخ المرابطين والموحدين لأشباخ وترجمة محمد عبد الله عنان ( ص ١٠٤ و ١٠٥ ) وابن خلدون ج ٤ ص ١٦٣ . وراجع أيضاً و : P. y Vives Los Reyes de Taifas p. 49 و R. M. Pidal : ibid, p. 526 & 527

بطليوس ، واستولت الجنود المرابطية كذلك على مرسية ، وأوريولة . كل ذلك فيما بين سنتي ٤٨٤ و٤٨٨ هـ . وفى أثناء ذلك كان المنذر بن هود صاحب لاردة ودانية ، قد توفى فى سنة ٤٨٣ هـ ( ١٠٩٠ م ) ، وخلفه فى الملك ولده الطفل سليمان الملقب بسعد الدولة ، تحت وصاية بنى بيطر وهى أسرة قوية ذات نفوذ . وفى سنة ٤٨٥ هـ ( ١٠٩٢ م ) سار جيش مرابطى بقيادة الأمير ابن عائشة ، واستولى على دانية . وشاطبة وشقورة . والظاهر أنه استولى أيضاً على طرطوشة ولاردة بعد ذلك بقليل .

وهنا شعر المستعين بخطر المرابطين الداهم على مملكته ، فاتجه إلى حليفه القديم السيد إلكمبيادور ، واستغاث به ، وكان السيد قد غدا يومئذ قوة يحسب حسابها فى شرقى الأندلس ، وأضحى من جانبه يشعر بنفس الخطر ، أى خطر المرابطين على مركزه فى تلك المنطقة . فاستجاب إلى دعوة المستعين ، وعقد بينهما حلف جديد ، وسار السيد بقواته إلى سرقسطة ، وعسكر على ضفة النهر الأخرى ، وهنالك عقد حلفاً آخر مع ملكى أراجون وناڤار . وكان الغرض من عقد هذه المحالفات كلها ، التعاون لدفع خطر المرابطين عن هذا الركن من شبه الجزيرة .

ونحن نعرف أن السيد قد عاد بعد ذلك إلى الجنوب ، واستمر فى مغامراته فى منطقة بلنسية ، حتى تم له الاستيلاء عليها فى جمادى الأولى سنة ٤٨٧ هـ ( يونيه ١٠٩٤ م ) ، وأن الجيوش المرابطية لبثت تتحين الفرص لاسترداد هذا الثغر الإسلامى العظيم ، حتى تم لها تحقيق مشروعها ، ودخلت بلنسية بقيادة الأمير أبى محمد المزدلى فى شعبان سنة ٤٩٥ هـ ( مايو سنة ١١٠٢ م ) .

وكانت حوادث الشمال قد تطورت فى تلك الأثناء ، وظهرت نيات سانشو راميرز ملك أراجون واضحة نحو القضاء على مملكة سرقسطة ، وبدأ حصاره لمدينة وشقة ، وكان المستعين من جهة أخرى قد أدرك أنه لايستطيع الاعتماد على محالفة السيد وعونه ، ولاسيما بعد استيلائه على بلنسية ، وانشغاله بالمحافظة عليها ، والدفاع عنها ، فاتجه إلى المرابطين ، وبعث ولده عبد الملك إلى المغرب يطلب العون من أمير المسلمين ، حسبما فصلنا من قبل . وقد رأينا كيف هزم المستعين وسقطت وشقة بالرغم مما تلقاه المستعين من عون حلفائه .

يقول ابن عذارى ، إنه على أثر سقوط مدينة وشقة « سما بصر العدو إلى منازلة سرقسطة ، حضرة ابن هود ، فخاطب الطاغية ، أذفونش بن فرذلند

( ألفونسو السادس ) فواطأه على منازلتها . فنزل عليها فى جموع لا ترام، فجعل صاحبها يصعد ويصوب فى إعمال الحيلة ، وتجنيب تلك الجماعة ، ورام تخذيل الأذفونش، فأرغبه فى المال فأبى وأقسم ألا يبرح عنها حتى يدخلها »[١] . ولكنا لم نجد فى الرواية النصرانية مايؤيد أن ملك قشتالة قام فى هذا التاريخ ( سنة ١٠٩٧ م — ٤٩٠ هـ ) بمهاجمة سرقسطة أو حصارها .

والواقع أن المستعين أخذ يشعر من ذلك الحين بأن مصير سرقسطة قد أضحى رهناً بخطط المرابطين وغاياتهم ، ولاسيما بعد أن أصبحوا على مقربة من أراضيه ، ومن ثم فقد رأى فى النهاية أن يستبقى مودتهم ، وأن يستمر فى التقرب منهم ، والتماس عونهم وحمايتهم . وفى سبيل هذه الغاية بعث ابنه عبد الملك إلى أمير المسلمين مرة أخرى ( ٤٩٦ هـ ) ، ومعه هدية جليلة من جملتها أربعة عشر ربعاً من آنية الفضة . وكان أمير المسلمين يومئذ بقرطبة ، يعد العدة لإعلان البيعة لولده على بولاية عهده . فقبل الهدية ، وأمر بأن تضرب هذه الآنية الفضية قراريط مرابطية ، فرقت فى أطباق على رؤساء قومه ليلة عيد الأضحى ، وحضر عبد الملك حفل البيعة ، ثم عاد إلى سرقسطة[٢] .

وشعر المستعين بشىء من الطمأنينة ، واعتزم أن يخصص جهوده لمقارعة ملك أراجون ومشاريعه العدوانية ، وكان پيدرو ملك أراجون قد توفى يومئذ وخلفه فى الملك أخوه ألفونسو الذى عرف فيما بعد بالمحارب . وهو الذى تسميه الرواية الإسلامية «بابن رذمير» . وكان أميراً مقداما شديد البأس. ولم يكن قد بقى من قواعد مملكة سرقسطة الهامة بعد وشقة ، سوى مدينة تطيلة ، فسار إليها فى قواته، وخف المستعين لإنجادها . ووقعت بين الفريقين معركة شديدة عند بلد تدعى بلتيرة ( ڤالتيرا ) ، فهزم المسلمون ، وقتل المستعين ، وذلك فى رجب سنة ٥٠٣ هـ ( يناير سنة ١١١٠ م )[٣] .

---

(١) هذا ما ورد فى الأوراق المخطوطة من البيان المغرب التى سبقت الإشارة إليها .

(٢) ابن الأبار فى الحلة السيراء (دوزى) ص ٢٢٥ ، والقاهرة ج ٢ ص ٢٤٩ ، وأعمال الأعلام ص ١٧٤ .

(٣) تاريخ المرابطين والموحدين لأشباخ ص ١٤٠ ؛ وكذلك P. y Vives : Los Reyes de Taifas p. 49 . ويورد ابن الخطيب هذه الواقعة بصورة أخرى فيقول لنا إن المستعين خرج إلى الجهاد فى سنة ٥٠١ هـ ، وتوغل حتى تطيلة وأرنيط ( أرنيلو ) وافتتحها ، ثم أدركه النصارى عند العودة وهاجموه بشدة ، فهزم وقتل ( أعمال الأعلام ص ١٧٤ ) .

فخلفه ولده عبد الملك وتلقب بعماد الدولة، وبايعه أهل سرقسطة على شرط أن يترك محالفة النصارى ، وأن يخرجهم من جيشه ، وتعهد لهم عبد الملك بتحقيق رغبتهم ، ولكنه لم ينفذ وعده . وكانت الحوادث تسير عندئذ بسرعة ،وحسن الطالع يؤاتى المرابطين تباعاً ، ولاسيما مذ أحرزوا نصرهم الحاسم بقيادة الأمير تميم ابن يوسف بن تاشفين على جيوش قشتالة فى موقعة إقليش فى سنة ٥٠١ هـ ( ١١٠٨ م ) ، وهى الموقعة التى أبيدت فيها القوات القشتالية ، وقتل الإنفانت الطفل سانشو ولد ألفونسو السادس من حظيته زائدة الأندلسية . ولما رأى أهل سرقسطة أن أميرهم عماد الدولة لايستجيب إلى شروطهم بتسريح قواته من النصارى ، كتبوا إلى أمير المسلمين على بن تاشفين ، وهو فى مراكش ،يناشدونه خلع بنى هود ، وتسلم سرقسطة ، فاستفتى على فقهاءه ،فأفتوه بوجوب تحقيق هذه الرغبة ، وبعث إلى قائده محمد بن الحاج والى بلنسية ، أن يسير إلىسرقسطة. ولما علم عماد الدولة بذلك ، أرسل إلى أمير المسلمين خطاباً مؤثراً يستصرخه فيه، ويذكره بما كان بين والديهما من أواصر المودة ، وأنه لم يصدر منه فى حقه أية إساءة ، وأنه من الخير أن يترك سرقسطة على حالها حاجزاً بينه وبين النصارى، فرق على لملتمسه ، وكتب إلى قائده أن يكف عنه[١] .ولكن الأمر كان قد قضى عندئذ . ذلك أن عماد الدولة لما شعر بمقدم المرابطين ، غادر سرقسطة فى أهله وأمواله إلى حصن روطة المنيع ، واستقر به ينتظر الحوادث[٢] . وفى رواية أخرى أن ابن الحاج حينما زحف على سرقسطة ، تأهب عبد الملك لمقاومته ، واستنصر بألفونسو ملك أراجون ، وأنه وقع بين الفريقين قتال هزم فيه ابن الحاج وقتل ، ثم إن أهل سرقسطة أخرجوا عبد الملك، واستدعوا عامل أمير المسلمين ، فاستولى على سرقسطة وذلك فى أواخر سنة ٥٠٣ هـ[٣] . وفى روض القرطاس أن ابن الحاج سار من بلنسية إلى سرقسطة، ودخلها فى سنة ٥٠٢ هـ ،وأخرج منها بنى هود وملكها[٤] .

---

(١) الحلل الموشية ص ٧٢ .

(٢) راجع : Dozy : Histoire, Vol. III. p. 154

(٣) ابن الخطيب فى أعمال الأعلام ص ١٧٥ .

(٤) روض القرطاس ص ١٠٤ .

وهكذا انتهى حكم بنى هود فى سرقسطة ، بعد أن دانت لحكمهم أكثر من سبعين عاماً ، منذ انتزع عميدهم ومؤسس دولتهم سليمان بن هود الحكم من آل تجيب فى سنة ٤٣٠ هـ . وقد عاشت ولاية سرقسطة أو الثغر الأعلى فى الواقع ، كوحدة سياسية وعسكرية مستقلة عن الحكومة المركزية أكثر من قرنين ، إذا احتسبنا عهد بنى تجيب بها . وهكذا كانت سرقسطة آخر دولة من دول الطوائف تسقط فى أيدى المرابطين . وتاريخها فى الأعوام القليلة القادمة حتى سقوطها فى يد ألفونسو الأول ملك أراجون فى سنة ٥١٢هـ ( ١١١٨م ) يرتبط بتاريخ المرابطين .

على أن سقوط سرقسطة ، لم يكن آخر العهد ببنى هود . ذلك أن عماد الدولة عبد الملك بن المستعين ، استقر بقاعدة روطة الحصينة(١) ، الواقعة على نهر خالون أحد أفرع إبرُه « الإيبرو » الجنوبية . وكان بنو هود قد أعدوا هذه القاعدة وحصنوها ، وزودوها بالأبنية الفخمة ، لتكون لهم عند الضرورة ملجأ ومثوى ، كلما نزلت بهم نازلة . واستمر عماد الدولة مقيما بروطة ، وهو يشهد الصراع المضطرم بين المرابطين والنصارى حول امتلاك سرقسطة . فلما سقطت فى يد النصارى وضع نفسه تحت حماية سيدها الجديد ألفونسو ملك أراجون ( ابن رذمير ) واستمر على حاله ، حتى توفى بروطة فى شعبان سنة ٥٢٤هـ ( ١١٣٠ م ) . فخلفه فى الإمارة ولده أبو جعفر أحمد بن عبد الملك وتلقب بسيف الدولة المستنصر بالله ، وكذلك بالمستعين بالله ، واستدر فى حكمه لروطة ، وما حولها من الحصون والأراضى ، حتى حمله ألفونسو ريمونديز ملك قشتالة ، وهو الذى تعرفه الرواية الإسلامية بأدفونش بن رمند وبالسليطين ، على التنازل عنها ، وعوضه عنها بقسم من مدينة طليطلة ، نزل فيه بأهله وأمواله ، أو ببعض أملاك بجوار طليطلة أقطعه إياها ، وذلك فى سنة ٥٣٤ هـ (١١٣٩ م)(٢) ، وهى حوادث نستوفيها فيما بعد فى تاريخ المرابطين فى شبه الجزيره .

* * *

(١) هى بالإسبانية Rueda

(٢) هذه هى رواية ابن الأبار فى الحلة السيراء ، ص ٢٢٥ . وراجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٣ ، وروايته مضطربة تنقصها الدقة سواء فى الوقائع أو التواريخ . ويضع ابن الأثير تاريخ تسليم المستنصر بالله حصن روطة فى سنة ٥٢٩ هـ ( ١١٣٥ م ) ( ج ١١ ص ١٣ ) . راجع كذلك : P. y Vives : ibid; p. 50

وقد كانت سرقسطة فى عهد بنى هود، كما كانت إشبيلية فى عهد بنى عباد، مركزاً لحركة علمية وأدبية زاهرة، وكان بنو هود من حماة العلوم والآداب، وقد نبغ بعضهم فى ميدان التفكير، ولاسيما أبو جعفر المقتدر، وولده يوسف المؤتمن، وقد كان كلاهما من أكابر علماء عصره، فى الفلسفة والرياضة والفلك، حسبما أشرنا إلى ذلك من قبل. وقد اشتهرت سرقسطة فى هذا العصر بنوع خاص، أعنى فى القرن الحادى عشر الميلادى بالدراسات الفلسفية والرياضية. وكان من أعلام أبنائها فى هذا العصر، فيلسوف من أعظم فلاسفة الإسلام وعلمائه، هو أبو بكر محمد بن يحيى بن الصائغ المعروف بابن باجة، والذى يعرف فى الغرب باسمه اللاتينى Avempace. وقد نشأ ابن باجّة فى أواخر القرن الحادى عشر بسرقسطة ودرس بها، وعاش فيها حتى مطلع شبابه قبل أن تسقط فى أيدى الإسبان ونبغ فى الرياضة والفلك والطبيعة والفلسفة، هذا فضلا عن براعته فى الشعر والأدب. ولما ولى الأمير أبو بكر بن إبراهيم اللمتونى حكم سرقسطة من قبل المرابطين، ندب ابن باجة لوزارته، واختص به، وأغدق عليه عطفه ورعايته، بالرغم مما كان يرمى به الفيلسوف من الميول والآراء الإلحادية. ولما سقطت سرقسطة فى أيدى الإسبان (١١١٨ م) غادرها ابن باجة إلى إشبيلية، ثم إلى شاطبة، ثم نزح من الأندلس إلى المغرب، وعاش هناك حتى توفى فى سنة ١١٣٨ م. وقد كتب ابن باجة زهاء خمسة وعشرين كتاباً لم يصلنا منها سوى القليل، وترك لنا عدداً من القصائد الرصينة الجزلة التى تنم عن روعة خياله ورائق نظمه. وهو يعتبر على العموم من أعظم المفكرين والفلاسفة الأندلسيين، وقد كان لآرائه ونظرياته تأثير كبير فى تفكير الفيلسوف أبى الوليد بن رشد الحفيد[١].

ونبغ فى سرقسطة أيام بنى هود فى عهد المستعين بن المؤتمن، المفكر والفيلسوف السياسى أبو بكر الطرطوشى، نسبة إلى طرطوشة ثغر سرقسطة، وهو صاحب كتاب «سراج الملوك» الذى يعتبر بموضوعه ونظرياته المبتكرة، من الكتب التى وضعت أسس السياسة الملوكية فى التفكير الإسلامى. ويشير ابن خلدون إلى هذا الكتاب فى مقدمته ويعتبره من الكتب التى سبقته فى موضوعه[٢]. وقد وضع الطرطوشى كتابه أثناء إقامته بمصر أيام الأفضل شاهنشاه ابن أمير الجيوش، وأهداه

(١) راجع الإحاطة لابن الخطيب ج ١ ص ٤١٤ – ٤١٦.
(٢) ابن خلدون فى المقدمة (بولاق) ص ٣٣.

فى مقدمته إلى خلفه المأمون البطائحى ، وتأثر فى كتابته بتفكير فيلسوف العصر ، العلامة ابن حزم القرطبى ، وتوفى الطرطوشى بالإسكندرية سنة ٥٢٠هـ ( ١١٢٦ م ) .

وقد أوحت ظروف مملكة سرقسطة وأحوالها السياسية والاجتماعية يومئذ ، إلى الطرطوشى بكثير من نظرياته الاجتماعية ، ومنها نظرية عصبية الدولة ، فإن الطرطوشى يرى أن عصبية الدولة أو قوتها الحامية ، إنما تقوم « على الجند أهل العطاء المفروض مع الأهلة » أى الجند المرتزقة الذين يتناولون أجورهم كل شهر. ويعارض ابن خلدون هذه النظرية ، ويقول إنها لاتنطبق على الدول فى أولها ، وإنما تنطبق على الدولة فى نهاية عهدها ، بعد التمهيد واستقرار الملك ، واستحكام الصبغة لأهله ، وأن الطرطوشى قد أدرك الدولة الهودية عند هرمها ورجوعها إلى الاستظهار بالموالى والصنائع ، ثم إلى المستخدمين من ورائهم بالأجر على المدافعة ، وأدرك دول الطوائف ، وذلك عند اختلال الدولة الأموية ، وانقراض عصبيتها من العرب ، واستبداد كل أمير بقطره ، وعاش فى ظل المستعين بن هود بسرقسطة ، ولم يكن بقى لهم من أمر العصبية شىء لاستيلاء الترف على العرب منذ ثلثمائة من السنين وهلاكهم ، ولم ير إلا سلطاناً استبد بالملك عن عشائره ، وقد استحكمت له صبغة الاستبداد منذ عهد الدولة ، وبقية العصبية ، فهو يستعين على أمره بالأجراء من المرتزقة(١) . والظاهر أن الطرطوشى قد تأثر تأثراً شديداً بما شهده من اعتماد بنى هود فى حماية ملكهم على معاونة الجند النصارى ، ولاسيما أيام السيد إلكمبيادور ، وسعيهم إلى شراء هذه المعونة بالمال أينما استطاعوا ، منذ ابتداء دولتهم حتى نهايتها . وقد كان ذلك فى نفس الوقت شأن كثير من ملوك الطوائف الآخرين ، حسبما ذكرنا فى أخبارهم .

وكانت سرقسطة إلى جانب كونها مركزاً للعلوم الرياضية والفلسفية فى القرن الحادى عشر الميلادى ، كباقى عواصم الطوائف الأخرى ، مركزاً لحركة أدبية قوية ، وقد نبغ بها فى ذلك العصر كثير من الأدباء والشعراء مثل ابن الدباغ ، وابن حسداى ، وأبى عمر بن القلاس ، وغيرهم ، ممن ذكرهم صاحب الذخيرة ، وأورد لنا الكثير من نظمهم ورسائلهم .

---

(١) راجع سراج الملوك للطرطوشى ( القاهرة ١٩٣٥ ) ص ٢٢٩ و ٢٣١ ، ومقدمة ابن خلدون (بولاق) ص ١٣٠ و ١٣١ . وكذلك R. M. Pidal : ibid; p. 284 & 285

ولعبت سرقسطة بالأخص دوراً كبيراً فى التبادل الثقافى والحضارى بين الأندلس وبين الدول الإسبانية المجاورة ، والدول الفرنجية الشمالية ، وقد هيأ لها موقعها بين الممالك الإسبانية على مقربة من جبال البرنيه ، أن تضطلع بهذا الدور الحضارى الخطير . ومما هو جدير بالذكر أنها كانت فى ذلك العصر ، مهبط الفرسان النصارى من كل جنس ، يجدون فى بنى هود وفى بلاطها الباذخ ، ساحة رحبة ، وكانت مركزاً لأشعار الفروسية والشعر الغنائى ، الذى كان ينتشر يومئذ فى أرجاء قطلونية وأراجون وناڤار ، ومنها كانت تنقل المقطوعات الغنائية الأندلسية إلى المجتمعات النصرانية المجاورة ، فتؤثر فى الملاحم والأناشيد القومية . وقد انتقلت هذه المؤثرات ، فيما بعد بمضى الزمن عبر جبال البرنيه إلى جنوبى فرنسا ، ثم إلى غيرها من المجتمعات النصرانية .

ويجب أخيراً ألا ننسى دور سرقسطة المسلمة ، فى ترويج التبادل التجارى والمهنى بين الشرق والغرب ، فقد كانت مملكة سرقسطة بسيطرتها على جزء كبير من البحر المتوسط ، وثغريها الكبيرين طرّكونة ، وطرطوشة ، تستقبل شطراً كبيراً من تجارة المشرق وتجارة الأندلس والمغرب ، وتعمل على تصريفها إلى الأمم الأوربية عن طريق ثغور فرنسا الجنوبية ، وثغور إيطاليا . وكان بنو هود يجنون من وراء ذلك أرباحاً طائلة ، سواء من المكوس أو الوساطة التجارية ، وقد كانوا فى الواقع من أغنى ملوك عصرهم ، وكان بلاطهم من أفخم قصور الطوائف ، وأكثرها روعة وبذخاً ، وإن لم تكن لهم شهرة فى الجود والبذل ، وقد استطاعوا بهذا الغنى الطائل ، أن يجتذبوا الفرسان والمرتزقة النصارى لخدمة سياستهم ، واستطاعوا بدفع الإتاوات الوفيرة للملوك النصارى ، أن يتقوا عدوانهم أطول وقت ممكن ، ومن ثم فقد لبثت سرقسطة عصراً طويلا بمنجاة من تلك الغزوات المخربة ، التى كانت تنكب بها دول الطوائف الأخرى .

# الكتاب السادس

# موقعة الزلاقة والفتح المرابطي

# الفصل الأول

## نشـــأة المرابطين

### وقيام الدولة المرابطيـــة بالمغرب

أصل المرابطين . قبيلة لمتونة وحياتها فى القفر . دخولها فى الإسلام . أول ملوكها . افتراق كلمتها . الأمير ابن تيفاوت اللمتونى . مصرعه وقيام الأمير يحيى الجدالى مكانه . رحيله إلى المشرق . لقاؤه بالفقيه أبى عمران الفاسى . عبد الله بن ياسين . رحيله مع الأمير إلى الصحراء . بثه لتعاليم الإسلام بين أهلها . صرامته وانصرافهم عنه . مغادرته لهم مع أصحابه وانقطاعه للعبادة . وفود أعيان صنهاجة إليه . قيام جماعة المرابطين . أطاع عبد الله الدفينة . تكاثر تلاميذه . يدعوهم إلى الجهاد . دعوته إلى اتباع أحكام الدين . مقاتلته لقبائل صنهاجة وإخضاعها . سلطانه الروحى على القبائل . يحيى بن ابراهيم الكدالى يتولى السلطة الزمنية . وفاته وقيام يحيى بن عمر اللمتونى مكانه . ورعه وفتوحه فى الصحراء . صدى حركة المرابطين فى المغرب . أحوال المغرب فى ذلك العهد . استدعاء فقهاء درعة وسجلماسة للمرابطين . مسير المرابطين إلى درعة والاستيلاء عليها . استيلاؤهم على سجلماسة . عبد الله بن ياسين يأمر بإزالة المنكرات . وفاة الأمير يحيى وقيام أخيه أبى بكر مكانه . مسير المرابطين إلى بلاد السوس . يوسف بن تاشفين يقود الجيش . افتتاحه لقواعد السوس . الطائفة البجلية وسحقها . مسير المرابطين إلى الأطلس . افتتاحهم لأغمات . استيلاؤهم على تادلا . قبائل برغواطة ومذهبها الوثنى . مطاردتهم ومحاربتهم على يد بلكين بن زيرى والفتى واضح . مسير المرابطين لقتالهم . إصابة عبد الله بن ياسين ووفاته . قيام أبى بكر اللمتونى مكانه . بدء الدولة المرابطية . متابعة حرب برغواطة . افتتاح مكناسة ولواتة . أنباء الخلاف فى الصحراء . أبو بكر يندب يوسف بن تاشفين للرياسة ويسير إلى الصحراء . تقسيم القوات المرابطية بين الزعيمين . أبو بكر يصلح شئون الصحراء . يوسف بن تاشفين ينظم افتتاح باقى المغرب . نجاحه واشتداد بأسه . اختطاطه لمدينة مراكش حاضرة المغرب . تنظيم يوسف للجيش . افتتاحه لمدينة فاس . مسيره إلى بلاد غمارة . فقد فاس واستردادها . عود أبى بكر من الصحراء إلى المغرب . تأثره بعظمة شأن يوسف وضخامة ملكه . لقاء الرجلين . زينب زوجة يوسف ودورها فى ذلك . انصراف أبى بكر إلى الصحراء . يوسف يتم فتح المغرب . افتتاحه لطنجة . افتتاحه للمغرب الأوسط . قيام الدولة المرابطية الكبرى . يوسف بن تاشفين . نشأته وخلاله . يحكم أعظم إمبراطورية إسلامية فى الغرب . ألقابه وانضواؤه تحت لواء الخلافة العباسية . يوسف وشئون الأندلس . صريخ ملوك الطوائف إليه . ظروف هذا الصريخ واختلاف الرواية فى شأنه . أصل الفكرة ومبعثها . الإعتراض عليها . سقوط طليطلة وأثره فى إذكائها . سفارة الأندلس إلى يوسف . العهود المتبادلة . مطالبة يوسف بثغر الجزيرة . يوسف يلبى نداء الطوائف . مسير الجيوش المرابطية إلى سبتة . جوازها إلى شبه الجزيرة . دعاء يوسف خلال الجواز .

يجدر بنا أن نقف الآن قليلا لنلقى بعض الضوء على أصل أولئك المرابطين، الذين شملت دولتهم الكبرى ، فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى ، سائر أنحاء المغرب من لوبية إلى المحيط غرباً ، وإلى السودان جنوباً ، والذين استجابوا إلى صريخ ملوك الطوائف ، وعبروا البحر إلى شبه الجزيرة الإسبانية نصرة للإسلام وبنيه .

إن المرابطين هم من قبيلة لمتونة ، ولمتونة هذه بطن من بطون صنهاجة ، أعظم القبائل البربرية ، وهى بدورها فرع من فروع قبيلة البرانس الكبرى . وينتمى إلى صنهاجة ، عدا لمتونة ، عدد كبير من القبائل البربرية مثل مسوفة ، ومسراتة ، ومداسة ، وكدالة ، ووتريكة ، ولمطة وغيرها . وقد لعب الكثير منها فى تاريخ المغرب أدواراً ملحوظة . وفى بعض الروايات أن صنهاجة، وهى الأم الكبرى لهذه القبائل ترجع نسبتها إلى العرب اليمانية ، وأنها فخذ من ولد عبدشمس ابن وائل بن حمير ، وهى كسائر الروايات المماثلة فى أنساب البطون البربرية رواية ضعيفة ، تقوم على القصص والأسطورة[1] .

وكانت لمتونة تسكن منذ عصور بعيدة قبل الإسلام فى قلب الصحراء ، ما بين جنوبى المغرب والسودان ، فى تلك المنطقة التى كانت تسمى منذ أيام الرومان إقليم « موريتانيا » . وكانت تؤثر حياة القفر على أية حياة أخرى « انتباذاً عن العمران ، واستئناساً بالانفراد ، وتوحشاً بالعز عن الغلبة والقهر »، وكانوا يعتمدون فى قوتهم على لحم الإبل ولبنها ، ولا يعرفون حرثاً ولا ثماراً ، ولا يأكلون الخبز[2]. وكان شعارهم « اللثام » ومن ثم فقد عرفوا « بالملثمين » . وقيل فى سبب ذلك إنهم كانوا يتخذون فى أعراسهم نوعاً خاصاً من الحجاب ، أو لأنه حدث ذات مرة فى بعض حروبهم أن نساءهم كن يقاتلن معهم محجبات ، حتى يحسبن بذلك فى عداد الرجال[3] ، وقيل بل كانوا يقلدون فى ذلك قبيلة حمير التى يدعون الانتساب إليها .

وذكر لنا أبوعبيد البكرى ، فى معجمه « المسالك والممالك » ، فيما يتعلق بأمر اللثام الذى يلتزمه المرابطون ، أن جميع قبائل الصحراء يلتزمون ، النقاب ، وهو

(١) راجع روض القرطاس ص ٧٥ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨١ ، وروض القرطاس ص ٧٦ .

(٣) راجع الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى للسلاوى ( ١٣٠٦ هـ ) ج ١ ص ٩٨ و ٩٩ .

فوق اللثام ، حتى لايبدو منه إلا محاجر عينيه ، ولا يفارقون ذلك فى حال من الأحوال ، ولا يميز رجل من وليه ولا حميمه إلا إذا تنقب . وكذلك فى المعارك إذا قتل منهم القتيل ، ونزل قناعه لم يعلم من هو حتى يعاد عليه القناع ، وصار ذلك لهم ألزم من جلودهم ،وهم يسمون من خالف زيهم هذا من جميع الناس أفواه الذبان بلغتهم(١)

وكانت لمتونة ، كسائر القبائل البربرية ، تدين بالمجوسية ، واستمروا على ذلك حتى ذاع بينهم الإسلام عقب فتح الأندلس ، وبدأت رياستهم من ذلك الحين تتخذ نوعاً من الملك . وفى أيام عبد الرحمن الداخل ، أعنى فى أواسط القرن الثانى الهجرى ، كان ملكهم يدعى تيولوثان بن تيكلان الصنهاجى اللمتونى ، فبسط سلطانه على سائر نواحى الصحراء ، وحارب القبائل الوثنية ، ونشر الإسلام بين كثير منها ، وفرض الجزية على سائر ملوك السودان المجاورين ، وكانت مملكته بالصحراء مسيرة ثلاثة أشهر فى مثلها .ولما توفى فى سنة ٢٢٢ هـ ، خلفه فى الرياسة حفيده الآثر بن بطين بن تيولوثان(٢) ، واستطال حكمه زهاء خمسة وستين عاماً ، حتى وفاته فى سنة ٢٨٧ هـ ، فخلفه ولده تميم ، واستمر فى الحكم إلى أن ثار عليه فى سنة ٣٠٦ هـ أشياخ قبيلة صنهاجة وقتلوه . وعندئذ افترقت كلمة الجماعة ، وانقسموا شيعاً ، واستمروا دون رياسة جامعة زهاء مائة وعشرين عاماً ، إلى أن قام فيهم الأمير أبوعبد الله محمد بن تيفاوت اللمتونى المعروف بتارسنا ، فالتفوا حوله ، واجتمعوا على رياسته . وكان أميراً فاضلا ورعاً ، شغوفاً بالجهاد ، فلم يطل أمد حكمه سوى ثلاثة أعوام ، إذ استشهد فى غزوة من غزواته ضد بعض قبائل السودان الوثنية . فولى من بعده صهره الأمير يحيى بن ابراهيم الجدالى ، زعيم قبيلة جدالة أوكدالة ، وهى شقيقة لمتونة يجمعهما أب واحد ، واستمر على رياسته لصنهاجة ، وقيادتها فى حروبها ضد أعدائها ، حتى سنة ٤٢٧هـ ( ١٠٣٥ م )(٣)، ثم استخلف فى الرياسة ولده إبراهيم

---

(١) المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب المستخرج من كتاب « المسالك والممالك » لأبى عبيد البكرى والمنشور بعناية المستشرق البارون دى سلان ( الطبعة الثانية ) ص ١٧٠ .

(٢) وردت هذه التسمية فى روض القرطاس ص ٧٦ . ولكن ابن خلدون يسميه يلتان ( ج ٦ ص ١٨٢ ) .

(٣) هذه رواية ابن أبى زرع ( ص ٧٧ ) ، ويوافقه صاحب الاستقصاء ( ج ١ ص ٩٩ ) ، ولكن ابن خلدون يضع نهاية رياسة يحيى فى سنة ٤٤٠ هـ ( ج ٦ ص ١٨٢ ) .

ابن يحيى ، ورحل إلى المشرق مع طائفة من زعماء قومه، ليقضى فريضة الحج .

والظاهر أيضاً أن يحيى الكدالى كانت تحدوه فى تلك الرحلة مُثُل أخرى، فهو قد رأى ماكان عليه قومه من التأخر والجهل بتعاليم الإسلام وأصوله ، فرحل إلى المشرق يطلب العلم إلى جانب قضاء الفريضة . ولما عاد من المشرق ، عرج فى طريقه على مدينة القيروان ، وهنالك التقى وصحبه بالفقيه أبى عمران الفاسى شيخ المذهب المالكى يومئذ ، وتأثروا بوعظه وعلمه . وشكا إليه يحيى من جهل قومه ، وطلب إليه أن يختار له فقيهاً من تلاميذه ، يتولى تعليم قومه وتثقيفهم بتعاليم الإسلام الصحيحة ، ولما لم يجد أبو عمران من تلاميذه بالقيروان من يقبل تلبية هذه الدعوة ، بعث معه كتاباً إلى تلميذ من تلاميذه بالسوس الأقصى يدعى أبو محمد واجاج بن زلوا اللمطى ، وكان فقيهاً ورعاً يدرس العلم لتلاميذه فى رباط خاص أنشأه لذلك ، فلما مثل لديه يحيى قرأ خطاب الشيخ أبى عمران على تلاميذه ، فاستجاب للدعوة منهم رجل يدعى عبد الله بن ياسين الجزولى، وكان من أنبه تلاميذه وأكثرهم علما وورعاً . وكان قد رحل إلى الأندلس ، وأنفق فيها بضع سنين يدرس فى ظل الطوائف ، فزاد علما وتجربة . فسار مع يحيى إلى الصحراء، فاغتبطت بمقدمه لمتونة وكدالة، واستقبلوه بمنتهى الحفاوة والتكريم(١) .

— ١ —

وكان عبد الله بن ياسين فقيهاً شديد الورع ، والغيرة على تعاليم الإسلام ، وكان فوق ذلك خطيباً موهوباً قوى التأثير ، فأخذ يبث تعاليم الدين بين أولئك البدو الصحريين ، ويبصرهم بأحكام الإسلام ، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر . بيد أنه اشتد فى مؤاخذتهم، ومطالبتهم بالإقلاع عن تقاليدهم المنافية للإسلام مثل الزواج بأكثر من أربع ، وكان من الأمور الشائعة بينهم ، وغير ذلك من التقاليد المغرقة ، فأخذوا ينصرفون عنه ، ويعرضون عن تعاليمه ، لما رأوا من صرامته ، وما تكبدهم تعاليمه من المشقة والضيق . وعندئذ عول عبد الله ، وتلميذه وصديقه الوفى يحيى بن ابراهيم ، على انتباذ أولئك البدو الجهلة ، والانقطاع إلى العبادة والزهد ، فى أحد المواضع النائية ، وانضم إليه فى ذلك سبعة نفر من كدالة

---

(١) روض القرطاس ص ٧٧ و ٧٨ ، والإستقصاء ج ١ ص ٩٩ و ١٠٠ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٩٢ . وراجع الحلل الموشية ص ٩ .

ويحيى بن عمر بن تلاكاكين من رؤساء لمتونة . ويقول لنا ابن خلدون إن عبد الله ابن ياسين وأصحابه انقطعوا للعبادة فى جزيرة يحيط بها بحر النيل من سائر جهاتها، وهو قول لا يمكن أن ينصرف إلى نهر النيل المعروف لنا، لبعد النيل عن صحراء المغرب الجنوبية بمسافات شاسعة، ولكن تفسير هذا الغموض يرجع إلى أن « نهر النيجر » كان يظن يومئذ أنه امتداد أو فرع لنهر النيل العظيم ، يخترق الأقطار السودانية الغربية . ومن ثم فقد كان نهر النيجر يعرف يومئذ بنهر النيل أو النهر الأعظم ، وبهذا الاسم يسميه الرحالة ابن بطوطة فى أقواله عن رحلته فى مملكة مالى السوداء[١]. وإذاً فإن الموضع الذى انقطع فيه عبدالله بن ياسين وأصحابه للعبادة كان فيما يرجح جزيرة تقع فى منحنى نهر « النيجر » ، على مقربة من تنبكتو ، وهذا ما يؤيده وصف صاحب روض القرطاس[٢] .

وعلى أى حال فقد انقطع عبد الله وصحبه للعبادة فى هذا الموضع ، وابتنوا به رابطة للصلاة والعبادة ، وما لبث أن اشتهر أمره ، ووفد عليه كثير من أشراف صنهاجة ممن آثروا الزهد والعبادة ، فعكف عبد الله على تثقيفهم ووعظهم ، وسماهم « بالمرابطين » للزومهم رابطته ، وأخذ يعلمهم أحكام الكتاب والسنة والصلاة والزكاة ، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويشوقهم إلى الجنة ، ويحذرهم عذاب النار ، ويلهب حماستهم للجهاد فى سبيل الله ، ومقاتلة المخالفين لأحكام كتابه . وكان عبد الله بن ياسين ، حسبما أسلفنا واعظاً موهوباً ، وخطيباً ذلقاً مؤثراً ، وكان هذا الفقيه الورع ، يضطرم فى أعماق نفسه بمشاريع وأطماع دفينة أخرى ، غير تلقين أحكام الدين، وبث الورع والخشوع فى نفوس أصحابه. ذلك أنه ما كاد يرى كثرة تلاميذه — فقد بلغوا الألف عندئذ — ويوقن بولائهم، وانقيادهم لأوامره، حتى دعاهم إلى الجهاد بصورة عملية ، وبعثهم إلى أقوامهم، لينذروهم ، ويطلبوا إليهم الكف عن البدع والضلالات ، واتباع أحكام الدين الصحيح ، ففعلوا ما أمروا به ، ودعا كل قومه إلى الرشد والهدى ، ومجانبة التقاليد المنافية للدين ، فلم يصغ لهم أحد من أقوامهم ، فخرج إليهم عبد الله ابن ياسين بنفسه ، واستدعى أشياخ القبائل ووعظهم ، وحذرهم عقاب الله ،

(١) راجع رحلة ابن بطوطة ( القاهرة ١٣٢٢ هـ ) ج ٢ ص ٢٠١ و ٢٠٢ و ٢٠٣ .

(٢) روض القرطاس ص ٧٩ .

ونصحهم باتباع أحكامه ، فلم يلق منهم سوى الإعراض والتحدى ، فعندئذ قرر عبد الله وصحبه إعلان الحرب على أولئك المخالفين ، وكان صحبه يزداد عديدهم كل يوم ، حتى بلغوا بضعة آلاف .

وخرج عبدالله بن ياسين لقتال كدالة ، فغزاهم فى نحو ثلاثة آلاف ، وقتل منهم خلقاً كثيراً ، وأسلم الباقون من جديد إسلاماً صحيحاً ( ٤٣٤ هـ — ١٠٤٢م ). ثم سار لقتال لمتونة ، وضيق عليهم حتى أذعنوا للطاعة ، وبايعوه على الكتاب والسنة . وسار بعد ذلك لقتال مسوفة فحذوا فى الطاعة والبيعة حذو لمتونة . وهكذا تعاقب خضوع قبائل صنهاجة واحدة بعد الأخرى ، حتى خضعوا جميعاً . وكان من تعاليمه أن يضرب التائب مائة سوط حتى يطهر ، ثم يلقن تعاليم القرآن وأحكام الشرع . وبسط عبد الله بن ياسين سلطانه الروحى على سائر قبائل تلك الصحارى ، وجعل السلطة الزمنية ليحيى بن ابراهيم الكدالى ، وإن كان هو المستأثر فى الواقع بكل سلطة وإليه الأمر والنهى ، وجبى عبد الله الأموال من الزكاة والعشور والفىء ، واقتنى الخيل والسلاح ، واشتد بأسه ، واشتهر أمره فى سائر جنبات الصحراء ، وفى المغرب والسودان . ولما توفى الأمير يحيى بن إبراهيم ، ندب عبد الله مكانه للرياسة الأمير يحيى بن عمر بن تلاكاكين اللمتونى ليتولى شئون الحرب والجهاد(١) .

وكان يحيى بن عمر اللمتونى أميراً ورعاً زاهداً ، وكان كثير الولاء والطاعة لعبد الله بن ياسين . ومما يروى فى ذلك أن عبدالله ضربه ذات يوم عشرين سوطاً لأنه باشر القتال بنفسه مع جنده ، ولأن الأمير يجب ألا يعرض نفسه للمخاطر ، وأن يقتصر على حث جنده وتقوية نفوسهم ، وحياة الأمير هى حياة عسكره وفى موته فناء جيوشه . وقاد الأمير يحيى عدة حملات ، وافتتح جميع جهات الصحراء ، وغزا بلاد السودان وافتتح كثيراً من أنحائها . وكانت حركة المرابطين وأعمال زعيمهم عبد الله بن ياسين قد أخذت تحدث صداها فى قواعد المغرب . وكان المغرب يومئذ ، قد انقسم بعد انقضاء أمر الأدارسة ، وبعد أن لبث منذ منتصف القرن الرابع مسرحاً لحروب الشيعة وخلفاء قرطبة الأمويين ، إلى ممالك

(١) روض القرطاس ص ٨٠ ، والاستقصاء ج ١ ص ١٠١ .

وإمارات عدة ، تسودها مختلف القبائل البربرية ، ولاسيما صنهاجة وزناته ومغراوة ، وكانت أعظم ممالكهم مملكة زيرى بن عطية الزناتيين وبنيه بعده ، وقد استطالت منذ أيام المنصور بفاس ، ومعظم أعمال المغرب الشمالى، حتى أوائل القرن الخامس ، واستقر بنو يفرن بأعمال الشاطىء فى سلا وما يليها ، واستقر بنو خزرون المغراويون بدرعة وسجلماسة وأعمالها ، وبأنحاء أخرى فى أواسط المغرب . واستقرت برغواطة جنوباً بشاطىء المحيط . وهكذا كان المغرب يقدم يومئذ بظروفه وإماراته الصغيرة المتفرقة، فرصة طيبة للطامعين والمتوثبين. وكانت العناصر الناقمة فى تلك الإمارات المستبدة ، تتطلع إلى أولئك القوم الجدد ، الذين يضطرمون بالحماسة الدينية وينادون بالإصلاح ، والتزام أحكام القرآن والسنة . فى سنة ٤٤٤ هـ بعث فقهاء درعة وفقهاء سجلماسة بكتبهم إلى عبد الله ابن ياسين ، وإلى الأمير يحيي اللمتونى وأشياخ المرابطين، يشكون مما يقع فى بلادهم من ضروب الظلم والعسف ، والخروج على أحكام الدين، ويدعونهم إلى إنقاذ المسلمين من هذا النير المرهق . وكانت درعة وسجلماسة يومئذ تحت حكم بنى وانودين من زعماء مغراوة ، وأميرهم يومئذ هو مسعود بن وانودين ،فجمع عبد الله بن ياسين أشياخ المرابطين وشاورهم فى الأمر ، فرأوا وجوب قبول الدعوة والسير إلى غوث أهل المدينتين . فى سنة ٤٤٥ هـ خرج المرابطون من الصحراء على خيولهم فى حشد ضخم ، وعلى رأسهم عبد الله بن ياسين ويحيى اللمتونى ، وقصدوا أولا إلى مدينة درعة فأخرجوا عنها عاملها ، واستولوا عليها واستولوا فى أرباضها على خمسين ألف من الإبل من أموال أميرها مسعود، ونهض مسعود بن وانودين لرد الغزاة والدفاع عن أراضيه ، ونشبت بين الفريقين معركة شديدة ، قتل فيها مسعود ، وأبيد معظم جنده ،واستولى المرابطون على دوابهم وأسلابهم . ثم ساروا إلى سجلماسة ، فاقتحموها ، وقتل من كان بها من جند مغراوة . وأمر عبد الله بن ياسين بإزالة المنكرات ورفع المكوس الجائرة ، وتفريق الأخماس على المرابطين وفقهاء البلدين ، وتطبيق أحكام الدين ،وندب لحكم سجلماسة عاملا من اللمتونيين ، وكانت هذه بداية الفتح المرابطى للمغرب(١) .

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٣ . ويضع ابن أبى زرع تاريخ هذه الغزوة فى سنة ٤٤٧ هـ ( روض القرطاس ص ٨١ ) . وراجع السلاوى فى الإستقصاء ج ١ ص ١٠٢ .

وهنا يذكر لنا أبو عبيد البكرى ، ان عبد الله بن ياسين بعد أن أتم فتح سجلماسة ، سار جنوبا وغزا فى سنة ٤٤٦ هـ ، مدينة أودغست ، وهى من أعمال مملكة غانة السوداء ، وبينها وبين سجلماسة مسيرة شهرين ، وبينها وبين مدينة غانة مسيرة خمسة عشر يوما . وكان يسكن هذه المدينة خليط من زناتة والعرب ، فدخلها المرابطون واستباحوها ، وجعلوا جميع ماأصابوا فيها فيئاً(١) .

وفى سنة ٤٤٧ هـ توفى الأمير يحيى بن عمر اللمتونى ، فعين عبد الله بن ياسين مكانه للقيادة أخاه أبا بكر بن عمر .وكانت الخطوة الثانية فى افتتاح المغرب ، هى غزو بلاد السوس ، ففى ربيع الثانى سنة ٤٤٨ هـ ، سار المرابطون نحو جنوب غربى المغرب قاصدين بلاد السوس ، وجعل الأمير أبوبكر على مقدمة جيشه ابن عمه يوسف بن تاشفين اللمتونى ، وهى أول مرة تقدم إلينا الرواية فيها، عاهل المرابطين العظيم فيما بعد . وبدأ بغزو بلاد جزولة ثم فتح ماسة ، ثم سار إلى مدينة تارودنت قاعدة بلاد السوس فافتتحها . وكان بتارودنت طائفة من الرافضة تسمى البجلية نسبة إلى مؤسسها ، على بن عبد الله البجلى الرافضى ، وكان قد قدم إلى تلك الأنحاء أيام عبد الله الشيعى (أواخر القرن الثالث الهجرى)، ونشر بها مذهبه ، وهو يتضمن كثيراً من التعاليم المثيرة ، فقتل المرابطون أولئك الروافض وارتد من بقى منهم إلى السنة ، ودوخ المرابطون بلاد السوس ، واستولوا على سائر نواحيها ، وعين عبد الله بن ياسين لها عمالا من المرابطين ، وأمرهم باتباع العدل والسنة ، والاكتفاء بتحصيل الزكاة والأعشار ، وإسقاط ما عدا ذلك من المغارم الجائرة .

وعبر المرابطون بعد ذلك جبال الأطلس ، وقصدوا إلى بلاد المصامدة ، وتوغلوا فى جبال درن ، وفتحوا وردة وشفشاوة ونفيس ، وسائر بلاد منطقة جدميوه ، وبايعتهم قبائل تلك الناحية . ثم ساروا إلى مدينة أغمات ، وكانت يومئذ لمغراوة ، وأميرها لقوط بن يوسف بن على المغراوى ، فضربوا حولها الحصار ، ودافع لقوط عن مدينته أشد دفاع ،ولكنه لما رأى عبث المقاومة ، فر منها فى أهله وحشمه تحت جنح الظلام ، والتجأ إلى حماية بنى يفرن أمراء تادلا . ودخل عبد الله بن ياسين وجنده المرابطون أغمات فى سنة ٤٤٩هـ، وأقام

(١) كتاب المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب المستخرج منه كتاب « المسالك والممالك » والمنشور بعناية البارون دى سلان (الطبعة الثانية) ص ١٦٨ .

بها نحو شهرين حتى استراح جنده . ثم قصد إلى بلاد بنى يفرن وهاجم قاعدتهم تادلا واقتحمها ، وقتل من بها من بنى يفرن ، وظفر بلقوط المغراوى فقتله ، وكانت زوجه زينب بنت إسحاق النفزاوية قد اشتهرت بحسنها ونبلها ، فتزوجها الأمير أبوبكر اللمتونى . وبعد أن نظم عبد الله بن يا سين شئون هذه المنطقة سار إلى تامسنا لمقاتلة قبائل برغواطة .

وكانت هذه القبائل تدين بمذهب تنافى تعاليمه الإباحية أحكام الإسلام ، أسسه رجل يهودى الأصل يدعى صالح بن طريف البرناطى نسبة إلى برناط ، وهو حصن من أعمال شذونة بالأندلس . ووفد على منطقة تامسنا منذ أوائل القرن الثانى من الهجرة ونشر مذهبه بين أهلها ، وهم قوم تسودهم البداوة والجهالة المطلقة . فادعى النبوة وأنه قد نزل عليه قرآن جديد ، كان يتلو بعض سوره ، وزعم أنه المهدى الذى يخرج فى آخر الزمان ، وجعل الصلوات خمساً فى النهار وخمساً فى الليل ، والصوم فى شهر رجب . وأباح لهم الزواج بأى عدد من النساء إلى غير ذلك . وكثر عدد أنصاره بمضى الزمن حتى أصبحوا أمة كبيرة يطلق عليها برغواطة . وفى بعض الروايات أن برغواطة تنتمى إلى قبيلة زناتة الشهيرة . ويقول ابن خلدون إنهم من المصامدة من حيث الموطن والجوار ، وهم قبائل شتى لا يجمعهم أصل واحد ، وإنما هم أخلاط من البربر اجتمعوا إلى مذهب صالح بن طريف[1] . وأقام هذا الدعى صالح بن طريف لنفسه رياسة وملكاً فى تلك المنطقة ، منطقة تامسنا ، وشاطىء المحيط الممتد من شمالى أزمور جنوباً حتى آسفى ، وتوارث أعقابه وقرابته الملك من بعده . واشتهر منهم فى أواخر القرن الثالث أبو غفير محمد بن معاذ بن اليسع بن صالح ، واشتدت شوكته وعظم أمره ، وكانت له فى البربر وقائع مشهوره . وحارب ملوك العدوتين المغرب والأندلس ، من الأدارسة وبنى أمية والشيعة ، قبائل برغواطة ، وحاربهم بلكين بن زيرى زعيم صنهاجة ، حينما غزا المغرب سنة ٣٦٨ هـ ، ولقيه أميرهم أبو منصور عيسى بن أبى الأنصارى فى قومه ، فهزم وقتل ، وأمعن بلكين فيهم تقتيلا . ثم حاربهم المنصور بن أبى عامر ، وبعث لقتالهم الفتى واضح ،

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٠٩ و ٢١٠ ، والاستقصا ج ١ ص ١٠٣ .

فأثخن فيهم . وحاربهم بنو يفرن . وهكذا استمرت قبائل برغواطة ، هدفاً للعداء والنقمة ، حتى كان ظهور المرابطين فى أوائل القرن الخامس .

وكان من الطبيعى أن يتجه المرابطون إلى قتال هؤلاء الأقوام الكفرة الوثنيين . ومن ثم فقد سار عبد الله بن ياسين ، وقائده أبو بكر اللمتونى فى جموع المرابطين إلى أرض برغواطه ، وكان الأمير عليهم يومئذ أبو حفص بن عبد الله بن أبى غفير ابن محمد بن معاذ ، المتقدم الذكر . ونشبت بين المرابطين وبين البرغواطيين وقائع شديدة ، أصيب فيها عبد الله بن ياسين الجزولى إمام المرابطين ، ومنشىء طائفتهم ، بجراح بالغة توفى منها فى نفس اليوم . وجمع قبيل وفاته أشياخ المرابطين وحثهم على الثبات فى القتال ، وحذرهم من عواقب التفرقة والتحاسد فى طلب الرياسة . وكان مصرعه فى الرابع والعشرين من جمادى الأولى سنة ٤٥١ هـ ( ١٠٥٩ م ) ودفن فى مكان يعرف بكريفلة أو كريفلت على مقربة من تامسنا ، وأقيم على قبره فيما بعد مسجد ، وما يزال مزاره قائماً معروفاً حتى اليوم . وفى الحال اتفق رأى المرابطين على اختيار قائدهم أبى بكر بن عمر اللمتونى للرياسة مكان إمامهم المتوفى ، وهو اختيار أوصى به عبد الله قبل أن يلفظ النفس الأخير (١) .

وكان عبد الله بن ياسين فقيهاً شديد الورع والتقشف ، ولكن شديد الحمية والتعصب لمذهبه ، وقد ألفى فى تلك القبائل الصحرية الساذجة ، مادة طيبة لبث تعاليمه ، واستطاع أن يذكى فى نفوس أولئك المرابطين — أتباعه — تلك الحماسة الدينية البالغة ، التى حملتهم من الصحراء إلى ربوع المغرب ، وعاونتهم على انتزاعها تباعاً من أيدى القبائل الخصيمة . بيد أن عبد الله كان مع شديد ورعه ، مشغوفاً بالنساء ، يتزوج فى كل شهر عدداً منهن ويطلقهن ، ويسعى إلى خطبة الحسان أينما وجدن . وكان يأخذ ثلث الأموال المختلفة ، وهو إجراء يصفه المؤرخ بالشذوذ (٢) .

وقد ذكر لنا أبو عبيد البكرى فى معجمه « المسالك والممالك » بعض الأحكام الشاذة التى كان يطبقها عبد الله بن ياسين على المرابطين المنضوين

---

(١) روض القرطاس ص ٨٤ . ويضع ابن خلدون تاريخ وفاة عبد الله بن ياسين فى سنة ٤٥٠ هـ ( ج ٦ ص ٢٠٩ ) .

(٢) روض القرطاس ص ٨٤ .

تحت إمامته، وفى مقدمتها أخذه الثلث من مختلف الأموال بحجة أن ذلك يطيب باقيها ، وهو مالا تسوغه الشريعة ، من أى مذهب ، ومنها أن الرجل إذا دخل فى دعوتهم ، وأبدى توبته على سالف ذنوبه ، قيل له أنك ارتكبت فى سالف شبابك ذنوبا كثيرة ، ويجب أن يقام عليك حدودها ، وتطهر من إثمها ، فيضرب حد الزانى مائة سوط ، وحد المفترى ثمانين سوطا ، وحد الشارب مثلها . وكذلك يفعل المرابطون بمن تغلبوا عليه ، وأدخلوه قسراً فى رباطهم ، وإن علموا أنه قتل قتلوه ، سواء أتاهم تايبا طائعا ، أو غلبوا عليه مجاهراً عاصيا . ومن تخلف عن شهود الصلاة مع الجماعة ضرب عشرين سوطا ، وغير ذلك من الأحكام القاسية التى لا تطبعها سماحة الإسلام الحقيقى(١) .

— ٢ —

ونستطيع أن نقول إنه بوفاة عبد الله بن ياسين ، وقيام أبى بكر اللمتونى مكانه فى الرياسة ، تبدأ الدولة اللمتونية أو الدولة المرابطية . وهو أبو بكر بن عمر بن تلاكاكين بن واياقطين . وكان أول ما عنى به بعد دفن الإمام ، هو متابعة حرب برغواطة ، فحشد سائر قواته ، وجد فى قتالهم ، وأثخن فيهم ، حتى مزق طوائفهم ، وقتل وسبى منهم جموعاً كبيرة ، حتى أذعنوا إلى الطاعة وأسلموا إسلاماً جديداً ، ونبذوا تقاليدهم الوثنية المثيرة . وجمع ما استولى عليه من الأموال والغنائم ، وقسمها بين المرابطين ، ثم عاد إلى مدينة أغمات ، وأقام بها حتى شهر صفر سنة ٤٥٢هـ ( ١٠٦٠ م ) . ثم غادرها فى قوات ضخمة من صنهاجة وجزولة ، والمصامدة ، وافتتح بلاد فازاز ومكناسة ، وسائر أراضى زناتة ، ثم سار إلى مدينة لواتة ، وكانت بيد بنى يفرن فاقتحمها عنوة وخربها وقتل بها خلقاً كثيراً ، وذلك فى شهر ربيع الثانى سنة ٤٥٢ هـ ، وعاد بعدئذ إلى أغمات .

ولبث أبوبكر فى أغمات بضعة أشهر أخرى، وعندئذ وفد إليه رسول من بلاد القبلة قاعدتهم بالصحراء ، ونبأه باختلاف المرابطين هناك، ووقوع الخلاف

---

(١) المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، المستخرج من كتاب المسالك والممالك ، والمنشور بعناية البارون دى سلان ص ١٦٩ .

بين لمتونة ومسوفة ، فخشى أبوبكر أن يتفاقم الأمر هناك بين القبائل الشقيقة، وقد كانت الصحراء منبع أمرهم ، ومطلع سلطانهم ، فقرر أن يعود إلى قومه، ليجبر الصدع ويوحد الكلمة . فوكل شئون المغرب لابن عمه يوسف بن تاشفين ونزل له عن زوجته الحسناء زينب بنت إسحاق النفزاوية ، بعد أن طلقها ، حتى لا تشاطره خشونة الحياة الصحرية، فتزوجها يوسف فيما بعد، وأمره بمتابعة قتال مغراوة وبنى يفرن وزناتة ، ووافق أشياخ المرابطين على هذا الاختيار ، لما يعلمونه عن يوسف «من دينه وفضله وشجاعته وحزمه و نجدته وعدله وورعه وسداد رأيه ويمن نقيبته»[(١)] .

وقسمت القوات المرابطية عندئذ إلى جيشين ، تولى يوسف إمرة أحدهما ليتم به إخضاع المغرب، وتولى أبوبكر إمرة الآخر. وخرج أبوبكر فى جيشه فى شهر ذى القعدة سنة ٤٥٣ هـ (ديسمبر ١٠٦١ م) واخترق بلاد تادلا وسجلماسة، ثم سار جنوباً إلى الصحراء ، وهناك قام بإصلاح شئونها ، والقضاء على أسباب الخلاف بين أقوامها ، وتوحيد كلمتهم : ثم حشد قوات جديدة ، وسار فى جيشه الضخم إلى بلاد السودان ، فغزا الكثير من نواحيه ، وتوغل فى أراضيه إلى مسيرة ثلاثة أشهر . وفى تلك الأثناء كان يوسف بن تاشفين ، يؤدى مهمته العظيمة فى افتتاح باقى أقطار المغرب ، فبدأ بذلك بأن قسم الجيش المرابطى ، وقد بلغ يومئذ أربعين ألف مقاتل ، إلى أربعة أقسام ، اختار لها أربعة من أقدر قواده ، وهم سير بن أبى بكر اللمتونى ، ومحمد بن تميم الكدالى ، وعمر بن سليمان المسوفى، ومدرك التلكانى ، وعقد لكل منهم على خمسة آلاف ، وجعلهم فى مقدمة قواته ، وبعث بهم إلى مختلف أنحاء المغرب، وتولى هو قيادة بقية الجيش يسير به فى ا رهم . وأخذت تلك الجيوش المرابطية فى محاربة القبائل الخصيمة ، ولاسيما مغراوة وزناتة وبنى يفرن، ودوختها وغلبت على سائر أراضيها، وهرعت القبائل يجنح بعضها إلى المقاومة حتى يهزم ويغلب، ويجنح البعض الآخر إلى الاستسلام والطاعة . ولم تمض بضعة أشهر حتى كان يوسف قد غلب على معظم نواحى المغرب الجنوبية والوسطى ، فعاد من غزاته المظفرة إلى أغمات فى أواخر سنة ٤٥٤ هـ ، وقد عظم أمره ، واشتد بأسه ، وذاع صيته فى سائر أنحاء المغرب .

---

(١) روض القرطاس ص ٨٩ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٨٤ .

وفكر يوسف عندئذ أن يختط لنفسه محلة ، تكون قاعدة لجيوشه ، ومستودعاً لذخائره ، ووقع اختياره فى ذلك على أرض تقع شمال غربى مدينة أغمات . وكانت لبعض المصامدة ، فاشتراها يوسف واختط بها قصبة ومسجداً ، وكان يعمل فى بناء المسجد بنفسه مع الفعلة ، فكان ذلك مولد مدينة مَرّاكُش الشهيرة (سنة ٤٥٤ هـ — ١٠٦٢ م) . وكان هذا الاسم يطلق على هذا المكان ، ومعناه بلغة المصامدة « إمش مسرعاً » . إذ كان مأوى اللصوص وقطاع الطريق . واختار يوسف أن تكون قاعدته فى قلب بلاد المصامدة ، إذ كانوا أشد قبائل المغرب قوة وأكثرهم جمعاً . وكانوا قوام جيوشه . ومن جهة أخرى فقد كانت القاعدة الجديدة تقع فى حمى جبل درن من شعب الأطلس . ونزل يوسف فى محلته بالخيام أولا ودون أن تبنى أسوارها ، ثم أقيمت بها القصور والأبنية فيما بعد ، واختط بها الناس وحفرت بها الآبار . على أن مراكش لم يكمل بناؤها وتتسع رقعتها . ويقام سورها العظيم ، إلا فى عهد على بن تاشفين ولد يوسف . وذلك فى سنة ٥٢٦ هـ . وقد كان القسم الذى أنشأه يوسف من مدينة مراكش العظيمة ، يشمل القسم الذى يعرف بسور الحجر فيما بينه وبين جامع الكتبيين ، وهو الذى يعرف اليوم بالسجينة . وقد غدت مراكش فى فترة يسيرة من أعظم المدن المغربية وأجلها ، وغدت من ذلك التاريخ : قاعدة الدول المغربية العظيمة ، ماعدا دولة بنى مرين ؛ ولعبت فى تاريخ المغرب أعظم دور . وما زالت تحتفظ حتى اليوم بكثير من روعتها وجلالها القديم(١) .

وعمل يوسف فى ذلك الحين على تقوية جيشه وحرسه ، فاقتنى من العبيد نحو ألفين ، وبعث إلى الأندلس فاشترى عدداً كبيراً من العلوج أو الأرقاء النصارى ، وأنشأ منهم فرقة قوية من الفرسان برسم حرسه وحجابته : اشتهرت فيما بعد ببلائها فى مواقع كثيرة ، واستعان يوسف على نفقاته العسكرية بما فرضه يومئذ على اليهود من ضرائب فادحة اجتمع له منها مال كثير(٢) .

وماكاد يوسف ينتهى من إنشاء حاضرته ، وتنظيم جيشه : حتى تأهب لفتح مدينة فاس عاصمة المغرب القديمة ، وأعظم مدائنه يومئذ . وكانت الجيوش

---

(١) راجع فى إنشاء مراكش : روض القرطاس ص ٨٩ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٨٤ ، والاستقصاء ج ١ ص ١٠٧ . وراجع ياقوت فى معجم البلدان تحت كلمة مراكش .

(٢) الحلل الموشية ص ١٣ .

المرابطية ، قد تضخمت فى تلك الأثناء ، وعنى يوسف بتنظيمها ، وتجهيزها بالرماة والعدة ، والبنود والطبول ، ويقال إنها بلغت يومئذ أكثر من مائة ألف فارس من قبائل صنهاجة ، وجزولة ، وزناتة ، والمصامدة . وفى أواخر سنة ٤٥٤ هـ سار يوسف لافتتاح مدينة فاس ، فتلقته قبائلها من زواغة ولماية ولواتة وصدينة ومغيلة ومديونة وغيرها ، ووقعت بين الفريقين معارك شديدة ، انهزمت فيها تلك القبائل ، وامتنعت بصدينة ، فاقتحمها يوسف ، وقتل بها عدة آلاف . ثم سار إلى فاس ، ونازل أولا قلعة فازاز وهى من حصونها الأمامية ، ثم زحف على فاس ذاتها ، وبها صاحبها معنصر المغراوى ، وافتتح حصونها تباعاً ، ثم اقتحمها ، وذلك فى سنة ٤٥٥ هـ ، واستعمل عليها عاملا من لمتونة . وسار بعد ذلك إلى بلاد غمارة ، وغلب على كثير من نواحيها ، حتى أشرف على طنجة . وفى خلال ذلك عاد بنو معنصر المغراوى إلى فاس ، فاقتحموها وقتلوا عامل يوسف ، واحتلوها ، واضطر يوسف أن يعود لمنازلتها ، فسار إليها فى جيش ضخم ، وضرب حولها الحصار بشدة ، ثم اقتحمها عنوة ، وقتل بها كثيراً من مغراوة وبنى يفرن ، وذلك فى أوائل سنة ٤٦٢ هـ ( ١٠٦٩ م ) .

— ٣ —

ويجب قبل أن نتم الكلام عن فتوح يوسف ، أن نعطف على واقعة كان لها أثرها الحاسم فى حياة يوسف ، وفى مصاير دولة المرابطين . وذلك أن الأمير أبا بكر اللمتونى بعد أن نظم شئون الصحراء ، وقضى فى غزواته بضعة أعوام ، نمى إليه ما وفق إليه ابن عمه يوسف من الفتوح العظيمة ، ومن ضخامة السلطان واستقراره ، فقرر أن يعود إلى المغرب ليسبر غور الأمور ، وربما جال بخاطره أن يعزل يوسف ، وأن يسترد هو سلطانه ، باعتباره أمير المرابطين الشرعى . ويقول لنا صاحب الحلل الموشية إن مقدم أبى بكر من الصحراء إلى المغرب كان فى سنة ٤٦٥ هـ ، وإنه نزل بمحلته خارج مدينة أغمات ، فهرع صحبه إلى مراكش العاصمة الجديدة ، لرؤيتها والسلام على يوسف ، واستقبلهم يوسف بالترحاب ، وأغدق عليهم الهدايا والصلات[1] . وأدرك أبو بكر مبلغ ما انتهى إليه يوسف من الضخامة والتوطد ، وما يتمتع به من المحبة والنفوذ بين طائفته ، وأنه لم يبق

(١) الحلل الموشية ص ١٣ و ١٤ .

له أمل فى انتزاع شيء مما فى يده . بيد أنه يبدو لنا على ضوء رواية ابن أبى زرع وابن خلدون أن مقدم أبى بكر إلى المغرب كان قبل ذلك بقليل . ذلك أن زينب النفزاوية زوجة يوسف ، لعبت دوراً فى لقاء الرجلين . وقد توفيت زينب فى سنة ٤٦٤ هـ . وخلاصة هذه الرواية أن يوسف شعر عند مقدم أبى بكر بدقة الموقف، وما يتهدد سلطانه ، فاستشار زوجه زينب النفزاوية فى الأمر، وكانت إلى جانب جمالها من أعقل نساء زمانها ، وأبعدهن نظراً ، وكان مذ تزوجها يرجع إليها فى عظائم الأمور ، ويعتمد على نصحها ، وذكائها ، وحسن سياستها فأشارت عليه بأن يسقبل أبا بكر بالجفاء والغلظة ، ويشعره بقوة السلطان والاستبداد، ويلاطفه مع ذلك بالهدايا والطعام والخلع بما يصلح للصحراء . وسار يوسف للقاء أبى بكر ، فالتقيا بموضع بين أغمات ومراكش . وشعر أبو بكر مما أبداه يوسف ، ومن تعاليه فى السلام عليه وهو راكب فرسه ، أنه حريص على سلطانه ، مستعد للدفاع عنه ، وزهد فى التنافس والقتال ، وأوصى يوسف باتباع العدل والرفق ، ثم ودعه وعاد إلى الصحراء ، وقد زوده يوسف بطائفة عظيمة من الهدايا الجليلة ، من المال والخيل والبغال والأسلحة المحلاة بالذهب ، والجوارى والثياب الفاخرة والمؤن والدواب، وهنالك استأنف الجهاد والغزو حتى قتل فى بعض غزواته وذلك فى سنة ٤٨٠ هـ ( ١٠٨٧ م )(١) .

وقضى يوسف أعواماً أخرى فى إتمام فتح المغرب ، حتى سيطر على معظم نواحيه ، ودوخ سائر قبائله . وفى سنة ٤٧٠ هـ ( ١٠٧٧ م ) نراه وقد أشرف على طنجة ، وانتزعها من يد صاحبها الحاجب سكوت ( أوسواجات) البراغوطى وهو فى نفس الوقت صاحب سبتة . وكان سكوت من موالى بنى حمود ، وقد ولى حكم سبته فى أواخر أيامهم ، ثم استولى على طنجة ، وقوى أمره فى ذلك الركن المنعزل من المغرب ، وأطاعته قبائل غمارة ، واستمرت ولايته زهاء عشرين عاماً . فلما زحفت الجيوش المرابطية إلى تلك الناحية ، اعتزم سكوت الدفاع عن ملكه ، وكان شيخاً فى التسعين من عمره ، ولكنه كان فارساً مقداماً . فالتقى بالمرابطين فى وادى منى على مقربة من طنجة ، وقاتل حتى قتل ومزق جيشه ، وسقطت طنجة فى أيدى المرابطين ، واعتصم ولده يحيى بن سكوت

(١) روض القرطاس ص ٨٦ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٨٤ ، والاستقصاء ج ١ ص ١٠٦

بسبتة . وفى سنة ٤٧٤ هـ زحف يوسف على المغرب الأوسط ، واستولى على مدينة وجدة ، ثم استولى على تلمسان ووهران ، واستمر فى سيره المظفر حتى تونس فافتتحها ، واستولى بذلك على سائر شواطىء المغرب وثغوره الشمالية ، وقضى على سلطان سائر الأمراء المحليين الذين كانوا يقتسمون المدن والثغور يومئذ ، وشمل سلطانه جميع الأقطار المغربية ، حتى تونس شرقاً وحتى المحيط الأطلنطى غرباً ، ومن البحر المتوسط شمالا حتى حدود السودان جنوباً(١) .

وهكذا قامت الدولة المرابطية الكبرى ، وأقامتها عبقرية رجل واحد ، وهو يوسف بن تاشفين ، بعد أن وضع أسسها الأولى فقيه متعصب هو عبد الله ابن ياسين ، واستحالت بسرعة على يد أبى بكر اللمتونى ثم يوسف من بعده ، من زعامة دينية محلية ، إلى ملك سياسى ضخم . وقد ذكرت لنا الرواية عن هذا الزعيم الموهوب والجندى العظيم بعض معلومات خلاصتها ، أنه أبو يعقوب يوسف بن تاشفين بن ابراهيم بن ترقوت بن وارتقطين بن منصور بن مصالة ابن أمية الحميرى الصنهاجى اللمتونى ، فهى بذلك تنسبه إلى حمير ، وأمه حرة لمتونية اسمها فاطمة بنت سير بن يحيى . وقد ولد بالصحراء فى سنة ٤٠٠ هـ ( ١٠٠٩ م ) . بيد أننا لانعرف شيئاً عن حياته ونشأته الأولى ، وتذكره لنا الرواية لأول مرة فى سنة ٤٤٨ هـ ، حينما ندبه الأمير أبو بكر اللمتونى ليكون قائداً لجيش المرابطين الزاحف لغزو المغرب . وكان يوسف يومئذ فى الثامنة والأربعين من عمره . ومن ذلك التاريخ فقط ، تتبع الرواية أعمال يوسف وفتوحه العظيمة المتعاقبة ، وهى التى فصلناها فيما تقدم . وتنوه الرواية بورع يوسف وزهده ، وبساطته وتواضعه ، فقد كان بالرغم مما أتاه الله من بسطة فى الملك والنعم ، آية فى التقشف ، يرتدى الصوف طول حياته ، ولايرتدى سواه قط ، ولايأكل سوى الشعير ولحوم الإبل وألبانها . وكان بطلا شجاعاً حازماً ، مهيباً ، دائب التفقد لبلاده وثغوره ، وأحوال رعيته ، مجاهداً لايفتر عن متابعة الجهاد ، منصوراً مظفراً فى معظم الوقائع التى خاضها ، جواداً كريماً ، عادلا رفيقاً ، ينأى عن إرهاق رعيته بالمغارم المحرمة ، ولايفرض منها إلا ما يجيزه الشرع ، من الزكاة والأخماس والأعشار ، وجزية أهل الذمة . وأما عن شخصه ،

---

(١) روض القرطاس ص ٩٣ ، والاستقصاء ج ١ ص ١١٠ .

فقد كان معتدل القامة ، أسمر اللون ، نحيف الجسم ، خفيف العارضين ، أكحل العينين ، أقنى الأنف ، جعد الشعر ، رقيق الصوت(١) .

وقد حكم يوسف بن تاشفين ، أعظم امبراطورية إسلامية قامت فى الغرب الإسلامى ، فهو فضلا عن إنشاء الإمبراطورية المغربية الكبرى ، ممتدة فيما بين تونس والمحيط ، وما بين البحر وحدود السودان ، قد انتهى بعد ظفره فى موقعة الزلاّقة على جيوش اسبانيا النصرانية حسبما نفصل بعد ، إلى افتتاح ممالك الطوائف الأندلسية ، وبسط سيادة الدولة المرابطية المغربية على اسبانيا المسلمة ، وبذا كانت تمتد امبراطوريته عبر البحر شمالا حتّى سرقسطة فى شمال شرقى اسبانيا ، وحتّى شنترين وأشبونة فى قلب البرتغال .

وكان يوسف بن تاشفين فى بداية أمره يلقب بالأمير ، فلما فتح المغرب وترامت حدود مملكته ، أراد بعض أشياخ المرابطين أن يحملوه على اتخاذ سمة الخلافة ، فأبى واكتفى باتخاذ لقب أمير المسلمين ، وناصر الدين ، وأصدر مرسومه ، بأن يدعى له بذلك اللقب ، وذلك فى سنة ٤٦٦ هـ(٢) . وفى أواخر عهده ، بعد أن ملك الأندلس ، نصح له الفقهاء أن تكون ولايته من الخليفة لتجب طاعته على الكافة ، فأرسل إلى الخليفة المستظهر بالله العباسى ببغداد ، سفيراً ومعه هدية جليلة ، وكتاب بما فتح الله عليه من الملك ، وما أولاه من النصر ، وطلب تقليده الولاية ، فبعث إليه الخليفة بمرسوم الولاية ، والخلع والتشاريف(٣) ومما يؤكد لنا انضواء يوسف تحت لواء الخلافة العباسية ، ذكره فى سكته لاسم الخليفة العباسى(٤) .

— ٤ —

ننتقل الآن إلى تلك المرحلة الأخرى من حياة يوسف ، وهى مرحلة تدخله فى حوادث شبه الجزيرة الإسبانية ، وهى مرحلة تتخذ فى البداية طابع الجهاد فى سبيل الله ، ثم تنقلب بعد ذلك ، إلى موجة جديدة من الفتح المرابطى .

---

(١) روض القرطاس ص ٨٧ و ٨٨ ، والحلل الموشية ص ١٢ .
(٢) الحلل الموشية ص ١٦ و ١٧ ، وقد أورد لنا نص هذا المرسوم .
(٣) ابن الأثير ج ١٠ ص ١٤٥ .
(٤) روض القرطاس ص ٨٨ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٨٨ .

وقد سبق أن ذكرنا فى أخبار مملكتى إشبيلية وبطليوس ، ما انتهى إليه
ِاء الطوائف . عقب استيلاء ألفونسو السادس ملك قشتالة على طليطلة ومملكة بنى ذى النون فى سنة ٤٧٨ هـ . وتهديده لهم جميعاً بالويل والفناء ، من وجوب الاستنصار بإخوانهم فى عدوة المغرب ، وإرسالهم بصريخهم المتوالى إلى يوسف بن تاشفين ، لينهض إلى نجدتهم وإغاثتهم . وقد اختلفت الرواية فى تفصيل مقدمات هذا الصريخ وظروفه .والقول المشهور فى ذلك ، هو أن سقوط طليطلة ، كان هو العامل الجوهرى ، الذى حمل ملوك الطوائف ، على أن يتجهوا إلى الاستنصار بالمرابطين .بيد أن هناك ما يحمل على الاعتقاد بأن هذا الاتجاه يرجع إلى ما قبل سقوط طليطلة بعامين أو ثلاثة . فقد سقطت طليطلة فى يد ملك قشتالة فى صفر سنة ٤٧٨ هـ (مايو ١٠٨٥ م) ، ولكنا نجد صريخ الأندلس يتوالى على بلاط مراكش منذ سنة ٤٧٤ هـ ، فقد وفد فى ذلك العام على يوسف جماعة من أهل الأندلس ، وشكوا إليه ماحل بهم من عدوان النصارى وطلبوا إليه النجدة والعون ، فوعدهم بتحقيق أمنيتهم[١] . ثم توالى صريخهم بعد ذلك . ويحدثنا يوسف بن تاشفين نفسه عما تلقاه من صريخ الأندلس المتوالى فى رسالته التى بعث بها عقب موقعة الزلاقة إلى المعز بن باديس أمير إفريقية ، فيقول : « ولما بلغنا من استحواز النصارى ، — دمرهم الله — على بلاد الأندلس ومعاقلها ، والتزام الجزية لرؤسائها ، واستيصال أقالمها ، وإيطائهم البلاد داراً داراً ، لايتخوفون عسكراً يخرج إليهم ، فيبدد جمعهم ، ويفل حدهم ، وهم مع ذلك كله يقتلون الشيب والشبان ، ويأسرون النساء والصبيان ، فخوطبنا عن الجواز إلى الأندلس من جميع الأحواز المرة بعد المرة ، وألوتنا الأعذار إلى وقت الأقدار »[٢] . ويؤيد ابن خلدون هذه الرواية ، ويوردها بصورة أخرى ، فيقول لنا إن المعتمد بن عباد خاطب أمير المسلمين يوسف ، ملتمساً إنجاز وعده فى إنجاد الإسلام فى الأندلس ، وكاتبه أهل الأندلس كافة من العلماء والخاصة ، فاهتز أمير المسلمين للجهاد ، وبعث ابنه المعز فى عساكر المرابطين إلى سبتة فنازلها براً ، وطافت بها سفن ابن عبـــاد بحراً ، ثم اقتحموها عنوة فى ربيع الآخر

(١) الحلل الموشية ص ٢٠ .
(٢) راجع رسالة يوسف عن موقعة الزلاقة ، وقد نشرناها فى باب الوثائق فى نهاية الكتاب .

سنة ٤٧٦ هـ ، وأسر صاحبها يحي بن سكوت ثم قتل . وجاز ابن عباد بعد ذلك ، وقصد إلى أمير المسلمين ، ولقيه بفاس مستنفراً له فى الجهاد، ونزل له عن ثغر الجزيرة ليكون رباطا لجهاده[١] . ويقول لنا ابن أبى زرع ، إن أمير المسلمين لما عاد إلى مراكش فى سنة ٤٧٥ هـ عقب فتحه لوهران وتونس ،ورد عليه كتاب المعتمد بن عباد ، يعلمه بحال الأندلس ، وما آل إليه أمرها من تغلب العدو على معظم ثغورها ، ويسأله الإنجاد والعون ، فأجابه يوسف بأنه إذا فتح الله عليه سبتة فإنه سوف يتصل بهم ،ثم يحدثنا بعد ذلك عن الغزوة التى قام بها ألفونسو فى نفس العام ، فى أراضى إشبيلية وكيف اخترقها بقواته حتى وصل إلى طريف ، وخاض الماء بفرسه قائلا ، هذا آخر الأندلس قد وطأته ، وأنه لما استولى على طليطلة اتفق أمراء الأندلس وكبراؤها على الاستنصار بيوسف وكتبوا إليه جميعاً يلتمسون منه الغوث ، وأنهم سوف يكونون معه يداً واحدة فى جهاد العدو . فلما توالت كتب الأندلس على يوسف بعث ابنه المعز لافتتاح سبتة ، فحاصرها وافتتحها فى شهر ربيع الأول سنة ٤٧٧ هـ ،فسر بذلك أمير المسلمين ، وسار فى الحال بقواته نحو الشمال ليجوز منها إلى الأندلس[٢] . وفى أقوال ابن أبى زرع شىء من الغموض والتناقض فى التواريخ . ولكنهمع ذلك يؤيد الواقعة الجوهرية ، وهى أن اتجاه أمراء الطوائف إلى الاستنصار بأمير المسلمين ، حدث قبل سقوط طليطلة ببضعة أعوام ،وأن سقوط طليطلة لم يكن إلا عاملا جديداً فى تقوية هذا الاتجاه وإذكائه .

وإنه ليلوح لنا أن فكرة استدعاء المرابطين لإنجاد الأندلس ، قد خطرت لأول مرة للمعتمد بن عباد حينما اشتد ألفونسو فى إرهاقه بطلب الجزية ، وأرسل إليه ابن شاليب اليهودى فى اقتضائها ، وذلك فى سنة ٤٧٥هـ وقع عندئذ ما وقع من بطش ابن عباد برسل ألفونسو ، وخروج ملك قشتالة فى قواته للانتقام من ابن عباد ، واجتياحه لمملكته ، وتخريبه لمدنها ومروجها ، من إشبيلية جنوباً حتى مدينة طريف ، وذلك حسبما فصلناه فى موضعه من أخبار مملكة إشبيلية . والظاهر أن المعتمد قد أدرك عندئذ ، وإن يكن متأخراً ، فداحة الخطأ الذى

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٦ . وقد وهم ابن خلدون فى واقعة عبور المعتمد إلى المغرب وزيارته لأمير المسلمين . والواقع أن هذه الزيارة تمت بعد موقعة الزلاقة .

(٢) روض القرطاس ص ٩٢ و ٩٣ .

ارتكبه ، بخضوعه لملك قشتالة ومحالفته ، وأدرك مدى ما تنطوى عليه سياسة هذا الملك القوى من الخديعة والغدر . واعتزم عندئذ أمره فى استدعاء المرابطين.

وليس معنى ذلك أن ابن عباد كان ينفرد بهذا التفكير وهذا العزم ، فلا شك أن معظم أمراء الطوائف قد جالت بخواطرهم تلك الفكرة ، فقد كانوا جميعاً يشعرون بنفس الخطار ، وكانوا جميعاً يعانون ضغط ملك قشتالة ، وتخريبه لأراضيهم ، وجشعه فى استصفاء أموالهم باسم الجزية ، بيد أن ابن عباد ، وقد كان كبير ملوك الطوائف ، وكان يواجه فى نفس الوقت أعظم الأخطار المباشرة من عدوان ملك قشتالة ، كان حرياً بأن يتقدمهم فى اعتناق هذه الفكرة وتنفيذها .

على أن فكرة الاستنصار بالمرابطين لم تكن دون معارضة ، فقد كان ثمة بين ملوك الطوائف من يخشى عواقبها ويحذر ابن عباد من مغبة سياسته ، وقد أجابهم ابن عباد بكلمته المأثورة « رعى الجمال خير من رعى الخنازير » ، يقصد بذلك أن خير له أن يغدو أسيراً لدى أمير المسلمين يرعى جماله ، من أن يغدو أسيراً لملك قشتالة النصرانى(١) .

ثم كان سقوط طليطلة بعد ذلك بعامين ، فكان نذيراً لاشك فى خطورته . وإذا كانت فكرة الاستنصار بالمرابطين ، قد بدت من قبل لأمراء الطوائف أملا يداعبهم ، فقد بدت عندئذ ضرورة ماسة ، وبدت بالنسبة للأندلس مسألة حياة أو موت ، ومن ثم فإن الصريخ الذى كان يتخذ من قبل صورة الكتب والدعوات الخاصة ، يتخذ عندئذ صورته الرسمية ، وتشاطر الأندلس كلها ، أمراؤها وفقهاؤها وكافتها هذا الاتجاه ، ويبعث ابن عباد وزميلاه المتوكل ابن الأفطس صاحب بطليوس ، وعبد الله بن بلقين صاحب غرناطة ، سفاراتهم الرسمية إلى أمير المسلمين ، على يد أبى بكر عبيد الله بن أدهم قاضى قرطبة ، وأبى إسحق بن مُقانا قاضى بطليوس ، وأبى جعفر القليعى قاضى غرناطة ، وأبى بكر بن زيدون وزير المعتمد(٢) . وعبر سفراء الأندلس البحر إلى المغرب وقصدوا إلى أمير المسلمين فى مراكش ، وكانت وفود الأندلس تتوالى من قبل

---

(١) راجع الروض المعطار ص ٨٥ .

(٢) راجع الحلة السيراء ج ٢ ص ٩٩ ، والروض المعطار ص ٨٦ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٢٦ . وراجع دوزى : Histoire; Vol. III p. 124

ذلك على يوسف مستعطفة باكية ، ترجوه الغوث والإنجاد ، فيستمع إلى قولهم ، ويعدهم خيراً . والظاهر أن سفارة الأندلس الرسمية لم تأت لكى تلتمس العون ، دون قيد ولاشرط . وقد وقعت بينها وبين أمير المسلمين مفاوضات أسفرت عن عهود متبادلة . خلاصتها أن يتعاون أمير المسلمين وأمراء الطوائف فى محاربة النصارى ، وأن يؤمن أمراء الطوائف فى ممالكهم ، وألا تحرض رعيتهم على شىء من الفساد . ومن جهة أخرى فقد طلب أمير المسلمين عملا بنصح وزيره الأندلسى عبد الرحمن بن أسبط أن يُسلم إليه ثغر الجزيرة ، وقد كان يومئذ من أملاك ابن عباد ، لكى يكون قاعدة أمينة لعبور جيشه ، وقد نزل ابن عباد عند هذه الرغبة ، وأمر حاكم الجزيرة ولده يزيد الراضى بإخلائها ، لتكون رهن تصرف أمير المسلمين(١) .

وقد سبق أن أشرنا إلى ما عمد إليه ملك قشتالة عقب استيلائه على طليطلة ، من الكتابة إلى ابن عباد يطالبه بتسليم بلاده ، وينذره بسوء المصير . وما كتب به كذلك إلى المتوكل بن الأفطس فى هذا المعنى ، وإلى مارد به كل من الأميرين المسلمين ، على الملك النصرانى ، وذلك فى أخبار مملكتى إشبيلية وبطليوس .

* * *

وهكذا اعتزم أمير المسلمين أمره ، بعد استشارة قومه وفقهائه ، وقرر أن يلبى صريخ أهل لأندلس ، وأن يبادر إلى غوثهم ، ولم يك ثمة شك فى أن يوسف وقومه المرابطين ، كانت تحدوهم نزعة الجهاد فى سبيل الله ، بيد أن أولئك الجند الصحراويين الذين نشأوا فى غمار القفر والبداوة ، كانت تحدوهم فى نفس الوقت رغبة فى رؤية الأندلس ، وما اشتهرت به من الخصب والنعماء ، وأن يبلوا حرب النصارى(٢) . ومن الصعب علينا فى هذا الموطن ، أن نستشف نيات يوسف التى كشف عنها فيما بعد ، فى افتتاح الأندلس وامتلاكها ، بيد أنا نرجح أنه لم يكن يجيش بمثل هذه النية فى البداية ، وأنها خطرت له فيما بعد ، بعد أن درس أحوال الأندلس ، وأحوال أمرائها . واستنفر يوسف سائر قواته وحشوده للجهاد ،

---

(١) راجع كتاب التبيان أو مذكرات الأمير عبد الله ص ١٠٢ و ١٠٣ ، والحلل الموشية ص ٣٢ و ٣٣ .

(٢) الحلل الموشية ص ٣١ .

وكان قد تم له يومئذ فتح سبتة ، فسار إليها ، والجيوش تتلاحق فى أثره من الصحراء ،وبلاد الزاب ، ومختلف نواحي المغرب ، وأصلح مرافئها وحشد السفن لعبور قواته ، وكان أول ما عبر منها قوة من الفرسان بقيادة داود بن عائشة ، عبرت إلى ثغر الجزيرة الخضراء ، واحتلته وفقاً لما تم الاتفاق عليه ، ثم أخذت الجيوش المرابطية تعبر تباعاً ، حتى تم عبورها جميعاً إلى شبه الجزيرة . وفى ضحى يوم الخميس منتصف ربيع الأول سنة ٤٧٩ هـ ( ٣٠ يونيه ١٠٨٦ م ) عبر البطل الشيخ فى بقية قواته . وما كادت السفن العابرة تمخر عباب المضيق ، حتى اضطرب البحر وتعالت الأمواج ، فنهض الزعيم المرابطى حسبما يحدثنا بنفسه وسط سفينته ، وبسط يديه بالدعاء نحو السماء قائلا : « اللهم إن كنت تعلم أن فى جوازنا هذا خيرة للمسلمين ، فسهل علينا جواز هذا البحر ، وإن كان غير ذلك فصعبه حتى لا أجوزه » . ثم يقول لنا ، إنه ما كاد يتم كلامه حتى « سهل الله المركب ، وقرب المطلب » . وشاء ربك أن تعبر السفن المرابطية ، فى ريح طيبة وبحر هادىء ، وأن تصل إلى ثغر الجزيرة فى سلام(١)

---

(١) روض القرطاس ص ٩٣ . وهذا ما ذكره يوسف بن تاشفين نفسه فى خطابه بالفتح إلى المعز بن باديس . (ويراجع الخطاب المذكور فى باب الوثائق فى نهاية الكتاب) .

# الفصل الثانى

## موقعة الزلاقة

مسير يوسف بن تاشفين وجيشه إلى إشبيلية . المعتمد بن عباد يقدم الضيافات والمؤن . لقاء الملكين . زيارة يوسف لإشبيلية . كتبه إلى ملوك الطوائف للمشاركة فى الجهاد . مقدم أميرى غرناطة ومالقة ومعز الدولة بن صمادح فى قواتهم . مسير الجيوش المرابطية والأندلسية إلى بطليوس . مسيرها إلى سهل الزلاقة . ألفونسو السادس ومبادرته إلى التأهب للقاء المرابطين . استعانته بسائر ملوك النصارى . مسيره إلى الجنوب للقاء المسلمين . مواقع الفريقين . عدد قوات المسلمين والنصارى . الجيش الإسلامى وأقسامه . كتاب يوسف إلى ألفونسو . رد ألفونسو ورد يوسف عليه . بداية المعركة . عنف هجوم النصارى . ثبات المعتمد بن عباد وجند إشبيلية . مهاجمة ألفونسو للمرابطين . اندفاع المرابطين لإنجاد اخوانهم . تغير وجه المعركة . مهاجمة النصارى لمعسكر المرابطين . تطويق قوات لمتونة وصنهاجة للنصارى . المعركة الهائلة . تمزق صفوف القشتاليين . اشتداد هجوم المرابطين من الناحيتين . كثرة القتل بين النصارى . نزول حرس يوسف الأسود إلى المعركة . جرح ألفونسو وفراره . تقدير خسائر الفريقين . مسير ألفونسو فى فلوله إلى طليطلة . مبالغة الرواية الإسلامية فى تقدير خسائر النصارى . ذيوع أنباء النصر فى الأندلس والمغرب . رسالة يوسف عن الفتح . لقب أمير المسلمين وهل اتخذه يوسف عقب الزلاقة . إحجام يوسف عن مطاردة النصارى وبواعثه . عود الجيوش الأندلسية إلى قواعدها . الثناء على المعتمد بن عباد وثباته . تنويه أمير المسلمين ببطولته . يوسف يتلقى نبأ وفاة ولده . إسراعه بالعود إلى المغرب . ما يقال فى بواعث هذه الحركة . نصر الزلاقة وطابعه . المغنى الصليبى الذى ينطوى عليه لقاء المسلمين والنصارى . دعوة ألفونسو عقب هزيمته إلى إنشاء جبهة نصرانية . شعور المؤرخين المسلمين بخطورة الموقعة وصبغتها الصليبية . ما قيل حولها من الأساطير . أثر الزلاقة ونتائجها الحاسمة . انتعاش قوى الأندلس . تحرر ملوك الطوائف من نير قشتالة . ارتداد سيل الجيوش النصرانية عن الأندلس . الإسلام يغنم فى اسبانيا حياة جديدة .

نزل أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ثغر الجزيرة الخضراء ، فى يوم الخميس منتصف ربيع الأول سنة ٤٧٩ هـ ( ٣٠ يونيه ١٠٨٦ م ) ، وجيوشه الجرارة تحيط بها من كل صوب . وماكاد يطأ بقدميه أرض الأندلس ، حتى سجد لله شكراً ، ثم أخذ فى تحصين الجزيرة ، وإصلاح أسوارها وأبراجها ، ورتب لها حامية خاصة من جنده ، ثم سار فى قواته صوب إشبيلية .

وبعث المعتمد بن عباد ولده عبد الله لاستقبال يوسف بالجزيرة ، ورتب تقديم المؤن والأطعمة والضيافات للجيش المرابطى ، على طول الطريق إلى

إشبيلية ، واستعد لذلك استعداداً عظيما سر به يوسف . ولما اقترب يوسف من إشبيلية خرج المعتمد إلى لقائه فى وجوه أصحابه وفرسانه ، وتعانق الملكان ، وأبدى كل منهما لأخيه منتهى المودة والإخلاص ، وتضرعا إلى الله أن يجعل جهادهما خالصاً لوجهه، وقدم ابن عباد إلى أمير المسلمين جليل الهدايا والتحف، وقدم المؤن والضيافات الكافية لسائر الجيش القادم ، وقرت عينه بما رآه من ضخامته وروعة استعداده ، وأيقن ببلوغ النصر المنشود . وفى اليوم التالى سار أمير المسلمين إلى إشبيلية ، تلاحقه قواته ، وأقام هنالك ثلاثة أيام . وكان يوسف قد كتب فى أثناء ذلك إلى سائر ملوك الطوائف ، يدعوهم إلى اللحاق به ، والمشاركة فى الجهاد فى سبيل الله، وكان أول من لبى دعوته منهم عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة وأخوه تميم صاحب مالقة، واعتذر المعتصم بن صمادح صاحب ألمرية بضعفه وكبر سنه ، وتوجسه من عدوان النصارى فى حصن لييط ( أليدو )، وبعث ابنه معز الدولة فى فرقة من جنده . ثم سار أمير المسلمين فى جيوشه الجرارة ، ومعه ابن عباد فى قوات إشبيلية ، وقرطبة ، وقصدوا إلى بطليوس ، فلقيهم أميرها عمر المتوكل على مقربة منها ، وقدم لهم المؤن والضيافات الواسعة ، وأنفق أمير المسلمين أياماً فى بطليوس ينتظر وفود الرؤساء من سائر أقطار الأندلس ، بعد أن علم وتأكد لديه أن كل واحد منهم مشغول بمدافعة النصارى[١]. ولم يلحق به منهم سوى عبد الله وأخيه تميم ومعز الدولة . وانتظمت القوات الأندلسية إلى وحدة قائمة بذاتها يتولى قيادتها ابن عباد ، واحتلت المقدمة ،واحتلت الجيوش المرابطية المؤخرة ، وانتهت الجيوش الإسلامية المتحدة فى سيرها إلى سهل يقع شمالى بطليوس على مقربة من حدود البرتغال الحالية ، ويمتد مصعداً نحو قورية ، وتسميه الرواية العربية بالزلاّقة[٢] .

وكانت أنباء عبور المرابطين إلى شبه الجزيرة ، قد وصلت إلى ألفونسو السادس ملك قشتالة ، وهو محاصر لسرقسطة ، وذلك فى أواخر يوليه أو أوائل أغسطس ١٠٨٦ م ( جمادى الأولى سنة ٤٧٩ ) ، فترك الحصار على عجل ،

(١) راجع رسالة يوسف إلى المعز بن باديس السابقة الذكر .

(٢) راجع الحلل الموشية ص٣٣ و ٣٤، والروض المعطار ص ٨٧ — ٩٠ ، وسهل الزلاقة يعرف بالإسبانية Sagrajas ، وهو يقع على قيد ثلاثة مراحل من شمال بطليوس إلى يسار نهر جريرو ، أحد أفرع وادى يانة .

وتنفس مخنق المستعين بن هود صاحب سرقسطة ، وبعث ألفونسو إلى سانشو رامىرز ملك أراجون يستدعيه لإنجاده ، وكان يومئذ قائماً بحصار طرطوشة ، وبعث كذلك إلى أمراء ما وراء البرنيه ، وحشد كل ما استطاع حشده من قوات جليقية وأشتوريش وبسكونية ( ناڤار )، واستدعى قائده ألبار هانيس بقواته من بلنسية ، وتقاطر إليه سيل من الفرسان المتطوعة من جنوبى فرنسا وإيطاليا . واعتزم ألفونسو أن يلقى الأعداء فى أرضهم حتى لا تخرب بلاده إذا وقعت به الهزيمة ، وسار على رأس القوات النصرانية المتحدة إلى الجنوب للقاء المسلمين ، وهو واثق من تفوق قواته فى العدد والعدة ، والكفاية الفنية ، ولم تصله أنباء دقيقة عن حالة الجيش الإسلامى(١) .

واستقرت الجيوش النصرانية ، فى مكان يبعد نحو ثلاثة أميال عن المعسكر الإسلامى ، يفصل بينها وبين المسلمين فرع وادى يانة الممتد شمالا فى اتجاه نهر « التاجُه » والذى يسمى اليوم « جريرو » . وجعل ألفونسو على مقدمة جيشه ، قائده ألبار هانيس ، وكانت تتألف فى معظمها من جنود أراجون ، والمتطوعة . وقد اختلفتَ الرواية فى تقدير قوات المسلمين والنصارى . وتقدر بعض الروايات العربية جيش النصارى بثمانين ألف مقاتل ، ويقدرها البعض الآخر بخمسين ألفاً أو أربعين ألفاً . وأما الجيش الإسلامى ، فيقدره البعض بثمانية وأربعين ألفاً ، والبعض الآخر بعشرين ألفاً ، على أنه يبدو من الروايات المختلفة أن النصارى كانوا يفوقون المسلمين فى العدد(٢) . وكان الجيش الإسلامى ، ينقسم حسبما قدمنا إلى وحدتين كبيرتين : قوات الأندلس ، وتحتل المقدمة ويقودها المعتمد بن عباد ، ويقود منها المتوكل بن الأفطس قوات الميمنة ، ويشغل أهل شرقى الأندلس الميسرة . وأما القوات المرابطية ، فكانت تحتل المؤخرة ، وتنقسم إلى قسمين ، يضم الأول فرسان البربر من سائر القبائل ، ويتولى قيادته داود بن عائشة أبرع قواد البربر ، ويتولى يوسف قيادة الجيش الإحتياطى المؤلف من نخبة أنجاده المرابطين من لمتونة وصنهاجة وغيرهما من القبائل البربرية .

ولبث الجيشان الخصمان ، كل منهما تجاه الآخر لا يفصلهما سوى النهر ،

---

(١) R. M. Pidal : La Espana del Cid, p. 331 & 332

(٢) راجع الحلل الموشية ص ٣٨ ، وابن الأثير ج ١٠ ص ٥٢ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٢٨ ، والمعجب للمراكشى ص ٧١ .

مدى أيام ثلاثة ، والرسل تتجاوب بينهما . وكتب يوسف قبيل المعركة إلى ملك قشتالة ، عملا بأحكام السنة كتاباً يعرض عليه فيه الدخول فى الإسلام ، أو الجزية أوالحرب(١) ، ومما جاء فيه : « بلغنا يا أدفونش ، أنك دعوت إلى الاجتماع بنا ، وتمنيت أن تكون لك سفن تعبر فيها البحر إلينا ، فقد عبرنا إليك ، وقد جمع الله فى هذه الساحة بيننا وبينك ، وسترى عاقبة دعائك ، وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال » .

فاستشاط ألفونسو لذلك الخطاب غضباً ، ورد على أمير المسلمين بكتاب غليظ يفيض بالوعيد ، فاكتفى يوسف بأن رد إليه كتابه ممهوراً بتلك العبارة ، « الذى يكون ستراه »(٢) .

وحاول ألفونسو خديعة المسلمين فى تحديد يوم الموقعة ، فكتب إلى المعتمد ابن عباد ، يوم الخميس ، يقول له إن غدا يوم الجمعة ، وهو عيدكم ، وبعده السبت يوم اليهود ، وهم كثير فى محلتنا ، وبعده الأحد وهو عيدنا ، فيكون اللقاء بيننا يوم الاثنين ، فأدرك ابن عباد ويوسف خديعته ، وجاءت طلائع المعتمد فى الليل تنبىء أن معسكر النصارى فى حركة وضوضاء وجلبة أسلحة ، مما يدل على استعداد القوم لبدء القتال . ومن ثم فقد لبث المسلمون على أهبتهم حذرين متحفزين(٣) .

وقد حدث فى الواقع ما توقعه المسلمون ، فإنه ما كاد يتنفس صبح اليوم التالى ، وهو يوم الجمعة ١٢ رجب سنة ٤٧٩ هـ ( ٢٣ أكتوبر سنة ١٠٨٦ م)(٤) ،

---

(١) راجع رسالة يوسف إلى المعز بن باديس السابقة الذكر .

(٢) الحلل الموشية ص ٣٥ و ٣٨ ،ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٢٧ ، وابن الأثير ج ١٠ ص ٥٢

(٣) الحلل الموشية ص ٣٩ ، والروض المعطار ص ٩٢ . وهذا ما يقرره يوسف نفسه فى خطابه عن الموقعة إلى المغرب ( راجع روض القرطاس ص ٩٧ ) .

(٤) تختلف الرواية الإسلامية فى تحديد تاريخ المعركة ، فيقول ابن خلكان (نقلا عن البياسى) إنها كانت يوم الجمعة ١٥ رجب سنة ٤٧٩ هـ (ج٢ ص ٤٨٤) ويتفق ابن الأثير معه فى السنة ، ولكنه يقول إنها كانت فى أوائل رمضان (ج ١٠ ص ٥٣) . ويقول المراكشى إنها كانت فى رمضان سنة ٤٨٠ هـ (ص ٧٢) . ولكن ورد فى روض القرطاس (ص ٩٦) ، وفى الحلل الموشية (ص ٤٠ و ٤١) أنها كانت يوم الجمعة ١٢ رجب سنة ٤٧٩ هـ . وهذا هو التاريخ الصحيح ، وهو الذى يذكره يوسف بن تاشفين فى خطابه بالفتح إلى عدوة المغرب ، حيث يقول فى ختامه « وكانت هذه النعمة العظيمة والمنة الجسيمة يوم الجمعة الثانى عشر لرجب سنة تسع وسبعين وربعمائة =

حتى زحف النصارى وابتدأ القتال ، واشتبك الجيشان فى معركة عامة ، فهجمت مقدمة القشتاليين والأرجونيين التى يقودها ألبارهانيس ، على مقدمة المسلمين المؤلفة من القوات الأندلسية ، والتى يقودها ابن عباد . وكان هجوماً عنيفاً ردها عن مواقعها ، واختل نظامها فارتد معظمها نحو بطليوس . ولم يثبت فى وجه المهاجمين سوى المعتمد وفرسان إشبيلية ، فقاتلوا النصارى بشدة ، وأثخن أميرهم الباسل جراحاً ، وتفرق معظمهم من حوله ، وكثر القتل فى جند الأندلس ، وكادت تدور عليهم الدائرة ، دون أن يتقدم لإنجادهم أحد . وفى الوقت نفسه كان ألفونسو قد هاجم مقدمة المرابطين ، التى يقودها داود بن عائشة ، وردها أيضاً عن مواقعها . فى تلك الآونة العصيبة ، دفع يوسف بقوات البربر التى يقودها أبرع قواده ، وهو سير بن أبى بكر اللمتونى لإنجاد الأندلسيين والمرابطين معاً ، ونفذ بقواته إلى قلب النصارى بشدة ، وسرعان ما تغير وجه المعركة ، واسترد الأندلسيون والمرابطون ثباتهم ، وعاد الفارون إلى صفوفهم . واضطرمت المعركة فى هذا الجناح رائعة ، ترجح بها كفة المسلمين ، وكان ألفونسو ، فى ذلك الوقت قد تقدم فى هجومه ، حتى صار أمام خيام المرابطين ، واقتحم الخندق الذى يحميها . ولكن حدث فى نفس الوقت ، أن لجأ يوسف إلى خطة مبتكرة ، إذ تقدم فى قواته الاحتياطية من لمتونة وصنهاجة ، وتجاوز النصارى المهاجمين ، وقصد إلى المعسكر النصرانى ذاته ، وهاجمه بشدة ، وكانت تحرسه قوة ضعيفة ، ففتك بها ، ووثب إلى مؤخرة القشتاليين ، وأثخن فيهم من الوراء ، وطبوله تضرب حول جيشه فيشق دويها الفضاء ، ثم أضرم النار فى محلة القشتاليين ، فارتفعت ألسنتها فى الهواء ، فلما علم ألفونسو ما حل بمعسكره ، ارتد من فوره لينقذ محلته من الهلاك ، فاصطدم بمؤخرة المرابطين ، ووقعت بين قوات العاهلين معركة هائلة ، مزقت فيها صفوف القشتاليين ولم يستطع الملك النصرانى أن يصل إلى محلته إلا بعد خسائر فادحة ، وهنالك استؤنفت المعركة ، ويوسف فوق فرسه يصول ويجول ، ويحث جنده على

---

= موافق الثالث والعشرين لشهر أكتوبر العجمى ( روض القرطاس ص ٩٨ ) . وهذا التاريخ نفسه أعنى ٢٣ أكتوبر سنة ١٠٨٦ ، هو الذى تضعه الرواية النصرانية للموقعة . والظاهر أن أصحاب التواريخ المخالفة لم يطلعوا على كتاب يوسف بالفتح .

وراجع أيضاً : Dozy : Histoire, V. III. p. 129 & notes

الثبات ، ويرغبهم فى الاستشهاد، ودوى الطبول من حوله يصم الآذان . وينوه الأستاذ پيدال بتأثير وقع الطبول وضجيجها فى اضطراب القشتاليين ، ويقول إنه لم يسبق من قبل أن عرفت الجيوش الإسبانية ، مثل هذا الضجيج الذى تهتز له الأرض ، ومن جهة أخرى ، فقد عمد المرابطون إلى القتال فى صفوف متراصة متناسقة ثابتة ، وهى أيضاً خطة جديدة لهم فى القتال ، ولم يكن للفرسان النصارى عهد بمثلها ، إذ كانوا معتادين على القتال الفردى . ومن ثم فقد ألفوا أنفسهم بالرغم من تفوقهم فى السلاح ، عاجزين عن مناهضة هذه الصفوف المتراصة التى تفوقهم بكثافتها وعديدها(١) .

واشتد هجوم المرابطين فى نفس الوقت بقيادة سير بن أبى بكر على مقدمة القشتاليين التى يقودها ألبارهانيس ، واستردت جيوش الأندلس كل إقدامها وشجاعتها ، وكثر القتل من الجانبين فى صفوف القشتاليين . وكانت الضربة الأخيرة أن دفع يوسف بحرسه الأسود ، وقوامه أربعة آلاف مقاتل إلى قلب المعمعة ، واستطاع أحدهم أن يصل إلى ملك قشتالة ، وأن يطعنه بخنجره فى فخذه طعنة نافذة . وكانت الشمس قد أشرفت على المغيب ، وأدرك ألفونسو وقادته وفرسانه أنهم يواجهون الموت ، إذا استمروا فى موقفهم، وعندئذ بادر ألفونسو فى فل من صحبه وأشرافه إلى التراجع ، والاعتصام بتل قريب حتى دخل الليل، فسار وصحبه تحت جنح الظلام ، وتقدر الرواية من أفلت مع ملك قشتالة بنحو أربعمائة أوخمسمائة فارس ، معظمهم جرحى . وكانت صفوف النصارى قد مزقت عندئذ فى كل ناحية شر تمزيق ، وتعالت أكوام الأشلاء والجرحى ، وطورد الفارون فى كل مكان ، وهلك كثيرون منهم أثناء المطاردة ، ولم ينقذ البقية الباقية من النصارى سوى دخول الظلام ، وأمر يوسف بوقف المطاردة .

وأمضى المسلمون الليل فى ميدان الحرب ، يرقبون حركات النصارى ، وفى صباح اليوم التالى أخذت فرسانهم فى مطاردة المتخلفين ، وعمدت قوة أخرى إلى جمع الأسلاب وكانت عظيمة وافرة . ويشير يوسف فى رسالته بالفتح إلى المعز بن باديس، إلى وفرة الغنائم من الخيل والبغال والحمير والثياب والأوبار

---

(١) راجع روض القرطاس ص ٩٥ ، والحلل الموشية ص ٤٢ ، وراجع أيضاً :
R. M. Pidal : ibid., p. 335 & 339

ويقول لنا إن الفارس الواحد كان يربط معه خمسة أفراس أو أزيد .

وتقول الرواية الإسلامية ، إنه لم ينج من الجيش النصرانى سوى خمسمائة فارس أو أقل ، هم الذين فروا مع ملك قشتالة . وتابع ملك قشتالة فراره مع فلوله ولم يتوقف إلا عند قورية ، على بعد عشرين مرحلة من ميدان الموقعة . وتضيف الرواية إلى ذلك أن معظم أولئك الفرسان الفارين كانوا مثخنين بالجراح، فمات معظمهم فى الطريق . ولم يصل منهم إلى طليطلة مع مليكهم سوى مائة(١) . وهذا هو نفس ما يقرره يوسف فى خطاب الفتح الرسمى الذى بعث به إلى المغرب حيث يقول : « وتسلل ألفنش تحت الظلام فاراً لا يهدى ولا ينام ، ومات من الخمسمائة فارس الذين كانوا معه بالطريق أربعمائة فلم يدخل طليطلة إلا فى مائة فارس»(٢) . بيد أنه فى رسالته التى بعث بها إلى المعز بن باديس ، والتى يصف لنا فيها معركة الزلاّقة تفصيلا ولاسيما الدور الذى قام به مع جنده ، يقول لنا ، إنه علم أن الذى انقطع به ألفونسو من عسكره يبلغون نحو ألفى رجل ، قد أثخن معظمها جراحة ، وأنهم انتظروا حتى دخول الليل ، ثم لجأوا إلى الفرار . ثم تقول الرواية الإسلامية أيضاً إن المسلمين لم يخسروا فى المعركة سوى نحو ثلاثة آلاف(٣) ، ويقول لنا يوسف فى رسالته إنه قُتل من أكابره نحو العشرين ، هذا فى حين أن النصارى قد هلك معظمهم . وتذهب فى تقدير خسائر النصارى إلى حد قولها إنهم بلغوا نحو ثلاثمائة ألف(٤) . بيد أن هناك أقوالا أكثر اعتدالا ، فيروى مثلا أن أمير المسلمين أمر بقطع رؤوس القتلى من النصارى فقطعت وجمعت ، فاجتمع منها تل عظيم ، أذن من فوقه للصلاة ، واجتمع منها بين يدى المعتمد بن عباد أربعة وعشرين ألفاً ، وأن رؤوس القتلى التى وزعت على قواعد الأندلس بلغت أربعين ألفاً ، وأنه أرسل إلى المغرب أربعين ألفاً أخرى ، لتوزع على قواعده . ويقول لنا صاحب روض القرطاس إن الروم (القشتاليين) وكانوا ثمانين ألف فارس ، ومائتى ألف راجل ، فقتلوا أجمعين ولم ينج منهم إلا ألفنش فى مائة فارس ، ومن الغريب أن هذه الأرقام نفسها هى التى وردت

(١) روض القرطاس ص ٩٦ .

(٢) روض القرطاس ص ٩٨ .

(٣) روض القرطاس ص ٩٦ .

(٤) الحلل الموشية ص ٤٣ .

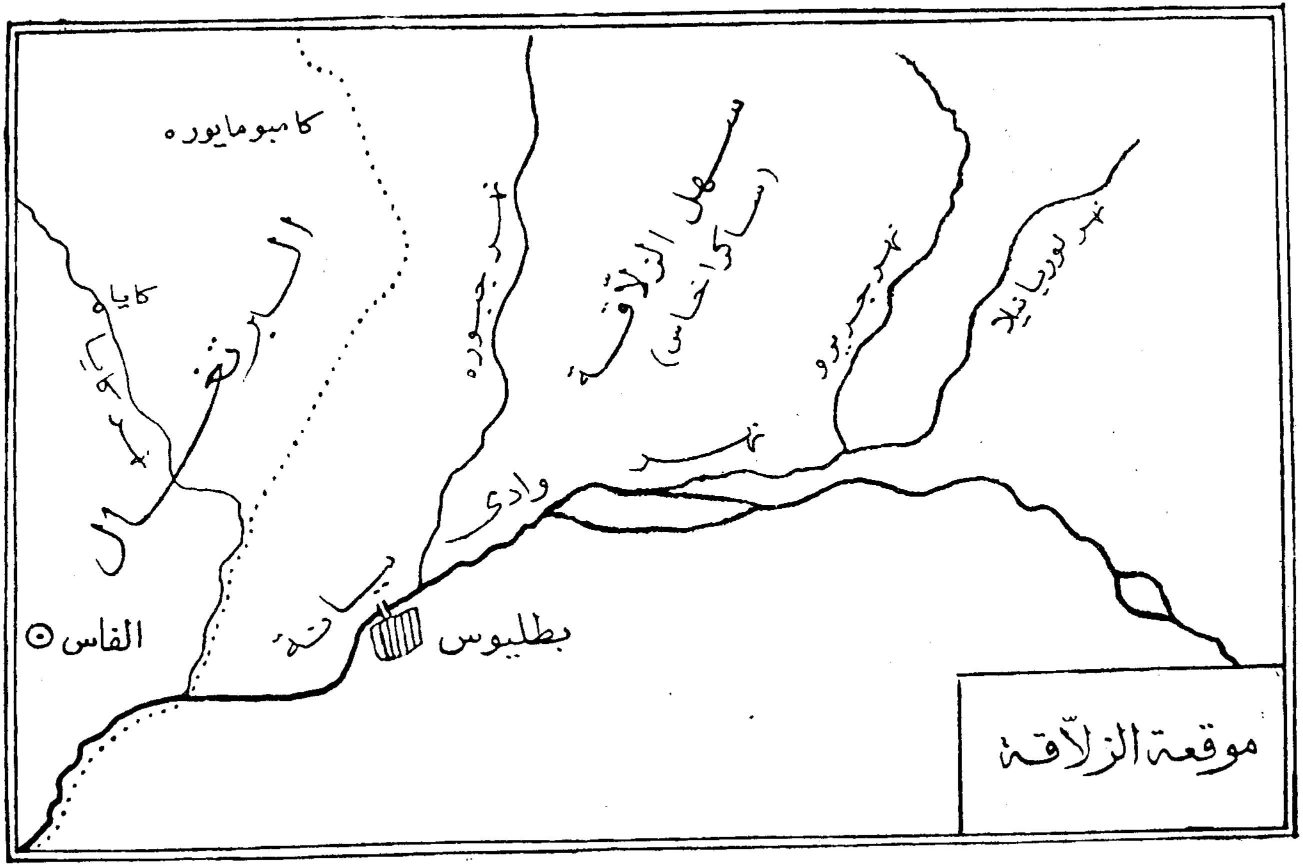
موقعة الزلاقة
كامبومايوره
البرتغال
كاياه
نهر تاجه
نهر جبوره
سهل الزلاقة
(ساكراخاس)
نهر جريرو
نهر لوريانيلا
وادي
نهر
يانة
بطليوس
الفاس

فى خطاب الفتح الرسمى الذى بعث به يوسف إلى المغرب[١] . وهذه كلها أقوال تحمل طابع المبالغة بلا ريب ، وإن كانت الرواية النصرانية تجمع على أن الموقعة كانت هائلة ، وأن خسائر النصارى كانت فيها ذريعة فادحة . ولا ريب أيضاً أن خسائر المسلمين كانت عظيمة ، وإن كانت أقل بكثير من خسائر النصارى ، وليس من المعقول أن تقتصر على ثلاثة آلاف فى مثل هذه الحشود الضخمة . ذلك أنه فى معركة ، يطبعها من الشدة والتفانى والحماسة الدينية ، ما طبعت به موقعة الزلاّقة . لابد أن تكون الخسائر فيها فادحة من الجانبين ، الظافر والمغلوب .

وذاعت أنباء النصر فى الحال فى سائر جنبات الأندلس ، وطيرت إلى سائر القواعد الأندلسية . واستبشر المسلمون فى شبه الجزيرة بما آتاهم الله من عزيز نصره . وكتب يوسف بأنباء الواقعة أو بالفتح حسبما يوسم خطابه إلى بلاد العدوة ، وكتب رسالته المسهبة عن الموقعة وأوصافها إلى المعز بن باديس صاحب إفريقية ، وهى التى أشرنا إليها فيما تقدم غير مرة . وتجاوبت أصداء النصر فى سائر مدن المغرب وإفريقية ، وعم الفرح والبشر سائر الناس ، فأخرجوا الصدقات ، وأعتقوا الرقاب . وقيل إن يوسف اتخذ لقبه «أمير المسلمين» عقب نصر الزلاّقة[٢] وأن أمراء الأندلس ، حينما هنأوه بالنصر أسبغوا عليه هذا اللقب ، ولكنا رأينا فيما تقدم ، أنه اتخذ هذا اللقب بالمغرب قبل ذلك بأعوام عديدة . بيد أنه مما يلفت النظر أن أمير المسلمين وحلفاءه الأندلسيين ، لم يحاولوا استغلال نصرهم بمطاردة العدو داخل بلاده ، والزحف إلى أراضى قشتالة ، بل ولم يحاولوا السير إلى طليطلة لاستردادها ، وهى كانت معقد المحنة التى دفعت ملوك الطوائف إلى الاستغاثة بالمرابطين . ولو بذل المرابطون هذه المحاولة ، فى الوقت الذى حطم فيه جيش قشتالة وفتحت حدودها ، لكللت بالنجاح بلا ريب .

وقد قيل لنا فى ذلك إن ابن عباد نصح لأمير المسلمين بمطاردة ملك قشتالة والقضاء على فلوله ، فاعتذر يوسف عن ذلك بحجة أنه يجب انتظار ورود

---

(١) روض القرطاس ص ٩٦ و ٩٧ . وراجع أيضاً أقوال الروايات الإسلامية الأخرى عن خسائر النصارى فى الموقعة ، فى ابن خلكان ج ٢ ص ٤٨٤ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٣١ ، وابن الأثير ج ١٠ ص ٥٣ .

(٢) روض القرطاس ص ٩٦ .

الفارين من المسلمين أولا ، حتى لا يهلكهم النصارى . ونسبت فى ذلك إلى كلا الرجلين نيات مريبة(١) .

وعلى أى حال فقد وقف نصر المسلمين عند هذا الحد ، وتفرق الجيش الإسلامى ، فارتد أمراء الأندلس كل إلى بلاده . ونلاحظ فيما يتعلق بأمراء الأندلس، وموقف كل منهم خلال المعركة، أن الرواية الإسلامية تخص المعتمد ابن عباد بتقديرها وثنائها . فقد انكشفت سائر القوات الأندلسية الأخرى فى بداية المعركة : قوات بطليوس وغرناطة وألمرية ، وارتدت منهزمة صوب بطليوس، ولم تعد إلى الميدان إلا حينما لاحت طوالع النصر . ولكن المعتمد ثبت أمام القشتاليين حسبما أسلفنا ، وأبلى وجنده الإشبيليون خير البلاء ، وأثخن جراحاً ولم يغادر ميدان المعركة ، حتى تداركته النجدات المرابطية(٢) . وينوه أمير المسلمين بثبات المعتمد وبطولته فى ذلك اليوم فى خطابه بالفتح إلى المغرب إذ يقول : « ولم يثبت فيهم (أى رؤساء الأندلس ) غير زعيم الرؤساء والقواد أبوالقاسم المعتمد بن عباد ، فأتى إلى أمير المسلمين وهو مهيض الجناح ، مريض عنة وجراح ، فهنأه بالفتح الجليل والصنع الجميل »(٣) . وينوه بذلك أيضاً فى رسالته إلى المعز بن باديس ويذكر المعتمد فيها بعطف وإجلال ، ويثنى عليه الثناء الجم . بيد أنه مما كدر صفو هذا النصر ، أن تلقى أمير المسلمين فى نفس هذا اليوم ذاته ، نبأ وفاة ولده وولى العهد الأمير أبى بكر ، وكان قد استخلفه فى مراكش وتركه مريضاً بسبتة ، فقرر العودة فوراً إلى المغرب ، ويؤكد لنا صاحب روض القرطاس أنه لولا ذلك المصاب ما عاد يوسف بمثل هذه السرعة(٤) . بيد أنه قيل فى ذلك إن إسراع يوسف بالعود ، لم يكن راجعاً إلى وفاة ولده ، بل كان يرجع بالأخص إلى استيائه وتبرمه بما شهده من أحوال أمراء الأندلس، وخلافاتهم فيما بين أنفسهم وفيما بينهم وبين شعوبهم(٥) . ومن ثم فقد عاد أمير المسلمين فى قواته إلى إشبيلية فاستراح بظاهرها أياماً ، ثم قفل راجعاً إلى المغرب، تاركاً من جنده ثلاثة آلاف رهن تصرف المعتمد .

---

(١) راجع الروض المعطار ص ٩٣ .

(٢) روض القرطاس ص ٩٥ ، والحلل الموشية ص ٤٢ ؛ والروض المعطار ص ٩٢ .

(٣) روض القرطاس ص ٩٧ .

(٤) روض القرطاس ص ٩٨ .

(٥) كتاب التبيان أو مذكرات الأمير عبد الله ص ١٠٧ .

ويعلق العلامة المستشرق الأستاذ كوديرا على ذلك بقوله : « إنه كان من حسن الطالع بالنسبة للنصارى أن يوسف الظافر فى الزلاقة ، قد تلقى عقب نصره نبأ وفاة ولده الأمير أبى بكر سير ، واضطر أن يعود إلى مراكش تاركاً فكرة مطاردة الجيش المنهزم ، واجتناء الثمرة التى يمكن أن تجنى من مثل هذا النصر العظيم ، وهى الاستيلاء على طليطلة . وهى فكرة كانت تبدو طبيعية ولكنها لم تكن قد استقرت فى ذهنه بصورة عملية ، وذلك بالرغم مما يقوله لنا المؤرخون العرب من أنه لولا موت ابنه لما غادر الأندلس بهذه السرعة . وبالرغم من أن المؤرخين يؤكدون أن هزيمة ألفونسو السادس كانت مروعة . وأنه استطاع الفرار بمنتهى المشقة ، مع نفر قليل من صحبه ، فإن قواته لم تتضعضع ، كما يتصور ، بدليل أنه لم يمض سوى قليل ، حتى غدا فى ظروف تسمح له بالهجوم ، ولكن الحظ كان ضده دائماً »(١) .

* * *

وقد كان يوم الزلاقة من أيام الإسلام المشهودة فى انتصاره على النصرانية . ومن الواضح أن لقاء الإسلام والنصرانية فى سهول الزلاقة ، إنما هو صفحة من سيرة الحروب الصليبية التى كانت اسبانيا أول مهاد لها . والتى اضطرمت بعد ذلك بقليل فى المشرق ، فى الوقت الذى كانت تضطرم فيه فى اسبانيا . فموقعة الزلاقة تعنى فى الواقع أكثر من هزيمة لملك قشتالة ، وأكثر من ظفر للمرابطين وحلفائهم الطوائف . ذلك أن فورة المرابطين الدينية ، التى اجتاحت بوادى المغرب ومدنه فى فترة قصيرة ، ثم عبرت البحر إلى اسبانيا لنصرة الدول الإسلامية بادىء ذى بدء ، وانتزعتها من الطوائف بعد ذلك ، كانت عنيفة رائعة ، توجست النصرانية منها ، واستشفت فى اضطرامها ذلك الخطر الداهم الذى كان غير مرة ينذر بمناهضة النصرانية فيما وراء اسبانيا . وقد جاشت اسبانيا المسلمة بمثل هذه الفورة بعد موقعة بلاط الشهداء وخلاص النصرانية على يد كارل مارتل (سنة ٧٣٢ م) مرتين : الأولى فى عهد الناصر لدين الله ، والثانية فى عهد الحاجب المنصور ، وفى كلتا المرتين ، ردت اسبانيا النصرانية إلى ما وراء الجبال الشمالية ونفذ الإسلام إلى قاصية اسبانيا .

---

(١) F. Codera : Decadencia y Desparicion de los Almoravides en Espana (Zaragoza 1899) p. 243

وإن تصرف ألفونسو ملك قشتالة عقب الموقعة ، ليؤكد هذا المعنى الصليبى ، الذى ينطوى عليه لقاء الزلاقة . فهو قد شعر بأن ذلك التحالف بين الإسلام فى إفريقية والأندلس ، يوشك أن يقضى على اسبانيا النصرانية ، وأنه لابد أن يقابله حلف بين قوى النصرانية ، ومن ثم فقد بعث برسله وكتبه إلى الملوك والأمراء النصارى فيما وراء البرنيه ، يهيب بهم ويحذرهم من الخطر الداهم ، وينذرهم بأنهم إذا لم يتداركوه بالعون ، فإنه سوف يضطر إلى الصلح مع المسلمين ، وسوف يتركهم أحراراً فى عبور البرنيه . وقد ألفت صيحة ألفونسو صداها فى فرنسا ، وفى مختلف الإمارات الفرنجية التى حولها ، وبادر أمير برجونية الدوق أودو ، وهو صهر ألفونسو ، إذ كانت عمته الملكة كونستانس ، بحشد الأمداد ، وشاركه فى ذلك الكونت دى سان چيل أمير تولوشة . وهرع إلى التطوع فرسان من نورماندى وبواتو ، ومن سائر أنحاء فرنسا . وسارت بالفعل قوى الأمداد صوب اسبانيا . ولكن ألفونسو حين علم بأن يوسف بن تاشفين قد عبر البحر فى معظم قواته عائداً إلى المغرب ، بعث إلى الأمراء الفرنج يشكرهم ، وينبئهم برحيل المرابطين ، وأنه لم تعد ثمة ضرورة لمقدمهم(١) .

واقتصرت الحرب الصليبية عندئذ على منطقة الثغر الأعلى ، حيث كان بنوهود أمراء سرقسطة ، يواجهون عدوان سانشو راميرز ملك أرجوان ، ومحاولاته المتوالية للاستيلاء على تُطيلة ، ووشقة ، وطرطوشة ، وكانت طوائف المتطوعة من الفرنج تهرع إلى تلك الحملات الغازية ، لتشترك فيها .

ويشعر المؤرخون المسلمون أنفسهم بخطورة موقعة الزلاّقة ، وصبغتها الصليبية ، فيحيطون حوادثها بطائفة من الأساطير الدينية . من ذلك ما قصه علينا يوسف نفسه فى رسالته لمناسبة عبوره البحر ، من المغرب إلى الأندلس ، وما دعا به ربه حينما ثارت العواصف فى وجه سفنه ، وما تلا ذلك من هدوء العواصف والموج ، وذلك حسبما فصلناه فيما تقدم(٢) . ومن ذلك أن ملك قشتالة حينما كان يتأهب لمحاربة المسلمين ، توالت عليه الأحلام المرعبة ، فرأى ذات يوم أنه يركب فيلا ، قد تدلى بجانبه طبل يحدث صوتاً مرعباً كلما قرعه ، وأن فقيهاً مسلماً من أهل طليطلة ، فسر له ذلك الحلم بأنه نذير بهزيمته الساحقة ،

(١) R. M. Pidal : ibid., p. 310

(٢) روض القرطاس ص ٩٢ .

مشبهاً ذلك بما حدث عام الفيل من سحق أبرهة وقد كان يركب الفيل أيضاً(١). ومنه مبالغات الرواية الإسلامية فى فداحة خسائر النصارى ، ومبالغتها فى نفس الوقت فى قلة خسائر المسلمين مما تقدم ذكره ، إلى غير ذلك .

على أن هذه الأساطير والمبالغات لا يمكن أن تثير ذرة من الريب حول أهمية هذه الموقعة الشهيرة ، ولا تنتقص من شأن نتائجها الحاسمة . فقد كان من النتائج العملية المباشرة لنصر الزلاّقة ، أن عادت إلى اسبانيا المسلمة روح الثقة والأمل، وأخذت قواها المتخاذلة فى الانتعاش والنهوض من عثارها ، وأن عادت إلى الشعب الأندلسى روح الحماسة الدينية ، التى كاد يقضى عليها أمراء الطوائف بتصرفاتهم المشينة ، وترامیهم على أعتاب الملوك النصارى،وتحرر أمراء الطوائف من ذلك الخزى الذى لحقهم عصراً بالخضوع لملك قشتالة ، ونكلوا عن دفع المغارم التى كانت يقتضيها منهم برسم الجزية . بيد أن هذه النتائج المحلية الخاصة ، لا تعد شيئاً إذا قيست بالنتائج العامة البعيدة المدى،التى ترتبت على هذا النصر الباهر . ففى سهول الزلاّقة ارتد سيل النصرانية الجارف عن الأندلس المسلمة ، بعد أن كان ينذرها بالمحو والفناء العاجل ، وغنم الإسلام حياة جديدة فى اسبانيا ، امتدت إلى أربعة قرون أخرى ، ومهدت السبل لسيطرة المرابطين على اسبانيا المسلمة ، ومن بعدهم لخلفائهم الموحدين ، وجعلت الأندلس ، ولاية مغربية زهاء مائة وخمسين عاماً . وبالرغم من أن حياة اسبانيا المسلمة ، لم تكن من ذلك الحين سوى صراع دائم بينها وبين اسبانيا النصرانية ، فإنها قد استطاعت أن تتابع نشاطها المنتج ، وتقدمها الحضارى الباهر .

---

(١) الحلل الموشية ص ٣٥ و ٣٦ .

(٢) راجع فى تفاصيل موقعة الزلاقة : روض القرطاس ص ٩٣ — ٩٨ ، والحلل الموشية ص ٣٣ — ٤٦ ، والمعجب للمراكشى ص ٧٠ — ٧٣ . والروض المعطار ص ٧٦ — ٩٤ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٢٧ — ٥٣١ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤٨١ وما بعدها ، وابن الأثير ج ١٠ ص ٥٢—٥٣ . وراجع أيضاً Dozy : Histoire, V. III. p. 129—130 ، وكذلك : R. M. Pidal ibid., p. 331—340

# الفصل الثالث

## الفتـــح المرابطى

### القسم الأول

صريخ أهل شرق الأندلس إلى يوسف . النصارى يتخذون حصن لييط قاعدة للعدوان . مسير المعتمد إلى مرسية وفشله فى استردادها . عبور ابن عباد إلى العدوة واستنصاره بيوسف . عبور يوسف إلى الأندلس للمرة الثانية . كتبه إلى الرؤساء ومسيره إلى شرق الأندلس . محاصرة القوات المرابطية والأندلسية لحصن لييط . صمود النصارى وعجز المحاصرين عن اقتحامه . الخلاف بين أمراء الطوائف وشكاويهم المتبادلة . القبض على ابن رشيق وتسليمه لابن عباد . غضب جند مرسية وأثره فى المعسكر المحاصر . مقدم ملك قشتالة لإنجاد الحصن . إنسحاب المسلمين وعودة يوسف إلى المغرب . مقدم يوسف إلى الأندلس للمرة الثالثة . مشروعه فى الاستيلاء على الأندلس . بواعث هذا المشروع . موقف ملوك الطوائف . محالفة بعضهم لملك قشتالة . فتاوى الفقهاء فى شأنهم . طمع المرابطين فى خصب الأندلس . العامل الدفاعى وأثره . مسير يوسف إلى طليطلة وارتداده عنها . مسيره إلى غرناطة . عبد الله بن بلقين ومحالفته السرية مع ملك قشتالة . محاصرة المرابطين لغرناطة . سوء الأحوال داخل المدينة . خروج عبد الله وتسليمه لأمير المسلمين . دخول المرابطين غرناطة . استيلاؤهم على مالقة . القبض على عبد الله وأخيه تميم وإرسالها إلى العدوة . مقدم ابن عباد وابن الأفطس وجفاء يوسف نحوهما . الوحشة بينهما وبين يوسف . تأهب الجيوش المرابطية لافتتاح قواعد الأندلس . خطة يوسف لافتتاح إشبيلية . فتاوى الفقهاء ضد المعتمد . المعتمد وملك قشتالة . أهباته الدفاعية . استيلاء سير ابن أبى بكر على طريف . زحف الجيوش المرابطية على رندة وجيان وقرطبة . سقوط جيان . مهاجمة قرطبة واقتحامها . مقتل حاكمها الفتح بن عباد . قصة زائدة الأندلسية . الأسطورة النصرانية حولها . الزعم بكونها ابنة المعتمد وزواجها من ألفونسو السادس . التفسير الحقيقى للأسطورة . حقيقة شخصية زائدة . نصوص تاريخية قاطعة .

عاد أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى المغرب عقب موقعة الزلاّقة فى شعبان سنة ٤٧٩ هـ ، حسبما أسلفنا ، ولبث فى حضرته مراكش حتى أوائل العام التالى ، ثم خرج منها ليطوف بالعمالات ، ويتفقد أحوال البلاد ، وكانت شئون الأندلس خلال ذلك مازالت تلاحقه ، وكان أهل الأندلس ، قد أيقنوا عقب موقعة الزلاّقة ، أنه لاسبيل لنجاتهم ، وخلاصهم من إرهاق النصارى ، سوى الالتجاء إلى عاهل المغرب وأنجاده المرابطين ، ومن ثم فقد عادت كتب

أهل الأندلس ووفودهم تترى على يوسف ، وتستجير به من عدوان النصارى.
وكان الصريخ هذه المرة آتياً بالأخص من أهل بلنسية ومرسية واورقة ، وكانت شئون شرقى الأندلس يومئذ قد سادها الاضطراب ، من جراء تدخل القشتاليين فى شئون بلنسية ، وسيطرتهم عليها عن طريق صنيعتهم القادر بن ذى النون ، وما تلا ذلك من مغامرات السيد إلكمبيادور فى تلك المنطقة . بيد أنه كان ثمة مصدر آخر للعدوان المباشر فى منطقة مرسية ولورقة وبسطة ، هو حصن أليدو Aledo ( وتسميه الرواية العربية حصن لييط ) ؛ وكان ألفونسو السادس قد بعث فى ربيع سنة ١٠٨٥ م ، على أثر استيلائه على طليطلة ، قواته بقيادة غرسيه خمينس إلى الأندلس الشرقية ، لتغير عليها ، وتعيث فى أراضيها ، فاجتاحت المنطقة الواقعة بين مرسية ولورقة . ثم عمد القشتاليون ، لكى يبسطوا قبضتهم على تلك المنطقة، إلى إنشاء حصن ضخم ، وافر المناعة ، فى مكان يسمى أليدو ( لييط ) يقع بين مرسية ولورقة ، وهو أقرب إلى لورقة ، وشحنوه بالسلاح والمقاتلة ، واتخذوه قاعدة للإغارة على أراضى مرسية وألمرية ، وبثوا فيها الرعب والروع ، وعجزت القوات الأندلسية المحلية عن رد عدوانهم ، حتى ضج أهل هذه الأنحاء مما ينزل بهم من صنوف الضر والأذى، وكثر صريخهم واستغاثاتهم ، وتوالت كتبهم ورسلهم على أمير المسلمين فى طلب الإنجاد والغوث(١) .

وكان المعتمد بن عباد ، وهو صاحب السيادة الشرعية على مرسية ولورقة ، أشد الناس اهتماماً بإنقاذ تلك المنطقة من عدوان القشتاليين. وكان ألفونسو عقب هزيمة الزلاقة قد عزز حامية لييط وضاعفها ، وأوعز إلى قائده غرسية خمينس بأن يشدد الضغط والتنكيل بأراضى لورقة ومرسية انتقاماً من المعتمد ، لكونه قد خرج عليه ، وعمل على استدعاء المرابطين(٢) ؛ وبلغت حامية هذا الحصن الضخم يومئذ ثلاثة عشر ألف مقاتل منهم ألف فارس ، وكان يشاطر المعتمد هذا الاهتمام ، المعتصم بن صمادح صاحب ألمرية ، لما كان ينزل بأراضيه من عيث نصارى أليدو ( لييط ) ، وكان المعتمد يتوق فى نفس الوقت إلى استرداد سلطانه الحقيقى فى مرسية ، وهى يومئذ تحت حكم ابن رشيق الفعلى ، فحشد حملة من جنده ، ومن المرابطين الذين تركهم يوسف ، وسار أولا إلى لورقة ، فامتنعت

---

(١) الحلل الموشية ص ٤٧ و ٤٨ ، وراجع : R. M. Pidal : ibid., p.319

(٢) روض القرطاس ص٩٨ ، وكذلك : R. M. Pidal : ibid., p. 361

عليه ، فغادرها إلى مرسية ، وضرب حولها الحصار . ولكن ابن رشيق استطاع أن يكسب المرابطين ، وأن يقنعهم بأن يتركوه فى سلام . وهكذا فشلت الحملة وعاد ابن عباد إلى إشبيلية دون أن يحقق أى نجاح[(١)] .

فاعتزم المعتمد أمره فى استدعاء يوسف ، للمعاونة فى قمع شر حامية أليدو النصرانية ، وعبر البحر بنفسه إلى المغرب مع بعض خاصته ، فلقى أمير المسلمين بوادى سبو ، وأفضى إليه بملتمسه ، وشرح له ما يلقاه المسلمون فى منطقة مرسية ولورقة وغيرهما ، من عسف النصارى وغاراتهم، وشنيع عيثهم ، فوعده يوسف بإجابة ملتمسه ، وكان قد تلقى قبل زيارة ابن عباد كثيراً من الكتب ، من فقهاء الأندلس وأعيانها ، يلحفون فى رجاء الإنجاد والغوث ، لقمع بغى القشتاليين ، والاستيلاء على أليدو مركز بغيهم ، وعاد ابن عباد إلى إشبيلية بعد أن اطمأن لوعد يوسف وتأكيداته ، وأخذ فى إعداد السلاح وآلات الحصار[(٢)] .

— ١ —

وأوفى يوسف بوعده ، وعبر البحر إلى الأندلس فى قواته فى شهر ربيع الأول سنة ٤٨١ هـ (يوليه سنة ١٠٨٨) . فتلقاه ابن عباد فى الجزيرة الخضراء بالمؤن الوفيرة، وبعث أمير المسلمين بكتبه إلى ملوك الطوائف ورؤسائهم يستدعيهم جميعاً للجهاد ، وأن يوافوه بقواتهم عند حصن لييط . وكان يوسف يبغى بعد الاستيلاء على حصن أليدو ، أن يعمل للقضاء على سلطان « السيد » فى منطقة بلنسية ، ومن ثم فقد اتجه يوسف عن طريق مالقة صوب شرقى الأندلس ، ومعه المعتمد فى قواته ، وانضم إليه فى الطريق تميم بن بلقين صاحب مالقة ، وأخوه عبد الله صاحب غرناطة ، والمعتصم بن صمادح صاحب ألمرية ، كل فى قواته . ولما وصل إلى ظاهر حصن أليدو ، وافاه هناك ابن رشيق صاحب مرسية فى قواته ، وعدة من رؤساء الأندلس من شقورة وبسطة وجيان وغيرها . وضرب المسلمون الحصار حول الحصن ، وكان فضلا عن حاميته الضخمة ، التى تضم ثلاثة عشر ألف مقاتل ، يضم جماعات كبيرة من نصارى هذه المنطقة الذين التجأوا إليه . وسلط المسلمون آلات الحصار الضخمة على الحصن ،

---

(١) Gaspar Remiro : Murcia Musulmana ; p. 134

(٢) روض القرطاس ص ٩٨ ، والحلل الموشية ص ٤٨ .

وضربوه بشدة ، ولكن الحصن كان فى منتهى المناعة ، فلم تنجح الآلات الضخمة فى هدمه أو ثلم أسواره ، ورد المدافعون كل محاولة للمحاصرين بمنتهى العنف والشدة ، وامتنعوا داخل حصنهم . وطال الحصار زهاء أربعة أشهر ، والقوات المحاصرة تحاول اقتحامه ، كل جماعة بدورها ، والنصارى صامدون ، يتساقطون داخل حصنهم من الجوع والإعياء . وشعر أمير المسلمين من جراء ذلك بخيبة أمل مرة ، بيد أنه شعر كذلك باستياء بالغ لما شهده من أحوال أمراء الأندلس المشاركين فى الحصار ، فقد كان الخلاف والوقيعة على أشدهما بين أولئك الأمراء الطامعين المتنابذين ، فكان تميم صاحب مالقة ، وأخوه عبد الله صاحب غرناطة ، يشكو كل منهما الآخر ، ويتهمه باغتصاب حقوقه فى الميراث والسيادة ، وكان ابن عباد والمعتصم بن صمادح يوقع كل منهما فى حق صاحبه لدى أمير المسلمين ، ويتهمه بمختلف التهم . وبرز من بين هذه الخصومات بالأخص خلاف المعتمد وابن رشيق ، فقد شكا ابن عباد ابن رشيق لأمير المسلمين ، واتهمه باغتصاب الولاية منه على مرسية ، واتهمه بما هو شر من ذلك ، وهو أنه متفاهم مع ملك قشتالة سراً ، وقد دفع إليه جباية مرسية ، وأنه يعاون حامية الحصن فى الخفاء ، واهتم أمير المسلمين لتلك التهم ، ومال إلى تصديقها ، واستفتى الفقهاء فى أمر ابن رشيق ، فأفتوا بإدانته ، فأمر بتسليمه لابن عباد على شرط أن يبقى على حياته . وكان لهذا الحادث أسوأ الأثر فى المعسكر المحاصر ، فإن قادة مرسية ومعظمهم من أقارب ابن رشيق ورجاله ، غادروا المعسكر فى جندهم غاضبين ، وقطعوا المؤن التى كانت ترسل إلى المحاصرين من مرسية وأحوازها ، فاختل أمر المعسكر ، ولحق به الضيق والغلاء ، وعلم أمير المسلمين من جهة أخرى أن ملك قشتالة يسير فى قوة كبيرة لإنجاد الحصن ، فآثر الانسحاب وعدم الاشتباك مع القشتاليين فى معركة غير مجدية . وقدم ألفونسو إلى الحصن ، فلم يجد بداخله من المدافعين سوى مائة فارس وألف راجل ، ولما رأى أنه لافائدة من الاحتفاظ به ، وأنه يقتضى لذلك حامية كبيرة ، قرر إخلاءه وتقويض أسواره وأبراجه ، وعاد أدراجه ، وذلك فى سنة ١٠٨٩ م ( ٤٨٢ هـ ) . واحتل ابن عباد أطلال الحصن بعد أن غادره النصارى .

ولم ير يوسف بعد هذا الإخفاق مجالا لمحاولات أخرى ، فاتجه نحو لورقة ،

بعد أن ترك جيشاً مرابطياً من أربعة آلاف فارس تحت إمرة داود بن عائشة ليعمل فى منطقة مرسية وبلنسية ، وتحرك أمراء الأندلس كل إلى بلده ؛ وسار يوسف إلى المرية فالجزيرة ، ثم عبر البحر عائداً إلى المغرب ، وقد تغيرت نفسه على أمراء الأندلس[١] .

— ٢ —

ولم يمض عام آخر ، حتى أعد يوسف بن تاشفين عدته ؛ للجواز إلى شبه الجزيرة للمرة الثالثة ، وكان ذلك فى أوائل سنة ٤٨٣ هـ ( ١٠٩٠ م ) . ولم يكن جوازه فى تلك المرة تلبية لدعوة أو استغاثة من أحد ، من أمراء الأندلس ، كما حدث فى المرتين السابقتين ، ولكنه عبر عندئذ إلى شبه الجزيرة ، وقد انتهى إلى قرار بالغ الخطورة ، هو الاستيلاء على الأندلس .

وقد اختلفت الروايات فى تصوير البواعث ، التى حملت يوسف على اتخاذ هذا القرار . بيد أنه يبدو على ضوء مختلف الروايات ، أن يوسف قد تأثر منذ البداية بما شهده من اختلال أحوال أمراء الطوائف ، وضعف عقيدتهم الدينية ، وانهماكهم فى مجالى الترف والعيش الناعم ، وما يقتضيه ذلك من إرهاق لشعوبهم بالمغارم الجائرة ، وأدرك أن هذه الحياة الناعمة ، التى انغمس فيها رؤساء الأندلس وشعوبهم اقتداء بهم ، هى التى قوضت منعتهم ، وفتت فى رجولتهم وعزائمهم ، وأضعفت هممهم عن متابعة الجهاد ، ومدافعة العدو المتربص بهم ، وأن الشقاق الذى استحكم بينهم ، ولم ينقطع بعد الزلاقة ، سوف يقضى عليهم جميعاً ، إذا تركت الأمور فى مجراها ، وسوف يمهد لاستيلاء النصارى على جميع أنحاء شبه الجزيرة فى أقرب وقت . ومن ثم فقد اعتزم أمير المسلمين أمره نحو الأندلس ونحو أمرائها العابثين المترفين[٢] .

ذلك هو التصوير العام ، للبواعث التى حملت يوسف بن تاشفين ؛ على افتتاح ممالك الطوائف الأندلسية ، بيد أنه توجد إلى جانب ذلك بواعث معينة أخرى ، منها أن ملوك الطوائف لما شعروا بتغير يوسف عليهم ، توافقوا على

(١) راجع روض القرطاس ص ٩٨ و ٩٩ ، والحلل الموشية ص ٤٧ — ٥٠ . وراجع : R. M. Pidal : ibid., p. 364 & 365 وكذلك ، Dozy : Histoire, V. III. p. 139 & 140

(٢) راجع المراكشى فى المعجب ص ٨٩ .

قطع المدد والمؤن عن عساكره ومحلاته التى تركها بالأندلس ، فساءه ذلك[1] ، ومنها ما وقف عليه يوسف ، من رجوع بعض رؤساء الطوائف إلى مصادقة ألفونسو ملك قشتالة وممالأته ، بل واستعدائه على محاربة يوسف نفسه ، وإمداده لذلك بالأموال والهدايا ، وكان هذا بالذات موقف عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة[2] ، ثم كان فيما بعد موقف المعتمد بن عباد ، وقد عمد كلاهما فى الواقع إلى تحصين بلاده والاستعداد للدفاع عنها[3] .

والظاهر أيضاً أن أمير المسلمين لم يتخذ قراره الخطير بافتتاح الأندلس فجأة ، ولكنه عمد إلى دراسته ومشاورة الزعماء والفقهاء فى أمره ، وقد تلقى فى ذلك فتاوى الفقهاء من المغرب والأندلس ، بوجوب خلع ملوك الطوائف ، وانتزاع الأمر من أيديهم ، بل لقد تلقى مثل هذا الرأى من أكابر فقهاء المشرق ، وفى مقدمتهم أعلام كالإمام الغزالى ، وأبى بكر الطرطوشى نزيل مصر يومئذ وغيرهما[4] . وإذاً فقد التمس أمير المسلمين لتنفيذ مشروعه ، سند أحكام الشرع ، وتأييد أهل الرأى ، قبل الإقدام عليه .

ويمكننا أن نضيف إلى ما تقدم ، ذلك الباعث الطبيعى ، الذى يضطرم به كل زعيم قوى وكل متغلب ، ونعنى شهوة الفتح والتوسع ، فلا ريب أن يوسف بن تاشفين وصحبه ، وهم أولئك البدو الصحراويون ؛ قد راقهم ما شهدوه من خصب الأندلس ونعمائها ، وطيب هوائها . ومن ثم فإن الرواية تحدثنا بصراحة عن « طمع يوسف فى الجزيرة وتشوفه إلى مملكتها » ، وتذكر لنا أنه قال يوماً لبعض ثقاته ؛ «كنت أظن أنى قد ملكت شيئاً ، فلما رأيت تلك البلاد ( الأندلس ) صغرت فى عينى مملكتى »[5] .

اجتمعت هذه البواعث كلها ، لتحمل يوسف على فتح الأندلس ، وهى بواعث فوق وضوحها ، تسجلها لنا الرواية جميعاً . بيد أننا نستطيع أن نستشف

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٧ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٧ .

(٣) روض القرطاس ص ٩٩ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤٩٠ . وراجع : R. M. Pidal ibid., p. 394

(٤) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٧ و ١٨٨ ؛ وأعمال الأعلام ص ٢٤٧ .

(٥) المعجب ص ٧٤ . وراجع ابن خلكان ج ٢ ص ٤٠ ، وأعمال الأعلام ص ١٦٣ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٣٣ .

من قرار يوسف باعثاً آخر ، لم تفطن إليه الرواية الإسلامية ، ولعله من البواعث الهامة ، فى مشروع عاهل المرابطين ، وهو العامل الدفاعى والاستراتيجى. ذلك أن يوسف أدرك لأول وهلة ، أن دول الطوائف الضعيفة المتخاذلة ، لاتستطيع فى ظل أمرائها المترفين الخانعين دفاعاً عن نفسها ، وأنه إن تخلى عنها ، فسوف تسقط حتما فى يد ملك قشتالة القوى . ولم تغب عن يوسف ، وهو ذلك الجندى العظيم ، أهمية الصلة الدفاعية والاستراتيجية الوثيقة ، التى تربط بين ضفتى العدوة والأندلس ، المتقابلتين على طرفى المضيق ، ولم يفته أن يدرك أن سقوط الأندلس ، فى أيدى النصارى ، معناه سقوط جناح المغرب الدفاعى من الشمال ، ومعناه تهديد اسبانيا النصرانية لسلامة المغرب ، متى اجتمعت قواها ، وتوفرت لديها وسائل العدوان ، ومن ثم فقد قرر أن يبادر إلى احتلال رقعة الوطن الأندلسى ، لينقذ الأندلس من هذا الخطر الداهم ، وليدعمها ، ويضاعف أهباتها الدفاعية ، ويمكنها من تأدية مهمتها الاستراتيجية فى رد عادية العدوان ، لا عن نفسها فقط ، ولكن عن المغرب أيضاً . ولم ينس أمير المسلمين فى ذلك ، أن ملك قشتالة استطاع عقب استيلائه على طليطلة ، أن يجتاح أراضى الأندلس الوسطى كلها ، منذ نهر التاجه جنوباً حتى أرض الفرنتيرة ، وأن يصل إلى ثغر طريف قبالة العدوة ، دون أن يقف فى سبيله أحد من ملوك الطوائف ، وكان فى ذلك من بوادر الخطر على أرض العدوة القريبة ما فيه .

— ٣ —

عبر أمير المسلمين إلى شبه الجزيرة للمرة الثالثة فى أوائل سنة ٤٨٣ هـ ، حسبما قدمنا . وكان أبلغ ما أهمه عندئذ ما تواتر إليه من أخبار عن الاتفاقات السرية التى يعقدها المعتمد بن عباد ، والمتوكل بن الأفطس ، وعبد الله بن بلقين ، مع ألفونسو السادس ملك قشتالة للتعاون فى رد المرابطين . واتسمت حملة يوسف فى البداية بطابع الجهاد ، حيث سار توا إلى طليطلة ، واجتاح فى طريقه أراضى قشتالة . ولم يتقدم أحد من أمراء الطوائف يومئذ لمعاونته أو السير معه . وربما كان يوسف يرجو أن يسترد طليطلة ، فيشفى بذلك جرح الأندلس الدامى ، ويكتسب عطف أهل الأندلس جميعاً . وعاث المرابطون فى أحواز طليطلة وخربوا ضياعها ، وانتسفوا زروعها ، ثم ضربوا الحصار حول العاصمة القوطية القديمة

وعاصمة قشتالة يومئذ ، وكان بداخلها ألفونسو السادس وحليفه سانشو راميرز يقومان بالدفاع عنها ، بيد أن المرابطين أيقنوا بعد أن شهدوا أسوارها العالية ، وحصانتها الفائقة ، بعبث المحاولة ، فتركوا الحصار ، وارتد يوسف بقواته إلى الجنوب(١) .

وعرج يوسف بجيشه على فحص غرناطة ، وكان قد قرر أمره نحو غرناطة وصاحبها عبد الله بن بلقين ، بل ونحو أمراء الطوائف جميعاً . وكان عبد الله فى الواقع مذ عاد من حصار أليدو ، ولما شعر به من تغير يوسف ، قد عاد إلى استئناف صلاته بألفونسو السادس ، عن طريق قائده ومبعوثه فى تلك المنطقة ألبار هانيس ، وعقد معه فيما يبدو محالفة سرية لمقاومة المرابطين . ويعترف الأمير عبد الله فى مذكراته بهذه الصلات ، ولكنه يقول لنا إنها لم تكن سوى التزام منه بدفع الجزية لألفونسو ، وتعهد من ألفونسو بألا يعترض له بلداً ولا يغدر به(٢). ويقول لنا ابن عذارى من جهة أخرى إن عبد الله بن بلقين كان أول من شهر الخلاف على يوسف بن تاشفين ، فنظر فى اختيار الآلات وألحق الرماة والرجال ، وأعلا الأبراج ، وبنا الأسوار ، ونصب الرعادات ، وملأ بيوت السلاح ، وجدّ فى ضرب السهام ، ونقل المال والذخيرة ؛ وخرج المتاع والآنية إلى قصبة المنكب لكونها فى غاية المنعة ، وعلى ضفة البحر ، وعمد إلى مال كثير ، وثياب نفيسة ، وتحف جليلة ، وأعلاق دقيقه ، فوجه بها إلى أذفونش ، وكتب إليه متطارحاً عليه ، مستجيراً به ، وأعلمه ان البلد بلده وأن فيه قايده ، فاهتز لذلك الأذفونش ، وقبل المال والهدايا ، وأقسم بجميع أيمانه ، أن يشد اليد عليه فى ملكه ، ولا يتركه لضيم ولا خصيمة ، وأن ينهض إليه بنفسه ، ويبذل جهده فى نصره، فقويت نفس حفيد باديس بذلك . وفى ذلك يقول صفيه وأثيره السمسرى :

صانع أذفونش والنصارى ... فانظـــر إلى رأيه الوبير
وشاد بنيانه خــــلافا ... لطاعة الله والأمـــير
يبنى على نفسه سـفاها ... كأنه دودة الحـــرير

---

(١) روض القرطاس ص ٩٩ . وكذلك R. M. Pidal : ibid,, p. 394 & 395

(٢) كتاب التبيان ص ١٢٥ . وراجع ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٧ .

دعوه يبنى فسوف يدرى     إذا أتت قدرة القدير(١)

على أن ما استقر فى ذهن يوسف ، وما نهضت عليه الأدلة ، وأكده رسله يومئذ ، هو أن المعتمد بن عباد ، وعبد الله بن بلقين وغيرهما من أمراء الطوائف ، قد عقدوا مع ملك قشتالة اتفاقات سرية ، يتعهدون فيها بالامتناع عن معاونة المرابطين بالمال والمؤن ، وبالانضواء تحت لواء ألفونسو وحمايته . وكان بعض حشم عبد الله ولاسيما مؤمل مولى جدّه باديس ، قد اتصلوا بأمير المسلمين ، وأكدوا له مداخلة عبد الله لملك قشتالة ، واهتمامه بتجديد الأسوار وتحصين المدينة . ومن جهة أخرى فقد أصدر فقهاء غرناطة فتوى بخلع عبد الله وأخيه تميم صاحب مالقة ، لما يرتكبانه من المظالم والخروج على أحكام الدين ، وأهابوا بيوسف أن يرغم أمراء الطوائف على اتباع أحكام الشرع وإلغاء المكوس ، والمغارم الجائرة ، التى يفرضونها على رعيتهم تعسفاً وظلماً .

وفرض أمير المسلمين على غرناطة شبه حصار ، وقام عسكره بحراسة حصونها الخارجية ، حتى لايأتيها مدد من النصارى ، وطلب المؤن والعلوفات ، فبادر عبد الله بتقديمها . وكانت الأحوال فى غرناطة قد ساءت ، وشاع الخلاف والتمرد بين سائر الطوائف ، وأدرك عبد الله أنه لاسبيل إلى المقاومة ، وأرسل إلى أمير المسلمين رسله ومعهم بعض المال ، فعادوا إليه بأمان يوسف « فى النفس والأهل دون المال » ، كما عرض عليه يوسف أن يختار بلداً آخر لإقامته غير غرناطة . فتمهل عبد الله وقتاً . والظاهر أنه كان ينتظر عوناً من القشتاليين لم يتحقق . وفى خلال ذلك كانت أمه وخاصته يلحون عليه فى الخروج إلى أمير المسلمين ، والانقياد لأمره ، كأفضل حل للموقف . ولما اقترب أمير المسلمين بمحلته من المدينة ، واشتد بها الهياج ، رأى عبد الله أنه لامناص من اتباع هذا النصح ، فسار إلى محلة يوسف ، وقدم إليه نفسه ، فأصدر له أماناً فى نفسه وأهله ، وأمر باعتقاله ، حتى يتم ضبط أمواله ، وكانت لدى عبد الله وأمه أموال طائلة ، مكدسة منذ أيام جده باديس ، وعلى أثر ذلك أقبل الفقهاء والأعيان إلى محلة يوسف وبايعوه بالطاعة . ودخل يوسف مع قادته وجنده مدينة غرناطة ونزل بقصرها ، واستولى على ما فيه من الأموال والتحف الجليلة ، وأذاع فى

(١) نقلت من أوراق مخطوطة من البيان المغرب عثر بها المؤلف فى خزانة القرويين بفاس .

الناس ، أنه سوف يحكم بالعدل والرفق وفقاً لأحكام الشرع ، ويعمل على إقامة الخير بينهم ، والذب عن حوزتهم ، وأنه سوف يرفع عنهم سائر المغارم الجائرة ، ولا يفرض عليهم من التكاليف والالتزامات إلا ما يجيزه الشرع . وكان خلع عبد الله بن بلقين بن باديس فى اليوم العاشر من شهر رجب سنة ٤٨٣ هـ ( سبتمبر سنة ١٠٩٠ )[١] .

وبعث أمير المسلمين فى الوقت نفسه سرية من جنده إلى مالقة ، فقبضت على صاحبها تميم بن بلقين أخى عبد الله ، وحمل مكبلا إلى العدوة ، ثم أرسل إلى السوس . وكان الفقهاء قد اتهموه بطائفة من المظالم الشنيعة وطالبوا بخلعه[٢] .

وأخذ عبد الله وأهله أولا إلى الجزيرة الخضراء ، ثم نقلوا إلى سبتة ، فمكناسة وأخذوا أخيراً إلى مدينة أغمات ، حيث تقرر إقامتهم ، وأنزلوا هنالك داراً حسنة ، وعوملوا برفق ورعاية ، وعاش عبد الله بأغمات حتى توفى . وكتب فيها مذكراته الموسومة بكتاب «التبيان» ، وهى التى رجعنا إليها فى غير موضع . وعفا أمير المسلمين فيما بعد عن أخيه تميم ، فسكن مراكش حتى توفى بها فى سنة ٤٨٨ هـ[٣] .

وهكذا سقطت أول دولة من دول الطوائف فى أيدى المرابطين ، وكان سقوطها نذيراً باضطرام العاصفة ، التى قدر لها أن تجتاح الطوائف جميعاً . وشعر المعتمد بن عباد بخطورة هذا النذير ، بيد أنه كان من جهة أخرى ، مايزال يعلل نفسه بمختلف الآمال الغامضة ، وكان قد استقبل يوسف عند مقدمه بالجزيرة الخضراء ، وقدم إليه المؤن والضيافات المعتادة ، ويقال إن يوسف وعده عندئذ بغرناطة متى استولى عليها[٤] . فلما ظفر يوسف بامتلاكها ، سار المعتمد ومعه زميله المتوكل بن الأفطس إلى غرناطة ، فقدما التهنئة لأمير المسلمين بهذا الفتح . وظن المعتمد عندئذ أن يوسف سوف ينجز وعده بالنزول له عن غرناطة ، مقابل

---

(١) يراجع فى حوادث سقوط غرناطة فى أيدى المرابطين : كتاب التبيان أو مذكرات الأمير عبد الله ص ١٤٧ — ١٦٠ ، وروض القرطاس ص ٩٩ و ١٠٠ ، وأعمال الأعلام ص ٣٣٥ و ٢٣٦ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٨٧ . وراجع أيضاً : Dozy : Hist. V. III. p. 141—144 ، وكذلك R. M. Pidal : ibid., p. 394 — 396

(٢) كتاب التبيان ص ١٦٢ و ١٦٣ ، وأعمال الأعلام ص ٢٣٦ .

(٣) كتبان التبيان ص ١٧١ ، وأعمال الأعلام ص ٢٣٦ .

(٤) كتاب التبيان ص ١٦٤ .

استيلائه على ثغر الجزيرة ، ولكن يوسف استقبلهما بجفاء ، فانصرفا عنه ، وقد أدركا الحقيقة المروعة ، وشعرا بأن النهاية المحتومة ، قد أضحت على وشك الوقوع . وعاد المعتمد إلى إشبيلية ، وهو يعتزم الدفاع عن مملكته جهد الاستطاعة وأخذ فى التأهب ، وإقامة التحصينات والأسوار ، وساءت العلائق بينه وبين أمير المسلمين بسرعة ، وكثرت بينهما الوقيعة والسعايات ، ودعا أمير المسلمين المعتمد إل لقائه فرفض ، وطلب إليه أن يتبع أحكام الشرع ، وأن يلغى المكوس الجائرة ، وأن يلتزم الرباط ومدافعة النصارى ، فلم يجبه إلى شىء[1] .

وغادر أمير المسلمين غرناطة، وجاز إلى العدوة فى شهر رمضان سنة٤٨٣هـ ، وفوض إلى قائده الأكبر سير بن أبى بكر اللمتونى شئون الأندلس . وهنا تختلف الرواية ، فيقال إنه لم يأمر قائده فى أمر ابن عباد بشىء ، وقيل من جهة أخرى ، إنه أمره بمحاصرة ابن عباد فى إشبيلية ، وأنه متى انتهى من أمر إشبيلية ، فليتقدم إلى بلاد ابن الأفطس[2] . وقدم أمير المسلمين قائده ابن الحاج على جيش آخر ، وعهد إليه بمنازلة قرطبة ، وعليها ولد المعتمد الفتح الملقب بالمأمون ، وقدم أبا زكريا بن واسنو على جيش ثالث ، وعهد إليه بمحاصرة المعتصم بن صمادح صاحب ألمرية، وقدم جروراً الحبشى على عسكر رابع وعهد إليه بمنازلة يزيد الراضى ولد المعتمد برندة . وأقام أمير المسلمين بسبتة يجهز الجيوش والأمداد ، ويترقب نتائج أعمال جيوشه فى شبه الجزيرة .

— ٤ —

كان من الواضح ، على ضوء هذه الأهبات الضخمة ، التى اتخذت لمهاجمة قواعد مملكة إشبيلية فى وقت واحد ، أن يوسف بن تاشفين ، كان يرى فى مملكة إشبيلية واسطة عقد الأندلس ، وفى أميرها المعتمد بن عباد ، عميد الطوائف ، فإذا سقطت فى يده إشبيلية ، كان له ملك الأندلس .

ولم يكن أمير المسلمين تعوزه المبررات فى قتال ابن عباد ، فقد كان لديه المبررات المادية والشرعية الكافية . ذلك أنه احتاط للأمر ، واستصدر الفتاوى الشرعية اللازمة ، من فقهاء المغرب والأندلس ، بأن مسلك المعتمد فى مصانعة

---

(١) الحلل الموشية ص ٥١ و ٥٢ ، وروض القرطاس ص ١٠٠ ، وكتاب التبيان ص١٦٩ .

(٢) روض القرطاس ص ١٠٠ ، والحلل الموشية ص ٥٢ .

النصارى ، وتسليمهم البلاد ، والاحتماء بهم ، ومسلكه إزاء شعبه فى اقتضاء المكوس الجائرة ، وغير ذلك مما يخالف أحكام الشرع ، ومجاهرته بالمعاصى ، كل ذلك مما يفقده أهليته لحكم المسلمين ، ويوجب محاربته وخلعه(١) . أما عن المبررات المادية ، فقد وقعت فى يد يوسف بعض المراسلات السرية الموجهة من ابن عباد إلى ملك قشتالة ، يستغيث به ويطلب معونته(٢) وكان المعتمد بعد أن رأى جنود قشتالة تجتاح بلاده ، وتمعن فى تخريبها ، دون أن يستطيع دفعاً لهم ، وشعر من جهة أخرى بما يضمره المرابطون نحوه من النيات الخطرة ، قد أيقن أنه لامعدى له عن الالتجاء إلى ملك قشتالة ، والتفاهم معه على دفع المرابطين عن الأندلس .

وبينما كان المعتمد منهمكاً فى أهباته الدفاعية بإشبيلية ، كان قائد المرابطين سير بن أبى بكر ، يضع خططه النهائية للانقضاض على قواعد مملكة إشبيلية ، وقد بدأ فى ذلك بالاستيلاء على طريف أقصى ثغورها الجنوبية، وذلك فى شوال سنة ٤٨٣ هـ ( ديسمبر ١٠٩٠ م ) ونادى فيها بدعوة أمير المسلمين(٣) ، ثم اتجه نحو الشمال قاصداً إشبيلية ، بينما زحفت الجيوش المرابطية الفرعية على رندة وجيان وقرطبة . فأما رندة فقد حاصرها القائد جرور المرابطى بقواته ، وكان يضطلع بالدفاع عنها يزيد الراضى ولد المعتمد . وكانت رندة من أمنع القواعد الجنوبية ، فصمد بها الراضى ، واضطر جرور أن يقنع بالحصار منتظراً سير الحوادث . وأما جيان ، فقد زحف عليها جيش مرابطى بقيادة بطى بن اسماعيل وضرب حولها الحصار . وهنا يقول لنا ابن الخطيب إن جيشاً من القشتاليين قدم لإنجاد جيان ، تنفيذاً للحلف المعقود بين ابن عباد وملك قشتالة ، وإنه نشبت بين المرابطين والنصارى موقعة أبيد فيها المرابطون(٤) . بيد أن ابن أبى زرع يقول لنا بالعكس إن بطى حاصر جيان حتى دخلها صلحاً ، وكتب سير بالفتح إلى أمير المسلمين ، وأمر بطى بالسير بقواته إلى قرطبة(٥) . وقد ذكرنا من

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٧ و ١٨٨ .
(٢) كتاب التبيان ص ١٦٩ .
(٣) المعجب ص ٧٥ . وكذلك : R. M. Pidal : ibid, p. 398
(٤) أعمال الأعلام ص ١٦٣ .
(٥) روض القرطاس ص ١٠٠ .

قبل وفقاً لرواية صاحب الحلل الموشية،أن القوات المرابطية التى سارت لمنازلة قرطبة كانت بقيادة ابن الحاج . وعلى أى حال فقد زحف المرابطون على قرطبة، وبها حاكمها ولد المعتمد ، الفتح الملقب بالمأمون ، وكان قد اتخذ كل الأهبات الدفاعية الممكنة ، وأرسل زوجه وأولاده وأمواله تحوطاً إلى حصن المدور(١) ، الواقع جنوب غربى قرطبة على ضفة نهر الوادى الكبير ، لكى تبقى بمنجاة من الخطر ، وحتى تستطيع أن تلوذ عند الضرورة بحماية ملك قشتالة ، وقد كان هذا الإجراء فيما يبدو بإشارة المعتمد أو بموافقته . والواقع أن قرطبة لم تصمد طويلا ، فقد اقتحمها المرابطون بعنف ، وقتل الفتح بن عباد خلال الهجوم مدافعاً عنها ، ورفع المرابطون رأسه على رمح . وكان افتتاح المرابطين لقرطبة فى اليوم الثالث من صفر سنة ٤٨٤ هـ (٢٦ مارس سنة ١٠٩١ م)(٢) .

* * *

وهنا يجب أن نقف قليلا ، لنتناول مسألة تاريخية هامة ، غمرتها الأسطورة مدى عصور ، ثم ألقى عليها البحث الحديث ضوءه المقنع ، تلك هى قصة زائدة الأندلسية .

لقد ذكرت الروايات الإسبانية النصرانية ، المعاصرة واللاحقة ، أن ألفونسو السادس قد تزوج من ابنة للمعتمد بن عباد تسمى « زائدة » أو أنه قد اتخذها خليلة ، وأنجب منها ولده الوحيد سانشو . وتزيد على ذلك أن المعتمد نفسه ، حينما شعر بخطر المرابطين الداهم على مملكته ، واستغاث بألفونسو لمعاونته على دفعه ، هو الذى قدم ابنته المذكورة للملك النصرانى ، وأنه نزل له عن مواضع معينة من أراضى مملكة طليطلة ، كان قد افتتحها، لتكون مهراً لابنته المذكورة ، وترجع بعض الروايات المتأخرة هذا التصرف من جانب ابن عباد إلى فرصة سابقة على مقدم المرابطين ، وتقول إنه كان ضمن مغريات الحلف الذى عقده المعتمد مع ألفونسو عن طريق وزيره ابن عمار ، وأخيراً أن هذا التصرف قد أثار فضيحة كبيرة فى الأندلس ، واتهم ابن عباد بالتفريط فى عرضه ودينه(٣) .

---

(١) وهى بالإسبانية Almodavar del Rio

(٢) روض القرطاس ص ١٠٠ ، وراجع : R. M. Pidal : ibid. p. 405

(٣) وردت هذه القصة ضمن رواية Pelayo de Oviedo المعاصرة ، وقد نشرت ضمن

وقد استمرت التواريخ النصرانية تتناقل هذه الأسطورة عصوراً كأنها حقيقة لاريب فيها ، وتتحدث دائماً عن « زائدة الأندلسية » Zaida la Mora أو Ceida وعن ذريتها النصرانية . ونقول نحن إنه لاتوجد بين هذه التفاصيل المغرقة ، سوى حقيقة واحدة هى شخصية زائدة المذكورة ، وأنها كانت حقيقة زوجة أو خليلة لألفونسو السادس ، وقد أنجب منها ولده سانشو الذى قتل طفلا فى موقعة إقليش (٥٠١ هـ — ١١٠٨ م) . ولكنها لم تكن ابنة للمعتمد بن عباد ، ولم يقدمها المعتمد لألفونسو ثمناً لحلفه ، وهذا هو اب الأسطورة كلها. وهذاهو وجه الإغراق والتحريف . ذلك أنه مما لايسيغه العقل أن يرضى أمير عظيم مسلم كالمعتمد بن عباد ، أن يزوج ابنته من أمير نصرانى أو أن يقدمها له جارية وحظية ، ومهما كان من استهتار المعتمد وتسامحه الدينى ، وإذا فرضنا أنه لم يكن يقيم فى مثل هذا التصرف الشائن ، وزناً للاعتبارات الدينية والشرعية ،وهوفى ذاته مما لايقبله العقل ، فمن المستحيل عليه ألا يحسب أعظم حساب لنتائجه السياسية ، وخصوصاً فى مثل هذه الظروف الدقيقة التى كانت تجوزها اسبانيا المسلمة يومئذ ، وأقلها أن يضطرم شعبه المسلم بالثورة عليه، وأن يسحقه ويسحق أسرته : ومن جهة أخرى فإن المعتمد كان يرمى من جانب خصومه فى الدخل وفى الخارج بألسنة حداد من أجل استهتاره وتهاونه الدينى ، ولم يكن من المعقول أن يقدم بمثل هذا التصرف إلى خصومه سلاحاً جديداً يضعه فى صف المارقين والخوارج على الدين .

أما التفسير الحقيقى لهذه القصة ، وهو ماكشفت عنه البحوث والنصوص الوثيقة ، فهو أن زائدة هذه كانت حسبما تقدم زوجة للفتح بن المعتمد الملقب بالمأمون حاكم قرطبة ، وأن المأمون حينما هاجم المرابطون المدينة ، أرسل زوجته وولده وأمواله إلى حصن المدور ، أو أنه حينما اقتحم المرابطون المدينة وقتل الفتح، استطاعت زائدة أن تلوذ مع أولادها بالفرار ؛ وأن تلجأ إلى حصن المدور ،

---

مجموعة Espana Sagrada للأب Flores ( الجزء الرابع عشر ) . وذكرها رودريك الطليطلى فى روايته التى وردت فى : De Rabis Hispaniea ، وكذلك لوقا التطيل فى روايته Cronicon Mundi على اختلاف فى بعض التفاصيل ، وذكرها الأب فلوريس فى تاريخه Flores : Reynas Catolicas ومن المؤرخين المحدثين Modesto Lafuente فى تاريخه : Historia general de Espana وراجع أيضاً R: M. Pidal : ibid., p. 760-764 حيث يلخص سائر الروايات المتقدمة .

ثم التجأت إلى حماية ملك قشتالة، حينما اشتد خطر المرابطين على سائر تلك الأنحاء وربما كان ذلك بموافقة المعتمد . ولما كانت زائدة على جانب كبير من الجمال ، وكان الملك النصرانى من جهة أخرى مزواجاً ، كلفاً بالنساء ، فقد انتهز فرصة التجائها إليه ، واتخذها خليلة ثم تزوجها . وتقول الروايات القشتالية فى هذا الموطن ، إن زائدة كانت تحب الملك النصرانى « بالسماع » ، وتتوق إلى الزواج منه ، وأن المعتمد ( بزعم أن زائدة كانت ابنته ) قد نزل لملك قشتالة فى هذه المناسبة عن قونقة ،ووبذة وإقليش وأوكانيا وكونسوبجرا وغيرها من الأماكن ، وهى التى كان قد افتتحها من مملكة طليطلة أيام بنى ذى النون ،وذلك كمهر لزائدة . وقد يكون المعتمد قد نزل حقاً عن هذه الأماكن وغيرها لملك قشتالة ، ولكن ذلك لم يكن سوى بعض ما تعهد به لملك قشتالة كثمن لحلفه وعونه . ومتى تقرر أن زائدة ، لم تكن ابنته، فإنه لامحل أن يقرن هذا التنازل من جانب المعتمد بقصة زواج زائدة من الملك النصرانى. ونقول تتمة لقصة زائدة إنها غدت خليلة أو زوجة لملك قشتالة ، على الأرجح عقب سقوط قرطبة بقليل ، فى أوائل سنة ١٠٩٢م ، وأنها بهذه المناسبة اعتنقت النصرانية وتسمت باسم « إيسابيل » ، وفى رواية باسم ماريا ، ونصر أولادها من الفتح ، ومن كان معها من الحشم ، ورزق منها ألفونسو بولده الوحيد سانشو ، وتوفيت زائدة عند مولد ولدها سانشو، ودفنت بدير سأهاجون وذلك فى سنة ١٠٩٧، أو١٠٩٨ م . ولما اجتاح المرابطون أراضى قشتالة ، فى أوائل عهد الأمير على بن تاشفين،وسارالقشتاليون لمحاربتهم تحت أسوار قلعة إقليش ، بعث ألفونسو بولده الصبى سانشو على رأس الجيش لكى يثير حماسة الجند ، فقتل فى الموقعة التى نشبت بين الفريقين ، وقتل معه معظم أكابر الجيش وقادته ، وذلك فى سنة ٥٠١ هـ ( ١١٠٨ م) . وتوفى ألفونسو على أثر ذلك غما وحزناً(١) .

ولم تذكر لنا الرواية الإسلامية اسم زائدة ، ولاشيئاً من قصتها بطريق مباشر ، ولكنها مع ذلك تقدم إلينا الدليل القاطع على حقيقة شخصيتها وصفتها ، ولدينا فى ذلك نصان كلاهما حاسم فى تقرير هذه الحقيقة .

أولها ما ورد فى تاريخ ابن عذارى « البيان المغرب » فى أخبار سنة ٥٠١ هـ

---

(١) راجع R. M. Pidal : ibid., p.495, 496 & 760-764

وهى الموافقة لسنة (١١٠٨ م) عن الحملة التى أرسلها ألفونسو السادس ضد المرابطين لإنجاد قلعة إقليش، وقد جاء فيه: «وفى خلال ذلك وصل إليه (إلى حصن إقليش) ولد أذفونش شانجه من زوج المأمون بن (عباد) التى كانت تنصرت بنحو سبعة آلاف فارس»[١].

والثانى نص أورده الونشريشى فى كتابه: «المعيار المغرب والجامع المعرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب» وقد جاء فيه عن موضوع الخوف على الأبضاع والفروج ما يلى: «ومنها الخوف من الفتنة على الأبضاع والفروج، ومتى يأمن ذو زوجة أو ابنة أو قريبة وضيئة أن يعثر عليها وضىء من كلاب الأعداء وخنازير البعداء، فيغرها فى نفسها ويغرها فى دينها، ويستولى عليها وتطاوعه، ويحال بينها وبين وليها بالارتداد فى الدين، كما عرض لِكَنَّة المعتمد بن عباد ومن لها من الأولاد، أعاذنا الله من البلاء وشماتة الأعداء»[٢].

تلك هى الحقيقة حول أسطورة زائدة «ابنة» المعتمد بن عباد، وتقديم أبيها المعتمد إياها زوجة لألفونسو السادس، اكتساباً لمحالفته وعونه ضد المرابطين، وهى أسطورة لبثت عصوراً تمثل فى الروايات الإسبانية الكنسية وغيرها كأنها حقيقة لاريب فيها. وقد زاد من غموضها صمت الرواية الإسلامية المعاصرة واللاحقة. والظاهر أن المؤرخين المسلمين قد شعروا بما يكتنف هذه القصة من دقة وإيلام للنفوس الكريمة، فآثروا الإغضاء عنها، باعتبارها حادثاً لا أهمية له من الناحية التاريخية.

---

(١) وقع على هذا النص العلامة المرحوم الأستاذ ليفى بروفنسال فى أوراق مخطوطة من البيان المغرب لم تنشر، عثر بها فى مكتبة جامع القرويين بفاس، ونشر عنه مقالا عنوانه Zaida la Mora فى مجلة Hispéris XVIII (1934) فكان ضوءاً جديداً قيما على هذه الأسطورة.

(٢) وردت هذه الفقرة ضمن فتاوى الونشريشى فى كتابه السالف الذكر طبع فاس سنة ١٣١٤ هـ. ويوجد منه نسخة مخطوطة بمكتبة الإسكوريال رقم ١١٤٦ الغزيرى. وقد نشرت أيضاً بصحيفة معهد الدراسات الإسلامية المصرى بمدريد (المجلد الخامس ص ١٨٩).

# الفصل الرابع

## الفتـــح المرابطى

### القسم الثانى

استيلاء المرابطين على أبدة وبياسة وقلعة رباح . استيلاؤهم على قرمونة . زحف سير بن أبى بكر على إشبيلية . يدعو المعتمد إلى الطاعة . محاصرته لإشبيلية . تأهب المعتمد للدفاع . استغاثته بملك قشتالة . مسير الجند القشتاليين لإنجاده . القتال بين المرابطين والقشتاليين . هزيمة النصارى وارتدادهم . استماتة المعتمد فى الدفاع . خصوم المعتمد فى الداخل وتفاهمهم مع المرابطين . نجاح المرابطين فى ثلم السور . محاولتهم الدخول وردهم . حرق أسطول إشبيلية النهرى . هجوم المرابطين على المدينة واقتحامها . المعارك داخل المدينة . بسالة المعتمد فى الدفاع . استيلاء المرابطين على المدينة . أسر المعتمد ونهب قصوره . إرغامه على الكتابة إلى ولديه بتسليم رندة وميرتلة . تسليم رندة ومقتل حاكمها الراضى ولد المعتمد . رواية فى تسليم إشبيلية بالأمان . ما ينقض هذه الرواية . أقوال ابن اللبانة والفتح بن خاقان . شعر المعتمد فى ذلك . حياته المعتمد بعد سقوطه . محنة اعتقاله . مسيره إلى المنفى . نزوله بطنجة . مسيره إلى أغمات. حياته المؤلمة فى المعتقل . قسوة أمير المسلمين فى معاملته . وفاة اعتماد زوجة المعتمد. قول فى صفاتها . شعر المعتمد فى محنته . محنته تذكى الشعر بالأندلس . تصفيده بالأغلال . وفاته ودفنه بأغمات . ذكراه فى المغرب والأندلس . قبره يغدو مزاراً . زيارة ابن الخطيب لقبره وشعره فى ذلك . وصف لأطلال قبره . محنة المعتمد وصداها فى الرواية الإسلامية . حملة ابن الأثير على أمير المسلمين . تعليقات دوزى. قسوة أمير المسلمين وما ينتحل لها من الأعذار. المعتمد وما له وما عليه . البواعث التى دفعت يوسف إلى فتح الأندلس . تأملات حول معاملته للأمراء المنزوعين . مسير المرابطين إلى المرية . الروايات المختلفة فى شأن سقوطها . استيلاء المرابطين على بلنسية . استيلاؤهم على شنتمرية الشرق . استيلاؤهم على سرقسطة. حركاتهم فى غرب الأندلس . إغاراتهم على أراضى بطليوس. ابن الأفطس واستغاثته بألفونسو السادس . مسير المرابطين إلى بطليوس وافتتاحها . مصرع المتوكل ابن الأفطس وولديه . انتهاء مملكة بطليوس . مرثية ابن عبدون لبنى الأفطس . استيلاء المرابطين على أشبونة . جواز أمير المسلمين الرابع إلى الأندلس . غزو المرابطين لقشتالة وهزيمتهم للنصارى . يوسف يعقد ولاية العهد لولده على فى قرطبة . مرض يوسف ووفاته . وصيته لولده على .

على أثر سقوط قرطبة ، استولى المرابطون على أبدة وبياسة وشقورة ، فى شرقى قرطبة ، وعلى حصن البلاط والمدور فى غربها . وبعث فاتح قرطبة القائد بطى بن اسماعيل إلى قلعة رباح ، وهى قاصية أراضى المسلمين ، حملة من ألف فارس ، فاحتلتها . وهكذا سيطر المرابطون على سائر أراضى الوادى الكبير ،

وعلى سائر قواعد مملكة إشبيلية ، ما عدا رندة وقرمونة وإشبيلية . وفى أوائل شهر ربيع الأول سنة ٤٨٤ هـ ، نجد قائد المرابطين العام، سير بن أبى بكر أمام أبواب قرمونة . وكانت قرمونة أمنع قواعد مملكة إشبيلية الشمالية ، وهى حصن إشبيلية من الشرق ، فنازلها سير ، ودخلها عنوة فى السابع عشر من ربيع الأول ( ١٠ مايو سنة ١٠٩١ م ) . وأخذ يستعد لمنازلة إشبيلية .

ويقول لنا ابن أبى زرع فى هذا الموطن، إن سير بن أبى بكر ، حينما أشرف على إشبيلية ، وقبل الزحف على قرطبة ، كان يعتقد أن المعتمد ، سوف يخرج إليه ، ويتلقاه كعادته بالمعاونة والضيافات ، ولكنه تحصن بالمدينة ولم يعن بشأنه ، فكتب إليه سير ، يطلب إليه تسليم البلاد ، والدخول فى الطاعة ، فرد المعتمد بالرفض، فضرب سير الحصار حول المدينة ، وأخذ فى منازلتها ومقاتلة ابن عباد . ويقدم إلينا ابن خلكان رواية مماثلة ، إذ يقول إن يوسف أمر سيراً أن يعرض على ابن عباد أن يتحول إلى بر العدوة بأهله وماله ، فإن قبل فبها ونعمت ، وإن أبى فينازله ، فلما عرض سير ذلك ، لم يعطه ابن عباد جواباً ، فنازله ، وحاصره أشهراً [١] .

حاصر المرابطون إشبيلية بقوات ضخمة ، ولم يشك المعتمد منذ البداية ، أنه سوف يخوض مع المرابطين معركة الحياة والموت ، فتأهب للدفاع عن ملكه وحاضرته بكل ما وسع ، واستغاث بحليفه ألفونسو السادس ملك قشتالة . وكان ألفونسو قد اهتز لاجتياح المرابطين مملكة إشبيلية على هذا النحو الصاعق ، وأدرك من جانبه أن المسألة لم تعد تتعلق فقط بمملكة إشبيلية، ولا ملوك الطوائف وحدهم ، وإنما أضحت مشكلة شبه الجزيرة الإسبانية كلها ، ومسألة خطر اجتياح المرابطين لها واحتلالهم إياها . وكانت تجمعه فى ذلك مع ابن عباد قضية واحدة ، هى قضية دفع خطر المرابطين عن الوطن المشترك ، ومن ثم فقد بادر من فوره بإرساله حملة قوية بقيادة ألبار هانيس أكبر قواده وأبرعهم ، لإنجاد ابن عباد . وتقول الرواية الإسلامية إن هذه الحملة كانت تتألف من عشرين ألف فارس وأربعين ألف راجل [٢] ، وتقول الرواية النصرانية إنها كانت تتألف فقط من

---

(١) ابن خلكان فى وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٨٧ .

(٢) روض القرطاس ص ١٠٠ .

ألفى وخمسمائة فارس . وبعث سير بن أبى بكر لقتال القشتاليين حملة من عشرة آلاف فارس ، بقيادة ابراهيم بن إسحاق اللمتونى ، وهى حملة تقدرها الرواية النصرانية بخمسة عشر ألفاً . والتقى القشتاليون والمرابطون على مقربة من حصن المدور ، وفى رواية أخرى أن اللقاء كان فى بلمة من أحواز إشبيلية[1] ، ونشبت بينهما معركة عنيفة ، قتلت فيها جموع كبيرة من الفريقين ، وانتهت بنصر المرابطين وارتداد القشتاليين ، وقد أثخن قائدهم ألبار هانيس جراحاً[2] ، وانهار بذلك آخر أمل كان يعلقه ابن عباد على معاونة حلفائه القشتاليين .

واستمر حصار المرابطين لإشبيلية زهاء أربعة أشهر ، ودافع المعتمد وجنده عن حاضرتهم أشد دفاع ، وصمدت المدينة لهجمات المرابطين ومحاولاتهم ، حتى أنه ينسب لقائدهم سير بن أبى بكر أنه قال « لو أنى أقصد مدينة الشرك لم تمتنع هذا الامتناع »[3] .

وفى خلال ذلك حاول جماعة من أهل المدينة من خصوم بنى عباد، أن يضرموا الثورة داخل المدينة ، حتى يضطرب أمر الدفاع ، ويمهد السبيل لدخول المرابطين ، ووقف المعتمد على أمرهم ، ولكنه أبى أن يقوم بإعدامهم وفقاً لنصح قادته ، واكتفى بمراقبتهم والتحوط لسعيهم . وأخيراً استطاع المرابطون بمداخلة بعض أولئك الخونة ، أن يحدثوا ثلمة فى السور ، عند باب الفرج على مقربة من النهر ( يوم ٥ رجب ) . ووقف المعتمد على الخبر فبادر لتوه فى ثلة من فرسانه ، لرد الداخلين من جند العدو ، وهو دون درع أوعدة ، وليس عليه سوى قميص يشف عن بدنه ، وتلقى المعتمد خلال المعركة التى نشبت طعنة تحت إبطه من فارس مرابطى ، فوثب المعتمد يطاعنه فشقه بسيفه ، ومزقت تلك الثلة من المرابطين ، وأصلحت الثلمة على الأثر . بيد أنه حدث فى عصر ذلك اليوم ذاته : أن تمكن بعض المرابطين من الوصول إلى أسطول إشبيلية الراسى فى الوادى الكبير ، وأضرموا النار فيه ، فهلكت معظم سفنه ، وأدرك الناس عندئذ أن خطط الدفاع عن المدينة ، أخذت فى الانهيار ، وسرى بينهم الرعب، وبادر كثيرون إلى الفرار ، بعضهم عن طريق النهر ، والبعض الآخر بالترامى

---

(١) ابن الخطيب فى أعمال الأعلام ص ١٦٣ .

(٢) راجع روض القرطاس ص ١٠٠ و ١٠١ ؛ وكذلك: R. M. Pidal : ibid., p. 407 & 408

(٣) كتاب التبيان ص ١٧٠ .

من شرفات الأسوار ، أو الالتجاء إلى القنوات والمغائر . وسيطرت الفوضى على المدينة ، وبدت طوالع النهاية منذرة مروعة .

وفى خلال ذلك كان سير بن أبى بكر ، يحشد قواته وينظم الضربة الأخيرة . ووقعت الضربة الحاسمة فى يوم الأحد الثانى والعشرين من رجب سنة ٤٨٤ هـ (٧ سبتمبر سنة ١٠٩١ م )(١) ، حيث هاجم المرابطون إشبيلية بشدة. واقتحموها من ناحية الوادى الكبير ، وانقضوا عليها كالسيل الجارف ، يمعنون فيها سفكاً وتخريباً . ونشبت بينهم وبين المدافعين عن المدينة معارك محلية عنيفة ، وهجمت فرقة من المرابطين على القصر الملكى ، فاستقبلهم المعتمد على باب قصره فى ثلة من فرسانه وخاصته، يدافع عن نفسه وملكه حتى اللحظة الأخيرة ، أشد دفاع وأروعه ، ولكن هذه البسالة النادرة لم تغن شيئاً ، وانتهى المرابطون بالاستيلاء على المدينة،وعلى القصور الملكية ، وأسروا المعتمد وآله،وقتلوا ابنه مالكا الملقب بفخر الدولة بين يديه ، ونهبوا قصوره — على قول المؤرخ « نهباً قبيحاً » — واحتووا على سائر ذخائره وأمواله ، وساد القتل والعيث والنهب فى المدينة الغنية التالدة . وكانت محنة مروعة .

وأصدر سير بن أبى بكر أماناً للمعتمد « فى النفس والأهل والولد »(٢) ولكنه أرغمه على مخاطبة ولديه يزيد الراضى وأبى بكر المعتد ، ينصحهما بالخضوع والتسليم ، وكان الأول حسبما تقدم ممتنعاً برندة ، والثانى ممتنعاً بمرتلة ( أو مارتلة ) فى جنوبى البرتغال. وكانت رندة بالأخص ما تزال صعبة المنال، نظراً لحصانتها الفائقة ، وقد يطول صمودها . وانضمت « السيدة الكبرى» أعنى اعتماد الرميكية أم الأميرين إلى زوجها المعتمد ، فى حثهما على التسليم واستعطافهما رحمة بوالديهما . فأذعن الأميران للرجاء . فأما يزيد الراضى المدافع عن رندة ، فقد قبل التسليم بعد أن قطع له جرور القائد المرابطى عهده

(١) راجع كتاب التبيان ص ١٧٠ ، وهى رواية معاصرة حيث يضع هذا التاريخ لسقوط إشبيلية . ويوافقه فى ذلك ابن أبى زرع (روض القرطاس ص ١٠١) . ولكن عبد الواحد المراكشى يضع لذلك يوم الأحد ٢١ رجب ٤٨٤ هـ ( المعجب ص ٧٦ ) . ويقول ابن الخطيب إن سقوط إشبيلية كان فى يوم الأحد ٢٠ رجب سنة ٤٨٤ هـ ( أعمال الأعلام ص ١٦٤) . ومن المحقق أن الرواية الأولى هى الراجحة ؛ وتوافقها التواريخ النصرانية ، وهى تضع لذلك يوم ٧ سبتمبر الموافق للتاريخ الهجرى .

(٢) روض القرطاس ص ١٠١ .

بالأمان ، بيد أنه ماكادت تفتح أبواب المدينة ، ويدخلها المرابطون ، حتى أمر جرور بالقبض على الراضى وإعدامه ، وانتهاب أمواله ، ناكثاً بذلك بعهده أشنع نكث ، وأمر بقتل كل من ظفر به من الأحرار والجند المدافعين ( رمضان سنة ٤٨٤ هـ ) . وأما فى ميرتلة ، فقد أبقى المرابطون على حياة المعتد ، وقنعوا بنهب أمواله(١) . وتم للمرابطين بذلك الاستيلاء على سائر قواعد مملكة إشبيلية .

وكان يزيد الراضى ، ويكنى أبا خالد ، أنبه أبناء المعتمد فى ميدان الشعر والأدب ، وكان شاعر بنى عباد بعد أبيه ، وقرينه فى نظم القريض الفائق . وكان فوق ذلك عالما أديبا ، حافظاً للشريعة ، خبيراً بأنساب العرب ولغاتها . ومن شعره قوله :

| | |
|---|---|
| يحل زمان المرء ما هو عاقد | ويسهر فى إهلاكه وهو راقد |
| ويغرى بأهل الفضل حتى كأنهم | جناةُ ذنوبٍ وهو للكل حاقد |
| سينهدُ مبنىٌ ويقفر عـــامرٌ | ويصفر مملوء ، ويخمد واقد |
| ويفترق الألاّف من بعد صحبة | وكم شهدت مما ذكرت الفراقد(٢) |

* * *

وهكذا سقطت مملكة بنى عباد فى أشهر قلائل ، وخبا نجمها الذى سطع حيناً فى سماء الأندلس وضاء عالياً ، ولكنها سقطت أبية كريمة ، فى مناظر من الفروسية الرائعة تخلق بالأُلى شادوها . ولم تسقط قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة على يد عميدها الباسل . وقد يبدو من رواية « روض القرطاس » أن المعتمد سلم عاصمته للمرابطين بالأمان مختاراً(٣) . والحقيقة التى تجمع عليها سائر الروايات ، هو أن المرابطين اقتحموا إشبيلية ، كما تقدم ، وأخذوها عنوة فى مناظر رائعة من السفك والتخريب ، وأن المعتمد بن عباد لم يدخر وسيلة فى الدفاع عن نفسه وعاصمته ، وأنه ظل يدافع حتى اللحظة الأخيرة ، وحتى

---

(١) المراكشى فى المعجب ص ٧٧ ، وكتاب التبيان ص ١٧١ . ونحن نذكر ان اثنين من أبناء المعتمد هما عباد بن محمد والفتح الملقب بالمأمون قد قتلا بالتعاقب فى حوادث قرطبة ، وكان هؤلاء جميعاً أبناؤه من حظيته اعتماد الرميكية . وكان له منها أبناء آخرون ، منهم أبو الحسين الملقب بالرشيد الذى عبر معه إلى العدوة (راجع الحلة السيراء ج ٢ ص ٦٢ ) .

(٢) الحلة السيراء ج ٢ ص ٧١ و ٧٤ .

(٣) روض القرطاس ص ١٠١ .

اقتحم الأعداء قصره وأسروه . وقد انتهت إلينا فى ذلك رواية شاهد عيان ، هو أبو بكر محمد بن عيسى الدانى المعروف بابن اللبانة ، فهو يصف لنا فى كتابه « نظم السلوك فى مواعظ الملوك فى أخبار الدولة العبادية »، مناظر سقوط إشبيلية حسبما شهدها بنفسه فى قوله: « إلى أن كان يوم الأحد الحادى والعشرون من رجب ، فعظم الخطب فى الأمر الواقع ، واتسع الخرق على الراقع ، ودخل البلد من جهة واديه ، وأصيب حاضره بعادية باديه ، بعد أن ظهر من دفاع المعتمد وبأسه ، وترامیه على الموت بنفسه، ما لامزيد عليه ، ولا انتهى خلق إليه، فشنت الغارة فى البلد، ولم يبق فيها على سبد لأحد ولا لبد ، وخرج الناس من منازلهم يسترون عوراتهم بأناملهم ، وكشفت وجوه المخدرات العذارى ،ورأيت الناس سكارى وما هم بسكارى»(١) .

ويصف لنا الفتح بن خاقان مؤرخ الطوائف ، ومعاصرهم تقريباً ، منظر الصراع الأخير بين المعتمد ومهاجميه فى عبارته المسجعة فيما يلى :«ولما انتشر الداخلون فى البلد ، وأوهنوا القوى والجلد ، خرج (أى المعتمد) والموت يتسعر فى ألحاظه ، ويتصور من ألفاظه ، وحسامه يعد بمضائه ، ويتوقد عند انتضائه ، فلقيهم فى رحبة القصر وقد ضاق به فضاؤها ، وتضعضعت من رجتهم أعضاؤها، فحمل فيهم حملة صيرتهم فرقاً ، وملأتهم فرقاً ، ومازال يوالى عليهم الكر المعاد ، حتى أوردهم النهر ، وما بهم من جواد ، وأودعهم حشاه كأنهم له فؤاد ، ثم انصرف وقد أيقن بانتهاء حاله وذهاب ملكه وارتحاله ، وعاد إلى قصره واستمسك يومه وليلته ، مانعاً لحوذته ، دافعاً للذل عن عزته ... »(٢)

وأخيراً يقول لنا ابن الخطيب : « وكان دخول إشبيلية على المعتمد دخول القهر والغلبة يوم الأحد لعشر بقين من رجب ، وشملت الغارة ، واقتحمت الدور ، وخرج ابن عباد وابنه مالك للدفاع ،فقتل مالك الملقب بفخر الدولة ، وأرهقت ابن عباد الخيل ، فدخل القصر ملقيا بيده »(٣) .

---

(١) نقله نفح الطيب ج ٢ ص ٤٥٣ .

(٢) قلائد العقيان ص ٢٢ فى ترجمة المعتمد بن عباد . وقد كتب الفتح كتابه بعد سقوط إشبيلية بنحو ثلاثين عاماً .

(٣) ابن الخطيب فى الإحاطة ( القاهرة ١٣١٩ هـ ) ج ٢ ص ٨٢ .

وهذا ما يؤيده شعر المعتمد نفسه فى وصف صراعه مع أعدائه فى ذلك اليوم المشهود :

إن يسلب القــوم العدا ملكى وتسلمنى الجموع
فالقلب بين ضلوعــه لم تُسـلم القلب الضلوع
قد رُمْت يوم نزالهـم ألاّ تحصننى الدروع
وبرزت ليس سوى القميص عن الحشا شىء دفوع
وبذلت نفسى كى تسـيل إذا يسيل بها النجيع
أجلى تأخــر لم يكن بهــواى ذلى والخضوع
ما سرت قط إلى القتــال وكان من أملى الرجوع
شيم الألى أنــا منهــم والأصل تتبعه الفروع

ثم يقول لنا الفتح ، إن المعتمد لما التجأ إلى قصره ، بعد سقوط حاضرته ، وتفرق جيشه ، وفقد كل أمل فى النجاة ، فكر فى أن يقضى على نفسه بيده ، ولكن منعه من ذلك إيمانه المتين ، فاستسلم إلى هوان الأسر ، وقبض عليه المرابطون وعلى سائر آله وولده ونسائه (١).

— ٢ —

ويجدر بنا قبل أن نتم الكلام على فتوح المرابطين لممالك الطوائف ، أن نتتبع مصير المعتمد بن عباد حتى نهايته .

إن هذه المرحلة الأخيرة من حياة المعتمد ، وهى مرحلة مؤسية تنفطر لها القلوب الكريمة ، تنتمى إلى الأدب أكثر من انتمائها إلى التاريخ ، بما تحفل به من الآثار الشعرية الرائعة ، التى نظمها المعتمد عن محنته وآلامه فى المنفى . وقد شغلت هذه المرحلة على قصرها ، من صحف التاريخ والأدب ، فراغاً كبيراً لم تشغل مثله حياة المعتمد الملوكية كلها .

(١) راجع فى سقوط إشبيلية : روض القرطاس ص ١٠٠ و ١٠١ ، وقلائد العقيان ص ٢١ و ٢٢ ، وكتاب التبيان ص ١٧٠ و ١٧١ ، والمعجب ص ٧٦ و ٧٧ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٨٦ وأعمال الأعلام ص ١٦٣ و ١٦٤ ، والمقرى ج ٢ ص ٤٥٣ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤٠ و ٤١ ، وابن الأثير ج ١٠ ص ٦٥ . وراجع أيضاً : R. M. Pidal : ibid., p. 407 & 408 ، وكذلك Dozy : Hist. V. III. p. 144

وإنه لما يثير الدهشة حقاً ما انتهى إليه أمير المسلمين من التحول من تقدير المعتمد بن عباد، وإكباره والثناء البالغ على شجاعته ونجدته ومروءته ؛ فى كتبه الرسمية بالفتح ، إلى المبالغة فى خصومته ، والعمل على سحقه ، ومعاملته بأقصى ما يعامل به عدو . ويقال فى ذلك ، إنه فضلا عن البواعث السياسية والعسكرية ، فقد لعبت السعاية والوشاية فى علائق الرجلين دوراً لا يحمد، وأثارت فى قلب يوسف أمر ضروب السخط والبغض ضد المعتمد .

لم يكن سقوط إشبيلية ، وسقوط المعتمد وآله أسرى فى أيدى الظافرين خاتمة المحنة ، بل كان بداية محنة أفظع وأبلغ إيلاماً للنفس ، هى محنة الاعتقال والأغلال والذل والمنفى المروع . وكان أمير المسلمين قد قرر مصير بنى عباد ، كما قرر مصير عبد الله وأخيه تميم صاحبي غرناطة ومالقة ، وقد قتل المرابطون من أبناء المعتمد أربعة ، هم الفتح المأمون ، ويزيد الراضى ، والمعتد بالله ، ومالك ، ولكنهم أبقوا على حياة المعتمد ، وذلك فيما يبدو بإشارة أمير المسلمين ذاته ، وربما كانت لدى الظافر فى الإبقاء على حياته بواعث غير الرأفة به ، فما كان المعتمد بن عباد من أولئك الذين يتهيبون الموت أو يخشونه ، بل لقد كان يطلبه ويسعى إليه ، حسبما رأينا . وربما أراد عاهل المرابطين بذلك ، أن يتجرع المعتمد كأس الذلة إلى نهايتها ، وأن يمرغ فى التراب ، ذلك الذى كان يعتبره قطب الفتنة فى الأندلس ، وحليف النصارى الخانع ، المذنب فى حق دينه ووطنه ، وأن يذيقه من العذاب المعنوى أروع ألوانه .

وهكذا انتزع المعتمد بن عباد وآله من قصر إشبيلية المنيف ، وأخذوا جميعاً إلى السفن التى أعدت لتقلهم إلى المنفى ، وسارت السفن من إشبيلية فى نهر الوادى الكبير فى طريقها إلى العُدوة ، فى مناظر تذيب القلب حزناً وأسى ؛ وضجت جموع الشعب الغفيرة التى احتشدت على ضفتى النهر لوداع المعتمد بالبكاء والنواح حينما شهدت سيدها وراعيها بالأمس تحيق به وجميع آله ، أغلال الاعتقال والذلة ، ويغادر موطن سلطانه وعزه إلى مصيره المجهول . وفى ذلك يقول شاعر المعتمد أبو بكر ابن اللبانة ، وقد كان من شهود ذلك اليوم من قصيدة طويلة :

نسيت إلاّ غداة النهر كونهم ... فى المنشآت كأموات بألحاد
والناس قد ملأوا العبرين واعتبروا ... من لؤلؤ طافيات فوق أزباد

حط القنــاع فلم تستر مخدرة ... ومزقت أوجه تمزيق أبــراد
حان الوداع فضجت كل صارخة ... وصارخ من مفــداة ومن فادى
سارت سفائنهم والنوح يتبعها ... كأنها إبل يحدو بها الحــادى
كم سال فى الماء من دمع وكم حملت ... تلك القطائع من قطعات أكباد(١)

وأنزل المعتمد وآله بطنجة ، واعتقلوا فيها أياماً. وهنالك زاره الحصرى الضرير الشاعر ، والحق فى طاب الصلة، ورفع إليه أبياتاً مدحه فيها ولم يراع فى ذلك حرج الموقف ؛ وأبت على المعتمد أريحيته الملوكية أن يرده ، فبعث إليه بستة وثلاثين مثقالا ، وشعراً يعتذر فيه عن ضآلة الهبة ، فكانت آخر صلاته الملوكية . ثم أخذوا بعد ذلك إلى مكناسة حيث التقوا بعبد الله بن بلقين وأخيه تميم ، وكانا ينتظران أمر السفر إلى مقرهما الأخير(٢) ، وهنالك قضيا بضعة أشهر ، قبل أن يرسلوا إلى مقرهم النهائى .

وأخيراً صدر الأمر بتسييرهم جميعاً إلى أغمات ، وهى مدينة صغيرة حصينة تقع على قيد نحو أربعين كيلومترا من جنوب شرق مراكش، على مقربة من جبال الأطلس ، التى تظلل آكامها الثلوج . وقد كانت حسبما نذكر عاصمة المرابطين الأولى . وحل المعتمد وآله فى أغمات فى أواخر سنة ٤٨٤ هـ أو أوائل سنة ٤٨٥ هـ . وبينما أنزل عبد الله بن بلقين وأسرته داراً حسنة وعوملوا برفق ورعاية ، إذ زج المعتمد وآله إلى قلعة أغمات المنيعة . وهنالك قضى المعتمد بضعة أعوام فى أغلال الأسر ، يتجرع غصص المهانة والذلة ، ويلقى عذاب الشهيد المعنَّى . ولم يكن مقام المعتمد بأغمات معتقلا عادياً ، بل كان سجناً شنيعا بكل معانى الكلمة ، ضيق فيه على المعتمد وآله أشد التضييق ، ولم يكن يطلق لهم ما يكفيهم من النفقة ، فكان المعتمد ، وزوجه اعتماد الرميكية التى كانت تسطع فى الأندلس بجمالها وخلالها البارعة ، وأبناؤه الأمراء وبناته الأقمار ، يرتدون الثياب الخشنة(٣) . وكان بنات المعتمد يشتغلن بالغزل ليعلن والدهن وأسرتهن .

---

(١) راجع هذه القصيدة فى قلائد العقيان ص ٢٣ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٤٥٢ و٤٥٣ ، والمعجب ص ٧٩ و ٨٠ .

(٢) كتاب التبيان ص ١٧١ .

(٣) كان للمعتمد بن عباد عدد كبير من الولد بنين وبنات . ومن أولاده الذين تذكرهم الرواية : الرشيد والمأمون والراضى والمعتد وعبد الله ومالك وأبوهاشم وعبد الجبار وغيرهم ممن لم تصلنا أسماؤهم . أما بناته فلم تذكر لنا الرواية شيئاً عن عددهن وأسمائهن سوى بثينة ، فقد ذكرها لنا المقرى بين شاعرات الأندلس ( نفح الطيب ج ٢ ص ٤٨٩ ) .

وهنالك فى شعر المعتمد ما يدل على أنه كان مصفداً فى قدميه بالأغلال ، على الأقل فى أواخر أيام أسره . ولم تكن هذه المعاملة الشنيعة لأعظم ملوك الطوائف عفواً ، بل كانت مقصودة ، بلا ريب ، وكانت قسوة لامبرر لها من الظافر ، ولم تكن تتفق فى شىء مع ما أثر عن يوسف بن تاشفين ، من الفروسية والخلال الحسنة . وسنرى فيما بعد كيف يفسر هذا الموقف من جانب أمير المسلمين وكيف تلتمس له الأعذار .

واشتدت وطأة الأسر على اعتماد زوجة المعتمد ، ولم تقو طويلا على مغالبة المحنة ، فذوت نضارتها بسرعة ثم توفيت ، فدفنت فى ظاهر أغمات على مقربة من معتقل زوجها وأولادها ، فحزن المعتمد لوفاتها أيما حزن ، واشتد به الضنى والأسى .

وقد سبق أن أشرنا إلى ماكانت تتمتع به اعتماد الرميكية أيام مجدها وعزها فى بلاط إشبيلية من منزلة عالية ، وأشرنا إلى صفاتها اللامعة من الجمال والسحر والشاعرية ، والمشاطرة فى مجالس الشعر والأدب . على أن هذه الصفات الممتازة التى كانت تتمتع بها الرميكية ، وهذه الحياة السافرة اللامعة فى أعظم بلاط لملوك الطوائف ، كانت من جهة أخرى مدعاة للطعن فى تصرفها وأخلاقها . فمثلا ينقل إلينا التيجانى الأندلسى عن الحجارى فى حق الرميكية ما يأتى : «وهى التى ورطت المعتمد فيما ورطته من الخلاعة والاستهتار والمجاهرة، حتى كتب أهل إشبيلية عليه بذلك ، وبتعطيل صلوات الجمع ، عقوداً ، ورفعوها إلى أمير المسلمين ، فكان من أمره معه ماكان ، وسجن المعتمد بأغمات ، وسجنت الرميكية معه ، فماتت هنالك قبله »[1] .

---

(١) نقلنا هذه الفقرة عن المخطوط رقم ٥٦٢ الغزيرى المحفوظ بمكتبة الإسكوريال والمسمى « تحفة العروس » لأبى عبدالله التيجانى الأندلسى المالكى (لوحة ٢٠٠) . ويقدم إلينا التيجانى بهذه المناسبة ملخصاً لقصة بثينة ابنة المعتمد والرميكية، فيقول لنا إن بثينة هذه كانت مثل أمها فى الجمال والذكاء ونظم الشعر . ولما سقطت إشبيلية ، ونهبت قصور المعتمد، كانت ابنته ضمن السبايا ، ولم يعثر لها على خبر ، إلى أن كتبت إليهما بأغمات شعراً تقص فيه ما حدث لها ، وهو أنها وقعت فى يد تاجر اشتراها على أنها سرية ، فامتنعت عليه ، وعرفته بحقيقة أمرها ، وطلبت إليه أن يتزوجها زواجاً شرعياً ، وكتبت إلى والديها بأغمات الشعر المشهور المتداول، ترجو فيه منهما الموافقة على زواجها منه . فسر المعتمد والرميكية بوجودها على قيد الحياة ، وكتبا إليها ، بالموافقة على رغبتها . (المخطوط السالف الذكر لوحة ٢٠١ ) . وراجع نفح الطيب ج ٢ ص ٤٨٩ و ٤٩٠ .

وأذكت المحنة شاعرية المعتمد، وكان القريض عندئذ عزاءه وغذاءه الروحى، فصدرت عنه فى معتقله طائفة كبيرة من القصائد المؤسية، وكلها تلهف على سابق مجده، وبكاء على ماضيه، ورثاء لمحنته، فمن ذلك قوله :

أنبـاء أسرك قد طبقن آفاقا ... بل قد عممن جهات الأرض إطلاقا
سارت من الغرب لاتطوى لها قدم ... حتى أتت شرقها تنعاك إشراقا
فأحرق الفجع أكباداً وأفئدة ... وأغرق الدمع آماقاً وأحـداقا
قد ضاق صدر المعالى إذ نعيت لها ... وقيل إن عليك القيد قد ضـاقا

وقوله :

غريب بأرض المغربين أسير ... سيبكى عليـه منبر وسرير
وتندبه البيض الصوارم والقنا ... وينهـل دمع بينهن غزير
مضى زمن والملك مستأنس به ... وأصبح منه اليـوم وهو نفور
برأى من الدهر المضلل فاسد ... متى صلحت للمصلحين دهور
أذل بنى ماء السماء زمانهم ... وذل بنى ماء السماء كبير
فيا ليت شعرى هل أبيتن ليلة ... أمامى وخلفى روضـة وغدير
بمنبتة الزيتون مورثة العلا ... يغنى حمام أو تدن طيـور
بزاهرها(١) السامى الذرى جاده الحيـ ... ـا تشير الثريا نحونا ونشير
ويلحظنا الزاهى(١) وسعد سعوده ... غفورين والصب المحب غيور
تراه عسـيراً أو يسيراً مناله ... ألا كل ماشاء الإله يسـير

وقوله فى أول عيد له بأغمات، وقد أبكاه منظر أولاده وبناته :

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا ... فساءك العيد فى أغمات مأسورا
ترى بناتك فى الأطمار جائعة ... يغزلن للناس مايملكن قطميرا
برزن نحوك للتسليم خاشعة ... أبصارهن حسيرات مكاسيرا
يطأن فى الطين والأقدام حافية ... كأنها لم تطأ مسكاً وكافورا
أفطرت فى العيد لاعادت إساءته ... فكان فطرك للأكباد تفطيرا
قد كان دهرك أن تأمره ممتثلا ... فردك الدهر منهياً ومأمورا
من بات بعدك فى ملك يسر به ... فإنما بات بالأحلام مغـرورا

---

(١) الزاهر والزاهى من قصور بنى عباد باشبيلية .

وقوله وقد رأى سرباً من القطا يمر بمعتقله :

بكيت إلى سرب القطا إذ مررن به ... سوارح لا سجن يعوق ولا كبل
ولم تك والله المعيد حسادة ... ولكن حنيناً إن شكلى لها شكل
فأسرع فلا شمل صديع ولا الحشى ... وجيع ولا عينان يبكيهما ثكل

وقوله فى لوم أمير المسلمين على ظلمه :

أبى الدهر أن يقنى الحياء ويندما ... وأن يمحو الذنب الذى كان قدّما
وأن يتلقى وجه عتبى وجهه ... بعذر يغشى صفحتيه التذمما
ستعلم بعدى من تكون سيوفه ... إلى كل صعب من مراقيك سلما
سترجع إن حاولت دونى فتكة ... بأخجل من خد المبارز أحجما

وأذكت مأساة بنى عباد فى الوقت نفسه دولة الشعر فى الأندلس ، ونظم أكابر شعراء العصر فى رثاء دولتهم ، والتوجع على أيامهم ، طائفة من القصائد المؤثرة ، التى مازالت تحتفظ حتى اليوم بكل روعتها وحياتها . وكان أغزرهم فى ذلك مادة ، أبو بكر بن اللبانة ، شاعر المعتمد المتقدم ذكره ، فقد بقى على صلاته ووفائه للمعتمد ، وزاره فى محنة بأغمات ، ونظم فى دولته وأيامه ، وفى محنته وأسره ، عدة من قصائده الرنانة ، يضمها كتاب وضعه فى تاريخ بنى عباد ، وأسماه : « كتاب نظم السلوك فى مواعظ الملوك »[١] .

واستطال أسر المعتمد وسجنه حتى سنة ٤٨٨ هـ ، بيد أنه استطاع فى غمر المحنة والبؤس الطاحن ، أن يحتفظ بكثير من جلاله السابق ، فكان هذا الجلال يشع فى ظلمات سجنه ، كما يشع ضوء الشمس إذا أحدق به الغمام[٢] . وفى أواخر أيامه صدرت أوامر أمير المسلمين بالتضييق عليه وتصفيده بالإغلال ، بسبب ثورة محلية قام بها ولده عبد الجبار فى بعض حصون إشبيلية ، وكان ممن أفلت عند سقوطها وذلك حسبما نذكر بعد . وفى اليوم الحادى عشر من شوال سنة ٤٨٨ هـ ( أواخر أكتوبر ١٠٩٥ م ) ، توفى المعتمد فى سجنه بقلعة أغمات بعد

---

(١) يراجع بعض هذه القصائد فى قلائد العقيان ص ٢٩ و ٣٠ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤١ وما بعدها ، وفى نفح الطيب ج ٢ ص ٤٥٧ و ٤٥٨ . وكذلك فى الحلة السيراء ج ٢ ص ٥٩ — ٦٧ . هذا وقد كتب ابن قاسم الشلبى مجموعاً فى أخبار المعتمد ابن عباد أشار إليه ابن الابار ( الحلة ج ٢ ص ١٣٦ ) .

(٢) تاريخ المرابطين والموحدين لأشباخ ( الطبعة الثانية ) ص ٩٧ .

اعتقال دام زهاء أربعة أعوام[1]، وكان سنه عند وفاته سبعاً وخمسين سنة وبضعة أشهر . ودفن بظاهر أغمات إلى جانب زوجه اعتماد الرميكية . ومما قاله فى رثاء نفسه قبل وفاته ، وأوصى بأن يكتب على قبره :

قبر الغريب سقاك الرائح الغادى حقاً ظفرت بأشلاء ابن عباد
بالحلم بالعلم بالنعمى إذا اتصلت بالخصب إن أجدبوا بالرى للصادى
بالطاعن الضارب الرامى إذا اقتتلوا بالموت أحمر بالضرغامة العادى
بالدهر فى نقم بالبحر فى نعم بالبدر فى ظلم بالصدر فى النادى
نعم هو الحق حابانى به قدر من السماء فوافانى لميعاد
ولم أكن قبل ذاك النعش أعلمه إن الجبال تهادى فوق أعواد
كفاك فارفق بما استودعت من كرم رواك كل قطوب البرق رعاد

ويقدم إلينا صاحب البيان المغرب بعض تفاصيل عن ثورة عبد الجبار بن المعتمد وهى الثورة التى اتخذت ذريعة للتنكيل بأبيه وتصفيده فى سجنه بأغمات، وذلك أن عبد الجبار امتنع بحصن أركش ، الواقعة جنوبى إشبيلية وشرقى شريش، فى جمع كبير من أصحابه . وبعث إلى ألفونسو السادس يطلب عونه ؛ وعلم الأمير سير اللمتونى فاتح إشبيلية بذلك ، فسار إلى أركش ، وبعث إلى أمير المسلمين يخطره بالأمر ، فبعث إليه مدداً من الخيل والرجالة، فضخمت الحملة ، وأحدقت بالحصن ، وضيقت على من فيه ، واتصلت الحرب بين الفريقين ، وابن عباد يخرج فى قواته من آن لآخر ويشتبك بالمرابطين فى معارك دامية ، وأصحابه يتساقطون من حوله تباعا . وفى ذات يوم أصاب ابن عباد سهم رماه به أحد الرماة المرابطين ، فاحتمله أصحابه جريحاً ، وتوفى لأيام قلائل ، فكتم أصحابه موته . وكان قد مضى على هذه المعارك نحو ستة أشهر ، وفنى كثير من حامية الحصن ، واشتد بها الضيق ، وعندئذ حاول القادة الأندلسيون الحصول على الأمان ، فرفض الأمير سير ، واقتحم الحصن أخيراً ، وقتل معظم حاميته ، واستخرج جثة عبد الجبار من قبرها ، واحتز رأسه ورؤوس أصحابه ، وحملت

(١) ويقول لنا صاحب البيان المغرب إن وفاة المعتمد كانت فى شهر ذى الحجة سنة ٤٨٨ (الأوراق المخطوطة التى عثرنا بها) . ويقول ابن الابار إنها كانت فى ربيع الأول سنة ٤٨٨ هـ (الحلة السيراء ج ٢ ص ٥٥) .

إلى مدينة إشبيلية ، وعلقت على أسوارها ، ووقعت حوادث هذه الحملة فى سنة ٤٩٠ هـ (١٠٩٧ م)[١].

وهكذا اختتم المعتمد بن عباد حياته الباهرة ، فى غمر المحنة وظلمات العدم ، وتفرق من بعده ولده وآله فى مختلف الأنحاء . ولكن ذكراه لبثت طويلا حية فى المغرب والأندلس ، ولبثت محنته وخاتمته مضرب الأمثال فى تقلب الجدود وعبر الدهر . وبعد وفاته بقليل وفد على أغمات أبوبحر بن عبد الصمد ، وقد كان من شعراء دولته وخاصة المتصلين به ، وذهب يوم العيد إلى قبره فخر أمامه ، وغمره بقبلاته وبلله بدموعه ، وأنشد بين الجماهير التى احتشدت من حوله ، مرثيته الغراء فى المعتمد ؛ ومطلعها هذه الأبيات :

ملك الملوك أسامع فأنادى ... أم قد عدتك عن السماع عواد
لما خلت منك القصور ولم تكن ... فيها كما قد كنت فى الأعياد
أقبلت فى هذا الثرى لك خاضعاً ... وتخذت قبرك موضع الإنشاد
قد كنت أحسب أن تبرد أدمعى ... نيران حزن أضرمت بفؤادى
فإذا بدمعى كلما أجريتـه ... زادت علىّ حرارة الأكبـاد

فبكى الناس لسماعه أحر بكاء ، وهم يطوفون بالقبر طواف الحجيج ؛ وكان منظراً يفتت الأكباد[٢] .

* * *

وقد أسبغت هذه البقعة التى يرقد فيها ملك إشبيلية ، وأمير الشعر فى عصره ، رقدته الأبدية ، شهرة مؤثرة على مدينة أغمات . ولما ذهبت دولة المرابطين بعد ذلك بنحو خمسين عاماً ، غدا قبر المعتمد بن عباد وزوجه الرميكية فى أغمات مزاراً يحج إليه الوافدون من أنحاء المغرب والأندلس ، واستمر كذلك عصوراً . وفى سنة ٧٦١ هـ (١٣٦٠ م) زاره الكاتب والشاعر الكبير الوزير لسان الدين ابن الخطيب عند زيارته لمدينة أغمات ، وهو يصفه لنا فى كتابه « نفاضة الجراب » فى قوله : « وزرت بخارجها قبر المعتمد على الله أبى القاسم محمد بن عباد أمير حمص

(١) البيان المغرب من أوراق مخطوطة ، عثرنا بها فى خزانة القرويين بفاس ، وسبقت الإشارة إليها .

(٢) راجع قلائد العقيان ص ٣٠ و ٣١ ، وأعمال الأعلام ص ١٦٥ — ١٧٠ حيث يورد القصيدة كلها .

وقرطبة والجزيرة وما إلى ذلك الصقع الغربى رحمه الله . وهو بالمقبرة القبلية على يسار الخارج من البلد ، قد توقل نشزا غير سام ، وإلى جانبه، قبر الحرة حظيته ، وسكن نفسه : اعتماد ، إشراكاً لاسمها فى حروف لقبه المنسوب إلى رميك ، المتولعة بشأنه معها أخبار القصاص ، وحكايات الأسمار ، إلى أجداث من ولديهما فترحمنا عليه ، وأنشدته »[١] . ويعود ابن الخطيب بعد ذلك فى كتابه « أعمال الأعلام » . فيصف لنا زيارته للقبر فى تلك العبارات المؤثرة : « وهو بمقبرة أغمات فى نشز من الأرض، وقد حفت به سدرة ، وإلى جانبه قبر اعتماد حظيته، مولاة رميك،وعليها وحشة التغرب ومعاناة الخمول بعد الملك ، فلاتملك العين دمعها عند رؤيتها » ، وقد أنشد على القبر أبياتاً يقول فيها :

قد زرت قبرك عن طوع بأغمات — رأيت ذلك من أولى المهمات
ولم لا أزورك يا أندى الملوك يداً — وياضياء الليالى المدلهمات
أناف قبرك فى هضب يميزه — فتنتحيه حفيات التحيات
كرمت حياً وميتاً واشتهرت علا — فأنت سلطان أحياء وأموات
مارىء مثلك فى ماض ومعتقدى — أن لايرى الدهر فى حال ولا آت[٢]

وزاره المقرى مؤرخ الأندلس فى سنة ١٠١٠ هـ ( ١٦٠٢ م ) ورآه كما ذكر ابن الخطيب فوق ربوة فى مكان يغمره النسيان ، فوقف أمامه خاشعاً متأثراً[٣] .

وقد انتهزت فرصة وجودى بمدينة مراكش فى خريف سنة ١٩٥٦ ، فزرت أغمات . وقد غدت مدينة أغمات هذه ، التى اشتهرت فى التاريخ وفى الأدب لاحتوائها على قبر المعتمد بن عباد ، اليوم قرية متواضعة ، تقع على مقربة من مراكش ، ومن آكام جبال الأطلس الثلجية ، وتحيط بها غراس الزيتون والتين البرى ، ولايعدو سكانها ثلاثة آلاف نسمة . وأما قبر المعتمد ، فيقع فى ظاهرها فى طلل خرب يحيط به سور قصير ، وفى داخله حظيرتان ، فى إحداهما قبر المعتمد ، وقد خرب تماماً ونمت به الأشواك البرية ، وعليه كومة من الأحجار الصغيرة . وأما الحظيرة الأخرى فالمفهوم أنها تحتوى على قبر زوجه اعتماد الرميكية . وقد ذكرت وأنا أتأمل هذا الطلل الموحش المؤثر ، ما ذكره

---

(١) نفاضة الجراب فى علالة الاغتراب . مخطوط الإسكوريال رقم ١٧٥٥ الغزيرى .
(٢) أعمال الأعلام ص ١٦٤ و ١٦٥ .
(٣) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ٤٥٨ و ٤٥٩ .

ابن الخطيب والمقرى من قبل، من غلبة الخمول والعفاء عليه ، وشعرت بمثل ما شعر به كل منهما من الألم والخشوع.

* * *

كانت مأساة المعتمدبن عباد مأساة من أروع المآسى الملوكية ، ومازالت محنة هذا الأمير ، تحتفظ إلى يومنا ، بالرغم من كر العصور ، بألوانها المشجية ، وقد أثارت عطف الرواية الإسلامية وتأثرها البالغ ، ويبدو هذا العطف بنوع خاص فى روايات مؤرخى الأندلس والمشرق ، وفى كثير منها يُصور المعتمد شهيد القسوة والعسف ، ومنها ما يشدد الحملة على يوسف بن تاشفين ، ويصمه بأقسى الصفات . فمثلا يقول لنا ابن الأثير فى التعليق على أسر بنى عباد ومعاملتهم : « وفعل أمير المسلمين بهم فعالا لم يسلكها أحد من قبله ، ولايفعلها أحد ممن يأتى بعده ، إلا من رضى لنفسه بهذه الرذيلة ... وأبان أمير المسلمين بهذا الفعل عن صغر نفسه ولؤم قدره »(١) .

ويقول العلامة دوزى معلقاً على ذلك : « ومهما كانت فضائل يوسف ، فإن الشهامة إزاء المغلوبين لم تكن منها ، فقد كان تصرفه مع الأمراء الأندلسيين الذين أسرهم قاسياً وبغيضاً » . ثم يقول، إن المعتمد لم يكن بلا ريب ملكاً عظيما ، بيد أنه ينوه بدقة حساسيته وفيض شاعريته ، التى تنعكس عليها أقل الحوادث فى حياته ، بل إنا لنستطيع أن نسجل حياة المعتمد وخلجات نفسه ، من قصائده ، ثم يقول : « ثم إنه ، أى المعتمد كان لحسن طالعه آخر ملك أندلسى ؛ يمثل بجدارة وروعة ، قومية وحضارة عقلية سقطتا تحت نير البربر الذين فتحوا البلاد . ولقد لزمه نوع من الإيثار باعتباره آخر فرع لتلك الأسرة العديدة من الأمراء الشعراء ، الذين حكموا الأندلس . وإنا لنأسوا له أكثر مما نأسوا لأى شخص آخر ، بل ودون أى شخص آخر ، كما تثير آخر زهرة فى الموسم ؛ وآخر أيام الخريف الحلوة ، وآخر أشعة الشمس الغاربة ، فى نفوسنا أيما أسى »(٢) .

وقد أسبغت قسوة يوسف نحو أمراء الأندلس ، ونحو المعتمد بنوع خاص . على سيرته وعلى خلاله سحباً لم تمحها جميع الأعذار التى انتحلت لتبرير عمله .

---

(١) ابن الأثير ج ١٠ ص ٦٥ .

(٢) Dozy : Hist. V. III. p. 178—179

وتتلخص هذه الأعذار فى أن المعتمد كان بسياسته وتصرفه نحو شئون الأندلس ، ومحالفته للنصارى على اخوته فى الدين ، وتعريضه مستقبل الإسلام للخطر ، تحقيقاً لمطامعه الشخصية ، يستحق أعظم اللوم ، وأنه عوقب بما تقتضيه فداحة ذنبه . وقد أدرك المعتمد ، عقب سقوط طليطلة، فداحة أخطائه ، وأبدى صريح ندمه لما أثم(١) . على أنه إذا كان حقاً أن المعتمد يحمل بسياسته الأندلسية أمام التاريخ تبعات جسام ، فإنه من الحق أيضاً أنه حينما استفحل الخطب ، وظهر شبح الخطر على الأندلس المسلمة ، كان أول الداعين إلى الوحدة ، وإلى طلب الغوث من المرابطين ، وأنه لم يبخل فى ذلك السبيل بتضحية حصونه التى طلبها يوسف قبل عبوره إلى الأندلس ، وأنه أبلى فى موقعة الزلاّقة أعظم البلاء ، وعاون فى نيل النصر أعظم معاونة . كذلك لاريب أن البواعث التى دفعت يوسف إلى افتتاح الأندلس وامتلاكها ، لم تكن دينية فقط ، ولم تكن بعد الزلاقة وحصار أليذو ، مجرد جهاد فى سبيل الله ، بل كانت دنيوية قبل كل شىء ، ولم يك ثمة شك فى أن الأندلس قد أغرت المرابطين وأميرهم بخصبها وغنائها ونعمائها . وإنه ليحق لنا بعد ذلك كله أن نتساءل ، أى ضرورة بل أى حكمة اقتضت أن يبطش المرابطون بأمراء الأندلس ، وأن يمعنوا فيهم قتلا وتعذيباً ، على النحو الذى اتبعوه ، بعد أن استولوا على أملاكهم وأراضيهم(٢) وأى ضرورة اقتضت أن يعامل سيد المرابطين ، المعتمد بن عباد وآله بهذه القسوة المروعة ، بعد أن غدوا فى يده أسرى لاحول لهم ولاقوة ؟ وكيف سمح أمير المسلمين القوى القادر لنفسه ، أن تمتد هذه القسوة إلى الولد الضعاف والنساء والبنات ؟ لقد كان المعتمد مثقلا بتبعات أعماله وأخطائه كأمير ، وملك من ملوك الطوائف ، أفلم يكن يكفيه فقد ملكه وسلطانه ، وأسره واعتقاله ، للتكفير عما أثم يسابق تصرفه ؟ وماذا كان يضير الظافر لو عامله بشىء مما يقتضيه سابق مكانته من الرفق والرعاية ؟

---

(١) راجع ما ورد فى رسالة ابن عباد لألفونسو السادس ( ص ٧٦ من هذا الكتاب ) .

(٢) قتل المرابطون ثلاثة من أبناء المعتمد بن عباد ، هم المأمون والراضى ومالك ، وقتلوا المتوكل بن الأفطس وولديه الفضل والعباس ، وقتلوا كثيراً غيرهم من الوزراء والكبراء ، فى مناظر من القسوة المثيرة .

هذه تأملات تثيرها فى النفس محنة المعتمد بن عباد . ولاريب أن هذه الخاتمة المؤسية التى قدر للمعتمد أن يعانى آلامها المروعة المادية والمعنوية، لحرية بأن تسبغ عليه ثوب شهيد ، يستحق عطف التاريخ ، وصفح الأجيال .

— ٣ —

ذكرنا فيما تقدم أن أمير المسلمين حينما نظم جيوشه لافتتاح إمارات الطوائف، بعث إلى ألمرية جيشاً بقيادة أبى زكريا بن واسنو ( وقيل بل محمد بن عائشة ) لمحاصرتها وافتتاحها . وهنا تختلف الرواية ؛ فيقال إن المرابطين أشرفوا على ألمرية ، وحاصروها ، وأميرها المعتصم بن صمادح عليل يعانى مرض موته ؛ وأنه ألقى بهذه المناسبة كلمته المأثورة « نغص علينا كل شىء حتى الموت » ، ثم توفى أثناء الحصار فى شهر ربيع الآخر سنة ٤٨٤ هـ ( ١٠٩١ م )[١] . وفى رواية أخرى أن المعتصم توفى قبل مقدم المرابطين ، وأنه كان قد أوصى ولده معز الدولة قبيل وفاته ، بأن يترقب مصير إشبيلية ، فمتى سقطت فى أيدى المرابطين ، وخلع أميرها المعتمد بن عباد ، فعليه أن يغادر ألمرية فوراً ، ويعبر البحر فى أهله وأمواله ، إلى العدوة ، ويلتجىء إلى حماية بنى حماد أمراء القلعة . وقد نفذ معز الدولة وصية أبيه ، واستطاع أن ينجو بأهله وأمواله ، وأن يغادر ألمرية فى آخر لحظة ، قبل أن يطوقها المرابطون ، وأن يعبر البحر إلى العدوة ( رمضان سنة ٤٨٤ هـ ) ، وذلك كله حسبما فصلناه من قبل فى أخبار مملكة ألمرية[٢]. ودخل المرابطون ألمرية على الأثر واحتلوها ، فكانت ألمرية بعد غرناطة وإشبيلية ، ثالثة مملكة من ممالك الطوائف تسقط فى أيدى المرابطين .

وقد ذكرنا فيما تقدم كيف احتل المرابطون مدينة مرسية بقيادة ابن عائشة وذلك فى شوال سنة ٤٨٤ هـ ( أكتوبر سنة ١٠٩١ م ) ، ثم استولوا فى العام التالى ( ٤٨٥ هـ ) على شاطبة وشقورة ودانية .

ونحن نعرف مما تقدم من أخبار مملكة بلنسية، أن المرابطين بدأوا يتدخلون فى حوادث بلنسية ، ويبذلون جهودهم لتحطيم مغامرات « السيد » فى هذه المنطقة ، وذلك منذ سنة ٤٨٥ هـ ( ١٠٩٢ م ) . وقد قام الجيش الذى يقوده

---

(١) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ١٧٢ . والطبعة الجديدة ج ٢ ص ٨٤ .

(٢) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ١٧٤ ، وروض القرطاس ص ١٠١ .

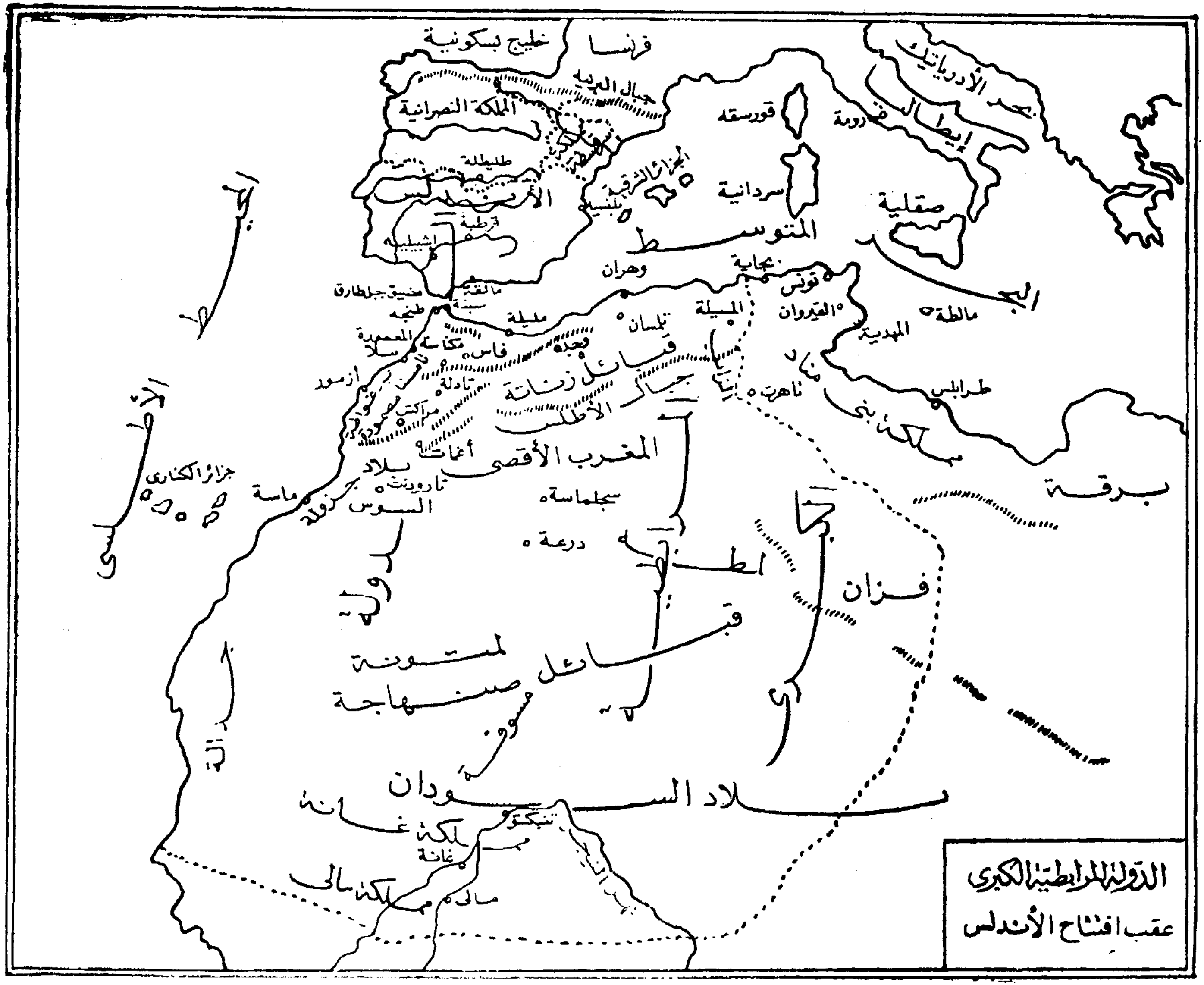


الدولة المرابطية الكبرى
عقب افتتاح الأندلس

ابن عائشة بدوره فى ذلك . ثم قدم إلى شرقى الأندلس جيش مرابطى آخر ، أوفر عدة وعدداً ، بقيادة محمد بن تاشفين ابن أخى يوسف ، وحاصر بلنسية ، وفى داخلها السيد ، وذلك فى أواخر سنة ٤٨٨ هـ . ولكن مقاومة السيد ، ومن بعد وفاته مقاومة القشتاليين ، استطالت بضعة أعوام ، ولم يتمكن المرابطون من دخول بلنسية إلا فى شهر شعبان سنة ٤٩٥ هـ ( مايو سنة ١١٠٢ م ) وذلك حسبما فصلناه من قبل تفصيلا شافياً فى أخبار مملكة بلنسية .

واستمرت الجيوش المرابطية فى تقدمها شمالى بلنسية ، نحو أراضى الثغر الأعلى ، واستولت على إمارة شنتمرية الشرق فى رجب سنة ٤٩٧ هـ ( إبريل ١١٠٤ م ) ، وكانت قد استولت قبل ذلك على إمارة ألبونت الصغيرة . وفى سنة ٥٠٢ هـ ( ١١٠٩ م ) ، وعقب انتصار المرابطين فى موقعة إقليش ، سار جيش مرابطى بقيادة أبى عبد الله بن الحاج والى بلنسية ، شمالا صوب سرقسطة ، فدخلها ، وأخرج منها بنى هود ، وبذلك تم للمرابطين فتح شرقى الأندلس والثغر الأعلى ، وانتهت إمارات الطوائف كلها فى تلك الأنحاء .

وأما فى غربى الأندلس ، فإن المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس ، شعر عقب استيلاء المرابطين على إشبيلية ، أن الدائرة سوف تدور عليه ، وكان قبل ذلك قد تقرب من عاهل المرابطين يوسف بن تاشفين ، وبعث اليه برسالته المؤثرة التى أوردناها من قبل ، يدعوه فيها لنصرة الأندلس . ولما استولى المرابطون على غرناطة ذهب مع المعتمد بن عباد لتهنئة أمير المسلمين ، فاستقبلهما بجفاء ، وانصرفا من لديه وقد شعر كلاهما بالخطر الداهم على مملكته . على أنه يبدو أن ابن الأفطس استطاع بعد ذلك أن يعمل على توثيق أواصر المودة مع المرابطين وكبيرهم الأمير سير بن أبى بكر فاتح إشبيلية وحاكمها . واستمرت هذه العلائق الودية قائمة نحو ثلاثة أعوام . ثم بدأ المرابطون الإغارة على أراضى مملكة بطليوس ، وشعر المتوكل بتغير المرابطين نحوه واتجاههم إلى إزالته ، ولم يجد أمامه إزاء هذا الخطر الداهم ، طريقاً يسلكه سوى نفس الطريق الذى سلكه ابن عباد من قبل ، وهو الاستغاثة بألفونسو السادس ملك قشتالة . وبذل ابن الأفطس لملك قشتالة ثمناً لحلفه ومعاونته ، ثلاث مدن هامة من أملاكه ، هى أشبونة ، وشنترة ، وشنترين . وقد كان لهذا التصرف وقع سيء ، إذ ، انحرف

أهل بطليوس عن المتوكل ، وكتب أعيانهم إلى المرابطين يستدعونهم . وفى أوائل سنة ٤٨٨ هـ ( أوائل ١٠٩٥م ) ، بعث حاكم إشبيلية الأمير سير بن أبى بكر جيشاً إلى بطليوس لافتتاحها ، فاخترق أراضى بطليوس بسرعة ، ولم يتمكن ملك قشتالة من تقديم أية معاونة لحليفة المسلم ، واضطر ابن الأفطس أن يمتنع بقصبة بطليوس المنيعة الضخمة . ولكن المرابطين اقتحموها بعنف ، وقبضوا على المتوكل وولديه الفضل والعباس ، واستولوا على أمواله المدفونة بالقصبة ، بعد أن عذبوه لكشف مخابئها . واحتل المرابطون بطليوس ، وأخذوا المتوكل وولديه بحجة تسييرهم إلى إشبيلية ، ثم أعدموهم فى الطريق(١) . وكان للمتوكل ولد آخر هو المنصور ، وكان قد بعثه ومعه معظم ذخائره إلى حصن منتانجش على مقربة من حدود قشتالة ، يمتنع فيه ، فلما علم بما وقع لأبيه وإخوته ، سار فى أهله وأمواله إلى ملك قشتالة ، والتجأ إلى حمايته ، وأقام بأرضه ، واعتنق النصرانية وفقاً لبعض الروايات(٢) . وهكذا انتهت مملكة بطليوس بعد أن عاشت فى ظل بنى الأفطس خمسة وسبعين عاماً ، وتم للمرابطين فتح غربى الأندلس كله ، كما تم لهم من الناحية الأخرى فتح شرقى الأندلس .

وقد أذكت محنة بنى الأفطس ، كما أذكت محنة بنى عباد من قبل ، فجيعة الشعر الأندلسى ، ونظم فى رثائهم ورثاء دولتهم وأيامهم ، وزيرهم الكاتب والشاعر المبدع ، أبو محمد عبد المجيد بن عبدون ، مرثيته الشهيرة ، التى تعتبر من أجل المراثى الأندلسية وأروعها ، وهذا مطلعها :

الدهر يفجع بعد العين بالأثر     فما البكاء على الأشباح والصور
أنهاك أنهاك لا آلوك موعظة     عن نومة بين ناب الليث والظفر

ومنهـا :

فلا تغرنك من دنياك نومتها     فما صناعة عينيها سوى السهر
ما لليالى أقال الله عثرتنـا     من الليـالى وخانتها يد الغير
فى كل حين لها فى كل جارحة     منا جراح وإن زاغت عن النظر

---

(١) المعجب ص ٤٢ ، وأعمال الأعلام ص ١٨٦ ، وراجع : Dozy : Hist. V. III. p. 152 وكذلك R. M. Pidal : ibid., p. 504

(٢) هذه رواية ابن عذارى فى الأوراق المخطوطة التى عثرنا بها بخزانة القرويين . وراجع أيضاً أعمال الأعلام ص ١٨٦ .

تسر بالشيء لكن كى تغر به | كالأيم ثار إلى الجانى من الزهر
كم دولة وليت بالنصر خدمتها | لم تبق منها وسل ذكراك من خبر

ومنها فى رثاء بنى الأفطس :

بنى المظفر والأيام لا نزلت | مراحل والورى منها على سفر
سحقاً ليومكم يوماً ولا حملت | بمثاله ليلة فى غابر العمر
من للأسرة أو من للأعنة أو | من للأسنة يهديها إلى الثغر
من للبراعة أو من لليراعة أو | من للسماحة أو للنفع والضرر

ومنها :

أين الجلال الذى غضت مهابته | قلوبنا وعيون الأنجم الزهر
أين الإباء الذين أرسوا قواعده | على دعائم من عز ومن ظفر
أين الوفاء الذى أصفوا شرائعه | فلم يرد أحد منها على كدر
كانوا رواسى أرض الله منذ مضوا | عنها استطارت بمن فيها ولم تقر
كانوا مصابيحها فمذ خبوا عثرت | هذه الخليقة يا ألله فى سدر(١)

هذا وقد أجمل لنا مأساة الطوائف شاعر معاصر هو أبو الحسن جعفر بن ابراهيم المعروف بابن الحاج اللورقى فى تلك الأبيات الثلاثة :

كم بالمغارب من أشلاء مخترم | وعاثر الجد مصبور على الهون
أبناء معن ، وعباد ، ومسلمة | والحميريين باديس وذى النون
راحوا لهم فى هضاب العز أبنية | وأصبحوا بين مقهور ومسجون(٢)

وعلى أثر الاستيلاء على بطليوس ، سارت حملة مرابطية إلى ثغر أشبونة ، وكانت تحتله مذ نزل عنه المتوكل ، حامية قشتالية بقيادة الكونت ريمون البرجونى صهر ألفونسو السادس ، وهاجم المرابطون أشبونة بشدة واقتحموها ، وقتلوا وأسروا معظم حاميتها النصرانية : وأعيد بذلك هذا الثغر الهام إلى حظيرة المملكة الإسلامية ( نوفمبر سنة ١٠٩٤ م )(٣) .

---

(١) تراجع القصيدة بأكملها فى المعجب ص ٤٢ — ٤٦ ، ونشرت ناقصة فى أعمال الأعلام ص ١٨٦ — ١٨٩ .

(٢) الحلة السيراء ج ٢ ص ١٠١ و١٠٢ .

(٣) راجع الحلل الموشية ص ٥٥ وكذلك : R. M. Pidal : ibid., p. 502

ورد ملك قشتالة على ذلك بالقيام بغزوة جديدة لأراضى الأندلس . فى سنة ٤٨٩ هـ ( ١٠٩٦ م ) حشد ألفونسو السادس حملة ضخمة ، وسار نحو قرطبة ، فلما علم أن المرابطين هناك على أهبة شديدة لمدافعته ، تحول عنها وسار إلى قرمونة وهى حصن إشبيلية الشرقى ، فهاجمها واقتحم بسائطها فيما بينها وبين إستجة ، واستولى على غنائم وفيرة وسبى جموعاً عظيمة ، ثم اتجه صوب إشبيلية ، وعاث فى بسائطها ، فامتنع أهل إشبيلية بمدينتهم ولم يخرجوا إلى قتاله حسبما كان يتوقع ، فلما يئس من الاشتباك مع المسلمين ، سارا فى قواته وغنائمه صوب بطليوس ثم جاز إلى أراضى قشتالة عائداً إلى قواعده[١] .

— ٤ —

لبث أمير المسلمين يوسف بن تاشفين حيناً فى سبتة ، يعنى بإمداد جيوشه الغازية فى شبه الجزيرة ، ويتلقى أنباء الفتوح المتوالية لقواعد الأندلس ، ثم غادرها إلى مراكش ، بعد أن اطمأن إلى نتائج أعمال البعوث والحملات المختلفة ، وعهد بشئون الأندلس ، إلى كبير قادته الأمير سير بن أبى بكر اللمتونى .

ولم يعد يوسف إلى شبه الجزيرة إلا بعد ذلك بعدة أعوام فى سنة ٤٩٦ هـ ( ١١٠٢ م ) حيث جاز إليها جوازه الرابع . وفى رواية أخرى أن هذا الجواز الرابع وقع فى سنة ١٠٩٧ م ( ٤٩١ هـ )[٢] وفى رواية ثالثة ، وهى رواية ابن عذارى أنه وقع فى سنة ٤٩٠ هـ ( ١٠٩٦ م ) . وكانت ممالك الطوائف كلها قد سقطت يومئذ فى أيدى المرابطين ، ماعدا سرقسطة ، التى استولى عليها المرابطون بعد ذلك بأعوام قلائل ، وآلت اسبانيا المسلمة كلها بذلك إلى سلطان البربر وغدت ولاية مغربية ، وانهار سلطان العصبيات والأسر الأندلسية إلى حين ، وتوارت العناصر والزعامات المتغلبة ، لكى تظهر فيما بعد ، وتضطلع ضد المرابطين بمختلف الحركات والثورات القومية الأندلسية .

واتخذ جواز أمير المسلمين هذه المرة طابع الجهاد من جديد ، فجهز جيشاً قوياً من المرابطين والأندلسيين بقيادة محمد بن الحاج . وسار هذا الجيش صوب

---

(١) البيان المغرب من الأوراق المخطوطة التى سبقت الإشارة إليها .

(٢) R. M. Pidal : ibid., p. 535

طليطلة مخترقاً أراضى قشتالة ، والتقى بالقشتاليين بقيادة ملكهم ألفونسو على مقربة من كونسويجرا ، فهزم النصارى هزيمة فادحة ، وفر ألفونسو فى فلوله نحو كونسويجرا والتجأ إليها ، فحاصره المرابطون بها بضعة أيام ثم انصرفوا ( أغسطس سنة ١٠٩٧ م ).

وقصد يوسف إلى قرطبة ، لينجز المهمة التى قدم فى الواقع من أجلها إلى الأندلس ، وهى أخذ البيعة لولده أبى الحسن على . وكان قد استقدمه معه هو وأخوه الأكبر أبو الطاهر تميم[١] . وكان يوسف قد آثر ولده علياً بولاية عهده ، لما آنسه فيه من الورع والنباهة والحزم ، وأصدر له عهده بذلك فى سنة ٤٩٥ هـ . وفى شهر ذى الحجة من سنة ٤٩٦ هـ جمع يوسف بقرطبة أمراء لمتونة وأشياخ المرابطين والفقهاء . وأخذ البيعة عليهم جميعاً لولده على ، وكان من شروط تقديم على لولاية العهد ، أن ينشىء بالأندلس جيشاً مرابطياً ثابتاً قوامه سبعة عشر ألف فارس ، موزعة على قواعد الأندلس : منها سبعة آلاف بإشبيلية ، وألف بكل من قرطبة وغرناطة ، وأربعة آلاف فى شرق الأندلس ، ويوزع الباقى على الثغور[٢] . وكان من الواضح أن اختيار يوسف قرطبة لأخذ البيعة بها لولده ، يمت بصلة وثيقة إلى صفة عاصمة الخلافة القديمة ، وزعامتها الأدبية السالفة لقواعد الأندلس .

وفى أواخر سنة ٤٩٨ هـ ، مرض أمير المسلمين يوسف بن تاشفين بقصره بحضره مراكش ، واستمر عليلا زهاء عام وشهرين ، حتى توفى فى مستهل شهر محرم سنة ٥٠٠ هـ ( ٢ سبتمبر ١١٠٦ م )[٣] . وقيل بل توفى فى ربيع الآخر سنة خمسمائة . وكانت وفاته بقصره بمراكش ، ومن حوله ولداه أبو الحسن على وأبو الطاهر تميم ، وأكابر لمتونة ، ودفن بالقصر ، وأوصى ولده عليا قبيل وفاته بثلاثة أمور : الأول ألا يفعل شيئاً لإثارة أهل جبل درن ومن وراءه من المصامدة وأهل القبلة ، والثانى أن يهادن بنى هود أمراء سرقسطة وأن يتركهم حائلا بينه وبين النصارى ، والثالث أن يعطف على من أحسن من أهل قرطبة ، وأن يتجاوز عمن أساء منهم[٤] .

(١) الحلل الموشية ص ٥٥ . ويقول ابن أبى زرع إن علياً كان عندئذ بسبتة حيث نشأ ( روض القرطاس ص ١٠١ ) .

(٢) الحلل الموشية ص ٥٨ .

(٣) روض القرطاس ص ١٠١ ويقول ابن خلكان إنه توفى فى الثالث من المحرم سنة ٥٠٠ هـ ( ج ٢ ص ٤٤٨ ) .

(٤) الحلل الموشية ٦٠ .

وهكذا اختتمت حياة البطل المغربى العظيم ، بعد أن عاش زهاء مائة عام ، وقضى فى الزعامة والكفاح زهاء نصف قرن ، منذ ندبه ابن عمه الأمير أبوبكر اللمتونى لقيادة الجيش المرابطى ؛ وقضى فى حكم الدولة المرابطية الكبرى بالمغرب منذ دخل مدينة فاس فى سنة ٤٦٢ هـ ، نحو أربعين عاماً ، وحكم الإمبراطورية المغربية الأندلسية الكبرى نحو خمسة عشر عاماً ، واضطلع فى المغرب بحروب ومعارك لاحصر لها ، وقاد الجيوش المرابطية بالأندلس مراراً من أجل الجهاد فى سبيل الله ، وأحرز أعظم انتصاراته فى معركة الزلاّقة الحاسمة ، وهى بلا ريب ألمع صفحات جهاده وأنصعها .

وقد تناولنا خلال يوسف وصفاته فيما تقدم من سيرته ، ونزيد هنا أنه لم يصم حياة يوسف المديدة ، ولم يثر سحباً حول خلاله العظيمة ، سوى ما جنح إليه من قسوة بالغة فى معاملة أمراء الأندلس ، وهو ما سبق أن عرضنا إليه .

# الكتاب السابع

# الممالك الإسبانية النصرانيّة

## خلال القرن الحادى عشر الميلادىّ

# الفصل الأول

## المملكة الإسبانية الكبرى

### فى عهد سانشو الكبير وولده فرناندو الأول

المالك الإسبانية فى أواخر القرن العاشر . ناڤارو ليون وقشتالة . سانشو الكبير يحتل قشتالة . ولده فرناندو أول ملوكها . ألفونسو الخامس ملك ليون . ولده برمودو الثالث . استيلاء سانشو الكبير على ليون . مصرع برمودو الثالث . استيلاء فرناندو على ليون . تقسيم المملكة النصرانية بعد وفاة سانشو . الحرب بين راميرو ملك أراجون وأخيه غرسية ملك ناڤار . غرسية يحاول اغتيال فرناندو ملك قشتالة . إنتقام فرناندو . الحرب بين الأخوين . هزيمة غرسية ومقتله . تعيين ولده سانشو مكانه . إنهيار الأندلس الكبرى وقيام الطوائف. تحول ميزان القوى فى شبه الجزيرة . ضعف دول الطوائف . تنافسها فى استعداء الملوك النصارى. تفوق اسبانيا النصرانية ونهوض سياسة الإسترداد . غزو فرناندو الأول لولاية البرتغال . حصار بازو وسقوطها . سقوط لاميجو . تهديد شنترين . غزو فرناندو لمنطقة وادى الحجارة . المأمون بن ذى النون يسترضيه بالمال والخضوع . غزو فرناندو لمملكة إشبيلية . خضوع ابن عباد وتعهده بالجزية . موافقته على نقل رفات القديسين النصارى . مسير فرناندو لغزو قلمرية . حصارها وسقوطها . الكونت سسندو يتولى حكمها . مسير فرناندو إلى بلنسية وموقعة بطرنة . مرض فرناندو ووفاته . تلقبه بالإمبراطور . أعماله الإنشائية . مجلس جويانسا . قوانينه الكنسية والدستورية . تنويه الرواية النصرانية بخلال فرناندو وعظمته .

مضينا فيما تقدم ، فى تاريخ الممالك الإسبانية النصرانية ، حتى نهاية القرن العاشر الميلادى ، أعنى حتى نهاية عهد المنصور بن أبى عامر ، ونحاول الآن أن نتتبع تاريخ هذه الممالك خلال القرن الحادى عشر الميلادى ؛ أعنى خلال الحقبة التى شهدت سقوط الخلافة الأندلسية ، وانهيار الأندلس الكبرى ، وانتثارها إلى دول الطوائف ، ثم سيرة الطوائف منذ قيامها حتى مقدم المرابطين إلى شبه الجزيرة ، وانهيار هذه الدول الإسلامية الصغيرة .

كانت الممالك الإسبانية النصرانية فى أواخر القرن العاشر الميلادى ثلاثاً ؛ وهى ناڤار ( نبرّة ) ، ويحكمها غرسية سانشيز ، ولد سانشو غرسية الثانى . وكانت ناڤار يومئذ أكبر الممالك النصرانية رقعة ، إذ كانت تشمل فضلا عن الوطن الأصلى ناڤار ، ولايات كنتبريا ، وسوبرابى ، ورباجورسا . ولما توفى

غرسية سانشيز ، فى سنة ١٠٠٠ م ، بعد حكم دام خمسة أعوام ، خلفه فى الحكم ولده سانشو الثالث الملقب بالكبير.

ومملكة ليون ، وكان يحكمها برمودو الثانى منذ سنة ٩٨٢ م ، واستمر فى حكمها بالرغم من مناوأة أخيه راميرو ، ومحاربته له ، حتى توفى فى سنة ٩٩٩م، وخلفه فى الحكم ولده ألفونسو طفلا ، وتولى الوصاية عليه الكونت مننديث كونثالث ، أحد أشراف المملكة .

ومملكة قشتالة . وكانت ماتزال فى مرتبة « الكونتية » أو الإمارة ، وكان على حكمها غرسية فرناندز ولد بطلها ومحررها فرنان كونثالث[1] . ولما توفى فى سنة ٩٩٥ م ، خلفه ولده سانشو غرسية فحكم حتى سنة ١٠٢١ م ، ثم خلفه ولده غرسية . وحدث أن قصد غرسية إلى ليون ليتم عقد زواجه بأخت ملكها برمودو الثالث . فقتل غيلة خلال وجوده بالكنيسة أثناء مراسيم الزواج (١٠٢٨م) وقتله أبناء الكونت ڤيلا ، وهو أحد أشراف قشتالة الذى نزعهم غرسية أملاكهم . وبمصرع غرسية انقطع نسل أسرته . وترتب على ذلك تغييرات عظيمة فى مصاير الممالك الإسبانية .

ذلك أن سانشو الكبير ملك ناڤار كان متزوجاً من إلبيرة أخت غرسية ، ابنة سانشو غرسية أمير ( أوكونت ) قشتالة ، فلما لقى الكونت غرسية مصرعه فى ليون ، بادر سانشو إلى قشتالة . فاحتلها بصفته وارثاً لعرشها عن طريق زوجته ، وندب لحكمها ولده فرناندو . وأسبغ عليه لقب الملك ، فكان أول ملوك قشتالة . وتلقب هو بملك اسبانيا ، وانتقم من آل ڤيلا قتلة غرسية ، فأحرقهم أحياء ، بالرغم من كونه قد جنى ثمار جريمتهم بامتلاك قشتالة .

وحكم ألفونسو الخامس مملكة ليون حتى وفاته فى سنة ١٠٢٧ م ، وغزا أراضى المسلمين المجاورة فى شمالى البرتغال ، وافتتح بعض نواحيها ،وحاصر مدينة بازو . وأصيب خلال ذلك بسهم مسموم قذفه به أحد الرماة المسلمين ، فتوفى متأثراً بجراحه . وكان أشهر أعماله عقد المجلس الدستورى فى سنة ١٠٢٥ م، وفيه وضعت قوانين المملكة التأسيسية . وأصبح العرش وراثياً . ولما توفى خلفه ولده برمودو الثالث . وكان فرناندو ملك قشتالة ، قد تزوج من ابنة ألفونسو

(١) ويسميه ابن الخطيب فى الفصل الذى يخصصه لتاريخ ملوك اسبانيا النصرانية ، دون شانجه تمز قشتالة ( أعمال الأعلام ص ٣٢٩ ) .

أخت برمودو ، بيد أن هذه المصاهرة لم تفعل شيئاً لتوثيق علائق المملكتين. وبالعكس فإن سانشو الكبير وولده فرناندو ، كانا يريان في تلك المصاهرة وسيلة لانتزاع عرش ليون . على أن سانشو لم ينتظر سير الحوادث لتحقيق هذا الاحتمال ، بل سار فى قواته إلى ليون وافتتحها ، وأعلن نفسه ملكاً عليها ، وفر برمودو ليرقب الفرص لاسترداد عرشه .

ولما توفى سانشو الكبير ملك ناڤار ، أوملك اسبانيا ، فى سنة ١٠٣٥ م ، استطاع برمودو أن يسترد جزءاً من أملاكه وأن يقيم بلاطه ، وثارت بينه وبين صهره فرناندو ملك قشتالة الحرب ، واستمرت مدى عامين ، ثم كان اللقاء الحاسم بينهما فى موقعة تامارون فى سنة ١٠٣٧ م وفيها لقى برمودو مصرعه . ونظراً لوفاته دون عقب ، فقد استولى فرناندو على مملكة ليون بحكم المصاهرة والوراثة ، وغدا ملكاً على مملكة قشتالة وليون الموحدة . وانتهى بمقتل برمودو الثالث نسل ملوك اسبانيا النصرانية ، منذ أيام القوط ، ومذ قامت مملكة أشتوريش وجليقية وليون فى أواخر القرن الثامن الميلادى ، كما انتهى من قبل نسل أمراء قشتالة .

— ١ —

وكان سانشو الكبير ، قد قسم المملكة قبيل وفاته ، بين أبنائه الأربعة ، فخص فرناندو كما هو بملك قشتالة وليون وجليقية ، وغرسية أكبر أولاده بالوطن الأصلى ناڤار ، ممتداً من غرب البرنيه إلى منابع الإيبرو ، وخص ولده غير الشرعى ، راميرو ، برقعة ضيقة تمتد بحذاء ناڤار من باب شيزروا جنوباً ، وتسمى بمملكة أراجون ، وولده كونزالو ، بمنطقة صغيرة أخرى فى أواسط البرنيه ، وهى ولاية سوبرابى ورباجرسا . وهكذا غدت الممالك الإسبانية النصرانية ، بهذا التقسيم أربعاً ، وهذا عدا إمارة برشلونة الفرنجية الواقعة فى شمال شرقى إسبانيا ، وقد كان يحكمها رامون برنجير الأول عميد آل برنجير.

وكان من جراء هذا التقسيم أن بدأت سلسلة جديدة من الحروب الأهلية بين الملوك الإخوة ، وبدأت الحوادث باختفاء مملكة سوبرابى الصغيرة . ذلك أن أميرها كونزالو قتل غيلة أثناء عوده من الصيد ( ١٠٣٨ م ) ، فاختار

أهل سوبرابى أخاه راميرو أمير أراجوان ، ليخلفه فى حكم الولاية ، وبذا اتحدت الإمارتان فى مملكة واحدة ، ولم يعارض راميرو أحد من إخوته ، إذ كان فرناندو ملك قشتالة مشغولا بتنظيم مملكته الكبيرة وتقويتها ، وكان غرسية ملك ناڤار ، غائباً يحج إلى رومة ، وفضلا عن ذلك فقد كان شعب سوبرابى هو الذى اختار راميرو وآثره .

يقول المؤرخ لافونتى : « وكأنما كان روح الطمع والحسد والمنافسة ، متأصلا فى أسرنا الملوكية ، ولم يفعل سانشو الكبير بتقسيم المملكة سوى أن زاد جراثيم الشقاق والموت »(١) .

ذلك أن راميرو لم يقنع بالاستيلاء على ولاية سوبرابى ، بل أخذ يطمح إلى الاستيلاء على مملكة ناڤار نفسها . ولما كانت موارده وأهباته قاصرة عن تحقيق مشروعه الكبير ؛ فقد عقد مع جاره المسلم ابن هود أمير سرقسطة ، حلفاً أمده بمقتضاه ببعض قواته ، ثم زحف راميرو فى قواته المتحدة من النصارى والمسلمين إلى ناڤار ؛ واقتحم حدودها فجأة ، ولكن قلعة تاڤالا اعترضت سيره المظفر . ولم يكن غرسية يتوقع من أخيه مثل هذا الاجتراء ، فحشد قواته على عجل ، خلال الوقت الذى استغرقه حصار القلعة ؛ وسار إلى تاڤالا ، فانقض بقواته على الجيش المغير تحت جنح الظلام ؛ وكانت مفاجأة أخذ بها الأرجونيون ، فساد بينهم الاضطراب ؛ ومزقت صفوفهم قبل أن يستعدوا للقتال ولم يتمكن راميرو من الخلاص إلا بصعوبة ففر ناجياً بنفسه مع نفر من صحبه ، وأبيد معظم جيشه قتلا وأسراً ؛ وقتل كذلك معظم حلفائه المسلمين ؛ ووقعت هذه الموقعة الحاسمة فيما يبدو سنة ١٠٤٢ م .

ولجأ راميرو إلى شعب الجبال الوعرة فى سوبرابى خشية المطاردة ، بيد أن غرسية قنع فيما يبدو بنصره والقضاء على جيش أخيه ؛ ولم يحاول مطاردته داخل بلاده ؛ وأنفق راميرو بضعة أعوام فى تنظيم شئونه ؛ والنهوض من عثرته ، وأنشأ جيشاً جديداً ؛ وسوف نراه فيما بعد يخوض معترك الحوادث مرة أخرى.

ثم اتخذت الحوادث وجهة أخرى ؛ وانتقل ميدان الصراع إلى الجانب الآخر من اسبانيا النصرانية بين ناڤار وقشتالة . وكان غرسية ملك ناڤار ، وهو أكبر

---

(١) Modesto Lafuente : Historia general de Espana (Madrid 1861) V. II. p. 433

إخوته ، ينظر بعين الغيرة والحسد إلى فوز أخيه الأصغر فرناندو بحكم هذه المملكة العظيمة الشاسعة ، مملكة قشتالة وليون ، ويرى أنه أحق بملكها وأجدر ، وكان يعول فى تحقيق أمنيته على وسائل الغدر والغيلة ، ولم يكن فرناندو فى البداية يشك فى ولاء أخيه أوصدق نياته ، لاسيما وقد حارب إلى جانبه فى معركة تامارون ضد برمودو ملك ليون ، ومن ثم فقد وضع غرسية ، مشروعه لاغتيال أخيه ، وذلك بأن تظاهر بالمرض ، وبعث إلى أخيه يبلغه أنه مريض على فراش الموت . وأنه يرجو رؤيته للمرة الأخيرة ، فبادر فرناندو إلى تلبية هذه الرغبة ، بيد أنه قد نمى إليه خلال سيره ، حقيقة الكمين الذى دبر لاغتياله ، فارتد مسرعاً إلى برغش ، وقد أضمر لأخيه الغادر أسوأ النيات . ولم يفطن غرسية إلى أن أخاه قد وقف على حقيقة أمره . ثم جاء دور فرناندو فى تدبير الانتقام من أخيه ، فدعاه إلى زيارته فى برغش بعد ذلك بأعوام قلائل ، فسار إليه غرسية دون أية ريبة ، ولكنه ما كاد يصل إلى أراضى قشتالة ، حتى قبض عليه وزج إلى إحدى القلاع ، بيد أنه لم يفقد شجاعته ، ولم يلبث أن استطاع الفرار من معتقله ، فعاد إلى ناڤار ، معولا على الانتقام .

وهنا لم يكن مناص من وقوع الحرب بين الأخوين ، وقد بدأ غرسية بالفعل بالإغارة على أراضى قشتالة ولم يلتفت إلى تحذير أخيه . ثم اعتزم أن يحاول الضربة الحاسمة . فعقد حلفاً مع أخيه وعدوه القديم راميرو وحشد كل ما استطاع من الجند والعدة ، وأمده حليفه المقتدر بن هود صاحب سرقسطة بفرقة من جنده . ونفذ بجيشه القوى إلى أراضى قشتالة ، واثقاً فى شجاعة جيشه . وكان أخوه فرناندو فى تلك الأثناء يحشد من جانبه سائر قواته من قشتالة وليون . واستمر غرسية فى سيره حتى وصل إلى سهل أتابوركا ، الواقع على مقربة من شرقى برغش ، وحاول فرناندو مرة أخرى أن يجتنب الحرب مع أخيه ، فبعث إليه اثنين من كبار الأحبار ، يحاولان إقناعه بعقد الصلح وحقن الدماء ، فصرفهما غرسية بخشونة . وفى فجر اليوم الأول من سبتمبر سنة ١٠٥٤ م ، اشتبك الجيشان فى معركة عنيفة ، وقاتل غرسية بشجاعة فائقة ، بيد أن الخلل ما لبث أن دب إلى جيشه ، إذ غادرته عدة كبيرة من الفرسان الناقمين إلى المعسكر الآخر ، وشن فرسان ليون فى نفس الوقت على الناڤاريين هجوماً عنيفاً ، وأصابت غرسية ،

وهو يقاتل فى قلب المعمعة طعنة قاتلة ، فسقط من جواده وأسلم الروح فى الحال بين يدى كاهنه ، فانتثر شمل النافاريين ، وركنوا إلى الفرار ، وأغضى فرناندو عن مطاردتهم ، وقصر أمر المطاردة على حلفائهم المسلمين ، فمزقوا قتلا وأسراً. وأمر فرناندو بأن يحمل جثمان أخيه بمنتهى التكريم ، وأن يدفن فى ناجرة فى الكنيسة التى أنشأها هناك ، وأعلن فى الحال اختيار ولده الصبى سانشو مكانه ملكاً على نافار ، وأعلن الملك الجديد من جانبه طاعته لعمه الظافر ، الذى شاء أن يبقى له على تراث أبيه ، ولم يقتطع فرناندو شيئاً من أراضى نافار سوى بعض النواحى الواقعة على ضفة الإيبرو اليمنى (١) .

— ٢ —

فى الوقت الذى كانت فيه الممالك الإسبانية النصرانية تضطرم على هذا النحو بنار الحرب الأهلية، ويسقط ملوكها الأصهار والإخوة صرعى خلافهم وأطماعهم ، كانت اسبانيا المسلمة من جانبها قد استحالت إلى أشلاء ممزقة ، وقامت بها أكثر من عشرين دولة من دول الطوائف . وبينما كانت الخلافة تحتضر فى قرطبة وتتردد أنفاسها الأخيرة بين الشريدين من بنى أمية ، وبين المتوثبين من بنى حمود، كان أمراء الطوائف ومعظمهم حديث عهد بالرياسة والسلطان ، يضطرمون بأطماعهم الوضيعة ، ويجعلون بمنازعاتهم وحروبهم الأهلية الصغيرة ، من الأندلس مسرحاً لفتنة غامرة لا تخبو أوارها ولا يستقر قرارها . والواقع أن المصير الذى تردت فيه الأندلس الكبرى على يد الطوائف وحروبهم الانتحارية ، كان أتعس بكثير مما انحدرت إليه اسبانيا النصرانية من حروب أهلية محدودة النطاق والمدى ، ولم تلبث أن أسفرت عن تماسك المملكة النصرانية ، ووحدتها ونهوضها . ولقد كان من رحمة القدر فقط ، أن أتيح لهذه الدويلات الإسلامية الصغيرة أن تحتفظ بحياتها ، وأن شغلت عدوتها الخالدة اسبانيا النصرانية عن مطاردتها والقضاء عليها ، بخلافاتها وحروبها الداخلية فى تلك الفترة ، أعنى فى النصف الأول من القرن الحادى عشر الميلادى .

منذ بداية هذا القرن ، حدث فى شبه الجزيرة انقلاب حاسم فى ميزان

(١) راجع فى تفاصيل هذه الحوادث : M. Lafuente : ibid; V. II. p. 382—383
وكذلك R. M. Pidal : La Espana del Cid; p. 122—123

القوى السياسية والعسكرية ، فبعد أن كانت اسبانيا المسلمة ، منذ أيام الناصر حتى نهاية عهد المنصور ، تحتفظ بتفوقها العظيم على اسبانيا النصرانية ، وتكاد تخضعها لصولتها ، ويترامى ملوكها على أعتاب الخلافة القرطبية ، ويؤدون لها الجزية فى معظم الأحيان ، إذا بها بعد انهيار الخلافة ، وقيام دول الطوائف الهزيلة المتنابذة ، تفقد كل منعة وكل مقدرة حقيقية على الدفاع ، ويتسابق ملوكها إلى خطب ود الملوك النصارى ، والالتجاء إليهم ، واستعدائهم على محاربة بعضهم البعض . وقد كان الملوك النصارى ، يبادرون إلى انتهاز هذه الفرص ، حتى فى فترات ضعفهم وتفرقهم ، ويتخذونها وسيلة للتفوق العسكرى ، والغنم المادى . وقد بدأت سياسة الاستعداء هذه للملوك النصارى منذ بداية الفتنة ذاتها ، حيث نرى الأحزاب المتنافسة على اجتناء سلطان الخلافة ، تستمد عون النصارى ، على نحو مافعل الفتى واضح ومحمدبن هشام المهدى فى الاستنصار بأمير برشلونة ، وسليمان بن الحكم والبربر ، فى استدعاء سانشو غرسية أمير قشتالة . على أن هذا التنافس فى استعداء الملوك النصارى ، والاستعانة بهم ، يتسع نطاقه تباعاً ، ويغدو على يد ملوك الطوائف ، حسبما رأينا فى أخبارهم ، ضرورة سياسية وعسكرية يلجأون إليها بطريقة مستمرة منتظمة . وقد استغل الملوك النصارى هذه الظاهرة أعظم استغلال ، حتى غدا ملوك الطوائف ، فى الواقع آلات مسخرة فى أيديهم ، ووصل هذا الإذلال إلى ذروته ، حسبما رأينا ، على يد ألفونسو السادس ملك قشتالة .

على أن ذلك لم يكن دون تمهيد من جانب القوة المادية ، فقد استطاعت إسبانيا النصرانية ، أن تمهد لتفوقها السياسى والعسكرى فى شبه الجزيرة ، منذ أواسط القرن الحادى عشر ، بسلسلة من الغزوات والفتوحات العظيمة ، التى تبلورت على أثرها سياسة الاسترداد الإسبانية La Reconquista ، وغدت ظاهرة قوية وعاملا حاسماً ، فى ميدان الصراع بين اسبانيا المسلمة وبين اسبانيا النصرانية .

وقد بدأت هذه السياسة على يد فرناندو الأول ملك قشتالة وليون ، وهو الذى تعرفه الرواية الإسلامية بفرذلند ، فإنه ماكاد ينتهى من الصراع الداخلى الذى نشب بينه وبين إخوته ، حتى تأهب لغزو أراضى المسلمين . وفى سنة ١٠٥٧ م ، عبر فى قواته نهرى دويرة وتورمس ، ونفذ إلى ولاية لوزيتانيا

( شمالى البرتغال ) ، وهى قاصية أراضى المسلمين من الشمال الغربى ، وكانت هذه المنطقة المنعزلة النائية تابعة لمملكة بطليوس ، بيد أنها كانت لبعدها تكاد تكون مستقلة بشئونها ، وتعتمد فى الدفاع على نفسها ، فاجتاحها فرناندو وعاث فيها ، واستولى على بعض الحصون ، ثم قصد إلى مدينة بازو Vizeu ، وضرب حولها الحصار . فدافع عنها أهلها المسلمون أشد دفاع وأعنفه ، وأبدى الرماة المسلمون ، كما أبدوا من قبل أيام أن حاصرها ألفونسو الخامس ، براعة عظيمة فى إصابة العدو ، حتى اضطر النصارى إلى ارتداء دروع مثلثة ، واضطر فرناندو إلى إنشاء فرقة من حملة المقالع ، وانتهى القشتاليون بأن اقتحموا المدينة بمنتهى العنف ، وأمعنوا فى أهلها قتلا وأسراً . وكان من بين الأسرى ، ذلك الرامى الماهر ، الذى أصاب بسهمه المسموم ألفونسو الخامس من قبل ذلك بثلاثين عاماً ، فأمر فرناندو به فسملت عيناه وقطعت يداه ورجلاه ، وعذب حتى أسلم الروح . ثم سار فرناندو بعد ذلك إلى لاميجو ( مليقة ) الواقعة شمال بازو ، وكانت حصينة عالية الأسوار ، فاقتحمها واستولى عليها بعد ذلك ببضعة أشهر ، وقتل معظم أهلها وأسرهم ، واسترق الأسرى من أهل المدينتين ، وأسكن بهما النصارى . ولم يتحرك ابن الأفطس صاحب بطليوس ، وهو صاحب السيادة على تلك الأنحاء ، ليقينه باستحالة الدفاع عنها ، وذلك حسبما أشرنا إليه من قبل فى أخبار مملكة بطليوس .

وقد سبق أن أشرنا كذلك فيما تقدم إلى الحملة التى بعث بها فرناندو ضد مدينة شنترين الواقعة فى شمالى أشبونة على نهر التاجه ، وكيف اضطر ابن الأفطس عندئذ إلى أن يتعهد بأن يدفع إلى قشتالة جزية قدرها خمسة آلاف دينار .

وكان فرناندو يطمح إلى أن يخضع ملوك الطوائف جميعاً ، ولاسيما ابن عباد ، وابن ذى النون ، وهما يومئذ أقوى أولئك الملوك وأعظمهم شأناً . ومن ثم فقد خرج فى جيشه فى سنة ١٠٦٢ م ، إلى انحاء مملكة طليطلة الشمالية الشرقية ، وأغار على مدينة سالم ، وأوسيدا ، وطلمنكة ، ووادى الحجارة ، وقلعة النهر ( ألكالادى هنارس ) وعاث فى بسائطها تخريباً وسبياً . فاستغاث أهل هذه الأنحاء بالمأمون ابن ذى النون صاحب طليطلة ، وجمع المأمون مقادير كبيرة من الذهب والفضة والأقمشة الفاخرة ، وسار بنفسه إلى معسكر الملك النصرانى ، وقدم إليه الهدايا ،

وأعلن اعترافه بطاعته ، وتعهده بأداء الجزية ، فقبل فرناندو المال والعهد ، وعاد مثقلا بالغنائم والتحف.

وفى العام التالى ، خرج فرناندو فأغار على أراضى مملكة إشبيلية ، وخرب بسائطها ، واضطر المعتضد بن عباد ، أن يحذو حذو المأمون ، وأن يقصد إلى فرناندو ومعه هدية جليلة من الأموال والتحف ، يناشده المودة والسلم ، على أن يؤدى له الجزية ، فأجابه فرناندو إلى رغبته ، وطلب إليه أن يمكنه من نقل رفات القديسة خوستا ، وكانت هذه القديسة قد استشهدت أيام الإمبراطور دقلديانوس ودفنت فى إشبيلية ، فوعد ابن عباد بتحقيق رغبته ، وأرسل فرناندو إلى إشبيلية بعثة من أكابر رجال الدين للقيام بهذه المهمة ، ولكنها لم تستطع الاهتداء إلى قبر هذه القديسة ، وعندئذ زعم أحد أعضائها ، وهو الأسقف ألفيتو ، أنه قد ظهر له القديس إسيدورو ، وقد كان من أساقفة إشبيلية أيام القوط ، وقال له إن رفات القديسة خوستا يجب أن تبقى فى مكانها لحماية إشبيلية ، وعرض أن تحمل رفاته هو ، وكشف من مكان وجودها ، ووجدت بالفعل رفات هذا القديس فى المكان المحدد ، فحملت إلى ليون ودفنت هنالك باحتفال فخم ، فى الكنيسة التى سميت من ذلك التاريخ باسمه ، أعنى بكنيسة سان إسيدورو ، وكان ذلك فى أوائل ديسمبر سنة ١٠٦٥ م[١] .

وكان فرناندو على أثر إخضاعه لملوك بطليوس وطليطلة وإشبيلية لصولته ، وإرغامهم على دفع الجزية، قد وضع خطته للاستيلاء على مدينة قُلُمرية ، وهى أعظم القواعد الإسلامية ، فى شمال غربى الأندلس ، بيد أنه رأى قبل مسيره أن يستمد العون والبركة ، من القديس ياقب ، فقصد إلى مزاره بشنت ياقب ، وقضى به ثلاثة أيام فى صلوات ودعوات وخشوع ، ثم سار إلى قلمرية فى جيش ضخم ، وضرب حولها الحصار ( يناير سنة ١٠٦٤ م ) . وقد سبق أن عرضنا إلى حصار قلمرية ، وأشرنا إلى ما تقصه الرواية الإسلامية، من أن راندة ، قائد الحامية الإسلامية ، غادر المدينة سراً مع أهله بتفاهم مع فرناندو ، وأن ابن الأفطس قضى فيما بعد بإعدامه جزاء له على خيانته ، وترك ابن الأفطس قلمرية إلى مصيرها كما فعل بالنسبة لبازو . بيد أن أهل قلمرية دافعوا عن أنفسهم

---

(١) راجع : M. Lafuente : ibid; V. II. p. 388&389

وكذلك R. M. Pdal : ibid; p. 135

أشد دفاع . واستمر الحصار حولها زهاء ستة أشهر ، حتى نضبت أقوات الجيش المحاصر نفسه ، وكاد يرفع الحصار . ولكن رهبان دير لورڤان القريب ، أمدوه بمؤنهم المخزونة فى الجبال . وأخيراً نجح القشتاليون فى إحداث عدة ثغرات فى أسوار المدينة ، واضطر قائد المدينة إلى طلب الأمان ، واتفق على أن يسمح لأهلها بأن يخرجوا مع نسائهم وأولادهم ، تاركين أموالهم للفاتح ، ولكن الجند المدافعين رفضوا هذا الاتفاق ، واستمروا فى الدفاع حتى نفدت سائر الأقوات ، وعندئذ اقتحم القشتاليون المدينة ، وأسروا من المدافعين ، ومن أهل المدينة ، أكثر من خمسة آلاف ، ودخل فرناندو قلمرية فى اليوم الحادى عشر من يوليه ، ومعه الملكة دونيا سانشا ، ورهط من الأساقفة ورجال الدين[١] . وعهد بحكم المدينة إلى رجل كان له فيما بعد شأن فى صوغ السياسة القشتالية نحو الطوائف ، هو الكونت المستعرب سسنندو داڤيدس، الذى تعرفه الرواية الإسلامية بششنند . وكان حسبما أسلفنا فى أخبار مملكة إشبيلية من أهل هذه المنطقة، وأسر فى حداثته فى غارة قام بها القاضى ابن عباد ضد ابن الأفطس، وربى فى البلاط العبادى وأعجب المعتضد فيما بعد بمواهبه ، وقربه واستخدمه فى السفارة بينه وبين فرناندو، ثم غادر إشبيلية بعد ذلك ، والتحق بخدمة البلاط القشتالى[٢] ، وقربه فرناندو وأولاه رعايته لما كان عليه من معرفة تامة باللغة العربية ، والدين الإسلامى ، وأحوال المسلمين وعاداتهم . فحكم سسنندو قلمرية بكفاية ، ونال احترام النصارى ، والمسلمين على السواء ، وكان يلقب عندئذ « بالوزير » على النمط الإسلامى ، وفى عهده نمت قلمرية ، وأنشئت بها عدة صروح فخمة . وفى بعض الروايات أن سسنندو لم يعين حاكماً لطليطلة على أثر افتتاحها، حسبما تقدم ذكره فى موضعه ، وأنه بالعكس استمر حاكماً لإقليم قلمرية حتى توفى سنة ١٠٩١ م[٣] .

وتضع الرواية الإسلامية تاريخ سقوط قلمرية فى سنة ٤٥٦ هـ ( ١٠٦٤ م ) متفقة فى ذلك مع الرواية النصرانية ، بيد أنها تختلف معها فى بعض التفاصيل . وقد سبق أن عرضنا فيما تقدم من أخبار مملكة بطليوس ، إلى أقوال الرواية

(١) راجع فى حوادث فتح قلمرية M. Lafuente : ibid; V. II. p. 384 & 385 وكذلك R. M. Pidal : ibid; p. 145&149

(٢) الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ١٢٩ .

(٣) I. de las Cagigas : Los Mozarabes, p. 461

الإسلامية(١) وأشرنا إلى ماعمد إليه فرناندو من إجلاء سائر المسلمين عن الأراضى الواقعة فى شمالى البرتغال بين نهرى منهو ودويرة .

ونحن نعرف مما تقدم فى أخبار مملكة بلنسية ، أن فرناندو ، خرج فى قواته فى أوائل سنة ١٠٦٥ م ، أعنى بعد استيلائه على قلمرية ببضعة أشهر ، قاصداً إلى بلنسية ، يبغى افتتاحها ، وأنه اخترق فى طريقه أراضى مملكة سرقسطة الجنوبية ، وعاث فيها معاقبة لأميرها المقتدر بن هود لتخلفه عن دفع الجزية ، ثم ضرب الحصار حول بلنسية . ولكنه لما رأى صعوبة الاستيلاء عليها نظراً لمناعة أسوارها ، وأهبة أهلها ، تظاهر بمغادرتها ، وانسحب بقواته إلى مكان قريب منها . وعندئذ خرج البلنسيون دون تحوط ، وفاجأهم القشتاليون فى بطرنة وهزموهم هزيمة شنيعة حسبما فصلنا ذلك فى موضعه .

وكان فرناندو قد شعر حينئذ بالمرض ، فآثر العودة إلى ليون ، وهنالك احتفل بدفن رفات القديس إسيدورو فى أوائل ديسمبر . وكان فى الواقع مرض موته ، ذلك أنه لم تمض أيام قلائل على ذلك ، حتى توفى فى السابع والعشرين من ديسمبر سنة ١٠٦٥ ، ودفن فى نفس الكنيسة التى دفن فيها القديس ، والتى غدت من ذلك الحين مدفناً لملوك قشتالة .

وكان فرناندو الأول من أعظم ملوك اسبانيا النصرانية ، وفى عهده أحرزت اسبانيا النصرانية تفوقها الواضح على اسبانيا المسلمة ، ومهد حكمه الملىء بالوقائع المظفرة لجد الملوك اللاحقين . وقد أسبغت عليه الرواية لقب الكبير **El Magno** ، وكان سمى نفسه بالإمبراطور ، ويدعى لنفسه مركز التفوق والسيادة على ملكى ناڤار وأراجون . وفى عهده اتسعت رقعة مملكة قشتالة اتساعاً عظيما ، ودفعت حدودها إلى الجنوب وإلى الشرق والغرب على حساب المملكة الإسلامية ، واقتطعت منها كثيراً من البلاد والحصون . وقد كانت غزواته ، بالرغم مما ينسب إليه من التقى والورع ، تتسم بنزعة دموية مروعة ، تبدو واضحة فى قسوته وفظاعته فى معاملته المدنيين من أهل البلاد الإسلامية المفتوحة ، وسفك دمائهم دون تمييز ولاحرج ، واسترقاقهم جملة . وقد اشتهر فضلا عن غزواته وفتوحه المظفرة ، بأعماله الإنشائية والدستورية ، فقد جدد مدينتى ليون وسمورة ،

(١) راجع سقوط قلمرية فى البيان المغرب ج ٣ ص ٢٣٨ و ٢٣٩ ، وأعمال الأعلام ص ١٨٤ .

وكانتا قد خربتا منذ غزوات المنصور بن أبي عامر ، وأنشأ في ليون عدة صروح وكنائس فخمة ، مازالت تزدان بها حتى اليوم . وفي سنة ١٠٥٠ م ، دعا إلى عقد اجتماع كنسي تأسيسي في « جويانسا » اعتبر في نفس الوقت مجلساً نيابياً « كورتيس » ، وشهدته الملكة والأشرف والأساقفة . وصدرت عنه عدة أصول كنسية ودستورية ، كان لها أكبر الأثر في صوغ النظم التأسيسية لمملكة قشتالة فيما بعد . ومنها أن يُعمل في جميع الكنائس والأديار بدعوة القديس بندكت ، وأن يحرم على رجال الدين حمل السلاح والزواج ، أو شهود مآدب الزواج . وحصلت الكنيسة على امتيازات كثيرة ، منها أنه لايمكن الاستيلاء على أملاكها بالتقادم ، وأن المتهم بجريمة ما ، إذا صار على قيد ثلاثين خطوة من عتبة الكنيسة ، أضحى تحت حماية القضاء الكنسي ، وهو أثر من آثار التشريعات القوطية القديمة ، وأن القوامس ( الكونتات ) يجب عليهم هم ونوابهم في القضاء الجنائي ، أن يحرصوا على تحرى العدالة والحق ، وفقاً لأحكام الشرائع القوطية ، وأن تطبق في مملكة ليون قوانين ألفونسو الخامس المسماة Buenos Fueros ( القوانين الطيبة ) وفي مملكة قشتالة لوائح سانشو المسماة Benefactorias ، وأن يقضى على المجرمين والعصاة بفقد الشرف والمناصب وبالنفي من الكنسية ، وصدرت كذلك عدة لوائح للتمييز بين النصارى والمسلمين واليهود الذين يقيمون في المملكة[١] .

وتنوه التواريخ الإسبانية بخلال فرناندو ، وعظمة عهده ، ومقدرته كسياسي ومحارب ، وتنوه بالأخص بتقواه وورعه . وفائق رعايته للكنيسة ، وشغفه بإنشاء الكنائس والأديار وتجميلها ، والإغداق عليها ، واهتمامه بنقل رفات القديسين من أراضي المسلمين إلى الأراضي النصرانية ، وهي ترى على العموم أن مملكة قشتالة وليون المتحدة ، قد وصلت في عهده إلى درجة من الاستقرار والأهمية والتفوق ، لم تصل إليها من قبل قط[٢] .

---

(١) راجع تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين لأشباخ ( ترجمة محمد عبد الله عنان ) الطبعة الثانية ص ١٣ و ١٤ .

(٢) M. Lafuente : ibid, Vol. II. p. 485—488

# الفصل الثاني

## إسبانيا النصرانية عقب وفاة فرناندو الأول

### ألفونسو السادس وبداية عهد الإسترداد

تقسيم فرناندو للمملكة بين أولاده . غزو سانشو ملك قشتالة لناڤار وهزيمته . غزوه لمملكة ليون . الحرب بينه وبين أخيه ألفونسو . هزيمة ألفونسو وأسره . فراره والتجاؤه إلى المأمون ملك طليطلة . المأمون يرحب به ويكرم وفادته . أقوال الرواية النصرانية فى ذلك . ألفونسو يدرس خطط الاستيلاء على المدينة . تطور الحوادث . غرسية ملك جليقية واضطراب مملكته . استيلاء سانشو على جليقية والتجاء غرسية إلى ملك إشبيلية . استيلاء سانشو على تورو مدينة أخته إليرة . محاولته انتزاع سمورة من أخته أوراكا . مصرعه تحت أسوارها . استدعاء الأشراف لأخيه ألفونسو . مغادرة ألفونسو لطليطلة . عهده للمأمون بمسالمته وولده . تنويه الرواية النصرانية بكرم المأمون ونبله نحو مضيفه . مسير ألفونسو إلى برغش . حلفه ببراءته من مقتل أخيه . يغدو ملك قشتالة وليون وجليقية . يدبر كميناً لأخيه غرسية . مساعدة ألفونسو للمأمون ضد ابن عباد . وفاة المأمون وولاية حفيده القادر . ألفونسو يتحلل من عهوده ويضع الخطة للاستيلاء على طليطلة . إغارته على أراضيها وتخريبها . القادر يلتجىء لحماية ألفونسو ويؤدى له الجزية . قيام الثورة فى طليطلة . فرار القادر . وعوده بمعاونة ألفونسو . المعتمد بن عباد وتحالفه مع ألفونسو . مضى ألفونسو فى إرهاق طليطلة وافتتاحها . الطابع الصليبى لهذا الفتح . طليطلة حاضرة اسبانيا النصرانية . الأسقف برنار عميد الكنيسة الإسبانية . مؤامرته لإزالة المسجد الجامع . تحويل الجامع إلى كنيسة جامعة . سقوط طليطلة وأثره فى ميزان القوى . أثره فى تحول ملوك الطوائف . موقعة الزلاقة وما بعدها . عود الطوائف إلى تفرق الكلمة . عدوان السيد والقشتاليين . عبور أمير المسلمين للمرة الثانية . حصار حصن لييط وما اقترن به من حوادث . إنسحاب المرابطين . محاولة ألفونسو الاستيلاء على بلنسية وفشله . انتصارات المرابطين فى منطقة بلنسية . وفاة السيد واستيلاء المرابطين على بلنسية . إستيلاء ألفونسو على شنترين . موقعة إقليش . هزيمة القشتاليين ومقتل سانشو ولد ألفونسو . البابوية وتدخلها فى اسبانيا . سعيها إلى فرض سيادتها الروحية . الأسقف برنار ودوره فى ذلك . إسبانيا والحروب الصليبية . صفة الملك الوراثية . نظام الإقطاع وخواصه . تنظيم ألفونسو لأسس التشريع . ألفونسو ووراثة عرشه . مجلس ليون وقراراته فى ذلك . مملكة أراجون . مملكة ناڤار . سانشو ملك ناڤار ومصرعه . سانشو راميرز ملك أراجون . استيلاؤه على منتشون وحصاره لوشقة . وفاته وقيام ولده بيدرو مكانه . سقوط وشقة . بيدرو الأول وصفاته . وفاته وقيام أخيه ألفونسو مكانه . إمارة برشلونة . الكونتات الفرنج . آل بوريل أمراء برشلونة . خلفاؤهم آل برنجير . رامون برنجير الكبير وأعماله . الصلات بين بنى هود وآل برنجير . المستعين بن هود والكونت برنجير . رامون برنجير الثالث .

— ١ —

عمد فرناندو قبيل وفاته إلى تقسيم مملكته الكبيرة بين أولاده الثلاثة ، فاستدعى لذلك الغرض مجلساً من الأساقفة والأشراف ( ١٠٦٤ م ) وانتهى فيه إلى تقسيم المملكة على النحو الآتى غير معتبر فى ذلك بما حدث من قبل حينما قسمت المملكة على يد أبيه سانشو الكبير .

فخص سانشو ولده الكبير بقشتالة ، وحقوق الجزية على مملكة سرقسطة ، وخص ألفونسو بليون وأشتوريش ، وحقوق الجزية على مملكة طليطلة ، وخص أصغرهم غرسية ، بجليقية والبرتغال ، وقد ضما إلى مملكة واحدة ، وحق الجزية على مملكتى إشبيلية ، وبطليوس ، وأعطى حق الإشراف على الأديار فى سائر المملكة لابنتيه دونيا أوراكا ، ودونيا إلبيرة ، وخصت أوراكا بمدينة سمورة الحصينة ، وخصت إلبيرة بمدينة تورو وأماكن أخرى على نهر دويرة .

ومن المحقق أن تقسيم المملكة الإسبانية على هذا النحو ، بعد اتحادها فى عهد فرناندو ، كان عملا خاطئاً ، وكان نذيراً بعود الحرب الأهلية . وقد استمر الوئام المكبوت بين الإخوة فى ظل الملكة سانشا عامين آخرين ، فلما توفيت فى سنة ١٠٦٧ م ، بدت نذر الصراع الجديد واضحة فى الأفق .

وكان سانشو ، قبل أن تضطرم المعركة بينه وبين إخوته ، قد وجه اهتمامه إلى ميدان آخر . وكان يحكم نافار يومئذ سانشو ابن عمه غرسية ، ويحكم أراجون سانشو ابن عمه راميرو ، ففكر سانشو ملك قشتالة أن يحاول الاستيلاء على مملكة نافار ، أو ينتزع على الأقل أعمالها الواقعة على ضفة الإيبرو العليا . ولكن ملكا نافار وأراجون شعوراً منهما بنياته العدوانية ، عقداً حلفاً لمقاومته . فلما سار لمحاربتهما ، ردداه بنجاح وهزماه فى موقعة فيانا ( سنة ١٠٦٧ م ) . وكان من جراء ذلك أن فقد سانشو أراضى نافار التى كان قد أحرزها أبوه فى موقعة أتابوركا . وفى العام التالى عقب وفاة الملكة سانشا ، سار سانشو فى قواته وهاجم أراضى مملكة ليون ، فسار أخوه ألفونسو لرده ، والتقى الاثنان فى بلادنتادا على نهر بسيرجا ( يوليه سنة ١٠٦٨ م ) فهزم ألفونسو ، وارتد مسرعاً إلى ليون ، واضطر أن ينزل لسانشو عن بعض الأراضى المجاورة لقشتالة .

ثم عاد سانشو فغزا مملكة ليون واخترقها حتى الغرب ، ووقع اللقاء بين الأخوين هذه المرة فى جولنجار أوجلبياريس الواقعة على نهر كريون ، فهزم

القشتاليون . وفروا تاركين خيامهم . وأغذى ألفونسو عن مطاردتهم حقنا للدماء . وكاد سانشو يرتد أدراجه ، لولا أن تقدم منه أحد فرسانه . ونصح له بأن يجمع جنده ، ويعيد الكرة ، فى الفجر تحت جنح الظلام ، بعد أن اطمأن الليونيون إلى نصرهم ، وخبت همتهم ، وكان صاحب هذا النصح هو الفارس ردريجو دياث . الذى عرف فيما بعد بالسيد ، وهى أول مناسبة يردد التاريخ فيها اسمه . واستجاب سانشو لهذا النصح ، فاستجمع جنده ، ودهم فى الفجر على الليونيين وهم نيام . فدب إليهم الاضطراب والذعر ، وقتل الكثير منهم أثناء النوم . وفر ألفونسو ، والتجأ إلى كنيسة ببلدة كريون ، فقبض عليه وزج إلى حصن برغش . ودخل سانشو بجيشه ظافراً إلى مدينة ليون ( يوليه سنة ١٠٧١م )

وهنا تدخلت دونيا أوراكا ، وكانت تحب أخاها ألفونسو ، وسعت إلى إنقاذه من الأسر . فاستجاب سانشو إلى رجائها ، وقبل الإفراج عن ألفونسو ، بشرط أن يرتدى حلة الرهبان ، وأن يقيم فى دير ساهاجون ، فاضطر ألفونسو إلى القبول . ولجأ إلى الدير ، وهنا دبرت أخته أوراكا فراره من الدير ، فسار إلى طليطلة والتجأ إلى ملكها ، المأمون بن ذى النون(١) . فاستقبله المأمون بمنتهى الترحاب والإكرام ، وعامله كأخيه حسبما تقول الرواية النصرانية ، وأنزله داراً بجوار قصره ، وأعد كل ما يلزم لراحته ، وخصص له داراً أخرى خارج المدينة ذات رياض وحدائق للتنزه فيها ، والاجتماع بصحبه النصارى ، ولاسيما مستشاره فرناندو أنسوريز ، وكان يعيش معهم فى أحسن الظروف وأكرمها(٢) .

وإليك كيف يصف الأستاذ پيدال استقبال المأمون لضيفه : « استقبل المأمون الملك المغلوب بإكرام ، بعد أن قطع له العهود اللازمة لسلامته ، وأنزله داراً لحقة بالقصر الملكى ذاته ، تشرف على تحصينات المدينة تجاه قنطرة « القنطرة » . وهكذا كان الملك المنفى يعيش بعيداً عن ضجيج المدينة المسلمة ، وكان بوسعه أن يتريض فى حدائق الملك الشاسعة الواقعة فى الناحية الأخرى من القنطرة داخل المنحنى الكبير الذى يحتضنه نهر التاجه » .

---

(١) لم يفت الرواية الإسلامية الإشارة إلى هذه الحوادث ، وهى تسمى دير ساهاجون « بسفقند » . راجع أعمال الأعلام ص ٢٣٠ .

(٢) M. Lafuente; ibid; Vol. II. p, 396

ويشير الأستاذ پيدال بعد ذلك إلى أقوال الرواية العربية عن فخامة قصر المأمون ، وزخارفه البديعة وحدائقه الغناء ، وروعة الحفلات التى تقام به ، ومجالس العلماء الأعلام التى كانت تعقد به ، وتجعل من طليطلة يومئذ مركزاً من أهم مراكز الثقافة الإسلامية ، ثم يقول : « إن النفى الذى كان يعانيه ألفونسو بين هذه الفخامات كان كأنه مقصود من العناية، حسبما يقول لنا مؤلف « تاريخ سيلوس ». كان ملك ليون المخلوع يختلط بالسكان المسلمين ، ويتريض فى جنبات المدينة الحصينة، ويفكر من أى الأماكن، وبأى نوع من أدوات الحرب تمكن اقتحامها»(١)

حرصنا على إيراد هذه الأقوال ، لنستطيع أن نتأمل على ضوئها فيما بعد ، تصرف ألفونسو السادس ، نحو ولد حاميه والمحسن إليه ، ونحو مملكة طليطلة .

ومما له مغزى عميق ، مايقصه علينا صاحب رواية دير سيلوس السالفة الذكر من أن ألفونسو ، استمع ذات يوم ، وهو متظاهر بالنوم ، إلى حديث المأمون مع وزرائه فى كيفية الدفاع عن طليطلة ، واحتمال مهاجمة النصارى لها واستيلائهم عليها،وكيف يمكن ذلك وبأية وسيلة . وقد أجاب بعضهم أن النصارى لايستطيعون الاستيلاء على مدينة بمثل هذه الحصانة ، إلا إذا أنفقوا سبعة أعوام على الأقل ، فى تخريب أحوازها وانتساف مؤنها ، ويضيف صاحب هذه الرواية ، أن ألفونسو انتفع بوقته فى دراسة خطط المدينة والاحتمالات التى تمكنه من تنفيذ مشروعه العظيم فى الاستيلاء عليها(٢) .

وقضى ألفونسو فى منفاه ، ببلاط الملك المسلم ، تسعة أشهر من يناير حتى أكتوبر سنة ١٠٧٢ م ، وهو مغمور بكرم مضيفه ورعايته ، إلى أن شاءت الأقدار أن تتطور الحوادث فى قشتالة ، وأن يتألق نجمه مرة أخرى .

ذلك أن سانشو لم يقنع بما تم له من الاستيلاء على مملكة ليون ، بل أراد أن ينزع أخاه الصغير غرسية مُلْك جليقية ، وكان سير الحوادث فى جليقية ، مما يعاون على تحقيق غايته . ذلك أن غرسية أساء السيرة ، وبالغ فى إرهاق الشعب بالضرائب ، وانصاع فى ذلك لتوجيه وزيره وصفيه برتولا ، وفوض إليه كل شيء فى الدولة . فسخط الأشراف لذلك ، ودبروا مقتل الوزير الطاغية بحضرة مليكه ذاته ، فاستشاط غرسية غضباً ، واشتد عسفه وكثرت

(١) R. M. Pidal : ibid; p.176&177

(٢) M. Lafuente : ibid; Vol. II. p. 397

مظالمه حتى ضاق به الشعب ذرعاً ، فلماسار سانشو فى قواته إلى جليقية ، ألفى غرسية نفسه فى مأزق حرج ، ولم يستطع أن يحشد سوى قوة صغيرة ، وأبى جيرانه المسلمون معاونته . والتقى بجيشه الصغير مع أخيه قرب شنترين ، فهزم هزيمة شديدة ، وقتل معظم أصحابه ، ووقع أسيراً فى يد أخيه ، ولم يفرج عنه إلا بعد أن أقسم بالخضوع والطاعة ، وعندئذ سار فى نفر من صحبه إلى إشبيلية ، والتجأ إلى أميرها ( أواخر سنة ١٠٧١ م ) .

ولم يبق بعد ذلك خارجاً عن سلطان سانشو ، سوى مدينتى سمورة ، وتورو اللتين تحكمهما أختاه أورّاكا وإلبيرة . وكان سانشو يحقد على أختيه لعطفهما على أخيه ألفونسو ، ويخشى دسائسهما ومساعيهما الخفية ، فعول على الاستيلاء على المدينتين ، وحاول فى البداية أن يحقق غرضه بالمفاوضة ، فعرض على أختيه أن يعوضهما عن المدينتين بأملاك أخرى ، فرفضتا ولم تحفلا بوعيده . وعندئذ سار فى قواته ، واستولى أولا على قلعة تورو ، ولم تبد صاحبتها إلبيرة كبير مقاومة ، ولكن أوراكا صممت على الدفاع عن سمورة ، معتمدة فى ذلك على مناعة المدينة ، وعلى معاونة طائفة قليلة من الجند المخلصين ، وعلى رأسهم الفارس الباسل آرياس كونثالث . وحاول سانشو أن يقتحم المدينة أولا ، ولكنها امتنعت عليه ، فضرب حولها الحصار ، واستمر حينا ،وهو يهاجمها من آن لآخر . وفى ذات يوم نفد إلى معسكره فارس،وطلب مقابلته لينبئه عن أحوال المدينة المحصورة . وماكاد الفارس يراه حتى طعنه بحربته وأرداه مضرجاً بدمائه ، وفر إلى المدينة هارباً . ولم تكن هذه الجريمة بعيدة عن تدبير أخته الجريئة أوراكا، وكان ذلك فى ٦ أكتوبر سنة ١٠٧٢ م .

وفى الحال سرى الذعر إلى المعسكر القشتالى ، وانفض عنه الجند الليونيون والجلالقة ، إذكانوا يقاتلون رغماً عنهم، وحمل القشتاليون جثمان مليكهم القتيل ، ودفنوه فى دير « أونيا » ، وهكذا سقط سانشو صريع أطماعه وبغيه ، بعد أن حكم ثمانية أعوام فقط ، وقد سمى بالقوى El Fuerte لجرأته وشجاعته .

واجتمع الأشراف فى برغش ، وأجمعوا على استدعاء ألفونسو ليتولى الحكم مكان أخيه ، بشرط واحد هو أن يقسم بأنه لم يشترك بأى حال فى تدبير مقتل أخيه سانشو ، وبعثوا إليه رسلهم فى طليطلة . وبعثت إليه كذلك أخته

أورّاكا ، رسلها على عجل، بالخبر سراً ، قبل أن يقف عليه المأمون بن ذى النون. وهنا تختلف الرواية ، فيقال إن ألفونسو حينما وقف على النبأ أخفاه عن المأمون، وحاول أن يغادر طليطلة خلسة ، خشية أن يرغمه المأمون على أن يقطع عهوداً ضارة ، ففطن المأمون إلى محاولته وأراد اعتقاله ، ولكنه نجح فى الفرار، وهذه رواية ضعيفة . والحقيقة ، وهى ماتؤيده الروايات الوثيقة ، هو أن ألفونسو أبلغ النبأ فى الحال إلى المأمون ، فأعرب له المأمون عن سروره وغبطته ، وأبدى له استعداده لإمداده بكل ما يرغب من مال وخيل أو غيرها ، ولم يطلب إليه سوى صداقته ، وأن يقطع له عهداً بأن يحترم مملكته ، وأن يعاونه ضد خصومه المسلمين ، وأن يسرى هذا العهد بعد وفاته بالنسبة لولده الأكبر ، فقطع له ألفونسو ما شاء من عهود ، وقدم المأمون إليه طائفة من الهدايا الجليلة ، وصحبه مع أكابر مملكته فى موكب فخم حتى وصل إلى حدود بلاده(١) .

يقول المؤرخ لافونتى : « وكان للمأمون ولد آخر أصغر من أخيه لم يشمله هذا العهد ، لسبب لانعرفه » . ثم يعلق فيما بعد على تصرف المأمون نحو ضيفه بقوله : « إن ما أغدقه المأمون على ألفونسو من ضروب الرعاية والإكرام وقت محنته ، يباين كل التباين تصرف أخيه سانشو نحوه ، فهذا يسجن أخاه فى حصن أو دير . وهذا الأمير المسلم ، يتلقاه فى قصره ، ويعامله كولده ، ويخصص بستانه لرياضته . ولما خلا عرش قشتالة بممالكه الثلاث ، عاون ألفونسو بكل سخاء وإكرام ، ليسير إلى تلقى العروش التى كانت فى انتظاره ، ولم يطالب منه لقاء ذلك شيئاً سوى صداقته . إن تصرف المأمون على هذا النحو يكشف لنا عن العواطف الكريمة التى يجيش بها هذا الجنس العربى »(٢) .

— ٢ —

سار ألفونسو إلى سمورة حيث اجتمع بأخته أورّاكا ، وبمن وافاه هنالك من الأساقفة والأشراف من ليون وجليقية ، وبحث الوسائل التى تكفل له اعتلاء عرش قشتالة دون صعوبة . ذلك أن معظم الأشراف وأغلبية الشعب ، كانت تنسب مقتل سانشو جهاراً إلى أورّاكا ، ناصحة ألفونسو ، وملهمته . ومن ثم فإنه

(١) راجع : M. Lafuente : ibid; Vol. II. p. 398—400
وكذلك : R. M. Pidal : ibid; p. 189 & 190
(٢) M. Lafuente : ibid ; Vol. II. p. 438

لما وصل ألفونسو إلى برغش ، واجتمع بأشراف المملكة وكبرائها ، طلبوا إليه أن يقسم بأنه لم يشترك بأية صورة فى تدبير مقتل أخيه سانشو . فنزل ألفونسو عند رغبتهم . بيد أنه لما انتظم الجمع فى الكنيسة التى تقرر أداء القسم فيها ، لم يجرأ أحد من الأشراف أن يتولى تحليف الملك ، وعندئذ تقدم منه الفارس ردريجو دياث ( السيد فيما بعد ) ، قائد أخيه سانشو ومستشاره ، وتولى تحليفه اليمين بنفسه ، فلما أداها ، عقب ردريجو بقوله ، إنه يطلب إلى الله ، إن كان ألفونسو كاذباً ، أن يسلط عليه خائناً يقتله كذلك الذى اغتال أخيه سانشو . وقد خلفت جرأة « السيد » هذه فى نفس ألفونسو أثراً لايمحى ، ولم يصف قلبه لهذا الفارس فيما بعد قط ، حسبما بينا من قبل فى حياة السيد ، وعلائقه مع مليكه ألفونسو(١) .

وهكذا غدا ألفونسو ملك قشتالة ، كما غدا من قبل ملك ليون وجليقية ( ديسمبر سنة ١٠٧٢م )، وعادت المملكة الإسبانية الكبرى إلى تماسكها ووحدتها كما كانت فى عهد أبيه فرناندو . ولم يمض قليل على ذلك ، حتى عاد أخوه غرسية ملك جليقية السابق من منفاه فى إشبيلية معللا النفس ، بعوده إلى العرش ، فدعاه ألفونسو بإشارة أختهما الماكرة أوراكا ، إلى مقابلته للتفهم ، ولكنه ما كاد يصل إلى مكان اللقاء حتى قبض عليه ، وزج إلى حصن « لونا » ( فبراير سنة ١٠٧٣م ) وهناك أنفق بقية حياته ، سبعة عشر عاماً ، حتى توفى سنة ١٠٩٠ م .

وتحدثنا الرواية النصرانية ، بأن ألفونسو ماكاد يعتلى العرش ، حتى أراد أن يعرب عن عرفانه للمأمون بن ذى النون ، وذلك بأن أعانه فى حربه ضد ابن عباد ، وأمده ببعض قواته ، وسار معه إلى قرطبة وعاث فى أحوازها ، واستطاع المأمون بذلك أن يستولى على قرطبة . وربما كان ألفونسو قد أعان المأمون ببعض قواته فى غاراته على قرطبة ، ولكن المأمون استولى على قرطبة بطريقة أخرى دبرها مبعوثه حكم بن عكاشة ( ١٠٧٥ م ) حسبما فصلنا ذلك فى موضعه ، ولم يشترك القشتاليون فى شىء من تلك الحوادث .

ولم تمض بضعة أشهر على ذلك حتى مرض المأمون وتوفى ، فخلفه فى حكم طليطلة ، حسبما تقول الرواية النصرانية ، ولده هشام القادر ، والظاهر أن هشاماً هذا لم يحكم سوى بضعة أشهر ثم توفى ، أو أنه خلع لشدة ولائه للنصارى ، بيد أن

(١) M. Lafuente : ibid ; Vol. II. p. 404 و R. M. Pidal ; p. 193 & 198

الرواية العربية ، وهى أرجح فى نظرنا ، تقول إن الذى خلف المأمون ، هو حفيده الملقب بالقادر(١)، وهو ما يدل على أن هشاماً توفى قبيل وفاة أبيه المأمون : وعلى أى حال فإن الرواية النصرانية ، تحاول أن تلتمس من ذلك عذراً يقيل ألفونسو من العهد الذى قطعه لحاميه والمحسن إليه ، بأن يصون مملكته وألا يعتدى عليها ، لأن هذا العهد كان قاصراً على المأمون وابنه الأكبر . أما القادر فهو حفيده ، وهو لم يدخل فى ذلك العهد(٢) .

والواقع أن ألفونسو السادس ، لم يعد له شغل شاغل ، مذ توفى المأمون ، سوى غزو طليطلة ، والاستيلاء عليها ، بل إن هذا المشروع ، يرجع حسبما تؤكده لنا ذلك رواية رهبان سياوس ، التى سبق ذكرها ، إلى وقت إقامته بطليطلة ، وانتهازه تلك الفرصة لدراسة خطط المدينة ، ومواقع الضعف فى تحصيناتها ، وطرق مهاجمتها ، وهى إقامة تقول لنا الرواية المذكورة كأنما اختارتها العناية .

ومن ثم فإن ألفونسو لم يتورع عن تنفيذ خطته ، فى غزو مملكة طليطلة وإرهاقها ، فنراه منذ سنة ١٠٧٨ م يحشد العدة والمؤن ، ويغير على أراضى طليطلة ويعيث فيها سفكاً وتخريباً ، وينتسف خضراءها وزروعها ، وقد استمر على هذه الغزوات المخربة فى الأعوام التالية ، واستولى خلال ذلك على مدينة طلبيرة ، ثم استولى على سائر المنطقة الواقعة بين طلبيرة ومجريط .

وفى خلال ذلك كان القادر يعانى فى حكم مملكته صعاباً ، ويسود الاضطراب فى مدينة طليطلة ، وتتوالى فيها الأحداث المزعجة على نحو ما فصلنا من قبل فى أخبار مملكة طليطلة . ولما شعر القادر بأنه عاجز عن أن يواجه سيل هذه الغزوات المخربة ، اضطر أن يلوذ بحماية ألفونسو ، وأن يؤدى له الجزية ، وأن يسلمه عدداً من الحصون القريبة من الحدود . كل ذلك وملك قشتالة مستمر فى إرهاقه بطلب المال والأراضى ، والقادر يواجه داخل طليطلة سخط شعبه وتبرمه . وأخيراً اضطرمت طليطلة بالثورة ، واضطر القادر أن يلوذ بالفرار ، وأن يلتمس غوث ألفونسو وعونه على رده إلى عرشه ، فأجابه ألفونسو إلى ما طلب تمكيناً

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦١ ، وأعمال الأعلام ص ١٧٩ .
(٢) M. Lafuente : ibid ; Vol. II. p. 404

لقبضته منه ، وأمده بقوة من جنده ، وأخضعت المدينة الثائرة ، وجلس القادر على عرشها مرة أخرى ، تحت ظلال الحراب النصرانية ، وذلك فى سنة ٤٧٤ هـ ( ١٠٨١ م ) .

وهنا نضجت خطة ألفونسو فى الاستيلاء على طليطلة ، وأخذ يعد معداته الأخيرة . وكان المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية ؛ لما رأى اشتداد ساعد ألفونسو وغزواته الكاسحة نحو الجنوب ، وخشى أن يتحول نحوه هذا التيار المخرب، وأن ينتزعه ألفونسو ، ما استولى عليه من أراضى طليطلة الجنوبية ، قد عقد معه حلفه المشهور الذى يتعهد فيه بأداء الجزية ، وبأن يترك ألفونسو حراً فى مشروعه ضد طليطلة ، ويتعهد ألفونسو من جانبه بأن يساعده على سائر أعدائه المسلمين ، وهو الحلف الذى زعمت التواريخ النصرانية ، بأن المعتمد قد رأى أن يدعمه بتقديم ابنته « زائدة » زوجاً لألفونسو . وهى قصة أثبتنا بطلانها وسخفها فيما تقدم من أخبار المعتمد .

وشعر ألفونسو بحق أن طليطلة قد أضحت تحت رحمته ، ولم يبق عليه الا أن يتم خطته التمهيدية من تخريب أراضيها وإعدام أقواتها ، وقد استمر على تنفيذ هذه الخطة المدمرة زهاء أربعة أعوام ، مذ عاد القادر إلى عرشه فى سنة ١٠٨١ م ، كل ذلك وملوك الطوائف جميعاً إلا واحداً منهم هوأمير بطليوس الشهم ، يشهدون اقتراب النكبة جامدين ، إما بدافع الأثرة والخوف أو عدم الاهتمام والتخاذل ، حتى حم القضاء ، وسقطت المدينة الأندلسية التالدة فى يد ألفونسو السادس فى فاتحة شهر صفر سنة ٤٧٨ هـ ( ٢٥ مايو ١٠٨٥ م ) . وقد سبق أن تناولنا حوادث سقوط طليطلة وما تلاه ، مفصلة فى أخبار مملكة بنى ذى النون ، فلا حاجة بنا إلى التكرار ، وإنما نود فقط أن ننوه هنا بالطابع الصليبى لحصار طليطلة وافتتاحها ، فقد اشترك فيه إلى جانب جنود قشتالة وليون ، جند من أراجون ، ومتطوعون ومغامرون من فرنسا وغيرها ، قدموا للاشتراك فى مشروع يهم النصرانية كلها .

وقد عادت طليطلة منذ افتتاحها عاصمة لإسبانيا النصرانية ، كما كانت أيام القوط ، وردت إليها صفتها القديمة كمركز رئيسى للكنسية الإسبانية، وهى ماتزال تحتفظ حتى يومنا بهذه الصفة ، وعين لرياستها الأسقف برنار الفرنسى ، عميد دير

ساهاجون ، وذلك بنفوذ الملكة كونستانس ، وهى فرنسية بورجونية الأصل . وكان لتعيين هذا الراهب لرياسة الكنيسة الإسبانية ، تأثير شديد فى تطور طقوسها وتقاليدها .

وكان من أول الأعمال التى دلت على بغيه وتعصبه ، اعتداؤه على مسجد طليطلة الجامع . وكان من عهود التسليم التى قطعها ألفونسو على نفسه ، أن يحتفظ المسلمون بمسجدهم الجامع لأداء شعائرهم إلى الأبد . بيد أنه ما كاد يمضى شهران على التسليم ، حتى دبر هذا القس بتحريض الملكة كونستانس المتعصبة مؤامرته لإزالة الجامع . وكان رجال الدين من النصارى يغصون بالأخص بعظمة الجامع وروعته ، هذا بينما كانت كنائس المدينة كلها صغيرة متواضعة . وعبثاً حاول الكونت ششنندو حاكم المدينة أن يثنى القس عن غيه ، وأن يبين له سوء العاقبة فى مخالفة العهود المقطوعة على هذا النحو . وانتهز برنار فرصة غياب الملك فى ليون ، واقتحم الجامع فى جمع من الفرسان وحطم المحراب ، وأمر بإقامة الهياكل . وفى اليوم التالى عقد بالجامع قداساً حافلا ، فهاج المسلمون وماجوا ، ولولا وجود حامية قشتالية كبيرة بالمدينة لاستحال هياجهم إلى ثورة مدمرة . وعلم الملك بذلك الحادث ، فارتد من ليون على عجل ، وهو يضطرم غيظاً وسخطاً ، إذ كان من سياسته أن يحترم العهود المقطوعة ولو إلى حين ، تفادياً من سخط المسلمين ، واضطرام القلاقل . وتظاهر الملك بأنه سوف يعاقب القس والملكة بالحرق ، وعندئذ تدخل المسلمون والتمسوا إليه العفو عنهما ، ولعلهم كانوا يأملون بذلك أن يستردوا جامعهم . ولكن هذا الأمل الخلاب لم يتحقق ، واستمر العمل فى تحويل الجامع إلى كنيسة جامعة . وفى يوم الأحد ١٨ ديسمبر سنة ١٠٨٥ (١٥ شعبان سنة ٤٧٨ هـ) دشنت الكنيسة الجديدة فى حفل ضخم شهده الملك والأشراف ورجال الدين ، وانتخب فيه برنار مطراناً(١) .

---

(١) ورد تاريخ تحويل جامع طليطلة إلى كنيسة فى أوراق مخطوطة لم تنشر من كتاب البيان المغرب لابن عذارى ، عثر بها الأستاذ ليڤى بروفنسال ونقله العلامة الأستاذ بيدال فى كتابه La Espana del Cid (ص ٣٠٧ و ٣٠٨) . وقد تناول ابن بسام حادث تحويل الجامع إلى كنيسة فى عبارته المسجعة (الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ١٣١ و ١٣٢) ، ولكنه وهم فى تاريخ الحادث فجعله فى ربيع الأول سنة ٤٩٨ — ١١٠٤ م ، وربما كان ذلك راجعاً إلى تحريف فى المخطوط إذ وضعت عبارة سنة «ثمان وتسعين وأربعمائة» وهى فى الحقيقة «ثمان وسبعين» .

— ٣ —

كان الاستيلاء على طليطلة بلا مراء أعظم أعمال ألفونسو السادس ، بل كان أعظم عمل قام به ملك نصرانى ، مذ قامت المملكة الإسبانية النصرانية فى شبه الجزيرة فى أواخر القرن الثامن الميلادى .

وقد كان لسقوط طليطلة أعمق الآثار فى ميزان القوى فى شبه الجزيرة ، وبه توج تفوق اسبانيا النصرانية السياسى والعسكرى ، واتخذ ملك قشتالة على أثره لقب الإمبراطور ، ودخلت سياسة الإسترداد Reconquista فى طور جديد يبدأ من الناحية الأخرى من نهر التاجُه . بيد أنه كان من آثاره أيضاً أن استيقظت اسبانيا المسلمة من سباتها ، وأدرك ملوك الطوائف ، حقيقة موقفهم ، وعاقبة بغيهم واستهتارهم ، وخطورة تنابذهم وتفرقهم ، وشعروا بخطر الفناء يهدد مصايرهم جميعاً ، وجنحوا عندئذ إلى الاستعانة بإخوانهم فيما وراء البحر ، وكان أن استجاب أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى صريخهم ، وعبر إلى شبه الجزيرة فى جيوشه المرابطية . وفى ذلك الوقت بالذات كان ألفونسو ، عقب استيلائه على طليطلة ، قد سار إلى سرقسطة وحاصرها ، ليرغم أميرها المستعين بن هود على دفع الجزية ، فلما سمع بمقدم المرابطين ، غادرها مسرعاً إلى الأندلس ليلقى أعداءه الجدد . ثم كانت موقعة الزلاّقة ( رجب ٤٧٩ هـ — أكتوبر سنة ١٠٨٦ م ) وإحراز الجيوش الإسلامية المتحدة لنصرها الباهر على الجيوش النصرانية المتحدة ، وسحق قوات ألفونسو السادس ، وانسحابه فى فلوله القليلة مهيضاً مغلوباً ، وذلك كله حسبما فصلناه فى مواضعه بإفاضة .

بيد أن يوسف اضطر عقب الموقعة أن يغادر الأندلس إلى المغرب لوفاة ولده وخلفه الأمير سير . وتنفس ألفونسو الصعداء حيناً ، وأخذ يجمع أشتات جيشه من جديد ، ووفد عليه عندئذ سيل من المتطوعة النصارى النورمان والفرنسيين وغيرهم ، شعوراً منهم بطابع المعركة الصليبي ، ولم يمض سوى قليل ، حتى استرد ألفونسو ثقته بنفسه ، وشعر أنه يستطيع لقاء أعدائه فى الميدان من جديد ، وكان ابن عباد وغيره من أمراء الطوائف قد انتعشوا عقب نصر الزلاقة ، وأغار المعتمد بقواته على أراضى طليطلة ، وانتزع منها عدة أماكن . بيد أن أمراء الطوائف لبثوا مع ذلك على تنابذهم وتفرقهم ، يتربص كل بأخيه ،

ولم يستطيعوا أن يؤلفوا من أنفسهم جبهة متحدة ضد النصارى . ومن ثم فقد استمر السيد إلكمبيادور فى عيثه ومغامراته فى منطقة بلنسية . واستمر القشتاليون من قاعدتهم المنيعة فى حصن لييط (أليدو) الواقع بين مرسية ولورقة، وهو الذى ابتنوه قبل ذلك ببضعة أعوام، يرهقون هذه المنطقة بغاراتهم المتوالية . وعلى ذلك فقد استصرخ أمراء الطوائف ، أمير المسلمين للعبور إليهم وإنجادهم مرة أخرى . وعبر أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى الأندلس للمرة الثانية فى سنة ٤٨١ هـ ( ١٠٨٩ م ) ، وانضم إليه ابن عباد صاحب إشبيلية ، والمعتصم صاحب المرية ، وتميم بن بلقين ، صاحب مالقة ، وأخوه عبد الله صاحب غرناطة ، وابن رشيق صاحب مرسية ، كل فى قواته ، وهم الذى تقع أملاكهم جميعاً فى شرق الأندلس[١] وتعرض لعدوان القشتاليين فى تلك المنطقة . وضرب المسلمون الحصار حول حصن لييط ، وكان يدافع عنه ألف فارس واثنا عشر ألف راجل من النصارى ، ولكن الحصن كان فى منتهى المناعة ، فلم تنجح آلات الحصار الضخمة فى هدمه أو ثلم أسواره ، وطال الحصار زهاء أربعة أشهر ، والقوات المحاصرة تحاول اقتحامه ، كل جماعة بدورها ، والنصارى صامدون ، يتساقطون داخل حصنهم من الجوع والإعياء . وفى أثناء ذلك كان الخلاف والوقيعة على أشدهما بين أمراء الأندلس المشاركين فى الحصار ، ولاسيما بين ابن عباد وابن رشيق ، فقد شكا ابن عباد ، ابن رشيق لأمير المسلمين ، واتهمه باغتصاب ولاية مرسية منه ، وأنه تفاهم سراً مع ألفونسو ، ودفع جبايتها إليه . واقتنع أمير المسلمين بوجاهة هذه الشكوى ، واستفتى الفقهاء فى أمر ابن رشيق ، فأفتوا بإدانته ، فأمر بتسليمه لابن عباد على شرط أن يبقى على حياته . وكان لهذا الحادث أسوأ الأثر فى المعسكر المحاصر ، فإن قادة مرسية ، ومعظمهم من قرابة ابن رشيق وصحبه ، غادروا المحلة فى جندهم غاضبين ، وقطعوا المؤن التى كانت ترسل إلى المحاصرين من مرسية وأحوازها ، فاختل أمر المعسكر ، وعمه الضيق والغلاء . وعلم أمير المسلمين من جهة أخرى أن ملك قشتالة ، يسير فى قوة كبيرة لإنجاد حصن لييط ، فآثر الانسحاب وعدم التعرض للقشتاليين . وقدم ألفونسو إلى الحصن ، فلم يجد به من المدافعين سوى مائة فارس وألف راجل قد برح بهم الجوع ، ولما رأى

---

(١) يلاحظ أن المعتمد ابن عباد كان يدعى حق السيادة على مدينة مرسية منذ افتتحها ابن عمار وابن رشيق باسمه وبمعاونة جنده .

أنه لا فائدة من الاحتفاظ به ، وأنه يقتضي لذلك حامية كبيرة ، أخلاه وقوض أسواره وعاد أدراجه ، وذلك فى سنة ١٠٨٩م ( ٤٨٢ هـ ) . وترك أمير المسلمين فى شرق الأندلس قوة كبيرة ، بقيادة ولده الأمير ابن عائشة ، ليقوم بافتتاح مرسية وبلنسية ، والقضاء على سلطان « السيد » فى تلك المنطقة ، وعاد إلى المغرب ، وقد تغيرت نفسه على أمراء الأندلس ، لما رآه من اختلال أحوالهم ، وسوء تصرفاتهم ، ووضيع أهوائهم وأطماعهم[1] .

وخاض ألفونسو بعد ذلك ضد المسلمين عدة وقائع أخرى ، ففكر فى الاستيلاء على بلنسية لكى يحرم « السيد » من الاستيلاء عليها ، وسار إليها بالفعل وحاصرها فى سنة ١٠٩٢ م ( ٤٨٥ هـ ) ، معتمداً فى ذلك على معاونة سفن چنوة وبيزة اللتين عقد معهما حلفاً لهذا الغرض ، ولكنه فشل فى مشروعه ، وأرغم على ترك الحصار حينما عاث السيد فى أراضى قشتالة . ثم استولى السيد بعد ذلك على بلنسية (١٠٩٤م) ، ولم يمض سوى قليل حتى سار المرابطون لإنقاذها وضربوا حولها الحصار ، وسار جيش مرابطى آخر إلى أحواز طليطلة وعاث فيها وهزم القشتاليين ، وسار جيش ثالث إلى قونقة وهزم قوات ألفونسو التى يقودها ألبارهانيس . ففى خلال هذه الوقائع التى رجحت فيها كفة المرابطين على قوات ألفونسو السادس ، توفى « السيد » خلال حصار بلنسية ، واستغاثت زوجه خمينا بألفونسو ، فسار إلى بلنسية ودخلها فى مارس سنة ١١٠٢ ، ولم يعترض المرابطون سبيله استعداداً للموقعة الحاسمة . ولكنه لما رأى ضخامة الجيوش المرابطية ، خشى العاقبة ، وغادر بلنسية مع خمينا وسائر القوات النصرانية ، ودخلها المرابطون فى شهر مايو سنة ١١٠٢ م ( ٤٩٥ هـ ) ، كل ذلك حسبما فصلناه من قبل فى أخبار مملكة بلنسية .

وسار ألفونسو فى قواته إلى مدينة شنترين من أعمال ولاية الغرب واستولى عليها سنة ١٠٩٣ م ( ٤٨٦ هـ ) . وقد وقع ذلك فيما يبدو خلال غزو المرابطين لمملكة بطليوس ، التى كانت شنترين من أعمالها ، ونحن نعرف أن بطليوس سقطت فى أيدى المرابطين فى صفر سنة ٤٨٧ هـ ( مارس ١٠٩٤ م ) .

---

(١) راجع فى حصار حصن لييط ، الحلل الموشية ص ٤٩ و ٥٠ ، وروض القرطاس ص ٩٩ ، وكتاب التبيان للأمير عبد الله ص ١١٠ — ١١٣ ، وأعمال الأعلام ص ٢٤٧ . وراجع أيضاً Dozy : Histoire; V. III. p. 139 &140 ، وكذلك R.M. Pidal : ibid; p. 364, 365 &409

وكانت آخر معركة هامة خاضها ألفونسو السادس مع المسلمين هى موقعة إقليش ، وكان أمير المسلمين يوسف بن تاشفين قد توفى يومئذ ( سنة ٥٠٠ هـ ) وخلفه ولده على . وقد عبر على عقب توليته إلى شبه الجزيرة الإسبانية فى أوائل سنة ١١٠٨ م ( ٥٠١ هـ ) معتزماً أن يستأنف الجهاد ضد النصارى ، وعهد بالقيادة إلى أخيه الأكبر تميم أبى الطاهر ، فسار الأمير تميم فى جيش ضخم ، واخترق أراضى قشتالة ، ولكن حالت دون تقدمه قلعة إقليش Uclés المنيعة ، فضرب حولها الحصار فى الحال ، فبعث ألفونسو ، وقد عاقته الشيخوخة عن أن يقود جيشه بنفسه ، قواته لإنجادها ، وبعث معها ولده الوحيد سانشو وهو الذى رزق به من « زائدة » حظيته أو زوجه المسلمة المتنصرة ، لكى يثير حماسة الجند ، وكان صبياً فى الحادية عشرة من عمره . ووقعت بين المرابطين وبين القشتاليين أمام حصن إقليش موقعة شديدة ، حدث خلالها أن ازدلف الأمير الصبى إلى قلب المعمعة ، وشاء القدر أن تصيبه طعنة قاتلة ، وقتل معه مؤدبه الكونت غرسية دى قبره مدافعاً عنه ، فدب الخلل إلى الجيش القشتالى وركن إلى الفرار ، وقتل المرابطون منه مقتلة عظيمة ، يقدر من زهق فيها بنحو عشرين ألفاً ( ٢٩ مايو سنة ١١٠٩ م )(١) . وكان نصراً عظيما أعاد ذكريات الزلاّقة ، وكان أشد ما فيها وقعاً فى نفس الملك النصرانى ، فقده لولده الوحيد وولى عهده ، وانقطاع نسله بذلك . والواقع أن ألفونسو لم يعش طويلا بعد هذه الصدمة المؤلمة ، فتوفى فى ٢٩ يونيه سنة ١١٠٩ م ، بعد أن حكم المملكة النصرانية المتحدة سبعة وثلاثين عاماً ، وحوادث المرحلة الأخيرة من حياته أكثر ارتباطاً بتاريخ المرابطين ، ولكننا حرصنا على استعراضها بإيجاز ، استكمالا لسياق الحوادث .

ولابد لنا قبل أن نختم الكلام على عهد ألفونسو السادس ، أن نتحدث عن أعماله وإصلاحاته الداخلية ، وقد شملت هذه الإصلاحات جوانب هامة فى بناء المملكة النصرانية والمجتمع الإسبانى ، وذلك من الناحيتين الدينية والدنيوية .

ففى أواخر القرن الحادى عشر ، وفى عهد ألفونسو السادس بالذات ، توضع الأسس الأولى ، لنفوذ البابوية وسلطانها على اسبانيا والملوكية الإسبانية ، وهو سلطان تأثل بمضى الزمن ، ومازال يحتفظ حتى اليوم بكثير من رسوخه

(١) راجع روض القرطاس ص ١٠٤ . وتاريخ المرابطين والموحدين لأشباخ ص ١١٧ و ١١٨ .

وقوته . وقد توالت بعثات الكرسى الرسولى إلى الملوك الإسبان فى هذا العهد ، تسعى إلى فرض سيادته الروحية ، وإلى إلغاء الطقوس القوطية المنسوبة للقديس إسيدورو واستبدالها بالطقوس الرومانية . وبذل دير ساهاجون البندكتى ، ورئيسه الراهب برنار الفرنسى عندئذ ، أعظم الجهود لتحقيق أغراض البابوية . وقد سبق أن أشرنا إلى الدور الذى قامت به الملكة كونستانس زوجة ألفونسو الأولى ، وهى فرنسية من بيت برجونية ، فى تأييد الراهب برنار واختياره مطراناً للكنيسة الإسبانية ، عقب افتتاح طليطلة . وحصل برنار بعد ذلك على مرسوم بابوى بتعيينه فى ذلك المنصب الخطير ، ووضع فى معظم الأسقفيات رجالا من مواطنيه ، وملأ دير ساهاجون بالرهبان الفرنسيين، وذلك رغم مناوأة الأحبار الإسبان وسخطهم . وهكذا استطاعت البابوية أن تفرض رياستها الروحية على اسبانيا ، وبالرغم من أن الفونسو ، كان يعارض كثيراً من الرغبات البابوية ، فإنه كان يجل الكرسى الرسولى ويوليه أعظم مقام .

وفى عهد ألفونسو أيضاً وقعت حوادث الحرب الصليبية الأولى بالمشرق ، ولكن البابا أوربان الثانى أصدر مرسوماً يحرم على الإسبان أن يشتركوا فى هذه الحرب الصليبية ، لأن أعداء النصرانية ، أعنى المسلمين ، يهددونهم داخل أرضهم ، ولأن لديهم فى شبه الجزيرة وقوداً كافياً لإضرام نار الحرب المقدسة ، وكانت ظروف الحرب المستمرة بين النصارى والمسلمين ، قد حملت رجال الدين أنفسهم على أن ينزلوا هذا الميدان ، فكان شأنهم شأن الأشراف والكونتات يسيرون فى معظم الأحيان مع الملك ، ويقاتلون فى الصفوف ، بل ويقودون الحملات أحياناً .

وقد كان الملك وراثياً فى قشتالة فقط . أما فى باقى الممالك النصرانية ، فكان المفروض أن يختار الأشراف مليكهم ، وكان الملك فى سائر الممالك الإسبانية ، يجمع بين سلطات الحرب والسلم ، وقيادة الجيوش ، ورياسة القضاء ، يعاونه فى ذلك رهط من رجال الخاص Palatini ، وكانت أسماء المناصب معظمها مشتق من النظم القوطية .

وكان نظام الإقطاع ما يزال عندئذ متغلغلا فى تكوين المجتمع الإسبانى ، ويقوم على مراتب متعددة ، أرفعها مرتبة الدوق أو الوالى ، وهو الذى يُقطع

ولاية بأسرها مثل جليقية أو أشتورية . وتليها مرتبة الكونت أو القومس ، وهو الذى يُقطع منطقة معينة ، ثم أصحاب المنح الصغيرة ، وهم البارونات أتباع القومس. وكان هذا النظام عسكرياً ، فى جوهره ، تقترن مراتبه المدنية بالرتب العسكرية ، فالدوق يتولى قيادة جيش الولاية ، ويقود القومس فرقته ، وتتكون من البارونات فرق الفرسان ، والفارس هو أدنى مراتب النبل ، بيد أن الفرسان كانوا قوام الجيش ، وعليهم تتوقف مصاير الحرب ، وكان الجند المشاة يتكونون من أتباع البارونات ، ومن حشم الدوقات والقوامس .

وكان العرش يخوض معارك دائمة مع أولئك النبلاء الإقطاعيين ، وكان يضطر فى أحيان كثيرة إلى مهادنتهم والإذعان لمطالبهم ، فكانوا بذلك يفوزون بالولايات والرياسات رغم إرادة العرش .

وإلى جانب ذلك كان يقوم هيكل الإقطاع الزراعى على نفس الأسلوب المتدرج ، فيقطع كبار الملاك المزارعين الأحرار ، أجزاء من الأرض يزرعونها. على أن يؤدوا للمالك نصف الدخل أوثلثه على الأقل ، ولم تكن هذه المنح الزراعية تحدد بوقت معين ، بل كان الزارع يعتبر نفسه مالكاً للأرض ، ثم تؤول من بعد وفاته إلى أولاده يزرعونها بنفس الطريقة ، بيد أنه كان ملزماً بالإقامة فيها ، فاذا غادرها إلى ناحية أخرى فقد الحق فى استغلالها .

وكان عدد الأرقاء فى ذلك العصر ، الذى كثرت فيه الحروب ، وكثر فيه السبي والأسر كبيراً ، وكانت هذه الجماهير الغفيرة من المسلمين الذين يؤسرون فى الغارات أو الحروب المختلفة التى تشنها الجيوش النصرانية على الممالك الأندلسية ، يقضى عليهم دائماً بالرق ، ويلزمون بأشق الأعمال الزراعية وغيرها ، ولا يمنحون الحرية إلا باعتناق النصرانية .

وأما عن التشريع ، فقد نظم ألفونسو السادس العدالة ، وألغى حق « القوة » وهو العرف الذى كان يسمح للقوى بأن يقتضى بنفسه وبالعنف ما يزعم أنه حق له وفرض على الدوقات والقوامس ، أن يعاقبوا مرتكبي الجرائم ، فوضع بذلك حداً لجرائم الفرسان الناهبين ، وعيث القتلة واللصوص فى سائر أنحاء المملكة .

وكان يشترك فى وضع القوانين عظماء المملكة وأكابر رجال الدين والأشراف ، وتعقد اجتماعاتهم عندئذ فى صفة هيئة تشريعية أو برلمان « كورتيس » Cortes ،

تحت رياسة الملك ، وكان القانون العام المطبق فى ذلك العصر هو القانون القوطى (قانون ألاريك) معدلا بما صدر من تشريعات جديدة كانت تعرف « بالقوانين الطيبة » Buenos Fueros . وكان من المقرر أن كل إنسان حر فى أن يدافع عن نفسه أمام القضاء ، وله أن يختار محامياً أو وكيلا للدفاع عنه . أما اليهود فلم يكن لهم حق الدفاع عن أنفسهم بأنفسهم ، وفقاً لقانون أصدره ألفونسو . وأخيراً فقد كان الميراث يجرى أيضاً وفقاً للقانون القوطى ، وهو يسوى فى الحقوق بين البنين والبنات .

وكانت وراثة العرش أهم مشكلة واجهت ألفونسو قبل موته ، فهو لم ينجب من زوجاته المتواليات من البنين سوى ولده سانشو ، ولد زوجته أوحظيته زائدة المسلمة التى تنصرت باسم ماريا أو اليزابيث ، والتى أتينا على قصتها فيما تقدم من أخبار بنى عباد ، وقد قتل هذا الإبن حسبما أسلفنا فى موقعة إقليش ، فعندئذ اعتزم ألفونسو أن يسند وراثة عرشه إلى ابنته أورّاكا ، التى كان قد رزق بها من زوجته الملكة كونستانس الفرنسية ، وزوجت بالكونت ريموند البرجونى عند مقدمه إلى اسبانيا . ثم توفى وترك لها ولداً، هو ألفونسو ريمونديس . ولكنه رأى أن يقوى جانب العرش ، ووحدة المملكة ، بتزويجها من ألفونسو الأول ملك أراجون وناڤار ، فاستدعى نواب المملكة (الكورتيس) إلى الاجتماع فى ليون ، ومثل فيه الأشراف والأساقفة وحكام الولايات ورجال الدين والفرسان ، وأصدر قراراته بشأن وراثة العرش ، وخلاصتها أن تكون أوراكا وارثة لعرش قشتالة وليون وأشتوريش ، وأن يمنح ولدها ألفونسو ريمونديس مملكة جليقية ، مع بقائها تحت سلطان قشتالة ، وأن يمنح الكونت هنرى صهر ألفونسو إمارة البرتغال كتابع لعرش قشتالة ، فاذا لم تعقب أوراكا من زواجها بألفونسو ملك أراجون ، فإن المملكة كلها تؤول إلى ولدها ألفونسو ريمونديس أعنى إلى حفيد ألفونسو السادس . وعهد بتربية الطفل الملكى إلى عمه أسقف ڤين ، والكونت ترافا ، ومنح إمارة جليقية ، تحت وصايتهما ، على أن تكون له دون نقض أو رجوع .

(١) رجعنا فى تلخيص أعمال ألفونسو وإصلاحاته الداخلية إلى « تاريخ المرابطين والموحدين » لأشباخ (ص ١٢٠ – ١٢٥) .

## نافار وأراجـــون

رأينا فى بداية هذا الفصل كيف هلك غرسية ملك نافار فى موقعة أتابوركا التى نشبت بينه وبين أخيه فرناندو (سنة ١٠٥٤ م)، وكيف اختار فرناندو مع ذلك سانشو ولد أخيه الملك القتيل ليخلفه على عرش نافار ، على أن يكون تحت طاعته .

وكان يحكم أراجون فى ذلك الوقت ، الملك راميرو بن سانشو الكبير ، وكان فى بداية حكمه قد حاول غزو مملكة نافار وانتزاعها من يد أخيه غرسيه ، ولكنه هزم كما رأينا ، ومزق جيشه ، واضطر أن يلجأ إلى السكينة حيناً ليعنى بتنظيم شئونه والنهوض من عثاره . ولما قتل أخوه غرسية ، وتولى ولده سانشو الحكم مكانه ، لبث محافظاً على حياده وسكينته نحو جارته نافار ، ولكنه وجه عدوانه نحو مملكة سرقسطة ، وحاول غزوها ، فاستنصر أميرها المقتدر بن هود ، بفرناندو ملك قشتالة ، فأمده ببعض قواته ، ونشبت بين الفريقين فى جرادوس معركة هزم فيها راميرو وقتل (١٠٦٣ م) .

فخلفه على عرش أراجون ولده سانشو ، المعروف بسانشو راميرز . ولما توفى فرناندو ملك قشتالة حاول ولده سانشو أن يستولى على مملكة نافار ، وكان سانشو ملك نافار ، شعوراً منه بأطماع ملك قشتالة ، قد عقد حلفاً مع جاره سانشو راميرز ، فلما سار سانشو لمحاربتهما ، استطاعا أن يقفا فى وجهه ، وأن يهزماه فى موقعة ڤيانا (١٠٦٧ م) .

واستمر سانشو ملكاً على نافار اثنين وعشرين عاماً ، وفى عهده توطد مركز نافار بين جيرانها ، وأقر المقتدر بن هود صاحب سرقسطة لها بدفع الجزية فى سنة ١٠٦٩ م ، وعقد مع سانشو حلفاً لمعاونته فى حربه ضد خصومه سواء من المسلمين أو النصارى . وجدد هذا التحالف فى سنة ١٠٧٣ م . ولم يمض قليل على ذلك حتى قتل سانشو فى كمين دبره أخوه ريموند وأخته أرمزندة ، وذلك فى سنة ١٠٧٦ م ، فسخط الشعب النافارى لتلك الجريمة أيما سخط ، واستدعى سانشو راميرز ليعتلى عرش نافار . ولكن ريموند استغاث بألفونسو ملك قشتالة ، فسار إلى نافار من ناحيتها الغربية ، وسار إليها سانشو را ميرز من ناحيتها الشرقية ، وتفاهم الملكان على اقتسامها ، بالرغم من وجود ولدى الملك القتيل القاصرين .

فاستولى سانشو على الجزء الواقع فى منطقة البرنيه ، وفيه العاصمة بنبلونة ، واستولى ألفونسو على القسم المحاذى لنهرإيبرو ، وبذلك اختفت مملكة نافار المستقلة إلى حين ، بعد أن استطاعت أن تذود عن استقلالها عصوراً بإصرار وبسالة ، ونمت مملكة أراجون ، واتسعت رقعتها اتساعاً كبيراً ، وبدأت تلعب دورها العظيم فى شمال شرقى الجزيرة الإسبانية .

واتجهت أطماع سانشو راميرز بالأخص إلى جارته الإسلامية الجنوبية ، أعنى مملكة سرقسطة ، فقام بمحاصرة مونتشون وأخذها فى سنة ١٠٨٩ م ، ثم سار لحصار وشقة أمنع قواعد مملكة سرقسطة الشمالية وحاصرها ، ولكنه توفى بعد قليل تحت أسوارها ، فتابع ولده وخلفه پيدرو الأول الحصار ، واستغاث المستعين بملك قشتالة فأمده ببعض قواته ، وسار لإنجاد المدينة المحصورة ، ووقعت بينه وبين پيدرو معركة شديدة فى الكرازة ، فهزم المستعين وحلفاؤه القشتاليون هزيمة شديدة ، وسقطت وشقة بعد ذلك بأيام قلائل فى نوفمبر سنة ١٠٩٦ م ( ٤٨٩ هـ ) حسبما فصلنا ذلك من قبل فى موضعه من أخبار مملكة سرقسطة .

وفى العام التالى سار پيدرو فى قواته لمعاونة حليفه السيد إلكمبيادور ضد المرابطين ، ووقعت الهزيمة على المرابطين فى« مندير» قرب بلنسية .

واستمر پيدرو الأول على عرش أرجون حتى وفاته سنة ١١٠٥ م ، وكان ملكاً شجاعاً مقداماً ، وهو الذى مهد بافتتاحه لوشقة وبربشتر إلى القضاء على مملكة سرقسطة ، وسقوطها فيما بعد فى يد أخيه وخلفه ألفونسو ، وكان ورعاً متعصباً ، لايكاد يفتح مدينة إسلامية ، حتى يحول فى الحال مساجدها إلى كنائس ، ويغدق الصلات الوفيرة على الكنائس والأديار . ولما كان ولده الوحيد قد توفى قبل وفاته ، فقد خلفه على عرش أراجون أخوه ألفونسو الأول الأرجونى المعروف بالحارب ، وهو الذى قدر له ، فيما بعد بزواجه من أورّاكا أبنة ألفونسو السادس ملك قشتالة ، أن يحكم سائر الممالك الإسبانية ، وأن يغدو من أعظم ملوك اسبانيا .

## إمارة برشـــلونة

إلى جانب الممالك الإسبانية النصرانية ، التى تقوم فى النصف الشمالى من شبه الجزيرة الإسبانية ، كانت تقوم فى الركن الشمالى الشرقى مما يلى جبال البرنيه ،

إمارة نصرانية أخرى ، هى إمارة أوكونتية برشاونة . ونحن نعرف أن برشلونة كانت أول ثغر عظيم يفقده المسلمون فى شمالى شبه الجزيرة ، وقد افتتحها شارلمان (كارل الأكبر) فى سنة ١٩٥ هـ (٨٠١ م) أيام الحكم بن هشام ، وجعلها قاعدة الثغر القوطى أو الثغر الإسبانى ، الذى أنشأه فيما وراء البرنيه ، حماية لحدود فرنسا الجنوبية . وكان ملوك الفرنج يعينون حكام هذا الثغر فى البداية من الأشراف أو الكونتات الذى ينتمون إلى أصل قوطى أو فرنجى . ولما ضعفت مملكة الفرنج وتخلت عن حماية الثغر وإمداده ، وشعر أولئك الكونتات بقوتهم ، ونأيهم عن الحكومة المركزية ، أعلنوا استقلالهم ، وانقسم الثغر إلى عدة إمارات أوكونتيات صغيرة كان أهمها إمارة برشلونة. وكان يحكمها فى أواخر القرن العاشر آل بوريل، وفى عهدهم غزاها المنصور بن أبى عامر، واقتحمها وخربها ، وذلك فى سنة ٣٧٥هـ (٩٨٥ م)، ولكنه لم يحاول الاحتفاظ بها . ولما سقطت الدولة العامرية واضطرمت الفتنة فى قرطبة ، سعى واضح الصقلبى فى الاستعانة بأمير برشلونة الكونت رامون بوريل ، وزميله كونت أرقلة، فسار معه لمقاتلة البربر لقاء أموال جزيلة، واشترك إلى جانب المهدى محمد بن هشام فى المعارك التى وقعت يومئذ (٤٠٠هـ — ١٠١٠م) . ومنذ أوائل القرن الحادى عشر نرى برشلونة تحت حكم آل برنجير ، وقد حكمها مؤسس هذه الأسرة الكونت رامون برنجير الكبير من سنة ١٠٣٥ إلى سنة ١٠٧٦ م ، وفى عهده اتسعت رقعة الإمارة ، وضمت إليها أرقلة وشرطانية(١) ، ثم ضم إليها ولاية قرقشونة الفرنجية ، فى الناحية الأخرى من جبال البرنيه، وذلك بشرائها من ابنتى صاحبها الكونت روجر الثالث . وكان لضم هذا الجزء من أراضى لانجدوك إلى إمارة برشلونة نتيجة هامة ، هى إعادة الصلة بين الثغر القوطى القديم ، وجنوبى فرنسا ، والتمهيد بذلك لنزوح الفرسان الفرنج المغامرين ، الذين تحدوهم روح صليبية ، ويحدوهم البحث وراء طالعهم ، والتحاق جموع كبيرة منهم بالجيوش النصرانية التى تقاتل المسلمين فى شبه الجزيرة .

وكان من أهم أعمال الكونت برنجير الأول ، هى إصلاحاته القضائية ، فقد استدعى فى سنة ١٠٦٨ م جمعية من الكبراء فى برشلونة ، وأصدر هذا البرلمان قانوناً جديداً سمى « بعرف برشلونة » Usages de Barcelona ليطبق إلى جانب القانون القوطى القديم .

(١) أرقلة هى بالإسبانية Urgel ، وشرطانية هى : Cerdana

ولما توفى رامون برنجير الأول خلفه ولداه برنجير ورامون فى حكم الإماره معاً وفقاً لوصيته . ولكن الخلاف ما لبث أن نشب بينهما ، وانتهى الأمر بالاتفاق على أن يتسمى كل منهما بكونت برشلونة، وأن يتناوبا الحكم كل ستة أشهر : وفى سنة ١٠٨٢ م ، قتل رامون غيلة ، واتجهت الشبهة فى ذلك إلى أخيه . وقام برنجير بحكم الإمارة منفرداً بالأصالة عن نفسه ، وبصفته وصياً على ولد أخيه القاصر رامون الثالث .

وكان بنو هود أمراء سرقسطة ، وهم جيران إمارة برشلونة ، يعتقدون فى مقدرة الفرسان القطلان أبناء هذه الولاية ، ويحصلون على معاونة آل برنجير من آن لآخر . وقد لعب أمراء برشلونة فى ذلك الوقت الدور الذى لعبه معظم الملوك النصارى ، فى معاونة الأمراء المسلمين ، سواء ضد أبناء دينهم المسلمين أوضد النصارى أنفسهم . وقد أشرنا إلى ما وقع من ذلك فى كثير من المواطن فى أخبار مملكة سرقسطة ومملكة بلنسية. وكان أبرز دور قام به آل برنجير فى ذلك هو استعانة المستعين بن هود بالكونت برنجير فى مشروعه لافتتاح بلنسية. وكان الكونت يضطرم بغضاً نحو « السيد » ومشاريعه . فسار فى قواته لمحاصرة بلنسية ، ولبث على حصارها وقتاً ، حتى اقترب « السيد » بقواته من المدينة ، وتبادل السيد والكونت بعض رسائل التحدى المهينة ، وأخيراً وقعت الحرب بينهما ، فهزم الكونت وأسر ، ولم يطلقه السيد إلا لقاء فدية كبيرة ، ثم وقع التفاهم بينهما ، وترك الكونت حصار المدينة وعاد بقواته ( ١٠٩٠ م ) .

ومما هو جدير بالذكر أن الكونت برنجير ، اشترك قبل ذلك بقليل مع قوات ألفونسو السادس ، فى موقعة الزلاقة ( ١٠٨٦ م ) إلى جانب باقى الملوك النصارى ، إيماناً منهم جميعاً ، بأنهم يقاتلون فى معركة صليبية عامة .

واستمر الكونت برنجير فى حكم إمارة قطلونية حتى سنة ١٠٩٢ م ، ثم ترك الحكم لابن أخيه الفتى رامون برنجير الثالث ، وسافر حاجاً إلى المشرق ، فحكم رامون الإمارة بكفاية ، وقاوم غزوات المرابطين فيما بعد بنجاح .

# الفصل الثالث

## النصارى المعاهـــــدون

النصارى المعاهدون . مركزهم وأحوالهم فى ظل الحكومة الإسلامية . أحوالهم فى ظل الطوائف . مصانعة أمراء الطوائف لهم . تمتعهم بالتسامح فى شرق الأندلس . أحوالهم فى مملكة سرقسطة . عدم ولائهم للحكومات المسلمة . مداخلتهم للملوك النصارى ومعاونتهم ضد المسلمين . صدى هذا الموقف فى دول الطوائف . استدعاؤهم ألفونسو الأرجونى لغزو الأندلس . قيامه بالغزوة المنشودة . فتوى الفقهاء بخيانة المعاهدين ووجوب تغريبهم . ظهور مجتمع المدجنين فى القواعد الإسلامية المفتوحة .

يجدر بنا بعد أن تحدثنا من تاريخ الممالك الإسبانية النصرانية ، أن نعرض فى شىء من التفصيل إلى موقف النصارى المعاهدين وأحوالهم فى عصر الطوائف، وهو العصر الذى سرى فيه الانحلال السياسى والعسكرى إلى اسبانيا المسلمة ، ومزقتها الحروب الأهلية، وتطاولت عليها الممالك الإسبانية النصرانية . ونحن نعرف أن النصارى المعاهدين، كانوا منذ عهد الإمارة يكونون أقليات ذات شأن فى القواعد الأندلسية الكبرى، مثل قرطبة وإشبيلية وطليطلة وبلنسية وسرقسطة . وكانت هذه الأقليات النصرانية تعيش آمنة مطمئنة ، فى ظل الحكومة الإسلامية ، تزاول نشاطها وشعائرها بمنتهى الحرية ، ويتمتع النابهون من أبنائها بعطف الخلفاء وثقتهم وتقديرهم ، ويشغل الكثير منهم مناصب هامة فى الإدارة وفى القصر .وقد أشرنا فيما تقدم من أخبار الأمراء والخلفاء إلى كثير من أولئك النصارى البارزين . وكانوا إلى جانب اللغة العربية التى يتقنها الكثير منهم ، يتكلمون لغتهم الرومانية الأصلية Romance ، وهى اللغة التى كانت سائدة يومئذ فى الممالك الإسبانية النصرانية ، وكان يعرفها كثير من أكابر الصقالبة فى البلاط الأندلسى ، وبعض أكابر المسلمين من الوزراء والكتاب . وكانت هذه اللغة هى لغة النصارى المعاهدين المكتوبة ، التى يستعملونها فى مخاطباتهم ومعاملاتهم داخل المجتمع الإسلامى ، الذى يعيشون فيه . وكان المسلمون يستعملون أحياناً بعض عبارات هذه اللغة الرومانية ، وهى التى يسمونها « اللطينية » ولاسيما فى بعض المسائل العلمية[1] .

---

(1) R. M. Pidal : Origines del Espanol, p. 418 & 421

فلما انهارت الخلافة، وانهارت معها الحكومة المركزية ، وقامت دول الطوائف ، طرأ تغير ملحوظ على أحوال النصارى المعاهدين . وبالرغم من أن هذا التغير لم يكن دائماً ضد مصالحهم أو حرياتهم، فإن مصايرهم وأحوالهم أضحت فى كل دولة من دول الطوائف ، تتوقف على ظروف تلك الدولة، وعلى سياسة حكومتها المحلية . ونستطيع أن نقول إن النصارى المعاهدين لقوا على وجه العموم فى مختلف دول الطوائف نفس المعاملة الكريمة التى كانوا يلقونها فى ظل حكومة الخلفاء ، بل لقد كان فى ظروف بعض هذه الدول ، ما يحملها على اتباع سياسة خاصة ، تتسم باللين والمصانعة نحو رعاياها النصارى ، ولما عصفت ريح الحرب الأهلية بقرطبة ، عقب انهيار الخلافة اضطربت أحوال المعاهدين بها ، وقد كانوا يعطفون على الجبهة العامرية، ويخشون من عسف البربر وطغيانهم، فلما بسط البربر سلطانهم على عاصمة الخلافة ، أخذت جموع كبيرة منهم تغادر قرطبة فى أثر الفتيان العامريين إلى شرقى الأندلس . ولما قامت دولة بنى جهور فى قرطبة، بذلت حكومة الجماعة جهدها لتأمين المعاهدين وحمايتهم ، وندب أبو الوليد ابن جهور وزيره الشاعر الكبير ابن زيدون، « للنظر فى شئون أهل الذمة فى بعض الأمور المعترضة »(١) .

ولم تقتصر هذه العناية بشئون النصارى المعاهدين على حكومة قرطبة ، بل لقد كانت معظم دول الطوائف الأخرى ، تبذل جهوداً خاصة لتأمين المعاهدين وحمايتهم ، وكسب مودتهم . وكانت بواعث هذه السياسة الودية واضحة ، فى الظروف التى كانت تجوزها دول الطوائف يومئذ . فقد كانت مملكة قشتالة النصرانية تملك زمام التفوق العسكرى ، وكان ملك قشتالة ألفونسو السادس ، يرهق دول الطوائف بإغاراته المتوالية ، ومطالبه المالية المغرقة ، وكان ملوك الطوائف يتسابقون إلى خطب مودته ، واتقاء شره ، وكان منهم من يستعديه على جيرانه المسلمين . وكانت الأقليات النصرانية فى القواعد الأندلسية ، فى مثل هذه الظروف تعتبر مكامن للخطر والدسائس، وكان ملوك الطوائف يحملون بذلك على مصانعتها ومداراتها . وكان بنو عباد فى مقدمة أولئك الملوك الذين عملوا على حماية المعاهدين وكسب مودتهم ، وقد كانوا أشد ملوك الطوائف سعياً

---

(١) فى « إعتاب الكتاب » لابن الأبار ( مخطوط الإسكوريال ) اللوحة — ١٦ .

إلى محالفة ملك قشتالة ، واتقاء عاديته ؛ وكان للنصارى المعاهدين فى بلاطهم مكانة وظهور . ومنهم شعراء مثل ابن المرجرى الإشبيلى ، وابن مرتين . وكان قائد ابن عباد فى فتح قرطبة ، وهو محمد بن مرتين ، من أصل نصرانى ، وبنو عباد هم الذين احتضنوا الكونت سسندو فى حداثته ،وساعدوه على الظهور ورفعوا مكانته فى بلاطهم ، وأولوه ثقتهم ، واستخدموه فى أخص مهامهم السياسة(١) . وكان بنومناد البربر ملوك غرناطة يصطنعون اليهود فى البداية ، فلما اشتدت وطأتهم على صنهاجة ، وانتهت إلى البطش بهم (سنة ٤٥٩ هـ — ١٠٦٦ م ) . جنح أمير غرناطة عبد الله بن بلقين حفيد باديس ، إلى اصطناع النصارى ، واضطر بضغط الظروف إلى محالفة ملك قشتالة ، أو بعبارة أخرى إلى الانضواء تحت حمايته وتأدية الجزية له ؛ وتمتع المعاهدون فى غرناطة بالحماية والرعاية ، وازدهرت أحوالهم واشتد ساعدهم ، واتخذ الأمير عبد الله فى بطانته ، عدة من أكابر النصارى القشتاليين ، يعاونونه فى شئون الحرب والإدارة ومنهم عدة من أكابر الفرسان(٢) .

وقد سبق أن أشرنا إلى ما كان يتمتع به النصارى المعاهدون فى شرق الأندلس ولاسيما فى مملكة دانية من ضروب الرعاية والتسامح . وقد كان الفتيان الصقالبة الذين سيطروا على شرقى الأندلس من أشد الرؤساء تسامحا نحو المعاهدين . وكان مجاهد العامرى صاحب مملكة دانية والجزائر ، ثم ولده على إقبال الدولة من بعده ، كلاهما يبدى نحو رعاياه النصارى منتهى العطف والتسامح ، وقد يرجع ذلك من بعض الوجوه إلى ما يقال عن« أصل مجاهد النصرانى » وإلى أن زوجته كانت نصرانية ، وكذلك ولده على ، فقد نشأ فى حداثته بين نصارى سردانية ، وتخلق بأخلاقهم واعتنق دينهم ، قبل أن يعتنق الإسلام بعد عوده من الأسر ، بيد أنه يجب أن نلاحظ إلى جانب ذلك ، أن هذا التسامح نحو النصارى كان حسبما بينا فى موضعه ، سياسة مقررة لحكومة مجاهد وولده على ، وأنهما استطاعا بواسطة هذه السياسة المستنيرة ، أن يجتنبا عدوان الملوك النصارى ، وأن تتمع مملكة دانية فى ظلهما بفترات طويلة من السلام والرخاء .

وثمة مملكة أخرى من ممالك الطوائف ، كانت ظروفها تدعو إلى مزيد من

---

(١) Isidro de las Cagigas : Los Mozarbes (Madrid 1947) T. II. p. 427

(٢) Is. de las Cagihas : ibid; T. II. p. 493

التسامح نحو رعاياها النصارى : تلك هى مملكة سرقسطة ، فقد كانت بموقعها بين الممالك النصرانية الأربع ، قشتالة وناڤار ، وأراجون وبرشلونة ، وكونها تعتبر بهذا الموقع حاجزاً بين اسبانيا المسلمة ، والممالك النصرانية من ناحية الشمال الشرقى ، ثم بكونها تضم بين سكانها أقليات نصرانية كثيفة ، كانت لذلك كله تجد نفسها مدفوعة بحكم الواقع والظروف إلى اتباع سياسة الاعتدال والتسامح نحو رعاياها النصارى ، وقد كانت هذه المنطقة فى الواقع وهى منطقة الثغر الأعلى منذ أيام بنى قسىّ وبنى الطويل وغيرهم من زعماء المولدين ، ميداناً خصباً لالتقاء العناصر المسلمة والنصرانية وامتزاجها بقوة ، وكانت بذلك مهدا لظهور المعاهدين ، ومشاركتهم بقسط بارز فى الحياة السياسية والاجتماعية . وكان بنو تجيب حكام الثغر الأعلى، ومن بعدهم بنو هود أصحاب مملكة سرقسطة يبسطون رعايتهم وحمايتهم على النصارى المعاهدين . وكان بنو هود بالأخص يشعرون بدقة مركزهم بين الممالك النصرانية ، وتحفز هذه الممالك دائماً إلى التدخل فى شئون مملكتهم وضغطها عليهم لاقتضاء الجزية ، أو لاقتطاع بعض مدنهم وحصونهم ، ويحاولون بسياسة التسامح المطلق نحو رعاياهم النصارى ، أن يجتنبوا الدسائس والاضطرابات الداخلية ، وأن يغنموا حياد الملوك النصارى وجنوحهم إلى المهادنة . وكان المقتدر بن هود . وهو أعظم ملوك سرقسطة من أشد أنصار هذا التسامح ، وكان بين وزرائه المقربين وزير نصرانى هو أبو عامر بن غند شلب Gundisalvo ، وكان أديباً شاعراً . أجل وقعت فى سرقسطة فى سنة ١٠٦٥ م فى عهد المقتدر مذبحة للنصارى ، وذلك على أثر عدوان النورمان الشنيع على مسلمى بربشتر ، وكان فيه من الروع والاستثارة ما فيه . بيد أنه كان حادثاً مستقلا ، ولم يلبث أن استدركت عواقبه . وقد رأينا من جهة أخرى كيف كان بنو هود ، يعتمدون على محالفة جيرانهم من الملوك النصارى ، ويحشدون المرتزقة النصارى فى جيوشهم بصفة مستمرة ، وكيف كانوا أول من استخدم السيد إلكمبيادور ، واعتمدوا على محالفته زمنا(١) .

بيد أن هناك حقيقة يجب التنويه بها ، وهو أن النصارى المعاهدين ، بالرغم من هذه الرعاية والحماية ، وهذا التسامح، التى كان يتبعها نحوهم ملوك الطوائف،

---

(١) Is. de las Cagigas : ibid., T. II. p. 448, 451, 452, 454, 462 & 463

سواء لبواعث كانت ترغمهم على اتباعها ، أو لسياسة مستترة كانوا يؤثرونها ، لم يشعروا قط بعاطفة من الولاء نحو تلك الحكومات المسلمة ، التى كانت تبذل وسعها لحمايتهم واسترضائهم ، بل لبثوا دائماً على ضغنهم وخصومتهم لها وتربصهم بها . ينتهزون أية فرصة للإيقاع بها ، وممالأة الملوك النصارى ، ومعونتهم بكل وسيلة على محاربتها ، وتسهيل مهمتهم فى غزوها والتنكيل بها . ولدينا فى تاريخ الطوائف من ذلك أمثلة لاحصر لها . ففى حصار قلمرية وافتتاحها ( ٤٥٦ هـ — ١٠٦٤ م ) لعب النصارى المعاهدون — وقد كانوا كثرة هذه المنطقة — دوراً بارزاً فى معاونة الجيش القشتالى المحاصر ، وعاونه رهبان دير لورفان القريب من قلمرية بمؤنهم المختزنة ، وسهلوا له بذلك الصمود ، حتى اضطرت المدينة المحصورة إلى التسليم[1] . ودأب النصارى المعاهدون فى طليطلة أيام القادر بن ذى النون على تدبير الدسائس ، وبث الفتن والاضطرابات داخل المدينة ، والاتصال المستمر بألفونسو السادس وأعوانه ، ومؤازرة الناقمين من المسلمين ضد الحكومة القائمة ، والعمل بذلك على تحطيم كل جبهة للمقاومة الحقيقية ، وانتهى الأمر بتذليل السبيل لألفونسو السادس لمحاصرة المدينة المفتوحة . ولعب النصارى المعاهدون فى بلنسية مثل هذا الدور داخل بلنسية ، لمعاونة السيد فى مغامراته المتوالية لمحاصرة المدينة والاستيلاء عليها . وهكذا كان النصارى المعاهدون ، فى كل موطن وكل فرصة ، يعملون ماوسعوا لتحطيم تلك الممالك الإسلامية التى تقوم بحمايتهم ورعايتهم ، والتمهيد بذلك للقضاء عليها وسقوطها فى أيدى الملوك النصارى . وهذا ما يعبر عنه الأستاذ پيدال بقوله : « إن نجم المعاهدين قد بزغ ثانية عقب انحلال الدولة الأندلسية وقيام دول الطوائف الضعيفة ، واستطاعوا أن يؤدوا خدمات جليلة لقضية النصرانية والاسترداد النصرانى[2] » .

ومن ثم فإنا نجد ، عقب سقوط طليطلة ، واشتداد روح العدوان من جانب إسبانيا النصرانية ، شعور التقاطع والريب ، ينمو ويشتد ضد جماعات النصارى المعاهدين فى مختلف القواعد الأندلسية ، وترتفع أصوات الفقهاء بالاشتداد فى معاملتهم ، وتجريدهم من كثير من ضروب الحرية والتسامح ، التى كانوا يتمتعون بها من قبل . ومن ذلك مثلا ما دعا إليه ابن عبدون فى رسالته عن الحسبة وهى

---

(١) راجع : Is. de las Cagigas : ibid; T. II. p. 455

(٢) R. M. Pidal : Origenes del Espanol, p. 424

التى وضعت فى بداية العهد المرابطى : من أنه « يجب أن يقطع ببلاد الإسلام ضرب النواقيس » وأنه نظرا لفساد أخلاق القساوسة . يجب أن يؤمروا بالزواج كما فى ديار المشرق . ويجب ألا يترك فى دار القسيس امرأة ولاعجوز ولاغيرها ، كما يجب أن تمتنع النساء الإفرنجيات من الدخول إلى الكنيسة إلا فى يوم فضل أو عيد ، ويجب ألا يباع من اليهود أوالنصارى كتاب علم إلا ماكان من شريعتهم ، لأنهم يترجمون كتب العلوم ، وينسبونها إلى أهلهم وأساقفتهم ، وهى من تواليف المسلمين ؛ كما يجب أن يمنع الأطباء اليهود أو النصارى من معالجة المسلمين(١) . فهذه الدعوات وأمثالها ، إلى التشدد فى معاملة المعاهدين ، لم تكن إلا صدى لمواقفهم المتسمة بالعدوان والخيانة . وكانت تلقى فى ظل الحكم المرابطى ، المتسم بروح التزمت الدينى قبولا . وقد بلغ اجتراء المعاهدين وخيانتهم ذروتها ، حينما عملوا على استدعاء ألفونسو المحارب ملك أراجون ، لغزو الأندلس ، ووعدوه بأن ينضموا ألوفاً إلى جيشه متى اخترق الأندلس . وقام ألفونسو بالفعـل بالغزوة المنشودة ، فخرج من سرقسطة فى سبتمبر سنة ١١٢٥ م ( ٥١٩ هـ ) ، فى عهد أمير المسلمين على بن يوسف ، واخترق الأندلس ، من الجانب الشرقى ماراً بقرب بلنسية ودانية ومرسية ، وهو يعيث فى بسائطها ، والمعاهدون يحشدون فى جيشه من كل صوب ، واستمر فى سيره حتى وادى آش ، ووصل إلى ظاهر غرناطة فى شهر يناير من العام التالى ( ١١٢٦ م ) ، ولكنه أدرك أنه لايستطيع أن ينال منها مأرباً . وهنالك بعث إلى زعيم المعاهدين بغرناطة يلومه لتقصيرهم فى معاونته ، فردوا عليه بأنه هو الذى أضاع الوقت فى زحفه الطويل سدى ، ثم أخذت القوات المرابطية بقيادة الأمير أبى الطاهر تميم تلاحقه وترهقه باستمرار ، وهو يتجول بقواته فى شمال غرناطة ، ووقعت بينه وبين المرابطين فى مارس ( ١١٢٦ م ) فى فحص الرنيسول موقعة هزم فيها المرابطون . بيد أنه لم يستطع الاستفادة من نصره ، فاستمر فى زحفه جنوباً ، واخترق هضاب البشرات حتى شاطىء البحر المتوسط ، ثم عاد إلى الشمال ، وقد خسر كثيراً من جنده بسبب الإعياء والوباء .

وكان من أثر هذا العدوان الجسيم ، أن قرر أمير المسلمين ، وفقاً لفتاوى

---

(١) رسالة ابن عبدون فى الحسبة ص ٥٥ و ٥٧ .

الفقهاء ، تغريب النصارى المعاهدين ، لأنهم نقضوا العهد وخرجوا عن الذمة . وأبعدت منهم بناء على ذلك عن الأندلس ألوف عديدة ، فرقت فى مختلف أنحاء إفريقية[1] .

وثمة ظاهرة أخرى برزت فى أواخر عهد الطوائف ، وترتبت على سقوط طليطلة وغيرها من القواعد الأندلسية القديمة فى يد القشتاليين ، ثم سقوط سرقسطة وأعمالها بعد ذلك بقليل فى يد ملك أراجون ( ٥١٢ هـ — ١١١٨ م ) . فإلى ذلك الحين كانت المشكلة العنصرية والدينية ، تنحصر فى جانب واحد ، وهو أقليات النصارى المعاهدين التى تعيش فى القواعد الأندلسية تحت الحكم الإسلامى . ولكن تبرز من ذلك الحين مشكلة عنصرية دينية مقابلة ، هى مشكلة الأقليات المسلمة التى بقيت فى القواعد الأندلسية المفتوحة تحت الحكم النصرانى ، وأولئك هم المدجنون ، ( وبالإسبانية Mudéjares ) الذين يبدأ ذكرهم فى التواريخ الأندلسية ، منذ أوائل القرن السادس الهجرى ( الثانى عشر الميلادى ) ، والذين تزداد جموعهم تباعاً كلما سقطت قاعدة أندلسية جديدة فى أيدى النصارى[2] .

---

(١) راجع الحلل الموشية ص ٧٠ و ٧١ . كذلك R. M. Pidal : Origenes del Espanol, p. 425 و F. Codera : Decadencia y Disparicòn de los Almoravides, p. 15 & 16

(٢) تحدثنا عن أحوال المدجنين بإفاضة فى كتابنا «نهاية الأندلس» وهو العصر الرابع من كتاب دولة الإسلام فى الأندلس ( الطبعة الثالثة ) ص ٥٥ — ٦٧ .

# خاتمة

# خواصّ عصر الطوائف

## السياسيّة والاجتماعيّة والحضاريّة

— ١ —

# الخـــــواص السـياسية

الآن وقد انتهينا من أخبار ممالك الطوائف ، واستعراض الأحداث التى مرت بها ، منذ إنشائها حتى سقوطها ، وتقديم زعمائها وملوكها ، فى صورهم السياسية والأدبية ، ووصف قصورهم وخططهم ، نرى لزاماً علينا أن نستعرض خواص هذه الحقبة من تاريخ اسبانيا المسلمة ، وهى حقبة فياضة بالأحداث والمحن المثيرة ، وأن نستعرض خواص مجتمع الطوائف ، وأحواله المادية والأدبية والاجتماعية .

لقد شغل عصر الطوائف من حياة الأمة الأندلسية نحو ثمانين عاماً ، وكان عصر تفكك وانحلال سياسى واجتماعى شامل ، بالرغم مما كان يبدو فى بعض نواحيه من جوانب براقة . والواقع أن هذه الدول الصغيرة ، التى قامت على أنقاض الأندلس الكبرى ، والتى كانت تتسم بسمة الملك ، وتزعم لنفسها الاستقلال بشئونها ، كانت تنقصها من الناحية النظامية ، عناصر الدولة المستقرة ، ولم تكن — إذا استثنينا القليل منها — سواء برقاعها الإقليمية ، ومواردها المادية ، تستطيع الحياة بمفردها ، أو تستطيع الاستقلال بشئونها السياسية أو العسكرية ، وإنما كانت دول الطوائف أقرب منها إلى وحدات الإقطاع ، وإلى عصبة الأسرة القوية ذات العصبية ، أو الجماعة القبلية فى حالة الإمارات البربرية ، ومن ثم فإنه لم تكن بها حكومات منظمة بالمعنى الصحيح ، تكون مهمتها الأساسية ، أن تعمل لخير الشعب ورخائه ، وصون الأمن والنظام ، وإنما كانت بها أسر أو زعامات ، تعمل قبل كل شىء لمصلحتها الخاصة ، ولرفعة شأنها ، وتنمية ثرواتها ، وتدعيم سلطانها وبذخها . وكان الشعب فى ظل هذه الأسر أو الزعامات القوية ، لاحساب له ، وليس عليه إلا أن يخضع لما يفرض عليه من مختلف المغارم والفروض ، التى يستخدمها الأمير لإقامة بلاطه الفخم أولا ، ثم لحشد الجند الذين هم سياج ملكه

وسلطانه ، وأخيراً لتنفيذ مشاريعه السياسية والعسكرية ، وهى لا تخرج غالباً عن مهاجمة زميله وجاره الأضعف منه ، وانتزاع ما فى يده ، وقلما تتجه إلى القضية الكبرى ، قضية الدفاع عن الأندلس ضد عدوها الخالد ، الدائب لمقارعتها وتحطيمها ، ونعنى اسبانيا النصرانية .

ولقد كان ملوك الطوائف فى ذلك أسوأ قدوة . كانوا ملوكاً ضعافاً فى وطنيتهم ، ضعافاً فى دينهم ، غلبت عليهم الأثرة والأهواء الشخصية إلى أبعد الحدود ، ونسوا فى غمارها وطنهم ، ودينهم ، بل نسوا حتى اعتبارات الكرامة الشخصية ، واستساغوا لأنفسهم أن يترامو على أعتاب الملوك النصارى ، وأن يستعدوهم بعضهم على بعض ، لا فى سبيل قضية محترمة ، ولكن لاقتطاع بلدة أو حصن من مملكة شقيقة ، أو التنكيل بأحد الأمراء المجاورين وقد انتهى أمراء الطوائف فى ذلك إلى درك ، يستحق أن يوصف بأقسى النعوت ، ويكفى أن نستعرض فى ذلك ، موقف ملوك الطوائف إزاء نكبة طليطلة ، وتخاذلهم جميعاً عن إنجادها وقت أن حاصرها ملك قشتالة وصمم على أخذها ، وهم جميعاً — إلا واحداً منهم هو أمير بطليوس الشهم — ينظرون إلى استشهاد المدينة المسلمة ، جامدين لا يطمعون إلا فى رضاء ملك قشتالة ، وفى سلامة أنفسهم . وقد كان ملك قشتالة يعاملهم حسبما رأينا فى غير موطن ، معاملة الأتباع ، ويبتز منهم الأموال الطائلة ، باسم الجزية ، ويعامل رسلهم وسفراءهم معاملة الخدم ، ويكفى أن نتلو فى ذلك ما سطره ابن بسام فى الذخيرة ، من وصف مثول سفراء ملوك الطوائف لدى ملك قشتالة ، وقت نزوله أمام طليطلة ، وهى على وشك التسليم إليه ، وما كان يتسم به موقفهم من المذلة والخنوع ، وفقد كل كرامة قومية(١) .

ولم يكن ملوك الطوائف فى سياستهم الداخلية ، وإزاء شعوبهم ، أفضل موقفاً ، ولا أكرم تصرفاً . فقد كانوا طغاة قساة على رعيتهم ، يسومونهم الخسف ، ويثقلون كواهلهم بالفروض والمغارم لملء خزائنهم وتحقيق ترفهم وبذخهم ، ولم يكن يردعهم فى ذلك رادع ، لا من الدين ، ولا من الأخلاق . وقد كانت سياستهم الداخلية هذه ، مثل سياستهم الخارجية ، موضع السخط من شعوبهم ، والطعن المر من معاصريهم من الكتاب والمفكرين . وقد صدرت

---

(١) الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ١٢٩ و ١٣٠ .

للفيلسوف ابن حزم، وهو من أعظم مفكرى عصر الطوائف، عن فتنة الطوائف، ودولها ، وأمرائها المستهترين ، ومجتمعها المنحل ، وحكوماتها الباغية ، طائفة من الأقوال والأحكام الصادقة، وردت فى رسالته المعنونة « التلخيص لوجوه التخليص »(١) . وهى عبارة عن ردود على بعض أسئلة فى شئون دينية وفقهية ، وجهت إليه من بعض أصدقائه ، ومنها سؤال يتعلق بأمر الفتنة ، وآخر عن وجه السلامة فى المطعم والملبس والمكسب ، وتتضمن هذه الأقوال من النظرات الثاقبة ، والأحكام القاطعة ، ما يدمغ مجتمع الطوائف بشدة وقسوة ، وهى مع سلامة منطقها ، وعدالتها ، مما يبعث إلى النفس أشد ضروب الأسى والألم ، فهو يصف لنا فتنة الطوائف وتصرفات ملوكها على النحو الآتى :

« وأما ما سألتم من أمر هذه الفتنة ، وملابسة الناس بها ، مع ما ظهر من تربص بعضهم ببعض ، فهذا أمر امتحنا به ، نسأل الله السلامة ، وهى فتنة سوء ، أهلكت الأديان إلا من وقى الله تعالى، من وجوه كثيرة يطول لها الخطاب. وعمدة ذلك أن كل مدبر مدينة أو حصن فى شىء من أندلسنا هذه ، أولها عن آخرها ، محارب لله تعالى ورسوله ، وساع فى الأرض بفساد . والذى ترونه عياناً من شنهم الغارات على أموال المسلمين من الرعية التى تكون فى ملك من ضارهم ، وإباحتهم لجندهم قطع الطريق على الجهة التى يقضون على أهلها ، ضاربون للمكوس والجزية على رقاب المسلمين ، مسلطون لليهود على قوارع طرق المسلمين فى أخذ الجزية ، والضريبة من أهل الإسلام ، معتذرون بضرورة لا تبيح ما حرم الله ، غرضهم فيها استدامة نفاذ أمرهم ونهيهم ، فلا تغالطوا أنفسكم ، ولا يغرنكم الفساق والمنتسبون إلى الفقه ، اللابسون جلود الضأن على قلوب السباع ، المزيفون لأهل الشر شرهم ، الناصرون لهم على فسقهم »(١) .

وقد كان الفقهاء فى الواقع ، فى هذا العصر الذى ساد فيه الانحلال والفوضى الأخلاقية والاجتماعية ، أكبر عضد لأمراء الطوائف فى تبرير طغيانهم وظلمهم ،

(١) نشر الأستاذ ميجيل آسين بلا ثيوس M. Asin Palacios بعض مقتطفات من هذه الرسالة فى مجلة الأندلس Al-Andalus (ano 1934), p. 35-37 . ثم نشرت الرسالة بعد ذلك كاملة ضمن مجموعة رسائل أخرى لابن حزم بعنوان « الرد على ابن النغريلة اليهودى ورسائل أخرى » ( القاهرة سنة ١٩٦٠ ) ، ص ١٣٩ — ١٨٥

وتزكية تصرفاتهم، وابتزازهم لأموال الرعية ، وقد كانوا يأكلون على كل مائدة، ويتقلبون فى خدمات كل قصر ، ليحرزوا النفوذ والمال ، ويضعون خدماتهم الدينية والفقهية لتأييد الظلم والجور ، وخديعة الناس باسم الشرع ، وقد انفسح لهم بالأخص فى ظل دول الطوائف مجال العمل والاستغلال والدس ، واحتضنهم الأمراء الطغاة ، وأغدقوا عليهم العطاء . ولم يفت مؤرخ العصر أبومروان ابن حيان، أن ينوه بهذا التآلف والتضامن بين الأمراء والفقهاء : فى تأييد الظلم والفساد ، والخروج على أحكام الدين ، وإليك مايقوله لنا فى ذلك :

« ولم تزل آفة الناس مذ خلقوا فى صنفين كالملح : فيهم الأمراء والفقهاء قل ما تتنافر أشكالهم ، بصلاحهم يصلحون ، وبفسادهم يفسدون ، فقد خص الله تعالى هذا القرن الذى نحن فيه من اعوجاج صنفيهم لدينا بما لاكفاية له ، ولا مخلص منه ، فالأمراء القاسطون ، قد نكبوا بهم عن نهج الطريق ذياداً عن الجماعة ، وجرياً إلى الفرقة، والفقهاء أئمتهم صموت عنهم ، صدف عما أكده الله عليهم من التبيين لهم ، قد أصبحوا بين آكل من حلوائهم ، وخابط فى أهوائهم ، وبين مستشعر مخافتهم ، آخذاً بالتقية فى صدقهم »[(١)] .

وقد قاسى الشعب الأندلسى فى ظل طغيان الطوائف ، كثيراً من ضروب الاضطهاد والظلم ، ولم يكن ذلك قاصراً على متاعب الفوضى الاجتماعية الشاملة ، التى كان يعيش فى غمارها ، وانقلاب الأوضاع فى سائر مناحى الحياة ، وتوالى الفتن والحروب الداخلية ، ولكنه كان يقاسى فى نفس الوقت من جشع أولئك الأمراء الطغاة ، الذين كانوا يجعلون من ممالكهم ضياعاً خاصة ، يستغلونها بأقسى الوسائل وأشنعها ، ويجعلون من شعوبهم عبيداً يستصفون ثرواتهم ، وثمار كدهم ، إرضاء لشهواتهم فى إنشاء القصور الباذخة ، واقتناء الجوارى والعبيد، والانهماك فى حياة الترف الناعم ، والإغداق على الصحب والمنافقين ، هذا فضلا عن حشد الجند ، لإقامة نيرهم ، وتدعيم طغيانهم . وقد ترتب على ذلك أن انهارت المعايير الأخلاقية ، واختلط الحق بالباطل، والحلال بالحرام ، ولم يعد الناس يعتدون بالوسيلة ، بل يذهبون إلى اقتضاء الغاية ، وتحقيق الكسب بأى الوسائل . وقد شرح لنا الفيلسوف ابن حزم طرفاً من هذه الفوضى الاجتماعية

---

(١) الذخيرة القسم الثالث — المخطوط لوحة ٣٤ ب . ونقله البيان المغرب ج ٣ ص ٢٥٤ .

والأخلاقية ، ووصف لنا إلى أى حد كان يذهب أمراء الطوائف ، فى إرهاق شعوبهم بالمغارم الفادحة ، وإليك ما يقوله فى ذلك :

« وأما الباب الثانى : فهو باب قبول المتشابه ، وهو فى غير زماننا هذا باب جديد لايؤثم صاحبه ، ولايؤجر ، وليس على الناس أن يبحثوا عن أصول ما يحتاجون إليه فى أقواتهم ومكاسبهم ، إذ كان الأغلب هوالحلال ، وكان الحرام مغموراً . وأما فى زماننا هذا وبلادنا هذه : فإنما هو باب أغلق عينيك ، واضرب بيديك ، ولك ما تخرجه إما تمرة وإما جمرة . وإنما فرقت بين زماننا هذا والزمان الذى قبله ، لأن الغارات فى أيام الهدنة لم تكن غالبة ظاهرة كما هى اليوم ، والمغارم التى كان يقبضها السلاطين ، فإنما كانت على الأرضين خاصة ، فكانت تقرب مما فرض عُمر على الأرض . وأما اليوم فإنما هى جزية على رؤوس المسلمين ، يسمونها بالقطيعة ، ويؤدونها مشاهرة ، وضريبة على أموالهم من الغنم والبقر والدواب والنحل ، يرسم على كل رأس ، وعلى كل خلية شىء ما ، وقبالات ما يؤدى على كل ما يباع فى الأسواق ، وعلى إباحة بيع الخمر من المسلمين فى بعض البلاد ، هذا كله ما يقبضه المتغلبون اليوم ، وهذا هو هتك الأستار ، ونقض شرائع الإسلام ، وحل عراه عروة عروة ، وإحداث دين جديد ، والتخلى من الله عز وجل » .

ويحمل ابن حزم بعنف ، على استهتار أمراء الطوائف بأحكام الدين ، وما اتسموا به من ضعف الإيمان والعقيدة ، ويؤكد لنا أنهم لو وجدوا فى اعتناق النصرانية ، وسيلة لتحقيق أهوائهم ومصالحهم ، لما ترددوا فى اعتناقها ، ونحن نقتبس هنا عباراته اللاذعة المؤسية معاً :

« والله لو علموا أن فى عبادة الصلبان تمشية أمورهم لبادروا إليها ، فنحن نراهم يستمدون النصارى ، فيمكنونهم من حُرَم المسلمين وأبنائهم ورجالهم ، يحملونهم أسارى إلى بلادهم ، وربما يحمونهم عن حريم الأرض وحشرهم معهم آمنين ، وربما أعطوهم المدن والقلاع طوعاً ، فأخلوها من الإسلام ، وعمروها بالنواقيس ، لعن الله جميعهم ، وسلط عليهم سيفاً من سيوفه »(١) .

---

(١) راجع أقوال ابن حزم التى نشرت بعناية الأستاذ بلاثيوس فى مجلة «الأندلس» : Al-Andalus, (ano 1934) p. 37 وفى الرسالة التى سبقت الإشارة إليها ص ١٧٣ — ١٧٧ .

ونحن لانستطيع أن نتهم ابن حزم،وهو فيلسوف عصره المتزن،البعيد النظر، النافذ الملاحظة ، بالمبالغة والتحامل ، وهو قد شهد بنفسه أحداث العصر ، وفضائح ملوك الطوائف ، وأصدر عليها تلك الأحكام القاسية ، التى نراها ماثلة فى غير موضع من تعليقاته على حوادث عصره[1] . وقد توفى ابن حزم فى سنة ٤٥٦ هـ ( ١٠٦٤ م ) ، وممالك الطوائف فى إبان قوتها وعنفوانها ، وقبل أن تنحدر إلى ما انحدرت إليه فيما بعد من الإنحلال المعنوى الشامل ، وقبل أن يتهالك أمراؤها فى الترامى على أعتاب ملك قشتالة ، وينحدرون على يديه إلى أسفل درك من الذلة والمهانة . ولو شهد الفيلسوف هذه المرحلة الأخيرة من انحلال ممالك الطوائف ، لكان بلا ريب فى تعليقاته وأحكامه أشد قسوة وعنفاً .

— ٢ —

## الخواص العلمية والأدبية

على أنه لما يلفت النظر حقاً ، أن ممالك الطوائف ، كانت خلال هذا الانحلال الشامل،تبدو فى أثواب لامعة زاهية . وإذا لم يكن يسودها النظام والاستقرار دائماً، فقدكانت فى الفترات القليلة التى تجانب فيها الحرب الأهلية ، تتمتع بقسط لابأس به من الرخاء ، وتغمرها الحركة والنشاط . وكان ملوك الطوائف ، بالرغم من طغيانهم المطبق ، ومن الصفات المثيرة التى كان يتصف بها الكثير منهم ، من حماة العلوم والآداب . وإنها لظاهرة من أبرز ظواهر عصر الطوائف ، أن يكون معظم الملوك والرؤساء من أكابر الأدباء والشعراء والعلماء،وأن تكون قصورهم منتديات زاهرة ، ومجامع حقة للعلوم والآداب والفنون ، وأن يحفل هذا العصر بجمهرة كبيرة من العلماء والكتاب والشعراء الممتازين، ومنهم بعض قادة الفكر الأندلسى ، والفكر الإسلامى بصفة عامة .

ولنبدأ الحديث فى ذلك عن قصور عصر الطوائف وأمرائه . فلقد كانت هذه القصور المنتثرة فى رقعة الوطن الأندلسى الكبرى ، وكل منها يدعى السيادة على مدن ورقاع محدودة ، تسطع ليس فقط بفخامتها وروعتها وبذخها ، ولكن كذلك بأمرائها ووزرائها وكتابها ، الأدباء والشعراء . وقد ازدهر الشعر الأندلسى

---

(١) تراجع تعليقات ابن حزم على بعض فضائح عصره فى « نقط العروس » ص ٨٣ و ٨٤ و ٨٩ .

بالأخص فى عصر الطوائف ، وبلغ فى ذلك مدى لم يبلغه فى أى آخر عصر. ويعلل الأستاذ نيكل ذلك بأنه يرجع بالأخص إلى ماكان يتسم به هذا العصر من حريات ، ترتب عليها الإغضاء عن كثير من القيود الدينية ، ولاسيما ماتعلق منها بتحريم الخمر ، وحجب المرأة ، وإلى ذيوع العلاقات الغرامية بين الجنسين(١) كان ملوك الطوائف حسبما تقدم ، يتسمون بضعف الإيمان والعقيدة ، والاستهتار بأحكام الدين ، وكان الكثير منهم يجاهرون بالمعاصى ، وارتكاب الأمور المحرمة ، وهو ما يسجله عليهم الفيلسوف ابن حزم فيما تقدم من أقواله . وقد كانت قصورهم المترفة الأنيقة ، كما تزدان بمجالس الشعر والأدب ؛ تحفل فى الوقت نفسه بمجالس الأنس والطرب ، والنساء والغلمان والخمر ، وهى أمور تشغل حيزاً كبيراً فى آداب العصر وشعره . وكانت مجتمعات الطوائف المرهقة المنحلة ، تتأثر بهذه الروح الإباحية ، وتجنح إلى اجتناء المتعة المادية والملاذ الحسية بمختلف ضروبها ؛ وكان هذا الانحلال الشامل يجتاح يومئذ سائر طبقات المجتمع الأندلسى .

على أن النهضة الأدبية والفكرية التى امتاز بها عصر الطوائف ، ترتفع مع ذلك فوق مستوى هذا الانحلال وتبرز قوية وضاءة . ولقد كانت هذه القصور المترفة المرحة نفسها ، أكبر مبعث لهذه النهضة، وكان أولئك الملوك المستهترون أنفسهم دعاتها وحماتها ، وكانت قصور الطوائف تتنافس فى هذا الميدان وتتسابق، شعوراً منها بما تجتنيه من وراء ذلك من فخار ومجد ؛ وما تسجله روائع المنظوم والمنثور من ذخر وذكر . وكان من بين هذه القصور ثلاثة امتازت بنوع خاص ، بمشاركتها فى النهضة الأدبية والشعرية، هى بلاط بنى عباد بإشبيلية، وبلاط بنى الأفطس ببطليوس ؛ وبلاط بنى صمادح بألمرية .

كان بنو عباد ؛ وهم كما رأينا ، أعظم ملوك الطوائف قوة وجاها وملكاً ، من أعظم رواد هذه النهضة الأدبية والفكرية التى سادت هذا العصر ، وقد سبق أن أشرنا إلى ما امتازت به هذه الأسرة النابهة من نبوغ فى ميدان الشعر والأدب، وقد برز منهم بالأخص المعتضد بن عباد ، وولده المعتمد ، وترك لنا كلاهما طائفة كبيرة من روائع نظمه . ويمتاز شعر المعتضد بنزعة إلى الفخر والمجد وشهرة

---

(١) الشعر الأندلسى A. R. Nykl : Hispano-Arabic Poetry : (Baltimore : 1946, p. 72

الجود . أما المعتمد بن عباد فقد كان بلا ريب من أعظم شعراء عصر الطوائف ، إن لم يكن أعظمهم جميعاً . ويرى الأستاذ نكل أنه « أبرز ممثل للشعراء الأندلسيين العرب فى النصف الثانى للقرن الحادى عشر» وأنه « يتزعم هذا العصر بشخصيته المتسمة بالفروسية ، ويعتبر أسطع نجم فى باقة النجوم الكبرى لملوك الطوائف الآخرين »(١) . وقد ترك لنا المعتمد بنوع خاص طائفة من أروع القصائد التى نظمها أيام مجده ، ثم بعد ذلك خلال محنته ، فى التلهف على ماضيه والبكاء على مصيره ، وقد أوردنا فيما تقدم مقتطفات من شعره ، فى مختلف المناسبات والأحداث .

وكان بنو عباد فضلا عن مواهبهم الأدبية والشعرية الرفيعة ، يجمعون فى بلاطهم ، وهو أزهى قصور الطوائف فى هذا المضمار ، جمهرة من أكابر شعراء العصر وكتابه ، سواء برسم الوزارة أو الكتابة أو الانتظام بين صحب الأمير ومستشاريه ، أو لمجرد الرعاية والحماية . وكان من هؤلاء حسبما أسلفنا شعراء عظام مثل أبى بكر بن عمار الشاعر الذكى المبدع ، وقد أتينا على أحداث حياته فيما تقدم ، وأبى الوليد بن زيدون الذى يصفه الأستاذ نكل بأنه « شاعر عظيم للحب »، ويعتبره مثلا « لأبدع نموذج للأسلوب العربى الكلاسيكى . وفى وسعنا أن نقارنه بالمتنبى والبحترى » .

وقد قارن العلامة دوزى ، ابن زيدون فى حياته الغرامية بالشاعر اللاتينى تيبولوس فى حبه « لدِ لِيا » ، ولكن الأستاذ نكل لايقر هذه المقارنة إلا من حيث الناحية الغرامية ، وعنده أن المظاهر الشعرية تختلف بين الشاعرين الأندلسى واللاتينى ، « كما تختلف الأزهار لوناً وعطراً »(٢) . والواقع أن حب ابن زيدون لولادة بنت الخليفة المستكفى(٣) ، كان أعظم حدث فى حياته ، وكان أعظم وحى لروائع شعره . وكانت ولادة ابنة جارية نصرانية ، وكانت ناصعة المحيا ، زرقاء العينين ، حمراء الشعر ، رائعة الحسن . ويصفها ابن بسام بقوله : « وكانت فى

(١) A. R. Nykl : Ibid., p. 72 & 130

(٢) A. R. Nykl : ibid · p. 109

(٣) وهو محمد بن عبد الله بن الناصر لدين الله . تولى الخلافة فى ذى القعدة سنة ٤١٤ هـ باسم المستكفى بالله ، ثم خلع وفر من قرطبة فى ربيع الأول سنة ٤١٦ هـ (١٠٢٥ م) واغتاله فى الطريق بعض أصحابه .

نساء أهل زمانها ، واحدة أقرانها حضور شاهد ، وحرارة أوابد ، وحسن منظر ومخبر ، وحلاوة مورد ومصدر ، وكان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار المصر ، وفناؤها ملعباً لجياد النظم والنثر ، يعشو أهل الأدب إلى ضوء غرتها ، ويتهافت أفراد الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها ، إلى سهولة حجابها ، وكثرة منتابها ، تخلط ذلك بعلو نصاب وكرم أنساب ، وطهارة أثواب . على أنها ، سمح الله لها وتغمد زللها ، طرحت التحصيل ، وأوجدت للقول فيها السبيل ، بقلة مبالاتها ، ومجاهرتها بلذاتها »(١) . وهام ابن زيدون فى شبابه بولادة أيام خدمته لبنى جهور ، وتوثقت علائقه بها مدة من الزمن ، ونظم فى حبها طائفة من أروع قصائده ، ثم ساءت العلائق بينهما ، وهجرته ولادة وهو يستعطفها بقصائد مؤثرة . وكان ينافسه فى ودها رجل من سراة قرطبة يدعى أبو عامر بن عبدوس تزوجته ولادة فيما بعد ، وانتهى الأمر بأن زج ابن زيدون إلى السجن إما لريبة علقت بولائه لابن جهور ، أو نتيجة لمكيدة دبرها له خصمه ومنافسه ابن عبدوس . وقد وجه ابن زيدون إلى منافسه وخصمه ابن عبدوس هذا ، رسالة ، لوم وتقريع ، تفيض بألوان مؤلمة من التهكم والتشبيهات ، والمقارنات ، وينعته فى أولها « بالمصاب بعقله ، المورط بجهله ، البين سقطه ، الفاحش غلطه ، العاثر فى ذيل اغتراره ، الأعمى عن شمس نهاره » . ثم يفيض فى وصفه وتشبيهه بأسلوب ساخر مقذع ، وقد اشتهرت رسالة ابن زيدون هذه ، واعتبرت من الطرائف الأدبية وعملت لها شروح عديدة(٢) . ثم فر ابن زيدون من سجنه ، وغادر قرطبة إلى إشبيلية وذلك فى سنة ٤٤١ هـ (١٠٤٩ م) والتحق ببلاط المعتضد بن عباد ، وخدمه وعلت مكانته لديه . ولما توفى المعتضد استمر فى خدمة ولده المعتمد ، وتوفى فى سنة ٤٦٣ هـ (١٠٧١ م) . وقد ترك لنا ابن زيدون ثروة كبيرة منوعة من نظمه الرائق ، ومنها قصائد تعتبر من أروع ما يحتويه الشعر الأندلسى(٣) ، وفيها يبلغ النسيب ذروة الإبداع الروحى والحسى ،

---

(١) الذخيرة القسم الأول المجلد الأول ص ٣٧٦

(٢) ومنها شرح مخطوط لابن نباته المصرى عنوانه « سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون » يحفظ بالمتحف البريطانى برقم Or. 8578 وقد طبع هذا الشرح بمصر غير مرة .

(٣) راجع فى حياة ابن زيدون وشعره : الذخيرة ، القسم الأول المجلد الأول ص ٢٨٩ — ٣٧٦ ، وقلائد العقيان ص ٧٠ — ٨٣ .

وكان لحبه لولادة بلا ريب أعمق تأثير فى نفسه وروحه ، وهو تأثير يشيد به النقد الحديث . يقول الأستاذ نكل « وبغير هذا التأثير كان شعر ابن زيدون يبقى ناقصاً بعضاً من أثمن جواهره »(١) .

وإلى جانب هذين الشاعرين العظيمين ، ابن عمار وابن زيدون ، كان بلاط إشبيلية يضم طائفة أخرى من أكابر شعراء العصر ، منهم أبوبكر محمد بن عيسى الدانى المعروف بابن اللبانه وأصله من دانية ، كما يدل على ذلك اسمه؛ وبرع فى الشعر منذ صباه، واتخذه وسيلة للتكسب والعيش، وتجول بين قصور الطوائف يمتدح ملوكهم . ثم اتصل ببلاط إشبيلية، وغدا شاعر المعتمد الأثير لديه ، وقد نظم فى مديحه كثيراً من قصائده . ولما ذهبت دولة المعتمد ، ونفى أسيراً إلى المغرب ؛ زاره أبو بكر بأغمات ، وله فى دولة المعتمد وأيامه ؛ وفى محنته وأسره ، قصائد كثيرة ، وله كتاب فى تاريخ بنى عباد سبقت الإشارة إليه . ولحق فى أواخر أيامه بجزيرة ميورقة ،ومدح صاحبها مبشر العامرى وحظى لديه. ومنهم عبد الجليل بن وهبون ، وهو صديق ابن عمار ومرثيه ؛ وأبو الحسن الحصرى ؛ وأصله من القيروان ، وقد خدم المعتضد ثم المعتمد ، وتوفى بطنجة سنة ٤٨٨ هـ . ومنهم شاعر فذ من الوافدين على الأندلس ، هو عبد الجبار ابن أبى بكر بن محمد الأزدى الصقلى المعروف بابن حمديس؛ وقد ولد بسرقوسة سنة ٤٤٧ هـ ( ١٠٥٥ م ) ، ولما غزا النورمان صقلية فى سنة ٤٧١ هـ ( ١٠٧٨م ) سار إلى تونس ثم إلى إشبيلية والتحق ببلاط المعتمد ، ونظم فى مديحه كثيراً من القصائد ؛ وظهر بروعة افتنانه ولاسيما فى شعره الوصفى . ولما أسر المعتمد زاره فى أغمات وأقام لديه مدة، ثم سار ابن حمديس بعد ذلك إلى المهدية وخدم ملكها وتوفى سنة ٥٢٧ هـ ( ١١٣٢ م ) .

وأما عن الكتاب الذين خدموا فى بلاط إشبيلية، وازدهروا فى ظل بنى عباد، فقد أشرنا إلى الكثير منهم ، خلال حديثنا عن أخبار مملكة إشبيلية ، وإنما أردنا أن نخص الشعراء بالذكر هنا لما كان لبنى عباد فى هذا الميدان من رياسة ومواهب عالية ، ولما كان لدولة الشعر فى ظلهم من رعاية خاصة ، وقد كان بنو عباد

---

(١) A. R. Nykl : ibid; p. 119

أوفر أمراء الطوائف عناية بالحركة الأدبية وإمدادها بالبذل الوفير[١] . ولم يكن يجاريهم فى ذلك أى بلاط آخر من قصور الطوائف.

وكان بنو الأفطس ، ملوك بطليوس ، كذلك من حماة الشعر والأدب ، وكان بلاطهم ولاسيما فى عهد عميدهم المظفر ، وولده عمر المتوكل ، ملاذاً لطائفة من أعظم شعراء العصر ، وفى مقدمتهم وزيرهم الشاعر والكاتب الكبير أبو محمد عبد المجيد بن عبدون المتوفى سنة ٥٢٠ ( ١١٢٦ م ) ، وبنو القبطرنة الثلاثة أبوبكر وأبومحمد وأبوالحسن أبناء عبد العزيز البطليوسى ، وقد كانوا أيضاً من وزراء بنى الأفطس، ومن شعرائهم المجيدين . وقد ذكرهم ابن بسام فى الذخيرة ووصفهم بأنهم من « أسرة أصالة ، وبيت جلالة ، أخذوا العلم أولا عن آخر ، وورثوه كابراً عن كابر ، ثلاثة كهقعة الجوزاء ، وان أربوا عن الشهر فى السنا والسناء » ووصفهم ابن الخطيب بأنهم «كانوا عيونا من عيون الأدب بالأندلس، ممن اشتهروا بالظرف والشرف والجلالة » . وقد برع ثلاثتهم فى النظم والكتابة ، وكتبوا بعد بنى الأفطس لعاهل لمتونة ، يوسف بن تاشفين . ومن نظم أبى محمد قوله :

هلم إلى روضنا يا زهـــــر ولح فى سماء المنى يا قمـــر
وفوق إلى الأنس سهم الأخـــا ء فقد عطلت قوسه والوتر
إذا لم تكن عنـدنا حاضرا فـــا بغصـون الأمانى ثمـــر
وقعتَ من القلب وقــع المنى وُحزت من العين حسن الحَوَر

ومن شعر أبى بكر قوله :

يا أخى قم تر النسيم عليـــلا باكر الروض والمـدام شمولا
فى رياض تعانق الزهر فيهـــا مثل ما عانق الخليل خليـــلا
لا تنم واغتـنم مسرة يوم إن تحت التراب نوما طويلا [٢]

وأما ابن عبدون فقد اشتهر بالأخص بمرثيته الشهيرة لبنى الأفطس عقب ذهاب دولتهم؛ وهى قصيدته المعروفة «بالعبدونية » ، وقد أتينا على ذكرها فيما تقدم . ويصفها الأستاذ نكل بأنها « مزيج مدهش من الشعور العميق ، والمتانة

---

(١) نفح الطيب ( عن رسالة الشقندى ) ج ٢ ص ١٤٠ .

(٢) راجع كتاب « الإحاطة فى اخبار غرناطة » (القاهرة ١٩٥٦) ص ٥٢٧ — ٥٣٠ .

التاريخية » . وكان المظفر بن الأفطس نفسه من أكبر أدباء عصره وأغزرهم مادة ، وقد اشتهر بكتابه أو مصنفه الأدبي والتاريخي الكبير المسمى « بالمظفرى » والذى قيل إنه كان يحتوى على مائة مجلد مليئة بالإخبار والفنون الأدبية(١) . وكذا كان ولده عمر المتوكل عالماً وشاعراً كبيراً .

وكان يجتمع فى بلاط ألمرية حول بنى صمادح ، جمهرة من أقطاب الشعر والأدب ، فى مقدمتهم أبوعبد الله محمد بن عبادة المعروف بابن القزاز ، وأبو الفضل جعفر بن شرف ، وابن الحداد الوادى آشى وغيرهم ، ممن سبق أن ذكرناهم فى أخبار مملكة ألمرية . وقد كان ابن القزاز من أهل مالقة وكان أبرع الوشاحين فى عصر الطوائف. ووصفه ابن بسام « بأنه من مشاهير الأدباء والشعراء ، وأكثر ماذكرا اسمه وحفظ نظمه فى أوزان الموشحات » . وقيل فى حقه « كل الوشاحين عيال على عبادة القزاز» . ومن أشهر موشحاته :

بدر تم    شمس ضحا    غصن نقا    مسك شم
ما أتم    ما أوضحا    ما أورقا    ما أتم
لا جرم    من لمحا    قد عشقا    قد حرم(٢)

وأما ابن شرف ، فهو جعفر بن محمد بن سعيد بن شرف الجذامى القيروانى ، أصله من القيروان وبها ولد سنة ٤٤٤ هـ . ولما اضطرمت فتنة العرب فى إفريقية غادرها إلى الأندلس واستوطن برجة . وكان من أعظم شعراء عصر الطوائف ، وكان فوق ذلك أديبا موهوبا وله مؤلفات فى الأمثال والأخبار والآداب . وتوفى سنة ٥٣٤هـ(٣) . وأما ابن الحداد ، فهو أبوعبد الله محمد بن أحمد بن الحداد القيسى . وكان من أكابر الشعراء ، وقد قضى معظم حياته فى بلاط ألمرية حسبما تقدم ذكره . وهو الذى وجه إليه ابن غرسية رسالته الشهيرة فى تفضيل العجم على العرب .وكان بنو صمادح ، كبنى عباد أسرة شاعرة موهوبة ، وكان المعتصم من أكبر شعراء عصره،وكذلك كان ولداه يحيى الملقب برفيع الدولة ،وأبوجعفر الملقب برشيد الدولة ، وإبنته أم الكرام ، من الشعراء الموهوبين . واشتهر منهم

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ١٣٦ و ١٤١ .
(٢) ابن خلدون فى المقدمة ( بولاق ) ص ٥١٩ ، والذخيرة القسم للثانى من المجلد الأول ص ٢٩٩ .
(٣) ترجمته فى الصلة رقم ٢٩٨ .

بالأخص رفيع الدولة ، وكان أشعرهم جميعاً(١) . ويجب ألا ننسى أن العلامة اللغوى والجغرافى الكبير ، أبوعبيد البكرى قد عاش حيناً فى ألمرية ، تحت كنف المعتصم ورعايته ، ووضع فى ظل هذه الرعاية موسوعته الجغرافية الشهيرة وبعض كتبه الأخرى . وهو أبوعبيد عبدالله بن أبى مصعب عبدالعزيز بن أبى زيد محمد ابن أيوب بن عمرو البكرى . وهو سليل أسرة من الأمراء حكمت ولبة ، وجزيرة شلطيش حيناً ، واستمرت رياسة أبيه بها حتى سنة ٤٤٣ هـ ، حينما أجلاه عنها المعتضد بن عباد . ودرس أبو عبيد على ابن حيان ، والحافظ ابن عبد البر ، وأبى العباس العذرى وغيرهم من أقطاب العصر . وله عدة مؤلفات قيمة فى مقدمتها موسوعته الجغرافية المسماة المسالك والممالك، وكتاب معجم ما استعجم، وهو قاموس لغوى جغرافى ، وكتاب اللآلىء فى شرح أمالى القالى ، وكتاب أعلام نبوة نبينا محمد . وكان البكرى من أقطاب الأدب فى عصره، وكان آية فى التبحر واللغة ومن أساتذة الأنساب والأخبار ، وأهل الضبط . وتوفى البكرى فى سنة ٤٨٧ هـ(٢)

وقال ابن الأبار : « وكان أبو عبيد البكرى من مفاخر الأندلس ، وهو أحد الرؤساء الأعلام ، وتواليفه قلائد فى أجياد الأيام »(٣)

بيد أنه مما تجب ملاحظته أن هذه الرعاية لدولة الشعر والأدب ، لم تبلغ فى القصور البربرية مبلغاً كبيراً ، فلم تزدهر النهضة الأدبية فى ظل بنى ذى النون بطليطلة ولم تجتمع فى بلاطهم سوى قلة من الأدباء والشعراء ، وإن كان قد نبغ فى ظلهم بعض العلماء البارزين فى الفلك والزراعة . وكذلك لم تشهد غرناطة فى ظل بنى مناد البربر أية نهضة أدبية ذات شأن .

أما قصور الطوائف فى شرق الأندلس ، وفى سرقسطة ، فكان لها شأن خاص فى رعاية الحركة الأدبية والفكرية بوجه عام . وكان بلاط سرقسطة ، شأنه شأن بقية قصور الطوائف يسبغ رعايته على عدد من أكابر الشعراء والكتاب ، وكان فى مقدمة هؤلاء ، أبو عمر أحمد بن محمد درّاج القسطلى ، وهو من أبرز شعراء عهد انهيار الخلافة وبداية عهد الطوائف . ولد بقسطلة الغرب سنة ٣٤٧ هـ من أصل بربرى وتوفى سنة ٤٢١ هـ، وكان فى شبابه من كتاب المنصور بن أبى عامر

(١) الحلة السيراء (دوزى) ص ١٧٦ . والقاهرة ج ٢ ص ٩٢ .

(٢) ترجمته فى الصلة رقم ٦٣٢ .

(٣) الحلة السيراء ج ٢ ص ١٨٥ .

وشعرائه ، وذاع اسمه بين ألمع شعراء الطوائف ، ومدح عدداً من أمرائهم ، ولا سيما الفتيان العامريين أمثال مجاهد ومظفر ومبارك وخيران ، ثم التحق ببلاط سرقسطة ، ومدح المنذر بن هود ثم ابنه يحيي . وقد وصفه الثعالبي فى يتيمة الدهر ، بأنه كان بين شعراء الأندلس ، كالمتنبي بين شعراء المشرق ، وقد ترك لنا ابن درّاج ديوان شعر ضخم يضم عدداً كبيراً من أروع القصائد فى مختلف الأغراض(١) . وقد اشتهر ابن دراج كذلك ببلاغته فى الترسل ، وأورد لنا ابن بسام فى الذخيرة طائفة من رسائله إلى جانب ما أورده من منظومه . وقد أوردنا نحن فيما تقدم شيئاً من نظمه . وكان من بين أمراء سرقسطة فى الوقت نفسه ، بعض الأدباء والعلماء البارزين ، وهؤلاء سوف نذكرهم خلال حديثنا فيما يلى عن النهضة الفكرية العامة فى عصر الطوائف.

— ٣ —

إلى جانب هذه النهضة الأدبية والشعرية الزاهرة، يمتاز عصر الطوائف بنبوغ جماعة من العلماء الأفذاذ الذين يرتفعون إلى الذروة ، فى تفكيرهم ومستواهم العلمى الرفيع ، وفى مقدمة هؤلاء العلامة الفيلسوف أبومحمد على بن حزم ، وقدكان آية عصره فى نضوج الذهن ودقة البحث ، وعمق التفكير . ولد بقرطبة فى سنة ٣٨٣ هـ ( ٩٨٤ م ) فى أواخر عهد المنصور ، وكان أبوه أحمد بن حزم من وزراء المنصور المقربين ، ثم وزر من بعده لابنه عبد الملك . وقضى ابن حزم حداثته أيام الفتنة بقرطبة ، ثم تجول حيناً فى ألمرية وبلنسية فى كنف الفتيان العامريين ، وكان مثلهم يؤيد قضية الخلافة الأموية ، ولما هدأت الأحوال نوعاً عاد إلى قرطبة ، وتابع دراسته فى المسجد الجامع . وبرع ابن حزم بالأخص فى الفقه والعلوم الدينية والشرعية ، وأصول المذاهب والنحل، وفى المنطق والفلسفة واللغة، والمعرفة بالسير والأخبار. وتولى الوزارة فى شبابه للخليفة المستظهر الأموى، ثم نزح إلى شاطبة ، وهنالك كتب كتابه «طوق الحمامة» ، وهو دراسة نفسية تحليلية بديعة للحب وبواعثه وأشكاله، ومنه نعرف فضلا عن ذلك ، الكثير عن حياة الفيلسوف،

(١) نشر هذا الديوان بدمشق سنة ١٩٦١ بتحقيق الدكتور محمود على مكى . وتراجع ترجمة ابن دراج فى ابن خلكان ج ١ ص ٥١ ، وفى بغية الملتمس . الترجمة رقم ٣٤٢ . وأورد له الدكتور مكى فى صدر الديوان ترجمة طويلة ( ص ٢١ — ٨٠ ) .

وعن منازل أسرته وعن خطط قرطبة المعاصرة . وكتب بعد ذلك عشرات من الكتب والرسائل فى مختلف الموضوعات الفقهية والفلسفية والتاريخية منها كتاب « الإحكام لأصول الأحكام » ، وكتاب فى الإجماع ومسائله على أبواب الفقه ، وكتاب فى مراتب العلوم ، وكتاب إظهار تبديل اليهود والنصارى للتوراة والإنجيل ، ومنها كتاب « جوامع السيرة » ، وهو عرض لسيرة الرسول وغزواته وذكر أصحابه ، ومن روى عنه ، وذكر نبذ من فتوح الإسلام بعد الرسول ، و « جمهرة أنساب العرب » وهو وثيقة جامعة لأصول القبائل العربية وأنسابها ، ومن نزل منها بالأندلس ، « ونقط العروس » وهو يتضمن سلسلة من النوادر والحوادث ، والمقارنات والنظائر التاريخية الفريدة . وإذا كان ابن حزم يصف لنا التاريخ بأنه « علم الأخبار » ، ويعتبر علم النسب جزءا من علم الخبر ، فإنه يحق لنا بعد الذى تقدم من ذكر كتبه ، أن نعتبره مؤرخا بكل معانى الكلمة . على أن ابن حزم لم يكن مع ذلك مؤرخا عاديا ، بل كان بالعكس مؤرخا من طراز خاص ، بل ومن طراز نادر ، من طراز أولئك المؤرخين الذين تعتبر كلماتهم ، عن حوادث عصرهم وشخصياته ، أحكاماً لاتقبل الجدل . وقد عاش ابن حزم فى عصر فياض بالاضطرابات والأحداث المثيرة ، هو عصر انحلال الخلافة الأندلسية ، وقيام دول الطوائف ، وشهد الكثير من أحوال هذا العصر وتقلباته ، ومن تصرفات أمراء الطوائف ، ومثالبهم ، وبغيهم ، واستهتارهم ، وهزت هذه الأحداث مشاعره إلى الأعماق ، ومن ثم كانت أقواله وأحكامه الصادقة التى أصدرها فى حق الطوائف ، والتى نقلناها فيما تقدم . بيد أن ابن حزم يشتهر بنوع خاص سواء فى الشرق أو فى الغرب ، بكتابه الجامع « الفصل فى الملل والأهواء والنحل » . ويشيد البحث الحديث بابن حزم ، وروعة علمه وتفكيره ، ويخصص له العلامة الإسبانى آسين بلاثيوس كتاباً يتناول فيه حياته وكتابه « الفصل » ويعتبره « مفكراً وعالماً لاهوتياً ، ومؤرخا ناقداً للأديان والمدارس الفلسفية الدينية »(١) . ويعتبره الأستاذ نكل « أديباً وشاعراً وفقيهاً ، ومؤرخاً سياسياً وعالماً أخلاقياً »(٢).

---

(١) A. Asin Palacios : Abenhàzm de Córdoba y su Historia de las Ideas religiosas.

(٢) A. R. Nykl : ibid., p. 73

وكان ابن حزم بالأخص داعية من أشد دعاة المذهب الظاهرى ، وقد غلبت هذه النزعة على سائر بحوثه الفقهية والكلامية ، واعتبر حجة هذا المذهب وإمامه فى عصره . وكان يتشدد كل التشدد فى تطبيقه على العقائد ، والأحكام ، وهو لايأخذ فى تفسير الأحكام إلا بالكلمة المكتوبة ، والحديث الثابت ، ويعتبرهما حاسمين فى صوغ الأحكام . وقد اشتهر باعتناقه لهذا المذهب حتى أن أنصاره سموا فيما بعد « بالحزمية » نسبة إليه . وقضى ابن حزم حياة فكرية عميقة خصبة . وأثار فى الوقت نفسه ، بآرائه ونظرياته الأصولية والدينية من حوله خصومات كثيرة ، واتهمه البعض بالمروق والزندقة، وأحرقت كتبه فى إشبيلية بأمر المعتضد ابن عباد(١). ونزح فى أواخر حياته إلى دار أسرته بقرية منت ليشم من أعمال لبلة ، وهنالك توفى فى شعبان سنة ٤٥٦ هـ ( ١٠٦٤ م )(٢) .

وكان من أقران ابن حزم الذين طرقوا مثل ميدانه فى التفكير الدينى والشرعى ، العلامة أبو الوليد الباجى ، وهو سليمان بن خلف بن سعيد بن أيوب التجيبى الباجى الحافظ . ولد بمدينة بطليوس غربى الأندلس سنة ٤٠٣هـ ودرس فى قرطبة، ثم سافر إلى المشرق ودرس حيناً بمكة ثم فى بغداد . ولما عاد إلى الأندلس عاش حيناً فى بلاط ميورقة ، وحيناً آخر فى كنف المقتدر بن هود ، واشتهر بردوده على ابن حزم ، وكان قرينه فى غزارة العلم وسعة المعرفة . وقد وصف بأنه من أئمة المسلمين . وتوفى فى سنة ٤٧٤ هـ ( ١٠٨١ م ) . ومن شعره :

إذا كنت أعلم علما يقينا ... بأن جميع حياتى كساعة
فلم لا أكون ضنينا بها ... وأجعلها فى صلاح وطاعة (٣)

ونبغ إلى جانب ابن حزم عالم ومفكر جبار آخر ، هو العلامة اللغوى الأعمى أبو الحسن على بن سيده ، المتوفى فى سنة ٤٥٨ ( ١٠٦٦م ) . وكان آية فى الحفظ

---

(١) ترجمته فى جذوة المقتبس ص ٢٩٠ – ٢٩٣ ، وفى وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٢٨ – ٤٣١ .

(٢) فى شهر مايو ( من ١٢ – ١٨ منه سنة ١٩٦٣ ) نظم بمدينة قرطبة مهرجان رسمى فخم للاحتفال بذكرى مرور تسعمائة عام على وفاة العلامة ابن حزم « القرطبى » وأقامت له بلدية قرطبة تمثالا بالحجم الطبيعى أمام باب إشبيلية على مقربة من الجامع . وأقيمت كذلك لوحة تذكارية لا بن حزم بالإسبانية ، أمام مدخل كنيسة سان لورنتسو التى أقيمت مكان الجامع الذى كان يتوسط بلاط مغيث وهو الحى الذى عاش فيه ابن حزم . ونظمت بهذه المناسبة عدة ندوات دراسية ، وطائفة من الحفلات الفخمة . وقد كان مؤلف هذا الكتاب من شهود هذا المهرجان التاريخى العظيم .

(٣) ترجمته فى الصلة رقم ٤٥٣ .

وقوة الذاكرة، وقد عاش بدانية فى كنف أميرها العالم مجاهد العامرى ، وانقطع إليه ، ولما توفى مجاهد ، توجس من ولده على إقبال الدولة ، فغادر دانية إلى بعض الأنحاء المجاورة . واشتهر ابن سيده بكتابه « المحكم » وهو قاموس لغوى ضخم ، وكتاب « السماء » .

وكان من كتاب الموسوعات أيضاً العلامة اللغوى الجغرافى أبو عبيد البكرى الذى سبق ذكره . وقد اشتهر بمعجمه اللغوى الجغرافى المسمى « معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع » ، وهو مؤلف انتفع به الملك ألفونسو العالم فى تاريخه العـام Crónica General

ويخص العلامة الأستاذ مننديث پيدال كتابى « الفصل » لابن حزم و « المحكم » لابن سيده بالذكر ، وينوه بنفاستهما ، ويقول : « إن النضوج العقلى اللازم لإخراج كتاب فى تاريخ الأديان ، أو قاموس للفكر المتشابهة ، على مثل النمط الذى كتبت به هذه المصنفات الإسبانية الإسلامية ، لم تصل إليه أوربا حتى القرن التاسع عشر »(١)

ومن أولئك العلماء الممتازين أيضاً العلامة ابن عبد البر ، وهو أبو عمر يوسف ابن عبد الله النمرى القرطبى ، ولد سنة ٣٦٨ هـ ( ٩٧٨ م ) ، وقضى شطراً من حياته فى دانية وبلنسية وشاطبة ، ثم لحق أخيراً ببلاط بنى الأفطس ببطليوس وعينه المظفر بن الأفطس قاضياً لأشبونة ، ثم شنترين ، وتوفى فى سنة ٤٦٣ هـ ( ١٠٧١ م ) . وكان من أوفر كتاب عصره علماً ومعرفة ، وأشهر مؤلفاته كتاب « بهجة المجالس وأنس المُجالس » ويمتاز شعره بالرصانة والأنفة . وقد خدم ولده أبو محمد عبد الله بن عبد البر فى بلاط بنى عباد ، حسبما تقدم ذكره فى موضعه(٢)

ويمكننا أن نذكر ضمن هذا الثبت من العلماء الأعلام ، أميرين من أمراء الطوائف ، هما مجاهد العامرى صاحب دانية ، وأبو عبد الرحمن محمد بن أحمد ابن طاهر صاحب مرسية . وكان مجاهد من أكابر علماء عصره فى اللغة وعلوم القرآن ، وكان بلاطه مجمعاً لطائفة من أشهر علماء العصر ، وفى مقدمتهم ابن عبد البر ، وابن سيده وذلك حسبما تقدم ذكره . وكان أبو عبد الرحمن بن طاهر

---

(١) R. M. Pidal : ibid., p. 81

(٢) نفح الطيب ( عن رسالة ابن حزم فى ذكر علماء الأندلس ) ج ٢ ص ١٢١ .

كذلك من أعظم علماء الأندلس وكتابها أيام الطوائف ، ويشيد معاصره ابن بسام حسبما تقدم بذكره وذكر أدبه فى الذخيرة، وينوه بجمال رسائله وروعتها . وقد وقفنا على نص صك من إنشائه بتقديم صاحب أحكام على بعض جهات مرسية أيام رياسته لها يقول فيه : « قلدت فلانا وفقه الله النظر فى أحكام فلانة ، وتخيرته لها بعد ما خبرته ، واستخلفته واثقا بدينه ، راجيا لتحصنه ، لأنه احتاط فعلم ، وإن أضاع فأثم ، فليقم الحق على أركانه ، وليضع العدل ، وليسر بين خصومه ، وليأخذ من الظالم لمظلومه ، فعف فى الحكم عند اشتباهه ، وبعده عند اتجاهه ، ولا تقبل غير المرضى فى شهادته ، ولاتعرف سوى الاشتغال من علاته ، ولتعلم أن الله مطلع على خفياته ، وسلام يوم علاماته »(١)

هذا وقد كان عصر الطوائف ، فضلا عن هذه النهضة الأدبية والفكرية الشاملة ، يمتاز كذلك بازدهار الدراسات العلمية الممتازة . وقد نبغت فيه طائفة من أكابر الرياضيين والفلكيين ، الذين كانت بحوثهم فيما بعدمستقى خصباً لاقتباس الغرب . وكان من هؤلاء أبو اسحق ابن اهيم بن يحيي الزرقالى القرطبي صاحب الجداول الفلكية الشهيرة أصله من طليطلة ، ويعرف فى الغرب باسم Azarquiel وقد ذاعت جداوله الفلكية ، ذيوعا عظيما ، وكانت فى كثير من المواطن أصح من غيرها من الجداول القديمة ، وتوفى الزرقالى سنة ٤٨٠ هـ ( ١٠٨٧ م ) . وأبو القاسم أصبغ بن السمح الغرناطى المتوفى سنة ٤٣٨ هـ ( ١٠٣٨ م ) ، وكان بارعاً فى الهندسة والفلك ، وله كتب قيمة فى الهندسة وزيج فلكى . وأبو الوليد هشام الوقشى ، وكان أبرع علماء عصره فى الهندسة والفلسفة والنحو واللغة ؛ وتلميذه أبو القاسم سعيد بن أحمد الطليطلى صاحب كتاب « طبقات الأمم » وهو تاريخ للعلوم . وقد كانت الجداول الفلكية التى وضعها أولئك العلماء المسلمون فيما بعد ، أقيم مرجع لألفونسو ملك قشتالة فى اقتباس جداوله . وقد اشتهر ألفونسو العالم بالأخص باعتماده على مصادر العلوم الأندلسية ، ولاسيما فى عصر الطوائف، واقتباسه تقاليد العلماء الأندلسيين فى هذا العصر، الذى سبقه بنحو قرنين . وكانت سرقسطة ، وطليطلة ، وقرطبة ، من أعظم مراكز

(١) أورده ابن عبد الملك فى « الذيل والتكملة » — الجزء الرابع من مخطوط المكتبة الوطنية بباريس .

الدراسات الفلسفية والرياضية فى القرن الحادى عشر الميلادى . وكان المقتدر بن هود وولده المؤتمن ، من العلماء المبرزين فى الفلسفة والرياضيات والفلك . وكتب المؤتمن رسالته « الإستكمال » فى الرياضية . وأثارت بحوث هذين الأميرين العالمين إعجاب الدوائر العلمية فى العصور الوسطى(١) .

كانت هذه الجمهرة الحاشدة من الأدباء والشعراء والعلماء ، التى حفل بها عصر الطوائف تملأ قصور الطوائف ، وتعيش فى كنف أمرائها ، سواء بطريق الخدمة فى الوزارة أو الكتابة أو القضاء أو غيرها ، أو فى ظل الصحبة والرعاية المجردة لأولئك الأمراء . وكان أولئك العلماء والأدباء ، ينتقل معظمهم من دولة إلى أخرى ، ومن قصر إلى قصر ، وفقاً للأحوال والظروف ، إذ كانت هذه القصور جميعاً تتنافس فى اجتذاب أعلام الكتاب والأدباء إليها ، وفى رعايتهم والإغداق عليهم ، وكان بعضهم ينقطع إلى أمير بذاته ، ويعيش فى كنفه وتحت رعايته ، وكان بعضهم يستحوذ على سياسة الدولة ، ويسيرها وفق رأيه ، أو يخوض غمار الدسائس والفتن فيذهب ضحية تدخله . وقد كان ابن عباس وزير زهير العامرى ، وأبو عبد الله البزليانى وزير المعتضد بن عباد ، وابن عمار وزير ولده المعتمد ، أسطع أمثلة لأولئك الوزراء المغامرين ، وقد دفع كل منهم حياته ثمناً لمغامراته .

وكان من آثار ازدهار الحركة الفكرية فى عصر الطوائف ، ذيوع المكتبات العامة والخاصة ذيوعاً يلفت النظر . ذلك أن كل مدينة أندلسية غدت عاصمة لمملكة كبيرة أو صغيرة . وكان أمراء الطوائف يتنافسون فى اقتناء الكتب النفيسة والنادرة ، وقد كانت تنهال على شبه الجزيرة من سائر أنحاء العالم الإسلامى . وقد لبثت قرطبة بالرغم مما أصابها من آثار الفتن والحروب الأهلية ، مركز العلوم والدراسات الممتازة ، وبقيت بالرغم مما أصاب المكتبة الأموية الكبرى من التبديد المؤلم ، مثوى لكثير من المجموعات النفيسة الخاصة . وكانت إشبيلية ، حاضرة بنى عباد ، هى الثانية بعد قرطبة ، فى تقدم العلوم والثقافة ، وكانت تحتوى ، فضلا عن مكتبة بنى عباد الملوكية العظيمة ، على عدد كبير من المكتبات الخاصة . وكانت ألمرية أيضاً من الحواضر التى اشتهرت بمكتباتها القيمة . وكان

---

(١) يراجع فى تفاصيل النهضة الفكرية فى عصر الطوائف رسالة ابن حزم عن الحركة العلمية بالأندلس ، وقد نشرت فى نفح الطيب ج ٢ ص ١٢٦ وما بعدها ، ورسالة الشقندى وقد نشرت أيضاً فى نفح الطيب ج ٢ ص ١٣٨ وما بعدها . ويراجع أيضاً R. M. Pidal : ibid., p. 79-84 .

الوزير أحمد بن عباس وزير زهير العامرى ، فضلا عن علمه الغزير ، من أعظم هواة الكتب ، ويقال إن مكتبته العظيمة كانت تضم أربعمائة ألف مجلد . واشتهرت بطليوس فى ظل بنى الأفطس بتقدمها العلمي والثقافى . وكذا كانت طليطلة فى ظل بنى ذى النون مركزاً عظيما للبحوث العلمية . واشتهر بنو ذى النون كذلك بجمع الكتب ، وكانت لديهم مكتبة عظيمة . وكانت توجد غير المكتبات الملكية ، مكتبات كثيرة أخرى خاصة وعامة ، فى سائر القواعد الأندلسية . وكان لهذه الثروات المكتبية، تأثيرها بلا ريب ، فى تقدم الحركة الفكرية والثقافية ، فى عهد الطوائف(١) .

وقد امتدت هذه النهضة الفكرية والأدبية التى ازدهرت فى عصر الطوائف إلى عهد المرابطين . وقد كان أولئك المرابطون يتسمون بالخشونة والبداوة ، ويضطرمون بالأفكار الرجعية العتيقة ، ويمقتون مظاهر الحضارة الأندلسية الرفيعة ، فركدت فى ظلهم دولة التفكير والأدب ، وانفرط عقد الحلقات الأدبية الزاهرة ، التى كانت تحفل بها قصور الطوائف ، ومع ذلك فقد بزغت فى عهدهم بعض أضواء مستمدة من تراث عصر الطوائف ، وظهرت فيه عدة من الشخصيات اللامعة ، مثل أبى القاسم خلف بن عباس القرطبي الطبيب الأشهر المتوفى سنة ٥٦٦ هـ ( ١١٢٢ م ) ، وابن باجة الطبيب الفيلسوف المتوفى سنة ٥٣٣ هـ ( ١١٢٩ م ) . وأبو بكر الطرطوشي المتوفى سنة ٥٢٠ هـ ( ١١٢٦ م ) ، والفتح بن خاقان المتوفى سنة ٥٣٥ هـ ( ١١٤٠ م ) ، وابن بسام الشنتريني المتوفى سنة ٥٤٢ هـ ( ١١٤٧ م ) . بيد أن ظهور هؤلاء العلماء والأدباء الأعلام فى هذه الفترة لم يكن إلا أثراً من آثار النهضة الفكرية فى عصر الطوائف.

* * *

وقد حظى عصر الطوائف ، بعدة من أكابر العلماء والأدباء والمؤرخين الذين عنوا بتاريخه وتدوين حوادثه وخواصه ، وتاريخ أعلامه . وفى مقدمة هؤلاء الفيلسوف ابن حزم . وبالرغم من أن ابن حزم لم يكن مؤرخا بالمعنى الصحيح لعصر

---

(١) راجع فى ذلك فصلا للأستاذ خوليان ريبرا عنوانه : **Bibliofilos y Bibliotecas** فى كتابه **Disertaciônes y Opûsculos en la Espana Musulmana** . وراجع الإحاطة لابن الخطيب (القاهرة ١٩٥٦) ، ج ١ ص ٢٦٧ .

الطوائف ، إلا أنه يقدم لنا فى رسالته المسماة « نقط العروس » ، وفى بعض رسائله الأخرى، طائفة من الوقائع والملاحظات الصادقة عن عصرالطوائف وشخصياته، أشرنا إليها واقتبسنا منها فيما تقدم . ثم المؤرخ الكبير أبومروان حيان بن خلف ابن حيان، وقد ولد بقرطبة سنة ٣٧٧ هـ ( ٩٨٧ م ) وتوفى بها سنة ٤٦٩ هـ ( ١٠٧٦ م )، وكان أبوه خلف بن حيان من وزراء المنصور بن أبى عامر . وبرع ابن حيان فى الأدب والرواية حتى غدا من إعلامها وخاصة محققيها، وكانت نشأته الأرستقراطية ، وعلائق أسرته بالأوساط العليا ، تتيح له حسن الاطلاع والوقوف على شئون الدولة ، ودراسة مختلف التيارات السياسية . وشهد ابن حيان فى شبابه سقوط الدولة العامرية ، وما تلاه من ترنح الخلافة الأموية ثم سقوطها ، وقيام دول الطوائف فى بداية القرن الخامس الهجرى ، وتولى هو الوزارة لبنى جهور ، وشهد سقوط دولتهم ، وخصص لها كتابا من كتبه . ولاريب أن هذه الأحداث المثيرة ، التى مزقت وحدة الوطن الأندلسى ، قد أذكت مخيلة ابن حيان ، وصقلت قلمه ، وأمدته بكثير من التعليقات الصائبة ، والملاحظات النقدية القوية ، التى نراها ماثلة فى معظم ماكتبه عن حوادث عصره . وأعظم آثار ابن حيان كتابه « المقتبس فى تاريخ رجال الأندلس » أو « المقتبس فى أخبار أهل الأندلس » وهو تاريخ ضخم للأندلس حتى عصره أى عصر الطوائف . وقد انتهت الينامنه عدة قطع مخطوطة(١) . وقد ضمنه ابن حيان ، عن عصر الطوائف وأحداثه التى شهد الكثير منها بنفسه ، أقيم الروايات وأنفسها، وأحفلها بالتعليقات النقدية . وكتب ابن حيان غير المقتبس، كتابه « المتين » وهو أيضاً تاريخ للأندلس تبالغ الرواية فى ضخامته ، ولكن لم يصل إلينا شىء منه ، وكتاب المآثر العامرية ، وهو أيضاً كتاب ضخم يقص فيه ابن حيان سيرة المنصور ابن أبى عامر وغزواته، ولكنه لم يصل كذلك الينا. وأسلوبه التاريخى يتسم بروح علمى ونقدى بارز . ويشيد ابن بسام بمجهوده التاريخى ، وينقل عنه شذوراً ضافية ، ولكنه يحمل عليه لمواقفه المتناقضة أحياناً

(١) يوجد منه جزء كبير مخطوط عن عهد عبد الرحمن الناصر بالخزانة الملكية بالرباط ، وقطعتان مخطوطتان أخريان بخزانة القرويين الكبرى بفاس ، وقطعة صغيرة مخطوطة بمكتبة أكاديمية التاريخ بمدريد . وهذا عدا الجزء الذى نشره المستشرق الإسبانى الأب ملشيور انتونيا (باريس سنة ١٩٣٧ ) . ( راجع فى ذلك كتابى دولة الاسلام فى الأندلس — الطبعة الرابعة ص ٧ — ٩ ) .

بين المديح والذم ، والتقدير والانتقاص ، وذلك حسبما أشرنا إليه فى موضعه فى أخبار دولة بنى جهور[١] . وجاء بعد ابن حيان تلميذه أبو عبد الله الحميدى المتوفى سنة ٤٨٨ هـ (١٠٩٥ م) ؛ وقد عنى فى معجم تراجمه[٢] ، بترجمة كثير من العلماء والأدباء ، والفقهاء والمحدثين ، فى عصر الطوائف . وكتب المؤرخ والأديب الكبير أبو الحسن على بن بسام الشنترينى معجمه التاريخى والأدبى الضخم بقرطبة ، عقب انتهاء عهد الطوائف بقليل ، فى سنتى ٥٠٢ و ٥٠٣ هـ . وقد عاصر ابن بسام ، قبل أن يغادر موطنه مدينة شنترين البرتغالية نحو سنة ٤٨٠ هـ ، قبيل استيلاء النصارى عليها بأعوام قلائل[٣] ، أواخر عهد الطوائف ، وأوائل عهد المرابطين ، وعاش وقتاً فى إشبيلية ، ثم غادرها إلى قرطبة ، حيث كتب مؤلفه . ويعتبر كتاب « الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة » وهو مؤلف ضخم يحتوى على أربعة مجلدات أو أقسام كبيرة ، من أقيم وأنفس مصادرنا عن الطوائف سواء من النواحى التاريخية أو الأدبية أو الاجتماعية . وبالرغم من أن الصفة الأدبية تغلب عليه ، بما يورده من تراجم أكابر الأدباء والكتاب والشعراء ، ومن منثورهم ومنظومهم ، فإنه مع ذلك يتضمن طائفة كبيرة من الفصول والشذور التاريخية ، المنقولة عن ابن حيان وغيره من المؤرخين المعاصرين ، أو المكتوبة بقلم ابن بسام ذاته . ويصارحنا ابن بسام فى مقدمته بالدافع النفسى الذى دفعه إلى تصنيف « الذخيرة » ، وهو أنه رأى انصراف أهل عصره وقطره إلى أدب المشرق والتزود منه والإعجاب به ، وإهمال أدب بلدهم ، فأراد بوضع الذخيرة ، وجميع ما تضمنه ، من رائق المنثور والمنظوم ، أن يبصر أهل الأندلس بتفوق أدبائهم ، وروعة إنتاجهم ، وأن الإحسان ليس مقصورا على أهل المشرق . ومن الواضح أيضاً أن ابن بسام أراد أن يعارض بكتابه فى محاسن أهل الجزيرة أى جزيرة الأندلس ، أديب المشرق الكبير أبى منصور الثعالبى صاحب

---

(١) راجع الذخيرة القسم الأول المجلد الثانى ص ٨٤ و ٨٥ و ١١٣ .

(٢) وهو المسمى «جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الأندلس» . وقد صدرت منه طبعة جديدة بالقاهرة فى سنة ١٣٧٢ هـ .

(٣) راجع الذخيرة القسم الأول المجلد الأول ص ٨ . وقد سقطت شنترين فى يد ألفونسو السادس ملك قشتالة فى سنة ٤٨٦ هـ (١٠٩٣ م) .

« يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر » ، فالذخيرة واليتيمة بذلك صنوان يدعو كل منهما إلى تذوق محاسن قطره .

ونجد إلى جانب ابن بسام كاتباً أديباً ومؤرخاً آخر ، هو الفتح بن خاقان المتوفى سنة ٥٢٩ هـ (١١٣٤م) صاحب كتابى « القلائد » و« المطمح ». وقد أورد لنا فى « القلائد »(١) تاريخ طائفة كبيرة من أمراء الطوائف ووزرائهم من الكتاب والشعراء والقضاة ، يقدمهم إلينا فى أسلوب مسجع ، يغلب عليه التكلف ، ويتضمن مع ذلك نبذاً وحقائق تاريخية هامة ، وكذا فى المطمح أو« مطمح الأنفس ومسرح التأنس » فقد تحدث عن طائفة من الأعيان الذين تناولهم فى القلائد ، وتحدث عن غيرهم بنفس الأسلوب المسجع . ونجد أخيراً شاعراً وكاتباً كبيراً ، هو أبو محمد عبد المجيد بن عبدون ، وزير بنى الأفطس والرائى لدولتهم ، المتوفى سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) وهو الذى سبق ذكره، يقدم لنا فى رسالته عن« القضاء والحسبة » صوراً هامة عن شئون القضاء والحسبة ، وما يتعلق بها من أحوال الناس والمجتمع فى عهد الطوائف ، تبدو فيها روح النقد والتشاؤم ، وهو ينوه فى رسالته بما كان يجرى فى إشبيلية ، حيث كان يقيم ، من ضروب الفساد ، ويدعو إلى الكف عن أمور كانت تجرى فى عهده ، منها ألا يدخل النساء المسلمات الكنائس المشفوعة تحوطاً من فسق القساوسة ، وألا تقرع النواقيس فى بلاد المسلمين ، إذ هى لاتضرب إلا ببلاد النصارى ، وألا يبيع النصارى واليهود كتب العلوم الإسلامية لأنهم يترجمونها وينسبونها إلى أعيانهم ، وألا يتولى الأطباء اليهود والنصارى علاج المسلمين . إلى غير ذلك مما سبق أن أشرنا إليه . ومما جاء فى ختام رسالته قوله : « وبالجملة فإن الناس قد فسدت أديانهم وإنما ... الدنيا الفانية والزمان على آخره . وخلاف هذه الأشياء ، هو ابتداء الهرج ، وداعية الفساد ، وانقضاء العالم . ولا يصلح ذلك إلا نبى بإذن الله . فإن لم يكن زمن نبى ، فالقاضى مسئول عن ذلك كله ، ومن كان فى عون المسلمين ، كان الله فى عونه ، فعليه أن يصرح بالحق ، ويجرى إلى الإصلاح والعدل

---

(١) هو كتاب « قلائد العقيان » وقد طبع بالقاهرة سنة ١٢٨٣ هـ .

والتخلص ، وينظر لنفسه ، فعسى يتخلص ، والله بعزته يسدده ، ويوفقه للخير ... »[1] .

— ٣ —

الخواص الفنيــة

وكما ازدهرت العلوم والآداب فى عصر الطوائف، فكذلك ازدهرت الفنون والصناعات ، وكانت قصور الطوائف مثوى للفنون الجميلة ، ومظهراً حياً لكل ما تمخض عنه ذلك العصر من زخرف وترف وإناقة ، وكانت بالأخص منتديات زاهرة للموسيقى ، وما يتبعها من الغناء . وكان معظم أمراء الطوائف من عشاق الموسيقى يتنافسون فى اقتناء القينات الحسان البارعات فى العزف والغناء، ويبذلون فى ذلك الأموال الطائلة ، حتى لقد بذل أحدهم ، وهو هذيل بن رزين صاحب شنتمرية الشرق ثلاثة آلاف دينار ثمناً لإحدى هؤلاء القينات ، وكان فى قصورهم منهن أسراب وأسراب ، ولاسيا فى قصور بنى عباد بإشبيلية ، وبنى ذى النون بطليطلة ، وكان المعتمد بن عباد يعشق الموسيقى ، ويصحب الموسيقيين معه أثناء حملاته الحربية .

وكذلك ازدهرت الزراعة بالأندلس فى عصر الطوائف . ونحن نعرف ما امتاز به أهل الأندلس من البراعة فى الفنون الزراعية ، وكيف حولوا وديان الأندلس إلى مهاد ورياض نضرة ، وكيف اتخذت فنون الزراعة على أيديهم طابعاً علمياً واضحاً . وقد كان أهل الأندلس فى الواقع من أنبغ الشعوب فى فلاحة الأرض وتربية الماشية ، وغرس الحدائق ، وتنظيم طرق الرى والصرف، ومعرفة أحوال الجو، وكل ما يتعلق بفنون الزراعة وخواص النبات ، وكانت مزارعهم وحدائقهم، مضرب الأمثال فى الجودة والتنسيق والنماء . ويرجع ازدهار الزراعة فى عصر الطوائف إلى شغف ملوك الطوائف بإنشاء الحدائق والبساتين اليانعة، وتربية الغراس والزهور النادرة . وقد ظهر فى عصر الطوائف ، عدة من علماء النبات

---

(١) نشرت رسالة ابن عبدون فى القضاء والحسبة ضمن مجموعة تتضمن ثلاث رسائل فى الحسبة ، نشرت بعناية الأستاذ ليڤى بروڤنسال ، وصدرت ضمن مطبوعات المعهد الفرنسى للآثار بالقاهرة .

والزراعة ، ولاسيما فى طليطلة وإشبيلية ، حيث كانت حدائق بنى ذى النون فى الأولى ، وحدائق بنى عباد فى الثانية ، تشغل مساحات واسعة ، وتتطلب عناية الخبراء الممتازين . وكان من علماء النبات والفلاحة البارعين فى طليطلة ابن وافد الطبيب المشهور ، وكان يشرف على حدائق بنى ذى النون . وأبو عبد الله بن بصّال العالم الزراعى، الذى عاش فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى . وقد اشتهر ابن بصال بتجاربه العلمية الناجحة فى توليد الغراس ، ومكافحة الآفات الزراعية ، وكتابه « الفلاحة » الذى انتهى إلينا ، وهو المشتق من دراساته وتجاربه العملية ، يشهد ببراعته وتفوقه فى هذا الميدان . ولما سقطت طليطلة فى أيدى النصارى ، غادر ابن بصال طليطلة إلى إشبيلية ، وعهد إليه هنالك بالإشراف على بساتين بنى عباد . وكان من هؤلاء العلماء أيضاً أبوعمر أحمد بن محمد بن حجاج ، وقد عاش فى إشبيلية ، وألف كتاباً فى الزراعة اسمه « المقنع » لم يصل إلينا . وأبو عبد الله محمد ابن مالك الطغنرى ، وهو غرناطى عاش فى أواخر القرن الحادى عشر ، وتتلمذ على ابن بصال ، ووضع كتاباً فى الفلاحة سماه « زهر البستان ونزهة الأذهان » . وكان منهم بقرطبة ابن لونكو الذى عاش فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى ، وكان أيضاً من تلاميذ تلك المدرسة الزراعية الزاهرة . وقد توفى فى سنة ٤٩٨ هـ ( ١١٠٤ )(١) .

وأما عن الصناعات ، فقد كانت كذلك فى عصر الطوائف رائجة زاهرة ، وكانت تشمل كثيراً من الصناعات الهامة مثل صناعات الحديد والنحاس والزجاج والنسيج . وكانت صناعة النسيج بالأخص ، من أهم وأشهر الصناعات أيام الطوائف ، وكان بمدينة ألمرية وحدها ، خمسة آلاف منسج ، تنتج أفخم وأجمل أنواع الأقمشة . وكانت السفن من مختلف ثغور المشرق ، ومن الثغور الإيطالية ، تقصد إلى ألمرية وغيرها من الثغور الأندلسية محملة بالسلع من كل ضرب ، ثم تعود محملة بالسلع الأندلسية . وكانت دول الطوائف ذات الثغور ، مثل إشبيلية وألمرية ، وبلنسية ودانية وسرقسطة ، تجنى من التجارة الخارجية أرباحاً طائلة .

---

(١) راجع مقدمة كتاب الفلاحة لابن بصال المنشور بعناية المستشرق الإسبانى Millas Vallicrosa الأستاذ محمد عزيمان (تطوان ١٩٥٥) .

والخلاصة أن دول الطوائف تقدم إلينا ذلك المزيج المدهش من الضعف والقوة ، ضعف البناء السياسى والعسكرى ، وقوة التراث المادى والحضارى ، ومن الانحلال الاجتماعى الشامل ، والتقدم الفكرى اللامع . وقد كان أبرز ما فى ذلك المزيج المتناقض ، ضعف الروح الدينية والوطنية ، بصورة لم تعرفها الأمة الأندلسية فى تاريخها من قبل قط ، بل ولم تعرفها فيما بعد ، حتى فى أسوأ عصور الفتنة ، والتفكك السياسى والعسكرى ، التى كان يقابلها من الناحية الأخرى فترات قوة وتفوق من جانب الممالك الإسبانية النصرانية . ولكن الأندلس لم تبد قط فى أية فترة من هذه الفترات تجاه اسبانيا النصرانية ، مثل ما أبدته أيام الطوائف من التخاذل والاستسلام ، ومن ضعف العقيدة الدينية والوطنية ، ومن إهدار لمقتضيات الكرامة القومية ، فعصر الطوائف وحده هو الذى يقدم إلينا تلك الخواص المؤلمة ، التى تتناقض فى مجموعها وفى تفاصيلها ، مع طبيعة الأمة الأندلسية ، ومع ما اتصفت به طوال تاريخها ، من الشجاعة والشهامة والإباء ، والتفانى فى الذود عن الدين والوطن .

وفى وسعنا أن نلمح فى تاريخ الإمارات والجمهوريات الإيطالية فى عصر الإحياء ، فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، كثيراً من آثار تلك الخواص التى غلبت على عصر الطوائف بالأندلس . فهنالك الأمراء الطغاة ، والحروب الأهلية الطاحنة، تمزق وحدتها وتفرق كلمتها . وهنالك استعداء العدو الخارجى كل منها على الأخرى ، ثم التخاذل فى الدفاع عن الوطن . وهنالك الانحلال الدينى والأخلاقى والاجتماعى الشامل . ونجد إلى جانب ذلك كله نهضة علمية وأدبية وفنية زاهرة ، من أروع ما عرفته إيطاليا فى تاريخها ، يرعاها الأمراء الطغاة ،ويمدونها بالبذل الوفير . وهنالك أخيراً تجارة وصناعات رائجة ، ورخاء شامل ، وحياة كلها متعة واستهتار . ولاريب أن هذا التماثل فى الخواص بين العصرين ، يرجع إلى حد كبير ، إلى التماثل بين ما كان يجوزه كل منهما من الظروف السياسية والاجتماعية .

# الوثائق والملحقات

رسالة كتب بها الأمير أبو يعقوب يوسف بن تاشفين إلى الناصر بدين الله تميم بن المعز بن باديس بالمهدية . يصف فيها بلاد الغرب ، وجوازه للأندلس للجهاد بها ، وهزيمته للأذفونش أمير النصارى فى رجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة .

( منقولة عن المخطوط رقم ٤٨٨ الغزيرى بمكتبة الإسكوريال ( Fol. 49R. –53V. ) وهو مخطوط ناقص من أوله ولا عنوان له ) .

« الحمد لله الذى من علينا بالإسلام ، وفضلنا بمحمد عليه السلام ، أحمده حمداً يوجب المزيد من آلايه ، والسبوغ من سر الله ونعمائه . كان من قضايه جل شأوه ، وتقدمت أسماؤه ، لما أراد قمع المردة الطغاة من زناتة وغيرهم فى بلاد المغرب ، سبّب لنا إليهم المطلب ، فقفونا آثارهم ، وأخلينا منهم ديارهم ، وكذلك نفعل بالقوم الظالمين ، فقومنا الدّين ، ومهدنا بها المسلمين ، فصفت لنا ضمائرهم ، وخلصت إلى الله تعالى نياتهم ، وسرايرهم ، حتى وصلنا طنجة الركاب ، وأذقنا برغواطة سوم العذاب ، ففتح الله لنا وبها ، وهو خير الفاتحين ، وأسرع الحاسبين ، لا إله غيره وهو أرحم الراحمين . ولما بلغنا من استحواذ النصارى ، دمرهم الله ، على بلاد الأندلس ومعاقلها ، والزام الجزية لرؤسائهم ، واستيصال أقالمها ، وإيطايهم البلاد داراً داراً ، لا يتخوفون عسكراً يخرج إليهم ، فيبدد جمعهم ، ويفل حدهم ، وهم مع ذلك كله يقتلون الشيب والشبان ، ويأسرون النساء والصبيان . فخوطبنا عن الجواز إلى الأندلس من جميع الأحواز ، المرة بعد المرة ، وألوتنا الأعذار إلى وقت الأقدار ، ولم نجد للجواز باباً ، ولا لدخول البحر أسبابا ، فانضم لنا منهم الريس الأجل المعتمد على الله ، المولا بنصر الله ، أحسن الله فى كل الأمور عونه ، وأقر بكل صالحة عينه ، فعزمنا على الغزو ، وجوزنا للعدو أسوداً ضارية ، وسباعاً عادية ، شيباً وشبانا ، بسواعد قوية ، وقلوب فى سبيل الله نقية ، قد عرفوا الحرب وجربوها ، فهى المهم وهم بنوها ، يتلمظون تلمظ الفهود ، ويزءرون إليها زءر الأسود ، فشحنا بهم القوارب ،

وأوسعناهم على ظهور المراكب ، فخرجنا فى مرسى الجزيرة الخضراء من دياره ، وفقه الله ، ففزع الناس من كل أفق إليهم ، ووفدوا من كل قطر إليهم ، متعجبين من هيأتهم ، محتقرين لزيهم ونغماتهم ، لا يروعهم منهم حاشى الخيل والدرق ، وهم مع ذلك لا ينالون إلا بعد جف الريق ومسح العرق ، وقدروا أنهم طعم للسيوف ، وغرض للحتوف ، وسعد للأرماح ، ونهب للسلاح ، فكل استصغرهم ، والجميع منهم احتقرهم ، وتبلغ إلينا أخبارهم وأقوالهم ، وتنتهى إلينا أفعالهم ، ثم اتبعناهم جيشاً بعد جيش ، بخيول كالفحول ، عليها الكهول ، وعدد من كل أمرد ، على أجرد ، يتسابقون إلى اللقاء فى الفضاء ، تسابق الحين والقضاء . ومع هذا كله إن أهل الأندلس مستبشرون بنصرهم على أيدينا ، وإزاحة غمتهم بسببنا ، وعساكرنا تتزيد ، وجوازنا يتأكد ، وكان آخر من جاز منا ومعنا ، قطعة من صنهاجة بنى عمى ، فعسر البحر حينئذ للجواز ، واضطربت فيه الأمواج ، فاستصرخنا البارى تعالى جده ، وعظم اسمه ، إن كان فى جوازنا خيرة للمسلمين أن يسهل علينا ، فما استكملت من كلامى ، حتى سهل الله المركب ، وقرب المطلب . فخرجنا من الحين فى مرسى الجزيرة الخضراء المذكورة ، والتأم شعبتنا مع من جاز من عسكرنا ، فعملنا على السير ، وكان قد تقدم إلينا بالعدوة من قبل الأدفونش أمير النصارى رسالة يخاطبنا فيها بالجواز إلينا إذا عجزنا عنه ، وفرقنا منه ، نعطوه المراكب ، ونسلموا إليه الشوانى والقوارب ، ليرد علينا ويقاتلنا فى مأمننا ، فلم نلتفت إليه ، ولاعرجنا عليه . ووصلنا أيدينا بالريس الأجل المعتمد على الله المؤيد بنصر الله ، واستوثقنا منه غاية الاستيثاق ، وبنينا معه على اللحاق بهم ، والورود عليهم ، ونحن فى ذلك كله لما نقل إلينا ، وورد علينا من رؤساء الأندلس ، مستبطئين سريرة المخبتين ، لابسين قسوة الصالحين ، وقلوبنا شتى ، حتى لحقنا إشبيلية حضرته ، عمرت ببقايه ، وقد تجمع له من جنوده أعداد ، ومن حشمه وعبيده وخيله ورجله أجناد ، فصرنا إلى مدينة بطليوس ، وأقمنا بها أياماً منتظرين لوفد الرؤساء من جميع أقطار الأندلس ، فأخبرنا وصح عندنا أن كل واحد منهم مشتغل مع قطعة كثيرة من النصارى ، قد تغلبوهم على حصونهم ، وأذلوهم فى بلادهم ، وأضعفوهم ، وشجعوهم على مرادهم ، فحمدنا الله تعالى ، ودعونا بتيسير المراد ، واستنقاذ

العباد . فجمعنا عساكرنا وسرنا إليه ، وصرنا إلى قفل قورية من بلاد المسلمين صرفها الله ، فسمع بنا ، وقصدنا قصدنا ، وورد ورودنا ، واحتل بفنائها منتظراً لنا ، فبعثنا إليه نحضه على الإسلام ، ودخوله فى ملة محمد عليه السلام ، أو ضرب الجزية عليه وإسلام ما كان من المال والبيوت لديه ، كما أمرنا الله تعالى ، وبين لنا فى كتابه ؛ من إعطاء الجزية عن يد وهم صاغرون ، فأبا وتمرد ، وكفر ونخر ، وعمل على الإقبال علينا ، وحث فى الورود علينا ، فلحقنا وبيننا وبينه فراسخ ، فلما كان بعد ذلك ، برزنا عليه أياماً ، فلم يجبنا ، فبقينا وبقوا ، ونحن نخرج الطلايع إليه ، ونتابع الوثوب عليه ، وبنينا على لقايه يوم الخميس لإحدى عشر ليلة خلت لرجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة . فلما كان يوم الجمعة ثانية ، ورد علينا بكتايب قد ملأت الآفاق ؛ وتقلبت تقلب الحتوف للأحداق ؛ قد استلموا الدروع للكفاح ، وربطوا فى سوقهم الألواح ، وبطونهم ملأ من الخمور ، يقدرون أن الدائرة علينا تدور ، ونحن فى أخبيتنا صبيحة اليوم المذكور ، كل منا ساه وجميعنا لاه ، فقصد أشدهم شوكة ، وأصلبهم عوداً ، وأنجدهم عديداً ، محلة المعتمد على الله المؤيد بنصر الله ، وفقه الله ، عماد رؤساء الأندلس وقطبهم ، لايقدرون عسكراً إلا عسكره ، ولا رجال إلا رجاله ، ولا عديداً إلا عديده ، وداود من أصحابنا منا إلى إزايه ، فهبطوا إليه لفيفاً واحداً ، كهبوط السيل ، بسوابق الخيل ، فلما كان معه من جنده ومن جميع الطبقات ، الذين كانوا يدخرون من قبله الأموال والضياع ، استكت آذانهم ، واضطربت أضلاعهم ، ودهشت أيديهم ، وزلزلت أقدامهم ، وطارت قلوبهم ، وصاروا كركب الحمير ، فرّوا يطلبون معقلا يعصمهم ، ولا عاصم إلا الله ، ولا هارباً منه إلا إليه ، فلحقوا من بطليوس بالكرامات ، لما عاينوا من الأمور المعضلات ، وأسلموه أيده الله ، وحده فى طرف الأخبية ، مع عدد كثير من الرجالة والرماة ، قد استسلموا للقضاء ، فوثبوا عليه وثب الأسد على الفرايس ، يعظمون الكنايس ، فحبسهم حيناً وحده مع من اليه ممن ذكرناه ، وبسطوا منهم الأرض ، ولم يبق من الكل إلا البعض ، ولجأ فى الأخبية ، بعد أن عاين المنية ، وتخلصه الله بنيته فى المسلمين وبلغه أمنيته ، بعد أن وقف وقفة بطل مثله ، لا أحد يرد عليه ، ولا فارس من فرسانه وعبيده يرجع إليه ، لايروعه أحد منهم فيهزم ، ولا يهابهم فيسأم ،

ثم قصدت كتيبته سوداً كالجبل العظيم أو الليل البهيم، عسكر داود وأخيته، فجالوا فيها جولاناً، وقتلوا من الخلق ألواناً، واستشهد الكل بحمد الله وصاروا إلى رضوان الله، ونحن فى ذلك كله غافلون ؛ حتى ورد علينا وارد، وقصد إلينا قاصد، فخرجنا من وراء الشعب، كقطع اللهب، بجميع من معنا، على الخيل المسومة العراب، يتسابقن الطعن والضراب. فلما رأونا، ووقعت أعينهم علينا، ظنوا أن الدائرة فينا ولدينا، وأنا طعم أسيافهم ولقاء رماحهم، فكبرنا وكبر الكل معنا، مبتهلين لله وحده لا شريك له، ونهضنا للمنون الذى لا بد منه ولا محيص لأحد عنه، وقلنا هذا آخر يومنا من الدنيا، فلنموتوا شهداء، فحملوا علينا كالسهام، فثبت الله أقدامنا، وقوى أفئدتنا، والملائكة معنا، والله تعالى ولى النصر لنا، فولوا هاربين، وفروا ذاهبين، وتساقط أكثرهم بقدر الله تعالى دون طعنة تلحقه ولا ضربة تثخنه ؛ وأضعف الرعب أيديهم، فطعناهم بالسمهرية دون الوخز بالإبر، وضاقت بهم الأرض بما رحبت، حتى أن هاربهم لايرى غير شىء إلا ظنه رجلا، وفتكت فيهم السيوف، على رغم الأنوف ؛ فو الله لقد كانت تقع على الدروع فتفريها، وعلى البيضات فتبريها، وزرقوا الرجالة منا على خيلهم الرماح، فشكوهم بها فرمحت بهم، فما كنت ترى منهم فارساً إلا وفرسه واقف على رأسه لا يستطيع الفرار، الكل يجر عنانه، كأنه معقل بعقاله، ونحن راكبون على الجواد الميمون، العربى المصون، السابق اللاحق، المعد للحقائق، وما منا إلا من له جرناز فيه سيفان، وبيدنا الثالث، عسى أن يحدث من حادث، فصاروا فى الأرض مجدلين ؛ موتى معفرين، وقد تراجع الناس بعد الفرار، وأمنوا من العثار، وتضافروا مع عسكرنا وغيرهم، يقطعون رؤوسهم، وينقلون بإزاء المحلات، حتى علت كالجبال الراسيات، عدد لايقدر، ومدد لا يحزر، والتجريد فيهم، والأيدى متعاودة لبطونهم، واستأصلنا أكابرهم، وحللنا دون أماطيهم وأمانيهم، وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون.

وانقطع من عسكرهم نحو ألفى رجل أو أقل، والأذفونش فيهم على ما أخبرنا ؛ قد أثخنوا جراحاً بإزاء محلاتهم، يرتادون الظلام للهروب فى المقام، والله لقد كان الفرسان والرجالة يدخلون محلتهم، ويعثرون فى أخبيتهم، وينتهبون أزودتهم وهم ينظرون شزراً نظار التيوس إلى شفار الحازرين، إلى أن جن الليل وأرخى

سدوله، ولواهاربين ، وأسلموا رحايلهم صاغرين ، فكم من دِلاص على البقاع ساقطة،وخيول على البقاع رابضة ، ولقد ارتبط كل فارس منا الخمسة الأفراس أو أزيد . وأما البغال والحمير فأكثر من ذلك . وأما الثياب والمتاع فناهيك ، والأسرة بأوطية الحرير ، والثياب والأوبار عدد ليلهم ، ولا يكلون فى الانتقال ، ولا يسئمون من تشريط الأموال ، ولحقوا قورية ومنها حيث ألقت رحلها أم قشعم ، فصححنا ضمائرنا، وأخلصنا للمعتمد على الله نياتنا وسرايرنا ، ورجعنا بحمد الله غانمين منصورين ، لم يستشهد منا إلا الفرقة التى قدر الله عليها بذلك ، وقدرنا أن الكل منهم هلك لقلة معرفتهم وجهالتهم بقتال النصارى ، وترامیهم للشهادة ؛ قدس الله أرواحهم ، وكرم مثواهم وضريحهم ، وجعل الجنة ميعاداً بيننا وبينهم ،وفقدنا من أكابرنا نحو عشرين رجلا ممن شهدت نجدته فى المغرب ، وانقلبت خير منقلب . ولحقنا إشبيلية حضرته عمرت ببقايه ، وأقمنا عنده أياماً ، ورفعنا عنه مودعين لا تودع قاطع ، ولا يمنعنا منه متى أحب مانع ؛ولحقنا الجزيرة الخضراء ، ونحن نريد أشياء أسأل الله تمامها وإنجازها ، وأن يسهل المراد ويوفقنا للسداد ، ومتى تنفس منهم متنفس ، وأرجح إلى أحدهم نفس ، يذكرون ما لقوا ، ويتذاكرون ما بقوا ، وسنستدرجهم من حيث لا يعلمون ، وأملى لهم أن كيدى متين ، حتى لا يبقى على أديم الأرض منهم حى ، ولا يحس منهم أنسى . والحمد لله رب العالمين على ما قضى وخول وأعطى ، وهذا كله منًّا منه علينا لا منًّا عليه ، وصلى الله على محمد خاتم النبيين ، وقائد الغر المحجلين إلى جنات الله النعيم ، وآله الطيبين ، وسلم تسليما ، والسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته » .

بعض « فصول » الكتاب الذى بعث به أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى بلاد العدوة عقب موقعة الزلاّقة .

( منقولة عن كتاب الأنيس المطرب بروض القرطاس — طبعة أو بسالة ص ٩٦ — ٩٨ ) .

« أما بعد حمد الله ، المتكفل بنصر أهل دينه الذى ارتضاه ، والصلاة على سيدنا محمد أفضل رسله ، وأكرم خلقه وأسره ، فإن العدو الطاغية ، لعنه الله ، لما قربنا من حماه ، وتوافقنا بإزائه، بلغناه الدعوة ، وخيرناه بين الإسلام والجزية والحرب ، فاختار الحرب ، فوقع الاتفاق بيننا وبينه ، على الملاقات فى يوم الاثنين الخامس عشر لرجب ، وقال الجمعة عيد المسلمين ، والسبت عيد اليهود ، وفى عسكرنا منهم خلق كثير ، والأحد عيدنا نحن ، فافترقنا على ذلك وأضمر اللعين خلاف ما شرطناه ، وعلمنا أنهم أهل خدع ، ونقض عهود ، فأخذنا أهبة الحرب لهم ، وجعلنا عليهم العيون ، ليرفعوا إلينا أحوالهم ، فأتتنا الأنباء فى سحر يوم الجمعة الثانى عشر من رجب المذكور أن العدو قد قصد بجيوشه نحو المسلمين ، يرا أنه قد اغتنم فرصته فى ذلك الحين ، فنبذت إليه أبطال المسلمين ، وفرسان المجاهدين، فتغشته قبل أن يتغشاها ، وتعدته قبل أن يتعداها ، وانقضت جيوش المسلمين فى جيوشهم انقضاض العقاب على عقيرته ، ووثبت عليهم وثوب الأسد على فريسته ، وقصدنا برايتنا السعيدة المنصورة فى سائر المشهدة المنتشرة ، ونظروا إلى جيوش لمتونة نحو ألفنش ، فلما أبصر النصارى رايتنا المشتهدة المنتشرة ، ونظروا إلى مواكبنا المنتظمة المظفرة ، وأغشتهم بروق الصفاح ، وأضلتهم سحائب الرماح ، ونزلت بحوافر خيولهم رعود الطبول بذلك الفياح ، فالتحم النصارى بطاغيتهم ألفنش، وحملوا على المسلمين حملة منكرة ، فتلقاهم المرابطون بنيات خالصة ، وهمم عالية ، فعصفت ريح الحرب وركبت دائم السيوف والرماح بالطعن والضرب ، وطاحت المهج ، وأقبل سيل الدماء فى هرج ، ونزل من سماء الله على أوليائه النصر العزيز والفرج ، وولى ألفنش مطعوناً فى إحدى ركبتيه طعنة أفقدته إحدى ساقيه فى خمس مائة فارس من ثمانين

ألف فارس ومائتى ألف راجل ، قادهم الله إلى المصارع والحتف العاجل ، وتخلص لعنه الله إلى جبل هنالك، ونظروا النهب والنيران فى محلته من كل جانب ، وهو من أعلى الجبل ينظرها شزراً ، ويحيد عنها صبراً ، ولا يستطيع عنها دفعاً ، ولا لها نصراً ، فأخذ يدعو بالثبور والويل ، ويرجو النجاة فى ظلام الليل ، وأمير المسلمين محمد الله قد ثبت فى وسط مواكبه المظفرة ، تحت ظلال بنوده المنتشرة ، منصور الجهاد ، مرفوع الأعداد ، ويشكر الله تعالى على ما منحه من نيل السؤال والمراد ، فقد سرح الغارات فى محلاتهم تهدم بناءها ، وتصطلم ذخائرها وأسبابها ، وتريه رأى العين دمارها ونهبها ، وألفنش ينظر إليها نظر المغشى عليه ، ويعض غيظاً وأسفاً على أنامل كفيه ، فتتابعت البهرجة الفرار رؤساء الأندلس المنهزمين نحو بطليوس والغار ، فتراجعوا حذاراً من العار ، ولم يثبت منهم غير زعيم الرؤساء والقواد ، أبو القاسم المعتمد بن عباد ، فأتى إلى أمير المؤمنين ، وهو مهيض الجناح ، مريض عنة وجراح ، فهنأه بالفتح الجليل ، والصنع الجميل ، وتسلل ألفنش تحت الظلام فاراً لا يهدى ولا ينام ، ومات من الخمسمائة فارس الذين كانوا معه بالطريق أربع مائة فلم يدخل طليطلة إلا فى مائة فارس ، والحمد لله على ذلك كثيراً . وكانت هذه النعمة العظيمة ، والمنة الحسيمة ، يوم الجمعة الثانى عشر لرجب سنة تسع وسبعين وأربع مائة ، موافق الثالث والعشرين لشهر أكتوبر العجمى » .

رسالة لابن (إسحق) عن المقتدر بالله إلى ابن عباد يعرفه بأمر أخيه صاحب لاردة.

( منقولة عن المخطوط رقم ٤٨٨ الغزيرى بمكتبة الإسكوريال Fot. 118V-119R )

« سيدى ، وأعلى عددى ، وأقوى عمدى ، وأزكى ذخرى لأبدى ، ونعمة الله المستطيلة بيدى ، المناهضة بعضدى ، ومن أطال الله بقاه فى عز رفيع المراتب ، وحرز منيع الجوانب ، إذ أحكام الفتن ، وحوادث الزمن ، لاتزال تحل على كل ما لايقع بإيثار ، ولا يجرى على حكم واختيار ، فرب كريهة لا يلقى المرء عن اقتحامها معدلا ، ومساءة لا يزال عن التزامها مرحلا ، وقديماً جدّ الجفاء العقوق ، وأبطل التجنى الحقوق ، وقد يحرج الحليم ، ويتغيس الحميم ، وتقطع الرحم ، وتنبذ الذمم ، لا سيما عن مجاذبة ما يمنع الحسد ، باتراً أواصر الإخاء والإجمال ، وتحاسد القرابة داء قديم ، وخلق فى الناس معلوم ، وإنى أيدك الله ، بليت من المظفر أخى بظالم لا يؤمل منه إنصاف ، ومتحمل لاتستنزله ألطاف ، وحاسد لايرجى استرضاوه ، وموجب لنفسه حقاً لا يوجب مضاؤه ، إذا سألته نصفة أبدا منه أنفه ، وإن سمته عدلا مال إلى الجور ميلا ، وإن خفضت له جناح الذل ، أوطأنى جهر الجفا ، وإن أقبلت عليه بناظر الود ، أول من صفحة الإبداء ، وإن استدنيته شحط ، وإن استرضيته سخط ، وإن حكمته تشطط ، وإن أغضيت له تسلط ، وأنا فى أثناء ذلك كله أحاوله على أخلاقه ، وألبسه على أخلاقه ، وأستمع منه بغير مستمع ، وأرفع منه بغير مرفع ، وعقارب مضرته تدب ، وعواصف معرته تهب ، وأذاه قاصد إلى فى خاصتى ، ومفسد على بطانتى ، لايألو فى مساعى سعياه اجتهاداً ، ولا آلو إلى مسرته تأنياً وانقياداً ، آخذاً بالحجة عليه ، وتقدماً بالجميل إليه ، وطمعت أن تكون نظرة تريه مواقع ظلمه ، وتعرفه جور حكمه ، ولا يزداد إلا اغتراراً ، ولايبدى إلا استكباراً إلى أن سولت له نفسه أموراً كان فيها اضطلاع الإسلام ، وحاول أحوالا تمامها هادية ... ورام معاجلتى بالتى ليس فيها استبقاء ، ولا بعدها بقاء ، وسألنى مع هذا الاجتماع بى ليسوسنى ... الإذعان إلى مطالبه ، والموافقة فى مذاهبه ، فأجبته

رجاء أن تكون المشافهة تستلبه، والملاطفة تلينه وتغريه فأبى إلا ..... وانبساطاً . فلما رأيته عن سوء معتقده غير . . . . . وعن فساد رأيه غير راجع ، وغرنى جماحه ، وأعوزنى استصلاحه ، ونقلنى عن سجيتى بكره ، وكدر صفوى من كل وجه، راجحت فى أمره بين أن أرضى الله عز وجل فى قطيعته بالنظر لعباده، والحماية لبلاده ، فما أطمع . . . . . . . . وطأ نواحيها ، وأمنع ممن رامه ، وأدفع عنه من أراد اهتضامه ، وأن أبتهل . . . . برحم عن نفسى ، فرفع الله عن ذلك منزلتها ، وبسط عليه مقدرتها ، فرأيت النظر فى قطع مضرته أولى ، والسعى فى حسم علته ومعرته أحمى ، فأنفذت ذلك بعد استخارة الله تعالى فيه ، وألزمته البقاء بقصبة منتشون ، وللنفس يعلم الله مما حملنى عليه ارتماض وشفاق ، ولما يؤثره الرحم من ذلك إزعاج وإقلاق ، إلا أنه لم يوجد إلى غير ذلك سبيلا ، ولا جعلنى إلى سواه مخيلا ، وكان فيما يأتيه أعق ، وبما جره القدر إليه بحكم اعتقاده أحق ، وقد يستسهل المرء المكاره مالم يجد عنها مذهباً ، ويركب حد السيف إذا لم يجد سواه مركباً ، والله يشهد لقد طوى جوانحى مما ساقنى إليه على لواعج مزعجة ، وخرق منضجة ، وكتابى هذا من لاردة ، وقد استقرت بحمد الله على الدعة أسباب قريرها ، واتصل بجميل عونه تدبيرها ، وتقضى أبقاك الله وكيد ما بيننا مقاسمتك الحال ، وتعرفك المبدى منها والمآل ، فإنك الشريك فى الحلو والمر ، والقيم فى النفع والضر ، وفى خلال هذا أعزك الله ما وردنى أبن فلان خاصتك سلمه الله بكتابك الكريم ، المشتمل على أجفل البر ، والمقتضى لأجزل الشكر ، ووقف به من حقائق الأحوال لديك على كل ما بسط أملى ، وأكد جذلى ، وعظمت نعم الله ...... وقد صدر أبقاه الله متحملا من صحة ودى ، وثبات عهدى ، وارتباط عقدى ، . . . . الأحوال عندى مايطلعك من ذلك كله على الجملة الكافية والحلية الشافية » .

## رسالة خاطب بها أبو عامر بن غرسية
## أبا عبد الله بن الحداد يعاتبه فيها ويفضل العجم على العرب
## وكتب بها من لاره

( منقولة عن مخطوط الإسكوريال رقم ٥٣٨ الغزيرى لوحة ٢٦ — ٢٩ )

سلام عليك ذا الروى المروى الموقوف قريضه على حللة بجانة ، أرش اليمن ، بزهيد الثمن ، كأن ما فى الأرض إنسان الامن غسّان ، أو من آل ذى حسان . وإن كان القوم أقنوك ، وعن العالم أغنوك ، على حسب المذكور ، فما هذا الإعمال للكور ، وترك الوكور . وقل ما تأخذ الشعرة F .26B فى الرحيل إلا عن الربع المحيل ، ولو أن القوم خلطوك بالآل ، لما أحوجلك إلى الخبط فى الآل . مه مه ، من أحوجك إلى ركوب المهمة وثقف ، وودك لانقف ، على من اضطرك إلى الايغال ، وباعك بيع المسامح بك لا المغال ، وعوضك من الأندية ، بجوب الأودية ، ومن المآلف بقطع المتالف ، وحملك على مخالفة الحـَصان ، ومحالفة الحِصان ، ووكلك بمسح الأرض ، ذات الطول والعرض ، فإذا يممت تبالة ، تذباله ، وصرت ضغثا على إبالة ، تتعلل باليمين ، ضنا بالعلق الثمين . أأحسبك أزريت ، وبهذا الجيل البجيل ازدريت ، وما دريت ، أنهم الصهب الشهب ، ليسوا بعرب ، ذوى أينق جرب ، أساورة أكاسرة ، مُجد نُجد بُهم ، لا رعاة شويهات ولا بهم ، شغلوا بالماذى والمرّان عن رعى البعران ، وبجلب العز ، عن حلب المعز ، جبابرة قياصرة ، ذوو المغافر والدروع ، للتنفيس عن روع المروع ، حماة السروح ، نماة الصروح ، صقورة ، غلبت عليهم شقورة ، وشقورة الخرصان ، لكنهم خـَطـَبة بالخرصان .

ما ضرهم أن شهدوا محادا    أو كافحوا يوم الوغى الأنداد
أن لا يكون لونهم سوادا

أرومة رومية ، وجرثومة أصفرية .

نمتهم ذوو الأحساب والمجد والعلى　　من الصهب لاراعو غضاً وأفان

من القوم الملس الأدم ، لم تُعرق فيهم الأقباط ، ولا الأنباط ، حسب حريّ ، ونسب سريّ ، أمكم لأمنا كانت أمة ، إن تنكروا ذلك تلفوا ظلمة، ولا تهايل ، فى التكايل ، فماسسنا قط قرودا ، ولا حكنا برودا ، ولا لكنا عرودا، فلا تَهاجر ، بنى هاجَر ، أنتم أرقاؤنا وعبدتنا، وعتقاؤنا وحفدتنا : مننّا عليكم بالعتق ، وأخرجناكم من ربق الرق،وألحقناكم بالأحرار ؛ فغمطتم النعمة ، فصفعناكم صفعا ، يشارك سفعا ، اضطركم إلى سكنى F.27A الحجاز ، والجأكم إلى ذات المجاز ، رُزُن ، رُصُن .

جمال ذى الأرض كانوا فى الحياة وهم　　بعد الممات جَمال الكُتْب والسير

إذا قامت الحرب على ساق ، وأخذت فى اتساق ؛ وقرعت الظنابيب ؛ وأشرعت الأنابيب ، وقلصت الشفاه ، وفغر الهدان فاه ؛ وولى قفاه : ألفيتهم ذمرة الناس ، عند احمرار الباس ، الطعن بالأسل ، أحلى عندهم من العسل .

مستسلمين إلى الحتوف كأنما　　بين الحتوف وبينهم أرحام

من أمنياتهم ، حلول منياتهم ، لهم على القدمةاليدان :على التنائى والتدان .

مِن الألى غير زجر الخيل ما عرفوا　　إذ تعرف العُرب زجر الشّاء والعكر

بُصُرٌ صُبر ، تزدان بهم المحافل والجحافل ، قيول على خيول ، كأنها فيول ، كواكب المواكب ، نجوم الرجوم ، من العجم ، ضراغمة الأجم ، بتوغاب ، منتفون من كل عاب ، لم تلدهم صواحب الرايات ، بل تبجحت عليهم سارة الجمال ، ربة الآيات ، شُمخ ، بُذخ ، بررة أقيال ، جررة أذيال . بخ بخ ، أحلتهم سيوفهم سطة الأرضين ، فما قنعوا بذلك ولا رضين ، حتى دوخوا المشارق والمغارب ، واستوطنوا من المجد الذروة والغارب .

بضرب يزيل الهام عن سكناته　　وطعن كتشهاق العفا همّ بالنهق

شرهوا برنات السيوف ، لا بربات الشنوف ، وبركوب السروج ؛ عن

الكلب والفرّوج ، وبالنفير عن النقير ، وبالجنائب عن الحبائب ، وبالحب عن الحب ، وبالسليل عن الشليل ، وبالأمر والذمر ، عن معاقرة الخمر والزمر ، وباللقيان عن العقيان ، وعن قنيان القيان ، طيباتهم خطياتهم ، وغلاتهم آلاتهم وحصونهم ، حصنهم أقيال ، آباؤهم من F. 27B بين الأنام أقتال :

أولئك قومى إن بنوا شيّدوا البنى وإن حاربوا جدّوا وان عقدوا سدّوا

وُضُحٌ رُجح ، لا حفزة عكر ، ولا قفزة أكر ، ملوك جلة ، لا محرقوا جلة ، ندس ، غنوا بالإستبرق والسندس ، عن البيت المقيظ المشتى ، المجموع من النعيجات الست . بسل لا حراس مسل ، ولا غراس فسل ، مُلّك لقاح ، ليس منهم فى ورد ولا صدر شرّاب درّ اللقاح ، بل شرابهم النبيذ ، وطعامهم الحنيذ ، لا زهيد الهبيد فى البيد ، ولا مكون الوكون ، ولا منهم من احتشا ، بمذموم الكُشا ، ولا فى سائر الاحفاش ، من وليد وناش ، من اغتذى بالأحناش ، فلا يقعقع لهم بالشّنان ، ولا يوعوع لهم بالشنآن ، فكف أيها الشان ، فلهم عظيم الشان ، واليد الطولى إذ تخلصوكم من أكف الحبشان ، صنيع منيع ، ومنة لا يشوبها منة ، فيالها منحة ، لكنها أعقبت محنة ، إذ صادفت كفرة ، لاشكرة ، إيهاً إذ تأبطتم تيهاً ، معشر البداة العداة . اعتقدتم غِلاً ، فاستثرتم صلا . أما علمتم ان الدولة النوشروانية، والمملكة الأزدشيرية، بقروا أجوافكم ،وخلعوا أكتافكم، ثم عطفوا ورأفوا ، وملكوكم الحيرة بعد عظيم الخيرة ، قالا ذللا ، تتخيرون البنات عند البيات مهورات لا ممهورات ، فبرم من ذلك غسّانكم ونُعمانكم ، وكان برمه سببا لدرء أمانكم ، فأصبح بعد جر الذيول ، مدوساً بأخفاف الفيول ، والكرام بنو الأصفر ، الأطهر الأظهر ، عطفتهم عليكم الرحم الإبراهيمية ، والعمومة الإسماعيلية ، فسمحوا لكم من الشام بأقصى مكان ، بعد ما كان ، من سيل العرم ما كان ، يؤدى نعمانكم وغسانكم لقروم الأعاجم ، الإتاوة على الحماجم .

هذى المكارم لا قعبان من لبن شيبا بماء فعادا بعـــد أبوالا

F. 28A مهلا بنى الأماء ، عن الغمز والإيماء ، فنحن عُرق غُرق ، فى الأنساب الصميمة ، والأحساب العميمة ، فمن يهولنا أو يروعنا ،

وقد رسخت فى المجد أصولنا وفروعنا ، ومن بطولنا ، وكل الورى قد شمله فضلنا وطولنا :

شرفٌ ينطح النجوم بروقيـــــه وعـــزٌّ يقلقل الأجبالا

حُلُم ، عُلُم ، ذوو الآراء الفلسفية الأرضية ، والعلوم المنطقية الرياضية ، كحملة الاسترلوميقى ، والموسيقى ، والعلَمة ، بالارتماطيقى ، والجومطريقى ، والقومة بالألوطيقى والبوطيقى ، ما شئت من تدقيق ، وتحقيق ، حبسوا أنفسهم على العلوم البدنية والدينية ، لا على وصف الناقة الفدنيّة ، فعلهم ليس بالسفساف ، كفعل نائله وإساف ، أصغر بشأنكم ، إذ بزق خمر ، باع الكعبة أبو غبشانكم ، وإذ أبو رغالكم قاد فيل الحبشة إلى حرم الله لاستيصالكم .

أزيدك أم كفاك وذاك أنى رأيتك فى انتحالك كنتَ أحمق

فلا فخر معشر العربان الغربان ، بالفديم ، المفرّى للأديم ، لاكن الفخر يابن عمنا ، الذى بالبركة عمّنا ، الإبراهيمى النسب ، الإسماعيلى الحسب ، الذى انتشلنا الله تعالى به وإياكم من العماية والغواية ، أما نحن فمن أهل التثليث وعبادة الصلبان ، وأنتم من أهل الدين المليث وعبادة الأوثان ، ولا غرو أن كان منكم حبره وسبره ، فى الرغام يلفى تبره ، والمسك بعض دم الغزال .

لله مما قد برا صفوة وصفوة الخلق بنو هاشم

وصفوه الصفوة من بينهم محمد النـــور أبو القاسم

بهذا النبى الأمى أفاخر من تفخّر ، وأكابر من تقدم وتأخر ، الشريف F. 28B السلفين ، والكريم الطرفين ، الملتقى بالرسالة ، والمنتقى للأداء والدلالة ، أصلى عليه عدد الرمل ، ومدد النمل ، وكذلك أصلى على واصلى جناحه ، سيوفه ورماحه ، أصحابه الكرام ، عليهم من الله أفضل السلام .

يابن الأعارب ما علينا باس لم أحك إلا ما حكاه الناس

هذا :

ولم أشتم لكم عرضا ولاكن حدَوت بحيث يُستمع الحداء

ثم أجع بشاعر غسّان ، لاساسان فى هذا العيد بالوعيد ، وأحر فى فى هذا الفصل بعدم الوصل . لقد غمّ آخرك ، لكن بالرغم أخّرك إذ أضربت عن مديح، علقنا الربيح ، معز الدولة، شهمنا الرئيس ومهمنا النفيس قَبِل الأمم ، وسيل الأمم ، معنى المعانى ، ومغنى المغانى ، ذى الرياسة الساسانية ، والنفاسة النفسانية ، فاذهب ياغثّ المذهب ، وابتغ فى الأرض نفقا ، أو فى السماء مرتقى ، فهده أليّة ، جلبت عليك بليّة ، أو حكّك من البسيط المديد ، ما تستجيره من بطشنا الشديد ، إذ نحن معشر الموالى ، لا نوالى ، إلا من هو لعظيمتنا موالى ، وحذار حذار ان تقرع سن الندم ، ولات حين مندم ، قبل أن تجمع ذنوبك على ذنوبك ، وكُربك فى كَرَبك ، فمن أبصر أقصر ، وما حرّف ، من صديقه خرّف .

فلا تتبشع ممضّ العتـــا  ب يلقاك يوما بلقياه لاق
فإن الدواء حميد انفعال  وإن كان مُرًّا كريه المذاق

يامعتقل علم الشعر ، والمستقل بقلم النظم والنثر :

قد استحييت منك فلا تكلنى  إلى شىء سوى عذر جميل
وقد أنفذت ما حقّ عليه  قبيح الهجو أو شتم الرسول
وذاك على انفرادك قوت يوم  إذا أنفقت إنفاق البخيل
وكيف وأنت علوىّ السجايا  وليس إلى اقتصادك من سبيل
وقد يُقوى الفصيح فلا تقابل  ضعيف البر إلا بالقبول
وإن الوزن وهو أصح وزن  يقام صَغَاه بالحرف العليل
فإن يك ما بعثت به قليلا  فلى حال أقل من القليل

نجزته من كلام المعرى

والسلام عليك ما سبح الفَلَك وسبّح المَلَك ، ورحمة الله وبركاته .

# دول الطـــوائف

## جدول تاريخى مفصل

### دولة بنى جهور فى قرطبة

أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور ٤٢٢ ـ ٤٣٥ هـ : ١٠٣١ ـ ١٠٤٤ م

ابو الوليد محمد جهور ٤٣٥ ـ ٤٥٧ هـ : ١٠٤٤ ـ ١٠٦٤ م

عبد الملك بن محمد بن جهور ٤٥٧ ـ ٤٦٣ هـ : ١٠٦٤ ـ ١٠٧٠ م

المعتمد بن عباد يستولى على قرطبة سنة ٤٦٣ هـ

### دولة بنى عباد فى إشبيلية

القاضى محمد بن إسماعيل بن عباد ٤١٤ ـ ٤٣٣ هـ : ١٠٢٣ ـ ١٠٤٢ م

عباد بن محمد المعتضد ٤٣٣ ـ ٤٦١ هـ ١٠٤٢ ـ ١٠٦٩ م

محمد بن عباد المعتمد ٤٦١ ـ ٤٨٤ هـ ١٠٦٩ ـ ١٠٩١ م

إشبيلية تسقط فى أيدى المرابطين

### دولة بنى الأفطس فى بطليوس

عبد الله بن محمد بن مسلمة المنصور ٤١٣ ـ ٤٣٧ هـ : ١٠٢٢ ـ ١٠٤٥ م

محمد بن عبد الله المظفر ٤٣٧ ـ ٤٦١ هـ : ١٠٤٥ ـ ١٠٦٨ م

يحيى بن محمد المنصور ٤٦١ ـ ٤٦٤ هـ : ١٠٦٨ ـ ١٠٧٢ م

عمر بن محمد المتوكل ٤٦٤ ـ ٤٨٨ هـ : ١٠٧٢ ـ ١٠٩٤ م

بطليوس تسقط فى أيدى المرابطين

### دولة بنى يحيى فى لبلة

أبو العباس أحمد بن يحيى ٤١٤ ـ ٤٣٤ هـ : ١٠٢٣ ـ ١٠٤٢ م

محمد بن يحيى عز الدولة ٤٣٤ ـ ٤٤٣ هـ : ١٠٤٢ ـ ١٠٥١ م

فتح بن خلف ناصر الدولة ٤٤٣ ـ ٤٤٥ هـ : ١٠٥١ ـ ١٠٥٣ م

لبلة تسقط فى يد المعتضد بن عباد

### دولة بنى مُزين فى باجة وشلب

الحاجب عيسى محمد ٠٠٠ ـ ٤٣٢ هـ : ٠٠٠ ـ ١٠٤١ م

محمد بن عيسى عميد الدولة ٤٣٢ ـ ٤٤٠ هـ : ١٠٤١ ـ ١٠٤٨ م

عيسى بن مُزين المظفر ٤٤٠ — ٤٤٥ هـ : ١٠٤٨ — ١٠٥٣ م
محمد بن عيسى الناصر ٤٤٥ — ٤٥٠ هـ : ١٠٥٣ — ١٠٥٨ م
عيسى بن محمد المظفر ٤٥٠ — ٤٥٥ هـ : ١٠٥٨ — ١٠٦٣ م

شلب تسقط فى يد المعتضد بن عباد

دولة بنى البكرى فى ولبه وجزيرة شلطيش

عبد العزيز البكرى عز الدولة ٤٠٣ — ٤٤٣ هـ : ١٠١٢ — ١٠٥١ م

ولبة وشلطيش تسقطان فى يد المعتضد

دولة بنى هارون فى شنتمرية الغرب

سعيد بن هارون ٤١٧ — ٤٣٣ هـ : ١٠٢٦ — ١٠٤١ م
محمد بن سعيد المعتصم ٤٣٣ — ٤٤٣ هـ : ١٠٤١ — ١٠٥١ م

شنتمرية الغرب تسقط فى يد المعتضد

دولة بنى ذى النون فى طليطلة

إسماعيل بن ذى النون الظافر ٤٢٧ — ٤٣٥ هـ : ١٠٣٦ — ١٠٤٣ م
يحيى بن إسماعيل المأمون ٤٣٥ — ٤٦٧ هـ : ١٠٤٣ — ١٠٧٥ م
يحيى بن إسماعيل بن يحيى القادر ٤٦٧ — ٤٧٨ هـ : ١٠٧٥ — ١٠٨٥ م

طليطلة تسقط فى يد ألفونسو السادس

دولة بنى مناد فى غرناطة

زاوى بن زيرى ٤٠٣ — ٤١٠ هـ : ١٠١٣ — ١٠١٩ م
حبوس بن ماكسن ٤١١ — ٤٢٨ هـ : ١٠٢٠ — ١٠٣٧ م
باديس بن حبوس المظفر ٤٢٨ — ٤٦٥ هـ : ١٠٣٧ — ١٠٧٣ م
عبد الله بن بلقين ٤٦٥ — ٤٨٣ هـ : ١٠٧٣ — ١٠٩٠ م

المرابطون يستولون على غرناطة

دولة بنى برزال فى قرمونة

محمد بن عبد الله بن برزال ٤٠٤ — ٤٣٤ هـ : ١٠١٣ — ١٠٤٢ م
عزيز بن محمد المستظهر ٤٣٤ — ٤٥٩ هـ : ١٠٤٢ — ١٠٦٧ م

قرمونة تسقط فى يد ابن عباد

دولة بنى دمّر فى مورور

نوح بن أبى تزيرى الدمرى ٤٠٣ — ٤٣٣ هـ : ١٠١٣ — ١٠٤١ م

محمد بن نوح عز الدولة ٤٣٣ — ٤٤٥ هـ : ١٠٤١ — ١٠٥٣ م

مناد بن محمد عماد الدولة ٤٤٥ — ٤٥٨ هـ : ١٠٥٣ — ١٠٦٦ م

مورور تسقط فى يد ابن عباد

## دولة بنى خزرون فى أركش

محمد بن خزرون عماد الدولة ٤٠٢ — ٤٢٠ هـ : ١٠١١ — ١٠٢٩ م

عبدون بن محمد بن خزرون ٤٢٠ — ٤٤٥ هـ : ١٠٢٩ — ١٠٥٣ م

محمد بن محمد بن خزرون القائم ٤٤٥ — ٤٦١ هـ : ١٠٥٣ — ١٠٦٨ م

أركش تسقط فى يد ابن عباد

## دولة بنى يفرن فى رندة

هلال بن أبى قرة اليفرنى ٤٠٦ — ٤٤٥ هـ : ١٠١٥ — ١٠٥٣ م

باديس بن هلال ٤٤٥ — ٤٤٩ هـ : ١٠٥٣ — ١٠٥٧ م

أبو نصر فتوح بن هلال ٤٤٩ — ٤٥٧ هـ : ١٠٥٧ — ١٠٦٥ م

رندة تسقط فى يد ابن عباد

## مملكة ألمرية

١ — خيران العامرى ٤٠٥ — ٤١٩ هـ : ١٠١٤ — ١٠٢٨ م

زهير العامرى ٤١٩ — ٤٢٩ هـ : ١٠٢٨ — ١٠٣٨ م

عبد العزيز المنصور ٤٢٩ — ٤٣٣ هـ : ١٠٣٨ — ١٠٤١ م

٢ — معن بن صمادح ٤٣٣ — ٤٤٣ هـ : ١٠٤١ — ١٠٥١ م

محمد بن معن المعتصم ٤٤٣ — ٤٨٤ هـ : ١٠٥١ — ١٠٩١ م

أحمد بن محمد معز الدولة ٤٨٤ هـ — ١٠٩١ م

المرابطون يستولون على ألمرية

## مملكة مرسية

١ — خيران العامرى ٤٠٣ — ٤١٩ هـ : ١٠١٢ — ١٠٢٨ م

زهير العامرى ٤١٩ — ٤٢٩ هـ : ١٠٢٨ — ١٠٣٨ م

أبو بكر بن طاهر ٤٢٩ — ٤٥٥ هـ : ١٠٣٨ — ١٠٦٣ م

أبو عبد الرحمن بن طاهر ٤٥٥ — ٤٧١ هـ : ١٠٦٣ — ١٠٧٨ م

( حكم بنو طاهر باسم عبد العزيز المنصور صاحب بلنسية وولده عبد الملك )

المعتمد بن عباد يستولى على مرسية

٢ — ابن عمار ٤٧١ — ٤٧٣ هـ : ١٠٧٨ — ١٠٨١ م
ابن رشيق ٤٧٣ — ٤٨٤ هـ : ١٠٨١ — ١٠٩١ هـ .

المرابطون يستولون على مرسية

## مملكة دانية والجزائر

١ — مجاهد العامرى الموفق ٤٠٠ — ٤٣٦ هـ : ١٠٠٩ — ١٠٤٤ م
علي بن مجاهد إقبال الدولة ٤٣٦ — ٤٦٨ هـ : ١٠٤٤ — ١٠٧٦ م
٢ — المقتدر بن هود صاحب سرقسطة ٤٦٨ — ٤٧٤ هـ : ١٠٧٦ — ١٠٨١
المنذر بن هود ٤٧٤ — ٤٨٣ هـ : ١٠٨١ — ١٠٩١ م

المرابطون يستولون على دانيــة

## مملكة بلنســية

الفتيان مظفر ومبارك ٤٠٠ — ٤٠٨ هـ : ١٠٠٩ — ١٠١٧ م
لبيب العامرى ٤٠٨ — ٤١١ هـ : ١٠١٧ — ١٠٢١ م
عبد العزيز المنصور ٤١١ — ٤٥٢ هـ : ١٠٢١ — ١٠٦١ م
عبد الملك بن عبد العزيز ٤٥٢ — ٤٥٧ هـ : ١٠٦١ — ١٠٦٥ م

المأمون بن ذى النون يستولى على بلنسية

نائبه أبو بكر بن عبد العزيز ٤٥٧ — ٤٧٨ هـ : ١٠٦٥ — ١٠٨٥ م
عثمان بن أبي بكر ٤٧٨ — ٠٠٠ هـ : ١٠٨٥ — ٠٠٠ م
القادر بن ذى النون ٤٧٨ — ٤٨٥ هـ : ١٠٨٥ — ١٠٩٢ م
القاضى ابن جحّاف ٤٨٥ — ٤٨٧ هـ : ١٠٩٢ — ١٠٩٤ م
السيد إلكمبيادور والقشتاليون ٤٨٧ — ٤٩٥ هـ : ١٠٩٣ — ١١٠٢ م

المرابطون يستولون على بلنسية

## إمارة شنتمرية الشرق

هذيل بن عبد الملك بن رَزين ٤٠٣ — ٤٣٦ هـ : ١٠١٢ — ١٠٤٥ م
عبد الملك بن هذيل ٤٣٦ — ٤٩٦ هـ : ١٠٤٦ — ١١٠٣ م
يحيى حسام الدولة ٤٩٦ — ٤٩٧ هـ : ١١٠٣ — ١١٠٤ م

المرابطون يستولون على شنتمرية الشرق

## إمارة ألبونت

عبد الله بن قاسم ٤٠٠ — ٤٣١ هـ : ١٠٠٩ — ١٠٣٩ م

محمد بن عبد الله يمن الدولة ٤٣١ — ٤٣٤ هـ : ١٠٣٩ — ١٠٤٢ م
أحمد بن محمد عز الدولة ٤٣٤ — ٤٤٠ هـ : ١٠٤٢ — ١٠٤٨ م
عبد الله بن محمد جناح الدولة ٤٤٠ — ٤٩٥ هـ : ١٠٤٨—١١٠٢ م

المرابطون يستولون على ألبونت

## مملكة سرقسطة

١ — المنذر بن يحي التجيبى ٤٠٨ — ٤١٤ هـ : ١٠١٧ — ١٠٢٣ م
يحي بن المنذر المظفر ٤١٤ — ٤٢٠ هـ : ١٠٢٣ — ١٠٢٩ م
المنذر بن يحي معز الدولة ٤٢٠ — ٤٣٠ هـ : ١٠٢٩ — ١٠٣٩ م
٢ — سليمان بن هود المستعين ٤٣١ — ٤٣٨ هـ : ١٠٣٩ — ١٠٤٦ م
أحمد بن سليمان المقتدر ٤٣٨ — ٤٧٤ هـ : ١٠٤٦ — ١٠٨١ م
يوسف بن أحمد المؤتمن ٤٧٤ — ٤٧٨ هـ : ١٠٨١ — ١٠٨٥ م
أحمد بن يوسف المستعين ٤٧٨ — ٥٠٣ هـ : ١٠٨٥ — ١١١٠ م
عبد الملك بن أحمد عماد الدولة ٥٠٣ — ٠٠٠ هـ : ١١١٠ — ٠٠٠ م

المرابطون يستولون على سرقسطة

# ثبت المراجـــع

— ١ —

تاريخ ابن خلدون المسمى بكتاب العبر ( بولاق ) .
تاريخ ابن الأثير ( الطبعه الأهلية ١٣٠٣ ﻫ ) .
وفيات الأعيان لابن خلكان ( بولاق ) .
نهاية الأرب للنويرى . ( القسم التاريخى ، ومعظمه لا يزال مخطوطا ) .
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقرى ( الطبعة الأهلية ١٣٠٢ﻫ )
البيان المغرب فى أخبار ملوك الأندلس والمغرب لابن عذارى المراكشى ( الجزء الثانى المنشور بعناية العلامة دوزى ( ١٨٤٩ ) والثالث المنشور بعناية الأستاذ ليڤى بروڤنسال ( باريس ١٩٣٠ ) .
الإستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى للسلاوى ( القاهرة ١٣٠٦ ﻫ ) .
الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة لابن بسام الشنترينى ( المجلدات الثلاثة المنشورة بعناية كلية الآداب بجامعة القاهرة وما نشر منه فى موسوعة دوزى عن بنى عباد .Hist. Abbad ، والقسم المخطوط المنوه عنه فيما بعد .
كتاب الصلة لابن بشكوال ( ضمن المكتبة الأندلسية، والقاهرة سنة ١٩٥٥ )
التكملة لكتاب الصلة لابن الأبار القضاعى ( ضمن المكتبة الأندلسية ) .
بغية الملتمس فى تاريخ رجال الأندلس للضبى ( ضمن المكتبة الأندلسية والقاهرة ١٩٥٥ ) .
الحلة السيراء لابن الأبار القضاعى ( القسم المنشور بعناية العلامة دوزى ليدن ١٨٤٧ ) . والأصل الكامل المخطوط المنوه عنه فيما بعد .
( وطبعة القاهرة الصادرة بتحقيق الدكتور حسين مؤنس (١٩٦٤) فى مجلدين
جذوة المقتبس لأبى عبد الله الحميدى (القاهرة ) .
المعجب فى تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشى ( القاهرة ١٣٣٢ﻫ ) .
الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس لابن أبى زرع الفاسى المنشور بعناية المستشرق كارل تورنبرج (أبسالة ١٨٤٣) .
الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية ( طبع تونس ) .

أعمال الأعلام لابن الخطيب ( طبع بيروت ١٩٥٦ ) .
الإحاطة فى أخبار غرناطة لابن الخطيب ( القاهرة ١٩٠٤ و ١٩٥٦ ) .
المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد الأندلسى المنشور بعناية الدكتور شوقى ضيف ( القاهرة ١٩٥٣ و ١٩٥٥ ) .
كتاب التبيان أو مذكرات الأمير عبد الله بن بلقين المنشور بعناية الأستاذ ليڤى بروڤنسال ( القاهرة ١٩٥٥ ) .
قلائد العقيان للفتح بن خاقان ( القاهرة ١٢٨٣ ﻫ ) .
نبذ تاريخية فى أخبار البربر فى القرون الوسطى ( الرباط ١٩٣٤ ) .
تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين لأشباخ وترجمة محمدعبدالله عنان (الطبعة الثانية ١٩٥٨) .
جمهرة أنساب العرب لابن حزم ( القاهرة ١٩٤٨ ) .
طوق الحمامة لابن حزم ( طبع دمشق ١٣٤٩ ﻫ ) .
رسالة نقط العروس لابن حزم ( المنشورة بمجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة فى عدد ديسمبر ١٩٥١ ) .
الروض المعطار ( صفة جزيرة الأندلس ) لأبى عبد الله محمد بن عبد المنعم الحميرى ( القاهرة ١٩٤٨ ) .
المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب المستخرج من كتاب « المسالك والممالك » لأبى عبيد البكرى ، والمنشور بعناية المستشرق البارون دى سلان ( الطبعة الثانية ) .
سراج الملوك لأبى بكر الطرطوشى ( القاهرة ١٩٣٥ ) .
معجم البلدان لياقوت الحموى ( القاهرة ١٩٠٦ ) .
كتاب المعيار المغرب والجامع المعرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب لأبى العباس أحمد بن يحيى الونشريشى ( طبع فاس سنة ١٣١٤ ﻫ ) .
رسالة ابن عبدون فى الحسبة ( المنشورة بعناية الأستاذ ليڤى بروڤنسال طبع معهد الآثار الفرنسى بالقاهرة ) .
كتاب الفلاحة لابن بصّال المنشور بعناية المستشرق مياس بييكروسا والأستاذ محمد عزيمان ( تطوان سنة ١٩٥٥ ) .

## مصادر مخطوطة

ابن حيان : السفر الثانى من كتاب « المقتبس فى تاريخ أهل الأندلس » . قطعة مخطوطة ، محفوظة فى خزانة جامع القرويين بفاس .

أوراق مخطوطة من البيان المغرب عثر بها المؤلف فى خزانة القرويين بفاس .

الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة لابن بسام ، القسم الثالث ، النسخة المخطوطة المحفوظة بمكتبة أكادمية التاريخ بمدريد ( مجموعة جاينجوس ) .

الإحاطة فى أخبار غرناطة لابن الخطيب ، الجزء الكبير المخطوط المحفوظ بمكتبة الإسكوريال برقم ١٦٧٣ الغزيرى .

الحلة السيراء لابن الأبار ، النسخة الكاملة المخطوطة المحفوظة بمكتبة الإسكوريال برقم ١٦٥٤ الغزيرى .

إعتاب الكتاب لابن الأبار ، النسخة المخطوطة المحفوظة بمكتبة الإسكوريال برقم ١٧٣١ الغزيرى .

المجموعة المخطوطة المحفوظة بمكتبة الإسكوريال برقم ٤٨٨ الغزيرى ، وبها عدة رسائل مرابطية هامة .

المجموعة المخطوطة المسماة « رسائل تاريخية وأدبية » المحفوظة بمكتبة الإسكوريال برقم ٥٣٨ الغزيرى .

تحفة العروس لأبى عبد الله التيجانى الأندلسى المالكى ، نسخة مخطوطة محفوظة بمكتبة الإسكوريال رقم ٥٩٩ الغزيرى .

— ٢ —

R. Dozy : Scriptorum Arabum loci de Abbaditis (Historia Abbadidarum) (Leiden 1848—1852, 3 vol.).

„ „ : Recherches sur l'Histoire et Littérature de l'Espagne pendant le moyen âge (Leiden 3 ème Ed.).

„ „ : Le Cid d'après de nouveaux documents.

„ „ : Histoire des Musulmans d'Espagne jusqu'à la Conquète des Almoravides (Leiden 1932).

R.A. Nykl : Hispano-Arabic Poetry and its relations with the old Provençal Troubadours (Baltimore 1946).

Padre Mariana : Historia General de Espana (Madrid, 1955).

Padre Enrique Florez : Espana Sagrada (Madrid, 1797-1886).

Modesto Lafuente : Historia General de Espana (Madrid, 1861).

Estudios de Erudición Oriental. Homenaje a F. Codera.
F. Codera : Decadencia y Disparición de los Almoravides en Espana (Zaragoza, 1899).
Prieto y Vives : Los Reyes de Taifas (Madrid, 1926).
R. Menendez Pidal : La Espana del Cid (Madrid, 1947).
„ „ „ : Origenes del Espanol.
M. Caspar Rimero : Historia de Murcia Musulmana (Zaragoza, 1905).
A. Piles Ibars : Valencia Arabe (Valencia 1901).
Is. de las Cagigas : Los Mozarabes (Madrid, 1949).
J. Ribera y Tarrago : Disertaciones y Opusculos (Madrid, 1928).
A. Asin Palacios : Abenhazm de Córdoba y su historia de las ideas religiosas.
A. Campaner y Fuentes : Bosequejo Historico de la Dominacion Islamita en las Islas Baleares (Palma, 1868).
A. Gonzalez Palencia : Historia de la Espana Musulmana (Cuarta Ed).
„ „ „ Influencia de la Civilizacion Arabe (Madrid 1931).
M. Amari : Storia dei Musulmani di Sicilia (Fierenze 1868).
Al-Andalus : Revista de las Escuelas de Estudios Arabes de Madrid y Granada.
J. Aschbach : Geschichte Spaniens zur Zeit der Herrschaft der Almoraviden und Almohaden (Frankfurt am Main 1833 ).
( وترجمته العربية لمحمد عبد الله عنان )
Casiri : Bibliotheca Arabico-Hispana Escurialensis.

## فهرست الشعر والشعراء


صفحة

**الحسن بن رشيق** : مما يزهدنى فى أرض أندلس . . . . ١٥

**ابن زيدون أبو الوليد**

لولا بنو جهور ما اشرقت بهم . . . . . . . . ٢٦

لقد سرنى أن النعى موكل . . . . . . . . ٥٧

**ابو بكر بن اللبانة**

من بنى المنذر بن ماء السماء . . . . . . . . ٣٣

ملك يروعك فى حلى ريعـــانه . . . . . . . . ٢١٠

نسيت الا غداة النهر كونهم . . . . . . . . ٣٥٦

**القاضى ابن عباد** : ولابد يوما أن أسود على الورى . . . . ٣٩

**المعتضد بن عباد**

حميت ذمار المجـد بالبيض والسمر . . . . . . . ٥٧

لقد حصـلت يارندة . . . . . . . . . ٥٧

**المعتمد بن عباد**

الا حى أوطانى بشلب أبا بكر . . . . . . . . ٦٠

سكن فؤادك لا تذهب بك الفكر . . . . . . . . ١٣٢

ان يسلب القوم العـــدا . . . . . . . . . ٣٥٥

أنباء أسرك قد طبق آفاقا . . . . . . . . ٣٥٩

غريب بأرض المغربين أسير . . . . . . . . ٣٥٩

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا . . . . . . . . ٣٥٩

بكيت الى سرب القطـا اذ مررن . . . . . . . . ٣٦٠

أبى الدهر أن يقنى الحياء ويندما . . . . . . . ٣٦٠

قبر الغريب سقاك الرائح الغـادى . . . . . . . ٣٦١

**ابو بكر بن عمار**

ألا حى بالغرب حيا جلالا . . . . . . . . ٦٨

سجاياك ان عافيت اندى واسـمح . . . . . . . ٦٩

بشر بلنسية وكانت جنة . . . . . . . ١٨٢و١٨٣

**عمر بن الافطس ( المتوكل )** : انهض أبا طالب الينا . . . . ٨٨

رثاء مدينة طليطلة : لثكلك كيف تبتسم الثغور . . . ١١٨

**ابو اسحاق الالبيرى** : الا قل لصنهاجة أجمعين . . . . ١٣٥ر١٣٦

**ابن دراج القسطلى**

لك الخير قد أوفى بعهدك خيران . . . . . . . . ١٦٢

انورك أم أوقدت بالليـل نارك . . . . . . . . ٢١٩

بشراك من طول الترحل والسرى . . . . . . . ٢٦٨

**ابن الحداد الوادى آشى** : لعلك بالزادى المقدس شاطىء . . . . ١٦٩
**المعتصم بن صمادح**
وتحت الفلائل معنى غريب . . . . . . . . . . ١٧٠
ترفق بدمعك لا تفنـه . . . . . . . . . ١٧٢
تمتعت بالنعماء حتى مللتها . . . . . . . . . . ١٧٢
**ابو جعفر البتى** : أترضى عن الدنيا فقد تتشوف . . . . . ١٨٢
**ابو عبد الرحمن بن طاهر** : أيها الأخيف مهلا . . . . . ١٨٦
**ابو اسحاق بن خفاجة** : عاثت بساحتك العـدا يادار . . . ٢٤٦
**ابو عيسى بن لبون** : نفضت كفى عن الدنيا وقلت لها . . . ٢٥٧
**عبد الملك بن رزين**
أنا ملك تجمـع فى خمس . . . . . . . . . . ٢٥٨
يا رب ليل أطال الليل مدته . . . . . . . . . . ٢٥٩
أترى الزمان يسرنا بتلاق . . . . . . . . . . ٢٥٩
**عبد الله بن محمد بن قاسم**
خلعت عن الملك لكننى . . . . . . . . . ٢٦٢
أما لكل نبيه فى العلا حيل . . . . . . . . . . ٢٦٢
**المقتدر بن هود ، ابو جعفر**
قصر السرور ومجلس الذهب . . . . . . . . . . ٢٨٣
لست لدى خالقى وجيها . . . . . . . . . . ٢٨٣
**السميسر**
صانع أذفونش والنصـارى . . . . . . . . . ٣٤٠
**ابو بحر بن عبد الصمد** : ملك الملوك أسامع فانادى . . . ٣٦٢
**ابن الخطيب ، لسان الدين** : قد زرت قبرك عن طوع بأغمات . ٣٦٣
**ابن عبدون (ابو محمد عبد المجيد)** : الدهر يفجع بعد العين بالأثر . ٣٦٩
**ابو محمد بن عبد العزيز البطليوسى**
هلم الى روضك يا زهير . . . . . . . . . . ٤٢٨
**ابو بكر بن عبد العزيز البطليوسى**
يا أخى قم تر النسيم عليلا . . . . . . . . . . ٤٢٨
**عبادة بن القزاز**
بدرتم شمس ضـحا . . . . . . . . . ٤٢٩
**ابو الوليد الباجى**
اذا كنت أعلم علما يقينا . . . . . . . . . . ٤٣٣

# فهرست الموضوعات

صفحة

مقـــدمة . ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٣

تصـــدير . ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٧

تمهـــيد : نذر الإنحلال والتفكك . ... ... ... ... ... ١١

الكتاب الأول

قرطبـــة

ودول الطوائف فى الأندلس الغربية والوسطى

الفصل الأول : دولة بنى جهور فى قرطبة ... ... ... ... ... ٢٠

الفصل الثانى : بنو عباد ومملكة إشبيلية – القسم الأول ... ... ٣١

إمارات غرب الأندلس . ... ... ... ... ... ٤٠

الإمارات البربرية ... ... ... ... ... ... ٤٤

الفصل الثالث : بنو عباد ومملكة إشبيلية – القسم الثانى ... ... ٥٩

الفصل الرابع : بنو الأفطس ومملكة بطليوس .. ... ... ... ... ٨١

الفصل الخامس : مملكة بنى ذى النون فى طليطلة ... ... ... ... ٩٤

الكتاب الثـــانى

الدول البربرية فى جنوبى الأندلس

الفصل الأول : دولة بنى مناد البربرية فى غرناطة ومالقة ... ... ١٢٠

الفصل الثانى : الإمارات البربرية الأخرى فى جنوبى الأندلس ... ١٤٧

الكتاب الثالث

دول الفتيان الصقالبة وخلفائهم

فى شرق الأندلس

الفصل الأول : مملكة ألمرية .. ... ... ... ... ... ... ... ... ١٥٨

الفصل الثانى : مملكة مرسية ... ... ... ... ... ... ... ١٧٤

الفصل الثالث : مملكة دانية والجزائر ... ... ... ... ... ... ١٨٧

صفحة

## الكتاب الرابع

## دول الطوائف فى منطقة بلنسية


الفصل الأول : مملكة بلنسية

١ — عهد الصقالبة وبنى عامر وبنى ذى النون ... ٢١٦

الفصل الثانى : مملكة بلنسية

٢ — السيد إلكمبيادور وعهد السيادة القشتالية ... ٢٣١

الفصل الثالث : إمارة شنتمرية الشرق ... ... ... ... ... ... ٢٥٣

الفصل الرابع : إمارة ألبونت ... ... ... ... ... ... ... ٢٦٠


## الكتاب الخامس

## دول الطوائف فى الثغر الأعلى


الفصل الأول : مملكة سرقسطة حتى نهاية عصر المقتدر بن هود ... ٢٦٤

الفصل الثانى : مملكة سرقسطة منذ عصر المؤتمن حتى سقوطها فى أيدى المرابطين ... ... ... ... ... ... ... ٢٨٤


## الكتاب السادس

## موقعة الزلاّقة والفتح المرابطى


الفصل الأول : نشأة المرابطين وقيام الدولة المرابطية بالمغرب ... ٢٩٨

الفصل الثانى : موقعة الزلاّقة ... ... ... ... ... ... ... ٣٢٠

الفصل الثالث : الفتح المرابطى — القسم الأول ٣٣٣

الفصل الرابع : الفتح المرابطى — القسم الثانى ٣٤٩


## الكتاب السابع

## الممالك الإسبانية النصرانية

## خلال القرن الحادى عشر الميلادى


الفصل الأول : المملكة الإسبانية الكبرى فى عهد سانشو الكبير وولده فرناندو الأول ... ... ... ... ... ... ... ٣٧٦

صفحة

الفصل الثانى : إسبانيا النصرانية عقب وفاة فرناندو الأول .. ...
عصر ألفونسو السادس وبداية عهـد الإسترداد ٣٨٨
الفصل الثالث : النصارى المعاهدون ... ... ... ... ... ٤٠٩

خواص عصر الطوائف
السياسية والاجتماعية والحضارية ٤١٨

وثائق وملحقات

١ — رسالة كتبها الأمير أبو يعقوب يوسف بن تاشفين إلى المعز بن باديس يصف فيها فتح بلاد الغرب وجوازه للأندلس للجهاد بها. ٤٤٦
٢ — بعض فصول الكتاب الذى بعث به أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى بلاد العدوة عقب موقعة الزلاّقة ... ... ... ٤٥١
٣ — رسالة المقتدر بن هود إلى ابن عباد يعرفه بأمر أخيه صاحب لاردة ٤٥٣
٤ — رسالة أبى عامر بن غرسية فى تفضيل العجم على العرب ... ٤٥٥
دول الطوائف : جدول تاريخى مفصل ... ... ... ... ٤٦٠
ثبت المراجع . ... ... ... ... ... ... ... ... ٤٦٥
فهرست الشعر والشعراء ... ... ... ... ... ... ... ٤٦٩

## فهرست الخرائط

١ — دول الطوائف والممالك الإسبانية النصرانية بعد انهيار الخلافة ... ٢٧
٢ — دول الطوائف والممالك الإسبانية النصرانية عقب سقوط طليطلة ... ١١٧
٣ — موقعة الزلاّقة ... ... ... ... ... ... ... ... ٣٢٧
٤ — الدولة المرابطية الكبرى عقب افتتاح الأندلس ... ... ... ... ٣٦٧

# فهرست الكتب والرسائل


الإحاطة فى أخبار غرناطة ، لابن الخطيب ؛ ٢٥٢
الإحكام لأصول الأحكام ، لابن حزم ؛ ٤٢٠
الإستكمال للمؤتمن بن هود ؛ ٢٨٦ ، ٤٣٦
إظهار تبديل اليهود والنصارى التوراة والإنجيل ، لابن حزم ؛ ٤٣٢
أعلام نبوة نبينا محمد ، لأبى عبيد البكرى ؛ ٤٣٠
أعمال الأعلام ، لابن الخطيب ؛ ٣٦٣
البطشة الكبرى ، لابن حيان ؛ ٢٩
بهجة المجالس ، وأنس المجالس ، لأبى عمر بن عبد البر ؛ ٥٧ ، ٤٣٤
البيان المغرب ، لابن عذارى المراكشى ؛ ٢٥١ ، ٢٧٠ ، ٣٤٧
البيان الواضح فى الملم الفادح ، لابن علقمة ؛ ٢٤٣ ، ٢٥١
تاريخ ألفونسو العالم ؛ ٢٥٢ ، ٤٣٤
تاريخ رهبان سيلوس ؛ ٣٩٠ ، ٣٩٥
جداول الزرقالى الفلكية ؛ ٤٣٥
جمهرة أنساب العرب ، لابن حزم ؛ ٤٣٢
الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية ؛ ٧٥ ، ٧٨ ، ٩٢ ، ٣٤٥
ديوان ابن دراج القسطلى ؛ ٤٣١
الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، لابن بسام الشنترينى ؛ ٥٦ ، ٧١ ، ١٠٤ ، ١٦٥ ، ١٧٠ ، ١٧٨ ، ١٩٨ ، ٢٠١ ، ٢٠٦ ، ٢٣٩ ، ٢٩٥ ، ٤١٩ ، ٤٢٨ ، ٤٣١ ، ٤٣٥ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠
رسالة ابن زيدون فى هجاء ابن عبدوس ؛ ٢٤٦
رسالة القضاء والحسبة لابن عبدون ؛ ٤١٣ ، ٤٤٠
روض القرطاس لابن أبى زرع الفاسى ؛ ٢٩٢ ، ٣٠٢ ، ٣٢٦ ، ٣٢٩ ، ٣٥٣
الروض المعطار لعبد المنعم الحميرى ؛ ٢٧٧
زهر البستان ونزهة الاذهان ، للطغنرى ؛ ٤٤٢
السجيع فى علوم الأوائل الرياضية ، ليوسف ابن نغزالة ؛ ١٣٣
سراج الملوك لأبى بكر الطرطوشى ؛ ٢٩٤
سلك الجواهر من نوادر وترسيل ابن طاهر ، لابن بسام ؛ ١٧٨
طبقات الامم ، لابن سعيد ؛ ١٠٦ ، ٤٣٥
طوق الحمامة ، لابن حزم ؛ ٤٣١
العبدونية ، قصيدة ابن عبدون فى رثاء بنى الأفطس ؛ ٤٢٨
غريب القرآن ، لأبى يحيى بن صمادح ؛ ١٦٥
الفصل فى الملل والأهواء والنحل ، لابن حزم ؛ ٤٣٢ ، ٤٣٤
قلائد العقيان ، للفتح بن خاقان ؛ ١٤١ ، ٤٤٠
كتاب فى الإجماع ومسائله ، لابن حزم ؛ ٤٣٢
كتاب التبيان للامير عبدالله بن بلقين ؛ ١٤٦ ، ٣٤٢
كتاب التلخيص لوجوه التخليص ، لابن حزم ؛ ٤٢٠
كتاب جوامع السيرة ، لابن حزم ؛ ٤٣٢
كتاب السماء ، لابن سيدة ؛ ٤٣٤
كتاب الفلاحة ، لابن بصال ، ٤٤٢
كتاب فى مراتب العلوم ، لابن حزم ؛ ٤٣٢
كتاب المحكم لابن سيدة ؛ ١٩٨ ، ٤٣٤
كتاب المظفرى ، للمظفر بن الأفطس ؛ ٨٧ ، ٤٢٩
اللآلىء فى شرح أمالى القالى ، لأبى عبيد البكرى ؛ ٤٣٠
المآثر العامرية ، لابن حيان ؛ ٤٣٨
المتين ، لابن حيان ، ٤٣٨
المسالك والممالك ، لأبى عبيد البكرى ؛ ١٧٠ ، ٢٩٩ ، ٣٠٧ ، ٤٣٠
المسهب للحجارى ؛ ٢٨٢
مطمح الأنفس ، للفتح بن خاقان ؛ ١٠٤
معجم ما استعجم ، لأبى عبيد البكرى ؛ ٤٣٠ ، ٤٣١
المعيار المعرب والجامع المغرب ، عن فتاوى أهل افريقية والمغرب ، للونشريشى ؛ ٣٤٨
نظم السلوك فى مواعظ الملوك فى أخبار الدولة العبادية ، لأبى بكر بن اللبانة ؛ ٣٥٤ ، ٣٦٠ ، ٤٢٧
نفاضة الجراب ، لابن الخطيب ؛ ٣٦٣
نقط العروس ، لابن حزم ؛ ٤٣٢ ، ٤٣٨
يتيمة الدهر للثعالبى ؛ ٤٣١ ، ٤٤٠

# فهرست القبائل والطوائف والدول

## آ — ب

الإباضية ؛ ١٥٤
الادارسة ؛ ٣٠٣ ، ٣٧٩
الأرجونيون ؛ ٣٢٤ ، ٢٧٩
الأزد ؛ ٢٧٠
إزداجة ، قبيلة ؛ ١٢٣
الإسبان ؛ ٢٨٣ ، ٢٩٤ ، ٤٠٢
الألمان ؛ ١٨٨
آل برنجير ؛ ٢٠٢ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨
آل بوريل ؛ ٤٠٧
آل مديتشى ؛ ٢٣
إمارة ألبونت ؛ ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٣٦٨
إمارة برشلونة ؛ ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤١٢
إمارة رندة ؛ ٤٥ ، ١٤٨ ، ١٥٥
إمارة شذونة ؛ ١٤٨ ، ١٥٥
إمارة شلب ؛ ٤٣
إمارة شنتمرية الشرق؛ ٢٥٣ ، ٢٥٥ ، ٣٦٨
إمارة قرمونة ؛ ١٤٨ ، ١٥١ ، ١٥٢
إمارة قرطبة ؛ ١٧ ، ٩٥ ، ١٤٨ ، ١٥٦
إمارة قطلونية ؛ ٤٠٨
إمارة مورور ؛ ١٤٨
الأندلسيون ؛ ١٤٠ ، ١٤٨ ، ٣٢٤ ، ٣٢٨
الإيطاليون ؛ ١٨٨
البابوية ؛ ١٩٢ ، ٤٠١ ، ٤٠٢
البجلية ، طائفة ؛ ٣٠٥
البرانس ، قبيلة ؛ ٢١ ، ٢٥٣ ، ٢٩٩
البربر؛ ١٢ — ١٤ ، ١٩ ، ٢١ — ٢٣ ، ٣٢ ، ٣٤ — ٣٦ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٤٥ — ٤٧ ، ٦١ — ٦٣ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٩٦ ، ١٢٠ — ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٩ — ١٣٢ ، ١٣٩ — ١٤١ ، ١٤٨ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٥ ، ١٥٩ ، ١٦٢ ، ١٦٦ ، ١٨٩ ، ١٩٤ ، ١٩٦ ، ٢٥٣ ، ٢٦٠ ، ٢٦٦ ، ٣٠٦ ، ٣٢٢ ، ٣٢٤ ، ٣٧١ ، ٣٨٢ ، ٤٠٧ ، ٤١٠
برغواطة ، قبيلة ؛ ٣٠٤ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨
البشكنس ؛ ٧٣ ، ٢٣٤ ، ٢٨٠
بنو الأفطس ؛ ٣٥ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٨٢ ، ١٠١ ، ١٥٠ ، ٣٦٩ ، ٤٢٤ ، ٤٢٨ ، ٤٣٧ ، ٤٤٠
بنو أمية ؛ ١١ — ١٣ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٣٧ ، ١٢٠ ، ١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٨٩ ، ٢٠٧ ، ٣٨١
بنو برزال ؛ ٣٦ ، ٤٧ ، ١٢٣ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٨ ، ١٤٩
بنو بيطر ؛ ٢٩٠
بنو تجيب ؛ أنظر بنو هاشم
بنو جهور ؛ ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٨ ، ٤٩ ، ٥٦ ، ١٠٣ ، ٤٢٦
بنو حماد ؛ ١٧٣ ، ٢٠٩ ، ٣٦٦
بنو حمود ؛ ١٣ ، ١٤ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٤ ، ٣٢ — ٣٥ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٧ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٤٠ ، ١٥٠ ، ١٦٥ ، ٣١٢ ، ٣٨١
بنو خزرون ؛ ١٥٢ ، ١٥٥ ، ٣٠٤
بنو خطاب ؛ ٤٩٧
بنو دمر ؛ ٤٦ ، ١٢٣ ، ١٥٢ ، ١٥٤
بنو ذو النون ؛ ٢٨ ، ٦١ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٢٢٨ ، ٣٤٧ ، ٤٣٠ ، ٤٤١ ، ٤٤٢
بنو رزين ؛ ١٤٩ ، ٢٥٣ ، ٢٥٩
بنو زيرى ؛ أنظر بنو مناد
بنو صمادح ؛ ١٦٤ ، ١٧٠ ، ٤٢٤ ، ٤٢٩

بنو طاهر ؛ ١٧٦ ، ١٩٧ ، ٢٠٩ ، ٢٤٢
بنو الطويل ؛ ٤١٢
بنو عامر ؛ ١٥٩ ، ١٦٠ ، ٢١٨ ، ٢٢٠
بنو عباد ؛ ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٦ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٥٥ ، ٦٠ — ٦٢ ، ٦٦ ، ٧١ ، ٨٢ — ٨٤ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٤٨ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ٢٢٥ ، ٢٩٤ ، ٣٥١ ، ٣٥٣ ، ٣٥٦ ، ٣٦٠ ، ٣٦٩ ، ٤٠٤ ، ٤١٠ ، ٤١١ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٢٧ ، ٤٢٩ ، ٤٣٦ ، ٤٤١
بنو العباس ؛ ٥١
بنو قاسم ؛ ٢٦٠ ، ٢٦٢
بنو القبطرنة ؛ ٧١ ، ٨٩ ، ٤٢٨
بنو قسى ؛ ٢٦٥ ، ٤١٢
بنو مرين ؛ ٣١٠
بنو مزين ؛ ٤٤
بنو مسلمة ؛ أنظر بنو الأفطس
بنو منصر ؛ ٣١١
بنو مناد ؛ ٢٨ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٢٨ ، ١٤٠ ، ٤١١ ، ٤٣٠
بنو هاشم التجيبيون ؛ ١٦٤ ، ١٦٥ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٩ — ٢٧١ ، ٢٩٣ ، ٤١٢
بنو هود ؛ ٢١٢ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٤٩ ، ٢٧٠ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢ ، ٢٨٦ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٣٣١ ، ٣٦٨ ، ٣٧٢ ، ٤٠٨ ، ٤١٢
بنو وانودين ؛ ٣٠٤
بنو يرنيان ؛ ٤٦ ، ١٣٢ ، ١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٥٦
بنو يفرن ؛ ٤٦ ، ١٢٣ ، ١٤٨ ، ١٥٢ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ — ٣٠٩ ، ٣١١
البيزيون ١٩٣ ، ٢١١ ، ٢١٢
تجيب ، قبيلة ؛ ٨٢ ، ١٦٥


## ج — ز


جديوه ، قبيلة ؛ ٣٠٥
جزولة ، قبيلة ؛ ٣٠٨ ، ٣١١
الجلالقة ؛ ٧٣ ، ١٨٨ ، ٣٩٢
الجماعة ، حكومة ؛ ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٩٧ ، ١٦٣ ، ٢٤١ ، ٤٠٩
الجمهوريات الإيطالية ؛ ١٩٣ ، ٤٤٣
الجنويون ؛ ١٩٣
حمير ، قبيلة ؛ ٢٩٩ ، ٣١٣
الخلافة ؛ ١٧ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٣٣ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٥٢ ، ٨٢ ، ١٢٣ ، ١٨٨ ، ٢٦٦ ، ٢٧٦ ، ٣٨١ ، ٤٣٠
الخلافة الأموية، والدولة ؛ ١١ ، ١٣ ، ١٧ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٩٥ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٤٨ ، ١٥٦ ، ١٨٩ ، ٢٦٠ ، ٢٩٥ ، ٣٨٢ ، ٤١٠ ، ٤٣١ ، ٤٣٨
الخلافة العباسية ؛ ٣١٤
الخلافة الفاطمية ؛ ٢٠٣
خلافة قرطبة ؛ أنظر الخلافة الأموية
الدعوة الفاطمية ؛ ١٢٢
دول (وملوك) الطوائف ؛ ١٤ — ١٧ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٤٨ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨١ ، ٨٨—٩١ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٨ ، ١٠١ ، ١٠٤ ، ١١٠ — ١١٤ ، ١١٦ ، ١٢١ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٤٨ ، ١٦٣ ، ١٦٨ ، ١٧٠ — ١٧٢ ، ١٧٧ ، ١٨٠ ، ١٨٥ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٩٠ ، ١٩٣ ، ١٩٩ ، ٢٠١ ، ٢١٣ ، ٢١٦ ، ٢٢٢ — ٢٢٤ ، ٢٣٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٤ ، ٢٥٦ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦٤ — ٢٦٦ ، ٢٦٩ — ٢٧١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٩٣ — ٢٩٦ ، ٢٩٩

٣١٤ — ٣١٨ ، ٣٢١ ، ٣٢٨ ، ٣٣٠ ، ٣٣٢ ، ٣٣٥ — ٣٤٣ ، ٣٥٠ ، ٣٥٨ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٣٦٨ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ، ٣٧٦ ، ٣٨١ — ٣٨٣ ، ٣٩٦ ، ٣٩٨ — ٤٠٠ ، ٤٠٩ — ٤١٥ ، ٤١٨ — ٤٢٥ ، ٤٢٨ — ٤٣١ ، ٤٣٥ — ٤٤٣

دولة بنى الأفطس : ١٢١

دولة بنى برزال ؛ ١٥١

دولة بنى دمر ؛ ١٥٤ ، ١٥٥

دولة بنى ذى النون ؛ ١٢١ ، ١٣٩

دولة بنى رزين ؛ ٢٥٩

دولة بنى مرين ؛ ٣١٠

دولة بنى مزين ؛ ٤٤

دولة بنى مناد ؛ ١٦ ، ١٢١ ، ١٢٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨

دولة بنى يفرن ؛ ١٢٣

الدولة البيزنطية ؛ ١٩١

الدولة الجهورية ؛ ٢٥ ، ٢٩ ، ١٠٣ ، ١٦٠

الدولة الحمودية ، ١٤ ، ١٦ ، ٢١ ، ٤٥ ، ١٢١

الدولة العامرية ؛ ١٦ ، ٢١ ، ٣٢ ، ١٢١ — ١٢٣ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٢ ، ١٥٥ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٧٥ ، ٢١٧ ، ٢٢٠ ، ٢٦٦ ، ٤٠٧

الدولة اللمتونية ؛ ٣٠٨

الدولة المرابطية ؛ ٣١١ ، ٣١٣ ، ٣٦٢ ، ٣٧٣

الروم ؛ ١٤٤ ، ١٩٥

الرومان ؛ ٢٩٩

زناتة ، قبيلة ؛ ١٢٢ ، ١٢٥ ، ١٢٨ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٢ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ٣٠٤ — ٣٠٦ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١١

زواغة ، قبيلة ؛ ٣١١

## س — ك

السرادنة ؛ ١٩٥

الشيعة ؛ ١٤٨ ، ٣٠٣ ، ٣٠٦

شفشاوة ، قبيلة ؛ ٣٠٥

صدينة ، قبيلة ؛ ٣١١

الصقالبة ( والفتيان ) ؛ ١٢ ، ١٣ ، ١٢٩ ، ١٥٨ — ١٦٠ ، ٢٠٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٢٧٤ ، ٤٠٩ ، ٤١١

صنهاجة ، قبيلة ؛ ١٢١ — ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٣٩ ، ١٤١ — ١٤٣ ، ١٤٩ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠٢ — ٣٠٤ ، ٣٠٦ ، ٣٠٨ ، ٣١١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٤ ، ٤١١

العبيديون (الفاطميون) ؛ ١٢١ ، ١٤٨ ، ١٤٩

العجم ؛ ٢٠٤ ، ٢٠٨

العرب ؛ ١٢ ، ٦٢ ، ١٤٤ ، ١٩١ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٩٥ ، ٣٠٥ ، ٣٥٣

العصبية العربية ؛ ١٢ ، ١٤

عصر الإحياء ؛ ٢٣ ، ٤٤٣

غمارة ، قبائل ؛ ٣١٢

الفتيان العامريون ؛ ١٣ ، ٣٨ ، ١٠١ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٥٩ — ١٦٤ ، ١٧٥ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٦ ، ٢١٧ ، ٢٢٠ — ٢٢٢ ، ٢٦٠ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٧١ ، ٢٧٣ ، ٤١٠ ، ٤٣١

الفرس ؛ ٥١

الفرنج ؛ ١٩١ ، ٢٠٤ ، ٢٧٢

الفرنسيون ؛ ٣٩٨

القبائل البربرية ؛ ٤٥ ، ١٢١ ، ١٥٢

القشتاليون ؛ ٧٢ ، ٧٣ ، ١٠٩ ، ١١٣ ، ١٧٨ ، ١٨٦ ، ٢١٢ ، ٢٢٤ ، ٢٢٧ — ٢٢٩ ، ٢٣١ ، ٢٤١ ، ٢٤٤ ، ٢٤٧ ، ٢٨٤ ، ٣٢٤ — ٣٢٦ ، ٣٢٩ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٤١ ، ٣٤٤ ، ٣٥١ ، ٣٦٨ ، ٣٧٢ ، ٣٨٣ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٣٩٠ ، ٣٩٢ ، ٣٩٤ ، ٣٩٩ — ٤٠١ ، ٤٠٦ ، ٤١٥

القرطبيون ؛ ٢٠ ، ١٥٩

القطلان ؛ ٢١١ ، ٢٢٩ ، ٢٣٤ ، ٢٨٠

القوط ؛ ٧٥ ، ٣٧٨ ، ٣٨٤ ، ٣٩٦
كدالة ، قبيلة ؛ ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠٣
الكرسى الرسولى ؛ ٢٧٤ ، ٤٠٢
الكنيسة الإسبانية ؛ ٣٩٧ ، ٤٠٢

ل — ى

لخم ، قبيلة ؛ ٣٢ ، ٦٢
اللنبارد ؛ ١٨٨ ، ١٩١
الليونيون ؛ ٣٩٠ ، ٣٩٢
لماية ، قبيلة ؛ ٣١١
لمتونة ، قبيلة ؛ ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٩ ، ٣١١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٤ ، ٣٧٢
لمطة ، قبيلة ؛ ٢٩٩
لواتة ، قبيلة ؛ ٣١١
مداسة ، قبيلة ؛ ٢٩٩
المدجنون ؛ ٤١٥
مديونة ، قبيلة ؛ ٣١١
المرابطون ؛ ١٦ ، ٧٧—٧٩ ، ٩١ ، ١١٦ ، ١٤٥ ، ١٦٧ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٨٤ — ١٨٦ ، ٢١٠ ، ٢١٣ ، ٢٢٨ ، ٢٣٢ ، ٢٣٩ ، ٢٤١ — ٢٤٣ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٩٠ ، ٢٩٢ — ٢٩٤ ، ٢٩٩ ، ٣٠٢ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣١٢ ، ٣١٥ — ٣١٨ ، ٣٢١ — ٣٢٥ ، ٣٢٨ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٣ — ٣٣٥ ، ٣٣٩ — ٣٤٢ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٧ — ٣٥٣ ، ٣٥٥—٣٥٧ ، ٣٦٥—٣٧٣ ، ٣٧٦ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٦ ، ٤٠٨ ، ٤١٤ ، ٤٣٧ ، ٤٣٩
مسراتة ، قبيلة ؛ ٢٩٩
المستعربون ؛ أنظر النصارى المعاهدون
المسلمون ؛ ٧٣ ، ٨٥ — ٨٧ ، ٩٠ — ٩٢ ، ٩٩ ، ١١٣ ، ١٩٢ — ١٩٤ ، ٢١١ ، ٢٢٩ ، ٢٣٢ ، ٢٣٥ — ٢٣٧ ، ٢٤٤ — ٢٤٧ ، ٢٧٤ — ٢٧٦ ، ٢٧٩ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٣١٩ ، ٣٢٢ ، ٣٢٤ — ٣٢٦ ، ٣٢٨ ، ٣٣١ ، ٣٣٥ ، ٣٧٠ ، ٣٨٣ ، ٣٨٥ — ٣٨٧ ، ٣٩٢ ، ٣٩٧ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ — ٤٠٣ ، ٤٠٥ ، ٤٠٧ — ٤١٠ ، ٤١٤ ، ٤٢٠ ، ٤٤٠
مسوفة ، قبيلة ؛ ٢٩٩ ، ٣٠٣ ، ٣٠٩
المصامدة ؛ ٣٠٦ ، ٣٠٨ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣٧٢
مغراوة ، قبيلة ؛ ١٥٢ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٩ ، ٣١١
مغيلة ، قبيلة ؛ ٣١١
الملثمون ؛ ٢٩٩
ملوك الطوائف ؛ أنظر دول الطوائف
الممالك الإسبانية النصرانية ؛ ٣٧٦ ، ٣٧٨ ، ٣٨١ ، ٣٩٨ ، ٤٠٦ ، ٤٠٩ ، ٤٤٣
الممالك البربرية ؛ ٦٢ ، ١٤٧ — ١٥٠
مملكة أراجون ؛ ٢٨٩ ، ٣٧٨ ، ٤٠٦
مملكة أشتوريش ؛ ٣٧٨
مملكة إشبيلية ؛ ٣١ ، ٣٢ ، ٤٤ ، ٤٨ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٧٣ ، ٧٥ ، ٨١ ، ٨٧ ، ١١٠ ، ١٢١ ، ١٤٥ ، ١٤٨ ، ١٥٥ ، ١٧٩ ، ١٨٣ ، ٢٥٥ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٥٠ ، ٣٥٣ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٣٨٩
مملكة ألمرية ؛ ١٣٠ ، ١٥٦ ، ١٦٣ ، ١٦٧ ، ١٧٥ ، ١٧٨ ، ٢٢١ ، ٣٦٦
مملكة برشلونة ؛ ٢١٢ ، ٢٧٧ ، ٢٧٥ ، ٣٧٨
مملكة بطليوس ؛ ٤١ ، ٤٨ ، ٨١ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٩ ، ٩٣ ، ٩٥ ، ٣١٥ ، ٣٦٨ ، ٣٨٣ ، ٣٨٥ ، ٣٨٩ ، ٤٠٠
مملكة بلنسية ؛ ١٦٧ ، ١٩٧ ، ٢٢٢ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٤٧ ، ٢٤٩ ، ٢٦١ ، ٢٨١ ، ٢٨٦ ، ٣٦٦ ، ٣٦٨ ، ٣٨٦ ، ٤٠٨
مملكة بنى هود ؛ أنظر مملكة سرقسطة
مملكة جليقية ؛ ٤٠٤

مملكة دانية ؛ ١٨٨ ، ١٩٨ – ٢٠٣ ، ٢٠٩ ،
٢٠٩ ، ٢٢٢ ، ٢٢٩ ، ٢٨١ ، ٤١١
مملكة سرقسطة ؛ ٩٥ ، ١٣١ ، ٢٢٤ ، ٢٢٦ ،
٢٣٠ ، ٢٥٩ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٧١ ،
٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٩ – ٢٨٢ ، ٢٨٨ ،
٢٩٠ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٣٨٦ ، ٣٨٩ ،
٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤٠٨ ، ٤١٢
مملكة طليطلة ؛ ٤٨ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ،
٨١ ، ٨٧ ، ٨٩ – ٩١ ، ٩٤ ، ٩٥ ،
٩٧ ، ٩٨ ، ١٠١ ، ١٠٤ ، ١١١ ،
١١٤ ، ١٥٦ ، ١٧٨ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ،
٢٧١ ، ٣١٥ ، ٣٤٧ ، ٣٨٣ ، ٣٨٩ ،
٣٩١ ، ٣٩٥
مملكة غانة ؛ ٣٠٥
مملكة غرناطة ؛ ١٦ ، ٦١ – ٦٣ ، ١٤٢ ،
١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥٦ ، ١٦١
مملكة الفرنج ؛ ٤٠٧
مملكة قشتالة ؛ ١٦ ، ١١٥ ، ١٨٨ ، ٣٧٧ ،
٣٨٠ ، ٣٨٦ ، ٣٨٧
المملكة القوطية ؛ ١١٦
مملكة ليون ؛ ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٣٨٩ ، ٣٩١
مملكة مالى ؛ ٣٠٢
مملكة مرسية (وإمارة) ؛ ١٧٨
مملكة نافار (نبره) ؛ ٣٧٩ ، ٣٨٩ ، ٤٠٦
الموالى ؛ ١٨٨ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٥٤
الموحدون ؛ ١٦ ، ٤٢ ، ٣٣٢
المولدون ؛ ١٢ ، ٢٠٧ ، ٢٦٥ ، ٤١٢
النافاريون ؛ ٣٨٠ ، ٣٨١
النصارى ؛ ٦٣ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٧ ، ٧٨ ،
٧٩ ، ٨٣ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ٩٠ ، ٩٥ ،
٩٩ ، ١٠٠ ، ١١١ ، ١٧١ ، ١٧٢ ،
١٨٥ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ٢١٢ ، ٢٢٤ ،
٢٤٥ – ٢٤٨ ، ٢٦٦ ، ٢٧٣ ، ٢٧٧ ،
٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢ ، ٢٨٤ ، ٢٨٧ ،
٢٨٨ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٣١٨ ، ٣٢١ –
٣٢٦ ، ٣٢٨ ، ٣٣٠ ، ٣٣٣ – ٣٣٥ ،
٣٣٧ ، ٣٤١ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٥٦ ،
٣٦٥ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٨٥ ، ٣٨٧ ،
٣٩١ ، ٣٩٤ ، ٣٩٩ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ ،
٤٠٥ ، ٤٠٨ ، ٤١٠ – ٤١٥ ، ٤٤٠ ، ٤٤٢
النصارى المعاهدون ؛ ٧٥ ، ١١٢ ، ٢٠٣ ،
٢٤٤ ، ٤٠٩ – ٤١٥
نفيس قبيلة ؛ ٣٠٥
النورمان ؛ ١٩٣ ، ٢١١ ، ٢٧٤ – ٢٧٨ ،
٣٩٨ ، ٤١٢ ، ٤٢٧
هوارة ، قبيلة ؛ ٢٥٣
وتريكة ، قبيلة ، ٢٩٩
وردة ، قبيلة ، ٣٠٥
اليهود ، ٧٥ ، ١٣٣ – ١٣٥ : ١٣٧ ،
٣١٠ ، ٣٢٣ ، ٣٨٧ ، ٤٠٤ ، ٤١١
٤١٤ ، ٤٢٠ ، ٤٤٠

# فهرست البلدان والأماكن

## — أ —


أبدة ؛ ٢٢ ؛ ٣٤٩
آبلة ؛ ٤٢
أنابوركا ، موقعة ؛ ٣٨٠ ، ٣٨٩ ، ٤٠٥
أذكون ؛ ٢٥٨
أراجون ؛ ١٠٨ ، ١١١ ، ٢٤٧ ، ٢٧٩ ، ٢٨٥ ، ٢٩٦ ، ٣٢٢ ، ٣٨٩ ، ٣٩٦ ، ٤٠٥ ، ٤١٢
أرجونة ، ٢٢
أرشدونة ؛ ١٤٥
أرتلة ؛ ٤٠٧
أركش ؛ ١٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٦٢ ، ١٣٢ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٥٦
أزمور ؛ ٣٠٦
إسبانيا المسلمة ؛ ١١٠ ، ١٣٠ ، ٢٣٤ ، ٣١٤ ، ٣٣٢ ، ٣٧١ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٦ ، ٣٩٨ ، ٤٠٩ ، ٤١٢ ، ٤١٨
إسبانيا النصرانية؛ ١١ ، ١٦ ، ١١٦ ، ١٦١ ، ١٨٤ ، ٢٢٢ ، ٢٣٢ ، ٢٤٩ ، ٢٧٥ ، ٣١٤ ، ٣٣٠ — ٣٣٢ ، ٣٣٩ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٦ ، ٣٩٦ ، ٤٠١ ، ٤١٣ ، ٤١٩ ، ٤٤٣
إستجة ؛ ١٤ ، ٢١ ، ٣٨ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ١٣٠ ، ١٣٩ ، ١٤٨ — ١٥١ ، ١٥٥ ، ٣٧١
آسفى ؛ ٣٠٦
الإسكندرية ؛ ٢٠٢ ، ٢٩٥
الاسكوريال ؛ ٢٠٦
أشبونة ؛ ٢٤ ، ٣٦ ، ٨١ ، ٨٣ ، ٣٦٨ ، ٣٧٠ ، ٤٣٤
اشبيلية ؛ ١٤ ، ١٦ ، ١٧ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٢٨ ، ٣٢ — ٣٧ ، ٣٩ — ٤١ ، ٤٣ — ٤٩ ، ٥٥ — ٦٢ ، ٦٤ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٨ ، ٨٤ ، ٨٨ ، ٩٧ ، ٩٩ ، ١٠٥ ، ١٠٩ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١٢١ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٥ ، ١٤٠ ، ١٤٣ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧٣ ، ١٨١ ، ١٨٣ — ١٨٥ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٢١ ، ٢٣٣ ، ٢٨٩ ، ٢٩٤ ، ٣١٦ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٩ ، ٣٣٥ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٥٠ — ٣٥٦ ، ٣٥٨ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٦٦ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٣٩٢ ، ٣٩٤ ، ٤٠٩ ، ٤٢٤ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٣٦ ، ٤٣٩ — ٤٤٢
أشتوريش ؛ ٣٢٢ ، ٣٨٩ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤
أشونة ؛ ٣٨ ، ١٤٩ ، ٣١٤
أغمات ؛ ١٤٦ ، ٣٠٥ ، ٣٠٨ — ٣١٢ ، ٣٤٢ ، ٣٥٧ — ٣٥٩ ، ٣٦١ — ٣٦٣ ، ٤٢٧
أفراغة ؛ ٢٦٥
إفريقية ؛ ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٥ ، ٣٢٨ ، ٣٣١ ، ٤١٥ ، ٤٢٩
إقليش (حصن وموقعة) ؛ ٩٥ ، ٩٦ ، ١٠٢ ، ٢١٢ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٩٢ ، ٣٤٦ — ٣٤٨ ، ٣٦٨ ، ٤٠١ ، ٤٠٤
ألبونت ؛ ٢٠ ، ١٩٦ ، ٢٣٩ ، ٢٤٧ ، ٢٦٠ — ٢٦٢
إلبيرة (وولاية) ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٦٩
ألش ؛ ١٧٨
ألفنت ؛ ١٢٨ ، ١٦٣
ألمرية ؛ ١٤ ، ٣٧ ، ٤٨ ، ٧٩ ، ١٠٥ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣٥ ، ١٤٤ ، ١٥٨ — ١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٦٨ — ١٧٣ ، ١٧٥ — ١٧٧ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٠١ ، ٢٠٤ ، ٢٢٠ — ٢٢٢ ، ٢٨٩ ، ٣٢١ ، ٣٢٩ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٧ ، ٣٤٣ ، ٣٦٦ ، ٤٢٤ ، ٤٢٩ — ٤٣١ ، ٤٤٢

المهدية ؛ ٤٢٧
أليدو ؛ أنظر حصن لييط
أنتقيرة ؛ ١٤٥
الأندلس ؛ ١١ – ١٦ ، ٢١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٣ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ٤٢ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٠ – ٥٣ ، ٥٦ ، ٦٠ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٤ ، ٧٧ – ٨٠ ، ٩٠ – ٩٥ ، ١١١ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١٢١ ، ١٢٢ – ١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٤٢ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٤٩ ، ١٥٢ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٦٢ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٨٥ ، ١٨٩ ، ١٩١ ، ٢١٨ ، ٢٢١ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٣٤ ، ٢٤٦ ، ٢٥٠ ، ٢٥٣ ، ٢٦٠ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٥ ، ٢٧٧ ، ٢٧٩ ، ٢٨٩ ، ٢٩٤ ، ٢٩٦ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٦ ، ٣١٠ ، ٣١٤ – ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٤ ، ٣٢٦ ، ٣٢٩ – ٣٣٥ ، ٣٣٧ – ٣٣٩ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٦٠ ، ٣٦٢ – ٣٦٥ ، ٣٧١ – ٣٧٣ ، ٣٧٦ ، ٣٨١ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ٤١٤ ، ٤١٥ ، ٤١٨ ، ٤١٩ ، ٤٢٩ – ٤٣١ ، ٤٣٥ ، ٤٣٩ ، ٤٤١ ، ٤٤٣
أندوجر ؛ ٢٢
أودفست ؛ ٣٠٥
أوريولة ؛ ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦١ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٩٧ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٩٠
أوسيدا ؛ ٣٨٣
أوركانيا ؛ ٣٤٧
إيطاليا ؛ ١٩٩ ، ٢٧٤ ، ٢٩٦ ، ٣٢٢ ، ٤٤٣

## ب – ث

باب إشبيلية ؛ ٤٧
باب إلبيرة ؛ ١٣٧
باب شيزورا ؛ ٢٧٨
باجة (وكورة) ؛ ٣٥ ، ٣٦ ، ٤٤ ، ٥٩ ، ٨١ ، ٨٢ ، ١٥٠
بازو ؛ ٨١ ، ٨٦ ، ٣٧٧ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤
ببشتر ؛ ٣٨
بجاية ؛ ١٧٣ ، ١٩٤ ، ٢٠٩
بربشتر ؛ ٢٦٥ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٧ – ٢٧٩ ، ٤٠٦ ، ٤١٢
البرتغال ؛ ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٨ ، ٥٨ ، ٨١ ، ٨٦ ، ٣١٤ ، ٣٢١ ، ٣٧٧ ، ٣٨٣ ، ٣٨٦ ، ٣٨٩ ، ٤٠٤
برجة ؛ ١٦٨ ، ٤٢٩
برجونية ؛ ٣٣١
برشلونة ؛ ٦٥ ، ١١١ ، ١٨٠ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢٣٤ ، ٢٣٧ ، ٢٦٨ ، ٤٠٧
برغش ؛ ٢٣٣ ، ٢٤٩ ، ٣٨٠ ، ٣٩٢ ، ٣٩٤
برناط ؛ ٣٠٦
البرنيه ؛ أنظر جبال البرنيه
بروفانس ؛ ١٩٤ ، ٢٠٢ ، ٢١١
بستان الملك ؛ ١١١
بسطة ؛ ١٣٣ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٦١ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥
البشرات ؛ ٤١٤
بسكونية ؛ أنظر نافار – نبره
بطرنة ، موقعة ؛ ١٠٢ ، ١٧٨ ، ٢٢٤
بطليوس ؛ ٢٤ ، ٣٥ ، ٤١ ، ٧٧ ، ٨١ ، ٨٣ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٩٠ ، ١٠١ ، ١٠٥ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، ١٢١ ، ١٥٠ ، ٢٩٠ ، ٣١٧ ، ٣٢١ ، ٣٢٤ ، ٣٢٩ ، ٣٦٩ – ٣٧٠ ، ٤٢٤ ، ٤٢٨ ، ٤٣٣ ، ٤٣٤ ، ٤٣٧
بغداد ؛ ٥٤ ، ٣١٤
بلاد جدميوه ؛ ٣٠٥
بلاد جزولة ؛ ٣٠٥
بلاد الزاب ؛ ١٤٨ ، ٣١٩
بلاد السودان ؛ ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠٣ ، ٣٠٥ ، ٣٠٩ ، ٣١٣ ، ٣١٤
بلاد السوس ؛ ٣٠١ ، ٣٠٥ ، ٣٤٢

بلاد غمارة ؛ ٣١١
بلاد فازاز ؛ ٣٠٨ ، ٣١١
بلاد القبلة ؛ ٣٠٨
بلاد المصامدة ؛ ٣٠٥ ، ٣١٠
بلاط الشهداء ؛ ٢٦٠ ، ٣٣٠
بلاد تادلا ؛ ٣٨٩
بلتيرة ؛ ٢٩١
بلمة ؛ ٣٥١
بلنسية ؛ ١٤ ، ١٦ ، ١٧ ، ٢٤ ، ٦٥ ، ٦٨ ، ٩٨ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١٣ — ١١٥ ، ١٥٨ ، ١٦١ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٧٥ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٥ ، ١٨٩ ، ١٩٦ — ٢٠١ ، ٢١٠ ، ٢١٨ — ٢٢١ ، ٢٢٣ — ٢٣٠ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤ — ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ — ٢٤٩ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٦ — ٢٥٩ ، ٢٦٧ ، ٢٧٣ ، ٢٨٧ ، ٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٣٢٢ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٧ ، ٣٦٨ ، ٣٨٦ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠٦ ، ٤٠٩ ، ٤١٣ ، ٤١٤ ، ٤٣١ ، ٤٣٤ ، ٤٤٢
بله نوبه ؛ ٢٤٢
بنبلونة ؛ ٤٠٦
بواتو ؛ ٣٣١
بياسة ؛ ٢٢ ، ١٢٨ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٦٣ ، ١٦٨ ، ٣٤٩
بيرة ؛ ٥٨
بيزة ؛ ٥٨ ، ١٩٢ ، ٢١١ ، ٢٤٠ ، ٤٠٠
تادلا ؛ ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٩
تارودنت ؛ ٣٠٥
تاكرونا ؛ ١٥٢
تامارون ، موقعة ؛ ٣٧٨
تامسنا ؛ ٣٠٦ ، ٣٠٧
تدمير (وولاية) ؛ ٧١ ، ١٥٦ ، ١٥٩ ، ١٦٧ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ٢٦٨
تدمير الشام ؛ ١٧٤
ترجالة ؛ ٩٥
تطيلة ؛ ٩٩ ، ٢٦٥ ، ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٨٥ ، ٢٩١ ، ٣٣١
تلمسان ؛ ٣١٣
تنبكتو ؛ ٣٠٢
تورو ؛ ٣٨٩ ، ٣٩٢
تولوشة ؛ ٣٣١
تونس ؛ ١٥٤ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٦ ، ٤٢٧
الثغر الأعلى ؛ ١٧ ، ٩٥ ، ٩٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٦ ، ٢٣٩ ، ٢٥٣ — ٢٥٥ ، ٢٥٩ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٨٨ ، ٣٣١ ، ٣٦٨ ، ٤١٢
الثغر الأوسط ؛ ١٧ ، ٩٤ ، ٢٥٣
الثغر القوطى ( الاسبانى ) ؛ ٤٠٧

## ج — ز

جامع المرية ؛ ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٦٨
جامع بلنسية ؛ ٢١٨
جامع طليطلة ؛ ١٠٥ ، ١١٣ ، ٣٩٧
جامع غرناطة ؛ ١٤٠
جامع قرطبة ؛ ٣٣ ، ٤٣١
جامع الكتبيين ؛ ٣١٠
جامع وشقة ؛ ٢٨٩
جبال الأطلس ؛ ٣٠٥ ، ٣١٠ ، ٣٥٧ ، ٣٦٣
جبال البرنيه ؛ ٢٧٥ ، ٢٩٦ ، ٣٢٢ ، ٣٣١ ، ٣٧٨ ، ٣٠٦ ، ٤٠٧ ،
جبال ألبونت ؛ ٢٣٨
جبال بنى رزين ؛ ٢٥٣
جبال درن ؛ ٣١٠ ، ٣٧٢
جبالة (كبالة) ؛ ٢٤٠ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٥٨
جبل الشارات ؛ ٢١ ، ٧٣ ، ٨١
جبل شلير ؛ ١٢٤
جبل طارق ، مضيق ؛ ٧٩ ، ٢١١
جبل العيون ؛ ٤١
جبل منديز ، ٢٤٧

جرادوس ، موقعة ؛ ٢٨٠ ، ٢٨٥
الجزائر الشرقية ؛ ٢٤ ، ١٥٨ ، ١٦٤ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩٤ ، ١٩٧ ، ٢٠٢ ، ٢٠٩ – ٢١٣ ، ٢٢٢
الجزيرة الخضراء ؛ ١٤ ، ١٦ ، ٢٤ ، ٣٨ ، ٤٥ ، ٤٧ – ٤٩ ، ٦٢ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ١٣١ ، ١٥٦ ، ٣١٨ – ٣٢٠ ، ٣٣٥ ، ٣٣٧ ، ٣٤٢ ، ٣٦٣
الجزيرة (جزيرة شقر) ؛ ٢٤٧
جزيرة شلطيش ؛ ٢٤ ، ٢٩ ، ٤٣ ، ٤٣٠
جزيرة فورمنتيرا ؛ ١٨٩ ، ٢١١
جزيرة منورقة ؛ ١٨٩
جزيرة ميورقة ؛ ١٨٩ ، ١٩٨ ، ٢١٠ – ٢١٣ ، ٤٢٧ ، ٤٣٣
جزيرة يابسة ؛ ١٦٥ ، ١٨٩ ، ٢١١ ، ٢١٣
جلبياريس ؛ ٣٨٩
جليقية ؛ ١١٢ ، ١٤٤ ، ٣٢٢ ، ٣٧٨ ، ٣٨٩ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٤٠٣
جنجالة ؛ ٩٧
جنوه ؛ ٢٣ ، ١٩٢ ، ٢٤٠ ، ٤٠٠
جويانسا ؛ ٣٨٧
جيان (وولاية) ؛ ٢٢ ، ٦٣ ، ١٢٣ ، ١٣٠ ، ١٣٣ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ٣٣٥ ، ٣٤٤
حصن أركش ؛ ٣٦١
حصن أشتر ؛ ١٢٥
حصن إقليش ؛ أنظر إقليش
حصن البلاط ؛ ٣٤٩
حصن المدور ؛ ٢٨ ، ٧٣ ، ١٥١ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٤٩ ، ٣٥١
حصن برغش ؛ ٣٩٠
حصن بلج ؛ ٦٥ ، ١٨١
حصن روطة (وقلعة) ؛ ٢٦٩ ، ٢٨١ ، ٢٨٥ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣
حصن الزهراء ؛ ٤٩
حصن سرية ؛ ١٠٨
حصن شقورة ؛ ٦٦ ، ١٨٤
حصن غرماج ؛ ٢٨٠
حصن فتورية ؛ ١٠٨
حصن قبرة ؛ ٦٣
حصن قناليش ؛ ١٠٨
حصن فونقة ؛ ١١٥
حصن لونا ؛ ٣٩٤
حصن لبيط ؛ ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٨٥ ، ٢٣٩ ، ٢٨٩ ، ٣٢١ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٤٠ ، ٣٦٥ ، ٣٩٩
حصن مونتشون ؛ ٢٨٥
حصن مورور ؛ ١٥٥
حصن وادي آش ؛ ١٦٧
حصن وبذه ؛ ١٠٨
الحمراء (حمراء غرناطة) ؛ ١٣٩
حمص ؛ ٣٣ ، ٣٦٣
الخندق ، موقعة ؛ ١٢
دار السرور ؛ ٢٨٣
دانية ؛ ٢٤ ، ٦٦ ، ١١٤ ، ١٩٤ ، ١٦٦ ، ١٦٨ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٨٤ ، ١٨٧ – ١٩٠ ، ١٩٢ – ١٩٨ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٤ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٧ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٣٤ ، ٢٦٧ ، ٢٨٢ ، ٢٨٧ ، ٢٩٠ ، ٣٦٦ ، ٤١١ ، ٤١٤ ، ٤٢٧ ، ٤٣٤ ، ٤٤٢
درعة ؛ ٣٠٤
دروقة ؛ ٢٦٥
دير أونيا ؛ ٣٩٢
دير سان بيدرو دي كاردينا ؛ ٢٤٩
دير ساهاجون ؛ ٣٤٧ ، ٣٩٠ ، ٤٠٢
دير سيلوس ؛ ٣٩١
دير لورقان ؛ ٣٨٥ ، ٤١٣
رباجورسا ؛ ٣٧٦ ، ٣٧٨
ربض قرطبة ؛ ٢٨
الرصافة (بلنسية) ؛ ٢٢٨ ، ٢٤٢

ركانة ؛ ٢٣٨
رندة ؛ ١٤ ، ٤٥ — ٤٧ ، ٦٢ ، ١٢١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٦ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٥٠ ، ٣٥٢
رومة ؛ ٣٧٩
ريه ، كورة ؛ ١٧ ، ٤٦ ، ١٥٢
ريوخا ؛ ٢٤٢
الزلاقة ، موقعة (وسهل) ؛ ٨٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٨٤ ، ٢١٠ ، ٢٢٩ ، ٢٣٧ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٨٧ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣٢١ ، ٣٢٦ ، ٣٢٨ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ — ٣٣٤ ، ٣٣٧ ، ٣٦٥ ، ٣٧٣ ، ٣٩٨ ، ٤٠١ ، ٤٠٨
الزهراء ، مدينة ؛ ٤٩ ، ١٥٩

## س — غ

سبتة ؛ ٧٧ ، ١٣١ ، ١٦٠ ، ٢٤٦ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٥ ، ٣١٩ ، ٣٢٩ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٧١
سجلماسة ؛ ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٩
سردانية ، جزيرة ؛ ١٩٠ — ١٩٥ ، ١٩٩ ، ٢٠٣ ، ٢٠٩ ، ٢١٠
سرقسطة ؛ ١٤ ، ١٦ ، ١٧ ، ٦٦ ، ٩٨ ، ١٠٠ ، ١٠٧ ، ١٦٠ ، ١٦٥ ، ١٦٩ ، ١٨٤ ، ١٩٦ ، ٢٠٨ ، ٢١٢ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٤ ، ٢٢٦ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ — ٢٣٦ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤٣ ، ٢٤٩ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٨ — ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٥ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢ — ٢٨٨ ، ٢٩٠ — ٢٩٦ ، ٣١٤ ، ٣٢٢ ، ٣٣١ ، ٣٦٨ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٩٨ ، ٤٠٩ ، ٤١٢ ، ٤١٤ ، ٤١٥ ، ٤٣٠ ، ٤٣١ ، ٤٣٥ ، ٤٤٢
سرقوسة ؛ ٤٢٧
سرية ؛ ٩٣
سلا ؛ ٣٠٤
سمورة ؛ ١٠٢ ، ٢٣٣ ، ٣٨٩ ، ٣٩٢ ، ٣٩٣
السهلة ؛ ١٢١ ، ٢٣٧ ، ٢٥٣ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨
سوبرابي ؛ ٣٧٦ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩
السودان ؛ أنظر بلاد السودان
شاطبة ؛ ١٠١ ، ١٢٨ ، ١٥٨ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٧٥ ، ١٨٦ ، ١٩٧ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٤٨ ، ٢٩٠ ، ٢٩٤ ، ٣٦٦ ، ٤٣١ ، ٤٣٤
الشام ؛ ٣٣
شبه الجزيرة الإسبانية ؛ ١٤ ، ١٦ ، ٧١ ، ١١٥ ، ١٧١ ، ٣٢١ ، ٣٢٨ ، ٣٣٧—٣٣٩ ، ٣٤٣ ، ٣٥٠ ، ٣٧١ ، ٣٧٦ ، ٣٨١ ، ٣٩٨ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ ، ٤٠٧ ، ٤٣٦
شذونة ؛ ٣٦ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٩ ، ٧٣ ، ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٣٢ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٥ ، ٣٠٦
شرطانية ؛ ٤٠٧
الشرق الإسلامي ؛ ٢٠٧
شرق الأندلس ؛ ١٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ — ١٦١ ، ١٧١ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ٢٠٤ ، ٢١٠ ، ٢١٢ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢٢٧ — ٢٢٩ ، ٢٣٩ ، ٢٤٦ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٧ — ٢٦٠ ، ٢٧١ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٩٠ ، ٣٣٤ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧٢ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤١١
شقورة ؛ ٦٤ ، ٦٥ ، ١٨٠ ، ٢٠٩ ، ٢٩٠ ، ٣٣٥ ، ٣٤٩ ، ٣٦٦
شلب (وولاية) ؛ ٤٤ ، ٦٠ ، ٦٤
شنبوس ؛ ٦٤
شنت برية ؛ ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ١٠٢ ، ١٠٧ ، ١١٤ ، ٢٢٤
شنت ياقب ؛ ٣٨٤
شنترة ؛ ٨١ ، ٣٦٨
شنترين ؛ ٨١ ، ٨٦ ، ٣١٤ ، ٣٦٨ ، ٣٨٣ ، ٣٩٢ ، ٤٠٠ ، ٤٣٤ ، ٤٣٩

شنتمرية الشرق ؛ ٩٥ ، ١١٤ ، ١٢١ ، ٢٠١ ، ٢٢٧ ، ٢٣٧ ، ٢٣٩ ، ٢٤٧ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ — ٢٦٢
شنتمرية الغرب ؛ ٤٣
شوذر ؛ ١٩٧ ، ٢٢٢
صقلية ؛ ١٩٣ ، ٤٢٧
الصمادحية ، بستان وقصر ؛ ١٦٨ ، ١٦٩
طرطوشة ؛ ١٥٨ ، ١٨٩ ، ١٩٦ ، ٢٠٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٩ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٤٠ ، ٢٤٧ ، ٢٦٥ ، ٢٦٧ ، ٢٧١ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٨٢ ، ٢٨٦ ، ٢٩٠ ، ٢٩٤ ، ٢٩٦ ، ٣٢٢ ، ٣٣١
طركونة ؛ ٢١٧ ، ٢٦٥ ، ٢٧٣ ، ٢٩٦
طريف ؛ ٧٤ ، ٣١٦ ، ٣٣٩
طشانة ؛ ٣٣
طلبيرة ؛ ٩٥ ، ٩٨ ، ١١٤ ، ٢٧١
طلمنكة ؛ ٣٨٣
طليطلة ؛ ١٧ ، ٧٢ ، ٧٥ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٥ ، ٩٠ — ٩٢ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٧ — ١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١٠٨ — ١١٦ ، ١٢١ ، ١٣٨ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٧٠ ، ٢٠٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٣٨ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٥٦ ، ٢٦٩ ، ٢٧٢ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٩٣ ، ٣١٥ — ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣٢٦ ، ٣٢٨ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٤ ، ٣٣٩ ، ٣٧٢ ، ٣٨٥ ، ٣٩٠ ، ٣٩٢ ، ٣٩٣ ، ٣٩٥ ، ٣٩٨ ، ٤٠٠ ، ٤٠٢ ، ٤٠٩ ، ٤١٣ ، ٤١٥ ، ٤١٩ ، ٤٣٠ ، ٤٣٥ ، ٤٣٧ ، ٤٤١ ، ٤٤٢
طنجة ؛ ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣٥٧ ، ٤٢٧
العدوة (عدوة المغرب) ؛ ٧٤ ، ٧٧ ، ١٩٤ ، ٢٠٩ ، ٣١٥ ، ٣٢٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٣ ، ٣٥٠ ، ٣٦٦
الغرب (غربي الأندلس) ؛ ١٧ ، ٢٤ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ٤٠ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٨١ ، ١٥٢ ، ١٦١ ، ١٧٥ ، ١٨٤ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٤٠٠ ، ٤٣٣
الغرب الإسلامي ؛ ٣١٤
غرناطة (وولاية) ؛ ١٤ ، ١٦ ، ١٧ ، ٢٢ ، ٣٩ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٩ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٧٠ ، ٧٧ ، ٨٣ ، ١١١ ، ١٢١ ، ١٢٤ — ١٢٨ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٧ — ١٤٣ ، ١٤٧ — ١٤٩ ، ١٥٦ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٩٧ ، ٢٢٢ ، ٢٣٣ ، ٢٤٦ ، ٢٦٠ ، ٢٦٦ ، ٢٨٩ ، ٣١٧ ، ٣٢١ ، ٣٢٩ ، ٣٣٥ ، ٣٣٨ ، ٣٤٠ — ٣٤٣ ، ٣٥٦ ، ٣٦٦ ، ٣٦٨ ، ٣٧٢ ، ٤١٤ ، ٤٣٠

## ف — ق — ك

فارو ؛ ٤٣
فاس ؛ ٧٧ ، ٣٠٤ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٦ ، ٣٧٣
فحص البلوط ؛ ٨٢
فحص الرينسول ؛ ٤١٤
فحص غرناطة ؛ ٣٤٠
الفرنتيرة ؛ ١٧ ، ٤٨ ، ٧١ ، ١٤٧ ، ١٥٦ ، ٣٣٩
فرنسا ؛ ٢١١ ، ٢٧٥ ، ٢٩٦ ، ٣٢٢ ، ٤٠٧
فلورنس ؛ ٢٣
فيانا ، موقعة ؛ ٣٨٩ ، ٤٠٥
قبر المعتمد بن عباد ؛ ٣٦٣
قرطبة ؛ ١١ — ١٤ ، ١٦ ، ١٧ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٢ — ٣٤ ، ٣٦ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٩ ، ٥٢ ، ٥٧ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٦ ، ٧٣ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٩٥ ، ٩٧ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٢١ — ١٢٤ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٤٨ ، ١٥١ ، ١٥٨ — ١٦٢ ، ١٧٥ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨٩ ، ١٩٦ ، ١٩٨ ، ٢١٧ ،

٢١٩ — ٢٢١ ، ٢٢٥ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٦١ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٨ ، ٢٧٤ ، ٢٧٧ ، ٢٩١ ، ٣٢١ ، ٣٤٣ — ٣٤٧ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٦٣ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٨١ ، ٣٩٤ ، ٤٠٩—٤١١ ، ٤٢٦ ، ٤٣١ ، ٤٣٣ ، ٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ ، ٤٤٢
قرقشونة ؛ ٤٠٧
قرمونة ؛ ١٤ ، ٣٥ ، ٣٦ — ٣٨ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٨٢ ، ١٢١ ، ١٣٠ ، ١٤٨ — ١٥١ ، ١٥٦ ، ٣٧١
قسطلة ؛ ٤٣٠
قسطلونة ؛ ١٠١ ، ٢٦٠
قسطنطينية ؛ ٢٧٧
قشتالة ؛ ٤٨ ، ٦٣ ، ٧٢ ، ٧٥ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ٩٥ ، ٩٩ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١١ ، ١٤٦ ، ١٧٠ ، ١٨٤ ، ٢٠٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٧ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤٩ ، ٢٥٤ ، ٢٥٧ ، ٢٦٤ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨٥ ، ٢٩٢ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٤ ، ٣٤٧ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨٣ ، ٣٨٩ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٣٩٦ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٤ ، ٤١٢
قصبة ألمرية ؛ ١٦١ ، ١٦٨
قصبة بربشتر ؛ ٢٧٥ ، ٢٧٦
قصبة بطليوس ؛ ٨٢ ، ٣٦٩
قصبة شلبة ؛ ٢٢٥
قصبة غرناطة ؛ ١٢٩ ، ١٣٣ ، ١٣٥ ، ١٣٩
قصبة مالقة ؛ ١٣١ ، ١٣٩
قصبة منتشون ؛ ٢٨١
قصبة المنكب ؛ ٣٤٠
قصر إشبيلية ؛ ٣٤ ، ٣٧ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٥ ، ٦٧ ، ٣٥٤ — ٣٥٦
قصر الجعفرية ؛ ٢٦٩ ، ٢٨٣
قصر الزاهي ؛ ٥٥
قصر طليطلة ؛ ١١٣ ، ١١٥
قصر قرطبة ؛ ٣٧ ، ١٦٠
القصر المبارك ؛ ٥٥ ، ٦٩
قصر المدينة ؛ ٢١٢
قصر المكرم ؛ ١٠٤
قطلونية ؛ ٢٠٢ ، ٢١١ ، ٢٦٤ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٨٥ ، ٢٩٦
قلشانة ؛ ١٥٥
القلعة (المغرب) ؛ ١٧٣ ، ٣٦٦
قلعة أغمات ؛ ٣٥٧ ، ٣٦٠
قلعة أيوب ؛ ٩٥ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٢٦٥ ، ٢٧٢
قلعة تافالا ؛ ٣٧٩
قلعة جابر ؛ ٣٩
القلعة الحمراء ؛ ٦٣ ، ١٣٩
قلعة حير ؛ ٢١٠
قلعة رباح ؛ ٩٦ ، ٩٧ ، ١٠٤ ، ٣٤٩
قلعة فازاز ؛ ٣١١
قلعة قونقة ؛ ٩٦ ، ١٠٢
قلعة المنار ؛ ٢٨٥
قلعة النهر ؛ ٩٩ ، ٢٧١ ، ٣٨٣
قلمرية ؛ ٥٨ ، ٨١ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٣٨٤ — ٣٨٦ ، ٤١٣
قلهرة (وقلعة) ؛ ٩٩ ، ٢٤٠ ، ٢٦٥
قنطرة القنطرة ؛ ٣٩٠
قورية ، ٩١ ، ٩٥ ، ١١٢ ، ٣٢١ ، ٣٢٦
قونقة ؛ ٧١ ، ٩٥ — ٩٧ ، ١٠٢ ، ١٠٨ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ٢٦٠ ، ٣٤٧ ، ٤٠٠
القيروان ؛ ١٢٥ ، ٣٠١ ، ٤٢٧ ، ٤٢٩
كالا موشا ؛ ٢٧٥
كاليارى ؛ ٩١ ، ١٩٢
كتندة ؛ ١٧٨
الكدية ؛ ٢٣٨ ، ٢٤١ ، ٢٤٢
الكرازة ، موقعة ؛ ٤٠٦
كريفلة ؛ ٣٠٧
كنتبريا ؛ ٣٧٦
الكنيسة الاسبانية ؛ ٣٩٦ ، ٣٩٧
كنيسة سان إيسدورو ؛ ٣٨٤
كوارت ؛ ٢٤٧

كوليرا ؛ ٢٤٨
كونسويجرا ؛ ٢٤٧ ، ٣٤٧ ، ٣٧٢

## ل — ى

لاردة ؛ ٢٠٨ ، ٢١٠ ، ٢٢٩ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٤٧ ، ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٨٠ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٧ ، ٢٩٠
لاميجو ؛ ٨٥ ، ٣٨٣
لا نجدوك ؛ ٤٠٧
لبلة ؛ ٢٩ ، ٤٠ — ٤٣ ، ٧٣ ، ٨٤ ؛ ٤٣٣
لقنت ؛ ١٨٧
لوبية ؛ ٢٩٩
لوجرنيو ؛ ٢٤٠
لواتة ، مدينة ؛ ٣٠٨
لورقة ؛ ٦٤ ، ١٦٦ ، ١٦٨ ، ١٧١ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٤ ، ٢١٧ ، ٢٢٢ ، ٣٣٤ — ٣٣٦ ، ٣٩٩
لوزيتانيا ؛ ٣٨٢
لون ؛ ١٩٢
ليجوريا ؛ ٢١١
ليون (القطر والمدينة) ؛ ٧٣ ، ٨٥ ، ١٠٢ ، ١٠٩ ، ٢٢٥ ، ٣٧٨ ، ٣٨٦ — ٣٩٠ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٣٩٧ ، ٤٠٤
ماردة ؛ ٨١ ، ٨٢ ، ١١١ ، ٢٠٤
ماسة ؛ ٣٠٥
مالقة ؛ ١٤ ، ١٩ ، ٢٨ ، ٣٧ — ٣٩ ، ٤٥ ، ٦٢ ، ٧٧ ، ٨٣ ، ١٢٦ ، ١٣٢ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٥٠ ، ٣٢١ ، ٣٣٥ ، ٣٤٢ ، ٣٥٦
مجريط ؛ ٣٩٥
مجلس الذهب ؛ ٢٨٣
المدور ؛ ٢٢ ، ٩٥ ، ١٤٨ ، ١٤٩
مدينة سالم ؛ ٩٥ ، ١٠٠ ، ٢٤٩ ، ٣٨٣
مراكش ؛ ٢٩٢ ، ٣١٠ — ٣١٢ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣٣ ، ٣٤٢ ، ٣٥٧ ، ٣٦٣ ، ٣٧١ ، ٣٧٢
مربلة ؛ ١٤٧
المرج (مرج غرناطة) ؛ ٦٣
مرسية ؛ ١٩ ، ٦٤ — ٦٦ ، ٦٨ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦١ ، ١٧١ ، ١٧٤ — ١٨١ ، ١٨٣ — ١٨٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٠١ ، ٢١٠ ، ٢١٧ ، ٢٢٠ — ٢٢٢ ، ٢٣٩ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٤٧ ، ٢٩٠ ، ٣٣٤ — ٣٣٧ ، ٣٦٦ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤١٤ ، ٤٣٤
مرشانة ؛ ٤٧
مسلاتة ؛ ٢٤٧
المسيلة ؛ ١٤٨ ، ١٤٩
المشرق ؛ ١٢٧ ، ١٦٥ ، ١٧٨ ، ٣١٠ ، ٣٣٠ ، ٣٦٤ ، ٤٠٨ ، ٤٣١ ، ٤٣٣ ، ٤٣٩ ، ٤٤٢
مصر ؛ ١٢١ ، ٢٠٢ ، ٢٩٤ ، ٣٣٨
المعدن ؛ ٧١ ، ٩٥
المغرب ؛ ١٢٠ — ١٢٣ ، ١٣١ ، ١٤٧ ، ١٧٢ ، ٢١٢ ، ٢٧٠ ، ٢٨٨ ، ٢٩٠ ، ٢٩٤ ، ٢٩٦ ، ٢٩٩ ، ٣٠٤ — ٣٠٧ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ — ٣١٣ ، ٣١٧ ، ٣١٩ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ — ٣٣١ ، ٣٣٣ ، ٣٣٥ ، ٣٣٧ — ٣٣٩ ، ٣٤٣ ، ٣٦٢ ، ٣٧٣ ، ٤٠٠ ، ٤٢٧
المغرب الأوسط ؛ ١٤٩ ، ٣١٣
مكة ؛ ٤٣٣
مكناسة ؛ ٨٢ ، ٣٠٨ ، ٣٥٧
منت ليشم ؛ ٤٣٣
منديز ؛ ٤٠٦
المنكب ؛ ١٢٥ ، ١٣١ ، ١٤٤
المنية ، بطليطلة ؛ ١١٢
مورة ؛ ٩٥
مورور ؛ ١٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٦٢ ، ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٥٤ ، ١٥٦
موريتانيا ؛ ٢٩٩
موريلا ؛ ٢٨٦
مولة ؛ ١٧٨ ، ١٨١
مونتشون ؛ ٢٨٢ ، ٢٨٨ ، ٤٠٦
ميرتلة ؛ ٤٤ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣

ميورقة (مدينة) ؛ ٢٠٠، ٢١١، ٢١٢، ٢١٣
ناجرة ؛ ٣٨١
نافار (نبرة) ؛ ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٧٣ ، ٢٩٦ ، ٣٧٣ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨٩ ، ٤٠٥ ، ٤١٢
نهر إبره (الإيبرو) ؛ ٢٥٣ ، ٢٦٥ ، ٢٧٨ ، ٣٨١ ، ٣٨٩ ، ٤٠٦
نهر أراد ؛ ٢٩
النهر الأحمر ؛ ٤٢
نهر أوديل ؛ ٤٣
نهر يسيرجا ؛ ٣٨٩
نهر التاجه ؛ ٨٥ ، ٨٦ ، ٩٠ ، ٩٨ ، ١١٢ — ١١٦ ، ٣٢٢ ، ٣٣٩ ، ٣٨٣ ، ٣٩٠
نهر تورمس ؛ ٣٨٢
نهر جريرو ؛ ٣٢٢
نهر خالون ؛ ٢٥٣ ، ٢٩٣
نهر دويرة ؛ ٨٥ ، ٨٧ ، ٣٨٢ ، ٣٨٦ ، ٣٨٩
نهر مجرى ؛ ٢٦٥
نهر شقورة ؛ ١٧٤ ، ١٧٩
نهر شنيل ؛ ١٢٤ ، ١٤٠
نهر طوريا ؛ ٢٣٨ ، ٢٦٠
نهر كريون ؛ ٣٩٠
نهر منهو (منديجو) ؛ ٨٧ ، ٣٨٦
نهر النيجر ؛ ٣٠٢
نهر النيل ؛ ٣٠٢
نهر الوادى الكبير ؛ ١٤ ، ٢١ ، ٣٣ ، ٤٠ ، ٤٤ ، ٤٨ ، ٥٥ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ٣٤٥ ، ٣٤٩ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٦
نهر وادى لكه ؛ ١٥٢ ، ١٥٤
نهر وادى يانه ؛ ٧١ ، ٨٤ ، ٣٢٢
نورمانديا ؛ ٢٧٤ ، ٣٣١
وادى آش ؛ ١٢٦ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٤ ، ٤١٤
وادى الحجارة ؛ ١١٤ ، ٢٧١ ، ٣٨٣
وادى سبو ؛ ٣٣٥
وادى منى ؛ ٣١٢
وبذة ؛ ٩٥ ، ٩٦ ، ٣٤٧
وجدة ؛ ٣١٣
وشقة ؛ ٩٩ ، ١٦٥ ، ٢٧٢ ، ٢٧٥ ، ٢٧٥ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٣٣١ ، ٤٠٦
وابة ؛ ٢٩ ، ٤٠ ، ٤٣ ، ٤٣٠
وهران ؛ ٣١٦
يابرة ؛ ٨١ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٩
يومين ؛ ٣٣ ، ٦٨

# فهرست الأعـــلام


— أ —

ابراهيم بن اسحاق اللمتونى ؛ ٣٥١
إبراهيم بن يحيى الكدالى ؛ ٣٠٠
ابن أبي جوش حاكم وادى آش ؛ ١٤٤
ابن أبي حصاد ؛ ٤٩
ابن أبي زرع الفاسى ؛ ٣١٢ ، ٣١٦ ، ٣٤٤ ، ٣٥٠
ابن أبي زمنين ؛ ١٢٥
ابن أرفع رأس ؛ ١٠٦
ابن الأبار القصاعى ؛ ٦٠ ، ٦٨ ، ١٧٦ ، ١٧٩ ، ١٩٥ ، ٢٥١ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨ ، ٢٧٠ ، ٤٣٠
ابن الأثير ؛ ٣٦٤
ابن التاكرونى ؛ ٢١٩ ، ٢٢١
ابن التيانى ، أبو غالب ؛ ١٩٩
ابن الحاج ، أبو عبد الله ؛ ٢٩٢ ، ٣٤٣ ، ٣٤٥ ، ٣٦٨ ، ٣٧١
ابن الحداد الوادى آشى ؛ ١٦٩ ، ٢٠٤ ، ٤٢٩
ابن الحضرمى ؛ ٨٩
ابن الخطيب ، لسان الدين ؛ ١٥ ، ٥٤ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٨٨ ، ٩٦ ، ١١٥ ، ١٢٥ ، ١٣٧ ، ١٤١ ، ١٤٦ ، ١٥٠ ، ١٧٩ ، ١٨٥ ، ١٩٨ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٥٢ ، ٢٧٠ ، ٣٤٤ ، ٣٥٤ ، ٣٦٢ — ٣٦٤ ، ٤٢٨
ابن السقاء ، إبراهيم ؛ ٢٦ ، ١٠٣
ابن الشهيد ؛ ١٦٩
ابن الطويل ، حاكم بربشتر ؛ ٢٧٦
ابن الفرج ؛ ٢٢٧ ، ٢٤١
ابن القزاز (محمد بن عبادة) ؛ ١٦٨ ، ١٦٩ ؛ ٤٢٩
ابن القطان ؛ ٣٦ ، ٥٤ ، ٥٦
ابن اللبانة ، أبو بكر بن عيسى الدانى ؛ ٧١ ، ٢٦٠ ، ٣٥٤ ، ٣٥٦ ، ٣٦٠ ، ٤٢٧
ابن المرجرى الاشبيلى ؛ ٤١١
ابن باجة ، أبو بكر بن الصائغ ؛ ٢٩٤ ؛ ٤٣٧
ابن بدرون ؛ ١٠٥
ابن بسام ؛ ٣٠ ، ٤٠ ، ٥٠ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٨ ، ٧١ ، ١٠٦ ، ١١٢ ، ١١٥ ، ١٦٥ ، ١٦٩ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨١ ، ١٨٣ ، ١٨٦ ، ١٩٨ ، ٢٠٣ ، ٢٠٦ ، ٢٠٨ ، ٢٣٥ ، ٢٣٩ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨ ، ٢٨٦ ، ٤٢٩ ، ٤٣١ ، ٤٣٥ ، ٤٣٧ ، ٤٣٩
ابن بصال الطليطلى ، أبو عبد الله ؛ ١٠٦ ، ٤٤٢
ابن بطوطة ؛ ٣٠٢
ابن تفرتاش ، أمير البحر ؛ ٢١٢
ابن جابر ؛ ١٠٤ ، ١٠٦
ابن جحاف ، أبو أحمد جعفر ؛ ١٨٦ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٥٢
ابن جهور ، أبو الحزم (جهور بن محمد) ؛ ٢٠ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٨
ابن جهور ، أبو الوليد (محمد بن جهور) ؛ ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٤١ — ٤٣ ، ٦١ ، ٨٣ — ٨٥ ، ١٢٩ ، ٤١٠ ، ٤٢٦
ابن حزم ، الوزير ؛ ١٢٩ ، ٤٣١
ابن حزم ، أبو محمد ؛ ٣٨ ، ٢٠٧ ، ٢٩٤ ، ٤٢٠ — ٤٢٣ ، ٤٣١ ، ٤٣٣ ، ٤٣٤ ، ٤٣٨
ابن حديس ، عبد الجبار بن أبي أبكر ؛ ٤٢٧
ابن حيان ؛ ١٥ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٣ ، ٣٦ ، ٣٩ ، ٤٣ ، ٤٩ ، ٥٢ — ٥٦ ، ٥٨ ، ٨٢ ، ٩٦ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٣٣ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٥١ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢١٧ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٨ ، ٢٧٢ ، ٢٧٤ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٣١٢ ، ٣١٥ ، ٤٢١ ، ٤٣٠ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩

ابن خلدون ؛ ١٨٩ ، ٢١٠ ، ٢٧٠ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٣٠٢ ، ٣٠٦
ابن خلكان ؛ ٣٥٠
ابن دراج القسطلى ؛ ١٦٢ ، ٢١٩ ، ٢٦٨ ، ٤٣٠ ، ٤٣١
ابن رزين ، هذيل بن عبد الملك ؛ ٢٣٧ ، ٢٥٣ — ٢٥٥ ؛ ٤٤١
ابن رزين ، عبد الملك بن هذيل ؛ ٢٥٥ — ٢٥٩ ، ٢٦١
ابن رشد الحفيد ، أبو الوليد ؛ ٢٩٤
ابن رشيق ، عبد الرحمن ؛ ٦٥ ، ١٨١ ، ١٨٣ ، ١٨٥ ، ٣٣٤ — ٣٣٦ ، ٣٩٩
ابن رويش (محمدبن مروان بن عبدالعزيز) ؛ ٢٢٣
ابن زيدون ، أبو الوليد ؛ ٢٥ ، ٢٦ ، ٥٧ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٤٠٩ ، ٤٢٥ — ٤٢٧
ابن زيدون ، أبوبكر ؛ ٥٥ ، ٦٦ ، ٦٩ ، ٧٧
ابن سعيد الرياضى ؛ ١٠٦
ابن سعيد بن الفرج ؛ ٩٨ ، ١٠٧
ابن سيده ؛ ١٩٨ ؛ ٣٣ ؛ ٤٣٤
ابن شاليب ؛ ٧٣ ، ٣١٦
ابن شبيب ؛ ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩
ابن طالوت ؛ ٢١٩ ، ٢٢١
ابن طيفور ؛ ٣٦ ، ٤٤
ابن عائشة ، داود ؛ ٧٩ ، ١٨٥ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٤٧ ، ٢٩٠ ، ٣١٩ ، ٣٢٢ ، ٣٢٤ ، ٣٣٧ ، ٣٦٨
ابن عائشة ، محمد ، ٣٦٦ ، ٣٦٨ ، ٤٠٠
ابن عباس ، الكاتب ؛ ٢٢١
ابن عبد البر ، أبو عمر ؛ ١٩٨ ، ٤٣٠ ، ٤٣٤
ابن عبد البر ، أبو محمد ؛ ٥٠ ، ٥٧ ، ٤٣٤
ابن عبد العزيز ؛ ٢٢١
ابن عبد الملك المراكشى ؛ ١٧٨
ابن عبدون ، أبو محمد عبد الحميد ؛ ٧١ ، ٨٩ ، ٣٦٩ ؛ ٤١٣ ، ٤٢٨ ؛ ٤٤٠
ابن عديس ؛ ٢٤٤
ابن عذارى ، المؤرخ ؛ ٢٩٠ ، ٣٤٠ ، ٣٧١
ابن عكاشة ، حريز ؛ ١٠٤
ابن عكاشة ، حكم ؛ ٦١ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ٣٩٤
ابن علقمة ؛ ٢٣٥ ، ٢٤٣ ، ٢٤٥ ، ٢٥١ ، ٢٥٢
ابن عمار ، أبو بكر ؛ ٦٠ ، ٦٣ — ٧١ ، ٧٣ ، ١٠٩ ، ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٧٩ — ١٨٤ ، ٢٢٦ ، ٢٢٩ ، ٣٤٥ ، ٤٢٥ ، ٤٢٧ ، ٤٤٦
ابن عيسى ، قاضى بربشتر ؛ ٢٧٦
ابن لبون الطليطلى ؛ ٩٨
ابن لونكو ؛ ٤٤٢
ابن مبارك ؛ ٦٦ ، ١٨٤
ابن مثنى ؛ ٢٢٣
ابن مرتين ، محمد ؛ ٢٨ ، ٦١ ، ١٠٣ ، ٤١١
ابن مروس ، أبو العباس ؛ ٢٦٨
ابن مسرة الطليطلى ؛ ٩٧
ابن مشعل ؛ ٧٤
ابن معمر اللغوى ؛ ١٩٨
ابن مقانا ، أبو إسحاق ؛ ٤١٧
ابن مهلب ؛ ٢١٩
ابن واجب ؛ ٢٦٨
ابن وافد ؛ ٤٤٢
ابن يحيى ، صاحب لبلة ؛ ٢٩ ، ٤٣ ، ٨٤
ابن يعقوب ؛ ٤٧ ، ١٥٣
ابن يعيش ؛ ٩٧
ابن نغزالة ، إسماعيل ؛ ١٣٣ ، ١٤٠
ابن نغزالة ، يوسف ؛ ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٣٣ — ١٣٨ ، ١٦٧
أبو إسحاق الإلبيرى ؛ ١٣٥
أبو إسحاق بن خفاجة ؛ ٢٤٦
أبو الأصبغ بن أرقم ؛ ١٦٨ ، ٢٠٣
أبو الحسن بن عبدالعزيز البطليوسى ؛ ٨٩ ، ٤٢٨
أبو الحسن بن اليسع ؛ ١٨٤
أبو الحسن الحصرى ؛ ٤٢٧
أبو الربيع سليمان ؛ ٢١٢
أبو العباس ، كاتب باريس ؛ ١٢٧
أبو العباس العذرى ؛ ٤٣٠
أبو الفضل بن حسداى السرقسطى ؛ ٢٨٠ ، ٢٩٥

أبو القاسم القرطبى ؛ ٤٣٧
أبو القاسم بن عباد ؛ أنظر محمد بن إسماعيل
أبو المطرف التجيبى ؛ ٢٧٠
أبو المطرف ابن الدباغ ؛ ٢٨٣ ، ٢٩٥
أبو المغيرة بن حزم ؛ ٢٦٩
أبو الوليد الباجى ؛ ٩١ ، ١١١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٤٣٣
أبو الوليد الوقشى ؛ ٢٤٣
أبو بحر بن عبد الصمد ؛ ٣٦٢
أبو بكر بن إبراهيم اللمتونى ؛ ٢٩٤
أبو بكر بن القصيرة ؛ ٧٧
أبو بكر بن الحديدى ؛ ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠٧
أبو بكر بن طاهر (أحمد بن اسحاق) ؛ ٦٤ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٩٦ ، ٢٢٢
أبو بكر بن عبد العزيز ؛ ٦٨ ، ١٠٧ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٦ ، ٢٢٥
أبو بكر بن عبد العزيز (ابن رويش) ؛ ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٣٠ ، ٢٨٦
أبو بكر بن عبد العزيز البطليوسى ؛ ٨٩ ، ٤٢٨
أبو بكر بن عمر اللمتونى ؛ ٣٠٥ — ٣٠٩ ، ٣١١ — ٣١٣ ، ٣٧٣
أبو بكر بن قاسم الشلبى ؛ ٧١
أبو بكر بن يوسف بن تاشفين ؛ ٣٢٩
أبو بكر الرميمى ؛ ١٦٣
أبو بكر الطرطوشي ؛ ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٣٣٨ ، ٤٣٧
أبو بكر بن المعتمد بن عباد (المعتد) ؛ ٣٥٢ ، ٣٥٦
أبو تزيرى الدمرى ؛ ١٥٤
أبو جعفر البتى ؛ ١٨٢ ، ٢٤٦
أبو جعفر القليعى ؛ ٣١٧
أبو خروب ، أمير البحر ؛ ١٩٠ ، ١٩٢
أبو حفص بن عبد الله بن أبى غفير ؛ ٣٠٧
أبو زكريا بن واسنو ؛ ٣٤٣ ، ٣٦٦
أبو طالب بن غانم ؛ ٨٨
أبو عامر بن أزرق ؛ ٢٦٨
أبو عامر بن خطاب ؛ ١٧٦
أبو عامر بن عبدوس ؛ ٤٢٦
أبو عامر بن غرسية ؛ ٢٠٤ ، ٢٠٦ — ٢٠٨ ، ٤٢٩
أبو عامر بن غند شلب ؛ ٤١٢
أبو عبد الرحمن بن طاهر ؛ ٦٤ ، ٦٥ ، ١٧٧ — ١٧٩ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ٢٢٩ ، ٤٣٤
أبو عبد الله بن أبى الخصال ؛ ٢٠٦
أبو عبد الله البزليانى ؛ ٥٨ ، ٤٣٦
أبو عبد الله الحميدى ؛ ٥٦ ، ٤٣٩
أبو عبد الله الزبيدى ؛ ٣٤ ، ٤٠
أبو عبد الله الشيعى ؛ ٣٠٥
أبو عبد الله المعيطى ؛ ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩٤
أبو عبيد البكرى ؛ ١٦٩ ، ٢٩٩ ، ٣٠٥ ، ٣٠٧ ، ٤٣٠ ، ٤٣٤
أبو عمران الفاسى ؛ ٣٠١
أبو عمر بن خطاب ؛ ١٧٦ : ١٩٥
أبو عمر بن القلاس ؛ ٢٩٥
أبو عمرو بن سعيد الدانى ؛ ١٩٨
أبو عمرو الباجى ؛ ١٢٩
أبو عيسى بن لبون ؛ ٢٣٨ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨
أبو غفير محمد بن معاذ ؛ ٣٠٦
أبو محمد المزدلى ؛ ٢٤٨ ، ٢٩٠
أبو محمد بن عبد العزيز البطليوسى ؛ ٨٩ ، ٤٢٨
أبو منصور الثعالبى ؛ ٤٣١ ، ٤٣٩
أبو ناصر المرابطى ؛ ٢٤١
أبو نصر بن أبى نور ؛ ٤٧ ، ١٤٠ ، ١٥٣
أبو نصر فتح بن خلف ؛ ٤٢ ، ٤٦ ، ٤٧
أبو نور بن أبى قرة اليفرنى ؛ ٤٥ ، ٤٦ ، ١٥٢ ، ١٥٣ — ١٥٥
أبو يحيى بن صمادح ؛ ١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤٤ ، ١٦٥
أبو يحيى بن مسعدة ؛ ٢٠٦
أبو يوسف المرينى ، السلطان ؛ ٧٩
الآثر بن بطين اللمتونى ؛ ٣٠٠
أحمد بن الدودين البلنسى ؛ ٢٠٤
أحمد بن رشيق ، أبو العباس ؛ ١٩
أحمد بن صمادح ، معز الدولة ؛ ١٧٣

أحمد بن عباس ؛ ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٦٢ — ١٦٤ ، ٢٢٢ ، ٤٣٦ ؛ ٤٣٧
أحمد بن عبد الملك بن هود (سيف الدولة) ؛ ٢٩٣
أحمد بن محمد بن حجاج ؛ ٤٤٢
أحمد بن محمد بن قاسم (عز الدولة) ؛ ٢٦١
أحمد بن يحيى اليحصبي ؛ ٤٠
إدريس المتأيد بالله ؛ ٣٩ ، ٦١ ، ٨٣ ، ١٣٠ ، ١٥٢
إدريس بن يحيى السامى ؛ ١٣١ ، ١٤٠
إدريس بن يحيى العالى ؛ ٣٨ ، ١٣١
أرمزندة ؛ ٤٠٥
آرياس كونثالث ؛ ٣٩٢
الإسترداد ؛ ١١٦ ، ٤١٣
إسحاق بن عبد الله البرزالى ؛ ٨٤
إسحاق بن محمد البرزالى ؛ ١٥١
إسكندر الثانى ، البابا ؛ ٢٧٤
الإسلام ؛ ٦٢ ، ٩١ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١٣٣ ، ١٨٦ ، ١٩٣ ، ١٩٥ ، ٢٠٣ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٤٨ ، ٢٨٢ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٨ ، ٣١٥ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٦٥ ، ٤١١
إسماعيل بن عباد ، القاضى ؛ ٢٤ ، ٣٢ — ٣٥ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ٦١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ١٣٠
إسماعيل بن ذى النون (الظافر) ؛ ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٩ ، ١٠٦ ، ٢٥٤ ، ٢٦٩
إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن عباد ؛ ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ١٣٠ ، ١٥٠
إسماعيل بن المعتضد بن عباد ؛ ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٨٤ ، ١٣٥
إسيدورو ، القديس ؛ ٣٨٤ ، ٣٨٦ ، ٤٠٢
آسين بلاثيوس ؛ ٤٣٢
أصبغ بن السمح ؛ ٤٣٥
إعتماد الرميكية ؛ ٦٤ ، ٦٦ — ٦٨ ، ١٨٣ ، ٣٥٢ ، ٣٥٨ ، ٣٦١ — ٣٦٣
الأغلب ، حاكم ميورقة ؛ ١٩٧ ، ٢٠٢
أفلح الصقلبى ؛ ١٥٩ ، ١٧٥
الأفضل شاهنشاه ؛ ٢٩٤
الإقطاع ؛ ٤٠٢ ، ٤٠٣
ألبارهانيس ؛ ١١٥ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٣٢٢ ، ٣٢٤ ، ٣٣٢ ، ٣٤٠ ، ٣٥٠ ، ٣٥١
إلبيرة ابنة سانشوغرسيه ؛ ٣٧٧
إلبيرة ابنة فرناندو ؛ ٣٨٩ ، ٣٩٢
ألفونسو الأول الأرجونى ؛ ٤٠٤ ، ٤٠٦ ، ٤١٤
ألفونسو الخامس ؛ ١٠٢ ، ٢٦٧ ، ٣٧٧ ، ٣٨٣
ألفونسو السادس ؛ ٦٢ ، ٦٦ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٥ ، ٨٧ ، ٩٠ ، ١٠٨ — ١١٤ ، ١١٦ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٧٠ — ١٧٢ ، ١٨٤ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ — ٢٢٩ ، ٢٣٦ — ٢٤٠ ، ٢٤٣ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨٥ — ٢٨٨ ، ٢٩١ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣٢١ — ٣٢٣ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٤ ، ٣٣٨ ، ٣٤١ ، ٣٤٥ — ٣٤٨ ، ٣٥٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٨ ، ٣٧٠ ، ٣٧٢ ، ٣٨٢ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ — ٤٠٥ ، ٤٠٨ ، ٤١٠ ، ٤١٣
ألفونسو بن فرناندو ، ملك ليون ؛ ٢٣٣
ألفونسو العالم ؛ ٢٥٢ ، ٤٣٤ ، ٤٣٥
ألفونسو ريموندیس ؛ ٢٩٣ ، ٤٠٤
ألفونسو المحارب (ابن رذمير) ؛ ٢٩١ — ٢٩٣
أمارى ، المستشرق ؛ ١٨٨ ، ١٩٣
أم الكرام بنت المعتصم ؛ ١٧٠ ، ٤٢٩
أودو أمير برجونية ؛ ٣٣١
أوراكا ، ابنة فرناندو ؛ ١٠٢ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩٢ — ٣٩٤
أوراكا ابنة ألفونسو السادس ؛ ٤٠٤ ، ٤٠٦
أوربان الثانى ؛ ٤٠٢

## ب — ث

البابوية ؛ ١٩٢
باديس بن حبوس ؛ ١٤ ، ٣٩ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٩ ، ٦١ — ٦٣ ، ٨٣ ، ١٢٦ — ١٤٢ ، ١٤٥ ، ١٥٠ ، ١٥٦ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٦ — ١٦٨ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٩٧ ، ٢٢٢ ، ٣٤١
باديس بن المنصور ؛ ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٥

باديس بن أبي نور اليفرني ؛ ٤٦ ، ١٥٣
البحترى ، الشاعر ؛ ٤٢٥
برنجير ، الكونت ؛ ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٤٠٨
برتولا ؛ ٣٩١
برمودو الثانى ؛ ٣٧٧
برمودو الثالث ؛ ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٣٨٠
برنار ، الأسقف ؛ ٣٩٦ ، ٣٩٧ ، ٤٠٢
بشير الفتى ؛ ١٠٨
بطى بن إسماعيل ؛ ٣٤٤ ، ٣٤٩
بقى بن مخلد؛ ٢٠٧
بلج بن بشر القشيرى ؛ ٣٣
بلقين بن باديس ، سيف الدولة ؛ ٦٣ ، ١٣٤
بلقين بن حبوس ؛ ١٢٧ ، ١٦٣
بلقين بن زيرى بن مناد ؛ ١٢١ ، ٣٠٦
بلقين بن ماكسن ؛ ١٢٩ ، ١٦٣
بندكت ، القديس ؛ ٣٨٧
بندكتوس الثانى ، البابا ؛ ١٩٢
بيدال ، منديث ؛ ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٨٥ ، ٣٢٥ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٤١٣ ، ٤٣٤
بيدرو الأول ملك أراجون ؛ ٢٤٧ ، ٢٥٨ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩١ ، ٤٠٦
تميم بن الأثر ؛ ٣٠٠
تميم بن بلقين ؛ ٦٣ ، ٧٧ ، ١٤٢ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ٣٢١ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٩٩
تميم بن يوسف ، أبو الطاهر ؛ ٢٩٢ ، ٣٧٢ ، ٤٠١ ، ٤١٤
تيبولوس ، الشاعر اللاتينى ؛ ٤٢٥
التيجانى ، أبو عبد الله ؛ ٣٥٨
تيولوثان بن تيكلان الصنهاجى ؛ ٣٠٠
ثابت بن محمد الجرجانى ، أبو الفتوح ؛ ١٢٧ ، ١٣٠ ، ١٣١

## ج — ز

جابر بن المعتضد؛ ٦٢ ، ١٣٢
جبر الدولة الحاجب ؛ أنظر ابن رزين ، عبد الملك
جرور الحبشى ؛ ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣
جعفر بن إبراهيم ( ابن الحاج اللورقى ) ؛ ٣٧٠
جعفر بن شرف ؛ ١٦٨ ، ٤٢٩
جعفر بن على بن حمدون الأندلسى ؛ ١٤٨ ، ١٤٩
جلالى بن زاوى ؛ ١٢٦
جود النصرانية أم مجاهد ؛ ١٩٣ ، ١٩٥
جولدسيهر ، المستشرق ؛ ٢٠٧ ، ٢٠٨
جوهر الصقلى ؛ ١٢١
جهور بن عبد الملك البختى ؛ ٢١
جيوم دى مونترى ؛ ٢٧٤
الحاج بن محقور ؛ ٩٨
الحاجب المنصور ، أنظر المنصور بن أبى عامر
حباسة بن ماكسن ؛ ١٢٢ ، ٢٣
حبوس بن ماكسن ؛ ١٢٢ ، ١٢٥ — ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣٣ ، ١٦٣
الحجارى ، صاحب المسهب ؛ ٢٦٢ ، ٢٨٣ ، ٣٥٨
الحروب الصليبية ؛ ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٤٠٢
حسن بن مجاهد (سعد الدولة) ؛ ١٩٥ ، ٢٠٠ ، ٢٠١
الحصرى الضرير ؛ ٣٥٧
الحكم المستنصر ؛ ١١ ، ٨١ ، ٩٦ ، ١٢٢ ، ١٤٩
الحكم بن هشام ؛ ٢١ ، ٤٠٧
خلف الحصرى ؛ ٣٧ ، ٣٨
خلف بن حيان ؛ ٤٣٨
خلف بن عباس القرطبى ؛ ٤٣٧
خلف بن فرج ، السميسر ؛ ١٦٩ ، ٣٤٠
خلف بن نجاح ؛ ٢٨ ، ٦١ ، ١٠٣
خمينا ، زوجة السيد ؛ ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٤٠٠
خوستا ، القديسة ؛ ٤٨ ، ٣٨٤
خيران العامرى ؛ ٦٤ ، ١٢٤ ، ١٢٨ ، ١٥٨ — ١٦٢ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٨٩ ،

١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٠٠ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٦٢
٢٦٦ ، ٤٣١
خيرة الصقلبي ؛ ٢١٨
دقلديانوس ؛ ٣٨٤
دوزى ، رينهارت ؛ ١٩٩ ، ٢٥١ ، ٣٦٤
دون ديجو ، ابن السيد ؛ ٢٤٧
ذو النون بن سليمان ؛ ٩٥
رامون برنجير ، الكونت ؛ ٦٥ ، ١٨٠ ، ٢٣٧ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٧ ، ٣٧٨ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨
رامون برنجير ، الثالث ؛ ٢١١ ، ٢١٢ ، ٤٠٨
رامون بوريل ؛ ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٤٠٧
راميرو ، الإنفانت (نافار) ؛ ٢٨٥
راميرو الأول ، ملك أراجون ؛ ٢٣٣ ، ٢٨٠ ، ٣٧٧ ، ٣٧٩ ، ٤٠٥
راميرو بن سانشو الكبير ؛ ٣٧٨
راندة ، حاكم قلمرية ؛ ٨٦ ، ٨٧ ، ٣٨٤
رزين البرنسي ؛ ٢٥٣
الرشيد بن المعتمد ؛ ٦٥ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ١٨٠
رشيد الدولة بن صمادح ؛ ١٧٠ ، ٤٢٩
رفيع الدولة بن صمادح ؛ ٧١ ، ١٧٠ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠
رميك ، مولى اعتماد ؛ ٦٧ ، ٣٦٣
ردريجو دى بيبار ؛ أنظر السيد إلكمبيادور
رهبان سيلوس ؛ ٣٩١ ، ٣٩٥
الريكونكستا (الإسترداد) ؛ ١١٦ ، ٣٩٨ ، ٤١٣
ريمون البرجوني ، الكونت ؛ ٣٧٠ ، ٤٠٤
ريتان ؛ ٢٥١
زاوى بن زيرى ؛ ١٢٢ – ١٢٦ ، ١٩٦ ، ٢٦٦
زائدة الأندلسية ؛ ٧٣ ، ١١٠ ، ٢٩٢ ، ٣٤٥ – ٣٤٨ ، ٣٩٦ ، ٤٠١ ، ٤٠٤
زبيدة ، السلطانة ؛ ٢٤١
الزرقالى القرطبي ؛ ٤٣٥
زهير العامرى ؛ ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٦١ – ١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٧٥ – ١٧٧ ، ١٨٩ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧
زيرى بن عطية ؛ ١٥٤ ، ٣٠٤
زيرى بن مناد ؛ ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٤٩
زينب بنت إسحاق النفزاوية ؛ ٣٠٦ ، ٣٠٩ ، ٣١٢

## س – ط

سان جيل ، الكونت دى ؛ ٣٣١
سانشا ، الملكة ؛ ٣٨٥ ، ٣٨٩
سابور الفارسى ؛ ٨١ ، ٨٢
سانشو ، الإنفانت (ابن زائدة) ؛ ٢٩٢ ، ٣٤٥ – ٣٤٨ ، ٤٠١ ، ٤٠٤
سانشو ملك أراجون ؛ ٣٨٩
سانشو ملك نافار ؛ ٢٨٠ ، ٢٨٩
سانشو ملك جليقية ؛ ٤٨ ، ٧٢
سانشو الكبير ؛ ٨٥ ، ٢٦٧ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٣٨٩
سانشو راميرز ؛ ١٠٨ ، ٢٣٤ ، ٢٨٠ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٨ ، ٢٩٠ ، ٣٢٢ ، ٣٣١ ، ٣٤٠ ، ٣٨٩ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦
سانشو غرسية (قشتالة) ؛ ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٨٢
سانشو غرسية (نافار) ؛ ٣٨١
سانشو ابن فرناندو ؛ ٤٨ ، ٧٢ ، ١٠٢ ، ٢٣٣ ، ٢٨٠ ، ٣٨٩ – ٣٩٤
سراج الدولة بن على بن مجاهد ؛ ٢٠٩
سسندو دافيدس (ششنند) ؛ ٥٨ ، ٨٦ ، ١١٢ ، ١١٤ ، ١٤٣ ، ٢٢٦ ، ٣٨٥ ، ٣٩٧
سعيد بن أحمد الطليطلى ؛ ٤٣٥
سعيد بن خيرة ؛ ٨٧
سعيد بن هارون ؛ ٤٣
سكوت البرغواطى ؛ ٧٧ ، ٣١٢
سليمان بن الحكم ، المستعين ؛ ١٣ ، ٣٧ ، ٥٢ ، ٩٦ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٦٠ ، ١٦٥ ، ٢٥٤ ، ٣٨٢

سليمان بن مشكيان ؛ ٢٠٢
سليمان بن هود ، سعد الدولة ؛ ٢٩٠ ، ٢٩٣
سماجة ، الوزير ؛ ١٤٢ ، ١٤٤
سيجورد ، ملك النرويج ؛ ٢١١
السيد الكمبيادور ؛ ٧٢ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ٢٣٢ — ٢٥١ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٦١ ، ٢٨٠ ، ٢٨٤ — ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٩٥ ، ٣٣٤ ، ٣٦٦ ، ٣٦٨ ، ٣٩٠ ، ٣٩٤ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠٦ ، ٤٠٨ ، ٤١٢ ، ٤١٣
سير بن أبي بكر اللمتونى ؛ ٣٠٩ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٥٠ — ٣٥٢ ، ٣٦١ ، ٣٦٨ — ٣٧٠
سير بن يوسف بن تاشفين ؛ ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٩٨
شارلكان ، الإمبراطور ؛ ٢٤٩ ، ٤٠٧
الشدة العظمى ؛ ٢٠٢
الصاحب بن عباد ؛ ١٧٨
صالح بن طريف البرناطى ؛ ٣٠٦
صمادح بن صمادح ، أبو عتيبة ؛ ١٦٥ ، ١٦٦
صمادح بن عبد الرحمن ؛ ١٦٤
طارق بن زياد ؛ ٢٥٣
الطغنرى ، محمد بن مالك ؛ ٤٤٢


## ع — غ


عباد بن المعتمد ، سراج الدولة ؛ ٢٩ ، ٣٠ ، ٦٠ ، ١٠٣ ، ١٠٤
عباد بن محمد بن إسماعيل بن عباد ؛ ٣٩
العباس بن المتوكل بن الأفطس ؛ ٣٦٩
عبد الجبار بن المعتمد بن عباد ؛ ٣٦٠ ، ٣٦١
عبد الجليل بن وهبون ؛ ٤٢٧
عبد الرحمن الداخل ؛ ١١ ، ١٣ ، ٢١ ، ٣٠٠
عبد الرحمن الغافقى ؛ ٢٦٠
عبد الرحمن المرتضى ؛ ١٣ ، ١٢٤ ، ١٦٠ ، ١٩٦ ، ٢٦٠ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧
عبد الرحمن الناصر ؛ ١١ ، ١٢ ، ٢١ ، ٥١ ، ١٢٢ ، ١٩٦ ، ٣٣٠ ، ٣٨٢
عبد الرحمن بن أسبط ؛ ٧٩ ، ٣١٨
عبد الرحمن بن جهور ؛ ٢٦ ، ٢٩
عبد الرحمن بن الحكم ؛ ٢١ ، ١٧٤
عبد الرحمن بن المنصور ؛ ٢١ ، ١٢٢ ، ١٥٨ — ١٦٠ ، ١٨٨
عبد الرحمن بن ذى النون ؛ ٩٦ ، ٩٧ ، ١٠٠
عبد الرحمن بن عبد الله المهاجر ؛ ١٦٤
عبد الرحمن بن متيوه ؛ ٩٧
عبد الرحمن بن مطرف التجيبى ؛ ٢٦٦
عبد الرحمن بن يسار ؛ ٢١٦
عبد العزيز البكرى ، أبو زيد ؛ ٢٤ ، ٤٣ ،
عبد العزيز بن أفلح ؛ ٢١٨
عبد العزيز بن سابور ؛ ٢٣ ، ٨٢ ، ٨٣
عبد العزيز بن عبد الرحمن المنصور ؛ ٢٤ ، ١٣٥ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٣ — ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٧٥ ، ١٧٧ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٢٠ — ٢٢٣ ، ٢٦٧
عبد الله ، حاكم ميورقة ؛ ١٩٧
عبد الله المرتضى ، حاكم ميورقة ؛ ٢٠٢ ، ٢٠٩ ، ٢١٠
عبد الله بن الناصر ؛ ٥١
عبد الله بن بلقين ؛ ٦٣ ، ٧٠ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ١١١ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٨ ، ١٤١ — ١٤٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ٢٣٣ ، ٣١٧ ، ٣٢١ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٨ — ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٩٩
عبد الله بن حكيم ؛ ٢٦٩
عبد الله بن سابور ؛ ٢٤
عبد الله بن سلام ؛ ٤٧ ، ٤٨ ، ٨٤
عبد الله بن قاسم الفهرى ؛ ٢٣٨ ، ٢٦٠ ، ٢٦١
عبد الله بن محمد ، الأمير ؛ ١٢ ، ٢١ ، ٢٦٥
عبد الله بن محمد الأوسى ؛ ٢٠٦
عبد الله بن محمد ، جناح الدولة ؛ ٢٦١ ، ٢٦٢
عبد الله بن مريم ؛ ٣٤ ، ٤٠
عبد الله بن مسلمة ، أنظر المنصور بن الأفطس

عبد الله بن المعتمد بن عباد ؛ ٣٢٠
عبد الله بن المنصور ؛ ٥١ ، ٢٦٦
عبد الله بن ميمون ؛ ٢١٢
عبد الله بن ياسين الجزولى ؛ ٣٠١ – ٣٠٨ ، ٣١٣
عبد الملك بن السراج ؛ ٢٠٧
عبد الملك بن مروان ؛ ٢١
عبد الملك بن المنصور ؛ ١٢٢ ، ٤٣١
عبد الملك بن جهور ، أنظر ابن جهور ، أبو الوليد
عبد الملك بن سابور ؛ ٨٢ ، ٨٣
عبد الملك بن عبد العزيز بن أبى عامر ، المظفر ؛ ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ٢٠١ ، ٢٢٣ – ٢٢٥
عبد الملك بن قطن ؛ ٢٦٠
عبد الملك بن متيوه ؛ ٩٧
عبد الملك بن المستعين ، عماد الدولة ؛ ٢٨٨ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣
عبد الملك بن هذيل ، أنظر ابن رزين
عبد المنعم بن عبد الله التروى ؛ ٢٠٦
عبد الواحد المراكشى ؛ ١٧١ ، ٢٠٩
عبدون بن خزرون ؛ ٤٥ ، ٥٤ ، ١٥٤ ، ١٥٥
عبد شمس بن وائل ؛ ٢٩٩
عبيد الله الحراز ؛ ٨٥
عبيد الله بن أدهم ؛ ٣١٧
عثمان بن أبى بكر بن عبد العزيز ؛ ١٨٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨
عزيز بن محمد البرزالى ، المستظهر ؛ ٤٧ ، ١٥١
عطاف بن نعيم ؛ ٣٣
على بن حمود ؛ ٢٠ ، ٢١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٨ ، ٥٢ ، ١٢٤ ، ١٦٠ ، ١٩٦ ، ٢٦٦ ، ١٦٨ ، ١٩٣ ، ١٩٥ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٠٠ – ٢٠٤ ، ٢٠٨ – ٢١٠ ، ٢٨١ ، ٤١١ ، ٤٣٤
على بن عبد الله البجلى ؛ ٣٠٥
على بن مجاهد ، إقبال الدولة ؛ ٥٦ ، ١٣٨ ،
على بن يوسف بن تاشفين ؛ ٢١٢ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٣١٠ ، ٣٤٧ ، ٣٧٢ ، ٤٠١ ، ٤١٤
عمر بن سليمان المسوفى ؛ ٣٠٩
عمر بن عبد العزيز ؛ ١٥
عنبر الفتى ؛ ١٥٩
عيسى بن أبى الأنصارى ؛ ٣٠٦
عيسى بن محمد ؛ ٤٤
عيسى بن مزين ، المظفر ؛ ٤٤
غرسية أردونس ؛ ٢٨٨ ، ٢٨٩
غرسية ملك نافار ؛ ٩٩ ، ١٠٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٣ ، ٢٧٩ ، ٣٨٠ ، ٤٠٥
غرسية ملك جليقية ؛ ١٠٢ ، ٣٩٤
غرسية خيمنس ؛ ٣٣٤
غرسية سانشيز ؛ ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨
غرسية فرناندز ؛ ٣٧٧
غرسية دى قبره ؛ ٤٠١
غزوة برشلونة ؛ ١٧٦
غرسية بن فرناندو ؛ ٣٨٧ ، ٣٩١ ، ٣٩٢
غلبرت ، الأسقف ؛ ٢٠٣
الغزالى ، أبو حامد ؛ ٣٣٨

## ف – ق – ك

فاطمة بنت سير بن يحيى ؛ ٣١٢
فائق الخادم ؛ ٨١
الفتح بن المعتمد (المأمون) ؛ ١٨١ ، ٣٤٣ ، ٣٤٥ ، ٣٤٨ ، ٣٥٦
الفتح بن خاقان ؛ ٨٨ ، ١٠٤ ، ١٤١ ؛ ٢٥٦ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٤٣٧ ، ٤٤٠
فتح بن خلف اليحصبى ؛ ٤٢
الفتح بن موسى بن ذى النون ؛ ٩٦
الفضل بن المتوكل بن الأفطس ؛ ١١١ ، ٣٦٩

فتوح بن أبي نور اليفرني ؛ ٤٦
فرنان كونثالث ، ٣٧٧
فرناندو الأول ؛ ٤٨ ، ٥٨ ، ٧٢ ، ٨٥ — ٨٧ ، ٩٨ — ١٠٢ ، ١١٢ ، ١٧٧ ، ٢٢٣ — ٢٢٦ ، ٢٣٣ ، ٢٦٧ ، ٢٧١ ، ٢٨٠ ، ٣٧٧ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨٢ — ٣٨٩ ، ٣٩٤ ، ٤٠٥
فرناندو أنسوريز ؛ ٣٩٠
فرويلا الثانى ؛ ٢٣٣
القادر بن يحيى بن ذى النون ؛ ٧١ ، ٩٠ ، ١٠٦ — ١٠٩ ، ١١٢ — ١١٥ ، ١٨٦ ، ٢٢٧ — ٢٣٠ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٨ ، ٢٤٠ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٨ ، ٣٣٤ ، ٣٩٥ ، ٣٩٦ ، ٤١٣
القاسم بن حمود المستعلى ؛ ٢٤ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٦٢ ، ١٣١ ، ١٨٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١
القائم بن محمد بن خزرون ؛ ١٥٥ ، ١٥٦
كارل مارتل ؛ ٣٣٠
كباب بن تميت ؛ ١٤٥
كوديرا ، المستشرق ؛ ٣٣٠
الكورتيس ؛ ٤٠٣ ، ٤٠٤
كونزالز بن سانشو ؛ ٣٧٨
كونستانس ، الملكة ؛ ٣٣١ ، ٣٩٧ ، ٤٠٢ ، ٤٠٤


## ل — م


لافونتى ، المؤرخ ؛ ٣٧٩
لب بن سليمان بن هود ؛ ٢٧٢
لبيب العامرى ؛ ١٥٨ ، ١٩٦ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٦٧ ، ٢٧٣
لذريق الكنبيطور ؛ أنظر السيد الكمبيادور
لقوط بن يوسف المغراوى ؛ ٣٠٥ ، ٣٠٦
ماريانا ، المؤرخ ؛ ١١٣
ماكسن بن باديس ؛ ١٣٨ ، ١٤٢
ماكسن بن زيرى بن مناد ؛ ١٢٢
ماكسن بن ماكسن ؛ ١٢٢
المأمون بن ذى النون ، يحيي ؛ ٢٨ — ٣٠ ، ٤٨ ، ٦١ ، ٨٥ ، ٨٨ ، ٩٧ — ١٠٨ ، ١١٢ ، ١١٤ ، ١٣٨ ، ١٤٣ ، ١٥١ ، ١٧٨ ، ٢٠٢ ، ٢٢٣ — ٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٣ — ٣٩٥ ،
المأمون البطائحى ؛ ٢٩٥
مالك بن المعتمد بن عباد؛ ٣٥٢ ، ٣٥٤ ، ٣٥٦
مالك بن جابر بن لبيد ؛ ١٧٤
مالوتو ، قائد السرادنة ؛ ١٩١
مبارك العامرى ؛ ١٥٨ ، ١٩٦ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٢٦٧ ، ٣٧٣ ، ٤٣١
مبشر بن سليمان ، ناصر الدولة ؛ ٢٠٢ ، ٢١٠ ، ٢١٢ ، ٤٢٧
المتنبى ، أبو الطيب ؛ ٨٧ ، ٤٢٥ ، ٤٣١
المتوكل بن الأفطس ، عمر ؛ ٧٨ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، ١٧١ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٣٩ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٦٨ — ٣٧١ ، ٣٨٤ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣٤
مجاهد العامرى ؛ ٢٤ ، ٥٦ ، ١٥٨ ، ١٦١ ، ١٦٤ ، ١٧٦ ، ١٨٨ — ٢٠٠ ، ٢٠٤ ، ٢٠٧ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٦٧ ، ٢٧٣ ، ٤١١ ، ٤٣١ ، ٤٣٤
المجوسية ؛ ٣٠٠
محمد ، النبى العربى ؛ ٩١ ، ٢٠٨
محمدبن الأحمر ، الفقيه ؛ ٧٩
محمد بن إدريس المستعلى ؛ ١٣١
محمد بن إدريس المهدى ؛ ٣٨ ، ١٣١
محمد بن إسماعيل بن عباد ، أبو القاسم ؛ ٣٢ — ٣٩ ، ٤٥ ، ٥٢ ، ٥٨ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٨٢—٨٤ ، ٩٧ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٤٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٩ ، ٣٨٥
محمد بن الأفطس ؛ ٨٢ ، ٨٣

محمد بن تاشفين ؛ ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٣٦٨
محمد بن تميم الكدالى ؛ ٢٠٩
محمد بن تيفاوت اللمتونى ؛ ٣٠٠
محمد بن جهور بن عبد الله ؛ ٢١
محمد بن خزرون ؛ ٤٦ ، ١٣٢ ، ١٥٥ ، ١٥٦
محمد بن خلف الصدفى ، أنظر ابن علقمة
محمد بن سعيد بن هارون ؛ ٤٣
محمد بن سليمان ؛ ٣٧ ، ٥٢
محمد بن سليمان بن هود ؛ ٢٧٢
محمد بن عبد الرحمن ، الأمير ؛ ٩٥ ، ٩٦
محمد بن عبد الرحمن التجيبى ، الأنقر ؛ ٢٦٥
محمد بن عبد الله البرزالى ؛ ٣٦ ، ٤٩ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ١٣٠ ، ١٤٨ — ١٥١
محمد بن عبد الله بن قاسم ، يمن الدولة ؛ ٢٦١
محمد بن عبد الملك بن المنصور ؛ ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٧٥ ، ٢٢٠ ، ٢٢١
محمد بن عيسى ، عميد الدولة ؛ ٤٤
محمد بن عيسى بن مزين ، الناصر ؛ ٤٤
محمد بن القاسم بن حمود ؛ ٣٨
محمد بن معاذ بن اليسع ؛ ٣٠٦
محمد بن نوح الدمرى ؛ ٤٥ ، ٤٦ ، ٥٤ ، ١٥٣ ، ١٥٥
محمد بن هشام المهدى ؛ ١٣ ، ٥٢ ، ١٢٣ ، ١٥٨ — ١٦٠ ، ١٨٩ ، ٢١٧ ، ٣٨٢ ، ٤٠٧
محمد بن هشام التجيبى ؛ ٢٦٥
محمد بن يحيى اليحصبى ، عز الدولة ؛ ٤١ — ٤٣
محمد بن يوسف التميمى ؛ ٧١
مخلوف بن ملول ؛ ١٣٢
مدرك التلكاتى ؛ ٣٠٩
مروان بن جهور بن عبد الملك ؛ ٢١
المستظهر بالله ، الأموى ؛ ١٣ ، ٤٣١
المستظهر بالله العباسى ؛ ٣١٤
المستعين بالله بن هود ، سليمان بن محمد ؛ ٩٨ — ١٠٠ ، ١٠٨ ، ٢٦٦ ، ٢٦٩ — ٢٧٢
المستعين بن هود الأصغر ، أحمد ؛ ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٣٠ ، ٢٣٣ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٩ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٨٦ — ٢٩٠ ، ٣٢٢ ، ٤٠٦ ، ٤٠٨
المستعين بن المؤتمن بن هود ؛ ٢٩٤
المستكفى بالله ، الأموى ؛ ١٣
المستنصر بالله الفاطمى ؛ ٢٠٢
مسعود بن وانودين ؛ ٣٠٤
مسكن بن حبوس ؛ ١٣٨
المسيح ؛ ٢٨٢
مطرف بن إسماعيل بن ذى النون ؛ ٩٦
مظفر العامرى ؛ ١٥٨ ، ١٩٦ ، ٢١٧ ، ٤٣١
المظفر بن الأفطس ، محمد بن عبد الله ؛ ٢٩ ، ٤٢ ، ٨٤ — ٨٧ ، ٨٩ ، ٩٩ ، ١٠١ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩ ؛ ٤٣٤
المظفر بن هود ، يوسف ؛ ٢٣٤ ، ٢٧٣ ، ٢٧٥ ، ٢٨٠ ، ٢٨١
المعتد بن المعتمد بن عباد ؛ ٣٥٦
المعتصم بن صمادح ، أبو يحيى ؛ ٤٨ ، ٧١ ، ٧٨ ، ١٦٧ — ١٧٣ ، ٢٠١ ، ٢٠٤ ، ٣٢١ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٤٣ ، ٣٦٦ ، ٣٩٩ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠
المعتضد بن عباد ؛ ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٨ ، ٤٠ — ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ٦٧ ، ٨٤ ، ٩٩ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٤٠ ، ١٥١ ، ١٥٣ — ١٥٦ ، ٢٠٠ ، ٣٨٣ — ٣٨٥ ، ٤٢٤ ، ٤٣٠ ، ٤٣٦
المعتضد بالله العباسى ؛ ٥٣ ، ٥٤
المعتمد بن عباد ؛ ٢٨ — ٣٠ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٩ — ٧١ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٦ — ٧٩ ، ٨٨ ، ٩١ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١٤٢ ، ١٤٤ ،

١٤٥ ، ١٦٨ ، ١٧١ ، ١٧٣ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٣ — ١٨٥ ، ٢٠١ ، ٢١٠ ، ٢٣٣ ، ٢٨٠ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٦ ، ٣٢٨ ، ٣٣٤ — ٣٣٦ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤١ — ٣٤٨ ، ٣٥٠ — ٣٥٣ ، ٣٥٥ — ٣٦٠ ، ٣٦٣ — ٣٦٦ ، ٣٩٤ ، ٣٩٦ ، ٣٩٨ ، ٤٢٤ — ٤٢٧ ، ٤٣٣ ، ٤٣٦ ، ٤٤١

المعرى ، أبو العلاء ؛ ٨٧

المعز لدين الله الفاطمى ؛ ١٢١

المعز بن ابن إسحق البرزالى ؛ ٨٤

المعز بن باديس ؛ ٣١٥ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩

المعز بن يوسف بن تاشفين ؛ ٣١٥ ، ٣١٦

معز الدولة بن صمادح ؛ ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٣ ، ٣٢١ ،

معن بن صمادح ، أبو الاحوص ؛ ١٦٤ ، ١٦٥ ، ٢٢٢

معنصر المغراوى ؛ ٣١١

مقاتل العامرى ؛ ٢٧٣

المقتدر بن هود ؛ ٦٦ ، ١٦٩ ، ١٨٤ ، ٢٠٢ ، ٢٢٤ ، ٢٢٦ ، ٢٣٤ ، ٢٧٣ ، ٢٧٥ ، ٢٨٣ ، ٣٨٠ ، ٣٨٦ ، ٤٠٥ ، ٤١٢ ، ٤٣٣ ، ٤٣٦

المقرى ، شهاب الدين ؛ ٣٦٤

مناد بن محمد بن نوح ، عماد الدولة ؛ ٤٦ ، ١٥٥

المنذر بن محمد ، الأمير ؛ ٢١

المقرى شهاب الدين ؛ ٣٦٤

مناد بن محمد بن نوح ، عماد الدولة ؛ ٤٦ ، ١٥٥

المنذر بن محمد ، الأمير ؛ ٢١

المنذر بن هود ؛ ٢٣٤ — ٢٣٦ ، ٢٨٢ ، ٢٨٤ — ٢٨٧ ، ٢٩٠ ، ٣٧٩ ، ٤٣١

المنذر بن سليمان بن هود ؛ ٢٧٢

منذر بن يحيى التجيبى ؛ ١٢٤ ، ١٦٠ ، ١٦٥ ، ٢١٨ — ٢٢٠ ، ٢٥٤ ، ٢٦٦ — ٢٦٨ ؛ ٢٧١ ، ٢٧٣

المنذر بن يحيى ، معز الدولة ؛ ٢٦٨ ، ٢٦٩

المنصور بن أبى عامر ؛ ١١ ، ١٢ ، ٣٢ ، ٤٥ ، ٥١ ، ٨٦ ، ٩١ ، ٩٦ ، ٩٩ ، ١٠١ ، ١٢٠ ، ١٢٢ ، ١٤٩ ، ١٥٢ ، ١٥٤ ، ١٦٠ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ٢٦٦ ، ٣٠٤ ، ٣٠٦ ، ٣٧٦ ، ٣٨٢ ، ٣٨٧ ، ٤٠٧ ، ٤٣٠ ، ٤٣١ ، ٤٣٨

المنصور بن الأفطس ، عبد الله بن مسلمة ؛ ٨٢ — ٨٤ ، ٣٨٥

المنصور بن الأفطس ، ولد عمر المتوكل ؛ ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٦٩

المنصور بن بلكين ؛ ١٢١

منديث كونثالث ، الكونت ؛ ٣٧٧

المؤتمن بن هود ؛ ٦٦ ، ١٨٤ ، ٢٢٦ ، ٢٣٠ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٨٤ — ٢٨٦ ، ٢٩٤ ، ٤٣٦

موجيتوس (موسيتو) اسم مجاهد ؛ ١٩٤

موسى بن ذى النون ؛ ٩٥

موسى بن نصير ؛ ١٩١

مؤمل ، مولى باديس ؛ ٣٤١

## ن — ى

النابة ، وزير باديس ؛ ١٣٤ ، ١٣٩

نبيل العامرى ؛ ١٥٨ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤

النصرانية ؛ ١١٥ ، ١٩٥ ، ٢٢٥ ، ٣٣٠ ، ٣٣٢ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٤١٣ ، ٤٢٢

النعمان بن المنذر ؛ ٣٣

نكل ، الأستاذ ؛ ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٢٧

نوح بن تزيرى الدمرى ؛ ١٥٤

هذيل الصقلبى ؛ ١٢٩

هذيل بن عبد الملك ؛ أنظر ابن رزين

هشام بن ذى النون ؛ ١٠٦ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥

هشام بن عبد الرحمن ؛ ٢١

هشام المعتد بالله ؛ ١٣ ، ٢٠ ، ٢٦٠ ، ٢٦١

هشام المؤيد بالله ؛ ١٣ ، ٢٤ ، ٣٣ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٥٢ ، ٩٧ ، ٩٩ ، ١٢٣ ، ١٤٠ ، ١٥٩ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٨٩ ، ٢١٧ ، ٢٢٠ ، ٢٥٤ ، ٢٦٦
هشام الوقشي ؛ ٤٣٥
واجاج بن زلوا المعطي ؛ ٣٠١
واضح الفتى العامري ؛ ٩٦ ، ١٥٩ ، ٢٢٠ ، ٣٠٦ ، ٣٨٢ ، ٤٠٧
وانور بن أبي بكر اللمتوني ؛ ٢١٣
ولادة بنت المستكفي ؛ ٢٥ ، ٧١ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧
الونشريشي ، أحمد بن يحيى ؛ ٣٤٨
يحيى التجيبي الكبير ؛ ٢٦٩
يحيى بن إبراهيم الجدالي ؛ ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٣
يحيى بن الأفطس ، المنصور ؛ ٨٧ ، ٨٨
يحيى بن المنذر التجيبي ، المظفر ؛ ٢٦٨ ، ٢٧٠
يحيى بن سكوت ؛ ٣١٢ ، ٣٦٦
يحيى بن عبد الرحمن التجيبي ؛ ٢٦٦
يحيى بن عبد الملك بن رزين ؛ ٢٥٩
يحيى بن علي بن حمود ، المعتلي ؛ ٢٤ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٧ — ٣٩ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٥٤ ، ٦١ ، ٨٣ ، ١٢٥
يحيى بن علي بن خلدون الأندلسي ؛ ١٤٨
يحيى بن عمر بن تلاكاكين ؛ ٣٠٢ — ٣٠٥
يحيى بن المنذر بن هود ؛ ٤٣١
يدير بن حباسة بن ماكسن ؛ ١٢٧
يدو بن يعلى ؛ ١٥٢
يزيد الراضي ؛ ٦٦ ، ٧٩ ، ٣١٨ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٥٢ ، ٣٥٦
يعلى العامري ؛ ٢٧٣
يوسف بن بخت بن أبي عبده ؛ ٢١
يوسف بن تاشفين ؛ ٧٤ ، ٧٧ — ٨٠ ، ١٤٥ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٤٦ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٣٠٥ ، ٣٠٩ ، ٣١١ — ٣١٦ ، ٣١٩ ، ٣٢١ ، ٣٢٣ — ٣٢٩ ، ٣٢٨ ، ٣٣١ ، ٣٣٣ — ٣٤٤ ، ٣٥٥ ، ٣٦٤ — ٣٦٦ ، ٣٦٨ ، ٣٧١ ، ٣٧٣ ، ٣٩٨ — ٤٠١ ، ٤٢٨
يوسف بن سليمان بن هود ؛ ٢٧٢
يوسف بن محمد البلوي ؛ ٢٠٧ ، ٣١٩

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٦٩/٥٢٩٤

# دولة الإسلام في الأندلس

تأليف
محمد عبد الله عنان

العصر الثالث

## عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس

القسم الأول

## عصر المرابطين
وبداية الدولة الموحدية

الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة

الطبعة الثانية

١٤١١ هـ = ١٩٩٠ م

مطبعة المدني
المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة - ت : ٨٢٧٨٥١

بسم الله الرحمن الرحيم

# مقدمـــة

حينما عولت على كتابة تلك السيرة المشجية ، الحافلة بالعبر — تاريخ الأندلس — لم يكن يجول بخاطرى ، أن المهمة تقتضى حياة بأسرها ، وأن الأعوام سوف تمر تباعا ، دون أن تصل إلى غايتها . وقد مضى الآ ن مذ أصدرت القسم الأول من « دولة الإسلام فى الأندلس » فى سنة ١٩٤٢ ، عشرون عاما ، كرست خلالها ، معظم أوقاتى وجهودى ، لإتمام هذه المهمة . ومنذ اثنى عشر عاما ، ، وأنا دائب التردد على اسبانيا والمغرب ، أنقب باستمرار فى مكتباتهما ، ودور محفوظاتهما ، عن كل ما يتعلق بهذه السيرة من مصادر ، ووثائق مخطوطة ، وغير مخطوطة . عربية أو قشتالية ، حتى أضحت هذه المهمة ، مهمة حياتى ، لا أدخر فى تحقيقها وسيلة ولا جهداً .

وقد استطعت خلال هذه الحقبة الطويلة ، أن أكتب تاريخ الأندلس منذ الفتح إلى نهاية دول الطوائف ، فى ثلاثة مجلدات ، وأن أكتب فى نفس الوقت تاريخ المرحلة الأخيرة من دولة الإسلام فى الأندلس ، أعنى تاريخ مملكة غرناطة حتى سقوطها ، ثم تاريخ الأمة الأندلسية المغلوبة واستشهادها المؤسى ، ومحنتها الأخيرة ، بإخراج بقاياها المتنصرة من أوطانها القديمة ، وذلك فى مجلد كبير ، هو « نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين » . .

وكانت الثغرة التى بقيت بين نهاية عهد الطوائف ، وقيام مملكة غرناطة ، وهى عصر المرابطين والموحدين ، وهى ثغرة تستغرق من الزمن نحو مائة وخمسين عاما — كانت تروعنى دائماً بطول مداها ، وتشعب آفاقها ، وخصوصاً بالمغرب . ولكن ، كان لابد لإتمام المهمة التى كرست لها بقية حياتى ، وهى تسطير تاريخ الأندلس منذ الفتح إلى النهاية ، أن أقتحم هذا الميدان الوعر ، وأن أعكف على كتابة تاريخ هذا العصر ، بالرغم من كل ما يكتنفه من صعاب وغموض ، حتى تجبر

الثغرة ، وتتصل المراحل ، ويغدو تاريخ الأندلس ، والأمة الأندلسية ، كله ، وقد استكملت حلقاته ، منذ بدايته إلى نهايته .

وأنه ليملأ نفسي اليوم غبطة ، أنى قد استطعت بعون الله ، أن أتمم هذه المهمة ، وأن أكتب تاريخ عصر المرابطين والموحدين ، فى المغرب والأندلس ، بعد أعوام من العمل الشاق ، والجهد المتواصل، والتنقيب المستمر ، فى مكاتب مدريد ،والإسكوريال ، والرباط ، وفاس ، والقاهرة ، ولندن ، وأكسفورد ، والڤاتيكان . وقد حرصت فضلا عن تقصى المصادر والوثائق، على دراسة المواطن الجغرافية والإستراتيجية دراسة عملية ، فزرت بالمغرب سائر عواصمه التاريخية ، وزرت منطقة جبال الأطلس ومدينة تينملّل ، مكة المهدى ابن تومَرت، ودرست طريق مسير الجيوش المرابطية والموحدية ، إلى شبه الجزيرة الإسبانية ، وزرت مواقع العبور إليها من جانبى المضيق . وأما بالأندلس فإنى لم أترك قاعدة أومدينة أندلسية قديمة حتى زرتها ، ودرست معالمها القديمة ، وآثارها الأندلسية الباقية . وقد حرصت بنوع خاص على أن أدرس مواقع المعارك العظيمة ، التى نشبت بين الموحدين وبين اسبانيا النصرانية ، فى شنترين ، وفى شلب ، ثم الأرك ، وفى العقاب . وقد قضيت عدة أيام فى دراسة مواقع هاتين المعركتين العظيمتين الحاسمتين — الأرك والعقاب — وقمت لذلك برحلة خاصة ، طفت فيها بسهل الأرك ، ومواقع قلعة رباح القديمة . ثم قصدت إلى جبال سيرّاموزينا التى تفصل بين الأندلس وبين قشتالة ، وصعدت إلى آكامها ، وتجولت فى هضابها ،وطفت بسائر الأماكن التى وقعت فيها معركة العقاب ، من وعر ومن سهل ، وهى المعركة التى سحقت فيها الجيوش الموحِّدية ، وانتهت بانحلال سلطان الموحدين ، وانحلال الأندلس ، ثم سقوط سائر قواعدها العظيمة، فيما لا يزيد عن ثلاثين عاما . وكانت هذه الدراسات الجغرافية ، والطبوغرافية ، تمدنى بكثير من أسباب الإيضاح والإدراك لظروف هذه المواقع ، والنتائج التى انتهت إليها ، وتعاون على الدقة فى وصف مراحلها وتطوراتها .

وثمة مسألة أخرى جديرة بالتنويه ، وهى أن كتابة تاريخ عصر المرابطين والموحدين ، تعتبر قبل كل شىء تسطيراً لتاريخ المغرب ، ولايشغل فيه تاريخ الإندلس سوى حيز يسير ، فقد كانت الأندلس أو شبه الجزيرة الأندلسية ، فى هذا العصر الذى استطال زهاء قرن ونصف ، ولاية مغربية ، داخل الإمبراطورية

المغربية الكبرى، المرابطية ، ثم الموحدية . بيد أن حكم المرابطين ، ثم الموحدين لولاية الأندلس ، والظروف العسكرية ، والإدارية ، والاجتماعية ، التى أحاطت بحكم كل من هاتين الدولتين العظيمتين للأمة الأندلسية ، لا يمكن أن تفهم إلا على ضوء التفاصيل الكاملة لحكم كل منهما للامبراطورية المغربية الكبرى . ومن ثم فقد كان لزاماً على أن أكتب تاريخ عصر المرابطين والموحدين بالمغرب كاملا ، بالرغم مما يحيق بهذه المهمة من صعاب لا نهاية لها ، سواء من الناحية الجغرافية أو القبلية ، أوناحية الاستيعاب التاريخى . وإنى لأرجو أن أكون قد وفقت إلى بعض ما طمحت إليه ، من عرض تاريخ هذه الفترة الهامة من تاريخ الإمبراطورية المغربية الكبرى ، فى صورته الحقيقية الكاملة .

هذا مع العلم بأنى قد استعرضت فى كتابى « دول الطوائف » ، وهو الذى يتناول العصر الثانى من كتاب « دولة الإسلام فى الأندلس » » نشأة المرابطين ، وفتوحهم فى المغرب ، وقيام الدولة المرابطية الكبرى ، على يد عاهلها العظيم يوسف بن تاشفين ، ثم عبور المرابطين إلى الأندلس ، لإنجاد أمراء الطوائف فى موقعة الزلاّقة ، وماتلا ذلك من فتح المرابطين لدول الطوائف ، واستيلائهم على شبه الجزيرة الأندلسية ، ومن ثم فإنى لم أجد موضعاً لتكرار ما سبق أن كتبت فى هذا الشأن . ولهذا فقد بدأت كتابى هذا ، بالتحدث عن خاتمة عهد يوسف بن تاشفين .

وقد رأيت أن أستعرض فى فصل خاص ، أهم المصادر المخطوطة وغير المخطوطة ، التى كانت قبل غيرها ، عمادى فى البحث والدرس . ومن المحقق أن هذه المصادر ، بالرغم مما تقدمه إلينا أحياناً من مواد أصيلة ومعاصرة ، لاشك فى أهميتها ونفاستها ، لا تقدم إلينا سوى القليل، ولاتعالج إلا بعض نواحى المسائل الكبرى، التى يعرضها لنا تاريخ الدولتين المرابطية والموحدية ، بيد أنها من جهة أخرى تلقى أضواء كثيرة على النواحى السياسية والإدارية لحكم المرابطين والموحدين ، ولاسيما لشبه جزيرة الأندلس ، فقد كانت لكل من الدولتين فى حكم الأندلس ، أوضاع ومبادىء خاصة .

وأود أن أشير هنا إلى أنى قد جريت فى كتابة تاريخ عصر المرابطين ، والموحدين ، وهو العصر الثالث من كتاب « دولة الإسلام فى الأندلس » — على نفس الأسلوب الذى جريت عليه فى كتابة العصرين الأول والثانى ، ثم الرابع

( نهاية الأندلس ) ، وحرصت على أن أستعرض نظم الحكم والأوضاع السياسية والدينية ، لكل من الدولتين ، المرابطية والموحدية ، وسير الحركة الفكرية الأندلسية ، والأحوال الاجتماعية فى ظل كل منهما ، وذلك بقدر ما تمدنا به المصادر والوثائق التى بين أيدينا . كما خصصت لتاريخ اسبانيا النصرانية مكانها المعتاد ، وفقاً لما جريت عليه فى العصور الأخرى .

وكذلك عنيت عناية خاصة بتزويد الكتاب بالخرائط التاريخية ، والرسوم الطبوغرافية ، التى تبين مواقع المعارك الكبرى ، وقد زرتها بنفسى كما تقدم ، وأرجو أن يكون فى ذلك ما يسهل مهمة القارئ والباحث ، فى فهم أوضاع هذه المعارك وظروفها وتطوراتها .

وقد ألحقت بنهاية الكتاب طائفة من الوثائق الهامة المرابطية والموحدية ، والوثائق الأخرى التى رجعت إليها ، ومنها ما لايزال مخطوطاً لم ينشر بعد ، وذلك تسهيلا لمهمة الباحثين فى هذا الميدان ، فى التزود بمعلومات أوفى عن الموضوعات التى تتناولها .

وإنه لا يسعنى فى الختام ، إلا أن أقدم جزيل الشكر والعرفان لسائر الهيئات العلمية والمكتبية ، التى ساهمت فى تسهيل مهمتى ، فى البحث والمراجعة ، والتصوير والنقل ، وفى مقدمتها معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، ومكتبة الإسكوريال ، ومكتبة مدريد الوطنية ، وخزانة الرباط ، وخزانة جامع القرويين بفاس ، وقسم المخطوطات بالمتحف البريطانى ، والمكتبة البودلية بأكسفورد ، ودار الكتب المصرية ، فقد كان لى من ذخائر هذه الهيئات ، والمكتبات الجليلة ، خير منهل ، وخير معين لى ، فى تأليف هذا الكتاب .

القاهرة فى رجب سنة ١٣٨٣
الموافق نوفبر سنة ١٩٦٣

محمد عبد الله عنان

# بيان عن المصادر

كان عصر المرابطين والموحدين ، من حيث المصادر والوثائق ، من أشق مراحل هذه السلسلة من تاريخ المغرب والأندلس ، التى نضطلع بكتابتها منذ أعوام طويلة ، وذلك نظراً لاستطالة مداه ، وتشعب نواحيه ، وكثرة ثغراته الغامضة . وقد بذلنا خلال الأعوام التى قضيناها فى كتابة تاريخ هذا العصر ، جهوداً مضنية ، فى استيعاب مصادره ، وتقصى الوثائق التى تكشف عن أحداثه وخواصه ، وقمنا فى هذا السبيل بعدة رحلات إلى اسبانيا والمغرب وانجلترا . وقد رأينا أن نستعرض فى هذا البيان الموجز ، أهم المصادر والوثائق المخطوطة والمنشورة ، التى كانت عمادنا فى كتابة هذا التاريخ ، وسوف نعود فى نهاية الكتاب ، فنخص المصادر بثبت عام شامل ، يضمها جميعاً من مخطوط ومنشور ، ومن عربية ، ولاتينية وقشتالية ، وغيرها .

### كتاب « المن بالإمامة »

نستطيع أن نقول إن هذا الكتاب ، أو بالحرى القسم الذى وصلنا منه ، هو أهم مصادرنا المخطوطة عن المرحلة الأولى من تاريخ الدولة الموحدية . واسمه الكامل هو حسبما جاء فى الصفحة الأولى ، من المخطوط الوحيد الذى انتهى إلينا ، «كتاب تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين ، بأن جعلهم الله أئمة ، وجعلهم الوارثين ، وظهور الإمام أمير الموحدين على الملثمين ، وفى مساق ذلك خلافة الإمام الخليفة أمير المؤمنين [ وأحد ] الخلفاء الراشدين » . وأما مؤلفه ، فقد ورد اسمه فى صفحة العنوان على النحو الآتى : « أنهى تأليفه ، وأبدع تحبيره وتصنيفه ، عبد الملك ابن محمد بن صاحب الصلاة الباجى رحمه الله » . ويحفظ هذا المخطوط بمكتبة جامعة أكسفورد المسماة « بالمكتبة البودلية » Bodleian Library ، وهو مسجل فى فهرس المخطوطات الشرقية بها ، المنشور باللاتينية فى سنة ١٧٨٧ فى صفحة ١٦٧ ، برقم DCCLVIII ( ١٧٥٨ ) ، فهو بذلك من أقدم مخطوطاتها الشرقية .

وهذا المخطوط عبارة عن مجلد ضخم ، يقع فى ١٩٤ لوحة مزدوجة ، أعنى

فى ٣٨٨ صفحة كبيرة الحجم ( نحو ٣٠ فى ٢٠ سم ) فى كل منها ١٩ سطراً ، وفى كل سطر نحو تسع كلمات ، ومكتوب بخط أندلسى كبير واضح ، وهو سليم جيد الحفظ ، ما عدا ورقة الأولى فهى قديمة باهتة ، ومجلد بجلد متين . وليس فى بداية المخطوط أونهايته ما يدل على تاريخ كتابته ، ولكن يبدو من كتابته وحالته ، أنه ربما يرجع إلى القرن الثامن أو التاسع الهجرى ( الرابع عشر أوا لخامس عشر ) . ولايضم هذا المخطوط من كتاب « المن بالإمامة » سوى « السفر الثانى » وذلك حسبما سجل فى صفحة العنوان ، وحسبما ورد فى ختام المخطوط على النحو الآتى: « كمل السفر الثانى من كتاب تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين وصلى الله على محمد وآله ، يتلوه الثالث بحول الله سنة تسع وستين وخمساية ، خبر وصول العلج الطاغية » .

ويبدو من عنوان الكتاب الذى تقدم ذكره ، أن السفر الأول منه ، يتضمن تاريخ قيام الموحدين ، وظفرهم بالتغلب على المرابطين ، وتاريخ أول خلفاء الموحدين عبد المؤمن بن على ، وهذا السفر الأول من الكتاب لم يصل إلينا ، كما لم يصل إلينا سفره الثالث الذى أشير إليه فى ختام المخطوط . وأما السفر الثانى وهو الوحيد الذى انتهى إلينا ، فيبدأ بحوادث سنة ٥٥٤ هـ ، وينتهى بحوادث سنة ٥٦٨ هـ ، وهى فترة قصيرة من الناحية الزمنية ، ولكنها حافلة بالحوادث الهامة ، التى يعرضها لنا ابن صاحب الصلاة ، وقد كان شاهد عيان لكثير منها ، فى تفصيل شاف ؛ على أن الأحداث التاريخية ليست أهم ما يتضمنه كتاب «المن بالإمامة» . ذلك أن أهم وأنفس ما يتضمنه الكتاب ، هو تلك المجموعة من الرسائل والوثائق الموحدية الصادرة عن الخلفاء والأمراء الموحدين ، التى ينقلها إلينا ابن صاحب الصلاة ، وتلك التفاصيل الدقيقة التى يقدمها إلينا عن نظم الحكم الموحدية ، وعن الشئون الإدارية والمالية ، وهذه الوثائق والتفاصيل تلقى أكبر ضوء على خواص الحكم الموحدى ، والدولة الموحدية .

وبالرغم من أن السفر الثانى الذى انتهى إلينا من كتاب « المن بالإمامة » ينتهى كما تقدم بحوادث سنة ٥٦٨ هـ ، وبالرغم من أن البحث لم يظفر حتى يومنا ، بالحصول على نص السفر الثالث من الكتاب ، فإنا نستطيع مع ذلك أن نعثر بكثير من النبذ والشذور التى يتضمنها هذا السفر المفقود من الكتاب ، وقد نقلها إلينا مؤرخ متأخر هو ابن عذارى المراكشى فى كتابه الجامع « البيان المغرب»

الذى سوف نتحدث عنه فيما بعد ، وهذه الشذور تمتد حتى معركة الأرك فى سنة ٥٩١ هـ ، وحتى وفاة الخليفة يعقوب المنصور فى سنة ٥٩٥ هـ .

ولابن صاحب الصلاة فى عرض الحوادث والشئون أسلوب خاص ، جزل نوعا ، وإن كان يلجأ أحياناً إلى السجع الركيك ، والتنميق المتكلف ، وهو يبدو سواء بأسلوبه ، أوطريقة عرضه للحوادث ، وتقديمه للأشخاص ، مؤرخ بلاط أثير ، يحرص كل الحرص على الإشادة بسادته وبأعمالهم ، يغمرهم خلال حديثه بالألقاب الفخمة ، والدعوات الرنانة ، ولايفوته كلما ذكر اسم الموحدين أن يقرنه بقوله «أعزهم الله» ، ثم هو يلجأ أحياناً فى وصف الخلفاء والأمراء إلى عبارات من المديح المسجع والملق المغرق . بيد أنه مع ذلك لا يحجم فى بعض الأحيان ، عن النقد ، والتنديد بأعمال وتصرفات يراها جديرة بذلك[١] .

وقد كان مؤلف كتاب « المن بالإمامة » من أدباء عصره وكتّابه . وهو عبد الملك بن محمد بن أحمد بن محمد بن ابراهيم الباجى ، ويكنى أبا مروان وأبا محمد ، ويعرف بابن صاحب الصلاة وبصاحب التاريخ[٢] . وهو كما يبدو من اسمه أندلسى من أهل باجة . وفد على إشبيلية مذ نزل بها الموحدون ، واتخذوها عاصمة لولاية الأندلس ، واتصل بالبلاط الموحدى منذ البداية ، وخدم فيه كاتبا وشاعراً ، وكان ضمن الوفود التى لقيت الخليفة عبد المؤمن حين زيارته لجبل طارق فى سنة ٥٥٥ هـ ( ١١٦٠ م ) . وقد عنى ، وهو من أهل باجة ، وهى المنطقة التى قامت بها ثورة ابن قسىّ وأنصاره المريدين ، بأن يؤلف كتابا عن « ثورة المريدين » ، وهو كتاب يشير إليه فى غير موضع من « المن بالإمامة » ولكنه لم يصل إلينا . وقد وصفه ابن عبد الملك فى « الذيل والتكملة » بقوله : « وكان أديباً محسناً ، عنى بحفظ التواريخ وتقييدها ، وصنف « تاريخ ثورة المريدين بالأندلس » و« دولة بنى عبد المؤمن ، ومن أدرك بحياته من بنيه »[٣] ، ومن الواضح أنه يعنى بذلك كتاب « المن بالإمامة » . ولم يقدم لنا أحد ممن تعرض

---

( ١ ) مثال ذلك ما ورد فى حديثه عن غزوة وبذة التى قام بها الخليفة أبو يعقوب يوسف ، ثم عن غزوة شنترين التى انتهت بمصرع الخليفة المذكور ( ص ٩٧ و١٣٤ و١٣٥ من القسم الثالث من البيان المغرب ) .

( ٢ ) كتاب التكملة لابن الأبار ( المكتبة الأندلسية ) رقم ١٧٢٦ .

( ٣ ) كتاب « الذيل والتكملة » لا بن عبد الملك المراكشى ، الجزء الرابع من مخطوط المكتبة الوطنية بباريس .

لترجمة ابن صاحب الصلاة ، تاريخ مولده أو وفاته . وقد ذكر المستشرق الإسبانى بونس بويجس فى معجمه نقلا عن المستشرق أمارى أنه توفى سنة ٥٧٨ هـ ( ١١٨٢ م )[١] ، وتابعه فى ذلك الأستاذ بروكلمان فى تاريخ الأدب العربى[٢] ، وهو تاريخ خاطىء ، لايتفق مع سياق كتاب « المن بالإمامة . ذلك أن ابن صاحب الصلاة ، يذكر لنا فى مؤلفه حوادث شهدها ترجع إلى سنة ٥٩٤ هـ ، مثل الاحتفال بإتمام بناء صومعة جامع إشبيلية الأعظم ، ورفع التفافيح الذهبية إلى قمتها ، بحضرة الخليفة يعقوب المنصور ، وذلك فى شهر ربيع الآخر سنة ٥٩٤ هـ ، عقب عوده ظافرا من معركة الأرك الشهيرة (Fol. 171. v.) ، بل يبدو مما ينقله ابن عذارى فى « البيان المغرب » من شذور عن وفاة المنصور فى سنة ٥٩٥ هـ ، ثم عن حوادث الأعوام الأولى من خلافة ابنه الناصر . وهى شذور يبدو فيها أسلوب ابن صاحب الصلاة واضحاً ، أن مؤلف كتاب « المن بالإمامة » قد عاش حتى أواخر القرن السادس ، بل والى أوائل القرن السابع ، وأنه قد توفى على الأرجح حوالى سنة ٦٠٥ هـ ( ١٢٠٨ م )[٣] . وأما مولده فيمكن أن نضعه بين سنتى ٥٢٠ و٥٣٠ هـ ( ١١٢٦ — ١١٣٥ م ) .

## كتاب نظم الجمان

ومن أهم مصادرنا المخطوطة عن أواخر عهد المرابطين ، وأوائل عهد الموحدين قطعة كبيرة مخطوطة من كتاب نظم الجمان لابن القطان ، تتضمن السفر الثالث عشر من هذا الكتاب . وعنوانه على النحو الآتى : « السفر الثالث عشر من كتاب نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان » . وفى داخل المخطوط ، توصف القطعة بأنها « الجزء السادس ، من هذا الكتاب . فى ذكر ما انتهى إلينا من أخبار القرن السادس ، وهو المائة السادسة من الهجرة الكريمة » . ويحتوى هذا المخطوط على ثمانية وستين لوحة مزدوجة كبيرة الحجم ( ١٣٦ صفحة ) فى كل صفحة منها

(١) Pons Boigues : Ensayo Bio - Bibliografico sobre los Historiadores y Geograficos Arabigo - Espanoles, p. 246.

(٢) C. Brockelmann : Geschichte der Arabischen Litteratur, Supp. 1. p 554.

(٣) راجع بعض هذه الشذور التى ينقلها ابن عذارى فى البيان المغرب : القسم الثالث الذى يجرى نشره الآن بعناية الأستاذة : هويثى ميرانده ومحمد بن تاويت ومحمد ابراهيم الكتانى عن معهد مولاى الحسن بتطوان : ص ٢٠٧ — ٢١١ و٢١٣ ، و٢١٩ و٢٢٠ و٢٢٣ و٢٢٥ .

تسعة عشر سطراً بخط مغربى كبير ، والنص كله مشكول بالمداد الأحمر ، وأحياناً بخط مذهب ، والمخطوط قديم مبتور الآخر ، وليس هناك ما يدل على تاريخ كتابته . بيد أنه يمكن أن نرجعه إلى القرن الثامن الهجرى . ويبدو من خطه المنمق وعناوينه المذهبة ، أنه ربما كتب برسم أحد الأمراء أو الكبراء .

وأما عن مؤلف الكتاب ، ابن القطان ، فليس لدينا عنه تفاصيل شافية ، وقد ذكر اسم المؤلف فى صفحة العنوان بأنه « الإمام العالم أبو النجوم الباجى » وذكر فى رأس الصفحة الأولى أنه « ابن القطان »(١) . وقد ورد فى لوحة ٦٧ ا من المخطوط ما يدل على أن المؤلف كان حياً ، فى عهد الخليفة الموحدى المرتضى ( ٦٤٦ — ٦٦٥ ﻫ ) وهو الذى حكم قبل آخر الخلفاء الموحدين .

ويتناول المخطوط أخبار المرحلة الأخيرة من حكم المرابطين منذ سنة ٥٠٨ ﻫ ( ١١١٤م ) ، وأخبار بداية ظهور المهدى ابن تومرت ، وتقدم دعوته ، وتصنيف أصحابه ، ومرحلة الصراع الأولى بين الموحدين والمرابطين ، وأخبار الأندلس خلال هذه الفترة ، وذلك حتى أخبار سنة ٥٣٣ ﻫ ( ١١٣٨ م ) . وأهم ما يتميز به هذا القسم من مؤلف ابن القطان أنه ينفرد بإيراد رسالتين هامتين لم تذكرا فى غيره وهما ، رسالة « الكافية فى براهين الإمام المهدى » ، وهى رسالة خاطب بها أبو عبد الرحمن بن طاهر عميد مرسية ، الخليفة عبد المؤمن بن على ، ورسالة وجهها عبد المؤمن إلى الطلبة والمشيخة والأعيان بالأندلس ( سنة ٥٤٣ﻫ ) ، يشرح فيها

---

( ١ ) وردت فى التكملة لابن الأبار ( المكتبة الأندلسية ) رقم ١٩٢٠ ، ترجمة « لعلى بن محمد ابن عبد الملك بن يحيى بن ابراهيم الكتامى الحميرى الفاسى ، أبى الحسن بن القطان » جاء فيها أنه « كان من أبصر الناس بصناعة الحديث ، وأحفظهم لأسماء رجاله ، وأشدهم عناية بالرواية ، ورأس طلبة العلم بمراكش . ونال بخدمة السلطان دنيا عريضة . وله تواليف ، ودرس وحدث . وتوفى على قضاء سجلماسة فى ربيع الأول سنة ثمان وعشرين ( أى وستمائة ) » .

وعثرنا أيضاً فى « الذيل والتكملة » لابن عبد الملك المراكشى على ترجمة طويلة للمذكور ، جاء فيها انه « فاسى سكن مراكش ، وكان ذاكراً للحديث ، مبحرا فى علومه ، وكان معظما عند الخاصة والعامة من آل عبد المؤمن ، حظى كثيراً عند المنصور منهم ، فابنه الناصر ، فالمستنصر بن الناصر ، فأبى محمد عبد الواحد أخى المنصور ، ثم أبى زكريا المعتصم بن الناصر ، وكان المنصور يؤثره على غيره من أهل طبقته . وكان مرجوعاً إليه فى الفتاوى » ( الجزء الخامس من مخطوط المتحف البريطانى لوحة ١٣ ) .

على أن ما ورد فى المخطوط ، مما يدل على أن ابن القطان كان حياً فى عهد الخليفة المرتضى ؛ يجعلنا نتردد فى الاعتقاد بأنه هو صاحب الترجمة التى أوردها ابن الأبار ، ثم ابن عبد الملك ، لما هنالك من الفارق الزمنى الملحوظ . وربما كان المترجم هو أبو المؤرخ .

قواعد السياسة الشرعية الموحدية ، ولا سيما فى مطاردة المنكر ، وفى شئون المكوس والمغارم .

ويبدى ابن القطان فيما يورده من أخبار الموحدين ، حماسة ظاهرة فى تأييد المذهب الموحدى ، والدولة الموحدية ، ويذكر الإمام المهدى ، وخلفاءه الموحدين بمنتهى الخشوع والإجلال[١] .

القسم الثالث

من كتاب البيان المغرب

كان كتاب « البيان المغرب » لابن عذارى المراكشى ، منذ البداية من أهم مصادرنا فى كتابة تاريخ الأندلس . ولقد انتفعنا خلال كتابة العصرين الأول والثانى من هذا التاريخ ، فى كتابينا « دولة الإسلام فى الأندلس » و « دول الطوائف ، بجزئيه الأول والثانى ، اللذين نشرا منذ أكثر من قرن بعناية العلامة دوزى ، ثم بجزئه الثالث الذى نشر بعناية الأستاذ ليڤى بروفنسال . وقد كان من المفروض أن ننتفع بجزئه الرابع الذى صدر بعد ذلك بمدينة تطوان فى سنة ١٩٥٦ ، وهو الذى يتناول بقية عهد المرابطين ، وعهد الموحدين . ولكن اكتشافا جديداً فى منتهى الأهمية غير هذا الاتجاه ، وهو العثور فى الخزانة الناصرية بتامجروت على مقربة من زاكوره بالمغرب ، على مخطوط جديد موسوم « بالجزء الثالث » من « البيان المغرب » ، وهو عبارة عن مجلد كبير يحتوى على ٤٦٣ صفحة كبيرة . فى كل منها واحد وعشرون سطراً . ويبدأ بحوادث سنة ٥٣٣ هـ فى أواخر عهد الدولة المرابطية ، بحملة تاشفين بن على بن يوسف لمقاتلة الموحدين بقيادة عبد المؤمن بن على . وينتهى بحوادث سنة ٦٦٥ هـ ، بخلافة إدريس أبى دبوس الواثق بالله آخر الخلفاء الموحدين ، وحملته إلى السوس ، ويزيد فى البداية ستين صفحة ، وفى النهاية ست وستين صفحة عن الجزء الرابع المطبوع ، هذا فضلا عما يمتاز به فى مواطن كثيرة ، من زيادات فى النص ، وفى الشعر ، ومن تصحيحات كثيرة أخرى .

ولقد اغتبطنا أيما غبطة باكتشاف هذا المرجع النفيس من مراجع عصر الدولة

---

(١) ان هذا الجزء المخطوط من كتاب « نظم الجمان » يوجد اليوم فى حوزة معهدنا المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد ، وهو الذى سهل لى مشكوراً سبيل مراجعته ودراسته . وقد علمت أن هذا المخطوط قد أعد للنشر محققاً بعناية صديق الدكتور محمود على مكى وكيل المعهد المذكور .

الموحدية . ويجرى فيه ابن عذارى على طريقته أحياناً من تصنيف روايته إلى فصول ، وأحياناً إلى حوليات سنوية . ثم هو يجرى أيضاً فى أسلوبه على طريقته من إلتزام الحيدة فى إيراد الحوادث وتقديم الأشخاص ، وعدم التورط فى المديح أو الذم ، ويترك هذه المهمة فى الإشادة أو الانتقاص ، لمن ينقل عنهم من مؤرخى الدولة الموحدية . ومن أهم مميزات هذا القسم من « البيان المغرب » ماينقله إلينا ابن عذارى خلال روايته ،من شذور عديدة من المعاصرين من مؤرخى الدولة الموحدية ، ولاسيما ابن صاحب الصلاة ، حيث ينقل إلينا الكثير من « السفر الثالث » من كتاب « المن بالإمامة » . وهو الجزء المفقود من هذا المؤلف حسبما أشرنا إلى ذلك من قبل[1] .

هذا ، وفضلا عن ذلك ، فقد انتفعنا من تراث ابن عذارى بقطعة مخطوطة من أربع وخمسين لوحة ، عن أصل دولة المرابطين ، وولاية يوسف بن تاشفين وفتوحه فى المغرب ، ودخول المرابطين بلنسية ، وأخبار على بن يوسف ، وقصة إحراق كتاب الإحياء ، وولاية تاشفين بن على ، وغزوة ألفونسو المحارب ، وغير ذلك . وكان المرحوم الأستاذ ليڤى بروڤنسال قد عثر بهذه القطعة بين أضابير مكتبة جامعة القرويين بفاس ، ونشر منها بعض شذور ، عن بعض الوقائع الهامة التى وردت فيها ، ثم نشرها أخيراً بنصها الكامل الأستاذ هويثى ميرانده فى مجلة هسپيرس تمودا فى عدد سنة ١٩٦١ .

وكان من حسن الحظ أننا عثرنا خلال بحثنا فى « خروم » ( دشت ) مكتبة جامع القرويين بفاس ، بأربع صفحات كبيرة من كتاب « البيان المغرب » تتناول حوادث سنى ٥١١ هـ إلى ٥١٤ هـ ، وفيها تفاصيل هامة عن سقوط سرقسطة فى يد ألفونسو الأرجونى ( ٥١٢هـ )، وعن موقعة كتندة ، وعن ثورة قرطبة ضد المرابطين (٥١٤هـ ) ، وتفاصيل أخرى . وكان اختفاء هذه الصفحات يكون ثغرة فى مجموعة الأوراق المخطوطة المتقدمة ، التى عثر بها الأستاذ بروڤنسال ، فجاء عثورنا عليها متمما لهذه المجموعة المتناثرة من كتاب البيان المغرب .

---

( ١ ) سبق أن أشرنا إلى أنه يجرى الآن نشر هذا القسم الثالث من البيان المغرب برعاية معهد مولاى الحسن بتطوان ، وتحقيق الأساتذة أمبروسيو هويثى ميرانده ، ومحمد بن تاويت ، ومحمد ابراهيم الكتانى، وقد أنجز منه حتى اليوم معظمه .

وانتفعنا كذلك ببضعة أوراق مخطوطة من كتاب « صلة الصلة » لابن الزبير ؛ وهى أيضاً من محتويات « خروم » مكتبة القرويين .

أما عن حياة ابن عذارى ، وأصله ونشأته ، فلسنا نعرف الكثير ، وكل ما نعرفه أنه يسمى أبو عبد الله محمد المراكشى ، وأنه قد عاش فى أواخر القرن السابع الهجرى ، فى بداية دولة بنى مرين ، وفى بداية القرن الثامن ، وقد كان لهذا الظرف الزمنى بلا ريب تأثير كبير ، فيما يلتزمه فى روايته عن تاريخ الموحدين ، من الحيدة ، وضبط النفس ، وعدم التورط فى عبارات الملق ، التى يكثر منها مؤرخون مثل ابن صاحب الصلاة ، وابن القطان .

## الرسائل المرابطية

إن مصادر العصر المرابطى التى بين أيدينا ، وفى مقدمتها البيان المغرب ، وروض القرطاس ، والحلل الموشية ، ينقصها الكثير مما يلقى ضياء حقيقياً على أحوال الدولة المرابطية ونظمها وخواصها ، وعلى اتجاهات السياسة المرابطية الدينية والسياسية ، سواء بالمغرب ، أو الأندلس . بيد أنه كان من حسن الطالع ، أننا وقفنا خلال بحوثنا بمكتبة الإسكوريال على طائفة عديدة من الرسائل والوثائق المرابطية ، التى تسد فراغاً كبيراً فى هذا الميدان ، وتلقى أضواء كثيرة على خواص الدولة المرابطية ونظمها وسياستها ، هذا فضلا عما تلقيه من أضواء على طائفة كبيرة من الأحداث العسكرية الأندلسية الهامة التى وقعت خلال العصر المرابطى .

وتجتمع هذه الرسائل أولا فى المخطوطين رقم ٤٨٨ ورقم ٥٣٨ ، من فهرس الغزيرى ، وثانيا فى المخطوط رقم ٥١٩ الغزيرى ، وثالثا فى مجموعة أخرى يضمها مخطوط معهد الدراسات الإسلامية بمدريد .

وأهم هذه الرسائل فيما يختص بالعصر المرابطى ، هو المجموعة التى يضمها المخطوط الأول ، وهو رقم ٤٨٨ ، وهو مخطوط قديم مبتور الآخر وليس له عنوان معين ، ولكن جاء فى الورقة الأولى منه ما يأتى : « جمع هذا الكتاب قصائد كثيرة لعلماء يطول تفسير أسمائهم ، للفتح بن خاقان ، ولابن عبد الصمد ، وللبستى ، ولابن عمار ، وابن اللبانة ، وابن زيدون ، وابن حبيب .. ورسائل شتى ورحلة ابن جبير ، ونسخة بيعة والسلام » . على أن أهم ما يحتويه المخطوط هو خمس رسائل ، كتبت عن أهم الأحداث العسكرية التى وقعت بالأندلس أيام

المرابطين ، الأولى رسالة يوسف بن تاشفين عن موقعة الزلاّقة ، والثانية رسالة ابن شرف عن فتح أقليش . والثالثة رسالة أهل سرقسطة حينما حاصرها النصارى إلى الأمير أبي الطاهر تميم بن يوسف ، والرابعة رسالة لعلى بن يوسف عن هزيمة القلعة . والخامسة رسالة أهل بلنسية إلى على بن يوسف عند نزول ألفونسو المحارب عليها ، وهذا عدا وثيقة موحدية هامة هى بيعة أهل قرطبة بولاية العهد ، لمحمد الناصر ولد الخليفة الموحدى يعقوب المنصور .

ويضم المخطوط الثانى ، وهو رقم ٥٣٨ ، عدة رسائل مرابطية ، أخرى ، عن أواخر العهد المرابطى بالأندلس ؛ أهمها رسالة وجهها تاشفين بن على بن يوسف إلى الفقهاء والوزراء والكافة ببلنسية يحثهم على التزام الجهاد والسنن الرفيعة ، وأداء الصلاة ، ومجانبة الخمر ، والرفق بالرعية ، والتزام مذهب مالك فى الأحكام ، ومطاردة كتب الغزالى . وتعتبر هذه الرسالة من أهم الوثائق المرابطية الدستورية ، هذا إلى عدة رسائل ثانوية أخرى تلقى أضواء مختلفة على جوانب من أواخر العصر المرابطى بالأندلس(١) .

ويضم المخطوط الثالث . وهو رقم ٥١٩ . وهو خاص « بترسيل الفقيه الكاتب أبى عبد الله بن أبى الخصال ومقاماته ومعارضته » ، عدة رسائل مرابطية وجهت إلى على ابن يوسف ، ورسائل أخرى أدبية ، متبادلة بين أكابر كتاب ذلك العصر ، وبين ابن أبى الخصال . تلقى ضوءاً على بعض جوانب أدبية واجتماعية من ذلك العصر .

أما المجموعة الثالثة ، فيضمها مخطوط حصل عليه معهد الدراسات الإسلامية من تركة المرحوم الأستاذ ليڤى پروڤنسال ، وهو نفس المخطوط الذى يضم مجموعة الرسائل الموحدية التى نشرها ( سنة ١٩٤١ ) تحت عنوان « مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية » . وقد نشرت هذه الرسائل أخيراً ، وعددها إحدى وعشرون رسالة بمجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد(٢) ، وهى تلقى أضواء كثيرة على نواح مختلفة من العصر المرابطى ، سياسية وعسكرية وإدارية .

---

( ١ ) نشرت معظم الرسائل المشار إليها فى المخطوطين السابقين بعناية صديق الدكتور حسين مؤنس مدير معهد الدراسات الإسلامية بمدريد خلال الأعوام الأخيرة فى فترات مختلفة ، وذلك بمجلة معهد الدراسات الإسلامية ( سنة ١٩٥٤ و ١٩٥٥ ) .

( ٢ ) قام على نشر هذه الرسائل وتحقيقها والتمهيد لها صديق الدكتور محمود على مكى وكيل معهد الدراسات الإسلامية ، ونشرت بالمجلدين السابع والثامن من مجلة المعهد ( سنة ١٩٥٩ — ١٩٦١ ) .

ويمكننا أن نشير فى هذا الموطن أيضاً . إلى وثيقة مرابطية هامة . أوردها لنا ابن الخطيب فى الإحاطة . وهى كتاب تولية العهد الصادر من يوسف بن تاشفين لولده على .

## الرسائل الموحدية

حسبنا أن نشير فى هذا الموطن . أولا إلى مجموعة الرسائل الموحدية التى نشرت بعناية الأستاذ پروڤنسال والتى سبقت الإشارة إليها ، وهى من أهم الوثائق التى تلقى كثيراً من الضوء ، على معظم الأحداث الهامة ، التى وقعت فى عهد الخليفة عبد المؤمن بن على ، وولده الخليفة أبى يعقوب يوسف . فولده الخليفة يعقوب المنصور ، فولده الخليفة محمد الناصر .

وقد وقفنا إلى جانب ذلك على مجموعة من الرسائل المخطوطة . وردت فى مخطوط الإسكوريال رقم ٥١٨ الغزيرى ( ديرنبور ٥٢٠ ) وهو كتاب « زواهر الفكر وجواهر الفكر » لمحمد بن على بن عبد الرحمن المرادى المكنى بابن المرابط ، وهو حسبما ورد فى آخره مكتوب فى سنة ٧٢١ ه . وهو عبارة عن مجموعة كبيرة من الرسائل الأندلسية ، ومنها عدة رسائل بقلم القاضى الكاتب أبى المطرف بن عميرة عن حوادث بلنسية أيام الفتنة الأخيرة ، التى انتهت بسقوطها فى أيدى النصارى . ورسالة كتب بها عن أهل شاطبة إلى ابن هود ، وظهير موحدى صادر عن الخليفة الرشيد إلى المتوطنين من أهل شرقى الأندلس برباط الفتح ، ورسائل وقصائد لابن الأبار ، وغيرها . وهذه الرسائل تكشف عن كثير من الظروف والأحداث التى وقعت فى شرقى الأندلس ، فى أواخر عهد الموحدين . وأواخر عهد الإسلام به .

## التراجم المخطوطة

كان من أهم مصادرنا المخطوطة طائفة كبيرة من التراجم وردت فى موسوعتين هامتين ، الأولى ، « كتاب الذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة » لقاضى الجماعة أبى عبد الله محمد بن عبد الملك بن محمد بن سعيد الأنصارى الأوسى المراكشى المتوفى فيما يرجح فى أواخر القرن السابع الهجرى ، والثانية كتاب « الإحاطة فى أخبار غرناطة » للوزير لسان الدين ابن الخطيب المتوفى سنة ٧٧٦ ه ( ١٣٧٥ م ) .

وكتاب التكملة موسوعة جليلة من التراجم ، وبها عدد كبير من تراجم أعلام العصرين المرابطى والموحدى ، من فقهاء وكتاب وأدباء وشعراء . وقد رجعنا

إلى أجزائها المخطوطة الموجودة فى دار الكتب المصرية (الجزء المخطوط الموسوم بالسفر الخامس ، والأجزاء المصورة ، وبها تراجم حرف الميم حتى الياء) ، وفى المتحف البريطانى (الرابع والخامس رقم ٧٩٤٠) وخزانة الرباط (الأول مصور مخطوط باريس) ، والإسكوريال (قطعة فقط رقم ١٦٨٢ الغزيرى وبها تراجم حرف السين حتى أوائل حرف ع) ، ونقلنا منها عدداً كبيراً من التراجم . وقد كان من أهم ما انتفعنا به من هذه التراجم ، هو الشذور والنبذ التاريخية العديدة ، التى وردت خلالها عن أحداث العصرين المرابطى والموحدى ، ومنها أحياناً روايات هامة وحيدة لم ترد فى أية مصادر أخرى ، هذا فضلا عن التعريف بكثير من الأعلام الذين تنفرد هذه الموسوعة النفيسة بإيراد تراجمهم .

وكذلك الشأن فى كتاب الإحاطة لابن الخطيب ، فقد وردت به تراجم عديدة لأمراء وزعماء من المرابطين والموحدين ، وكذلك لكثير من أعلام هذا العصر من فقهاء وكتاب وشعراء ، وكان انتفاعنا عظيما بهذه التراجم ، ولاسيما التى وردت منها بالقسم المخطوط من الإحاطة (الإسكوريال رقم ١٦٧٣ و١٦٧٤ الغزيرى) ، وقد ورد خلالها كثير من الشذور التاريخية الهامة ، منقولة عن مصادر ضاعت مثل كتاب «الأنوار الجلية فى أخبار الدولة المرابطية» وغيره .

أما عن كتب التراجم المطبوعة ، فحسبنا أن نشير هنا إلى وفيات الأعيان لابن خلكان ، والصلة لابن بشكوال ، وصلة الصلة لابن الزبير ، وبغية الملتمس للضبى ، والتكملة والحلة السيراء لابن الأبار ، والأخيران يضمان كثيراً من التراجم والنبذ التاريخية الهامة المتعلقة بعصرى المرابطين والموحدين .

## وثائق ومصادر أخرى

وليس فى نيتنا أن نتحدث فى هذا البيان الموجز عن المصادر المخطوطة ، عن المصادر المطبوعة ، وهى كثيرة يتعذر حصرها . بيد أنه يجدر بنا أن نشير فقط إلى طائفة من هذه المصادر التى تعتبر إلى جانب المصادر المخطوطة ، من أهم المراجع الرئيسية عن عصر المرابطين والموحدين .

فمنها كتاب «المعجب» لعبدالواحد المراكشى ، و«الحلل الموشية» ، لمؤلف مجهول ، و«روض القرطاس» لابن أبى زرع الفاسى ، وهذه المراجع الثلاثة تتناول عصر المرابطين والموحدين معا ، وهى لمؤلفين عاشوا فى عصر الموحدين أو قريباً منه .

ومنها ما يختص بالموحدين وعصرهم ، وفى مقدمتها مؤلفا المهدى محمد بن تومرت ، وهما « أعز ما يطلب» و«الموطأ» ، وأولهما يضم خلاصة مذهبه وتعاليمه ، والثانى يضم شروحه لأحكام مذهب مالك . ويليهما كتاب « أخبار المهدى ابن تومرت وابتداء دولة الموحدين » وهو من تصنيف أبى بكر الصنهاجى المكنى بالبيذق أحد أصحاب المهدى ، وهو أهم وأقيم مصادرنا عن نشأة المهدى ونسبه وأصحابه ، وحركاته الأولى ، ثم غزوات خليفته عبد المؤمن .

وهناك مصدر هام آخر جدير بالذكر ، وهو « رحلة التجانى » وهى رحلة قصيرة قام بها أبو محمد عبد الله بن محمد التجانى بين سنتى ٧٠٦ و٧٠٨ هـ ، فى أنحاء تونس وطرابلس ، وهى تتضمن طائفة كبيرة من النبذ والشذور التاريخية القيمة عن الأحداث والمعارك التى وقعت فى أنحاء إفريقية وبلاد الجريد ، بين بنى غانية والموحدين ، وهى من أدق وأوفى الروايات التى انتهت إلينا عن هذه الفترة .

وكذلك رحلة ابن جبير الأندلسى ، ففيها إشارات ونبذ هامة ، تتعلق بالموحدين ؛ أما عن المصادر الجغرافية المتعلقة بالمغرب والأندلس ، فلدينا ثلاثة من أهمها وأقيمها ، هى كتاب «المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب» ، المستخرج من كتاب « المسالك والممالك » ( لأبى عبيد البكرى ) ، و« وصف المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس » المستخرج من كتاب « نزهة المشتاق » للإدريسى ، وكتاب « الإستبصار» ( لمؤلف مجهول ) وهو أحدثها من الناحية التاريخية .

وهذا كله إلى المصادر النصرانية من لاتينية وقشتالية وغيرها ، معاصرة أو محدثة ، وقد ذكرت تباعاً فى مواطنها ، ولا داعى للتحدث عنها هنا .

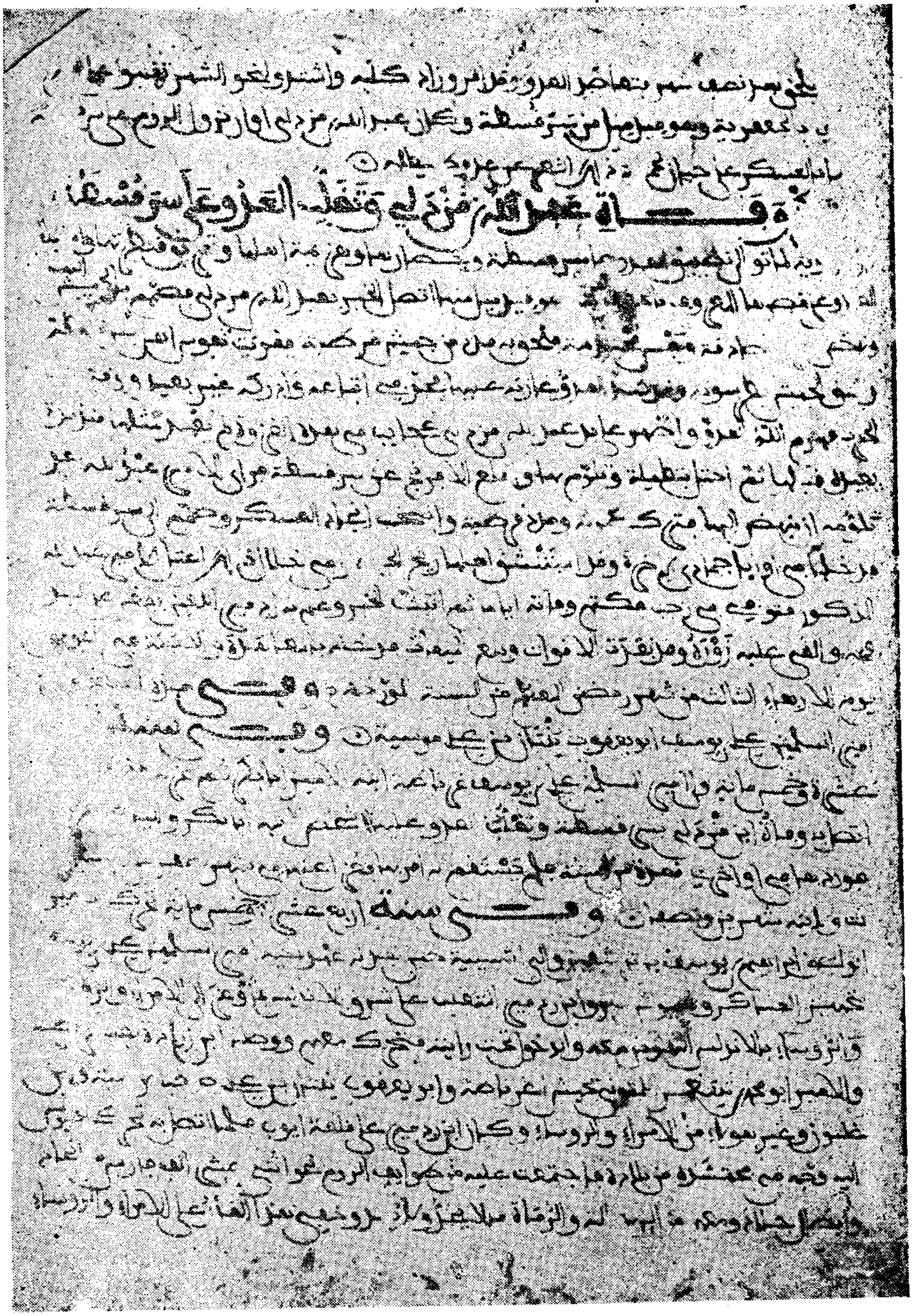

صفحة من الأوراق المخطوطة التى عثرنا عليها من كتاب « البيان المغرب » لابن عذارى بخزانة جامع القرويين بفاس ، وهى من أوراق الجزء الخاص بعصر المرابطين

صفحتان من المخطوط رقم ٥٣٨ الغزيرى المحفوظ بمكتبة الإسكوريال ، وهما من رسالة الأمير تاشفين بن على إلى الفقهاء والوزراء والصلحاء والكافة ببلنسية ، المؤرخة فى أوائل جمادى الأولى سنة ٥٣٨ هـ

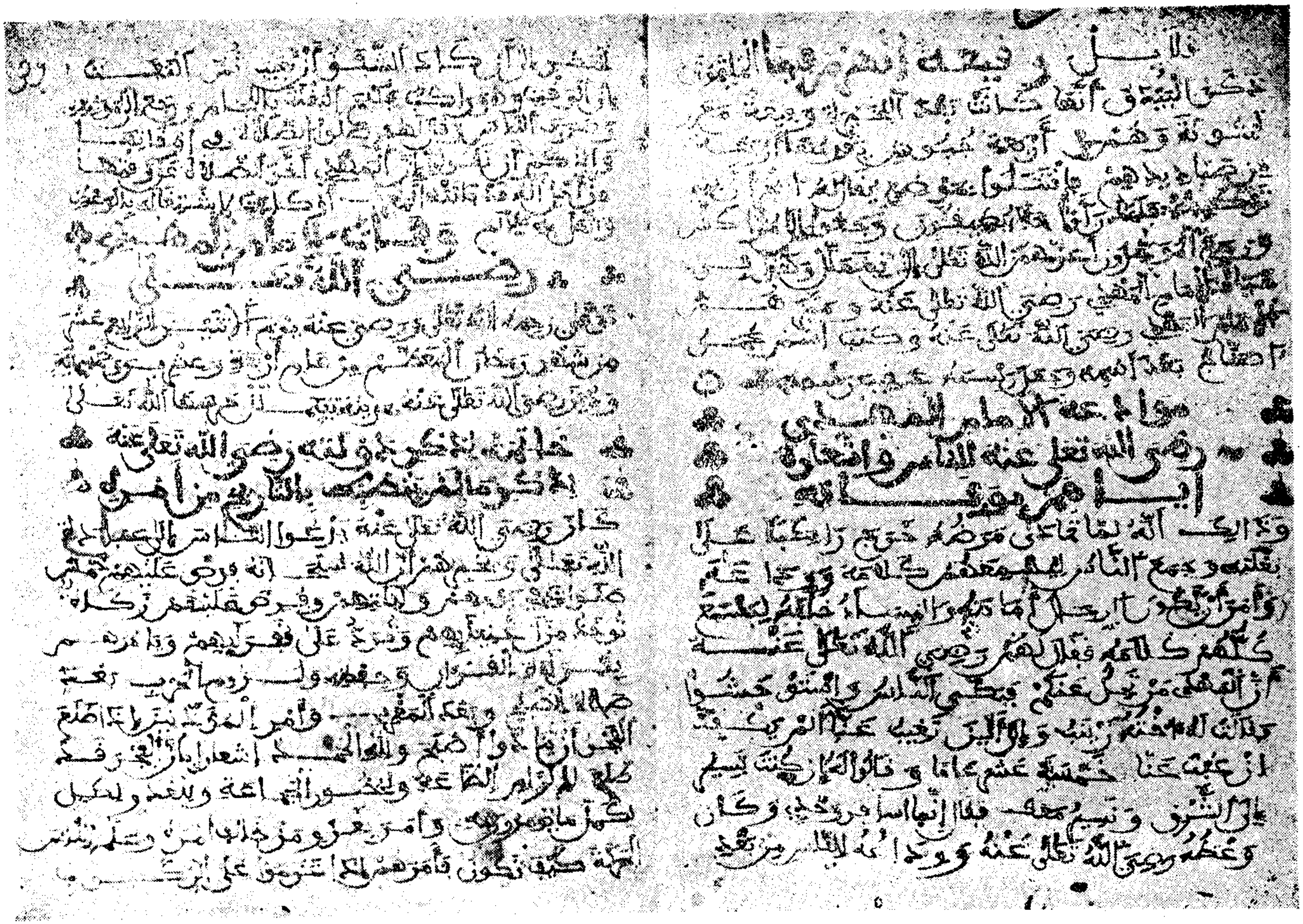

صفحتان من مخطوط كتاب « نظم الجمان » لابن القطان المحفوظ بمعهد الدراسات الإسلامية بمدريد .

# تمـــهيد

## الأوضاع العامة لشبه الجزيرة الأندلسية
## فى عصر المرابطين والموحدين

كانت موقعة الزلاّقة ( ٤٧٩ هـ – ١٠٨٦م ) ، موقعة الحسم ، فى مصاير اسبانيا المسلمة ، سواء إزاء اسبانيا النصرانية ، أو إزاء المرابطين. فقد انقشع الخطر الداهم الذى كان يهددها بالفناء العاجل ، مذ سقطت طليطلة حصن الأندلس من الشمال فى أيدى النصارى ، وقد كتبت لها حياة جديدة . ولكن الزلاّقة ، كانت من جهة أخرى نذيرا بأعظم تحول وقع فى مصايرها منذ الفتح ، ذلك أن المرابطين الذين قدموا إليها إخواناً فى الدين ، وأصدقاء مجاهدين منجدين ، انقلبوا عقب الزلاّقة إلى أعداء فاتحين . وما كاد الموقف يتضح لعاهل المرابطين يوسف ابن تاشفين عقب النصر ، وتبدو له دول الطوائف الأندلسية على حقيقتها ، دويلات متخاذلة متنابذة ، يسودها الإنحلال ، ويقضم أسسها الترف والخور ، حتى قرر أمره تجاه أمراء الطوائف . وسواء أكان هذا القرار قد أملته شهوة الفتح ، ورغبة الاستيلاء على هذه البلاد الخضراء الغنية الساحرة ، أم كان بقصد حمايتها من النصارى ، والتحوط بذلك لسلامة المغرب ، بصون جناحه الدفاعى من الشمال – الأندلس – فقد نفذ عاهل المرابطين قراره ، واستولت جيوشه تباعاً على دول الطوائف ، فى فترة لاتتجاوز عشرين عاما ، فيما بين سنتى ٤٨٣ و٥٠٢ هـ ( ١٠٩٠ – ١١٠٩ م ) ، وذلك حسبما فصلناه من قبل فى كتابنا « دول الطوائف » .

وأضحت الأندلس من ذلك الحين ولاية مغربية ، تخضع لحكومة مرّاكش ، وتحكمها القبائل البربرية المغربية ، بعد أن كان المغرب قبل ذلك بنحو قرن فقط ، ولاية أندلسية تخضع لخلافة قرطبة الأموية . ونحن نعرف أن البربر قد اضطلعوا فى فتح الأندلس بأعظم قسط ، ولكنهم لم ينالوا نصيبهم الحق ، فى حكم هذه البلاد الجديدة ، وغلب سلطان العرب سادة البربر عند الفتح . وعلى الرغم من أن البربر كانت لهم ما بين آونة وأخرى ، فى ظل الدولة الأموية ، بعض

الحظوة ، وكان لهم فى ظل الدولة العامرية قسط بارز من النفوذ والسلطان ، وعلى الرغم من أنهم نالوا قسطهم من أسلاب الخلافة ، وقامت لهم فى عهد الطوائف عدة من الدول القوية ، بلغت فى ظل بنى حمّود مرتبة الخلافة ، فإنهم فى ظل المرابطين ، يبسطون لأول مرة سلطانهم كاملا على الأندلس ، ويستأثرون فيها بالحكم والسيادة ، وتختفى خلال ذلك رياسة الأسر والزعامات الأندلسية . أجل إن عهد المرابطين بالأندلس لم يكن طويل الأمد . ذلك أنه لم يدم أكثر من زهاء نصف قرن . ولكن سلطان البربر على الأندلس يمتد بعد انتهاء الدولة المرابطية ، على يد وريثتها الدولة الموحدية ، أكثر من قرن آخر . وفى وسع المؤرخ أن يلاحظ ما بين هذين العهدين ، من أوجه التماثل التى تجمع بينهما ، وأن يلاحظ فى نفس الوقت أوجه الخلاف والتناقض التى تباعد بينهما ، وتسبغ على كل منهما خواصه ومميزاته .

إن المرابطين والموحدين ، ينتمى كلاهما إلى طائفة من تلك القبائل البربرية ، التى أخذت على كر العصور فى حكم المغرب وسيادته بأوفر نصيب ، فالمرابطون ينتمون بالأخص إلى لمتونة وكدالة ومسّوفة ، وينتمى الموحدون بالأخص إلى هرغة ومصمودة وهنتاتة وكومية . وقد نشأت كلتا الدولتين ، المرابطية والموحدية ، فى ظروف متشابهة ، كأنما رسمت لكل منهما على نسق واحد ، فكلتاهما قامت على أسس دينية ، وعلى يد فقيه وداعية متعصب ؛ فكان داعية الدولة المرابطية ، الفقيه عبدالله بن ياسين ، وكان داعية الدولة الموحدية ، المهدى محمد بن تومرت ، وتحولت كلتاهما إلى ملك سياسى على يد زعيم موهوب وقائد بارع ، فكان زعيم الدولة المرابطية الذى وطد دعائمها ، وشاد ملكها السياسى ، يوسف بن تاشفين ، وكان قرينه عبد المؤمن بن على ، هو الذى وضع أسس الدولة الموحدية ، ووطد دعائمها . واستطاعت الدولة الموحدية ، بعد أن قضت على الدولة المرابطية ، أن تسيطر على نفس الرقعة الإقليمية الشاسعة ، التى كانت تحتلها ، سواء فى المغرب أو الأندلس ، وإن كانت الأندلس لم تخلص للموحدين إلا بعد فترة من الصراع المحلى ، ولاسيما ضد الثورة فى شرقى الأندلس .

وفضلا عن ذلك ، فقد كانت تجمع بين الدولتين ، بالنسبة للأندلس ، إذا أغضينا عن العوامل الإقليمية والسياسية ، التى كانت تحرك هاتين الدولتين ، إلى بسط سيادتهما على هذا الإقليم الغنى الساحر — كانت تجمع بينهما فكرة الجهاد ،

وحماية الأندلس ، من عدوان الممالك الإسبانية النصرانية . وهنا تبدو وجوه الخلاف بين الدولتين . ذلك أنه بالرغم من وحدة الغاية ، فقد كان المرابطون يضطرمون بروح جهاد قوية خالصة ، وقد استطاعوا فى ظل هذا الروح الدافع أن يصدوا عن الأندلس عدوان اسبانيا النصرانية ، وأن يحرزوا بعد الزلاّقة النصر فى عدة مواقع مماثلة ، حاسمة فى صدع قوى اسبانيا النصرانية . وإذا استثنينا موقف المرابطين من سقوط سرقسطة ، وهو السقطة العسكرية المرابطية البارزة خلال هذا الكفاح ، فإن الصراع الذى اضطلع به المرابطون ضد الممالك الإسبانية النصرانية ، كان صراعاً قوياً وناجحاً ، وقد أحرز المرابطون خلاله ضد النصارى عدة من الانتصارات الباهرة ، ولاسيما فى أقليش (سنة ٥٠١ هـ — ١١٠٨م ) ، وفى إفراغة ( ٥٢٨ هـ — ١١٣٤ م ) . وقد استطاع المرابطون على وجه العموم حتى أواخر عهدهم ، الذى استطال بالأندلس زهاء خمسين عاما ، أن يحافظوا على رقعة الوطن الأندلسى ، ولم يصدع من كفاحهم ضد النصارى ، سوى قيام الثورة عليهم فى مختلف القواعد ، عند ظهور الموحدين وعبورهم إلى الأندلس .

أما الموحدون فبالرغم من أنه كانت تحدوهم مثل الروح ، التى كانت تحدو المرابطين ، فى محاربة اسبانيا النصرانية ، والذود عن الأندلس ، فإنهم لم يحرزوا مثلما أحرز المرابطون من التوفيق فى هذا الكفاح . وقد بذل الموحدون بالفعل جهوداً فادحة فى سبيل الاضطلاع بحركة الجهاد بالأندلس ، وصد عدوان اسبانيا النصرانية عنها ، وقد عبرت جيوشهم الجرارة مراراً إلى شبه الجزيرة ، مزودة بكميات هائلة من العتاد والسلاح ، ولكنهم وهم فى إبان قوتهم ، لم يحرزوا توفيقاً فى حملاتهم الغازية ضد النصارى ، فتحطمت حملة الخليفة أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ضد القشتاليين ، تحت أسوار وبذة ( ٥٦٧ هـ —١١٧٢م ) ، وتحطمت حملته الثانية ضد البرتغاليين تحت أسوار شنترين ( ٥٨٠هـ — ١١٨٤ م ) ، ومنيت الجيوش الموحدية بهزيمة فادحة ، وهلك الخليفة نفسه فى الموقعة . ويرجع هذا الفشل إلى عدة أسباب ، منها اختلال نظام الجيوش الموحدية ، وضعف قيادتها ، واختلال وسائل تموينها ، كما يرجع إلى اشتداد ساعد مملكة البرتغال ، واستغراقها معظم جهود الموحدين ، فى ولاية الغرب الأندلسية ؛ ولم تبرز الجيوش الموحدية فى جهادها ضد النصارى إلا فى معركة الأرك العظيمة ، التى أحرز فيها الخليفة يعقوب المنصور ، انتصاره الباهر على القشتاليين ، فى شهر رجب سنة ٥٩١ هـ

( يوليه سنة ١١٩٥م ) . على أن هذا النصر العظيم ، لم يلبث أن محت آثاره موقعة العِقاب المشئومة ، التى أحرز فيها القشتاليون نصرهم الساحق على الجيوش الموحدية بقيادة الخليفة محمد الناصر ولد المنصور ، وذلك فى صفر سنة٦٠٩ هـ ( يونيه سنة ١٢١٢م )، والتى كانت ضربة قاضية ، لقوى الموحدين بالأندلس والمغرب ، ولم يمض على وقوعها سوى أعوام قلائل حتى انهار سلطان الموحدين بالأندلس ، وأخذت قواعد الأندلس الكبرى تسقط تباعاً فى أيدى النصارى فى وابل من المحن المؤلمة .

كانت قصة الجهاد فى سبيل الله ، وقصة حماية الأندلس من عدوان النصارى ، تجثم وراء هذه المعركة الطويلة المستمرة بين المرابطين والموحدين من ناحية ، وبين اسبانيا النصرانية من ناحية أخرى ، وكان المرابطون والموحدون ، تحملهم فى هذا الصراع المستمر ضد اسبانيا النصرانية ، فضلا عن غريزة الاحتفاظ بالنفس ، نزعة لا شك فيها من الجهاد الإسلامى ، والذود عن معاقل الإسلام وتراثه فى « جزيرة الأندلس » . وهم قد عبروا البحر أول ما عبروا إلى الأندلس ، تدفعهم تلك النزعة النبيلة ، ولم تخمد نزعة الجهاد فى صدورهم طوال الوقت الذى كانت تضطرم فيه المعارك باستمرار ، بينهم وبين اسبانيا النصرانية ، وكثيراً ما غزت الجيوش المرابطية والموحدية ، أراضى اسبانيا النصرانية من تلقاء نفسها ، طلباً للجهاد ليس غير ، وقد عبر الخلفاء الموحدون إلى الأندلس فى جيوشهم الجرارة مراراً ، لمتابعة هذا الجهاد ، الذى كان شعارهم دائماً فى محاربة النصارى فى شبه الجزيرة الإسبانية .

* * *

ولقد كان من الطبيعى أن تنشب بين المرابطين والموحدين ، وهم سادة الأندلس الجدد ، وبين زعماء الأندلس المحليين معركة السلطان والملك . ولقد كانت هذه المعركة التى تغذيها عوامل مختلفة ، هى محنة الأندلس الحقيقية ، وكانت تتجدد من خلالها صور المعارك الانتحارية ، التى أثخنت الأندلس أيام الطوائف بجراحها الدامية . على أنه مهما كانت بواعث الأسف والأسى ، التى تقترن بمثل هذه المعارك ، ومهما كان لنا أن نستنكرها وأن نحكم عليها ، فإنه يصعب على المؤرخ ، أولا أن يحدد المسئولية فى شأنها أو أن يلقى تبعتها على فريق بعينه ، وثانيا أن يتجاهل العوامل القومية والوطنية ، التى كانت من ورائها . وهى فى ذلك تفترق عن معارك

الطوائف ، التى لم تكن تحدوها سوى الأطماع والأهواء الشخصية الوضيعة .

ومما يلاحظ أن الثورة على سلطان المرابطين فى الأندلس ، لم تضطرم إلا فى أواخر عهدهم فى شبه الجزيرة ، فى نفس الوقت الذى اضطرم فيه المغرب بثورة الموحدين الخارقة ، وتضعضع سلطان المرابطين فى عقر دولتهم ، وتعذر عليهم إرسال الإمداد إلى ما وراء البحر . على أن هذه الثورة كانت فى الواقع أقدم عهداً وأعمق جذوراً ، إذ هى ترجع إلى عهد الفتح المرابطى ذاته . وكانت الأندلس ، حينما اشتدت عليها وطأة اسبانيا النصرانية ، وعجزت دول الطوائف الضعيفة المتنابذة ، عن رد عدوانها ، وجاء سقوط طليطلة نذيراً بالخطر الداهم ، قد استقبلت المرابطين إخوانا فى الدين منجدين منقذين ، وأكد نصر الزلاّقة الباهر ومن بعده جواز يوسف بن تاسفين الثانى لنصرة الطوائف فى حصار حصن لييط (أليدو) ( ٤٨١ هـ — ١٠٨٨ م ) هذا الاعتبار وهذا المعنى . على أن فكرة الاستنصار بالمرابطين لم تكن دون توجس ، ودون تخوف من العواقب . وقد ذكرنا فيما تقدم من كتابنا « دول الطوائف » كيف عارض المعتمد بن عباد ولده الرشيد ، فى فكرة الاستنصار بالمرابطين ، وحذره من مقدمهم بقوله : « ياأبت أتدخل علينا فى أندلسنا من يسلبنا ملكنا ، ويبدد شملنا » وكيف أنه كان ثمة بين أمراء الطوائف ، ورجالات الأندلس ، من لم ترقه هذه الفكرة ، توجساً من عواقبها[١] .

وقد تحققت هذه المخاوف ، وانهار ذلك المعنى النبيل الذى بثه نصر الزلاّقة لأمد قصير ، وانقلب المنقذون إلى فاتحين ، واستولى المرابطون على دول الطوائف واحدة بعد أخرى ، واقترن هذا الفتح فى بعض الأحيان بكثير من العنف ، والقسوة ، وسقط عدد من أمراء الطوائف مدافعين عن أنفسهم وملكهم . وكان لهذا التحول بلاريب أعظم صدى فى جنبات الأندلس ، وأعمق أثر فى نفوس الأمة الأندلسية . ومن جهة أخرى فإن أساليب الحكام والقادة المرابطين ، فى حكم هذا القطر الجديد ، لم تكن لينة ولا رفيقة ، وذلك بالرغم مما كان يحدوها ويوجهها فى معظم الأحيان من جانب أمير المسلمين ، من النيات الطيبة والنصائح المثالية لعماله وقادته ، باتباع العدل ، والرفق بالرعية ، وكانت أساليب هؤلاء

---

(١) راجع كتاب دول الطوائف ، ص ٧٨ ، والحلل الموشية ص٢٧ و٢٨ ، وأعمال الأعلام لابن الخطيب (طبع بيروت) ص ٢٤٥ ، وكتاب التبيان للأمير عبد الله بن بلقين ص ١٠٣ و ١٠٤ .

الحكام والقادة ، ومعظمهم من أقارب أمير المسلمين وأصهاره ، تجافى بعنفها وخشونتها ما جبلت عليه الأمة الأندلسية المتحضرة المترفة ، من الأساليب المهذبة الرقيقة . ومن ثم فإنه لايدهشنا أنه لم يمض سوى خمسة عشر عاما فقط ، على وفاة عاهل المرابطين يوسف بن تاشفين ، حتى اضطرمت الثورة فى قرطبة حاضرة الأندلس يومئذ ، ضد المرابطين فى سنة ٥١٥ هـ ( ١١٢١ م ) ، فى أوائل عهد على بن يوسف ، وذلك وفقاً لقول الثوار « ذبا عن الحُرَم والدماء والأموال »[١]. ولم تكن هذه الفورات وأمثالها ، فى البداية سوى محاولات للتنفس من حكم المرابطين المتزمت المرهق . ولم تقو الفكرة الوطنية الأندلسية وتتبلور إلا فيما بعد ، فى أواخر عهد المرابطين ، حينما اضطرمت الأندلس كلها ، من شرقها إلى غربها ، بالثورة ضدهم ، وقام أحمد بن قسيّ فى غرب الأندلس ، فى ميرتلة وشلب وباجة سنة ٥٣٩ هـ ( ١١٤٤ م ) ، وقام فى نفس العام أبو جعفر ابن حمدين فى قرطبة ، وأبو الحسن على ابن أضحى فى غرناطة . وفى نفس الوقت انهار سلطان المرابطين تباعا فى شرق الأندلس ، وقام القاضى ابن عبد العزيز أولا فى بلنسية ، ومرسية . ثم نهض ابن عياض فغلب عليهما بعد طائفة من الأحداث والانقلابات المتوالية ، ودعا بالرياسة لسيف الدولة ابن هود . وتقلد ابن هود الرياسة الإسمية ، وهو فى تقلده إياها ، يمثل الفكرة القومية الأندلسية ، ولما قتل ابن هود فى موقعة البسيط ، التى نشبت بين قوات بلنسية وابن هود ، وبين القشتاليين وذلك فى سنة ٥٤٠ هـ ( ١١٤٦ م ) دعا ابن عياض لنفسه ، وغلب على شرقى الأندلس كله ، إلى أن لقى مصرعه فى معركة نشبت بينه وبين القشتاليين فى سنة ٥٤٢ هـ ( ١١٤٧ م ) . وعندئذ خلفه فى الرياسة نائبه وصهره محمد بن سعد بن مردنيش ، وسرعان ما اشتد ساعده ، وبسط سلطانه القوى على سائر القواعد الشرقية من بلنسية حتى قرطاجنّة . وكان ابن مردنيش يمثل الفكرة القومية الأندلسية فى أعمق صورها ، وقد شهر علم النضال ضد الموحدين أعواما طويلة ، حتى تبددت قواه ، ثم خبت فورته بوفاته ، وذلك كله حسبما نفصل بعد فى مواضعه . وكان سلطان المرابطين قد انهار نهائياً فى شرقى الأندلس ، قبل ثورة ابن مردنيش بعدة أعوام ، وإن كان بفضل الجهود العنيفة التى بذلها قائد المرابطين القوى ابن غانية ، قد لبث فى بعض القواعد الوسطى والغربية لفترة قصيرة أخرى .

---

( ١ ) الحلل الموشية ص ٦٣ .

كانت هذه الفورات المتعاقبة التى اضطرمت ضد المرابطين فى مختلف القواعد الأندلسية ، فى تلك الفترة العصيبة من أيامهم ، تتسم بالرغم من اتخاذها فى بعض نواحيها صورة الحرب الأهلية ، بالطابع الوطنى ، وتمثل بوضوح فكرة تحرير الأندلس من النير المرابطى . ولم يكن أولئك الزعماء الخوارج ، يحجمون فى سبيل تحقيق غاياتهم ، أو فى سبيل التطاحن فيما بينهم ، عن الإستعانة بالنصارى ، وهى وسيلة شائنة ، خطرة فى نفس الوقت ، تتحطم لديها سائر الاعتبارات الوطنية والدينية . بيد أنه يجب أن نذكر أنها نفس الوسيلة اليائسة التى لجأ إليها أمراء الطوائف ، حينما استشفوا نية عاهل المرابطين فى القضاء عليهم ، فلم يحجموا عن الالتجاء إلى ملك قشتالة ، ألفونسو السادس ، أخطر أعدائهم ، والمنتزع لقواعدهم وأراضيهم ، والتحالف معه على رد الجيوش المرابطية . وكان الملوك النصارى يسارعون بتلبية أمثال هذه الدعوات ، ليس فقط انتهازاً لما تقدمه إليهم من فرص الضرب والتفريق بين الأمراء المسلمين ، واستنزاف قواهم ، وانتزاع ما يمكن انتزاعه منهم من الأموال والأراضى ، ولكن كذلك شعوراً منهم بالخطر المشترك ، الذى يهدد الوطن المشترك — شبه الجزيرة الإسبانية — من جراء تغلب القبائل البربرية المرابطية عليه ، واستقرارها فيه ، وقد تمثلت هذه الظاهرة فيما بعد أيام الموحدين ، أصدق تمثيل ، فى ثورة محمد بن سعد بن مردنيش ، وفى تحالفه المستمر الوثيق مع الملوك النصارى ، ضد الموحدين .

* * *

ونستطيع أن نقول إنه منذ انهارت ثورة ابن مردنيش فى شرق الأندلس بوفاته فى سنة ٥٦٧ هـ ( ١١٧٢م ) ، واستولى الموحدون على مملكة مرسية ، خلُصت الأندلس كلها لطاعة الموحدين ، وغاضت النزعة القومية الأندلسية ، واستسلمت الأندلس لحكم سادتها من وراء البحر ، واستطاع الموحدون أن يوطدوا سلطانهم فى الجزيرة مدى نصف قرن آخر ، وسطع البلاط الموحدى فى إشبيلية ، التى جعل الموحدون منها حاضرة الأندلس ، وخصوها بمنتهى الرعاية ، وعملوا على تحصينها ، وتجميلها بطائفة من الصروح الفخمة ، وقامت منشآتهم العمرانية العظيمة بإشبيلية ، وغيرها من قواعد الأندلس ، من قصور ومساجد وحصون وقناطر وأسوار ، تشيد بهمتهم وقوة سلطانهم ، وفخامة دولتهم . والتف حول البلاط الموحدى سواء بإشبيلية أوالمغرب ، أعلام الأندلس من كل

ضرب ، من فقهاء وعلماء وكتاب وشعراء ، وحشد الخلفاء الموحدون إلى جانبهم أقطاب البيان والتفكير الأندلسيين ، واتخذوا منهم وزراء وكتابا وأطباء ، وخدم علماء وفلاسفة عظام ، مثل ابن طُفيل ، وابن زهر ، وابن رشد ، فى بلاط الخليفة الموحدى .

وهكذا استقام الأمر بالأندلس فى ظل الحكم الموحدى مدى نصف قرن آخر ، وشغل الموحدون داخل إمبراطوريتهم العظمية بالمغرب ، بتوطيد سلطانهم ، وقمع نزعات العصيان المحلية ، وشغلوا بالأخص بمكافحة بنى غانية ، والقضاء على ثورتهم وحركاتهم المخربة بإفريقية ، وهى ثورة اقتضت منهم أفدح الجهود ، وكادت فى بعض الأحيان أن تقضى على سلطانهم فى إفريقية . ثم كان عهد الخليفة الناصر ابن المنصور ، وكانت حملته المشئومة إلى الأندلس ، وكانت نكبة العقاب الساحقة ( ٦٠٩ هـ ) ، وماترتب عليها من انهيار سلطان الموحدين فى شبه الجزيرة ؛ عندئذ تغيرت الأمور ، وتجهمت الحوادث ، ولم يقتصر الأمر عندئذ على استطالة الممالك النصرانية ، وضغطها على مختلف نواحى الأندلس ، وتحفزها لافتتاح قواعدها الكبرى ، ولكن حدث فى نفس الوقت أن أخذت بوادر الثورة تتحرك داخل الأندلس ، تغذيها العوامل القومية القديمة ، ضد حكم وهنت دعائمه . وكان موطن هذه الثورة الجديدة ، شرقى الأندلس ، وكان على رأسها زعيمان ينتمى كلاهما إلى بيت من البيوت الثائرة القديمة ، أولهما زيان بن مردنيش ، والثانى أبو عبدالله محمد بن يوسف بن هود ؛ وبينما انحصرت حركة زيان ببلنسية ، إذا بدعوة ابن هود تجتاح مرسية وألمرية وغرناطة ومالقة ، وكانت حركة ابن هود تمثل فكرة الأندلس القومية أصدق تمثيل ، وترمى إلى تحرير الأندلس من نير الموحدين ، والنصارى معا ، ولكن موارده وقواته ، لم تكن تسمح له بأن يضطلع بمثل تلك المهمة الفادحة . ومن جهة أخرى ، فقد نهض النصارى لانتهاز الفرصة السانحة ، وانتزاع قواعد الأندلس الكبرى ، خلال تلك الغمار المضطرمة ، فقام ألفونسو التاسع ملك ليون بانتزاع قواعدها الغربية ، ماردة وبطليوس وغيرها ( ٦٢٧ هـ ) ثم قام فرناندو الثالث بانتزاع قرطبة عاصمة الخلافة القديمة ( شوال سنة ٦٣٣ هـ — يونيه ١٢٣٦ م ) — وذلك فى الوقت الذى تخلى فيه ابن هود عن إنجادها ، وشغل بالعمل لتوطيد سلطانه فى جنوبى الأندلس . وكان لسقوط قرطبة أعمق وقع فى تلك الأندلس المفككة المنهوكة القوى ، ولكنه كان أمراً محتوماً لاسبيل إلى اتقائه .

ولم يمض قليل على ذلك ، حتى توفى ابن هود فى أوائل سنة ٦٣٥ هـ ، وهو فى إبان قوته وطموحه ، وانهارت بوفاته أمانى ومشاريع كثيرة ؛ وفى العام التالى استطاع خايمى الأول أو الفاتح ملك أراجون ، أن يستولى على بلنسية عاصمة الشرق ( صفر سنة ٦٣٦هـ — سبتمبر ١٢٣٨م ) وكان قد استولى قبل ذلك فى سنة ٦٢٨ هـ على الجزائر الشرقية . وفى الوقت الذى أخذ يتوالى فيه سقوط القواعد الشرقية والوسطى ، فى أيدى النصارى ، كان محمد بن الأحمر من جانبه ، يعمل بكل ما وسع لبسط سلطانه على القواعد الجنوبية . وهكذا أضحت الأندلس مرة أخرى مسرحاً لغمار متوالية من الحوادث والفتن التى تمزق أوصالها ، وتجعلها فريسة هينة لعدوها الخالد — إسبانيا النصرانية — ينتزع قواعدها وأراضيها تباعا ، ولا تجد وسيلة ناجعة لدفع هذا العدوان الجارف ، بعد أن انهار سلطان الموحدين وقواهم بالأندلس ، وبعد أن فقدت الأندلس منعتها ومواردها العسكرية القديمة ، فى ظل حكم الدولة الغالبة .

ولم تفق الأندلس من تلك المحنة الطاحنة ، إلا وقد فقدت قواعدها الكبرى شرقا وغرباً — قرطبة ، وبلنسية ، ومرسية ، وشاطبة ، ودانيه ، وجيان ، وإشبيلية وبطليوس ، وماردة ، وشلب ، وغيرها وغيرها — وأضحت أنقاضاً متناثرة ، تجتمع أشلاؤها الدامية فى الجنوب ، فيما وراء نهر الوادى الكبير ، ولاح من خلال ذلك كله ، أن ساعة الأندلس الأخيرة قد دنت ، وأنه لم يبق على اسبانيا النصرانية إلا أن تجتنى بقية تراثها الممزق ، وأن تختتم هذه السلسلة من معارك « الإسترداد » "La Reconquista" العظيمة بضربة أخيرة ، تكون هى القاضية على حياة اسبانيا المسلمة ، لولا أن شاء القدر أن تلتئم هذه الأنقاض المتناثرة من تراث الأندلس الكبرى ، وأن تبعث من بينها قوة فتية جديدة ، تتمثل فى قيام مملكة غرناطة ، آخر دول الإسلام فى الأندلس .

تلك هى الخطوط العريضة لصورة العصر ، الذى نحاول أن نضطلع باستعراض أحداثه ، وشرح ظروفه وخواصه ، — عصر المرابطين والموحدين .

# الكتاب الأول

# الدولة المرابطية في أوج سلطانها

# الفصل الأول

## يوسف بن تاشفين

### خواص إمارته ولامع خلاله

يوسف بن تاشفين وبداية زعامته . أبو بكر بن عمر اللمتونى . المرابطون ينشرون الإسلام فى غانة ومالى . يوسف يتسمى بأمير المسلمين . ظروف تسميته بهذا اللقب . اعترافه بطاعة الخليفة العباسى . رواية ابن خلدون . مايؤيد هذه الرواية . رواية ابن العربى عن رحلته . فتوى الإمام الغزالى عن موقف أمراء الطوائف وعن حق يوسف فى استصدار المرسوم الخلافى . كتاب الإمام الغزالى ليوسف . كتاب أبى بكر الطرطوشى . اختيار يوسف لولده على لولاية العهد . المرسوم الصادر بذلك . كتاب البيعة والتولية . خلال يوسف ومناقبه . بساطته المؤثرة . براعته العسكرية . عدله وإيثاره للفقهاء . موقفه من الضرائب والمكوس . سيادة الأمن والرخاء فى عهده . وزيره عبد الرحمن بن أسباط . كاتبه ابن القصيرة . مرض يوسف ووفاته . تحقيقه لوحدة المغرب والأندلس . الدولة المرابطية الكبرى .

— ١ —

كان مما اقتضاه سياق الكلام عن تاريخ دول الطوائف ، أن نتحدث عن نشأة الدولة المرابطية وقيامها فى المغرب ، والتجاء أمراء الطوائف ، حينما لاح خطر اسبانيا النصرانية قوياً على الأراضى والقواعد الإسلامية فى شبه الجزيرة ، وحينما جاء سقوط طليطلة فى شهر صفر سنة ٤٧٨ هـ ( مايو سنة ١٠٨٥م ) نذيراً بتفاقم هذا الخطر ، — التجاؤهم إلى إخوانهم فيما وراء البحر ، إلى المرابطين ، يطلبون منهم الإنجاد والغوث ، ثم عن عبور بطل المرابطين يوسف بن تاشفين فى جيوشه الجرارة المتوثبة إلى الأندلس ، وخوض الجيوش الإسلامية المتحدة — المرابطية والأندلسية — لمعركة الزلاّقة ضد الجيوش النصرانية المتحدة ، فى رجب سنة ٤٧٩ هـ ( أكتوبر سنة ١٠٨٦ م ) ، وإحرازها لانتصارها الباهر الذى قمع عدوان اسبانيا النصرانية إلى حين ، وأخيراً عن انقلاب المرابطين من منقذين إلى فاتحين ، واستيلائهم على إمارات الطوائف تباعا ، وضم الأندلس إلى الدولة المرابطية الكبرى .

وقد تتبعنا خلال ذلك كله حياة زعيم المرابطين يوسف بن تاشفين ، منذ

نشأته ، حتى فوزه بإنشاء الدولة المرابطية فى المغرب ، وماتلا ذلك من عبوره إلى شبه الجزيرة غير مرة ، وفوزه بملك الأندلس ، ثم وفاته فى مستهل شهر المحرم سنة ٥٠٠ هـ ( ٢ سبتمبر سنة ١١٠٦ م ) بعد حياة حافلة بعظائم الحوادث ، وجلائل الأعمال .

ولسنا نجد بعد أن استعرضنا ذلك كله ، بتفاصيله الشاملة فى كتابنا « دول الطوائف » ، مجالا لتكرار الكلام فى هذه الموضوعات. بيد أنه لايسعنا ، ونحن نزمع الكلام هنا عن عصر المرابطين فى المغرب والأندلس ، إلا أن نرتد بأبصارنا إلى بعض إلى ما تقدم من المواطن ، وأن نستزيدها فيما أوجزنا فيه منها ، حتى ينتظم السياق ، وتكمل وحدة الموضوع .

وأول ما يعرض لنا فى ذلك ، هو العود إلى بعض مواطن ، فى حياة البطل المغربى العظيم ، يوسف بن تاشفين زعيم المرابطين ، ونبدأ فى ذلك بصفته وألقابه الملوكية ، وهو ما تناولناه فيما تقدم بطريقة عابرة .

كانت رياسة المرابطين الزمنية ، حينما أنشأ الفقيه عبد الله بن ياسين الجزولى ، طائفة المرابطين فى أول أمرها ، لزميله وصديقه يحيى بن إبراهيم الكدالى ، ولما توفى هذا الرئيس ندب عبد الله بن ياسين مكانه للرياسة الأمير يحيى بن عمر بن تلاكاكين اللمتونى ليتولى شئون الحرب والجهاد . وكانت هذه أول مرحلة فى رياسة لمتونة الزمنية لطائفة المرابطين . ولما توفى الأمير يحيى فى سنة ٤٤٧ هـ ، عين مكانه للقيادة أخوه أبو بكر بن عمر . ولما وضع المرابطون خططهم لافتتاح بلاد السوس فى سنة ٤٤٨هـ ، ندب الأمير أبو بكر ابن عمه يوسف بن تاشفين ليكون قائداً لمقدمة الجيش المرابطى . وهذه هى أول مناسبة تاريخية ، يذكر فيها اسم البطل المرابطى ، ولم يكن له يومئذ من الرياسة ، سوى صفة القيادة لجناح من أجنحة الجيش المرابطى . وهنا ظهرت براعته العسكرية ، فيما اضطلع به المرابطون يومئذ من الفتوحات المتوالية فى أنحاء المغرب ، وهى التى فصلنا أطوارها فيما تقدم . ولما توفى عبد الله بن ياسين قتيلا فى بعض المعارك التى نشبت فى أراضى برغواطة فى سنة ٤٥١هـ ( ١٠٥٩ م ) ، استأثر الأمير أبو بكر اللمتونى بزعامة المرابطين الروحية والزمنية معاً ، وتحققت بذلك رياسة لمتونة ، وبدأت الدولة المرابطية اللمتونية ، وقوام سلطانها ، ما تم يومئذ من فتوح المغرب .

ولما وقع الخلاف بين لمتونة ومسّوفة وغيرها من القبائل المرابطية ، فى بلاد القبلة قاعدتهم بالصحراء ، واعتزم أبو بكر أن يسير بنفسه لتلافى الأمر ، عهد بشئون المغرب إلى ابن عمه يوسف بن تاشفين ( ٤٥٣ هـ ) ، وقسمت الجيوش المرابطية عندئذ إلى قسمين ، تولى يوسف إمرة أحدهما ليتم به إخضاع المغرب . وسار أبو بكر إلى الصحراء فى القسم الآخر . وقد أشرنا من قبل إلى خاتمة أبى بكر ، وكيف أنه حينما عاد بعد إتمام مهمته فى الصحراء إلى المغرب ولقى يوسف ( سنة ٤٦٥ هـ ) ، ورأى من عظمة سلطانه وقوته ، ما أدرك معه أن كل أمل قد غاض فى استرداد إمارته على المغرب ، قد ارتد ثانية إلى الصحراء ، وهنالك اخترق مشارف الصحراء الكبرى ، ودخل منطقة النيجر الوسطى ، ولبث حينا يقوم بغزوات متوالية فى قلب مملكة السودان ، وعاصمتها يومئذ مدينة غانة ، وفى مملكة مالى ، وهو يعمل على نشر الإسلام بين تلك القبائل السود ، التى كانت يومئذ تدين بالنصرانية ، والتى تضع الرواية تاريخ إسلامها فى سنة ٤٦٩ هـ ( ١٠٧٦ م )[١] . واستمر يتابع الجهاد والغزو حتى توفى قتيلا فى بعض المعارك فى سنة ٤٨٠ هـ ( ١٠٨٧ م ) . أما يوسف فقد عنى من جانبه بإتمام فتوح المغرب واستطاع أن يخضع معظم نواحيه ، وأنشأ مدينة مرّاكُش ( ٤٦٢ هـ — ١٠٦٩م ) لتكون قاعدة لملكه ، وعاصمة للأقطار المغربية المترامية التى تم له افتتاحها[٢] .

وهنا يتشح يوسف بن تاشفين بثوب الملك السياسى والإمارة الفعلية . وقد كان مذ ندب لقيادة الجيش المرابطى ، وتوالت على يديه فتوح المغرب ، يتشح بثوب الرياسة والإمارة القَبَلى . وهنا تختلف الرواية فى أصل ألقابه الملوكية ، وأوضاعها . والتاريخ يعرف يوسف بن تاشفين « بأمير المسلمين ، وناصر الدين» . فمتى كان اتخاذه لهذا اللقب ؟ وفى أى ظروف وقع ذلك ؟

---

( ١ ) الحلل الموشية ( طبع تونس ) ص ٧

( ٢ ) هذا هو التاريخ الذى يضعه ابن عذارى لإنشاء مراكش فى البيان المغرب ( من أوراق مخطوطة وجدت بمكتبة جامع القرويين بفاس ، ونشرت أخيراً بعناية الأستاذ هويثى ميرانده فى مجلة **Hespéris** عدد سنة ١٩٦١ ص٥٥) . ويتابعه صاحب الحلل الموشية فيضع تأسيسها فى نفس التاريخ (الحلل الموشية ص ٦ ) . ويضع الشريف الإدريسى تاريخ إنشاء مراكش فى سنة ٤٧٠ هـ ( راجع المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس المنشور بعناية دوزى ص٦٧ ) . ويضع صاحب كتاب « الاستبصار » تاريخ إنشائها فى سنة ٤٥٩هـ ( ص٢٠٨ ) . ويضع صاحب روض القرطاس تاريخ إنشائها فى سنة ٤٥٤ هـ ، ( طبعة تورنبرج ص ٨٩ ) ، ويتابعه فى ذلك ابن خلدون ( كتاب العبر ج ٦ ص ١٨٤ ) .

هنالك روايتان فى ذلك . الأولى خلاصتها أن يوسف بن تاشفين لما كثرت فتوحه ، وترامت أطراف مملكته ، وكان يقتصر عندئذ على التسمى « بالأمير » اجتمعت إليه أشياخ لمتونة ، وأعيان دولته ، وقالوا له أنت خليفة الله فى أرضه ، وأن حقه يسمو على لقب الإمارة ، واقترحوا عليه أن يتسمى « بأمير المؤمنين » فأبى واعتذر بأن هذا اللقب إنما يتسمى به خلفاء بنى العباس ، سلالة النبى ، وأصحاب الحرمين ، وأنه يعتبر فى المغرب رجلهم والقائم بدعوتهم ، ولكنه استجاب إليهم فى التسمى « بأمير المسلمين » و« ناصر الدين » وكان ذلك فى سنة ٤٦٦ هـ ، وخُطب له بذلك فى المنابر ، وخوطب فى العُدوتين ، وخرج بذلك كتابه إلى النواحى ، وهذا نصه بعد الديباجة :

« أما بعد حمد الله ، أهل الحمد والشكر ، ميسر اليسر ، وواهب النصر ، والصلاة على محمد المبعوث بنور الفرقان والذكر ، وإنا كتبنا إليكم من حضرتنا بمراكش حرسها الله فى نصف محرم سنة ستة وستين وأربعمائة ، وأنه لما منّ الله علينا بالفتح الجسيم ، وأسبغ علينا من أنعمه الظاهرة والباطنة ، وهدانا وهداكم إلى شريعة نبينا محمد المصطفى الكريم ، صلى الله عليه أفضل السلام ، وأتم التسليم ، رأينا أن نخصص أنفسنا بهذا الاسم ، لنمتاز به على سائر أمراء القبائل ، وهو أمير المسلمين وناصر الدين ، فمن خطب الخطبة العلية السامية ، فليخطبها بهذا الاسم إن شاء الله تعالى ، والله ولى العدل ، بمنه وكرمه ، والسلام »(١)

ولكن هذه الرواية تعارضها رواية أخرى ربما كانت أكثر قبولا . ذلك أنه يوجد لدينا أكثر من نص يؤيد القول ، بأن تلقب يوسف بن تاشفين بهذا اللقب ، وقع عقب انتصاره فى موقعة الزلاّقة ، وهذا ما يوضحه لنا صاحب « روض القرطاس » إذ يقول ، إن يوسف كان يُدعى أولا بالأمير ، فلما فتح الأندلس وصنع غزاة الزلاّقة ، وأذل الله تعالى بها ملك الروم ، بايعه فى ذلك اليوم أى عقب النصر ، ملوك الأندلس وأمراؤها الذين شهدوا معه تلك الغزاة ، وكانوا ثلاثة عشر ملكاً ، وسلموا عليه « بأمير المسلمين » . وخرجت كتبه مصدرة عنه بذلك إلى

(١) هذه هى رواية صاحب الحلل الموشية ص ١٦ و١٧ ، وكذلك ابن عذارى فى البيان المغرب ( الأوراق المخطوطة المشار إليها — هسبيرس ص ٦٠ ) . وفى بعض الروايات المتأخرة أن يوسف بن تاشفين تسمى بالفعل بأمير المؤمنين وخطب له بهذا الاسم ولبنيه من بعده ( المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس ) لابن دينار ص ٩٩ ، وهى رواية ضعيفة .

العُدوة وبلاد الأندلس ، فقرئت على المنابر ، وفيها يخبرهم بما فتح الله عليه من النصر والظفر والفتح العظيم . ثم يزيد على ذلك بأن يوسف هو أول من تسمى بأمير المسلمين من ملوك المغرب(١) . وهذه الرواية يؤيدها ابن الخطيب فى الإحاطة إذ يقول لنا بإيجاز فى ترجمة يوسف : « تسمى بأمير المسلمين لما احتل الأندلس ، وأوقع بالروم وكان قبل يدعى الأمير يوسف »(٢) . ونحن نرجح هذه الرواية الأخيرة لأنها أكثر اتفاقاً مع منطق الحوادث ودلالتها .

أما اعتراف يوسف بن تاشفين بطاعة الخليفة العباسى ، فمسألة تتفق عليها معظم الروايات . ويقول ابن الأثير ، وهو من أقدم مصادرنا فى ذلك ، إن يوسف بعد أن تم له افتتاح ممالك الطوائف ، والاستيلاء على الأندلس ، وعاد إلى حضرة ملكه مراكش ، جمع الفقهاء وأحسن إليهم ، فذكروا له أنه ينبغى أن تكون ولايته صادرة من الخليفة لتجب طاعته على الكافة ، وأنه يجب أن يأتيه منه تقليد بحكمه للبلاد ، ويُرجع ابن الأثير هذا النصح إلى علماء الأندلس خاصة ، ويقول لنا إن يوسف أرسل على أثر ذلك إلى الخليفة المقتدى بأمر الله ، فوافته الخلع والأعلام والتقليد ، ولُقب بأمير المسلمين وناصر الدين . ومعنى ذلك أن يوسف تسمى بهذه الألقاب الملوكية ، أو أنها خلعت عليه فقط حينما أتاه المرسوم أو التقليد العباسى بذلك . وفى ذلك تختلف رواية ابن الأثير عن باقى الروايات(٣) . ومن جهة أخرى فإن ذلك لابد أن يكون قد وقع قبل سنة ٤٨٧ هـ ( ١٠٩٤م ) وهى السنة التى توفى فيها الخليفة المقتدى بأمر الله . ويبدو من كلام صاحب « روض القرطاس » وابن الخطيب ما يؤيد ذلك ، وأن صدور هذا التقليد العباسى ليوسف قد وقع عقب انتصار الزلاّقة ( ٤٧٩هـ ) ، وأن يوسف قد ضرب السكّة عقب ذلك ، وأصدر الدينار المرابطى الجديد وفى أحد وجهيه « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » وتحت ذلك « أمير المسلمين يوسف بن تاشفين » ، ونقش فى مداره : « ومن يتبع غير الإسلام دينا ، فلن يقبل منه ، وهو فى الآخرة من الخاسرين » وكتب فى الوجه الآخر « الإمام عبد الله أمير المؤمنين العباسى »(٤) .

---

( ١ ) روض القرطاس ص ٨٨ ، وراجع وفيات الأعيان لابن خلكان ( بولاق ) ج ٢ ص ٤٨٨ .

( ٢ ) الإحاطة فى أخبار غرناطة ، مخطوط الإسكوريال ( رقم ١٦٧٣ الغزيرى ) لوحة ٣٩٣

( ٣ ) تاريخ ابن الاثيرج ١٠ ص ٥٢ و ١٤٥ .

( ٤ ) روض القرطاس ص ٨٨ ، وابن الخطيب فى مخطوط الإحاطة السالف الذكر لوحة ٣٩٣

على أن ابن خلدون يقول لنا بالعكس إن يوسف قد كتب فى شأن تقليده إلى الخليفة المستظهر بالله ، ولد المقتدى بالله وخلفه ، وأنه بعث إليه فى ذلك الغرض سفارة على رأسها عبد الله بن محمد بن العربى المعافرى الإشبيلى وولده القاضى أبو بكر وهو الحافظ الشهير فيما بعد « فتلطفا فى القول ، وأحسنا فى الإبلاغ ، وطلبا إلى الخليفة أن يعقد ليوسف على المغرب والأندلس » فصدر له عهده بذلك ، وعاد السفيران يحملان التقليد بولاية يوسف على ما تحت نظره من الأقطار والأقاليم ، وأذيعت محتويات هذا التقليد بين الناس . وكذلك كتب الإمام الغزالى ، والقاضى الطرطوشى إلى يوسف يحضانه على العدل والتمسك بالخير ، ويفتيانه فى شأن ملوك الطوائف[1].

ولقد وقفنا نحن على ما يؤيد هذه الرواية الأخيرة — رواية ابن خلدون — تأييداً قاطعاً ، وحصلنا على نص الرواية التى سجلها ابن العربى عن مهمته ، وعن لقائه بالإمام الغزالى فى بغداد ، وما استصدره من الفتوى الخاصة بموقف يوسف من أمراء الطوائف ، ومن الخلافة ، كما حصلنا على النص الكامل للخطاب الذى كتبه الإمام الغزالى عن هذا الموضوع ، إلى يوسف بن تاشفين ، وحمله الفقيه ابن العربى معه عند عوده إلى الأندلس .

ونحن نعرف أولا أن الفقيه ابن العربى وولده أبا بكر ، قد رحلا إلى المشرق فى مهمتهما المذكورة فى مستهل ربيع الأول سنة ٤٨٥ هـ ، وان كانت رحلتهما قد اتخذت يومئذ طابع السفر لطلب العلم[2]. وكان يوسف قد اشترك بعد الزلاقة ، مع أمراء الطوائف فى حصار حصن لييط Alédo فى سنة ٤٨١ هـ (١٠٨٨ م) وشهد عندئذ من تمردهم ، ونفاقهم ، وجنوحهم إلى ممالأة النصارى ، ما أحفظه عليهم . ثم جاز جوازه الثالث إلى الأندلس فى سنة ٤٨٣ هـ (١٠٩٠م) ، وكان عندئذ قد اعتزم أمره فى افتتاح ممالك الطوائف ، وأخذ يستولى عليها تباعا ، وكان يهمه إلى جانب الحصول على المرسوم الخلافى ، أن يحصل على سند شرعى يبرر تصرفه نحو أولئك الأمراء . فلما وصل الفقيه أبو محمد العربى وولده أبو بكر إلى بغداد ، لقى الإمام أبا حامد الغزالى ، قطب فقهاء المشرق يومئذ ، وشرح له

---

(١) ابن خلدون — كتاب العبر — ج ٦ ص ١٨٨ . وقد ورد فى هذا النص أن يوسف خاطب « المستنصر العباسى » . ونحن نعتقد أن ذلك تحريف من الناسخ ، وأن المقصود هو الخليفة المستظهر .

(٢) ابن بشكوال فى « الصلة » فى ترجمة ابن العربى رقم ١٢٩٧ .

أحوال الأندلس ، وخلال أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، وما اضطلع به من أعمال الجهاد وإعزاز الدين ، وماكان عليه ملوك الطوائف من تفرق وتخاذل ، واستعداء للنصارى ، وكيف تخلف بعضهم عن مشاركته فى الجهاد مجاملة للمشركين. فلما قام بحصار النصارى ، عقب جوازه الثانى ، فى حصن لييط ، تخلف بعض رؤساء الشرق عن معاونته ، وقالوا إن طاعته ليست بواجبة لأنه ليس إماماً شرعياً من قريش . ووقف يوسف على رسالة وجهت من بعضهم إلى العدو ، يشجعه على المقاومة والصمود ، وكان جواب يوسف لأولئك الزعماء المتمردين ، أنه خادم أمير المؤمنين المستظهر ، وأن الخطبة تجرى باسمه على أكثر من ألفى منبر ، وتضرب السكة باسمه . وطلب الفقيه ابن العربى إلى الإمام الغزالى أن يزوده فيما تقدم بفتوى تبين حكم الشرع فيه ، وأن يزوده بكتاب إلى أمير المسلمين . فأما الفتوى فقد جاء فيها « أن يوسف كان على حق فى إظهار شعار الإمامة للخليفة المستظهر[1] ، وان هذا هو الواجب على كل ملك ، استولى على قطر من أقطار المسلمين ، وإذا نادى الملك المشمول بشعار الخلافة العباسية ، وجبت طاعته على كل الرعايا والرؤساء ، ومخالفته مخالفة للإمام ، وكل من تمرد واستعصى ، فحكمه حكم الباغى ، ومن حق الأمير أن يرده بالسيف ، وأن يقاتل الفئة المتمردة على طاعته ، لاسيما وقد استنجدوا بالنصارى ، وهم أعداء الله ، فى مقاتلة المسلمين ، وهم أولياء الله ، وأن يستمر فى قتالهم حتى يعودوا إلى طاعة الأمير العادل ، المتمسك بطاعة الخلافة العباسية ، ومتى تركوا المخالفة ، وجب الكف عنهم ، وذلك عن المسلمين منهم دون النصارى . وأما مايظفر به من أموالهم فمردود عليهم وعلى ورثتهم ، وما يؤخذ من نسائهم وذراريهم فى القتال مهدورة لاضمان فيها ، وحكمهم بالجملة فى البغى على الأمير المتمسك بطاعة الخلافة ، المستولى على المنابر والبلاد بقوة الشوكة ، وحكم الباغى على نايب الإمام ، فإنه وإن تأخر عنه صريح التقليد لاعتراض العوايق المانعة ، من وصول المنشور بالتقليد ، فهونايب بحكم قرينة الحال ، إذ يجب على إمام المصر أن يأذن لكل مسلم عادل ، استولى

---

(١) عثرنا على نص رواية ابن العربى ، وعلى نص فتوى الإمام الغزالى فى المخطوط رقم ١٢٧٥ ك (المكتبة الكتانية) المحفوظ بخزانة الرباط وعنوانه «مجموع أوله كتاب الأنساب» (لوحة ١٢٨ و ١٢٩) ، كما عثرنا فيه على نص كتاب الإمام الغزالى إلى يوسف بن تاشفين . ويبدو من ذكر الخليفة المستظهر فى رواية ابن العربى وفى فتوى الغزالى أنهما يرجعان إلى سنة ٤٨٧ هـ ، وقد تولى المستظهر الخلافة بعد وفاة أبيه المقتدى فى ١٦ المحرم سنة ٤٨٧ هـ .

على قطر من أقطار الأرض ، أن يخطب له ، وينادى بشعاره ، ويحمل الخلق على العدل والنصفة ، ولاينبغى أن يظن بالإمام توقف فى الرضا بذلك والإذن فيه ، وأن توقف فى كتبه المنشور ، فالكتب قد يعوق عن انشابها ، وإيصالها المعاذير . وأما الإذن والرضى بعد ما ظهر حال الأمير فى العدل والسياسة ، وابتغاء المصلحة للتفويض والتعين ، فلارخصة فى تركه ، وقد ظهر حال هذا الأمير بالاستفاضة ظهوراً لا يشك فيه . وإن لم يكن عن إيصال الكتب وانشايه عايق ، وكانت هذه الفتنة لا تنطفى ، إلا بأن يصل إليهم صريح الإذن والتقليد بمنشور ، مقرون بما جرت العادة بمثله فى تقليد الأمراء ، فيجب على حضرة الخلافة بذل ذلك ، فإن الإمام الحق عاقلة الإسلام ، ولايحل له أن يترك فى أقطار الأرض فتنة ثايرة ، إلا ويسعى فى إطفائها بكل ممكن » .

هذا هو نص فتوى الإمام الغزالى لابن العربى عن حكم الشرع فى موقف ملوك الطوائف ، حسبما شرحه ابن العربى للإمام ، وعن حق يوسف فى الحصول على المرسوم الخلافى بولايته على ما فتحه من الأقطار بسيفه . وقد عاد الإمام الغزالى بعد ذلك ، فكتب إلى يوسف كتاباً يعرض فيه بالتفصيل إلى قصة ملوك الطوائف ، حسبما رواها له ابن العربى ، وإلى ماكانت عليه الأندلس فى ظل حكمهم من التخاذل والذل ، والصغار والهوان ، وإلى استطالة النصارى عليها ، لما كان يسودها من تفرق الكلمة واختلاف الرأى ، حتى انتهى النصارى بأن رتبوا الجزية على المسلمين . ثم يشير إلى صريخ الطوائف إلى يوسف ، وإلى جوازه البحر للجهاد ، وإلى ماوفقه الله من دحض شوكة النصارى ، وأنه حينما طلب يوسف إلى ملوك الطوائف أن يرفعوا المظالم عن المسلمين ، عادوا فجنحوا إلى ممالأة النصارى ، فسأله المسلمون عندئذ إنزالهم عن البلاد ، فاستجاب لرغبتهم ، ورفع المظالم وقطع الفساد ، وينوه بما أبداه يوسف من العمل بأحكام الله ، ومن إيثار العلماء والاستماع لرأيهم فيما يفتون إليه من الأحكام ، ثم يشير بعد ذلك إلى ما أصدره من فتوى فى شأن ملوك الطوائف ، وإلى ماكان ابن العربى بصدده من السعى إلى استصدار المرسوم الخلافى بولاية يوسف على جميع بلاد المغرب ، وتمكين طاعته ، وإلى ماكان يبثه ابن العربى من دعاية واسعة للإشادة بحكم يوسف وخلاله ، سواء فى العراق أو فى المشاهد الكريمة بأرض الحجاز . ولم يثبت الغزالى بخطابه تاريخاً معيناً ، ولكن يبدو من نصه أنه كتبه قبل « مسيره إلى سفر

الحجاز» . ونحن نعرف من حياة الغزالى أن ذلك كان فى سنة ٤٨٨ هـ[١] .

وكذلك حصل ابن العربى من العلامة أبى بكر الطرطوشى ، حين مروره على ثغر الإسكندرية ، وهو فى طريق العودة ، على خطاب آخر يرسم أمير المسلمين يوسف . ويسدى الطرطوشى فى كتابه النصح إلى يوسف بأن يحكم بالحق وفقاً لكتاب الله ، وأن يكون شفيقاً على رعينه شفقة الرجل على أهله ، وأن يعمل لإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . ويجرى الطرطوشى فى إسداء نصحه على طريقته فى إيراد الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، وأقاصيص الخلفاء والصحابة[٢] .

وتوفى الفقيه ابن العربى بثغر الإسكندرية فى فاتحة سنة ٤٩٣ هـ[٣] ، وعاد ابنه أبو بكر دونه إلى الأندلس فى نفس العام ، وهو يحمل الرسالتين — رسالة الغزالى ورسالة الطرطوشى — وكذلك مرسوم الخليفة المستظهر إلى عاهل المرابطين .

وهكذا يبدو أنه مما لامراء فيه ، أن مؤسس الدولة المرابطية الكبرى ، كان ينضوى من الناحية السياسية تحت لواء الخلافة العباسية وأنه كان يُدعى حتى قبل صدور هذا التقليد فى الخطبة ليوسف بعد الدعاء للخليفة العباسى ، فى سائر نواحى المغرب والأندلس . وسنرى فيما بعد كيف أن هذه الرعاية الأدبية العباسية للدولة المرابطية ، تمتد إلى ما بعد عهد يوسف ، وأن الخليفة العباسى يسبغ فى مراسلاته على عاهل المرابطين بعض الألقاب الخاصة .

— ٢ —

عرفنا فيما سبق كيف آلت إمارة المغرب إلى يوسف بن تاشفين ، مذ عهد إليه بشئونه ابن عمه الأمير أبو بكر اللمتونى فى سنة ٤٥٣ هـ( ١٠٦١ م ) ، وكيف ارتد هذا الأمير إلى الصحراء وهنالك توفى ، وخلصت إمارة المغرب نهائياً ليوسف ، وقامت الدولة المرابطية الكبرى ، بالمغرب والأندلس ، فى ظل عاهلها الكبير .

---

( ١ ) ورد نص خطاب الغزالى فى مخطوط المكتبة الكتانية المشار إليه ( لوحات ١٣٠ –١٣٣ ) وقد نشرناه كاملا فى باب الوثائق .

( ٢ ) ورد نص خطاب الطرطوشى فى المخطوط المشار إليه ( لوحة ١٣٣ و١٣٤ )

( ٣ ) نفح الطيب ج ١ ص ٣٣٧ .

وأراد يوسف فى أواخر حياته ، وبعد أن تم له افتتاح الأندلس ، أن يوثل ملكه ، وأن يطمئن لمصاير دولته العظيمة ، وذلك باختيار ولى عهده . وكان ليوسف من البنين خمسة هم ، أبو بكر سير ، وعلى ، وتميم ، والمعز ، وإبراهيم ، ومن البنات ثلاث هن كوتة ورقية وتميمة(١) . وكان أبو بكر أكبر بنيه وولى عهده فيما يظهر ، وقد استخلفه أبوه على المغرب حينما عبر البحر لأول مرة إلى الأندلس ، فى شهر ربيع الأول سنة ٤٧٩ هـ ، استجابة لصريخ الطوائف . ولما انتهت معركة الزلاّقة بظفر المسلمين الباهر ، وارتدت الجيوش المرابطية إلى إشبيلية فى طريقها إلى العودة ، تلقى يوسف نبأ وفاة ولده أبى بكر ، وكان قد تركه مريضاً فى سبتة ، ويقول لنا صاحب القرطاس ، إن هذا النبأ المحزن ، وصل إلى يوسف فى يوم النصر ذاته(٢) . وكان هذا الحادث سبباً فى تعجيل يوسف بالعودة ، بل يقال لنا أيضاً إنه كان سبباً فى إحباط خطط يوسف ، وتركه كل فكرة فى مطاردة الجيوش النصرانية المنهزمة(٣) .

وفى سنة ٤٩٥ هـ (١١٠١ م) ، قرر يوسف أمره فى ولاية عهده ، ووقع اختياره فى ذلك على ولده أبى الحسن على . ولم يكن على أكبر أولاده ، إذ كان أكبرهم عندئذ ، أبو الطاهر تميم ، ولكنه آثر عليا لما آنسه فيه من الورع والنباهة والحزم ، وأصدر مرسومه بولايته لعهده فى نفس العام ، وإليك نص هذا المرسوم بعد الديباجة ، وهو من إنشاء الوزير الفقيه أبى محمد بن عبد الغفور ، وقد كان من أعلام البلاغة فى هذا العصر :

« أما بعد فإن أمير المسلمين ، وناصر الدين ، أبا يعقوب يوسف بن تاشفين ، لما استرعاه الله على كثير من عباده المؤمنين ، خاف أن يسأله الله غدا عما استرعاه ، كيف تركه هملا لم يستنب فيه سواه . وقد أمر الله بالوصية فيما دون هذه العظيمة ، وجعلها من أوكد الأشياء الكريمة ، كيف فى هذه الأمور العائدة بمصلحة الخاصة والجمهور . وأن أمير المسلمين بما لزمه من هذه الوظيفة ، وخصه الله بها من

(١) كانت الأميرة تميمة بنت يوسف بن تاشفين تشتهر بجمالها ، ورجاحة عقلها ، وأدبها ، وكانت تنظم الشعر الجيد . سكنت فاس مدة (ابن الأبار فى التكملة ، وجذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام بمدينة فاس ، ص ١٠٥ و ١٠٦) .

(٢) روض القرطاس ص ٩٨ .

(٣) **F. Codera : Decadencia y Disparición de los Almoravides en Espana (Zaragoza 1899) p. 2**

النظر فى هذه الأمور الدينية الشريفة ، قد أعز الله رماحه وأحدّ سلاحه ، فوجد ابنه الأمير الأجل ، أبا الحسن أكثرها ارتياحاً إلى المعالى واهتزازا ، وأكرمها سجية وأنفسها اعتزازا ، فاستنابه فيما استرعى ، ودعاه لما كان إليه دعى ، بعد استشارة أهل الرأى على القرب والنأى ، فرضوه لما رضيه ، واصطفوه لما اصطفاه ، ورأوه أهلا أن يسترعى فيما استرعاه ، فأحضره مشترطاً عليه الشروط الجامعة بينها وبين المشروط ، فقبل ورضى ، وأجاب حين دعى ، بعد استخارة الله الذى بيده الخيرة ، والاستعانة بحول الله الذى من آمن به شكره . وبعد ذلك مواعظ ووصية ، بلغت من النصيحة مرامى قصية ، يقول فى خاتمة شروطها ، وتوثيق ربوطها ، كتب شهادته على النائب والمستنيب ، من رضى إمامتهما على البعيد والقريب ، وعلم علما يقينا بما وصاه فى هذا الترتيب ، وذلك فى عام خمسة وتسعين وأربعمائة» (١) .

وكان من الشروط التى اشترطها يوسف على ولده وولى عهده على ، فيما يختص بالدفاع عن الأندلس ، هو ألاّ يعين فى مناصب الحكام والقضاة فى الولايات والحصون والمدن إلا المرابطين من قبيلة لمتونة ، وأن ينشئ بها جيشاً مرابطيا ثابتا ، قوامه سبعة عشر ألف فارس ، توزع على مختلف القواعد ، فيرابط منها بإشبيلية سبعة آلاف ، وبقرطبة ألف ، وبغرناطة ألف ، وفى شرقى الأندلس أربعة آلاف ، وتوزع الأربعة آلاف الباقية على الثغور والحصون المتاخمة لأراضى العدو . هذا ويحسن أن يعهد إلى الأندلسيين بحراسة الحدود النصرانية ، فهم أكثر خبرة بأحوال النصارى ، وأكثر دربة على قتالهم من المرابطين . وفى سنة ٤٩٦ هـ ، (١١٠٢م)(٢) جاز يوسف بن تاشفين إلى الأندلس جوازه الرابع والأخير ، ومعه ولداه أبو الحسن على وأبو الطاهر تميم(٣) . وكان يوسف يقصد بهذا الجواز النظر فى شئون الأندلس ومصالحها ، وكان يقصد بالأخص أن ينظم البيعة لولده على الذى اختاره لولاية عهده . ويقول لنا صاحب روض القرطاس ، إن علياً لم يكن مع والده فى هذا الجواز ، وإنه بالعكس كان يقيم عندئذ فى سبتة التى ولد بها

(١) أورد نص هذا المرسوم صاحب الحلل الموشية (ص ٥٦ و ٥٧) .

(٢) وفى رواية أخرى أن هذا الجوار قد وقع فى سنة ٤٩٧ هـ (ابن خلدون — كتاب العبر ج ٦ ص ١٨٨) . ولكن التاريخ الذى يحمله كتاب التولية وهو ذو الحجة سنة ٤٩٦ هـ ، يؤكد صحة الرواية الأولى .

(٣) الحلل الموشية ص ٥٥ .

ونشأ[١] . ونحن نرجع الرواية الأولى بحضور على مع والده إذ كان هو المقصود بتنظيم البيعة ، ومن المعقول أن يكون حاضراً فى حفل تنظيمها . وفى أواخر سنة ٤٩٦ هـ ، كان يوسف بقرطبة ، عاصمة الخلافة ، وكانت يومئذ قاعدة للحكم المرابطى فى الأندلس ، وجمع يوسف أعيان قبيلة لمتونة ، وأشياخ المرابطين والفقهاء ، وأخذ البيعة عليهم جميعاً لولده على ، وصدر كتاب التولية والبيعة عن يوسف لولده ، مدبّجاً بقلم وزيره وكاتبه أبى بكر بن القصيرة علم البلاغة ، وإمام النثر والترسل يومئذ ، وإليك نص الكتاب المذكور :

« هذا كتاب تولية عظيم جسيم ، . وتوصية حميم كريم ، صدرت على الرضا قواعده ، وأكدت بيد التقوى معاقده ، وسددت إلى الحسنى مقاصده ، وأبعدت عن الهوادة والهوى مصادره وموارده ، أنفذه أمير المسلمين ، وناصر الدين ، أبو يعقوب يوسف بن تاشفين أدام الله أمره ، وأعز نصره ، وأطال فيما يرضيه منه ، ويرضى به عنه عمره ، غير محاب ولا تارك فى النصحة لله ولرسوله والمسلمين ، موضع ارتياب لمرتاب ، للأمير الأجل أبى الحسن علىّ ابنه ، المتقبل هممه وشيمه ، المتأثل حلمه وتحلمه ، الناشئ فى حجر تقويمه وتأديبه ، المتصرف بين يدى تخريجه وتدريبه ، أدام الله عزه وتوفيقه ، ونهج إلى كل صالح من الأعمال طريقه ، وقد تهمم ، بمن تحت عصاه من المسلمين ، وهدى فى انتقاء من يخلفه هدو المتقين ، ولم ير أن يتركهم بعد سدى غير مدينين ، واعتام فى النصاب الرفيع ، واختار واستنصح أولى الرأى والدين ، واستشار فلم يوقع بعد طول تأمل وتراخى مدة ، وتمثل اختياره فى اختيار من فاوضه فى ذلك من أولى التقوى والحنكة ، واستشارة [ الأعلية ] ولاصار بدونهم الارتياد والاجتهاد إلا إليه ، ولا التقى رواد الرأى والتشاور إلا لديه ، فولاه عن استحكام بصيرة ، وبعد طول مشورة ، عهده ، وأفضى إليه الأمر والنهى والقبض والبسط بعده ، وجعله خليفته الساد فى رعاية مسده ، وأوطأ عقبه جماهير الرجال ، وناط به مهمات الأمور والأعمال ، وعهد إليه أن يتقى الله ما استطاع ، ولا يعدل عن سمت العدل وحكم الكتاب والسنة ، فى أحد عصا أو أطاع ، ولا ينام عن حماة الحدب والخوف بالإضطجاع ، ولا يتلين دون معلن بشكوى ، ولا يتصام عن مستصرخ لدى بلوى ، وأن ينتظم أقصى البلاد وأدناها فى سلك تدبيره ، ولا يكون بين

(١) روض القرطاس ص ١٠١ .

القريب والبعيد فى إحصائه وتقديره . ثم دعا أدام الله تأييده لمبايعته . أدام الله عزه ، من خضر و . . من المسلمين ، فلبوا مسرعين وأتوا مهطعين ، وأعطوا صفقة إيمانهم متبرعين متطوعين ، وبايعوه على السمع والطاعة ، والتزام سنن الجماعة . وبذل النصيحة جهد الاستطاعة ، ومناصفة من ناصفه ، ومحاربة من حاربه . ومكايدة من كايده ، ومعاندة من عانده . لايدخرون فى ذلك على حال المنشط مقدرة ، ولايحجون فى حالتى الرضا والسخط إلى معذرة ، ثم أمر بمخاطبة ساير أهل البلاد لتبايعه ، كل طائفة منهم فى بلدها ، وتعطيه كما أعطاه من حضر . صفقة يدها ، حتى ينتظم فى التزام طاعته القريب والبعيد ، ويجتمع على الاعتصام بحبل دعوته الغايب والشهيد ، وتطمين من أعلام الناس وخيارهم نفوس قلقة ، وتنام عيون لم تزل مخافة أقذائها مورقة ، ويشمل الناس كافة السرور والاستبشار ، وتتمكن لديهم الدعة ، ويمهد القرار ، وتنشأ لهم فى الصلاح آمال ، ويستقبلهم جد صالح وإقبال ، والله يبارك بيعة رضوان ، وصفقة رجحان ، ودعوة يمن وإيمان ، إنه على ما يشاء قدير ، لا إله إلا هو نعم المولى ونعم النصير . شهد على إشهاد أمير المسلمين بكل ما ذكر عنهم فوق هذا من بيعته . . حمله عنه ممن التزم البيعة المنصوصة قبل ، وأعطى صفقته طائفاً متبرعا ، وبالله التوفيق ، وكتب بحضرة قرطبة فى ذى الحجة سنة ست وتسعين وأربعمائة »(١).

— ٣ —

وقد سبق أن عرضنا من قبل فى كتاب « دول الطوائف » إلى لمحة من خلال يوسف وصفاته(٢) ، ونود هنا أن نبسط القول فى ذلك .

إن شخصية البطل المرابطى العظيم تنطوى على كثير من الصفات اللامعة ، التى جعلت من حياته المديدة الحافلة ، نموذجا مثالياً لهذا النوع من البطولة الساذجة الرائعة معاً . والواقع أن أروع ما فى صفاته ، تلك الهالة الوضاءة من البساطة المؤثرة ، التى لبثت شعار حياته كلها ، والتى لم تتأثر بتطورات الأحداث السياسية التى

---

(١) أورد لنا ابن الخطيب نص هذه الوثيقة فى « الإحاطة » فى ترجمته لأبى بكر بن القصيرة (مخطوط الإسكوريال السالف الذكر لوحة ٧١ و ٧٢) . وفى بعض الروايات أن البيعة عقدت لعلى فى غرناطة (كتاب الاكتفاء فى أخبار الخلفاء ، لابن الكردبوس ، مخطوط أكاديمية التاريخ بمدريد لوحة ١٦٤ ا) وهذا ما ينقضه ختام الوثيقة .

(٢) كتاب دول الطوائف ص ٣٠٢ و ٣٠٣ .

خاضها ، والفتوح العظيمة التى حققها ، والتى جعلت من الدولة المرابطية الكبرى ، فى ظله ، أعظم دولة قامت فى الغرب الإسلامى ، من حيث المدى الإقليمى ، ومن حيث القوى والموارد الزاخرة ، إذ كانت تمتد من تونس شرقاً إلى المحيط الأطلنطى غربا ، ومن ضفاف نهرى الإيبرو والتاجُه فى شبه الجزيرة الإسبانية شمالا ، إلى قلب الصحراء الإفريقية الكبرى جنوبا . فقد لبث البطل المرابطى ، عاهل هذه الدولة الشامخة ، على حالته الأولى ، مذ كان زعيما محلياً من زعماء الصحراء ، بدوياً متقشفاً يرتدى الصوف الخشن ، ولا يلبس غيره قط ، ويقتصر فى طعامه على الشعير ولحوم الإبل وألبانها ، لا يأكل سواها قط (١) ، ولم يتأثر طول حياته ، بأية نزعة من ترف القصور ، ولاعيشها الناعم ولا مغرياتها المفسدة ، بالرغم من هذا الملك الباذخ ، وهذه الدنيا العريضة التى كانت تحت أقدامه . ويكفى أن نتأمل مدى لحظة عابرة ، ماكانت عليه قصور الطوائف الأندلسية من الفخامة والبذخ الطائل ، وماكان يغرق فيه أمراؤها الأصاغر من العيش الرخو الوثير المترف ، تتألق ثيابهم الفخمة بالذهب والجوهر ، وتحيط بهم أكواب الشراب وأسراب الغلمان والجوارى والفتيات — يكفى أن نتأمل ذلك ، لنرتفع بحياة البطل المرابطى ، إلى ذرى الإكبار والإجلال والإعجاب .

وقد كانت هذه البساطة المؤثرة التى طبعت حياة يوسف بن تاشفين ، تقترن فى نفس الوقت بطائفة من الصفات المعنوية النبيلة ، التى تجعل من صاحبها عماداً حقيقياً للملك ، وتتوطد بها أسس الدولة العظيمة . فقد كان يوسف يتمتع بكثير من الذكاء والفطنة ، والعزم والشجاعة والحزم ، والكرم والجود ، وكان فضلا عن ذلك كثير التقى والورع . وإلى ذلك يشير ابن الصيرفى مؤرخ الدولة المرابطية بقوله : « كان رحمه الله خائفاً لربه ، كتوما لسره ، كثير الدعاء والاستخارة ، مقبلا على الصلاة ، مديما للاستغفار »(٢). ويلحق بذلك شغف يوسف بالجهاد ، فقد كان بطلا مجاهداً حقاً ، وقد أنفق من عمره أعواماً طويلة فى الجهاد فى سبيل الله ، مذ ندبه ابن عمه الأمير أبو بكر اللمتونى لقيادة المرابطين . وقد تجلت هذه النزعة للجهاد فيما بعد بصورة رائعة ، فى استجابته لصريخ الطوائف ، وفى موقعة الزلاّقة العظيمة ، وفيما خاضته الجيوش المرابطية ، فى مختلف

---

( ١ ) روض القرطاس ص ٨٧ .

( ٢ ) ابن الخطيب عن ابن الصيرفى فى الإحاطة ( مخطوط الإسكوريال السالف الذكر لوحة ٣٩٣ ).

أنحاء الأندلس ، ولاسيما فى الولايات الشرقية فى بلنسية وسرقسطة من معارك عديدة ، ضد الجيوش النصرانية ، ولم يكن غريباً فى مثل الظروف التى كانت تجوزها اسبانيا المسلمة يومئذ ، من تخاذل أمراء الطوائف وتنابذهم ، وترامیهم على أعتاب الملوك النصارى ، وإشفاق البطل المرابطى ، أن ينتهى الأمر باستيلاء النصارى على الأندلس ، أن ينفذ يوسف مشروعه فى القضاء على ممالك الطوائف ، ووضع الأندلس تحت حماية جيوشه القوية المظفرة ، ولم يكن فى ذلك ما يصدع من نزعة الجهاد ، التى كانت من أبرز صفات يوسف ، والتى لبثت الجيوش المرابطية تضطرم بها من بعده عصراً .

وكان يوسف بن تاشفين جندياً عظيما ، وقائداً من أعظم قواد العصور الوسطى ، وقد أبدى فى سائر فتوحه المتوالية لأقطار المغرب ، كفاية عسكرية واضحة ، ولم يكن ظفره المستمر راجعاً إلى كثرة جيوشه ومقدرتها ، بقدر رجوعه إلى براعته فى تنسيق الخطط ، وتنظيم القيادة ، وانتهاز الفرص السانحة . وأشد ما تبدو هذه البراعة فى حوادث موقعة الزلاّقة وتطوراتها ، فإن النصر الباهر الذى أحرزته الجيوش المرابطية والأندلسية ، فى هذه الموقعة ، يرجع بالأخص إلى شجاعة يوسف وثباته ، وبراعة خططه ، وقد كان من حسن طالع يوسف ، أنه استطاع أن يعتمد فى حروبه ومشاريعه العسكرية ، على معاونة طائفة من أقدر القواد وأشجعهم ، — مثل سير بن أبى بكر ، وداود بن عائشة ، والأمير مزدلى ، ومحمد بن الحاج ، وغيرهم ممن سبق ذكرهم فى مختلف المواطن والحوادث .

وإلى جانب براعته العسكرية ، كان يوسف يمتاز بمقدرة إدارية فائقة ، وكان هذا الزعيم الصحراوى الموهوب ، يحكم الإمبراطورية المرابطية الضخمة ، بحزم وكفاية تدعو إلى الإعجاب ، وكان إلى جانب ورعه وتقواه ، صارماً شديد الوطأة ، حريصاً على استتباب النظام والأمن ، دائباً على تفقد بلاده وشئون رعيته . ويلخص لنا ابن الصيرفى طريقة يوسف وصرامته فى قمع المعارضين والخوارج على القانون فى قوله : « أكثر عقابه لمن تجرأ أو تعرض لانتقامه الاعتقال الطويل ، والقيد الثقيل ، والضرب المبرح ، إلا من انتزى أو شق العصا ، فالسيف أحسم لانتشار الداء »[1] . ويبدو من ذلك أن يوسف لم يكن يلجأ إلى تطبيق عقوبة

(١) ابن الخطيب نقلا عن ابن الصيرفى فى الإحاطة ( مخطوط الإسكوريال السالف الذكر لوحة ٣٩٣ ) . وكذلك الحلل الموشية ص ٥٩ ، وابن عذارى فى البيان المغرب ( الأوراق المخطوطة السالفة الذكر ، هسبيرس ص ٦٥ ) .

الإعدام إلا فى حالة العصيان أو الثورة ، وأنه فيما عدا ذلك فإن أقصى عقوبة تطبق فى الجرائم العادية ، هى « الاعتقال الطويل ، والقيد الثقيل » ، وهو ماتعبر عنه القوانين الجنائية الحديثة ، بعقوبة الأشغال الشاقة المؤبدة أو المؤقتة .

وقد نوهت معظم الروايات بحب يوسف للعدل وإيثاره ، والعمل على توطيده ، كما نوهت باحترامه لأحكام الشرع ، والحرص على تطبيقها ، وتعظيمه للعلماء والفقهاء ، والرجوع إليهم والأخذ بآرائهم وفتاويهم . وهو ما يجمله ابن الصيرفى فى قوله : « يواصل الفقهاء ، ويعظم العلماء ، ويصرف الأمور إليهم ، ويأخذ فيها بآرائهم ، ويقضى على نفسه ، وغيره بفتياهم ، ويحض على العدل ، ويصدع بالحق ، ويعضد الشرع »(١) . وقد رأينا فيما تقدم فى غير موطن ، كيف كان يوسف يلجأ إلى رأى الفقهاء فى أخطر الأمور ، ومن ذلك استشارته إياهم ، أولا فى مسألة العبور إلى الأندلس ، واستجابة صريخ الطوائف ، وثانيا فى خلع ملوك الطوائف ، وانتزاع ممالكهم ، ولم يكتف يوسف فى ذلك بفتاوى فقهاء المغرب والأندلس ، بل لجأ فى نفس الوقت إلى فقهاء المشرق ، وحصل على آراء أعلام مثل أبى حامد الغزالى ، وأبى بكر الطرطوشى(٢) . ومما يروى فى ذلك أن الإمام الغزالى كان يعجب بورع يوسف وجميل صفاته ، وميله إلى أهل العلم ، حتى أنه اعتزم الرحلة إلى المغرب وزيارة هذا الأمير الأمثل . ولكنه لما وصل إلى الإسكندرية وأخذ فى التأهب للسير إلى المغرب ، ورد إليه الخبر بوفاة أمير المسلمين ، فارتد عن عزمه وعاد من حيث أتى(٣) . وكان من أبرز مظاهر تمسك يوسف بأحكام الشرع ، وآراء الفقهاء ، موقفه من الضرائب والمغارم التى يسوغ للأمير فرضها على رعيته ، فهو قد ألغى الضرائب والمكوس ، التى لم يجز الدين فرضها ، واكتفى بفرض ما يجيزه الشرع من ذلك ، مثل الزكاة والأعشار وأخماس الغنائم ، وجزية أهل الذمة . وقد كان لهذه السياسة الضريبية الرفيقة ، بالأخص فى الأندلس ، أطيب الأثر ، إذ كان ملوك الطوائف يرهقون رعيتهم بالفروض ،

---

(١) ابن الخطيب نقلا عن ابن الصيرفى فى الإحاطة (مخطوط الإسكوريال) . وراجع الحلل الموشية ص ٥٩ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٧ و ١٨٨ . ويلاحظ أن الطرطوشى كان فى الأصل من فقهاء الأندلس ولكنه نزح إلى المشرق (راجع كتاب دول الطوائف ص ٢٨٤) .

(٣) ابن خلكان فى وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٨٨ ، وكتاب المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس لابن دينار ص ١٠٦ .

والمغارم الفادحة ، تغذية لقصورهم الفخمة ، وبذخهم الطائل ، وقد كان تماديهم في ذلك ، من الأسباب التي التُمست لخلعهم والقضاء على سلطانهم . بيد أن يوسف كان يلجأ في بعض الأحيان إلى فرض الإتاوات على رعاياه ، مساهمة منهم في نفقات الجهاد المستمر ، الذي كان يضطلع به ، وقد كان يلجأ في جواز ذلك أيضاً إلى فتاوى الفقهاء . ومن ذلك ما وقع له مع قاضي ألمرية ، أبي عبد الله محمد بن يحيى المعروف بابن الفراء ، فإنه قرر بعد موافقة الفقهاء ، أن يطالب أهل المغرب والأندلس بمعونة مالية للمساهمة في أعمال الجهاد . وكتب إلى قاضي ألمرية المذكور يأمره بتحصيل هذه الإتاوة وإرسالها ، فأبى القاضي ، وكتب إلى يوسف يطعن في شرعية هذه الإتاوة ، وفي رأي الفقهاء الذين أجازوها ، ويطالب يوسف ، إن كانت خزانته ناضبة حقاً ، بأن يمثل في المسجد الجامع بحضرة أهل العلم ، وأن يحلف علناً بأنه ليس لديه في بيت مال المسلمين درهم ينفقه عليهم ، أسوة بما فعل عمر بن الخطاب ، حين أراد فرض مثل هذه الإتاوة ، وعندئذ يجوز له تحصيلها[1]. ومن جهة أخرى فإن يوسف لم يكن يحجم في بعض الأحيان ، عن تحصيل الأموال بطرق استثنائية كفرض المغارم على اليهود والنصارى من آن لآخر ، لظروف وأسباب خاصة . وقد ذكر لنا صاحب الحلل الموشية طرفاً من ذلك[2] .

وكان المغرب يتمتع في ظل يوسف بكثير من الإستقرار والأمن والرخاء ، بعد الفتن والحروب المضطرمة ، التي لبثت قبل الفتح المرابطي ، زهاء نصف قرن ، تمزق أوصاله ، وتودي بأمنه وسلامه . ولما تم استيلاء المرابطين على الأندلس ، وشعرت الأمة الأندلسية أنها أصبحت في مأمن من عدوان اسبانيا النصرانية ، أتيح لها أيضاً أن تتمتع بشيء من الاستقرار والسكينة ، وذلك بالرغم مما كانت تشعر به من شدة وطأة الحكم المرابطي ، وجفاء أساليبه ، وخشونة حكامها الجدد من زعماء البربر ، وبعدهم عن تلك الكياسة التي كان يمتاز بها الأمراء والحكام من مواطنيهم . وعلى أي حال فقد عرفت الأندلس في الأعوام الأخيرة من حياة يوسف ، وقبل أن يشتد عليها ضغط النير المرابطي ، وتستيقظ مشاعرها الوطنية الدفينة ، فترة طيبة من الهدوء والاستقرار ، يصفها لنا المؤرخ فيما يلي : « أقامت بلاد الأندلس في مدته ( أي مدة يوسف ) سعيدة حميدة في رفاهة عيش ،

---

( ١ ) وفيات الاعيان ج ٢ ص٤٨٥ ، والإستقصاء للسلاوى (طبعة القاهرة) ج ١ ص١٢٢ ، ١٢٣ .

( ٢ ) الحلل الموشية ص ١٣ و٥٩ .

وعلى أحسن حال ، لم تزل موفورة محفوظة ، إلى حين وفاته »[١] .

وكان يوسف فضلا عن حسن اختياره لقادته ، يحسن اختيار معاونيه من الكتاب والوزراء . وكان كاتبه قبل أن يجوز جوازه الأول إلى الأندلس ، أديباً أندلسياً من أهل ألمرية هو عبد الرحمن بن أسباط ، أوأسبط . وكان قد نشأ أديباً مغموراً يشتغل فى باب الديوان بألمرية أيام بنى صمادح . وفى سنة ٤٧٢ هـ عبر البحر إلى العدوة ، ولحق بمراكش يبحث وراء طالعه ، واتصل بحاشية الأميرة الحرة زينب زوجة يوسف ، فأسند إليه منصب الكتابة . ولما توفيت الأميرة أقره يوسف لكتابته ، فظهر فى هذا المنصب ، ونال حظوة وجاها عريضاً ، « وكان رجلا حصيفاً سكوناً عاقلا » وكان يوسف يثق فى مقدرته وحصافته . وحسن معرفته بشئون الأندلس . وقد لعب عبد الرحمن بن أسباط دوراً هاما فى تدخل يوسف فى أحوال الأندلس ، واستجابته لصريخ الطوائف ، وهو الذى أشار عليه ، حينما قرر الجواز إلى شبه الجزيرة ، بأن يطالب ابن عباد بثغر الجزيرة ليكون مركزاً أميناً لجواز جيوشه وعودتها إلى العدوة[٢]. ومما هو جدير بالذكر أن يوسف بن تاشفين كان لا يعرف العربية ، وكان ابن أسباط يجيد اللغة البربرية التى يتحدث بها يوسف[٣] وكان هذا من أسباب حظوته . ولما توفى ابن أسباط فى سنة ٤٨٧ هـ ، تولى الكتابة ليوسف من بعده ، كاتب من أعظم كتاب الأندلس يومئذ ، هو محمد بن سليمان بن القصيرة المعروف بأبى بكر بن القصيرة ، وهو الذى يصفه ابن الصيرفى بقوله : «الوزير الكاتب الناظم الناثر القائم بعمود الكتابة ، والحامل للواء البلاغة ، الذى لا يشق غباره ، ولا تخمد أنواره ، اجتمع له براعة النثر ، وجزالة النظم»[٤] ، وهو الذى كتب عن يوسف حين مثوله بقرطبة فى سنة ٤٩٦ هـ ، كتابه بتولية ولده على ولاية عهده حسبما تقدم . ولما توفى يوسف استمر أبوبكر فى الكتابة لولده على حتى وفاته فى سنة ٥٠٨ هـ ( ١١١٤ م ) ، وفى استخدام يوسف لهذين الكاتبين الأندلسيين البليغين ، بالرغم من عدم معرفته بالعربية ، ما يدل على حصافته ، وبعد نظره ، وإدراكه لأهمية الأساليب العالية فى الترسل ، وقد

---

( ١ ) الحلل الموشية ص ٥٩ .

( ٢ ) الحلل الموشية ص ٣٢ .

( ٣ ) ابن خلكان ج ٢ ص ٤٨٢ .

( ٤ ) ابن الخطيب عن ابن الصيرفى فى الإحاطة ( مخطوطة الإسكوريال السالفة الذكر ) .

كان ثمة بين يوسف وبين الخلافة العباسية ، وبينه وبين أكابر فقهاء المشرق مراسلات كثيرة . ومن جهة أخرى فقد كانت المراسيم المرابطية ، تصدر فى أحيان كثيرة باللغتين البربرية والعربية ، لتقف عليها الكثرة الغالبة من الرعايا ، وهى المتكلمة بالعربية ، ومما زاد فى أهمية منصب الكتابة فى الدولة المرابطية ، وشغله بأعلام الكتاب البلغاء ، فتح الأندلس . وخضوعها للحكم المرابطى ، ووجوب مخاطبتها بنفس الأساليب العربية العالية التى كانت سائدة فيها .

وأما عن شخص يوسف ، فإن الرواية تصفه بأن كان معتدل القامة ، أسمر اللون ، نحيف الجسم ، خفيف العارضين ، رقيق الصوت [١].

— ٤ —

فى سنة ٤٩٨ هـ ، مرض أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، واستمر يعانى من مرضه حتى اشتدت به العلة فى العام التالى ، ومازالت حالته تسوء شيئاً فشيئاً ، حتى حم القضاء ، وتوفى فى يوم الإثنين مستهل شهر المحرم سنة ٥٠٠ هـ ( ٢سبتمبر سنة ١١٠٦م ) ، بقصره بمراكش ، عن مائة عام كاملة ، وبعد أن وصلت الدولة المرابطية الكبرى على يديه إلى ذروة عظمتها وقوتها .

فكان لوفاته وقع عظيم فى المغرب والأندلس ، ورثاه جماعة من شعراء العصر ، منهم أبو بكر بن سوار ، وقد أنشد على قبره مرثية مؤثرة جاء فيها :

ملك الملوك وما تركت لعامل ... عملا من التقوى يشارك فيه
يا يوسف ما أنت إلا يوسف ... والكل يعقوب بما تطويه
اسمع أمير المؤمنين وناصر الـ ... ـدين الذى بنفوسنا نفديه
جوزيت خيراً عن رعيتك التى ... لم ترض فيها غير ما يرضيه
وصل الجهاد إلى الجهاد موفقا ... حتم القضاء بكل ما تقضيه
ويجىء ما دبرته كمجيئه ... فكأن كل مغيّب تدريه
متواضعاً لله مظهر دينه ... فى كل ما يبديه ويخفيه [٢]

وقد ترك أمير المسلمين يوسف بن تاشفين عند وفاته إمبراطورية من أعظم الإمبراطوريات التى حكمها الإسلام ، تشتمل على قطرين من أعظم وأهم الأقطار

---

( ١ ) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٨٨ .

( ٢ ) ابن عذارى فى البيان المغرب ( الأوراق المخطوطة المشار إليها ، هسبيرس ص ٦٤ و ٦٥ و ٦٦ .

الإسلامية فى العصور الوسطى ، هما المغرب والأندلس . وتمتد فيما بين تونس شرقاً ، والمحيط الأطلنطى غرباً . وفيما بين نهر التاجُه فى قلب اسبانيا شمالا ، وبلاد السودان ونهر النيجر جنوبا . ويكفى لكى نقدر روعة المعجزة العسكرية والسياسية ، التى حققتها عبقرية يوسف . أن نرتد نصف قرن فقط إلى ماقبل وفاته ، وأن نلقى نظرة عابرة على ماكان عليه المغرب والأندلس يومئذ . فقد كان المغرب عندئذ فريسة لأشنع ضروب التفرق والفوضى ، تتقاسم أقطاره وقواعده التالدة ، عدة كبيرة من الزعامات القبَلية ، وتقوم فيه إمارات عديدة ، متخاصمة متنابذة ، وتجتاح الحروب الأهلية الصغيرة مروجه وبواديه ، ويسود الفقر والاختلال والفوضى سائر نواحيه . وقد كان قيام المرابطين فى جنوبى المغرب ، وانتظامهم إلى قوة مصلحة غازية ، فى هذه الآونة ، وسيرهم لافتتاح أقطار المغرب وقواعده ، وظفرهم بالتغلب على إماراته وقواعده المتفرقة ، وضمها تحت لوائهم فى وحدة متماسكة ودولة موحدة ، كان ذلك فى الواقع عمل إنقاذ قومى من أعظم ما وقع فى تاريخ المغرب . وقد اضطلع يوسف بن تاشفين فى ذلك كله حسبما رأينا بأوفر نصيب ، وكان له فى تحقيقه أعظم الفضل . ولما قامت الدولة المرابطية الكبرى ، تتوسطها عاصمتها العظيمة مراكش ، وتوطدت دعائم الحكم المرابطى ، ساد فى المغرب نوع من النظام والأمن ، لم يكن له به عهد منذ بعيد ، وعم الرخاء ، واستطاع الناس أن ينعموا بكثير من الاستقرار والهدوء . ووقعت نفس المعجزة فى الأندلس ، فبعد أن لبثت زهاء نصف قرن ، تعانى فى ظل أمراء الطوائف ، وفى ظل دولهم الضعيفة المتنابذة ، مصائب التفرق ، والحروب الأهلية المتوالية ، وبعد أن استطال عليها النصارى ومالوا على دول الطوائف ، فأذلوها واستباحوا حماها ، واستصفوا أموالها ، وبدأوا بانتزاع قواعدها ، وبعد أن لاح لأهل الأندلس أن الآخرة قد دنت ، وأنه لن يمضى سوى القليل ، حتى تقضى اسبانيا النصرانية على دول الطوائف كلها ، وتنتزع سائر قواعدها وأراضيها ، وتسقط الأندلس كلها فى يد العدو الخالد ، وينطفىء نور الإسلام من تلك الديار العزيزة ، بعد ذلك كله جاء جواز يوسف بن تاشفين وجيوشه المرابطية إلى الأندلس ، نذير الإنقاذ ، وانقشاع الخطر الداهم ، وكُتبت لإسبانيا المسلمة حياة جديدة . ثم كان افتتاح المرابطين لدول الطوائف ، وبسط سيادتهم على الأندلس ، فردت إليها وحدتها الإقليمية القديمة ، وبالرغم مما اقترن

بهذا الفتح المرابطى من مظاهر العنف والقسوة ، وبالرغم مما كان ينطوى عليه بالنسبة للأمة الأندلسية من معانى الافتئات والاغتصاب . وسيطرة القبائل البربرية على حريات الأندلس ومصايرها ، فإنه كان أيضاً عمل إنقاذ لاشك فيه . وكانت سيطرة المرابطين على اسبانيا المسلمة فى تلك الفترة العصيبة من حياتها ، هى أوكد ضمان بصونها ، والذود عنها ، وحمايتها من عدوان اسبانيا النصرانية .

وهكذا استطاع يوسف فى مدى نصف قرن أن يحقق وحدة المغرب، وأن يحقق وحدة الأندلس معاً ، وأخيراً أن يحقق الوحدة بين الدولتين الإسلاميتين العظيمتين فى ظل الدولة المرابطية الكبرى .

ولما توفى يوسف كانت هذه الدولة المرابطية الكبرى تمثل بشطريها — المغرب والأندلس — وفقاً لقول المؤرخ « مُلكا مؤسساً ، وجنداً مجنداً ، وسلطاناً قاهراً ومالا وافراً »[1] .

بيد أن هذه الدولة العظيمة بالرغم مما كان يبدو من توطدها وقوتها ورخائها ، كانت تحمل فى ثنيتها بعض عوامل الوهن الخفية ، التى تسترها المظاهر الخادعة ، وهى كانت تدين بوحدتها وقوتها قبل كل شىء إلى عبقرية مؤسسها العظيم . فلما اختفى يوسف من الميدان ، فقدت الدولة المرابطية أعظم قادتها وحماتها : فقدت تلك اليد الموجهة المرشدة ، التى كانت تقودها دائماً نحو التوطد والظفر ، وتلك العقلية الراجحة ، التى كانت تستشف الحوادث البعيدة من خلال الحجب ، وتعمل على تداركها ، وتوجيهها إلى الغاية المرغوبة .

(١) ابن الخطيب عن ابن عذارى فى الإحاطة فى ترجمة على بن يوسف (مخطوط الإسكوريال السالف الذكر لوحة ٢٩٢) .

# الفصل الثانى

## أمير المسلمين على بن يوسف
## وأحداث عصره

على بن يوسف يخلف أباه . الثورة فى فاس وإخفاقها . على يعبر إلى الأندلس . أعماله وعوده . أمره إلى أخيه تميم باستئناف الغزو . خروج تميم فى قواته إلى قشتالة . مسيره إلى حصن أقليش واقتحامه إياه . أهبة ألفونسو السادس لرد الغزاة . مسير القشتاليين إلى أقليش . موقف الجيش المرابطى . عدد الجيشين المتحاربين . التحامهما فى معركة عنيفة . مصرع الإنفانت سانشو وهزيمة القشتاليين . خسائر النصارى والمسلمين . إتمام الاستيلاء على أقليش . الروايات النصرانية عن الموقعة . عبور على إلى الأندلس . غزوه لأراضى قشتالة ، استيلاؤه على طلبيرة . محاصرته لطليطلة . رفع الحصار وعوده إلى قرطبة ثم إلى مراكش . غزو الأمير سير اللمتونى لأراضى البرتغال . استيلاؤه على يابرة وأشبونة وشنترين . غزو مزدلى والى قرطبة لأراضى قشتالة . استيلاؤه على حصن أرجنة ومحاصرته لطليطلة . القتال بين القشتاليين والمرابطين . رفع الحصار وعود المرابطين . وفاة مزدلى وولاية ولده محمد لقرطبة . غزو القشتاليين لولاية قرطبة . خروج المرابطين لردهم . هزيمة المرابطين ومصرع محمد بن مزدلى وأكابر لمتونة . هزيمة مرابطية أخرى . وفاة الأمير سير والى إشبيلية . التعريف بسير ومزدلى . من أسباب نشاط الغزو المرابطى . أحوال سرقسطة . استيلاء المرابطين عليها . إنتهاء ملك بنى هود . ابن الحاج والى سرقسطة . الحرب بين المرابطين وبين عماد الدولة بن هود . غزو ابن الحاج وابن عائشة لإمارة برشلونة . هزيمة المرابطين ومصرع ابن الحاج . أحوال الجزائر الشرقية . افتتاح النصارى لها . أهبة على لإنقاذها . مسير الأسطول المرابطى إلى الجزائر . استيلاء المرابطين عليها . إحراق كتاب الإحياء فى قرطبة . نفوذ الفقهاء وأثرهم فى هذا الحادث . عبور على إلى الأندلس للمرة الثالثة . غزوه لأراضى البرتغال واقتحامه لمدينة قلمرية . عوده إلى المغرب . عبوره إلى الأندلس للمرة الرابعة . الثورة فى قرطبة . مختلف الروايات فى شأنها . مغزى هذه الثورة وأسبابها . موقف على منها . النقاش بينه وبين ابن رشد . تسوية الحادث وعودة على .

لما توفى أمير المسلمين ، يوسف بن تاشفين ، فى يوم الاثنين مستهل شهر المحرم سنة خمسمائة (٢ سبتمبر سنة ١١٠٦ م) ، بقصره بمراكش ، خلفه فى نفس يوم وفاته ولده أبو الحسن على ، وكان قد اختاره كما تقدم لولاية عهده ، منذ سنة ٤٩٥هـ ، وأصدر له عهد التولية بقرطبة فى شهر ذى الحجة سنة ٤٩٦هـ ، مؤثراً إياه بذلك على ولده الأكبر أبى الطاهر تميم . وعقدت البيعة لعلى فى نفس اليوم ، قبل أن يُوارى جثمان العاهل الراحل ، وكان أول من بايعه بمحضر من أشياخ لمتونة وباقى قبائل صنهاجة ، والأكابر والقادة ، أخوه تميم معلناً بذلك طاعته

لأخيه ، واحترامه لإرادة أبيه ، ثم بايعه من بعده سائر من حضر من الأشياخ والأكابر ، وكتب على فى نفس الوقت إلى سائر قواعد المغرب والأندلس وبلاد القبلة بالصحراء ، يعلمهم بموت أبيه ، واستخلافه إياه من بعده ، ويأمرهم بأخذ البيعة له[1] . وكان على وقت تبوئه الملك ، فتى فى نحو الثالثة والعشرين من عمره ، وكان مولده بثغر سبتة سنة ٤٧٧ هـ ( ١٠٨٤ م ) ، عقب سقوطه فى أيدى المرابطين بأشهر قلائل ، وأمه أم ولد رومية اسمها قمر ، وتسمى أيضاً « فاض الحسن » . وقد أنفق على فيما يبدو حداثته فى سبتة[2] . ولما توفى الأمير أبوبكر أكبر أولاد يوسف وولى عهده بسبتة فى سنة ٤٧٩ هـ عقب نصر الزلاّقة ، وأخذ يوسف يبحث عن خلفه بين أولاده ، اتجهت نيته لاختيار ولده على ، لما آنسه فيه منذ صغره من ذكاء ونجابة ، وكان يصطحبه فى كثير من المهام ، ولاسيما عند جوازه الأخير إلى الأندلس ، حينما عبر إليها ليتفقد أحوالها ، وليعقد بها بيعة العهد لعلى .

وكان يوسف قبيل وفاته بقليل ، قد أوصى ولده عليا بثلاثة أمور ، أولها ألاّ يفعل شيئاً لإثارة أهل جبل دَرَن ، ومن وراءه من المصامدة وأهل القبلة ، والثانى أن يهادن بنى هود أمراء سرقسطة ، وأن يتركهم حائلا بينه وبين النصارى ، والثالث أن يعطف على من أحسن من أهل قرطبة ، وأن يتجاوز عمن أساء منهم[3] ، هذا فضلا عما اشترطه عليه حين خصه بولاية عهده ، من الأمور المتعلقة بشئون الأندلس الدفاعية ، وهو ما سبق أن أشرنا إليه فيما تقدم .

وكان على بن يوسف أميراً وافر الهمة والذكاء والعزم ، وكانت تحدوه رغبة صادقة ، فى أن يسير على نهج أبيه فى الحكم ، وفى متابعة الجهاد ، وهوقد سار بالفعل وفق هذا المنهج ، وحقق فى ظله طائفة من جلائل الأعمال ، وهو ما يجمله المؤرخ فى قوله : « فاقتفى أثر أبيه ، وسلك سبيله فى عضد الحق ، وإنصاف المظلوم ، وأمن الخايف ، وقمع المظالم ، وسد الثغور ، ونكاية العدو ، فلم يعدم التوفيق فى أعماله ، والتسديد فى حسن أفعاله »[4] .

---

( ١ ) روض القرطاس ص ١٠٢ .

( ٢ ) روض القرطاس ص ١٠١ .

( ٣ ) الحلل الموشية ص ٦٠ .

( ٤ ) ابن عذارى البيان المغرب ( الأوراق المخطوطة – هسبيرس ص ٦٧ ) ، ونقله ابن الخطيب فى الإحاطة فى ترجمة على بن يوسف ( مخطوط الإسكوريال السالف الذكر لوحة ٢٩٢ ) .

ولأول ولايته وقعت ثورة محلية لم تكن على شيء من الخطورة، ولكنها كانت أول بادرة فى الانتقاض والخروج . وذلك أنه حينما كتب إلى القواعد والثغور بأخذ البيعة له ، أتته البيعة من سائر البلاد إلا من مدينة فاس ، عاصمة المغرب القديمة ، وقد كان واليها عند وفاة يوسف ،حفيده يحي بن الأمير أبى بكر أخى على المتوفى ، فرفض أداء البيعة لعمه على، وأعلن الخلاف، ووافقه على ذلك جماعة من قواد لمتونة ، فبادر على بالسير فى بعض قواته إلى فاس، فخشى يحي البادرة على نفسه ، خصوصاً بعد أن تخلى عنه أنصاره ، وفر من المدينة ، ودخلها على بن يوسف ، وذلك فى الثانى من ربيع الآخر سنة ٥٠١ هـ ، وأخمدت هذه الثورة الصغيرة فى مهدها . وسار يحي صوب تلمسان ملتجئاً إلى واليها الأمير مزدلى ، فلقيه بالطريق ، وكان قادماً ليقدم بيعته إلى على ، فاستجار به ووعده مزدلى ، بأن يسعى لدى على فى العفو عنه . واختفى يحي فى أحواز فاس حتى لقى مزدلى الأمير ، وقدم إليه بيعته ، وشفع لديه فى ابن أخيه ، فعفى عنه على ، وخيره بين الإقامة فى ميورقة أو فى الصحراء ، فاختار يحي الصحراء ، ثم سار منها إلى الحجاز فقضى فريضة الحج ، وعاد إلى المغرب ، واستأذن عمه عليا فى سكنى مراكش، فإذن له . ولكن بدت منه عندئذ بعض بوادر مريبة ، فخشى على من نياته ، وأمر بالقبض عليه ونفيه إلى الجزيرة الخضراء ، فاعتقل بها حتى توفى(١) .

ولم يكد على يفرغ من قمع الثورة فى فاس ، حتى أزمع الجواز إلى الأندلس لتفقد أحوالها ، وتنظيم شئونها ، فخرج من مراكش فى جيش من المرابطين ومصمودة ، وعبر البحر من سبتة إلى الجزيرة الخضراء فى منتصف سنة ٥٠٠ هـ ( أوائل سنة ١١٠٧م ) ، وهناك بادر إليه زعماء الأندلس ورؤساؤها ، وقضاتها، وفقهاؤها وأدباؤها وشعراؤها ، فقدموا إليه بيعتهم وطاعتهم ، وأنشده الشعراء قصائدهم ، فعنى بالنظر فى مطالبهم ، وغمر الجميع بعطفه وصلاته(٢) .

وعمد على فى الوقت نفسه إلى إجراء طائفة من التغييرات الإدارية الهامة ، فعزل أخاه أبا الطاهر تميما عن ولاية المغرب ، وعينه لولاية غرناطة بالأندلس ، وجعله قائداً أعلى للجيوش المرابطية فيما وراء البحر. وعين لولاية قرطبة أبا عبدالله

---

(١) روض القرطاس ص ١٠٣ .

(٢) الحلل الموشية ص ٦٢ ، وابن عذارى فى البيان المغرب ( الأوراق المخطوطة — هسبيرس ص ٦٧ ) .

محمداً بن أبي بكر اللمتوني ، وعين لولاية المغرب أبا عبد الله محمداً بن الحاج ، فلبث والياً على فاس وسائر أنحاء المغرب زهاء ستة أشهر . ثم عينه على لولاية بلنسية وشرق الأندلس ، ومن بلنسية ، سار ابن الحاج في القوات المرابطية إلى سرقسطة ودخلها في سنة ٥٠٢ هـ ( ١١٠٩ م ) حسبما نفصل بعد(١) .

ولما عاد على إلى المغرب ، كتب في أوائل سنة ٥٠١ هـ إلى أخيه تميم والى غرناطة، وقائد الجيوش المرابطية بالأندلس، أن يستأنف الجهاد ، وأن يغزو أرض النصارى. وقد كانت غرناطة يومئذ قاعدة الحكم المرابطي في الأندلس بعد قرطبة . والظاهر أن هذا الاختيار كان يرجع لأسباب استراتيجية تتعلق بموقع غرناطة ، وإنما كتب على لأخيه ولم يعبر إلى الأندلس ، حسبما يبدو من أقوال صاحبي الحلل الموشية وروض القرطاس . فإنه يبدو من الرواية الأولى (٢) ، أن علياً لم يعبر عبوره الثاني إلى الأندلس إلا في سنة ٥٠٣ هـ (١١١٠م). وتمر الرواية الثانية على مسألة جواز على بالصمت . ويؤيد ذلك بنوع خاص رسالة كتب بها الأمير تميم إلى أخيه على عقب الموقعة التي نشبت بينه وبين النصارى ، وهي رسالة سوف نتحدث عنها فيما بعد .

ولم يصدر على أمره باستئناف الغزو والجهاد عفواً ، فقد كان ثمة ما يبرره ويستدعيه . ذلك أنه لما مرض أمير المسلمين يوسف بن تاشفين في سنة ٤٩٨هـ ، وذاع أمر مرضه في الأندلس ، ونقلت عن الأحوال في المغرب والأندلس إلى قشتالة أقوال وصور زائفة ، اعتقد ألفونسو السادس ملك قشتالة الشيخ ، أن الفرصة قد سنحت ليستأنف غزواته في أراضي المسلمين ، فبعث حملة من نحو ثلاثة آلاف وخمسمائة مقاتل ، سارت نحو أحواز إشبيلية ، وعاثت فيها ، واستولت على كثير من الغنائم والسبي ، فخرج الأمير سير بن أبي بكر والى إشبيلية في قواته لرد الغزاة ، ولحقت به عساكر غرناطة بقيادة أبي عبد الله بن الحاج واليها يومئذ ، وطارد المسلمون القشتاليين ، وردوهم على أعقابهم ، وقتلوا منهم نحو ألف وخمسمائة(٣) ، ولما تولى على بن يوسف الملك بعد ذلك بقليل ، لم ينس أمر هذا

---

( ١ ) روض القرطاس ص ١٠٣ ، والبيان المغرب ( الأوراق المخطوطة هسبيرس ص ٦٧ و٦٨ ) .

( ٢ ) الحلل الموشية ص ٦٣ .

( ٣ ) البيان المغرب ( الأوراق المخطوطة المشار إليها — هسبيرس ص ٦٤ و٦٥ ) .

العدوان وما يدل عليه من تحفز النصارى ، فرأى أن يبادرهم بالغزو ، وأن يهاجمهم فى قلب أراضيهم .

وصدع تميم بأمر أخيه ، وجهز جيشاً حسن الأهبة ، وخرج من غرناطة فى العشر الأخيرة من شهر رمضان سنة ٥٠١ هـ ( أوائل مايو سنة ١١٠٨م ) وسار فى قواته شمالا صوب جيّان ، وكانت الجنود والإمداد تهرع إليه فى طريقه . ولبث فى جيان أياماً قلائل ، حتى وافته حشود قرطبة بقيادة واليها أبى عبد الله محمد بن أبى رنق ، ثم سار إلى بيّاسة شمال شرقى جيان ، واتجه منها شمالا صوب أراضى قشتالة ، وانضمت إليه فى الطريق حشود مرسية بقيادة واليها أبى عبد الله محمد بن عائشة ، وحشود بلنسية بقيادة واليها محمد بن فاطمة . واخترقت القوات المرابطية أراضى قشتالة وعاثت فيها . ثم اتجهت صوب بلدة أقليش الحصينة ، وهى التى وقع الاختيار على مهاجمتها ، فوصلت إلى ظاهرها فى يوم الأربعاء الرابع عشر من شوال ( ٢٧ مايو ) .

وقد كانت أقليش فى ذلك العصر من أمنع معاقل كورة شنتبرية ، وهى محلة حصينة ، تقع فى شمالى جبال طليطلة ، وجنوب غربى وبذة ، أنشأها الفتح بن موسى بن ذى النون فى أواخر القرن الثالث الهجرى أيام الأمير عبد الله (١) واتخذها مستقراً ومعقلا ، وغدت دار بنى ذى النون ، حتى ظهروا أيام المنصور ابن أبى عامر ، وحكموها أيام اضطراب الخلافة ، ثم انتقلوا منها إلى حكم طليطلة على يد إسماعيل بن ذى النون فى أوائل المائة الخامسة . ولما سقطت طليطلة فى أيدى القشتاليين فى صفر سنة ٤٧٨ هـ ( ١٠٨٥ م ) وانتهى سلطان بنى ذى النون فى تلك المنطقة ، كانت أقليش ضمن القواعد والحصون العديدة ، التى استولى عليها القشتاليون نتيجة لافتتاح مملكة طليطلة .

وما كادت القوات المرابطية تصل إلى أقليش حتى طوقتها ، وهاجمتها بعنف ، ولم يستطع النصارى المدافعون عنها ، أن يثبتوا طويلا أمام شدة المهاجمين ، فسقطت فى أيديهم فى اليوم التالى وهو يوم الخميس ١٥ شوال ( ٢٨ مايو ) ، وفى الحال

---

( ١ ) جاء فى الروض المعطار ( صفة جزيرة الأندلس ) ص٢٨ ، أن أقليش بناها الفتح بن موسى ذى النون وفيها كانت ثورته وظهوره فى سنة ١٦٠ هـ ، وفى ذلك تحريف واضح ، لأن ثورة الفتح ابن موسى ذى النون كانت فى مستهل عهد الناصر بعد سنة ٣٠٠ هـ ، وإذاً فإن الصحيح والمعول عليه هو أن إنشاء أقليش قد وقع فى أواخر القرن الثالث .

دخلتها القوات المرابطية ، وقوضت صروحها ، وهدمت كنائسها ، ودكت هياكلها ، وهرع المسلمون الذين كانوا بها — وكان ما يزال منهم بقية كبيرة فضلت التدجّن والبقاء تحت حكم النصارى — والتجأوا إلى معسكر الجيش المرابطى ، لائذين بحمايته ، وشرحوا لإخوانهم فى الدين أحوال المدينة ، وظروف المدافعين عنها(١) .

والتجأ المدافعون من النصارى إلى قصبة أقليش الحصينة ، وامتنعوا بها فى انتظار الغوث والإنجاد من مواطنيهم . والواقع أنه مذ تحركت الجيوش المرابطية ، ونفذت إلى أراضى قشتالة ، كان الملك الشيخ ألفونسو السادس ملك قشتالة وقادته ، يبذلون أقصى جهودهم فى إعداد العدة لرد الغزاة . وكان ألفونسو السادس قد هدمه الإعياء والمرض ، ولم يستطع لضعفه أن يسير بنفسه لملاقاة الغزاة وإنقاذ القلعة ، فجهز حملة قوية بقيادة كبير قواده ألبرهانس — وهو أشهر قواد قشتالة فى ذلك العصر ، وقد خاض من قبل وقائع كثيرة ضد المسلمين ، ولاسيما فى منطقة بلنسية — وزميله غرسيه أردونيث مؤدب ولى العهد سانشو ، وهو أيضاً من أكابر القادة ، ومعهما عدة أخرى من قادة منطقة طليطلة من قلعة النسور ، وقلعة النهر أو قلعة عبد السلام (Alcala de Henares) وغيرهما . بيد أن أهم شخصية مثلت فى تلك الحملة كانت شخصية الأمير الصبى ( الإنفانت ) سانشو ولد ألفونسو السادس وولى عهده ، وهو الذى رزق به من « زائدة » حظيته أو زوجته المسلمة المتنصرة ، التى كانت زوجة للفتح بن المعتمد بن عباد ، والتى فصلنا قصتها فى موضعها من كتاب « دول الطوائف »(٢) ، وكان يومئذ صبياً فى الحادية عشرة من عمره . وكان مستشارو الملك — أو زوجته زائدة — قد نصحوا بإرساله على رأس الجيش لكى يثير منظره الفتى حماسة الجند ، فنزل عند رأيهم ، وبعثه مع مؤدبه غرسيه أردونيث كونت دى قبره . ويشير صاحب روض القرطاس إلى تلك الواقعة ، ويفسرها بتفسير طريف يقول فيه « فأشارت عليه زوجته ( أى ألفونسو ) أن يوجه ولده عوضاً عنه فيكون مقابلا لتميم ، لأن تميم ابن ملك المسلمين ، وشانجه

---

( ١ ) استقينا هذه المعلومات من رسالة الأمير تميم التى سبقت الإشارة إليها والتى سوف ننشر نصها فى باب الوثائق .

( ٢ ) كتاب دول الطوائف ص ٣٣٣ — ٣٣٧ .

( سانشو ) ابن ملك الروم ، فسمع منها ، فبعث ولده شانجه فى جيوش كثيرة من زعماء الروم وأنجادهم »[١] .

وزحف الجيش القشتالى بسرعة لإنجاد قلعة أقليش . وفى تلك الأثناء ، فى عصر يوم الخميس ١٥ شوال ( ٢٨ مايو ) كانت الأنباء قد ترامت عن قرب مقدمه إلى العسكر المرابطى . وهنا تختلف الرواية فى تصوير موقف الجيش المرابطى ، وموقف قائده الأعلى الأمير أبى الطاهر تميم . ذلك أن صاحب روض القرطاس يقول لنا إن تميما حين علم باقتراب القشتاليين ، أراد الارتداد والإحجام عن لقائهم ، فنصحه محمد بن عائشة ومحمد بن فاطمة وغيرهما من قواد لمتونة بالبقاء وملاقاة العدو ، وهونوا عليه الأمر ، خصوصاً وأن القادمين لا يزيد عددهم عن ثلاثة آلاف فارس . فنزل تميم عند هذا النصح ، فلما وافى القشتاليون عند مغيب الشمس ، ورأى تميم وفرة حشودهم ، أراد الفرار والإحجام عن لقائهم ، ولكنه لم يجد سبيلا إلى ذلك ، وصمم قواد لمتونة على لقاء العدو ومناجزته[٢]. بيد أن تميما يصور لنا الموقف فى رسالته التى يصف فيها الموقعة والتى سبقت الإشارة إليها تصويراً آخر . فيقول لنا إنه حين مقدم القشتاليين ، استدنى إليه « القائدين المحربين ، ذوى النصيحة والآراء الصحيحة ، أبا عبد الله محمد بن عائشة ، وأبا عبد الله محمد بن فاطمة وأنهم بعد المشاورة ، اجتمعوا على كلمة الله متعاقدين ، وخضعوا إلى حكمه مستسلمين » ثم يقول : « ونهضنا بجملتنا ، من محلتنا والصبر يفرغ علينا لامه ، والنصر يبلغ إلينا سلامه ، وتوجهنا إلى الله نقتفى سبيله ، ونبتغى دليله » فكان اللقاء ، وكانت الموقعة .

ولم تقدم إلينا الرواية بيانات كافية عن عدد الجيشين المتحاربين . بيد أنه يستفاد من أقوالها عن الجيش المرابطى ، الذى كان يتكون من حشود غرناطة وقرطبة وشرقى الأندلس ومن انضم إليه من المتطوعة المجاهدين خلال مسيره ، أنه كان يضم عدة آلاف من الفرسان ، إذ كانت حامية غرناطة تتكون من ألف فارس ، ومثلها حامية قرطبة ، وكانت الحامية المرابطية بشرقى الأندلس تتكون من أربعة آلاف فارس . أما الجيش القشتالى القادم للنجدة ، فمن المرجح أنه كان متفوقاً على المرابطين فى الكثرة ، يدل على ذلك إحجام تميم فى البداية عن لقائه ، وتوجسه

---

( ١ ) روض القرطاس ص ١٠٤ .

( ٢ ) روض القرطاس ص ١٠٤ .

من تفوقه العددى . هذا عدا من كان من القشتاليين بالقصبة وهم حسبما تصفهم الرواية « جمع عظيم من الروم »(١). ومن جهة أخرى ، فإنه لدينا عن عدد الجيش القشتالى روايتان إسلاميتان ، الأولى تقدره بعشرة آلاف فارس ، وهذه هى رواية ابن القطان وقد كتب بعد الموقعة بقرن ونصف ، فى أواخر عهد الموحدين(٢) ، والثانية تقدر بسبعة آلاف فارس ، وهى رواية ابن عذارى ، وهو يقول لنا مشيراً إلى مقدم القشتاليين لإنجاد قلعة أقليش ، « وفى خلال ذلك وصل إليه ( حصن إقايش ) ، ولد ألفونسو شانجُه من زوج المأمون بن ( عباد ) التى كانت تنصرت بنحو سبعة آلاف فارس »(٣) .

وفى فجر يوم الجمعة ١٦ شوال سنة ٥٠١ هـ ، الموافق ٢٩ مايو سنة ١١٠٨ م ، بدت طلائع المعركة ، وتقدم المرابطون قليلا فى اتجاه أقليش للقاء القشتاليين . وأقبل القشتاليون يقودهم ألبرهانس وغرسيه أردوينت كونت دى قبره وكونتات طليطلة ، وبينهم الأمير الفتى الإنفانت سانشو فوق فرسه ، وقد ارتدى حلة الفرسان . وبدأ الهجوم ووقعت الصدمة الأولى حسبما ينبئنا تميم فى رسالته ضد قوات قرطبة ، وقائدها ابن أبى رنق ، فارتد إلى الوراء . وعندئذ تقدمت قوات مرسية وبلنسية ، وتقدم تميم فى قواته إلى قلب المعركة ، ونشب بين الفريقين قتال بالغ العنف ، يصفه لنا تميم فى رسالته عن الموقعة فى عبارات حماسية مضطرمة . ومما جاء فيها : « فعند ذلك اختلطت الخيل ، بل سال السيل ، وأظلم الليل ، وأعتقت الفرسان ، واندقت الخرصان ، ودحا ليل القتام ، وضاق مجال الجيش اللهام ، واختلط الحسام بالأجسام ، والأرماح بالأشباح ، ودارت رحى الحرب تغر بنكالها . وثارت ثائرة الطعن والضرب تفتك بأبطالها » . وتجمع الروايات الإسلامية والنصرانية معاً ، على أن الموقعة كانت مضطرمة رائعة ، وأن الفريقين المتحاربين ، قاتل كلاهما بمنتهى العنف والشدة . وبينما القتال على أشده إذ وقع

---

( ١ ) روض القرطاس ص ١٠٣ .

( ٢ ) أوردها فى كتابه « نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان » . وتوجد منه قطعة مخطوطة هى « السفر الثالث عشر » ضمن نسخة محفوظة بالمعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد ( وقد وصفناها فى بيان المصادر ) لوحة ٧ ا . وقد نقل إلينا رواية ابن القطان هذه عن الموقعة الأستاذ هويثى فى كتابه : **Las Grandes Batallas de la Reconquista, p. 118 & 119**

( ٣ ) البيان المغرب ( الأوراق المخطوطة السالفة الذكر — هسبيرس ص ٦٨ ) . وراجع كتابى « دول الطوائف » ص ٣٣٦ .

حادث كان حاسما فى مصير المعركة . ذلك أن الأمير الصبى سانشو ابن ملك قشتالة ، ازدلف إلى قلب المعمعة إلى جانب مؤدبه غرسية أردونيث أو الكونت دى قبره ، فلم يلبث أن أحاطت بهما ثلة من الفرسان المسلمين ، وتوالت عليهما الطعان ، فسقط الفتى من فوق جواده ، وقد أصابته طعنة قاتلة ، وسقط فوقه الكونت دى قبره مدافعاً عنه(١) ، فدب الهرج إلى صفوف القشتاليين وكثر القتل بينهم ، ولجأ الكثيرون منهم إلى الفرار ، وسقط معظم القادة والكونتات قتلى ، وارتد ألبارهانيس فى فلول القشتاليين صوب طليطلة ، وحاول الكونتات السبعة الذين كانوا يؤلفون حاشية الأمير القتيل ، الفرار إلى حصن بلنشون القريب ، فلحقت بهم جماعة من المسلمين المدجنين وقتلتهم عن آخرهم ، وعرف مكان مصرعهم فيما بعد « بالكونتات السبعة » . وهكذا تمت الهزيمة الساحقة على الجيش القشتالى ، وأحرز المسلمون نصرهم الباهر ، فى ذلك اليوم المشهود .

هكذا كانت أدوار موقعة أقليش الشهيرة ، التى أعادت بروعتها ، وانتصار المرابطين الساحق فيها ، ذكريات موقعة الزلاّقة . وتعرف الموقعة فى الرواية النصرانية « بموقعة الكونتات السبعة » نسبة إلى الكونتات السبعة الذين كانوا حاشية لولى عهد قشتالة . وتقدر بعض الروايات الإسلامية خسائر القشتاليين فيها بنيف وثلاثة وعشرين ألفاً(٢) . وتجاريها فى ذلك بعض الروايات النصرانية ، فتقدر خسائر القشتاليين بعشرين ألفاً(٣) . بيد أنه يبدو مما سبق أن ذكرناه عن عدد الجيشين المتحاربين ، ومما ذكره الأمير تميم فى رسالته عن الموقعة ، أن خسائر النصارى لم تكن بهذه النسبة المغرقة ، وإن كان مما لاريب فيه أنها كانت فادحة . ويقول لنا الأمير تميم فى رسالته إنه أمر عقب الموقعة بجمع رؤوس القتلى من النصارى ، فجمعت الدانية منها ، وتركت النائية ، فبلغ ما جمع منها أكثر من ثلاثة آلاف رأس ، ميزت منها رؤوس غرسية أردونيث ( أردونش ) أو الكونت دى قبره ، وقواد طليطلة ، وكدست ، وأذن من فوقها المؤذنون وفقاً للتقليد المأثور . واستولى

---

(١) ويقدم إلينا ابن القطان رواية أخرى عن مصرع « الإنفانت » سانشو ، فيقول إنه أفلت من قلب المعركة فى ثمانية من النصارى ولجأ معهم إلى حصن بلشون ( بلنشون ) ، وكان فيه رعية لهم من المسلمين ، فاختبأ عندهم رجاء أن يسلموا من القتل ، فلحق بهم المسلمون وقتلوهم وقتل معهم ولد أذفونش ( المخطوط السالف الذكر لوحة ٧ ب ) .

(٢) روض القرطاس ص ١٠٤ .

(٣) M. Lafuente : Historia General de Espna (Barcelona 1899) V. III. p. 202

المرابطون فى نفس الوقت على مقادير هائلة من الأسلاب والغنائم ، من المال والخيل والبغال والسلاح والدروع وغيرها .

وأما عن خسائر المسلمين فى الموقعة ، فإنه يبدو أنها كانت أيضاً ذات شأن ، وإن لم يكن لدينا من أقوال الرواية الإسلامية أرقام معينة . وكل ماذكر عن ذلك عبارة أوردها صاحب روض القرطاس فى ختام كلامه عن المعركة يقول فيها : « واستشهد جماعة من المسلمين رحمهم الله » وقول ابن القطان : « واستشهد فى هذه الوقيعة الإمام الجزولى وكان رجل صدق ، وجماعة من الأعيان والعربان »(١). على أننا نستنتج ذلك من إحجام المرابطين ، عن مطاردة فلول الجيش القشتالى مطاردة شاملة والتوغل فى أرض النصارى .

وغادر الأمير تميم فى قواته ميدان المعركة عائداً إلى غرناطة ، مكللا بغار الظفر ، وكتب إلى أخيه أمير المسلمين على بالفتح ، رسالته التى سبق ذكرها . وترك قوات مرسية وبلنسية تحت إمرة قائدها لحصار قلعة أقليش ، فلبثا على حصارها فترة ، ولما رأيا مناعتها تظاهرا بالانسحاب ، وارتدا فى قواتهما قليلا ورتبا الكمائن ، فخرج النصارى من القلعة ، فانقض عليهم المسلمون ، وأمعنوا فيهم قتلا وأسراً ، واحتلوا القصبة ، وبذلك تم استيلاؤهم على أقليش ، وترتب على ظفر المسلمين باحتلال هذه القلعة المنيعة ، أن سقطت فى أيديهم عدة من البلاد والحصون المجاورة ، مثل وبذة وقونقة وأقونية وكونسوبجرا ، وغيرها(٢).

وتعنى الروايات النصرانية بذكر معركة أقليش عناية خاصة ، وهى لاتخرج فى مجملها عما تقدمه إلينا الروايات الإسلامية من التفاصيل ، ولاسيما ما أورده الأمير تميم فى خطابه الرسمى عن الموقعة . بيد أن الروايات النصرانية تفيض بنوع

---

(١) روض القرطاس ص ١٠٤ . وابن القطان فى المخطوط السالف الذكر ( لوحة ٧ ب ) .

(٢) راجع فى حوادث موقعة أقليش ، روض القرطاس ص١٠٣ و ١٠٤ ، وابن عذارى فى البيان المغرب ( الأوراق المخطوطة — هسبيرس ص ٦٨ ) ، وابن القطان فى نظم الجمان ( المخطوط المشار إليه ، لوحه ٦ و ٧ ) ، ورسالة الأمير تميم الرسمية عن المعركة وهى التى أنشأها الكاتب ابن شرف ، وقد نشرناها فى باب الوثائق منقولة عن مخطوط الإسكوريال رقم ٤٨٨ الغزيرى لوحات ٥٤ — ٥٨ ، ونشرها الأستاذ هويثى فى كتابه **Las grandes Batallas de la Reconquista** ص ١٢٠— ١٢٦ . ويشير ابن خلدون إلى المعركة إشارة عابرة (ج ٦ ص ١٨٨ ) . وأورد عنها ابن الكردبوس خلاصة موجزة (كتاب الإكتفا — مخطوط أكاديمية التاريخ السالف الذكر) ، ولم يذكرها صاحب الحلل الموشية . ومن المراجع القشتالية **F. Codera : Decadencia y Disparición de los Almoravides p. 8—10 ; La Fuente: Hist. General de Espana, Vol. II. p. 201 & 202**

خاص فى تفاصيل مصرع الإنفانت سانشو ، ومصرع مؤدبه غرسية أردونيث ، فتذكر لنا كيف سقط الأمير عن جواده الجريح ، وكيف حجبه الكونت غرسية بدرعه وجسمه ، وأخذ يدافع عنه وهو مسجى ، حتى قتل بدوره ، وتشيد بفروسية الكونت ، وروائع صفاته . ثم تصف لنا كيف وقع النبأ المحزن على الملك الشيخ ألفونسو السادس وقع الصاعقة ، وكيف استسلم إلى التأوه والنواح بمحضر من سادته . والواقع أن الملك الشيخ لم يستطع احتمال تلك الصدمة الأليمة طويلا ، إذ توفى بعد ذلك بنحو عام فى ٣٠ يونيه سنة ١١٠٩ م .

ثم تنحرف الرواية النصرانية بعد ذلك إلى منحدر الأسطورة ، فتزعم أن الملك ألفونسو أراد أن ينتقم لمصرع ولده ، فسار إلى قرطبة وحاصرها ، وفيها على بن يوسف « أمير المؤمنين » ، وأن النصارى أسروا ذات ليلة جماعة من المسلمين حاولوا مهاجمتهم ، وتبين أن رئيسهم عبد الله ، وهو من أشراف قرطبة ، هو الذى قتل ابن عبّاد حمو الملك ألفونسو ، ووالد زوجته ماريا ، التى كانت تسمى زائدة ، وأنه أمر بتقطيع أشلاء عبد الله هذا وحرقها ، وأحرق معه عدداً من الأشراف المسلمين ، وأنه أخيراً استطاع أن يرغم عليا أمير المؤمنين على طلب الصلح ، وأداء ضريبة فادحة لقشتالة[1] .

وكانت موقعة أقليش ، بعد الزلاّقة ( ٤٧٩ هـ ) ، واستيلاء المرابطين على بلنسية ، ( ٤٩٥ هـ ) ، أعظم نصر أحرزه المرابطون على قوات قشتالة ، وهو نصر كان من أثره توطيد سلطان المرابطين فى المناطق الوسطى والشرقية فى شبه الجزيرة ، وفى إعلاء سمعتهم العسكرية والدفاعية .

— ٢ —

ونستطيع أن نقول أيضاً إن حملة أقليش كانت فاتحة لبرنامج منظم من الغزوات المرابطية لأراضى النصارى . ذلك أنه لم يمض سوى عام وشهرين على موقعة أقليش ، حتى عبر أمير المسلمين على بن يوسف البحر إلى الأندلس للمرة الثانية فى جيوشه الجرارة . وكان عبوره من سبتة ، فى الخامس عشر من محرم سنة ٥٠٣هـ ( أغسطس ١١٠٩ م ) . وكان عبوره فى تلك المرة بقصد الجهاد خاصة ، أو حسبما يقول لنا صاحب الحلل الموشية « برسم الجهاد ، ونصر الملة ، وإعزاز الكلمة » .

---

( ١ ) يراجع فى ذلك بالأخص : Primera Crónica General de Espana (Ed. M. Pidal), Parte II. p. 554 - 556

وسار إلى غرناطة . وأقام بها مدى حين « ريثما تلاحقت حشوده وتأهبت متطوعته وجنوده » . وتقدر الرواية الجيوش المرابطية الغازية هذه المرة ، بنيف ومائة ألف فارس وثلاثمائة ألف راجل . وهو تقدير يحمل طابع المبالغة . ولما تكاملت الحشود ، سار على فى قوات ضخمة ، صوب قرطبة ، فأقام بها شهراً يضع خططه ، ويستكمل أهباته . ثم غادر قرطبة على رأس قواته ، وعبر جبال الشارات ( سيرا مورينا ) ثم جبل طليطلة ، وانقض المرابطون كالسيل على أراضى ولاية طليطلة ، فعاثوا فيها وانتسفوا زروعها ، وخربوا ديارها ، وسبوا كثيراً من السكان ، واستولوا على كثير من القلاع والحصون ، وهبت ريح من الرعب والروع على النصارى فى تلك الأنحاء . وتقول لنا الرواية الإسلامية إن المرابطين ساروا أولا إلى مدينة طلبيرة الواقعة على نهر التاجُه غربى طليطلة ، واقتحموها عنوة ، وقتلوا معظم سكانها النصارى ، واستنقذوا من كان بها من أسرى المسلمين ، ولجأت جماعة من النصارى الذين بها إلى القصبة ، ثم تسربوا منها ليلا إلى النهر ناجين بأنفسهم ، فاستولى المرابطون على القصبة ، وانتهبوا سائر ما فى المدينة من السلاح والمتاع ، وردوا كنيستها كما كانت جامعاً ، وندب لها أمير المسلمين والياً من قبله ، ورتب بها حامية قوية . ويضع ابن القطان تاريخ اقتحام المرابطين لطلبيرة فى منتصف شهر المحرم سنة ٥٠٣ هـ ، ولكن المرجح أنه وقع بعد ذلك بنحو شهر أو شهرين ، إذ كان عبور أمير المسلمين إلى شبه الجزيرة حسبما تقدم فى منتصف المحرم[1] . وافتتح المرابطون من حصون أحواز طليطلة سبعة وعشرين ، ثم استولوا على مجريط ووادى الحجارة ، وقصدوا بعد ذلك إلى طليطلة فضربوا حولها الحصار . ولكن الرواية النصرانية تقدم إلينا تفصيلا آخر للغزوة المرابطية ، فتقول لنا إن المرابطين بعد أن عاثوا فى أراضى قشتالة الجنوبية ، ساروا أولا إلى طليطلة ، واقتحموا منيتها ( ضاحيتها ) الخضراء الواقعة على نهر التاجُه ، وهى التى كانت من قبل جنة لبنى ذى النون ، ثم ضربوا الحصار حول عاصمة قشتالة ، وكان يدافع عنها قائد قشتالة الأول ألبارهانيس فى حامية قوية ، ولم يلبث المرابطون على حصار طليطلة وفقاً للرواية الإسلامية سوى ثلاثة أيام . ثم غادروها بعد أن

---

( ١ ) ابن عذارى فى البيان المغرب (الأوراق المخطوطة المشار إليها — هسبيرس ص ٧٠ ) . وابن القطان فى « نظم الجمان » ( المخطوط السالف الذكر لوحة ١٣ و ١٥ ) .

قطعوا ثمارها ، وانتسفوا زروعها[1]. ولكن الرواية القشتالية تقول لنا بالعكس إن الحصار قد دام سبعة أيام . بذل المرابطون فيها جهوداً فادحة ، وضربوا أسوارها بالمجانيق ضربا شديداً ، وحاولوا حرق بعض أبراجها ، ولكن جهودهم ذهبت كلها سدى ، واستطاع القشتاليون ، اعتماداً على حصانة مدينتهم ، وأسوارها المنيعة العالية ، أن يردوا كل محاولات المرابطين . وفى اليوم السابع ، خرج ألبارهانيس فى قواته ، واشتبك مع المرابطين فى معركة شديدة ، واضطر المرابطون على أثرها إلى رفع الحصار ، ومغادرة المدينة بعد أن أحرقوا آلات الحصار (سنة ١١١٠م) . ثم تقول الرواية القشتالية إن المرابطين ساروا بعد ذلك إلى طلبيرة ، فاقتحموها وقتلوا حاميتها ، ثم ساروا من بعدها شمالا ، واستولوا على مجريط ووادى الحجارة وقناليش وغيرها من قواعد هذه المنطقة . وهنا دب الوباء فى الجيش المرابطى ، فاضطر على بن يوسف أن يغادر أراضى العدو ، وأن يعود أدراجه إلى قرطبة . وعلى أى حال فإن الروايات المختلفة العربية والقشتالية تتفق على أن هذه الغزوة المرابطية لأراضى قشتالة ، كانت من حيث ضخامة حشودها وأهباتها ، واتساع نطاقها ، بالغة الأثر فى ردع القشتاليين ونذيرهم[2] .

وعاد على بن يوسف على أثر ذلك إلى مراكش ، ولكن الغزوات المرابطية استمرت على نشاطها وشدتها ، فى أنحاء شبه الجزيرة . ففى نفس الوقت الذى كانت فيه الجيوش المرابطية تحت أسوار طليطلة ، سار جيش مرابطى زاخر بقيادة الأمير سير بن أبى بكر والى إشبيلية صوب الغرب إلى أراضى البرتغال . وكانت هذه المملكة النصرانية الجديدة الناشئة فى كنف قشتالة ، قد بدأت فى ظل أميرها هنرى البرجونى ، صهر ملك قشتالة ألفونسو السادس وزوج ابنته غير الشرعية ، تريسا ، تنمو ويشتد ساعدها بسرعة ، وكانت قاعدتها يومئذ

---

(١) هذه رواية ابن عذارى فى البيان المغرب ، فى الأوراق المخطوطة السالفة الذكر . ولكن صاحب روض القرطاس يقول لنا إن المرابطين لبثوا على حصار طليطلة مدى شهر (روض القرطاس ص ١٠٥) .

(٢) تراجع تفاصيل هذه الغزوة فى البيان المغرب (الأوراق المخطوطة المشار إليها — هسبيرس ص ٧٠) وروض القرطاس ص ١٠٥ ، والحلل الموشية ص٦٢ ، وابن خلدون ج٦ ص١٨٨ . وكتاب الاكتفاء لابن الكرديوس (مخطوط أكاديمية التاريخ السالف الذكر لوحة١٦٤) . وراجع أيضاً :
**F. Codera : Dec. y Dis. de los Almoravides p 232 & 234** وكذلك **M. Lafuente, Hist. General de Espana Vol. III. p. 229**

قُلُمرية ، ومن ثم فإن الرواية الإسلامية تعرف أميرها « بصاحب قُلُمرية » . وكانت يومئذ تضم عدة من القواعد الإسلامية القديمة من قواعد ولاية الغرب. فسار الأمير سير فى قواته صوب بطليوس ، ثم زحف على يابُرة وافتتحها على الفور ، ثم قصد إلى أشبونة فاستولى عليها هى وضاحيتها شنترة ، وسار بعد ذلك شمالا ، واستولى على مدينة شنترين ، الواقعة على نهر التاجُه ، ويستفاد من الرسالة التى وجهها سير بفتح هذه المدينة إلى أمير المسلمين ، وهو من إنشاء كاتبه الوزير أبى محمد عبد المجيد بن عبدون ، أن المرابطين هاجموها أولا فاستعصت عليهم ، فضربوا حولها الحصار حتى سلمت ، وكان قد قتل من حاميتها عدد كبير ، فسلم الباقون ، وأسروا سائر من بها . وقد كانت شنترين ، حسبما ورد فى هذه الرسالة من أعظم قلاع الغرب وأكثرها موارد لوقوعها فى بسيط وافر الخصب[(١)] ، ووصل سير فى زحفه نحو الشمال إلى مقربة من مدينة قلمرية عاصمة الإمارة . ولم تستطع القوات البرتغالية بقيادة الكونت هنرى ، دفعاً للقوات المرابطية الغازية . وكان افتتاح المرابطين لهذه القواعد الغربية فى سنة ٥٠٤ هـ ( ١١١١م ) وتقول الرواية الإسلامية إن الأمير سير ، افتتح فى هذه الغزوة أيضاً مدينة بطليوس وبرتقال[(٢)]. ولكن بطليوس كانت فى أيدى المرابطين منذ انتزعوها من بنى الأفطس فى سنة ٤٨٨ هـ ( ١٠٩٤ م ) . وأما برتقال ،وهى تعنى فى الجغرافية الأندلسية ثغر بورتو ، فهى تقع فى أقصى شمالى البرتغال ، وفى شمال قُلُمرية ، ومن ثم فإن المرابطين لم يصلوا فى زحفهم إليها ولم يفتتحوها .

ومما هو جدير بالذكر أنه على أثر هذه الغزوة ، وفد على مدينة إشبيلية المنصور بن عمر المتوكل بن الأفطس قادماً من أراضى قشتالة ، وكان قد سار إليها فى أمواله وذخائره ، والتجأ إلى ملك قشتالة ألفونسو السادس ، حينما غزا المرابطون مملكة بطليوس سنة ٤٨٨ هـ ، وقتلوا أباه عمر المتوكل وأخويه . وقيل إنه اعتنق النصرانية يومئذ . ولما وصل إلى إشبيلية ، أخذ إلى حضرة أمير المسلمين بمراكش فكانت له لديه منزلة ملحوظة .

ولم يمض قليل على ذلك حتى سارت حملة مرابطية جديدة صوب قشتالة ،

---

( ١ ) راجع الرسالة المذكورة فى المعجب للمراكشى ص ٩٠ — ٩٣ .

( ٢ ) روض القرطاس ص ١٠٥ .

بقيادة الأمير أبي محمد مزدلي والي قرطبة[١]، وكان أمير المسلمين علي بن يوسف قد أسند إليه ولاية قرطبة وغرناطة منذ سنة ٥٠٥ هـ . وولى أخاه أبا الطاهر تميما والي غرناطة ولاية تلمسان بالمغرب. وعاث المرابطون في أراضي قشتالة ، وخربوا ربوعها بالنار والسيف ، واستولوا على حصن أرجنة أو أرلبة Oreja وقتلوا حاميته ، وسبوا كثيراً من النساء والأطفال ، ثم قصدوا إلى مدينة طليطلة عاصمة قشتالة ، وضربوا حولها الحصار مرة أخرى (٥٠٧ هـ — ١١١٤ م) . وكان ألبارهانيس قائد قشتالة الأكبر ، عندئذ في منطقة قونقة ، وكان قد استطاع انتزاع قونقة ، من المرابطين (١١١١م) ، ولكنها لم تلبث في يد القشتاليين سوى فترة يسيرة . فلما ترامت إليه أنباء الغزوة المرابطية ، وحصار المرابطين لطليطلة ، هرع لمدافعتهم في جيش قوامه عشرة آلاف فارس . ونشبت بين القشتاليين والمرابطين تحت أسوار المدينة المحصورة ، معارك عديدة ، مني فيها كل من الفريقين بخسائر ، وفقد القشتاليون وفقاً لأقوال الروايتين العربية والنصرانية سبعمائة قتيل ، ولكنهم استطاعوا أن يحملوا المرابطين على رفع الحصار ، بعد أن نجحوا في إحراق آلاتهم الثقيلة[٢] . وتقول الرواية العربية إن ألبارهانيس حينما أقبل لنصرة مواطنيه ، وسار مزدلي للقائه ، فر أمامه ليلا ولم يجرأ على مقاتلته ، وعاد مزدلي على أثر ذلك إلى قرطبة ظافراً ، ثم تقص علينا خبر غزوة أخرى قام بها مزدلي في منطقة وادي الحجارة ، وأن صاحبها « الزند غرسيس » حينما سار مزدلي لقتاله ، لجأ إلى الفرار واحتوى مزدلي على محلته وسائر أثقاله وأمتعته[٣] وهي غزوة لم تشر إليها الرواية النصرانية . وتزيد الرواية العربية على ذلك أن الأمير مزدلي توفي في شوال سنة ٥٠٨ هـ (١١١٥م) أعني في العام التالي لحصار طليطلة ، وذلك أثناء غزوة قام ضد القشتاليين على مقربة من حصن مسطانية[٤] الواقع في طريق قرطبة . وكتب بنبأ وفاته إلى أمير المسلمين علي بن تاشفين ، فأمر بتولية ولده محمد بن مزدلي مكانه على قرطبة ، وبتولية ولده عبد الله على غرناطة . ولم يمكث محمد في ولاية

---

(١) ويقول ابن الكرديوس في كتاب « الاكتفاء » إن الحملة كانت بقيادة الأميرين مزدلي ، وسير ابن أبي بكر (مخطوط أكاديمية التاريخ السالف الذكر لوحة ١٦٥ ا) .

(٢) **M. Lafuente: ibid; Vol. III. p. 230.**

(٣) روض القرطاس ص ١٠٥ .

(٤) ابن الخطيب عن ابن الصيرفي في الإحاطة (مخطوط الإسكوريال السالف الذكر لوحة ١٨٠) ؛ والبيان المغرب (الأوراق المخطوطة هسبيرس ص ٧٧) .

قرطبة سوى أشهر قلائل ، ثم خرج فى عسكره ليرد القوات القشتالية التى اقتربت من أراضى ولاية قرطبة ، ونشب بين الفريقين قتال عنيف سقط فيه محمد بن مزدلى وعدد كبير من زعماء لمتونة منهم الأمير محمد بن الحاج ، والأمير أبو إسحق ابن دانية ، والأمير أبو بكر بن واسينو ، وجملة وافرة من الحشم وأهل الأندلس ، وذلك فى مستهل صفر سنة ٥٠٩ ﻫ (٢٧ يونيه ١١١٥ م) . ولما وصل خبر هذه النكبة إلى أمير المسلمين على بن يوسف ، بادر فندب لولاية قرطبة ابن عمه الأمير أبا بكر يحيى بن تاشفين ، فقدم إليها على عجل ، وما كاد يستقر بها حتى حشد قواته ، وسار فى أثر القشتاليين صوب بياسة ، ولحق به عبد الله بن مزدلى صاحب غرناطة فى قواته ونشبت بين المرابطين والنصارى معركة جديدة ، هزم فيها المرابطون مرة أخرى ، وقتل منهم عدد جم ، وذلك فى اليوم الثامن والعشرين من جمادى الثانية سنة ٥٠٩ ﻫ (أواخر أكتوبر ١١١٥ م)(١) .

وكان الأمير سير بن أبى بكر اللمتونى والى إشبيلية ، والقائد العام للجيوش المرابطية فى اسبانيا قد توفى قبيل وفاة الأمير مزدلى بقليل فى جمادى الأول فى سنة ٥٠٧ ﻫ (١١١٤ م) ، فعين مكانه لولاية إشبيلية محمد بن فاطمة فلبث على ولايتها حتى توفى سنة ٥١٥ ﻫ (١١٢١ م) . وهكذا فقد المرابطون فى شبه الجزيرة بوفاة مزدلى ، وسير بن أبى بكر ، قائدين من أعظم قواد لمتونة وألمعهم .

وقد كان مزدلى ، وهو مزدلى بن تيولتكان بن الحسن بن محمد بن ترقوت (تُرجوت) ، من أركان الدولة اللمتونية والعصبة الصنهاجية ، وكان من أقارب يوسف بن تاشفين لالتقائهما فى ترقوت. ويصفه ابن الخطيب بأنه كان «بطلا ثبتا ، بهمة من البهم ، بعيد الصيت ، عظيم الجلد ، أصيل الرأى ، مستحكم الحنكة ، طال عمره ، وحمدت مواقفه ، وبعدت غاراته ، وعظمت فى العدو وقائعه»(٢) وقد كان من أعظم أعمال مزدلى استرجاعه لمدينة بلنسية من أيدى جنود السيِّد الكمبيادور بعد وفاته وجنود قشتالة ، وذلك فى سنة ٤٩٥ ﻫ (١١٠٢ م) . وكان

---

(١) البيان المغرب (الأوراق المخطوطة السالفة الذكر — هسبيرس ص ٧٧) . وروض القرطاس ص ١٠٥ . ومما يلفت النظر أن صاحب البيان يذكر هنا الأمير محمد بن الحاج ، وهو والى سرقسطة بين قتلى موقعة قرطبة . بيد أننا سنرى ، فيما بعد أن هناك رواية أخرى تضع مقتله فى العام السابق وفى غزوة أخرى بالثغر الأعلى .

(٢) ابن الخطيب فى الإحاطة (مخطوط الإسكوريال السالف الذكر لوحة ١٨٠) .

قد وُلّى بلنسية ثم قرطبة ، وغرناطة أيام يوسف ، ثم وُلّى قرطبة قبيل وفاته ببضعة أعوام من قبل على بن يوسف .

وأما سير بن أبى بكر ، فقد كان أيضاً من أعظم زعماء لمتونة وقادتها ، وقد ظهر بنوع خاص بشجاعته وبراعته العسكرية الفائقة فى موقعة الزلاّقة ( ٤٧٩ هـ ) . ولما جاز أمير المسلمين يوسف بن تاشفين جوازه الثالث إلى شبه الجزيرة فى سنة ٤٨٣ هـ ، وبدأ افتتاح دول الطوائف بالاستيلاء على غرناطة ، فوض عند عودته إلى المغرب شئون الأندلس إلى الأمير سير ، وعهد إليه بافتتاح ممالك الغرب الأندلسية ، فافتتح سير مملكة إشبيلية من أيدى بنى عباد ( ٤٨٤ هـ ) ، ثم افتتح مملكة بطليوس من أيدى بنى الأفطس ( ٤٨٨ هـ ) ، فى الظروف والمناظر العنيفة المروعة ، التى فصلناها فى كتابنا « دول الطوائف » . وكانت آخر الغزوات العظيمة التى قام بها سير ، هى افتتاحه لقواعد الغرب من يابرة حتى أشبونة سنة ٥٠٤ هـ ( ١١١١ م ) حسبما تقدم من قبل .

ويجب أن نلاحظ أنه كان من أسباب نشاط الغزوات المرابطية فى تلك الفترة ، وإقدامها على مهاجمة طليطلة عاصمة قشتالة ومحاصرتها غير مرة ، ما وقع فى اسبانيا النصرانية عقب وفاة ألفونسو السادس دون وارث ( ١١٠٩ م ) ، وقيام ابنته أوراّكا فى العرش ، من حروب أهلية حول السلطان بين أوراكا وزوجها ألفونسو الأول ملك أراجون من جهة ، وبينها وبين أشراف جلّيقية أنصار ولدها ألفونسو ريمونديس من جهة أخرى ، وضعف الجبهة الدفاعية النصرانية بذلك ، وعجزها عن القيام بغزوات كبيرة فى أراضى المسلمين ، وخصوصاً بعد مصرع ألبارهانيس قائد قشتالة الكبير فى إحدى هذه المعارك الأهلية ، وقد كان هذا القائد الشهير زميل السيد الكمبيادور ومعاونه ، من أعظم قادة اسبانيا النصرانية فى هذا العصر .

## — ٣ —

وشملت موجة الغزو المرابطى شرقى الأندلس كذلك . ونحن نعرف أن المرابطين بقيادة أبى عبدالله محمد بن الحاج والى بلنسية ، قد استولوا على سرقسطة من أيدى بنى هود فى أواخر سنة ٥٠٣ هـ ( ١١١٠ م ) حسبما سبق أن فصلناه من قبل فى تاريخ مملكة سرقسطة . وكان يوسف بن تاشفين قد أوصى ولده علياً

فيما أوصاه ، بأن يهادن بنى هود ملوك سرقسطة ، وأن يتركهم فى ملكهم حائلا بينه وبين النصارى . وكانت هذه سياسة فطنة ، تتفق مع ظروف سرقسطة وموقعها فى الثغر الأعلى بين الممالك النصرانية . ولكن الحوادث سارت فى طريق آخر ، واختلف أهل سرقسطة مع ملكهم عبد الملك بن المستعين بن هود الملقب بعماد الدولة ، لارتمائه فى أحضان النصارى ، وتغليبهم فى مصالح الدولة . وكتبوا إلى أمير المسلمين على بن يوسف يدعونه لامتلاك بلادهم . وكان على بعد أن تلقى فتوى الفقهاء بوجوب خلع عماد الدولة ، وفقاً لرغبات أهل سرقسطة ، وبعد أن زحفت الجنود المرابطية بالفعل من بلنسية نحو الشمال — قد أراد أن يبقى على رياسة بنى هود استجابة لضراعة عماد الدولة ، ولكن الحوادث سبقته ، وانتهى المرابطون بالاستيلاء على سرقسطة ، وذلك فى اليوم العاشر من ذى القعدة سنة ٥٠٣ هـ ( يونيه ١١١٠ م ) ودخل ابن الحاج قصر « الجعفرية » الشهير واستقر فيه . وكان عماد الدولة حينما شعر بمقدم المرابطين ، قد غادر سرقسطة فى أهله وأمواله إلى حصن روطة المنيع ، الواقع على نهر خالون ( شلون ) . وهكذا انتهت مملكة سرقسطة ، وانتهى ملك بنى هود ، وامتد سلطان المرابطين بذلك ، إلى قلب الثغر الأعلى .

ولبث ابن الحاج واليا على سرقسطة بضعة أعوام ، وهو يحوطها بحمايته ويرد عنها أطماع النصارى ، المحيطين بها من الشرق والغرب والشمال ، ويقوم بغزو أراضيهم والعيث فيها من آن لآخر . وفى سنة ٥٠٤ هـ ( ١١١١ م ) زحف ألفونسو الأول ملك أراجون ( المحارب )[1] ، نحو سرقسطة ومعه عماد الدولة عبد الملك ابن المستعين حتى أصبح قريباً منها ، وخرج محمد بن الحاج فى قواته لمدافعته ، وقدمت الجند المرابطية من مرسية على عجل يقودها واليها محمد بن عائشة ، فلما رأى ألفونسو تفوق المرابطين ، ارتد أدراجه ، وطاردته العساكر المرابطية حيناً ، واستمر المرابطون على غزواتهم المخربة فى أراضيه . وسارت قوة منهم بقيادة على ابن كنفاط اللمتونى صوب قلعة أيوب ، وحاصرت بعض حصون عبد الملك بن هود ، فاستغاث عبد الملك بحليفه وحاميه ألفونسو ، وقدمت لمعاونته نجدة من النصارى ، فانهزم المرابطون وأسر قائدهم ابن كنفاط ، وبقى فى أسر عبد الملك مدة ثم أخلى سبيله[2] .

---

( ١ ) تسمى الرواية الإسلامية ألفونسو المحارب « ابن رذمير » نسبة إلى اسم ابيه «سانشو راميرز »

( ٢ ) البيان المغرب ( الأوراق المخطوطة السالفة الذكر — هسبيرس ص ٧٣ ) .

ولما اشتدت موجة الغزو المرابطى لأراضى قشتالة ، خرج ابن الحاج فى قواته من سرقسطة فى شهر صفر سنة ٥٠٨ هـ ( يوليه ١١١٤ م ) ، وانضم إليه فى لاردة محمد بن عائشة فى قواته . وسارت القوات المرابطية المتحدة شرقا ، واخترقت أراضى إمارة برشلونة ، وهى تثخن فيها ، وتستولى على مقادير عظيمة من السبى والغنائم ، واستمرت كذلك حتى وصلت إلى ظاهر مدينة برشلونة العظيمة . وعندئذ بعث ابن الحاج الغنائم والسبى مع بعض قواته لتعود من الطريق الكبير ، واتجه هو بباقى قواته غرباً ليسير من طريق البرية ، وهو أقصر وأقرب إلى سرقسطة ، ولكنه فوجئ خلال الطريق بقوات كثيفة من النصارى متأهبة فى فى كمائنها ، فنشب القتال بين الفريقين ، وقاتل ابن الحاج وقواته قتالا عنيفاً ، حتى سقط معظمهم ، وفى مقدمتهم — وفقاً لهذه الرواية — قائدهم الباسل ، ونجا ابن عائشة وقليل من صحبه . بيد أن ابن الحاج ، وفقاً لرواية ابن عذارى المتقدمة لم يقتل فى هذه الموقعة ، وإنما قتل فى العام التالى فى موقعة قرطبة التى سبق ذكرها . ولما علم أمير المسلمين على بهذه النكبة ، وما أصاب محمداً بن عائشة على أثرها من الذهول ، عين صهره زوج أخته الأمير أبا بكر بن ابراهيم بن تافلوت والى مرسية ، أيضاً والياً على بلنسية وطرطوشة وسرقسطة ، وأمره بالسير لغزو النصارى . فجمع ابن تافلوت سائر قواته ، وسار شمالا إلى برشلونة ، وهو يثخن فى أراضيها بالنار والسيف ثم حاصرها . وأقام على حصارها عشرين يوماً ، حتى خرج إلى لقائه أميرها رامون برنجير فى قوات برشلونة وأربونة ، ونشبت بين الفريقين معارك عنيفة قتل فيها كثير من النصارى ، وخسر المسلمون نحو سبعمائة قتيل ، وارتد المرابطون بعد ذلك صوب أراضيهم[1] .

وكان أبو عبد الله محمد بن الحاج من أكابر زعماء لمتونة وقوادها ، وكان يتصل بصلة القرابة المتينة ليوسف بن تاشفين ، إذ يرجع نسبه إلى ترقوت أو ترجوت جد العاهل المرابطى ، وعرف بابن الحاج ، إذ قام أبوه بأداء الفريضة وقد ظهر منذ البداية ، مذ عبر إلى شبه الجزيرة مع يوسف بن تاشفين فى سنة ٤٨٤ هـ ، بمقدرته وأعماله العسكرية البارزة ، أولا حين افتتاحه لقرطبة من يد

---

( ١ ) روض القرطاس ص١٠٤ و١٠٥ ، وراجع أيضاً : F. Codera: ibid; p. 20 - 22. هذا وقد سبق أن أتينا على رواية ابن عذارى التى تقول بمقتل ابن الحاج ضمن من قتلوا من أمراء لمتونة فى موقعة قرطبة فى سنة ٥٠٩ هـ .

ابن عباد، ثم فى محاربته للقشتاليين ، فى غير موقعة . ولما تولى على بن يوسف ، عينه أولا والياً للمغرب ، ولكنه لم يمكث فى هذا المنصب سوى أشهر قلائل ، ثم ندبه لولاية بلنسية وشرقى الأندلس ، فى سنة ٥٠١ هـ . ومن بلنسية سار ابن الحاج إلى سرقسطة ، استجابة لدعوة أهلها ، وانتزعها من يد بنى هود ، واستقر والياً لها حسبما تقدم ..

وكان من أعظم الأعمال التى حققها أمير المسلمين على بن يوسف يومئذ ، استرداده للجزائر الشرقية واستنقاذها من أيدى الغزاة النصارى . وقد سبق أن تحدثنا ، عند كلامنا عن مملكة دانية ، عن أخبار الجزائر الشرقية وأحوالها ، وكيف أنه حينما سقطت مملكة دانية فى يد المقتدر بن هود فى سنة ٤٦٨ هـ ، ( ١٠٧٦م ) ، وانتهت بذلك رياسة على بن مجاهد موفق الدولة ، كان على حكمها ، ( أى الجزائر ) ، عبد الله المرتضى ، وكيف أن المرتضى أعلن استقلاله عندئذ ، واستبد بحكمها . ولما توفى المرتضى فى سنة ٤٨٦ هـ ، خلفه فى حكم الجزائر فتى من أخص فتيانه هو مبشر بن سليمان ، فضبط شئونها بحزم وكفاية ، وتلقب بناصر الدولة ، واستمر على حكمها فترة طويلة ، وهو بمعزل عن حوادث شبه الجزيرة . وكانت الجيوش المرابطية خلال ذلك ، تستولى تباعا على قواعد الأندلس الشرقية ، فاستولت على بلنسية فى سنة ٤٩٥ هـ ، ثم استولت بعد ذلك على سرقسطة وقواعد الثغر الأعلى ( ٥٠٢ هـ ) . بيد أن مبشراً لم يفكر بالرغم من وجود الجيوش المرابطية على مقربة منه فى ثغور اسبانيا الشرقية ، أن ينضوى تحت لواء المرابطين ، أو يعقد الحلف معهم ، واستمر على استقلاله بحكم الجزائر ، حتى دهمتها الغزوة النصرانية الكبرى .

وقد سبق أن فصلنا فى أخبار مملكة دانية ، من كتابنا « دول الطوائف » قصة الغزو النصرانى للجزائر الشرقية ، وكيف أنه لما كثرت غارات البحارة المسلمين على الشواطىء الإيطالية الشمالية والشرقية ، وشواطىء قطلونية الإسبانية ، عقدت جمهوريتا بيزة ( بيشه ) وجنوة ، وإمارة برشلونة حلفا لافتتاح الجزائر ، وفى أوائل سنة ٥٠٨ هـ ( ١١١٤م ) خرج من مياه جنوة أسطول الغزو ، وقوامه نحو ثلاثمائة سفينة ، ومعه وحدات بحرية أخرى من برشلونة وفرنسا ، وفرض الغزاة على مدينة ميورقة عاصمة الجزائر حصاراً محكماً صارماً ، وقاسى المسلمون أهوالا من الحصار الذى استمر زهاء عام ، وفى أواخر سنة ٥٠٨ ( أوائل

سنة ١١١٥م ) اقتحم الغزاة أسوار ميورقة ودخلوها ، واحتلوا قصر المُدَينة ، وعاثوا فى أنحائها ، قتلا ونهباً وسبياً ، وقتلوا من سكانها جملة عظيمة ، وكانت محنة مروعة .

وفى خلال ذلك ، كان المرابطون يرقبون تطور الحوادث فى الجزائر . ولم يكن أمير المسلمين بغافل عن أهمية الجزائر ، وأهمية موقعها بالنسبة لحماية شواطئ الأندلس الشرقية . ولما حاصر النصارى ميورقة ، بعث مبشرٌ بصريخه إلى أمير المسلمين ، ولكنه توفى خلال الحصار ، وحاول خلفه القائد أبو الربيع سليمان ، أن يغادر الجزيرة ليسعى فى طلب النجدة ، فأسره النصارى . ولكن صريخ مبشر وصل إلى أمير المسلمين على يد بحار جرىء هو القائد أبو عبد الله بن ميمون ، استطاع أن يخترق الحصار بسفينته تحت جنح الظلام ، ولم يستطع النصارى لحاقا به .

وكان أمير المسلمين ، قد أتم عندئذ أهباته البحرية الضخمة . فبعث لإنجاد الجزائر واستنقاذها أسطولا ضخماً قوامه نحو ثلاثمائة سفينة . وأقلعت السفن المرابطية بسرعة صوب الجزائر ، بقيادة أمير البحر المرابطى ابن تفرتاش أو ( تافرطاش ) . ولما علم البيزيون وحلفاؤهم بمقدم هذا الأسطول الإسلامى الضخم ، وأدركوا أن لا أمل لهم فى مدافعته ، غادروا ميورقة مثقلين بالغنائم والسبى ، بعد أن استصفوا ثرواتها وخربوا ربوعها ، وأحرقوها وقتلوا معظم أهلها . ووصلت السفن المرابطية فى أثرهم إلى الجزيرة فى أواخر سنة ٥٠٩ هـ ( ١١١٦م ) واحتلها المرابطون وشرعوا فى تعميرها ، وعاد إليها الفاورن من سكانها . وتزيد الرواية الإسلامية على ذلك أنه لما انصرفت السفن النصرانية ناجية إلى أوطانها ، دهمتها العواصف والأمواج العالية ، فحملت منها أربع سفن صوب ثغر دانية ، فطاردها القائد أبو السداد ، حتى غرقت منها واحدة ، وتمكن من أسر الثلاث الأخرى[١] .

وعين أمير المسلمين والياً للجزائر هو وانور بن أبى بكر اللمتونى ، وبذلك أضحت الجزائر الشرقية جزءاً من الإمبراطورية المرابطية الكبرى . ودخلت فى عهد جديد من تاريخها . وسنرى فيما بعد ، أى دور خطير تلعبه الجزائر الشرقية ، كمركز للثورة « المرابطية » المريرة ، التى حمل لواءها بنوغانية حكام

---

( ١ ) ابن الكرديبوس فى كتاب الاكتفاء ( مخطوط أكاديمية التاريخ السالف الذكر لوحة ١٦٥ ب ).

الجزائر ، ضد الدولة الموحدية قاهرة الدولة المرابطية ، ووريثة ملكها فى المغرب والأندلس[١] .

— ٤ —

فى بداية سنة ٥٠٣ هـ ( ١١٠٩ م ) وقع فى قرطبة حادث كبير الدلالة ، عميق الأثر ، بالرغم من عدم أهميته الظاهرة ، هو إحراق كتاب « إحياء علوم الدين » للإمام أبى حامد الغزالى ، ويقول ابن القطان إن هذا الحادث وقع « فى أول عام ثلاثة وخمسمائة » ، ومعنى ذلك أنه وقع قبيل عبور على بن يوسف إلى شبه الجزيرة بأسابيع قلائل . وكان أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، فى أواخر عهده على صلة طيبة بالإمام الغزالى ، وكان يستفتيه باعتباره عميد فقهاء المشرق ، فى عظائم الأمور ، ومن ذلك أنه استفتاه فى مسألة خلع ملوك الطوائف[٢] ، وكان الغزالى من جانبه يقدر يوسف ونصرته للإسلام ، حتى قيل إنه اعتزم أن يسير إلى المغرب لرؤياه ، ولكنه حينما وصل إلى الإسكندرية ، علم بوفاة يوسف ( سنة ٥٠٠ هـ ) ، فعدل عن رحلته[٣] . ولكن الأمور تغيرت فى عهد ولده على . وكان علىّ يتسم بنوع من الورع والزهد ، ويميل إلى إيثار الفقهاء ومشاورتهم ، فاشتد نفوذ الفقهاء بالمغرب والأندلس فى عهده ، حتى أصبح لا يقطع فى أمر من الأمور ، صغيراً كان أو كبيراً إلا برأيهم ، وهكذا علت مكانتهم ، واشتد نفوذهم ، حتى سيطروا فيما بعد على الدولة . وكان من أشدهم نفوذاً لدى أمير المسلمين ، قاضى قرطبة أبو عبد الله محمد بن حَمْدين . وكان الفقهاء عندئذ يؤثرون علم الفروع بعنايتهم ، وهو علم العبادات ، والمعاملات ، ويهملون علم الأصول ، أو أصول الدين . وكان لا يحظى لدى أمير المسلمين إلا من برع فى علم الفروع[٤] . فلما وصلت كتب

---

( ١ ) يراجع فى أخبار غزو النصارى للجزائر الشرقية واستنقاذها على يد المرابطين ، ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٥ ، وروض القرطاس ص ١٠٥ ، والروض المعطار ( صفة جزيرة الأندلس ) ص ١٨٨ ، وراجع كتابى « دول الطوائف » ص ٢٠١ — ٢٠٤ ومن المراجع القشتالية :
A. Campaner y Fuertes : Bosquejo Historico de la Dominación Islamita en las Islas Baleares (Palma 1888) p 105 - 135
وكذلك : P. y Vives : Los Reyes Taifas, p. 41

( ٢ ) ابن خلدون فى العبر ج ٦ ص ١٨٧ و ١٨٨ ، وأعمال الأعلام لابن الخطيب ص ٢٤٧ . وراجع كتابى دول الطوائف ص ٣٢٧ .

( ٣ ) ابن خلكان ج ٢ ص ٤٨٨ ، والمؤنس فى أخبار إفريقية وتونس لابن دينار ص ١٠٦ .

( ٤ ) المراكشى فى المعجب ص ٩٥ و ٩٦ .

الإمام الغزالى إلى المغرب والأندلس ، وفى مقدمتها كتاب « الإحياء » ، وقرئت وذاع ما فيها ، سخط الفقهاء المرابطون ، وأنكروا كثيراً من المسائل التى وردت فى كتاب « الإحياء » ، وزعموا أنها مخالفة للدين ؛ وكان أبو القاسم ابن حَمْدين[1] من أشد الفقهاء مبالغة فى ذلك حتى أنه قال « بتكفير » من قرأ كتاب « الإحياء » . ورفع ابن حمدين ومعه فقهاء قرطبة ، الأمر إلى على بن يوسف ، وأجمعوا على وجوب مطاردة كتاب « الإحياء » وإحراقه ؛ فأخذ على برأيهم ، وجمعت نسخ الكتاب واحتفل بإحراقها فى رحبة المسجد الجامع بقرطبة أمام الباب الغربى بعد أن أشبعت جلودها بالزيت ، ونفذت كتب أمير المسلمين ، إلى سائر أنحاء الأندلس والمغرب بإحراقه حيثما وجد ، وانتزعت نسخه من أصحابها ، وتوالى إحراق الكتاب فى سائر أنحاء المغرب ، وشدد أمير المسلمين فى ذلك حتى إنه أنذر بعقوبة الإعدام ومصادرة المال لكل من وجد عنده[2] ، واستمرت هذه المطاردة لكتاب الإحياء وباقى كتب الغزالى طوال أيام المرابطين ، وجدد المرسوم بذلك فى أواخر عهد تاشفين بن على بن يوسف ( سنة ٥٣٨ هـ ) حسبما نذكر بعد .

والحقيقة أن حملة الفقهاء المرابطين على كتاب الإحياء ، لم تكن راجعة لأمور تتعلق بالعقيدة أو لأنه يخالف الدين فى شىء ، بل كانت ترجع قبل كل شىء إلى ما ورد فيه من حملة لاذعة على علماء الفروع ، والتنويه بجهلهم ، وسخف مجادلاتهم السطحية ، ووصف الغزالى لهم بأنهم « مجانين » ، وكونهم يجهلون علم الأصول ، الذى ينوه الغزالى بأهميته وعظيم قدره[3] .

ويحمل ابن القطان على هؤلاء الجهلة الذين قاموا بإحراق هذا « الكتاب العظيم » ، ويقول لنا إن إحراقه كان سبباً لزوال ملكهم ، واستئصال شأفتهم ، ثم ينقل إلينا قصة وجود المهدى ابن تومرت فى حلقة الإمام الغزالى بالمشرق ، ووقوف الغزالى

---

( ١ ) هو أخو القاضى أبو جعفر أحمد بن حمدين الثائر فيما بعد بمدينة قرطبة .

( ٢ ) ابن القطان فى « نظم الجمان » ( المخطوط السالف الذكر لوحة ١٦ ا ) ، ونقله ابن عذارى فى البيان المغرب ( الأوراق المخطوطة — هسبيرس ص ٧٦ ) ، والحلل الموشية ص ٧٦ ، والمعجب ص ٩٦ .

( ٣ ) المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس ص ١٠٦ و ١٠٧ ، وراجع مقدمة العلامة جولدسيهر الفرنسية لكتاب « محمد بن تومرت » : **Mohamed ibn Toumert et la Théologie de l'Islam dans le Maghreb au XI eme Siècle p. 35 & 36**

منه على ما تم من إحراق كتابه بقرطبة ، ودعائه « أن يمزق الله ملكهم كما مزقوه ، وأن يذهب دعوتهم كما أحرقوه » . بيد أننا سوف نرى فيما بعد ، عند الكلام على نشأة ابن تومرت وظهوره ، بطلان هذه القصة ، وما يحيط بها من المتناقضات المنطقية والزمنية .

— ٥ —

ولم يمض قليل على استرداد المرابطين للجزائر الشرقية حتى عبر أمير المسلمين على بن يوسف البحر إلى الأندلس للمرة الثالثة منذ جلوسه ، وذلك فى أواخر المحرم سنة ٥١١ هـ الموافق لشهر مايو سنة ١١١٧ م[١] ، أعنى فى بداية الصيف ، وهو الفصل المفضل للعبور والجهاد ، على نحو ما وقع فى الجواز الثانى . وفى روض القرطاس أن هذا العبور قد وقع سنة ٥١٣ هـ ، بعد سقوط سرقسطة وقواعد الثغر الأعلى ، وأنه هو الجواز الثانى لأمير المسلمين ، وهو تحريف واضح فى التاريخ والوصف . ولا تقدم إلينا الرواية الإسلامية عن هذا الجواز ، وما اقترن به من الحوادث تفاصيل شافية ، ويكتفى صاحب الحلل الموشية وابن الخطيب كلاهما ، بالإشارة إليه فى كلمات عابرة . ولكن صاحب روض القرطاس وابن عذارى يقدمان لنا عنه بعض التفاصيل . وفى الرواية الأولى ، أن عليا جاز إلى الأندلس برسم الجهاد وإصلاح شئونها ، وجازت معه جموع غفيرة من المرابطين والمتطوعة من العرب وزناتة والمصامدة وسائر قبائل البربر ، وأنه سار فى قواته صوب قرطبة وعسكر فى خارجها ، فأتته الوفود للسلام عليه ، ووقف منها على أحوال البلاد ، وكان من تصرفاته عندئذ ، أن عزل القاضى أبا الوليد بن رشد ( الجد ) عن قضاء قرطبة ، وولى مكانه أبا القاسم ابن حمدين[٢] . ولكن سوف نرى أن هذا التصرف قد وقع فى مناسبة لاحقة . أما ابن عذارى فإنه يقول لنا ، إن عليا قصد عند عبوره إلى مدينة إشبيلية ، وهناك لحقت به العساكر العدوية والأندلسية ، وقصدت إليه وفود العلماء والفقهاء والمجاهدين من قرطبة ، وكذلك جموع المتطوعة من غرناطة . وأما ما يتعلق بغزوات على فى هذا الجواز فيتخلص فى أنه سار فى قواته نحو أراضى البرتغال ، وغزا قُلُمرية ( ويسمهما روض القرطاس سنبرية ،

---

( ١ ) الحلل الموشية ص ٦٢ ، وابن الخطيب فى أعمال الأعلام ص ١٤٧ ، والبيان المغرب ( الأوراق المخطوطة السالفة الذكر — هسبيرس ص ٧٩ ) .

( ٢ ) روض القرطاس ص ١٠٦ .

وابن عذارى قلمورية ) ، وأثخن فى تلك الأنحاء تخريباً وقتلا وسبياً ، ولم تستطع قوات الملكة تيريسا ملكة البرتغال يومئذ ، أن تقوم بأية أعمال دفاعية ذات شأن ، وفر أمامه النصارى فى كل مكان ، واعتصموا بالمعاقل المنيعة ، وأنه على العموم « دوخ بلاد الشرك بجيوش لا تحصى »[١] . ويستفاد من أقوال الرواية النصرانية أن علياً وصل بقواته إلى أحواز قلمرية ، وبعد أن حاصرها ، دخلها عنوة ، وذلك فى يوم ٢٢ يونيه سنة ١١١٧م ، وهو يوافق يوم ١٨ صفر سنة ٥١١ هـ[٢] . ويقول لنا ابن عذارى إن حصار قلمرية استمر عشرين يوما ، ومعنى ذلك أنه بدأ فى ٢ يونيه الموافق ٢٨ من المحرم ، فإذا ذكرنا أن علياً قد عبر إلى الأندلس فى أواخر المحرم، وفقاً لرواية ابن عذارى ، فإنه تبدو ثمة فى التواريخ ثغرة واضحة . وإذن فلابد أن يكون عبور على قد وقع فى أوائل المحرم ، أو أن تكون قلمرية قد سقطت فى أيدى المرابطين ، بعد التاريخ الذى تحدده الرواية النصرانية ، بشهر أونحوه ، وهو ما يفسح لمسير على وغزوته بضعة أسابيع ، وهى أقل ما يمكن أن تستغرقه مثل هذه الغزوة .

والظاهر أن علياً لم يحتفظ بقُلُمرية لأية مدة ، فقد انصرف عنها عقب افتتاحها إلى إشبيلية حسبما يقول ابن عذارى . ويفسر ذلك موقع قلمرية النائى ، وصعوبة الاحتفاظ بها فى منطقة يحيط بها النصارى من كل صوب .

وتذكر لنا الرواية الإسلامية نبأ غزوة قام بها فى نفس الوقت القائد عبد الله ابن فاطمة ، ومنصور بن الأفطس — وهو الذى سبق أن ذكرنا خبر عوده من أراضى النصارى إلى إشبيلية والتجائه إلى حماية أمير المسلمين — فى أرض النصارى ، وهى غزوة عادا منها إلى إشبيلية مثقلين بالسبي والغنائم الكثيرة[٣] .

— ٦ —

وقضى أمير المسلمين على بن يوسف ، عقب عوده من الأندلس ، بحاضرته مراكش ، زهاء أربعة أعوام ، وفى أوائل سنة ٥١٥ هـ ( ربيع سنة ١١٢١م ) ، عبر إلى شبه الجزيرة مرة أخرى فى جيش عظيم من صنهاجة وزناتة ومصمودة وغيرها من قبائل البربر ، وقيل أن حشوده لم تبلغ فى أية عبور سابق ما بلغته هذه

( ١ ) الحلل الموشية ص ٦٣ .

( ٢ ) F. Codera : Dec. y Dis. de los Almoravides, p. 256

( ٣ ) البيان المغرب ( الأوراق المخطوطة هسبيرس ص ٧٩ ) .

المرة من الضخامة والأهبة . وكان هذا هو الجواز الرابع لأمير المسلمين . وقد اختلفت الرواية فى بواعثه ، فقيل إن علياً اهتز لما بلغه من توالى المحن على جيوشه فى شبه الجزيرة ، وبخاصة لما أصابها فى كتندة من هزيمة ساحقة ، فعبر إلى الأندلس ، لتدارك الموقف ، وإصلاح الأمور ، والعمل على توطيد سمعة الجيوش المرابطية[1] ، بيد أنه كان ثمة باعث أهم وأخطر ، وهو الذى تردده أكثر من رواية ، وهو قيام الثورة ضد المرابطين فى قرطبة . ويلخص لنا صاحب الحلل الموشية الحادث فى أن أمير المسلمين كان قد ولّى على قرطبة الأمير أبا يحيى بن روادة ، فحدث بينه وبين أهلها نفور وسوء تفاهم فثاروا عليه ، وحدثت بينهم وبين من كان بها من المرابطين فتنة كبيرة ، ونهب العامة قصر الوالى ، ودور المرابطين ، واشتدت الحال[2] . ولكن ابن عذارى يقدم إلينا رواية أخرى يقول فيها : إنه فى سنة ٥١٤هـ ، « نفذ أمر أمير المسلمين إلى البلاد الأندلسية ، بإحياء المجانيق والآلات الحربية ، فلما كمل منه المختص بأغرناطة ، خرج لمشاهدة التجربة لها والرمى بها أجداى بن سير اللمتونى صاحب الأعنة . فتزاحم هناك الجم الغفير ، فرام الفسحة ، وأشار برسيخ كان فى يده فأصاب صبياً فى مقتله فقضى لوقته ، وانفض اللفيف ، وتهرجت البلدة . فاسترضى ولى الدم بدفع الدية ، فسكنت الثورة ، وأمهل الله القاتل ثم أخذه . ولما كمل ما أنشئ منها بقرطبة ، وقد جاء عيد النحر ، فخرج ثانية عامل البلدة لمشاهدة التجربة ، وقد أقبل السواد الأعظم الذى لا يطاق ، بمجمع حضور العيد ، وحضور كل ذاعر وناعق ، من كل حدب وشاهق ، فكثر التدافع والتزاحم ، ودهم الحشم ، فكثر بينهم التزاحم ، وأقبل لفيف الربض الغربى ، فالتقى بأسهم على القصر ، ورام صاحبه المدافعة بحشمه وخدمه فغلبوا ، واقتحم القصر عليه و[ انتهب ] جميع ما فيه ، وخرج هو فاراً بنفسه ، وركب القاضى أبو الوليد بن رشد فى أعلام الفقهاء ، فردع العامة ، وقمع السفلة »[3] .

وأخيراً يقدم إلينا ابن الأثير عن هذه الثورة تفاصيل أوفى ، ومن نوع خاص ، فيقول إنه لما كان يوم الأضحى ( من سنة ٥١٤هـ ) ، خرج الناس متفرجين ، فمد عبد من عبيد أبى بكر يده إلى امرأة وأمسكها . فاستغاثت فأغاثها الناس ،

---

( ١ ) روض القرطاس ص ١٠٦ .

( ٢ ) الحلل الموشية ص ٦٣ .

( ٣ ) ابن عذارى فى البيان المغرب ( الأوراق المخطوطة التى عثر بها المؤلف فى مكتبة القرويين ) .

فوقع بين العبيد وأهل قرطبة فتنة عظيمة ، ونشب القتال بينهم حتى دخل الليل ، ووصل الخبر إلى الوالى الأمير أبى بكر ، واجتمع إليه الفقهاء والأعيان ، واقترحوا عليه تهدئةً للحال أن يقتل واحداً من العبيد الذين أثاروا الفتنة ، فأنكر ذلك وغضب ، وفى اليوم التالى استعد للقتال وأظهر السلاح ، والعدد ، فاجتمع لقتاله أهل قرطبة بزعامة الأعيان والفقهاء ، وهزموه ، فتحصن بالقصر فحاصروه ، وفر منهم بعد مشقة ، فنهبوا القصر وأحرقوا دور المرابطين ، ونهبوا أموالهم ، وأخرجوهم من قرطبة على أقبح صورة(١) .

تلك هى تفاصيل الفتنة القرطبية التى أهمت أمير المسلمين ، وحملته على المبادرة إلى العبور إلى الأندلس . بيد أن هـذه الحوادث الظاهرة ، كانت تحمل فى ثنيتها عوامل أخطر وأبعد مدى . فلم يكن الأمر فى الواقع متعلقاً بحادث شغب عابر ، ولكنه كان أعمق جذوراً ، وكان أول فورة علنية ضد الحكم المرابطى . وقد سبق أن أشرنا إلى أن أساليب المرابطين فى الحكم لم تكن تتسم بكثير من الرفق والكياسة ، وأنها كانت بالعكس تتسم بالضغط والخشونة . ولم ينجح المرابطون مذ غلبوا على الأندلس ، منذ نحو ربع قرن ، أن ينشئوا فى البلاد المفتوحة نظاماً مدنياً للحكم ، فبقيت الأندلس فى أيامهم ، تعانى ضغط الحكم العسكرى المرهق ، وكانت تزمت المرابطين الدينى ، وحجرهم على الأفكار والعقائد ، سبباً آخر من أسباب التذمر لدى العقلاء والمفكرين . وكانت الحاميات المرابطية المكونة من أخلاط البربر ، تعامل جموع الشعب بصلف وتعال وجفاء ، وكانت جموع الشعب من جانبها تحقد عليها ، وتنظر إليها بعين المقت والحفيظة . وهذا إلى ما كان يشعر به الشعب الأندلسى بصفة عامة من ألم نفسى عميق لفقد استقلاله وحرياته ، فى ظل أولئك السادة الجدد ، الذين عبروا إلى الأندلس باسم إنقاذها ، ثم انتهوا بأن فرضوا عليها نيرهم الحديدى .

ولم تكن ثورة قرطبة سوى أولى البوادر المادية لهذه الثورة النفسية . ومن ثم فقد قدر أمير المسلمين خطورتها ، وبادر بالقدوم إلى الأندلس لمعالجة الموقف ، وكان فى استعداداته العسكرية الضخمة ما ينم عن توجسه من عواقب هذه الفورة التى ربما وجدت صداها فى بعض القواعد الأخرى .

(١) ابن الأثير ج ١٠ ص ١٩٧ .

ووصل على بن يوسف بحشوده إلى ظاهر قرطبة فى شهر ربيع الآخر سنة ٥١٥ هـ ( يوليه سنة ١١٢١ م ) ، وهو ينوى أن يخمد الهياج بشدة ، فأغلقت قرطبة دونه أبوابها ، واستعد أهلها للدفاع عن أنفسهم ، واستفتوا فقهاءهم ، فأفتوا بأنه متى عرضت الحقائق فيما حدث على أمير المسلمين ، وتبين منها أن الأمر لم يكن عدواناً من أهل قرطبة ، وإنما كان بالعكس دفاعاً عن الحرم والدماء والأموال ، فإن أصر أمير المسلمين على موقفه ، واستمع لنصح المفسدين ، وجب القتال دفاعاً عن النفس والحرم[١] . ويقول لنا ابن الأثير من جهة أخرى ، إن أمير المسلمين ، بادر عند مقدمه بحصار قرطبة ، فقاتله أهلها قتال من يريد أن يحمى دمه وحريمه وماله ، وأنه لما رأى شدة قتالهم ، دخل السفراء بينه وبينهم ، وسعوا فى الصلح[٢]. على أنه يبدو أنه لم يكن ثمة قتال ، وإنما تذرع أمير المسلمين بالهدوء والصبر ، وأقام أمام المدينة فترة ، حتى تردد إليه وجوه قرطبة وأعيانها . ويقول لنا ابن عذارى إن أمير المسلمين استدعى القاضى أبا الوليد بن رشد (الجد) قاضى قرطبة وفقهاء المدينة ، وجرت بينهم أحاديث طويلة فى أمر الثورة والانتزاء على الرياسة ، واقتحام قصر الوالى وانتهابه . وذكّر أعيان قرطبة أمير المسلمين بوصية أبيه ، فى أن يقبل من أحسن من أهل قرطبة ، وأن يتجاوز عمن أساء منهم. وكان محمد بن داود قاضى إشبيلية فى ركاب أمير المسلمين ، فجعل يعظم الأمر ، ويبالغ فى تصوير شناعته ، ويقول إنه اجتراء وعصيان وضلال . ودافع القاضى ابن رشد من جهة أخرى عن موقف أهل المدينة ، وبين أنهم لم يشقوا عصا ولا نبذوا طاعة ، وأنه كان من واجب الوالى أن يعاقب المذنب من عبيده ، فقال أمير المسلمين فتمكنوا منهم ، فقال ابن رشد ليس لنا قدرة على حصرهم ، وإنما يحصرهم صاحب الأمر ، ثم بعد ذلك يأمر الصفح عنهم . وانتهت المفاوضات بالاتفاق على أن يقوم أهل قرطبة بالتعويض عما نهب من المرابطين ، وارتضى أمير المسلمين هذا الاتفاق ، ولكنه غضب لموقف ابن رشد وإيضاحاته ، فصرفه عن القضاء ، وولى مكانه أبا القاسم بن حَمْدين ، وأمر كذلك بصرف الأمير عبدالله ابن تينغمر عن غرناطة ، وأسند نظر غرناطة إلى أخيه الأمير أبى الطاهر تميم ، وكان يومئذ بفاس ، فاستحثه إلى الحضور ، ولبث تميم والياً على غرناطة مدى

---

( ١ ) الحلل الموشية ص ٦٣ .

( ٢ ) ابن الأثير ج ١٠ ص ١٩٧ .

عامين ، ثم عين بعد ذلك والياً لإشبيلية مكان الأمير أبى بكر بن على بن يوسف ، فلبث واليها حتى وفاته فى سنة ٥٢٠ هـ[١] .

ولم يمكث على بن يوسف هذه المرة طويلا بالأندلس ، إذ وافته أنباء مزعجة من مراكش ، عن قيام محمد بن تومرت المهدى ببلاد السوس الأقصى ، واستفحال أمره[٢] .

(١) ابن عذارى فى البيان المغرب ( من الأوراق المخطوطة ، التى عثر بها المؤلف والتى سبقت الإشارة إليها ) ، وروض القرطاس ص ١٠٦ وكذلك : F. Codera: ibid; p. 237 & 238

(٢) الحلل الموشية ص ٦٤ ، ٧٤ .

# الفصل الثالث

## سقوط سرقسطة

سرقسطة وخواص موقعها . موقف أمرائها من الملوك النصارى . إستيلاء المرابطين عليها . أطماع قشتالة وأراجون نحوها . تربص ألفونسو ملك أراجون بها . ولاية الأمير أبى بكر بن ابراهيم لسرقسطة . حكمه اللامع ووفاته . ندب عبد الله بن مزدلى لولاية سرقسطة . أهبة أراجون وحلفاؤها من النصارى الصليبيين لافتتاحها . محاصرة النصارى لسرقسطة . اختلاف الروايات الإسلامية حول حوادث الحصار . رواية ابن عذارى عن القتال بين أهل سرقسطة والنصارى . عبد الله بن مزدلى ومدافعته للنصارى . صمود المدينة واستمرار الحصار . نضوب الموارد ووفاة ابن مزدلى . مقدم المرابطين بقيادة الأمير تميم . استغاثة أهل سرقسطة بالأمير وإحجامه . الرسالة التى وجهها قاضى سرقسطة إلى الأمير بالاستغاثة واللوم . ما تدل به هذه الرسالة . بواعث إحجام المرابطين وعدم الاعتداد بها . اضطرار أهل سرقسطة إلى طلب الهدنة. الإتفاق على تسليم المدينة ، وشروط هذا التسليم . تسليم سرقسطة ، وتحويلها إلى مدينة نصرانية . هجرة أهلها المسلمين . الآثار المترتبة على سقوط سرقسطة . استيلاء ألفونسو المحارب على طرسونة وقلعة أيوب . اهتمام على بن يوسف بهذه الحوادث . سير الجيوش المرابطية لمقاتلة الأرجونيين . موقعة كتندة وهزيمة المسلمين . سقوط قلعة دروقة .

— ١ —

مضت ثلاثة وثلاثون عاما ، مذ سقطت طليطلة فى يد ألفونسو السادس ملك قشتالة ، وجاشت الأندلس بهزتها العنيفة ، التى تمخضت عن مقدم المرابطين إلى شبه الجزيرة نصرة لإخوانهم فى الدين ، وإحرازهم لنصرهم الباهر فى الزلاّقة ( ٤٧٩ هـ ) ، ثم استقرارهم بعد ذلك سادة فى الأندلس . ثم شاء القدر ، بعد أن لمعت الجيوش المرابطية فى غير موقعة وغزوة فى أراضى اسبانيا النصرنية ، أن تفجع الأمة الأندلسية مرة أخرى ، بفقد قاعدة جديدة من قواعدها العظيمة ، هى سرقسطة قاعدة الثغر الأعلى .

كانت سرقسطة — وقد اشتق اسمها العربى من اسمها الرومانى **Caesar Augusta** — تمثل منذ عهد الإمارة ، زعامة الأسر العربية ، والرياسة المحلية ، فى الثغر الأعلى ، واستمرت هذه الزعامة قائمة خلال القرن الخامس الهجرى ، أولا فى بنى هاشم التجيبيين ، ثم فى خلفائهم بنى هود ، حتى وضع مقدم المرابطين حداً

لحياة دول الطوائف ، وكانت سرقسطة حسبما تقدم من قبل ، آخر القواعد التى سقطت فى أيديهم . وذلك فى أواخر سنة ٥٠٣ هـ ( ١١١٠ م ) .

وقد أشرنا من قبل إلى ما تمتاز به موقع سرقسطة الخاص من الناحيتين الإستراتيجية والقومية . فأما من الناحية الإستراتيجية ، فقد كان بُعد سرقسطة عن موسّطة الأندلس ، ومركز الحكومة الرئيسية ، وموقعها الحصين على الضفة اليسرى لنهر إيبرو ( إبرة ) ، ومناعة أسوارها العالية ، تعاون المتنزين بها على تحدى الحكومة المركزية ، وتوطيد استقلالهم المحلى . وكانت من جهة أخرى تجعلها حاجزاً طبيعياً بين أراضى المسلمين ، وأراضى النصارى . وأما من الناحية القومية ، فإن وقوع مملكة سرقسطة المسلمة بين الممالك النصرانية — بين إمارة برشلونة من الشرق ومملكتى أراجون وناڤار ( نبرّة ) من الشمال ، ومملكة قشتالة من الغرب — كان يحتم عليها أن تتبع نحو جيرانها النصارى ، سياسة خاصة ، يغلب عليها طابع السلم والتهادن ، والملق والخضوع أحياناً فى صورة أداء للجزية ، وذلك حتى تأمن شر أولئك الجيران الطامعين الأقوياء ، وكان ملوك سرقسطة فوق ذلك يستخدمون فى جيوشهم كثيراً من النصارى المرتزقة ، ومن هؤلاء أحياناً قادة مبرزون مثل السيِّد الكمبيادور ، وأحياناً كانوا يعتمدون على التحالف مع الملوك النصارى . وهكذا كانت مملكة سرقسطة تُحمل بموقعها وظروفها الخاصة ، على اتباع سياسة ، تجعلها فى شبه عزلة عن باقى الإمارات المسلمة . وقد كان هذا شأنها ، حينما قدم المرابطون إلى شبه الجزيرة الإسبانية ، وحينما بدأت جيوشهم تســتولى تباعاً على قواعد الأندلس الوسطى ، ثم الشرقية . ودخل المرابطون مدينة سرقسطة حسبما قدمنا ، فى أواخر سنة ٥٠٣ هـ ، ( ١١١٠ م ) ، استجابة لصريخ أهلها ، وكانت آخر القواعد الأندلسية التى استولوا عليها .

وشعر المرابطون منذ الساعة الأولى بهذا المركز الدقيق ، الذى تحتله سرقسطة فى قلب هذا المعترك من الإمارات النصرانية المتوثبة ، وشعروا بفداحة مهمتهم فى حمايتها والاحتفاظ بها . وكانت مملكة أراجون القوية جارة مملكة سرقسطة من الشمال قد استطاعت أن تنتزع منها بعض قواعدها الشمالية الهامة مثل مونتشون ، والمنارة ، ووشقة ، وبربشتر ، ولم يبق لسرقسطة من قواعدها ، سوى تطيلة ولاردة وإفراغة ، وثغرها على البحر المتوسط طرطوشة .

وكانت مدينة سرقسطة هدفاً لأطماع قشتالة وأراجون معاً . فنى صيف سنة ١٠٨٥ م ( ٤٧٨ هـ ) حاصرها ألفونسو السادس ملك قشتالة على أثر استيلائه على طليطلة ، محاولا الاستيلاء عليها ، ولم يرفع الحصار عنها إلا حينما وافته الأنباء بمقدم المرابطين إلى شبه الجزيرة . فغادرها على عجل ليجمع سائر قواته ، وليلقى هزيمته فى الزلاّقة فى شهر رجب ٤٧٩ ( أكتوبر ١٠٨٦ م ) . ولما رأى المستعين ابن هود ملك سرقسطة يومئذ ، اشتداد ضغط النصارى على مملكته ، ورأى من جهة أخرى انسياب الجيوش المرابطية إلى شرقى الأندلس ، واقترابها من الثغر الأعلى ، اعتزم أن يتقرب من المرابطين ، وأن ينضوى تحت لوائهم ، فبعث إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين سفارتين متواليتين ، وكان يوسف يرى أن تترك سرقسطة ، حاجزاً بين المرابطين والنصارى ، وبهذا أوصى ولده علياً قبيل وفاته ، ولكن الحوادث تطورت فيما بعد ، وانتهت باستيلاء المرابطين على سرقسطة وباقى قواعد الثغر الأعلى .

— ٢ —

لما استقر المرابطون فى سرقسطة تحت إمرة قائدهم محمد بن الحاج أول ولاتها من اللمتونيين ، كانت حوادث الثغر الأعلى ، تنذر باقتراب الخطر الداهم . وكان النصارى قد أنشأوا منذ سنة ١٠٩١م ( ٤٨٤هـ ) على ضفة نهر إيبرو اليسرى شمالى سرقسطة حصناً قوياً ، يقع على قيد أربعة فراسخ فقط منها ، واتخذوه قاعدة للضغط عليها ، وإرهاقها من آن لآخر ، وكان ألفونسو الأول ملك أراجون الملقب بالمحارب **El Batallator** ، والمسمى « ابن رذمير » فى الرواية العربية ، يترقب الفرص لمهاجمة سرقسطة ، وسبر غور المدافعين عنها ، وكانت قواته قد وصلت شرقاً حتى ظاهر لاردة ، واحتلت قلعة تاماريت القريبة منها وذلك فى سنة ١١٠٧ م .

ولما احتل المرابطون سرقسطة ، سار إليها ألفونسو فى العام التالى ( ٥٠٤ هـ — ١١١١ م ) وحاول مهاجمتها ، فردته عنها القوات المرابطية بقيادة ابن الحاج ومحمد ابن عائشة والى مرسية . ثم شغل ألفونسو بعد ذلك حيناً بالحرب التى نشبت بينه وبين زوجته أورّاكا ملكة قشتالة ، وانتهز المرابطون ، من جهة أخرى ، تلك الفرصة ، فقاموا ببعض الغزوات المخربة فى أراضى إمارة برشلونة ، وحاصروا الثغر العظيم ذاته حسبما فصلنا ذلك من قبل . ولما قتل ابن الحاج حين عودته من

تلك الغزوة ( ٥٠٨ — ١١١٤ م ) ، خلفه فى ولاية سرقسطة الأمير أبو بكر بن ابراهيم بن تافلوت المسّوفى والى مرسية ، وهو ابن عم أمير المسلمين على بن يوسف وصهره — زوج أخته — فلبث فى ولايتها زهاء عامين . وقد كان هذا الأمير من خيرة أمراء الدولة المرابطية ، كرماً وجوداً وشجاعة ، وظهوراً فى ميدان الفضائل ، وقد أقام خلال عهده القصير بسرقسطة بلاطاً فخما كبلاط الملوك ، واستوزر الفيلسوف الشهير أبا بكر بن الصائغ المعروف بابن باجّة ، وخاض حياة باذخة فخمة ، ومن حوله الأدباء والندماء ، وانهمك فى اللذات والشراب ، وذلك كله بالرغم مما كانت تجوزه سرقسطة يومئذ من ظروف حرجة واحتمالات خطرة. بيد أنه يبدو من إشارة لابن عذارى ، أنه سار فى سنة ٥١٠هـ ، إلى حصن روطة وغزاه ، وأنه غزا كذلك برجة وبها عماد الدولة بن هود ؛ ويبدو من إشارة أخرى لابن الخطيب ، أنه قد خاض خلال تلك الفترة مع النصارى ، بعض معارك دفاعية ، كان لهم فيها التفوق على القوات المرابطية . ويبدو من جهة أخرى أن ألفونسو ملك أراجون ، هو الذى كان يضطلع بهذه الغزوات المرهقة[١]. ثم توفى الأمير أبو بكر سنة ٥١٠ هـ أو فى سنة ٥١١ هـ ، على قول آخر[٢] . ولما اتصل نبأ وفاته بالأمير أبى إسحاق إبراهيم بن يوسف ، أخى أمير المسلمين على بن يوسف ، وهو يومئذ والى مرسية ، بادر بالسير إلى سرقسطة فنظر فى شئونها ، وضبط أحوالها ، ولما اطمأن إلى توطيد أمورها عاد إلى مرسية مقر ولايته[٣] .

وإنه لما يلفت النظر أنه لم يعين فى تلك الآونة العصيبة ، التى لاح فيها الخطر داهماً على سرقسطة ، وال جديد يخلف على الفور واليها المتوفى ، خصوصاً وقد كان أمير المسلمين على بن يوسف موجوداً فى تلك الفترة بالذات ( ٥١١ — ١١١٧م ) فى شبه الجزيرة ، عقب جوازه الثالث إليها . وأعجب من ذلك هو أن على بن يوسف ، بدلا من أن يتجه بجيوشه الجرارة العابرة معه ، إلى مواطن الخطر فى الثغر الأعلى ، يؤثر أن يضطلع بغزوات عقيمة فى أراضى البرتغال ، يستولى

( ١ ) البيان المغرب ( الأوراق المخطوطة ، هسبيرس ص٧٨ ) ، والإحاطة لابن الخطيب ( القاهرة ١٩٥٦ ) ج ١ص ٤١٦ ، حيث يقول فى ترجمة الأمير أبى بكر «توفى بسرقسطة فى سنة عشر وخمسمائة ، بعد أن ضاق ذرعا بطاغية الروم ، الذى أناخ عليه بكلكله » .

( ٢ ) يقول بالرواية الأولى ابن الخطيب ( الهامش السابق ) . ويقول بالثانية ابن عذارى فى البيان المغرب ( الأوراق المخطوطة التى عثر بها المؤلف فى مكتبة جامع القرويين بفاس ) .

( ٣ ) البيان المغرب ( الأوراق المخطوطة السالفة الذكر ) .

خلالها على مدينة قُلُمرية ، ثم يتركها عقب افتتاحها . وعلى أى حال ، فإنه بعد أن لبثت سرقسطة حيناً دون وال ، نُدب عبد الله بن مزدلى والى غرناطة ليكون والياً لبلنسية وسرقسطة . وذلك فيما يبدو فى أواخر سنة ٥١١ هـ (أواخر ١١١٧م)(١).

وهنا يحيق الغموض بحركات النصارى وحركات والى سرقسطة الجديد . ذلك أنه من المسلم به ، ومن المتفق عليه فى الروايتين العربية والإفرنجية ، أن حصار النصارى لسرقسطة بدأ فى شهر صفر سنة ٥١٢ هـ ، الموافق لشهر مايو سنة ١١١٨م . ونقول هنا حصار النصارى بصفة عامة . لأن الجيش المحاصر لم يكن مكوناً فقط من الأرجونيين . أعداء سرقسطة الأصليين ، بل كان يضم طوائف عديدة أخرى من الفرنج . والواقع أننا نجد أنفسنا فى هذا الموطن أمام حملة صليبية حقيقية . ذلك أنه فى الوقت الذى كان فيه ملك أراجون ألفونسو المحارب ، يوالى الضغط على سرقسطة ، ويُجدّ فى انتزاع حصونها الأمامية حتى أنه استولى على تطيلة فى سنة ١١١٧م ، ووصل فى أوائل سنة ١١١٨ إلى موريلا القريبة منها ، كان صدى دعواته وحركاته ضد المسلمين يعمل عمله فى الناحية الأخرى من جبال البرنيه ، وكانت الحرب الصليبية الأولى ، قد انتهت قبل ذلك بعشرين عاما فى الشرق باستيلاء الصليبيين على بيت المقدس ( ١٠٩٩ م ) وازدادت الروح الصليبية اضطراما ، فى فرنسا وفى اسبانيا . ففى سنة ١١١٧م ، عبرت حملة قوية من الفرنج أهل بيارن بقيادة جاستون دى بيارن وأخيه سانتولو — وكانا قد اشتركا بالمشرق فى الحرب الصليبية الأولى — ، إلى اسبانيا ، لتشترك مع الأرجونيين فى افتتاح سرقسطة . وفى العام التالى ( ١١١٨م ) عقد بمدينة تولوز ( تولوشة ) مؤتمر من أساقفة آرل ، وأوش ، ولاسكار ، وبنبلونة ، وببشتر ، وتقرر فيه أن ترسل حملة صليبية أخرى إلى اسبانيا يقودها الكونت دى تولوز ، وحشدت فوق ذلك قوات كبيرة من البشكنس ، ومن قطلونية ، ومن أورقلة تحت إمرة سادة هذه المناطق ، وكان بين المقاتلين كثير من الأساقفة ورجال الدين(٢) . وتنوه الرواية الإسلامية بضخامة هذه الحملات الفرنجية التى اشتركت فى حصار سرقسطة وافتتاحها ، وتصفها إحدى الروايات بأنها كانت أمما كالنمل والجراد ، أو أنها أقبلت فى عدد لا يحصى أكثره من

---

( ١ ) روض القرطاس ص ١٠٥ .

( ٢ ) يراجع فى ذلك مقال عن افتتاح سرقسطة بقلم الأستاذ J. Mar'a Lacarra نشر بمجلة الأندلس Al-Andalus (1947) Fas. I. p 78-80

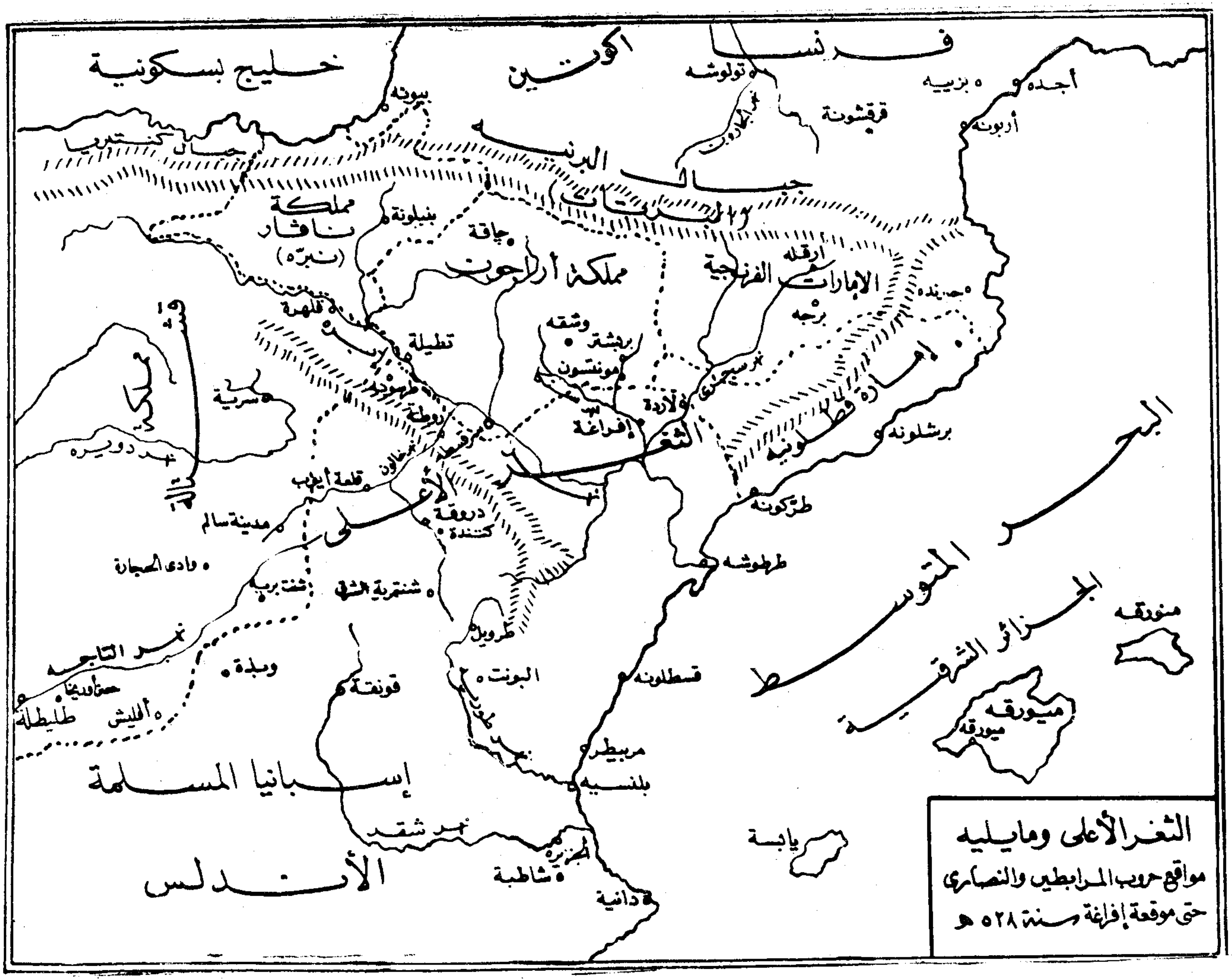

الثغر الأعلى وما يليه
مواقع حروب المرابطين والنصارى
حتى موقعة إفراغة سنة ٥٢٨ هـ

من الجند والرماة[١]. وفى رواية أخرى أن الفرنج بلغوا خمسين ألف فارس[٢].

— ٢ —

وهكذا اجتمعت الجيوش النصرانية المتحدة من الأرجونيين والفرنج، وسارت لافتتاح سرقسطة، وفى بعض الروايات أن الذى بدأ بالحصار هو الجيش الفرنجى الذى يقوده جاستون دى بيارن، وأن ألفونسو المحارب قدم بعد ذلك فى قواته من قشتالة[٣]. وبدأ حصار سرقسطة وفقا للرواية الإسلامية، فى مستهل شهر صفر سنة٥١٢ هـ[٤]، ويوافق ذلك يوم ٢٢ مايو سنة ١١١٨، وهو التاريخ الذى تضعه الرواية الفرنجية. وهنا يبدأ الغموض فى تعقب حوادث الحصار، ونجد أنفسنا أمام طائفة من الروايات المتناقضة، فهناك أولا القول بأن سرقسطة انتهت بعد حصار دام أشهراً، أودام بالتحديد تسعة أشهر، بالتسليم صلحاً. وهذه رواية ابن الكردبوس فى «الإكتفا» وابن عبد المنعم الحميرى فى الروض المعطار[٥]. بيد أن هذه رواية ضعيفة أوبعبارة أخرى رواية ناقصة. وأما الروايات الأخرى وهى عديدة، عربية وإفرنجية، فإنها تتفق فى أنه وقعت خلال الحصار معارك عديدة بين المسلمين والنصارى، وأن سرقسطة لم تسلم صلحاً، وإنما أرغمت على التسليم إرغاماً، بعد أن برّحت بأهلها أهوال الحصار، وبعد أن هزم أهلها فى غير معركة، وهزم المرابطون الذين تصدوا للدفاع عنها.

وتقدم إلينا الرواية الإسلامية تفاصيل مختلفة عن حوادث الحصار، والمعارك التى سبقته أواقترنت به، فيقول لنا صاحب روض القرطاس، إن عبد الله بن مزدلى لما ولى سرقسطة فى سنة ٥١١هـ، سار إليها من غرناطة، فوجد ابن رذمير قد أذاق أهلها شراً، فاشتبك معه عبد الله فى عدة معارك شديدة حتى هزمه، وأخرجه عن البلدة، ولبث عبد الله بعد ذلك عاما آخر فى سرقسطة ثم توفى، فبقيت دون أمير «فأتاها ابن رذمير فنزلها، وأتى ألفنش أيضاً فى أمم لا تحصى من قبائل الروم، فنزل لاردة من بلاد الجوف، فاتصل الخبر بأمير المسلمين على

---

(١) روض القرطاس ١٠٦، والبيان المغرب (من الأوراق المخطوطة السالفة الذكر).

(٢) الروض المعطار (صفة جزيرة الأندلس) ص ٩٨.

(٣) مقال الأستاذ لاكارا السالف الذكر ص ٨٠.

(٤) ابن عذارى فى البيان المغرب (الأوراق المخطوطة السالفة الذكر).

(٥) ابن الكردبوس (مخطوط أكاديمية التاريخ السالف الذكر لوحة ١٦٤ ب) والروض المعطار ص ٩٧ و٩٨.

ابن يوسف ، ، فكتب إلى أمراء الأندلس بالمسير إلى أخيه تميم ، وكان والياً على شرق الأندلس ، ليسيروا معه لاستنقاذ سرقسطة ولاردة ، فقدم على تميم . عبد الله بن مزدلى ، وأبو يحيى بن تاشفين صاحب قرطبة ، بعساكرهما . فخرج تميم بن يوسف من بلنسية مع أمراء لمتونة ، فقصد نحو لاردة ، وكان بينه وبين ألفنش قتال عظيم ، أقلعه عن لاردة خاسئاً حاسراً بعد أن بذل جهده فى قتالها ، وفقد عليها من جيوشه مايزيد على العشرة آلاف رجل ، ورجع تميم إلى بلنسية »[1].

وربما كانت رواية ابن عذارى أكثر وضوحاً واتساقا . فهو يقول لنا إنه فى سنة اثنتى عشرة وخمسمائة ولّى أمير المسلمين على بن يوسف أخاه الأمير أبا الطاهر تميماً إمرة بلاد شرقى الأندلس لما ضيق العدو عليها ، وأعمل عزمه وحزمه إليها ، وذلك أنه لما رأى « أذفونش » ضعف سرقسطة ، وتفرق الجيش عنها ، بعد موت الأمير أبى بكر بن إبراهيم ، جد فى الحشد إليها واستجاش الإفرنجة : فأقبلت فى عدد لاتحصى ، أكثرهم جند ورماة ، فاحتل سرقسطة مستهل صفر من هذه السنة ( ٥١٢ هـ ) فخرج المسلمون إليهم ، وشبت الحرب بينهم ، فحمل الروم عليهم ، فانهزم الناس ، وهم فى أثرهم إلى ربض الدباغين . إلى القنطرة ، فازدحموا بها ، وقد حصل الروم معهم فيها . فبادر المسلمون بإلقاء النار عليها ، فاحترقت القنطرة إلى أقصاها ، ولولا المناجزة بين الربض والمدينة لكانت الحالقة ، وبات الناس على الأسلحة ، وخمسوا أبواب المدينة ، واتصل الحصار وتواترت الحرب . وكان أذفونش قد تخلف عن .. فلحق بعد نصف شهر ، فتعاضد العدو ، وقد أمد ، وزاد كلبه واشتد ، ولنحو الشهر تغلبوا على قصر . . . بالجعفرية ، وهو قبيل ميل من سرقسطة ، وكان عبد الله بن مزدلى أوان نزول الروم على سرقسطة بالعسكر ، على جيان لحماية ذلك الثغر عن عدو طليطلة » .

ويزيد ابن عذارى على ذلك ، أنه لما توالى تضييق العدو على سرقسطة وحصارها وهزيمة أهلها ، وتحريق قنطرتها ، ونزول العدو على قصرها المعروف بالجعفرية ، اتصل الخبر بعبد الله بن مزدلى ، فسار الجيش إليها ولحق به مدد من جيش قرطبة ، فقويت نفوس أهل سرقسطة ، ولحق الجيش بطرسونة ،

---

( ١ ) روض القرطاس ص ١٠٥ و ١٠٦ ، ويلاحظ ما فى هذه الرواية من تناقض أولا فى القول بموت عبد الله مزدلى ثم مثوله ثانية للقتال مع الأمير تميم ، وثانياً فى التفرقة بين ابن ردمير وألفنش وابن ردمير هو ألفونسو المحارب ، وهما شخص واحد .

وقد شد العدو غارته عليها ، فجد فى اتباعه وأدركه غير بعيد ، فهزم الله العدو ، وأظهر على يد عبد الله بن مزدلى عجائب فى هذه الغزوة لم يعهد مثلها ، منذ مدة بعيدة قبلها . ثم احتل بتطيلة ، وتلوم بها ، وأقلع الفرنج عن سرقسطة ، فرأى الأمير عبد الله بعد تلومه أن ينهض إليها ، فترك الحمولة ومدد قرطبة ، وانتخب أنجاد العسكر ، وصمم إلى سرقسطة ، فدخلها فى أوائل جمادى الآخرة ، وقد استنشق أهلها ريح الحرب . وفى خلال ذلك اعتل الأمير عبد الله المذكور ، فتوفى فى رجب ، فكتم وفاته أياما ، ثم انبث الخبر وعلم به رذمير ، ففغر على البلد فه ، وألقى عليه زوره ، وقد نفدت الأقوات ، وبلغ الميقات ، فدخله بالمعاهدة والأمنة فى يوم الأربعاء الثالث من شهر رمضان المعظم من السنة المؤرخة ( أعنى ٥١٢ هـ ) »[1] .

وعلى أى حال ، فإنه بالرغم مما يوجد بين الروايتين من اختلاف فى الوقائع والتفاصيل ، يمكننا أن نستخلص منهما حقيقتين هامتين : الأولى أنه وقعت قبل حصار سرقسطة ، أو خلال الحصار ، معارك شديدة بين المسلمين والنصارى ، والثانية هو أن عبد الله بن مزدلى ، آخر ولاة سرقسطة المسلمين ، قد اشترك بقواته فى هذه المعارك وأبلى فيها . وثمة مسألة أخرى ، ينفرد بها صاحب روض القرطاس ، وهى أن القوات المرابطية المشتركة ، سارت لاستنقاذ سرقسطة بقيادة الأمير أبى الطاهر تميم ، واشتبكت عند لاردة فى موقعة شديدة مع ألفونسو المحارب ، وأنزلت به هزيمة ساحقة ، وأن تميما عاد على أثر ذلك إلى مقر ولايته فى بلنسية ، وهذه مسألة سوف نعود إلى مناقشتها .

— ٣ —

بدأ حصار سرقسطة حسبما قدمنا ، فى مستهل شهر صفر سنة ٥١٢هـ (٢٢ مايو سنة ١١١٨ م ) ، وطوقتها قوات كثيفة من الفرنج والأرجونيين ، والبشكنس والقطلان وغيرهم . وكانت سرقسطة ، فضلا عن حصانتها الطبيعية بموقعها جنوبى نهر إيبرو على ضفته اليسرى ، تعتمد فى الدفاع على أسوارها العالية القوية ، وهى ترجع إلى أصل رومانى ، وعلى قلعتها المنيعة ، وكان قصرها الشهير المسمى بالجعفرية ، نسبة إلى مؤسسة أبى جعفر المقتدر بن هود ، يقع خارج الأسوار ، غربى سرقسطة على قيد نحو ميل منها ، وعلى مقربة من النهر ، ومن ثم فقد احتله

( ١ ) البيان المغرب من الأوراق المخطوطة التى عثر بها المؤلف فى مكتبة جامع القرويين بفاس .

النصارى لأول مقدمهم . وجاء المحاصرون معهم بأبراج خشبية عالية تجرى على بكرات لكى يستطيع المهاجمون بها محاذاة الأسوار العالية ، لينصبوا فوقها الرعدات ، وجاءوا كذلك بعشرين منجنيقاً ضخمة لدك الأسوار(١) ، وكان الذى يشرف على آلات الحصار واستعمالها ، طائفة من أهل بيارن ممن اشتركوا فى حصار بيت المقدس ، وتمرسوا فى استعمال هذه الآلات .

واستمر حصار سرقسطة سبعة أشهر . والظاهر أنه استطال أكثر مما قدر ألفونسو المحارب وحلفاؤه . ذلك أنه فى الوقت الذى كان فيه أهل سرقسطة ، يعانون ويلات الحصار داخل الأسوار ، كان المعسكر النصرانى منذ مقدم الخريف ، يعانى من نقص المؤن . ويهدده الجوع بشبحه المروع ، حتى لقد فكر قادة الجيش النصرانى فى رفع الحصار ، لولا أن شجعهم أسقف وشقة وزملاؤه ، ووضعوا تحت تصرفهم ذخائر عدة من الكنائس يجلبون بثمنها الأقوات(٢) . أما فى داخل سرقسطة ، فقد كانت الأقوات تنضب يوماً بعد يوم ، خصوصاً وأن أهل المدينة المحصورة لم يتمكنوا من جنى محاصيلهم لتبكير النصارى فى فرض الحصار ، وكان من العسير عليهم أن يتلقوا أية مؤن من الخارج ، لإحكام الحصار حول المدينة ، من ناحية النهر وناحية البر . ومضت الأشهر تباعاً والحال تشتد شيئاً فشيئاً ، حتى « فنيت الأقوات ، وفنى أكثر الناس جوعا »(٣). ووقع خلال ذلك حادث زاد فى وجوم أهل المدينة ، وارتباك تدابير الدفاع ، هو وفاة واليها عبد الله بن مزدلى ، فى أوائل جمادى الآخرة (سبتمبر ١١١٨م) . والظاهر أنه لم يخلفه فى الرياسة أحد من أهل المدينة ، فترك الأمر فوضى وأخذت الخاتمة المروعة تدنو شيئاً فشيئاً .

وهنا وقبل أن نتحدث عن خاتمة سرقسطة الإسلامية ، يحق لنا أن نتساءل أولا ، ما الذى حدث خلال الحصار من الحوادث والوقائع ؟ وهل نشبت بين المسلمين والنصارى عندئذ بعض المعارك ؟ ثم ماذا كان موقف المرابطين ، وهل حاولوا إنقاذ المدينة المحصورة ؟ وفى أى الظروف ؟

فأما ما وقع خلال هذه المرحلة الأخيرة من الحصار من الحوادث والوقائع ، فإن معظم الروايات الإسلامية تلتزم الصمت إزاء ذلك . بيد أنها فى موطن واحد

(١) روض القرطاس ص ١٠٦ .

(٢) الأستاذ Lacarra فى مقاله السالف الذكر بمجلة الأندلس والمراجع .

(٣) روض القرطاس ص ١٠٦ .

تذكر لنا ما يؤيد هذه الحقيقة الهامة ، وهى أن جيشاً مرابطياً بقيادة الأمير أبى الطاهر تميم — وقد كان عندئذ حسبما تقدم والياً لشرقى الأندلس — وصل فى أواخر أيام الحصار ( نحو منتصف شهر شعبان الموافق شهر ديسمبر ) إلى مقربة من سرقسطة ، وذلك فيما يرجح بقصد محاولة إنقاذها . فخرج إلى الأمير تميم زعيمان من زعماء المدينة . هما الفقيه على بن مسعود بن إسحق بن إبراهيم بن عصام الخولانى وهو من أكابر علماء سرقسطة وحفاظها وأدبائها . وكان متولياً قضاء ميورقة ، والخطيب أبو زيد بن منتيال . وحدثاه باسم أهلها بمحضر أبى الغمر الشايب بن غرون . عن أهبات النصارى . ووجوب مناجزة العدو . ولكن الأمير تميماً « جبن عن ذلك » وكان انتقاله بالجيوش عن سرقسطة . حسبما يقول ابن الأبار صاحب هذه الرواية . سبباً فى نجاح النصارى فى الاستيلاء على المدينة(١).

بيد أن إحدى الروايات النصرانية ، تقول لنا بالعكس إنه قد وقعت فى يوم ٦ ديسمبر سنة ١١١٨ معركة عنيفة بين قوات ألفونسو المحارب . وجيش قوى من المرابطين انتهت بظفر النصارى ، ولم تمض على ذلك أيام قلائل حتى سلمت المدينة . وذلك بعد أن انتهت المهلة الممنوحة للمحصورين(٢) .

على أنه توجد وثيقة مخطوطة هامة تؤيد ما جاء فى الرواية الأولى وتؤكده ، وهذه الوثيقة هى عبارة عن رسالة مؤثرة ، بل مبكية ، كتبها قاضى سرقسطة ثابت ابن عبد الله ، وجماعة من أهلها إلى الأمير تميم يتضرعون إليه ، فى عبارات مؤثرة ، ولكن أبيه حازمة باسم الذين والوطن ، أن يتقدم لإنجاد سرقسطة وإنقاذ أهلها ، وألا ينكص على عقبيه أمام النصارى ، وقد استهلت هذه الرسالة بالتاريخ الذى كتبت فيه ، وهو يوم الثلاثاء السابع عشر من شعبان ( ٥١٢ هـ ) ، أعنى لستة أشهر ونصف من بدء الحصار ، وقبل تسليم المدينة بثمانية عشر يوماً فقط ، وفيها يصف الكاتب ما عاناه أهل سرقسطة من أهوال الحصار والجوع . ثم يشير إلى مقدم الأمير تميم بعساكره ، ويلومه على إحجامه عن لقاء النصارى فى قوله :

---

( ١ ) وردت هذه الرواية خلال ترجمة ابن الأبار للفقيه على بن مسعود الخولانى ، وقد نشرت مع تراجم أخرى ملحقاً لتراجم « التكملة » وذلك فى كتاب المشتشرقين الإسبانيين G. Palencia, و M. Alarcón, تحت عنوان Miscalanea de Estudios y Textos Arabes (Madrid 1916) p.205) وعثرنا على نفس هذه الترجمة أيضاً فى كتاب الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشى ( المخطوط المصور المحفوظ بالخزانة العامة بالرباط ) الجزء الأول .

( ٢ ) أوردها الأستاذ **Lacarra** فى مقاله السالف الذكر .

« وماكان إلا أن وصلت ، وصل الله برك بتقواه ، على مقربة من هذه الحضرة ، ونحن نأمل منك بحول الله أسباب النصرة ، بتلك العساكر التى أقر العيون بهاؤها ، وبسر النفوس زهاؤها ، فسرعان ما انثنيت وما انتهيت ، وارعويت وما أدنيت ، خايباً عن اللقاء ، ناكصاً على عقبيك عن الأعداء ، فما أوليتنا غناء ، بل زدتنا بلاء ، وعلى الداء داء ، بل أدواء ، وتناهت بنا الحال جهداً والتواءً ، بل أذللت الإسلام والمسلمين ، واجترأت فضيحة الدنيا والدين . فيالله ويالالإسلام ، لقد اهتضم حومه وحماه أشد الاهتضام ، إذ أحجمت أنصاره عن إعزازه أقبح الإحجام ، ونكصت عن لقاء عدوه ، وهو فى فئة قليلة ، وملة رذيلة ، وطايفة قليلة » .

ثم يشير الكاتب بعد ذلك إلى أهمية سرقسطة الدفاعية وعواقب سقوطها الوخيمة على مركز المرابطين فى شبه الجزيرة فى قوله :

« فما هذا الجبن والفزع ، وما هذا الهلع والجزع ، بل ما هذا العار والضيع ، أتحسبون يا معشر المرابطين وإخواننا فى ذات الله المؤمنين ، إن سبق على سرقسطة القدر ، بما يتوقع من المكروه والحذر ، أنكم تبلغون بعدها ريقاً ، وتجدون فى ساير بلاد الأندلس عصمها الله مسلكاً من النجاة أو طريقاً — كلا والله ليسومنّكم الكفار عنها جلاء وفراراً ، وليخرجنكم منها داراً فداراً ، فسرقسطة حرسها الله هى السد الذى إن فتق ، فتقت بعده أسداد ، والبلد الذى إن استبيح لأعداء الله ، استبيحت له أقطار وبلاد ، فالآن أيها الأمير الأجل ، هذه أبواب الجنة قد فتحت ، وأعلام الفتح قد طلعت ، فالمنية ولا الدنية ، والنار ولا العار ، فأين النفوس الأبية ، وأين الأنفة والحمية ، وأين الهمم المرابطية ، فلتقدح عن زنادها ، بانتضاء حدها ، وامتضاء جدها ، واجتهادها ، وملاقاة أعداء الله وجهادها ، فإن حزب الله هم الغالبون » .

ويتوجه الكاتب فى ختام رسالته ، بالضراعة إلى الأمير أن يقبل على سرقسطة ، وألا يتأخر قبل وقوع الكارثة فيقول :

" ولن يسعك عند الله ، ولا عند موٴمن ، عذر فى التأخر والارعواء من مناجزة الكفار والأعداء . وكتابنا هذا أيها الأمير الأجل ، اعتذار تقوم لنا به الحجة فى جميع البلاد ، وعند ساير العباد ، فى إسلامكم إيانا إلى أهل الكفر والإلحاد ، ونحن موٴمنون ، بل موقنون أجابتك إلى نصرتنا ، وإعدادك إلى الدفاع عن

حضرتنا ، وأنك لا تتأخر عن تلبية ندائنا ، ودعائنا إلى استنقاذنا من أيدى أعدائنا . . فأقبل بعسكرك على مقربة من سرقسطة ، عصمها الله ، ليخرج الجميع عنها ، ويبرأ إلى العدو وقمه الله منها ، ولا تتأخر كيفما كان طرفة عين ، فالأمر أضيق ، والحال أزهق ، فعدِّ بنا عن المطل والتسويف قبل وقوع المكروه والمخوف ، وإلا فأنتم المطالبون عند الله بدمائنا وأموالنا ، والمسئولون عن صبيتنا وأطفالنا ، لإحجامكم عن أعدائنا وتثبطكم عن إجابة ندائنا ، وهذه حال نعيذك أيها الأمير الأجل عنها ، فإنها تحملك من العار ما لم تحمله أحداً ، وتورثك وجميع المرابطين الخزى أبدا . . ومهمى تأخرتم عن نصرتنا ، فالله ولى الثأر لنا منكم ، ورب الانتقام ، وقد بريتم بإسلامنا للأعداء من نصر الإسلام ، وعند الله لنا لطف خفى ، ومن رحمته ينزل الصنع الخفى ، ويغنينا الله عنكم وهو الحميد المغنى"[1]

كتبت هذه الرسالة المؤثرة قبيل سقوط سرقسطة بفترة يسيرة ، وإنه لتبدو من تلك الفقرات التى نقلناها منها ، حقيقة لاشك فيها ، وهى أن جيشاً مرابطياً بقيادة الأمير أبى الطاهر تميم ، قدم إلى سرقسطة قبيل سقوطها لاستنقاذها من أيدى النصارى ، وعسكر على مقربة منها ، وتقول إحدى الروايات النصرانية ، إن هذا الجيش قد وصل إلى حصن سانتا ماريا الواقع على بعد ثمانية عشر كيلومتراً من سرقسطة[2] ولكن ما الذى فعل هذا الجيش بالضبط ؟ وهل بذل أية محاولة جدية لاستنقاذ سرقسطة والدخول مع النصارى فى معركة حاسمة ؟ إنه مع استثناء الرواية النصرانية التى أشرنا إليها من قبل ، والتى تقول بأن معركة عنيفة وقعت بين

---

(١) نشرنا هذه الرسالة بأكملها فى باب الوثائق . وقد نقلناها عن مخطوط الإسكوريال رقم ٤٨٨ الغزيرى ، لوحة ٥٩ ا إلى ٦١ ب . هذا وقد نشر هذه الرسالة وانتفع بها من قبل صديق الدكتور حسين مؤنس فى بحث عنوانه « الثغر الأعلى الأندلسى فى عصر المرابطين » ( مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة — المجلد الحادى عشر الجزء الثانى ديسمبر سنة ١٩٤٩ ) . بيد أنه ذهب فى التمهيد إليها (ص ١٣٣) إلى نتيجة نحسب أنها لا يمكن أن تدل بها ، فذكر أنها بالمقارنة بالوثيقتين الأخريين المنشورتين بعدها ، قد كتبت فى سنة ٥٢٣ هـ أعنى بعد سقوط سرقسطة بإحدى عشر عاماً . هذا فى حين أن نص الرسالة وفقراتها المتوالية تدل قطعاً بأنها كتبت وقت حصار سرقسطة وقبيل سقوطها بقليل ، فى شهر شعبان سنة ٥١٢ هـ ، ومن الواضح أنها دعوة يائسة موجهة إلى قائد المرابطين يومئذ الأمير أبى الطاهر تميم ، بأن يتقدم بجنده ، وقد كان على مقربة من سرقسطة ، لإنجاد المدينة المحصورة وإنقاذها قبل فوات الوقت وأقطع دليل على صحة هذا الرأى فضلا عن نص الرسالة ذاته ، هو أن الأمير أبا الطاهر تميم قد توفى بقرطبة فى سنة ٥٢٠ هـ ( روض القرطاس ص ١٠٦ ) .

(٢) مقال الأستاذ **Lacarra** السالف الذكر ، نقلا عن المؤرخ **Zurita**

المرابطين والنصارى ، هزم فيها المرابطون ، ثم سلمت المدينة على أثر ذلك ، يبدو مما جاء فى هذه الرسالة ، أن الجيش المرابطى التزم الجمود والإحجام ، ولم يبذل أية محاولة لإنقاذ المدينة ، ثم ارتد بعد ذلك على أعقابه ، وهذا ما يؤيده رواية ابن الأبار التى سبقت الإشارة إليها . ثم يؤيده أيضاً مع اختلاف فى تصوير الوقائع ، ما ورد فى روض القرطاس ، من أنه بعد سقوط سرقسطة ، وصل من العدوة جيش من عشرة آلاف فارس ، بعثه أمير المسلمين على لاستنقاذها ، فوجدها قد فرغ منها وملكها العدو ، ونفذ حكم الله فيها[١] .

— ٤ —

وإنه ليحق لنا أن نتساءل بعد ذلك عن البواعث التى حملت قائد الجيش المرابطى الأمير أبا الطاهر تميما ، على اتخاذ هذا الموقف السلبى ، فى مثل هذه الآونة العصيبة من حياة المدينة المسلمة العظيمة ، وحملت الجيش المرابطى على الإحجام عن لقاء العدو فى محاولة يائسة لإنقاذها . فأما من الناحية العسكرية ، فإنه يمكن أن يقال إن ذلك قد يرجع إلى تفوق النصارى فى الكثرة على الجيش المرابطى ، تفوقاً خشى معه الأمير تميم أن يدخل فى معركة غير مأمونة العواقب . وتميم لم يكن من أكابر القادة المرابطين ، وإنما كان يقود الجيش بصفته الأميرية ، ولم يكن انتصاره ، فى موقعة أقليش راجعاً إلى مقدرته وصفاته الخاصة ، وإنما كان راجعاً بالأخص إلى شجاعة قائديه المحربين محمد بن عائشة ، ومحمد بن فاطمة ، ولولاهما لما اشتبك فى المعركة ولآثر الارتداد . وكان الجيش المرابطى قد فقد إلى ذلك الحين معظم قادته العظام ، أمثال سير بن أبى بكر ، ومزدلى ، وعبد الله بن فاطمة ، ومحمد بن الحاج ، ويمكن أن يقال أيضاً إن موقع سرقسطة بعيداً عن مراكز تموين الجيش المرابطى وإمداده فى بلنسية ومرسية وقرطبة ، لم يكن مما يشجع على القيام بأية محاولة عسكرية خطيرة .

على أن هذه الأعذار العسكرية وأمثالها ، لم تكن تكفى لتبرير موقف الجيش المرابطى ، وإحجامه عن القيام بعمل إنقاذ مشرف ، واتقائه بذلك صدع هيبته فى أنحاء شبه الجزيرة ، ولوم التاريخ والأجيال . وإنما قد ترجع البواعث الحقيقية لتقاعس المرابطين عن المغامرة بإنقاذ سرقسطة ، إلى أنهم كانوا يشعرون بأن الاحتفاظ بهذه المنطقة النائية من شبه الجزيرة — منطقة الثغر الأعلى — كان يلقى

---

(١) روض القرطاس ص ١٠٦ .

عليهم مسئوليات عظيمة ، لوقوعها بين أعداء أقوياء يتربصون بها باستمرار ، وأن سرقسطة لم تكن بظروفها وروح شعبها كثيرة الولاء لحكمهم ، ومن ثم فإن المرابطين لم يعنوا فيما يبدو ، بأن يتجشموا فى سبيل إنقاذها تضحيات عسكرية عظيمة .

وهكذا تركت سرقسطة لمصيرها ، واضطرت بعد أن عانت من أهوال الحصار ، وعصف الجوع والحرمان والمرض ، أشنع الخطوب والمحن ، وبعد أن يئس أهلها من إجابة صريخهم ، وتلقى الإنجاد من أى مكان ، أن تخاطب ألفونسو ( ابن رذمير ) أن يمنح أهلها هدنة مؤقتة ( لم تعين لنا الرواية مدتها ) ، فإذا لم يأتهم الإنجاد المنشود ، سلمت إليه المدينة ، وتعاهد الفريقان على ذلك ، ثم مضى هذا الأجل دون أن يتلقى المحصورون أية معونة ، فاضطرت المدينة إلى التسليم[(١)].

وتلخص الرواية العربية الوحيدة — وهى رواية ابن الكردبوس — شروط هذا التسليم فيما يلى :

أن تسلم سرقسطة إلى ملك أراجون ( ابن رذمير ) ، ومن أحب المقام بها من أهلها فاه ذلك ، على أن يؤدى جزية خاصة ، ومن أحب أن يرحل إلى حيث شاء من بلاد المسلمين ، رحل وله الأمان التام ، وعلى أن يسكن الروم ( الأرجونيون والفرنج ) المدينة ، والمسلمون ربض الدباغين ، وعلى أن كل أسير يفلت للروم من المدينة ويحصل عند الإسلام ، فلا سبيل لمالكه إليه ولا اعتراض له عليه .

وقد كان ربض الدباغين من أحياء سرقسطة المتطرفة ، ويقع على ضفة النهر اليمنى ، حسبما يبدو ذلك من أقوال ابن عذارى التى تقدم ذكرها . وكانت سياسة الملوك النصارى ، فيما يتعلق بمن يبقى من السكان المسلمين فى المدن المفتوحة ، هو أن يسمح لهم بالبقاء فى منازلهم داخل المدينة لمدة سنة أو نحوها ، ثم يلزمون بعد ذلك بالانتقال إلى الأرباض ، وهى الأحياء المتطرفة أو الضواحى ، وقد منح سكان سرقسطة وفقاً للرواية النصرانية هذا الامتياز بالبقاء فى أحيائهم داخل المدينة مدى عام ، ينتقلون بعده إلى ربض الدباغين ، وغيره من الأرباض الخارجية ، وهذا هو ما اتبع فيما بعد فى عهود تطيلة وطرطوشة وغيرهما من قواعد الثغر المفتوحة .

ويضيف ابن الكردبوس إلى ما تقدم ، أنه ما كاد ملك النصارى يستقر بالمدينة ، حتى غادرتها كثرة أهلها المسلمين ، وأنه لما شهد جموعهم الزاخرة ركب بنفسه إليهم ، وأمرهم أن يبرزوا جميع ما لديهم ، فأبرز الفارون أموالا لا تحصى ، ولكنه

---

( ١ ) روض القرطاس ص ١٠٦ .

بعد أن رآها سمح لهم بالاحتفاظ بها ، وتركهم يسيرون إلى حيث شاءوا فى أمان ، ووجه معهم من رجاله من يشيعهم إلى داخل أعماله ، ولم يأخذ منهم سوى مثقال واحد عن كل أحد من الرجال والنساء والأطفال[١] .

وتضع الرواية الإسلامية تاريخ تسليم سرقسطة فى يوم الأربعاء الثالث من شهر رمضان سنة ٥١٢ هـ : وهو يوافق ١٨ ديسمبر سنة ١١١٨ م[٢] ، وتضع الرواية النصرانية هذا التاريخ فى يوم ١١ ديسمبر ، أوفى ١٨ ديسمبر[٣] . ودخل ألفونسو الأرجونى وحلفاؤه المدينة ، بعد أن قطع لأهلها المسلمين العهود المذكورة ، وسمح لهم مدى فترة قصيرة باستبقاء قاضيهم ابن حفصيل ، وبالإحتكام إلى شريعتهم . ولكن مسجد سرقسطة الجامع ، حول منذ السادس من يناير سنة ١١١٩ م إلى كنيسة سلمها ألفونسو المحارب إلى الرهبان البرناردين ، وسميت كنيسة لاسيو La Seo أى الكنيسة العظمى . وفى رواية أخرى أن مسجد سرقسطة الجامع لم يحول إلى كنيسة إلا بعد ذلك بثلاثة أعوام فى أكتوبر سنة ١١٢١ م ، وأنه حول عندئذ إلى كنيسة سميت باسم « سان سالبادور » San Salvador[٤] ، وجعلت سرقسطة عاصمة مملكة أراجون ، وجعل منها مركز لأسقفية ، ومنح سكانها النصارى امتيازات الأشراف ، وعين الكونت جاستون دى بيارن « سيدا » للمدينة المفتوحة فى ظل ألفونسو ، وأقطع الحى الذى كان يقطنه النصارى المعاهدون ، وعهد إليه بالإشراف على توزيع الغنائم على الجند الفاتحين ، وكوفئ سائر الفرسان الذين عاونوا فى الفتح[٥] .

وهكذا سقطت سرقسطة ، بعد أن حكمها المسلمون منذ الفتح أكثر من أربعة قرون ، وبعد أن لعبت فى تاريخ الثغر الأعلى الأندلسى ، أعظم دور ، سواء من الناحية العسكرية أو السياسية أو الحضارية .

ولما سقطت الحاضرة الإسلامية ، ودخلها النصارى ، غادرها معظم أعيانها

---

(١) ابن الكردبوس فى كتاب « الاكتفاء » ( مخطوط أكاديمية التاريخ لوحة ١٦٤ ا ) .

(٢) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٢٢٥ ، والبيان المغرب ( الأوراق المخطوطة السابقة الذكر ) . وذكر المقرى أنه كان فى يوم الأربعاء الرابع من رمضان ( نفح الطيب ج ٢ ص ٥٨٥ ) .

(٣) راجع مقال الأستاذ **Lacarra** السالف الذكر حيث يشير إلى الروايات النصرانية .

(٤) مقال الأستاذ **Lacarra** السالف الذكر .

(٥) **M. Lafuente: ibid; V. III. p. 238** . وكذلك « تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين » ترجمة محمد عبد الله عنان ، الطبعة الثانية ، ص ١٤٥ .

وأكابرها المسلمين ، من الحكام والعلماء والقضاة وغيرهم ، على نحو ما وقع عند سقوط طليطلة . ويقول لنا ابن الكردبوس ، إن من غادرها من أهلها عند دخول النصارى بلغ خمسين ألفاً ، بيد أنه يبدو هذا العدد مبالغ فيه . ولما رأى ملك أراجون كثرة المهاجرين من المسلمين فيما بعد ، وخشى أن ينهار عمران المدينة ، أصدر أمره بمنع هجرة المسلمين إلا بإذن خاص ، وكان المهاجرون يقصدون بالأخص بلنسية ، وقواعد شرقى الأندلس .

وكان سقوط سرقسطة ، بعد سقوط طليطلة ، ضربة جديدة قاصمة للأندلس ، وكان نذيراً بسقوط باقى قواعد الثغر الأعلى فى يد مملكة أرجوان ، التى لم تكن منذ ربع قرن تشغل سوى رقعة صغيرة فى شمالى مملكة سرقسطة ، ثم أخذت تنمو بسرعة على حساب المملكة الإسلامية ، ثم كان نذيراً فى نفس الوقت بتصدع الجبهة الدفاعية فى شمالى شرقى الأندلس ، وهى التى كانت سرقسطة معقدها المنيع ، ومن ذلك الحين تواجه منطقة بلنسية ، خطر العدوان النصرانى المباشر من الشمال ، كما كانت تواجهه من الغرب . وأخطر من ذلك كله ما أصاب هيبة المرابطين العسكرية بسبب هذه الضربة من تصدع وانهيار ، وقد كانت هذه الهيبة ، منذ الزلاقة ثم أقليش فى أوج قوتها ، ثم أخذت منذ أقليش تخبو شيئاً فشيئاً ، حتى جاء سقوط سرقسطة فأصابها بأول ضربة حقيقية ، هزت من أركانها فى أنحاء شبه الجزيرة . ومن ذلك الحين تضطرم اسبانيا النصرانية ضد المرابطين بروح مضاعف من التحدى والعدوان والثقة بالنفس .

— ٥ —

وما كاد ألفونسو المحارب يستقر فى سرقسطة وينظم شئونها ، حتى اعتزم أن يتابع ظفره بافتتاح ما بقى من قواعد الثغر الأعلى ومعاقله ، وكانت تطيلة قد سقطت فى يده قبيل سقوط سرقسطة بنحو عامين فى سنة ١١١٧م (٥١١ هـ) ، فسار فى قواته نحو طرسونة الواقعة جنوب غربى تطيلة واستولى عليها ، وأعاد بها مركز الأسقفية القديمة ، ثم سار منها إلى برجة[1] الواقعة فى جنوب تطيلة ، واستولى عليها ، وافتتح عدة أخرى منه الحصون والبلاد الواقعة فى تلك المنطقة ، ومنها ألاجون ، ومالن ، ومجايون وأبيلا وغيرها ، وتمت هذه الفتوح كلها فى سنة ١١٢٠م

(١) طرسونة من بالاسبانية **Tarazona** وبرجه هى **Borja**

( ٥١٣ هـ )[١]. ثم عبر ألفونسو جبال سيرا مولينا التى تفصل بين أراجون وقشتالة ، وزحف على قلعة أيوب وكانت من أمنع ما بقى من معاقل الثغر الأعلى ، فاستولى عليها كذلك . وكانت أنباء هذه المحن المتوالية ، التى نزلت بمسلمى الثغر الأعلى ، وتوالى سقوط قواعده فى أيدى النصارى ، قد وصلت إلى أمير المسلمين على بن يوسف ، فاهتم لها ، وكتب إلى أخيه الأمير أبى إسحق ابراهيم بن يوسف ، والى إشبيلية منذ وفاة واليها السابق القائد محمد بن فاطمة فى سنة ٥١١ هـ ، بتجهيز الجيوش ، والمبادرة إلى السير لقتال ملك أراجون ( ابن رذمير ) ، ووضع حد لعدوانه ، وكتب فى نفس الوقت إلى القادة والرؤساء بالأندلس أن ينهضوا بقواتهم مع أخيه ، وأن يكونوا تحت إمرته . فحشد إبراهيم قواته ، ووافته قوات قرطبة بقيادة واليها ابن زيادة ، وقوات غرناطة بقيادة واليها الأمير محمد بن تينغمر اللمتونى ، وقوات مرسية بقيادة أبى يعقوب ينتان بن على ، وجماعة أخر من الرؤساء والقادة ، وعدد كبير من المتطوعة . وسار الأمير إبراهيم فى هذه القوات الجرارة صوب الشمال . وكان ألفونسو قد انتهى وفقاً لبعض الروايات من افتتاح قلعة أيوب ، وصار منها لافتتاح دروقة قرينتها فى المنعة والأهمية ، والواقعة فى جنوبها . وفى رواية أخرى أنه لم يكن قد انتهى بعد من افتتاح قلعة أيوب ، حينما اقتربت منه الجيوش المرابطية . وكان ألفونسو حينما علم بتحرك المرابطين وسيرهم إلى قشتالة قد استقدم سائر قواته ، واجتمع له وفقاً لأقوال الرواية الإسلامية زهاء اثنى عشر ألف فارس ، غير المشاه والرماة وهم جموع غفيرة لاتحصى . ووقع اللقاء بين المسلمين والنصارى فى ظاهر بلدة صغيرة تسمى كُتُنْدة أو قُتُنْدة على مقربة من دورقة ، وذلك فى الرابع والعشرين من شهر ربيع الأول — وعلى قول آخر ربيع الثانى — سنة ٥١٤ هـ ( يونيه أو يوليه سنة ١١٢٠ م ) . ونشبت بين الفريقين معركة عنيفة ، كانت الدائرة فيها على المسلمين ، فهزموا هزيمة شديدة ، أو « هزيمة منكرة » على قول ابن الأثير وكثر القتل فيهم ، وسقط منهم فى ميدان القتال ، وفقاً لأقوال الرواية الإسلامية نحو عشرين ألفاً من المتطوعة ، وتنوه الرواية الإسلامية بنوع خاص بمن استشهد فى الموقعة من العلماء والفقهاء ، وفى

---

( ١ ) روض القرطاس ص ١٠٦ ، وكذلك M. Lafuente : ibid; V. III. p. 238 . ولنقل المقرى عن ابن اليسع أن تطيله وطرسونة قد سقطتا فى أيدى النصارى فى سنة ٥٢٤ ( ١١٣٠ م ) وهذا مناقض لما يذكره روض القرطاس وتؤيده الرواية النصرانية من أن سقوط طرسونة وغيرها من معاقل الثغر الأعلى كان فى سنة ٥١٣ هـ ( ١١٢٠ م ) .

مقدمتهم العلامة أبو على الصدفى ، وأبو عبد الله بن الفراء قاضى ألمرية ، وارتد الأمير إبراهيم بن يوسف فى فلول الجيش المرابطى إلى بلنسية[١] . وكانت نكبة جديدة ساحقة لاسبانيا المسلمة ، ولهيبة المرابطين العسكرية . ومما هو جدير بالذكر أن الأمير إبراهيم هذا الذى قاد المرابطين فى تلك الموقعة ، هو الذى ألّف الفتح بن خاقان باسمه كتابه « قلائد العقيان » وأهداه إليه فى مقدمته ، فى عبارات فخمة رنانة[٢] .

وعلى أثر الموقعة استولى ألفونسو على قلعة دروقة ، وأنشأ على مقربة منها ، عند منابع نهر « خلوكا » محلّة جديدة محصنة ، سميت قلعة « مونريال » ، لتكون حاجزاً لصد الجيوش الإسلامية ، التى تنساب من طرق مرسية وبلنسية ، ولتكون فى نفس الوقت منزلا لجمعية دينية جديدة من الفرسان ، أسست لحماية الدين .

---

( ١ ) تراجع فى حوادث موقعة كتندة ، ابن الأثير ج ١٠ ص ٢٠٨ ، وابن عذارى فى البيان المغرب (الأوراق المخطوطة السالفة الذكر ) والمقرى فى نفح الطيب ج ٢ ص ٥٨٠ . وكذلك ابن الأبار فى كتابه « المعجم فى أصحاب الإمام القاضى أبى على الصدفى » ( المكتبة الأندلسية — المجلد الرابع ص ٧ ) . ومن المراجع القشتالية : **F. Codera: ibld; p. 262 - 267, M.Lafuente: ibid ; Vol. III. p. 239**

( ٢ ) كتاب قلائد العقيان — المقدمة — ص ٣ و ٤ .

# الفصل الرابع

## الصراع بين ألفونسو المحارب وبين المرابطين

النصارى المعاهدون. موقفهم من الحكومة الإسلامية . تحفزهم للإيقاع بالمسلمين. نصارى غرناطة . هدم كنيستهم فى قولجر . اتصالهم بألفونسو المحارب وتحريضه على غزو الأندلس . خروج ألفونسو إلى الغزو . اختراقه أراضى الثغر إلى بلنسية . مسيره إلى جزيرة شقرفدانية فشاطبة . اختراقه لأراضى مرسية حتى بسطة ثم وادى آش . تأهب المرابطين لرد النصارى وإحاطتهم بغرناطة . وصف ابن الصيرفى لأحوال المدينة . انضمام المعاهدين للجيش الأرجونى . مسير ألفونسو نحو الشمال . ملاحقة الجيوش المرابطية له . نشوب المعركة فى فحص الرنيسول بين المسلمين والنصارى . مسير ألفونسو إلى الجنوب حتى شلوبانية . عوده صوب غرناطة فوادى آش . المناوشات المستمرة بينه وبين المسلمين . اتجاهه نحو مرسية فبلنسية . انحلال قواته وعوده إلى بلاده . ما تدل عليه غزوة ألفونسو المحارب . ضعف الدفاع عن الأندلس . خطر النصارى المعاهدين . معاقبتهم بالتغريب وفقاً لفتوى ابن رشد . التعتيب والأسوار بالأندلس . نشاط الغزو النصرانى بالثغر الأعلى . عودة ألفونسو المحارب إلى غزو أراضى بلنسية . موقعة القلاعة . رواية ابن القطان . الوثائق الرسمية المرابطية عن الموقعة . كتاب أمير المسلمين لأهل بلنسية . ألفونسو يشغل بالحرب فى قشتالة وفرنسا . نشاط المرابطين فى غزو أراضى الثغر . تحفز ألفونسو لافتتاح قواعد الثغر الباقية . زحفه على مكناسة واستيلاؤه عليها . زحفه على مدينة إفراغة . مبادرة المرابطين إلى مدانعتة . محاصرته لإفراغه وتصميمه على أخذها . وصول الجيوش المرابطية بقيادة ابن غانية . نشوب المعركة الحاسمة بين الفريقين تحت أسوار إفراغة . الهزيمة الساحقة على النصارى . موت ألفونسو المحارب وما يقال حوله . أهمية النصر المرابطى وآثاره . ألفونسو المحارب وخلاله . تأملات حول موقف المرابطين بعد نصر إفراغة . بنوهود يستقرون فى روطة . عماد الدولة بن هود . ولده سيف الدولة . انضواؤه تحت حماية ملك قشتالة . نزوله له عن قاعدة روطة . بعض الروايات الخاصة بذلك . نهاية رياسة بنى هود .

### ١ — غزوة ألفونسو الكبرى للأندلس

لم تمض بضعة أعوام على سقوط سرقسطة ، حتى وقعت بالأندلس حادثة عدوان لم يسبق لها مثيل فى تاريخ الغزوات النصرانية ، من حيث اتساع نطاقها ، وخطورة العوامل الموجهة لها ، ونعنى بذلك الغزوة الكبرى التى قام بها ألفونسو المحارب ملك أراجون فى قلب الأندلس ، بناء على تحريض النصارى المعاهدين .

ولقد تحدثنا من قبل ، فى كتابنا « دول الطوائف » عن أحوال النصارى المعاهدين ، وظروف حياتهم فى ظل الحكومات الإسلامية المتعاقبة ، منذ عصر الإمارة والخلافة ، ثم فى ظل دول الطوائف ، وأشرنا إلى ماكانت تتمتع به

طوائف المعاهدين ، فى ظل هذه الحكومات الإسلامية ، من ضروب الرعاية والتسامح ، والتمتع بمزاولة شعائرهم ، وتقاليدهم ، والاحتكام إلى قوانينهم وقضاتهم ، والتحدث بلغتهم الخاصة ، دون حيف أوضغط متعمد يلحق بهم ، ودون مطاردات دينية من أى نوع تعصف بأمنهم وسلامهم ، وأنهم كانوا يؤلفون فى مختلف القواعد الإسلامية ، مجتمعات متقدمة مزدهرة ، ويشغلون فى أحيان كثيرة فى القصر وفى الحكومة ، مناصب النفوذ والثقة ، وإن كانت التواريخ النصرانية تؤثر مع ذلك كله ، أن تقدم إلينا مجتمع المعاهدين فى صور قاتمة ، وتزعم بأنهم كانوا ضحية الجور والإرهاق ، يعانون من ضغط الحكومة الإسلامية المادى والأدبى ، فى صور وأوضاع شتى .

وقد أشرنا فى نفس الوقت إلى ما كان يتسم به أولئك النصارى المعاهدون من نكران الصنيعة ، وعدم الولاء للحكومات الإسلامية ، بالرغم مما كانت تحيطهم به من ضروب الرعاية والتسامح ، وكيف أنهم لم يدخروا دائماً وسعاً فى الكيد لها ، والتآمر على سلامتها ، ومداخلة أعدائها النصارى الإسبان ، وتحريضهم عليها ، ومعاونتهم على الإيقاع بها فى كل فرصة سانحة ، وضربنا لذلك عديد الأمثلة التاريخية ، التى تسجل على النصارى المعاهدين أعمال الخيانة والغدر ، والتآمر مع أعداء الأندلس المسلمة على القضاء عليها[١] .

ولما سقطت سرقسطة فى أيدى النصارى ، وتوالت انتصارات ألفونسو المحارب ، وتوالت محن المسلمين فى الثغر الأعلى ، وظهر التخاذل على الجيوش المرابطية ، أخذت طوائف المعاهدين فى التحفز ، ولاح لها أنها تستطيع أن تعمل عملا مثمراً لضرب الأندلس ، بالتفاهم مع عاهل الثغر الأعلى ، وإمداده بما وسعوا من ضروب الإمداد والعون .

وكان أشد طوائف المعاهدين نشاطاً فى تدبير هذه المؤامرة الكبرى ، نصارى ولاية غرناطة ، وكانوا من أكبر طوائف المعاهدين عدداً ، وأغناهم مالا ، وأكثرهم ازدهاراً ومقدرة ونفوذاً ، وكانت لهم خارج غرناطة ، تجاه باب إلبيرة ، فى طريق قرية قولجر ، كنيسة عظيمة شامخة ، فريدة فى العمارة والطراز ، فلما استولى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين على غرناطة ، خاطبه الفقهاء فى

(١) يراجع الفصل الخاص بذلك من كتاب « دول الطوائف » ص ٣٩٥ — ٤٠١ .

هدمها لما يدلى به صرحها الشامخ من تطاول المعاهدين ، فأمر بتحقيق رغبتهم ، وخرج أهل غرناطة لهدم الكنيسة المذكورة ، فى آخر جمادى الآخرة سنة ٤٩٢ هـ ، فصيرت فى الحال ركاما ، وغدت قاعا صفصفا(١) .

ويحاول دوزى أن يصور هذا الحادث — هدم الكنيسة — فى صورة اضطهاد عام أنزله المرابطون بالنصارى المعاهدين ، ويقول لنا إن هذا الاضطهاد شمل هدم الكنائس بصفة عامة ، وشمل أيضاً أشياء أخرى لا يستطيع أن يتكهن بها ، لأن الرواية الإسلامية تلتزم الصمت إزاء ذلك ، ومن ثم فإنه يحاول أن يصور لنا استدعاء النصارى المعاهدين لألفونسو المحارب فى صورة الإستغاثة والانتقام لما نزل بهم من صنوف الاضطهاد المضنى(٢) . ويتابعه فى هذا المعنى المستشرق الإسبانى سيمونيت ، فيقول لنا إن نصارى مملكة غرناطة ، كان قد وقع عليهم اضطهاد شديد من جراء تعصب المرابطين ، فهدمت كنائسهم ، وطورد قساوسهم وانتهكت رسومهم ، وبعد أن صبروا على هذا الاضطهاد أعواماً ، اعتزموا أن يطلبوا عون الملك ألفونسو المحارب ، وكان قد اشتهر فى أنحاء شبه الجزيرة بقوته وفتوحاته وانتصاراته ضد الكافرين ( يريد المسلمين )(٣) . ولكن سنرى أن هذا الاستدعاء لملك أراجون ، وما اقترن به من صنوف الاستعداد والتحفز الخطر ، لم يكن كما قدمنا ، سوى مؤامرة كبرى دبرها النصارى المعاهدون لضرب الأندلس المسلمة فى الصميم .

ذلك أنه لما ترددت أصداء انتصارات ألفونسو المحارب ، فى جنبات الأندلس ، وشعر المعاهدون بأن فرصة العمل قد سنحت ، بعثوا إليه بكتبهم ورسلهم المتوالية ، يلحون عليه فى غزو الأندلس وافتتاح غرناطة . وقد كانت غرناطة حسبما تقدم قاعدة الحكم المرابطى فى الأندلس ، وكان لهذه الصفة فيما يبدو أثرها فى قيام المعاهدين بها ، بالدور الرئيسى فى هذه المؤامرة . وبعث أولئك المعاهدون إلى ألفونسو زماما يشتمل على أسماء اثنى عشر ألفاً من أنجاد مقاتليهم ، على أهبة لمعاونته ، وأنه يوجد غيرهم جموع غفيرة مستترة على قدم الأهبة ، وبعثوا إليه فى نفس الوقت بأوصاف غرناطة ، وما تشتمل عليه من الثروات والمحاصيل الجمة ،

---

(١) الإحاطة فى أخبار غرناطة لابن الخطيب ( القاهرة ١٩٥٦ ) ج ١ ص ١١٤ .

(٢) Dozy : Recherches. V. I. p. 348 & 349

(٣) F. J. Simonet : Historia de los Mozárabes de Espana, p. 745

والعيون والأنهار الغزيرة ، وما تمتاز به من حسن الموقع ، وروعة العمارة ، وازدهار العمران ، وكونها عاصمة الأندلس . وكان لهذه الدعوة المقرونة بالعون والإنجاد ، وهذا الإغراء بصفات الحاضرة الإسلامية التالدة ، أثرها فى نفس ألفونسو المحارب ، وفى شحذ همته ، وإذكاء أطماعه ، وكان يشعر عندئذ أن الظروف ممهدة ، وأن تضعضع قوى المرابطين منذ موقعة كتُندة ، مما يسهل له السبيل إلى اختراق الأندلس ، وتحقيق الغاية المنشودة .

فخرج من سرقسطة فى أول شعبان سنة ٥١٩ هـ ( سبتمبر سنة ١١٢٥ م ) فى قوة مختارة من أربعة آلاف ، وقيل فى خمسة آلاف فارس مع أتباعهم من من الرجّالة والرماة ، وقد بلغوا خمسة عشر ألفاً ، وكان معه الكونت جاستون دى بيارن الذى اشترك فى حملة سرقسطة ، وفى ركبه عدد من رجال الدين فى مقدمتهم أسقفا سرقسطة ووشقة ، وقد تعاهدوا جميعاً وتحالفوا بالإنجيل على ألا يفر أحد منهم (١) ، وهكذا كان للحملة طابعها الصليبى ، الذى طبع سائر الغزوات والحملات النصرانية ، منذ حصار سرقسطة . وسار ألفونسو بحملته شرقاً ، واخترق أراضى لاردة وإفراغه الإسلامية ، وهو يعيث فيها ، ثم انحرف جنوبا ودخل أراضى مملكة بلنسية ، وهو ينسف الزروع ويحرق القرى ، وقاومته فى بلنسية قوة مرابطية ، بقيادة أبى محمد يدّر بن ورقاء ( أواخر شهر رمضان ) ، وكان من الصعب أن تجتمع القوات المرابطية للوقوف فى وجهه ، لأنه حرص على إخفاء وجهته الحقيقية ، ولبث طول الوقت متحركاً فى قواته . وفى أثناء ذلك كانت جموع المعاهدين تهرع إلى الانضمام إليه حيثما وجد ، حتى اجتمعت له إعداد وفيرة ، وكانوا يدلونه على الطرق والمسالك ، ويكشفون له مواطن الضعف لدى المسلمين ، فى المدن والحصون التى يمر بها . ولما غادر بلنسية سار منها إلى جزيرة شُقْر فقاتلها أياماً ، ثم رحل منها إلى دانية ، فعاث فى واديها ، وقاتلها ليلة عيد الفطر من هذه السنة ، واستمر فى مسيره مخترقاً شرقى الأندلس مرحلة مرحلة ، ومنازلا سائر قواعده وحصونه ، ماراً بشاطبة ، وألش وأوريولة ، حتى وصل إلى مرسية ، ثم اجتاز منها إلى بيرة ، فالمنصورة ، فبرشانة ، حيث توقف أياما . ثم سار إلى مدينة بسطة ، وحاول منازلتها وافتتاحها ، لسهولة موقعها ، وضعف

---

( ١ ) الحلل الموشية ص ٦٧ . وهو الذى يأخذ بالتقدير الأول . ويأخذ ابن عذارى فى البيان المغرب بالتقدير الثانى ( الأوراق المخطوطة السالفة الذكر — هسبيرس ص ٨٣ ) .

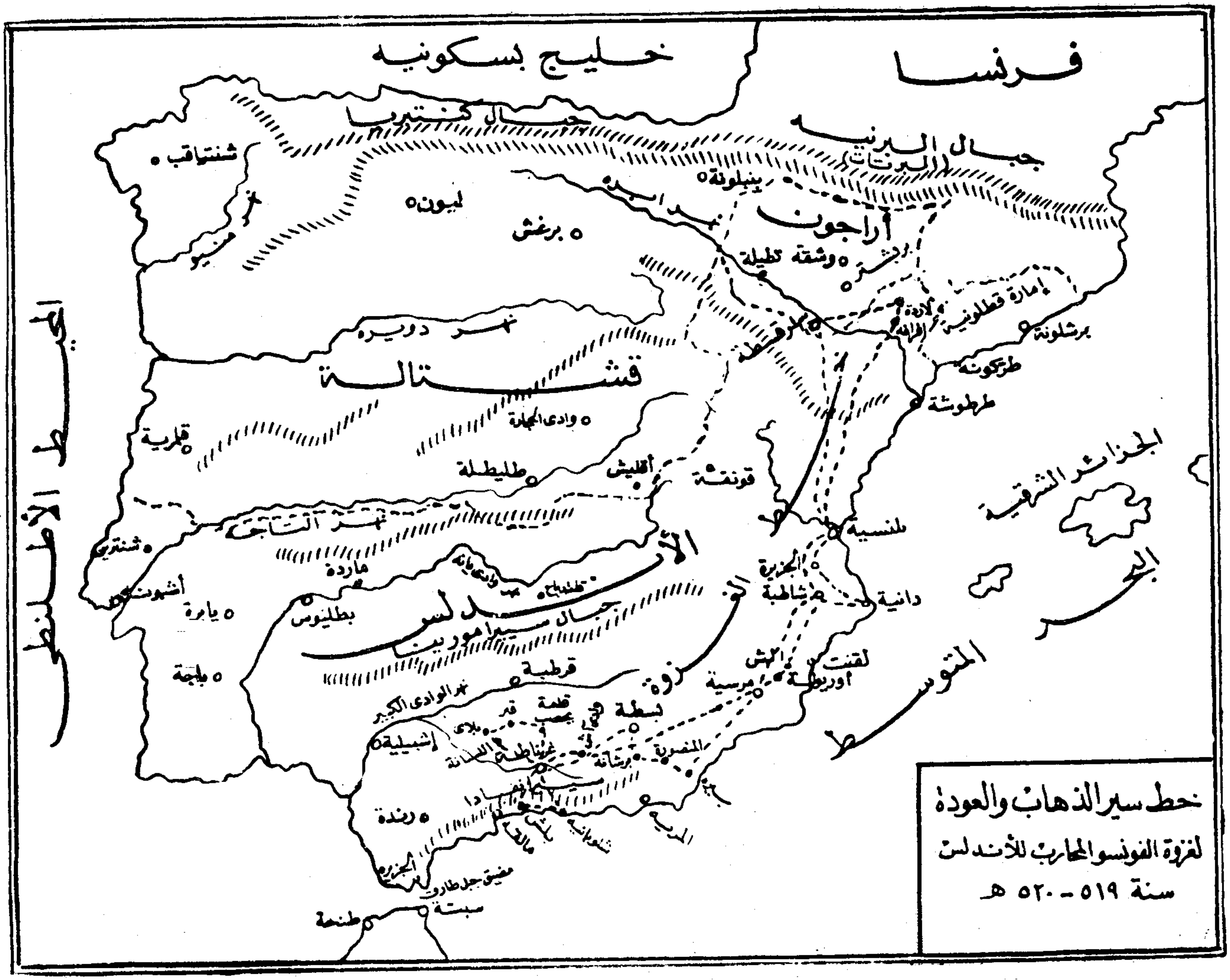


خط سير الذهاب والعودة لغزوة ألفونسو المحارب للأندلس سنة ٥١٩ - ٥٢٠ هـ

تحصيناتها ، ولكنه لم ينجع ، فغادرها إلى وادى آش ، ونزل بقرية القصر القريبة منها ، وأخذ ينازل منها وادى آش ، ويقاتلها أياماً ، وذلك فى أوائل شهر ذى القعدة من السنة المذكورة ، واستمر فى محاولته زهاء شهر ، ولكنه لم ينل منها مأرباً .

وهنا نجد وصفاً دقيقاً لبقية هذه الغزوة الحريئة فى أقوال مؤرخ غرناطى معاصر تقريباً ، هو أبو بكر ابن الصيرفى كاتب الدولة المرابطية ومؤرخها فى كتابه « الأنوار الحلية فى أخبار الدولة المرابطية » ، وهو مؤلف لم يصل مع الأسف إلينا ، ولم نتلق منه سوى شذور يسيرة ، على يد بعض المؤرخين اللاحقين ، مثل ابن عذارى ، وابن الخطيب ، وصاحب الحلل الموشية[1] .

يقول لنا ابن الصيرفى ، إنه لما اقترب ألفونسو المحارب بقواته من غرناطة ، تناجى النصارى المعاهدون بغرناطة باستدعائه ، فافتضح تدبيرهم ، وهمّ أميرها باعتقالهم ، فأعياه ذلك ، وتسلل المعاهدون من كل صوب إلى محلة الغزاة ، وكان المشرف على شئون الأندلس يومئذ الأمير أبو الطاهر تميم ، وقاعدته كما هو معروف بغرناطة ، فحشد سائر قواته ، وأمده أخوه أمير المسلمين على بجيش وفير ، وكان حينما سمع بعدوان ابن رذمير ، قد أمر بإعداده فى العدوة ، وعبوره إلى الأندلس على وجه السرعة ، وانضمت إليه قوات مرسية وإشبيلية ، وأحاطت الجيوش المرابطية الحرارة بغرناطة ، حتى صارت كالدائرة ، وصارت المدينة فى وسطها كالنقطة . وتحرك ألفونسو من وادى آش ، ونزل بقرية دجمة غربى وادى آش ، فى منتصف المسافة بينها وبين غرناطة ، فاشتد القلق بغرناطة ، وصلى الناس صلاة الخوف يوم عيد النحر ، واستعدوا بالسلاح . ويصف ابن عذارى حال غرناطة فى قوله : « وجاءت الطلائع منبثة . . وانقطعت السابلة والواردة ،

---

(١) ترجم لنا ابن الخطيب لابن الصيرفى فى الإحاطة ، فقال هو « يحيى بن محمد بن يوسف الأنصارى يكنى أبا بكر ويعرف بابن الصيرفى ، من أهل غرناطة ، كان نسيج وحده فى البلاغة والجزالة والتبريز فى أسلوب التاريخ والتملى من الأدب والمعرفة باللغة والخبر . قال أبو القاسم ( الملاحى ) ، من أهل المعرفة بالأدب والعربية واللغة والتاريخ ، ومن الكتاب المجيدين والشعراء المطبوعين المكثرين . كتب بغرناطة عن الأمير أبى محمد تاشفين ، وله فيه نظم حسن . وألف فى تاريخ الأندلس كتاباً سماه « الأنوار الحلية فى أخبار الدولة المرابطية » ضمنه العجائب إلى سنة ثلاثين وخمسمائة ، ثم وصله إلى قرب وفاته . وكتابا آخر فى ذلك سما « قصص الأنبياء ، وسياسة الرؤساء » . توفى بغرناطة فى حدود السبعين وخمسمائة (مخطوط الإحاطة بمكتبة الإسكوريال رقم ١٦٧٣ الغزيرى لوحة ٤١٥) .

وقلت المرافق ، وتزاحم الناس فى المدينة [ وسكنت ] المساجد والمصاطب ، والرحاب ، وكثر الجزع والإرجاف والموجان .. والأسوار معمورة بأهل البلدة ، وليس فى الدور غير الصبية والنسوة »[١]. وفى ظهر اليوم التالى وصل النصارى إلى مقربة من شرق المدينة ، وكان عددهم قد بلغ عندئذ زهاء خمسين ألفاً ، ونشب القتال بينهم وبين المسلمين . قال ابن الصيرفى : « وتوالى الحرب على فرسخين منها ، وقد أجلى السواد ، وتزاحم الناس بالمدينة ، وتوالى الجليد ،وأظلت الأمطار» . ولبث ألفونسو بحملته بضع عشرة ليلة ، وهو ملتزم السكون بسبب الجليد والأمطار ، والمعاهدون يمدونه بالأقوات والمؤن . ثم أقلع عن غرناطة ، وقد ارتفع طمعه عنها ، لما لمسه من وفرة الجيوش المدافعة عنها ، وذلك فى يوم ٢٦ ذى الحجة سنة ٥٢٠ هـ ( ٢١ يناير سنة ١١٢٧م ) ، وأنحى ألفونسو باللائمة على المعاهدين ، وزعيمهم ابن القلاّس ، لتقاعسهم ، وعدم وفائهم بما التزموه، فردوا اللوم إليه، واحتجوا ببطئه وتاومه حتى تلاحقت الجيوش، وأنهم قد أضحوا بذلك عرضة للهلاك على يد المسلمين . وسار ألفونسو إلى قرية مرسانة ، ثم إلى بيش[٢] ثم اتجه شمالا إلى قلعة يحصب ، ثم انحدر غرباً نحو قبرة واللسانة[٣] والجيوش الإسلامية تلاحقه ، وتناوشه فى معارك صغيرة ، وكانت قوات إشبيلية قد تحركت عندئذ بقيادة واليها الأمير أبى بكر ابن أمير المسلمين ، وانضمت إلى باقى الجيوش المرابطية فى مطاردة العدو . ثم أقام ألفونسو بقبرة أياماً ، وسار منها إلى بلاى[٤] فاللسانة ثم انحدر جنوبا ، والمسلمون فى أثره حتى قرية شيجة[٥] القريبة من غرناطة ، وهنالك فى فحص الرينسول[٦] وقعت بينه وبين المسلمين معركة ، كان فيها الظهور فى البداية للمسلمين . ولما جن الليل وقع فى المعسكر الإسلامى حادث أثار فيه الاضطراب . وذلك أن الأمير تميما أمر بنقل خبائه ، من وهدة

---

( ١ ) البيان المغرب ( الأوراق المخطوطة السالفة الذكر – هسبيرس ص ٨٤ ) .

( ٢ ) مرسانة وبالإسبانية **Maracena** وبيش وبالإسبانية **Beas** قريتان من أعمال غرناطة تقع الأولى فى شمالها الشرق والأخرى فى شمالها الغربى .

( ٣ ) قلعة يحصب هى اليوم بالإسبانية **Alcalà la Real** ، وقبرة هى **Cabra** ، واللسانة هى **Lucena** .

( ٤ ) هى قرية **Poley** القديمة ، وتسمى اليوم **Aguilar**

( ٥ ) شيجة هى قرية **Espejo** الإسبانية .

( ٦ ) فحص الرينسول أو أرنسول يقع جنوبى غرناطة وبالإسبانية **Arinsol** .

كان فيها إلى نجدة ، فظن الناس أنه ينوى الانسحاب ، فاختل الأمر ، وكثر الفرار ، وفى الغد هجم النصارى على محلة المسلمين ، واستولوا عليها ، ووقعت الهزيمة على المسلمين ( مارس سنة ١١٢٧ م ) .

وسار ألفونسو بعد ذلك فى قواته نحو الجنوب الشرقى ، واخترق جبال سيرًّا نفادا ( جبل الثلج ) ، وانحدر إلى الشاطئ نحو وادى شلوبانية العميق المتحصن المجاز ، ويروى أنه قال عند رؤيته : « أى قبر هذا لو ألفينا من يرد علينا التراب » . ثم سار غرباً نحو مدينة بلِّش مالقة ، وأنشأ بها مركباً صغيراً يصيد له حوتاً ، أكل منه « كأنه نذر كان عليه وفى به ، أوحديث أراد أن يخلد عنه » . ثم عبر جبال سيرًّا نفادا مرة أخرى ، عائداً إلى غرناطة ، وعسكر بقرية دلر على مقربة منها ، ثم انتقل منها إلى قرية هَمْدان الواقعة فى جنوبها ، وهنالك وقعت بينه وبين المسلمين معركة شديدة ثم انتقل بعد يومين إلى « المرج » La Vega ، وفرسان المسلمين فى أثره تضيق عليه ، ثم نزل بعين أطسة ، وهى على أتم الأهبة والحذر ، وسار بعد ذلك إلى وادى آش ، وقد أصيب كثير من عسكره ، خلال المناوشات العديدة التى وقعت بينه وبين المسلمين ، ولما رأى أنه لم يحقق بغزوته الطويلة المدى ، أى هدف يذكر ، عول على العود إلى بلاده ، فاتجه شرقاً نحو مرسية ، فشاطبة فبلنسية ، وقد لحق بعسكره خلال السير نحو عشرة آلاف من النصارى المعاهدين ، الذين فروا من مواطنهم خيفة الانتقام والهلكة ، هذا والعساكر الإسلامية تلاحقه فى كل موطن ، والوباء يعصف بعسكره ، حتى وصل إلى بلاده مفلولا ، قد حطمه وجنده الإعياء والوهن ، وذلك بعد أن أنفق فى غزوته خمسة عشر شهراً ، وهو مع ذلك ، « يفخر بما ناله فى سفره من هزيمة المسلمين ، وفتكه فى بلادهم وكثرة ما أسر وغنم »(١) .

تلك تفاصيل غزوة ألفونسو المحارب الشاملة ، لأقطار الأندلس الشرقية والجنوبية ، وهى قد انتهت بعد المعارك والمناوشات العديدة ، التى خاضها مع المسلمين ، إلى فشل مطبق ، ولم يحقق ملك أراجون من ورائها أية نتيجة عملية .

---

( ١ ) راجع فى تفاصيل غزوة ألفونسو المحارب للأندلس : الحلل الموشية ص ٦٦ – ٧٠ ، وابن الخطيب فى الإحاطة ( القاهرة ١٩٥٦ ) ج ١ ص ١١٦ – ١١٩ ، وكلاهما ينقل رواية ابن الصيرفى مفصلة . وابن عذارى فى البيان المغرب ، وهو يقدم لنا نفس الرواية ، ولكن مزيدة بمعلومات وتفاصيل أخرى ( الأوراق المخطوطة السالفة الذكر – هسبيرس ص ٨٤ و ٨٥ ) . وراجع ابن الأثير ج ١٠ ص ٢٢٤ .

ولكنها مع ذلك قد كشف عن حقيقة هامة ، وهى أن نظم الدفاع عن الأندلس ، لم تكن يومئذ وفق ما يجب من المتانة والإحكام ، وأن خطط القيادة المرابطية ، منذ نكبة سرقسطة لم تكن كفيلة ، بردع عدوان الممالك النصرانية . ولم يكن أدل على هذه الحقيقة من أن ملكاً من ملوك اسبانيا النصرانية ، استطاع أن يخترق الأندلس من الثغر الأعلى ، حتى شاطئ البحر المتوسط ، دون أن تستطيع قوة إسلامية ، مرابطية أوغيرها ، أن تقف فى سبيله .

وثمة حقيقة أخرى كانت جديرة بالاعتبار ، وهى أن النصارى المعاهدين الذين يعيشون فى ظل الحكومة الإسلامية ، ويتمتعون برعايتها ، لم يكونوا يشعرون نحوها بذرة من الولاء ، بل كانوا يمثلون خطراً داخلياً على الأندلس ، ولا يدخرون وسعاً فى الكيد لها ، وممالأة أعدائها ، وتحريضهم على التنكيل بها ، وقد سبق أن أشرنا من قبل فى كتابنا « دول الطوائف » إلى هذه الحقيقة ، وبينا كيف كانت الأحقاد والشكوك ، تحيط بمجتمع المعاهدين ، وبالأخص منذ سقوط طليطلة ، وكيف أن بعيدى النظر من الوزراء والفقهاء ، كانوا ينصحون بالحذر منهم ، ويدعون إلى ردعهم والتضييق عليهم ، كما فعل الوزير الكاتب عبد المجيد بن عبدون فى رسالته عن الحسبة[1] . ولقد كانت دعوة المعاهدين لألفونسو المحارب ، ومعاونتهم له فى غزو الأندلس ، على هذه الصورة البعيدة المدى ، تمثل بالنسبة لهم ذروة الجحود والاجتراء والخيانة ، ومن ثم فقد كان لابد من أن يحدث موقفهم أسوأ الأثر فى الأمة الأندلسية والحكومة الإسلامية ، وكان لابد أن تتخذ فى حقهم إجراءات رادعة ، تكفل قمع دسائسهم وعدوانهم بصورة حاسمة . وهذا ما حدث بالفعل عقب انتهاء غزوة ألفونسو المحارب ، فإن ما حدث على أثرها من بوادر السخط على المعاهدين ، والتوجس من مكائدهم ، حمل كبير الجماعة فى قرطبة القاضى أبا الوليد بن رشد ، على أن يعبر البحر إلى المغرب ، ثم قصد إلى أمير المسلمين على بن يوسف بمراكش ، وشرح له أحوال الأندلس ، وما منيت به على يد المعاهدين ، وما جنوه عليها من استدعاء النصارى ، وما يترتب على ذلك من « نقض العهد والخروج على الذمة » ، وأفتى بتغريبهم ووجوب إجلائهم عن أوطانهم ، وهو أخف ما يؤخذ به فى عقابهم . فأخذ أمير المسلمين بهذه الفتوى ، وصدر عهده إلى جميع بلاد الأندلس ، بتغريب المعاهدين إلى العُدوة

---

(١) كتاب « دول الطوائف » ص ٣٩٩ و ٤٠٠ .

( المغرب ) ، فنفيت منهم جموع غفيرة ، وسيق الكثير منهم إلى مكناسة ، وسلا وغيرهما من بلاد العدوة ، وهلك منهم خلال العبور والسفر عدد جم ، وتفرقوا شذر مذر ، وضم أمير المسلمين منهم عدداً إلى حرسه الخاص ، امتازوا فيما بعد بالإخلاص والبراعة . على أن هذا التغريب لم يكن شاملا ، فقد بقيت فى غرناطة وفى قرطبة وفى غيرهما من القواعد ، جماعات من النصارى المعاهدين ، لأسباب مختلفة ، لتنمو وتزدهر مرة أخرى . وقد وقع تغريب المعاهدين فى شهر رمضان سنة ٥٢١ هـ ( أواخر سنة ١١٢٧ م ) وكانت نكبة بالغة لم يصب المعاهدين مثلها منذ بعيد(١) .

وينوه المستشرق سيمونيت بما أصاب المعاهدين من جراء هذا النفى من الآلام والمحن ، ويقول إن العناية الإلهية شاءت أن ترد هذه القسوة ، بما أنزل بعد ذلك بقرون بالموريسكيين أو العرب المتنصرين عند نفيهم من اسبانيا من قسوة مماثلة . وهذه مقارنة غير موفقة ، لأن ما أنزلته اسبانيا بالموريسكيين قبل النفى وخلاله ، من ضروب القسوة المروعة ، يندر أن نجد له مثيلا فى صحف الاستشهاد القومى .

## ٢ — التعتيب والأسوار

وقد كانت سنة ٥٢٠ هـ ، هذه وهى التى وقعت فيها غزوة ألفونسو المحارب والنصارى المعاهدين للأندلس ، واشتدت فى نفس الوقت حركة محمد بن تومرت المهدى بالمغرب ، سنة التحصينات ، والمنشآت الدفاعية سواء ، فى المغرب أو الأندلس . فأما فى المغرب ، فقد شرع أمير المسلمين على بن يوسف فى تسوير حاضرته مراكش ، وكانت حين إنشائها فى سنة ٤٦٢ هـ ، قد أقيم السور فقط حول المسجد والقصبة اللتين ابتناهما يوسف بن تاشفين . وبقيت المدينة ذاتها دون أسوار تحميها . وكان الذى أشار على أمير المسلمين بتسويرها ، القاضى أبا الوليد ابن رشد ، حينما اشتدت حركة المهدى ، واستفتى أمير المسلمين فقهاء المغرب ، والأندلس فى أمره ، فأفتى ابن رشد بوجوب إنشاء أسوار للمدينة ، تقوم بحمايته وحماية الساكنين معه . وشرع أمير المسلمين فى بناء أسوار مراكش فى جمادى الأولى

---

( ١ ) يراجع فى ذلك الحلل الموشية ص ٦٦ و ٧٠ ، وابن الخطيب فى الإحاطة ج ١ ص ١١٩ و ١٢٠ ، والبيان المغرب ( الأوراق المخطوطة — هسبيرس ص ٨٦ ) . وأشباخ فى « تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين » ( الطبعة الثانية ) ص ١٤٧ — ١٥٠ . وراجع : « F.J. Simonet : Historia de los Mozárabes (Madrid 1896) p. 746-751

سنة ٥٢٠هـ ( ١١٢٦م ) وهذه هي رواية صاحب الحلل الموشية وابن عذارى[1]. ويضع ابن القطان رحلة ابن رشد إلى مراكش وبناء سورها وفقاً لنصحه فى سنة ٥٢٢هـ . ويقول لنا صاحب روض القرطاس، ويتابعه ابن خلدون إن بناء أسوار مراكش كان فى سنة ٥٢٦هـ[2]. والرواية الأولى أرجح فيما يبدو ، لأن القاضى ابن رشد توفى فى أواخر سنة ٥٢٠هـ ( أواخر سنة ١١٢٦م ) . وحشد أمير المسلمين جموعاً غفيرة من الفعلة والصناع فتم بناء السور فى نحو ثمانية أشهر . كما تم بناء الجامع ومناره . وبلغت النفقة على السور وحده سبعين ألف دينار من الذهب العين ، ثم أصلح هذا السور ، وأنشئت به أبراج جديدة وزيد فيه حتى شمل مقابر المدينة ، وذلك فى سنة ٥٣٠ هـ . وبعث أمير المسلمين على بن يوسف فى الوقت نفسه ، كتابه إلى الأندلس ، بوجوب إنشاء الأسوار ، فأرجئ النظر فى ذلك حتى صرف الأمير تميم عن ولاية الأندلس وجاز إلى مراكش وهنالك توفى ، وقدِّم أبو عمر ينالة اللمتونى على غرناطة ، وقدِّم أبو حفص عمر بن أمير المسلمين على قرطبة . وعمد ينالة إلى تعتيب غرناطة وفرض « المعتب » ( إتاوة الدار ) على سائر أهلها ، واشتد فى تحصيل المال ، وأصلحت الأسوار وأكملت فى أقرب وقت . ثم جاء سيل شديد فصدم الأسوار ، وسقطت منها أجزاء كبيرة مما يلى باب الرملة وباب إلبيرة ، وهلك كثير من الناس . وتولى أهل قرطبة إصلاح أسوارهم ورمها على سالف عادتهم ، دون تعتيب ودون ضغط . وكذلك فعل أهل إشبيلية نحو أسوارهم ، فجمعت النفقة بأيسر أمر ، ودون إجحاف ، وأقيمت الأسوار وأصلحت . وتولى النظر فى إصلاح أسوار ألمرية رجل من أهلها يعرف بابن العجمى ، فاستعمل الحزم والرفق معاً ، وأبدى الناس إقبالا على أداء الإتاوة المطلوبة ، وأصلحت الأسوار وأكملت دون ضغط ولا إرهاق .

واستمر ينالة اللمتونى ، والياً على غرناطة حتى ، عزل عنها فى جمادى الأولى سنة ٥٢٢ هـ ، أى بعد سنة وتسعة أشهر . وكان ظلوماً جائراً ، وكان من أعمال ظلمه أن استدعى فقهاء جيّان وعلماءها إلى غرناطة ، ثم قبض عليهم ، وأودعهم السجن دون جريرة ، وسار إلى الغزو فى شرقى الأندلس ، وتركهم فى المطبق ،

( ١ ) الحلل الموشية عن ٧٠ و ٧١ ، وابن عذارى فى البيان المغرب ( الأوراق المخطوطة السالفة الذكر هسبيرس ص ٨٦ ) ، ونظم الجمان ( المخطوط لوحة ٣٣ ب ) .

( ٢ ) روض القرطاس ٨٩ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٨٤ ، وفى كتاب « الإستبصار فى عجائب الأمصار » أن سور مراكش قد أنشئ فى سنة ٥١٤ هـ وهى رواية ضعيفة ( ص ٢٠٩ ) .

فلما نمى ذلك إلى أمير المسلمين على بن يوسف ، أمر بعزله ، وعين ولده أبا حفص عمر والى قرطبة والياً لغرناطة . فلما وصل إلى غرناطة بادر بالإفراج عن الفقهاء والعلماء المعتقلين ، وردهم إلى بلدهم مكرمين ، واستراح الناس من ظلم ينالة وجوره[1] .

### ٣ — موقعة القلاعة

لما عاد ألفونسو المحارب من حملته الأندلسية الفاشلة ، عاد إلى استئناف نشاطه فى أراضى الثغر ضد المرابطين . وكان المسلمون ما يزالون يحتلون من الثغر الأعلى ، المنطقة الواقعة شرقى سرقسطة ، فيما بين نهرى سنكا وسجرى فرعى إبرة ، وأهم قواعدها لاردة وإفراغة ومكناسة الواقعة عند ملتقى إبرة وسجرى ، وكذلك المنطقة الممتدة بعد ذلك على طول نهر إبرة ، حتى مصبه عبر ثغر طرطوشة ، وكان ألفونسو يرمى إلى إجلاء المسلمين عن هذه المنطقة ، حتى يكفل اتصال مملكته بالبحر المتوسط عن طريق ثغر طرطوشة الهام . وكان ثغر طرّكونة الواقع شمال طرطوشة ، قد سقط فى أيدى النصارى قبل ذلك بنحو أربعين عاما . ونحن نذكر أن هذا الثغر كان من أعمال مملكة سرقسطة أيام بنى هود ، وأنه لما توفى المقتدر بن هود فى سنة ٤٧٤ هـ ( ١٠٨١م ) قسمت مملكته بين ولديه يوسف المؤتمن وأخيه المنذر ، وأن المنذر بن هود اختص بالجانب الشرقى من مملكة سرقسطة وفيه ثغرا طرّكونة وطرطوشة . ثم توفى المنذر بن هود فى سنة ٤٨٣ هـ ( ١٠٩٠م ) وخلفه ولده الطفل سليمان الملقب بسعد الدولة ، وكان الكونت رامون برنجير الثانى أمير برشلونة ، ومن ورائه أحبار قطلونية ، يتوقون إلى انتزاع ثغر طرّكونة من المسلمين وإعادته كما كان مركزاً رئيسياً للكنيسة القطلونية ، فكتبوا بذلك إلى البابا أوربان الثانى ، وهو محرك الحرب الصليبية الأولى فى المشرق ، فشجع مشروعهم وباركه ، وأسبغ عليه الصفة الصليبية ، وأصدر طائفة من المنح والمزايا الدينية لمن يشتركون فى هذه الحملة . وكتب إلى سائر الأمراء والبارونات والفرسان ورجال الدين ، فى البلاد المجاورة ، يحثهم على الاشتراك فى هذه الحرب المقدسة ، وهكذا جهزت حملة صليبية قوية لافتتاح طرّكونة ، على رأسها رامون برنجير ، وجاءت وفاة المنذر بن هود فى تلك الآونة بالذات مشجعة للغزاة . وسارت الحملة إلى طرّكونة واستطاعت انتزاعها من المسلمين بسهولة ( ١٠١٠م ) لضعف وسائلها الدفاعية ، وتخلى المستعين بن هود صاحب سرقسطة عن إنجادها ،

---

( ١ ) البيان المغرب ( الأوراق المخطوطة السالفة الذكر — هسبيرس ص ٨٦ ، و ٨٧ ) .

ولأن الجيوش المرابطية ، لم تكن قد وصلت يومئذ فى زحفها نحو الشمال ، إلى الثغر الأعلى .

وبسقوط طرّكونه فى يد آمير برشلونة ، وضمها إلى مملكة قطلونية ، لم يبق من ثغور مملكة سرقسطة القديمة سوى طرطوشة ، وكان ألفونسو المحارب يتوق إلى انتزاع هذا الثغر ، ولكنه كان مضطراً إلى أن يخوض قبل ذلك معارك عديدة مع المرابطين ، الذين يسيطرون على متطقتى لاردة وإفراغة ، وما وراءهما من الأراضى حتى مصب نهر إبرة . ومن ثم فإنه ما كاد يعود من حملته الأندلسية ، حتى أخذ يعد العدة لتنفيذ مشروعه . ولم يمض سوى عامين حتى خرج فى قواته من سرقسطة ، وزحف شرقاً نحو نهر سِنكا فى اتجاه إفراغة ولاردة . وكانت هذه المنطقة قد غدت منذ سقوط سرقسطة ، مسرحاً للصراع المستمر بين المسلمين والنصارى ، وكانت للمرابطين فيما يبدو حاميات قوية فى تلك القواعد ، وكانت لهم فوق ذلك قوات متحركة ، تنساب بسرعة من شرقى الأندلس ، من منطقة بلنسية ، كلما همّ النصارى بالعدوان .

على أنه يبدو أن ألفونسو المحارب ، لم يرد أن يشتبك فى هذه المنطقة من الثغر الأعلى مع المرابطين فى صراع حاسم ، قبل أن يقضى على قواتهم فى جنوبى الثغر ، وقد كانت تلاحقه نحو الشمال باستمرار . ومن ثم فقد سار فى قواته جنوباً نحو أراضى بلنسية ، وكان على بن يوسف قد علم من عماله فى بلنسية وما والاها أن ألفونسو المحارب يتأهب لغزو أراضى المسلمين ، فخشى علىّ أن تكون حركة شاملة كالتى قام بها المحارب فى قلب الأندلس ، وأمر بحشد قوات من السود تتكفل بنفقاتها مختلف المدن ، كل وفق طاقتها ، ثم أرسلت هذه الحشود إلى مرسية — وواليها يدّر بن ورقا — تعزيزاً للجيوش المرابطية فى شرقى الأندلس . وهنا يحيق شىء من الغموض حول تفاصيل الموقعة التى نشبت على أثر ذلك بين الأرجونيين والمرابطين ، وحول موقعها . وتذكر لنا الرواية الإسلامية الوحيدة التى لدينا عن الموقعة — وهى رواية ابن القطان — أن الموقعة نشبت فى مكان يعرف بالقليعة أو القلاعة ، وأن القليعة هذه تقع على مقربة من جزيرة شقر جنوبى بلنسية ، وكان ابن زدمير ( ألفونسو الأرجونى ) يرابط بقواته بها . وهكذا نشبت فى القليعة معركة عنيفة بين المرابطين والأرجونيين ، ويضع ابن القطان تاريخها فى سنة ٥٢٣ هـ ( ١١٢٩ م ) ، ويقول لنا إن قوات المسلمين كلها كانت بقيادة

ابن محور ، وأن المسلمين أصيبوا فيها بهزيمة فادحة ، وفنى معظمهم قتلا وأسراً ، واحتوى العدو على سائر أسلابهم ومتاعهم ودوابهم ، وبلغت خسارتهم نحو اثنى عشر ألفاً بين قتيل وأسير [١] .

أما الغموض الذى يحيق بأمر هذه الموقعة ، فيأتى مما تذكره لنا الرواية النصرانية وهو أن القلعة أو القلاعة هذه Alcolea ، إنما هى بلدة صغيرة محصنة تقع على الضفة اليسرى لنهر سنكا أحد أفرع نهر إبرة ، على مقربة من إفراغة ، ولها قصبة منيعة ؛ ومعنى ذلك أن الموقعة نشبت بين المرابطين والموحدين فى الثغر الأعلى ، لا فى أراضى بلنسية . وتضيف الرواية النصرانية إلى ذلك أن ألفونسو المحارب استولى على أثر الموقعة على بلدة القلاعة ، وحصنها ثم أقطعها لأحد أكابر رجاله ممن أبلوا فى خدمته [٢] .

ثم إنه يوجد من جهة أخرى فى الرواية النصرانية ما يفيد أن ألفونسو المحارب قد حاصر بلنسية فى أوائل سنة ١١٢٩ م ، وهو مما يعزز قول الرواية الإسلامية فى أن المعركة قد نشبت بين الأرجونيين والمسلمين فى أراضى بلنسية .

هذا ، والى جانب رواية ابن القطان المتقدمة عن الموقعة ، توجد لدينا عنها وثيقتان مرابطيتان ، تلقيان عليها ، وعلى تاريخ وقوعها ، . مزيداً من الضياء ، ويستخلص منهما ما يأتى :

أولا — أن الموقعة وقعت فى « القلعة » أو « القلاعة » . ونحن نرجح قول الرواية الإسلامية فى تحديد موقع القلاعة ، بأنه على مقربة من جزيرة شقر .

وثانيا — أن وقوعها كان فى النصف الأول من سنة ٥٢٣ هـ ( النصف الأول من سنة ١١٢٩ م ) .

وثالثا — أن المرابطين ، أصيبوا فى تلك الموقعة بهزيمة شديدة ، وقد كانوا بقيادة الأمير أبى محمد بن أبى بكر بن سير اللمتونى ، وهو ابن أخت على بن يوسف ، المعروف بابن قنونه ، باسم أمه أخت الأمير .

والوثيقة الأولى هى عبارة عن رسالة كتب بها أمير المسلمين على بن يوسف إلى الأمير أبى محمد بن أبى بكر من حضرة مراكش ، ومؤرخه فى السابع من شهر شعبان سنة ٥٢٣ هـ ، وذلك رداً على كتابه الذى أرسله إلى أمير المسلمين ينبئه

---

( ١ ) ابن القطان فى « نظم الجمان » ( المخطوط السابق ذكره لوحة ٣٤ ب ) .

( ٢ ) M. Lafuente : ibid ; Vol. III. p 240

فيه بخبر الموقعة . والرسالة من إنشاء كاتب الأندلس وإمام النثر بها يومئذ ، أبى مروان بن أبى الخِصَال ، وقد كان يتولى الكتابة فى بلاط مراكش ، وفيها ينحى أمير المسلمين باللوم القارص على قائده أبى محمد بن أبى بكر ، وينوه بتقصيره وخذلانه فى عبارات لاذعة يقول فيها :

« وإن لبيان العذر بتلك الحال لقصير ، وإن الله على ذلك المشهد المضيع لمطلع بصير ، توافقتم مع عدوكم ، وأنتم أوفر منه عدة وأكثر جمعاً ، وأحرى أن تكونوا أشد عن حريمكم منعاً ، وأقوى دونه دفعاً ، فتبت وزللتم ، وجد ونكلتم ، وشد عقدة عزيمته وحللتم ، وكنتم فى تلك الوقعة قرة عين الحاسد ، وشماتة العدو والراصد ، وقد كانت نصبة توليكم بين يديه بشيعة هائلة ، ودعامتكم لولا انثناؤه عنكم مائلة ، فشغله عنكم من غررتموه من الرّجل الذى أسلمتوه للقتل ، وفررتم ، ونصبتموهم دريئة للرماح ثم طرتم ، ولولا مكان من أوردتموه من المسلمين ولم تصدروه ، وخذلتموه من المجاهدين ولم تنصروه ، لانكشف دون ذلك الرماح جنتكم ووقاؤكم ، وأصيبت بها ظهوركم وأقفاؤكم ، عاقبكم الله بما أنتم أهله »(١) .

والوثيقة الثانية عبارة عن رسالة كتب بها أيضاً أمير المسلمين على بن يوسف إلى قادة الجيش المرابطى الذين هزموا فى موقعة « القلاعة » ، مؤرخة فى الحادى عشر من شعبان سنة ٥٢٣ هـ من حضرة مراكش ، رداً على كتابهم فى وصف المعركة ، وفيها يقول إنه لا محيص عن القدر ، وإنه لم يأل جهداً فى العمل لإعلاء كلمة الإسلام ، وبذل الأموال وحشد الرجال ، وإنه لو استطاع أن يكون حاضراً بنفسه لديهم لفعل ، ثم يطمئنهم ويؤكد لهم أنه لا هم له إلا الذياد والدفاع عنهم والتوفر عليه بأقصى جهد(٢) .

وإنه ليبدو لنا من رسالة ثالثة كتبها أمير المسلمين على بن يوسف إلى قاضى بلنسية وساير الفقهاء والوزراء والأعيان والعامة ، عند نزول ابن رذمير عليها ، أن ألفونسو الأرجونى ، بعد أن أحرز نصره فى موقعة القلاعة المتقدمة الذكر ، قد سار بقواته شمالا مخترقا أراضى ولاية بلنسية ، وأنه اقترب من ثغر

---

( ١ ) يراجع نص هذه الوثيقة بأكمله فى باب الوثائق . وقد نقلناها عن مخطوط الإسكوريال رقم ٤٨٨ الغزيرى ( لوحة ٧١ ب — ١٧٢ ) وسبق أن نشر هذه الوثيقة وعلق عيها الدكتور حسين مؤنس فى بحثه الذى سبقت الإشارة إليه ( مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة سنة ١٩٤٩ ) .

( ٢ ) يراجع نص هذه الرسالة فى باب الوثائق . وقد نقلناها عن نفس المخطوط ( لوحة ٧٢ ب و١٧٣ ) وسبق أن نشر هذه الوثيقة أيضاً الدكتور حسين مؤنس فى بحثه السالف الذكر .

بلنسية ، ورابط أمامه حيناً . والواقع أن ابن القطان يذكر لنا بعد حديثه عن موقعة القلاعة ، أن قوة من النصارى أغارت على غليرة Cullera الواقعة على البحر على مقربة من جنوبى بلنسية ، واكتسحت ماوجدت(١) ، وعندئذ وجه قاضى بلنسية الخطيب أبو الحسن إلى أمير المسلمين رسالة استغاثة ، هى التى يرد عليها فى رسالته . وقد صدرت رسالة أمير المسلمين من حضرة مراكش مؤرخه فى السابع من شعبان سنة ٥٢٣ هـ ، فى نفس اليوم الذى أرخت فيه الرسالة الأولى ، الموجهة إلى الأمير محمد بن أبى بكر بلومه ، وتقريعه على تخاذله فى « القلاعة » . وفى هذه الرسالة يشير أمير المسلمين برفق إلى هزيمة جنده فى القلاعة ، وأن ذلك لم يكن إلا بسبب تخاذلهم ، وعدم اعتبارهم بمواعظه ، ثم يطمئن أهل بلنسية ، ويؤكد لهم أنه لن يتركهم إلى الضياع ، ولن يألو جهداً للذب عنهم ، وأنه قد كتب إلى سائر ولاته ، بإرسال الأقوات ، والتعجيل بإنفاذها فى أقرب وقت ، وأنه يضعهم من باله فى أعز مكان ، ويختتمها بالدعاء لأهل بلنسية « بأن يشد الله أزرهم ، ويصح أمرهم ، ويسد ثغرهم ، ويحفظ الألفة عليهم »(٢) . والظاهر أن ألفونسو المحارب ، قد اكتفى فى زحفه بأعمال العيث والتخريب ، ولم يحاول مهاجمة بلنسية ذاتها(٣) .

## ٤ — موقعة إفراغة

شغل ألفونسو المحارب ، عقب غزوته الكبرى خلال الأندلس ، بضعة أعوام ، بالحرب مع منافسه ملك قشتالة الفتى ألفونسو ريمونديس ولد زوجه أورّاكا ، ولما انتهت هذه الحرب بعقد الهدنة بين قشتالة وأراجون فى سنة ١١٣٠م ، حول ألفونسو المحارب نشاطه إلى وجهة أخرى ، غير العدوان على الأندلس . فعبر جبال البرنيه فى بعض قواته إلى فرنسا ، وحاصر مدينة بيونة الواقعة شمال ناڤار ، ولم توضح لنا الرواية النصرانية بواعث هذه الحركة ، من جانب ملك أراجون ، ولكن الظاهر ، أنه قام بها إنجاداً لبعض أتباعه من السادة الفرنج ، الذين تجاور أراضيهم ناڤار ، وانتهى الحصار باستيلاء ألفونسو على بيونة ( سنة ١١٣١ م ) ، ثم عاد إلى أراجون ، ليستأنف تدبير مشاريعه ضد الأندلس .

---

( ١ ) نظم الجمان ( المخطوط السابق ذكره لوحة ٣٤ ب ) .

( ٢ ) نشرنا هذه الوثيقة فى باب الوثائق ، منقولة عن مخطوط الإسكوريال السالف الذكر ( لوحة ٧٢ ب — ٧٣ ا ) .

( ٣ ) **M. Lafuente: ibid; Vol. III. p. 240**

وكانت الجيوش المرابطية فى الثغر الأعلى وشرقى الأندلس ، خلال هذه الفترة ، التى شغل فيها ألفونسو المحارب بحروبه فى قشتالة وجنوبى فرنسا ، تقوم بالإغارة على الأراضى النصرانية المجاورة والعيث فيها ، وكانت تخرج بالأخص من طرطوشة ولاردة ، وهما أهم القواعد التى بقيت بأيدى المسلمين فى الثغر الأعلى ، لتجتاح أراضى النصارى المجاورة فى أراجون وإمارة برشلونة . ووقعت بين المسلمين والنصارى فى تلك الفترة ، عدة معارك ، وشغل الكونت رامون برنجير الثالث أمير برشلونة ، بمعاونة حلفائه الأرجونيين لرد غارات المسلمين .

فلما عاد ألفونسو المحارب إلى استئناف نشاطه ضد المسلمين ، كان أهم مايشغله هو الاستيلاء على ما بقى من قواعد الثغر الأعلى ، وإجلاء المسلمين عنها .وكانت هذه القواعد ، تنحصر أولا فى لاردة وإفراغة ومكناسة الواقعة ، فى المثلث الواقع بين نهرى سنكا وسجرى فرعي نهر إبرة ( الإيبرو ) ، وثانيا فى ثغر طرطوشة الواقع على البحر المتوسط عند مصب إبرة . وكان ثغر طرطوشة كما قدمنا بالأخص هدف ملك أراجون ، إذ كان الاستيلاء عليه ، يحقق له الاستيلاء على ما بقى من مجرى نهر إبرة ، ويضمن له سلامة الملاحة فى هذا النهر العظيم ، ويصل ما بين مملكته وبين البحر . ومن ثم فقد وضع ألفونسو مشروعه الكبير من شقين ، يتضمن الأول الاستيلاء على القواعد الإسلامية ، الواقعة فى مثلث نهرى سنكا وسجرى ، ثم يتبعها بالشق الثانى وهو الاستيلاء على طرطوشة . وأعد ألفونسو حملة جديدة قوية للبدء فى تنفيذ مشروعه ، واشترك فى هذه الحملة كثير من الأشراف والفرسان الفرنسيين ، على غرار ما حدث فى حملة سرقسطة ، وبدأ ألفونسو بالزحف على مدينة ( مكننسة ) مكناسة الواقعة عند ملتقى نهرى سجرى وإبرة ، وهى قاعدة حصينة ، ولكن الدفاع عنها لم يكن ميسوراً لوقوعها فى السهل المكشوف ، فهاجمها النصارى بشدة ، واضطرت إلى التسليم بعد مقاومة عنيفة ، وذلك فى يونيه سنة ١١٣٣ م ( أواخر سنة ٥٢٧ هـ ) .

واتجه ألفونسو بعد ذلك إلى الاستيلاء على مدينتى إفراغة ولاردة ، وبدأ الزحف على إفراغة وهى تقع على الضفة اليمنى لنهر سنكا على مسافة قريبة من شمال مكناسة . ولم يكن الاستيلاء على إفراغة بالأمر الهين ، لموقعها الحصين فوق الربى العالية فى نهاية منحدر وعر ضيق ، تصعب مهاجمته ، ويسهل الدفاع عنه . ومن جهة أخرى ، فقد شعر المرابطون ، من أهبة ألفونسو وعنف تحركاته ، أن

المعركة الحاسمة بينهم وبين النصارى فى الثغر الأعلى ، أضحت على وشك الوقوع . وكانوا مذ وقفوا على حركات ألفونسو وأهباته ، لافتتاح قواعد الثغر الباقية ، قد رأوا من باب التحوط والاستعداد ، أن يعقدوا التفاهم والسلم مع أمير برشلونة رامون برنجير الثالث ، وذلك خشية أن ينتهز الفرصة فيهاجمهم من جانبه ، ويضطر المرابطون إلى القتال فى جهتين ، فاتفقوا على أن يؤدوا له جزية سنوية قدرها اثنا عشر ألف دينار ، وذلك عن أمر على بن يوسف وتوجيهه . فغضب لذلك ألفونسو ، وأقسم بأنه سوف ينتزع تلك البلاد التى تؤدى عنها الجزية ، ويقطع بذلك منفعتها عن الطرفين الخصيمين (١) .

ومن ثم فإنه ما كادت مكناسة تسقط فى يد العدو ، حتى بادر المرابطون فى الثغر ، وفى وسط شرقى الأندلس ، إلى التأهب للدفاع عن إفراغة ولاردة ، وهرع الزبير بن عمرو اللمتونى من قرطبة إلى الثغر الأعلى ، فى ألفى فارس ، ومعه مقادير وفيرة من المؤن . وهرع إليه الأمير أبو زكريا يحيى بن غانية والى بلنسية ومرسية ، فى قوة تقدرها الرواية بخمسمائة فارس ، وكان من أعظم وأشجع القادة المرابطين . وكذلك حشد عبد الله بن عياض والى لاردة قواته . وكان أهل إفراغة حينما ضيق عليهم ألفونسو الحصار ، وأخذت مواردهم فى النضوب ، قد كتبوا إلى يحيى بن غانية باعتباره عميد القادة المرابطين ، بطلب الإنجاد والأقوات ، وأنذروه فى كتابهم ، بأنه إن لم يفعل خضعوا لألفونسو ، وسلموه المدينة . ولكن ابن غانية لم يكن فى حاجة إلى مثل هذا النذير ، وكانت مهمة إنجاد إفراغة وإنقاذها تلقى لديه ، ولدى سائر القادة المرابطين منذ البداية منتهى الغيرة والاهتمام (٢) .

وفى تلك الأثناء كان ألفونسو قد وصل بقواته إلى إفراغة ، وضرب حولها الحصار ، فقاومته حاميتها وأهلها بقيادة واليها سعد بن محمد بن مردنيش أشد مقاومة ، واضطر أن يرفع الحصار غير مرة ، ثم يعود إليه ، وحملته هذه المقاومة ذاتها ، على مضاعفة جهوده فى التضييق على المدينة المحصورة ، والتصميم على أخذها . وأقسم ألفونسو تحت أسوار إفراغة ، كما أقسم أبوه سانشو راميرز قبل ذلك بأربعين عاما ، تحت أسوار وشقة ، أن يفتتح إفراغة أو يموت دونها ، وأقسم معه عشرون من سادته ، وأمر ألفونسو كذلك أن يؤتى برفات القديسين إلى المعسكر

(١) ابن القطان فى نظم الجمان ( المخطوط السالف الذكر ) .
(٢) ابن القطان فى نظم الجمان ( المخطوط السالف الذكر ) .

إذكاء لحماسة الجند ، وأن يتولى الأساقفة والرهبان قيادة الصفوف أسوة بالقوامس (الكونتات) . وهنا تختلف الروايتان الإسلامية والنصرانية فى تصوير الوقائع ، وبينما تقول الرواية الإسلامية إنه ماكادت الجيوش المرابطية تصل إلى إفراغة ، حتى نشبت الموقعة الحاسمة بين المسلمين والنصارى ، إذا بالرواية النصرانية تقدم إلينا تفصيلا آخر ، وهو أنه ماكادت القوات المرابطية تصل إلى ظاهر إفراغة ، وتتقدم إلى إنجادها ، حتى وقعت بينها وبين النصارى معركتين متواليتين ، وهزم المرابطون فى الموقعتين ، ولجأوا إلى الفرار ، وعندئذ دب اليأس إلى أهل المدينة وعرضوا التسليم ببعض الشروط ، فرفض ألفونسو كل عرض للتسليم ، وصمم على اقتحام المدينة بالسيف ، فانقلب المحصورون إلى مقاومة اليأس ، ونظم المرابطون قواتهم ، وعادوا إلى محاولة إنقاذ المدينة ، ودبروا كميناً جذبوا إليه الأرجونيين ، على يد قافلة من المؤن . وهنا نشب القتال واضطرمت الموقعة .

وعلى أى حال ، فقد نشبت بين المرابطين وبين النصارى تحت أسوار إفراغة ، موقعة من أشد وأعنف ، مما عرف فى تاريخ المعارك الحاسمة فى الثغر الأعلى . وتقدر الرواية الإسلامية قوات المرابطين بنحو ثلاثة آلاف فارس[1] ، وهو تقدير لا يتفق فى نظرنا مع ضخامة المعركة ونتائجها ، وتقدرهم الرواية النصرانية بعشرة آلاف فارس[2] . وأما الجيش النصرانى ، فتقدره الرواية الإسلامية بإثنى عشر ألف فارس[3] . ومن المرجح على أى حال ، أن القوات النصرانية كانت تتفوق فى الكثرة على المسلمين . ووقع بين الفريقين قتال شديد مروع ، وأبدى المسلمون بقيادة ابن غانية ضروباً رائعة من البراعة والبسالة ، وقاتل الأرجونيون كذلك بفيض من الشجاعة ، وكان ملكهم يقود المعركة بنفسه ، وخرج أهل إفراغة ، فانقضوا على النصارى من الخلف ، فاشتد الأمر على النصارى ، وكثر القتل فيهم ، وهلكت منهم عدة كبيرة من القادة والأكابر ، ومزقت صفوفهم تمزيقاً ، وأصيبوا بهزيمة ساحقة ، لم يصبهم مثلها منذ موقعتى الزلاّقة وأقليش[4] ، واستولى

---

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ١٣ ، وهو يحدد القوات المرابطية على النحو الآتى : قوات قرطبة ألف فارس ، وقوات مرسية وبلنسية خمسمائة فارس ، وقوات لاردة مائتا فارس .

(٢) M.Lafuente: ibid ; Vol. III. p. 248. وكذلك أشباخ فى تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ( الترجمة العربية ) ص ١٦٤ .

(٣) ابن الأثير ج ١١ ص ١٣ .

(٤) راجع فى تحديد معالم الموقعة خريطة الثغر الأعلى ( ص ٩١ من هذا الكتاب ) .

المسلمون على محلتهم وعتادهم وسلاحهم ، وكان ذلك فى اليوم السابع عشر من يوليه سنة ١١٣٤ م (٢٣ رمضان سنة ٥٢٨ هـ)[١] .

وتختلف الرواية اختلافاً بيناً فى مصير ألفونسو المحارب . ومعظم الروايات النصرانية على أنه سقط خلال الموقعة . ويؤيد هذه الرواية صاحب « الأخبار الطليطلية » وردريك الطليطلى . وثوريتا وغيرهم . ولكن الذى يثير ريباً حولها ، هو أن جثة ألفونسو المحارب لم توجد قط بين ضحايا الموقعة[٢] . وأما الرواية الأخرى ، فهى أن ألفونسو توفى بعد الموقعة بأيام قلائل ، ويروى مؤرخ قطلونى معاصر فى وصفه للمعركة ، أنه حين تمت الهزيمة الساحقة على النصارى ، عمد ألفونسو إلى الفرار بصحبة فارسين فقط ، ولجأ إلى دير القديس « خوان دى لابنيا » فى سرقسطة ، وهنالك توفى غماً ويأساً ، لثمانية أيام فقط من الموقعة ، وذلك فى ٢٥ يوليه سنة ١١٣٤ . وهذا ما تؤيده الرواية الإسلامية مع خلاف يسير . فإن ابن الأثير يقول لنا فى حديثه عن الموقعة ، أن ابن ردمير (ألفونسو) لحق عقب هزيمته بمدينة سرقسطة ، « فلما رأى ما قتل من أصحابه ، مات مفجوعاً بعد عشرين يوماً من الهزيمة »[٣] ويقول ابن القطان أن ابن ردمير فر فى شرذمة قليلة جداً ، ولحق بمدينة سرقسطة ، واله العقل ، مخبول الذهن ، ثم خرج منها إلى وشقة فأقام بها مختلا أشهراً قليلة ثم حان أجله[٤] . ويقول لنا صاحب الروض المعطار ، إن ألفونسو فر عقب هزيمة ، وأوى إلى حصن خرب فى رأس جبل شاهق ، مع الفل الذى بقى معه ، ثم غادره متسللا بالليل حينما أحدق به المسلمون[٥] .

---

(١) تختلف الرواية العربية فى تاريخ الموقعة فيضعه ابن عذارى فى سنة ٥٢٨ هـ ( الأوراق المخطوطة السالفة الذكر — هسبيرس ص ١٠٠ ) . ويقول لنا ابن القطان إنها وقعت فى سنة ٥٢٩ هـ ويقول فى موضع آخر إنها وقعت سنة ٥٢٨ هـ ( المخطوط السابق ذكره ) ويضعها ابن الأثير فى سنة ٥٢٩ هـ ( ج ١١ ص ١٣ ) . ويقول لنا صاحب الروض المعطار إنها وقعت فى رمضان سنة ٥٢٥ هـ ( صفة جزيرة الأندلس ص ٢٤ ) . ولكن الرواية النصرانية تحدد لنا تاريخها تحديداً دقيقاً واضحاً ، وهو يوليه سنة ١١٣٤ ، الموافق لرمضان سنة ٥٢٨ هـ .

(٢) يراجع فى ذلك **M. Lafuente : ibid; Vol. III. p. 243.** ، والهامش حيث يعدد الروايات النصرانية المؤيدة لسقوط ألفونسو فى الموقعة . وراجع أيضاً : **F. Codera : Decadencia y Disparición de los Almoravides p. 269 - 272**

(٣) ابن الأثير ج ١١ ص ١٣ .

(٤) فى نظم الجمان ( المخطوط السابق ذكره ) .

(٥) الروض المعطار ص ٢٥ .

وقد كان لنصر المرابطين فى إفراغة ، صدى عميق فى سائر أرجاء الأندلس ، وفى اسبانيا النصرانية بنوع خاص ، وعادت سمعة المرابطين العسكرية ، إلى سابق مكانتها فى شبه الجزيرة ، وذاع صيت يحيى بن غانية ، قائد المرابطين فى ذلك اليوم المشهود ، وسنرى فيما بعد كيف يضطلع ابن غانية فى قيادة المرابطين فى شبه الجزيرة بأعظم دور . وقد نظم الشاعر أبو جعفر بن وضاح المرسى ، فى واقعة إفراغة ، ومديح ابن غانية قصيدة يقول فيها :

| | |
|---|---|
| شمرت برديك لما أسبل الوانى | وشب منك الأعادى نار غيان |
| دنفت فى غاية الخطىّ نحوهم | كالعين يهفو عليها وطف أجفان |
| عقرتهم بسيوف الهند مصلتة | كأنما شربوا منها بغدوان |
| هون عليك سوى نفس قتلتهم | من يكسر النبع لم يعجز عن البان |
| وقفت والجيش عقدٌ منك منتثرا | إلا فرائد أشياخ وشبان |
| والخيل تنحط من وقع الرماح بها | كأن نصالها ترجيع ألحان |

وكان من أثر موقعة إفراغة ، وهلاك ألفونسو المحارب ، أن انقشع الخطر مدى حين ، عما بقى بأيدى المسلمين من أراضى الثغر الأعلى ، وعن شرقى الأندلس ، واختفت من ميدان الصراع بين المسلمين والنصارى ، شخصية خطرة كانت تهدد بمشاريعها البعيدة المدى وتصميمها المستميت ، سلام المسلمين ، وسلامة الوطن الأندلسى . وقد كان ألفونسو المحارب فى الواقع ، مثل فرناندو الأول ، وألفونسو السادس ، من أعظم ملوك اسبانيا النصرانية ، فى العصور الوسطى . وكان افتتاحه لسرقسطة ، فاتحة عصر جديد لمملكة أراجون ، كما كان افتتاح ألفونسو السادس لطليطلة فاتحة عصر جديد لمملكة قشتالة ، وقد غدت مملكة أراجون فى ظله ، باتحاد مملكة ناڤار معها ، منذ عهد أبيه سانشو ، قرينة مملكة قشتالة من حيث ترامى الرقعة ، وضخامة الموارد ، وقوة المراس فى مناجزة الأندلس ، وقد استطاع هو أن يوطد حدود مملكته ، وأن يوسع رقعتها ، بافتتاحه سرقسطة وتطيلة وطرسونة وقلعة أيوب ودورقة وغيرها ، من القواعد الإسلامية ، وكانت أمامه ، بزواجه من أوّراكا ملكة قشتالة ، فرصة لأن يغدو قيصراً لإسبانيا الكبرى ، ولكن ما نشب بين الزوجين من خلاف حول السلطان ، وما أبداه أشراف قشتالة من بغض لنير أراجون — كان كفيلا بتحطيم مثل هذا المشروع ، وكانت الحرب

الأهلية التى نشبت من جراء ذلك بين قشتالة وأراجون ، تتيح للمسلمين أوقاتا للتهادن ، كما تتيح لهم فرص الغزو فى الأراضى النصرانية . والرواية الإسلامية نفسها تشيد بعظمة ألفونسو المحارب . ويصفه ابن الأثير فى قوله « وكان من أشد ملوك الفرنج بأساً ، وأكثرهم تجرداً لحرب المسلمين وأعظمهم صبرا »(١) . هذا وسوف نعنى عند الكلام عن تاريخ اسبانيا النصرانية فى عهد المرابطين ، بالتحدث عن أحوال أراجون وقشتالة فى عهد ألفونسو المحارب .

ومما هو جدير بالملاحظة ، أن المرابطين ، بالرغم من نصرهم الساحق فى موقعة إفراغة ، وتمزيقهم للجيش الأرجونى شر ممزق ، لم يفكروا فى الاستفادة من نصرهم بالزحف توآ على سرقسطة ، ومحاولة استردادها ، وقد كانت على مقربة من ساحة نصرهم ، وكان سحق الجيش الأرجونى ، وهلاك عاهله ، مما يشجع على الاضطلاع بمثل هذه المحاولة ، ولكن المرابطين قنعوا فى ذلك الموطن بالنصر ، وانصرفوا إلى قواعدهم ، على غرار ما حدث عقب نصر الزلاّقة ، حيث أحجم عاهل المرابطين يوسف بن تاشفين عن مطاردة القشتاليين ، وانتهاز فرصة انهيار الجيش القشتالى لمحاولة استرداد طليطلة ؛ ومن الغريب أن المرابطين كانوا فى نفس الوقت الذى اضطرمت فيه معركة إفراغة سنة ٥٢٨ هـ يقومون بغزوات مخربة عقيمة فى أراضى قشتالة ، بقيادة الأمير تاشفين ، ولد أمير المسلمين على بن يوسف ، ولو أنهم حشدوا مزيداً من قواتهم فى الثغر الأعلى ، على أثر انتصارهم فى إفراغة بقيادة قائدهم البطل يحيى بن غانية ، لكانت لديهم بلاريب فرصة مرجحة ، لاسترداد الثغر الإسلامى العظيم — سرقسطة — وفى رأينا أن المرابطين ، بإحجامهم عن استغلال ظفرهم فى الزلاّقة وإفراغة ، وإحجامهم فى الحالة الأولى عن محاولة استرداد طليطلة ، وفى الثانية عن محاولة استرداد سرقسطة ، قد ارتكبوا فى الحالتين خطأ عسكرياً لاشك فى خطورته ، وكانت له فى الحالتين نتائج بعيدة المدى .

## ٥ — خاتمة ملك بنى هود بالثغر الأعلى

لما دخل المرابطون سرقسطة بدعوة أهلها ، فى أواخر سنة ٥٠٣ هـ (١١١٠م) كان قد غادرها آخر ملوكها من بنى هود ، عبد الملك بن أحمد المستعين بن هود الملقب بعماد الدولة . ولم يكن عبد الملك قد حكم سوى فترة يسيرة ، دب الخلاف

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ١٣ .

خلالها بينه وبين أهل سرقسطة لمحالفته النصارى وانضوائه تحت لوائهم ، حسبما فصلناه من قبل فى كتاب « دول الطوائف » . وسار عبد الملك فى أهله وأمواله إلى قاعدة روطة المنيعة ، الواقعة على الضفة اليسرى لنهر خالون أحد أفرع نهر إبرة الجنوبية ، على قيد خمسة وثلاثين كيلومتراً من سرقسطة . وكان بنو هود قد أنشأوا هذه القاعدة ، وحصنوها وزودوها بالأبنية الضخمة ، وأعدوها لتكون لهم عند الضرورة ملجأ ومثوى . وفى بعض الروايات أن الذى أنشأ حصن روطة ، وأسبغ عليه مناعته الفائقة ، هو المستعين والد عبد الملك ، وأنه حفر فيه إلى إلى الوادى سرباً أتقن أدراجه ، تنيف على أربعمائة درج فلا ينقطع فيه الماء[١] . واستقر عبد الملك فى هذه القاعدة ، وأنشأ بها إمارة صغيرة . والظاهر أن إمارة روطة كانت تشمل يومئذ ، رقعة من الأراضى ، تمتد شمالا حتى برجة الواقعة شمال غربى سرقسطة ، على مقربة من تطيلة ، يدل على ذلك ما يذكره صاحب البيان المغرب فى أخبار سنة عشر وخمسمائة من أن الأمير أبا بكر صاحب سرقسطة ، خرج إلى الغزو ، وهاجم حصن روطة ، وأثخن فى أنحائه ، ثم تحرك إلى برجة ، وبها عماد الدولة بن المستعين بن هود ، فضيق عليها ، وبالغ فى إرهاقها ، حتى صالحه أهلها ، فرجع عنها إلى سرقسطة[٢] . وعلى أى حال فإنه يبدو أن العداء كان مستحكماً ، بين عماد الدولة وبين المرابطين ، ومن ثم فقد وضع عماد الدولة نفسه تحت حماية ملك أراجون القوى ، ألفونسو المحارب ، خشية من نقمة المرابطين سادة سرقسطة ، واستمر عبد الملك عماد الدولة ، فى حكم إمارته الصغيرة نحو عشرين عاماً ، حتى توفى بحصن روطة فى شعبان سنة ٥٢٤هـ (١١٣٠م) . وكانت سرقسطة قد سقطت فى تلك الأثناء فى أيدى النصارى ، وأصبح ألفونسو المحارب سيد هذه الأنحاء بلا منازع . وتوجد ثمة رواية مفادها أن عماد الدولة بن هود ، لبث أميراً بسرقسطة ، تحت حماية المرابطين ، حتى سقطت المدينة فى أيدى النصارى ، وعندئذ فر منها إلى روطة[٣]. بيد أن هذه الرواية ضعيفة لاتؤيدها أية رواية أخرى . وينقضها بالعكس ، ماسبق أن ذكرناه من توالى الولاة المرابطين على سرقسطة ، مذ دخلها ابن الحاج حتى سقوطها فى أيدى النصارى فى سنة ٥١٢ هـ (١١١٨ م) .

(١) ابن الكردبوس فى كتاب « الإكتفاء » (مخطوط الأكاديمية السالف الذكر لوحة ١٦٥ب) .
(٢) ابن عذارى فى البيان المغرب (الأوراق المخطوطة – هسبيرس ص ٧٨) .
(٣) ابن الكردبوس فى كتابه السالف الذكر (المخطوط لوحة ١٦٥ب) .

ولما توفى عماد الدولة خلفه فى إمارة روطة وأعمالها ، ولده أبو جعفر أحمد ابن عبد الملك ، وتلقب بسيف الدولة المستنصر بالله . وكذلك المستعين بالله ، واستمر فى حكم روطة وما حولها من الحصون والأراضى ، وحذا حذو أبيه فى محالفة النصارى ، والانضواء تحت حماية ألفونسو المحارب ملك أراجون . بيد أنه ما لبث أن شعر بوطأة هذا النير . ورأى أن يتجه إلى الناحية الأخرى من اسبانيا النصرانية ، إلى ناحية قشتالة . وكان ملك قشتالة الفتى ألفونسو ريموندیس ، الذى تسميه الرواية العربية أدفنش بن رمند باسم أبيه ريموند البورجونى ، وبالسُّليطين أى الملك الصغير — لانه تولى الملك وهو حدث . وأضحى بعد وفاة أمه أورّاكا فى سنة ١١٢٦م ، ملكاً على ليون وقشتالة ولمّا يجاوز الحادية والعشرين. وكان ألفونسو ريموندیس ، بعد أن انتهى النضال بينه وبين خصمه ومنافسه ألفونسو المحارب ، زوج أمه القديم بظفره ، وأضحى سيد قشتالة القوى ، يبدو لسيف الدولة حليفاً أفضل . وتعرف الرواية اللاتينية « سيف الدولة » معرفة جيدة ، وتسميه « سفادولا » Zafadola ، وتقول لنا إن سيف الدولة عرض على أولاده ووزرائه ، فكرة التحالف مع ملك قشتالة والانضواء تحت لوائه ، فوافقوا عليها ، وأنه بعث إلى ملك قشتالة برغبته فى زيارته ، وبأن يرسل إليه بعض فرسانه لحمايته ، خوفاً من المرابطين ، فبعث إليه الملك ببعض أكابر فرسانه ، وصحبوه إلى بلاط طليطلة ، فاستقباه الملك بترحاب وعطف ، وعامله معاملة ملك ، وقدم إليه طائفة من الهدايا النفيسة ، وتأثر سيف الدولة بما رآه من فخامة بلاط قشتالة ، وكريم معاملته ، فأعلن أنه ينضوى تحت لوائه وحمايته ، ويضع نفسه هو وأولاده تحت تصرفه ، ثم نزل له عن حصن روطة ، مقابل حصون وبلاد فى منطقة طليطلة وإسترامادورة ، أعطاه إياها ملك قشتالة ، فانتقل إليها ووضع نفسه فى خدمته(١) .

وتقدم إلينا بعض الروايات النصرانية الأخرى ، قصة سيف الدولة فى صيغة أخرى ، فتقول إن سيف الدولة لما برم بحماية ملك أراجون المرهقة ، وخشى من انقلاب رعيته عليه لمحالفته للملوك النصارى ، قرر أن يعترف بحماية ملك قشتالة ، ونزل له عن روطة اليهود ، وغيرها من المواقع المنيعة ، الباقية من مملكته الصغيرة ،

(١) تراجع هذه الرواية فى A. P. Ibars : Valencia Arabe (Valencia 1901) T.I. p. 466-467 وكذلك فى F· Codera : Dec. y Disp. de los Almoravides, p. 24-26

فاستقبله ملك قشتالة بترحاب ، وأعطاه فى مقابل ذلك ، عدة أمكنة فى قشتالة وليون ( سنة ١١٣٢ م )[١].

وتحدثنا الرواية العربية عن سيف الدولة المستنصر بن هود ، وعن تنازله عن حصن روطة لملك النصارى ، ولكنها تختلف فى تفاصيل ذلك . ويضع ابن الاثير هذا التنازل فى حوادث سنة ٥٢٩ هـ ( ١١٣٤ م ) ، ويقول لنا إن المستنصر ابن هود ، عقد فى هذه السنة الصلح مع « السليطين » ( ألفونسو ريمونديس ) . وكان « السليطين » قد أكثر من غزو بلاد المستنصر وقتالها حتى ضعف عن مقاومته ، فرأى أن يريح نفسه وجنده مدة ، فاستقر بينهما الصلح لمدة عشر سنين ، على أن يسلم المستنصر حصن روطة ، وهو من أمنع الحصون وأحصنها ، وتسلم النصارى الحصن « وفعل المستنصر فعلة لم يفعلها قبله أحد »[٢] .

ويقدم إلينا ابن الكردبوس عن هذه الواقعة رواية ضافية ، ينفرد فيها بتفاصيل خاصة ، خلاصتها أن طاغية الروم الإنبرطر الملقب بالسُّلطين ، هو الذى راسل المستنصر ، وعرض عليه أن يتخلى له عن روطة ويعوضه عنها بقشتالة ماهو أحسن وأفيد ، بحيث يغدو وأقرب إلى بلاد غربى الأندلس ، وأنه سوف يخرج معه بنفسه إلى طائفة من البلاد المتاخمة لقشتالة يدعو أهلها لطاعته ، وأنه على يقين من أن أهل هذه البلاد سوف يستجيبون إلى دعوته ، لأن المرابطين قد أذاقوهم العذاب ، وهم يكرهونهم ، ويتمنون زوال دولتهم ، وأخيراً أنه لم يبق من أبناء الملوك المسلمين سواه ، أى المستنصر ، وهكذا تخلى المستنصر لملك قشتالة عن روطة وهى « معقل ما أبصر مثله من يعقل » . وعوضه عنها ملك قشتاله بقرى ومزارع مغلة فى بلاده . ثم خرج معه إلى غربى الأندلس ، فى قوات كثيفة ، فما قصد موضعاً إلا ألفاه ممتنعاً ، ولم تستجب إلى دعوته أية قرية ، أو أى موضع ، وخشى أهل هذه البلاد جميعاً ، إن أطاعوه وانضموا تحت لوائه ، فإن العدو يغلبهم ويملكهم ، وهكذا رجع المستنصر من مشروعه بأخسر صفقة[٣] . ويستفاد من رواية ابن الكردبوس هذه ، أن ملك قشتالة ، كان يرمى إلى استخدام المستنصر

---

( ١ ) M. Lafuente: ibid ; Vol. III p. 247.

( ٢ ) ابن الأثير ج ١١ ص ١٣ .

( ٣ ) وردت رواية ابن الكردبوس فى كتاب « الإكتفاء » ( مخطوط أكاديمية التاريخ السابق الذكر لوحة ١٦٥ ب ) .

فى إنشاء إمارة متاخمة لقشتالة من ناحية الجنوب الغربى ، تتكون من بعض البلاد والقرى الإسلامية النائية المحاورة لحدود قشتالة ، وذلك لكى يجعل منها قاعدة أمامية لعدوانه على أراضى الأندلس ، ووسيلة للضرب والتفريق بين المسلمين فى تلك المنطقة ، بيد أنه فشل فى مشروعه واقتصر سيف الدولة المستنصر ، فى مقامه بقشتالة ، على الأماكن والأراضى التى منحت له ليعيش فيها . ويقول لنا ابن الأبار إن ملك قشتالة عوضه عن روطة بنصف مدينة طليطلة[١]. وهذه رواية تدعو إلى التأمل ، لأن طليطلة كانت فى ذلك الوقت عاصمة مملكة قشتالة ، وتقول لنا الرواية اللاتينية السالفة الذكر إن ملك قشتالة منح المستنصر حصوناً وبلاداً فى منطقة طليطلة وإسترامادورة ، وهو أقرب إلى المعقول ، وربما شملت هذه الأماكن حياً أو دوراً فى طليطلة ذاتها . ويضع ابن الأبار تاريخ تنازل المستنصر عن روطة فى شهر ذى القعدة سنة ٥٣٤ هـ ( ١١٣٩ م ) .

وهناك رواية أخرى يقدمها إلينا ابن الخطيب ، وهى تختلف فى مضمونها عما تقدم ، وخلاصتها أن المستنصر بن هود لجأ إلى حماية ابن رذمير ، أعنى ألفونسو المحارب ملك أراجون ، وليس إلى حماية ملك قشتالة ، وأن ابن رذمير عاوضه عن روطة بأماكن من أعمال مدينة تُطيلة فى شمالى الثغر فانتقل إليها بأهله وأمواله[٢].

وهكذا انتهت بتخلى المستنصر عن قاعدة روطة وأعمالها ، رياسة بنى هود فيما تبقى من أنقاض مملكة سرقسطة القديمة . وأقام المستنصر فى مقره الجديد فى كنف ملك قشتالة بضعة أعوام أخرى ، إلى أن سنحت له فرصة للتدخل فى حوادث الأندلس ، وشق طريقه إلى الرياسة من جديد ، وهو ما سنعنى به فى موضعه المناسب .

---

( ١ ) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٢٢٥ .

( ٢ ) ابن الخطيب فى أعمال الأعلام ص ١٧٦ .

# الفصل الخامس

## الأمير تاشفين بن على

### وغزواته وأعماله فى شبه الجزيرة

قاعدة التولية لدى المرابطين . على بن يوسف يولى ولده تاشفين شئون الأندلس . الخلاف حول تاريخ هذه التولية . خروج تاشفين إلى غزو قشتالة . غزوة لوالى إشبيلية . القشتاليون يغزون أراضى قرطبة . غزوة ينتان بن على لأراضى أراجون . تاشفين يفتتح حصن السكة . عود القشتاليين إلى غزو أراضى قرطبة . مسير تاشفين إلى لقائهم وهزيمتهم . غزو القشتاليين لأراضى إشبيلية وردهم . عودهم إلى الغزو بقيادة ملكهم ألفونسو ريموندس . التقاء تاشفين وقواته بالنصارى قرب بطليوس . هزيمة القشتاليين وفرارهم . خروج تاشفين إلى الغزو . اللقاء فى موقعة البكار . هزيمة المرابطين فى البداية ثم ثباتهم وانتصارهم . قصيدة أبى بكر الصيرفى فى مديح تاشفين ونصحه . إيضاح عن مكان الموقعة . حوادث أندلسية مختلفة . غزوة قشتالية لأراضى الأندلس . توغل القشتاليين وعيثهم حتى أراضى شريش . غزوات جديدة لتاشفين فى أراضى قشتالة . غزوة قشتالية أخرى لأراضى قرطبة . نقل قاعدة الحكم المرابطى من غرناطة إلى قرطبة . التنويه بتاشفين وحسن إدارته . عود تاشفين إلى المغرب . اختياره لولاية العهد مكان أخيه سير . ظروف هذه التولية وبواعثها .

— ١ —

وضح مما تقدم ، مما ذكرناه فى أخبار ولاة الأندلس وأقاليمها ، أن الدولة المرابطية ، كانت تعتمد فى حكم الأندلس على عصبية القبيل والأسرة ، فيتولى الحكم بها الأمراء من أبناء أمير المسلمين وقرابته وأصهاره ، ويتولى هؤلاء كذلك قيادة الجيوش المرابطية ، ويضطلع بالقيادة العامة ولد الأمير . وقد طبقت هذه القاعدة منذ البداية ، فكان الأمير سير ابن أبى بكر اللمتونى قائد الجيوش المرابطية ، ومتولى شئون الأندلس فى عهد يوسف بن تاشفين ، ثم كان أبو الطاهر تميم ولد يوسف متولى القيادة العامة ، منذ وفاة والده ، وولاية أخيه على بن يوسف ، وكذلك متولى شئون الأندلس ، وقاعدته الإدارية غرناطة . ولبث تميم فى منصبه عدة أعوام ، قاد فيها الجيوش المرابطية منذ موقعة أقليش فى سنة ٥٠١ هـ ( ١١٠٨م ) ، حتى سقوط سرقسطة فى سنة ٥١٢هـ ( ١١١٨م ) ، وموقعة كتُندة فى سنة ٥١٤ هـ ( ١١٢٠ م ) . وفى سنة ٥١٦ هـ ( ١١٢٢م ) ، ولّى الأمير تميم ولاية إشبيلية إلى جانب ولاية غرناطة ثم صرف عن إشبيلية فى العام التالى ، ووُلى

إشبيلية الأمير أبو بكر بن على بن يوسف . واستمر الأمير تميم بعد ذلك والياً على غرناطة . ومتولياً لسائر شئون الأندلس . حتى توفى سنة ٥٢٠هـ ( ١١٢٦م ) .
ومما هو جدير بالذكر أن القاضى أبا الوليد بن رشد ، حينما عبر إلى العدوة فى هذا العام نفسه ، على أثر غزوة ألفونسو المحارب . بممالأة النصارى المعاهدين ، كان يقصد — إلى جانب سعيه لدى أمير المسلمين على بن يوسف فى تغريب المعاهدين — أن يسعى كذلك فى عزل أخيه تميم عن ولاية الأندلس ، وتعيين غيره[١]. ولكن القدر عجل بوفاة تميم . فعندئذ عهد أمير المسلمين على بن يوسف بشئون الأندلس ، إلى ولده تاشفين بن على ، فعبر إليها فى جيش مرابطى جديد من خمسة آلاف فارس ، ولم يلبث أن بدأ سلسلة جديدة من الغزوات فى أراضى قشتالة .

وتختلف الرواية فى تاريخ تولية تاشفين لشئون الأندلس . فهناك قول بأن توليته كانت فى سنة ٥٢٠ هـ عقب عزل عمه تميم[٢] . وهناك قول آخر بأن هذا التعيين كان فى سنة ٥٢٢ أو ٥٢٣ هـ[٣] ، ثم هناك قول ثالث بأنه كان فى سنة ٥٢٦ هـ[٤]. بيد أنه يبدو من أقوال صاحب البيان المغرب عن غزوات تاشفين بالأندلس ، وهى أقوال تؤيدها الرواية النصرانية . أن تاشفين كان موجوداً بالأندلس منذ سنة ٥٢٢ هـ ، وأنه قد التقى فى هذا العام ذاته بالقشتاليين على مقربة من قلعة رباح[٥]. وهذه الرواية يؤيدها أيضاً ما يذكره لنا ابن القطان فى حوادث سنة ٥٢٢ هـ ، وهو أن علياً بن يوسف . عزل ولده الأمير أبا بكر عن ولاية إشبيلية ، وغربه مكبولا إلى الصحراء ، لأنه لم يرض عن بيعة أخيه . وتوليه شئون الأندلس ، وعين مكانه لولاية إشبيلية أجداى والى قرطبة[٦] . ويؤيد ابن عذارى واقعة عزل الأمير أبى بكر ولكنه لا يذكر لنا شيئاً عن تغريبه ، ويقول لنا إن الذى خلفه فى ولاية إشبيلية هو عمر بن سير ، وذلك فى شعبان سنة ٥٢٢هـ[٧].
وفضلا عن ذلك ، فإن صاحب البيان المغرب . ينقل إلينا عن ابن الوراق رواية

---

( ١ ) الحلل الموشية ص ١٠٧ .
( ٢ ) روض القرطاس ص ١٠٦ .
( ٣ ) ابن الخطيب فى الإحاطة ( القاهرة ١٩٥٦ ) ج ١ ص ٤٥٤ و٤٥٧ .
( ٤ ) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٦ .
( ٥ ) البيان المغرب ( الأوراق المخطوطة — هسبيرس ص ٩٠ ) .
( ٦ ) ابن القطان فى نظم الجمان ( المخطوط السالف ذكره ) .
( ٧ ) البيان المغرب ( الأوراق المخطوطة — هسبيرس ص ١١٠ ) .

أخرى مفادها أن ولاية تاشفين للأندلس كانت فى سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة ، وأنه قدم إلى غرناطة فى السابع والعشرين لذى حجة من هذا العام[١] .

وعلى أى حال فإن حديث غزوات تاشفين فى شبه الجزيرة يبدأ بالفعل قبل هذا التاريخ . ويستفاد من رواية صاحب روض القرطاس أن تاشفين قد عبر إلى شبه الجزيرة منذ سنة ٥٢٠ هـ ، وأنه خرج فى أواخر هذا العام أو أوائل العام التالى فى جيشه ، وفى أجناد الولايات ، غازياً إلى أراضى طليطلة ، فعاث فى أحوازها ، واقتحم اثنين من حصونها ، ثم سار نحو الغرب ، والتقى بالنصارى فى موضع يعرف « بفحص الضباب » فهزمهم هزيمة شديدة ، وافتتح ثلاثين حصناً من حصون هذه المنطقة وكتب إلى أبيه بالفتح[٢] .

وقام الأمير تاشفين بعد ذلك بعدة غزوات فى أراضى قشتالة ، وخاض مع القشتاليين معارك عديدة . وبالرغم من أن الرواية العربية تحدثنا عن غزوات تاشفين ووقائعه فى عبارات حماسية ، فإنها لا تقدم إلينا تفاصيل شافية عن هذه الوقائع . وكذلك فإن الرواية النصرانية ليست دقيقة ولا واضحة فى هذا الموطن .

وفى وسعنا أن نتتبع غزوات الأمير تاشفين وحروبه مع النصارى منذ سنة ٥٢٢ هـ ( ١١٢٨ م) ، ففى تلك السنة غزا القشتاليون أراضى الأندلس بجيش ضخم ، ووصلوا فى زحفهم إلى جبال الكرس ، على مقربة من قلعة رباح ، فخرج الأمير تاشفين إلى لقائهم ، فارتدوا عائدين إلى بلادهم .

وفى العام التالى ، أعنى فى سنة ٥٢٣ هـ ( ١١٢٩ م ) ، سير الأمير تاشفين جيش إشبيلية بقيادة واليها عمر بن سير اللمتونى ، فأغار على أطراف قشتالة ، فخرج إليه زهاء ثلاثمائة فارس للعدو وقاتلوه بشدة ، فانهزم المرابطون ، وقتل وأسر الكثير منهم . وكانت هذه الهزيمة ترجع بالأخص إلى تهاون عمر بن سير وعدم تحوطه ، فرفع أمره إلى أمير المسلمين على بن يوسف ، فألزمه بدية من أسر ، وعزله عن ولاية إشبيلية ، وولى مكانه الأمير أبا زكريا يحيى بن على الحاج .

وفى سنة ٥٢٤هـ ( ١١٣٠ م ) انحدرت القوات القشتالية جنوباً حتى أصبحت على مقربة من قرطبة ، فاستغاث واليها عبد الله بن تينغمر بالأمير تاشفين ، فبادر إليها فى قواته ، فارتد القشتاليون أدراجهم ، ولم يشاءوا الاشتباك مع المرابطين ،

---

( ١ ) البيان المغرب ( الأوراق المخطوطة – هسبيرس ص ٩١ ) .

( ٢ ) روض القرطاس ص ١٠٧ .

وتحول الأمير تاشفين بقواته إلى جيان . فلبث بها قليلا يرقب الحوادث ، ثم سار منها إلى غرناطة[١] .

وتوفى فى أوائل هذا العام محمد بن يوسف بن يدّر والى بلنسية ، فعين مكانه ينتان بن على وهو الابن الأصغر لعلى بن يوسف . وخرج ينتان بقواته غازياً فى أراضى أراجون . فلقيه النصارى بقيادة الكونت جاستون دى بيارن ( وتسميه الرواية العربية غشتون ) فهزم النصارى ، وقتل الكونت وسيق رأسه إلى غرناطة وطيف بها على رمح ؛ ثم حملت إلى أمير المسلمين بمراكش ، فطيف بها هنالك أيضاً .

وفى رمضان من نفس هذا العام . خرج الأمير تاشفين بجيش غرناطة ومتطوعتها . واتصل به جيش قرطبة إلى حصن السكة Aceea من عمل طليطلة ، وكان ملك قشتالة ، قد شحنه بالمقاتلة للإغارة على أراضى المسلمين ، فحاصره تاشفين ، وافتتحه عنوة ، وقتل من كان به ، وأسر قائده تليو فرنانديث — وكان من مشاهير فرسان قشتالة — وكذلك ضباطه ، وتزيد الرواية النصرانية على ذلك ، أن القتلى من حامية الحصن بلغوا مائة وثمانين ، وأن تاشفين سار بعد ذلك إلى حصن بارجاس فقتل من رجاله خمسين . واستمر فى تقدمه حتى وصل إلى « سان سرڤاندو » من ضواحى طليطلة ، ثم ارتد بعد ذلك بقواته جنوباً وعاد إلى غرناطة ، فاستقبله الناس أفخم استقبال[٢] .

وفى صفر سنة ٥٢٥ هـ ( يناير ١١٣١م ) ، هزم المرابطون قوة من القشاليين كانت تغير على الحدود وتضيق على المسلمين .

وفى هذا العام أسندت ولاية قرطبة إلى ابن أخت على بن يوسف ، عبد الله ابن أبى بكر المعروف بابن قنونة . وفيه شبت النار بسوق الكتانين بقرطبة ، واتصلت بسوق البز ، فأتت عليه وأسفرت عن خسائر فادحة ؛ ورجم الناس ابن المناصف صاحب السوق لتقصيره فى المعونة[٣] .

وفى ربيع الأول سنة ٥٢٦ هـ ( يناير ١١٣٢ م ) ، نمى إلى الأمير تاشفين أن

( ١ ) نقلنا أخبار هاتين الغزوتين ، عن البيان المغرب ( الأوراق المخطوطة السالفة الذكر — هسبيرس ص ٩١ ) .

( ٢ ) البيان المغرب ( الأوراق المخطوطة — هسبيرس ص ٩١ ) . وابن القطان فى نظم الجمان ( المخطوط السابق الذكر لوحة ٦٧ ا ) .

( ٣ ) نظم الجمان ( المخطوط السالف الذكر لوحة ٦٨ب ) .

القشتاليين خرجوا من طليطلة متجهين صوب قرطبة، فبادر بالسير إلى قرطبة ، ثم اتجه إلى لقاء العدو فى قواته الخفيفة ، وترك الثقل بحصن أرجونة ، وفى تلك الأثناء كان القشتاليون قد وصلوا حصن شنت إشتيبن على مقربة من جيان ، واستولوا عليه ثم ساروا إلى قرية براشة . وهناك التقى الفريقان ، ووقعت بينهما معركة عنيفة ، هزم فيها القشتاليون وقتل منهم عدد جم ، وأسر قائد القشتاليين وعدة من أكابر ضباطه ، واستولى المرابطون على مقادير وافرة من الأسلحة والدواب والثياب ، وسار الأمير تاشفين بالأسرى والغنائم إلى قلعة رباح القريبة من ميدان المعركة ، فأصلح أحوالها وحصن أسوارها ، وترك الأسرى لدى أهلها ، ليفتدوا بهم من يستطيعون من أسراهم ، ثم عاد فى قواته ظافراً إلى غرناطة(١) .

وقد سجل لنا ابن القطان من أحداث هذا العام بعض صور أخرى غير أخبار الحرب والغزوات ، فذكر لنا أن المجاعة اشتدت فيه بقرطبة ، وانتشر الوباء بين الناس، وكثر الموت ، وبلغ سعر المد من القمح خمسة عشر دينارا ، وذاعت الفوضى وكثر أهل الشر ، فجد الوالى ابن قنونة فى مطاردة أهله ، وقتل الكثير منهم .

وفى أواخر هذا العام ، أعنى ٥٢٦ ﻫ ، خرج جيش من القشتاليين بقيادة الكونت ردريجو كونثالث إلى ناحية إشبيلية وأغاروا على أراضيها من جهة حصن القليعة ، وعاثوا فيها قتلا وسبياً، ثم انحدروا فجأة إلى الشَّرْف(٢) على مقربة من المدينة وقتلوا من أهله جموعاً غفيرة ، وأخذ والى المدينة عمر بن الحاج اللمتونى على غرة ، فبادر فى قواته إلى لقاء القشتاليين بالوادى على ضفة النهر ، وبعث سرية من فرسانه إلى الضفة الأخرى ، فأسرت بعض القشتاليين وجاءت بهم فأمر الوالى بضرب أعناقهم أمام أعين إخوانهم فى الضفة الأخرى ، فاضطرم القشتاليون سخطاً وحماسة، واقتحموا النهر كالسيل المنهمر ، وأطبقوا على المرابطين، ووقعت بينهما معركة عنيفة ، قتل فيها عمر بن الحاج ومعظم جنده ، فأغلقت المدينة

(١) ابن الخطيب فى الإحاطة ج ١ ص ٤٥٩ . والبيان المغرب (الأوراق المخطوطة المشار إليها . هسبيرس ص ٩٤ و ٩٥) .

(٢) إقليم « الشرف » فى الجغرافية الأندلسية ، هو السهل الممتد غرباً من إشبيلية حتى لبلة ، وجنوباً حتى شاطىء المحيط ، ويشمل حصن القصر ، ولبلة ، وولبة ، وجزيرة شلطيش ، وجبل العيون . وقد سمى بهذا الاسم لأنه «مشرف من ناحية اشبيلية» (الإدريسى فى نزهة المشتاق . الجزء الخاص بوصف المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس طبعة دوزى ص ١٧٤ و ١٧٨) .

أبوابها دون الغزاة . واشتد الخوف بالناس . وكان ذلك فى منتصف رجب من السنة المذكورة[١] .

وزحف القشتاليون على إشبيلية حتى صاروا على قيد فرسخين منها . وهم يثخنون فى أحوازها قتلا وسبيا وتخريباً . وكان الأمير تاشفين . حينما نمى إليه عدوان القشتاليين قد نهض فى قواته إلى إشبيلية . فطارد العدو وطهر منه الوادى . وارتد النصارى إلى بلادهم مثقلين بالغنائم والسبى .

وتزيد الرواية الإسلامية على ما تقدم . أن الأمير تاشفين سار فى قواته نحو الغرب ومعه ابن قنونة والى قرطبة . والتقى بقوة من النصارى . كانت قد أغارت على أحواز يابرة ، فهزمها المرابطون ، وقتلوا معظم رجالها ، وأنقذوا منها الغنائم والأسرى[٢] .

بيد أنه لم يمض قليل عن ذلك . حتى بدت نيات القشتاليين واضحة فى استئناف العدوان على نطاق واسع . ففى أوائل سنة ٥٢٨ هـ (١١٣٤ م ) حشد ألفونسو ريمونديس ( ألفونسو السابع ) أو ألفنش بن رمند كما تسميه الرواية العربية ، جيشاً ضخما من آلاف عدة ، وبه كثير من أبطال قشتالة وأنجادها المشهورين ، وقصد إلى ناحية بطليوس ، وعاث فى أحوازها ، وخرب أراضيها . فنهض إليه الأمير تاشفين من إشبيلية فى قوات ضخمة ، ووقف من أدلائه وطلائعه على خط سير العدو ، ورابط للقائه فى مكان يقع شرقى بطليوس على مقربة من سهل الزلاّقة . الذى اشتهر بانتصار جده العظيم يوسف بن تاشفين فيه ، على ألفونسو السادس ( ٤٧٩ هـ ) ، وماكادت طلائع العدو تبدو ، وقد ملأت جموعه وغنائمه السهل . حتى تأهب المرابطون للقائه بحماسة وتوثب . ونظم الجيش الإسلامى مثلما نظم يوم الزلاّقة فى وحدات متناسقة ، فاحتل المرابطون ، وعلى رأسهم الأمير تاشفين القلب ، تتقدمهم البنود البيض مكتوبة بالآيات ، واصطفت إلى جانبيه القوات الأندلسية تتقدمها الرايات الحمراء بالصور الهائلة ، واحتل الجناحين أهل الثغور وذوو الجلاد ، وعليهم الرايات المرقعات ، واحتل المقدمة أنجاد زنانة ، ولفيف الحشم ذوو العمائم ، وأمامهم الأعلام المصبغات ، ونشبت بين الفريقين

( ١ ) البيان المغرب ( الأوراق المخطوطة — هسبيرس ص ٩٧ ) ونظم الجمان ( المخطوط السالف الذكر لوحة ٧١ ب ) ، وابن الخطيب فى الإحاطة ج ١ ص ٤٦٠ .

( ٢ ) ابن القطان فى نظم الجمان ( المخطوط السابق ذكره لوحة ٧٢ ا ) .

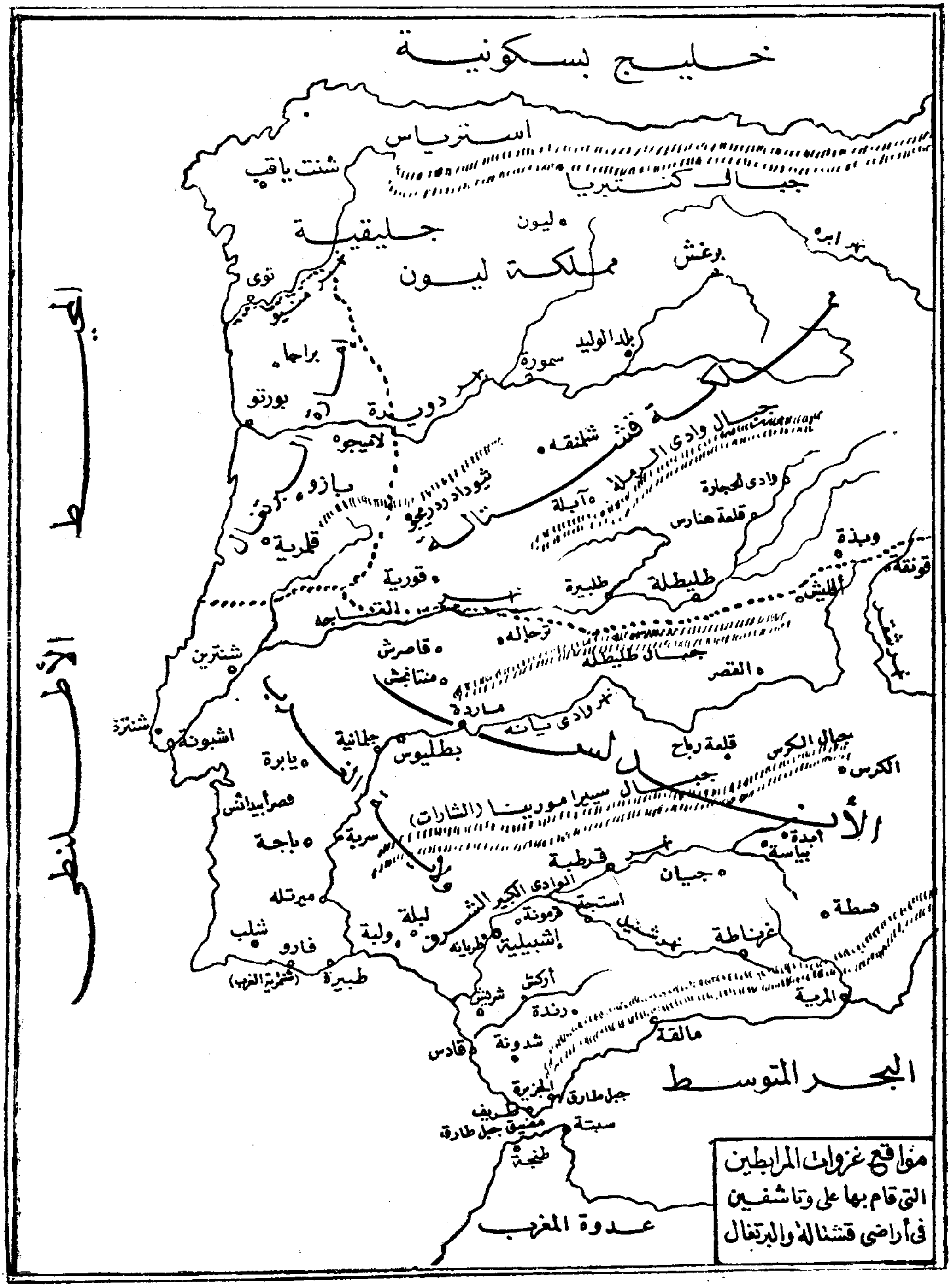


مواقع غزوات المرابطين
التى قام بها على وتاشفين
فى أراضى قشتالة والبرتغال

معركة عنيفة ، دارت فيها الدائرة على القشتاليين ، فهزموا شر هزيمة ، ولجأوا إلى الفرار ، وقد قتلت وأسرت منهم جموع غفيرة ، واستنقذ المسلمون الأسرى والغنائم من أيدى القشتاليين ، وكان ذلك فى جمادى الأولى من سنة ٥٢٨هـ ( مارس سنة ١١٣٤ ) وقفل الأمير تاشفين فى قواته ظافراً إلى قرطبة . ثم سار منها إلى غرناطة فاستقبل استقبالا فخماً ، وأنشده الشعراء مهنئين ، فمن ذلك قصيدة طويلة جاء فيها :

أما وبيض الهند عنك خصوم ... فالروم تبذل ما ظباك تروم
تمضى سيوفك فى العدا ويردها ... عن نفسه حيث الكلام وخيم
دار هجمت بيوتها بظباك فأبدأ ... على قمم الملوك هجوم[1]

وفى شهر ذى الحجة من نفس العام ( ٥٢٨ هـ ) خرج الأمير تاشفين أثر عيد النحر ، بقوات غرناطة وقرطبة وقوات المجاهدين من الخيل والرجل ، إلى الغزو ، فسار نحو الغرب ، وقد انضم إليه جيش إشبيلية « بفحص الريحانة » ثم سار إلى موضع تسميه الرواية « بالبكار » وهو طريق للعدو لا محيص منها . ولما رأى القشتاليون القوات المرابطية ، وضعوا خطة لاجتذابها إلى هذا الموضع ، وأقبل المرابطون بالفعل إليه ، وندب القشتاليون نخبة من أنجادهم تبلغ نحو ألفين ، فانقضت على المرابطين فجأة عند دخول الظلام ، فى هذا الموضع الحرج ، واستطاعت أن تخترق صفوفهم فى عدة مواضع ، فدب الخلل بالجيش المرابطى ، ونفرت الخيل وشردت واقتحمت الأخبية ، وعلا الصياح بين المسلمين ، وفروا من كل جانب ، ووصلت سرية من النصارى إلى خيمة الأمير تاشفين ، فأشار إليه بعض خاصته بأن يبادر بالفرار ، فأبى ، فأحدق به فرسان الأندلس وأنجاد المرابطين ، وحالوا بينه وبين العدو ، ووقعت بين الفريقين معركة عنيفة ، والأمير تاشفين ثابت فوق فرسه ، متشح بسيفه ودرعه ، يشدد الضرب والطعان ، قال المؤرخ « فلم ير أربط منه جأشاً ولا أشهم نفساً ، فى مطلع ذلك الهول » ، واستطاع أحد الجند العبيد أن يقضى على قائد القشتاليين المهاجمين بطعنة نافذة ، ثم انجلت الظلمة عن هزيمة النصارى ، وقد اجتمعت من القتلى من الجانبين أكداس ضخمة . وفى صباح الغد سار الأمير تاشفين فى قواته إلى حصن قشرش ، وهو من

( ١ ) البيان المغرب ( الأوراق المخطوطة هسبيرس — ص ٩٧ ) ، وابن الخطيب فى الإحاطة ج ١ ص ٤٦٠ و٤٦١ . ولم يذكر لنا ناظم هذه القصيدة .

حصون المسلمين ثم غادره عائداً إلى قرطبة[١] . وقد وجه إليه كاتبه أبو بكر يحيي ابن الصيرفى بهذه المناسبة قصيدة ضافية ، يهنئه فيها بالسلامة ، ويحذره من خدع الحرب ، ويسدى إليه بعض النصائح فيما يجب أن يكون عليه القتال . وهى طويلة فى نحو ستين بيتاً . نقتطف منها الأبيات الآتية :

يا أيها الملأ الذى يتقنع — من منكم البطل الهمام الأورع
ومن الذى غدر العدو به دجى — فانفض كل وهو لا يتزعزع
تمضى الفوارس والطعان يصدها — عنه ويدمرها الوفاء فترجع
والليل مرضج الترايك بينهم — صبح على هام الكماة ملمع
عن أربعين ثنت أعنتها دجى — ألفان ألف حاسر ومقنع
لولا رجال كالجبال تعرضت — ماكان هذا السيل مما يودع
فثبتّ والأقدام تزلق والردى — حول السرادق فى الأسنة تقرع
لا يعظمن على الأمير فإنها — خدع الحروب وكل حرب يخدع
ولكل يوم حنكة وتمرس — وتجارب فى مثل نفسك تنجع
يا شجع الأبطال ليلة أمسه — اليوم أنت مع التجارب أشجع

ومنها فى نصائح الحرب :

واحذر كمين الروم عند لقائها — واخفض كمينك خلفها إذ تدفع
لا تبقين النهر خلفك عند ما — تلقى العدو فنشره متوقع
أجعل مناجزة العدو عشية — ووراءك الصدف الذى هو أمنع
وصدمه أول وهلة لا ترتدع — بعد التقدم فالنكوص يضعضع

وجاء فى ختامها فى مخاطبة تاشفين وتهنئته :

يا تاشفين أقم لجيشك عذره — بالليل والقدر الذى لاينفع
هجم العدو دجى فروّع مقبلا — ومضى يهيم وهو منك مروع
كم وقعة لك فى ديارهم انثنت — عنها أعزتها تذل وتخضع
النعمة العظمى سلامتك التى — فيها من الظفر الرضى والمَقْنع
كادت تكون ولو إذاً لتزلزلت — عنها البسيطة والجبال الخُشَّع
وهوت بأندلس عقاب لم تدع — فيها لذكر الله صوت يرفع

---

(١) نظم الجمان (المخطوط السابق ذكره لوحة ٧٥) . والبيان المغرب ( الأوراق المخطوطة السالفة الذكر — هسبيرس ص ٩٨ و ٩٩ ) .

لأضيّع الرحمن سعيك إنه سعى به الإسلام ليس يُضيّع
نستودع الرحمن منك وديعة فهو الحفيظ لكل ما يستودع[١]

وتشير الرواية القشتالية إلى هذه الموقعة[٢] ، ولكنها كالرواية العربية ، لاتوضح لنا مكان وقوعها توضيحاً ، كافياً ، والظاهر مما تشير إليه أقوال صاحب البيان المغرب ، من أن الأمير تاشفين ، سار غداة المعركة فى قواته إلى حصن « قشرش » أنها وقعت على مقربة من هذا المكان . وتقع قشرش أو قاصرش Cáceres ، جنوبى نهر التاجه وشمال شرقى بطليوس وغربى ترجالُه . أما تاريخ الموقعة ، فتضعه الرواية العربية حسبما تقدم ، فى أواخر شهر ذى الحجة من سنة ٥٢٨ ﻫ ( أوائل أكتوبر سنة ١١٣٤م ) . ومما تجدر ملاحظته أن وقوعها جاء لنحو ثلاثة أشهر فقط من موقعة إفراغة ، التى هزم فيها ألفونسو المحارب وفقد حياته ، هذا فى حين أنه يبدو من أقوال الرواية النصرانية ، أنها وقعت قبل موقعة إفراغة .

ومما يلفت النظر ، ما يذكره لنا ابن القطان غير مرة من هجوم أسراب الجراد على بسائط الأندلس وإتلافها فى هذين العامين الأخيرين . وقد ذكر لنا أنه فى العام الذى وقعت فيه الغزوة السابقة — وهو يضع تاريخها فى سنة ٢٢٩ ﻫ — « محت الجراد ما على الأرض من زرع وكلأ ، وأمر الناس بالخروج إليها فساقوا منها خمسة آلاف عدل ، وثلاثمائة وثلاثين عدلا ، وما غاب عن العيون أكثر تركت فى الموضع الذى قتلت فيه ولم تحمل » .

ومما يذكر من أحداث هذه الفترة أيضاً ، أنه فى سنة ٥٢٩ ﻫ ، وقع بقرطبة هياج شديد ، وثارت العامة ضد اليهود على أثر ظهور قتيل مسلم فى بعض أحيائهم ، واقتحموا منازل اليهود ، ونهبوها ، وقتل خلال ذلك عدد منهم . ووقعت فى نفس الوقت بعض اضطرابات بمدينة إشبيلية ، من جراء ثورة العامة ضد قاضيها أبى بكر بن العربى ، وكان يشتد فى زجرهم ، ومعاقبتهم بمختلف العقوبات الأليمة المبتكرة[٣] .

---

( ١ ) راجع الحلل الموشية حيث يشير إلى هذه الموقعة بإيجاز ( ص ٩٢ ) ، ثم يورد قصيدة ابن الصيرفى كلها ( ص ٩٣ — ٩٦ ) .

( ٢ ) M. Lafuente : ibid; Vol. III. p. 248

( ٣ ) البيان المغرب ( فى الأوراق المخطوطة السالفة الذكر —هسبيرس ص ١٠١ ) .

وفى نفس هذا العام ، وقع حادث مروع بجامع قرطبة ، هو مصرع قاضى قرطبة أحمد بن خلف التجيبى ( أو أبو عبد الله بن الحاج وفقاً لابن القطان ) . وثب به أحدهم فطعنه بخنجره ، وهو راكع حين صلاة الجمعة ، فسقط مضرجاً بدمه ، ووقع بالجامع هرج عظيم ، وأخرج المرابطون منه أميرهم تاشفين فى حراسة قوية ، وقبض على القاتل وقتل لحينه فى صحن الجامع ، وتوفى القاضى فى مساء نفس اليوم ، وهو الخامس والعشرون من صفر سنة ٥٢٩ هـ[١] .

وتقص علينا الرواية النصرانية قصة غزوة قام بها القشتاليون فى سنة ١١٣٣ م ومعهم سيف الدولة المستنصر بن هود ، فى أراضى الأندلس ، على غرار غزوة ألفونسو المحارب ، وتقول لنا إن ألفونسو ريمونديس ملك قشتالة قسم جيشه لهذا الغرض إلى قسمين ، بقصد تسهيل التموين والحركة ، سار هو على رأس أحدهما ، وقاد الآخر سيف الدولة ، والدون ردريجو كونثالث دى لارا زعيم ليون ، وعبر الجيشان جبال سييرَّا مورينا ، ( جبل الشارات ) ، واجتمعا على مقربة من قرطبة ، وكان الفصل فصل الحصاد فأمر ملك قشتالة بانتساف حقول القمح والكروم والزيتون وغيرها ، فساد الرعب بين المسلمين وهجروا السهول والقرى ، إلى الحصون ومغائر الجبال ، ووصل الجيش النصرانى فى زحفه إلى أحواز إشبيلية ، وهو يحرق المزارع والقرى والقلاع المهجورة ، ويدمر المساجد ويحرق المصاحف ، ويقبض على الفقهاء ويعذبهم ، وشمل هذا العيث المروع الذى كانت تقوم به سريات خفيفة من الفرسان النصارى ، سائر المنطقة الواقعة ما بين قرطبة وإشبيلية ، وامتلأت صفوف القشتاليين من الغنائم والأسرى والأقوات ، ومن ثم سار ملك قشتالة إلى شريش ، فخربها وهدمها ، ثم سار إلى قادس ، ولما رأى ذلك أمراء الأندلس ، بعثوا إلى سيف الدولة يطلبون إليه أن يعمل ملك النصارى ، على تحريرهم من نير المرابطين ، فبعث إليهم بعد التفاهم مع ملك قشتالة يحثهم على انتزاع الحصون ومقاتلة المرابطين ، وعندئذ يأتى هو وملك قشتالة لإنجادهم ، بيد أن الملك اعتزم أن يعود أدراجه على الأثر ، وألا يغامر بالبقاء فى أرض لا يأمن مغبتها ، وارتد إلى منطقة طليطلة[٢] .

---

( ١ ) البيان المغرب ( الأوراق المخطوطة – هسبيرس ص ١٠ و ١٠١ ) ؛ وابن القطان فى نظم الجمان ( المخطوط السابق ذكره ) .

( ٢ ) M Lafuente: ibid; (cit. Crónica Alfonso VII); Vol. III. p. 249

وتقدم إلينا الروايات الإسلامية أنباء هذه الغزوة فى عبارات موجزة . ويضع ابن القطان حدوثها فى سنة ٥٢٦ هـ ( ١١٣٢ م ) ، ويقول لنا إنه فى هذه السنة خرج السليطين ( ألفونسو ريموندیس ) وابن هود إلى بلد المسلمين ، فهبطوا إلى إشبيلية ، وانبسطت خيلهم ، واقتحمت ما وجدت ، ثم هبطوا إلى شريش ، فدخلوها وقتلوا كل من فيها ، وبالغوا فى النكاية بالمسلمين ، ثم رجعوا إلى بلادهم. ويقول لنا ابن عذارى نقلا عن ابن حمادة ، إن العدو وصل إلى حومة شريش والبحيرة ، ولم يلقه أحد من المسلمين . ويضع تاريخ هذه الغزوة فى سنة ٥٢٧هـ ( ١١٣٣ م ) متفقاً بذلك مع الرواية النصرانية[١] .

ولكن الرواية العربية من جهة أخرى تشير إلى غزوات ثلاث أخيرة قام بها الأمير تاشفين . وبالرغم من أنها تذكر لنا التاريخ والمكان فى كل غزوة ، فإنها لا تقدم لنا عنها تفاصيل شافية . وقد وقعت الأولى فى سنة ٥٣٠ هـ ( ١١٣٥ م ) ، وفيها التقى الأمير تاشفين بالقشتاليين فى مكان يعرف « بفحص عطية » فهزمهم ، وقتل منهم جموعاً غفيرة . وفى العام التالى أعنى سنة ٥٣١ هـ ( ١١٣٦م ) ، غزا الأمير تاشفين أرض قشتالة ، واقتحم مدينة كَرَكى على مقربة من قلعة رباح فلم يجد بها أحداً .

وقد أورد لنا ابن الخطيب بهذه المناسبة أبياتا نظمها الكاتب الكبير أبو عبد الله ابن أبى الخصال يمتدح فيها الأمير تاشفين ، ويشير إلى موقعة كركى ، وفيها يقول:

الله أعطاك فتحاً غير مشترك ... ورد عزمك عن فوت إلى درك
أرسل عنان جواد أنت راكبه ... واضمم يديك ودعه فى يد الملك
قد كان بعدك للأعداء مملكة ... حتى استدرت عليهم كورة الفلك
فما تركت كميا غير منعفر ... ولا تركت نجيعاً غير منسفك
فصحبتهم جنود الله باطشة ... والصبح من عبرات الفجر فى مُسُك[٢]

ووقعت الغزوة الثالثة فى سنة ٥٣٢ هـ ( ١١٣٧ م ) ، وكانت لمدينة « أشكونية » ( أو أشكلونة Escalona وفقاً لصاحب نظم الجمان ) وقد كانت حسبما يقول لنا صاحب الروض المعطار من أعمال كورة تدمير أى مرسية[٣]. وهذا

---

( ١ ) نظم الجمان ( المخطوط السابق الذكر لوحة ١٧٢ ) ،والبيان المغرب ( الأوراق المخطوطة هسبيرس ص ٩٦ ) .

( ٢ ) ابن الخطيب فى الإحاطة – مخطوط الإسكوريال السالف الذكر ( لوحة ٢٩ ) .

( ٣ ) الروض المعطار ( صفة جزيرة الأندلس ) ص ٢٢ و ١٧٢ .

ما لا يمكن قبوله لأن ولاية تدمير كانت كلها من الأراضى الإسلامية . بيد أن الرواية النصرانية تلقى بعض الضوء على أخبار هذه الغزوة ومكانها . فتقول لنا أن الأمير تاشفين ، قام قبيل عبوره إلى العدوة باجتياح أراضى بلدتى وبذة ، والاركون . وهما من أعمال مقاطعة قونقة الواقعة على الحدود ، ثم دخل قونقة وأخضعها . وكان أهلها قد أعلنوا الخروج والثورة وذلك فى سنة ١١٣٧م[١]، وتقول الرواية الإسلامية إن تاشفين دخل أشكلونة ( الاركون ؟ ) عنوة ، وقتل كل من كان بها وسبى نساءها ، واحتوى على أسلابها . ومنها عدة من النواقيس العظيمة . ودخل قرطبة وبين يديه الأسلاب والغنائم ، فكان يوما مشهوداً . ثم تضيف الرواية إلى ذلك قولها إن الأمير تاشفين حمل من سبى هذه الغزوة عند عبوره إلى العدوة فى نفس العام ستة آلاف سبية[٢] .

وأخيراً . فإن تاشفين قبيل مغادرته للأندلس وحين خروجه من قرطبة قاصداً إلى العدوة . بلغه قيام النصارى بغزو منطقة جيان ، فاستعد للسير إلى لقائهم . وكان القشتاليون قد خرجوا فى حشود عظيمة ، وساروا نحو الوادى الكبير ، واقتربوا من بياسة وأبّدة ، وعاثوا فى تلك المنطقة ، واستعدوا لعبور النهر ، ولكن الأمطار هطلت بشدة ، واستمرت على هطلها عشرين يوماً حتى فاض النهر ، وعجزت الخيل المغيرة عن عبوره . ووضع القشتاليون بعض المعادى فوق الماء ، وحاولوا عبور النهر . فانكسر بعضها وغرق من كان فيها ، وتبعهم قائد جيان فأوقع بجماعة منهم . وانصرف النصارى بعد أن هاجموا حصن شبيوطة من عمل أبدة وعجزوا عن اقتحامه . أما تاشفين فإنه لبث يترقب السير إلى الشمال ، مدى أسابيع ، والأمطار تهطل والسيول تغمر الطرق والبسائط وتعوقه عن السير . فلما بلغه انصراف النصارى ، ارتد من فوره صوب طريق العدوة ، وجاز البحر عائداً إلى حضرة مراكش ، وكان ذلك فى سنة **٥٣٢** هـ[٣] .

— ٢ —

ومما هو جدير بالذكر أن الأمير تاشفين ، كان حينما ولاه أبوه شئون الأندلس عقب وفاة عمه أبى الطاهر تميم ، قد اتخذ مقره فى غرناطة ، التى جعلتها الدولة

---

(١) A. P. Ibars : Valencia Arabe; P. 476

(٢) نظم الجمان ( المخطوط السابق ذكره لوحة ٧٩ ) . وروض القرطاس ص ١٠٧ .

(٣) ابن القطان فى نظم الجمان ( المخطوط السابق الذكر ) .

المرابطية مركز الإدارة العامة لشئون الأندلس ، وكان الحاكم العام المرابطي يعتبر أحياناً فى نفس الوقت والياً لغرناطة ، وكان من بين معاونيه يومئذ الكاتب والشاعر والمؤرخ البارع ، أبو بكر يحي بن محمد بن يوسف الأنصارى ، المشهور بابن الصيرفى صاحب كتاب « الأنوار الجلية فى تاريخ الدولة المرابطية » . تولى له منصب الكتابة ، فحظى لديه وكانت له فيه مدائح جمة[(١)]. بيد أنه لم تمض بضعة أعوام على تولى تاشفين لمنصبه ، حتى صدر إليه مرسوم أبيه أمير المسلمين من مراكش فى العشرين من رجب سنة ٥٢٦هـ[(٢)]، بتعيينه والياً لقرطبة وبأن يجعل قرطبة « دار سكناه ومقر مثواه » ، وأن يستخلف على غرناطة عند مغادرتها ، أبا محمد الزبير بن عمر ، ليقوم بالولاية على شئونها . وقد كان الزبير هذا من زعماء لمتونة المرموقين ، ويشيد ابن الخطيب بذكره ويصفه « بندرة الزمان كرماً وبسالة ، وحزماً وأصالة »[(٣)] . ويوصى أمير المسلمين ولده فى هذا المرسوم الذى دبجه قلم الوزير الكاتب أبى عبد الله بن أبى الخصال بقوله : « وعلى مقرر ما درك من العمل ، فازدد من التيقظ باتساع ذرعك ، وامتداد مسعاك ، واستعن بالله فى إعلانك وأسرارك ، وخذ من أوقات ليلك الأوقات المباركة ، واجعل لنظرك حظا من سهرك ، ولفكرك مستمنحا من يديك ، على مستظهر عن المشورة فى مواطن الاشتباه ، فإن الله سبحانه يقول لرسوله : « وشاورهم فى الأمر»[(٤)] . ويستفاد مما تقدم أن على بن يوسف قرر أن ينقل مركز حكم الأندلس ، من غرناطة إلى قرطبة لأسباب رآها ، وهى أسباب ربما كانت سياسية وعسكرية فى نفس الوقت .

ودخل تاشفين قرطبة والياً فى شعبان من هذه السنة ( ٥٢٦هـ ) ، وعزل واليها السابق عبد الله بن قنونة ، وسير إلى إشبيلية فاعتقل بها لأسباب لم توضحها الرواية ، وذلك بالرغم من قرابته لأمير المسلمين[(٥)] .

---

( ١ ) ابن الخطيب فى الإحاطة ( مخطوط الإسكوريال ١٦٧٣ الغزيرى لوحة ٤١٥ )

( ٢ ) والظاهر أن ابن خلدون قد اعتبر أن هذا المرسوم ، هو مرسوم تولية تاشفين ولاية الأندلس ، ولذلك فإنه يضع تاريخ توليته لهذا المنصب فى سنة ٥٢٦ هـ (كتاب العبر ج ٦ ص١٨٦ ) .

( ٣ ) ابن الخطيب فى الإحاطة ج ١ ص ٤٥٨ .

( ٤ ) نقل إلينا صاحب البيان المغرب بعض محتويات هذا المرسوم (وقد وردت فى الأوراق المخطوطة السابقة الذكر — هسبيرس ص ٩٥ و٩٦ ) . وقد نشرنا فى باب الوثائق بعض فقراته .

( ٥ ) ابن القطان فى نظم الجمان ( المخطوط السابق ذكره لوحة ١٧٢ أ ) .

وقد استوفينا فيما تقدم ، ما وقفنا عليه من تفاصيل الغزوات والحروب التى قام بها الأمير تاشفين خلال وجوده فى شبه الجزيرة . أما عن أعماله الإدارية وأسلوبه فى الحكم ، فلم نتلق الكثير . وقد لخص لنا ابن الصيرفى مؤرخ الدولة المرابطية ، سيرته فى ذلك فى عبارات موجزة خلاصتها ، أن الأمير تاشفين عنى منذ ولايته لشئون الأندلس بإصلاح الحصون ، وسد الثغور ، وإذكاء العيون على العدو ، وتنظيم الجيش ، واقتناء الخيل والسلاح ، وتكوين فرق الرماة ، وتوسيع الأرزاق على الجند ، واستنهاض هممهم ، كما عنى بالغزو ومباشرة الحرب ، فقام بعدة غزوات توجت بالظفر على العدو ، وافتتح فيها عديد الحصون . وأما عن أسلوبه فى الحكم ، فإنه سار فى حكم الأندلس وتمهيد أحوالها بالحزم ، والتزم العدل فى معاملة الرعية ، وكذلك فى معاملة الجند ، فملك قلوب الجميع بعدله ورفقه ، « ولم يكن منه إلا الجد ، ولم تنل عنده الحظوة إلا بالغناء والنجدة »(١) .

وهذه أقوال يؤيدها صاحب البيان المغرب ، ويجملها فى قوله : « وساس ( أى تاشفين ) أهل الأندلس سياسة طار بها ذكره ، من الاستقامة ، واتباع ناموس الشريعة »(٢) .

وتنوه الرواية فى نفس الوقت بصفات تاشفين الشخصية ، فتقول لنا إنه « كان بطلا شجاعاً حسن الركبة والهيئة لولا بخل أخل به ، وأنه كان يسلك طريق ناموس الشريعة ، ويميل إلى طريقة المستقيمين ، وقراءة كتب المريدين . وقيل إنه لم يشرب قط مسكراً ، ولا استمع إلى قينة ، ولا اشتغل بلذة صيد ، ولا غير ذلك مما يلهو به الملوك من ساير اللهو »(٣) . وينوه ابن الصيرفى بورعه وتقواه ، وصيامه وقيامه(٤) .

— ٣ —

لبث الأمير تاشفين والياً على الأندلس ، وقائداً عاما للجيوش المرابطية بها

(١) ابن الخطيب عن ابن الصيرفى ، فى الإحاطة ج ١ ص ٤٥٦ ، وراجع أيضاً الحلل الموشية ص ٩٠ .

(٢) البيان المغرب فى الأوراق المخطوطة المتقدمة الذكر .

(٣) البيان المغرب ( الأوراق المخطوطة السالفة الذكر – هسبيرس ص ٩٠ ) ، والإحاطة ج ١ ص ٤٥٦ .

(٤) الإحاطة ج ١ ص ٤٥٧ .

حتى سنة ٥٣٢ هـ ( ١١٣٧ م ) وقيل بل حتى سنة ٥٣١ [١]. وهو إلى جانب مهامه الإدارية يضطلع بالغزوات المستمرة فى أراضى النصارى حسبما فصلناه من قبل . ثم وصلته أوامر أبيه أمير المسلمين بالعودة إلى المغرب ، فعبر البحر إلى العدوة فى أوائل جمادى الأولى من هذا العام ( ٥٣٢هـ ) ، ودخل مراكش فى أول رجب ، وفى ركبه عدد كبير من سبى غزوة أشكونية حسبما تقدم ، فاستقبله أبوه أعظم استقبال ، وسعد بلقائه أو « فرح به » على قول المؤرخ . وكان مما يتصل بذلك ما يرويه لنا ابن عذارى ، من أن أمير المسلمين عليا ، كان قد مرض فى العام السابق ( ٥٣٠هـ ) ، واشتد به المرض ، حتى كثرت الإشاعات ، وساءت الظنون ، وسرى القلق إلى بلاد الأندلس ، فلما تلقى تاشفين خطاب والده بالعود ، أسرع بالاستجابة والقفول [٢]. وفى العام التالى ، أعنى فى سنة ٥٣٣ هـ ( ١١٣٨م ) أصدر أمير المسلمين على بن يوسف مرسوم ولاية عهده لولده الأمير تاشفين ، عقب وفاة ولده الأكبر وولى عهده سير ، وأخذ له البيعة بذلك وفقاً للقاعدة التى وضعها مؤسس الدولة المرابطية يوسف بن تاشفين ، باختيار أمير المسلمين لولى عهده فى حياته من بين أبنائه ، وعقد البيعة له .

ولاختيار تاشفين لولاية العهد قصة فصلتها الرواية ، وهى أنه فى سنة ٥٢٢هـ اختار أمير المسلمين على بن يوسف ولده الأمير سيراً لولاية عهده من بعده [٣] ، وجعل له الأمر فى بقية حياته ، واختار فى نفس الوقت ولده الأمير تاشفين لولاية الأندلس ، وولاه مدينة غرناطة وألمرية ، ثم قرطبة بالإضافة إلى ما فى يده . وأبدى تاشفين فى أداء مهام منصبه مقدرة وهمة مشكورة ، وظهر بالأخص فى ميدان الجهاد ضد النصارى ، وذاع صيته فى شبه الجزيرة وفى العدوة ، فكبر ذلك على أخيه سير ولى العهد ، وخاطب سير أباه فى ذلك ، وأعرب له عن قلقه وامتعاضه لما ناله أخوه من بعد الصيت وحسن الذكر ، وأنه قد غطى بذلك على اسمه ، ونال إعجاب أهل المملكة ، وأنه لم يبق له معه اسم ولا ذكر ، فحاول أمير المسلمين أن يرضى ولده وولى عهده سير ، باستدعاء أخيه تاشفين من الأندلس ، ولما وصل تاشفين إلى مراكش ، نظمه أبوه فى حاشية أخيه « وصار من جملة من يتصرف بأمر أخيه ، ويقف ببابه كأحد حجابه » . وكان على بن يوسف متأثراً

---

( ١ ) « روض القرطاس » ص ١٠٧ . والإحاطة ج ١ ص ٤٥٤ و ٤٦١ .
( ٢ ) البيان المغرب ( الأوراق المخطوطة — هسبيرس ص ١٠٣ ) .
( ٣ ) ابن القطان فى نظم الجمان ( المخطوط السابق ذكره لوحة ١٣٤ ) .

فى هذا التصرف بنفوذ حظيته قمر أم ولده سير ، وكان عظيم الإيثار والإرضاء لها ، وهى التى حملته على عزل تاشفين وإهماله إرضاء لأخيه .

ولكن شاء القدر أن يتوفى سير فجأة وفى حادث مروع مشين معاً وذلك فى أوائل سنة ٥٣٣هـ . وتلتزم الرواية الإيجاز والتحفظ فى شأن هذا الحادث ، ويقول لنا ابن عذارى ، إن سيراً كان يركن إلى الراحة والبطالة ، ويصطحب أهل الفكاهة والمجون ، وأنه اقتحم ليلا على أخيه تاشفين فى داره ؛ فضربه حتى مات ، وقيل غير ذلك . والظاهر ، وهو ما تصرح به بعض الروايات ، أن الأمر يتعلق بمحاولة مشينة ، فإن ابن القطان يقول لنا ، إن على بن يوسف كان قد فتن بولده سير ، وقدمه ولى عهده ، ولم يكن أهلا لشىء ، فعكف على البطالة ، ودخل متسوراً على أخيه عمر يريد زوجته ، فجرح جراحة عجلت منيته ، فجزع عليه أبواه . وكان مصرع سير على هذا النحو فى آخر صفر سنة ٥٣٣ هـ(١). وعندئذ تدخلت قمر مرة أخرى لتحمل علىّ بن يوسف على تقدم ولده الأصغر إسحاق لولاية العهد ، وكانت قد تبنته وعنيت بتربيته عند موت أمه . ولكن علياً اعتذر بصغر سنه وبأنه لم يبلغ الحلم ، وأنه سوف يستدعى الناس إلى الجامع لأخذ رأيهم فى ذلك . واستدعى على الناس وأكابر المرابطين ، وعرض عليهم الأمر ، فهتفوا جميعاً باسم تاشفين ، فنزل على عند هذه الرغبة ، وعقد البيعة بولاية العهد لولده تاشفين وذلك فى الثامن من شهر ربيع الآخر ، ونقش اسمه فى السكة ، وقلده النظر فى الأمور السلطانية ، وكتب إلى سائر بلاد العدوة والأندلس ببيعته ، فوصلت البيعات من كل جهة مؤيدة للبيعة ، ومؤرخة بشهر رجب سنة ٥٣٣هـ (١١٣٨م)(٢).

على أن استدعاء الأمير تاشفين من الأندلس إلى العدوة ، ثم أخذ البيعة له على هذا النحو ، لم يكن يرجع فقط إلى ما تقدم من العوامل والظروف ، وإنما كان راجعاً بالأخص إلى ما وقع فى تلك الأثناء بالمغرب ، من تطورات وأحداث عظيمة ، ترتبت على ظهور المهدى محمد بن تومرت ، ودعوته الدينية الجديدة ، وما تلاها من قيام دولة الموحدين فى تينملّل ، واضطرام الصراع المرير بينها وبين المرابطين . وهو ما سنعنى بذكره وتفصيله فى موضع آخر .

---

(١) البيان المغرب (الأوراق المخطوطة – هسبيرس ص ١٠٤) ، وابن القطان فى نظم الجمان (المخطوط السالف الذكر لوحة ٨٢ ب) .

(٢) البيان المغرب (الأوراق المخطوطة – هسبيرس ص ١٠٤) . وابن الخطيب عن ابن الوراق فى الإحاطة ج ١ ص ٤٥٤ ، ٤٥٥ .

# الفصل السادس

## شرق الأندلس

ولاية بلنسية ومرسية . يحيى بن غانية . ندبه به لحماية الشرق . أصله ونشأته . ولايته لشرق الأندلس . مسيره فى القوات المرابطية لإنجاد حصن أرنية . تقدمه نحو طليطلة . ما تقوله الرواية النصرانية عن انصراف المرابطين . الغزوات فى غربى الأندلس . أخبار الجزائر الشرقية ، ولاتها بعد الفتح المرابطى . وانور بن أبى بكر . محمد بن على بن غانية . استقلاله بحكم الجزائر ، وقيام دولة بنى غانية بها .

— ١ —

كان شرقى الأندلس فى عهد المرابطين ، يشتمل بعد سقوط سرقسطة ، على ولايتى بلنسية ومرسية ، وكان يتبع بلنسية سائر الأراضى والقواعد الممتدة شمالا من شاطبة حتى الثغر الأعلى ، ومن البحر غرباً حتى قونقة ، ويتبع مرسية سائر الأراضى والقواعد الواقعة على ضفتى نهر شقورة ، والممتدة جنوباً حتى ولاية ألمرية .

وقد سبق أن أتينا على ذكر ولاة بلنسية ومرسية ، منذ الفتح المرابطى حتى سقوط سرقسطة . وكان والى مرسية قبيل سقوط سرقسطة ، الأمير أبو إسحق إبراهيم ابن يوسف بن تاشفين ، أخو أمير المسلمين على بن يوسف ، وكان والى بلنسية أخوه الآخر الأمير أبو الطاهر تميم . وقد فصلنا فى حديثنا عن سقوط سرقسطة ، الدور الذى قام به الأمير تميم فى حوادث الحصار ، والدور الذى قام به أخوه إبراهيم فى موقعة كتُندة المشئومة ( ٥١٤ هـ ) وهو يومئذ والى إشبيلية .

وخلف الأمير إبراهيم فى ولاية مرسية ، أبو محمد يدِّر بن ورقا ، أوحسبما يسميه صاحب البيان المغرب محمد بن يوسف يدِّر ، والظاهر أنه تولى فى نفس الوقت ولاية بلنسية . ولما شعر يدِّر باشتداد وطأة الغزوات النصرانية ، فى شرقى الأندلس ، طلب إلى أمير المسلمين على بن يوسف ، أن يوجه إليه يحيى بن غانية لمعاونته ، فاستجاب أمير المسلمين إلى طلبه ، وبعث إليه بابن غانية ، وكان ذلك فى سنة ٥١٥ هـ ( ١١٢١ م ) . ويقول لنا صاحب البيان المغرب إن ابن غانية ،

وفد عندئذ إلى شرقى الأندلس والياً لمرسية[1] . ولكن الظاهر أنه قدم إليه بصفة قائداً للجيوش المرابطية ، وأنه لم يتشح بثوب الولاية إلا فيما بعد ، حينما توفى يدّر فى سنة ٥٣٤ هـ[2].

وهو الأمير أبو زكريا يحيى بن على بن غانية الصحراوى ، الذى لعب فيما بعد فى حوادث الأندلس فى أواخر العهد المرابطى ، أعظم دور ، واضطلعت أسرته — بنو غانية — فيما بعد ، فى الجزائر الشرقية ، وفى إفريقية ، ضد الموحدين ، بأخطر صراع . وقد سُمّى بنو غانية ، باسم أمهم غانية ، وهى لمتونية من قرابة يوسف بن تاشفين ، وربما كانت تسميتها بهذا الإسم دلالة على أصلها الإقليمى ، أو بعبارة أخرى نسبة إلى بلاد غانة ، وهى التى افتتحها المرابطون عند مطلع نهضتهم فى مشارف الصحراء الكبرى . وتلقيب الولد باسم الأم دون الأب ، من الأمور الذائعة فى أسر لمتونة ، خصوصاً متى كانت الأم تمتاز بصفاتها وخلالها العالية . ولدينا من ذلك أمثلة أخرى ، مثل الأمير محمد بن عائشة ، ولد يوسف ابن تاشفين ، والقائد محمد بن فاطمة . وكان والد يحيى ، على بن يوسف ، من زعماء قبيلة مسّوفة أحد بطون صنهاجة . وربى يحيى وأخوه محمد ، الذى ولى حكم الجزائر الشرقية فيما بعد ، فى بلاط مراكش ، فى عهد يوسف وولده على ، ثم عبر يحيى إلى الأندلس وهو فتى ، وعاش فى كنف الأمير أبى عبد الله محمد بن الحاج اللمتونى ، والى قرطبة فى أواخر عهد يوسف ، وتزوج أمه غانية بعد وفاة أبيه على ، فندبه لحكم مدينة إستجّة ، فكانت أول ولاية أسندت إليه . ولما تولى على بن يوسف الأمر بعد أبيه ، عزل ابن الحاج عن ولاية قرطبة ، لانضمامه إلى الخوارج عليه ، المناصرين لابن أخيه يحيى بن أبى بكر والى فاس ، وقد ذكرنا خبر خروجه فى بداية حكم على وفشل ثورته ، فانفصل عندئذ يحيى بن غانية عن ابن الحاج وجماعته . ثم عفا علىّ عن ابن الحاج وغيره من القادة الموالين ليحيى ، وعين ابن الحاج لولاية المغرب مكان أخيه أبى الطاهر تميم بن يوسف ، الذى وُلّى حكم الأندلس ، ثم نُدب ابن الحاج بعد ذلك لولاية بلنسية ، ومنها سار إلى سرقسطة ، وقد فصلنا أخباره وغزواته فيما تقدم .

ولسنا نجد فى الأعوام التالية ، أثراً لأخبار يحيى بن غانية ، بين مختلف

---

(١) ابن عذارى فى البيان المغرب ( الأوراق المخطوطة هسبيرس ص ٨١ ) .

(٢) ابن الخطيب فى الإحاطة ( مخطوط الإسكوريال رقم ١٦٧٣ الغزيرى) لوحة ٣٩١ .

الولاة . والظاهر أنه كان عندئذ ينتظم فى قيادة الجيش ، لما ظهر من فائق شجاعته وبراعته . ثم كان ندبه لولاية مرسية ، أولمعاونة واليها يدّر فى سنة ٥١٥ هـ (١١٢١ م) حسبما تقدم . ومن ذلك الحين يلمع اسم يحيى فى حوادث شبه الجزيرة لمعانا شديداً ، فهو يقوم بقيادة الجيوش المرابطية فى شرق الأندلس بكفاية وبراعة ، وهو يكرر الغزو لأراضى النصارى فى أراجون وقطاونية ، وقد كان له فيما يبدو دور ملحوظ فى مقاومة قوات ألفونسو المحارب حينما اخترق شرق الأندلس ، فى غزوته التى قام بها استجابة للنصارى المعاهدين (سنة ٥١٩ هـ) ومر فيها بأراضى بلنسية ، واجتاز إلى جزيرة شُقْر ، وقاتل أهلها أياماً ، ثم تحول إلى دانية ، واتجه بعد ذلك صوب شاطبة ومرسية . وقاومه المسلمون أينما حل . ولما توفى يدّر والى بلنسية ومرسية فى سنة ٥٢٤ هـ ، كما تقدم ، ولّى يحيى على شرق الأندلس[١] ، بيد أنه كان أكثر انشغالا بشئون الحرب والقيادة ، وكان ينيب عنه فى حكم بلنسية ومرسية أخاه لأمه ، المنصور بن محمد بن الحاج . ولما حاصر ألفونسو المحارب إفراغة ، هرع يحيى فى قواته لإنجادها ، مع من هرع إليها من ولاة الأندلس الآخرين . وقاد يحيى قوات الإنجاد فى المعركة التى نشبت تحت أسوار إفراغة بشجاعته وبراعته المأثورتين ، فكانت الهزيمة الساحقة على النصارى فى رمضان سنة ٥٢٨ هـ (يوليه سنة ١١٣٤ م) حسبما فصلنا ذلك فى موضعه[٢] .

ولبث يحيى بن غانية ، بعد موقعة إفراغة ، والياً على شرق الأندلس بضعة أعوام أخرى . وتقص علينا الرواية الإسلامية قصة غزوة أخرى ، فى الأراضى النصرانية ، اشترك فيها ابن غانية . وخلاصتها أن القشتاليين ضربوا الحصار بقوات كثيفة ، حول حصن « أرنبة » أو أرلبة[٣] الواقع شرقى طليطلة ، على الحدود بين ولاية قونقة وقشتالة ، وكان من أمنع الحصون الإسلامية فى تلك المنطقة ، وضيق النصارى على حامية الحصن ، وقطعوا عنها الأقوات ، فنهض والى قرطبة الأمير عبد الله بن أبى بكر ، واستمد الأمير تاشفين ، واستمد فى نفس الوقت يحيى بن غانية والى مرسية وبلنسية ، وهرعت القوات المرابطية ، من قرطبة ومرسية ومن

---

(١) ولكن ابن عذارى يقول لنا إن الذى ولى على شرق الأندلس بعد وفاة يدر ، هو ينتان بن على اللمتونى (الأوراق المخطوطة السالفة الذكر — هسبيرس ص ٩١) .

(٢) ابن الخطيب فى الإحاطة (مخطوط الإسكوريال السالف الذكر لوحة ٣٩١) . وراجع
**Gaspar Remiro : Murcia Musulmana (Zaragoza 1905) p· 152—154.**

(٣) وهو الحصن الذى يسمى بالإسبانية حصن **Oreja** ، أو حصن أورليا **Aurelia** .

إشبيلية ، واجتمعت تحت قيادة ابن غانية ، وسارت مسرعة لإنجاد الحصن وإمداده بالمؤن . واستعد القشتاليون للقاء المسلمين بقوات جديدة . ويضع صاحب البيان المغرب تاريخ هذا الحصار فى سنة ٥٢٥ هـ ( ١١٣٠ م)[١]. ولكن الرواية النصرانية ، تضعه بعد ذلك بعدة أعوام فى سنة ١١٣٧ م . وليس هنالك فى الرواية الإسلامية ، ما يدل على أن موقعة حدثت فى هذا الموطن بين المسلمين والنصارى . وكذلك فإن الرواية النصرانية ، تقول لنا إن هذا اللقاء بين المسلمين والنصارى فى أراضى طليطلة ، انتهى إلى خاتمة تتسم بالفروسة . وذلك أن الجيش المرابطى ، وقد كان وفقاً لأقوال هذه الرواية ، يتكون من ثلاثين ألف فارس ، سار من طريق طليطلة . وكان ملك قشتالة ألفونسو السابع ( ألفونسو ريمونديس) قد عهد بحماية طليطلة إلى حامية قوية تشرف عليها زوجه الملكة برنجيلا ، فلما وصل الجيش المرابطى إلى ظاهر أسوار طليطلة ، خرجت الملكة برنجيلا إلى شرفة « القصر » العالى المطل على نهر التاجُه ، وبدت للقادة المسلمين مع وصائفها ، وقد ازدانت بأفخر الثياب والحلى ، وبعثت إلى ابن غانية رسولها ، يؤنبه بلسانها لأنه قدم لمهاجمة بلد تدافع عنه امرأة ، فى حين أن الإمبراطور ينتظرهم فى جيشه عند حصن أرنبة (أوريخا)، فدهش ابن غانية وزملاؤه القواد المسلمون ،وأخذوا بذلك المنظر ، ولم يسعهم إلا أن ينحنوا قبالة الملكة المطلة عليهم ، تكريماً لها وتعظيما ، ثم استأنفوا سيرهم ، دون أن يقوموا بأية محاولة . أما حامية حصن « أرنبة» فقد اضطرت فى النهاية إلى التسليم ( أكتوبر سنة ١١٣٧ م ) ولكن سمح لها أن تخرج بالأمان وأن تسير إلى قلعة رباح[٢] .

وهكذا يبدو مما تقدم ، أنه لم تقع فى شرقى الأندلس ، فى الفترة التى تلت سقوط سرقسطة ، وموقعة كتُندة ، حوادث خاصة بهذه المنطقة ، سوى الغزوات المحلية العارضة ، والتى لم تقدم إلينا الرواية عنها تفاصيل شافية ، وقد كان شرقى الأندلس ، يردد صدى الحوادث العامة فى شبه الجزيرة ويشترك فيها ، كما تشترك باقى الولايات الأندلسية ، وقد كانت الجيوش المرابطية كلها ، سواء فى شرقى الأندلس أوغربه ، تعمل دائماً فى حركات موحدة شاملة .

أما عن أخبار الغزوات فى الناحية الأخرى من الأندلس ، فإن الرواية

---

( ١ ) البيان المغرب ( الأوراق المخطوطة المشار إليها – هسبيرس ص ٩٤ ) .

( ٢ ) راجع : A. P. Ibras : Valencia Arabe (cit. Crónica Adefonsi Imperatoris) p. 481

الإسلامية تقدم إلينا بعض التفاصيل الموجزة ، عن بعض الأحداث التى وقعت عقب مغادرة تاشفين بن على لشبه الجزيرة . ومن ذلك أن الزبير بن عمر والى قرطبة ، خرج فى قواته غازياً لأرض النصارى ، وافتتح حصن مورة ( سنة ٥٣٣ هـ ) . وفى نفس العام ردت قوات شنترين ويابرة عسكراً من النصارى ( البرتغاليين ) حاول غزو الأراضى الإسلامية ، وقتلت وأسرت منه جملة وافرة ، واحتوت على أسلابه . وفى أواخر هذا العام غزا ألفونسو ريموندیس ملك قشتالة أرض الأندلس ، وحاصر حصن إربلية ، فسارت قوات الأندلس من مختلف الأنحاء لرده وإنجاد الحصن ، ولكنها تخلفت فى الطريق ، ثم عادت من حيث أتت ، واضطر الحصن ، بعد أن أرهق الحصار أهله إلى التسليم(١) .

— ٢ —

تحدثنا فيما تقدم من أخبار أمير المسلمين على بن يوسف ، عما وقع فى أوائل عهده من استرداده للجزائر الشرقية ( جزائر البليار ) من البيزيين والجنويين فى أواخر سنة ٥٠٩ هـ ( ١١١٦ م ) . ولما كانت الجزائر الشرقية ، تلحق دائماً بشرقى الأندلس ، فإنه يجدر بنا أن نتناول هنا ، طرفاً من أخبارها فى تلك الفترة .

وقد ذكرنا عندئذ ، أن أمير المسلمين عين لولاية الجزائر عقب استردادها ، وانور بن أبى بكر اللمتونى(٢) بيد أنه يبدو من بعض الرسائل السلطانية المرابطية التى بين أيدينا ، أنه قد سبقت ولاية وانور ولاية قصيرة الأمد للقائد أبى السداد والى دانية . ففى رسالة صادرة عن على بن يوسف من حضرة مراكش ، فى الحادى والعشرين من ربيع الأول سنة ٥١٠ هـ ، أعنى عقب استرداد الجزائر ببضعة أشهر ، يشير أمير المسلمين إلى موت القائد أبى السداد والى ميورقة ، ويسند ما كان تحت نظره إلى واليها الجديد ، ويسدى إليه النصح بأن يحسن السيرة فى أهل الجزيرة ، وأن يسلك طريق الرفق والعدل والحق ، وأن يستعمل الحزم فى ضبط أحوالها ، وأن يسعى فى استرجاع من خرج من أهلها ، وأن يستنيب من يرضاه فى النظر على الأسطول والمستخلص بثغر دانية ، وأن يبذل جهده فى

---

( ١ ) ابن القطان فى نظم الجمان ( المخطوط السالف الذكره لوحة ٨٢ ب ) .

( ٢ ) هذه رواية ابن خلدون فى كتاب العبر ج ٤ ص ١٦٥ .

استمالة الناس . وتهدئة روعهم ولاسيما بعد الذى « أحدثه السفيه المعتوه ابن أبى السداد من إيحاشهم وترويعهم »(١) .

ويستفاد من هذه الرسالة أن القائد ابن أبى السداد ، وقد كان والياً لثغر دانية ، حسبما تقدم ذكره ، قد وُلى على ميورقة عقب استردادها فى أواخر سنة ٥٠٩هـ ، وأنه توفى بعد قليل من ولايته ، وأنه لم يحسن السيرة مع أهل الجزائر خلال ولايته القصيرة . وعلى أثر وفاته ، قام أمير المسلمين على بن يوسف باختيار خلف له . وبالرغم من أن اسم الوالى الجديد لم يرد فى الرسالة ، ولا فى ديباجتها ، فإنه يبدو من المرجح أنه لم يكن سوى وانور بن أبى بكر ، وهو أول وال حقيقى ، وليها عقب الاسترداد .أما إغفال أبى السداد فى رواية ابن خلدون وغيره ، فالظاهر أنه يرجع إلى قصر ولايته ، التى لم تتجاوز بضعة أشهر .

ولبث وانور بن أبى بكر والياً على الجزائر زهاء عشرة أعوام . وكان ظلوماً صارماً ، فعصف بأهل الجزائر واشتد فى إرهاقهم . وكان من أهم أسباب سخطهم عليه ، أنه أراد أن يرغمهم على ترك ثغر ميورقة ، وإنشاء مدينة أخرى داخل الجزيرة . تكون بعيدة عن البحر . وأخيراً اضطرمت الجزيرة بالثورة وغلب الثوار على وانور ، وقبضوا عليه ووضعوه فى الأصفاد ، وبعثوا إلى أمير المسلمين يشرحون أحوالهم وظلاماتهم ، فاستجاب على إلى صريخهم ، وعين والياً جديداً للجزائر ، هو محمد بن على بن غانية المسّوفى ، أخو يحيى بن غانية الأصغر ، وكان عندئذ يتولى النظر على بعض أعمال قرطبة . فقدم إلى الجزائر فى سنة ٥٢٠ هـ ( ١١٢٦م ) ، وأقر أهلها على ما فعلوه بوالبهم السابق وانور ، وبعثه مصفدا إلى مراكش لينظر هنالك فى أمره(٢) .

وقد شاء القدر أن يكون تعيين محمد بن غانية لولاية الجزائر الشرقية ، ممهداً لتطور أحوالها ، ودخولها فى عهد جديد من تاريخها ، وقيام دولة جديدة مستقلة بها ، هى دولة بنى غانية . ذلك أن محمد بن غانية ضبط الجزائر ، وحكمها بقوة وحزم ، وطالت أيامه بها ، حتى توفى أمير المسلمين على بن يوسف

---

( ١ ) وردت هذه الرسالة ضمن مجموعة من الرسائل المرابطية نشرت بمجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد بعناية الدكتور محمود مكى ( العدد السادس ) سنة ١٩٦١ ، ص ١٨٥ — ١٨٦ .

( ٢ ) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٥ ، والمعجب للمراكشى ص ١٥١ ، ١٥٢ . وراجع أيضاً :
**A. Campaner y Fuertes : Bosquejo Hist. de la Dominación Islamita en las Islas Baleares ;p.137** وكذلك : **Alfred Bel : Les Benou Ghania (Paris 1903) p. 5&18**

( ٥٣٧ هـ ) ، واضطربت أحوال الدولة المرابطية فى المغرب ، وقامت الثورة فى أنحاء الأندلس على المرابطين ، وولى أخوه يحيى بن غانية قرطبة وما إليها من قبل تاشفين بن على بن يوسف فى سنة ٥٣٨ هـ ، وأخذ يخوض من ذلك التاريخ مع الثوار ومع النصارى ، حروباً ووقائع مستمرة ، إلى أن توفى بغرناطة فى سنة ٥٤٣ هـ . وفى خلال ذلك كان محمد بن غانية ، يعمل فى مركزه النائى على توطيد سلطانه بالجزائر والاستقلال بها لنفسه ولعقبه . ومع ذلك فقد لبث على ولائه للدولة المرابطية وزعامة لمتونة ، واستمر يدعو فى الخطبة لأمير المسلمين ، ولبنى العباس . وكان خلال اضطرام الفتنة بالأندلس يستقبل اللاجئين من فلول المرابطين بالجزائر ، ويشملهم بحمايته ورعايته .

وليست لدينا تفاصيل شافية عن حوادث الجزائر فى تلك الفترة . ويبدو أنها كانت تجوز عندئذ فترة استقرار وسلام ، بعيدة عما تجيش به شبه الجزيرة من الحوادث والخطوب . وكان محمد بن غانية حينما شعر بتوطيد سلطانه ،وتمكن استقلاله بحكم الجزائر ، قد اختار لولاية عهده ولده الأكبر عبد الله . وهنا تختلف الرواية ، فقيل إن عبد الله خلف أباه بعد وفاته على حكم الجزائر ، ثم خلفه بعد وفاته أخوه الأصغر إسحاق . وقيل إن إسحاق حقد على أخيه عبد الله حينما عين لولاية العهد ،ودبر مؤامرة قتل فيها أخوه وأبوه ، وتولى هو على أثرها حكم الجزائر ، وذلك فى سنة ٥٥٠ هـ ( ١١٥٥ م )[١] .

ونحن نقف فى تتبع أحداث الجزائر الشرقية عند هذا الحد ، لنستأنفه فى فرصة أخرى فى موضعه المناسب .

---

( ١ ) المراكشى فى المعجب ص ١٥٢ ، وابن خلدون ج ٦ ص١٩٠ ، وكذلك : A. Bel : Les Benou Ghania, p. 19

# الكتاب الثاني

# المهدي محمد بن تومرت
# والصراع بين المرابطين والموحدين
# وقيام الدولة الموحدية بالمغرب

# الفصل الأول

## محمد بن تومرت

### نشأته وظهوره

حركة ابن تومرت وخصائصها المحلية . أول ظهور لابن تومرت فى مراكش . أصله ومولده . معنى كلمة « تومرت » . نسبته البربرية . انتسابه إلى آل البيت . ما يحيط بهذه النسبة من الريب . نشأته . رحلته فى طلب العلم إلى الأندلس ، ثم المشرق . قصة لقائه بالإمام الغزالى . سقم هذه القصة وبطلانها . ما ينقضها من الناحية الزمنية . ما يطبعها من ألوان الأسطورة . نفى البحث الحديث لصحتها. تأثر ابن تومرت بتعاليم الأشعرية وبآراء الغزالى . عوده بعد إتمام دراسته إلى المغرب . دعوته إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . نزوله بالمهدية . سفره إلى بجاية . ماوقع بها من هرج من جراء دعايته لإزالة المنكر . المناظرة بينه وبين طلبتها . مغادرته لبجاية ، ونزوله بملالة . لقاؤه بعبد المؤمن بن على وما يقال فى ذلك من روايات وأساطير . مسيره إلى وانشريش ثم إلى فاس ومكناسة . نظرية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . تفسيرها وفقا لابن حزم . تعليق العلامة جولدسيهر على النظرية . نزول ابن تومرت بمراكش . استمراره فى حملته دون هوادة . مظاهر الخلل والفساد فى العاصمة المرابطية . تعرضه لأخت الأمير وما وقع بسبب ذلك من الهرج . أمير المسلمين يأمر بمناظرته . قبول ابن تومرت . ما وقع فى هذه المناظرة . الأصول والفروع . تحريض الفقهاء للأمير على قتل ابن تومرت . اقتصاره على اعتقاله ثم نفيه من مراكش . مسيره إلى إغمات ثم إلى السوس . تجوله فى بلاد المصامدة . نزوله بجبل إيجليز فى هرغة . عكوفه على بث دعوته والتبشير بنظرية المهدى . إعلانه لإمامته وأنه هو المهدى . مبايعة أصحابه له بهذه الصفة . أصحاب المهدى ومراتبهم . تلقيبه بالمهدى والإمام المعصوم . ملخص شريعته . وضعه لكتب الدعوة لأصحابه . ما يدل على أن ابن تومرت كان يضمر مشروعه ويعمل له .

ننتقل الآن إلى ناحية أخرى من تاريخ الدولة المرابطية ، وهى ناحية طارئة عليها ، وقد شاء القدر بأن تحول وجهة سيرها من التقدم والتوطد ، إلى الإدبار والانحلال المفاجئ ، فبينما هى فى أوج قوتها ورسوخها ، إذا بها تجد نفسها فجأة أمام فورة دينية صغيرة ، يضطلع بها فقيه متواضع ، وتضطرم بسرعة مدهشة ، حتى تغمر كل شىء فيها ، وتستغرق كل قواها ومواردها ، ثم تنتهى بعد صراع قصير الأمد ، بالقضاء عليها : تلك هى ثورة المهدى ابن تومرت .

إن التاريخ الإسلامى ، قلما يقدم إلينا حركة أكثر تواضعاً فى بدايتها ، وأبعد مدى فى نتائجها ، من تلك الحركة التى قام بها محمد بن تومرت السوسى ، المتشح بثوب المهدى ، والتى أسفرت عن قيام دولة من أعظم الدول الإسلامية ،

وأضخمها رقعة ، وأعظمها قوة وسلطانا ، هى الدولة الموحدية الكبرى .

ولقد كانت حركة ابن تومرت هى الثانية من نوعها فى الغرب الإسلامى . وكانت الأولى هى حركة الشيعة ، التى أسفرت عن قيام الدولة الفاطمية فى إفريقية ( تونس ) ، والتى كان زعيمها الروحى وأول خلفائها عبدالله يتشح كذلك بثوب المهدى المنتظر . وبالرغم من أن الدولة الفاطمية قد انتقلت بعد ذلك إلى مصر ، فإن نشاطها وفتوحاتها ، وسلطانها الروحى والسياسى . قد استمرت بالمغرب ردحاً من الزمن ، على يد ولاتها من القبائل البربرية ، التى كانت هى المادة الآدمية التى استندت إليها فى قيامها وتوطدها بالمغرب .

بيد أن حركة المهدى ابن تومرت هى حركة مغربية مستقلة ، لم تنبعث كما هو الشأن فى قيام الدولة الفاطمية . من الدعوة الشيعية المشرقية . وإن كانت مع ذلك تستند إلى نظرية المهدى المنتظر ، وهى بذلك تمتاز بتخصصها القوى وصبغتها المحلية البربرية العميقة ، كما تمتاز بأساسها الدينى الواضح . الذى انبعثت منه . قبل أن تتطور بسرعة إلى حركة سياسية ، يتزعمها الإمام المعصوم والمهدى المنتظر ، وهى تتجه فى خصومتها المذهبية إلى الصراع المحلى المحض . وتستمد لمقوماتها العوامل الدينية المحلية ، التى اختص بها المغرب منذ عصور .

ثم هى فوق ذلك تمثل معركة قومية داخلية ، تضطرم بين فريقين من القبائل البربرية . تستظل كل منهما بشعارها الدينى الخاص . فقد رأينا كيف قام المرابطون فى البداية للجهاد فى سبيل الله . وإحياء السنة ومحاربة البدع والضلالات . والانحراف عن أحكام الإسلام . وقد كان يومئذ يسود كثيراً من القبائل البربرية . ثم رأينا كيف استقرت رياسة الدولة المرابطية فى قبيلة لمتونة . وحليفاتها كدالة ومسوفه وغيرها من بطون صنهاجة . وكذلك فإن حركة ابن تومرت . قامت فى البداية على شعار الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وبدأت رياسته السياسية فى وطنه بالسوس الأقصى ، وفى قبيلته هرغة . وغيرها من بطون مصمودة . وإذن فقد كانت المعركة بين المرابطين والموحدين . تصطبغ فى نفس الوقت بالصبغتين الدينية والقومية .

— ١ —

فى أواخر سنة ٥١٤ هـ ( ١١٢٠ م ) وقعت بمدينة مراكش أول بادرة مؤذنة ببداية الثورة الدينية التى اضطلع بها محمد بن تومرت ضد الدولة المرابطية.

فنى ذات يوم جمعة ، من هذه السنة ، دخل إلى المسجد الجامع رجل صغير القد ، متواضع الهيئة ، وجلس على مقربة من المحراب بإزاء الموضع المخصص لجلوس أمير المسلمين ، فلما اعترض على ذلك بعض سدنة الجامع ، تلا الآية « إن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا » . ولما حضر أمير المسلمين على بن يوسف ، نهض سائر الحضور ، إلا ذلك الرجل ، فلما انتهت الصلاة بادر الرجل بالسلام على علىّ ، وقال له فيما قال « غير المنكر فى بلدك ، فأنت المسئول عن رعيتك » وبكى . فلم يجبه أمير المسلمين بشىء . ولما عاد إلى القصر سأل عنه ، فقيل له إنه قريب العهد بالوصول ، وهو يؤلف الناس ويقول لهم إن السنة قد ذهبت ، فأمر على بن يوسف ، وزيره عمر بن ينتان أن يكشف عن أمره ومقصده ، فإن كانت له حاجة ينظر فى قضائها ، فقال الرجل ليس لى حاجة ، وما قصدى إلا تغيير المنكرات(١) .

كان هذا الرجل هو محمد بن تومرت ، وكان قد آب من رحلته إلى المشرق . ونزل بمراكش ، بعد أن طاف ببعض مدن المغرب الشمالية ، وهو يدعو للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وأصل هذا الرجل من قبيلة هَرْغة إحدى بطون مصمودة الكبرى ، من قوم بها يعرفون « بايسرغينن » وهم الشرفاء فى لغة المصامدة . وقد ولد بضيعة ، تقع فى جنوبى السوس الأقصى ، تسمى « بإيجلى ان وارغن »(٢) . وقد اختلف فى تاريخ مولده . وتضعه الرواية فيما بين سنتى ٤٧١ ، و٤٩١ هـ ، ويقول لنا ابن الأثير إنه توفى فى سنة ٥٢٤ هـ عن إحدى وخمسين عاما أو خمسة وخمسين عاما ، مما يجعل تاريخ مولده فى سنة ٤٦٩ هـ ، أو ٤٧٣ هـ ، ويضع ابن خلكان تاريخ مولده فى العاشر من محرم سنة ٤٨٥ هـ ، وابن الخطيب فى سنة ٤٨٦ هـ ، وابن سعيد فى سنة ٤٩١ هـ، ويضعه الغرناطى فى سنة ٤٧١ ، وهو أقدم تاريخ ينسب إليه مولد ابن تومرت(٣) . واما عن نسبته فإن الرواية أشد تباينا واختلافاً . ومن المتفق عليه أنه أبو عبد الله محمد بن عبد الله ، ووالداه من أهل السوس ، وكان أبوه رجلا فقيراً ، وأمه من قوم يعرفون ببنى يوسف من مسكالة من عمل السوس ، وبنو يوسف هم أخواله ، ومولده

(١) البيان المغرب ( فى الأوراق المخطوطة التى عثرنا بها ) .

(٢) المعجب ص ٩٩ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٤ و ٢٢٥ .

(٣) يراجع فى مولد ابن تومرت ، الزركشى فى تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ( تونس ١٢٨٩ ) ص ١ ، وابن الأثير ج ١٠ ص ٢٠٥ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٥٢ .

بموضع يسمى « نومكران » ، وهو موضع لا ماء فيه ، وإنما يشرب أهله من ماء المطر . وهنالك كانت دار أسرته[١] . وكان يقال لوالده تومَرت وأمغار ، ومعناه فى لغة المصامدة ، الضياء الذى يوقد فى المسجد ، ومن ثم فقد عرفه التاريخ باسمه الذائع ، وهو محمد بن تومرت ، كما عرفه بلقبه الدينى وهو المهدى . ويفسر لنا مؤرخه « البيذق » معنى كلمة « تومرت » التى لصقت بأبيه ، فيقول لنا ، إن اسم أبيه عبد الله ، شهر فى صغره إلى كبره « بتومرت بن وجلّيد » . وذلك أنه لما ولد فرحت به أمه وسرت ، فقالت باللسان الغربى « آتومَرت آينُو أيـسَّك آيوى » ، ومعناه : يا فرحتى بك يا بنى . وكانت إذا سئلت عن ابنها وهو صغير ، تقول باللسان الغربى « يك تومرت » ، معناه صار فرحاً وسرورا ، فلب عليه اسم تومرت ، وترك دعاؤه باسم عبد الله الذى سمى به أولا[٢] .

ومن المحقق الذى لا يقبل ذرة من الجدل ، أن ابن تومرت بربرى الجنس ينتسب إلى هَرْغة ومصمودة ، ومع ذلك فإنه نظراً لانتحاله صفة المهدى والإمام المعصوم ، لم يعدم رواية تنسبه لآل البيت ، إذ لابد ، وفقاً لأسطورة المهدى المنتظر ، أن يكون المهدى منهم . ومن ثم فإننا نجد إلى جانب نسبة ابن تومرت البربرية المحضة ، نسبة أخرى ترجعه إلى آل البيت . أما نسبته البربرية فهى أنه محمد بن تومرت بن نيطاوس بن ساولا بن سفيون بن أنكليدس بن خالد . أو أنه محمد بن عبد الله بن وجلّيد بن يامصال بن حمزة بن عيسى . وهذه النسبة الثانية تمد بعد ذلك على يد بعض الرواة إلى آل البيت على النحو الآتى : ابن عبيد الله ابن إدريس بن إدريس بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن فاطمة بنت رسول الله[٣] . وأما نسبته العربية العلوية فهى أنه محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن هود بن خالد ابن تمام بن عدنان بن صفوان بن سفيان بن جابر بن يحيى بن عطاه بن رباح بن ياسر ابن العباس بن محمد بن الحسن بن على بن أبى طالب . ويؤيد هذه النسبة ابن رشيق فى شجرة أنساب الخلفاء والأمراء ، وابن القطان ، وابن صاحب الصلاة ، مؤرخا

---

(١) ابن القطان فى « نظم الجمان » (المخطوط السابق ذكره لوحة ١٤ ب) .

(٢) كتاب « أخبار المهدى ابن تومرت وابتداء دولة الموحدين » لأبى بكر الصنهاجى المكنى بالبيذق ، المنشور بعناية الأستاذ ليڤى بروڤنسال (باريس سنة ١٩٢٨) ص ٣٠ ، وقد قرنت به ترجمة فرنسية .

(٣) أخبار المهدى بن تومرت ص ٢١ .

الدولة الموحدية(١)، ويقول لنا المراكشى ، إنه رأى بخط المهدى نسبته المتصلة بالحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب(٢) .

بيد أنه يوجد إلى جانب ذلك من المؤرخين ، من ينكر هذه النسبة على ابن تومرت ويعتبره دعيًّا فيها . ومن هؤلاء ابن مطروح القيسى ، وهو يصف ابن تومرت بأنه « رجل من هرغة من قبائل المصامدة يعرف بمحمد بن تومرت الهرغى » . وقال بعضهم إنه من قبيلة جنفيسة(٣) .

ونحن لا نرى فى هذه النسبة العربية النبوية التى يدعيها ابن تومرت لنفسه ، والتى يؤيدها بعض المؤرخين من أولياء الموحدين وكتاب دولتهم ، إلا نحلة باطلة ، وثوباً مستعاراً ، أراد به ابن تومرت أن يدعم به صفة المهدى التى انتحلها شعاراً لإمامته ورياسته الدينية والسياسية ، ومما يلفت النظر أن كثيراً من القبائل والأسر البربرية التى تشق طريقها إلى السلطان ، تحاول دائماً أن تنتحل الأنساب العربية ، كما هو الشأن فى بنى حمود الذين يرجعون نسبتهم إلى آل البيت ، وفى قبيلة صنهاجة وهى الأم الكبرى للمتونة ، صاحبة الرياسة فى الدولة المرابطية ، فإنها تزعم أنها تنتمى فى الأصل إلى العرب اليمانية(٤) .

وليست لدينا أية تفاصيل شافية عن نشأة ابن تومرت وحداثته . وكل ما يقال لنا من ذلك أنه نشأ فى بيت نسك وعبادة ، وشب قارئاً محباً للعلم ، وكان يسمى فى حداثته « أسافور » ، ومعناه الضياء لكثرة ما كان يسرج القناديل بالمساجد التى يلازمها(٥). ولكن الرواية تتبع سيرة حياته منذ سنة ٥٠٠هـ ( ١١٠٦م ) ، ففى تلك السنة ، أو السنة التالية ( ٥٠١ هـ ) حسبما ينقل إلينا ابن القطان ، عن الشيخ يحيى ابن وسنا من أهل خمسين أصحاب المهدى — غادر ابن تومرت وطنه بالسوس فى طلب العلم ، وعبر البحر إلى الأندلس ، ودرس فى قرطبة حيناً ، ثم جاز من ثغر المرية إلى المشرق(٦) ، ومر فى طريقه على المهدية ، وأخذ بها على الإمام المازرى ، ثم قصد إلى الإسكندرية ودرس بها على الإمام أبى بكر الطرطوشى ، وقضى

---

( ١ ) الحلل الموشية ص ٧٥ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٥ و٢٢٦ ، والزركشى ص ١ .

( ٢ ) المعجب ص ٩٩ .

( ٣ ) روض القرطاس ص ١١٠

( ٤ ) روض القرطاس ص ٧٥ .

( ٥ ) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٦ .

( ٦ ) ابن القطان فى « نظم الجمان » ( المخطوط السابق ذكره لوحة ١٢ ) .

بعد ذلك فريضة الحج ، ثم سافر إلى بغداد ، وهنالك درس الفقه والأصول على أبي بكر الشاشي الملقب بفخر الإسلام، ودرس الحديث على المبارك بن عبدالجبار وغيره[١]. وفى بعض الروايات أن ابن تومرت لقى الإمام أبا حامد الغزالى ودرس عليه فى بغداد ، وقيل بل لقيه بالشأم أيام تزهده[٢]. ونحن نقف قليلا عند هذه الرواية ، التى يرددها كثير من مؤرخى المشرق والمغرب ، إذ متى وأين كان هذا اللقاء ، وفى أى الظروف ؟ لقد خرج ابن تومرت من وطنه فى طلب العلم فى سنة ٥٠٠ أو ٥٠١ هـ ، وقضى فترة فى الأندلس ، وفى المهدية ، وفى الإسكندرية ، ثم سافر لقضاء فريضة الحج ، وقصد على أثر ذلك إلى بغداد ، وإذن فيكون من المرجح أنه لم يصل إليها قبل سنة ٥٠٤ أو ٥٠٥ هـ . وقد كان الإمام الغزالى ببغداد يضطلع بالتدريس فى المدرسة النظامية بين سنتى ٤٨٤ و٤٨٨ هـ ( ١٠٩١ — ١٠٩٥ م ) . وفى سنة ٤٨٨ هـ غادر العاصمة العباسية ، فى رحلته التأملية الشهيرة التى استطالت حتى سنة ٤٩٩هـ ، والتى زار فيها دمشق وبيت المقدس والإسكندرية ومكة والمدينة . وإذن فيكون من المستحيل ماديا ، أن يكون ابن تومرت الذى غادر وطنه لأول مرة فى سنة ٥٠٠هـ ، قد استطاع أن يلتقى بالغزالى فى بغداد أو غيرها من المدن التى زارها فى خلال رحلته ، ثم إنه ليس من المحتمل أن يكون هذا اللقاء قد وقع عند عودة الغزالى إلى بغداد . ذلك أنه لم يمكث بها سوى فترة يسيرة ، ثم رحل منها إلى نيسابور حيث قام بالتدريس فيها استجابة لدعوة السلطان ملك شاه ، ثم غادرها بعد قليل إلى مسقط رأسه طوس ، وانقطع بها للعبادة والتأليف حتى توفى فى جمادى الثانية سنة ٥٠٥ هـ ( ديسمبر سنة ١١١٢ م ) .

ويتضح من ذلك جلياً بطلان قصة اللقاء بين ابن تومرت والإمام الغزالى من الناحية التاريخية . وفضلا عن ذلك فإنه يوجد دليل مادى آخر على بطلان هذه القصة أو الأسطورة . ذلك أنها تقرن بواقعة أخرى خلاصتها ان ابن تومرت حينما لقى الإمام الغزالى ، وأخبره بما وقع من إحراق المرابطين لكتابه « إحياء علوم الدين » بالمغرب والأندلس ، تغير وجهه ، ورفع يده إلى الدعاء ، والطلبة يؤمنون ، فقال « اللهم مزق ملكهم كما مزقوه ، وأذهب دولتهم كما أحرقوه » ،

---

( ١ ) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٦ ، والحلل الموشية ص ٧٥ ، والزركشى ص ١ ، والمعجب ص ٩٩ .

( ٢ ) الحلل الموشية عن ابن القطان ص ٧٥ ، والمعجب ص ٩٩ ، وروض القرطاس ص ١١٠ وابن خلكان ج ٢ ص ٤٨ ، والزركشى ص ١ .

وان ابن تومرت ، رجا الإمام عندئذ أن يدعو الله أن يكون ذلك على يده ، فاستجاب الإمام ، ودعا الله بذلك(١) .

وينقض هذه الواقعة من أساسها ، أن قرار المرابطين بحرق كتاب « الإحياء » قد صدر لأول مرة فى سنة ٥٠٣ هـ فى أوائل عهد على بن يوسف ، وذلك حسبما يخبرنا ابن القطان ، أعنى بعد أن غادر الغزالى بغداد إلى نيسابور لآخر مرة ، وقبيل وفاته بنحو عام . فأين إذن ومتى كان لقاء ابن تومرت به ؟ وكيف نستطيع إزاء هذه المفارقات الزمنية ، أن نصدق تلك القصة التى نسجت حول حرق كتاب الإحياء ؟

هى أسطورة إذن ، نسجت كما نسجت نسبة ابن تومرت إلى آل البيت ، لتغدو هالة تحيط بشخصه وسيرته ، وتذكى عناصر الخفاء والقدسية ، حول شخصه وإمامته . وقد اختير الإمام الغزالى لبطولتها بالذات لتبوئه يومئذ أسمى مكانة من العلم والدين والورع فى العالم الإسلامى ، ولشهرته الذائعة فى المغرب ، وصلاته المعروفة بعاهل المرابطين يوسف بن تاشفين ، وتأثيره الشرعى لديه ، وتأييده لدولته . ويبدو لون الأسطورة فى هذه القصة التاريخية بنوع خاص ، فيما تزعمه الرواية من أن الإمام الغزالى ، حين رؤيته لابن تومرت ، شهد من صفاته وشمائله ، وتبين فيه من العلامات والآثار ، ما يدل على أمره ومستقبله ، وأنه كان يقول لجلسائه « لابد لهذا البربرى من دولة ، أما إنه يثور بالمغرب الأقصى ، ويظهر أمره ، ويعلو سلطانه ، ويتسع ملكه ، فإن ذلك ظاهر عليه فى صفاته ، وبان عنه فى شمائله » . ثم تزيد الرواية على ذلك ، أن بعض الصحب نقل ذلك إلى ابن تومرت ، وأخبره أن ذلك عند الشيخ فى كتاب ، فلم يزل ابن تومرت يجتهد فى خدمة الشيخ ويتقرب إليه ، حتى اطلع على الأخبار التى كانت فيه ، فلما تحقق من ذلك اعتزم الرحيل إلى المغرب ليتابع قدره ، ويبحث عن مصيره(٢) .

ولم يقف أمر هذه الأسطورة التى تجمع بين الغزالى وابن تومرت عند هذا الحد ، بل لقد كان من آثارها أنه يوجد كتاب منسوب للغزالى عنوانه « سر العالمين ، وكشف ما فى الدارين » أو بعنوان أقصر « السر المكنون » وقد جاء فى

---

(١) الحلل الموشية ص ٧٦ و٣٧٧ والبيان المغرب ( الأوراق المخطوطة السابق ذكرها — هسبيرس ص ٧٦ ) .

(٢) روض القرطاس ص ١١٠ و١١١ .

أوله ما يأتى : « أول من استنسخه ، وقرأه على بالمدرسة النظامية سراً من الناس فى النوبة الثانية بعد رجوعى من السفر ، رجل من أرض المغرب يقال له محمد ابن تومرت من أهل سلمية ، وتوسمت فيه الملك »(١).

وليس أشد إمعاناً من ذلك كله فى عالم الأسطورة . ومن ثم فإنا نجد كثيراً من المؤرخين والمفكرين يرفضون هذه الأسطورة والأخذ بها ، فابن الأثير ينفيها بصراحة ويقول لنا « والصحيح أن ابن تومرت لم يجتمع به ( أى الغزالى ) »(٢). ويبدى ابن خلدون ريبه فيها ، ويحملها على محمل الزعم ، وكذلك يعاملها ابن الخطيب(٣). وكذلك فإن البحث الحديث ينكرها وينفيها . ومن أصحاب هذا الرأى المستشرق الألمانى ميللر(٤) ؛ والعلامة المستشرق إجناس جولدسيهر . ويستعرض جولدسيهر بنوع خاص ما فى هذه القصة من مفارقات ومتناقضات تاريخية ثم يقول : « ويبدو من ذلك كله أنه يحق لنا أن نلغى من ترجمة ابن تومرت قصة الغزالى ، فهى غير مقبولة إطلاقاً ، سواء من حيث ترتيب الحوادث الزمنية ، أو من حيث منطق الحوادث نفسها . وكل ما هنالك أننا نرى فيها تحقيقاً لحاجة الناس ، بأن يجدوا سبباً موجباً ، غير الصفات الشخصية ، لارتفاع رجل ، وصل فى لمعة نور خارقة إلى السلطان ، وإلى سحق الدولة القائمة »(٥) .

على أن ذلك كله لا يعنى أن ابن تومرت لم يتأثر فى تعاليمه الدينية بآراء الغزالى ونظرياته . ومن المسلم به أن ابن تومرت ، قد تأثر خلال دراسته بالمشرق بالنظريات المشرقية فى علوم الكلام والأصول والسنة . ويقول لنا ابن خلدون ، إنه تأثر بتعاليم الأشعرية ، وأخذ عنهم ، واستحسن طريقتهم فى الانتصار للعقائد السلفية والدفاع عنها ، وفى تأويل المتشابه من القرآن والحديث(٦) ، وهى

---

( ١ ) هذا ما ورد فى مقدمة العلامة جولدسيهر الفرنسية لكتاب «أعز ما يطلب» الآتى ذكره (ص ١٩) ولكننا لم نجد هذه العبارة فى مخطوطى دار الكتب المصرية من هذا الكتاب ( رقم ١٨٠ و ٢٠٤ مجاميع ) .

( ٢ ) ابن الأثير ج ١٠ ص ١٠١ .

( ٣ ) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٦ ، وابن الخطيب فى الإحاطة فى ( القاهرة ١٩٥٦ ) فى ترجمة إدريس بن يعقوب بن عبد المؤمن ج ١ ص ٤١٧ و ٤١٨ .

( ٤ ) A. Müller: Der Islam in Morgen und Abendland (Berlin 1885) B. II. p. 641)

( ٥ ) مقدمة العلامة جولدسيهر (I. Goldziher) لكتاب محمد بن تومرت ( أعز ما يطلب )
Le Livre de Mohamad ibn Toumert (Alger 1903) Introduction, p. 12

( ٦ ) ابن خلدون ٦ ص ٢٢٦ .

مسائل سوف نعود إليها حينما نتحدث عن تعاليم المهدى الدينية . وأما فيما يتعلق بتأثير الغزالى ، فإن هذا التأثير يظهر فى آراء ابن تومرت ومشاريعه الدينية ، وخصوصاً فيما أبداه ابن تومرت من المعارضة للتقاليد الدينية الكائنة بالمغرب ، فإن هذه المعارضة كانت تعكس فى صور كثيرة ، ما كان قائماً من نظرية الغزالى الكلامية ، وبعض النظريات الأخرى فى المشرق . على أن هذا التأثير بتعاليم الغزالى ، لم يصل فى رأى جولدسيهر إلى الأعماق ، ولم يكن كبيراً ، ويلاحظ جولدسيهر بالأخص أن المهدى ، بالرغم مما يوصف به فى تراجمه من الورع والزهد ، لم يبد قط ميلا إلى المعارف الصوفية ، وإلى ذلك الجهد النفسى الذى يسمح للإنسان بالحياة فى ضمير الحقائق الدينية ، وهو الغرض الأساسى فى بحوث الغزالى الدينية . هذا إلى ما كان بينهما من خلاف فى المناهج ، وفى علم الشريعة ، وفى بعض النقط الكلامية الأخرى[1] .

— ٢ —

ولما أتم محمد بن تومرت بغيته من الدراسة بالمشرق ، اعتزم العودة إلى المغرب ، وكان قد قطع فى دراسته وبحوثه مرحلة بعيدة المدى ، حتى غدا على قول ابن خلدون : « بحراً متفجراً من العلم ، وشهابا واريا من الدين » . وركب ابن تومرت البحر من الإسكندرية فى أواخر سنة ٥١١ هـ ( ١١١٧م ) ، ويقال إنه أخرج منفياً من الإسكندرية ، لما ترتب من شغب على نشاطه فى مطاردة المنكر . بيد أنه استمر فى دعوته إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهو على ظهر السفينة التى أقلته ، فألزم ركابها بإقامة الصلاة وقراءة القرآن ، واشتد فى ذلك حتى قيل إن ركاب السفينة ألقوه إلى البحر ، فلبث أكثر من نصف يوم يسبح إلى جانبها دون أن يصيبه شىء ، فلما رأوا ذلك أنزلوا إليه من رفعه من الماء ، وقد عظم فى نفوسهم ، وبالغوا فى إكرامه[2] . ولما وصل إلى المهدية ، نزل بمسجد من مساجدها ، وليس معه سوى ركوة ماء وعصا ، فتسامع به الناس ، وأقبل الطلاب يقرأون عليه مختلف العلوم ، وكان إذا شاهد منكراً من آلات الملاهى ، أو أوانى الخمر ، بادر إلى إزالته وكسرها ، وأصابه

(١) مقدمة جولدسيهر الفرنسية لكتاب محمد بن تومرت السابقة الذكر ص ٢٠ .

(٢) ابن القطان فى نظم الجمان ( المخطوط السابق ذكره لوحة ١٥ ب ) ، والمعجب ص ٩٩ و١٠٠ .

بسبب ذلك بعض الأذى . ووصل خبره إلى الأمير يحيى بن تميم بن المعز بن باديس ملك إفريقية ، فاستدعاه مع جماعة من الفقهاء ، فلما رأى سمته ، واستمع إلى مناقشاته أعجب به وأكرمه وسأله الدعاء[١]. ثم غادر المهدية إلى بجاية ، وجرى فيها على نفس أسلوبه من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وكان يقوم بدعوته بلا كلل ، حتى وقعت ذات يوم بسبب تشدده فى إزالة المنكر ، ضجة وشغب ، وكان والى البلدة العزيز بن المنصور بن حماد الصنهاجى ، رجلا فظاً قاسياً ، فسخط عليه هو وخاصته ، وأراد البطش به . ويفصل لنا ابن القطان بعض ما فعله ابن تومرت لإزالة المنكر ببجاية ، وبعض ما كان بها من المناكر والبدع ، فيقول ، إن ابن تومرت لما دخل بجاية لقى بها الصبيان فى زى النساء بالضفائر والأخراس والزينة ، وشواشى الخز ، وألفى الأرذال قد فتنوا بذلك ، وانهمكوا فيه ، فشدد فى مطاردته ، وفى إزالة هذا الزى المنكر . ثم إنه حضر عيداً فرأى فيه من اختلاط الرجال بالنساء والصبيان المتزينين المتكحلين صوراً مثيرة ، فزجرهم ، ونغص عليهم اجتماعهم ، فوقع الهرج ، وسرى الشر ، وسُلب النساء حليهن . وسأل العزيز عن ذلك ، فعرف بأنه لا سبب لهذا الهرج سوى الفقيه السوسى ، وذلك حسبما كان يعرف ابن تومرت مذ كان بالمشرق . فأمر بجمع الطلبة لمناظرته ، فاجتمعوا فى دار أحدهم على طعام وشراب ، واستدعى ابن تومرت للحضور ، فأبى ، فقصد إليه الكاتب عمر بن فلفول ، فلاطفه وتضرع إليه حتى قبل المناظرة ، واجتمع بالطلبة ، وسألوه فأجابهم عن كل ما سألوا ؛ وسألهم فما استطاعوا الإجابة عن شيء . وتضرع إليه ابن فلفول عندئذ بأن يترك ما هو بسبيله من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر[٢] . وخشى ابن تومرت العاقبة ، فغادر بجاية إلى ناحية قريبة منها تسمى ملالة ، ونزل فى كنف أصحابها وهم من أعيان صنهاجة ، فآووه وأكرموه ، وطلب إليهم وإلى بجاية تسليمه إليه ، فأبوا ، ولبث بينهم حيناً يدرس العلم ، وكان إذا فرغ يجلس على صخرة بقارعة الطريق قريباً من ملالة . ففى ذات يوم وفد إليه كهل وفتى حسن التكوين ، رائع الجمال ، ولم يكن هذا الفتى الوسيم سوى عبد المؤمن بن على بن علوى ، الذى شاء القدر أن يغدو فيما بعد أعظم أصحاب المهدى ، وأعظم قادته ، وخليفة

---

( ١ ) ابن الأثير ج ١٠ ص ٢٠٢ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤٩ .

( ٢ ) ابن القطان فى « نظم الجمان » ( المخطوط ذكره لوحة ١٦ ب و ١٧ ا ) .

تراثه ودولته . وكان قد قدم مع عمه من بلده القريب من تلمسان ، فى طريقه إلى المشرق ، ليطلب العلم ، ويقضى فريضة الحج ، فسأله ابن تومرت عن شخصه وعن أحواله ، ولما وقف على مقصده ، قال له إن العلم والشرف والذكر التى يطلبها موجودة ، وإنها تنال بصحبته ، ودعاه إلى معاونته فيما هو قائم به ، من إماتة المنكر ، وإحياء العلم ، وإخماد البدع . ويقدم إلينا ابن القطان عن لقاء عبد المؤمن بابن تومرت رواية أخرى ، خلاصتها أن ابن تومرت حينما خرج من بجاية ، واتخذ مقره فى رابطة ملالة ، وأقبل عليه طلبة العلم ، كان ممن وفد عليه منهم الفقيه عبد الواحد بن عمر التونسى ، وتعلق به ولازمه حيناً ، وكان التونسى من فقهاء رباط تلمسان ، فلما توفى ، اتفق أصحابه وتلاميذه على استدعاء ابن تومرت ليقوم بالتدريس مكانه ، فوجهوا إليه عبد المؤمن ، وكان من تلاميذ التونسى المذكور[1]. وأعجب عبد المؤمن كذلك بشخصية ابن تومرت وغزير علمه ، وعول على البقاء إلى جانبه . وهنا تدخل الأسطورة مرة أخرى ، فيقال إن ابن تومرت قد اطلع على كتاب فى الجفر من علوم آل البيت ، ورأى فيه صفة رجل يظهر بالمغرب الأقصى ، من ذرية الرسول ، وان استقامة أمره ، وتوطد مركزه ، يكون على يد رجل من أصحابه ، هجاء اسمه كاسم عبد المؤمن ، وبجاوز وقته المائة الخامسة ، وأنه ، أى ابن تومرت ، كان يبحث عن هذا الرجل أينما حل ، فلما رأى عبد المؤمن وسمع اسمه « أدرك أنه هو الشخص المبتغى »[2] . وقيل إن ابن تومرت التقى بعبد المؤمن بموضع يعرف بفنزارة من بلاد متيجة ، وان عبد المؤمن كان عندئذ يشتغل بتعليم صبيان القرية المذكورة[3] . وبقى عبد المؤمن إلى جانب ابن تومرت ، وانقطع إليه واختص به ، ودرس عليه حيناً بملالة ، ثم غادرا ملالة معا ، وذهبا إلى وانشريش ، وهنالك انضم إليهما رجل من قبيلة هرغة ، أى قبيلة ابن تومرت ، هو أبو محمد البشير . وقصد ابن تومرت وصحبه بعد ذلك إلى تلمسان ، وقد تسامع الناس بخبره ، وذاع صيته ، فاستدعاه قاضيها ، وهو ابن صاحب الصلاة ، وأنبه على مسلكه ، ومخالفته لعقائد أهل قطره ، وطلب إليه العدول عن دعوته ، فأعرض

---

(١) ابن القطان فى نظم الجمان ( المخطوط السالف الذكر لوحة ٣ ب ) .

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ٤٩ ، والمعجب ص ١٠٠ .

(٣) المعجب ص ١٠٠ .

عنه ابن تومرت ، وسار مع صحبه إلى فاس ، ثم إلى مكناسة . وهنالك اشتد فى مطاردة المنكر ، فاعتدى عليه الغوغاء بالضرب والأذى ، فغادرها إلى مركش[١] .

ونظرية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر التى اتخذها ابن تومرت شعاراً له ، هى فكرة يختص بها الإسلام ، وهى مشتقة مما ورد فى القرآن من قوله : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر » ، وقوله : « كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر » ، ومما ورد فى الحديث مما شُهد بصحته قوله : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده إن استطاع ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » ، وقوله : « لا طاعة فى معصية ، إنما الطاعة فى الطاعة ، وعلى أحدكم السمع والطاعة مالم يؤمر بمعصية ، فإن أمر بمعصية ، فلا سمع ولا طاعة » . وأساس هذه الفكرة الإسلامية ، هو التضامن الاجتماعى ، والمسئولية العامة عن حماية المجتمع من المنكر والرذائل التى ينهى عنها الدين . وقد تناول الإمام الفيلسوف ابن حزم القرطبى هذه النظرية فى كتابه الجامع «الفصل» وشرح لنا أصولها ومغزاها ، وذكر لنا فيما يتعلق بتطبيق هذا الشعار فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، بأنه قد ذهبت طوائف من أهل السنة والمعتزلة والخوارج والزيدية ، إلى أن سل السيوف فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجب ، إذا لم يمكن دفع المنكر إلا بذلك . فإذا كان أهل الحق فى عصابة يمكنهم الدفع ، ولا ييئسون من الظفر ، ففرض عليهم ذلك ، وإن كانوا فى عدد لا يرجون لقلتهم وضعفهم بظفر ، كانوا فى سعة من ترك التغيير باليد . ويزيد ابن حزم على ذلك ، أنه يجب إن وقع شىء من الجور وإن قل ، أن يكلم الإمام فى ذلك ويمنع منه ، فإن امتنع وراجع الحق وأذعن للقود من البشرة أو من الأعضاء ، ولإقامة حد الزنا والقذف والخمر ، فلا سبيل إلى خلعه ، وهو إمام كما كان لا يحل خلعه ، فان امتنع من إنفاذ شىء من هذه الواجبات عليه ولم يراجع ، وجب خلعه وإقامة غيره ممن يقوم بالحق لقوله تعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان »[٢] .

ويعلق الإمام الغزالى أهمية كبيرة على تلك الفكرة ، ويصف الأمر بالمعروف

---

(٣) راجع الحلل الموشية ص ٧٧ و ٧٨ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٧ .

(١) ابن حزم فى « الفصل فى الملل والأهواء والنحل » ( القاهرة ١٣٢١ هـ ) ج ٤ ص ١٧١ و ١٧٣ ، و ١٧٦ .

بأنه « هو القطب الأعظم فى الدين » . ومن الطبيعى أن يكون الحاكم أو رئيس الدولة ( الإمام ) ، هو المسئول الأول عن تنفيذ هذا المبدأ الأخلاقى ، وأن يبذل ما فى وسعه فى قمع ما يخالف الشرع من الأعمال والذنوب ، بيده ، أى بواسطة مأموريه ، ثم بلسانه أى بالوعظ والحث على التزام أحكام الشرع . وقد كان منصب الحسبة فى مختلف الدول الإسلامية فى العصور الوسطى ، مظهراً من مظاهر العمل على محاربة بعض أنواع المنكر ، بيد أن هذه المطاردة للمنكر لم تكن وقفاً على الدولة ، أو ممثليها الرسميين ، وإنما كان حق الحسبة يمتد إلى كل مسلم ، فلكل مسلم أن يعمل أو أن ينبه على الأقل لإزالة كل منكر يراه ، أو مخالفة لأحكام الشرع . وهذا المبدأ ما يزال مسلماً به فى عصرنا فى سائر المجتمعات الإسلامية ، وإن كان الشرع يقصر استعماله على التنبيه أو تبليغ السلطات المختصة .

يقول العلامة جولدسيهر معلقاً على هذا المبدأ : « كان أولئك الذين يحاولون تغيير المنكر ، وتغيير وجه الأمور ، رجال متحمسون مخلصون ، ولكنه كان أيضاً ذريعة لمغامرين أذكياء يحاولون الوصول إلى السلطان بطريقه سهلة ، فيسبغون الصبغة الدينية على حركة ثورية ، وقد كان مبدأ الأمر بالمعروف ، شعار الحركات لقلب أسر حاكمة ، ورفع آخرين إلى مكانها ، وهو يبدأ بنقد الأسرة الحاكمة ، ثم يتلو ذلك شهر السيف ، وإثارة الجموع . فإذا نجح ذلك ، تم الوصول إلى الغاية المنشودة .

« وقد كان هذا الشعار كلمة تجمُّع لثورات أسر فى المشرق ، وكذلك فى إفريقية الشمالية ، التى كانت دائما مهادا خصبة لأولئك الذين يريدون إقامة صرح سياسى فوق أسس دينية . ولم تكن بين هذه ثمة حركة ، لا فى أوائلها ، ولا فى تقدمها ، تضارع فى اتساع نطاقها ، تلك الثورة التى أدت فى أعوام قلائل ، إلى طرد المرابطين ، وتأسيس الإمبراطورية الموحدية القوية فى اسبانيا وشمال إفريقية » .

وبالرغم من أن جولدسيهر يرى بصفة عامة أن ابن تومرت لم يتأثر بتعاليم الغزالى ، فإنه فى هذا الموطن يقول لنا إن ابن تومرت ربما تأثر فى نظرية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بنفوذ الغزالى ، لأنه يعلق على هذه النظرية أهمية قصوى ، ويصفها كما تقدم « بالقطب الأعظم للدين »(١) .

---

( ١ ) مقدمة جولدسيهر الفرنسية لكتاب «محمد ابن تومرت» أو أعز ما يطلب : Mohamed Ibn Toumert et la Théologie de l'Islam dans le Magreb au XI Siècle, p. 85-87 &95 - 96

ونزل ابن تومرت بالحاضرة المرابطية ، وكان ذلك فى سنة ٥١٤هـ (١١٢٠م) وعكف على طريقته فى مطاردة المنكر وإزالته ، كلما استطاع إلى ذلك سبيلا ، والتقى فى المسجد الجامع بأمير المسلمين على بن يوسف ، وجرى بينهما ما سبقت الإشارة إليه من الأحاديث . واستمر ابن تومرت فى حملته الدينية الأخلاقية دون هوادة . وقد كانت مراكش وغيرها من المدن المغربية ، تبدى أيام المرابطين كثيراً من مظاهر التسامح الدينى ، أو بعبارة أخرى كثيراً من مظاهر الاستهتار والفساد ، فقد كانت الخمر تباع علناً فى الأسواق ، وكان النبيذ يشرب دون تحفظ ، وكانت الخنازير تمرح فى أحياء المسلمين ، وكان القصف ذائعاً بسائر صنوفه ، ومظاهر التدين ضعيفة باهتة ، هذا إلى ما كان يسود الإدارة من تفكك ، والقضاء من انحلال واغتصاب لأموال اليتامى ، وغير ذلك من ضروب الفساد[١] ، وهو ما يلخصه المراكشى فى قوله مشيراً إلى عهد على بن تاشفين « واختلت حال أمير المسلمين بعد الخمسمائة ، اختلالا شديداً ، فظهرت فى بلاده مناكر كثيرة ، وذلك لاستيلاء أكابر المرابطين على البلاد ، ودعواهم الاستبداد . . واستولى النساء على الأحوال ، وأسندت إليهن الأمور ، وصارت كل امرأة من لمتونة ومسوفة ، مشتملة على كل مفسد وشرير وقاطع سبيل ، وصاحب خمر وماخور ، وأمير المسلمين فى ذلك كله يتزايد تغافله ، ويقوى ضعفه »[٢] .

ووقع ذات يوم حادث زاد فى لفت الأنظار لابن تومرت ولدعوته . وذلك أن الصورة أخت أمير المسلمين خرجت فى موكبها ، ومعها عدد من الجوارى الحسان ، وهن جميعاً سافرات على عادة المرابطين ، من سفور النساء ، واتخاذ الرجال اللثام . ورأى ابن تومرت هذا الموكب ، فأنكر على النساء سفورهن ، وأمرهن بستر وجوههن ، وضرب هو وأصحابه دوابهن ، فسقطت الأميرة عن دابتها ، ووقع الاضطراب والهرج ، ورفع الأمر إلى أمير المسلمين على بن يوسف ، ففاوض الفقهاء فى شأن هذا الداعية المضطرم . وكانت المعلومات التى جمعت عنه منذ حادثة المسجد ، هو أنه حديث العهد بالوصول إلى مراكش ، وأنه يؤلف الناس ، ويقول لهم إن السنة قد ذهبت . وكان على بن يوسف قد أمر وزيره ينتان بن عمر أن يكشف عن مذهبه ، وعن أحواله ومطلبه ، فإن كانت له

(١) مقدمة جولدسيهر الفرنسية لكتاب محمد بن تومرت السالفة الذكر ص ٩٧ .

(٢) المعجب ص ٩٩

حاجة ينظر فى قضائها ، وكان جواب ابن تومرت حسبما أشرنا من قبل ، أن لا حاجة له إلا تغيير المنكر[١].

ورأى أمير المسلمين أن يناظر الفقهاء هذا الرجل . وكان الفقهاء المرابطون يحقدون على ابن تومرت لاعتناقه مذهب الأشعرية . وما يملى به من تأويل المتشابه ، ولحملته عليهم ، وإنكاره لجمودهم إزاء مذهب السلف ، وإقراره كما جاء ، وذهابه إلى حد تكفيرهم ، فأغروا الأمير باستدعائه للمناظرة معهم[٢] . وقبل ابن تومرت هذا التحدى ، وأبدى فى مناظرته للفقهاء المرابطين تفوقاً ظاهراً . وقد ورد ذكر هذه المناظرة فى كتاب « أعز ما يطلب » ، الذي دونه الخليفة عبد المؤمن بن على عن إملاء ابن تومرت ، وملخص ذلك أن المهدى ، أو « الإمام العصوم ، المهدى المعلوم » كما يوصف ، طلب إلى مناظريه أن يختاروا من ينوب عنهم لمناظرته ، فقدموا من اختاروه ، فكان مما سألهم المهدى ، أن قال لهم طرق العلم هل هى منحصرة أم لا ، فأجاب مقدمهم المذكور ، نعم هى منحصرة فى الكتاب والسنة والمعانى التى نبهت عليها ، فقال المهدى ، إنما السؤال عن طرق العلم هل هى منحصرة أم لا ، فلم تذكر إلا واحداً منها ، ومن شرط الجواب أن يكون مطابقاً للسؤال ، فلم يفهم مناظره قوله ، وعجز عن الجواب . ثم سألهم المهدى عن أصول الحق والباطل ما هى ، فعاد مناظره إلى جوابه الأول ، فلما رأى المهدى عجزهم عن فهم السؤال ، وعجزهم عن الجواب ، شرع يبين لهم أصول الحق والباطل ، فقال إنها أربعة وهى « العلم والجهل ، والشك والظن » ، ثم أخذ يشرح ماهية كل منها فى كلام طويل ، ثم يستعرض الكتاب بعد ذلك آراء المهدى مفصلة عن « الجهل » و « الشك » ، و « الظن » ، ثم عن « الأصل والحقيقة » ويقسمها إلى أقسام عديدة ، وكل قسم منها إلى فصول مختلفة[٣] . وكان جل من حضر ذلك المجلس من الفقهاء المرابطين ، من علماء الفروع ، وليست لهم معرفة بعلم الأصول . ونقول بهذه المناسبة إن علم الأصول أو أصول الدين ، يقوم على دراسة الشريعة واشتقاقها من الكتاب والسنة ، ودراسة النصوص الشرعية ، والأدلة العقلية ، وتفاصيل العقائد ، وأصول الفقه

---

(١) البيان المغرب فى الأوراق المخطوطة السالفة الذكر .

(٢) ابن خلدون ٦ ص ٢٢٧ .

(٣) كتاب محمد بن تومرت أو أعز ما يطلب ( الجزائر سنة ١٩٠٣) ص ١ — ٥ و ١١ —١٨.

أى مصادر الشريعة ، ومعرفة النبوة والرسالة ، وكل ما يتعلق بذلك . وأما علم الفروع ، فإنه يقتصر على دراسة فرائض العبادات والمعاملات وأحكامها ، والحدود والأقضية ، أو بعبارة أخرى ، على دراسة الجانب العملى والدنيوى من الشريعة . وقد كانت الدراسات المفضلة فى ظل المرابطين هى علم الفروع . ويقول لنا المراكشى ، خلال حديثه عن نفوذ الفقهاء أيام على بن يوسف ، إنه لم يكن يحظى عنده إلا من أتقن علم الفروع أعنى فروع مذهب مالك ، ثم يستطرد قائلا : « فنفقت فى ذلك الزمان كتب المذهب ، وعمل بمقتضاها ، ونبذ ما سواها ، وكثر ذلك حتى نُسى النظر فى كتاب الله ، وحديث رسول الله (ص) ، فلم يكن أحد من مشاهير ذلك الزمان يعتنى بهما كل الاعتناء »(١) . وقد كان أخص ما تمتاز به هذه المناظرة الدينية ، هو أن ابن تومرت أبدى فى مناقشته تمسكه بأصول الشريعة ، إزاء الفقهاء المرابطين ، وهم أقطاب علم الفروع ، وأراد أن يبين جهلهم بمناهج الشريعة الحقيقية ، فجعل المناقشة تجرى على الأصول لا الفروع ، وأبدى فى عرضه لأصول الشريعة ، أنه يرجع خاصة إلى القرآن والحديث ، ولا يرجع قط إلى قول مستخرج ، ولا يعتبر الإجتهاد مرجعاً من مراجع الشريعة(٢) . ولم يكن بين الفقهاء المرابطين من استطاع أن يقدر براعة ابن تومرت ، وتبحره فى علوم الدين ، سوى فقيه أندلسى هو مالك بن وهيب قاضى مراكش ، وقد كان من أكابر العلماء والأدباء ، وكان متمكناً من علوم الدين والفلسفة ، ولكنه كان لا يظهر من علمه إلا ما يروج فى ذلك الزمان(٣) . فبين لأمير المسلمين خطورة هذا الرجل ، وخطورة دعوته وتعاليمه ، وقال له إن هذا رجل ، لا يبغى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولكنه يبغى تضليل العامة ، وإثارة الفتنة ، والوصول إلى السلطان ، وأشار عليه بقتله ، وأشار البعض الآخر على أمير المسلمين ، باعتقال الرجل وسجنه ، وعبر عن ذلك أحدهم بقوله للأمير : « ألقه فى الكبول لئلا يسمعك الطبول » . وخالفهم فى ذلك الوزير ينتان بن عمر ، وقال

---

(١) المعجب ص ٩٥ و ٩٦ .

(٢) جولدسيهر فى مقدمته الفرنسية السالفة الذكر لكتاب محمد بن تومرت ص ٣٩ و ٤٠ .

(٣) المعجب ص ١٠٢ ، ويقول لنا المراكشى إن مالك بن وهيب هذا ، قد وضع كتاباً فريداً فى بابه اسمه « قراضة الذهب فى ذكر لئام العرب » ضمنه لئام العرب فى الجاهلية والإسلام ، وأنه رأى هذا الكتاب فى خزانة بنى عبد المؤمن .

لعلى بن يوسف إن هذا وهن فى حق الملك ، ونوه بضعف الرجل وضآلة شأنه . فأمر على بن يوسف وزيره أن يعتقله لديه أياما حتى يرى فيه رأيه . ولم تمض أيام على ذلك ، حتى جاءت الأنباء بوقوع الفتنة فى قرطبة ، وأخذ على بن يوسف فى التأهب للعبور إلى الأندلس . فطلب إلى وزيره أن يأتيه بابن تومرت ، فحضر بين يديه ، وقال له على بلغنى عنك ما صنعت ببجاية وغيرها فتورع الناس عن قتلك ، فعرفنى بحقيقة غرضك ، فقال ابن تومرت غرضى تغيير المنكر ، ورفع المغارم ، وألاّ تولى من قبيلتك أحد ، وان تتركوا اللثام لأنه من شأن النساء ، ولا تجوز به صلاة ، فزجره أمير المسلمين ، وأمر بإخراجه من مراكش . وكان ذلك فى أوائل سنة ٥١٥ هـ[١] .

— ٣ —

غادر محمد بن تومرت وصحبه مدينة مراكش إلى أغمات ، وفى بعض الروايات أنه بالعكس استمر حيناً يقيم فى خيمة بين مقابر المدينة ، وينهال عليه الناس والطلاب ، وهو يبث فيهم الدعوة ضد المرابطين ، ويرميهم بالتجسيم والكفر ، ثم انتهى بأن أعلن بطلان بيعة على بن يوسف وخلع طاعته عن أعناق أصحابه وتابعيه[٢] ، ولكنه اضطر أن يغادر مكانه حينما بلغه أن القوم يضمرون اعتقاله وقتله[٣] . ولما حل ابن تومرت بأغمات استمر فيها على طريقته من مطاردة المنكر والحملة على المرابطين ، واتخذ لصلاته ودعايته مسجداً خارج أغمات ، فأمر صاحب المدينة بإخراجه وإبعاده[٤] . فعندئذ قصد ابن تومرت وصحبه إلى بلاد السوس ، ولحق بجبال المصامدة ، وذهب أولا إلى مسفيوة ، ثم إلى هنتاتة ، ثم إلى إيكلين ، ومر فى خلال ذلك بكثير من المحلات البربرية ، وهو يتوقف أوقاتا فى بعضها ، ويبنى المساجد ، وينضم إليه الصحب والأتباع . وقد فصل لنا أبو بكر الصنهاجى صاحب ابن تومرت ، برنامج رحلته منذ خروجه من أغمات ، ومسيره

---

(١) البيان المغرب (الأوراق المخطوطة السالفة الذكر) ، وروض القرطاس ص ١١٢ ، والحلل الموشية ص ٧٣ و ٧٤ ، وابن الأثير ج ١٠ ص ٢٠٢ ، والمعجب ص ١٠٢ و ١٠٣ ، وراجع كتاب أخبار المهدى ابن تومرت ص ٦٨ و ٦٩ .

(٢) ابن القطان نقلا عن ابن الراعى (نظم الجمان المخطوط لوحة ١٠ ب) .

(٣) هذه هى رواية أبى بكر الصنهاجى أحد أصحاب المهدى فى كتابه « أخبار المهدى ابن تومرت » (ص ٦٩) ونقلها صاحب روض القرطاس (ص ١١٣) .

(٤) البيان المغرب فى الأوراق المخطوطة المشار إليها ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٧ .

خلال جبال المصامدة ، ومن لقيه خلال رحلته من الصحب والأتباع . ورحل ابن تومرت وصحبه بعد ذلك إلى قرية إيجليز أوجبل إيجليز من بلاد هرغة ، بلده وموطن قومه وعشيرته ، ونزل فى مكان منيع لا يصل إليه أحد إلا من طريق لا يسلكها إلا الراكب بعد الراكب ، وتدافع عنها أقل عصبة من الناس[١]، وهنالك انهال إليه المصامدة من كل فج ، وكثر صحبه وأتباعه ، وهو يدعوهم إلى التوحيد ، وإلى قتال المجسمين المرابطين ، وعكف على تدريس العلم. وكان يعنى بالأخص بأن يشرح لأنصاره وتلاميذه نظرية المهدى المنتظر والإمام المعصوم، وماورد فيها من الأحاديث والأقوال المأثورة ، ويبث الخاصة من دعاته بين رؤساء القبائل يمهدون لتلك الدعوة ويبشرون بها . ولما شعر ابن تومرت بأن دعايته قد أتت ثمرتها ، وأضحى الميدان ممهداً للعمل ، اعتزم أن يعلن إمامته[٢]. وفى اليوم الخامس عشر من رمضان سنة ٥١٥ هـ ( ديسمبر سنة ١١٢١م ) قام ابن تومرت خطيباً فى أصحابه وأعلن إليهم أنه المهدى المنتظر[٣] فى خطبة قصيرة ينقل إلينا نصها ابن القطان فى « نظم الجمان » فيما يلى :

« الحمد لله الفعال لما يريد ، القاضى بما يشاء ، لا راد لأمره ، ولا معقب لحكمه ، وصلى الله على سيدنا محمد رسول الله ، المبشر بالإمام المهدى ، الذى يملأ الأرض قسطاً وعدلا ، كما ملئت جوراً وظلما ، يبعثه الله إذا نُسخ الحق بالباطل وأزيل العدل بالجور . مكانه المغرب الأقصى منبته وزمانه آخر الزمان ، واسمه اسم النبى عليه الصلاة والسلام ، ونسبه نسب النبى صلى الله تعالى وملائكته الكرام المقربون عليه وسلم ، وقد ظهر جور الأمراء ، وامتلأت الأرض بالفساد ، وهذا آخر الزمان ، والإسم الاسم والنسب النسب ، والفعل الفعل » .

وعلى أثر ذلك ، وفى ظل شجرة خروب وارفة ، هرع إلى المهدى عشرة من أصحابه الملازمين له ، وبايعوه على أنه المهدى المنتظر والإمام المعصوم ، وهؤلاء العشرة الأوائل من أصحاب المهدى هم : تلميذه وألصق الناس عبد المؤمن بن على ،

---

( ١ ) ابن القطان فى نظم الجمان ( المخطوط السابق ذكره لوحة ٣٣ ا ) .

( ٢ ) المراكشى فى المعجب ص ١٠٣ .

( ٣ ) هذه رواية روض القرطاس ( ص ١١٣ ) ، ويؤيدها ابن خلدون ، ( ج ٦ ص ٢٢٨ ) ، والحلل الموشية ص ٧٨ ، والزركشى ص ٤ ، ويقول ابن عذارى إنها كانت فى سنة ٥١٨ هـ ( الأوراق المخطوطة السالفة الذكر — هسبيرس ص ٨٢ ) .

( ٤ ) نظم الجمان ( المخطوط السابق ذكره لوحة ٢٣ ا ) . الحلل الموشية ص ٧٨ .

وكان أول من بايعه ، وأبو محمد عبد الله بن محسن الوانشريشى المسمى بالبشير ، وعبد الله بن ملويات ، وأبو حفص عمر بن يحي الهنتانى ، وأبو حفص عمر بن على أزناج ( أصناك ) ، وسليمان بن مخلوف ، وإبراهيم بن إسماعيل الخزرجى وأبو محمد عبد الواحد الحضرمى ، وأبو عمران موسى بن تمارى ، وأبو يحي أبو بكر بن يكيت. وسمى هؤلاء العشرة بالمهاجرين الأولين وبالجماعة[1]، ثم بايعه من بعدهم خمسون رجلا ، فسموا أهل خمسين ، وهم الطبقة الثانية من أصحاب المهدى[2]. ثم بايعه من بعدهم سبعون آخرون فسموا أهل سبعين ، وهم الطبقة الثالثة . وكانت هذه الطبقات الثلاث تضم أخلص أنصار المهدى ، وأقدرهم . وقسم ابن تومرت بعد ذلك بقية أصحابه وأنصاره ، إلى طبقات تلى هذه ،فالطبقة الرابعة تتكون من طلبة العلم ، والطبقة الخامسة تتكون من الحفاظ ، وهم صغار الطلبة ، والطبقة السادسة تتكون من أهل الدار وهم أقارب المهدى وعشيرته وخاصة خدمه . وقد ذكر لنا ابن القطان نقلا عن ابن صاحب الصلاة أسماء هؤلاء الخدم الذين كانوا يلازمونه ليل نهار . والطبقة السابعة تتكون من أهل هرغة بلد المهدى وموطن قبيلته ، والطبقة الثامنة تتكون من أهل تينملّل ، والطبقة التاسعة من أهل جدميوه ، والطبقة العاشرة من أهل جنفيسة ، والطبقة الحادية عشرة من أهل هنتاتة ، والثانية عشرة تتكون من الجند ، والثالثة عشرة من الغزاة والرماة . ويقول ابن القطان إن الطبقة الثانية عشرة كانت تتكون من أهل القبائل ، والثالثة عشرة من الجند . ويضيف إلى ذلك طبقة أخرى ، هى الرابعة عشرة ، وهى طبقة « الفرات » ، وهم الأحداث الصغار الأميون . ووضع المهدى فيما بعد نظاماً خاصاً لمهام هذه الطبقات ورُتَبها ، وجعل لكل منها مهمة تختص بها ، ورتبة لاتتعداها ، سواء فى السفر أوالحضر ، وشرع القتل جزاء لمن خالف الأوامر ؛ ومن تخلف عن الحضور أدب ، فإن تمادى قتل ،

---

( ١ ) الحلل الموشية ص ٧٩ ، وروض القرطاس ص ١١٣ . ويذكر لنا ابن القطان اسمين ، آخرين هما أبو الربيع سليمان بن الحضرمى ، وأبوعبد الله محمد بن سليمان مكان أبى محمد عبد الواحد الحضرمى ، وسليمان بن مخلوف ( نظم الجمان لوحة٣٣ ب) . ويورد أبو بكر الصنهاجى فى كتابه أخبار المهدى بن تومرت أسماء أخرى ، ويذكر نفسه ضمن العشرة الأوائل ( ص ٧٣ ) . وكذلك يذكر ابن خلدون بعض أسماء أخرى ( ج ٦ ص ٢٢٨ ) .

( ٢ ) ذكر لنا أبو بكر الصنهاجى صاحب كتاب أخبار المهدى ابن تومرت أسماء « أهل خمسين » ص ٣٣ و٣٤ .

ومن لم يحفظ حزبه عزر بالسياط ، وكل من لم يتأدب بما أدب به ، ضرب بالسوط مرة أو مرتين ، فإن تمادى فى تصرفه وترك امتثال الأوامر قتل ، ومن داهن على أخيه أو أبيه أو ابنه أو من يكرم عليه قتل . وشدد المهدى فى تنفيذ شريعته وضبط الأمور بحزم ، وكان هذا النظام هو أساس الدولة الموحدية المستقبلة(١).

ولما كملت بيعة ابن تومرت على هذا النحو ، لقبه أنصاره بالمهدى والإمام المعصوم ، وكانوا من قبل يقتصرون على تلقيبه بالإمام . وسمى المهدى وأصحابه وأهل دعوته بالموحدين . ويقول لنا ابن خلدون ، إنه اختار لهم هذه التسمية تعريضاً بلمتونة فى أخذهم بالعدول عن التأويل وميلهم إلى التجسيم(٢) . ووضع لهم فى التوحيد كتابا باللغة البربرية سماه « المرشدة » يحتوى على معرفة الله تعالى ، والعلم بحقيقة القضاء والقدر ، والإيمان بما يجب لله تعالى ، وما يجب على المسلم من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ويتضمن الأعشار والأحزاب والسور ، وقال لهم إن من لا يحفظ هذا التوحيد ، فليس بموحد ، وإنما هو كافر لا تجوز إمامته ، ولاتؤكل ذبيحته . قال صاحب روض القرطاس « فصار هذا التوحيد عند قبائل المصامدة كالقرآن العزيز ، لأنه وجدهم قوماً جهلة لا يعرفون شيئاً من أمر الدين ولامن أمر الدنيا »(٣) . ووضع لهم بالبربرية كتباً أخرى فى العقيدة منها كتاب سمى « بالقواعد » وآخر سمى « بالأمانة » ، ودونها كذلك بالعربية ، وكان ابن تومرت أبرع أهل عصره فى إتقان اللغتين العربية والبربرية . ثم وضع بالعربية فيما بعد ، كتابه فى العقيدة والعلم والإمامة الذى رواه عنه تلميذه وخليفته عبد المؤمن بن على والذى يفتتحه بقوله « أعز ما يطلب» وهى عبارة أصبحت تعتبر عنواناً للكتاب ذاته(٤) . وسوف نتحدث فى فصل خاص عن محتويات هذا الكتاب ، وعن عقائد المهدى وآرائه الدينية والسياسية بصفة عامة .

ولبث المهدى بن تومرت يبث دعوته ، ويعمل على توطيدها فى نفوس أنصاره ، بفصاحته وذلاقته ، ورقيق وعظه ، وأعوانه من المخلصين القادرين يجوبون جبال المصامدة ، ويدعون إلى إمامته ومهديته ، والناس يفدون عليه من كل صوب جموعاً غفيرة ، يبايعونه بالإمامة ، ويتبركون برؤيته ، حتى

---

(١) ابن القطان فى نظم الجمان ( المخطوط السالف الذكر ص لوحة ١٠ ا و ب ) .
(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٩ .
(٣) ابن القطان فى نظم الجمان ( المخطوط لوحة ١٣٤ ا ) . وروض القرطاس ص ١١٤ .
(٤) روض القرطاس ص ٨٠ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٦ .

استفحل أمره ، وعلا صيته ، وكثر جمعه . وأضحى يمثل بما تنطوى عليه حركته من القوى الأدبية والمادية الضخمة ، خطراً داهما على سلطان المرابطين .

وإنه ليحق لنا أن نتساءل هنا ، هل كان محمد بن تومرت يضمر منذ الساعة الأولى مشروعه فى انتحال صفة المهدى توسلا إلى نيل السلطان ، وانه مذ عاد عقب دراسته بالمشرق إلى المغرب ، كان يضطرم بهذه الأمنية الكبيرة ، أم أنه حمل على مشروعه ، بما رآه من نجاح دعوته . وتكاثر أتباعه ، وشعوره بقوة ملأه؟ يلوح لنا أن ابن تومرت كان يضطرم بأطماعه منذ الساعة الأولى ، وأنه كان فى بداية أمره يتخذ الدعوة إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ستاراً يتحسس به طريقه ، حتى تسنح له فرصة العمل المثمر . يؤيد ذلك ما سبق أن نقلناه عن المراكشى من أن ابن تومرت ، كان خلال محادثاته لتلاميذه وأنصاره ، يعنى بأن يشرح لهم بالأخص نظرية المهدى المنتظر ، والإمام المعصوم ، ويبعث رسله ودعاته لإذاعتها بين القبائل . وتؤيده كذلك رسالة أشار إليها ابن القطان ، قال إنها وجهت من المهدى فى آخر شهر رمضان سنة ٥١١هـ إلى الفقيه القاضى على بن أبى الحسن الجذامى وفيها يقول بعد البسملة : « أقول ، وأنا محمد بن عبد الله بن تومرت ، وأنا مهدى آخر الزمان »(١) . وقد يؤيده أيضاً ما تردده تراجمه المختلفة من قصة لقائه بالإمام الغزالى ، وما ينسب إلى الغزالى ، حينما وقف منه على ما فعل المرابطون بكتبه ، من دعائه بتمزيق دولتهم ، وزوال ملكهم ، وأن يكون ذلك على يده ، أى على يد ابن تومرت ، وما تردده هذه التراجم أيضاً من أن ابن تومرت ، قد اطلع فى بعض كتب الجفر والملاحم السرية على ماورد فيها بشأن قدره ومصيره ، وأنه وقف منها على العلامات والشواهد الخاصة التى يتميز بها المهدى المنتظر ، وهى علامات كانت كلها متوفرة فيه(٢)

---

(١) ابن القطان فى نظم الجمان (المخطوط السالف ذكره لوحة ١٤ ا) .

(٢) المراكشى فى المعجب ص ١٠٣ . وراجع أيضاً جولدسيهر فى مقدمته الفرنسية لكتاب محمد بن تومرت التى سبقت الإشارة إليها ص ٩٩ .

# الفصل الثاني

## الصراع بين المرابطين والموحدين

### المرحلة الأولى

على بن يوسف يرسل جيشاً لمحاربة المهدى . تحصن المهدى بجبل إيجليز . نزول الموحدين للقاء المرابطين . هزيمة المرابطين وفرارهم . أمير المسلمين يرسل جيشاً آخر لمحاربة الموحدين . هزيمة المرابطين للمرة الثانية ، ثم للمرة الثالثة . أثر هذا الظفر فى توطيد أمر المهدى وتقوية شيعته . المهدى يوجه رسالة إلى المرابطين . غزوات المهدى للمرابطين ثم للقبائل الخارجة . افتتاحه لجبال درن . انتقاله من جبل إيجليز إلى تينملل . رواية عن استيطان المهدى لتينملل ، وفتكه بقبيلة هزميرة . استعداد المهدى لمرحلة جديدة من الصراع ضد المرابطين . تمييزه لأصحابه عن يد محمد البشير . قصة البشير ومعجزاته المزعومة . بعث المهدى قواته لغزو المرابطين . غزوها لكيك وأغمات . هزيمة المرابطين فى الموقعتين . حشد المهدى لسائر قواته . يعهد بقيادتها إلى محمد البشير وعبد المؤمن بن على . زحف الموحدين على مراكش . تفاصيل عن المعارك التمهيدية بين الموحدين والمرابطين . استعداد على ابن يوسف للدفاع . اللقاء الأول بين المرابطين والموحدين تحت أسوار مراكش . هزيمة المرابطين والتجاؤهم إلى داخل المدينة . حصار الموحدين لمراكش . اجتماع الحشود المرابطية من سائر الأنحاء . نشوب معركة جديدة بين الفريقين فى بقعة البحيرة . هزيمة الموحدين وتمزيق قواتهم . مصرع قائدهم البشير ومعظم زملائه . انسحاب عبد المؤمن فى فلوله ، وفتك القوات المرابطية بها . ارتداد الموحدين إلى تينملل . فداحة النكبة التى أصابت الجيش الموحدى . الخلاف حول تاريخ معركة البحيرة . مرض المهدى ووفاته . صفاته وخلاله وأحكامه . سفكه للدماء . خداعه واستغلاله لسذاجة الجماهير . تصدى ابن خلدون للدفاع عن صفته ونسبه وعن صحة دعوته . بواعث هذا الدفاع ، وما يتسم به من سقم وتناقض . مثل الداعية المخاتل الساعى إلى انتزاع السلطان . حكومة المهدى التيوقراطية . الإتفاق على خلافة عبد المؤمن . قبر المهدى فى تينملل .

— ١ —

كان واضحاً ، أن محمد بن تومرت أو المهدى حسبما نسميه منذ الآن ، كان منذ شعر بتوطيد أمره ، وتضخم أنصاره وجموعه ، يتأهب لمحاربة المرابطين . وهو قد أعلن ذلك لأنصاره « الموحدين » بالفعل منذ تمت بيعته وتسمى بالمهدى ، وأخذ الموحدون فى التأهب للحرب ، بعد أن رتبهم المهدى ، وجعل لكل عشرة منهم نقيباً . وسنرى فيما بعد كيف تنتظم الجيوش الموحدية وفق منهاج جديد ، وتتخذ لها فى الحروب خططاً مبتكرة ، كانت من أهم أسباب ظفرها .

وقد رأينا فيما تقدم ، كيف اضطر أمير المسلمين على بن يوسف أن يعبر

البحر إلى الأندلس فى أوائل سنة ٥١٥هـ ، حينما سمع بأمر الفتنة التى حدثت بقرطبة ، وكيف أنه لم يمكث عندئذ طويلا بالأندلس ، ولم يضطلع بأية أعمال أوغزوات جديدة ، لما بلغه من تفاقم حركة ابن تومرت فى بلاد السوس ، وكان قبل ذلك بأشهر قلائل فقط قد سرحه ، عقب المناظرة التى وقعت بينه وبين الفقهاء ، واكتفى بإبعاده عن حاضرته مراكش ، فسار ابن تومرت إلى بلاد السوس ، وهنالك كشف عن حقيقة نياته ومشاريعه البعيدة المدى .

ولما عاد أمير المسلمين إلى مراكش حاول أن يستدرك ما فاته ، وأن يدبر أمر القبض على ابن تومرت ، ولكن الأمر كان أخطر من ذلك وأعظم ، ولم يكن أمامه سوى محاربة الرجل ، الذي تحول فى فترة قصيرة من فقيه متواضع يدعو إلى تغيير المنكر ، إلى داعية سياسى خطر ، يتشح بثوب الإمامة المهدية ، ويجمع تحت لوائه قوى جرارة .

فبعث لقتاله والى السوس أبا بكر بن محمد اللمتونى ، وقيل إبرهيم بن تيعشت فى جيش من الأجناد والحشم ، فقصد إلى السوس الأقصى ، وكان المهدي قد صعد عندئذ إلى جبل إيجليز من شعب جبال المصامدة ، وتحصن فيه مع أنصاره ، وكان لهذا الجبل طريق واحد ضيق وعر لا يستطيع أن يسلكه سوى فارس واحد ، وتصعب مهاجمته على أية قوة محاربة ، فلما قدم المرابطون نزلوا فى شرقى الجبل بمكان وعر ، فخرج المهدى من معقله ، وعقد مجلساً لأصحابه ووعظهم ، وقال لهم : أنظروا إلى أعدائكم ، واعلموا أن كل ما جاءوا به من خيل وعدة ، إنما هو هدية من الله تعالى لكم ، على غربتكم وفقركم ، فأعطاكم وأغناكم . ثم جهز لقتالهم جيشاً من أنصاره من أهل هرغة وهنتاتة وتينملل ، وزوده بالأعلام البيض ، وندب لقيادته محمداً البشير الونشريشى أحد أصحابه العشرة ، فنزل الموحدون من الجبل ، وماكاد اللقاء يقع بين الجيشين حتى هزم المرابطون وركنوا إلى الفرار ، واستولى الموحدون على أسلابهم من الخيل والسلاح ، وطاردوهم حتى مدينة مراكش ، ووقع هذا النصر الأول لجيوش المهدى ، فى شهر شعبان سنة ٥١٦ هـ ( أغسطس سنة ١١٢٣ م )[١] .

وكان لهذا النصر أثر بالغ فى ذيوع أمر المهدى ، وتضاعف صيته ، وتضخم

---

( ١ ) ابن القطان فى نظم الجمان ( المخطوط السالف ذكره لوحة ٣٧ ا ) ، والحلل الموشية ص ٨٠ ، وروض القرطاس ص ١١٤ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٨ .

شيعته ، وكان له بالأخص أثره في تقوية الروح المعنوية لدى جموع الموحدين .
وبادر على بن يوسف فجهز جيشاً آخر ، أضخم عدة وعدداً ، وسيره تحت إمرة الأمير أبي إبراهيم إسحاق ، وكان الموحدون قد كثر جمعهم ، وقويت نفوسهم ، وتزودوا بما غنموه من المرابطين من الخيل والسلاح . فلما التقى الجمعان للمرة الثانية سرى إلى الحشم والجند المرابطين رعب مفاجئ ، وانهزموا أمام الموحدين دون قتال ، وقتل منهم عدد وافر ، واستولى الموحدون على محلتهم ، وسائر عُددهم ، وكان لهذه الهزيمة الثانية أسوأ وقع في نفس على بن يوسف ، فجهز على الأثر جيشاً عظيما ثالثا ، وعهد بقيادته إلى الأمير سير بن مزدلى اللمتونى ، فلم يكن في قتال الموحدين أسعد حظاً من سابقيه ، فأصيب كذلك بهزيمة شديدة وقتلت من جنده جملة وافرة ، وكانت نكبة جديدة للمرابطين .

وبدا عندئذ ، لعلى بن يوسف على ضوء هذه الهزائم المتوالية لجيوشه ، أن المسألة ليست فتنة محلية ، وأن المهدى لم يكن ثائراً عادياً ، بل إن الأمر أجل من من ذلك وأخطر ، وأن محاربة الموحدين أضحت بالنسبة للدولة المرابطية ، معركة حياة أو موت . وشعر المهدى من جهة أخرى أنه أضحى من حيث توطد أمره ، ووفرة حشوده ، وروح شيعته المعنوية ، التى أذكاها الظفر ، نداً قوياً للمرابطين ، وأنه يسير قدما في هزيمتهم وتحطيم دولتهم ، وأنه لن يمضى سوى القليل ، حتى ينزعهم سلطانهم ، ويقيم دولته الموحدية الجديدة على أنقاض دولتهم .

وكان من أثر هذه الثقة بالظفر النهائى ، أن وجه المهدى إلى المرابطين ، رسالة يدعوهم فيها إلى طاعته ، وينذرهم فيها بسحقهم إذا لم يستجيبوا . وإليك نص هذه الرسالة التى يوردهالنا صاحب الحلل الموشية : « إلى القوم الذين استذلهم الشيطان ، وغضب عليهم الرحمن ، الفئة الباغية ، والشرذمة الطاغية ، لمتونة ، أما بعد ، قد أمرناكم بما نأمر به أنفسنا من تقوى الله العظيم ولزوم طاعته ، وأن الدنيا مخلوقة للفناء ، والجنة لمن اتقى ، والعذاب لمن عصى ، وقد وجبت لنا عليكم حقوق بوجوب السنة ، فإن أديتموها كنتم في عافية ، وإلا فنستعين بالله على قتالكم حتى نمحو آثاركم ، ونكدر دياركم ، ويرجع العامر خالياً ، والحديد باليا ، وكتابنا هذا إليكم إعذار وإنذار ، وقد أعذر من أنذر ، والسلام عليكم ، سلام السنة ، لاسلام الرضى »(١) .

---

(١) الحلل الموشية ص ٨١ .

وقعت هذه المرحلة الأولى من الصراع بين الموحدين والمرابطين فى سنة ٥١٦ هـ ( ١١٢٢ م ) وربما كذلك فى سنة ٥١٧هـ . وقد ذكر لنا أبو بكر الصنهاجي المكنى بالبيذق ، وقد كان حسبما يقرر لنا من حشم المهدى وخاصته ، فى روايته فى باب غزوات المهدى ، أو المعصوم كما يسميه ، ان هذه الغزوات الأولى بلغت تسع غزوات متوالية كانت كلها ضد المرابطين ، إلا واحدة منها ، وهى الغزوة السابعة ، فقد كانت لقبيلة هسكورة ، وكان من أبرز هذه الوقائع فى مقاتلة المرابطين واقعتان ، الأولى نشبت بين المرابطين أوالحشم حسبما ينعتهم ابن القطان ، وبين الموحدين فى بلدة تادرارت ، وكانت معركة عنيفة هزم فيها الموحدون ، وفنى معظمهم أو قتلوا جميعاً حسبما يروى ابن القطان . ونشبت الموقعة الثانية فى آنسا ، وكانت الدائرة فى هذه المعركة على الموحدين ، فقتلت منهم جملة كبيرة . أما غزوة هَسْكورة ، فلأنها كانت من القبائل المتخلفة عن بيعة المهدى ، والاعتراف بطاعته ، وفى هذه الغزوة اشترك المهدى بنفسه فى القتال ، وأصيب بجراح ، وأسرع أنصاره بحمله وإنقاذه[1] . والواقع أن المهدى لم يقتصر فى بداية أمره على مقارعة المرابطين أو لمتونة ، ولكنه شغل فى نفس الوقت بمحاربة القبائل المجاورة المتخلفة عن بيعته وطاعته ، مثل هسكورة ، ورَجراجة ، وهزرجة ، وغجرامة ، وكثير من بطون المصامدة ، وكان بعض هذه القبائل مثل هزرجة وهسكورة من حلفاء لمتونة ، فكان المهدى يشتد فى قتالهم ويرغمهم على الطاعة قبيلة بعد أخرى ، حتى دانت له سائر القبائل الخارجة ، من المصامدة ومن غيرهم[2] ، وجاز المهدى بعد ذلك إلى جبال دَرَن ، فاحتوى على سائر بلادها ومحلاتها من بلدة تامبوت إلى ماغوصة إلى جنفيسة ، ثم جاز إلى تادرارت حيث وقعت هزيمة الموحدين الأولى ، فأغار عليها الموحدون وقتلوا أهلها قتلا ذريعاً . وأنفق المهدى فى تلك الحروب والغزوات المحلية زهاء ثلاثة أعوام ، من سنة ٥١٦ إلى سنة ٥١٨ هـ ( ١١٢٢ — ١١٢٤م ) ، وبذلك استطاع أن يبسط سلطانه المطلق على منطقة السوس كلها .

وفى سنة ٥١٨ هـ ، غادر المهدي جبل إيجليز بعد أن أقام فيه ثلاثة أعوام ،

---

( ١ ) كتاب أخبار المهدى ابن تومرت ص ٧٤ — ٧٨ ، وابن القطان فى نظم الجمان ( المخطوط السابق ذكره لوحه ١٤٦ ) .

( ٢ ) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٨ ، وروض القرطاس ص ١١٥ ، والزركشى ص ٤ .

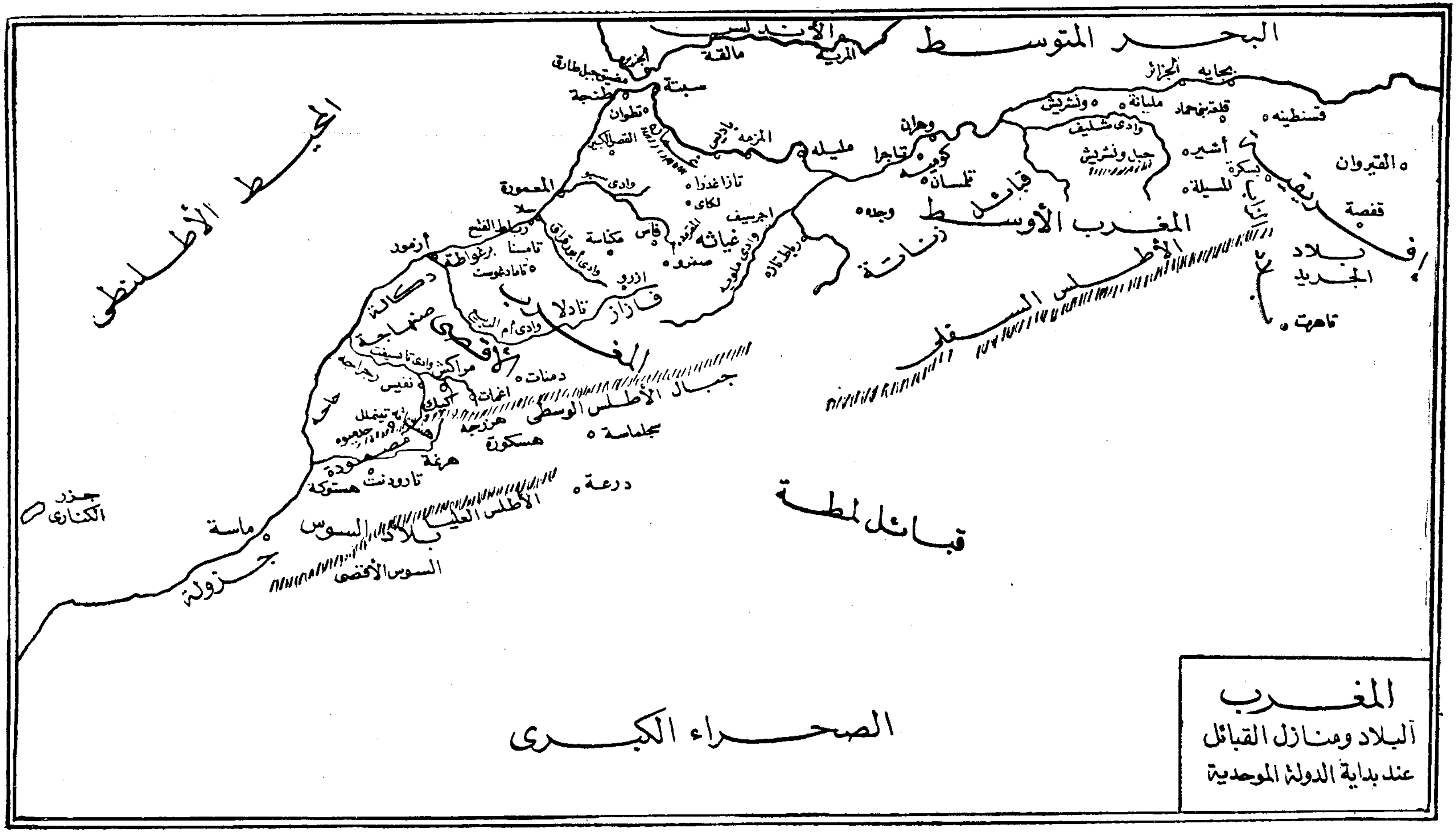
المغرب
البلاد ومنازل القبائل
عند بداية الدولة الموحدية
البحر المتوسط
المحيط الأطلنطي
الصحراء الكبرى
قبائل لمطة
المغرب الأوسط
المغرب الأقصى
زناتة
غياثة
مكناسة
فازاز
تادلا
صنهاجة
دكالة
مصمودة
جزولة
بلاد السوس
السوس الأقصى
الأطلس العليا
جبال الأطلس الوسطى
الأطلس السفلى
بلاد الجريد
الأندلس
مالقة
المرية
سبتة
طنجة
تطوان
بجاية
الجزائر
مليانة
ونشريش
قلعة بني حماد
قسنطينة
القيروان
قفصة
بسكرة
المسيلة
أشير
تاهرت
وادي شليف
جبل ونشريش
وهران
تلمسان
وجدة
مليلة
تاجرا
المزمة
تازا
لكاى
اجرسيف
وادي ملوية
فاس
صفرو
ازرو
المعمورة
سلا
رباط الفتح
تامسنا
برغواطة
أزمور
مراكش
وادي تانسيفت
رجراجة
نفيس
اغمات
دمنات
هزرجة
هسكورة
سجلماسة
درعة
تارودنت
هنتاتة
حاحة
ماسة
جزر الكنارى

وسار فى صحبه إلى تينملّل ، وهى محلة صغيرة من عمل هرغة تقع فوق ربوة عالية فى سفح جبل دَرَن من شعب جبال الأطلس على قيد نحو مائة كيلومتر من جنوب غربى مراكش ، فقسم أرضها وديارها على أصحابه ، وابتنى بها حصناً فى قمة الجبل يشرف عليها من عل ، وابتنى كذلك داراً ومسجداً ، وأدار حول وهدانها سوراً . وكان اختيار المهدى لهذه البلدة يرجع بالأخص إلى حصانة موقعها الفائق ، وكان الوصول إليها من الغرب من طريق ضيق لايتسع إلا لفارس واحد ، ومن الشرق كذلك من طريق فى بطن الجبل تحت راكبها حافات وفوقه حافات ، والسير فيها خطر شاق . وهكذا استقر المهدى فى تينملّل ، وجعلها مقر رياسته ، ومركز جهاده ، وبذلك أضحى على مسافة قليلة من العاصمة المرابطية الكبرى(١).

ويقدم إلينا اليسع بن أبى اليسع عن استيطان المهدى لتينملل رواية ، خلاصتها أن أهلها بعثوا إليه بطاعة قبيلتهم هزميرة الجبل ، وأن سكناه لديهم أصلح له ، وأقرب إلى بث دعوته ، فسار إليهم ، ونزل بتينملل ، فأكرمه أهلها أيما إكرام ، وأكدوا له خضوعهم وطاعتهم ، وبايعوه ، فرأى المهدى من كثرتهم وحصانة بلدهم ما راق لديه ، وكان يخرج إلى الشريعة فى خارجها ، ويجلس على حجر مربع أمام المحراب ، ويعظ الناس ، فلاحظ أن قبيلة هزميرة يحضرون دائماً متقلدين سلاحهم . فسألهم يوماً لم تمسكون سلاحكم ، وإخوانكم الموحدون لا يمسكونه ؟ فتركوا حمل السلاح مدة . وكان المهدى قد توجس من كثرتهم وقوتهم ، ونظر فى أمرهم . فجاءوا ذات يوم إلى سماع الوعظ دون سلاح . وكان الموحدون بالعكس قد تقلدوا سلاحهم ، فانقضوا عليهم ، وأوسعوهم قتلا ، فقتلوا منهم فى ذلك اليوم وفقاً لرواية اليسع نحو خمسة عشر ألف ، وسبيت نساؤهم ، ونهبت أموالهم ، وقسمت أراضيهم بين الموحدين . ثم ابتنى المهدى سوراً حول تينملل ، وأقام فى قمة الجبل حصناً يكشف ما وراءه . وأخذ يبعث بقواته إلى الأماكن المجاورة من أراضى قبيلة تينملل أو هزميرة فيغيرون عليها ، ويقتلون أهلها ، ويسبون ويغنمون .

ووقعت هذه الحوادث كلها ، حسبما يخبرنا ابن القطان فى سنة ٥١٨ هـ(٢) (١١٢٤م)

---

(١) أتيح لى خلال إحدى زياراتى للمغرب أن أزور بلدة تينملل ، وأن أتأمل موقعها الحصين فى سفح جبال الأطلس ، وهى اليوم بلدة صغيرة تحتوى على مساكن قليلة وأمامها مسجد المهدى وهو فى حالة خربة ، وعلى مقربة منه موضع تظلله الأشجار ، قيل لنا إنه قبر المهدى .

(٢) ابن القطان عن اليسع ، فى نظم الجمان (المخطوط السابق ذكره لوحة ٤٦ ب و ٤٧ ا و ب).

وأخذ المهدى بعد ذلك يتأهب للمرحلة التالية ، وربما الحاسمة ، فى صراعه مع المرابطين. وكان قد اعتاد أن يسميهم « بالمجسمين » . وترجع هذه التسمية إلى حديث نقله إلينا أبو بكر الصنهاجى فى كلامه عن الغزوة التاسعة ، وذلك أن المهدى سأل أنصاره الموحدين فى هذه الغزوة ، وكان مشاركاً فيها ، عما يقوله المرابطون عنهم ، فقالوا إنهم لقبونا بالخوارج ، فقال المهدى « سبقونا بالقبيح » لو كان خيراً أحجموا عنه ، لقبوهم أنتم ، فإن الله ذكر فى كتابه : « فمن اعتدى عليكم ، فاعتدوا عليه » قولوا لهم أنتم أيضاً « المجسمون » . ومن ذلك الحين يطلق الموحدون على خصومهم المرابطين لقب المجسمين ، ويشير إليهم المهدى فى سائر كتاباته بهذا اللقب(١) .

ورأى المهدى ، استعداداً لهذا الصراع ، أن يستوثق من ولاء أنصاره ، فأمر أن ينادى فى الجبل بدعوة الناس كافة ، وندب أبا محمد البشير لتمييز الناس ، فكان يخرج قوماً عن يمينه ويسميهم أهل الجنة ، ويخرج آخرين عن يساره ويسميهم أهل النار ، وهم الذين يشك فى ولائهم ، وفى اعتقادهم أن ابن تومرت هو المهدى المعلوم . ويقول لنا ابن القطان ، إن البشير كان يطلق أهل اليسار ، وهم يعلمون أن ليس لهم إلا القتل فلا يفر منهم أحد ، وكان إذا اجتمع منهم كثير قتلهم قراباتهم ، وقتل الأب ابنه ، والابن أباه والأخ أخاه ، ولم تقل لنا الرواية ، ماذا كان مقياس الولاء أو المروق فى هذا التمييز ، ولكن المفروض أنه انتهى بسحق المنافقين والمثبطين من صفوف الموحدين(٢) .

ولمحمد البشير هذا ، وهو كما نذكر من أصحاب المهدى العشرة ، قصة ذكرها لنا ابن القطان نقلا عن اليسع فى أخبار سنة ٥١٩هـ ، وهى التى وقع فيها التمييز . وذلك أن البشير كان منذ البداية يتظاهر بالبله ، ويلتزم الصمت والعزلة ، وتأخذه سنات من النوم ؛ فى ذات يوم خرج المهدى إلى الناس ، وقال لهم ، أتعرفون البشير ، فقالوا ومن هو ؟ فقال لهم هو الونشريشى ، وأنتم تعلمون أنه أمى لا يقرأ ولا يكتب ، وتعرفون أنه لايثبت على آية ، ولكن الله قد جعله مبشراً لكم ، مطلعاً على أسراركم ، وهو من آيات الله تعالى فى هذا الأمر . وكان المهدى

---

(١) كتاب أخبار المهدى ابن تومرت ص ٧٧ ، وراجع كتاب ابن تومرت مهدى الموحدين أو كتاب أعز ما يطلب ص ٢٥٨ .

(٢) ابن القطان فى نظم الجمان ( المخطوط لوحة ٥٠ ا ) ، ونقل هذه الرواية ابن عذارى فى الأوراق المخطوطة السالفة الذكر هسبيرس ص ٨٢ ) ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٨ .

قد عنى سراً بتحفيظ القرآن للبشير ، فاستعرضه أمامهم ، وقرأه عليهم فى أربعة أيام ، وركب أمامهم حصاناً فأتقن ركوبه ، ثم قال لهم المهدى : إن البشير هـذا مطلع على الأنفس محدث ، وأنه يوجد إلى جانب الموحدين ، أقوام منافقون ، وقف البشير على دخيلتهم ، وأنه لابد من النظر فى أمورهم حتى يتم العدل[١] .

وفى العامين التاليين ، وقعت بين الموحدين والمرابطين بضعة معارك ، يصعب استجلاء تفاصيلها . وكان على بن يوسف قد بعث جيشاً ليحاول اقتحام تينملل معقل المهدى ففشل وهزم . وكانت خطة المهدى ، أن يلتزم الدفاع فى معاقله الجبلية الوعرة ، وألا يهبط إلى السهل ، ليحمل أعداءه المهاجمين أن يصعدوا إليه إذا شاءوا قتاله[٢] ، وكانت هذه الخطة تكبد المرابطين مشقات جمة ، وكان الفشل مصيرهم دائماً كلما حاولوا القيام بدور الهجوم .

وفى سنة ٥٢٠ هـ بدأ المهدى فى تنفيذ خطته من الاضطلاع بالهجوم ، وغزو لمتونة على نطاق واسع ، فبعث جيشاً ضخماً من الموحدين بقيادة أبى محمد البشير ، فغزا بهم أراضى كيك شمالى تينملل وغربى أغمات ، فبعث على بن يوسف لردهم جيشاً كبيراً حسن الأهبة ، بقيادة أخيه الأمير أبى الطاهر تميم ، فالتقى الجمعان على مقربة من جبل كيك ، فوقعت الهزيمة على المرابطين ، وجد الموحدون فى مطاردتهم حتى جبل وريكة قبلى أغمات ، فلقيتهم هناك قوات مرابطية جديدة بقيادة أبى بكر بن على بن يوسف ، وقيل بقيادة يطى اللمتونى ، وجموع غفيرة من أهل أغمات وغيرهم ، فانهزم المرابطون مرة أخرى ، ووصل الموحدون فى زحفهم إلى أسوار مراكش ، ثم ارتد قائدهم البشير بقواته عائداً إلى الجبل ، وأمر على بن يوسف أن تسد جميع الطرق الصاعدة التى ينزل منها الموحدون من الجبال إلى السهل ، حتى يعرقل بذلك نزولهم ، ويتقى حرب المفاجأة التى درجوا عليها[٣] . وكان خلال الأعوام الثلاثة التى قضاها المهدى بجبل إيجليز قد عهد بحراسة طرق الجبل إلى الفلاكى الأندلسى ، وهو مغامر وقاطع طريق من أهل إشبيلية ، كان قد ذاع صيته ، وتاب ودخل خدمة الأمير ، فقام بمهمته خير قيام ، وأقام

---

(١) ابن القطان فى نظم الجمان ( المخطوط السالف الذكر لوحة ٤٩ أ و ب ) .

(٢) أخبار المهدى ابن تومرت ص ٧٥ .

(٣) ابن القطان فى نظم الجمان ( المخطوط السالف الذكر ) وابن عذارى فى البيان المغرب ( الأوراق المخطوطة — هسبيرس ص ٨٧ ) ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٨ .

سلسلة من الحصون سد بها ثغرات الجبل ، ثم كان له بعد ذلك شأن سوف نعود إليه .

وكانت المعركة التالية أعظم المعارك التى اضطرمت بين الموحدين والمرابطين ، وفيها وضع المهدى خطته لافتتاح مراكش والقضاء على الدولة المرابطية فى عقر دارها . وكان المهدي قد بلغ عندئذ ذروة سلطانه ونفوذه بين قبائل المصامدة. ونفذت طاعته إلى أعماق تلك الهضاب ، وبلغت جموعه أعظم حد من الكثرة والتوثب والظمأ إلى القتال . وكانت الانتصارات المتوالية التى أحرزتها جموع المهدى على المرابطين . تذكى من عزمه وثقته فى بلوغ النصر النهائى . وعندئذ وجه المهدى رسالة بخطه قرئت على الموحدين فى سائر النواحى ، ووجهت بالأخص إلى جزولة ولمطة وهنكيسة ودرعة وصنهاجة القبلة وهسكورة القبلة . وسائر القبائل المجاورة ، وفيها يستدعيهم ويأمرهم بالقدوم عليه ، وكان المهدى إلى جانب تسميته للمرابطين بالملثمين والمجسمين ، والحشم . قد أسبغ عليهم عندئذ اسما جديداً هو « الزراجنة » وذلك تشبيهاً لهم بطائر يقال له الزرجان ، وهو طائر أسود البطن أبيض الريش . لأنهم أى المرابطين « بيض الثياب سود القلوب »[1] . وهرعت الجموع إلى المهدى من كل صوب . وهى فى غاية الاستعداد والأهبة ، واجتمع منها جيش عظيم قوامه نحو أربعين ألف مقاتل ، منهم أربعمائة فارس فقط ، والباقى من الرجالة ، وقدم المهدى على هذا الجيش أبا محمد البشير أعظم قواده ، وعبد المؤمن بن على . وجعل عبد المؤمن إمام الصلاة ، ولم يصحب المهدى جيشه الجرار فى هذه الغزوة لمرضه . ونزل الموحدون من سفوح الجبال إلى السهول يقصدون إلى مدينة مراكش .

وهنا تضطرب الرواية أولا فى تحديد تاريخ هذا الزحف الموحدى على العاصمة المرابطية ، وثانيا فى ترتيب الوقائع . فأما من حيث التاريخ فإن اليسع يضع تاريخ هذا الزحف فى سنة ٥٢١هـ ( ١١٢٧م ) ، ولكن ابن القطان يعارضه ، ويقول إنه فى سنة ٥٢٤هـ وهى السنة التى توفى فيها المهدى ، وأن هذا هو قول سائر المؤرخين .

ويقدم إلينا ابن القطان تفاصيل بعض المعارك الأولى التى وقعت قبيل نشوب المعركة العامة تحت أسوار مراكش . فيقول إن معركة وقعت بين الموحدين وبين المرابطين بقيادة أبى بكر بن يندوج بكيك هزم فيها المرابطون ، واستولى الموحدون على سائر سلاحهم ومتاعهم . ثم تلتها معركة ثانية ، وكان المرابطون فى جيش ضخم

---

(١) ابن القطان فى نظم الجمان ( المخطوط السالف ذكره ) .

بقيادة بكو بن على بن يوسف ، ومعه يطى بن اسماعيل ، وكان الموحدون بقيادة محمد البشير ، ووقعت المعركة فى الحروبة ، فانهزم المرابطون ، وسقطت محلاتهم ومتاعهم ودوابهم وسائر أسلابهم فى أيدى الموحدين ؛ ثم وقعت معركة ثالثة أمام أغمات ، وكان المرابطون قد جمعوا أشتات قواتهم واستعدوا للقاء الموحدين من جديد ، وانضمت إليهم حشود عظيمة من أهل أغمات . وكانت القوات الموحدية عندئذ بقيادة عبد المومن بن على وأبى حفص عمر بن أصناج ، وأبى عمران موسى بن تمارى . فنشبت بين الفريقين معركة هائلة ، هزم فيها المرابطون ، وقتل منهم ومن أهل أغمات جموع غفيرة ، واستول الموحدون على سائر محلاتهم وعتادهم وسلاحهم[1] . ثم زحف الموحدون على مراكش ، ورابطوا تجاه باب الشريعة ، وكان على بن يوسف قد حشد فى تلك الأثناء قواته ، واستعد للقاء الموحدين أعظم استعداد ، وبلغ الجيش المرابطى يومئذ زهاء مائة ألف مقاتل ما بين فارس وراجل ، وكان تحت إمرة الزبير بن على بن يوسف . والتقى الجمعان فى ظاهر مراكش ، فكتب عبد المؤمن تنفيذاً لتوصية المهدى ، إلى على بن يوسف يدعوه إلى ما يدعوا إليه المهدى ، من قمع البدع ، وإحياء السنة ، والمبادرة إلى بيعة المهدى ، فرد عليه أمير المسلمين يحذره عاقبة مفارقة الجماعة ، ويذكره الله فى سفك الدماء وإثارة الفتنة[2] ، فلم يلتفت عبد المؤمن لتحذيره ، ونشبت بين الفريقين معركة هائلة ، هزم فيها المرابطون ، وقتلت منهم جموع غفيرة ، وهرعت فلولهم مرتدة إلى المدينة ، فازدحموا على الأبواب فى الدخول ، ومات منها فى الزحام خلق كثير ، وفر على بن يوسف إلى داخل المدينة من باب المخزن ، وأغلقت المدينة أبوابها فاحتاط بها الموحدون وضربوا حولها الحصار .

واستمر حصار الموحدين لمراكش زهاء أربعين يوما . وكان ما يزال بداخل المدينة جموع ضخمة من القوات المرابطية ومنها زهاء أربعين ألف فارس ، وأعداد لا تحصى من الرّجالة ، وكان المرابطون يخرجون من وقت لآخر لقتال الموحدين ، وتنشب بين الفريقين تحت الأسوار معارك طاحنة ، يفنى فيها الكثير من الجانبين ، وكان من أعنف ماوقع من هذه المعارك ، معركة هزم فيها المرابطون قبالة باب دُكّالة ، وهلك منهم عدد جم خلال الزحام الهائل ، الذى وقع عند دخولهم من هذا

(١) ابن القطان فى نظم الجمان ( المخطوط السابق ذكره ) .

(٢) المراكشى فى المعجب ص ١٠٦ و ١٠٧ .

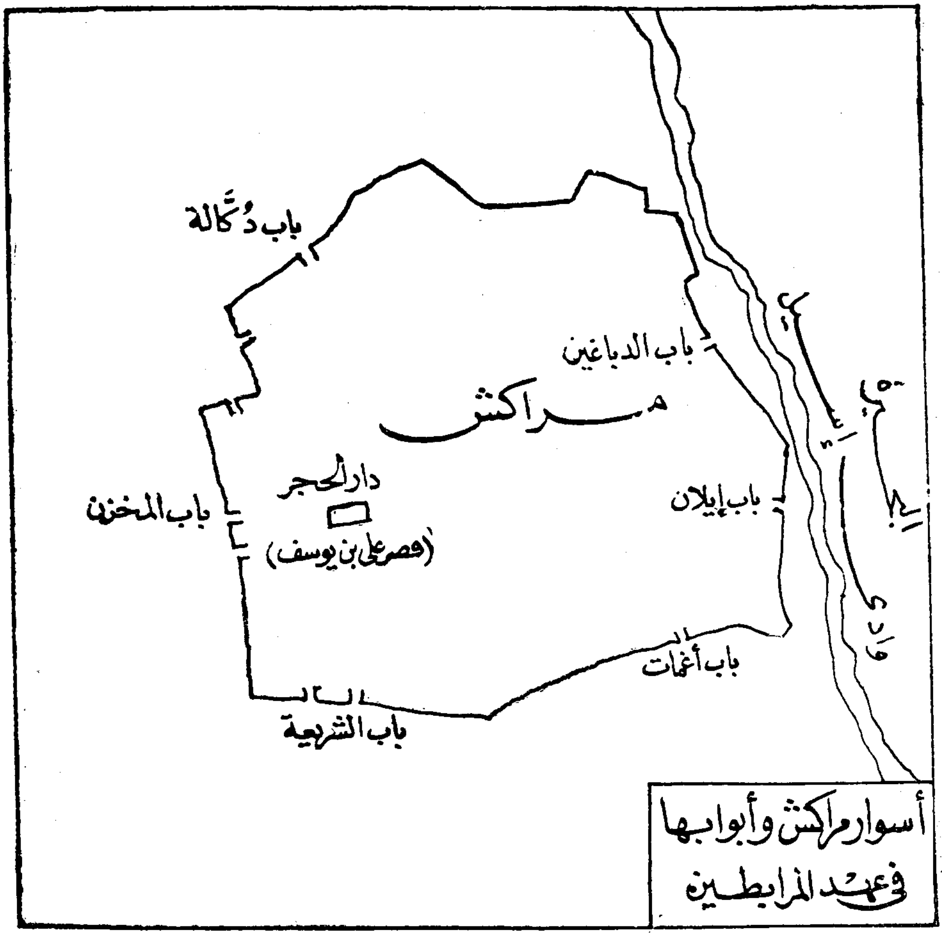


أسوار مراكش وأبوابها
في عهد المرابطين

الباب ، وفرت منهم جموع لم يستطيعوا الدخول ، حتى وصلوا إلى وادى أم الربيع ، فلما عادوا بعد ذلك إلى المدينة أمر على بن يوسف بحلق لحاهم ، ومثل بهم ليكونوا عبرة لغيرهم[١] .

وفى تلك الأثناء كان على بن يوسف قد استنفر سائر أمراء لمتونة وولاتها وقادتها ، لموافاته بحشودهم ، فقدمت إليه الأمداد من سائر النواحى ، ووافاه بالأخص جيش ضخم حسن الأهبة ، قام بحشده والى سجلماسة وانودين بن سير . وخرج على ابن يوسف فى قواته من المدينة ، وانضمت إليه الأمداد الزاخرة ، وتولى قيادة الجيوش المرابطية الشيخ أبو محمد وانودين بن سير . وكان الموحدون منذ بدء الحصار ، قد ضربوا محلتهم خارج المدينة تجاه باب الدباغين وباب إيلان أمام بستان كبير ، والبستان فى اللغة المحلية يسمى بالبحيرة ، ومن ثم فقد سميت المعركة التى تلت بموقعة البحيرة[٢] . فنى ظاهر تلك البقعة وقعت بين المرابطين والموحدين أعظم معركة نشبت فى ذلك الصراع المروع ، وكان المرابطون يتفوقون على الموحدين بكثرتهم تفوقاً ظاهراً ، وكان الموحدون من جهة أخرى ، قد أرهقتهم المعارك المتوالية التى اضطروا إلى خوضها خلال الحصار . وبدأ القتال بمعركة محلية نشبت بين جيش سجلماسة وحرس الأمير النصرانى ، وبين قوة من الموحدين ، فهزم الموحدون فى هـذه الحولة الأولى ، وكان لهذا النصر أثره فى إذكاء روح المرابطين المعنوية ، والتدليل على أن الموحدين ليسوا من المنعة كما بدوا فى المعارك الأولى . ثم نشبت بين الفريقين معركة عامة ، قاتل فيها الموحدون بشجاعة فائقة ، ولكن المرابطين فضلا عن كثرتهم ، كانت تحدوهم عندئذ ، روح مضطرمة من التوثب والظمأ إلى الانتقام ، فقاتلوا بشدة رائعة ، حتى رجحت كفتهم وأصيب الموحدون بهزيمة شنيعة ، وقتلت منهم جموع غفيرة يقدرها ابن القطان بأربعين ألفاً ، ويقول إنه لم يسلم من الموحدين إلا أربعمائة بين فارس وراجل[٣] ، بل قيل بأن الجيش الموحدى ، قد أفنى عن آخره ولم تبق منه سوى فلول يسيرة[٤] ، وسقط

---

(١) ابن عذارى عن ابن القطان فى ( الأوراق المخطوطة السالفة الذكر هسبيرس ص ٨٨ ) .

(٢) ابن الأثير ج ١٠ ص ٢٠٥ .

(٣) ابن القطان فى نظم الجمان ( المخطوط السالف الذكر لوحة ١٥٠ ) . وراجع ابن عذارى ( فى الأوراق المخطوطة — هسبيرس ص ٩٣ ) .

(٤) الحلل الموشية ص ٨٥ ، وهو أيضاً قول عبد الملك بن صاحب الصلاة مؤرخ الموحدين ( أورده صاحب الحلل ص ٨٦ ) .

فى الميدان أبو محمد البشير أعظم قادة الموحدين ، وسقط معه معظم الرؤساء والقادة ومن هؤلاء غير البشير ، أربعة من أصحاب المهدى العشرة ، هم سليمان بن مخلوف الحضرمى ، وأبو عمران موسى بن تمارى الكدميوى ، وأبو يحي بن يكيت ، وأبو عبد الله محمد بن سليمان . ومما هو جدير بالذكر أن البشير لم يعثر له بأثر ، ولم توجد جثته ، فذاع بين المتعصبين من المصامدة أنه رفع إلى السماء(١) . ولكن الحقيقة هى أن عبد المؤمن بادر بدفنه فى مكان سقوطه . ولم ينقذ البقية اليسيرة الباقية من الموحدين سوى دخول الليل وهطل الأمطار ، فارتد قائدهم عبد المؤمن ، وهو جريح قد أصيب فى فخذه ، فى فلوله تحت جنح الظلام ، متجهاً صوب أغمات ، فطارده المرابطون ، حتى أرض هيلانة ، وهناك وقعت بينهما معركة أخرى ، قاتل فيها الموحدون بشجاعة اليأس ، ولكنهم هزموا مرة أخرى ، وقتل منهم عدد جم يقدره ابن القطان بنحو اثنى عشر ألفاً ، وكان الموحدون قد عادوا فجمعوا أشتات قواتهم ، وأوعبوا فى الحشد . وارتد المرابطون بعد ذلك إلى مراكش ، وسارت فلول الموحدين إلى تينملل . ويضع ابن القطان تاريخ هذه الهزيمة الساحقة للموحدين فى يوم السبت الثانى من جمادى الأولى سنة ٥٣٤ هـ ( ١١ أبريل سنة ١١٣٠ م ) .

وكان المهدى ابن تومرت عندئذ مريضاً ، فلما وقف على أخبار النكبة التى أصابت جيشه ، سأل هل « عبد المؤمن فى الحياة » ، ولما أجيب بالإيجاب ، قال «الحمد لله قد بقى أمركم» . ويقول لنا أبو بكر الصنهاجى إنه هو الذى تولى إبلاغ المهدى نبأ نجاة عبد المؤمن ، وينقل لنا عبارات المهدى بألفاظها(٢) .

وهكذا أحرز المرابطون نصرهم الساحق على الموحدين ، بعد أن منوا قبل ذلك بسلسلة من الهزائم المتوالية . ويذكر لنا ابن صاحب الصلاة أن هزائم المرابطين بلغت قبل موقعة البحيرة نحو أربعين هزيمة ، وأن المهدى اشترك فى أربع من هذه الغزوات الظافرة ، كما يذكر لنا أن الموحدين فى موقعة البحيرة « قتلوا أجمعين ، ولم ينج منهم إلا نفر يسير » . وهذا القول من مؤرخ الموحدين . يدلنا على فداحة النكبة التى نزلت بجيوش المهدى ، فى تلك الموقعة الهائلة . ولكن سوف نرى أن إحراز المرابطين لهذا النصر لم ينجهم من قدرهم المحتوم . وأن ماوضعه المهدى

( ١ ) كتاب أخبار المهدى ابن تومرت ص ٢٨ .

( ٢ ) كتاب أخبار المهدى ابن تومرت ص ٧٩ .

من الأمل والثقة فى طالع تلميذه وزعيم أصحابه ، عبد المؤمن بن على ، كان ينم عن تنبؤ صادق وفراسة دقيقة[١] .

وقد سبق أن أشرنا إلى ما هنالك من خلاف حول تاريخ موقعة البحيرة ، فإن اليسع يضع تاريخها فى سنة ٥٢١ هـ ، ويضعه ابن القطان فى سنة ٥٢٤ ، ويضع ابن خلدون تاريخها فى سنة ٥٢٢ ، ويقول لنا إن وقوعها كان لأربعة أشهر قبل وفاة المهدى ، وهو يتفق بعد ذلك مع نفسه فيقول لنا إن المهدى توفى فى نفس العام أى فى سنة ٥٢٢ هـ[٢] . ولكنه لما كان من المتفق عليه أن هزيمة الموحدين وقعت قبيل وفاة المهدى بأشهر قلائل ، فإن هذه الرواية لا يمكن الأخذ بها ، إذ أن المعول عليه أيضاً ، هو أن المهدى توفى فى سنة ٥٢٤ هـ .

ولدينا إلى جانب رواية ابن القطان رواية موحدية قاطعة ، تضع تاريخ المعركة فى سنة ٥٢٤ هـ ، هى رواية أبى بكر الصنهاجى أحد أصحاب المهدى الذين شهدوا الموقعة[٣]. ويأخذ بهذه الرواية ابن الأثير[٤] وصاحب روض القرطاس[٥] ، والزركشى[٦] . وأما عن وفاة المهدى ، فإن المتفق عليه ، أنه كان مريضاً وقت موقعة البحيرة ، وأن مرضه اشتد بعد وقوع الهزيمة ، ولم يعش طويلا أو لم يعش بعد ذلك سوى أيام قلائل . وليس أدل على ذلك من أن الموحدين يسمون العام الذى توفى فيه المهدى وهو عام ٥٢٤ هـ بعام البحيرة[٧] . ويصف لنا أبوبكر الصنهاجى ، وقد كان شاهد عيان ، تصرفات المهدى الأخيرة ، فيقول لنا إنه استدعى الموحدين ، فحشروا كلهم ، ثم وعظ الناس حتى أضحى النهار ، ثم دخل الدار فغاب ساعة ، ثم خرج حاسر الرأس ، وقال للناس إننى مسافر عنكم سفراً بعيداً ، فضج الناس بالبكاء وودعوه ، ثم دخل داره ، ولم يره أحد بعد ذلك .

---

(١) تراجع تفاصيل موقعة البحيرة فى نظم الجمان لابن القطان ( المخطوط السابق ذكره لوحة ٤٠ ا وما بعدها ) ، وابن الأثير ج ١٠ ص ٢٠٥ ، والحلل الموشية ص ٨٤ — ٨٦ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٨ و ٢٢٩ ، وأخبار المهدى ابن تومرت ص ٧٨ و ٧٩ ، والمعجب ص ١٠٧ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٩ .

(٣) كتاب أخبار المهدى ابن تومرت ص ٢٨ .

(٤) ابن الأثير ج ١٠ ص ٢٠٤ .

(٥) روض القرطاس ص ١١٦ .

(٦) الزركشى فى تاريخ الدولتين ص ٤ .

(٧) ابن القطان فى نظم الجمان ( المخطوط السالف الذكر لوحة ٤٢ ا ) وابن خلكان ج ٢ ص ٥٢ .

والمعول عليه أن المهدى توفى فى شهر رمضان سنة ٥٢٤ ﻫ (أغسطس سنة ١١٣٠م)، ويقول لنا أبو بكر الصنهاجى إنه توفى يوم الأربعاء أو يوم الخميس الخامس والعشرين من رمضان سنة ٥٢٤ﻫ(١)، وتؤيد هذه الرواية رواية موحدية أخرى، هى رواية عبد الملك بن صاحب الصلاة مؤرخ الدولة الموحدية، مع خلاف يسير فى يوم الوفاة، وهى أن المهدى توفى يوم الأربعاء الثالث عشر من رمضان سنة ٥٢٤(٢)، وقال ابن القطان، ويتابعه صاحب الحلل الموشية إنه توفى يوم الاثنين الرابع عشر من رمضان سنة ٥٢٤(٣). وكان عمر المهدى عند وفاته، على قول ابن القطان، نحواً من خمسين سنة(٤)، وعلى قول ابن الأثير إحدى وخمسين سنة أو خمساً وخمسين سنة(٥) مما يرد تاريخ مولده فى الحالة الأولى إلى سنة ٤٧٤ﻫ، وفى الثانية إلى سنة ٤٧٣ﻫ، وفى الثالثة إلى سنة ٤٦٩ﻫ. وقد سبق أن أشرنا إلى هذا الخلاف فى تاريخ مولد المهدى.

وكان المهدى ابن تومرت من أعظم الدعاة الدينيين، وأغزرهم علما، وأشدهم دهاء، وأقواهم نفساً، وأشدهم تأثيراً فى النفوس. وكان إلى جانب ذكائه ودهائه، يتمتع بمنطق قوى، ومحاجة قاطعة، وذلاقة مؤثرة. وكان خطيباً مفوها، فصيحاً فى العربية والبربرية معاً، يستميل الجموع برائع بيانه ووعظه. وكان متمكناً من علوم القرآن والسنة ومن الأصولين، أصول الفقه وأصول الدين، شديد التقشف والزهد والورع، لم يلبس قط سوى ثياب الصوف من قميص وسراويل وجبة، وقد يرتدى الثياب المرقعة، ولا يقبل على شىء من متاع الدنيا، حتى قيل إنه كان يقتات من غزل أخت له فى كل يوم، رغيفاً بقليل من سمن أو زيت، ولم يتحول عن ذلك حينما سما شأنه وأقبلت عليه الدنيا(٦). وكان

---

(١) أخبار المهدى ابن تومرت ص ٨٣، وابن القطان فى نظم الجمان (المخطوط السالف ذكره لوحة ٤٢ ا).

(٢) أورده روض القرطاس ص ١١٧.

(٣) ابن القطان فى نظم الجمان (المخطوط السابق ذكره لوحة ٤٢ ا)، والحلل الموشية ص ٨٦

(٤) ابن القطان فى نظم الجمان (المخطوط لوحة ٣٣ ا). ونقله ابن عذارى فى البيان المغرب (الأوراق المخطوطة سالفة الذكر – هسبيرس ص ٩٤).

(٥) ابن الأثير ج ١٠ ص ٢٠٥.

(٦) ابن القطان عن ابن صاحب الصلاة (فى نظم الجمان المخطوط السابق ذكره لوحة ١٤٥)، وابن خلكان (عن المغرب) ج ٢ ص ٥٢.

ظهوره فى ذلك المجتمع البربرى الساذج ، الذى اختاره مسرحاً لدعوته ، والذى كان يخيم عليه الجهل المطبق ، وتعصف به الخرافات والأساطير ، يتسم بصفات الزعامة الخارقة أو النبوة ، ومن ثم فقد ألفى ابن تومرت الطريق ممهداً ليعلن دعوته ، وليتشح بثوب المهدى المنتظر ، وينتحل صفة الإمام المعصوم ، وقد كان ابن تومرت من بين دعاة المهدية ، أوفرهم عزماً وبراعة ، وأشدهم تأثيراً وسحراً .

وكان يدعو الناس إلى عبادة الله تعالى ، ويخبرهم بأنه تعالى قد فرض عليهم الصلوات الخمس فى يومهم وليلتهم ، وفرض عليهم زكاة تؤخذ من أغنيائهم ، وترد على فقرائهم ، ويأمرهم بقراءة القرآن وحفظه ، ولزوم الأحزاب التى ألفها لهم بعد صلاة الصبح ، وبعد المغرب ، وأمر المؤذنين ، إذا طلع الفجر ، أن ينادوا « أصبح ولله الحمد » إشعاراً بلزوم الطاعة وحضور الجماعة ، وللغدو لكل ما يؤمرون به ، وفرض عقوبة المخالفين .

ولكن ابن تومرت إلى جانب هذه الصفات الخلابة ، كان يتسم بطائفة من الصفات المثيرة ، فقد كان شديد التعصب ، صارم النفس ، سفاكا للدماء ، غير متورع فيها ولا متحوط ، يهون عليه سفك دم عالم من الناس فى سبيل رأيه وبلوغ مقصده ، لا تأخذه شفقة ولا رحمة فى دماء خصومه ، ويستحل سبى نسائهم وأولادهم ونهب أموالهم[(١)] ، ويسبغ على هذا السفك المروع ، صفة الشرعية ، لما يزعمه من مخالفة خصومه لأحكام الكتاب والسنة ، أو لمبدأ التوحيد الذى اتخذه شعاره . وقد رأينا فيما تقدم من مراحل صراعه مع خصومه أمثلة عديدة من هذا الإسراف المغرق فى سفك الدماء ، وربما كان فيما ذكر عن المهدى من أنه «كان حصوراً لا يأتى النساء »[(٢)] ما يفسر بعض عوامل هذه القسوة المروعة ، وهذا الظمأ إلى سفك الدماء .

ويلاحظ العلامة جولدسيهر بهذه المناسبة أن ابن تومرت كان يبث فى أذهان أنصاره بتدرج غير محسوس ، فكرة محاربة المرابطين ، وأنه حينما كان فى بداية أمره ، يقتصر على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ويتبع ما يقضى به الدين من العمل على حقن الدماء ، ولكنه منذ اتشح بصفة المهدى ، أخذ يشهر الحرب ،

---

(١) روض القرطاس ص ١١٧ .

(٢) ابن القطان فى نظم الجمان ( المخطوط لوحة ١٤ ب و ١٣٣ ا ) ، ونقله ابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٩ .

ويدعو إلى سفك الدماء ، ويقول إن المحاربين الذين يسقطون فى هذه المعارك ، إنما هم شهداء فى سبيل الله[١] .

كذلك تنوه الرواية بما جبل عليه ابن تومرت من الخداع والكيد والمكر ، وكيف أنه لجأ إلى هذه الصفات فى استهواء الجماهير وخداعها ، واستغلال جهلها، وسذاجتها ، حتى ذاعت دعوته ، وتمكن أمره[٢] .

ومن الغريب الذى يلفت النظر فى هذا الشأن موقف العلامة الفيلسوف ابن خلدون من ابن تومرت ودعوته ، فهو يدافع عن المهدى ، وعن صحة دعوته وصدق إمامته ، فى نبذة طويلة يقول فيها :

« ويلحق بهذه المقالات الفاسدة ، والمذاهب الفائلة ، ما يتناوله ضعفة الرأى من فقهاء المغرب من القدح فى الإمام المهدى صاحب دولة الموحدين ، ونسبته إلى الشعوذة ، والتلبيس فيما أتاه من القيام بالتوحيد الحق ، والنعى على أهل البغى قبله ، وتكذيبهم لجميع مدعياته فى ذلك ، حتى فيما يزعم الموحدون أتباعه من انتسابه فى أهل البيت ، وإنما حمل الفقهاء على تكذيبه ، ما كمن فى نفوسهم من حسده على شأنه ، فإنهم لما رأوا من أنفسهم مناهضته فى العلم والفتيا وفى الدين بزعمهم ، ثم امتاز عنهم بأنه متبوع الرأى ، مسموع القول ، موطأ العقب ، نفسوا عليه ذلك ، وغضوا منه بالقدح فى مذاهبه ، والتكذيب لمدعياته ، وأيضاً فكانوا يؤنسون من ملوك لمتونة ، أعدائه تجلة وكرامة لم تكن لهم من غيرهم ، لما كانوا عليه من السذاجة ، وانتحال الديانة ، فكان لحملة العلم بدولتهم مكان من الوجاهة ، والانتصاب للشورى كل فى بلده ، وعلى قدره فى قومه ، فأصبحوا بذلك شيعة لهم ، وحرباً لعدوهم ، ونقموا على المهدى ، ما جاء به من خلافهم ، والتثريب عليهم ، والمناصبة لهم ، تشيعاً للمتونة ، وتعصباً لدولتهم . ثم يقول دفاعاً عن المهدى : « وما ظنك برجل نقم على أهل الدولة ما نقم من أحوالهم ، وخالف اجتهاده فقهاءهم ، فنادى فى قومه ودعا إلى جهادهم بنفسه ، فاقتلع الدولة من أصولها ، وجعل عاليها سافلها ، أعظم ما كانت قوة ، وأشد شوكة ، وأعز أنصاراً وحامية ، وتساقطت فى ذلك من أتباعه نفوس لا يحصيها إلا خالقها ، قد بايعوه على الموت ، ووقوه بأنفسهم من الهلكة ، فتقربوا إلى الله تعالى باتلاف مهجهم فى إظهار تلك الدعوة ،

---

(١) جولدسيهر فى مقدمته الفرنسية السالفة الذكر لكتاب « أعز ما يطلب » ص ١٠٠ .

(٢) روض القرطاس ص ١١٤ و ١١٧ .

والتعصب لتلك الكلمة حتى علت على الكلم ، ودالت بالعدوتين من الدول ، وهو بحالة من التقشف والحصر ، والصبر على المكاره ، والتقلل من الدنيا ، حتى قبضه الله ، وليس على شيء من الحظ والمتاع فى دنياه .. فليت شعرى ، ما الذى قصد بذلك إن لم يكن وجه الله ، وهو لم يحصل له حظ من الدنيا فى عاجله . ومع هذا فلو كان قصده غير صالح لما تم أمره ، وانفسحت دعوته ، سنة الله التى قد خلت فى عباده»(١).

وابن خلدون يقدم إلينا هذا الدفاع عن المهدى فى معرض كلامه عن أخطاء المؤرخين وأوهامهم ودعاويهم المغرضة . وهو يقدم إلينا منها نماذج ، يصاحبه التوفيق فى بعضها ويخطئه فى البعض الآخر . ونحن نرى أن التوفيق قد أخطأه فى هذا الدفاع عن المهدى ابن تومرت ، وعن صدق دعوته . وقد استعرضنا فيما تقدم من حديثنا عن حياة المهدى ، ما يحملنا على الشك أولا ، فى صدق انتسابه إلى آل البيت ، وثانيا فى انتحاله دعوة المهدية ، وهى دعوة نشك أيضاً فى صدقها من الناحية الدينية والتاريخية . ونحن نعتقد أن مفكراً عظيما ، ومؤرخاً فيلسوفاً ، وضعى العقلية ، كابن خلدون ، لا يمكن أن يؤمن بصدق هذه الدعوة ، وإنما حمل ابن خلدون على الدفاع عن المهدى ودعوته ، بواعث خاصة ، أولها أن بنى خلدون — أسرة المؤرخ — كانت مذ غادرت الأندلس فى أوائل القرن السابع الهجرى — قد نزلت بتونس ، وعاشت فى رعاية بنى حفص ملوك الدولة الحفصية الموحدية التى أسسها الأمير أبو يحيى زكريا بن عبد الواحد بن أبى حفص عمر الموحدى ؛ وتولى أجداد المؤرخ فى ظلهم مناصب النفوذ والثقة ، وبدأ هو حياته العامة فى ظلهم ، وعاش فى كنفهم ردحاً من الزمن ، وأهدى أول نسخة من مقدمته وتاريخه للسلطان أبى العباس الحفصى (سنة ٧٨٤هـ) ، فلم يكن من المعقول أن يجاهر المؤرخ فى مقدمته ، بالطعن فى إمامة المهدى ودعوته ، وهى التى كانت أساساً لقيام الدولة الموحدية . وثانياً أنه ليس من المنطق السليم ، أن يكون نجاح دعوة المهدى ابن تومرت ، وما ترتب عليه من قيام الدولة الموحدية ، دليلا على صدق هذه الدعوة ، لأن النجاح السياسى والعسكرى لداعية أو متغلب لم يكن قط فى ذاته دليلا على صدق إمامة أو دعوة دينية ، وثالثاً أن إنكار صدق دعوة المهدى ابن تومرت لم يكن قاصراً على الفقهاء المرابطين ، الذين يعلل ابن خلدون طعنهم فى هذه الدعوة بما كان يجيش فى صدورهم من حقد على رجل يتفوق عليهم

(١) ابن خلدون — المقدمة (بولاق) ص ٢٢ .

بعلمه ، ويغض بهذا التفوق من مكانتهم ونفوذهم القديم لدى الدولة اللمتونية ، بل شمل هذا الإنكار كثيراً من المؤرخين .

ولا يكتفى ابن خلدون بالدفاع عن صحة دعوة المهدى ، بل يقرن ذلك بالدفاع عن نسبه فى آل البيت ، وهو هنا فى تدليله أضعف منطقاً ، حينما يقول أنه لا دليل يعضد إنكار هذه النسبة ، والناس مصدقون فى أنسابهم . وهو إذ يشعر هنا بضعف منطقه ، يقول لنا إن ظهور المهدى لم يكن يتوقف على نسبته ، وإنما قام أمره بعصبيته القبلية فى هرغة ومصمودة ، وأن هذا النسب الفاطمى ، كان أمراً خفياً عنده وعند عشيرته يتناقلونه بينهم(١) .

ويذكرنا موقف ابن خلدون فى الدفاع عن دعوة المهدى ابن تومرت ونسبه ، بموقفه عن نسب بنى عبيد الخلفاء الفاطميين ، فهو يتصدى لتأييده وإثباته ، ويعتبر الطعن فيه من « الأخبار الواهية » التى عنى بتفنيدها فى مقدمته ، وأن هذا الطعن يرجع بالأخص إلى الأحاديث التى لفقت لبنى العباس خصوم الفاطميين تزلفاً إليهم ، ويعتمد هنا على نفس النظرية التى لجأ إليها فى الدفاع عن دعوة المهدى ، وهو أن ظهور الفاطميين ، وقيام الدولة الفاطمية المترامية الأطراف ، واتصال أمرها نحواً من مائتين وسبعين عاما ، كل ذلك لا يمكن أن يتم لدعى(٢) . وهى طريقة معكوسة فى التدليل ، ونظرية واضحة الضعف والسقم ، إذ كان على بن خلدون أن يقدم لنا الأدلة المباشرة ، على صحة نسب الفاطميين لآل البيت ، كما قدم خصومهم الأدلة على بطلان هذه النسبة .

وقد تناول كاتب مشرقى من كتاب النصف الأول من القرن الثامن الهجرى هو الحسن بن عبدالله العباسى فى كتابه « آثار الأول وترتيب الدول » مثَل ابن تومرت وقصة ظهوره ، فى معرض الكلام عن الزهاد ، والمغالطين باسم الزهد ، والدعاة الذين يعمدون إلى الطعن فى أحوال الملك ، وإثارة الجماهير ، وخطر تركهم ، وأنه « ينبغى للملك أن ينظر فى حالة هذه الطائفة ، ويميز محقهم من مبطلهم ، ويفرق بين الزاهد والمتزهد ، وفيهم أصناف من أهل الغلط فى طريق الزهد والمغالطة لأغراض أخر ، منهم صنف يغلب عليهم محبة الرياسة والإمرة ، ويتفق أعراض الملك عنهم وانقباضه لمخالفة طبعه لطباعهم » ، وأن ذلك مما يحملهم على الطعن

---

(١) ابن خلدون فى المقدمة ص ٢٣ .

(٢) ابن خلدون فى المقدمة ص ١٧ و ١٨ .

على أحوال الملك ، وإهماله لضوابط الشريعة ، ثم يجمعون حولهم الجموع ، ويقصون عليهم من الأمور ، « ما يحركون به عزائمهم لتغيير المنكر ، ونصرة الحق ، فإن أهمل الملك أمرهم عظم وتفاقم ، وكان منهم خطر عظيم » .

ويعتبر هذا الكاتب مثل ابن تومرت ، هو أقرب ما جرى فى هذا المعنى ، معنى الداعية المتزهد المخادع الذى يبطن انتزاع الرياسة ، وأنه تذرع بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ومعه طائفة يسيرة ، حتى اشتهر أمره ، ولم يعن الملك بشأنه ، ولم يدر بخلده أنه قد يغدو خطراً على ملكه ، حتى كثرت جموعه واشتدت شوكته ، وانتهى بالاستيلاء ، على البلاد وقيادة الجيوش(١)

وقد نجح المهدى فى إقامة نوع من الحكومة الثيوقراطية ( الدينية ) ، وكان الجماعة أو أصحابه العشرة الأوائل هم أعضاء وزارته ، يبحث معهم جلائل الأمور ، وعندئذ يخلو بهم ولا يحضر معه أحد سواهم . فإذا جرى البحث فى أمور أقل أهمية ، حضر الخمسون من الصحب فى هيئة جمعية استشارية ، وإذا جرى البحث فى الشئون العادية حضر معهم السبعون . ومن جهة أخرى فقد ذكر لنا اليسع أسماء سبعة رجال ، قال إنهم كانوا للمهدى رجال مشورته ، وهم أبو سليمان من هرغة ، وأبو الحسن ، وأبو وزغيغ بن ياموهل بن ياوجان ، وأبو دايور يغور ميوركن ، من أهل تينملل ؛ وقطران بن ماغليفة ، وأبو محمد سكانة ، وأبو عمران موسى بن واحمد ين من أهل هنتاتة(٢) .

واتخذ المهدى شعاراً لجيوشه علما أبيض كتب على أحد وجهيه ، « الواحد الله . محمد رسول الله . المهدى خليفة الله » ، وكتب على الوجه الثانى « وما من إله إلا الله . وما توفيقى إلا بالله . وأفوض أمرى إلى الله » (٣)

وأما عن شخصه ، فقد كان المهدى ، حسبما تصفه الرواية ، رجلا ربعة حسن التكوين ، مفلج الثنايا ، عظيم الهامة ، أسمر مشوب بحمرة ، غائر العينين ، حديد البصر ، أقنى ، خفيف العارضين ، له شامة سوداء فى كفه الأيمن(٤) .

---

(١) كتاب « آثار الأول وترتيب الدول » المنشور على هامش تاريخ الخلفاء للسيوطى ( القاهرة سنة ١٣٠٥ هـ ) ص ٦١ و ٦٢ .

(٢) هذا ما نقله إلينا ابن القطان عن اليسع فى نظم الجمان ( المخطوط السالف ذكره لوحة ١٠ ب و ٣٣ ب ) .

(٣) ابن القطان فى نظم الجمان ( المخطوط لوحة ٤٣ ب ) .

(٤) ابن القطان فى نظم الجمان ( المخطوط لوحة ١٤ ب ) ، وكذلك ابن خلكان ج ٢ ص ٥٢ ، وروض القرطاس ص ١١٧ .

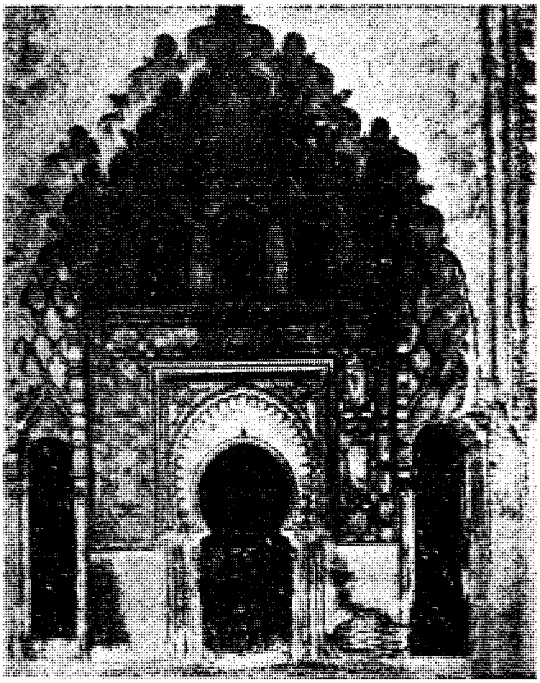

تينملل : محراب جامع
المهدى ابن تومرت

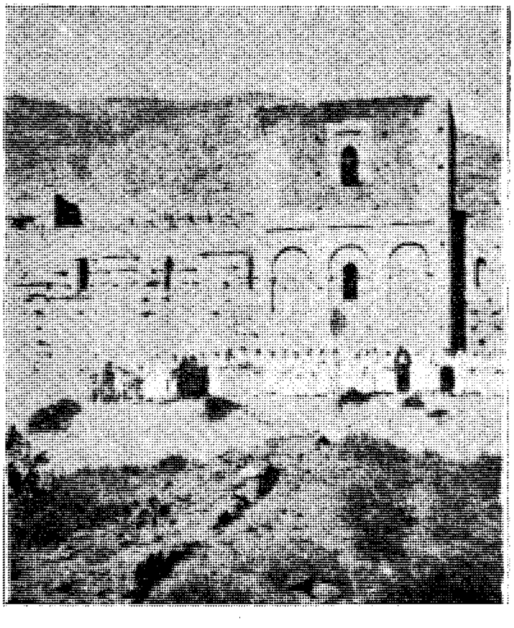

تينملل : إحدى واجهات
جامع المهدى
وأمامها لفيف من قبيلة جندافة

ولما توفى المهدى ، كتم أصحابه الأقربون موته حيناً تختلف الرواية فى مداه . ويذهب ابن القطان ، ويتابعه صاحب روض القرطاس ، إلى أن هذا الكتمان استمر زهاء ثلاثة أعوام حتى سنة ٥٢٧ هـ[١] ، وهى رواية تحمل طابع المبالغة . وعلى أى حال ، فقد كتمت وفاة المهدى حتى اتفق أصحابه على اختيار من يخلفه منهم ، وقد كان هذا الخليفة الأول لدولة الموحدين هو عبد المؤمن بن على ، تلميذ المهدى وأحب أصحابه إليه ، وكان أول ماعمله أن قام بمواراة المهدى فى مثواه الأخير . ويقول لنا ابن القطان ، وهو من أوثق مؤرخى الموحدين ، إن المهدى دفن بتينملل دون تخصيص للمكان ، ويقول لنا ابن خلدون إن عبد المؤمن قام بدفن المهدى فى مسجده الملاصق لداره[٢] ، الكائن بتنملل . وقد أتيح لنا أن نزور تينملّل ، وأن نشهد مسجد المهدى . وتينملل اليوم محلة صغيرة ( مدشر ) تقع على سفح التل المنحدر إلى الوادى ، وتظللها من الوراء البعيد آكام الأطلس العالية ، ومن بينها قمة « طبوتقال » الشهيرة التى يزيد ارتفاعها على أربعة آلاف متر ، وبها مساكن قليلة ، ولا يعدو سكانها مائة من الأنفس ، ولكنها مازالت تشتهر بكونها بلد المهدى ابن تومرت ، وأما المسجد فهو قائم فى سفح الجبل ، وهو اليوم طلل دارس لا تقام فيه الشعائر ، ولكن جدرانه وعقوده مازالت قائمة ، وله محراب جميل . ولم نجد به ضريح المهدى حسبما تشير إلى ذلك الرواية التاريخية .

بيد أنه توجد على قيد نحو ستين متراً من المسجد ، بقعة صغيرة تظللها الأشجار ، وتقع فوق ربوة منحدرة ، فهذه البقعة تعينها الرواية المتواترة ، وهى رواية قبيلة جندافة ، التى تقطن هذه الناحية منذ أجيال ، بأنها تضم رفات المهدى وبها قبره ، وإن لم يك ثمة ما يدل على وجود قبر بها ، ولا تميزها سوى بضعة أحجار زرقاء ظاهرة الرؤوس ، يقال إنها شواهد القبر . وربما كانت هذه الرواية المتواترة فى تعيين قبر المهدى ، تتفق مع ما يقول لنا ابن خلكان ، من أن المهدى « قد دفن بالجبل ، وان قبره هناك مشهور يزار »[٣] . وعلى أى حال فإن المتفق عليه هو أن المهدى يثوى ثواءه الأخير بتينملل مبعث دعوته ، ومهد دولته ، وذلك سواء داخل مسجده أو فى بقعة قريبة منه .

---

( ١ ) ابن القطان فى نظم الجمان ( المخطوط السابق ذكره ) ، وروض القرطاس ص ١١٩ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٩ .

( ٢ ) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٩ .

( ٣ ) ابن خلكان ج ٢ ص ٥٢ .

# الفصل الثالث

## عقيدة المهدى ابن تومرت

### وتعاليمه الدينية والسياسية

تراث المهدى الفكرى والدينى . كتاب أعز ما يطلب ومحتوياته . فاتحته . طريق العلم . تحصيل الفقه . التواتر . رأى ابن تومرت فى أصول الشريعة . حملته على الاجتهاد . تمسكه بالتفسير الظاهرى . نظرية الإمام المعصوم هى السبب . معارضة الغزالى لهذه النظرية . ابن تومرت لم يتأثر بتعاليم الغزالى . تعليق العلامة جولدسيهر على ذلك . فكرة التوحيد عند ابن تومرت . نظريته فى الإمامة . كيف يعرض لنا وجوب الإيمان بها . نظرية المهدى المنتظر . اعتمادها على الأحاديث الموضوعة . كيف يعرضها لنا ابن تومرت . وجوب طاعة المهدى باعتبارها طاعة الله ورسوله . قواعد علوم الدين والدنيا . تكفير من يشك فى أمر المهدى . حملة ابن تومرت على المرابطين . العلامات التى ينسبها لهم . ما أحدثوه من المناكر . تحريم طاعتهم ووجوب جهادهم . نعته لهم بالمجسمين . حملته على اللثام . مظاهر الفساد أيام المرابطين . الطائفة التى تقوم آخر الزمان وتقاتل على الحق . استعارة فكرة التوحيد من المعتزلة . مناقضة فكرة التجسيم للتوحيد . حديث الصلاة والطهارة والغلول . تحريم الخمر . كتاب الجهاد تصنيف الخليفة أبى يعقوب يوسف . كتاب موطأ المهدى ومحتوياته . انتشار كتب المهدى بين البربر لكتابتها بالبربرية .

نقف الآن قليلا فى تتبع ذلك الصراع المرير ، الذى اضطرم بين المرابطين والموحدين ، لنستعرض طرفاً من عقائد المهدى وآرائه ومبادئه الدينية والسياسية .

لقد انتهى إلينا لحسن الطالع من تراث المهدى ، الفكرى والدينى ، ما يلقى الضياء على تلك المبادئ والآراء ، التى اتخذها سنداً لدعوته الدينية ، والتى جعل منها عقيدة جديدة ، يمكن أن توصف بالعقيدة الموحدية .

ويجتمع تراث المهدى الفكرى والدينى فى كتابين ، أولهما يضم مبادئه ، ونظرياته فى الأصول ، وفى الإمامة ، وفى التوحيد والعلم ، وهو أهم الكتابين ، وقد عرف بكتاب ( أعز ما يطلب ) لاستهلاله بتلك العبارة ، والثانى كتاب « الموطأ » أو « موطأ الإمام المهدى » ، وقد وضعه المهدى فى العبادات والمعاملات والحدود ، أو بعبارة أخرى فى علم الفروع ، على مثل موطأ الإمام مالك .

وقد وُصف الكتاب الأول فى أصل نسخته المخطوطة بأنه « سفر فيه جميع

تعاليق الإمام المعصوم ، المهدى المعلوم ، رضى الله عنه ، مما أملاه سيدنا الإمام الخليفة أمير المؤمنين أبو محمد عبد المؤمن بن على أدام الله تأييدهم ، وأعز نصرهم ومكن سعودهم » . ومعنى ذلك أن الكتاب لم يصل إلينا من المهدى مباشرة ، وأن الذى نقل إلينا تعاليم المهدى وآراءه ودونها ، هو تلميذه عبد المؤمن بن على أول خلفاء الموحدين .

ويضم هذا الكتاب فصولا وأبواباً عديدة ، ويشتمل على الكلام عن الجهل والشك والظن ، والأصل والفرع والتواتر ، وعن الصلاة ، وكون الشريعة لاتثبت بالعقل ، وعن العموم والخصوص ، وعن العلم ، وعن العقيدة ووجود البارى سبحانه ،وعن التنزيهات والتسبيحات ، ثم الكلام عن الإمامة وعلامات المهدى ، وعن طوائف المبطلين من الملثمين والمجسمين وعلاماتهم ، وعن الطائفة التى تقاتل عن الحق وتقوم بأمر الله ، وعن علاماتها وخواصها ، وعن التوحيد وثبوته ، وما يتعلق بذلك من الإيمان بالله ورسوله ، وعن تحريم الخمر وماورد فى ذلك ، ويختم الكتاب بفصل عن الجهاد ، وهو منسوب للخليفة أبى يعقوب يوسف ولد الخليفة عبد المؤمن .

— ١ —

يفتتح المهدى كتابه بهذه الفقرة الرنانة التى أضحى مستهلها عنواناً لكتابه وهى :

« أعز ما يطلب ، وأفضل ما يكتسب ، وأنفس ما يدخر ، وأحسن ما يعمل ، العلم الذى جعله الله سبب الهداية إلى كل خير ، هو أعز المطالب ، وأفضل المكاسب ، وأنفس الذخائر ، وأحسن الأعمال » .

وأول ما يلفت النظر فى أسلوب الكتاب جزالته ، فالمهدى رغم أصوله ونشأته البربرية ، يقدم إلينا آراءه فى أسلوب قوى ، وبيان عربى متين ، ولكنه إلى جانب ذلك مولع بالتصنيف والتقسيم ، يكثر من ذلك فى كل باب وفصل ، وهذه النبذة التى يبدأ بها المهدى كتابه ، والتى يحدثنا فيها عن فضل العلم وطرقه ، تعتبر نموذجاً لما يتبعه فى سائر الفصول من التصنيف والتقسيم المستمر لعناصر موضوعاته وآرائه :

« والذى يستعين به طالب العلم على فتح ما انغلق ، وكشف ما التبس ، إخلاص النية ، واغتنام الفوائد ، والحرص على الزيادة ، والرغبة إلى الله فى

الهداية والتوفيق . والعلم نور فى القلب تتميز به الحقائق والخصائص ، والجهل ظلام فى القلب تلتبس به الحقائق والخصائص . وطرق العلم منحصرة فى ثلاثة : الحس ، والعقل ، والسمع . فالحس على ثلاثة أقسام : متصل ومنفصل ، وما يجده الإنسان فى نفسه . والعقل على ثلاثة أقسام : واجب وجائز ومستحيل . والسمع على ثلاثة أقسام : الكتاب والسنة والإجماع . والكلام الآن فى الطريق الذى هو السمع فيما علق عن الإمام المعصوم ، المهدى المعلوم ، رضى [ الله عنه ] فى ذلك ، أول هذا الأمر برباط هرغة ببلد السوس سنة خمس عشرة وخمسمائة ، أن تحصيل الفقه فى السُّنة بخمسة أوجه : « أحدها كيفية الأخذ والنقل عن الرسول (ص) . والثانى معرفة السند . والثالث معرفة مايتعلق بالمتن . والرابع معرفة الصحيح والسقيم . والخامس معرفة الإستنباط والتأويل » . ثم يتحدث عن الأخذ عن الرسول ، وعن النقل ، وتسمية التواتر والآحاد ، ويقسم ذلك إلى أقسام وفروع عديدة[1] . ويحدثنا خلال ذلك عن مناظرته للفقهاء المرابطين بأغمات ، وماتلاه عليهم من إيضاح ما عجزوا عن الإجابة عنه ، من تبيان أصول الحق والباطل ، وفى رأيه أن هذه الأصول تنحصر فى أربعة : هى العلم والجهل والشك والظن ، وهو يفيض فى شرح نظريته ، وبيان الأدلة عليها ، ثم يتحدث عن كل أصل من الأصول الأربعة ، ويقول لنا إن الجهل والشك والظن هى من أصول الضلال ، ويدلل على أقواله بالآيات القرآنية . ثم يفيض بعد ذلك فى التحدث عن التواتر والأخبار المتواترة وأصولها وفروعها ، ويقسمها إلى أقسام عديدة متفرعة ، ويشرح دور الأصل والفرع فى الإثبات فى حديث طويل متعدد الأقسام والفروع . وهو يعتبر « التواتر » علما ويفيض فى بيان أقسامه وخصائصه ، والدور الذى يؤديه كمصدر من مصادر العلم ، وطريقة التمييز بين ما يثبت بالتواتر ، وما يثبت بالآحاد . وهو يرى أن أفضل التواتر ماكان صادراً عن أهل المدينة ، لأن « الإسلام والشرائع والرسول والصحابة ، إنما كانوا فى المدينة » ولهذا « صار عمل أهل المدينة حجة على غيرهم »[2] ، ويحاول أن يدعم شروحه بما أثر عن الرسول والصحابة ، من أقول وأعمال .

ويحدثنا المهدى بعد ذلك عن « الصلاة » وعن معناها ، وبيان فضلها ، وحكمتها وتفاصيلها ، وبيان أحكامها ، وذلك فى حديث طويل جداً ، يتخلله

---

( ١ ) كتاب « أعز ما يطلب » للمهدى محمد بن تومرت ( الجزائر سنة ١٩٠٣ ) ص ٢ ، ٣ .
( ٢ ) كتاب محمد بن تومرت أو أعز ما يطلب ص ٤٩ .

كثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية يحاول بها أن يدعم أقواله وآراءه[1].

على أن هذه الشروح الجدلية ، مهما دلت عليه من مقدرة فى العرض ، والسفسطائية ، ليست هى أهم ما يعرض لنا ابن تومرت من نظرياته الدينية ، وإنما تبدو أهمية تعاليمه ونظرياته فى عدة مسائل خاصة ، هى التى تعتبر قوام مذهبه الدينى .

وأول هذه المسائل هو رأى ابن تومرت فى أصول الشريعة ، وهو يرى قبل كل شىء « أن الشريعة لا تثبت بالعقل من وجوه ، منها أن العقل ليس فيه إلا الإمكان والتجويز وهما شك ، والشك ضد اليقين ، ومحال أخذ الشىء من ضده » ، و « منها ان الله سبحانه وتعالى مالك الأشياء يفعل فى ملكه ما يريد ، ويحكم فى خلقه ما يشاء ، فليس للعقول تحكم ولا مدخل فيما حكم به المولى » . وهو يقصد بإشارته هذه الرد على بعض من لا خلاق لهم « فيما ذهبوا إليه من أن الشريعة لا حكمة فيها ، وأنها ليست على سنن العقل جارية ، طعناً منهم فى الدين ، وجهلا بحكمة الله تعالى » . وهو يحمل فى نفس الوقت على من « ذهبوا إلى الاستنباط من عقولهم ، وتحسين الأشياء على مادتهم ، وجعلوا أقيسة فى الشرع عدولا منهم عن الحق ، وذلك كله فاسد »[2] ، وعنده أن أصول الشريعة تنحصر فى عشرة وهى : أمر الله ونهيه ، وخبره بمعنى الأمر ، وخبره بمعنى النهى ، وأمر الرسول ونهيه ، وخبره بمعنى الأمر ، وخبره بمعنى النهى ، وفعله ، وإقراره » . وتنحصر الفروع فى خمسة : « وهى الواجب والمندوب والمحظور والمكروه والمباح » . وهو لا يخص الإجماع والقياس بالذكر ، باعتبارهما من أصول الشريعة ، ولكنه يقول إنهما داخلان فيما تقدم ، ماثلين فيه ، ثم يفيض فى شرح ذلك على طريقته من تصنيف القياس إلى أقسام وفروع لا نهاية لها . ومما هو جدير بالذكر أنه يعتبر « قياس الوجود » ، إنما هو « قياس المجسمة » وهم فى نظره المرابطون ، ويعتبره من ضروب القياس الفاسد[3] ، ثم يعود إلى القياس فى موضع آخر ، فيقول إنه « لا فرق بين القياس العقلى والشرعى فى الإضطراد إذا حقق معناه ، فإن القياس العقلى هو المساواة فيما يجب ويجوز ويستحيل . والقياس الشرعى هو المساواة فى الوجوب أو التحليل

---

(١) كتاب محمد بن تومرت أو أعز ما يطلب ص ٦٣ – ١٦٣ .

(٢) كتاب محمد بن تومرت أو أعز ما يطلب ص ١٦٣ .

(٣) كتاب محمد بن تومرت ص ١٦٥ .

أو التحريم ، فهذه الثلاث هى المعتبرة فى القياس الشرعى ، وهى مضطردة فى جميع الشرع ، فمتى خرج عن هذه الثلاث أو واحدة منها لم يصح قياس ولايقاس بعضها على بعض لأنها متناقضة . ولايصح القياس فى المتناقضات ، خلافاً لما ذهب إليه من لامعرفة عنده بالقياس ، فقاسوا المتناقضات كالمحرمات على المباحات ، ومزقوا الشرع كل ممزق (١) .

أما عن الاجتهاد كأصل منه أصول الشريعة ، فإن ابن تومرت يحمل عليه ، ويقول مشيراً إلى إثبات النفى ، إنه قلب للحقائق ، وقلب الحقائق محال ، ثم يقول « إن هذه القاعدة كثيرة الإلتباس ، وعنها زل كثير من الناس ، وبالجهل بها ، وعدم التحقيق لها ، قالوا كل مجتهد مصيب ، فجعلوا هذه المقالة سلما إلى هدم الشريعة ، وإسناد الأحكام إلى غير مستندها ، وعكس الحقائق عن موضوعها ، وصيروا الحلال حراما ، والحرام حلالا ، وجعلوا الشرع متناقضاً ، واتبعوا قولة كل قائل ، وإن تناقضت ، واعتقدوا الحق فى المجتهدات وإن تعارضت »(٢) .

ومعنى ذلك بقول آخر أن ابن تومرت كان يأخذ فى تفسير الشريعة بالمذهب الظاهرى ، فيمايقول به من وجوب الاعتماد فى استقاء الأحكام على القرآن والسنة دون غيرهما ، وقد كان الإمام الفيلسوف ابن حزم القرطبى ، يرى فوق ذلك أن يطبق المذهب الظاهرى على العقائد ، ويرى أنه يجب أن يؤخذ بمعنى الكلمة المكتوبة والحديث الثابت ، ويعتبرهما حاسمين . ومن الغريب أن الظاهرية لم تنتظم فى ظل الموحدين إلى مدرسة مذهبية إلا بعد المهدى بنحو ستين عاماً فى عصر الخليفة يعقوب المنصور ، ففى هذا الوقت ، فقط اعترف بأن الظاهرية هى المدرسة الفقهية الرسمية . بيد أنها لم تكن مدرسة ناجحة ، وقد أخفقت فى حل كثير من المسائل(٣) .

وإنكار ابن تومرت لقيمة الاجتهاد كمصدر من مصادر الشريعة ، ومعارضته لجهود المجتهدين فى تجديد الشريعة ، والاستنباط فى مجال الاجتهاد ، من الأمور المنطقية ، لأن ابن تومرت يتشح بثوب « الإمام المعصوم » الذى لا تبحث آراؤه ، ولاترد أحكامه . ويلاحظ العلامة جولدسيهر أن ابن تومرت يخالف بهذه النظرية سائر الآراء السنية التى تسلم بقيمة آراء المجتهدين فى الإمامة وغيرها ، ويفرض

---

(١) كتاب محمد بن تومرت ص ١٧٣ ، ١٧٤ .
(٢) كتاب محمد بن تومرت ص ٢٥ .
(٣) الأستاذ شتروتمان فى دائرة المعارف الإسلامية ( مقال الظاهرية ، وابن حزم ) .

على أتباعه وجوب الاعتقاد فى الإمام المعصوم ، والإمام المعلوم ، وذلك وفقاً لرأى الشيعة . فهم يعتبرون ، حسبما بصوغ لنا رأيهم الشهرستانى « بأن الإمامة ليست قضية مصلحية ، تناط باختيار العامة ، وينتصب الإمام بنصبهم ، بل هى قضية أصولية ، وهى ركن من أركان الدين ، لايجوز للرسول إغفاله وإهماله ، ولاتفويضه إلى العامة وإرساله . ويجمعهم أى الشيعة القول بوجوب التعيين والتنصيص ، وثبوت عصمة الأئمة وجوباً عن الكبائر والصغائر »(١) . كذلك يلاحظ جولدسيهر بهذه المناسبة أن ابن تومرت بموقفه من الاجتهاد ، يعارض الإمام الغزالى ، الذى يعلق أهمية كبيرة على مبادئ الاجتهاد . ومن جهة أخرى ، فإن الغزالى يعارض نظرية الإمام المعصوم فى غير كتاب من كتبه . وقد أشار إلى ذلك فى أحدى رسائله ، وهى « المنقذ من الضلال » . وفيها يحيل إلى ما سبق أن كتبه فى ذلك من مختلف الفصول ، ثم يحمل على فكرة « المعصوم » ويسخر منها فى عبارة موجزة (٢) .

ثم إن الخلاف بين ابن تومرت والغزالى لايقف عند هذا الحد . والواقع أنه ليس من الحقيقة فى شىء ، أن يقال إن ابن تومرت قد تأثر بتعاليم الغزالى سواء من تتلمذه المزعوم عليه بالمشرق ، أو بدراسة كتبه ونظرياته . وإليك ما يقوله لنا العلامة جولدسيهر فى ذلك : « إن المستخلص من قراءة كتب الغزالى أن ابن تومرت لم يسترشد سواء فى تعاليمه أو أعماله بتعاليم الغزالى ، بل هناك ما هو أكثر ، وهو أن التعصب الذى أبداه ابن تومرت نحو مسائل العقيدة ، يدل على أنه لم يتأثر بنفوذ الغزالى الشخصى . ذلك أن طريقة « الأستاذ » الرفيقة الموفقة ، وميوله المشبعه بالتوقير للإيمان التقليدى ، هى أبعد مما نجده فى تصرفات الثورى « المصمودى » . ولو أن الغزالى عاش مدة أطول ليتتبع حياة ابن تومرت ، وطُلب إليه أن يصدر فى شأنه فتوى ، لأصدر فتواه بنقض عمل تلميذه المزعوم ، وأنه لايوحد أجدر بلوم الغزالى ، من ذلك التقديم المغصوب « للتأويل » بين الطبقات الدنيا لشعب يتسم بالبداوة »(٣) .

---

(١) كتاب الملل والنحل للشهرستانى المنشور على هامش الفصل والنحل لابن حزم « القاهرة » ج ١ ص ١٩٥ .

(٢) المنقذ من الضلال ( طبعة القاهرة سنة ١٣٠٩ ص ١٩ ) . وراجع مقدمة العلامة جولدسيهر الفرنسية لكتاب ( محمد بن تومرت ) Mohamed ibn Toumert et la Théologie de l'Islam dans le. Maghreb au XI eme Siècle, p. 21, 22& 40

(٣) جولدسيهر فى مقدمته الفرنسية السالفة الذكر ص ٨٣ .

ثم يحدثنا ابن تومرت بعد ذلك عن « العموم والخصوص ، والمطلق والمقيد ، والمجمل والمفسر ، والناسخ والمنسوخ ، والحقيقة والمجاز ، والكناية والتعريض والتصريح ، والأسماء اللغوية التي غلب عليها العرف وخصصها ، والأسماء المنقولة من اللغة إلى عرف الشرع » ، وهو يتناول هذه الأشياء على ضوء الدين ، ويمثل لها بمختلف الآيات القرآنية . ثم يعود فيحدثنا من جديد عن العلم وفضله وتقاسيمه فى فصل خاص ، ينحو فيه منحاه المأثور فى التصنيف والتقسيم .

— ٢ —

بعد ذلك ينتقل بنا ابن تومرت إلى مسألة العقيدة ، ويحدثنا عن التوحيد ، وعن دلائل وجود البارى سبحانه ، وتنزيهه عن التشبيه . وإذا كان التوحيد فى الأصل ركناً من أركان الإسلام الأساسية ، فإنه يعتبر هنا وبنوع خاص أساساً لمذهب ابن تومرت الدينى والسياسى معاً ، وهو يتحول على يد المهدى من صفته الدينية إلى فكرة سياسية ، هى التى أضحت أساس الدولة الموحدية ، ودعامة سلطانها الأولى . ويلاحظ العلامة جولدسيهر بهذه المناسبة ، أن فكرة التوحيد لم يبق معناها فيما بعد ، هو الاعتراف بوحدانية الله ، ولكن غدا معناها الخضوع لحكومة الموحدين(١) ، ويستشهد على ذلك بما ذكره ابن صاحب الصلاة فى تاريخه من خضوع الزعيم الأندلسى إبراهيم بن همشك لحكومة الموحدين فى سنة ٥٦٤ هـ ووصفه ذلك الخضوع فى قوله : « توحيد ابن همشك » ، والتعبير عن رغبته فى الاستسلام برغبته فى « التوحيد والتوبة »(٢) ويقدم إلينا ابن تومرت بعد ذلك صيغة التوحيد وصيغ التسبيح التى وضعها لأتباعه ، وهى صيغ تردد مضمون عبارات التوحيد والتقديس التى عرفت منذ الأجيال(٣) .

على أن أهم ما يتضمنه كتاب ابن تومرت ، هو كلامه عن الإمامة وعن الإمام المعصوم ، وعن المهدى وعلاماته ، وعن قيام الطائفة التى تقوم فى آخر الزمان لتقاتل فى سبيل الحق . ويمكننا أن نعتبر هذا الفصل لب الكتاب ، ولب مذهب

---

(١) I. Goldziher : Materialien zur Kentniss der Almohaden Bewegung. (Z. der Mog. Gesellsch. 1887). p. 70.

(٢) فى كتاب « المن بالإمامة على المستضعفين » ( مخطوط أكسفورد السالف الذكر ، لوحة ١٢٦ ب ) .

(٣) كتاب المهدى ابن تومرت ص ٢٤٠ — ٢٤٤ ، وقد نقلنا بعضها فى باب الوثائق فى نهاية الكتاب .

ابن تومرت كله ، ولب دعوته السياسية كلها ، فإن الإمامة الدينية ، هى الشعار السياسى الذى انتحله ابن تومرت ، دعامة لزعامته وسلطانه . ونظرية المهدى المنتظر ، هى الثوب الروحى الذى اتشح به ، لتأييد شرعية إمامته وقدسيتها . ونحن نعرف أن الإمامة هى شعار الدعوة الشيعية ، الدينى والسياسى ، وأنها تخص بها آل البيت دون سواهم ، وعلى كر العصور . ولكن ابن تومرت ، فى تمسكه بنظرية الإمامة ، يبدو مستقلا ، بعيداً عن الدعوة الشيعية ، وممثلا لدعوة خاصة ، وإن كان فى نفس الوقت يحرص على أن ينتسب إلى آل البيت ، حتى تتوفر فيه شرعية الإمامة ، وإليك كيف يعرض لنا ابن تومرت نظرية الإمامة وخصائصها حين يقول :

« هذا باب فى العلم ، وهو وجوب اعتقاد الإمامة على الكافة ، وهى ركن من أركان الدين ، وعمدة من عمد الشريعة ، ولايصح قيام الحق فى الدنيا إلا بوجوب اعتقاد الإمامة فى كل زمان من الأزمان إلى أن تقوم الساعة . ما من زمان إلا وفيه إمام لله قائم بالحق فى أرضه من عاد إلى نوح ، ومن بعده إلى ابراهيم . . ولايكون الإمام إلا معصوماً من الباطل ليهدم الباطل ، لأن الباطل لايهدم الباطل ، وأن يكون معصوماً من الضلال ، لأن الضلال لايهدم الضلال .. وأن يكون معصوماً من الجور لأن الجائر لا يهدم الجور بل يثبته ، وأن يكون معصوماً من البدع ، لأن المبتدع لايهدم الكذب بل يثبته ، وأن يكون معصوماً من العمل بالجهل ، لأن الجاهل لايهدم الجهل ، وأن يكون معصوماً من الباطل لأن المبطل ، لا يهدم الباطل ، كما لاتدفع النجاسة بالنجاسة ، وكما لاتدفع الظلمة بالظلمة ، كذلك لايدفع الفساد بالفساد ، ولايدفع الباطل بالباطل ، وإنما يدفع بضده الذى هو الحق ، لايدفع الشىء إلا بضده ، ولا تدفع الظلمة إلا بالنور ، ولايدفع الضلال إلا بالهدى ، ولايدفع الجور إلا بالعدل ، ولاتدفع المعصية إلا بالطاعة ، ولايدفع الاختلاف إلا بالاتفاق ، ولايصح الاتفاق إلا باستناد الأمور إلى أولى الأمر ، وهو الإمام المعصوم من الباطل والظلم »[1]. ثم يعود ابن تومرت فيؤكد أهمية الإمامة كركن جوهرى من أركان الدين ، ووجوب اعتقادها والخضوع لها فى قوله :

« والإمامة هى عمدة الدين وعموده على الإطلاق فى سائر الأزمان ، وهو دين السلف الصالح ، والأمم السالفة إلى إبراهيم وما قبله ، فاعتقادها دين ، والعمل بها

---

(١) كتاب محمد بن تومرت ص ٢٤٥ و٢٤٦ .

دين ، والتزامها دين ، ومعناها الإتباع والاقتداء ، والسمع والساعة ، والتسلم ، وامتثال الأمر ، واجتناب النهى ، والأخذ بسنة الإمام فى القليل والكثير »[١] .

وإنه لا يمكن أن تكون ثمة تأكيدات أخطر من هذه وأشد فعلا ، وأبعد أثراً فى النفوس ، لتأكيد الزعامة الدينية والسياسية ، والانضواء تحت لوائها ، والإذعان لسلطانها . وقد كان المهدى يخاطب بأسلوبه القوى المنذر ، مجتمعاً يسوده الجهل ، وتسيطر عليه الخرافة ، فكانت أقواله وتعاليمه تنساب إلى هذا المجتمع الساذج ، كقرآن جديد . كيف لا وهو يؤكد بأنه « لا يكذب بهذا ، إلا كافر أو جاحد أو منافق أو زائغ أو مبتدع أو مارق أو فاجر أو فاسق ، أو رذل أو نذل ، لا يؤمن بالله واليوم الآخر »[٢] .

— ٣ —

ثم إن هذه الإمامة المطلقة الواجبة الطاعة فى كل زمان ومكان ، لابد أن تتوج بصبغة خاصة تؤكد من شرعيتها وتزيد فى قدسيتها ، وتجعلها أقرب إلى مراتب النبوة ، وتلك هى صفة المهدى المنتظر . وهى أسطورة من أقدم الأساطير الدينية فى الإسلام . ويرجعها البعض إلى عصر النبى ذاته . وهنالك طائفة من « الأحاديث » تشير إلى هذه الأسطورة . وهنالك أيضاً طائفة من الأقوال المأثورة تنسب لجماعة من أكابر الصحابة . ولكن هذه الأحاديث والأقوال ، موضع كثير من الجدل والريب ، وهى على الأغلب من خلق الشيعة الذين استغلوا هذه الأسطورة على كر العصور ، واتخذوها سبيلا إلى تحقيق السلطان السياسى . وخلاصة هذه الأحاديث والأقوال « إنه لابد فى آخر الزمان من ظهور رجل من آل البيت ، يؤيد الدين ويظهر العدل ، ويتبعه المسلمون ، ويعيد مجد الإسلام ودولته ، ويسمى بالمهدى » أو على حد عبارتهم المأثورة ، وهى أن المهدى يخرج فى آخر الزمان « فيملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا » . وقد كان قيام الدولة الفاطمية الشيعية بإفريقية ثم بمصر ، فى أوائل القرن الرابع الهجرى ، أعظم وأروع استغلال لهذه الأسطورة . وهذا الثوب القدسى — ثوب المهدى المنتظر — هو الذى اعتزم محمد بن تومرت أن يتشح به ، وأن يتوج به أمامته وسلطانه السياسى . ومن ثم فإنا نراه ، بعد أن يحدثنا عن أهمية الإمامة . وكونها ركن الدين الركين ، يعرض

---

(١) كتاب محمد بن تومرت ص ٢٥٣ و ٢٥٤ .

(٢) كتاب محمد بن تومرت ص ٢٥٤ .

لنا نظرية المهدى بقوة وحماسة . وهو يستهل كلامه بوصف مثير لأحوال العصر الذى تلا عصر النبوة والخلفاء الأربعة ، وما ساد فيه من ضروب التفرق والهوى والفتن ، وهو العصر الذى « يذهب فيه العلماء ، ويظهر الجهال ، ويذهب الصالحون ، وتبقى الحثالة ، ويذهب الأمناء وتبقى الخونة ، وتذهب الأئمة ، وتظهر المبتدعة ، ويذهب الصادقون ، ويظهر الدجالون ، ويذهب أهل الحقائق ، ويظهر أهل التبديل والتغيير والتلبيس والتا ليس ، حتى انعكست الأمور ، وانقلبت الحقائق وعطلت الأحكام ، وفسدت العلوم ، وأهملت الأعمال ، وماتت السنن ، وذهب الحق ، وارتفع العدل ، وأظلمت الدنيا بالجهل والباطل ، واسودت بالكفر والفسوق والعصيان ، وتغيرت بالبدع والأهواء ، وامتلأت بالجور والظلم والهرج والفتن » . ثم جاء المهدى فى زمان الغربة ، فى الوقت الذى عكست فيه الأمور ، وقلبت الحقائق ، وبدلت الأحكام « وخصصه الله بما أودع فيه من معانى الهداية ، ووعده قلب الأمور عن عاداتها ، وهدمها بهدم قواعدها ، ونقلها إلى الحق بإذن الله ، حتى تنتظم الأمور على سنن الهدى ، وتستقيم على منهاج التقوى ، وينهدم الباطل من قواعده ، وتنهدم بانهدامه فروعه ، ويثبت الحق من أصله ، وتثبت بثبوته فروعه ، ويظهر العلم من معادنه ، ويشرق نوره فى الدنيا بظهوره ، حتى يملأها عدلا ، كما ملئت قبله جوراً ، بوعد ربه كما وعد ، وبفضله كما سبق ، هذا ما وعد الله للمهدى ، وعد الحق الذى لايخلفه »(١) .

وهذا المهدى ، الذى تستحيل على يده شئون العالم ، من الفساد الشامل ، والظلم المطبق ، إلى الصلاح والعدل الشامل ، « لا ند له فى الورى » ولن يجد « من يعانده ، ولامن ينازعه ، ولامن يخالفه ، ولامن يضاده » ، ومن ثم فإن ابن تومرت يؤكد لأتباعه وأنصاره وجوب طاعة المهدى ، والإيمان برسالته ، والإذعان لمشيئته ، والاستسلام لحكمه ، وذلك بصورة مطلقة يعرضها لنا على النحو الآتى :

« فالعلم به واجب ، والسمع والطاعة له واجب ، واتباعه والاقتداء بأفعاله واجب ، والإيمان به والتصديق به واجب على الكافة ، والتسليم له واجب ، والرضى بحكمه واجب ، والانقياد لكل ما قضى واجب ، والرجوع إلى علمه واجب ، واتباع سبيله واجب ، والاستمساك بأمره حتم ، ورفع الأمور إليه بالكلية لازم » .

---

(١) كتاب محمد بن تومرت ص ٢٤٩ — ٢٥١ .

وليس ذلك فقط ، فإن طاعة المهدى ، والاستسلام إليه ، إن هى إلا طاعة الله ورسوله ذاتها ، « فإن سنة المهدى هى سنة الله ورسوله ، وأمره أمر الله ورسوله ، وطاعته طاعة الله ورسوله ، والانقياد له الانقياد إلى الله ورسوله ، وموافقته موافقة الله ورسوله ، وتعظيم حرماته تعظيم حرمات الله ورسوله . هو أعلمهم بالله ، وأقربهم إلى الله ، به قامت السموات والأرض ، وبه كشفت الظلمات ، وبه تدفع الأباطيل ، وبه تظهر المعارف ، وبموافقته تُنال السعادة ، وبطاعته تنال البركات»[1] .

أما أولئك الذين تسول لهم أنفسهم مخالفة المهدى ، ومعارضته أو الشك فى أمره ، فويل لهم . ولم ينس ابن تومرت أن يتوعد هؤلاء بشر النكال . ذلك أن من ناوأ المهدى « فقد تقمع فى الردى ، وليس له التطرق إلى النجاة » . ثم إن « أمر المهدى ختم ، ومن خالفه يقتل ، لا دفع له فى هذا لدافع ، ولاحيلة فيه لزائغ ، ثبت بثبوت نصوص الكتاب ، وقواطع الشرع ، وبيان العلم ، ودام مادامت السموات والأرض بإذن الله الواحد القهار»[2] .

ويتحدث ابن تومرت بعد ذلك فى فصل قصير عن « القواعد التى بنى عليها علوم الدين والدنيا » يتناول فيه أموراً شتى ، ومما جاء فيه : « أن القيام بأمر الله واجب ، وأن الفساد يجب دفعه على الكافة ، ولايجوز التمادى فيه ، وإن من منع فريضة واحدة كمن منع الفرائض كلها ، وان التمادى على ذرة من الباطل ، كالتمادى على الباطل كله ، وأن الهوى لايجوز إيثاره عن الحق ، وان الدنيا لا يجوز إيثارها على الآخرة ، وان الحق لا يجوز تلبيسه بالباطل ، وأن العلم ارتفع ، وأن الجهل عم ، وأن الحق ارتفع ، وأن الباطل عم ، وأن الهدى ارتفع ، وأن الضلال عم ، وأن العدل ارتفع ، وأن الجور عم ، وأن الرؤساء الجهال استولوا على الدنيا ، وأن الملوك الصم البكم استولوا على الدنيا ، وأن الدجالين استولوا على الدنيا » ويختتم ابن تومرت هذا الفصل ، بالعود إلى الكلام عن المهدى فى فقرة يلخص فيها كل ما تقدم ، ويؤكده بقوة ، وذلك على النحو الآتى :

« إن الباطل لا يرفعه إلا المهدى ، وان الحق لا يقوم به إلا المهدى ، وان المهدى معلوم فى العرب والعجم ، والبدو والحضر ، وان العلم به ثابت فى كل

---

(١) كتاب محمد بن تومرت ص ٢٥٢ .

(٢) كتاب محمد بن تومرت ص ٢٥١ و ٢٥٤ .

مكان ، وفى كل ديوان ، وأن ما علم بضرورة الإستفاضة قبل ظهوره ، يعلم بضرورة المشاهدة بعد ظهوره ، وأن الإيمان بالمهدى واجب ، وأن من شك فيه كافر ، وأنه معصوم فيما دعا إليه من الحق، لايجوز عليه الخطأ فيه ، وأنه لايكابر ، ولايضاد ، ولايدافع ، ولايعاند ، ولايخالف ولاينازع ، وأنه فرد فى زمانه ، صادق فى قوله ، وأنه يقطع الجبابرة والدجاجلة ، وأنه يفتح الدنيا شرقها وغربها ، وأنه يملؤها بالعدل ، كما ملئت بالجور ، وأن أمره قائم إلى أن تقوم الساعة »[1].

— ٤ —

لم ينس ابن تومرت فى الوقت الذى يعرض فيه دعوته ، ويشيد بنظريته الإمام المعصوم والمهدى المنتظر ، وهى التى اتخذها دعامة لزعامته الدينية ، وسلطانه السياسى ، أن ينظم حملته ضد أصحاب الأمر القائم ، ضد أولئك المرابطين ، الذين كان يرمى إلى تحطيم دولتهم ، والاستيلاء على تراثهم . ومن ثم فإنه يخصهم فى كتابه بفصل ، يشهر فيه عليهم الخصومة والبغض ، ويحاول أن يسبغ على حملته لون القداسة ، وأن يردها إلى أصول دينية ، وهو ينعتهم « بالمبطلين ، والملثمين ، والمجسمين » . ويقول لنا إن لهم علامات خاصة يعرضها لنا فى قوله :

« جميع علاماتهم ظاهرة ، منها ما ظهر قبل مجيئهم من كادم ، ومنها ما ظهر بعد أخذهم البلاد ، ومنها ما ظهر من أحوالهم وأفعالهم . فالذى ظهر منها قبل مجيئهم خمس ، إحداهن أنهم الحفاة ، والثانية أنهم العراة ، والثالثة أنهم العالة ، والرابعة أنهم رعاء الشاء والبهم ، والخامسة أنهم جاهلون بأمر الله . والذى ظهر منها بعد أخذهم البلاد سبع ، إحداهن أنهم فى آخر الزمان ، والثانية أنهم ملوك ، والثالثة أنهم يتطاولون فى البنيان ، والرابعة أنهم يلدون مع الإماء ويستكثرون من الجوارى ، والخامسة أنهم صم ، والسادسة أنهم بكم ، يعنى أنهم صم عن الحق لايستمعون إليه ، بكم عن الحق لايقولون به ، ولايأمرون به ، وكل ذلك راجع إلى الجهل والعدول عن الحق . والسابعة أنهم ما هم أهلا للأمانة فى القيام بأمر الله . والذى ظهر من أحوالهم وأفعالهم ثمان ، إحداهن أنهم فى أيديهم سياط كأذناب البقر ، والثانية أنهم يعذبون الناس ويضربونهم بها ، والثالثة أن نساءهم رؤوسهن كأسنمة النجب ، يعنى أنهن يجمعن شعورهن فوق رؤوسهن حتى تكون شعورهن على تلك الصفة ، والرابعة أنهم كاسيات عاريات ، والخامسة أنهن مائلات يعنى

---

(١) كتاب محمد بن تومرت ص ٢٥٧ .

عن الحق والرشاد . والسادسة أنهن مميلات يعني لغيرهن ،والسابعة أنهم يغدون في سخط ، والثامنة أنهم يروحون في لعنة . هذه علاماتهم ، وجملة علاماتهم عشرون أخبر الرسول بجميعها قبل وجودهم ، فظهرت كلها على وفق ما أخبر به »[١].

ويحاول ابن تومرت أن يثبت صحة هذه العلامات بإيراد « أحاديث » تنسب روايتها إلى عمر بن الخطاب وإلى أبي هريرة ، وفيها ذكر للعلامات المتقدمة ، وأنها من علامات الساعة ، و« أحاديث » أخرى يدمغ فيها الرسول أصحاب هذه العلامات ، بالنار والسخط والغضب واللعنة ، ويذكر فيها صفة نسائهن على النحو الذي تقدم ذكره[٢].

ويتناول ابن تومرت بعد ذلك مثالب المرابطين ، وتحريم طاعتهم ، والحض على جهادهم ، في عدة أبواب رتبت كما يأتي :

( ١ ) باب فيما أحدثوه من المناكير والمغارم ، وتقلبهم في السحت والحرام يأكلون فيه ويشربون ، وفيه يغدون وفيه يروحون ، وتجسيمهم وكفرهم أكبر ( ٢ ) باب في تحريم معونتهم على ظلمهم ، وتصديقهم على كذبهم ( ٣ ) باب في معرفة أتباعهم الذين أعانوهم على ظلمهم ، وصدقوهم على كذبهم ، وبيان أفعالهم ( ٤ ) باب في وجوب مخالفتهم وتحريم الاقتداء بهم ، والتشبه بهم ، وتكثير سوادهم وحبهم ( ٥ ) باب في وجوب بغضهم ومعاداتهم على باطلهم وظلمهم ( ٦ ) باب في تحريم طاعتهم واتباع أفعالهم ( ٧ ) باب في وجوب جهادهم على على الكفر والتحسيم وإنكار الحق ، واستحلال دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم ( ٨ ) باب في وجوب جهاد من ضيّع السنة ومنع الفرائض ( ٩ ) باب في وجوب جهادهم على ارتكاب المناكر والفجور وتماديهم على ما لايؤمرون به ( ١٠ ) باب في وجوب جهادهم على العناد والفساد في الأرض[٣].

وهو خلال ذلك يحاول أن يؤيد أقواله وأحكامه بمختلف الأحاديث والآيات القرآنية . وهو ينعى على المرابطين بنوع خاص — وهو ينعتهم هنا بالمجسمين الكفار — مسألة اللثام ، وتشبههم في ذلك بالنساء ، في تغطية الوجوه بالتلثيم والتنقيب ، وتشبه نسائهم بالرجال في السفور ، وعدم التلثيم والتنقيب ، وتحريم ذلك ، ولعن

( ١ ) كتاب محمد بن تومرت ص ٢٥٨ و ٢٥٩ .

( ٢ ) كتاب محمد بن تومرت ص ٢٦٠ و ٢٦١ .

( ٣ ) كتاب محمد بن تومرت ص ٢٦١ — ٢٦٦ .

من يرتكبه ، وفقاً لحديث تنسب روايته لابن عباس ، ونصه : « لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم المتشبهات من النساء بالرجال ، والمتشبهين من الرجال بالنساء، شملتهم اللعنة جميعاً »(١). على أنه من الإجحاف البين أن تُنعى هذه المسألة بالذات — مسألة اللثام — على المرابطين ، وتعتبر فى حقهم جرماً يستوجب اللعن . ذلك أنها ليست سوى مسألة تقليد قومى وقبَلى لا شأن له بالدين . وقد قيلت فى أصل اللثام وسببه أشياء كثيرة ، منها ما سبق أن أشرنا إليه من قبل ، وهو أن أهل لمتونة — وهى قبيلة المرابطين — كانوا يتخذون فى أعراسهم نوعاً خاصاً من الحجاب ، ومنها أنه حدث ذات مرة فى بعض حروبهم أن نساءهم كن يقاتلن معهم محجبات ، حتى يحسبن بذلك فى عداد الرجال ، ومنها أنهم كانوا يلجأون إلى اللثام تخفياً من طلبة ثأر الدم ، وأخيراً أن اللثام كان من ضرورات الحماية من لفح العواصف والرمال والحر والبرد . وما تزال عادة اللثام قائمة حتى اليوم بين بعض قبائل موريتانيا والسودان وغيرها ، ويقال إن الحكمة فى ذلك هو أن الرجال الأشراف لا يكشفون عن أنفسهم . وأما عن سفور النساء ، فقد قيل إنه لكى يظهر انحطاطهن عن الرجال(٢) .

وأما حملة ابن تومرت على المرابطين بسبب ما أحدثوه من « المناكر والمغارم » فإن لها ما يبررها . وقد سبق أن أشرنا إلى ماكان يسود العاصمة المرابطية ، ( مراكش ) وقواعد المغرب الأخرى ، أيام المرابطين ، من مظاهر الاستهتار والفساد ، ومن ذلك ذيوع الخمر والقصف علناً فى الأسواق ، وغير ذلك من مظاهر الخروج على الدين . وهذا ما يردده المراكشى فى قوله مشيراً إلى على بن يوسف : « وكان رجلا صالحاً ، إلا أنه كان ضعيفاً مستضعفاً ، ظهرت فى آخر زمانه مناكر كثيرة ، وفواحش شنيعة ، من استيلاء النساء على الأحوال واستبدادهن بالأمور ، وكان كل شرير أوقاطع طريق ، ينتسب إلى امرأة قد جعلها ملجأ له ، وزراً على ما تقدم »(٣). ومما هو جدير بالذكر أن أمثال هذه المناكر ، لم تلبث أن ظهرت فى دولة الموحدين ، بعد ذهاب المهدى بفترة قصيرة . ومن ذلك أن

---

( ١ ) كتاب محمد بن تومرت ص ٢٦٤ .

( ٢ ) الإستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى للسلاوى ج ١ ص ٩٨ و ٩٩ ، وكذلك العلامة جولدسيهر فى مقاله : Materialien zur Kentniss der Almohaden Bewegung (Z. d. er Morg. Gesellsch. 1887 p. 101)

( ٣ ) المعجب ص ١٠٣ .

عبدالمؤمن أول الخلفاء الموحدين ، أبى على ولده الأكبر محمد إتمام بيعته لولاية العهد ، لأنه كان مدمناً لشرب الخمر ، ولنقائص أخرى كانت تنسب إليه(١) .

على أنه إذا كان المرابطون ، أوكما بنعتهم ابن تومرت ، طائفة المبطلين من الملثمين والمجسمين ، كانوا يتصفون بما يرميهم به من العيوب والمثالب التى يستحقون من أجلها اللعنات ، والتى تستوجب بغضهم ومعاداتهم ومجاهدتهم ، فإن هناك طائفة أخرى بشر الرسول بظهورها ، وهى التى تقاتل على الحق وتقاتل عنه ، وتقوم به إلى آخر الزمان ، وأن هذه الطائفة تقوم بأمر الله ، لايضرها من خذلها أو خالفها ، وأنها ظاهرة على من عاداها إلى يوم القيامة ، وأنها تقاتل على أمر الله وتقهر عدوها إلى قيام الساعة ، وأنها تقاتل على الحق حتى تجتمع مع عيسى بن مريم ، وحتى يقاتل آخرهم الدّجال ، وأن الله يفتح الدنيا كلها لأهل الغرب ، وأخيراً أن هذه الطائفة ينصرها الله حتى تقوم الساعة . وبالرغم من أن ابن تومرت لا يقول لنا من هى هذه الطائفة بصريح العبارة ، فإنه من الواضح أنه يعنى بها طائفة الإمام المعصوم ، والمهدى المعلوم ، أو بالحرى طائفته الخاصة ، طائفة الموحدين ، وهو يحاول هنا كعادته ، أن يؤيد كل أقواله ونبوءاته بطائفة من الأحاديث(٢) .

وقد سبق أن أشرنا إلى ما ذكره ابن تومرت ، عند الحديث عن العقيدة ، عن التوحيد ودلائل وجود البارى سبحانه . ويلاحظ العلامة جولدسيهر ، أن ابن تومرت قد استعار عبارة « التوحيد » ، ومعناها التعلق بفكرة الله وصفاته ، من « المعتزلة » ، فهم الذين يعطون إسم « التوحيد » فى تعريفهم لفكرة الله ، وهذا ما يوضحه لنا الشهرستانى فى قوله عن المعتزلة : « واتفقوا على نفى رؤية الله تعالى بالأبصار فى دار القرار ، ونفى التشبيه عنه من كل وجه ، جهة ومكاناً وصورة وجسما وتحيزاً وانتقالا وزوالا وتغيراً وتأثراً ، وأوجبوا تأويل الآيات المتشابهة فيها ، وسموا هذا النمط « توحيدا »(٣) .

ومن ثم فإن ابن تومرت ، كان يُشَهِّر فى ظل هذا التفسير لمعنى التوحيد ،

---

(١) المعجب ص ١٣١ .

(٢) كتاب محمد بن تومرت ص ٢٦٧ — ٢٧٠ .

(٣) الشهرستانى فى كتاب « الملل والنحل » ، المنشور على هامش كتاب « الفصل » ( القاهرة ١٣١٧ هـ ) ص ٥٥ .

بالفكرة المادية التى كانت ذائعة فى المغرب فى ظل المرابطين ، والتى تناقض فكرة التوحيد الحقيقية ، ويعتبر المرابطين مسئولين عن فكرة « التجسيم » ، و« التشبيه » الذائعة بين رعاياهم ، وينادى من أجل ذلك بقتالهم ، لأنهم هم السبب فى نشر ذلك الإلحاد الذى يسود العقيدة ، وأنهم يقيمون نظاماً دينياً ، لا تتوجه فكرة الله . ومتى كان المرابطون على هذا النحو من أهل الشرك ، فيجب أن يشهر عليهم الجهاد فى سبيل الله[1].

ويعود ابن تومرت فيتناول التوحيد هنا من ناحية أخرى ، وذلك كعادته فى أبواب متعاقبة . أولها أن التوحيد ، هو أساس الدين الذى بنى عليه ، ثم يحدثنا عن معنى التوحيد ، وتفسير لفظه ، وعن فضله ، وعن شروط الشهادة ، وكون التوحيد يهدم ما كان قبله من الفكر والآثام ، وعن وجوب العلم بالتوحيد وتقديمه على العبادة ، وعن كون التوحيد هو دين الأولين والآخرين من النبيين المرسلين ، وكون دين الأنبياء واحد ، وعن معرفة طريق إثبات العلم بالتوحيد . ثم يتلو ذلك التحدث عن الإيمان وفضله ، والإيمان بالرسول ، وعن معنى الإيمان والعلم ، واتباع الكتاب والسنة ، يتخلل ذلك كله طائفة من الآيات والأحاديث للشرح والتدليل[2].

— ٥ —

يتناول ابن تومرت بعد ذلك طائفة من المسائل الدينية الأخرى التى لا تتصل أصلا بدعوته الدينية أو السياسية ، ولكنها تتضمن مع ذلك ، بعض وقائع وأقوال تتصل بهذه الدعوة . وهو قد تحدث من قبل فى فصل خاص ، عن الصلاة وفضلها وتفاصيلها . وهو يتحدث هنا عن الطهارة ، وعن رفع العلم ، ورفع الدين والموالاة . وفى هذا الفصل يكرر ما سبق ذكره ، من الأحاديث المتعلقة بالناس ، الذين يحملون سياطاً كأذناب البقر ، والنساء الكاسيات العاريات ، والمائلات رؤوسهن كأسنمة البخت ، وهى التى يعدها بين علامات الملثمين المجسمين . ثم يحدثنا بعد ذلك عن « التبديل والتغيير بعد رسول الله » . وفى هذا الفصل يعود إلى ذكر المهدى ، وما روى بشأنه من أحاديث ، تدلى بأنه يكون من آل البيت ، وأن اسمه يطابق اسم النبى ، وأنه يملأ الأرض عدلا

---

(١) جولدسيهر فى مقدمته الفرنسية لكتاب « أعزما يطلب » التى سبق ذكرها ص ٥٦ و ٦١ .

(٢) كتاب محمد بن تومرت ص ٢٧١ — ٢٨٠ .

كما ملئت جوراً ، وأنه يكون من عترة الرسول من ولد فاطمة (١) ، وما ورد فى شأن خروج الدجال وهزيمته (٢). ثم يلى ذلك كلام طويل فى بابين لاعنوان لهما ، وكلاهما يفيض بالأحاديث والأقوال المأثورة المتعلقة بالجنة والنار (٣) .

وبعد أن يحدثنا ابن تومرت عن « الغلول والتحذير منه » وهو الخيانة ، ويقدم إلينا فى ذلك طائفة من القصص النبوية ، يختم كتابه بفصل طويل فى « تحريم الخمر » . وقد رأينا فيما تقدم من حياة ابن تومرت ، كيف كانت الحملة على الخمر ومطاردتها ، وإراقتها وكسر أوانيها ، من أخص ما شغله فى دعوته إلى إزالة المنكر ، وكيف أنه كان يتعرض لصنوف من السخط والأذى ، كلما نشط إلى ذلك ، وهو يقرر أن الخمر محرمة « بالكتاب والسنة وإجماع الصحابة » ويستعرض ما ورد فى ذلك من الآيات والأحاديث ، ويبين لنا أنواع الخمر المجمع على تحريمها فى عصر الإسلام ، وهى التى كانت تصنع من العنب والتمر والعسل والشعير ، وهى كلها محرمة فى رأيه قليلها وكثيرها ، ومن الواجب إراقتها وكسر أوانيها ، وهو يؤيد أقواله هنا بمختلف الأحاديث وأقوال الصحابة (٤) .

أما الفصل الأخير من الكتاب ، وهو الذى يلى « كتاب تحريم الخمر » وعنوانه « كتاب الجهاد » فهو ليس من تأليف ابن تومرت ، وإنما هو من تأليف الخليفة أبى يعقوب يوسف ، ولد الخليفة عبد المؤمن بن على وذلك حسبما يبدو من النبذة التى اختتم بها الكتاب ، وأشير فيها إلى تمام « كتاب الجهاد » وجميع تعاليق « الإمام المعصوم ، المهدى المعلوم ، وذلك مما أملاه سيدنا الإمام الخليفة أمير المؤمنين . . وذلك فى العشر الأواخر من شعبان سنة تسع وسبعين وخمسمائة » (٥) .

وكتاب الجهاد ، والترغيب فيه ، يضم طائفة كبيرة من الأحاديث التى وردت فى فضل الجهاد ، والحث عليه . وتبيان محاسنه ، وفضل الشهادة فى سبيل الله . ويلحق بذلك الكلام على الجهاد بالمال وماورد فيه أيضاً من الأحاديث (٦) . وهذا

(١) كتاب محمد بن تومرت ص ٣٠٥ و ٣٠٦ .
(٢) كتاب محمد بن تومرت ص ٣٠٩ .
(٣) كتاب محمد بن تومرت ص ٣١٣ — ٣٤٦ .
(٤) كتاب محمد بن تومرت ص ٣١٣ — ٣٧٦
(٥) كتاب محمد بن تومرت ص ٤٠١ .
(٦) راجع كتاب الجهاد ( من كتاب محمد بن تومرت ) ص ٣٧٧ — ٤٠٠ .

الفصل وما ورد فيه من الأحاديث العديدة ، يتفق تمام الإتفاق مع ما أثر عن مقدرة الخليفة أبى يعقوب يوسف العلمية ، وبراعته فى علم الحديث ، والعلوم الشرعية ، وتقدمه « فى علم الإمام المهدى »[١].

— ٦ —

إن كتاب « أعز ما يطلب » حسبما تبين من استعراض فصوله ومحتوياته ، يمكن أن يعتبر وصية ابن تومرت العقيدية والسياسية ، ويمكننا أن نعتبر ماورد فيه من تعاليم ومبادئ ، خاصة بالإمامة والزعامة السياسية والدينية ، أساس الدولة الموحدية الروحى والسياسى . على أن ابن تومرت قد ترك لنا بالعربية مؤلفاً آخر ، هو كتاب « الموطأ » المسمى « موطأ الإمام المهدى » وهو كتاب ضخم يتناول فيه ، على نسق « موطأ الإمام مالك » ، أبواب العبادات والمعاملات والحدود .

ونحن نعرف أن مذهب الإمام مالك[٢] كان منذ أواخر القرن الثانى للهجرة ، هو المذهب المفضل فى المغرب والأندلس . وبالرغم من أن ابن تومرت قد درس بالمشرق ، على عدد من أقطاب عصره ، فإنه لبث على تقاليد علماء المغرب الراسخة ، من اتباع المذهب المالكى ، ومن ثم فإنه يقدم لنا ثمرة شروحه للعبادات والمعاملات والحدود ، أوبعبارة أخرى لعلم الفروع ، متسمة باسم موسوعة الإمام مالك ، جارية على مذهبه وآرائه ، بل إنه ليبدو ، حسبما جاء فى مقدمة « موطأ » ابن تومرت ، أن مصنفه ليس إلا مختصراً من مصنف الإمام مالك . فقد جاء فى مقدمته طبعته التى نشرت بالجزائر فى سنة ١٣٢٣ هـ ( ١٩٠٥ م ) ، مايأتى : « قابلنا موطأ المهدى بموطأ الإمام مالك ، من رواية يحيى بن يحيى ، فوجدناه مختصراً منه بحذف الأسانيد مع تقديم وتأخير وزيادة تراجم وتفاصيل على أسلوب مفيد وترتيب سديد » .

ويحتوى موطأ المهدى على سفرين : يتناول السفر الأول الكتب الآتية : الطهارة والصلاة ، والجنائز والصيام ، والاعتكاف والزكاة ، والحج والجهاد ، والإيمان والنذور .

ويتناول السفر الثانى الكتب الآتية : الضحايا والعقيقة ، والذبائح والصيد ، والأشربة ، والحدود ، والنكاح ، والطلاق ، والرضاع ، والبيوع ، والشفعة ،

---

( ١ ) ابن صاحب الصلاة فى كتاب « المن بالإمامة » المخطوط السالف الذكر لوحة ٤٦ أ .

( ٢ ) الإمام مالك بن أنس ( ٩٥ — ١٧٩ هـ ) أحد أقطاب المذاهب الأربعة .

والرهن ، والإجارة ، والمساقاة ، والفرائض ، والعتق ، والمكاتب ، والتدبير ، والعقول ، والقسامة ، والتعدى والغصب ، والأقضية والجامع .

ومن الواضح أنه ليس فى كتاب « موطأ المهدى » ما يهمنا من الناحية التاريخية . بيد أننا نستطيع أن نتخذه دلالة على ماكان يتصف به ابن تومرت من النشاط العلمى ، والمقدرة الفقهية ، واجتهاده فى أن يبصر قومه بأحكام الدين الصحيحة ، ولاريب أن كتب ابن تومرت كانت تنتشر بين قومه بالبربرية لغتهم القومية ، فيزداد بذلك نفوذها وتأثيرها ، وقدكان من أعظم مزايا ابن تومرت العلمية ، مقدرته البارزة فى إتقان اللغتين العربية والبربرية ، وكان وعظه ومخاطبته لقومه بالبربرية ، تنفذ إلى سويداء قلوبهم ، وتزيدهم فتنة وبه وتعلقاً ، وتعمل على توطيد مكانته الدينية والسياسية . وكانت كتب ابن تومرت ، بعد القرآن والسنة ، هى أشد الكتب الدينية احتراماً بين أقوام الموحدين على اختلاف قبائلهم ، لأنها نظراً لكتابتها بالبربرية ، كانت ذائعة ، وكانت فى متناول كل إنسان .

# الفصل الرابع

## الصراع بين المرابطين والموحدين

### المرحلة الثانية

خلافة عبد المؤمن . مختلف الروايات حول تاريخها وكيفية وقوعها . أهل عبد المؤمن ونسبته العربية . أساطير حول قدره وتخصيصه بالخلافة . مولده ونشأته . اتصاله بابن تومرت . قيادته للجيوش الموحدية . عزمه على استئناف الجهاد . خروجه من تينملل فى القوات الموحدية . استيلاؤه على تازاجورت وقصبة تادله وعلى درعة وحصن تاسغيموت . عودته إلى تينملل . محاولة ابن ملوية وإخمادها . إنسلاخ الفلاكى الأندلسى عن المرابطين وانضمامه للموحدين . اتخاذ عبد المؤمن ألقاب الخلافة . غزواته فى الأعوام التالية . استيلاؤه على تارودانت عاصمة بلاد السوس . هزيمة المرابطين وفرارهم . غزوه لأحياء بنى بيغز . دفاع بنى بيغز ثم جنوحهم إلى الطاعة . خروج عبد المؤمن إلى الغزو ثانية . تحركه إلى أرض حاحة ونزوله فى أحياء بنى ملول . إغارته عليها وقتله لأهلها . مسيره إلى أجر فرجان . لقاؤه بالمرابطين بقيادة تاشفين بن على والربرتير . هزيمة المرابطين . مبادرة جزولة لإنجاد المرابطين . هزيمتها ومقتل معظمها . ارتداد تاشفين إلى مراكش . رواية ابن عذارى عن هذه الموقعة . خروج تاشفين والربرتير ثانية لمحاربة الموحدين . اللقاء فى تيزغور . هزيمة المرابطين وجرح الربرتير . الربرتير وأصله وظروف التحاقه بخدمة المرابطين . قيادته للمرابطين فى معارك أراضى كدميوه والسوس . غزو عبد المؤمن لأرض السوس . تبادل النساء الأسرى بين الفريقين . حملة عبد المؤمن الكبرى . مسيره إلى الشمال الشرقى . غزوه لعدد من القواعد والقلاع المرابطية . اختراقه لأرض فازاز واحتلاله لأزرو . مسيره شمالا نحو فاس . وصول القوات المرابطية بقيادة تاشفين والربرتير . مقاساتها لأهوال البرد . انحدار الموحدين إلى منطقة الأطلس الوسطى . احتلالهم لوادى ملوية . مسيرهم نحو أرض غياثة ونزولهم فى جبل عفرا . نزول المرابطين قبالهم فى السهل . عصف الرياح والأمطار بالمحلتين . رواية أخرى لابن القطان عن الحملة الموحدية إلى غياثة . مسير الموحدين إلى أرض لكاى . مسير المرابطين بقيادة تاشفين والربرتير فى أثرهم . التحام الربرتير فى بعض قواته مع الموحدين فى تازغدرا . مسير الموحدين نحو القصر الكبير . مسير المرابطين فى إثرهم . وصول الموحدين إلى المزمة . قصة مقتل ابراهيم أخى عبد المؤمن . اقتحام الموحدين لثغر مليلة وسبى نسائه . مسيرهم إلى تاجرا . الحملات الموحدية تقتحم وهران وبنى واثون وجبل مديونة . ارتداد المرابطين إلى فاس وبقاء الموحدين قرب تلمسان . وفاة أمير المسلمين على بن يوسف. بلوغ الدولة المرابطية ذروتها فى عهده . استخدامه للمرتزقة النصارى . إنشاؤه للفرقة الأجنبية بقيادة الربرتير . عزمه على إقالة ولده تاشفين . بعض الأحداث التى وقعت فى أواخر عهده . صفاته وخلاله . حشده لأعلام الكتابة فى بلاطه . أولاده . اختلال الدولة المرابطية ، وانشقاقها فى أواخر عهده . خروج بنى زمانو على تاشفين بن على . مسير الربرتير لعقابهم . إنجاد الموحدين لهم . اقتحام الموحدين لبنى عبد الواد وبنى بيلومى . هزيمتهم ومصرع معظم أصحابهم على يد المرابطين . مسير عبد المؤمن من تلمسان إلى أرض

يلومى . مسير تاشفين إلى تلمسان . إرساله حملة قوية ومعها الربرتير إلى منداس . طريقة عبد المؤمن المبتكرة فى لقاء خصومه . معركة منداس الكبرى . هزيمة المرابطين الساحقة وغنائم الموحدين الوفيرة . غزو النورمانيين لسبتة ورد الأسطول المرابطى لها . مصرع الربرتير فى معركة بينه وبين الموحدين . رواية ابن عذارى عن ذلك . مغادرة النصارى للمعسكر المرابطى . استنفار تاشفين لسائر الحشود المرابطية . مقدم ولده تاشفين إليه وتوليته عهده . سير الموحدين ونزولهم بالصخرتين قرب تلمسان . نزول المرابطين قبالهم فى سطفسيف . وصول الحشود المرابطية . اشتباك الفريقين وهزيمة المرابطين فى معركة بظاهر الصخرتين . مسير تاشفين فى قواته إلى وهران . إرساله ولده ابراهيم إلى مراكش . مقدم بعض سفن الأسطول المرابطى إلى مياه وهران . مسير عبد المؤمن فى أثر تاشفين . فتك الموحدين بأحياء لمتونة فى تلك الجهة . نزول الموحدين فوق جبل وهران . مغادرة معظم القادة المرابطين لتاشفين . اقتحام الموحدين للمحلة المرابطية . فرار تاشفين وخاصته إلى الحصن المطل على البحر . إضرام الموحدين النار حول الحصن . فرار تاشفين فى الليل وسقوطه ومصرعه . روايات أخرى عن مصرع تاشفين . فتك الموحدين بالمرابطين . فرار الفلول المرابطية من تلمسان . دخول عبد المؤمن تاجررت وقتله لأهلها . دخوله تلمسان وقتله لأهلها . روايات أخرى عن دخوله تاجررت وتلمسان . نزوله بتلمسان وتنظيمه لشئون المنطقة . مسيره إلى فاس .

كانت خلافة عبد المؤمن بن على ، للمهدى ابن تومرت ، فى رياسة الموحدين ، حدثا ذا شأن ، وكانت فاتحة عهد جديد فى تاريخ الدولة الموحدية ، هو عهد التوطد والنماء .

وتختلف الرواية أيما اختلاف فى ظروف تولية عبد المؤمن . فهناك القول بأن بيعة عبد المؤمن ، قد تمت على أثر وفاة ، المهدى أو بعدها بأيام قلائل ، وأن المهدى هو الذى رشحه لخلافته قبيل وفاته وهذه هى رواية ابن القطان ، إذ يقول لنا إنه لما توفى المهدى ، كتم أصحابه وأهل الدار ، وهم خدمته ، وأخته شقيقته ، موته ، وبايعوا الإمام أمير المؤمنين ( يريد عبد المؤمن ) فى الحين « بيعة سر » ، ثم يقول فى موضع آخر ، إن عبد المؤمن بويع على أثر موت الإمام المهدى عام أربعة وعشرين وخمسمائة « بيعة خاصة » . وهناك قول آخر ، بأنه لما توفى المهدى كتم أصحابه موته بعض الوقت ، حتى يتفقوا على من يتولى الخلافة من بعده . ويقول لنا ابن صاحب الصلاة مؤرخ الدولة الموحدية وكذلك ابن القطان ، إن هذه المدة استطالت إلى عام سبعة وعشرين وخمسمائة ، أعنى مدى ثلاثة أعوام ، بويع من بعدها عبد المؤمن بيعته العامة ، وذلك حين أعلن موت الإمام المهدى . ثم يقص علينا ابن صاحب الصلاة بعد ذلك قصة الحيلة ، التى دبرها عبد المؤمن ليقنع الموحدين ببيعته ، وهى تتلخص فى قصة الطائر والشبل ، اللذين دربهما خفية ، خلال هذه المدة ، الطائر على أن يدعو له بالخلافة ، والشبل على أن

بجلس بين يديه وادعاً هادئاً . ثم دعوته بعد ذلك الأشياخ الموحدين إلى مجلسه ، واستشارتهم فى أمر من يتولى الخلافة ، ودعاء الطائر له بنطقه « العز والتمكين للخليفة عبدالمؤمن أمير المؤمنين » ومثول الشبل بين يديه ، رابضاً مطيعاً لإشارته ، وتأثر الحاضرين بذلك ومبايعتهم له(١) .

بيد أنه بغض النظر عما يطبع هذه الرواية من مبالغة ، وجنوح إلى الأسطورة ، فإنه توجد لدينا أكثر من رواية وثيقة تؤيد القول ، بأن بيعة عبد المؤمن ، قد تمت عقب وفاة المهدى ، ووفقاً لسابق إشارته . من ذلك ماذكره أبو بكر الصنهاجى المكنى بالبيذق ، وهو كما تقدم من أصحاب المهدى الأوائل ، من أنه عقب وفاة المهدى، فى يوم الأربعاء أويوم الخميس الخامس والعشرين من شهر رمضان سنة ٥٢٤ هـ ، بويع الخليفة أعنى عبد المؤمن فى يوم السبت الأقرب من هذا التاريخ(٢) . وما ذكره فى موضع آخر من أنه عقب وفاة المهدى ، قام عبد المؤمن بإعلان ذلك النبأ للناس ، وعندئذ تقدم إليه أربعة من الصحب ، اثنان من الجماعة ، وهما عمر بن عبد الله الصنهاجى المعروف بعمر أصناك ، وأبو إبراهيم إسماعيل ، واثنان من أهل خمسين هما عبد الرحمن بن زكو ، ومحمد ابن محمد ، وبايعوه على ما بايعوا عليه المهدى ، ثم تبعهم سائر الناس حتى دخل الليل ، واستمرت البيعة ثلاثة أيام متواليات(٣) .

ويأخذ صاحب « الحلل الموشية » بمجمل هذه الراوية ، فيقول لنا إنه « لما توفى المهدى ، تفاوض بقية أصحابه وهم أربعة ، بمن يكون إمامهم بعده ، فوقع اتفاقهم على عبد المؤمن ، لما كانوا يشهدونه من تعظيم المهدى له ، بمحضر أصحابه وجميع الموحدين، ويقبل عليه ، ويستبشر بكلامه ،فاتفقوا عليه وقدموه »(٤) . وكذلك يذكر لنا صاحب روض القرطاس أن المهدى بويع يوم الخميس الرابع عشر من رمضان سنة ٥٢٤ هـ ، ويصف هذه البيعة ، بالبيعة الخاصة التى بايعه فيها عشرة من أصحاب المهدى . وأما البيعة العامة فقد وقعت وفقاً لقوله فى

---

(١) ابن القطان فى نظم الجمان ( المخطوط السابق ذكره لوحة ٤٥ أ و ١٦٦ أ ) . وراجع رواية ابن صاحب الصلاة فى روض القرطاس ص ١١٩ و ١٢٠ .

(٢) كتاب أخبار المهدى ابن تومرت ص ٨٣ .

(٣) كتاب أخبار المهدى بن تومرت ص ٨٥، والمعجب ص ١٠٨ ، ويورد المراكشى اسمين آخرين مع عمر أصناك ، هما عمر بن مرزاك ، وعبد الله بن سليمان .

(٤) الحلل الموشية ص ١٠٧ .

٢٠ من ربيع أول سنة ٥٢٦ هـ ، بعد وفاة المهدى بنحو عامين بجامع تينملّل[١].

وفضلا عن ذلك ، فإن لدينا رواية المراكشى ، وهو أيضاً من مؤرخى الموحدين ، وهى رواية مفصلة واضحة ، خلاصتها أن ابن تومرت استدعى قبل موته بأيام يسيرة ، أصحابه من الجماعة وأهل خمسين ، وهم من قبائل متفرقة لا يجمعهم إلا اسم المصامدة ، فلما حضروا بين يديه ، نهض متكئاً ، وخطب فيهم فذكرهم بما كان عليه السلف الصالح ، من الثبات فى الدين ، والعزيمة فى الأمر ، وما حدث من بعدهم من ظهور الفتنة ، التى أضحى فيها العالم متجاهلا مداهناً ، يقصد بعلمه الملوك ، ويجتلب الدنيا ، وكيف أن الله سبحانه قد خصهم بتأييده ، وحقيقة توحيده ، وهداهم بعد الضلالة ؛ ثم حذرهم من الفرقة واختلاف الكلمة ، وأن يكونوا على عدوهم يداً واحدة ، ثم أعلن لهم اختياره عبد المؤمن لخلافته قائلا فى تزكيته « وهذا بعد أن بلوناه فى جميع أحواله ، من ليله ونهاره ، ومدخله ومخرجه ، واختبرنا سريرته وعلانيته ، فرأيناه فى ذلك كله ، ثبتا فى دينه ، متبصراً فى أمره » . وأنه على أثر ذلك قام القوم بمبايعه عبد المؤمن . ودعا لهم ابن تومرت ، ومسح وجوههم وصدورهم . ثم توفى ابن تومرت بعد عهده بيسير ، واجتمع أمر المصامدة على عبد المؤمن[٢] .

وهكذا يبدو أن عبد المؤمن ، تلقى بيعته عقب وفاة المهدى ، وربما قبيل وفاته ، وفقاً لرواية المراكشى ، وليس من المستبعد أن يكون عبد المؤمن وأصحابه قد كتموا موت المهدى حيناً ، حتى يجتنب الخلاف ، ويستوثق الأمر ؛ ذلك أنه لما توفى المهدى ، أخذ كل زعيم ، وكل قبيلة ، تتطلع إلى اجتناء تراث المهدى ، برياسة الموحدين ، واشتد التنافس بينهم فى ذلك ، فخشى الجماعة والخمسون ، أن يفسد الأمر ، وأن تضطرم الفتنة ، فاجتمعوا وتفاوضوا ، ووقع اختيارهم على عبد المؤمن . وكان عبد المؤمن فى الواقع ، منذ البداية أرجح القوم مكانة ، إذ كان أوثقهم صلة بالمهدى ، وأشدهم اختصاصاً به ، واستئثارا بحبه وثقته ، وكان يُنسب للمهدى قوله فيه وإنشاده كلما رآه :

تكاملت فيك أوصاف خصصت بها ... فكلنا بك مسرور ومغتبط
السنُّ ضاحكة والكف مانحـــة ... والصدر متسع والوجه منبسط[٣]

(١) روض القرطاس ص ١٢١ . (٢) المعجب ص ١٠٨ و ١٠٩ .

(٣) المعجب ص ١١٠ ، ويقول ابن خلكان إن هذين البيتين ينسبان إلى أبى الشيص الخزاعى الشاعر المشهور ( وفيات الأعيان ج ٢ ص ٣٩١ ) .

وفضلا عن ذلك كله فقد كان عبدالمؤمن ، غريباً بأصله وقبيلته عن المصامدة ، ولم يكن له بينهم قبيل ولا طائفة ، فكان ذلك مما شجع القوم على اختياره ، اجتناباً لكل منافسة وخلاف(١) .

أما عن أصل عبد المؤمن ونسبه ، فإن الرواية تختلف أيضاً ، فهو وفقاً لرواية أبي بكر الصنهاجي ، عبد المؤمن بن علي بن عَلْوى بن يعلى بن علي بن حسن ابن نصر بن الأمير بن نصر بن مقاتل بن كومى بن عون الله بن ورجايغ بن ينفر ابن مراو بن مطاط بن صطفور بن نفور بن رجيك بن يحيى بن هزرج بن قيس ابن عيلان . ثم يقول لنا أبو بكر معلقاً على هذا النسب ، إنه صحيح حتى مقاتل ابن كومى بن عون الله ، وأما ما ورد بعد ذلك من الأسماء إلى قيس بن عيلان ففيها اختلاف وتصحيف وتقديم وتأخير(٢) .

وينتمي عبد المؤمن إلى قبيلة كومية ، وهي بطن من بطون زناتة ، وذلك سواء عن أبيه أو أمه ، إذ هي كومية أيضاً ، فهو بذلك بربرى الأصل ، وحسبما تدلى بذلك أيضاً نسبته . ولكن عبد المؤمن هو خليفة المهدى ، وهو أمير المؤمنين ، وإذاً فلابد أن يكون له — حسبما حدث في شأن المهدى — نسبة عربية أولا ، ثم لابد أن تكون هذه النسبة متصلة بآل البيت . ومن ثم فإن الرواية تقول لنا إنه من ولد سليم بن منصور بن قيس بن عيلان بن مضر . وأما كيف تحولت نسبته العربية إلى النسبة البربرية ، فهو أن جدًّا من أجداده العرب ، نزل بساحل تلمسان ، فارًّا من بعض الفتن بالأندلس ، وجاور بعض أحياء مطاطة ، إخوة زناتة ، فنسب ذلك إليهم بالجوار والحلف . وفي رواية أخرى أن نسبته ترجع مباشرة إلى آل البيت بانتسابه إلى جدته كنونة بنت إدريس بن إدريس بن عبد الله بن القاسم بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، . والى كنونة هذه أيضاً يرجع نسبة أمه تعلو بنت عطية ، فهو إذن ، وفقاً لهذه النسبة سليل آل البيت عن طريق أبيه وأمه(٣) . وقد كان عبد المؤمن نفسه ، حسبما يروى لنا المراكشي ، ينكر نسبته البربرية ، ويقول إذا ذُكرت كمية (كومية) « لست منهم وإنما نحن لقيس عيلان بن مضر بن نزار بن معدّ بن عدنان . ولكُمية علينا حق الولادة بينهم ،

---

(١) روض القرطاس ص ١١٩ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٩ .

(٢) كتاب أخبار المهدى ابن تومرت ص ٢١ و٢٢ .

(٣) المعجب ص ١٠٩ ، وروض القرطاس ص ١١٩ .

والمنشأ فيهم ، وهم الأخوال » . ويزيد المراكشي على ذلك ، أنه أدرك من أولاد عبد المؤمن وأحفاده ، من ينتسبون لقيس عيلان بن مضر[1] .

وكما نُسجت حول ابن تومرت ودعوته ، واختيار القدر له ليكون مهدى آخر الزمان ، هالة من الأساطير ، لتؤكد قدسيته وصدق رسالته ، فكذلك نسجت مثل هذه الهالة حول عبد المؤمن وخلافته للمهدى ، لتؤكد أن القدر قد اختاره ، كما اختار المهدى منذ الأزل ، ليقوم بهذه الرسالة . وقد أورد لنا ابن القطان بعض ما ذكره أبو القاسم المؤمن فى كتابه المسمى « فضائل الإمام المهدى » ، من أقوال وأمارات للتدليل على صدق رسالته . ومن ذلك أنه جاء فى كتاب أبى عبد الله الباقر بن على زين العابدين بن الحسين ، الحض على الإيمان بالمهدى وطائفته ، وذكر عبد المؤمن بن على القيسى ، وأنه هو الذى وعد بالنصر والتأييد والفتح .

ويقول أبو القاسم، ان ذلك قد ورد أيضاً فى كتاب يحي بن زيد ، وفى كتاب القاسم الأكبر ، وفيه جميع ماذكر من فضائل الإمام المهدى ، وعلاماته ومواضعه ورجاله ، والخليفة الآخذ عنه . وقد شرح ذلك كله صاحب كتاب « النصر» إدريس بن إدريس ، وأورد لتأييده أحاديث عديدة .

ثم ينقل إلينا ابن القطان بعد ذلك قول ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد فى أرجوزة نظمها بعد ذكر « المهدى » ووفاته[2] ، حيث يقول :

ويرجع الأمر إلى عدنان لماجد قد خص من عيلان
رب الفتوح صاحب الملاحم وقامع الأعراب والأعاجم

وقول عبد الملك بن حبيب :

صاحب المهدى يأتى بعده خيرة الأعراب طرا والعجم
أقبل الملك به من نعته أشيب اللحية ليس بالهرم

وأنه قد ورد ذلك أيضاً فى بعض الأراجيز القديمة ، وفيها شرح صفاته وأفعاله وفتوحه . ويزيد أبو القاسم المؤمن على ذلك كله أنه رأى بالقدس فى رباط للنصارى اسم المهدى منقوشاً على رخامة بيضاء ، كما رأى اسم عبد المؤمن خليفته ، وأنه أى

---

(١) المراكشي فى المعجب ص ١٠٩ .

(٢) المقصود هنا « المهدى » بصفة عامة ، وليس المهدى بن تومرت ، لأن ابن عبد ربه قد عاش قبل المهدى ابن تومرت بنحو قرنين .

أبو القاسم ذكر ذلك للإمام المهدى ، فأمر بكتمانه حتى يحين الوقت الذى يكون فيه ظهوره[١] .

وهكذا نرى كُتاب الدولة الموحدية ومؤرخيها يجدون فى تقصى الأساطير ، ونسجها حول إمامة المهدى ابن تومرت ، وحول خلافة عبد المؤمن ، حتى تتخذ الدعوة الموحدية ، ومن بعدها الخلافة الموحدية ، مكانتها من الرسوخ والقدسية .

وكان مولد عبد المؤمن فى آخر سنة ٤٨٧ هـ ( أول سنة ١٠٩٥ م ) بموضع يعرف بتاجرا على مقربة من مرسى هنين شمالى تلمسان ، وقيل إنه ولد سنة ٤٩٠ هـ ، أو سنة ٥٠٠ هـ[٢]. ويبدو سقم هذه الرواية الأخيرة ، إذا ذكرنا أن عبد المؤمن قد لقى المهدى ابن تومرت عقب عوده من المشرق إلى المغرب فى سنة ٥١٢ هـ ، وكان يومئذ شاباً ، ولم يكن غلاماً حدثاً . وكان والد عبد المؤمن فخّاراً يصنع الآنية من الطين ، وهى المعروفة بالنوابيخ ، وكان بالرغم من ضعته رجلا عاقلا محترماً من قومه[٣] . ويذكر لنا البيذق أن والد عبد المؤمن كان بالعكس قاضياً فى زمانه وفى قومه[٤] . ونشأ عبد المؤمن منذ البداية محباً للقراءة والدرس ، يلازم المساجد لتلاوة القرآن ، ولما بلغ نحو العشرين من عمره ، اعتزم الرحلة إلى المشرق ليتابع الدرس ، وقد رأينا فيما تقدم كيف التقى هو وعمه بملالة على مقربة من بجاية بمحمد بن تومرت ، وكان يومئذ يقود حملته المعروفة ضد المنكر ، وكيف آنس فيه ابن تومرت نجابة وذكاء ، وشعر أنه سوف يغدو أعظم معاونيه ، وكيف استطاع أن يقنعه بالبقاء إلى جانبه يطلب العلم على يديه ، ويعاونه فيما هو قائم به « من إماتة المنكر ، وإحياء العلم ، وإخماد البدع » . كان ذلك فى أوائل سنة ٥١٢هـ . وقد بقى عبد المؤمن من ذلك التاريخ إلى جانب ابن تومرت ، ولازمه واختص به ، يؤازره فى دعوته ، ويشاطره مصيره أينما حل ، حتى كان من أمر ابن تومرت ما سبق ذكره من اشتداد دعوته الدينية ضد المرابطين ، ثم التجاؤه وصحبه إلى تينملّل ، وإعلانه أنه هو المهدى المنتظر ، ومبايعة أصحابه وفى مقدمتهم عبد المؤمن له على ذلك .

---

( ١ ) ابن القطان فى نظم الجمان ( المخطوط السالف الذكر لوحة ٥٣ ب و ٥٤ ا ) .

( ٢ ) الأولى هى رواية المراكشى ( ص ١٠٩ ) ، والثانية والثالثة أوردهما ابن خلكان فى الوفيات ( ج ٢ ص ٣٩١ ) .

( ٣ ) ابن خلكان ج ٢ ص ٣٩١ ، وروض القرطاس ص ١١٩ .

( ٤ ) كتاب أخبار المهدى ابن تومرت ص ٢٧ .

وقد رأينا فيما تقدم . كيف كان عبد المؤمن ، إلى جانب أبى محمد البشير ، أعظم قادة الموحدين . وكيف أنه عقب هزيمة البحيرة الساحقة ( أوائل سنة ٥٢٤ هـ ) ومقتل البشير ، استطاع أن يجمع فلول الموحدين وأن ينقذها من الفناء المحقق ، وأن يقودها بالرغم من مطاردة المرابطين إلى تينملل ، وكيف أن المهدى ، وقد كان فى مرض موته ، حينما أبلغ أمر الهزيمة ، سأل عن عبد المؤمن ، ولما علم بأنه سالم ، قال لأصحابه « الحمد لله قد بقى أمركم » .

— ١ —

لم تخب فراسة المهدى فى تلميذه وصاحبه الأثير ، وخليفته من بعده ، فقد شاءت العناية الإلهية أن يغدو عبد المؤمن مؤسس دولة الموحدين الحقيقى ، وأن يقود الموحدين إلى ميادين النصر الباهر ، وأن يحقق لهم سلطان الإمبراطورية الموحدية الكبرى فى المغرب والأندلس .

قضى عبد المؤمن بعد توليه الخلافة زهاء عام ونصف ، ينظم شئون الموحدين ويؤلف قلوبهم ، ويحشد جموعهم ، ويستنفرهم إلى الجهاد . ولما كملت أهباته ، اعتزم أن يستأنف الجهاد لمقاتلة أعداء الدولة الموحدية — المرابطين — وافتتاح البلاد من أيديهم ، وإرغامهم على الطاعة ، واستقر رأى الموحدين بعد البحث والتشاور على أن تكون أولى غزاتهم لقصبة تادلة فى وادى درعة[1] . فخرج عبد المؤمن من تينملل فى شهر ربيع الأول ( وقيل فى شوال ) سنة ٥٢٦ هـ ( يناير سنة ١١٣٢ م ) فى جيش ضخم من الموحدين ، قوامه ثلاثون ألف مقاتل ، وسار أولا إلى قلعة تازاجورت ، وكانت تدافع عنها حامية مرابطية بقيادة يدّر بن ولجوط ، فاقتحمها واستولى عليها ، وسبى أهلها[2] . وفى رواية أخرى أن قائد تازاجورت المرابطى كان يدعى يحيى بن مريم ، وأن عبد المؤمن قتله وقتل معه نحو عشرين ألفاً من المجسمين ، وأسر زوجته ميمونة بنت ينتان بن عمر ، وصحبها معه إلى الجبل ، حتى افتديت فيما بعد بمن كان من أسرى الموحدين فى تلمسان[3] وسار عبد المؤمن

( ١ ) إن تادله التى يذكرها بهذه المناسبة صاحب الحلل الموشية ( ص ١٠٧ ) ، وروض القرطاس ( ص ١٢١ ) ، وابن خلدون ( ج ٦ ص ٢٢٩ ) ليست هى بلدة تادلا الواقعة شمال شرق مراكش ، ولكنها هى المحلة الحصينة الواقعة شرق وادى درعة ، وذلك حسبما يستدل من سير الحملة الموحدية والمواقع التى استولت عليها ، ومنها مدينة درعة .

( ٢ ) كتاب أخبار المهدى ابن تومرت ص ٨٥ .

( ٣ ) هذه رواية ابن القطان فى نظم الجمان ( المخطوط السابق ذكره لوحة ١٧٠ ) .

بعد ذلك إلى درعة ، واستولى عليها وعلى أحوازها ، ثم غزا سائر محلات تلك المنطقة وعاد إلى تنيملّل .

وافتتح الموحدون فى هذا العام حصن تاسغيموت ، وهو حصن منيع يقع فوق الجبل ، وبه حامية من هزرجة ، فتواطأ معهم الموحدون على فتحه ، واستطاعوا أن يدخلوه ليلا ، وقتلوا واليه المرابطى أبا بكر بن وارصول ومن معه المرابطين ، وحملوا بابه الحديدى الضخم ، وركب فيما بعد على سور تينملل .

وكذلك افتتح الموحدون فى نفس العام حصن جلاوة ، افتتحه الشيخ أبو حفص عمر وجماعة من وجوه الموحدين ، ودخلوه عنوة وقتلوا كل من فيه . وكان أهل جلاوة هم الذين جرحوا المهدى فى إحدى غزواته ، وقام الخليفة من ناحيته بافتتاح حصن هزرجة وأحرقه ، وقتل معظم أهله . ثم دخل بلدة جشجال ، وأحرقها أيضا ، وسار منها إلى أرض غجدامة ، وافتتح بلدة أجلاحال .

ودخل فى هذا العام فى طاعة الموحدين ، بعض بطون من هزرجة وهسكورة ، ثم ارتدوا وعادوا إلى الخروج والعصيان (١) .

ولما عاد عبد المؤمن إلى تينملل ، كانت قد وقعت خلال غيبته فى تلك الغزوة حادثة خطيرة ، كادت تحدث صدعاً فى صفوف الموحدين لو لم تخمد فى المهد . وذلك أن عبد الله بن يَعْلى الزناتى ، الشهير بابن مَلْوية ، وهو أحد أصحاب المهدى العشرة ، وكان من أشد المعارضين لبيعة عبد المؤمن ، انتهز فرصة ابتعاد عبد المؤمن بالجيش ، وسار إلى مراكش . وتفاهم مع أمير المسلمين على بن يوسف على مهاجمة تينملّل ، وسحق حكومة الموحدين ، فعهد إليه على بن يوسف بقوة من المرابطين ، فسار بها إلى تاماذاجوست مجمع قبيلة كنفيسة على مقربة من تينملّل ، لكى يضمها إليه ، ويسير بقواته المجتمعة لتدمير العاصمة الموحدية ، وكان بتينملل عبد الله بن وسيدّرن أحد زعماء كنفيسة ، فجمعهم فأعلنوا تمسكهم بالعهد الذى قطعوه للمهدى ، ونعوا على ابن ملوية تلك الخيانة ، وفى الحال قام واحد من أهل خمسين هو أبو سعيد يخلف بن الحسن آتيكى ومعه غلامه ، وسار إلى محلة ابن ملوية فى أسفل الجبل ، وقتلاه ، وحملا جثته إلى تينملل وصلبت بها ، وأخمدت المحاولة فى المهد . ولما عاد عبد المؤمن شكر لكنفيسة إخلاصها ، وقسم الغنائم . ثم هبط

(١) ابن القطان فى نظم الجمان ( المخطوط السالف الذكر لوحة ٧١ ا ) .

ثانية إلى الوادى ، واستولى على أراضى صنهاجة القريبة ( أصناجان ) وولى عليها على بن ناصر ، وهو أحد زعمائها ومن أهل خمسين[١] .

ويضع ابن القطان فى أخبار هذا العام — سنة ٥٢٦ هـ — حادثاً من نوع خاص ، هو انضمام الفلاكى الأندلسى ، وهو من قادة المرابطين ، إلى الموحدين . وكان الفلاكى حسبما تقدم أندلسى من أهل إشبيلية ، وكان فى بداية أمره شقياً وقاطع طريق ، يتسم بالجرأة والشجاعة ، ثم تاب وسلك سبيل الاستقامة ، فعفا عنه والى إشبيلية ، وقدمه على الرماة والرجالة . ونمى خبره إلى على بن يوسف ، فاستقدمه إلى مراكش ، وقدمه على فرقة من الجند المرابطين ، وعهد إليه بحراسة مخارج جبل درن التى يهبط منها الموحدون إلى السهل لكى يعيق سبيلهم . ثم وجهه إلى السوس لمكافحة الموحدين ، ووالى السوس حينئذ وانودين بن سير ، فجد الفلاكى فى محاربة الموحدين ومكافحتهم . ثم فسد مابينه وبين على بن يوسف ، فانضم إلى الموحدين مع طائفة من جنده ، وأخذ يغير على حصون لمتونة ، ويفعل بها مثلما كان يفعل من قبل بقواعد الموحدين ، وأخذ يغير على جهات السوس وأغمات . واستمر فى خدمة الموحدين مدى أعوام ، ثم ارتد بعد ذلك ، وفقاً لقول ابن القطان[٢] . بيد أنه لايذكر لنا ماذا كان مصيره بعد هذا الارتداد . ومن جهة أخرى ، فإن بعض الروايات تضع انضمام الفلاكى إلى الموحدين فى تاريخ لاحق — فى سنة ٥٣٥ هـ — أى بعد التاريخ الذى يقدمه لنا ابن القطان بنحو تسعة أعوام[٣] .

وفى العام التالى ، أعنى فى سنة ٥٢٧ هـ أعلنت بيعة عبد المؤمن الخاصة ، وعقدت بيعته العامة ، وذلك إذا أخذنا برواية كتمان وفاة المهدى مدى ثلاثة أعوام ، وهى حسبما تقدم رواية ابن صاحب الصلاة وابن القطان . ويضع ابن القطان هذا الحادث سهواً فى أخبار سنة تسع وعشرين وخمسمائة ، ومن الواجب لكى يكون متفقاً مع سابق روايته أن تكون سنة سبع وعشرين . ويقول لنا إنه فى هذه السنة ،

---

( ١ ) كتاب أخبار المهدى ابن تومرت ص ٨٥ ، هذا ويروى لنا ابن القطان أن ابن ملوية قتل فى سنة ٥١٨ هـ فى مناسبة سابقة ، خلاصتها أنه حينما قام المهدى بتدبير اغتيال قبيلة هزميرة وسبى نسائهم ، ونهب أراضيهم ، اعترض ابن ملوية ، ونعى عليه هذا التصرف الدموى ، وأنه لا يتفق مع ما يدعيه من العصمة ، فأمر المهدى بقتله فقتل وصلب على الفور ( نظم الجمان المخطوط لوحة ٤٧ ب ) .

( ٢ ) ابن القطان فى نظم الجمان ( المخطوط السابق ذكره لوحة ٣٩ ب و ١٧٥ ) .

( ٣ ) هذه رواية صاحب الحلل الموشية ( ص ٨٣ ) ، وربما كان هذا الانضمام المتأخر من جانب الفلاكى إلى الموحدين ، هو انضمامه الثانى لا الأول .

كان الإعلان بموت المهدى والإعلان ببيعة الخليفة أمير المؤمنين ، ثم يعلق على ذلك بعبارات رنانة يقول فيها : « فرفع الغطاء ، وسطع الضياء ، وبهرت الشمس ما دونها من السحاب ، وتبلج الحق واضحاً بغير حجاب » ، وبايعه الصحب على ما بايعوا عليه « الإمام المهدى » ، واتصلت البيعة ثلاثة أيام « فأشرقت الأرض بنور إمامته ، ونال أهلها عظيم حظوته وكرامته » . وعلى أثر ذلك اتخذ عبد المؤمن لقب « أمير المؤمنين » ، والظاهر أنه لم يكن يلقب به قبل ذلك(١) .

ويوجد شىء من التناقض والغموض حول أعمال عبد المؤمن وحركاته فى بضعة الأعوام التالية ، من سنة ٥٢٨ إلى سنة ٥٣٢ هـ . ويقدم إلينا ابن القطان بعض التفاصيل عن حوادث هذه الفترة ، فيقول لنا فى أخبار سنة ٥٢٨هـ ، إن الموحدين اشتبكوا مع المرابطين بقيادة ابراهيم بن يوسف المعروف بابن تاعياشت فى معركة هزم فيها المرابطون وقتل قائدهم . ثم ينقل إلينا عن ابن الراعى ، خبر فتح الموحدين لمدينة تارودانت . فيقول إنه لما استولى الموحدون على سائر بلاد السوس ، ارتد المرابطون منهزمين إلى تيونوين ، وعندئذ سار « العلج الأعرج » ( والغالب أنه الربرتير الذى سوف يأتى ذكره ) من أجرفرجان ، فاقتحم طريق ايغيران فى غفلة من الموحدين ، وسبقهم بمن معه ، فأتبعهم الموحدون حتى وصلوا إلى بلاد السوس . وكان العلج فى نحو أربعمائة فارس ، فلما وصل تيونوين ، وعلم بمقدمه من كان قد فر إلى الأطراف من أهل السوس ، هرعوا إلى الالتفاف حوله .

ونقتبس هنا وصف ماتلا من أدوار المعركة من رسالة كتب بها الخليفة عبد المؤمن ونقلها إلينا ابن الراعى . وفيها يقول الخليفة : « فميزنا عسكرا مباركاً من خيل ورجل ، فخرجوا إلى ناحية تارودانت ، وبعثنا تلك الليلة سرية إلى أسفل السوس ، فقتلوا وغنموا بقراً وغنما وعبيداً ، وسبو ذراريهم ، ثم بعثنا سرية أخرى فى الليلة التالية إلى بقية تلك الناحية ، أعنى أسفل السوس فقتلوا مقتلة أكثر من الأولى ، وغنموا أكثر مما غنم أصحابهم .

«وأما العسكر فقصدوا إلى تارودانت ودخلوها ، وفر من كان بها من المرابطين ، وقتل الموحدون من وجدوا بها ، واستقر الموحدون بالمدينة ، وأطلقوا النار فى القصب ، فارتفعت النار فى الهواء . كل ذلك والمرابطون فى تيونوين يشهدون

---

( ٥ ) نظم الجمان ( المخطوط السابق لوحة ٧٤ ب و ١٧٥ ) وراجع روض القرطاس عن ابن صاحب الصلاة ص ١٢٢ .

النيران تحرق أوطانهم . ولما أيقن البربر وغيرهم بعجز العلج ، انكسرت قلوبهم ، وحقت الهزيمة عليهم » .

وفى العام التالى سنة ٥٢٩ هـ ، سار عبد المؤمن لغزو بنى يبغز ، وذلك لأنهم كانوا قد قتلوا أبا محمد عبد العزيز الغيغائى من أصحاب الإمام المهدى ، فلما نزل الخليفة على أحيائهم ، وضعوا الأحطاب على ظهور الجمال ، وأضرموا فيها النار ، ودفعوها نحو محلة الموحدين ، فوقع الهرج فى المحلة الموحدية ، وسار بنو يبغز فى أثر جمالهم وهاجموا الموحدين ، ونشبت بين الفريقين معركة عنيفة . وحاول رجلان من بنى يبغز أن ينفذا إلى خيمة عبد المؤمن وأن يقتلاه ، ولكن عبد المؤمن كان قد غادر خباءه تحوطاً وحذراً ، فأخذ الرجلان وقتلا . وقضى عبد المؤمن فى تلك الغزوة أربعين يوماً ثم قفل عائداً إلى تينملل . ويضيف ابن القطان إلى ما تقدم نقلا عن ابن صاحب الصلاة ، أن عبد المؤمن كان قد وجه إلى بنى يبغز بعض اخوانهم المجاورين لهم ، لينصحوهم وينذروهم ، وأن مساعيه فى ذلك السبيل قد كللت بالنجاح ، إذ انقاد بنو يبغز وأذعنوا ، ودخلوا فى طاعة الموحدين . وهذا ما يفسر لنا النتيجة السلبية التى انتهت إليها معركة بنى يبغز ضد الموحدين(١) .

ويحدثنا اليسع عن موقعة نشبت بين المرابطين والموحدين فى سنة ٥٣٠ هـ ، فيقول إن عبد المؤمن سار فى قواته إلى أجرفرجان ومصكروطن ، فخرج إليه سير بن على بن يوسف ، ولى العهد يومئذ ، فى القوات المرابطية . ولبث عبد المؤمن حيناً معتصما بالجبال يطاول العدو ، ثم التقى الفريقان فى مصكروطن . فهزم المرابطون ، واستولى الموحدون على مقادير عظيمة من أسلابهم ، من المال والسلاح(٢) .

ومن جهة أخرى فإن البيذق أبا بكر الصنهاجى ، مؤرخ الموحدين المعاصر ، فيما يسطره لنا من غزوات عبد المؤمن يؤكد لنا عقب كلامه عن غزوة صنهاجة ، أن الخليفة التقى مع الإبرتير وتاشفين ، وفتح الله عليه فى محاربتهم فى البداية . وهذه أول مرة يلتقى فيها عبد المؤمن بجيش مرابطى يقوده الأمير تاشفين بن على . وقد ذكرنا فيما تقدم من أخبار تاشفين ، أنه لبث والياً على الأندلس ، وقائداً للجيوش المرابطية بها حتى سنة ٥٣١هـ ( أو سنة ٥٣٢هـ ) ، وأنه عبر فى أواخر

---

(١) ابن القطان فى نظم الجمان ( المخطوط السابق ذكره ) .

(٢) ابن القطان فى نظم الجمان ( المخطوط لوحة ٧٨ ب ) .

سنة ٥٣٢ ﻫ إلى المغرب استجابة لدعوة أبيه ، وذلك حينما تفاقمت هجمات الموحدين ، وكثرت هزائم المرابطين . وإذن فلابد أن يكون هذا اللقاء الأول بين الموحدين ، وبين الجيوش المرابطية بقيادة تاشفين قد وقع على الأقل فى أوائل سنة ٥٣٣ﻫ . والواقع أن ابن القطان يقص علينا خبر موقعة حدثت فى سنة ٥٣٣ﻫ بين المرابطين بقيادة الأمير تاشفين بن على والربرتير وبين الموحدين ، فيقول إن الخليفة عبد المؤمن تحرك فى هذا العام من تينملل ، ونزل فى بلد بنى ملول من منانة فى أراضى حاحة ، ونزل تاشفين بقواته فى تاحكوط من حاحة . وكان على بن يوسف قد قتل أعيان قبيلة منانة ، فدخلت فى طاعة الموحدين ، ثم ارتدت غير مرة ، فأقام عبد المؤمن فى بنى ملول شهراً وثلاثة أيام ، وهو يغير على تلك الأحياء ، ويقتلهم قتلا ذريعاً . ثم استولى على سائر أسلابهم من الحلى والثياب والأقوات وغيرها ؛ وسار بعد ذلك إلى أحياء بنى واجدزان ، ثم إلى أحياء بنى سوار من منانة الجبل ، وقصد بعد ذلك إلى أجرفرجان ، فتبعه تاشفين فى قواته ، وهنالك نشبت بين الفريقين معركة شديدة ، هزم فيها المرابطون وقتل منهم عدد جم . ثم تجدد القتال بعد ذلك ، فانهزم تاشفين مرة أخرى ، وارتد إلى جهة الميزتابوت ، واستولى الموحدون على أسلابه من السلاح والثياب والدواب والعبيد . وهرعت قوات جزولة من مراكش إلى مكان الموقعة لنجدة المرابطين ، وطمعت فى أن تنتزع الغنائم من الموحدين ، فرتب لها عبد المؤمن الكمائن فى مضايق الجبل ، وقدم الغنائم بين يديه اجتذاباً لها ، وخرجت جزولة ، وهاجمت ساقة الغنيمة وقتلت بعض حراسها ، فخرجت إليها الكمائن الموحدية وأمعنت فيها قتلا حتى أفنتها ، واستولت على سائر أسلحتها ودوابها . وكانت جزولة تضم آلافاً من الفرسان والرجالة ، وارتد عبد المؤمن صوب بلاد جنفيسة ظافراً .

وجاء فى رواية أخرى أن عبد المؤمن أراد أن يبنى حائطاً فى أضيق موضع من الجبل ليحول دون انصراف المرابطين حتى يهلكوا فى تلك الهضاب ، فأحس تاشفين بمشروعه ، وارتد بقواته صوب مراكش ، وتركته جزولة عند أحياء رَجراجة ، فتصدت لها قوة من المرابطين ، بقيادة الشيخ أبى حفص أصناج ، ففتكت بها ، واستاقت من خيلها إلى تينملل ثلاثة آلاف قسمت على الموحدين ، ثم عادت جزولة بعد ذلك ، فمالت إلى التوحيد ، ودخلت فى طاعة الموحدين(١).

---

(١) ابن القطان فى نظم الجمان ( المخطوط السالف الذكر لوحة ٨١ ب إلى ٨٢ ب ) .

ويتفق ابن عذارى مع ابن القطان فى حدوث الموقعة فى سنة ٥٣٣ هـ ، ولكنه يقدمها إلينا فى صورة أخرى ، فيقول إن القوات المرابطية كانت بقيادة الأمير تاشفين ، ومنهم حملة وافرة من قبائل جزولة ، وإن اللقاء وقع بين المرابطين وبين عبد المؤمن فى موضع ببنى ملول ، وان موقعة عظيمة نشبت بين الفريقين ، فى مفاوز وجبال ضيقة ، استمرت شهراً وثلاثة أيام ، ثم انجلت عن هزيمة تاشفين. فطارده عبد المؤمن حتى موضع يسمى إمران تانورت . ويزيد ابن عذارى على ذلك ، بأن أبناء جزولة رغبوا فى الرجوع إلى بلادهم ، فأذن لهم تاشفين ، ونصحهم ألا يسلكوا طريق الجبال الوعرة ، حتى لايتعرضوا لمهاجمة الموحدين ، ولكن جزولة لم يصغوا إلى نصحه . وكان عبد المؤمن قد رتب كمائنه فى هذا الطريق الجبلى ، فما كادت جزولة تسلك هذا الطريق ، حتى انقض عليها الموحدون وفتكوا بهم فتكاً ذريعاً ، واستولوا على نسائهم وخيلهم وسلاحهم ،واستاقوهم إلى تينملل . ثم رغب أشياخ جزولة بعد ذلك فى مسالمة الموحدين ، والدخول فى طاعتهم ، فأصدر لهم عبد المؤمن أماناً وظهيراً بذلك[١] .

وفى سنة ٥٣٤ هـ خرج تاشفين بجيش ضخم من لمتونة والحشم وزناتة ، لقتال الموحدين ومعه فرقة من النصارى المرتزقة بقيادة « الإبرتير » ، واستمرت المعارك بينه وبين الموحدين زهاء شهرين . ووقعت المعركة الأخيرة بينهما فى شوال من هذا العام ، وقتل فيها كثير من الفريقين . وعلى أثر ذلك ارتد تاشفين إلى مراكش وعاد الموحدون إلى تينملل[٢] .

ويبدو من أقوال البيذق أنه قد وقعت فى ذلك الوقت معارك أخرى ، بين المرابطين والموحدين ، بأرض « حاحة » غربى تينملل ، وشمالى السوس الأدنى بموضع يسميه البيدق « تيزغور » ، وأن الموحدين انتصروا أولا وأحرزوا بعض الغنائم ، ولكن المرابطين استطاعوا أن يحاصروا الموحدين بعد ذلك بهذا الموضع زهاء ستين يوما ، حتى استنفد الموحدون غنائمهم . ثم تشبت بعد ذلك بين الفريقين موقعة جديدة ، هزم فيها الموحدون أولا ، ثم انقلبت الآية ووقعت الهزيمة على المرابطين . وعلى أثر ذلك ارتد تاشفين فى قواته إلى مراكش ، ومعه

---

(١) ابن عذارى فى البيان المغرب ( الأوراق المخطوطة التى سبق ذكرها — هسبيرس ص١٠٣) ، وكذلك فى القسم الثالث من البيان المغرب ( نسخة تامجروت التى نشرت فى تطوان ص ١١ ) .

(٢) ابن عذارى فى الأوراق المخطوطة السالفة الذكر ( هسبيرس ص ١٠٤ و ١٠٥ ) .

زميله قائد الروم المسمى « الإبرتير » جريحاً ، وارتد عبد المؤمن فى قوات الموحدين إلى تينملل[1] .

ويجدر بنا قبل الكلام عن المعارك التى اضطرمت بين الفريقين فى تلك الفترة ، والتى كان يشترك فيها « الإبرتير » قائد الروم باستمرار ، أن نذكر كلمة عن هذا القائد النصرانى .

إن الإبرتير أو الربرتير[2] حسبما تسميه الرواية العربية ، هو بالإفرنجية El Reverter أو Roberto ، هو فى الأصل سيد ( ڤيكونت ) من أشراف برشلونه ، حدث بينه وبين أميرها برنجار رامون نزاع ، فنزعه ألقابه وأمواله ، فغادر برشلونة ، وعبر البحر إلى المغرب ، والتحق بخدمة الأمير على بن يوسف . ونحن نعرف أن على بن يوسف ، كان يضم إلى حرسه الخاص ، فرقة كبيرة من المرتزقة النصارى ، وقد كانت هذه الفرقة الأجنبية تشترك إلى جانب الحشم ، أو جند الحرس الخاص ، فى كثير من المعارك ، وتبدى فى القتال براعة وبسالة ، وتعرف الرواية العربية هذه الفرقة « بالجند الروم » ، وتذكر أعمالها فى مواطن كثيرة . فلما وفد الربرتير ، أو الكونت روبرتو ، على بلاط مراكش ، عهد إليه على بن يوسف بقيادة حرسه من النصارى ، لما آنسه من براعته وشجاعته . ويقول ابن صاحب الصلاة فى وصف الربرتير « أنه كان من أكبر الطغاة بالأندلس نجدة وظهوراً متصلة »[3] . وظهر الربرتير فى الواقع فى معظم المعارك التى اضطرمت بين المرابطين والموحدين . وترك الربرتير عند مقتله ولدين ، اعتنق أحدهما الإسلام ، وتسمى باسم على الربرتير ، واشتهر فيما بعد بمشاركته فى حوادث ميورقة والجزائر الشرقية حسبما نذكر فى موضعه .

ويبدو مما يذكره لنا البيذق ، وابن عذارى أيضاً ، أن الربرتير ، هو الذى كان يقود الجيوش المرابطية فى المعارك التى وقعت بين المرابطين والموحدين فى أراضى كَدْمِيوَه والسوس ، فى ذلك العام أو فى العام التالى ، وتفصيل ذلك ، هو أن الربرتير ، التقى بقواته مع الموحدين بقيادة عبد المؤمن أولا فى مكان يسمى

---

( ١ ) أخبار المهدى ابن تومرت ص ٨٦ . والبيان المغرب فى الأوراق المخطوطة ( هسبيرس ص ١٠٥ ) .

( ٢ ) ويسميه ابن الأبار « الربرتير » ، ويقول إنه كان علما لبنى تاشفين من كبار قوادهم ، وأبطال رجالهم كانت له فى الحروب مقاوم شهيرة ( الحلة السيراء ص ١٩٧ و ١٩٨ ) .

( ٣ ) ابن عذارى فى القسم الثالث البيان المغرب ( نسخة تاجروت ) ص ١٦ .

أمسيميصى ، وهو يقع فى أرض كدميوه ، شمال تينماَّلل ، ولم تقع بين الفريقين موقعة حاسمة ، فارتد كل منهما إلى أراضيه . ثم عاد الربرتير فخرج فى قوات لمتونة ، وخرج عبد المؤمن للقائه ، فالتقيا بموضع يسمى آجظوورر ، فهُزم المرابطون ، وقتل منهم عدد جم ، وارتد الربرتير فى فلوله جريحاً إلى مراكش ، وعاد الموحدون إلى تينملل . ويضع البيذق وكذلك ابن عذارى تاريخ هذه الموقعة فى سنة ٥٣٥هـ(١) .

وخرج عبد المؤمن بعد ذلك فى قواته إلى أرض السوس ، وهاجم حصن تنلين ، وكان يدافع عنه حاكمه المرابطى يرجين بن ويدّرن ، فبدأ الموحدون بحصاره ، ولكن قدمت القوات المرابطية عندئذ بقيادة الربرتير ، فغادر الموحدون الحصن ، ودخلوا أرض السوس ، واستولوا تباعاً على إيرمناد ميمون ، وتاسلولت ثم على تارودّنت قاعدة السوس الأدنى ، ثم على حصن تيونوين . وهزم اللمتونيون فى كل المواقع التى نشبت ، واستولى الموحدون خلال ذلك على كثير من الغنائم ، وسبوا النساء ، وعادوا بالغنائم والأسرى إلى تينملّل . وكان من الحوادث التى وقعت فى تلك الغزوة ، وفقاً لرواية صاحب الحلل الموشية أن الفلاّكى الأندلسى انضم بمن معه إلى الموحدين(٢) ، وقد سبق أن ذكرنا أن هذا الانضمام قد وقع فى تاريخ سابق ، قبل ذلك بعدة أعوام . وفى نفس الوقت هاجم الربرتير محلة تيغيغايين الموحدية ، وسبي نساءها ، وفى جملتهن زوجة يعزّى بن مخلوف ، وأخذهن معه إلى مراكش ، ولما عاد عبد المؤمن بالسبايا إلى تينملل ، خاطبته تماجونت ابنة الوزير ينتان بن عمر ، وكانت بين الأسرى ، وذكرته بما قام به والدها ينتان من الشفاعة فى المهدى ، وقت أن كان بمراكش ، وحرض الفقهاء علىّ بن يوسف على التنكيل به ، وناشدته أن يسرحها هى وسائر النساء اللائى معها ، فاستجاب عبد المؤمن إلى ضراعتها ، وأطلق النساء ، وبعثهن إلى مراكش معززات مكرمات ، فبادر على بن يوسف من جانبه ، بإطلاق سراح نساء تيغيغايين ، وفى مقدمتهن زوجة يعزّى بن مخلوف ، وأرسلهن كذلك فى أمن وكرامة إلى تينملل . وكان هذا عمل فروسية مشكورة من الجانبين(٣) .

(١) كتاب أخبار المهدى ابن تومرت ص ٨٧ ، وابن عذارى فى الأوراق المخطوطة ( هسبيرس ص ١٠٥ ) .

(٢) الحلل الموشية ص ٨٣ .

(٣) راجع كتاب المهدى ابن تومرت ص ٨٧ و ٨٨ .

— ٢ —

لبثت المعارك التى تضطرم بين المرابطين والموحدين ، منذ وفاة المهدى ابن تومرت زهاء عشرة أعوام ، منحصرة فى مناطق الأطلس ، جنوبى مراكش . فى وادى درعة وبلاد السوس ، وفى بلاد حاحة من أحواز تينملل ، وقد كان النصر حليف الموحدين فى معظم هذه المعارك . بيد أن انحصار الصراع فى هذا النطاق المحدود من الإمبراطورية المرابطية ، لم تترتب عليه أية نتائج حاسمة ، ومن ثم فقد كان لزاماً على الموحدين أن ينقلوا مسرح الصراع إلى قلب الإمبراطورية المرابطية ، حتى يتاح لهم أن يضربوها فى الصميم . وأن يقضوا عليها القضاء الأخير .

وهذا ما اعتزمه عبد المؤمن فى الواقع ، واستدعى من أجله سائر حشود الموحدين ، من كل صوب وقبيل . وفى سنة ٥٣٥ ﻫ ( ١١٤٠ م ) خرج من تينملل بعد أن استخلف عليها صهره أبا عمران موسى بن سليمان ، فى جيش ضخم ، يضم مجموعة كبيرة من الفرسان والرجّالة ، وسار فى طرقات الجبل نحو الشمال الشرقى . ويفصل لنا البيذق ، وقد كان من شهود هذه الحملة الكبيرة ، خط سير الجيش الموحدى ، فيقول لنا إن عبد المؤمن سار أولا إلى موضع يسمى وانزال ، ثم إلى موضع يسمى وفاد ، وسار من وفاد إلى أشبار . وهى محلة تقع على مقربة من جنوب شرقى مراكش . وفى تلك الأثناء خرج جيش المرابطين بقيادة تاشفين من مراكش ، فغادر الموحدون أشبار إلى مكان قريب يقع فى الشمال الشرقى ، ويسمى تاساوت ، ولحق المرابطون بأشبار . ثم غادر الموحدون تاساوت إلى دمنات الواقعة شرقى مراكش ، على قيد نحو سبعين كيلومتراً منها ، وسار المرابطون فى نفس الوقت إلى يملُّو الواقعة شمال شرقى دمنات . ولم تقع خلال ذلك معارك ذات شأن بين الفريقين ، ولكن القبائل والعشائر الواقعة فى طريق الموحدين ، كانت تدخل فى طاعتهم تباعا ، واستمر الموحدون فى مسيرهم شمالا بشرق حتى واويزغت ، ثم إلى داى الواقعة جنوب تادلا . ووقعت خلال ذلك بين الفريقين معركة محلية فى موضع يقال له تيزى ، انتهت حسبما يقول البيذق بهزيمة « الفئة الباغية» أى المرابطين . ولما وصل الموحدون إلى داى ، فر حاكمها المرابطى على بن ساقطرا ، واستولى عليها الموحدون دون مقاومة . وأعلن من كان بها من

صنهاجة بيعتهم للموحدين ، وطالبوا عبد المؤمن بالإفراج عمن كان معه من أسرى صنهاجة ، فأجاب مطلبهم .

وسار الموحدون بعد ذلك حتى تازاجارت ، وكان يدافع عنها حاكمها المرابطى يحيى بن ساقطرا ، فاقتحموها ، واستولوا على خيلها وغنائمها ، واقتحموا من بعدها قلعة واوما ، وكان يدافع عنها يحيى بن سير ، واستولوا عليها ، ثم استمروا فى سيرهم حتى آزرو ، التى تقع فى قلب منطقة فازاز على قيد نحو مائة كيلومتر من شمالى شرقى تادلا ، فدخلوها ونزلوا بها . وبعث عبد المؤمن ، بضعة فرق من جيشه لتخضع الأنحاء المجاورة فقامت بمهمتها ، وعادت إلى آزور ، وأرسل فى نفس الوقت بعض الأشياخ إلى تينملل يحملون إليها أخبار الحملة ، وليطمئنوا على أحوالها . ودخل أهل فازاز جميعاً فى طاعة الموحدين(١) .

وغادر عبد المؤمن والموحدون آزور شمالا نحو فاس التى تبعد عنها زهاء ستين كيلومتراً . وكان تاشفين قد وصل فى تلك الأثناء فى القوات المرابطية ومعه الربرتير إلى فاس . ويصف لنا صاحب البيان المغرب سير الجيشين على هذا النحو فى قوله : « كان الموحدون يمشون فى الجبال المانعة حيث الأرزاق الواسعة ، وكان تاشفين ينزل البسائط بعساكره ، فما يجد من البرابر من يداخله ولا من يستعين به ، فيواصله ، وذلك بسبب إدباره إلى أن استقر عبد المؤمن بالجبال المجاورة لجهة فاس المعروفة بكراندة ، ونزل تاشفين بحصن بالموضع المذكور »(٢) .

وهكذا عسكرت الجيوش المرابطية والموحدية ، كل منها على مقربة من فاس عاصمة المغرب القديمة ، وكان ذلك حسبما يستخلص من أقوال البيذق ، وابن عذارى ، فى أواخر سنة ٥٣٥ هـ ( ١١٤١ م ) . وكان الوقت شتاء ، والشتاء قاسياً ، والمطر ينهمر بشدة . والظاهر أن المرابطين لم يحتاطوا لقسوة الطقس فعصف بهم البرد ، وأقاموا شهوراً دون حطب ولا فحم ، حتى أنهم اضطروا لحرق أوتاد أخبيتهم ، وخشب أبنيتهم ، ومات كثير منهم من البرد . وفى أثناء ذلك خرجت القوات المرابطية من فاس ومكناسة ، ومعها المؤن والميرة ، تقصد إلى محلة المرابطين ، ولكنها اختلفت أثناء الطريق واقتتلت ، ففر البعض منها ، وسار

---

( ١ ) كتاب أخبار المهدى ابن تومرت ص ٨٩ و ٩٠ .

( ٢ ) القسم الثالث من البيان المغرب ( نسخة تاجمروت ) ص ١٢ . وراجع أيضاً الحلل الموشية ص ٩٦ و ٩٧ .

أحد قادتها ، وهو يحيى بن على ، هو ومن معه إلى محلة الموحدين ، وسلموا ، واعترض الموحدون قوة أخرى منها يقودها ابن ولحوط على طريق مكناسة ، وفتكوا بها ، وقتلوا معظمها واستولوا على ما معها من المؤن والعتاد .

وعبر الموحدون بعد ذلك إلى جبال الأطلس الوسطى ، وهاجموا القواعد المرابطية فى غريس الواقعة جنوب آزرو ، وتودجا الواقعة شمال سجلماسة ، وسيطروا على وادى ملوية الواقع فى شرق آزرو ، ودخل القادة المرابطون فى تلك الأنحاء فى طاعتهم . ولما شعر والى سجلماسة المرابطى أبو بكر بن صارة ، باقتراب الموحدين من قاعدته ، خرج إليهم ، وقصد عبد المؤمن ، وأعلن خضوعه ، فتقبل منه ذلك عبد المؤمن ، وصرف النظر عن مهاجمة سجلماسة ، وعاد إليها واليها(١) .

وفى أواخر سنة ٥٣٥ ﻫ ، وأوائل سنة ٥٣٦ ﻫ ( صيف سنة ١١٤١ م ) نرى عبد المؤمن وجيوشه الموحدية تندفع نحو الشمال فى غزوات مستمرة ، تستغرق بضعة أعوام ، وتشتبك مع الجيوش المرابطية المختلفة ، فى معارك متعاقبة ، فى أواسط المغرب وشماله ، وقد بدأت هذه المعارك منذ المحرم من العام المذكور ، حيث خرجت قوة موحدية بقيادة عبد الرحمن بن زجّو أحد أهل خمسين ، وهاجمت صفرو واقتحمتها ، واستولت على غنائمها . ثم لحقت ببقية الجيش الموحدى فى جهة الفلاج ، الواقعة شمال شرقى صفرو . وكان تاشفين قد غادر عندئذ أحواز فاس ، وعسكر فى جبل العرض الواقع فى شرقها . وبعث الربرتير قائد الجند النصارى فى قوة إلى الفلاج . فخرج إليه الموحدون بقيادة يحيى آغوال ، ونشبت بين الفريقين معركة ، هزم فيها الموحدون وقتل قائدهم ، واحتز رأسه وأرسل إلى فاس .

وعلى أثر ذلك سار الموحدون نحو أرض غياثة الواقعة شرقى فاس ، وجنوبى رباط تازة ، وهى من أرض زنانة ، وضربوا محلتهم بها فوق جبل عفرا ، وسار المرابطون فى نفس الوقت إلى موضع فى السهل يسمى النواظر ، يقع على مقربة من جبل عفرا من ناحية تازا . وهنا دخل الشتاء بقره . وكان شتاء قاسياً توالت فيه الرياح العاصفة ، والأمطار الغزيرة ، بضعة أسابيع ، فأغرقت السهول واكتسحت الوديان والقرى ، وقاسى منها العسكران أيما عناء وشدة ، وكان وقعها على

---

( ١ ) كتاب المهدى ابن تومرت ص ٩٠ .

المرابطين فى السهل أشد وأنكى ، حيث تساقطت الخيام ، وعامت أوتادها لرخاوة الأرض ، وغرقت الدور ، ومات كثير من المرابطين برداً وجوعاً ؛ وعزت الأقوات والوقود فى المعسكرين ، وبلغ سعر الشعير وفقاً لقول البيذق فى معسكر الموحدين « ثلاثة دنانير للسطل ، وبلغ الحطب عند تاشفين ديناراً للرطل » ، ولم ترفع هذه الغمة إلا حينما دخلت طوالع الربيع ، وكان ذلك حسبما يحدثنا البيذق سنة ست وثلاثين وخمسمائة ( أوائل سنة ١١٤٢ م )(١).

هذا ما يقوله لنا البيذق عن حملة الموحدين إلى غياثة ، فهو أولا يضع تاريخها فى سنة ٥٣٩ هـ ، وهو ثانيا لايذكر لنا أنه قد وقعت هنالك أية معارك بين الموحدين والمرابطين ، وإنما وقعت بعد ذلك فى أماكن أخرى. ولكن ابن القطان يقدم إلينا رواية أخرى تختلف عن رواية البيذق اختلافاً بيناً ، وهو أولا يضع تاريخها فى سنة ٥٣٢ هـ ، ثم يقول لنا إنه لما نزل الموحدون بجبل غياثة خرج إليهم سير بن على بن يوسف فى القوات المرابطية ، ونزل بجراندة عند وادى أبى جلوا ، وهنالك وافته حشود المغرب بقيادة عبد الله بن يحيى بن تيفلويت ، واجتمعت من حشود زناتة قوة أخرى من نيف وخمسة آلاف فارس بقيادة يحيى ابن فانّو. وفى أثناء ذلك وحّد زيرى بن ماخوخ من أشياخ زناتة ، ولحق بعبد المؤمن ، وطلب عسكراً يقوده ضد المرابطين ، فأسعفه الخليفة بما طاب ، وقدم إليه عسكراً تحت إمرة أحد أشياخ الموحدين ، فأخذ يهاجم الحشود المرابطية ، ويقتل العدد الجم من رجالها ، وينتهب سلاحها ومتاعها . ثم توفى قائد عسكر زناتة يحيى بن فانو ، فخلفه فى القيادة ولده محمد . وأرسل زيرى إلى إخوانه من مشايخ زناته يحرضهم على النكث ، وأن يعملوا لهزيمة المرابطين. ثم وجه الخليفة قوة موحدية مختارة مع زيرى ، فقصدت إلى محلة زناتة ، وهاجمتها ، ونشبت بين الفريقين معركة هزمت فيها زناتة ، وانتصر الموحدون.

وكان سير بن على ، قد علم أن عبد المؤمن يزمع السير إلى أرض غُمارة ، فرتب له فى الطريق ألفى فارس ، تقيم وتستبدل باستمرار لتعيق سيره ، واستمر ذلك مدى شهرين(٢).

---

( ١ ) كتاب أخبار المهدى ابن تومرت ص ٩١ ، وابن الأثير ج ١٠ ص ٣٠٥ . وكذلك ابن عذارى فى البيان المغرب ( الأوراق المخطوطة السالفة الذكر ) .

( ٢ ) ابن القطان فى نظم الجمان ( المخطوط السالف ذكره لوحة ٧٩ ب و ١٨٠ ) .

هذا ما يقوله ابن القطان عن حملة غيائة . وربما اختلط عليه القول هنا بأخبار حملة موحدية أخرى . ونحن على أى حال نفضل الأخذ برواية البيذق ، وهو معاصر وشاهد عيان .

يقول البيذق إنه لما هدأت الرياح ، وبدأ الربيع ، استأنف الموحدون زحفهم . ويمضى البيذق ، وقد كان من شهود هذه الحملة الشهيرة ، فيصف لنا سير عبد المؤمن نحو الشمال تفصيلا . وكان أول موضع قصده الموحدون عندئذ ، أرض لُكاى الواقعة شمالى شرقى فاس ، فى منتصف المسافة بينها وبين البحر المتوسط . وهنالك استولوا على قلعة الولجة من حصونها . وسار المرابطون بقيادة تاشفين والربرتير فى أثر الموحدين ، وحاولوا تطويقهم فى أرض بنى سلمان ، ولكن الموحدين أحبطوا هذه الحركة بالسير إلى أرض بنى غُمارة ، من بطون صنهاجة ، الذين انضموا إليهم ، ودخلوا فى طاعتهم ، ثم جازوا منها إلى أرض لُجاية . وعندئذ سار تاشفين والربرتير إلى أرض بنى تاودا ونزلوا بها ، فكان بينهم وبين الموحدين نهر ورغة وواديه . . وهنا خرج الربرتير فى قوة مختارة من المرابطين والجند النصارى ، واشتبك مع الموحدين فى موضع يقال له تازغدرا ، فى معركة عنيفة ، قتل فيها كثير من الفريقين ، ثم ارتد الربرتير إلى بنى تاودا ، وسار الموحدون إلى تاغزوت ، ثم إلى بنى مزكلدة ، ثم إلى إيلانة ثم إلى أبجن على مقربة من القصر الكبير . وسار تاشفين والربرتير فى أثر الموحدين حتى موضع قريب من المعسكر الموحدى يسمى « نهليط » . وفى أبجن مرض عمر أزناج ( أصناك ) أحد الجماعة العشرة ، ولما شعر بدنو أجله ، قام فوعظ الموحدين وعظا طويلا ، وحثهم على طاعة الخليفة عبد المؤمن ، ثم توفى مساء ذلك اليوم .

وسار الموحدون بعدئذ إلى تامقريت ، ثم إلى وادى لو ، أرض بنى سعيد . وسار الربرتير فى أثرهم حتى وصل إلى تيطاوين ( تطوان ) ، فارتد الموحدون نحو الشمال حتى قلعة باديس الواقعة على شاطىء البحر المتوسط ، ودخل فى طاعتهم أهل تلك الأنحاء ، ثم ساروا بعد ذلك إلى ثغر المزمّة[1] ، فى شرقى باديس ونزلوا به أياما ، هبت عليهم فيها رياح شديدة ، كادت أن تهلك دوابهم ، فسماها عبد المؤمن تاغزوت ، ثم أقلع عنها إلى جبل تمسامان[2] .

---

( ١ ) المزمة هى التى تسمى فى الجغرافية الحديثة محرفة « الحسيمة » **Alhucemas** .

( ٢ ) أخبار المهدى ابن تومرت ص ٩٢ و ٩٣ ، والبيان المغرب فى الأوراق المخطوطة السالفة الذكر .

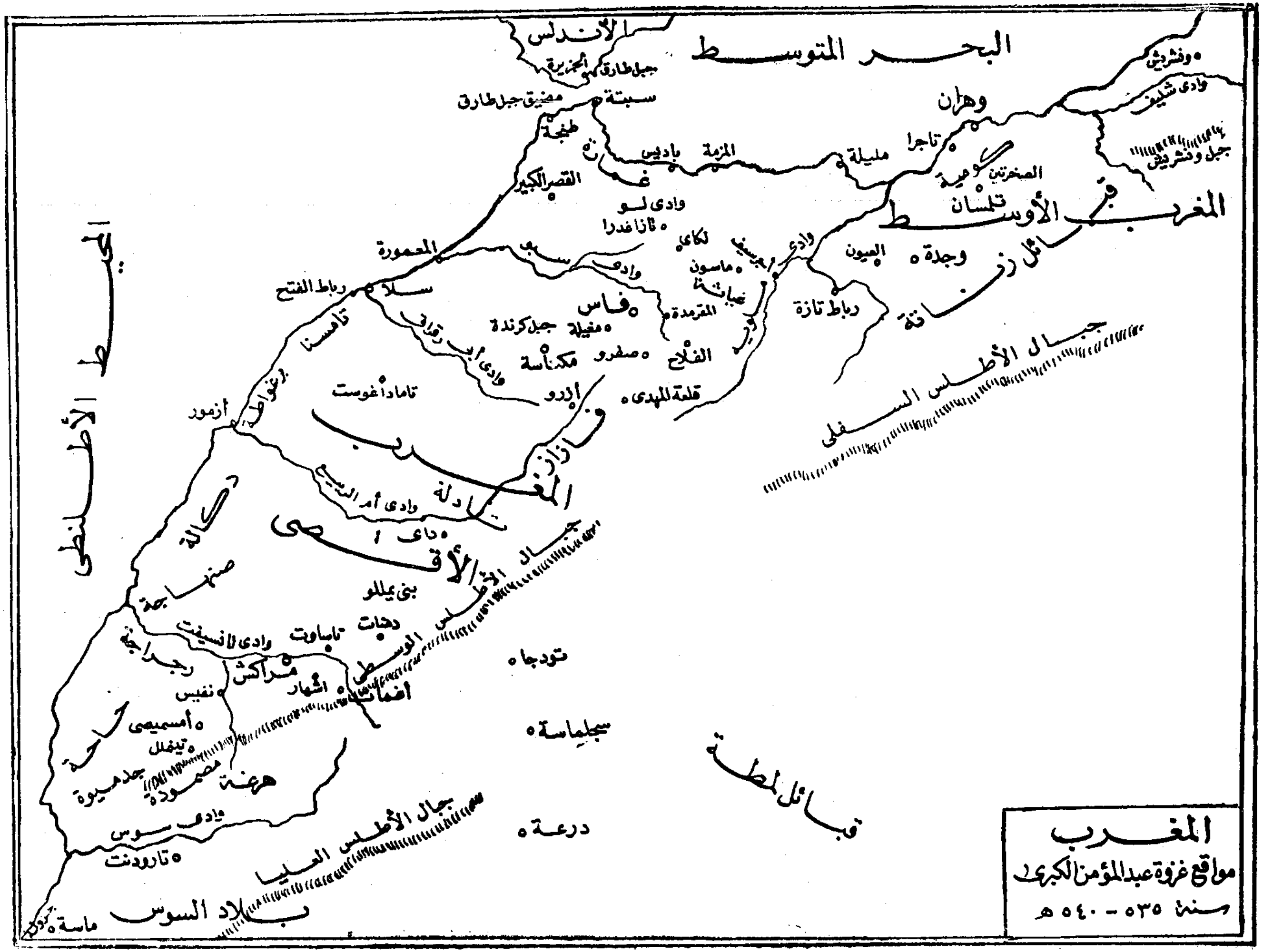
المغرب
مواقع غزوة عبد المؤمن الكبرى
سنة ٥٣٥ - ٥٤٠ هـ
البحر المتوسط
المحيط الأطلنطى
الأندلس
جبل طارق
الجزيرة
سبتة
مضيق جبل طارق
طنجة
القصر الكبير
وهران
تاجرا
مليلة
المزمة
باديس
الصخرتين
كومية
تلمسان
المغرب الأوسط
ونشريش
وادى شليف
جبل ونشريش
وادى لو
تازاغدرا
لكاى
ماسون
عيابة
المزمدة
العيون
وجدة
رباط تازة
قبائل زناتة
جبال الأطلس السفلى
المعمورة
رباط الفتح
سلا
تامسنا
برغواطة
أزمور
فاس
جبل كرندة
مغيلة
مكناسة
صفرو
الفلاح
قلعة المهدى
إدرو
فازاز
تامادغوست
وادى أم الربيع
تادلة
داى
المغرب الأقصى
دكالة
صنهاجة
بنى يملو
دهجات
تاساوت
وادى تانسيفت
رجراجة
مراكش
أغمات
الشهار
جبال الأطلس الوسطى
توجاه
سجلماسة
نفيس
أسميمى
تينملل
حاحة
جدميوة
هرغة
مصمودة
وادى سوس
تارودنت
جبال الأطلس العليا
درعة
قبائل لمطة
بلاد السوس
ماسة

وهنا يقص علينا البيذق قصة غريبة ، خلاصتها أنه قد وفد عندئذ على الخليفة عبد المؤمن أخوه إبراهيم ، فغمره الخليفة بإكرامه ، وأعطاه الخيل والعبيد والحباء ، وأنزله فى موضع محمد بن أبى بكر بن يكيت ، وقد كان أبوه ابن يكيت من أصحاب المهدى العشرة ، فاستاء لذلك محمد ووثب بإبراهيم فقتله ، فغضب الخليفة لمقتل أخيه أيما غضب ، وطالب بقتل ابن يكيت ، فاعترض عليه أبو حفص عمر اينتى ، وابن واجاج ، وقالا له ، ألم يقل المهدى ، « بأن أهل الجماعة وصبيانهم ، عبيدهم كل من فى الدنيا » ، فصمت الخليفة عندئذ ، وعدل عن قراره ، ولكنه أمر أن يقسم المعسكر الموحدى إلى فرق أو بنود ، وأن يكون لكل قبيلة بندها الخاص[١] . وهنا يلاحظ الأستاذ هويثى بحق « أنه ليس أقطع دليلا من ذلك على التعصب الأعمى ، الذى كان يضطرم به الموحدون الأوائل ، ويدافعون به عن مزايا وامتيازات نظامهم الدينى »[٢] .

وفى أثناء ذلك خرج عبد الرحمن بن زجّو فى قوة من الموحدين ، وزحف على ثغر مليلة ، واقتحمه ، وحصل على غنائم كثيرة ، كان من بينها مائة بكر ، قسمها عبد المؤمن على أعيان الموحدين ، فتزوجوهن ، وبقيت منهن أميرتان ، هما فاطمة بنت يوسف الزناتية ، وابنة ماكسن بن المعز صاحب مليلة ، فأخذ الشيخ اسماعيل أبو ابراهيم أحد العشرة فاطمة ، وأخذ الخليفة بنت ماكسن . ثم رحل الموحدون بعد ذلك إلى ندرومة وبلاد كومية ، قبيلة عبد المؤمن ، فدخلت جميعاً فى طاعة الموحدين . وسار الموحدون بعد ذلك إلى تاجرا الواقعة على البحر شرقى مليلة ، فنزلوا بها[٣] .

وكان الجيش الموحدى قد تضخم عندئذ ، ودخل فى طاعة الموحدين ، عدد كبير من القبائل والبطون الشمالية . ومن تاجرا خرجت ثلاث قوات موحدية ، الأولى بقيادة عبد الرحمن بن زجّو ، وقد سارت شمالا بشرق ، وهاجمت ثغر وهران ، واقتحمته واستولت على غنائمه ، والثانية بقيادة الشيخ أبى إبراهيم ، وقد سارت إلى أرض بنى وانوان واستاقت غنائمها ، وخرجت الحملة الثالثة بقيادة

---

( ١ ) كتاب أخبار المهدى ابن تومرت ص ٩٣ و ٩٤ .

( ٢ ) راجع : A. Huici Miranda : Historia Politica del Imperio Almohade (Tetuan 1956) V I. p. 126 .

( ٣ ) البيان المغرب ( فى الأوراق المخطوطة — هسبيرس ص ١٠٦ ) .

يوسف بن وانودين ، وسارت إلى جبل مديونة من أحواز تلمسان ، فخرج إليها المرابطون من تلمسان بقيادة أبي بكر بن الجوهر ، ومحمد بن يحيي بن فانّو ، ونشبت بين الفريقين معركة عنيفة فى وادى الزيتون ، هزم فيها المرابطون ، وقتل قائداهما . ووفد على الخليفة عندئذ ، عدد من زعماء القبائل المجاورة ، وأعلنوا خضوعهم .

ثم رحل الخليفة من تاجرا إلى تيفسرت من أرض مديونة ، وخرجت عندئذ قوة موحدية بقيادة الشيخ أبي حفص عمراينتى ويصلاصن بن المعز إلى العيون من أراضى قبيلة صاء غربى وجدة ، وغلبت على قبائل تلك الناحية ، وهم أربعة ، واستولت على غنائمهم .

وكانت الجيوش المرابطية بقيادة تاشفين والربرتير ، قد ارتدت عند دخول الشتاء إلى مراكزها فى فاس ، وبقى الموحدون فى مراكزهم فى أحواز تلمسان .

— ٣ —

وفى تلك الأثناء تطورت الحوادث بمراكش تطوراً خطيراً ، فقد توفى أمير المسلمين على بن يوسف ، فى السابع من شهر رجب سنة ٥٣٧ هـ ( يناير سنة ١١٤٣ م ). وكانت حوادث الأعوام الأخيرة من حكمه ، وما توالى فيها من محن وخطوب ، ترتبت على قيام المهدى ابن تومرت ، وتوالى ظفر الموحدين ، وهزائم الجيوش المرابطية ، قد فتت فى عضده ، وحطمت قواه ، وأذكت آلامه المعنوية ، فتوفى غما وألماً ، وهو يشهد نذر النهاية المروعة جاثمة فى الأفق . فكتم نبأ وفاته ثلاثة أشهر حتى السابع من شوال ، ثم أعلنت بعد ذلك ولاية ولده أبى محمد تاشفين ، وكان أبوه قد قلده ولاية عهده ، وبويع بها منذ سنة ٥٣٣ هـ ( ١١٣٨ م ) حسبما أشرنا إلى ذلك من قبل فى موضعه(١) .

وكان على بن يوسف خير أمراء الدولة المرابطية ، بعد أبيه العظيم يوسف . ونستطيع أن نعتبر حكمه ، الذى امتد سبعة وثلاثين عاما مذ ولى الملك بعد وفاة أبيه فى المحرم سنة ٥٠٠ هـ ، هو عصر الدولة المرابطية الحقيقى ، بعد أن توطدت

---

( ١ ) رجع البيان المغرب ( الأوراق المخطوطة هسبيرس ص ١٠٧ ) والحلل الموشية ( ص ٩٠ ) ، والزركشى فى تاريخ الدولتين ( ص ٥ ) . ولكن ابن الخطيب يذكر لنا فى الإحاطة أن على بن يوسف توفى فى السابع من ربيع ( ؟ ) ( سنة ٥٣٧ هـ ) ولم يشهر موته إلا فى الخامس من شوال ( الإحاطة ، مخطوط الإسكوريال لوحة ٢٩٢ ) .

دعائمها فى المغرب والأندلس ، وفى أوائل عهده ، وصلت الدولة المرابطية إلى ذروة قوتها وضخامتها ، بيد أنه سرعان ما ظهرت حركة المهدى ابن تومرت حتى انقلبت الآية ، وأخذ الانحلال يسرى إلى ذلك الصرح الشامخ ، وأخذت الدولة المرابطية ، تسير سراعاً إلى قدرها المحتوم .

ومما يؤثر عن على بن يوسف ، أنه كان أول من استخدم النصارى فى الجيش المرابطى . وقد بدأ فى ذلك حينما وقع تغريب النصارى المعاهدين بالأندلس فى سنة ٥٢١ هـ ( ١١٢٧ م ) ، حيث استخدم جماعة من الذين قضى بتغريبهم فى حرسه الخاص ، وكان ما أبداه أولئك الجند النصارى من الغيرة والإخلاص ، مشجعاً له على التوسع فى استخدامهم ، واستقدامهم من شبه الجزيرة ، ودعوة أنجادهم من الفرسان ، وهكذا انتظمت فى الجيش المرابطى فرقة أو فرق خاصة من المرتزقة النصارى . وفى أواخر عهد على ، عهد بقيادة هذه الفرق الأجنبية إلى الفارس القسطلانى الإبرتير أو الربرتير كما تقدم ، وأخذت تقوم بدور هام فى المعارك التى كانت تضطرم يومئذ بين المرابطين والموحدين . ويقول لنا صاحب البيان المغرب أن علياً كان يؤثر أولئك الجند النصارى ، ويمكن لهم ، وكانوا فى ظل هذه الرعاية الخاصة يتعالون على المسلمين ، ويفرضون عليهم المغارم . ولما اضطربت الأمور فى أواخر عهد على ، أهمل أمر الجند المسلمين ، وعجز الأمير عن الإنفاق عليهم ، حتى كان أكثرهم يكرون دوابهم(١).

ومما يذكره لنا ابن عذارى فى هذا الصدد أيضاً ، أن أمير المسلمين علياً ، حينما رأى توالى فشل ولده تاشفين فى محاربة الموحدين ساءه ذلك ، وعزم على إقالته ، وأن يقدم مكانه ولده إسحاق ، وكتب بالفعل إلى عامله على إشبيلية عمر ، بالقدوم ، ليجعله مدبر ولده ، وكان ذلك فى سنة ٥٣٦ هـ . بيد أنه يبدو أنه لم يجد متسعاً من الوقت لتحقيق هذا العزم ، إذ توفى بعد ذلك بأشهر قلائل(٢).

وكان من الأحداث البارزة فى أواخر عهد على ، السيل العظيم الذى وقع بطنجة ، فى سنة ٥٣٢ هـ ، وقد اكتسح معظم دورها وصروحها ، وهلك فيه عدد عظيم من الناس ، والدواب(٣) . ثم الحريق الكبير الذى وقع فى العام التالى بسوق

---

( ١ ) البيان المغرب ، فى الأوراق المخطوطة التى سبقت الإشارة إليها .

( ٢ ) البيان المغرب ( فى الأوراق المخطوطة المشار إليها — هسبيرس ص ١٠٥ ) .

( ٣ ) البيان المغرب ( الأوراق المخطوطة — هسبيرس ص ١٠٣ ) .

مدينة فاس ( ٥٣٣ هـ ) ، وتلفت من جرائه طائفة كبيرة من الدروب التجارية ، وهلكت فيه أموال جليلة ، وافتقر كثير من الناس[١].

وكان منها أيضاً ، أنه فى سنة ٥٣٥ هـ ، هاجرت جموع عظيمة من أهل المغرب ، من مختلف نواحيه ، إلى الأندلس . وهذا ما يذكره لنا ابن عذارى نقلا عن ابن حمادة . والظاهر أن ذلك كان راجعاً إلى توالى ظفر الموحدين على المرابطين ، وتوجس أنصار المرابطين وأوليائهم مما قد يؤول إليه الأمر من انهيار سلطان المرابطين بالمغرب[٢] .

وعلى بن يوسف هو الذى وسع مدينة مراكش ، وعمرها ، ونظم خططها ، حتى غدت أضعاف ما كانت عليه عند إنشائها ، وأنشأ بها الجامع ، والقصر المرابطى ، ونظم سقايتها ، وأدار أسوارها ، حتى غدت فى عصره حاضرة عظيمة[٣] .

وتنوه الرواية بخلال على بن يوسف ، وتصفه بأنه كان ملكاً عظيما ، عالى الهمة ، رفيع القدر ، فسيح المعرفة عظيم السياسة[٤] ، وكان فوق ذلك ورعاً متعبداً ، يحب العلماء ويؤثر مجالسهم[٥] . بيد أنه لم يكن فى ذلك صنو أبيه العظيم فى الاقتصار على الاسترشاد بآرائهم دون خنوع واستسلام ، بل كان يخضع لأهوائهم ، ويترك لهم الكلمة العليا . وقد رأينا ما كان فى استسلامه لهم ، من الحجر على حرية الفكر ، ومطاردة كتب الغزالى وإحراقها ، لما كانت تتسم به من إيثار لعلم الأصول ، وقد كان هذا من أكبر أخطائه ، ومن دلائل استسلامه لأهوائهم وتعصبهم .

وكان البلاط المرابطى فى عهد على بن يوسف ، يزدان سواء فى المغرب أو الأندلس بعدة من أكابر الكتاب ، وأعلام البلاغة فى ذلك العصر . وكان فى مقدمة هؤلاء أبو بكر بن القصيرة المتوفى سنة ٥٠٨ هـ ، وقد كتب عن يوسف ابن تاشفين ، ثم عن ابنه علي ، وأبو القاسم ابن الجد المعروف بالأحدب ، وأبو بكر بن عبد العزيز البطليوسى المعروف بابن القبطُرنة ، وأخواه أبو الحسن

---

( ١ ) ابن القطان فى نظم الجمان ( المخطوط السابق ذكره ) .

( ٢ ) البيان المغرب ( فى الأوراق المخطوطة — هسبيرس ص ١٠٥ ) .

( ٣ ) الزركشى فى تاريخ الدولتين ص ٥ .

( ٤ ) ابن الخطيب فى ترجمة على بن يوسف فى الإحاطة ( مخطوط الإسكوريال السالف الذكر لوحة ٢٩٢ ) .

( ٥ ) المعجب للمراكشى ص ٩٩ ، والحلل الموشية ص ٦١ .

وأبو محمد ، وأبو عبد الله بن أبى الخصال وأخوه أبو مروان ، وأبو محمد عبد المجيد بن عبدون وزير بنى الأفطس السابق(١) . وأبو جعفر أحمد بن محمد ابن عطية القضاعى ، وقد خدم تاشفين بن على من بعد أبيه ، ثم انتقل فيما بعد إلى خدمة عبد المؤمن حسبما يجىء(٢) .

وكان أنبهم وآثرهم لدى على بن يوسف ، أبو عبد الله بن أبى الخصال المتوفى سنة ٥٤٠ هـ . وقد كان من أعظم علماء العصر وكتابه وبلغائه . وكان اجتماع هذه الجمهرة من أعلام البلاغة فى البلاط المرابطى ، أثر من آثار قصور الطوائف ، التى امتازت بحشد أقطاب الكتاب والأدباء بين وزرائها ، وأغدقت عليهم حمايتها ورعايتها .

وكان على قد استوزر فى أواخر عهده ، إسحق بن ينتان بن عمر بن ينتان ، وكان فتى حدثا لم يجاوز الثامنة عشرة من عمره ، ولكنه كان يتوقد ذكاء وفطنة وعزماً ، فأعجب به على ، وولاه خطة المظالم والشكايات ، فأبدى فى منصبه براعة وكياسة ، فانتفع به الناس وأحبوه ، وكان حسبما تصفه الرواية « مثل كاهن يأتى بعجائب الأخبار »(٣) .

هذا ، وأما عن شخصه ، فإن الرواية تصف على بن يوسف ، بأنه كان أبيض اللون ، مشرباً بحمرة ، حسن القد ، صبوح الوجه ، أفلج ، أقنى ، أكحل العينين ، سبط الشعر(٤) .

وكان لعلى من الولد الذكور ، أحد عشر ، ولكنه لم يترك من أولاده الأحياء بعده سوى ولى عهده وخلفه تاشفين . أما ولده الأكبر سير ، فكان قد توفى قبل وفاته بمدة طويلة ، وكذلك توفى أولاده الآخرون قبل وفاته ، ومنهم ولده أبو بكر ، وقد كان والياً بالأندلس . وفى رواية أنه قد غُرِّب بأمر أبيه إلى الصحراء حينما اعترض على تعيين أخيه تاشفين لولاية الأندلس . وفى أخرى أنه أصيب إصابة أقعدته ، فحُمل على أعناق الرجال حتى الجزيرة ، ولكنه سجن هناك حتى توفى ، واشتد ألم أبيه على فقده .

---

(١) المعجب ص ٩٦ ، والإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٥٢٩ .

(٢) الإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٢٧٠ .

(٣) البيان المغرب ( فى الأوراق المخطوطة السالفة الذكر — هسبيرس ص ١٠٧ ) ، والحلل الموشية ص ٦١ .

(٤) روض القرطاس ص ١٠٢ .

— ٤ —

وكانت دولة المرابطين فى تلك الأعوام الأخيرة من حكم على بن يوسف ، قد اضطربت أحوالها واهتزت أسسها ، وفقدت كثيراً من قواعدها وأراضيها ، وسادت الفوضى فى كل ناحية ، وساءت الأحوال الاقتصادية من توالى الحرب ، وعزت الأقوات والموارد ، وارتفعت كلفة العيش ، وعانى الناس مشقات وشدائد. وماكاد على بن يوسف يختفى من الميدان، حتى وقع ما هو أخطر ، من تصدع الجبهة المرابطية وتفرق كلمتها . وذلك أن الخصومة قد اضطرمت بين قبيلتى لمتونة ومسوفة وهما دعامتا العصبة المرابطية ، وخرج عدة من زعماء مسوفة على حكومة مراكش ، ورأوا ، أن يلوذوا بحماية الموحدين ، فسار منهم يحيى ابن تاكفت ، وبرّاز بن محمد ، ويحيى بن إسحاق المعروف بأنجمار حاكم تلمسان السابق ، فى صحبهم وأتباعهم ، إلى محلة الموحدين ، وقدموا طاعتهم إلى عبدالمؤمن ، وكانت هـــذه ضربة جديدة لتاشفين بن على ، فاشتد الاضطراب فى الجبهة المرابطية ، ووغرت صدور اللمتونيين على مسوفة ، وأخذ يتربص بعضهم ببعض ، ويقتل بعضهم بعضاً .

وكان ممن انشق على تاشفين فى تلك الفترة ، بنى ومانّو من بطون زناتة ، وقدّم أشياخهم طاعتهم إلى عبد المؤمن ، فبعثهم مع بعض قواته إلى بلادهم ، فأعلنوا طاعتهم جميعاً للموحدين . ولما علم تاشفين بخروج بنى ومانّو ، وجه إليهم عسكراً على رأسه الزّبرتير ، فسارع الموحدون إلى إنجادهم ، وتحصن بنى ومانّو ببعض التلال ، فصعد إليهم المرابطون ، يحاولون اقتحام مراكزهم ،ولكنهم ردوا المرابطين على أعقابهم . وعلى أثر ذلك سار جيش موحدى بقيادة ابن وانودين ، وابن زجّو ، وابن يومور ،إلى بلاد بنى عبد الواد وبنى يلومى وهم من أنصار المرابطين ، وعاث فى تلك المنطقة ، واستاق كثيراً من الغنائم ، ولكن فاجأته حين العودة قوة من المرابطين من زناتة واستولت على معسكر الغنائم ، وقتلت كل حراسة وهم من بنى ومانّو وعددهم ستمائة رجل ، وتحصن الموحدون بجبل هنالك ، وسار عسكر المرابطين إلى موضع يسمى منداس بلد بنى يلومى من بطون زناتة ، فاجتمع إليه بنى يلومى ، وعدة أخرى من البطون .

ولما علم عبد المؤمن بما حدث ، سار بقواته من أحواز تلمسان إلى أرض يلومى ، وكان الأمير تاشفين قد قدم فى نفس الوقت إلى تلمسان ، وحشد فيها

عسكراً ، وأرسله على عجل إلى محلة المرابطين فى منداس ، وكذلك انضم إليهم الرّبرتير فى قواته ، واجتمعت بذلك للمرابطين حشود ضخمة . فلما شعر عبد المؤمن بتفوق خصومه ، لجأ إلى خطة حربية جديدة مبتكرة ، هى خطة المربع الموحدى الذى اشتهر فيما بعد . وأضحى عماد خطط الدفاع الموحدية فى الميدان المكشوف . وقد وصف لنا ابن اليسع خلاصة هذه الخطة ، نقلا عن بعض الموحدين ، فيما يلى :

« أن تُصنع دارة مربعة فى البسيط يجعل فيها من جهاتها الأربع صف من الرجال بأيديهم القنا الطوال ، والطوارق المانعة ، ومن ورائهم أصحاب الدروق والحراب صفاً ثانيا ، ومن ورائهم أصحاب المخالى فيها الحجارة صفاً ثالثا ، ومن وراء هؤلاء الرماة صفاً رابعا . وفى وسط المربعة ، ترابط قوى الفرسان » . يقول ابن اليسع « فكانت خيل المرابطين إذا دفعت إليهم ، إلى الموحدين ، لاتجد إلا الرماح الطوال الشارعة ، والحراب والحجارة والسهام ياسرة . فحين ماتوا من الدفع وتدبر ، وأخرج خيل الموحدين من طرق تركوها ، وفرج أعدوها ، فتصيب من أصابت ، فإذا كرت عليهم دخلوا فى غاب القنا »(١) .

وهكذا فإنه حينما نشب القتال بين المرابطين والموحدين فى منداس ، ظهرت آثار الخطة الدفاعية الموحدية واضحة فى عجز المرابطين على تفوقهم فى العدد والعدة ، عن النيل من خصومهم . وبالعكس فقد أثخن الموحدون فى خصومهم ، وردوهم الكرة بعد الكرة بخسائر فادحة ، واستمر القتال على أشده ثلاثة أيام . وفى اليوم الرابع أحرز الموحدون على خصومهم نصراً باهراً ، واحتووا على محلتهم ، ومحلات حلفائهم من بنى بلومى وغيرهم ، واستولوا على غنائم فادحة ، تقدرها الرواية بثلاثين ألفاً من الغنم ، واثنى عشر ألفاً من البقر. بيد أنه حينما ارتد عبد المؤمن بغنائمه صوب الصخرتين من أحواز تلمسان ، اعترضه الربرتير فى قواته ، وهاجمه بشدة واسترد منه معظم الغنائم ، وقتل من كومية قبيلة عبد المؤمن نحو أربعمائة رجل . ثم سار فى قواته وغنائمه إلى تلمسان ، فانضم هناك إلى قوات الأمير تاشفين(٢) .

وفى خلال ذلك الصراع المرير الذى استغرق قوى المرابطين ، وصل إلى

---

(١) الحلل الموشية ص ٩٨ .

(٢) البيان المغرب ( القسم الثالث نسخة تامجروت) ( تطوان ١٩٦٣ ) ص ١٥ .

مياه سبتة أسطول نورمانى ضخم قوامه مائة وخمسون سفينة ، وأغار أولئك النورمان ( المجوس ) على سبتة ، محاولين اقتحامها ، فخرجت إليهم سفن المرابطين بقيادة أمير البحر ابن ميمون ، ووقعت بين الفريقين معركة بحرية عنيفة ، غرقت فيها من الجانبين سفن عديدة ، وقتل من الفريقين خلق كثير . وكان ذلك فى سنة ٥٣٨ هـ (١) . ودل ذلك الحادث على أن القوات البحرية المرابطية ، كانت ما تزال ، بالرغم مما حدث فى داخل المغرب ، يقظة ساهرة ، على حراسة الشواطئ والثغور المغربية المرابطية .

ووقع بعد ذلك بقليل حادث كان له فى مركز المرابطين أسوأ الأثر هو مصرع الرّبرتير قائد « الروم » . وتختلف الرواية فى شرح هذا الحادث وفى تفاصيله . ويقدم إلينا البيذق رواية خلاصتها ، أن عبد المؤمن وجه حشود جزولة لقتال الربرتير ، وكانوا بموضع يسمى « بكيرس » ، فسار الربرتير فى قواته للقائهم ، وكانت جزولة تحتمى وراء خندق ، فاستطاعوا أن يردوا الربرتير ، فولى عنهم مهزوماً ، وكتب إلى عبد المؤمن كتاباً يسدى فيه النصح ، ويقول إن جزولة ، قد غدروا بإخوانهم ، وهم بلاريب سوف يغدرون بك ، وعندئذ عمد عبد المؤمن إلى تجريدهم من خيلهم وسلاحهم ، ثم قتلهم جميعاً إلا الصبيان الصغار ، واستولى على غنائمهم . فلما علم الربرتير بذلك قرر أن يسير لمهاجمة الموحدين ، واستخلاص الغنائم منهم ، فلم يعترض تاشفين على رغبته ، ولكنه لم يسر معه ، والتقى الربرتير بالموحدين فى موضع يسمى « تاكوط آن تيفسرت » ونشبت بينه وبين الموحدين معركة عنيفة هلك فيها هو ومعظم جنده ، ولم يسلم من عسكره حسبما يحدثنا البيذق سوى ستة ، ثلاثة من الروم ، وثلاثة من المرابطين ، يذكر لنا البيذق أسماءهم . وكان ذلك فى سنة ٥٣٩ هـ ( ١١٤٤ م )(٢) .

ويذكر لنا ابن عذارى من جهة أخرى مصرع الربرتير فى جملة موجزة يقول فيها « فى سنة تسع وثلاثين خرج قائد الروم بعسكره ، ومعه عسكر لمتونة والحشم ، فهزمهم الموحدون ، وقتل القائد المذكور » . وهذا ما ورد فى الأوراق المخطوطة التى بين أيدينا من البيان المغرب . ولكن ابن عذارى يحاول فيما بعد ، أن ينقل تفاصيل مصرع الربرتير عن ابن صاحب الصلاة ، وذلك فى القسم

(١) البيان المغرب ( الأوراق المخطوطة – هسبيرس ص ١٠٨ ) .
(٢) كتاب أخبار المهدى ابن تومرت ص ٩٦ .

الثالث من كتابه ، بيد أن ما نقله فى ذلك قد سقط من نسخة « تاجروت » وهى التى تغدو مرجعنا منذ الآن فصاعدا[١] .

ويقدم إلينا ابن خلدون عن مصرع الربرتير رواية ثالثة يقول فيها ، إن تاشفين بعث الربرتير فى عسكر ضخم فأغار على بنى سندم وزناتة الذين كانوا فى بسيطهم ، وعاد بالغنائم ، فاعترضه الموحدون ، ونشبت بين الفريقين معركة قتل فيها الربرتير وجنده[٢] .

ولما رأى الجند النصارى مصرع عميدهم ، ورأوا أنهم لا يستطيعون بعد أن يعملوا لتدعيم إمبراطورية أصبحت وشيكة الانهيار ، تفرقوا تباعاً ، وغادر الكثير منهم المغرب إلى اسبانيا ومعهم أسرهم وقساوستهم ، وساروا إلى طليطلة ملتجئين إلى حماية القيصر ألفونسو ريموندیس ( ألفونسو السابع ) ملك قشتالة ، فأحسن استقبالهم ، وأنزلهم بدياره ، وحمد لهم تمسكهم خلال الحوادث والخطوب بدينهم وولائهم لمذهبهم[٣] .

وعلى أى حال فقد كان مصرع الربرتير وتبدد جنده ، ضربة جديدة أصابت الجيش المرابطى ، وكان تاشفين فى تلك الأثناء قد كتب إلى الأقطار يستدعى الحشود من كل ناحية ، فقدم إليه عسكر سجلماسة ، وعسكر بجاية بقيادة طاهر ابن كباب الصنهاجى من بنى حماد أصحاب إفريقية ، ووصل من الأندلس عسكر آخر بقيادة الأمير إبراهيم بن تاشفين ، وكان قد قدم إلى أبيه قبل ذلك على أثر موت جده علىّ وزاره بجهة كراندة ، فبعثه والده إلى قرطبة لإتمام دراسته بها ، ثم استدعاه بعد ذلك فوصل فى عسكره إلى تلمسان فى أواخر سنة ٥٣٨هـ ، فولاه أبوه فى الحال عهده ، واجتمعت الجيوش المذكورة فى ظاهر تلمسان ، وميزوا ، وبرزوا فى نظام متقن وهيئة كاملة ، وعجب الناس من كثرتهم ، وحسن نظامهم ، وجمال هيئتهم ، بيد أنها كانت آخر حشود يحتفل بها المرابطون[٤] .

— ٥ —

ولما قتل الربرتير وبدّد جيشه ، غادر الموحدون « تيفسرت » وساروا إلى

---

(١) راجع القسم الثالث من البيان المغرب ( نسخة تاجروت ) ص ١٦ .

(٢) كتاب العبر ج ٦ ص ٢٣١ .

(٣) Simonet : Hist. de los Mozárabes, p. 760 & 761

(٤) القسم الثالث من البيان المغرب ( نسخة تاجروت ) ص١٥ ، والحلل الموشية ص ٩٧و٩٨

شمال غربى تلمسان ونزلوا « بالصخرتين » القريبة منها ، وكان تاشفين قد أقام محلته فى « سطفسيف» القريبة ، وكانت المعارك والمناوشات تنشب كل يوم تقريباً بين الفريقين ، واستمر ذلك مدى شهرين . ولما وصلت حشود الأقطار إلى تاشفين ، خرجت منها حشود بجاية ، واشتبكت مع الموحدين فى معركة عنيفة فى ظاهر « الصخرتين » ، فهزمت وقتل منها عدد جم ، وبعث قائدها سراً إلى عبد المؤمن ، يعده بالتوحيد ، وأنه متى افتتح المغرب ، فإنه إذا ورد المشرق وجده مفتوحاً كذلك .

وعندئذ أدرك تاشفين دقة مركزه ، فقرر أن يترك محلته فى تلمسان ، وغادرها فى قواته إلى وهران الواقعة على البحر فى شمالها الشرقى . وبعث ابنه وولى عهده إبراهيم إلى مراكش فى جماعة من أشياخ لمتونة ومعه كاتبه أحمد بن عطيه . وكان تاشفين قد ابتنى فى وهران حصناً منيعاً على البحر كى يحتمى به عندالحاجة ، ودبر مع قائد أسطوله محمد بن ميمون ، أن يوافيه إلى وهران بجناح من الأسطول فقدم ابن ميمون من ألمرية فى عدة من السفن ، وأرسى قريباً من المعسكر المرابطى ينتظر تطور الحوادث . وكان ذلك فى شهر شعبان سنة ٥٣٩ هـ ( يناير ١١٤٥م) .

وكان المرابطون قبل أن يغادروا محلتهم فى سطفسيف إلى وهران قد دبروا كميناً لجيش موحدى يقوده ابن زجّو ، ففتكوا به وقتلوا ابن زجّو. فكان ذلك عاملا جديداً فى إذكاء سخط الموحدين . وماكاد المرابطون يتحركون نحو الشمال ، حتى سار فى أثرهم عبد المؤمن فى قواته ، وبعث فى مقدمته الشيخ أبا حفص عمر ابن يحيى الهنتانى ( عمرإينتى ) ، وحشود بنى ومانّو من زناتة ، فنفذوا إلى بلاد بنى يلومى ، وبنى عبد الواد ، وبنى ورسيفين ، وبنى توجين ، وكلهم من أنصار لمتونة ، وأثخنوا فيهم حتى أذعنوا إلى الطاعة ، وسار زعماؤهم إلى عبد المؤمن ، وقدموا طاعتهم إليه ، فتلقاهم بالقبول ، وضمهم إلى قواته[١] . وأشرف الموحدون على وهران ، وعسكروا فوق الجبل المطل عليها .

وكان كل شيء ينذر عندئذ بوقوع المعركة الحاسمة . وكان المرابطون يرقبون تحركات الموحدين فى وجوم وتوجس وقد غادر عدة من قوادهم المعسكر المرابطى وتركوا تاشفين لمصيره . وشعر الموحدون من جانبهم أن الفرصة المنشودة قد حلت ، ففى ذات صباح أطلقوا من فوق الجبال صيحتهم الحربية بصوت واحد

( ١ ) البيان المغرب القسم الثالث ( نسخة تاجروت ) ص ١٦ ، وكتاب العبر ج ٦ ص٢٢١ .

ارتجت له المحلة المرابطية ، وأمر تاشفين جنده بان يلزموا أماكنهم خيفة الكمين؛ وعند الظهر سار الموحدون إلى عين الماء التي يشرب منها أهل وهران ، فسقوا دوابهم دفعة واحدة ، ثم قاد الشيخ أبو حفص قواته ، واقتحم المحلة المرابطية ، حتى أشرف على مكان خباء تاشفين ، وكان موقعه بإزاء الحصن المطل على البحر ، فوقع الاضطراب فى المعسكر المرابطى ، وبادر تاشفين وخاصته ومنهم ابن مزدلى ، وبشير الرومى ، وصندل الفتى ، إلى الالتجاء إلى الحصن ، ووقع القتل بين المرابطين ، وجمع الموحدون الخشب ، وأضرموا النار حول الحصن ، وماكاد الظلام يرخى سدوله ، حتى كانت ألسنة اللهب قد تعالت ، فخشى تاشفين الهلاك ، وخرج من الحصن فوق فرسه « ريحانة » يطلب النجاة ويرجو أن تصل إليه بعض قطع أسطوله لتحمله إلى الأندلس ، وكان معه صحبه الثلاثة ، فسقط صندل فى النار واحترق ، واستطاع ابن مزدلى أن يجوز إلى أسوار المدينة ، ولكنه فقد رشده ومات بعد ثلاثة أيام . وسار تاشفين وبشير إلى مرتفعات الجبل ، فقيض لبشير النجاة . ولكن تاشفين ، تردت به فرسه تحت جنح الظلام ، فسقطت فى هوة سحيقة فهلكت الفرس ، وهلك تاشفين . وفى الصباح عثر الموحدون على جثة تاشفين فى تلك الحافة فصلبوا الجثة ، واحتزوا رأسه ، وبعث بها عبد المؤمن إلى تينملل ، فعلقت فى الشجرة التى بإزاء مسجد المهدى . وكان مصرع تاشفين فى ليلة السابع والعشرين من رمضان سنة ٥٣٩ هـ ( ٢٢ فبراير ١١٤٥ م )(١) ، وذلك بعد أن قضى فى مدافعة الموحدين زهاء خمسة أعوام متوالية ، لم يأو فيها إلى مكان . ولم ينعم بهدنة ، ولم يتصل بأهل ولا ولد(٢) .

وقد أورد لنا ابن الأبار عن مصرع تاشفين رواية أخرى عن أبى على بن الأشيرى ، وقد كان داخل تلمسان حين نزل الموحدون على مقربة منها فى سنة ٥٣٩ هـ ، وكان تاشفين عندئذ فى ظاهرها فى محلاته وجموعه . وخلاصة هذه الرواية ، أن تاشفين بعد أن وجه ابنه إبراهيم ولى عهده إلى مراكش خوفاً عليه فى شعبان من تلك السنة ، وسير معه كاتبه أبو جعفر بن عطية ، سار إلى وهران ، ولجأ إلى حصن شرع فى بنيانه ، فقصده الموحدون ، وأضرموا النار حوله ،

(١) البيان المغرب ، القسم الثالث ص١٦و١٧ ، وأخبار المهدى ابن تومرت ص٩٨ ، والحلل الموشية ص ١٠٠ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٣١ ، وابن الخطيب فى الإحاطة ( القاهرة ١٩٥٦ ) ج ١ ص ٤٦٢ .

(٢) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ١٩٨ .

فلما رأى ذلك ودع أصحابه ليلا ، واقتحم والنار محتدمة بباب الحصن ، فوُجد من الغد ميتاً لا أثر فيه لضربة ولا طعنة ، ويقال إن فرسه صرعه . وتتفق هذه الرواية مع الروايات الأخرى فى أن مصرع تاشفين وقع فى ليلة سبع وعشرين من شهر رمضان سنة ٥٣٩ هـ[١] .

وأورد لنا المراكشى رواية ثالثة خلاصتها أن تاشفين لما ذهب إلى تلمسان لم يرضه موقف أهلها ، فغادرها إلى وهران ، فحاصره الموحدون بها ، فلما اشتد عليه الحصار ، خرج راكباً فرساً شهباء وعليه سلاحه ، فاقتحم البحر حتى هلك ، ويقال إنهم أخرجوه من البحر وصلبوه ثم أحرقوه[٢] .

هذا ويصف لنا ابن الخطيب مصرع تاشفين بن على فى تلك العبارات الشعرية :

« واستقبل تاشفين مدافعة جيش أمير الموحدين ، أبى محمد عبد المؤمن بن على خليفة مهديهم ، ومقاومة أمر قضى الله ظهوره ، والدفاع عن ملك بلغ مداه وتمت أيامه ، كتاب الله عليه ، فالتأث سعده ، وفل جده ولم تقم له قائمة ، إلى أن هزم ، وتبدد عسكره ، ولجأ إلى وهران ، فأحاط به الجيش ، وأخذه الحصار ، قالوا فكان فى تدبيره أن يلحق ببعض السواحل ، وقد تقدم به وصول ابن ميمون قائد أسطوله لبرفعه إلى الأندلس ، فخرج ليلا فى نفر من خاصته فرقهم الليل ، وأضلهم الروع ، وبددتهم الأوعار ، فمنهم من قتل ، ومنهم من لحق بالقطائع البحرية ، وتردى بتاشفين فرسه من بعض الحافات ، ووجد ميتاً فى الغد ، وذلك ليلة سبع وعشرين لرمضان سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، وصلبه الموحدون ، واستولوا على الأمر بعده ، والبقاء لله تعالى »[٣] .

وعلى أثر مصرع تاشفين ، اقتحم الشيخ أبو حفص بقواته وهران ، وأثخن فى المرابطين حتى فنى معظمهم ، والتجأت منهم جماعة إلى الحصن ، فحاصرهم الموحدون وقطعوا عنهم الماء حتى أذعنوا إلى التسليم بعد ثلاثة أيام . ومع ذلك فقد قتلهم الموحدون جميعاً كباراً وصغاراً ، وكان ذلك فى يوم عيد الفطر من سنة ٥٣٩ هـ . وكانت مذابح وهران هذه ، من أفظع المظاهر التى تميزت بها سياسة الموحدين الدموية .

---

(١) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ١٩٧ و ١٩٨ .

(٢) المعجب ص ١١٢ و ١١٣ .

(٣) الإحاطة فى أخبار غرناطة ( القاهرة ١٩٥٦ ) ج ١ ص ٤٦١ و ٤٦٢ .

ولما وصل خبر مصرع تاشفين إلى تلمسان ، مع فل لمتونة ، أسرع من كان بها وبضاحيتها القريبة تاجررت من لمتونة ، فغادروها هائمين على وجوههم يقصدون إلى فاس وغيرها من الأماكن التى مازالت تحت حكم المرابطين . وكان فى مقدمة من غادرها الأمير يحيى بن أبى بكر بن على المعروف بالصحراوى وهو ابن أخى تاشفين ، وكان قد وفد إليها قبل ذلك بقليل فى بعض قواته لإنجاد تاشفين . فلما وقعت الكارثة أسرع فى فلوله إلى فاس ، وامتنع بها ، وأخذ ينظم الدفاع عنها . ولم يبق بتلمسان سوى العامة وأهل الحضر ، وبادر جماعة من أعيانها فى نحو ستين رجلا إلى لقاء عبد المؤمن يلتمسون منه الأمان ، فلقيهم يصلاتن (يصلاصن) الزناتى فى قوة من الموحدين فى وادى تافنا القريب ، فقتلهم عن آخرهم ، وطار نبأ مصرعهم إلى تلمسان . فسرى إلى أهلها الرعب والروع ، وسادت بها الفوضى .

ودخل عبد المؤمن وجنده الموحدون تاجررت فى غداة عيد الفطر ، فقتلوا أهلها ، واقتسموا دورها . ثم غادروها إلى تلمسان . وكان يسودها الوجوم والفزع . فلما اقترب الموحدون منها خرج الأعيان والطلبة ، يسعون إلى لقاء عبد المؤمن والتماس العفو منه ، فأقبل يصلاتن وجنده وجردوهم من ثيابهم ، وقتلوا جماعة منهم ، تحت نظر الخليفة ، والشيخ أبى إبراهيم أحد الصحب العشرة ، ثم دخل عبد المؤمن المدينة ، وقتل الموحدون كثيراً من أهلها(١). ويؤيد هذه الرواية ويعززها صاحب الحلل الموشية . فيقول لنا إن عبد المؤمن دخل تلمسان عنوة وقتل أهلها وسبى حريمها ، ودخل كل واحد من الموحدين من الموضع الذى يليه ، فأخذوا منها من الأموال ما لا يحصى ، وقد بلغ فيها عدد القتلى ، وفقاً لابن اليسع مائة ألف أو تزيد .

وفى رواية أخرى أن عبد المؤمن استباح أهل تاجررت وقتلهم لما كان معظمهم من حشم اللمتونيين ، وعفا عن أهل تلمسان . وفى رواية ثالثة أن عبد المؤمن لم يدخل تلمسان فوراً ، ولكنها امتنعت عليه ، واضطر إلى محاصرتها ، وأنه لبث وقتاً على حصارها ، وأخبار الفتوح والبيعات ترد عليه ، وأنه ترك على حصارها إبراهيم بن جامع وغادرها إلى فاس(٢) . بيد أنه يبدو أن الرواية

(١) البيان المغرب ، القسم الثالث ص ١٨ ، والحلل الموشية ص ١٠١ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣١ .

الأولى هى الرواية الراجحة ، وأنه ليس من المعقول أن تصمد تلمسان فى مثل هذه الظروف ، أمام جيش مظفر مثل جيش عبد المؤمن ، يندفع فى فتوحه كالسيل يحمل من يصادره . هذا ، وربما كان فيما يقول ابن صاحب الصلاة ، مؤرخ الموحدين ، ما يرفع هذا التناقض بين الروايتين ، فهو يقول لنا إنه لما استقر عبد المؤمن بتلمسان بعد استشهاد من استشهد ، امتنعت عليه قصبتها بمن فيها ، فوضع عليها الحصار ، ولما رحل إلى فاس ترك عسكراً ليتابع حصارها[1].

ومن ثم فقد لبث عبد المؤمن ، وفقاً للرواية الأولى فى تلمسان سبعة أشهر ، ليستريح وليرقب شئون الفتوح فى تلك المنطقة . ومن المعروف مما تقدم أن عبد المؤمن كان من أهل تاجرا ( تاجررت ) وبها كان مسقط رأسه ، وأن أمه تنتمى إلى قبيلة كومية ، وموطنها يقع فى نفس المنطقة جنوب تاجرا . وإذاً فقد كان من الطبيعى أن يتمهل عبد المؤمن قليلا فى تلك الربوع ، التى نشأ فيها وترعرع ..ولما تم تنظيم الشئون ، ندب عبد المؤمن للولاية على تلمسان ، سليمان بن محمد بن وانودين الهنتانى ، ثم غادرها فى قواته فى ربيع الثانى سنة ٥٤٠ هـ ( أكتوبر ١١٤٥ م ) ، قاصداً إلى مدينة فاس .

( ١ ) أورده البيان المغرب ، القسم الثالث – ص ١٩ .

# الفصل الخامس

## نهاية الدولة المرابطية

### فى المغرب

الدولة المرابطية فى طور الاحتضار . ولاية الأمير أبى إسحاق إبراهيم والخلاف حولها . مسير عبد المؤمن إلى وجدة ودخولها فى الطاعة . مسيره إلى أجرسيف واقتحامها . زحفه على فاس ونزوله بالمقرمدة . خروج المرابطين بقيادة الصحراوى ، واشتباكهم مع الموحدين . مسير عبد المؤمن إلى وادى سبو ونزوله فى عقبة البقر . احتلاله لجبل العرض . إرساله حملة لمحاصرة مكناسة . خروج المرابطين منها وفتكهم بالموحدين . مسير عبد المؤمن بنفسه إلى مكناسة . محاصرة الموحدين لفاس . قطعهم للنهر وإغراق مياهه للوادى . اتصال الجيانى المشرف على المدينة بالموحدين . غدره بالصحراوى وفتحه باب المدينة . دخول الموحدين فاس وفرار الصحراوى . قدوم عبد المؤمن من مكناسة ودخوله فاس . قتله لأشياخ المرابطين وهدمه لأسوار المدينة . مسيره إلى مكناسة ثم إلى سلا . سقوط مكناسة فى أيدى الموحدين . مسير عبد المؤمن إلى وادى أم الربيع وخضوع صنهاجة ودكالة . وفود ابن ميمون قائد الأسطول المرابطى ودخوله فى الطاعة . وفود رسل أهل سبتة . مسير عبد المؤمن فى قواته إلى مراكش . نزوله فوق جبل إيجليز . محاصرة الموحدين لمراكش . حالة المرابطين داخل المدينة . خروجهم لقتال الموحدين . هزيمة المرابطين وارتدادهم إلى الداخل . وفود أشياخ القبائل على عبد المؤمن . وفود الأندلس إليه . توحيد إسحاق بن ينتان . امتداد الحصار وصمود المدينة . استعمال الموحدين للسلالم واقتحامهم الأسوار . دخول الموحدين مراكش ومقاومة أهلها اليائسة . اقتحام القصبة والقبض على الأمير إبراهيم وآله وخاصته . استباحة الموحدين لمراكش ، وقتلهم الذريع لأهلها . مقتل إبراهيم بن تاشفين وأمراء وأشياخ لمتونة . دخول عبد المؤمن المدينة ثم عوده إلى محلته . منع الدخول والخروج من المدينة . اعتبارها مدينة رجسة وتطهيرها وهدم جوامعها . جمع السبى والأسلاب ، وصف مراكش فى هذا العهد . دخول الموحدين قصبة تلمسان . وفود وفد إشبيلية على عبد المؤمن .

— ١ —

لم يكن ثمة شك ، بعد أن انهار سلطان المرابطين ، فى المغرب الأوسط ، وفى المغرب الشمالى ، على هذا النحو الجارف ، وبسط الموحدون الظافرون سلطانهم ، على سائر القواعد الجنوبية ، فيما خلا مراكش ، وسائر الثغور الشمالية ، فيما خلا الركن الشمالى الغربى — لم يكن ثمة شك فى أن الدولة المرابطية ، كانت تسير إلى نهايتها المحتومة بسرعة مذهلة .

وكان تبدد قوى الدولة المرابطية ، واستنفاد مواردها ، خلال هذه المعركة

الطويلة التى استمرت منذ قيام محمد بن تومرت المهدى ، زهاء عشرين عاما ، وتوالى الهزائم على الجيوش المرابطية ، معركة بعد أخرى ، وتمزق صفوفها ، وفناء عديدها . وهبوط روحها المعنوى ، من جراء هذا الإدبار المستمر — كان ذلك كله مما يؤذن بأنه مهما كانت المقاومة المريرة اليائسة ، التى يمكن أن تبذل فى المرحلة الأخيرة ، من ذلك الصراع الرهيب ، فإنها لن تغنى شيئاً ، ولن تحول دون وقوع الكارثة المرتقبة ، التى أخذت طوالعها تبدو قوية فى الأفق ، ولاسيما بعد مصرع الأمير تاشفين بن على ، وتبدد جيوشه الضخمة على هذا النحو الشامل .

والواقع أن الدولة المرابطية لم تعد بعد هذه الضربة القاضية ، سوى شبح هزيل . ففى مراكش . كان يمثل الفصل الأخير من مأساة الدولة المحتضرة ، وذلك حينما بويع فى مراكش ، على أثر مصرع تاشفين ، لولده الأمير أبى إسحاق إبراهيم ، وكان أبوه قد ولاه ولاية عهده ، منذ وفوده عليه فى تلمسان فى أواخر سنة ٥٣٨ هـ حسبما تقدم ، ثم وجهه إلى مراكش ، وذلك قبيل وفاته بنحو شهر . على أن هذه البيعة التى تمت فى أدق الظروف التى كانت تواجهها الدولة المرابطية ، لم تقع دون خلاف . فإن إسحاق بن على عم الأمير إبراهيم ، خرج عليه ودعا لنفسه بالإمارة ، ووقع الجدل والتطاحن بين الفريقين داخل العاصمة المرابطية . وكان الموحدون فى ذلك الوقت نفسه يقتربون من فاس ، والوفود والحشود ، تترى من كل صوب على عاهلهم عبد المؤمن ، فتزيد جموعه ، وتعزز قواه . ويصف لنا البيذق ، مؤرخ الحملة ومرافقها ، مسير عبد المؤمن ، فيقول لنا إنه نزل على وجدات ( وجدة ) فأخذها ، ووحد أهلها[(١)] . هذا فى حين أن صاحب البيان المغرب يذكر لنا أن الموحدين استولوا على وجدة قبل ذلك بعامين ( ٥٣٨ هـ )[(٢)] . وسار عبد المؤمن بعد ذلك إلى أجرسيف ، وهى تقع فى منتصف المسافة بين تلمسان وفاس ، فنزل عليها ، ولقى الموحدون بعض المقاومة من بعض زعماء تلك الناحية ، فجرد عليهم عبد المؤمن بعض قواته ، فمزقت جموعهم وقتلتهم ، ودخل أجرسيف ، ثم غادرها إلى فاس ، ونزل بالمقرمدة التى تقع على مقربة من جنوب شرقى فاس ، وكان يحيى بن أبى بكر الصحراوى ، قد قدم

---

( ١ ) أخبار المهدى ابن تومرت ص ٩٨ .

( ٢ ) البيان المغرب فى الأوراق المخطوطة السالفة الذكر ( هسبيرس ص ١٠٨ ) .

إليها فى جموعه من تلمسان كما تقدم ، وأخذ ينظم خطط الدفاع عنها . وكان عبد المؤمن يتوق إلى الوقوف على مدى استعداد المدينة للدفاع ، ومبلغ القوى المدافعة عنها . ذلك أنه بالرغم من وفرة جموعه التى تتألف حسبما تقول الرواية ، من ثمانين ساقة على عدد القبائل والوفود ، كان يريد التحوط للمفاجآت ، ويرمى إلى الاستيلاء على فاس ، بأقل التضحيات الممكنة . فبعث ألفاً من المشاه نصفهم من صنهاجة ، والنصف الآخر من هسكورة ، بقيادة أبى بكر بن الجبر ، فعبر بهم نهر سبو ، وصعد إلى جبل زالاغ الذى يشرف على فاس من الشمال ، وأوقد الموحدون النيران ليلا فوق الجبل ، فلما رأى أهل فاس نيران الموحدين على مقربة من مدينتهم ، اضطربوا وماجوا ، وخرج الصحراوى فى قواته لقتال الموحدين ، وفى صباح الغد نشب القتال بين الفريقين ، وقدر الموحدون قوة أعدائهم بنحو ألف وخمسمائة ، ما بين لمتونة وأهل فاس . وفى العصر ارتد الصحراوى بقواته إلى داخل المدينة .

وفى الليلة التالية ، عاد الموحدون إلى إيقاد النيران ، ولكن الصحراوى لم يخرج إلى القتال فى تلك المرة . وفى صباح اليوم التالى ، سار عبد المؤمن فى قواته إلى وادى نهر سبو ، ونزل فى موضع يسمى « عقبة البقر » فملأت حشوده السهل والوعر ، هذا والصحراوى وأهل فاس ، يشهدون هذه الجموع الحرارة من فوق الأسوار ، فيملأهم منظرها رهبة وروعاً . وفى اليوم التالى ، تحرك عبد المؤمن فى قسم منتخب من جيشه ، إلى موضع يعرف « بمنزل الحاج » وخرج الصحراوى فى خيله إلى جبل العرض ، الواقع فى شمال غربى المدينة ، يفصله عن الموحدين واد يسمى « بسد رواغ » . ولم يقع فى ذلك اليوم قتال بين الفريقين . وارتد الموحدون إلى السهل الشاسع ، وبقى عبد المؤمن فى « منزل الحاج » على قدم الأهبة ، فى ثلاثة آلاف وخمسمائة من رجاله . وارتد الصحراوى بخيله ثانية إلى المدينة .

وفى صباح اليوم التالى ، غادر عبد المؤمن فى قواته السهل ، واحتل جبل العرض ، مشرفاً منه على المدينة . وقطع الموحدون الأشجار ، وعملوا منها حول محلتهم حاجزاً من الخشب ، ثم بنوا حائطاً من وراء الحاجز حماية لأنفسهم ، ولدوابهم ، واستعدوا لحصار طويل . وبعث عبد المؤمن قسما من جيشه لمحاصرة مكناسة ، الواقعة على قيد ستين كيلومترا غربى فاس ، وكان فى مكناسة نحو

ثلاثة آلاف فارس من قوى لمتونة من الحشم والروم وغيرهم ، هذا عدا من انضم إليهم من رجال القبائل القريبة الموالية . فخرجت هذه القوة من مكناسة بقيادة يدّر بن ولجوط اللمتونى واستطاعت أن ترد الموحدين ، وأن تثخن فيهم ، وتفنى معظمهم ، فعول عبد المؤمن عندئذ أن يسير بنفسه إلى مكناسة ، وخرج ليلا فى قسم منتخب من جيشه ، وعهد بحصار فاس إلى أبى بكر بن الجبر ، وأبى إبراهيم ، وأبى حفص عمر بن يحيى الهنتاتى . ولما وصل إلى مكناسة ، ضرب حولها الحصار المرهق ، ولبث ينتظر الحوادث .

واستمر حصار الموحدين لفاس زهاء سبعة أشهر أوتسعة حسبما يروى البيذق[1] ، وفى داخلها يحيى بن أبى بكر بن على الصحراوى فى قواته ، ومعه أهل فاس صامدون وراء الأسوار ، يخرجون إلى قتال الموحدين من آن لآخر ، ثم يعتصمون بمدينتهم . وأخيراً لجأ الموحدون إلى عملية استراتيجية بارعة . ذلك أنهم قطعوا مجرى النهر الذى يدخل إلى المدينة ، وأقاموا عليه سدا منيعاً من الحطب والخشب والتراب ، فسألت مياه النهر فى الوادى ، وتعالت حتى صارت بحراً تتلاطم أمواجه ، وانهارت بعض أقسام السور من ضغط الماء المتزايد ، وسقط معها باب السلسلة[2] . فبادر الصحراوى وجموعه إلى إصلاح ما تهدم من السور ، واجتمع المدافعون فوق الأسوار ، ونشبت بينهم وبين الموحدين معارك عديدة .

وقد كان حرياً أن يطول حصار فاس ، لولا أن عجل بنهايته ماحدث داخل المدينة ذاتها . ذلك أنه حدث بين يحيى بن على ، وبين أبى محمد عبد الله بن خيّار الجيانى المشرف على المدينة ، خلاف من جراء اشتداد يحيى فى مطالبة الجيانى بالأموال ، بطريقة أرهقته ، وحملته على أن يتصل سراً بقائد الموحدين أبى بكر ابن الجبر ، وأن يعده بفتح أبواب المدينة ، وكانت لديه مفاتيحها . وساعدت الظروف الجيانى على تحقيق مشروعه . ذلك أن يحيى الصحراوى ، أعرس بامرأة من قومه . فبعث إليه الجيانى بهدايا جليلة من الطعام والشراب ، وشغل الصحراوى فى تلك الليلة بعرسه وطعامه وشرابه[3] . وفى صباح اليوم التالى ، أوفى الجيانى

(١) أخبار المهدى ابن تومرت صفحة ١٠٢ .

(٢) روض القرطاس صفحة ١٢٣ .

(٣) الحلة السيراء فى القسم الذى نشره المستشرق ميللر ، ضمن مجموعة بعنوان : (Beiträge zur Geschichte des Westlichen Araber) ص ٣١٥ — ٣١٨ .

بوعده ، وفتح « باب الفتوح » ، فتدفق منه الموحدون إلى داخل المدينة ، وخرج الحيانى فانضم إليهم . ولما شعر الصحراوى بوقوع الكارثة ، بادر بالفرار مع نفر من صحبه ، واخترق الوادى دون أن يلوى على شىء ، حتى وصل إلى طنجة . وكان دخول الموحدين مدينة فاس ، حسبما يروى ابن صاحب الصلاة ، فى صباح اليوم الثانى عشر من شهر ذى القعدة سنة ٥٤٠ هـ ( ٢٦ أبريل سنة ١١٤٦ م )[(١)] .

وظاهر مما يرويه البيذق وابن عذارى ، أن عبد المؤمن لم يكن حاضراً ، وقت دخول الموحدين فاس ، وأنه كان عندئذ على حصار مكناسة[(٢)] ، وهذا ما يقرره ابن صاحب الصلاة وابن خلدون بطريقة واضحة[(٣)] . ولكن صاحب الحلل الموشية من جهة أخرى ، يذكر أن الحيانى اتصل بعبد المؤمن ذاته ، وأدخله المدينة من باب الفتوح[(٤)]. بيد أنه من الواضح أن الرواية الأولى ، وهى التى يؤيدها البيذق مرافق الحملة ، وابن صاحب الصلاة مؤرخ الموحدين ، هى الرواية الراجحة . ولما علم عبد المؤمن ، وهو بمكناسة ، بسقوط فاس ، قدم إليها بسرعة ودخلها ، وولى عليها أبا إسحاق بن جامع[(٥)] ومشرفها الحيانى ، وأمر بقتل كل من قبض عليهم من أشياخ المرابطين ، إلا عمر بن ينتان وزير على ابن يوسف السابق ، وهو الذى تعرض لحماية المهدى ابن تومرت ، وصرف على ابن يوسف عن إيذائه ، حسبما تقدم فى موضعه ، وكان المهدى نفسه قد نهى عن قتله وقتل ذريته ، فاكتفى عبد المؤمن باعتقاله[(٦)] .

وأمر عبد المؤمن بهدم أسوار فاس ، فهدم معظمها ، وصرح عبد المؤمن بأن الموحدين لا يحتاجون إلى أسوار ، وإنما الأسوار هى سيوفهم ، وبقيت فاس بلا أسوار عصراً ، حتى قام بتشييدها من جديد ، حفيده الخليفة

---

( ١ ) البيان المغرب ، القسم الثالث ، صفحة ٢٠ .

( ٢ ) أخبار المهدى ابن تومرت ص ١٠١ ؛ والبيان المغرب ( القسم الثالث ) ص ١٩ .

( ٣ ) البيان المغرب عن ابن صاحب الصلاة ، القسم الثالث ، ص ٢٠ ؛ وابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٢ .

( ٤ ) الحلل الموشية ص ١٠١ .

( ٥ ) هذا ما ورد فى البيان ( القسم الثالث ص ٢٠ ) ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٢ . ولكن البيذق يذكر لنا أن الذى ولى على فاس ، هو أبو عبد الله محمد بن يحيى الكدميوى ( أخبار المهدى ابن تومرت ص ١٠٢ ) .

( ٦ ) أخبار المهدى ابن تومرت ص ١٠٢ .

يعقوب المنصور ، ثم ولده الناصر ، وذلك فى سنة ٦٠٠ ه (١٢٠٣ م)(١) .

ولم يمكث عبد المؤمن فى فاس سوى أربعة أيام قام فيها بتنظيم شئون المدينة المفتوحة ، ثم غادرها فى جموع الموحدين إلى مكناسة ، وهنالك عهد بمتابعة حصارها لقائده أبى زكريا بن يومور . ثم غادرها إلى سلا . وضيق الموحدون على مكناسة ، وبنوا حولها سوراً ، وحفروا أمامه خندقاً ، وتركوا فيهما ثغرات لمهاجمة المدينة ، ومقاتلة المدافعين عنها ، فلم تلبث أن سقطت فى أيديهم . وعين عبد المؤمن ابن يومور والياً لها . ويبدو من رواية البيذق أن عبد المؤمن حضر سقوط مكناسة . ثم يقول لنا إنه غادرها إلى تادلا ، وهنالك ميز جنوده ، وانضمت إليه هسكورة وصنهاجة ، ثم سار فى قواته إلى وادى أم الربيع ، واخترقه شرقاً حتى ثغر أزمّور ، وهنالك حملت إليه صنهاجة المؤن ، واستدعى أشياخ دُكّالة جيرانهم فى الجنوب ، فوفدوا عليهم وأعلنوا خضوعهم الأول . ثم هبط بعد ذلك إلى مراكش(٢) .

هكذا يصف لنا البيذق مسير عبد المؤمن إلى مراكش . ولكن سائر الروايات الأخرى تجمع على أن عبد المؤمن ، حينما غادر مكناسة ، سار منها أولا إلى سلا ، وافتتحها بعد مقاومة قصيرة ، وذلك فى اليوم السابع من شهر ذى الحجة سنة ٥٤٠ ه . واستولى كذلك على قصبة الرِّباط التى كان قد بناها الأمير تاشفين ، وعين والياً لسلا عبد الواحد الشرقى ، وبعد أن مكث بها أربعة أيام غادرها إلى مراكش(٣) .

وكان عبد المؤمن حين وجوده تحت أسوار فاس (سنة ٥٤٠ ه) ، قد وفد عليه قائد الأسطول الأندلسى المرابطى على بن عيسى بن ميمون ، وقدم طاعته ، ثم عاد إلى الأندلس ، وأقام الخطبة للموحدين بجامع قادس ، وهى مركز قيادة الأسطول فى تلك المنطقة . ثم وفدت على عبد المؤمن خلال مسيره إلى سلا ، رسل أهل سبتة يحملون إليه بيعتهم . فتقبلها منهم ، وندب للولاية على سبتة يوسف بن مخلوف التينمللى من مشيخة هنتاته(٤) .

---

(١) روض القرطاس ص ١٣٣ .

(٢) أخبار المهدى ابن تومرت ص ١٠٢ .

(٣) الحلل الموشية ص ١٠٢ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢٠ ، وابن خلدون ج ٢ ص ٢٣ .

(٤) البيان المغرب القسم الثالث ص ٢١ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٢ .

وكان عبد المؤمن قد بعث فى نفس الوقت قبل مسيره إلى مراكش حملة بقيادة أبى حفص عمر بن يحيى الهنتاتى لغزو قبائل برغواطة ، النازلة على الشاطئ شمالى أزمّور وجنوبها ، فاقتحم ديارهم ، واستاق غنائمهم ، ثم ارتد أدراجه ، فالتقى بعبد المؤمن ، وهو فى طريقه إلى مراكش ، فقسم الغنائم على الموحدين ، ثم تابع سيره إلى العاصمة المرابطية .

ولما وصل جيش الموحدين إلى ظاهر مراكش ، خرج إليه جمع كبير من طلائع لمتونة ، فلما رأوا كثرة الموحدين ، سرى إليهم الرعب وبادروا إلى الفرار نحو أسوار المدينة ، فأدركهم الموحدون وقتلوا عدداً كبيراً منهم . وعلم عبدالمؤمن كذلك أن قوات كبيرة من قبيلة لمطة ، قد وفدت على المدينة نصرة للمدافعين عنها ، فطاردهم الموحدون ، وأثخنوا فيهم ، وانتزعوا منهم آلافاً من الدواب وغيرها من الغنائم(١) .

— ٢ —

وكان نزول الموحدين على مراكش فى فاتحة شهر المحرم سنة ٥٤١هـ (١٣ يونيه سنة١١٤٦م ). وفى الحال احتل عبدالمؤمن بقواته جبل إيجليز الواقع غربها ، وضرب فوقه قبته الحمراء ، وبنى الموحدون حولها محلة أومدينة كبيرة يتوسطها مسجد وصومعة عالية ، تشرف على مراكش ، ونزلت فيها القبائل ، كل قبيلة فى الموضع الذى حدد لها(٢) . وكان إقامة هذه المدينة دليلا على ماكان يتوقعه الموحدون من طول المدافعة والحصار .

وضرب الموحدون الحصار حول العاصمة المرابطية . وكانت مراكش تموج بجموع المدافعين عنها ، من بقايا الجيوش المرابطية الكبرى ، من مختلف الحشود والقبائل . وكان منهم قوة من النصارى المرتزقة ، هى بقية الحرس الملكى القديم. بيد أن هذه الجموع الحاشدة ، كانت تنقصها القيادة الحازمة ، وكانت تعانى من هبوط قواها المعنوية ، وكان على عرش مراكش فى تلك الآونة الدقيقة ، صبى حدَث لم يجاوز السادسة عشرة من عمره ، هو أبو إسحاق إبراهيم بن تاشفين بن على . وكان يقود هذه المعركة الأخيرة نفر من أشياخ لمتونة ، مثل سير بن الحاج ،

---

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ٢١ و٢٢ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٢ .

(٢) الحلل الموشية ص ١٠٢ .

وإسحاق بن ينتان ، ومحمد بن حواء ، ومحمد بن يانجالا وغيرهم ، وكان الشعور عاماً بأن مصير الدولة المرابطية أضحى أمراً مقضياً ، وأنها لم تكن سوى معركة يأس ، تمليها غريزة الاحتفاظ بالنفس ، والتعلق بأوهى الاحتمالات والآمال .

وهكذا فإن الموحدين ، ماكادت تستقر حشودهم حول العاصمة المرابطية ، حتى اعتزم المرابطون أن يخرجوا لقتالهم . وخرجت قوة مرابطية قوامها نحو خمسة آلاف وخمسمائة فارس ، وحشود لا تحصى من المشاة ، يقودها إسحاق ابن ينتان ، ومحمد بن حواء ، ومحمد بن يانجالا ، وسارت إلى محلة الموحدين . ويقول لنا البيذق إن القتال الذى نشب بين الفريقين ، استمر أربعة أيام . وفى اليوم الخامس ، رتب عبد المؤمن من جنده عدداً من الكمائن المستورة ، وخرج المرابطون إلى القتال كالعادة ، فلقيهم الموحدون فى حشود قليلة ، واغتر المرابطون بتفوقهم ، بيد أنه ماكاد يتعالى النهار ، حتى خرجت الكمائن الموحدية من أماكنها ، وحملت على المرابطين بشدة ، فانهزموا فى الحال ، وارتدوا على أعقابهم نحو الأسوار ، والقتل مثخن فيهم ، حتى وصلوا إلى باب دُكّالة ، أو باب الشريعة على قول البيذق ، فقتل منهم عدد جم ، واستولى الموحدون على نحو ثلاثة آلاف من خيلهم وامتنعت فلولهم بداخل المدينة(١) .

وفى خلال ذلك كانت الوفود والحشود ، تترى على جيش عبد المؤمن ، ويفد عليه أشياخ القبائل وزعماؤها موحدين معلنين لطاعتهم . وكان ممن وفد عليه فى تلك الفترة بعض زعماء الأندلس الثائرين على سلطان المرابطين ، مثل أبى الغمر بن غرون الثائر بشريش ، وابن حَمْدين الثائر بقرطبة . وأرسل عدد آخر من زعماء الأندلس الذين شعروا بانهيار سلطان المرابطين ، كذلك رسلهم إلى عبد المؤمن(٢) . ولم تقع بعد هزيمة المرابطين الكبيرة فى ظاهر باب دُكّالة ، بين الفريقين معارك ذات شأن ، اللهم إلا ما يقصه علينا البيذق ، من خروج ابن ينتان لقتال الموحدين من آن لآخر . ثم ما وقع بعد ذلك من إرسال الموحدين زعيم بنى ينتان الذى كان قد « وحّد » إليه أعنى إلى إسحاق بن ينتان ، وتقدم إسحاق بطاعته وتوحيده ، وخروجه من المدينة مع أنصاره ، وانضمامه إلى الموحدين(٣) .

(١) أخبار المهدى ابن تومرت ص ١٠٢ و١٠٣ ، والبيان المغرب (عن ابن صاحب الصلاة) القسم الثالث ص ٢٢ ، والحلل الموشية ص ١٠٣ .

(٢) البيان المغرب القسم الثالث ص ٢٢ .

(٣) أخبار المهدى ابن تومرت ص ١٠٣

واستطال حصار مراكش أكثر من تسعة أشهر ، وشدد الموحدون فى تطويق المدينة ، وقطع علائقها مع الخارج ، حتى أضحى من المتعذر ، أن يدخلها داخل أو يخرج منها خارج . كل ذلك والمدينة صامدة فى وجوه المحاصرين . والظاهر أن الموحدين لم يقوموا خلال تلك الفترة بهجمات شديدة على المدينة ، وأنهم كانوا يكتفون بالمحاولات الجزئية . والظاهر أيضاً أنه لم تنجح كذلك ، أية محاولة من هذه المحاولات ، فى اقتحام أية ناحية من المدينة ، أو ثلم أية ناحية من الأسوار . وفى خلال ذلك كان أهل المدينة يعانون ويلات الحصار ، وتنضب الموارد والمؤن تباعا ، حتى نفدت الحبوب والمواد الغذائية ، وفنيت الدواب ، وخلت المخازن السلطانية من مخزونها ، وتساقطت الألوف العديدة من الجوع . وتقدر الرواية عدد من هلك جوعاً من أهل مراكش فى تلك المحنة بنيف ومائة وعشرين ألفاً ، وعجز الجند عن الحركة والدفاع ، وأضحت النهاية المحتومة على الأبواب . ولما شعر عبد المؤمن بأن الضيق بلغ ذروته بالمحصورين ، وأن المدينة أصبحت عاجزة عن كل دفاع ، اعتزم أن يضرب الضربة الأخيرة . وكان قد مضى على الحصار عندئذ تسعة أشهر وثمانية عشر يوما . وتختلف الرواية فيما اقترن بتلك الخطوة الأخيرة . ويقول لنا البيذق وهو من شهود الحصار ، إن الخليفة أمر باستعمال السلالم لصعود الأسوار ، وقسمها على القبائل ، وأن الموحدين دخلوا المدينة على أثر ذلك . بيد أن صاحب الحلل الموشية يقدم لنا عن ابن اليسع الذى عاش قريباً من العصر ، رواية أخرى مفادها ، أن جيش الروم أو النصارى المرتزقة الذين كانوا داخل المدينة ، اتصلوا بعبد المؤمن واستأمنوه ، فمنحهم الأمان ، واتفقوا معه على أن يُدخلوه المدينة من «باب أغمات» الواقع فى جنوبها الشرقى ، وعندئذ أمر عبد المؤمن بعمل السلالم . وفى يوم السبت الثامن عشر من شوال سنة ٥٤١ هـ ( ٢٤ مارس ١١٤٧م ) دفع الموحدون السلالم إلى الأسوار ، وخُصت القبائل كل قبيلة بباب معين ، وأقبل أهل مراكش يبذلون آخر محاولة للدفاع . وكانت بالطبع محاولة يائسة . فاقتحم الموحدون المدينة ، ودخلوها من كل صوب ، فدخلت هنتاتة ، وأهل تينملل من باب دُكّالة ، فى شمالها الغربى ، ودخلت صنهاجة وعبيد المخزن من باب الدباغين فى شرقها ، ودخلت هسكورة مع القبائل الأخرى من باب يينتان . ولم يأت الظهر حتى استولى الموحدون على مراكش . ولجأ الأمير إبراهيم ابن تاشفين وجماعة من الخاصة والأعيان ، إلى القصبة الداخلية المعروفة « بقصر

الحجر» وهى قلعة منيعة ، فاستمر القتال حتى الزوال ، وكثر القتل في المدافعين وأهل المدينة ، واقتحم الموحدون القصبة ، وقبضوا على الأمير إبراهيم ومن معه من الأمراء والكبراء ، والأهل والولد ، وأخذوهم إلى محلة عبد المؤمن ، فوق تل إيجليز ، لتقرير مصيرهم[١] .

وهكذا اقتحم الموحدون مراكش ، ودخلوها بالسيف على النحو الذى تصفه لنا الرواية المعاصرة . ويضيف مؤرخ معاصر آخر هو ابن الأشيرى إلى ذلك قوله ، إن أهل مراكش بعد هزيمة باب دكالة ، أيقنوا بالهلاك ، وأن المحلة الموحدية انتقلت إلى دار الفتح وسط البحيرة ( أى البستان ) ، فى صدر شوال سنة ٥٤١هـ ، فلم تزل هناك ، وأمر المدينة فى كل يوم يزداد ضعفاً ، وأحوالها ترق ، إلى أن كان يوم السبت السابع عشر من شوال ، ففتحت مراكش ودخلها الموحدون[٢] .

بيد أن ابن خلدون يقدم إلينا رواية أخرى خلاصتها ، أنه لما أجهد الحصار أهل مراكش ، وفتك بهم الجوع ، برزوا إلى قتال الموحدين ، فوقعت عليهم الهزيمة ، وتتبعهم الموحدون بالقتل ، واقتحموا عليهم المدينة . ومعنى ذلك أن مراكش سقطت على أثر معركة ، نشبت خارج الأسوار ، بين المرابطين والموحدين[٣] .

ويبدو من مختلف التفاصيل ، أن مراكش لم تسقط فى أيدى الموحدين إلا بعد دفاع مرير ، بذل فيه المرابطون وأهل المدينة جهوداً رائعة ، بالرغم مما كان يحيط بهم من الظروف الأليمة ، وقتل فيه من المرابطين والمدنيين ، حسبما يقول لنا ابن اليسع نيف وسبعون ألف رجل[٤] . ومن المواقف الرائعة الجديرة بالإعجاب ، ما يقصه علينا البيذق من أن فانّو بنت عمر بن ينتان ، وهى فتاة بارعة الحسن ، وافرة الجرأة ، كانت تقاتل الموحدين أمام القصر ( القصبة ) فى ثياب فارس . وكان الموحدون ، حسبما يقص علينا البيذق يتعجبون من قتالها ، ومن شدة ما أعطاها الله من الشجاعة ، ولم يعرفها الموحدون حتى قتلت وتبين أنها امرأة فى ثياب رجل[٥] .

---

( ١ ) كتاب أخبار المهدى ابن تومرت ص ١٠٣ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢٣ ، والحلل الموشية ص ١٠٣ و ١٠٤ . وراجع خريطة مراكش السابق نشرها فى ص ١٨٧ .

( ٢ ) البيان المغرب القسم الثالث ص ٢٣ و ٢٤ .

( ٣ ) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٢ .

( ٤ ) الحلل الموشية ص ١٠٤ .

( ٥ ) أخبار المهدى ابن تومرت ص ١٠٣ .

ولم يكتف الموحدون ، بما أوقعوا من الفتك الذريع بالمرابطين وأهل المدينة ، ولكنهم أعلنوا استباحة مراكش فيما يصفه ابن الخطيب « بالمحنة العظمى » . وذلك أنهم قرروا استباحة دماء كل من اشتملت عليه من الذكور البالغين . واستمر بها القتل الذريع ثلاثة أيام أخرى ، ولم ينج من أهلها إلا من استطاع الاختفاء فى سرب أو غيره . وطورد اللمتونيون بالأخص أشد مطاردة ، واستئصلوا أينما وجدوا . ثم أعلن عبد المؤمن بعد ذلك عفوه عن أهل المدينة المفتوحة . قال ابن الخطيب « فظهر من جميع الخلق بها ، ما يناهز السبعين رجلا ، وبيعوا بيع أسارى المشركين ، هم وذراريهم ، وعفى عنهم »[1] . وقال صاحب البيان المغرب ، إن مراكش أبيحت لقتل من وجد فيها من اللمتونيين مدى ثلاثة أيام ، ثم عفا عنهم عبد المؤمن ، واشتراهم من الموحدين ، وأعتقهم وأطلقهم . واستولى عبد المؤمن على ذخائر تاشفين وجميع أمراء لمتونة ، مما لا يحيط به حصر ولا وصف ولا بيان .

ولم يكن مصير الأمير الصبى إبراهيم آخر ملوك الدولة المرابطية ، وزملائه من أشياخ لمتونة ، بأقل روعة . ذلك أنهم اقتيدوا حسبما قدمنا ، إلى قبة عبد المؤمن فوق تل إيجليز . وكان إبراهيم قد قبض عليه مع الآخرين فى القصبة . وقيل إنه وجد مختفياً فى إحدى غرف القصر فى كومة من الفحم[2] . فلما أخذ إلى عبد المؤمن ، أشفق عليه ورثا لمحنته وصغر سنه ، ومال إلى العفو عنه والإبقاء عليه . ويقص علينا البيذق وهو شاهد عيان ، أن الأمير الفتى كان يتضرع إلى عبد المؤمن ، ويقول له يا أمير المؤمنين مالى فى الرأى شىء ، فيقول له وصيفه طلحة « أصمت عنا ، هل رأيت ملكاً يتضرع للملك مثله » . وفى رواية أخرى أن سير بن الحاج أحد أشياخ المرابطين ، لما رأى تضرع إبراهيم لعبد المؤمن ، تفل فى وجهه وقال له « أترغب إلى أبيك ومشفق عليك ، اصبر صبر الرجال » . وعلى أى حال فقد تأثر عبد المؤمن لضراعة الأمير الفتى ، وقال لأبى الحسن بن واجّاج ( وهو من أهل خمسين ) ، وكان قد قتل بيده عدة من أمراء وأشياخ لمتونة عقب إحضارهم إلى تل إيجليز « أترك هؤلاء الصبيان ، ما الذى تعمل بهم » ، فصاح به أبو الحسن « ارتد علينا عبد المؤمن ، يريد أن يربى علينا فراخ السبوعة » ، فغضب الخليفة ، وغادر

---

( ١ ) الإحاطة فى أخبار غرناطة ( ١٩٥٦ ) ج ١ ص ١٩٢ .

( ٢ ) البيان المغرب القسم الثالث ص ٢٣ .

مكانه وتبعه الموحدون إلا أبا الحسن ، والشيخ أبا حفص ، فاقتاد أبو الحسن الأمير إبراهيم وقتله ، ثم جذبوا طلحة ، وصيفه ليقتلوه ، فلما اقترب من أبي الحسن ، استل خنجراً كان يحتفظ به ، وطعن أبا الحسن فقتله ، وقتله الموحدون على الأثر ، ويضيف البيذق إلى ذلك أن أبا الحسن كان قد أوثق زهاء ألف رجل من أبناء دُكَّالة ليقتلهم ، فلما قُتل أطلق سراحهم. وعفى عنهم(١).

وهكذا زهق أبو إسحاق إبراهيم بن تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين ، صبياً في السادسة عشرة من عمره ، بعد أن حكم حكمه الإسمي المنكود مدى عامين ، وزهق ضحية بريئة للحوادث ، دون أن يضطلع منها بشيء ، أو يعقد أو يحل منها أمراً ذا خطر ، وقد كان حرياً برجل عظيم مثل عبد المؤمن أن يحقن دم هذا الأمير الصغير ، لو أنه استعمل الصرامة والحزم مع أولئك الأتباع الظمئين إلى الدماء . وبموت إبراهيم اختتم ثبت ملوك لمتونة ، وانهار عرش بني يوسف ابن تاشفين ، بعد أن لبث منذ تأسيس مراكش في سنة ٤٦٢ هـ ، ثمانين عاما ، ترفرف أعلامه الظافرة على أنحاء المغرب ، وخمسين عاما ترفرف فوق جنبات الدولة المرابطية الكبرى بالمغرب والأندلس .

ويصف لنا البيذق بعد ذلك مصير أبي بكر بن تيزميت خادم علي بن يوسف ، وكيف أمر الخليفة بقتله ، لأنه هو الذي قبض على المهدي أيام وجوده بمراكش وحمله إلى السجن ، وكيف غرر أبو بكر بالموحدين ، وزعم أن لديه بمنزله آنية ملأى بالذهب ، يريد أن يسلمها للموحدين ، فبعث معه الخليفة باثني عشر رجلا ليتسلموا الذهب فأغلق الدار عليهم وقتلهم ، وهم يشتغلون بالحفر بحثاً عن الآنية المزعومة ، فأخذ إلى الخليفة وأمر به فقتل(٢) .

وكان عبد المؤمن قد دخل مراكش على أثر افتتاحها ، ثم عاد منها في الحال إلى محلته ، ورتب الأمناء على أبوابها . وبقيت مراكش بعد ذلك ثلاثة أيام لايدخلها ولايخرج منها أحد . ذلك أن الموحدين ، كانوا يرون ، في غلوائهم الدينية ، أن مراكش هي مدينة المجسمين وأهل اللثام ، الذين لعنهم المهدي ، وأفتى بشركهم وتكفيرهم ، فهي إذن مدينة نجسة ، لاتصلح لنزول الموحدين الأطهار . وقال أشياخ الموحدين فوق ذلك إن المهدي امتنع عن سكنى مراكش ،

---

(١) أخبار المهدي ابن تومرت ص ١٠٤ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢٤ .

(٢) أخبار المهدي ابن تومرت ص ١٠٥ .

لتشريق مساجدها عن القبلة المستقيمة ، والتشريق والتحريف ، لغير المسلمين من اليهود وغيرهم . فأشار الفقهاء الموحدون عندئذ بتطير المدينة ، تمهيداً لسكناها ، ونصحوا بهدم جوامعها القائمة ، بسبب تشريقها وتحريفها عن القبلة . وهكذا هُدم جامع على بن يوسف هدماً جزئياً ، وهدمت الجوامع الأخرى . وتولى الأمناء جمع السبي والأسلاب من الحلى والسلاح والمتاع وغيرها ، وحملت كلها إلى المخازن ، وبيع النساء فى اليوم الرابع ، بعد أن تم تطهير المدينة ، وجمعت أسلابها على هذا النحو ، ودخل عبد المؤمن مراكش ، وقسم أرزاقها ودورها على الموحدين ، فسكنوها بضع أسابيع(١) .

ومما له مغزى بارز ، ما يقصه علينا المراكشى ، من أن عبد المؤمن حين دخوله مراكش ، بحث عن قبر أمير المسلمين يوسف بن تاشفين أشد البحث ، فأخفاه الله عنه وستره ، وكان ذلك حسبما يروى المؤرخ ، دليلا على رعاية الله وعادته الحسنى مع الصالحين المصلحين(٢) .

ويقدم إلينا الإدريسى الذى تجول فى أنحاء المغرب وقواعده فى أواخر عهد المرابطين ( حوالى سنة ٥٣٠ هـ ) وصفاً لمدينة مراكش عقب سقوطها فى أيدى الموحدين ، يقول فيه ، إنها أى مراكش كانت دار إمارة لمتونة ومدار ملكهم ، وكان بها قصور لكثير من الأمراء والقواد وخدّام الدولة ، وأزقتها واسعة ، ورحابها فسيحة ، ومبانيها سامية ، وأسواقها مختلفة ، وسلعها نافقة ، وكان بها جامع بناه أميرها يوسف بن تاشفين ، فلما كان فى هذا الوقت ، وتغلب عليها المصامدة ، وصار الملك لهم ، تركوا ذلك الجامع معطّلا مغلق الأبواب ، ولايرون الصلاة فيه ، وبنوا لأنفسهم مسجداً جامعاً يصلون فيه ، بعد أن نهبوا الأموال وسفكوا الدماء ، وأباحوا الحُرم ؛ كل ذلك بمذهب لهم يرون ذلك فيه حلالا . وشُرب أهل مراكش من الآبار ، ومياهها كلها عذبة ، وآبارهم قريبة معينة . وكان على بن يوسف قد جلب إلى مراكش ماء من عين بينها وبين المدينة أميال ، ولم يستتم ذلك ،

---

( ١ ) أخبار المهدى ابن تومرت ص ١٠٥ و ١٠٦ . والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢٥ .

( ٢ ) المعجب ص ١١٣ . ولو صحت رواية المراكشى ، فإن المرجح هو أن يكون المرابطون ، قد اصطلحوا على إخفاء قبر يوسف وتجهيله ، حتى لا يخربه الموحدون ، ويعتدوا على رفات البطل المرابطى . ولقد أرشدت فى بعض زياراتى لمراكش إلى زاوية صغيرة ، بها صبيان يقرأون ، وقيل لى إن بها قبر يوسف بن تاشفين . ولكنى لم أجد أى شاهد أو نقش أودليل يحمل على الاعتقاد فى صحة هذا القول .

فلما تغلب المصامدة على الملك ، تمموا جلب ذلك الماء إلى داخل المدينة ، وصنعوا به سقايات بقرب دار الحجر ، وهى الحظيرة التى فيها القصر منفرداً متحيزاً بذاته ، والمدينة بخارج هذا القصر ، وطولها أشف من ميل ، وعرضها قرب ذلك ، وعلى ثلاثة أميال من مراكش نهر لها يسمى تانسيفت ، وليس بالكبير لكنه دائم الجرى[١] .

وفى نفس الوقت الذى افتتحت فيه مراكش ، دخل الموحدون قصبة تلمسان ، وذلك فى الخامس عشر من شوال سنة ٥٤١ هـ ، أعنى قبل سقوط مراكش بثلاثة أيام . ووفد على عبد المؤمن عندئذ مع أشياخ الموحدين ، يحيى بن إسحاق المسّوفى المعروف بأنجمار أمير تلمسان السابق ، وكان قد دخل فى طاعة الموحدين ، فشمله عبد المؤمن برعايته ، واحتُرمت داره وزوجته زينب بنت على بن يوسف ، وسائر أصحابه وأسرهم[٢] .

وحدث خلال وجود عبد المؤمن بمراكش أن قدم عليه من الأندلس وفد إشبيلية وعلى رأسه القاضى أبو بكر بن العربى المعافرى ، بعد مقتل ولده عبد الله فى حوادث إشبيلية ، والخطيب أبوعمر بن الحجاج ، وأبو بكر بن الحد الكاتب ، وأبوالحسن الزهرى ، وأبو الحسن ابن صاحب الصلاة ، وغيرهم من زعماء إشبيلية ووجوهها ، فاستقبلهم عبد المؤمن ، وألقى القاضى أبو بكر وبعض زملائه بين يديه خطباً بليغة ، ورفعوا إليه بيعة أهل إشبيلية مكتوبة بخطوطهم ، فاستحسن عبد المؤمن موقفهم ، وقبل طاعتهم ، وأغدق عليهم الجوائز والصلات ، وكان ذلك فى أوائل سنة ٥٤٢ هـ . ولما عاد الوفد إلى الأندلس ، توفى القاضى ابن العربى ، خلال الطريق ، ودفن بفاس فى جمادى الآخرة من نفس السنة . وكان مقدم هذا الوفد البارز ، وهو يمثل أعظم حواضر الأندلس ، من الدلالات الواضحة ، على تحول ولاء الأندلس بسرعة ، إلى جانب الموحدين . وكان له أثره فيما بعد ، فى إيثار الموحدين لإشبيلية ، واتخاذها حاضرة الأندلس فى عهدهم[٣] .

---

(١) وصف المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ( المأخوذ من كتاب نزهة المشتاق ) للإدريسى ( طبعة دوزى ) ص ٦٨ و ٦٩ .

(٢) البيان المغرب — القسم الثالث — ص ٢٥ .

(٣) الحلل الموشية ص ١١١ و ١١٢ ، والزركشى فى تاريخ الدولتين ص ٦ .

# الفصل السادس

## الدولة الموحـــدية

### فى سبيل التوطد

اختتام الغزوة الموحدية الكبرى . اضطرام الثورة فى بلاد السوس . زعيمها الهادى أو الماسى . اتساع نطاقها وخلع القبائل لطاعة الموحدين . مسير الموحدين لقمع الثورة بقيادة الشيخ أبى حفص عمر . لقاء الموحدين وقوات الماسى فى وادى ماسة . هزيمة الماسى ومصرعه وتمزيق جموعه . الجندى الكاتب أبو جعفر بن عطية ورسالته عن الموقعة . إعجاب أبى حفص بها . إعجاب الخليفة واستدعاؤه لابن عطية ، وتقليده خطة الكتابة . مطاردة أبى حفص للقبائل الخارجة وتمزيقها . غزوه لأراضى برغواطة . نزول يحيى الصحراوى فى سبتة . غدره بابن ميمون وقتله . دور القاضى عياض فى حوادث سبتة . انتقاض أهل سبتة ومقتل واليها الموحدى . مسير الصحراوى من سبتة إلى سلا ثم إلى أراضى برغواطة . اجتماع برغ اطة ودكالة ورجراجة وحاحة حوله . عبد المؤمن يرسل إلى برغواطة حملة جديدة بقيادة يصلاسن . مسير يصلاسن إلى سلا واقتحامها وخضوعها . ثم إلى بنى وراغل وإخضاعهم . مسيره إلى طنجه واقتحامها ، ثم إلى سبتة . مبادرة أهل سبتة إلى الخضوع والعفو عنها . عبد المؤمن يجهز الحشود لمقاتلة برغواطة والصحراوى . خروجه فى قواته من مراكش ومسيره صوب دكالة ، ثم أزمور . مهاجمته لحشود الثوار وتمزيقهم . فرارهم نحو البحر وغرق الكثير منهم . فرار يحيى الصحراوى وصحبه إلى السوس ثم إلى الصحراء . استيلاء عبد المؤمن على أسلاب برغواطة ودكالة . إذعان برغواطة إلى التوحيد . عودة عبد المؤمن إلى مراكش . نزعة الموحدين إلى القمع الدموى . حادث الاعتراف وقتل المارقين والمعاندين . الجرائد الدموية لمختلف القبائل وعدد القتلى من كل منها . تأملات حول موقف عبد المؤمن من هذا السفك المروع . إخماد ثورة أخرى فى برغواطة . مسير عبد المؤمن فى قواته إلى سلا . إنشاؤه لقصبة رباط الفتح . استقباله لوفود الأندلس . اعتزامه فتح بجاية وبواعث هذا القرار . مسيره صوب بجاية من طريق ملتوية . استيلاؤه على جزائر بنى مزغنة . بنو حماد أصحاب بجاية والقلعة . قلعة بنى حماد وموقعها . انتقالهم إلى بجاية . استيلاء عبد المؤمن على بجاية وما يقال فى ذلك . استيلاء عبد الله بن عبد المؤمن على القلعة . سقوط بونة وقسنطينة فى أيدى الموحدين . مسير يحيى بن العزيز صاحب بجاية صحبة عبد المؤمن إلى مراكش . وصف بجاية فى هذا العهد . الصدام بين الموحدين والعرب فى هذه المنطقة . هزيمة العرب وتمزيق حشودهم . ثورة صنهاجة قرب بجاية وإخمادها . مسير عبد المؤمن إلى تلمسان ثم إلى فاس ومكناسة وسلا فمراكش . مؤامرة أخوى المهدى بمراكش . إخمادها وإعدام المتآمرين . قيام عبد المؤمن بحركة تطهير جديدة . عبد المؤمن يدبر مصرع القائد يصلاسن . ثورة جديدة فى السوس . مسير أبى حفص لإخمادها . سحق القبائل الثائرة وأخذ غنائمها وتوحيد بعضها . مسير عبد المؤمن من مراكش إلى تينملل .

— ١ —

وهكذا اختتمت تلك الغزوة الكبرى ، التى اضطلع بها عبد المؤمن بن على ، مذ خرج فى حشوده الموحدية الجرارة ، من تينملل فى سنة ٥٣٥ هـ ( ١١٤٠ م ) ،

واستمر زهاء سبعة أعوام يثخن فى أنحاء المغرب ، من الجنوب إلى الشمال ، ثم إلى الشرق ثم إلى الجنوب ، ويوقع بالجيوش المرابطية مرة بعد أخرى ، ويستولى تباعاً على قواعد المغرب — اختتمت تلك الغزوة الكبرى باستيلاء الموحدين على حضرة مراكش ، والقضاء على الدولة المرابطية فى المغرب .

على أن تحقيق هذه الغاية الجوهرية ، لم يكن نهاية الصراع الذى كان على الموحدين أن يضطلعوا به . لتوطيد دولتهم ، والقضاء بصورة نهائية . على كل مقاومة لدعوتهم الدينية . وسلطانهم السياسى ، وذلك أولا فى المغرب . حيث قامت دعوتهم . وانتظمت دولتهم .

ثم كان عليهم بعد ذلك ، أن يتابعوا فتوحهم . فيما وراء البحر . فى الأندلس حيث كانت الدولة المرابطية ، مازالت تحتفظ ببقية من سلطانها ، فى شبه الجزيرة ، وفى بعض قواعد الأندلس ، وتحتفظ فى نفس الوقت ببقية من قواتها العسكرية . وتفر من أكابر قادتها وزعمائها .

وفى الوقت الذى لاح فيه أن الموحدين . بفتح مراكش . قد وصلوا إلى ذروة سلطانهم ، اضطرمت أول ثورة خطيرة ضد دعوتهم الدينية وسلطانهم السياسى . وكان ذلك فى بلاد جزولة ، غربى بلاد السوس . حيث قام ثائر يدعى محمد بن عبد الله بن هود وتسمى بالهادى . وأصل هذا الرجل من سلا ، وكان قصّاراً ، فلما ذاعت الدعوة الموحدية ، واستولى الموحدون على سلا ، ادعى الهداية ، وسمى نفسه بالهادى ، ثم سار جنوبا إلى أرض جزولة ونزل برباط ماسة ، وذلك فى شوال سنة ٥٤١ هـ ، ومن ثم اشتهر كذلك باسم الماسى (١)، فتبعه كثير من الناس من مختلف القبائل ، وذاعت دعوته بسرعة مدهشة . وسرعان ما استولى على بلاد تامسنا ، وبلاد المصامدة ، وانضمت إليه عدة من القبائل التى كانت تدين بالتوحيد مثل حاحة ، ورجراجه ، وهزميرة وهسكورة ودكالة ، وخلعت معظم القواعد التى توحدت الطاعة . حتى لم يبق تحت سلطان عبد المؤمن وطاعته ، فى وسط المغرب وجنوبه ، سوى فاس ومراكش . وكان استفحال الثورة ، واتساع نطاقها على هذا النحو ، دليلا على أن الدعوة الموحدية ، لم تكن قد تمكنت بعد فى نفوس معتنقيها ، وأنهم لم يدينوا بها إلا تحت سلطان الضغط

---

(١) الحلل الموشية ص ١١٠ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢٦ . ويقول لنا صاحب روض القرطاس ، إن الماسى حضر فتح مراكش مع عبد المؤمن وبايعه ثم خرج عليه (ص ١٢٣) .

والإرهاب المادى . والواقع أن وسائل الموحدين فى نشر دعوتهم لم تكن حسبما رأينا مما فصلناه من قبل ، رفيقة ولا إنسانية ، بل كانت قائمة على الخضوع الأعمى للدعوة والإرهاب المطلق ، وسفك الدم السريع . ومن ثم كان ارتداد القبائل الموالية ، بمثل السرعة التى توحدت بها ، وانضمامها إلى راية الدعىّ الجديد . وشعر عبد المؤمن وأشياخ الموحدين ، أن الأمر سوف يخرج من أيديهم ، إذا لم لم تسحق ثورة الماسى بسرعة . فبعث عبد المؤمن لقتاله حملة بقيادة ابن يكيت ويحيى المسّوفى المعروف بأنجمار ، فلقيهم الماسى فى قواته وهزمهم وأثخن فيهم . فعندئذ جهز عبد المؤمن لقتاله حملة ضخمة مختارة ، تضم طائفة من الروم ، أى النصارى المرتزقة ، والرماة وغيرهم ، من المقاتلة المدربين ، وعلى رأسها الشيخ أبو حفص عمر الهنتاتى وعدة من أشياخ الموحدين . وكان بين الجند الرماة فتى يمتُّ إلى الأدب بصلة ، هو أبو جعفر أحمد بن عطية القضاعى ، وهو من أهل مراكش ، ولكنه يرجع إلى أهل الأندلس ، وأصله القديم من طرطوشة ثم من دانية[1] ، وقد كان ضمن كتاب على بن يوسف ، ثم كتب عن ابنه تاشفين ثم عن حفيده إبراهيم ، وكان على حداثة سنه من أحظى كتاب الدولة اللمتونية . فلما سقطت مراكش أخفى نفسه ، ودخل فى غمر الناس ، وانضم إلى كتائب الموحدين ، لايعلم بحقيقته أحد . وكانت الحملة الموحدية تضم نحو ستة آلاف فارس ومثلهم من الرجالة . وكان جيش الماسى يضم نحو الستين ألفاً ، ليس فيهم من الفرسان سوى سبعمائة . وسار الموحدون صوب تامسنا بوادى ماسه ، والتقوا بقوات الماسى ، وذلك فى السادس عشر من شهر ذى الحجة سنة ٥٤٢ هـ ( ٧ مايو ١١٤٨م ) ، ونشبت بين الفريقين معركة شديدة ، قاتل فيها جند الماسى بشجاعة ، ولكنهم هزموا فى النهاية ، وقتل الماسى ، قتله الشيخ أبو حفص بيده ، ومُزق جنده شر ممزق ، وحمل الموحدون جثته فوق بغل ، حيث صلبت على باب الشريعة بمراكش . وكان نصراً باهراً ، انهارت على أثره ثورة الماسى وانفضت جموعه[2] .

وحدث على أثر انتهاء المعركة بظفر الموحدين ، أن بحث الشيخ أبو حفص

( ١ ) ابن الخطيب فى الإحاطة ( ١٩٥٦ ) ج ١ ص ٢٧١ .

( ٢ ) أخبار المهدى ابن تومرت ص ١٠٦ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢٦ ، والحلل الموشية ص ١١٠ ، وروض القرطاس ص ١٣٤ .

عن كاتب بارع يقوم بإعلام الخليفة بما أتاه الله من نصره ، فى رسالة قوية بليغة ، فأرشد إلى فتى من الجند الرماة ، يجيد الشعر والترسل ، فاستحضره ، وكان هو أبو جعفر بن عطية ، فعهد إليه بأن يكتب عنه إلى الخليفة رسالة يصف فيها المعركة ، فنزل أبو جعفر عند رغبته مرغماً ، وكتب رسالته الشهيرة ، فى نصر الموحدين فى ذلك اليوم ، فجاءت قطعة من البلاغة المتدفقة ، والبيان الرائع ، وهى الرسالة التى رفعت إسمه وقدره ، لدى الخليفة ، وبين سائر الموحدين ، وكانت سبيله إلى الوزارة ، وإلى النفوذ والسلطان . وقد أورد لنا ابن الخطيب نص هذه الرسالة . وإنه ليكفى أن ننقل منها هاتين الفقرتين .

جاء فى الديباجة ما يأتى :

« كتبنا هذا من وادى ماسة ، بعد ما تزحزح من أمر الله الكريم ، ونصر الله المعلوم ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ، فتح يممرى الأنوار إشراقاً ، وأحدق بنفوس المؤمنين إحداقاً ، ونبه للأمانى القائمة جفوناً وأحداقاً ، واستغرق غاية الشكر استغراقاً ، فلا تطيق الألسنة كنه وصفه إدراكاً ولا لحاقاً ، جمع أشتات الطب والأدب ، وتقلب فى النعم أكرم منقلب ، وملأ دلاء الأمل إلى عقد الكرب .

فتح تفتّح أبواب السماء له ... وتبرز الأرض فى أثوابها القشب

وتقدمت بشارتنا به جملة ، حين لم تعط الحال بشرحه مهلة . كان أولئك الضالون المرتدون ، قد بطروا عدواناً وظلما ، واقتطعوا الكفر معنى وإسما ، وأملى الله لهم ليزدادوا إثماً » .

ومنها فى وصف مصرع أنصار الماسى : « فامتلأت تلك الجهات بأجسادهم ، وأذنت الآجال بانقراض آمالهم ، وأخذهم الله بكفرهم وفسادهم ، فلم يُعاين منهم إلا من خر صريعاً ، وسقى الأرض نجيعاً ، ولقى من وقع الهنديات أمراً فظيعاً ، ودعت الضرورة باقيهم إلى الترامى فى الوادى ، فمن كان يؤمل الفرار ويرتجيه ، ويسبح طامعاً فى الخروج إلى ما ينجيه ، اختطفته الأسنة اختطافاً ، وأذاقته موتاً زعافاً ، ومن لج فى الترامى على لجه ، ورام البقاء فى ثجه ، قضى عليه شرقه ، وألوى فرقته غرقه »(١) .

(١) ابن الخطيب فى الإحاطة فى ترجمة أبى جعفر بن عطية ج ١ ص ٢٧٧ .

يقول لنا ابن الخطيب ، إن الشيخ أبا حفص حين قرئت عليه رسالة هذا الجندى الأديب ، اشتد إعجابه بها ، وأحسن إلى كاتبها ، واعتقد أنه ذخر يتحف به عبد المؤمن ، وأنها لما قرئت بعد ذلك على الخليفة بمحضر من أكابر الدولة عظُم مقدارها ، ومقدار منشيها ، وبعث فى طلبه معززاً مكرماً . ولما وفد ابن عطية على عبد المؤمن ، بالغ فى إكرامه ، وقلده خطة الكتابة ، وأسند إليه وزارته ، ثم فوض إليه فيما بعد النظر فى أموره كلها ، فنهض بأعباء منصبه ، خير نهوض . ولكن القدر كان يتربص به ، وكان يدخر له تلك الخاتمة المؤسية ، التى سنقص سيرتها فيما بعد .

وعلى أثر هزيمة الماسى ومصرعه ، وانهيار حركته ، خرج الشيخ أبو حفص فى قواته لمطاردة القبائل الخارجة ، فسار أولا إلى هسكورة ، وأثخن فيها ، ومزق شملها ، وسبى أهلها ، واستاق غنائمها . ثم سار إلى أرض نفيس ، ثم أرض هيلانة ، فمزق جموعهم ، وفرض عليهم الخضوع والطاعة . وسار بعد ذلك إلى سجلماسة فاستولى عليها ، وأمّن أهلها . وعاد إلى مراكش فاستراح بها قليلا ، ثم خرج غازياً إلى أرض برغواطة ، وكانوا مازالوا على دعوة الماسى ، فنشب بينهم وبينه قتال مرير ، ومعارك متوالية ، استمرت حيناً ، وهزم الموحدون فى نهايتها . واستمرت برغواطة ومن يجاورها من القبائل فى ثورتهم وخروجهم فترة أخرى .

وكان يحيى بن أبى بكر بن على الصحراوى ، أو ابن الصحراوية ، حينما فر من فاس ، عند سقوطها فى أيدى الموحدين ، قد غادرها إلى سبتة ليحاول أن يجعل منها قاعدة للمقاومة ، وجمع أشتات الفلول المرابطية . وهنا تختلف الرواية فى شأن ماتلا من الحوادث التى وقعت فى سبتة . ذلك أن البيذق يقدم إلينا رواية خلاصتها ، أن الصحراوى حينما نزل بسبتة ، حاصره بها على بن عيسى بن ميمون قائد الأسطول الأندلسى فى منطقة قادس ، وهو الذى انحاز إلى الموحدين حسبما تقدم ، فتودد إليه الصحراوى ، وأوهمه أنه يريد أن يبايع الموحدين ، وأن يكون توحيده على يديه ، وفى اليوم التالى نزل ابن ميمون من سفينته إلى البر ، فاستقبله الصحراوى ثم هاجمه فجأة وطعنه برمحه فأرداه ، وصلب جثته فى برج المدينة ، ثم غادر الصحراوى على أثر ذلك سبتة إلى طنجة[1] .

---

(١) أخبار المهدى ابن تومرت ص ١٠٧ .

بيد أن هنالك رواية أوضح تفصيلا، هي روايه صاحب روض القرطاس، وابن خلدون ، وهي رواية تدور حول الدور الخطير الذى قام به القاضى عياض ابن موسى اليحصبي قاضي سبتة ، فى حوادث سبتة عندئذ . وكان القاضى عياض من أعظم فقهاء العصر وعلمائه ، وكان قد وُلى قضاء سبتة شابا ، فاشتهر بنزاهته وغزارة علمه ، فنقل إلى قضاء غرناطة ( سنة ٥٣١ هـ ) ، ثم أعيد بعد ذلك إلى قضاء سبتة ( ٥٣٩ هـ ) . فلما ظهر أمر الموحدين ، بادر إلى الدخول فى طاعتهم، وسار إلى لقاء الخليفة عبد المؤمن ، وهو بسلا فى أواخر سنة ٥٤٠ هـ ، فأكرمه عبد المؤمن وأجزل صلته ، فعاد إلى سبتة واستمر فى منصبه[١]. بيد أنه لأسباب غير واضحة ، تغير ضد الموحدين فجأة ، ولم يلبث وفقاً للرواية المتقدمة ، أن حرض أهل المدينة على الانتقاض والثورة ، فثاروا بوالبها الموحدى يوسف بن مخلوف التينمللى ، وقتلوه ومن معه من الموحدين . ثم عبر القاضى عياض البحر إلى الأندلس ، ولقى يحيي بن غانية المسّوفى ، والى الأندلس المرابطى . وطلب منه والياً لسبتة ، فبعث معه يحيي بن أبى بكر الصحراوى ، وكان وفقاً لنفس الرواية قد عبر البحر إلى الأندلس ، وانضم إلى ابن غانية . فقام الصحراوى بأمر سبتة ، ثم كتبت إليه برغواطة تستنصر به على قتال عبد المؤمن ، فغادر سبتة ، وسار فى صحبه إليهم ، فبايعوه واجتمعوا تحت رايته[٢]. بيد أن البيذق ، بعد ذكر ما تقدم من اغتيال الصحراوى لابن ميمون ، يقدم إلينا عن خطط الصحراوى ومسيره إلى الجنوب ، تفاصيل أخرى ، خلاصتها أن الصحراوى لما غادر سبتة ، سار منها إلى طنجة ، وهنالك ألفى واليها يحيي بن تايشا المرابطى، ممتنعاً بأسوارها القوية ، وعلى أهبة حسنة للدفاع ، فغادرها إلى سلا ، وكان بها الخياط والد الثائر الماسى ، وكانت قد خرجت فيمن خرج على طاعة الموحدين . ولكن الخياط لم يكن من أنصار لمتونة ، فساء التفاهم بينه وبين الصحراوى ، ولم يلبث أن وثب به الصحراوى وقتله ، ووقعت هذه الحوادث كلها فى أوائل سنة ٥٤٣ هـ ( ١١٤٨ م )[٣] .

وكان يحيي الصحراوى جندياً عظيما ، وفارساً وافر الجرأة[٤] . وكان يعتزم

---

( ١ ) ابن الخطيب فى الإحاطة — مخطوط الإسكوريال فى ترجمة القاضى عياض لوحة ٣٥٠ .

( ٢ ) روض القرطاس ص ١٢٤ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٣ .

( ٣ ) أخبار المهدى ابن تومرت ص ١٠٧ .

( ٤ ) المراكشى فى المعجب ص ١١١ .

أن ينزل إلى ميدان تضطرم فيه الثورة ضد الموحدين . وكانت المنطقة الساحلية الممتدة من سلا جنوباً ، حتى أراضى برغواطة ، ودُكالة ، قد غدت كلها بعد هزيمة الموحدين أمام برغواطة ، منطقة لمقاومة الدعوة الموحدية ، ومحاولة تحطيمها ، فإلى هذا الميدان نزل الصحراوى فى صحبه القلائل ، واجتمعت برغواطة ودكالة حول رايته ، ثم قدمت إليه حشود رَجراجة وحاحة ، وانضمت إليه ، واجتمع من هؤلاء وهؤلاء ، قوة يخشى بأسها .

فلما علم عبد المؤمن باجتماع هذه الحشود الضخمة الخصيمة وتأهبها لمقارعته ، بعث لقتال الثوار حملة بقيادة يصلاسن ، أحد خاصته . فسار يصلاسن أولا إلى تادلا ، ومنها إلى سلا لمعاقبة أهلها على نكثهم ، فاقتحمها ، وغلب على قصبتها بالسيف . فعاد أهلها إلى الخضوع والطاعة ، وعهد بولايتها إلى موسى بن زيرى الهنتانى . ثم سار إلى أرض بنى ورياغل ، فيما بين سلا ومكناسة ، وكانوا من الناكثين ، فأخضعهم واستاق غنائمهم إلى مكناسة ، فقسمت بين الموحدين ، ثم اتجه شمالا صوب طنجة ، وكانت ما تزال من معاقل لمتونة ، فاقتحمها ، وقتل واليها المرابطى يحيى بن تايشا . وسار منها بعد ذلك شرقاً إلى سبتة وحاصرها ، ولكنه لم يدخلها ، وعاد بقواته إلى مكناسة(١) . وهنا لابد لنا أن نتساءل عن سر هذا الإغضاء عن معاقبة المدينة الثائرة أعنى سبتة . والجواب على ذلك هو أن القاضى عياض ، حسبما يروى لنا البيذق ، بادر فبعث إلى القائد الموحدى ببيعته وبيعة أهل سبتة للموحدين ، وبذلك أنقذت المدينة(٢) . وفى رواية أخرى ، أنه لما قدم الموحدون إلى سبتة ، وشددوا فى حصارها ، سعى إليهم القاضى عياض ، وتلطف فى الاعتذار إليهم عما حدث ، وفى استدرار عطفهم وصفحهم ، فعفوا عنه ، وملكوا البلدة ، ولقى القاضى من القائد الموحدى يصلاسن بن المعز ، كل عطف وإكرام ، وأن القاضى عياض ، سار بعد ذلك إلى مراكش ( سنة ٥٤٣ هـ ) ، ليستعطف الخليفة ويلتمس صفحه ، فعفا عنه عبد المؤمن ، وأمره بلزوم مجلسه ، وأغدق عليه عطفه . ثم مرض القاضى غير بعيد ، وتوفى بمراكش فى ليلة التاسع من جمادى الآخرة سنة ٥٤٤ هـ ودفن بها ( ١١٤٩م )(٣) . وأخيراً يقول لنا

---

( ١ ) أخبار المهدى ابن تومرت ص ١٠٧ و١٠٨ .

( ٢ ) أخبار المهدى ابن تومرت ص ١٠٨ .

( ٣ ) وردت هذه الرواية خلال ترجمة للقاضى عياض يتضمنها مخطوط بالمكتبة الكتانية بخزانة الرباط عنوانه : «كتاب فى التعريف بعياض» ، ويحفظ بها برقم 553 ( لوحات ٧ – ١٤ ) .

صاحب القرطاس « إن أهل سبتة حينما رأوا ما نزل بالناكثين من صنوف الويل، بادروا بإعلان بيعتهم وطاعتهم ، وحمل البيعة إلى عبد المؤمن أشياخ المدينة وطلبتها فتقبلها منهم ، وعفا عنهم ، وعن القاضي عياض ، ولكنه أمره بمغادرة سبتة والإقامة بمراكش ، فصدع بالأمر وسار إلى مراكش ، وهنالك توفى بعد قليل فى جمادى الأخرى سنة ٥٤٤ هـ ، وأمر عبد المؤمن كذلك بهدم أسوار سبتة فهدمت[١] ، وأسندت ولايتها إلى حاكم موحدى هو عبد الله بن سليمان مع طائفة من الحفاظ ، وعاد إليها الهدوء والسكينة .

واعتزم عبد المؤمن أن يخرج بنفسه ليقضى على الخارجين عليه فى منطقة برغواطة ودُكالة ، التى غدت بعد حلول الصحراوى بها مركزاً للمقاومة المرابطية. فأرسل الكتب إلى سائر الأنحاء ، وجاءت إليه الحشود تترى من كل مكان، وكان فى مقدمتهم يوسف بن وانودين ، وقد وافاه بعساكر النواحى الشرقية ، ولكنه توفى خلال الطريق بفاس ، فخلفه فى القيادة تاشفين بن ماخوخ وآخرون من الزعماء ، ووفدت حشود المناطق الغربية وعلى رأسها عبد الله بن خيّار الجيّانى ، الذى عرفناه من قبل مشرفاً على فاس ، وقد لعب دوره فى تسليمها إلى الموحدين ، ثم حشود زناتة ، بقيادة عبد الله بن شريف وثلاثة آخرين من الزعماء ، وحشود غُمارة بقيادة عبدالله بن سليمان، وحشود صنهاجة بقيادة أبى بكر ابن الجبر وأبى يدّر بن ومصال ، وحشود جَراوة بقيادة عبد الله بن داود . واجتمعت هذه الحشود كلها تحت راية عبد المؤمن، فخرج من مراكش فى عسكر جرار ، وسار شمالا نحو أراضى دُكالة . وكانت حشود برغواطة ودكالة ويحيى الصحراوى قد اجتمعت عندئذ على مقربة من ساحل المحيط جنوبى ثغر أزمّور. وفى بعض الروايات أن هذه الجيوش التى اجتمعت لقتال عبد المؤمن بلغت زهاء عشرين ألف فارس ومائتى ألف راجل ، وهو تقدير يحمل طابع المبالغة . ويقدم إلينا ابن خلدون تقديراً أكثر اعتدالا ، فيقول إنهم كانوا فى نحو ستين ألفاً من الرجالة وسبعمائة من الفرسان[٢] . بيد أنها كانت خالية من فرق الرماة ، التى امتازت بها الجيوش الموحدية . والظاهر أيضاً مما تذكره الرواية المذكورة أن عبد المؤمن لجأ إلى خطة لم يحسب حسابها خصومه ، وفاجأهم بالهجوم ، فاختل

---

(١) روض القرطاس ص ١٢٤ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٢ .

نظامهم ، وتبدد شملهم ، واضطروا إلى مغادرة مراكزهم الحصينة نحو البحر ، فغرقت منهم جموع غفيرة ، وتمت عليهم الهزيمة الساحقة[1] ، ومزقت بالأخص حشود دكالة ، وفر زعماؤها ومعهم يحيى الصحراوى إلى السوس ، فسار فى أثرهم يصلاسن حتى أراضى رجراجة ، ومزق جموعها حتى أذعنت إلى التوحيد ، وفر يحيى إلى الصحراء . وفى رواية أخرى أنه بعث إلى عبد المؤمن يستأمنه فأمنه وبايعه وحسنت طاعته[2] . واستولى عبد المؤمن على أسلاب برغواطة ودكالة ، وسبي نساءهم وأولادهم وبيعوا رقيقاً . وأذعنت برغواطة إلى التوحيد ، واسترد الموحدون منها ما سبق أن غنموه من أبى حفص حين هزيمته من السلاح والعتاد . وكذلك رُد إليه ولده وجاريته ، وانتشر الموحدون فى تلك المنطقة ، وأخمدوا عدة ثورات محلية صغيرة . ووقعت هذه الحوادث حسبما يقص علينا البيذق فى سنة ٥٤٣ هـ (١١٤٨ م)[3] ، وعاد عبد المؤمن إلى مراكش ظافراً بعد أن قضى فى تلك الغزوة ستة أشهر .

— ٢ —

وهكذا هدأت الثورة ضد الموحدين فى مختلف النواحى ، وأرغمت معظم القبائل والقواعد الثائرة ، بقوة السيف ، والسيف وحده ، على العودة إلى الخضوع والطاعة . ولكن ما بثته هذه الثورات المضطرمة ، من أقوام كان معظمهم قد آمن بدعوة المهدى ، وانضوى تحت لوائها ، فى نفوس الموحدين من المرارة والسخط ، كان نذيراً بفورة دموية جديدة . ولقد رأينا فيما تقدم ، من مراحل الصراع بين الموحدين والمرابطين ، كيف كان هذا الصراع يتميز فى كثير من المواطن ، بألوانه الدموية المثيرة ، وكيف كان الموحدون يتبعون نحو المهزومين والعزّل من خصومهم ، خطة التقتيل الشامل ، وسفك الدماء دون تحفظ ، وهى خطة كانت حسبما رأينا شعار المهدى ابن تومرت فى محاربة خصومه .

والظاهر أن هذه النزعة الدموية استمرت فى الموحدين أجيالا ، حتى بعد أن توطدت دولتهم بمدة طويلة ، فإن المراكشي مثلا ، وهو من مؤرخى الموحدين ،

---

(١) الحلل الموشية ص ١١١ .

(٢) روض القرطاس ص ١٢٤ .

(٣) أخبار المهدى ابن تومرت ص ١٠٩ . وفى ابن خلدون أنها وقعت فى سنة ٥٤٢ هـ . كتاب العبر ج ٦ ص ٢٣٣ .

بنوه فى كتابه بما جبل عليه المصامدة ، وهم عماد الجيوش الموحدية ، من ميل إلى سفك الدماء ، وكيف أنه وهو فى بلاد السوس ( فى أوائل القرن السابع ) مهد المصامدة ، قد شهد من ذلك العجب[١] .

والآن نقف أمام صفحة دموية جديدة كتبها الخليفة عبد المؤمن وصحبه الموحدون ، عقب انتصارهم على القبائل الثائرة ، وهى صفحة يقدم إلينا البيذق تفاصيلها الرهيبة فيما يسميه « الاعتراف » أعنى الاعتراف بطاعة التوحيد .

وذلك أن الخليفة عبد المؤمن ، عقب عوده ظافراً إلى مراكش ، عقد للموحدين مجلساً ، ووعظهم وكتب لهم الجرائد بالوعظ والاعتراف ، ووزعها على أشياخ الموحدين ، وأمرهم باستعمال السيف فى تنفيذها . ومؤدى ذلك أنه عهد إلى أشياخ مختلف القبائل وزعمائها ، كل بجريدة أو قائمة ، تحتوى على مئات من أسماء المارقين ، والمشكوك فى ولائهم ، أو من يصفهم البيذق « بأهل التخليط والمعاندين » ووجوب قتلهم ، وتطهير القبائل والبطون منهم . ونحن نكتفى ، بأن ننقل مما يورده لنا البيذق من الأسماء والتفاصيل الكثيرة ، أسماء القبائل ، وعدد من أعدم منها ، على الوجه الآتى :

أعدم من قبيلة هزميرة خمسمائة ، وأعدم من رجراجة ثمانمائة ، وأعدم من حاحة ثمانمائة ، وأعدم من أهل السوس ستمائة من أهل إيجلى ، وستمائة من أهل إينجيست ، وأعدم من أهل جزولة مائتان فى تاعجيزت وثلاثمائة فى هشتوكة ، وأعدم من هسكورة ثمانمائة ، وهوجمت بقية بطونهم حتى بلغ عدد القتلى ألفين وخمسمائة ، وأعدم من أهل تادلا خمسمائة فى محلة نظير ، ثم هوجم منهم أهل تيفسيرت وقتلوا ، وأخذت غنائمهم ونساؤهم ، وقتل من صنهاجة وجراوة ألف فى موضع يسمى بالعمرى ، وقتل من زناتة ستة آلاف بأرض فازاز ، وقتل من صاربوه وبنى ماكود اثنا عشر ألفاً ، وقتل من غمارة فى تطاوين ثمانمائة ، وقتل فى مكناسة مائتان ، وفى فاس ثمانين ، وقتل فى تامسنا ستمائة من أهل برغواطة ، وقتل من دكالة ستمائة ، ومن هيلانة ثمانمائة ، ومن وريكة وهزرجة مائتان وخمسون ، ومن لمطاعة مائة وخمسون ، ومن درعة ستمائة . ونجا أهل سجلماسة بدعاء عابد فيهم استجاب الله دعاءه[٢] .

---

( ١ ) المعجب للمراكشى ص ١٠٦ .

( ٢ ) أخبار المهدى ابن تومرت ص ١٠٩ — ١١٢ .

يقول البيذق بعد إيراد ما تقدم « تم الاعتراف بحمد الله وعونه .. فهدّأ الله البلاد للموحدين ، وأعانهم على الحق ونصرهم ، وأقاموا الدين ، ولم يتفرقوا فيه . وتمهدت الدنيا ، وأزال الله ما كان فيها من التخليط . وهذا كان سبب الاعتراف » ، ثم يضع تاريخ هذه الحوادث الدموية فى سنة ٥٤٤ (١١٤٩م)(١) .

وإنه لما يلفت النظر فى هذا الحادث الدموى ، أولا وقبل كل شيء ، أنه وفقاً لأقوال البيذق ، من عمل عبد المؤمن وتدبيره ، وأنه يدمغ جهود عبد المؤمن وسياسته فى توطيد الدولة الموحدية ، بطابع بغيض . بيد أننا نشعر من جهة أخرى ، أن هذا العمل . وما تقدمه من تصرفات دموية عديدة ، خلال هذا الصراع الدينى والسياسى العظيم ، لا يمكن أن تنسب إلى عبد المؤمن دون تحفظ . ذلك أن عبد المؤمن إذا كان باعتباره خليفة الموحدين وقائدهم الأعلى ، مسئولا عن هذه الأعمال المثيرة أمام التاريخ ، فإنه يجب أن نذكر أيضاً أن عبد المؤمن ، لم يكن بالرغم من رفيع مركزه ، وسلطانه الظاهر ، مطلق التصرف فى كل ما يقوله أو يفعله ، وأنه كان بالعكس مرغماً على أن يخضع فى كثير من المواطن لضغط الأشياخ والقادة . فقد رأينا مثلا ، كيف أنه حينما قُتل أخوه إبراهيم بيد بعض أكابر الموحدين ، غلب على أمره ، ومنع بتدخل أصحاب المهدى ، من أن يقتص لمقتله من قاتله ، ثم رأيناه بعد ذلك يُغلب على أمره مرة أخرى ، حينما دخل الموحدون مراكش ، وقُبض على إبراهيم بن تاشفين ، وأتى به إلى عبد المؤمن فرقّ لحداثة سنه ، وأراد أن يعفو عنه وأن يفره من القتل ، فاعترض عليه بعض الأشياخ ، وأخذ إبراهيم وقتل رغماً عن إرادته . ففى هذه الحوادث وأمثالها ما يدلى بوضوح بأن عبد المؤمن ، لم يكن مطلق الحرية فى سائر تصرفاته . وإنّا لنرتاب فى أن يكون أمثال مذبحة الإعتراف ، معبرة عن خلق عبد المؤمن وميوله الحقيقية ، ونعتقد أنه لابد أن يكون وراءها ، ووراء أمثالها من التصرفات الدموية المثيرة ، ضغط الأشياخ والصحب ، وقد كانوا فى تلك المرحلة ، هم أصحاب التوجيه الحقيقى ، يزاولونه أحيانا ، بصورة ظاهرة ، وغالباً من وراء حجاب .

— ٣ —

بعد أن تم لعبد المؤمن سحق الثورة الكبرى ، فى أراضى برغواطة ودكالة ، وبعد أن تم له تمييز القبائل ، وقتل المارقين على النحو المتقدم ، اعتزم أن يقوم

(١) أخبار المهدى بن تومرت ص ١١٢ .

بجولته الثانية لسحق ما تبقى من مواطن الثورة والمقاومة، وليتم افتتاح المغرب بافتتاح إفريقية . وكان قد قام فى تلك الأثناء بتامسنا ، عقب حرب برغواطة بقليل ، ثائر جديد يدعى بابن تمركيد، فبايعه كثير من أهل برغواطة، وغيرها من القبائل ، ولبث حيناً يتحدى الموحدين، ويشتبك معهم فى معارك متوالية، إلى أن هزم أخيراً ، وقتل ، وقتل معه كثير من أنصاره ، وحمل رأسه إلى مراكش ( سنة ٥٤٤ ﻫ ) .

وخرج عبد المؤمن فى قواته من مراكش سنة ٥٤٥ ﻫ ، مستخلفاً عليها أبا حفص عمر بن يحيى الهنتانى ، وسار إلى مدينة سلا ، رأمر بأن تنشأ قصبة وقصر فوق اللسان الممتد فى البحر أمام سلا ، وبأن ينشأ سرب يستمد الماء من عين غبولة القريبة لإمداد المحلة الموحدية ، فتم ذلك ، وجرى الماء ، وغرست الحدائق والرياض ، وأذن الخليفة للناس فى التعمير والسكنى ، فكان ذلك منشأ مدينة رباط الفتح ، التى غدت من ذلك الحين مركزاً لتجمع الجيوش الموحدية الغازية . ولبث الخليفة بسلا خمسة أشهر . وفى خلال ذلك ، وفدت عليه وفود عديدة من الأندلس بلغت زهاء خمسمائة من الفقهاء والقضاة والزعماء والقادة ، فاستقبلهم الوزير أبو إبراهيم والوزير أبو حفص ، والكاتب الوزير أبو جعفر بن عطية ، وأشياخ الموحدين . فأكرمت وفادتهم وأنزلوا خير منزل . ثم أخدوا لمقابلة الخليفة ، وكان دخولهم عليه فى غرة شهر المحرم سنة ٤٤٦ ﻫ ، وكان أول من تقدم بين يديه وفد قرطبة ، فشرح قاضيها أبو القاسم ابن الحاج للخليفة ، ما تعانيه قرطبة، من تهديد النصارى وضغطهم، وتلاه الكاتب أبو بكر بن الجد بخطبة بليغة ، ثم تعاقبت الوفود فى السلام والتهنئة ، فشمل الخليفة الجميع بعطفه ، وأجزل لهم الصلات كل على قدر مكانته ، ثم أمرهم بالانصراف إلى بلادهم[1]. ولاريب أن تعاقب الوفود الأندلسية على المغرب على هذا النحو ، كان له أثره فى خطط عبد المؤمن المستقبلة ، نحو افتتاح الأندلس ، وتنظيم شئونها .

وغادر عبد المؤمن سلا فى أوائل سنة ٥٤٦ ﻫ ، وسار إلى المعمورة ،وهو يعتزم افتتاح بجاية وإفريقية . وكانت ثمة بواعث عديدة لها خطرها ، قد حملته على

---

(١) هذه هى رواية صاحب روض القرطاس ( ص ١٢٢ ) ، ويمر البيذق على هذا الحادث بالصمت . ويشير إليه الزركشى فى تاريخ الدولتين ( ص ٧ ) ، ولكنه يضع تاريخه سنة ٥٥٣ ﻫ ، ويقول لنا إنه كان ضمن الوفد الأندلسى ، الشاعرة الأندلسية الشهيرة حفصة بنت الحاج الركونى ، وانها أنشدت الخليفة شعراً ، أعجب به ، وأنه منحها إقطاع قرية ركانة .

اتخاذ هذا القرار ، منها اضطراب الأمور فى إفريقية واختلاف أمرائها ، واستطالة العرب عليها ؛ وعيثهم فى أراضيها ، حتى أنهم حاصروا مدينة القيروان . وأهم من ذلك كله ماحدث من اعتداء الفرنج الصقليين على الثغور الإفريقية ، وافتتاحهم لمدينة المهدية ( سنة ٥٤٣ هـ ) ، وسيطرتهم على الشاطئ الإفريقى من طرابلس حتى مياه تونس . كل ذلك حمل عبد المؤمن على أن يضع خطته لافتتاح إفريقية(١).
بيد أنه لم يسر فى ذلك الاتجاه توا ، بل سار إلى سبتة متظاهراً بقصد الجواز إلى الأندلس برسم الجهاد . وهنالك استدعى وجوه الأندلس وفقهاءها وقوادها ، فوفدوا إليه ، فحدثهم فى مسائلهم ، وألقى عليهم توصياته ثم صرفهم ، وغادر سبتة متجهاً فى الظاهر إلى طريق مراكش ، ولكنه سلك طريقاً أخرى غير مطروقة ، وأمر فى نفس الوقت بمنع السفر فى الطرق المسلوكة ، فى المغرب الأوسط ، من سلا إلى مكناسة ، ومن مكناسة إلى فاس ومن تلمسان إلى فاس . ثم اتجه نحو الشرق ، مبالغاً فى إخفاء وجهته ، وسار مسرعاً صوب بجاية ، واستولى فى طريقه على جزائر بنى مزغنة ( وهى التى صارت مدينة الجزائر فيما بعد ) ، ففر منها عاملها القائم بن يحيى إلى بجاية ، ونبأ أباه يحيى بن العزيز بالله الصنهاجى ، سليل بنى حماد ، بمقدم الموحدين . وكان بالجزائر فى نفس الوقت ، الحسن بن على الصنهاجى صاحب المهدية ، وابن عم صاحب بجاية ، وكان الفرنج الصقليون قد استولوا على المهدية فى أوائل سنة ٥٤٣ هـ ( ١١٤٨ م ) حسبما تقدم ، فخرج منها ملتجئاً إلى ابن عمه يحيى ، فأنزله بالجزائر منزلا سيئاً ، فلما دخلها الموحدون ، بادر إلى عبد المؤمن فبايعه ، وصحبه مستظلا برعايته .

ويجدر بنا أن نذكر هنا كلمة عن مدينة بجاية هذه ، وهى التى سوف يتردد ذكرها منذ الآن فصاعداً ، فى مواطن ومناسبات تاريخية كثيرة . وكان إنشاؤها نتيجة لما حدث من الشقاق ، بين بنى زيرى أمراء إفريقية . وذلك أنه قام خلاف بين تميم بن المعز بن باديس أمير إفريقية ، وبين ابن عمه الناصر ابن علناس ، ففارقه الناصر ، وخرج فى أصحابه ، ودله بعضهم على موضع بجاية ، وقد كان به منازل قليلة للبربر ، وبين له مزاياه من المنعة ، والمرسى الذى يمكن أن يغدو مركزاً هاماً لرسو السفن ، وترويج التجارة ، فأمر باختطاط مدينة بهذا الموقع ، وهو فى حماية جبل شاهق ، وكان ذلك فى حدود سنة

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٥ .

٤٥٧ هـ ( ١٠٦٥م )[١] . وفى رواية أخرى أن بناء بجاية جاء نتيجة لتوغل العرب فى إفريقية وعيثهم فيها ، وأنهم لما قاموا بتخريب القيروان ، ومعظم مدن إفريقية ، فر منهم صاحب القيروان ، وخرج لنصرته ابن عمه المنصور بن حماد ، فهزمه العرب هزيمة شديدة ، ففر إلى قاعدته بالقلعة ، ولكن العرب جدوا فى أثره ، وطاردوه ، فبحث عن موضع يختط فيه لنفسه محلة جديدة لا يلحقه فيها شر العرب ، فدله بعض أصحابه على موقع بجاية ، وكان مرسى قديماً ، فاختطها فيه ، ونقل إليها مركز حكمه ، واتخذها دار ملكه[٢] . ومن ذلك الحين سارت بجاية فى طريق التقدم ، وغدت من أغنى وأزهر الثغور الإفريقية .

وكان بنو حماد هؤلاء أصحاب بجاية والقلعة ، وما يليها من ثغور المغرب الأوسط ، بونة وقسنطينة والجزائر ، هم فرع من بنى زيرى بن مناد ملوك إفريقية الصنهاجيين ، الذين بسطوا عليها سيادتهم مذ غادرها بنو عبيد الفاطميون إلى مصر ، فى أواخر القرن الرابع الهجرى ، وكانوا يستظلون فى البداية بسلطان الخلافة الفاطمية ، ثم أعلنوا استقلالهم ، وضخم ملكهم بإفريقية . وفى أوائل القرن الخامس خرج حماد بن يوسف بن زيرى على ابن أخيه باديس بن المنصور ابن يوسف ، واستقل بالمناطق الغربية ، أعنى الزاب والمغرب الأوسط ، وكان والياً عليها من قبل ابن أخيه ، وأسس بها إمارة جديدة عرفت بمملكة بنى حماد . ولما توفى حماد فى سنة ٤١٩ هـ ، تعاقب بنوه من بعده فى الملك ، وكان مركزهم فى البداية بالقلعة ، وهى محلة فى غاية المناعة والحصانة ، اختطها منشئ دولتهم حماد فى بقعة حصينة ، تقع جنوبى بجاية على مقربة من بلدة أشير ، وقد كانت وفقاً لقول الإدريسى من أكبر البلاد فى تلك المنطقة وأكثرها خلقاً ، وأغزرها خيراً ، وأوسعها أموالا ، وأحسنها قصوراً ومساكن ، وأعمها فواكه وخصباً ، وهى فى سند جبل سامى العلو ، صعب الارتقاء ، وقد استدار سورها بجميع الجبل ، ويسمى تاقربست . ويقول لنا ياقوت فى وصفها ، من أجهة أخرى ، « وليس لهذه القلعة منظر ولا رواء حسن ، إنما اختطها حماد للتحصن والامتناع »[٣] .

---

( ١ ) ياقوت فى معجم البلدان تحت كلمة بجاية .

( ٢ ) الاستبصار فى عجائب الأمصار المنشور بعناية الدكتور سعد زغلول ( الإسكندرية ١٩٥٨ ) ص ١٢٨ و ١٢٩ .

( ٣ ) الإدريسى فى وصف المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ص٨٦ ، وراجع ياقوت فى معجم البلدان تحت كلمة « قلعة حماد » .

ثم انتقل بنو حماد ، بعد ذلك إلى بجاية منذ اختطها وأنشأها الناصر بن علناس بن حماد وذلك فى سنة ٤٥٧ هـ ، وجعلوها قاعدة ملكهم . وكانت مملكة بنى حماد ، حينما زحف الموحدون على بجاية فى حالة اضطراب وتفكك ، وكان ملكها يحيى ابن العزيز بالله أميراً ضعيفاً يعشق اللهو والصيد . وكان وزيره القائد أبومحمد ميمون بن على بن حمدون هو حاكمها الحقيقى ، فلما وصل الموحدون إلى بجاية ضربوا حولها الحصار . واتصل ابن حمدون سراً بعبد المؤمن ، وفتح له أبواب المدينة ، فدخلها الموحدون[١]. وفى الوثائق الموحدية ما يؤيد هذه الرواية . ففى الرسالة ، التى وجهها عبد المؤمن بعد فتح بجاية إلى أهالى قسنطينة يدعوهم إلى التوحيد، ما يفيد بأن القائد ابن حمدون كان ضالعاً فى السر مع الموحدين، وأنه عقب فتح بجاية انضم إليهم ، وخدمهم هو وأخوه الفقيه أبو عبد الله محمد بن على بن حمدون[٢] . بيد أن هناك رواية أخرى تقول إن ابن حمدون بالعكس خرج فى قوات بجاية ، وهى تزيد على العشرين ألف فارس ، واشتبك فى ظاهرها مع الموحدين فى معركة هزم فيها ، ودخل الموحدون المدينة على أثرها[٣]. وزحفت فى نفس الوقت قوة موحدية بقيادة عبد الله ولد الخليفة عبد المؤمن ، على القلعة —قلعة بنى حماد الشهيرة — وقد كانت من أعظم وأمنع قلاع المغرب ، وكانت معقل بنى حماد الأعظم ، ومهد ملكهم الأول ، فاستولت عليها ، وقتلت بها عدة ألوف من الصنهاجيين . ولما دخل الموحدون بجاية فر عنها صاحبها يحيى بن العزيز بالله إلى بونة ، وفر أخواه الحارث وعبد الله إلى صقلية حيث استظلا بحماية الفرنج . ثم سار يحيى من بونة إلى قسنطينة ، فامتنع بها مع أهله وقرابته ، وهنالك حاصره الموحدون ، فلما ضاق بالحصار ذرعاً ، أرسل أخاه وشيوخ صنهاجة وقسنطينة ، إلى عبد المؤمن يعلنون خضوعه ، وإذعانه إلى التسليم ويطلبون الأمان فأجابهم عبد المؤمن إلى ما طلبوه . ولما غادر عبد المؤمن بجاية سار معه يحيى فى أهله وولده إلى مراكش ، وهنالك عاش فى كنف الخليفة فى عزة وسعة من الرزق ، ولبثوا بمراكش حتى انقرض بيتهم . وكان استيلاء

(١) روض القرطاس ص ١٢٦ .

(٢) راجع رسائل موحدية ، المنشور بعناية الأستاذ ليڤى بروڤنسال ( الرباط سنة ١٩٤١ ) الرسالة السابعة ص ٢٠ .

(٣) ابن الأثير ج ١١ ص ٥٩ .

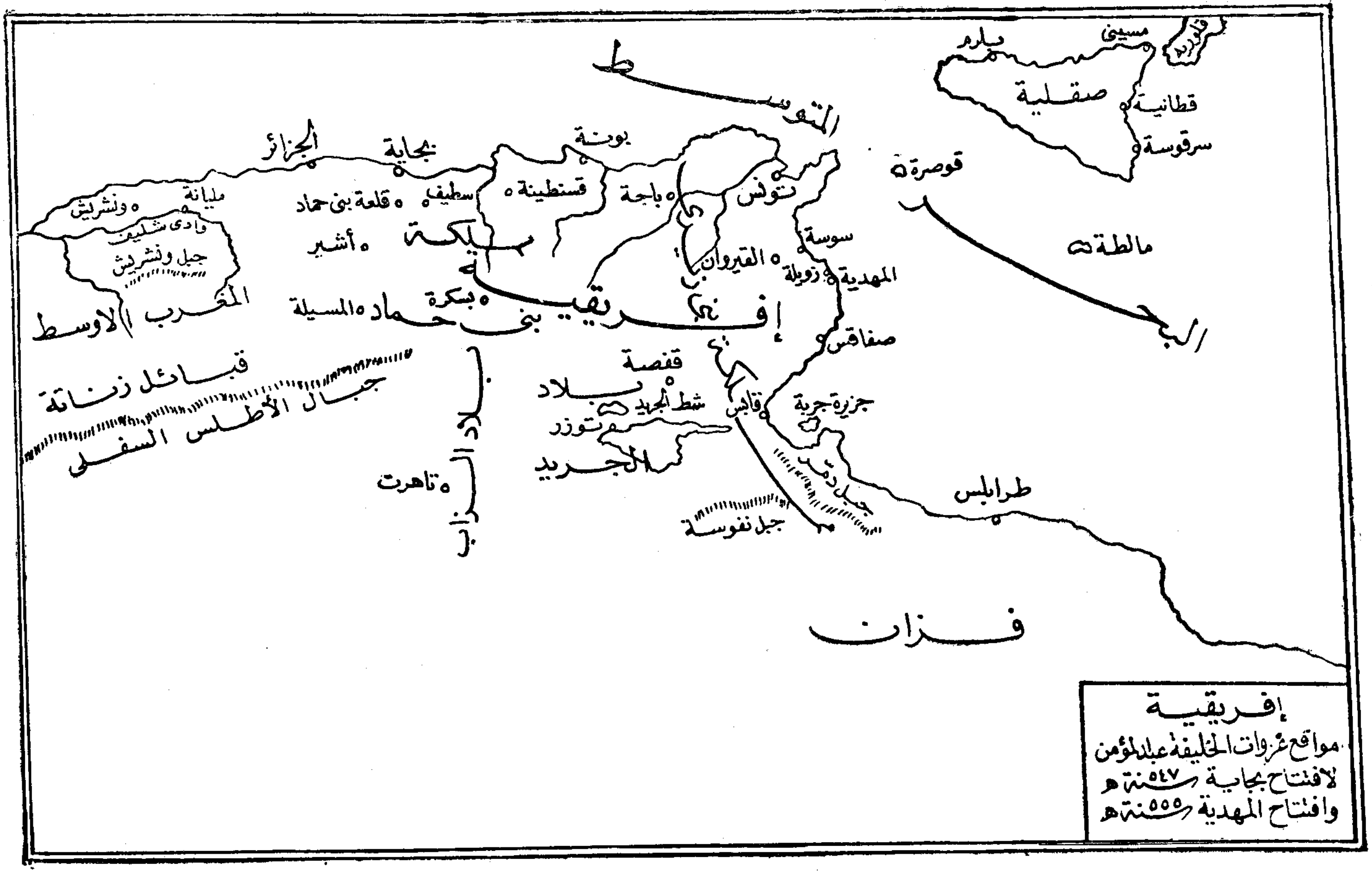
إفريقية
مواقع غزوات الخليفة عبد المؤمن
لافتتاح بجاية سنة ٥٤٧ هـ
وافتتاح المهدية سنة ٥٥٥ هـ
البحر المتوسط
صقلية
بلرم
مسينى
قلورية
قطانية
سرقوسة
قوصرة
مالطة
بونة
بجاية
الجزائر
مليانة
ونشريش
وادى شليف
جبل ونشريش
المغرب الاوسط
قبائل زناتة
جبال الأطلس السفلى
سطيف
قلعة بنى حماد
أشير
قسنطينة
باجة
تونس
سوسة
القيروان
المهدية
زويلة
مملكة بنى حماد
إفريقية
بكرة
المسيلة
صفاقس
قفصة
بلاد الجريد
شط الجريد
توزر
قابس
جزيرة جربة
بلاد الزاب
تاهرت
جبل دمر
جبل نفوسة
طرابلس
فزان

الموحدين على بجاية فى شهر ذى القعدة سنة ٥٤٧ هـ ( يناير سنة ١١٥٣ م )[١].

وكانت بجاية فى ذلك الوقت ، حسبما يصفها لنا الإدريسى ، الذى زارها قبل ذلك بنحو عشرين عاما ، قاعدة المغرب الأوسط ، وميناؤها عامرة بالسفن الواردة والصادرة ، والبضائع تتدفق إليها براً وبحراً ، وأهلها تجار مياسير ، وبها من الصناعات والصناع ما ليس بكثير من البلاد ، ولأهلها معاملات مع تجار المغرب الأقصى ، وتجار الصحراء ، وتجار المشرق ، وبها تحل الشدود وتباع البضائع بالأموال الوفيرة ، ولها بواد ومزارع ، والحنطة والشعير يوجدان بها بكثرة ، وكذلك سائر الفواكه ، وبها دار صناعة لإنشاء الأساطيل والمراكب والسفن الحربية ، يمدها الخشب الكثير الموجود فى جبالها وأوديتها ، والزفت البالغ الجودة والقطران الموجود فى أقاليمها ، وبها أيضاً معدن الحديد الطيب ، وهى مركز هام للمواصلات إلى بلاد إفريقية . وهذا كله فضلا عن حصانتها الطبيعية ، سواء من ناحية البر أو البحر[٢] .

وكانت جموع من العرب من بطون أثبج وزغبة ورياح وغيرها ، تحتل المنطقة الشاسعة ، الواقعة جنوبى بجاية ، وتعيش فى ظل بنى حماد ، وتحت حمايتهم. فلما استولى الموحدون على مملكة بنى حماد ، شعر أولئك العرب بما يهددهم من فقد أوطانهم وأرزاقهم ، فاحتشدوا لمقاومة الموحدين ، وأخذوا يغيرون على مؤخراتهم ، ويزعجون محلاتهم ، فاعتزم عبد المؤمن أن يطهر هذه المناطق من عيثهم ، وسار فى قواته إلى سطيف ، وجهز لقتالهم حملتين ، الأولى بقيادة صهره وزوج ابنته عبد الله بن وانودين ، والثانية بقيادة يصلاسن بن المعز ، ولكن ثار بين القائدين خلاف ، تعدى فيه يصلاسن على زميله صهر الخليفة وأهانه . ثم تركه وحده فى مواجهة العرب . فانتهز العرب هذه الفرصة وهاجموا قوات عبد الله بن وانودين وهزموه وأسروه ثم قتلوه . فاستشاط عبد المؤمن لذلك غضباً ، وحشد كافة الموحدين لمقاتلة العرب . فلما شعر العرب بشدة وطأة الموحدين ، افترقت كلمتهم ، وأذعن بعض زعمائهم إلى التوحيد ، وشدد عبدالمؤمن

---

( ١ ) أخبار المهدى ابن تومرت ص ١١٣ و١١٤ ، والحلل الموشية ص ١١٢ و١١٣ ، وروض القرطاس ص١٢٨ و١٢٩ ، والمعجب ص ١١٣ و١١٤ . وراجع الرسالة الثامنة من رسائل موحدية ص ٢٤ و٢٥ ، وكذلك المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس ص ١١١ .

( ٢ ) الإدريسى فى وصف المغرب وأرض السوادن ومصر والأندلس ص ٩٠ و ٩١ .

فى قتال من تبقى منهم ، ونشبت بين الفريقين معركة شديدة ، دامت يوما وليلة ، وهزم العرب فى نهايتها شر هزيمة ، ومزقت جموعهم ، وقتل وأسر منهم عدد جم . وكان فى مقدمة القتلى ألمع زعمائهم هلال بن عامر . واستولى الموحدون على غنائمهم من العتاد والدواب ، وكانت وفيرة هائلة . ثم طاردوهم مدى ثلاثة أيام أو أربعة فى مختلف الأنحاء ، حتى قضوا على معظم فلولهم . وحدثت هذه الموقعة الحاسمة فى شهر ربيع الأول سنة ٥٤٨ هـ ( يونيه ١١٥٣ م )[١] .

وبينما كان عبد المؤمن فى بجاية ، إذ اجتمعت حشود غفيرة من صنهاجة يقودها زعيم يدعى أبو قصبة من بنى زالدوى ، وانضمت إليها كذلك جموع كثيرة من كتامة ولواتة وغيرهما ، وسارت هذه الجموع لقتال الموحدين ، فبعث عبد المؤمن لردهم حملة قوية بقيادة أبى سعيد يخلف ، وهو من أصحاب خمسين ، فالتقوا فى عرض الجبل شرقى بجاية ، فانهزمت صنهاجة وحلفاؤها ، وقتل معظمهم ، وأخذت أسلابهم ونساؤهم[٢]. ويقول لنا البيذق إن الذى قام بمدافعة صنهاجة هو عبد المؤمن نفسه ، وقد كان فى قلة من جنده وحشمه ، ولكنه خرج ليردهم بنفسه ، واشترك فى قتالهم ، مع أنه لم يمتشق السيف منذ موقعة البحيرة عام ٥٢٤ هـ[٣] .

وغادر عبد المؤمن بجاية ، بعد أن نظم شئونها ، وندب لولايتها ولده أبا محمد عبد الله ، وسار فى جيشه الظافر ، أولا إلى تلمسان ، ثم سار إلى فاس ، ومكناسة ، ثم إلى سلا ، ووزع الغنائم والسبى على هذه البلاد . ثم غادر سلا إلى مراكش ، وفى ركبه عدة من زعماء العرب — أو سلاطينهم حسبما يصفهم البيذق — الذين خضعوا فى تلك الحركة . ولما وصلوا إلى مراكش ، زودهم بالأموال ورد إليهم نساءهم وأولادهم ، وصرفهم إلى بلادهم .

— ٤ —

وصل عبد المؤمن إلى مراكش ليواجه آثار مؤامرة دبرت فى غيبته ، وكادت أن تصدع صرح حكومته ، لو لم تخمد فى مهدها .

---

( ١ ) أخبار المهدى ابن تومرت ص ١١٤ و١١٥ ، ورسائل موحدية ، فى الرسالة التاسعة ص ٣٢ — ٣٥ .

( ٢ ) ابن الأثير ج ١١ ص ٦٠ .

( ٣ ) أخبار المهدى ابن تومرت ص ١١٥ .

وكان بطلا هذه المؤامرة أخوا المهدى ابن تومرت ، أبو موسى عيسى ، وأبو محمد عبد العزيز ، وكانا مذ ظفر عبد المؤمن بخلافة المهدى واجتناء تراثه ، يرقبان الفرص لبث الاضطراب والشغب ، ويظاهرهما كثير من أهل هرغة ، قبيلة المهدى ، وكان عبد المؤمن بالرغم من وقوفه على ما يضمره الأخوان له من البغض والكيد ، وما جنحا إليه من الانحراف ، ومخالطة أهل السوء ، يغضى عن سلوكهما ، ويجزل لهما الصلات والنفقة ، براً بذكرى المهدى وقرابتهما الوثيقة له ، ويكتفى بإسداء النصح اليهما . فلما سار المهدى إلى غزاته لافتتاح إفريقية ، شعر الأخوان بأن الفرصة قد سنحت لتدبير الإنقلاب المنشود ، وكانا يقيمان بفاس ، ويلتف حولهما نفر من الناقمين . فسارا فى صحبهما من فاس إلى مراكش ، وهنالك استطاعا تحريك بعض الجموع ، واضطرمت بالمدينة فتنة ، قتل خلالها والى المدينة عمر بن تَفْراجين حين خروجه فى الفجر إلى الجامع ، وكاد يستطير شررها . وعلم عبد المؤمن بما حدث وهو فى سلا (أواخر سنة ٥٤٥هـ)، فبعث الوزير ابن عطية على عجل ليستدرك الأمر ، فوصل إلى مراكش بعد يومين ، واستطاع فى الحال أن يخمد الفتنة ، وأن يقبض على زعيميها عيسى وعبد العزيز. ويقول لنا البيذق إن الخليفة ، أمر بقتل المخالفين من هرغة وأهل تينملّل، ولكنه أبقى على حياة أخوى المهدى وبعثهما إلى فاس حيث اعتقلا هناك تحت إشراف واليها الحيّانى(١) . ولكن صاحب البيان المغرب يقول لنا إنهما قتلا وصلبا ضمن من قتلوا وصلبوا من الخوارج ، فقتل عيسى قرب باب الدباغين ، وقتل عبد العزيز بباب أغمات(٢) . ويؤيد هذه الرواية ما ورد فى خطاب الخليفة الرسمى عن الحادث من الإشارة غير مرة إلى مصرع المخالفين ، وفتك العامة بهم وصلبهم خارج المدينة(٣) .

وماكاد عبد المؤمن يصل إلى مراكش حتى قام بحركة تطهير شاملة ، قُبض خلالها على كثير من الخواج وأهل التخليط ، حسبما تصفهم الرواية ، من سائر القبائل ، وألقوا إلى ظلام السجن . ثم أصدر الخليفة أمره بأن يتولى الموحدون المخلصون ، من كل قبيلة ، قتل المارقين من قبيلتهم بأنفسهم .فامتثل الموحدون

(١) أخبار المهدى ابن تومرت ص ١١٦ .
(٢) البيان المغرب ، القسم الثالث ص ٣٨ .
(٣) الرسالة الحادية عشرة من رسائل موحدية (ص ٣٢ و ٤٥ و ٤٦) .

لما أمروا به ، وتولوا الإجهاز بأيديهم ، كل جماعة على أبناء قبيلتها ، وكان الخليفة أثناء هذه المذبحة الحديدة ، يجلس فى البرج القائم فى أعلى قصره ، قصر الحجر ، ليشهد التنفيذ بنفسه . ويقول المؤرخ معلقاً على ذلك « فطرقت للموحدين فى هذا الوقت وحشة من الخجل والوجل ، ودهشة من قبيح ما ظهر من الغادرين المذكورين ، من نكوث العهد ، فى السهل والجبل ، فتراموا على خليفتهم راغبين فى العفو وإزالة الكدر ، وجلب ما تعودوه من الخلوص والظفر ، فقبل منهم ما أملوا ، وتعطف عليهم على عادته بما سألوا » . وبعث الخليفة بهذه المناسبة ، إلى مختلف البلدان ، رسالة من إنشاء الوزير ابن عطية ، تفيض بلاغة وبيانا ، يفصل فيها ما حدث ، ويوضح موقفه ويلتمس الأعذار لتبريره[١] .

وكان من الحوادث البارزة فى هذه الحركة الدموية مصرع القائد يصلاسن ، ابن المعز الهرغى . وكان يصلاسن أو يصليتن حسبما يسمى فى رواية أخرى من زعماء قبيلة هرغة ، ومن أهل الدار ، أعنى من أقرباء المهدى[٢] . وقد رأينا فيما تقدم كيف اختلف مع ؛ ميله القائد عبد الله بن وانودين صهر الخليفة ، وتركه فى قواته ليواجه وحده العرب ، وكيف كان ذلك سبباً فى هزيمته ومصرعه . وكان عبد المؤمن يتوق إلى معاقبة يصلاسن على سوء تصرفه . ومن جهة أخرى ، فإنه يبدو أن يصلاسن كان ضالعاً مع خصوم عبد المؤمن ، ومؤيداً لحركة أخوى المهدى . فلما عاد عبد المؤمن إلى مراكش ، كان يصلاسن فى سبتة ، فأرسل الخليفة إلى واليها عبد الله بن سليمان بأن يدبر حيلة للقبض على يصلاسن وإرساله ، فدعا عبد الله يصلاسن إلى نزهة بحرية فى إحدى السفن ، فى مياه سبتة ، فلما توسط البحر ، انقض عليه وكبله بالحديد ، ونبأ عبد المؤمن بما تم ، فأمره بإعدام يصلاسن وصلبه بعد الإشهاد عليه بالذنب ، فقام عبد الله بما أمر به[٣] . وفى رواية روض القرطاس ، أن عبد الله أرسل يصلاسن مكبولاً إلى مراكش ، وأنه أعدم بها وصلب على بابها تنفيذاً لأمر الخليفة[٤] .

واضطرمت الثورة فى نفس الوقت بأرض السوس ، وارتدت قبيلة جزولة

---

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٨ و٢٩ .
(٢) أخبار المهدى ابن تومرت ص ٢٩ .
(٣) أخبار المهدى ابن تومرت ص ١١٥ و١١٦ .
(٤) روض القرطاس ص ١٢٦ .

عن الطاعة ، وبعثوا إلى يحيي بن أبي بكر الصحراوى ، فوفد إليهم مع زعيم آخر من خصوم الموحدين يدعى الحاج بن مركونة ، وارتدت كذلك قبيلة لمطة وتزعم ثورتها محمد بن آمرجال ، ثم ارتدت قبيلة إيت ييغز ، وساروا إلى تازاجورت واقتحموها ، وقتلوا حاكمها الموحدى ، واما زير بن حواء الهنتانى ، فاهتم عبد المؤمن لهذه الحوادث ، وسير الشيخ أبا حفص فى حملة قوية لإخماد الثورة ، فخرج إلى السوس ، وقاتل بنى ييغز ، ففروا إلى حيث كان الصحراوى ، ثم سار إلى سيروان ، حيث هزم بنى واوزجيت ، وقسمهم إلى قسمين ، قسم ضمه إلى أهل تينملل وقسم ضمه إلى هنتانة ، ثم عاد إلى مراكش حيث أمر الخليفة بحشد قوات جديدة ، وخرجت هذه القوات بقيادة أبى حفص ، وأربعة آخرين من أكابر القادة الموحدين ، هم وسنار ، وعبد الله بن أبي بكر بن ونكى ، وعبد الله بن فاطمة ، وعمر بن ميمون ، وسارت كل قوة منها إلى منطقة من المناطق الثائرة ، وهوجمت قبائل لمطة ، وهشتوكة ، وتاسريرت وآهوكار وغيرها من القبائل الثائرة ، وهزمت جميعاً ، وأذعن بعضها إلى التوحيد ، وأخذت غنائمها وسبيها إلى مراكش ، وبلغ نصيب الخليفة من تلك الغنائم ، ثمانمائة ناقة[١] ، ووقعت هـذه الحوادث ، فيما يرجح فى أوائل سنة ٥٤٩ هـ ( سنة ١١٥٤ م ) .

ولما تم إخضاع القبائل الثائرة والمرتدة على هذا النحو ، غادر عبد المؤمن مراكش إلى تينملّل ، وهناك زار قبر المهدى ، وفرق فى أهلها أموالا كثيرة وأمر ببناء مسجدها ، وتوسيع خططها[٢] .

---

( ١ ) أخبار المهدى ابن تومرت ص ١١٧ .

( ٢ ) روض القرطاس ص ١٢٦ .

# الفصل السابع

## فتـــح المهـــدية

## وإجلاء الفرنج عن إفريقية

غزوات الفرنج النورمانيين لثغور إفريقية . استيلاؤهم على طرابلس والمهدية . فرار الحسن الصنهاجى أمير المهدية وآله . انتهاء مملكة بنى زيرى . استيلاء الفرنج على سوسة وصفاقس . التجاء الحسن إلى عبد المؤمن . إحجام عبد المؤمن حين غزوه لبجاية عن مهاجمة الفرنج . استيلاء الفرنج على بونة . وفاة الملك رجار النورمانى . بداية الثورة فى إفريقية ضد الفرنج . الثورة فى جزيرة جربة وصفاقس وطرابلس وقابس . انتزاع الموحدين لبونة . فشل الثورة فى المهدية وزويلة . استغاثة أهل إفريقية بعبد المؤمن . تأهبه للجهاد ضد الفرنج . مسير عبد المؤمن فى قواته إلى رباط الفتح . تكامل الحشود وتضخمها . مسير عبد المؤمن إلى إفريقية ومعه الحسن الصنهاجى . مسير الأسطول فى البحر إلى شاطىء إفريقية . استيلاء عبد المؤمن على تونس . شروط الأمان الممنوح لها . عبد المؤمن يهاجم المهدية ثم يحاصرها . دخول صفاقس وطرابلس وجبال نفوسة فى الطاعة . افتتاح الموحدين لقابس . معركة بحرية بين الموحدين والفرنج . تسليم المهدية بالأمان . إتمام تحرير إفريقية من نير الفرنج . المناوشات بين عبد المؤمن وبين العرب . أصل أولئك العرب الأفارقة . نزوحهم إلى مصر . قصة نزوحهم إلى إفريقية . عبورهم إلى الغرب ونزولهم به . محاولة استمالة المعز بن باديس لهم وعيثهم بأراضيه . الحرب بينهم وبين البربر . هزيمة المعز وفراره إلى القيروان . حصار العرب للقيروان . دخولهم إياها وتخريبهم لها . تخريبهم لتونس ونهبها . نزولهم فى المهدية . قطعهم السبل وبسطهم لحكم الإرهاب فى إفريقية . سيطرتهم على طرابلس وقابس وبلاد الزاب . تحولهم إلى عنصر خطر بغيض . اعتداؤهم على قابس ، واستنقاذ عبد المؤمن لها . تفكير عبد المؤمن فى حشد طوائفهم فى عسكره . تظاهرهم بالتبول وغدرهم . محاصرة الموحدين لهم وفتكهم بهم . عبد المؤمن يرد حريمهم ويستميلهم بصلاته . عبور عبد المؤمن إلى الأندلس .

لما افتتح الموحدون بجاية معقل إفريقية[1] من الغرب ، فى أواخر سنة ٥٤٧ هـ ، وقضى عبد المؤمن على سائر الثورات والمؤامرات التى دبرت ضده سنة ٥٤٩هـ ، وقصد على أثر ذلك إلى تينملّل ، وزار قبر المهدى ، كانت الظروف تتهيأ لمرحلة جديدة من الفتح الإفريقى . وكانت الحوادث فى إفريقية ، قد تطورت خلال هذه الأعوام الأخيرة تطوراً سيئاً ، واستفحل عدوان الفرنج النورمانيين أصحاب صقلية ، على الثغور التونسية ، والشواطئ المجاورة . وكان الفرنج

(١) يقصد بإفريقية هنا « منطقة تونس » .

النورمان قد استولوا على جزيرة جِربة الواقعة فى مدخل خليج قابس منذ سنة ٥٢٩ هـ ( ١١٣٥ م ) ، بعد أن قاومهم أهلها مقاومة عنيفة ، ثم حاولوا الاستيلاء على ثغر طرابلس فى سنة ٥٣٧هـ ( ١١٤٢ م ) . فهاجموه بأسطول قوي ، ولكنهم فشلوا وردهم أهله المسلمون بخسارة فادحة ، وكانت طرابلس وقتئذ تابعة لمملكة إفريقية ( تونس ) ، ولكنها لم تكن تدين بالطاعة لملكها الأمير الحسن بن على بن يحيى الصنهاجى. ثم عاد رُجّار ( روجر ) ملك صقلية ، فجهز إلى طرابلس أسطولا ضخماً ، واستطاع الفرنج هذه المرة الاستيلاء عليها ( ٥٤١هـ — ١١٤٦م) وولوا عليها رجلا من بنى مطروح . وفى العام التالى ( ٥٤٢ هـ ) أعلن يوسف صاحب قابس المتغلب عليها طاعته للفرنج ، فبعث الأمير الحسن جيشاً لقتاله ، فنازل قابس وحاصرها ، وثار أهل البلد بيوسف ، فأسر وعذب وقتل ، وفر إخوته وأولاده إلى صقلية ، واستغاثوا بملكها رجار الثانى . وكانت الهدنة معقودة بين رجار وبين الحسن لمدة سنتين ، ولكن رجار علم ما تعانيه إفريقية والمغرب فى هذه الفترة ، من الشدة الغلاء والقحط ، ولم يرد أن تفوته هذه الفرصة السانحة لمهاجمة إفريقية ، وانتزاع ما يمكن انتزاعه منها . فسير إلى مياه إفريقية أسطولا ضخماً قوامه مائتى وخمسين سفينة مشحونة بالرجال والسلاح والأقوات ، بقيادة أمير البحر جرجى الأنطاكى ، وكان قبل التحاقه بخدمة ملك صقلية ، أميراً لأسطول إفريقية الإسلامى ، ومن ثم كان علمه بأسرار هذه الشواطئ . واستولى الأسطول فى طريقه على جريرة قوصرة( بنتلاريا ) الواقعة بين صقلية وبين الشاطئ التونسى ، ثم سار نحو الجنوب الغربى ، وقصد إلى ثغر المهدية ، وهى قاعدة مملكة بنى زيرى الصنهاجيين. وكان ذلك فى اليوم الثانى من صفر سنة ٥٤٣ هـ ( يونيه ١١٤٨ م ) . وكان أمير البحر جرجى يرجو مفاجأة المدينة ، بالوصول إليها فى وقت السحر ، ولكن الرياح عاكسته ، ولم يصل إلا فى الضحى ، فرآه أهل المدينة ، وانزعج الأمير الحسن الصنهاجى من قدوم الفرنج ، وبعث إليه جرجى يخاطبه باللين ، ويقول إنه مازال يحترم الهدنة المعقودة بينه وبين الملك رجار ، ولكنه يطالب بثأر صاحب قابس وردها إلى ولده ، ويطلب أن تنضم إليه قوة من جند الحسن ، فجمع الحسن فقهاء المدينة وأعيانها ، وشاورهم فى الأمر ، وبين لهم حرج الموقف ، وتخوفه من قيام الفرنج بحصار المدينة ، وقطع الأقوات عنها ، ثم اقتحامها عنوة ، والفتك بأهلها ، ونصح بمغادرة الناس

للمدينة ، قبل أن يفوت الوقت ، ثم بادر هو بالخروج منها ومعه الأهل والولد ، ومن صحبه من الفقهاء والأعيان ، وقد حمل معه كل ما يستطاع من المال والذخائر ، وتبعه معظم الناس ، فخرجوا بأهلهم وأولادهم ، ومعهم ماخف حمله من أموالهم ومتاعهم . ولم يكد يأتي العصر حتى كان معظم أهل المهدية قد غادروها ، وأقبل الفرنج وعلى رأسهم جرجي ودخلوا المدينة دون ممانعة ، ودخل جرجي القصر ، وكان ما يزال غاصاً بنفيس المتاع والرياش والذخائر ، وبه عدة من جواري الحسن ، فاحتاط الفرنج على ما فيه ، ونُهبت المدينة مدى ساعتين ، ثم نودى بالأمان ، فظهر من استخفى من أهل المدينة ، واستدعى جرجي العرب القريبين فأحسن إليهم ، وفرق فيهم أموالا جزيلة ، وبعث طائفة من جند المهدية ، فى أثر من خرج من أهلها ، ومعهم الأمان لهم ، ومعهم كذلك دواب يعودون عليها ، فعاد معظمهم . أما الحسن ، فسار فى أهله وولده ، وكانوا إثنا عشر ولداً غير الإناث ، والخاصة ، وقصد إلى أمير من أمراء العرب يدعى محرز ، وكان أبو الحسن قد آثره وأحسن إليه ، فأكرم محرز وفادته ، فأقام لديه شهوراً . ثم بعث إلى ابن عمه يحيى بن العزيز بالله صاحب بجاية ، يستأذنه فى الوفود عليه والانضواء تحت لوائه ، والسفر من لديه إلى الخليفة عبد المؤمن ، فأذن له يحيى ، ولكنه ماكاد يصل إلى بلاده ، حتى سيره إلى جزائر بنى مزغنة ، أو بنى مزغنان (وهى الجزائر الحالية) وأنزله بها هو وأولاده فى حالة اعتقال ، وضيق عليه . وهكذا انتهت باستيلاء الفرنج على المهدية ، وعزل الحسن ، مملكة بنى زيرى ابن مناد الصنهاجيين ، بعد أن لبثت فى إفريقية مذ رحل المعز لدين الله عنها إلى مصر ، فى سنة ٣٦١هـ ،وتولى زيرى بن مناد حكمها ، حتى سقوط المهدية فى سنة ٥٤٣هـ ، مائة وثمانين سنة ، ولم تمض أيام قلائل على استيلاء الفرنج على المهدية حتى سير أمير البحر جرجي حملة بحرية إلى سوسة ، وكان واليها الأمير على بن الحسن ، فغادرها ، وخرج عنها أهلها ، ودخلها الفرنج دون قتال فى الثانى عشر من شهر صفر . وسير جرجي بعد ذلك حملة أخرى إلى صفاقس ، فاستولت عليها بعد مقاومة عنيفة من أهلها ومن حلفائهم العرب ، وذلك فى الثالث والعشرين من صفر . ثم نودى بالأمان ، فعاد الناس إلى سوسة وصفاقس ، وافتدوا حريمهم وأولادهم ، وأحسن الفرنج معاملتهم . ثم وصلت بعد ذلك كتب الملك رُجّار بمنح الأمان لسائر أهل إفريقية . وهكذا استولى الفرنج النورمانيون على شاطئ

إفريقية من ثغر طرابلس حتى خليج تونس (١) .

ولما سار الخليفة عبد المؤمن فى جيوشه من سلا فى أوائل سنة ٥٤٦ ه ، متجهاً إلى بجاية بغية فتحها ، واستولى فى طريقه على جزائر بنى مزغنة ، خرج إليه منها الحسن بن على الصنهاجى ، وكان معتقلا بها كما تقدم ، وبايع عبد المؤمن بالطاعة ، ملتجئاً إليه ومستظلا برعايته ، فأكرم عبد المؤمن مثواه ، وصاهره بأن تزوج ابنة من بناته ، واصطحبه معه إلى مراكش . وبالرغم من تقدم الفرنج والنورمانيين على هذا النحو ، فى امتلاك ثغور إفريقية ، فإن الظروف التى كانت تحيط بالموحدين يومئذ ، لم تكن تسمح لعبد المؤمن ، بأن يدخل فى صراع مع الفرنج ، وهو مازال يعمل على توطيد أركان الدولة الجديدة ، ومطاردة أعدائها فى الداخل ، ومن ثم فإنه بعد أن افتتح بجاية ، وقضى على شغب العرب المحالفين لبنى حماد ، عاد إلى سلا ثم إلى مراكش ، ليواجه أحداثاً جديدة فى الداخل .

ولكن الفرنج الصقليين لم يقفوا عند حد . ذلك أنه لم تمض بضعة أعوام على افتتاحهم للمهدية ، وباقى ثغور إفريقة ( تونس ) الشرقية ، حتى سار من صقلية أسطول فرنجى جديد بقيادة أمير البحر فيليب المهدوى ، وقصد إلى مدينة بونة ، الواقعة شرقى بجاية ، فى منتصف المسافة بينها وبين تونس، فحاصرها واستعان على أخذها بالعرب ، وذلك فى شهر رجب سنة ٥٤٨ ه ( أكتوبر ١١٥٣ م ) . وبالرغم من أن فيليب قد سبى أهل بونة ، واستصفى أموالها ، فإنه أغضى عن جماعة الفقهاء والعلماء ، فتركهم يخرجون بأهلهم وأموالهم ، فترتب على ذلك أن اتهمه بعض خصومه بأنه نصرانى مارق ، وأنه يبطن الإسلام هو وفتيانه ، فقبض عليه الملك رُجار ، وحكم عليه بالموت حرقاً . وتوفى رُجار بعد ذلك بقليل ( فبراير ١١٥٤ م ) وخلفه فى الملك ولده ، وليم ، وهو المسمى فى الرواية العربية غليالم . ولم يكن وليم يتمتع بكثير من مقدرة أبيه وحزمه ، فلم تلبث أن اضطربت شئون المملكة ، وثارت عليه بعض النواحى ، وكان لذلك أثره فى تطور الحوادث فى إفريقية .

ذلك أن أهل الثغور الإسلامية المفتوحة ماكادوا يشعرون باضطراب الأحوال فى صقلية ، حتى بادروا بإعلان الخلاف ، ونبذ طاعة الفرنج ، وكان أول من ثار منهم أهل جزيرة جربة ، ثم تلتها مدينة صفاقس ، وكان واليها عمر بن

---

( ١ ) ابن الأثير ج ١١ ص ٤٧ — ٤٩ .

أبى الحسن الفريانى ، قد وُلى عليها من قبل رُجار ، وأخذ أبوه الشيخ أبو الحسن إلى صقلية رهينة بحسن طاعته ، ولكن أبا الحسن أوعز إلى ولده بأن ينتهز أول فرصة لتحطيم نير الفرنج ، ولايبالى فى ذلك بمصيره . فأعلن عمر الخلاف ، ودعا أهل المدينة إلى قتل الفرنج وسائر النصارى ، ففتكوا بهم ، وقتلوهم عن آخرهم ، وكان ذلك فى أوائل سنة ٥٥١ هـ ( أوائل ١١٥٦ م ) . واضطرمت الثورة ضد الفرنج فى نفس الوقت فى طرابلس بقيادة شيخها أبى يحيى بن مطروح ، وكان زعيما شهماً حازماً ، وأسرت الحامية النصرانية ( أوائل ٥٥٣ هـ ) ، وكذلك اضطرمت الثورة ضد الفرنج ، فى قابس ، وسارت قوة موحدية من بجاية إلى مدينة بونة ، وانتزعتها من الفرنج ، ولم يبق بيد الفرنج من ثغور إفريقية سوى سوسة والمهدية . وحرض عمر بن أبى الحسين والى صفاقس ، أهل بلدة زويلة الواقعة على مقربة من المهدية ، أن يقتلوا النصارى ففعلوا ، وعاونهم العرب على قطع المؤن والأقوات عن المهدية . ولما علم الملك وليم بذلك ، حاول أن يدفع الفقيه أبى الحسن إلى نصح ولده ، وبعث يتهدد عمراً بالويل ، إذا لم يعدل عن سلوكه ، فلم تنجح المحاولة ، وأمر وليم بأبى الحسن فصلب أو شنق وهو يتلو القرآن[1]. واجتمع أهل زويلة وصفاقس ومن معهم من الأعراب ، وحاصروا المهدية ، وضيقوا عليها ، فبعث وليم إلى المهدية عدداً من السفن المشحونة بالرجال والأقوات ، واستمال الفرنج الأعراب بالمال والأعطية ، فانسحبوا من المعركة وانحصر القتال بين الفرنج وأهل صفاقس وزويلة ، واستطاع أهل صفاقس الانسحاب بطريق البحر ، ووقع عبء القتال كله على أهل زويلة ، فارتدوا إلى بلدهم ، وقاتلوا تحت أسوارها حتى فنى معظمهم ، ولم ينج منهم إلا القليل ، ودخل الفرنج زويلة فقتلوا من وجدوا بها من النساء والأطفال ، ونهبوا الأموال ، واستقر الفرنج بالمهدية ، على أهبة للصراع المرتقب[2] .

ووفد على عبد المؤمن ، وهو يومئذ بمراكش ، وفود من زويلة ، وغيرها من الثغور المنكوبة يستغيثون به ، ويستصرخونه لرد عادية الفرنج عنهم وعن أرض الإسلام ، فأكرم وفادتهم ووعدهم خيراً . وكان الحسن بن على الصنهاجى أمير المهدية السابق ، ما فتئ منذ نزوله فى كنف عبد المؤمن ، يحرضه

---

( ١ ) رحلة التجانى ( تونس ١٩٥٨ ) ص ٧٥ و ٢٤٢ .

( ٢ ) ابن الأثير ج ١١ ص ٧٦ و ٧٧ .

على استنقاذ إفريقية ، وتحريرها من نير الفرنج ، وكان عبد المؤمن نفسه ، يرقب تقدم الفرنج فى هذا الركن من شمال إفريقية ، بكثير من التوجس ، ويخشى أن يتفاقم عدوانهم بالتوغل فى أرجاء أخرى من شمالى المغرب . ومن ثم فإنه ما كاد ينتهى من تنظيم الشئون الداخلية ، حتى أمر باتخاذ الأهبة للجهاد ، وأن تجمع الأقوات ، وتحفر الآبار فى الطرق ، وبعث كاتبه عبد الملك بن عيّاش ، بالكتب إلى سائر قبائل الموحدين ، يستنفرهم للجهاد ، وادخار المؤن ، وكتب إلى أهل الثغور البحرية بإنشاء السفن والأجفان . وكان عبد المؤمن ، بعد أن نكب وزيره وكاتبه أبا جعفر بن عطية ، وأمر بقتله ( صفر سنة ٥٥٣ هـ ) حسبما نفصل فى موضعه ، قد استوزر مكانه عبد السلام بن محمد الكومى ، وعين لكتابته عبد الملك بن عيّاش القرطبى . وفى فاتحة شوال سنة ٥٥٣ هـ (نوفمبر ١١٥٨ م ) ، غادر عبد المؤمن حضرة مراكش ، وسار إلى رباط الفتح ، قبالة ثغر سلا ، مستخلفاً على مراكش الشيخ أبا حفص عمر بن يحيى الهنتانى ومعه ولده أبو الحسن على ، وعلى فاس أبا يعقوب يوسف بن سليمان . وتوافدت عليه العساكر من كل صوب . فلما تكامل ورود الجيوش الموحدية ، تحرك عبد المؤمن من سلا فى العاشر من شهر صفر سنة ٥٥٤ هـ ( فبراير ١١٥٩ م ) ومعه الحسن بن على الصنهاجى أمير إفريقية السابق(١) . وتقدر الرواية هذا الجيش الموحدى الكبير بمائة ألف مقاتل ومعهم مثل هذا العدد من الأتباع والسوقة(٢) . وفى رواية أخرى أنه كان يضم خمسة وسبعين ألف فارس ، وخمسمائة ألف من الرجالة ، وكان يضم عدا طوائف الموحدين ومختلف القبائل من زناتة والأغزاز والرماة وغيرها ، جموعاً كبيراً من قبائل العرب . وكان ينقسم إلى أربعة جيوش ، لكل عسكر يوم يختص به ، مسيره فى كل مرحلة من السحر إلى وقت الغداة . وتنزل الجيوش مريحة إلى يوم آخر(٣) . واخترق هذا الجيش الجرار هضاب المغرب ، متجهاً نحو إفريقية ، واخترق بلاد الزاب من جنوبها ، وهو يفتتح المعاقل الممتنعة ، ويؤمن من استأمن . ثم اتجه نحو الشمال فوصل إلى أحواز مدينة تونس فى الرابع والعشرين من جمادى الثانية ، ومعنى ذلك أنه قطع هذه المسافة الشاسعة ، وهى تبلغ نحو ألف

---

( ١ ) البيان المغرب ، القسم الثالث ص ٣٨ ، وابن الأثير ج ١١ ص ٩١ .

( ٢ ) ابن الأثير ج ١١ ص ٩١ .

( ٣ ) الحلل الموشية ص ١١٥ .

وثلاثمائة ميل فى نحو أربعة أشهر ونصف ، وقد كانت يومئذ « مسيرة سبعين يوماً للفارس المجد » . وسار الأسطول الموحدى فى نفس الوقت قبالة شاطئ البحر المتوسط بقيادة أبى عبد الله بن ميمون ، وكان مكوناً من سبعين سفينة حربية ، من الشوانى والطرائد والشلندرات . ولما وصل الموحدون إلى المدينة ، بعث عبد المؤمن إلى أهلها يطلب الطاعة ، فرفض أهل المدينة ، وعلى رأسهم حاكمها أحمد بن خراسان ، فبدأ الموحدون مهاجمة المدينة ، وعاقت الرياح الأسطول عن دخولها من ناحية البحر ، فلما دخل الليل ، أقبل سبعة عشر رجلا من أعيانها يطلبون الأمان لأهلها ، فمنحهم عبد المؤمن الأمان المطلوب لأنفسهم ، وارتضى الأمان لأهل المدينة فى أنفسهم وأهلهم فقط ، على أن يقاسمهم الموحدون أملاكهم وأموالهم بحق النصف ، وأن يخرج حاكم البلد وأهله منها ، فاستقر الرأى على ذلك ، ودخل الموحدون المدينة ، ورصدت الأملاك والأموال ، وأقيم عليها الأمناء لتحصيل ما يستحق منها للموحدين ، وأقام بها عبد المؤمن ثلاثة أيام ، وعرض الإسلام على من بها من النصارى واليهود ، وأمر بقتل كل ممتنع عن اعتناقه ، ثم غادر عبد المؤمن تونس فى قواته ، وسار جنوباً إلى المهدية ، والأسطول يلاحقه فى البحر ، فوصل إليها فى الثامن عشر من شهر رجب سنة ٥٥٤ هـ ( ٥ أغسطس ١١٥٩ م ) .

وكان الفرنج بالمهدية على أهبة للدفاع ، وكانت حاميتها تتكون من ثلاثة آلاف مقاتل ، وكانت المدينة فوق ذلك تموج بطوائف الأشراف والفرسان الفرنج[1] ، وقد أخلى الفرنج ضاحيتها الشمالية زويلة ، فدخلها عبد المؤمن ، واحتلها الجند الموحدون والسوقة ، وانضمت إليهم جموع غفيرة من العرب وصنهاجة . وأخذ الموحدون فى منازلة المدينة ، ولكنهم لم يستطيعوا خلال ثلاثة أيام من الهجوم المستمر ، أن ينالوا منها شيئاً ، وكانت بمناعة موقعها الطبيعى ، والبحر يكاد يحيط بها إلا من لسان متصل بالبر ، وبأسوارها الحصينة العالية ، ترد كل محاولة ، وكان الفرنج يخرجون منها بين آن وآخر لمقاتلة الموحدين ، فينالون منهم ، ثم يعودون بسرعة إلى الاعتصام بالمدينة . وعندئذ أدرك عبد المؤمن أنه لاسبيل إلى اقتحام المدينة ، وأنه لابد من أخذها بالحصار والمطاولة ، وأمر بجمع الغلال والأقوات ، فجمعت حتى صارت بين العسكر كالجبال . واستمر

( ١ ) ابن الأثير ج ١١ ص ٩٩ ، والحلل الموشية ص ١١٧ .

الحصار زهاء ستة أشهر . وفى أثناء ذلك أعلنت مدينة صفاقس ، ومدينة طرابلس ، وجبال نفوسة ، وقصور إفريقية ، كلها الطاعة لعبد المؤمن ، وجاء والى صفاقس عمر بن الحسين مع جماعة من الأشياخ فقدموا طاعتهم ، وعين لهم عبد المؤمن حافظاً من الموحدين ، وترك الشئون المخزنية لعمر ، وكذلك جاء وفد من أعيان طرابلس وعلى رأسه واليها أبو يحيى بن مطروح ، وبايعوا عبد المؤمن بالطاعة فأقر عبد المؤمن أبا يحيى على ولايته ، واستمر فى رياسته عصرا وسار جيش موحدى بقيادة السيد عبد الله بن عبد المؤمن ، وقيل بقيادة الوزير محمد بن عبد السلام الكومى إلى مدينة قابس ، فافتتحها بالرغم من خروج قاضيها وأعيانها لطلب الأمان ، ونهبت أموالها ، وأبيد من كان حولها من طوائف العرب . وفر واليها مدافع بن رشيد بن مدافع فى أهله وصحبه . ثم عاد بعد فترة من التشريد ، فاستجار بعبد المؤمن فعفا عنه ، وأسكنه بقابس حتى توفى وكان مدافع عالماً حافظاً وأديباً شاعراً[١] .

وجاء وفد من أعيان قفصة ، وعلى رأسهم واليها يحيى بن تميم بن المعز ، ليقدموا طاعتهم إلى عبد المؤمن ، فتقبلها منهم ، ومدح عبد المؤمن شاعرهم الفقيه أبو عبد الله محمد بن أبى العباس التيفاشى ، بقصيدة مطلعها :

ماهزّ عطفيه بين البيض والأسل    مثلُ الخليفة عبد المؤمن بن على

ويقال إن عبد المؤمن لما سمع هذا البيت ، أشار على الشاعر بأن يقتصر عليه ، وأمر له بصلة قدرها ألف دينار[٢] .

ولم تمض بضعة أسابيع على بدء الحصار ، حتى قدم أسطول فرنجى كبير ، مكون من مائة وخمسين سفينة ، مشحونة بالأقوات والمقاتلة لإمداد الفرنج . وكان هذا الأسطول قد عاد من جزيرة يابسة ، إحدى الجزائر الشرقية بعد ما أثخن فيها ، وسبى أهلها ، فلما قرب من صقلية ، بعثه الملك وليم لإنجاد حامية المهدية ، فلما اقتربوا من الخليج ، خرج إليهم الأسطول المغربى بقيادة أبى عبدالله ابن ميمون ، ونشبت بين الأسطولين معركة بحرية عظيمة انتهت بهزيمة الفرنج ، واستيلاء المسلمين على عدة من سفنهم . ويقال إن عبد المؤمن كان خلال المعركة

---

( ١ ) رحلة التجانى ص ٧٦ و١٠١ و٢٤٣ .

( ٢ ) ابن خلكان ج ١ ص ٣٩١ ، وابن الأثير ج ١١ ص ٩٢ .

يمرغ وجهه فى الأرض باكياً ، وهو يدعو للمسلمين بالنصر فحقق الله دعاءه[١] واستمر الحصار على أشده بضعة أشهر أخرى ، حتى آخر شهر ذى الحجة من سنة ٥٤٩ هـ وقد نضبت الأقوات ، وأخذ الضيق يرهق المحصورين ، فلما رأى الفرنج ما رأوا من ضخامة جيوش عبد المؤمن وأساطيله ، وأنه لا أمل لهم فى النجاة من مصيرهم المحتوم ، خرج منهم عشرة فرسان ، وقابلوا عبد المؤمن وسألوه الأمان لمن فيها من الفرنج على أنفسهم وأموالهم ، وأن يتركهم أحراراً يخرجون من المدينة ، ويذهبون إلى ديارهم ، فأجابهم عبد المؤمن إلى ما طلبوه ، وجهز لهم السفن ليعبروا البحر فيها . وكان تصرفاً مقروناً بالحكمة ، لأن صاحب صقلية الملك وليم ، كان قد أنذر بقتل المسلمين فى بلاده وانتزاع أموالهم ، وسبى حريمهم ، إذا أقدم الموحدون على قتل الفرنج فى المهدية . ومع ذلك فقد غرق كثير من السفن التى كانت تحمل الفرنج إلى صقلية من جراء العواصف وثورة الموج .

ودخل عبد المؤمن ثغر المهدية فى صبيحة يوم عاشوراء من المحرم سنة ٥٥٥ هـ ( ٢١ يناير سنة ١١٦٠ م ) وقد سماها عبد المؤمن سنة الأخماس . وأقام بالمهدية عشرين يوما يرتب شئونها ، ويصلح أسوارها ، ويشحنها بالذخائر والأقوات . ثم ندب لولايتها أبا عبد الله محمد بن فرج الكومى ، وجعل معه صاحبها القديم الحسن بن على الصنهاجى ، وأقطعه بها إقطاعاً حسناً . وهكذا استطاع عبد المؤمن ، أن يقضى على عدوان الفرنج الصقليين على ثغور إفريقية ، بعد أن كاد يستقر ويتأثل ، وأن يحررها من نير النصرانية ، وأن يردها إلى صولة الإسلام ، بعد أن خرجت عنها اثنى عشر عاما ، مذ سقطت فى أيدى الفرنج فى سنة ٥٤٣هـ ( ١١٤٨م )[٢] .

وفى فاتحة صفر سنة ٥٥٥ هـ ، غادر عبد المؤمن ثغر المهدية ، وسار فى قواته عائداً إلى المغرب . بيد أنه قبل أن يغادر أراضى إفريقية ، وقعت بينه وبين العرب بعض مناوشات ومعارك .

وكان أولئك العرب ومعظمهم من بطون هلال وسليم من مضر ، قد نزحوا إلى إفريقية منذ أوائل القرن الخامس الهجرى . وكانت أحياء بنى سليم بالحجاز على مقربة من المدينة ، وأحياء بنى هلال فى جبل غزوان عند الطائف ، ومنهم جشم

---

( ١ ) ابن الأثير ج ١١ ص ٩٢. وراجع مواقع غزوات المهدية فى الخريطة المنشورة فى ص ٢٨٣ .

( ٢ ) ابن الأثير ج ١١ ص ٩٢ ، والحلل الموشية ص ١١٧ و ١١٨ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٣٩ ، وروض القرطاس ص ١٣٩ ، والاستقصاء ج ١ ص ١٥٥ و ١٥٦ .

والأثبج وزغبة ورياح وربيعة وعدى. وكانوا يزحفون أحياناً إلى أطراف العراق والشام ، ويقطعون الطرق ، ويفسدون السابلة ، وأحياناً كان بنو سليم يعتدون على الحاج أيام موسمهم بمكة ، وأيام الزيارة بالمدينة . واستمرت البعوث والكتائب تجهز لمعاقبتهم ، وحماية الحاج من شرهم ، ولكن دون جدوى. ولما ظهر القرامطة بالبحرين فى أوائل القرن الرابع الهجرى لحق بهم بنو سليم ، وبنو هلال ، وكثير من بطون ربيعة بن عامر . ولما تغلب القرامطة على الشام ، وأخذوا يهددون مصر ، وظفر الخليفة العزيز بالله بهزيمتهم وردهم ، استبقى أشياعهم من العرب من بنى هلال وسليم بمصر ، وأنزلهم بالصعيد وفى الصحراء الشرقية ، فأقاموا هنالك ، ولكنهم لم ينقطعوا عن عيثهم وفسادهم .

وهنا تأتى قصة نزوحهم إلى إفريقية . وكان المعز لدين الله الفاطمى ، حينما انتقل من إفريقية إلى مصر فى سنة ٣٦١ ﻫ ، قد استخلف على إفريقية يوسف بن زيرى بن مناد الصنهاجى ليحكم باسم الخلافة الفاطمية وتحت سيادتها . ثم تطورت الظروف وعمل آل زيرى على تدعيم استقلالهم ، حتى فسد الأمر بينهم وبين الخلافة الفاطمية ، فخلعوا طاعتها الإسمية ، وأعلن المعز بن باديس الصنهاجى انضواءه تحت لواء الخلافة العباسية ( سنة ٤٣٧ ﻫ ) ، فعز ذلك على الخلافة الفاطمية ، وغضب الخليفة المستنصر بالله ، وأخذ البلاط الفاطمى يبحث عما يمكن فعله لمقابلة هـذا الإجراء ، الذى اعتبر خروجاً على الخلافة الفاطمية ، واعتداء على حقوقها الشرعية .

وكان العرب من بنى سليم وهلال الذين أنزلوا بالصعيد قد تكاثروا ، وتفاقم عيثهم وشرهم ، فأشار الوزير أبو محمد الحسن بن على اليازورى ، على الخليفة المستنصر باستمالة أشياخهم ، وتقليدهم أعمال إفريقية وشئونها ، ليكونوا هنالك أولياء للدعوة الشيعية ، وليعملوا على نصرتها إزاء آل زيرى المنتزين عليها ، فإن نجحت الفكرة وبقى أولئك على ولائهم ، كان ذلك كسباً للخلافة الفاطمية وتقوية لجانبها ، هذا فضلا عن انقطاع عيثهم بنواحى مصر ، وإن كان الأمر بالعكس فهم وشأنهم . فوافق المستنصر على ذلك الرأى ، وبعث وزيره إلى العرب فى سنة ٥٤١ ﻫ ، فسار إلى أحيائهم ، وبذل العطاء الوفير لأشياخهم ، وفرق فى عامتهم بعيراً وديناراً لكل منهم ، وأباح لهم عبور النيل ، وقال لهم قد أعطيناكم مُلك المغرب ، ومُلك المعز بن باديس .

فثارت أطماع أولئك العرب ، وأغراهم ما سوف ينالونه فى إفريقية من أسباب الثراء والسلطان ، وجازت النيل من بطون سليم وهلال جموع غفيرة وساروا إلى برقة ، ونزلوا بها ، واقتحموا أمصارها ، واستباحوها ، واستولوا على أسلابها ، وبعثوا إلى إخوانهم فى شرقى النيل يرغبونهم فى اللحاق بهم ، فجازت منهم جموع أخرى بعد أن أعطوا دينارين لكل رأس ، واقتسموا الأراضى المفتوحة ، فحصل لبنى سليم الشرق ، ولهلال الغرب ، وأقامت طوائف من سليم وأحلافها برواحة وناصرة وعمرة من أرض برقة . وسارت قبائل دياب وزغبة وجميع بطون هلال إلى إفريقية ، وهم «كالجراد المنتشر لايمرون على شىء إلا أتوا عليه» حتى وصلوا إلى إفريقية وذلك فى سنة ٤٤٣ هـ. وكان أول من وصل إليها من أشياخهم أمير رياح موسى بن يحيى الصنبرى ، وكان المعز بن باديس حينما رأى تقاطر العرب نحو أراضيه ، قد فكر فى استمالتهم ومحالفتهم ، فاستدعى موسى إليه وقربه وأصهر إليه ،وحثه على استدعاء العرب، وذلك لكى يقوى جانبه بموازرتهم ، فاستنصرهم وجلبهم . ولكنهم عاثوا فى البلاد أيما عيث ، ونادوا بشعار الخلافة الفاطمية ، واعتدوا على أحياء صنهاجة ، فغضب المعز ، وقبض على أخى موسى ، وخرج بقواته إلى ظاهر القيروان ، واستعان بابن عمه حماد بن بلكّين صاحب القلعة ، فبعث إليه بالأمداد ، والتفت حوله زناتة والبربر ، وصمد فى حشوده الجرارة للعرب ، وكانوا وفقاً لأقوال الرواية فى ثلاثين ألفاً ، وفى مقدمتهم رياح وزغبة وعدى . فلما التقى الفريقان انخذل العرب من أنصار المعز ، وخانته زناتة ، فكانت عليه الهزيمة ففر فى فلوله الباقية إلى القيروان ، ونهب العرب جميع محلته ، وقتلوا من حشوده أكثر من ثلاثة آلاف . ثم حاصر العرب مدينة القيروان ، وطال حصارها ، وخرب العرب أحوازها ، وعاثوا فيها أيما عيث ، وطوقت زغبة ورياح المدينة ، ففر منها الأعيان والقرابة من آل زيرى ، وفر كثير من أهلها إلى تونس . وملك العرب فى نفس الوقت قسنطينة وسائر أعمالها ، واقتسموا بلاد إفريقية ، وذلك فى سنة ٤٤٦ هـ ، فكان لزغبة طرابلس وأحوازها ، ولمرداس من رياح باجة وما إليها ، ثم اقتسموها مرة أخرى ، فكان لهلال من تونس إلى الغرب ، وبطونهم رياح وزغبة وجشم وقرة والأثبج وسفيان .

وغلب عائد بن أبى الغيث من شيوخهم على تونس ، ونهبها ، وملك أبو مسعود

سوسة صلحاً . ورأى المعز بن باديس ملكه يتصرم ، فحاول التقرب من العرب ، وصاهر ببناته الثلاث ثلاثة من أمرائهم ، هم فارس بن أبى الغيث وأخوه عائد ، والفضل بن أبى على المرادى ، ولكن ذلك لم يحقق له ما أمل ، فسار إلى القيروان وسار العرب فى أثره ، فخشى أمرهم ، وانحرف نحو الشاطئ ودخل العرب مدينة القيروان وخربوها ونهبوها ، وعاثوا فيها أيما عيث واستباحوا سائر حريمها ، واستصفوا سائر أموال المعز وآله ، وفر عنها أهلها فى سائر الأنحاء . وسار العرب بعد ذلك إلى المهدية ، فنزلوها ، وضيقوا على أهلها ، وكثر فسادهم وعيثهم وتصدت زناتة بعد صنهاجة لمقاومتهم ، فغلبوا عليها ، واستولوا على سائر الضواحى والأعمال فى تلك المنطقة . واضطرب أمر إفريقية . وساد بها الذعر والفزع ، وانهارت أركان الأمن ، وفسدت السابلة ، وبسط العرب عليها حكم عصابات مروع ، وغلبوا على صنهاجة وزناتة ومغرواة وغيرها ، وسيطروا على نواحى طرابلس ، وقابس والزاب ، ومعظم أعمال إفريقية[1] .

ثم وقع التهادن والصلح بينهم وبين صنهاجة وبقية القبائل البربرية ، وتفرقوا فى الضواحى والبوادى ، فتكاثروا فى تلك الجهات ، وتأثل نفوذهم وسلطانهم بمضى الزمن ، وأضحوا عاملا يحسب حسابه فى ميزان القوى ، فى إفريقية ، وفى بلاد الزاب ، والمغرب الأوسط . بيد أنهم لبثوا دائماً عنصراً من عناصر الاضطراب والفوضى ، يتنقلون بين مختلف الأحزاب والمعسكرات ، ويتدخلون فى مختلف الحروب التى تنشب على مقربة من ديارهم ، لاتحدوهم فى ذلك أية مثل سياسية أو دينية ، ولا هم لهم إلا اجتناء الكسب والمغانم ، من أى جانب وبأى الوسائل ، وقد رأينا ما وقع بينهم وبين الموحدين من معارك ، على أثر افتتاح عبد المؤمن لبجاية . وقد كانوا أولياء لأمرائها من بنى حماد ، يعيشون فى كنفهم وتحت حمايتهم .

تلك هى قصة نزوح العرب إلى إفريقية وقصة تخريبهم لها . وقد نوه سائر الكتاب والمؤرخين المعاصرين والمتأخرين بتلك الروح العدوانية المخربة ، وتلك الخواص الذميمة التى سادت طوائف العرب النازحين ، وجعلت منهم عنصراً خطراً ، تتوق سائر السلطات وسائر العناصر الأخرى من السكان إلى سحقه

(١) ابن خلدون فى كتاب العبر ج ٦ ص ١٣ وما بعدها .

وإبادته ، وإنقاذ العباد من شره وعدوانه[١] . وسوف نرى فيما بعد أى دور خطير يلعبه أولئك العرب فى حوادث إفريقية أيام نزول بنى غانية بها .

وكان عبد المؤمن حينما تم له فتح المهدية ، وإجلاء الفرنج من إفريقية ، يتجه بكل جوارحه نحو شئون الأندلس . وكان يعتقد أنه يستطيع أن يستعين بطوائف المرتزقة من أولئك الأعراب ، فى حملات الجهاد التى يزمع تسييرها إلى شبه الجزيرة ، وكانت طائفة من بنى سليم قد اعتدت على مدينة قابس ، على أثر افتتاح الموحدين لها ، فبعث إليهم عبد المؤمن يعاتبهم ويستدنيهم ، ووجه إليهم فى ذلك شعراً من نظم القاضى ابن عمران . بيد أنهم تمادوا فى عدوانهم ، وتغلبوا على قابس ، فبعث عبد المؤمن عسكراً لقتالهم ، وهو بالمهدية ، فهزمهم ، واستنقذ قابس من أيديهم[٢] .

وفكر عبد المؤمن قبل عودته إلى المغرب ، أن يدعو العرب إلى الانتظام فى عسكره ، فجمع زعماء العرب من بنى رياح وغيرهم ، وحثهم على نصرة الإسلام بالأندلس ، وطلب إليهم أن يجهزوا لهذه الغاية عشرة آلاف فارس ، من أهل النجدة والشجاعة ، ليجاهدوا فى سبيل الله ، إلى جانب الجيوش الموحدية ، فتظاهروا بالموافقة والطاعة ، وأقسموا على ذلك ، وساروا معه حتى جبل زغوان . وكان من بين زعمائهم ، زعيم يدعى يوسف بن مالك ، فاتصل بعبد المؤمن بالليل ، وأخبره بأن العرب لايريدون المسير إلى الأندلس ، وأنهم يعتقدون أنه يريد بذلك أن يخرجهم من بلادهم ، وقد تحقق صدق ذلك فى الليلة التالية ، إذ هرب العرب تحت جنح الظلام إلى عشائرهم ، ولم يبق سوى يوسف هذا ، فسماه عبد المؤمن يوسف الصادق ، وسار عبد المؤمن فى قواته حتى وصل إلى مقربة من قسنطينة ، ونزل هناك فى وادى مخصب يقال له وادى النساء ، بعيداً عن أطراف العمران ، واستمر هنالك عشرين يوماً ، والسكينة ترفرف على جيوشه ، وقد انصرف العرب إلى أحيائهم التى يحتلونها . فلما علم عبد المؤمن باجتماعهم ثانية فى أحيائهم بعث إليهم جيشاً من ثلاثين ألف مقاتل ، بقيادة ولديه أبى محمد وأبى عبد الله ،

---

(١) يشير ابن خلدون فى مواضع كثيرة إلى عيث أولئك العرب وتخريبهم لمدن إفريقية (راجع كتاب العبر ج ٦ ص ١٤ و١٥ و١٦) . ويشير الإدريسى إلى ذلك غير مرة (وصف المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ص ٩٣ و١٠٥ و١٠٩ و١٢٢) ، وكذلك صاحب الاستبصار فى عجائب الأمصار (ص ١٢٨ و١٦١) ، وغيرهم .

(٢) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٣٩ .

فسار الموحدون فى هدوء ، وانعطفوا إلى الصحراء ، وراء أحياء العرب ، حتى لايفلتوا بالتوغل فيها ، وكان العرب قد احتشدوا جنوبى القيروان عند جبل القرن ، تحت إمرة بعض المشاهير من مقدميهم ، مثل أبى محفوظ محرز بن زياد ، ومسعود بن زمام ، وجبارة بن كامل بن سرحان وغيرهم ، فلما دهمهم الموحدون اضطربوا واختل نظامهم ، وفر مسعود وجبارة ومن معهما من العشائر ، وثبت محرز بن زياد ومن معه ، واشتبكوا مع الموحدين فى معركة عنيفة ، وذلك فى منتصف شهر ربيع الآخر من سنة ٥٥٥ هـ ، فقتل محرز ، وانهزمت جموع العرب ، وسقط متاعهم وحريمهم وولدهم فى أيدى الموحدين ، فأمر عبد المؤمن بالتحفظ عليهم ورعايتهم ، حتى أقبلت وفود رياح والأثبج ، فى طلب حريمهم ، فردهن إليهم ، وفرق فيهم الصلات ، واستمالهم بحسن صنيعه ، وانتهى بأن جهز منهم قوة لتشترك فى الجهاد فى الأندلس (١). وسوف نرى فيما بعد أى دور هام يلعبه أولئك العرب ، فى حوادث المغرب والأندلس ، وكيف تعمد السياسة الموحدية إلى استمالتهم والاستعانة بهم ، ولاسيما فى عهد الخليفة أبى يعقوب يوسف ولد عبد المؤمن وخليفته .

وفى شهر ذى القعدة سنة ٥٥٥ هـ ( نوفمبر سنة ١١٦٠ م ) عبر الخليفة عبد المؤمن البحر إلى الأندلس ، وكان عبوره إليها حادثاً هاما من أشهر حوادث العصر ، وكانت له نتائج بعيدة المدى .

بيد أنه يجب قبل أن نتحدث عن عبور الخليفة الموحدى إلى شبه الجزيرة ، أن نستعرض ما تقدمه من الحوادث المتعلقة بموقف الموحدين من شئون الأندلس .

---

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ٩٢ ، ٩٣ .

# الكتاب الثالث

# ثورة القوى الوطنيّة بالأندلس
# وتغلّب الموحّدين على شبه الجزيرة

# الفصل الأول

## الثـــــورة فى الأندلس

## وانهيار سلطان المرابطين

صدى حوادث المغرب فى الأندلس . اضطرام الفكرة القومية الأندلسية . قيام الثورة فى غربى الأندلس . ابن قسي وأتباعه المريدون . دعوته ومزاعمه . ظهور أمره وفراره إلى ميرتلة . معاونة ابن القابلة . تحرج مركز المرابطين فى الغرب . ابن قسى يدير خطة الاستيلاء على ميرتلة . مداهمة ابن القابلة لحصن ميرتلة وانتزاعه . نزول ابن قسى فيه . قيام الثورة فى يابرة وشلب . ابن المنذر المتغلب على شلب . تسليم المرابطين بباجة ، ومغادرتهم لها . استيلاء ابن المنذر عليها . مبايعة ابن وزير صاحب يابرة ، وابن المنذر لابن قسى . ابن قسى يرسل سفارة إلى عبد المؤمن . خروج ابن المنذر فى قوات المريدين واستيلاؤه على ولبة ولبلة . مسيره إلى إشبيلية وانتزاعه بعض ضواحيها . لقاؤه بالمرابطين . هزيمته وفراره . مسير ابن غانية أمير المرابطين إلى لبلة . وقوع الثورة بقرطبة وعود ابن غانية إلى إشبيلية . محاولة المريدين الزحف على قرطبة وفشلها . الخلاف بين ابن قسى وابن وزير . استيلاء ابن وزير على شلب وميرتلة . فرار ابن قسى إلى المغرب والتجاؤه إلى عبد المؤمن . إقناعه للخليفة بالتدخل فى حوادث الأندلس . ابن غانية أمير المرابطين بالأندلس وموقفه . قيام الثورة فى قرطبة . زعيمها القاضى ابن حمدين . مبايعته بالإمارة وتسميه بأمير المسلمين . استدعاء فريق من أهل قرطبة لسيف الدولة ابن هود . مقدمه إلى قرطبة ودخوله إياها . فرار ابن حمدين . الثورة ضد ابن هود وفراره . عودة ابن حمدين إلى حكم قرطبة . زحف ابن غانية على قرطبة . اللقاء بينه وبين ابن حمدين . هزيمة ابن حمدين وفراره . دخول ابن غانية قرطبة . تغلب ابن حمدين على حصن أندوجر وأحوازه . مسير ابن غانية لقتاله . التجاء ابن حمدين إلى ملك قشتالة . مسير ابن حمدين وحلفاؤه النصارى إلى قرطبة . دخولهم المدينة وعيثهم فيها . امتناع ابن غانية بقصبتها . ذيوع الأخبار بمقدم الموحدين إلى شبه الجزيرة . التهادن بين قشتالة وابن غانية . ولاية ابن غانية لقرطبة . ما يروى فى ذلك عن قيصر قشتالة . خروج ابن حمدين من قرطبة . عبوره إلى المغرب ومقابلته لعبد المؤمن . عوده إلى الأندلس والتجاؤه إلى صاحب مالقة . الثورة فى غرناطة . زعيمها القاضى ابن أضحى . استغاثته بابن حمدين . دعوة أهل غرناطة لسيف الدولة بن هود . تحالف ابن أضحى وابن هود ضد المرابطين . لقاء ابن هود والمرابطين خارج غرناطة . تحصن المرابطين بالقصبة . وفاة ابن أضحى وقيام ولده محمد . تعاونه مع ابن هود ضد المرابطين . مقدم عسكر مرسية لقتال المرابطين ، هزيمتهم ومقتل زعيمهم . مغادرة ابن هود لغرناطة والتجاؤه إلى جيان . رواية ابن الأبار عن مراحل الصراع فى غرناطة بين المرابطين وخصومهم . الثورة فى مالقة . ظاهرة تزعم القضاة للثورة ضد المرابطين وتعليلها . أبو الحكم بن حسون زعيم الثورة فى مالقة . تغلبه على المرابطين وانتزاعه للرياسة . استعانته بالمرتزقة النصارى . تدبير مؤامرة لإسقاطه . نجاح المؤامرة وانتحار ابن حسون . ثورة ابن ملحان فى

وادى آش . ثورة ابن جزى فى جيان . ثورة أخيل بن إدريس فى رندة . ثورة ابن عزون فى شريش . عبوره إلى المغرب ولقاؤه لعبد المؤمن . إنضمامه إلى الموحدين عند عبورهم . رواية أخرى عن ابن عزون وبيعته لعبد المؤمن . قيام ابن ميمون فى قادس . عبوره إلى المغرب وانضمامه إلى عبد المؤمن . ثورة ابن الحجام فى بطليوس . دخوله فى طاعة الموحدين .

كان من الطبيعى أن تحدث حوادث المغرب صداها القوى فيما وراء البحر ، فى شبه الجزيرة الإسبانية ، حيث كانت الدولة المرابطية تبسط سلطانها على مختلف القواعد الأندلسية . وقد اتخذ هذا الصدى منذ البداية ، صورة ثورة عامة ضد المرابطين ، اجتاحت الأندلس بسرعة من غربها إلى شرقها . بيد أنه يجب أن نلاحظ بادئ ذى بدء ، أن هذه الثورة الجارفة ضد سلطان المرابطين لم تكن فقط نتيجة لحوادث المغرب ، وظهور أمر الموحدين ، وتضعضع قوى الدولة المرابطية ، وعجز المرابطين عن حماية الأندلس من غزوات النصارى المخربة ، وإن كانت هذه الحوادث ، قد بثت إليها قوة واضطراما جديدين . وإنما كانت عوامل الثورة الأندلسية ، ضد الحكم المرابطى ، تكمن منذ بعيد ، بل هى ترجع حسبما أشرنا فى مقدمة هذا الكتاب ، إلى أعقاب الفتح المرابطى ذاته ، حيث كانت الفكرة القومية تجيش بأذهان فريق كبير من أبناء الأمة الأندلسية ، وكان هذا الفريق ، يرى فى المرابطين ، بعد أن تبددت آثار المديح والإعجاب الأولى ، التى تلت نصر الزلاقة ، وبعد أن انقلب الإخوة المنقذون إلى فاتحين متغلبين ، أجانب غاصبين ، يستظلون بفكرة الجهاد ، ليبسطوا سلطانهم على الأمة الأندلسية . وبالرغم من أن فترة الجهاد الأولى ، التى اضطلع بها المرابطون فى الأندلس ، فى أوائل عهد على بن يوسف ، والتى أسفرت عند ظفرهم ضد الجيوش النصرانية ، فى عدة وقائع ، مثل موقعة أقليش ( ٥٠١هـ ) ، وما تلاها من الغزوات المظفرة ، حتى موقعة إفراغة ( ٥٢٨هـ ) ، كانت تغالب هذه الفكرة القومية ، وتضفى على حكم المرابطين رونقاً ومجداً ، فإن الأمة الأندلسية لم تنس الحقائق الواقعة ، ولم تنس أنها قد فقدت استقلالها وحرياتها ، فى ظل الحكم المرابطى ، خصوصاً بعد أن أخذت وطأة هذا الحكم تشتد شيئاً فشيئاً . وكانت ثورة قرطبة على حكومتها المرابطية فى سنة ٥١٥ هـ ( ١١٢١م ) ، أول تعبير مادى لهذا الشعور القومى ، وأول نفثة لهذا السخط المكبوت ضد عسف الحكم المرابطى . وقد رأينا كيف أدرك أمير المسلمين على بن يوسف يومئذ خطورة

الموقف وتذرع إزاءه بالإغضاء والتسامح . ويرى الأستاذ كوديرا ، أنه كان من أسباب سخط أهل الأندلس على المرابطين أيضاً ، مبالغة الدولة المرابطية فى العطف على النصارى ، وإيثار على بن يوسف ومن بعده ولده تاشفين لهم ، وإدماجهم فى الجيوش المرابطية ، وإعطائهم مراكز التفوق والقيادة[1]. بيد أن هذا السبب ، يعتبر فى نظرنا ثانوياً ، إزاء العامل القومى ، لأن الأندلسيين أنفسهم ، كانوا أيام الطوائف ، يستظهرون بالنصارى على قتال بعضهم بعضاً ، وسوف نرى أنهم يلجأون إلى مثل هذه الوسيلة فى ثورتهم ضد المرابطين ، ثم الموحدين .

وعلى أى حال ، فإن بذور الثورة الأندلسية ضد المرابطين ، لبثت حيناً تنمو وتختمر ، حتى أخذت الدولة المرابطية ، فى أواخر عهد على بن يوسف ، ثم ولده تاشفين من بعده ، تترنح تباعاً تحت ضربات الموحدين ، ولاح عندئذ أن الفرصة قد سنحت لتقوم الأندلس بدورها الفعال فى تحطيم الدولة المرابطية ، والتخلص من نيرها . بيد أنه كان من الواضح ، أن تحقيق مثل هذه الغاية ، كان يرتبط أشد الارتباط بمسألة الإنضواء تحت لواء الدولة الجديدة التى غلبت على الدولة المرابطية ، ونعنى دولة الموحدين ، وأن هذا الانضواء ، كانت تمليه ضرورات الموقف ، وبواعث المصلحة القومية ذاتها . ذلك أن الأندلس بالرغم مما كانت تجيش به ضد المرابطين من عوامل السخط والانتقاض ، لم تنس أن جيوشهم كانت عماد الدفاع عنها ضد إسبانيا النصرانية ،وأن مثل هذا الدفاع ، لا يمكن أن يتحقق ، بعد انهيار سلطان المرابطين ، إلا بقيام سلطان الدولة الجديدة ، وتدفق جيوشها على شبه الجزيرة ، لتقوم بنفس المهمة الدفاعية ، التى كانت تقوم بها الجيوش المرابطية من قبل .

وقد ظهرت أعراض الثورة فى الأندلس ضد المرابطين ، أولا فى الطرف الغربى لولاية الغرب الأندلسية ، وهى أبعد المناطق عن سلطان الحكومة المركزية . ولنلاحظ أولا أن هذه الأعراض الثورية ، قد ظهرت فى الأندلس ، فى نفس الوقت الذى بدا فيه انهيار الدولة المرابطية فى المغرب أمراً محققاً ، وذلك حين جد الموحدون فى مطاردة الجيوش المرابطية بقيادة الأمير تاشفين بن على شمالا ، ثم حين انتهت موقعة وهران بمصرع تاشفين وتبدد جيوشه ، وذلك فى رمضان سنة ٥٣٩ هـ ( ١١٤٥ م ) .

---

(١) F. Codera : Decadencia y Disparición de los Almoràvides, p. 28 & 29

— ١ —

فى تلك الآونة ظهر أول الزعماء الثائرين بالأندلس فى منطقة شِلْب فى جنوبى البرتغال ، واضطرمت أول ثورة فعلية ضد المرابطين . أما الزعيم الثائر فهو أبوالقاسم أحمد بن الحسين بن قَسِيّ . وأما الثورة فهى ثورة أتباعه المريدين . وكان ابن قَسِيّ مُوَلداً ، يرجع إلى أصل نصرانى . وقد نشأ فى أحواز شلب ، واشتغل فى بداية أمره مشرفاً بشلب[1] ، ثم اعتنق طرائق الصوفية ، وتبحر فيها حتى غدا من شيوخها ، وألف فيها طائفة من الكتب ، منها كتاب « خلع النعلين » . ثم تزهد ، أو تظاهر بالزهد وباع أمواله ، وتصدق بثمنها ، وتجول فى البلاد ، ولقى بألمرية قطب الصوفية يومئذ أبا العباس بن أحمد بن محمد الصنهاجى الأندلسى المعروف بابن العريف ، ودرس عليه ، ثم عاد إلى وطنه ، واستقر بقرية جلة من أحواز شلب ، وابتنى بها رابطة كان يجتمع فيها بصحبه ، وانكب على قراءة كتب الغزالى ، والتف حوله كثير من الصحب والأنصار ، ينكبون على قراءة الكتب الصوفية والباطنية ، ورسائل إخوان الصفا وغيرها ، وينهمكون فى مزاولة شعائر الطريقة ورسومها ، حتى ذاع أمرهم بالأخص بمنطقة شلب وميرتلة ولبلة ، وغيرها من أعمال غرب الأندلس ، وسموا بطائفة « المريدين »[2]. وكان ابن قسىّ فى الواقع يتخذ الصوفية قناعاً لمشاريع يضمرها ، ويدعو إلى الثورة فى الباطن ، ثم لم يلبث أن ادعى الولاية والهداية ، وتسمى بالمهدى وبالإمام ، وكثرت مخاريقه وشعوذته ، وزعم القدرة على الخوارق ، ومن ذلك أنه حج فى ليلة واحدة ، وأنه يناجى بما يشاء ، وينفق من الكون ، فذاع أمره ، وتقاطرت إليه الوفود ، من أهل البيوتات والأجناد . وكان من صحبه جماعة ممن ظهروا فيما بعد ، فى ميدان الحوادث ، مثل أبى محمد سيدراى بن وزير ، وابن عفان ، وكلاهما من زعماء يابُرة ، ومحمد بن المنذر من أهل شلب ، ومحمد بن عمر ، وعبد الله بن أبى حبيب ، وغيرهم من زعماء ولاية الغرب . ولما شعر أن السلطات فطنت لأمره . وهمت بمطاردته ، وقُبض على جماعة من أصحابه ، وأخذوا إلى إشبيلية ، سار هو إلى جهة ميرتلة ، واختفى هناك بقرية الحوزة عند قوم يعرفون ببنى السنة . وكان

---

(١) ويقول ابن الأبار إنه كان يشتغل بالأعمال المخزنية أى المالية ( الحلة السيراء ص ١٩٩ ).

(٢) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ١٩٩ ، وابن الخطيب فى أعمال الأعلام ص ٢٤٩ .

من أصحابه المقربين ، رجل وافر الدهاء والجرأة ، يدعى محمد بن يحي الشلطيشى ، ويعرف بابن القابلة ، وكان يسميه بالمصطفى لاختصاصه به ، واطلاعه على أموره ومشاريعه ، ويعتمد عليه فى تنفيذ خططه . فأوعز إليه من مقره السرى ، أن يسير فى صحبه المريدين إلى قلعة ميرتلة ، وأن يدهموها وفق خطة وضعها لهم ، وكان ذلك فى أوائل سنة ٥٣٩ ﻫ .

وكانت حال المرابطين ، ولاسيما فى هذا الإقليم النائى ، إقليم الغرب ، قد اضطربت وغلب عليهم الضعف والوهن بما أصاب دولتهم فى المغرب من الاختلال والانهيار ، وبما افتقدوه من أمداد كانت تشد أزرهم وقت الحاجة ، وزادت الجفوة بينهم وبين أهل الأندلس ، لما اشتد من ضغطهم ، وعيث جندهم بسبب الحاجة ، وقد استطال عليهم الناس ، وأخذوا فى التعدى عليهم وإرهاقهم . وشعر الثوار فى هذه الظروف التى هبطت فيها قوى المرابطين المادية والمعنوية ، بأن مشاريعهم سوف يحالفها النجاح ، وكان هذا شعور ابن قسى حينما دبر مع معاونه ابن القابلة خطة الاستيلاء على ميرتلة . فجمع ابن القابلة نحو سبعين رجلا من أولئك المريدين المتعصبين ، وسار إلى ميرتلة ، ودهم حصنها فى جوف الليل ، واستولى عليه ، وذلك ليلة الخميس الثانى عشر من صفر سنة ٥٣٩ ، وضبط ابن القابلة القلعة ، وأعلن بها دعوة ابن قسى . وحاول المرابطون فى تلك الجهة استعادتها من المريدين ، فلم يفلحوا فتركوها ، وانقلبوا إلى تخريب تلك المنطقة . وفى غرة ربيع الأول وصل ابن قسىّ إلى ميرتلة فى جمع حاشد من المريدين ، شعارهم التهليل والتكبير ، فصعد إلى قصبتها ، واستقر بقصرها ، وتسمى بالإمام ، وبعث إلى أعيان ولاية الغرب وزعمائها ، يدعوهم إلى الانضمام إليه ، وإلى الثورة ضد المرابطين . فاستجاب له كثير من أهل تلك الأنحاء ، وقام أهل يابُرة بزعامة عميدهم سيدراى بن وزير ، ونزعوا سلطان المرابطين ، وحذا حذوهم أهل شلب ، بقيادة زعيمها محمد بن عمر بن المنذر . وكان ابن المنذر هذا ينتمى إلى بيت قديم من بيوتات المولدين بشلب ، وكان من علمائها ونبهائها ، وقد درس فى إشبيلية ، وبرع فى الفقه والأدب ، ووُلى خطة الشورى ببلده ، ثم تزهد على مثل ابن قسىّ ، واستقر برابطة على شاطئ البحر تعرف برابطة الريحانة ، واعتنق دعوة ابن قسى وتوثقت صلاتهما . ولما قام بشلب اقتداء بابن قسى فى ميرتلة ، سار إلى حصن مرجيق فى شرقى شلب ، وانتزعه من المرابطين

وقتلهم . ولما علم المرابطون بباجة بما وقع ، طلبوا من أهلها الأمان ، وغادروها إلى إشبيلية . وعلى أثر خروجهم منها سار إليها ابن المنذر ، ومعه فرقة من جند يابُرة أمده بها ابن وزير بقيادة أخيه أحمد ، وخاله عبد الله بن الصميل ، واستولى عليها . ثم سار ابن المنذر وابن وزير إلى ابن قسى ، فسلما عليه بالإمارة ، وبايعاه بالطاعة ( ربيع الأول سنة ٥٣٩هـ ) ، فأقر ابن وزير على حكم باجة وأحوازها ، وابن المنذر على حكم شلب وأحوازها .

والظاهر أن ابن قسيّ حاول فى تلك الفترة بالذات ، أن يتصل بالموحدين لأول مرة . وكان لانتصار الموحدين فى موقعة وهران ومصرع تاشفين بن على سنة ٥٣٩ ، أعمق وقع فى الأندلس ، وأكبر حافز للعناصر الثائرة ، على أن تمضى قدماً فى ثورتها . وهنا بعث ابن قسى سفيراً إلى عبد المؤمن عاهل الموحدين ، وهو قائم على حصار تلمسان ، فى أواخر سنة ٥٣٩ ، وتلقب فى رسالته بالمهدى ، فأنكر ذلك عبد المؤمن ولم يجاوبه[1] ، لما لمسه من تعاليه فى الخطاب عليه . وفى خلال ذلك وقعت بولاية الغرب حوادث هامة . وكان ابن المنذر ، حين ولاه ابن قسى إمارة شلب ، قد حشد قواته وقوات أكشونبة وسائر صحبه المريدين ، ثم سار إلى ابن قسى بميرتُلة ، وجدد له البيعة والعزم على نصرته ونشر دعوته ، فجدد له ابن قسى عهده على ما بيده من البلاد ، وسماه العزيز بالله . وعندئذ خرج ابن المنذر فى قواته ، وعبر نهر وادى يانه ، وسار إلى مدينة ولْبة على مقربة من شرقيه ، فاقتحمها واستولى عليها ، ثم سار منها إلى مدينة لَبلة الواقعة فى شمالها الشرقى ، واستولى عليها بمعاونة يوسف بن أحمد البطروجى ، أحد أقطاب الثوار المريدين فى تلك الناحية ، وأخرج من كان فى قلعتها من المرابطين . وهنا شعر ابن المنذر بتضاعف قواته ، وتملكه الغرور ، واعتزم أن يسير إلى مدينة إشبيلية ، وقد شجعه ما نمى إليه من أنها كانت حينئذ دون أمير يتولى أمرها . فخرج فى قواته من لَبْلة ، وسار إلى حصن القصر وطُلياطة من مشارف إشبيلية الغربية ، واستولى عليها ، ثم تقدم حتى الحصن الزاهر ودخله . بيد أنه حينما وصل إلى طُريانة ضاحية إشبيلية الغربية ، التى بقوة من المرابطين . وكان أمير الأندلس المرابطى أبو زكريا يحيى بن غانية ، حينما وقف على حركات الثوار فى غرب الأندلس ، وسيرهم من لَبلة صوب إشبيلية ، قد غادر قرطبة فى قواته ، وسار

---

(١) ابن خلدون فى كتاب العبر ج ٦ ص ٢٣١ ، وابن الخطيب فى أعمال الأعلام ص ٢٥١ .

إلى إشبيلية فوصل إليها ، فى الوقت الذى كان فيه ابن المنذر يعيث فى نواحيها ، فبعث لقتاله قوة عبرت نهر الوادى الكبير ، والتقت بالمريدين فى طريانة ، فأوقعت بهم ، وقتلت منهم عدداً جما ، وفر ابن المنذر فى فله إلى لبلة ، ثم لحق بشلب ، وترك يوسف البطروجى للدفاع عن لبلة . وزحف ابن غانية على لبلة . وكان ذلك فى قلب الشتاء وشدة قره ، فلبث على منازلة لبلة نحو ثلاثة أشهر ، وعندئذ بلغه قيام الثورة فى قرطبة بزعامة القاضى ابن حَمْدين ، فترك لبلة وعاد إلى إشبيلية ، وقد عول على التريث وملازمة الحيطة والحذر ، إلى أن يستبين سير الحوادث .

ولما علم ابن قسىّ بما وقع من اضطرام الثورة فى قرطبة ، ألفى الميدان ممهداً للقيام بمغامرات جديدة . فأمر ابن المنذر أن يحشد قواته ، وأن يسير ومعه ابن القابلة كاتب ابن قسى وصاحبه الأثير إلى قرطبة ، ليحاول دخولها .وبعث إلى نفر من أنصاره بقرطبة ليعملوا على بث دعوته ، وترغيب العامة فى قبولها . فسار ابن المنذر وصاحبه فى عسكر شلب ولبلة ، إلى قرطبة . بيد أنهما حين اقتربا منها ، علما بأن الحوادث قد تطورت ، وأن أهل قرطبة استدعوا لرياستها سيف الدولة ابن هود ، وطردوا ابن حمدين ، فارتدا خائبين إلى الغرب ، وفشلت محاولة ابن قسىّ فى مهدها[1] .

وكان الجو قد فسد عندئذ بين ابن قسىّ ، وحليفه السابق سيدراى بن وزير صاحب باجة . وكان ابن قسى ، قد دبر القبض عليه حينما وفد عليه بمرتلة أثناء غيبة المنذر وخلعه ، ثم أطلق سراحه ورده إلى ولايته . ولما عاد ابن المنذر خائباً من حملة قرطبة ، حاول ابن قسى أن يتفاهم مع سيدراى ، ولكن سيدراى ارتاب فى مقصده ، وأبى الاستجابة له ، فبعث ابن قسى ، ابن المنذر لمحاربته ، فهزمه ابن وزير وقبض عليه ، ثم زحف على شلب وانتزعها[2]، وانتهى بالاستيلاء على ميرتلة ، وأعلن خلع ابن قسى والدعوة لابن حمدين صاحب قرطبة ، وذلك فى شعبان سنة ٥٤٠ هـ[3]. فبادر ابن قسى إلى الفرار ، وعبر البحر إلى المغرب ، وسار إلى مقابلة الخليفة عبد المؤمن ، وتقدم إليه تائباً متبرئاً من دعاويه السابقة

(١) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٢٠٣ و ٢٠٤ .
(٢) ابن الخطيب فى أعمال الأعلام ص ٢٥١ .
(٣) الحلة السيراء ص ٢٣٩ .

فى الولاية والهداية ، فتقبل عبد المؤمن اعتذاره ، وأكرم وفادته . وهنا تختلف الرواية اختلافاً بيناً فى الزمان والمكان ، اللذين التقى فيهما ابن قسى بالخليفة الموحدى . فيقول ابن الأبار ، ويتابعه ابن الخطيب ، إن ابن قسى لقى عبدالمؤمن فى سلا فى ربيع الآخر سنة ٥٤٠ هـ ، ثم انصرف فى المحرم سنة ٥٤١ هـ[١] . هذا مع أن ابن الأبار يذكر لنا فى موضع آخر أن تغلب سيدراى على ابن قسى واستيلاءه على ميرتلة كان فى شعبان سنة ٥٤٠هـ . ولابد أن عبور ابن قسى كان عقب خلعه وفقده لإمارته . ويقول لنا ابن خلدون إن ابن قسى عبر إلى المغرب فى سنة ٥٤٠ هـ ، ثم يذكر لنا فى موضع آخر أنه قدم إلى المغرب ، عقب افتتاح مراكش ، وقد كان افتتاح مراكش حسبما تقدم فى شوال سنة ٥٤١ هـ[٢]. ويزيد ابن خلدون على ذلك أن ابن قسى نزل عند عبوره بسبتة ،وأن واليها ابن مخلوف هو الذى جهزه إلى عبد المؤمن . وربما كانت رواية ابن خلدون الأولى أكثر الروايات تمشياً مع سير الحوادث . وعلى أى حال ، فقد كان لمقدم ابن قسى نتائج عملية . ذلك أنه استطاع أن يحمل الخليفة الموحدى على المبادرة بالتدخل فى حوادث الأندلس ، وتجهيز حملة موحدية بقيادة برّاز بن محمد المسّوفى ، لقتال المرابطين والثوار فيما وراء البحر ، تلتها بعد ذلك حملات أخرى حسبما نفصل بعد .

— ٢ —

كانت غرناطة فى البداية مقر الحكومة المرابطية العامة بالأندلس ، ثم رأى أمير المسلمين على بن يوسف أن ينقل مركز الحكم إلى قرطبة ،وذلك حينما أصدر مرسومه فى سنة ٥٢٦ هـ بتعيين ولده الأمير تاشفين ، متولى شئون الأندلس ، والياً لقرطبة ، وأن يجعلها مقر الحكم . ثم استُدعى تاشفين إلى المغرب فى سنة ٥٣٢هـ وعين لولاية العهد . ولما توفى على بن يوسف سنة ٥٣٧ هـ ، وخلفه ولده تاشفين فى الملك اختار الأمير يحيى بن غانية الصحراوى والياً لقرطبة ، ومشرفاً على شئون الأندلس، وقائداً عاما للجيش المرابطى ، وذلك فى سنة ٥٣٨هـ (١١٤٣م) .

وقد تحدثنا فيما تقدم عن أصل ابن غانية ونشأته ، وأعماله فى شرقى الأندلس. ولما تجهمت الحوادث للدولة اللمتونية بالمغرب ، وتقوضت دعامتها تحت ضربات

---

(١) الحلة السيراء ص ٢٠٠ ، وأعمال الأعلام ص ٢٥١ .

(٢) كتاب العبر ج ٤ ص ١٦٦ ، و ج ٦ ص ٢٣٤ .

عبد المؤمن ، ودوت أصداء النكبة فى جنبات الأندلس ، أخذ ابن غانية يواجه عواصف الثورة هنا وهنالك . ولما تفاقمت حوادث الغرب ، وزحف المريدون أتباع ابن قسى على إشبيلية ، سار ابن غانية فى قواته لردهم ، مستخلفاً على قرطبة أبا عمر اللمتونى ، فهزمهم فى طريانة ، ثم طاردهم حتى لبلة ، وأخذ فى منازلتها ، وهنا بلغته أنباء الثورة فى قرطبة ، فارتد أدراجه إلى إشبيلية ، ولبث بها حيناً يدبر أمره ، ويستعد لمواجهة الحوادث .

ذلك أنه لم تمض بضعة أشهر على قيام الثورة فى الغرب ، وسقوط قواعده فى أيدى الثوار ، حتى اضطرمت قرطبة بثورة مماثلة . وكان زعيم الثورة قاضى المدينة ، ابن حَمْدين ، وهو أبو جعفر حمدين بن محمد بن على بن حمدين ، وكان بيتهم من أقدم البيوتات العربية . دخل جدهم الأندلس مع الطالعة البلجية ، واستقروا فى باغة ، وبها ازدهر بيتهم ، وكان ابن حمدين قد وُلى قضاء قرطبة فى شعبان سنة ٥٢٩ هـ ، على أثر مقتل قاضيها أبى عبد الله بن الحاج ، وهو يصلى بالمسجد الجامع فى صفر من تلك السنة . ثم صُرف ابن حمدين عن القضاء فى سنة ٥٣٢ هـ ، وولى مكانه أبو القاسم بن رشد فوليه نحو عامين ، ثم أعفاه الأمير على بن يوسف من منصبه دون أن يعين خلفاً له ، ووقع بعد ذلك بقرطبة هياج اعتدى فيه العامة على المرابطين ، فخرج إليهم ابن حمدين ، وتمكن من تسكين ثورتهم ، فظهر يومئذ بوافر حكمته وشهامته ، وبقيت قرطبة دون قاض مدى عام . ثم أذن على بن يوسف لأهلها أن يختاروا لهم قاضياً ، فأجمعوا على اختيار ابن حمدين ، فولى القضاء للمرة الثانية فى سنة ٥٣٦ هـ ، واستمر فى منصبه حتى أواخر سنة ٥٣٩ هـ .

وكانت حوادث المغرب من جهة ، وحوادث الثورة فى الغرب ، قد أخذت تحدث أثرها ، وأخذت بذور الثورة تختمر من جديد فى أذهان الشعب القرطبى ، وقد عرفناه فيما تقدم من مراحل التاريخ الأندلسى شعباً سريع التقلب ، سريع الهياج . فما كاد الحاكم المرابطى ، الأمير يحيى بن غانية ، يبتعد فى قواته صوب إشبيلية لحمايتها من عيث المريدين ، حتى اضطرمت قرطبة بالثورة ، وثارت العامة بالوالى المرابطى الرئيس أبى عمر اللمتونى ، وأعلنوا خلعه ، وخلع دعوة المرابطين ، ونادوا برياسة القاضى أبى جعفر بن حَمْدين ، وبويع ابن حمدين بالإمارة فى المسجد الجامع ، وبايعه الخاصة والعامة ، وذلك فى الخامس من شهر رمضان سنة ٥٣٩ هـ . واستقر

ابن حمدين بقصر الخلافة ، وتسمى بأمير المسلمين وناصر الدين ، ووفقاً لقول ابن الأبار بأمير المسلمين المنصور بالله ، وفى بعض الروايات بأمير المؤمنين . ودعى له على منبر قرطبة ومعظم منابر القواعد الأندلسية . وكان ابن غانية قد سار عندئذ إلى لبلة ليجهز على المريدين الذين تحصنوا بها ، فلما علم بما وقع فى قرطبة ، عاد أدراجه إلى إشبيلية . ولكنه ما كاد يستقرها حتى ثار به أهلها ، وناصبوه الحرب وجرح أثناء القتال الذى نشب بينه وبينهم ، فارتد عندئذ فى قواته إلى حصن مرجانة القريب (١) .

وفى تلك الأثناء تطورت الحوادث فى قرطبة ، وسعى فريق من شعبها القُلّب إلى الاتصال بأبى جعفر أحمد بن عبد الملك بن هود الملقب بسيف الدولة المستنصر بالله . وقد فصلنا فيما تقدم سيرة هذا الأمير ، وكيف آل أمره إلى مغادرة روطة آخر قواعد بنى هود فى الثغر الأعلى ، وتسليمها إلى ملك قشتالة ألفونسو ريمونديس مقابل أراض منحها إياه فى منطقة طليطلة ، وذلك فى سنة ٥٣٤هـ ( ١١٣٩م ) . وقد لبث سيف الدولة ، الذى تعرفه الرواية النصرانية باسم «سفادولا» Zafadola مقيما فى أراضيه الجديدة ، فى كنف ملك قشتالة ، بضعة أعوام ، حتى قامت الثورة فى قرطبة وفى غيرها من القواعد الشرقية . وكان فريق من أهل قرطبة يرى فى هذا الأمير — آخر بنى هود ملوك سرقسطة السابقين — خير ممثل للزعامة الأندلسية العريقة ، ومن ثم فقد عملوا على استدعائه ، ليتولى إمارة قرطبة . ولبى سيف الدولة هذه الدعوة ، وجاء إلى قرطبة ، فدخلها بممالأة فريق كبير من أهلها ، فبادر ابن حمدين إلى الفرار ، ولحق بحصن فرنجولش المنيع ، الواقع شمال غربى قرطبة ، فى سطح جبل الشاراب ( سيراامورينا ) . بيد أن هذا الإزعاج لم يطل أمره . ذلك أنه لم يمض أيام قلائل على قيام سيف الدولة بالأمر ، حتى ثار القرطبيون مرة أخرى ، وهاجموا القصر ، وفتكوا بابن الشماخ وزير سيف الدولة ، وعدة من أصحابه ، ففر سيف الدولة ناجياً بنفسه ، ولما يمض على وجوده فى قرطبة اثناعشر يوما ، وقصد إلى مدينة جيان ، وكان قد ثار بها القاضى ابن جزى ، فتغلب عليه وملكها منه ، ثم خاض عدة حوادث أخرى نرجئ التحدث عنها ، حتى تستوفى حوادث قرطبة (٢) .

---

( ١ ) ابن الأبار فى التكملة رقم ١١٩ ، ج ١ ص ٣٨ و ٣٩ ، وابن الخطيب فى أعمال الأعلام ص٥٣ ، وفى الإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص٣٠٦ . وفى مخطوط الإسكوريال السالف الذكر لوحة ٣٩٢ .

( ٢ ) الحلة السيراء ص ٢٢٥ .

وماكاد سيف الدولة يغادر قرطبة، حتى عاد إليها ابن حمدين من حصن فرنجولش واستأنف رياسته، واستطاع فى الأشهر القلائل التى عاشتها حكومته، أن يدون الدواوين، وأن يجند الأجناد، وأن يرسم الخطط، وبعث إلى بعض زملائه الثوار فى القواعد الأخرى فى طلب الاعتراف برياسته، فاعترف بها بعضهم، ومن هؤلاء أبو الغمر بن عزون[1] صاحب شريش، وابو جعفر بن أبى جعفر صاحب مرسية.

واستمرت رياسة ابن حمدين الثانية أحد عشر شهراً. ولكن فريقاً من خصومه الناقمين على حكمه، كتبوا إلى يحيى بن غانية فى القدوم عليهم، واستعادة سلطانه على المدينة. فسار ابن غانية من إشبيلية قاصداً إلى قرطبة، فى جمادى الآخرة سنة ٥٤٠هـ (١١٥٤م). وبرز ابن حمدين من قرطبة فى قواته للقائه، فالتقيا بأحواز إستجة فى جنوب غربى قرطبة، وكانت بينهما وقيعة، هزم فيها ابن حمدين، وفر إلى بطليوس، ملتجئاً إلى حماية صاحبها عبدالله بن الصميل من زعماء المريدين. ودخل ابن غانية قرطبة فى الثانى عشر من شعبان من تلك السنة، ثم غادر ابن حمدين بطليوس، وسار إلى حصن أندوجر الواقع شرقى قرطبة وتحصن به، وبسط سلطانه على البلاد المجاورة، فتحرك ابن غانية إلى قتالة، وحاصره فى أندوجر مدى شهر. وهنا لجأ ابن حمدين إلى تلك الوسيلة القديمة الذميمة، التى كانت عماد الطوائف فى محاربة بعضهم بعضاً، وهى الاستنصار بعاهل قشتالة، القيصر ألفونسو ريموندیس. ويقول لنا ابن الخطيب إن ابن حمدين، «أطمع القيصر فى قرطبة»، فاستجاب إلى دعوته، وتحرك وفقاً للرواية العربية إلى نصرته. ولكن الرواية النصرانية تقول لنا إن القيصر أرسل إلى معاونة ابن حمدين، الدوق فرناندو خوانس فى بعض قواته[2]. ولما وصل القيصر إلى أندوجر، ولم يستطع ابن غانية، دفعاً للنصارى، انصرف فى قواته إلى قرطبة، فسار النصارى فى أثره، ومعهم حليفهم ابن حمدين فى أصحابه، ودخل النصارى وابن حمدين قرطبة فى العاشر من ذى الحجة سنة ٥٤٠ هـ (مايو ١١٤٥ م)، وامتنع ابن غانية فى المدينة، يدافع النصارى فى صبر وجلد. وعاث القشتاليون فى شرقى قرطبة، واستباحوا المسجد الجامع، وأخذوا ماكان فيه من النواقيس التى كانت رؤوسا للثريات، ومزقوا المصاحف، ومنها فيما زعموا مصحف عثمان، ونزعوا المنار من الصومعة، وكان من الفضة

---

(١) رسمت كذلك – ابن عزون – فى البيان المغرب ص ٢٢، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٤، وابن صاحب الصلاة (مخطوط المن بالإمامة لوحة ١٧٥ ا). ولكن ابن الأبار يرسمها ابن غرون الحلة السيراء ص ٢٢٢

(٢) F. Codera : cit. Anales Toledanes (Dec. y Disp.) p. 61.

الخالصة ، وأحرقوا الأسواق . كل ذلك وابن غانية صامد يدفع النصارى عن القصبة بمنتهى الشدة والبسالة[1] .

وحدث عندئذ أن جاءت الأخبار بأن الموحدين قد عبروا البحر إلى اسبانيا ، وأن أهل إشبيلية خلعوا طاعة المرابطين ، فاهتم القيصر لهذه الأنباء ، ورأى من الفطنة أن يهادن ابن غانية ، وأن يتركه بقرطبة « سدا بينه وبين بلاده » . وهكذا تم التفاهم بين القيصر وابن غانية ، وعقدت شروط الهدنة ، وخرج ابن غانية من القصبة ، واستحضر له القيصر أهل قرطبة بين يديه ، وقال لهم « إنى قد فعلت معكم من الخير مالم يفعله من قبلى ، وتركتكم رعية لى ، وقد وليت عليكم يحيى بن غانية ، فاسمعوا له وأطيعوا » .

ويقص علينا ابن الخطيب الذى ننقل عنه هذه التفاصيل ، أن القيصر مضى فى مخاطبة أهل قرطبة ، فقال « ولايربكم أن تكونوا تحت يدى ونظرى ، فعندى كتاب نبيكم إلى جدى » . حدث ابن أم العماد وأبو الحسن قال ، حضرت ، وأحضر حقاً من الذهب ، فُتح وأخرج منه كتاب من رسول الله ( ص )إلى قيصر ملك الروم ، وهو جده بزعمه . والكتاب بخط على بن أبى طالب . قال أبوالحسن ، قرأته من أوله إلى آخره كما جاء فى حديث البخارى[2] .

وهكذا استقر ابن غانية بقرطبة ، وأخذ فى تحصين القصبة ، واشتد فى معاملة أهلها ، وأخذ يسومهم الخسف ، لما أثموا به فى حقه وغدروا به . وعهد بضبط المدينة ، وتدبير شئونها لمولاه فلوج العلج ، وكان حازماً شديد الوطأة ، فمال على أهل المدينة ، وأذلهم وانتزع كثيراً من أموالهم .

واستمر ابن غانية على تهادنه مع القشتاليين نحوعام آخر ، تطورت الحوادث خلاله بسرعة . أما ابن حمدين فقد غادر قرطبة مع النصارى ، وسار إلى حصن فرنجولش ، ولبث به فترة قصيرة ، ثم عبر البحر إلى المغرب ، وسار إلى مقابلة الخليفة عبد المؤمن أسوة بمن سار إلى لقائه ، من زعماء الثورة فى الأندلس ، فلقيه تحت أسوار مراكش ، وهو محاصر لها ( أوائل سنة ٥٤١ هـ ) حسبما تقدم ذكره ، فأحسن الخليفة استقباله . ثم عاد إلى الأندلس فنزل بمالقة ، فى كنف زميله وحليفه ابن حسون الثائر بها ، وحاول مرة أخرى أن يسترد سلطانه

---

( ١ ) نقلنا هذه التفاصيل عن ابن الخطيب فى الإحاطة فى ترجمة ابن غانية ( مخطوط الإسكوريال السالف الذكر لوحة ٣٩٢ ) .

( ٢ ) ابن الخطيب فى الإحاطة ( مخطوط الإسكوريال ) نفس اللوحة السابقة .

بقرطبة ، فأخفق مسعاه ، وارتد ثانية إلى مالقة ، واستقر بها حتى توفى فى رجب سنة ٥٤٦ هـ ( نوفمبر ١١٥١ م ) ودفن بمسجدها الجامع . ولما استولى الموحدون على مالقة، بعد ذلك بعشرين شهراً ، نبشوا قبره ، واستخرجوا جثمانه وصلبوه ، وهو وفقاً للرواية ، بحاله لم يتغير[1] .

— ٣ —

كان من أصداء ثورة ابن حمدين فى قرطبة أن قامت فى نفس الوقت فى غرناطة ثورة مماثلة ، زعيمها القاضى أبو الحسن على بن عمر بن أضحى . وكان أبو الحسن هذا من أهل المريّة ، وبها ولد فى سنة ٤٩٢ هـ ، وولى قضاءها بعد قاضيها الزاهد ابن الفرّا . ولما قامت ثورة ابن حمدين بقرطبة ، كان ابن أضحى بمدينة غرناطة ، فبعث إليه ابن حمدين يدعوه إلى اتّباعه والدعوة له . فاستجاب ابن أضحى لدعوته ، وآزره فريق كبير من أهل المدينة ، وتعاونوا على إخراج الملثمين ( المرابطين ) منها ، فاعتصموا بالقصبة ، ونشب القتال بين الفريقين ، وكان أمير غرناطة المرابطى يومئذ ، هو على بن أبى بكر المعروف بابن فنّو . وهو اسم أمه ، أخت على بن يوسف . ولما شعر ابن أضحى بتفوق المرابطين ، استغاث بحليفه ابن حمدين صاحب قرطبة ، وابن جزى قاضى جيان ، فبعث إليه ابن حمدين بعض قواته بقيادة ابن أخيه على بن أبى القاسم المعروف بابن أم العماد . ولكن حدث خلال ذلك ، أن رأى فريق من أهل غرناطة ، أن يلتجئوا إلى رئيس يولونه على أنفسهم ، ويستطيع مغالبة اللمتونيين ، واقترح البعض أن يكون هذا الرئيس هو سيف الدولة بن هود ، لقدم بيته ، وبعد صيته فى الرياسة ، وتغلبه على جيان وغيرها من القواعد ، وأيدهم فى ذلك ابن أضحى وأصحابه . وبعث أهل المدينة برغبتهم إلى ابن هود ، فلباها ، وقدم إلى غرناطة فى عسكر « من أوباش النصارى وسقاط الجند » . فلما رأى ابن أم العماد تطور الأمور على هذا النحو ، ارتد فى قواته ثانية إلى قرطبة . وتعاهد ابن أضحى وابن هود على مدافعة اللمتونيين. وكان اللمتونيون حين مقدم ابن هود ، قد أنسوا ضعف عسكره ، وانحلال جنده ، فبرزوا للقائه خارج غرناطة ، ونشب بينهما قتال شديد ، فهزم ابن هود ، وقتل كثير من أصحابه ، وكان ذلك فى اليوم

---

( ١ ) ابن الخطيب فى أعمال الأعلام ص ٢٥٤ . ويقول الضبى إن وفاته كانت فى سنة ٥٤٣ هـ (بغية الملتمس ص ٢٦١ ) ، ويقول ابن الأبار إنها كانت فى سنة ٥٤٨ هـ ( التكملة رقم ١١٩ ) .

التاسع عشر من ذى الحجة سنة ٥٣٩ هـ . ولم يستطع ابن هود أن يدخل غرناطة إلا بشق النفس ، فدخلها مع من بقى من رجاله ، من فوق الأسوار ، ومن أعلى التلال ، ثم جاز إليها من باب مورور ، بعد أن اشتبك فى معركة أخرى مع قوة مرابطية ثانية ، وفقد عدداً آخر من جنده(١) . وفى رواية ابن الأبار أن ابن هود وابن أضحى لبثا على قتال المرابطين بالقصبة شهراً ، وفى خلال ذلك جرح ولد ابن هود عماد الدولة وأسر ومات بالقصبة ، فدفع المرابطون بنعشه إلى أبيه . ثم توفى القاضى ابن أضحى ، فتقدم ولده محمد مكانه ، واستمر على التعاون مع ابن هود فى مدافعة اللمتونيين . وقدم فى نفس الوقت عسكر من مرسية قوامه نحو ألفى فارس بقيادة قاضيها الثائر بها ابن أبى جعفر ، فخرج إليه اللمتونيون ، فهزموه وقتلوه ومعظم عسكره ، واستباحوا البلد — غرناطة — استباحة قهر وغلبة ، وفر معظم الناس عن منازلهم ، ثم ارتدوا إلى القصبة واعتصموا بها . فلما رأى ابن هود تفاقم الأمور على هذا النحو ، وأنه لاطاقة له بمقاومة اللمتونيين ، غادر غرناطة ، وفر إلى قاعدته جيان ، وكان قد ترك بها ابن عمه نائباً عنه . وقد أورد لنا ابن الأبار ، فى ترتيب هذه الحوادث ، رواية أخرى خلاصتها ، أن ابن أضحى لما قام بثورته ، دعا أولا لابن حمدين وذلك فى رمضان سنة ٥٣٩ هـ ، فامتنع الملثمون بالقصبة ، إلى أن وصل من جيان مع بعض قواد الثغر مدد لابن أضحى ، وانضم إليه جمع وافر من أهل غرناطة ، فخرج إليهم الملثمون ، وهزموهم شر هزيمة ، ثم عادوا إلى القصبة . ودامت الحرب بين الفريقين مدة داخل غرناطة وخارجها ، إلى أن قدم ابن أبى جعفر القائم بمرسية فى عسكر قيل إنه كان يبلغ اثنى عشر ألفاً بين خيل ورجل ، فخرج إليهم الملثمون مرة أخرى وهزموهم ، وقتلوا ابن أبى جعفر ، ثم عادوا إلى الاعتصام بالقصبة مرة أخرى. وهنا قدم ابن هود فى قواته ودخل غرناطة من باب مورور ، فاستقبله ابن أضحى وأنزله ، واستسقى ابن هود ، فأمر له بقدح من الماء المسموم ، فصاحت به العامة محذرة ، فخجل ابن أضحى ، وتناول القدح وشرب منه ، لكى يدفع مظنة الاتهام ، فمات من ليلته ، وانتقل ابن هود إلى القلعة الحمراء ، والقتال متصل بين الملثمين وأهل غرناطة ، حتى كان ذات يوم تمكن الملثمون فيه من

---

(١) نقلنا التفاصيل المتقدمة عن كتاب الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشى ، وقد وردت فى ترجمة على بن عبد الله بن ثابت الأنصارى ( عن نسخة خزانة الرباط المصورة عن نسخة باريس ) .

ابنه وقتلوه . وبقى ابن هود بعد ذلك نحو شهر فى غرناطة ، والصعاب تكتنفه من كل صوب ، ثم هم أهل غرناطة بمناوأته ففر عنها ليلا وقصد إلى مرسية ، أو إلى جيان . وقام من بعده بأمر غرناطة أبو بكر محمد بن أبى الحسن بن أضحى ، ولكنه لم يلبث بها سوى أيام قلائل ، وهو يدافع خصومه ، ثم فر بعد ذلك إلى المُنكّب ناجياً بنفسه (أول سنة ٥٤٠ هـ) واضطر أهل غرناطة إلى التفاهم مع حاكمها المرابطى ميمون بن بدّر بن ورقاء ، وكان قد خلف أميرها السابق على بن فنّو بعد وفاته ، وهكذا استعاد اللمتونيون سيطرتهم على غرناطة[1] .

وكان القاضى أبو الحسن بن أضحى فقيهاً بارعاً ، وأديباً ، وشاعراً جزلا ، وقد أورد لنا ابن الآبار طائفة من نظمه ، ومن ذلك قوله :

يا ساكن القلب رفقاً كم تقطعه　　　الله فى منزل قد ظل مثواكا
يشيد الناس للتحصين منزلهم　　　وأنت تهدمه بالعنف عيناكا[2]

— ٤ —

وحدث فى مالقة نفس ما حدث فى قرطبة وغرناطة ، وانقلب قاضيها إلى تزعم الثورة بها ضد المرابطين . وإنه لما يلفت النظر فى هذه الأحداث المتشابهة ، تلك الظاهرة العجيبة ، وهى أن قادة الثورة ضد المرابطين لم يكونوا زعماء الجند ، وإنما كان معظمهم قضاة من رجال القلم . ففى قرطبة ، وجيان ، وغرناطة ، ومالقة ، ومرسية ، وبلنسية ، وغيرها ، كان زعماء الثورة قضاة ، فقهاء أدباء وشعراء ، من أعلام التفكير فى ذلك العصر . وقد نجد تعليلا لتلك الظاهرة ، فيما كان يتمتع بها الفقهاء والقضاة ، فى ظل الدولة اللمتونية من واسع الجاه والنفوذ ، حتى تركزت فيهم عناصر الزعامة المحلية ، التى كان يتمتع بها من قبل جيل الأمراء والقادة ، الذين اختفى معظمهم حينما قضت الدولة اللمتونية على دول الطوائف ، وإلى أنه لما أخذ نجم الدولة اللمتونية فى الأفول ، وانهار سلطان أولئك القضاة بانهيار الدولة ، التى أظلهم سلطانها ونفوذها ، حاولوا بإضرام نار الثورات المحلية ، وتولى زعامة مدائنهم ، أولا أن يحتفظوا بسابق رياستهم ، وثانياً أن يستردوا سلطانهم القومى ، بعد ما تحطم نير الدولة الغالبة . وسوف نرى فيما بعد ، أنه بعد أن تختفى هذه الثورات المحلية الصغيرة ، سواء بالقضاء

---

(١) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٢٠٩ .

(٢) الحلة السيراء ص١٠٩ و٢١٠ و٢١١ ، وقد وردت بها مقطوعات شعرية أخرى لابن أضحى .

عليها ، أو بانضواء قادتها تحت لواء الدولة الموحدية الجديدة ، تبقى عناصر الثورة القومية الأندلسية العسكرية والسياسية ، مستمرة مدى جيل آخر ، على يد بعض الزعماء ، الذين لم يجدوا فى قيام الدولة الموحدية بالأندلس ، مكان الدولة المرابطية ، تحقيقاً للغاية القومية التحريرية ، التى كانت تبتغيها الأندلس ، من تحطيم نير أولئك الغزاة البربر ، الذين جاءوا إليها من وراء البحر ، باسم الجهاد فى سبيل الله ، ثم استقروا فيها سادة حاكمين .

فى الوقت الذى قام فيه ابن حمدين بقرطبة ، وابن أضحى بغرناطة ، نهض بمالقة قاضيها أبو الحكم بن حسّون ، ليتزعم ثورة مماثلة . وهو الحسين بن الحسين ابن عبد الله بن الحسين الكلبى بن حسّون ، ويكنى بأبى الحكم ، وكان ينتمى إلى بيت من أعرق بيوتات مالقة ، اشتهر بالعلم والجاه والسراوة . وُلى قضاء مالقة فى سنة ٥٣٨ هـ ، مكان قاضيها أبى محمد الوحيدى حينما استقال لفقد بصره ؛ ولما وقعت الثورة بقرطبة وغرناطة ، وغيرها من القواعد ، فى هذا الوقت بالذات ، وتكاتب القضاة ، أعلن أبو الحكم الثورة فى مالقة ، ودعا لنفسه ، وقام بأمر المدينة ، وحاصر اللمتونيين فى القصبة ، ولبث على منازلتهم ستة أشهر ، حتى أخرجهم منها ، وملك القصبة ، واستقر بها وتسمى بألقاب الإمارة ، وعين أخاه أبا الحسن قائداً لقواته ، وأسند إليه ولاية قرطمة وما إليها .

ولكن المرابطين فى أنتقيره وغيرها من الحصون المجاورة ، استمروا فى مهاجمته ومضايقته ، حتى اضطر أخيراً ، أن يستعين بالمرتزقة النصارى ، واضطر من أجل دفع أجورهم ، أن يرهق أهل المدينة بالمطالب والمغارم المختلفة ، فنقموا عليه مسلكه ، وداخل فريق منهم رجلا من خاصته ، كان قائد الحرس ببابه يدعى اللوشى ، وائتمروا معه على الإيقاع بأبى الحكم . ونجحت المؤامرة ، واستطاع المتآمرون بمعاونة اللوشى ، أن يخترقوا الأبواب ، وأن يملكوا القصبة ، فامتنع ابن حسون داخل القصر ، ودافع عن نفسه بأعنف ما يستطاع ، فلما نفدت جهوده ، وقتل أخوه وأيقن بالهلاك ، نفذ إلى داخل داره ، وأراد أن يقتل نساءه وبناته صوناً لهن ، فاعتصمن منه بالغرف والبيوت الداخلية ، فعمد عندئذ إلى إحراق كتبه وذخائره ، ثم تناول سما فلم يقتله لفوره ، فتحامل على نفسه ، وطعن نفسه برمح نفذ إلى ظهره ، ولكنه لم يمت وارتمى وهو يحتضر متخبطاً فى دمه ، ودخل أعداؤه القصر فألفوه على تلك الحالة ، ومات بعد يومين فى الحادى عشر

من ربيع الأول سنة ٥٤٧ هـ ( يونيه سنة ١١٥٢م) . فصلبت جثته ، واحتز رأسه وأرسل إلى مراكش . ولما استولى الموحدون على مالقة بعد ذلك بنحو عام ، فى أوائل سنة ٥٤٨ هـ ، قبض على أهله وولده ، وبيع بناته ، واشترى بعضهن بعض أكابر الدولة الحديدة . فكانت نهايته المحزنة من أتعس ما لقى ثوار النواحى فى تلك الفترة(١) .

— ٥ —

وقام فى وداى آش ، على مقربة من غرناطة ، فى الوقت الذى قام فيه ابن حمدين فى قرطبة، وابن أضحى فى غرناطة، أحمد بن محمد بن مَلْحان الطائى ، فاستولى على القصبة وحصنها ، ودعا لنفسه ، وتلقب بالمتأيد بالله ، وعمل على تعزيز مركزه بكل الوسائل ، واشتد فى تحصيل المال والدخائز ، واقتنى الضياع الواسعة ، وتولى فلاحتها وحرثها ، حتى غدا من أغنى أهل زمانه . وتغلب على بعض القواعد القريبة ، مثل بَسْطة وضمها إلى إمارته ، واستخدم فى بلاطه الصغير عدة من مشاهير العلم والأدب فى ذلك العصر ، مثل أبى بكر بن طفيل الفيلسوف الطبيب ، وأبى الحكم هرودُس. واستطال عهده عدة أعوام . ولما قام محمد بن سعد بن مردنيش بثورته فى شرقى الأندلس ، وزحف على القواعد الوسطى والجنوبية ، قاصداً توسيع أملاكه ، ومحاربة الموحدين فى نفس الوقت ، سار إلى وادى آش تعاونه فرقة من النصارى ، فلما رأى ابن ملحان أنه لاطاقة له به أعلن طاعته للموحدين ، وكانوا فى ذلك الوقت قد استولوا على غرناطة ، بيد أنه لم يستطع الاحتفاظ بوادى آش فخرج عنها ، واستولى عليها ابن مردنيش كما استولى على بسطة وغيرها ، وذلك فى سنة ٥٤٦ هـ ( ١١٥١ م ) . وعبر ابن ملحان البحر إلى المغرب ، ودخل فى خدمة الموحدين ، واستعمل بمراكش فى بعض الأعمال الهندسية فى إقامة البحيرة وإجراء مائها ، ثم نكب بعد ذلك لأسباب لانعرفها ، ونزعت أمواله ، وتوفى فى بؤس وضعة(٢) .

— ٦ —

وثار فى جيان قاضيها يوسف بن عبدالرحمن بن جُزى ، وأنشأ بها حكومة مستقلة ،

---

(١) ابن الخطيب فى أعمال الأعلام ص ٢٥٥ .

(٢) ابن الخطيب فى أعمال الأعلام ص ٢٦٤ ، والإحاطة ج ٢ ( القاهرة ) ص ٨٩ .

اقتداء بز ملائه القضاة فى قرطبة ، وغرناطة ، ومالقة ، ومرسية وغيرها . وليست لدينا عن حكمه وأيامه بجيان تفاصيل شافية . بيد أن رياسته لم تطل فيما يبدو ، لأن سيف الدولة بن هود استطاع التغلب على جيان وانتزاعها منه ، قبيل مسيره إلى قرطبة فى أواخر سنة ٥٣٩ هـ (أوائل سنة ١١٤٥ م)(١) .

— ٧ —

وشملت الثورة أراضى مثلث الأندلس الجنوبى ، فقامت فى رُندة ، وشَريش وقادس حكومات مستقلة ، وقضى فيها على سيادة المرابطين . فى رندة قام رجل من رجال القلم ، وهو أخيل بن إدريس الرندى ، وأنشأ بها حكومة مستقلة . وكان أخيل هذا ، وهو فى الأصل من أهل رندة ، كما يدل على ذلك اسمه ، كاتباً أديباً شاعراً ، وكتب فى بداية حياته للملثمين . ولما قام ابن حمدين فى قرطبة ، استخدمه فى بطانته ، وكتب له ، وكان وثيق الصلة به مذ كان متولياً قضاء قرطبة . فلما استرد الملثمون قرطبة على يد ابن غانية ، وسقطت حكومة ابن حمدين ، سار أخيل إلى بلده رندة ، وكانت أمورها فوضى لاضابط لها ، فدعا لنفسه ، واستطاع أن يقوم بحكمها وضبطها ، ولكن فريقاً من خصومه سعوا إلى إسقاطه ، وخاطبوا أبا الغمر بن السائب بن عزون ، صاحب شريش ، فى القدوم إلى رندة ، والتغلب عليها . فاستجاب لهم ، وقدم إلى رندة ، واستطاع بمخادعة أخيل ، أن يستولى على القصبة دون قتال ، وانتزع أموال أخيل وأموال أصحابه ، وفر أخيل ناجياً بنفسه إلى مالقة ، ثم عبر البحر منها إلى المغرب ، واتصل فى مراكش بالوزير ابن عطية ، فأكرم وفادته ، وساعده فيما بعد على استرداد أمواله . ولما استولى الموحدون على الأندلس ، وُلى قضاء قرطبة ، ثم قضاء إشبيلية ، وتوفى بإشبيلية سنة ٥٦١ هـ (١١٦٦ م) ، وكان أديباً مطبوعاً وشاعراً جزلا(٢) .

وكان ابن عزون فى مقدمة الثوار الذين خلعوا طاعة المرابطين ، فقام فى بلده شَريش ، وأنشأ حكومة مستقلة ، فى نفس الوقت الذى قام فيه أحمد ابن قسىّ فى الغرب . وقوى أمر ابن عزون بسرعة ، وبسط سلطانه على أركش ، ثم على رندة حسبما تقدم ، وأعلن انضواءه فى البداية تحت طاعة ابن حمدين صاحب

(١) أشار ابن الخطيب فى أعمال الأعلام إلى ثورة ابن جزى فى جيان إشارة عابرة ص ٢٥٩ .

(٢) الحلة السيراء ص ٢٢٢ .

قرطبة . فلما تطورت الحوادث وانهارت حكومة ابن حمدين ، واضطر إلى مغادرة قرطبة ، نادى بخلع طاعته ، والاستقلال بدعوته . وفى أوائل سنة ٥٤١ ، عبر البحر إلى المغرب ، وسار إلى لقاء الخليفة عبد المؤمن ، وهو يومئذ يعسكر بمحلته تحت أسوار مراكش وبايعه بالطاعة ، وكان من الوافدين على عبدالمؤمن فى نفس الوقت ابن حمدين زعيم قرطبة السابق[1] . ولما عبر الموحدون إلى الأندلس ، كان ابن عزون وجند شريش أول من لقيهم ، وانضم اليهم . ويقدم إلينا صاحب روض القرطاس ، رواية أخرى ، خلاصتها أن أبا الغمر ( ويسميه محرفا أبا القمر ) وهو من بنى غانية ، كان هو القائد المرابطى لشريش ، وأنه لما عبر الموحدون البحر إلى الأندلس لأول مرة فى سنة ٥٣٩ هـ ، وفتحوا مدينة شريش صلحاً ، انضم إليهم أبو الغمر فى قواته ، وكانت ثلاثمائة فارس ، وأعلن بيعة عبد المؤمن ، فكانت شريش بذلك أول قاعدة أندلسية دخلت فى طاعة الموحدين ، وكان الموحدون لذلك يسمون أهلها بالسابقين الأولين ، ومن أجل ذلك حررت أملاكهم من المغارم ، وكانت وفود الأندلس إذا قدمت للسلام على الخليفة الموحدى ، كان وفد شريش أول الداخلين . وتم فتح شريش وفقاً لهذه الرواية فى شهر ذى الحجة سنة ٥٣٩ هـ ( ١١٤٥ م )[2] . على أننا نؤثر الأخذ بالرواية المتقدمة : وهى تقدم إلينا ابن عزون ضمن ثوار الأندلس ، ثم تفصل لنا أعماله وحركاته فى منطقة الفُرُنتيرة ، ووفوده على عبد المؤمن بما يتفق مع باقى الحوادث التى وقعت فى تلك المنطقة فى تلك الفترة ، وهى رواية يؤيدها ابن الأبار ، وابن عذارى ، وابن خلدون ، وهى بذلك فى نظرنا أوثق وأكثر قبولا[3] .

ونختتم هذا الثبت من ثوار غربى الأندلس ضد المرابطين بذكر زعيمين آخرين ، أولهما على بن عيسى بن ميمون والى ثغر قادس ، وقائد الأسطول المرابطى بهذه المنطقة ، وقد كان فى مقدمة الزعماء الذين خلعوا طاعة المرابطين ؛ وفى سنة ٥٤٠ هـ عبر البحر إلى المغرب ، وسار إلى لقاء عبد المؤمن ، وكان يومئذ قائماً على حصار فاس ، فقدم إليه طاعته ، ثم عاد إلى قادس ، وأقام بها الخطبة

---

( ١ ) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٢ .

( ٢ ) روض القرطاس ص ١٣٢ .

( ٣ ) راجع الحلة السيراء ص ٢٢٢ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢٢ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٤ .

للموحدين . وهو الذى عاون ابن قسى على العبور إلى المغرب ، ودفعه إلى مقابلة عبد المؤمن بنفسه ، ليناشده الجواز إلى الأندلس . ثم كان بعد ذلك ممن ثاروا على الموحدين ، وخلعوا طاعتهم من زعماء الغرب ، وذلك حينما ارتد ابن قسى عن الطاعة ، وتبعه زعماء لبلة وبطليوس وطبيرة وغيرهم ، إلى أن عبرت عساكر الموحدين بعد ذلك بقليل بقيادة يوسف بن سليمان ، وأخضعت أولئك الزعماء الثائرين بمختلف قواعد الغرب .

والثانى هو محمد بن على الحجام الثائر ببطليوس ، وقد ذكره ابن الخطيب فى ثبت زعماء الثورة ضد المرابطين ، ولكنه لم يقدم لنا عنه أى تفصيل آخر[١]. وذكره ابن خلدون ضمن الزعماء الذين خلعوا طاعة الموحدين، ثم ذكر لنا بعد ذلك أنه حينما عبر يوسف بن سليمان بعساكر الموحدين ، وسار إلى مقاتلة ثوار الغرب ، عاد ابن الحجام ( ويسميه هنا محرفاً ابن الحاج ) إلى الطاعة ، وبعث إلى عبد المؤمن بهدية كان لها وقع حسن[٢]. ونحن نعرف مما تقدم أن بطليوس كانت من القواعد التى بسط ابن وزير عليها سلطانه ، وندب خاله عبد الله بن الصميل والياً عليها[٣] . ولم تذكر لنا الرواية بعد ذلك ، متى ولا فى أى ظروف، آلت بطليوس إلى محمد بن الحجام .

---

( ١ ) أعمال الأعلام ص ٢٤٨ .
( ٢ ) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٤ و ٢٣٥ .
( ٣ ) الحلة السيراء ص ٢٠٤ .

# الفصل الثانى

## عبد المؤمن وشـــئون الأندلس

### وافتتاح إشبيلية وقرطبة وغرناطة والمرية

اهتمام عبد المؤمن بشئون الأندلس . مقدم الوفود الأندلسية على عبد المؤمن . متى تدخل الموحدون فى شئون الأندلس . عبور الجيوش الموحدية الأولى إلى شبه الجزيرة وأعمالها . زحفها على إشبيلية ، وافتتاحها إياها . أخوا المهدى وحكمهما لإشبيلية . تطور الحوادث وخروج الزعماء الأندلسيين على الموحدين . عبد المؤمن يرسل جيشاً آخر إلى الأندلس . إخضاع الموحدين للبلة وطلياطة وطبيرة وبطليوس . التجاء ابن قسى إلى ملك البرتغال . سخط أهل شلب وتآمرهم ضده بزعامة ابن المنذر . مصرع ابن قسى وعودة شلب إلى طاعة الموحدين . استيلاء ابن وزير على شلب . اعتقال الموحدين لابن المنذر . شعر ابن قسى وابن المنذر . رياسة ابن غانية فى قرطبة . ضغط ملك قشتالة عليه . تنازله عن بياسة وأبدة . مطالبته بالتنازل عن جيان . مفاوضة ابن غانية لبراز والى إشبيلية الموحدى . الاتفاق على تسليم قرطبة وقرمونة للموحدين . مغادرة ابن غانية قرطبة إلى غرناطة . فكرته فى التفاهم مع الموحدين . مرضه ووفاته وخلا له . زحف القشتاليين على قرطبة واحتلالهم إياها . مبادرة الحشود الموحدية لإنقاذها . انسحاب القشتاليين منها . احتلال الموحدين لقرطبة وجيان وأبدة وبياسة . قيام ابن مردنيش فى شرق الأندلس . امتداد أملاكه حتى جيان . قيام الثورة ضده فى بلنسية . اقتحامه لبلنسية واستعادته لسلطانه . معاقبته لأهل بلنسية ولورقة . رسالة عبد المؤمن لابن مردنيش . استيلاء الموحدين على مالقة . اختيار عبد المؤمن لولده محمد لولاية العهد . ظروف هذا الاختيار حسبما يعرضها عبد المؤمن فى رسالته . رواية أخرى عن ذلك . عبد المؤمن يولى أولاده حكم البلاد . مهاجمة الوهيبى لمدينة لبلة . مسير ابن يومور والى إشبيلية إليها . احتلاله لبلة وفتكه بأهلها . القبض على ابن يومور ومعاقبته . الشكوى إلى الخليفة من ابن الرنق . إنشاء عبد المؤمن لبستان شنطلولية . طوافه بنواحى الأطلس والسوس . زيارته لتينملل . المصحف العثمانى ونقله من قرطبة إلى مراكش . إنشاء عبد المؤمن لمسجد مراكش الجامع . ندب ابن يكيت لولاية قرطبة وعبد الله بن أبى حفص لولاية إشبيلية . غزو ابن يكيت لأرض قشتالة . غزو عبد الله بن أبى حفص لأراضى البرتغال . تسليم الوالى المرابطى غرناطة للموحدين . التأهب لاسترداد ألمرية من النصارى . مسير السيد أبو سعيد والى غرناطة إليها . مسير الأسطول الموحدى إلى مياهها . محاصرة الموحدين لألمرية . مبادرة ملك قشتالة وحليفه ابن مردنيش لإنجاد الحامية النصرانية . استمرار الحصار وفشل كل محاولة لإنجاد الحامية . مقدم الوزير ابن عطية ومعالجته للموقف . تسليم النصارى وعودة ألمرية إلى المسلمين . انسحاب ملك قشتالة وحليفه ابن مردنيش . وفاة ملك قشتالة ألفونسو السابع . حوادث الغرب . امتناع الوهيبى بثغر طبيرة . مسير الموحدين إلى طبيرة ومحاصرتها . إتفاق الموحدين مع الوهيبى . تخلى ابن وزير عن باجة وميرتلة وشلب ، وعبوره إلى المغرب . الوزير ابن عطية . توليه الوزارة وتوطد مكانته . إرساله إلى الأندلس . تولية عبد السلام الكومى الوزارة فى غيابه . سعى خصومه

إلى التشهير به . مروان بن عبد العزيز وتحريضه للخليفة عليه . عود ابن عطية إلى المغرب . اعتزام عبد المؤمن التنكيل به . القبض عليه وعقد مجلس لاتهامه . القبض على أخيه عقيل بن عطية . توسل ابن عطية إلى الخليفة للعفو عنه . إعراض الخليفة عن توسله والسر فى ذلك . مسير الخليفة إلى تينملل ومعه الأخوان . إعدامهما خلال عوده إلى مراكش . تأملات عن هذا الحادث .

— ١ —

لم يكن عبد المؤمن بغافل عن أهمية الأندلس ، والعمل على تحريرها من أيدى المرابطين باعتبارها جزءاً لايتجزأ من الإمبراطورية المرابطية ، التى نذر الموحدون أنفسهم للقضاء عليها ، واستخلاص تراثها ، ولم تكن تعوقه عن العناية بشئون الأندلس ، أية حوادث أو مشاغل داخلية ، مهما بلغت من الخطورة ، فنراه فى أدق المراحل من الصراع بينه وبين المرابطين ، يستقبل وفود الأندلس ، ويزودها بنصحه وعونه ، ثم هو بعد ذلك ينتهز أول فرصة لتوجيه جيوشه إلى شبه الجزيرة ، لتأخذ بنصيبها من حوادث الأندلس ، ولتمهد السبيل لسيطرة الموحدين عليها .

وكان فى مقدمة من وفد على عبد المؤمن من زعماء الثورة فى الاندلس ضد المرابطين ، أبو الغمر بن السائب بن عزون زعيم شريش وأركش ورندة ، وأبو جعفر بن حمدين زعيم قرطبة المعزول ، وفدا عليه فى أوائل سنة ٥٤١ﻫ وهو على حصار مراكش ، لاستنهاض همته للتدخل فى حوادث الأندلس ، وإنجاد زعمائها الثائرين ضد المرابطين . ووفد فى نفس الوقت أو بعده بقليل على عبد المؤمن زعيم الثورة فى غرب الأندلس ، أو زعيم ثورة المريدين أحمد بن قسىّ ، عقب خلعه وفقده لإمارته فى شلب وميرتلة على يد خصمه ومنافسه سيدراى بن وزير صاحب باجة . وقد سبق أن فصلنا فى موضعه ظروف مقدمه على عبد المؤمن ، وما يحيط بذلك من خلاف على تاريخ مقدمه ، ومكان لقائه به . ثم وفد على عبد المؤمن فى أوائل سنة ٥٤٢ ﻫ عقب افتتاح مراكش ، وفد كبير من إشبيلية ، وعلى رأسه القاضى أبو بكر بن العربى وعدة من زعماء إشبيلية ، يحملون إليه بيعة أهل إشبيلية ، وذلك على أثر افتتاح الموحدين لها . وفى أواخر سنة ٥٤٥ ﻫ وأوائل سنة ٥٤٦ ﻫ ، وفد على عبد المؤمن ، وهو بسلا يعد عدته لافتتاح إفريقية ، وفود أندلسية عديدة من مختلف حواضر الأندلس ، ومن بينها كثير من رجالات الأندلس البارزين ، من الفقهاء والقضاة والزعماء والقواد ، بلغوا نحو خمسمائة ، وشرح له خطباؤهم خطورة عدوان النصارى على الأندلس ،

واستطالتهم على قرطبة ، ومايقتضيه ذلك من مزيد العون والجهاد ، وذلك كله حسبما فصلناه من قبل فى موضعه[1] .

كان لمقدم هذه الوفود الأندلسية المتوالية أثرها فى إذكاء العزم ، الذى تكون لدى عبد المؤمن من قبل ، نحو شئون الأندلس ، ومبادرته إلى التدخل الفعلى فى حوادثها ، ومضاعفة جهوده فى توجيه البعوث العسكرية إليها . وقد اختلفت الرواية فى تحديد تاريخ تدخل الموحدين فى شئون الأندلس ، وفى كيفية هذا التدخل . ففى رواية صاحب روض القرطاس ومن روى عنهم، أن هذا التدخل يرجع إلى أواخر سنة ٥٣٩ هـ ( ١١٤٤ م ) عقب افتتاح عبد المؤمن لتلمسان ، ففى هذا التاريخ بعث عبد المؤمن إلى الأندلس جيشاً موحدياً من عشرة آلاف فارس بقيادة الشيخ أبى عمران موسى بن سعيد، ونزل هذا الجيش بساحل الجزيرة الخضراء ، وكان أول بلد افتتحوه هو مدينة شريش ، افتتحوها صلحاً ، إذ خرج صاحبها أبو الغمر بن عزون ، وهو من بنى غانية المرابطين ، فى حامية المرابطين ، وقوامها ثلاثمائة فارس، وبايع لعبد المؤمن ، وأعلن دخوله فى طاعته. وكان الموحدون لذلك يسمون أهل شريش بالسابقين الأولين ، وحررت أملاكهم من المغارم ، وكان خلفاء الموحدين إذا قدمت عليهم وفود الأندلس للسلام ، يقدمون وفد شريش ، ويُنادى عليهم اين السابقون ، ثم تتلوهم بقية الوفود . ويحدد لنا صاحب روض القرطاس ، نقلا عن ابن فرحون ، دخول الموحدين شريش بشهر ذى الحجة سنة ٥٣٩ هـ . ودخل الموحدون بلدة طريف والجزيرة الخضراء قبل ذلك بقليل ، وفر المرابطون منها إلى إشبيلية[2]. بيد أن هذه الرواية التى ينفرد بها صاحب روض القرطاس ، تعارضها رواية أخرى هى رواية ابن الأبار وابن خلدون ، وهى تدلى بأن تدخل الموحدين فى شئون الأندلس يرجع إلى سنة ٥٤٠ هـ ، وأن أول جيش موحدى وُجه إلى الأندلس ، دخلها فى أوائل سنة ٥٤١ هـ . وتفصيل ذلك هو أنه حينما كان عبد المؤمن يعسكر بجيشه تحت أسوار فاس فى سنة ٥٤٠ هـ ، وفد عليه على بن عيسى بن ميمون قائد الأسطول المرابطى فى مياه قادس ، وقدم إليه طاعته ، ثم عاد إلى الأندلس ،

---

( ١ ) البيان المغرب القسم الثالث ص ٢٢ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٤ ، والحلل الموشية ص١١١ ، وروض القرطاس ص ١٢٥ ، والحلة السيراء ص ٢٠٠ .

( ٢ ) روض القرطاس ص ١٢٢ و١٢٣ .

وأقام الخطبة للموحدين بجامع قادس[1] ، وفى وسعنا أن نرجع بداية تدخل الموحدين فى شئون الأندلس إلى هذا التاريخ ، أعنى إلى سنة ٥٤٠هـ . وأما تدخل الموحدين العسكرى فى شئون الأندلس فيرجع وفقاً لقول ابن الأبار إلى أوائل سنة ٥٤١ هـ . وذلك أنه حينما وفد ابن قسى زعيم ثورة الغرب ، على عبد المؤمن فى ربيع الثانى سنة ٥٤٠ هـ ، ليحثه على إنجاد ثوار الغرب ، واستخلاص الإندلس من أيدى المرابطين ، بعث عبد المؤمن فى المحرم سنة ٥٤١ هـ جيشاً إلى الأندلس، ومعه ابن قسى . وهذا الجيش هو الذى افتتح طريف والجزيرة الخضراء ، ثم سار بعد ذلك إلى شلب ليفتتحها من يد ابن وزير المتغلب عليها ، وليعيدها إلى صاحبها ابن قسى[2]. بيد أننا قد بينا من قبل ، أن عبور ابن قسى إلى المغرب ، لابد أنه وقع بعد التاريخ الذى يحدده ابن الأبار بقليل ، وذلك عقب فقد ابن قسى لحاضرته ميرتلة فى شعبان سنة ٥٤٠ ، وأن هذا العبور قد وقع حسبما يرجح فى أواخر سنة ٥٤٠ هـ[3] ، فهنا وجه عبد المؤمن أول جيش موحدى إلى الأندلس بقيادة برّاز بن محمد المسّوفى ، وكان قبل من قاده الأمير تاشفين ، ثم انحاز بعد مصرعه إلى الموحدين ، ثم أمده بجيش آخر بقيادة موسى بن سعيد ، ثم بجيش ثالث بقيادة عمر بن صالح الصنهاجى ، وكانت مهمة الموحدين فى شبه الجزيرة ، أن يقاتلوا اللمتونيين ، والثوار معاً . وكان عبور هذا الجيش الموحدى إلى الأندلس فى شهر المحرم سنة ٥٤١ هـ . وبعد أن استولى الموحدون على طريف والجزيرة الخضراء ، ساروا إلى مدينة شَريش حيث انضم إليهم صاحبها أبو الغمر بن عزون وولده . ثم ساروا إلى مدينة لَبلة ، فأعلن صاحبها يوسف بن أحمد البطروجى الطاعة . وقصد الموحدون بعد ذلك إلى ميرتلة ، حاضرة ابن قسى من قبل ، وكانت عندئذ تحت سلطان منافسه سيدراى بن وزير فاستولوا عليها . ثم استولوا على شلب ، وردوا أمرها إلى ابن قسى . وساروا بعد ذلك إلى باجة ثم إلى بطليوس ، وكانا لنظر ابن وزير ، وعلى بطليوس من قبله خاله عبد الله بن الصميل ، فأعلن ابن وزير الطاعة ، وأطلق سجينه محمد بن عمر بن المنذر أحد زعماء المريدين ، وكان قد تغلب عليه وسجنه

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٣ .

(٢) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٢٠٠ .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٦ ، و ج ٦ ص ٢٣٤ .

حسبما ذكرنا من قبل فى موضعه ، ثم سُملت عيناه وهو فى السجن ، فقصد إلى شلب واستقر بها إلى جانب زميله وحليفه السابق ابن قسى[١] . وسيطر الموحدون فى هذه الجولة الأولى على قواعد الغرب ، التى كانت بأيدى المريدين ، ولم تستغرق منهم سوى بضعة أشهر . بيد أنها لم تكن سوى مقدمة ، لغاية أهم وأخطر ، هى الاستيلاء على حاضرة إشبيلية .

وسار الموحدون فى سائر قواتهم إلى إشبيلية ، وانضم إليهم زعماء المريدين ، أحمد بن قسى وسيدراى بن وزير ويوسف البطروجى كل فى قواته ، واستولوا فى طريقهم صلحاً على طلياطة وحصن القصر ، وهما قلعتا إشبيلية من الغرب ، وقد أعلنت كلتاهما الطاعة ، ثم ضربوا الحصار حول إشبيلية . وحاصرتها من البحر سفن الأسطول الأندلسى ، بقيادة على بن عيسى بن ميمون ، صاحب قادس . ولم يطل أمد هذا الحصار ، إذ لم يكن بإشبيلية سوى حامية مرابطية ضعيفة ، تدافع فى ظروف دقيقة ، ومن حولها شعب خصيم متربص ، وسرعان ما اقتحم الموحدون المدينة ، ففر منها المرابطون إلى قرمونة ، وقتل الموحدون من أدركوه منهم ، وقتل فى تلك المعمعة عبد الله بن العربى ، ولد القاضى أبى بكر ابن العربى ، عميد فقهاء المدينة وزعمائها . وتم فتح إشبيلية فى اليوم الثانى عشر من شعبان سنة ٥٤١ هـ ( ١٨ يناير سنة ١١٤٧ م )[٢] وكتب بالفتح إلى عبد المؤمن ، فعلم به ، وهو على وشك دخول مراكش ، ثم قدم إليها بعد افتتاحها بقليل ، وفد إشبيلية برياسة القاضى ابن العربى ، يحمل إليه بيعة أهلها ، حسبما ذكرنا من قبل ، وذلك فى أوائل سنة ٥٤٢ هـ .

وكان بين مشيخة عسكر الموحدين بإشبيلية ، عبد العزيز وعيسى ، أخوا المهدى ابن تومرت . ولما كانت إشبيلية ، عند فتحها دون أمير يتولى حكمها ، فقد توليا هذه المهمة ، فساء سلوكهما ، وبغى كلاهما وطغى ، واستحلا سفك الدماء ونهب الأموال ، وغدت المدينة فى ظلهما مسرحاً لشر ضروب الفوضى ، وناهضهما فى ذلك يوسف البطروجى صاحب لبلة ، فاعتزما الفتك به ، فغادر

---

( ١ ) ابن الأبار ص ٢٠٤ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٤ .

( ٢ ) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٢٣٩ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٤ ، وابن الأثير ج ١١ ص ٤٣و٤٤ . ويقول صاحب روض القرطاس ان افتتاح الموحدين لإشبيلية كان فى سنة ٥٤٠ هـ ( ص ١٢٣ ) وهى رواية ضعيفة .

إشبيلية إلى بلده ، وأخرج الموحدين منها ، ونقض الطاعة ، وتحالف مع فلول المرابطين . وكذا فعل أهل طلياطة ، وحصن القصر . ثم خرج على الطاعة ابن قسى صاحب شلب ، وابن ميمون صاحب قادس ، ومحمد بن الحجام صاحب بطليوس ، ولم يثبت على طاعة الموحدين سوى ابن عزون صاحب شريش وولده . ولنلاحظ أن خروج أولئك الزعماء عن طاعة الموحدين ، قد وقع فى نفس الوقت الذى اضطرمت فيه بالمغرب ثورة الماسى ضد الموحدين ( ٥٤٢ هـ ) ، ولاح مدى حين أنها تهدد سلطانهم ودولتهم . وانتهز يحيى بن غانية فرصة هذا الاضطراب الذين ترتب على سوء تصرف الموحدين ، وسخط زعماء الغرب على حكمهم ، فبعث قوة من المرابطين ، تغلبت على الجزيرة الخضراء ، مدخل شبه الجزيرة ، وتردد صدى ذلك فى سبتة ، فخلع أهلها الطاعة ، بزعامة عميدها القاضى عياض السبتى ، وقتلوا واليها يوسف بن مخلوف التينمللى ومن معه من الموحدين ، وتولى أمرها يحيى بن أبى بكر الصحراوى ، وذلك حسبما فصلناه فى موضعه . وفى خلال ذلك ساءت الأحوال فى إشبيلية وغادرها عبد العزيز وعيسى أخوا المهدى ومن معهما من الموحدين ، ولحقا بحصن ببشتر من معاقل ابن عزون ، ثم سارا ومعهما ابن عزون فى قواته ، وحاصروا الجزيرة حتى افتتحوها ، وقتلوا من بها من المرابطين . ثم عبر عبد العزيز وعيسى البحر بعد ذلك إلى المغرب ولحقا بمراكش حيث كان من أمرهما ومصيرهما ماسبق ذكره فى أخبار الخوارج على عبدالمؤمن (١)

ولما علم عبد المؤمن بما حدث فى إشبيلية وغربى الأندلس ، بادر فبعث جيشاً من الموحدين إلى شبه الجزيرة ، بقيادة يوسف بن سليمان ، وندب برّازاً ابن محمد المسّوفى لشئون الجباية بالأندلس . وسار يوسف فى قواته أولا إلى لبله ، حيث قضى على ثورة البطروجى وأخضعه ، وتلا ذلك إخضاعه لطلياطة ، وحصن القصر . ثم سار إلى قاصية الغرب ، فأخضع مدينة طبيرة ، وأعلن صاحبها عامل ابن مهيب الطاعة ، وأعلن على بن عيسى بن ميمون صاحب شنتمرية الغرب وقادس كذلك عودته إلى الطاعة ، وحذا حذوه محمد بن على بن الحجام صاحب بطليوس ، وبعث بطائفة من الهدايا الفخمة برسم الخليفة عبد المؤمن ، فقبلت وكان لها وقع حسن . ولما دعيت وفود الأندلس إلى مقابلة الخليفة عبد المؤمن ، وهو بسلا فى سنة ٥٤٥ ، سار زعماء الغرب ، الذين تقدم ذكرهم وفى مقدمتهم سيدراى

( ١ ) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٤ .

ابن وزير صاحب باجة ويابرة ، إلى لقائه ، ولم يتخلف منهم سوى ابن قسى صاحب شلب وميرتلة[1] . وكان ابن قسى ، حينما رأى تقدم الموحدين فى أنحاء الغرب ، وانضواء زعمائه تحت لوائهم ، قد خشى البادرة على نفسه ،وهو لم يكن حين أعلن طاعته للموحدين لأول مرة ، مخلصاً لهم ، ولا مؤمناً بدعوتهم ، وإنما كان مقصده فقط أن يستعين بهم ، وأن يأمن سطوتهم ، فلما رأى أنه عاجز عن مقاومتهم ، بعد أن خضع كل زملائه زعماء الغرب ، تحول إلى النصارى ، وبعث إلى ألفونسو هنريكيز ملك البرتغال ، وهو الذى تسميه الرواية العربية بابن الرنق وابن الرنك[2] يناشده التحالف والعون ، فاستجاب ألفونسو إلى دعوته ، وبعث إليه بفرس من أفراسه ، وترس ورمح ، ووعده بالعون المنشود ، فلما رأى أهل شلب تحول ابن قسى إلى النصارى ، سخطوا عليه ، ودبروا مؤامرة للتخلص منه ، بزعامة ابن المنذر الأعمى ، زميل ابن قسى وحليفه السابق ، وكان الموحدون قد أطلقوا سراحه من سجن بطليوس ، فعاد إلى شلب وأقام بها ، حسبما تقدم ، وشغل المتآمرون الحسين ولد ابن قسى بنزهة أعدوها له ، ثم احتالوا على دخول القصر ، وهو المسمى بقصر الشراجب ، واقتحمت طائفة منهم الحصن ، وفتكوا بابن قسى ، ورفعوا رأسه على الرمح المهدى إليه من ملك النصارى ، ونصبوا مكانه لرياستهم ابن المنذر ، معلنين ولاءهم للدعوة الموحدية ، وذلك فى جمادى الأولى من سنة ٥٤٦ هـ ( سبتمبر ١١٥١ م ) ، وبذلك انتهت رياسة ابن قسى ، ورياسة المريدين الذين كانوا أول من أعلن الخروج والثورة على المرابطين فى ولاية الغرب .

وكان ابن قسى عالماً ضليعاً ، ولاسيما فى علم الكلام والتصوف ، وشاعراً جزلا . وقد أورد لنا ابن الأبار طائفة من نظمه . فن ذلك قوله يشيد بثورته :

وما تدفع الأبطال بالوعظ عن حمى ‏ ‏ ولا الحرب تطفأ بالرّقا والتمائم
ولكن ببيض مرهفـات وذبّـل ‏ ‏ موازدها ماء الطلى والغلاصم
ولا صلح حتّى نطعن الخيل بالقنـا ‏ ‏ ونضرب بالبيض الرقاق الصوارم

---

( ١ ) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٥ .

( ٢ ) ويسميه ابن الأبار بابن الريق ( الحلة السيراء ص ٢٠٠ ) . ويسميه ابن الخطيب بصاحب قلمرية Coimbra ، وقد كانت يومئذ عاصمة إمارة البرتغال الناشئة ( أعمال الأعلام ص ٢٥١ ) .

ونحن أناس قد حمتنا سيوفنا عن الظلم لما جرتم بالمظالم[١]

وكان ابن المنذر، وقد فصلنا أخباره فيما تقدم، رجلا قوى الشكيمة لا تؤمن عواقبه، وكان الموحدون بالرغم من تمسكه بدعوتهم، يخشون انتقاضه وتقلباته، وكان سيدراى بن وزير من جهة أخرى يطمح بعد مصرع ابن قسى إلى احتلال شلب وضمها إلى أملاكه، ومن ثم فإنه لم يمض سوى قليل على ولاية ابن المنذر، حتى سار إلى شلب وتغلب عليها، وذلك حسبما فصله ابن صاحب الصلاة فى كتابه «ثورة المريدين»، وهو مؤلف لم يصل إلينا. ولم يعترض الموحدون على هذا التغيير فى رياسة شلب، ولكنهم خشوا أن يعود ابن المنذر الأعمى، إلى الثورة مرة أخرى، فنقلوه إلى إشبيلية ليقيم بها تحت رقابتهم. وبعد حين غادرها ابن المنذر، وعبر البحر إلى المغرب، وقصد إلى سلا، وأقام بها حتى توفى فى سنة ٥٥٨ هـ.

وكذا كان ابن المنذر، مثل زميله ابن قسى، عالماً وأديباً شاعراً، وقد نقل إلينا ابن الأبار طائفة من نظمه، فمن ذلك قوله يخاطب وزيره أبا بكر ابن المنخل، وقد كان أيضاً من شعراء الغرب فى هذا العصر:

لئن غض منك الدهر يوما بأزمة فحسبك أن تلقى وانت مبور
فليس أساً يبقى وإن جل مثل ما على كل حال لا يدوم سرور
أيوجد فى الدنيا من الناس صاحب إذا أعرضت أبقى لذاك عسير
طلبت عزيزاً لا ينال فإن يكن فإنّ أبا بكر بذاك جدير
رضيت به حظاً من الناس كلهم فما بعده حرٌّ إليه نُشير[٢]

— ٢ —

نعود الآن بعد أن استعرضنا تطور الحوادث فى غربى الأندلس، وما انتهت إليه من بسط الموحدين لسلطانهم عليه، منذ إشبيلية حتى شلب فى قاصية ولاية الغرب، إلى تتبع الحوادث فى وسط الأندلس.

تركنا قرطبة، وقد استعاد الأمير يحيى بن غانية المرابطى سلطانه عليها، بمؤازرة القيصر ألفونسو السابع ملك قشتالة، وغادرها زعيمها السابق القاضى

---

(١) راجع الحلة السيراء ص ٢٠٠ و٢٠١ و٢٠٤، وأعمال الأعلام ص ٢٥١ و٢٥٢.
(٢) الحلة السيراء ص ٢٠٤ — ٢٠٦.

بن حمدين ، بعد أن تخلى عن مؤازرته النصارى لما رأوه من تقدم الموحدين فى ولاية الغرب ، واستيلائهم على إشبيلية ، واضطرارهم بذلك إلى مهادنة ابن غانية ، وحماية سلطانه على قرطبة ( أوائل سنة ٥٤١ ﻫ ) . وكان ألفونسو السابع يرى بحق ، أن ابن غانية يمثل آخر ماتبقى من سلطان المرابطين فى شبه الجزيرة ، وأنه أضحى رمز المقاومة لزحف الموحدين إلى أواسط الأندلس ، وكان ابن غانية يشعر فى كثير من المرارة ، أنه أضحى فى الواقع تابعاً لملك قشتالة ، وأن مصيره فى قرطبة وفى الأندلس أضحى رهيناً بمشيئته . واستمر ابن غانية عدة أشهر أخرى يصانع النصارى ، وملك قشتالة يشتط فى مطالبه ورغباته ، ويضيق عليه فى تصرفاته . وأخيراً استدعاه ألفونسو إلى حصن أندوجر ، وكان حاكمه ، وهو رجل يعرف بالعربى ، منضوياً تحت لواء النصارى ، فسار ابن غانية إلى أندوجر ، وهناك طالبه ملك قشتاله ، بالتنازل له عن بيّاسة وأبّده ، لقاء الاستمرار فى محالفته وحمايته ، فاضطر ابن غانية إلى القبول والتخلى عن هاتين القاعدتين الهامتين . ثم عاد ملك قشتالة فطالب ابن غانية ، بالتخلى له عن مدينة جيّان ، أومضاعفة الجزية المفروضة عليه . والظاهر أن ابن غانية وعد ملك قشتالة ، بإجابة مطلبه واستمهله بعض الوقت . واتصل فى نفس الوقت سراً ، ببراز بن محمد المسوفى والى إشبيلية الموحدى ، وكان حسبما تقدم من القادة المرابطين السابقين ، واجتمع الإثنان خفية بمدينة إستجة ، واتفقا على أن يقوم ابن غانية بتسليم قرطبة وقرمونة للموحدين . ويقول لنا ابن الخطيب بأن ابن غانية وصله خطاب عبد المؤمن « بما أحب » دون أن يوضح لنا ما الذى طلبه ابن غانية مقابل هذا التخلى ، وربما كان ذلك هو معاونة الموحدين له على الاحتفاظ بجيان . ومن ثم فإنه لما بعث ملك قشتالة سفراءه إليه يطالبونه بالتعجيل بتسليم جيان ، قبض عليهم وبعثهم إلى قلعة بنى سعيد ( قلعة يحصب ) فاعتقلوا بها تحت حراسة مشددة ، واضطر النصارى إلى الإفراج عن جيان[1] . وعلى أثر ذلك غادر ابن غانية قرطبة إلى غرناطة ، وهى آخر ما بقى للمرابطين من القواعد فى شبه الجزيرة ، وذلك فى جمادى الثانية سنة ٥٤٣ﻫ ، وكان يمتنع بها واليها ميمون بن يدّر اللمتونى مع جماعة من قادة المرابطين.

---

( ١ ) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٥ ، والإحاطة ( مخطوط الإسكوريال السالف الذكر ) لوحة ٢٧٢ فى ترجمة عبد الملك بن سعيد . ولوحة ٣٩٢ فى ترجمة ابن غانية .

وكان ابن غانية يرمى وفقاً لرواية صاحب القرطاس إلى ان يحمل يدر اللمتونى على أن يسلم غرناطة للموحدين ، على غرار قرطبة وقرمونة ، ووفقاً لرواية ابن خلدون على أن يحمله على « مثل حاله مع الموحدين » . ويزيد ابن الخطيب الأمر وضوحاً ، فيقول لنا إن ابن غانية كان يرمى إلى أن يجتمع فى غرناطة بأعيان لمتونة ومسّوفه ، فى شأن تصريف الأمر إلى الموحدين . وقد يفهم من ذلك أن ابن غانية انتهى بإعلان طاعته للموحدين وانضوى تحت لوائهم(١) . بيد أنه مما ينقض هذه الرواية ما يذكره لنا ابن الخطيب فى موضع آخر من أن ابن غانية ، بعد أن حل بغرناطة ، أقام بها شهرين ثم مرض وتوفى ، وكان يقول للمرابطين ، فى مرض موته ، وقد عول على جعل غرناطة معقلا للدعوة المرابطية : « الأندلس درقة وغرناطة قبضتها ، فإذا جشمتم يا معشر المرابطين القبضة لم تخرج الدرقة من أيديكم » . وهو ما ينفى عن ابن غانية أية شبهة فى الانحراف عن الدعوة المرابطية(٢) .

وكانت وفاة يحيى بن غانية فى الرابع والعشرين من شعبان سنة ٥٤٣ هـ ( ٧ يناير ١١٤٩ م ) . ودفن بداخل قصبتها بالمسجد المتصل بقصر باديس ابن حبوس ، ومجاوراً له فى مدفنه ، وكان قبره مزاراً معروفاً يتبرك به حتى أيام ابن الخطيب ( أواسط القرن الرابع عشر )(٣) .

وعلى أثر وفاة ابن غانية ، غادر مولاه العلج فلّوج غرناطة إلى حصن بنى بشير ، وكان سيده قد ولاه إياه ، وأودع فيه أمواله وذخائره ، وكانت مقادير طائلة واستعان على حفظه بجماعة من النصارى . ثم خطر له أن يلحق بابن أخى مولاه إسحق بن غانية . واستخلف على الحصن رجلا من أهل سرقسطة يعرف بابن مالك ، فقبض عليه إسحق وعذبه حتى مات . ولما علم الموحدون بما حدث ، سارت منهم سرية من مدينة لوشة القريبة ، وغلبوا على الحصن ، واستولوا على سائر ما كان فيه من الأموال والحلى والثياب وكان منها ذخائر جليله(٤) .

وكان يحيى بن على بن غانية أميراً نابهاً ، وجندياً وافر الجرأة والشجاعة ، والخبرة بأساليب الحروب ، وكان فى نفس الوقت سياسياً فطناً ، وحاكما وافر

---

(١) روض القرطاس ص ١٢٥ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٥ ، وابن الخطيب فى الإحاطة ( مخطوط الإسكوريال ) لوحة ٣٩٢ .

(٢) ابن الخطيب فى الإحاطة ( ١٩٥٦ ) ج ١ ص ١٠٣ و ١٠٤ .

(٣) ابن الخطيب فى الإحاطة ( مخطوط الإسكوريال ) لوحة ٣٩٢ .

(٤) ابن الخطيب فى الإحاطة ( مخطوط الإسكوريال ) لوحة ٣٦٠ .

الكفاية والمقدرة ، وقد استعرضنا فيما تقدم مراحل حياته ، وما وليه من مختلف المناصب ، وما ساهم به فى محاربة النصارى ، ولاسيما موقعة إفراغة (٥٢٨ هـ) التى أحرز فيها المرابطون نصرهم الباهر على ألفونسو المحارب . ويلخص لنا ابن الخطيب خلاله فى قوله : «كان بطلا شهماً ، حازماً ، كثير الدهاء والإقدام ، والمعرفة بالحروب ، مجمعاً على تقدمه» . أما أخوه الأصغر محمد بن على بن غانية ، فقد ولى حكم الجزائر الشرقية منذ سنة ٥٢٠ هـ ، أيام على بن يوسف ، ولبث على ولايتها مدة طويلة حتى تعثرت أحوال الدولة المرابطية ، وانهارت دعائمها ، فاستقل بحكم الجزائر . وكان لعقبه بها دولة ، استمرت دهراً حصناً للدعوة المرابطية ، ومركزاً للكفاح المرير ضد الدولة الموحدية .

وكان ملك قشتالة فى تلك الأثناء ، يرقب الحوادث ، ويتربص الفرص . فما كاد ابن غانية ، يتخلى للموحدين عن قرطبة ، ويغادرها إلى غرناطة ، حتى زحف القشتاليون على عاصمة الخلافة القديمة ، والظاهر أنها كانت عندئذ بلا دفاع ، أو كانت لديها حامية صغيرة ، لا تستطيع دفعاً للنصارى ، فدخلها القشتاليون للمرة الثانية خلال عامين ، وذلك فيما يبدو فى جمادى الثانية أو رجب سنة ٥٤٣ هـ (نوفمبر أوديسمبر سنة ١١٤٨ م) . بيد أنه كان احتلالا قصير الأمد ، ذلك أن الموحدين مذ حصلوا على موافقة ابن غانية ، على التخلى لهم عن قرطبة ، لم يفتهم أن النصارى ، وهم على مقربة منها فى حصن أندوجر ، يرقبون الفرصة لاحتلالها ، ومن ثم ، فإن برّازاً المسّوفى والى إشبيلية ، جهز فى الحال حملة موحدية بقيادة أبى الغمر بن عزون صاحب شريش ، تؤازرها قوة أخرى بقيادة يوسف البطروجى صاحب لبلة ، وكتب إلى الخليفة عبد المؤمن فى نفس الوقت لإمداده بالعساكر ، فبعث إلى الأندلس على وجه السرعة ، جيشاً موحدياً بقيادة أبى زكريا يحيى يومور . وزحفت العساكر الموحدية صوب قرطبة ، فلما شعر ملك قشتالة بوفرة القوات الموحدية الزاحفة ، لم يرد أن يشتبك وهو بعيد عن قواعده ومملكته ، فى معارك لاتؤمن عواقبها ، فغادر قرطبة فى قواته لأيام قلائل من احتلالها ، ودخل الموحدون قرطبة ، وبسطوا سلطانهم عليها ، وذلك فى شهر رجب أو شعبان سنة ٥٤٣ هـ. ولم تمض أشهر قلائل على ذلك حتى احتلوا مدينة جيان ، بعد أن لبث القشتاليون يهددونها حيناً ، ويحاولون احتلالها[1] . ثم استولوا

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٥ ، وروض القرطاس ص ١٢٥ .

على بياسة وأبدة من النصارى ، وبذلك امتد سلطان الموحدين إلى أواسط الأندلس ، ولم يبق بيد المرابطين سوى مدينة غرناطة ، التى استطاعوا أن يحتفظوا بها بضعة أعوام أخرى .

— ٣ —

وفى تلك الآونة بالذات ، حدثت فى شرقى الأندلس عدة حوادث هامة ، أولها قيام محمد بن سعد بن مردنيش فى بلنسية ومرسية ، وبسطه لسيادته على شرقى الأندلس (٥٤٢ هـ) ، ومحالفته للنصارى ؛ وثانيها سقوط القواعد الإسلامية الباقية من الثغر الأعلى فى أيدى النصارى ، وهى طرطوشة ولاردة وإفراغة ومكناسة (٥٤٣ — ٥٤٤ هـ) . وقد كان من الواضح منذ البداية ، ان ابن مردنيش ، وهو يمثل الفكرة القومية الأندلسية ، سوف يخوض مع الموحدين صراعاً لاهوادة فيه ، وهو قد بدأ هذا الصراع بالفعل ، منذ شعر بتوطد سلطانه واجتماع قواته، فسار إلى بسطة ، ووادى آش، وانتزعهما من صاحبهما ابن ملحان الطائى فى سنة ٥٤٦ هـ (١١٥٣ م) وذلك حسبما فصلنا من قبل . وهكذا امتدت أملاك ابن مردنيش إلى مقربة من جيان ، التى كانت يومئذ قاعدة مو[illegible]ية . بيد أنه وقعت فى نفس هذا العام فى بلنسية وابن مردنيش بعيد عنها ، ثورة داخلية، انتهت بقيام زعيم يدعى أبا مروان عبد الملك بن شلبان فى حكمها . فارتد ابن مردنيش بقواته ليحاصر بلنسية مدى حين . ولم يشر إلى قيام هذه الثورة ، ويقدم إلينا بعض تفاصيلها سوى ابن الأبار(١) . بيد أن هنالك نص آخر يشير إليها من زاوية أخرى ، وهو عبارة عن رسالة موحدية ، بعث بها الخليفة عبد المؤمن إلى « الشيخ أبى عبد الله محمد بن سعد » من حضرة مراكش مؤرخه فى ١٦ جمادى الآخرة سنة ٥٤٨ هـ . والظاهر من نص هذه الرسالة ، أن هذه الثورة التى كانت فى بلنسية ضد محمد بن سعد ، كانت تعلن « التوحيد » شعارا لها ، وأن ابن مردنيش ، حينما تم له اقتحام بلنسية ، وإخضاع الثورة ، قد نكل بالثوار ، ولاسيما الذين أبدوا ميلهم للدعوة الموحدية . كذلك يبدو من هذا النص أن أهل مدينة لورقة قد أبدوا نفس الميل إلى الدعوة الموحدية، وأن ابن سعد قد نكل بهم أسوة بما فعله بأهل بلنسية ، ويدعو الخليفة عبد المؤمن فى رسالته ابن سعد إلى اعتناق أمر المهدى ، والدخول فى الدعوة الموحدية ، ويلفت نظره

(١) هذا ما ورد فى التكملة (القاهرة) — الجزء الثانى — رقم ١٣١٣ و١٣٩٤ .

إلى أنه لم يفز أحد من زعماء الأندلس ببغيته إلا من دخل فى هذه الدعوة ، وأن من خرج عليها منهم ، كان جزاؤه سوء المنقلب ، ثم يدعوه إلى المبادرة إلى الاعتبار ، ويلومه بما كان منه فى حق أهل بلنسية « حينما أظهروا كلمة التوحيد » وكذلك أهل لورقة « حينما ظهر أخلاصهم »[(١)] .

وقد كان هذا فيما يبدو ، أول احتكاك بين ابن سعد وبين الموحدين . وقد كان الموحدون يعتقدون أنهم سوف يجدون فى شرق الأندلس ، نفس الطراز من الزعماء الثائرين ، الذى لقوا فى غربى الأندلس ، يعبرون البحر إليهم ، ويلتمسون إلى خليفتهم العون والإمداد ، ولكن هذا الأمل لم يتحقق فى ابن مردنيش ، وهو سوف يغدو منذ الآن فصاعدا ، ألد خصومهم ، وأصلبهم عوداً ، وأرسخهم عزماً ، فى مقاومة الدعوة الموحدية فى شبه الجزيرة .

وفى أواخر سنة ٥٤٧ هـ ( أواخر ١١٥٢ م ) تقدمت القوات الموحدية من أنتقيرة ، وكذلك من الفرنتيرة نحو مالقة ، واستولت عليها ، وذلك عقب مصرع صاحبها المتغلب عليها القاضى أبى الحكم بن حسون ، وتم لهم بذلك الاستيلاء على كورة رية كلها .

وكانت سنة ٥٤٩ هـ ( ١١٥٥ م ) سنة مليئة بالأحداث الهامة بالنسبة للموحدين والدولة الموحدية . ويمكننا أن نعتبر أن أهم حادث وقع فيها ، هو إسناد عبد المؤمن ولاية عهده لولده البكر محمد . ونحن نعرف أن الدولة الموحدية ، قامت على أسس دعوة دينية ، وأن عبد المؤمن ، حينما أتيح له أن يجتنى تراث المهدى ابن تومرت ، لم يكن قيامه فى الخلافة نتيجة وراثة أو ولاية عهد ، وإنما كان فى الظاهر على الأقل نتيجة لاختيار مختلف القبائل والطوائف الموحدية ، وتفضيلها لعبد المؤمن ، بالرغم من كونه لم يكن من قبيلة المهدى ، لخلاله ومقدرته ، ولأنه كان بالنسبة للمهدى ، أوثق أصحابه وتلاميذه صلة به ، وآثرهم لديه . ولكن الحوادث تطورت منذ وفاة المهدى ، تطوراً عميقا ، وقام عبد المؤمن فى قيادة الدولة الموحدية الناشئة بأعظم دور ، وأبدى فى مصارعة خصومها وفى توطيد دعائمها مقدرة فائقة ، وأضحى عاهلها القوى يقود مصايرها بعزم لامثيل له ، وحوله تلتف سائر الزعامات الموحدية ، تحبوه بمطلق تأييدها وطاعتها .

---

( ١ ) راجع رسائل موحدية التى سبقت الإشارة إليها ، الرسالة العاشرة ص ٣٦ و٣٧ . وقد نشرت هذه الرسالة أيضاً فى صبح الأعشى ج ٦ ص ٤٤٣ .

ونحن نذكر أن عبد المؤمن ، بعد أن أتم فتح بجاية ، وقضى على ثورة العرب فى إفريقية ، وعلى ثورة القبائل الخارجة فى أرض السوس وغيرها ، غادر مراكش إلى تينملّل ، فزار قبر المهدى ، وأمر ببناء مسجدها وتوسيع خططها ، ثم سار منها إلى سلا ، لإصلاح خططها أيضاً ، وليتم المنشآت التى بدأها فى عدوتها الرِّباط ، وكان ذلك فى أوائل أواسط سنة ٥٤٩ هـ . ففى تلك الفترة ، وقعت تولية عبد المؤمن لولده أبى عبد الله محمد لولاية العهد . ولم يقدم لنا البيذق وهو المؤرخ المعاصر وشاهد العيان ، أى تفصيل عن هذا الحادث الجلل ، فى تاريخ الدولة الموحدية ، مكتفياً بالإشارة إليه فى بضع كلمات[1] . بيد أنه يستفاد من مختلف التفاصيل ، التى وردت فى رسائل الخليفة عبد المؤمن ذاته ، أن هذا التعيين قد اتخذ سبيل الشورى والاختيار من جانب الموحدين ، فهو يقول فى رسالته التى وجهها عن هذا الموضوع إلى أهالى سبتة وطنجة ، ومن بها من الطلبة والأشياخ والموحدين ، إن أولياء هذه الدعوة من القبائل والعشائر الشرقية المختلفة ، العربية والصنهاجية ، تقدموا باقتراحهم ورغبتهم فى هذه البيعة بولاية العهد ، وبعثوا إليه بذلك مراراً وتكراراً ، وأنهم لما وفدوا عليه بسلا ، أبدوا رغبتهم صراحة ، واختاروا لذلك ولده محمداً بالذات ، ورغبوا إليه فى أن يتولى هو حكم بلادهم ، وأنه أى عبد المؤمن لم يكن له فى ذلك كله قصد ينويه ، وأنه رأى بعد استخارة الله تعالى ، أن يجمع حوله بسلا شيوخ الموحدين وطلبتهم وعمالهم ، وأن يشاورهم فى هذا الأمر . وتقدمهم الشيخ الأجل أبو حفص عمر ابن يحيى ، وأكد أنهم هم المتقدمون بذلك ، وأنهم يرون وجوبه وتنفيذه ، وأنهم هم السابقون إلى مبايعته على حدود الشرع ورسومه ، وأكد سائر الطلبة والفقهاء ما تقدم ، واتفقوا جميعاً على وجوب تحقيقه ، « لأن فيه من إبقاء الأمر فى نصابه ، وإتيان الحق من أبوابه ، واتباع الدين من أخلاّئه وأحبابه ، وقطع كل منافق مرتاب عن أسباب نفاقه وارتيابه ، والنظر فيما يجمع كلمة الموحدين ، ويضم شمل المؤمنين ، بأوائل هـذا القصد الصالح وأعقابه ، ما ابتنى عليه اتفاقهم وإصفاقهم ، واسترسل فيه تعيينهم وإطلاقهم » . ثم يزيد عبد المؤمن على ذلك ، بأن ذلك لم يكن له فى نفسه « عقد سابق ، ولا نظر لاحق ، وأنه لما رأى اتفاق كلمة الموحدين على ربط هذا الأمر وعقده ، استخار الله فى الاتفاق

(١) كتاب أخبار المهدى ابن تومرت ص ١١٨ .

معهم على إنفاذه ؛ وبدأ البيعة الشيخ الأجل أبو حفص ، وتتابع من بعده الأشياخ والطلبة ، ومن حضر من قبائل الموحدين ، قبيلا بعد قبيل[1] ، وكتب بولاية العهد إلى سائر البلاد .

وإنه لما يلفت النظر ، أن الخليفة عبد المؤمن يؤكد فى رسالته غير مرة ، أنه لم يفكر ولم يكن له قصد سابق فى هذا التعيين لولده ، ثم هو يعود فيؤكد فى رسالة ثانية وجهها إلى أهل سبتة ، وإلى الطلبة والأشياخ ، أنه لم يكن عنده فى ذلك « قصد متقدم ، ولا عهد متوهم ، لكنه أمر الله أراده فأتمه ، واختاره لعباده فشمله بآمالهم وعممه »[2]. نقول إن فى هذا التنصل من جانب الخليفة الموحدى ، ما يدلى بأنه كان يشعر بخطورة هذه الخطوة التى عمد إليها فى اختيار ولده لولاية العهد ، ويخشى أن يبدو فى اتخاذها ملكاً دنيوياً ، يعمل لتخليد السلطان فى عقبه ، وليخلق منهم أسرة ملوكية . وقد رأينا فيما تقدم كيف أنه حينما توفى المهدى ابن تومرت فى رمضان سنة ٥٢٤ﻫ ( ١١٣٠م ) استطاع عبد المؤمن دون غيره من أشياخ الموحدين ، أن يفوز بالخلافة ، وأن يجتنى تراث المهدى الدينى والسياسى ، وأن يتم بعد جهود طويلة شاقة ، مهمته الأساسية فى القضاء على الدولة المرابطية ، وفى توطيد سلطان الدولة الموحدية ، ولم يكن ثمة شك فى أن تحقيق هذه المهمة الكبرى ، يرجع فى معظم نواحيه إلى عبقرية عبد المؤمن ، ومقدرته العسكرية والسياسية ، وإذن فقد كان من الطبيعى أن يتطلع عبد المؤمن إلى الاحتفاظ بثمار جهاده ، وإلى أن يورثها لبنيه وعقبه .

بيد أن هناك رواية تقول لنا إن عبد المؤمن لم يحقق ولاية العهد لولده ، نتيجة للشورى ونزولا على رغبة الأشياخ والقبائل ، حسبما يؤكد لنا فى رسائله ، ولكن تحقيقها كان بالعكس نتيجة لترتيب سابق ، دبره عبد المؤمن بالتفاهم مع بعض أنصاره . وذلك أن عبد المؤمن حينما شعر بتوطد مركزه ، وكثر أولاده من حوله ، قرر أن يستبقى الملك فى عقبه ، واستدعى أمراء العرب من بنى هلال وزغبة وعدى وغيرهم ، ووصلهم وأحسن إليهم ، ودفع إليهم من يقول لهم ، أن يطلبوا إلى عبد المؤمن أن يختار لهم ولى عهد من بنيه ، يرجع الناس إليه من بعده ، ففعلوا ما طلب إليهم ، فلم يجبهم عبد المؤمن فى بادئ الأمر ، إكراماً لأبى حفص

---

( ١ ) مجموعة الرسائل الموحدية السالفة الذكر — الرسالة الثالثة عشرة ، ص ٥٦ — ٦٠ .

( ٢ ) الرسائل الموحدية — الرسالة الرابعة عشرة ، ص ٦٢ .

عمر بن يحيى الهنتاني ، لعلو منزلته بين الموحدين ، وكان يعتبر ثانى رجل فى الدولة بعد عبد المؤمن ، وكان من المتفق ، يوم تولى عبد المؤمن الخلافة ، أن يلى عمر الأمر من بعده ، ومن ثم فإن عبد المؤمن أجاب من طالبوه بترشيح ولده ، أن الأمر ليس له ، وإنما هو لأبى حفص عمر . فلما وقف أبو حفص على ذلك ، خشى عاقبة هذا التوريط ، فمثل أمام عبد المؤمن وأعلن خلع نفسه من الولاية ، فعندئذ بويع لمحمد بن عبد المؤمن بولاية العهد ، وكتب بذلك إلى جميع الجهات ، وذكر اسمه فى الخطبة إلى جانب اسم أبيه[1] .

ولم يكتف عبد المؤمن بهذه الخطوة الحاسمة فى تحقيق ولاية العهد لولده ولكنه قرنها فى نفس الوقت (سنة ٥٤٩ هـ) بخطوة أخرى ، هى تولية أولاده حكم البلاد ، فندب ولده وولىّ عهده السيد أبا عبد الله محمد ، لحكم بجاية وأعمالها ، واستوزر له يخلف بن الحسين ؛ وولده السيد أبا الحسين لحكم فاس وأعمالها ، واستوزر له يوسف بن سليمان ؛ وولده السيد أبا حفص لحكم تلمسان واستوزر له أبا محمد بن وانودين ، وعين لكتابته الفقيه أبا الحسن بن عبد الملك ابن عياش ؛ وولده السيد أبا سعيد لحكم سبتة ومالقة والجزيرة الخضراء ، واستوزر له محمد بن سليمان وسعيد بن ميمون الصنهاجى ، ومن الكتاب الفقيه أبا الحكم ابن هرودس ، والفيلسوف أبا بكر بن طفيل . ويضع البيذق تاريخ هذه التولية فى سنة ٥٤٨ هـ ؛ ويزيد على ذلك بأن الخليفة أعطى ولده يوسف حكم إشبيلية . ولكن سنرى أن هذه التولية تمت بعد هذا التاريخ . وولى ولده أبا الربيع حكم تادلا ، وولده أبا زيد أرض السوس ، ويقدم إلينا البيذق بهذه المناسبة بعض البيانات عن أولاد الخليفة وأمهاتهم ، فيقول لنا إن عمر ويوسف شقيقان وأمهما صفية بنت أبى عمران . وفى هذا العام أعنى فى سنة ٥٤٨ هـ ، وُلد للخليفة ولده يعقوب بقصر عبد الكريم ، وأمه جارية أهداها إليه ابن وزير ، وولد عمر الرشيد فى عرض البحر ، وأمه من قادس ، وكان أبو زيد عند ولايته صبياً صغيراً ، وأمه لمطية من قبيلة لمطة . ومن أولاد عبد المؤمن أيضاً السيد اسماعيل ، وأمه بنت ماكسن بن المعز ، وعلى وأمه فاسية تدعى فاطمة ، ومحمد وأخوه موسى وأمهما من بلاد السوس[2] .

---

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ٧٩ .

(٢) راجع أخبار ابن تومرت ص ١١٦ و ١١٧ ، وابن الأثير ج ١١ ص ٧٩ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٦ ، وروض القرطاس ص ١٣٦ و ١٣٧ .

وبعد أن انتهى عبد المؤمن من عقد البيعة بولاية العهد لولده محمد ، وتولية أولاده الآخرين حكم البلاد ، أخذ فى النظر فى شئون الأندلس ، وتوجيه البعوث إلى حمايتها وضبط أمورها . وكانت قد حدثت فى ذلك الحين فى ولاية الغرب بعض الحوادث المقلقة . ومن ذلك أن علياً الوهيبى أحد ثوار الغرب ، هاجم فى صحبة مدينة لبلة ليلا ، وأخذ أهلها على غرة وفتك بكثير منهم ، فالجأ الناس إلى قصبة الموحدين . فحاصر الوهيبى القصبة ، وأرهق من بها ، فلما وقف يحيى بن يومور والى قرطبة وإشبيلية الموحدى على ماحدث ، غادر من فوره قرطبة فى عسكر من الموحدين ، وسار إلى لبلة ، فبادر الوهيبى بالفرار ، وخرج أهل لبلة فى اليوم التالى ، معتذرين طائعين ، فلم يقبل لهم عذراً ، واعتبرهم جميعاً مذنبين ، وأوقع السيف فيهم أجمعين ، ولم يرحم منهم أحدا ، وكان ممن قتل من أعيان فقهائهم ، الفقيه أبو الحكم بن بطال المحدث ، وأبو عامر بن الحد . وتقدر الرواية من قتل من أهل لبلة فى ذلك اليوم بثمانية آلاف ، ومن أحوازها بأربعة آلاف ، ثم بيع نساؤهم وأولادهم . وكان مع ابن يومور فى تلك الوقيعة أبو الغمر بن عزون ، وهو الذى أشار عليه بارتكاب هذا الجرم . ووقع الفتك بأهل لبلة ، على هذا النحو فى الرابع عشر من شعبان سنة ٥٤٩ هـ . فلما بلغ عبد المؤمن ما فعله ابن يومور ، وما ارتكبه من شنيع السفك بأهل لبلة بمحض رأيه واستبداده ، بعث أبا محمد عبد الله بن أبى حفص إلى إشبيلية ومعه أمر باعتقال ابن يومور ، فاعتقله بمعاونة برّاز بن محمد ، وأخذاه يوم الفطر مكبلا ، وبعثا به إلى مراكش فى صحبة عبد الله بن سليمان ، فاعتقل بمنزله ، واستمر على ذلك حيناً إلى أن زار الخليفة قبر المهدى ، وسار ابن يومور فى ركبه ، فعفا عنه وأمنه ، وأبقى عليه حساب الآخرة ، ثم بعثه إلى تلمسان صحبة ابنه السيد أبى حفص ضمن أشياخ الموحدين الذى ساروا فى رفقته(١) .

وفى آخر هذا العام ، وفد ابن وزير صاحب باجة ويابرة إلى مراكش ، مستغيثاً بالخليفة من أعمال ملك البرتغال ألفونسو هنريكيز ، وهو المسمى فى الرواية العربية ابن الرنك ، أو ابن الرنق ، وتفاقم عدوانه على الثغور ودأبه على غزو أراضيهم والعيث فى بسائطهم ، وإتلاف زروعهم ، وتشتيت شملهم ، فوعده الخليفة

---

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٩ و ٣٠ ، وروض القرطاس ص ١٢٧ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٦ .

بالعون ، وردع العدو وتحقيق النصر الذى يؤمل ، وأمر بالكتب بذلك إلى أهل يابرة وباجة ، فوجهت إليهم الكتب فى الثالث والعشرين من المحرم سنة ٥٥٠ هـ[١].

* * *

وزار عبد المؤمن قبر المهدى فى هذه السنة ، ثم غادر تينملل إلى سلا ، وبقى بها حسبما يحدثنا البيذق مدى عامين ، ثم عاد إلى مراكش ، وأمر بأن يغرس فى خارجها بستان عظيم ، أطلق عليه اسم « شنطلوليه »[٢]، وعنى بتخطيط هذا البستان ( أو البحيرة كما كانت تسمى الحديقة يومئذ ) أحمد بن ملحان صاحب وادى آش السابق، وأجرى إليه الماء من أغمات، ومن عيون كثيرة أنشأها ، وكان قد وفد على مراكش بعد استيلاء ابن مردنيش على أراضيه فى سنة ٥٤٦ هـ ، واستعمل فى إنشاء البستان وغرسه ، لما له فى ذلك من خبرة هندسية فائقة[٣]. وزود هذا البستان الضخم ، بسائر الغروس من الفواكه والأزهار والرياحين ، والأشجار النادرة ، ولم يمض سوى قليل حتى غدا بجمال تنسيقه ، وروعة نضرته ، وكأنه قطعة من الجنان . ويقول ابن اليسع إن هذا البستان كان يشغل مساحة قدرها ثلاثة أميال فى مثلها ، وأنه بعد عامين أو ثلاثة من غرسه كان إيراد زيتونه وفواكهه ، يبلغ ثلاثين ألف دينار مؤمنية على رخص أثمان الفواكه[٤] . ويقص علينا صاحب المعجب ، أن الوزير أبا جعفر بن عطية ، دخل على عبد المؤمن ذات يوم ، وهو جالس فى قبة مشرفة على البستان ، فسحره جمال البستان وروعته ، ولاحظ ذلك عبد المؤمن ، فأبدى له أن المنظر الحسن إنما هو شىء آخر ، وبعد ذلك بأيام قلائل أجرى الخليفة عرضاً لعسكره ، ومرت الكتائب ، متوالية فى أكمل هيئة ونظام ، وكان إلى جانبه وزيره ، فالتفت إليه قائلا « إن هذا هو المنظر الحسن يا أبا جعفر لا ثمارك وأشجارك »[٥].

وقضى عبد المؤمن بقية هذا العام ( سنة ٥٥٢ هـ ) فى الطواف بنواحى الأطلس وبلاد السوس ، ومعه طائفة من أشياخ الموحدين وطلبتهم وحفاظهم ،

---

( ١ ) البيان المغرب القسم الثالث ص ٢٠ .

( ٢ ) أخبار المهدى ابن تومرت ص ١٢٠ .

( ٣ ) أعمال الأعلام ص ٢٦٤ .

( ٤ ) الحلل الموشية ص ١١٠ .

( ٥ ) المراكش فى المعجب ص ١١٢ .

وكان يرمى بهذا الطواف إلى الاتصال بالقبائل المنضوية تحت لواء التوحيد ، فاجتمع خلال طوافه بأبناء جدميوة ، ومصمودة ، وجنفيسة ، ورجراجة ، وحاحة ، كل قبيلة منهم فى مكانها ، وأمر بأن تلقى عليهم المواعظ والتعريف بمقاصد التوحيد ، تذكيراً لهم ، وتوطيداً لعقائدهم ، وفرق فيهم الصلات . ثم وفد عليه جملة من قبائل جزولة ، طالبين الأمان ، ومؤكدين ولاءهم وإيمانهم ، وصادق توبتهم ، فحذروا من العود إلى الخلاف ، وما يترتب على ذلك من الهلكة ، وشملهم العفو والرحمة . وسار الخليفة بعد ذلك إلى تارودانت واجتمع فيها بقبائل السوس ، فأكدوا له عهد الولاء والطاعة ، وشملتهم رعايته ومننه . ولما صل إلى آنسا ، وهى طرف بلاد السوس ، اجتمعت حوله قبائل تينملل وهنتاتة ، فنالهم ما نال اخوانهم من أسباب الخير والبركة . وكان فصل الخريف قد انصرم يومئذ ، وأقبل الشتاء ، فسار عبد المؤمن إلى تينملل ليختتم جولته بزيارة قبر المهدى مرة أخرى ، وقصد إليها ، « والنفوس قد حفزها الشوق إلى مقامه ، وسارع بها الحرص إلى معالمه المقدسة وأعلامه » ، وذلك حسبما يقول لنا فى رسالته المستفيضه التى أمر بكتبها عن رحلته . وهنالك تقاطرت عليه وفود القبائل من سائر تلك الأقطار ، وازدحمت بهم الوديان والربى ، وشملوا جميعاً بالرعاية والإكرام ، « وأفهموا فى أثناء ذلك من مقاصد الحق المبين ، وعقائد الدين المتين ، ما شرح صدورهم ، وضاعف سرورهم » ، وتأكد ولاؤهم ، وتمسكهم بدعوة التوحيد .

وانتهت رحلة الخليفة ، بعد أن تحققت مقاصدها ، فى العمل على إحياء الدعوة الموحدية فى مهادها ، وتذكير مختلف القبائل بما يجب عليهم نحوها من الولاء والإخلاص ، وتحذيرهم من عواقب الخروج والردة ، وتنقية النفوس من الشوائب . وعاد عبد المؤمن إلى مراكش فى أواخر رمضان سنة ٥٥٢ هـ ، وصدرت عن رحلته بتاريخ الثامن من شوال رسالة مستفيضة ، من إنشاء كاتبه أبى عقيل بن عطية ، أخى الوزير أبى جعفر ، وهى رسالة ممتعة كتبت بأسلوب بليغ مشرق[١] .

وكان هذا العام — ٥٥٢ هـ — عام الأحداث المباركة ، فكان بعد الحج إلى تينملل ، أن أحضر المصحف العثمانى من قرطبة إلى مراكش ، تحقيقاً لرغبة الخليفة عبد المؤمن . وكان هذا المصحف أحد المصاحف الأربعة المشهورة التى

---

(١) راجع هذه الرسالة ضمن مجموعة الرسائل الموحدية ، وهى الرسالة السابعة عشرة (ص ٨١ — ٩٢) .

بعث بها الخليفة عثمان إلى الأمصار — مكة والبصرة والكوفة والشام — وكان من ذخائر بنى أمية بالأندلس، يودعونه بجامع قرطبة الأعظم. وقد وصفه لنا الإدريسى عند حديثه عن جامع قرطبة فى الفقرة الآتية : « وعن شمال المحراب بيت فيه عدد وطشوت ذهب وفضة وحسك ، وكلها لوقيد الشمع فى كل ليلة من شهر رمضان المعظم . ومع ذلك ففى هذا المخزن مصحف يرفعه رجلان لثقله ، فيه أوراق من مصحف عثمان بن عفان ، وهو المصحف الذى خطه بيمينه رضى الله عنه ، وفيه نقط من دمه . وهذا المصحف يخرج فى صبيحة كل جمعة ، ويتولى إخراجه رجلان من قومة المسجد ، وأمامهم رجل ثالث بشمعة . وللمصحف غشاء بديع الصنعة منقوش بأغرب ما يكون من النقش وأدقه وأعجبه ، وله بموضع المصلى كرسى يوضع عليه ، ويتولى الإمام قراءة نصف حزب منه ، ثم يرد إلى موضعه »[(1)].
فلما استولى الموحدون على قرطبة ، كان من أجل أمانى عبد المؤمن أن ينقل هذا المصحف إلى مراكش ، ويقال إن أهل قرطبة هم الذين عملوا على أهدائه إلى الخليفة الموحدى ، وكان إخراجه من جامع قرطبة فى اليوم الحادى عشر من شوال سنة ٥٥٢ هـ ، وحمله إلى المغرب السيدان أبو سعيد وأبو يعقوب ولدا الخليفة ، فلما وصل إلى مراكش استقبله الخليفة بأعظم آيات التبجيل والإجلال ، وصنع له كسوة عظيمة مرصعة بأنواع اليواقيت والأحجار النفيسة ، وتابوتاً من صفائح الذهب المرصع بالياقوت الأحمر ، وعمل لحمله كرسى فاخر كذلك ، وكان عبد المومن يحمله بعد ذلك فى مقدمة جيشه فى حملاته تبركاً به ، وقد حمله معه فى غزوة المهدية سنة ٥٥٤ هـ [(2)]. ولبث هذا المصحف النفيس لدى الخلفاء الموحدين زهاء قرن آخر حتى أواخر دولتهم .

وأمر عبد المؤمن فى نفس العام ، بإنشاء المسجد الجامع بمراكش ، وبدئ بإنشائه فى أوائل ربيع الآخر سنة ٥٥٣هـ ، وأنشأ له « ساباطا » يوصل إليه من القصر مباشرة ، وزوده بمنبر فخم أمر بصنعه فى الأندلس ، من خشب العود والصندل ، المغطى بصفائح الذهب والفضة ، وصنع له مقصورة من الخشب

---

(١) الإدريسى فى « وصف المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس » ص ٢١٠ و ٢١١ .

(٢) نقل إلينا المقرى رواية ابن طفيل عن قصة هذا المصحف وحمله إلى المغرب كاملة مفصلة ، ووصف كسوته الفاخرة ، وما زينت به من روائع التحف والذخائر ( نفح الطيب ج ١ ص ٢٨٤ — ٢٨٨ ) . وراجع أيضاً الحلل الموشية ص ١١٥ و ١١٦ ، والمعجب ص ١٤٢ .

ذات ستة أضلاع ، تفتح أبوابها دفعة واحدة بطريقة آلية ، وكذا المنبر لايفتح إلا عند صعود الخطيب ، بطريقة آلية كذلك . وكان الذى قام على صنع المنبر والمقصورة على هذا النحو المبتكر ، رجل فنان من أهل مالقة هو الحاج يعيش المالقى ، وهو الذى قام فيما بعد على تخطيط مدينة جبل طارق ، وصنع منارة الجامع بإشبيلية ، فى عهد الخليفة يعقوب المنصور ، حفيد عبد المؤمن . وكمل بناء المسجد الجامع فى نحو أربعة أشهر ، فى منتصف شعبان من نفس السنة ، وبذلت فى بنائه وتجميله وزخرفته جهود عظيمة وأموال جمة[١] .

— ٤ —

لما أقيل ابن يومور عقب مذبحة لبلة ، من ولاية قرطبة وإشبيلية على النحو المتقدم ، ندب الخليفة عبد المؤمن مكانه لولاية قرطبة أبا زيد عبد الرحمن بن يكيت أو يخيت ، ولولاية إشبيلية أبا محمد عبد الله بن أبى حفص بن على التينمللى ، فوصلا إلى الأندلس فى أوائل سنة ٥٥٠هـ ( ١١٥٥م )، وذهب كل منهما إلى مقر ولايته . وماكاد ابن يكيت يستقر فى قرطبة ، حتى خرج فى بعض القوات الموحدية ، وسار إلى مهاجمة الحصون النصرانية فى المناطق القريبة ، وكان القشتاليون بقيادة ملكهم ألفونسو السابع ، قد استولوا على حصن أندوجر ، وحصن البطروج القريب منه ، قبل ذلك بقليل ، فهاجم ابن يكيت ، حصن البطروج[٢] وما يليه من حصون النصارى ، وتغلب على الحصن المذكور ، وأسر قائده القشتالى ، وبعث به إلى مراكش ، ثم عاد فجهز حملة ثانية ، وسار إلى مهاجمة الحصون النصرانية ، واستولى منها فى تلك المرة على حصنين منيعين ، هما حصن منتور وحصن المدور[٣]، وهما يقعان جنوبى قرطبة ، وبعض حصون أخرى .

وكان مثل ابن يكيت حافزاً لزميله عبد الله بن أبى حفص والى إشبيلية ، فحشد قواته بمعاونة برّاز صاحب المخزن ، وكتب إلى ابن الحجام صاحب بطليوس بأن يحشد جند الثغر ، وخرج عبد الله فى قواته من إشبيلية وهى تزداد كل يوم ، بمن ينضم إليها من المتطوعين والمجاهدين ، حتى وصل إلى بطليوس

---

( ١ ) الحلل الموشية ص ١٠٩ .

( ٢ ) وهو بالإسبانية حصن **Pedroche**

( ٣ ) وهما بالإسبانية **Almodóvar, Montoro**

فانضمت إليه حشودها ، فاستقر الرأى على غزو أراضى البرتغال انتقاماً من ملكها ألفونسو هنريكيز ( ابن الرنك ) . فسارت القوات الموحدية وحلفاؤها نحو الشمال الغربى ، حتى عبرت نهر التاجه ، وهاجمت حصن أطرونكس[١] وتغلبت عليه وقتلت حاميته ، وعاثت فى تلك المنطقة قتلا وسبياً ، وامتلأت أيدى الغزاة من الغنائم والأموال والأسرى ، وبادر النصارى فى تلك المنطقة فاحتشدوا وقدموا مسرعين لمقاتلة المسلمين ، ونشبت بين الفريقين معركة هزم فيها النصارى ، واستولى المسلمون على أسلابهم ، وعاد الموحدون وقائدهم ظافرين إلى إشبيلية .

ولما وصلت أنباء هذه الفتوحات إلى مراكش ، بعث الخليفة إلى عبد الرحمن ابن يكيت وعبدالله بن أبى حفص بالقدوم إلى الحضرة ( مراكش ) فقدما إليها ، وقدّما إلى الخليفة خضوعهما ، وعرفاه بما فتح الله على عسكره من النصر ، وما تحقق للأندلس من رعاية أحوالها ، والتفاف أهلها حول رايته ، ودعاءهم له بالتأييد ودوام النصر[٢] .

وكان لهذه الإنتصارات الموحدية بالأندلس ، تأثير حاسم فى سير الحوادث بمدينة غرناطة . وكانت غرناطة ، قد بقيت بأيدى المرابطين ، من بعد وفاة عميدهم الأمير يحيى بن غانية فى شعبان سنة ٥٤٣ ، واستطاع واليها ميمون بن يدّر اللمتونى ، أن يصمد بها طوال هذه الأعوام السبعة . فلما تتابعت الحوادث ، وامتد سلطان الموحدين إلى معظم قواعد الأندلس الغربية والوسطى ، وتوالت انتصاراتهم فى منطقة قرطبة وما اليها ، شعر المرابطون فى غرناطة بتحرج مركزهم ، وتضاؤل قواتهم ومواردهم ، فبعث واليها ميمون بن يدر إلى عبدالمؤمن يعرض تسليمها ، ويلتمس العفو والأمان ، فأجابه عبد المؤمن إلى طلبه ، وأمر عبد الله بن سليمان صاحب الأسطول بسبتة ، وولده السيد أبا سعيد والى سبتة والجزيرة الخضراء بالسير إلى غرناطة ، فسارا إليها ، واستقبلهما ميمون وحاميته المرابطية بترحاب ، وتسلم الموحدون المدينة ، وعاد ميمون وصحبه مع عبد الله ابن سليمان ، إلى العدوة ، ووصلوا فى صحبته إلى مراكش ، حيث أنزلوا منازل حسنة ، وأغدقت عليهم الصلات والأرزاق . وندب عبد المؤمن ولده السيد أبا سعيد لولاية غرناطة بالإضافة إلى سبتة والجزيرة ، فاستقر بها مع حامية

---

( ١ ) وهو بالإفرنجية Trancoso .

( ٢ ) البيان المغرب – القسم الثالث – ص ٣١ و٣٢ .

موحدية . وكان استيلاء الموحدين على غرناطة فى سنة ٥٥١ هـ ( ١١٥٦ م )[١].

وتلا استيلاء الموحدين على غرناطة ، استيلاؤهم على ألمرية . وكان النصارى قد انتهزوا فرصة الاضطراب العام الذى ساد الأندلس ، عقب انهيار سلطان المرابطين ، وجهزوا حملة صليبية برية وبحرية ، اشتركت فيها ممالك اسبانيا النصرانية قشتالة وناڤار (نبرّة)، وأراجون وقطلونية ، ومعها أمداد من جنوة وبيزة وبعض حشود من وراء البرنيه وذلك لافتتاح ثغر ألمرية ، وحاصروا ألمرية براً وبحراً ، مدى ثلاثة أشهر ، واستولوا عليها حسبما ذكر فى موضعه فى شهر أكتوبر سنة ١١٤٧ م ( ٥٤٢ هـ ) . وكان الموحدون مذ عبروا إلى شبه الجزيرة ، واستقروا فى قرطبة فى أواسط الأندلس ، يتوقون إلى استرداد هذا الثغر الإسلامى العظيم ، خصوصاً وقد كان وجود النصارى فيه يهدد مواصلاتهم البحرية شرقى بحر الزقاق ، فيما بين شاطىء المغرب الأوسط ، وجنوبى الأندلس . فلما تم استيلاؤهم على غرناطة ، شعروا بأن الفرصة قد سنحت لتحقيق هذا المشروع ، الذى كان الخليفة عبد المؤمن ، يحبوه بمزيد من عنايته واهتمامه . فحشد السيد أبو سعيد والى غرناطة قواته ، وبعث إلى ألمرية بادئ ذى بدء حملة استطلاعية ، وصلت إلى أسوار ألمرية ، وقتلت عدداً من النصارى ، ثم ارتدت إلى حصن برجة الواقع شمال غربى ألمرية ، وعلمت من أهله أن النصارى بقصبة ألمرية فى عدد قليل ، ولايستطيعون دفاعاً عن المدينة . وعلى أثر ذلك سار السيد أبو سعيد إلى ألمرية فى جيش ضخم من الموحدين ، ومعهم قوة أندلسية بقيادة أحمد بن ملحان صاحب وادى آش السابق ، بينما قصد إليها من البحر أسطول سبتة الموحدى بقيادة أمير البحر عبد الله بن سليمان . وضرب الموحدون حول ألمرية حصاراً محكماً ، ونصبوا حولها المجانيق ، وابتنى السيد أبو سعيد فوق الجبل الذى احتله الموحدون إزاء المدينة ، سوراً يمتد إلى البحر ، وأمامه خندق عميق ، وذلك حتى يعوق وصول النجدات إلى المدينة . وشعر النصارى بالقصبة منذ البداية بخطورة الموقف ، فبعثوا يستغيثون بعاهلهم ، وهرع ألفونسو السابع أو السُّليطين حسبما تسميه الرواية الإسلامية ، لإنجاد المحصورين فى جيش قوامه إثنا عشر ألف فارس ، وقدم معه حليفه محمد بن سعد بن مردنيش أمير شرقى الأندلس فى جيش من ستة آلاف من المسلمين . وكان مقدم الأمير المسلم فى هذا

---

( ١ ) روض القرطاس ص ١٢٧ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٣٣ .

الموطن ، ليحارب إلى جانب النصارى ، أبناء دينه ووطنه ، وليحول دون تحرير الثغر المسلم ، من أشنع المواقف التى يمكن تصورها ، مهما كان وراءه من الإعتبارات القومية والوطنية . وحدث أثناء الحصار بين ابن ملحان وبين عبدالله ابن سليمان نزاع ، انسحب ابن ملحان على أثره مع قواته إلى معسكر ابن مردنيش ، ليشاطره خزى موقفه . واستمر حصار الموحدين لألمرية بضعة أشهر ، حاول النصارى وحليفهم ابن مردنيش خلالها غير مرة ، أن يقتحموا الحصار لإنجاد المحصورين ، فذهبت كل جهودهم عبثاً . وتقول الرواية النصرانية ، إنه نشبت خلال ذلك بين الموحدين والنصارى موقعة عنيفة ، فقد فيها الموحدون زهرة جندهم ، وتفرقوا فى غير نظام[1]. بيد أنه مما ينقض هذه الرواية ، أن القشتاليين لم يفلحوا فى خرق الحصار ، وأن حامية ألمرية النصرانية ، لم تلبث أن أرغمت على التسليم . وكان السيد أبو سعيد قد بعث إلى أبيه الخليفة يستمده العون ، فبعث الخليفة وزيره أبا جعفر بن عطية القضاعى إلى الأندلس صحبة ولده السيد أبى يعقوب يوسف ، الذى ندبه لولاية إشبيلية ، وأمر بعد استقرار ولده بإشبيلية ، أن يتوجه أبو جعفر إلى ألمرية ليعالج أمرها ، ووصل ابن عطية إلى ألمرية ، وقد تحرج مركز النصارى بقصبتها ، وأرهقهم الحصار ، ففاوضهم ، ونجح فى إقناعهم بالتسليم على الأمان . ودخل الموحدون ألمرية فى أواخر سنة ١١٥٧ م ( ذوالقعدة أو ذو الحجة سنة ٥٥٢ هـ ) بعد حصار دام سبعة أشهر ، وعاد الثغر الإسلامى إلى سلطان المسلمين بعد أن احتله النصارى زهاء عشرة أعوام . وكان السيد أبو سعيد يتوق إلى العود مسرعاً بقواته إلى غرناطة خشية عدوان القشتاليين . ولكن الواقع أن ملك قشتالة وحليفة ابن مردنيش اضطرا إلى الانسحاب خائبين ، تاركين المدينة المحصورة لمصيرها ، ومرض ألفونسو السابع فى طريق العود إلى عاصمته طليطلة ، وتوفى قبل أن يصل إليها فى بلدة مورتلة ( مورادال ) وذلك فى ٢١ أغسطس سنة ١١٥٧ م . وارتد ابن مردنيش فى قواته إلى بلاده[2] .

وحدثت فى نفس الوقت فى ولاية المغرب تطورات جديدة . وذلك أن عليا الوهيبى حينما فر من لبلة عند ما دهمها الموحدون ، سار إلى ثغر طبيرة الصغير ،

---

(١) La Fuente: Historia General de Espana (Ed. 1889) T, III. p. 300

(٢) يراجع فى استرجاع الموحدين لألمرية : ابن الأثير ج ١١ ص ٨٤ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٣٣ ، والإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٢٧٢ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٧ .

الواقع على شاطىء المحيط قرب مصب نهر وادى يانه ، وامتنع به . وكان الخليفة عبد المؤمن قد ندب ولده السيد أبا يعقوب يوسف لولاية إشبيلية ، تحقيقاً لرغبة أشياخها حينما وفدوا عليه بمراكش فى سنة ٥٥١ هـ ، وذلك بالرغم من صغر سنه ، وبعث معه الوزير ابن عطية حسبما تقدم . فلما فرغ ابن عطية من تحقيق مهمته بألمرية ، عاد إلى إشبيلية ، ثم خرج منها مع السيد أبى يعقوب فى حملة موحدية سارت لغزو طبيرة ، فامتنع بها الوهيبى ، واضطر الموحدون إلى حصارها براً وبحراً ، وأقاموا على حصارها زهاء شهرين ، ثم رأى ابن عطية مفاوضة الوهيبى ، وقنع منه بذكر الخليفة فى الخطبة ، على أن يبقى محتفظاً بطبيرة . واستولى الموحدون فى هذه الغزوة على بلاد أبى محمد سيدراى بن وزير ، وهى شلب وميرتلة ، وباجة وأحوازها ، تخلى عنها ابن وزيرها طوعاً [١] ، وعبر البحر إلى المغرب . ولسنا نعرف سبباً لهذا التخلى ، إلا أن يكون ما يذكره ابن عذارى من أنه حينما كان السيد أبو يعقوب فى جيشه تحت أسوار طبيرة ، وفد عليه أشياخ بلاد ابن وزير ، ومدحه شاعرهم الأديب أبو بكر بن المنخل بقصيدة طويلة ، والظاهر أن أولئك الأشياخ قد طلبوا إلى السيد أبى يعقوب إقالة ابن وزير ، وتعيين حاكم موحدى لبلادهم ، ومن ثم فقد عين لولاية شلب وبلاد الغرب حاكم موحدى هو يعقوب بن جبون الهزرجى ، وبعض الحفاظ الموحدين . ويضع ابن عذارى تاريخ هذه الحوادث فى النصف الأول من سنة ٥٥٢ هـ ، وهو ما يحمل على الاعتقاد بأن الوزير ابن عطية قد قام بمهمته فى ألمرية بعد أن اشترك فى حوادث الغرب المتقدمة ، وليس من الممكن أن يكون اشتراكه فيها بعد عوده من ألمرية إلى إشبيلية ، إذ سقطت ألمرية كما رأينا فى أيدى الموحدين فى أواخر سنة ٥٥٢ هـ [٢] .

— ٥ —

ولم يمض قليل على ذلك حتى وقع بمراكش حادث محزن ، هو نكبة الوزير أبى جعفر بن عطية ، وأخيه الكاتب أبى عقيل بن عطية .

وقد سبق أن أشرنا إلى نشأة أبى جعفر ، وظهوره خلال المعركة التى

---

(١) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٢٣٩ .

(٢) البيان المغرب — القسم الثالث — ص ٣٤ .

اضطرمت بين الموحدين وبين الماسى ، برسالته التى كتبها بتكليف الشيخ أبى حفص الهنتاتى إلى الخليفة ، وصفاً لهذه المعركة ، وماكان من حظوته لدى الخليفة بسببها ، وتوليه الوزارة ، وتوطد سلطانه ونفوذه ، حتى غدا من أقرب أعوان الخليفة ، وآثرهم لديه ، وأكثرهم فوزاً بثقته . وكان أبو جعفر فى الواقع من أقدر وزراء الدولة المؤمنية ، وأوفرهم كفاية ، وأبرعهم خلالا ، وكان رضى النفس قريب المنال ، خدوماً يعمل على قضاء الحوائج ، فأحبه الناس ، وقدروا مروءته ، ومكانته .

وكان يبدو أن ابن عطية ، ما يزال متمتعاً برفيع مكانته ونفوذه ، حينما بعثه الخليفة إلى الأندلس ليكون إلى جانب ولده السيد أبى يعقوب ، وليعالج قضية ألمرية . بيد أنه كان ثمة طائفة من تيارات خفية تعمل ضده ، وتسعى إلى تقويض نفوذه ، والقضاء عليه ، وكان ابتعاده عن مراكش فرصة سانحة لخصومه ، يحكمون فيها تدبير خطتهم ودسائسهم . وفى خلال ذلك استوزر عبد المؤمن ، عبد السلام ابن محمد الكومى ، من قرابته وأبناء قبيلته كومية[1] ، فتزعم خصوم ابن عطية ، واشتد فى مطاردته ، والحملة عليه والتشهير به ، وتتبع عوراته وسقطاته « وأغرى صنايعه ، وشحن عليه حاشيته » حسبما يقول لنا ابن الخطيب « فبروا وراشوا وانقلبوا » . وكان فى مقدمة مانسب إلى أبى جعفر ، ممالأته اللمتونيين ، وإسرافه فى اصطناعهم ، وتوليتهم الأعمال والوظائف ، وفوق ذلك ، فقد كانت زوجه لمتونية ، أبوها يحيى الحمار من أمرائهم ، وأمها ابنة زينب بنت على بن يوسف[2] ، فكانت هذه الظروف ، تثير من حوله الريب ، وتدمغه فى نظر المتعصبين من أشياخ الموحدين . وكان يعمل لإهلاكه إلى جانب الوزير عبدالسلام الكومى ، رجل ممن شملتهم حمايته ورعايته ، فكفر بشكر الصنيعة ، هو القاضى مروان بن عبدالعزيز ، أمير بلنسية السابق ، وكان ابن عطية قد سعى فى إطلاق سراحه من سجنه الطويل بميورقة ، واستغل فى ذلك نفوذه لدى واليها إسحق بن محمد بن غانية ، فعبر البحر إلى بجاية ، ثم إلى مراكش ، فأسعفه ابن عطيه ، وعاونه على الانتظام فى

---

(١) ذكر لنا البيذق نوع هذه القرابة ، فقال إن والدة عبد المؤمن « تعلو » لما توفى زوجها الأول على والد عبد المؤمن ، تزوجت من بعده ، والد عبد السلام الكومى ، ورزقت منه بابنة سميت فندة ، فكانت فندة هذه أخت عبد المؤمن لأمه وعبد السلام الكومى لأبيه ( أخبار المهدى ابن تومرت ص ٢٤ ) .

(٢) ابن الخطيب فى الإحاطة ( ١٩٥٦ ) ج ١ ص ٢٧٣ .

مجلس الخليفة[1] . بيد أنه ما لبث أن انقلب عليه ، وكفر بصنيعته ، وأخذ يحرض عليه ، ومن ذلك أبيات نظمها ضده وخرجت بمجلس عبد المؤمن يقول فيها :

قل للإمام أطال الله مدته … قولا تبين لذى لب حقائقه
ان الزراجين قوم قد وَتَرْتَهُمُ … وطالب الثأر لم تؤمن بوائقه
وللوزير إلى آرائهم ميل … لذاك ماكثرت فيهم علائقه
فبادر الحزم فى إطفاء نارهم … فربما عاق عن أمر عوائقه
هم العدو ومن والاهم كَهُمُ … فاحذر عدوك واحذر من يصادقه
الله يعلم أنى ناصح لكم … والحق أبلج لا تخفى طرايقه[2]

والظاهر أن هذه الأبيات ، قد تركت أثرها فى نفس الخليفة ، وقد كانت مستعدة بما أوحى إليه من مختلف المصادر للتنكيل بأبى جعفر . وكان أبو جعفر قد ترامت إليه وهو فى شبه الجزيرة ، أنباء مقلقة عما يدور حوله من دسائس ، وما يرمى به من التهم ، فعجل بالعودة ، ليرد هجوم خصومه ، ولكن الخليفة ، كان عندئذ قد اعتزم أمره ، فما كاد يصل إلى مراكش ، حتى أمر عبد المؤمن بالقبض عليه واعتقاله ، ثم اقتيد بعد أيام قلائل إلى الجامع مهانا حاسر الرأس كسير الفؤاد ، واستحضر الناس على طبقاتهم ليعلنوا مايعلمونه من أمر الوزير المنكوب ، ومنهم أشياخ الموحدين والطلبة ، ووفود الأندلس ، وطلب إليهم ابن عمر باسم الخليفة أن يقول كل منهم ما يعلمه عن ابن عطية من سوء ، وما إذا كان قد أعطاه شيئاً أو صانعه ، وكان الوزير عبد السلام الكومى ، قد رتب أعوانه وصنائعه لهذا اليوم . فأجاب كل من الحضور بما اقتضاه هواه . ولم يرتفع لسان بالدفاع عن ابن عطيه سوى ابن وزير صاحب شلب وباجة السابق ، حيث أكد أنه لم يعط ابن عطية يوماً شيئاً إلا رده إليه مضاعفاً ، وأنه لو عين الخليفة للوساطة بينه وبين رعاياه ، عبداً حبشياً ، لكان من واجبهم أن يعظموه وأن يهادوه . فلما انتهى المجلس أعيد ابن عطية إلى سجنه ، وسجن معه أخوه الكاتب أبه عقيل بن عطية ، ولبث الأخوان فى المطبق بضعة أشهر ، وأبو جعفر ، يتوسل إلى الخليفة

(١) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٢١٥ ، و٢١٦ ، وفى التكملة (القاهرة) رقم ١٧٥٠ .
(٢) الحلة السيراء ص ٢١٦ ، والإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٢٧٤ .

لالتماس عفوه برسائل وقصائد تذيب الجماد إشفاقاً وتأثراً ، ومنها الأبيات الآتية :

فعفواً أمير المؤمنين فمن لنا ... بحمل قلوب هدها الخفقان
عطفا علينا أمير المؤمنين فقد ... بان العزاء لفرط البث والحزن
قد أغرقتنا ذنوب كلها لجج ... وعطفة منكم أنجى من السفن
وصادفتنا سهام كلها غرض ... لها ورحمتكم أوفى من الجنن
هيهات للخطب أن تسطو حوادثه ... بمن أجارته رحماكم من المحن
أنتم بذلتم حياة الخلق كلهم ... من دون منٍّ عليهم لا، ولا ثمن
ونحن من بعض من أحيت مكارمكم ... تلك الحياتين من نفس ومن بدن
وصبية كفراخ الورق من صغر ... لم يألفوا النوح فى فرع ولا فنن
قد أوجدتهم أياد منك سابقة ... والكل لولاك لم يوجد ولم يكن

ولكن عبد المؤمن لم يتأثر لضراعة وزيره ، ولم تجد الرحمة إلى قلبه سبيلا .
وقيل فى سبب قسوة عبد المؤمن على وزيره ، أنه أفضى إليه بسر خطير فأفشاه .
ويوضح لنا المراكشى ماهية هذا السر ، فيقول لنا إن يحيى بن أبى بكر الصحراوى أو ابن الصحراوية فارس المرابطين ، الذى فصلنا أخباره فيما تقدم ، كان قد استأمن إلى عبد المؤمن ، فأمنه وأكرم وفادته ، وحظى لديه ، وجعله قائداً على من بقى من لمتونة ، وكانت زوجة ابن عطية ، زينب بنت أبى بكر أخت يحيى المذكور ، وحدث أن ترامت إلى عبد المؤمن أشياء وأقوال نسبت إلى يحيى الصحراوى غضب منها ، ونقمها عليه ، وقرر أن ينكل به ، وصدر عنه فى بعض مجالسه ، ما يفصح عن هذا العزم ، فكان من ابن عطية أن قال لزوجته أخت يحيى أن تحذر أخاها ، وأن يتمارض إذا دعى إلى مجلس الخليفة ، وأن يلوذ بالفرار إذا استطاع إلى ميورقة ، ففعلت زينب ما طلب إليها ، وتمارض يحيى ، وزاره بعض صحبه فى مرضه ، فأفضى إلى بعضهم بما بلغه عن الوزير ، وما نصح به ، فنقل هذا الصديق ما سمعه إلى بعض ولد عبد المؤمن . ووقف عبد المؤمن على ذلك ، فكان هذا هو أعظم سبب فى نكبة ابن عطية[١]. ولما توجه عبد المؤمن بعد ذلك ، فى أوائل سنة ٥٥٣ هـ إلى تينملل لزيارة قبر المهدى ،

---

(١) المراكشى فى المعجب ص ١١١ . وقد ذكرنا فيما تقدم نقلا عن ابن الخطيب ، أن زوجة ابن عطية كانت حفيدة زينب بنت على بن يوسف .

حمل معه أبا جعفر وأخاه أبا عقيل يرسفان فى أغلالها . قال ابن الخطيب : « وصدرت عن أبى جعفر فى هذه الحركة من لطايف الأدب ، نظما ونثراً ، فى سبيل التوسل بتربة المهدى ، أمامهم ، عجائب لم تجد ، مع نفوذ قدر الله فيه» . ولما غادر عبد المؤمن تينملل ، عائداً إلى مراكش ، حمل الأخوين معه ، فلما وصل إلى موضع يقال له تغمرت ، على مقربة من الملاحة ، أصدر أمره بإعدامهما واستصفاء أموالها ، فأعدما على الأثر ، وكان إعدامهما فى التاسع والعشرين من شهر صفر سنة ٥٥٣ هـ ( أول أبريل سنة ١١٥٨ م ) ، وكان أبو جعفر عند مصرعه فتى فى نحو السادسة والعشرين من عمره ، إذ كان مولده بمراكش وفقاً لابن الخطيب سنة ٥٢٧ هـ[١] .

وهكذا زهق الوزير الكاتب الشاعر ابن عطية ، ضحية نزعة دموية من الخليفة ، أثارتها الأهواء والوشاية ، ودون ما خطير جريرة واضحة يسجلها لنا التاريخ ، وأضاف عبد المؤمن بذلك صفحة دموية جديدة إلى صفحاته العديدة السابقة . ومما يدل على أن عبد المؤمن كان متسرعاً فى قراره إزاء وزيره المنكود ، ما يقصه علينا صاحب البيان المغرب من أن عبد المؤمن ندم أشد الندم على مقتل وزيره ، وذرف عليه الدموع . وإنه لما يؤسف له ، أن يضطر المؤرخ إلى أن يحصى مثل هذه النزوات الدموية المتوالية ، فى سيرة رجل عظيم مثل عبد المؤمن أقامت عبقريته دولة من أعظم الدول الإسلامية فى المغرب والأندلس ، وامتازت بطائفة من أبدع الخلال التى تزدان بها البطولة ، ولكنا ربما استطعنا أن نلتمس فى روح العصر ، وروح الصراع الذى كانت تضطلع به الدولة الموحدية الفتية ، كثيراً من العوامل الملطفة ، لما تثيره هذه الصفحات القاتمة من سحب على سيرة الرجل العظيم .

---

( ١ ) راجع فى نكبة الوزير ابن عطية : ابن الخطيب فى الإحاطة ( ١٩٥٦ ) ج ١ ص ٢٧٣ — ٢٧٦ ، والبيان المغرب — القسم الثالث ص ٣٥ ، والاستقصاء ج ١ ص ١٥٢ — ١٥٤ . ونود أن نلاحظ هنا أن تاريخ مولد ابن عطية الذى يقدمه لنا ابن الخطيب ، وهو سنة ٥٢٧ هـ — لا يتفق مع ما يقوله لنا عن مراحل حياته ، ومن أنه كتب عن على بن يوسف ثم عن ولده تاشفين ثم عن حفيده إبراهيم . ومن الواضح أن هذا لا يستقيم من الناحية الزمنية ، إذ يكون عمره حين كتب عن على ابن يوسف نحو عشرة أعوام فقط . وربما يستقيم الأمر إذا قيل لنا إنه كتب عن الأمير إبراهيم ، إذ يكون عندئذ فى نحو الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمره .

# الفصل الثالث

## الثـــورة فى شرق الأندلس

### وظهور محمد بن سعد بن مردنيش

خواص الثورة فى شرق الأندلس . بلنسية مركز الثورة فى الشرق . فرار واليها عبد الله بن غانية . اختيار القاضى ابن عبد العزيز لولايتها . القتال بين المرابطين وأهل بلنسية . استيلاء ابن عبد العزيز على شاطبة . استيلاء ابن عياض على مرسية . تمرد الجند . فرار ابن عبد العزيز وسقوطه فى يد ابن غانية . ولاية ابن عياض لبلنسية وعبد الله بن سعد لمرسية . مصير ابن عبد العزيز ووفاته . حوادث مرسية . تدخل ابن هود فى شئونها . قيام القاضى ابن أبى جعفر بولايتها . مسيره لإنجاد ابن حمدين ومصرعه . تطور شئون الرياسة فى مرسية . تقديم ابى عبد الرحمن بن طاهر لولايتها . السعى إلى خلعه . دخول ابن عياض مرسية . اعتزال ابن طاهر وعبوره إلى المغرب . دعوة ابن عياض لرياسة ابن هود فى بلنسية ومرسية . مقدم ابن هود الى مرسية . خروجه وابن عياض لمقاتلة النصارى . مقتل ابن هود وعبد الله ابن سعد . موقعة البسيط . ظروفها وبواعثها حسبما تصورها الرواية النصرانية . سيف الدولة بن هود . شخصيته وأعماله . خضوعه لتوجيه ملك قشتاله . أدبه وشعره . ابن عياض يدعو لنفسه فى بلنسية . نائبه محمد بن سعد بمرسية . القائد عبد الله الثغرى . نجاحه فى انتزاع مرسية . استرداد ابن عياض لمرسية ومصرع الثغرى . إمارة ابن عياض بمرسية وبلنسية . مصرعه والخلاف حول ذلك . محمد بن سعد ابن مردنيش يخلفه فى بلنسية ثم فى مرسية . محمد بن سعد وحقيقة أصله . ولعه بمصادقة النصارى والتشبه بهم . يبسط سلطانه على شرق الأندلس . سياسته نحو الممالك النصرانية . عقده لمعاهدات صلح مع أمير برشلونة وجمهوريتى بيزة وجنوة . إقدامه وشجاعته . حليفه ابن همشك . أصله ونشأته . أعماله وظهوره . تغلبه على مدينة شقورة . محالفته ومصاهرته لمحمد بن سعد . استيلاء النصارى على قواعد الثغر الأعلى . موقف ابن مردنيش من ذلك الحادث . استيلاء النصارى على ألمرية وقلعة رباح . استيلاء ابن همشك على شقورة . بيعة ابن مردنيش ببلنسية ومرسية استيلاؤه على بسطة ووادى آش . مواجهته للموحدين فى أواسط الأندلس .

لم تكن تلك الثورات التى نشبت ضد المرابطين فى أواسط الأندلس وفى غربها ، سوى جانب فقط من الثورة العامة ، التى اضطرمت بها الأندلس من أقصاها إلى أقصاها . ذلك أن ريح الثورة قد اجتاحت فى الوقت نفسه شرقى الأندلس كله ، من بلنسية إلى ألمرية ، وكانت الثورة فى شرقى الأندلس ، أعرق مثلا ، وأعمق جذوراً . وأشد مراساً منها فى الغرب ، وكانت تُسيرها منذ البداية فكرة قومية عميقة ، هى الفكرة الأندلسية الخالصة ، فكانت تضطرم ضد

المرابطين والموحدين معاً ، بنفس العنف والإصرار ، وكانت العوامل الجغرافية والعسكرية ، تشد من أزرها ، وتضاعف مقدرتها على المقاومة ، فقد كانت قواعدها الرئيسية ، بعيدة عن متناول الجيوش الموحدية ، وكان اتصالها بالبحر يمدها بوسائل وموارد خاصة ، وكان وقوعها على مقربة من الممالك النصرانية ، يفتح لها باب الاتصال المستمر بالملوك النصارى ، ومحالفتهم ، والاستنصار بهم ، وكانت هذه الوسيلة بالرغم مما يحيط بها من ملابسات ذميمة ، تعتبر فى تلك الآونة من الخطط المشروعة ، فى مقاومة الغزاة المحتلين ، مرابطين كانوا أو موحدين . وثمة عامل آخر ، فى استفحال الثورة وصمودها فى شرقى الأندلس ، هو انحصار زعامتها ، وتركيزها مدى أعوام طويلة ، فى شخصية واحدة قوية ، كانت تجتمع حولها خيوط المقاومة ، وكان يحدوها إيمان عميق بالفكرة الأندلسية ، تتحطم عليه سائر الاعتبارات الدينية : تلك هى شخصية محمد بن سعد بن مردنيش ، أعظم ثوار الأندلس ضد الموحدين ، وأشدهم مراساً ، وأعنفهم كفاحا .

— ١ —

وكانت بلنسية تحتل فى شرقى الأندلس ، نفس المكانة ، التى تحتلها قرطبة فى الوسط ، وإشبيلية فى الغرب ، باعتبارها قاعدة لسلطان المرابطين ، ومركزهم الدفاعى فى هذا القطاع من الأندلس . وكان للمرابطين عناية خاصة بتأمين ثغر بلنسية ، لموقعه الدقيق على مقربة من الثغر ، والممالك النصرانية ، يولونه الصفوة من القرابة والخاصة ، فكان ضمن ولاتها الأمير مزدلى بن تيولتكان ، محررها من الغزاة النصارى ، والأمير أبو الطاهر تميم بن يوسف ، ومحمد بن يوسف ابن يدّر ، والأمير أبو زكريا يحيى بن غانية . وكان على ولايتها حينما اضطرمت الثورة فى غربى الأندلس ، وفى قرطبة ، أبو محمد عبد الله بن محمد بن على أخى يحيى بن غانية ، وقاضيها يومئذ أبو عبد الملك مروان بن عبد الله بن مروان ابن عبد العزيز ، وكان قد ولاه منصب القضاء الأمير تاشفين بن على فى ذى الحجة سنة ٥٣٨ هـ .

فلما نشبت الثورة فى قرطبة ، بعد نشوبها فى الغرب ، ونادى ابن حَمْدين بخلع نير المرابطين ، طافت ريح الثورة بقواعد شرقى الأندلس ، وهاجت الخواطر فى بلنسية وغيرها ، واجتمع واليها عبد الله بن محمد بن غانية ، وقاضيها

أبو عبد الملك مروان بن عبد العزيز ، وتفاهما ، بالرغم مما كان بينهما من المنافسة الباطنية ، على الائتلاف والتعاون على حفظ النظام وضبط المدينة ، واجتمع الناس فى المسجد الجامع فى أواسط رمضان سنة ٥٣٩ هـ ، فخطب فيهم مروان ، وذكرهم بجهاد اللمتونيين ضد النصارى ، ونصرهم لقضية الأندلس ، وتحريرهم لبلنسية من أيدى القشتاليين ، وحثهم على التمسك بدعوتهم والوفاء لهم . وتكلم الوالى بمثل ذلك ، وذكرهم بأيام عمه يحيى بن غانية ، وبما انعقد بينهم وبينه من التعاطف والمودة . بيد أن هـذا التفاهم الظاهر بين زعيمى المدينة ، لم يكن سوى ستار لما يضطرم فى الأنفس الثائرة ، وسرعان ماتوجس الوالى عبد الله ابن غانية من نيات زميله وحليفه القاضى ، ومما قد يجيش به الشعب نحوه ونحو اللمتونيين من المقاصد الخطرة ، فبعث أهله وأمواله خفية إلى شاطبة ، ثم لحق بهم فى صحبه فى اليوم التالى ، واستطاع ، بالرغم مما وقع بينه وبين جند بلنسية من مناوشة ، أن يلوذ بالفرار ، وأن يصل إلى شاطبة . فلما استقر بها ، أخذت سرياته اللمتونية تغير على أحواز بلنسية ، وتثخن فيها ، وتعتدى على الأموال والأنفس ، فتقدم الجند والعرب وأعيان المدينة إلى ابن عبد العزيز ، بأن يتولى أمرهم ، فأبى ، وقال لهم اختاروا لولايتكم من ترون من شيوخكم ، فوقع الاختيار على بعض زعماء لمتونة ، ممن بقى منهم بالمدينة ، وأراد هذا الزعيم الجديد أن يقبض على ابن عبد العزيز ، فلم يستطع ، ثم تولاة الخوف والروع ، ففر إلى شاطبة ، ومعه بقية أشياخ لمتونة ، ووقع إجماع الناس على اختيار القاضى ابن عبد العزيز للولاية ، فاستتر منهم ، فسعى إلى الانفراد به ، أبو محمد عبد الله ابن عياض قائد الثغر ، وعبدالله بن مردنيش ، وأقنعاه بقبول الإمارة ، فقبلهامكرها وبويع له فى اليوم الثالث من شوال من نفس السنة ، وولى عبد الله بن عياض الثغر وما والاه ، واستمر المرابطون خلال ذلك فى غاراتهم وعيثهم فى أحواز المدينة ، فحشد ابن عبد العزيز جنود الثغر وسار إلى شاطبة ، فخرج المرابطون من قصبتها إلى المدينة ، وعاثوا فيها وسبوا النساء ، والتقى جند بلنسية بالمرابطين ، ونشبت بين الفريقين موقعة هزم فيها المرابطون ، فعادوا إلى الامتناع بالقصبة ، وقدم عسكر من مرسية بقيادة قاضيها ابن أبى جعفر محمد بن عبد الله لإنجاد ابن عبد العزيز ، وتعاونا على حصار شاطبة ، وكلاهما يضمر فى نفسه أن يفوز بها ، ثم وصل ابن عياض فى جند الثغر ، وأدرك عبد الله بن محمد بن غانية ، الوالى

السابق ، أنه لا طاقة له بهذه القوى ، ففر من شاطبة فى نفر من خاصته ، واستطاع أن يلحق بألمرية ، وهنالك لقى محمد بن ميمون قائد الأسطول فى تلك المنطقة وكان قد بقى على طاعة المرابطين ، فجهزه إلى ميورقة ، حيث كان أبوه محمد ابن غانية يتولى أمن الجزائر ، فاستقر إلى جانبه ، وكان من أمر بنى غانية ، ودولتهم بالجزائر الشرقية أيام الموحدين ، ماسوف نذكره فى موضعه[1] .

واستولى ابن عبد العزيز على شاطبة صلحاً ، وحصنها وعين لها قائداً ، وانضمت إليه لَقَنت وما يجاورها ، فاتسعت إمارته ، وضخم أمره ، ثم عاد إلى بلنسية حيث جددت له البيعة ، وذلك فى شهر صفر سنة ٥٤٠ هـ . وانصرف ابن أبى جعفر إلى مرسية ، ثم خرج منها بعد ذلك لإنجاد ابن أضحى فى غرناطة ، وقتل حسبما تقدم ، فى المعركة التى نشبت بينه وبين المرابطين .

ولكن ابن عبد العزيز لم يلبث أن آنس متاعب جمة من تمرد الجند ، وعجز الجباية ، وقصوره عن الوفاء بأجور الجند ، وما تتطلبه المصالح العامة ، فخاطب الجند ابن عياض ، يستعجلونه فى الوصول إليهم للاضطلاع بزمام الأمور ، وكان عندئذ بمرسية ، بعد استيلائه عليها ، من واليها السابق أبى عبد الرحمن بن طاهر ، وذلك فى جمادى الأول سنة ٥٤٠ هـ ( ١١٤٥م ) . وفى أثناء ذلك ، أحاط الجند بقصر الإمارة فشعر ابن عبد العزيز بالخطر ، وغادر القصر خفية ، وتدلى من سور بلنسية ليلا ، وسار حتى لحق بألمرية ، وهنالك قبض عليه ابن ميمون أمير البحر ، ودفعه إلى عدوه السابق عبد الله بن غانية ، وكان ما يزال بألمرية ، فاحتمله معه عبد الله مصفداً إلى ميورقة .

وعلى أثر اختفاء ابن عبد العزيز ، قدّم الجند للرياسة عبد الله بن محمد بن سعد بن مردنيش صهر ابن عياض نائباً عنه ، وأسكنوه قصر بلنسية . وفى آخر جمادى الأولى ، قدم ابن عياض إلى المدينة ، وقد وصلته بيعة أهلها ، وهوفى طريقه إليها ، فأقام بها حيناً ينظم شئونها ويحصن ثغورها . ثم عاد إلى مرسية ، وترك صهره عبد الله بن سعد بن مردنيش أميراً عليها من قبله ، وهو عم محمد ابن سعد بن مردنيش زعيم الشرق فيما بعد ، ويعرف بصاحب البسيط ، لأنه استشهد ، فى موقعة البسيط مع ابن هود حسبما نذكر بعد[2] .

---

( ١ ) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٢١٢ — ٢١٤ ، وابن الخطيب فى أعمال الأعلام ص ٢٥٦ .

( ٢ ) الحلة السيراء ص ٢١٥ .

وإما ابن عبد العزيز ، فقد لبث يرسف فى سجنه بميورقة لدى بنى غانية نحو عشرة أعوام ، وهو يعانى أمر ضروب العذاب والمهانة ، حتى قيض الله له الخلاص فى النهاية ، بواسطة الوزير أبى جعفر بن عطية ، وكان والى ميورقة يومئذ إسحق بن محمد بن غانية ، وليها بعد مقتل أبيه محمد وأخيه عبد الله ، وجنح إلى مهادنة الموحدين ، فأطلق سراحه ، وبعث به إلى ثغر بجاية ، وذلك فى سنة ٥٤٨ هـ فسار إلى مراكش ، وهنالك عاونه ابن عطية على أن ينتظم فى مجلس الخليفة العلمى . بيد أنه لم يرع لابن عطية ، شكر الصنيعة ، ونظم فى حقه أبياته المشهورة فى التحريض عليه ، ومطلعها :

قل للإمام أطال الله مدته  قولا تبين لذى لب حقائقه

فكانت هذه الأبيات حسبما نذكر بعد ، من أقوى الأسباب فى نكبة ابن عطية ، وظل ابن عبد العزيز مقيما بمراكش فى خمول ونسيان حتى توفى سنة ٥٧٨ هـ ( ١١٨٢ م ) فى الثالثة والسبعين من عمره(١) .

— ٢ —

ونود قبل أن نمضى فى تتبع مصاير الثورة فى بلنسية وتطوراتها ، أن نتناول ما وقع من الأحداث فى مرسية ، وباقى أعمال الشرق .

كانت مرسية ثانى قواعد الشرق بعد بلنسية ، وكانت تحتل فى النصف الجنوبى من شرقى الأندلس ، نفس المركز الدفاعى ، الذى تحتله بلنسية فى النصف الشمالى ، ومن ثم فإنا نجد فى فترات الثورة ، واضطراب الأحداث السياسية والعسكرية ، دائماً صلة وثيقة بين ما يقع فى هاتين القاعدتين من أحداث وتطورات ، وقد كان هذا شأنهما أيام الطوائف ، ثم كان شأنهما حينما اجتاحت ريح الثورة ضد المرابطين سائر قواعد الأندلس فى الغرب والشرق معاً .

وقد رأينا كيف نشبت الثورة فى بلنسية فى الوقت الذى اضطرمت فيه بقرطبة ، وقام القاضى ابن حمدين بدعوته ، ففى هذه الآونة بالذات تضطرم الثورة أيضاً فى مرسية ، ويختار أهلها لرياستهم زعيما منهم ، يدعى أبو محمد بن الحاج اللورقى ، ودعا اللورقى لابن حمدين ، ولكنه لم يلبث فى رياسته سوى بضعة أسابيع ، خلال شهرى رمضان وشوال سنة ٥٣٩ هـ ، ثم رغب فى التخلى عن منصبه لما آنسه من صعاب ومتاعب لا قبل له بها . وكان سيف الدولة بن هود ، قد غادر عندئذ

(١) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٢١٥ و ٢١٦ ، وكذلك فى التكملة (القاهرة) رقم ١٧٥١ .

مقره على مقربة من طليطلة ، وأخذ يترقب فرص الحوادث هنا وهنالك . فلما نمى إليه ماوقع فى مرسية ، بعث إليها قائداً من قواده يدعى بعبد الله بن فتوح الثغرى ، فأخرج منها ابن الحاج ودعا لابن هود ، ولكنه لم يلبث أن أخرج منها بدوره ، وقدم الفقيه القاضى أبو جعفر محمد بن عبد الله بن أبى جعفر الخشنى ، وذلك فى آخر شوال من السنة المذكورة ، فلبث فى منصبه حتى أوائل سنة ٥٤٠ هـ ( ١١٤٥م ): وكان يتبرم بالإمارة ويقول : إنها « ليست تصلح لى ، ولست بأهل لها ، ولكنى أريد أن أمسك الناس بعضهم عن بعض حتى يجيء من يكون لها أهلا » . ولما سار القاضى مروان بن عبد العزيز أمير بلنسية إلى شاطبة لمقاتلة من امتنع بها من اللمتونيين ، سار الفقيه ابن أبى جعفر فى بعض قواته لمعاونته ، ثم سار من مرسية فى قواته مرة أخرى لمعاونة القاضى ابن أضحى زعيم الثورة فى غرناطة على قتال الملثمين ويقال إن قوات أبى جعفر ، بلغت فى هذه الحملة اثنى عشر ألفا من خيل ورجل ، فخرج الملثمون إلى لقائه فى جموع كثيفة ، ونشبت بين الفريقين فى ظاهر غرناطة ، موقعة عنيفة ، هزم فيها ابن أبى جعفر وقتل ، وذلك حسبما فصلنا من قبل فى أخبار الثورة فى غرناطة . ونقل إلينا ابن الأبار عن ابن صاحب الصلاة رواية أخرى ، خلاصتها ، أن عبد الله الثغرى كان قائداً بمدينة كونكة ، فلما سمع بقيام ابن حمدين بقرطبة ، سار إليه والتحق بخدمته ، وفى خلال ذلك جاءت الأنباء من مرسية بقيام ابن الحاج ثم تبرمه من الرياسة ، فبعث ابن حمدين إليهم الثغرى واليا ، فقدم الفقيه ابن أبى جعفر قاضياً ، وذلك فى منتصف شهر شوال سنة ٥٣٩ ، فأبدى شغفاً شديداً بالظهور والتعلق بالرياسة ، وحشد الناس لقتال المرابطين فى أوريولة ، وغدر بهم عند نزولهم بالأمان ، وقتلهم ، فذاع صيته . ثم داخل أهل مرسية فى أن يؤمروه ، وأن يُقدم للقضاء أبو العباس ابن الحلال ، ولقيادة الخيل عبد الله الثغرى ، فوافقوه على ذلك . ولما عقدت له البيعة ، نبذ طاعة ابن حمدين ، ودعا لنفسه وتلقب بالأمير الناصر لدين الله ، ثم قبض على الثغرى وعلى صهريه ، ابنى مسلوقة ، وعين لقيادة الخيل زعنون أحد وجوه الجند ، ثم سار إلى شاطبة لنصرة ابن عبد العزيز فى مقاتلة المرابطين بها ، فثارت العامة خلال غيبته بمرسية ، وأطلقوا سراح الثغرى وصهريه . فسار إلى مرسية على عجل ، وأخمد الهياج ، وفر الثغرى إلى كونكة . وعاد ابن أبى جعفر إلى متابعة القتال فى شاطبة . ثم عاد بعد هزيمة الملثمين ، وفرار أميرهم عبد الله بن غانية إلى

مرسية ، وذلك فى صفر سنة ٥٤٠ هـ . ثم غادرها مرة أخرى فى قواته إلى غرناطة لإنجاد ابن أضحى وقتل حسبما تقدم فى الموقعة التى نشبت بينه وبين المرابطين (١) .

ولما عادت فلول عسكر مرسية بعد مقتل أميرها ، أجمع أهل مرسية على تقديم أبى عبد الرحمن بن طاهر للرياسة ، وذلك فى أواخر شهر ربيع الأول سنة ٥٤٠ هـ ، فانتقل إلى القصر ، ودعا لابن هود ثم لنفسه . وأبو عبد الرحمن هذا ، هو محمد بن عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الرحمن بن طاهر القيسى ، سليل بنى طاهر أمراء مرسية أيام الطوائف . وقد سبق أن تحدثنا فى أخبار مملكة مرسية عن أصلهم وعراقة بيتهم ، فى الوجاهة والسراوة والعلم . وكان جده أبو عبد الرحمن بن طاهر أمير مرسية ، من أعظم علماء عصر الطوائف وكتابه ، وقد أشاد بذكره وروعة أدبه ابن بسام صاحب الذخيرة (٢) ، وكان هو أى أبو عبد الرحمن بن طاهر الحفيد ، صنو جده فى العلم والأدب والبراعة فى الترسل .

تولى أبو عبد الرحمن بن طاهر الإمارة ، وقدم أخاه أبا بكر على الخيل . وكان ابن حمدين حينما اضطربت الأحوال فى مرسية ، قد وجه إليها قوة بقيادة ابن عمه المعروف بالقلفلى ، ومعه أبو محمد بن الحاج وغيره من أعيان مرسية اللاجئين إلى قرطبة ، فردت هذه القوة كسابقتها . وهكذا بدأ ابن طاهر إمارته ، فى جو مكفهر ، والدسائس تضطرم من حوله . ولم تمض أيام قلائل على رياسته ، حتى خاطب بعض أهل مرسية ، أبا محمد عبد الرحمن بن عياض قائد جند الثغر فى بلنسية فى القدوم إليهم وتقلد الرياسة ، فبادر بالسير إلى مرسية ، وتلقاه فى طريقه والى أوريولة ، وهو القائد زعنون الذى تقدم ذكره ، وسلمه إياها ، ثم سار إلى مرسية ، ومعه عدة من وجوه أهل مرسية ، الذين خرجوا إلى لقائه والسير فى ركابه ، كل ذلك وابن طاهر يعمل هادئاً فى قصره ، ولا يدرى بما يدور حوله من الأحداث . ثم دخل ابن عياض مرسية ، وقد برز الناس إلى لقائه ، وابن طاهر ، مستمر على سكوته وعلى حسن ظنه ، ودخل ابن عياض القصر ، لايدفعه عند أحد ، فلم يشعر ابن طاهر ، إلا وقد نُزع من رياسته ، فانتقل إلى داره ، وعف ابن عياض عن دمه ، توقيراً له ، وإشفاقاً لضعفه . وتم هذا الإنقلاب فى العاشر من جمادى الأولى سنة ٥٤٠ هـ ( أكتوبر سنة ١١٤٥ م ) .

---

( ١ ) الحلة السيراء ص ٢١٨ .

( ٢ ) راجع كتابى « دول الطوائف » ص ١٧٥ .

ولم تمض أيام قلائل على ذلك حتى تطورت الحوادث فى بلنسية ، وخلع مروان ابن عبد العزيز من الإمارة ، واستدعى الجند ابن عياض لتولى الرياسة مكانه ، فسار ابن عياض إلى بلنسية فى آخر شهر جمادى ، وقد فر عنها ابن عبد العزيز مخاوعاً ، وبويع بالإمارة ، ودعا لابن هود ، وأقام بها حيناً ينظم شئونها ، ثم غادرها إلى مرسية ، بعد أن أقر عليها صهره عبد الله بن سعد بن مردنيش عنه فى رياستها حسبما تقدم من قبل .

أما ابن طاهر ، فإنه لزم داره ، وعاش فى عزلة وهو يشهد تطور الحوادث فى مرسية ، وفى شرقى الأندلس ، فى ظل زعيمه وأميره فيما بعد محمد بن سعد ابن مردنيش ، ويشهد صراعه المرير مع الموحدين ، وهو يزداد ، توجساً وحذراً ، كلما تطورت الحوادث ، وكلما تقدمت به السن ، إلى أن توفى ابن مردنيش فى سنة ٥٦٧ هـ ، فعندئذ دخل فى طاعة الموحدين ، وعبر البحر إلى المغرب ، وتوفى بمراكش فى سنة ٥٧٤ هـ[١] .

وقد أشرنا فيما تقدم ، إلى ماكان من مقدم سيف الدولة بن هود إلى قرطبة ، بدعوة أهلها ، ثم تحولهم إلى خصومته ، وقتلهم وزيره ابن الشماخ وطائفة من أصحابه ، ومغادرته عندئذ قرطبة إلى جيّان ، وكان قد ثار بها قاضيها ابن جزى واستقل بحكمها ، فتغلب عليه وانتزعها منه . ثم سار إلى غرناطة بدعوة أهلها ، وخاض هناك بعض الوقائع إلى جانب القاضى ابن أضحى ، ولكنه لم يوفق إلى الاستقرار بها ، فغادرها فى أواخر سنة ٥٣٩ هـ عائداً إلى جيان . وسرعان ما ألفى فى حوادث مرسية فرصة جديدة للتدخل والمغامرة ، فبعث إليها أولا قائده عبد الله الثغرى ، فتغلب عليها ، ولكنه أخرج منها بعد أيام قلائل ، ثم توالت الحوادث على النحو الذى فصلناه من قبل ، واستولى ابن عياض قائد جنود الثغر على مرسية ، ثم على بلنسية ، ودعا لابن هود فى كلتا الحاضرتين . فبعث إليه ابن هود بولده أبى بكر ، فخرج للقائه واحتفى به ، واصطحبه معه إلى بلنسية ، ثم سار ابن هود نفسه إلى مرسية ، ودخلها ونزل بقصرها ، فعجل ابن عياض فى اللحاق به ، وأعلن طاعته ، والامتثال لأوامره ، ونزل بالقصر الصغير ، فعهد إليه ابن هود بالأمور كلها ، وأسبغ عليه لقب الرئيس مكتفياً بلقب الإمارة ومظاهرها ، وكان ذلك فى أواخر رجب سنة ٥٤٠ هـ (أوائل سنة ١١٤٦ م) .

---

(١) الحلة السيراء ص ٢٢٠ .

وكان ابن عياض جندياً عظيما ، وفارساً ذا نجدة ، ورئيساً وافر الحزم ، وكان فوق ذلك رجلا صالحا ورعاً ، رقيق الحس والعاطفة ، وكان النصارى يقدرون فروسيته وشدة مراسه ، ويعدونه وحده بمائة فارس[١]. وكان يقظاً لحركات النصارى فى شرقى الأندلس ، فلم تمض أيام قلائل ، على مقدم ابن هود ، حتى جاءت الأنباء باعتداء النصارى على أحواز شاطبة ، ومبادرة عبد الله ابن سعد بعسكر بلنسية لقتالهم . فأسرع ابن عياض وابن هود فى قواتهما لنجدته . والتقى المسلمون والنصارى فى موضع يسمى « باللج » فى ظاهر بلدة البسيط[٢] على مقربة من جنجالة ، فى يوم الجمعة العشرين من شهر شعبان سنة ٥٤٠ هـ ( فبراير سنة ١١٤٦ م ) فوقعت الهزيمة على المسلمين ، وقتل فى الموقعة عبد الله ابن سعد بن مردنيش ، وسيف الدولة ابن هود ، ونجا ابن عياض . وكانت ضربة شديدة للمسلمين فى شرقى الأندلس[٣] .

هكذا تصور لنا الرواية الإسلامية موقعة البسيط . بيد أنه يوجد ثمة شىء من الغموض فى تلك الرواية الموجزة . ذلك أننا نعرف أن سيف الدولة بن هود، هو حليف النصارى ، وصنيعة عاهلهم القيصر ألفونسو السابع أو ألفونسو ريمونديس وهم الذين دفعوه إلى خوض غمار الحوادث فى الأندلس ،وأمدوه بعونهم، فكيف انقلب إلى محاربتهم بين عشية وضحاها ؟ والجواب على ذلك نجده فى الرواية النصرانية المعاصرة ، وهى المسماة « رواية ألفونسو السابع » فهى تقول لنا إن سيف الدولة ، بعد أن فشلت محاولته فى قرطبة بعث إلى ألفونسو السابع ملك قشتالة ، يخبره بأن أراضى أبدة ، وبياسة وقلاعها ، وهى من أملاكه التى تغلب عليها ، قد ثارت عليه ورفضت أداء الضرائب المطلوبة ، فندب ألفونسو أربعة من الأشراف القشتاليين هم الكونتات ما نريكى ، وأرمنجود ، وبانسيو ، ومارتن فرنانديث ، وأمرهم بأن يقوموا بإخضاع أراضى أبدة ، وبياسة ، وجيان وغيرها ، لطاعته وطاعة سيف الدولة ، فسار الكونتات فى قواتهم ، وأغاروا على تلك الجهات وأثخنوا فيها ، وافتتحوا جيان وأبدة وبياسة ، ونكلوا بسكانها المسلمين ، وعندئذ استغاث المسلمون بسيف الدولة ، وأعلنوا بطاعته ،فاستجاب لدعوتهم ،وسار

---

( ١ ) المراكشى فى المعجب ص ١١٥ .

( ٢ ) وهى بالإسبانية **Albacete**

( ٣ ) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٢٢٦

إليهم فى جيش ضخم ، وطلب إلى الكونتات النصارى أن يرفعوا أيديهم عن المسلمين ، وأن يكفوا عن غزواتهم المخربة التى قاموا بها فى الأراضى الإسلامية ، بالتحالف مع القاضى الطموح عبد الله الطغرائى والى قونقة ، فيما بين شاطبة وأبدة ، وأخيراً أن يسلموا إليه الغنائم والأسرى . فرفض الكونتات مطالب سيف الدولة ، وأجابوا بأنهم لم يفعلوا إلا ما أمر به عاهلهم ، وماطلبه سيف الدولة ذاته . وطال الجدل بين الفريقين ، وعندئذ قرر سيف الدولة أن يلجأ إلى السيف ، وسار الكونتات النصارى وحليفهم القاضى الطغرائى ، بعد أن امتنعت عليهم شاطبة غربا ، وسارت قوات بلنسية ومرسية وسيف الدولة لقتالهم فى نفس الوقت . والتقى المسلمون والنصارى فى سهل البسيط على مقربة من جنجالة ، فهزم المسلمون شر هزيمة ، وقتل عبد الله بن سعد قائد جند بلنسية وأسر سيف الدولة ، وقتله بعض الجند النصارى دون معرفة لشخصه ، وارتد ابن عياض فى فلول الجيش إلى بلنسية . ولما علم ألفونسو السابع بمصرع صديقه القديم سيف الدولة أسف كل الأسف وأعلن أنه برىء من دمه(١) .

وكان أحمد بن يوسف بن هود ، المتلقب بسيف الدولة وبالمستنصر ، شخصية غامضة . وبالرغم من أنه كان سليل أسرة بنى هود أصحاب الثغر الأعلى ، وحماته والمتفانين فى الذود عنه ضد النصارى ، فإنه لم يكن يتمتع بشىء من خلال أسرته الملوكية العريقة . وقد رأينا كيف تخلى عن روطة ، آخر قواعد مملكة سرقسطة القديمة ، لملك قشتالة ، ألفونسو ريمونديس ، وآثر أن يعيش فى أراضيه وتحت كنفه ، وأن يغدو آلة لخططه ودسائسه ضد المسلمين ، يحقق بها إذا استطاع بعض مآربه فى الضرب والتفريق بين أبناء الأمة الأندلسية ، واقتطاع ما يمكن اقتطاعه من أراضيها . ولم يكن اشتراك سيف الدولة فى حوادث الثورة ضد المرابطين ، وتدخله فى شئون الرياسة بالقواعد الثائرة ، مثل قرطبة وغرناطة وجيان ومرسية ، محاوله اختيارية يشق بها طريقه إلى الرياسة ، ولكنه كان يقوم بها بوحى ملك قشتالة ، ومعاونته الفعلية بالمال والجند ، لانتهاز الفرص السانحة ، خلال هذا الاضطراب العام ، الذى كان يسود الأمة الأندلسية ، ولم تكن دعوات

---

(١) M. Gaspar Remiro, cit. Crónica del Emperador Alfonno (Murcia Musulmana) p. 180 & 181 . وراجع أيضاً تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين لأشباخ (وترجمة محمد عبد الله عنان) الطبعة الثانية ص ٢١٦ .

الزعماء الثائرين له ليقدم عليهم ، أو ليستظلوا بصفته الملوكية السابقة ، إلا سراباً وخديعة لمواطنيهم ، بتنصيب شخصية لا تخلص لقضيتهم . ولقد كان من رحمة القدر بذكرى هذا الأمير المنكود – صنيعة القشتاليين وخدمهم – أن قتل فى غمرة الدفاع عن أمته ودينه ، ضد حلفائه القدماء ، فى ظروف طارئة ، لم تكن من تدبيره ، وإنما استدرج إليها فكانت فيها خاتمته .

بيد أن سيف الدولة كان يتمتع بحلة العلم والتأدب شيمة آبائه وأجداده ، وكان شاعرا ينظم الشعر الجيد ، وقد أورد لنا ابن الآبار شيئاً من نظمه فمن ذلك قوله :

يا باكيا عمر الطلول بدمعه أسفا على ذاك الدم المطلول
أودت ببلبك لوعة صديت لها صفحات ذاك الخاطر المصقول

وقوله من قصيدة طويلة :

خطرت خطرة الغرام على القلب وحسب الفتى لها يستكين
أذكرتنى بلجاء وُرْقٌ تجاوبن بنجد حديثهن شجون
أطربتنى أصواتهن على الأيكة قد يطرب الحزين الحزين
يا مَةَ القوم والمنا يضع المرء إذا ما استقل يوماً قطين
إن تكونى قد استقر بك الربع فقلبى مع الرفاق رهين
أو تكونى سلوت عنا فلا والله تسلُك الظباء العين
أين للشمس أن تنال محياك وتعزى لمعطفيك الغصون
غرر لحن من دجى الشعر بيض ما تجلت عن مثلهن الدجون(١)

* * *

وعلى أثر مقتل ابن هود ، أعلن ابن عياض الدعوة لنفسه ببلنسية ، وكان قد ترك فى مرسية محمد بن سعد بن مردنيش نائباً عنه بها ، وكان قد عهد فى نفس الوقت إلى عبد الله الثغرى الذى شهدناه من قبل ، يشترك فى حوادث مرسية باسم ابن هود ، بأن يكون سفيره لدى الإمبراطور ألفونسو ريموندیس ليعقد معه السلم والتحالف ضد أمير برشلونة ، فعاد من سفارته هذه ، وزعم أن الإمبراطور قد منحه إمارة مرسية ، واستعان على دخولها بطائفة من الخوارج

(٢) راجع الحلة السيراء ص ٢٢٦ و٢٢٧ .

المشايعين له ، فنجح فى محاولته ، وفر محمد بن سعد بن مردنيش نائب ابن عياض بمرسية ، ولحق بثغر لقنت ، وذلك فى أوائل شهر ذى الحجة سنة ٥٤٠ هـ ، ( مايو سنة ١١٤٦ م ) . ولم تمض بضعة أشهر على ذلك ، حتى زحف ابن عياض على مرسية لاستخلاصها من الثغرى ، وقتل الثغرى فى المعركة التى نشبت بينهما ، وذلك فى السابع من رجب سنة ٥٤١ هـ (ديسمبر ١١٤٦ م ) . ويقدم إلينا الضبى تفاصيل مصرع الثغرى ، فيقول إنه لما نجح ابن عياض فى دخول مرسية ، وقع القتال بينه وبين ابن عياض فى شوارع المدينة حتى هزم الثغرى ، وركن إلى الفرار ، وخرج من الباب المسمى باب الفارقة ، فألقى عليه من فوق السور حجر أصاب رأس جواده ، فوثب الجواد جامحاً براكبه نحو مجرى النهر ، وهنالك قتله رجل ممن كانوا يرابطون فى هذا المكان .

وهكذا استعاد ابن عياض إمارته على مرسية ، وأضحى يبسط سلطانه على سائر قواعد الشرق من بلنسية شمالا حتى أحواز قرطاجنّة ، جنوباً . واستمر فى إمارته على تلك المنطقة بلا منازع مدى عام وتسعة أشهر وعشرين يوماً ، إلى أن لقى مصرعه فى اليوم الثانى والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ٥٤٢ هـ ( ٢١ أغسطس ١١٤٧ م ) . ويقول لنا ابن الأبار إنه توفى قتيلا من جراء سهم أصابه فى بعض حروبه مع القشتاليين[١] . ويقول الضبى إنه قتل بالعكس خلال معركة نشبت بينه وبين بنى جميل على مقربة من بلِّش وحمل جثمانه إلى بلنسية ودفن بها . وقام على موارا ته صهره ونائبه فى بلنسية محمد بن سعد بن مردنيش ، وأعلن للناس أن ابن عياض قد أولاه عهده بالإمارة من بعده ، فبايعوه على ذلك . ويقول المراكشى إن ابن عياض حين حضرته الوفاة ، أشار إلى من اجتمع إليه من الأعيان والجند بتقديم محمد بن سعد للرياسة ، وأبى أن يوصى برياسة ولده لأنه كان يشرب الخمر ويغفل الصلاة . وقيل أيضاً إن أهل بلنسية بايعوا ابن سعد ، ونصبوه أميراً عليهم دون عهد سابق . وأما فى مرسية فقد اختار أهلها للإمارة عليهم نائب ابن عياض أبا الحسن على بن عبيد ، ولكنه لم يمكث فى الإمارة سوى فترة يسيرة حتى أواخر جمادى الأولى ، ثم تخلى عنها لابن سعد أمير بلنسية . وهكذا نجح محمد بن سعد بن مردنيش فى اجتناء تراث ابن عياض بأكمله ، وخلفه فى إمارة شرق الأندلس كله ، وكان ذلك فى جمادى الأولى سنة ٥٤٢ هـ ( أكتوبر ١١٤٧ م )

---

( ١ ) المراكشى فى المعجب ص « ١١٥ » ، وابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٢٢٠ .

وبقيام ابن مردنيش ، فى إمارة شرقى الأندلس ، تهيأ الظروف لصفحة جديدة من الصراع بين الأندلس الثائرة وبين الموحدين، وهو صراع عنيف يضطرم زهاء عشرين عاما ، وتخوضه منطقة الشرق كلها ، بسائر مواردها وقواتها ، تحت زعامة قوية موحدة ، ويقتضى لمدافعته معظم جهود الموحدين فى شبه الجزيرة ، ثم لا تهدأ ثائرته وتطوى صفحته ، إلا باختفاء مثير ضرامه من الميدان .

— ٣ —

إن ابن مردنيش ، الذى حمل لواء هذا الصراع الشهير ضد الموحدين ، ولبث طيلة اضطرامه صامداً ، كالصخرة الصلدة ، لا تفتر له همة ، ولا يهادن ، ولا تلين قناته ، حتى طواه الموت ، هو شخصية من أغرب شخصيات التاريخ الأندلسى ، تمثل كل خلال العصر ، ورذائله فى نفس الوقت ، ولو لم يبالغ ابن مردنيش فى مداخلة النصارى ، وربط قضيته بعونهم ، لكان فى وسعنا أن نعتبره بطل الوطنية الأندلسية ، وحامل لوائها ضد الموحدين .

وهو أبو عبد الله محمد بن سعد بن محمد بن سعد الجذامى بن مَرْدنَيش . أصله من الثغر الأعلى، وولد فى قلعة من قلاع طرطوشة المنيعة تسمى بُنُشْكُلَة، Peñiscola (١) وذلك فى سنة ٥١٨هـ (٢) وإذن فقد كان حينما تولى إمارة شرقى الأندلس ، فى نحو الرابعة والعشرين من عمره . وقد كن أبوه سعد بن محمد ابن مردنيش واليا لإفراغة أيام المرابطين ، حينما حاصرها ألفونسو المحارب ملك أراجون فى أواخر سنة ٥٢٧ هـ ( يونيه سنة ١١٣٣م ) ، وأبدى فى مدافعة النصارى بسالة رائعة ، واضطر المحاصرين أن يرفعوا الحصار غير مرة ، إلى أن وفدت الأمداد المرابطية ، ومعها الأمير يحيى بن غانية ، وكان ماكان من انتصار المسلمين الباهر على النصارى وذلك حسبما فصلناه من قبل فى موضعه ، وعمه عبد الله بن محمد بن سعد بن مردنيش صهر ابن عياض ، ونائبه فى بلنسية ، وهو الذى سبقت الإشارة إليه فيما تقدم غير مرة .

وقد لفت محمد بن سعد أنظار الباحثين باسمه ولقبه ، وصفاته الغريبة الفذة ، وتساءل بعضهم عن حقيقة أصله ونسبه ، فهو وفقاً لاسمه المدون جذامى ، أو

---

( ١ ) ومكانها اليوم نضر Peniscola الصغير الواقع جنوبى طرطوشة .

( ٢ ) ابن خلكان فى وفيات الأعيان ج٢ ص ٤٩٢ ، فى ترجمة أبى يوسف يعقوب المنصور . وهو يضبط « مردنيش ، وفقاً للشكل الموضوع عليها .

تجيبي وفقاً للبعض الآخر[١] ؛ أو بعبارة أخرى عربي الأرومة . بيد أن في لقبه ، وهو ابن مردنيش، وفي صفاته وسلوكه أيضاً ، ما يحمل على الريب في هذه النسبة . وأغلب الظن أنه ينتمي إلى المولدين أوبعبارة أخرى أنه إسباني الأصل ، دخل أجداده في الإسلام ، فأصبح من ذلك العنصر المسلم الدخيل ، الذي كان يؤلف شطراً له خطره من الأمة الأندلسية ، والذي لعب في تاريخها أعظم دور ، ولاسيما في أيام الفتن والثورات القومية . ويرى البحث الحديث . أن مردنيش ، هو تحريف الاسم الإسباني « مرتنيث » Martinez أو Martinizi أي ( ابن مرتين ) ،وربما تحريف لاسم Mardonius وهو سليل البيزنطيين القدماء في منطقة قرطاجنة[٢] . ومن جهة أخرى فإن صفات ابن مردنيش وسلوكه حسبما تصورها لنا الرواية العربية ، تؤيد هـذا الظن في انتمائه إلى عنصر المولدين . فقد كان شغوفاً بالتشبه بالنصارى ( القشتاليين ) في الزى والملابس والسلاح واللجم والسروج ، وكان يجيد اللغة القشتالية ، ويؤثر التحدث بها ، وكان يدعو إلى جيشه كثيراً من النصارى المرتزقة ، من القشتاليين والقطلان والبشكنس، يبتني لهم الأحياء والمعسكرات، ويزودها بأسباب الرفاهية والحانات، وكان يغدق عليهم الصلات الوفيرة من المال والإقطاعات ، وذهب في ذلك إلى حد أنه أقطع أحد أكابر فرسان البشكنس ، وهو المسمى بيدرو دى أثاجرا مدينة شنتمرية ابن رزين مع سائر مرافقها وأراضيها ، وقد أنشأ بها هذا الفارس مركزاً لأسقفية[٣] . وقد كان من جراء هذا الإغداق الفياض على النصارى أن اشتط ابن سعد في فرض المغارم والرسوم المختلفة على رعاياه المسلمين[٤]. وكان النصارى يسمونه الملك لوبي ( لب ) Rey Lope أو Lobo أعني « الذئب » . وفي بعض الروايات النصرانية ان هذا الاسم الأخير أطلقه عليه النصارى لما أثر من إقدامه وشجاعته[٥] .

---

( ١ ) ابن الخطيب في الإحاطة ( طبعة القاهرة القديمة ) ج ٢ ص ٨٥ .

( ٢ ) Dozy : Recherches (1881) V·I. p. 365·Codera : Decad. y Desp. de los Almoravides p. 113 & 311

( ٣ ) وهي شنتمرية الشرق المسماة بالإسبانية Albarracin . وقد كانت أيام عصر الطوائف قاعدة لمملكة بني رزين .

( ٤ ) الإحاطة ج ٢ ص ٨٧ ؛ وأعمال الأعلام ص ٢٦١ ؛ وكذلك Dozy: Recherches. V.I. p. 366

( ٥ ) A. Piles Ibars : Valencia Arabe (Valencia 1901) p. 516

وأضحى محمد بن سعد بن مردنيش بتغلبه على بلنسية ، ومرسية ، سيد المنطقة الشرقية كلها ، وامتد سلطانه من أحواز طرطوشة شمالا حتى قرطاجنة ولورقة جنوبا . ولما كان من الواضح أنه لايستطيع أن ينصرف إلى توطيد سلطانه فى تلك المنطقة الشاسعة إلا إذا أمن جانب النصارى ، وهم جيرانه من الشمال والغرب واستطاع بذلك أن ينصرف إلى مقارعة الموحدين ، الذين جازت جيوشهم الأولى إلى شبه الجزيرة ، فقد رأى أن تكون مسالمة الممالك النصرانية ، شعاره الذى لا يحيد عنه ، وأن يعقد معها التحالف كلما سمحت بذلك الفرص ودعت الضرورات .

ومن ثم فقد عقد لأول ولايته مع أمير برشلونة الكونت رامون برنجير الرابع صلحاً لمدة أربعة أعوام ، وعقد معاهدة صلح أخرى مع ملك قشتالة الإمبراطور ألفونسو السابع ( ألفونسو ريموندیس ) . وكان يؤدى لكل منهما فى السنة جزية قدرها خمسون ألف مثقال من الذهب . ولم تقف هذه السياسة فى مصانعة النصارى ومصادقتهم ، عند حدود شبه الجزيرة ، بل شملت الدول النصرانية فى خارجها . ففى العام الثانى من حكمه ، أعنى فى سنة ٥٤٣ هـ ( ١١٤٩م ) عقد ابن مردنيش مع جمهورية بيزة معاهدة صلح مدتها عشرة أعوام ، ثم عقد معاهدة أخرى مع جمهورية جنوة ، يتعهد فيها بأن يؤدى إليها إتاوة قدرها عشرة آلاف دينار مرابطية خلال عامين ، وأن يبنى للرعايا الجنوبيين الذين يقطنون فى بلنسية ودانية فندقاً يزاولون فيه تجارتهم ، وأن يمنحهم حماماً مجانياً فى كل أسبوع ، وتعهدت جمهورية جنوة من جانبها بأن لاتحدث أضراراً لأحد من رعايا الملك لوبو فى طرطوشة والمرية . وكان ابن مردنيش فضلا عما تقدم يراسل كثيراً من الملوك النصارى فى مختلف أنحاء القارة ، ويبعث إليهم بالهدايا القيمة . ومن ذلك أنه أرسل إلى هنرى الثانى ملك انجلترا ، هدية قيمة من الذهب والحرير والخيل والجمال ، وبعث إليه ملك انجلترا هدية جليلة(١)

وظهر ابن مردنيش منذ البداية بفائق عزمه وشجاعته وإقدامه ، كما ظهر بوافر شهامته وجوده . ويقول لنا ابن الخطيب إنه «كان له يومان فى الأسبوع ، يوم الاثنين والخميس ، يشرب مع ندمائه ، ويجود على قواده وخاصته وأجناده ، ويذبح الأبقار فى المواسم ، ويفرق لحومها على الأجناد ، ويتخلل ذلك لهو كثير ،

---

(١) F. Codera: Decad. y Desp,. de de los Almoravides, p. 115 & 120-123

حتى ملك القلوب من الجند، وعاملوه بغاية النصح، وربما وهب المال فى مجالس أنسه»[1].

وينوه المقرى بشجاعة ابن مردنيش، ويقول إنه كان من أبطال عصره، وأنه كان يدفع فى المواكب ويشقها شقاً، يميناً وشمالا، منشداً:

أكرُّ على الكتيبة لا أبالى أحتفى كان فيها أم سواها[2]

وجمعت الأقدار بين ابن مردنيش وزعيم يشبهه فى كثير من صفاته وميوله، وكان له أكبر عضد فى مضاعفة صولته، وتوطيد سلطانه، وهو إبراهيم ابن محمد بن مفرج بن همشك، وهو مثل ابن مردنيش شخصية تتميز بصفاتها الخاصة، وهو من أصل نصرانى صريح، فجده مفرج أو همشك نصرانى نزح إلى سرقسطة، وأسلم على يد أحد ملوك بنى هود فى أواخر أيامهم، وكان مقطوع إحدى الأذنين، فكان النصارى إذا رأوه فى القتال عرفوه وقالوا « هامشك »، ويقول لنا ابن الخطيب أن معنى هذه العبارة فى لغتهم « ترى المقطوع الأذن »[3] وأصل العبارة فى القشتالية هو He Mochico وبالتفصيل He aqui el Mocho pequeño, El desorejado menor. ومعناها مقطوع الذيل الصغير، ومقطوع الأذن[4]. ولما سقطت سرقسطة فى أيدى النصارى، وغادرها بنو هود، تحول إبراهيم بن همشك إلى قشتالة، وخدم ملكها حيناً، ثم ترك خدمة النصارى، ونزح إلى الأندلس، وخدم اللمتونيين بعد أن أعلن توبته، وشفع فيه بعض الأكابر. ولما ندب يحيى بن غانية لولاية قرطبة من قبل تاشفين بن على بن يوسف فى سنة ٥٣٨ هـ (١١٤٣ م) التحق بخدمته. ولما ثار القاضى ابن حمدين بقرطبة فى العالم التالى، وتسمى بأمير المسلمين، وكان ابن غانية يومئذ فى منطقة الغرب يطارد ثوارها، بعثه ابن غانية رسولا إلى قرطبة لمحاولة عقد الصلح بينه وبين ابن حمدين. ولكن الحوادث اتخذت يومئذ فى قرطبة وجهة أخرى، ثم اتسع نطاق الثورة بالأندلس، وتوالت الإنقلابات فى قواعد الشرق، فاتصل ابن همشك بابن عياض، وقد تغلب يومئذ على بلنسية، ولم يمض وقت طويل على ذلك حتى سنحت لابن همشك فرصة لاحتلال حصن شقوبش،

---

(١) ابن الخطيب فى الإحاطة ج ٢ ص ٨٣.

(٢) نفح الطيب (القاهرة) ج ٢ ص ٣٢٢.

(٣) الإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٣٠٥.

(٤) M. Gaspar Remiro : Murcia Musulmana, p. 166

ثم تغلب بعد ذلك على مدينة شقورة[١] الواقعة على مقربة من شمال شرقى أبدة ، فقوى أمره : وفى رواية أخرى أنه تغلب على شقورة فيما بعد حينما ندبه لذلك ابن مَرْدَنيش ، ولما آلت بلنسية ومرسية إلى محمد بن سعد اتصل به ، وعقد معه ابن سعد صهراً على ابنته ، فتوثقت بينهما العلائق ، وغدا ابن همشك من أعظم أعوان ابن سعد وقادته . وكان ابن همشك فى الواقع من أقدر قواد العصر ، وأوفرهم جرأة وشجاعة وإقداماً ، وقد خاض ضد الموحدين فيما بعد ، عدة من الحروب والوقائع الهامة[٢] .

— ٤ —

ليست لدينا تفاصيل شافية عن حوادث شرقى الأندلس فى الأعوام الأولى لحكم ابن مردنيش ، بيد أنه وقع عقب تولى ابن مردنيش حكم بلنسية ومرسية بقليل ، حادثان خطيران ، الأول فى شمال شرقى الأندلس ، والثانى فى جنوبى شرقها .

أما الحادث الأول ، فهو استيلاء النصارى على ما بقى بأيدى المسلمين من قواعد الثغر الأعلى . ونحن نعرف أن النصارى ، منذ استولوا على سرقسطة فى سنة ٥١٢ ﻫ ( ١١١٨ م ) لبثوا يتربصون الفرص لانتزاع القواعد القليلة الباقية فى هذا الركن النائى من الأندلس . وقد صدتهم هزيمة إفراغة المروعة ( ٥٢٨ﻫ ) عن مشاريعهم حيناً . فلما انفجر بركان الثورة فى الأندلس ضد المرابطين ، وشغلت الحاميات المرابطية فى كل قاعدة ، بالذود عن نفسها ، وشغل الزعماء الثائرون كل بتوطيد سلطانه ، شعر النصارى فى الثغر الأعلى ، بأن الفرصة قد سنحت لتحقيق مشروعهم . وكانت القواعد الباقية ، داخل الثغر الأعلى تنحصر فى لاردة وإفراغة ومكننسة ( مكناسة ) ثم فى ثغر طرطوشة الواقع عند مصب نهر إيبرو ( إبرة ) ، وكانت جميعها تقع على حدود إمارة برشلونة . وكانت طرطوشة أولى القواعد التى سقطت عندئذ فى أيدى النصارى . وكانت قد غدت فى أواخر عهدها الإسلامى مثوى للمجاهدين والمغامرين من رواد الحملات البحرية ، التى تثخن فى شواطىء الأمم النصرانية المجاورة . فدعا البابا أوچين الثالث إلى حملة صليبية لفتحها ، واجتمعت قوات النصارى من الأرجونيين والقطلان والبيزيين والجنويين وفرسان المعبد بقيادة الكونت رامون برنجير أمير برشلونة « وضربت

---

( ١ ) وهى بالإسبانية Segura de Sierra .

( ٢ ) ابن الخطيب فى الإحاطة ( ١٩٥٦ ) ج ١ ص ٣٠٦ و٣٠٧ .

الحصار حول طرطوشة من البر والبحر، ودافع المسلمون عن المدينة بمنتهى البسالة، وصمدوا للحصار أربعين يوماً، مؤملين أن ترد إليهم أمداد من بلنسية أو غيرها: فلما يئسوا من كل عون، اضطروا إلى تسليم المدينة صلحاً فى آخر سنة ١١٤٨ م (١٦ شعبان سنة ٥٤٣ هـ). مشترطين الاحتفاظ بأملاكهم ومساجدهم. بيد أنهم لم يستطيعوا الاحتفاظ بمساجدهم أكثر من ثلاثين أو أربعين عاماً: وهاجمت القوات النصرانية المتحالفة وعلى رأسها الكونت رامون برنجير مدينة لاردة بعد ذلك بقليل وكان طبيعياً ألا تصمد طويلا بعد سقوط طرطوشة، فسقطت فى أيدى المهاجمين وذلك فى ٢٤ أكتوبر سنة ١١٤٩ م (٥٤٤ هـ) وعبر واليها المرابطى ابن هلال البحر ملتجئاً إلى أمير ميورقة محمد بن غانية، وسقطت معها فى نفس الوقت، بل وفى نفس اليوم حسبما تروى التواريخ القطلانية، مدينتا إفراغة ومكناسة. ويقول لنا ابن الخطيب إن القشتاليين استولوا فى نفس الوقت على حصن أقليش وحصن سرانية (سنة ٥٤٣ هـ)[1].

سقطت هذه القواعد الإسلامية الشمالية الأخيرة فى أيدى النصارى، وانتهت بذلك سيادة المسلمين فى الثغر الأعلى. وقد كانت هذه القواعد، تابعة من قبل لمملكة سرقسطة، فلما سقطت سرقسطة فى أيدى الأرجونيين، أصبحت تابعة لولاية بلنسية، كما كانت منذ بداية العهد المرابطى، وإذن فقد كانت هذه القواعد خاضعة لسيادة ابن مردنيش، من الناحية الإسمية على الأقل. بيد أن ابن مردنيش لم يكن فى وسعه أن يحميها أو أن ينجدها، وكان ارتباطه برباط الصداقة والمهادنة مع الكونت برنجير أمير برشلونة، يحول دون أية محاولة لإنقاذها، تفسد علائقه مع الممالك النصرانية، ومن جهة أخرى فقد كان الدفاع عن هذه القواعد النائية الواقعة فى قلب الأراضى النصرانية عملا غير ميسور. ومن ثم فإن ابن مردنيش لم يحرك ساكنا، إزاء هذا الحدث المؤلم، وإن كان قد لبث يعتبر نفسه حامياً للرعايا المسلمين، فى تلك القواعد المنزوعة، يدل على ذلك أنه حينما عقد معاهدة الصداقة مع جمهورية جنوة، قد اشترط فيها أن تتعهد جنوة بألا توقع أية أضرار برعايا الملك لوبو فى طرطوشة وألمرية، وقد كانت جنوة ضمن البلاد التى اشتركت فى افتتاح طرطوشة.

---

(٢) ابن الأثير ج ١١ ص ٥٢. وراجع روض القرطاس ص ١٧٦، والإحاطة ج ٢ ص ٨٩. وراجع أيضاً: Codera : Ibid ; p. 124 - 126

وأما الحادث الثانى فقد وقع فى نفس الوقت ، الذى ظفر فيه ابن مردنيش بولاية بلنسية ومرسية ، وهو استيلاء النصارى على ثغر ألمرية . وكانت ألمرية فى الواقع شجى فى عيون الدول النصرانية القريبة مثل قطلونية وچنوة وبيزة ، بما كانت تقوم به الحملات البحرية الخارجة منها فى شواطىء هذه الدول من ضروب العيث والتخريب . ففى غمرة الإضطراب العام ، الذى شمل الأندلس عقب انهيار سلطان المرابطين ، رأت الدول النصرانية ، وعلى رأسها البابا ، أن تقوم بانتزاع هذا الثغر الغنى الحصين من أيدى المسلمين ، وبادر ألفونسو السابع ملك قشتالة بانتهاز الفرقة السانحة ، ونظمت حملة برية وبحرية مشتركة من قوات قشتالة ، وقطلونية ، ونافار ، وچنوة ، وبيزة ، وبعض حشود فرنسية من وراء البرنيه ، وسارت هذه الحملة الصليبية المشتركة إلى ألمرية ، وحاصرتها من البر والبحر بقوات كثيفة ، واستمر الحصار ثلاثة أشهر ، حتى نضبت موارد المدينة ، واضطر المسلمون فى النهاية إلى تسليمها للنصارى ، وذلك فى العشرين من جمادى الأولى سنة ٥٤٢ هـ ( ١٧ أكتوبر سنة ١١٤٧ م )(١) . وقد كان سقوط هـذا الثغر الأندلسى الهام فى أيدى النصارى حادثاً جللا ، بيد أن أصداءه المحزنة قد تبددت خلال المحنة العامة التى كانت تعانيها الأندلس يومئذ ، من تفرق كلمتها وتبدد قواها ومواردها ، وكان استرداده من أهم ما عنى به الموحدون ، مذ ثبتت أقدامهم فى شبه الجزيرة .

وكان ألفونسو السابع ملك قشتالة قد استولى فى نفس الوقت على معقل من أهم معاقل الأندلس الوسطى ، وهو قلعة رباح ، وذلك فى أواخر سنة ٥٤١ هـ ( ١١٤٧ م ) ، وذلك قبل استيلائه على ثغر ألمرية بأشهر قلائل . وقد أحدث القشتاليون باستيلائهم على هذا المعقل المنيع ثغرة خطيرة فى خطوط الدفاع الأندلسية . وسنرى فيما بعد أى دور خطير تلعبه هذه القلعة الشهيرة فى حوادث الصراع بين الموحدين والنصارى .

فى ذلك الحين كان ابن مَرْدَنيش يعمل على توطيد سلطانه . وقد كان حريصاً على ألا ينتقص من أطرافه معتد خارجي أو داخلى ، حتى لقد بلغه خلال سيره إلى بلنسية ليتولى سلطانه بها ، أن النصارى هاجموا حصن « حلال » فكر إليه ،

( ١ ) ابن الأثير ج ١١ ص ٤٦ ، وروض القرطاس ص ١٧٦ . وراجع : Lafuente : Hist General de Espana T. III. p. 294

واسترده من أيديهم ، ثم عاد إلى بلنسية فتلقى بها البيعة[١] . ولما سار إلى مرسية ليستخلصها من يد نائبها ابن عبيد ، بعث قائده ابن همشك إلى مدينة شقورة ، وقد كان يعتبرها من متعلقات بلنسية ، لينتزعها من صاحبها ابن سوار ، فاستولى ابن همشك عليها[٢] ، ثم عاد إلى مرسية لمعاونة ابن مردنيش على السيطرة على مرسية وتلقى بيعتها. فلما تم له الأمر غادرها إلى بلنسية ، وترك ابن همشك نائباً عليها . وكان ابن مردنيش ، قد عين أخاه أبا الحجاج يوسف بن سعد ، منذ البداية نائباً له ببلنسية .

ولسنا نعلم الكثير عن أعمال ابن مردنيش فى الأعوام الأولى لولايته . وأول ما تحدثنا عنه الرواية من ذلك هو استيلاؤه فى سنة ٥٤٦هـ ( ١١٥١م ) على مدينتى بسطة ووادى آش . وقد سبق أن ذكرنا ماكان من قيام ابن ملحان الطائى بوادى آش ، وتغلبه عليها وعلى بسطة . وكان الموحدون قد عبروا إلى شبه الجزيرة قبل ذلك ببضعة أعوام ، واستولوا على إشبيلية ، فى شهر شعبان سنة ٥٤١ ، وذلك بعد أن استولوا على شَريش ، وقواعد الغرب ، التى كانت أولى القواعد الثائرة ضد المرابطين ، ثم استولوا على قرطبة سنة ٥٤٣هـ ، ثم على جيان وبياسة وأبدة. وهكذا وصلت طلائع الموحدين إلى أواسط الأندلس ، وأضحت تشرف من ناحية الشرق على أملاك ابن مردنيش . والظاهر أن ابن مردنيش كان يستعين فى حملته ضد بسطة ووادى آش بجنود من القشتاليين أرسلها ألفونسو السابع لمعاونته[٣]. ولما رأى ابن ملحان أنه لاطاقة له بمقاومة الغزاة أعلن طاعته للموحدين ، ثم غادر وادى آش فى أهله وأمواله ، وعبر البحر إلى المغرب حسبما ذكرنا من قبل فى فى موضعه . وأضحى ابن مردنيش باستيلائه على بسطة ووادى آش يواجه القواعد الموحدية فى جيان وبياسة وأبدة من الجنوب كما يواجهها من الشرق ، وهكذا أخذت تجتمع عناصر ذلك الصراع المضطرم الذى لبث ابن مردنيش ، ومن ورائه قوى الأندلس الشرقية كلها ، يضطلع به ضد الموحدين أعواما طوالا ، والذى كان يمثل فى كثير من نواحيه ثورة الأندلس القومية ضد غزاتها من وراء البحر ، أعنى المرابطين والموحدين .

---

( ١ ) الإحاطة ج ٢ ص ٨٥ .

( ٢ ) M. Gaspar Remiro : Murcia Musulmann p. 188 . وقد سبق أن أشرنا إلى رواية ابن الخطيب فى تغلب ابن همشك على شقورة قبل اتصاله بابن مردنيش .

( ٣ ) F. Codera : Ibid ; p. 133

# الفصل الرابع

## أعوام عبد المؤمن الأخيرة

### وفاته وخلاله

ابن مردنيش ينتزع جيان ويحاصر قرطبة . خديعته ومسيره إلى إشبيلية . إخفاقه وارتداده . غزو ابن همشك لأراضى قرطبة . هزيمة الموحدين ومقتل قائدهم . مسير ابن همشك إلى قرمونة وتغلبه عليها . الوزير ابن عبد السلام الكومى . سوء مسلكه وطغيانه . مصرعه . تكسير الإمبراطورية الموحدية . كتب عبد المؤمن بالفتح . اهتمامه بشئون الأندلس . مشروعه لتحصين جبل طارق وإنشاء مدينته . بناء المدينة ووصفها وفقاً لرواية ابن صاحب الصلاة . عبور عبد المؤمن إلى جبل طارق . الاحتفال بافتتاح المدينة . وفود الأعيان والكبراء . مدائح الشعراء . عبد المؤمن ينظم شئون الأندلس . عبوره إلى المغرب وعوده إلى مراكش . استرداد الموحدين لقرمونة . مهاجمة ابن همشك لغرناطة ودخوله إياها . محاصرته للموحدين بالقصبة . مقدم الأمداد الموحدية . موقعة مرج الرقاد . . هزيمة الموحدين وفرارهم . عبد المؤمن يرسل جيشاً إلى الأندلس . مسير ابن مردنيش لإمداد ابن همشك . موقعة السبيكة . هزيمة ابن همشك وحلفائه النصارى. استرداد الموحدين لغرناطة . ارتداد ابن همشك وابن مردنيش . تحصين الموحدين لغرناطة . نقل قاعدة الحكم الموحدى إلى قرطبة . إصلاح قرطبة وتنظيم شئونها . استعداد عبد المؤمن للجهاد بالأندلس . زيارته لتينملل . مسيره إلى رباط الفتح . اجتماع الجيوش الموحدية . بحث خطة الغزو بالأندلس . مرض عبد المؤمن . تنحيته لولده محمد عن ولاية العهد واختياره لولده يوسف . . وفاة عبد المؤمن . عقد البيعة لولده يوسف . تولى أخيه أبى حفص الوزارة . روايات أخرى عن تولية يوسف . عبقرية عبد المؤمن . إنشاؤه للدولة الموحدية الكبرى . إنشاؤه للخلافة الزمنية . عبد المؤمن أعظم خلفاء الغرب الإسلامى . قائد من أعظم قواد عصره . نظام حركة الجيوش الموحدية . تنظيم عبد المؤمن لطبقات الموحدين . تنظيمه للجيوش الموحدية . طوائف العرب وتقلبها . نظم الحكم والإدارة الموحدية حسبما وردت فى رسالة لعبد المؤمن . حبه للعلم والعلماء . عنايته بأمر الطلبة وتدريبهم . علمه وأدبه . الجراوى الشاعر . صرامة عبد المؤمن الدينية . تشدده فى معاملة النصارى واليهود . قسوته وسفكه للدماء . قواده وكتابه ووزراؤه وقضاته . سياسته فى فرض الضرائب والجبايات . مسحه لبلاد المغرب . أولاده . صفة شخصه .

— ١ —

لما تم لعبد المؤمن فتح المهدية فى العاشر من المحرم سنة ٥٥٥ ه ، وإجلاء الفرنج الصقليين عن إفريقية ، ثم القضاء عقب ذلك على طوائف العرب الذين تصدوا لمقاومته ، كانت حوادث الأندلس ، قد أخذت تشغل معظم تفكيره ،

وكانت حوادث شرق الأندلس بالأخص ، قد تطورت خلال ذلك ، بصورة تدعو إلى القلق . ذلك أنه فى الوقت الذى كانت جيوش عبد المؤمن ، تعسكر فيه تحت أسوار المهدية ، كان زعيم الشرق محمد بن سعد بن مَرْدَنيش ، قد خرج من مدينة مرسية ، بجيش مختلط من قواته ، ومن حلفائه القشتاليين ، وسار إلى إلى مدينة جيّان ، فلم يبد واليها الموحدى محمد بن على الكومى أية مقاومة ، وسلمها إليه ، وانضوى تحت لوائه ، وهو ما تعتبره الرواية الموحدية خيانة منه ، ونكثا لبيعته للموحدين . ثم سار ابن مردنيش من جيان إلى قرطبة ، ونازلها بشدة ، وعاث فى ربوعها ، وأتلف زروعها ، فخرج إليه واليها أبو زيد عبد الرحمن ابن يكيت ( أو يخيت ) فى قواته ، واشتبك معه فى معركة شديدة ، ثم ارتد إلى المدينة ، وامتنع بها ، فضرب ابن مردنيش الحصار حول قرطبة ، ولبث يرقب فرصة الاستيلاء عليها ، ولكن ابن يكيت ، وقاضى المدينة أخيل ابن إدريس لجآ إلى حيلة أو خدعة حربية ، فكتبا على لسان سيدراى بن وزير إلى ابن مردنيش كتابا ، وبعثا به إلى ابن مردنيش ، على يد رسول متنكر فى صفة زيات من أهل الشرق ، وفيه يحث ابن وزير ، ابن مردنيش ، بأن يسرع بالإقلاع عن قرطبة ، والسير إلى إشبيلية لأنها دون دفاع . فآمن ابن مردنيش بالخدعة وبادر فى الحال بالسير إلى إشبيلية ، وسبقه من قرطبة جاسوس موحدى إلى إشبيلية ، فأخطر ولاة الأمر بما حدث ، واعتقد هؤلاء فى صحة ما نسب إلى ابن وزير ، فقبض عليه واعتقل . ووصل ابن مردنيش بقواته إلى إشبيلية ، ونزل بظاهرها بموضع يعرف بألفونت ، ونازلها ببعض قواته حتى وصل إلى باب قرمونة فى شمالها الشرقى ، وأقام أمامها ثلاثة أيام ، وقد شاع الاضطراب فى المدينة ، وتوجس الناس شراً ، وأبدى واليها السيد أبو يعقوب منتهى الحزم واليقظة فى الدفاع عن المدينة ، بمعاونة الأشياخ والطلبة والحفاظ الموحدين ، ومعهم طائفة من جند الأندلس بقيادة أبى العلاء بن عزون صاحب شريش ، وكان أشياخ إشبيلية وأعيانها يسهرون طول الليل فوق الأسوار ، ويحرصون كل الحرص على ثقاف أبواب المدينة . واتخذ الموحدون داخل المدينة اجراءات صارمة ، فقتلوا عدداً ممن لحقت بهم ريبة الغدر ، واعتقلوا الكثير من الناس . وأدرك ابن مردنيش أمام ذلك كله ، أنه قد خدع بما جاء فى الخطاب المزور ، وأن إشبيلية ليست بغية هينة ، فغادرها وارتد على عقبيه ، دون أن يفوز بطائل .

ووقعت هذه الأحداث التى نستقيها من رواية كاتب معاصر ، وشاهد عيان ، هو عبد الملك بن صاحب الصلاة ، مؤرخ الدولة الموحدية[١] ، فى سنة ٥٥٤ هـ ( ١١٥٩ م ) .

بيد أنه لم تمض بضعة أشهر أخرى حتى عاد ابن مردنيش إلى مهاجمة الموحدين ، فبعث جيشاً ( فى أوائل سنة ٥٥٥ هـ ) تحت إمرة قائده وصهره إبراهيم بن هَمُشك ، فسار إلى قرطبة واجتاح أراضيها ، وانتسف زروعها ، ونازلها وقتاً ، ثم أقلع عنها ، ورتب كمائنه على مقربة منها فى قرية تسمى « أطابة » ، فخرج الموحدون من قرطبة بقيادة واليها عبد الرحمن بن يكيت لاستطلاع الأحوال ، فخرجت عليهم كمائن ابن همشك ، وأثخنت فيهم ، وقتل ابن يكيت فيمن قتل ، وارتد الموحدون إلى المدينة فاعتصموا بها . وسار ابن همشك بعد ذلك فى قواته إلى مدينة قَرْمونة ، وهى حصن إشبيلية من الشمال الشرقى ، فهاجمها ، واستولى عليها بمعاونة زعيم من زعمائها يدعى عبد الله بن شراحيل وذلك فى شهر ربيع الأول سنة ٥٥٥ هـ ( مارس ١١٦٠ م ) . وامتنع الموحدون الذين بها بقصبتها . ولما وقف السيد أبو يعقوب والى إشبيلية على ذلك ، وكان على أهبة السفر لملاقاة والده الخليفة ، بادر فارسل عسكراً إلى قرمونة لإنجاد حاميتها ، وانتظر حيناً يرقب الحوادث[٢] .

وفى خلال ذلك ، وعقب اتمام فتح المهدية ، وقع فى المعسكر الموحدى حادث يتصل بصميم الشئون الموحدية الداخلية ، وهو مصرع الوزير محمد ابن عبد السلام الكومى . ويبدو من أقوال ابن صاحب الصلاة ، أن عبد المؤمن ندب هذا الوزير لخدمته فى شهر شوال سنة ٥٥٣ هـ ، عند خروجه إلى غزو إفريقية وافتتاح المهدية[٣] . ولكنا قد رأينا مما تقدم ، أن هذا الوزير قد لعب وفقاً لرواية ابن عذارى وابن الخطيب[٤] ، دوراً كبيراً فى مصرع الوزير

---

( ١ ) فى كتابه « تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين ، بأن جعلهم الله أئمة ، وجعلهم الوارثين » ، ( السفر الثانى ) وهو المخطوط الذى سبق التعريف به فى بيان المصادر لوحة ٢ ا و ب . وسوف يكون هذا المخطوط منذ الآن فصاعدا من أثمن مصادرنا . وراجع أيضاً البيان المغرب – القسم الثالث – ص ٤٠ .

( ٢ ) تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين – المخطوط سالف الذكر لوحة ( ٥ و ١٤ ) ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٤٣ و ٤٥ .

( ٣ ) تاريخ المن بالإمامة – المخطوط السابق ذكره ( لوحة ١٢٠ ) .

( ٤ ) البيان المغرب – القسم الثالث – ص ٣٥ ، والإحاطة ( ١٩٥٦ ) ج ١ ص ٢٧٣ .

ابن عطية ، وأنه فى الوقت الذى كان فيه ابن عطية ، يقوم بمهمته فى الأندلس ، كان ابن عبد السلام ، يتولى الوزارة ، ويتزعم خصوم ابن عطية ، فى مطاردته ، وتدبير الوسائل الكفيلة بسحقه ، وأنه لما عاد ابن عطية من الأندلس مسرعاً لمناهضة سعى خصومه ، انتهى الأمر باعتقاله ، ثم إعدامه مع أخيه وذلك فى شهر صفر سنة ٥٥٣ هـ . وإذن فمن المرجح أن يكون ابن عبد السلام ، قد تولى الوزارة لعبد المؤمن قبل هذا التاريخ ببضعة أشهر . وعلى أى حال ، فقد شاء القدر أن يلقى ابن عبد السلام نفس المصير الذى لقيه زميله ابن عطية . وذلك أنه لما خرج عبد المؤمن إلى غزوة المهدية ، وعرج فى طريقه على سلا ، كان ابن عبد السلام فى ركابه ، فوجهه عبد المؤمن إلى الأندلس ليستطلع أحوالها بسرعة . فسار الوزير إلى إشبيلية ، ثم إلى قرطبة وغرناطة ، وتفقد أحوالها ، وأبلغ إلى الأشياخ والطلبة ماكان لديه من الأوامر والتوجيهات ثم عاد إلى الخليفة ، وكان ما يزال بمحلته فى سلا ، وأبلغه نتيجة مهمته . ثم تحرك عبد المؤمن إلى تلمسان ، واستدعى معه واليها وهو ولده السيد أبو حفص ، ثم سار إلى بجاية ، واستدعى معه كذلك واليها ، وهو ولده السيد أبو محمد عبد الله . وكان الوزير ابن عبد السلام ، عندئذ فى ذورة سلطانه ونفوذه يهيمن على سائر الشئون ، ويراقب أحوال السادة أبناء الخليفة ، وينقل أخبارهم إليه ، فكان مما نقل إليه أنهم يشربون الخمر ، ويعكفون على اللهو ، ويأتون فعالا قبيحة ، فتأثر الخليفة لذلك ، وعهد إلى بعض أشياخ الموحدين بتحقيق هذا الأمر ، فقاموا بالمهمة ، وراقبوا السادة ، وانتهوا إلى التحقق من بطلان التهم الموجهة إليهم ، فأدرك عبد المؤمن عندئذ تحامل وزيره ، وأسرها له . ولما حدث أثناء حصار المهدية من زحف الموحدين على قابس ، كان ابن عبد السلام ، على رأس الجيش المهاجم . فلما افتتحها الموحدون ، استأثر الوزير بجمع الأسلاب والغنائم والأموال ، واحتجز وأخفى منها ما شاء . وفى أثناء غيبته تكلم أشياخ الموحدين فى حقه ، وشكوا من استعلائه عليهم ، ورغبوا إلى الخليفة أن يكون ابنه أبا حفص ، هو صلة الوصل بينه وبينهم ، فاستجاب الخليفة إلى رغبتهم . ولما تم فتح المهدية ، وتمزيق طوائف العرب فى إفريقية ، ارتد عبد المؤمن فى قواته إلى تلمسان ومعه وزيره ابن عبد السلام . وهناك ارتفعت الشكوى للخليفة من عمال ابن عبد السلام ، وظلمهم ، وتعديهم على الرعية ، ومن قرابته كوميه ، وتجرئهم على سلب

الأموال ، ومضاعفة الجباية ، وغير ذلك من المظالم الفادحة بممالأة ابن عبد السلام وتشجيعه ، وحمايته ، فأمر الخليفة بجمع المتظلمين وأشياخ الموحدين وطلبة الحضر والقاضى ، لسماع أقوالهم ، فأفاضوا فى التظلم والشكوى ، وكرروا اتهاماتهم ، ونقلت أقوالهم إلى عبد المؤمن ، فأبدى دهشته مما يحدث ، ومن كثرة الأموال التى تجمع ، وكونها لاتصل إليه ، وقلة ما بيده منها ، وعجزه عن أن يمد أجناده الموحدين بالعطاء المجزى ، هذا مع أن لمتونة التى لم تكن تملك مثل إمبراطوريته الشاسعة ، كانت بالنسبة لأجنادها أكثر بذلا وإنصافاً . وغادر الخليفة مجلسه مغضباً ، وكان ابن عبدالسلام حاضراً ذلك المجلس ، فتوجس شراً ، ولم يأت ظهر ذلك اليوم حتى تحققت مخاوفه ، وقبض عليه فى مجلسه ، وسيق إلى المطبق . ولما غادر الخليفة تلمسان ، أوعز بقتل ابن عبد السلام ، فقدم إليه طعام مسموم توفى عقب تناوله ، وكفّر بذلك عما أثم به فى حق زميله الوزير ابن عطية ، وكان ذلك فيما يرجح فى أواسط سنة ٥٥٥ هـ ( ١١٦٠ م )(١) .

وكان من الأعمال البارزة التى قام بها عبد المؤمن ، عقب افتتاح المهدية ، وتوطد سلطانه فى سائر نواحى إفريقية والمغرب ، البدء بتكسير الإمبراطورية الموحدية أعنى مسحها من برقة إلى السوس الأقصى ، ومن شاطىء البحر المتوسط إلى مشارف الصحراء ، على أن يسقط من التكسير الثلث فى الجبال والوهاد والأنهار والسبخات والطرق ، ومابقى يفرض عليه الخراج ، وأن تلزم كل قبيلة بأداء قسطها من الزرع والوِرْق أى المال ، وكان عبد المؤمن هو أول من قام بمثل هذا الإجراء من ملوك المغرب(٢) .

— ٢ —

وهكذا شعر عبد المؤمن بعد افتتاح المهدية ، واستكمال سيادة الموحدين على سائر نواحى إفريقية ، أن الأندلس تتطلب مزيداً من عنايته واهتمامه . ولم ينس أن الحركة التى قام بها ابن مردنيش بالاستيلاء على جيان ، وتهديد قرطبة وإشبيلية ، قد تتفاقم وتقضى على سيادة الموحدين الفتية فى شبه الجزيرة . ومن ثم فقد حزم أمره على أن يعبر البحر إلى الأندلس ، لينظر فى شئونها ، ولينظم وسائل الدفاع عنها .

---

( ١ ) كتاب المن بالإمامة على المستضعفين — المخطوط المشار إليه لوحة ١٢٢ ا ، والبيان المغرب القسم الثالث — ص ٤٣ و ٤٤ .

( ٢ ) روض القرطاس ص ١٢٩ .

وكان عبد المؤمن عقب افتتاح المهدية ، قد أرسل إلى الأندلس كتبه بالفتح ، وفى مقدمتها كتابه إلى ولده السيد أبى يعقوب والى إشبيلية ، وفيه يشرح حوادث الفتح ، وما وقع من إجلاء النصارى ، وماقام به العرب ، من ضروب التمرد والمقاومة ، ثم يقرنه بقصيدة يوردها لنا ابن صاحب الصلاة ومما جاء فيها :

ولما قضينا بالمشارق أمرنا ... وتم مراد الله فى كل مطلب
وأشرقت الشمس المنيرة فوقنا ... وأصبح وجه الجو غير محجب
وطهر هذا الصقع من كل كافر ... وعاد به الإسلام بعد تغيب
وكسرت الصلبان فى كل بيعة ... ونادى منادى الحق فى كل مرقب
أشرنا بأعناق المطى إليكم ... فطار بها شأو السرور بمغرب

ووصل كتاب عبد المؤمن بالفتح إلى إشبيلية فى صفر سنة ٥٥٥ ؛ ويقول لنا ابن صاحب الصلاة ، إن السيد أبا يعقوب أمر أن يكتبه الناس والطلبة ، وأن يحفظوه ، وأن يتلى من فوق المنابر ، وأمر كذلك بقرع الطبول ، وإقامة المآدب للأجناد والناس كافة ، واستمر قرع الطبول ، والإطعام ثلاثين يوما ، والبشر يعم أنحاء المدينة ، والشعراء ينشدون قصائدهم بالتهنئة ، فى مختلف المناسبات والمواطن[1] .

ولم يكدر صفو هذا البشر الشامل ، سوى ماوقع فى هذه الآونة بالذات من منازلة ابن همشك لقرطبة ، ومصرع واليها ابن يكيت ، ومحاصرة قصبة قرمونة ، ومن ثم فقد كان رد السيد أبى يعقوب على كتاب الفتح ، يتضمن شرحاً لهذه الحوادث ، وتضرعاً إلى والده الخليفة ، بأن يعجل بالإنجاد والغوث.

وكانت خطة عبد المؤمن لتنظيم شئون الأندلس وإتمام فتحها ، وإذكاء حركة الجهاد بها ، تتضمن فضلا عن مضاعفة البعوث العسكرية إلى شبه الجزيرة ، تحصين قاعدة جبل طارق ، وإنشاء مدينة كبرى بها . ومن حسن الحظ أننا نجد أدق شرح وأوفى تفصيل لهذا المشروع الضخم ، فى رواية بن صاحب الصلاة ، وقد كان فضلا عن اطلاعه على الكتب والوثائق المتعلقة بذلك ، شاهد عيان وثيق الصلة ببلاط الخليفة ، وبالسيد أبى يعقوب والى إشبيلية ، والسيد أبى سعيد والى غرناطة ، وهما اللذان عنيا بتنفيذ المشروع . وبالرغم من أنه يقرن روايته فى معظم

(١) كتاب المن بالإمامة على المستضعفين — المخطوط السالف الذكر ، لوحة ٢٥ .

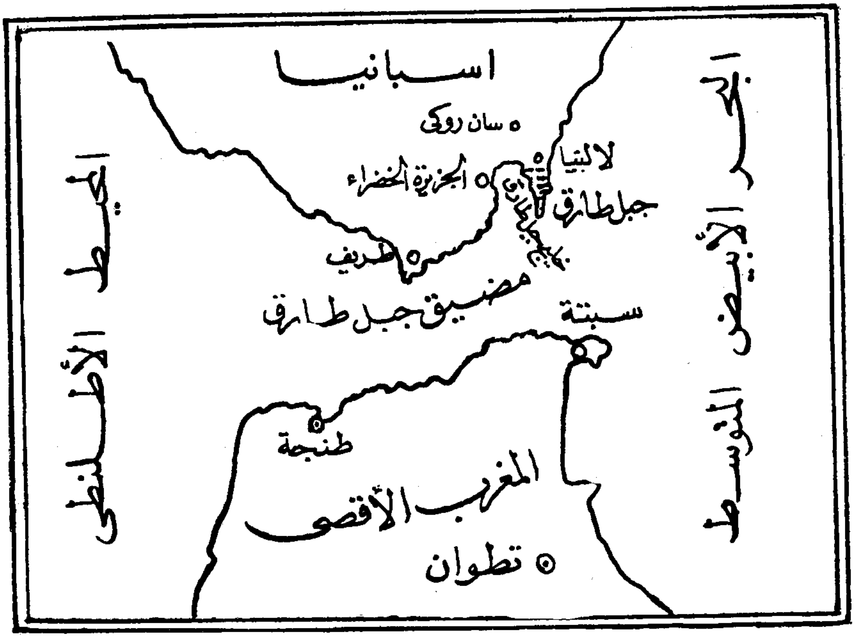


جبل طارق والمضيق

الأحيان ، بكثير من عبارات الدعاء والتبجيل والملق ، التى تفصح عن طبيعة علائقه بالبلاط الموحدى ، فإنه يقدم إلينا فى نفس الوقت كثيراً من المعلومات والتفاصيل النفسية ، التى لاتوجد فى أى مصدر آخر .

أرسل السيد أبو يعقوب رسالة بطلب الإنجاد إلى والده الخليفة ، وإشبيلية تسودها ريح التوجس والقلق ، فسرعان ما وصل رد الخليفة من معسكره المظفر ، على مقربة من قسنطينة ، بتاريخ ربيع الأول سنة ٥٥٥ هـ « يعرف فيه بصحيح الآيات ، وما ثنى فيه من أعنة خيل الله لهذه الأصقاع ، وحماية ذلك الجناب » ، فأطمأن الموحدون لما وعد به الخليفة ، من سريع العون وبالغه ، واستبشروا بالنصر القريب ، وقرىء كتاب الخليفة على المنابر ، وساد البشر بين الناس .

ووصل فى نفس الوقت كتاب آخر من الخليفة ، مؤرخ فى التاسع من ربيع الأول من نفس العام ، ومتضمن « للأمر العزيز » ، بإنشاء مدينة كبرى فى جبل طارق ؛ ذلك الجبل الذى يصفه ابن صاحب الصلاة « بالجبل الميمون القديم البركة ، على جزيرة الأندلس السامق الشاهق ، المفتتح منه دانيها وقاصيها ، وطايعها وعاصيها » ، ولتكون هذه المدينة منزلا للأمير عند إجازته بالعساكر ، ومستقراً تتقدم منه « الرايات المظفرة ، والأعلام المنشورة إلى بلاد الروم » . وكان الكتاب

يتضمن أمراً مشدداً من الخليفة إلى ولده السيد أبي سعيد عثمان والى غرناطة ، بأن يسير بنفسه من غرناطة مع صحبه وبعض عسكره إلى جبل طارق ، وأن يجتمع فيه بالطلبة الوافدين من إشبيلية ، وبالشيخ أبي حفص عمر ، وأبي إسحق برّاز ابن محمد ، والحاج يعيش المالقي ، والقائد عبد الله بن جيار ، وأن يدرس الجميع خطط المدينة الجديدة ، وأين يكون موقعها من الجبل . فصدع السيد أبو سعيد بأمر الخليفة ونهض في صحبه إلى جبل طارق ، للعمل على تنفيذ الخطة المطلوبة ، وطُلب في الكتاب إلى السيد أبي يعقوب والى إشبيلية أن يحشد جميع العمال البنائين والجيارين والنجارين والعرفاء ، من جميع بلاد الأندلس التي تحت نظر الموحدين ، وأن يعجلوا بالسير إلى الجبل ، لتنفيذ الأمر الكريم ، فنهض السيد أبو يعقوب بما طلب إليه ، وسار من إشبيلية العريف أحمد بن باسُه ، ومعه حشد كبير من العمال من بنائين وغيرهم من مختلف الحرف إلى جبل طارق ، ووصل إليه في نفس الوقت جمهرة من القواد والكتاب وأهل الحساب ، لتنظيم النفقة على الأعمال المطلوبة ، ورصدها ، وتم ذلك كله في سرعة ونظام وحزم .

قال ابن صاحب الصلاة : « وابتدأوا البناء في الموضع الذي وقع الجميع عليه ، والاتفاق من نواحيه ، بسيف البحر ، مما يلاصقه ويليه ، وزادت الآمال بأهل الأندلس إلى ماتقدم إليهم من الأمل ، وتحققوا اليمن والسعد والفتح في بنيان هذا الجبل ، وكان من اشغال السيد الأعلى أبي يعقوب بإشبيلية في إزعاج الفعلة والرجال للبناء المذكور ، وأحكم البناءون فيه بناء من القصور المشيدة والديار ، واخترعوا في أسسها طيقاناً وحنايا ، لتعتدل بها الأرض ، مبنية بالحجر المنجور والجيار ، بما هو عجيب في الآثار . . وهذا شريف البقعة كريم التربة ، عظيم المنعة ، باسق مع أعشار السماء ، تكاد في المسامتة إلى الجوزاء ، وكل ما استودع في أرضه من البطحة المنبسطة ، من بعضه ، مما زكى وفضل وجل ، وأثمر عن قرب لغرسه وأكل ، وأستقل من جميع الفواكه ، كشجر التين والعنب والتفاح والكمثرى والسفرجل والمشموم والأجاص والأترج والجوز وغير ذلك ، على ضيق ضفته المد .دة كالحبل ، المستمدة من الظل والوبل ، وماؤه عذب زلال ، مروق سلسال . وكان الحاج يعيش المهندس مدة إقامته للبناء على ما ذكرته فيه ، فوضع في أعلاه رحى تطحن الأقوات بالريح ، عاينها الثقات مدة البناء المذكور ، فلما رجع إلى مراكش عند إكمال ما أمر به فسدت الرحى ، لعدم الاهتبال بها ،

واتصل بهذا العمل من بناء الدور القصور ، بناء السور والباب المسمى بباب الفتوح فى الفرجة التى كان يدخل منها إلى الجبل ، بين البحر المحدق به من كلا جانبيه ، فجاء فرداً فى المعاقل التى لايتمكن أطامع فيه طمع ، ولا يخطر على خاطر ساكنه جزع ، من بر ولا بحر »[1] .

واستمر العمل شهوراً بهمة مضاعفة ، والسيد أبو يعقوب والى إشبيلية ، يشرف على تنفيذ أوامر الخليفة ، دون هوادة ولا كلل ، والمهندسون والعرفاء ، والعمال من كل ضرب ، يبذلون أقصى جهدهم فى إتمام المشروع ، حتى كمل على أحسن وجه ، وتم بناء المدينة الجديدة فى شهر ذى القعدة سنة ٥٥٥ هـ ( ديسمبر سنة ١١٦٠ م ) وابتنى بها جامع ، وقصر للخليفة ، ودور لأبنائه وحاشيته ، وغُرست الحدائق على طولها حذاء البحر ، وجُلب إليها الماء العذب ، وجدد الحصن والأسوار القديمة ، وعنى بتحصين الصخرة ، أكمل عناية ، وسمى الجبل بأمر الخليفة جبل الفتح أومدينة الفتح ، وكانت المراسلات أثناء ذلك تتردد بين السيد أبى يعقوب ووالده الخليفة ، بتحديد موعد عبوره ، واستعداداً للاحتفال بهذا الحادث الجلل . وكان السيد أبو يعقوب يعتزم العبور إلى المغرب ، وليعاين أثناء مسيره ماتم من الأعمال فى جبل طارق ، ولكنه ما كاد يركب السفينة التى أعدت بالنهر لعبوره ، حتى وصلته أبناء استيلاء ابن همشك على قرمونة ، وامتناع حاميتها الموحدية بالقصبة ، فارتد من فوره إلى المدينة ، وقد اضطربت بها الأحوال ، ووجه فرقة من العسكر لإنجاد الحامية ، ومقاتلة أهل قرمونة ، وكان ذلك حسبما تقدم ، فى شهر ربيع الأول سنة ٥٥٥ هـ ( مارس سنة ١١٦٠م ) ، وهو الشهر الذى وصلت فيه رسالة الخليفة بإنشاء مدينة جبل طارق .

— ٣ —

وكان عبد المؤمن يرتقب إتمام المدينة الجديدة بجبل طارق ، ليعبر إلى شبه الجزيرة ، فلما كملت ، وكان عندئذ فى أحواز فاس ، سار إلى سبتة فى جموع ضخمة من الموحدين والعرب من بنى رياح ، وبنى جشم ، وبنى عدى وغيرهم . ويصف لنا ابن صاحب الصلاة مناظر احتشاد الناس على الشاطىء لرؤية موكب الخليفة ، وجيشه فى ذلك اليوم المشهود ، فى قوله : « وبرز إليه يوم إجازته

( ١ ) كتاب المن بالإمامة على المستضعفين – المخطوط السالف الذكر لوحة ١٣ و ١٤ .

البحر من الناس ، النظارة على سيف البحر عالم لايحصيهم إلا خالقهم . وكان يوماً مذكوراً مشهوداً ، ظهر فيه من فخامة الملك والأمر ، ما لم يتقدم فى سالف الأزمان ، ولاتخيل مرآه فى الأذهان » .

وكان عبور عبد المؤمن إلى شبه الجزيرة ، ونزوله فى جبل طارق ، فى شهر ذى القعدة سنة ٥٥٥ ﻫ ( يناير سنة ١١٦١ م ) . وكان فى استقباله فى الجبل ، ولداه السيد أبو يعقوب والى إشبيلية ، وقد غادرها مع وفد كبير من أشياخ الموحدين ، ورؤساء الأندلس وقادتها وعلى رأسهم أبو العلاء بن عزون ، وأعيان إشبيلية وشيوخها وقاضيها أبو بكر الغافقى ، وكبير علمائها الحافظ أبو بكر ابن الجدّ ، وسائر من بها من الكبراء والشعراء ؛ والسيد أبو سعيد والى غرناطة ، مع من بها من أشياخ الموحدين والحفاظ ، وأكابر غرناطة وعلمائوها ؛ وكذلك أعيان قرطبة وعلمائوها ، وأعيان غرب الأندلس وعلماؤها ، وأعيان مالقة ورندة ، وشريش ، وعلى الجملة سائر أعيان الأندلس الموحدية وكبراؤها ، وعلماؤها وأدباؤها وشعراؤها . وندب عبد المؤمن ولده وزيره السيد أبا حفص لكى يتولى أمر الوفود ، ويقودها إلى مجلسه للسلام وتجديد البيعة ، فأدخلوا بترتيب معين ، وأدوا التحية للخليفة الموحدى ، وأكدوا له البيعة والطاعة ، وكان القضاة يتقدمون الوفود . وتعاقب الخطباء بين يدى الخليفة ، فخطب أبو الحسين ابن الإشبيلى وصاحبه أبو محمد بن جبل ، وأبو محمد المالقى وغيرهم ، وكانت خطبهم تدور كلها حول وجوب البيعة ، وما يوجبه الشرع من العهود والرسوم ، والوفاء بالطاعة لولى الأمر ، ثم أذن لهم « بتقبيل اليد المباركة »(١) .

وجاء بعد ذلك دور الشعر ، فأمر عبد المؤمن باستدعاء الشعراء ، ولم يكن يستدعيهم قبل ذلك اليوم ، إنما كانوا يستأذنون فيؤذن لهم . وكان يوماً عظيما من أيام الشعر والشعراء . وكان بين هذه الوفود الحاشدة ، عدة من أقطاب الشعر بالمغرب والأندلس ، ذكر لنا ابن صاحب الصلاة ، وصاحب المعجب أسماءهم ، فكان منهم شاعر المغرب أبو عبد الله محمد بن حبوس من أهل فاس ، والوزير الكاتب أبو عبد الله محمد بن غالب البلنسى المعروف بالرُّصافى ، نزيل مالقة ، وأحمد بن عبد الملك بن سعيد العنسى ، والقرشى القرطبى المعروف بالطليق ، وأبو الحسن عبيد الله محمد بن صاحب الصلاة الباجى ، وأبو بكر

(١) كتاب المن بالإمامة على المستضعفين — المخطوط — لوحة ١٥ و١٦ .

منظر جبل طارق من البر الإسبانى ( من الجزيرة الخضراء )

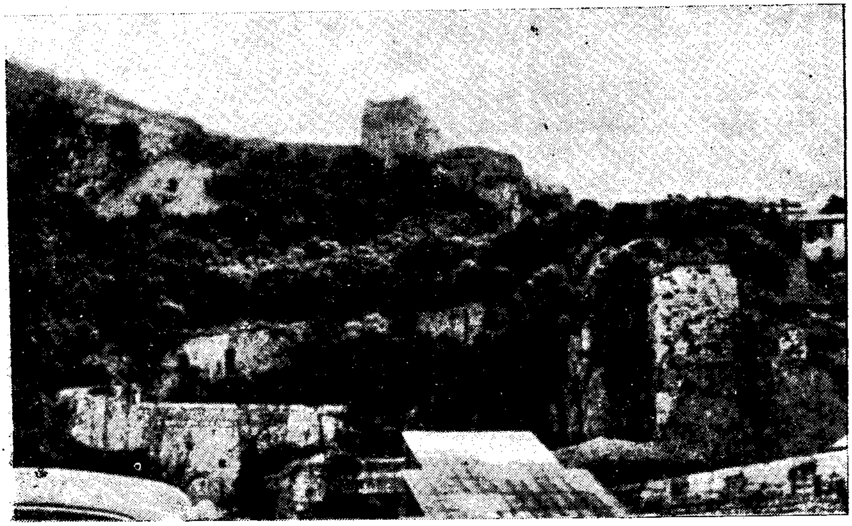

بقايا الحصن الأندلسى قائمة فوق سطح صخرة طارق

ابن المنخل الشلبي ، وابن سيد الإشبيلي المعروف باللص وغيرهم .

وكان أول من أنشد شعره بين يدى الخليفة ، أبو عبد الله بن حبوس ، وهو الذى يشبهه صاحب المعجب فى طريقته بابن هانىء الأندلسى فى تخير الألفاظ الرائعة ، فأنشد قصيدة هذا مطلعها :

بلغ الزمان بكم ما أمــــلا ... وتعلمت أيامه أن تعـــدلا
وبحسبه ان كان شيئا قابــلا ... وجد الهداية صورة فتشكلا

وأنشد القرشي المعروف بالطليق قصيدة مطلعها :

ما للعدى جنة أوقى من الهرب ... كيف المفر وخيل الله فى الطلب
لو بدلوا قد مازلت بقـادمه ... لأصبح الكل طياراً من الرعب

وأنشد أبو الحسن عبيد الله بن صاحب الصلاة الباجى قصيدة هذا أولها :

تلألأ من نور الخلافة بارق ... أضاءت به الآفاق والليل غاسق
وأشرقت الدنيـا به فكأنهـــا ... من البشر فى كل الجهات مشارق
بسعدك يبرى السيف ما عز قطعه ... وينفذ حد السهم ماهو راتق
ولازال أمر الله للدين هادياً ... وأنت لدين الكفر ماح وماحـق

وأنشد الوزير الكاتب الشاعر أبو عبد الله محمد بن غالب الرصافى البلنسى قصيدة طويلة فى نيف وستين بيتاً هذا مطلعها :

لوجئت نار الهدى من جانب الطور ... قبست ماشئت من علم ومن نور
من كل زهراء لم ترفع ذوائبها ... ليلا لسارٍ ولم تثبت لمغرور
فيضية القدح من نور النبوة أو ... نور الهداية تجلـو ظلمة الزور

ومنها وصف مدينة الجبل :

يا دار دار أمير المؤمنين بسفـ ... ـح الطود طود الهدى بوركت فى الدور
ذات العمــادين من عز ومملكة ... على الأساسين من قدس وتطهير
ماكان يأتيك الوانى الكرامة عن ... قصر على مجمع البحرين مقصور

وفى وصف الجبل :

لله ما جبل المفتحين من جبـــل ... معظم القدر فى الأجيال مذكور
من شامخ القدر فى سحنائه طاس ... له من القيم جيب غير مزرور

معبراً بذراه عن ذرى مـلك مستمطر الكف والأكناف ممطور
تمشى النجوم على أكليل مفرقه فى الجو حائمة مثـل الدنانير(١)

بيد أنه قد ظهر فى هذا اليوم ، إلى جانب أكابر الشعراء ، شاعر حدَث ، لم يبلغ العشرين من عمره ، هو أبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن سعيد العنسى ، سليل بنى سعيد أصحاب قلعة يحصب من أعمال غرناطة(٢) ، وكان قد حضر إلى جبل طارق مع أبيه وإخوته وقومه ضمن وفد غرناطة ، ومثل بين يدى الخليفة ضمن الشعراء . ولما جاء دوره ، أنشد قصيدة لفتت الأنظار بروعتها ، وكانت فاتحة مجده الشعرى ، وقد نقل إلينا ابن الخطيب منها الأبيات الآتية :

تكلم فقد أصغى إلى قولك الدهر وما لسواك اليـوم نهى ولا أمر
ورُمْ كل ما قد شئته فهو كائن وحاول فلا برٌّ يفـوت ولا بحر
وحسبك هذا البحر فألاً فإنه يقبِّل تُرْباً داسه جيشُك الغَمْرْ
وما صـوته إلّا سلام مردَّد عليك وعن بِشْر بقربك يفترّ
بجيش لكى يلقى أمامك مَنْ غَداَ يُعاند أمراً لا يقوِّم له أمر
أطلّ على أرض الجزيرة سعدُها وجدّد فيها ذلك الخبَرَ الخُبْرُ
فما طـارقٌ إلا لذلك مُطرق ولابن نُصير لم يكن ذلك النصـر
هما مهّداها لكى تَحُل بأرضها كما حلّ عند التِّم بالهالة البـدرُ

فوقعت هذه القصيدة من الخليفة أجمل موقع ، وأثنى على ناظمها الفتى ، وهنأ به والده عبد الملك . وحظى أبوجعفر هذا فيما بعد لدى السيد أبى سعيد والى غرناطة ، فاستوزره حيناً إلى أن فسد ما بينهما ، بسبب تنافسهما فى حب الشاعرة الأندلسية الجميلة حفصة بنت الحاج الرّكونى ، فقبض عليه ، واتهم بالاشتراك فى فتنة ابن مردنيش ، وأعدم وذلك فى سنة ٥٥٩ هـ(٣) .

ولبث عبد المؤمن فى جبل طارق زهاء شهرين ، وسماه « جبل الفتح » حسبما تقدم ، واستمرت إقامة الوفود والاحتفال بها ، وغمرها بالضيافات وقضاء

(١) راجع هذه القصيدة بأكملها فى المعجب للمراكشى ص١١٩ — ١٢٢ ، وفى أعمال الأعلام لابن الخطيب ص ٢٦٦ — ٢٦٨ .

(٢) وهو أحد مؤلفى كتاب « المغرب » الشهير الذى تعاقب فى تأليفه بنوسعيد ، واختتم تصنيفه ابن أخيه موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد . وقلعة يحصب أوقلعة بنى سعيد هى اليوم القرية المسماة القلعة الملكية Alcalá la Real الواقعة شمال غرناطة .

(٣) ابن الخطيب فى الإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٢٢٣ و٢٢٥ و٢٢٦ .

الحوائج ، عشرين يوماً ، حتى ختام عيد الأضحى لسنة ٥٥٥ هـ ، وعندئذ أذن للوفود بالانصراف ، فانصرف الناس إلى مواطنهم . وكان عبد المؤمن خلال ذلك يدرس شئون الأندلس مع الأشياخ والقادة ، وينظر فى المظالم ويقضى فيها ، ويبذل لمختلف الوفود وعوده ببذل كل معونة لحماية الأندلس ومجاهدة أعدائها ، وقد خصص لإنجادها بالفعل جيشاً مختلطاً من الموحدين والأندلسيين قوامه ثمانية عشرة ألف فارس ، وجعل على قيادة الموحدين ابن الشرقى وعلى قيادة الأندلسيين ابن صناديد[1] ، وأعاد تعيين ولده السيد أبى يعقوب والياً لإشبيلية ، وندب لمعاونته جماعة من أشياخ الموحدين ذوى المكانة والرأى ، وولده السيد أبى سعيد والياً لغرناطة ، وندب لولاية قرطبة الشيخ أبا حفص عمر اينتى ، أو عمر ابن يحيى الهنتانى[2] . ولما فرغ من تنظيم شئون الأندلس على هذا النحو ، عبر البحر إلى سبتة ، عائداً إلى المغرب ، وذلك فى فاتحة سنة ٥٥٦ هـ ( فبراير سنة ١١٦١ م ) وسار توّاً الى حاضرته مراكش . وكانت هذه الفترة القصيرة التى قضاها عبد المؤمن فى جبل طارق ، أو جبل الفتح ، من مواسم الأندلس وأيامها المشهودة ، بما تخللها من روعة السلطان ، وعظائم الأمور .

— ٤ —

على أثر مغادرة الخليفة لجبل طارق ، عائداً إلى المغرب ، غادره السيد أبو سعيد إلى غرناطة ، والسيد أبو يعقوب إلى إشبيلية .

وكان الموقف ما يزال فى منطقة إشبيلية على خطورته ، وأهل قَرْمونة على تمردهم بزعامة عبد الله بن شراحيل ، ومحالفتهم لابن هَمُشْك ، ومحاصرتهم للحامية الموحدية بقصبتها ، فجهز السيد أبو يعقوب لمحاربتهم حملة من الموحدين بقيادة الشيخ أبى محمد عبدالله بن أبى حفص بن على . وسار الموحدون بقيادة ابن أبى حفص من قلعة جابر شمالا إلى قرمونة ، ومعه أبو العلاء بن عزون فى قوة من الجند الأندلسيين ، وضربوا الحصار حول قرمونة . وكان ابراهيم بن همشك ، خلال ذلك قد غادر قرمونة إلى جيان ولم يعبأ بأمرها . وضيق الموحدون على قرمونة ، وأرهقوها بالغارات المتوالية ، حتى استطاعوا التفاهم سراً مع رجل من أهلها ، على أن يفتح لهم باب البرج الأكبر ، فتم ذلك ، ودخل الموحدون

(١) الحلل الموشية ص ١١٨ ، والبيان المغرب — القسم الثالث ص ٤٦ .

(٢) المراكشى فى المعجب ص ١٢٤ .

قرمونة بغتة ، وذلك فى المحرم سنة ٥٥٧ هـ ( ديسمبر سنة ١١٥١م )[١] ، وقُبض على عبد الله بن شراحيل ، وأخذ مكبولا إلى إشبيلية مع نفر من أتباعه ، وصلبوا هنالك فى الميدان العام تحت قصر ابن عباد .

وهكذا عادت قرمونة إلى سلطان الموحدين بعد أن لبثت على خروجها نحو عامين منذ اقتحمها ابن همشك فى ربيع الأول سنة ٥٥٥ هـ .

وفى نفس الوقت وصل إلى إشبيلية ، جيش موحدى جديد ، بقيادة يوسف ابن سليمان ، فاطمأنت الخواطر ، وساد الهدوء فى إشبيلية ومنطقة الغرب كلها ، وسارت منه قوة تحمل العتاد والأقوات إلى قرطبة لشد أزرها ، وتقوية وسائل دفاعها[٢] .

وكان ابراهيم بن همشك ، حينما شعر بأن الجبهة الموحدية فى إشبيلية وقرطبة ، قد عززت ، وأضحى من العسير مهاجمتها ، قد اتجه وجهة أخرى ودبر خطة لمهاجمة غرناطة ، وقد كانت أقرب إلى قواعده فى جيان وهى التى عينه صهره ابن مردنيش لولايتها . ومن جهة أخرى فقد استطاع ابن همشك ، أن يتفاهم سراً مع جماعة من يهود غرناطة ، الذين أسلموا رغم إرادتهم ، ومع حليفهم المسمى ابن دهرى ، وأن يتفق معهم على أن يسهلوا له دخول المدينة فى ليلة معينة . وكانت غرناطة فى الواقع دون دفاع قوى ، وقد غادرها واليها السيد أبو سعيد إلى المغرب حسبما تقدم ، ولم تبق بها سوى الحامية الموحدية . فسار إليها ابن همشك فى بعض قواته ، وفى ليلة من ليالى جمادى الأولى سنة ٥٥٥هـ ، تمت الخيانة المدبرة ، وكسر اليهود بإيعاز ابن دهرى ، باب الربض بغرناطة ، وتنادوا بالصياح « يا للأصحاب» ، فدخل ابن همشك وأصحابه المدينة ، وفر أنصار الموحدين إلى القصبة ، وكانت تموج بمن بها من جند الموحدين . ولما رأى ابن همشك حصانة القصبة ، وقوة الحامية الموحدية ، بعث إلى صهره محمد بن سعد ابن مردنيش ، وكان عندئذ بمرسية ، يطلب إليه الإنجاد ويطمعه فى أخذ غرناطة ، فحشد ابن مردنيش قوة من جنده ، وانضمت إليهم فرقة من الجند النصارى بقيادة ألبار ردريجس الأصلع أو الأقرع حسبما تسميه الرواية العربية ، وهو حفيد القائد

---

( ١ ) أخذنا فى تاريخ استرداد قرمونة برواية صاحب البيان المغرب ( القسم الثالث ص ٤٦ ) . ويضع ابن صاحب الصلاة تاريخ أخذها فى أوائل سنة ٥٥٦ هـ ، وهو لا يتفق مع منطق الحوادث حيث طال حصار قرمونة نحو عام .

( ٢ ) ابن صاحب الصلاة فى المن بالإمامة — المخطوط — لوحة ٢٤ ا و ب ) .

الشهير ألبارهانيس . وسار هذا الجيش إلى غرناطة لإمداد ابن همشك . وكان ابن همشك قد نزل بالقلعة الحمراء القائمة فوق تل السبيكة فى مواجهة القصبة ، وشرع فى منازلتها ، وضربها بالمجانيق . وكان ابن همشك جبارا قاسياً ، فظاً غليظاً فى حربه ، فكان يعذب من يقع فى يده من الموحدين بأروع نكال ، ويلقيهم فى أفواه المجانيق ، ويقذفهم من الشواهق ، ويحرقهم بالنار ، ولكن الموحدين صمدوا بالقصبة ، وكانت لديهم مؤن وافرة ، وبعثوا إلى الخليفة فى طلب الإنجاد ، وكذلك إلى الموحدين فى إشبيلية . وكان الخليفة عبد المؤمن ، قد خرج كعادته من مراكش إلى سلا ، لتنظيم شئون الجهاد ، فبلغته حوادث غرناطة ، وهو فى طريقه ، فلما وصل إلى سلا بعث ولده السيد أبا سعيد فيمن معه على جناح السرعة ، وعبر السيد البحر إلى مالقة ، وبعث منها يستدعى الشيخ أبا محمد بن عبد الله ابن أبى حفص القائم على ولاية إشبيلية ليوافيه عند غرناطة ، بجيش إشبيلية . واجتمعت القوات الموحدية ، فى فحص غرناطة(١) وتقدمت حتى الموضع المسمى « بمرج الرقاد » على قيد أربعة أميال من غرناطة(٢) ، وعندئذ خرج لقتالها ابن همشك فى قواته وقوات مرسية من الأندلسيين والنصارى ، وكانت تبلغ ألفى فارس . وليس فى رواية ابن صاحب الصلاة مايدل على أن ابن مردنيش قد اشترك فى الموقعة التى تلت ، ولكن ابن الخطيب يقول لنا إن ابن مردنيش قد مثل بنفسه فى الموقعة ، وكانت محلته قائمة فوق الربوة العالية المتصلة بربض البيّازين ، وهى التى عرفت فيما بعد بكدية ابن مردنيش(٣) . واضطرم القتال فى الحال بين الفريقين ، وسرعان ما ظهر تفوق ابن همشك وحلفائه النصارى ، فاختل نظام القوات الموحدية ودارت عليها الدائرة ، وكثر القتل فيهم ، وغرق منهم فى سواقى المرج ومياهه عدد جم ، وكان بين القتلى الشيخ أبو محمد عبد الله ابن أبى حفص والى إشبيلية ، وعدة من أشياخ الموحدين ، وأكابر الأندلسيين . وفر السيد أبو سعيد فى نفر من صحبه إلى مالقة . وكانت نكبة موحدية بالغة الخطورة . وارتد ابن همشك فى قواته المظفرة إلى القلعة الحمراء ، ومعه جملة من أسرى الموحدين أفحش فى تعذيبهم ، والتنكيل بهم ، وازهاقهم بمرأى

---

(١) وهو المرج أو مرج غرناطة الشهير La Vega .

(٢) كان هذا الاسم يطلق على موضع يقع على بضعة كيلومترات من قرية الطرف Atarfe فى سفح جبل إلبيرة على مقربة من نهر شنيل ويطلق عليه اليوم اسم Majorrocal

(٣) الإحاطة ج ٢ ص ٨٩ .

من إخوانهم المحصورين ، وقد استمروا على حالهم من الاعتصام بالقصبة .

ووصلت أنباء هذه النكبة إلى عبد المؤمن ، وهو مايزال بسلا ، وكانت الجيوش قد توافدت عليه فى تلك الأثناء ، فجهز جيشاً منتخباً من أنجاد الفرسان والجند ، يضم زهاء عشرين ألف مقاتل ، وجمهرة من أشياخ الموحدين(١) تحت إمرة ولده السيد أبى يعقوب يوسف ، ومعه الشيخ أبو يعقوب يوسف ابن سليمان ، زعيم أشياخ الموحدين ، ومستشار عبد المؤمن الأثير فى العظائم والخطوب ، وهو الذى يصفه ابن الخطيب « بزعيم وقته وداهية زمانه » . وعبر هذا الجيش الموحدى البحر إلى الجزيرة الخضراء ، ثم سار إلى مالقة حيث انضم إليه السيد أبو سعيد فيمن معه ، وزود بالعلوفات والمؤن الكافية ، وخرج الموحدون بعد ذلك من مالقة ، وساروا إلى غرناطة . وكان ابن مردنيش قد وقف على تلك الأهبة الموحدية الضخمة ، فسار فى قواته ، ومعه فرقة من حلفائه النصارى لإنجاد صهره ابن همشك ، ونزل فوق الجبل المتصل بقصبة غرناطة على الضفة الأخرى لنهر حدرُّه ، وبقى ابن همشك بقواته بالقصبة الحمراء فوق جبل السبيكة ، ومعه حلفاؤه النصارى تحت إمرة قائدهم ألبار ردريجس الأصلع حفيد ألبارهانيس ، ومعه ابن كونت أورقلة ( أرخل ) وهم يبلغون نحو ثمانية آلاف مقاتل ، وكان نهر حدرُّه يفصل بين محلة ابن همشك ومحلة صهره ابن مردنيش . واستمر الموحدون فى سيرهم حتى وصلوا إلى قرية دلر على مقربة من غرناطة ، ثم صعدوا إلى الجبل المطل على وادى شَنيل ، قبالة جبل السبيكة والحمراء . وفى يوم الخميس السابع والعشرين من شهر رجب سنة ٥٥٧ هـ ( ١٢ يوليه سنة ١١٦٢ م ) جمع يوسف بن سليمان قائد الجيش الموحدى أشياخ الموحدين ، وأشياخ الأجناد ، من مختلف القبائل ، ووعظهم وذكرهم بأن الجنة مثوى المجاهدين ، وحثهم على التفانى فى سبيل الله . وفى مساء هذا اليوم ركب الموحدون خيولهم ، وساروا فوق الجبل وأمامهم المشاة والطلائع من المصامدة ، وعلى ناصية ضفة شنيل المحاذية للسبيكة ، وكانت ليلة منيرة صافية الأديم ، وعند الفجر وصلوا إلى مقربة من محلات ابن همشك وحلفائه النصارى فوق جبل السبيكة ، وفى الحال انقض الموحدون على أعدائهم على غرة ، قبل أن يتم استعدادهم ، بل وقبل أن يركب معظمهم خيولهم ، واضطرمت بين الفريقين

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ١٠٦ .

موقعة عنيفة هائلة ، وأبلى الموحدون فى قتال ابن همشك وحلفائه النصارى أعظم البلاء ، وقتلوا منهم جموعاً غفيرة ، ولم يأت الصباح ، حتى مزق الموحدون أعداءهم تمزيقاً وشتتوا فى كل ناحية . وقتل معظم قادتهم ، وفى مقدمتهم ألبار ردريجس الأصلع وزميله ولد كونت أورقلة ، ورفعت رأس الأصلع بعد أيام بمدينة قرطبة على باب القنطرة ، وقتل كذلك معظم القادة الأندلسيين ، ومنهم ابن عبيد صهر ابن مردنيش . وكان مما حز فى نفس ابن مردنيش ، وانفطر له فؤاده ، أنه لم يستطع ، وهو بقواته على الضفة الأخرى من نهر حدرُّه ، أن يبادر لإنجاد صهره ابن همشك ، فلبث يرقب تمزيق قواته جامداً ، حتى تم الظفر للموحدين ، وتمت الهزيمة الساحقة على ابن همشك . وتعرف هذه الموقعة بموقعة السبيكة . ودخل الموحدون غرناطة ظافرين ، فى ظهر ذلك اليوم — يوم الجمعة الثامن والعشرين من رجب سنة ٥٥٧ ( ١٣ يوليه ١١٦٢ م ) ، وخرج الموحدون المحصورون من القصبة ، وقتلوا سائر خصومهم والمتحالفين مع أعدائهم من أهل غرناطة ، وارتد ابن مردنيش وابن همشك كل بقواته ، وسار الأول صوب مرسية ، وسار الثانى فى فلوله صوب جيان ، والموحدون فى أثره . وكان من أثر هذا النصر الموحدى ، أن سارعت سائر النواحى فى منطقة غرناطة ، إلى إعلان الطاعة والتوحيد . وعنى السيد أبو يعقوب يوسف والقائد يوسف بن سليمان بالنظر فى شئون غرناطة ، وإصلاح قصبتها وأسوارها ، وإثابة من كان بها من الموحدين المحصورين والإنعام عليهم . واستقرت الأمور بها ، وسادتها السكينة والهدوء[1] .

وسار الموحدون فى أثر ابن همشك إلى قاعدته جيان ، ولكنه لم يقف بها ، بل ترك أمر الدفاع عنها إلى وزيره أبى جعفر الوقَّشى ، فامتنع بها ، وحاصرها الموحدون حيناً دون جدوى ، وعاثوا فيما حولها من الأراضى ، وانتسفوا زروعها ، ودمروا قراها ، حتى أصبحت خراباً مطلقاً ، ثم غادروها عائدين إلى قواعدهم[2] .

وبعث السيد أبو يعقوب يوسف ، والقائد ابن سليمان بأنباء النصر يوم الوقيعة ، الى الخليفة عبد المؤمن ، وكان ما يزال برباط الفتح قبالة سلا ،

---

( ١ ) نقلنا تفاصيل هذه الموقعة الكبيرة عن ابن صاحب الصلاة فى كتاب « المن بالإمامة » اللوحات ٢٩ إلى ٣٢ . ويراجع ابن الأثير ج ١١ ص ١٠٦ ، والإحاطة ( ١٩٥٦ ) ج ١ ص ٣٠٩ و٣١٠ ، وج ٢ ص ٨٩ و٩٠ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٥٢ و٥٣ ، وهو يلخص أقوال ابن صاحب الصلاة .

( ٢ ) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٢٣٠ .

فسر بها أيما سرور ، وصدرت أوامره فيما يتعلق بشئون الأندلس بتحقيق أمرين ، الأول أن يجعل من غرناطة وقصبتها مركز دفاع قوى ، وأن تشحن بالعتاد والأقوات ، والثانى أن ينقل مركز الحكم الموحدى بالأندلس من إشبيلية إلى قرطبة ، وأرسلت لتحقيق الأمر الأول، من شواطىء العدوة إلى ثغر المنكب عدة سفن ، مشحونة بالأقوات والسلاح ، ونقلت حمولتها إلى غرناطة ، وزودت قصبتها من ذلك بكميات كبيرة ، وندب لتنظيم شئون الدفاع عن المدينة إلى جانب الموحدين ، عدة من الزعماء الأندلسيين الموثوق بهم من أهلها ، وكان القصد من ذلك أن تغدو غرناطة مركز الدفاع الرئيسى فى جنوبى الأندلس ، أوتغدو « سنام » الأندلس حسبما يقول ابن صاحب الصلاة .

وأما فيما يتعلق بنقل مركز الحكم إلى قرطبة ، فقد بعث عبد المؤمن إلى ولده السيد أبى يعقوب يوسف ، والشيخ أبى يعقوب سليمان « الأمر العزيز » باستيطان قرطبة ، وأن تكون مقر الأمير ، ومقر الحكم بالأندلس ، إذ هى « مُوَسّطة الأندلس » كما تغدو مستقر الجيوش الموحدية . ووصل بهذا الأمر أبو اسحق برّاز بن محمد اللمتونى . وعلى أثر ذلك سار السيدان أبو يعقوب يوسف ، وأبو سعيد ، ولدا الخليفة ، ومعهما القائد يوسف بن سليمان ، إلى قرطبة فوصلوا إليها فى الخامس عشر من شهر شوال سنة ٥٥٧ هـ ، وخرج أهل قرطبة لاستقبالهم فى جموع حاشدة حافلة ، واستدعى إليها من إشبيلية عدة من أشياخها وأعيانها وكتابها ، ومنهم أبو القاسم بن عساكر ، وأبوبكر الخطار ، ويذكر لنا ابن صاحب الصلاة ، أنه كان من بين أولئك الكتاب المدعوين إلى العمل . وطُلب كذلك أن تُنقل من إشبيلية إلى قرطبة سائر الدواوين والأموال، التى جمعت من القواعد المنزوعة من الثوار . وهكذا غدت قرطبة ، بعد إشبيلية قاعدة الحكم الموحدى بالأندلس ، واستردت قرطبة بذلك رياستها وأهميتها وحيويتها القديمة ، ورتبت بها الإدارات ، واستعمل الكتاب والأشياخ فى مختلف الأعمال ، واختار أبواسحق لحكم إشبيلية بعض أصحابه ، وقام هو على النظر فى شئون المخازن ( الشئون المالية ) فى قرطبة وسائر البلاد الخاضعة للموحدين ، ولم يزل قائماً بهذه المهمة حتى توفى فى سنة ٥٥٩ هـ[١] .

واستقر السيدان أبو يعقوب وأبو سعيد حيناً بقرطبة ، ومعهما القائد الشيخ

---

( ١ ) ابن صاحب الصلاة فى كتاب المن بالإمامة لوحة ٣٣ و ٣٤ .

أبو يعقوب . وقامت هذه الحكومة الجديدة لعاصمة الخلافة القديمة ، بتنظيم شئونها المختلفة ، وتعمير قصورها ودورها المهدمة ، وإصلاح حصونها وأسوارها ، وتأمين أهلها ، فساد الهدوء والطمأنينة فى أرجائها ، بعد أن لبثت أعواماً طويلة ، مسرحاً للفتن المخربة ، والفورات المزعجة ، وعاد إليها الكثير من أهلها الذين غادروها ، مستبشرين بالعهد الجديد . ثم انصرف الشيخ أبو يعقوب عائداً إلى العدوة ، واستمر السيدان من بعده فترة يسيرة ، حتى فاتحة المحرم من سنة ٥٥٨ هـ ، وعندئذ وردت دعوة الخليفة إلى ولده السيد أبى يعقوب يوسف بالمثول إلى حضرته ، فبادر بالسير إلى إشبيلية ، ولم يقم بها سوى أيام قلائل ، ثم غادرها إلى العدوة ، ولحق بأبيه الخليفة ، وبقى السيد أبو سعيد بقرطبة ، قائماً على شئونها ، متعهداً لمصالحها ، وأضيف إليه النظر على إشبيلية ، وكان يعاونه القائد القدير أبو إسحق براز ابن محمد المسوفى ، وندب للنيابة على إشبيلية أبو داود بلول ابن جلداسن ، وتولى شئون المخزن بها محمد بن المعلم ، واستمر الأمر على ذلك فترة يسيرة أخرى .

— ٥ —

فى خلال ذلك كانت حوادث المغرب تنذر بتطورات خطيرة . وكان عبد المؤمن حينما تلقى نبأ انتصار الموحدين فى موقعة السبيكة ، وهو بعدوة سلا ( الرباط ) قد اعتزم أن يعد العدة لاستئناف الجهاد بالأندلس ، فى البر والبحر على أوسع نطاق ممكن ، فأمر بكتب الكتب إلى سائر الجهات والقبائل ، لاستنفار الناس ، وحثهم على الجهاد فى سبيل الله ، وأمر بإنشاء الأساطيل ( القطائع ) ، فأنشىء منها مائتا قطعة ، وقيل أربعمائة ، أعد منها فى مرسى المعمورة على شاطىء وادى سبو ، شمالى ثغر سلا ، مائة وعشرون قطعة ، وأعد الباقى فى مختلف ثغور العدوة والأندلس ، وأمر بإعداد الوفير من العتاد والمؤن والعلوفات ، وكان قد أعد منها خلال سنة ٥٥٧ هـ ، أكداس هائلة فى وادى سبو ، فى حمى الجبال المشرفة عليه ، وجلبت الخيل من سائر أنحاء إفريقية والمغرب ، وجلبت كذلك مقادير وفيرة من السهام والرماح الطوال ، والدروع ، والبيضات ، والتروس ، والبنود ، والكسى ، ووزع ذلك كله على طوائف الموحدين والعرب الموالين من سائر القبائل(١) ؛ وأذكى هذا العزم على الجهاد فى الأندلس ، وأكده ما وقع

( ١ ) ابن صاحب الصلاة فى كتاب المن بالإمامة لوحة ٣٩ والمراكشى فى المعجب ص ١٣١ .

فى أواخر سنة ٥٥٧ ، من غزو نصارى مدينة شنترين بالبرتغال لمدينة باجة ، واستباحتها ، واحتلالها فى ٢٢ شهر ذى الحجة هذا العام ( أول ديسمبر ١١٦٢م ) ، ومكثهم بها نحو أربعة أشهر ، قبل أن يغادروها ، بعد أن دمروا ربوعها ، وخربوا أسوارها[1] .

وأقام عبد المؤمن بمراكش فترة يسيرة ، حتى أول عام سنة ٥٥٨هـ ، وهو يتابع بعناية تلك الاستعدادات الضخمة للجهاد فى الأندلس . ثم خرج من حاضرته ليزور قبر المهدى فى تينملّل ، وكان الفصل شتاء ، والبرد قارساً ، والأمطار والثلوج تنهمر بشدة ، حتى غمرت سائر السهول والربى ، ومع ذلك فقد شق الخليفة طريقة إلى تينملل بعزم ، وجاز المياه والثلوج الغامرة ، ولم يبال بما أصابه من البلل ، وتبعه أشياخ الموحدين بصعوبة ، ثم أدى زيارته المأثورة لقبر المهدى ، وعاد إلى حاضرته ، ليستأنف الاستعداد للجهاد .

وفى اليوم الخامس عشر من ربيع الأول سنة ٥٥٨هـ ( ١٩ فبراير سنة ١١٦٣م ) خرج عبد المؤمن من مراكش ، وسار إلى رباط الفتح ، تتقدمه الجيوش الموحدية الجرارة ، فى تؤدة وهوادة ، فلما وصل إلى رباط الفتح ، كانت البقاع المجاورة فيما بين سلا والمعمورة ، قد ضاقت بهذه الجيوش الضخمة التى يقدرها المؤرخ المعاصر بأكثر من مائة ألف فارس ، ومائة ألف راجل[2] . وتقدرها بعض الروايات الأخرى بأكثر من ثلاثمائة ألف فارس ، من الموحدين والمرتزقة العرب والبربر . ومن المتطوعة ثمانون ألف فارس ومائة ألف راجل[3] ، وزعت عليهم جميعاً الأعطية والصلات السخية . وماكاد الخليفة يستقر فى محلته ، حتى استدعى إليه سائر القادة والأشياخ من الموحدين والعرب ، وأهل الرأى ، وعقد مجلساً حربياً عاماً ، ليبحث خير الوسائل لتنفيذ الغزوة الأندلسية الكبرى وتوجيهها ، سواء فى البر أو البحر ، وكان من بين الحاضرين أبو محمد سيدراى بن وزير ، فشرح للخليفة أحوال الأندلس وما يحسن أن يعمله ، واقترح ابن وزير ووافقه الأشياخ ، أن تقسم الحملة الكبرى إلى أربعة جيوش ، يسير أولها إلى البرتغال لمقاتلة ابن الرنك صاحب قلمرية ( ألفونسو هنريكيز ) ، والثانى يسير إلى مملكة ليون ، وملكها

---

( ١ ) كتاب المن بالإمامة لوحة ١١٧ .

( ٢ ) ابن صاحب الصلاة فى كتاب المن بالإمامة لوحة ٤١ .

( ٣ ) الاستقصاء ج ١ ص ١٥٨ .

يومئذ فرناندو الثانى ولد القيصر ألفونسو ريموند يس ، وهو الذى تعرفه الرواية العربية « بالببوج » ، والثالث يسير إلى قشتالة ، وملكها يومئذ ألفونسو الثامن طفل تحت الوصاية ، والرابع يسير صوب مملكة أراجون وبرشلونة ، وملكها يومئذ ألفونسو الثانى . واستحسن الخليفة اقتراح ابن وزير ووافق عليه .

ولم تمض أيام قلائل على ذلك حتى مرض عبد المؤمن مرضه الذى لم يبرأ منه . ولم توضح لنا الرواية نوع هذا المرض الذى حمل الخليفة إلى القبر ، والذى يقتصر ابن صاحب الصلاة على وصفه ، « بالوجع » ، بيد أنه لبث يشتد و يتفاقم ، حتى كان يوم الجمعة الثانى من جمادى الآخرة ، وقد شعر الخليفة بدنو أجله ، فأمر بإسقاط اسم ولده وولى عهده محمد من الخطبة ، وكان هذا القرار يخفى مأساة عائلية ، كان الخليفة يود أن يتلافى آثارها قبل موته . وذلك أنه نمى إليه أن محمداً يشرب الخمر ، ويبدو مخموراً أمام الأشياخ والقادة فى هيئة زرية ، ويرتكب أموراً طائشة مخلة بالكرامة ، وأنه يغلب عليه الخور وجبن النفس ، وقيل أيضاً إنه كان مصاباً بالجذام(١) . ومن ثم فقد رأى أنه لايصلح للخلافة ، وأنه يجب تنحيته وإبعاده ، ودعا الأشياخ إلى سريره ، وأخطرهم بتنحية ولده محمد وتولية يوسف ، باعتباره أصلح من يتولى الخلافة ، وأوصاهم بتنفيذ إرادته ومبايعته ، ولاسيما الشيخ أبى حفص عمر الهنتانى عميد الأشياخ ، واستوثق من ولده أبى حفص بتقديم شقيقه الأصغر يوسف ، وكان أبو حفص يتولى الوزارة والحجابة لأبيه حسبما تقدم ذكره . وفى الأيام القلائل التالية تفاقم مرض الخليفة واشتد به الألم ، وفى فجر يوم الثلاثاء الثامن من جمادى الثانية — وفقاً لرواية البيذق — توفى الخليفة عبد المؤمن بن على . بيد أنه إذا أخذنا بهذه الرواية فلابد أن الوفاة كانت فى فجر اليوم السادس وهو الموافق ليوم الثلاثاء ، حيث كان اليوم الثانى من جمادى الآخرة يوافق يوم الجمعة ، وهو اليوم الذى أسقط فيه اسم محمد من الخطبة . ويقول لنا ابن صاحب الصلاة إن عبد المؤمن توفى ليلة الجمعة العاشر من جمادى الآخرة سنة ٥٥٨ هـ ( ١٥ مايو سنة ١١٦٣ م ) ، وهى رواية تبدو أرجح لانطباقها مع تسلسل الأيام والتواريخ(٢) . وكانت وفاته بمحلته فى سلا ، وكان عند وفاته فى الثالثة والستين من عمره ، وقيل فى الرابعة والستين ، وكانت

---

( ١ ) المراكشى فى المعجب ص ١٣١ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤٩٣ .

( ٢ ) كتاب المن بالإمامة لوحة ١٤٥ .

ولايته ، منذ وفاة المهدى فى ٢٥ رمضان سنة ٥٢٤ هـ ، ثلاث وثلاثون سنة ، وخمسة أشهر ، وثلاثة وعشرون يوما(١) .

ولما توفى عبد المؤمن كتمت وفاته وقتاً ، واستأثر ولده السيد أبو حفص بتدبير الأمور ، وبادر إلى تنفيذ وصية أبيه فى عقد البيعة بالخلافة لأخيه يوسف ، وكان قد قدم من قرطبة ، استجابة لدعوة أبيه ، وبقى إلى جانبه حتى توفى . والظاهر أن عبد المؤمن ، كان عندئذ قد قرر أمره نحو مسألة الخلافة ، وترشيح ولده يوسف لها ، واستدعاه لهذا الغرض وأبلغ السيد أبو حفص ، والشيخ أبو حفص الهنتانى وصية الخليفة الراحل لأشياخ الموحدين ، فأقروها جميعاً ، وبايعوا للسيد أبى يعقوب يوسف بالخلافة . ويقول لنا البيذق إن بيعة الخليفة الجديد ، تمت فى مدى يومين ، فى العاشر من جمادى الآخرة سنة ٥٥٨ هـ وارتضى أبو عبد الله محمد ما تقرر من أمر خلعه ، وبايع لأخيه راضياً ،وتمت هذه البيعة فى سلا فى محلة الخليفة الراحل ، ونفذ الأمر إلى الجيوش المحتشدة ، بالانصراف إلى بلادها ، فى انتظار أوامر تصدر فى فرصة أخرى. وتولى الشيخ أبو حفص عمر الهنتانى وعظ الموحدين على اختلاف طبقاتهم ومراتبهم ، وذكرهم بما يجب عليهم من اتباع أوامر دينهم ، واكتمال ولائهم وطاعتهم واشتغالهم بأمورهم عن الأحاديث العقيمة والخزعبلات . ولما تمت البيعة حسبما تقدم ، سار الخليفة الجديد مع أشياخ الموحدين إلى مراكش ، ونزل فى دار الخلافة ، وتولى أخوه السيد أبو حفص الأمور السلطانية والحجابة على نحو ما كان مع أبيه ، وعن رضى من أخيه الخليفة الجديد . وحمل جثمان الخليفة الراحل إلى تينملّل ، فى يوم الجمعة أول شعبان ، حيث دفن إلى جانب أستاذه وأمامه المهدى ، وفقاً لوصيته(٢) .

تلك هى الرواية الراجحة فى شأن تولية السيد أبى يعقوب يوسف للخلافة .

---

(١) ينقل صاحب روض القرطاس عن تاريخ وفاة عبد المؤمن ، روايتى البيذق وابن صاحب الصلاة ( الثامن من جمادى الآخرة والعاشر منه ) ، ويضعها ابن الأثير فى العشرين من جمادى الآخرة سنة ٥٥٨ هـ (ج ١١ ص ١٠٩) . ويضعها ابن خلكان فى العشر الأخيرة من جمادى الآخرة (ج ١ ص ٣٩١ ) ، ويضعها المراكشى فى السابع والعشرين من جمادى الآخرة ( المعجب ص ١٣١ ) . ويضعها الزركشى فى ليلة العاشر من جمادى الآخرة متفقاً مع ابن صاحب الصلاة . تاريخ الدولتين ص ٢٩ .

(٢) أخبار المهدى ابن تومرت ص ٨٣ ، وابن صاحب الصلاة فى المن بالإمامة لوحة ٤٥ والبيان المغرب القسم الثالث ص ٥٨ و ٥٩ .

وهى الرواية الموحدية التى يقول بها مؤرخا الموحدين المعاصران ، البيذق ، وابن صاحب الصلاة . بيد أن هناك رواية أخرى ، يقدمها إلينا ابن الأثير ، وهى أنه لما توفى عبد المؤمن بسلا ، كتمت وفاته ، وحمل من سلا إلى مراكش فوق محفة ، وكأنه مريض ، ولما وصل إلى مراكش استبد ابنه أبو حفص بشئون الحجابة ، وكان يصدر أوامره باسم أبيه ، ويقول للناس أمير المؤمنين أمر بكذا ، واستمر على ذلك حتى كملت البيعة لأخيه يوسف ، فى سائر البلاد والنواحى ، واستقرت الأمور ، وعندئذ أظهر موت أبيه[1]. وينقل إلينا ابن خلكان رواية أخرى ، ينفرد بها فى شأن محمد وأخيه يوسف فيقول إنه لما توفى عبد المؤمن خلفه ولده محمد ، وتولى الأمر مدة خمسة وأربعين يوما حتى شعبان سنة ٥٥٨ هـ ، ولكن سرعان ما اضطربت الأمور ، وظهر منه من اختلال الرأى ، وكثرة الطيش ، وجبن النفس ، ما أدى إلى خلعه ، وكان الذى سعى فى خلعه أخواه أبو حفص عمر ويوسف . ولما تم خلعه ، انحصر الأمر بين أخويه المذكورين ، فتأخر عمر ، وسلم الأمر إلى أخيه يوسف فبايعه الناس ، واتفقت عليه الكلمة[2] . وينقل إلينا المراكشى هذه الرواية فى المعجب[3]. بيد أنه يبدو ، إزاء ما تؤكده لنا الرواية الموحدية المعاصرة ، أنها رواية ضعيفة لاسند لها .

— ٦ —

كان الخليفة عبد المؤمن بن على ، عبقرية فذة ، تنطوى على طائفة من أبدع الخلال التى تصاغ منها العظمة والبطولة ، وقد شادت هذه العبقرية دولة من أعظم الدول الإسلامية ، تمتد من أواسط شبه الجزيرة الإسبانية شمالا حتى مشارف الصحراء الإفريقية الكبرى جنوبا ، ومن طرابلس الغرب شرقاً حتى شواطىء المحيط الأطلنطى غربا ، وشادتها فى ظروف صعبة ، وفى غمر الكفاح المضنى ، من إمارات وقبائل بربرية متنابذة مفترقة الكلمة ، لم تعرف خلال حياتها الطويلة معنى للنظام والاتحاد ، ولم تأنس لأى نوع من الخضوع والطاعة ،

---

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ١٠٩ .

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ٤٩٣ . ويقول لنا ابن خلكان إنه نقل هذه الرواية من كتاب بخط العماد بن جبريل أخى المعلم المصرى ناظر بيت المال بالديار المصرية ، فيه فوائد من أخبار المغاربة وغيرهم .

(٣) المعجب ص ١٣١ .

فصاغ عبد المؤمن بعزمه ، وقوة نفسه ، وبراعته العسكرية والسياسية ، من هذه العناصر المضطرمة الخصيمة ، كتلة متناسقة متعاونة متحدة ، وأنشأ منها ، الدولة الموحدية الكبرى ، أعظم الدول المغربية إطلاقاً ، واستطاع أن يجعل من الدعوة المهدية أو الدعوة الموحدية ، ناموساً دينياً ، ودستوراً نظامياً ، تقوم عليه وتستمد منه ، مقوماتها السياسية والعسكرية .

وقد رأينا أن عبد المؤمن ، نشأ طالب علم متواضع ، تجتمع آماله حول التقدم فى هذا المضمار ، والتقى بالمهدى ابن تومرت ، فى بداية أمره ، وقبل أن تلوح لدعوته وتعاليمه أية بارقة أمل ، فى التقدم أوالرسوخ . ومع ذلك فقد ثبت إلى جانبه وشاطره كل آلامه ومحنه ، وكل آماله ومشاريعه ، وغدا ساعده الأيمن فى كفاحه . وكان هذا الاختصاص بالمهدى وإيثار المهدى لتلميذه الوفى ، من أهم العوامل ، التى مهدت لعبد المؤمن ، عند وفاة أستاذه وإمامه ، سبيل الاحتواء على تراثه وخلافته . ولم تخب فراسة المهدى فى تلميذه ، حينما قال لصحبه وهو فى مرض موته عقب هزيمة البحيرة الساحقة ، إنه مادام عبد المؤمن قد سلم ، فسوف يبقى أمرهم . وقد شاء القدر أن يقوم عبد المؤمن بالمهمة الكبرى ، مهمة سحق الدولة المرابطية ، وإنشاء الدولة الموحدية الكبرى على أنقاضها ، وأنقاض الإمارات الإفريقية . وقد استمرت الدولة الموحدية حيناً ، تحتفظ بطابعها الروحى ، وأساسها الدينى ، حتى عمد عبد المؤمن بعد أن تضخم ملكه ، وتوطد سلطانه ونفوذه ، بين سائر الطوائف والقبائل، إلى إنشاء السلطة الزمنية الوراثية ، بتعيين ولده لولاية العهد . وكانت هذه الخطوة أعظم تطور حدث فى طبيعة الدولة الموحدية ، التى تغدو من ذلك الحين ، خلافة زمنية سياسية ، ويتضاءل أساسها الروحى. ويمكننا أن نعتبر الخلافة الموحدية المؤمنية ، أعظم خلافة قامت فى الغرب الإسلامى ، وإن كانت خلافة قرطبة الأموية تتفوق عليها بخواصها التمدنية والحضارية ، وأن نعتبر عبد المؤمن أعظم خلفاء الغرب الإسلامى ، وإن كان عبدالرحمن الناصر يتفوق عليه بخواصه المصقولة وخلاله الإنسانية ، بل نستطيع أن نعتبر أن عظمة الدولة الموحدية الكبرى تنحصر فى عصر عبد المؤمن ، وولده أبى يعقوب يوسف ، وحفيده أبى يوسف يعقوب المنصور ( ٥٢٤ — ٥٩٥ هـ ) ، وهى حقبة من سبعين عاما ، تستنفد الدولة الموحدية فيها كل مصادر قوتها ، وعظمتها .

هذا وربما كان عبد المؤمن بخلاله العلمية ، وحياته العسكرية الحافلة بالغزوات

والفتوحات المظفرة ، أكثر الرؤساء شبهاً بالمنصور بن أبى عامر ، فإن هاتين الصفتين هما أبرز ما فى حياة كل من هذين الرجلين العظيمين ، وإن كانت غزوات المنصور تتسم قبل كل شىء بطابع الجهاد فى سبيل الله .

ولم تحل نشأة عبد المؤمن العلمية دون تحوله فى ميدان الحرب ، إلى قائد من أعظم قواد عصره ، وأشدهم فروسة ، وأوفرهم شجاعة ، وإقداماً . كان عبد المؤمن بصيراً بطرائق الحرب ، وأساليب القتال ، وقد أنفق فى غزواته وحروبه أكثر من ربع قرن ، ذرع فيها وهاد المغرب وقفاره ، من أقصاه إلى أقصاه ، شرقاً وغرباً ، وشمالا وجنوباً ، وخرج مكللا بغار الظفر فى معظم هذه الغزوات والحروب ، ولم يجتمع لملك من ملوك المغرب أو خليفة من خلفائه ، مثل ما اجتمع لعبد المؤمن من الجيوش الجرارة ، التى كانت تضم مئات الألوف من الفرسان والرجالة ، من مختلف القبائل البربرية والعربية ، وكان عبد المؤمن خلال الحروب والغزوات جنديا بمعنى الكلمة ، يشاطر جنده مشاق السير الوعر ، وتقشف حياة الميدان ، وكانت عادته فى أسفاره أن يرحل بعد صلاة الصبح ، بعد أن يُضرب طبل ضخم ثلاث ضربات إيذاناً بالرحيل ، وكانت حركة الجيوش الموحدية تجرى عندئذ وفق النظام الذى رسمه المهدى لمسيرها ، فيتقدمها اللواء الموحدى الأبيض مع فرقة من الرجالة يكون بينها وبين الأمير نحو ربع ميل ، ثم يسير الأمير أو الخليفة خلف اللواء المذكور تحف به خاصته ووزراؤه ، ثم تتبعهم الرايات الكبار والطبول وجند الساقة ، ثم جند كل قبيل بترتيب خاص[١] . وكان عبد المؤمن فى معظم الأحيان يرسم خطط المعارك بنفسه ، وربما قاد جنده ، واشترك معهم فى القتال .

وكان عبد المؤمن إلى جانب هذه الصفات العسكرية البارزة ، من أعقل أهل عصره وأوفرهم ذكاء وحكمة ، وكان حازماً سديد الرأى حسن السياسة ، واسع الحيلة ، يعالج الأمور الصعبة بكثير من الفطنة والكياسة .

وكان مما فعله عبد المؤمن لتنظيم أصحاب المهدى وطوائف الموحدين ، بعد تعاقب الحوادث ، وفقد الكثير من أهل الجماعة وأهل خمسين وأهل سبعين ، أن استدعى أشياخ القبائل الموحدية من المصامدة وغيرهم إلى مراكش ، ولما اكتمل دورهم ، أعلن تصنيف الموحدين إلى ثلاث طوائف أوطبقات ، الأولى ،

(١) ابن القطان فى نظم الجمان (المخطوط لوحة ٤٣ ب) .

هم « السابقون الأولون » الذين بايعوا الإمام المهدى وصحبوه وغزوا معه ، وصلوا خلفه ، والذين شاهدوا واقعة البحيرة واشتركوا فيها ، ويتلو هذه الطبقة من آمن بالتوحيد ، ودخل فى زمرة الموحدين من بعد البحيرة إلى فتح وهران (سنة ٥٣٩ هـ) ، وتتكون الطبقة الثالثة ممن انتظم فى سلك الموحدين من فتح وهران إلى ما هلم جرا ، وقد تم هذا التصنيف الجديد بعد أن روعيت فيه كل الاعتبارات ، من الزلف والقرب والعدالة وغيرها ، لتعرف كل طبقة مكانتها ومركزها(١) .

وقد أسبغ عبد المؤمن بسياسته فى تأليف القبائل المختلفة ، وإدماجها فى الجيش الموحدى الضخم ، على هذا الجيش وحدة وتناسقاً ، لم تعرفها الجيوش المغربية من قبل . بيد أنه لم يكن موفقاً فى سياسته لتأليف القبائل العربية ، وضمها للقوات الموحدية . ذلك أن هذه الفرق العربية التى استمرت عصراً تكون جناحاً هاماً فى الجيوش الموحدية بالمغرب والأندلس، كانت متعثرة الولاء كثيرة التقلب ، لا تدين بمبدأ ولاعقيدة ، سوى انتهاز الفرص ، والكسب المادى الرخيص، وكان تقاعسها وتقلبها فى حروب إفريقية ، فيما بعد أيام الخليفة أبى يعقوب يوسف وولده يعقوب المنصور من أهم الأسباب ، فى نجاح ثورة بنى غانية فى إفريقية ، وتغلبهم على معظم نواحيها ، وفى تخاذل الجيوش الموحدية ، فى معظم المعارك التى خاضتها إلى جانبها .

وأما عن نظم الحكم والإدارة ، فقد كان عبد المؤمن ، وهو مؤسس الدولة الموحدية الحقيقى ، أول من وضع القواعد والنظم التى يسترشد بها فى تسيير دفة الحكم ، وفى تطبيق السياسة الشرعية ، وفى جباية الأموال . وقد انتهت إلينا فى ذلك رسالة هامة من إنشاء الكاتب أبى جعفر بن عطية ، وجهها الخليفة من تينملل فى السادس عشر من ربيع الأول سنة ٥٤٣هـ ، إلى الطلبة والمشيخة والأعيان والكافة بالأندلس ، وفيها يبسط ما يمكن أن يسمى بالأسس الدستورية لنظم الحكم الموحدى ، ونحن نورد فيما يلى ملخصاً لما احتوته هذه الرسالة الدستورية الهامة ، التى ينفرد ابن القطان بإيرادها .

١ — يقول الخليفة ، إنه اتصل به أن بعض العمال ممن لايخافون الله ، يتسلطون بأهوائهم على الأموال والإبشار ، ويستحلون حرمات المسلمين ، وينقضون

(١) راجع الرسالة الثانية عشرة من « رسائل موحدية » ص ٥٣ و ٥٤ .

أحكام الشرع ، ويبتدعون مظالم شنيعة ، ويستنبطون من فواحش الآثام صنوفاً فظيعة ، ويتسببون فى قتل المسلمين ، فضلا عن استباحة أموالهم وأعراضهم بتلبسات يسيئونها ، ويمدون أيديهم بضرب الناس بالسياط وسيلة إلى أخذ أموالهم. وهو ينذر هؤلاء بشر العقاب ، ويقول ، إن لمن يستوجب الضرب أو يستحقه حدود معلومة ، ومواقف مرسومة ، تقابل كلا بمقتضى جرمه .

٢ — وأنه قد ذكر له فى أمر المغارم والمكوس والقبالات وتحجير المراسى وغيرها ، مظالم وكبائر عظيمة ، ثم يتساءل ألم يقم الأمر العالى لقطع أسباب الظلم وإجراء العدل .

ومن ذلك ما ذكر فى أمر المسافرين الذين يريدون الرجوع إلى أوطانهم ، فإن بعض هؤلاء الظلمة ، يزعمون لهم أن للمخزن حقوق تمتد إلى جميع ما أتى به ، ثم يضطروه بالوعيد إلى الخروج عن جزء كبير من ماله ، ويسائل الخليفة الموحدين والطلبة ، كيف تتع هذه الأمور ، وهم يرصدون الشئون ، وكيف تسفك الدماء على هذه الصورة ، وتنتهك الحرمات ، وهم لا يمتعضون .

٣ — وأنه ليجول بخاطره ، أن أسباب تلك المنكرات ، هو أن قوماً يتوسطون بينهم وبين الناس ، وينقلون الأمور إليهم بطريق التدليس ، وذلك لبعدهم عن مباشرة الأمور ، ثم ينصحهم بأن لايتركوا مباشرة الأمور إلى أحد سواهم ، وأنه يجب عليهم أن يباشروا الأحكام مباشرة تعهد وتفقد ، وأنهم فى ذلك يجب أن يتذرعوا بالحزم والاعتدال وسلوك الطريق الوسط ، والتواضع لأمر الله تعالى وترك الاستعلاء المنتقد ، وعليهم أن يبحثوا عن المتسببين فى وقوع تلك القبائح ، وأن يعرّفوه بأمرهم ليقوم بعقابهم .

٤ — ثم يقول الخليفة : « وقد استخرنا الله فى سد تلك الذريعة ، وصد تلك الأفعال الشنيعة ، فرأينا أن ترفعوا إلينا أحكام المذنبين للكبائر ، وتعلمونا بنبأ كل من ترون أنه يستوجب القتل بفعله الخاسر ، دون أن تقيموا الحد عليه ، أو تبادروا بالعقاب إليه ، ولاسبيل لكم إلى قتل أحد من كل من هو فى بلاد الموحّدين وأنظارهم ، ومن هو معهم داخل فى مضمارهم ، وكل من ترون أنه يستوجب القتل ، ممن يريد المكر فى أمر الله تعالى والختل ، فعرفونا بجلية أمره وتصحيحه ، وخاطبونا بميز أمره ومشروحه ، لينفذ فيه من قبلنا ما يوجبه الحق ويقتضيه ، ونمضى فى عقابه ما ينفذه الشرع ويمضيه . فإياكم من مخالفة أمرنا

هذا فى قتل أحد ممن ذكرنا كائناً من كان ، كبر ذنبه عندكم أو هان ، ولتبادروا إلى إعلاننا بذنبه بعد سجنه وتثقيفه لنقابله بما نراه ، ونجرى الحق فيه مجراه » .

٥ — وأنه قد بلغه أن يقع بيع النساء بصورة تخالف حكم الشرع ، وأنه يوجد من يبتاع المرأة ثم يبيعها دون استبراء ، وأنه لا يتحفظ فى ذلك من مواقعة الزنا المحض ، وأنه يجب ألاّ يتولى أمر بيع النساء إلا من اتصف بالدين والأمانة ، فهو الذى يشرف على أسواق بيعهن . ثم إنه يجب التوقف عن بيع النساء فى جميع من يغنمن منهن ، حتى يخاطب بأصل أمرهن وكيفيته ، ليرسم لهم فيها مايجب اتباعه .

٦ — ويحض الخليفة على مطاردة الخمر ، والاجتهاد فى إراقتها وكسر دنانها ، واختيار الأمناء الذين يسهرون على ذلك ، وتعهدهم لمواضع « الرُّب » واعتصاره ، وأن لا يبيحوا من ذلك إلا ما تجوز إباحته شرعا .

٧ — وأنه قد ذكر له أن الراقصين ( الرسل ) الذين يردون بالكتب ويصدرون ، يأخذون الناس بالنظر فى كلفهم ، ويلزمونهم بزادهم وعلفهم فى كل موضع ، ويحلون بأفنية الناس حلولا شنيعاً ، ويتحكمون عليهم بحكم المغرم ، ويطلب إليهم المسارعة فى قطع تلك العادة الذميمة ، وتزويد الرسل بما يقوم بأودهم فى المجىء والانصراف ، ويقطع شأنهم من التكليف والإلحاف ، وتحذيرهم من تكليف أحد من الناس بأى شىء .

٨ — وأنه قد ذكر له مايقع من التحكم فى الأموال ، وعدم المبالاة بالتفريق فيها بين الحرام والحلال ، وأن هناك من يفعلون بأموال الناس ماتقدم ، وتمتد أيديهم إلى المخازن فيعيثون بها ، ويجرؤون فى التعدى عليها ، ويطلب إليهم أن يتقوا الله فى أموال « المخزن » ووجوب السهر على صونها ، وحمايتها من التعدى عليها ، إذ هى أموال الله المخزونة فى أرضه ، وأنه يجب عليهم ألا ينفذوا منها قليلا ولا كثيراً إلا بعد استئذانه وتعريفه .

٩ — هذا ، وأنه يجب عليهم اتباع كل ما جاء فى هذا الكتاب بدقة وأن يجمعوا لقراءاته والاطلاع ، عليه سائر الطلبة والعمال ، وكافة المقدمين للأعمال ، وأن تكتب منه نسخ لكل قبيلة من قبائل أقطار الموحدين ، وكل كورة من الكور ، وينذر من لم يتبع ما جاء فيه بشر العقاب .

ويختتم الخليفة كتابه بقوله ، إنه لاغرض له إلا أن يحقق دعة المسلمين وأمانهم ، وأنه يجب أن يعلموا أن الموحدين ، مسئولون عن هذه الرعاية ، وأنهم يجب أن

يكونوا إخواناً فضلاء ، لعباد الله ، وأن يعاملوا الناس بالحسنى ، وأن يغدقوا عليهم المبرات ، وأن هذا هو واجبهم ، وأن هذه نصيحته ، فليقبلوها .

وأنه كان مما دعاه إلى تنبيههم وتذكيرهم بما تقدم ، ماوجده بحضرة مراكش من تلك الأنواع التى أحدثها أهل الابتداع مثل القبالة وما يجرى مجراها ، وأنه لم يكن يدور بخلده أن يسلك أحد مثل هذا المسلك ، وأنه أنكر ما وجده منه ، وقام بإزالة مايحظره الشرع (١) .

وقد لبث عبد المؤمن بالرغم من غلبة الحرب والجهاد على حياته ، محتفظاً بسمته وخلاله العلمية . كان عبد المؤمن فقيهاً بارعاً حافظاً للسنة ، وعالماً متمكناً من علوم الدين ، ولاسيما علم الأصول الذى تلقاه عن المهدى ابن تومرت ، وكان يقوم بإملاء علوم المهدى وقراءة العقائد ، وكتاب الموطأ ، وكان محباً للعلماء مؤثراً لهم ، مقبلا على مجالستهم ، محسناً إليهم ، يستدعيهم من سائر البلاد ليسكنوا بالحضرة إلى جواره ، ولينتظموا فى مجلسه ، ويجرى عليهم الأرزاق السخية ، ويعظم من شأنهم ومكانتهم . وكان فى الوقت نفسه يعنى أشد العناية بأمر الطلبة والحفاظ ، ويقسمهم إلى طائفتين ، طلبة الموحدين ، وطلبة الحضر ، والطائفة الأولى هى طلبة المصامدة ، بعد أن سمى المهدى المصامدة بالموحدين ، لخوضهم فى علم الأصول ، الذى لم يكن أحد من أهل هذه الأنحاء يخوض فيه (٢) . واستقدم عبد المؤمن فى نفس الوقت صغار الصبيان النجباء من مختلف قواعد المغرب والأندلس ، من إشبيلية وقرطبة وفاس وتلمسان وغيرها — إلى حضرته ، وكان منهم من إشبيلية وحدها خمسون صبياً ، حضروا إلى مراكش مع أستاذيهم أبى الحسن وأبى بكر الحصار ، وعنى الخليفة بأمر هؤلاء التلاميذ الصغار أتم عناية ، وأنزلهم أكرم منزل ، وأمر بأن يحفظوا القرآن ، وكتب التوحيد وموطأ المهدى وصحيح مسلم وغيرها (٣) . . وعنى عبد المؤمن بأمر الحفاظ أشد عناية ، وأمر بأن يحفظوا كتابى الموطأ ، وأعز ما يطلب ، وغيرهما من آثار المهدى ، وكان يستدعيهم فى كل يوم جمعة إلى داخل القصر ، وهم نحو ثلاثة آلاف حافظ ،

---

(١) أورد لنا ابن القطان نص هذه الرسالة كاملا فى « نظم الجمان » وهى تقع فى عدة صحفات (المخطوط لوحة ٥٦ ب إلى ١٦٥) . وسوف ننشرها فى باب الوثائق .

(٢) المراكشى فى المعجب ص ١١٢ ، وروض القرطاس ص ١٣٣ .

(٣) ابن القطان فى نظم الجمان (المخطوط لوحة ١٥٣) .

فيوجههم إلى ما يبغيه من سرعة الحفظ والتدريب ، فيأخذهم يوماً بتعلم الركوب ، ويوماً بالرمى بالقسي ، ويوما بالسباحة فى بحيرة أنشأها لهم خارج بستانه ، فى مربع ضلعه نحو ثلاثمائة ذراع ، ويوماً بالتدرب على إصابة الهدف ، على قوارب وخوازيق صنعها لهم بتلك البحيرة ، وذلك لكى يجعل منهم رجالا مثقفين ، مدربين مقتدرين . وكانت نفقتهم وسائر مؤنهم وخيلهم ، وعُددهم ، كلها من عنده . وفضلا عن ذلك ، فقد قرر عبد المؤمن ، بموافقة أشياخ الموحدين ، أن يدفع لكل طالب من هؤلاء قرضاً يتجر به إسعافاً لهم ، وصرف لكل منهم من مال المخزن قرضاً قدره ألف دينار ، فتاجروا وأثروا ، ولم يسترد منهم هذا القرض قط[1] . ولما كمل تدريبهم ، وأصبحوا طائفة يعتمد على علمها ودربتها وخبرتها ، ندبهم لمختلف الأعمال والرياسة بدلا من أشياخ الموحدين ، وقال لهم إن العلماء أولى منكم ، واستبقى الأشياخ لمشورته[2] . وقد رأينا فيما تقدم كيف ندب كثير من أولئك الحفاظ لأعمال الإدارة والرياسة ، فى كثير من القواعد الأندلسية المفتوحة ، وهم سوف يشغلون من الآن فصاعدا حيزاً كبيراً ، فى أعمال الولاية والرياسة ، فى أنحاء الدولة الموحدية .

وكان عبد المؤمن فوق ذلك ، كاتباً بليغاً ، وأديباً ضليعاً ، إماما فى النحو واللغة ، حافظاً للتاريخ وأيام الناس ، وشاعراً ينظم الشعر الجيد ، وقد أورد لنا صاحب روض القرطاس له مطارحة شعرية مع وزيره ابن عطية[3] ، وذكر صاحب الحلل الموشية ، أن عبد المؤمن حينما هنأه أبو عبد الله الجيانى يوم انتصاره على المرابطين بفحص مراكش بقصيدة أولها :

أضاءت لنا الأيام واتصل النجح ... وكانت وجوه الدهر مسودة كلح

أجابه عبد المؤمن بقوله :

هو الفتح لا يجلو غرائبه الشرح ... أصاب بنى التجسيم من بأسه طرح
اتتنا به البشرى على حين غفلة ... بمهلك قوم كان وعدهم الصبح

وكان ممن وفد على عبد المؤمن من أدباء العصر وشعرائه ، أبو العباس أحمد

---

(١) ابن القطان فى نظم الجمان (المخطوط لوحة ٥٢ ب) .
(٢) الحلل الموشية ص ١١٤ .
(٣) روض القرطاس ص ١٣٣ .

ابن عبد السلام الجراوى الشاعر ، وهو ينتمى إلى قبيلة جَراوة البربرية ، التى توجد منازلها على مقربة من مليلة ، وكان أديباً بارعاً وشاعراً جزلا فحظى لديه ، ثم لدى أولاده من بعده ، وغدا شاعر البلاط الموحدى الأثير ، وظهر بمدائحه للخلفاء المتعاقبين حتى عهد الناصر ، وألف للخليفة المنصور كتابه « صفوة الأدب » حسبما نذكر بعد .

ووجه أبو عبد الرحمن بن طاهر صاحب مرسية المخلوع إلى عبد المؤمن رسالته الشهيرة « الكافية » فى إثبات أمر المهدى بالدليل والبرهان فى صورة مناقشة بين النفس المطمئنة ، والنفس الأمارة بالسوء . وقد أورد لنا ابن القطان نص هذه الرسالة ، وسوف نعود إلى ذكرها .

وكان عبد المؤمن شديداً صارماً ، فى تطبيق أحكام الدين ، ولاسيما فى تأدية الصلاة فى أوقاتها ، وفى إيتاء الزكاة ، وتحريم الخمر ، وإقامة الحد على شاربها ، وكان يذهب فى صرامته إلى قتل تارك الصلاة أو شارب الخمر ، وكان فوق ذلك ورعاً ، كثير التلاوة والخشوع .

وكان متزمتاً صارماً فى سياسته نحو النصارى واليهود . ونحن نعرف أن الدولة الموحدية قامت على أسس دينية خالصة ، وكان من الطبيعى ، وهى تحارب خصومها من المسلمين الخارجين على عقيدة التوحيد، أن تكون شديدة الوطأة على النصارى واليهود . ولما توطدت الدولة الموحدية بالمغرب ، وبسطت سيادتها على معظم قواعد الأندلس ، أصدر عبد المؤمن قراراً بوجوب خروج النصارى واليهود من أراضى الدولة الموحدية ، وحدد لهم فيه أجلا لمغادرة البلاد ، إلا من أسلم منهم ، فهؤلاء يصبحون رعايا، لهم ما للمسلمين الخلص وعليهم ماعليهم؛ ومن بقى من النصارى أو اليهود بعد الأجل المضروب ولم يعتنق الإسلام ، فقد حل دمه وماله . وكان من جراء هذا القرار أن غادر المغرب والأندلس كثير من النصارى واليهود المخفِّين أى الذين لا تثقلهم أعباء الأسرة والأعمال ، وبقى منهم من ثقلت أعباؤه ، وتظاهروا باعتناق الإسلام إنقاذاً لأنفسهم وأموالهم ، ومما يذكر أنه كان بين هؤلاء العلامة الفيلسوف والطبيب اليهودى الكبير موسى بن ميمون ، وكان من أهل قرطبة، فتظاهر عند صدور القرار باعتناق الإسلام ، والقيام بأداء شعائره ، حتى مكنته الفرصة من مغادرة الأندلس مع أهله ، فقصد إلى مصر،

وخدم فى بلاطها ، وعين طبيباً خاصاً للسلطان صلاح الدين ، وتوفى بالقاهرة سنة ٦٠٢ هـ ( ١٢٠٥ م )(١)

وكان عبد المؤمن بالرغم من نشأته وسمته الفقهية المتواضعة ، رئيساً وافر الهيبة والجلال ، وهو مايشير إليه المراكشى فى قوله : «كان عبد المؤمن فى نفسه سرى الهمة ، نزيه النفس ، شديد الملوكية ، وكأنه كان ورثها كابراً عن كابر ، لا يرضى إلا بمعالى الأمور»(٢) .

* * *

ولكن عبد المؤمن كان إلى جانب هذه الخلال البديعة كلها ، يتسم بالقسوة وسفك الدماء . وهذا ما ينوه به مؤرخ ناقد مثل ابن الأثير ، إذ يقول لنا : إن عبد المؤمن كان كثير السفك لدماء المسلمين على الذنب الصغير(٣) . وقد سبق أن أشرنا إلى هذه الصفة القاتمة من صفات عبد المؤمن ، وسردنا خلال استعراضنا لمراحل حياته ، كثيراً من الحوادث الدموية التى سالت فيها الدماء غزيرة على يديه ، وقد كان أروع ما وقع منها حادثة الاعتراف الشهيرة ، التى تم فيها تطهير القبائل ، وفقاً لجرائد أعدها عبد المؤمن بنفسه ، وتضمنت ألوفاً مؤلفة من الضحايا ، التى أعدمت تنفيذاً لأوامره ( سنة ٥٥٤هـ ) . وقد سبق أن علقنا على هذه الحادثة وأمثالها ، من الصفحات الدموية ، التى توالت فى عهد عبد المؤمن وعلى يديه . ونود أن نضيف هنا ، أن هذه الظاهرة الدموية ، كانت أصلا راسخاً من أصول الدعوة المهدية ، وأن المهدى ابن تومرت ، كان من أشد الدعاة دعوة إلى سفك دماء خصومه ، وقد أبدى فى تطبيقها قسوة تدنو إلى الوحشية . ومن وجهة أخرى فإنه يمكن القول بأن سفك الدماء وسيلة مأثورة من وسائل تدعيم الطغيان ، يلجأ إليها الطغاة فى كل عصر ، وكل قطر ، وقد كان عبد المؤمن طاغية من أعظم طغاة العصور الوسطى ، فليس بمستغرب أن يكون القتل الذريع وسيلة لتأييد سلطانه المطلق ، وإن يكن قد ذهب فى ذلك إلى حدود مثيرة مروعة .

* * *

(١) القفطى فى بأخبار العلماء بأخبار الحكماء فى ترجمة موسى بن ميمون ( القاهرة ١٣٢٦ هـ ) ص ٢٠٩ .

(٢) راجع المعجب ص ١١٢

(٣) ابن الأثير ج ١١ ص ١٠٩ .

وقد اعتمد عبد المؤمن فى تنظيم دولته ، وتسيير حكومته ، وقيادة عسكره ، على طائفة مختلطة من الكتاب والقادة من مختلف القبائل، وأهل المغرب والأندلس . وقد كان من الواضح أن أصحاب المهدى وأشياخ الموحدين من المصامدة ، وغيرهم من القبائل البدائية الموالية ، وإن كان يمكن الاعتماد عليهم فى شئون الدعوة وفى بعض القيادات العسكرية، فإنه لا يمكن أن يعتمد عليهم وحدهم فى بناء الدولة الموحدية ، وتوطيد قواعدها . ومن ثم فإن عبد المؤمن لم يتردد فى أن يستخدم فى حكومته وفى قيادته ، كثيراً من أولياء الدولة المرابطية السابقة من لمتونة ومسّوفة ، ومن أهل الأندلس ، مثل على بن عيسى بن ميمون قائد الأسطول المرابطى السابق ، وبرّاز بن محمد المسّوفى ، وقد كان من أبرز القادة المرابطين ، ومثل الكاتب أبى جعفر بن عطية وأخيه عقيل بن عطية ، وقد كانا من كتاب الدولة اللمتونية ، وميمون الهوارى . واستخدم عبد المؤمن من أهل الأندلس لكتابته أخيل بن إدريس الرُّندى صاحب رندة السابق ، وقد كان أيضاً من كتاب الدولة اللمتونية ، وأبا الحسن بن عياش القرطبى ، وأبا بكر بن ميمون القرطبى ، والخطيب أبا الحسن بن الإشبيلى ، وصاحبه الخطيب أبا محمد عبد الله بن جبل . وقد كان الاعتماد على معاونة الوزراء والكتاب الأندلسيين ، فى بلاط مراكش ، مبدأ مقرراً منذ أوائل الدولة المرابطية ، وذلك لما كانوا يمتازون به فى هذا الميدان من المواهب والصفات المصقولة ، ولما كان لأعمال الوزارة وشئون الكتابة بالأندلس من التقاليد الحليلة الراسخة ، والأساليب المشرقة العالية . وسوف نرى فيما بعد ، كيف يمثل أقطاب الكتاب والعلماء والمفكرين بالأندلس ، بقية القرن السادس الهجرى ، بين وزراء الدولة الموحدية وكتابها البارزين .

وقد وزر لعبد المؤمن الكاتب أبو جعفر بن عطية ، ثم أبو محمد عبد السلام ابن محمد الكومى ، ثم ولده السيد أبو حفص ، ومعاونه أبو العلا إدريس ابن ابراهيم بن جامع ، وهو الذى تولى الوزارة بعد وفاته ، لولده الخليفة الجديد أبى يعقوب يوسف .

وتولى القضاء فى عهده ، صهره أبو عمران موسى بن سليمان الضرير من أهل تينملل ومن أصحاب خمسين ، وأبو الحجاج يوسف بن عمر .

وعنى عبد المؤمن بالشئون المالية بنوع خاص ، ولقى فى تنظيمها صعاباً ومتاعب . وكانت مسألة الفروض أو « الجبايات » التى يتكون منها دخل الحكومة

الموحدية من المسائل الدقيقة ، التى واجهت عبد المؤمن . وقد كانت مسألة المكوس والمغارم التى تفرضها الدولة المرابطية على رعاياها ، من المسائل التى شهّر بها المهدى ابن تومرت ، وعددها بين مثالب المرابطين ، باعتبارها مغارم غير شرعية يحرمها الكتاب والسنة . وكانت الدولة الموحدية فى البداية تحرص على ألا تحيد عن تطبيق هذا المبدأ فى فرض الجبايات ، وتلغى سائر المغارم المحرمة ، وتكتفى بتحصيل الزكاة والأعشار ، وهذا ما يسجله الخليفة عبد المؤمن فى رسالته التى بعث بها عقب فتح بجاية سنة ٤٤٧ هـ ، إلى أهل قسنطينة ، يدعوهم إلى الطاعة ، ويذكرهم بما هو مفروض عليهم منذ أيام « أهل الاختلاق والابتداع » من « القبالات والمكوس والمغارم وسائر تلك الأنواع » ، وأن الله قد أراح الناس بالتوحيد ، من تلك المغارم ، وأنه سوف لايطلب إليهم إلا ما أوجب الله ، وما توجبه السنة من « الزكوات ، والأعشار »(١) . وقد كان ما استولى عليه الموحدون من ثروات الدولة المرابطية وذخائرها ، فى المغرب والأندلس ، وما كانوا يحصلونه من غنائم خصومهم المهزومين ، يكفى فى البداية لمواجهة نفقات الحرب والإدارة . بيد أنه لما اتسع نطاق الغزوات والفتوحات فى المغرب والأندلس ، وتضاعف عدد الجيوش الموحدية الغازية ، اضطر عبد المؤمن إلى التماس مصادر أخرى للنفقة ، فكان مما استحدثه ، مانقله إلينا صاحب روض القرطاس ، من أنه أمر بمسح بلاد إفريقية والمغرب من برقة ، إلى السوس الأقصى ، بالفراسخ ، والأميال ، طولا وعرضاً ، وأسقط من هذه المساحة مقدار الثلث مقابل الجبال والأنهار والطرقات وغيرها من التوالف ، ومابقى فرض عليه الخراج ، وألزمت كل قبيلة بأن تؤدى قسطها من الزرع والمال ، وهكذا تحررت السياسة المالية الموحدية ، من الجمود الذى فرضته عليها تعاليم المهدى ، ولتتطور مع مقتضيات ما تحتاج إليه الدولة من ضروب النفقة العسكرية والإدارية .

* * *

وترك عبد المؤمن من الولد ستة عشر من البنين ، وهم أبو يعقوب يوسف الخليفة من بعده ، وأبو حفص عمر ، وأبو عبدالله محمد المخلوع من ولاية العهد ، وأبو محمد عبد الله والى بجاية ، وأبو سعيد عثمان والى غرناطة وقرطبة ، وأبو على الحسن ، وأبو على الحسين ، وأبو الربيع سليمان ، وأبو زكريا يحيى ،

(١) مجموعة الرسائل الموحدية — الرسالة السادسة — ص ٢١ و ٢٢ .

وأبو إبراهيم اسماعيل ، وأبو إسحق إبراهيم ، وأبو يوسف يعقوب ، وأبو زيد عبد الرحمن ، وأبو سليمان داود ، وأبو موسى عيسى ، وأبو العباس أحمد ؛ وترك من البنات اثنتين هما صفية وعائشة[١] .

هذا ولدينا عن أوصاف شخص عبد المؤمن ، فقرتان ، نقل إلينا أولاهما ، ابن خلكان عن مؤلف فى سيرة عبد المؤمن ، وفيها أن عبد المؤمن ، « كان شيخاً معتدل القامة ، عظيم الهامة ، أشهل العينين ، كث اللحية ، شثن الكفين ، طويل القعدة ، واضح بياض الأسنان ، بخده الأيمن خال »[٢] .

ويقول فى الثانية صاحب روض القرطاس : « كان أبيض اللون مشرباً بحمرة ، أكحل العينين ، أجعد ، تام القد ، له وفرة تبلغ شحمة أذنه ، أزج الحاجبين ، ملائم الأنف ، عريضه ، مستدير اللحية »[٣] .

(١) ابن صاحب الصلاة فى المن بالإمامة لوحة ٤٢ ب ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٥٦ .

(٢) ابن خلكان فى وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٩١ .

(٣) روض القرطاس ص ١٣٣ .

## الكتاب الرابع

# نظم الدّولة المرابطيّة
# وخواصّ العهد المرابطيّ

# الفصل الأول

## طبيعة الحكم المرابطى

## وأوضاعه العسكرية والإدارية والمالية

الطابع الدينى للدولة المرابطية . استئثار الفقهاء بالنفوذ . ما ترتب على ذلك من الفساد . ضعف الفقهاء وانصرافهم إلى علم الفروع . الطابع العسكرى للدولة المرابطية . نزعتها إلى الجهاد . تضاؤل منعتها العسكرية . الدولة المرابطية إمارة ملكية . طابعها الملك الوراثى . عمالات المغرب والأندلس فى عهد المرابطين . قرطبة مركز الحكم المرابطى . ولايات الأندلس لذوى القربى . تولى الأندلسيين لمناصب القضاء . القضاة زعماء الثورة فيما بعد . استئثارهم بمناصب الكتابة . لمتونة وشجاعتها فى القتال . الجيش عماد الدولة المرابطية . تنظيمه وتكوينه . النصارى المرتزقة . ترتيب المعركة عند المرابطين . القوات الأندلسية . النزعة الجهادية وتضاءلها . الجيش المرابطى بالأندلس . الأساطيل المرابطية . السياسة المالية ونظم الجباية . الضغط على اليهود . التوسع فى الجبايات والقبالات أيام على . الدولة المرابطية ووسائلها فى الحكم . حملة العلامة دوزى على المرابطين . ما يطبع هذه الحملة من تحامل . رأى العلامة كوديرا . أقوال المراكشى . قول فى مديح المرابطين وعهدهم. شرح لاسباب هذه الحملة ضد المرابطين . الفتح المرابطى الأندلسى وما تخلله من فظائع . قسوة أمير المسلمين نحو المعتمد . مطاردة كتب الدين والفلسفة . حملة المهدى ابن تومرت . فضل المرابطين فى الجهاد وإنقاذ الأندلس . تقاعسهم فى حرب الإسترداد . مسئوليتهم فى سقوط سرقسطة . حكم المرابطين للأندلس . طابعه العسكرى الخشن . وثائق رسمية تؤيد اهتمام على بن يوسف بشئون الأندلس والذود عنها . توصياته بشأن الحكم . اهتمامه بتجنب الاستبداد ، واتباع الرفق والعدل . اهتمامه بأمر القضاء . توصيته بحسن اختيار القضاة . حجر المرابطين على حرية الفكر . مطاردتهم لكتب الأصول وكتب الغزالى . إصرارهم على هذه المطاردة حتى أواخر عهدهم . مطاردتهم لكتب الكلام والفلسفة . عيث الجند والعبيد المرابطين . ملاحظات ابن عبدون على ذلك . اشتداد وطأة الحكم المرابطى وأسباب ذلك . الحكم على العصر المرابطى والمبالغة فى ذلك . تعليق الأستاذ كوديرا . أحوال الشعب فى ظل الحكم المرابطى . الأمة الأندلسية وتحريرها من مظالم الجباية . تمتعها بنوع من الاستقرار والرخاء . وحدة المغرب واستقراره . ما شمله من تعمير ورخاء . الاضطراب والفوضى منذ حركة المهدى .

كان مصرع الدولة المرابطية ، حادثاً من أهم الحوادث ، الحاسمة فى تاريخ المغرب والأندلس ، وكان نتيجة لعوامل عديدة ، عسكرية وسياسية واجتماعية .

وسوف نحاول فى هذا الفصل ، أن نستعرض هذه العوامل ، التى أدت إلى سقوط هذه الدولة العظيمة الشامخة ، التى شادتها عبقرية يوسف بن تاشفين ، وهى ما تزال فى عنفوان فتوتها ، ولما يمض على قيامها وتوطدها أكثر من نصف قرن ،

وأن نستعرض فى نفس الوقت ، طرفاً من المبادئ والنظم التى سار عليها بنو تاشفين فى حكم إمبراطوريتهم العظيمة بالمغرب والأندلس ، ومن الظروف والأحوال الحضارية التى عاشت فى ظلها .

قامت الدولة المرابطية ، حسبما رأينا على أساس من العقيدة الدينية ، وكان منشؤها الروحى فقيه متعصب ، هو عبد الله بن ياسين الجزولى . واحتفظت بهذا الطابع الدينى معظم حياتها ، وكان يتخذ منذ البداية صورته العملية ، فى سيطرة الفقهاء على شئون الدولة وتوجيهها ، وفى اتجاه الجيوش المرابطية ، فى المراحل الأولى من حياة الدولة إلى أعمال الجهاد ، سواء فى المغرب أو الأندلس . وكان نفوذ الفقهاء فى تسيير الدولة المرابطية ، يتخذ أيام يوسف بن تاشفين ، صورة الشورى ، فكان العاهل المغربى يستفتيهم فى الخطير من الأمور ، لا استفتاء المستسلم الخانع ، ولكن استفتاء الحذر المستنير ، الذى يحاول أن يطمئن على سلامة تصرفاته ، وأن يلتمس لها السند الشرعى . ولكن هذا النفوذ لم يلبث أن غدا فى عهد ولده على ، نوعاً من الدكتاتورية الدينية ( ثيوقراطية ) . ولم يكن لعلى بن يوسف ، بالرغم من ذكائه وجميل صفاته ، وبالرغم من ورعه وتقواه ، من العزم والحزم ، ما يكفى لمغالبة هذا النفوذ الجارف . وهذا مايصوره لنا المراكشى ، عند حديثه عن على بن يوسف ، فى تلك الفترة التى تبرز لنا روح الحكم المرابطى على حقيقتها :

« وكان ( أى على بن يوسف) حسن السيرة ، جيد الطوية ، نزيه النفس ، بعيداً عن الظلم ، كان إلى أن يعد فى الزهاد والمتبتلين ، أقرب منه إلى أن يعد فى الملوك والمتغلبين . واشتد إيثاره لأهل الفقه والدين ، وكان لايقطع أمراً فى جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء ، فكان إذا ولى أحداً من قضاته ، كان فيما يعهد إليه ألا يقطع أمراً ، ولايبت حكومة فى صغير من الأمور ولا كبير ، إلا بمحضر أربعة من الفقهاء ، فبلغ الفقهاء فى أيامه مبلغاً عظيما ، لم يبلغوا مثله فى الصدر الأول من فتح الأندلس . ولم يزل الفقهاء على ذلك ، وأمور المسلمين راجعة إليهم ، وأحكامهم صغيرها وكبيرها ، موقوفة عليهم ، طول مدته . فعظم أمر الفقهاء كما ذكرنا ، وانصرفت وجوه الناس إليهم ، فكثرت لذلك أموالهم واتسعت مكاسبهم » .

وفى ذلك أيضاً يقول شاعر من شعراء العصر ، هو أبو جعفر أحمد بن محمد المعروف بابن البنى ، من أهل مدينة جيّان :

أهل الرياء لبستموا ناموسكم كالذئب أولج فى الظلام العاتم
فملكتموا الدنيا بمذهب مالك وقسمتموا الأموال بابن القاسم
وركبتموا شهب الدواب بأشهب وبأصبغ صبغت لكم فى العالم(١)

كانت هذه الثيوقراطية أو الدكتاتورية الدينية ، وما ترتب عليها من مثالب وأهواء لا مفر منها ، أهم عامل فى ضعف الحكم المرابطى وفساده ، وكان من جراء ذلك أن تحولت المزية الرئيسية ، لصفة الدولة المرابطية ، وهى الأساس الدينى المغرق ، إلى عنصر من عناصر الانحلال الخطر ، واستحالت فضائل التقى والزهد والورع ، لدى الأمير ، إلى نوع من الخضوع الأعمى ، لطائفة ، لا تُؤمن مطامعها وأهواؤها ، هى طائفة الفقهاء ، الذين غدوا يسيطرون على الأمير ، ويحكمون الدولة ، لامن وراء ستار فقط ، ولكن كذلك فى نوع من الجهر ، وفقاً لهذه المطامع والأهواء . أضف إلى ذلك أن هذه الطائفة كانت إلى جانب هذا الاستغلال لنفوذها الدينى ، تتسم خلال العهد المرابطى بالقصور وضيق الأفق ، ولم تكن على شىء من ذلك التعمق العلمى ، الذى كان يمتاز به جيل الفقهاء القدامى ، أيام الدولة الأموية ، فى دراسة الشريعة وأصول الدين ، وذلك حينما كان فقهاء أقطاب مثل عيسى بن دينار ، ويحيى بن يحيى ، وعبد الله ابن حبيب ، وبقى بن مخلد ، يتبوأون ذورة النفوذ العامى ، ولكن يقف نفوذهم عند حدود الفتيا والشورى ومزاولة القضاء . بل كان الفقهاء أيام الدولة المرابطية ، يقتصرون حسبما أشرنا من قبل على دراسة علم الفروع من العبادات والمعاملات والحدود والأقضية ، وعلى مذهب مالك دون غيره . وهذا ماينوه به المراكشى فى قوله : « لم يكن يقرب من أمير المسلمين ، ويحظى عنده ، إلا من علم علم الفروع أعنى فروع مذهب مالك ، فنفقت فى ذلك الزمان كتب المذهب ، وعمل بمقتضاه ، ونبذ ما سواها ، وكثر ذلك حتى نسى النظر فى كتاب الله وحديث رسول الله (ص) ، فلم يكن أحد من مشاهير أهل ذلك الزمان يعتنى بها كل الاعتناء ، ودان أهل ذلك الزمان بتكفير كل من ظهر منه الخوض فى شىء من علوم الكلام ، وقرر الفقهاء عند أمير المسلمين ، تقبيح علم الكلام ، وكراهة السلف له ، وهجرهم من ظهر عليه شىء منه ، وأنه بدعة فى الدين»(٢) . وقد

(١) المراكشى فى المعجب ص ٩٥ .
(٢) المراكشى فى المعجب ص ٩٦ .

ترتب على ذلك ما عمدت إليه الدولة المرابطية بإيعاز فقهائها ، من مطاردة العلماء الذين يعنون بعلم الكلام والأصول ، ومطاردة الكتب المتعلقة بذلك ، وفى مقدمتها كتب الغزالى ، وجاء ابن تومرت فاتخذه أيضاً مادة لدعايته الدينية ضد الدولة المرابطية ، حسبما فصلنا من قبل فى موضعه .

إلى جانب هذا العامل الخطير فى تصدع أسس الدولة المرابطية ، كان ثمة عامل آخر ، يحدث أثره السيىء فى تحطيم قواها المادية والأدبية ، هو انهيار منعتها العسكرية . ذلك أن الدولة المرابطية نشأت فى مهاد التقشف والبداوة ، واستمدت من بداوتها ومن حماستها الدينية ، صلابتها الحربية ، وكانت هذه المنعة التى تمتاز بها جيوش لمتونة وزميلاتها من القبائل المختلفة ، تذكيها وتضاعفها ، نزعة الجهاد فى سبيل الله . وفى ظل هذه النزعة الجهادية استطاع المرابطون عند مطلع نهضتهم فى مشارف الصحراء الكبرى ، أن ينشروا بجهادهم وغزواتهم المستمرة تعاليم الإسلام ، فى غانة ومالى وموريتانيا . ولما عبرت الجيوش المرابطية إلى شبه الجزيرة لتنقذ الأندلس مما يتهددها من خطر الفناء ، على يد اسبانيا النصرانية ، كانت هذه النزعة إلى الجهاد ، أخص ما يميزها ، إلى جانب ما اشتهرت به من المنعة والبسالة . وحتى بعد أن تحولت الجيوش المرابطية ، من مهمتها فى إنجاد الأندلس ، إلى جيوش غازية ، وأصبحت الأندلس جزءاً من الدولة المرابطية الكبرى ، فإن هذه النزعة إلى الجهاد فى سبيل الله ، لبثت حيناً آخر شعار الجيوش المرابطية فى شبه الجزيرة ، فكانت موقعة أقليش ، وكانت موقعة إفراغة ، وكانت ثمة مواقع محلية أخرى ، ظهرت فيها الجيوش المرابطية ، ببسالتها ، وتفانيها فى الجهاد فى سبيل الله .

بيد أنه سرعان ماخبت هذه الروح ، وخصوصاً بعد أن اختفى من الميدان أقطاب القادة المرابطين ، الذين امتازوا بالجرأة والشجاعة والبراعة العسكرية ، أمثال سيرين أبى بكر اللمتونى ، وأبى محمد مزدلى ، ومحمد بن الحاج ، ومحمد ابن فاطمة ، وسرعان ما تأثر الأمراء والقادة المرابطون ، بما انغمسوا فيه من ثروات الأندلس ، ونعمائها ، وحياتها المرفهة ، وتأثر الجند المرابطون ، أبناء الصحراء والقفر ، بحياتهم الجديدة الرغدة ، فى هذه القواعد العظيمة ، والوديان النضرة ، والعيش الرخص ، وفت ذلك فى مقدرة الجيوش المرابطية ، ومنعتها القديمة ، فأضحت عاجزة عن أن تقوم بمهمتها الأساسية فى حماية الأندلس ، ورد عادية

النصارى عنها ، كما غدت فى نفس الوقت عاجزة عن أن تعمل على توطيد سلطان الدولة المرابطية وهيبتها ، بين شعب أضحى يتبرم بحكمها ، ويتمنى زوال نيرها ، بعد أن ثقلت وطأته ، وكثرت مثالبه . وقد كان هذا عاملا له خطره فى تحطيم هيبة الدولة المرابطية وسيادتها بالأندلس :

— ١ —

كانت الدولة المرابطية أو الدولة اللمتونية فى عهدها الأول ، حينما انتهى يوسف بن تاشفين من إنشائها ، وتوطيد قواعدها ، وتخطيط عاصمتها مراكش ، إمارة يتسمى منشؤها بالأمير . وعقب انتصار الزلاّقة ، تسمى يوسف « بأمير المسلمين وناصر الدين » وهو اللقب الذى أصبح من بعده لقباً لملوك لمتونة . وهذا إلى اعتراف العاهل المرابطى بطاعة الخليفة العباسى . وهو إجراء لم يتعد الحدود الشكلية ، من الدعوة للخليفة العباسى فى الخطبة مع الأمير ، وذكر اسمه فى السكّة .

ثم غدت الدولة المرابطية ، مملكة وراثية ، منذ اختار يوسف ولده علياً لولاية عهده فى سنة ٤٩٦ هـ ( ١١٠٢ م ) ، وحذا حذوه فى ذلك على ، فاختار ولده تاشفين لولاية عهده فى سنة ٥٣٣ هـ ( ١١٣٨م ) . واختار تاشفين ولده إبراهيم لولاية عهده فى سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٥م )، وهو فى وهران يخوض مع الموحدين آخر المعارك الحاسمة ، وقد شاء القدر أن يكون إبراهيم خاتمة ملوك الدولة المرابطية .

ولم يكن العاهل المرابطى ، يتقيد فى هذا الاختيار لولاية العهد ، بشروط وتقاليد معينة ، ولم يكن يؤثر به الابن البكر ، وإنما كان يجرى وفقاً لمشيئة الملك القائم ، فيختار من ولده من يراه أهلا لخلافته . وكانت ولاية الأندلس ، وقيادة الجيوش المرابطية بها ، تمنحان للابن البكر ، إذا نحى عن ولاية العهد ، وذلك حسبما حدث فى شأن الأمير أبى الطاهر تميم ولد يوسف الأكبر ، حينما انتخب أخوه الأصغر على لولاية العهد ، فقد لبث والياً للأندلس وقائداً عاما للجيوش المرابطية بها حتى وفاته فى سنة ٥٢٠هـ ، وخلفه فى منصبه الأمير تاشفين بن على ، فى الوقت الذى كان فيه أخوه الأكبر سير بن على يتشح بولاية العهد ، فلما توفى سير فى سنة ٥٣٣ هـ ، استدعى تاشفين من الأندلس ، ومنح ولاية العهد :

وكانت عمالات المغرب أو ولاياته ، وهى نحو ثمانية ، مراكش ويتبعها أغمات وبلاد السوس وسائر بلاد المصامدة ، وفاس ، وسجلماسة ودرعة ، ومكناسة ، وبلاد فازاز ، وتلمسان ، وطنجة ، وسبتة ، تخصص ، لأبناء الأمير وقرابته . وقد بدأ يوسف بن تاشفين فى ذلك بتقسيم عمالات المغرب على «بنيه وأمراء قومه وذويه »(١) . أما الأندلس فكانت تنقسم فى عهد الدولة المرابطية، إلى خمس ولايات ، هى إشبيلية وغرناطة وقرطبة وبلنسية ومرسية . وكانت سرقسطة قبل سقوطها فى أيدى النصارى فى سنة ٥١٢ هـ ( ١١١٨م ) تعتبر ولاية سادسة . واتخذ المرابطون فى البداية قرطبة مركزاً لحكومتهم بالأندلس ، وفيها أصدر يوسف بن تاشفين عهده بولاية عهده لولده على . ولما تولى على الملك ، أمر بنقل قاعدة الحكم إلى غرناطة ، فلبثت كذلك حتى سنة ٥٢٦ هـ ، وفى هذا العام عين أمير المسلمين على بن يوسف ، ولده الأمير تاشفين والياً لقرطبة ، وأمره أن يجعل منها « داره وسكناه ومقر مثواه » . وهكذا غدت قرطبة مركز الحكم المرابطى مرة أخرى ، واستمرت كذلك حتى سنة ٥٣٩ هـ ( ١١٤٤ م ) ، وهى السنة التى اضطرمت فيها قواعد الأندلس ، ومنها قرطبة ، بالثورة على المرابطين ، وكان والى الأندلس يومئذ الأمير أبو زكريا يحيى بن غانية ، آخر ولاتها المرابطين .

وكانت مناصب الولاية المحلية بالأندلس ، وقفاً على الأمراء والقادة المرابطين ولاسيما ذوى القربى منهم ، وقد ذكرنا فيما تقدم أسماء عدد عديد من هؤلاء الأمراء والقادة ، الذين تولوا حكم القواعد الأندلسية ، منذ الأعوام الأخيرة من حكم يوسف بن تاشفين ، حتى نهاية العهد المرابطى ، وكان فى مقدمة هؤلاء بعض أقطاب القادة المرابطين الأوائل ، مثل الأمير سير بن أبى بكر اللمتونى فاتح إشبيلية ثم واليها ، ومحمد بن الحاج والى بلنسية ، ثم سرقسطة ، ومن بعده يحيى بن غانية ، والأمير أبومحمد مزدلى والى قرطبة وهو من أبناء عمومة يوسف ، وولداه محمد وعبد الله ، والامير محمد بن عائشة ولد يوسف ، ومحمد بن فاطمة والى إشبيلية ، وعبد الله بن تينغمر والى قرطبة ، وهو ابن أخت على بن يوسف ، والأمير إبراهيم والى إشبيلية ، وهو أخو على بن يوسف ، وأبو بكر بن على بن يوسف ، وقد ولى أيضاً إشبيلية وغيرهم . أما مناصبه

---

(١) روض القرطاس ص ٩١ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٨٥ .

القضاء فى القواعد الكبرى ، فقد تركها المرابطون للأندلسيين ، وذلك لسبب واضح ، هو أنه لم يكن بين العلماء المرابطين ، من يستطيع الاضطلاع بهذه المناصب ، فى بلد كالأندلس ، امتاز قضاته بغزير علمهم ، وقد كان أولئك القضاة الأندلسيون يتمتعون لدى العاهل المرابطى ، بكثير من النفوذ ، ولهم كلمة مسموعة فى كثير من الشئون الهامة ، وكانوا فى نفس الوقت رسله لتدعيم هيبته ونفوذه ، لدى الشعب الأندلسى ، وكان من أبرز نماذج أولئك القضاة رجال مثل أبى الوليد بن رشد ، وأبى القاسم بن حَمْدين ، وقد تولى كلاهما قضاء قرطبة . وقد رأينا فيما تقدم ، كيف أخذ بفتوى القاضى أبى القاسم ابن حمدين فى حرق كتاب الأحياء للإمام الغزالى ( سنة ٥٠٣ ) ، وكيف استطاع القاضى ابن رشد ، أن يقنع أمير المسلمين على بن يوسف بتغريب النصارى المعاهدين ( ٥٢٠ هـ ) . ثم كان أولئك القضاة فيما بعد ، حينما اضطربت شئون الدولة المرابطية ، هم قادة الثورة ضد المرابطين فى مختلف القواعد ، وهم الذين تولوا حكم المدن الثائرة ، حتى مقدم الموحدين .

ونود أن نلفت النظر هنا إلى تلك الظاهرة التى جعلت من قادة الثورة ضد المرابطين أما كتابا وشعراء ، أو قضاة . ففى الغرب كانت ثورة المريدين ، وزعماؤها قبل كل شىء ، رجال مثل ابن قسى ، وابن المنذر ، وأبو بكر بن المنخل ، يمتازون إلى جانب دعوتهم الثورية ، بمواهبهم الأدبية والشعرية . وفى أواسط الأندلس وفى شرقها ، كان زعماء الثورة كلهم تقريباً من القضاة . ففى قرطبة ، كان زعيم الثورة قاضيها أبو جعفر بن حمدين ، وفى غرناطة كان هو القاضى أبو الحسن على بن أضحى ، وفى مالقة كان قاضيها ابن حسون ، وفى بلنسية كان قاضيها مروان بن عبد العزيز ، وفى مرسية كان قاضيها أبو جعفر الخشنى ، وكان خلفه فى الرياسة بعد مصرعه ، قطب بن أقطاب الكتاب والشعر ، هو أبو جعفر عبدالرحمن ابن طاهر . وهذه ظاهرة تدعو إلى التأمل ، ويمكن أن نرجعها من بعض الوجوه ، إلى أن المرابطين استطاعوا خلال حكمهم بالأندلس ، أن يقضوا على معظم الزعامات الملوكية والعسكرية القديمة ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يقضوا على الزعامات الفكرية ، ولم يستطيعوا بالأخص ، أن يقضوا على نفوذ الفقهاء ، بالأندلس ، وكان نفوذهم المستمر ، حسبما تقدم من خواص الحكم المرابطى ذاته .

أما عن الكتابة ، فإن الدولة اللمتونية ، كانت منذ بدايتها تعتمد فى شئون

الكتابة على الكتاب الأندلسيين . فكان كاتب يوسف بن تاشفين ، حتى قبل أن يعبر إلى الأندلس ، أندلسى من أهل ألمرية هو عبد الرحمن بن أسباط . ولما توفى خلفه فى منصب الكتابة أبوبكر بن القصيرة ، وهو يومئذ من أئمة البلاغة بالأندلس ، ثم كتب بعد وفاة يوسف عن ولده علىّ . وكان بلاط مراكش عهد على بن يوسف ، يضم إلى جانب ابن القصيرة ، طائفة من أقدر الكتاب الأندلسيين فى هذا العصر ، مثل أبى القاسم بن الجد ، وأبى بكر بن عبد العزيز البطليوسى المعروف بابن القبْطُرنة ، وابن عبدون وزير بنى الأفطس السابق ، وأبى عبد الله بن أبى الخصال ، وغيرهم . وقد كان من الطبيعى ، أن تعتمد الدولة اللمتونية ، التى نشأت فى مهاد البداوة والتقشف ، فى شئون الكتابة ، ولاسيما بعد افتتاح الأندلس ، على أقطاب البلاغة من الكتاب الأندلسيين ، وأن يكون أولئك الكتاب ألسنتها لدى الشعب الأندلسى ، الذى اعتاد على أساليب الكتابة العالية ، وقد شهد المرابطون كيف كان ملوك الطوائف ، يحشدون فى قصورهم ، أئمة البلاغة والترسل يومئذ ، سواء فى سلك الوزارة أوالكتابة ، فكانت لهم فى ذلك أسوة ، فاستخدموا معظمهم أولئك الكتاب فى بلاط مراكش .

وكان الجيش هو أهم أجهزة الدولة المرابطية ، ودعامتها الأولى ، وكانت الدولة المرابطية بالرغم من انضوائها تحت لواء الدعوة الدينية الإصلاحية ، التى نظمها عبد الله بن ياسين ، قبل كل شىء دولة عسكرية ، نشأت فى مهاد المعارك التى اضطرمت بين لمتونة وبين القبائل الخصيمة من وثنية وغيرها ، وخرجت منها لمتونة ظافرة ، واستطاعت أن تبسط سلطانها على أنحاء المغرب ، وأن تقيم الدولة المرابطية الكبرى ، وكان أولئك البربر الصحريون جنوداً يمتازون بوافر الجرأة والشجاعة . وقد نوه بشجاعة لمتونة فى القتال كاتب معاصر هو الجغرافى المؤرخ ، أبو عبيد البكرى ، فوصف لنا لمتونة وشجاعتها وطرائقها فى القتال فيما يأتى : « وكان للمتونة ، فى قتالهم شدة وبأس ليست لغيرهم . وكان قتالهم على النجب أكثر من الخيل ، وكان معظم قتالهم مرتجلين ، يقفون على أقدامهم صفاً بعد صف ، يكون بأيدى الصف الأول منهم القنا الطوال ، وما يليه من الصفوف بأيديهم المزاريق ، يحمل الرجل الواحد منها عدة ، يزرقها فلا يكاد يخطئ ولا يشوى ، ولهم رجل قدموه أمام الصف بيده الراية ، فهم يقفون ما وقفت منصته ، وإن أمالها إلى الأرض جلسوا جميعاً ، فكانوا أثبت من الهضاب ، ومن فر أمامهم لم

يتبعوه ، وكانوا يختارون الموت على الانهزام ، ولا يحفظ لهم فرار من زحف»(1).
وقد تطورت أساليب لمتونة فى القتال فيما بعد ، ولكن هذه الصفة العسكرية لبثت تغلب على الدولة المرابطية ، حتى بعد أن استقرت وتوطدت ، وقامت بها نظم الحكم المدنية ، فكان الجيش هو قوام حياتها الأول ، وكان أمير المسلمين هو القائد الأعلى لهذا الجيش ، وكان معظم الولاة فى المغرب والأندلس ، من قادة الجيش البارزين . وكان منشىء الدولة المرابطية الكبرى يوسف بن تاشفين جندياً وقائداً من أعظم قواد عصره ، وقد بذل هذا البطل الشيخ فى تنظيم الجيش المرابطى ، وفى تزويده بالعتاد والسلاح ، جهوداً رائعة ، حتى غدا من أعظم جيوش العصر. وكانت قوته الرئيسية تتألف من الفرسان ، وقد بلغت فى عهد يوسف نحو مائة ألف فارس من مختلف القبائل(2) هذا غير المشاة من الرماة وغيرهم . وأنشأ يوسف فضلا عن ذلك حرسه الخاص الأسود ، من عبيد الصحراء من غانة ، من نحو ألفى مقاتل ، دربوا أعظم دربة ، وزودوا بأجود الأسلحة ، حتى غدوا قوة ضاربة لها خطرها(3) . وقد رأينا كيف أبلى هذا الحرس الأسود الخاص ليوسف ، فى معركة الزلاّقة عند تحرج الموقف ، أعظم البلاء ، وساعد ببسالته على تحول مصاير المعركة . وأنشأ يوسف قوة كبيرة خاصة من فرسان جزولة ولمطة وزناتة سميت بالحشم(4) . وأنشأ كذلك فرقة خاصة لحرسه من النصارى ، معظمهم من المعاهدين الذين اعتنقوا الإسلام ، وقد نمت هذه الفرقة فى عهد ولده على ، حتى غدت جناحاً كبيراً من الجيش المرابطى ، يتألف من النصارى المرتزقة ، ويقوده القائد القشتالى الذى تسميه الرواية العربية « بابربرتير » والذى تحدثنا عنه فيما تقدم ، وقد اشتركت هذه الفرقة الأجنبية التى تسميها الرواية العربية « بالجند الروم مع الجيش المرابطى ، فى معارك عديدة ، وكانت تمتاز دائماً ببسالتها ، وفائق دربتها .

وكان ترتيب المعركة عند المرابطين يقوم على نظام خماسى . فيتقدم الجيش ، الجند المشاة ووحدات الفرسان الخفيفة ، وحملة القسى ، والرماة ، ويرتبون فى

---

(1) أبو عبيد البكرى فى كتاب « المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب » المشتق من كتاب « المسالك والممالك » ( طبعة دى سلان ) ص ١٦٦ ، ونقل بعضه الحلل الموشية ص ١٠ و ١١ .

(2) روض القرطاس ص ٨٩ .

(3) الحلل الموشية ص ١٣ .

(4) الحلل الموشية ص ٢٠ .

الجناحين . ويتكون القلب من وحدات الفرسان الثقيلة ، وهى التى كان لها على الأغلب القول الفصل فى المعارك . وكانت قوات المؤخرة ، أو القوات الاحتياطية يقودها أمير المسلمين بنفسه ، إذا كان مصاحباً للجيش ، وتتألف من صفوة الجند ، وقوى الحرس المختلفة من العبيد والنصارى المرتزقة . وكان لكل قسم من القوات المقاتلة قائده الخاص ، ويجتمع القادة جميعاً فى مجلس الحرب الذى يعقد قبل المعركة ، وترتب فيه خطط الهجوم والدفاع ، وفقاً لأوامر القائد الأعلى . وكان الجند يحشدون وفقاً لمختلف القبائل والأقاليم . ويؤلف جند الأندلس فى الجيش المرابطى المخصص لشبه الجزيرة وحدات خاصة ، تحمل أعلام المدن التى تنتمى إليها ، مثل إشبيلية وقرطبة وغرناطة ومالقة وبلنسية ومرسية وغيرها . بيد أن القوات الأندلسية لم يكن لها فى الجيش المرابطى كبير شأن ، وكانت القيادة العليا بنوع خاص ، تركز فى أيدى القادة المرابطين . وكانت هذه سياسة مرسومة واضحة القصد والمرمى .

وكانت نزعة الجهاد ، تغلب فى البداية على الجيش المرابطى ، وكانت تحدوه هذه النزعة المضطرمة حينما عبر إلى شبه الجزيرة لأول مرة ، وانتصر فى موقعة الزلاّقة ، ضد الجيوش النصرانية المتحدة ، واستمر يجيش بهذه النزعة إلى الجهاد ، طوال عهد يوسف ، وفى أوائل عهد ولده على . ثم خبت هذه النزعة حينما اضطربت أحوال الدولة المرابطية ، منذ فورة المهدى ابن تومرت ، وأضحى الجيش المرابطى فى المغرب ، أداة دفاعية عن كيان الدولة التى أنشأته ، ولم يعد له فى الأندلس تلك الهيبة القديمة ، التى كانت تتوجها غزواته الجهادية ضد النصارى ، ولم يلبث أن اضطر غير بعيد أن يشغل بأمر الدفاع عن نفسه فى مختلف القواعد الأندلسية .

وكان الجيش المرابطى يستعمل البنود والطبول[1] . وقد لعبت طبوله فى الزلاقة دوراً كبيراً فى إزعاج الجند النصارى ، وبث الرعب فى قلوبهم . وكان الجيش المرابطى الدائم بالأندلس يتكون من سبعة عشر ألف فارس ، منها سبعة آلاف بإشبيلية وقواعد الغرب ، وبقرطبة ألف فارس ، وبغرناطة مثلها ، وأربعة آلاف بشرق الأندلس ، والأربعة آلاف الباقية موزعة على مختلف القواعد والثغور الأخرى . وكان يعهد بالدفاع عن الحدود والقواعد المتاخمة

---

(١) روض القرطاس ص ٨٩ .

للنصارى إلى الأندلسيين ، لما لهم فى مقاتلة النصارى ومدافعتهم من خبرة خاصة ؛ وكان الفارس المرابطى فى الأندلس يتقاضى خمسة دنانير فى الشهر ، غير نفقته الخاصة ، وعلف فرسه ، ومن ظهر منهم بشجاعته وتفوقه ، يُعهد إليه بولاية موضع ينتفع بفوائده[1] .

ولم ينس المرابطون أهمية الأساطيل ، ولاسيما منذ افتتحوا الأندلس ، وغدت الأندلس ولاية مغربية ، فكانت لهم فى سبتة وقادس والمرية أساطيل دائمة : وكانت قطائع النقل ، تجتمع بنوع خاص فى مياه سبتة وطنجة ، والجزيرة الخضراء وطريف ، لتنقل الجيوش المرابطية إلى شبه الجزيرة ، ومن شبه الجزيرة إلى المغرب ، وكانت الدولة المرابطية تمتلك فى أواخر أيامها أسطولا ضخماً من القطائع والسفن المقاتلة ، حتى أن الأمير تاشفين بن على ، كان وهو يجوز معركة وهران الفاصلة ضد الموحدين ، يعلق أمله فى النجاة على الأسطول ، وقد استدعاه فعلا إلى مياه بجاية . وقد اختصت أسرة بنى ميمون عصراً بقيادة الأساطيل المرابطية ، وانتقلت هذه الأساطيل على يدهم ، إلى خدمة الدولة الموحدية حينما دالت دولة المرابطين .

وأما فيما يتعلق بالنظم المالية فقد اتبعت الدولة المرابطية ، فى البداية ، نظراً لنشأتها الدينية ، حكم الشرع فى شئون الجباية ، فكان يوسف بن تاشفين يقتصر أولا على تحصيل ما تجيزه الشريعة من الفروض ، مثل الزكاة والأعشار وأخماس الغنائم وجزية أهل الذمة . بيد أنه لما ضخمت الدولة المرابطية ، وتضاعفت جيوشها ومسئولياتها ، ولاسيما بعد افتتاح الأندلس ، واتساع نطاق أعمال الجهاد ، فى شبه الجزيرة ، لم تعد هذه الموارد الشرعية المتواضعة تكفى لمواجهة مسئولياتها العظيمة ، واضطر يوسف بن تاشفين إلى فرض الإتاوات على أهل المغرب والأندلس ، للمساهمة فى أعمال الجهاد ، ولجأ أيضاً إلى تحصيل الأموال من اليهود ، ولاسيما يهود بلدة أليسانة[2] ، بمختلف الطرق والوسائل . وكان يوسف بن تاشفين يبغض اليهود ، ويرى إرغامهم على اعتناق الإسلام ، وشجعه على ذلك بالنسبة ليهود الأندلس ، فقيه قرطبى زعم أنه وقع فى أحد الكتب ، على حديث منسوب إلى النبى ، مفاده أن اليهود تعهدوا بأن يؤمنوا بالنبى العربى ، وأن يعتنقوا الإسلام ،

---

(١) الحلل الموشية ص ٥٧ و٥٩ .

(٢) تقع بلدة أليسانة أو اللسانة **Lucena** ، شمال غربى لوشة بولاية غرناطة .

إذا حلت الخمسمائة عام من الهجرة ، ولم يظهر لهم النبي الرسول ، الذى بشر به موسى فى التوراة ، وبأنه سوف يكون منهم ، وأن نبيهم يكون عندئذ هو نفسه نبي المسلمين ، ويتحتم عليهم اعتناق الإسلام وكان يهود الأندلس يجتمعون بالأخص فى مدينة أليسانة المتقدمة ، وهى مدينة يهودية خالصة ، بها ربض واحد يسكنه المسلمون ، ولا يختلطون بأحد منهم ، وأهلها أغنياء مياسير ، ومن أغنى يهود العالم . وكان أمير المسلمين حين مر بتلك المدينة ، يريد أن يرغم أهلها اليهود على اعتناق الإسلام وفقاً لما تقدم ، ولكن فقيهاً آخر ، أفتى بأنه يجوز تركهم على وجه الافتداء ، فدفع اليهود مبالغ طائلة لأمير المسلمين ليحتفظوا بدينهم[1]. ثم تمادت هذه السياسة فى عهد ولده على ، ولجأ على فى نفس الوقت إلى فرض القبالات والإتاوات ، على مختلف الصنائع والسلع ، فكانت القبالات تفرض على الصابون والعطور والنحاس والمغازل ، كما تفرض على كل شيء يباع جل أو صغر ، كل شيء على قدر قيمته[2] ، كما لجأ على إلى استخدام النصارى والروم فى تحصيل الجبايات[3] . ولما اضطربت أحوال الدولة المرابطية ، على أثر قيام حركة المهدى ، اشتد نفوذ النصارى فى الجيش ، وفى شئون الجبايات ، لما كان يحبوهم به على بن يوسف من ثقة وحماية ، وأساءوا معاملة المسلمين ، واشتطوا فى تحصيل المغارم والفروض ، وغلبت الفوضى على شئون الدولة المالية ، كما غلبت على غيرها .

— ٢ —

وقد اختلفت الآراء حول طبيعة الدولة المرابطية ، وطبيعة وسائلها فى الحكم ، واشتد بعض المؤرخين فى الحكم عليها ، ورميها بأقصى النعوت والصفات ، وجنح البعض بالعكس إلى امتداحها ، وامتداح عهدها وحكمها .

وكانت تعليقات العلامة المستشرق دوزى ، وحملته على المرابطين ، والدولة المرابطية ، من أشد ماصدر من الأحكام فى هذا الموضوع . ومن الأسف أن هذه الحملة التى شهرها دوزى على المرابطين ، وعلى عهدهم بالأندلس ، قد تناقلها

(١) الحلل الموشية ص ٥٨ . وراجع فى وصف مدينة أليسانة « وصف المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس » المأخوذ من نزهة المشتاق للإدريسى ( طبعة دوزى ) ص ٢٠٥ .

(٢) الإدريسى فى المرجع السابق ص ٧٠

(٣) الحلل الموشية ص ٦١ .

معظم الكتاب والنقدة المحدثين ، واعتبروها حكماً مبرماً، لا يقبل جدلا ولا نقصاً .

ومن ثم فإنه لابد لنا أن ننقل أولا ما تضمنته أقوال دوزى من وجوه الطعن والنقد ، ثم نعود بعد ذلك إلى تحليلها ومناقشتها .

يقول دوزى بادىء ذى بدء : « إن الشعب ( الأندلسى ) لم يكن له أن يهنئ نفسه بالانقلاب الذى وقع ( يعنى تحول الأندلس إلى سلطان المرابطين ) . ذلك أن الحكومة والقادة والجند ، جميعاً قد فسدوا بسرعة مذهلة .

إن قواد يوسف حينما قدموا إلى اسبانيا ، كانوا حقاً أميين ، ولكنهم كانوا أتقياء شجعاناً أمناء ، وقد اعتادوا على حياة الصحراء البسيطة المتقشفة . فلما أغنتهم كنوز الأمراء الأندلسيين التى أغدقها عليهم يوسف ، فقدوا فضائلهم بسرعة ، ولم يعودوا يفكرون إلا فى أن يتمتعوا فى سلام بهذه الثروات التى غنموها . ولقد كانت حضارة الأندلس بالنسبة لهم مشهداً جديداً ، ولما كانوا يخجلون من بربريتهم ، فقد أرادوا أن يندمجوا فيها ، واتخذوا لهم مثلا من الأمراء الذين خلعوهم . بيد أنهم كانوا لسوء الحظ من ذوى الجلد الخشن ، ولم يكن بوسعهم أن يتمشوا مع النعومة ، والكياسة ، والرقة الأندلسية ، وكان كل شىء لديهم يحمل طابع التقليد الخانع القاصر » .

ثم يقول : « ولم يكن الجند ( أعنى المرابطين ) ، بالرغم من كونهم أكثر محافظة ، أفضل من رؤسائهم ، وقد كانوا يمتازون بالقحة نحو الأندلسيين ، وبالجبن إزاء العدو . والواقع أن جبنهم كان فادحاً ، حتى أن الأمير على ، اضطر أن يتغلب على بغضه للنصارى ، وأن يحشد فى جيشه أولئك الذين كان قائد أسطوله ابن ميمون يجىء بهم من شواطىء جليقية ، وقطلونية وإيطاليا ، وبلاد بيزنطية.وأما عن قحتهم ، فإنه لم يكن لها احد . فقد كانوا يعاملون الأندلس كبلد مفتوح ، ويأخذون منها كل ما راق لهم ، من نقد ومال ونساء . وكانت الحكومة تتركهم يفعلون ذلك ، ولاتستطيع ضدهم شيئا . وكان ضعفها فى ذلك يدعو إلى الرثاء . وقد اضطر الفقهاء إلى ترك السلطان للنساء ، أوعلى الأقل إلى أن يشاطروهن هذا السلطان . وكان الأمير على يترك لزوجته قمر كل شىء ، وثمة نسوة أخريات كن يحكمن وفقاً لأهوائهن كبار الأعيان ، ومادام فى وسعهم أن يحققوا جشعهن ، ففى وسعهم أن يفعلوا ما شاءوا . بل لقد كان فى وسع قطاع

الطريق أن يؤملوا النجاة، إذا استطاعوا أن يشتروا حماية أولئك السيدات»[١] .

هذا ما يقوله دوزى فى « تاريخه » . وإليك مايقوله فى « بحوثه » :

« فى نحو أواخر القرن الحادى عشر ، حينما استبدلت الأندلس أمراءها الوطنيين ، بمملكة إفريقية ، جاءت كحليفة ، ثم انتهت بأن فرضت سيادتها ، حدثت فى هذا البلد ثورة سريعة محزنة . فقد حلت البربرية مكان التمدن ، وحل التخريف مكان الذكاء ، وحل التعصب مكان التسامح . وأضحت البلاد تئن تحت النير المرهق الذى يفرضه رجال الدين والجند ، فلم يعد يسمع مكان المناقشات العلمية الروحية فى المعاهد ، وأحاديث الفلاسفة العميقة ، وأناشيد الشعراء ، سوى صوت الفقهاء الرتيب ، وضحيج السيوف تجر على الإفريز »[٢] .

ونكتفى بنقل ما تقدم من أقوال دوزى وتعليقاته عن المرابطين بالأندلس . والواقع أنه يشهر مثل هذه الحملة ؛ فى مواطن كثيرة من تاريخه[٣] . وهو بصفة عامة شديد الوطأة على المرابطين ، وعلى عاهلهم يوسف ، ينتقص منهم كأمة ، وكدولة وحكومة ، وهو قد يكون على حق فى بعض الأحيان ، وقد نجد سنداً لحملته فى بعض الوقائع . ولكن حملته تنم على الأغلب عن روح واضح من التحامل .

ولقد رمى من قبل ، دوزى بهذا التحامل العلامة المستشرق كوديرا ، فهو يقول معلقاً ، على تلك الأحكام التى أصدرها دوزى فى حق المرابطين :

« لقد صيغت أحكام قاطعة جداً ، مجحفة بالنسبة لحكم المرابطين . ولما كنا نعتقد أنه لامبرر لهذه الأحكام ، بالرغم من مكانة دوزى العظيمة ، الذى حذا حذوه معظم الكتاب المتأخرين ، فإنا نعتقد أنه يجب علينا أن نقول شيئاً من عندنا ، لأنه إذا كان يبدو أن العلامة الهولندى يستند فى أقواله إلى وقائع مأخوذة من الكتاب المسلمين والنصارى ، فإنى أشعر أنه يجيش بكثير من التحامل ، وهذا يرجع بالأخص إلى تعصبه ضد رجال الدين ، وإلى تطبيق هذا التعصب بالنسبة للأمة الإسلامية ، وإلى ميله الواضح إلى التعميم ، وإلى أن يستخرج النتائج بالاستناد إلى قليل من الوقائع »[٤] .

---

(١) Dozy : Histoire des Musulmans d' Espagne (1932) V. III. p.162 - 164

(٢) Dozy : Recherches (Ed. 1881) Vol. I. p. 348

(٣) انظر مثلا : تاريخه ( ج ٣ ص ١٥٥ و١٥٧ و١٦٨ )

(٤) F. Codera : Decad. y Desp. de los Almorávides p. 190 & 191

والواقع أن دوزى لايجد أقوال الرواية العربية كثيراً من الأسانيد المؤيدة لحملته ، ولايعتمد فى ذلك إلا على ملخص لفقرتين أوردهما المراكشى فى « المعجب » ، يقول فى أولاهما ما يأتى :

« واختلت حال أمير المسلمين رحمه الله ( مشيراً إلى على بن يوسف ) بعد الخمسمائة اختلالا شديداً ، فظهرت فى بلاده مناكر كثيرة ، وذلك لاستيلاء أكابر المرابطين على البلاد ، ودعواهم الاستبداد ، وانتهوا فى ذلك إلى التصريح ، فصار كل منهم يصرح ، بأنه خير من أمير المسلمين ، وأحق بالأمر منه ، واستولى النساء على الأحوال ، وأسندت إليهن الأمور ، وصارت كل امرأة من أكابر لمتونة ومسوّفة تشتمل على كل مفسد وشرير وقاطع طريق ، وصاحب خمر وماخور ، وأمير المسلمين فى ذلك كله يتزيد تغافله ، ويقوى ضعفه ، وقنع باسم إمرة المسلمين ، وبما يرفع إليه من الخراج ، وعكف على العبادة والتبتل ، فكان يقوم الليل ويصوم النهار ، مشتهراً عنه ذلك . وأهمل أمور الرعية غاية الإهمال ، فاختل لذلك عليه كثير من بلاد الأندلس ، وكادت تعود إلى حالها الأولى ، ولاسيما مذ قامت دعوة ابن تومرت بالسوس »(١) .

ويقول فى الثانية : « وكان ( أى على بن يوسف ) رجلا صالحاً مجاب الدعوة ، يعد فى قوام الليل ، وصوام النهار ، إلا أنه كان ضعيفاً مستضعفا ، ظهرت فى آخر زمانه مناكر كثيرة ، وفواحش شنيعة ، من استيلاء النساء على الأحوال ، واستبدادهن بالأمور ، وكان كل شرير من لص أو قاطع طريق ، ينتسب إلى امرأة قد جعلها ملجأ له وزراً على ما تقدم »(٢) .

هذا ما يقوله المراكشى . ولنلاحظ أولا أن المراكشى يجانب الدقة التاريخية فى أحيان كثيرة ، وهو ما يعترف به ويعتذر عنه فى مقدمته ، ثم هو بعد ذلك كاتب ومؤرخ موحدى من أولياء الدولة الموحدية وصنيعة بعض أمرائها ، ومن ثم فإنه يصعب علينا أن نتخذ من أقواله دائماً حجة قاطعة ، ومن جهة أخرى فإنه يوجد إلى جانب هذه الأقوال ، أقوال أخرى لمؤرخين وكتاب ، عاش بعضهم فى العهد المرابطى أو قريباً منه ، تشيد بحكم المرابطين وأيامهم ، فمن ذلك ما يقوله صاحب الحلل الموشية ، معلقاً على عهد يوسف بن تاشفين :

---

(١) المعجب ص ٩٨ و ٩٩ .

(٢) المعجب ص ١٠٣ .

« أقامت بلاد الأندلس فى مدته سعيدة حميدة ، فى رفاهية عيش ، وعلى أحسن حال ، لم تزل موفورة محفوظة إلى حين وفاته ، وقد كان الجهاد انقطع بها منذ تسع وسبعين سنة من مدة آل عامر إلى حين دخوله إليها . قدم أشياخ المرابطين فيها وكانوا أقواماً ربتهم الصحراء ، نيتهم صالحة لم تفسدها الحضارة، ولا مخالطة الأسافل »(١) .

وما ينقله إلينا عن القاضى أبى بكر بن العربى ، وهو ماجاء فى كتابه فى شرح الترمذى ، وهو قوله :

« المرابطون قاموا بدعوة الحق ، ونصرة الدين ، وهم حماة المسلمين ، الذابون والمجاهدون دونهم ، ولو لم يكن للمرابطين فضيلة ولاتقدم إلا وقيعة الزلاّقة التى أنسى ذكرها حروب الأوائل ، وحروب داحس والغبراء مع بنى وائل ، لكان ذلك من أعظم فخرهم ، وأربح تجرهم »(٢) .

والقاضى ابن العربى من أعلام فقهاء الأندلس فى العصر المرابطى ، وقد توفى فى سنة ٥٤٢هـ ، على أثر عوده من لقاء عبد المؤمن، عقب افتتاحه لمراكش، وكان قد وفد إليه على رأس زعماء إشبيلية ، ليقدم إليه بيعة أهلها ، حسبما أشرنا إليه فى موضعه . هذا وينقل إلينا صاحب روض القرطاس عن ابن جنّون الفقرة الآتية :

«كانت لمتونة أهل ديانة ونية صادقة خالصة ، وصحة مذهب ، ملكوا بالأندلس من بلاد الفرنج إلى البحر الغربى المحيط ، ومن مدينة بجاية من بلاد العدوة ، إلى جبال الذهب من بلاد السودان . لم يجر فى عملهم طول أيامهم رسم مكروه ، معونة ولاخراج فى بادية ولا فى حاضرة ، وخطب لهم على أزيد من ألفى منبر . وكانت أيامهم دعة ورفاهية ورخاء متصل ، وعافية وأمن . . كان ذلك مصطحباً بطول أيامهم ، ولم يكن فى بلد من أعمالهم خراج ولامعونة ، ولاتقسيط ، ولا وظيف من الوظائف المخزنية ، حاشا الزكاة والعشر ، وكثرت الخيرات فى دولتهم ، وعمرت البلاد ، ووقعت الغبطة ، ولم يكن فى أيامهم نفاق ولاقطاع طريق ، ولامن يقوم عليهم ، وأحبهم الناس إلى أن خرج عليهم محمد بن تومرت مهدى الموحدين سنة خمس عشرة وخمسمائة »(٣) .

---

(١) الحلل الموشية ص ٥٩ .
(٢) الحلل الموشية ص ١٠٥ .
(٣) راجع روض القرطاس ص ١٠٨ ، ونقله أيضاً السلاوى فى الإستقصاء ج ١ ص ١٢٨ .

ويبدو من كل ما تقدم أن الحكم على العهد المرابطى ، كالحكم على أى عهد آخر من عهود التاريخ ، يتردد بين القدح والمديح . ونحن لانود أن نقف اعتباطاً عند إحدى الوجهتين . بيد أنه يلوح لنا أنه إذا كان حكم المرابطين ، ولاسيما فى الأندلس ، قد ينطوى من بعض نواحيه على أخطاء ومثالب ، فإنه من الناحية الأخرى ، قد أغمط حقه وبولغ فى انتقاصه والحملة عليه .

ولنقف هنا لحظة لنحاول أن نستعرض بعض العوامل والأسباب التى هيأت ذلك الجو المجحف بسمعة المرابطين ، وأذكت ضدهم حملة الانتقاص والتشهير التى ما زال صداها يتردد حتى يومنا . ويلوح لنا أن هذه العوامل ترجع إلى ثلاثة أمور يمكن أن نلخصها فيما يلى :

الأول ، هو ما اقترن بالفتح المرابطى لممالك الطوائف الأندلسية من مظاهر القسوة البالغة ، ومن قتل عدد من أمراء الطوائف بصورة مثيرة ، مثل بعض أبناء المعتمد بن عباد ، والمتوكل بن الأفطس وولده وغيرهم من الأمراء والأكابر ، ونهب الأموال ، ومعاملة الجند المرابطين لقواعد الأندلس معاملة المدن المفتوحة ، والعيث فيها دون وازع . وقد كان المسئول الأول فى ذلك هو سير بن أبى بكر اللمتونى كبير القادة المرابطين وفاتح إشبيلية وبطليوس . وفى اعتقادنا أنه لو كان عاهل المرابطين يوسف بن تاشفين موجوداً فى شبه الجزيرة فى تلك الفترة ، لأمكن اجتناب كثير من هذه الحوادث الدموية ، وهذا العيث الفظيع . على أنه يمكن أن نقول من جهة أخرى أن قسوة أمير المسلمين فى معاملة المعتمد بن عباد وهلاكه فى سجنه بأغمات ، على النحو المؤسى الذى وقع ، كانت أيضاً مادة خصبة لتغذية هذه الحملة المرة على المرابطين . وقد كان لما صدر من المعتمد فى سجنه من النظم المبكى ، أعمق وقع وأبعد صدى فى تصوير هذا الأمير الشاعر ، بالرغم من كل ما أحاق بسيرته وسلوكه من أخطاء ومثالب ، فى صورة الشهيد الذى يستحق أبلغ عطف . ونحن نجد ذلك الصدى بالأخص ، فضلا عن الأدب والشعر الأندلسى ، ماثلا لدى الكتاب والمؤرخين المشارقة . وقد كان لحملاتهم العنيفة على أمير المسلمين وعلى المرابطين ، أكبر الأثر فى إذكاء هذه الحملة التى صدعت من هيبة المرابطين وهيبة عاهلهم حتى عصرنا .

والأمر الثانى ، هو ما وقع منذ بداية عهد على بن يوسف من مطاردة كتب الدين والفلسفة وغيرها ، ولاسيما كتب الأصول وفى مقدمتها كتب الغزالى . وقد

أشرنا فيما تقدم إلى ماكان من تأثير الفقهاء على أمير المسلمين على بن يوسف. ولم يك ثمة شك فى أن مطاردة الحركة الفكرية على هذا النحو يرجع قبل كل شىء إلى وحى الفقهاء وتدبيرهم. وقد كان لهذه السياسة، أثر بالغ فى إذكاء عاطفة السخط ضد المرابطين بالأندلس، ولاسيما فى البيئة الفكرية، وفى توجيه الأقلام ضدهم أوعلى الأقل فى حرمانهم من عطف هذه الأقلام. ومما هو جدير بالذكر أنه فيما عدا أمثلة قليلة، يندر أن نجد فى الأدب الأندلسى من نظم أو نثر خلال العهد المرابطى، مدائح شعرية أو رسائل نثرية تشيد بالمرابطين أو أمرائهم.

والأمر الثالث، هو الحملة العنيفة المضطرمة التى شهرها المهدى ابن تومرت ضد المرابطين، ونحن نعتقد أن هذه الحملة كانت أخطر عامل فى القضاء على هيبة الدولة المرابطية، وسمعتها الدينية، وهى الدعامة التى قامت عليها. والواقع أن ابن تومرت قد لمس فى دعايته ضد المرابطين أشد النواحى حساسية وتأثيراً، وذلك حينما صور المرابطين بأنهم كفار خوارج على شريعة الإسلام، وأنهم قد ارتكبوا كثيراً من المناكر المثيرة، من إباحة للمحرمات من ذيوع الخمر، والقصف والفسق، واغتصاب أموال الناس بالباطل، وغير ذلك مما كانت مظاهر العاصمة المرابطية، وأحوال الدولة المرابطية، والمجتمع المرابطى، تؤيده فى ذلك الوقت بصفة فعلية. وقد استمرت هذه الدعاية الملتهبة التى شهرها المهدى ضد المرابطين طول حياته، واستمرت من بعده، وحتى بعد أن سقطت الدولة المرابطية ومحيت آثارها، وكان لها أبلغ الأثر فى القضاء على هيبة المرابطين وسمعتهم بصفة نهائية.

تلك هى العوامل التى اجتمعت لتصدع من هيبة الدولة المرابطية، ولتسبغ على سيرتها، وعلى ذكرياتها لدى الأجيال اللاحقة، ذلك اللون القاتم، الذى تأثل بمضى الزمن، وبما جنحت إليه التواريخ والكتابات المتعاقبة، من الأخذ به دون تمحيص أو تفنيد.

وما من شك فى أن الدولة المرابطية قد لبثت طوال عهد مؤسسها العظيم يوسف بن تاشفين، وهو نصف حياتها، دولة مجاهدة، تحتفظ بكثير من فضائلها الأولى، من التقشف والمنعة والعدالة والتمسك بأحكام الكتاب والسنة. وقد كان افتتاح المرابطين للأندلس على النحو الذى تقدم، بعد عبورهم إليها إخوة منقذين، أول سحابة قاتمة أسبلت على دولتهم، وعلى سياستهم ومراميهم. وقد ناقشنا هذه المسألة فى موضعها من كتابنا «دول الطوائف»، وأوضحنا مالها وما عليها، على ضوء

الظروف التى أحاطت بها . بيد أنه مهما قيل فى هذه المسألة ، فإن الفتح المرابطى للأندلس ، فضلا عن كونه حدث يتفق مع روح العصر الذى وقع فيه ، لا يمكن أن يُمحى ما تقدمه ، وما أعقبه من فضل المرابطين فى الجهاد ، وسحقهم لجيوش اسبانيا النصرانية ، فى موقعة الزلاّقة العظيمة ، التى كانت أروع مثل لبطولتهم وجهادهم فى سبيل الله ، وإنقاذهم الأندلس بذلك من خطر الفناء الداهم . ولا يمكن أن يمحى فضلهم بعد ذلك فى الذود عن الأندلس ، وحمايتها من مطامع ألفونسو المحارب ملك أراجون ، وألفونسو ريمونديس ملك قشتالة . ويكفى أن نستعرض فى تلك الحقبة ، مراحل جهادهم وغزواتهم فى أراضى اسبانيا النصرانية ، منذ موقعة أقليش ( ٥٠١ هـ ) حتى موقعة إفراغة ( ٥٢٨هـ ) ، وهى تنطوى على صفحات مشرقة من الجهاد فى سبيل الله ، والذود عن الدين والوطن ، وفيها تبدو بسالة هذه الجمهرة الممتازة من القادة المرابطين ، الذين سبق أن ذكرناهم غير مرة فيما تقدم .

ومن المسلم به أن هذه الصفحات من جهاد المرابطين فى سبيل إنقاذ الأندلس والذود عنها ، هى أنصع ما فى تاريخهم من تلك الفترة التى حكموا فيها الأندلس .

على أنه يجب من جهة أخرى ألا نبالغ فى تقدير هذه النزعة الجهادية ، وهذه الصفحة من الجهاد المرابطى فى الأندلس ، فإنه يوجد ثمة مايغشى صفاءها ، وينتقص من عظمتها . ذلك أن المرابطين كانت لديهم بعد نصر الزلاقة الحاسم ، أكثر من فرصة لمهاجمة اسبانيا النصرانية وضربها فى الصميم ، وكان بوسعهم ، لو صدقوا العزم ، وضاعفوا الهمة ، أن يستردوا مدينة طليطلة العظيمة ، قبل أن تنتعش قوى اسبانيا النصرانية من ضربة الزلاقة . ولكنهم لم يبذلوا هذه المحاولة فى وقتها . وقد ناقشنا هذه المسألة فى موضعها عند الكلام على نتائج موقعة الزلاقة .

أجل إن المرابطين ، حاولوا فى بداية عهد على بن يوسف ، استرداد طليطلة ، وهاجموها وحاصروها مرتين ، الأولى فى سنة ٥٠٣ هـ ( ١١٠٩ م ) ، والثانية فى سنة ٥٠٧ هـ ( ١١١٤ م ) ، ولكنهم أخفقوا فى المرتين ، بالرغم مما بذلوه فى كل مرة من الجهود العنيفة . ذلك أن الفرصة كانت قد ولّت ، والوقت قد فات . ولما اضطربت شئون اسبانيا النصرانية بعد ذلك بقليل ، وشغلت بحروبها الأهلية ، لم يكن بوسع المرابطين أن يستغلوا هذه الفرصة ، لما دهمهم بالمغرب من ثورة المهدى ابن تومرت ، وعجزهم عن أن يبعثوا إلى شبه الجزيرة بقوات كبيرة .

وثمة سقطة أخرى تصدع من قيمة جهاد المرابطين بالأندلس ، هى موقفهم من الدفاع عن مدينة سرقسطة . فقد رأينا فيما تقدم ، كيف تخلى المرابطون ، وأميرهم أبو الطاهر تميم بن يوسف ، عن الاستجابة إلى صريخ المدينة المنكوبة ، ورفضوا بذل أية محاولة لإنقاذها ، وآثروا الانسحاب والسلامة ، مع أنهم كانوا يرابطون فى ظاهرها على مقربة من النصارى المحاصرين لها ، وترتب على ذلك أن اضطرت المدينة العظيمة المسلمة إلى التسليم (سنة ٥١٢ هـ) . وتنوه الرواية الإسلامية بما ينطوى عليه هذا الموقف من الجبن والخزى ، وهو موقف كان له أكبر الأثر فى النيل من هيبة المرابطين العسكرية .

أما حكم المرابطين للأندلس ، فإنه يبقى من الناحيتين الإدارية والاجتماعية ، عرضة لكثير من وجوه المؤاخذة والنقد . ومن الواضح أن المرابطين وضعوا الأندلس ، عقب افتتاحها ، تحت حكم عسكرى مطلق ، ونزعوا أبناءها كل سلطة فعلية فى حكم بلادهم ، واحتفظوا للمرابطين بسائر المناصب العليا من ولاية وقيادة ، وبالرغم من أن أولئك الولاة والقادة المرابطين ، كانوا على الأغلب رجالا ، من ذوى الحزم والبراعة العسكرية ، والصفات البدوية النقية ، فإنه كان ينقصهم المرونة والكياسة فى حكم أمة متمدنة كالأمة الأندلسية ، وكانت أساليبهم العنيفة الخشنة فى ذلك ، تجافى ماطبعت عليه الأمة الأندلسية من الأساليب الرفيقة المصقولة . ولم تظهر آثار هذا الحكم المطلق فى صورها البغيضة ، أيام يوسف بن تاشفين ، حيث كانت هيبة البطل المرابطى ، وحزمه وبعد نظره ، وميله إلى تحقيق العدالة ، ورفع المظالم ، تلطف كثيراً من وقع الحكم الحديد ، على الأمة التى كانت تشعر نحوه بشكر الصنيعة . واستطاع ولده علىّ فى أوائل حكمه ، أن يحتفظ بقسط من محبة أهل الأندلس وتقديرهم . وقد كان فى الواقع أميراً صالحاً ، محباً للخير ، يضمر أحسن النيات بالنسبة للأندلس ، والذود عنها ، وبالنسبة لطرائق حكمها ، وذلك حسبما تدل عليه عدة من الرسائل الرسمية ، التى صدرت عن ديوانه فى شئون الأندلس ، والتى وفق البحث أخيراً إلى نشرها ، لتلقى ضوءاً جديداً ، على كثير من النواحى السياسية والنظامية المتعلقة بتاريخ العهد المرابطى فى الأندلس[1] .

---

(١) عنى بتحقيق هذه الرسائل ونشرها الدكتور محمود على مكى فى صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، وذلك عن مخطوط مغربى كان ضمن تركة المرحوم الأستاذ ليڤى بروڤنسال ، وحصل عليه معهد =

ففى إحدى هذه الرسائل ، وهى المؤرخة فى شوال سنة ٥٠٧هـ ، ينوه على ابن يوسف ، بالحركة التى يعدها للجهاد ، وبكونه قد بالغ فى الاحتشاد والاستعداد ، ويؤكد لمن وجهت إليهم الرسالة ، إخلاص نيته ، وصدق حميته « فى نصر دين الإسلام ، ومنع جانبه أن يضام ، أو يناله من عدوه اهتضام »[١]. وفى رسالة أخرى ، وهى التى يشير فيها إلى ما عرضه عليه القاضى أبو الوليد ابن رشد ، عن شئون الأندلس ( والمرجح أنها وجهت أوائل سنة ٥٢٠ هـ ) يبدى على عطفه وإشفاقه على الأندلس ، ويؤكد أنه لن يدخر وسعاً « فى الذود عن حوزة الملة »[٢] . وتوجد ثمة رسائل أخرى ، تنم عن يقظة الأمير واهتمامه بشئون الأندلس ، وتنبهه لما يدبره أعداؤها ضدها[٣] . وإلى جانب ذلك توجد عدة رسائل تنم عن صفة الحكم المرابطى وطبيعته الدكتاتورية المطلقة . من ذلك ما ورد فى الرسالتين السادسة والسابعة ، من حث الأمير على طاعة الحاكم ، واعتباره فى كل ما يصدر عنه متحكم باسمه ، ومنفذ لرأيه[٤] ، لبس لأحد معه فى ذلك من يد ، ولا مصدر ولا مورد ، « قد فوضنا إليه ذلك كله ، وأفردناه النظر فى دقه وجله ، وكثره وقله ، وحكمناه فى جميعكم ، يثيب من استحق الثواب ، ويعاقب من استحق العقاب »[٥] ، وكذا فى الرسالة الثالثة عشرة ، وهى الصادرة فى شهر المحرم سنة ٥٠٠ هـ ، ولعلها أول رسالة وجهها على بن يوسف عقب توليه الملك ، وفيها يوصى بالطاعة والولاء للوالى أبى محمد ابن فاطمة « ما أمركم به أتيتموه ، وما نهاكم عنه تركتموه »[٦] .

بيد أنه توجد طائفة أخرى من هذه الرسائل ، تدل على أن الأمير كان يعنى فى نفس الوقت بالعمل على تجنب الاستبداد ، واتباع الشورى ، وعدم الاستئثار بالرأى . وهذا ما يوصى به ولده أبا بكر فى الرسالة التى يوجهها إليه بتاريخ

= الدراسات الإسلامية ، وقد نشرت بالمجلدين السابع والثامن فى الصحيفة المذكورة ، تحت عنوان « وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين » ( ص ١٠٩ — ١٩٨ ) .

( ١ ) صحيفة معهد الدراسات الإسلامية ( المجلد المشار إليه ص ١٦٨ ) .

( ٢ ) صحيفة معهد الدراسات الإسلامية ( المجلد السالف ) ص ١٦٧ .

( ٣ ) راجع بالأخص الرسالة الثانية عشرة ( ص ١٨٠ و١٨١ ) .

( ٤ ) راجع الرسالة السادسة ص ١٧٥ .

( ٥ ) راجع الرسالة السابعة ص ١٧٦ .

( ٦ ) الرسالة الثالثة عشرة ص ١٨٢ .

صفر سنة ٥٢٠ هـ ، بمناسبة تعيينه قائداً عاما للجيوش المرابطية بالأندلس(١).
وثمة رسالة موجهة من الأمير إلى محمد بن فاطمة ، يحثه فيها على أن يستعمل من العمال ، من يتبع الرفق والعدل ، وأن يعزل منهم من ينحرف عن الأحكام ومن يأخذ أموال الرعية ظاماً ، وأن يعاقبه على ذلك ويلزمه برد ما أخذ(٢).

هذا وتوجد ثمة رسالة هامة ، تدل على عناية علىّ بأمر القضاء ، وحسن تنظيمه ، وبإقامة العدل واستتبابه ، وهى رسالة موجهة منه إلى الوحيدى قاضى مالقة ، فى شهر ذى الحجة سنة ٥٢٣ هـ ، وذلك على أثر ما قام بعض المرافعين ( المتقاضين ) من السفر إلى مراكش ، والتظلم لدى الأمير ، وفيها يعرف موضوع القضاء بأنه « رفع المشكلات ، وتمييز الحقائق من المتشابهات والفصل بعد التبرم فى الدعاوى والمنازعات » ، ويطلب أن تنظر « شكاوى العامة فى اللطيف والجليل » ، وأن يجرى التعرف على شئون الرعية ، وأن يجرى الحق فى كل ما رفع من أحوالها ، وما وقع فيه التظلم من عمالها ، وأن الأمر فى ذلك معلق على حسن اختيار النواب فى الأقطار ، وأنه يجب أن يتوفر فى هؤلاء « الثقة والديانة والصون والأمانة » ، فإذا وقع من أحدهم تعد أو جور ، كان له أن يطلب عزله إلى الحاكم الذى يتبعه ، فإن توانى فى ذلك ، فله أن يرفع الأمر إلى الأمير مباشرة . وفى الرسالة بعد ذلك حث على تحصيل الزكوات ، على تباين أنواعها ، وموجب فريضتها دون تحريف ولا تبديل(٣).

هذا مجمل ما تدلى به هذه المجموعة من الرسائل المرابطية : فهى من جهة تدلى بما كانت تنطوى عليه نفس أمير المسلمين من نيات صادقة فى الأخذ بيد الأندلس، والذود عنها ، وتدلى من جهة أخرى بما كانت تحرص عليه الحكومة المرابطية من جمع سائر السلطات بين يديها .

وكان الحجر على حرية الفكر من أسوأ صور الحكم المرابطى المطلق . ونحن نعرف ما عمد إليه أمير المسلمين على بن يوسف ، بتحريض فقهائه ، من مطاردة كتب الأصول ، وفى مقدمتها كتب الإمام الغزالى ، ولاسيما كتاب « إحياء علوم الدين » ( سنة ٥٠٧ هـ ) . وقد لبثت هذه المطاردة طوال العهد المرابطى،

---

( ١ ) راجع الرسالة الثالثة ص ١٦٩ .
( ٢ ) الرسالة الخامسة عشرة ص ١٨٣ و١٨٤ .
( ٣ ) تراجع هذه الرسالة الهامة وهى الرابعة من المجموعة فى ص ١٧٠ – ١٧٤ .

فنرى مثلا فى الرسالة التى وجهها أمير المسلمين تاشفين بن على بن يوسف، إلى فقهاء بلنسية وأعيانها وأهلها، فى جمادى الأولى سنة ٥٣٨هـ، إلى جانب ما تحض عليه من وجوب الرفق بالرعية، وإجراء العدل، وتحقيق المساواة بين الناس، والأخذ بمذهب مالك، دون غيره، فى الفتيا وسائر الأحكام، حثاً على مطاردة كتب البدعة، «وخاصة كتب أبى حامد الغزالى»، وأنه يجب «أن يتتبع أثرها، ويقطع بالحرق المتتابع خبرها، ويبحث عليها، وتغلظ الأيمان على من يتهم بكتمانها»(١).

ومن الواضح أن هذه المطاردة الفكرية لم تكن تقف عند كتب الأصول وكتب الغزالى، ولكنها كانت تشمل سائر المصنفات الكلامية والفلسفية، التى تنكرها التعاليم المرابطية، وغيرها مما تصفه الرسالة «بكتب البدعة». وكان من ضحايا هذه المطاردة، عدة من المفكرين الأندلسيين، ومنهم العلامة الصوفى أبو العباس أحمد بن محمد الصنهاجى الأندلسى المعروف بابن العريف، حيث نفاه أمير المسلمين على بن يوسف من بلده ألمرية إلى مراكش(٢).

ثم إنه يبدو من جهة أخرى أن الحكام المرابطين بالأندلس، لم يبدو حزماً كافياً فى قمع طغيان الجند والعبيد التابعين لهم، وأن هؤلاء كانوا يرتكبون ضد أبناء الشعب الآمنين، ضروباً مثيرة من التعدى والأذى. وهذا ما يسجله لنا وزير وكاتب أندلسى كبير معاصر، هو أبو محمد عبد المجيد بن عبدون، المتوفى سنة ٥٢٠هـ، (١١٢٦م) وقد كان من كتاب الأندلس الذين خدموا فى بلاط على بن يوسف، يسجله لنا فى رسالته التى وضعها عن القضاء والحسبة، حيث يقول عند «ذكر المرابطين»:

«يجب ألا يُلثم إلاّ صنهاجى أو لمتونى أو لمطى، فإن الحشم والعبيد ومن لا يجب أن يُلثم، يلثمون على الناس ويهيبونهم، ويأتون أبواباً من الفجور كثيرة، بسبب اللثام، وهمّاً، ويكلم فى ذلك مع السلطان، فإنهم عتاة. ويمتاز بذلك من عسى أن يُكرم أو يُوقر، أو تُقضى له حاجة من المرابطين، لأن العبيد

(١) وردت هذه الرسالة فى المخطوط رقم ٥٣٨ الغزيرى بالإسكوريال وقام بنشرها الدكتور حسين مؤنس ضمن مجموع النصوص السياسية المرابطية، وذلك فى مجلة المعهد المصرى بمدريد (العدد الثالث سنة ١٩٥٥) ص ١١٠ — ١١٣. وقد نشرناها نحن فى باب الوثائق.

(٢) راجع فى ترجمة ابن العريف ابن خلكان ج ١ ص ٦٧، والصلة لابن بشكوال (القاهرة) الترجمة رقم ١٧٦.

أو الحشم إذا تلثم وغيّر شكله ، حسبته رجلا مثيلا ، فتجرى إلى برّه وإكرامه ، وهو لايتأهل لذلك . يجب ألا يمشى أحد فى المدينة[١] بسلاح ، فإن ذلك داعية إلى الفساد ، ولاسيما البربر ، فإنهم قوم إذا غضبوا ، قتلوا أو جرحوا .

عبيد المرابطين إن تلثموا ، فتكون علامة يعرفون بها ، مثل أن يتلمثوا بخمار أو بمئزر وشبه ذلك . وكذلك الحشم والأتباع ، يكون شكلهم غير شكل المرابطين ، وهذا أحسن إن قُدر عليه ، وفيه منافع كثيرة . يجب أن يُحمل مكان السلاح التى يحبسونها ، إما أسواط لدوابهم ، وإما أقزال ، وهو الرمح الصغير »[٢].

فهذه الأقوال ، تدل على أن طوائف الحشم والعبيد التابعة للحكام والسادة المرابطين ، كانت تعتدى على الناس ، وتعبث بالأمن ، تحت ستار اللثام الوهمى . كما تدل على أن الجند البربر كانوا يتسمون بالنزق وتوتر الأعصاب ، مما يدفعهم إلى القتل والجرح بسهولة ودون تحوط .

وكذلك ليس ثمة شك فى أن الحكم المرابطى بالأندلس ، أخذت تشتد وطأته شيئاً فشيئاً ، ولاسيما مذ بدأ اضطراب أحوال الدولة المرابطية بالمغرب ، على أثر ظهور المهدى ابن تومرت ، واشتداد حركته فى أواخر عهد على بن يوسف ، وعمد الحكام المرابطون عندئذ إلى تشديد قبضتهم فى مختلف القواعد ، واشتدوا فى معاملة الأندلسيين ، وكانت بوادر الخصومة والجفاء ، قد ظهرت قبل ذلك بين الفريقين ، وكان أخص مظاهرها ثورة قرطبة التى اضطرمت ضد المرابطين منذ سنة ٥١٤ ﻫ ، ودلت بعنفها على حالة الأندلسيين النفسية ، وما يضمرونه من بغض للحكم المرابطى ووسائله . وكان انشغال حكومة مراكش بحركة المهدى ، وتضاؤل رقابتها ، على شئون الأندلس ، عاملا له أثره فى ازدياد مثالب الحكم المرابطى بالأندلس ، وترك حبله على الغارب ، إلى الحكام المحليين ، وكان من أثر ذلك أن ازداد سخط الشعب الأندلسى وحفيظته ، وشعوره باقتراب الفرصة السانحة ، للتحرر من نير حكم أجنبى ، أضحى يرهقه ، وأضحى يتوق هو إلى تحطيمه .

ونحسب أننا بهذا الاستعراض الموجز لظروف الحكم المرابطى وأحواله

---

(١) وهو يقصد هنا مدينة إشبيلية ، حسبما يبدو من سياق ما سبق .

(٢) رسالة ابن عبدون فى القضاء والحسبة المنشورة بعناية الأستاذ ليڤى بروڤنسال ص ٢٨ .

بالأندلس ، قد أوضحنا ما ينطوى عليه هذا الحكم من مختلف نواحيه الحسنة والسيئة . وإذا كانت حسنات الحكم المرابطى تتلخص قبل كل شىء فى أعمال الجهاد التى اقترنت بحقبته الأولى ، فإن مثالبه تتلخص فى استئثار المرابطين بالسلطان ، وفرضهم على الأندلس حكم طغيان مطاق ، شديد الوطأة ، لم تألفه الأمة الأندلسية ، ويزيد من وطأته عدوان الجند والعبيد ، ثم حجرهم على العقائد والفكر . بيد أنه يبقى من المبالغة والتحامل ، أن يقال إنه بقيام الحكم المرابطى بالأندلس « قد حلت البربرية مكان التمدن ، وحل التخريف مكان الذكاء ، وحل التعصب مكان التسامح »(١). ذلك أن مثل هذا الحكم الدامغ ، لايسوغ إصداره عن عصر كالعصر المرابطى ، تتراوح أحواله وظروفه بين مختلف الظواهر اللامعة والقاتمة . وإذا كان المرابطون ، ينتمون إلى القبائل البربرية البدوية ، فقد كانوا على بداوتهم وتقشفهم يتمتعون بكثير من الفضائل والخلال الحسنة ، من الشجاعة والفروسة والورع ، والتعلق بالجهاد فى سبيل الله ، وقد أتيح لهم بهذه الفضائل ، أن يشيدوا دولة من أعظم الدول التى قامت فى الغرب الإسلامى ، وإن لم يتح لهم أن يشيدوا مدنية خاصة . أجل لقد فقد المرابطون بتعصبهم الجنسى ، وتزمتهم الدينى ، حب الشعب الأندلسى ، ولكنهم لم يحاولوا تغيير أساليبه فى الحياة الخاصة ، ولم يحاولوا وقف تيار الحركة الفكرية والأدبية ، بل بالعكس حاولوا أن يوجهوها لمعاونتهم وخدمة قضيتهم ، فكان معظم وزراء الدولة المرابطية وكتابها ، منذ البداية ، من أكابر كتاب الأندلس وأدبائها ، وكان بلاط مراكش البربرى ، يصدر كتبه ومراسيمه لأهل الأندلس ، مدبجة بأقلام أقطاب البلاغة فى ذلك العصر ، مثل أبى بكر بن القصيرة ، وأبى القاسم بن الجد ، وأبى محمد عبد المجيد بن عبدون ، وأبى عبد الله بن أبى الخصال ، وغيرهم . وإذن فإنه يكون من التعسف المحض أن يقال إنه بقيام الحكم المرابطى بالأندلس « قد حلت البربرية مكان التمدن » .

ويقول الأستاذ كوديرا معلقاً على ذلك : « إن ذلك لم يحدث بأى حال . فإن حياة المسلمين الإسبان سارت كما كانت تسير حتى يومئذ . وإنه ليمكن أن نتحدى أى شخص يقوم بدراسة سير الشخصيات التى تضمها معاجم التراجم ، وأن يجد فيها خلافاً فى طريقة تكوين الأدباء ، أو بعبارة أخرى ، فإن رجال

(١) راجع أقوال دوزى السالفة الذكر .

الأدب حتى عصر الطوائف ومن بعده ، كانوا يدرسون ما يشاءون ، ومع الأساتذة الذين يختارونهم ، إذ كان التعليم بين المسلمين حراً تماما ، إلا فى العصور الأخيرة .

« فنى تراجم الشخصيات الكثيرة التى تبدو فى ذلك العصر ، ومعظمهم من المسلمين الإسبان ، وقليل منهم من المرابطين ، لانجد شيئاً أو نجد قليلا مما يدل على حدوث تغيير . وإن أولئك الذين عرفوا حكومات الطوائف ، رأوا أنفسهم مرغمين أن يغيروا طريقة حياتهم ، ورأى رجال البطانة المداهنون والعاطلون ، أن التغيير سوف يسوءهم ، إذا لم يملقوا السادة الجدد ، بيد أن ذلك يحدث دائماً حينما يتغير أهل السلطان »[1].

— ٣ —

وإنه ليبدو من الصعب أن نقدم صورة واضحة عن حياة الشعبين المغربى والأندلسى ، فى العهد المرابطى . بيد أننا نستطيع على ضوء بعض الإشارات القليلة التى انتهت إلينا ، أن نعرف عن هذه الحياة بعض الشىء .

ومن المعروف أن العهد المرابطى لم يطل بالأندلس أكثر من أربعين عاما ، وهو قد بدأ بالمغرب قبل ذلك بنحو عشرين عاما ، فالدولة المرابطية لم تعش فى حالة انتظام واستقرار ، أكثر من جيلين ، هما عصر يوسف بن تاشفين ، وعصر ولده على ، وحتى فترة الاستقرار فى عهد على لم تطل ، ومذ ظهر محمد ابن تومرت ، فى سنة ٥١٥ هـ ، تضطرب أحوال الدولة المرابطية بالمغرب ، ثم تسوء شيئاً فشيئاً ، حتى تنتهى بالانهيار .

فى خلال تلك الفترة القصيرة — فترة الاستقرار — مذ أتم يوسف بن تاشفين فتوح المغرب ، والتغلب على سائر الإمارات والقبائل الخصيمة ، وتأسيس مدينة مراكش ، تجوز الأمة المغربية فترة سكينة ورخاء ، بعد أن هدأت فترة الحروب الأهلية ، وأقبل الناس على الأعمال السلمية . وتمتعت الأندلس ، منذ الزلاّقة ، ثم بعد ذلك مذ سقطت دول الطوائف ، بمثل هذه الفترة من السكينة والرخاء . وكانت الأمة الأندلسية ، أيام الطوائف ، تعانى من حكم أولئك الطغاة الأصاغر ، كثيراً من ضروب الظلم والإرهاق ، ولاتكاد تفيق من الحروب الأهلية التى يشهرها أولئك الأمراء كل على الآخر ، والغزوات المتوالية التى

(١) F. Codera . Decad. y Desp. de los Almoràvides p. 199 & 200

كان يشهرها النصارى ، والتى كانت تعصف بوديانها النضرة ، وتبث إليها الخراب والجدب . فلما قضى المرابطون على دول الطوائف ، ووضعوا حداً مؤقتاً لعدوان النصارى ، ولما شغلت اسبانيا النصرانية ، بحروبها الأهلية ، عقب وفاة ألفونسو السادس ، استطاعت الأمة الأندلسية ، أن تتنفس الصعداء ، وأن تستأنف نوعاً من حياة السلم والدعة . وهنالك مايدل أيضاً على أنها تحررت فى ظل العهد المرابطى ، أو على الأقل فى نصفه الأول ، من كثير من المكوس والمغارم الظالمة ، التى كانت تفرض عليها أيام الطوائف ، لتغذية قصور أولئك الطغاة الأصاغر ، بما كانت تنعم به من ضروب الإسراف والبذخ .

على ضوء هذه القرائن والظروف ، نستطيع أن نقول إن الأمة الأندلسية ، كانت فى أعوام يوسف بن تاشفين الأخيرة ، وفى أوائل عهد ولده على ، تتمتع بفترة من السكينة والرخاء ، لم تعرفها منذ أيام الدولة العامرية ، وقبل انهيار الخلافة الأندلسية . وإذا استثنينا ما فرضه المرابطون على الحياة العقلية ، وعلى الطبقة المفكرة ، من ضروب الحجر ، فإنه يبدو أن طبقات الشعب العادية ، كانت تشعر بتحسن مادى فى حياتها ، وكانت بعد أن خفت عنها وطأة الأعباء المالية والعسكرية ، بعد اضطلاع المرابطين بشئون الجهاد والدفاع ، تستطيع أن تنصرف إلى الأعمال السلمية ، وإلى تحصيل أرزاقها وأقواتها ، فى هدوء وسلام ، وأن تتمتع من جراء ذلك بشىء من الرخاء الذى كان ينقصها من قبل .

ومن ثم فإنه يسوغ لنا ، بالرغم مما يمكن أن ينسب إلى الحكم المرابطى من صفات العسف والطغيان ، أن نصف العهد المرابطى ، بأنه كان بالنسبة للأمة الأندلسية عهد استقرار نسبى ، تمتعت فيه بنوع من الدعة والرخاء . وهذا ما يؤيده قول المؤرخ معلقاً على حكم أمير المسلمين يوسف بن تاشفين : « أقامت بلاد الأندلس فى مدته سعيدة حميدة ، فى رفاهية عيش ، وعلى أحسن حال ، لم تزل موفورة محفوظة إلى حين وفاته »[١] .

ومن جهة أخرى ، فإنه ليس ثمة ريب فى أن المغرب ، كان يتمتع بمثل هذا الرخاء والدعة ، فى عهد يوسف بن تاشفين ، وأوائل عهد ولده على ، أعنى قبل أن تضطرب أحواله من جراء ثورة ابن تومرت . وإنه ليكفى أن نستعرض ما كان عليه المغرب ، فى أواسط القرن الخامس الهجرى قبل قيام

---

(١) الحلل الموشية ص ٥٩ .

الدولة المرابطية بقليل ، من ضروب التفكك والفوضى ، والحروب الأهلية المتوالية ، لندرك أن قيام الدولة المرابطية كان بالنسبة للمغرب نوعاً من الإنقاذ القومى ، وأن الأمة المغربية استطاعت أن تعيش فى ظل الحكم المرابطى ، عزيزة الجانب ، موحدة الكلمة ، وأن تتمتع بكثير من الأمن والرخاء ، وأن تتحرر من كثير من المظالم ، وضروب الفوضى ، التى كانت تعانيها من قبل . ولدينا ما يؤيد ذلك من النصوص الصريحة . فمن ذلك ما ينقله إلينا صاحب روض القرطاس عن ابن جنّون وهو ما سبق أن اقتبسنا بعضه :

« كانت لمتونة أهل ديانة ونية صادقة خالصة ، وصحة مذهب . وكانت أيامهم أيام دعة ورفاهية ورخاء متصل ، وعافية وأمن ، تناهى القمح فى أيامهم إلى أن يباع أربع أوسق بنصف مثقال ، والتامر ثمان وأسق بنصف مثقال ، والقطانى لاتباع ولا تشترى . كان ذلك مصطحباً بطول أيامهم ، ولم يكن فى بلد من أعمالهم خراج ، ولا معونة ، ولا تقسيط ، ولا وظيفة من الوظائف المخزنية حاشا الزكاة والعشر . وكثرت الخيرات فى دولتهم ، وعمرت البلاد ، ووقعت الغبطة . ولم يكن فى أيامهم نفاق ولا قطاع ، ولا من يقوم عليهم ، وأحبهم الناس ، إلى أن خرج عليهم مهدى الموحدين فى سنة خمس عشرة وخمس مائة »(١) .

ومن الواضح أن ذلك كله ينصرف إلى عهد يوسف بن تاشفين وأوائل عهد ولده على . فلما اضطربت الأمور عقب قيام حركة المهدى ابن تومرت تبدلت الأحوال ، وغلبت الفوضى ، وكثر الفساد ، وغاض الأمن والرخاء ، على نحو ما يحدثنا المراكشى فى قوله ، إنه فى آخر عهد على « ظهرت مناكر كثيرة ، وفواحش شنيعة ، من استيلاء النساء على الأحوال ، واستبدادهن بالأمور ، وكان كل شرير من لص أو قاطع طريق ، ينتسب إلى امرأة قد جعلها له ملجأ وزراً على ما تقدم »(٢) . ومهما يكن من مبالغة فى هذا التصوير ، فإن الذى لاريب فيه هو أن حركة المهدى ابن تومرت كانت ضربة قاضية ، لكل ما حملته الدولة المرابطية إلى المغرب من أسباب الاستقرار والأمن والرخاء ، وأن المغرب لبث خلال المعركة التى اضطرمت بين المرابطين والموحدين ، يعانى كثيراً من أسباب الاضطراب والفوضى ، إلى أن تم الظفر للموحدين . وتوطدت دعائم الدولة الجديدة .

---

(١) روض القرطاس ص ١٠٨ .
(٢) المعجب ص ١٠٣ .

# الفصل الثانى

# الحركة الفكرية الأندلسية

## خلال العهد المرابطى

## القسم الأول

المرابطون والحركة الفكرية . إزدهار التفكير الأندلسى أيام الطوائف ، احتفاظه بنشاطه أيام المرابطين. رعاية الدولة المرابطية لكتاب الأندلس . استخدامهم فى البلاط المرابطى . أبو بكر بن القصيرة . بنو القبطرنة . ابن عبدون . ابن الجد الفهرى . أبو عبد الله بن أبى الخصال ، أدبه ونثره وشعره . أبو جعفر بن عطية . ابن خاقان . ابن الصيرفى . أخيل بن إدريس . على بن عبد العزيز الأنصارى . الحركة الفكرية فى ظل المرابطين امتداد لها منذ الطوائف . العلماء والأدباء والشعراء فى هذه الفترة . أبو عبد الرحمن بن طاهر . رسالة الكافية . مروان بن عبد العزيز وشعره . أبو جعفر الوقشى . تنويه ابن الأبار بمكانته . شىء من شعره . ابن الأزرق . على بن أحمد الشلطيشى . على بن مسعود الخولانى . الأدباء المؤرخون . ابن بسام الشنترينى وكتابه الذخيرة . الحجارى صاحب المسهب . أبو محمد عبد الله الرشاطى. أبو عامر الطرطوشى . أبو بكر الشلبى . أبو القاسم بن بشكوال . بعض الشعراء المتخصصين . أحمد بن عبد الملك بن سعيد. محمد بن عبد الرحمن العقيلى . ابن سيد اللص . أمير الزجل أبو بكر بن قزمان .

لم يطل عهد المرابطين بالأندلس أكثر من نصف قرن ، أنفق معظمه فى أعمال الجهاد ، ومدافعة النصارى . ولم تكن الدولة المرابطية ، سواء بالمغرب أو الأندلس ، سوى دولة دينية عسكرية قبل كل شىء ، ولم تكن بطبيعتها البدوية الخشنة ، تميل إلى الأخذ بأساليب التمدن الرفيعة ، أو تتجه إلى رعاية العلوم والآداب ، أو أن عهدها القصير لم يفسح لها مجالا للأخذ بمثل هذه الأساليب ، وبذل مثل هذه الرعاية ، ومن ثم فإنه يمكن القول ، بأن الحركة الفكرية ، بالأندلس ، لبثت خلال العهد المرابطى ، فى حالة ركود نسبى ، ولم تحظ باندفاع خاص ، أو بازدهار يلفت النظر ، بل يمكن أن يقال أيضاً ، إن ما عمدت إليه الحكومة المرابطية من مطاردة البحوث الكلامية والفلسفية ، كان له أثره فى صد الحركة الفكرية ، وفى تأخرها .

بيد أنه يجب ألا ننسى ، أن الحركة الفكرية بالأندلس ، كانت فى عهد دول الطوائف ، وقبل مقدم المرابطين ، تجوز حركة اندفاع قوى ، وأن العلوم

والآداب قد ازدهرت فى ظل قصور الطوائف ، ورعاية ملوكها ، ازدهاراً يدعوا إلى الإعجاب ، وإذاً فقد كان من الطبيعى . أن يستمر هذا الاندفاع وقتاً آخر قبل أن يخبو ، وأن تحتفظ الحركة الفكرية بقوتها مدى حين ، وذلك بالرغم مما فقدته فى ظل العهد الجديد — العهد المرابطى — من عوامل الرعاية والتشجيع ، التى كانت تغذيها أيام الطوائف .

وهذا ما يمكن أن نفسر به تلك الظاهرة ، وهى أن الحركة العلمية والأدبية بالأندلس ، لبثت خلال العهد المرابطى ، تحتفظ بكثير مما كان لها أيام الطوائف من قوة وحيوية ، وأن النصف الأول من القرن السادس الهجرى ، وهو الذى يستغرق عهد المرابطين ، يحفل بجمهرة كبيرة من رجال العلم والأدب ، ومنهم بعض الأقطاب البارزين .

ثم إنه يجب ألا ننسى إلى جانب ذلك ، أن الدولة المرابطية ، قد بذلت رعايتها لطائفة كبيرة من العلماء والأدباء الأندلسيين ، واستخدم بلاط مراكش ، والأمراء والحكام المرابطون بالأندلس ، كثيراً منهم فى مناصب الوزارة والكتابة ، أسوة بما كانت تجرى عليه قصور الطوائف من حشد أعلام التفكير والبلاغة بها ، ليزدان بهم بلاط الأمير ، وليكونوا لسانه البليغ فى تدبيج الأوامر والمراسيم ، وفى مخاطبة الكافة . بيد أنه مما تجب ملاحظته ، هو أن الدولة المرابطية ، إذا كانت فى حاجة لأن تستخدم كتاب الأندلس البلغاء ، للإعراب عن رغباتها ومخاطباتها ، فإنها لم تكن تعنى بأمر الشعر أو تقدره قدره ، ولم يستهوها رنينه وروعته ، اللهم إلا فى أواخر عهدها ، حيث بدأ الشعراء ينظمون مدائحهم لعلى بن يوسف وولده تاشفين ، ومما يذكر فى ذلك ما لاحظه الشقندى فى رسالته عن يوسف بن تاشفين من أنه « لولا توسط ابن عباد لشعراء الأندلس فى مدحه ، ما أجروا له ذكراً ، ولا رفعوا لملكه قدراً ، وأنه حينما أنشده الشعراء مدائحهم سأله المعتمد أيعلم أمير المسلمين ما قالوه ، قال لا أعلم ، ولكنهم يطلبون الخبر »(١) .

وسنحاول فى هذا الفصل ، أن نستعرض تلك الجمهرة من العلماء والأدباء الأندلسيين ، الذين ظهروا فى تلك الفترة القصيرة — فترة العصر المرابطى — ويأتى فى مقدمة هؤلاء تلك الصفوة من الكتاب والأدباء ، الذين ظهروا فى أواخر عهد

---

(١) راجع رسالة الشقندى فى فضائل الأندلس ، وقد نشرها المقرى فى نفح الطيب ( القاهرة ، ج ٢ ص ١٤٠ ) .

الطوائف ، واستدعتهم الدولة المرابطية لخدماتها ، بعد أن زالت قصور الطوائف ، وأصبحت الأندلس جزءاً من الإمبراطورية المرابطية الكبرى .

— ١ —

بدأ استخدام البلاط المرابطي للكتاب الأندلسيين ، منذ عهد يوسف بن تاشفين ذاته ، فكان كاتبه قبل أن يعبر إلى شبه الجزيرة ، أديب أندلسي من أهل المرية ، هو عبد الرحمن بن أسباط ، حسبما أشرنا إلى ذلك في موضعه . فلما توفي سنة ٤٨٧ هـ ، وكان يوسف قد افتتح ممالك الطوائف يومئذ ، خلفه في منصب الكتابة ، كاتب من أعظم كتاب الأندلس يومئذ ، هو محمد بن سليمان الكلاعي الإشبيلي ، ويكنى أبا بكر ، ويعرف بابن القصيرة . فكان مثوله في البلاط المرابطي بداية لاحتشاد أعلام الكتابة الأندلسيين للخدمة فيه . وكان ابن القصيرة من وزراء بني عباد وكتابهم ، خدم المعتضد ثم ولده المعتمد ، وحظى لديه حتى غدا في أواخر عهده أعظم وزرائه نفوذاً وسلطانا . ولما تحرجت الأمور ، واشتد ألفونسو السادس ملك قشتالة في إرهاق الطوائف ، كان ابن القصيرة ضمن سفراء الأندلس ، الذين وفدوا إلى المغرب ، لطلب الإنجاد والغوث من يوسف بن تاشفين . ولما استولى يوسف على دول الطوائف ، اعتزل ابن القصيرة وقتاً حتى استدعاه يوسف لكتابته ، حسبما تقدم . وكان ابن القصيرة كاتباً بليغاً مبدعاً ، ويصفه ابن الصيرفي بقوله « الوزير الكاتب الناظم ، الناثر ، القائم بعمود الكتابة ، والحامل للواء البلاغة ، اجتمع له براعة النثر وجزالة النظم » . ويصفه ابن بشكوال في الصلة بأنه « كان من أهل الأدب البارع ، والتفنن في أنواع العلم » . وقد انتهت إلينا من آثار ابن القصيرة المنثورة ، قطع عديدة ، منها أولا نص المرسوم الصادر عن يوسف ابن تاشفين بإسناد ولاية العهد لولده ، علي ، وهو مدبج بقلمه ، وقد أوردناه من قبل في موضعه ، ورسائل مختلفة أوردها لنا صاحب القلائد ، وهي جميعاً تدل على قوة أسلوبه ، وروعة بيانه . وكان ابن القصيرة شاعراً جزلا في نفس الوقت ، وقد أورد لنا ابن الخطيب من شعره قصيدة في هجو ابن ذي النون ، ومدح ابن عباد حينما استولى على قرطبة . وتوفي ابن القصيرة في جمادى الآخرة سنة ٥٠٨ هـ ( ١١١٤ م )[1]

---

(١) راجع في ترجمة ابن القصيرة . الصلة لابن بشكوال ( القاهرة ) رقم ١٢٥٣ ، وقلائد العقيان ص ١٠٤ — ١٠٦ ، والإحاطة في مخطوط الإسكوريال السالف ذكره لوحة ٦٤ و ٦٥ .

واحتشد فى البلاط المرابطى إلى جانب ابن القصيرة ، عدة من أعلام الكتاب وأئمة البلاغة فى ذلك العصر ، منهم بنو القبطرنة وهم أبو بكر بن عبد العزيز البطليوسى ، وأخواه أبو الحسن وأبو محمد ، وقد كانوا من أهل بطليوس ، ومن كتاب دوله بنى الأفطس ، وقد كتب ثلاثتهم بعد ذهابها عن أمير السلمين على ابن يوسف ، وكانوا جميعاً من أكابر الكتاب والشعراء . وكان أبو بكر المتوفى سنة ٥٢٠ هـ ( ١١٢٦ م ) فيما يبدو عميدهم فى النباهة والبلاغة ، أو حسبما يصفه ابن بسام « علم بردهم ، وواسطة عقدهم » . وقد ذكرهم صاحب القلائد ، وأورد لنا طرفاً من منظومهم ومنثورهم ، وكذا ابن الخطيب فى الإحاطة ، وابن سعيد فى المغرب[١] .

ومنهم وزير بنى الأفطس وكاتبهم وصاحب مرثيتهم الغراء ، أبو محمد عبد المجيد بن عبدون ، المتوفى سنة ٥٢٠ هـ ( ١١٢٦ م ) ، وقد سبق أن أتينا على ترجمته فى « دول الطوائف »[٢] .

وأبو القاسم محمد بن عبد الله بن الجدّ الفهرى ، وهو من أهل لبلة ، برع فى الفقه والأدب ، وسكن إشبيلية ، وخدم فى بداية أمره دولة بنى عباد . ولما ذهبت دولتهم ، تولى خطة الإفتاء بلبلة ، ثم استُدعى للكتابة فى بلاط على ابن يوسف ، واستمر فى منصبه حتى توفى فى سنة ٥١٥هـ . وقد أورد لنا صاحب القلائد طرفاً من نظمه ورسائله ، ومنها رسالة عن أمير المسلمين إلى أهل سبتة ، بولاية الأمير يحي بن أبى بكر الصحراوى لفاس وسبتة ، ورسالة إلى أبى محمد عبد الله بن فاطمة والى إشبيلية ، يدعوه فيها إلى التزام الحق واتباع العدل ، والرفق بالرعية ، ورسالة إلى أهل إشبيلية يحثهم فيها على نبذ الشقاق والتطاحن[٣] .

وكان منهم أخيراً ، أبو عبد الله بن أبى الخصال ، وأخوه أبو مروان عبد الملك . وأبو عبد الله هو محمد بن مسعود بن خلصة ، ابن أبى الخصال الغافقى ، أصله من كورة جيان ، من أهل شقورة ، ولد فى سنة ٤٦٥ هـ ، وسكن قرطبة وغرناطة ، وبرع فى الحديث وعلوم اللغة والسير ، وبرع فى الكتابة والنظم ،

(١) راجع قلائد العقيان ص ١٤٨ — ١٥٥ ، والإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٥٢٨ — ٥٣١ ، والمغرب فى حلى المغرب ج ١ ص ٣٦٧ و٣٦٨ .

(٢) راجع كتابنا دول الطوائف ص ٤١١ .

(٣) ترجم ابن بشكوال لابن الجد فى الصلة ( القاهرة ) رقم ١٢٦٧ ، وقلائد العقيان ص ١٠٩ — ١١٥ .

حتى نعت بإمام البلاغة ، ووصفه ابن بشكوال بأنه « كان مفخرة وقته ، وجمال جماعته » . وقال أبو القاسم الملاّحى لم يكن فى عصره مثله . اتصل برجال الدولة اللمتونية ، وتولى الوزارة والكتابة لعلى بن يوسف . وحظى لديه ، حتى غدا أنبه كتابه ، وأعلاهم مكانة ، وآثرهم لديه ، وكان يعاونه فى ديوان الكتابة أخوه أبو مروان عبدالملك . وصدرت بقلم ابن أبى الخصال عن على بن يوسف رسائل كثيرة فى مختلف الأغراض ، وانتهى إلينا الكثير منها ، وهى تدل جميعاً على روعة أسلوبه وفيض بلاغته ، واستمر على مكانه فى البلاط المرابطى ، حتى صدرت عنه بأمر على بن يوسف رسالة موجهة الى الجند المرابطين ببلنسية ، يلومهم فيها على تخاذلهم أمام العدو ، فجاءت رسالة قاسية تفيض بالسباب المقذع ، والطعن المهين(١) ، فكانت سبباً فى الوحشة بينه وبين الأمير ، وترتب على ذلك أن استعفى أبو عبد الله من منصبه ، فأعفاه على بن يوسف ، وعاد إلى قرطبة ، ثم توفى بها بعد قليل فى شهر ذى الحجة سنة ٥٤٠ هـ ( ١١٤٦ م ) ، وتوفى أخوه عبد الملك قبله بمراكش فى سنة ٥٣٩ هـ(٢) .

وقد كتب أبو عبد الله بن أبى الخصال عدة مؤلفات قيمة منها كتاب « سراج الأدب » الذى صنفه على طريقة كتاب النوادر لأبى على القالى ، وزهر الآداب للحصرى ، وكتاب « ظل الغمامة وطوق الحمامة » ، وهو فى مناقب الصحابة . وقصيدته الموسومة « بمعراج المناقب ، ومنهاج الحسب الثاقب » فى نسب رسول الله . وجمعت رسائله فى غير مجموع . وله أيضاً آثار شعرية كثيرة . وقد سبق أن أوردنا شيئاً من نظمه فى مديح الأمير تاشفين(٣) .

---

( ١ ) وردت هذه الرسالة فى مجموعة الإسكوريال المخطوطة رقم ٥٣٨ الغزيرى ، ونشر المراكشى فى المعجب جزءاً منها ( ص ٩٨ ) . ونشرها الدكتور حسين مؤنس كاملة فى مجلة المعهد المصرى بمدريد فى العدد الثالث سنة ١٩٥٥ ص ١١٦ — ١١٨ .

( ٢ ) راجع فى ترجمة ابن أبى الخصال : الصلة لابن بشكوال (القاهرة) رقم ١٢٩٤ . والإحاطة مخطوط الإسكوريال السالف الذكر — لوحة ٣٩ ، والمعجب ص ٩٦ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ١٣٧ ، وكذلك P. Boignes : Historiadores y Geograficcs Arabigo - Espanoles No 165

ونشر الدكتور محمود على مكى عدة من رسائل ابن أبى الخصال الصادرة عن على بن يوسف فى صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ( المجلدان السابع والثامن ) ص ١٦٧ — ١٧٤ .

( ٣ ) أورد لنا ابن دحية فى كتابه « المطرب من أشعار أهل المغرب » شيئاً من نظمه ص ١٨٧ - ١٨٩ .

ومن شعره :

وافى وقد عظمت على ذنـوبه | فى غيبـة قبحت بهـا آثاره
فمحى إسـاءته لنـا إحسانه | واستغفرت لذنـوبه أوتاره

وقوله يتشوق إلى قرطبة :

أسمت لهم بالغور والشمل جامع | بروقاً بأعلام العذيب لـوامع
فباحت بأسرار الضمـير المدامع | ورب غرام لم تنله المسـامع

ويجب ألا ننسى ، أنه كان يوجد إلى جانب هذه الصفوة من الكتاب الأندلسين ، وزير وكاتب نابه من أصل أندلسى ، ومن أعلام البلاغة وأئمة البيان فى ذلك العصر ، هو الوزير الكاتب ، الناثر الشاعر ، أبو جعفر أحمد بن عطية ، الذى تتبعنا أخباره فيما تقدم ، مذ خدم الدولة اللمتونية حتى سقوطها ، ثم انتقل إلى خدمة الموحدين فى الظروف التى شرحناها ، حتى كانت نكبته على يد الخليفة عبد المؤمن بن على .

وكتب عن أمراء الدولة اللمتونية أيضاً ، كاتبان أندلسيان آخران هما أبو نصر الفتح بن خاقان ، وابن الصيرفى . فأما الفتح بن خاقان ، فهو إشبيلى من كتاب الطوائف الأعلام . وقد اشتهر بأسلوبه الأدبى البليغ المسجع ، وهو الذى اتبعه فى كتابيه « قلائد العقيان » و« مطمح الأنفس » . طاف فى أول أمره بقصور الطوائف ، واتصل بمعظم أمرائها . ثم خدم الأمير أبا إبراهيم إسحق بن يوسف بن تاشفين ، أخا أمير المسلمين على بن يوسف ، وكتب له كتابه « القلائد » مشتملا على تراجم أمراء الطوائف ، وأعيان العصر وفقهائه وكتابه . وانتقل فى أواخر حياته إلى مراكش وعاش بها ، وكان خليعاً مدمناً ، منحرف السلوك ، فانتهى بأن توفى قتيلا فى الفندق الذى يسكنه ، وقيل إن الذى أشار بقتله هو على بن يوسف[1] .

وأما ابن الصيرفى ، فهو يحيى بن محمد بن يوسف الأنصارى ، يكنى أبا بكر ، ويعرف بابن الصيرفى . كان من أعلام العصر المرابطى فى البلاغة والأدب والتاريخ ، وكان من الكتاب المجيدين ، والشعراء المطبوعين ، كتب بغرناطة عن الأمير تاشفين بن على ، أيام أن كان والياً للأندلس ، وألف فى تاريخ الأندلس فى العصر المرابطى كتاباً سماه « الأنوار الجلية فى أخبار الدولة

---

(١) راجع ترجمة الفتح بن خاقان فى ابن خلكان (ج ١ ص ٥١٥) .
وكذلك : P. Boigues : ibid ; No 162

المرابطية » . وكتاباً آخر سماه « قصص الأنباء وسياسة الرؤساء » . وهما مؤلفان لم يصلا إلينا مع الأسف . ولم يصل إلينا من مؤلفه الأول سوى شذور نقلها المتأخرون ، مثل ابن الخطيب وغيره ، ومن ذلك روايته عن غزوة ألفونسو المحارب للأندلس ، وهي واقعة كان من معاصريها وشهودها ، وقد فصلنا حوادثها فى موضعها . وتوفى ابن الصيرفى بغرناطة فى سنة ٥٧٠ هـ ( ١١٧٤ م )[١] .

ومن الكتاب الذين اتصلوا بالدولة اللامتونية ، وكتبوا عنها أخيل بن إدريس الرُّندى ، الذى تتبعنا مصايره من قبل خلال حديثنا عن حوادث الثورة بالأندلس ، فقد كتب فى بداية حياته للمرابطين ، ولما قام القاضى ابن حمدين بقرطبة تولى الكتابة عنه ، ثم لحق ببلده رندة ، واستبد بحكمها حيناً ، فلما انتزعها منه ابن عزون صاحب شريش ، عبر البحر إلى مراكش واتصل بحكومة الموحدين ، ثم ولى بعد ذلك قضاء قرطبة ، فقضاء إشبيلية ، حيث توفى بها فى سنة ٥٦٠ هـ ( ١١٦٥ م ) . وكان أخيل كاتباً بليغاً وشاعراً مطبوعاً . وقد ورد لنا ابن الأبار شيئاً من شعره[٢] .

وكان من هؤلاء الوزراء الكتاب أيضاً : على بن عبد العزيز بن الإمام الأنصارى ، وهو سرقسطى الأصل ، سكن غرناطة ، وكان من الكتاب المجيدين وأهل البلاغة والفصاحة . وزر للأمير أبى الطاهر تميم بن يوسف أيام ولايته لغرناطة ، ثم كتب من بعده لأخيه الأمير على بن يوسف[٣] .

كان اجتماع هذه الصفوة الممتازة من كتاب الأندلس فى البلاط المرابطى ، ظاهرة تدلى بأن المرابطين لم تفتهم أهمية القيم العلمية والأدبية ، وأهمية الأساليب البليغة العالية ، فى عرض مراسيم الدولة ، وأوامرها ، والإفصاح عن رغباتها ، ووجهات نظرها ، بيد أنها كانت رعاية محدودة المدى ، مقصوزة على المجال الرسمى ، ولم تكن تسيرها تلك النزعة المستنيرة ، التى تعتبر الحركة العلمية والأدبية ، من المقومات الحيوية ، لأمة عريقة متمدنة ، كالأمة الأندلسية .

— ٢ —

يمكننا أن نعتبر الحركة الفكرية والأدبية بالأندلس ، فى العصر المرابطى ،

---

( ١ ) ترجمة ابن الصيرفى فى الإحاطة ، مخطوط الإسكوريال السالف الذكر لوحة ٤١٥ . وقد سبق أن نقلناها فى ص ١١٠ من هذا الكتاب ( الحاشية ) .

( ٢ ) راجع ترجمة أخيل بن إدريس فى الحلة السيراء ص ٢٢٢ — ٢٢٤ .

( ٣ ) ابن الخطيب فى الإحاطة ( مخطوط الإسكوريال ) لوحة ٣٣١ .

هي امتداد لها منذ أيام الطوائف . ومع ذلك فإن هذه الحركة لم تخل من بعض عناصر القوة ، التي نبتت وتأثلت فى العصر المرابطى ذاته . وقد يرجع ذلك إلى أن الضغط الذى عانته الحركة الفكرية من الحكم المرابطى ، لم يكن شاملا ، ولم يكن بالأخص طويل الأمد .

وبالرغم من أن الحركة الفكرية الأندلسية لم تصل خلال العصر المرابطى ، إلى ذلك المدى من الازدهار والضخامة والتنوع ، الذى بلغته فى ظل دول الطوائف ، فإنا نستطيع مع ذلك أن نستعرض إلى جانب هذه الجمهرة من أكابر الكتاب الذين خدموا فى البلاط المرابطى ، جمهرة كبيرة أخرى من العلماء والأدباء والشعراء الذين ظهروا فى تلك الفترة ، ومنهم بالفعل عبقريات فذة ، يمكن أن تزهو بها أية حركة عقلية .

ولنبدأ بذكر أعلام الأدباء من كتاب وشعراء ، ولدينا منهم ثبت حاشد . فمنهم أولا ، أميران من أمراء بلنسية ، هما أبو عبد الرحمن بن طاهر القيسى ، وأبو عبد الملك مروان بن عبد العزيز . وقد سبق أن أتينا على سيرة كل منهما فى الحكم ، وما تقلب فيه من أحداث السياسة . فأما أولهما أبو عبد الرحمن بن طاهر ، فقد كان صنو جده أبى عبد الرحمن بن طاهر أمير مرسية أيام الطوائف ، وأحد أمراء البيان المبرزين فى عصره ، كان صنوه فى العلم والأدب ، وفى سحر البيان وروعته ، وكان إلى جانب ذلك شاعراً مطبوعاً . عاش بعد خلعه من الإمارة على يد ابن عياض ، حيناً بمرسية ، فى عزلة مطبقة ، وهو يشهد تطور الحوادث فى شرقى الأندلس . ولما توفى محمد بن سعد بن مردنيش زعيم الشرق ، وانهارت بوفاته جبهة الثورة ضد الموحدين ، دخل ابن طاهر فى الدعوة الموحدية ، ثم عبر البحر إلى المغرب ، واستقر بمراكش ، وتوفى بها فى سنة ٥٧٤ هـ[(١)] .

ومن آثاره النثرية ، رسالة يخاطب بها الخليفة عبد المؤمن ، ويحاول فيها أن يثبت أمر الإمام المهدى بالأدلة التاريخية والمنطقية . وقد وضعها على طريقة المساجلة بالدليل والبرهان ، بين النفس المطمئنة المؤمنة الراضية ، والنفس النزوعية الثائرة . وتحمل النفس المطمئنة خلال حديثها على عهد المرابطين ، وتصفه بعهد الضلال والفسق ، وتحاول أن تؤيد صدق قضية المهدى وشرعية إمامته ، وصحيح نسبته إلى آل البيت . وقد اقتنعت النفس النزوعية الأمارة بالسوء فى النهاية بصدق

---

(١) أورد لنا ابن الأبار فى الحلة السيراء ترجمة ضافية لابن طاهر ( ص ٢١٦ — ٢٢٢ ) .

تدليل خصيمتها النفس المطمئنة . ويختتم ابن طاهر رسالته ، وهى المسماة «بالكافية» بمديح الخليفة عبد المؤمن والدعاء له ، والإشادة بمآثره(١) .

ومن نظمه قوله :

هجرت من الدنيا لذيذ نعيمها ... لأنك لا ترضاه إلا مخلدا
وقضيت شهر الصوم بالنية التى ... رقيتَ بها فى رتبة القدس مصعدا
وودع عن شوق إليك مبرح ... فلو كان ذا جفن لبات مسهدا

وأما مروان بن عبد العزيز ، فقد كان فقيهاً عالماً وأديباً كبيراً ، وشاعراً جزلا ، وكان قبل توليه إمارة بلنسية ، يلى قضاءها . وقد تتبعنا فيما تقدم أطوار حياته السياسية ، ثم محنته بعد أن خُلع من الإمارة ، وألقى إلى ظلام السجن أعواماً طوالا . وذكر لنا ابن الأبار أنه نظم فى محنته قصيدة هذا مطلعها :

يا نفس دونك فاجزعى أو فاصبرى ... طاع الزمان بوجهه المتنمّر

ولما أطلق سراحه بواسطة الوزير أبى جعفر بن عطية ، وانتظم فى مجلس الخليفة عبد المؤمن ، نظم فى حق الوزير المحسن إليه ، وفى التحربض على نكبته ، تلك القصيدة التى أوردناها فيما تقدم والتى مطلعها :

قل للإمام أطال الله مدته ... قولا تبين لذى لب حقائقه

ومن شعره فى وصف بلنسية :

كأن بلنسية كاعب ... وملبسها السندس الأخضر
إذا جئتها سترت نفسها ... بأكمامها فهى لا تظهر

وتوفى ابن عبد العزيز بمراكش سنة ٥٧٨ هـ ( ١١٨٢ م ) .

وكان من الوزراء الأدباء الشعراء ، أبو جعفر أحمد بن عبد الرحمن الوقشى(٢) وزير ابن هَمُشك وكاتبه ونائبه بمدينة جيان . وكان ابن همشك حينما هزم فى موقعة السبيكة بأراضى غرناطة ( سنة ٥٥٧ هـ ) ، قد فر منسحباً إلى الشرق ، وطارده الموحدون ، وحاصروا مدينة جيّان ، وكان بها الوزير الوقّشى فامتنع بها ودافع

---

( ١ ) تسمى هذه الرسالة باسمها الكامل « الكافية فى براهين الإمام المهدى رضى الله عنه تعالى عقلا ونقلا » ، وقد أورد لنا ابن القطان نصها الكامل فى «نظم الجمان » وهى تستغرق منه عدة صفحات ( المخطوط لوحة ٢٠ ا إلى ٣٠ ب ) .

( ٢ ) راجع ترجمة مروان بن العزيز فى الحلة السيراء ص ٢١٢ — ٢١٦ ، والتكمله ( القاهرة ) رقم ١٧٥١ . وراجع أيضاً المغرب من أشعار أهل المغرب ص ٨٠ و ١٠٨ .

عنها، حتى أقلع الموحدون عنها دون طائل . ولما وقع الشقاق بين ابن همشك، وبين حليفه وصهره محمد بن سعد بن مردنيش ، ودخل ابن همشك في دعوة الموحدين (٥٦٢ هـ) ، بعث وزيره الوقشي إلى بلاط مراكش ليسعى فى إنجاده ضد صهره . وينوه ابن الأبار بمكانة الوقّشي الأدبية ، ويقول لنا إن له « تحقق بالإحسان ، وتصرف فى أفانين البيان » ويشير إلى أن الشاعر ابن غالب الرصافى ، قد مدحه فى ديوانه « وأعرب عن جلالة شأنه » ثم يقارنه بأبى جعفر بن عطية ، وقد كان كلاهما ، من مفاخر الأندلس « وكانا متعاصرين فى الكفاية متكافئين ، ولذاك فى النثر مزية هذا فى الشعر » . وقد أورد لنا ابن الأبار طائفة من شعر الوقّشي ، ومن ذلك قوله يصف الشقائق :

وشقائق لاحت على الأغصان ... مثل الخدود تزان بالخيلان
يهفو النسيم مع الأصائل والضحى ... فيهز منها معطف النشوان
فكأنها قضب الزمرد ألصقت ... بالمساك فيها أكؤس العقيان(١)

وذكر ابن عبد الملك فى التكملة ، أن الوقّشي مدح الأمير أبا يعقوب يوسف ابن عبد المؤمن بقصيدة مطلعها :

أبت غير ماء النخيل ورودا ... وهاجت به عذب الحمام مرودا
وقالت لحاديها أتم زيادة ... على العشر فى وردى له فأزيدا

ومنها فى الحث على الجهاد :

ألا ليت شعرى هل يُمد لى المدى ... فأبصر خيل المشركين طريدا
وهل بعد يقضى فى النصارى بنصرة ... تغادرهم للمرهفات حصيدا
ويغزو أبو يعقوب فى شنت ياقب ... يعيد عميد الكافرين عبيدا(٢)

وتوفى الوقّشي بمالقة فى سنة ٥٧٤ هـ (١١٧٨ م) .

ومن أعلام الأدب الذين ظهروا فى العصر المرابطى ، أبو الحسن عبد الملك ابن عباس بن فرج بن عبد الملك المعروف بابن الأزرق ، وهو من أهل قرطبة ، وكان كاتباً بليغاً وشاعراً مقتدراً ، كتب عن قاضى الجماعة أبى القاسم بن حمدين فى أواخر عهد المرابطين ، ولما ثار أبو جعفر بن حمدين وانتزع الرياسة لنفسه ، خشى ابن الأزرق العاقبة ، وفر إلى إشبيلية ، وانقطع إلى العبادة ، فى بعض

(١) أورد لنا ابن الأبار فى الحلة السيراء ترجمة ضافية للوقشى (ص ٢٣٠ – ٢٣٦) .
(٢) الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشى (الجزء الأول من مخطوط باريس لوحة ١٦) .

قرى إشبيلية . ثم استدعاه أبو إسحق برّاز بن محمد المسّوفى عامل إشبيلية الموحدى للكتابة ، فتولى منصبه على كره منه ، ثم كتب من بعده للأمير أبى حفص ابن عبد المؤمن ، ثم كتب عن عبد المؤمن نفسه ، بعد مقتل كاتبه ابن عطية ، ثم عن ولده أبى يعقوب يوسف ، وقت ولايته لإشبيلية ، وتوفى فى سنة ٥٦٨ هـ ( ١١٧٢ )[١] .

ومنهم على بن أحمد بن محمد بن عثمان الكلبى الشلطيشى ، من أهل الغرب ، سكن قرطبة ، وكان فقيهاً متمكناً ، وكاتباً بليغاً ، وشاعراً مجيداً . ولما ثار أخوه أبو بكر محمد داعية المريدين بميرتلة ، سنة ٥٣٩ هـ ، خاف على نفسه ، واختفى أشهراً ، ثم غادر قرطبة وتجول حيناً فى مختلف القواعد الأندلسية ، ثم عبر البحر إلى المغرب ، ونزل بمراكش ، وأقام بها حتى توفى سنة ٥٦٦ هـ (١١٧١م)[٢]

ومنهم أبو الحسن على بن مسعود بن إسحق بن عصام الخولانى ، من أهل سرقسطة ، وكان فقيهاً بارعاً ، حافظاً للمدونة ، وله حظ وافر من الأدب ، وولى قضاء ميورقة . ولما دهم النصارى سرقسطة فى سنة ٥١٢ هـ ، وبعث قاضيها بصريخه إلى الأمير أبى الطاهر تميم المرابط بجيشه على مقربة منها ، كان أبو الحسن الخولانى ، وزميله الخطيب أبو زيد بن منتيال ، هما اللذان خرجا لمخاطبة الأمير تميم بالنيابة عن أهل سرقسطة ، وناشداه الغوث والإنجاد ، ولكنه لم يستجب إلى هذا الصريخ ، وانتهت سرقسطة إلى التسليم[٣] .

— ٣ —

ولمع فى العصر المرابطى عدة من الأدباء المؤرخين ، وأعلام الرواية المحققين ، الذين ما زالت آثارهم من أقيم مصادرنا فى تاريخ الأندلس ، وتاريخ الأدب الأندلسى .

وكان فى مقدمة هؤلاء قطبهم وعميدهم ، أبو الحسن على بن بسّام الشنتريني ، صاحب كتاب « الذخيرة » ، وهو من أقيم وأشهر كتب الأدب والتاريخ فى هذا العصر ، إن لم يكن أقيمها وأشهرها جميعاً . وابن بسام من أهل غربى الأندلس من مدينة شنترين البرتغالية ، ولكنه غادرها فى شبابه إلى إشبيلية حينما اضطربت

---

( ١ ) الذيل والتكملة المخطوط سالف الذكر .

( ٢ ) الذيل والتكملة المخطوط سالف الذكر .

( ٣ ) الذيل والتكملة المخطوط سالف الذكر . وراجع ص ٩٦ من هذا الكتاب .

بها الأحوال ، واشتد خطر سقوطها فى أيدى النصارى . ودرس ابن بسام فى إشبيلية وقرطبة ، وكتب مؤلفه الضخم « الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة » بقرطبة ، وانتهى من كتابته فى سنة ٥٠٣ هـ . ويصارحنا ابن بسام فى مقدمته بالدافع النفسى ، الذى دفعه إلى تصنيف كتاب « الذخيرة » ، وهو أنه رأى انصراف أهل عصره وقطره ، إلى أدب المشرق ، والتزود منه والإعجاب به ، وإهمال آداب بلدهم ، فأراد بوضع الذخيرة ، وجميع ما تضمنته من رائق المنثور والمنظوم ، أن يبصّر أهل الأندلس بتفوق أدبائهم ، وروعة إنتاجهم ، وأن من حقهم أن يزهوا بأدبهم وأن يتذوقوه ، وأن الإحسان ليس مقصوراً على أهل المشرق(١) . وقد سبق أن أشرنا إلى أهمية الذخيرة كمصدر من أنفس مصادرنا التاريخية والأدبية والاجتماعية ، ولاسيما عن عهد الطوائف وأمرائه وأدبائه وشعرائه(٢) . وإنه لما يدعو إلى الغبطة أن البحث قد استطاع أخيراً ، أن يضع يده على النص الكامل لكتاب « الذخيرة » بأقسامه أومجلداته الأربعة ، بعد أن لبث مدة طويلة مفتقداً لبعض أجزائه . وكتب ابن بسام غير « الذخيرة » عدة مصنفات أخرى ، منها كتاب فى شعر المعتمد بن عباد ، وكتاب فى شعر ابن وهبون ، ورسالة عنوانها « سلك الجواهر فى ترسيل ابن طاهر » ومجموعة مختارة من شعر أبى بكر بن عمار . ويمتاز ابن بسام بأسلوبه المشرق ، الذى يغلب عليه السجع ، دون أن ينتقص من قوته وإشراقه ، كما يمتاز بملاحظاته النقدية القوية ، التاريخية والاجتماعية . ومما هو جدير بالذكر أنه لم يُعرف عن ابن بسام أنه خدم أحداً من أمراء عصره ، أو تطفل على موائدهم أسوة بمعظم زملائه ، كتاب العصر وأدبائه . وكانت وفاته بقرطبة سنة ٥٤٢ هـ ( ١١٤٧ م )(٣) .

ومنهم أبو محمد عبد الله بن إبراهيم بن وزمر الحجارى ، صاحب كتاب « المسهب » الشهير . وأصله من وادى الحجارة حسبما يدل على ذلك اسمه . ولما سقطت وادى الحجارة فى أيدى النصارى ، غادرها مع أهله ، وطاف بعدة من بلاد الأندلس ، ثم نزل مدينة غرناطة ، وسار منها الى قلعة بنى سعيد ( أو قلعة يحصب ) ، وهنالك استقبله صاحبها عبد الملك بن سعيد ، وهو من أقطاب علماء

---

( ١ ) راجع مقدمة الذخيرة ( المجلد الأول القسم الأول ) طبعة جامعة القاهرة ص ٢ و ٣ .

( ٢ ) كتاب دول الطوائف ص ٤١٨ .

( ٣ ) راجع فى ترجمة ابن بسام ، مقدمة كتاب الذخيرة ، وكذلك Pons Boigues : ibid ; No 171 والمراجع

عصره ، وأكرم وفادته ، وقدر علمه وأدبه . وكان الحجارى أديباً كبيراً وشاعراً مطبوعاً ، وكان يشتهر بنظمه فى كل بلد نزل فيه . ثم غادر قلعة يحصب ، وقصد إلى المستنصر بن هود بروطة ، ومدحه ، وسار معه فى بعض وقائعه مع البشكنس ، فوقع أسيراً ضمن الأسرى . ولما قيض له الخلاص من أسره ، عاد إلى قلعة يحصب ، وعاش فى كنف حاميه عبد الملك بن سعيد . وأشهر آثار الحجارى كتابه « المسهب فى فضائل (أوغرائب) المغرب » فى ستة أجزاء . وقد ألفه تحقيقاً لرغبة ابن سعيد ، وكان فيما بعد مستقى لأسرة بنى سعيد فى تأليف كتابها الشهير « المغرب فى حلى المغرب » ومن أخصب وأقيم مصادرها ، وفيه يتناول الحجارى تراجم رجال الأندلس وحوادثها منذ الفتح إلى سنة ٥٣٠ هـ . وقد نقل إلينا المتأخرون منه الكثير ولاسيما المقرى فى نفح الطيب ، حيث ينقل منه عشرات الشذور ، فى مختلف المواطن . وتوفى الحجارى فى سنة ٥٥٠ هـ ( ١١٥٥ م )[١] .

ومنهم أبو محمد عبد الله بن على بن عبد الله اللخمى المعروف بالرُّشاطى ، أصله من أهل أوريولة من شرقى الأندلس ، وبها ولد سنة ٤٦٦ هـ . ودرس على عدة من أعلام العصر ومنهم الحافظ أبوعلى الصدفى . ثم انتقل إلى ألمرية ، وعاش بها . ونبغ الرشاطى فى الحديث والرواية والتاريخ والأنساب . وكتب كتابه الشهير « اقتباس الأنوار ، والتماس الأزهار ، فى أنساب الصحابة ورواة الآثار » . وأخذ عنه كثير من علماء عصره . وتوفى بألمرية شهيداً حينما دخلها النصارى فى يوم ٢٠ جمادى الأولى سنة ٥٤٢ هـ ( أكتوبر سنة ١١٤٧ م )[٢] .

ومنهم أبوعامر محمد بن أحمد بن عامر الطرطوشى السالمى ، من أهل طرطوشة من أعمال الثغر الأعلى ، وسكن مرسية ، وكان متقدماً فى فنون عديدة من الأدب والشعر والتاريخ وغيرها . وكتب عدة مؤلفات أشهرها كتابه « درر القلائد وغرر الفوائد » . وهو كتاب تاريخى جغرافى . وكتاب « السلك المنظوم والمسلك المختوم » . وتوفى فى سنة ٥٥٩ هـ (١١٦٣م)[٣] .

---

( ١ ) راجع ترجمة الحجارى فى « المغرب فى حلى المغرب » ج ٢ ص ٣٥ و ٣٦ ، والمقرى ج ٢ ص ٤٠٦ ، وكذلك Pons Boigues : ibid : No 178

( ٢ ) ترجمة الرشاطى فى ابن خلكان ج ١ ص ٣٣٧ ، والصلة رقم ٦٥١ ، وكذلك : P. Boigues : ibid ; No 169

( ٣ ) ترجمته فى التكملة لابن الأبار رقم ٧٢٥ . وكذلك فى P. Boigues : ibid ; No. 187

ومنهم أبو بكر محمد بن يوسف بن قاسم الشِّلبي ، وهو أديب ومؤرخ من أهل الغرب ، ومن مدينة شلب ، وكان تلميذاً للكاتب أبي بكر بن القصيرة . ألف كتاباً فى تاريخ المعتمد بن عباد لم يصل إلينا . وتوفى أوائل القرن السادس الهجرى[1].

ومن الرواة وعلماء الأخبار الذين ظهروا فى العصر المرابطى ، محمد بن عبد الله ابن سيّداله التجيبى من أهل شاطبة ، روى عن جمهرة من أعلام عصره . وكان عارفاً بالأخبار ، حافظاً لأسماء الرواة . وقد ألف مجموعاً فى رجال الأندلس ، وصل به كتاب الصلة لابن بشكوال ، وتوفى فى سنة ٥٥٨ هـ .

ونذكر أخيراً علماً من أعلام المؤرخين وأصحاب الأخبار المحققين ، فى العصر المرابطى ، هو العلامة المؤرخ أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود بن بشكوال القرطبي ، ولد بقرطبة سنة ٤٩٤ هـ ، ودرس بها على أشهر أساتذة العصر ، وكان حافظاً ، شغوفاً بالأخبار والسير ، ولاسيما أخبار الأندلس ، محققاً واسع الرواية ، حجة فى تحقيقها ، كتب عدة مؤلفات ، أشهرها كتابه « الصلة » الذى جعله تتمة لكتاب ابن الفرضى فى « تاريخ العلماء والرواة بالأندلس » ، والذى يضم أكثر من ألف وخمسمائة ترجمة لعلماء الأندلس ورواتها ، ولاسيما علماء قرطبة ، وقد فرغ من تأليفه بقرطبة فى سنة ٥٣٤ هـ ، وجاء ابن الأبار بعده ، فوضع له ذيلا سماه التكملة فى مجلدين كبيرين . ثم جاء أبو جعفر بن الزبير فوضع له ذيلا آخر سماه « صلة الصلة » . ويعتبر كتاب « الصلة » إلى يومنا من أنفس وأوثق مصادر التاريخ الأندلسى . وكتب ابن بشكوال غير « الصلة » عدة مؤلفات أخرى ، منها « كتاب الغوامض والمبهمات » وكتاب « الفوائد المنتخبة والحكايات المستغربة » « وكتاب المحاسن والفضائل » « وكتاب المستغيثين بالله تعالى عن المهمات والحاجات » ، وغير ذلك من مصنفات بلغت نحو الخمسين مؤلفاً . وتوفى ابن بشكوال بقرطبة بعد حياة علمية حافلة ، فى رمضان سنة ٥٧٨ هـ ( أواخر سنة ١١٨٢ م )[2] .

— ٤ —

ولقد تحدثنا فيما تقدم عن علماء وأدباء لم يكن الشعر خاصتهم الأولى ، وإن كانوا

---

( ١ ) راجع ترجمته فى P. Biogues : ibid ; No. 137

( ٢ ) راجع ترجمة ابن بشكوال فى التكملة لابن الأبار ( القاهرة ) رقم ٨٣١ ، وفى وفيات الأعيان ج ١ ص ٢١٥ .

مع ذلك قد لمعوا فى ميدان الشعر ، وكانت لهم فيه آثار طيبة . ونود الآن أن نذكر بعض الشعراء الذين نبغوا فى العصر المرابطى ، وكان الشعر خاصتهم الأولى .

فمن هؤلاء أبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن سعيد بن خلف بن سعيد ، من بنى سعيد العنسى سادة قلعة بنى يحصب من أعمال غرناطة ، وهو بيت من بيوتات الأندلس المشهورة ، وينتمى إليه قواد ووزراء وقضاة وكتاب وشعراء ، ومنهم مؤلفو كتاب « المغرب فى حلى المغرب » . وشغف أبو جعفر بالأدب والشعر منذ حداثته ، وحفظ الكثير من أشعار القدماء ، وظهرت مواهبه الشعرية لأول مرة حينما وفد مع أبيه وأهله لمقابلة الخليفة عبد المؤمن ، وهو بجبل طارق فى سنة ٥٥٦ هـ ، وألقى بين يديه قصيدته التى مطلعها :

تكلم فقد أصغى إليك الدهر      وما لسواك اليوم نهى ولا أمر

وقد كانت هذه القصيدة التى نقلناها فيما تقدم ، فاتحة مجده الشعرى . ولما ولى غرناطة السيد أبو سعيد ولد عبد المؤمن ، استوزر أبا جعفر ، وحظى لديه . ثم فسد ما بينهما بسبب تنافسهما فى حب الشاعرة الحسناء حفصة بنت الحاج الرّكونى ، وأخذ السيد أبو سعيد يترقب الفرص لنكبته ، وأبو جعفر يتحفظ كل التحفظ ، وفى حالته تلك يقول :

من يشترى منى الحياة وطيبها      ووزارتى وتأدبى وتهذبى
بمحل راع فى ذرى ملمومة      زويت عن الدنيا بأقصى مرتب
فلقد سئمت من الحياة مع امرئ      متغضب متغلب مترتب
الموت يلحظنى إذا لاحظته      ويقوم فى فكرى أوان تجنبى

وانتهى الأمر بأبى جعفر إلى أن ائتمر مع أخيه وبعض أقاربه على الانضمام إلى ابن مردنيش ، ولحق أخوه وأقاربه بقلعتهم فى بنى يحصب . ولكنه جبن وتأخر ، ثم فر إلى مالقة ، ليركب منها البحر إلى بلنسية ، ولكن عمال السيد اكتشفوا أمره وقبضوا عليه ، فأمر بقتله صبراً ، وكان مصرعه فى جمادى الأولى سنة ٥٥٩ هـ ( ١١٦٤ م ) .

ولأبى جعفر كثير من الشعر الرقيق الجيد . فمن ذلك قوله :

أتانى كتاب منك يحسده الدهر      أما حبره ليل ، أما طرسه فجر
به جمع الله الأمانى لناظرى      وسمعى وفكرى فهو سحر ولا سحر

ولا غرو أن أبدى العجايب ربّه    وفى ثوبه بر ، وفى كفه بحر(١)

ومنهم محمد بن عبد الرحمن العقيلي الجراوى من أهل وادى آش . سكن غرناطة ، وكان أديباً مشاركاً فى علوم جمة ، ولاسيا الطب ، كما كان شاعراً جزلا مطبوعاً . ومن قوله يمتدح أمير المسلمين على بن يوسف :

رحلوا الركايب موهنا    فأذاع عرفهم السنا
والحلى قد أغرى بهم    لما ترغم معاننا
كم دب حول حماهم    من كل خطّار القنا(٢)

ومنهم أحمد بن على بن محمد بن عبد الملك بن سليمان بن سيد الكنانى النحوى ، من أهل إشبيلية ، وقد عرف « باللص » لما نسب إليه فى صغره من إغارته على أشعار الآخرين . وكان أديباً ، متقناً للعربية ، شاعراً جزلا مجيداً . ولد سنة ٥٠٣ هـ ، وتوفى فى سنة ٥٧٧ هـ ( ١١٨١ م ) . ومن نظمه قوله :

وقائلة والضنا شاملى    علىَ م سهرت ولم ترقد
وقد ذاب جسمك فوق الفراش    حتى خفيت عن العوّد
فقلت وكيف أرى نائما    وراعى المنية بالمرصد(٣)

ومنهم أبو بكر بن قزمان ، أمير الزجل الأندلسى ، وهو محمد بن عيسى ابن عبد الملك بن قزمان الزهرى من أهل قرطبة ، برع فى الشعر والأدب ، وبرع بنوع خاص فى نظم القصائد الهزلية بلغة عوام الأندلس أوبعبارة أخرى فى نظم الزجل . يقول ابن الخطيب « وهذه الطريقة بديعة يتحكم فيها ألقاب البديع ، وتنفسح لكثير مما يضيق سلوكه على الشاعر ، وبلغ فيها أبو بكر مبلغاً حجره الله عن سواه فهو آيتها المعجزة ، وحجتها البالغة ، وحارسها المعلم ، والمبدى فيها والمتمم » . ويصفه ابن خلدون بأنه « إمام الزجالين على الإطلاق » . وخدم ابن قزمان فى شبابه المتوكل بن الإفطس صاحب بطليوس ونال لديه حظوة وجاها . فلما انتهت دولتهم ، عاد إلى قرطبة وتردد بينها وبين غرناطة . ولما قام ابن حَمْدين فى قرطبة ، تعرض ابن قزمان لمطاردته ونكاله ، وذلك بسبب « شكاسة

---

( ١ ) راجع ترجمته فى الإحاطة ( ١٩٥٦ ) ج ١ ص ٢٢٢ — ٢٢٧ .
( ٢ ) ابن الخطيب فى الإحاطة ، مخطوط الإسكوريال رقم ( ١٦٧٣ الغزيرى ) لوحة ٥٦ .
( ٣ ) ترجمته فى التكملة لابن الأبار ج ١ رقم ٢١٢ .

أخلاق كان موصوفاً بها ، وحدة شتى بسببها » . وتوفى ابن قزمان بقرطبة فى رمضان سنة ٥٥٥ هـ ( ١١٦٠ م ) .

وقد اشتهرت أزجال ابن قزمان فى الأندلس والمغرب ، وجمعت فى ديوان خاص متداول ، وترجم الكثير منها فيما بعد إلى القشتالية ، وكان لها أثر عميق فى صوغ الأناشيد الشعبية القشتالية ، ثم الأناشيد البروڤنسية . وقد أبدى البحث الحديث ، أن كثيراً من الأغانى الشعبية فى إسبانيا وغيرها من الأمم النصرانية المجاورة ، اشتق من أزجال ابن قزمان .

ونحن نكتفى بأن نورد هذين النموذجين من أزجال ابن قزمان :

قدر الله وساق الخناس
إلى وادى على عيون الناس
ولعبنا طول النهار بالكاس
وجاء الليل وامتد مثل القتيل

وقوله يصف عريشاً أمامه تمثال أسد من رخام يصب الماء من فمه على صفائح مدرجة من الحجر :

وعريش قد قام على دكان — بحال رواق
وأسد قد ابتلع ثعبان — فى غلظ ساق
وفتح فمه بحال إنسان — فيه الفواق
وانطلق يجرى على الصفاح — ولقى الصباح[1]

---

( ١ ) راجع فى ترجمة ابن قزمان : قلائد العقيان ص ١٨٧ ، والإحاطة فى مخطوط الإسكوريال السالف الذكر لوحة ٥٩ — ٦١ . وقد أورد لنا ابن الخطيب كثيراً من أزجاله ورسائله النثرية . وكذلك ابن خلدون فى المقدمة ص ٥٢٤ .

# الفصل الثالث

## الحركة الفكرية الأندلسية

### خلال العهد المرابطى

### القسم الثانى

أعلام المحدثين والفقهاء . الحافظ أبو على الصدفى . القاضى ابن العربى . أبو الوليد بن رشد الجد . ابن ورد التميمى . أبو العباس أحمد بن الصقر الأنصارى. أبو محمد بن عطيه المحاربى . مديحه للمرابطين . عبد الرحمن بن عبد الله المعافرى . عبد الله بن محمد المرسى . ابن الحلال . ابن أبى مروان . أبو جعفر البطروجى. ابن الدباغ . سفيان بن أحمد العاصى . أحمد بن عبدالعزيز الأزدى. على بن صالح بن عز الناس. عبد الله بن خلف القرشى . ابن الباذش. القاضى عياض السبتى ، حياته وتراثه. ابن بركة . ابن صاحب الصلاة . ابن اشكبندر . ابن صنعون . ابن هذيل . ابن سيد الجراوى . العلامة الصوفى أبو العباس ابن العريف. نموذج من شعره الروحى . دعوة المريدين وتطورها على يد ابن قسى . ابن المنذر .أبو بكر ابن المنخل. ابن سفيان المخزومى . ابن الإقليشى . علماء اللغة . ابن السيد البطليوسى. يونس بن مغيث . العلوم . ابن باجة . شىء من شعره . ابن يحيى الخزرجى . أبو القاسم خلف بن عباس . أمية بن أبى الصلت . حياته ومؤلفاته . بنو زهر . أبو العلاء بن زهر . ابنه عبد الملك . ولده أبو بكر . أبو عبد الله الطغنرى . تأملات .

— ١ —

ظهر فى شبه الجزيرة الأندلسية ، من أعلام المحدثين والفقهاء ، فى العصر المرابطى ، جمهرة كبيرة ، بلغ بعضهم فى ميدانه أرفع مكانة . وكان فى مقدمة هؤلاء اثنان لمع أحدهما فى شرقى الأندلس ، ولمع الثانى فى غربى الأندلس ، وكان لهما أكبر أثر فى ازدهار علوم السنة والفقه فى ذلك العصر .

أولهما العلامة الحافظ أبو على حسين بن محمد بن فيرُّه الصدفى . أصله من سرقسطة من أهل الثغر الأعلى ، وبها كان مولده ونشأته ، ودرس فى سرقسطة وبلنسية وألمرية ، وكان من أساتذته أبو اليد الباجى ، وأبو العباس العذرى ، وأبو عبد الله بن المرابط . ثم رحل إلى الشرق فى سنة ٤٨١ هـ ، وحج ودرس بمكة وبغداد ودمشق والقاهرة ، على أشهر علماء العصر . ثم عاد إلى الأنداس سنة ٤٩٠هـ ، واستوطن مرسية ، وقد ذاع صيته العلمى ، واشتهر بالأخص بتبحره فى علوم السنة . وولى قضاء مرسية مدة ، ولكنه استعفى فأعفى ، وانقطع لنشر

العلم وتدريسه ، فهرع الناس لسماعه والأخذ عليه ، وكان أعظم حفاظ عصره . وكتب عدة كتب فى الحديث . وفى سنة ٥١٤هـ ذهب إلى شاطبة وأقام بها ، وكان دائب الحث على الجهاد . ولما سار الأمير إبراهيم بن يوسف بن تاشفين غازياً إلى الثغر الأعلى لإنقاذ دورقة وقلعة أيوب ، كان أبو على ضمن العلماء الذين ساروا فى ركبه ، وكان ممن أستشهد فى موقعة كتندة ، التى نشبت على أثر ذلك بين المرابطين وبين الأرجونيين ، بقيادة ألفونسو المحارب ، فى ربيع الأول سنة ٥١٤ هـ ( يونيه ١١٢٠ م ) وذلك حسبما فصلناه من قبل فى موضعه(١).

والثانى هو القاضى أبوبكر محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن العربى المعافرى ، وهو من أعظم فقهاء العصر المرابطى وحفاظه . ولد بإشبيلية سنة ٤٦٨هـ وبرع فى الحديث والأدب ، ورحل إلى المشرق مع ابنه حينما أرسله يوسف بن تاشفين سفيراً عنه إلى الخليفة المستظهر والإمام الغزالى ، وذلك فى سنة ٤٨٥هـ ، ودرس بمكة والقاهرة وبغداد ودمشق . وقرأ فى بغداد على أبى بكر الشاشى ، وأبى حامد الغزالى ، وبدمشق على أبى بكر الطرطوشى ، ثم عاد إلى الأندلس سنة ٤٩٣ هـ ، يسبقه صيته العلمى . ويصفه تلميذه ابن بشكوال « بالإمام العالم الحافظ ، المستبحر ، ختام علماء الأندلس ، وآخر أئمتها وحفاظها » . وتولى ابن العربى قضاء بلده إشبيلية لأول مرة فى سنة ٥٠٨ هـ ، ولبث به مدة وعرف بحزمه ونزاهته ، وتحريه العدل والحق والتزام الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، حتى أوذى بسبب ذلك وانتهبت أمواله وكتبه . ثم صرف عن القضاء وانقطع للتدريس ونشر العلم . وكتب عدة مؤلفات منها « كتاب ترتيب الرحلة » ، وكتاب « العواصم والقواصم » ، وكتاب « أنوار الفجر » فى مدح الرسول ، وكتاب « قانون التأويل » ، وكتاب « التلخيص فى النحو » ، وكتاب « القبس فى شرح موطأ مالك » وبلغت مؤلفاته نحو الأربعين كتاباً . ولما اضطربت أمور الدولة المرابطية بالأندلس ، وغلب الموحدون على إشبيلية ، عبر القاضى ابن العربى البحر إلى المغرب ، على رأس وفد كبير من علماء إشبيلية وأعيانها ، ولقى الخليفة عبد المؤمن بمراكش فى أوائل سنة ٥٤٢ هـ ، وذلك عقب افتتاحها ، وقدم إليه بيعة أهل إشبيلية ، ولما غادر الوفد مراكش عائداً إلى الأندلس ، توفى القاضى ابن العربى خلال الطريق ، ودفن بفاس وذلك فى جمادى الآخرة من نفس السنة (١١٤٧م) . ومما تجدر ملاحظته

---

(١) راجع الصلة لابن بشكوال الترجمة رقم ٣٣٠ . وكذلك : Pons Boigues: ibid; No 143

أن ابن العربى بالرغم من تحوله إلى جانب الموحدين حينما قامت دولتهم ، لم يضن بمديحه للمرابطين وعهدهم ، حسبما أشرنا إلى ذلك من قبل[١] .

وكان من أعلام الفقهاء فى العصر المرابطى ، أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد الجد ، قاضى الجماعة بقرطبة ، وقد برع بالأخص فى الفقه المالكى ، وألف فيه عدة مصنفات جليلة ، منها «كتاب البيان والتحصيل لما فى المستخرجة من التوجيه والتعليل » و«كتاب المقدمات لأوائل كتاب المدونة » ، واختصاركتاب المبسوطة، واختصار مشتمل الآ ثار لأبى جعفر الطحاوى. وكان ابن رشد بجلال بيته ، ورفيع خلاله ، ورياسته العلمية ، من الرؤساء ذوى المكانة والنفوذ ، لدى البلاط المرابطى ، وقد رأينا فيما تقدم خطورة الدور الذى اضطلع به ، فى إقناع أمير المسلمين على بن يوسف بتغريب النصارى المعاهدين . ولد بقرطبة سنة ٤٥٠ هـ ، وتوفى بها فى شهر ذى القعدة سنة ٥٢٠ هـ ( أواخر ١١٢٦ م)[٢] .

ومن أشهر الفقهاء المحدثين والحفاظ ، فى ذلك العصر ، أبو القاسم أحمد بن عمر بن يوسف بن ورد التميمى من أهل ألمرية . وكان متمكناً أيضاً من الأدب والنحو والتاريخ ، ومتقناً لعلم الأصول والتفسير . انتهت إليه ، وإلى زميله القاضى ابن العربى رياسة الفقه المالكى فى عصرهما ، ولى قضاء غرناطة ، فظهر فيه بكفايته وعدله وحسن سيرته ؛ وتوفى بألمرية فى رمضان سنة ٥٤٠ هـ (١١٤٦م)[٣] .

ومن أعلام المحدثين والفقهاء أيضاً ، أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن محمد ابن الصقر الأنصارى الخزرجى ، أصله سرقسطة ، ومولده بألمرية سنة ٥٠٢هـ ، وكان محدثاً بارعاً ، وفقيهاً متمكناً متقدماً فى علم الكلام ، وكاتباً بليغاً وشاعراً محسناً ، استدعاه أبو عبد الله بن حسون قاضى مراكش المرابطى إلى كتابته ، فلما صرف عن القضاء ، تولى أبو العباس خطة الإمامة ، واستمر بها ، حتى سقطت مراكش وآل الأمر إلى الموحدين . ولما وقعت النكبة ، واستباح الموحدون دماء أهل المدينة ، اختفى أبو العباس حيناً ، وكتب له النجاة ، حتى نودى بالعفو ، ثم استُنقذ من الرق ، واتصل بالسادة الحدد ، أعنى الموحدين .

---

( ١ ) راجع الصلة الترجمة رقم ١٢٩٧ ، ونفح الطيب ج ١ ص ٣٣٥ — ٣٣٧ ، وكذلك : Pons Boigues: ibid ; No 172

( ٢ ) ترجمته فى الصلة رقم ١٢٧٠

( ٣ ) ترجمته فى الإحاطة ( القاهرة ١٩٥٦ ) ج ١ ص ١٧٥ — ١٧٧

فنظمه عبد المؤمن بين طلبة العلم ، وأضفى عليه رعايته ، ثم ولاه قضاء غرناطة ، ثم قضاء إشبيلية . وهنالك توثقت صلاته بجاره وصديقه العلامة أبى بكر بن طفيل . ولما تولى أبو يعقوب يوسف الخلافة ، عينه للنظر على الخزانة ( المكتبة ) وهى عندهم من الخطط الجليلة ، لايتولاها إلا أكابر العلماء . وكتب أبو العباس عدة مصنفات منها « شرح الشهاب » وكتاب « أنوار الأفكار فيمن دخل جزيرة الأندلس من الزهاد والأبرار » . وله شعر جيد معظمه فى الإلهيات والزهد . فمن ذلك قوله :

إلهى لك الملك العظيم حقيقـــة … وما للورى مهما منعت نقير
تجافى بنو الدنيا مكانى فسرّنى … وما قدر مخلوق جـداه حقير
وقالوا فقير وهم عندى جلالة … نعم صـدقوا إنى إليـك فقـير

وتوفى أبو العباس بمراكش فى جمادى الأولى سنة ٥٥٩ هـ ( ١١٦٤م ) ؛ ورثاه صديقه العلامة ابن طفيل بقصيدة بعث بها إلى ولده بمراكش مطلعها :

لأمر ما تغيرت الدهــــور … وأظلمت الكواكب والبدور
وطال على العيـون الليل حتى … كأن النجم فيــه لا يغـور[1]

ومنهم الفقيه الحافظ أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية المحاربى ، من أهل غرناطة ، برع فى علوم القرآن والسنة وكان فقيهاً متبحراً ، وأديباً واسع المعرفة ، متقدماً فى فنون عديدة ، وتولى القضاء بغرناطة والمرية ، وألف فى التفسير كتاباً ضخماً لخص فيه كل ما تقدمه من كتب التفسير ، واشتهر بالمغرب والأندلس ، وألف كتاباً فى « الأنساب » ، وانتهى إلينا من مؤلفاته « معجم شيوخه » وهو محفوظ بمكتبة الإسكوريال .

ولد سنة ٤١٨هـ ، وتوفى بلورقة سنة ٥٤٢ هـ ( ١١٤٧ م )[2]. وكان فوق ذلك أديباً ينظم الشعر ، ومن قوله فى مدح المرابطين :

إذا لثموا بالريط خلت وجوههم … أزاهر تبـدو من فتـوق كمائم
وإن لثموا بالسّـــابرية أظهروا … عيون الأفاعى من جلود الأراقم[3]

---

( ١ ) أورد لنا ابن الخطيب فى الإحاطة ترجمة ضافية لأبى العباس ج ١ ص ١٨٩ – ١٩٣ ، وكذا ابن عبد الملك فى الذيل والتكملة . ويقول ابن عبد الملك إن مولد أبى العباس كان بالمرية سنة ٤٩٢ هـ ووفاته سنة ٥٦٩هـ ، وبذلك يختلف معه ابن الخطيب فى التاريخين . وراجع التكملة لابن الأبار رقم ٢٠١ .

( ٢ ) راجع بغية الملتمس للضبى ( المكتبة الأندلسية ) ترجمة رقم ١١٠٣ .

( ٣ ) راجع الصلة الترجمة رقم ٨٢٩ ، وكذلك **P. Boigues; ibid; No 109** ، والمطرب من أشعار أهل المغرب لابن دحية ص ٩١ .

وهذا المديح للمرابطين من الأمور النادرة فى الشعر الأندلسى . وقد نجد شاعراً يمتدح أميراً منهم لصلة خاصة . ولكن يندر أن نجد شعراً فى مدح المرابطين بصفة عامة .

ومنهم عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله المعافرى ، وكان من الفقهاء الوزراء . كان متمكناً من الفقه والحديث ، بارعاً فى الأدب ، محسناً للنظم ، كاتباً بليغاً ، ولى أيام الأمير على بن يوسف مستخلص غرناطة وإشبيلية ( الأملاك السلطانية ) فقام على إدارتها بحزم وكفاية ، ثم ندبه الأمير إلى طرطوشة ليشرف على أهلها وتجديد مبانيها، فأدى مهمته خير أداء ، وكان جواداً كثير البذل ، وتوفى فى سنة ٥١٨ هـ ( ١١٢٤ م )(١) .

ومنهم عبد الله بن محمد عبد الله النفزى المعروف بالمرسى ، ولد بمرسية سنة ٤٥٣ هـ ، ودرس بها ثم انتقل إلى سبتة ، وتولى الخطابة بجامعها مدة ، وكان متفوقاً فى علم الحديث ، وأخذ الناس عنه ، ومنهم صاحب الصلة، وكتب عدة مؤلفات ، وتوفى بقرطبة سنة ٥٣٨ هـ ( ١١٤٣ م )(٢).

ومنهم قاضى قضاة الشرق أبو العباس أحمد بن محمد بن زيادة الله الثقفى المعروف بابن الحلاّل . درس الفقه والحديث والأدب ، وولى خطة الشورى ، ثم ولى قضاء أوريولة ، ثم نقل إلى مرسية حيث تولى بها قضاء الجماعة ، وعلت مكانته لدى محمد بن سعد أمير الشرق ، ولكنه كان سيئ التصرف ، كثير الرعونة، ووشى به إلى الأمير ، فقبض عليه واستصفى أمواله ، واعتقله ببلدة أندة على مقربة من بلنسية ، ثم أمر به فقتل ، وكان مقتله فى سنة ٥٥٤ هـ( ١١٥٩ م )(٣) .

ومنهم أحمد بن عبد الملك بن محمد بن إبراهيم الأنصارى ، ويعرف بابن أبى مروان ، من أهل إشبيلية ، كان حافظاً متقناً ، فقيهاً ظاهرى المذهب على طريقة ابن حزم القرطبي ، وله مؤلف فى الحديث عنوانه « المنتخب المنتقى » جمع فيه ما افترق فى أمهات المسندات من نوازل الشرع . توفى قتيلا بلبلة خلال ثورة أهلها وتغلب الموحدين عليهم ، وذلك فى شعبان سنة ٥٤٩ هـ ( ١١٥٤م)(٤) .

---

(١) الإحاطة (مخطوط الإسكوريال) لوحة ٢٥٦ .

(٢) ترجمته فى الصلة رقم ٦٤٩ ، وكذلك فى **P. Boigues: ibid; No 164**

(٣) ترجمته فى التكملة لابن الأبار ج ١ رقم ١٧٤ .

(٤) ترجمته فى التكملة لابن الأبار ج ١ رقم ١٦٢ .

وأبو جعفر أحمد بن عبد الرحمن البطروجي ، وقد نبغ فى الفقه والحديث، وكتابة السير ، وكان من أشهر حفاظ عصره ، وتوفى بقرطبة سنة ٥٤٢ هـ (١١٤٧ م)(١) .

ويوسف بن عبد العزيز بن يوسف بن فيرُّه الليثى ، ويعرف بابن الدباغ ، أصله من أهل أندة ، وسكن مرسية ، ودرس على أبى على الصدفى ، وكان من أنبه تلاميذه . ونبغ فى الحديث والرواية ، وكتب عدة مصنفات منها «كتاب طبقات المحدثين » و«طبقات أئمة الفقهاء » ، ورسالته فى الحفاظ ، وغيرها . وتوفى سنة ٥٤٦ هـ (١١٥١ م)(٢) .

وأبو بحر سفيان بن أحمد العاصى الأسدى ، أصله من شرقى الأندلس من مدينة مربيطر من أعمال بلنسية ، برع فى الحديث والأدب والرواية ، وكان حسبما يصفه ابن بشكوال من جلة العلماء ، وكبار الأدباء ، سمع منه وحدث عنه كثير من أهل عصره . وكان من شيوخ ابن بشكوال . وتوفى بقرطبة سنة٥٤٢هـ (١١٤٧ م)(٣) .

ومنهم أحمد بن عبد العزيز بن محمد الأزدى ، وهو شقورى الأصل ، نشأ ودرس بمرسية . وكان فقيهاً متمكناً ، حافظاً ، بصيراً بالفتوى . ولى قضاء شاطبة مدة ، أيام الأمير محمد بن سعد بن مردنيش ، ثم ولى إلى جانبه قضاء أوريولة ، ولما نكب قاضى الجماعة أبو العباس بن الحلال ، نكب معه ، واعتقل شهوراً ، ثم أطلق سراحه ، وأعيد إلى قضاء أوريولة ، ومنصب الشورى بها ، إلى أن توفى فى سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٩ م)(٤) .

وعلى بن صالح بن أبى الليث الأسعد بن الفرج ، أبو الحسن بن عز الناس، أصله من طرطوشة ، ونشأ بميورقة ، وتجول فى بلادالأندلس يدرس أينما حل ، ويتلقى العلم عن أقطاب عصره ، وكان من أساتذته أبوبكر بن العربى ، وأبوالقاسم بن ورد، وأبوالوليد بن رشد، وبرع فى الفقه والأصول والحديث، وكان فى نفس الوقت أديباً شاعراً ، خدم الأمير أبى زكريا بن غانية ، أيام إمارته

---

(١) ترجمة فى الصلة رقم ١٧٩ ، وكذلك فى P· Boigues : ibid;No 168

(٢) ترجمة فى الصلة رقم ١٥١٠ وكذلك فى P. Boignes : ibid;No 176

(٣) ترجمة فى الصلة رقم ٥٢٦ ، وكذلك فى P. Biogues : ibid;No 147

(٤) التكملة لابن عبد الملك — مخطوط خزانة الرباط المصور ، السفر الأول لوحة ٤٤ ، والتكملة لابن الأبار رقم ١٨٩ .

لبلنسية ، ثم صحبه إلى قرطبة ، ولازمه إلى أن توفى بغرناطة فى سنة ٥٤٣ هـ ، فانتقل إلى شرقى الأندلس ، واستقر بدانية ، ومن مؤلفاته كتاب « العزلة » ، « وشرح معانى التحية » . ولد بطرطوشة سنة ٥٠٨ هـ ؛ وقتل بدانية بأمر محمد ابن سعد فى رمضان سنة ٥٦٦ هـ ( ١١٧٠ م )(١).

وعبد الله بن خلف بن محمد القرشى ، من أهل مورور ، وسكن إشبيلية ودرس بها وبقرطبة على أقطاب عصره ، ومنهم ابن حمدين ، وأبو محمد بن عتاب ، وأبو الوليد بن رشد ، وكان فقيهاً حافظاً متقناً لفروع المذهب المالكى ، ماهراً فى استنباط الأحكام ، بصيراً بالفتوى ، تولى قضاء بلده مورور حيناً ، ولد فى سنة ٤٩٣ هـ ، وتوفى سنة ٥٧٦ هـ ( ١١٨٠ م )(٢).

ومنهم محمد بن خلف بن صاعد الغسانى ، من أهل شلب ، يكنى أبا الحسن ويعرف باللبلى لأن أصله من لبلة ، درس على أقطاب عصره مثل أبى الوليد ابن رشد ، وأبى محمد بن عتاب ، وأبى عبد الله بن الحاج ، وبرع فى الفقه ، ورحل إلى المشرق ودرس هنالك على طائفة من أعلامه ، ثم عاد إلى الأندلس ، فعنى بتدريس الفقه والحديث وعقد الشروط ، ثم ولى قضاء شلب ، وتوفى فى سنة ٥٤٧ هـ ( ١١٥٢ م )(٣).

وكان من أشهر أئمة القراءات فى ذلك العصر ، أحمد بن على بن أحمد بن خلف الأنصارى المعروف بابن الباذش ، وأصله من جيان ، وكان إلى جانب ذلك أديباً متقناً للنحو ، بصيراً بالأسانيد ، ومن مؤلفاته « كتاب الإقناع » وهو من أجل كتب القراءات ، وكتاب « الطرق المتداولة » وهو فى القراءات أيضاً ، وكانت وفاته فى سنة ٥٤٠ هـ ( ١١٤٥ م )(٤) .

ونستطيع أخيراً أن نذكر من أكابر الفقهاء والحفاظ ، القاضى الأجل ، والعلامة الفقيه الحافظ ، عياض بن موسى اليحصبى السبتى ، وهو إن كان أكثر نسبة إلى المغرب ، إلا أنه درس بالأندلس ، وشارك فى الحياة العقلية الأندلسية مشاركة قوية .

ولد بثغر سبتة فى منتصف شعبان سنة ٤٧٦ هـ ، وتلقى العلم حدثاً عن أشياخ

---

( ١ ) التكملة لابن عبد الملك — مخطوط المتحف البريطانى — السفر الرابع لوحة ٤٨ ا .
( ٢ ) التكملة لابن عبد الملك — مخطوط الإسكوريال ( ١٦٨٢ الغزيرى ) .
( ٣ ) ترجمته فى التكملة لابن الأبار رقم ٦٧١ .
( ٤ ) ترجمته فى الإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٢٠١ — ٢٠٣ .

بلده ، ثم عبر البحر إلى الأندلس فى أوائل سنة ٥٠٧ هـ ، ودرس أولا بقرطبة ، وأخذ فيها عن ابن عتاب وابن حمدين وابن الحاج وغيرهم . وقصد بعد ذلك إلى مرسية ، وسمع بها على حافظها أبى على الصدفى ولازمه حيناً . ثم عاد إلى سبتة بعد أن قضى بالأندلس نحو عام ونصف ، وجلس للدرس والمناظرة ثم الشورى . وفى سنة ٥١٥ هـ ، ولى القضاء ، وكان ما يزال شاباً فى الثلاثين من عمره ، فسلك فيه طريقة مشكورة ، وأبدى حزماً فى تطبيق الأحكام والحدود ، واشتهر بغزير علمه وحفظه ، وصدق طريقته ، ودقة فتياه . ثم ولى قضاء غرناطة فى سنة ٥٣١ هـ ، فقام به خير قيام ، وأعرض عن الشفاعات والمؤثرات ، وصد أهل السلطان عن الباطل ، وتسبب فى تشريدهم عن الأعمال ، فاستاء الأمير تاشفين بن على ، لمسلكه ، وضاق به ذرعا ، وسعى فى صرفه عن قضاء غرناطة . فصرف عنه فى رمضان سنة ٥٣٢ هـ ، وعاد إلى سبتة ، ولبث بها مدة وهو عاكف على التدريس والفتيا . ثم ولى قضاء سبتة للمرة الثانية فى سنة ٥٣٩ هـ . ولما ظهر أمر الموحدين ، بادر بالدخول فى طاعتهم ، فأقره عبد المؤمن على ما كان عليه ، وصرف إليه شئون سبتة ، وحظى لديه بالتنويه والتقدير ، ثم رحل إليه ولقيه فى سلا ، وهو يتأهب للسير لحصار مراكش (سنة ٥٤٠ هـ) ، فأجزل الخليفة صلته وعاد إلى سبتة ، وهنا وقع الاضطراب بسبتة وخلع أهلها طاعة الموحدين ، وقتلوا عاملها الموحدى ، ونسب التحريض فى ذلك إلى القاضى عياض . وكان القاضى قد اتصل بيحيى بن غانية ، وانقلب على الموحدين ، فلما قدم الموحدون إلى سبتة ، وشددوا فى حصارها ، عاد القاضى فسعى فى الاعتذار إليهم ، واستدرار عطفهم ، فصفحوا عنه ، وعن أهل سبتة ، وسار القاضى بعد ذلك إلى مراكش (سنة ٥٤٣ هـ) ليستعطف الخليفة ويلتمس صفحه ، فعفى عنه عبد المؤمن ، وأكرم وفادته ، وعينه بمجلسه ، ثم مرض عياض بعد ذلك وتوفى بمراكش ، فى الليلة التاسعة من جمادى الآخرة سنة ٥٤٤ هـ (١١٤٩ م) ، وذلك كله حسبما سبق أن فصلناه فى موضعه .

وكان القاضى عياض من أكابر الحفاظ ، ومن أعظم أئمة عصره فى الحديث ، وفى فهم غريبه ومشكله ومختلفه ، بارعاً فى علم الأصول والكلام ، حافظاً للمختصر والمدونة ، متمكناً من الشروط والأحكام ، أبرع أهل زمانه فى الفتيا ، متقنا للنحو واللغة ، أديباً كبيراً ، وشاعراً مجيداً ، حسن التصرف فى النظم ،

كاتباً بليغاً ، وخطيباً مفوها ، عالماً بالسير والأخبار ، ولاسيما سير العرب وأيامها وحروبها ، وأخبار الصالحين والصوفية ، مشاركاً فى علوم كثيرة أخرى ، وكان حسن المجلس ، ممتع المحاضرة ، فصيح اللسان ، حلو المداعبة ، بساماً مشرقاً ، جم التواضع ، يمقت الإطراء والملق ، معتزاً بنفسه ومكانته ، محباً لأهل العلم ، معاوناً لهم على طلبه ، جواداً ، سمحاً ، من أكرم أهل زمانه ، كثير الصدقة ، والمواساة(١) .

وللقاضى عياض ثبت حافل من المؤلفات الجليلة منها كتاب « الشفاء بتعريف حقوق المصطفى » وهو أشهر كتبه . و « مشارق الأنوار » ، فى تفسير غريب الحديث . وكتاب « التنبيهات » . وكتاب « ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة المالكية » وكتاب « الإكمال » وكتاب « العيون الستة فى أخبار سبتة » وغيرها ، من كتب الدين واللغة والأنساب والتاريخ . ويعتبر القاضى عياض أعظم حفاظ المغرب وعلمائها فى عصره ، وقد خصه حافظ المغرب ومؤرخ الأندلس الكبير شهاب الدين المقرى بكتابه الضخم « أزهار الرياض فى أخبار القاضى عياض »(٢) .

وهناك جمهرة من الفقهاء والمحدثين ، الذين ظهروا فى العصر المرابطى ، وتجاوزوه الى العصر الموحدى ، نذكر بعضهم فيما يلى :

كان من هؤلاء ، محمد بن سليمان بن خلف النفزى من أهل شاطبة ويعرف بابن بركة ، كان فقيهاً متمكناً ، حافظاً للمسائل ، بصيراً بالفتوى ، خبيراً بعقد الشروط ، حافظاً لمتون الأحاديث ، مستظهراً لمقدمات ابن رشد ، وولى خطة الشورى(٣) بشاطبة ، واشتهر بكفايته وورعه ، وزهده ، وتوفى فى جمادى الأولى سنة ٥٥٣ هـ (٤) .

وأحمد بن يوسف بن اسماعيل بن صاحب الصلاة من أهل باجة ، وكان

---

(١) من ترجمة للقاضى عياض بمخطوط المكتبة الكتانية المحفوظ بخزانة الرباط ، برقم 553 ، وعنوانه «كتاب فى التعريف بعياض» ( لوحة ٧ — ١٤ ) .

(٢) ترجمة القاضى عياض فى الصلة ، رقم ٩٧٥ ، ووفيات الأعيان ج ١ ص ٤٦٩ ، وقلائد العقيان من ٢٢٢ — ٢٢٦ ، وابن الخطيب فى الإحاطة — مخطوط الإسكوريال السالف الذكر ، لوحة ٣٥٠ .

(٣) سوف نتحدث عن خطة الشورى فيما بعد عند الكلام على نظم الحكم الموحدى .

(٤) ترجمته فى التكلة ( القاهرة ) رقم ١٣٤٣ .

من رواة الحديث ، وأهل العناية به ، وقد توفى شهيداً ، حينما دهم النصارى مدينة باجة فى ليلة السبت ٢٢ من ذى الحجة سنة ٥٥٧ هـ[١].

وأبو جعفر أحمد بن مسعود بن إبراهيم بن يحيى القيسى المعروف بابن اشكبندر ، أصله من سرقسطة بالثغر الأعلى ، وولد بشاطبة ، ودرس بها ، ونبغ فى الحديث والرواية ، وكان من أكثر حفاظ عصره علما بأسماء الرجال ، ومواليدهم ووفياتهم ، حتى شبه فى ذلك بالقاضى عياض ، تولى خطة الشورى بشاطبة ، وحدث وأخذ عنه بعض علماء عصره ، وكان ورعاً منقبضاً زاهداً ، وتوفى بالمهدية وهو فى طريقه إلى الحج فى رمضان سنة ٥٥٨ هـ[٢].

ومحمد بن أحمد بن محمد بن أبى العافية ، من أهل مرسية ، ويعرف بالقسطلى لأن أصله من قسطلونة ، درس الفقه ، وبرع فى الفقه المالكى ، وقام بتدريسه ، وتولى الشورى ببلده ، وكان موصوفاً بالحفظ ، والعدالة والنزاهة وتوفى فى شهر ذى الحجة سنة ٥٥٨ هـ[٣].

ومحمد بن عبد الله بن أحمد بن مسعود بن صنعون بن شعبان ، وهو من أهل شلب ، ويعرف بالقنطرى ، نسبة إلى قنطرة السيف من أعمال الغرب ، وهى دار سلفه . درس بإشبيلية وقرطبة وألمرية على جماعة من أقطاب العصر مثل أبى بكر بن العربى ، وابن مغيث ، وابن أبى الخصال ، وغيرهم ، وبرع فى الحديث واشتهر بالحفظ والضبط ، وبرع كذلك فى الفقه ، وتولى خطة الشورى ، وكتب ذيلا لكتاب « الصلة » لابن بشكوال ، نقلها ابن الأبار كلها ، وتوفى بمراكش فى شهر ذى الحجة سنة ٥٦١ هـ[٤].

وأحمد بن عبد الرحمن بن عيسى بن إدريس التجيبى من أهل مرسية . درس على أبيه وعلى أبى على الصدفى وغيره من شيوخ العصر ، وبرز فى الفقه وعلوم القرآن ، مع مشاركة فى الأدب ، وتقلد خطة الشورى وأحكام القضاء بمرسية مدة طويلة ، ثم ولى قضاء شاطبة ، وعرف بالكفاية والنزاهة ، وتوفى بمرسية ثانى عيد الأضحى سنة ٥٦٣ هـ[٥].

---

(١) ترجمته فى التكملة رقم ١٧٦ .

(٢) ترجمته فى التكملة رقم ١٧٧ .

(٣) ترجمته فى التكملة رقم ١٣٦٣ .

(٤) ترجمته فى التكملة رقم ١٣٧٧ .

(٥) ترجمته فى التكملة رقم ١٨٨ .

ومن الفقهاء الذين جمعوا بين الفقه والأدب ، أحمد بن محمد بن هذيل الأنصارى من أهل بلنسية . درس بها وبقرطبة ، وبرع فى الفقه ، وتولى خطة الشورى ببلنسية ، ثم تولى قضاء بعض مدن ولاية قرطبة مثل إستجه وباغة . وكان فوق ذلك شغوفاً بالأدب ، بارعاً فى الكتابة ، محسناً للنظم ، وولى فى أواخر حياته خطة المواريث ببلنسية فى إمارة محمد بن سعد ، ثم اضطهد ، ونفى إلى جزيرة شُقر ، وهنالك توفى فى سنة ٥٥٨ هـ(١) .

ومنهم أحمد بن حسن بن سيد الحراوى من أهل مالقة ، ويعرف بابن سيد . درس الحديث واللغة والأدب على أقطاب عصره ، وكان بارعاً فى اللغة ، وفى النحو ، وله حظ من قرض الشعر الجيد ، وقد أورد لنا صاحب التكملة ، من شعره هذين البيتين :

وبين ضلوعى للصبابة لوعـــة ... بحكم الهوى تقضى على ولا أقضى
جنى ناظرى منها على القلب ما جنى ... فيا من رأى بعضاً يُعين على بعض

وتوفى ابن سيد فى نحو سنة ٥٦٠ هـ(٢) .

وظهرت بالأندلس فى العصر المرابطى ، حركة دينية خاصة ، اتخذت طابع التصوف ، وهى التى أسفرت عن قيام طائفة المريدين فى غربى الأندلس . وكان إمام هذه المدرسة العلامة الصوفى أبو العباس أحمد بن محمد بن موسى بن عطاء الله الصنهاجى المعروف بابن العريف . وهو من أهل ألمرية ، وبها ولد سنة ٤٨١ هـ . ودرس علوم القرآن والسير ، وغلب عليه الزهد والورع ، ومال إلى طرق الصوفية ، حتى غدا من أقطاب نحلتهم . وألف عدة تصانيف منها «كتاب المجالس» ، وكتب رسالة يحمل فيها على الفيلسوف ابن حزم ، وكانت بينه وبين القاضى عياض السبتى ، مراسلات ومجادلات فقهية . والظاهر أنه قد أثار بكتاباته وتعاليمه سخط الفقهاء المرابطين ، فسعوا به إلى على بن يوسف ، فاستدعاه إلى مراكش وبقى بها بحالة اعتقال حتى توفى ، وذلك فى صفر سنة ٥٣٦هـ (١١٤١م) ، واحتفل الناس بجنازته ، وندم أمير المسلمين على ما كان منه فى حقه(٣) .

---

(١) ترجمته فى التكملة رقم ١٧٩ .

(٢) ترجمته فى التكملة رقم ١٨٢ .

(٣) راجع ترجمة ابن العريف فى وفيات الأعيان (ج ١ ص ٦٧) . وكذلك فى الصلة لابن بشكوال ترجمة رقم ١٧٦ .

وكان ابن العريف ينظم الشعر الروحى الجيد ومن ذلك قوله :

سلوا عن الشوق من أهوى فإنهم ... أدنى إلى النفس من وهمى ومن نفسى
ما زلت مذ سكنوا قلبى أصون لهم ... لحظى وسمعى ونطقى إذ هُمُوا أنسى
وفى الحشا نزلوا والوهم يجرحهم ... فكيف قروا على أذكى من القبس
حلّوا الفؤاد ، فما أندى ولو وطئوا ... صخراً لجاد بماء فيه منبجس
لا تنهض إلى حشرى بحبهم ... لا بارك الله فيمن خانهم فنسى

وقد ذكرنا فيما تقدم أن أحمد بن قسىّ زعيم الثورة فى غربى الأندلس . كان من تلاميذ ابن العريف ، وأنه أخذ عليه بالمرية تعاليمه وطريقته ، وهى التى عرفت بطريقة « المريدين » ، واتخذها ابن قسى وأصحابه شعاراً لثورتهم فى الغرب . والظاهر أن ابن قسى ، هو المسئول عن تطور الدعوة ، إلى هذا الاتجاه الذى اتخذته فى الغرب ، والذى أسبغ عليها هذا الطابع الثورى الخاص ، وأن ابن العريف لم يكن له فى صوغها سوى العنصر الروحى . وعلى أى حال فإنه لا توجد لدينا عن دعوة « المريدين » معلومات كافية ، تفصح عن مبادئها الحقيقية ، وكل ما يقدمه إلينا ابن الأبار فى ذلك أنها كانت دعوة شعارها « التهليل والتكبير »(1). وقد كتب عبد الملك بن صاحب الصلاة ، مؤرخ الموحدين عن « ثورة المريدين » كتاباً يشير إليه فى مواضع كثيرة من تاريخه المسمى « المن بالإمامة » ، ولكن هذا الكتاب لم يصل إلينا . وما نود أن نشير إليه هنا ، هو أن ابن قسى كان جانب إلى جانب زعامته الثورية ، من علماء الدين والكلام ، وكان أديباً وشاعراً من شعراء العصر . وقد أوردنا فيما تقدم شيئاً من نظمه .

وكان من زملاء ابن قسىّ فى حمل لواء دعوة المريدين ، محمد بن عمر ابن المنذر الذى تتبعنا أخباره فيما تقدم . وكان فقيهاً متمكناً ، وأديباً بارعاً ، وشاعراً مقتدراً ، وقد أوردنا كذلك فيما تقدم شيئاً من نظمه .

وكان من أدباء المريدين وشعرائهم ، أبو بكر بن المنخّل الشلبى ، وزير ابن المنذر المتقدم وكاتبه . وكان شاعراً جزلا ، وقد انضم بعد انهيار الثورة فى الغرب . إلى الدعوة الموحدية ، وكان ممن مدح الخليفة عبد المؤمن خلال وجوده فى جبل طارق . وقد أورد لنا ابن الأبار طائفة من نظمه ، ومن ذلك قوله مخاطباً ابن المنذر :

---

(1) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ١٩٩ .

تجاف عن الدنيا وعن برد ظلها فإن برودا لايدوم حرور
فديتك لا تأسف لدنيا تقلصت وأوحش يوماً منبر وسرير
وإن عريت جرد المذاكى وذُللت أسودٌ فلم يسمع لهن زئير
وغودرت الرايات تهفو كأنها جوانح من ذعر عليك تطير
وكانت ولم تذعر عليك كأنها إذا رفرفت يوم الهياج نسور
طلبت وفاء والوفاء سجية ولكنها أم الوفاء نزور
رأيتك تبغى مثل نفسك فى العلا طِلابٌ لعمرى ما أردتَ عسير (١)

وظهر من علماء المتصوفة فى شرقى الأندلس ، أحمد بن محمد بن سفيان المخزومى ، أصله من جزيرة شقر من أعمال بلنسية ، ودرس الأدب ، ونظم الشعر ، ثم مال إلى التصوف والزهد ، وكان يعرف بالعابد . وكان ثرياً ، ينفق على الفقراء والمعوزين أموالا جليلة . وأدركته وحشة من أمير الشرق ، محمد بن سعد بن مردنيش ، فخلع طاعته ، ودعا للموحدين ، وامتنع بالجزيرة ، وذلك فى أواخر سنة ٥٦٦ هـ فأدى ذلك إلى محاصرته حيناً ، ولم ينفس عن أهله إلا وفاة ابن سعد بعد ذلك بنحو عام ، فى رجب سنة ٥٦٧ هـ .

ولابن سفيان شعر يقتصر على الزهد . ومن ذلك قوله من قصيدة :

كل عطاء فإلى علة لاشك يقضى ولوجه السقم
إلا الذى منك بلا علة يا خالق العرش ومجرى القلم
كل الورى لابس ثوب الدجا لولا سنى منك يجلّى الظلم (٢)

ومن أقطاب المحدثين والمتصوفة بالشرق أيضاً أبو العباس أحمد بن معد ابن عيسى بن وكيل التجيبى المتزهد ، ويعرف بابن الأقليشى ، أصلهم من أقليش ، ونزحوا إلى دانية ، وبها ولد أبو العباس ونشأ . ودرس ببلنسية ، وإشبيلية ، والمرية ، وبرع فى الحديث واللغة والأدب ، وكان من أساتذته أبو محمد البطليوسى ، وأبو بكر بن العربى ، وأبو القاسم بن ورد ، وغيرهم من أقطاب العصر . ورحل إلى المشرق فى سنة ٥٣٢ هـ ، فحج وجاور بمكة . وحدث

(١) راجع الحلة السيراء ص ٢٠٦ و ٢٠٧ .
(٢) ترجمته فى التكملة لابن الأبار ج ١ رقم ٢٠٠ ، وفى الذيل والتكملة لابن عبد الملك المخطوط السالف الذكر .

بالأندلس والمشرق ، وكان متصوفاً زاهداً ، أديباً شاعراً ، وله عدة تصانيف منها كتاب « الكواكب » وكتاب « النجم من كلام سيد العرب والعجم » وكتاب « الغرر من كلام سيد البشر » وكتاب « ضياء الأولياء » . وغيرها ومن نظمه فى الزهد قوله :

أسير الخطايا عند بابك واقف | له عن طريق الحق قلب مخالف
قديماً عصى عمداً وجهلا وغرّة | ولم ينهه قلب من الله خـائف
ثلاثون عاما قد تولت كأنهـــا | حلوم تقضت أو بروق خواطف
وجاء المشيب المنـذر المرء أنه | إذا رحلت عنــه الشبيبة تالف
فجد بالدموع الحمر حزناً وحسرة | فدمعك ينبى أن قلبك آسـف

وتوفى أبو العباس عند عوده من المشرق بمدينة قوص من صعيد مصر فى سنة ٥٥١ هـ ( ١١٥٦ م )(١) .

ومنهم محمد بن يوسف بن سعادة ، من أهل مرسية ، وسكن شاطبة . برع فى الفقة والحديث ، وأخذ عن جمهرة من أعلام عصره ، منهم أبو على الصدفى ، وأبو محمد بن عتاب ، وأبو بكر بن العربى وغيرهم . ثم رحل إلى المشرق ، وسمع بالإسكندرية ومكة ، وعاد إلى مرسية ، وكان فوق براعته فى علوم القرآن والتفسير ، والحديث ، بصيرا باللغة ، شغوفا بالتصوف مؤثرا له . ولى القضاء بمرسية ، ثم شاطبة ، وعرف بمقدرته ونزاهته ، وكان حافظا متقنا ، ثقة ؛ وتوفى مصروفا عن القضاء فى آخر سنة ٥٦٥ هـ(٢) .

ونبغ فى العصر المرابطى ، من أئمة اللغة ، أ و محمد عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسى . وأصله من بطليوس ، من غربى الأندلس ، كما يدل على ذلك اسمه . ولد بها سنة ٤٤٤ هـ ، وسكن بلنسية ، ودرس بها ، وكان فضلا عن أدبه البارع ، أمام عصره فى النحو وعلوم اللغة ، يجتمع إليه الناس من كل فج ، ليقرأوا عليه ، وليقتبسوا من غزير علمه ، وكان حجة ثقة ضابطاً . وله عدة مؤلفات قيمة ، اشتهر منها بالأخص شرحه لكتاب « سقط الزند »(٣) لأبى العلاء المعرى ، وهو شرح يصفه ابن خلكان بأنه أجود من شرح أبى العلاء صاحب

---

( ١ ) ترجمته فى التكملة لابن الأبار ج ١ رقم ١٦٧ .

( ٢ ) ترجمته فى التكملة رقم رقم ١٣٩٠ .

( ٣ ) نشر هذا الشرح بالقاهرة بعناية « لجنة إحياء تراث أبى العلاء المعرى » وأصدرته وزارة المعارف المصرية ( سنة ١٩٤٥ ) .

الديوان الذى سماه « ضوء السقط » . ومنها كتاب « الإقتضاب فى شرح أدب الكتاب » وكتاب فى الحروف الخمسة « السين والصاد والضاد والطاء والدال » ، وكتاب «الحلل فى شرح أبيات الجمل » و « الحلل فى أغاليط الجمل » ، وكتاب « شرح المطأ » . وله أيضاً « كتاب التنبيه على الأسباب الموجبة لاختلاف الأمة » . وكان ابن السيد فوق ذلك شاعراً مقتدراً ، وله نظم حسن ، فمن ذلك قوله :

أخو العلم حى خالد بعد موته وأوصاله تحت التراب رميم
ذو الجهل ميت وهو ماش على الثرى يُظن من الأحياء وهو عديم

وله من قصيدة يمدح فيها المستعين بن هود :

سقى عهدهم بالخيف عهد غمائم ينازعها مزن من الدمع هتان
أأحبابنا هل ذلك العهد راجع وهل لى عنكم آخر الدهر سلوان
ولى مقلة عبرى وبين جوانحى فؤاد إلى لقياكم الدهر حنان
تنكرت الدنيا لنا بعد بعدكم وحلت بنا من معضل الخطب ألوان
وحلنا سوام الحمد عنها لغيرها فلا ماؤها صدا ولا النبت سعدان
إلى ملك حاباه بالحسن يوسف وشاء له البيت الرفيع سليمان
من النفر الشم الذين أكفهم غيوث ولكن الخواطر نيران

وتوفى ابن السيد بمدينة بلنسية فى منتصف رجب سنة ٥٢١ هـ ( يونيه ١١٢٧ م)(١)

وكان من أعلام اللغويين أيضاً يونس بن محمد بن مغيث . وقد ولد بقرطبة سنة ٤٤٧ هـ ، ودرس بها وبرع فى علوم اللغة ، وكذلك فى الرواية وعلم الأنساب ، وفى الأدب ، وكان من أساتذة ابن بشكوال حسبما يحدثنا فى « الصلة » . وتوفى بقرطبة سنة ٥٣٢ ( ١١٣٧ م )(٢) .

ومنهم أحمد بن عبد الجليل بن عبد الله ، ويعرف بالتدميرى لأن أصله منه كورة تدمير ، ونشأ بالمرية ، وبرع فى الآداب العربية واللغات ؛ وكان له حظ من قرض الشعر ، وسكن بجاية وقتا فى ظل بنى حماد . وله عدة مؤلفات قيمة منها كتاب التوطئة فى العربية ، وشرح على كتاب الفصيح لثعلب ، وشرح

---

(١) راجع ترجمة البطليوسى فى وفيات الأعيان ( ج ١ ص ٢٣٢ و٢٣٣ ) ، وفى الصلة لابن بشكوال الترجمة رقم ٦٤٣ .

(٢) ترجمته فى الصلة رقم ١٥٥٨ ، وكذلك فى Pons Boigues : ibid; No 161

لأبيات جمل الزجاجي ، وكتاب الفوائد والفرائد وغيرها . وتوفى بفاس سنة ٥٥٥ هـ[١] .

ومنهم عبد الله بن الحسن بن عبد الله بن يزيد السعدى ، من أهل قلعة يحصب ، أبو محمد ، درس على أبي جعفر البطروجي ، وأبي الحسن بن الباذش ، وكان متمكناً من الفقه ومن علم القراءات ، بارعاً فى اللغة والأدب ، متبحراً فى النحو ، مستظهراً لكتاب سيبويه ، مشاركاً فى عدة فنون أخرى . غادر موطنه الأصلى إلى بلدة القبذاق[٢] من أعمال جيان ، فاستوطنها ، وتوفى بها فى سنة ٥٥٩ هـ ، ( ١١٦٤ م )[٣] .

— ٢ —

وأما عن العلوم ، فنستطيع أن نقول إنها حظيت فى العهد المرابطى بنهضة زاهرة ، وإن لم تكن هذه النهضة فى الواقع سوى امتداد للنهضة الفكرية فى عصر الطوائف . وظهر فى العهد المرابطى عدد من الشخصيات اللامعة التى تعتبر من أقطاب العلم الأندلسى ، بل من أقطاب العلم فى سائر العصور والأمم .

أولهم الفيلسوف أبو بكر محمد بن يحيى بن الصائغ التجيبى المشهور بابن باجّة ، وهو سرقسطى ، نشأ فى أواخر دولة بنى هود ، ونبغ فى الرياضة والفلك والطبيعة والفلسفة ، فى ظل تلك المدرسة الرياضية ، التى ازدهرت فى ظل المقتدر ابن هود وولده المؤتمن . ولما ولى الأمير أبو بكر بن إبراهيم المسّوفى ، وهو ابن عم أمير المسلمين على بن يوسف وصهره ، حُكم سرقسطة فى سنة ٥٠٨ هـ ، استوزر أبا بكر ، واختص به ، وأغدق عليه ثقته ورعايته ، بالرغم مما كان ينسب إليه من الآراء الإلحادية . وقد حمل عليه معاصره الفتح بن خاقان فى كتابه المطمح ، ورماه بالإلحاد وانحلال العقيدة ، وقال فى حقه : « نظر فى تلك التعاليم ، وفكر فى أجرام الأفلاك وحدود الأقاليم ، ورفض كتاب الله الحكيم » . ولما سقطت سرقسطة فى أيدى الإسبان فى سنة ٥١٢ هـ ( ١١١٨ م ) ، غادرها ابن باجّة إلى إشبيلية ، ثم إلى شاطبة ، ثم نزح إلى المغرب ، وتوفى بفاس سنة ٥٣٣ هـ ( ١١٣٨م ) . ويعتبر ابن باجة من أعظم فلاسفة الأندلس ومفكريها . وقد كتب

---

( ١ ) ترجمة فى التكملة رقم ١٧٥ .

( ٢ ) القبذاق هى بلدة Alcaudete الحديثة ، وهى تقع على مقربة من جنوب غربى جيان .

( ٣ ) التكملة لابن عبد الملك ، مخطوط الإسكوريال ( رقم ١٦٨٢ الغزيرى ) .

نحو خمسة وعشرين كتابا لم يصلنا منها سوى القليل ، وكان ابن باجة فضلا عن ذلك أديباً شاعراً ، وله طائفة من الشعر الرصين الجيد ، فمن ذلك قوله فى رثاء حاميه الأمير أبى بكر :

سلام وإلمام ووسمى مزنة ... على الجدث الثانى الذى لا أزوره
أحق أبو بكر تقضى فلاترى ... ترد جماهر الوفود ستوره
لئن أنست تلك اللحود بلحده ... لقد أوحشت أقصاره وقصوره

وقوله :

ضربوا القباب على أقاصى روضة ... خطر النسيم بها ففاح عبيرا
وتركت قلبى سار بين حمولهم ... داعى الكلوم سيوف تلك العيرا
لا وافد جعل الغصون معاطفا ... لهم وصاغ الأقحوان ثغورا
ما مر بى ريح الصبا من بعدهم ... إلا سهرت له فعاد سعيرا(١)

ومنهم على بن عبد الرحمن بن يوسف بن مروان بن يحيى الخزرجي الطبيب ، أصله من طليطلة ، ونشأ بها ودرس ، وبرع إلى جانب تمكنه من الفقه ، فى علم الطب ، درسه على أبى المطرف بن وافد ، وهو يومئذ من أشهر أطباء الأندلس وعلمائها . واشتهر بمهارته ، فى طرق العلاج . ولما استولى القشتاليون على طليطلة فى سنة ٤٧٨هـ ( ١٠٨٥ م ) غادرها ، وتجول فى مختلف ربوع الأندلس ، ونزل بطليوس ثم إشبيلية ، ثم قرطبة ، وبها توفى سنة ٤٩٩ هـ ( ١١٠٥ م )(٢) .

ومنهم العلامة الطبيب والفلكى أمية بن عبد العزيز بن أبى الصلت . وقد ولد بثغر دانية سنة ٤٦٠ هـ ، ودرس على أقطاب عصره ، ولاسيما أبى الوليد الوقّشى قاضى دانية . وبرع فى الأدب والفلسفة والطب والفلك . غادر وطنه دانية ، وقد اضطربت بها الأمور ، ونزح إلى مصر فى سنة ٤٨٩ هـ ، فى خلافة المستعلى الفاطمى ولد المستنصر ، ووزيره الأفضل شاهنشاه ، تحدوه آمال كبيرة فى الظفر بحياة أكثر استقرارا ، وأوفر رزقاً ورغداً ، ونزل بثغر الإسكندرية ، وعاش به حيناً ، ثم قدم إلى القاهرة ، واتصل بالأفضل بواسطة بعض حاشيته ، فلم يفز بشىء مما كان يؤمل ، وأدركته خيبة أمل يعبر عنها فى شعره :

---

( ١ ) راجع الإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص٤١٢–٤١٦ . وقد سبق أن تحدثنا عن ابن باجة فى تاريخ مملكة سرقسطة فى كتابنا « دول الطوائف» . ويعرف ابن باجة فى البحث الغربى باسمه اللاتينى **Avempace**

( ٢ ) ترجمته فى الذيل والتكملة لابن عبد الملك – مخطوط المتحف البريطانى – السفر الرابع .

وكم تمنيت أن ألقى بها أحـداً   يسلى من الهم أو يعدى على النوب
فما وجدت سوى قوم إذا صدقوا   كانت مواعيدهم كالآل فى الكذب

وفى قوله : « ولم تطل مدة اللبث حتى تبينت بما شاهدته أنى فيها مبخوس البضاعة ، موكوس الصناعة ، مخصوص بالإهانة والاضاعة » . وأكثر من ذلك أن الأفضل أمر باعتقاله ، لأسباب لم توضحها لنا الرواية توضيحاً كافياً . وأمضى فى هذا الاعتقال بضعة أعوام ، وكتب فى معتقله عدة من مؤلفاته ، منها رسالة فى العمل بالاصطرلاب ، وكتاب الوجيز فى علم الهيئة ، وكتاب الأدوية المفردة ، وكتاب تقويم الذهن ، وهو فى المنطق . وفى سنة ٥٠٥ هـ ، أفرج عنه ، وأمر الأفضل بنفيه من مصر ، فسار إلى الإسكندرية ومنها إلى إفريقية ، حيث نزل بالمهدية ضيفاً على أميرها أبى الطاهر يحيى بن تميم الصنهاجى ، فأكرم وفادته ، وعلت لديه منزله ، وكتب له عن مصر رسالة الموسومة « بالرسالة المصرية » ، وفيها يصف « ما عاينه من أرض مصر ، وما عاناه » ، ويصف جغرافية مصر ، ونيلها ، وسكانها ، وآثارها ، ويحمل على سكان مصر ، وينعتهم « باتباع الشهوات ، والانهماك اللذات ، والاشتغال بالترهات ، والتصديق بالمحالات ، وضعف المرائر والعزمات » ، ويحمل على علمائها المعاصرين ، وينعتهم بأنهم « رعاع وغثاء ، وجهلة ودهماء »(١) . ولما توفى الأمير يحيى بن تميم ، استمرت حظوته ومكانته لدى ولده على بن يحيى . وكتب له كتاب الحديقة أو « حديقة شعراء الأندلس » على نمط كتاب « يتيمة الدهر » للثعالبى . وكان أمية ابن أبى الصلت ، فوق علمه الغزير ، أديباً ممتازاً وشاعراً جزلا . وله ديوان شعر أشار إليه ابن خلكان ، وأورد لنا طرفاً من نظمه ، ومنها تلك الأبيات التى قالها قبيل وفاته ، وأوصى بأن تكتب على قبره :

سكنتك يا دار الفنـاء مصدقا   بأنى إلى دار البقـاء أصـير
وأعظم مافى الأمر أنى صائر   إلى عادل فى الحكم ليس يجور
فياليت شعرى كيف ألقاه عندها   وزادى قليـل والذنوب كثير
فإن أك مجزياً بذنبى فإننى   بشر عقاب المذنبين جـدير
وإن يك عفـو عنى ورحمـة   فثم نعيم دائم وسـرور

---

(١) راجع الرسالة المصرية ، وقد نشرت بعناية الأستاذ عبد السلام هارون ، ص ٢٤ و ٣٠ .

وتوفى ابن أبى الصلت سنة ٥٢٩ هـ ( ١١٣٥ م ) أو فى سنة ٥٤٦ هـ ( ١١٥١م) وفق رواية أخرى[1] .

ومنهم بنو زهر ، وهى الأسرة الشهيرة التى لمعت فى ميدان الطب والعلوم الطبيعية والكيمائية . وأصلهم من إشبيلية ، ولكن عميدهم الأكبر ، وهو عبد الملك ابن محمد بن مروان بن زهر الأيادى ، نزح من إشبيلية إلى دانية . وكان فقيهاً حافظاً ، روى بالأندلس عن طائفة من أهلها ، ثم رحل إلى المشرق ، وحج ، ودرس بمصر والقيروان ، ثم عاد إلى الأندلس ، واستوطن دانية . وكان متفننا فى علوم كثيرة ، ولا سيما الطب ، الذى عنى بدراسته فى المشرق على يد أقطابه ، حتى نبغ فيه ؛ وكان ذلك بداية هذه البراعة الطبية الفائقة ، التى شملت أسرته الشهيرة ، وامتدت إلى أبنائه واحفاده . وتوفى عبد الملك بدانية ، وجاء من بعده ولده أبو العلاء زهر بن عبد الملك ، فكان صنو أبيه فى دراسة الطب ، والنبوغ فيه ، وبدأ حياته بدراسة الحديث فى قرطبة ، ثم مال إلى علم الطب ، فتلقاه عن أبيه ، وبرع فيه براعة غلبت لديه على كل صفة أخرى ، حتى غدا عمدة عصره فى الطب والعلوم الطبيعية ؛ ومن مؤلفاته «كتاب الطرر» ، الذى كُتب عنه ، و«كتاب فى الأدوية» . وكان مع براعته فى الطب أديباً ، وشاعراً مقتدراً ، ومن نظمه قوله :

يا راشقى بسهام ما لهـــا غرض   إلا الفؤاد وما منه لها عوض
ومُمرضى بجفون كلها غنج   صحت وفى طبعها التمريض والمرض
جُدْ لى ولو بخيال منك يطرقنى   فقد يسُد مسدّ الجوهر العرض

وتوفى زهر بن عبد الملك ، منكوباً على قول ابن الأبار ، بقرطبة فى سنة ٥٢٥ هـ ( ١١٣١ م ) ، ثم احتمل رفاته ودفن فى إشبيلية .

وجاء من بعده ولده أبو مروان عبد الملك بن زهر ، وهو المعروف فى الغرب باسم Avenzoar . وقد برع عبد الملك فى الطب براعة أبيه وجده ، وذاع صيته فى الأندلس والمغرب . ويعتبر عبد الملك بن زهر أعظم طبيب فى العصور الوسطى بعد أبى بكر الرازى ، ويعتبره تلميذه ابن رشد أعظم طبيب بعد جالينوس . وقد عاش ابن زهر فى إشبيلية ، واتصل بالمرابطين وصنف

---

( ١ ) ترجمته فى ابن خلكان ج ١ ص ٩٩ ، والقفطى فى أخبار العلماء ص ٥٧ ، وكذلك فى P. Boigues : ibid. ; No 159

للأمير أبى إسحاق بن يوسف بن تاشفين كتابه المسمى «الاقتصار فى صلاح الأجساد . على أن أعظم مؤلفات ابن زهر هو كتابه «التيسير» وهو من أعظم مراجع الطب فى العصور الوسطى ، وقد ترجم إلى اللاتينية فى عصر مبكر . ووُشى به إلى أمير المسلمين على بن يوسف ، فاستدعى إلى مراكش وسجن بها مدة ثم أفرج عنه ، وعاد إلى بلده إشبيلية وتوفى بها سنة ٥٥٧ هـ ( ١١٦٢ م) . وخلفه فى مهنته ولده الطبيب الأشهر أبو بكر بن زهر ، وحظى لدى حكومة الموحدين وهو أكثر انتساباً إلى عصر الموحدين ، ومن ثم فسوف نعود إلى ذكره فى موضعه المناسب(١).

ومنهم العلامة الزراعى أبو عبد الله محمد بن مالك التغنرى ، أصله من قرية تغنر من أعمال غرناطة . عاش فى أوائل القرن السادس الهجرى ، وسكن إشبيلية ، ودرس العلوم الزراعية على ابن بصّال الطليطلى ، وبرع فيها ، وكتب عنها كتابه المسمى «زهر البستان ونزهة الأذهان» وهو يسمى أحياناً باسم الحاج الغرناطى ، وابن حمدون الإشبيلى .

إن هذا الثبت الحافل من المفكرين والعلماء الأندلسيين ، الذين ازدهروا فى العصر المرابطى ، فى مختلف ميادين العلوم والآداب ، ومنهم عبقريات بارزة يزدان بها تاريخ الحركة العقلية الأندلسية ، يحمل على كثير من التأمل . وإنه ليغدو من الصعب علينا إذا ما استعرضناه فى شيء من الروية ، أن نقول إن الحكم المرابطى ، قد جنى بأساليبه الرجعية على سير الحركة الفكرية الأندلسية ، وعاقها عن التقدم والازدهار . وكل ما يمكن أن يقال فى ذلك هو أن ما اتخذه المرابطون من إجراءات للحجر على الدراسات الكلامية والشرعية والفلسفية ، وتوجيهها إلى وجهاتهم الخاصة ، ومطاردة كتب الأصول ، قد يكون له أثره فى سير هذه الدراسات ، وإن كان لا يحق لنا أن نبالغ فى تقدير هذا الأثر . أولا لأن هذه الدراسات كانت كغيرها من الدراسات العلمية والأدبية ، قد تأثلت جذورها منذ بعيد ، وثانيا لأن العهد المرابطى لم يطل أمده بالأندلس ، ولم يلبث أن زالت بزواله السريع ، كل ضروب الحجر والمطاردة التى اتخذت ، ثم جاءت ثورة الأندلس ضد الحكم المرابطى ، فكانت عاملا له أثره فى إذكاء الحركة العقلية ، ومدها بعناصر جديدة من القوة والاندفاع .

(١) وردت فى الذيل والتكملة ترجمة حسنة لابن زهر وجده عبد الملك – مخطوط المتحف البريطانى السفر الرابع . ووردت فى التكملة لابن الأبار ترجمة لزهر بن عبد الملك رقم ٩٠٧ . وراجع عن بنى زهر أيضاً «المطرب من أشعار أهل المغرب» لابن دحية ص ٢٠٣ ، وفى نفح الطيب ج ١ ص ٤٣٧–٤٣٩ .

# الكتاب الخامس

# المَمالك الإسْبانيّة النصْرانية
# خلال العصْر المُرابطى
# وأوائل العصْر الموحّدى

# الفصل الأول

## ألفونسو المحارب وأورّاكا ملكة قشتالة

### وبداية عهد ألفونسو ريمونديس

الممالك الإسبانية النصرانية عند مقدم المرابطين . ألفونسو السادس بعد الزلاقة . إفتتاحه لشنترين . موقعة أقليتس ومصرع الإنفانت سانشو . موت ألفونسو السادس . الكونت ريمون البرجونى وأخوه الكونت هنرى . زواج الأول من أوراكا ابنة ألفونسو الشرعية . زواج الثانى من تريسا ابنته غير الشرعية . وصية ألفونسو السادس عن وراثة العرش وما يقترن بذلك من الشروط . موافقة الكورتيس عليها . أوراكا ملكة قشتالة ، زواج ألفونسو المحارب من أوراكا . التنافس والشقاق بين الزوجين . أوراكا وصفاتها وموقفها . ألفونسو وأهبته . محاصرته لأوراكا . هنرى البرجونى وموقفه . الأمير الطفل ألفونسو ريمونديس . الدسائس من حوله . فرار أوراكا وتصرفاتها . الحرب بين الفريقين وهزيمة قوات قشتالة . ألفونسو ريمونديس ملك جليقية . الحرب بين أهل جليقية وألفونسو . فرار الأسقف خلمريث بالأمير الطفل . حشده لقوات جليقية ، وانضمام الكونت هنرى إليه . انسحاب ملك أراجون . الأسقف خلمريث وصفاته وأطماعه . انقسام اسبانيا النصرانية . تفاقم الخلاف بين أوراكا وألفونسو . محاولة الصلح ومعارضة الأسقف خلمريث . إعلان بطلان الزواج . معارضة ألفونسو فى ذلك . استهتار الملكة أوراكا . الأسقف يؤيد ألفونسو ريمونديس فى جليقية . استياء أوراكا من مسلكه وسيرها لمحاربته . تدخل الملكة تريسا . ثورة أهل شنت ياقب ضد الأسقف . التجاؤه إلى حماية أوراكا . الصلح بين الأم وولدها . مسير أوراكا إلى شنت ياقب ومقاومتها . عودها إلى مهاجمة المدينة بقوات مجتمعة . تغلبها على المدينة وإخضاعها . عودة الأسقف وارتقاؤه إلى المطرانية . الحرب بين أوراكا وتريسا . الصلح بينهما . أوراكا تقبض على المطران ديجو وإخوته . غضب الشعب والبابا . أوراكا تطلق سراحه . الحرب بين المطران وبين الملكة . الصلح بين الملكة وابنها والمطران . سعى البابا إلى تحقيقه . وفاة أوراكا . صفاتها واختلاف المؤرخين فى الحكم عليها . ألفونسو ريمونديس ملك قشتالة وليون . الصراع بينه وبين ألفونسو المحارب . اهتمامه بالقضاء على سلطان الأشراف . أسرة لارا ومطاردتها . مسيره لمحاربة الملكة تريسا . خضوع البرتغال . زواج ألفونسو ريمونديس من ابنة رامون برنجير . اهتمامه بمحاربة الأندلس . الغزوات المتبادلة بين المسلمين والنصارى .

تتبعنا فيما تقدم ، فى كتابنا « دول الطوائف » ، تاريخ الممالك الإسبانية النصرانية خلال القرن الحادى عشر الميلادى ، حتى وفاة ألفونسو السادس ملك قشتالة ، عقب موقعة أقليش فى يونيه سنة ١١٠٨ ( شوال سنة ٥٠١ هـ ) . ونود الآن أن نستأنف تاريخ هذه الممالك النصرانية ، خلال العصر المرابطى ، وحتى مقدم الموحدين إلى شبه الجزيرة .

حينما قدم المرابطون إلى شبه الجزيرة لإنجاد دول الطوائف ، ورد عدوان اسبانيا النصرانية عنها ، كانت الممالك الإسبانية النصرانية ثلاث ، هى مملكة قشتالة ، وهى أكبرها رقعة ، وأوفرها قوة وموارد ، ومملكة أراجون ، وإمارة برشلونة أوقطلونية ، وهى أصغرها . وكانت مملكة ناڤارا القديمة ( نبرّة ) ، قد اختفت يومئذ ، مذ تآمر على اقتسامها سانشو راميريس ملك أراجون ، وألفونسو السادس ملك قشتالة ، واستولى الأول على نصفها الشرقى مما يلى جبال البرنيه واستولى الثانى على نصفها الغربى مما يلى نهر إيبرو ، وذلك فى سنة ١٠٧٦ م ، ولم تظفر باسترداد استقلالها ، والعود إلى استئناف دورها فى شبه الجزيرة كمملكة مستقلة إلا بعد ذلك بنحو نصف قرن ، وذلك عقب وفاة ألفونسو المحارب ملك أراجون فى سنة ١١٣٤م .

وكان ألفونسو السادس ، عميد الممالك الإسبانية النصرانية وقطبها ، حين قدم المرابطون إلى شبه الجزيرة ، وحين اشتبك معهم فى موقعة الزلّاقة العظيمة ، على رأس الجيوش النصرانية المتحدة ، ولقى فيها هزيمته الساحقة ( ٤٧٩ هـ — ١٠٨٦ م ) ، بيد أنه نهض من غمار الهزيمة ، وعاد يقود الجيوش القشتالية مرة أخرى ، لمقاتلة المسلمين وغزو أراضيهم . ولبثت قواته فى حصن لييط حيناً تعيث فى أحواز مرسيه ولورقة ، إلى أن حاصره المرابطون وقوات الطوائف ، ولم تستطع اقتحامه ، حتى عاد ألفونسو لإنجاد فلول حاميته ، ثم أخلاه (١٠٨٩م) . ثم غزا شنترين من قواعد ولاية الغرب واستولى عليها سنة ١٠٩٣ . واشترك بعد ذلك فى حوادث بلنسية ، عقب وفاة السيد الكمبيادور ، وعاث فى أنحائها ، ثم غادرها حينما شعر بتفوق القوات المرابطية المتأهبة لاستردادها ( ١١٠٢م ) . ولما توفى يوسف بن تاشفين ، وخلفه ولده على ، عبر إلى شبه الجزيرة ، معتزماً أن يستأنف عهد الجهاد ، وعبرت معه قوات مرابطية ضخمة ، ونفذت الجيوش المرابطية مرة أخرى إلى أراضى قشتالة ، يقودها الأمير أبو الطاهر تميم ابن يوسف ، والتقت فى ظاهر أقليش بقوات قشتالة ، وكان الملك الشيخ — ألفونسو — قد تخلف عن قيادتها لضعفه ، وبعث معها ولده الطفل سانشو ليبث فيها روح الإقدام والحماسة . وشاء القدر أن تكون موقعة أقليش « زلاقة » أخرى سحقت فيها الجيوش القشتالية ، وقتل فيها الإنفانت الصبى سانشو ، وحيد ألفونسو وولى عهده ، وعدة من قادة قشتالة وأكابرها ( ٢٩ مايو سنة ١١٠٨م) وذلك كله حسبما فصلناه فى مواضعه . ولم يعش ألفونسو بعد هذه الضربة طويلا ،

وتوفى فى ٢٩ يونيه من العام التالى ، وقد أشرف على الثمانين من عمره ، بعد حكم دام أربعة وأربعين عاما ، ودفن بدير ساهاجون .

وقد تحدثنا من قبل عن أعمال ألفونسو السادس وإصلاحاته الداخلية ، وعن تكوين المجتمع القشتالى فى عصره ، وعن سير التشريع ، وما تميز به عهده من ظهور نفوذ البابوية ، وبدأ مزاولة رياستها الروحية على الملوكية الإسبانية[1] ، فلا محل لأن نعود هنا إلى ذكر هذه الموضوعات. بيد أن الذى يهمنا هنا هو ما انتهى إليه أمر وراثة العرش . ذلك أن ألفونسو السادس توفى دون وارث للعرش ، بعد مقتل ولده الوحيد سانشو فى معركة أقليش . وكان مما تميز به عهد ألفونسو ، مقدم كثير من الفرسان القرنسيين الذين تحدوهم الروح الصليبية إلى اسبانيا ، ليشتركوا مع القوات القشتالية فى محاربة المسلمين . وكان من بين هؤلاء إثنان من الأشراف من أقارب الملكة كونستانس زوجة ألفونسو الأولى ، هما الكونت ريمون البرجونى ، وابن عمه الكونت هنرى ، وقد اشترك كلاهما ، إلى جانب ألفونسو ، فى كثير من المعارك التى خاضها ضد المسلمين ، وظهر فيها بإقدامه وبسالته ، فرأى ألفونسو إثابة لهما أن يزوجهما من ابنتيه أورّاكا وتريسا ( سنة ١٠٩٢ م ) ، فتزوج الكونت ريمون بأورّاكا ، وهى ابنة الملك الشرعية من زوجته الملكة كونستانس ، وتزوج الكونت هنرى بتريسا ، وهى ابنة غير شرعية لألفونسو من خليلته خمينا نونيس ، ومنح ألفونسو أورّاكا وريمون إمارة ولاية جليقية ، ومنح تريسا وهنرى إمارة الأراضى التى انتزعها من المسلمين فى ولاية لوزيتانيا ( شمالى البرتغال ) ، وهى التى غدت فيما بعد مهداً لقيام مملكة البرتغال الحديدة فى شبه الجزيرة . وهكذا بدأ النفوذ الفرنسى يتسرب إلى شئون قشتالة السياسية ، بعد أن تسرب إلى شئونها الدينية على يد الرهبان الدومنيكانيين ، وعميدهم المطران برنار ، مطران طليطلة ورئيس الكنيسة الإسبانية .

وقد ذكرنا فيما تقدم أن المُلْك فى قشتالة كان وراثياً . وقد واجهت ألفونسو بعد مصرع ولده الوحيد سانشو فى موقعة أقليش مشكلة صعبة ، هى مشكلة وراثة العرش . ومن ثم فقد عنى بحلها فى وصيته التى وضعها قبيل وفاته . وكان الكونت ريمون البرجونى ، قد توفى منذ سنة ١١٠٧ م ، بعد أن أنجب

(١) راجع كتاب دول الطوائف ص ٣٨٧ – ٣٩٠ .

من زوجه أوراكا ولدين : هما ألفونسو وسانشا . وقد نصت وصية ألفونسو أن تتولى عرش قشتالة بعد وفاته إبنته أوراكا ، أرملة الكونت ، ورأى فى الوقت نفسه تقوية لجانب العرش وسعياً إلى توحيد اسبانيا النصرانية ، أن تتزوج أوراكا من ألفونسو الأول المحارب ملك أراجون ونافارا . وعلى أثر وفاة الملك الشيخ اجتمع نواب المملكة ( الكورتيس ) من الأشراف والأساقفة ورجال الدين وحكام الولايات والفرسان فى مدينة ليون ، وأقروا وصية الملك الراحل : وكان أشراف قشتالة ، بالرغم من تخوفهم من جرأة ملك أراجون ، يخشون ألاّ تقوى أورّكا وحدها على تحمل أعباء الملك ، والدفاع عن المملكة ، وأنه لابد أن يكون إلى جانبها أمير قوى يستطيع أن يرد هجمات المسلمين ، ومن ثم فقد وافقوا على هذا الزواج . ووافقت أوراكا رغم ارادتها تنفيذاً لوصية أبيها ، وتقرر أن تحل مسألة العرش على النحو الآتى : أن تكون أوراكا ملكة قشتالة وليون وأشتوريش وأن يمنح ولدها الطفل ألفونسو ريموندس ( أى ابن ريمون ) مملكة جليقية مع بقائها تحت سلطان قشتالة ، وأن يمنح الكونت هنرى زوج أختها تريسا إمارة البرتغال كتابع لعرش قشتالة . فإذا لم تعقب أوراكا من زواجها بألفونسو ملك أراجون ، فإن المملكة كلها تؤول بعد وفاتها ، إلى ولدها ألفونسو ريموندس ، أعنى إلى حفيد ألفونسو السادس .

وتم زواج ألفونسو الأول وأوراكا فى حصن منيون فى أكتوبر سنة ١١٠٩م . وفى العام التالى ( ١١١٠ م ) ، سارت الملكة فى قوات قشتالة مع زوجها الملك ، إلى أراضى ناجرة وسرقسطة الإسلامية. وكان المرابطون قد احتلوا عندئذ سرقسطة ، فعاث ألفونسو فى تلك المنطقة ولكنه لم ينل مأرباً . وسرعان ما دب الشقاق بينه وبين زوجه أوراكا ، وظهر الخلاف واضحاً بين الزوجين فى كل شىء . وكان التنافس بين الزوجين على السلطان مصدر الخلاف الرئيسى . وكانت أوراكا امرأة وافرة الكبرياء والطموح ، فحاولت أن تستأثر بجميع السلطات فى قشتالة والأراضى التابعة لها ، وعمدت إلى إبعاد سائر الرجال الذين يشك فى ولائهم المطلق لها ، ورفعت من اصطفتهم إلى أرفع مناصب الدولة . فثار ألفونسو غضباً لذلك ، وصمم على ألا يتنازل عن حق من حقوقه الملكية . يقول المؤرخ لافونتى : «لقد اقترنا دون حنان، وكان الأمير الأرجونى موهوباً يتمتع بصفات الجندى الخشنة، أكثر منه بالخلال التى تجعل منه زوجاً رقيقاً . وكانت الملكة من جانبها لاتراعى

العناية والحزم فى بعض أعمالها الخارجية ، فانتهى الأمر ، بأن نبذ الملك كل اعتبار لزوجته ، وأخذ يسيئ معاملتها ، لا بالكلام فقط ، ولكن بالفعل أيضاً ، فكان يصفعها ويركلها برجليه . ورأى الأساقفة الذين لم يرقهم هذا الزواج منذ البداية ، أن أفضل مخرج من هذا الموقف المزرى هو الطلاق ، وأصغت الملكة إلى هذا الاقتراح ، لأنها كانت فضلا عما تلقاه من سوء المعاملة ، تشك فى صحة هذا الزواج . وكانت من جهة أخرى ترنو إلى الزواج من الكونت جومث دى كاند سبينا ، وكان أيام حياة أبيها يتطلع إلى ذلك ، وكانت بينه وبينها علائق مريبة »[1] .

— ١ —

وهنا تبدأ تلك الحرب الأهلية الشهيرة ، التى لبثت أعواماً طوالا ، تمزق اسبانيا النصرانية ، والتى كان بطلاها الرئيسيان ، ألفونسو ملك أراجون ، وأوراكا ملكة قشتالة .

أدرك ألفونسو منذ البداية ما تنطوى عليه زوجه من رياء وخديعة ، ومايشين سمعتها الأخلاقية من شائعات مريبة ، فاعتزم أمره واتخذ من حجة الدفاع عن طليطلة ذريعة ، ووضع فى معظم قلاع قشتالة ومدنها الرئيسية حاميات أرجونية . ولم يحجم عن محاصرة الملكة ذاتها فى قلعة كاستلار ( سنة ١١١١ م ) بحجة أنها تحاول بث الثورة ، وأنها بسوء سلوكها تصدع من هيبة العرش .

وكانت عناصر أخرى تتأهب لدخول المعركة . ذلك أن الأمير هنرى البرجونى أمير البرتغال ، وزوج تريسا أخت أوراكا ، كان يطمح إلى عرش قشتالة ، ويأتمر بها ، ومن أجل ذلك عبر إلى فرنسا ليبحث عمن يساعده فى محاربته لأوراكا ، ثم عاد إلى اسبانيا بطريق أراجون ، واتفق مع ألفونسو على أن يعمل معه لاتحاد أراضى ليون وقشتالة ثم يقتسمانها فيما بعد .

وكانت المؤامرات تحاك فى نفس الوقت حول الأمير الطفل ألفونسو ريموندیس ، وكان يعيش فى ضيعة صغيرة فى جليقية تحت رعاية وصيه الكونت بيدور دى تراڤا . فلما تزوجت أمه أوراكا بملك أراجون ، أراد الوصى أن يعلن الأمير الصغير ملكاً على جليقية وفقاً لوصية جده . وكان هنرى أمير البرتغال يؤيد هذا المشروع . ولكن أوراكا حينما سجنت فى قلعة كاستيلار ، بادرت فأرسلت رسلها إلى جليقية يطالبون إعلانها ملكة لها . ولكن أشراف جليقية خشوا من انتقام ملك أراجون .

---

[1] M. Lafuente : Historia General de Espana, T. III, p. 217

وكثرت الأهواء والدسائس ، وحاول بعض أشراف جليقية الثوار أن يختطفوا الملك الطفل من مقامه فى قلعة «سانتاماريا» ، حيث كانت الكونتة دى ترافا تسهر على حمايته . ولكن الكونتة دافعت عنه ببسالة ، وعاونها فى ذلك دىجو خلمريث أسقف شنت ياقب ، وفشلت المحاولة . وفى تلك الأثناء نجحت أوراكا فى الفرار من معتقلها بقلعة كاستلار ، فالتف حولها معظم أشراف قشتالة ، وقد ساءهم عنف ملك أراجون وتحديه . وأطلقت أوراكا العنان لأهوائها ، وحبت باصطفائها اثنين من الأشراف هما جومث جونثالث . وبيدرو جونثالث دىلارا ، وكان كلاهما من عشاقها ، وكلاهما يؤمل الوصول إلى العرش متى تم طلاقها . وكان ملك أراجون يضطرم سخطاً لهذا الاصطفاء المريب ، ويبث عيونه على الملكة الخئون فى كل خطواتها . وهكذا أضحى من المتعذر التوفيق بين زوجين يمقت كل منهما صاحبه ، ولم يلبث أن تحول النزاع المستمر بينهما إلى حرب علنية .

وكان هنرى أمير البرتغال ، يؤازر ملك أراجون فى هذا النزاع ، تحقيقاً لأطماعه . وكان ألفونسو قد استولى خلال ذلك على طليطلة ، وحاكمها يومئذ ألبار هانيس . وهكذا دوت صيحة الحرب الأهلية ، وتحركت قوات ليون وقشتالة لمؤازرة أوراكا ، وتحركت قوات أراجون والبرتغال ، والتقى الفريقان فى « كامبودى سبينا » بالقرب من سيبولفيدا من أعمال ولاية شقوبية . وكان يقود قوات قشتالة الكونت بيدرو دى لارا ، ولكنه ما لبث إزاء عنف هجوم الأرجونيين أن تخلى عن المعركة ، وفر إلى برغش ، وخلفه فى القيادة زميله الكونت جومث . وأسفرت المعركة فى النهاية عن فوز قوات أراجون ، وكان الكونت وكثير من أشراف قشتالة بين القتلى ( نوفمبر سنة ١١١١ م ) .

وعلى أثر ذلك اخترق الجيش الأرجونى قشتالة ، وهو يعيث فى أراضيها نهباً وتخريباً ، وعـزل الأساقفة من أنصار الملكة ، واعتدى الجند على الكنائس . وعندئذ خشى أشراف جليقية العاقبة ، فانضموا إلى الملكة ، وأعلنوا الأمير الطفل ألفونسو ريموندیس ملكاً على جليقية ، وقرروا أن ينقلوه لدى أمه فى قشتالة ، صحبة وصيه الكونت دى ترافا والأسقف خلمريث ، ومعهم فرقة قوية من الجند . وعلم ملك أراجون بذلك ، فخرج لصدهم ، ونشبت بين الفريقين على مقربة من أسترقة معركة حامية ، وكل يحاول أن ينتزع الملك الطفل . وهزم الجلالقة ، ولكن الأسقف خلمريث استطاع خلال المعركة أن يحمل الطفل وأن يفر به ناجياً

إلى حصن « أوسيون » حيث كانت أمه ، ثم حمله الإثنان خلال الجبال إلى شنت ياقب .

وغدا الأسقف خلمريت عندئذ روح كل مقاومة ضد ملك أراجون ، وأصدر نداء إلى أهل جليقية المخلصين ، واستطاع أن يضم إليه المنشقين منهم في جهة واحدة ، ولم يمض سوى قليل حتى استطاع هو والملكة أن يجمعا قوة كبيرة ، ونجح الأسقف أيضاً في أن يستميل إلى جانبه هنرى أمير البرتغال ، وكان قد بدأ يخشى سطوة ملك أراجون . وسارت القوات المشتركة إلى أسترقة لإنقاذ الحلالقة المحصورين بها . فلما شعر ملك أراجون بتفوق خصومه ، غادر أسترقة ، وارتد في قواته صوب بلد الوليد ، وهنالك حاول القشتاليون والحلالقة والبرتغاليون محاصرته ، ولكنه استطاع أن يقضى على محاولتهم ، وأن يرتد ظافراً إلى بلاده ( أبريل سنة ١١١٢ م ) .

ولابد لنا أن نذكر كلمة عن هذا الأسقف المغامر المحارب ، دىجو خلمريث ، فقد كان أسقفاً لشنت ياقب منذ سنة ١١٠١ م ، وكانت سيادته لهذه الأسقفية الهامة المتمدنة ، واحتكامه على ما بها من ثروات وموارد طائلة وأتباع عديدين ، تجعل منه عاملا هاماً في ذلك الصراع السياسى الذى تجوزه قشتالة . وكان الأسقف فوق ذلك رجلا رفيع المواهب ، شديد الحزم ، كثير الأطماع ، متحفزاً ، شغوفاً بتوسيع سلطانه وحقوق كنيسته ، قليل الاكتراث بالوسيلة ، وهو ما كان يتفق مع ضعف الخلق السياسى في هذا العصر ، الذى كان ينتقل فيه الناس بسهولة ودون حرج من حزب إلى حزب ، ويحنثون في كل وقت بالعهد أو بالصداقة المعقودة . وهكذا كان دون دىجو ممثلا بارزاً لأهل عصره ، وللطبقة السائدة التى كانت تضم الأشراف ورجال الدين ، وهكذا ، سوف نراه صديقاً للملكة أوراكا ثم عدواً لها ، وصديقاً لتريسا ملكة البرتغال ثم عدواً لها ، وصديقاً للملك الصبى ألفونسو ، ثم خصماً له . وسوف نراه يحارب إلى جانبهم ثم يحارب ضدهم طوراً بعد طور[١] .

وتعاقبت الحوادث والقلاقل في الأعوام التالية ، وانقسمت اسبانيا النصرانية إلى ثلاثة أحزاب ، كان أولها وأقواها من حيث البلاد والموارد حزب ملك أراجون ،

---

(١) R. Altamira : Historia de Espana y de la Civlización Espanola Barcelona (1900) V. I. p. 357 & 858

وثانيها حزب قشتالة الذى ينضوى تحت لواء الملكة أوراكا ، ويؤازره رجال الدين فى قشتاله وليون وجليقية ومن ورائهم الشعب، وثالثها حزب الأشراف ، وهو يعارض حكم الملكة وحكم ملك أراجون ، ويعقد آماله على الملك الطفل ألفونسو ريموند يس ملك جليقية ، ويؤازره معظم الفرسان فى سائر أنحاء المملكة .

وكان من الواضح أن الخلاف بين الملكة وزوجها قد وصل إلى حدود لم تعد تنجح معها أية محاولة للتوفيق ، وقد بذلت مثل هذه المحاولة بالفعل على يد كبراء قشتالة ، وعقد صلح اتفق فيه على توزيع البلاد والحصون على الملكين . ولكن ألفونسو ما لبث أن استولى على كثير من الحصون التى أعطيت للملكة . وعندئذ غضب القشتاليون لذلك ، وأعلنوا أن أورّاكا هى ملكة قشتالة الشرعية . ونهضت الملكة ، وسارت فى قواتها وقوات جليقية لمحاربة ألفونسو . وبعث ألفونسو سفراءه فى طلب الصلح من جديد . ومال الأشراف إلى ذلك حقنا للدماء . ولكن الأسقف ديجو خلمريث ، عارض فى عقد الصلح أشد معارضة ، وأعلن بطلان الزواج المعقود بين الملك والملكة ، وخصوصاً بعد أن أعلن البابا أنه « عشرة محارم » وذلك بسبب القرابة الشديدة بين الزوجين . ولم تمض أشهر قلائل حتى أعلن رسول البابا فى مجلس عقد فى بالنسيا بطلان الزواج بصفة رسمية ، واغتبطت الملكة لذلك القرار . ولكن ملك أراجون أعلن بطلان القرار البابوى ، ثم قرنه بإعلان الحرب على قشتالة ، والاستيلاء على ولاية ريوخا .

وفى خلال ذلك ، كانت الفتن والقلاقل تتعاقب ، أحياناً فى صف أورركا ، وأحيانا ضدها . وكانت أورّاكا ماضية فى مسلكها المشين لاتنى على شىء ، وقد فاق استهتارها كل حد ، وتركت لخليلها الكونت پيدرو دى لارا كل الشئون ، وأضحت علائقها الغرامية فضيحة عامة ، يجرى ذكرها على كل لسان . وكان الأسقف ديجو من جهة أخرى يعمل بكل ماوسع لتوطيد مركز ألفونسو ريموند يس فى جليقية ، وذلك بالتعاون مع الكونت دى تراڤا مؤدب الملك وزملائه الثوار من أشراف جليقية . فثارت الملكة لمسلكه ، وسارت فى بعض قواتها إلى شنت ياقب التى غدت عندئذ مركزاً لهذه المحاولات ، فاضطر الأسقف إلى إعلان توبته وطاعته . ولكن حدث عندئذ ، أن سار الكونت دى تراڤا ، وتريسا ملكة البرتغال فى قواتهما إلى شنت ياقب ، وحاصرا الملكة أوراكا . وكانت تريسا ، قد كسبت بانضمامها إلى الثوار ، دفع حدودها إلى أراضى مدينتى

توى ، وأورنسى . ولم تستطع أوراكا مغادرة شنت ياقب إلا بصعوبة ، فسارت منها إلى مدينة ليون . وبقيت تريسا فى جليقية حيناً ، حتى علمت بأن المسلمين يزحفون على أراضيها الجنوبية فعادت إلى البرتغال لتعنى بمدافعتهم .

وفى تلك الأثناء ثار أهل شنت ياقب بالأسقف دبجو ، ففر إلى قشتالة ، والتجأ إلى حماية الملكة ، فاستقبلته بعطف ، وعهدت إليه بأن يقوم بالسعى فى عقد الصلح بينها وبين ولدها ومن يؤيدونه من أشراف جليقية ، فدعا الأسقف إلى اجتماع عقد فى ساهاجون يمثل مختلف الأطراف المتنازعة (كورتيس) ، ووضع اتفاق بين الأم والإبن ، وقعه ثلاثون شريفاً من كل من الفريقين ، يقضى بأن تتولى الأم وولدها الحكم معاً فى جليقية وليون وأشتوريش ، وأن تنفرد الأم بالحكم حال حياتها فى قشتالة ، على أن يخلفها ولدها وفقاً لوصية ألفونسو السادس ( سنة ١١١٧ م ) .

ولما تم توقيع الصلح على هذا النحو سارت الملكة إلى جليقية لزيارة ولدها ، ثم سارت إلى شنت ياقب لتعاقب أهلها على مناوأتهم للأسقف دبجو . فقاومها أهل المدينة بشدة ، وهاجموها ومن معها بعنف ، حتى اضطرت أن تلتجئ مع حاشيتها إلى الكنيسة الكبرى ، فأضرم الثوار فيها النار غير مكترثين بصفتها المقدسة ، ولما هرعت الملكة إلى الخارج طلباً للنجاة ، تطاول عليها الثوار وأهانوها ، ولم تستطع النجاة إلا بعد أن تعهدت لهم بأن تعين لهم أسقفاً آخر يوافق الملك على تعيينه ، وأن تحكم البلدة وفقاً لرغبات أهلها . أما الأسقف دبجو ، فاستطاع أن يفر متنكراً ، ولكن أتباعه هلكوا فى الكنيسة حرقاً .

وماكادت الملكة تغادر شنت ياقب حتى زحفت على المدينة قوات جليقية ، وقوات الملكة وأصحاب الأسقف ، واعتزمت الملكة عندئذ أن تعاقب أهلها على جرأتهم عقاباً رادعاً . فارتاع أهل المدينة ، وخرج كبراؤها من قساوسة ومدنيين ، وتضرعوا إلى الملكة وإلى الأسقف بأن تصفح عنهم ، وأن يُرفع عنهم النفى الكنسى الذى أعلنه الأسقف . وانتهى الأمر بأن اشترطت الملكة ، أن يُنزع سلاح الجماعة الثائرة المسماة « جماعة الإخوة » ، وأن يقسم الكبراء يمين الطاعة للملكة والأسقف ، وأن يقدموا خمسين فتى من أبنائهم وأقاربهم رهينة ، وقررت الملكة نزع أملاك خمسين من الثوار ، وفرضت على المدينة غرامة فادحة . ثم دخلت إلى المدينة يصحبها الأسقف ، وأعيد الأسقف إلى منصبه ، وردت

التحف المنهوبة ، وأصلحت الكنيسة والقصر الأسقفى المجاور لها على نفقة الثوار. واستطاع الأسقف دجو فوق ذلك أن ينال من البابا كالستوس الثانى رتبة المطرانية ( الكردينال ) ، والبابا كالستوس هو أخو الكونت ريمون والد الملك الصبى ألفونسو ، وكان منح الأسقف هذا اللقب ثمناً لمؤازرته للملك ، واشتُرط فى منحه أن يستمر الأسقف فى مؤازرته .

خرجت الملكة أورّاكا بعد ذلك فى قواتها ، ومعها قوات شنت ياقب تحت تحت قيادة المطران دجو ، لمحاربة أختها تريسا ملكة البرتغال واسترداد أراضى توى وأورنسى منها ، ونفذت إلى أراضى البرتغال ، وحاصرت تريسا فى حصن لا نيوسو ، ولكن تريسا استطاعت الفرار بمعاونة بعض الأشراف الجلالقة ، وربما أيضاً بمعاونة المطران الماكر ، وقد أبدى رغبته فجأة فى أن يعود بقواته إلى شنت ياقب ، وهو ما حمل أوراكا على الشك فى ولائه . وانتهت المفاوضات التى تلت بين الأختين عن نتيجة لم تكن متوقعة ، هى أن تتنازل أوراكا لأختها عن أراضٍ من أحواز سمورة وطورو وشلمنقة ، فى نظير أن تتعهد تريسا بمعاونتها ضد جميع خصومها ، مسلمين كانوا أو نصارى ، وألا تعاون أحداً من الأشراف الثائرين ضدها . وعلى أثر ذلك عادت أوراكا على رأس حملتها الغازية إلى جليقية . ولكنها دبرت أن تعبر قوات شنت ياقب النهر أولا ، وما كاد يتم عبورها ، حتى أمرت بالقبض على المطران دجو ، وزجه إلى أحد الحصون ، وقُبض كذلك على إخوته الثلاثة ، وعلى صديقيه مطران براجا وأسقف أورنسى ، وكانوا جميعاً مع الجيش.

وكان لهذه الإجراءات العنيفة أعمق وقع فى شنت ياقب وفى رومة . ففى شنت ياقب ثار الشعب سخطاً ، وبدا غضبه بأجلى مظاهره حينما قدمت الملكة إلى المدينة المقدسة لتشهد الاحتفال بعيد القديس ياقب . وأما عن موقف رومة ، فقد أرسل البابا كالستوس إلى سائر مطارنة اسبانيا ، بأن يعقدوا مجلساً دينيا ، وأن يصدروا قراراً بنفى الملكة من الكنيسة ، إذا لم تفرج عن المطران خلمريث ، وترد إلى الكنيسة أملاكها المغصوبة . ومن جهة أخرى فقد ثار شعب شنت ياقب ، وهدد الملكة بالويل إذا لم تفرج عن المطران ، وزاد فى حماستهم وثورتهم مقدم الملك الفتى ألفونسو ريمونديس على رأس قواته . وعندئذ اضطرت أوراكا ، أن تطلق سراح المطران وزملائه المعتقلين . ولكنها لم تقم برد أملاك الكنيسة ، وأملاك المطران المنزوعة .

وهنا نهض المطران لمحاربة الملكة ، ومن الغريب أن أهل شنت ياقب الذين خرجوا من قبل على المطران وكادوا يفتكون به ، انضموا عندئذ إليه . وانضمت إليه كذلك قوات ألفونسو ريمونديس الجليقية . وسارت الملكة فى قواتها لمقاتلة المطران الثائر وحلفائه ، والتقى الفريقان فى مكان يسمى « مونساكرو » ووقعت بينهما بعض المصادمات الدموية ، وصدر فى تلك الأثناء قرار المطارنة بنفى الملكة من الكنيسة تحقيقاً لرغبة البابا ، وعندئذ لم تر الملكة مناصاً من الإذعان . وفى رواية أخرى أنه لم يقع قتال بين الفريقين ، وأن المطران دبجو اقترح على الملكة أن تجرى مفاوضات لعقد الصلح بينها وبين ابنها حقناً للدماء . وانتهت هذه المفاوضات إلى معاهدة صلح ، قدمت الملكة لضمان تنفيذها ستين من فرسانها رهينة ، وتعهدت بأن ترد سائر أملاك الكنيسة ، وأن ترد إلى المطران سائر أملاكه ورواتبه .

وحاول البابا كالستوس الثانى أن يضع بتدخله حداً لتلك الحرب الأهلية التى طال أمدها ، فأوفد إلى شبه الجزيرة سفيراً بعد سفير ، وعقدت بدعوته عدة اجتماعات كنسية ونيابية للعمل على رد السكينة والنظام ، والتوفيق بين الأحزاب المتنازعة . وانتهى الاجتماع الذى عقد فى بلد الوليد فى سنة ١١٢٤م ، بعقد الصلح بين الملكة وولدها على أن يحكما سوياً كل الأراضى التى ورثتها أوراكا عن أبيها . ولكن النزاع بين الأشراف استمر على حاله ، ولم تثمر فى حسمه أية وسيلة ، إذ كانت أهواء الملكة الشخصية تحول دون كل توفيق ، وتذكى عوامل الخصومة والبغضاء فى مختلف النفوس . وكان ولدها الملك الفتى ، قد سار قبل ذلك ببضعة أعوام إلى قشتالة فى فرقة قوية من فرسانه واستطاع أن يقبض على الكونت پيدرو دى لارا عشيق أمه ، وأن يلقى به إلى السجن . ولكن الكونت فر من معتقله ، والتجأ إلى حماية أمير برشلونة ، ورفع هذا الحادث من سمعة الملكة وهيبتها مدى حين ، وهدأت ثورة أشراف قشتالة ، الذين كانوا ينقمون على أوراكا اصطفاءها الشائن لخليلها . ومع ذلك فإن هذه الملكة الماجنة استمرت على سلوكها الوضيع ، وعلائقها الغرامية المشينة ، حتى نهاية حياتها .

وقد جاءت النهاية أخيراً لتضع حداً لحياة ذميمة ، فياضة بالفجور والفضائح والأهواء الجامحة ، والخصومات المضطرمة ، وتوفيت أوراكا ملكة قشتالة فى سنة ١١٢٦ م . فتنفس الجميع الصعداء فى سائر أنحاء اسبانيا النصرانية ، ملوكا ، وأحباراً وأشرافاً ، وفرسانا ، وشعوباً ، واختفت من حياة قشتالة العامة ، شخصية

بغيضة لم تحظ خلال حياتها ، بشىء من الولاء الحقيقى ، أوالعطف الصادق أو التوقير والاحترام .

لبثت أوراكا مدى عشرين عاما ملكة لقشتالة ، وخلفت على العرش أباها العظيم ألفونسو السادس ، فكان التباين فى الوسائل والخلال من أبشع ما يمكن تصوره ، وتحول الحكم القوى الحازم ، إلى معترك من الشهوات والأهواء الخطرة . وبدلا من أن يغدو زواجها بألفونسو المحارب دعامة لتوطيد العرش ، وتسيير دفة الحكم ، أضحى مصدراً خطراً للتنافس والشقاق المستمر ، وعاملا فى ضعف المملكة ، واستنزاف مواردها التى كانت تدخرها لغزو الأندلس ، وتخريب ربوعها فى حروب أهلية منهكة . وكان وجود امرأة على رأس الحكم فى مملكة قشتالة العريقة ، فى ذاته مظهراً جديداً لم يألفه الشعب القشتالى ، الذى اعتاد أن يرى حكامه من الملوك الأقوياء ، وأذكى من وقع هذا المظهر فى نفوس الأشراف ونفوس الشعب ، مسلك أوراكا المشين كملكة وامرأة معا ، لاتحرص على صون هيبة الملك ، ولا كرامة المرأة المصون .

ومع ذلك فإن المؤرخين الإسبان يختلفون فى الحكم على أوراكا ، وعلى حقيقة تبعاتها التاريخية . ففريق يحكم عليها ، ويدمغها بأقسى النعوت . ومن هؤلاء الأسقف ساندوفال . إذ يحمل عليها فى تاريخه[1] بشدة ، ويقول : « يجب علينا أن نسقط مثل هذه العصور من سلسلة تاريخنا القومى » . ويضع لوقا التوبى ، وأسقف طليطلة ، وماريانا ، مسئولية سائر المحن والخلافات التى حدثت على رأس ملكة قشتالة ، ويصفونها بأنها « امرأة متهورة وشجاعة » ويتحدثون عن « خدعاتها المشينة المشبعة بالخيانة » . هذا بينما يرفض الأب فلورس[2] وغيره ، كل ما نسب إلى أوراكا من « أعمال الطيش التى نسبت إليها » ويرجعون المسئولية فى كل ما حدث من الشقاق والاضطرابات إلى الملك ألفونسو المحارب ، وينسبون إليه أخبث النيات ، وأشنع الأعمال اللادينية ، ويصفونه بأنه زوج همجى ومسىء لزوجته ، ومضطهد ومستبد للأساقفة ورجال الدين ، وملوث ومخرب للمعابد ، وناهب للأموال والآنية المقدسة ، وبأنه لم يتورع عن محاولة اغتيال الأمير الصبى[3] .

---

(١) Sandoval : Historia de los Reyes de Castilla y de León

(٢) Flórez : Historia de la Reinas Católicas فى تاريخه

(٣) M. Lafuente : Historia General de Espana, T. III, p. 215

— ٢ —

لما توفيت الملكة أوراكا ، أعلن ولدها ألفونسو ريمونديس ملكاً لقشتالة وليون وسائر الأراضى التى حكمها جده ألفونسو السادس ، باسم ألفونسو السابع ، وكان ألفونسو منذ وفاة جده ، وفى حياة أمه ملكاً لجليقية حسبما تقدم . وكان هذا الملك الفتى الذى لم يجاوز الحادية والعشرين من عمره ، قد نشأ وترعرع فى غمار الخطوب والمحن التى توالت على المملكة أيام حكم والدته ، وكان يشعر بكل ما يواجه من تبعات خطيرة ، وما يستلزمه ذلك من يقظة وحزم . وكان أشراف قشتالة وليون يشعرون ويشعر الشعب القشتالى نفسه ، بأن تولى ألفونسو ريمونديس الملك يبشر بإنهاء عهد الاضطراب والفوضى ، وقيام عهد جديد من السلام والرخاء . على أنه كان واجباً قبل أن يتحقق هذا الأمل ، فى عود السكينة والسلام ، أن يتحقق أمران ، الأول أن تُسوى المسائل المعلقة بين قشتالة وأراجون ، والثانى أن يتم إخضاع الأشراف والخوارج فى بعض أنحاء المملكة بصورة نهائية .

فأما عن الأمر الأول ، فإن ألفونسو ملك أراجون ، كان ما يزال يتمسك ببقية من دعاويه القديمة ، وكانت جنوده ، ما تزال تحتل عدداً من الحصون داخل أراضى قشتالة . فلما توفيت أوراكا زوجه القديمة ، وقام ولدها فى الملك ، أخذ يتطلع إلى مهاجمة قشتالة والمحافظة على ما بيده من حصونها ، وأخذ ألفونسو ريمونديس من جانبه يتطلع إلى القضاء على دعاوى ملك أراجون ، وتحرير أرض قشتالة من هذا الاحتلال ، وأخذ كل من الملكين يتأهب لمقاومة خصيمه . وكان ملك أراجون هو البادئ بالعدوان ، فنفذ بقواته إلى أراضى قشتالة حتى صار على مقربة من بالنسيا ، وهنالك التقى بقوات قشتالة وكان يقودها الكونت دى لارا . ولكن لم يقع بين الفريقين التحام ولاقتال . وسرعان ما تدخل بينهما الأساقفة ، وعقدت الهدنة ، وتعهد ملك أراجون بأن يسلم الحصون التى تحتلها قواته فى مهلة معينة ، ثم عاد إلى أراضيه ( ١١٢٧ م ) .

ولكن ملك أراجون لم ينفذ ما وعد به ، ولم يمض عامان آخران حتى عاد إلى غزو قشتالة . وسار ألفونسو ريمونديس فى قواته إلى لقائه . والتقى الجيشان على مقربة من « ألماسان » . وهنا تدخل الأساقفة مرة أخرى ، وتكرر السعى القديم فى عقد الهدنة ، وكان التعهد هذه المرة من جانب ملك قشتالة ، فى أن يرد إلى المحارب الحصون التى كانت له فى قشتالة .

على أن هذه المحاولة لم تنجح أيضاً ، ولم يمض سوى قليل ، حتى عاد النزاع ، وعاد لقاء الفريقين فى ميدان الحرب ، واستولى ملك قشتالة فى تلك الحملة على قلعة كاسترو شريش ، وهى أهم القلاع التى كان يحتلها أنصار ملك أراجون ، واستمر هذا الصدام وقتا ، وكلما هم الفريقان بالاشتباك ، هرع الأساقفة بالتدخل ودعوا إلى حقن دماء النصارى ، وتحويل تيار الحرب إلى وجهة أخرى هى محاربة المسلمين . وأخيراً وفق الأحبار فى جهودهم ، وعقدت بين الملكين هدنة ، نزل بمقتضاها ملك أراجون عن سائر الحصون التى كانت له فى قشتالة ، ونزل ألفونسو ريمونديس نظير ذلك عن ولاية « ريوخا » التى كانت من قبل من أراضى ناڤارا ، وانتزعها منها ألفونسو السادس ( سنة ١١٣٠م ) .

وشغل ألفونسو المحارب من ذلك الحين أولا بحرب صغيرة نشبت فيما وراء البرنيه بين بعض الأمراء الفرنسيين . والظاهر أن ألفونسو تدخل فى هذه الحرب ليحمى بعض الكونتات من أتباعه فى ولايتى بيارن وبجور ، من بعض خصومهم من أمراء الشمال ، ومن ثم فقد حاصر ألفونسو مدينة بيونة واستولى عليها (سنة ١١٣١ ) . ثم شغل بعد ذلك بمحاربة الأمراء المسلمين فى طرطوشة ومكناسة وإفراغة ، وفى موقعة إفراغة كانت هزيمته الساحقة ، ثم مصرعه فى يوليه سنة ١١٣٤ م ، وذلك حسبما فصلناه من قبل فى موضعه .

وأما الأمر الثانى الذى شغل به ألفونسو ريمونديس فى مستهل حكمه ، فهو القضاء على سلطان الأشراف الخوارج وثوراتهم التى توالت منذ عهد أمه أوراكا . وكان أشد الخوارج بأساً فى قشتالة أسرة لارا ، التى كانت تناهض العرش أحياناً ، وأحياناً تعضده بقواتها وثرائها ، ونفوذها البالغ . وكان عميدها پيدرو جونثالث دى لارا عشيق الملكة أوراكا أو زوجها السرى ، وأخوه ردريجو ، وكان ألفونسو ريمونديس قد استطاع من قبل أن يقبض على عشيق أمه ، وأن يعتقله ، ولكنه فر إلى قطلونية ، ثم عاد إلى قشتالة عقب موت أوراكا ، واستطاع أن يستولى على بالنسيا بمعاونة ملك أراجون ، فبادر ألفونسو بالسير إلى بالنسيا ، واستولى عليها ، وقبض على الأشراف الثائرين ، وفى مقدمتهم الكونت پيدرو دى لارا ، ولكن أخاه ردريجو تمكن من الفرار إلى منطقة الأسترياس ( أشتوريش ) . وأفرج ألفونسو بعد ذلك عن الكونت پيدرو ، فغادر قشتالة مرة أخرى إلى أراجون ، شاعراً بأنه فقد كل مكانته ونفوذه السابق ، واشترك مع ملك أراجون

فى حملته إلى بيونة ، وقتل أمام أسوارها . أما أخوه الكونت ردريجو ، فقد طارده ألفونسو ، وضيق عليه ، حتى أدعن إلى طلب الأمان والعفو ، وأقسم أنه سوف يلتزم منتهى الولاء والإخلاص ، فعفا عنه ألفونسو وعينه حاكما لطليطلة ، وأبدى الكونت غيرة فى خدمة العرش . وتتبع ألفونسو فى نفس الوقت باقى الأشراف الثائرين فأخضعهم ، واحتل حصونهم تباعاً ، وأبدى فى معاملتهم إغضاء ورفقاً . وبذلك استطاع أن يحقق السكينة والسلام فى ربوع قشتالة .

ولم يبق أمام ألفونسو لاستكمال سلطانه ، سوى استرداد الأراضى والحصون التى انتزعتها خالته دونيا تريسا ملكة البرتغال ، وكانت ما تزال متمسكة بما اقتطعته من أراضى جليقية وحصونها ، بل كانت تحاول الاستيلاء على أرض أخرى ، وكانت عندئذ قد وثقت علاقتها الغرامية بالكونت فرناندو پيرث ولد الكونت دى تراڤا مؤدب ألفونسو السابق ، وأضحت هذه العلائق فضيحة ملكية على نحو ما كانت علائق الملكة أوراكا بخليلها الكونت دى لارا ، وكان لها أسوأ الأثر . فسار ألفونسو ريمونديس فى قواته ومعه خلمريث مطران شنت ياقب ، ونفذ إلى أراضى جليقية والبرتغال ، وقضى على كل مقاومة ومعارضة ، سواء من جانب أشراف جليقيه أو من جانب قوات تريسا . وكان البرتغاليون ينقمون على ملكتهم تهورها واستهتارها ، وتركها أمور المملكة لخليلها الكونت پيريث ، ويطالبون بتقديم ولدها الأمير الصبى ألفونسو هنريكز . ولما آنس القواد البرتغاليون ضعفهم وحرج مركزهم أمام ضغط ملك قشتالة ، أعلنوا باسم ألفونسو هنريكز ، أنهم يعتبرون البرتغال مستظلة بحماية ليون ، ومليكها ألفونسو ريمونديس ، وهكذا عاد ألفونسو ريموندیس ظافراً ، بعد أن قضى على مشاريع خالته تريسا العدوانية .

وكان ألفونسو ريموندیس قد تزوج أثناء ذلك من دونيا برنجيلا ، ابنة رامون برنجير الثالث أمير برشلونة ( سنة ١١٢٨م ) ، وكان هذا الزواج عاملا فى توثيق علائق المودة والتحالف بين قشتالة وإمارة برشلونة ، واستطاعت هذه الأميرة الحسناء الموهوبة ، أن تحرز برقتها وذكائها فى بلاط قشتالة ، أعظم نفوذ ، وأن تغدو لزوجها الملك الشاب مستشاره الأول ، يصغى إلى نصحها فى سائر شئون المملكة والحكم ، معتمداً فى ذلك على ذكائها وحسن إدراكها للأمور (١) .

وفى سنة ١١٣٣ م ، قام ألفونسو بإخضاع بعض ثورات محلية فى منطقة

---

(١) Lafuente: ibid; T. III. p. 247

الأسترياس ، وفى خلال هذه الحملة ، علق بحب فتاة حسناء تدعى كونترودا هى ابنة الكونت پيدرو دياث ، وأعقب منها فيما بعد ابنة سميت أوراكا ، عهد بتربيتها إلى أخته دونيا سانشا . وهكذا غدت هذه المغامرات الغرامية الملوكية تقليداً راسخاً فى بلاط قشتالة فى هذا العصر .

وفى خلال ذلك لم ينس ألفونسو ريموند يس مهمته الأولى ، كملك لقشتالة أولا ، وعميد للملوك اسبانيا النصرانية ثانيا ، وهى متابعة الحرب ضد اسبانيا المسلمة . وكانت هذه المهمة التى يحيطها ملوك قشتالة ، بنوع من التقديس ، قد تراخت نوعاً أيام والدته أوراكا ، بسبب ما شغل قشتالة عندئذ من منازعات وحروب أهلية متوالية . وشغلت الجيوش المرابطية من جانبها بمدافعة ألفونسو المحارب ملك أراجون ، والاشتباك معه فى معارك متوالية فى شرقى الأندلس ، وفى جنوبها ، وفى الثغر الأعلى ، وكان ملك أراجون ، بعد وفاة ملك قشتالة القوى ألفونسو السادس ، هو الذى يضطلع يومئذ بمهمة الصراع الذى تشهره اسبانيا النصرانية على اسبانيا المسلمة .

على أن ملك قشتالة الفتى ألفونسو ريموند يس ، ماكاد يسوى نزاعه مع ملك أراجون ، وماكاد يطمئن إلى استقرار السكينة والسلام فى مملكته ، حتى استدعى مجلساً فى بالنسيا (كورتيس) لكى يبحث خطط الحرب ضد المسلمين ( سنة ١١٣٠ م ) . وكانت الغزوات المرابطية ، قد أخذت قبل ذلك بقليل تتوالى فى أراضى قشتالة ، ولاسيما مذ ولى الأمير تاشفين بن على بن يوسف شئون الأندلس فى سنة ٥٢٢ ﻫ ( ١١٢٨ م ). وقد فصلنا نحن من قبل تفاصيل الغزوات التى قام بها المرابطون يومئذ فى أراضى قشتالة ، والغزوات التى قام بها القشتاليون فى أراضى الأندلس ، فلا حاجة بنا إلى أن نعود إلى ذكرها هنا . بيد أنه مما تجب ملاحظته أن هذه الفترة التى توالت فيها غزوات القشتاليين لأراضى الأندلس الوسطى ، هى نفس الفترة التى اشتدت فيها وطأة ألفونسو المحارب ملك أراجون على شرقى الأندلس والثغر الأعلى . وقد سبق أن فصلنا كيف أحرز ألفونسو نصره على المرابطين فى موقعة القلاعة جنوبى بلنسية فى سنة ٥٢٣ ﻫ ( ١١٢٩ م ) وكيف غزا ألفونسو بعد ذلك أراضى بلنسية ، وعاث فيها ، ثم عاد فهاجم مكناسة من قواعد الثغر الأعلى ، واستولى عليها فى سنة ٥٢٧ ﻫ (١١٣٣م) ثم كان حصاره لإفراغة ونكبته تحت أسوارها ، وموته على أثر تلك النكبة ، وذلك فى شهر يوليه سنة ١١٣٤ م ( رمضان سنة ٥٢٨ ﻫ )

# الفصل الثانى

## الممالك الإسبانية النصرانية

## فى عصر القيصر ألفونسو ريموندیس

## وقيام مملكة أراجون الكبرى

ألفونسو المحارب. أعماله وخلاله . وصيته . رفض الشعبين الأرجونى والناڤارى لها . انفصال ناڤارا واستقلالها . اختيار أراجون الراهب راميرو ملكاً لها . غزو ملك قشتالة لناڤارا. احتلاله لسرقسطة . اعتراف راميرو بطاعته . ألفونسو ريموندیس يتخذ لقب الإمبراطور . قرارات مجلس ليون . ما يحققه اللقب الإمبراطورى لملك قشتالة . محالفة راميرو لملك قشتالة . ألفونسو ريموندیس يغزو ناڤارا . ارتداده لمحاربة البرتغاليين . زواج الكونت رامون أمير برشلونة من إبنة راميرو . تنازل راميرو عن العرش . الكونت رامون أمير أراجون . الكونت رامون برنجير الثالث وجهوده فى سبيل التعاون مع أراجون . رامون برنجير الرابع وإتمام الوحدة بين أراجون وقطلونية . مسير ألفونسو ريموندیس لمحاربة البرتغال . الصلح المفاجىء بين الملكين . مسير ألفونسو لغزو الأندلس . فتك المرابطين بإحدى فرقه . مسيره لافتتاح حصن أوريجا . إسراع المرابطين إلى نجدته . تسليم الحصن بالأمان . تحالف ألفونسو ريموندیس ورامون برنجير على غزو ناڤارا. مدافعة غرسية راميريس ملكها للغزاة. سعيه إلى طلب الصلح . اعترافه بسيادة الإمبراطور . استمرار الحرب بين أراجون وناڤارا . عقد الصلح بينهما . غزو ألفونسو ريموندیس للأندلس . استيلاؤه على قورية . غزوة قشتالة للأندلس . موقعه بين المسلمين والنصارى هزيمة النصارى ومصرع قائدهم . ملك قشتالة يغزو الأندلس مرة أخرى . معاونته للثوار ضد المرابطين . احتلاله قرطبة . استيلاء النصارى على ألمرية . سقوط القواعد الإسلامية بالثغر الأعلى . غزو ناڤارا لأراجون ومراميه . المؤتمر الكهنوتى . وفاة الملكة برنجيلا . وفاة غرسية راميريس ملك ناڤارا . تجديد التحالف ضد ناڤارا بين أراجون وقشتالة . تطور الحوادث . الزيجات الملكية . الحرب بين ناڤارا وأراجون . تجدد الاتفاق بين أراجون وقشتالة على تقسيم ناڤارا . عود ملك قشتالة إلى غزو الأندلس . استيلاؤه على حصنى أندوجر والبطروج . استردادهما على يد الموحدين . استرداد الموحدين لألمرية ، وفشل القيصر فى إنجادها . وفاة ألفونسو ريموندیس . خلاله وأعماله . برنامجه فى مهاجمة الإسلام . مواظبته على غزو الأندلس . الكونت رامون برنجير وأعماله الأخيرة . وفاته وخلاله . تقسيم قشتالة بين ولدى القيصر سانشو وفرناندو . الحرب بين الأخوين . هزيمة فرناندو واعترافه بسيادة أخيه . أطماع سانشو ووفاته . ولده الطفل ألفونسو . الوصى جوتيرو دى كاسترو . سخط آل لارا . تسليم الأمير للكونت غرسية دى آينا . الكونت يسلمه لآل لارا . مطالبة آل كاسترو بإعادة الطفل . التجاؤهم إلى فرناندو ملك ليون . غزو فرناندو لقشتالة . إعلانه لوصايته على ابن أخيه . تسليم آل لارا للملك الطفل . اصطفاء فرناندو لآل كاسترو . الحرب بين الأسرتين . هزيمة آل لارا . اختطافهم للملك الطفل . تذرعهم بحماية قشتالة من أطماع فرناندو . استمرار الحرب الأهلية بين الفريقين . مقتل عميد آل لارا . تحول أهل قشتالة إلى مخاصمة فرناندو . استيلاء آل لارا على طليطلة . إعلانهم

لولاية الملك الطفل ألفونسو . تأييد قشتالة ورجال الدين لتلك الحركة . انسحاب فرناندو من قشتالة . قيام جماعات الفرسان الدينية فى إسبانيا . جمعية فرسان المعبد . استقرارها فى أراجون وقطلونية . قيام جمعية فرسان قلعة رباح . جماعة القديس ياقب .

## ١ — وفاة ألفونسو المحارب وولاية أخيه الراهب راميرو

كان مصرع ألفونسو المحارب على ذلك النحو المفاجئ الذى حدث عقب موقعة إفراغة ، نذيراً بوقوع تطورات هامة فى مصاير اسبانيا النصرانية ، على نحو ماكانت وفاة ألفونسو السادس ملك قشتالة قبل ذلك بخمسة وعشرين عاما . فقد توفى كلاهما دون وارث للعرش . وقد رأينا كيف تولت أورّاكا عرش قشتالة تنفيذاً لوصية أبيها ، وما ترتب على ذلك من الحوادث والخطوب ، وكذلك فقد كانت وفاة ألفونسو المحارب دون عقب ، مثارا لأحداث وتطورات جديدة حول عرش أراجون .

وكان ألفونسو المحارب من أعظم ملوك اسبانيا النصرانية فى العصور الوسطى ، وقد استطاع خلال الأعوام الثلاثين التى حكمها منذ وفاة أخيه الملك بيدرو فى سنة ١١٠٥ م ، أن يجعل من أراجون أعظم ممالك اسبانيا النصرانية وأقواها ، وإن لم تكن أضخمها رقعة ، وغدا بزواجه من أوراكا ملكة قشتالة ، أعظم عاهل لإسبانيا النصرانية كلها . وانفق ألفونسو معظم جهوده الحربية فى محاربة المسلمين ، وانتزع قواعد مملكة سرقسطة الباقية من بنى هود ، ثم انتزع سرقسطة ذاتها من أيدى المرابطين ، وقام بغزوته الشهيرة فى قلب الأندلس ، واخترقها من أقصاها إلى أقصاها ، وأطل بقواته على شاطئها الجنوبى ( ٥٢٠ هـ — ١١٢٧م ) . وقد أظهرت هذه الغزوة الجريئة التى فصلنا حوادثها فيما تقدم ، ضعف وسائل الدفاع عن الأندلس . وحقق المحارب بافتتاحه سرقسطة ، والقضاء عليها كحاجز دفاعى للمسلمين فى الثغر الأعلى ، ما حققه ألفونسو السادس بافتتاح طليطلة ، من فتح طريق التاجُه ، فأصبحت الأندلس معرضة للغزو النصرانى من الشمال الشرقى ، ومن الوسط ، وسارت سياسة الإسترداد النصرانية **La Reconquista** من ذلك الحين فى الاتجاهين دون عائق قوى ، وتنوه الرواية الإسلامية ذاتها بشجاعة ألفونسو المحارب ، وشديد بأسه . فيقول لنا ابن الأثير فى وصفه : « وكان من أشد ملوك الفرنج بأساً وأكثرهم تجرداً لحرب المسلمين ،

وأعظمهم صبراً ، وكان ينام على طارقته بغير وطاء »[١] . وأما عن خلال ألفونسو الشخصية ، فتختلف الرواية النصرانية ، فنراه يوصف فى التواريخ الأرجونية بالإيمان والتقوى ، والفروسية ، ورعاية الكنائس والأحبار ، ولكن التواريخ القشتالية تصفه بالعكس بالجبروت والغدر والإلحاد ، وشغف العدوان على حرمة الكنائس والأديار ، وعلى محتوياتها المقدسة ، وأنه فى حروبه مع النصارى لم يكن يفر الأحبار ولا النساء من عدوانه ، ولم يكن يكبح جماح جنده عن ارتكاب مختلف ضروب الإثم والمنكر[٢] .

وكان ألفونسو المحارب ، قبيل وفاته بثلاثة أعوام قد كتب وصيته حول مصير مملكته ، وكانت أغرب وصية يمكن تصورها . ذلك أنه أوصى فيها بأن تقسم مملكته الكبيرة إلى ثلاثة أقسام ، الأول يخصص لسلام روح والده ووالدته ، وللتكفير عن زلاته ، ولكى يظفر بمكان فى جنة الله ، وللقبر المقدس وسدنته وخدمه ، والثانى يخصص للفقراء وفرسان الأسبتارية ببيت المقدس ، والثالث يخصص لفرسان المعبد ( الداوية ) باعتبارهم حماة النصرانية فى معبد المسيح[٣] . وقد ظهر فرسان الداوية قبل ذلك بأعوام قلائل فى إمارة برشلونة ، وكان أميرها رامون برنجير الثالث ، أول من شجعهم على القيام فى إمارته ، وحاول ألفونسو المحارب قبل وفاته بقليل أن ينشئ جمعية فرسان دينية على غرار جماعة بيت المقدس ، فلم ينجح لمعارضة الأشراف ، ولكنه لبث يحتضن مشروعه حتى توفى حسبما بدا ذلك فى وصيته .

---

( ١ ) ابن الأثير ج ١١ ص ٢٣ .

( ٢ ) تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين لأشباخ .( الترجمة العربية ، الطبعة الثانية ص ١٦٦ و ١٦٧ ) .

( ١ ) كان فرسان المعبد **Templares** ، وفرسان الأسبتارية **Hospitallers** من أشهر جماعات الفرسان الدينية التى قامت فى العصور الوسطى فى بداية الحروب الصليبية . والجماعة الأولى هى التى تعرف فى الرواية الإسلامية بجماعة « الداوية » وقد أنشئت سنة ١١١٩ م فى بيت المقدس عقب سقوطها فى يد الفرنج الصليبيين وذلك لحماية الحاج إلى قبر المسيح ، وأفرد لهم ملك بيت المقدس جناحاً فى قصره ، ثم سلم إليهم المعبد المجاور له ، ومنه اشتقوا اسمهم « فرسان المعبد » . ونمت هذه الجماعة بسرعة ، واشتد ساعدها بمن انضم إليها من النصارى من سائر الأمم ، ولعبت دوراً هاما فى حوادث الحروب الصليبية ، واستمرت قائمة عصوراً . والأسبتارية هم أيضاً جماعة دينية من الفرسان ، أنشئت عقب الجماعة الأولى ، وخاضت أيضاً حوادث الحروب الصليبية ، ولكنها كانت أضعف شأناً من جماعة « الداوية » .

على أن الشعبين الأرجونى والناڤارى أبى كلاهما ، أن يحترم وصية ترمى إلى التصرف فى مصايرهم ، ومصاير بلادهم ، على هذا النحو الغريب . وقد انتهز الناڤاريون بالأخص هذه الفرصة ليعملوا على استرداد استقلالهم القومى ، الذى فقدوه منذ استولى سانشو راميريس ملك أراجوان ، ووالد ألفونسوالمحارب على بلادهم فى سنة ١٠٧٦ م أعنى منذ ستين عاما ، وكان من المتفق عليه منذ البداية بين الأرجونيين والناڤاريين أن يرفضوا أية دعوى لملك قشتالة فى السيادة على بلادهم ، وقدكان بوسع ألفونسو ريموندیس أن يشهر مثل هذه الدعوى باعتباره سليل سانشو الكبير من ناحية أمه . ومن ثم فإن الأرجونيين والناڤاريين بعد أن أعلنوا رفضهم لوصية الملك المتوفى ، قرروا أن يجتمع ممثلو الشعبين من الطبقات الثلاث ، أعنى رجال الدين والأشراف ونواب الشعب ، لاختيار الملك الجديد . واجتمع النواب فى بلدة چاقة فى مؤتمر وطنى ، وقر رأى الأرجونيين على أن يختاروا للعرش أخا الملك المتوفى دون راميرو الراهب ، وكان قد انتظم فى سلك الكهنوت قبل ذلك بمدة طويلة ، وأقام فى دير منعزل على مقربة من ثغر أربونة ، ولكن الناڤاريين لم يوافقوا على هذا الاختيار ، فانفصلوا عن الأرجونيين ، وأعلنوا فى بنبلونة عاصمتهم القديمة ، استقلالهم ، واختاروا لهم ملكاً ، هو غرسية راميريس حفيد ملكهم سانشو ، الذى قتل غيلة فى سنة ١٠٧٦ ، وبذا انفصلت ناڤارا عن أراجون ، وعادت تشغل مركزها القديم ، كدولة مستقلة من دول اسبانيا النصرانية .

واجتمع ممثلو أراجون من جهة أخرى ، فى مونتسون ، فى مجلس نيابى (كورتيس) وقرروا الموافقة على اختيار الراهب راميرو ملكاً لأراجون ، وقبل راميرو هذا العرض ، وحصل على إذن بتحريره من عهد الرهبنة ، وتولى العرش ، وتزوج بموافقة البابا من الأميرة إنيس ابنة كونت بواتييه وأخت دوق أكوتين . وهكذا استحالت مملكة أراجون ، بعد أن كانت فى عهد ألفونسو المحارب مملكة مترامية الأطراف ، إلى مملكة صغيرة محدودة الموارد والقوى ، وزادت الممالك الإسبانية النصرانية مملكة جديدة هى مملكة ناڤارا المستقلة .

وكان ملك قشتالة يرقب هذه التطورات الجديدة بمنتهى الاهتمام ، ويدبر خططه ليخرج منها بأوفر غنم . فما كاد الوضع الجديد يستقر فى أراجون وناڤارا ، حتى خرج من قشتالة ، فى جيش ضخم ، واتجه نحو ضفاف الإيبرو ، واستولى على ناجرة وقلهرة ، ثم سار إلى سرقسطة بحجة حمايتها من المرابطين ، ولم يجرؤ

ملكا ناڤارا وأراجون على المقاومة لما آنساه من عزم ملك قشتالة، وضخامة قواته. ودخل ألفونسو ريمونديس سرقسطة دون مقاومة، وكان بها الملك الراهب رامبرو. فسلمه المدينة وكل أراضى أراجون الواقعة على ضفة الأيبرو اليمنى، وأعلن اعترافه بأنه يحكم أراجون فى ظل قشتالة، ثم انسحب إلى وشقة، مكتفياً بلقب ملك أراجون وسوبرابى وريباجورسا. واجتمع بألفونسو ريمونديس فى سرقسطة صهره رامون برنجير الرابع أمير برشلونة، وكونت أورقلة، وعدة من كونتات ولايات البرنيه الفرنسية، وعقد الجميع معه عهود الصداقة والتحالف، ثم غادر ألفونسو ريمونديس سرقسطة بعد أن ترك بها حامية، وعاد إلى ليون، وهناك وفد عليه غرسية رامبريس ملك ناڤارا، ينشد عونه ومحالفته، ويعترف بحمايته[1].

وأضحى ملك قشتالة، بعد أن بسط سيادته أو حمايته السياسية على بقية الممالك النصرانية المتاخمة لقشتالة، سيد إسبانيا النصرانية كلها، على نحو ما كان عليه جده ألفونسو السادس، ومن ثم فقد اتخذ مثله لقب الإمبراطور، ومنح هذا اللقب بصفة رسمية فى مجلس قومى (كورتيس) عقد فى ليون فى ربيع سنة ١١٣٥ م، ثم توج بالتاج الإمبراطورى فى الكنيسة الكبرى، وأضحى ألفونسو ريمونديس من ذلك الحين يلقب بالإمبراطور، أو القيصر ألفونسو ريمونديس أو ألفونسو السابع. وصدرت فى مجلس ليون هذا، عدة قرارات هامة، منها موافقة الإمبراطور على تأييد سائر الحقوق والامتيازات التى منحت للكنيسة على يد الملوك السابقين، وتمت هذه الموافقة بمسعى المطران ريمون الذى حل محل المطران برنار فى رياسته للكنيسة، ومنها قرار يقضى بتطبيق القوانين والحقوق البلدية Buenos Fuaros فى جميع أنحاء قشتالة والولايات التابعة لها، وهى القوانين والحقوق التى كانت فى عصر ألفونسو السادس، وترتب على هذا القرار إلغاء كثير من التصرفات السابقة، وإلغاء بعض الإمتيازات التى انتزعها الأشراف لأنفسهم دون حق، كذلك صدر قرار بإنشاء نوع من الجند الاحتياطى من بين سكان الحدود، يحشد فيه كل رجل قادر على حمل السلاح، وذلك لرد غارات المسلمين، وقرار آخر يقضى بعقاب كل مجرم مهما كان شخصه ومقامه؛ بيد أنه لم يكن من الميسور أن تطبق مثل هذه القرارات العادلة، فى عصر كان

---

(١) راجع تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين لأشياخ (الطبعة الثانية) ص ١٧٦، وكذلك: Lafuente : ibid; T. III. p. 251; R. Altamira : ibid ; Vol. I. p. 361 & 362.

يسود فيه حكم القوة ، ويعتبر الأشراف أنفسهم سلطة خاصة ، تقرر ما تشاء وفق أهوائها ، متى كان لها سند من القوة والإرغام ، ولم يكن فى مقدور العرش دائماً ، أن ينفذ من جانبه بالقوة سائر القوانين والقرارات التى يصدرها .

ويعلق الأستاذ ألتاميرا على اتخاذ ألفونسو السابع للقب الإمبراطور بقوله ، إنه كان يرمى بالاتشاح بهذا اللقب إلى مثل ما كان يرمى إليه امبراطرة الدولة الرومانية المقدسة منذ كارل الأكبر ( شارلمان ) والإمبراطور أوتو الألمانى ، من بسط سيادته على باقى ملوك شبه الجزيرة ، كما كان أولئك الأمبراطرة يدّعون بسط سيادتهم على باقى ملوك القارة الأوروبية . والواقع أن ألفونسو السابع ، استطاع بواسطة انتصاراته فى ناڤارا ( نبرّة ) وأراجون أن يبسط سيادته على ملوك هاتين الدولتين ، وقد اعترف له بالتبعية إلى جانبهم كونتات برشلونة وتولوشه وغيرهما ، وكانت هذه الصفة الإمبراطورية تختلف عن مثيلتها الأوربية ، بانحصارها فى شبه الجزيرة الإسبانية[١] .

وهكذا حققت قشتالة بارتفاع ملكها إلى مرتبة القيصر ، سيادتها الأدبية ، والفعلية ، فى معنى من المعانى ، على ممالك اسبانيا النصرانية . بيد أن الخلاف لبث على أشده بين مملكتى أراجون وناڤارا ، ولاسيما على الحدود والألقاب الملوكية ، وكاد الأمر بينهما يصل إلى الحرب . وفكر ملك أراجون الراهب بأن يعوض ضعفه بالاستعانة بملك قشتالة ضد ناڤارا ، ونزل له عن قلعة أيوب ومواضع أخرى من التى كان ألفونسو المحارب قد افتتحها من المسلمين ، واقترح أن يقدم ابنته الطفلة ، بترونيلا ، عروساً لسانشو ولى عهد قشتالة . وكانت سياسة راميرو هذه تلقى أشد معارضة من أشراف أراجون ، إذ كانوا يرون فيها خطراً على استقلال بلادهم . وقيل إن راميرو استدعى نفراً من هؤلاء المعارضين ذات يوم إلى قصره ، ودبر مصرعهم بطريقة غادرة ، وهى رواية يشك فى صحتها . وكان ملك ناڤارا ، من جهة أخرى ينظر إلى مشاريع راميرو بعين التوجس والغضب ، إذ كان يطمح أن يؤول إليه عرش أراجون ، وكان ملك قشتالة من جانبه يخشى أن يشتد ساعد ناڤارا ، وأن تغدو عاملا يهدد سيادته . ومن ثم فقد اعتزم ألفونسو ريموندیس أن يشهر الحرب على ناڤارا ، وزحف عليها بالفعل فى جيش ضخم ، وذلك فى سنة ١١٣٦م . وانتهز ملك البرتغال الفتى ألفونسو هنريكيز هذه الفرصة ،

---

(١) R. Altamira : ibid ; Vol. I. p. 361 & 362

فزحف فى قواته على جلّيقية ، ونشبت الحرب فى الناحية الأخرى من مملكة قشتالة . وبالرغم مما أحرزه ألفونسو ريمونديس من انتصارات محلية على الناڤاريين ، فإنه رأى نفسه مرغماً على الانسحاب والارتداد إلى الناحية الأخرى ، ليرد القوات البرتغالية عن جليقية . هذا إلى أن المسلمين كانوا فى نفس الوقت يهددون حدود قشتالة الجنوبية . وهكذا قيض لناڤارا أن تنجو من الخطر المحدق بها وأن تحافظ على استقلالها .

وفى تلك الأثناء كانت الأمور فى أراجون تسير إلى وجهة جديدة . ذلك أن الملك راميرو برم بمتاعب الملك واعتزم أن يرتد إلى حياة العزلة والدير ، لاسيما وقد أصبح لعرش أراجون وريث هى ابنته الطفلة بترونيلا ، ومن الممكن أن يكون لها زوج يضطلع دونه بأعباء الملك ومشاقه . ومن ثم فقد دعا كبراء المملكة إلى اجتماع عقد فى بربشتر ( فى أغسطس سنة ١١٣٧ ) وتقرر فيه أن تزوج بترونيلا من الكونت رامون برنجير الرابع أمير برشلونة . وكان معظم أشراف أراجون يحبذون هذا الاختيار ، أولا لتجاور الشعبين الأرجونى والقطلونى وتقاربهما فى العوايد والتقاليد ، وثانيا لما يتصف به الكونت رامون من الخلال الملوكية الرفيعة ، وثالثاً لأن هذا الاختيار لايمكن أن يلقى معارضة من قشتالة نظراً لما يربط الكونت بمليكها من رباط المصاهرة . ورحب الكونت رامون بهذا العرض الذى يتيح له الفرصة لاعتلاء عرش أراجون ، وعُقد القران الملكى فى بربشتر بالرغم من أن الأميرة لم تكن تجاوز العامين من عمرها ، وأعطى الكونت بمقتضى هذا القران حق السيادة على مملكة أراجون ، وتلقب رامون برنجير الرابع بكونت برشلونة وأمير أراجون ، وأقسم كبراء المملكة يمين الطاعة للملك الجديد .

وأعلن راميرو تنازله عن الملك بمدينة سرقسطة أمام كبراء المملكة . ووافق ملك قشتالة ألفونسو ريمونديس على هذه التصرفات كلها . وقدم دليلا على تأييده ورضاه بإخلاء مدينة سرقسطة وسائر الحصون التى كان يحتلها على ضفة الإيبرو لملك أراجون الجديد . وأقسم الكونت رامون من جانبه يمين الطاعة لألفونسو . وارتد الملك الراهب راميرو إلى عزلة الدير مرة أخرى ، وأقام بدير سان پيدرو بوشقة حتى توفى فى سنة ١١٥٤ م .

وهكذا اختتمت مملكة أراجون الكبرى حياتها القصيرة ، بعد أن لمعت حيناً

فى عهد ألفونسو المحارب، وغدت كبرى الممالك النصرانية الإسبانية، واختتم بوفاة المحارب عهد الملوك الأقوياء الذين قضوا على سلطان المسلمين فى الثغر الأعلى، وانتزعوا قواعد مملكة سرقسطة. ولكن شاء القدر أن تعود مملكة أراجون فتنهض من عثارها الذى أصابها على يد الراهب راميرو، وتغدو باندماجها مع إمارة قطلونية، مملكة قوية كبرى.

## ٢ — اتحاد أراجون وقطلونية

والواقع أن إمارة برشلونة أوقطلونية الصغيرة، بموقعها على البحر، وثغرها العظيم، كانت تبدو من الناحية الجغرافية بالنسبة لأراجون، عضدا طبيعياً، وشطراً مكملا، أبلغ خطراً وأهمية من مملكة ناڤارا. وكان سير الحوادث فى قطلونية وأراجون بالنسبة للكفاح ضد المسلمين يتخذ وجهة مماثلة، ويرمى إلى هدف واحد، هو القضاء على مملكة سرقسطة الإسلامية. وقد اضطلعت قطلونية فى هذا الكفاح بنصيب بارز، ولاسيما منذ عهد أميرها رامون برنجير الثالث المعروف «بالكبير» وهو الذى ولى الحكم منذ سنة ١٠٩٢ م. ورأى الكونت رامون أن يقوى نفسه ضد المرابطين بالتحالف مع كونت أرقلة، وكونت باليارش، وكونت أربونة وغيرهم من الأمراء المجاورين. ولما غزا ابن الحاج والى سرقسطة المرابطى أراضى قطلونية فى سنة ٥٠٨ هـ (١١١٤ م) فاجأته قوات الكونت رامون وحلفائه فى جبال قطلونية، واشتبكت معه فى معركة دامية قتل فيها ابن الحاج ومعظم جنده[1]. فعندئذ بعث أمير المسلمين على بن يوسف صهره الأمير أبا بكر بن إبراهيم والى مرسية فى جيش كبير، لغزو برشلونة والانتقام لمصرع ابن الحاج، فاخترق أبو بكر أراضى قطلونية وهو يثخن فيها، وحاصر ثغر برشلونة، فخرج إليه أميرها الكونت رامون وحلفاؤه الفرنج، ونشبت بين الفريقين معارك شديدة، قتل فيها كثير من الفريقين، وارتد المرابطون دون أن يحققوا نتائج حاسمة.

وفى سنة ١١١٢ م تزوج الكونت رامون، عقب وفاة زوجه الأولى،

---

(١) سبق أن أشرنا إلى رواية ابن عذارى التى تقول إن ابن الحاج لم يقتل فى هذه الموقعة وإنما قتل بعد ذلك بعام فى موقعة نشبت بين المرابطين والقشتاليين على مقربة من قرطبة فى سنة ٥٠٩ هـ (راجع ص ٧٢ و ٧٥ من هذا الكتاب).

من دونيا دولثيا وارثة ولاية بروڤانص الفرنسية ، وكان لانضمام هذه الولاية الفرنجية القديمة المتمدنة ، إلى إمارة قطلونية ، أثر كبير فى حضارتها ، وفى تقدمها الفكرى . وكذلك ضمت إلى قطلونة بضعة إمارات صغيرة أخرى فيما وراء البرنيه ، سواء بموت أصحابها أو باتفاقات سابقة ، وكان منها أتونة ، وقرقشونة ، وبذلك اتسعت رقعة مملكة قطلونية اتساعاً كبيراً .

واشترك الكونت رامون برنجير الثالث فى حملة الغزو الكبرى إلى الجزائر الشرقية ( ١١١٤ م ) ، وهى التى جهزتها جمهوريتا بيزة وجنوة ، وتم استيلاء النصارى على ميورقة فى العام التالى . ولكن أمير المسلمين على بن يوسف بعث لاسترداد الجزائر أسطولا ضخماً ، فاضطر النصارى إلى مغادرتها ، واحتلها المرابطون وذلك فى أواخر سنة ٥٠٩ هـ ( ١١١٦ م ) ، وعادت الجزائر الشرقية إلى حظيرة الإسلام ، وذلك كله حسبما فصلناه فى موضعه .

واستمر الكونت حيناً فى صراعه ضد المرابطين ، وقام بمعاونة البيزيين ، والجنويين بمحاولات فاشلة لافتتاح ثغر طرطوشة ، ومدينة لاردة . ولما شغل ألفونسو المحارب بغزواته الكبرى للأندلس ، وصراعه المتصل بعد ذلك مع المرابطين ، اشتد ضغط المرابطين على إمارة برشلونة ، ولقى الكونت فى مدافعتهم متاعب شديدة . وتتحدث الرواية عن هزيمة شنيعة لحقت بالقطلان على أيدى المرابطين أمام حصن « كورتيس » على مقربة من لاردة . ثم تفاقمت الأمور على الكونت برنجير بقيام أمير تولوشة بمهاجمة مقاطعة « بروڤانص » التى كانت من أقاليم قطلونية فيما وراء البرنيه ، واضطر الكونت أن ينزل عن سيادة نصف الولاية ، وأن يؤول سيادة النصف الآخر إذا مات أحد الشريكين دون وارث ، إلى الشريك الذى بقى على الحياة .

كان الكونت برنجير يرى دائماً أن يوحد جهوده مع ملك أراجون القوى ، كلما سنحت الفرص . وكان ألفونسو المحارب يؤمن من جانبه بفائدة هذا التعاون . وقد التقى الإثنان بالفعل ، واتفقا على أن يعقدا نوعاً من التحالف يكون خطوة تمهيدية لعمل اتحاد فعلى أتم وأوثق بين المملكتين . وكان لكل من المملكتين فائدة محققة من عقد مثل هذا الاتحاد . فقد كانت مملكة أراجون بالأخص مملكة برية ، تعتمد فى قوتها على الجيوش البرية ، ومن ثم فقد كان فى وسعها أن تتفرغ لمقاومة ملك قشتالة القوى ألفونسو ريمونديس ، وكبح جماح أطماعه . وكانت قطلونية

تعتمد بالأخص على قواتها البحرية ، وكان بوسع الكونت برنجير ، اعتماداً على هذه القوات ، أن يؤمن مركز بلاده فى البحر ، وأن يقاوم فى بعض الأحيان مطامع جمهورية جنوة . وفى سنة ١١٢٧ م عقد الكونت تحالفاً مع الدوق روجر (رجّار) ملك صقلية تعهد فيه بأن يمد الدوق بخمسين سفينة من أسطوله ، وهو ما يدل على ما كانت تتمتع به إمارة قطلونية يومئذ ، من قوى بحرية لها خطرها فى تلك المياه .

ثم تطورت الحوادث ، وتغير موقف قطلونية فجأة من مملكتى أراجون وقشتالة ، وذلك بزواج ملك قشتالة ألفونسو ريمونديس من الأميرة برنجيلا إبنة الكونت رامون برنجير الثالث ( سنة ١١٢٨ م ) . وقد كان لذلك أثره فى تقوية مركز قطلونية من جهة ، وفى علائقها بمملكة قشتالة من جهة أخرى . وكان الكونت رامون قد شاخ يومئذ ، ولحقته أوصاب الشيخوخة ، فجنح إلى الزهد والورع ، واعتنق مبادئ فرسان المعبد ( الداوية ) . وكان بعض أقطاب الداوية قد وفدوا قبل ذلك بقليل من المشرق إلى برشلونة ليسعوا فى إنشاء فرع للجماعة فى قطلونية ، فرحب الكونت بمقدمهم ، ومنحهم حصن « جرانينا » على مقربة من لاردة ، وذلك ليعاون الفرسان فى افتتاح هذه المدينة من أيدى المسلمين . ثم توفى الكونت بعد ذلك بقليل فى يوليه سنة ١١٣١ ، بعد أن حكم مملكة قطلونية زهاء أربعين عاما .

وكان الكونت رامون برنجير الثالث ، أعظم أمراء تلك الأسرة التى حكمت قطلونية دهراً ، مذ بدأت إمارة صغيرة تضم برشلونة ، وأحوازها ، وفى عهده نمت قوة قطلونية البحرية نمواً عظيما ، وازدهرت تجارتها ، وعم بها اليسر ، والرخاء ، وازدهرت بها فى نفس الوقت حركة تمدنية وفكرية ملحوظة ، وكانت مملكة قطلونية تضم عند وفاته ، ولايات برشلونة ، وڤيش ، ومزيسه ، وجيرندة ( جيرونه ) وسردانية ، وقرقشونة ، وبروڤانص ، وكانت حدودها الغربية تمتد حتى ريباجورسا .

وخلفه فى إمارة قطلونية وسائر ممتلكاتها ، ولده الأمير رامون برنجير الرابع ، ما عدا ولاية بروڤانص فقد منحت لولده الثانى برنجير رامون . وكان الأمير الجديد قرين أبيه كفاية وعزماً ، فسار فى نفس الطريق الذى رسمه أبوه ، وبدأ بأن عمل على تحقيق فكرته فى إقامة جمعية فرسان المعبد ( الداوية ) بقطلونية ، وتقرر

ذلك بصفة رسمية فى مجلس دينى عقد برياسة المطران أولاجير ، وأعطى الفرسان حصن بربيره ، فى جبال براديس المشرفة على لاردة وطرطوشة (سنة ١١٣٣م) . وسنعود فيما بعد إلى التحدث عن قيام هذه الجماعات الحربية الدينية فى إسبانيا .

وفى العام التالى ، أى فى سنة ١١٣٤ م ( ٥٢٨ هـ ) نشبت موقعة إفراغة بين المرابطين وألفونسو المحارب ، تحت أسوار إفراغة ، وشاء القدر أن يسحق فيها النصارى ، وأن يموت المحارب بعد وقوعها بأيام قلائل ، وترتب على ذلك ما سبق أن فصلناه من انقسام مملكة أراجون الكبرى ، عقب ارتقاء الراهب راميرو عرش أراجون ، وعودة ناڤارا ، إلى استقلالها القديم ، ثم ماحدث بعد ذلك من زواج برنجير الرابع أمير قطلونية من الأميرة الطفلة بترونيلا إبنة راميرو ، وانضمام مملكة أراجون إلى قطلونية ، بعد أن تنازل عن عرشها راميرو ، وارتد إلى عزلة الدير ، وقيام مملكة قطلونية وأراجون المتحدة بموافقة ملك قشتالة وتأييدها وما كان يحدو ذلك المشروع من عوامل الانسجام والنجاح ، وذلك كله فى سنة ١١٣٧م .

## ٣ — غزوات القيصر ألفونسو ريموند يس وحروبه

أخذت مملكة قشتالة فى عهد ملكها الفتى ألفونسو ريموند يس أو ألفونسو السابع ، تجوز عهداً من القوة والسلطان ، كذلك الذى عرفته فى عهد جده ألفونسو السادس . وكان ملك قشتالة ، مذ صفا له الجو ، ووضع على رأسه تاج الإمبراطور ، يتطلع إلى إخماد كل نزعة إلى الخروج على سلطانه ، وكان هذا موقف ناڤارا والبرتغال ، حيث كانت كلتاهما تحرص على استقلالها ، وتعرض عن كل اعتراف بسلطانه . وكانت البرتغال بالأخص ، وهى المملكة التى نشأت إمارة متواضعة ، فى ظل قشتالة ، وتحت حمايتها ، ثم أخذت بمساعى خالته تريسا ، فى تحدى قشتالة ، والإغارة على أراضيها ، وتوسيع رقعتها شيئاً فشيئاً . وكان ألفونسو هنريكيز ملك البرتغال وهو ابن تريسا ، كأمه فى تحدى سلطان قشتالة ، وفى الحرص على استقلال مملكته . وكان مما يشغل ألفونسو ريموند يس ، اتصال ملك البرتغال بالثوار الجلالقة ، واعتداؤه بمعاونتهم على بعض أراضى جلّيقية . وقد وقع بالفعل حادث من هذا النوع فى أوائل سنة ١١٣٧ م ، حينما ثار اثنان من أشراف جليقية ، هما جومث نونيو ، ورودريجو بيريث فيوزو ، وكانا يحكمان « توى » فسلماها إلى ملك البرتغال ، وتمكن ملك البرتغال فضلا عن ذلك من

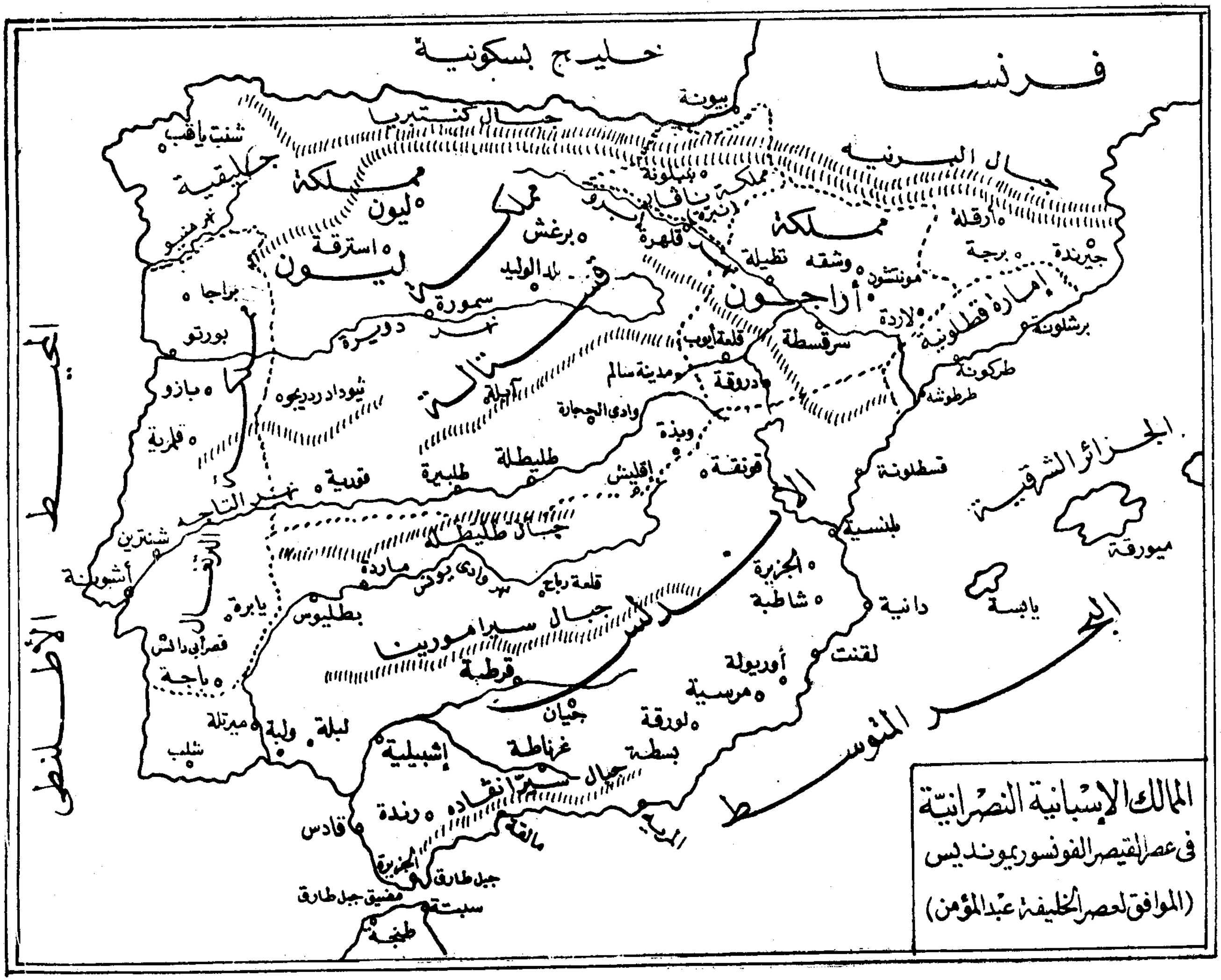


المالك الإسبانية النصرانية
فى عصر القيصر ألفونسو ريموندس
(الموافق لعصر الخليفة عبد المؤمن)

السيطرة على مناطق جليقية الجنوبية ، فعندئذ تأهب ألفونسو ريموندیس لغزو البرتغال ووضع حد لعدوان ملكها ، ولكن حدث فى نفس الوقت الذى تمت فيه أهبة الغزو ، واجتمع القادة والزعماء ومنهم المطران خلمريث حول ملك قشتالة ، أن وقعت مفاوضات سريعة بين الملكين ، انتهت فجأة بعقد الصلح بينهما ، وتعهد ألفونسو هنريكيز فى هذا الصلح أن يكون صديقاً مخلصاً للقيصر ، وأن يحترم أراضى الإمبراطورية ، وأن يعاون القيصر فى غزواته سواء ضد المسلمين أو النصارى ، وأبرم هذا الاتفاق فى مدينة توى فى يوليه سنة ١١٣٧م ، وكان واضحاً من نصوصه أن البرتغال أضحت تحت حماية قشتالة . ويمكننا أن نفسر خضوع ملك البرتغال على هذا النحو الفجائى ، بما كان يعانيه يومئذ من اشتداد ضغط المسلمين على أراضيه ، وتوالى غزواتهم المخربة فيها . بيد أن ألفونسو هنريكيز لم يكن ينظر إلى ذلك الصلح ، إلا على اعتبار أنه ضرورة موقتة ، أملتها الظروف القاهرة ، وأنه سوف ينقضه عاجلا أو آجلا .

وعندئذ اتجه ألفونسو ريموندیس إلى غزو الأندلس ، فسار فى قواته إلى منطقة جيان وبياسة وأبدة وأندوجر ، وهو يعيث فيها تخريباً وقتلا وسبياً ونهباً . ولم يلق النصارى من المرابطين مقاومة شديدة فى البداية ، ولكن حدث أن فرقة من النصارى عبرت نهر الوادى الكبير لتتابع النهب والسبى ، ولكنها لم تستطع العود إلى اقتحام النهر لهطل الأمطار الغزيرة ، وفيضان الماء ، ففتك بها الجند المرابطون وأبادوها جميعاً أمام أعين الإمبراطور وجنده ( سنة ١١٣٨ م ) ، فارتد القيصر إلى طليطلة وهو يضطرم سخطاً . وحاول بعد ذلك بقليل أن ينتقم لهذا الحادث بمحاصرة قورية ، فدافع عنها المسلمون أشد دفاع ، وكان فشلا آخر حز فى نفس الإمبراطور (١) .

وفى العام التالى ، خرج ألفونسو لغزو حصن أورليا أو أوريخا Oreja وهو الذى تسميه الرواية العربية بحصن « أرنبة » على مقربة من طليطلة ، وكان أمنع الحصون الإسلامية فى منطقة الحدود . فهرعت القوات المرابطية من قرطبة ومن مرسية وإشبيلية لإنجاده بقيادة الأمير يحيى بن غانية ، وكان ألفونسو ريموندیس يرابط بقواته إزاء الحصن المحصور ، فى انتظار القوات الإسلامية ، وكانت زوجه الملكة برنجيلا تشرف فى غيابه على الحامية الموكلة بالدفاع عن طليطلة .

---

(١) Lafuente: ibid ; T. III. p. 287

فحدث ، حسبما تقص علينا الرواية النصرانية ، أن الجنود المرابطية حينما وصلت فى طريقها إلى ظاهر طليطلة ، أن أطلت عليها الملكة برنجيلا ووصيفاتها من شرفة القصر ، وبعثت إلى ابن غانية رسولا ، يؤنبه بلسانها على أنه يحاول أن يهاجم مكاناً تدافع عنه امرأة ، فى حين أن القوات القشتالية تنتظره بقيادة الإمبراطور عند حصن أوريخا ، فارتد القواد المسلمون أمام هذا التأنيب ، ولم يقوموا بأية محاولة لإزعاج القشتاليين ، وسقط حصن أوريخا فى يد الإمبراطور بالأمان ، وذلك كله حسبما فصلناه من قبل فى موضعه . ولم تشر الرواية الإسلامية إلى هذا الحادث الذى يتسم بالفروسية ، بيد أنها تضع حصار حصن أوريخا وسقوطه فى سنة ٥٢٥ هـ ( ١١٣٠ م ) ، بينما تصنعه الرواية النصرانية ، فى سنة ١١٣٧م ، أو سنة ١١٣٩ م[١] .

وكانت الخطوة التالية تفاهم ألفونسو ريمونديس وصهره رامون برنجير الرابع أمير قطلونية وأراجون ، على الإيقاع بمملكة ناڤارا . وعقد الملكان اتفاقا بهذا الشأن فى كريون ، يقضى بتحالفهما على محاربة غرسية راميريس ، واقتسام أراضى ناڤارا ، وأن يختص ملك قشتالة بولاية ريوخا وكل الأراضى الواقعة شرقى نهر إيبرو ، وهى التى كان يملكها جده ألفونسو السادس ، وأن يستولى أمير قطلونية على سائر أراضى أراجون ، التى كان يملكها سانشو وپيدرو ملكا أراجون من قبل . أما منطقة بنبلونة فإن القيصر يستولى على ثلثها ، ويستولى رامون برنجير على باقيها مع اعترافه بسيادة قشتالة على هذا الجزء ، على نحو ما كان عليه الشأن أيام ألفونسو السادس . وتنفيذاً لهذا الاتفاق زحف الكونت رامون بقواته على ناڤارا من ناحيتها الجنوبية ، وزحف عليها القيصر فى قواته من ناحية الشمال الغربى ، ولكن غرسية راميريس ملك ناڤارا استطاع فى كثير من الشجاعة والبراعة ، أن يرد القوات الأرجونية ، أما القوات القشتالية فقد استطاعت أن تخترق ناڤارا ، وأن تطوق عاصمتها بنبلونة ، واكتفى غرسية راميريس بأن يلتزم خطة الدفاع ، حتى يطيل أمد المعركة وينهك قوى خصومه . وكان غرسية راميريس أعقل من أن يغامر بالدخول فى معارك حاسمة مع القوات القشتالية ، فلجأ إلى رجال الدين فى طلب الإنجاد بالمفاوضة وعقد الصلح ، وعاون فى اتخاذ

---

(١) Lafuente : ibid; T. III. p. 228 - Ibars: Valencia Arabe p. 482 - 484
وراجع ما سبق أن أوردناه عن هذا الحادث ( ص ١٥١ من هذا الكتاب )

هذه الخطوة الكونت چوردان أمير تولوشه ، الذى جاء حاجاً إلى شنت ياقب .
وعقدت معاهدة الصلح بين غرسية راميريس والإمبراطور فى قلهُرّة فى أكتوبر سنة ١١٤٠ م ، وهى تقضى بأن يعترف ملك ناڤارا بسيادة الإمبراطور ، وأن تتزوج الأميرة بلانكا إبنة غرسية من الأمير سانشو ولد الإمبراطور الكبير ، وأن تُسلم نظراً لصغرها إلى الإمبراطور ، حتى تربى وتكبر فى بلاط قشتالة . وهكذا أنقذت ناڤارا إلى حين .

غير أن هذا التصرف لم يرق الكونت رامون ، وسخط الشعب الأرجونى على الإمبراطور لأنه لم يحسب حسابا لاتفاق كريون . ومن ثم فقد عول الكونت أن يعمل لحساب نفسه ، وأن يشهر الحرب وحده على ناڤارا بقوات أراجون وقطلونية . واضطرمت الحرب ضد ناڤارا من جديد . ولكن غرسية هزم الأرجونيين ، وتوغل فى أراضى أراجون ، واستولى على عدة من البلاد ، والحصون ، وأخذ يفكر فى خلع طاعته للإمبراطور . وعندئذ خشى ألفونسو ريموند يس عاقبة هذا الظفر الذى أحرزه غرسية ، وسار فى قواته لإنجاد الكونت رامون ، وزحفت القوات المشتركة على ناڤارا كرة أخرى ( سنة ١١٤٣ م ) . وهنا تذرع غرسية بالحكمة ، وبادر بالإذعان والتسليم ، وأخلى سائر الأماكن التى انتزعها من أراجون ، وعقد الصلح بين الفريقين من جديد ، واتفق أن يتزوج غرسية ، الذى توفيت زوجته منذ أعوام ، بالأميرة أوراكا ابنة القيصر غير الشرعية ، وعقد هذا الزواج الملكى بالفعل فى مدينة ليون فى يونيه سنة ١١٤٤ م فى حفلات باذخة ، اشتهرت بين أحداث هذا العصر ، ووضع بذلك حد للنزاع بين ناڤارا وجارتيها أراجون وقشتالة .

وفى خلال ذلك كانت قشتالة تتابع كفاحها ضد المسلمين ، وذلك سواء بالعمل على صد غزواتهم ، والقيام فى أراضيهم بغزوات مماثلة ، أو محاولة انتزاع ما يمكن انتزاعه من قواعد الحدود . وكان المرابطون قد استولوا على قلعة « مورة » المنيعة الواقعة جنوبى طليطلة ، وذلك فى سنة ١١٤٠ م ، واتخذوها قاعدة للإغارة على أراضى قشتالة المجاورة ، فحشد ألفونسو ريموند يس جيشاً ضخماً ، وبعث حاكم طليطلة ردريجو فرنانديث على رأس بعض قواته إلى منطقة وادى يانة « فعاثت فى أحواز قرطبة وإشبيلية . وسار الإمبراطور بنفسه فى حملة أخرى إلى قلعة قورية ، وحاصرها مدى شهرين حتى سقطت فى يده فى يونيه سنة

١١٤٢م ( ٥٣٦ هـ ) وذلك بعد أن يئست حاميتها المسلمة من تلقى أية نجدة .

وتقص علينا الرواية النصرانية ، قصة غزوة قام بها القشتاليون بقيادة نونيو ألفونسو حاكم مورة السابق ، فى الأراضى الإسلامية ، وأسفرت المعركة التى نشبت بين القشتاليين وبين قوات إشبيلية وقرطبة ، عن هزيمة المسلمين هزيمة ساحقة ، ومصرع والى إشبيلية وقرطبة ، ورُفع رأساهما فى طليطلة على رمحين ، واستولى القشتاليون على كثير من الغنائم والأسرى ، وذلك فى أواخر سنة ١١٤٢م ( ٥٣٧هـ ) . ولم نجد فى المراجع الإسلامية أى ذكر لمثل هذه الموقعة . وكذلك لم نجد بها أى ذكر لما تقصه الرواية النصرانية بعد ذلك من أن القيصر أرسل فى العام التالى أعنى فى سنة ١١٤٣ ( ٥٢٨ هـ ) حملة جديدة بقيادة مارتن فرنانديث ونونيو ألفونسو ، لتحول دون قيام المسلمين بتحصين قلعة مورة ، فخرج والى قلعة رباح فى قواته — وتسميه الرواية النصرانيةفرج — واشتبك مع القشتاليين فى معركة هزم فيها القشتاليون ، وفر مارتن فرنانديث جريحاً ، وقتل نونيو فوق تل قريب يسمى « صخرة الوعل » مدافعاً عن نفسه ، فاحتز رأسه ، وقطعت ذراعه اليمنى ، ورجله اليمنى ، وأرسلتا إلى قرطبة وإشبيلية ، لتعرضا على أرملتى الواليين القتيلين تعزية لهما ، ثم أرسلت بعد ذلك إلى أمير المسلمين تاشفين بن على بمراكش[1] .

فأثارت هذه الهزيمة فى نفس الإمبراطور أيما ألم وسخط ، وأقسم بالانتقام لمصرع قائده ، فخرج فى العام التالى ( ١١٤٤ م ) فى قواته إلى أراضى الأندلس ؛ وأثخن فى أحواز قرطبة وإشبيلية ، وانتسف الزروع وأحرق القرى ، ووصل فى سيره المخرب حتى أراضى غرناطة ، والمرية ، ثم عاد إلى بلاده ، مثقلا بالغنائم والأسرى .

ثم كانت ثورة القواعد الأندلسية على المرابطين ، وكان من الواضح أن هذه الغزوات النصرانية المخربة ، وما يقترن بها من القتل والسبى والنهب ، وعجز المرابطين عن ردها ، كانت من العوامل التى أذكت سخط الأمة الأندلسية على المرابطين ، ورغبتها فى التخلص من نيرهم ، وقد رأينا كيف استغل القيصر ألفونسو ريمونديس هذه الفرصة السانحة ، فى بسط عونه لمن لجأ إليه من الثوار الأندلسيين

---

( ١ ) تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين لأشباخ ص ١٨٣ و ١٨٤ وكذلك :
**Lafuente : ibid, T. III. p. 291**

أمثال ابن حمدين ، وابن هود ، ثم قدم عونه لزعيم المرابطين ابن غانية ، حينما علم بعبور الموحدين إلى الأندلس ، وعاونه على الاحتفاظ بسلطانه على قرطبة ، ووصل الأمر بعد ذلك إلى أن احتل القيصر عاصمة الخلافة القديمة لأمد قصير ، وذلك كله حسبما فصلناه من قبل فى موضعه .

وكانت أعظم ضربة نزلت بالأندلس يومئذ ، واشترك فيها القيصر ألفونسو ريموندیس ، افتتاح ثغر ألمرية العظيم، على يد الحملة الصليبية البرية والبحرية التى اشتركت فى تجهيزها ممالك اسبانيا النصرانية ، قشتالة وناڤارا وأراجون ومعها چنوة وبيزة ، ونجحت خلال الاضطراب العام الذى أصاب الأندلس يومئذ ، فى الاستيلاء على ألمرية ، وذلك فى شهر أكتوبر سنة ١١٤٧ م ( ٥٤٢ ﻫ ) ، وقد بقى الثغر الإسلامى فى أيدى النصارى عشرة أعوام كاملة ، وكانت للقيصر وحاميته القشتالية فيه اليد العليا ، حتى افتتحه الموحدون فى أواخر سنة ١١٥٧ م .

ونكبت الأندلس فى نفس الوقت بفقد قواعدها الباقية فى الثغر الأعلى . واستولت عليها كذلك حملة صليبية من جنود قطلونية وأراجون وبيزة وچنوة بقيادة الكونت رامون برنجير الرابع أمير برشلونة ، فاستولت أولا على ثغر طرطوشة، وذلك فى آخر سنة ١١٤٨م ( شعبان ٥٤٣ﻫ ) ، ثم استولت على مدينة لاردة فى أكتوبر من العام التالى ( ٥٤٤ ﻫ ) ، واستولت كذلك ، على إفراغة ، ومكناسة وبذلك انتهت سيادة المسلمين فى الثغر الأعلى ، وقد سبق أن تناولنا هذه الحوادث كلها تفصيلا .

وانتهز غرسية رامبريس ملك ناڤارا فرصة انشغال خصمه القديم الكونت رامون بافتتاح قواعد الثغر الأعلى ، فغزا ولايات أراجون المجاورة . وتفسر لنا الرواية النصرانية سر هذا العدوان بقولها إن غرسية كان يرمى إلى إرغام الكونت على أن يتزوج من ابنته بلانكا ، وأن يجعل ذلك شرطاً لعقد السلام بين أراجون وناڤارا ، وذلك بالرغم من أن دونيا بلانكا كان قد تقرر زواجها من سانشو ولى عهد قشتالة ، وأن الكونت رامون كان قد عقد زواجه التمهيدى بالأميرة الطفلة بترونيلا ابنة الملك الراهب رامبرو ، وقد اضطر الكونت رامون أن يشترى سلام بلاده بالخضوع لهذه الرغبة ، وأن يتعهد فى معاهدة الصلح التى عقدت بأن يتزوج من إبنة ملك ناڤارا ( يوليه سنة ١١٤٩ ) . بيد أنه ماكاد يشعر بانقشاع الخطر عن أراجون ، حتى هرع إلى الكنيسة يجثو أمام هيكلها مع عروسه

بترونيلا ، بجدد العهد بارتباطه معها برباط الزواج المقدس . وتصف الرواية القطلونية هذا التصرف بأنه عمل فريد من الختل والخديعة يذكر فى حياة الكونت.

وشغل القيصر ألفونسو ريموندِيس ، أو ألفونسو السابع ، فى ذلك الوقت بحادثين داخليين ، أولهما عقد المؤتمر الكهنوتى فى بالنسيا فى سنة ١١٤٨ م ، ليعنى ببحث المسائل الدينية والكنسية ، وثانيهما وفاة زوجه الملكة برنجيلا ، فى سنة ١١٤٩ م . وكانت وفاة هذه الملكة الموهوبة الحازمة ضربة أليمة للقيصر أثارت فى نفسه أيما حزن وشجن . وكان القيصر منذ حين قد فوض لولديه سانشو الذى خصه بلقب ملك قشتالة ، وفرناندو الذى خصه بلقب ملك ليون ، توقيع الأوامر والمراسيم العامة ، متشبهاً فى ذلك بجديه ألفونسو السادس ، وسانشو الكبير ، فى تقسيم كل منهما المملكة بين أولاده ، حال حياته ، ثم بعد مماته ، وهى السياسة التى كانت تنتهى دائماً باضطرام الحرب الأهلية بين الممالك النصرانية .

وفى سنة ١١٥٠ م توفى غرسية راميريس ملك ناڤارا ، وخلفه ولده سانشو الملقب بالعالم ، فرأى القيصر فى ذلك فرصة جديدة للإيقاع بناڤارا ، وفى الحال اجتمع بحليفه القديم الكونت رامون برنجير فى تطيلة ، وجددت بينهما معاهدة التقسيم التى عقدت من قبل فى كريون ، ولم يكتف الملكان بالاتفاق على تقسيم ناڤارا ، ولكنهما اتفقا فى نفس الوقت على تقسيم القواعد والأراضى الإسلامية التى لم تفتح بعد ، فاختص منها ملك أراجون بكل أراضى بلنسية ، ومرسية ، وتعهد دون سانشو ولد القيصر ، أن يعاون الكونت فى افتتاح ناڤارا ، وتعهد الكونت من جانبه بأنه فى حالة موت القيصر ، يعترف بكل ما يحكمه سانشو ، وإذا توفى الأب والابن ، فإنه يعترف لأخيه فرناندو بسيادته على أراضى المملكة .

بيد أن تطور الحوادث قضى بنجاة ناڤارا من هذه المؤامرة إلى حين . ذلك أنه قد تم زواج دونيا بلانكا أخت ملك ناڤارا بالدون سانشو ملك قشتالة فى العام التالى ( ١١٥١ م ) ، واحتفل بعقده بمدينة قلهرّة بحضور الملوك الثلاثة ، ملوك قشتالة وأراجون وناڤارا . وفى نفس العام عقد زواج القيصر الأرمل ألفونسو ريموندِيس من الأميرة ريكا إبنة لادسلاو ملك بولونيا ، وقدمت إلى قشتالة فى العام التالى ، واستقبلها زوجها القيصر فى بلد الوليد فى مظاهر واحتفالات باذخة .

وتم زواج سانشو ملك ناڤارا من دونيا سانشا ابنة القيصر من زوجه الملكة برنجيلا ( سنة ١١٥٣ ) . وفى العام التالى تزوجت ابنة القيصر الثانية ، دونيا

كونستنزا من لويس السابع ملك فرنسا ، وكاى قد طلق زوجه الأولى إليونور دى جيان . وحدث بعد عقد هذا الزواج أن ثارت بعض الريب حول أرومة الملكة كنستنزا ، وقيل بأنها ليست ابنة شرعية للقيصر من زوجه الملكة برنجيلا ، وأنها بالعكس ابنة غير شرعية من خليلته كوندرادا . ورأى الملك لويس أن يتحقق بنفسه من الأمر ، فسافر إلى اسبانيا محتجاً بزيارة قبر القديس ياقب فى شنت ياقب ( سنة ١١٥٥ م ) . ولم يكن القيصر يجهل السبب الحقيقى لمقدم صهره ، فرتب لاستقباله فى برغش ، ثم فى طليطلة حفلات باذخة ، ظهر فيها البلاط القشتالى فى أفخم مظاهره وأروعها ، وحضرها ملك ناڤارا ، والكونت رامون برنجير ملك أراجون ، وأثار القيصر أمام الملوك مسألة ابنته كونستنزا ، وخاطب لويس بقوله : لقد زوجتك ابنتى كونستنزا إبنة الملكة برنجيلا أخت هذا الأمير الكونت رامون . والتفت رامون إلى لويس قائلا : أجل إن زوجتك هى ابنة أختى ، فعاملها بالاحترام والتكريم ، والا فانتظر مقدمى فى باريس مع القيصر كعدوين . وعندئذ اقتنع لويس بأصل زوجته الملكى الرفيع ، وعاد إلى بلاده مغتبطاً راضياً(١) .

وكان الكونت رامون برنجير ، قد عقد فى نفس الوقت زواجه الفعلى بالأميرة بترونيلا الأرجونية ، وكانت قد بلغت عندئذ الثامنة عشرة من عمرها ، ولما شعرت هذه الأميرة باقتراب وضعها الأول ، عملت وصية مفادها ، أنه إذا كان المولود ذكراً ، فإنه يرث مملكة أراجون على نحو ما كانت عليه فى عهد ألفونسو المحارب ، وأن يكون لزوجها الكونت رامون إدارة المملكة خلال حياته ، وإذا مات الولد ، وبقى الكونت حيا ، فإنه يغدو الملك المطلق للمملكة كلها . أما إذا كان المولود أنثى ، فكل ما ترغبه بشأنها هو أن يعنى والدها بأن يزوجها وأن يمهرها بسخاء . وبعد ذلك وضعت الأميرة ولداً سمى رامون طول حياة والده ، ثم غير اسمه بعد وفاته ، إلى ألفونسو ، فكان هو وارث المملكتين قطلونية وأراجون .

ولم يمض قليل على ذلك حتى شهر سانشو ملك ناڤارا الحديد الحرب على أراجون يبغى تحقيق أطماع والده غرسية راميريس ، واضطر الكونت رامون ،

---

(١) تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين لأشباخ ص ٢٣٣ و ٢٣٤ وكذلك :
Lafuente : ibid; T. III. p. 278

أن يعود مسرعاً من غزوة كان يقوم بها فى بيارن ، فيما وراء البرنيه ، وعندئذ سار القيصر ألفونسو ريمونديس إلى لاردة ، وذلك ليقوم بالتدخل بين الملكين المتحاربين فى الظاهر ، ولكنه اجتمع بالكونت رامون ، وجدد معه الاتفاق القديم على تقسيم نافارا ، ولم تمنعه وشائج المصاهرة الوثيقة بينه وبين ملك نافارا زوج ابنته ، وأخ زوجة ولده سانشو ، من الائتمار به على هذا النحو ، وتم الاتفاق فى الوقت نفسه بين القيصر والكونت على تزويج دون رامون الصغير ولد الكونت ، وكان فى الرابعة من عمره ، من دونيا سانشا ابنة القيصر من زوجه الجديدة الملكة ريكا ، وكانت فى الثانية من عمرها .

## ٤ — أعوام القيصر الأخيرة ووفاته
## وفاة رامون برنجير الرابع

ومما هو جدير بالذكر ، أن هذه الفترة من الحفلات والزيجات الملوكية المتوالية ، قد عاقت عاهل قشتالة فترة قصيرة ، عن متابعة غزواته لأراضى الأندلس ، فهو مذ قام فى سنة ١١٥١ م ( ٥٤٦ هـ ) بغزوته لمدينة جيان ونهبها ، وقدكانت يومئذ بأيدى الموحدين ، لم يعد إلى مهاجمة الأندلس إلا فى سنة ١١٥٥م ( ٥٥٠ هـ ) ، وذلك حينما نجح فى الاستيلاء على أندوجر وحصن البطروج ، واحتلتهما القوات القشتالية لفترة يسيرة ، ثم عاد الموحدون بقيادة ابن يكيت والى قرطبة ، فاستردوهما ، واستولوا على بعض الحصون النصرانية المجاورة ، وذلك حسبما أشرنا إلى ذلك من قبل فى موضعه .

وكانت آخر المعارك الخطيرة التى خاضها القيصر مع الموحدين ، هى معركة ألمرية . وكان الموحدون بعد استيلائهم على قرطبة وغرناطة ، قد وضعوا خطتهم لاسترداد ألمرية ، التى افتتحها النصارى منذ سنة ١١٤٧م ، (٥٤٢ هـ) . وقد سبق أن فصلنا حوادث افتتاح النصارى لهذا الثغر الإسلامى العظيم ، ثم حوادث استرداده على أيدى الموحدين . وكان القيصر ألفونسو ريمونديس قد سار لإنجاد حاميته النصرانية فى جيش كثيف ، وسار معه حليفه محمد بن سعد بن مردنيش أمير شرقى الأندلس فى قواته ، ولكن جهود القيصر وحليفه المسلم ذهبت عبثاً ، واضطر النصارى إلى تسليم ألمرية إلى الموحدين ، بعد حصار دام سبعة أشهر ، وذلك فى أواخر سنة ١١٥٧ م ( أواخر سنة ٥٥٢ هـ ) . وارتد القيصر فى قواته

إلى بلاده ، وقد حطم هذا الفشل الأخير قواه المعنوية . وفى طريق العودة أصابته حمى شديدة ، فاضطر إلى التوقف فى مكان بالقرب من بلدة مورتلة ( موردال ) ، وهنالك تلقى القداس ، وأسلم الروح ، وذلك فى ٢١ أغسطس سنة ١١٥٧ م ، وهو فى سن الحادية والخمسين .

وكان القيصر ألفونسو ريمونديس ، أو ألفونسو السابع ، أو ألفونسو الثامن إذا اعتبرنا أن ألفونسو المحارب ملك أراجون، كان أيضاً وقت زواجه بالملكة أوراكا ملكاً لقشتالة ، من أعظم ملوك اسبانيا النصرانية ، وكان هو أول ذلك الثبت الحافل من ملوك قشتالة ، الذين ينتمون إلى الأسرة البرجونية الملوكية ، والذين حكموا قشتالة حتى القرن الخامس عشر. وكان يتسم بكثير من الحزم والقوة ، وقد أمدته التجارب القاسية التى شهدها خلال صباه ، أيام الخصومات والحروب الأهلية التى اضطرمت بين أمه أوراكا وزوجها ألفونسو المحارب من جهة ، وبين أمه وبين الأشراف الخوارج من جهة أخرى ، بكثير من الخبرة والمقدرة على معالجة شئون الملك ، والذود عن العرش ، ومن ثم فقد استطاع أن يقمع ثورات الأشراف الخارجين ، وأن يحد من سلطانهم ونزعاتهم الثورية ، واستطاع منذ وفاة ألفونسو المحارب أن يحتل مركز السيادة والصدارة بين ملوك اسبانيا النصرانية . وقد رأينا كيف كان ألفونسو ريمونديس يعلق ، على صفة الإمبراطورية نتائج ضخمة ، وبالرغم من أن هذه الصفة لم يكن لها بالنسبة لباقى ممالك اسبانيا النصرانية سوى طابع أدبى ، فإنه كان يحرص على سلطانه كإمبراطور ، وكان ( وفقاً لقول النقد الإسبانى ) « يحلم بإمبراطورية حقيقية ، تشتمل على كل إمكانيات التوسع الإسبانى ، وكل العوامل التاريخية للوطن الإسبانى ، وتمتد جذورها إلى تراث العالم الرومانى ، وإلى وحدة العرش القوطى ، وكان منذ اتشح بالثوب الإمبراطورى فى سنة ١١٣٥م ، يسير وفق برنامج مدروس راسخ ، وكان هذا البرنامج يقوم على شقين ، الأول الإصلاح الداخلى فى الناحيتين الإدارية والقضائية ، والثانى ، وهو ناحية السياسة الخارجية يقوم على المحافظة على سمعة الإمبراطورية ، بكافة الوسائل السلمية والعسكرية » .

« وغاية هذا البرنامج النهائية ، هو الهجوم العام على الإسلام ، وكان الاندفاع نحو فتوح الاسترداد Reconquista يستمد قوته من مصادر كثيرة ، من نفس النظرية الإمبراطورية ، ومن توحيد مختلف الأراضى والجهود ،

والخلاف القائم بين المسلمين فى شبه الجزيرة ، وضرورة حماية هيبة الإمبراطورية ومكانتها إزاء البابوية والعالم الخارجي ، كل ذلك كان يخلق اندفاعاً قوياً ومستمراً ، يضع الإسلام فى شبه الجزيرة فى موقف من أدق مواقفه . وقد أكد ألفونسو السابع نيته فى متابعة هذه الحرب المستمرة على الإسلام ، عقب التتويج الإمبراطورى مباشرة ، فى إخطاره لأهل مملكته ولسكان الحدود ، بأن يشهروا الحرب على المسلمين فى كل سنة ، وأن يزعجوهم بلا هوادة، وألا يفروا بلادهم أوحصونهم ،وأن ينتزعوا منهم كل شىء فى سبيل الله، ومن أجل الدين المسيحى»[1].

وتشيد الرواية النصرانية بخلال ألفونسو ريموندیس ، وتقول لنا إنه من القلائل من ملوك اسبانيا النصرانية ، الذين يستحقون صفة القيصر بجدارة ، وتشيد كذلك بفروسته وشجاعته وعدله وتقواه ، ورعايته للكنائس والأديار . بيد أنه ليس من ريب فى أن ألفونسو ريموندیس كان ملكاً جشعاً ، وافر الأطماع ، وكان لا يفرق فى تحقيق أطماعه بين الوسائل المشروعة، وغير المشروعة ، وقد رأينا موقفه من مملكة ناڤارا الصغيرة الشجاعة الأبية ، وكيف أن وشائج القربى والمصاهرة لم تمنعه من الائتمار باستقلالها غير مرة . أما سياسة ألفونسو ريموندیس نحو الأندلس المسلمة ، وهى السياسة التى صورها لنا النقد الإسبانى فيما تقدم، فلم تكن تختلف فى شىء عن سياسة أسلافه : سياسة التربص والغدر والعدوان المستمر ، وسياسة الضرب والتفريق بين المتوثبين والمتخاذلين من زعمائها ، وانتهاز الفرص للإيقاع بها ، وانتزاع أراضيها بكل الوسائل . والواقع أن الجيوش القشتالية أيام ألفونسو ريموندیس لم تترك للمسلمين فى شبه الجزيرة أية هدنة . فى سنة ١١٣٣م ، قام ألفونسو بغزوته الكبرى خلال الأندلس ، ووصل فى زحفه إلى شريش وأرض الفرنتيرة ، ولم تستطع الجيوش المرابطية أن تقف فى سبيله . وهو مذ تقلد التاج الإمبراطورى فى سنة ١١٣٥ ، دائب الغزو لأراضى الأندلس ، فإذا لم تكن ثمة غزوة كبيرة ، فقد كانت ثمة غارات مخربة على الحدود . وفى سنة ١١٣٩ افتتح حصن أوريخا ( أرنبة ) . وفى سنة ١١٤٢، افتتح قورية . وفى سنة ١١٤٦ ، دخل قرطبة استجابة لدعوة ابن حمدين ،

---

( ١ ) وردت هذه الملاحظات ، ضمن تصوير لعهد ألفونسو السابع ، قدم به الأستاذ العميد S. Montero Diaz لمحاضرته La Orden de Calatrava y su perspectiva universal المنشورة فى كتاب : La Orden de Callarava (Cuidad Real 1959) p. 8

ثم ندب لحكمها ابن غانية . وفى سنة ١١٤٧ استولى على قلعة رباح ، واشترك مع الجيوش النصرانية الأخرى فى الاستيلاء على ألمرية ، وهكذا استمر الصراع على أشده بين الجيوش القشتالية الغازية والجيوش المسلمة ، مرابطية أوغيرها ، طوال أيام ألفونسو السابع .

ويعرف ألفونسو ريمونديس فى الرواية الإسلامية بألفنش بن رمند أى ألفونسو بن ريموند وهو اسم أبيه الكونت ريموند البرجونى ، ويعرف كذلك بالسليطين أى الملك الصغير لأنه حكم منذ طفولته .

وحكم الكونت رامون برنجير الرابع بضعة أعوام أخرى ، وشغل فى الأعوام الأخيرة من حكمه بمنازعات ومعارك مختلفة فيما وراء البرنيه ، فى ولاية بروڤانص ، وهى التى كان يحكمها أخوه الكونت برنجير رامون ، حتى نازعه فيها بعض الأمراء المحليين ، وقتل مدافعاً عن ولايته . وقد نجح الكونت يومئذ فى إرغام أشراف بروڤانص على الاعتراف بطاعته وتلقب بلقب كونت دى بروڤانص مضافاً إلى ألقابه . ولكن بعض الأمراء المحليين عادوا فأثاروا الاضطراب فى بروڤانص ، منضوين تحت حماية القيصر فردريك الأول امبراطور ألمانيا . وأخيراً تحول القيصر إلى مناصرة الكونت رامون ، ومنحه عهد الجزية على بروڤانص وعلى عاصمتها آرل ، كما كان الأمر من قبل . ثم سافر الكونت رامون وابن أخيه برنجير إلى تورينو حيث كان يقيم القيصر ، ليتلقيا منه عهد الجزية ، فمرض الكونت وتوفى خلال الطريق ، وذلك فى السادس من أغسطس سنة ١١٦٢ م .

وكان رامون برنجير الرابع ، من أعظم أمراء اسبانيا النصرانية فى ذلك العصر ، الذى تعددت فيه الممالك الإسبانية ، ومن أوفرهم ذكاء وعزماً ومقدرة . وفى وسعنا أن نعتبره مؤسس عظمة مملكة أراجون الحقيقى . وكان سبيله إلى ذلك إدماج قطلونية وأراجون فى مملكة قوية موحدة ، وكان حكمه يتسم بالقوة والحكمة والعدل ، وقد استطاع بسياسته المستنيرة أن يتقى كثيراً من الحروب والمنازعات ، وأن يحافظ على سلام مملكته ورخائها . بيد أنه كان كسائر أقرانه ملوك اسبانيا النصرانية يضطرم تعصبا ضد المسلمين ، ولايدخر جهدا فى محاربتهم ، وقد استطاع أن ينتزع آخر القواعد الإسلامية فى الثغر الأعلى ، وأن يقضى بذلك نهائياً على سلطان المسلمين ، فى هذا الركن من اسبانيا .

## ٥ — قشتالة بعد وفاة ألفونسو ريمونديس والحرب الأهلية بين أسرتى كاسترو ولارا

لما توفى القيصر ألفونسو ريمونديس فى أغسطس سنة ١١٥٧ م ، قسمت مملكته بين ولديه ، وذلك وفقاً للنظام الذى وضعه فى أواخر حياته ، فاختص ولده سانشو الثالث بعرش قشتالة والأراضى التابعة لها فى أعالى التاجُه، وعاصمتها طليطلة ، مع حق الجزية على مملكتى ناڤارا وأراجون . واختص ولده الصغير فرناندو بمملكة ليون وجليقية وأشتوريش ، مع حق السيادة على مملكة البرتغال ، وبهذا التقسيم الجديد لمملكة قشتالة الكبرى ، أصبحت الممالك الإسبانية النصرانية خمساً هى مملكة أراجون وقطلونية المتحدة ، وناڤارا ، وقشتالة ، وليون والبرتغال .

وكان هذا الوضع الجديد للممالك الإسبانية النصرانية نذيراً بتطور الحوادث ، وبانهيار سيادة قشتالة ، التى استطاع القيصر ألفونسو ريمونديس ، أن يفرضها على باقى الممالك الإسبانية ، وبدأت الأمور كالعادة بنشوب الحرب الأهلية بين الأخوين ، ملكى قشتالة وليون . وذلك أن فرناندو ملك ليون بدأ حكمه ، باضطهاد سائر الكبراء والأشراف المخلصين لقشتالة ، فجردهم من مناصبهم وأملاكهم ، وأخرجهم من مملكته اتقاء لمؤامراتهم ودسائسهم ، فالتجأ هؤلاء إلى أخيه سانشو ملك قشتالة ، فسار سانشو فى قواته ومعه الأشراف المبعدون ، وغزا ليون ، وأرغم أخاه على أن يرد المبعدين ، إلى مناصبهم ، وأن يرد إليهم أملاكهم ومكانتهم ، وأرغمه فوق ذلك على أن يعترف بسيادته وأن يؤدى له الجزية .

وفى خلال ذلك حاول سانشو ملك ناڤارا ، أن يرفع نير قشتالة عن مملكته ، وأن يسترد ولاية ريوخا القديمة ، ولكن سانشو الثالث بادر بإرسال حملة قوية إلى ناڤارا ، فخشى ملكها العاقبة ، وآثر أن يعقد الصلح على أن تبقى الأوضاع القديمة على حالها .

وكان سانشو الثالث يجيش بأطماع كثيرة ، وكان يطمح بالأخص إلى أن ينظم مع باقى الممالك الإسبانية حلفاً مشتركاً لمحاربة الموحدين ، الذين سيطروا على غرب الأندلس وأواسطها ، وأضحوا يهددون أرض قشتالة ، ولكن هذه

الآمال تحطمت كلها ، إذ توفى سانشو فجأة فى آخر أغسطس سنة ١١٥٨ ، بعد أن حكم عاما فقط ، ولم يترك لوراثة عرشه سوى طفل فى الثالثة من عمره ، هو ألفونسو الذى لقب فيما بعد بالنبيل ، واختار فى وصيته للولاية على ولده والقيام بمهام الحكم ، مؤدبه الكونت جوتيرو فرنانديث سليل أسرة كاسترو القوية ، وكان لهذا الاختيار أثره فى مجتمع الأشراف ، وفى اضطرام المنافسة بين أسرة كاسترو ، وخصيماتها من الأسر الشريفة ، وعلى رأسها أسرة لارا ، وقد كانت تضارع آل كاسترو ، قوة وعصبية ومحتداً .

سخطت أسرة لارا لما خصت به أسرة كاسترو من الوصاية على الملك الطفل ، وخشى الكونت جويترو عاقبة سخطها ووعيدها ، فعهد بتربية الملك الطفل إلى الكونت غرسية دى آنيا قريب آل لارا ، والمتصل بهم بأوثق الصلات ، وذلك كوسيلة لتجنب الخصام والمحافظة على السلم ، ولكن غرسية مالبث أن برم بهذه التبعة الثقيلة ، فسلم الطفل إلى الكونت ألمانريش كبير آل لارا ، فثار الكونت جوتيرو لهذا التصرف ، وأصر أن يعاد إليه الطفل ، وهدد بالحرب ، ولكنه لم يلبث أن توفى ، فتابع أبناء أخيه المطالبة ، وأصروا على استعادة الملك الطفل استناداً إلى الوصية الملكية ، فلما أصر آل لارا على موقفهم ، لجأ آل كاسترو إلى فرناندو ملك ليون ، عم الملك الطفل ، لكى يحمى ابن أخيه ، فسار ملك ليون فى الحال إلى قشتالة فى جيش ضخم ، واحتل معظم قواعدها ، وأعلن أنه يتولى الحكم والوصاية على ابن أخيه ، واعترف بطاعته معظم الشعب القشتالى ( سنة ١١٥٩م ) . واشتد فرناندو فى مطاردة آل لارا ، حتى أرغموا أخيراً على تسليم الملك الطفل . وعمد فرناندو بعد ذلك إلى اصطفاء آل كاسترو ، وتجريد آل لارا من أملاكهم ومناصبهم وألقابهم ، وترتب على ذلك أن ثارت بين الفريقين حرب دموية ، خربت فيها الضياع ، وأحرقت القرى ، وقاتل ملك ليون إلى جانب آل كاسترو ، حتى أرغمت أسرة لارا أخيراً على التسليم ، وأعلنوا أنهم يعودون إلى الطاعة ، وأنهم يقسمون بالتزامها إذا أعيد إليهم الطفل الملكى قبل ذلك . واتفق الفريقان على أن يجتمع لذلك الغرض مجلس فى بلدة « سُرية » يشهده آل لارا والملك فرناندو ، ومعه ابن أخيه الطفل . ولكن حدث خلال انعقاد هذا المجلس ، أن اختطف الطفل فارس جرىء من رجال آل لارا ، وسرعان ماعمد زعماء آل لارا وفى مقدمتهم الكونت ألمانريش إلى الفرار من

المجلس دون أن يقسموا يمين الطاعة ، وأدرك فرناندو ، بعد فوات الوقت، ما دبره خصومه من غدر وخديعة .

ووضع آل لارا الطفل الملكى فى قلعة إستبان دى جورمت المنيعة، وأذاعوا فى طول البلاد ، وعرضها أنهم يعملون على حماية الملك الطفل ، وحماية استقلال قشتالة من مطامع الملك فرناندو ، وانضم إليهم فريق كبير من أهل قشتالة . ومع ذلك فقد بقى التفوق إلى جانب فرناندو وأنصاره آل كاسترو ، وكان يؤيده بالأخص رجال الدين ، وعلى رأسهم مطران طليطلة . واستمرت هذه الحرب الأهلية بين الفريقين أعواماً ، وبذل فيها آل لارا جهوداً عنيفة ، وقتل زعيمهم الكونت ألمانريش فى إحدى المعارك . وكان وجود الملك الطفل فى أيديهم ، يساعدهم على حشد الأنصار والموارد . وأخيراً رجحت كفتهم على قوات ليون، واضطر الملك فرناندو ، إلى أن يطلب العون من خصميه القديمين ، ملك ناقارا، وملك البرتغال . وكانت الأحوال خلال ذلك تتطور فى قشتالة ، وأخذ الشعب يتحول عن آل كاسترو وعن قضيتهم ، ويرى فى بقاء ملك ليون وجنوده خطراً على استقلال البلاد . ومن جهة أخرى ، فإن ملك ليون لم يحظ بالعون المنشود من محالفة البرتغال وناقارا ، وزاد فى متاعبه أن قامت ثورة محلية فى أراضى استرامادوره ، وثارت مدينتا آبلة وشلمنقة على سلطانه ، وأخذ آل كاسترو فى نفس الوقت يفقدون هيبتهم ونفوذهم ، لما ارتكبوه من عسف ومظالم . وانتهزت أسرة لارا فرصة هذا التحول ، فسارت فى أنصارها إلى طليطلة عاصمة قشتالة ، واستولت عليها عنوة ، ونادت بقيام حكم الملك الطفل ألفونسو ، وكان قد بلغ عندئذ الحادية عشرة من عمره، ودعت جميع القشتاليين إلى الالتفاف حول الملك الشرعى، ومقاومة الليونيين وآل كاسترو . وكان ذلك فى سنة ١١٦٦ م .

واتجهت قشتالة كلها عندئذ إلى تأييد ملكها الصبى ، الذى لقب بألفونسو النبيل ، واستأثر آل لارا بجميع السلطات ، وتحول رجال الدين أخيراً عن ملك ليون ، ليؤيدوا الملك الشرعى ، وعقدت قشتالة الهدنة مع ناقارا ، وعقدت حلفا مع أراجون . وأيقن فرناندو ملك ليون أخيراً أنه لا أمل فى مثل هذا الموقف وآثر أن ينسحب من أراضى قشتالة ، وأن يترك حلفاءه آل كاسترو لمصيرهم ، واضطر آل كاسترو وعندئذ إلى مغادرة قشتالة ،والالتجاء إلى أراضى المسلمين، وهنالك أخذوا يرقبون الفرص للعودة والانتقام ، وأسدل الستار بذلك مدى

حين على صراع هاتين الأسرتين القشتاليتين الكبيرتين[١] .

## ٦ — قيام جماعات الفرسان الدينية

وقد امتاز هذا العصر — النصف الأول من القرن الثانى عشر — وهو عصر ألفونسو المحارب ، وألفونسو ريموندیس ، بظهور قوة جديدة فى ميدان الصراع بين اسبانيا النصرانية واسبانيا المسلمة ، هى جماعات الفرسان الدينية . وكانت هذه الجماعات قد ظهرت فى المشرق على أثر اضطرام الحروب الصليبية ، وسقوط بيت المقدس فى أيدى الفرنج الصليبيين ، وظهرت طلائعها فى اسبانيا ، فى عصر ألفونسو المحارب . وكانت أول جماعة قامت فى أراجون من هذا النوع هى جمعية الفرسان الدينية التى أنشأها ألفونسو المحارب فى سنة ١١٢٠م ، على أثر موقعة كتندة ، فى قلعة « مونريال » على مقربة من دروقة ، وظهر فرسان الداوية أوفرسان المعبد بعد ذلك فى إمارة برشلونة ، وشجعهم أميرها الكونت رامون برنجير الثالث على القيام فى مملكته ، ومنحهم حصن « جرانيينا » على مقربة من لاردة ، ليكون مقراً لهم ، ثم انتظم فى سلكهم قبيل وفاته فى سنة ١١٣١ م .

ولما توفى ألفونسو المحارب ، خص فرسان المعبد فى وصيته بثلث مملكته ، باعتبارهم حماة النصرانية فى بيت المقدس ، كما خص فرسان الأسبتارية ، كذلك بنصيب آخر من مملكته . وقد رأينا فيما تقدم كيف رفض الشعب الأرجونى أن ينفذ هذه الوصية حرصاً على سلامة الوطن الأرجونى . وقد رأى الفرسان أنفسهم استحالة تنفيذ مثل هذه الوصية ، لأنها مسألة لاتحل إلا بقوة السلاح ، ومن ثم فقد نبذوا باختيارهم هذه الحقوق ، واكتفوا بالمطالبة ، بأن يعوضوا عنها بما يعاونهم على الاستقرار ، وتأدية مهمتهم فى حماية الدين . ومن ثم فقد رأى أمير أراجون فيما بعد الكونت رامون برنجير الرابع ، تعويضاً لفرسان المعبد ( الداوية ) أن يمنحهم عدة حصون فى أراجون ومنتشون وكلامير وغيرها مع ما يلزم لها من المرافق والغلات التى تساعدهم على العيش ، وكذلك حصل الفرسان على حق الإعفاء من الخضوع لقضاء الملك ، وعلى أن يعطوا نصيباً معيناً فى المدن التى انتزعت من المسلمين مثل وشقة وبربشتر وسرقسطة ، وقلعة أيوب وغيرها ، وفى مقابل ذلك يتعهد الفرسان بأن يكرسوا حياتهم لحماية النصرانية فى تلك

---

( ١ ) M. Lafuente: ibid; Vol. III. p. 321 - 324

الأنحاء ، وتم هذا الاتفاق فى اجتماع عقد فى مدينة جيرنده[1] فى سنة ١١٤٣ م ، وشهده مندوب عن البابا ، وكثير من الأساقفة وأشراف أراجون وقطلونية .

وهكذا تم لجمعية فرسان المعبد الشهيرة أن تستقر فى أراجون وقطلونية . وسرعان ما نمت واشتد ساعدها ، وظهرت أهمية العون الذى يبذله أعضاؤها فى محاربة المسلمين ، ولاسيما فى الدفاع عن القواعد والحصون الواقعة على الحدود. وألفى هذا المثل صداه فى قشتالة ، عقب وفاة القيصر ألفونسو ريمونديس ، وقيام ولده سانشو. وكانت قلعة رباح ، فى مقدمة هذه المعاقل الأمامية التى تحمى مداخل قشتالة ، وكانت فضلا عن أهميتها الدفاعية ، تسيطر على مقاطعة جيان الأندلسية ، وكان ألفونسو السابع قد عهد بالدفاع عنها إلى فرسان الداوية ، وكانت القوات الموحدية تزحف على هذه القلعة من آن لآخر وترهقها بهجماتها العنيفة . ولما استولى الموحدون على ألمرية ، جددوا هجومهم فى سنة ١١٥٨م على قلعة رباح ، ولم يستطع فرسان الداوية إنقاذها من السقوط الا بشق الأنفس ، فلما أيقنوا بعجزهم عن القيام بمهمتهم الفادحة ، غادروا القلعة وسلموها إلى سانشو ملك قشتالة ، ليعنى هو بأمر الدفاع عنها . وألفى سانشو نفسه فى مأزق حرج . وكان ثمة فى طليطلة راهب ورع هو ريموندو أو رامون رئيس دير فتيرو ، ومعه راهب ورع من أسرة نبيلة يدعى ديجو بلاسكيث ، وكان فارساً مقداما ظهر فى ميدان الحرب ، فتقدم الراهبان إلى الملك سانشو ، بأن يعهد إليهما بمهمة الدفاع عن قلعة رباح ، فأجابهما الملك إلى ما طلبا . وأيد مشروعهما يوحنا مطران طليطلة ، وألقى عظات وعد فيها بالغفران لكل من يتقدم للدفاع عن القلعة ، فلم يمض سوى قليل حتى استطاع الراهب ريموندو أن يجمع حوله فى قلعة رباح عشرين ألف مقاتل ، وأمده كثيرون ممن لم يشتركوا فى الدفاع بالخيل والدواب والمال . وكان لهذه الحركة القوية أثرها فى رد الموحدين عن مهاجمة القلعة . وفى الحال رأى الراهب رامون أن يؤلف من أولئك الذين يرغبون أن يكرسوا حياتهم للدفاع عن النصرانية جمعية من الإخوة . وهكذا قامت جمعية « فرسان قلعة رباح » ( سنة ١١٦١م ) . وانتخب الراهب ريموندو أول رئيس لها ، وصادق البابا على قيامها ، وطبقت عليها النظم الحربية ، وأخذت تنمو باضطراد ، وتؤدى مهمتها فى مدافعة المسلمين بهمة وحماسة. ولما توفى أستاذ الجمعية الأول ، ريموندو دى فتيرو فى سنة ١١٦٣م

---

( ٢ ) هى بالإسبانية Gerona ، وهى تقع شمال شرق برشلونة على مقربة من البرنيه .

خلفه فى رياستها الراهب غرسية الناقارى ، ووضع للجمعية نظاماً جديداً ، أقره البابا اسكندر الثالث . ثم وضع البابا إنوصان الثالث بعد ذلك الجمعية تحت حمايته ، وذلك فى سنة ١١٩٩ م[1] .

وقامت فى جليقية، بعد قيام جمعية قلعة رباح بثلاثة أعوام جمعية محاربة جديدة باسم « جماعة القديس ياقب » وشعارها محاربة أعداء الدين ، والدفاع عن الحاج الذين يقصدون زيارة قبر القديس ياقب ، ونظمت على منهج القديس أوغسطين ، واتخذت طابعاً حربياً ، وأبيح الزواج لأعضائها ، خلافاً لفرسان قلعة رباح ، وتوالت عليها الهبات ، وسرعان ما نمت واشتد ساعدها .

وسوف تضطلع هذه الجمعيات الدينية المحاربة منذ الآن فصاعدا بدور بارز فى الصراع بين إسبانيا النصرانية وإسبانيا المسلمة .

---

( ١ ) تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين لأشباخ ( الترجمة العربية ص ٢٦٨ ) والاستاذ S. Montero فى مجموعة La Orden de Calatrava, p. 16 & 17

# الفصل الثالث

## قيـــام مملـكة البرتغال

### وبداية عصر ملكها ألفونسو هنريكيز

ولاية لوزيتانيا أصل مملكة البرتغال . تداولها بين الفاتحين ، وضعها عند افتتاح الأندلس . ولاية الغرب الأندلسية . شمال لوزيتانيا وسقوطه فى يد النصارى . ولاية البرتغال . البرتغاليون أهل هذه الولاية . أصل الملوكية البرتغالية . الكونت ريمون البرجونى وابن عمه الكونت هنرى . زواج الكونت ريمون بأوراكا إبنة ألفونسو السادس . اختياره لحكم إمارة البرتغال . وفاته وخلافة الكونت هنرى له . ولاية البرتغال ومدنها عندئذ . الكونت هنرى أمير وراثى للبرتغال . موقفه من الحرب الأهلية فى قشتالة . وفاته . ولده الطفل ألفونسو وأمه تريسا الوصية عليه . تقلبها فى محالفة الفريقين المتحاربين فى قشتالة . غزو المرابطين لأراضيها وانسحابهم . سخط الشعب على حكمها . مؤامرة الأشراف عليها واعتقالها . تولى ولدها الفتى ألفونسو هنريكيز الحكم . إعلانه لاستقلال البرتغال . سخط القيصر ألفونسو ريمونديس لذلك . الحرب بين قشتالة والبرتغال . التحالف بين ناڤارا والبرتغال . غزو البرتغال لجليقية . الحرب بين البرتغال والقيصر . توسط مطران براجا وعقد الهدنة بينهما . غزوة برتغالية لأراضى المسلمين . مجلس لاميجو واتخاذ ألفونسو هنريكيز لقب الملك . قانون وراثة العرش . القوانين الجديدة . تنظيم القضاء . قيام مملكة البرتغال . جماعات الفرسان الدينية . ألفونسو هنريكيز فى الرواية العربية .

نقف الآن قليلا فى تتبع أخبار الممالك النصرانية الإسبانية ، لنلم بأخبار مملكة نصرانية أخرى ، من ممالك شبه الجزيرة الإسبانية ، لم يكن لها قبل أوائل القرن الحادى عشر ذكر بين هذه الممالك ، ونعنى بذلك مملكة البرتغال الناشئة ، التى بدأت تحتل مكانتها إلى جانب باقى الممالك النصرانية ، وتأخذ معها بنصيب بارز فى الكفاح بينها وبين إسبانيا المسلمة .

إن مملكة البرتغال ترجع من حيث رقعتها الإقليمية ، أومن حيث أرومتها الملوكية ، إلى أصول متواضعة . فأما من حيث الرقعة الإقليمية ، فإنه يجب أن نعلم أن القسم الغربى من شبه الجزيرة الإسبانية ، كان منذ العصر القديم ، يتميز بسكانه وخواصه الجغرافية ، وكان سكانه يعرفون بأهل لوزيتانيا ، وهم جنس يتميز بخصائصه من الإسبان الذين كانوا يحتلون شرقى الجزيرة وأواسطها ، وكانت

ولاية لوزيتانيا فى العصر القديم تشمل الرقعة الغربية الواقعة جنوبى جليقية المحاذية للشاطىء فيما بين مصب نهر دويرة ومصب نهر وادى يانة . وكانت لوزيتانيا أيام الرومان تكون مع ولاية بتيكا ( باطقة ) أوالأندلس ، القسم الجنوبى الغربى من اسبانيا الرومانية ، وتسمى بإسبانيا السفلى . ولما غزت القبائل الجرمانية شبه الجزيرة الإسبانية فى أوائل القرن الخامس الميلادى ، نزل الوندال والشوابيون فى ولاية لوزيتانيا . ولما عبر الوندال إلى إفريقية ، احتل الشوابيون لوزيتانيا كلها ، واستمروا بها زهاء نصف قرن حتى أجلاهم القوط عنها، فارتدوا شمالا إلى جليقية ، واحتل القوط لوزيتانيا ، وعاصمتها يومئذ مدينة ماردة ، وذلك فى أوائل النصف الثانى من القرن الخامس الميلادى ، ثم استولى القوط بعد ذلك على اسبانيا كلها ، ماعدا قسمها الشمالى الذى استمر عصراً آخر بيد الشوابيين، حتى افتتحه القوط فى أواخر القرن السادس . وكانت لوزيتانيا تكون عندئذ إقليما من الأقاليم الستة التى قسمت إليها المملكة القوطية . ولما افتتح المسلمون اسبانيا ، بقيت لوزيتانيا على وضعها القديم ، وعاصمتها ماردة ، ومن مدنها قلمرية وأشبونة وشنترة وشنترين . وكانت ماردة أيام الدولة الأموية ، بالأخص منزل المولدين ، وكانت مثل طليطلة ، من المدن المتمردة الثائرة ، تضطرم بها الثورة على حكومة قرطبة من آن لآخر ، وكانت أيام الفتنة الكبرى فى مقدمة القواعد الخارجة ، وقد ثار بها بنو الجليقى ، واستقلوا بحكمها عصراً .

وكان القسم الجنوبى من ولاية لوزيتانيا وهو الذى بقى بأيدى المسلمين ، يعرف بولاية الغرب الأندلسية ، أوغربى الأندلس . ولما قامت دول الطوائف تغلب على هذه المنطقة بنو الأفطس ، واتخذوا من بطليوس قاعدة لإمارتهم . وكان حكمهم يمتد من منتصف وادى نهر وادى يانة حتى المحيط ، ويشتمل على قسم من وادى نهر التاجه ، يمتد شمالا حتى مدينة قلمرية[1] ، ويشتمل على ثغر أشبونة ، وشنترين ويابرة . أما القسم الشمالى من ولاية لوزيتانيا ، وهو الذى يمتد بين مدينة براجا شمالا ، وقلمرية جنوباً ، فكان النصارى قد تغلبوا عليه شيئاً فشيئاً ، وافتتح فرناندو الأول ملك قشتالة معظم قواعده من المسلمين، وآخرها مدينة قلمرية ، وقد افتتحها فى سنة ١٠٦٤ م (٤٥٦ هـ) ، وجعل فرناندو من من هذه المنطقة ولاية مستقلة باسم « البرتغال » بالاشتقاق من اسم « بورتو كالى »

(١) قلمرية وتسمى أيضاً قلنبرية هى بالافرنجية **Columbria 'Cömbra**

Porto Calle ، وهى الثغر الواقع عند مصب نهر دويرة ، وجعل قاعدتها قلمرية ، وانتدب لحكمها وزيره المستعرب الكونت سسنندوداڤيدس الذى تعرفه الرواية العربية باسم « ششنند » . ثم ضمت هذه الولاية الجديدة قبيل وفاة فرناندو بقليل إلى مملكة جليقية ، التى تركها فرناندو إلى أصغر أولاده الثلاثة غرسية .

وقد ذكرنا من قبل أن سكان اوزيتانيا ، وهى التى اقتطعت ولاية البرتغال الجديدة من قسمها الشمالى ، كانوا عنصراً خاصاً يفترق بمميزاته عن الإسبان . وكان اللوزيتانيون أو البرتغاليون أهل الولاية الجديدة ، يتوقون إلى الاستقلال عن مملكة جليقية ، ومن ثم فقد ثاروا منذ البداية ضد حكم الملك غرسية بقيادة زعيمهم الكونت نونيو مننندس ، ولكنهم هزموا أمام جيش جليقية ، وقتل زعيمهم نونيو ( سنة ١٠٧١ م ) . واستسلمت الولاية الثائرة إلى مصيرها ، وتعاقب فى حكمها الأمراء والحكام من قبل ملك قشتالة .

هذا عن أصول البرتغال الجغرافية والتاريخية . وأما عن أصول الملوكية البرتغالية ، فإنه لما عبر المرابطون إلى اسبانيا عقب افتتاح ألفونسو السادس ملك قشتالة لطليطلة ، ولقيت الجيوش الإسبانية المتحدة هزيمتها الساحقة فى موقعة الزلاّقة ( ٤٧٩ هـ — ١٠٨٦م ) عبر إلى شبه الجزيرة استجابة لصريخ ألفونسو السادس ، كثير من الفرسان والأشراف الفرنسيين ، لينجدوا إخوانهم فى الدين إزاء الخطر الإسلامى الجديد — خطر السيل المرابطى ، وكان من بين أولئك المجاهدين الوافدين اثنان من أشراف برجونية ، هما الكونت ريمون البرجونى ، والكونت هنرى دى لورين ؛ وكلاهما ينتمى إلى فرع من فروع آل كابيه ملوك فرنسا . وقد أبدى الرجلان فى خدمة ألفونسو السادس ومعاونته همة تذكر ، ومن ثم فقد رأى أن يثيبهما عن إخلاصهما وغيرتهما ، فزوج الكونت ريمون بإبنته أورّاكا ، ولما كان الكونت قد ظهر بالأخص فى محاربة المسلمين فى البرتغال وانتزع منهم شنترين وأشبونة وشنترة ( ١٠٩٣ م ) فقد عينه ألفونسو حاكماً لهذه الولاية . وزوج الكونت هنرى ، وهو ابن عمومة الكونت ريمون ، بابنته غير الشرعية تريسا التى رزق بها من خليلته خمينا نونيز .

ولما توفى الكونت ريمون بعد ذلك بقليل فى سنة ١٠٩٤ م ، بعد أن أعقب من زوجه أوراكا ولدا هو ألفونسو ، وهو الذى غدا فيما بعد القيصر ألفونسو ريمونديس ، خلفه فى حكم ولاية البرتغال قريبة الكونت هنرى ، وكانت

ولاية البرتغال تشمل يومئذ المنطقة الواقعة بين نهر منيو ( نهر منديجو ) ، ونهر التاجُه حتى أسفل مصبه، وبها عدة مدن هامة هى براجا وبورتو وقلمرية وبازو ولاميجو ( مليقة ) وعدة بلاد وضياع أخرى ، ومنح الكونت هنرى الذى لقب عندئذ بالدوق ، حكم هذه الولاية لا باعتبارها إمارة مستقلة ، ولكن على قاعدة الإقطاع باعتبارها تابعة لمملكة قشتالة ، تؤدى الجزية إليها وتشاركها فى حروبها ضد المسلمين بفرقة من ثلاثمائة فارس ويتوارثها عقبه[١] . بيد أن تريسا زوجة هنرى كانت تلقب بالملكة لأرومتها الملكية . وجعلت مدينة قلمرية حاضرة الإمارة الجديدة ، ومن ثم فإن الرواية العربية قد جرت على تسمية أمير البرتغال ، أو ملكها فيما بعد « بصاحب قلمرية » . وبالرغم مما بذله الكونت هنرى للمحافظة على حدود ولايته ، فإن المسلمين استطاعوا غير بعيد أن يستردوا أشبونة وشنترين . ولما توفى ألفونسو السادس فى سنة ١١٠٩ م ، جاءت وصيته الخاصة بوراثة العرش مؤيدة ، لحقوق هنرى الوراثية فى حكم ولاية البرتغال ، ولكن فى ظل قشتالة . بيد أنه كان فى الواقع يحكم ولايته مستقلا ، وكانت تبعيته لقشتالة مسألة اسمية فقط .

ولما نشبت الحرب الأهلية بين الملك ألفونسو المحارب وزوجه الملكة أوراكا ، وقف الكونت هنرى فى البداية إلى جانب ملك أراجون فى موقعة كامبودى سبنيا ، إذ كان يخشى على استقلاله من الملكة أوراكا ، بيد أنه لما تطورت الحوادث وهزمت أوراكا وحوصرت فى أسترقة ، تحول هنرى إلى مهادنتها ، ثم حارب إلى جانبها وعبر إلى فرنسا ، ليستقدم الحشود لمعاونتها ، وذلك مقابل حصول البرتغال على مدينة توى والأراضى الواقعة على ضفة منيو اليمنى . ثم توفى الكونت هنرى عقب ذلك فى مايو سنة ١١١٢ م ، ولم يترك سوى طفل فى الثالثة من عمره يدعى ألفونسو ، فتولت أمه الملكة تريسا الحكم ، بطريق الوصاية عليه .

وكانت دونيا تريسا ، فضلا عن جمالها ، امرأة وافرة الذكاء والعزم والإقدام ، وكانت تجيش بأطماع كثيرة فى سبيل تدعيم سلطانها واستقلالها ، وتوسيع رقعة إمارتها . وقد رأينا فيما تقدم كيف عملت خلال الحرب الأهلية فى قشتالة على انتهاز الفرص ، وتحالفت مع الكونت دى ترافا والثوار الجليقيين غير مرة ، ضد أختها أوراكا ، ثم حاربت إلى جانب أوراكا والأسقف خلمريث ، وكيف استطاعت

(١) R. Altamira : Historia de Espana y de la Civilización Espanola V.I. p. 357

فى النهاية أن تحافظ على ماكسبه زوجها من أراضى جليقية ، وان تكسب من أختها أراضى جديدة فى أحواز سمورة وطورو ثمناً لتخليها عن تحالفها مع الثوار (سنة ١١١٩) ، ورأينا كيف احتذت حذو أختها أوراكا فى التورط فى مسلكها الأخلاقى المشين ، وتوثيق علائقها الغرامية بالكونت فرناندو بيرث ، وتركه يتصرف فى شئون الإمارة بصورة سخط لها الشعب البرتغالى ، وأخيراً كيف انتهى ألفونسو ريمونديس إلى إخضاعها ، وإلى أرغام البرتغال أن تعترف باسم أميرها الصبى ألفونسو هنريكيز أنها مستظلة بحمايته .

وفى خلال ذلك استطاعت تريسا أيضاً أن تصمد لغزوات المسلمين لأراضيها. وكانت أهم غزوة واجهتها من المرابطين ، هى زحف أمير المسلمين على بن يوسف على قلمرية عاصمة الإمارة ومحاصرته لها ، ودخوله أياها ، وذلك فى يونيه سنة ١١١٧ م (سنة ٥١١ هـ) . بيد أن المرابطين لم يحتفظوا بها بل غادروها على الأثر ، وقفلوا إلى إشبيلية ، وذلك حسبما فصلناه من قبل فى موضعه .

ولم تمض على ذلك أعوام قلائل حتى سئم الشعب حكم هذه الأميرة المستهترة ، وأخذ يتطلع إلى أميره الفتى ألفونسو هنريكيز ، وكان الأمير قد بلغ الرابعة عشرة من عمره (سنة ١١٢٤ م) ، واتشح بثوب الفروسة وفقاً لتقاليد العصر ، وأجازه لذلك الملك ألفونسو ريمونديس . وكان الشعب يحبو أميره الفتى بحبه ، لما كان يتصف به من الخلال الحميدة ، من الفروسة والتقوى ، ورقة الشمائل ، وتوقير رجال الدين ، ويرى أن الوقت قد حان لتقديمه وتوليه شئون الحكم . وأخيراً دبر الأشراف والأحبار مؤامرة لتحقيق هذه الأمنية ، والتف حول الأمير جمع كبير من الأنصار ، وشهر الحرب ضد أمه المستبدة ، فلقيته فى أنصارها فى سنت مايميتى على مقربة من جويمرانس ، فهزمت الأم ، وأسرت وألقيت إلى السجن لتكفر عن زلاتها ، وماضيها الأثيم ، ونفى خليلها أو زوجها الكونت فرناندو بيرث من المملكة ونفى معه كثير من أنصاره . وتولى الأمير الفتى ألفونسو هنريكيز حكم إمارة البرتغال ، وكان ذلك فى سنة ١١٢٨ م ، وقد بلغ الأمير الثامنة عشرة من عمره .

وأعلن ألفونسو هنريكيز أنه يتولى حكم إمارته مستقلا دون تبعية لأحد . فثار لذلك ألفونسو ريمونديس ملك قشتالة ، إذ كان يعتبر البرتغال إقليما من أقاليم مملكته مشمولا بحمايته . وزحف بقواته على البرتغال بحجة العمل على إنقاذ

خالته تريسا ، وإرغام الأمير الخارج عليه ، على التزام الطاعة ، ونشبت بين البرتغال وقشتالة حرب طويلة الأمد ، وكان مسرحها بالأخص جنوبي جيلقية ، ولم يكن فى وسع ملك قشتالة أن يتابع هذه الحرب بنفسه ، لما كان يشغله من غارات المسلمين ومدافعة ملك أراجون . ولما توج ألفونسو ريموندیس قیصراً لإسبانيا فى سنة ١١٣٥م ، رفضت البرتغال أن تسلم بهذا الادعاء ، وشاطرها فى ذلك غرسيه راميريس ملك ناڤارا ، ووقع عندئذ نوع من التحالف بين ناڤارا والبرتغال . وبينما سار القيصر لمحاربة ناڤارا ، زحف البرتغاليون على جليقية ، واستولوا على مدينة توى وعدة مواضع أخرى ، فنهض أشراف جليقية لمقاومة البرتغاليين ، ونشبت بين الفريقين معركة شديدة ، وكان الظفر فيها لألفونسو هنريكيز ، ولكنه اضطر أن يترك الميدان وقتاً لكى يرد غزوة قام بها المرابطون على مقربة من قلمرية ، ولكن المرابطين كانوا قد انسحبوا خلال ذلك عائدين إلى أراضيهم ، فلما عاد ألفونسو هنريكيز ثانية لاستئناف القتال فى جليقية ، كان خصومه قد جمعوا فلولهم ، واستكملوا أهبتهم ، فلما اشتبك الفريقان كرة أخرى ، دارت الدائرة فى هذه المرة على البرتغاليين ، فهزموا هزيمة شديدة وجرح أميرهم . ولم يمض سوى قليل على ذلك حتى فرغ القيصر ألفونسو ريموندیس من حرب ناڤارا ، وعاد بنفسه لمحاربة البرتغال ، وتوالى الاشتباك بين الفريقين. وكان ألفونسو هنريكيز يحرص على ألا يلتقى مع القشتاليين فى معركة حاسمة ، ثم رأى فى النهاية نزولا على نصح قادته أن يتقدم بطلب الصلح إلى القيصر ، وتوسط مطران براجا فى الأمر ، وانتهت المفاوضة إلى عقد هدنة بين الفريقين ، واتفق على تبادل الأسرى من الجانبين ، وإعادة الحدود بين البلدين ، كما كانت فى آخر عام من حكم الملكة تريسا ، ولم يتفق على شىء بالنسبة للمسألة الجوهرية التى كانت سبب الحرب ، وهى مسألة تبعية البرتغال لمملكة قشتالة . وعلى أى حال فقد عقد السلم بين الفريقين ، واجتمع القيصر وألفونسو هنريكيز فى خيمة واحدة ، وتصافحا ، وتصافيا ، ثم عاد كل منهما إلى أراضيه ( سنة ١١٣٨ م ).

تحدثنا الرواية النصرانية بعد ذلك عن غزوة عظيمة قام بها ألفونسو هنريكيز فى الأراضى الإسلامية فى العام التالى ، أعنى فى سنة ١١٣٩ م (٥٣٣ هـ) ، وأحرز فيها نصراً باهراً على الجيش الإسلامى الضخم الذى حشده ولاة بطليوس ويابرة وباجة وإشبيلية ، وذلك فى مكان يسمى « أوريك » على ضفة نهر التاجُه ،

وهو حادث لم نجد له ذكراً فى الروايات العربية . ثم تقول لنا إن ألفونسو هنريكيز اعتزم عقب هذا النصر أن يتلقب بألقاب الملوكية ، وأن القيصر ألفونسو ريموندس بعث إلى البابا يحتج على اتخاذ أمير البرتغال لمثل هذه الخطوة . على أن ألفونسو هنريكيز لم يعبأ باعتراض القيصر ، أو تدخل البابوية ، فى الأمر ، واعتزم أن يجعل من لقبه الملوكى مسألة قومية بينه وبين شعبه ، فاستدعى فى مدينة لاميجو[1] مجلساً قومياً (كورتيس) مثل فيه رجال الدين والأشراف ونواب المدن (سنة ١١٤٣ م) ووافق هذا المجلس على أن يتخذ ألفونسو هنريكيز لقب الملك ، وأن يكون الملك متوارثاً فى أعقابه الذكور ، وعلى أثر ذلك وضع أسقف براجا على رأس ألفونسو تاجا من الذهب المرصع بالجوهر . وصادق الملك الجديد فى هذا المجلس على القوانين التى قدمها إليه ممثلو الطبقات ، وفى مقدمتها قانون وراثة العرش ، وهو يبين أحكام هذه الوراثة وتسلسلها بين الأبناء والإخوة ، وحالة ما إذا توفى الملك دون عقب ، وترك إبنة ، فإنها تتولى الملك من بعده . وقانون الأشراف ، وهو ينص على من يمكن نظمهم فى طبقة الأشراف ، ممن يجرى فى عروقهم الدم الملكى ، وكل من وفق إلى إنقاذ الملك أو أحد أقاربه ، أو إنقاذ العلم الوطنى فى ميدان الحرب ، وكل من استطاع أن يقتل فى الحرب أميراً من الأعداء ، أو يغتنم علما من أعلامهم .

والمسألة الثالثة هى مسألة تنظيم العدل ، وقد نص القانون الذى وضع لذلك على أن يدين جميع البرتغاليين بالطاعة للملك ، باعتباره أكبر قاض فى البلاد . وأن يعاقب على السرقة الأولى والثانية بالتعزير ، ويعاقب على السرقات الكبرى بالكى بالنار أو الموت . وتعاقب المرأة المتزوجة إذا زنت هى وعشيقها بالحرق ، ويعاقب القاتل بالإعدام مهما كان شخصه ، وكذلك يعاقب بالإعدام كل من اغتصب بكراً شريفة ، فإذا لم تكن المجنى عليها من الأشراف ، وجب على المعتدى أن يتزوج بضحيته .

ويترك للقاضى تقدير العقوبة على جرائم الضرب والجرح . وكل من اعتدى على أحد من رجال القضاء بالسب أو الضرب ، عوقب بالكى بالنار أو بغرامة قدرها خمسون قطعة من الذهب ، ويلزم بالتعويض المناسب .

(١) تقع لاميجو Lamigo فى شمال البرتغال جنوبى نهر دويره ، وتعرف فى الرواية العربية « بمليقة » .

وهكذا وضعت فى مجلس لاميجو أسس مملكة البرتغال الجديدة ، التى تحولت من كونتية أو إمارة صغيرة قامت فى ظروف متواضعة لتكون ولاية تابعة إلى مملكة قوية ، تأخذ منذ الآن مكانها فى تاريخ اسبانيا النصرانية ، وتقوم منذ الآن فصاعداً بنصيب بارز من النضال المرير المستمر بين إسبانيا النصرانية وإسبانيا المسلمة ، وتدفع رقعتها تباعاً على حساب القواعد والأراضى الإسلامية فى ولاية الغرب الأندلسية .

وعنى الملك ألفونسو هنريكيز كذلك بأمر جماعات الفرسان الدينية ، إذ شعر بأهميتها ، وخطرها فى محاربة المسلمين ، وكانت طلائع فرسان الداوية ، وفرسان القديس يوحنا قد ظهرت قبل ذلك ، واشتركت فى كثير من المعارك التى تنشب بين البرتغاليين والمسلمين . وفى سنة ١١٥٨ م ، أنشأ ألفونسو هنريكيز جماعة دينية جديدة سميت بالجماعة المحاربة الجديدة Nova Militia ، ووضعت لها نظم كنظم فرسان قلعة رباح ، وشعارها الجهاد من أجل الدين المسيحى ، وألا يدخروا وسعاً فى مقاتلة المسلمين ، وألا يتزوجوا ، وعين دون بيدرو أخو الملك ، أول أستاذ أعظم للجماعة . ولما نجحت هذه الجماعة فى سنة ١١٦٦ ، فى الاستيلاء على يابُرة من أيدى المسلمين بقيادة الفارس المغامر جيرالدو الباسل ( سمبافور ) ، سموا « بفرسان يابرة » . ثم سموا فيما بعد « بفرسان آڤيس » وذلك حينما منحهم الملك ألفونسو الثانى القلعة المسماة بهذا الاسم فى سنة ١٢١١ م .

ويعرف الملك ألفونسو هنريكيز ، منشئ مملكة البرتغال ، فى الرواية العربية بصاحب قلمرية أو قلنبرية (١) ، إذ كانت قلمرية فى البداية عاصمة البرتغال ، ويعرف كذلك بابن الرنق وابن الرنك أو ابن الريق (٢) أعنى ابن هنرى أو إنريكى ( وهنريكيز معناها ابن هنرى ، وهو هنرى البرجونى والد ألفونسو ) .

---

( ١ ) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٢٠٠ .

( ٢ ) تختلف الروايات العربية فى تسمية الفونسو هنريكيز . ويجمع معظمها على تسميته بابن الرنك ( راجع كتاب أخبار المهدى بن تومرت ص ١٢٧ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٩ ، والبيان المغرب « القسم الثالث » ص ٧٨ ) ويسميه ابن صاحب الصلاة كذلك بابن الرنك أو أدفونش الرنك ( مخطوط المن بالإمامة لوحة ١١٧ ا ) وتسميه بعض الروايات الأخرى « بابن الريق » ( راجع الحلة السيراء ص ٢٠٠ ، ورسائل موحدية — الرسالة الرابعة والثلاثون — ص ٢٢٣ و ٢٢٥ و ٢٢٧ ) .

# وثائق مرابطية وموحّدية

# ١

# رسالة الإمام الغزالى

## إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين

( منقولة عن المخطوط رقم ١٢٧٥ ك ( الكتانية ) المحفوظ بخزانة الرباط وعنوانه « مجموع أوله كتاب الأنساب » لوحة ١٣٠ – ١٣٣ ) .

الأمير جامع كلمة المسلمين ، وناصر الدين ، أمير المؤمنين أبو يعقوب يوسف بن تاشفين ، الداعى لأيامه بالخير ، محمد بن محمد بن محمد الغزالى ، بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة على سيد المرسلين وساير النبيين وعلى آله وأصحابه أجمعين . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليومٌ من سلطان عادل ، خير من عبادة سبعين سنة . وقال صلى الله عليه وسلم ، ما من والى عشرة إلا ويوئتى به يوم القيامة مغلولة يده إلى عنقه ، أوبقه جوره أو طلقه عدله . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سبعة يظلهم الله يوم لاظل إلا ظله ، وعدل الإمام العادل أولهم ، ونحن نرجو أن يكون الأمير جامع كلمة الإسلام ، وناصر الدين ، ظهير أمير المؤمنين ، من المستظلين بظل عرشه ، يوم لا ظل إلا ظله ، فإنه منصب لا ينال إلا بالعدل فى السلطنة ، وقد آتاه الله السلطان ، وزينه بالعدل والإحسان . ولقد استطارت فى الآفاق محامد سيره ، ومحاسن أخلاقه على الإجمال ، حتى ورد الشيخ الفقيه الوجيه أبو محمد عبد الله بن عمر بن العربى الأندلسى ، حرس الله توفيقه ، فأورد من شرح ذلك وتفصيله ، ما عطر به أرجاء العراق ، فإنه لما وصل إلى مدينة السلام ، وحضرة الخلافة ، لم يزل يطنب فى ذكر ما كان عليه المسلمون فى جزيرة الأندلس من الذل والصغار ، والحرب والاستصغار ، بسبب استيلاء أهل الشرك ، وامتداد أيديهم إلى أهل الإسلام بالسبى والقتل والنهب ، وتطرقهم إلى اهتضام أهل الإسلام ، بما حدث بينهم من تفرق الكلمة ، واختلاف آراء الثوار المحاولين للاستبداد بالإمارة ، وتقاتلهم على ذلك ، حتى اختطف من بينهم حماة الرجال ، بطول القتال والمحاربة والمنافسة ، وإفضاء الأمر بهم إلى الاستنجاد بالنصارى حرصاً على الانتقام ، إلى أن أوطنوهم

بيضة الإسلام ، وكشفوا إليهم الأسرار ، حتى أشرفوا على التهايم والأغوار ، فرتبوا عليهم الجزا ، وجزوهم بشر الجزا . ، ولما استنفدوا من عندهم الأموال ، أخذوا فى نهب المناهل ، وتحصيل المعاقل ، واستصرخ المسلمون عند ذلك بالأمير ناصر الدين ، وجامع كلمة المسلمين ، ظهير أمير المؤمنين ، ابن عم سيد المرسلين ، صلوات الله عليه وعليهم أجمعين ، واستصرخه معهم بعض الثوار المذكورين ... عن مداراة المشركين ، فلبا دعوتهم ، وأسرع نصرتهم ، وأجاز البحر بنفسه ورجاله وماله ، وجاهد بالله حق جهاده ، ومنحه الله تعالى استيصال شأفة المشركين ، والإفراج عن حوزة المسلمين ، جزاه الله تعالى أفضل جزاء المحسنين ، وأمده بالنصر والتمكين ، رذكر متابعته العدوة إلى جهة أخرى بعد ثلاثة أعوام من هذه الغزوة المشهورة ، وقتل كل من ظهر من النصارى بالجزيرة المذكورة ، من الخارجين لإمداد ملوكها على عادتهم ، أومن سراياهم فى أى جهة يمموا من جهات المسلمين ، وقذف الله الرعب فى قلوب المشركين ، حتى أغناه ذلك عن جر العساكر والجنود ، وعقد الألوية والبنود ، وذكر أن أولايك الثوار ، لما أيقنوا قوة الأمير ناصر الدين ، وغلبته لحزب المشركين ، وسألهم رفع المظالم عن المسلمين ، التى كانت مرتبة عليهم ، بجزية المشركين ، وإمدادهم بها لهم ، مدارات لبقاء إمرتهم ، عادوا إلى ممالأت المشركين ، وألقوا إليهم القول فى جهة الأمير ، وجرءوهم على لقايه ، وصح ذلك عنده وعند المسلمين . فسأله المسلمون عند ذلك إنزال هؤلاء الثوار عن البلاد ، وتداركها ومن فيها من المسلمين قبل أن يسرى الفساد ، ففعل ذلك . ولما تملكها ، رفع المظالم ، وأظهر فيها من الدين المعالم ، وبدد المفسدين ، واستبدل بهم الصالحين ، ورتب الجهاد ، وقطع مراد الفساد ، ثم أضاف إلى ذكر ذلك ، ماشاهده من تلك السجية الكريمة فى إكرام أهل العلم ، وتوقيره لهم ، وتنزيهه باسمهم ، واتباعه لما يفتون إليه من أحكام الله تعالى وأوامره ونواهيه ، وحمله عماله على السمع والطاعة لهم ، وتزيين منابر المملكة الجديدة والقديمة بالخطبة لأمير المؤمنين ، أعز الله أنصاره ، وإلزامه للمسلمين البيعة ، وكانوا من قبل منكفين عن البيعة ، والندا بشعار الخليفة ، إلى غير ذلك مما شرحه من عجايب سيرته ، ومحاسن أحواله ، ومكارم أخلاقه . وكان منصبه فى غزارة العلم ، ورصانة العقل ، ومتانة الدين ، يقتضى التصديق له فى روايته ، والقبول لكل ما يورده من صدق كلمته ،

وأن ما أفاضه من هذه الفضايل إلى حضرة الخلافة ، أعز الله أنصارها ، فوقع ذلك موقع الاحماد ، ثم ذكر مع ذلك توقف طايفة من الثوار الباقين فى شرق الأندلس ، عن مشايعة الأمير ناصر الدين ، ومتابعته ، وأنهم حالفوا النصارى، واستنجدوا بهم فأعلن المسلمون بالدعاء عليهم ، والتبرى منهم ، ليتوب عليهم أو ليقطع شأفتهم . وكتب هذا الشيخ سؤالا على سبيل الاستفتاء ، وافيته فيه بما اقتضاه الحق ، وأوجبه الدين ، وأعجلنى المسير إلى سفر الحجاز ، وتركته مشمراً عن ساق الجد ، فى طلب خطاب شريف من حضرة الخلافة يتضمن شكر صنيع الأمير ناصر الدين فى حمايته لثغور المسلمين ، ويشتمل على تسليم جميع بلاد المغرب إليه، ليكون رئيسهم ،ورؤسهم تحت طاعة، وأن من خالف أمره ،فقد خالف أمر أمير المؤمنين ، ابن سيد المرسلين ، ويتعين جهاده على كافة المسلمين. ولم يبالغ أحد فى بث مناقب قوم ، مبالغة الشيخ الفقيه أبى محمد فى بث مناقب الأمير وأشياعه المرابطين. ولقد شاع دعاؤه فى المشاهد الكريمة بمكة حرسها الله ، لحضرة الأمير وجماعة المرابطين ، ولم يقنعه ما فعله بنفسه إلى أن كلف جميع من رجا بركة دعايهم ، الدعاء لهم فى تلك المشاهد الكريمة والمناسك العظيمة ، وأعلن بالدعاء لأمير بلده ، الأمير الأجل أبى محمد سير بن أبى بكر ، وفقه الله تعالى ، وذكر من فضله ، وحسن سيرته ، وتلطفه بالمسلمين ، ورفع جميع النوايب عنهم ، ما جهد به إلى النفوس . ولقد دُعى الشيخ الفقيه إلى المقام ببغداد على البر والكرامة ، والاتصال بأسباب ، يتشرف بها من خضرة الخلافة ، فأبا إلا الرجوع إلى ذلك الثغر يلازمه للجهاد مع الأمراء وفقهم الله تعالى ، ولو أقام لفاز بالحظ الأوفى من التوقير والإكرام ، وما أجدر مثله بأن يوفى حظه من الاحترام ، وولده الشيخ الإمام أبو بكر قد أحرز من العلم فى وقت تردده إلى ما لم يحرزه غيره مع طول الأمد وذلك لما خص به من ... الذهن، وذكاء الحس ، واتقاد القريحة ، وما يخرج من العراق ، إلا وهو مستقل بنصيبه ، حايز قصب السبق بين أقرانه . ومثل هذا الوالد والولد خص بالإكرام فى الوطن، وقد تميزا بمزيد التوفيق من الأعيان فى الغربة ، والله يحفظ من حفظهما ، ويرعا من رعاهما ، فرعاية أمثالها ، من آداب الدين المعينة على أمير المسلمين، وقد قال المحسنون، فليستوص بمن ظفر بهم منهم خيراً ، وكم دخل قبلهما العراق، ويدخل بعدهما من تلك البلاد [النائية] (١)

(١) المخطوط « الثانية » .

وما يذكر محاسنها ، ولايرفع مساويها . وقد انتهى الشيخ الفقيه من ذلك إلى ما لايمكن أن يلحق فيه ثناؤه ، فضلا عن أن يزاد عليه ، والله تعالى يعمر بهما أوطانهما ، ويصلح شأنهما ، ويوفق الأمير ناصر المسلمين ، ليتوسل إلى الله تعالى فى القيامة بإكرام أهل العلم ، فهى أعظم وسيلة عند رب العالمين ، ونسأل الله أن يخلد ملك الأمير ويؤيده ، تخليداً لاينقطع ، أبد الدهر ، ولعل القلوب تنفر عن هذا الدعاء ، وتستنكر لملك العباد التأييد والبقاء . وليس كذلك . فإن ملك الدنيا ، إذا تزين بالعدل ، فهو شبكة الآخرة ، فإن السلطان العادل إذا انتقل من الدنيا ، انتقل من سرير إلى سرير أعظم منه ، ومن ملك إلى ملك أجل وأرفع منه . وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكاً كبيراً . ومهمى وفى العدل فى الرعية ، والنصفة فى القضية ، فقد خلد ملكه ، وأيد سلطانه ، وقد وفق له بحمد الله ومنه ، والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على سيدنا محمد خاتم النبيين وآله أجمعين .

## ٢

## رســـــالة

### كتب بها الوزير الكاتب ابن شرف عن بعض رؤساء الغرب إلى أمير المسلمين رحمه الله فى فتح أقليش أعادها الله بقدرته

( منقولة عن المخطوط رقم ٤٨٨ الغزيرى المحفوظ بمكتبة الإسكوريال لوحة ٥٤ ا — ٥٨ ب )

أطال الله بقاء أمير المسلمين وناصر الدين ، عماد الأنام وعتاد الإسلام ، السعيد الأيام ، الحميد المقام ، كبيرى بالقدر ، وظهيرى على الدهر ، الذى أجله بحقه ، وأقر له بسبقه ، وأدام خاوده مؤيد الإرادة ، مؤيد السعادة ، مجدد النمو والزيادة . والحمد لله الجبار القهار ، الذى شد الأزر ، وأمد النصر ، وأعطى الفلج عن قسر ، ففلق عنه يد الماطل ، وفرق بين الحق والباطل ، والحمد لله الذى أسعد بدولة أمير المسلمين الأيام ، ونصر بسيفه الإسلام ، وغاظ به الكفار ، وجعل عليهم الكرة فولوا الأدبار . والله تعالى يشفع سعوده ، ويضمن مزيده ، وينصر جنوده بمنه .

ولما أن وضعنى أمير المسلمين ، أدام الله نصره ، حيث شاء من آلة التشريف والعز المنيف ، وألحقنى من النعماء سربالها وأسحبنى أذيالها ، وصرف

إلى من عدده وبلده ما أولانى نعمه ، ووالانى كرمه ، حفظت تلك الحرمة ، وشكرت لأستزيد من تلك النعمة ، وأخذت فى الاجتهاد فى الجهاد عالقاً بسببه ، آخذاً بمذهبه ، وهيأت من ماله عندى جيشه الموضوع بيدى ، وأجبت داعى الله الله بأعظم نية على أكرم طية ، لعزمة بيمناه رأسها ، وعلى تقواه أساسها وأصلها . وسرت عن حاضرة أغرناطة حرسها الله فى العشر الأواخر من شهر رمضان المعظم بجيش تصم صواهله ، وتطم كواهله ، راياته خافقة ، وعزماته صادقة ، ونبراته على ألسنة السعد ناطقة . ومررنا من طاعة أمير المسلمين وناصر الدين ، على جهات سمعت منادينا ، وتبعت هادينا ، وانقادت وراءنا أعداد وأمداد ، بروزاً من كمون ، وتحركوا عن سكون ، وانخنا بثغر بيّاسة ، وقد توافد الجمع ، وملىء البصر والسمع . وأخذت فى الرأى أحمره ، والعزم أضمره ، والذيل أشمره ، وجددت الاستخارة لله تعالى والاستجارة به ، وابتهلت إليه داعياً ضارعاً ، وعولت فى جميع أمورى على حكمه خاضعاً متواضعاً . ولحقنا بطرف بلاد العدو أعادها الله ، فوطئناها من هنالك ، وقد بان عنوان الأهبة ، والتأم بنيان الرتبة ، وسرنا بجيش يفيض فيضا ، على أرض تغيض غيضاً ، ولسيول الخيل إغراق ، ولبروق البواتر إشراق ، وقد نطقت ألسنة الأعنة بقدّام قدّام ، وأشرقت كواكب الأسنة فى غمام القتام ، وسدت الهموات كل نهج وسبيل ، واستقلت الرايات عن قبيل فقبيل ، وأفضت بنا الخبرة إلى المدينة الحصينة « أقليش » قاعدة القطر وواسطة الصدر ، ذات العدد العديد ، والسور المشيد ، فبدر السابق وشفع اللاحق . وغدونا يوم الأربعاء لأربع عشرة ليلة خلت من شوال ، فدرنا بها دور الحلقة بنقطها ، واكتنفناها اكتناف السبحة بسبطتها ، وبهت القوم ، واتسع البحر عن العوم ، وحاروا وحاموا ، حين راموا ، وجئنا بكل ضرب من الحرب ، نخسف عاليها ، وننسف هاويها ، ونلزها بالرماح ، ونهزها هز الغصن فى أيدى الرياح ، حتى فض الختام ، وعض منهم الإبهام ، وعجل الله بالنصر وفتحها بالقسر ، ونفخ فى صورهم ، ودارت دائرة السوء بدورهم ، ومحقتهم السيوف محق الربا ، وأذرتهم ريح النصر فصاروا هبا ، وبطحوا بطح زرع الحصيد ، وبسطوا بسط كلب الوصيد ، وأخذتهم فجأتنا أخذة ، ونبذت بهم سطوتنا نبذة ، فخروا إلى الأذقان ، وسيقوا إلى الموت والإذعان ، فما كدنا ننزل حتى كدنا ذلك المنزل ، وما أنخنا حتى رضخنا ،

ولاوصلنا إليه حتى حصلنا عليه ، فوردنا ما أردنا .

ولما استحر فيهم القتل ، واجتث منهم الأصل ، وضاق بهم المزدحم ، وغص ذلك الملتحم ، قصر الوقت المبغت ، وشغل الأخيذ عن المفلت ، وألهى الكثير عن من قل ، ونام الجم الغفير عن الفل ، وعادت بقاياهم بقصبة المدينة فولجوها ، كما يلج العصفور ، ويقوم العثور ، قد غلقوا الأبواب ، وأسدلوا الحجاب ، ونحن نصل الحد ، ونوحر لأفل غرب ، ولاملت حرب ، نجتث الجرائم ، ونحتز الغلاصم ، ونخرب الديار وبنيانها ، ونهدم البيع وصلبانها ، ونتاحفوا بهدايا السبايا ، ونتكاشفوا عن بقايا الخبايا ، ونصرحوا بنيانا صدعته الحتوف ، وغلبته السيوف فلأطلاله هدم وعلى رسومه ردم ، حتى علا على الشرك الإيمان ، وبدل الناقوس بالأذان ، وزحزحت الهياكل عن مرضعها ، وطرحت النواقيس عن بيعها ، ولاذ بنا من هنالك من المسلمين عائذين بنا مستسلمين لنا ، فناشدونا بالملة وحرمتها ، وكشفوا لنا عن الخلة وسدتها ، وفروا من الحملة إلى الحملة ، فأوينا شاردهم ، وأقمنا قاعدهم ، فانجابت كربتهم ، وعادت بعد البوار ومجاوبة الكفار بشر دار ملتهم ، وأنار لهم الإسلام على منار الإيمان المجدد ، واشتهر فيهم التوحيد اشتهار الحسام المجرد ، وكشف الدين عن مضمره ، وخطب الحق المبين على منبره ، وأقمنا بقية يومنا على ذلك إلى أن خام النهار ، وحان سن الشمس الاصفرار ، فعند ذلك أرحنا البواتر ، وغيضت تلك الدماء الهوامر ، وغدا الخميس فى الخميس ، مبنياً على ذلك التأسيس ، يجر أذيال الظفر فى العدد الأوفر ، يشفع الأوالى بالتوالى ، ويشترى العوالى بالعوالى ، فأصبحنا فى عز وأنس ، وأصبحوا لاترى إلا مساكنهم كأن لم يغنوا بالأمس ، وتضامت تلك العصبة إلى تلك القصبة ، والقوم فى السجن والحصر ، والحصن كالواحد فى العالم ، والأصبع فى الخاتم ، والمحصور مأسور ، وصاحب الحائط مقهور ، ولم نزل نوسعهم قتالا ، ونوسعهم ضراً ونكالا مسافة اليوم ، إلى أن جزر النهار مده ، وبت الليل جنده ، فعدنا إلى محلتنا ، وقد أمل الكال أينه ، وغلبت الساهر عينه ، وكنت لم آل احتراسا للمحلة بطلائع تحرس جهاتها ، وتدرأ آفاتها ، وفى القدر ما يسبق النذر ، ويفوت الحذر ، لاكن كفاية الله خير من توقينا . وكان الطاغية زاده الله ذلا ، قد حشد أقطاره وحشر أنصاره ، وأبعد فى الاستصراخ مضماره ، وعبأ جيشاً قد أسرا إلى ذمر ، وانطوى على

غمر ، فأقدم وصمّم ، وبئس ما تيمم ، فاستسلمت جماعتهم على ابن الطاغية أذفونش ، وشيخهم وزعيم فرسانهم غرسية أُرذونش ، وصاحب شوكتهم ألبرهانس ، والقمط بقبدره وقواد بلاد طليطلة وصاحب «قلعة النسور» و«قلعة عبد السلام» ، وكل قاص ودان ، وعاجل ووان ، أخزى الله جميعهم ، وطلّ نجيعهم ، ولا أقام صريعهم .

وهذا دعاء لو سكتُّ كفيتُه ۔ لأنى سألت الله ربى وقد فعل

وطرقوا من طرف مجتمعهم يريدون الغرة ، ويظهرون صلفاً تحت الغرة ، وتقدموا فتندموا ، ودنوا فهووا ، ووصلوا فحصلوا ، وأرسل الله تعالى من جنده فتى كانوا قد سبوه صغيراً واقتنوه أسيراً ، ولله تعالى فيه خبأة أعدها من عنده ، وبعثها من جنده ، ونزع الفتى إلينا من معسكرهم منبئاً بهم دالا عليهم ، وكاشفاً بهم على النبأ العظيم ، ومطلعاً منهم على المقعد المقيم ، فعند ذلك ثارت ثائرتنا ، ودارت على مركز التوفيق دائرتنا ، وقام القاعد ، وأشار البنان والساعد ، وتضام القريب والمتباعد ، والليل قد هدأ ، والصبح قد بدأ ، والدياجير ممدودة السرادق ، مجموعة الفيالق ، ولا جار إلا الغاسق ، ولا مار إلا السها والطارق ، وكنت قد استدنيت القائدين المجربين ، ذوى النصيحة والآراء الصحيحة ، أبا عبدالله محمد بن عائشة ، وأبا محمد عبد الله بن فاطمة وليىّ أعزهما الله ، فجالا فى مضمار وساع واضطلاع ، بذرع وذراع ، فاجتمعنا على كلمة الله متعاقدين ، وخضعنا إلى حكمه مستسلمين ، فعند ذلك حل يده المجتبى ، وقيل يا خيل الله اركبى ، فعادت الآراء بالرايات ، وحكمت النهى فى النهايات ، والأسنة تجول فى آمادها ، والنصول تصول فى أغمادها . وثرنا كما ثار الشهم بفرصته ، وطار السهم لفوضته ، وأمرت رجالا بلزوم المحلة ، فسدوا فرج أبوابها ، ولاذوا بأوتادها وأسبابها ، فداروا بها دور السوار ، وانتظموها انتظام الأسوار ، قد شرعوا الأسنة من أطرافها ، وأجالوا البواتر فى أكنافها ، وأضاقوا الأفنية ، وقاربوا بين الأخبية . وعبأنا الجيش يمناه ويسراه ، وصدره ولهاه ، وساقته وأولاه ، ونهضنا بجملتنا من محلتنا ، والصبر يفرغ علينا لامه ، والنصر يبلغ إلينا سلامه ، وتوجهنا إلى الله نقتفى سبيله ، وتبتغى دليله ، فما رفع الفجر من مُجابه ، ولا كشر الصبح عن نابه ، حتى ارتفعت ألوية الدين سامية الأعلام ، واتسعت أقضية المسلمين ماضية الأحكام ، وقيض الليل خمسه ، وفضح الصبح نفسه ، ولسن السنان لمعان ،

ولشباب العراك ريعان ، ولأنفاق الإعلام ضراب أو طعان . وعند ذلك نجم « العجم » فى سواد الليل وإزباد السيل ، يهبطون إلى داعيهم ، ويهرعون إلى ناعيهم ، فى دروع كالبوارى ، ورماح كالصوارى ، كأنما شجروا باللديد ، وسجنوا فى الحديد ، يزحفون والحين يعجلهم ، ويركبون والحتف يزحلهم ، يتلمظون تلمظ الحيات ، قد تحالفوا أن لايتخالفوا ، وتبايعوا أن يتشايعوا ، ووصلوا إلى مقدمتنا ، وكان هناك القائد « أبو عبد الله محمد بن أبى زنغى » مع جماعة ، فصدمهم العدو بصدور غرّة وقلوب أشرة ، فأنحوا بكلكل ورموا بجندل ، وشدوا فما ردوا ، وصادروا فما صدوا ، وتقهقر القائد « أبوعبد الله » غير مول ، وتراجع غير مخل إلى أن اشتد منا بطود ، وزحم من جيشنا بعود . فتراءى الجمعان ، وتدانا العسكران ، وأمسكنا ولا جبن ، ووقفنا والأناة يمن ، فعند ذلك ثار النصر فمد يمناه ، وأناط الصبر فأشرق محياه ، ونزلت السكينة ، وأخلصت القلوب المستكينة ، واهتزت الفيالق مائجة ، وهدرت الشقائق هائجة ، وجحظت العيون غضباً ، وطلبت البواتر سبباً ، وأذن الحديد بالجلاد ، وبرزت السيوف عن الأغماد ، وتصاهلت الخيول ، وتصاولت القيول ، فعند ذلك تواقف القوم كوقفة العير ، بين الورد والصدر ، فبرز فارس من العرب ، فطعن فارساً منهم فأذراه من مركبه ، ورماه بين يدى موكبه ، فانتهج ، ما أرتج ، وانفتح المبهم ، وأفصح المعجم ، فعند ذلك اختلطت الخيل ، بل سال السيل ، وأظلم الليل ، واعتنقت الفرسان ، واندقت الخرصان ، ودجا ليل القتام ، وضاق مجال الجيش اللهام ، واختلط الحسام بالأجسام ، والأرماح بالأشباح ، ودارت رحى الحرب تغر بنكالها ، وثارت ثائرة الطعن والضرب تفتك بأبطالها ، فلثغر الصدور ابتراد ، ولحزم القلوب انتهاد ، فما وضح النهار ، ولا مسخ الغبار ، حتى خضعت منهم الرقاب ، وقبلت رؤوسهم التراب ، واتصل الهلك بالشرك ، وعادت الضالة إلى الملك ، وقلم ظافر الكفر ، وطالت إيمان الإيمان ، وفر الصليب سليباً ، وعجم عود الإسلام فكان طيباً ، وغمرهم الحيف فهمدوا ، واطفأهم الحين فخمدوا ، ومات جلهم بل كلهم ، وما نجا إلا أقلهم ، وحانوا فبانوا ، وقيل كانوا ، وكشفت الهبوات ، وأنجلت تلك الهنات ، عن رسوم جسوم قدقصفتها البواتر ، ووطئتها الحوافر ، خاضعة الخدود ، عاثرة الجدود ، وأخذت ساقتنا فى الطلب ، وضم السلب إلى السلب . وملئت الأيدى بنيل وافى الكيل ،

خيلا وبغالا وسلاحاً ومالا ، ودروعاً ، أكلّهم حملها ، وأثقلهم حملها ، فساءت ملبسا وصارت محبساً ، فطرحوها كأنهم منحوها ، وألقوها كأنهم أعطوها ، احتزناها نهباً ، وأخذناها كأن لم تكن غصباً ، لقطة ولانكر ، وعطية ولغيرهم شكر ، ثم أمرت بجمع الرؤوس ، فاحتزت الدانية وزهد فى جمع النائية ، فكان مبلغها نيفاً على ثلاثة آلاف منهم غرسية أرذونش والقومط وقواد بلاد طليطلة ، وأكابر منهم لم يكمل الآن البحث عنهم ، فكانت كالهضب الجسيم ، بل الطود العظيم ، وأذن عليها المؤذنون ، يوحدون الله ويكبرون ، فلما جاء نصر الله ، ووهب لنا فتح الله ، شكرنا مولى النعم ومُسديها ، ومُعيد المنن ومُهديها ، وصدرت غانماً ، وأبت سالماً ، وبقى القائدان محاصرين لحصن أقليش آخذين بمخنّقهم ، مستولين على رمقهم .

فخاطبت أمير المسلمين أدام الله سروره ، ووصل حبوره ، معلما بالأمر ، مهنياً بالنصر ، لنحمد الله عز وجل ، على ما وهب ، ونشكره على ما سنى وسبب ، والله يتكفل بالمزيد ويشفع القديم بالجديد ، ويمن بالظفر والتأييد ، فهو ولى الامتنان ، والملى الفضل والإحسان ، لارب غيره ولا معبود سواه .

## ٣

## رســـالة

كتب بها قاضى سرقسطة والجمهور فيها
إلى الأمير أبى الطاهر تميم بن يوسف بن تاشفين
حين حاصرها ابن رذمير واستغلبها أعادها الله

( منقولة عن المخطوط رقم ٤٨٨ الغزيرى المحفوظ بمكتبة الإسكوريال لوحة ٥٥ ا –٦١ب ) .

من ملتزمى طاعة سلطانه ، ومستنجديه على أعداء الله ، ثابت بن عبد الله ، وجماعة سرقسطة من الجمل فيها من عباد الله .

أطال الله بقاء الأمير الأجل ، الرفيع القدر والمحل ، لحرم الإسلام يمنعه ، ومن كرب عظيم على المسلمين ، يزيحه عنهم ويدفعه .

كتابنا أيدك الله بتقواه ، ووفقك لاشترا دارحسناه ، بمجاهدة عداه ، يوم الثلاثاء السابع عشر من الشهر المبارك شعبان ، عن حال قد عظم بلاؤها ، وادلهمت ضراؤها ، فنحن فى كرب عظيم ، وجهد أليم ، قد حل العزا والخطب ،

وأظلنا الهلاك والعطب ، فياغوثاه ، ثم ياغوثاه إلى الله ، دعوة من دعاه ، وأمله لدفع الضرر ورجاه ، سبحانه المرجو عند الشدائد ، الجميل الكرم والعوايد ، ويالله ، ويالالإسلام ، لقد انهك حماه ، وفضت عراه ، وبلغ المأمول من بيضته عداه ، ويا حسرتا على حضرة قد أشفت على شفى الهلاك ، طال ما عمرت بالإيمان ، وازدهت بإقامة الصلوات وتلاوة القرآن ، ترجع مراتع للصلبان ، ومشاهد ذميمة لعبدة الأوثان ، ويا ويلاه على مسجد جامعها المكرم ، وقد كان مأنوساً بتلاوة القرآن المعظم ، تطوءه الكفرة الفساق بذميم أقدامها ، ويؤملون أن يدنسوه بقبيح آثامها ، ويعمروه بعبادة أصنامها ، ويتخذوه معاطن لخنازيرها ، ومواطن لخماراتها ومواخيرها ، ثم يا حسرتاه على نسوة مكنونات عذارى ، يعدن فى أوثاق الأسارى ، وعلى رجال أضحوا حيارى ، بل هم سكارى ، وماهم بسكارى ، ولاكن الكرب الذى دهمهم شديد ، والضر الذى مسهم عظيم جهيد ، من حذرهم على بنيات قد كن من الستر نجيان الوجوه ، أن يروا فيهن السوء والمكروه ، وقد كن لايبدون للنظار ، فالآن حان أن يبرزن إلى الكفار ، وعلى صبية أطفال قد كانوا نشئوا فى حجور الإيمان ، يصيرون فى عبيد الأوثان ، أهل الكفر وأصحاب الشيطان ، فما ظنك أيها الأمير بمن يلوذ به بعد الله الجمهور ، بأمة هى وقايد هذه العظام الفادحة ، والنوائب الكالحة ، هو المطالب بدمائها ، إذا أسلمها فى آخر ذمائها ، وتركها أغراضاً لإعدائها ، حين أحجم عن لقائها ، فالى الله بلك المشتكا ، ثم إلى رسوله المصطفى ، ثم إلى ولى عهده أمير المسلمين المرتضى ، حين ابتعثك بأجناده ، وأمدك بالجم الغفر من أعداده ، نادباً لك ، إلى مقارعة العدو المحاصر لها وجهاده ، والذب عن أوليائه المعتصمين بحبل طاعته ، والمتحملين السبعة الأشهر الشدايد الهايلة فى جنب موالاته ومشايعته ، من أمة قد نهكهم ألم الجوع ، وبلغ المدى بهم من الضر الوجيع ، قد برح بهم الحصار ، وقعدت عن نصرتهم الأنصار ، فترى الأطفال بل الرجال جوعاً يجرون ، يلوذون برحمة الله ويستغيثون ، ويتمنون مقدمك بل يتضرعون ، حتى كأنك قلت أخسئوا فيها ولاتكلمون . وماكان إلا أن وصلت وصل الله برك بتقواه ، على مقربة من هذه الحضرة ، ونحن نأمل منك بحول الله أسباب النصرة ، بتلك العساكر التى أقر العيون بهاؤها ، وسر النفوس زهاؤها ، فسرعان ما انثنيت وما انتهيت ، وارعويت ، وما أدنيت ، خايباً عن اللقاء ، ناكصاً على عقبيك عن الأعداء .

فما أوليتنا غناء، بل زدتنا بلاء وعلى الداء داء، بل أدواء، وتناهت بنا الحال جهداً والتواء ، بل أذللت الإسلام والمسلمين ، واجترأت فضيحة الدنيا والدين ، فيالله ويا للإسلام ، لقد اهتضم حرمه وحماه أشد الاهتضام ، إذ أحجمت أنصاره عن إعزازه أقبح الإحجام ، ونكصت عن لقاء عدوه وهو فى فئة قليلة ، وملة رذيلة ، وطايفة كليلة ، يستنصر بالصلبان ، والأصنام ، وأنتم تستنصرون بشعار الإسلام ، وكلمة الله هى العليا ويده الطولا ، وكلمة الذين كفروا السفلى ، وإن من وهن الإيمان ، وأشد الضعف ، الفرار عن الضِّعف ، فكيف عن أقل من النصف ، فيا قبح من رضى بالصغار وسِما خطة الخسف ، فما هذا الجبن والفزع ، وما هذا الهلع والجزع ، بل ما هذا العار والضيع ، أتحسبون يا معشر المرابطين ، وإخواننا فى ذات الله المؤمنين ، إن سبق على سرقسطة القدر ، بما يتوقع منه المكروه والحذر ، أنكم تبلغون بعدها ريقاً ، وتجدون فى ساير بلاد الأندلس عصمها الله ، مسلكاً من النجاة أوطريقاً ، كلا والله ليسومنكم الكفار عنها جلاء وفراراً ، وليخرجنكم منها داراً فداراً ، فسرقسطة حرسها الله ، هى السد الذى إن فتق ، فتقت بعده أسداد ، والبلد الذى إن استبيح لأعداء الله ، استبيحت له أقطار وبلاد ، فالآن أيها الأمير الأجل ، هذه أبواب الجنة قد فتحت ، وأعلام الفتح قد طلعت ، فالمنية ولا الدنية ، والنار ولا العار ، فأين النفوس الأبية ، وأين الأنفة والحمية ، وأين الهمم المرابطية ، فلتقدح عن زنادها بانتضاء حدها ، وامتضاء جدها واجتهادها ، وملاقاة أعداء الله وجهادها ، فإن حزب الله هم الغالبون ، وقد ضمن تعالى لمن يجاهد فى سبيله أن ينصره ، ولمن حامى عن دينه أن يؤيده ويظهره ، فما هذا أيها الأمير الأجل ، ألا ترغب فى رضوانه ، واشترا جنانه ، بمقارعة حزب شيطانه ، والدفاع عن أهل إيمانه ، فاستعن بالله على عدوه وحربه ، واعمد ببصيرة فى ذات الله إلى إخوان الشيطان وحزبه ، فإنهم أغراض للمنايا والحتوف ، ونهر للرماح والسيوف ، ولاترض بخطة العار ، وسوء الذكر والصيت فى جميع الأمصار . ولاتك كمن قيل فيه :

يجمع الجيش ذا الألوف ويغزوا ... ولايرزأ من العدو فتيلا

ولن يسعك عند الله، ولاعند مؤمن، عذر فى التأخر والارعوا، عن مناجزة الكفار والأعداء . وكتابنا هذا أيها الأمير الأجل ، اعتذار تقوم لنا به الحجة فى جميع البلاد ، وعند ساير العباد ، فى إسلامكم إيانا ، إلى أهل الكفر والإلحاد،

ونحن مؤمنون ، بل موقنون إجابتك إلى نصرتنا ، وإعدادك إلى الدفاع عن حضرتنا ، وأنك لا تتأخر عن تلبية ندائنا ، ودعاينا إلى استنقاذنا من أيدى أعدائنا ، فدفاعك إنما هو فى ذات الله ، وعن كلمه ، ومحاماة عن الإسلام وحزبه ، فذلك الفخر الأنبل لك فى الأخرى والدنيا ، ومورثٌ لك عند الله المنزلة العليا ، فكم تحيي من أمم ، وتجلى من كروب وغمم ، وإن تكون منك الأخرى ، وهى الأبعد عن متانة دينك ، وصحة يقينك ، فاقبل بعسكرك على مقربة من سرقسطة ، عصمها الله ، ليخرج الجميع عنها ، ويبرأ إلى العدو وقمه الله منها ، ولاتتأخر كيفما كان طرفة عين ، فالأمر أضيق ، والحال أزهق ، فعد بنا عن المطل والتسويف ، قبل وقوع المكروه والمخوف ، والا فأنتم المطالبون عند الله بدمائنا وأموالنا ، والمسئولون عن صبيتنا وأطفالنا ، لإحجامكم عن أعدائنا ، وتثبطكم عن إجابة ندائنا ، وهذه حال نعيذك أيها الأمير عنها ، فإنها تحملك من العار مالم تحمله أحداً ، وتورثك وجميع المرابطين الخزى أبدا ، فالله الله أتقوه ، وأيدوا دينه وانصروه ، فقد تعين عليكم جهاد الكفار ، والذب عن الحرم والديار ، قال الله ، يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ، وليجدوا فيكم غلظة الآية ، ومهمى تأخرتم عن نصرتنا ، فالله ولى الثار لنا منكم ، ورب الانتقام ، وقد بريتم بإسلامنا للأعداء ، من نصر الإسلام ، وعند الله لنا لطف خفى ، ومن رحمته ينزل الصنع الخفى ، ويغنينا الله عنكم ، وهو الحميد الغنى . ومن متحملى كتابنا هذا ، وهم ثقاتنا تقف من كنه حالنا على ما لم يتضمنه الخطاب ، ولااستوعبه الإطناب بمنه ، وله أتم الطول فى الاصغاء إليهم واقتضاء مالديهم ، ان شاء الله تعالى ، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته .

## ٤

## رســـــالة

### كتب بها أمير المسلمين إلى الأمير الأجل
### أبى محمد بن أبى بكر بهزيمة « القلعة » رحمهما الله

( منقولة عن المخطوط ٤٨٨ إسكوريال السابق ذكره لوحة ٧١ ب — ٧٢ ا ) .

كتابنا وفق الله رأيك وحسن هديك ، ولا أمال عن الهدى والرشد سعيك . من حضرة مراكش حرسها الله فى السابع من شعبان المكرم سنة ثلث وعشرين

وخمس مائة . وقبله وافى كتابك تذكر فيه المثلة التى كانت للعدو — دمره الله — عليك فى اليوم الذى واجهتموه فيه ، بعد ان كان لكم صدره ، وأتيح لكم نصره ، فأواخر الأمور أبدا أوكد وأهم ، والعواقب هى التى تحمد أوتذم ، وإذا حسنت خواتم الأعمال فالصنع أبهها وأتم ، وإن لسان العذر لتلك الحال لقصير ، وإن الله على ذلك المشهد المضيع لمطلع بصير : توافقتم مع عدوكم ، وأنتم أوفر منه عدة وأكثر جمعاً ، وأحرى أن تكونوا أشد عن حريمكم منعاً ، وأقوى دونه دفعاً ، فثبت وزللتم ، وجد ونكلتم ، وشد عقد عزيمته وحللتم ، وكنتم فى تلك الوقعة قرة عين الحاسد ، وشماتة العدو الراصد ، وقد كانت نصبة توليكم بين يديه بشيعة هائلة ، ودعامتكم لولا انثناؤه عنكم مائلة ، فشغله عنكم من غررتموه من الرّجل الذى أسلمتموه للقتل ، وفررتم ، ونصبتموهم دريئة للرمح ثم طرتم ، ولولا مكان من أوردتموه من المسلمين ولم تصدروه ، وخذلتموه من المجاهدين ولم تنصروه ، لا نكشف دون ذلك الرماح جنتكم ووقاؤكم ، وأصيبت بها ظهوركم وأقفاؤكم ، عاقبكم الله بما أنتم أهله ، فأنتم أشجع الناس أقفاء وظهوراً ، وأجبنهم وجوها ونحوراً ، ليس منكم من تدفع به كريهة ، ولاعندكم فى الرشد روية ولابديهية ، فتى وأى وقت تفلحون ، ولأى شىء بعد ذلك تصلحون ؟ ونحمد الله عز وجهه كثيراً ، فقد دفع بفضله الأهم الأكبر ، وأجرى بأكثر السلامة القدر . فاكشفوا بعد أغطية أبصاركم ، وقصروا حبل اغترار كم ، وألبسوا منه جنة حذاركم ، واعلموا أن وراء مجازاتنا إياكم جزاء توفونه ، ويوماً عصيباً تلقونه ، فكونوا بعد هذه الهناة لداعى الرشد بين مطيع وسامع ، ومن كلمة الاتفاق والتآلف على أمر جامع ، فانكم لو خلصت غيوبكم ، وحسنت سريرتكم ، واطمأنت على التقوى قلوبكم ، لظهر أمركم وعلا جدكم ، ولما ذهب ريحكم ولا فل حدكم ، فتوخوا فى سبيل الله وطاعته أخلص النيات ، وأصدق العزمات ، واثبتوا أحسن الثبات ، وكونوا من الحذر والتقوى على مثل ليلة البيات . وقد ذُكر أن للعدو دمره الله مدداً يأتيه من خلفه ، والله يقطع به ، فانضعوا على مسالكه عيوناً تكلأ ، ولتكن آذانكم مصيخة لما يطرأ ، فإن كان له مدد كما ذكر ، قطعتم به السبيل دون لحاقه ، وأقمتم الحزم على ساقه ، والله تعالى يفتح لكم فيهم الأبواب ، ويأخذ بأزمتكم إلى الصواب ، أنه الحميد المجيد ، لا إله غيره .

# ٥
# رســـــالة

## وله ( أى لأمير المسلمين ) إلى الفقيه القاضي وسائر الفقهاء والوزراء والأعيان والكافة ببلنسية عند نزول ابن رذمير عليها

( منقوله عن المخطوط رقم ٤٨٨ إسكوريال السابق ذكره لوحة ٧٢ – ٧٣أ ) .

كتابنا أبقاكم الله ، وأمدكم بتقواه ، ووفقكم لما يرضاه ، ولا أخلاكم من لطايف رضاه ، وعوارف نعماه ، من حضرة مراكش حرسها الله ، لسبع خلون من شعبان المكرم سنة ثلث وعشرين وخمس مائة . وقد وصل إلينا كتاب الفقيه الخطيب القاضي أبى الحسن منكم أعزه الله بتقواه ، مضمنا من ذكر ما بلغه الوجل من نفوسكم ، مالانزال نتوخا بحسبه ان شاء الله ما يفي بترفيهكم وتأنيسكم ، فلايذهبن بكم الجزع لما كان من انكشاف المسلمين هناك عن مراكزهم ، وتصيرهم ما صيروه من محلتهم ، فرصة لمناهزتهم ، وانهزامهم بغير سبب سوى تخاذلهم المعتاد ، مع ماكانوا عليه من تكاثر الأعداد ، وتظاهر الأجناد ، فحسبناهم جميعاً وقلوبهم شتى ، ولشد ما وعظناهم في ذلك وذكرناهم ، فما نجعت فيهم الموعظة ، ولانفعتهم الذكرى . وبعد فإنا لاندعكم بحول الله لضياع ، ولانألوكم إلا اهتبالا يذهب بمشيئة الله ما نالكم من توقع وارتياع ، فطيبوا أنفساً ، واطمئنوا قلوبا ، والله يجعل من دون ما توقعتموه فتحاً قريباً ، إنه هو الفتاح العليم المنان الكريم ، لا رب غيره . واعلموا أنه قد نفذت الآن كتبنا ثانية ، إلى ولاة أعمالنا كلأهم الله وإياها ، نأمرهم بتسريب الأقوات ، وتعجيل إنفادها نحوكم من كل الجهات ، وسيرد عليكم منها الكثير الموفور لأقرب الأوقات ، ثم لاتزالون من بالنا بأحق مكان من المراعاة والمحاماة ، ان شاء الله تعالى ، وهو سبحانه يوفقنا لصالح نتوخاه من لم شعثكم ، وسد خللكم ، وإذهاب مكترثكم ، وحسم عللكم ، ويقضى بما يضم نشرهم ، ويشد أزرهم ، ويصلح أمرهم ، ويسد ثغرهم ، ويحفظ الألفة عليهم ، ويربي النعمة لديهم برحمته ، وتبلغوا أبقاكم الله سلاماً كثيراً أثيراً خطيراً موفوراً .

# ٦
# رســـالة

## وله (أى لأمير المسلمين) إلى المذكورين مجاوباً لهم بهزيمة ابن ردمير إياهم فى «القلاعة»

(منقولة عن المخطوط رقم ٤٨٨ إسكوريال السابق ذكره لوحة ٧٣ ب)

كتابنا أبقاكم الله وأكرمكم بتقواه، وكنفكم بعصمته وجعلكم فى حماه، وأسبغ عليكم عوارفه ونعماه، من حضرة مراكش حرسها الله فى الحادى عشر من شعبان المكرم من سنة ثلث وعشرين وخمس مائة، غب ماوافانا كتابكم الأثير مضمناً وصف اليوم الذى جرت به خزيه المقادير، فاستعرضناه وتقرر لدينا جميع ماحواه، وفى علمه سبحانه موقع ذلك لدينا وعزازة شأنه علينا، لكن لا مخرج عن القضاء وحكمه، ولا محيد عن القدر وحتمه، ولن يرد حول محتال ما سبق فى علمه، وما ألونا، وهو عز وجهه أعدل الشاهدين، جدا وعزماً وكدحا لإعلاء كلمة الإسلام، وحزماً ببذل الأموال وتخير الرجال، واعتيام الأسلحة والأفراس، والجمع بين الإيحاش والإيناس، فى الوعد والوعيد والتخصيص والتأكيد، وعرض الآراء المتخيل فيها السداد، وبلوغ مدة جهاد فى كل نحو والاجتهاد، لوكان العون موجوداً، ولم يكن التعذير ... حاضراً عتيداً، والله يجزى كل خاين ماين بأسخاطه تعالى داين جزاه، ويرد به برد مضمره ورداه، ويوشك مقارضته وإرداه بحوله وطوله، وبالله القسم الأعظم لو أمكننا ان نكون لديكم حاضرين، لأسرعنا بذلك مبادرين، ولما ثنانا عن حمايتكم بأنفسنا ثان، ولاقعد بنا عن معالجة نصركم تراخ ولا توان. وقد جددنا الآن أحث نظر، ونحن نردفه بما يكون عليكم ألم وارد، وأسرع منتظر، فلتهدأ ضلوعكم ويسكن مروعكم، فمالنا والله يشهد هم سوى الذياد عنكم والدفاع، والانفراد لذلك والاستجماع، والاجتهاد، والتوفر عليه بأتم الاضطلاع، والله عز وجل المعين المنجد، فلم يزل يعضد على ما يرضيه ويؤيد، لا إله إلا هو.

# ٧

## رســـــالة

### وجهها أمير المسلمين على بن يوسف بتقريع قادته وجنده عقب هزيمتهم أمام ابن ردمير ( ألفونسو المحارب ) فى أراضى بلنسية

(منقولة عن المخطوط رقم ٥٣٨ الغزيرى المحفوظ بمكتبة الإسكوريال لوحة ١١٣ ا — ١١٣ب) .

« من أمير المسلمين وناصر الدين ، أما بعد ،

يا فرقة خَبُثتْ سرايرها ، وانتكثت مرايرها ، وطايفة انتفخ سحرها ، وغاض على حين مرّة بحرها ، فقد آن للنِّعم أن تفارقكم ، وللأقدام أن تطأ مفارقكم ، حين ركبتموها جلواء عارية ، وأصبحتم فى ادّراع عارها أمثالا سواسية ، واختلط المرعى منكم بالهمل ، فما يتبين الأنقص من الأكمل ، فطأطأتم لها رءوس عشايركم ، وقضيتم بالفسولة على سايركم . لاجرم أن قد صرتم سمر الندى ، ١ والأحاديث المُلعِنة بالغداة والعشى ، بما خامركم من الجبن والخور ، واستهواكم من لقاء عدوكم بالجانب الأزور ، لاتواجهونهم طرفة عين ، ولاتعاطونهم حُمَة حين ، بل تعطونهم الظهر هنيأً مريا ، وتتخذونهم وراءكم ظهريا ، والرماح نحوكم لم تشرع ، والخيل لم تسرع ، والنفوس فى حياض المنية لم تكرع ، فإنكم ثلة ذيابهم وفريسة أنيابهم ، قد نعموا فى بوسكم ، وناهضوكم بلبوسكم ، وحاربوكم عاما على إثر عام ، حتى ألزقوكم ، وتركوكم أسلح من حُبارى ، وأشرد من نعام .

فالآن حين ملأتم أيديهم متاعا ، ووادِيهم سلاحاً وكراعا ، قد غزوكم فى عقركم ، وأذاقوكم وبال أمركم ، فلذتم بالجدران ، وبؤتم بالندامة والخسران . بابغايا بنى الأصفر ، وسجايا ذوات الدّل والخفر ، أكرهتم زَحافهم ، وكنتم — علم الله — أضعافهم ؟ أنى لكم بالمعذرة ، وأين ؟ وقد فرض الله الواحد منكم بالإثنين ، فقال : « إن تكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين » . هذا ، وكلمتكم العلي ، وحلوبتكم الحياة الدينى ، ماشئتم من صارم ، وطرف ونحض وركايب وسوام ، ونضايد وخيام .

فيا أسفا للحق يدمغه الباطل ، والحالى يبهره العاطل . لا بالحنيفية تحرّزتم ، ولا إلى الحفيظة والإنابة تحيزتم . ليت شعرى بماذا تقلدتموها هندية واعتقلتموها سمهرية خطية ، وركبتموها جردا سوابق ، وملكتموها مغارب ومشارق ؟

ثاوين فى غير عدادكم، منتزين على أضدادكم، يؤدون الإتاوة إليكم حين أشرقتموهم بالهوان ، وأنتم فيهم غرباء الوجه واليد واللسان ، وصيروكم عبيد العصى ، ولستم بالأكثرين منهم حصى ، بل شرذمة قليل نفعها ، كثير نجعها . فيا عجبا لذهولكم ، شبانكم وكهولكم، تأكلون تمرها ، ولا تَصْلُون جمرها ، وتذهبون بحلوائها، ولاتصبرون على لأوائها ؟ أى بنى اللئيمة، وأعيار الهزيمة، إلى م يريعكم الناقد ، ويردكم الفارس الواحد :

إلى م يريعـــكم الناقد ويردكم الفارس الواحد
ألا هل أتاها على نأيهـــا بما فضحت قومها غامد
تمنيتم مائتى فـــــارس فردكم فارس واحـــد
فليت لكم بارتباط الخيول ضئاناً لها حالب قاعـــد

ومن لرعاة الإبل بالحد المقبل ؟ لقدماً ما أذهبتم التالد والطارف ، وعجباً عجيباً من جذامى المطارف ، وأنتم قد قدحتم فى ملكنا ، وأذنتم بانتثار سلكنا ، فلولا من لدينا من ذويكم ، وضراعتهم إلينا فيكم ، لألحقناكم عجلا بصحرايكم ، وطهرنا الجزيرة من رُحَضايكم ، بعد أن نوسعكم عقابا ، ونحدُّ أن لاتلووا على وجه نقابا . فاللؤم تحت عمايمكم ، والوهن والفشل ، طى عزايمكم ، لاكن ما جبلنا عليه من الأناة ، وتوخيناه قدما من إيقاظ ذوى الملكات ، يكفنا عن استيصالكم ، ويحملنا على شحذ نصالكم .

فاستنسروا يابغاث الهيجا ، واستيئسوا ، بعد الرجا ، واحذروا حلما أغضبتموه ، وواديا من الصبر أنضبتموه ، وتوقوا صدراً أحرجتموه ، وليثاً من أجمته أخرجتموه ، وأيم الله نقسم إنذارا بكم ، وإعذارا لكم ، لنوردنّ الفار منكم من الزحف ، ماعافه من موارد الحتف ، ولنتجاوزنّ السوط إلى السيف ، ولنبدلن المعدلة فيكم بالحيف ، فليعلم المقدم المحجم منكم عن الإقدام ، أنه سلم من الحمام إلى الحمام ، وتخطى مصرع الأسد الباسل إلى جذع مائل ، وشهادة الأبرار إلى مشهد الذل والصغار ، كما أن من أصيب منكم فى حرب ، أو أبلى بطعن أو ضرب ، خلفناه فى الأهل والولد ، وبعناه الأثرة والكرامة يدا بيد ، فاختاروا لأنفسكم وأعقابكم ، وانضوا ثوب الخزى عن رقابكم ، والسلام على من حمى الإسلام .

كمل ماكتب به الفقيه الأديب ، الكاتب البليغ الأريب ذو الوزارتين أبو عبد الله بن أبى الخصال عن أمير المسلمين » .

# ٨

# رســـــالة

## لأبي عبد الله بن أبي الخصال عن بعض المرابطين
## إلى أمير المسلمين على بن يوسف
## تتعلق بشئون حصن أرلبة ( أوريخا )

( منقولة عن المخطوط رقم ٥١٩ الغزيرى بمكتبة الإسكوريال لوحة ١٠٤ ب و ١٠٥ ا ) .

« أطال الله بقاء أمير المسلمين وناصر الدين ، مؤيدا بجنوده ، معاناً بتوفيقه وتسديده ، ولا زال عدله ينعش الأمم ، وسعده ينهض الهمم . كتبت أدام الله تأييده، من قرطبة حرسها الله، لست بقين من جمادى الآخرة، وقبل بثلاث وافيتها من الوجهة التى صحبنى ومن معى فيها يمن أمره ، واكتنفتنا عزة نصره ، بعد أن أودعنا حصن أرلبة حماه الله، قوتاً موفوراً ، ومرفقاً كثيراً ، وحطت عندهم الأسعار وعم الاستبشار ، وتسلم أبو الخيار مسعود الدليل ، سلمه الله ، الحصن ، واحتوى عليه ، وصار أمره إليه ، ووافينا فلاناً أبقاه الله ، قد استاق غنيمة ظاهرة ، وجملة من البقر وافرة ، وقتل من العدو ، قصمه الله عدداً ، وقضى وطراً ، وشفى وجداً ، فتيمن الناس هناك ، بولاية الأمير أبي يحيي أعزه الله ، وبقيادة هذا القائد ، الذى اقترن الفتح بمأتاه ، وكانت [ عند ] مقدمنا هذا الحصن خيل طليطلة بددها الله ، مجتمعة ، فوقذهم الرعب وشملهم الصغار ، والرغم ، وتحققنا هناك أن مواشى تلك الجبال ، قد أخذت فى الإ . . . نبساط والإسهال ، والدنو من الوادى فى طلب الخصب ، وتحوله من البرد إلى الدفىء ، والله يجعلها للمسلمين طعمة ، ويزيدهم بها قوة بعزته ، وأنباء العدو ، قصمه الله ، الآن خامدة ، وعزائمهم هامدة ، وأيديهم جامدة ، استأصل الله ، بجد أمير المسلمين نعمتهم ، وقطف قممهم ، وأداخ بلادهم ، وانتسف طارفهم وتلادهم ، وألفيت الحضرة حرسها الله ، وقد أخذ السرور من أهلها كل مأخذ ، وسرى فيهم كل مسرى ومنفذ ، بولاية الأمير أبي يحيي أعزه الله ، وكثر الدعاء لأمير المسلمين أيده الله، بما جدد لديهم من حسن نظر ، وخلع عليهم من جمال سيرة ، ولقيته فلقيت كل ما أبهج ، وكان وفقاً لما انتشر ، ومشاكلا لما استذاع وظهر ، تمم الله النعمة، وظاهر عليه الكفاية والعصمة ، ووافتنى كتبه الكرام بما بلغ الأمل ، وحسم العلل ، وأنا ممتثل فى كل معنى ما يحره مجتهد، فيما يقيم ذلك الثغر ويسده ، إن شاء الله عز وجل» .

# ٩

# رســـالة

## موجهة من أمير المسلمين تاشفين بن على بن يوسف
## إلى الفقهاء والوزراء والأخيار والكافة ببلنسية

( منقولة عن المخطوط رقم ٥٣٨ إسكوريال السابق ذكره لوحة ١١ ا – ١٢ب ) .

« بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد وآله وسلم تسليما . من أمير المسلمين وناصر الدين تاشفين بن على بن يوسف بن تاشفين .

إلى وليه فى الله تعالى ، الأعز الأكرم الأحظى فى ذات الله المديه ، أبى زكريا يحيى بن على ، والفقيه القاضى أبى محمد بن جحاف ، وساير الفقهاء والوزراء والأخيار والصلحاء ، والكافة ببلنسية ، حرسها الله ، وأدام كرامتهم بتقواه .

سلام مبرور كريم ، مردد عميم على جميعكم ، ورحمت الله وبركاته ، وبعد فإن كتابنا إليكم ، كتبكم الله ممن آثر الحق واتبع سننه ، وادّرع الحزم ولبس جننه ، وسمع القول واتبع أحسنه ، وحافظ على كتاب الله الذى يسره للذكرى وبينه ، وجعلنا وإياكم ممن جمّله بتقواه وزينه ، من مناخنا بكرنطة ، فى العشر الأول من جمادى الأولى سنة ثمان وثلاثين وخمس مائة ، وبحمد الله من صحيفتنا هذه صدرها الأكرم ، وكل قول فبعده يترتب وينتظم . وقد جاء فى الآثار : كل كلام لايبدأ فيه بذكر الله فهو أجذم .

وبعد أن نستوفى واجب الحمد والشكر ، ونذكر نعمه السابغة ، علينا أجمل الذكر ، فنسأل الله توفيقاً قايداً إلى الرشد ، وقوة على طاعته نحمل بها من تلزمنا رعايته ، على المنهج الأفضل والسنن الأحمد ، ونستعيذه من قلب لايخشع ودعاء لايسمع ، وموعظة لاتنفع ، وسجية لاتطاع ، وهواً يتبع ، ونصلى على محمد نبيه ورسوله الذى طهره تطهيراً ، وأرسله رحمة للعالمين بشيراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، فبلغ رسالة ربه وهداه ، وصبر على مشقة البلاغ وأذاه ، ولم يخش أحداً إلا الله الذى رجاه ، إلى أن بلغ الكتاب أجله والدين مداه ، وانتهى ملك أمته إلى ما كان الله له زَوَاه ، صلى الله عليه وعلى صحبه الذين ذبوا عن هذا الدين وحموا حماه ، ووالوا من والاه ، وعادوا من عاداه .

ولما كان ، أعزكم الله ، الدين ينعت بالنصيحة لله ولرسوله وللمسلمين ، والذكرى تنفع المؤمنين ، وجب أن نتخذ لكم من الموعظة به أنفسها الذى مُرُّها فى العاقبة حلو ، وأخفض مراتبها فى الله علو ، فاعلموا ، أعلمكم الله ، ولا أقامكم مقاما يرديكم ، أن أقرب الناس إلى الله أحناهم على عباده ، وأمحضهم للنصيحة لهم بمبلغ جده واجتهاده ، وأن أولى الناس بنا من طاب خبره ، وكرم أثره ، وحسن مورده فى الأمور ومصدره ، وكذلك « العامل » منكم و« القاضى » وفقهما الله ، إنما أقعدا بذلك المكان لخير يتوليانه وشر يردعانه ، وعدل يقضيانه ، فليقدما أولا تسديد أمرهما ، ولينظرا فى إصلاح أنفسهما ، قبل إصلاح غيرهما ، فمن لا يصلح أمر نفسه لا يصلح سواه ، ومن لا سدد أموره لايسدد أمر من تولاه . وعليكم أجمعين بتقوى الله فى السر والإعلان ، والتمسك بعصم الإيمان ، والاستعانة على حوايجكم بالكتمان ، والتنزه عن فلتات اليد واللسان . ولم تخل أمة من جاهل وعليم ، ومعوج وقويم ، فليردع الجاهلَ العليم ، ولينبه المعوجَ القويم ، ولن يزال الناس بخير مالم يتساووا ، فإذا تساووا هلكوا .

وأهم أموركم الصلاة ، التى هى سبيل النجاة لسالكها ، ولاحظ فى الإسلام لتاركها ، فالزموها فى جماعاتها ، ولاتخلوا بشىء من مسنوناتها ، ومفروضاتها ، وأخلصوا فيها لله العلى الأكبر ، واعلموا أنها كما قال سبحانه « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » .

وعليكم وفقكم الله بإصلاح ذات البين ، وإعتماد الحق المخلص فى الدارين ، وتخير الرفقا وانتخاب الجلسا ، فإن مثل الجليس كمثل القين ، والصاحب الصالح قوة فى الدين ، وقرة فى العين .

وانتدبوا واندبوا من قبلكم للجهاد ، الذى هو من قواعد الإيمان والرشاد ، أمر الرحمن ، وفرض على الكفاية والأعيان ، واتصال الهدو بفضل الله وللأمان . وقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مثل المجاهد فى سبيل الله كمثل القايم الصايم الذى لايفتر عن صلاة ولاصيام » .

والذى نأخذ به عهد الله على العامل منكم الرفق بالرعية ، والحكم بالتسوية ، وإجراء أمورها على السبيل الحميدة المرضية ، فهى العنصر الذى منه الاستمداد ، والأصل

الذى بثبوته تعمر البلاد، وتتوفر الأجناد، ويتمكن الرباط فى سبيل الله والجهاد، وليعلم أن العدل يقسطها ، والجور يسخطها ، وقلة المساواة تشتتها وتقنطها . ولاسبيل أن يستعمل عليها إلا من يستَشَق جانبه وتحسن الأحدوثة عنه . وأن ظهر أحد منهم بنظر جميل فيه ، وكان فى نفسه ما يخفيه ، فالبدار البدار إلى عزله وعقابه والتشديد فيما نأمر به .

واعلموا، رحمكم الله، أن مدار الفتيا ومجرى الأحكام والشورى، فى الحضر والبُدا ، على ما اتفق عليه السلف الصالح ، رحمهم الله، من الاقتصار على مذهب إمام دار الهجرة أبى عبد الله مالك بن أنس ، رضى الله عنه ، فلاعدول لقاض ولامُفت عن مذهبه ، ولايأخذ فى تحليل ولاتحريم إلا به ، ومن حاد عن رأيه بفتواه ، ومال من الأئمة إلى سواه ، فقد ركب رأسه واتبع هواه ، ومتى عثرتم على كتاب بدعة ، أوصاحب بدعة فإياكم وإياه ، وخاصة وفقكم الله ، كتب أبى حامد الغزالى ، فليتتبع أثرها ، وليقطع بالحرق المتتابع خبرها ، ويبحث عليها ، وتغلظ الإيمان من يتهم بكتمانها .

والخمر ، نزهكم الله عن خبايث الأمور ، التى هى جماع الإثم والفجور، والباب المفضى إلى سواكن الفسق والشرور ، فاجتهدوا فى شأنها، وأوعزوا فى جميع جهاتكم بإراقة دنانها ، فقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لعن الله الخمر وعاصرها وحاملها والمحمولة إليه » .

وكذلك نوكد العهد فيما نوصى به دايبا، مما أوجبه الله تعالى فى حقوق المسلمين من الأعشار والزكوات، والأموال المفروضة للأرزاق المسماة ، فليؤخذ مافرض الله منها فى نصابها المعلوم ، وعلى سنة نبيه عليه أفضل الصلاة والتسليم .

وكذلك نوكد عليكم أتم تأكيد أمر أهل الذمة ألا يتصرف أحد منهم فى أمور المسلمين ، لأنه من فساد الدين .

والسلام الأبر الأكرم الأخطر على جميعكم ، ورحمة الله وبركاته ، وعلى من هناك من المسلمين » .

( تمت الرسائل المرابطية )

# ١

# صـــيغة التوحيد

## التي وضعها المهدى ابن تومرت لأتباعه

## توحيد البارى سبحانه

( منقولة عن كتاب « أعز ما يطلب » ص ٢٤٠ و ٢٤١ )

لاإله إلا الذى دلت عليه الموجودات ، وشهدت عليه المخلوقات ، بأنه جل وعلا ، وجب عليه الوجود على الإطلاق ، من غير تقييد ولا تخصيص ، بزمان ولامكان ، ولاجهة ولا حد ، ولا جنس ولاصورة ولا شكل ، ولامقدار ولاهيئة ولاحال ، أول لايتقيد بالقبلية ، آخر لايتقيد بالبعدية ، أحد لايتقيد بالأينية ، صمد لايتقيد بالكيفية ، عزيز لايتقيد بالمثلية ، لاتحده الأذهان ، ولاتصوره الأوهام ، ولاتلحقه الأفكار ، ولاتكيفه العقول ، لايتصف بالتحيز والانتقال ، ولايتصف بالتغير والزوال ، ولايتصف بالجهل والاضطرار ، ولايتصف بالعجز والافتقار ، له العظمة والجلال ، وله العزة والكمال ، وله العلم والاختيار ، وله الملك والاقتدار ، وله الحياة والبقاء ، وله الأسماء الحسنى ، واحد فى أزليته ، ليس معه شيء غيره ولا موجود سواه ، لا أرض ولا سماء ولاماء ولاهواء ، ولا خلاء ولا ملاء ، ولانور ولاظلام ، ولاليل ولانهار ، ولا أنيس ولاحسيس ، ولا رز ولاهميس ، إلا الواحد القهار ، انفرد فى الأزل بالوحدانية ، والملك والألوهية ، ليس معه مدبر فى الخلق ، ولاشريك فى الملك ، له الحكم والقضاء ، وله الحمد والثناء ، ولا دافع لما قضى ، ولامانع لما أعطى ، يفعل فى ملكه ما يريد ، ويحكم فى خلقه ما يشاء ، لايرجو ثواباً ، ولايخاف عقاباً ، ليس فوقه آمر قاهر ، ولامانع زاجر ، ليس عليه حق ، ولاعليه حكم ، فكل منة منه فضل ، وكل نقمة منه عدل ، ولايسأل عما يفعل ، وهم يسألون .

# ٢

# رسالة الخليفـــــة عبد المؤمن بن على

( منقولة عن مخطوط كتاب نظم الجمان لابن القطان لوحة ٥٦ ب — ٦٥ ا )

« أمره رضى الله تعالى عنه ، بالأمر بالمعروف ، ونهيه عن المنكر وعدله ونهجه مناهج الحق وفضله »

( له رسالة جامعة لأنواع من الأوامر ، خلدت فى مآثره السنية ، ووصاياه الحكيمة. وهى من إنشاء الكاتب أبى جعفر بن عطية ، وهى بعد البسملة والصلاة ) .

من أمير المؤمنين أيده الله تعالى بنصره ، وأمده بمعونته ، إلى جميع الطلبة الذين بالأندلس ، ومن صحبهم من المشيخة ، والأعيان والكافة ، وفقهم الله تعالى ، واستعملهم بما يرضاه .

سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته .

أما بعد ، فالحمد لله ، وهو اللطيف الكريم ، الرؤوف الرحيم ، الذى بعدله قامت السموات والأرض وبه تقوم ، وعلى محمد نبيه المصطفى الصلاة المباركة والتسليم ، ولأمته المخلصة فى عليين كتابها المرقوم ، والرضا عن الإمام المعصوم ، المهدى المعلوم ، الذى بعثه رحمة للمؤمنين ، ينيلهم به الروح والنعيم ، ويريهم رحيقها المختوم .

وكتابنا هذا — كتب الله تعالى لكم كل رأفة ورحمة ، وسوغكم من اليمن والأمن أنعم نعمة ، وجعلنا وإياكم فيمن قدم لدارقراره ونعمّه — من الحضرة العلية بتينملّل حرسها الله تعالى فى سادس عشر من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ، وقد وصلناها — والحمد لله — وجناح الرحمة منضوض ، وطرف المكاره مغضوض ، وفيض العدل والبذل منتشر مستفيض ، وشأن الظلم — بإذن الله تعالى — مكفوف مقبوض ، والحق أبلج لا كناية ولا تعريض .

وكان مقصودنا من هذه الوجهة المباركة زيارة قبر المكرم المهدى ، رضى الله تعالى عنه ، لتجديد عهد به تقادم ، وشفاء شوق إليه لزم ولازم ، والنظر فى بناء مسجده المكرم تمتعاً ببركاته ، ورجاء فى تضاعف الأمر بكل لبنة من لبناته ، وحرصاً على أن يتوافر به ، حظ التوفيق وقسمه ، ويعلو فى الملأ الأعلى ذكره

ورسمه ، ورغبة فى رفع بيت من أفضل البيوت ، التى أمر الله عز وجل أن ترفع ؛ ويذكر فيها اسمه ، ولتنعم الجوارح ، بمشاهدة هذه المشاهد المنعمة ، والمواسم المعظمة ، وتتزود بالتطوف على معاهد ما عهدته من العوارف المتممة ، كل ذلك غرضاً فى ذات الله تعالى غرضه ، وأمر يستحب المرء إليه طلب ذلك الخير ويستنهضه .

وقد تم — بحمد الله تعالى — هذا الوطر ، واقتضى الإياب إلى النظر فى المصالح ، والرأى الجميل النظر ، وتفجرت — بحمد الله تعالى — منابع الخير وفاضت ، وعادت روابض الأمر إلى أشرف حالاته وآضت ، وانبعثت موارد البركات بعد ما غارت فى غبر هذا الزمن المذكور وفاضت ، ونسأل الله تعالى عوناً على شكر هذه النعم التى عمت ملابسها ، ووعت الأفئدة نفائسها ، وخاب عن رحماها خاسر الكامة وبائسها .

وان الله تعالى ، قد قضى بأن يكون شرف صاحبه به وامتساكه ، وبين العدل والجور حياة العالم وهلاكه ، فالسعيد من لقى ربه مبرأً من اتباع الهوى سليما ، والشقى من أتى مليما ، باكتساب الكبائر ملوماً ، « ومن يكسب إثما فإنما يكسبه على نفسه ، وكان الله عليما حكيما » ، والله سبحانه يهب الرحمة للمسترحمين ، ويحب الرفق ويحل به كنفه الأمين ، وفى الحض على ذلك يقول وهو أصدق القائلين « واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين » وبرحمته سبحانه بسط لعباده النعماء ، وبرأفته كشف عنهم العماء ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : إنما يرحم الله من عباده الرحماء .

وقد اتصل بنا — وفقكم الله تعالى — أن من لايتقى الله ولا يخشاه ، ولا يراقبه فى كبيرة يغشاها وتغشاه ، ولايؤمن بيوم الحساب فيما أذاعه من المنكر وأفشاه ، يتسلطون بأهوائهم على الأموال والأبشار ، وينتشرون بالقتل بأعراض الدنيا أقبح الانتشار ، يستحلون حرمات المسلمين من غير حلها ، ويسارعون إلى نقض عقد الشرع وحلها ، ويصفون الشدة والغلظة بطراً ورياءً فى غير محلها ، ويبتدعون من وجوه المظالم ما تضعف شواهق الجبال عن حملها ، ويستنبطون من فواحش الآثام ما تذهب نفوس المؤمنين لأجلها ، ويتسببون إلى قتل المسلمين ، فضلا عن استباحة أموالهم وأعراضهم بتلبسات يسيئونها ، ومزورات يضيفونها إليهم ، ينسبونها ، وينظرون إلى اهتضام حق الله تعالى فيهم بأباطيل

يعدونها ظلما ويحسبونها ، ويسعون فى استئصال نفوسهم بكل قاطعة موجعة ، ويعيثون فيهم بكل غاضبة للقلوب منتزعة ، والنبى ، صلى الله تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم يقول : « من قتل عصفوراً بغير حق عبثاً ، جاء يوم القيامة وله صراخ عند العرش يقول : يا رب سل هذا فيم قتلنى عبثاً من غير منفعة » ولا يلتفتون إلى عاقبته ولا ينظرون ، ولا يحرون بآذانهم ما يفعل الله بأمثالهم ولا يخطرون « يخادعون الله والذين آمنوا ، وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون » . هيهات هيهات ، إنهم ساء ماكانوا يعملون ، تالله ليأتينهم من العقاب الأليم فى أقرب أمد ما يهدهم هداً ، ويجعل بينهم وبين النجاة من اشتداد الهلكة سداً ، ويتأصلهم بصواعق الانتقام فقد جاءوا شيئاً إداً . أما علموا أن الله تعالى يطلع على نجواهم ، ويوقعهم فى مهاوى بلواهم ، ويلبسهم أردية سرائرهم فيما استهواهم الشيطان به واستغواهم . أما علموا أن أمر المهدى رضى الله تعالى عنه تساوى فى الحق به أضعف المسلمين وأقواهم ، ألم يقل رسول الله صلى الله تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم: « المسلمون تتكفى دماؤهم ويسعى لذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم » . لقد أمنوا مكر الله جرأة عليه وإقداماً ، وأعمت الشهوات بصائرهم إذهابا لنور الحق من نفوسهم وإعداماً ، وتالله لو تعين لنا فاعل ذلك وتشخص، لما خرج من حياله مكروه ولاتخاص ، ولسارع إليه من أسرع عقابنا ما يمحو رسمه محو الفنا ، ويكتب يديه بما قدمتا من الخنا . ولقد ذكر لنا من تلك المظالم المستغرقة لأنواع المآثم ، الموبقة لأهاها حين يقرع سن الندم النادم ، أن أولياءك الخائضين فى غمرات أبحرها ، المثبرين لأسباب منكرها ، الصارمين لعلق الشريعة ، القاطعين لأبهرها ، يمدون أيديهم إلى ضرب الناس بالسياط ، إبلاغاً فى الانتهاء بكثرتها وإمجاشا ، ويتسببون بذلك إلى أخذ أموال الناس إيغالا للصدور وإيحاشاً ، وذلك أمر معاذ الله أن يرضى به مؤمن بالله ، أو يتجه إليه حق بنوع من الاتجاه ، ما أبعد العدل — أصلحكم الله تعالى — عن هذه الأمثال والأشباه .

وقد علمتم أن عادتنا فيما يستوجب الضرب أو يستحقه ، ممن يظلم الأمر الشرعى أو يعقه بحدود معلومة، دون إفحاش ولا انتهاك ، ومواقف مرسومة تقابل كلا بمقتضى جرمه من أثيم أو أفاك .

ولقد ذكر لنا فى أمر المغارم والمكوس والقبالات ، وتحجير المراسى وغيرها

ما رأينا أنه أعظم الكبائر جرماً وإفكاً ، وأدناها إلى من تولاها دماراً وهلكاً ، وأكثرها فى نفس الديانة عبثاً وفتكاً ، فإنا لله وإنا إليه راجعون . هل قام هذا الأمر العالى ، إلا لقطع أسباب الظلم وعلقه ، وسد سبيل الحق وطرقه ، وإجراء العدل إلى غاية شأوه وطلقه . اللهم إنا نشهدك أن سبيلنا سبيلك ، وإنا نستعيذك مما استعاذك منه محمد رسولك . روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أعوذ بالله من المغرم والمأثم » تنبيهاً على ما فى أغرام الناس من الظلم المظلم . ولئن نقل إلينا — والله الشاهد — أن نوعاً من هذه الأنواع المحرمة أو صنفاً من تلك الأصناف المظلمة ، يتولاه أحد هنالك من البشر أو يأمر بشىء من ذلك الفعل المستنكر ، لنعاقبه بمحو أثره عقاباً يبقى [ عظة ] لمن اتعظ ، وعبرة لمن تنبه لزاجر الحق واستيقظ .

وإن من ذلك الرأى الذميم والسعى المنقوم ، ماذكر لنا فى أمر المسافرين ، الذين يريدون الرجوع إلى أوطانهم وعمارتها ، والطوائف المارة على البلاد لمعنى تجارتها ، يتسبب إليه قوم من هؤلاء الظلمة الدخلاء ، الذين يضعون الغش طى ما يوهمون به من النصيحة ، ويستنبطون المكر فى تصرفاتهم القبيحة ، فيقولون للرجل منهم عندك من حقوق الله كيت وكيت ، وإن للمخزن جميع ما به أتيت ، ويقرنون بهذا من الوعيد والإغلاظ الشديد ، ما يرضى له المذكور بالخروج عن جملة ماله ، ويعتقد السلامة من ذلك الظالم الغاصب أعظم منالة ، وإنها لداهية عاقرة ، قاصمة للظهر فاقرة ، ويا عجبا لكم معشر الطلبة والشيوخ وكافة الموحدين ، فإنكم بذلك مطلوبون ، وما حجتكم وما أنتم على حق ، كيف تتكيف هذه الكبائر وأنتم للأمور هنالك رصد ، أم كيف تجرى هذه الظلمات وقد قام للحق أود ، أم كيف تكون الدماء على هذه الصورة تسفك والحرمات تنتهك ، ولا يمتعض لذلك منكم أحد ، كلا ليعاقبن كل من جنى ، وليظهرن ما قصد القاصد وما عنى ، وإن من وراء قولنا لتتبعا يبحث عن ذلك ويمحص ، ونظراً يفرق بين المشكل منه ويخلص .

ولاشك — والله أعلم — فى أن أسباب تلك المنكرات ، ودواعى تغير تلك الأحوال المتغيرات ، قوم يتوسطون بينكم وبين الناس ، ويقولون ما لايفعلون ذهاباً إلى التدليس عليكم والإلباس ، ويجعلون النفير بالظلم والعدوان بدلا من العقل والقول الجميل والإيناس ، وذلك لغيب المباشرة ومباينتها ، وبعدكم عن

مشاهدة الأمور ومعاينتهما ، والتحجب عن مطالعة الأمور داعية كبرى لفسادها واختلالها ، وسبب قوى فى انتقاضها وانحلالها ، وفرصة لوسائط السوء بانهماكها فى البواطل واسترسالها ، فلا تكلوا النظر فيها إلى أحد سواكم ، ولاتبعدوا بغلظ الحجاب عما قصدكم من الخير ونواكم، وباشروا الأحكام هنالك مباشرة المتعهدالمتفقد ، وعليكم بالتواضع لأمر الله تعالى وترك الاستعلاء المنتقد ، وتحفظوا فى جانب المسلمين من كل خفيف المقال ، كثير الاضطراب فى الباطل والانتقال ، فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القيل والقال ، وتثبتوا وفقكم الله تعالى فى الأحكام، التى لابد لكم من النظر فيها تثبت الحث [ البحث ] عن حقائق الأمور والاستقصاء ، وتعهدوا الناس بالتحذير من اللدد فى الخصام وبالغوا فى الإيصاء .

ولاتظنوا أن الاجتهاد فى الأمور يؤدى إلى الهجوم عليها والاقتحام ،ويخرج النظر عن التثبت فى القضايا والأحكام ، فاذهبوا فيها مذهباً وسطاً ، واقصدوا الاعتدال مقصداً مقسطاً ، ولاتجتهدوا فى شىء لاتعلمون فيه حكماً ، وشاورونا فيما يخفى عنكم وجهه ، لنرسم لكم فيه رسما ، فليس كل مجتهد مصيباً برأيه ، ولا كل هاجم على رأى منجحاً فى سعيه ، وبين طرفى الأحوال واسطة جميلة فيها معقد السياسة ومناطها ، وخير الأمور — قال عليه الصلاة والسلام — أوساطها .

وعليكم أن تبحثوا بغاية جدكم عن أولئك المسببين لتلك القبائح ، الساعين فى صد ما يرضاه الله تعالى من المصالح ، وتعرفونا بهم بعد تثقيفهم، لنشرد بهم من خلفهم ، ونكف بعقابهم نوعهم الظالم وصنفهم ، وقد استخرنا الله ، فى سد تلك الذريعة ، وصد تلك الأفعال الشنيعة ، فرأينا أن ترفعوا إلينا أحكام المذنبين للكبائر ، وتعلمونا بنبأ كل من ترون أنه يستوجب القتل بفعله الخاسر ، دون أن تقيموا الحد عليه ، أو تبادروا بالعقاب إليه ، ولاسبيل لكم إلى قتل أحد من كل من هو فى بلاد الموحدين وأنظارهم ، ومن هو منهم وداخل فى مضمارهم ، وكل من ترون أنه يستوجب القتل ، ممن يريد المكر فى أمر الله تعالى والختل ، فعرفونا بجلية أمره وتصحيحه، وخاطبونا بميز أمره ومشروحه، لينفذ فيه من قبلنا مايوجه الحق ويقتضيه ، ونمضى فى عقابه ما ينفذه الشرع ويمضيه ، فإياكم من مخالفة أمرنا هذا فى قتل أحد ممن ذكرنا كائناً من كان ، كبر ذنبه عندكم أو هان ، ولتبادروا

إلى أعلامنا بذنبه بعد سجنه وتثقيفه ، لنقابله بما نراه ، ونجرى الحق فى مجراه .

وأنه أعلمنا بأن من يرضى بتلك الفواحش بما يرضاه ويستبيحه ، ولايبالى أحسن الفعل فيه أم قبيحه ، يبتاع المرأة ويبيعها دون استبراء ، ويعبث فى ذلك بكل إقدام على الله تعالى واجتراء ، ولايتحفظ من مواقعة الزنا المحض ، ومخالفة الواجب مع الفرض، وأن فى ذلك من اطراح ما أمر الله تعالى به من اتباع الشرع ، وإفساد الأصل من السنة والفرع ، ما لايحل سماعه ، ولايستقر بنفس مؤمنة استطلاعه ، فلا سبيل لأحد ممن هنالك أن يبتاع شيئاً منهن أو يبيع ، حتى يستأذن الحاكم لأمره منكم والشيوخ ، لئلا يذهب الحق فى ذلك ويضيع ، ولتقدموا للنظر فى أسواقهن من ترضون دينه وأمانته ، وتتحققون ثقته وصيانته ، فمن أبيح له البيع والابتياع ، أحضره الأمين المذكور ليرتفع بشهادته الشك والنزاع ، وتجرى السنة مجراها ويمتثل الأمر المطاع . وكذلك فليتوقفوا عن بيع النساء فى جميع من تغنموه منهن فى تلك الأرجاء ، حتى تخاطبونا بأصل أمرهن وكيفيته ، وتعلمونا من ذلك بجليته ، لنرسم لكم فيه ما يكون عليه اعتمادكم ، ويجرى إليه اقتضاؤكم.

والله الله فى البحث على الخمور ، وتقديم النظر فى أمرها ، فهو من أهم الأمور ، فإنها مفتاح الشرور ، ورأس الكبائر والفجور ، وهى رابطة أهل الجرم ، وجامعة أشتات الظلم . قال النبى صلى الله تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم: « الخمر جماع الإثم » فجدوا فى طلبها فى المواطن المهتمة بشأنها ، واجتهدوا فى إراقتها وكسر دنانها ، واعمدوا إلى السبب الذى يؤدى إلى التمكن منها ، فارعوه ، والحظوه ، واطرحوا الإغفال لذلك والفظوه ، وقدموا أمناء متخيرين للتطوف على مواضع الترتيب ، يكون بالمحافظة على ذلك محل المكالىء الرقيب ، ولا يكن منهم إلا من يفرق بين الحلال ويميز ، ويعرف ما يجوز شربه ، وما لا يجوز ، ومروهم بالتعهد لمواضع بيع الرُّب واعتصاره ، وخذوهم بتوقف جدهم على ذلك واقتصاره ، فما حل منه أباحوه ، وماكان غير ذلك قطعوه أصلاوفرعاً وأراقوه، ( الحلال بيّن والحرام بين ) ولقضايا الشرع نظام . قال رسول الله صلى الله تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم : « ما أسكر كثيره فالجرعة منه حرام » .

وإن من يسعى فى نوع من أنواع الفساد ، ويستصحب الأضرار بالمسلمين فى الإصدار والإيراد، هؤلاء الراقصين الذين يردون بالكتب ويصدرون، ويمشون فيما بيننا وبينكم وينفرون ، فإنه ذكر لنا أنهم يأخذون الناس بالنظر فى كلفهم ،

ويلزمونهم فى زادهم من كل موضع وعلفهم ، وهذا فعل كل فرقة منهم فى سيرها ، وسوء رأيهم بذلك فى المخازن وغيرها ، وأن من جملة ما حكى عنهم أنهم يتألفون فى الطرق جموعاً ، ويحلون بأفنية الناس حلولا شنيعاً ، يكلفونهم مؤناتهم تكليف المحرم ، ويتحكمون عليهم بحكم المغرم ، حتى أنهم لايرضون فى ضيافاتهم إلا بأسمن الجزر ، وناهيكم بهذا الاجتراء العظيم الضرر ، فسارعوا وفقكم الله تعالى ، إلى حسم هذه العلة من أصلها ، وبادروا إلى قطع تلك العادة الذميمة وفصلها ، وتخيروا لرسائلكم إرسالا ، وانتقوا من أهل المقدرة على ذلك والثقة رجالا ، وادفعوا إليهم زاداً يقوم بهم فى المجىء والانصراف ، ويقطع شأنهم من التكليف والإلحاف ، وارسموا لهم أياماً معروفة العدد ، معلومة الأمد ، لينتهوا بها ، إلى مواقف رسائلهم ، ويوزعوها على مسافات مراحلهم ، وحذروهم من تكليف أحد من الناس ولو مثقال ذرة ، وأوعدوا من تسبب منهم إلى مسلم بمساءة أومضرة ، والله تعالى المستعان على دفع أسباب الجور ، ونستعيذ به سبحانه من الحور .

وكذلك ذكر لنا — وفقكم الله تعالى — من التحكم فى الأموال ، وقلة المبالاة بالتفريق بين الحرام منها والحلال ، أن أولئك الذين ذكرت خدعهم ، ووصفت غرضهم الذميم ومنزعهم ، يفعلون فى أموال الناس ما تقدم ذكره ، وشرح فكره ، وتمتد أيديهم إلى المخازن هناك ، فيعيثون فيها ، ويتحكمون ، ويجرؤون فى التعدى عليها ملء شأوهم وأنفسهم يظلمون ، فاتقوا الله تعالى فيها ، فإنها أمواله المخزونة فى أرضه ، وبادروا إلى كف كل معتد وقبضه ، ولاسبيل لكم أن تنفذوا منها قليلا ولاكثيراً ، إلا بعد استئذاننا وتعريفنا بالدقيق والجليل مما هنالك ، وهذا أمر منا لكم ، ولكل من وقف على كتابنا هذا من الطلبة والشيوخ والموحدين كافة أمراً دائماً لازماً، سنته بالاستمرار مستطلة ، وصحته بفضل الله لاتدخلها تعله .

وقد خاطبنا بمثل ما خاطبناكم به ، جميع الطلبة الموحدين ، وكافة البلاد التى هى بالدعوة المهدية معمورة ، وبكلمة الإيمان مشرقة منيرة ، فأمرنا بجميع فصول كتابنا هذا إليكم ولسواكم شامل ، وفى كافة أقطار الموحدين نافذ عامل ، فمن خالفه بوجه من وجوه الخلاف ، فقد تبين عناده وساء فى العاجل والآجل مآله ومعاده ، ومن لم يمتثله ، بواجب الامتثال ، ويكف يده عما رسمناه فى كافة الأحوال ، فقد تعرض لأشد العقاب وأوحاه ، واستقبل من ارتكاب النهى ما يصده الانتقام به عن سواه منحاه ، فاستصحبوا حدنا هذا استصحابا مؤيداً ،

واتخذوه فى كافة أحوالكم مستنداً ومعتمداً ، وعلى كل من إلى نظركم من أهل تلك البلاد المنتظمة فى سلك التوحيد ، الآخذة بالمذهب الرشيد ، عون الأمير — أيده الله تعالى — على بسط العدل وإفاضته على الكل ، ورفع العبد المثقل، وكل أن يسلكوا فى جميع تصرفاتهم سبيل الاستقامة ، ويستمروا على استعمال الحقائق والمواصلة لذلك والاستدامة، ويتجافوا عن مواقع الظلم ، فالظلم ظلمات يوم القيامة، وينقادوا للواجبات بداراً إليها وإسراعاً ، ويكونوا فى التساعد على الصلاح كالنفس الواحدة تألفاً واجتماعاً .

ولما كان هذا الأمر عندنا — وفقكم الله تعالى — أهم أمر وأوجبه ، وأحق ما أدناه الحق وقربه ، وكان اهتمامنا به ، قد جعله على كل حالة مقدماً ، وأنفذه بأمر الله تعالى إنفاذاً ملتزماً ، رأينا أن نجعل فى كتابنا هذا علامة بخط يدنا ، وها هى قد رفعت الإشكال رفعاً بيناً، وأرتكم فرط اهتبالنا حقاً مبيناً ، فبادروا إلى تلقيها بالامتثال والمسارعة ، وصلوا ابتدار شأنها بالمواصلة والمتابعة، وأحضروا للاجتماع على هذا الكتاب جميع من فى تلكم البلاد من الطلبة والعمال وكافة المقدمين للأعمال ، ولاتقدموا أمراً من الأمور على إنفاذ جميع ما تضمنه ، والاعتمال بكل ما شرحه وبينه ، ولاتشتغلوا بشغل قبل الاشتغال بمعانيه ، وبما أمركم به على قواعده ومبانيه ، ومخاطبتنا بما يكون منكم فى تلقيه ، واتباع ما ينهيه إليكم ويلقيه ، واقرأوه على الكافة أعالى المنابر ، واستحضروا له وفود القبائل من البوادى والحواضر. وأسمعوا به افصاحاً وإعلاناً، وأشربوه قلوب الناس جماعات ووحدانا، وأحسنوا إيصال أغراضه إليهم ، فإن الله تعالى يجزى الإحسان إحساناً .

فإذا تفرغتم من قراءته على الجماهير وبلغتم صحته بواجب التبليغ والتقرير ، فاكتبوا منه نسخاً إلى كل قبيلة من قبائل ذلك النظر ، وكل كورة من تلك الكور ، وأكدوا عليهم فيما أكدنا عليكم فيه من تقديم العمل فيه على كل الوجوه ، وامتثال مغنمه ، على ما يحبه الله تعالى ويرتضيه ، وحذروهم من التعرض لمخالفته ، فلاعذر لمن لايقصده على الفور ويأتيه ، ونحن بمرصد التطلع والتسمع لما يكون منكم ومنهم ، لنقابل بالواجب ما يصدر عنكم وعنهم .

وقد علم الله تعالى أن غرضنا بجميع المسلمين إشفاق وحنان ، وجانبنا لهم دعة مستمرة وأمان ، ولدينا من التراوف بهم والرفق بجانبهم ، شأن لايفارقه من فضل الله تعالى شأن ، وقد علمتم ذلك منا واختبرتموه ، وجربتموه على مر الزمان

وصبرتموه ، فلتتلقوا كل من استرعاكم الله تعالى أمره بكل طلاقة ويسر ، ولتنشروا عليهم جناح الرحمة أكمل نشر ، ولتعلموا — رعاكم الله — ان من شملته كلمة التوحيد ، فى العهد القريب أو البعيد ، فى مضمار واحد من العدل محمولون، وأنكم عن كل من هنالك مسئولون، ولفظ الموحدين بيننا وبينهم جميعاً ، والحق يسلك بينهم من التناصف مسلكاً مشروعاً ، وقد ألفت الكلمة العلية بينهم ، فبعضهم لبعض فى الخير أسوة ، وقد قال الله تعالى «إنما المؤمنون إخوة» فاعتقدوا فيهم هذا الاعتقاد الجميل ، قصداً إلى مرضاة الله تعالى وإيقانا ، وكونو عباد الله إخواناً ، وحسنوا بهم — رعاكم الله — ظناً ، وعودوهم الخير لفظاً ومعنى ، وتخلقوا معهم بمحاسن الأخلاق ، وقولوا للناس حسناً ، واستألفوا الناس بالتى هى أحسن، وابذلوا لهم من المساعدة فى ذات الله تعالى غاية ما يتمكن ، وانهجوا لهم من المبرات منهجاً يبدو به مضمركم الجميل ويتبين ، وسروا بصالح عملكم وبشروا ويسروا — كما قال عليه الصلاة والسلام — ولاتعسروا وسكّنوا ، ولا تُنفّروا .

واعلموا أن السعى فى هذا الغرض واجب ، والاعمال فى رفع ذلك المانع الحاجب ، لايتأتى لكم جملة واحدة ، حتى تكون نفوسكم متآلفة عليه متساعدة ، وتعاونوا على مرضاة الله تعالى تعاوناً يجمع فى الصلاح آراؤكم ، ويضمن التجمع التام لكم ولمن وراءكم ، فعليكم بالمظافرة، والمناصرة والمؤازرة ، فهى سواعد السعد وقواعد الود ، وشيم الكرام المحافظين للعهد ، وبها يعمر محل الرضا ونديه ، وبه أوصى الله تعالى ورسوله ومهديه .

وقد نصحنا لكم فاقبلوها نصيحة ، قصدت فى ذات الله تعالى قصدها ، وذكرنا لكم بهذه التذكرة ، فاستقبلوها رشدها ، ونبهناكم تنبيهاً بالغاً وللحال ما بعدها ، جعلنا الله وإياكم ممن امتثل أمره المطاع بخالص نيته ، وأفرغ الرحمة على قالب سجيته ، وحفظ ما استرعاه الله تعالى ، فكل راع مسئول عن رعيته .

وكان مما بعثنا — وفقكم الله تعالى— على تنبيهكم وإذكاركم، وإيقاظكم للنظر فى تلك المصالح وإشعاركم، ما ألفيناه بحضرة مراكش— حرسها الله تعالى— من بعض تلك الأنواع ، مما أحدثه فيها بعض أهل الابتداع ، كنوع القبالة، وما يجرى مجراها فى وجوب الإزالة ، والإحالة ، فإنا كنا لانبحث عن ذلك ، لتخيلنا أنه لايجرؤ أحد أن يسلك فى هذا الأمر الذى أظهره الله تعالى تلك المسالك ، فلما كان الحث

عما يجب ، وأزال عن وجه المشاهدة ماكان يحتجب ، طلعنا على ذلك فأنكرنا ماكان نكيراً ، وأزلنا بعون الله تعالى ماكان محذوراً بالشرع محظوراً ، حتى تطهر ثوب الأمن من دنسه ، وتجلى الوجه الخالص عن ملتبسه ، واقتبس نور الحق من مقتبسه ، وجرت الأمور على ما عهدناها عليه من الاعتدال والقوام ، بحكم ما أحكمه الإمام المهدى رضى الله تعالى عنه فى القضايا والأحكام ، وإذاكان الافتيات فى شيء من هذا ونحن على اقتراب ، فكيف الأمر فيمن هو فى حكم بعد عنا واغتراب.

فانظروا هذا — وفقكم الله تعالى — نظرة أولى الألباب ، ولتسعوا جهدكم فى رفع ذلك العمــل المستراب ، ولتذهبوا إلى إظهار أمر الله سبحانه ، على موجب الكتاب .

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته .

# فهرست الموضـــوعات


صفحة

مقــدمة ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٣

بيان عن المصادر ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٧

تمهيـد : الأوضاع العامة لشبه الجزيرة الأندلسية فى عصر المرابطين والموحدين ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٢٥

الكتاب الأول

الدولة المرابطية فى أوج سلطانها

الفصل الأول : يوسف بن تاشفين . خواص إمارته ولامع خلاله ... ٣٦

الفصل الثانى : أمير المسلمين على بن يوسف وأحداث عصره ... ٥٧

الفصل الثالث : سـقوط سرقسطة ... ... ... ... ... ... ... ... ٨٦

الفصل الرابع : الصراع بين ألفونسو المحارب وبين المرابطين ... ... ١٠٥

١ – غزوة ألفونسو الكبرى للأندلس ... ... ... ١٠٥

٢ – التعتيب والأسوار ... ... ... ... ... ... ١١٤

٣ – موقعة القلاعة ... ... ... ... ... ... ... ١١٦

٤ – موقعة إفراغة... ... ... ... ... ... ... ... ١٢٠

٥ – خاتمة ملك بنى هود بالثغر الأعلى ... ... ... ١٢٦

الفصل الخامس : الأمير تاشفين بن على وغزواته وأعماله فى شبه الجزيرة ١٣١

الفصل السادس : شرق الأندلس ... ... ... ... ... ... ... ... ١٤٨

الكتاب الثانى

المهدى محمد بن تومرت

والصراع بين المرابطين والموحدين

وقيام الدولة الموحدية بالمغرب

الفصل الأول : محمد بن تومرت ، نشأته وظهوره ... .. ... ١٥٦

الفصل الثانى : الصراع بين المرابطين والموحدين – المرحلة الأولى ١٧٧

صفحة

الفصل الثالث : عقيدة المهدى ابن تومرت وتعاليمه الدينية والسياسية ... ١٩٩
الفصل الرابع : الصراع بين المرابطين والموحدين ــ المرحلة الثانية ... ٢١٨
الفصل الخامس : نهاية الدولة المرابطية فى المغرب ... ... ... ... ٢٥٤
الفصل السادس : الدولة الموحدية فى سبيل التوطد ... ... ... ... ٢٦٨
الفصل السابع : فتح المهدية وإجلاء الفرنج عن إفريقية ... ... ... ٢٨٩

الكتاب الثالث

ثورة القوى الوطنية بالأندلس

وتغلب الموحدين على شبه الجزيرة

الفصل الأول : الثورة فى الأندلس وانهيار سلطان المرابطين ... ... ٣٠٤
الفصل الثانى : عبد المؤمن وشئون الأندلس وافتتاح إشبيلية وقرطبة وغرناطة وألمرية ... ... ... ... ... ... ... ٣٢٤
الفصل الثالث : الثورة فى شرقى الأندلس وظهور محمد بن سعد بن مردنيش ٣٥٣
الفصل الرابع : أعوام عبد المؤمن الأخيرة ، وفاته وخلاله ... ... ٣٧٣

الكتاب الرابع

نظم الدولة المرابطية وخواص العهد المرابطى

الفصل الأول : طبيعة الحكم المرابطى وأوضاعه العسكرية والإدارية والمالية ٤١٠
الفصل الثانى : الحركة الفكرية الأندلسية خلال العهد المرابطى ــ القسم الأول ... ... ... ... ... ... ... ... ٤٣٨
الفصل الثالث : الحركة الفكرية الأندلسية خلال العهد المرابطى ــ القسم الثانى ... ... ... ... ... ... ... ... ٤٥٥

الكتاب الخامس

الممالك الإسبانية النصرانية

خلال العصر المرابطى وأوائل العصر الموحدى

الفصل الأول : ألفونسو المحارب وأوراكا ملكة قشتالة ... ... ... ٤٧٦
الفصل الثانى : الممالك الإسبانية النصرانية فى عصر القيصر ألفونسو ريمونديس وقيام مملكة أراجون الكبرى ... ... ... ٤٩٢
١ ــ وفاة ألفونسو المحارب وولاية أخيه الراهب راميرو ٤٩٣

صفحة

٢ ــ اتحاد أراجون وقطلونية ... ... ... ... ... ... ٤٩٩

٣ ــ غزوات القيصر ألفونسو ريموند يس وحروبه ٥٠٢

٤ ــ أعوام القيصر الأخيرة ووفاته ... ... ... ... ... ٥١١

٥ ــ قشتالة بعد وفاة ألفونسو ريموند يس ... ... ٥١٥

٦ ــ قيام جماعات الفرسان الدينية ... ... ... ... ... ٥١٨

الفصل الثالث : قيام مملكة البرتغال وبداية عصر ملكها ألفونسو هنريكيز ٥٢١

وثائق مرابطية وموحدية

١ ــ رسالة الإمام الغزالى إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين... ... ٥٣٠

٢ ــ رسالة الوزير الكاتب ابن شرف إلى أمير المسلمين فى فتح أقليش ٥٣٣

٣ ــ رسالة قاضى سرقسطة والجمهور فيها إلى الأمير أبى الطاهر تميم
ابن يوسف حينما حاصرها ابن رذمير ... ... ... ... ... ... ٥٣٨

٤ ــ رسالة كتب بها أمير المسلمين إلى الأمير أبى محمد بن أبى بكر
بهزيمة القلعة ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٥٤١

٥ ــ رسالة لأمير المسلمين إلى الفقيه القاضى وسائر الفقهاء والوزراء
والأعيان والكافة ببلنسية ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٥٤٣

٦ ــ رسالة لأمير المسلمين إلى المذكورين مجاوباً لهم بهزيمة ابن رذمير
إياهم فى القلاعة ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٥٤٤

٧ ــ رسالة وجهها أمير المسلمين على بن يوسف بتقريع قادته وجنده ٥٤٥

٨ ــ رسالة لأبى عبد الله بن أبى الخصال عن بعض المرابطين إلى
أمير المسلمين على بن يوسف ... ... ... ... ... ... ... ... ٥٤٧

٩ ــ رسالة موجهة من أمير المسلمين تاشفين بن على بن يوسف إلى
الفقهاء والوزراء والأخيار والكافة ببلنسية ... ... ... ... ... ٥٤٨

١ ــ صيغة التوحيد التى وضعها المهدى لأتباعه ... ... ... ... ... ٥٥١

٢ ــ رسالة الخليفة عبد المؤمن بن على. أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر
وعدله ونهجه مناهج الحق وفضله ... ... ... ... ... ... ٥٥٢

# فهرست الشـــعر والشعرا


| | | صفحة |
|---|---|---|
| رثاء يوسف بن تاشفين | : ملك الملوك وما تركت لعامل ... ... ... | ٥٤ |
| أبو جعفر بن وضاح المرسى | : شمرت برديك لما أسيل الموانى ... | ١٢٥ |
| | : أما وبيض الهند عنك خصوم ... ... ... | ١٣٨ |
| أبو بكر بن الصيرفى | : يا أيها الملأ الذى يتقنع ... ... ... ... | ١٣٩ |
| المهدى ابن تومرت | : تكاملت فيك أوصاف خصصت بها | ٢٢١ |
| .. .. .. | : فتح تفتح أبواب السماء له ... ... ... ... | ٢٧١ |
| أبو العباس التيفاشى | : ما هز عطفيه بين البيض والأسل ... | ٢٩٦ |
| أحمد بن قسىّ | : وما تدفع الأبطال بالوعظ عن حمى | ٣٣٠ |
| ابن المنذر | : لئن غض منك الدهر يوماً بأزمة ... | ٣٣١ |
| مروان بن عبد العزيز | : قل للإمام أطال الله مدته ... ... ... | ٣٥٠ |
| أبو جعفر بن عطية | : فعفواً أمير المؤمنين فمن لنا ... ... ... | ٣٥١ |
| ابن مردنيش | : أكر على الكتيبة لا أبالى ... ... ... | ٣٦٨ |
| أبو عبد الله بن حبوس | : بلغ الزمان بكم ما أملا ... ... ... ... | ٣٨٤ |
| القرشي المعروف بالطليق | : ما للعدى جنة أوقى من الهرب ... | ٣٨٤ |
| ابن غالب الرصافى | : لو جئت نار الهدى من جانب الطور ... | ٣٨٤ |
| أحمد بن سعيد | : تكلم فقد أصغى إلى قولك الدهر ... | ٣٨٥ |
| الخليفة عبد المؤمن | : هو الفتح لا يجلو غرائبه الشرح ... | ٤٠٣ |
| أحمد بن سعيد | : من يشترى منى الحياة وطيبها .. | ٤٥٢ |
| | : أتانى كتاب منك يحسده الدهر ... ... | ٤٥٢ |
| محمد بن عبد الرحمن الجراوى | : رحلوا الركايب موهنا ... ... ... ... | ٤٥٣ |
| عبد الملك بن قزمان | : قدر الله وساق الخناس ... ... ... ... | ٤٥٤ |
| | : وعريش قد قام على دكان ... ... ... | ٤٥٤ |
| أحمد بن حسن الجراوى | : وبين ضلوعى للصبابة لوعة ... ... ... | ٤٦٥ |
| أبو العباس بن العريف | : سلوا عن الشوق من أهوى فإنهم ... | ٤٦٦ |

| | | | |
|---|---|---|---|
| | | | صفحة |
| ابن المنخل الشلبي | : | تجاف عن الدنيا وعن برد ظلها ... | ٤٦٧ |
| أبوالعباس بن الأقليشي | : | أسير الخطايا عند بابك واقف ... ... | ٤٦٩ |
| ابن السيد البطليوسي | : | أخو العلم حي خالد بعد موته ... ... | ٤٦٩ |
| | : | سقى عهدهم بالخيف عهد غمائم ... ... | ٤٦٩ |
| الفيلسوف ابن باجه | : | سلام وإلمام ووسمى مزنة ... ... | ٤٧١ |
| | : | ضربوا القباب على أقاصى روضة | ٤٧١ |
| ابن أبي الصلت | : | سكنتك يا دارالفناء مصدقا ... ... | ٤٧٢ |
| أبو العلاء بن زهر | : | يا راشقى بسهام ما لهـا غرض ... ... | ٤٧٣ |


# فهرست الخرائط والصـــــور


الثغر الأعلى وما يليه — مواقع حروب المرابطين والنصارى ... ... ٩١

خط سير الذهاب والعودة لغزوة ألفونسو المحارب للأندلس ... ... ١٠٩

مواقع غزوات المرابطين التي قام بها علي وتاشفين في أراضي قشتالة والبرتغال ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ١٣٧

المغرب — البلاد ومنازل القبائل عند بداية الدولة الموحدية ... ... ... ١٨١

أسوار مراكش وأبوابها في عهد المرابطين ... ... ... ... ... ... ... ١٨٧

محراب جامع المهدى وإحدى واجهات الجامع ... ... ... ... ... ... ١٩٧

المغرب — موقع غزوة عبد المؤمن الكبرى ... ... ... ... ... ... ... ٢٣٩

إفريقية — مواقع غزوات عبد المؤمن لافتتاح بجاية والمهدية ... ... ٢٨٣

جبل طارق وبر العدوة ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٣٧٩

منظر جبل طارق من البر الإسباني ... ... ... ... ... ... ... ٣٨٣

بقايا الحصن الأندلسي أعلى الصخرة ... ... ... ... ... ... ... ٣٨٣

الممالك الإسبانية النصرانية في عهد القيصر ألفونسو ريمونديس ... ... ٥٠٣

# دولة الإسلام في الأندلس

تأليف
محمد عبد الله عنان

العصر الثالث

## عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس

القسم الثاني

## عصر الموحدين

وانهيار الأندلس الكبرى

الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة

الطبعة الثانية

١٤١١ هـ = ١٩٩٠ م

مطبعة المدني
المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة - ت : ٨٢٧٨٥١

بسم الله الرحمن الرحيم

# تصدير

تناولنا فى القسم الأول من هذا الكتاب، تاريخ الدولة المرابطية بالمغرب والأندلس ، منذ وفاة عاهلها وموسسها يوسف بن تاشفين فى سنة ٥٠٠هـ ( ١١٠٦ م ) ، حتى سقوطها بعد ذلك بنحو أربعين عاما ، وقيام الدولة الموحدية ، على يد داعيتها وإمامها المهدى ابن تومرت ، واستكمال فتوحها ، وتوطد دعائمها بالمغرب والأندلس ، على يد أول خلفائه ، عبد المؤمن بن على ، مؤسس الدولة الموحدية الكبرى .

وفى هـذا القسم الثانى من الكتاب ، نتناول عصر الموحدين فى المغرب والأندلس ، ونعرض تاريخ الدولة الموحدية الكبرى ، منذ بداية عهد ثانى خلفائها ، أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن في سنة ٥٥٨ هـ (١١٦٣م ) ، حتى انحلالها وسقوطها فى عهد آخر خلفائها إدريس الملقب بأبى دبوس ، وذلك فى سنة ٦٦٨ هـ ( ١٢٦٩ م ) ، وهى حقبة تزيد على قرن من الزمان ، وهى حقبة حافلة بعظائم الحوادث والتطورات ، سواء فى المغرب أو الأندلس .

وبالرغم من أن الأندلس لم تكن فى ظل الدولة الموحدية ، سوى قطر من أقطارها العديدة ، يتبع المغرب وحكومة مراكش ، حاضرة الدولة الرئيسية ، فإنها لبثت محتفظة بأهميتها السياسية والعسكرية ، واستقلالها المعنوى والحضارى ، ومن ثم فقد خصصنا تاريخ الأندلس ، وتاريخ صراعها مع الدول النصرانية الإسبانية ، فى هذه المرحلة الطويلة من تاريخ الموحدين ، بما يستحقه من العناية والإفاضة ، ومضينا فى استعراضه فى ظل الحكم الموحدى ، حتى قيام الدولة الهودية المتوكلية ، فى شرقى الأندلس وأواسطها ، ثم قيام مملكة غرناطة ، آخر دول الإسلام بالأندلس ، على يد مؤسسها العبقرى محمد بن الأحمر النصرى ، وأفضنا القول ، بنوع خاص ، فيما نزل بالأندلس ، فى هذه الفترة المدلهمة من تاريخها ، من النوائب والمحن ، بسقوط قواعدها الكبرى ، التى أذكت لوعة الشعر الأندلسى ، وأملت على أبى الطيب الرندى مرثيته الشهيرة التى مطلعها :

لكل شيء إذا ما تم نقصان فلا يغرُّ بطيب العيش إنسان

وراعينا فى سرد أدوار هذه المأساة المشجية ، من تاريخ دولة الإسلام فى الأندلس ، أن نبرز تفاصيل المأساة الأندلسية كاملة ، على ضوء مصادرها العربية والقشتالية ، وأن نصل بها إلى حيث بدأنا تاريخ مملكة غرناطة فى كتابنا « نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين » ، وهو خاتمة هذه السلسلة الطويلة من عصور التاريخ الأندلسى ، التى استغرقت من حياة مؤلفها أكثر من ربع قرن من الزمان.

وقد عنينا فى كل من عصرى المرابطين والموحدين حسبما نوهنا فى مقدمة الكتاب، أن نتحدث فى نهاية كل عصر ، عن طبيعة نظم هذا العصر وخصائصه ، وعن الحركة الفكرية الأندلسية خلاله . وقد تحدثنا فى القسم الأول من هذا الكتاب، عما يخص العصر المرابطى من ذلك ، وسوف نحاول أن نتحدث فى خاتمة هذا القسم، عن نظم العصر الموحدى ، وعن سير الحركة الفكرية الأندلسية خلاله وان لم يكن ذلك بما كنا نبغى من التفصيل والإفاضة . ذلك أن الميدان شاسع ، يستوعب المجلدات ، وهو ليس فى الواقع إلا تاريخ الحضارة الأندلسية، التى يقتضى استعراض مراحلها العظيمة الوضاءة ، جهوداً شاقة ، لم يسعفنا الوقت والجهد ببذلها.

وعنينا فى هذا القسم أيضاً — عصر الموحدين — بتقديم طائفة من الخرائط والصور الأثرية ، والرسوم الهامة ، منها رسوم لميادين بعض المواقع التاريخية التى شهدناها بأنفسنا ، ودرسناها على الطبيعة حسبما أشرنا إلى ذلك فى مقدمة الكتاب وفيها صور لعدد من الآثار الموحدية الأندلسية التى مازالت قائمة حتى يومنا ، وأشهرها وأروعها جميعاً صومعة جامع المنصور (لاخيرالدا ) لؤلؤة إشبيلية الأثرية .

ونحن نرجو ، وقد من الله علينا آخر الأمر ، وبعد أن قضينا هذه الأعوام الطويلة فى ارتياد المعاهد والديار بالأندلس والمغرب ، وذرفنا الدمع غير مرة على أطلال الإسلام بالأندلس ، وقمنا بعديد الرحلات فى طلب المصادر الأصيلة واستقصائها ، وجمعنا من ذلك أغزر مادة يمكن الظفر بها — نرجو الله بعد ذلك كله ، أن نكون قد وفقنا إلى أداء هذه الرسالة العلمية الجليلة التى اتخذناها شعاراً لحياتنا منذ خمسة وعشرين عاما ، على وجه يرضى العلم والتاريخ ؛ ومثل هذا التوفيق ، أن تحقق الرجاء ، يكون لنا خير جزاء لما بذلناه خلال هذه الحقبة الطويلة من الزمن ، من جهود مضنية فى سبيل تحقيق هذه الغاية الكبرى .

القاهرة فى : جمادى الأولى سنة ١٣٨٤
الموافق : سبتمبر سنة ١٩٦٤

محمد عبد الله عنان

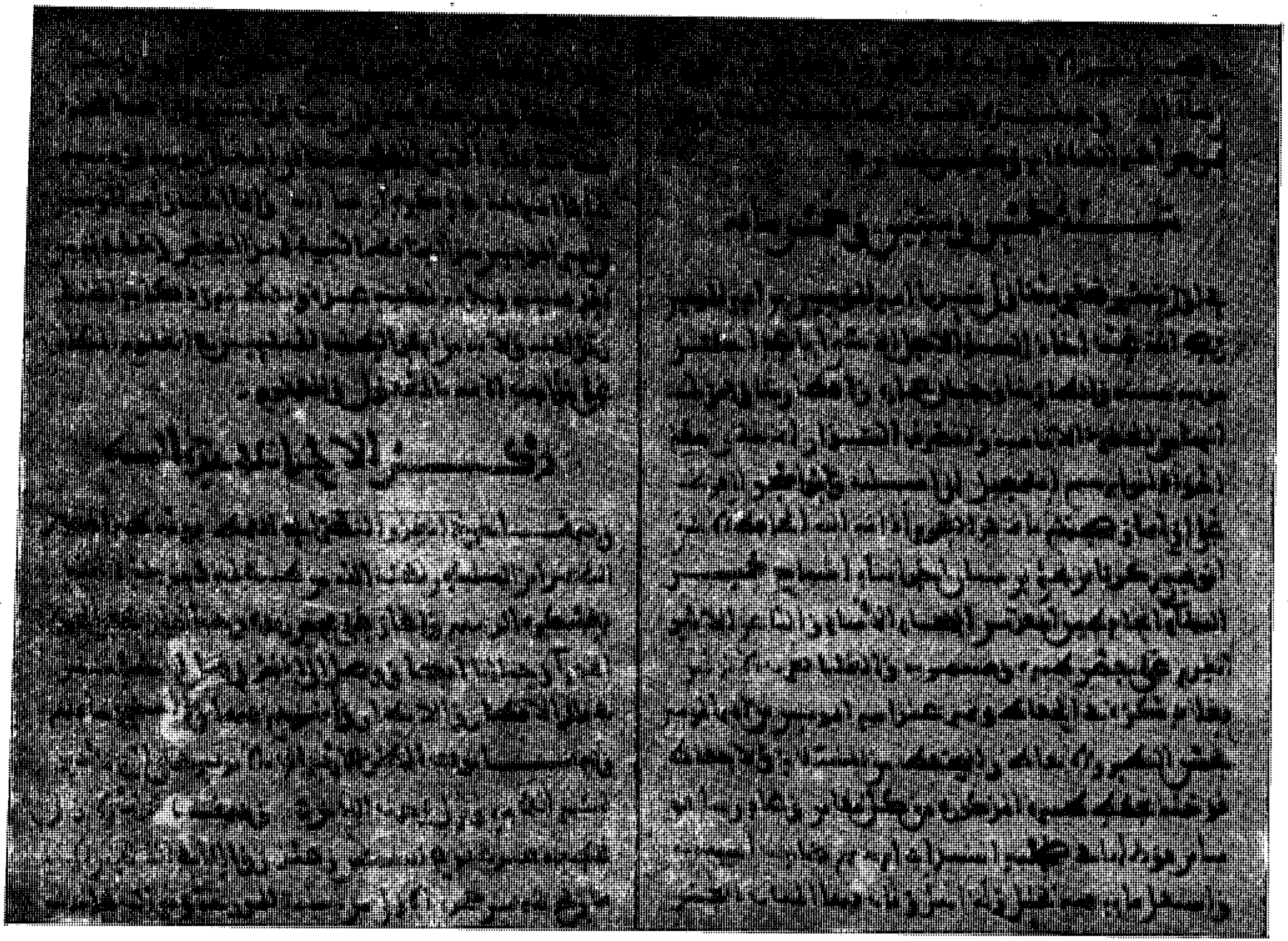

صفحتان من مخطوط كتاب « المن بالإمامة على المستضعفين » لابن صاحب الصلاة ، وهو المحفوظ بالمكتبة البودلية بأكسفورد برقم ١٧٥٨
( فهرس المخطوطات الشرقية )

صفحتان من مخطوط الجزء الثالث من كتاب « البيان المغرب » لابن عذارى المراكشى ، وهو مخطوط الزاوية الناصرية بتامجروت ، ويحفظ الآن بخزانة الرباط برقم ٢٠٠ فى قسم مخطوطات الزاويا

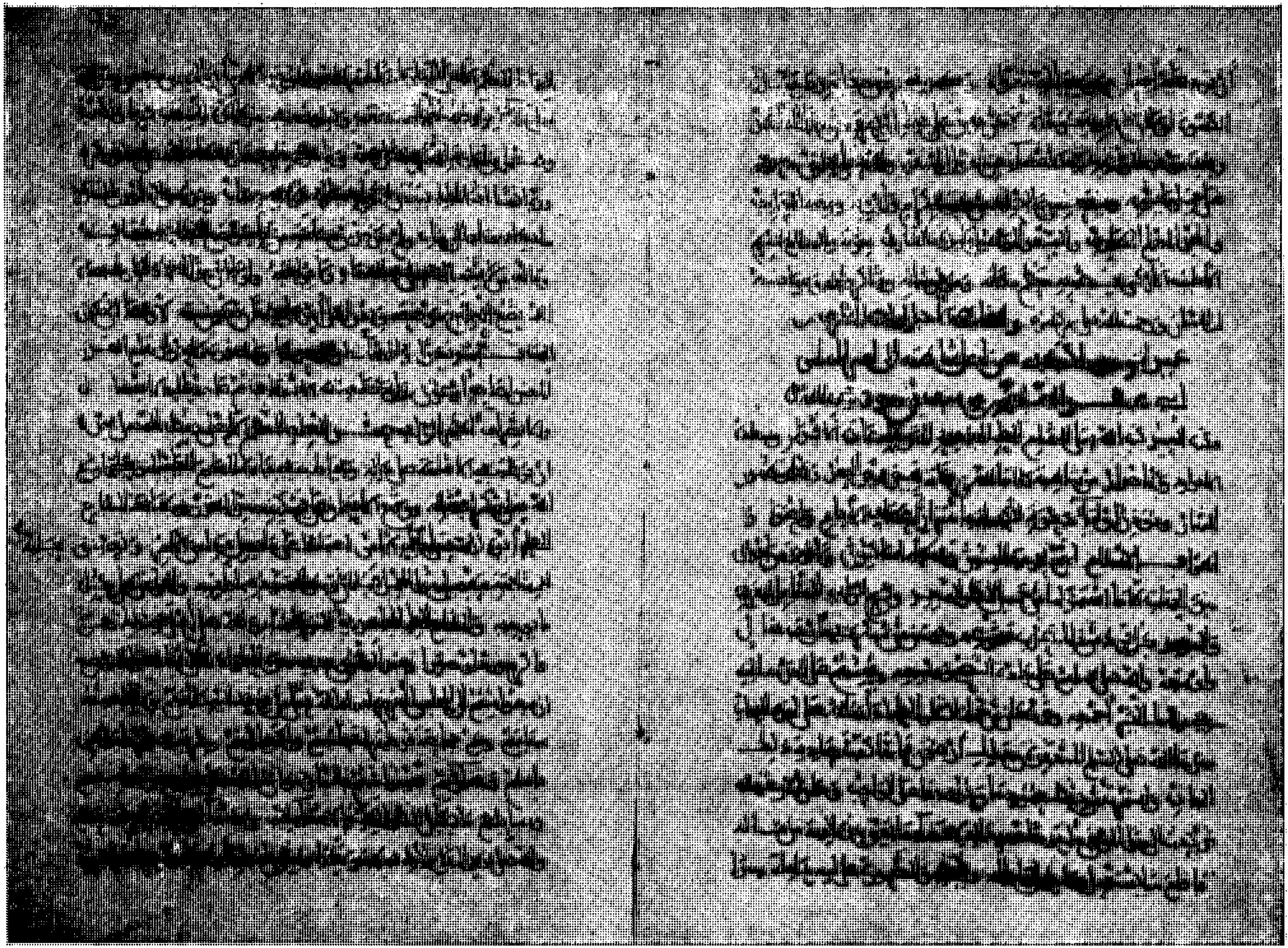

صفحتان من مخطوط كتاب « زواهر الفكر » لابن المرابط المحفوظ بمكتبة الإسكوريال برقم ٥١٨ الغزيرى ( ٥٢٠ ديرنبور ) وهما تضمان رسالة لأبي المطرف بن عميره المخزومى كتب بها عن أهل شاطبه إلى المتوكل ابن هود

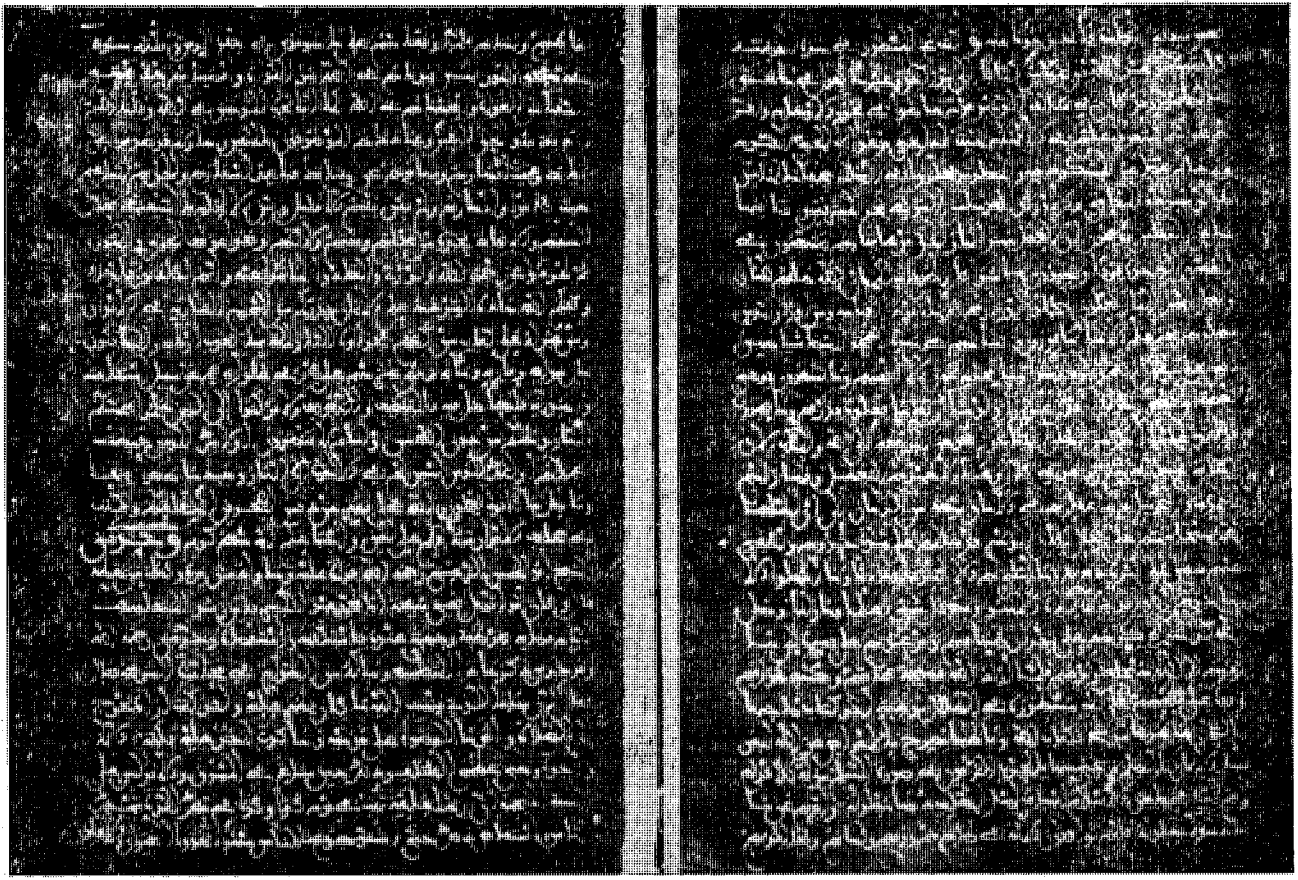

صفحتان من الجزء الخامس من مخطوط « كتاب الذيل والتكملة » لابن عبد الملك المراكشي المحفوظ بالمتحف البريطاني برقم ٧٩٤٠ ، وهما تضمان بداية
نص المنشور الموحدي الذي صدر عن الخليفة يعقوب المنصور ضد الفيلسوف ابن رشد

# الفصل الأول

## عصر الخليفة أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن

ولاية أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن الخلافة . تخلف بعض إخوته عن بيعته . موقف السيد أبى سعيد والى قرطبة والتوجس منه . مسير السيد أبى حفص إليه . اللقاء بين الأخوين فى جبل الفتح . عود التفاهم والصفا . رواية أخرى عن بيعة أبى يعقوب يوسف . ولاية السيد أبى حفص للوزارة . الثورة فى غمارة وإخمادها . حملة لإمداد الأندلس . عبور قوات موحدية جديدة إلى الأندلس بقيادة السيد أبى حفص . مسيرها لمقاتلة ابن مردنيش . استيلاؤها على أندوجر . زحفها على بسطة ثم لورقة . استيلاؤها على حصن بلج . خروج ابن مردنيش لقتال الموحدين . مسير الموحدين إلى مرسية . نزولهم فى فحص الجلاب . قدوم ابن مردنيش فى قواته . الاشتباك بين الفريقين . عنف المعركة واضطرامها . هزيمة ابن مردنيش وفراره إلى مرسية . مسير الموحدين فى أثره . تخريبهم لأحواز مرسية . إدريس بن جامع يتولى الوزارة للخليفة أبى يعقوب . عود الثورة إلى منطقة غمارة وإخمادها . احتلال الموحدين للأماكن المفتوحة فى ولاية مرسية . عود القوات الموحدية إلى الأندلس . عود السيد أبى حفص إلى مراكش . خروج الخليفة لاستقبال أخيه . وصف للاحتفالات التى نظمت لذلك . المآدب والصلات . تعيين ولاة الأندلس . اتخاذ الخليفة للعلامة . رسالة الخليفة إلى أخيه السيد أبى سعيد والى قرطبة . الحث فيها على وجوب التدقيق فى أحكام الإعدام وإراقة الدماء . عود الثورة إلى غمارة واستفحالها . مسير القوات الموحدية لإخمادها وفشلها فى ذلك . مسير الخليفة بنفسه لمقاتلة الثوار . منازلة الثوار فى جبال غمارة . تمزيقهم ومقتل زعيمهم ، عود الخليفة إلى مراكش . رسالة الفتح . الثورة فى جبل تاسررت وإخمادها . غزو والى غرناطة لحصن لبة واقتحامه . خطر البرتغال على قواعد الغرب . ملكها ألفونسو هنريكيز وأطماعه . تحالفه مع القوات الصليبية ومسيره لمحاصرة أشبونة . مناعتها وتفانى المسلمين فى الدفاع عنها . ضغط الحصار وثلم الأسوار . المعركة الأخيرة . اقتحام النصارى للمدينة . الفتك بأهلها المسلمين واسترقاقهم . استيلاء البرتغاليين على شنترين . استيلاؤهم على قصر الفتح . غزوهم لباجة وتخريبها . جيرالدو سمبافور وغاراته على قطاع بطليوس . وصف ابن صاحب الصلاة له ولأعماله . غزوه لمدينة ترجالة . استيلاؤه على قاصرش وحصون منتانجش وشربه وجلمانية . انشغال الموحدين بقتال ابن مردنيش وبفتنة غمارة . تجديد بيعة الخليفة وتعليله . أقوال ابن صاحب الصلاة . كتاب الخليفة فى ذلك . إنعام الخليفة واعطاؤه . تعيين السيد أبى إسحق لولاية قرطبة . إغارة جند ابن مردنيش النصارى على وادى شنيل . مسير والى قرطبة لقتالهم ونجاحه فى تمزيقهم . افتتاح الموحدين لثغر طبيرة . مقدم فرناندو ردريجس إلى إشبيلية وطلبه محالفة الموحدين . سفره إلى مراكش وتعاهده مع الخليفة على الإخلاص فى محالفته . الصلح بين فرناندو ملك ليون والموحدين . المنافسة بينه وبين ألفونسو هنريكيز . تعريف الرواية الإسلامية به . معاونة الموحدين له فى مقاتلة صاحب طليطلة .

— ١ —

لما توفى الخليفة عبد المؤمن بن على بمحلته بثغر سلا فى ليلة الجمعة العاشر من جمادى الآخرة سنة ٥٥٨ هـ ( ١٥ مايو سنة ١١٦٣ م ) خلفه على الأثر ، ولده السيد أبو يعقوب يوسف ، وعقدت له البيعة بمحلة أبيه فى يوم الجمعة العاشر من جمادى الآخرة ، وتولى تنظيمها أخوه شقيقه السيد أبو حفص عمر ، والشيخ أبو حفص عمر الهنتاتى كبير أشياخ الموحدين ، تنفيذاً لوصية الخليفة الراحل ، وذلك حسبما فصلناه فيما تقدم[١] . وكان الخليفة الجديد عند ولايته فتى فى الخامسة والعشرين من عمره ، وكان مولده بتينملّل فى الثالث من شهر رجب سنة ٥٣٣هـ ، وأمه حرة هى زينب بنت الفقيه القاضى موسى بن سليمان الضرير التينمللى[٢] من أصحاب خمسين . ولما كملت البيعة سار الخليفة الجديد من سلا إلى مراكش ، ونزل قصر الخلافة ، وتولى الشيخ أبو حفص وعظ الموحدين على اختلاف مراتبهم ، وحثهم على التزام فروض الطاعة . ثم أعلنت وفاة الخليفة الراحل ، وحمل جثمانه إلى تينملل ، حيث ووري إلى جانب إمامه المهدى ابن تومرت .

ولم يتخلف عن بيعة أبي يعقوب يوسف ، سوى بعض أشياخ الموحدين وثلاثة من الإخوة ، هم السيد أبو الحسن على ، والسيد أبو محمد والى بجاية ، والسيد أبو سعيد والى قرطبة . فأما السيد أبو الحسن فقد كان حاضراً ليلة وفاة أبيه ، وعقد البيعة لأخيه ، ولما عاد من تينملل بعد مواراة الخليفة الراحل ، لزم العزلة ، وبرّحت به عوامل الغيرة والحقد ، حتى مرض وتوفى غير بعيد وذلك فى أواخر سنة ٥٥٨ هـ . وأما السيد أبو محمد عبد الله والى بجاية ، فقد لزم عاصمة إمارته ، وكتب الخليفة تتردد إليه بالاستعطاف والاستدعاء ، وهو يتمهل ، ويرد بالاعتذار والاستعداد للرحيل ، واستمر فى هذا التردد والتسويف نحو عام ونصف ، وأخيراً اعتزم أمره ، وغادر بجاية فى حاشيته ، قاصداً إلى مراكش ، فأدركته

( ١ ) وذلك فى الفصل الرابع من الكتاب الثالث ( ص ٣٩٤ ) .

( ٢ ) المراكشى فى المعجب ص ١٣٢ ، وروض القرطاس ص ١٣٤ ، ويسمى والدة أبي يعقوب عائشة ، والحلل الموشية ص ١٢٠ ، وابن الخطيب فى الإحاطة ، ( مخطوط الإسكوريال رقم ١٦٧٣ الغزيرى ، لوحة ٣٩٥ ) .

المنية فى الطريق ( سنة ٥٦٠ هـ ) فأسف أخوه الخليفة لفقده ، وشمل أهله وبنيه بعطفه ورعايته . ونظر فيما يجب لضبط شئون بجاية حتى يعين لها وال جديد .

وكان تخلف السيد أبى سعيد مثار التوجس ، ومختلف الأقاويل ، لأنه كان بوجوده فى رياسة الأندلس ، الشطر الثانى من الإمبراطورية الموحدية ، وبما يسيطر عليه بها من الموارد والقوى ، حرياً بأن تحدثه نفسه بالخروج والعصيان . ومن ثم فقد بعث أخوه الخليفة لاستدعائه ثلاثة من الحفاظ الموحدين هم أبوعبدالله ابن أبى إبراهيم ، وأبو يحيى بن أبى حفص ، وأبوالربيع سليمان بن داود ، فلما وصلوا إلى قرطبة ، تمارض السيد أبو سعيد ، ولم يستطيعوا مقابلته إلا بصعوبة ، ولم يحصلوا منه إلا على وعود غامضة . ولما عاد هذا الوفد إلى مراكش ، ولم يتحقق ما وعد به السيد أبو سعيد من القدوم ، وكثر التوجس والإرجاف من موقفه ، اعتزم السيد أبو حفص عمر أن يسير بنفسه إلى استدعاء أخيه ولقائه فى جبل الفتح ( جبل طارق ) . فغادر مراكش فى فاتحة ربيع الأول سنة ٥٦٠ هـ فى جملة من أشياخ الموحدين ، منهم أبو يحيى بن أبى حفص ، وأبو يعقوب بن يخيت ، وإسحق بن جامع ، ويوسف بن وانودين ، وجماعة من زعماء ثوار الأندلس منهم سيدراى بن وزير ، وابن الفخار صاحب لبلة ، وجماعة من أشـياخ لمتونة ومسوفة ، ومعه قوة من نحو أربعة آلاف فارس ، خصصت لإمداد قوات الأندلس وتعزيزها . ولما وصل الركب إلى سلا ، تقدم الجند للعبور إلى الأندلس ، وأقام بها السيد أبوحفص شهراً ، بعث خلاله إلى أخيه السيد أبى سعيد بقرطبة يخطره بمسيره إلى رؤيته ، وبأن يكون اللقاء بينهما فى جبل الفتح . ولما وصل ركب السيد إلى طنجة ، استقل منها سفينة أقلته مع كاتبه عبد الملك بن عياش وبعض خاصته إلى سبتة ، وسارت بقية الركب إلى سبتة ، بطريق البر . وفى اليوم التالى لوصول السيد أبى حفص إلى سبتة ، وصلت من الجزيرة الخضراء سفينة ، أعلن من فيها وصول السيد أبى سعيد فى خاصته وأشياخه إلى جبل الفتح فى انتظار أخيه ، فعبر السيد أبوحفص وصحبه البحر فى نفس اليوم إلى جبل الفتح . ويقول لنا عبد الملك بن صاحب الصلاة ، وقد كان من شهود هذا الحفل ، ومن حملة الوافدين ، أولا وآخرا ، إن اجتماع الأميرين قد تم على خير ما يرجى ، بين قرع الطبول ونشر البنود ، والسرور بالورود . وجاءت وفود قرطبة ، وغرناطة وإشبيلية وغيرها من قواعد الأندلس ، وكان على رأس وفد إشبيلية الفقيه الحافظ ابن الجد ، والقاضى أبوبكر

الغافقى ، وصاحب المخزن محمد بن المعلم . وجلس السيد أبو حفص وأخوه السيد أبو سعيد فى قصر الجبل لاستقبال الوفود ، فتعاقبت فى السلام ، وإلقاء الخطب ، وأنشد الشعراء قصائدهم ، على نحو ماحدث أيام مقدم الخليفة عبد المؤمن ، ودامت إقامة الأميرين بالجبل خمسة عشر يوما ، أغدقت فيها « الأعطيات والبركات والكمى» . وصفا الجو ، وارتفع الإرجاف ، ثم انصرفت الوفود، وعبر السيدان أبو حفص وأبو سعيد كل فى صحبه ، البحر إلى سبتة ، وأقاما بها ثلاثة أيام ريثما عبرت بقية الركب من الجبل ومن الجزيرة الخضراء ، ثم سار السيدان إلى مراكش، فتلقاهما أخوهما الخليفة أبو يعقوب يوسف خارج الحضرة، وكان اجتماعا بهجاً ، ساده البشر والحبور ، وكان وصول السيد أبى حفص وأخيه السيد أبى سعيد إلى مراكش فى أول شهر رجب سنة ٥٦٠ هـ ، فاستقبل الجميع بالحضرة أروع استقبال ، وأنشد الشعراء تهانيهم ومدائحهم . وهكذا تم التفاهم والتعاطف بين الخليفة وأخيه ، وأسبل الستار بذلك على ماكان يحيط بموقف السيد أبى سعيد من التوجس والإرجاف[١] .

هذا وقد اعتمدنا فيما تقدم ذكره عن تولية الخليفة أبى يعقوب يوسف وبيعته، وما حدث عن تخلف بعض إخوته عن بيعته ، على ماذكره مؤرخا الموحدين المعاصران ، البيذق وابن صاحب الصلاة ، باعتباره أوثق ما يمكن الاعتماد عليه فى هذا الشأن[٢] . بيد أنه توجد إلى جانب ذلك رواية أخرى مفادها أن البيعة التى عقدت لأبى يعقوب عقب وفاة أبيه الخليفة عبد المؤمن ، لم تكن بيعة تامة ، إذ تخلف عنها بعض أشياخ الموحدين ، وبعض إخوته ، وأنه لذلك اكتفى باتخاذ لقب الأمير حتى تكمل بيعته ، وصرف الجيوش التى كانت مجتمعة للجهاد ، وعاد إلى مراكش ، فأقام بها ، وكتب إلى جميع عمالاته بالمغرب وإفريقية والأندلس فى طلب البيعة ، فوردت إليه من سائر النواحى ، ما عدا قرطبة التى كانت لنظر

---

(١) لخصنا ما تقدم عن رواية ابن صاحب الصلاة فى كتاب « المن بالإمامة على المستضعفين (مخطوط أكسفورد السالف ذكره) لوحات ٤٨ إلى ٥٧ ، وأضربنا عن نقل ما أورده ابن صاحب الصلاة من مختلف قصائد المديح والتهنئة . وراجع فى ذلك أيضاً « البيان المغرب » القسم الثالث ، وهو يلخص كذلك عن ابن صاحب الصلاة ( ص ٥٩ — ٦٢ ).

(٢) الأول فى كتاب أخبار المهدى ابن تومرت ص ٨٤ ، والثانى فى كتاب « المن بالإمامة » لوحة ٤٥ .

أخيه السيد أبي سعيد عثمان ، وبجاية التي كانت لنظر أخيه السيد أبي محمد عبدالله . وفي سنة ٥٥٩ ، هـ وفد عليه أخواه السيد أبو سعيد ، والسيد أبو عبد الله ، كل في أشياخ إمارته ، طائعين تائبين ، وقدما إليه البيعة ، وبذلك كملت بيعته . وذكر القاضي أبو الحجاج يوسف بن عمر ، وهو من قضاة عبد المؤمن ومن مؤرخي الموحدين ، أن أبا يعقوب يوسف بويع بيعة الجماعة واتفقت الأمة على بيعته في اليوم الثامن من ربيع الأول سنة ٥٦٠ هـ ، وذلك بعد وفاة أبيه بعامين ، وبعد أن بايعه أخوه السيد أبو سعيد والى قرطبة ، وتسمى من ذلك الوقت بأمير المؤمنين ، بعد أن كان يتسمى بالأمير (١) .

وتولى السيد أبو حفص منذ البداية شئون الحجابة لأخيه السيد أبي يعقوب « على معنى الوزارة والإمارة » بتنفيذ الأوامر السلطانية باسمه وعن أمره ، على نحو ما كان عليه عند أبيه الخليفة عبدالمؤمن من تولى شئون وزارته . والظاهر مما تؤكده لنا الرواية من أن السيد أبا حفص كان يزاول سلطته عن رضى من أخيه السيد أبي يعقوب ، وأن علائق الأخوين كان يسودها الصفاء والمحبة ، أن السيد أبا حفص ، كان في منصبه يزاول سلطة مطلقة ، وأنه كان هو الخليفة الفعلي ، وأنه لم يترك لأخيه السيد أبي يعقوب سوى مظاهر الإمارة الشكلية . وكان الوزير إدريس بن إبراهيم بن جامع وهو من قرابة المهدى ، يمثل بين أيديهما لرفع المسائل ، وتوصيل رغبات الوافدين والسائلين ، وكان يؤدى دوره في تنظيم الصلة بين الأميرين ، وفي التوسط بينهما ، ببراعة وكياسة (٢) . بيد أن السيد أبا حفص لم يمكث في منصبه هذا سوى فترة قصيرة لم تطل سوى عامين ، وانفرد بشئون الحجابة والوزارة من بعده الوزير ابن جامع (٣) .

وفي بداية عهد أبي يعقوب في سنة ٥٥٩ هـ ( ١١٦٤ م ) وقعت ثورة محلية في منطقة غُمارة ، بزعامة مزيزدَغ الغمارى الصنهاجي من صَنهاجة مفتاح ، فتغلب على تلك المنطقة ، والتفت حوله جموع غفيرة من غمارة ، وصنهاجة ،

---

( ١ ) راجع روض القرطاس ص ١٣٧ .

( ٢ ) ابن صاحب الصلاة في كتاب « المن بالإمامة » ( المخطوط السالف الذكر لوحة ٤٨ ب ) وكذلك البيان المغرب ، القسم الثالث ص ٥٩ .

( ٣ ) ابن صاحب الصلاة في « المن بالإمامة » لوحة ٧١ ا ، والمعجب ص ١٣٧ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٦٥ .

وأورية ، وضرب السكة باسمه ، ثم سار إلى أراضى تاودا ، على مقربة من فاس ، وعاث فيها وقتل كثيراً من أهلها ، فسير الخليفة أبو يعقوب لقتاله جيشاً موحدياً بقيادة يوسف بن سليمان . وفى رواية البيذق أن الموحدين قاتلوا مزيزدغ ، حتى بددت قواته ، وأذعن للتوحيد ، ثم سمح له بأن يجوز إلى الأندلس ، وهنالك نزل بقرطبة . لكن صاحب روض القرطاس ، يقول لنا بالعكس إن الثائر قتل وحمل رأسه إلى مراكش(١) .

وقد أشرنا فيما تقدم إلى الحملة التى جهزها السيد أبو حفص لإمداد قوات الأندلس ، وذلك حين سيره لمقابلة أخيه أبى سعيد بجبل الفتح . وقد عبرت هذه الحملة ، وقوامها نحو أربعة آلاف فارس ، معظمهم من العرب ، البحر بقيادة الشيخين أبى سعيد بن الحسن ، وأبى عبد الله بن يوسف ، وسارت تواً إلى إشبيلية . وأرسل منها نحو خمسمائة فارس إلى مدينة بطليوس لتعزيز حاميتها ، وتصادف أن كانت ثمة قوة من النصارى من أهل شنترين تغير على تلك المنطقة ، فقاتلها الفرسان الموحدون ومزقوا شملها ، وأفنوا معظمها . وسار الشيخان أبو سعيد وأبو عبد الله ببقية العسكر من إشبيلية إلى قرطبة لتعزيز جبهتها الدفاعية ، إزاء هجمات ابن مردنيش . وماكاد الموحدون يستريحون قليلا ، حتى خرجوا إلى أحواز قرطبة ، وهنالك التقوا فى وادى « لك » القريب منها بجمع من عسكر ابن مردنيش ، وهم الذين ينعتهم مؤرخ الموحدين « بالأشقياء » ، فنشبت بين الفريقين معركة عنيفة ، أبلى فيها الموحدون أحسن البلاء واستمر القتال بينهما طوال اليوم على شرب الماء ، وافترقا دون حسم ، وكان ذلك فى شعبان سنة ٥٦٠ هـ ( ١١٦٥ م ) . وبعث الشيخان أبو سعيد وأبو عبد الله بأنباء المعركة إلى مراكش ، ووصفا ما لقيناه فى القتال من هول ومشقة ، وطلبا العون والإنجاد ، فاهتم لذلك السيد أبو حفص وجهز فى الحال جيشاً من الموحدين والعرب ، وخرج من مراكش فى قواته ومعه أخوه السيد أبو سعيد عثمان والى قرطبة ، فى أوائل شهر رمضان ، وأسرع فى السير وعبر البحر ، ووصل بجموعه إلى إشبيلية ، وهنالك اجتمع بزعماء الموحدين ، وقر الرأى على محاربة ابن مردنيش فى عقر أراضيه قبل أن يبادرهم بمهاجمة قرطبة(٢) .

---

(١) راجع أخبار المهدى ابن تومرت ص ١٢٤ ، وروض القرطاس ص ١٣٧ .

(٢) ابن صاحب الصلاة فى كتاب « المن بالإمامة » لوحة ٥٧ ب و ٥٨ ا .

وخرجت القوات الموحدية من إشبيلية فى أول شهر ذى القعدة سنة ٥٦٠هـ ، وسارت نحو الشمال الشرقى معرجة على قرطبة ، حتى وصلت إلى أندوجر ، وهى من معاقل ابن مردنيش التى تهدد سلامة قرطبة . فهاجمتها واستولت عليها فى الحال عنوة ، وبادر أهل الحصون المجاورة إلى إعلان الطاعة وطلب الأمان . وأغار الموحدون على أحواز أندوجر واستولوا على كثير من السبى والغنائم . ثم حشد السيد أبو حفص صفوة جنده من الموحدين والعرب وسار من أندوجر جنوبا ، قاصداً إلى مرسية ، من طريق السهل ، فوصل إلى مشارف مدينة بسطة ، دون أية مقاومة ، وجنده تعيث فى تلك المنطقة ، وتنتزع الأقوات وتستاق الماشية ، وهنالك على مقربة من بسطة وافته حشود غرناطة ومنهم فرقة من الرماة ، وسار الجيش الموحدى بعد ذلك صوب لورقة ، مارا بحصن بلج أو بلش[1] وهو من أهم معاقل ابن مردنيش فى تلك المنطقة ، فسلم قائده العزفى وأصحابه بالأمان ، ووضعت به حامية موحدية[2] .

وكان محمد بن سعد بن مردنيش أثناء ذلك قد حشد قواته ، ومنها جمع كبير من النصارى ، وخرج من مرسية يزمع اعتراض الموحدين عند لورقة ، ويحول دون سلوكهم منها إلى مرسية ، فلما رأى الموحدون صعوبة اختراق هذا الطريق الجبلى الوعر تحولوا إلى غرب لورقة ، وانحدروا إلى السهل المسمى « بالفندون» وهو السهل الواقع بين لورقة وقرطاجنة ، وهو من أخصب بقاع هذه المنطقة ، ثم اخترقوا السهل نحو مرسية . وهذا ما ورد فى خطاب الفتح الذى أرسل فيما بعد إلى مراكش . ولكن البيذق يقول لنا بالعكس إن الموحدين غلبوا على لورقة ، وقرطاجنة وبلّش ، ووحد أهلها ، وأن ابن مردنيش حينما قدم إلى لورقة كان بها الموحدون[3] .

وكان ابن مردنيش فى تلك الأثناء قد ارتد بجنده نحو مرسية من الطريق الجبلى . فلما كان يوم الجمعة السابع من ذى الحجة سنة ٥٦٠هـ ( ١٥ أكتوبر سنة ١١٦٤م ) ، أشرف الموحدون عند الظهر على فحص مرسية ، على بضعة أميال منها ، ونزلوا

---

( ١ ) هو المسمى بالإسبانية Vélez Rubio .

( ٢ ) وردت تفاصيل سير الحملة الموحدية فى خطاب الفتح الذى أرسل إلى مراكش بعد موقعة فحص الجلاب ونقله إلينا ابن صاحب الصلاة وسنأتى على ذكره .

( ٣ ) كتاب أخبار المهدى ابن تومرت ص ١٢٦ .

بموضع فيه يعرف « بفحص الجلاّب » . وهنالك أشرف ابن مردنيش بقواته وقبائلهم ، فنظم الموحدون قواتهم من أهل هرغة وتينملل وهنتاتة وجدميوه وباقى القبائل الموحدية ، كما نظم الجند العرب من بنى هلال ورياح والجشميين والرعينيين وحرس الأمير الأسود . ويبدو من خطاب الفتح السالف الذكر أن جيش الموحدين كان يضم عندئذ زهاء اثنى عشر ألف مقاتل غير حامية غرناطة ، من ذلك نحو أربعة آلاف هى التى كانت تحت إمرة الشيخين أبى سعيد وأبى عبد الله ، وثمانية آلاف هى جملة الحملة التى عبر بها السيد أبو حفص وأخوه . وأما جيش ابن مردنيش فلم تذكر لنا الرواية جملته ، ولكنها تقدر من كان به من النصارى المرتزقة بثلاثة عشر ألف مقاتل(١) .

وتعاهد الموحدون على الصدق والثبات والصبر ، والاستشهاد فى سبيل الله . وبدأ ابن مردنيش الهجوم فانقضت قواته أولا على الجند العرب ، ثم تحول إلى مهاجمة الموحدين ، فهاجمهم مرتين متواليتين ، ونشبت بين الفريقين معركة هائلة ، قاتل فيها الموحدون والعرب أشد قتال وأروعه ، واستمرت حتى مغيب الشمس ، ورجحت كفة الموحدين فى النهاية ، ففتكوا بجيش مردنيش ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وسقط فى الموقعة شيوخ العرب السبعة فيمن سقط من الموحدين ، وارتد ابن مردنيش فى فلول قواته إلى تل قريب إلى أن دخل الليل ففر مسرعاً إلى مرسية ، وامتنع بداخلها . وفى صباح اليوم التالى الثامن من شهر ذى الحجة ( ١٦ أكتوبر ) ، سار الموحدون إلى مرسية ، حتى اقتربوا منها ، ونزلوا بساحتها ، وأمضوا بها عيد الأضحى ، وخرجت سرياتهم تدمر أحوازها وغياضها ، ومنها بساتين ابن مردنيش البانعة ، مدى أيام ، حتى امتلأت أيديهم بالغنائم والأقوات ، ووصلت طلائعهم إلى أوريولة وألش . وبعث السيدان أبو حفص وأبو سعيد إلى أخيهما الخليفة أبى يعقوب بمراكش بكتاب الفتح والبشرى ، من إنشاء الكاتب أبى الحسن بن عياش ، فوصل إلى الحضرة فى الثالث والعشرين من ذى الحجة ، وقرئ على سائر الحاضرين من الأشياخ ، والطلبة ، ثم قرئ بعد ذلك بالمسجد الجامع على كافة الناس(٢).

---

( ١ ) نشرنا فى الفصل الثانى خريطة لمملكة الشرق ومواقع غزوات الموحدين لها

( ٢ ) أورد لنا ابن صاحب الصلاة تفاصيل الغزوة الموحدية لأندوجر ، وسير الموحدين إلى مرسية ، وموقعة فحص الجلاب فى كتاب « المن بالإمامة » المخطوط السالف الذكر لوحة ٥٨ ا إلى لوحة ٦٠ ب . كما أورد لنا نص الخطاب الذى أرسل بالفتح إلى مراكش ( لوحة ٦٠ ب إلى لوحة ٦٣ ا ) =

وكانت هزيمة فحص الجلاب من أقسى الضربات التى أصابت ابن مردنيش، وكانت بداية انحلال ثورته ، وانهيار سلطانه فى شرقى الأندلس .

وحدث فى مراكش خلال ذلك أعنى فى عام ٥٦٠ ، وفى أثناء غياب السيد أبى حفص بالأندلس ، حدث هام ، هو تولى الخليفة أبى يعقوب يوسف لسلطانه المباشر ، واختصاصه للوزير أبى العلاء إدريس بن جامع بتدبير الشئون وتقريبه إياه ، واختار ابن جامع لمعاونته صفوة من رجاله المخلصين ، فى مقدمتهم الخطيب أبو الحسن الإشبيلى ، وأبدى فى منصبه كفاية وغيرة ونزاهة ، وبذل فى تصريف الأمور وإقامة العدل ، وتوطيد السكينة والأمن ، جهوداً مشكورة ، حتى كان الراكب وفقاً لقول المؤرخ « يسير حيث شاء من بلاد العدوة فى طرقها من جبلها وسهلها آمناً فى نفسه وماله لايخاف إلا الله » . وأحسن لمن وفد عليه واستغاث به ، من أجناد الأندلس المضامين أو المأسورين ، يفتديهم بماله ، ويهبهم الخيل وآلات الحرب والكساء ، وأسبغ رعايته على الموحدين المقيمين ، وعلى طلبة الحضر الوافدين إلى العاصمة ، وفرض الزكاة على حكم الكتاب والسنة ، وأنفقها فى وجوهها المشروعة(١) .

وحدث فى هذا العام أيضاً أن عادت الفتنة إلى منطقة غُمارة ، وعادت بعض بطون صنهاجة إلى نقض الطاعة بقيادة سبع بن منغفاد . فخرج إليهم الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى ، فى حملة من الموحدين ، سارت إلى جبال غمارة ، وضيقت على الثوار ، حتى أذعنوا إلى طلب الأمان تائبين ضارعين ، معلنين للطاعة والخضوع(٢) . بيد أنه كان ، كما اسنرى ، خضوعاً خادعاً مؤقتاً .

— ٢ —

على أثر انتصار الموحدين فى موقعة فحص الجلاب ، قام السيدان أبو حفص وأبو سعيد ، بوضع حاميات موحدية فى الأماكن المفتوحة ، وتنظيم حكمها ،

---

= وتراجع أخبار موقعة فحص الجلاب أيضاً فى روض القرطاس ص ١٣٧ ، والبيان المغرب — القسم الثالث ص ٦٤ و ٦٥ ، وكذلك فى **Huici Miranda : Imperio Almohade, V.I. p. 226 & 227**
**M. O. Remiro : Murcia Musulmana, p. 219- A P Ibars : Valencia Arabe, p. 641**

(١) كتاب « المن بالإمامة » المخطوط السالف الذكر لوحة ٧١ أ و ب ، وكذلك البيان المغرب القسم الثالث — ص ٦٥ ، و ٦٦ وهو ملخص من كتاب « المن بالإمامة » .

(٢) كتاب أخبار المهدى ابن تومرت ص ١٢٤ ، و « المن بالإمامة » لوحة ٧٢ أ .

وضبط الأمور فيها ، ثم انصرفا من ظاهر مرسية ، فى القوات الموحدية ، عائدين إلى الأندلس . ولما وصلا إلى قرطبة ، تخلف بها السيد أبوسعيد بموافقة سابقة من أخيه الخليفة ، ليستأنف بها مهام منصبه فى الولاية عليها ، وسار السيد أبو حفص إلى إشبيلية ، ثم عبر البحر إلى العدوة ، عائداً إلى حضرة مراكش ؛ فوصل إليها فى ضحى اليوم العاشر من ربيع الأول سنة ٥٦١ هـ .

ويقدم إلينا ابن صاحب الصلاة وصفا ضافياً لاحتفال الخليفة أبى يعقوب باستقبال أخيه فى ظاهر مراكش ، وما تلا ذلك من الحفلات والمآدب وتوزيع الصلات . ولابد لنا أن ننقل هنا موجزاً لهذا الوصف ، أولا كنموذج لحفلات الابتهاج الموحدية ، وثانيا كنموذج لبعض نواحى الحياة الاجتماعية الرسمية ، التى يصفها لنا ابن صاحب الصلاة خلال روايته من آن لآخر .

يقول ابن صاحب الصلاة ، إن الأمير الإمام أبا يعقوب ، خرج بنفسه لاستقبال أخيه ، بعد أن كتّب كتائبه المنصورة الحاضرين معه بحضرة مراكش ، وكسا حرسه الأسود بالثياب الزاهية ، واصطفت الفرسان المدرعة من الموحدين وغيرهم ، والرجال بالدورق والرماح ، وجعل الرايات خلف ركابه ، وحملة الطبول مع خاصة أصحابه ، وهو راكب جواده ، ووزيره أبو العلاء إدريس ابن جامع راجل لصق ركابه ، وهو يحدثه ، ويصدر الأمير أوامره ، فينفذها الوزير ، ثم يرجع إليه ، وعلى عاتق الأمير رمح طويل . والتقى الأمير بأخيه فى الساحة التى كانت قائمة عندئذ تجاه باب الشريعة ، فلما التقى الأميران ، تجاوبت الخيل بالحملات والحراب والطبول ، ثم نزل الأخوان كل عن فرسه ، والتقيا وتصافحا ، ثم سلم الناس الواصلون على الأمير وعلى من حضر ، ثم ركبوا إلى القصر العبيق فى أعظم أبهة فوصلا إليه بعد العصر ، واجتمعا به . وفى اليوم التالى ، أقيمت المآدب الحافلة بالأطعمة والأشربة للموحدين والعرب الواصلين ، ولجميع المقيمين ، واستمر ذلك خمسة عشر يوما . ثم وزعت الكسى من العمائم والبرانس والأكسية . وتسلم كل فارس طقماً كاملا من الكساء يتكون من عفارة وعمامة وكساء وقسطية وشقة ، وأنعم على جميع الناس من الغازين والقاطنين وطلبة الحضر ، ووزعت عليهم الأعطية المالية ، من الذهب والدراهم ، فخص الفارس سواء من الموحدين أو العرب ، عشرون ديناراً ، ولكل من أعيان الموحدين وأشياخهم وكذلك أشياخ العرب ، مائة دينار ، وعم بذلك البشر والحبور ، واستمرت

الطبول فى قرعها خمسة عشر يوماً ، ثم انصرف الغازون إلى قبائلهم [1] .

وكان أول ما عنى به الخليفة أبو يعقوب بعد الانتهاء من هذه الحفلات ، هو النظر فى تعيين الولاة . وكانت بجاية وإشبيلية فى مقدمة الولايات التى خلت رياستها ، فقرر الخليفة بعد مشاورة أخيه السيد أبى حفص ، أن يعين لولاية بجاية وأقطارها أخاه السيد أبا زكريا يحيى بن عبد المؤمن . فسار إليها من الحضرة فى فاتحة جمادى الأولى سنة ٥٦١ هـ ، ومعه جملة من أبناء الجماعة والحفاظ . وعين لولاية إشبيلية الشيخ أبا عبد الله بن أبى إبراهيم إسماعيل، أحد أصحاب المهدى العشرة ، وعين له وزيراً لمعاونته هو أبو زكريا بن سنان، وهو من أكابر علماء الدعوة المهدية ، فغادر مراكش فى صحبة من الحفاظ إلى مقر ولايته ، فى الحادى والعشرين من جمادى الآخرة ، ووصل إلى إشبيلية فى أول شهر رجب . وماكاد يصل إليها ، حتى كانت جماعة من نصارى شنترين ، قد اخترقت ولاية الغرب ، ووصلت فى غارتها إلى بلدة طلياطة ، الواقعة جنوبى شرقى لبلة . فجهز الشيخ أبوعبد الله حملة لردهم من الحفاظ والعرب وجند إشبيلة ، بقيادة أبى العلاء بن عزون ، فأدركتهم وهزمتهم ، واستنقذت منهم الغنائم والأسرى ، وأسرت جملة منهم . وبعث الوالى الجديد بخبر هذه الموقعة إلى الخليفة فسر به ، وبعث إليه بشكره .

ولم يمض على انفراد الشيخ أبى عبد الله بولاية إشبيلية سوى أشهر قلائل ، حتى عين الخليفة أخاه السيد أبا إبراهيم إسماعيل بن عبد المؤمن والياً لإشبيلية ، فوصل إليها فى أول شهر ذى الحجة سنة ٥٦١ هـ ، وتقرر أن يبقى معه الشيخ أبو عبد الله ، على ماكان عليه ، وأن يتولى الشئون العسكرية ، وتوثقت أواصر المودة والتعاون بين الرجلين ، واستمرا معاً فى النظر فى شئون إشبيلية ، حتى وصل أمر الخليفة بندب الشيخ أبى عبد الله للقيام بولاية غرناطة وذلك فى أواخر شعبان سنة ٥٦٢ هـ ، فغادر إشبيلية فى صحبة من الحفاظ وغيرهم فى أوائل شهر رمضان إلى غرناطة ، واستقر فى ولايتها ، واستدعى الخليفة فى نفس الوقت أخاه السيد أبا سعيد ، والى قرطبة للقدوم إلى الحضرة ، فغادرها فى أوائل ذى القعدة سنة ٥٦١ هـ .

وفى نفس هذا العام أعنى سنة ٥٦١ هـ قرر الخليفة أبو يعقوب بالاتفاق

---

(١) كتاب « المن بالإمامة » لوحة ١٧٣ و ب ولوحة ١٧٤ ا

مع أشياخ الموحدين ، أن يتخذ العلامة الخلافية ونصها « و الحمد لله وحده » وأن يكتبها بخط يده على المراسيم والأوامر ، فتنفذ بمقتضاها . وصدرت أول رسالة ممهورة بالعلامة الخلافية فى الثالث من شهر رمضان مدبجة بقلم الوزير الكاتب أبى الحسن بن عياش ، وموجهة إلى أخى الخليفة السيد أبى سعيد وأصحابه الطلبة بقرطبة ، على أن تنفذ منها نسخ إلى مختلف البلاد ، وفيها بعد الديباجة الموحدية المعتادة ، يوصى الخليفة بأن تجرى الأحكام وفقاً للعدل ، وأن تُرفع إليه أحكام الإعدام ، فلا يقضى الموحدون فى الدماء من تلقاء أنفسهم ، ولا يريقوها بباد أو رأى من آرائهم ، إلا بعد أن ترفع النازلة إلى الخليفة ، وتشرح وتقيد بالشهود والعدول « وتكتب أقوال المظلومين وحججهم ، وإقرارهم واعترافهم ، وحجج الظالمين فى مقالاتهم واستظهارهم فى بياناتهم معطى كل ذى حق حقه ، موفى كل قائل قوله » ، وأن يدقق فى الجرائم التى دون القتل ، من ضرب أو جرح أو سرقة أو قتل خطأ ، وكذلك فى سائر المعاملات والأموال واستحقاقها وفى الرقاب وعتقها أو استرقاقها ، وفى المناكحات فلا يبت فى أمرها إلا بعد المطالعة ، وتعرّف وجه الحق فيها ، والاستناد إلى النصوص والأحكام الصحيحة ، وأنه يجب التوقف ومراعاة أنه لا يقدم على إراقة الدماء ، واستباحة الأموال ، واستحلال الحرمات ، إلا بوجه صحيح . ويختم الخليفة رسالته بحث الموحدين على العمل بما جاء فيها ، وأنه يجب عليهم فى جميع الأحوال ، تقوى الله فى السر والجهر ، وخيفته فى الباطن والظاهر ، والجرى على سنته ، وأنه يجب إذاعة هذا الكتاب ، والتشهير به ، وجمع الناس لقراءته ، وتعريف الحاضر والغائب بما فيه ، وأن ترسل منه نسخ إلى سائر الجهات ليعمل الناس بما جاء « فى هذا الأمر العزيز من إقامة العدل ، وبسط الدعة والأمن ، وإقامة أمر الله على وجهه المتعين وسننه الواضح البين »(١).

وإنه لما يلفت النظر فى هذه الرسالة بنوع خاص ، اهتمام الخليفة البين بمسألة أحكام الإعدام ، وإراقة الدماء ، وتشدده فى المطالبة برفعها إليه ، وفى

(١) أورد لنا ابن صاحب الصلاة النص الكامل لهذه الرسالة فى كتاب « المن بالإمامة » لوحة١٧٩ إلى لوحة٨٢ ا ونقلها العلامة جولدسيهر فى بحثه الذى سبقت الإشارة إليه **Materialien zur Kenntniss der Almohaden Bewegung (Z. der Mog. Gesellsch., 1887 p. 134-138)** وقد نشرناها نحن فى باب الوثائق الموحدية فى نهاية الكتاب .

وجوب تحرى الدقة فى شرحها ، وتقييدها بالشهود والعدول ، وإثبات أقوال المظلومين وحججهم ، وأقوال الظالمين ، أعنى المدعين وحججهم ، فهذا الاهتمام البالغ من أبى يعقوب ، بالحرص على صون الدماء ، والتنكيب عن إراقتها إلا بوجه الحق ، ومنتهى الدقة والحذر ، يحملنا على الاعتقاد بأن هذا الخليفة العالم ، والفقيه البارع ، قد تأثر أيما تأثر مما أبداه الموحدون منذ عهد المهدى ، من خفة فى سفك الدماء ، ومن إسراف فى إراقتها ، وما اتسم به عهد أبيه الخليفة عبد المؤمن من سيطرة هذه الظاهرة الدموية المروعة ، وأنه أراد برسالته أن يحمل زعماء الموحدين من أمراء وأشياخ وحكام ، على التزام نوع من الحرص والاعتدال فى إراقة الدماء ، وفى تقرير أحكام الإعدام .

ولما وصلت رسالة الخليفة إلى أخيه السيد أبى سعيد بقرطبة ، وجهت منها نسخ إلى سائر بلاد الأندلس التى تحت نظر الموحدين ، وقرئت على الناس فى الجوامع ، وغادر السيد أبو سعيد قرطبة بعد ذلك بقليل ، عائداً إلى حضرة مراكش نزولا على رغبة الخليفة حسبما تقدم .

وفى أوائل سنة ٥٦٢ هـ ( ١١٦٦ م ) عادت الفتنة إلى جبال غمارة بين قبائل صنهاجة ، وعاد زعيمها سبع بن منغفاد إلى الخروج والعصيان ، وبسط سلطانه على سائر المنطقة الممتدة من بلاد الريف على شاطىء البحر الأبيض المتوسط شمالا حتى سبتة ، وأخذ يعيث فساداً فى تلك المنطقة ، ويقطع الطرق ، ويعتدى على السكان الآمنين قتلا وسبياً ونهباً ، ووصل عيثه وعدوانه غرباً حتى منطقة القصر الكبير . وكان قيام الثورة فى تلك المنطقة الحساسة ، التى هى شريان المواصلة بين المغرب والأندلس من أخطر الأمور ، التى يجب حسمها بقوة وبسرعة . ومن ثم فقد سير الخليفة جيشاً موحدياً بقيادة أبى سعيد يخلف بن حسين إلى بلاد صنهاجة من جهة القلعة ، وكان الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى ، قد تقدم فى عسكره إلى ناحية أخرى من منطقة الثورة ، فقاوم الثوار أشد مقاومة ، وامتنع سبع بن منغفاد بقواته فى جبل الكواكب ، ولم تنل القوات الموحدية من الثوار مأرباً . وعندئذ رأى الخليفة أن يسير بنفسه إلى مقاتلة الثوار ، فخرج فى جيش كثيف ، ومعه أخواه السيدان أبو حفص وأبو سعيد ، وسار إلى جبال غمارة ، ونازلت القوات الموحدية الزعيم الثائر فى أعماق معاقله ، وأحاطت به وبسائر صحبه من كل ناحية ، وأمعنت فيهم قتلا وأسراً ، ومزقوهم تمزيقاً ، واحتلوا

أراضيهم ، وقتل زعيم الثورة سبع بن منغفاد ، وصلبت جثته ، وأذعنت سائر صنهاجة فى تلك المنطقة ، وتضرعت إلى الصفح والأمان ، فأجيبت إلى ما طلبت. وتم قمع ثورة غمارة فى أوائل شوال سنة ٥٦٢ هـ ( أغسطس سنة ١١٦٧ م ) . واستولى الموحدون على غنائم هائلة من الماشية ودواب الحمل ، وأسروا من الثوار نحو أربعة آلاف. وعاد الخليفة أبو يعقوب فى عساكره المظفرة إلى حضرة مراكش ، وصدرت عن هذا الفتح رسالة مطولة بقلم الكاتب أبى الحسن بن عياش مؤرخة فى الرابع عشر من شوال ، ووجهت إلى سائر الموحدين والأشياخ والطلبة بالمغرب والأندلس[(١)] ، وعين الخليفة أخاه السيد أبا الحسن على والياً على سبتة وسائر منطقة الريف وغمارة .

ومما هو جدير بالذكر أنه لم تمض على إخماد فتنة غمارة بضعة أشهر ، حتى حدثت فتنة جديدة ، وثار بعض البطون البربرية بجبل تاسررت ، وأعلنوا خلع الطاعة ، فسار إليهم السيد أبو حفص أخو الخليفة فى عسكر وافر من الموحدين واشتد فى قتالهم ، حتى مزقهم واستأصل شأفتهم[(٢)] .

— ٣ —

أشرنا فيما تقدم إلى ندب الخليفة أبى يعقوب للحافظ الشيخ أبى عبدالله بن أبى إبراهيم لولاية غرناطة وذلك فى شعبان سنة ٥٦٢ هـ . وكان أول ماعنى به الوالى الجديد، أن يطهر أحواز غرناطة من عدوان المرتزقة النصارى من أحلاف ابن مردنيش، وكانت قوة منهم تحتل حصن « لبه » الواقع فيما بين غرناطة ووادى آش ، وتعيث باستمرار فى تلك المنطقة ، وتبث فيها الخراب والروع ، وتصل أحياناً إلى أسوار غرناطة ، وتهدد أمنها وسلامتها ، فحشد الحافظ أبو عبد الله قواته وسار إلى حصن لبه المذكور ، وهاجمه بشدة ، واقتحمه عنوة ، ومزق حاميته من النصارى ، وقضى بذلك على عيثها وشرها ، وعاد ظافراً إلى غرناطة ، وبعث إلى الخليفة ينبئه بسعيه ، فبعث إليه الخليفة برسالة يعرب فيها عن شكره ورضاه .

على أن أهم حوادث الأندلس التى وقعت فى تلك الفترة ، كان مسرحها

---

( ١ ) ابن صاحب الصلاة فى « المن بالإمامة » لوحة ٨٢ ا و ب ، وكذلك لوحة ٩٦ . والبيان المغرب القسم الثالث ص٦٩ ، و٧٠ و٧١ . وينقل إلينا ابن صاحب الصلاة رسالة الفتح بأكلها وهى تشغل اللوحات من ٨٤ إلى ٩١ .

( ٢ ) ابن صاحب الصلاة لوحة ١١٣ ب .

ولاية الغرب الأندلسيه ، وكان قيام مملكة البرتغال الناشئة ، واشتداد ساعدها فى عهد ملكها ألفونسو هنريكيز ، يمثل الخطر الجديد على قواعد الأندلس الغربية المتاخمة لهذه المملكة الجديدة ، وكان ألفونسو هنريكيز حينما اضطربت شئون الأندلس ، وعمت الفتنة قواعد الغرب ، قد انتهز هذه الفرصة للإغارة على القواعد الإسلامية المجاورة ، وكان يتوق بالأخص إلى الاستيلاء على أشبونة لموقعها الفذ عند مصب نهر التاجُه ، ولحصانتها ، ولكونها كانت معقل المسلمين المنيع فى قلب الأراضى البرتغالية . ولما لم يكن لديه قوى كافية لتنفيذ مشروعه فقد اتجه إلى الاستعانة بالقوات الصليبية المتجهة إلى المشرق من الإنجليز والألمان والفلمنك (الهولنديين) ، واستطاع بالفعل أن يجذب منهم لمعونته طوائف كبيرة . وفى أوائل سنة ١١٤٧م (أواخر ٥٤١هـ) سار فى قواته لمحاصرة أشبونة ، ورابطت القوات الصليبية فى البحر ، فى مدخل الميناء لتحول دون وصول أية إمداد إلى المدينة المحصورة . واستمر الحصار بضعة أشهر ، وكانت أشبونة الإسلامية مدينة منيعة ، تحميها من ناحية البر أسوار منيعة ضخمة ، ولها عدة أبواب عظيمة ، وبابها الغربى هو أعظم أبوابها ، وقد عقدت عليه حنايا فوق حنايا ، على عمد من الرخام ، مثبتة على حجارة من رخام ، ولها باب قبلى يسمى باب البحر ، وباب شرقى يسمى باب الحمة[١] . ووقعت بين المسلمين والنصارى معارك عديدة ، ودافع المسلمون عن ثغرهم أشد دفاع ، ولكن الحصار كان شديداً مرهقاً ، وقد نضبت موارد المدينة المحصورة تباعاً ، وثلمت الأسوار فى عدة مواضع . ثم استعد البرتغاليون للضربة الحاسمة . وخطب فيهم ملكهم ألفونسو ، يحثهم على مضاعفة الجهود فى القتال ، وليقول لهم إن المدينة غنية بالأموال ، التى تمكنهم من متابعة الحرب ، وإنها معقل الأعداء وكنزهم ، ومستودعهم الذى يزخر بالحلى والنفائس ، فعليهم أن يقتحموا هذه الأسوار المثلومة ، وأن يأخذوا المدينة .

وكانت المعركة الأخيرة قصيرة ، ولكن دموية هائلة ، ودافع المسلمون ، بالرغم مما عانوا من أهوال الحصار ، عن مدينتهم ، دفاعاً مريراً . ولكن هذا الدفاع اليائس لم يغن شيئاً ، واقتحم النصارى الأسوار ، ودخلوا المدينة من بابها الشرقى — باب الحمة — وقتل من المسلمين مقتلة عظيمة ، وأسر الأحياء منهم ، وجعلوا رقيقاً ؛ ونهب النصارى المدينة نهباً ذريعاً ، وكان فيها من الأموال والنعم

(١) الروض المعطار — صفة جزيرة الأندلس — ص ١٦

أعظم ما يتصور . وفى الحال حول مسجدها الجامع إلى كنيسة ، وعين لها أسقف هو الأسقف جلبرتو ، وكان استيلاء البرتغاليين على أشبونة فى اليوم الخامس والعشرين ، وقيل فى الحادى والعشرين من أكتوبر سنة ١١٤٧م (جمادى الأولى سنة ٥٤٢ هـ)(١) .

واستولى ألفونسو هنريكيز فى نفس الوقت على مدينة شنترين الواقعة شمال شرقى أشبونة ، ثم استولى على سائر الأراضى الإسلامية المتاخمة لتلك المنطقة ، والتى تكون القسم الغربى من ولاية « استرامادوره » . ولم يكن من الميسور يومئذ على الموحدين ، وقد شغلتهم حوادث الغرب ، واضطرام الفتنة بالأندلس ، أن يبادروا إلى إنجاد هذه القواعد الإسلامية النائية .

واستمر ألفونسو هنريكيز أعواماً يغير على أراضى ولاية الغرب من آن لآخر ، ويترقب الفرص السانحة ، وقد أشرنا من قبل إلى ماكان من محاولة ابن قسى زعيم فتنة المريدين ، أن يحالفه ، وأن يستعين به على مقاومة الموحدين ، وما ترتب على هذه المحاولة من سقوط ابن قسى وهلاكه ( سنة ٥٤٦هـ ) . ولما تفاقم عدوان ملك البرتغال على قواعد الغرب ، عبر ابن وزير صاحب باجة ويابرة البحر إلى المغرب مستغيثاً بالخليفة عبد المؤمن (سنة ٥٤٩ هـ) ، ولكن عبد المؤمن اكتفى عندئذ ببذل وعوده فى الإنجاد والعون .

وفى سنة ٥٥٥ هـ ( ١١٦٠ م ) استولى البرتغاليون بقيادة ألفونسو هنريكيز على الثغر الصغير المنيع المسمى بقصر الفتح أو قصر أبى دانس(٢) ، الواقع على مصب نهر سادو (شطوبر ) على المحيط جنوبى شرقى أشبونة ، بعد أن حاصروه مدى شهرين من البر والبحر ، وكان سقوطه فى ٢٤ يونيه من العام المذكور(٣) .

وفى أواخر سنة ٥٥٧ هـ ( ديسمبر ١١٦٢ ) قبيل وفاة عبد المؤمن بقليل ، قامت حملة قوية من نصارى شنترين بغزو مدينة باجة والاستيلاء عليها ، ولبثوا فيها أربعة أشهر ، ولم يغادروها إلا بعد أن خربوا ربوعها ، وهدموا أسوارها(٤) .

---

(١) Mariana : Historia General de Espana : Lib. Decimo Cap. XIX

(٢) وهو بالبرتغالية Alcacer do Sal

(٣) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٢٣٩ وكذلك H Miranda : Imperio Almohade Vol. .I p. 266

(٤) كتاب « المن بالإمامة » لوحة ١١٨ب .

هذا وسوف نرى فيما بعد أن استيلاء البرتغاليين على باجة قد وقع وفق رواية أخرى بعد ذلك بعشرة أعوام .

ولم يمض قليل على ذلك ، حتى بدأ نصارى البرتغال سلسلة جديدة من الاعتداءات على القواعد والأراضى الإسلامية . وكان منظم هذا العدوان وقائده مغامر يدعى جيرالدو ، وينعت فى التواريخ النصرانية « بالباسل » Geraldo sem Pavor ، وكان هذا المغامر الذى تعرفه الرواية الإسلامية « بالعلج جراندة الجليقى » قاطع طريق أو رئيس عصابة ناهبة ، ألفى مجالا طيباً لنشاطه فى الظروف التى كانت سائدة يومئذ فى بلاد الغرب الأندلسية ، وكان يغير بالأخص على المحلات والأراضى الإسلامية الواقعة فى قطاع بطليوس مابين نهرى التاجُه ووادى يانه ، ويعيث فيها قتلا وتخريباً ونهباً ، وكان يقوم بهذه الغارات والغزوات لحساب نفسه ، وفى أصحابه وعصبته ، على نحو ماكان يفعل السّيد الكنبيطور (الكمبيادور) فى شرقى الأندلس أيام الطوائف . بيد أنه لم يكن يبلغ من حيث شخصيته ، ولا من حيث عصبته أو مكانته ، مبلغ السِّيد ، وإن كان بعض البرتغاليين يعتبره قرين السيد ، ويسميه « بالسيد البرتغالى » . وكان ملك البرتغال ألفونسو هنريكيز يؤازره ، ويعاونه بالمال والرجال ، لما يترتب على نجاح حملاته وغاراته من إضعاف المسلمين ، والتمهيد لمشاريعه الضخمة فى افتتاح قواعدهم . ويصف لنا ابن صاحب الصلاة — وهو الراوية المعاصر — أعمال جيرالدو ومغامراته فى الفقرة الآتية :

«كان أدفونش الرنك الغادر الجليقى ، صاحب قلمرية ، قد عاين من نجدة هذا الكلب جراندة ، وتيقظة لغدر البلاد والحصون ، ما أعانه على ذلك برجاله ، وسلطه على المسلمين فى الثغور بأرجاله ، فكان الكلب يتسلل فى الليالى المطرة الحالكة المظلمة ، الشديدة الريح والثلج ، إلى البلاد ، وقد أعد آلات من السلالم من أطول العيدان ، بعلو سور المدينة التى يؤم ويروم ، فإذا نام السامر المسلم فى برج المدينة ، ألقى تلك السلالم إلى جانب البرج ، ورقى عليها بنفسه أولا إلى البرج ، وينقض على السامر ، ويقول له ، تكلم على ماكانت عادتك ليلا يشعر الناس بنا ، فإذا استوفى طلوع حملته ، ألزمه فى أعلى سور المدينة ، صاحوا بلغاتهم صيحة عظيمة منكرة ، ودخلوا المدينة ، وقتلوا من وجدوه

واستلبوه ، وأخـذوا كل من فيها سبياً وقَتْلاً »[١] .

وكانت أول قاعدة إسلامية غزاها جيرالدو فى ذلك القطاع من ولاية الغرب ، هى مدينة تَرجالُه[٢] الواقعة شمالى ماردة على مقربة من نهر التاجُه ، فدهمها فى شهر جمادى الأولى سنة ٥٦٠ هـ ( مايو سنة ١١٦٥م ) ، ثم انقض على مدينة يابُرة فى شهر ذى القعدة من نفس العام ( سبتمبر ١١٦٥ ) ، وباعها مع ترجالُه إلى النصارى . ثم سار إلى مدينة قاصرش[٣] الواقعة غرب ترجالُه ، واستولى عليها فى صفر سنة ٥٦١ هـ ( ديسمبر ١١٦٥ ) ، وتبعها بالاستيلاء على حصن منتانجش الواقع فى جنوبها الشرقى فى جمادى الآخرة من نفس العام . واستولى أخيراً على حصن شرْبة ، ثم حصن جلمانية[٤] الواقع على مقربة من غربى بطليوس ، واتخذه قاعدة للإغارة عليها ، والتضييق على أهلها . وكانت هذه الغزوات المتوالية التى وقعت بولاية الغرب فى نفس الوقت الذى شغل فيه الموحدون بمقاتلة ابن مردنيش فى شرقى الأندلس ، مقدمة لغزو بطليوس وسقوطها ، وتحريك الموحدين بذلك إلى المبادرة إلى خوض الصراع مع النصارى ، لاسترداد بطليوس ، وحماية ولاية الغرب الأندلسية من السقوط .

وشغل الخليفة أبو يعقوب فى العام التالى — سنة ٥٦٢ هـ — حسبما رأينا بقمع فتنة غمارة . وفى أوائل سنة ٥٦٣ هـ ( ١١٦٧ م ) اتفق رأى الموحدين على تجديد البيعة للخليفة . وليس فى أقوال الرواية ما يوضح سبب هذا الإجراء فى تجديد بيعة سبق عقدها عقب وفاة الخليفة عبد المؤمن ، واستكمالها فى سنة ٥٦٠هـ ، حينما تمت بيعة السيد أبى سعيد والسيد أبى عبد الله لأخيهما الخليفة ، وتسمى أبو يعقوب عقب ذلك بأمير المؤمنين ، اللهم إلا أن يكون ذلك عنواناً لإجماع سائر البلاد والقبائل على الطاعة بعد إخماد ثورة غمارة التى شملت منطقة كبيرة حساسة فى شمالى المغرب ، والتى اقتضى أخمادها أن يسير إليها الخليفة بنفسه . ويزف ابن صاحب الصلاة إلينا هذا الإجراء كعادته فى ألفاظ منمقة ،

---

( ١ ) فى كتاب المن بالإمامة لوحة ١١٨ أ . وراجع أيضاً البيان المغرب القسم الثالث ص ٧٨ ، وكذلك ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٩ .

( ٢ ) هى بالإسبانية « **Trujillo** »

( ٣ ) هى بالإسبانية « **Cáceres** »

( ٤ ) منتانجش بالإسبانية **Montanchez** ، وشربه **Serpa** ، وجلمانيه **Jurumena**

ويقول لنا فى حوادث سنة ٥٦٣ ه ، « فى أول هذه السنة خنع الله القلوب بخلوص الضمائر المؤذنة بالسعود والبشاير ، من الآراء الموفقة ، والنفوس المصفقة بتجديد البيعة ، والتسريح بالإسمية المستحق لسيدنا ، فكمل ذلك بإجماع الموحدين ، أعزهم الله » . ثم يقول لنا ، إن هذا الأمر العزيز ، قد نفذ بكتاب كريم ، أرسل إلى أخى الخليفة السيد أبى إبراهيم إسماعيل والى إشبيلية ، منبئاً له « بما اتفق من اجتماع الرأى السعيد ، والفعل السديد ، الذى اجتمعت عليه آراء الموحدين . . من تجديد البيعة الرضوانية والإسمية الإمامية للإمام أبى يعقوب » . وفى هذا الكتاب يأمر الخليفة بأن يأخذ الناس بما جاء فيه ، وجميع الموحدين بإشبيلية ، وسائر بلاد الأندلس التى تحت نظر الموحدين ، مثل قرطبة وغرناطة ومالقة وغرب الأندلس ، وذلك بعقد البيعة على أوفى شروطها . فوجه السيد أبو إبراهيم نسخة الكتاب إلى زميله الحافظ أبى عبد الله والى غرناطة ، فاحتفل بقراءته من فوق المنابر ، وهرع الناس إلى إعطاء بيعتهم ، وسجلوها فى كتاب أرسل إلى الخليفة . وكتب أهل إشبيلية كذلك بيعتهم ، ووقعوها بخطوطهم ، ووجهها السيد أبو إبراهيم إلى الخليفة . وقد نقل إلينا ابن صاحب الصلاة نص الوثيقتين المذكورتين ، وقد أرخت كلتاهما فى النصف من جمادى الآخرة سنة ثلاث وستين وخمسمائة[1] ، وأرسلت فى نفس الوقت بيعات سائر القواعد الأخرى ، سواء بالمغرب أو الأندلس ، إلى حضرة مراكش .

ولما كملت البيعة الجديدة على هذا النحو تسمى الخليفة أبو يعقوب بأمير المؤمنين ، وساد اليمن والبشر ، وأصدر الخليفة عفوه عن المسجونين ، وأمر برفع البقايا عن العمال الخائفين ، وتأمينهم من المخاوف ، فيما تقيد عليهم فى الدواوين ، وأغدق الصلات والأعطية ، وأمر بأن يجرى « الإنعام والبركات » فى سائر بلاد المغرب والأندلس ، فكثرت النعم ، وعم الرخاء ونمت الجبايات والخراج ، وانتعشت حركة العمران فى العاصمة الموحدية ، وشرع الناس فى إنشاء الدور الفخمة ، والرياض اليانعة ، وكثرت بهذه المناسبة مدائح الشعراء وتهانيهم . فمن ذلك قصيدة نظمها أبو عمر بن حربون شاعر الدولة الموحدية هذا مطلعها :

جاءتك تسحب ذيلها للموعـد    زهراء طالعة بسـعد الأسعد

---

(١) كتاب « المن بالإمامة » ، لوحة ١٠٠ إلى ١٠٤ ا . وقد رأينا أن ننقل نص بيعة إشبيلية فى باب الوثائق ، فلتراجع هنالك .

فاصدع أمير المؤمنين بدعــوة لم تترك صمما لسمع الجـامد
يهنى الخلافة ان لبست رداءها وقعدت منها اليوم أشرف مقعد[1]

وفى أواخر هذا العام — سنة ٥٦٣ هـ ( ١١٦٨ م ) — ندب أبو يعقوب أخاه السيد أبا إسحاق إبراهيم والياً لقرطبة، وكانت بلا وال مذ غادرها واليها السابق السيد أبو سعيد عائداً إلى مراكش نزولا على رغبة أخيه الخليفة ، وذلك فى شهر ذى القعدة سنة ٥٦١ هـ . وعبر السيد أبو إسحاق إلى الاندلس فى عسكر ضخم من الموحدين وسار إلى قرطبة ليتقلد ولايتها . وكان عبوره فاتحة الحركة التى كانت تجتمع أسبابها منذ حين ، لعبور الموحدين إلى شبه الجزيرة ، للاضطلاع بمحاربة النصارى ، وافتتاح عهد جديد من الجهاد ، تؤمَّنُ فيه الأندلس ، ويقمع عدوان المعتدين عليها .

— ٤ —

والواقع أن الموحدين كانت قد انعقدت نيّتهم على الاضطلاع بهذه الخطوة، التى برهنت حوادث الأندلس على ضرورتها ، وذلك سواء فى الشرق أو الغرب . وقد أبلغ الخليفة أمر هذه النية ، وما اتفق عليه رأى الموحدين بشأنها ، إلى الشيخ الحافظ أبى عبد الله والى غرناطة ، فى رسالة خاصة وجهها إليه ، مؤرخة فى الثالث والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٥٦٣ ، وفيها يشير إلى ما تقرر من إرسال السيد أبى إبراهيم فى عسكر من الموحدين والعرب إلى قرطبة ، وأنه سوف يتعاون بعسكره مع إخوانه الذين بإشبيلية ، ويضطلع الجميع بالجهاد وحماية البلاد ، وأن يستمر النظر للحافظ أبى عبد الله فى شئون الآلات والأسلحة التى تحتاج إليها القوات الموحدية[2] .

وحدث فى نفس الوقت الذى وصلت فيه هذه الرسالة إلى غرناطة ، أن أغارت قوة من النصارى المرتزقة من جند ابن مردنيش على وادى شنيل غربى غرناطة ، واندفعت جنوباً حتى وصلت إلى أحواز رُندة ، وعاثت فى تلك المنطقة ، وانتهبت أموالها وماشيتها ، فبادر السيد أبو عبد الله بتجهيز عسكر قوى

---

( ١ ) أوردها ابن صاحب الصلاة فى المن بالإمامة لوحة ١٠٧ أ و ب ، ووردت كذلك فى البيان المغرب ، القسم الثالث ص ٧٤ .

( ٢ ) أورد لنا ابن صاحب الصلاة نص هذه الرسالة فى « المن بالإمامة » لوحة ١١٠ ا و ب و ١١١ ا .

لردها وردعها ، فالتقت بهم حين عودتهم على مقربة من وادى آش ، فحاول النصارى الامتناع بجبل قريب ، ولكن الموحدين دهموهم فى أعلى الجبل ، وقاتلوهم بشدة ، حتى مزقت صفوفهم ، وتساقطوا من حافات الجبل ، وقد فنى معظمهم قتلا وأسرا ، واستاق الموحدون الغنائم والأسلاب ، ومعها ثلاثة وخمسين أسيراً من النصارى ضربت أعناقهم عند وصولهم إلى غرناطة ( مارس سنة ١١٦٨ م) ، وبعث السيد أبو عبد الله ، بنبأ ذلك النصر إلى الخليفة، فرد عليه برسالة يزجى فيها الشكر ، ويحمد الله على توفيقه(١) .

وفى أواخر هذا العام استولى الموحدون على ثغر طبيرة ، الواقع فى جنوبى البرتغال غربى مصب نهر وادى يانه ، وكانت طبيرة من القواعد التى ثارت بالغرب أيام أن اضطربت شئونه ، وذلك فى سنة ٥٤٨ هـ ، وكان الخليفة أبو يوسف، أيام أن كان والياً لإشبيلية ، فى أواخر عهد أبيه الخليفة عبد المؤمن ، قد نازل طبيرة مرتين ، فلم يظفر بفتحها ، وكان صاحب طبيرة ، عندئذ الثائر بها عبدالله ابن عبد الله ، قد تفاقم شره وعدوانه ، وكثر عيثه فى تلك المنطقة ، يعتدى على السكان الآمنين والسابلة ، والتجار ، بعصبته من أهل الشر وقطاع الطريق ، سواء فى البر أو البحر ، فعندئذ عول الموحدون على أخذ طبيرة ، وحسم دائها. فساروا إليها فى حملة قوية ، واحتلوا حصن قسطلة القريب منها ، وحاصروها براً وبحراً ، حتى أذعنت إلى التسليم ، وذلك فى شهر ذى القعدة سنة ٥٦٣ هـ ( سبتمبر سنة ١١٦٨ م )(٢) .

وفى أواخر هذا العام أيضاً وقع حادث ذو مغزى خاص ، هو قدوم الزعيم القشتالى فرناندو ردريجيس صهر فرناندو الثانى ملك ليون وزوج أخته إبنة القيصر ألفونسو ريمونديس ، مع أخويه إلى إشبيلية ، والإعراب عن رغبته لأشياخ الموحدين بها ، فى أن يكون صديقاً وحليفاً لأمير المؤمنين ، ومنابذاً لشيعة النصارى ، فبعث الموحدون برغبته إلى الخليفة ، فأذن له بالقدوم إلى مراكش، فقدم إليها ، واستقبله الخليفة أبو يعقوب بترحاب بالغ ، وأنزله ومن معه خير منزل ، وأقام بالعاصمة الموحدية خمسة أشهر ، معززاً مكرماً ، « حتى كاد أن

---

(١) أورد لنا ابن صاحب الصلاة نص هذه الرسالة فى « المن بالإمامة » لوحة ١١٢ أ و ب .

(٢) ابن صاحب الصلاة فى « المن بالإمامة » لوحة ١١٦ ب ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٧٧ و ٧٨ .

يُسلم » ، وقد عاهد الخليفة أن يكون حليفه وحليف المسلمين المخلص ، لا يشهر عليه عدواناً قط . ثم عاد إلى بلاده وقد أمر الخليفة بأن يشمله الموحدون بأتم الرعاية . ويقدم لنا ابن صاحب الصلاة هذا الزعيم القشتالى باسم « فرناندو راس النصرانى » ويلقبه بصاحب ترجاله ، ويصفه « بالشهير النسب والشهامة عند النصارى »[1] .

وتلا ذلك عقد الصلح والتحالف بين فرناندو الثانى ملك ليون وبين الموحدين. وكانت الخصومة تضطرم بين فرناندو وملك البرتغال ألفونسو هنريكيز ، بالرغم مما كان بينهما من أواصر المصاهرة ، إذ كان فرناندو متزوجاً بالأميرة أوراّكا ابنة ملك البرتغال ، وذلك لأسباب كثيرة ، أهمها أن فرناندو لم يستطع أن يزاول حق السيادة على البرتغال الذى ورثه عن أبيه القيصر ألفونسو ريمونديس . وكان فرناندو مذ فرغ من مشاغله وحروبه فى قشتالة ، يتجه بأطماعه نحو مملكة البرتغال ، وينظر بعين الحسد والتوجس إلى ما كان يحرزه ألفونسو هنريكيز من انتصارات متوالية على المسلمين ، ويخشى بنوع خاص أن تمتد فتوح ملك البرتغال إلى بعض القواعد والأراضى الإسلامية التى يرى فرناندو أنها من خاصة قشتالة وليون . وكان فرناندو قد عمد إلى تحصين مدينة ردريجو ، ( ثيوداد ردريجو)[2] الواقعة على حدود البرتغال ، واتخذها قاعدة للإغارة على أراضى البرتغال القريبة ، وأنشأ فى نفس الوقت عدة قلاع وحصون منيعة على حدود البرتغال . كل ذلك استعداداً لأن يخوض مع ملك البرتغال صراعاً حاسماً. ثم رأى أخيراً أن يقوى جانبه بعقد التحالف مع الموحدين . وتسمى الرواية الإسلامية فرناندو ، « بالببوج »، و« بصاحب السبطاط » وتسميه أحيانا صاحب « السبطاط وآبلة وليون وسمورة » . فأما « البيبوج » أو « الببوج » فهو تحريف للكلمة القشتالية El-Baboso ، ومعناها الكثير اللعاب ، وكذلك الأبله . وهذا ما لم يفت الرواية الإسلامية أن تشير إليه[3] . وأما « صاحب السبطاط » فمعناه « صاحب ثيوداد ردريجو » وقد كانت وقتئذ

---

( ١ ) ابن صاحب الصلاة فى « المن بالإمامة » لوحة ١١٧ ا — والبيان المغرب القسم الثالث ص ٧٨ .

( ٢ ) وهى بالإسبانية **Ciudad Rodrigo** وبالقشتالية القديمة **Cibdad** ومنها حرفت التسمية العربية « سبطاط » .

( ٣ ) راجع المعجب ص ١٨٢ .

مقره وقاعدة تحركاته . وكانت أول ثمرات محالفة فرناندو للموحدين هو أنهم أمدوه بعسكر لمعاونته على قتال الكونت نونيو دى لارا حاكم طليطلة، والمسيطر على ابن أخيه الملك الصبى ألفونسو النبيل ملك قشتالة . وكانت هذه الحملة الموحدية التى حشدت فى إشبيلية بقيادة أبى العلاء بن عزون والحافظ أبو على عمر بن تمصلت ، والحافظ موسى بن حمو . ودخل الموحدون مع قوات فرناندو أراضى قشتالة، وحاربوا معه ضد خصومه ، ثم ساروا معه حتى حدود الأستورياس (أشتريش) ، وأقاموا فى هذه الغزوة خمسة أشهر ، ثم عادوا سالمين ، وقد اغتبط ملك ليون بمؤازرتهم ونجدتهم ، وقطع على نفسه العهد الوثيق ، بأن يبادر إلى القتال مع أمير المؤمنين ضد النصارى ، الذين يعتدون على أراضيه ،وألا يتوانى فى ذلك قط ، وأقسم على ذلك فى بيعة بلده . وقد أوفى بهذا العهد كما سنراه فى حوادث بطليوس أتم وفاء[1] .

---

(١) ابن صاحب الصلاة فى « المن بالإمامة » لوحة ١١٧ و ١١٨ ا ، والبيان المغرب ، القسم الثالث ص ٧٨

# الفصل الثانى

## حوادث الأندلس

## وسقوط مملكة الشرق

اهتمام الموحدين بحوادث الأندلس . عزمهم على استئناف الغزو . رسالة الخليفة أبى يعقوب فى ذلك . خطة ألفونسو هنريكيز ملك البرتغال وجيرالدو سمبافور لافتتاح بطليوس . سقوط المدينة وامتناع الموحدين بالقصبة . تدخل فرناندو ملك ليون لإنجاد الموحدين . بواعث خصومته لملك البرتغال . القتال داخل المدينة بين الفريقين . هزيمة ملك البرتغال وأسره ، ثم إطلاقه . فرناندو يسلم المدينة للموحدين . تدعيم الدفاع عن قرطبة . الشقاق بين ابن مردنيش وابن همشك . توحيد ابن همشك وانضمامه للموحدين . بعث ابن مردنيش قواته لقتاله . تعيين الحافظ أبى يحيى بن الشيخ أبى حفص والياً لبطليوس . مهاجمة جيرالدو سمبافور لبطليوس . القتال بينه وبين الموحدين . هزيمة الموحدين وأسر أكابرهم . استدعاء ولاة قرطبة وإشبيلية وغرناطة إلى الحضرة ثم عودهم . غزو القشتاليين للأندلس . تقاعد الموحدين عن ردهم . بعض الأحداث الطبيعية . غارات جيرالدو على بطليوس . سعى الموحدين لإمدادها . معركة بين الموحدين وجيرالدو . هزيمة الموحدين ومقتل الحافظ أبى يحيى . مرض الخليفة وتأخر حركة الغزو . ترجيح البدء بمحاربة ابن مردنيش والقضاء على حركته . عبور السيد أبى حفص فى القوات الموحدية . مسير السيد أبى سعيد فى قواته لإنجاد بطليوس . مسير ملك ليون إليها لافتتاحها . لقاء السيد والملك النصرانى . تفاهمهما على استبقاء التحالف والصلح . افتتاح السيد أبى سعيد لحصن جلمانية . ابن مردنيش وانحلال قواه . عوامل هذا الانحلال . مصادقة ابن مردنيش للنصارى . خروج قادته ووزرائه عليه . مسير الموحدين بقيادة السيد أبى حفص لقتال ابن مردنيش . استيلاؤهم على قيجاطة . زحفهم على مرسية . دخول لورقة فى طاعتهم ، ثم سقوطها فى أيديهم . دخول ألش والجزيرة ثم بسطة فى طاعتهم . مدافعة ابن مردنيش للموحدين . موقف أخيه يوسف والى بلنسية . محاولة النصارى غزو بلنسية . قيام محمد بن مردنيش ومحمد بن هلال بالمرية ودعوتهما للموحدين . اضطراب ابن مردنيش وتخاذله . وفاته وما قيل حولها . انهيار دولته . ثورة ابن مردنيش وصفتها الأندلسية القومية . شخصية ابن مردنيش ومعايبها . مقدرته وشجاعته . إعلان ولده هلال وقادته الطاعة للموحدين . رواية عن وصية ابن مردنيش بالتسليم . دخول السيد أبى حفص والموحدين مرسية . مسير هلال وأكابر الشرق إلى إشبيلية . مبايعتهم للخليفة أبى يعقوب . زواج الخليفة من ابنة ابن مردنيش . ابن همشك ونهايته .

لم يكن الخليفة أبو يعقوب وأعوانه من أشياخ الموحدين ، بغافلين عن خطورة الحوادث التى وقعت فى غربى الأندلس ، وما اقترن بها من سقوط قواعد إسلامية جديدة فى أيدى النصارى . وكان قد مضى على سقوط أشبونة وشنترين فى يد الملك

ألفونسو هنريكيز نحو عشرين عاماً ، وقد غلب النسيان نوعاً على فقد هاتين القاعدتين الهامتين من قواعد الغرب لموقعهما النائى ، ولكن تقدم البرتغاليين نحو بطليوس وماردة ، بسقوط ترجالُه وقاصرش ويابرة وجلمّانية ، وتهديدهم لسائر الأراضى الواقعة على ضفتى نهر وادى يانه ، زاد من خطورة الموقف ، ونبه الموحدين إلى وجوب البدار إلى إنجاد الأندلس ، والعمل على حمايتها .

وقد حالت الأحداث والفتن التى وقعت بالمغرب ، والتى فصلناها فيما تقدم ، دون تنفيذ هذا العزم حيناً . فلما حلت سنة ٥٦٤ هـ ، هدأت تلك الفتن ، واستتبت السكينة والسلام بالمغرب ، لاح للخليفة ومعاونيه ، أن الفرصة قد أزفت للعمل بالأندلس ، فجهز أبو يعقوب جيشاً من الموحدين وغيرهم تحت إمرة الشيخ أبى حفص عمر بن يحيى كبير أشياخ الموحدين ، وعبر هذا الجيش البحر إلى إشبيلية ، ليكون مقدمة لحركة الجهاد العامة ، التى اعتزم الموحدون القيام بها فى الأندلس . ويبدو مما يقوله لنا ابن صاحب الصلاة ، نقلا عن أبى محمد سيدراى بن وزير ، أن التعجيل بإرسال هذا الجيش ، كان بسبب وصول الخبر بمهاجمة البرتغاليين لبطليوس ، ومحاصرتهم للموحدين الممتنعين بقصبتها ، وقد وقع الهجوم على بطليوس فى شهر رجب سنة ٥٦٤ هـ ( أبريل سنة ١١٦٩ م ) . على أنه يبدو من نص الرسالة التى وجهها الخليفة بهذه المناسبة إلى الموحدين بالأندلس والتى أرخت فى اليوم الحادى والعشرين من ربيع الآخر سنة ٥٦٤ هـ ، ان هذا الجيش الموحدى ، قد جهز وأرسل إلى الأندلس ، قبل حوادث بطليوس بنحو شهرين أو ثلاثة ، ليكون طليعة لحركة الجهاد الكبرى ، وليطمئن أهل الأندلس بوصوله وأنه فوجئ بحوادث بطليوس أثناء وجوده بإشبيلية .

وهذه الرسالة التى وجهها الخليفة أبو يعقوب « إلى الطلبة والموحدين الذين بجزيرة الأندلس » هى من إنشاء كاتبه أبى الحسن بن عياش ، وهى تردد وتؤكد نفس الوعود التى قطعتها الخلافة الموحدية على نفسها غير مرة ، منذ أواخر عهد عبد المؤمن بالعمل على حماية الأندلس وغوثها ونصرتها[1] ، وقد ورد فيما يلى بخصوص هذا الشأن :

« وما زلنا وفقكم الله على أتم العناية بتاكم الجزيرة مهدها الله ، والحرص

---

( ١ ) أشرنا من قبل إلى رسالة بهذا المعنى وجهها الخليفة عبد المؤمن إلى ولده السيد أبى يعقوب أيام أن كان والياً لإشبيلية وذلك فى ربيع الأول سنة ٥٥٥ هـ ( القسم الأول ص ٣٧٩ ) .

على غوثها ، والانتواء لنصرتها ، والعمل على قصد ذلك بالمباشرة ، والمشاهدة ، إشفاقاً على ما استضام منها جبرتها الأعداء ، وأبناؤها الأغفاء ، مجسمين وروما ، وماكادوها به من التكلف والتحيف والتنقص ، وفغر الأفواه ، وكسر الثيوب والأرصاد ، لغيض مافاض فيها من نور التوحيد ، وخفض ما نصب من أعلام هذا الأمر ، والمناصبة للمنحاشين إليه ، المتعلقين بأسبابه ، المستذمين بذمته ، ممن صح ولاؤه ، وصدقت طاعته ، وخلص على السباك ، ونصح على السبر ، ونجعل لها من الفكر حظاً يستحق الصدق على ما سواه من الأفكار ، ويأخذ السبق على غيره من معنيات الأمور » .

ثم تقول الرسالة إيضاحاً لحركة الشيخ أبى حفص ، وتأكيداً لنيات الخليفة فى الاضطلاع بأعباء الجهاد :

« ورأينا فى أثناء ما نحاوله من مروم هذه الغزوة الميممة المباشرة ، أن نقدم بين أيدينا عسكراً مباركاً من الموحدين أعانهم الله ، صحبة الشيخ الأجل أبى حفص أعزه الله ، ليكون تقدمة لحواز جمهور الموحدين ، ومؤذناً بما عزمنا عليه . والله المستعان من التحرك لجملة أهل التوحيد ، والقصد لهذا الغزو الميمون ، الذى جعلناه نصب العين وتجاه الخاطر ، فتتعاونون مع إخوانكم الواصلين على بركة الله إليكم ، على جهاد أعدايكم ، إلى أن يوافيكم إنشاء الله هذا العزم ، ويلم بكم هذا القصد ، ويعتمدكم هذه الحركة المحكمة أسبابها ، المبرمة أمراسها ، التى انعقدت بها النية ، واحتدمت لها فى ذات الله الحمية ، واستعانت بتوفيق الله فى تأصيل أصولها الفكرة الموجهة والمروية ، وإنا لنرجو من المبلغ لآمال القلوب ، المتفضل بإدراك كل مطلوب ، أن يهب فيها من العون ما يتمم مبدأها ، ويكمل منشأها ، وتشفى به صدور أوليائه بالنعمة فى أعدايه ، وإن فضله تعالى ليسمح ببلوغ هذه الأمنية ، والإطلال منها على كل شرف وقنية ، فما ذلك على الله بعزيز »[1].

وفى خلال ذلك كان ألفونسو هنريكيز ملك البرتغال ، قد وضع خطته للاستيلاء على مدينة بطليوس بالتعاون مع جيرالدو « سمبافور » أو « جيرانده الحليقى » حسبما تسميه الرواية الإسلامية . وكان ملك البرتغال قد قام فى سنة ١١٦١ م

(١) أورد لنا ابن صاحب الصلاة نص هذه الرسالة فى « المن بالإمامة » لوحات ١٢٠ — ١٢٢

( ٥٥٦ هـ ) بمحاولة أولى لمهاجمة بطليوس ، انتقاماً لما قام به الموحدون قبل ذلك بأعوام قلائل من غزو أراضيه . ولكنه رد على الأثر . وليس من الواضح ما إذا كانت بطليوس عندئذ ما تزال تحت حكم صاحبها ابن الحجام ، أحد ثوار الغرب الموالين للموحدين ، أم أنها كانت قد خلصت للموحدين ، وهم الذين قاموا بالدفاع عنها . وكان جيرالدو سمبافور قد استولى ، حسبما ذكرنا فيما تقدم ، على حصن جلّمانية الواقع على مقربة من غربى بطليوس ، وحصن منتانجش على مقربة من شمالها الشرقى . ففى شهور رجب سنة ٥٦٤ هـ ( أبريل سنة ١١٦٩م ) ، زحف جيرالدو سمبافور فى جموعه على مدينة بطليوس ، وهاجمها ، ورأى واليها أبوعلى عمر بن تيمصلت أنه لايستطيع بحاميته الضعيفة أن يدفع الهاجمين ، فامتنع بالقصبة ، وبعث بصريخه إلى الموحدين بإشبيلية . وماكاد جيرالدو يستولى على المدينة حتى أقبل ملك البرتغال ألفونسو هنريكيز فى قواته ، ودخل بطليوس ، وحاصر الموحدين فى القصبة ، وحدد لهم مهلة للتسليم . وكانت قصبة بطليوس من أعظم القصبات الأندلسية وأمنعها[1] ، ومن ثم فإن ابن تيمصلت كان على يقين من أنه سوف يستطيع الصمود مع حاميته حتى تصل الأمداد الموحدية من إشبيلية . بيد أن النجدة جاءت لأهل بطليوس ، وللموحدين المحصورين بقصبتها ، من طريق آخر لم يكن فى الحسبان . جاءت على يد ملك ليون فرناندو الثانى .

ويجب لكى نفهم هذا الموقف الذى ترتب عليه اشتباك الملكين النصرانيين ألفونسو هنريكيز ملك البرتغال ، وفرناندو الثانى ملك ليون ، داخل مدينة بطليوس ، وتحت أسوار قصبتها ، أن نرتد قليلا إلى الوراء ، لنلقى بعض الضوء على علائق هذين الملكين المتنافسين ، فى هذه الفترة الدقيقة من حياة الحاضرة الأندلسية التالدة — بطليوس . وقد سبق أن شرحنا بإيجاز سبب الخصومة الرئيسى بينهما ، وهو ما يتمسك به فرناندو الثانى من دعوى السيادة على البرتغال التى ورثها عن أبيه القيصر ألفونسو ريمونديس ، ورفض ملك البرتغال أن يعترف بظل من هذه السيادة ، وما اقترن بذلك من إنشاء فرناندو الثانى لمدينة ردريجو الحصينة على مقربة من حدود البرتغال ، لكى يتخذها قاعدة للإغارة على أراضى

( ١ ) أتيح لى أن أزور مدينة بطليوس وأن أشاهد بقايا قصبتها العظيمة الواقعة فوق الربوة الصخرية المشرفة على نهر وادى يانه ، والتى مازالت تدل على ماكانت عليه هذه القصبة من الضخامة والمنعة .

البرتغال . كل ذلك بالرغم مما كان يربط هذين الملكين من وشائج المصاهرة الوثيقة ، إذ كان ملك ليون متزوجاً من ابنة خصيمه ملك البرتغال . وكان ألفونسو هنريكيز قد بعث ولده سانشو فى جيش ليهاجم مدينة ردريجو ويخربها ، فبادر إليها فرناندو فى قواته ، ورد البرتغاليين عنها ، وهزمهم هزيمة شنيعة ، وأسر عدداً وافراً منهم ، بيد أنه أطلق فى الحال سراحهم سعياً إلى استرضاء ملك البرتغال ، وتهدئة خصومته . ولكن الأمر كان بالعكس ، فقد عول ألفونسو هنريكيز على الانتقام لتلك الهزيمة ، وخرج فى أواخر سنة ١١٦٧ م من شمال البرتغال فى جيش قوى ، وهاجم جليقية من أراضى مملكة ليون واستولى على مدينة توى ، ثم على مدينتى ليما وترونيو وما حولها من الأراضى ، ووضع فيها حاميات برتغالية قوية ، وذلك بحجة أن هذه المدن والأراضى كانت من أملاك أمه الملكة تيريسا ، تلقتها عن أبيها ألفونسو السادس مهراً لزواجها .

وفى العام التالى ، سنة ١١٦٨ م ، وضع ألفونسو هنريكيز خطته لمحاربة المسلمين ، والبدء بغزو مدينة بطليوس ، أهم وأقرب القواعد الإسلامية إليه . ونفذ خطته بالفعل بالتعاون مع جيرالدو سمبافور فى أبريل سنة ١١٦٩م . وكان فرناندو ملك ليون ، يرقب مشاريع ملك البرتغال وحركاته بمنتهى العناية ، ويحرص بالأخص على ألا تمتد فتوحه إلى تلك المنطقة التى كان ملوك قشتالة وليون يعتبرونها منطقة لنشاطهم وفتوحهم . وكان سانشو الثالث ملك قشتالة ، قد عقد مع أخيه فرناندو على أثر موت أبيهما القيصر ألفونسو ريمونديس ، معاهدة لتقسيم أراضى اسبانيا المسلمة ، إلى منطقتى نفوذ ، يختص كل منهما بواحدة منهما ، فيختص ملك ليون بالغزو والفتح فى المنطقة التى تمتد من لبلة حتى أشبونة ومنتانجش وماردة وبطليوس ويابرة وشلب وكذلك نصف مدينة إشبيلية ، وسائر الحصون الواقعة فى تلك المنطقة ، ويختص ملك قشتالة بالغزو والفتح فى سائر ما تبقى من أراضى اسبانيا المسلمة ، ولاسيما المنطقة الواقعة فيما بين الوادى الكبير وغرناطة ، ومن ثم فإنه لما سار ألفونسو هنريكيز إلى غزو بطليوس ، اعتبر فرناندو هذه الحركة اعتداء على حقوقه ومنطقة نفوذه ، وما كاد ملك البرتغال يدخل بطليوس ، حتى كان فرناندو قد سار بقواته فى أثره ، يحاول رده عن القاعدة الإسلامية . فلما اقترب من بطليوس بعث رسوله خفية إلى واليها ابن تيمصلت المحصور بالقصبة ، وإلى أهل المدينة من الأندلسيين ، ينبئهم بمقدم

ملك ليون لإنجادهم ، ويطلب إلى ابن تيمصلت أن يدله على الطريق الذى يمكن أن يسلكه لدخول المدينة . فبعث ابن تيمصلت بعض رجاله إلى مكان خفى من بعض أسوار القصبة ، لم يفطن إليه البرتغاليون ، فلما تحققوا من وصول القوات الليونية ، نقبوا السور فخرج منه الموحدون إلى أقرب أبواب المدينة وفتحوه ، وأدخلوا منه جند ليون ، واجتمع الموحدون وجند ليون على قتال القوات البرتغالية داخل المدينة ، وحمى القتال بين الفريقين ، وأبدى الموحدون وحلفاؤهم الليونيون منتهى الإقدام والبسالة ، فى مقاتلة البرتغاليين ، حتى مزقت صفوفهم. واضطر ملكهم ألفونسو ، هنريكيز إلى الفرار ، ولكنه عندما أراد أن يقتحم باب المدينة وهو فى منتهى السرعة والذعر ، اصطدمت ساقه اليمنى بعمود الباب بشدة أو علقت برتاج الباب على قول آخر ، فسقط من فرسه ، وقد كسرت ساقه ، وأغمى عليه ، فحمله أصحابه وهو فاقد الوعى ، إلى بليدة ، « قاية » الواقعة على مقربة من شمال المدينة فطاردتهم قوات فرناندو ، وأسرت الملك الجريح ، وعدة من أكابر أصحابه . وعامل فرناندو خصمه الملك بمنتهى الكرم والشهامة ، فعهد إلى أطبائه بمعالجته ، ثم أطلق سراحه ، بعد أن تعهد له برد سائر الأماكن التى انتزعها من جليقية والتنازل عن كل دعوى بشأنها . وعاد ألفونسو هنريكيز إلى قلمرية ، وقد فتت الهزيمة فى عضده ، وشلت ساقه ، حتى أنه لم يستطع بعد ذلك اليوم أن يركب فرساً(١) .

أما جيرالدو سمبافور فقد فر على أثر الموقعة ، حسبما يذكر لنا ابن صاحب الصلاة . وفى رواية أخرى أنه أسر مع مليكه ، ثم أطلق فرناندو سراحه بعد أن تعهد بالتنازل عن الأماكن والحصون التى استولى عليها شمالى بطليوس مثل ترجالُه ، وقاصرش ومنتانجش ، وقد استولى الموحدون على قاصرش وحصن شربة فيما بعد .

ووقعت هزيمة البرتغاليين وإخراجهم من بطليوس فى اليوم الثانى والعشرين من شعبان سنة ٥٦٤ هـ ( ٢١ مايو سنة ١١٦٩م ) . وفى الحال سلم فرناندو المدينة إلى واليها ابن تيمصلت ، وأوفى فرناندو فى هذه المناسبة بعهوده للخليفة الموحدى أتم وفاء ، وأبدى للموحدين إخلاصه وعرفانه لسابق عونهم وإنجادهم . واستولى

---

( ١ ) ابن صاحب الصلاة فى « المن بالإمامة » لوحة ١٢٢ب و١٢٣ ا ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٨٠ و ٨١ . وكذلك **M. Lafuente : Hist. General de Espana. T. III. p. 329 & 330.**

الموحدون على سائر ما تركه البرتغاليون وراءهم من العتاد والمتاع والمؤن ، وكانت مقادير وفيرة . وعاد فرناندو فى قواته ظافراً إلى ليون . ووصلت أنباء النصر إلى إشبيلية ، على عجل ، وتلقاها الشيخ أبو حفص عمر ، بينما هو يستعد للسير فى قواته إلى بطليوس لإنجادها . فكتب فى الحال إلى الخليفة أبى يعقوب ، رسالة بالفتح ، فسر الخليفة بذلك أيما سرور ، ورفع إليه الشعراء مدائحهم وتهانيهم . ومنها قصيدة لشاعر الدولة الموحدية أبى عمر بن حربون هذا مطلعها :

بسعدك أضحى الدين جذلان باسما وباسمك أمسى الشرك للشرك هادما

إلا أنها فيما وعدت لآية يدين بها من كان بالله عالما[1]

— ١ —

لما انتهت معركة بطليوس بهزيمة البرتغاليين ، وتوكيد سيادة الموحدين على المدينة ، غادر الشيخ أبو حفص عمر إشبيلية فى قواته وسار إلى قرطبة،لمعاونة واليها السيد أبى إسحاق إبراهيم ، على تقوية جبهتها الدفاعية . وكان يخشى دائماً أن تهددها قوات ابن مردنيش من ناحية الشرق ، عن طريق جيّان قاعدة حليفه وصهره إبراهيم بن هَمُشك ، وتهددها القوات القشتالية من الشمال . بيد أن الخطر من ناحية الشرق تضاءل منذ موقعة فحص الجلاب ، التى هزم فيها ابن مردنيش وحطمت قواته . ومن جهة أخرى فقد وقع الشقاق بين ابن مردنيش وصهره ابن همشك ، وذلك بسبب طلاق ابن مردنيش لزوجته صُبيحة ابنة إبراهيم ، بعد أن بالغ فى إهانتها وإيلامها ، فغادرته إلى كنف أبيها ، وأسلمت إليه ابنها منه ، ومما يروى أنها سُئلت عن ولدها ، وكيف تصبر عنه ، فأجابت « جرو كلب ، جرو سوء ، من كلب سوء لاحاجة لى به » فأرسلت كلمتها فى نساء الأندلس مثلا[2] . وكانت الوحشة قد سادت قبل ذلك بين ابن مردنيش وصهره ، وخشى ابن همشك على نفسه من غدر صهره ، وراعه ماشهده بنفسه من إقدام ابن مردنيش على قتل وزيريه ابنى الجذع وبنائهما فى الحائط ، وغير ذلك من الأعمال المروعة ، فاشتدت بينهما الوحشة ، وانقلبا إلى خصمين لدودين ، والظاهر من أقوال ابن الخطيب أنه قد وقعت بين ابن مردنيش وابن همشك على

---

(١) أورد لنا ابن صاحب الصلاة هذه القصيدة بأكلها فى « المن بالإمامة » وتشغل اللوحات من ١٢٤ إلى ١٢٦ ا .

(٢) ابن الخطيب فى الإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٣١٠ .

أثر ذلك ، معارك ومناوشات هلك فيها جماعة من أنصار الفريقين . وكان ابن همشك يسيطر على قطاع جيّان وبياسة وأبدة ، نائبا عن صهره ابن مردنيش . فلما اضطرم العداء بينهما ، أخذ ابن مردنيش يرهقه بغاراته ، ويؤلب عليه قواده وجنوده ، وابن همشك يقاوم ما استطاع .

على أن ابن هَمُشك لم يلبث أن جنح إلى قرار حاسم ، فكتب إلى الشيخ أبى حفص بقرطبة رسالة يعلن فيها توبته واعتناقه لمذهب التوحيد، ويعرض تمكين الموحدين من بلاده ، وهو ما يصفه ابن صاحب الصلاة « بتوحيد ابن همشك » وفى هذا التعبير ذاته ما يدلى بأن « التوحيد » لم يكن يقتصر على الناحية الدينية ، ولكنه كان يعنى بالأخص الخضوع السياسى لسلطان الدولة الموحدية . ثم شفع ابن همشك رسالته بالسفر إلى قرطبة ، وذلك فى رمضان سنة ٥٦٤ هـ ( يونيه ١١٦٩ م ) ، فاستُقبل من واليها السيد أبى إسحق ومن الشيخ أبى حفص ، وأكابر الموحدين بترحاب ومودة . وأعلن ابن همشك أنه « قد عاهد الله تعالى بالتزام الأمر العزيز المطاع ، والدخول فى حكم التوحيد » . ثم كتب إلى الخليفة أبى يعقوب يسجل توبته ودخوله فى الطاعة ، ويلتمس العفو ، وحسن المثاب . فرد الخليفة بحسن القبول ، وأمر بتقريبه ، وإكرامه ، واتصلت القواعد والأراضى التى كانت بيد ابن همشك بأراضى الموحدين فى أواسط الأندلس . وكان انضمام ابن همشك إلى الموحدين على هذا النحو ، ضربة أصابت ابن مردنيش فى الصميم ، إذ كان ابن همشك ساعده الأيمن ، وكان أقدر قواده وأشدهم وطأة على أعدائه ، ومن ثم فقد عول ابن مردنيش على الانتقام من صهره ونائبه السابق ، ومعاقبته على خيانته ، فدفع سائر قواته المحاورة لأراضية إلى قتاله ، وهاجمت هذه القوات جيان واستمرت فى مقاتلة ابن همشك وإرهاقه مدى عام ، وهو يستصرخ الموحدين لإنجاده . ولكن الموحدين لم يروا أن يتدخلوا فى تلك المعركة ، إذ كانت لديهم خطة أخرى لمقاتلة ابن مردنيش فى عقر بلاده[1] .

وفى أثناء ذلك ورد أمر الخليفة بتعيين الحافظ أبى يحيى بن الشيخ أبى حفص عمر والياً لمدينة بطليوس مكان ابن تيمصلت . وكان أبو يحيى من أنجب الحفاظ وأوفرهم فروسة وعلما . وكان عندئذ مع أبيه بقرطبة . فسار إلى بطليوس فى جملة

---

( ١ ) ابن صاحب الصلاة فى « المن بالإمامة » لوحة ١٢٦ أ و ب ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٨٢ .

كبيرة من الموحدين والجند الأندلسيين ، وتقلد ولايتها وأخذ فى تأمينها وتحصين أطرافها . وقام بحفر بئر كبيرة داخل القصبة تنفيذاً لأمر الخليفة ، يسرى إليها ماء نهر وادى يانه ، وذلك تحوطاً واستعداداً لما قد يقع من حصار أوغيره من الطوارئ ، وعرفت هذه البئر باسم « القيوراجة » . وكانت من خير ماعمل لتأمين القصبة الشهيرة وتحصينها . وكان المغامر البرتغالى جيرالدو سمبافور ما يزال مرابطاً بقواته فى حصن جلمانية القريب من بطليوس ، فانتهز فرصة انشغال الوالى الجديد بأعمال الحفر والتحصينات ، وأخذ يرهق المدينة بغاراته المتوالية ، والحافظ أبو يحيى يبذل جهده فى مدافعته ورده بقواته . وأخيراً نظم جيرالدو حملة قوية ، اشتركت فيها قوة كبيرة من نصارى شنترين ، ورتب من جنده كمائن فى مواضع مستورة ثم هاجم أحواز بطليوس القريبة ، فخرج إلى لقائه الحافظ أبو يحيى فى قواته ، وما كاد الموحدون يحملون عليه ، حتى تظاهر بالهزيمة والفرار ، فتبعه الموحدون حتى وصل إلى مقر الكمائن ، وعندئذ أطبق النصارى على الموحدين ، وقاتلوهم بشدة ، فانهزم الموحدون وأسر النصارى منهم جملة بينهم عدة من الأكابر ، افتدى معظمهم فيما بعد ، وكان ذلك فى أواخر سنة ٥٦٤ هـ ( أواخر ١١٦٨م)(١).

وفى هذه السنة أيضاً — سنة ٥٦٤ هـ — استدعى الخليفة أخويه السيد أبا إبراهيم إسماعيل والى إشبيلية ، والسيد أبا إسحق إبراهيم والى قرطبة ، والشيخ الحافظ أبا عبد الله بن أبى إبراهيم والى غرناطة ، إلى الحضرة فغادروا الأندلس فى أوائل جمادى الأولى من هذا العام ( فبراير ١١٦٩ م ) . والظاهر أن الغرض من هذا الاستدعاء ، كان يدور حول الاستعداد للحملة الكبرى التى يزمع الخليفة تسييرها لمقاتلة ابن مردنيش . وأقام هؤلاء الولاة فى الحضرة حتى أوائل سنة ٥٦٥هـ ثم انصرف السيدان أبو إبراهيم ، وأبو إسحق إلى الأندلس ، وصحبهما أخوهما السيد أبو على الحسن الذى ندب والياً لسبتة ، ومنطقة جبال غمارة ، ليتقلد ولايته . وبقى الحافظ أبو عبد الله بالحضرة حيناً آخر ، وسار السيد أبو إبراهيم إلى إشبيلية والسيد أبو إسحق إلى قرطبة . وكان معهما وال جديد عينه الخليفة ، هو الحافظ أبو يحيى زكريا بن يحيى بن شيبان أحد أبناء أشياخ خمسين ، وقد عين واليا لطبيرة وشنتمرية الغرب ، من أعمال ولاية الغرب الأندلسية ، وكانت هذه المنطقة التى تقع فى جنوب البرتغال ، تضطرم بالفتنة من آن لآخر ، فضبطها الحافظ

(١) ابن صاحب الصلاة لوحة ١٢٨ ا وب و١٢٩ ا ، والبيان المغرب ص ٨٣ .

أبو يحيى بحزم وقوة ، وقمع بذور الفتنة ، واستمر فى حكمها أعواماً طويلة ، وقد ساد بها السلام والأمن .

وكان من أهم الأحداث فى هذه السنة — سنة ٥٦٥ هـ ( ١١٧٠ م ) — إغارة القشتاليين على الأندلس . وكان عدوان القشتاليين على الأراضى الإسلامية قد انقطع حيناً منذ وفاة القيصر ألفونسو ريمونديس ، واضطرام الحرب الأهلية بين الممالك الإسبانية النصرانية ، وانشغال قشتالة بنوع خاص بالصراع بين أسرتى لارا وكاسترو القويتين . فلما انتهى هذا الصراع الذى اشترك فيه فرناندو ملك ليون إلى جانب آل كاسترو ، بانتصار آل لارا وهزيمة آل كاسترو ، بسط آل لارا سيادتهم على طليطلة عاصمة قشتالة ، ووضعوا الملك الصبى ألفونسو الثامن تحت حمايتهم ، وقام بالوصاية عليه كبير الأسرة الكونت نونيو دى لارا ( سنة ١١٦٦م ) . ولم يمض قليل على ذلك ، حتى اعتزم الكونت نونيو — ويسميه ابن صاحب الصلاة ، القمط نونه ، ويصفه « بظئر أدفونش الصغير » — أن يقوم بغزوة للأراضى الإسلامية ، يكون فيها تقوية سلطانه ، وتعزيز هيبته . فخرج فى قواته من طليطلة ، واخترق موسّطة الأندلس ، وسار جنوبا ، وهو يثخن أينما حل ، دون أن تعترضه أية قوة معارضة . ثم عبر الوادى الكبير ، وشنيل ، وانتهى فى غزوته إلى فحص رُندة ، وفحص الجزيرة الخضراء ، أو أنه استطاع بعبارة أخرى ، أن يخترق الأندلس من أقصاها إلى أقصاها دون أن يلقى أية مقاومة على نحو ما فعل ألفونسو المحارب قبل ذلك بنحو نصف قرن . ويقول ابن صاحب الصلاة ، إنه وصل فى سيره إلى البحر ، وقتل المسلمين فى تلك الأراضى ، واستولى على كثير من السبى والغنائم والماشية ، ونحن لانستطيع أن نفسر جمود الموحدين إزاء مثل هذا العدوان الجرىء خصوصاً وقد كانت لديهم فى قرطبة قوات كبيرة بقيادة الشيخ أبى حفص عمر ، اللهم إلا حرصهم على قواتهم ، وادخارها لمحاربة ابن مردنيش[1] .

ويذكر لنا ابن صاحب الصلاة طائفة من الأحداث الطبيعية التى حدثت فى تلك الفترة . منها تغير الهواء بمراكش أوبعبارة أخرى ظهور وباء مرض منه معظم السادات وكثير من الناس ، وذلك فى أواخر سنة ٥٦٤ هـ . ومنها توقف المطر وحدوث الشّرَق بالأندلس حتى شهر ديسمبر سنة ١١٦٩ ، ثم سقوط

( ١ ) ابن صاحب الصلاة فى « المن بالإمامة » لوحة ١٣٠

الأمطار بعد ذلك . وفى شهر جمادى الأولى من سنة ٥٦٥ هـ ، حدثت زلازل عظيمة عند طلوع الشمس وعند زوالها فى عدة من مدن الأندلس ، وتوالت بالأخص فى مدينة أندوجر مدة أيام حتى كادت أن تغوص منها الأرض، ووقعت كذلك بقرطبة وغرناطة وإشبيلية . يقول ابن صاحب الصلاة ، وكان من سكان إشبيلية « فكان الرائى يرى حيطان الديار تضطرب وتميل حتى الأرض ، ثم ترتفع وترجع على حالها بلطف الله تعالى . وتهدمت من ذلك ديار كثيرة فى البلاد المذكورة وصوامع مساجدها »[١] .

وفى شهر رجب سنة ٥٦٥ هـ ( أبريل سنة ١١٧٠ م ) ، كثرت غارات جيرالدو سمبافور على مدينة بطليوس ، واشتد فى إرهاقها ، وقطع المؤن عنها ، حتى شعرت المدينة بالضيق ، فلما علم بذلك الموحدون فى إشبيلية ، قرروا أن يرسلوا إليها مدداً وافراً من المؤن ، فجهزت إليها قافلة من نحو خمسة آلاف دابة تحمل الطعام والسلاح والعلوفات ، وقدم لحراستها الحافظ أبويحيى زكريا بن على فى قوة من الجند الموحدين بإشبيلية ، ولما اقتربت هذه الحملة من مدينةبطليوس ، خرج إليها جيرالدو فى قواته وقوات أهل شنترين ، ونشبت بين الفريقين معركة حامية استمرت عدة ساعات وهزم فيها الموحدون أشنع هزيمة ، وأبيدت صفوفهم ، وسقط قائدهم الحافظ أبويحيى ضمن القتلى ، واستولى النصارى على قافلة المؤن كلها . وكان ذلك فى يوم ٢٦ شعبان سنة ٥٦٥ هـ ( ١٤ مايو سنة ١١٧٠م ) . ووقعت أنباء هذه النكبة لدى الموحدين بإشبيلة وقرطبة أسوأ وقع ، وبعثوا بخبرها إلى الخليفة فى مراكش[٢] .

وكان الخليفة أبو يعقوب يوسف مريضاً فى ذلك الوقت ، وقد بدأ مرضه منذ أوائل سنة ٥٦٥ هـ ، واستمر أكثر من عام . ونحن نذكر أن الخليفة كان منذ أوائل سنة ٥٦٤ هـ يزمع تنظيم حركة الجهاد بالأندلس ، وأنه وجه رسالته بذلك إلى الموحدين بها فى ربيع الآخر من هذا العام ، ويذكر لنا ابن صاحب الصلاة أن الخليفة أمر بهذه المناسبة بضرب الطبول والخروج ، وركب بنفسه فى هيئة الغزو ، وخرج من مراكش ، ونزل بوادى تانسيفت على مقربة منها ، معلناً

---

( ١ ) ابن صاحب الصلاة لوحة ١٣٠ب .

( ٢ ) ابن صاحب الصلاة فى « المن بالإمامة » لوحة ١٣١ ا ، والبيان المغرب القسم الثالث ، ص ٨٤ .

عزمه على الجهاد بالأندلس ، وأقام به ثلاثة أيام ، وانتهى رأى الموحدين عندئذ إلى أن يتقدم الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى بعسكر ضخم من الموحدين . وقد عبر الشيخ البحر إلى الأندلس بعسكره ، ونزل فى إشبيلية فى نفس الوقت الذى كانت قد أنقذت فيه بطليوس من خطر السقوط فى أيدى البرتغاليين ، بمعاونة ملك ليون ، وذلك كله حسبما فصلناه فى موضعه .

ثم جاء مرض الخليفة ، فعاقه عن الاستمرار فى تنفيذ حركة الغزو التى وعد بها الموحدين بالأندلس . بيد أنه استمر بالرغم من مرضه فى استدعاء جموع العرب من إفريقية ، وجموع الموحدين من كافة الأنحاء ، وتزويدهم بالأعطية والكسى . وكان تطور الحوادث فى الأندلس ، يؤذن بضرورة القيام باستعدادات عسكرية عاجلة توجه إلى شبه الجزيرة ، وذلك قبل أن تتم الأهبة لتنفيذ الغزوة الكبيرة التى يزمع الخليفة القيام بها . وكان موطن الصراع يبدو فى ناحيتين ، الأولى فى شرقى الأندلس ، حيث كان ابن همشك منذ دخوله فى طاعة الموحدين ، يتلقى ضربات صهره القديم ابن مردنيش باستمرار ، ويفقد معاقله تباعاً ، ويلح فى طلب النجدة من حلفائه الجدد ، الموحدين ، ويبعث بصريخه المتوالى إلى الخليفة وإلى الشيخ أبى حفص بقرطبة ، وقد أوفد إلى مراكش لهذا الغرض وزيره القدير أبا جعفر الوقشى ، وكان قد جنح مثله إلى طاعة الموحدين . ثم عبر ابن همشك بنفسه البحر إلى العدوة ، وقصد إلى الخليفة بمراكش ( ٥٦٥ ﻫ ) مؤكداً طاعته ومكررا صريخه . وكانت الناحية الثانية من مواطن الصراع ، فى غربى الأندلس ، حيث تطورت الحوادث تطوراً سيئاً ، وغدت مدينة بطليوس مرة أخرى ، عرضة لتهديد النصارى المستمر . وكان يلوح أن حوادث شرقى الأندلس تتطلب تدخلا عاجلا ، يكفل حماية ابن همشك وأراضيه التى غدت جزءاً من أراضى الموحدين ، والقضاء نهائياً على حركة ابن مردنيش والاستيلاء على بلاده ، حتى تخضع الأندلس بذلك من أقصاها إلى أقصاها إلى سلطان التوحيد ، وكان الشيخ أبو حفص يؤيد هذه السياسة ، ويبعث من قرطبة إلى الخليفة بالحث على اتباعها . ومن ثم فقد تقرر أن يسير السيد أبو حفص أخو الخليفة فى جيش ضخم من الموحدين إلى جزيرة الأندلس لغزو ابن مردنيش وحلفائه النصارى ، ومقاتلته فى قلب بلاده ، والاستيلاء على مرسية ، قاعدته ومقر رياسته .

وخرج السيد أبو حفص فى عسكره من حضرة مراكش فى أول شهر

ذى القعدة سنة ٥٦٥ هـ ( أغسطس سنة ١١٧٠ م ) ومعه أخوه السيد عثمان أبو سعيد ، وعدة من الأشياخ والحفاظ الموحدين ، ومن زعماء الأندلس ، أبو محمد سيدراى بن وزير ، وأخوه أبو الحسن على بن وزير ، وعدة من القادة الأندلسيين النازلين بمراكش ، صحبهم لينتفع بخبرتهم ومشورتهم فى تدبير شئون الجزيرة ، وتنظيم الخطط العسكرية بها . فوصل فى قواته إلى إشبيلية فى أوائل سنة ٥٦٦هـ . ووافاه بها من قرطبة الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى ومعه إبراهيم بن همشك . وعقد السيد أبو حفص وصحبه من الأشياخ والزعماء مؤتمرا لبحث شئون الحرب ، تقرر فيه أن يبادر السيد أبو سعيد أولا فى عسكر إلى مدينة بطليوس ، لتقوية جبهتها الدفاعية. فسار إليها فى جيش من الموحدين والعرب ، ومعه من زعماء الأندلس سيدراى ابن وزير ، وأبو العلاء بن عزون ، وقد جاءت هذه الحركة فى الواقع فى الوقت المناسب ، إذ كانت بطليوس فى تلك الآونة بالذات عرضة لخطر غزو جديد .

ذلك أن فرناندو الثانى ملك ليون ، لما رأى نشاط البرتغاليين المتكرر فى مهاجمة بطليوس ، وإلحاح جيرالدو سمبافور فى إرهاقها ، وما حل بقافلة الأمداد الموحدية من هزيمة ساحقة ، خشى أن ينتهى الأمر بسقوط المدينة فى أيدى البرتغاليين . وقد رأينا من قبل حرص ملوك قشتالة وليون على اعتبار بطليوس وما إليها داخلة فى نطاق فتوحاتهم ، وحرصهم على ألا يفوز البرتغاليون بأية فتوح فى هذه المنطقة . ومن ثم فقد خرج فرناندو فى قواته قاصداً إلى بطليوس ليقوم بالاستيلاء عليها ، قبل أن تسقط فى أيدى البرتغاليين ومليكهم ألفونسو هنريكيز ، وفى الوقت الذى وصل فيه إلى سهل الزلاّقة الواقع شمال شرقى بطليوس على مقربة من نهر وادى يانه ، اقترب الموحدون من المدينة ، ولما علم السيد أبو سعيد بالموقف ، أرسل سيدراى بن وزير ، وأبا العلاء بن عزون ، وبعض أشياخ الموحدين إلى المعسكر النصرانى ، ليتعرفوا نيات ملك ليون ، وهل هو باق على صلحه ومحالفته للموحدين أم قد نقض هذا الصلح ، فرحب بهم ملك ليون ، وأجابهم بأنه خرج لحماية بطليوس ، « وإمساكها لأمير المؤمنين » فاقترح الرسل أن يجتمع الملك النصرانى بالسيد أبى سعيد ، لتجديد الصداقة والصلح ، فاستجاب فرناندو لدعوتهم : وسار فى نفر من خاصته إلى مقربة من بطليوس ، والتقى بالسيد أبى سعيد وكلاهما يمتطى صهوة جواده ، وتم بينهما التفاهم وتوكيد أواصر المودة والصلح ، وانصرف ملك ليون على أثر ذلك فى قواته إلى بلاده .

أما السيد أبو سعيد فقد سار فى عسكره توًّا إلى حصن جلمّانية الواقع على مقربة من غربى بطليوس ، والذى اتخذه البرتغاليون بقيادة جيرالدو سمبافور قاعدة للإغارة على المدينة وإرهاقها ، ونازله واستولى عليه عنوة ، ثم هدمه ، وانقشعت بذلك غمته، وكان ذلك فى شهر ربيع الأول سنة ٥٦٦ هـ ( نوفمبر ١١٧٠ م ) . وعلى أثر ذلك عاد السيد أبو سعيد فى صحبه وعسكره المظفر إلى إشبيلية(١) .

— ٢ —

وماكاد السيد أبو سعيد يصل إلى إشبيلية ، حتى عقد السيد أبو حفص مؤتمراً حربياً جديداً حضره السيد أبوسعيد ، والشيخ أبو حفص عمر بن يحيى ، واستقر فيه الرأى على القيام بمحاربة ابن مردنيش ، وتحطيم سلطانه فى شرقى الأندلس.

وكان محمد بن سعد بن مردنيش، قد اضطربت شئونه خلال ذلك ، وأخذت تخبو قواه ، وموارده ، ولاسيما منذ هزيمة فحص الجلاب الساحقة . وكان من أهم العوامل فى انحلال سلطانه الشامخ الذى استمر منذ قيامه فى شرقى الأندلس فى سنة ٥٤٢ هـ ، نحو عشرين عاما يتحدى سلطان الموحدين ، وينتبذ سيادتهم ودعوتهم ، دون هوادة، عاملان يتلخص أولهما فى مصادقة ابن مردنيش للنصارى ، وانخلاعه إليهم ، واعتماده المطلق عليهم . وقد رأينا فيما تقدم كيف كان النصارى المرتزقة ، يؤلفون معظم قوات ابن مردنيش فى أية موقعة يخوضها . والثانى ، فيما نشب من الشقاق بين ابن مردنيش ومعظم وزرائه وقادته .

فأما عن العامل الأول ، وهو مصادقة ابن مردنيش للنصارى ، فقد كان أمراً طبيعياً ، تمليه الظروف المحيطة بابن مردنيش ، وثورته على الموحدين . وقد كانت ثورة ابن مردنيش ، تمليها فضلا عن الأطماع السياسة ، بواعث وطنية، هى التى دفعت سائر القواعد الأندلسية إلى الثورة على المرابطين ، وقد كان الموحدون خلفاء المرابطين فى التغلب على الأندلس ، فكانت ثورة ابن مردنيش على الموحدين ، وكفاحه ضدهم ، امتداداً لنفس الثورة ، ونزولا على نفس البواعث . وكان النصارى حلفاء طبيعيين لابن مردنيش فى هذا الصراع ضد العدو المشترك ، أعنى الموحدين الوافدين على شبه الجزيرة من وراء البحر . ولم يغفل ابن مردنيش عن أهمية هذا العامل ، فى اجتذاب النصارى إلى محالفته ،

(١) ابن صاحب الصلاة لوحات ١٣١ ب و١٣٢ و١٣٣ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٨٥ و٨٦ .

وحشدهم فى صفوفه . وكانت تربط ابن مردنيش فى البداية بسائر أمراء اسبانيا النصرانية ، روابط المودة والصداقة، ولكنه لما توفى رامون برنجير الرابع ملك قطلونية وأراجون ، وخلفه ولده ألفونسو الثانى فى حكم مملكة أراجون المتحدة ، تطورت الأمور ، وساءت العلائق بينه وبين ابن مردنيش لإصراره على مطالبة ابن مردنيش بالجزية التى كان يدفعها لأبيه ، ورفض ابن مردنيش لأدائها . وقد وصل العداء بين الأميرين، إلى حد أن ملك أراجون ، بعث ببعض ضباطه وجنده للاشتراك مع الموحدين ضد ابن مردنيش فى معركة فحص الجلاب[1]. ثم تحسنت العلائق بعد ذلك بينهما حينما تدخل ملك قشتالة ، وتعهد ابن مردنيش بأداء الجزية وتعهد ألفونسو الثانى بألا يساعد الموحدين أعداء ابن سعد بأية صورة . وأما علائق ابن سعد بقشتالة ، فقد كانت على خير ما يرام ، من المودة والصفاء ، وكانت تربط ابن مردنيش بألفونسو الثامن ملك قشتالة صداقة متينة العرى . وكان ابن مردنيش يحتفظ فى بلنسية بحامية كبيرة من الجند القشتاليين ، يعيثون فى المدينة ، وتغص بهم طرقها وأحياؤها ، حتى ضاق بهم أهل المدينة المسلمين ذرعاً ، وغادرها الكثير منهم إلى الضياع والقرى القريبة ، وهم يضطرمون سخطاً على أميرهم المسلم ، الذى مكن أعداءهم النصارى من دورهم وأموالهم ومرافقهم ، وشردهم بذلك عن أوطانهم . وقيل إن ابن مردنيش هو الذى أخرج أهل بلنسية منها ليوسع لحلفائه النصارى[2] . وقد كان لهذه السياسة فى اصطفاء النصارى وما تقتضيه من إرهاق المسلمين بالمغارم والفروض ، وهى السياسة التى سبق أن أشرنا إلى طرف من عناصرها ومظاهرها ، أثرها العميق فى النيل من هيبة ابن مردنيش والسخط عليه ، وتبرم أهل شرقى الأندلس برياسته وتمنيهم زوالها .

وأما العامل الثانى فى تضعضع قوى ابن مردنيش ، فهو خروج قادته ووزرائه عليه . وقد كان انشقاق صهره إبراهيم بن همشك عليه ، وانضمامه للموحدين، بلا ريب أعظم ضربة هزت من رياسته وسلطانه . فقد كان ابن همشك ساعده الأيمن ، وكان أقدر قادته ، وأوسعهم حيلة وأبعدهم صيتاً ، بل كان ابن همشك فى الواقع بالرغم من صفاته المثيرة ، ومن قسوته ، وروعة وسائله ، واستهانته بالدماء ، من أعظم قادة اسبانيا المسلمة فى هذا العصر ، ان لم يكن

---

(١) A. P. Ibars : Valencia Arabe, p. 542

(٢) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٢٣٦

أعظمهم جميعاً . وخرج على ابن مردنيش غير ابن همشك ، عدة من قرابته ووزرائه ، ومن هؤلاء صهره يوسف بن هلال ، وكان فارساً شجاعاً حازماً ، حظى لدى أميره فصاهره ، وندبه لرياسة حصن مطرنيش القريب من بلنسية وما حوله من الأراضى ، ثم فسد ما بينهما ، فثار ابن هلال ، ولحق بمورتله ( مورادال ) وتحالف مع أمير برشلونة على أن يكون تحت حمايته ، فأيده بقوة من الفرسان ، وأخذ يغير على أحواز بلنسية ، وينتزع بعض حصونها . وأوقع الهزيمة بابن مردنيش . ولكن حدث لسوء طالعه أن وقع ذات يوم أسيراً فى يد سرية جردها صهره على مورتلة ، فأخذ إليه ، فأسرع به إلى مورتلة ، وطالبه بإخلائها ، وإلا نزعت عينه ، فأبى ، فأمر ابن مردنيش فأخرجت عينه اليمنى بعود ، ولما تمادى فى رفضه نزعت عينه الأخرى ، ثم أخذ إلى شاطبه ، حيث بقى بها إلى أن توفى(١). وكانت هذه الوسائل المثيرة فى الانتقام من أبرز نزوات ابن مردنيش ، وقد سبق أن أشرنا إلى ما يرويه لنا ابن صاحب الصلاة ، من أنه قتل وزيريه ابنى الجذع وذلك ببنائهما فى الحائط .

كان ابن مردنيش يعانى من هذه الظروف العصيبة والمتاعب المضنية ، حينما وضع الموحدون خطتهم لإنزال ضربتهم الأخيرة به .

فى شهر رجب سنة ٥٦٦ ﻫ ( مارس سنة ١١٧١ م ) خرج السيد أبوحفص وأخوه السيد أبو سعيد ، والشيخ أبو حفص فى جموع الموحدين من إشبيلية ، ومعهم إبراهيم بن همشك ، فلما وصلوا إلى قرطبة ، أقاموا بها أياماً ، يضعون خططهم النهائية . ثم خرجت القوات الموحدية من قرطبة ، وسارت شرقاً قاصدة إلى مرسية ، وكانت أول قاعدة غزوها من قواعد ابن مردنيش مدينة قيجاطة(٢) الواقعة شرقى جيان، بينها وبين لورقة . فاقتحموها بعد مقاومة قصيرة ، وقبض على قائدها الشرقى وأعدم بإشارة ابن همشك ، ثم اخترق الموحدون بعد ذلك بسائط الشرق فى طريقهم إلى مرسية حتى وصلوا إلى فحصها ، فنازلوها لاختبار مقدرتها الدفاعية ، وتغلبوا على حصن الفرج فى ظاهرها ، وقد كان متنزه ابن مردنيش ، ومنزل لهوه وأنسه ، واستباحوا الرياض والبساتين ، وسائر القوى والبسائط الخضراء فى تلك المنطقة ، وابن همشك يقود الموحدين ويدلهم

(١) ابن الخطيب فى أعمال الأعلام ص ٢٦٠ و٢٦٢
(٢) وهى بالإسبانية Quesada

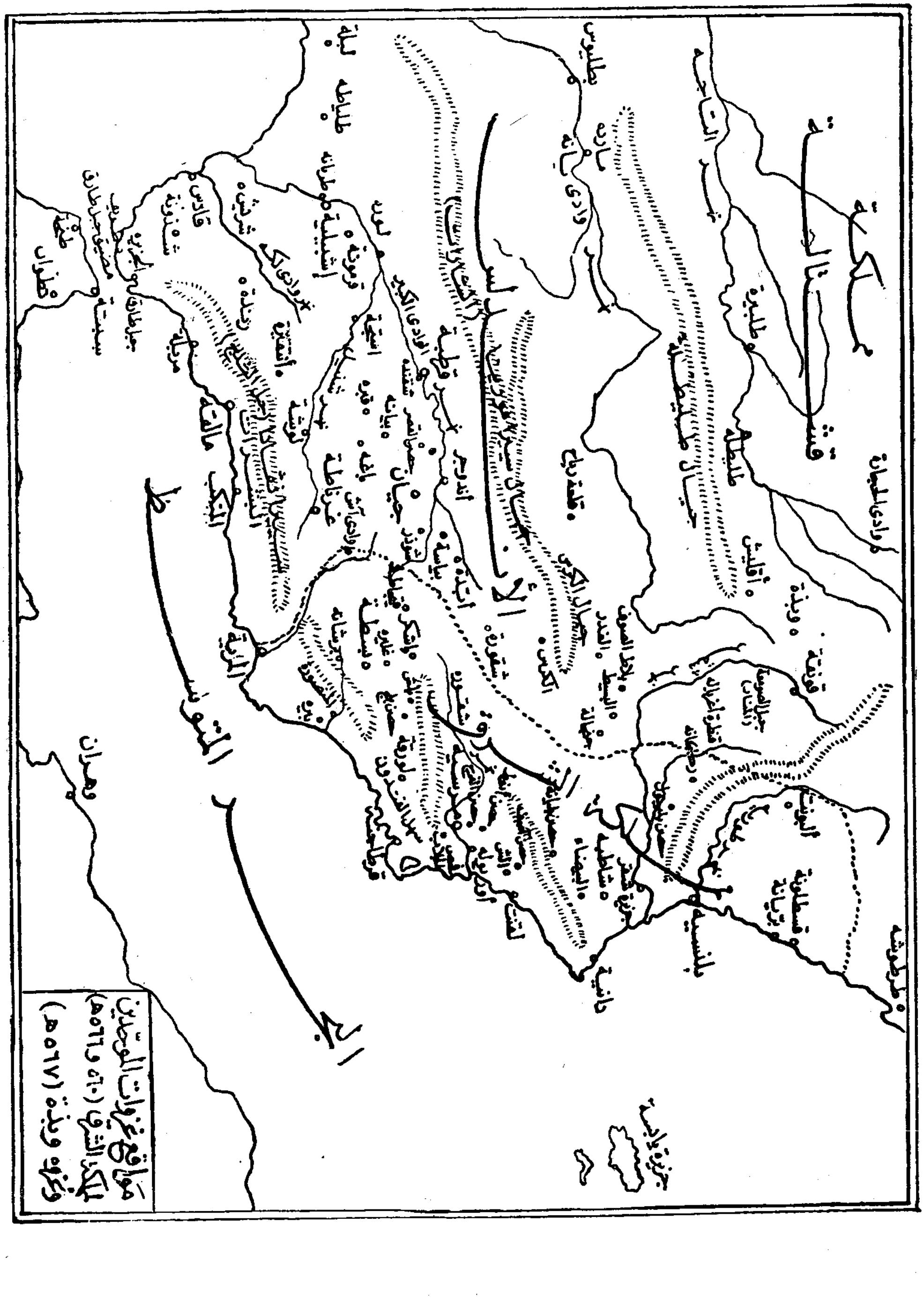

مواقع غزوات الموحدين لمملكة الشرق (٥٦٠ و٥٦٦هـ) وغزوة وبذة (٥٦٧هـ)
مملكة قشتالة
الأندلس
البحر المتوسط
نهر التاجه
جبال طليطلة
طليطلة
طلبيرة
وادى الحجارة
قونقة
وبذة
أقليش
طرطوشه
قسطلونة
بريانة
البونت
بلنسية
جزيرة شقر
شاطبه
البيضاء
دانية
لقنت
الش
أوريوله
مرسية
لورقة
قرطاجنة
بسطة
المرية
المنكب
مالقة
مربلة
غرناطة
جيان
قرطبة
نهر قرطبة
الوادى الكبير
إشبيلية
قرمونة
استجة
لوشة
أنتقيرة
رندة
شريش
قادس
شذونة
جبل طارق
الجزيرة
سبتة
طنجة
تطوان
وهران
بطليوس
مارده
وادى يانه
قلعة رباح
شقورة
أبدة
بياسة
أندوجر
الكرس
جبال الكرس
البسيط
بلاط الصوف
جنجالة
جبال سيرة مورينا
البشرات
جبال البشرات
وادى آش
طلياطه
لبلة
لوره
جزيرة يابسة

على خير الطرق والمسالك . وكان ابن مردنيش خلال ذلك يستجمع قواته الأخيرة ، ويستصرخ حلفاءه النصارى لإمداده ، فلم ياب منهم دعوته سوى أربعمائة فارس ، بعث بهم إلى لورقة ، وهى حصن مرسية الأمامى ، لتأمين الدفاع عن قصبتها ، وقد كانت بقيادة قائده الأثير وموضع ثقته أبى عثمان سعيد ابن عيسى ، فضبطها أبو عثمان ، وحصنها أمنع تحصين . ولكن الأمر طال عليه ، وهو فى عزلته ، وذاع بين الناس ما يعانيه ابن مردنيش من اضطراب الأحوال والقلق ، وشعروا أن عاقبته قد دنت ، فعندئذ ثار أهل لورقة ، ودعوا للموحدين ، وهاجموا النصارى وأنصار ابن مردنيش ، فالتجأ هؤلاء جميعاً إلى القصبة وامتنعوا بها . واتجه أهل لورقة إلى الموحدين فى طلب الإنجاد ، وبعثوا بصريخهم إلى السيد أبى حفص بمحلته بفحص مرسية ، يعلنون دخولهم فى دعوة التوحيد ، ويستنصرون به على عدوهم ، فسار السيد أبو حفص فى بعض قواته صوب لورقة ، ودخلها واحتلها ، وبقيت حاميتها بقيادة أبى عثمان على حالها من الامتناع . وحدث أن خرجت سرية موحدية تجول فى الأنحاء المجاورة ، فوقع فى يدها ولد القائد ، محمد بن أبى عثمان ، فأمر السيد أبو حفص أن يحمل إلى مقربة من القصبة بمرأى من أبيه عسى أن يحمله ذلك على التسليم ، فأبى القائد واستمر فى امتناعه ، حتى كادت الأقوات والماء أن تنفد ، فعندئذ ألح عليه حلفاؤه النصارى فى التسليم ، وتوسط ابن همشك لأبى عثمان فى النزول من القصبة مع جنده بالأمان ، وهكذا سلمت القصبة ، وانصرف القائد أبو عثمان مع صحبه إلى مرسية ، وانصرف الجند النصارى إلى بلادهم ، وتم بذلك فتح لورقة وخلوصها للموحدين .

وعلى أثر ذلك عاد السيد أبوحفص فى قواته إلى مرسية ، ليمضى فى حصارها ، وفى أثناء ذلك أعلن أهل ألشرطاتهم ودخولهم فى دعوة التوحيد ، وتبعهم فى ذلك أهل معظم الحصون المجاورة ، فمنحوا جميعاً الأمان ، ثم جهز السيد أبو حفص حملة من الموحدين والعرب تحت إمرة الشيخ الحافظ أبى عبد الله بن أبى إبراهيم ، سارت إلى مدينة بسطة فافتتحتها ودخلت فى طاعة الموحدين . وأعقبتها الجزيرة — جزيرة شقر — الواقعة على مقربة من جنوبى بلنسية فأعلن أهلها التوحيد بزعامة عميدهم أبى بكر أحمد بن محمد بن سفيان المخزومى ، وطردوا النصارى الذين كانوا بها . وكان أبو بكر زعيما نابهاً من بيت عريق ، وزاهداً محسناً . وأديباً شاعراً ،

فلما رأى اختلال أمر ابن مردنيش وضغط الموحدين على قواعده ، دعا للموحدين وانضم إليه جيرانه ، فندب ابن مردنيش لقتاله، أخاه أبا الحجاج يوسف بن سعد نائبه فى بلنسية ، وبعث أبو الحجاج قوة من الفرسان قامت بمنازلة الجزيرة ، ومحاصرتها والتضييق عليها ، فى منتصف شوال سنة ٥٦٦ ﻫ ، واستمر الحصار زهاء شهرين ، وابن سفيان يقاوم ما استطاع ، وابن سعد يوالى إرسال الجند لتشديد الحصار ، ووصلت رسل الجزيرة إلى السيد أبى حفص بمحلته بمرسية فى طلب الإنجاد ، فوجه معهم قائدهم السابق أبا أيوب بن هلال الشرقى والياً عليهم، وكان قد دخل فى دعوتهم للتوحيد واستطاع أبو أيوب أن يقتحم الجزيرة ، وأن يقوم بضبطها وحمايتها أشهراً ، حتى مرض ابن مردنيش ولحق بمرسية عليلا ، وتنفس مخنق الجزيرة[1] .

وكان ابن مردنيش أثناء ذلك ، والموحدون قبالة مرسية ، يخرج بقواته من آن إلى آخر ، ويشتبك مع المحاصرين فى معارك طاحنة ، وكان أخوه الرئيس أبو الحجاج يوسف بن سعد، يتولى الدفاع عن بلنسية، وأحوازها . وقد اختُلف فى موقف يوسف من أخيه فى هذا المأزق العصيب ، ففى رواية أنه خرج على أخيه ، وفر عنه إلى الموحدين[2] ، ودخل فى دعوتهم قبيل وفاة أخيه بنحو عام . وفى رواية أخرى ، أنه لما رأى تجهم الحوادث دعا فى بلنسية لبنى العباس، وكاتب الخليفة المستنجد بالله ، فكتب له بالعهد والولاية ، ثم بايع للموحدين ( سنة ٥٦٦ ﻫ )[3] . بيد أنه يبدو من جهة أخرى أن هذه الرواية غير صحيحة ، وأن أبا الحجاج يوسف ، استمر يعمل إلى جانب أخيه بإخلاص ، وأنه اختص بالدفاع عن قطاع بلنسية ، بينما تفرغ أخوه محمد ( ابن مردنيش ) لمدافعة الموحدين فى مرسية . والواقع أن هذه الفترة الأخيرة من حياة ابن مردنيش يكتنفها شىء من الغموض ، وفى بعض الروايات القشتالية ، أن ألفونسو الثانى ملك أراجون انتهز فرصة ضغط الموحدين على ابن مردنيش ، وغزا أراضى بلنسية ، المتاخمة لحدود قطلونية ، واستولى منها على عدة مواقع وحصون ، وأنه أرسل حملة برية وبحرية لغزو بلنسية ذاتها ، فتولى الرئيس أبو الحجاج مدافعة

---

(١) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٢٣٧

(٢) أعمال الأعلام ص ٢٧١

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٦

القوات البرية ، وتولى ابن قاسم قائد أسطول ابن مردنيش مدافعة السفن النصرانية فهزمها وأحرق عدداً منها(١) .

وجاءت حوادث ألمرية ضربة أخرى لابن مردنيش . وكان ابن مردنيش قد انتزع ألمرية من الموحدين ، وندب لولايتها قائده ابن مقدم . فلما اجتاح الموحدون منطقة الأندلس الشرقية ، واستولوا على لورقة وبسطة ، واقتربوا من ألمرية ، قام بألمرية ابن عم وصهر لابن مردنيش على أخته ، هو محمد ابن مردنيش المعروف بصاحب البسيط ، وتعاون معه محمد بن هلال أحد القادة الخوارج على ابن مردنيش ، وأعلنا بطاعة الموحدين ، وبعثا إلى السيد أبى حفص فى طلب العون والإنجاد ، فوجه إليهم قوة من الجند الموحدين ، فقبض على الوالى ابن مقدم وأعدم . فلما علم ابن مردنيش بما حدث ، أمر بقتل أخته زوجة ابن عمه وكانت بمرسية ، وقتل ابنته منها ، فقتلا إغراقاً ، فجاء هذا الحادث البشع ، دليلا جديداً على ماكان يتسم به ابن مردنيش من بالغ القسوة ، والاستهتار بسفك الدماء ، لاتعوقه فى ذلك صلة رحم أو أية عاطفة إنسانية . يقول ابن صاحب الصلاة : « واختل ذهن ابن مردنيش فى أثر ذلك ، وقل عونه من الله ومن الناس هنالك ، وعاد صبحه كالليل الحالك ، وفزع من أذلته أهله وقرابته وشيعته وخاصته ، واختلت حياته وحالته »(٢) .

والواقع أن ابن مردنيش بما توالى عليه ، فى تلك الآونة العصيبة ، من الضربات الأليمة ، ومن انشقاق معظم قادته ووزرائه وقرابته ، ومن استيلاء الموحدين على معظم قواعده ، وتشددهم فى حصاره وإرهاقه ، قد بلغ ذروة اليأس والألم . وكانت الضربة الأخيرة والقاضية ، ما بلغه من عبور الخليفة الموحدى أبى يعقوب يوسف نفسه إلى الأندلس فى جموع جرارة من الموحدين والعرب ، ونزوله بإشبيلية ، وذلك فى شوال سنة ٥٦٦ هـ ، فأيقن عندئذ بأنه لم تبق مندوحة عن الهزيمة المطبقة والسقوط النهائى . وكان يستشف خلال يأسه وألمه ، نذر الخاتمة المحتومة المروعة ، بيد أنه لم يهن ولم يفكر فى أن يختم ثورته العتيدة وسلطانه العريض ، الذى استطال زهاء ربع قرن ، بالتسليم المهين ، لمن كان يعتبرهم أعداء قومه وبلاده ، على أنه لم يلبث أن انهارت بنيته المتينة ، وحطمه الغم واليأس . ويبدو

---

(١) A. P. Ibars: Valencia Arabe, p. 532

(٢) ابن صاحب الصلاة فى « المن بالإمامة » لوحة ١٣٦ و١٣٧ .

من أقوال ابن صاحب الصلاة ، أن ابن مردنيش قد انتهى به اليأس إلى نوع من الذهول والخبل ، وزاد من ذهوله ماعمد إليه أخوه الرئيس أبوالحجاج يوسف من المبادرة إلى التوحيد . ثم جاء الموت فأنقذه من المصير المروع الذى كان ينتظره . وكانت وفاته حسبما يقول لنا ابن صاحب الصلاة ، فى العاشر من شهر رجب سنة ٥٦٧ هـ ( ٦ مارس سنة ١١٧٢ م ) فى الثامنة والأربعين من عمره ، وهو تاريخ يحمل طابع الرجحان لأنه قول المؤرخ المعاصر[١].

وفى رواية أن ابن مردنيش لم يمت موتاً طبيعياً ، وأنه انتحر بتناول السم[٢] ، أوأنه توفى مسموماً بيد والدته . ذلك أنه لما اشتد على أهله وكبراء دولته ، وأساء إليهم ، نصحته أمه ، وأغلظت له القول ، فنهرها وخافت بطشه ، لما تعلمه من وحشية طباعه ، فدبرت قتله بالسم[٣] . على أن هذه الرواية ، لاتستند إلى أساس قوى ، فإن ابن صاحب الصلاة وهو المؤرخ المعاصر ، وشاهد العيان ، لم يقل لنا شيئاً عنها . ومن جهة أخرى فإن ابن الأبار ، وهو قريب من العصر ، وقد عاش فى بلنسية فى عهد حفيد يوسف بن مردنيش ، يذكر لنا أن ابن مردنيش ، مرض خلال محاصرته ، لجزيرة شقر ، فغادرها عليلا إلى مرسية[٤] . ويقول لنا المراكشى أيضاً إن ابن مردنيش توفى « حتف أنفه » خلال حصار مرسية[٥].

وهكذا هلك محمد بن سعد بن مردنيش . وكان موته نذيراً بانهيار دولته الشامخة ، التى استطاع بعزمه وجرأته وشجاعته وبراعته ، أن ينشئها فى شرق الأندلس ، ما بين طرطوشة شمالا والمرية جنوباً ، وما بين شاطئ البحر شرقاً وجيان غرباً ، والتى لبثت زهاء ربع قرن تمثل سلطان الأندلس واستقلالها القومى ، وتتحدى سلطان الموحدين وجيوشهم المتدفقة من وراء البحر ، بل لقد لاح مدى حين أن ابن مردنيش يكاد يبسط سلطانه على الأندلس كلها ، وذلك حينما استولى على جيّان وبيّاسة وأبدّة ووادى آش ، واخترق أواسط الأندلس حتى

---

( ١ ) ابن صاحب الصلاة فى المن بالإمامة ( لوحة ١٦٥ ) . ويأخذ ابن الخطيب بهذه الرواية ( الإحاطة ج ٢ ص٩٠ ) . ولكن ابن خلكان يقول لنا إن ابن مردنيش توفى فى التاسع والعشرين من رجب سنة ٥٦٧ ( ٢٧ مارس سنة ١١٧٢ م ) . راجع وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٩٣ .

( ٢ ) M. Gaspar Remiro : Murcia Musulmana p. 228

( ٣ ) ابن خلكان ج ٢ ص ٤٩٣ .

( ٤ ) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٢٣٧

( ٥ ) المعجب ص ١٤٠

إشبيلية ، وحينما اجتاح نائبه ومعاونه ابن همشك وادى قرطبة ، وهدد قرطبة ذاتها ، واستولى على قرمونة ، ثم هزم الموحدين فى مرج الرّقاد واستولى على غرناطة . ولو لم تضع موقعة السبيكة حداً لتقدمه ، لكان سلطان الموحدين فى الأندلس عرضة للانهيار ، ولكللت ثورة ابن مردنيش بالظفر التام . ولقد كان ابن مردنيش فى الواقع يمثل بثورته ضد الموحدين ، كل ماكانت تبطنه الاندلس القديمة من الآلام والآمال القومية ، التى لبثت تجيش بها منذ استولى المرابطون على قواعدها ، وفرضوا سيادتهم عليها . ولم تغير سيادة الموحدين بعد المرابطين لشبه الجزيرة الأندلسية شيئاً من هذا الاتجاه القومى ، فقد كان الموحدون كالمرابطين بالنسبة للأندلس ، أجانب ، وكانوا مثلهم من القبائل البربرية ، التى لم تستطع منذ مثولها القوى فى شئون الأندلس منذ أيام الحاجب المنصور ، أن تحرز من الأمة الأندلسية كثيراً من العطف والتقدير . ولم تكن فكرة الجهاد التى كان يحمل لواءها المرابطون ثم الموحدون ، وماكانت الجيوش المرابطية ، ثم الموحدية ، تبذله فى سبيل حماية الأندلس ، ومحاربة اسبانيا النصرانية ، لتقضى تمام القضاء على الفكرة القومية الأندلسية ، وإن كانت تلطف من آن لآخر من جذوتها واضطرامها . على أن ابن مردنيش لم يكن بالرغم من حصافته وجرأته وشجاعته ، هو الشخصية المثلى لحمل لواء القومية الأندلسية ، فقد كانت ثورته على الموحدين ، تفقد كثيراً من قيمها المعنوية ، بما كان يجنح إليه من الإفراط فى مصادقة النصارى ، والاستعانة بهم فى حروبه ، وتمكينهم من قواعده، وتشبهه بهم فى زيه ، وفى حياته الخاصة والعامة . وإلى جانب ذلك كان ابن مردنيش يتسم بطائفة من الخلال الذميمة ، فقد كان مسرفاً فى الشراب ، واتخاذ الجوارى ، حتى « كان يراقد منهم جملة تحت لحاف واحد » ، منهمكاً فى حب القيان والزمر والرقص[1] ، ثم كان بعد ذلك طاغية ظلوماً ، بالغ القسوة ، مسرفاً فى الانتقام ، مستهتراً بالدماء ، وكان عماله على شاكلته من الظلم والجور[2] .

وتضع الرواية الإسلامية ابن مردنيش فى سلك ثوار الأندلس ، وتنوه بذكائه وشجاعته ، وقد وصفه بعضهم بأنه « كان بعيد الغور ، قوى الساعد ، أصيل الرأى ، شديد العزم ، بعيد العفو ، مؤثراً الانتقام ، مرهوب العقوبة » .

---

(١) ابن الخطيب فى الإحاطة ( المطبوع ) ج ٢ ص ٨٦ ، وفى أعمال الأعلام ص ٢٦٠ و ٢٦١ .

(٢) الإحاطة ج ٢ ص ٨٧ و ٨٨ .

وبا لرغم من أن ابن صاحب الصلاة يقدمه لنا فى كتابه « المن بالإمامة » فى صور قاتمة، ويصف أصحابه دائماً بالأشقياء، فإنه فى كتابه « ثورة المريدين» الذى يفصل فيه سير الأندلس ، يصف ابن مردنيش بقوله « كانت له فروسية وشجاعة وشهامة ورياسة »[1] .

أما ما حدث عقب وفاة ابن مردنيش ، فتختلف الرواية فى تصويره . ويبدو من أقوال ابن صاحب الصلاة ، أنه على أثر وفاته ، بادر قراده وأشياخه ، بإعلان الطاعة للموحدين ، وأقنعوا ولده أبا القمر هلالا بذلك ، فصدع برأيهم ، وبادر إلى إعلان توحيده ، وطاعته ، وسار إلى إشبيلية ، ليؤكد ذلك لأمير المؤمنين أبى يعقوب . وقد سبق أن أشرنا إلى ما يذكره ابن صاحب الصلاة من أن أبا الحجاج يوسف أخا ابن مردنيش ، قد أعلن توحيده ، قبيل وفاة أخيه[2] .

ويذكر لنا عبد الواحد المراكشى ، أنه لما توفى ابن مردنيش ، خلال الحصار ، كتمت وفاته حتى قدم أخوه الرئيس أبوالحجاج يوسف من بلنسية ، وتباحث مع أكبر أبناء أخيه ، واتفق رأى الجميع على أن يدينوا بالطاعة لأمير المؤمنين أبى يعقوب ، وأن يسلموا إليه البلاد . ويقرن ذلك برواية أخرى خلاصتها أن محمدا بن سعد حين شعربدنو أجله جمع بنيه ، وكان له من الولد الذكور ثمانية ، هم هلال أبو القمروهو أكبرهم ، وإليه أوصى ، وغانم ، والزبير ، وعزيز ، ونصير ، وبدر ، وأرقم ، وعسكر ، وقال لهم أنى أرى أمر هؤلاء القوم ، من الموحدين ، فى صعود ، وقد كثر أتباعهم ، ودخلت معظم البلاد فى طاعتهم ، وأنه يظن أنه لاطاقة لهم بمقاومتهم ، وأنه لذلك يحسن التسليم لهم طوعاً واختيارا فيحظوا بذلك عندهم ، قبل أن ينزل بهم ما أنزل بغيرهم من أهل البلاد التى دخلوها عنوة ، على أن عبد الواحد لايجزم بصحة أى الروايتين[3] .

وعلى أى حال فإنه يبدو من المقطوع به ، أنه على أثر وفاة ابن مردنيش ، بادر ولده أبو القمر هلال ، بإعلان إذعانه وطاعته لأمير المؤمنين أبى يعقوب ، وبالتخلى له عن مدينة مرسية قاعدة الإمارة . فوجه الخليفة أخاه السيد أبا حفص إلى مرسية ليتقبل طاعته وليتسلم المدينة ، فسار إليها فى عسكر منازل من الموحدين

(١) الإحاطة ج ٢ ص ٨٦ .
(٢) كتاب « المن بالإمامة » لوحة ١٦٥ .
(٣) المعجب ص ١٤٠ .

فبادر أهلها بالخروج إليه ، ثم دخل المدينة وآنس أهلها ، ووعظهم وحثهم على طاعة الخليفة ، ووعدهم بالخير ورفع المظالم عنهم . ثم سار هلال بنفسه إلى إشبيلية فى مستهل شهر رمضان ( ٥٦٧ هـ ) ومعه أكابر دولة الشرق وقادتها وأعيانها ، فاستقبله وصحبه خارج إشبيلية ، أخو الخليفة أبو زكريا يحى صاحب بجاية ، وأبو إبراهيم إسماعيل وعلية أشياخ الموحدين ، ثم استقبلهم الخليفة بالقصبة العتيقة أجمل استقبال ، وقدم هلال وصحبه بيعتهم للخليفة بحضور السادة الإخوة وأشياخ الموحدين . ثم أنزلوا بقصر ابن عباد والدور المتصلة به ، وقد غمرهم الخليفة بوافر عطفه وإكرامه . وفى اليوم التالى قدم قادة الشرق وأجناده ، وفى مقدمتهم شيخهم أبو عثمان سعيد بن عيسى ، بيعتهم وطاعتهم ، وأبدوا رغبتهم إلى الخليفة أن يقوم بغزو من جاورهم من بلاد النصارى ، وعينوا مدينة وبذة بالذات هدفاً لهذا الغزو ، نظراً لضعف تحصيناتها وأسوارها ، فوعد الخليفة بتحقيق هذه الرغبة[1].

وينقل إلينا ابن الخطيب بهذه المناسبة رواية خلاصتها أن الأمير محمدا بن سعد ، لما أدركه اليأس ، وأيقن بتصيير ملكه إلى الموحدين ، أشهد على نفسه بإقامة الخليفة يوسف بن عبد المؤمن — عدوه — وصياً على ولده وأهله ، ورغب إليه قبول هذه الوصية ، فلما نقل ذلك إلى الخليفة رق لهذا القصد ، وتأثر بهذه الوسيلة ، وتزوج زائدة ابنة ابن مردنيش وحفيدة ابن همشك. وكانت شقراء زرقاء العينين ، رائعة الجمال ، وتم زفافها إليه فى ربيع الأول سنة ٥٧٠ هـ ، فحظيت لديه ، وغدت أحب نسائه إليه ، وأكثرهن نفوذاً لديه « حتى كان الناس على قول ابن الخطيب يضربون المثل بحب الخليفة للزرقاء « المردنيشية » . وتزوج أختها صفية فيما بعد ولده ، وولى عهده الأمير أبو يوسف يعقوب[2] ، وأغدق الخليفة عطفه على آل مردنيش ، واستبقى لهم سلطانهم بشرق الأندلس ، فعين أبا الحجاج يوسف بن سعد والياً لبلنسية وجهاتها ، وعين غانم بن محمد ابن مردنيش قائدا لأساطيل العدوة بسبتة ، واستبقى هلالا لديه ، فعاش فى كنفه ، أثيراً ، رفيع الرتبة[3].

---

( ١ ) ابن صاحب الصلاة فى المن بالإمامة لوحة ١٦٥ ب و ١٦٦ أ .

( ٢ ) المراكشى فى المعجب ص ١٤٠ .

( ٣ ) أعمال الأعلام ص ٢٧١

وأما إبراهيم بن همشك ، وهو الذى كان خروجه على صهره وحليفه ابن مردنيش ، نذيراً بانهيار مملكة الشرق ، فقد لبث مستقراً على ما كان عليه فى جيّان وأراضيها ، وأقره الخليفة على ولايته ، وذلك حتى أوائل سنة ٥٧١هـ ، (١١٧٥ م) ، ثم طلب إليه الخليفة أن ينصرف إلى العدوة ، فعبر إليها بأهله وولده ، وأسكن مدينة مكناسة وأقطع بها إقطاعات يعيش منها ، ولم يمض قليل على ذلك حتى أصيب بفالج غريب ، شديد الأعراض ، لم يلبث أن حمله إلى القبر ، بعد أن قاسى أهوالا من آلامه المروعة[1].

---

(١) الإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٣١١ .

# الفصل الثالث

## حركة الجهاد بالأندلس

### والإخفاق فى غزوة وبذة

مرض الخليفة أبي يعقوب يوسف . عنايته باستدعاء العرب وحشدهم لمؤازرته . قصيدة ابن طفيل فى حثهم على الجهاد . قصيدة ابن عياش فى ذلك . استجابة العرب للنداء . مسير بعض طوائفهم إلى مراكش . شفاء الخليفة وجلوسه لاستقبال الوفود . خروج الخليفة وجيشه لاستقبال حشود العرب . المباريات الرياضية بين الفريقين . مبايعة العرب للخليفة . مآدب الطعام . تمييز عسكر العرب والتوسعة فى أجورهم . تمييز الموحدين . توزيع الخيل والسلاح على الفريقين . الإنعام والبركة . خروج الخليفة فى قواته من مراكش . وصف الموكب الخلافى . رباط الفتح . اتخاذها مركزاً لتجمع الجيوش الموحدية . تجديد منشآتها . تمييز جديد للجيش . استئناف السير إلى قصر مصمودة . العبور إلى الأندلس . المسير إلى إشبيلية ثم قرطبة . جلوس الخليفة للسلام والتهنئة . مسير الخليفة إلى إشبيلية . عزل ابن المعلم ومحاسبته . إنشاء قنطرة طريانة . إمداد بطليوس بالمؤن . إنشاء قصور البحيرة . إنشاء البستان . إجراء الماء إلى المدينة . إنشاء الجامع الأعظم . وصف ابن صاحب الصلاة لمراحل بناء الجامع وصنع منبره . تطور طراز المنشآت الموحدية . اقتراح أكابر الشرق غزو مدينة وبذة. موافقة الخليفة . خروجه فى قواته من إشبيلية إلى قرطبة . مسيره صوب القصر فأندوجر . استيلاؤه على حصن بلج . تسليم حصن الكرس . المسير إلى وادى شقر . مسير السيد أبي سعيد فى جيش إلى وبذة. معركة بين الموحدين والنصارى . وصول الخليفة فى قواته إلى وبذة . هجوم الجيش الموحدى على وبذة . التفافه بالمدينة . انسحاب القشتاليين إلى الداخل وامتناعهم بالقصبة . فشل الهجوم الموحدى . محاصرة الموحدين للمدينة . عصف الرياح والأمطار . مقدم جنود الشرق . استئناف الموحدين للهجوم . فشلهم للمرة الثانية . حث الشيخ أبي محمد للناس على الجهاد . محاولة الموحدين إقناع القشتاليين بالتسليم . فشل هذا المسعى . قرار الخليفة بالرحيل .مهاجمة القشتاليين للجيش المنسحب . ارتداد الموحدين نحو قونقة . عطاء الخليفة لأهل قونقة . مسير الموحدين صوب نهر شقر . ظهور طلائع القشتاليين . إحجام الموحدين عن القتال . استئناف السير نحو أراضى بلنسية . الوصول إلى ركانة . اختلال الجيش وقلة الأقوات . تسريح جنود الشرق . الوصول إلى بلنسية ثم شاطبة فأوريولة فرسية . نظر الخليفة فى شئون مرسية . المسير إلى إشبيلية . نزول آل مردنيش بها . تكوين قوة من أهل الثغور للغزو . تأملات عن فشل الموحدين فى حملة وبذة . عجز القيادة الموحدية . تفكك الجيش الموحدى . تقلب العرب وتخاذلهم . حوادث الغرب . الأحوال فى مدينة باجة . تربص النصارى بها . مسير ألفونسو هنريكيز وجيرالدو لافتتاحها . مداهمة النصارى لها واستيلاؤهم عليها . تخريبهم لها ثم مغادرتها . عدم اكتراث الموحدين بسقوطها . اشتغال الخليفة فى إشبيلية بإتمام الجامع والقصور . غزو القومس الأحدب لأحواز قرطبة . مسير الموحدين لرد النصارى . إدراكهم عند قلعة رباح . القتال بين الفريقين . هزيمة القشتاليين ومصرع

القومس . الاحتفال بالنصر فى إشبيلية . غزو الموحدين لأراضى قشتالة . وصولهم إلى طلبيرة وتخريب بسائطها . سعى النصارى إلى عقد المهادنة . عقد الهدنة بين الموحدين وبين صاحب طليطلة وملك قشتالة وملك البرتغال . دخول جيرالدو سمبافور وجنده فى خدمة الخليفة . بقية أخباره ومصرعه . تعمير قواعد المغرب . تعمير مدينة باجة . نكث فرناندو ملك ليون وغزوه لأراضى الأندلس . مسير الموحدين إلى مدينة ردريجو . زواج الخليفة بابنة أمير الشرق محمد بن سعد . نكبة الخليفة لابن عيسى . تعيينه لأخيه أبى على والياً لإشبيلية وأخيه أبى الحسن والياً لقرطبة . مغادرة الخليفة لإشبيلية وعبوره إلى المغرب .

نرجع الآن قليلا إلى الوراء ، لنتبع مراحل الغزوة الأندلسية التى وعد بها الخليفة أبو يعقوب يوسف من بدايتها . وقد سبق أن أشرنا إلى مضمون الرسالة التى بعث بها الخليفة إلى الموحدين بالأندلس فى شهر ربيع الآخر سنة ٥٦٤ هـ ، يؤكد فيها حرصه على إغاثة الأندلس والعمل على نصرتها ، ونياته فى استئناف الجهاد ، وإلى ما قام به من إرسال جيش موحدى إلى الأندلس ، تحت إمرة الشيخ أبى حفص عمر ، ليكون تقدمه لهذا الجهاد . بيد أنه لم تأت أوائل سنة ٥٦٥ هـ ، حتى مرض الخليفة ، واستطال مرضه زهاء أربعة عشر شهراً ، حتى ربيع الأول سنة ٥٦٦ هـ . وكان يتولى علاج الخليفة خلال تلك النازلة الخطيرة ، طبيباه ، أبو مروان بن قاسم وأبو بكر بن طفيل[1] . وهذه أول مرة تقدم إلينا الرواية الموحدية فيها ، الفيلسوف والطبيب الكبير ابن طفيل ، باعتباره طبيب الخليفة الموحدى ، وكان يتولى الاتصال به وزيره أبو العلاء إدريس بن جامع ، يعرض عليه المخاطبات الواردة فى مسائل الوفود ، وأخبار الشئون المطمئنة ، وتحجب عنه الأمور المكدرة ، والقاضى أبو محمد عبد الله المالقى إذ كان يثق بعلمه وأمانته وحسن نصحه وتدبيره ، وبعض الثقاة من أشياخ الموحدين . وكان أهم ما عنى به الخليفة أثناء مرضه . هو العمل على استدعاء العرب من إفريقية وترغيبهم للمشاركة فى الجهاد . وقد سبق أن أشرنا إلى طوائف أولئك العرب الذين كانوا يحتلون بعض مناطق إفريقية ( تونس ) الجنوبية ، وهم من بنى هلال ، وسُليم ، وزغبة ، ورياح ، والأثبج ، وإلى أسباب نزوحهم إلى إفريقية ، وما كان من موقفهم من الخليفة عبد المؤمن ، وما قام به عبد المؤمن من محاولة استمالتهم إلى المشاركة فى الجهاد بالأندلس . وقد لبثت السياسة الموحدية من ذلك الحين تعمل على استمالتهم وحشدهم فى صفوف الجيوش الموحدية ، وذلك بالرغم مما جبلوا

---

( ١ ) ابن صاحب الصلاة فى « المن بالإمامة » لوحة ١٣٨ ب .

عليه من التقلب وعدم الولاء . ومن ثم فقد حذا الخليفة أبو يعقوب فى ذلك حذو أبيه ، وبذل بالرغم من مرضه جهوداً خاصة ، فى استمالة أولئك العرب إلى موازرته فيما ينتويه من الجهاد ، والقيام بالغزوة العظمى فى جزيرة الأندلس ، وكان مما أشار به الخليفة يومئذ ، وهو يعلم ما للشعر البليغ فى نفس العربى من عميق الأثر ، أن توجه إلى العرب قصيدة حماسية ، يشاد فيها برفيع أصولهم وأرومتهم ، وكونهم هم السيف الماضى فى نصرة الدين ، وقمع المارقين والكافرين . فنظم طبيبه الفيلسوف ابن طفيل ، تحقيقاً لتلك الغاية ، قصيدة طويلة تفيض بلاغة ، وروعة ، وتدل على ما كان للفيلسوف فى نفس الوقت ، من منزلة عالية فى النظم ، تضعه فى صف أكابر الشعراء . وإليك بعض ما جاء فى تلك القصيدة الرائعة التى أوردها لنا بتمامها ابن صاحب الصلاة :

أقيموا صدور الخيل نحو المضارب ... لغزو الأعادى واقتناء الرغائب
وأذكوا المذاكى العاديات على العدا ... فقد عرضت للحرب جرد السلاهب
فلا تقتنى الآمال إلا من القنى ... ولا تكتب العليا بغير الكتائب
ولا يبلغ الغايات إلا مصمم ... على الهول ركّابٌ ظهور المصائب

ومنها فى استمالة العرب والإشادة بهم :

ألا فابعثوها همة عربية ... تحف بأطراف القنى والقواضب
أفرسان قيس من بنى هلال بن عامر ... وما جمعت من طاعن ومضارب
لكم قبة للمجد شدوا عمادها ... بطاعة أمر الله من كل جانب
وقوموا لنصر الدين قومة ثائر ... وفيئوا إلى التحقيق فيئة راغب
دعوناكم نبغى خلاص جميعكم ... دعاء بريئاً من جميع الشوائب
نريد لكم ما نبغى لنفوسنا ... ونؤثركم زلفى بأعلى المراتب
لكم نصر الإسلام بدءاً فنصره ... عليكم وهذا عوده جد واجب
فقوموا بما قامت به أوائلكم ... ولا تغفلوا أحياء تلك المناقب
وقد جعل الله النبى وآله ... ومهديّه منكم بلا عيب عائب
ومن ذا الذى يسمع ليبلغ شأوكم ... إذا كنتم فوق النجوم الشواقب

ومنها فى الختام :

وما الحزم إلا طاعة الله إنها ... هى الحَرَم المنّاع من كل طالب

نعدّكم السيف الذى ليس ينثنى إذا ما نبا سيف بِرَاحة ضارب
ونجعلكم صدر القناة إذا غدت تأطّرُ ما بين الحشى والترائب
وليس خطيب الصدق من قال فانبرى ولكن فعل الحرّ أصدق خاطب
وما خلق الأعْراب خلافَ موعد ولكن صدق الوعد خلق الأعاربَ
سنعلم من أوفى ومن خان عهده ومن كان من آت إلينا وذاهب(١)

وأمر الخليفة أن تتبع قصيدة ابن طفيل بشعر آخر يوجه إلى العرب، استعجالا لهم واستنهاضاً لهممهم، فوجهت إليهم قصيدة ثانية من نظم ابن عيّاش هذا مطلعها:

أقيموا إلى العلياء عوج الرواحل وقودوا إلى الهيجاء جرد الصواهل
وقوموا لنصر الدين قومة ثائر وشدوا على الأعداء شدة صايل
فما العز إلا ظهر أجرد سابح يفوت الصبى فى شده المتواصل
وأبيض مأثور كأن فرنده على الماء منسوج وليس بسائل
وأسروا بنى قيس إلى نيل غاية من المجد تجنى عند برد الأصائل
تعالوا فقد شُدت إلى الغزو نية عواقبها مقصورة على الأوائل(٢)

وقد كان لهذه المخاطبة الشعرية أثرها فيما يروى ابن صاحب الصلاة، فى نفوس العرب فى إفريقية، ولاسيما فى منطقتى الزاب والقيروان، فاجتمع زعماؤهم، وحزموا أمرهم على المبادرة إلى الاستجابة لنداء الخليفة. وكان شيخ بنى رباح وزعيمهم جبارة بن كامل بن أبى العيش، وهو الذى كان قد فر أيام عبد المؤمن من إفريقية، فيمن فر من أشياخ العرب، حين دهمتهم القوات الموحدية فى جنوبى القيروان، قد عاد من المشرق فى هذه الآونة بالذات بعد أن تجول فى ربوعه حيناً، ورأى أن يقتدى بزملائه فى الاستجابة إلى «الأمر العزيز». فجمع قومه، وسار إلى بجاية، وقصد إلى أميرها السيد أبى زكريا يحيى أخى الخليفة، فأكرم وفادته، ولحق به بقية الزعماء والأشياخ، وتحرك الجميع فى صحبة السيد

---

(١) أورد لنا ابن صاحب الصلاة تلك القصيدة فى «المن بالإمامة» لوحات ١٣٩ ا و ب، و ١٤٠ ا، وهى تحتوى على أربعين بيتاً، ونقل ابن عذارى معظمها فى البيان المغرب القسم الثالث ص ٨٨ و ٨٩. ونشرت فى العدد الأول من مجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد (سنة ١٩٥٣).

(٢) أوردها ابن صاحب الصلاة فى المن بالإمامة لوحة ١٤٠ ب. وورد قسم منها فى المعجب ص ١٢٥.

أبى زكريا إلى حضرة مراكش ، ومعهم أموالهم وجملة كبيرة من عتاق الخيل ، ولما وصلوا إلى تلمسان سار معهم واليها السيد أبو عمران موسى أخو الخليفة بمن عنده من العمال والأموال والخيل . وكان الخليفة أبو يعقوب قد شفى عندئذ من مرضه الطويل، فلما بلغته أنباء مقدم العرب ، واقترابهم من الحضرة ، سر بذلك أيما سرور ، وخرج إلى المسجد الجامع يوم الجمعة السادس عشر من ربيع الأول سنة ٥٦٦ هـ ، فى جو يسوده الحبور والبشر ، وبعد ذلك بيومين جلس الخليفة لاستقبال أشياخ الموحدين وطلبة الحضر ، والأجناد والخاصة من أهل الوفود والقضاة ، وخطب فى هذا الحفل الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن عمر ، والقاضى أبو يوسف ، والفقيه أبو محمد المالقى ، وأمر الخليفة بإخراج الصدقات للضعفاء والمساكين والوافدين الغرباء ، ثم صدر الأمر بأن يكون وصول العرب الوافدين ، ومن معهم إلى حضرة مراكش فى ضحى يوم السبت الثانى من شهر ربيع الآخر سنة ٥٦٦ هـ .

وكانت الأوامر قد صدرت أثناء ذلك إلى جميع الجند الموحدين بالحضرة بالاستعداد واستكمال الزى والهيئة ، وفرقت عليهم بهذه المناسبة الدروع ، والبيضات والرماح والأسلحة والكسى والأعلام . وفى صبيحة يوم السبت المذكور بكر الحفاظ والطلبة من الموحدين وسائر الجند إلى باب السدّة ، وانتظمت صفوفهم جُملا جملا ، تتقدمهم الطبول العديدة . ولما كمل ترتيب الموكب ، برز الخليفة أبو يعقوب ممتطياً صهوة فرسه الأشقر ، وإلى جانبه وزيره أبو العلا إدريس ابن جامع ، سائراً على قدميه لصق ركابه ، وهو يراجعه فيما يعن من الأمور ، وفى ساقة الخليفة ، يسير سائر الإخوة الصغار والبنين ، ومن ورائهم حملة البنود ، وأكابر الموحدين يحمل كل منهم علما ، وعليه درع سابغة لامعه تسطع تحت أشعة الشمس ، وتتبعهم سائر الأجناد من الحشم والروم والعبيد . وتقرر أن يكون اللقاء فى الفحص الشاسع القريب من المدينة ، فلما وصل الموكب إلى الفحص المذكور ، والطبول تقرع بشدة ، والجيوش تبدو فى أكمل هيئة ، ضربت قبة الخليفة ، ونزل فيها مع إخوته وبنيه . وأقبلت عساكر العرب وأهل إفريقية ، ومعهم السيدان أبو زكريا يحيى ، وأبو عمران موسى أخوا الخليفة . ولما التقى الموكبان على هذا النحو ، أمر الخليفة أن يحمل الفريقان من العسكر كل على الآخر حملة مبارزة ورياضة ولعب ، ففعلا ، وتجاولا وتصاولا حتى العصر ، والطبول

تقرع ، وقد أبدع كل منهما فى حركاته ومناوراته . ثم تقدم أخوا الخليفة وأشياخ الموحدين وأشياخ العرب وجميع الوافدين للسلام على الخليفة ، وانصرف الخليفة بعد ذلك فى عسكر الموحدين إلى المدينة ، وضرب العرب محلتهم فى الفحص . وفى اليوم التالى ، الثالث من ربيع الأول ، أمر الخليفة بدخول أشياخ العرب والوفود لمبايعته ، وأخذ العهد عليهم ، فأدخلوا واستغرقت بيعتهم أسبوعاً حتى العاشر من ربيع الأول .

وفى يوم الجمعة الثانى والعشرين من ربيع الأول ، خرج الخليفة عقب الصلاة إلى البحيرة ( البستان ) خارج الحضرة ، ومدت المآدب العظيمة لإطعام العرب والوافدين . ويصف لنا ابن صاحب الصلاة ، وقد كان من شهود هذه الحفلات كلها ، هيئة الإطعام ، فيقول إن كل طائفة من ثلاثة آلاف رجل كان يقدم لها الطعام ، وكلما انتهت طائفة من الأكل ، سارت إلى موضع الخليفة وسلمت ودعا لها . واستمر حفل الإطعام أياما ، وقد أربى ما كان يقدم فيه على ما تقدم من الإنعام المماثل . ولم يعكر صفو هذا الحفل سوى مشادة حدثت بين صبيان الموحدين وأتباع العرب ، وقعت خلالها بعض الاعتداءات على النفس والمال ، وبادر العرب بالاعتذار وطلب العفو من الخليفة لما وقع من أتباعهم ، فصفح الخليفة عنهم ، وأمر بالاستمرار فى إطعامهم وإكرامهم[1] .

وكانت آخر خطوة فى هذه الأحداث المتعاقبة ، إجراء التميز لعسكر العرب والموحدين ، ففى اليوم الثامن من جمادى الأولى أمر الخليفة بتمييز العرب الوافدين ومن وصل معهم ، وأن يحضروا بين يديه فى رحبة قصره بدار الحجر ، ورتب دخولهم كل يوم بعدد معلوم من مختلف القبائل ، فاستمر تميزهم خمسة عشر يوماً ، والخليفة جالس فى مجلسه مع أشياخ الموحدين وأشياخ طلبة الحضر وأشياخ العرب ، يحرض العرب والناس على الجهاد ، ويحث على التفانى فيه . ولما انتهى التميز ، دعا الخليفة أشياخهم وكبراءهم ، وأحضرت زمامات التميز الأول ، أيام الخليفة عبد المؤمن ، فوجدت فى التميز الجديد زيادة كبيرة فى الأجور . وكان قصد الخليفة من التوسعة على العرب ، أن يمتنعوا عن عاداتهم الذميمة فى الاعتداء على الأموال وخطف العمائم والثياب والسروج وغيرها ،

---

( ١ ) يقدم إلينا ابن صاحب الصلاة وصفاً ضافياً لهذه الاستقبالات والحفلات فى « المن بالإمامة » لوحات ١٤٦ ب إلى ١٤٩ ب .

وأن يستميلهم إلى طاعته ومؤازرته ؛ ثم بدئ بتمييز الموحدين من غرة جمادى الآخرة واستمر تمييزهم أيضاً خمسة عشر يوماً ، وفق منازلهم وقبائلهم ، ووزعت على أثر ذلك على الموحدين والعرب الخيل وعُدد الحرب من الرماح والدروع والبيض والسيوف وغيرها . واختتم التمييز بما يسمى فى المراسيم الموحدية « بالإنعام بالبركة » وتوزيع الأعطية . وأقيم لذلك حفل ضخم جلس فيه الخليفة فى مجلسه ، ومن حوله أشياخ الموحدين وأشياخ العرب ، وأحضرت الأموال بين يديه ، أكواماً من الذهب والفضة ، من دنانير ودراهم ، وقُدم الموحدون فى تنفيذ البركة ، فأصاب الفارس الكامل منهم عشرة دنانير ، وغير الكامل ثمانية ، والراجل الكامل خمسة دنانير وغير الكامل ثلاثة . وحصل العرب على منح مضاعفة ، فأصاب الفارس الكامل منهم خمسة وعشرين ديناراً ، وغير الكامل خمسة عشر ، والراجل سبعة دنانير ، ومُنح أشياخ العرب خمسون ديناراً لكل منهم ، ومنح كل رئيس قبيلة مائتا دينار ، ووزعت على الجميع الكسى من القباطى والنفاير والعمائم ، وزودوا بالسيوف المحلاة والدروع السابغات والبيض والقنا ، وأمر لهم بثلاثة آلاف فرس وزعت على مختلف القبائل ، وحصل الموحدون كذلك على جملة كبيرة من الخيل قسمت عليهم بحسب قبائلهم ومنازلهم . وكان يوماً مشهوداً ، سادت فيه الغبطة والحماسة بين الأشياخ والجند ، وارتفعت قواهم المعنوية ، وأخذوا يتطلعون إلى الغزو المنشود فى عزم وثقة[1] .

— ١ —

وهكذا تمت أهبة الخليفة أبى يعقوب يوسف للغزوة الأندلسية التى اعتزمها ، والتى عاقه المرض حيناً عن إتمامها ، وعلى هذا النمط الذى أفاض فى وصفه ، ابن صاحب الصلاة ، ولخصناه فيما تقدم ، كانت تُحشد الجيوش الموحدية ، ويجرى استعداد الخليفة الموحدى للغزو . وفى اليوم الرابع من شهر رجب سنة ٥٦٦ هـ الموافق ١٣ مارس سنة ١١٧١م غادر أبو يعقوب حضرة مراكش فى حشوده من الموحدين العرب ، وكان خروجه من باب دُكّاله ، وقد هرعت الجموع الغفيرة لرؤيته ، فسار وأمامه العلم الأبيض ، ومن ورائه حملة الطبول ، وقد قدم أمامه مصحف عثمان محمولا على جمل مرتفع ، وعليه قبة صغيرة حمراء ، وقد وضع فى تابوته الفخم المرصّع بنفائس الجوهر والياقوت والزمرد ، وأمام مصحف

(١) ابن صاحب الصلاة فى « المن بالإمامة » لوحة ١٥٠ ب و ١٥١ أ و ب .

عثمان ، مصحف الإمام المهدى ، وكان يسير إلى جانب حملة الأعلام والطبول ، الوزير أبو العلاء إدريس بن جامع ، ومعه الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن عمر صاحب المهدى ، وأبو محمد عبد الله المالقى شيخ طلبة الحضر ، وقاضى الجماعة أبو موسى عيسى بن عمران، وعدة آخرون من أشياخ الموحدين . ونزل الخليفة فى وادى تانسيفت على قيد ثلاثة أميال من مراكش ، وهو أول منازل الرحلة، وعساكره محدقة به من كل صوب . ثم غادره فى اليوم التالى إلى جسر الخطابة إلى توبين ، ثم إلى تودجين . واستمر فى سيره على هذا النحو حتى وصل إلى وادى أم الربيع ، وهو فى كل مرحلة ينزل فى الدار التى أعدت لنزوله ، وجاز العسكر الوادى تباعاً فوق القنطرة التى عملت لذلك ، وقد خصص يوم لجواز كل قبيلة . ثم استأنف السير حتى وصل إلى مقربة من المهدية، وهى التى سُميت عندئذ برباط الفتح . وكان موضع هذه المدينة التى غدت فى عصرنا عاصمة المغرب ، سهلا براحا به مرافق لأهل سلا ، وبعض أعيان إشبيلية ، فاشتراه الخليفة عبد المؤمن من أصحابه . ولما وفد فى قواته على سلا فى سنة ٥٤٥ هـ ، لاستطلاع أحوال جزيرة الأندلس واستدعاء شيوخها وطلبتها من الموحدين ، أمر حسبما تقدم ، بأن ينشأ فى ذلك الموضع قصبة حصينة على اللسان الممتد فى البحر أمام سلا ، وبأن ينشأ سرب لجريان الماء من عين عبولة ، القريبة إلى محلته التى أنشأها ، فتم ذلك فى بضعة أشهر ، وجرى الماء ليستقى منه الناس والدواب وتروى الأرض ، وغرست الجنات والرياض ، وأذن الخليفة للناس بالسكنى وإنشاء الديار والأسواق . وهكذا قامت مدينة رباط الفتح . وكانت الرّباط ، منذ عهد عبد المؤمن مركز تجمع الجيوش الموحدية الغازية سواء إلى إفريقية أو الأندلس . ولما تم فتح إفريقية غدت بالأخص مجاز الجيوش المسيرة إلى الأندلس .

ولما وصل الخليفة أبو يعقوب إلى مقربة من الرّباط نزل فى فحصها مع الوزراء والأشياخ والكبراء ، وأمر بأن تُغرس فى أركان تابوت مصحف عثمان الأربعة ، أربع رايات ، رفعت على أربع رماح صغار ، فى أعلى كل منها تفاحة من الذهب يسطع بريقها الوهاج ، وللرايات ألوان أربعة ، الخلدى والأحمر ، والأصفر والأبيض . ثم اقتعد الخليفة غارب فرسه الأشقر ، وسار على النظام الذى سبق وصفه ، ومن ورائه حشود الموحدين والعرب وقد ملأت البسائط .

فلما أشرف على الرباط ، أمر بتقديم الطبول والرايات أمامه مع المصحفين تعظيما لشأنهما ، وتبعه الوزراء والأشياخ والكتاب والطلبة ، حتى وصل إلى باب المدينة ، فرد وجهه للناس واستقبلهم ودعا لهم ، وأمرهم بالنزول فى السهل الشاسع ، ونزل بالدار المعدة لنزوله ، وكان وصول الخليفة إلى رباط الفتح فى اليوم العشرين من شهر رجب سنة ٥٦٦ هـ ، وبذا استغرقت رحلته إليها من مراكش ، سبعة عشر يوما(١) .

وأمر الخليفة على أثر وصوله أن تجدد السقاية التى أنشأها والده عبد المؤمن ، وكانت قد خربت ، وأسن ماؤها ، فجددت وأعيدت إلى حالتها الأولى ، وأنشئ إلى جانبها صهريج عظيم يمدها بالماء المتجمع فيه ، وكذلك أمر بأن ينشأ جسر جديد فيما بين الرباط وسلا على نهر أبى رقراق ، إلى جانب الجسر الذى كان قد أنشأه أبوه ، ثم خرب بفعل الزمن ، فأقيم جسر عظيم فوق القوارب ، وغطى بالحجر والجيار الثابت . وأمر أخيراً بالبدء فى بناء أسوار المدينة من جهتى الجنوب والغرب ، وهى الأسوار التى أكملت فيما بعد فى عهد ولده الخليفة يعقوب المنصور . وفى اليوم الثامن من نزوله أمر بتحرك العساكر ، وأن يقام لهم تمييز جديد ، وأشرف على تمييز العرب السيد أبو زكريا أخو الخليفة ، وأبو محمد عبد الله المالقى لمعرفته بهم وبأنسابهم . ثم وزعت الكسى على الأشياخ من كل قبيل ، وعلى طلبة الحضر ، والعرب ، وخص كثير منهم بأخبية وخيل عتاق ، وكذلك وزعت الصدقات على الضعفاء والمساكين ، وقضيت حوائج الناس ، ثم اتخذت الأهبات الأخيرة لاستئناف السير .

وفى عشية يوم الجمعة التاسع من شهر شعبان سنة ٥٦٦ هـ ، صدرت الأوامر بالحركة ، وعبرت الجند البحر إلى سلا فوق الجسر الجديد . وفى صباح اليوم التالى تقدم الشيخ أبو سعيد يخلف بن الحسين بالموحدين حتى تم جوازهم ، ثم تلاه السيد أبو زكريا بالعرب ، واستغرق جواز العسكر خمسة أيام ، وفى الخامس عشر من شعبان غادر الخليفة رباط الفتح ، ومعه وزيره ابن جامع ، والأشياخ والحفاظ والطلبة والعبيد ، بنفس النظام الذى تقدم وصفه ، ونزل بالموضع المعروف بالحمام على مقربة من وادى سبو تجاه ثغر المعمورة ، وتلاحق سائر العسكر إلى الوادى ، فاجتمع من عسكر الموحدين عشرة آلاف فارس ، واجتمع كذلك

(١) ابن صاحب الصلاة فى « المن بالإمامة » لوحة ١٥٢ ا إلى ١٥٤ ب .

من العرب عشرة آلاف فارس ، وهذا غير المتطوعة والمجاهدين ، فإذا ذكرنا أن الشيخ أبا حفص بن يحيي ، كان قد تقدم الخليفة بجيش كبير إلى شبه الجزيرة فى أوائل سنة ٥٦٤ هـ ، وأن السيد أبا حفص أخا الخليفة ، تلاه فى جيش كبير آخر عبر إلى شبه الجزيرة فى أوائل سنة ٥٦٦ هـ ، وهو الجيش الذى اضطلع بمحاربة ابن مردنيش والقضاء على مملكة الشرق ، أدركنا ضخامة الجيوش الموحدية التى أعدت للغزو بالأندلس .

ووصل الخليفة فى قواته الجرارة إلى قصر مصمودة غربى ثغر سبتة[1] ، وبدأ عبور الجند إلى شبه الجزيرة ، عن طريق ثغر طريف ، فى مستهل رمضان من سنة ٥٦٦ هـ ( ٨ مايو سنة ١١٧١ م ) واستمر عبورها أكثر من أسبوعين ، وفى اليوم السابع والعشرين من رمضان عبر الخليفة فى خاصته ، واستقبله فى طريف زعماء الأندلس وأكابرها من سائر القواعد ، ثم تحرك إلى إشبيلية ، ودخلها فى يوم الجمعة الثانى عشر من شهر شوال ( ١٨ يونيه ) واستقبله الأشياخ والناس استقبالا حافلا ، فاستراح بها عشرة أيام ، ثم سار إلى قرطبة فى الثانى والعشرين من شوال ، فوصل إليها فى غرة ذى القعدة ( ٥ يوليه ) . ونزلت القوات الموحدية فى داخل قرطبة وفى خارجها على ضفتى الوادى ، مدة إقامة الخليفة بها ، وقد استطالت إلى آخر ذى الحجة سنة ٥٦٦ هـ . وفى يوم عيد الأضحى ، خرج الخليفة للصلاة وألقيت الخطبة المعتادة ، واحتفل بالنحر ، ثم استقبل الأشياخ الموحدين وأبناء الجماعة ، وانصرف إلى دار الإمارة . وفى اليوم التالى جلس بالقصر ، مجلس السلام والتهنئة ، وأقبل أشياخ الموحدين وأبناء الجماعة ، وطلبة الحضر ، والفقهاء والقضاة والكتاب ، وأهل الوفود ، وأعيان قرطبة ، أقبلوا جميعاً للسلام ، وأنشد الشعراء كالعادة مدائحهم وتهانيهم ، وكان فى مقدمتهم أبو بكر بن المُنخّل ، وقد أنشد بين يدى الخليفة قصيدة طويلة أوردها لنا ابن صاحب الصلاة ، ومما جاء فيها :

شرُف الخلافة أن ملكتَ زمامها ... يحمى جوانبها فكنتَ حسامها

---

( ١ ) قال الإدريسى فى وصف قصر مصمودة « إنه يقع غرب سبتة على قيد ١٢ ميلا ، وهو حصن كبير على ضفة البحر تنشأ به المراكب والحراريق التى يسافر فيها إلى بلاد الأندلس . وهى على رأس المجاز الأقرب إلى ديار الأندلس » ( وصف المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ص ١٦٨ ) .

طبع الإله لها حساما صارما　　وغدوت من عقد الإمام إمامها
ورأت عداة الله أن حمامهـــا　　من قيس عيلان فكنت حمامها
فعلى رماحك أن تشق صدورها　　وعلى سيوفك أن تفلّق هامها[1]

وفى خلال إقامة الخليفة بقرطبة سُيرت حملة موحدية بقيادة عبدالله بن أبى حفص ابن تفريجن وبعض أشياخ الموحدين نحو أراضى قشتالة ، وكان القصد من تسييرها أن تقوم بغارة انتقامية لما ارتكبه القشتاليون بقيادة الكونت نونيو دى لارا من العيث والتقتيل فى أراضى المسلمين ، قبل ذلك بنحو عامين ، فسار الموحدون شمالا ، وعبروا نهر التاجُه ، وعاثوا فى منطقة كبيرة من أراضى قشتالة ، وعادوا إلى قرطبة مثقلين بالسبى والغنائم ، ونحن نذكر أن الجيوش الموحدية ، كانت قبل ذلك ببضعة أشهر ، قد سارت بقيادة السيد أبى حفص أخى الخليفة لحصار مرسية ومقاتلة ابن مردنيش فى عقر أراضيه ، والقضاء على سلطانه فى شرقى الأندلس ، وذلك حسبما فصلناه من قبل فى موضعه ، وكانت الأنباء تتوالى على الخليفة ، وهو بقرطبة ، بما أنزله الموحدون بابن مردنيش من الضربات والهزائم ، وما استولوا عليه من بلاده ، وبما يؤذن بإحرازهم النصر النهائى فى تلك المعركة الحاسمة .

— ٢ —

غادر الخليفة أبو يعقوب يوسف قرطبة ، بعد أن أقام بها شهرين ، فى آخر شهر ذى الحجة سنة ٥٦٦ هـ ، قاصداً إلى إشبيلية ، فوصل إليها فى الثانى من محرم سنة ٥٦٧ هـ ( ٥ سبتمبر ١١٧١م ) ، ويقول لنا ابن صاحب الصلاة ، وقد كان شاهد عيان لكل ما تقدم من تنقلات الخليفة ، إن الخليفة لم يحتل من دور إشبيلية سوى ستين داراً ، وأنه اشترى بها مائة دار من ماله الخاص لتكون منزلا للوافدين إليه ، وذلك رفقاً منه بأهل المدينة[2] ، وكانت إشبيلية قد غدت عندئذ قاعدة الحكومة الموحدية بالأندلس ، وذلك بعد أن ترددت هذه الحكومة حيناً بين قرطبة وغرناطة وإشبيلية . وكانت إشبيلية بموقعها على مقربة من البحر وعلى مقربة من العدوة ، أصلح من الناحية الإستراتيجية من قرطبة ، لاستقبال

---

( ١ ) تشغل هذه القصيدة من « المن بالإمامة » لوحة ١٥٩ ب و ١٦٠ أ و ب .
( ٢ ) ابن صاحب الصلاة فى « المن بالإمامة » لوحة ١٥٦ ب

الجيوش الموحدية الوافدة ، واستقبال عتادها وذخائرها ومؤنها ، ومن جهة أخرى ، فقد أثبتت الحوادث ، منذ مقدم الموحدين إلى شبه الجزيرة ، أن تيار الغزو النصرانى للأندلس ، قد تحول إلى ناحية الغرب ، وأن قيام مملكة البرتغال الجديدة ، واشتداد ساعدها ، قد نقل الصراع الرئيسى بين إسبانيا المسلمة ، وإسبانيا النصرانية إلى هذه الناحية من شبه الجزيرة ، وهذا ما أيدته فى الأعوام الأخيرة ، معارك بطليوس ، وغزوات ألفونسو هنريكيز ، وهذا ما سوف تؤيده الحوادث فيما بعد ، وهو مما يدل على بعد نظر السياسة الموحدية فى هذا الشأن . وأخيراً فقد كانت إشبيلية ، بعد الذى أصاب قرطبة عاصمة الخلافة القديمة ، من ضروب التخريب والعفاء منذ أيام الفتنة ، ومختلف الحروب والثورات ، كانت أرقى عمراناً ، وأوسع رحابا ، ولاسيما منذ أيام بنى عباد ، حيث غدت أعظم حواضر الأندلس وأجملها . ولهذا كله اختار الموحدون أن تكون إشبيلية حاضرتهم وقاعدة حكومتهم بالأندلس .

وما كاد الخليفة يصل إلى إشبيلية ، حتى أمر بعزل محمد بن سعيد المعروف بابن المعلم ، وكان يتولى أعمال المخزن أو إدارة الشئون المالية بإشبيلية والأندلس ، وأمر بالسير إلى قرطبة لمحاسبته ، والتحقيق فى سير أعماله ، وكانت قد علقت به وبتصرفاته فى تنفيذ المنشآت والمشاريع العامة ريب كثيرة ، وندب لمحاسبته الفقيه أبو محمد المالقى والكاتب أبو الحكم بن عبد العزيز ، وانتهى الأمر باستصفاء أمواله ، ثم إعدامه فيما بعد . وقدم الخليفة مكانه على أعمال إشبيلية ، أبا داود بلول ابن جلداسن . وقد كان للخليفة عند حلوله بإشبيلية برنامج ضخم من الأعمال الإنشائية ، سوف يضطلع بلول ، وزير المال الجديد ، فى تنفيذه بأعظم قسط .

وكان أول ما أشار به الخليفة من تلك الأعمال بناء قنطرة عظيمة على نهر الوادى الكبير ، تصل ما بين إشبيلية وطريق طُريانة ، ضاحيتها الغربية ، وتيسر سبل المواصلات فى اتجاه الغرب ، فحشد لها العرفاء والصناع ، وتم إنشاؤها فى نحو شهر ، فى السابع من صفر سنة ٥٦٧ هـ ، وحضر الخليفة يوم إكمالها وافتتاحها ، فى حفل ضخم ، رفعت فيه البنود وقرعت الطبول . وينوه ابن صاحب الصلاة بما كان لإنشاء هذه القنطرة العظيمة من حسن الأثر ، وما حققته للناس من يسر ورخاء ، إذ كان المرور بها دون قبالة أو رسوم .

وفى خلال ذلك ، حضر السيد أبو حفص أخو الخليفة من حصن مرسية ،

وذلك قبل وفاة ابن مردنيش وانقضاء أمره بأشهر قلائل، فاستقبله الخليفة خارج إشبيلية ، باحتفال بالغ . واجتمع الأخوان للبحث فيما يجب عمله لحماية الأندلس ورد عدوان النصارى عنها . وكان أول ما تقرر فى ذلك أن ترسل حملة ضاربة من الموحدين تحمل الميرة والعتاد والمرافق اللازمة لمدينة بطليوس ، فخرجت هذه الحملة فى الثامن من شهر صفر ، وجازت فوق القنطرة الحديدة إلى طريانة، فكانت أول عسكر يجوز عليها ، وسارت إلى بطليوس . فلما اقتربت من المدينة، هاجمت حصن ليون الواقع على مقربة من شرقى بطايوس على ضفة وادى يانه ، وكانت تحتله حامية من النصارى من جند جيرالدو سمبافور ، واقتحمته عنوة ، وأوصلت حمولتها من الميرة والسلاح إلى بطليوس ، ثم عادت سالمة إلى إشبيلية .

ولما كللت حملة مرسية بالنجاح ، وتوفى ابن مردنيش ، وانتهت مملكة الشرق ، قَدِم هلال بن مردنيش وأكابر الشرق إلى إشبيلية ، فى مستهل رمضان سنة ٥٦٧ هـ ، وقدموا خضوعهم وطاعتهم للخليفة ، وذلك حسبما فصلناه من قبل فى موضعه .

وقد استطالت إقامة الخليفة أبى يعقوب يوسف بإشبيلية والأندلس زهاء خمسة أعوام ، وبالرغم من أنه قام خلال إقامته بغزو أراضى النصارى ، وذلك تحقيقاً لمشروعه الرئيسى فى العبور إلى الأندلس ، فإن أهم ما تميزت به تلك الفترة ، هو اضطلاعه بالأعمال الإنشائية العظيمة بمدينة إشبيلية ، وهى التى بدأها ببناء القنطرة على الوادى الكبير . والظاهر أن أبا يعقوب ، كان يحبو هذه المدينة العظيمة ، التى اتفق فيها أعواماً عديدة من شبابه حاكماً لها أيام أبيه المؤمن ، بكثير من الحب والإعجاب، ومن ثم فإنا نراه يعمل بهمة عظيمة على تحصينها وتجميلها، وتزويدها بالمنشآت الفخمة ، والمياه الجارية . وكان أول ما عنى به بعد إنشاء القنطرة ، هو إنشاء القصور الخليفية المعروفة « بالبحيرة » . وكانت إشبيلية تزدان بعدد من القصور الملكية ، هى قصور بنى عباد السالفة ، وكانت ما تزال ، فى هذا العصر، بعد أكثر من مائة عام ، تحتفظ بكثير من رونقها وفخامتها ، ولكن الخليفة الموحدى ، لم يرق له أن يتخذ من تلك القصور مقامه ، واكتفى بتخصيصها لنزول الأمراء والكبراء الوافدين . وكان السيد أبو حفص ، أخو الخليفة ، قد ابتنى خلال زياراته لإشبيلية بعض الدور فى وادى إشبيلية خارج باب الكُحل ، فرأى الخليفة أن يقيم قصوره خارج باب جهور ، فى أرض الجنان المنسوب

لأبى مسلمة القرطبي بعد أن عوض أصحابه جنانا فى مكان آخر . وأقيمت فى هذا الموضع طائفة من القصور والدور الفخمة للخليفة وحاشيته . وقام على إنشائها العريف أحمد بن باسُه عريف الأندلس ، والخبير بشئون القصور ، فجاءت على أبدع طراز ، وأقيمت حولها من جميع الجهات أسوار من الجيار والرمل والحصى . وعهد الخليفة إلى أبى القاسم أحمد بن محمد الحوفى القاضى ، وأبى بكر محمد ابن يحى الحد ، لما عرف عنهما من الأمانة والخبرة الهندسية والزراعية ، أن يقوما بإنشاء بستان عظيم حول هذه القصور من أموال المخزن ( الأموال العامة ) تُجلب إليه الغراس من الزيتون والأعناب والفواكه وسائر الأنواع النادرة الغريبة من الأشجار والغراس ، فقاما بتنفيذ أمره ، وعُوض أهل الأراضى التى أدخلت فى البستان عن أراضيهم تعويضاً مرضيا . وعهد بأعمال الحفر والغراس إلى أبى داود بلول بن جلداس ، متصرف إشبيلية وأعمالها وأمين الخليفة ، وجلبت إلى البستان آلاف الغراس والأشجار من مختلف الأنحاء ، وغُرست فيه على أجمل نسق . وحملت غراس التفاح والأجاص ( الكمثرى ) وغيرها من غرناطة ووادى آش ، وكان الوزير أبو العلاء بن جامع وابنه يحيى يلازمان الجلوس للإشراف على العمل من الصباح إلى المساء ، وكان الخليفة يخرج من قصره بإشبيلية مع أعيان الموحدين لمشاهدة الأعمال الجارية ومدى تقدمها . ويفيض ابن صاحب الصلاة كعادته فى وصف هذه القصور وجمالها وفخامتها[1] .

وكانت الخطوة التالية بعد إنشاء القصور والبستان ، النظر فى استجلاب الماء لتوفير السقاية والرى . وكان يوجد خارج باب قرمونة ، على الطريق المتجه إلى قرمونة ، أطلال قنطرة رومانية قديمة ، قد درست وعفت ، ولم يبق منها سوى حجارتها المتساقطة . فقام المهندس الأندلسى البارع الحاج يعيش المالقى ، وهو الذى تولى الإشراف على أعمال جبل طارق ، بالحفر حول هذا الأثر ، حتى تحقق لديه ، أنه كان قنطرة رومانية تحمل الماء من سرب قديم إلى إشبيلية ، ثم تتبع السرب بعد ذلك بالحفر حتى انتهى إلى مأخذه القديم من الوادى على مقربة من قلعة جابر[2] ، وتم إجراء الماء من ذلك الموضع فى سربه القديم إلى البحيرة ،

---

(١) المن بالإمامة لوحات ١٦١ ب و١٦٢ أ وب و١٦٣ أ .

(٢) وهى تقع فى جنوب شرقى إشبيلية على قيد نحو عشرة كيلومترات منها ، ومكانها اليوم البلدة الإسبانية الصغيرة التى تسمى **(Acalá de Guadaira)** .

والقصور والرياض الخليفية ، وأمر الخليفة بعد ذلك ، بإجراء الماء إلى داخل المدينة لسقاية الناس ، وتوفير مرافقهم ، فقام الحاج يعيش بتنفيذ هذه الرغبة على أكمل صورة ، وأنشئ داخل إشبيلية محبس للماء بحارة منور وهو نهاية جريانه ، وتم توصيل الماء إلى المدينة على هذا النحو فى اليوم الخامس عشر من جمادى الآخرة سنة ٥٦٧ھ ، وحضر الخليفة حفل إجرائه فى جماعة كبيرة من الجند والأشياخ والفقهاء والطلبة ، وضربت الطبول ، وساد البشر واليمن بين الناس .

على أن أعظم منشآت الخليفة أبى يعقوب يوسف بإشبيلية ، هو الجامع الأعظم ، الذى مازالت تقوم منه حتى اليوم بعض البقايا الدارسة ، إلى جانب كنيسة إشبيلية العظمى ، التى أقيمت فوق أنقاضه . وكان البدء بإنشائه واختطاط موقعه فى شهر رمضان سنة ٥٦٧ھ ، فهدمت لذلك الغرض ديار كثيرة داخل القصبة تحت إشراف العريف أحمد بن باسُه ، واجتمع بإشبيلية للقيام بأعمال الإنشاء ، العرفاء ، والبناؤون من أهل إشبيلية ، ومن سائر قواعد الأندلس ، ومن أهل العدوة ولاسيما مراكش وفاس ، واجتمع معهم أمهر العمال من سائر الحرف المطلوبة . وكان الموحدون حينما افتتحوا إشبيلية قد أنشأوا لهم بقصبتها جامعاً صغيراً يؤدون فيه شعائرهم ، ولكنه أضحى يضيق بهم ، بعد أن تكاثروا وكثرت وفودهم ، ومن جهة أخرى ، فإن المدينة ذاتها كانت فى أشد الحاجة إلى مسجد جامع يتفق مع ضخامة عمرانها ، وأهميتها كمقر للحكومة الموحدية بالأندلس . وكانت مسجد إشبيلية الجامع ، المسمى بجامع العدبّس أو ابن عدبّس وهو المنسوب للقاضى عمر ابن عدبّس ، والمشيد فى سنة ٢١٤ھ ، أيام الأمير عبد الرحمن بن الحكم ، قد ضاق برواده ، نظراً لنمو المدينة وتكاثف سكانها ، وكثرة الموحدين الوافدين عليها ، ولم يفكر أحد من أمراء بنى عبّاد أيام دولتهم ، فى إنشاء مثل هذا الجامع لانهماكهم فى شئون الإمارة ، وإنشاء القصور ودور القصف ، وإهمالهم لشئون العبادة . يقول ابن صاحب الصلاة وقد كان من سكان إشبيلية ، وكان شاهد عيان لإقامة هذه المنشآت كلها ، إن أمير المسلمين الخليفة أبا يعقوب « قد حاز الذخر والأجر فى بناء هذا المسجد الجامع الكبير توسعة للناس ، فأسسه من الماء بالآجر والجيار والحصى والأحجار ، على أعظم البناء والاقتدار ، وأسس أرجله المعقودة بطاقات بلا طابية تحت الأرض ، أطول مما فوق الأرض ، وجمع عليه الفعلة بكثرة الرجال والخدام ، وإحضار الآلات من الخشب المجلوب من سواحل العدوة

مما لايقدر عليه ملك من ملوك الأندلس قبله ، فأعلى بنيته ، وصقل صفحته بالإتقان لتشييده وتوثقه ، وأنفذ أمره العالى ببنيانه فى رمضان من سنة سبع وستين وخمسمائة المؤرخة ، لم يرفع عنه البناء قط فى فصل من فصول السنين مدة إقامته بإشبيلية ، إلى أن كمل بالتسقيف وجاء فى أبهى النظر الشريف ، أعجز فى بنيانه من تقدمه ، وتفنن فى ميزابه وخبره ورخمه مقدمه ، قارب جامع قرطبة فى السعة ، وليس فى الأندلس جامع على نده ، وسعته وعدد بلاطاته » .

وتولى النظر على بناء الجامع وعرفائه العريف أحمد بن باسُه ، والنظر على النفقة أبوداود بن جلداسن خاصة أمير المؤمنين ، وكان من الحفاظ على البناء من أهل إشبيلية ، أبو بكر بن زهر ، وأبو بكر الساقى . ويصف لنا ابن صاحب الصلاة مراحل إتمام الجامع على النحو الآتى : إن سرب المدينة كانت تشق بجريها تحت الأرض على مواضع اختطاط هذا الجامع ، فنكبت عنه ، وصرفت إلى جهة الجوف على سرب واسع ، وعمل على توثيق البناء تحت الأرض ، وعنى العرفاء ببناء القبة التى على محرابه وبنجارتها أعظم عناية ، وأقاموا عن يسار المحراب ، ساباطاً فى الحائط ، يشقه الخليفة من القصر إلى الجامع ، لشهود صلاة الجمعة ، وافتن الصناع فى عمل المنبر وصياغته من أكرم الخشب ، وفى إبداع نقوشه ، وترصيعه بالصندل المجزع بالعاج ، وأبنوسه يتلألأ بصفائح الذهب والفضة ، « وأشكال فى عمله من الذهب الإبريز ، يتألق نوراً ، ويحسبها الناظر لها فى الليل البهيم بدوراً » . ثم عملت له مقصورة من الخشب مزينة بالفضة . وكان الخليفة يتفقد بناءه بنفسه فى أكثر الأيام ومعه أشياخ دولته ، ويشير للمشرفين عليه بالجد فى البناء وإتقانه ، حتى كملت جهاته الأربع بالبناء وعقد الأقواس ، وكمال التسقيف ، واستغرق بناؤه ثلاثة أعوام وأحد عشر شهراً ، إلى أن حان موعد عودة الخليفة إلى حضرة مراكش فى الرابع عشر من شعبان عام ٥٧١هـ ، وأمر بتسريح العرفاء والبنائين والصناع إلى مواطنهم . على أن هذا الجامع لم يفتتح للصلاة بصفة رسمية وتقام به الخطبة ، إلا بعد ذلك بنحو سبعة أعوام ، وأقيمت فيه الخطبة لأول مرة يوم الجمعة ٢٤ ذى الحجة سنة ٥٧٧هـ (٣٠ أبريل سنة ١١٨٢م) وذلك على يد السيد أبى إسحاق إبراهيم ابن الخليفة أبى يعقوب ، ووالى إشبيلية عندئذ ، وأزيلت الخطبة من جامع ابن عدبّس من ذلك التاريخ[1] .

---

(١) ابن صاحب الصلاة فى « المن بالإمامة » لوحة ١٦٧ ا و ١٦٨ ا و ب ١٦٩ ا ، وروض القرطاس ص ١٣٨ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٩٦ .

ومما تجدر ملاحظته بهذه المناسبة أن الموحدين فى بداية أمرهم لم يعنوا بزخرفة المنشآت والصروح ، ولاسيما المساجد ، معتبرين هذا الزخرف من الأمور المكروهة من الناحية الدينية ، وكان كل ما يراعى فى هذه الصروح هو البساطة والمتانة . بيد أنه لما استحالت الخلافة الدينية من بعد عبد المؤمن إلى ملك باذخ ، وبلاط يمتاز بالفخامة والروعة ، بدأ زخرف الصروح الموحدية وتجميلها بوفرة وسخاء ، فكان منبر جامع إشبيلية المرصع بصفائح الذهب والفضة ، وكان تزويد صومعته التى أنشئت فيما بعد بتفافيحها الذهبية الثقيلة[١] .

وسنرى فيما بعد ، كيف أنشئت منارة هذا الجامع ، وهى المنارة الشهيرة التى مازالت قائمة حتى عصرنا فى مدينة إشبيلية ، بعد أن حول جزؤها الأعلى إلى برج للأجراس لكنيسة إشبيلية العظمى .

— ٣ —

ذكرنا فيما تقدم أنه لما وفد هلال بن مردنيش وأكابر الشرق وقادته على إشبيلية فى مستهل رمضان سنة ٥٦٧ هـ ، ليقدموا خضوعهم وطاعتهم للخليفة أبى يعقوب ، اقترح قادة الشرق ، وفى مقدمتهم شيخهم أبو عثمان سعيد بن عيسى ، على الخليفة أن يقوم بغزو أراضى النصارى من جهة بلادهم ، وعينوا له بالذات مدينة وبذة هدفاً لهذا الغزو ، وذلك لضعف تحصيناتها وأسوارها ، ولأنها حسبما ينقل إلينا ابن صاحب الصلاة « حديثة البنيان قريبة الإسكان »[٢] أو بعبارة أخرى لم يتأثل عمرانها ، ولا أهباتها الدفاعية ، وأن الخليفة وعدهم فى نفس هذا المجلس بتحقيق رغبتهم متى انتهى شهر الصوم[٣] . وإنه ليبدو لنا من ذلك أن الخليفة حينما عبر إلى الأندلس بقصد الغزو والجهاد لم يكن لديه مشروع معين لهذا الغزو ، ومن ثم كان قبوله لاقتراح قادة الشرق .

وعلى أى حال ، فقد اتخذ الخليفة أهبته لتلك الغزوة ، وخرج فى قواته من إشبيلية فى فجر يوم الاثنين الحادى عشر من شوال سنة ٥٦٧ هـ ( ٦ يونيه سنة ١١٧٢ م ) ، فوصل إلى قرطبة فى السابع عشر منه ، وأقام محلته فى جبل

---

( ١ ) وقد أبدى العلامة جولدسيهر مثل هذه الملاحظة فى بحثه : **Materiailen zur Kenntniss der Almohaden Bewegung (Z. der Morgenl. Geselsch. 1887; p. 105)**

( ٢ ) المن بالإمامة لوحة ١٦٦ ا

( ٣ ) المن بالإمامة لوحة ١٦٦ ا .

فحص السرادق المطل على براح أرض مدينة الزاهرة القديمة ، وفى اليوم التالى دخل قصر قرطبة القديم ، وأقام به بضعة أيام . ثم غادر قرطبة فى ظهر اليوم الخامس والعشرين من شوال ، وسار فى قواته صوب مدينة القصر[١] ، فأندوجر ثم اتجه نحو الشرق حتى صار على مقربة من بياسة ، وهنالك لحق به إبراهيم ابن همشك ، وكان على حصار حصن بلج[٢] القريب من بياسه ، وكان من أعظم وأمنع حصون هذه المنطقة . وكان هذا الحصن من أملاك ابن همشك ، فلما وقع الخلاف بينه وبين صهره ابن مردنيش ، من جراء انضوائه تحت لواء الموحدين ، استولى ابن مردنيش على هذا الحصن ، ووضع به حامية من جنده المرتزقة النصارى ، وكان ابن همشك يحاصره بقواته حينما قدم الخليفة فى جيشه الضخم ، فاقترح عليه ابن همشك أن يسير فى الحال إلى الحصن لحصاره والاستيلاء عليه ، فاستجاب الخليفة إلى دعوته ، وسارت القوات الموحدية صوب الحصن ، ونزلت فى ظاهره ، وعاين الموحدون ضخامته ومنعته ؛ وروعت حاميته النصرانية بما شهدت من كثرة الجيوش الموحدية ، فاستدعوا ابن همشك ورجوه أن يتوسط لهم لدى الخليفة ليمنحهم الأمان مقابل تسليم الحصن ، فقام ابن همشك بتحقيق رغبتهم ووافق الخليفة ، ورأى فى تسليم الحصن فاتحة النجح والنصر ، وتم تسليم الحصن فى يوم السبت ٣٠ شوال ، وركب الخليفة إلى الحصن ، وراقته ضخامته ومنعته ، ورتب به حامية موحدية ، وصرف أمره إلى ابن همشك . وفى اليوم الثانى من شهر ذى القعدة سار الخليفة فى قواته شمالا نحو حصن الكَرَس[٣] وكان ابن مردنيش قد فعل به ما فعل بحصن بلج ، وسلمه إلى حامية من النصارى . وكان هذا الحصن يقع فوق ربوة عالية يحيط بها الماء والبسائط الخضراء ، فلما اقترب منه الموحدون ، عرض النصارى تسليمه بالأمان ، على نحو ما تم بحصن بلج ، فأجيبوا إلى مطلبهم ، ونزلوا عن الحصن ، وذلك فى اليوم السادس من ذى القعدة ، وصرف أمره كذلك إلى ابن همشك .

ويصف لنا ابن صاحب الصلاة ، وقد كان من مرافقى هذه الحملة الموحدية[٤] ، سير الحملة وتنقلاتها بإفاضة ، ويقول لنا إنه بعد الاستيلاء على هذين الحصنين ، سار

---

(١) وهى بالإسبانية **Alcocer** .

(٢) وهو بالإسبانية **Vilches** . (٣) وهو بالإسبانية **Alcaraz** .

(٤) وهو يذكر لنا ذلك فى أكثر من موطن ، « المن بالإمامة » لوحة ١٧٧ ا ، ١٧٨ ب .

الخليفة فى قواته إلى الموضع المعروف ببلاط الصوف[1] وهو المتصل بفحص جنجاله، وقد كانت يومئذ مدينة الحدود بين الأندلس وبين قشتالة، ثم تقدم منه إلى الموضع المعروف بالغُدُر قرب منابع نهر وادى يانه، ونزل فى سهل بلاط الصوف وقضى فيه يوماً تزود فيه العسكر والناس بالماء. ثم غادره إلى مرج البسيط، وأقام فيه يوماً آخر، وسار منه إلى مقربة من وادى شُقر، حيث ارتوى الناس والدواب من ماء النهر، وقضوا فيه يومهم للراحة. وفى يوم الخميس الثانى عشر من ذى القعدة، أمر الخليفة أخاه السيد أبا سعيد، أن يسير من وادى شُقر فى عسكر ضخم من الموحدين والعرب، يبلغ نحو اثنى عشر ألف فارس، ومعهم قوة من الرّجالة والرماة، إلى أراضى قشتالة، صوب مدينة وبذة[2]، فسار السيد أبو سعيد فى هذا الجيش ومعه أبو العلاء بن عزون « قاضى الدولة المهدية » فى جنده، وإبراهيم بن همشك فى جنده، فوصلوا فى صباح اليوم التالى إلى أول بلاد قشتالة بموضع يسمى « برج جمل » وفيه حصن يحتله النصارى، فافتتحوه فى الحال، وأفنوا حاميته قتلا وسبياً، وهدموه. وفى اليوم التالى — السبت — وصلوا إلى مدينة وبذة، والظاهر أن النصارى كانوا على أهبة لرد المغيرين، فما كاد الموحدون يصلون إلى ظاهر المدينة، حتى خرج إليهم القشتاليون. ونشبت بين الفريقين معركة تمهيدية، ظهر فيها تخاذل من بعض الجند العرب، فقتلوا، وأسفرت المعركة حسبما يقول لنا ابن صاحب الصلاة عن « ظهور الإسلام ». وعلى أثر ذلك نزل السيد أبو سعيد بعسكره فوق التل المطل على المدينة[3].

وفى خلال ذلك وصل الخليفة فى قواته إلى وبذة فى اليوم السابع عشر من ذى القعدة، وأمر الموحدين والعرب من سائر القبائل بالتأهب للحرب، فانحاز كل عسكر إلى قبيله، واجتمع تحت رايته، وأمر الجميع بالسير، والصعود إلى التل الذى نزل به السيد أبو سعيد بجنده، ليتم اجتماع القوات المحاربة، فصعد الجند على الترتيب المذكور، وصعد بعدهم الخليفة فى كتيبته، ومعه أبناء الجماعة؛ وأبناء أهل خمسين وأهل الدار والعبيد، وخلفه السيد أبو حفص وباقى الإخوة، ومن ورائهم الرايات والطبول وعددها مائة، وفى الحال بدأ الهجوم تحت قرع الطبول وصيحات التكبير، بين الموحدين والقشتاليين، واستولى الموحدون على

---

(١) وهو بالإسبانية Balazote.   (٢) وبذة هى بالإسبانية Huete.

(٣) تراجع مواقع غزوه وبذة فى الخريطة المنشورة فى ص ٤٩.

ما كان لصق السور من مداخل أرباض المدينة، وأحرقت الدور وهدمت، وارتد القشتاليون إلى الداخل ، ونزل الموحدون بخيولهم فى الجنات والكروم المتصلة بالمدينة ، وقطعوا عنها ماء الوادى . وفى مساء نفس اليوم طاف السيد أبو حفص ومعه الإخوة والأشياخ والزعماء ، وقوة كبيرة من الموحدين بجوانب المدينة الأربعة ، وقسم جهاتها على الجند ، يختص كل عسكر بجهة ويقوده سيد من الإخوة ، ويختص العرب بجمعهم منها بجهة . وكان النصارى فى أثناء ذلك قد حفروا على عجل خندقاً خارج المدينة ، ووضعوا له زرباً من الخشب ، وذلك ليعوقوا اقتحام الموحدين للمدينة . وفى صباح اليوم التالى خرج الخليفة راكبا فرسه ، ومن حوله الكتائب الجرارة ، وقد اتخذت أهبتها للقتال ، وقرعت الطبول ، وخفقت الرايات ، وإلى جانبه أخوه السيد أبو حفص وأشياخ الموحدين ، ولما وصل إلى مقربة من الخندق ، نزل فوق ربوة تشرف عليه ، واستدعى إلى قبته الفقهاء والقضاة المرافقين للحملة ، وهم الحافظ أبو بكر بن الجد، والفقيه أبو محمد المالقى ، والقاضى أبو موسى عيسى بن عمران ، والقاضى أبو الوليد ابن رشد وأقبل الإخوة والأشياخ ، وبايعه الجميع على الثبات على الجهاد ، وكانت العساكر قد احتل كل فريق مكانه المعين ، وقسمت السهام على الرماة ، وأعدت سائر الآلات ، ثم قرعت الطبول إيذاناً ببدء القتال ، فهجم الموحدون على القشتاليين واضطرمت بين الفريقين معركة عنيفة ، فارتد القشتاليون حتى لصق السور ، وإلى داخل البيوت ، وامتنع معظمهم بالقصبة ، ولم يثبتوا إلا فى الجهة الغربية ، حيث عجز أبو العلاء بن عزون وقواته عن ردهم . فحاول أن يستنجد بالخليفة ليمده ، فأعرض عنه لاشتغاله فى قبته بالمناقشة مع الطلبة . وهدم الموحدون كنيسة المدينة ، وانتزعوا نواقيسها ، وقتل من تصدى من النصارى لاستردادها . ويقول ابن صاحب الصلاة « ودام القتال على انحلال وضعف وملال إلى بعد أذان الظهر ، وارتفع ، وما نفع الجيش الكثير عديده ، ولا الجمع ، إذ كان فى نحو ماية ألف بين فارس وراجل ، وانصرف أمير المؤمنين ، وانصرف الناس إلى أخبيتهم ، وقد همهم الحال »(١) .

وهكذا فشل هجوم الموحدين الأول على وبذة ، وبالرغم مما يبدو من مبالغة ابن صاحب الصلاة فى تقدير عدد الجيش المهاجم ، فإنه كان بلا ريب جيشاً وافر

---

(١) المن بالإمامة لوحة ١٧٨ ا .

العدد ، وقد كان من جراء هذا الفشل ، أن اتجه الخليفة إلى حصار المدينة . وفى اليوم التالى اجتمع الأشياخ والقواد ، وأمر الخليفة أن يخرج ربع الناس من جميع العساكر لزرع الغلات والعلوفات وتحصيل الأقوات ، استعداداً لحصار المدينة ، فخرج الناس لذلك ، وطرق الموحدون المدينة ، ومنعوا عنها ماء الوادى ، وأمر الخليفة بصنع السلالم والأبراج الخشبية لمقاتلة النصارى فى جوانب المدينة . ويقول لنا ابن صاحب الصلاة إن رسولا من النصارى جاء فى ذلك اليوم يعرض تسليم المدينة بالأمان ، فلم يُلتفت إليه ، فكر مسعاه فى مساء نفس اليوم ، فصرف بغير طائل .

وفى صبيحة يوم الجمعة العشرين من ذى القعدة ( ١٤ يوليه ) هبت ريح صيفية عاصفة ، فأوقعت الاضطراب بمعسكر الموحدين ، واقتلعت الأخبية ، وفاضت الغدور ، وقضى الموحدون ليلتهم فى التحوط ضد عصف الريح . وفى صباح اليوم التالى قدم الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى من مرسية فى جند أهل الشرق ، ومعه أبو الحجاج يوسف بن مردنيش وأهل بلنسية والثغر ، فخرج إليه الخليفة وسائر الإخوة والأشياخ والزعماء والطلبة ، واستقبل استقبالا حافلا . ثم نزل جند الشرق بالجبل المجاور لوبذة ليعاونوا فى تشديد الحصار ، وشهد القشتاليون من مدينتهم مقدم هذا الجيش الجديد فى توجس وفزع . وفى مساء نفس اليوم ، هبت ريح عاصفة أخرى أشد من السابقة ، فاقتلعت خيام الموحدين ، ومزقتها ، ثم تلاها مطر وابل ورعد قاصف وبرق . وكانت فرصة طيبة للنصارى أن ارتووا من مياه الأمطار . ويلاحظ ابن صاحب الصلاة أن هذه الرياح قد عصفت ، والأمطار قد هطلت « فى أشد ما يكون من الحر » فى شهر يونيه العجمى ( وصحته يوليه ) .

وفى صباح اليوم التالى — الاثنين الثالث والعشرين من ذى القعدة — هاجم الموحدون القشتاليين على الأسوار ، ولكنهم ما كادوا يبدأون القتال ، حتى أظلمت السماء ، وقصف الرعد والبرق ، وهطل المطر غزيراً كالسيل ، فأغرقت ثياب الموحدين وعجزوا عن القتال ، وفزع الناس من تكرر هذه الظاهرة ، واعتبروها سخطاً من الله ، ورغبوا فى التوبة إليه ، وارتد الخليفة والناس ، وقد اكتسحت السيول الهضبة ، وعند الظهر أشرقت السماء ، وارتفع المطر ، فعاد الموحدون إلى القتال وفق ترتيبهم السابق ، ودام القتال حتى المساء ، ولكن دون جدوى .

وفى ليلة الأربعاء ، قام القشتاليون بهجوم مفاجئ من القطاع الذى يحتله جند هسكورة ، ففروا منه منهزمين ، فلما علم الخليفة فى الصباح ، أمر بضربهم

بالسباط عقاباً لهم . وفى صباح يوم الخميس ، أمرت الفرق المختلفة ، أن يخرج من كل ثلثها للبحث عن الأقوات والعلوفات ، واجتمع أولئك الجند تحت إمرة الحافظ أبى محمد عبد الله بن أبى تفرجين ، وإبراهيم بن همشك ، ولكن هذه الحملة فشلت فى مهمتها ، فلم تجمع شيئاً من المؤن والعلف ، فارتفعت الأسعار فى المعسكر الموحدى ، وكاد أن ينعدم فيه القوت .

هذه الأحداث المكدرة المثبطة للهمم ، حملت الشيخ أبا محمد عبد الواحد ابن عمر ، أن يدعو الناس ، وأن يخطب فيهم ، تارة بالعربية ، وأخرى بالبربرية ، يعظهم ، ويستنهض هممهم للجهاد ، وكان مما قاله لهم : « قد كنتم بمراكش تقولون لو كنا غزونا النصارى لجاهدنا لله واجتهدنا ، فلما حضرتم معهم ، قصرتم وجبنتم وحنثتم الله عز وجل ، ونكلتم وما نصحتم ، ما أنتم بمؤمنين ولا موحدين ، أن تسمعوا النواقيس تضرب ، وتعاينوا الكفر ، ولا تدفعوا المنكر . إن أمير المؤمنين ليس يقدر أن يراكم لتفريطكم فى حق الله تعالى من الجهاد على كثرتكم من الأعداء »[١].

وبذلت عندئذ محاولة يائسة لحمل القشتاليين على التسليم بالأمان ، فوُجه عبد الرحمن بن أبى مروان بن سعيد الغرناطى ، إلى قائد وبذة وهو ولد الكونت مانريكى دى لارا[٢]، يقول له إنهم على استعداد لتحقيق رغبته فى تسليم المدينة بالأمان ، وكرر هذا المسعى مرتين فى نفس اليوم ، فرفض قائد القشتاليين هذا العرض بجفاء ، لما رآه من اختلال أحوال الموحدين ، ولما علمه من استعداد ألفونسو الثامن لإنجاده بحشوده . ولما وقف الخليفة على ذلك استدعى سائر الأشياخ من الموحدين والعرب إلى خيمته — القبة الحمراء — للبحث فيما يجب عمله ، وفى نفس الليلة — ليلة الأحد التاسع والعشرين من ذى القعدة — أمر بحرق البرج المصنوع لقتال النصارى وسائر الآلات التى صنعت معه ، وبأن يقوم مقدم الدواب بشحن النواقيس التى أخذت من الكنيسة من وبذة . وفى الصباح ضرب الطبل الكبير إيذاناً للناس بالرحيل ، فساد الاضطراب والهرج فى المعسكر الموحدى ، فلما رأى القشتاليون ذلك ، وأيقنوا أن الموحدين قد بدأوا فى الانسحاب ، خرجوا فى قواتهم من الفرسان والرجالة ، ونزلوا إلى الوادى ، وهاجموا الموحدين وأشعلوا النار فى البيوت والخيام ، ووصلوا إلى السوق بقرب المحلة ، وقتلوا

---

(١) ابن صاحب الصلاة فى المن بالإمامة لوحة ١٨٠ ا

(٢) ويسميه ابن صاحب الصلاة « ولد مرنو » .

الضعفاء والمرضى ، ونشب القتال بين الجيش المنسحب وبين النصارى ، وأمر الخليفة أن يتوقف سائر الجند حتى ترفع الأخبية ، فلما رفعت وقفت قوة ترد الهاجمين حتى يتم الانسحاب ، وتحرك الجيش المنسحب على قرع الطبول ، يتقدمه الخليفة ، والسيد أبو حفص فى أهل تينملل ، وأشياخ الموحدين مع قبائلهم ، وزعماء الأندلس مع أصحابهم ، والعرب مع قبائلهم ، والنصارى خلال ذلك يهاجمون الجيش المنسحب ، وقد احتشدت فى المؤخرة قوة كبيرة لردهم بقيادة السادة الإخوة ، ومعهم يوسف بن مردنيش وإبراهيم بن همشك وأبو العلاء بن عزون فى عسكر الأندلس . وسار الجيش المنسحب متجهاً نحو كونكة ( قونقة ) ونزل فى فحص به الماء على قيد بضعة أميال من وبذة ولحقت به قوة المؤخرة فى المساء ، بعد أن ردت النصارى وقتلت منهم نحو ستين .

واستمر الجيش المنسحب فى سيره ، وهو يحصد الزروع ، ويجمع الغلات فى طريقه ، حتى وصل إلى كونكة بعد يومين ، فى يوم الثلاثاء أول ذى الحجة . وفى عصر ذلك اليوم ركب الخليفة ومعه إخوته السادة ، ووزيره ابن جامع ، والفقهاء والقضاة ، وسائر الأشياخ من الموحدين والعرب ، ودخل المدينة ؛ وكان يرافق هذا الموكب عبد الملك بن صاحب الصلاة راوية هذه الحوادث ، وهو يصف لنا قصبة كونكة ، ومنعتها ، وعلوها الشاهق ، وكيف يصل إليها الماء من بحيرة عظيمة تقع خارج السور ، وعلى قنطرة عظيمة فى جانبها ، وكان إلى جانب المدينة من جهة الحوف خندق عميق قد حفر فى الحجر الصلد ، وفيه أدراج حفرت تحت الأرض ، ينزل منها إلى الوادى لشرب الماء ، وتحريك الرحى التى على الوادى ، وقد غطى بستارة منيعة عليها برج عظيم من بناء الأوائل ، وفى فحص المدينة تقوم الكروم وأشجار الجوز والمراعى الخضراء .

ولما دخل الخليفة مدينة كونكة ، وقصبتها استقبله أهلها كباراً وصغاراً ، وكانوا فى حالة يرثى لها من الضعف والهزال ، وكان النصارى قد حاصروا مدينتهم قبل ذلك ببضعة أشهر ، وبرح بهم الضيق والحرمان ، ولم يتركهم النصارى إلا حينما علموا باقتراب الموحدين ، فلما سلموا على الخليفة سألهم عن أحوالهم ، ووعدهم بجميل رعايته ، وأمر بأن تكتب أسماء سائر أهل المدينة من الرجال والنساء والأطفال ، فكان عددهم جميعاً سبعمائة ، فأمر للفارس منهم باثنى عشر مثقالا ، وللراجل ثمانية مثاقيل ، وللمرأة أربعة وللطفل أربعة ، وأعطاهم سبعين

بقرة لم يكن فى محلته سواها ، وزودهم بكثير من الرماح والقسى والسهام ، والسلاح ، وأمر بأن يمدهم سائر الجند بالقمح والشعير صدقة لهم ، وتنافس الأكابر والأشياخ فى تزويدهم بمختلف الأعطية والصلات .

وفى اليوم التالى أمر الخليفة بحصد الزروع ، التى للنصارى فى تلك المنطقة وسوقها ، ولكنهم التقوا بعدد كبير من النصارى على مقربة من قونقة ، وسرت الإشاعة بأنهم طلائع جيش ألفونسو الثامن والكونت نونيو دى لارا ، فلما علم الخليفة بذلك ، أمر بالإقلاع فوراً من ذلك الموضع ، والسير إلى وادى شُقر ، وأمر الناس بالرحيل ، فكان هرج شديد مقرون بالفزع كذلك الذى حدث يوم الإقلاع من وبذة ، وعبر الجيش الموحدى نهر شُقر ، ونزل بالجبل المتصل بمدينة قونقة لحصانته ، وسرعان ما وصلت قوات النصارى ، وعسكرت فى فى جبل تونيس ، فى الناحية المقابلة من النهر ، وصار كل من الجيشين تجاه الآخر دون أن تتاح لأحدهما فرصة الاشتباك ، وقضى الموحدون ليلتهم على حذر ، وفى صباح اليوم التالى ، عقد الخليفة مؤتمراً من الأشياخ واستقر الرأى على أن يقاتل الموحدون النصارى فى الغد . ولكن العرب اعترضوا « وجبنوا عن اللقاء » واحتجوا بضيق ساحة القتال . وانضم أهل الأندلس بقيادة أبى العلاء ابن عزون للموحدين فى نية القتال ، وفى الغد خرجت قوة منازلة بقيادة أبى العلاء واشتبكت مع النصارى فى عدة مناوشات لتختبر قوتهم . وفى اليوم التالى تأهب الموحدون لخوض المعركة ، وخرج أبو العلاء فى بعض قواته ليستطلع أمر العدو ، ولكنه عاد مع جنده ، وأعلن أن النصارى أقلعوا عن محلتهم منصرفين إلى بلادهم . فعندئذ أمر الخليفة باستئناف الرحيل ، وسار الجيش الموحدى حتى وصل إلى جبل « الصومعة » Alminar على بعد عشرة أميال من قونقة ، وقضى به الليل ، وفى اليوم التالى استأنف سيره حتى وصل إلى وادى تامطة ، وقد ظهر الإعياء على الناس ، وقلت الأقوات ، وارتفعت الأسعار ، ثم وصل إلى وادى برج قُبالة فى طريق مدينة بلنسية ، وقد نفق كثير من الدواب ، وبرح الجوع بالناس ، ومات الكثير منهم . وفى اليوم التاسع من ذى الحجة عبر الموحدون الربوة العالية المسماة بعقبة الأبالس ، ووصلوا بعد جهد شاق إلى قنطرة « أغربالة »[1] وقد اشتد الإعياء بالناس من الضعف والجوع ، ونفق كثير من الخيل والبغال والجمال .

(١) وبالإسبانية **Puente del Cabriel**

وفى ظهر ذلك اليوم ، أمر الخليفة بإخراج البركة لسائر العساكر على قدر تمييزهم ، فخص الفارس الكامل خمسة مثاقيل ، وخص الراجل الكامل مثقالين ، وذلك ابتداء من حركة الغزو لسنة سابقة .

وفى صبيحة اليوم العاشر من ذى الحجة ، وهو يوم الأضحى ، أمر الخليفة بصلاة العيد فى ذلك الموضع ، وألقى خطبة العيد أبو زيد بن عبدون قاضى تلمسان ، وعقب الصلاة ، سلم الإخوة والأشياخ والأكابر على الخليفة ، ووزعت عليهم الأضاحى ، وعند الظهر استؤنف السير مدى خمسة عشر ميلا ، ونزل الموحدون بمرج القبذاق على مقربة من حصن ركّانة ، ووصلوا فى اليوم التالى إلى ركّانة ، وقد اشتدت المجاعة بين الناس . وينوه ابن صاحب الصلاة خلال وصفه المستفيض لتلك الرحلة المضنية ، فى غير موضع ، بما كان يعانيه الجيش المنسحب من نقص فى المؤن ، وغلاء شديد فى أسعار القمح والشعير والدقيق . وعند مغادرة ركّانة أخطأ الأدلاء الطريق ، وافترقت العساكر فى شعب الجبال ، واشتد بالناس الجوع والألم والضعف . وسار الخليفة إلى موضع يعرف « بمجمع الأودية » وهو الذى يلتقى فيه نهر شقر ونهر أغربالة ( كبريل ) ولحق به سائر الناس إلى هذا الموضع . ثم استؤنف السير فى اليوم التالى ، ونزل الخليفة قريباً من حصن بيتول ، وهو من حصون بلنسية الأمامية . وهنا صدر الأمر بتسريح الحشود من أهل الشرق وجميع بلاد الأندلس إلى أوطانهم وسارت إلى بلنسية منهم جموع كبيرة(١) .

ووصلت إلى الخليفة فى هذا اليوم دفعة كبيرة من الدقيق والشعير والفواكه بعث بها إليه والى بلنسية يوسف بن مردنيش . هذا بينما هرع الناس إلى حصن بنيول يطلبون القوت والعون . ويقول لنا ابن صاحب الصلاة ، وقد كان منهم ، أنهم لم يجدوا شيئاً سوى بعض التين الأخضر ، فقصدوا إلى بلنسية . ويصف ابن صاحب الصلاة بهذه المناسبة ، مدينة بلنسية وجمالها ونضرة رياضها ، بيد أنه يلاحظ أن الضعف كان بادياً عليها ، وأن الخوف من الفتنة كان يزداد . وقضى الخليفة فى محلته ثلاثة أيام بقرب حصن بنيول ، ثم غادره فى قواته فوصل إلى مدينة شاطبة فى السابع عشر من ذى الحجة ، وقضى بقصبتها يومين ، وانتهز أشياخ الموحدين هذه الفرصة ، فوعظوا أهل المدينة بالجامع عقب صلاة الجمعة ، وبشروهم بالخير فى ظل العهد الجديد .

(١) تراجع مواقع غزوة وبذة وارتداد الجيش الموحدى فى الخريطة المنشورة ص ٤٩ .

وغادر الخليفة بعد ذلك شاطبة ، ونزل بحصن بليانة[1] على مقربة منها ، ثم سار إلى حصن آصف، ثم إلى ألش ، ووصل إلى أوريولة فى الثالث والعشرين من ذى الحجة ، وغادرها فى اليوم التالى، قاصداً إلى مرسية ، فنزل أولا بحصن أنوط[2] على مقربة منها ، ثم سار منه إلى المدينة ، فخرج أهل مرسية لاستقباله ، ودخل المدينة والأعلام تخفق والطبول تضرب ، ونزل بقصرها ، وقد احتشد أهل المدينة رجالا ونساء خاصتهم وعامتهم ، لتحية الخليفة ، والإعراب عن سرورهم بمقدمه ، وكان الخليفة قد طلب إلى هلال بن مردنيش أن يعد الدور اللازمة لنزول الموحدين ، فقام بتحقيق هذه الرغبة ، وأنزل أشياخ الموحدين أكرم منزل ، وقدم هلال إلى الخليفة ما وسع من الهدايا السنية ، وما كان لدى أبيه من الجوارى والسرارى البارعات فى الحسن ، فتقبل الخليفة هديته ، وأثابه عنها بالعطايا الجزيلة .

ولم تمض أيام قلائل حتى ضاقت مرسية ، بمن نزل فيها ، ووفد إليها ، من الموحدين وغيرهم ، وارتفعت الأسعار ، وعم الغلاء ، ورغب كثير من الموحدين والعسكر المرتزقة فى الرجوع إلى أوطانهم ، فأذن لهم الخليفة ، وارتحل كثير منهم . ولما دخل شهر صفر سنة ٥٦٨ هـ ، صدر الأمر بخروج البركة لجميع الموحدين والعساكر المرتزقة ، الذين اشتركوا فى هذه الغزوة ، فخص الفارس الكامل خمسة مثاقيل ، وغيره أربعة مثاقيل ، وخص الراجل مثقالين ، وغيره مثقال ونصف ، وتسلم كل شيخ بركة قبيلته ، وافترق معظم الناس .

وانتهز الخليفة هذه الفرصة لينظم شئون مملكة الشرق القديمة ، فأمر بإصلاح معاقل مرسية ، وتحصيناتها ، وندب مختلف الولاة لجهاتها وحصونها ، وجمع هلال بن مردنيش وإخوته وعمهم أبا الحجاج يوسف فى مجلسه ، وأبدى لهم منتهى العطف والرعاية ، وأنهم يكونون من جملة الموحدين والأهل ، وأمرهم بالنظر فى الارتحال معه ، وأقر أبا الحجاج يوسف بن مردنيش على ولاية بلنسية وأقطارها ، لما ثبت له من حسن إخلاصه وطاعته ، وكذلك أبقى ابن عيسى القائد على ما كان بيده من حصن جنجاله وأراضيه ، وأبقى غيره من قادة الحصون والثغور ممن ثبت إخلاصهم وصلاحهم .

وفى أول شهر ربيع الأول غادر الخليفة مرسية عائداً إلى إشبيلية ، وعرج

---

(١) هو بالإسبانية **Villena** .

(٢) هو بالإسبانية **Monetagudo** ، وقد بقيت أطلاله إلى اليوم .

فى طريقه على مدينة غرناطة ، وترك بها أخاه السيد أبا سعيد والياً لها ، ووصل إلى إشبيلية فى الثامن عشر من ربيع الأول سنة ٥٦٨ هـ ( نوفمبر ١١٧٢م ) . ومعه الإخوة وفى مقدمتهم السيد أبو حفص ، وخاصته من أشياخ الموحدين وأكابر الدولة ، فاستقبله أهل إشبيلية وعلى رأسهم الحافظ أبو بكر بن الجد ، استقبالا حافلا ، وقدم معه بنو مردنيش فى الأهل والولد ، وفقاً لما أمر ، فأنزلوا فى قصر ابن عباد ، والدور المتصلة به ، واشترى لهم الخليفة ما لزم لسكناهم وسكنى أتباعهم من الدور ، وعين منهم غانم بن مردنيش لرياسة جماعة من الجند الأندلسيين ، وأصحاب أبيه وأهل الثغور والأجناد بإشبيلية ، لتكون منهم قوة تضطلع بالغزو وحماية الأقطار من العدو وعيث البدو ، ونظم هلالا والكبار من إخوته فى جملة أشياخ الموحدين وأبناء الجماعة ، يحضرون مجلسه العالى ، ويشتركون فى مباشرة الأمور ، وإبداء الرأى تقريباً لهم وتشريفاً وتأنيساً ، وكان غانم يخرج فى قواته مع الموحدين إلى غزو أراضى قشتالة ، وقد ظهر فيما بعد بشجاعته وكفايته . وكان مثلا طيباً للغزاة من الأجناد والعرب .

* * *

والآن وقد انتهينا من استعراض مراحل هذه الغزوة الأندلسية الأولى للخليفة أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن واستوعبنا تفاصيلها ، وفقاً لرواية مؤرخها المرافق لها ، والتى سجلها منذ بدايتها إلى نهايتها ، يوماً بعد يوم ، نحاول أن نستخلص منها ما يمكن أن تدلى به من الحقائق والعبر .

وأول ما تكشف عنه حوادث هذه الغزوة التى لم يطل أمدها أكثر من شهرين ما تجلى تحت أسوار مدينة وبذة من عجز الجيوش الموحدية وتفككها . ويبدو هذا العجز فى أسطع صوره متى ذكرنا أن الجيش الموحدى الذى تصدى لحصار وبذة ، كان يضم على الأقل عشرين ألفاً من الفرسان النظامية ، منهم عشرة آلاف من الموحدين وعشرة آلاف من العرب ، الذين عبروا مع الخليفة الموحدى إلى الأندلس حسبما أسلفنا فى موضعه . وهذا غير المتطوعة وأجناد الأندلس ، وهؤلاء يمكن تقديرهم أيضاً بعدة آلاف . فكيف يعجز هذا الجيش الكبير عن اقتحام مدينة صغيرة غير ممتنعة مثل وبذة ، خصوصاً وقد كانت تضطلع بالدفاع عنها حامية محلية صغيرة من القشتاليين ؟ إن مثل هذا العجز المطبق يكشف أولا وقبل كل شىء عن عجز القيادة الموحدية ، ذلك أنه لم تكن بين أولئك الإخوة والأشياخ

الذين يلتفون حول الخليفة الموحدى، ويديرون دفة الغزوة، هيئة قيادة مقتدرة ، بل لم يكن بينهم قادة أكفاء بالمعنى الصحيح ، وكان مجلس القيادة يتخذ فى معظم الأحيان صورة اجتماع عائلى ، تغاب فيه الآراء الفطيرة ، والقرارات المرتجلة ، وبدلا من أن نرى الخليفة يخرج من قبته ليقود جنده بنفسه ، أو ليحثهم على التفانى فى القتال، نراه فى اللحظة الحرجة التى هزم فيها أهل الأندلس ، وأجلوا عن مواقعهم ، يجلس داخل قبته مع الطلبة الموحدين ليناقشهم فى بعض المسائل الفقهية . ويجدر بنا ونحن نتحدث فى هذا الموطن عن عجز القيادة الموحدية أن نعود قليلا إلى الوراء ، لنذكر ماكانت عليه القيادة المرابطية فى شبه الجزيرة من المقدرة والكفاية ، وماكان يمتاز به القادة المرابطون من البراعة والدربة العسكرية العالية ، وهى التى مكنتهم من أن يحرزوا بجيوشهم القليلة العدد، انتصاراتهم الباهرة فى مواقع مثل إقليش وإفراغة .

هذا ومن جهة أخرى فقد كشفت غزوة وبذة ، عما كان يسود الجيوش الموحدية من التفكك ، وانعدام التناسق بين مختلف العناصر التى تتكون منها . وقد كان العرب الذين يرافقون الجيش الموحدى يحملون أكبر قسط من تبعة هذا التفكك ، فقد رأيناهم يضنون بتعاونهم ، ويحجمون عن القتال فى الساعات الحرجة ، وكان هذا الإحجام من جانب العرب يشل حركة الجيش الموحدى ، وينال من مقدرته وقواه المعنوية . أضف إلى ذلك ماكشفته هذه الحملة من سوء تنظيم تموين الجيش الموحدى، وما ترتب على ذلك من ندرة الأقوات والعلوفات ، وماكان يصيب الجند من جراء ذلك من الضيق والحرمان وانهيار القوى المعنوية(١)

— ٤ —

فى الوقت الذى نزل فيه الخليفة أبو يعقوب يوسف بمرسية ، ليستريح من وعثاء حملته المنكودة على وبذة ، كانت تحدث فى الجانب الآخر من شبه الجزيرة فى غربى الأندلس ، حوادث هامة ، مؤسفة فى نفس الوقت . وكان ملك البرتغال مذ فتت فى عضده نكبته فى معركة بطليوس فى شعبان سنة ٥٦٤ ( ١١٦٩ م ) قد لزم السكينة حيناً ، وهو يرقب الحوادث والفرص ، فلما غادرت الجيوش الموحدية قواعدها فى إشبيلية فى غزوتها إلى وبذة ، شعر بأن الفرصة قد سنحت

( ١ ) تستغرق يوميات ابن صاحب الصلاة عن غزوة وبذة من كتاب « المن بالإمامة » نحو ستة عشرة صفحة كبيرة من لوحة ١٧٣ ا إلى لوحة ١٨٩ ب .

للعمل ، وكان يطمح بعد فشله فى افتتاح بطليوس ، إلى الاستيلاء على مدينة باجة الحصينة ، أهم قواهد ولاية الغرب فى تلك المنطقة ، وكانت باجة ، مذ أقيل عن ولايتها سيدراى بن وزير ، وبسط الموحدون سيادتهم على قواعد ولاية الغرب ، قد أسندت ولايتها إلى بعض الحفاظ الموحدين ، فتولاها عمر بن تيمصلت التينمللى مدى حين ، ولكنه لم يفلح فى تهدئة ما ثار بها من الفتن بين أعيانها وبين الدهماء ، فعزل عنها ، وولى عليها طالب بربرى من الحفاظ يسمى عمر بن سحنون ، وكان عاجزاً ، يغلب عليه الطيش ، فاتصل به الدهماء والسفلة ، فقربهم وأدناهم ، وأذكى بذلك حفيظة الخاصة ، واشتد التقاطع بين الناس ، واستوزر ابن سحنون أيضاً رجلا بدوياً من سفلة باجة ، فاضطهد الناس ، واجترأ على سفك الدماء ، وأخذ أموال الناس بالباطل ، وضربهم بالسياط ، وعاونه فى طغيانه وعسفه قاضى البلدة عمر بن زرقاج ، وكان مغرضاً ظلوماً ، واستبد ابن سحنون بأمره ، وغلب رأى السفلة والفجار فى كل شىء ، وقتل بعض الأعيان والفقهاء ظلما وعدواناً ، واشتدت الفتنة بالمدينة ، ووصلت أخبارها إلى إشبيلية .

كانت هذه حال مدينة باجة فى أواخر سنة ٥٦٧ هـ ( صيف سنة ١١٧٢ م ) حينما كان الخليفة أبو يعقوب يوسف يسير فى جيوشه إلى غزوة وبذة ، ولم تكن هذه الأحوال بخافية على النصارى ، وهم يحتلون يابرة وقصر أبى دانس القريبتين من باجة . وكان من الواضح أن مدينة هذه حالها لا يمكن أن تثبت أمام العدو المغير . ومن ثم فقد أعد ألفونسو هنريكيز عدته لافتتاح باجة ، وسار إليها ومعه قائده ومعاونه جيرالدو سمبافور فى قواته . وكان من سوء الطالع أن الحراسة بأبراج المدينة كانت مهملة ، وكان بعض هذه الأبراج دون سمار ( حراس ) يلازمونها بالليل ، لأن الوالى ابن سحنون كان يحبس رواتبهم ولا يدفعها ، وكان برج القصبة المسمى « برج الحمام » قد ترك على هذا النحو دون سامر . فنى ليلة مستهل المحرم سنة ٥٦٨ هـ ( ٢٣ أغسطس سنة ١١٧٢م ) نفذ النصارى ضربتهم . وكانت ليلة مظلمة على النحو الذى كان يختاره جيرالدو سمبافور لإنزال ضرباته . فوصل النصارى إلى السور زحفاً على أيديهم وأرجلهم ، ووضعوا السلالم على برج القصبة دون أن يشعر بهم أحد من السُّمَّار ، ثم صاحوا صيحتهم المأثورة ، وما كاد الوالى عمر بن سحنون وأهل المدينة يستيقظون من سباتهم حتى كان النصارى قد ملكوا برج القصبة ، ثم احتلوا القصبة فى الحال . وساد الذعر فى المدينة ،

وتدلى الوالى من السور وفر إلى ميرتلة ، وماكاد يسفر الصبح حتى احتل النصارى المدينة ، وأخذ الناس يفرون من أبوابها ، وهم يُقتلون ويأسرون من كل جانب ، وقتل وأسر جماعة من أعيانها ، واستولى النصارى على مقادير عظيمة من المال والمتاع .

ولكن النصارى لم يمكثوا طويلا بباجة . ذلك أن ملك البرتغال رأى من ضخامة المدينة ما يجعل الدفاع عنها مهمة شاقة ، ومن ثم فقد هدم أسوارها ، وأحرق ربوعها ، ثم غادرها بعد أن احتلها نحو خمسة أشهر ، وتركها قاعاً صفصفاً وذلك فى أول يناير سنة ١١٧٣ ، وقد أخذ معه كثيراً من أهلها الأسرى . وقد أنقذ معظم هؤلاء فيما بعد بالفداء ، وهاجر كثير منهم بعد خراب مدينتهم إلى مراكش(١) .

ولم يتحرك الموحدون لسقوط باجة على هذا النحو ، وشغل الخليفة أبو يعقوب منذ وصوله إلى إشبيلية بالعمل على استكمال بناء المسجد الجامع ، وكذلك باستكمال بناء القصور والبساتين التى بدئ بإنشائها خارج باب جهور حسبما تقدم فى موضعه . وكذلك باستقبال وفود أهل إفريقية . بيد أنه لم يمض على ذلك أشهر قلائل ، حتى اضطر الموحدون إلى خوض غمار حرب جديدة جاءت تلك المرة من ناحية قشتالة .

ففى أوائل شهر شعبان سنة ٥٦٨ هـ ( مارس ١١٧٣ م ) خرجت من مدينة آبلة حملة قشتالية بقيادة حاكمها الكونت خمينو ، وهو الذى تعرفه الرواية الإسلامية بالقومس « سان منوس » وأحياناً بشانشوا وتصفه بالأحدب عظيم النصارى بآبلة — وقد كان بالفعل أحدباً — وتسميه أحياناً « بأبى بردعة » إذ كان لعاهته يركب على بردعة وثيرة من الحرير مسرجة بالذهب مرصعة بأصناف الجواهر(٢) . وكان الكونت خمينو قد قام قبل ذلك بعدة غارات مخربة فى ربوع الأندلس ، ووصل

---

( ١ ) نقلنا هذه الرواية المفصلة عن غزو البرتغاليين لباجة عن ابن عذارى ( البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٠٠ — ١٠٣ ) . وقد سبق أن أشرنا فى موضعه إلى الرواية الموجزة التى يقدمها إلينا ابن صاحب الصلاة عن ذلك الحادث وهو ينسب وقوعه إلى شهر ذى القعدة سنة ٥٥٧ هـ ( ديسمبر سنة ١١٦٢ م ) أعنى إلى ما قبل التاريخ الذى يقدمه إلينا ابن عذارى بعشرة أعوام . (كتاب المن بالإمامة لوحة ١١٨ ب ) . ولم يذكر لنا صاحب البيان المغرب مصدره . ولكن يبدو من أسلوب روايته أنها ربما نقلت عن ابن صاحب الصلاة من السفر الثالث من كتابه وهو لم يصل إلينا . وفى هذه الحالة تكون رواية ابن صاحب الصلاة الأولى من قبيل اللبس والخلط .

( ٢ ) ابن صاحب الصلاة فى « المن بالإمامة » لوحة ١٩٠ ب ، وروض القرطاس ص ١٣٩ والبيان المغرب القسم الثالث ص ٩٨ .

فى بعض غاراته إلى طريف والجزيرة الخضراء ، وأصاب المسلمين من عدوانه وعيثه بلاء كثير . فخرج بقواته من آبلة واخترق قلب الأندلس جنوبا ، حتى عبر نهر الوادى الكبير ، من المخاضة الواقعة بين حصن بلمة وحصن الجرف ، وانحدر إلى أحواز إستجة ، ثم اتجه صوب قرطبة ، وعاث فى واديها ، وخرب الزروع واستاق من الماشية نحو خمسين ألفاً ومن البقر نحو مائتين . وأسر من المسلمين نيفاً ومائة وخمسين رجلا ، ثم سار بغنائمه وأسراه غرباً صوب مخاضة بليارش على مقربة من بلدة القصر . وكان الخليفة فى تلك الأثناء قد أمر بالتأهب لمحاربة القشتاليين ، وقمع غارتهم ، فخرج من إشبيلية فى الثالث عشر من شهر شعبان ( ٥٦٨ هـ ) جيش موحدى بقيادة السيد أبى زكريا يحيى ابن الخليفة ، ومعه أخوه أبو إبراهيم إسماعيل ، وعدة من الحفاظ والأشياخ وقوة مختارة من الفرسان والرجالة العرب بقيادة أشياخهم ، وعبر هذا الجيش الموحدى نهر الوادى الكبير على عجل ، وسار صوب قرطبة ، فوصلها فى السادس عشر من شعبان ، وكان القشتاليون قد وصلوا عندئذ إلى بلدة القصر . واجتمع أقطاب الموحدين بالشيخ أبى حفص عمر ، واستقر الرأى على مطاردة القشتاليين وقتالهم أينما كانوا ، ولو فى أراضى قشتالة ذاتها ، وانضم الشيخ أبو حفص بقواته إلى الجيش الموحدى ، واستعد بالميرة والعلوفات ، وخرج الموحدون فى أثر النصارى ، تتقدمهم قوة من الطلائع بقيادة الحافظ أبى عمران موسى بن حمّو الصنهاجى صاحب يابرة ، لتخبرهم تباعاً عن تحركات النصارى ، وكان القشتاليون قد توقفوا فى سهل متسع يعرف بفحص « كركوى » على مقربة من قلعة رباح . فأدرك الموحدون أنهم يريدون اللقاء فى هذا المكان ، فاستعدوا للمعركة فى عزم وثقة ، ولكنهم ما كادوا يقتربون من السهل ، حتى عجل النصارى بالمسير ، ولكنهم لما أيقنوا بأنه لامفر من القتال ، لجأوا إلى جبل وعر فى نهاية السهل . فاندفع الموحدون وراءهم إلى أعلى الجبل ، واشتبكوا معهم فى معركة حامية . وكان الكونت خمينو ، يراقب المعركة من خيمته فى أعلى الجبل ، ويحث جنوده على التفانى فى القتال ، ولكن ما كاد ينتصف النهار ، حتى رجحت كفة الموحدين ، ومزقت صفوف القشتاليين ، وكثر القتل فيهم ، ووصل الموحدون إلى خيمة الكونت خمينو ، وقتلوه واحتزوا رأسه ، ولم يفلت من القتل من النصارى سوى نحو مائتين ، فروا فى مختلف الأنحاء . وفنى فى هذه المعركة معظم أهل آبلة ، واستولى المسلمون على عتاد

النصارى ، وأسلابهم وخيولهم ، واستنفدوا الأسرى المسلمين ، واستردوا سائر الغنائم والماشية والدواب ، وأعيدت بأمر الخليفة إلى أصحابها . وجمعت رؤوس النصارى ، وحملت إلى الشيخ أبي حفص وابنى الخليفة « ومبزت» رأس الكونت خمينو ، وأرسلت إلى الخليفة بإشبيلية ، عن يد يحيى ابن الوزير أبى العلاء بن جامع فوصل إليها فى ظرف يومين بعد رحلة مسرعة شاقة ، ووصف للخليفة تفاصيل الموقعة المظفرة ، وفى الحال قرعت الطبول إيذاناً بالنصر ، وأقبل الناس للتهنئة. وفى يوم الجمعة الحادى والعشرين من شعبان ، وهو ثالث يوم بعد الموقعة ، وصل الشيخ أبو حفص وصحبه إلى إشبيلية ، واجتمع بالخليفة وأخيه السيد أبى حفص ، بقصره بالقصبة ، واصطف الموحدون من الأشياخ والطلبة والفقهاء والكتاب والخطباء ، وأدخل المهنئون وفق مراتبهم . وخطب الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن عمر أولا باللغة البربرية ، ثم بالعربية ، وخطب من بعده الحافظ أبو بكر بن الجد ، فالقاضى أبو موسى عيسى بن عمران ، فالفقيه أبومحمد المالقى. ثم أنشد الشعراء تهانيهم ومدائحهم ، ووزعت عليهم الصلات ، وكان يوماً حافلا(١).

وشجع هذا النصر الذى تلا فشل حملة وبذة الموحدين على الاضطلاع بغارات جديدة فى أراضى النصارى . فجهزت حملة موحدية قوامها أربعة آلاف فارس ، وقوة من أجناد الأندلس والعرب ، بقيادة أبى يعقوب يوسف بن أبى عبد الله تيجيت وعبد الله بن إسحق بن جامع ، ومعها مقادير عظيمة من الميرة والعتاد برسم مدينة بطليوس تحملها قافلة من ثلاثة آلاف دابة ، وغادرت هذه الحملة إشبيلية ، إلى بطليوس ، وبعد أن سامت أحمال الميرة إلى واليها أبى غالب بن أبى الحسين ، سارت نحو الشمال الشرقى حتى وصلت إلى أحواز مدينة طلبيرة ، الواقعة على نهر التاجُه غرب طليطلة ، فعاثت فى بسائطها ، وقتلت وأسرت كثيراً من النصارى ، واستولت على أكثر من ثلاثين ألفاً من الغنم والدواب ، وعادت سالمة إلى إشبيلية . ثم خرجت من بعدها حملة أخرى ، وسارت إلى أراضى طليطلة ، وعاثت فيها واستولت على كثير من الغنائم . وأدرك النصارى أن موجة الغزو الموحدى قد تشتد ، وقد تتخذ صورة مزعجة ، فجنحوا إلى المسالمة ، وطلب المهادنة . وكان أول من سعى منهم إلى الصلح ، الكونت نونيو دى لارا حاكم طليطلة ، ثم تلاه

---

(١) ابن صاحب الصلاة فى المن بالإمامة لوحة ١٩١ إلى ١٩٤ ب ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٩٩ .

ألفونسو الثامن ملك قشتالة ، فبعث رسله إلى الخليفة ، وحذا ألفونسو هنريكيز ملك البرتغال حذو ملك قشتالة فبعث رسله فى طلب المهادنة والصلح . واستمرت المفاوضات نحو شهرين ، وانتهت بعقد الهدنة بين الخليفة وبين الملوك النصارى ، وذلك فى شهر ذى الحجة سنة ٥٦٨ هـ ( يوليه سنة ١١٧٣ م ) . وكان مما حمل الخليفة على إيثار الصلح والمهادنة رغبته فى التفرغ لأعمال الإنشاء ، وتعمير البلاد التى خربت أو أقفرت من جرّاء العدوان والغزو ، مثل باجة وغيرها[1].

وكان من أثر عقد المهادنة بين الخليفة وبين ملك البرتغال ، أن شعر حليفه وقائده السابق جيرالدو سمبافور أو جراندة الجليقى ، أنه فقد مكانته ، وأغلقت فى وجهه فرص المغامرة ، والعمل المثمر ضد الموحدين ، ولم يجد أمامه خيراً من الدخول فى خدمة الخليفة ، فسار فى صحبه ، وهم ثلاثمائة وخمسون جندياً ، إلى إشبيلية ( سنة ٥٦٨ هـ — ١١٧٤ م ) والتمس قبوله « عبداً وخديماً » للخليفة ، فقبل الخليفة التماسه ، ووصله بالإحسان والإكرام ، واستمر الأمر على ذلك بضعة أشهر ، ولكن ألفونسو هنريكيز ، الذى لم يرقه تصرف قائده السابق لبث يرسل إليه سراً ، أن يتحيل فى الارتداد والعود ، فضبطت بعض هذه المراسلات وظهر منها موقف جيرالدو المريب ، فقبض عليه وعلى أصحابه ، وأرسلوا إلى سجلماسة ، واعتقلوا هنالك تحت رقابة شديدة . ثم حاول جيرالدو الفرار من معتقله ليجوز إلى البحر ، فقبض عليه ، وقتل واحتز رأسه ، وانتهى بذلك وفى رواية أخرى أن جيرالدو لبث فى خدمة الخليفة حتى غادر الخليفة إشبيلية إلى المغرب فى شعبان سنة ٥٧١ هـ ( مارس ١١٧٦ م ) ، فسار فى ركابه ، وعينه الخليفة للخدمة فى « السوس » وهنالك اتصل جيرالدو بالمكاتبة سراً بمليكه السابق ، وعرض عليه أن يجهز أسطولا لفتح هذه الناحية ، وبذلك تمتلك البرتغال بعض مراكز على ساحل المغرب ، فضبط الموحدون بعض هذه الرسائل[2] ، وأصدر الخليفة أوامره سراً إلى عامله بدرعة موسى بن عبد الصمد بأن يقسم جيرالدو

---

( ١ ) ابن صاحب الصلاة فى « المن بالإمامة » لوحة ١٩٥ ا و ب . وهنا ينتهى السفر الثانى من كتاب المن بالإمامة ، وهو الذى وصل إلينا من مؤلف ابن صاحب الصلاة ، ولم يصلنا شىء من السفر الثالث الذى يبدأ بحوادث سنة ٥٦٩ هـ .

( ٢ ) أخبار المهدى بن تومرت ص ١٢٧ ، ويقول لنا البيذق إن مصرع جيرالدو كان فى سنة ٥٦٥ هـ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ١٠٣ . وراجع **H. Miranda : Imperio Almohade, T. I. p. 271**

وأصحابه على القبائل ، ثم يقتل جيرالدو لما ثبت من خيانته ، وبعث بجيرالدو إلى درعة فسار إليها مع أصحابه ، وهنالك نفذت فيهم أوامر الخليفة .

وكانت أهم الحوادث فى العامين التاليين ، قبيل عودة الخليفة إلى المغرب ، تتلخص فى اهتمام الخليفة بتعمير قواعد الغرب ، وفى تجدد الحرب مع ملك ليون .

وقد بدأ الخليفة أعمال التعمير ، بإصلاح حصن القلعة الواقع على مقربة من جنوب شرقى إشبيلية على النهر المتفرع من الوادى الكبير[1] ، وكان قديماً حصنها الشرقى ، وقد تهدم منذ أيام الفتنة الكبرى ، وبقى خراباً حتى ذلك الوقت ، فأمر الخليفة بإصلاحه وبنائه ليعود إلى الاضطلاع بمهمته الدفاعية القديمة ، وكان ذلك فى صفر سنة ٥٦٩ هـ .

وفى العام التالى كانت حركة تعمير مدينة باجة ، التى خربها وهدمها ألفونسو هنريكيز قبل إخلائها . ففى شهر ربيع الآخر سنة ٥٧٠ هـ ، استقبل الخليفة وفداً من أعيان أهل باجة السابقين ، ووعدهم بتعمير مدينتهم لكى يعودوا إلى سكناها ، ويسكنها معهم الموحدون ، وعين لولايتهم الحافظ أبا بكر بن وزير ، ثم سار أهل باجة إلى مدينتهم الخربة ، وكانوا يومئذ نحو مائتى شخص من مختلف الأعمار ، ونزلوا بقصبتها ، وبنوا بابها ، وأصلحوا ما تيسر من أطلالها . ثم لحق بهم عمر ابن تيمصلت والى شلب فى نحو خمسمائة رجل من الفعلة والبنائين ، ومعهم أقواتهم وأدواتهم ، وأخذوا فى بناء أسوارها فكملت فى نحو شهر ، وجاءت للعمل والبناء حشود أخرى ، واستمر العمل فى التعمير بهمة . وحدث خلال ذلك أن استبد والى باجة أبو بكر بن وزير وأساء السيرة ، ونشب بينه وبين أهلها خلاف شديد وفتنة ، فأمر الخليفة بعزله ، وتعيين عمر بن تيمصلت والياً مكانه ، فأحسن السيرة ، وأقبل الناس على البناء والتعمير ، وإنشاء الرباع والحدائق ، وراجت الأحوال ، وانتظم التعامل ، واستعادت باجة سابق عمرانها ورونقها[2] .

وفى أثناء ذلك كانت الحرب قد نشبت بين الموحدين وبين فرناندو الثانى ملك ليون المسمى «بالببوج» ، وكان فرناندو قد عقد الصلح والتحالف مع الخليفة الموحدى منذ سنة ٥٦٤ هـ ( ١١٦٩ م ) ، وعاونه الموحدون فى حربه ضد آل لارا زعماء قشتالة ، وأبدى هو ، حينما حاصر البرتغاليون مدينة بطليوس ، وكادوا يستولون

---

( ١ ) وهو بالإسبانية **Alcalá de Guadaira** ويسمى كذلك قلعة جابر .

( ٢ ) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٠٧ .

عليها ، صدق ولائه ، فحارب إلى جانب الموحدين ، وعاون على صد البرتغاليين وهزيمتهم . وامتنع هو عن مهاجمة بطليوس مرة أخرى ، حينما نبهه الموحدون إلى الحلف المعقود ، وأبدى تمسكه بعهوده ، وهاداه الخليفة وأثنى عليه ، واستمر محافظاً على صداقته وولائه حتى أواخر سنة ٥٦٩ هـ ( ١١٧٤ م ) ، وعندئذ ، ودون أية أسباب ظاهرة ، قام فجأة بغزو أراضي الأندلس وعاث فيها ، فاستشاط الخليفة غضباً ، وأمر بمهاجمته فى عقر داره ، فجهزت حملة كبيرة من الموحدين والعرب ، وخرجت من إشبيلية بقيادة السيد أبى حفص أخى الخليفة فى الثالث من صفر سنة ٥٧٠ ( ٣ سبتمبر ١١٧٤ م ) ، وسارت تواً إلى مدينة ردريجو قاعدة ملك ليون ، وهى التى تسميها الرواية الإسلامية بمدينة « السبطاط »[١] ، ومعه الزعيم القشتالى فرناندو ردريجيس صهر ملك ليون حليف الموحدين القديم فى صحبه ، وهاجم الموحدون مدينة ردريجو ، فلم ينالوا منها مأرباً ، ولكنهم استولوا على حصنى القنطرة وناضوش من أماكن الحدود . ولما عاد السيد أبو حفص إلى إشبيلية ، احتفل بهذا النصر الجزئى ، وأنشد الشعراء قصائدهم كالعادة[٢] . ولزم فرناندو ملك ليون السكينة مدى حين . بيد أنها كانت هدنة قصيرة ، وكانت كما سنرى مقدمة لسلسلة من الغزوات الجديدة ، التى قام بها الملوك النصارى فى أراضى المسلمين .

* * *

وفى أوائل سنة ٥٧٠ هـ ، عقد الخليفة أبو يعقوب زواجه بالحسناء زائدة إبنة زعيم الشرق الراحل محمد بن سعد بن مردنيش ، وتم زفافها إليه فى اليوم الخامس من ربيع الأول فى مهرجان فخم . وكان صداقها الرسمى خمسين ديناراً ، ولكن الخليفة وجه إليها ألف دينار من الذهب العين « تأنيساً » . ولما وصلت إليه بإشبيلية مع أهلها وحشمها ، وهب لها كل ما كان أهداه إليه إخوتها عند فتح مرسية . وكان زواجاً موفقاً ، حظيت فيه العروس الأندلسية ، واستأثرت بحب الخليفة وإعجابه ، حتى كان يضرب المثل بهذا الحب للحسناء ذات العينين الزرقاوين . وحظى قومها آل مردنيش لدى الخليفة ، وأحرزوا فى كنفه رفيع

---

( ١ ) سبق أن أوضحنا أن مدينة السبطاط ، هى تحريف لكلمة **cibdad** القشتالية ومعناها المدينة .

( ٢ ) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٠٤ .

المناصب والرتب ، حسبما أشرنا إليه فى موضعه . وكان من غرائب القدر أن يحظى عقب الثائر الذى شغل الموحدين ودوخ جيوشهم زهاء ربع قرن ، على هذا النحو فى بلاط عدوه القديم المتغلب عليه[١] .

وكانت إقامة الخليفة بالأندلس تدنو عندئذ من نهايتها ، وقد استطالت هذه الإقامة زهاء خمسة أعوام ، منذ مقدم الخليفة فى رمضان سنة ٥٦٦هـ . ولم تدون الرواية فى الأشهر الأخيرة من إقامته شيئاً من الحوادث ، سوى ما أمر به من نكبة محمد بن عيسى المشرف على إشبيلية وذلك فى شهر جمادى الآخرة من سنة ٥٧١هـ ، وكانت قد لحقت به ريب كثيرة من تبديد الأموال واختلاسها ، فقبض عليه ، وتولى بلول بن جلداس محاسبته ، واستصفاء أمواله ، ثم عذب وضرب حتى مات ، وألقيت جثته فى الوادى الكبير .

ولم يمض على ذلك سوى أسبوعين أوثلاثة ، حتى اتخذت الأهبة لسفر الخليفة ، وذلك بعد أن عقد لأخيه أبى على الحسن على ولاية إشبيلية ، ولأخيه أبى الحسن على ، على ولاية قرطبة . وغادر أبو يعقوب إشبيلية فى ركبه فى يوم الخميس الرابع عشر من شهر شعبان سنة ٥٧١ هـ ( ٢٨ فبراير سنة ١١٧٦ م ) ومعه الخواص والأشياخ والعمال والكتاب ، ومن زعماء الأندلس بنو مردنيش ، وإبراهيم بن همشك وغيرهم . وكان خروجه من مرسى طلياطة على نهر الوادى الكبير ، فجاز النهر ثم البحر إلى طنجة ، وأقام بها أياما ، ثم غادرها إلى مراكش ، فوصلها فى منتصف شهر رمضان من نفس العام ( ٢٨ مارس سنة ١١٧٦م ) .

---

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٠٨ ، وأعمال الأعلام لابن الخطيب ص ٢٧١ ، وروض القرطاس ص ١٣٩ . وكذلك : **A. P. Ibars : Valencia Arabe, T.I. p. 552**

# الفصل الرابع

## أحداث الأندلس والمغرب

عصف الوباء بالمغرب والأندلس . ثورة عشائر صنهاجة وإخمادها . غزو النصارى لمدينة قونقه وحصارها . غزو الموحدين لأراضى طليطلة وطلبيرة . استمرار النصارى فى حصار قونقه . سقوطها فى أيديهم . غزو ملك ليون لفحص إشبيلية . إغارة البرتغاليين على باجة وطريانة . خروج جند باجة للغزو وهزيمتهم . فرار أهل باجة وإخلاؤها . رواية أخرى عن غزوة البرتغاليين . نكبة الخليفة لبنى جامع وغيرهم . وفاة بعض السادة والأعلام . غزو السفن الموحدية لثغر أشبونة ، ورد السفن البرتغالية . غزوة ثانية للسفن الموحدية . نفاذ الموحدين إلى الداخل وهزيمتهم . معركة بحرية بين الموحدين والبرتغاليين . هزيمة البرتغاليين ومقتل قائدهم . غزو الموحدين لأراضى يابرة . غزو البرتغاليين لأراضى إشبيلية . غزوهم للشرف ومدينة شلوقه ، وحصن القصر . غزو القشتاليين لأراضى قرطبة . توغلهم فى وادى إشبيلية وجنوبى الأندلس . استيلاؤهم على حصن شنتفيلة . غزو الموحدين لحصن شنتفيلة وحصاره . صموده وإقلاعهم عنه . إخلاء النصارى له . غزو الموحدين لأحواز طلبيرة . اشتباكهم مع القشتاليين . هزيمة القشتاليين وفرارهم . القائد ابن وانودين والخليفة . وفاة السيد أبى حفص . ثورة بنى الرند بقفصة . مسير الخليفة لقمع الثورة . تواطؤ ابن المنتصر مع بنى الرند ونكبته . محاصرة قفصة وضربها . تسليم ابن الرند . حث الخليفة العرب على الجهاد . استجابة العرب لدعوته . سياسة الموحدين فى اصطناع العرب . دأبهم فى التقلب وعدم الولاء . عقد الصلح بين ملك صقلية والخليفة . رسالة الفتح . عود الخليفة إلى مراكش . مسير الخليفة إلى تينملل . زيارته لقبر المهدى وقبر أبيه . قصيدة فى مناقب المهدى وصحة دعوته . توسيع مدينة مراكش . ثورة عرب سليم وهزيمتهم للسيد أبى الحسين وأسره . حوادث أخرى .

لم تمض أسابيع قلائل على استقرار الخليفة أبى يعقوب بمراكش ، حتى ظهر الوباء بالمدينة فى أول شهر ذى القعدة ( سنة ٥٧١ هـ ) واشتد حتى بلغت ضحاياه كل يوم نحو مائتى شخص ، ولما ضاق الجامع بالصلاة على الموتى ، أمر الخليفة أن يُصلى عليهم بسائر المساجد . وأصيب معظم السادات بالوباء ، ومات منهم أربعة من إخوة الخليفة هم السيد أبو عمران ، ثم أخوه السيد أبو سعيد ، فأخوهما السيد أبو عبد الله ، ثم أخوهم السيد أبو زكريا والى بجاية . ومات من أشياخ الموحدين أبو سعيد بن الحسن ، وكان الشيخ أبو حفص عمر الهنتاتى قادماً من قرطبة قاصداً إلى مراكش ، فأصيب بالوباء وتوفى بالطريق ، ودفن برباط الفتح ، وفقدت الدولة الموحدية بوفاته ركناً من أهم أركانها ، وبناء من أعظم بناتها ، وقائداً من

أعظم قوادها . ومرض الخليفة ، وأخوه السيد أبو حفص ، وأشرفا على الهلاك ، ولكن تداركتهما العناية حتى شفيا . ويروى ابن صاحب الصلاة عن السيد أبى على الحسن ولد الخليفة ، أنه كان يموت كل يوم فى القصور الملكية ثلاثون شخصاً حتى فنى معظم رجال الحاشية والخدم والعبيد . واستمر هذا الوباء مدى عام ، وساد الروع حاضرة مراكش ، حتى أنه لم يكن يدخلها أو يخرج منها أحد ، وكان كل من خرج منها فارا ، أدركه الوباء فى الطريق . ولم يكن عصف الوباء قاصراً على أهل المغرب ، بل تعدى أثره إلى الأندلس ، ولكن فيما يبدو بصورة مخففة . وكان من أعيان المتوفين به بالمغرب والأندلس غير من تقدم ذكرهم ، القاضى أبو يوسف حجاج بن يوسف قاضى مراكش ، وكان من أعلام عصره زهداً وعدلا وأدباً ، والكاتب أبو الحكم بن هرودس المالقى ، وأخوه أبو الحسن وكان من جلة الطلبة ، والكاتب أبو الحسن على بن زيد الإشبيلى ، ومشرف غرناطة أبو عمرو بن أفلح ، وجملة كبيرة من أعيان الطلبة والموحدين فى مختلف القواعد(١).

وماكادت تنقشع غمة الوباء حتى وقعت ثورة محلية بين عشائر صنهاجة القبلية ، وذلك فى أواخر سنة ٥٧٢ هـ (أوائل ١١٧٧ م) ، فخرج الخليفة إلى غزوها فى الرابع من شهر ذى القعدة ، وترك أخاه السيد أبا حفص بمراكش والياً عليها ، فلما وصل إلى رباط هسكورة فى منطقة الأطلس ، جنوب شرقى مراكش ، أمر ببناء محلة للعسكر ، وقدم عليهم ابنه السيد أبا يوسف يعقوب ، وعاد إلى مراكش فى الحادى والعشرين من ذى القعدة ، ولم تلبث العشائر الثائرة أن أذعنت وعادت إلى الطاعة ، وانصرف جميع الأجناد(٢) .

وفى تلك الآونة بدأت حوادث الأندلس تتخذ وجهة خطيرة سواء فى الشرق أو الغرب . وكان التهادن والصلح قد عقد بين الخليفة وبين الكونت نونيو دى لارا صاحب طليطلة ، وألفونسو الثامن ملك قشتالة ، وألفونسو هنريكيز ملك البرتغال ، فى سنة ٥٦٨ هـ ( ١١٧٣م ) أثناء إقامته بإشبيلية . ولكن الخليفة ماكاد يغادر شبه الجزيرة عائداً إلى المغرب فى شعبان سنة ٥٧١ هـ ، حتى عول النصارى على نقض الهدنة ، واستئناف الغزو . فى العام التالى ، أعنى سنة ٥٧٢ هـ ( ١١٧٧ م ) وهى السنة التى عصف فيها الوباء بمراكش ، خرج ألفونسو الثامن

---

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٠٩ و ١١٠ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٠

(٢) البيان المغرب القسم الثالث ص ١١٠ .

ملك قشتالة ، ووصيه السابق الكونت نونيو دى لارا ، لغزو الأراضى الإسلامية ، واتجها بقواتهما صوب مدينة قونقة (كونكة) وهى تقع فوق ربوة عالية صعبة المنال عند ملتقى نهرى شقر ووقر ، فى شمال شرقى الأندلس ، وهى من حصون ولاية بلنسية الأمامية المنيعة ، وضربا حولها الحصار ( يناير سنة ١١٧٧ م ) . ويقول ماريانا ، إن قونقة كانت من المدن التى أنشأها المسلمون فى تلك المنطقة ، لأنه لم يرد ذكرها فى سير الرومان والقوط ، وان ملك أراجون كان مشتركاً فى تلك الحملة ، وقد تحالف مع ملك قشتالة على محاربة المسلمين ، كما اشترك فى الحملة إلى جانب الملكين عدد كبير من القادة ومشاهير الفرسان مثل بيدرو أسقف برغش ، وسانشو صاحب آبلة ، وريموندو صاحب بلازنسيا ، وغيرهم[1]. فبعث أهل قونقة إلى الخليفة بمراكش فى طلب الغوث والنجدة ، فبعث الخليفة إلى ولديه السيد أبى على لحسين والى إشبيلية ، والسيد أبى الحسن على والى قرطبة ، بأن يتحركا لغزو جهات طليطلة وطلبيرة ، وذلك حتى يرغم القشتاليون على رفع الحصار عن قونقه . فخرج السيد أبو الحسن فى عسكر قرطبة فى اليوم السادس من شوال ( أبريل ١١٧٧ ) ، وأغار على أراضى طليطلة وأثخن فيها ، وارتد بغنائمه سالماً إلى قرطبة. وخرج السيد أبو على الحسين بعسكر إشبيلية فى أربعة آلاف فارس ، وأربعة آلاف راجل ، وسار شمالا صوب طلبيرة ، وعاث فى أحوازها ، واستولى على كثير من السبى والغنائم ، وعبر نهر تاجُه فى قارب كان قد حمله معه من إشبيلية على أكتاف الرجال ، وفاء لنذر نذره .

على أن هذه الحركة التى نظمها الموحدون لغزو أراضى قشتالة ، لم تؤت ثمرتها فى إنجاد قونقة ، فقد لبث القشتاليون على حصارها ، ولم تصدهم قسوة الشتاء ، ولامناعة المدينة المحصورة ، ولاضخامة حاميتها ، عن المضى فى إرهاقها والتضييق عليها . والظاهر من أقوال الرواية النصرانية أن الموحدين قد أرسلوا صوب قونقة بعض أمداد مباشرة لإنجادها ، لكن هذه الأمداد عاقتها عن الوصول إلى المدينة المحصورة ، قوات ملك أراجون حليف ملك قشتالة . وطال حصار قونقة زهاء تسعة أشهر من أواخر يناير سنة ١١٧٧ حتى أواخر سبتمبر ، وفى النهاية اضطرت المدينة المسلمة ، بعد أن استنفدت كل وسائل الدفاع ، وبعد أن برّح بها الجوع والحرمان إلى التسليم إلى ملك قشتالة ، وذلك فى اليوم

(١) Mariana : Historia General de Espana; Lib. Undecimo, Cap. XIV.

الحادى والعشرين من شهر سبتمبر سنة ١١٧٧ م . وفى الحال حول مسجدها الجامع إلى كنيسة ، جرياً على القاعدة المأثورة ، ثم جعلت قونقة بعد ذلك مركزاً لأسقفية . وكان سقوط قونقة ثغرة خطيرة فى خط الدفاع الشمالى الشرقى الأندلسى ، وكان تقصير الموحدين أوقصورهم فى إنجادها وإنقاذها ، ينطوى على خطأ عسكرى خطير ، يكشف عن ناحية أخرى من ضعف وسائل الدفاع الموحدى عن شبه الجزيرة الأندلسية(١) .

وانتهز فرناندو الثانى ملك ليون ( الببوج ) نفس الفرصة فى الإغارة على الأراضى الإسلامية ، فخرج فى نفس العام بقواته ، وغزا فحص إشبيلية ، ووصل فى سيره حتى أحواز مدينتى أركش وشريش جنوبى إشبيلية . فخرج إليه الموحدون من إشبيلية ، فلحقوا بقوة من النصارى من أهالى منطقة طلبيرة ، وكانت قد خرجت فيما يبدو للانتقام مما أنزله الموحدون بأراضيهم ، فأحدق بها الموحدون وأبادوها ، واستنقذوا ماكان معها من الغنائم والماشية ، وأسروا منها ثمانين ، أخذوا إلى إشبيلية ، وهنالك ضربت أعناقهم أمام الخليفة والأشياخ(٢) .

ووقع فى غربى الأندلس عدوان مماثل ، وحذا ألفونسو هنريكز ملك البرتغال حذو زميليه ملكى قشتاله وليون ، وقد اعتزم مثلهما أن ينقض الهدنة التى عقدها مع الخليفة الموحدى . وكانت مدينة باجة هدفه مرة أخرى ، وخصوصاً بعد أن عمرت واستردت رونقها ورخاءها . فسار إليها فى سنة ٥٧٣ هـ (١١٧٧م) ، وانتسف زروعها ، ونازلها أياما حتى كاد أن يتغلب عليها . ثم تركها وسار بقواته ، نحو الجنوب الشرقى قاصداً وادى إشبيلية ، ووصل فى زحفه إلى ضاحيتها الغربية طريانة ، فدخلها وأثخن فيها ، وعاث فى أحواز إشبيلية ، ثم عاد إلى باجة مرة أخرى فوجدها خراباً وقد أقفرت من أهلها . وكان أهل باجة فى تلك الأثناء قد أصابتهم محنة أخرى ، اضطرتهم إلى الفرار من مدينتهم . وذلك أن واليها عمر بن تيمصلت خرج منها بجندها وفرسانها ، وانضم إليه على بن وزير حاكم حصن شربة فى قواته ، وأغار على فحص أبى دانس ، ونشب القتال بينهم وبين النصارى . وفى أثناء ذلك قدمت قوة من نصارى شنترين فجأة ، وانضموا

---

( ١ ) راجع البيان المغرب — القسم الثالث ص ١١٠ و ١١١ . وراجع أيضاً :
M. Lafuente : Historia General de Espana T. III p. 326 & 327

( ٢ ) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١١١ .

إلى إخوانهم فى مقاتلة الموحدين ، فانهزم ابن تيمصلت وزميله ابن وزير وأسرا مع جملة من الفرسان والرجالة، وقتل الباقون ، ووصل الخبر إلى أهل باجة فبادروا بالفرار من مدينتهم فى الأهل والولد ، وقصدوا إلى مدينة ميرتلة ، وذلك فى شهر المحرم سنة ٥٧٤ ( يوليه ١١٧٨ م ) وحُمل ابن تيمصلت وزميله ابن وزير إلى قلمرية ، وعذب ابن تيمصلت ثم أعدم ، وافتُدى ابن وزير بأربعة آلاف دينار(١) .

وتقدم إلينا الرواية البرتغالية قصة هذه الغزوة فى صورة أخرى ، فتقول إن الذى قام بغزو وادى إشبيلية هو سانشو ولد ألفونسو هنريكيز وولى عهده ، وذلك فى سنة ١١٧٨ م ( ٥٧٤ هـ ) وأنه بعد أن هزم الموحدين فى ظاهر طريانة ، سار لغزو مدينة لَبلة، ولكنه علم عندئذ أن جيشاً موحدياً قد سار لمحاصرة باجة ، فبعث قوة مختارة من فرسانه ردت الهاجمين ، ثم لحق بها بباقى قواته ، وهزم الموحدين مرة أخرى ، وبقيت باجة فى حوزة البرتغاليين(٢) .

وعلى أثر هذه الأحداث المتوالية ، استدعى الخليفة أبو يعقوب أخويه السيدين أبا على الحسين والى إشبيلية ، وأبا الحسن على والى قرطبة إلى حضرة مراكش ، فغادرا إشبيلية فى اليوم الثامن من شهر رمضان سنة ٥٧٣ هـ ( ٢٧ فبراير ١١٧٨م ) ، ومعهما أبو على بن عزون وجملة من أشياخ الموحدين بإشبيلية، فلما وصلا إلى الحضرة بحث معهما الخليفة طويلا فى شئون الأندلس ، وفيما يجب عمله لمحاربة النصارى ، والدفاع عن أراضى المسلمين . ثم أمرا بالانصراف إلى شبه الجزيرة ، فوصلا إليها فى المحرم سنة ٥٧٤ هـ ( يونيه ١١٧٨ م ) .

وفى نفس هذا العام ، أعنى سنة ٥٧٣ هـ ، قام الخليفة أبو يعقوب بحركة تطهير شاملة بين وزرائه وعماله ، فنكب وزيره أبا العلاء إدريس بن إبراهيم ابن جامع وبنيه ، فقبض عليهم ، واستصفى أموالهم ، ونفاهم إلى مدينة ماردة بالأندلس ، فأقاموا بها فى فقر وضعة نحو ستة أعوام ، حتى توفى الخليفة أبو يعقوب ، فعفا عنهم ولده الخليفة أبو يوسف. وكان بنو جامع يتولون وزارة الخليفة الموحدى ، منذ بداية حكمه ، أى منذ خمسة عشر عاماً ، وعميدهم إدريس ابن جامع ، هو ولد إبراهيم بن جامع من أصحاب أهل الدار ، أعنى من قرابة

---

( ١ ) البيان المغرب ص ١٠٧ و ١٠٨ .

( ٢ ) H. Miranda : Imperio Almohde, T. I. p. 277 & 278

المهدى ابن تومرت ، فلما سما شأنهم ، وتمكن سلطانهم ، طغوا كالعادة وبغوا ، فنكبهم أبو يعقوب ليتخلص من نيرهم . ونكب الخليفة عدة آخرين من العمال ، وأعدم بعضهم ، وكان من هؤلاء أبو عبد الله بن المعلم مشرف إشبيلية ، وابن فاخر مشرف سجلماسة ، وأبو الحسن على بن حنون ، وغيرهم(١) .

وفى سنة ٥٧٤ هـ ، بعث الخليفة ابنى السيد أبى الحسن والى قرطبة ، إلى الأندلس ، فولى أبو زيد نظر غرناطة ، وولى أبو محمد عبد الله نظر مالقة . ولم يمض قليل على ذلك حتى توفى أخو الخليفة السيد أبوعلى الحسن والى إشبيلية ، ثم أخوه السيد أبو العباس بن عبد المؤمن ، وكان والياً لمدينة سجلماسة . وتوفى من أعلام الدولة الموحدية اثنان كانا من أركان حكومة الخليفة أبى يعقوب ومجاسه ، وهما أبو على بن عزون عميد زعماء الأندلس ، والفقيه أبومحمد المالقى شيخ طلبة الحضر بمراكش ، وكان من أقطاب الفقه والحديث والأدب ، وحظى لدى الخليفة عبد المؤمن ، ثم ولده الخليفة أبى يعقوب ، وعلت مكانته فى الدولة الموحدية . وكان يتولى رفع المسائل للخليفة ، وتوصيل الرسائل الواردة ، وقراءة كتب الفتح ، ويتقدم للخطابة والصلاة بأمير المؤمنين ، ويرفع إليه أشعار الشعراء فى المناسبات المختلفة ، ويلازم ركب الخليفة فى الحركة والغزو ، وكان له أدب بارع ، وشعر جيد ولاسيما فى الزهد(٢) .

— ١ —

وفى العام التالى أعنى سنة ٥٧٥ هـ ( ١١٧٩ م ) اشتد عدوان البرتغاليين فى البر والبحر . وكان ألفونسو هنريكيز قد نقض الهدنة التى عقدها مع الخليفة ، وقام البرتغاليون بغزو وادى إشبيلية ، ثم مدينة باجة ، حسبما قدمنا ، ثم تفاقم عدوانهم تباعاً ، فعندئذ قرر الخليفة أن يقوم الموحدون بمجهود لرد هذا العدوان ، فبعث أسطوله المرابط بسبتة تحت إمرة غانم بن مردنيش لغزو شواطئ البرتغال ، فسار غانم صوب أشبونة ، وهاجم ثغرها ، واستولى على سفينتين من سفن البرتغاليين ، وعاد بأسطوله إلى سبتة . فعندئذ سارت حملة بحرية برتغالية إلى الجنوب وهاجمت شواطئ ولاية الغرب الجنوبية ، واستولت على جزيرة شلطيش ، الواقعة قبالة

---

( ١ ) المراكشى فى المعجب ص ١٣٧ ، والبيان المغرب. القسم الثالث ص ١١٢ ا .
( ٢ ) البيان المغرب القسم الثالث ص ١١٢ .

ولبة فى مصب نهر أوديل ، وأسرت كثيراً من سكانها المسلمين فبقوا فى الأسر حتى افتداهم الخليفة أبو يعقوب[1] .

ورأى الخليفة أن ينتقم لهذا الاعتداء، وأمر لانشغاله بغزوة قفصة التى نتحدث عنها بعد ، بأن يقوم أسطوله بغزو البرتغال مرة أخرى ، فخرج غانم بن مردنيش وأخوه أبو العلاء ، فى حملة بحرية ، سارت إلى مياه البرتغال الشمالية ، ورست عند سان مارتن دى بورتوشمالى أشبونه ، ونفذ المسلمون إلى الداخل، وحاولوا مهاجمة « بورتو دى موس » . التى تقع على مقربة من الشاطئ ، ولكن حاكمها البرتغالى الأميرال روبينو استنفر لمعاونته أهالى مدينة شنترين ، وألكانينا التى تقع فى شمالها ، فهرعوا لإنجاده ، ودبر البرتغاليون كميناً للمسلمين فى جبال منديجا ، وانقضوا عليهم ، فمزقت صفوفهم ، وأسر غانم وأخوه أبو العلاء ، وجملة من أكابر الموحدين ، واحتوى البرتغاليون على أسلابهم ومتاعهم ، واستولوا على السفن الموحدية وأسروا من كان فيها ، وساروا بها إلى أشبونة . ووقعت هذه الموقعة فى منتصف شهر المحرم سنة ٥٧٦ هـ ( ١١ يونيه سنة ١١٨٠م ) . وكتب غانم من موضع اعتقاله إلى الخليفة يلتمس الغرث ، فعهد الخليفة إلى أخيه هلال ابن مردنيش بالنظر فى فداء أخيه ، فجمع المال اللازم لذلك ، وبعث به إلى إشبيلية ، فحمل إلى النصارى ، وأفرج عن غانم وأخيه وبقية أصحابه[2] ، ولكن سنرى أن ابن عذارى ، وهو صاحب هذه الرواية ، يقدم لنا رواية أخرى عن افتداء غانم وأصحابه .

وحاول البرتغاليون أن يُتبعوا نصرهم ، بنصر أكبر ، فحشدوا أسطولا ضخماً سار بحذاء شاطئ ولاية الغرب بقيادة الأميرال روبينو ، وكان مقصد البرتغاليين أن يقوموا بضربة لميناء سبتة مركز الأسطول الموحدى . ولكن قائد أسطول سبتة عبد الله بن جامع ، وهو الذى تولى قيادته منذ أسر غانم ، خرج منها بأسطوله ، وخرج فى نفس الوقت أسطول إشبيلية بقيادة أبى العباس الصقلى ، واجتمعت الأساطيل الموحدية بثغر قادس ، ثم سارت منه مجتمعة صوب شاطئ البرتغال الجنوبى ، ثم انعطفت لتسير شمالا بحذاء شاطئ ولاية الغرب ، وكان الأسطول البرتغالى قد بدأ عندئذ سيره نحو الجنوب ، فالتقى الفريقان قبالة رأس إسبكل

---

( ١ ) البيان المغرب القسم الثالث ص ١١٣ .

( ٢ ) البيان المغرب القسم الثالث ص ١١٦ .

جنوبى أشبونة ، وكان من غرائب القدر أن وقع هذا اللقاء فى الخامس عشر من شهر المحرم سنة ٥٧٧ هـ ( أواخر مايوسنة ١١٨١ ) أعنى لعام بالضبط من اليوم الذى وقعت فيه موقعة « بورتودى موس » وعلى مقربة من المكان رسا فيه الأسطول الموحدى بقيادة غانم بن مردنيش ، فنشبت بين الأسطولين معركة بحرية عنيفة هزم فيها البرتغاليون شر هزيمة ، وقتل قائدهم الأميرال روبينو ، واستولى المسلمون على عشرين سفينة من سفنهم ، وأسروا نحو ألف وثمانمائة أسير ، وغنموا غنائم وفيرة من العتاد والسلاح ، وكان نصراً موحدياً باهراً . وبادر القائدان الظافران ابن جامع والصقلى ، فسارا إلى الحضرة فى الأسرى ، والغنائم وقدماها إلى أمير المؤمنين ، فأمر بتخصيص بعض الأسرى لافتداء غانم بن مردنيش وأصحابه ، وأمر بإعدام الباقين[١] .

وقام القشتاليون فى نفس الوقت ببعض الغارات فى أراضى الأندلس من ناحية طليطلة ، وأثخنوا فيها كالعادة تخريباً وسبياً ، بيد أن المعركة الرئيسية ،كانت تضطرم بين الموحدين والبرتغاليين . ذلك أنه فى نفس الوقت الذى وقعت فيه المعارك البحرية السالفة الذكر بين الفريقين ، كان الموحدون يغزون أراضى البرتغال الداخلية ، ففى فاتحة سنة ٥٧٧هـ ، خرجت من إشبيلية ، حملة موحدية قوية بقيادة أبى عبد الله محمد بن وانودين الهنتاتى ، وسارت نحو الشمال الغربى صوب مدينة يابرة وعاثوا فى أحوازها ، وانتسفوا الزروع والكروم والثمار والأشجار ، واستاقوا كثيراً من الماشية ، وامتنع البرتغاليون داخل المدينة ، والمسلمون يثخنون فى كل ناحية من نواحيها . وفى ذات يوم خرج البرتغاليون من يابرة فجأة ، واشتبكوا مع الموحدين فى معركة حامية ، فهزموا شر هزيمة ، وقتل منهم عدد جم ، ولجأ الباقون إلى المدينة . فأقام عليها ابن وانودين يومين ثم انصرف عنها ، وهاجم فى طريق عودته حصناً آخر للنصارى واستولى عليه ، وسبى رجاله ونساءه ، ثم عاد إلى إشبيلية ، مثقلا بالغنائم والأسرى ، وذلك فى أواخر شهر محرم سنة ٥٧٧هـ ( يونيه سنة ١١٨١ م )[٢] .

ولم يمض قليل على ذلك حتى خرجت حملة برتغالية ، من أهل شنترين ، وعبرت نهر وادى يانه ، وسارت حتى فحص الشرّف من أحواز إشبيلية ، فخرج

---

( ١ ) البيان المغرب القسم الثالث ص ١١٧ و١١٨ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤١ .

( ٢ ) البيان المغرب القسم الثالث ص ١١٧ .

إليهم عسكر إشبيلية ، ونشب بينهما قتال عنيف قتل فيه من النصارى مائة وسبعون ، ولكن البرتغاليين كانوا قد رتبوا كميناً ، فخرج كمينهم واشترك فى المعركة ، فانهزم المسلمون وقتل منهم جماعة . وأغار القشتاليون فى نفس الوقت على مدينة إستجة وعلى أراضى قرطبة . ثم انصرفوا دون قتال ولا مقاومة ، وأحيط الخليفة بمراكش علما بما حدث(١) .

وفى العام التالى ، أعنى سنة ٥٧٨ هـ ( ١١٨٢ م ) تفاقم عدوان البرتغاليين على أراضى الأندلس . فخرجت حملة برتغالية قوية قوامها فرسان شنترين ، وأشبونة ، وعبرت نهر وادى يانه ، واجتاحت الشرف جنوبى إشبيلية ، حتى وصلت إلى مدينة شلوقة(٢) ، على مصب الوادى الكبير ، فنازلتها فى ألف فارس وألف راجل ، واقتحمتها ، وقتلت من كان بها من المسلمين ، واحتوت على كثير من الأسرى والغنائم ، ثم استولت على حصن القصر(٣) وغيره من حصون تلك الناحية ، وعادت من طريق لَبلة ، دون أن يقف فى سبيلها أحد . وتفاقم فى نفس الوقت عدوان القشتاليين ، فخرج ألفونسو الثامن أو أذفنش الصغير كما تسميه الرواية الإسلامية فى قواته ، وسار أولا صوب قرطبة ، وعسكر فى ظاهرها ، وذلك فى الرابع من شهر صفر ، ثم بعث طوائف من قواته سارت نحو مالقة ، ورندة ، وغرناطة ، فساد الاضطراب فى تلك القواعد الأندلسية ، وارتفعت الأسعار ، واشتد الضيق . واجتمع مجهود الموحدين الدفاعى حول إشبيلية ، والتحوط لحمايتها ، فوجه قائدها أبو عبد الله بن وانودين قواته إلى الأنحاء المجاورة ، وتعزيزها ، ووجه بعض عسكره إلى دفع القشتاليين عن فحص قرمونة ، كل ذلك والقشتاليون يثخنون فى الأراضى الواقعة بين قرطبة وإشبيلية ، دون أن يردهم أحد ، ثم سار ألفونسو الثامن إلى منازلة مدينة إستجّة ، وكاد يتغلب عليها ، ولكن واليها أبا محمد بن طاع الله الكومى استطاع أن يصمد فيها . فغادرها ألفونسو صوب إشبيلية ، وهو يعيث فى تلك المنطقة فساداً وتدميراً . وفى خلال ذلك تغلب القشتاليون الزاحفون نحو الجنوب على بعض حصون رندة ، وأسروا فيه ألفاً وأربعمائة من المسلمين ، وانتسفوا الزروع

---

( ١ ) البيان المغرب القسم الثالث ص ١١٨ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤١ .

( ٢ ) وهى بالإسبانية سان لوكار **Sanlucar la Mayor**

( ٣ ) وهو بالإسبانية **Aznalcázar**

فى أراضى رندة والجزيرة ، واستولوا على مقادير عظيمة من الغنائم من الماشية وغيرها .

وكان استيلاء ألفونسو الثامن على حصن شنتفيلة[١] أخطر ما حققه القشتاليون فى تلك الغزوة . وكان من أمنع حصون المنطقة الواقعة بين إشبيلية وقرطبة ، يقع فوق ربوة عالية وله أسوار منيعة ، فاستولى عليه القشتاليون فى السابع عشر من صفر ( ٢٢ يونيه ١١٨٢ م ) وأسروا من كان به من المسلمين ، وعددهم سبعمائة بين رجال ونساء، فافتداهم أهل إشبيلية بمبلغ ألفين وسبعمائة وخمسة وسبعين ديناراً ، جمعت من الناس بالمسجد الجامع . وعنى ألفونسو الثامن بتقوية الحصن، ومضاعفة أهباته الدفاعية ، ووضع به حامية من خمسمائة فارس وألف راجل ، وأسكنه بالنصارى وشحنه بالأقوات والعدد والسلاح ، ويروى أنه قال ، حين الاستيلاء على هذا الحصن : « الآن آخذ قرطبة وإشبيلية » . وأقلع ملك قشتالة بعد ذلك فى قواته عائداً إلى بلاده ، وذلك فى الثالث عشر من ربيع الأول سنة ٥٧٨هـ ( ١٧ يوليه ١١٨٢ م ) بعد أن قضى فى غزوته خمسة وأربعين يوماً[٢] .

وأدرك الموحدون خطورة فقد حصن شنتفيلة، فقرروا العمل على استرداده . واستدعى السيد أبو إسحق ولد الخليفة ووالى إشبيلية ، الحشود من سائر أنحاء الأندلس برسم الجهاد ، وخرج فى قواته فى غرة ربيع الآخر سنة ٥٧٨ هـ . وحدث فى نفس الوقت أن خرجت حامية شنتفيلة النصرانية لتغير على بعض الأنحاء المجاورة ، فخرج إليها المسلمون من قرمونة وغيرها، وقاتلوها وهزموها، وقتلوا منها سبعين فارساً ، وأسروا جملة أخرى ، واستاقوا الأسرى إلى السيد أبى إسحاق فأمر بإعدامهم فى الطريق . وشجع هذا النصر المحلى، الموحدين على منازلة حصن شنتفيلة ، فطوقوه من كل ناحية ، وأحكموا حصاره ، وقطعوا عنه المؤن والعلوفات ، واستمر الحصار ستة وأربعين يوماً حتى مات أكثر الجند والدواب ، وفى خلال ذلك خرج ألفونسو الثامن فى قواته من طليطلة قاصداً إنجاد الحصن المحصور ، ووصل نبأ مقدمه إلى الموحدين فى السادس من جمادى الأولى ، فرفعوا الحصار ، وانصرفوا عائدين إلى إشبيلية. وعلى أثر ذلك وصل ألفونسو الثامن إلى الحصن فلم يجد به سوى خمسين فارساً ، هم البقية من حاميته الخمسمائة ، ومن

---

( ١ ) وهو بالإسبانية **Santafila**

( ٢ ) البيان المغرب القسم الثالث ص ١١٩

الرجالة ستمائة من ألف ، وقد هلك الباقون من أثر الحصار والمرض والوباء ، فأمر بإخلاء الحصن ، والرحيل عنه وذلك فى الخامس عشر من جمادى الثانية ( ١٦ سبتمبر سنة ١١٨٢ م )[١] .

وما كادت تنتهى غزوة شنتقيلة ، حتى قرر الموحدون استئناف الغزو ، واهتم أبو عبد الله بن وانودين بحشد الجند ، فاجتمع منهم بإشبيلية عدد جم ، وفى الثامن من جمادى الآخرة سنة ٥٧٨ هـ ( ٩ سبتمبر ١١٨٢ م ) ، غادر إشبيلية فى عسكره ومعه أشياخ الموحدين وأشياخ الأندلس ، وسلك طريقاً منعرجة حتى وصل إلى حصن بتة ، وهنالك ميز عسكره ، وعقد الأشياخ مجلساً للشورى ، تقرر فيه السير إلى غزو مدينة طلبيرة الواقعة غربى طليطلة على نهر التاجُه ، وهى أولى مدن الحدود القشتالية . ومن ثم فقد اتجه الجيش الموحدى نحو الشمال ، وعبر جبال الشارات ( سيرا مورينا ) ثم نهر وادى يانه ، وكان الجو قاتماً ملبداً بالضباب ، فسار حتى أضحى على مقربة من طلبيرة دون أن يفطن النصارى إلى مقدمه ، وهنالك التقى الموحدون بسرية من النصارى فى نحو عشرين فارساً ، فأحدقوا بهم وأسروهم جميعاً إلا دليلهم فإنه نجح فى الفرار . ولما أشرف الموحدون على وادى التاجُه ، لم يجدوا أمامهم مغنما ، فعلموا أن الدليل الفار قد أخطر بمقدمهم ، فأسرعوا السير حتى وصلوا إلى ظاهر طلبيرة ، وذلك فى منتصف جمادى الآخرة .

وفى اليوم التالى احتل الموحدون ربوة مرتفعة تقع على نحو ميل من المدينة ، وضربوا محلتهم بها . ودهش النصارى لإقدام المسلمين على دخول بلادهم على هذا النحو ، بعد أن مضت مدة طويلة لم يجرؤ أحد منهم على الظهور فى تلك المنطقة ، وفى الحال حشدوا قواتهم واستنجدوا بأهل الحصون المجاورة ، وخرجوا لقتال الموحدين ، وكان الموحدون خلال ذلك قد غادروا الربوة منصرفين ، بعد ما امتلأت أيديهم من الغنائم ، فجد النصارى فى اتباعهم مصممين على قتالهم ، ولما أصبح الموحدون على قيد نحو ثمانية أميال من المدينة ، توقفوا وراء أحد التلال واستعدوا للقاء النصارى ، وابن وانودين يحثهم على الجهاد والتفانى ، إذ هم فى أراضى العدو بعيدين عن بلادهم . ثم نشبت المعركة المرتقبة بين الفريقين فثبت الموحدون ، وحملوا على القشتاليين حملة صادقة ، هزموا على أثرها ،

---

( ١ ) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٢٠ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤١ .

ومزقت صفوفهم ، وولوا الأدبار ، وقتل منهم حسبما تقول الرواية الإسلامية أكثر من عشرة آلاف بين فارس وراجل ، واستولى المسلمون على عتادهم ، ودوابهم . وعاد الموحدون إلى إشبيلية ظافرين مغتبطين . وبعث ابن وانودين إلى الخليفة بكتاب الفتح ، فسر به ، ولكنه أبدى غضبه على ولده السيد أبي إسحاق لأنه لم يحضر تلك الغزوة التي نسبت برمتها إلى ابن وانودين ، مع أنه من جملة قواده ، وعاقب كل من تخلف من الأجناد ، وحرمهم من العطاء .

ومن جهة أخرى فإنه يبدو من رد الخليفة على ابن وانودين ، وقوله فى خطابه إليه « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » . يبدو من ذلك أن الخليفة قد غص بالانتصارات المتوالية التى أحرزها ابن وانودين ، دون بقية الأشياخ والسادة . وكان أبو عبد الله محمد بن وانودين هذا ، هو ولد أبى يعقوب يوسف ابن وانودين الهنتاتى من كبار أهل خمسين ، وقد نشأ فى مهاد العلم ، ونظمه الخليفة عبد المؤمن فى مجلسه ، وقربه إليه ، ثم قدمه على العسكر وولاه القيادة وصحبه فى سائر غزواته فى إفريقية . ولما أوفد إلى الأندلس ظهر فى محاربة ابن مردنيش ثم فى هزيمته لنصارى شنترين ، وفى قيادة قافلة الميرة إلى بطليوس ، ثم فى رد القشتاليين عن قرمونة ، وأخيراً فى غزوة طلبيرة . ومع ذلك كله فسرعان ما غضب عليه الخليفة لأتفه الأسباب ، وذلك عند مقدمه إلى إشبيلية فى العام التالى ، حيث وشى فى حقه الوشاة ، فأمر بتغريبه إلى غافق ، على مقربة من قلعة رباح ، فلبث بها حيناً ، ثم نزح إلى تونس واستقر بها[1] .

— ٢ —

نرجع الآن قليلا إلى الوراء لنستعرض ما حدث فى المغرب فى تلك الأعوام القلائل التى اشتد فيها عدوان القشتاليين والبرتغاليين على الأندلس ، والتى شغل فيها الخليفة بالأحداث الداخلية عن تجديد حركة الجهاد .

وكان من أهم الأحداث الداخلية ، فى تلك الفترة ، وفاة السيد أبى حفص عمر بن عبد المؤمن أخى الخليفة أبى يعقوب ، وكان أبوحفص شقيقه وكبيره ، وأمهما حسبما تقدم حرة هى زينب بنت القاضى موسى بن سليمان الضرير ، من أصحاب خمسين ، وكانت وفاته فى شهر ربيع الأول من سنة ٥٧٥ هـ ( أغسطس

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٢٣ و١٢٤ و١٣٢ .

١١٧٩ م ) ، وكان أبو حفص ، منذ أيام أبيه الخليفة عبد المؤمن يشغل مكانة ملحوظة فى الدولة الموحدية ، وقد تولى فى فتوته ولاية تلمسان ، ثم وزر لأبيه بعد مصرع وزيره عبد السلام الكومى . ولما توفى عبد المؤمن سنة ٥٥٨ هـ ، بثغر سلا ، قام السيد أبو حفص مع الشيخ عمر بن يحيى الهنتاتى كبير الأشياخ بتنظيم البيعة لأخيه الأصغر أبى يعقوب يوسف ، تنفيذاً لوصية أبيه ، ثم تولى له فى البداية منصب الحجابة على نحو ماكان لأبيه . واضطلع السيد أبو حفص بأعظم قسط فى حملة شرقى الأندلس، وفى الأعمال الحربية التى انتهت بتحطيم مملكة الشرق ، وانتهاء ثورة ابن مردنيش ، وكان على العموم يحتل فى دولة أخيه الخليفة أبى يعقوب أعظم مكانة ، وفى تدبير الأمور والبت فيها أعظم نصيب.

وفى نفس هذا العام أعنى سنة ٥٧٥ هـ وقعت الثورة بمدينة قفصة الواقعة جنوبى القيروان على مشارف الصحراء . وكانت قفصة منذ ضعفت دولة بنى باديس الصنهاجيين بإفريقية ، منزل إمارة محلية فى ظل بنى الرند ، وعميدهم عبد الله ابن محمد بن الرند ، فاستقل بقفصة ، وقوى أمره تباعاً ، وبسط سلطانه على عدة من البلاد المجاورة حتى قسنطينة ، ثم خلفه فى الإمارة ولده المعتز ، ثم حافده يحيى بن تميم بن المعتز . ولما قام عبد المؤمن فى سنة ٥٥٤ هـ بغزوته لإفريقية ، استولى على قفصة ، ونقل بنى الرند إلى بجاية ، وعين لقفصة واليا موحدياً . وكان والى قفصة الموحدى حينما وقعت الثورة، عمران بن موسى الصنهاجى ،وكان قد أساء السيرة ، ووقع الاضطراب بالمدينة ، فبعث لفيف من أهلها إلى بجاية فى دعوة على بن عبدالعزيز بن الرند المعروف بالطويل، فقدم إليهم ، واضطرمت الثورة ، وقتل عمران بن موسى ، واستبد ابن الرند بالمدينة ، وكان يشجعه فى ثورته ، ويحرض العرب للانضمام إليه قريبه القائد على بن المنتصر من بجاية[١].

فلما نميت هذه الأنباء إلى الخليفة أبى يعقوب ، اعتزم السير بنفسه إلى إفريقية ، فخرج فى قواته من مراكش فى الخامس عشر من شوال سنة ٥٧٥ هـ ( مارس سنة ١١٨٠م ) ، ويروى لنا ابن صاحب الصلاة ، أن البركة الدورية التى كانت تعطى للعسكر فى تلك الغزوة كانت تبلغ فى كل مرة ألف ألف دينار ، سوى العلوفات والمرافق ، مما يدل على ضخامة الجيش الذى حشد[٢]، واستمر الخليفة

---

( ١ ) ابن خلدون ج ٦ ص ١٦٦ .

( ٢ ) البيان المغرب القسم الثالث ص ١١٢ .

فى سيره وئيداً ، واحتفل فى الطريق بعيد الأضحى ، وقدم ولده السيد أبا يوسف يعقوب على مقدمة الجيش ، فسبقه إلى تلمسان . ووصل الخليفة فى قواته إلى تلمسان فى أوائل سنة ٥٧٦ هـ ، ولما كملت أهبة الجيش وتعبئته ، خرج من تلمسان فى الثانى عشر من شهر صفر ، متجهاً إلى إفريقية ، فلما وصل إلى بجاية نزل بها . وتحقق لديه أن القائد على بن المنتصر متواطئ مع قريبه الثائر بقفصة ، وأنه يوالى تحريضه على الاستمرار فى الثورة ، ويوالى تحريض العرب لتأييده ، وضبطت بمنزله رسائل تؤيد ذلك ، فقبض عليه ، وأحيط بسائر أمواله . ثم سار الخليفة من بجاية ، فلما قرب من قفصة ، بادر أشياخ العرب من رياح إلى المثول لديه ، وتأكيد ولائهم وطاعتهم . وضرب الخليفة الحصار حول قفصة وضربها بالمجانيق ، حتى اضطر على بن الرند إلى الإذعان والتسليم ، أو التوحيد وفقاً لقول البيذق ، ثم ارتد إلى تونس وفقاً لرواية أخرى ، واحتل الموحدون قفصة وذلك فى رمضان سنة ٥٧٦ هـ (فبراير ١١٨١م) وعقد الخليفة بولاية إفريقية والزاب لأخيه السيد على أبى الحسن ، وبولاية بجاية أو ولاية القيروان على قول آخر لأخيه السيد أبى موسى[١] .

وانتهز الخليفة هذه الفرصة لتجديد مساعيه فى استمالة العرب الذين ينزلون بهذه الأنحاء من إفريقية وترغيبهم فى الجهاد بالأندلس . وقد شرح لنا هذه المساعى فى رسالة الفتح التى وجهها إلى الموحدين بقرطبة . وذلك أنه لما اجتمع لديه أشياخ قبائل رياح وكبراؤهم من جميع الأنحاء ، ذُكروا بما كان لأسلافهم من فضل سابغ فى نصرة الدين ، وأنه يجدر بهم أن يحذوا حذو أسلافهم فى الاضطلاع بتلك المهمة الجليلة ، وأن خير ما يصنعونه فى ذلك هو المساهمة فى الجهاد بالأندلس ، وغزو النصارى بها ، سيما وقد تفاقم عدوانهم فى الآونة الأخيرة ، وأن أولئك الأشياخ أبدوا أنهم على أتم أهبة للاستجابة إلى هذه الدعوة ، وأن قبائل رياح كلها ، وبطونها وأفخاذها ، أبدوا جميعاً أنهم يقبلونها بقلوب خالصة ، ونيات صافية ، وأنهم أخذوا بالفعل فى الحركة والاحتشاد ، كل طائفة صوب الطريق التى تفضلها وتراها أيسر لمجازها ، وتوالت جموعهم حتى امتلأت بها تلك البطاح والسهول . وكان ممن حضر ذلك الجمع الشيخ أبو سرحان مسعود بن سلطان بن زمام ، فلما وقع العزم على الاستجابة ، أخذ فى الرحيل بأهله وولده وكل من تبعه من

---

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ١١٤ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٠ و٢٤١ ، وكتاب أخبار المهدى ابن تومرت ص ١٢٥ ، والمعجب للمراكشى ص ١٤١ ، و١٤٢ .

قومه ، وبادر الجميع بالامتثال والرحيل ، مبايعين ربهم على الجهاد فى سبيله . وينوه الخليفة فى رسالته ، بأنه كان من أثر هذه الحركة أنه لم يبق بإفريقية من طوائف العرب ، سوى من نزل من قبائل سليم بجهات طرابلس وما وراءها مشرقاً نحو برقة والإسكندرية ، وأن هؤلاء قد خوطبوا أيضاً بما خوطب به زملاؤهم ، وكوتبوا ، وبذلت لهم أطيب الوعود ، وأنذروا فى نفس الوقت ، أملا فى استمالتهم واستجلابهم إلى مشاركة إخوانهم .

وقد سبق أن أشرنا إلى خطة السياسة الموحدية فى استمالة القبائل العربية النازلة بإفريقية وحشدها فى الجيوش الموحدية ، وهى الخطة التى وضعها الخليفة عبدالمؤمن منذ افتتاحه لثغر المهدية فى سنة ٥٥٥ هـ ، وتابعها ولده الخليفة أبو يعقوب وضاعف اهتمامه بتنفيذها حسبما سبق أن فصلناه . وقد كان للسياسة الموحدية من تحقيق هذه الخطة هدف مزدوج أشارت إليه رسالة الفتح المتقدمة الذكر ، وهو أولا تخليص إفريقية من طوائف العرب النازلة بها ، وكف أيديهم عنها ، وذلك لما كان من استطالتهم عليها ، وتخريبهم لربوعها ومدنها ، وثانيا لاستنفارهم إلى الجهاد والاستعانة بهم فى تدعيم الجيوش الموحدية المرسلة إلى الغزو بالأندلس . وقد استطاع الخليفة أبو يعقوب أن يحشد بالفعل منهم حشوداً عظيمة عبرت معه إلى الأندلس ، واشتركت مع الجيوش الموحدية فى غزوة وبذة وفى محاربة النصارى فى مختلف الميادين فى شبه الجزيرة . ولما أراد أبو يعقوب العودة إلى المغرب فى سنة ٥٧١ هـ ، فرق العرب الباقين فى مختلف القواعد ، فأنزل بعضهم فى نواحى قرطبة ، وبعضهم فى نواحى إشبيلية الجنوبية ، مما يلى مدينة شريش وأعمالها .

بيد أن السياسة الموحدية لم تجن خيراً من هذه الخطة فى استمالة العرب وحشدهم إلى جانبها ، وذلك لما كانوا يتسمون به من حب التقلب ، ومجانبة الولاء ، والسعى إلى اجتناء المغانم المادية بأى الوسائل . وسوف نرى فيما بعد ، كيف انقلبوا إلى محاربة الدولة الموحدية ، وغدوا من أخطر خصومها فى منطقة إفريقية(١) .

وحدث أيضاً أثناء وجود الخليفة بإفريقية ، أن وفدت إليه رسل ملك صقلية ، النورمانى ، وهو يومئذ وليم الطيب ، يطلب الصلح والمهادنة ، وكان ملوك صقلية

---

(١) راجع رسالة الخليفة أبى يعقوب المتضمنة لشرح مساعيه فى حشد العرب فى كتاب « مجموع رسائل موحدية ». الرسالة السادسة والعشرون ص ١٤٩ — ١٥٧ ، وراجع أيضاً كتاب المعجب للمراكشى ص ١٢٤ و ١٢٥ ، وروض القرطاس ص ١٣٩ .

منذ استرد منهم عبد المؤمن ثغر المهدية ، وقضى على سلطانهم فى شواطئ إفريقية قبل ذلك بعشرين عاما ، يخشون بأس الدولة الموحدية ، ويؤثرون السلم معها . ويقول لنا صاحب المعجب إن ملك صقلية عقد الصلح مع الخليفة على أن يحمل إليه إتاوة سنوية اتفق عليها ، وأنه أرسل إلى الخليفة تحفاً وذخائر نفيسة منها حجر ياقوت يسمى « الحافر » لاستدارته بمثل حافر الفرس ، وقد وضع فى تابوت مصحف عثمان ، الذى كان يبالغ الموحدون فى تكريمه[1].

وعلى أثر افتتاح قفصة ارتحل الخليفة إلى تونس ، وكتب من هنالك برسالة الفتح إلى حضرة مراكش ، وإلى الأندلس — إلى إشبيلية وقرطبة — وبعث مع الرسالة بقصيدة طويلة من نظم طبيبه العلامة الفيلسوف أبى بكر بن طفيل ، يشيد فيها بالفتح ، وبالجيش الموحدى ، وقد جاء فى أولها :

ولما انقضى الفتح الذى كان يرتجى ... أصبح حزب الله أغلب غالب
وساعدنا التوفيق حتى تبينت ... مقاصدنا مشروحة بالعواقب
وأنجزنا وعد من الله صادق ... كفيل بإبطال الظنون الكواذب
وهبوا كما هب النسيم إذا سرى ... ولم يتركوا بالشرق علقة آيب
وأذعن من عليا هلال بن عامر ... أبى ولبى الأمر كل مجانب
يغص بهم عرض الفيافى وطولها ... وقد زحموا الآفاق من كل جانب

ولما وصل كتاب الفتح ، وقصيدة ابن طفيل ، إلى السيد أبى إسحاق ولد الخليفة ووالى إشبيلية ، عم البشر والسرور ، ومثل لديه أشياخ إشبيلية للتهنئة ، وخطب بين يديه الفقيه ابن الجد ، وأنشد أبو مروان عبد الملك بن صاحب الصلاة صاحب تاريخ « المن بالإمامة » قصيدة جاء فيها :

خير البشائر صوغت حمل المنى ... بقفول خير خليفة وإمام
وافت كما ابتسم الأمان لخائف ... وانهل أثر المحل سكب غمام[2]

ثم قفل الخليفة عائداً إلى حضرة مراكش ، فوصل إليها فى شهر صفر سنة ٥٧٧ هـ ، وعلى أثر وصوله ، سارت وفود الأندلس إلى العدوة لتهنئته ، يتقدمهم ولده السيد أبو إسحاق والى إشبيلية ، وابن وانودين وغيره من أشياخ الموحدين ،

---

(١) المراكشى فى المعجب ص ١٤٢ .
(٢) البيان المغرب القسم الثالث ص ١١٥ .

وقدمت كذلك وفود قرطبة وغرناطة ومرسية لغرض التهنئة ، وأقامت هذه الوفود بالحضرة إلى أواخر العام ، ثم انصرفت عائدة إلى بلادها .

وفى خلال ذلك علم الخليفة أن طائفة من أهل جبل السوس الواقع على مقربة من بلاد هرغة وهى قبيلة المهدى ابن تومرت ، قد استولوا لأنفسهم على ما تحصل من معدن الفضة الذى يستخرج من ذلك الجبل ، وذلك بطريق الاغتصاب من عمال المنجم الخاص بذلك ، فخرج الخليفة فى بعض عسكره من مراكش فى أول صفر سنة ٥٧٨هـ ، ولما وصل إلى الجبل المذكور ، أمر ببناء حصن عليه ، ووضع به حامية ، ثم سار من هنالك إلى تينملل فزار قبر المهدى وقبر والده ، الخليفة عبد المؤمن ، وكان معه وفد من أهل إشبيلية قدم لزيارته بالحضرة قبل ذلك بقليل ، ويقول لنا ابن صاحب الصلاة وقد كان ضمن هذا الوفد ، إنه زار القبرين بصحبة أبى بكر بن زهر ، وأبى الوليد ابن رشد ، وأن الخليفة زار فضلا عن القبرين الغار الذى فى جبل إيجليز حيث كان يتعبد المهدى والمسمى برابطة الغار ، والرابطة الأخرى المسماة رابطة وانسرى ، وكان الناس يأخذون التراب منهما للتبرك ويجعلونه على المرضى . وأمر الخليفة بهذه المناسبة ، أن ينظم الشعراء قصائدهم فى رثاء المهدى ورثاء أبيه ، وأن يذكروا مناقبهما ومآثرهما ، وأغدق عليهم صلاته الكثيرة[1] .

وكان مما قيل بهذه المناسبة ، فى ذكر مناقب المهدى ، وشرح أسطورته ، والإشادة برسالته ، قصيدة نظمها شاعر من أهل الجزائر ، وفد على أبى يعقوب بتينملل ، وأنشد قصيدته على قبر المهدى ابن تومرت بمحضر من الخليفة وشيوخ الموحدين ، وإليك بعض ما ورد فيها :

سلام على قبر الإمام الممجد ... سلالة خير العالمين محمد
ومشبهه فى خلقه ثم فى اسمه ... وفى اسم أبيه والقضاء المسدد
ومحيي علوم الدين بعد مماتها ... ومظهر أسرار الكتاب المسدد
أتتنا به البشرى بأن يملأ الدنا ... بقسط وعدل فى الأنام مخلد
ويفتتح الأمصار شرقاً ومغرباً ... ويملك عربا من مغير ومنجد
فمن وصفه أقنى وأجلى وإنه ... علاماته خمس تبين لمهتدى
زمان واسم والمكان ونسبة ... وفعل له فى عصمة وتأيد

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٢٠ — ١٢٢ .

وتتبعه للنصر طـائفـة الهدى ... فأكرم بهم إخوانُ ذى الصدق أحمد
هى الثلة المذكور فى الذكر أمرها ... وطائفة المهـدى بالحق تهتـدى
بهم يقمع الله الجبابرة الأولى ... يصدون عن حكم من الحق مرشد
ويقطـع أيـام الجبـابرة التى ... أبادت من الإسـلام كل مشيد
فيغزون أعراب الجزيرة عنـوة ... ويعرون منها فارساً وكأن قد
ويفتتحون الروم فتح غنيمـة ... ويعرون منها فارساً وكأن قد
ويفتتحون الروم فتح غنيمـة ... ويقتسمون المال بالترس عن يد
ويغـدون للدجال يغزونه ضحاً ... يذيقـونه حد الحسام المهنـد
وينزل عيسى فيهم وأمـيرهم ... إمام فيـدعوهم لمحراب مسجد
يصلى بهم ذاك الأمير صلاتهم ... بتقـديم عيسى المصطفى عن تعمد
فيمسح بالكفين منه وجـوههم ... ويخـبرهم حقاً بعز مجـدد
وما أن يزال الأمر فيه وفيهم ... إلى آخر الدهر الطـويل المسرمد
فأبلغ أمـير المؤمنين تحيـة ... على النأى منى والوداد المؤكـد
عليه سـلام الله مادر شـارق ... وما صدر الوارد عن ورد مورد

وقيل إن منشئ هذه القصيدة لم يحضر لإلقائها بنفسه، للكبر وبعد الشقة، وأنه أرسل بها فأنشدت باسمه على قبر الإمام، وكان نظمه إياها أيام حياة الخليفة عبد المؤمن (١).

وفى العام التالى، أعنى فى سنة ٥٧٩ هـ، كانت توسعة مدينة مراكش. وكانت العاصمة الموحدية، قد بدأت تضيق بسكانها الذين هرعوا إلى استيطانها من كل صوب، وبالرغم مما أقيم بها منذ أيام الخليفة عبد المؤمن، من الأحياء الكبيرة والدور العديدة الفخمة لسكنى رجال البلاط، وعلية القوم، والوافدين إليها من مختلف أنحاء المغرب والأندلس، فإنها أضحت قاصرة عن أن تستوعب سكانها، وحركة عمرانها الضخمة. وكان الخليفة قد أمر قبائل هسكورة وصنهاجة أن يتركوا بلادهم، وأن يأتوا إلى العاصمة بأهلهم لسكناها، فلما وصلوا إليها لم يجدوا بها متسعاً لنزولهم، فشكوا إلى الخليفة أمرهم. فعندئذ رأى الخليفة أنه لابد من العمل على توسعة المدينة، وعهد إلى ولده وولى عهده السيد أبى يوسف

---

(١) راجع المعجب ص ١٠٤ — ١٠٦ حيث يورد هذه القصيدة وقصتها، وينفرد المراكشى بذلك بين المصادر الموحدية.

يعقوب بتلك المهمة ، فركب فى يوم أول ربيع الآخر ومعه شيوخ الموحدين وعرفاء البنائين لينظروا خير موقع يصلح لتحقيق هذه الرغبة ، فاتفق رأيهم على زيادة المدينة من الجهة القبلية ، بإنشاء مدينة جديدة متصلة بها من هذه الناحية ، ووافق الخليفة على هذا المشروع ، وقام العبيد والرجال بهدم سور المدينة من جهة باب الشريعة ، ووضعت خطط المدينة الجديدة فى يوم الاثنين الخامس والعشرين من ربيع الآخر ، واتصل بناء السور حول المواقع الجديدة ، وبناء باب الشريعة أربعين يوماً ، حتى كمل ، وبدأ إنشاء الدور والرباع بسرعة فى هذا القطاع الجديد من العاصمة الموحدية(١) .

ولم يمض قليل على ذلك حتى وقع بإفريقية حادث مكدر . ذلك أن طوائف العرب من بنى سُلَيم ثاروا على مقربة من مدينة قابس ، فسار أبوالحسن على ابن الخليفة ووالى تونس لقتالهم ، ودامت الحرب بينهم أياماً ، ثم أمر الفرسان الموحدون من أهل الرايات أن ينتقلوا من موضعهم إلى جبل قريب يسمى جبل كسرى ، فظن أن هذا الانتقال بسبب الهزيمة ، فتركوا عتادهم وفروا منهزمين دون قتال ، فلجأ السيد ومن معه إلى الجبل ، ولكنهم لم يجدوا به ماء ، فلما اشتد بهم العطش كروا على العرب دفعة واحدة ، فهزمهم العرب ، وأحدقوا بهم وأسروا السيد وأصحابه . ( جمادى الأولى سنة ٥٧٩ هـ ) . ولما علم الخليفة بذلك قرر فى الحال غزو بنى سليم والانتقام منهم ، ولكن لم تمض بعد ذلك سوى أيام قلائل حتى ورد الخبر بأن السيد وأصحابه قد أطلق سراحهم لقاء ما دفعوا من المال ، وأنهم وصلوا سالمين إلى تونس(٢) .

ومن حوادث هذا العام أيضاً نكبة الخليفة لأبى زكريا بن حيون شيخ قبيلة كومية وابنه على الذى كان مشرفاً على تلمسان ، وقبض على أبى زكريا وحوسب مدة ، ثم نفى إلى بطليوس بالأندلس ، وبقى ابنه على فى السجن ، حتى خرج الخليفة إلى الغزو ، فأمر بأن يحمل معه مصفداً ، ولكنه استطاع الفرار أثناء السير .

ومنها فرار الداعية على بن محمد بن رزين المعروف بالجزيرى من مراكش ، وكان على مذهب الخوارج الأزارقة يقول بتكفير جميع المسلمين ، وتبعه قوم من البربر يقرأون عليه مذهبه ، وشاع خبره ، وعندئذ خشى بطش ولاة الأمر . ففر من المدينة واختفى حيناً ، حتى قبض عليه فيما بعد وقتل أيام الخليفة المنصور .

---

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٢٦ (٢) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٢٧

# الفصل الخامس

## غزوة شنترين

## ومصرع الخليفة أبى يعقوب يوسف

استعداد الخليفة للجهاد بالأندلس. ولاة الأندلس وقضاتها الجدد . قسمة السلاح والعتاد . مسير الخليفة إلى رباط الفتح . الاتفاق على توجيه الحملة إلى الأندلس . مسير الخليفة إلى مكناسة ، ثم إلى فاس . تعيين السيد أبى حفص لقيادة العرب ، وبعض السادات لقيادة الموحدين . مسير الخليفة إلى سبتة . جواز قبائل العرب فقبائل البربر ثم الموحدين إلى شبه الجزيرة . عبور الخليفة ومسيره إلى إشبيلية . أقوال ابن صاحب الصلاة . اختيار مدينة شنترين هدفاً للغزوة المنشودة . حكمة هذا الاختيار وبواعثه . منشآت الخليفة بإشبيلية . خروج الخليفة فى قواته إلى بطليوس . تحالف ملكى قشتالة وليون ضد الموحدين . ملك ليون يحاصر قاصرش . الرواية النصرانية عن خطة الموحدين . رفع الحصار عن قاصرش مسير الموحدين إلى شنترين . عدد الجيش الموحدى . شنترين وموقعها . أشبونة هدف الغزوة الموحدية. محاصرة الموحدين لشنترين . اقتحامهم للربض الخارجى . اعتصام النصارى بالقصبة . المعارك بين الموحدين والبرتغاليين . أمر الخليفة بالكف عن القتال . تحول الجيش الموحدى عن موقعه . صدور الأمر بالرحيل . غموض بواعث هذا الأمر . رواية فى تعليله . رواية أخرى فى شرح ماحدث فى المعسكر الموحدى . شرح الرواية النصرانية لأسباب الانسحاب . ماحدث خلال الانسحاب من الفوضى والاضطراب . مهاجمة النصارى لساقة الجيش المنسحب . وصولهم إلى محلة الخليفة . جرح الخليفة ثم وفاته خلال السير . بعض روايات عن هذا الحادث . رواية أخرى عن مرض الخليفة ووفاته . أسباب نكبة الجيش الموحدى . مسير الجيش وكتمان وفاة الخليفة . التوقف فى طرش . اجتماع القادة ومبايعة الأمير أبى يوسف يعقوب . الوصول إلى إشبيلية إعلان الوفاة وأخذ البيعة للخليفة . انقضاء الغزو والأمر بالرحيل . مسير الركب الخليفى إلى طريف . عبوره إلى العدوة . المسير إلى رباط الفتح . الخليفة أبو يعقوب . حزمه وتقواه وعلمه . حرصه على تنفيذ حكم الشرع . مطاردته للعمال الظلمة . خبرته بشئون المملكة . شغفه بالجهاد . علمه وأدبه . تمكنه من الحديث والفقه واللغة . دراسته للفلسفة والطب . صلاته بابن طفيل وابن زهر وابن رشد . كيف وضع ابن رشد شروحه لأرسطو . ابن طفيل سفير الخليفة لدى العلماء . شغف أبى يعقوب بجمع كتب الفلسفة . أثر من آثاره العلمية . كلفه بالمنشآت العمرانية . وزراؤه وقضاته وكتابه . أبناؤه وصفته .

كان من الواضح للخليفة أبى يعقوب وأعوانه من أقطاب الموحدين ، أن حوادث الأندلس ، قد أخذت فى الأعوام الثلاثة أو الأربعة الأخيرة ، تسير نحو اتجاه مكدر ، وأن عدوان الممالك الإسبانية النصرانية ، قد أخذ يشتد ويتفاقم ، وأن غزوات البرتغاليين لولاية الغرب ، وما أحرزوه من انتصارات فى البر

والبحر على القوات الموحدية ، وغزوات ملك قشتالة لموسّطة الأندلس وتهديده لقرطبة وإشبيلية، وتوغل قواته جنوباً حتى غرناطة ومالقة ورندة ، كل ذلك قد كشف عن ضعف الجبهة الدفاعية الموحدية بالأندلس ، وعن قصور القوات الموحدية عن حماية الأندلس ، وصد عدوان النصارى عنها .

ومن ثم فقد رأى الخليفة أنه لابد من تنظيم حركة جديدة للجهاد بالأندلس ليقودها بنفسه ، وظهرت بوادر هذه النية منذ أوائل شهر جمادى الآخرة من سنة ٥٧٩هـ ، حينما أمر الخليفة بتمييز طوائف الموحدين والعرب والقبائل استعداداً للغزو ، وبصنع عشرة مجانيق جربت بعد صنعها بالرمى أمامه، فى منطقة البحيرة خارج مراكش، واستمر تمييز الجند طوال شهر جمادى الثانية ( سبتمبر ١١٨٣م ) . وفى شهر شعبان أصدر الخليفة المراسيم بتولية أربعة من أبنائه قواعد الأندلس الأربعة الرئيسية ، وهم السيد أبو إسحق لولاية إشبيلية كما كان، والسيد أبو زكريا يحيى لولاية قرطبة ، وذلك تنفيذاً لرغبة القاضى أبى الوليد بن رشد ، والسيد أبوزيد لولاية غرناطة ، والسيد أبو عبد الله لولاية مرسية ، وأمر بسفرهم إلى مقر أعمالهم ، تمهيداً لحركة الغزو. وأصدر أمره فى نفس الوقت بتوليه أبى المكارم ابن الحسين المصرى لقضاء إشبيلية ، وأبى الوليد بن رشد لقضاء قرطبة ، وأبى عبد الله بن الصقر لقضاء غرناطة ، وتحرك الجميع للسفر إلى شبه الجزيرة فى السابع والعشرين من شعبان .

وفى منتصف شهر رمضان ، أجريت قسمة السلاح والعتاد ، وخصص خباء لكل عشرة من الفرسان ، ثم أخرجت البركة لسائر الجند من الفرسان والرجّالة . وفى يوم السبت الخامس والعشرين من شوال ( فبراير ١١٨٤ م ) صدرت الأوامر بالحركة، وركب الخليفة كعادته بعد صلاة الصبح ، وخرج من باب دُكّالة ، وهو الذى يسلكه إلى الغزو بإفريقية . ويصف لنا صاحب البيان المغرب — والمرجح أنه ينقل عن ابن صاحب الصلاة[1] — موكب الخليفة ومراحل سيره ، فيقول إنه سار يتقدمه العلم الأبيض مع الرجّالة، كالعادة ، ومعه مصحف عثمان على جمل أبيض مرتفع ، وقد وضع تابوته المرصع بنفيس الجواهر ، وعليه قبة حمراء لصيانته ، ويليه مصحف المهدى يحمله بغل ، وقد سار بنو الخليفة مع

( ١ ) يدفعنا إلى هذا الاستنتاج ما نلاحظه من مطابقة فى السرد والوصف لأسلوب ابن صاحب الصلاة ، وورود عبارات كثيرة مسجعة وغيرها مطابقة لما يستعمله ابن صاحب الصلاة فى مواطن كثيرة .

إخوته خلفه ، ووصل الخليفة فى ركبه الضخم إلى سلا فى الثالث عشر من ذى القعدة ، ونزل بمدينة المهدية ( رباط الفتح ) ، وهنالك وفد عليه أبو محمد ابن أبى إسحاق بن جامع قادماً من إفريقية ، فأخبره أن السلام يسودها ، وأن العرب الذين يخشى من شغبهم ، قد فروا من البلاد بأهلهم ، حينما سمعوا بحركة الغزو ، وبذلك أمن شرهم واستتبت السكينة والأمن .

وفى أثناء ذلك وصل شيوخ العرب المنضمون للحملة بجميع قبائلهم ، فصدر أمر الخليفة بالإنعام عليهم بالكسى والبركات والصلات الجزيلة . وتعهد الأشياخ بأن يساهموا فى هذه الغزوة بمائة وثلاثين ألفاً ما بين فارس وراجل .

ثم أمر الخليفة باجتماع شيوخ الموحدين والعرب والقادة فى مؤتمر عام ، وخرج إليهم ولده أبو يوسف المنصور ، وأبلغهم أن أمير المؤمنين يطلب رأيهم ويستشيرهم فى أمر توجيه هذه الحملة ، هل توجه إلى أفريقية أم توجه إلى الأندلس ، فكان رأيهم بالإجماع أن توجه إلى الأندلس لغزو النصارى والجهاد فى سبيل الله ، فأبدى الخليفة ارتياحه لهذا الرأى[1] . ومعنى ذلك أن الخليفة ، حين خروجه من مراكش لم يكن لديه رأى حاسم فى شأن الغزوة التى ينوى القيام بها ، وهذا فى ذاته يكشف لنا جانباً من ضعف الخطط العسكرية الموحدية .

وفى اليوم الثامن والعشرين من ذى القعدة ، بدأت العساكر فى الجواز على قنطرة سلا ، وفى اليوم الثلاثين غادر الخليفة فى موكبه، رباط الفتح إلى مكناسة ، فوصلها فى السادس من ذى الحجة ، وقضى بها عيد الأضحى ، ثم غادرها إلى فاس ، وكانت قد ترامت إليه الأنباء عن خيانة مشرفها وعمالها المختلفين ، واختلاساتهم ، فأمر بالقبض عليهم جميعاً ، ومصادرة دورهم وأموالهم لحساب « المخزن » ، وألزموا بأن يردوا « للمخزن » أربعمائة ألف وستين ألف دينار ، تعهدوا بأدائها أقساطاً ، ورتب عليهم الرقباء حتى قاموا بأدائها .

وفى الثانى عشر من ذى الحجة ، أمر الخليفة بأن يتقدم العسكر قبيلتا هنتانة وتينملّل برسم الجواز إلى الأندلس ، وبأن يتقدم ولده السيد أبو حفص على طوائف العرب ، وأن يشرف على جوازهم إلى الأندلس ، ثم قدم على قبائل الموحدين وحشودهم ، بعض السادات من الأبناء والإخوة ، وكتب إلى الولاة

---

( ١ ) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٣٠ ، وكذلك فى روض القرطاس ص ١٣٩ .

بالأندلس أن يستعدوا لاستقبال هذه الحشود المختلفة ، وأن يكونوا هم فى جموعهم فى هيئة استعداد للجهاد .

وفى يوم الثلاثاء الرابع من شهر المحرم سنة ٥٨٠ هـ ( ٨ أبريل ١١٨٤ م ) غادر الخليفة أبو يعقوب مدينة فاس فى موكبه ، على الترتيب السابق وصفه ، حتى وصل إلى ثغر سبتة فأقام به بقية شهر المحرم . وأمر فى أثناء ذلك ببدء الجواز ، فجازت قبائل العرب أولا ، ثم قبائل زناتة ، فالمصامدة ، فمغراوة وصنهاجة وأورية وغيرهم من بطون البربر ، ثم جازت جيوش الموحدين . فلما كمل جواز الجيش عبر الخليفة فيمن بقى من طوائف العبيد والحرس ، وكان عبوره فى الخامس من صفر ( ١٧ مايو ) ونزل بجبل الفتح ( جبل طارق ) ثم سار منه إلى الجزيرة الخضراء ، ثم إلى إشبيلية عن طريق أركش وشريش ، فوصل إليها فى عساكره فى اليوم الثالث عشر من صفر ( ٢٥ مايو ) ، وخرج أهل الحاضرة الأندلسية إلى لقائه والسلام عليه ، وفى مقدمتهم قاضيهم ابن الجد . ويقول لنا ابن صاحب الصلاة ، إنه كان حاضراً فى هذا اليوم ، وإنه قام بالسلام على الخليفة مع من تقدم إليه من الطلبة ، وانه لم يستطع الكلام لشدة الزحام ، وان الخليفة نزل بقصره داخل حدائقه الواقعة خارج باب قرمونة . وفى اليوم التالى لوصوله أمر بتمييز العساكر وتوزيع السلاح والعتاد عليهم . ووزعت ألف فرس من عتاق الخيل على أشياخ الموحدين والعرب وكبار الجند . وأمر قائد الأسطول أبو العباس الصقلى بإعداد سفن الغزو وما يلزمها من الآلات والمعدات . وكانت أجناد الأندلس ، تتلاحق خلال ذلك من أوطانها وقواعدها إلى إشبيلية ، لتنضم إلى جيش الغزو[1] .

وأقام الخليفة بإشبيلية أسبوعين وهو دائب العناية باستكمال الاستعدادت وتنظيم الحشود ، والنظر فى كل ما يلزم للقيام بالغزوة المنشودة ، وضمان نجاحها .

أما هدف هذه الغزوة ، فقد استقر الرأى على أن يكون مدينة شنترين البرتغالية . وقد سبق أن أوضحنا أن الخليفة لم يحدد هدف هذه الغزوة منذ البداية بصورة قاطعة ، بل لم تتحدد وجهة الحملة الموحدية إلى شبه الجزيرة الأندلسية إلا حينما وصل الخليفة إلى سلا . ولكن اختيار مدينة شنترين بالذات هدفاً للغزوة الموحدية يرجع إلى أسباب عديدة ، مادية ومعنوية . فقد كانت البرتغال فى عهد

( ١ ) نقله البيان المغرب عن ابن صاحب الصلاة ص١٣٢ . وكذلك روض القرطاس ص١٣٠ .

أبى يعقوب أول مملكة نصرانية فى شبه الجزيرة ناصبت الموحدين العدوان ، وكانت مدينة شنترين بالذات أهم قواعد هذا العدوان ، فمنها خرجت الحملات العدوانية المتوالية التى شنها الفارس المغامر جيرالدو سمبافور على بلاد ولاية الغرب وحصونها فى قطاع بطليوس ، وهى ترجالُه وقاصرش ، ومنتانجش وشربة ، وجلمانية . ثم كانت بعد ذلك قاعدة لمهاجمة ملك البرتغال وجيرالدو سمبافور لمدينة بطليوس ذاتها ، واستيلائهما عليها ، ولو لم يتعاون فرناندو ملك ليون مع الموحدين على إنقاذ المدينة ، لبقيت فى أيدى البرتغاليين . وكانت شنترين أخيراً مركزاً للحملات المخربة التى شنها البرتغاليون على أحواز إشبيلية ، والتى وصلت فى سيرها مرة إلى طُريانة ، وأخرى إلى الشّرف ومدينة شلوقة ، وعلى الجملة فقد كانت شنترين هى المركز الرئيسى لعدوان البرتغاليين على قواعد ولاية الغرب وأراضيها ، وقد اضطلع فرسانها وجندها بأعظم دور فى هذه الحملات العدوانية ، والغزوات المخربة ، وكان الخليفة وقادته يرون أن الاستيلاء على شنترين يلحق بالبرتغاليين وملكهم ألفونسو هنريكيز ضربة شديدة ، ويقضى على أهم مراكز العدوان فى البرتغال ، ومن ثم كان اختيارها هدفاً للغزوة الموحدية الكبرى.

ومما هو جدير بالذكر أن الخليفة أبا يعقوب ، لم ينس خلال هذه المشاغل الحربية الطامية برنامج منشآته العظيمة بمدينة إشبيلية ، وهو الذى بدأه حين إقامته الأولى بإشبيلية قبل ذلك بنحو خمسة عشر عاماً ، بإنشاء المسجد الجامع والقصور الموحدية ، وقنطرة طريانة . ومشاريع الرى والسقاية ؛ ذلك أنه أمر قبل تحركه إلى الغزو عامله أبا داود بلول بن جلداسن ، أن يقوم خلال غيبته فى الغزو ، بإنشاء سور حصين على قصبة إشبيلية ، يمر من مبدئ بنيانه أمام رحبة ابن خلدون داخل المدينة ، وببناء صومعة للجامع فى موقع اتصال السور بالجامع المذكور ، وبناء دار صنعة للسفن تتصل من سور القصبة الذى على الوادى بباب القطائع ، إلى الرحبة السفلى المتصلة بباب الكحل[1] . وسوف نعود فيما بعد إلى التحدث عن مصير هذه المنشآت فى موطنه المناسب .

— ١ —

فى صبيحة يوم الخميس السادس والعشرين من شهر صفر سنة ٥٨٠ هـ الموافق لليوم السابع من شهر يونيه سنة ١١٨٤م ، تحركت الجيوش الموحدية وعلى رأسها

(١) ابن صاحب الصلاة فى « المن بالإمامة » لوحة ١٧٠ ا .

الخليفة أبو يعقوب يوسف ، من مدينة إشبيلية ، نحو الشمال ، بنفس الترتيب الذى سبق وصفه . وكان السير هيناً وئيداً ، فوصلت بعد تسعة أيام إلى حصن العرجة[1] فى طريق بطليوس ، وهنالك تم اجتماع الجيوش الموحدية ، وقد بدت فى أكمل نظام ، وأحسن زى ، وتقلد الجند كامل أسلحتهم من السيوف والدروع والقسى وغيرها ، ثم استأنفت الجيوش سيرها ، حتى وصلت إلى مدينة بطليوس ، فأمر الخليفة بالنزول فى ظاهرها ، وأن يجرى تمييز الجند ، واستكملت الجيوش ما كان ينقصها من الزاد والميرة . وكان الوزير السابق إدريس بن جامع منفياً فى بطليوس ومعه فى المنفى أيضاً أبو زكريا بن حيون الكومى شيخ قبيلة كومية ، فالتمسا إلى أمير المؤمنين حين مقدمه أن يأذن لهما بالاشتراك فى الجهاد فأذن لهما .

وكان الموقف بالنسبة للممالك النصرانية قد تغير قبل ذلك بأعوام ، وانقطعت كل مهادنة بينها وبين الموحدين ، وجنحت كلها إلى العدوان ، وإلى غزو أراضى الأندلس كل من الناحية التى تليها ، وذلك حسبما فصلناه من قبل . وكان فرناندو ملك ليون قد نبذ محالفة الموحدين حسبما تقدم ، وحذا حذو زملائه فى انتهاج هذه السياسة العدوانية ، وعقد مع ملك قشتالة ألفونسو الثامن معاهدة تعهد فيها بأن يلتزم معاداة الموحدين ، وألا يعود إلى محالفتهم قط ، وقطع زميله ملك قشتالة على نفسه مثل هذا المعهد ( يونيه سنة ١١٨٣ م ) . وكان فى الوقت الذى عبرت فيه الجيوش الموحدية إلى شبه الجزيرة ، يقوم بغزوة جديدة لأراضى الأندلس ، ويحاصر مدينة قاصرش[2] الواقعة شمال شرقى بطليوس على مقربة من نهر التاجُه ، واستمر يحاصرها طول الشتاء حتى نهاية الربيع . وكان الخليفة الموحدى يعلم بأمر هذا التحالف الجديد بين قشتالة وليون . وكان الذائع بين الملوك النصارى أن الجيوش الموحدية الغازية ، قد تغزو أى الممالك النصرانية ، أعنى قشتالة أو ليون أو البرتغال ، إذ كانت جميعاً سواء فى موقفها العدوانى من الموحدين ، وفى الإغارة على أراضى الأندلس. بل أن الرواية النصرانية ، وبخاصة الرواية البرتغالية ، تنسب إلى الخليفة الموحدى من غزوته هذه مشاريع أجل خطراً ، وأبعد مدى ، فتقول لنا إنه كان يبغى ، بعد الاستيلاء على شنترين ، أن يقوم بافتتاح مملكة البرتغال كلها شمالا حتى نهر دويرة ، ثم يسير بعد ذلك إلى غزو مدينة طليطلة

---

( ١ ) وهو بالإسبانية **Alanje** .

( ٢ ) وهى بالإسبانية **Cáceres** .

حاضرة قشتالة[1] ، وعلى أى حال فإن فرناندو ملك ليون ، حينما علم بسير الجيوش الموحدية نحو بطليوس واقترابها بذلك من مواقعه ، بادر برفع الحصار عن قاصرش ، وعاد إلى حاضرته مدينة ردريجو ، وأخذ يرقب سير الحوادث .

وفى يوم الخميس العاشر من شهر ربيع الأول غادر الخليفة فى قواته مدينة بطليوس ، وسار نحو الشمال الغربى مخترقاً الناحية اليسرى من وادى التاجُه ، ثم أمر الجند الموحدين أن يتقدموا صوب شنترين ، فعبروا نهر التاجُه بقيادة السيد أبى إسحاق وإلى إشبيلية ، ثم تلاهم بقية الجند وعلى رأسهم الخليفة ، ونزلت الجيوش الموحدية جميعها بالتل المرتفع المشرف على شنترين من ناحيتها الشرقية والجنوبية ، وكان ذلك فى يوم الأربعاء السادس عشر لربيع الأول سنة ٥٨٠ هـ ( ٢٧ يونيه سنة ١١٨٤م ) وفقاً لقول الرواية الإسلامية المعاصرة[2] ، وتضع الرواية النصرانية مقدم الجيوش الموحدية إلى شنترين قبل ذلك بثلاثة أيام فى اليوم الرابع والعشرين من يونيه وهو يوم القديس خوان[3] .

وتنوه معظم الروايات الإسلامية بضخامة هذا الجيش الموحدى ، ووفرة حشوده[4] ، ويقدم إلينا بعضها عن عدده أرقاماً مدهشة ، فيقول لنا صاحب الروض المعطار إنه كان يضم أربعين ألفاً من أنجاد العرب الفرسان ، ومن الموحدين والجنود والمطوعة وفرسان الأندلس ما ينيف على مائة ألف فارس[5] ، وإذن فقد كان هذا الجيش الذى أعد لغزو البرتغال ، وافتتاح شنترين أضخم من الجيش الذى سار من قبل عند جواز الخليفة الأول إلى الأندلس ، إلى حصار وبذة ، وتنوه الرواية النصرانية أيضاً بضخامة الجيش الموحدى ، وذلك بما تذكره من أرقام خسائره ، حسبما نشير إليه فيما بعد .

وتقع مدينة شنترين ، وقد أتيحت لنا زيارتها ، فى شمال شرقى أشبونة على

---

( ١ ) H. Miranda : ibid, cit. Chronicon Lusitanum p. 292

( ٢ ) هذه هى رواية البيان المغرب ، منقولة فيما يرجع عن ابن صاحب الصلاة ، وكان مرافقاً للحملة ( البيان المغرب القسم الثالث ص ١٣٣ ) ويضع صاحب روض القرطاس مقدم الموحدين إلى شنترين فى السابع من ربيع الأول ( ص ١٤٠ ) .

( ٣ ) راجع فى ذلك H. Miranda : ibid, p. 297 & 300 .

( ٤ ) راجع ما ينقله البيان المغرب فى القسم الثالث عن القاضى أبى الحجاج يوسف بن عمر (ص ١٣٥ ) وكذلك ابن خلكان فى الوفيات ج ٢ ص ٣٩٤ .

( ٥ ) الروض المعطار — صفة جزيرة الأندلس فى مقاله عن « شنترين » ص ١١٤ .

قيد خمسين كيلومتراً منها ، فوق ربوة مرتفعة تقع على الضفة اليمنى لنهر التاجه ، أمام حنية نصف دائرية . وقد كانت فى العصر الذى نتحدث فيه من أمنع القواعد البرتغالية ، وكانت فى عهدها الإسلامى ، نظراً لحصانة موقعها فى منعطف النهر من المراكز الأمامية للمعارك المستمرة بين المسلمين والنصارى . وقد سقطت فى أيدى النصارى لأول مرة فى سنة ٤٨٦ هـ ( ١٠٩٣ م ) ، حينما استولى عليها ألفونسو السادس ملك قشتالة ، ولكن المسلمين استردوها ، واستمرت فى حوزتهم عصراً آخر ، ولما اشتد ساعد مملكة البرتغال الناشئة فى عهد ملكها ألفونسو هنريكيز ، وأخذ هذا الملك يغير على القواعد الإسلامية المجاورة ، كانت شنترين وأشبونة من القواعد التى استولى عليها ، وذلك فى سنة ٥٤٢ هـ ( ١١٤٧م ) حينما اضطربت شئون ولاية الغرب على أثر قيام الثورة ضد المرابطين وبقيتا بيد النصارى إلى ذلك الحين . وكان الموحدون يتوقون إلى استرداد هاتين القاعدتين الهامتين من قواعد ولاية الغرب .

وهنالك فى الواقع ما يدل على أن استرداد ثغر أشبونه كان من أهداف هذه الحملة الموحدية الكبرى بل ربما كان هو هدفها الرئيسى (١) . ذلك أن الأسطول الموحدى ، كان وقت عبور الخليفة إلى شبه الجزيرة ، قد حشد عند مصب الوادى الكبير ومصب وادى يانه ، وكان فى نفس الوقت الذى اتجهت فيه الجيوش الموحدية صوب شنترين ، يسير إلى مياه أشبونه ، ثم يحاصرها (٢) . بيد أنه كان من الطبيعى أن يقوم الجيش الموحدى قبل السير إلى أشبونة ، بالاستيلاء على شنترين ، وهى حصن أشبونة من الشمال ، وبذلك تؤمن مؤخرة الجيش الموحدى ضد أى هجوم يقوم به النصارى من تلك الناحية .

ومن ثم فإنه ما كادت القوات الموحدية تصل إلى ظاهر شنترين ، حتى أمر الخليفة بأن يتقدم الجند حتى أبواب المدينة ، وأن يضربوا حولها الحصار ، ونزل الموحدون فى الريض الواقع فى جنوبها الشرقى والممتد على طول النهر وضربت به قبة الخليفة ، وكان البرتغاليون وعلى رأسهم ملكهم ألفونسو هنريكيز ، قد احتشدوا داخل شنترين وقصبتها وجدوا فى تحصينها ، واتخذوا أعظم أهبة الدفاع عنها (٣) ،

---

( ١ ) راجع روض القرطاس ص ١٤٠ .

( ٢ ) الروض المعطار ، صفة جزيرة الأندلس ، ص ١١٤ .

( ٣ ) المراكشى فى المعجب ص ١٤٥ .

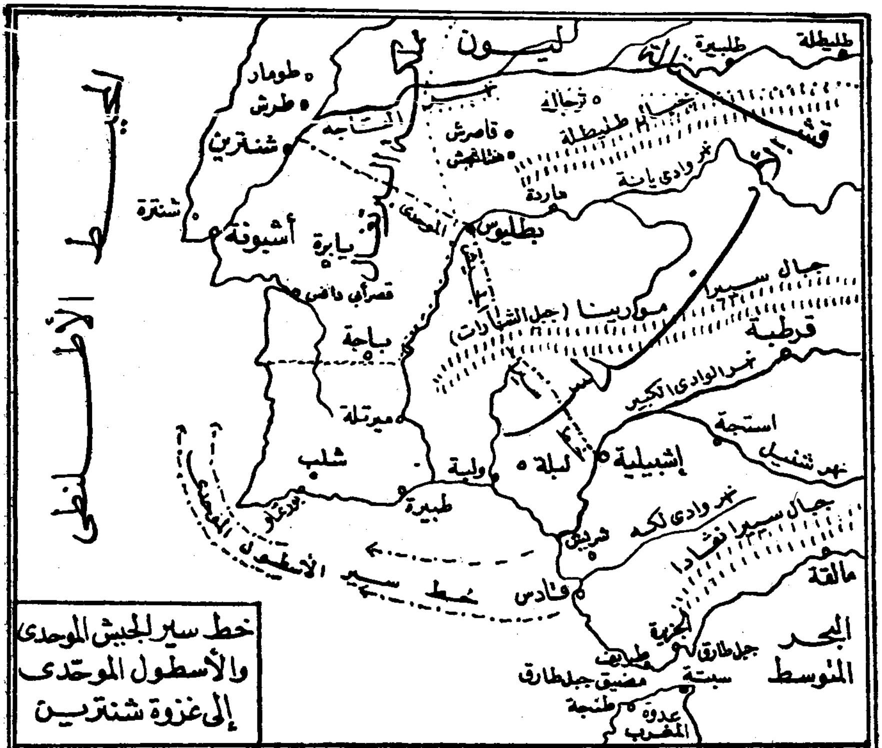

خط سير الجيش الموحدى والأسطول الموحدى إلى غزوة شنترين

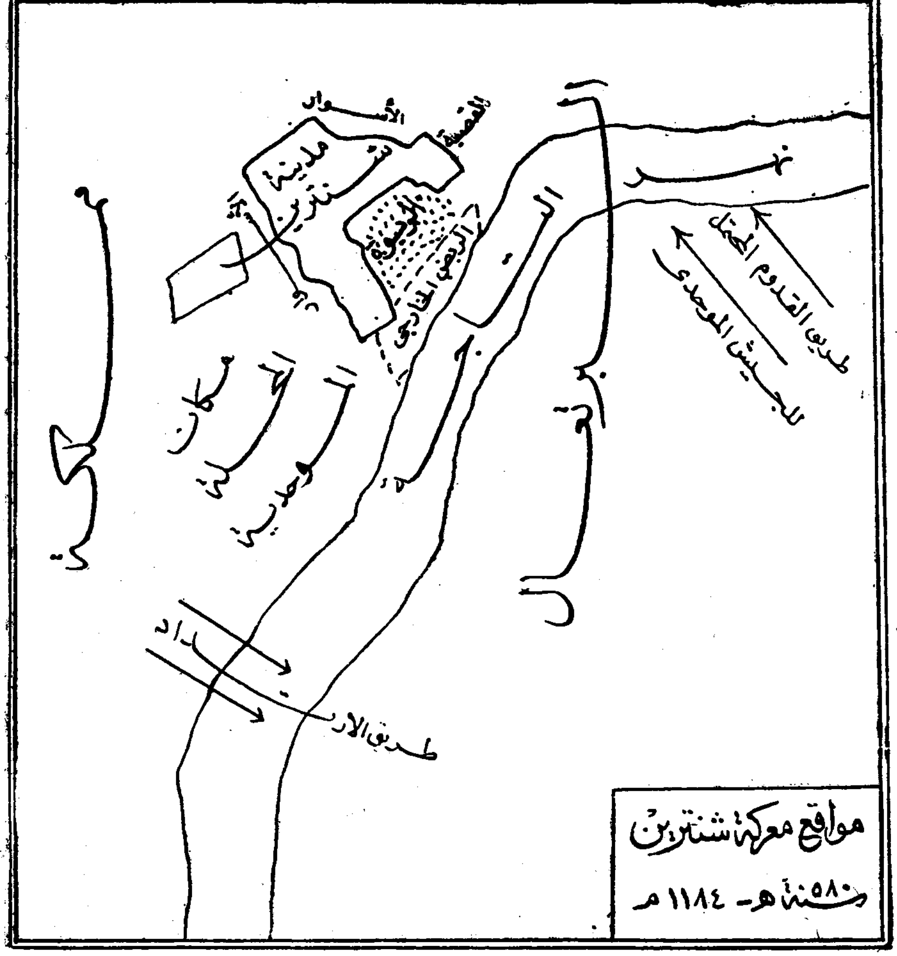

مواقع معركة شنترين
سنة ٥٨٠ هـ - ١١٨٤ م

وكان المدافعون عن الربض الخارجى قد أقاموا حواجز يستطيعون الاعتصام بها ، والدفاع منها . فاقتحم الموحدون الربض وهدموا أحياءه المتصلة بالسور ، وهدموا الكنيستين اللتين به ، وقتل كثير من المدافعين عنه ، وارتد الباقون إلى القصبة ، واعتقد القادة الموحدون أن السبيل ممهد لاقتحام المدينة وأخذها ، وأعدت بالفعل السلالم اللازمة لاقتحام الأسوار . وفى يوم الجمعة ١٩ ربيع الأول ٢٩ يونيه ) ، هاجم الموحدون الأسوار ، واشتبكوا مع قوة من النصارى خرجت لقتالهم فهزموها وردوها صوب القصبة . وفى صبيحة اليوم التالى — السبت — تجدد القتال بين الموحدين وبين النصارى ، واستمر القتال بين الفريقين حتى يوم الاثنين الحادى والعشرين من ربيع الأول (٢ يوليه ) . ونشبت بينهما خلال ذلك عدة معارك عنيفة . وتقدم إلينا الروايات النصرانية عن هذه المعارك صوراً مختلفة ، ويقول بعضها إن المعارك لبثت تضطرم بين النصارى والموحدين فى الربض الخارجى للمدينة خمسة أيام ، وأن الموحدين بالرغم من خسائرهم لبثوا يجددون هجماتهم ، حتى حطمت سائر الحواجز والتحصينات بالربض ، وأضحى الموقف مستحيلا ، واضطر النصارى إلى اللجوء إلى ناحية القصبة . وهذه الرواية تقترب فى جملتها من أقوال الرواية الإسلامية . بيد أن بعض الروايات النصرانية تقدم إلينا مزاعم لايستطيع أن يسيغها العقل ، ولاسيما الرواية المنسوبة إلى الحبر الإنجليزى راؤول دى ديستو ، وخلاصتها ان الموحدين وصلوا إلى شنترين فى يوم القديس خوان ، أعنى فى يوم ٢٤ يونيه ، وحاصروها ، وأنهم بعد ثلاثة أيام وثلاث ليال من القتال المستمر ، نجحوا فى اقتحام المدينة من ثلمة أحدثوها . ولكن وصل فى اليوم التالى أسقف بورتو وابن الملك وقتلوا من الموحدين خمسة عشر ألفاً ، وسدوا تلك الثلمة بجثثهم . وفى اليوم الذى يليه وصل أسقف شنت ياقب ومعه عشرون ألف مقاتل ، وفى الفجر قتلوا ثلاثين ألفاً من الموحدين[1].

بيد أنه وقفت فى اليوم الختامى لهذه المعارك ، وهو يوم الاثنين ٢١ ربيع الأول ( ٢ يوليه ) بالعسكر الموحدى مفاجأة مذهلة ، وهى صدور أمر الخليفة بالكف عن القتال ، وكان الأمر قد صدر فى نفس الوقت بتحرك الجيش من موضع نزوله إلى موضع آخر ، أومن شرقى شنترين إلى غربها وشمالها حسبما يقول صاحب

---

( ١ ) H. Miranda ; ibid ; C.R. de Diceto y Crónica de Alfonso Enriquez p. 297 & 300

روض القرطاس . فعجب الناس لذلك ، ولم يفقهوا له سبباً ، بل إن فى هذا التعليق ذاته ما ينم عن إنكار الشيوخ والقادة الموحدين لهذا الأمر الفجائى الذى لم يدرس ، ولم تتضح مبرراته . فما الذى حدث فى المعسكر الموحدى ، وكيف ولم وقع هذا التحول الفجائى فى حركة الجيش الموحدى ، ولمّا لم يمض على مقدمه إلى شنترين سوى ستة أيام ؟ إن الرواية الإسلامية لا تقدم إلينا فى هذا الموطن أى شرح واضح أو أى تعليل مقنع لهذا الارتداد الفجائى لجيش ضخم غاز يربى عدده على المائة ألف ، عن مدينة مرهقة بالحصار وقد سقطت أرباضها فى أيدى الغزاة ، ولا تدافع عنها سوى حامية محلية ، قد أنهكتها المعارك المتوالية مع الغزاة ، ولجأت فى النهاية إلى القصبة ترقب المصير المحتوم ، ولم يقل لنا ابن صاحب الصلاة ، وهو مرافق الحماة ومؤرخها ، شيئاً سوى التعليق على أمر الارتحال بقوله : « فتعجب الناس من هذا الرأى فى الانتقال والارتحال ، وتعطلت فى النفوس جميع الآمال ، وظهر الخلل فى جميع الأحوال » . ثم يقول إنه قد حدث فى هذا اليوم — أى يوم صدور الأمر بالارتحال — على عسكر أهل مرسية حادث مروع ، وذلك أنهم خرجوا للإغارة فى بسائط النصارى ، فخرجوا عليهم وهزموهم هزيمة شنيعة فارتدوا إلى المحلة منهزمين ، « وبات الناس فى المحلة على حذر ، ومن الوجل فى ألم وضرر »(١) .

ويقول لنا مؤرخ موحدى آخر كان مرافقاً للحملة أيضاً هو القاضى أبو الحجاج يوسف بن عمر ، إن الخليفة أبا يعقوب حينما قصد مدينة شنترين أمنع بلاد ابن الرنك ، وأكثرها أجناداً ، وأقواها استعداداً ، فزع النصارى وروعت نفوسهم لما رأوه من ضخامة الجيش الموحدى وتفوقه العظيم . وكان القصد محاصرة المدينة وإرهاقها ، ثم يقول دون أى إيضاح آخر : « فلما استراءت من جهاتها الأنباء ، وطال لغير طائل الثواء ، عزم أمير المؤمنين على الارتحال ، وترويح الجيوش والنفوس من السآمة والكلال ، فأمر بالرحيل ليلا»(٢) .

على أن مؤرخاً معاصراً آخر ، ويعتبر كذلك من مؤرخى الموحدين ، هو عبد الواحد المراكشى ، يقدم إلينا عن هذا الارتداد للجيش الموحدى رواية ، قد تبدد بعض هذا الغموض الذى يثيره صمت شاهد العيان ، وهى أن أبا يعقوب حينما

---

(١) نقله البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٣٤ و ١٣٥ .

(٢) نقله البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٣٦ .

حاصر شنترين وبالغ فى التضييق عليها ، وانتساف قواتها ، وقطع المؤونة والمدد عنها ، لم يزد ذلك أهلها إلا حزماً فى الدفاع ، وجلداً فى تحمل مشاق الحصار ، فخشى الموحدون هجوم البرد ، إذ كان الوقت آخر فصل الخريف ، وخافوا أن يفيض النهر فلا يستطيعون عبوره ، وتنقطع عنهم الأمداد، فأشاروا على أمير المؤمنين بالارتداد عن شنترين والرجوع إلى إشبيلية ، فإذا تغيرت الظروف ، عاد الموحدون إلى حصارها ، وصوروا له أن الأمر هين ، وأن المدينة تعتبر غنما فى يده لايمنعه عنها مانع ، فاستمع الخليفة إلى نصحهم ، وقال نحن راحلون غدا إن شاء الله ، ولم يقف أحد على هذا القول سوى الخاصة ، وكان أول من قوض خباءه وأظهر الأخذ بأهبة الرحل ، أبو الحسن على بن عبد الله المعروف بالمالقى ، وكان من أكابر البلاط الموحدى ، ويوصف بخطيب الخلافة ، فلما رأى الناس صنعه ، حذوا حذوه لما يعلمونه من وقوفه على أسرار الدولة ، وعبر النهر فى تلك العشية أكثر العسكر ، يريدون التقدم خشية الزحام ، ولم يبق إلا من كان بقرب خباء أمير المؤمنين ، وبات الناس يعبرون الليل كله ، وأمير المؤمنين لا علم له بما حدث[1] . وينقل ابن خلكان هذه الرواية بنصها وتفاصيلها فى ترجمة الخليفة أبى يعقوب[2] .

ونلاحظ فيما يتعلق بهذه الرواية أن حصار شنترين لم يقع فى أواخر الخريف، ولكنه وقع فى أواخر شهر يونيه سنة ١١٨٤ م ، أعنى فى أوائل الصيف ، وقد رأينا أن الحصار ، وفقاً لرواية شاهد العيان ، وكذلك وفقاً للرواية النصرانية ، لم يدم سوى عدة أيام[3]. وعلى ذلك فإن تعليل الارتداد باقتراب الشتاء، والخوف من فيضان النهر ليس بالتعليل المقنع ، وإن كان على أى حال محاولة لتفسير تصرف الخليفة الموحدى .

هذا ، وهنالك محاولة أخرى من جانب الرواية الإسلامية لتفسير ما حدث فى العسكر الموحدى ، هى رواية صاحب روض القرطاس ، وهى أنه لما أمر أمير المؤمنين بانتقال الجيش من موضع نزوله إلى موضع آخر ، أنكر الناس ذلك.

---

(١) المراكشى فى المعجب ص ١٤٥ .

(٢) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٩٤ .

(٣) ذكر ابن الأثير فى حوادث سنة ٥٨٠هـ ، أن الخليفة أبا يعقوب حاصر شنترين مدة شهر ( ج ١١ ص ١٩٠ ) . وينقل ابن خلكان هذه الرواية ( ج ٢ ص ٤٩٢ ) .

ولم يعلموا له سبباً ،وأنه لما جن الليل ، وفرغ الخليفة من صلاة العشاء ، استدعى ولده السيد أبا إسحق والى إشبيلية ، وأمره بالرحيل من تلك الليلة إلى غزو مدينة أشبونة وشن الغارة على أنحائها ، وأن يسير لها بجيوش الأندلس خاصة ، وأن يكون رحيله نهاراً ، فأساء السيد أبو إسحق فهم أوامر الخليفة ، وظن أنه أمره بالرحيل فى جوف الليل إلى إشبيلية . يقول صاحب الروض : « وصرخ الشيطان فى محلة المسلمين أن أمير المؤمنين قد عزم على الرحيل . وفى هذه الليلة تحدثت الناس بذلك ، وتأهبوا له ، فرحل من الناس طائفة بالليل . فلما كان قرب الفجر أقلع السيد أبو إسحق ، وأقلع كل من كان يليه ، وتابعه الناس بالرحيل ، فارتحلوا وأمير المؤمنين مقيم فى مكانه لا علم له بذلك »[١] .

على أن ما تقدمه إلينا الرواية النصرانية عن أسباب انسحاب الجيش الموحدى قد يفسر لنا ماوقع بطريقة أوضح ، وأكثر اتفاقاً مع منطق الحوادث . ذلك أن الموحدين ، بعد أن اشتبكوا مع البرتغاليين فى ربض شنترين فى سلسلة من المعارك الطاحنة استمرت بضعة أيام ، واستولوا خلالها على أرض الربض وحطموا تحصيناته الخارجية ، أدركوا أن المدينة من المناعة ، وأن المدافعين عنها من الاستعداد والكثرة ، بحيث يتعذر اقتحامها ، ولابد لأخذها من الاعتماد على حصار طويل صارم . وفى أثناء ذلك وقع حادث كان له فيما يبدو تأثير حاسم فى تطور الموقف . ذلك هو مقدم فرناندو الثانى ملك ليون فى قواته . ونحن نذكر أنه لما تحرك الجيش الموحدى من إشبيلية ، صوب بطليوس ، كان فرناندو الثانى يحاصر مدينة قاصرش الواقعة شمال شرقى بطليوس محاولا الاستيلاء عليها ، فلما وقف على حركة الجيش الموحدى ، رفع الحصار عن قاصرش ، وارتد إلى قاعدته القريبة مدينة ردريجو . ولما تعينت وجهة الجيش الموحدى بالسير إلى شنترين وحصارها ، سار فرناندو فى قواته صوب ميدان المعركة لإنجاد المدينة المحصورة ، وذلك تنفيذاً للعهد الذى قطعه على نفسه بقتال الموحدين ، وتقول الرواية النصرانية أيضاً إن ألفونسو ملك البرتغال كان متوجساً فى البداية من مقدم فرناندو وجيشه ، فلما علم أنه قادم لإنجاده وإنجاد إخوانه النصارى ، اطمأنت نفسه وأيقن بالخلاص[٢] . ومن ثم فإنه يبدو أن تطور الحوادث على هذا النحو

---

(١) روض القرطاس ص ١٤٠ .

(٢) Primera Crónica General de Espana (Ed. Pidal) p. 676

هو الذى حمل الخليفة على اتخاذ قراره الفجائى ، بالارتداد ، خشية أن يعمل الليونيون على إعاقة عبوره النهر إلى الضفة اليسرى، ولاسيما بعد أن اقتنع بصعوبة الاستيلاء على شنترين .

بيد أنه إذا كان هذا التعليل يلقى شيئاً على بواعث قرار الارتداد ، فإنا لانستطيع أن نفهم سر ذلك الاضطراب المروع الذى اقترن بتنفيذه . ومن المحقق أن الخليفة ومعاونيه كانوا يقصدون أن يكون الارتداد وفق خطة منظمة ، تقى الجيش المنسحب كل اضطراب وكل عثار . وهذا ما يؤكده لنا القاضى أبو الحجاج يوسف بن عمر فى روايته حين يقول « إن ثقات الخليفة تطوفوا أول الليل على الرؤوس والجموع ، وأوعزوا إليهم ، ترتيب التحرك وكيفية القلوع ، وأن يكون كل قبيل من جهتهم ثابتين مرصدين حتى ترحل الحمولة والأثقال ، وتتلخص إلى السعة من المضايق والأوحال »(١) . بيد أن الذى حدث هو العكس تماما . وهو الفوضى المروعة ، والاختلال المطبق . يقول أبو الحجاج يوسف ، وهو شاهد العيان : « فاضطرب إقلاع الناس اضطراباً شنيعاً ، وكثر الضجيج ، واختلاط الأصوات ، وتهولت المحلات ، وأخذ العموم على شتى المسالك ، فلاترى سميعاً ولا مطيعاً » .

وكان أشنع ما فى ذلك ، هو ما حدث من غموض فى فهم أوامر الخليفة ، وتسرع فى تنفيذها . ذلك أن كثيراً من الأشياخ ورؤساء القبائل فهموا أنه يجب الارتداد فوراً وفى جوف الليل، فهرعت طوائف غفيرة من الجند إلى الارتداد . وعبور النهر ، ووقع الارتداد فى مناظر مروعة من الاختلال والضجيج والفوضى . يقول الراوية شاهد العيان : « حضرت يوم هذا الإقلاع وليله ، فما رأيته فى تاريخ قبله ، ولا يحصر واصف هوله » ، وأقلع السيد أبو إسحاق ولد الخليفة نفسه فى جنده عند الفجر قاصداً إشبيلية ، واعتقد كثير أن الخليفة نفسه قد أقلع فى السحر ، واستمر عبور الجند على هذا النحو تباعاً ، حتى عبر معظم الجيش ، كل ذلك والخليفة غافل عما حدث . فلما أسفر الصبح ، ظهرت الحقيقة المروعة ، ولم يبق حول الخليفة الموحدى سوى الساقة ، فعندئذ أمر الخليفة بضرب الطبول ، فاجتمعت الفلول الباقية ، وانحدر الخليفة صوب النهر ، وبقى ابنه يعقوب المنصور مع بقية الساقة ، فى موضع المحلة مستعداً للقاء النصارى وردهم وحماية أبيه ومن معه .

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٣٦ .

ولكن نصارى شنترين أدركوا عندئذ ماوقع فى العسكر الموحدى ، من إقلاع وارتداد ، فبادروا بالخروج من المدينة ، وهجموا على القوات المنسحبة بشدة، وأدركوا ساقة الخليفة ، ودافعت الفلول الموحدية بمنتهى البسالة ، وسقط خلال ذلك عدد من أكابر الموحدين والأندلسيين ، ووصل النصارى إلى مقر الخليفة نفسه بعدوة الوادى ، وإصابه بعضهم بجراح خطيرة . وعلى أثر انتهاء المعركة أمر الخليفة بتفرق الجموع ، ورجوع كل جندى إلى قبيلته ، وأمر بتخريب الوادى ، وانتساف زروعه ، وقطع أشجاره وهدم ضياعه ، وتغوير مائه ، وحرق كل ما يمكن حرقه ، كما أمر بتقسيم السرايا فى نواحى الوادى لتحصيل الأقوات ، وانتزاع السبى والغنائم . كل ذلك الخليفة الجريح ملتزم فراشه ، ومن حوله أطباؤه ابن زهر وابن طفيل[1] وابن قاسم ، وهو يزداد ضعفاً على ضعف ، ثم أمر الخليفة بالرحيل ، وهو محمول فى محفة ، حتى تم اجتياز وادى التاجُه ، وما كاد الموكب يقطع بضعة أميال أخرى ، حتى أسلم الخليفة الروح ، وذلك فى الثامن عشر لربيع الآخر سنة ٥٨٠ هـ ( ٢٩ يوليه سنة ١١٨٤ م )[2].

تلك هى رواية القاضى أبى الحجاج يوسف بن عمر ، المرافق للجيش المنسحب عن ظروف الارتداد وعن إصابة الخليفة أبى يعقوب يوسف ووفاته متأثراً بجراحه . بيد أن هناك رواية أخرى هى رواية المراكشى ، وهو أيضاً معاصر ، ومن مؤرخى الموحدين ، وهى أنه لما رأى نصارى شنترين ما حدث من عبور الموحدين ، وانصراف معظم الجيش المحاصر ، ووقفوا على ما قرره الخليفة من الارتحال فى بقية جيشه ، خرجوا من المدينة فى خيل كثيفة ، وحملوا على المحلة الموحدية بشدة ، حتى بلغوا قبة أمير المؤمنين ، ودافعهم من حولها ، وجلهم من أعيان الأندلس ، حتى قتل كثير منهم ، ونفذ النصارى إلى خباء الخليفة ، فطعنه أحدهم تحت سرته طعنة توفى منها بعد أيام يسيرة ، وتكاثر الموحدون على الروم حتى ردوهم ، فانهزموا راجعين إلى المدينة ، وعبر أمير المؤمنين النهر

---

( ١ ) وردت فى النص «ابن مقبل» ولكنا نعتقد أن ذلك تحريف لاسم ابن طفيل طبيب الخليفة الخاص .

( ٢ ) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٣٧ و ١٣٨ . وتضع معظم الروايات تاريخ وفاة الخليفة فى شهر ربيع الآخر على خلاف فى اليوم الذى توفى فيه . ولكن المراكشى ينفرد بالقول بأن الخليفة أبا يعقوب توفى فى اليوم السابع من رجب سنة ٥٨٠ هـ ( أكتوبر سنة ١١٨٤ م ) المعجب ص ١٤٧ . ويجاريه فى ذلك ابن خلكان فيذكر نفس التاريخ ( الوفيات ج ٢ ص ٤٩٤ ) .

جريحاً فى محفة ، فلم يمض على ذلك يومان أو ثلاثة حتى توفى متأثراً بجراحه[١].

وهنالك رواية أخرى مماثلة تقترب فى جوهرها من رواية المراكشى ، وهى رواية صاحب روض القرطاس ، وهى أنه لما وقع ارتداد معظم الجيش الموحدى ليلا ، وجاء الصبح ، فلم يجد الخليفة حوله سوى اليسير من خاصته وحشمه الذين يرحلون لرحيله ، وينزلون لنزوله ، وقواد الأندلس لأنهم هم الذين كانوا يمشون أمام ساقته وخلف محلته ، فلما أشرقت الشمس وشهد النصارى ما وقع من ارتحال المحلة الموحدية ، وأنه لم يبق منها حول المدينة سوى قبة أمير المؤمنين وعبيده وحشمه وأهل دائرته ، وتحققوا ذلك من جواسيسهم ، فتحوا أبواب المدينة ، وخرج جميع من فيها خرجة عنيفة وهم ينادون « الرى . الرى »[٢] أعنى الملك ، فاقتحموا محلة العبيد ، حتى وصلوا إلى خباء الخليفة ، فمزقوه واقتحموه ، فدافعهم الخليفة بسيفه حتى قتل منهم ستة رجال ، فطعنه أحدهم طعنة نافذة ، وقتل ثلاث من جواريه كن قد انصبن عليه حتى طعن ، وسقط على الأرض ، فتصايح الفرسان والعبيد والأجناد والموحدون وقواد الأندلس ، واجتمع المسلمون فقاتلوا النصارى قتالا عنيفاً حتى ردوهم عن الخباء ، ثم تابعوا قتالهم بشدة حتى هزموهم وردوهم إلى أبواب المدينة ، وقتلوا منهم جموعاً غفيرة تقدر بما يزيد على عشرة آلاف ، واستشهد من المسلمين جماعة . ثم ركب أمير المؤمنين ، وقد أشرف على الموت ، وارتحل الناس ، ومات الخليفة خلال الطريق ، وكانت وفاته فى يوم السبت الثانى من ربيع الآخر سنة ٥٨٠ هـ ( ١٣ يوليه سنة ١١٨٤ م ) وذلك على مقربة من الجزيرة الخضراء فى طريق جوازه إلى العدوة[٣].

ويؤيد هذه الرواية عن مصرع الخليفة أبى يعقوب متأثراً بجراحه ، من المؤرخين المتأخرين ، الوزير ابن الخطيب ، حيث يقول لنا إن الخلفة توفى بظاهر شنترين من سهم أصابه فى خبائه وهو محاصر لها ، قضى عليه ، وكتم موته . بيد أنه يضع تاريخ مصرعه فى الثامن والعشرين من ربيع الآخر سنة ٥٨٠ هـ

---

( ١ ) المراكشى فى المعجب ص ١٤٥ و ١٤٦ ، ونقل ابن خلكان هذه الرواية فى وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٩٤ .

( ٢ ) "El Rey El Rey" .

( ٣ ) روض القرطاس ص ١٤٠ ، ١٤١ .

وهو يوافق الثامن من أغسطس سنة ١١٨٤ م [١] .

ويوجد أخيراً رواية مفادها أن الخليفة أبايعقوب لم يمت متأثراً بجراحه، ولكنه توفى من مرض لم تذكر لنا الرواية كنهه ، وهذه هى رواية ابن الأثير ، حيث يقول إن الخليفة حاصر شنترين شهراً ، فأصابه مرض فمات منه فى ربيع الأول ( ٥٨٠ هـ ) وحمل تابوته إلى مدينة إشبيلية [٢] ، ويأخذ صاحب الروض المعطار بهذه الرواية فيقول لنا إن الخليفة ، وهو مقيم على شنترين عرض له المرض الذى توفى منه ، وأقام الرحل به مضطجعاً على فراشه ، وضعفه يتزايد ، إلى أن تُفُقد فى بعض أميال فوجد ميتاً وذلك فى سنة ٥٨٠ هـ [٣] .

ويتردد ابن خلدون بين الروايتين ، فيقول لنا إن الخليفة توفى من سهم أصابه فى حومة القتال عندما اقتحم النصارى محلته أو أنه توفى من مرض أصابه [٤] .

وكان الخليفة أبو يعقوب عند وفاته فى السابعة والأربعين من عمره، إذ كان مولده ، حسبما تقدم فى سنة ٥٢٣ هـ بتينملّل .

وإنه ليبدو لنا إزاء اتفاق الروايات الموحدية المعاصرة ، ومعها صاحب روض القرطاس وابن الخطيب ، أن القول الراجح هو أن الخليفة أبا يعقوب قد أصيب فى الموقعة التى نشبت بين النصارى وبين محلته ، وأنه توفى متأثراً بجراحه . ومن الواضح أن وقوع مثل هذا الحادث ممكن ومعقول فى مثل الظروف التى أحاطت بالجيش المنسحب ، وفى غمرة الخلل الذى أصابه ، والفوضى التى سادته . ولقد كان انسحاب الجيش الموحدى من أمام أسوار شنترين نكبة مؤلمة، تفوق فى نتائجها الخطيرة المروعة ، نكبة انسحابه من وبذة قبل ذلك باثنى عشر عاما . ونستطيع هنا أن نستشف نفس الأسباب ، ونفس وجوه الضعف التى انتابت الجيش الموحدى، وعصفت بتماسكه ونظامه، وجعلته بالرغم من ضخامته ، ووفرة استعداده وعدته ، أشبه بكتلة بشرية مفككة، لاتجمعها أية قيادة حازمة، ولاهدف مشترك ، وفتت فى قواه المعنوية ، فانهارت لديه فكرة الجهاد التى حشد من أجلها ، وأضحت كل طائفة من طوائفه تبحث فقط عن سلامتها ،

( ١ ) ابن الخطيب فى الإحاطة فى مخطوط الإسكوريال الذى سبقت الإشارة إليه لوحة ٣٩٥

( ٢ ) ابن الأثير ج ١١ ص ١٩٠ .

( ٣ ) الروض المعطار ( صفة جزيرة الأندلس ) ص ١١٤ .

( ٤ ) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٤١ ، وكذلك نفح الطيب ج ٢ ص ٥٤٦ .

وترقب أول فرصة للانسحاب . ومن الواضح أيضاً أن استئثار الخليفة بتوجيه حركات جيشه دون الاعتماد على رأى قواده ، كان له أكبر الأثر فيما حدث من سوء فهم للأوامر الصادرة ، بل ربما نستطيع أن نستشف من ذلك أثر الانشقاق وعصيان الأوامر الصادرة من الخليفة دون دراسة ودون تدبر ، وقد كان منها الأمر بنقل مواقع الجيش الموحدى من شرقى وجنوبى شنترين إلى الشمال والغرب ، وهو أمر عارضه القواد الموحدون، لأنه يضع الجيش الموحدى فى مواقع تعرضه لخطر التطويق ، ثم أمر الانسحاب المفاجئ الذى استأثر الخليفة بإصداره ، فكان نذيراً بكارثة الانسحاب المروع ، وما اقترن به من شنيع الاضطراب والفوضى ، وما انتهى الأمر إليه من فقد الاتصال بين الفرق المنسحبة ، وبين حرس الخليفة وخاصته ، فكانت النكبة المروعة ، باقتحام محلة الخليفة وإصابته القاضية ، أضف إلى ذلك كله ماكان يعانيه الجيش الموحدى من نقص فى تمويناته ، حتى اضطر حين الانسحاب أن يبحث عن أقواته بشن الغارات على الأراضى التى يخترقها خلال مسيره . وقد أثبت الخليفة أبو يعقوب وقواده بذلك كله ، أنهم لم يتعلموا شيئاً من دروس حماة وبذة ، ولم يحاولوا إصلاح جيوشهم ، على ضوء ما تبين من وجوه النقص فيها ، واستمر اعتمادهم فى حشدها على التفوق العددى دون سواه .

— ٢ —

لما توفى الخليفة أبو يعقوب متأثراً بجراحه بعد عبوره نهر التاجُه بقليل ، محمولا على محفته حسبما تقدم ، كتمت وفاته ، وحُمل كالعادة مسجياً فى محفته ، حتى نزل الركب خلال الطريق إلى إشبيلية ، بعد موضع يسميه صاحب البيان المغرب « بحصن طرش » وهنالك ضربت أخبية الخليفة كالعادة ، وأحدق الفتيان والخدمة بالقبة الخليفية وفقاً للرسوم المعتادة ، وكان السيد يعقوب أبو يوسف ولد الخليفة هو الذى يدخل على أبيه منذ إصابته ، ويخرج من لدنه ، ويتصرف فى الأمور باسمه[١] ، فلما نزل الركب بالموضع المذكور ، وتكامل وصول الناس ، بعث السيد أبو زيد ابن الخليفة إلى إخوته الأكابر الموجودين مع الجيش ، وإلى أكابر الموحدين ، وأطلعهم على وفاة الخليفة، وكشف لهم عن جثمانه وهو مسجى فى فراشه ، وطلب إليهم مبايعة الأمير يعقوب أبى يوسف ، فاستجابوا إليه ، وتمت البيعة فى مساء نفس اليوم . وفى اليوم التالى استؤنف السير ، وكل شىء على

---

(١) روض القرطاس ص ١٤١ .

حاله ، واستمر كتمان وفاة الخليفة الراحل ، بيد أنه كفن وأدرج فى تابوت ، حتى وصل الركب إلى إشبيلية ، وذلك بعد نحو شهر من بداية انسحاب الجيش وعبوره لنهر التاجه .

واستراح أبو يوسف يعقوب بإشبيلية ثلاثة أيام ، تلاحقت خلالها الحشود ، ووصلت جموع العرب والموحدين وسائر الطوائف الأخرى ، ونزلت فى أكناف إشبيلية ، ودعى الناس خاصتهم وعامتهم ، لتقديم البيعة ، وأعلنت وفاة الخليفة الراحل ، وغصت القصبة بوجوه القوم من موحدين وغيرهم ، وأخذت البيعة للخليفة الجديد مدى يومين هما وفقاً لقول صاحب البيان غرة وثانى جمادى الأولى[1] وأغدق الخليفة بهذه المناسبة صلاته على قرابته وأهل بيته ، وخص أخاه السيد أبا زيد بهبة جلية قدرها عشرة آلاف لما بذل فى خدمته ، وتنظيم بيعته .

وقد تمت بيعة الخليفة أبى يوسف فى هدوء وسلام ، ودون أية معارضة ؛ أولا لأن أباه الخليفة الراحل أبا يعقوب كان قد خصه بولاية عهده أثناء حياته ، وإن لم تقدم لنا الرواية تاريخ هذا التعيين[2] ، وثانيا لأنه كان أكبر أولاده[3] ، فكان هذا الاعتبار فى ذاته مبرراً لتقديمه ، وذلك خلافاً لما كان عليه أبوه الخليفة أبو يعقوب بن عبد المؤمن حيث قدم للخلافة مع وجود شقيقه الأكبر السيد أبى حفص ، وذلك تنفيذاً لوصية أبيه .

ولما كمل أمر البيعة ، وشملت سائر أنحاء الأندلس ، وسائر الطبقات ، وتم تنظيم شئون الأندلس ، دعا الخليفة فى اليوم الرابع والعشرين من جمادى الألى ( ٢ سبتمبر سنة ١١٨٤ ) أشياخ الموحدين والعرب ، وشيوخ الوفود من سائر القواعد ، وأذن بالحركة وانقضاء الغزو ، والتأهب للرحيل ، وكتب بذلك لسائر البلاد والقبائل من المجاهدين والمسافرين ، وقدم القائد أبو العباس الصقلى إلى ثغر طريف ، فى ثلاث عشرة سفينة لنقل الخليفة وخاصته وجيشه ، وتقدمت سفينتان

---

( ١ ) وهذا التاريخ لا يتفق مع سير الأحداث والتواريخ السابقة . فقد كانت وفاة الخليفة وفقاً لنفس المؤرخ فى ١٨ ربيع الثانى سنة ٥٨٠ هـ ، وقد استغرق وصول الجيش المنسحب مدى شهر . وإذا فقد كان من المنطق أن تكون البيعة فى نحو منتصف شهر جمادى الأولى لا فى غرته ( البيان المغرب القسم الثالث ص ١٣٨ و١٤٢ ) .

( ٢ ) المعجب للمراكشى ص ١٤٧ .

( ٣ ) الحلل الموشية ص ١٢٠ .

بالانتقال إلى رباط الفتح بمياه سلا . وفى فجر اليوم التالى ، خرج أهل الأندلس إلى بحيرة الوادى فى جموع حاشدة ، وضربت قبة الخليفة على شاطئ النهر (الوادى الكبير) ، ونظم الموكب الخليفى ، يتقدمه المصحف الكريم ، وسار الخليفة فى ضحى اليوم، فنزل بقرية طريانة قبالة إشبيلية ، ثم غادرها إلى شريش، تتبعه الجيوش ، ثم إلى مدينة شذونه ، أومدينة ابن السليم[1] ، حيث التقى بالسيد أبى زكريا ابن أخيه السيد أبى حفص قادماً من تلمسان مع أعيان عرب زغبة ، ومعه سبعمائة جواد معونة لأهل الأندلس . وسار الخليفة بعد ذلك جنوباً صوب الشاطىء حتى وصل إلى الموضع المسمى بحجر الإبل[2]، وهى ربوة تقع على مقربة من طريف ، وقد اجتمع الأسطول على طول الشاطىء ، على قدم الأهبة لنقل الخليفة وجيشه ، وفى اليوم السابع من جمادى الآخرة سنة ٥٨٠ هـ ( ١٢ سبتمبر ) ضربت قبة الخليفة ، وقام أهل الأندلس بتحية الوداع ، وكذلك ودع الخليفة إخوته الذين قدمهم للولاية بالأندلس ، وهم أبو إسحاق وأبو زيد وأبو يحيى . وفى ضحى نفس اليوم ركب الخليفة البحر ، وأمام سفينته مصحف عثمان، ونزل بقصر مصمودة ، أو القصر الصغير ، قبالة ثغر طريف من البوغاز ، واستراح هنالك ريثما تم جواز سائر الجيش . ثم غادر القصر إلى رباط الفتح ، وهنالك تسمى لأول مرة بأمير المؤمنين ، وكان منذ بيعته يكتفى بلقب « الأمير يعقوب » ، وكتب فى الحال بذلك إلى بلاد الأندلس . وتلقاه فى الرباط ، أبو عبد الله بن واجاج فى وفود العرب وأهل فاس ومكناسة وعمالهم ، وأقال إبراهيم بن إسماعيل من عمل فاس ، وأمر سائر العمال بالمثول إلى الحضرة ، وقام بدفن أبيه أمير المؤمنين أبى يعقوب مؤقتاً بدار الخليفة بالرباط ، ثم نقل منها بعد ذلك ودفن بتينملل إلى جانب أبيه عبد المؤمن والمهدى ابن تومرت[3]. وغادر الخليفة بعد ذلك رباط الفتح إلى حضرته مراكش[4] .

— ٣ —

كان الخليفة أبو يعقوب يوسف من أعظم خلفاء الدولة الموحدية ، وبالرغم

---

( ١ ) وهى بالإسبانية **Medina Sidonia**

( ٢ ) وهى بالإسبانية **La Pena del Cierro** .

( ٣ ) روض القرطاس ص ١٤١ ، والحلل الموشية ص ١٤٣ .

( ٤ ) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٤٣ .

من أنه لم يحقق فى ميادين الحرب والسياسة نتائج عظيمة كالتى حققها أبوه الخليفة عبد المؤمن ، وولده الخليفة يعقوب المنصور ، فإنه يعتبر مع ذلك ، ولاسيما من النواحى الإدارية والعمرانية ، ثالث هؤلاء الخلفاء الثلاثة ، الذين بلغت الدولة الموحدية فى ظلهم أوج قوتها وعظمتها .

وقد امتاز حكم الخليفة أبى يعقوب بالحزم ، وتحرى الحق والعدالة ومطاردة الظلم والبغى[1] ، وترجع هذه النزعة إلى ماكان يتسم به هذا الخليفة من التقى والورع ، ومن العلم والتبحر فى العلوم الشرعية . وقد ظهرت هذه النزعة بصورة عملية ، فى غير مناسبة من أوامره وتصرفاته . وربما كانت رسالته التى وجهها إلى أخيه السيد أبى سعيد والى قرطبة ، وإلى سائر الطلبة الموحدين بالأندلس فى سنة ٥٦١ هـ ، بشأن وجوب تحرى الدقة فى تنفيذ الأحكام وتوقيع العقوبات ، أبرز محاولة بذلها فى هذا الشأن . وقد رأينا كيف عنى الخليفة فى هذه الرسالة التى لخصنا محتوياتها فيما تقدم ، بإصدار أمره إلى الموحدين بألاّ يُقضى بحكم الإعدام إلا بعد أن ترفع النازلة إلى الخليفة مشفوعة بالشرح وأقوال الشهود والعدول ، وأن تكتب أقوال المظلومين وحججهم ، وإقرارهم واعترافهم ، وأن يدقق فى الجرائم التى دون القتل ، وكذا فى سائر المعاملات والأموال ، واستحقاقها ، وفى الرقاب وعتقها وغير ذلك . وكان الخليفة إلى جانب هذه المحاولات الشرعية ، يقوم بمطاردة الظلم والعمال الظلمة ، فإذا وقف على ما يرتكبه بعضهم من ظلم أوعسف أواغتيال أموال الناس بالباطل ، عزله ونكبه . وكان من أبرز ما فعله فى ذلك بطشه بعمال مدينة فاس وملحقاتها ، والتنكيل بهم ، ومصادرة دورهم وأموالهم[2] ، وماقام به فى جوازه الأول إلى الأندلس من نكبة بعض عمال إشبيلية والمخزن من المختلسين وغيرهم ، وماقام به بعد ذلك من نكبة عماله ووزرائه بنى جامع الذين أستأثروا بالوزارة دهراً ، وغير ذلك مما أشرنا إليه .

وإلى جانب هذه النزعة إلى تحقيق العدالة ، كان حكم أبى يعقوب متسماً بالمقدرة والحزم ، فقد كان خبيراً بشئون مملكته ، عارفاً بسياسة رعيته ، دؤوباً

---

(١) ابن صاحب الصلاة فى المن بالإمامة لوحة ٤٦ ب .

(٢) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٣١ .

على النظر فى الأمور ، وكان عارفاً بالشئون المالية ، ضابطاً لخراج مملكته[١] ، وربما كانت هـذه المقدرة فى فهم الشئون وتدبيرها راجعة بالأخص إلى ممارسته إياها ردحاً من الزمن قبل توليه الخلافة أيام أن كان والياً لإشبيلية ، وقائماً بشئون الأندلس .

وقد تجلى هذا الحزم فى حكم ابن يعقوب فى شدة عنايته بقمع أية نزعة إلى الخروج والعصيان ، والسير بنفسه إلى مقاتلة الخوارج ، وذلك كما حدث عند فتنة غمارة ، ثم فتنة صنهاجة ، وحين ثورة قفصة ، وغيرها مما سبق أن فصلناه فى مواضعه .

والخلة الثانية التى امتاز بها الخليفة أبو يعقوب يوسف ، هى شغفه بالجهاد فى سبيل الله ، وقد ظهر أثر هذا الشغف بالجهاد من الناحية النظرية فيما ألفه أبو يعقوب فى فضل الجهاد ، مما نذكره بعد ؛ وظهر من الناحية العملية فى عنايته بحشد الجيوش العظيمة وتمويلها ، ثم قيادتها فى حملتيه العظيمتين إلى شبه الجزيرة الأندلسية . وبالرغم من أن الخليفة أبا يعقوب لم يكن موفقاً فى حملتيه المذكورتين ، وقد سجل فشله الأول تحت أسوار وبذة ، ثم سجل فشله الثانى أمام أسوار شنترين ، وبالرغم من أن الحملتين لم تكونا بعيدتين عن تحقيق الأغراض العسكرية والإقليمية ، فإن مقصد الجهاد كان هو النزعة المسيرة لها ، وقد ذهب الخليفة ضحية هذه النزعة واستشهد فى ميدان الجهاد .

وكان أبو يعقوب إلى جانب ذلك ملكاً عظيما « شديد الملوكية » على حد قول المؤرخ ، بعيد الهمة ، وافر البذل والجود ، عمت صلاته وأعطيته سائر الطوائف . ويصفه ابن الخطيب بأنه كان « آية الموحدين فى الإعطاء والمواساة ، وفى أيامه ساد الرخاء واستغنى الناس ، وكثرت فى أيديهم الأموال »[٢] .

على أن ألمع وأعظم خلة كان يتسم بها أبو يعقوب ، هو علمه وأدبه ، وقد أفاضت الروايات المعاصرة واللاحقة فى التنويه بمواهبه العلمية والأدبية ، ويجمل ابن صاحب الصلاة وهو المؤرخ المعاصر ، العارف بشخص أبى يعقوب وخلاله ، مواهبه العلمية ، فى تلك الفقرة : « كان الأمير أبو يعقوب يوسف رضى الله عنه كاملا فاضلا عدلا ورعاً جزْلا مستظهراً للقرآن ، حافظاً له ، عالماً بالحديث ،

---

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ٤٩٠ .

(٢) المعجب ص ١٣٣ ، وابن الخطيب فى الإحاطة مخطوط الإسكوريال لوحة ٣٩٥ .

متقناً للعلوم الشرعية والأصولية، متقدماً فى علم الإمام المهدى رضى الله عنه»[١] .

على أن ما يجمله ابن صاحب الصلاة فى تلك الكلمات القليلة ، يفصله لنا المراكشى بإفاضة فى حديثه عن أبى يعقوب . وقد عاش المراكشى قريباً من عصر أبى يعقوب ، وكانت تربطه بعدة من أبنائه مثل أبى زكريا يحيى ، وأبى عبد الله محمد ، وأبى إبراهيم إسحق ، روابط وثيقة .

يقول المراكشى إن أبا يعقوب كان « أعرف الناس كيف تكلمت العرب ، وأحفظهم بأيامها ومآثرها وجميع أخبارها ، فى الجاهلية والإسلام » . ثم يقول : « إنه كان أحسن الناس ألفاظاً بالقرآن ، وأسرعهم نفوذ خاطر فى غامض مسائل النحو ، وأحفظهم للغة العربية »[٢] .

ويجب لكى نقدر روعة هذه الصفات فى أبى يعقوب ، أن نذكر أولا أنه كان بأرومته من صميم أصول البربر ، وذلك سواء من ناحية أبيه أو ناحية أمه، وقد ولد ونشأ بتينملل عاصمة المهدى ، فى بيئة بربرية محضة ، ولكن يجب أن نذكر إلى جانب ذلك أن أبا يعقوب كانت تحمله نفس الروح العلمية التى امتاز بها أبوه الخليفة العالم عبد المؤمن بن على، ثم يجب أن نذكر أيضاً أن أبا يعقوب قضى زهرة فتوته فى إشبيلية مذ عينه أبوه والياً لها فى سنة ٥٥١ هـ ، وهو فى نحو الثامنة عشرة من عمره، حتى وفاة أبيه فى سنة ٥٥٨هـ ، حينما استدعى لتولى الخلافة من بعده . ففى هذه الأعوام الثمانية التى قضاها أبو يعقوب فى المدينة الأندلسية العظيمة ، التى كانت قد غدت منذ اضمحلال قرطبة عاصمة الأندلس الفكرية ، تفتحت مواهب أبى يعقوب العلمية والأدبية ، وقد كانت إشبيلية يومئذ مجمع أقطاب اللغة والعلوم الدينية ، وكان أبو يعقوب منذ حداثته حافظاً للقرآن متمكناً من الحديث ، حتى قيل إنه كان يحفظ صحيح البخارى. وكان فى نفس الوقت بارعاً فى الفقه ؛ وفى إشبيلية تلقى علوم اللغة عن بعض أقطابها ، وفى مقدمتهم العلامة اللغوى أبو إسحق إبراهيم بن عبد الملك المعروف بابن ملكون ، وبرع فى النحو والأدب. ولما ولى الخلافة،وعاد إلى إشبيلية فى جوازه الأول إلى الأندلس، واستطالت إقامته بها زهاء خمسة أعوام أخرى ، تجلت فى هذه الفترة روعة مواهبه العلمية ، وجنح إلى دراسة الفلسفة والطب ، واجتمع حوله يومئذ ثلاثة من أعظم

---

(١) ابن صاحب الصلاة فى « المن بالإمامة » لوحة ٤٦ ب .

(٢) راجع المعجب ص ١٣٢ و ١٣٣ .

أئمة التفكير الإسلامى ، هم طبيبه الخاص ، الفيلسوف العلامة أبو بكر بن طفيل الوادى آشى ، وتلميذه القاضى الفيلسوف أبو الوليد بن رشد[١]، والطبيب العبقرى أبو بكر بن عبد الملك بن زهر . وكان الخليفة يشغف بالأخص بملازمة صديقه وطبيبه ابن طفيل ، ولايصبر على فراقه . وهكذا أتيح لأبى يعقوب أن يطلق العنان لشغفه بالدراسات الفلسفية فى ظل هذا الأفق العلمى الباهر ؛ ويبدو مما يذكره لنا المراكشى ، عن بعض مجالس الخليفة الفلسفية نقلا عما رواه له أبو بكر ابن يحيى القرطبى عن أستاذه ابن رشد ، أن الخليفة كان يأخذ من الفلسفة بقسط ملحوظ ، ويبدى فى شرح مسائلها « غزارة حفظ » تدعو إلى الإعجاب . ويضيف القرطبى إلى ذلك رواية أخرى مفادها أن أبا يعقوب هو الذى أوعز إلى ابن طفيل بوجوب عمل تلخيص جديد لشروح أرسطو وتقريب أغراضها وتحرير تراجمها مما يشوبها من الغموض ، وأن ابن طفيل هو الذى اختار تلميذه ابن رشد للقيام بهذه المهمة لما يعلمه من مقدرته وقوة نزوعه وصفاء قريحته ، وأن هذا هو الذى حمل ابن رشد حسبما يقول لنا ، على القيام بتلخيص شروح أرسطو ، وهى الشروح التى اشتهر بها ابن رشد ، وترجمت فيما بعد إلى اللاتينية ، وأذاعت شهرة الفيلسوف المسلم فى دوائر التفكير الغربى . وكان ابن طفيل يقوم بمهمة السفارة بين الخليفة وبين العلماء ، ويدعوهم إليه من مختلف القواعد والأقطار ، وينبه على أقدارهم لديه ، ويحضه على إكرامهم والتنويه بهم ، وهو الذى نوه بفضل ابن رشد وبراعته[٢] .

وحمل الخليفة أبو يعقوب شغفه بالدراسات الفلسفية على الاهتمام بجميع كتبها ، والتنقيب عنها ، وعن غيرها من الكتب الجليلة ، فى سائر أنحاء المغرب والأندلس ، وبذل فى ذلك جهوداً وأموالا جمة ، واجتمع له منها مقادير ضخمة قيل إنها بلغت قرب ما كانت تبلغه المكتبة الأموية العظيمة أيام الحكم المستنصر . ويروى لنا المراكشى طرفاً من هذه الجهود ، وكيف وقع عمال الخليفة على مجموعات عظيمة من كتب الطب والفلك كانت لدى رجل بإشبيلية يعرف بأبى الحجاج المرانى ، وأن هذه الكتب كانت قد وقعت إلى أبيه أيام الفتنة بالأندلس[٣] .

---

(١) كان ابن رشد قاضيا لإشبيلية منذ سنة ٥٦٥ هـ .

(٢) راجع المراكشى فى المعجب ص ١٣٦ .

(٣) المعجب ص ١٣٣ و ١٣٤ .

وقد انتهى إلينا من آثار الخليفة أبى يعقوب العلمية، بحث دينى يكشف لنا عن براعته فى علم الحديث والعلوم الشرعية، وهو كتاب « الجهاد » الذى ألحق بكتاب المهدى ابن تومرت أوكتاب « أعز ما يطلب » وفيه يورد مؤلفه طائفة كبيرة من الأحاديث التى وردت فى فضل الجهاد فى سبيل الله ، والحث عليه ، وتبيان محاسنه . ويلحق بذلك الكلام عن الجهاد ببذل المال وما ورد فيه أيضاً من الأحاديث وما يتسم به من الفضائل . ويحمل هذا الكتاب فى خاتمته اسم مؤلفه، وهو الخليفة أمير المؤمنين ، وتاريخ الانتهاء من وضعه ، وهو العشر الأواخر من شعبان سنة تسع وسبعين وخمسمائة أعنى قبيل وفاة واضعه بنحو تسعة أشهر(١) .

وكان الخليفة أبو يعقوب كلفاً بالمشاريع الإنشائية العظيمة ، وقد قام بإنشاء طائفة من المنشآت العمرانية الهامة ، والصروح الجليلة ، التى خلدت اسمه ، وجعلته فى مقدمة خلفاء الموحدين ، بل وفى مقدمة ملوك المغرب قاطبة فى هذا الميدان . ويكفى أن نذكر هنا ما قام به فى إشبيلية حاضرة الأندلس ، من المشاريع والمنشآت العظيمة مثل قنطرة طريانة، ومسجد إشبيلية الجامع ، وصومعته العظيمة التى أتمها ولده يعقوب المنصور ، ومشروع إمداد إشبيلية بالماء ، وتجديد أسوارها التى خربها السيل ، وإنشاء القصور والبساتين الموحدية العظيمة خارج إشبيلية ، وإنشاء قصبة بطليوس العظيمة وإمدادها بالماء ، وهى التى ما زالت أطلالها القائمة تنبئ عما كانت عليه من الضخامة والمنعة . وماقام به أخيراً من توسيع حضرة مراكش وتجميلها ، وذلك كله حسبما سبق أن فصلناه فى مواضعه .

* * *

وتولى الحجابة لأبى يعقوب أول ولايته ، شقيقه وكبيره السيد أبو حفص ، ولما تنحى عنها وزر له أبو العلاء إدريس بن إبراهيم بن جامع ، واستمر فى منصبه نحو خمسة عشر عاما . ولما اشتد طغيانه، وبدت مثالبه، نكبه أبو يعقوب واستصفى أمواله ، ونفاه مع ولده إلى الأندلس سنة ٥٧٣ هـ . فخلفه فى الوزارة أبو بكر ابن يوسف الكومى ، ليعمل تحت رياسة ولده وولى عهده أبى يوسف يعقوب ، واستمر الأمر كذلك حتى وفاة أبى يعقوب وقيام ولده يعقوب بالأمر من بعده(٢) .

---

(١) راجع فصل الجهاد فى كتاب المهدى ابن تومرت ص ٣٧٧ — ٤٠٠ .

(٢) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٤٠ ، وابن الخطيب فى الإحاطة فى ترجمة الخليفة أبى يعقوب ، مخطوط الإسكوريال لوحة ٣٩٥ .

وتولى القضاء فى عهده أبو محمد المالقى ، ثم عزل وولى بعده عيسى بن عمران التازى التسولى ، وكان عالماً متمكناً ، وأديباً نابهاً ، وشاعراً مجيداً ، وخطيباً بليغاً ، وكان يخطب عن الوفود وفى المناسبات الهامة ، وكانت له مكانة رفيعة فى البلاط الموحدى . ثم ولى القضاء من بعده حجاج بن يوسف . ثم أبو جعفر أحمد بن مضاء من أهل قرطبة . واستمر فى منصبه حتى وفاة أبى يعقوب ، ومن بعده فترة أخرى فى أوائل عهد ولده يعقوب المنصور .

وتولى الكتابة لأبى يعقوب أبو الحسن بن عياش القرطبى كاتب أبيه من قبل . وكان هذا الكاتب الأندلسى ، قد فر من بلده قرطبة عند قيام الثورة بها فى أواخر العهد المرابطى ، ولجأ إلى إشبيلية ، واتصل بالسيد أبى حفص بن عبد المؤمن فاختاره لكتابته ، ثم صحبه معه إلى تلمسان ، ولم يزل متولياً كتابته حتى نكبة الخليفة عبد المؤمن لوزيره ابن عطية ، فاستدعاه الخليفة وعينه لكتابته . ولبث ابن عياش كاتباً للخليفة أبى يعقوب حتى توفى فى سنة ٥٦٨ هـ . وكتب لأبى يعقوب أيضاً أبو القاسم القالمى ، وتلميذه أبو الفضل طاهر بن محشرة وهو من أهل بجاية ، وأبو الحسين الهوزنى الإشبيلى ، وأبو عبد الرحمن الطوسى . وفى مجموعة الرسائل الموحدية ، رسائل عديدة بقلم ابن عياش وزميله ابن محشرة تدلى بما كان لهذين الكاتبين من مقدرة راسخة فى أساليب البيان[١] .

وترك أبو يعقوب من البنين ثمانية عشر ، وهم ولى عهده يعقوب المنصور وشقيقه إسحق ، ويحيى ، وإبراهيم ، وعبد العزيز ، وإدريس ، وأبو بكر ، وعبد الله ، وأحمد ، ويحيى الصغير ، ومحمد ، وعمر ، وعبد الواحد ، وعبد الحق ، وطلحة وعبد الرحمن ، وموسى ، وعثمان . كما ترك عدة من البنات .

وأما عن شخصه ، فقد كان أبو يعقوب أبيض اللون مشرباً بالحمرة ، فاحم الشعر ، مستدير الوجه ، أعين ، إلى الطول أقرب ، وكان جهير الصوت ، طيب المجالسة ، فصيح العبارة ، حلو الألفاظ ، رقيق الخلال[٢] .

---

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٤٠ ، والمراكشى فى المعجب ص ١٣٧ ، وابن الخطيب فى الإحاطة مخطوط الإسكوريال السابق ذكره لوحة ٣٩٥ .

(٢) المراكشى فى المعجب ص ١٣٢ . وقد عاش المراكشى قريبا من عصر الخليفة أبى يعقوب وكانت له صلة وثيقة ببعض أبنائه .

# الكتاب السابع

# عصر الخليفة يعقوب المنصور حتى موقعة العقاب

# الفصل الأول

## عصر الخليفة يعقوب المنصور

## وبداية ثورة بنى غانية

الخليفة أبو يوسف يعقوب . رواية فى معارضة بيعته . اهتمامه بمطاردة الفساد والمنكر . حظره لبس الثياب الحريرية . عنايته بتحقيق العدل وقمع الظلم . جلوسه للنظر فى المظالم . إنشاؤه لضاحية الصالحة الملوكية . مضاعفته لوزن الدينار . بداية عدوان بنى غانية بإفريقية ، فتح المرابطين للجزائر الشرقية . ولاية وانور اللمتونى عليها . ولاية محمد بن غانية . استقلاله بعد سقوط المرابطين بحكم الجزائر . وفاته وولاية ولده إسحاق . الجزائر تغدو مثوى لبقايا المرابطين. تقدم الجزائر ونمو قوتها . غزوات سفنها لشواطىء الدول النصرانية . عقد التهادن بينها وبين بيزة وجنوة والبندقية . اطمئنانها أيام حكم ابن مردنيش . تحولها إلى مصانعة الموحدين بعد وفاته. اهتمام الموحدين بأمر الجزائر. مطالبتهم لإسحاق الاعتراف بالطاعة . وفاة إسحاق وولاية ولده محمد . مقدم على الربرتير سفير الخليفة إلى الجزائر. اعتراف محمد بطاعة الخليفة . خروج إخوته عليه واعتقالهم إياه . حجزهم لسفير الخليفة ورفضهم لطاعة الموحدين . خطتهم لمحاربة الموحدين فى إفريقية . تدبيرهم لغزو بجاية . مسير على بن إسحاق إليها فى حملة بحرية . اقتحامه إياها بمواطأة بعض أهلها. نزوله بها ودعوته لبنى العباس . تعيينه لأخيه يحيى والياً لها . مطاردته لواليها الموحدى السيد أبى الربيع . هزيمة السيد وفراره . استيلاء على على الجزائر ومليانة وأشير والقلعة . وصف لمدينة مليانة . عوده إلى بجاية وانتهابهما فيها . مسيره إلى قسنطينة ورده عنها . اهتمام الخليفة المنصور بتلك الحوادث . إرساله جيشاً إلى إفريقية بقيادة السيد أبى زيد . تسييره للأسطول فى نفس الوقت . ثورة المدن المحتلة ضد الغزاة . استيلاء الأسطول الموحدى على مدينة الجزائر. القبض على يحيى بن غانية وعلى حاكم مليانة المرابطى . الثورة داخل بجاية . دخول الموحدين إياها . فرار يحيى بن غانية وإخوته . أسر رشيد قائد سفن الميارقة والاستيلاء عليها . فشل على بن إسحاق فى اقتحام قسنطينة . فراره وإخوته وفلوله إلى الصحراء . مطاردته وعجز الموحدين عن إدراكه . فراره إلى بلاد الجريد ونهبه لمحلاتها . استمالته لطوائف العرب . اقتحامه لمدينة توزر ونهبها . الفوضى فى بجاية . اقتحام غزى الصنهاجى قائد ابن غانية لأشير . قدوم الموحدين لإنقاذها ونجاحهم فى استردادها . مصرع غزى وأخيه . مقتل رشيد الرومى . مقتل وتشريد أنصار بنى غانية فى بجاية . زحف على بن غانية على قفصة واستيلاؤه عليها . دعوته للخليفة العباسى . استمالته لطوائف العرب . تحالفه مع قراقوش الأرمنى . كيف نزح قراقوش وصحبه الترك إلى المغرب . افتتاحه لفزان وطرابلس . التفاف العرب حوله . تطور الحوادث فى الجزائر الشرقية . مؤامرة الربرتير لخلع طلحة بن إسحاق وإعادة أخيه محمد . نجاح المؤامرة . دعوة الربرتير للخليفة الموحدى . مغادرته لميورقة . محاولة الموحدين تملك الجزائر. فشل هذه المحاولة . ثورة أهل ميورقة على محمد . مقدم عبد الله بن غانية . انتزاعه الولاية ونفيه لمحمد . محاولة أخرى للموحدين لافتتاح الجزائر . فشلهم فى أخذ ميورقة . تفاقم أمر على بن غانية بإفريقية . تحالفه مع قراقوش وطوائف العرب . انضواؤه تحت لواء الخلافة العباسية . يبسط حكم الإرهاب

على إفريقية . اهتمام الخليفة يعقوب بذلك . تجهيزه لجيش موحدى . مسيره فى قواته إلى رباط الفتح ثم إلى فاس. عنايته بالشئون خلال مسيره . مسيره إلى قسنطينة ثم إلى تونس .استعداد ابن غانية وحلفائه . الخليفة يرسل حملة لقتاله بقيادة السيد أبى يوسف . اللقاء بين الموحدين والميارقة وحلفائهم قرب قفصة . موقعة عمرة . هزيمة الموحدين ومصرع أكثرهم . الاستيلاء على محلتهم . فرار السيد أبى يوسف وفلوله . اهتمام الخليفة لتلك النكبة . خروجه فى قواته من تونس . مسيره صوب القيروان . إنذاره لابن غانية . مسيره إلى الحمة قرب قابس . مقدم ابن غانية وحلفائه . مهاجمة الموحدين للعرب حلفاء ابن غانية . تخاذلهم وتبددهم . مهاجمة الموحدين للميارقة والترك . المعركة الدموية . هزيمة الميارقة . فرار ابن غانية وقراقوش إلى الصحراء . استيلاء المنصور على قابس وبلاد الجريد . محاصرته لقفصة وتسليمها بالأمان . القبض على قادة الغز وإعدامهم . توحيد قراقوش وابن زيان . عودة المنصور إلى تونس . مسيره إلى تلمسان ثم إلى مكناسة . تآمر أخيه الرشيد وعمه سليمان ضده . نكوصهما ومسيرهما لمقابلة الخليفة . القبض عليهما وإعدامها . دخول الخليفة إلى الحضرة . اهتمامه بشئون الأندلس واستعداده للجهـاد .

استعرضنا فيما تقدم مجمل الحوادث التى وقعت عقب نكبة شنترين ومصرع الخليفة أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، وما تم من مراحل بيعة الخليفة أبى يوسف يعقوب ولد الخليفة الراحل ، وعبوره من الأندلس إلى العدوة عائداً إلى حضرة مراكش .

وكان الخليفة الجديد فى نحو الخامسة والعشرين من عمره ، إذ كان مولده بمدينة قصر عبد الكريم أو القصر الكبير أواخر شهر ذى الحجة سنة ٥٥٤ هـ ( يناير سنة ١١٦٠ ) أو فى سنة ٥٥٥هـ على قول آخر. وأمه أم ولد كان قد أهداها سيدراى بن وزير صاحب شلب لأبيه الخليفة أبى يعقوب[١]. لقبه المنصور بفضل الله ، أسبغته عليه انتصاراته المتوالية ولاسيما فى معركة الأرك العظيمة .

وقد رأينا كيف تمت بيعته الخاصة عقب وفاة أبيه ، بمحلة الجيش المنسحب ، وهو فى طريقه إلى إشبيلية ، ثم تأيدت بعد ذلك بيعته العامة بإشبيلية ، ولم تلق هذه البيعة يومئذ معارضة من أحد . ولكن صاحب المعجب ، يقول لنا إنه كان له من إخوته وعمومته منافسون لايرونه أهلا للإمارة لما كانوا يعرفون من سوء سيرته فى صباه ، وأنه لقى منهم شدة . بيد أنه لما نزل خلال عودته بسلا ، استجاب لبيعته من كان قد تخلف من أعمامه بنى عبد المؤمن ، بعد ما أغدق عليهم الأموال والإقطاعات الواسعة[٢] .

( ١ ) البيذق فى أخبار المهدى ابن تومرت ص ١١٦ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ١٤ ، وروض القرطاس ص ١٤٣ ، وتاريخ الدولتين للزركشى ص ١٠ .

( ٢ ) المراكشى فى المعجب ص ١٥٠ .

وبدأ الخليفة يعقوب عهده بعمل خير مشكور ، فأخرج من بيت المال مائة ألف دينار من الذهب ، فرقت فى أسر الفقراء والضعفاء فى سائر أنحاء المغرب ، وأمر بتسريح المسجونين(١) . ثم نشط إلى مطاردة مظاهر الفساد التى بدت بالحاضرة الموحدية على أثر عودته ، وكان الناس قد انغمسوا ، فى الدعة ، وانهمكوا فى ضروب اللهو والملاذ ، وراجت سوق الخمور والقيان والغانيات ، فأريقت الخمور فى كل مكان ، ونفذت الأوامر بذلك إلى سائر الجهات ، وأنذر المخالفون بعقاب الموت ، وطاردت الشرطة كل مستهتر ، وألقت القبض على من وجد من المغنين ، فتفرقوا فى كل مكان ، ولاذوا بالنكيرة والاختفاء ، واختفى القيان ، وزهد الناس فى مجالسهن ، وبعث الخليفة بهذه المناسبة إلى إشبيلية ، حاضرة الأندلس الموحدية ، برسالة إلى الطلبة والموحدين والأشياخ مؤرخة فى فى عقب رمضان سنة ٥٨٠ هـ يأمر فيها بمطاردة شراب الرُّب ، وهو مسكر ذائع ، وقطعه جملة ، ومنع بيعه وإغلاق حوانيته ، وإراقة مايوجد منه ، وتوقيع أشد العقاب على من يقتنيه ، وبأن تنفذ هذه الرسالة إلى كافة الجهات للعمل بما فيها(٢) . وأمر الخليفة كذلك بمنع الثياب الحريرية الغالية ، والاجتزاء منها بالرسم الرقيق ، ومنع النساء من لبس الثياب الحفيلة ، والاقتصار على الساذج القليل ، وأخرج ماكان فى المخازن من ضروب ثياب الحرير والديباج المذهب ، فبيعت منه مقادير وفيرة بأثمان باهظة . وهكذا هبت على العاصمة الموحدية ريح من الاقتصار والتواضع والتقشف ، واختفى كثير من ضروب الفساد التى كانت ذائعة بها(٣) .

وعنى الخليفة فى نفس الوقت بالعمل على بسط العدل وتأييده ورد المظالم التى وقعت أيام أبيه ، ومطاردة الظلم والعمال الظلمة ، فنفذت كتبه إلى سائر الولاة والعمال بمراعاة العدل ، وتأنيس الرعية ، والعمل على إرضائهم فى اقتضاء حقوقهم ، وكف الظلمة عن إرهاقهم ، وإباحة جواز البحر إلى المشتكين ، والمتظلمين من شبه الجزيرة . فاستبشر الناس بالعهد الجديد وطوالعه ، وأملوا تحقيق العدل والخير .

(١) روض القرطاس ص ١٤٣ .
(٢) الرسالة الثامنة والعشرون من رسائل الموحدية ( ص ١٦٤ — ١٦٧ ) .
(٣) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٤٣ ، و١٤٤ ، و١٤٥ .

ورأى الخليفة أن يقرن هذا التوجيه إلى تحقيق العدالة ، بأن يجلس للنظر بنفسه فى المظالم وإجراء العدل ، واتخذ مجلسه لذلك الغرض بالمسجد الجامع المجاور لقصر الحجر القديم ، وكان بدأ جلوسه فى غرة شهر رجب سنة ٥٨٠ ﻫ ، وكان يداوم جلوسه منذ الضحى إلى قرب الزوال . ويفد إليه المتظلمون من كل ضرب ، فيؤنسهم برفقه ولينه ، ويستمع إلى ظلاماتهم ، وكثرت دعاوى المدعين من السوقة والتجار ، قبل السادة والأشياخ والأكابر ، بطالب الحقوق والأموال ، وكثر فى ذلك الزور والتدليس ، فكان يقع الصلح فى معظم الأحوال بما يرضى المدعين دفعاً للفضيحة ، فلما تمادى هذا الأمر ، وكثر وفود السفلة والغوغاء وانكشف أمرهم ، وبدا تحاملهم ، قطع الخليفة جلوسه للعامة ، وأسدل الستار على هذا السيل من الإفك والبهتان(١) .

وفى العام التالى ، اعتزم الخليفة أن ينشئ له ضاحية ملوكية تتفق مع روعة الملك ومقتضياته ، وذلك بعد أن ضاق قصر الحجر القديم — قصر على بن يوسف — وملحقاته ، عن استيعاب الأغراض الخليفية ، ومطالب البلاط والحاشية ، فاختطت ضاحية الصالحة ، على رقعة مستطيلة تمتد فى جنوبى مراكش ، ما بين باب أغمات شرقاً وباب الشريعة غرباً . وكان البدء فى إنشائها فى مستهل شهر رجب سنة ٥٨١ ﻫ ( ٢٨ سبتمبر سنة ١١٨٥ م ) وحشد لبنائها رهط من المهندسين والعرفاء ، وآلاف من العمال والبنائين والفنانين ، من المغرب وإفريقية والأندلس ، وجمعت لها سائر الآلات اللازمة ، ورتب لها الحفاظ والنظار . وأمر الخليفة أن يراعى فى إقامتها منتهى الإتقان والمتانة ، وأنشئت بها عدة قصور ملوكية ، ومسجد جامع ، ما زال يقوم بها حتى اليوم ، ويحمل اسم منشئه الخليفة يعقوب المنصور ، واستمر العمل فى بنائها نحو أربعة أعوام ، حيث كملت فى شهر ربيع الأول سنة ٥٨٤ ﻫ ( مايو سنة ١١٨٨ م ) ، وبدت فى أجمل هيئة ، وأضحت عروس الحاضرة المراكشية ، بما أسبغ عليها من ضروب التنسيق والإتقان ، والفخامة(٢) .

وفى نفس هذا العام الزاخر بمشاريع الإصلاح والإنشاء أعنى سنة ٥٨١ ﻫ (١١٨٥م) اتخذ الخليفة خطوة جديدة لها خطرها ، فى ميدان الإصلاح المالى ، وذلك هو

---

( ١ ) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٤٤ و ١٤٥ .

( ٢ ) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٤٥ و ١٤٦ .

إقدامه على مضاعفة وزن الدينار الموحدى . وكان الدينار الموحدى القديم صغير الحجم ، صغير الوزن ، لايعدو وزنه القانونى بحسب الوزن الحديث جرامين وخمسة وثلاثون فى المائة من الجرام ، فأمر المنصور بمضاعفة وزنه ، وأخرجت دار السكة الموحدية بمدينة فاس ، الدينار الجديد بوزن أربعة جرامات وسبعين فى المائة من الجرام ، فكان لذلك الإجراء أثر بالغ فى بث الطمأنينة المالية ، واستقرار التعامل بين الناس(١) .

بيد أنه حدثت فى نفس تلك الفترة التى خيم فيها ظل الأمن والاستبشار على العاصمة الموحدية ، والتى عنى فيها الخليفة الجديد ، بأعمال الإصلاح والإنشاء — حدثت بإفريقية حوادث فى منتهى الخطورة ، إذ هاجم بنو غانية أصحاب الجزائر الشرقية ، أو أصحاب ميورقة ، ثغر بجاية واستولوا عليه ، واستولوا على عدة أخرى من ثغور الشاطئ ، وكان ذلك بداية ذلك الصراع المرير الذى نشب فى أراضى إفريقية بين الموحدين وبنى غانية ، واستطال أكثر من نصف قرن ، وكان له أبلغ الأثر فى انحلال الدولة الموحدية واستغراق جهودها ، وتبديد قواها ومواردها .

ولابد لنا لكى نفهم طبيعة ذلك الصراع وتطوراته ، والبواعث التى أدت إليه ، أن نعود فترة طويلة إلى الوراء ، نستعرض فيها تاريخ الجزائر الشرقية ، منذ أسندت ولايتها إلى بنى غانية أيام العهد المرابطى .

— ١ —

ذكرنا فيما تقدم من أخبار الدولة المرابطية أن أمير المسلمين على بن يوسف ، حينما غزا الجنويون والبيزيون وحليفهم أمير برشلونة ، الجزائر الشرقية ( جزائر البليار ) فى أواخر سنة ٥٠٨ هـ ( أوائل سنة ١١١٥ م ) واستولوا على مدينة ميورقة بعد حصار طويل ، بادر بتجهيز أسطول مرابطى ضخم لاسترداد الجزائر ، واستردها المرابطون بالفعل فى أواخر سنة ٥٠٩ هـ ( ١١١٦م ) وعين أمير المسلمين لولايتها وانور بن أبى بكر اللمتونى ، فلبث فى حكمها زهاء عشرة أعوام ، ولكنه أساء السيرة واستبد وبغى ، حتى اضطرمت الثورة فى الجزائر ، وقبض الثوار على وانور ، وبعثوا إلى أمير المسلمين ، يشرحون ظلاماتهم ، ويلتمسون إليه أن

---

( ١ ) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٥٤ ، وراجع كتاب « الدوحة المشتبكة فى ضوابط دار السكة » المنشور بعناية الدكتور حسين مؤنس ( معهد الدراسات الإسلامية بمدريد سنة ١٩٦٠ ) ص ٥١ .

يعين لهم والياً آخر ، فاستجاب أمير المسلمين إلى رغبتهم ، وعين والياً جديداً للجزائر ، ولم يكن هذا الوالى الجديد ، سوى محمد بن غانية المسوفى ، وهو أخو الأمير القائد أبى زكريا يحيى بن غانية ، وكان يتولى النظر على بعض أعمال قرطبة . فقدم إلى الجزائر فى سنة ٥٢٠ هـ ( ١١٢٦م ) وتولى شئونها بحزم وكفاية ، وشاء القدر أن تكون ولايته للجزائر ، فاتحة عهد جديد فى تاريخها ، يتصل مدى أمد قصير بتاريخ الدولة المرابطية ، ثم يغدو بعد ذلك مستقلا فى ظل بنى غانية .

وقد سبق لنا التعريف ببنى غاية ، وتتبع سيرة زعيمهم القائد البطل يحيى ابن غانية ، حتى وفاته بغرناطة سنة ٥٤٣ هـ ( ١١٤٨م ) ، خلال غمار الثورة التى اضطرمت بأرجاء الأندلس ضد المرابطين. أما أخوه محمد بن غانية ، فقد لبث على ولايته للجزائر ، حتى سقطت الدولة المرابطية ، ودخل الموحدون مراكش، فى شوال سنة٥٤١ هـ ( مارس ١١٤٧ ) . وكان محمد ، مذ رأى انهيار الدولة المرابطية ، وقيام أمر الموحدين ، يعمل على توطيد سلطانه بالجزائر ، والاستقلال بشئونها . ولما قضى الأمر وانتهت الدولة المرابطية ، لبث محمد مع ذلك على ولائه لقضية المرابطين ولمتونة ، واستمر يدعو فى الخطبة لأمير المسلمين وبنى العباس، وجعل من ميورقة والجزائر ، ملجأ ومثوى للوافدين والفارين من فلول لمتونة والمرابطين ، يستقرون بها تحت حمايته ورعايته .

واستطال حكم محمد بن غانية للجزائر زهاء ثلاثين عاما ، وكان يرقب من من مقره النائى بالبحر ، سير الحوادث ، وتقدم أمر الموحدين بشبه الجزيرة . بيد أنه كان يرى فى قيام ابن مردنيش ضد الموحدين ، وتمكن سلطانه فى شرق الأندلس ، عاملا يدعو إلى الطمأنينة . وكان مذ شعر بتوطد أمره ، فى تلك الجزائر المنعزلة، يعتزم أن يجعل منها ملكاً موثلا له ولعقبه . وكان له من الولد أربعة هم عبد الله وإسحق والزبير وطلحة ، فاختار لولاية عهده أكبر أولاده عبد الله . وهنا تختلف الرواية فيقال إن إسحاق حقد على أخيه ودبر مؤامرة قتل فيها أبوه وأخوه . وفى رواية أخرى أن عبد الله خلف أباه فى حكم الجزائر حينما توفى سنة ٥٥٠ هـ ( ١١٥٥م ) ، وأن أخاه إسحاق خلفه فى الحكم بعد وفاته(١) .

وعلى أى حال فقد تولى اسحاق بن محمد بن غانية حكم الجزائر الشرقية ،

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٩٠ ، والمعجب للمراكشى ص ١٥٢ ، وراجع أيضاً :
**A. Bel : Les Benou Ghania (Paris 1903) p. 19.**

وضبطها بحزم وقوة . واستمر على سياسة أبيه من جعلها ملجأ للوافدين من فلول لمتونة ، ورمزاً لثورة المرابطين الأخيرة ضد الموحدين . وكان أولئك المرابطون الوافدون على الجزائر يمدونها بعونهم ، وروح البغض المتأصلة فيهم ضد الموحدين ، بقوى ذات شأن . وفى عهد إسحاق نمت موارد الجزائر وقوتها نمواً كبيراً ، وأضحت أساطيلها القوية عاملا يحسب حسابه فى ميزان القوى البحرية فى هذا الجانب من البحر المتوسط . ويبدو من خطاب أرسله الفارس برنجير دى ترّاجونا ، وهو من أشراف برشلونة ، وكان قد لجأ إلى ميورقة ، فراراً من اضطهاد أميره ، إلى ألفونسو الثانى ملك أراجون فى سنة ١١٧١ ( ٥٦٧ هـ ) ماكانت عليه ميورقة الإسلامية فى ذلك العهد من القوة والازدهار ووفرة الموارد . وكانت حملات إسحاق البحرية تتردد بالغزو بانتظام لشواطئ الممالك النصرانية القريبة ، وتثخن فيها ، وتحرز مقادير عظيمة من الغنائم والسبى ، ويقول لنا المراكشى إنه كان يغزو هذه الشواطئ فى العام مرتين[(١)] . وفى الروايات النصرانية ، أن مسلمى ميورقة فى عهد إسحاق غزوا ثغر طولون فى جنوبى فرنسا ، واستولوا عليه فى سنة ١١٧٨ م ( ٥٧٤ هـ ) وأسروا الفيكونت هوجو جودفريد صاحب مرسيليا ، وعدة آخرين من أكابر النصارى ، وكان من أثر اشتداد قوة ميورقة البحرية ، وتوالى غزواتها لشواطئ الدول النصرانية القريبة ، أن سعت جمهوريات جنوة وبيزة والبندقية إلى عقد المهادنة والصلح مع إسحاق ، فعقدت بين الفريقين فى سنة ١١٧٧ ( ٥٧٣ هـ ) معاهدة صلح وصداقة تعهد فيها كل منهما ألا يحدث أضراراً للآخر فى البر ولا فى البحر ، واستمرت هذه المعاهدة سارية حتى توفى إسحاق فى أوائل سنة ٥٧٩ هـ ( ١١٨٣ م )[(٢)] .

ونحن نعرف أن ثورة ابن مردنيش ضد الموحدين ، استطالت زهاء ربع قرن حتى وفاته فى سنة ٥٦٧هـ ( ١١٧١م ) ، وفى خلال ذلك كان ابن مردنيش يسيطر على شرق الأندلس كله ، وعلى أجزاء من الأندلس الوسطى . وكانت مملكة ميورقة خلال هذه الفترة ، تشعر بما تسبغها عليها سيطرة ابن مردنيش لشرقى الأندلس من طمأنينة وسلامة . بيد أن سلطان ابن مردنيش مالبث أن أخذ فى التصدع ،

---

( ١ ) المراكشى فى المعجب ص ١٥٢ . وكذلك A. Bel : Les Benou Ghania, p. 24 & 25

( ٢ ) راجع : A. Campaner y Fuertes: Bosquejo Historico de la Dominación Islamica en las Islas Baleares (Cit. Espana Sagrada) p. 144 - 145.

ولاسيما منذ انقلب عليه صهره وحليفه القوى إبراهيم بن همشك وانحاز إلى الموحدين. ثم انتهى أمر ابن مردنيش وانهارت مملكة الشرق بوفاته (٥٦٧هـ) ودخل الموحدون مرسية ، وبسطوا سلطانهم على شرقى الأندلس ، وأضحوا على مقربة من الجزائر. وهنا رأى إسحاق ابن غانية ، أن يتحول إلى مصانعة الموحدين ومهادنتهم ، فأخذ يراسلهم ، ويبعث إليهم بنفيس الهدايا من خاصة غنائمه وسبيه ، وكان الموحدون فى البداية ، يستصغرون شأن الجزائر ، ولا يحفلون بأمرها ، فلما سيطروا على شواطئ الأندلس وثغورها الشرقية ، ولما رأوا تقرب إسحاق منهم ، أخذوا يهتمون بشأنها ، ويدركون أهمية موقعها البحرى ، فتوالت كتبهم على إسحاق بطلب الدخول فى طاعتهم ، وبعث الخليفة أبو يعقوب يوسف إلى إسحاق كتابه بذلك فى سنة ٥٧٨ هـ ( ١١٨٢ م ) وطلب إليه بصفة رسمية أن يعترف بطاعته وأن يدعو له فى الخطبة . فعرض إسحاق هذا الأمر على أكابر أصحابه ، فاختلف رأيهم بين الاستجابة والرفض ، فرأى أن يرجئ رده على الخليفة . وخرج فى أسطوله غازياً إلى بعض السواحل النصرانية القريبة ، فقتل فى بعض المعارك ، وقيل أنه طعن فى حلقه ، وحمل حياً إلى ميورقة ، وهنالك مات فى قصره . وكانت وفاته سنة ٥٧٩ هـ ( ١١٨٣ م )[١] .

ولما توفى إسحاق بن محمد بن غانية ، خلفه فى حكم الجزائر أكبر أولاده العديدين محمد .[٢] وكان قد اختاره فى حياته لولاية عهده . وكان محمد يواجه فى بداية حكمه تلك المشكلة الدقيقة ، التى أثارها الخليفة الموحدى بدعوته إلى خضوع الجزائر لسلطانه . وازدادت هذه المشكلة دقة بما عمد إليه الخليفة أبو يعقوب من إرسال سفيره إلى ميورقة فى بعض السفن الموحدية ، التى سارت به من سبتة ، ليعرض الطاعة بنفسه على أميرها ، وليختبر مدى استعداد بنى غانية للاستجابة إلى الدخول فى الدعوة الموحدية . وكان سفير الخليفة إلى محمد بن غانية ، رجلا من طراز خاص ، هو أبو الحسن على الربرتير ، وهو ولد الفارس النصرانى الربرتير El Reverter أو روبرتو القطلونى ، قائد جند الروم أو النصارى المرتزقة فى الجيش المرابطى أيام على بن يوسف ، وقد أبلى الربرتير وجنده الروم

---

( ١ ) المعجب ص ١٥٢ ، وكذلك **A. Bel : ibid; p. 24 & 25.**

( ٢ ) ابن خلدون ج ٦ ص ١٩٠ . ويقول المراكشى إن الذى خلف إسحاق هو أكبر أولاده على (ص ١٥٢ ) .

حسبما فصلنا من قبل ، خير البلاء فى محاربة الموحدين ، وانتصر عليهم مراراً ثم توفى قتيلا فى إحدى المعارك ، وذلك فى سنة ٥٣٩ هـ ( ١١٤٤ م ) وترك ولدين ، كان أحدهما على هذا الذى اعتنق الإسلام ، وتحول إلى خدمة الموحدين .

واستقبل محمد بن غانية سفير الخليفة بترحاب ومودة ، وأبدى استجابته إلى الدخول فى طاعة الخليفة . وكان الخليفة أبو يعقوب عندئذ قد عبر البحر إلى الأندلس فى جيوشه الجرارة ، وذلك فى صفر سنة ٥٨٠هـ ( أبريل سنة ١١٨٤م ) ، قاصداً استئناف الجهاد ضد النصارى ، فلم يكن أمام محمد سوى الخضوع وسيلة لاتقاء الغزو الموحدى . ولكن إخوة محمد ، وهم على ويحيى وطلحة وعبد الله وسير وتاشفين ومحمد المنصور وإبراهيم ، لم يرقهم هذا الخضوع ، فثاروا ضد محمد ، وقبضوا عليه واعتقلوه ، وقدموا أخاهم علياً لولاية الجزائر ، ووضعوا فى الوقت نفسه سفير الخليفة علياً الربرتير فى شبه اعتقال ، وحالوا بينه وبين مغادرة الجزيرة ، واعتقلوا بحارة السفن الموحدية ، ووضعوا بها بحارة من ميورقة ، ولبثوا يطاولون الربرتير ، حتى جاءت الأنباء بمصرع الخليفة أبى يعقوب عقب موقعة شنترين ، وتفرق الجيوش الموحدية الغازية ، فعندئذ أعلن على وإخوته جهاراً رفضهم للدعوة الموحدية والدخول فيها ، وألقوا بعلى الربرتير إلى ظلام السجن[1] .

ولم يكتف بنو غانية — على وإخوته — برفض طاعة الموحدين واعتقال سفيرهم ، بل فكروا كذلك فى انتهاز فرصة ما أصاب الموحدين من آثار هزيمة شنترين ، وتفرق جيوشهم الغازية ، وجنوح الخليفة الجديد أبى يوسف يعقوب إلى القيام بأعمال الإصلاح والإنشاء فى ظل السكينة والعافية ، لإنزال أول ضرباتهم بالموحدين ، فاتجهوا بأبصارهم إلى إفريقية ، إلى تلك المنطقة المضطربة ، التى كانت دائماً مثار القلاقل والمتاعب للموحدين ، والتى كانت طوائف العرب بها تجعل بتقلبها من فريق إلى فريق ، ميزان القوى دائماً فى تردد ، وأزمعوا غزو مدينة بجاية أقرب ثغور هذه المنطقة إلى ميورقة .

ولم يكن تفكير بنى غانية فى غزو بجاية دون تمهيد سابق ، فقد اتصل على ابن غانية ببعض العناصر الناقمة على الموحدين فى المدينة ، من أولياء بنى حماد

---

( ١ ) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٤٦ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٩٠ ، وكذلك :
**Campaner y Fuertes : ibid, p. 146 : -A. Bel : ibid; p. 29.**

أمرائها السابقين ، وراسله جماعة من أهلها ، وكان يعتمد فوق ذلك على موازرة بعض طوائف العرب من بنى هلال ورياح والأثبج . ونحن نذكر ماحدث قبل ذلك بأعوام قلائل من ثورة بنى الرند فى قفصة ، وقيام الخليفة أبى يعقوب بإخماد هذه الثورة (سنة ٥٧٦هـ) ، وإسناده عندئذ ولاية إفريقية لأخيه السيد على أبى الحسين ، وولاية بجاية والزاب لأخيه السيد أبى موسى عيسى ، وما حدث بعد ذلك بقليل من ثورة عرب بنى سُليم على مقربة من قابس ، وأسرهم للسيد أبى الحسين وأصحابه عندما تصدوا لمقاومتهم ، ثم إطلاق سراحهم لقاء فدية كبيرة . وكان تكرار هذه الحوادث وأمثالها ، مما يشجع بنى غانية على اختيار هذه المنطقة بالذات مسرحاً لمغامراتهم ضد الموحدين .

وحشد على بن إسحاق الملقب بالميورقى أسطولا صغيراً من اثنين وثلاثين سفينة تحمل نحو مائتى فارس وأربعة آلاف راجل، تحت إمرة القائد رشيد النصرانى ، واستخلف على ميورقة عمه أبا الزبير . وسار مع إخوته فى سفنه صوب بجاية ، فوصلت بسلام إلى مقربة من الميناء . وكان كل شيء فى المدينة هادئاً ، ولم يخطر ببال أحد من أهلها أن الغزاة على الأبواب . ودفع القائد رشيد رجاله فى زورق إلى أسفل الأسوار للاستخبار والتحرى ، وكان والى المدينة السيد أبو الربيع سليمان عم الخليفة خارج المدينة وعلى مقربة منها راحلا إلى الحضرة ، وقد حل بها السيد أبو موسى مع بعض أصحابه فى طريقه إلى تلمسان، ولم يك ثمة أية أهبات دفاعية يعتد بها . فتقدمت السفن المهاجمة من المدينة . واحتشد رهط كبير من الغزاة فى مكان معين قبالة الأسوار ، كان متفقاً على اختياره لاقتحام المدينة مع الضالعين مع الغزاة ، وتدلى بعض هؤلاء من الأسوار ليدلوا الغزاة على عورات السور ، وثغرات الدفاع . واجتمعت جماهير من أهل البلد لمقاومة الغزاة دون قائد يجمع شملهم ، ودون استعداد ، وقد تخاذل الرؤساء وأولو الأمر ، فسلط الميورقيون عليهم القسىّ والسهام ففتكت بهم. ثم تقدم الفرسان والمشاه، واقتحموا المدينة من ثلمات السور ، واستولوا عليها ، وقبضوا على السيد أبى موسى وآله وعلى سائر الموحدين الذى يخشى بأسهم . وكان سقوط بجاية على هذا النحو فى يد على بن إسحاق الميورقى فى السادس من شهر شعبان سنة ٥٨٠ هـ (١٣ نوفمبر سنة ١١٨٤ م)[١] .

---

(١) المعجب ص ١٥٣ ، والكامل لابن الأثير ج ١١ ص ١٩١ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤٢٩ . ويأخذ ألفرد بل بهذا التاريخ Les Benou Ghania, p. 42 . ولكن صاحب البيان —

وأقام على بن غانية أسبوعاً فى بجاية ينظر فى شئونها ، وصلى بها الجمعة ، ودعا فى الخطبة لبنى العباس ، وللخليفة العباسى أحمد الناصر ، وكان خطيبه يومئذ هو خطيب بجاية الفقيه المحدث والأديب الشاعر ، أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الأزدى الإشبيلى صاحب كتاب « الأحكام » وغيره . وكان الخليفة أبو يوسف يعقوب ، حينما بلغه موقفه يزمع قتله والاقتصاص منه . ولكنه توفى غير بعيد ونجا من نقمته[1] .

وترك على بن غانية النظر على بجاية لأخيه يحيى بمعاونة رشيد الرومى ، وخرج من فوره لمطاردة واليها السيد أبى الربيع ، وكان ما يزال على مقربة من بجاية ، فلحق به بموضع يعرف بباميلول ، وكان معه رهط من الأعراب الموالين للموحدين فانخذلوا كعادتهم عند الشعور بالهزيمة ، وانضموا إلى ابن غانية ، وهزم السيد أبو الربيع ، وقتل عدد من رجاله ، وسقطت محلته بأسرها فى يد العدو ، وفيها أهله وأمواله ، ولكنه استطاع الفرار إلى الجزائر ، ومنها إلى تلمسان ، فنزل بها على واليها السيد أبى الحسن بن أبى حفص بن عبد المؤمن ، وأخذا فى تحصينها ، والاستعداد فى الدفاع عنها[2] .

وتابع على بن غانية زحفه المظفر صوب الجزائر فدخلها ، وقدم عليها يحيى ابن أخيه طلحة ، ثم سار إلى مليانة ومازونة ثم إلى أشير والقلعة ( قلعة بنى حماد ) واستولى عليها جميعاً ، واستباح أهلها ، واستصفى أموالهم. وكانت مليانة ، وهى أهم هذه البلاد ، فى الأصل مدينة رومانية ، جددها زيرى بن مناد الصنهاجى وحصنها ، وكانت فى ذلك الوقت حسبما يصفها لنا الإدريسى ، مدينة قديمة البناء ، حسنة البقعة ، نضرة المزارع ، ولها نهر يروى معظم مزارعها وجناتها ، قد ركبت على ضفافه الأرحاء ، ولأراضيها حظ من مياه نهر شلف ، وعلى ثلاثة أيام منها ، وفى جنوبها الجبل المسمى بجبل وانشريش ، يسكنه قبائل من البربر منها مكناسة ، وحرسون ، وأوربة ، وبنو أبى خليل ، وكتامة ومطماطة ، وبنو مليلت ،

= المغرب يضع تاريخ سقوط بجاية فى التاسع عشر من صفر سنة ٥٨١ هـ ( القسم الثالث ص ١٤٨ ) ويتابعه فى ذلك ابن خلدون ( ج ٦ ص ١٩٠ ) وكذلك الزركشى فى تاريخ الدولتين ص ١٠ .

( ١ ) المعجب ص ١٥٣ .

( ٢ ) ابن خلدون ج ٦ ص ١٩١ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ١٤٨ .

وبنو وارتجان وبنو أبى خليفة، ويصلاتن، وزولات، وزواوة، وهوارة وغيرها .
وطول هذا الجبل مسيرة أربعة أيام ، وينتهى طرفه إلى مقربة من تاهرت[١] .
وقدم على بن غانية على مليانة يدّر بن عائشة ، ووقف بها أياما ، ثم عاد إلى بجاية ، وهنالك جلس بمسجدها الجامع ، فأقبل الناس لمبايعته والدخول فى طاعته ، والتف حوله الدهماء والعامة ، واستخرج ماكان فى المخازن من الأموال والثياب ، وكسا أوباش العرب ومن انضم إليهم من الأخلاط والكافة ، ولما رتب شئونه ببجاية ، ترك بها رشيداً الرومى إلى جانب ابن أخيه يحيى ، وسار فى قواته إلى قسنطينة ، ولكنها كانت على أهبة الدفاع ، واستبسل أهلها فى قتاله ، وقتلوا جملة من رجاله ثم اعتصموا بمدينتهم ، فضرب حولها الحصار ، مؤملا أن تسقط فى يده[٢] .

وعلم الخليفة يعقوب المنصور ، بتلك الحوادث المؤسفة ، وهو ما يزال فى بداية عهده ، وما يكاد يبدأ حملته الإصلاحية ، فاهتز لها ، وأدرك فى الحال خطورتها ، واعتزم أن يبذل قصارى جهده لقمعها ، فجهز حملة قوية من الجند المختارة قوامها عشرون ألف مقاتل مزودة بوافر العدة والآلات ، وجعل قيادتها لابن عمه السيد أبى زيد بن أبى حفص ، وسار فى نفس الوقت أسطول موحدى كبير من سبتة ، تحت قيادة أبى محمد بن إسحاق بن جامع ، وأبى محمد بن عطوش الكومى ، وأبى العباس الصقلى ، وسارت القوات البرية والبحرية وفق خطة موحدة لمحاربة العدو ، متعاونين فى البر والبحر ، وسار الجيش الموحدى أولا إلى فاس ، وتوقف بها وقتاً لاشتداد البرد والأمطار ، ثم رحل إلى تلمسان وكان بها السيد أبوالحسن بن أبى حفص ، وقد حصن أسوارها وشحنها بالمقاتلة ومعه السيد أبو الربيع والى بجاية السابق ، وكان قد لجأ إلى تلمسان ، وتوقف بها يرتقب الفرصة لاستنقاذ أهله وذويه من قبضة العدو المغير .

وسار الجيش الموحدى من تلمسان شرقاً بحذاء الشاطئ ، والأسطول يحاذيه من البحر ، وكان الخليفة يعقوب قد وجه إلى أهالى القواعد المغزوة ، كتباً يعدهم فيها بالأمن والأمان والصفح والإحسان لمن تعاون مع العدو . واستطاعت الجواسيس

---

(١) الإدريسى فى « وصف المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس » ص ٨٤ و٨٥ ، وكذلك الاستبصار فى عجائب الأمصار ( طبعة جامعة الإسكندرية ١٩٥٨ ) ص ١٧١ .

(٢) الرسائل الموحدية — الرسالة التاسعة والعشرون ص ١٧٢ ، و١٧٣ . والبيان المغرب — القسم الثالث ١٤٨ .

الموحدية أن تدس هذه الكتب تحت جنح الليل إلى مختلف القواعد ، فلما علم الناس أن القوات الموحدية قد اقتربت منهم ، وثبت طوائف كثيرة منهم بالمحتلين ولاسيما بالجزائر ، وقبضت على العديد منهم ، وبادر الأسطول الموحدى ، فاستولى على الجزائر قبل أن يصل إليها الجيش ، وأسر بها يحيى بن غانية وأتباعه الميورقيين ، ثم استولى على مليانة ، وكان حاكمها المرابطى يدّر بن عائشة قد فر منها ، فاقتفى أهلها أثره ، وطاردوه ثم قبضوا عليه وعلى أصحابه بعد معركة شديدة ، وسيق مع أصحابه مصفدا . ثم أعدم بعد ذلك . وكان السيد أبو زيد قد وصل عندئذ إلى وادى شلف ، وأمر بمتابعة الحرب ، وتقدم نحو بجاية على جناح السرعة ، إذ علم بأن ابن غانية يروم نقل السيد أبى موسى وزملائه من أكابر الموحدين إلى ميورقة ، وسار الأسطول إليها فى نفس الوقت . وتقدم القائد أبو العباس الصقلى فى إحدى السفن مع بعض أهالى بجاية ، ودسوا الكتب إلى أهلها بوصول القوات الموحدية ، فثارت العامة داخل المدينة ، وفتحوا الأبواب ، ونزل بحارة الأسطول وعلى رأسهم أبو محمد بن جامع إلى المدينة ، وفتكوا بالميورقيين وأنصارهم ، وفر يحيى بن غانية وأخوه عبد الله فى عدد قليل من أصحابه ، ولحق بأخيه أمام قسنطينة ، وأسر الموحدون رشيداً الرومى قائد الميورقيين ، واستولوا على السفن الميورقية خارج الميناء ، وأطلق سراح السيد أبى موسى ومن معه من أكابر الموحدين . وهكذا استنقذت بجاية بضربة سريعة ، وكان استردادها فى اليوم التاسع عشر من شهر صفر سنة ٥٨١هـ ( ٢٢ مايو سنة ١١٨٥ ) ، بعد أن لبثت فى قبضة بنى غانية نحو سبعة أشهر (١) .

وفى ذلك الحين كان ابن غانية تحت أسوار قسنطينة ، وكانت المدينة المحصورة قد استنفدت كل وسائل الدفاع ، وأشرفت على السقوط فى يد العدو ، ولكن ماكادت أنباء استرداد بجاية تصل إلى المحصورين ، حتى اضطرمت قواهم المعنوية وثبتوا فى معقلهم ، ورأى الميورقى من جهة أخرى ماحل بقضيته من الخسران ، بعد سقوط بجاية ، وضياع أسطوله ومصرع الكثير من أصحابه ، ونكول الأعراب عن موازرته ، وخشى من إدراك الموحدين له ، وهو فى هذه الحالة اليائسة ، فارتد عن قسنطينة مع إخوته وفلوله الباقية ، وتوغل فى الصحراء ، بعيداً عن

---

( ١ ) الرسائل الموحدية — الرسالة التاسعة والعشرون ص ١٧٦ — ١٧٨ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ١٥٠ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٩١ . وكذلك A. Bel : Les Benou Ghania, p. 50-53

المطاردة . ولم تمض على فراره ثلاثة أيام حتى وصل السيد أبو زيد فى قواته إلى تيكلات على مقربة من بجاية ، وهنالك وافاه طلبة بجاية وأكابرها وعلى رأسهم السيد أبو موسى ، وأخذ الجميع فى الأهبة والاستعداد لمطاردة العدو الفار ، وسيق إلى المحلة الموحدية كل من قبض عليه وأسر فى بجاية من أنصار الميورقى سواء منهم من جاز معه من ميورقة ، أو من انحاز إليه ، ارتداداً عن الدعوة الموحدية ، وميزوا وقتل معظمهم . واستبقى يحيى بن طلحة الميورقى رهينة . وفى اليوم الثالث سار الموحدون فى أثر ابن غانية واستمروا فى مسيرهم حتى مقّرة ونقاوس ، ولكنهم لم يستطيعوا إدراكه ، لأنه كان قد ألقى معظم أثقاله فى الطريق وفرق قواته ، وسبق الموحدين بمراحل ، ولم يستطع الموحدون بقواتهم الكثيفة وعددهم الثقيلة لحاقاً به ، فعندئذ ارتد السيد أبو زيد فى جموعه إلى بجاية ، وذلك بعد أن أنفقت الحملة الموحدية زهاء ستة أشهر فى حركة متواصلة لم تنعم خلالها بقسط من الراحة[1].

أما على بن غانية ، فقد اتجه وأخوه يحيى فى فلوله جنوباً ، واخترق جبال الأطلس إلى منخفض حندة ، ثم إلى منطقة الواحات الواقعة جنوبى ولاية إفريقية المسماة بلاد الجريد ، وهو ينهب المحلات الغنية فى تلك المنطقة ، ويستميل بجزيل صلاته طوائف العرب النازلين فى تلك الأنحاء ، ولاسيما بنى رياح وبنى جشم . ولما اطمأنت نفسه وكثرت جموعه ، سار إلى افتتاح مدينة تَوزَر ، فضرب حولها الحصار ، وقطع غابات النخيل المحيطة بها ، فقاومته المدينة بشدة ، ولكنه استطاع بمعاونة بعض الضالعين معه من أهلها أن يدخلها أخيراً . فلما دخل أغضى عن أهلها الذين ناصروه ومنحهم الأمان ، واستصفى أموال الآخرين ، ثم فرض عليهم فروضاً أخرى لافتداء أنفسهم ، فمن استطاع أن يفتدى نفسه ، أطلق سراحه ، ومن عجز قتل ثم ألقى بعد قتله إلى بئر بالمدينة سميت فيما بعد بئر الشهداء ، وكان سقوط توزر فى سنة ٥٨٢ هـ ( ١١٨٦ م )[2] .

وكان السيد أبو زيد قد استقر فى تلك الأثناء فى بجاية ، وكانت المدينة قد سادها الاضطراب والفوضى ، وخربت دورها ومعاهدها ، وأقفرت سائر المناطق المحيطة بها ، وخربت على يد جند ابن غانية وأنصاره الأعراب ، وعدمت المؤن والموارد والغلات ، وارتفعت الأسعار ، وفر كثير من السكان وهاموا على

---

( ١ ) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٥١ .

( ٢ ) رحلة التجانى ( المنشورة بعناية المطبعة الوطنية بتونس سنة ١٩٥٨ ) ص ١٦٢ .

وجوههم ، ثم سرى الوباء إلى المدينة وكثر الموت . ووصلت أنباء تلك الحالة إلى الخليفة بمراكش ، وكثرت لديه الأقوال فى حق السيد أبى زيد ، وقصوره عن معالجتها ، فبعث إليه معاتباً ، وحاثا على العمل لتدارك الأمر . وغادر الأسطول فى نفس الوقت مياه بجاية ، عائداً إلى قواعده فى سبتة .

وبالرغم من ابتعاد الميورقى عن بجاية وأحوازها ، وتوغله فى القفار الجنوبية فإنه بعث حملة من جنده تحت إمرة غزى الصنهاجى ، فسار إلى مدينة أشير ، واقتحمها ، وقتل حافظها الموحدى ، فبادر السيد أبوزيد إلى توجيه ولده السيد أبى حفص عمر فى قوة موحدية ومعه أبو الظفر بن مردنيش فى حملة أخرى من الأجناد ، فساروا لقتال غزى وأصحابه ، ونشبت بينهما معركة هزم فيها غزى وقتل ، وأرسل رأسه إلى بجاية وعلق بها ، واستولى أبو الظفر بن مردنيش على محلة العدو وحريمه وعتاده وماشيته ، وحل عبد الله الصنهاجى مكان أخيه غزى فى الدفاع عن أشير ، فاستماله القاضى أبو العباس بن الخطيب ، وأغراه بالوعود ، واستنزله من المدينة ، ثم قبض عليه وأرسل إلى بجاية ، حيث صلب إزاء رأس أخيه[١] .

وكان من أحداث بجاية فى هذا العام ، أن قُتل رشيد الرومى قائد ابن غانية السابق ، وقتل عدد من أهل بجاية ممن انحازوا إلى جانب بنى غانية ، وكان من هؤلاء أبناء القائد ابن حملة ، وغُرب بنو حمدون من بجاية إلى سلا ، لاتهامهم بالتواطؤ مع بنى غانية ، بعد أن أرغموا على تصفية أموالهم بها بثمن بخس ، وأبعد غيرهم من الأعيان أيضاً إلى سلا ، بعد أن صفيت أموالهم وديارهم[٢] .

وعلى أثر ذلك استدعى السيد أبو زيد من قبل الخليفة إلى الحضرة ، فسار إليها فى حملة من صحبه بالرغم من اشتداد البرد والأنواء خلال فصل الشتاء ، فلما وصل إليها أحسن الخليفة استقباله ، وأكرم وفادته ، وسرى بذلك عنه ما كان قد لحق به من أوزار الوقيعة ، وتهمة القصور والإهمال .

وكان على بن غانية ، بعد أن استولى على توزر يطمح إلى الاستيلاء على قفصة . ونحن نذكر أن الخليفة أبا يعقوب يوسف ، كان قد استرد قفصة فى سنة ٥٧٦ هـ ( ١١٨١ م ) وأخمد بها ثورة بنى الرند ، وكانت المدينة بالرغم من

---

( ١ ) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٥٣ .

( ٢ ) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٥٤ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٣ .

انضوائها تحت لواء الموحدين ، ما تزال مسرحا لمختلف الدسائس والتيارات ، وولاؤها للموحدين غير ثابت ، ولا مستقر ، ومن ثم فإنه ما كاد الميورقى يزحف عليها بقواته ويضرب حولها الحصار ، حتى بادر أهل المدينة بإخراج الموحدين منها ، وتسليمها إلى الميورقى ، فوضع بها حامية من جنده المرابطين وحلفائه الجند الأتراك ، وجدد تحصيناتها ، وكان ذلك أيضاً فى سنة ٥٨٢ ( ١١٨٦ م ) .

وهكذا سيطر على بن إسحاق بن غانية الميورقى على معظم إفريقية ، وقطع بها خطبة الموحدين ، ودعا لطاعة الخليفة العباسى ، الناصر لدين الله ، وأرسل إليه فى طلب المراسيم والخلع والأعلام السود . وكان مما يزيد فى خطورة هذا الموقف بالنسبة للموحدين ، أن الميورقى استطاع أن يستميل إلى جانبه كثيراً من طوائف العرب من سُليم ورياح وغيرهم ، واستطاع من جهة أخرى أن يعقد الحلف مع قراقوش الأرمنى مملوك الأيوبيين وجنده الترك ، وكانوا قد نزحوا من مصر إلى الغرب واستولوا على طرابلس ، وبسطوا سلطانهم على كثير من أطراف إفريقية الشرقية[1] .

ويجب إن نشير بهذه المناسبة إلى الظروف التى وقع فيها نزوح أولئك الجند الترك إلى هذه الأنحاء من إفريقية . وذلك أنه لم تم استيلاء الملك الناصر صلاح الدين ابن أيوب على مصر ، على أثر وفاة الخليفة العاضد ، آخر خلفاء الدولة الفاطمية ، ووقعت الوحشة من أجل ذلك بينه وبين سيده القديم السلطان نور الدين ، فكر بعض أمراء بنى أيوب ، أن ينزحوا ، إذا ما تغلب عليهم نور الدين ، إلى بعض الجهات النائية المأمونة مثل اليمن أو المغرب . واتجه نحو المغرب بالأخص تقى الدين عمر بن شاهنشاه أخو صلاح الدين . ولكنه عدل عن مشروعه لما رأى ما يكتنفه من الصعاب والمخاطر ، ففكر اثنان من أولياء بنى أيوب ، هما شرف الدين قراقوش الأرمنى مملوك تقى الدين (وهو غير بهاء الدين قراقوش وزير صلاح الدين فيما بعد ) وإبراهيم بن قراتكين المعظمى ، نسبة إلى الملك المعظم شمس الدولة أخى صلاح الدين ، فى تنفيذ المشروع ، وفرا فى طائفة كبيرة من الجند الترك ، وسارا صوب المغرب ، ثم افترقا ليسعى كل منهما إلى مصيره فسار قراقوش إلى قلب ولاية طرابلس ، وافتتح سنترية وأوجلة ، ودعا للسلطان صلاح الدين ، وابن أخيه تقى الدين عمر ، ثم سار إلى فزان فافتتحها ، وقضى على دولة الهوارين القائمة بها

---

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ١٩٦ .

وكانت زويلة مقر ملكهم ، وخطب فيها أيضاً لصلاح الدين وابن أخيه .

وقوى أمر قراقوش تباعا ، فسار إلى طرابلس ، والتف حوله العرب من بنى دباب ونهضوا معه إلى جبل نفوسة ، فاستولى عليه ، واستخلص منه أموالاً عظيمة فرقها فى حلفائه العرب ، ثم وفد إليه مسعود بن زمام أمير بنى رياح ، وكان من الخارجين على بنى عبد المؤمن فانضم إليه بقواته ، وضرب قراقوش بقواته المشتركة الحصار حول طرابلس ، وكانت خالية من الأجناد والأقوات ، فاستولى عليها بأيسر أمر ، وذاع صيته واشتد ساعده ، وهرعت طوائف العرب من كل فج إلى لوائه . وملك قراقوش كثيراً من أنحاء إفريقية المجاورة ، وتضخمت موارده وقواته ، ومعظمها من العرب الذين عاثوا فساداً فى تلك الأنحاء « بما جبلت عليه من التخريب والنهب والإفساد ، بقطع الأشجار والثمار وغير ذلك » وأخذت نفسه تحدثه بالاستيلاء على سائر إفريقية (١) .

— ٢ —

وفى ذلك الحين حدثت بميورقة حوادث هامة . وكان من الطبيعى بعد أن خلت الجزيرة من معظم الجند والقادة ، منذ رحيلهم تحت إمرة عاهلهم على ابن غانية إلى إفريقية ، واستولى الموحدون على سفن الأسطول الميورقى فى مياه بجاية ، أن تتخذ الأحداث بالجزيرة وجهة جديدة . وكان رسول الخليفة الموحدى على الربرتير منذ اعتقل بالجزيرة ، يرقب الفرص لكى يتحرر من معتقله ، وليقوم فى نفس الوقت بضربة تحقق الغاية من رسالته . وألفى على فرصته فى الاتصال بالجند المرتزقة النصارى من حراس معتقله ومن إليهم من أبناء ملتهم ، وكان معظمهم يرومون مغادرة الجزيرة إلى أوطانهم ، فوعدهم على بأنهم متى عاونوه على تحقيق غرضه ، فإنه يعمل على تسريحهم فى أهلهم وأولادهم إلى أوطانهم . وكانت أرومة الربرتير وأصله النصرانى ، مما يحببه إلى نفوس أولئك الجند النصارى ويجعله موضع ثقتهم وأملهم . والظاهر أيضاً أن الربرتير استطاع أن يجذب إلى جانبه بعض أعيان المدينة من أنصار محمد بن غانية المعزول وخصوم أخيه على . وهكذا دُبرت مؤامرة قوامها الجند النصارى لخلع والى الجزائر القائم وهو طلحة ابن إسحاق بن غانية ، وإعادة أخيه محمد المعزول ، ونفذ المتآمرون مشروعهم

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ١٤٦ ، ورحلة التجانى ص ١١١ – ١١٣ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٩١ و١٩٢ .

فى يوم جمعة ، وفى وقت الصلاة ، حينما شغل معظم الناس بأداء الصلاة فى المسجد الجامع ، وغيره من المساجد . فأخرج المتآمرون علياً الربرتير من سجنه ، ووثبوا إلى مخازن السلاح ، فاستولوا على ما فيها ، ثم حاصروا القصبة ، وقتلوا من بها من الجند المرابطين ، وتحصن الربرتير وأنصاره بالقصبة ، فحاصرهم جمهور من أهل ميورقة . وضربوا القصبة بالمجانيق وأرسلوا على من بها وابلا من الحجارة والسهام . فأتى الربرتير من داخل القصبة ، بأهل على بن غانية ، وفيهم أمه وأبناؤه ، ووضعهم فوق الأسوار ، ليرغم المحاصرين على الكف عن ضرب القصبة ، فعندئذ هدأت الأمور ، واضطر أهل البلد إلى المفاوضة ، وتبادل العهود[١] .

وعلى أثر ذلك استدعى محمد بن إسحاق بن غانية حاكم الجزائر السابق ، وكان قد خلعه إخوته ، حينما اعترف بطاعة الموحدين عند مقدم الربرتير إلى ميورقة ، واعتقل فى أقصى الجزيرة ، واتفق على إعادة تنصيبه والياً للجزائر ، ونزل الربرتير عن القصبة والسلطة ، وأعلن طاعة الموحدين ، وخطب للخليفة الموحدى ، وجمع الربرتير من الأموال والذخائر ما استطاع ، وسرح المرتزقة النصارى بأموالهم وأهلهم إلى بلادهم . ثم غادر الجزائر عائداً إلى المغرب ، وقصد إلى حضرة مراكش . ووقع ذلك فى أوائل سنة ٥٨١ هـ (١١٨٥م) . وفى رواية أخرى أن محمداً بن إسحاق غادر ميورقة مع الربرتير ولحق بالحضرة ، ليقدم طاعته بنفسه إلى الخليفة[٢]. وهكذا حكم محمد بن إسحاق ميورقة فى ظل طاعة الموحدين الإسمية . ولما حاول الخليفة يعقوب المنصور بعد ذلك أن يجعل من هذه الطاعة حقيقة واقعة ، بتملك ميورقة ، وأرسل لهذه الغاية إليها أسطولا بقيادة أبى العلاء بن جامع ، أبى محمد أن يستجيب إليه ، واستغاث بملك أراجون فأمده بالجند ، ولم يستطع الموحدون تنفيذ مشروعهم . ومن جهة أخرى ، فإن الهدوء لم يستمر طويلا بالجزائر ، ذلك أن أهل ميورقة ثاروا على محمد لخضوعه للموحدين ، ورفعوا إلى الولاية أخاه تاشفين . وفى رواية أخرى أنه لما وقف على بن إسحق بن غانية وإخوته وهم بإفريقية ، على ما حدث فى ميورقة ،

---

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٥٥ و ١٥٦ . وراجع :
A. Bel : ibid; p. 68 & 66 : وكذلك Cmapaner y Fuertes ; ibid, p. 148 et suiv.

(٢) البيان المغرب ص ١٥٦ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٩٤ .

سار منهم عبد الله فى بعض صحبه، وركب البحر إلى صقلية، وهنالك زوده النصارى ببعض السفن فسار إلى ميورقة ، والتف حوله جمع من أهل الجزيرة واستطاع أن يدخل ميورقة باستمالة بعض أعيانها ، وأن ينزع الولاية لنفسه، وقبض على أخيه محمد، وبعث منفياً إلى الأندلس. فالتجأ هنالك إلى الموحدين فولوه على مدينة دانية، واستقر عبدالله فى ولاية الجزائر دون منازع . وعاد الخليفة المنصور فبعث أسطوله إلى الجزائر بقيادة أبى العلاء بن جامع ، ثم أرسله مرة أخرى بقيادة الشيخ إبراهيم الهزرجى ، فقاوم عبد الله أشد مقاومة ، وقتل كثير من الموحدين ، ولم ينالوا مأرباً من ميورقة ، ولكنهم استطاعوا الاستيلاء ، على جزيرتى يابسة ومنورقة ، وكان ذلك فى سنة ٥٨٣هـ ( ١١٨٧م ) . واستردت الجزائر فى عهد عبد الله قوتها ورخاءها ، واستمر فى رياستها أعواماً طويلة ، وهو يعاود الغزوات البحرية للشواطئ النصرانية القريبة ، حتى كان افتتاح الموحدين للجزائر فى سنة ٥٩٩ هـ ( ١٢٠٣ م ) على ما نذكر بعد[١] .

— ٣ —

عظم أمر على بن غانية بأنحاء إفريقية الجنوبية والوسطى، ولاسيما مذ تقاطرت طوائف العرب من بنى هلال وجشم وبنى رياح والأثبج إلى لوائه . وعقد التحالف بينه وبين قراقوش الأرمنى وأجناده الترك الوافدين من مصر ، وبسط سلطانه على سائر أنحاء إفريقية ، ولم يبق بيد الموحدين منها سوى المهدية وتونس ، ودعا على للخلافة العباسية حسبما أسلفنا ، وتلقب بأمير المسلمين جرياً على ما كان عليه أمراء الدولة المرابطية[٢] وبعث ولده عبد المؤمن إلى الخليفة الناصر بن المستضيء ببغداد ليطلب إليه المدد والرعاية ، فعقد له الخليفة على سائر ما يملكه، وبعث ديوان الخليفة صحبة عبد المؤمن إلى مصر، خطاب الخليفة إلى الملك الناصر صلاح الدين باعتباره نائب الخليفة بمصر والشام ، فكتب له صلاح الدين كتابه إلى مملوكه قراقوش، بالعمل المشترك على تأييد الدعوة العباسية[٣]، وكانت

---

( ١ ) المراكشى فى المعجب ص ١٥٥ و١٥٦، والبيان المغرب القسم الثالث ص ١٥٧ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٩٤ ، وابن الأثير ج ١١ ص ١٩٦ .

( ٢ ) ابن الأثير ج ١١ ص ١٩٦ .

( ٣ ) ابن خلدون ج ٦ ص ١٩٢ .

استعادة الجزائر على يد عبد الله بن غانية وتمكين سلطان بنى غانية بها ، عاملا جديداً ، فى ذيوع أمر على وتوطيد هيبته وسلطانه .

وبسط على بن غانية على إفريقية حكم إرهاب مطبق ، وأطلق العنان لأحلافه من طوائف العرب ، يعيثون أينما استطاعوا فساداً ، ويطلقون أيديهم بالإيذاء والسلب والنهب والسبي ، لايرعون حرمة ولايرحمون ضعفا ، وعلىٌّ لا يستطيع منعهم أو ردعهم استبقاء لولائهم ومحالفتهم . وقد وصف مؤرخ رحالة حالة إفريقية فى ذلك الوقت بإيجاز فى قوله « إنه هلك العباد وخراب البلاد » . وكان من شنائع على بن غانية ، أنه سار إلى جزيرة باشو بالقرب من حضرة تونس فى غضون سنة ٥٨٢ هـ ( ١١٨٦م ) ، فسأله أهلها الأمان ، فمنحهم إياه ، ولكن ماكاد عسكره يدخل إليها ، حتى نهبوا سائر ما فيها ، وهتكوا الحرمات ،وفر من استطاع منهم إلى تونس ، ونزلوا بين أسوارها ، فأهلكهم البرد خلال فصل الشتاء ، وبلغ من هلك على قول الرواية اثنا عشر ألفاً[١] .

وتوالت أنباء هـذه الحوادث الإفريقية المزعجة على الخليفة أبى يوسف يعقوب المنصور فأهمته ، وأدرك مبلغ خطورتها ، وبعث إليه أخوه السيد أبو عبدالله الذى كان قد حل مكان السيد أبى زيد فى ولاية إفريقية من تونس ، يستغيث به ويستنفره إلى تدارك الأمر بعد أن بلغ الخطر أقصاه ، وظهر عجز القوات الموحدية القليلة ، وأضحت سيادة الموحدين فى إفريقية على وشك الانهيار ، فاتخذ الخليفة أهبته للحركة إلى إفريقية ، وبدأ بالتحرك إلى تينملل ، حيث زار قبر المهدى ، جرياً على تقليدهم المأثور ، فى التيمن بزيارته ، عند الملمات والحوادث الحسام ، ثم عاد إلى مراكش ، وجهز جيشاً مختاراً من الموحدين قوامه عشرون ألف فارس ، وغادر الحضرة فى قواته عقب عيد الفطر فى الثالث من شوال سنة ٥٨٢ هـ ( ١٧ ديسمبر ١١٨٦ م ) مستخلفاً عليها أكبر أعمامه السيد أبا الحسن ، ومسنداً إليه فى نفس الوقت الإشراف على تكملة الأعمال الخاصة بضاحية الصالحة ، وتابع الخليفة سيره دون توقف حتى رباط الفتح ، وهنالك وافاه ولاة الأندلس والمغرب ، فألقى إليهم بتعليماته وتوجيهاته . وكان من الأمور الظاهرة فى تجهيز هذه الحملة الموحدية ، أن الخليفة لم يصطحب معه فى جيشه كتائب العرب إلا قلة من أشياخ بنى رياح مثل بنى زيان وذلك تحوطاً من تقلباتهم

---

( ١ ) رحلة التجانى عن ابن شداد ص ١٤ .

وخطر انسلاخهم أثناء القتال إلى جانب إخوانهم عرب إفريقية ، ومن جهة أخرى فقد اقتصر الخليفة فى حشوده على القلة المختارة من الجند ، نظراً لصعوبة تموين الحشود الجرارة فى إقليم خربت أرجاؤه ، ونضبت موارده ، من كثرة الغزوات والمعارك(١) . وأصدر الخليفة أوامره المشددة فى نفس الوقت إلى سائر العمال بالمنازل وأمهات الطرقات بتمهيد المسالك ، وتوطيد السبل ، ونصب الجسور فى أماكنها ، وإعداد الأقوات والعلوفات ، فكان الجند يسيرون فى طرق ممهدة ، موفورة المرافق والموارد ، مما لم يكن معهوداً من قبل فى مثل هذه الرحلات الغازية .

واستراح الخليفة وجيشه فى حضرة فاس ، وقضى بها معظم أشهر الشتاء ، وغمر والى فاس وأهلها الجيش الموحدى ، بمختلف ضروب الإكرام والضيافات ، وجدد الجند أسلحتهم وعددهم وملأوا أزودتهم ، ونظر الخليفة فى شئون المدينة ، وترتيبها على أكمل وجه ، ثم غادر الخليفة وجيشه فاس إلى رباط تازة وهو خلال الطريق دائب النظر فى شئون الرعية ، ومجتهد فى إزالة المظالم ، وتحقيق مبادئ العدل والإنصاف . وفى تازة لاحظ الخليفة أن معظم الإخوة والأعمام قد اختصوا بلباس الغفائر الزبيبية ، والبرانس المسكية ، فأنكر عليهم اتخاذ ذلك الزى لكونه زى الخليفة فى حالتى ركوبه وجلوسه ، فجمعهم السيد أبو زيد والى بجاية السابق باعتباره عميدهم ، المقدم عليهم ، وذكرهم بوجوب التزام المراسيم الخلافية ، وأن يتجنبوا التشبه بالخليفة فيما هو خاص به فامتنعوا من ذلك الحين عن اتخاذ الملابس التى تحمل الألوان الخلافية(٢) .

ولما وصل الجيش الموحدى إلى أراضى قسنطينة ، وكان على بن غانية يرقب حركاته ، اجتمع ابن غانية فى قواته من الميارقة والأعراب والأغزاز وبعض طوائف سُليم ، على مقربة من القيروان ، وبدت طلائعهم أمام الجيش الموحدى ، وكان رأى الخليفة يعقوب أن يبادر بمهاجمة خصومه من قبل أن يكمل استعدادهم ، ولكن الأشياخ والوزراء رأوا فى المجلس الذى عقد للشورى أن الأفضل ، أن يتابع الجيش الموحدى سيره إلى تونس ، وهنالك ينال قسطه من الراحة والاستعداد ، وهكذا وصل الجيش الموحدى إلى تونس فى شهر صفر سنة ٥٨٣ هـ .

---

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ١٩٦ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ١٥٨ .

(٢) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٥٨ و١٥٩ .

وقد كان هذا خطأ عسكرياً دفع الموحدون ثمنه غالياً . ذلك أنه لما وصل الجيش الموحدى إلى تونس، واستراح الجند من أثقالهم، وجددوا مؤنهم ولوازمهم، جهز الخليفة حملة من ستة آلاف فارس تحت إمرة ابن عمه السيد أبى يوسف يعقوب ابن أبى حفص، وعمر بن أبى زيد من أشياخ الموحدين، والقائد على الربرتير ، وسارت هذه الحملة إلى مقاتلة على بن غانية وجموعه ، وكانت ترابط على مقربة من قفصة . فلما اقترب الموحدون من محلة الميارقة وحلفائهم الترك تحت إمرة قراقوش ، خرج إليهم على بن غانية فى جموعه ، والتقى الفريقان فى السهل المسمى بسهل « عُمرة » وذلك فى اليوم الخامس عشر من شهر ربيع الأول سنة ٥٨٣ هـ ( ٢٥ مايو سنة ١١٨٧ م ) ونشبت بين الفريقين معركة شديدة ، وظهر انقسام الجيش الموحدى واختلاله منذ البداية ، حيث تقدم الجناح الذى يقوده على الربرتير إلى الهجوم فمزقته سهام الأعداء وطعناتهم ، وسقط الربرتير أسيرا وتفرق صحبه ، وحدث مثل ذلك حينما هجم القائد أبو على بن يومور فى طوائف العرب الذين يقودهم ، فخذلوه فى القتال كعادتهم المأثورة، وأسر ابن يومور وقد أثخن جراحا . واختلت صفوف الموحدين فى كل ناحية وكثر القتل فيهم ، وماانتهى النهار حتى كان الجيش الموحدى قد مزق تمزيقاً ، وفر السيد أبو يوسف فى فل من أصحابه صوب تونس، وهلك عدة من الأشياخ، وفى مقدمهم عمر بن أبى زيد، وبقى معظم الرجالة ممن لم يستطيعوا الفرار ولاسيما الجرحى، فلجأوا إلى قفصة، وشجعهم على ذلك ابن غانية، ووعدهم بالأمان وتركهم يملأون طرقات المدينة، حتى إذا اجتمعوا فيها أمر بقتلهم، فقتلوا جميعاً . وجلس ابن غانية بخباء السيد أبى يوسف ، وجمعت بين يديه أسلاب الموحدين وأسلحتهم، ففرقها فى جنده، واقتيد إليه على بن الربرتير وابن يومور ، فأمر بتعذيبهما ثم قتلهما، وعلق رأس ابن يومور على باب قفصة . وكانت على الجملة هزيمة ساحقة للموحدين لم يصبهم مثلها منذ بعيد[١] .

وكان لتلك النكبة فى نفس الخليفة يعقوب المنصور أعمق وقع ، فاعتزم أن يأخذ بالثأر ، وأن يستأصل شأفة العدو ، ولم يدخر وسعاً فى الأهبة ، وفى تمييز جيشه وفى إعداده للضربة الحاسمة . ثم خرج فى قواته من تونس فى مستهل شهر رجب سنة ٥٨٣ هـ ( ٨ سبتمبر سنة ١١٨٧ م ) وسار جنوباً صوب القيروان ،

---

( ١ ) ابن الأثير ج ١١ ص ١٩٦، والبيان المغرب القسم الثالث ص ١٦٠ و ١٦١ ، ورحلة التجانى ص ١٣٦ و١٦٢ . وراجع **A. Bel : ibid ; p. 78 - 80**

وقد برز الجيش الموحدى فى أروع حلله واكتمال عدته ، وسمة خطورته ، ولما وصل المنصور إلى القيروان ، وجه منها إلى ابن غانية وحلفائه كتابا ينذرهم فيه بوجوب دخول الطاعة ، ونبذ الشقاق والعدوان، فاعتقل ابن غانية الرسول ولم يجبه بشيء [(١)] ولكنه جد فى أهباته . ورأى الخليفة خلال تجواله بالقيروان ، وأحيائها الخربة المقفرة ، ما انتهى إليه جامعها الشهير من العفاء والبلى ، فبعث من فوره إلى ولاة شرقى الأندلس ، بإعداد كساه وفرشه وزخارفه .

واستمر سير الجيش الموحدى بعد ذلك جنوباً فى طريق قابس حتى وصل إلى مقربة من « الحَمّة » الواقعة على مقربة منها ، وقد بدت طلائع العدو ، وكان على بن غانية وحلفاؤه من الترك والعرب ، قد عسكروا فى موقع حصين على مقربة من الحمة فى انتظار الموحدين . فضرب الموحدون محلتهم إزاء العدو ، واعتزم المنصور أن يبادر منذ الغد بمهاجمة العدو ، وأن يقود المعركة بنفسه بالرغم من اعتراض القرابة والأشياخ ، وقدم المنصور على مختلف القبائل أشياخ قرابته وأكابر عشيرته . وماكاد الصبح يسفر ، وتبدد الشمس حجب الضباب المتراكم ، حتى دفع المنصور بعض قواته على معسكر العرب الضالعين مع العدو ، فبدد شملهم وأركنوا كعادتهم إلى الفرار ، واحتوى الموحدون على سائر أسلابهم ، وفتت هذه الضربة الأولى فى عضد ابن غانية وحلفائه . ثم انقض المنصور بعد ذلك فى سائر قواته على جموع الميارقة والترك ، ونشبت بين الفريقين معركة دموية عنيفة لم تدم سوى بضع ساعات ، وقد أدرك على بن غانية وحليفه أنهما يخوضان المعركة الحاسمة فى ظروف قاتمة . ولم يأت الظهر حتى كان الموحدون قد مزقوا صفوف العدو تمزيقاً ، وأبيد معظمهم بالقتل ، وفرقت فلولهم فى مختلف الأنحاء ، وكانت ضربة دموية ساحقة للميارقة والترك ، وفر ابن غانية وحليفه قراقوش فى بعض فلولهما صوب توزر ، فسار الموحدون فى أثرهم ، ولما اقترب الموحدون من توزر علم المنصور أن ابن غانية وحليفه قد فرا إلى الصحراء وغاض أثرهما . وتمت هذه الهزيمة الساحقة على ابن غانية فى يوم الأربعاء التاسع من شعبان سنة ٥٨٣ هـ ( ١٥ أكتوبر سنة ١١٨٧ م ) [(٢)] .

---

( ١ ) الرسائل الموحدية — الرسالة الثلاثون ص ١٨٦ .

( ٢ ) ابن الأثير ج ١١ ص ١٩٦ ، والبيان المغرب — القسم الثالث ص ١٦٢ و ١٦٣ ، ورحلة التجانى ص ١٣٦ ، و ١٣٧ و ١٦٢ ، والرسالة الثلاثون من رسائل موحدية ص ١٨٨ . وكذلك :
A. Bel : ibid ; p. 81 & 82

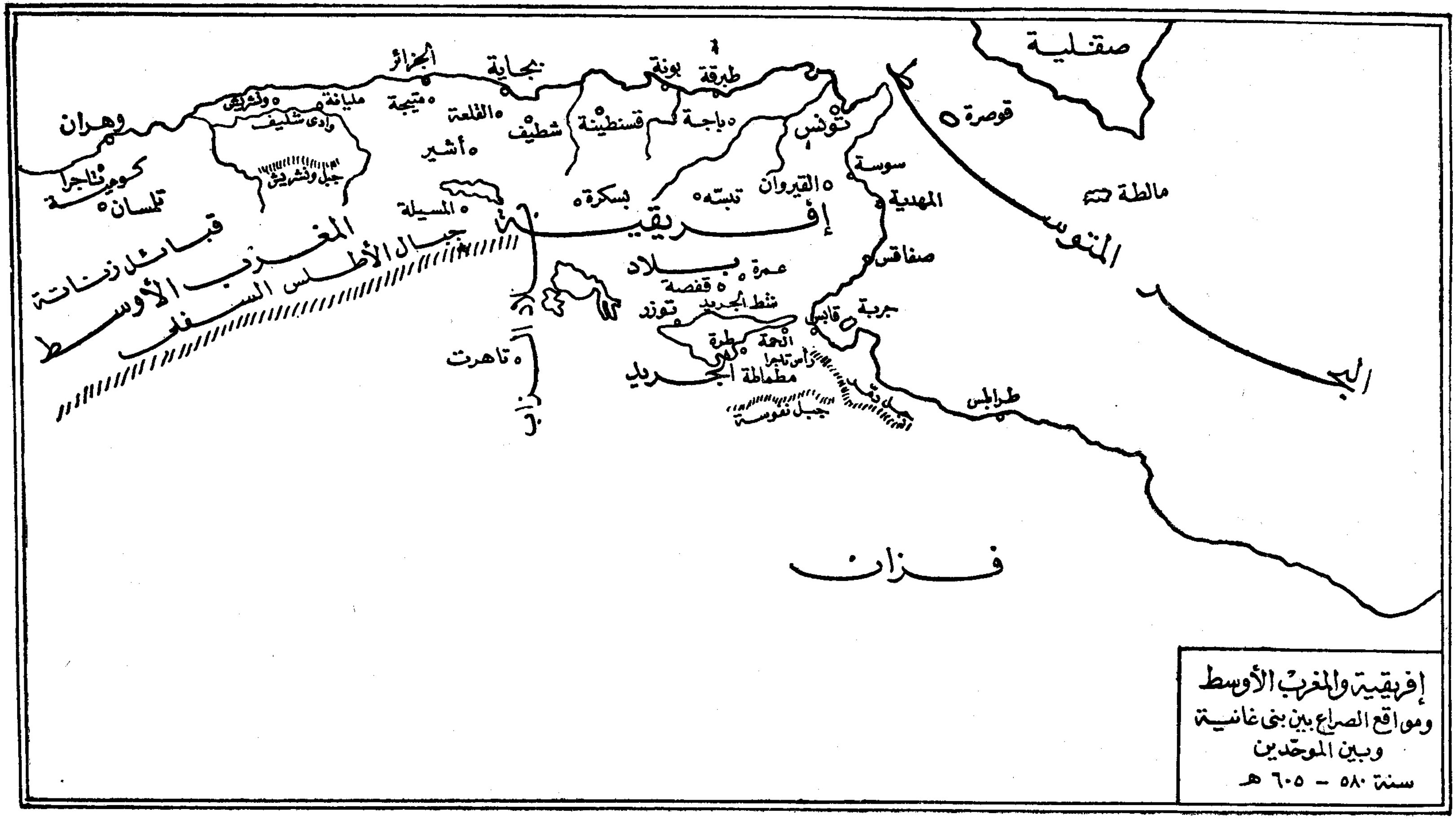


إفريقية والمغرب الأوسط
ومواقع الصراع بين بني غانية
وبين الموحدين
سنة ٥٨٠ - ٦٠٥ هـ

وسار المنصور على الأثر إلى قابس ، وقد كانت مركز قراقوش ، فاستولى عليها فى اليوم التالى بالأمان ، وقبض فيها على أهل قراقوش وذويه وصحبه ، بعد أن حاولوا عبثاً الامتناع بالقصبة ، واستصفى أموالهم ، وأرسلهم، رقيقاً إلى مراكش[1]. ثم سار من قابس إلى بلاد الجريد فى طرق وعرة مقفرة، واستولى تباعاً على قواعد هذه المنطقة : نواوة وتوزر ، وتقيوس ، والحَمّة ، ونفطة ، وأهمها هى توزر عاصمة بلاد الجريد ، وقام أهل هذه البلاد ضد من كان بها من بقية الميارقة ، وأبادوهم قتلا وأسرا ، وفرت فلولهم من توزر إلى الصحراء . ثم سار الموحدون بعد ذلك من توزر إلى قفصة، وكانت بها بقية كبيرة من صحب الميورقى وحلفائه الغز ، فامتنعوا بها معتمدين على حصانتها ، وأسوارها العالية ، فضرب الموحدون حولها الحصار ، وسلطوا عليها المجانيق وخربوا ماحولها من الزرع وغابات النخيل الهائلة ، وصنعوا برجا عالياً من سبع طبقات ، شحن بالكماة والرماة ، ودفع حتى حاذى السور ، وردموا الخندق المقابل لثلمة السور حتى ساوى وجه الأرض ، وأصبح السبيل ممهداً لاقتحام المدينة، بيد أن المهمة كانت شاقة ، وقد ألقى المدافعون عند أول محاولة ، على الموحدين ، وابلا هائلا من الأحجار ، فارتدوا ليستعدوا لإعادة الكرة فى اليوم التالى . ولكن أهل المدينة أدركوا ما سوف يحل بهم من الدمار ، فخرج أعيانهم بالليل ، وقصدوا إلى الخليفة المنصور ملتمسين الأمان ، وبحث المنصور الأمر مع القرابة والأشياخ ، فاستقر الرأى على أن يؤمن أهل البلد الأصليين فى أنفسهم وأملاكهم ، وأن يؤمن الأغزاز ( الغز ) فى أنفسهم وماملكت أيمانهم ، وأن يخرج كل من كان بالبلد من الحشود ، والغرباء على الحكم ، وأنه لا أمان للميورقيين ومن والاهم من الصحب والأوباش ، فتم الاتفاق على ذلك ، وفى صباح اليوم التالى خرج سائر من بالبلد من الشيخ الهرم إلى الغلام اليافع ، ولم يبق بالبلد سوى النساء والأطفال ، ومُيز الناس ، وعزل منهم أهل البلد ، فأخلى سبيلهم ، وسُمح لهم بالرجوع إلى بلدهم ، وعزل أصناف الجنود والغوغاء وسائر أهل الحشود ، ومن جملتهم إبراهيم بن قراتكين أحد قواد الغزو الوافدين من مصر وهو الذى سبق ذكره ، فقبض عليهم جميعاً،وزجوا إلى البرج الكبير ، ثم اقتيدوا بعدصلاة الظهر بين يدى المنصور ، فأمر بإعدامهم جميعاً فأعدموا زمراً ، وألقوا إلى الحفير ،

---

(١) الرسالة الثلاثون من رسائل موحدية ص ١٩٠ .

ونقل المنصور محلته بعيداً عن مسرح المذبحة ، وأمر بهدم أسوار قفصة فهدمت على الأثر . وكان الاستيلاء على قفصة فيما يرجح فى أوائل ذى القعدة سنة ٥٨٣ﻫ ( يناير سنة ١١٨٧ م ) وليس فى شعبان حسبما يقول صاحب البيان المغرب ، إذ كانت موقعة الحمّة فى التاسع من شعبان ، ثم كان بعدها الاستيلاء على قابس وسائر قواعد بلاد الجريد ، ثم حصار قفصة ، وقد اقتضى وحده مجهودات متعاقبة ، وليس من المعقول أن تقع هذه الأحداث كلها فى أسبوعين أو ثلاثة . ومن جهة أخرى فإن الخليفة يؤرخ رسالته التى وجهها من قفصة إلى الطلبة والأشياخ والأعيان والكافة بمراكش عن فتح قفصة فى الثالث عشر من ذى القعدة سنة ٥٨٣ ﻫ(١) .

ووصل إلى المنصور ، يوم حلوله تحت أسوار قفصة ، خطاب من قراقوش ، يعرب فيه عن خضوعه ورغبته فى دخول التوحيد ، وأنه على استعداد إذا ما قبلت توبته أن يأتى إلى الموحدين مستنيباً طائعاً . وفى اليوم التالى وصل خطاب مماثل من أبى زيان زعيم الغز ، وزميل قراقوش السابق ، وهو الذى استقل بحكم طرابلس ، يعرب فيه عن انضوائه تحت لواء التوحيد ، وأنه قد أظهر دعوة التوحيد بطرابلس ونواحيها(٢) .

وكان لهذه الانتصارات الرنانة التى أحرزها المنصور على أعدائه فى إفريقية أبعد صدى . وقد أكثر الشعراء بهذه المناسبة من نظم قصائد التهنئة والمديح ، فكان مما قاله أبو بكر بن مُجبر فى يوم الحمّة قصيدة هذا مطلعها :

أسائلكم لمن جيش لهـــام ... طلائعـــه الملائكـــة الكـــرام
أتت كتب البشـــائر عنه تترى ... كما يتحمـــل الزهـــر الكمام

ومنها :

لقد برزت إلى هون المنـــايا ... وجوه كان يحجبهـــا اللثـــام
وما أغنت قسى الغـــز عنها ... فليست تدفع القدر الســـهام
غدوا فوق الجياد وهم شخوص ... وأمسوا بالصـــعيد وهم رمـــام

---

( ١ ) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٦٦ — ١٦٨ ، ورحلة التجانى ص ١٣٨و١٣٩ ، والرسالة الثانية والثلاثون من رسائل موحدية ص ٢٠٤ — ٢٠٨ .

( ٢ ) الرسالة الحادية والثلاثون من رسائل موحدية ص ١٩٨ .

هو الأمير الرضى طوبى لنفس يكون لهـــا بعصمته اعتصـام
حيـاة الدين دولته فدامت لأمر قد أتيح له الدوام
سلام الله من قرب وبعـــد عليه وحسب ما نزل السـلام

وعاد المنصور بعد افتتاح قفصة فى قواته إلى تونس . ويقول لنا ابن عذارى إنه دخل تونس فى العشرة الأخيرة من شوال سنة ٥٨٣ هـ . ونحن نعتقد تبعاً لما سبق أن أوضحناه عن تاريخ فتح قفصة ، أن عودته إلى تونس كانت بعد ذلك بقليل . ومكث المنصور فى تونس بضعة أسابيع ينظم الشئون ، ويوطد الأحوال بعد ما طرأ عليها من الاضطراب والتزعزع ، وعقد لأخيه السيد أبى زيد على ولاية إفريقية . ولما انتهى من ترتيب الشئون ، سار إلى المهدية وقد أعلن عزمه على القفول إلى المغرب ، وأمر باتخاذ العدة للرحيل ، فقضى بها فترة يسيرة ، وبعد أن نظر فى شئونها ، وندب عمالها ، غادرها مرتحلا إلى الحضرة ، وذلك فى المحرم سنة ٥٨٤ هـ ( مارس سنة ١١٨٨ م ) .

فسار تواً إلى تلمسان عن طريق تاهَرْت ، حتى وصلها دون توقف أو تلوم . وكانت قد وصلته خلال وجوده بإفريقية أنباء مقلقة عن بعض مؤامرات تُدبر ، وعن بعض شخصيات من القرابة تتحفز للتمرد والوثوب . وكان أول من تلقاه بتلمسان عمه السيد أبو إسحق إبراهيم بن عبد المؤمن ، وكان قد نُمى إلى الخليفة ، أن هذا العم يطعن فى آرائه ، ويسفه تصرفاته ، ولاسيما عقب هزيمة عُمرة ، فلما قدم للسلام عليه ، رده المنصور بجفاء ، وكان مريضاً منذ مدة ، فاشتد به المرض ولم يلبث أن توفى .

بيد أنه كان ثمة ما هو أخطر من النقد الصراح . ذلك أنه على أثر هزيمة عُمرة التى مزق فيها الجيش الموحدى وقتل معظم قادته ، لاح لبعض السادة أن دولة المنصور قد تصدعت دعائمها ، وأضحت على وشك الانهيار ، وكان فى مقدمة هؤلاء وأشدهم إقداماً وجرأة ، أخو الخليفة السيد أبو حفص عمر الملقب بالرشيد والى مرسية ، وعمه السيد أبو الربيع سليمان والى تادلا . فأما الأول وهو الرشيد ، فقد كان يبسط على ولاية مرسية حكم إرهاب حقيقى ، وكان يسوم الناس الخسف ، ولاسيما التجار ، ويستصفى أموالهم بالإرهاب والقتل ، ويستنزف ما فى بيوت المال ، وكان مما فعله أن قبض على ابن رجاء مشرف مرسية ، وألزمه بإحضار تقييدات أبواب الجباية ، ولما عجز عن ذلك أمر بقتله

فقتل ، وفر ابن سليمان صاحب العمل إلى بلنسية ، وكذلك فر منها الكاتب حكم ابن محمد ناجياً بحياته ، ولكن الرشيد استدعاه بالخديعة ولين القول ، ثم غدر به وقتله ، والخلاصة أن الرشيد كان يرهق أهل مرسية ، خاصتهم وعامتهم بصنوف بطشه وبغيه . بيد أن الأمر لم يقف عند هذا الحد . ذلك أن الرشيد كان يضمر مشاريع أخرى . فلما وقعت هزيمة عمرة ، اضطربت مخيلته بمختلف الأطماع والمشاريع ، وبادر بالاتصال بألفونسو الثامن ملك قشتالة ، وعقد معه حلفاً سرياً تسربت أنباؤه إلى الخليفة مع الواصلين من الأندلس . فلما حدثت موقعة الحمّة ، وأحرز المنصور نصره الساحق على ابن غانية وحلفائه ، أدرك الرشيد أنه توغل فى أوهامه ، وارتد إلى شيء من التعقل والتريث ، ولم يلبث أن وصله أمر أخيه الخليفة بالاستدعاء إلى حضرة مراكش ، فسار إليها وهو معتمد على عطف أخيه وصفحه وإغضائه ، وتنفس على أثر رحيله مختق أهل مرسية .

وأما السيد أبو الربيع عم الخليفة ، فقد كان ممن عارض فى توليته وتخلف عن مبايعته منذ البداية ، وكان حين وقعت حوادث إفريقية يتولى النظر على إقليم تادلا الواقع على مقربة من شمال شرقى مراكش ، فلما وقعت نكبة الجيش الموحدى بعمرة ، أخذ السيد أبو الربيع فى مفاوضة بعض قبائل صنهاجة القريبة لمعاونته على الثورة ، والقيام بأمره ، فلم تنجح محاولته ، وأعرضت تلك القبائل عن مساومته . وسار إليه فى نفس الوقت السيد أبو زكريا يحيى بن السيد أبى حفص فى سرية كبيرة من الموحدين ، فأحاطت بقاعدة تادلا ، وحالت بين السيد أبى ربيع وبين أية حركة أو نشاط يخشى منه ، ولم يجد السيد أمامه سبيلا سوى التوبة والاستسلام ، فأمر بالذهاب لمقابلة الخليفة ، وكان الخليفة فى طريقه إلى الحضرة ، فقصد إليه فى محلته على مقربة من مكناسة ، ووصل السيد أبو حفص عمر الرشيد فى نفس الوقت قادماً من الأندلس ، فأمر الخليفة بنزوله مع نفر من صحبه وحاشيته على انفراد . ثم أمر بالقبض على السيدين أخيه وعمه ، وبعث بهما مكبولين إلى رباط الفتح ، واعتقالهما بالقصبة ، حتى يصدر فى شأنهما أمره . ولما وصل الخليفة إلى مراكش ، وانتهت مراسيم التحية ، واستقبال الوفود ، بحث مع السيد أبى الحسن ، نائبه بمراكش ، ومع أشياخ الموحدين ، أمر السيدين المذنبين ، وذلك على ضوء ما صدر منهما من محاولات فى الخروج والثورة ، وهو ما يستوجب إعدامهما شرعاً ، وانتهى الأمر بتقرير إعدامهما ، وبعث الخليفة إلى عثمان

ابن عبدالعزيز الكومى قائد قصبة رباط الفتح ، بأن يتولى تنفيذ هذا الحكم فيهما ، فقام بالمهمة ، وضرب عنقاهما ، وقُتل معهما فى نفس الوقت عدد ممن تحقق اشتراكه معهما فى محاولاتهما[١] . ويزيد صاحب روض القرطاس على ذلك ، أن الخليفة قتل أيضاً أخاه أبا يحيى ، بمعنى أنه أمر بإعدام ثلاثة من السادة دفعة واحدة ، أحد أعمامه ، واثنين من إخوته[٢] ، ووقع ذلك فيما يرجح فى أواسط سنة ٥٨٤ هـ (١١٨٨م) . ويقول لنا المراكشى إنه كان لهذا التصرف الدموى وقع عميق لدى قرابة الخليفة فهابوه ، واشتد خوفهم وتوجسهم منه بعد أن كانوا يتهاونون بأمره ويحتقرونه ، لأشياء كانت تصدر منه فى صباه أيام أن كان بالأندلس والياً لإشبيلية[٣] .

وماكاد المنصور يستقر بمراكش ، بعد أن اطمأن إلى استتباب السكينة ، وتوطد سلطان الموحدين بإفريقية ، حتى أخذ ينظر فى شئون الأندلس . وكانت الأحوال فى شبه الجزيرة ، قد أخذت خلال انشغاله بحوادث المغرب وحملة إفريقية ، تتطور بصورة تدعو إلى القلق ، واشتد عدوان البرتغاليين من جهة على قواعد ولاية الغرب الجنوبية وانتهى بالاستيلاء على شلب وأحوازها ، ووصلت غارات القشتاليين من جهة أخرى إلى أحواز إشبيلية ؛ ومن ثم فقد خص المنصور شئون الأندلس بعنايته ، وأخذ فى الاستعداد لتدارك تلك الحال ، والعمل على قمع عدوان النصارى . فأذاع الدعوة إلى الجهاد على حكم الاختيار والتطوع ، فتقاطرت جموع المتطوعين المجاهدين إلى الحضرة ، من سائر جنبات المغرب ، ومن مختلف الطوائف والقبائل ، وبعث الخليفة إلى العمال بالاستعداد ، وضرب الآلات الحربية ، وإعداد العتاد والأقوات ، ثم ندب لولاية إشبيلية ابن عمه السيد أبا حفص يعقوب بن السيد أبى حفص عمر ، وكان موضع ثقته وإيثاره ، كما كان أبوه من قبل موضع حب أبيه وإيثاره ، وذلك لكى يعمل على مواجهة الأحداث بالأندلس بروح وهمة جديدين ، وندب ابن عمه السيد أبا الحسن ابن أبى حفص والياً لتلمسان ، وعهد إليه بشئون المخازن والمؤن ، والسهر على إعدادها وتوفيرها للحشود المقبلة[٤] .

---

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٧١ — ١٧٣ ، والمعجب ص ١٥٦ .

(٢) روض القرطاس ص ١٤٣ .

(٣) المعجب ص ١٥٧ ، ويقول لنا المراكشى أيضاً إن قتل السادة كان فى سنة ٥٨٣ هـ ، وهو تاريخ خاطئ ، لأن عودة الخليفة من غزوته الإفريقية ، كان فى المحرم سنة ٥٨٤ هـ .

(٤) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٧٤ .

# الفصل الثانى

## حوادث الأندلس وإفريقية

أطماع البرتغال فى ولاية الغرب . تهيؤ الفرص لتحقيقها . مقدم السفن الصليبية إلى مياه أشبونة . اتفاق سانشو ملك البرتغال مع الصليبيين على غزو شلب . موقع شلب وخواصها فى ذلك العصر . مسير سانشو وحلفائه الصليبيين إلى الجنوب . زحفهم على شلب واستيلاؤهم على أرباضها . محاصرة شلب وضربها . صمود المدينة . قطع النصارى للماء عنها . اضطرارها إلى التسليم بالأمان . خروج المسلمين منها واستيلاء النصارى عليها . غزوات القشتاليين فى منطقة إشبيلية . تأهب الخليفة أبى يوسف يعقوب للجهاد بالأندلس . مسيره إلى رباط الفتح . عبور الجيوش الموحدية ثم الخليفة إلى شبه الجزيرة . مسير الخليفة إلى قرطبة . اجتماع الحشود الموحدية بالأندلس، ومسيرها إلى شلب . مسير الأسطول الموحدى إلى مياه البرتغال الجنوبية . عقد ملكى ليون وقشتالة للصلح مع الخليفة . مسير الخليفة فى قواته من قرطبة إلى وادى التاجة . غزوه لمنطقة شنترين . استيلاؤه على قلعة طرش . محاصرته لطومار . تخريبه لبسائط تلك المنطقة . صمود طومار . أمر الخليفة بالكف عن الغزو . عوده فى قواته إلى إشبيلية . عود الجيش المحاصر لشلب . فشل هذه الغزوة لأراضى البرتغال . نظر الخليفة فى أمر المسجونين والعمال . فتنة الجزيرى ومطاردته . ما أذيع حول شخصه . القبض عليه وإعدامه . حقيقة أمره ودعوته الإصلاحية . سفارة صلاح الدين إلى المنصور . ظروف الشرق الإسلامى يومئذ . عدوان الصليبيين واستيلاؤهم على ثغور الشام وبيت المقدس . نهضة صلاح الدين وتحطيمه للمملكة اللاتينية . أثر ذلك فى مضاعفة الغرب لأهباته العدوانية . اتجاه صلاح الدين إلى طلب العون من المغرب . رسالته الأولى إلى الخليفة الموحدى . سفارته إليه على يد ابن منقذ . ما جاء فى رسالته إلى الخليفة . أقوال الروايات المصرية والمغربية عن حركات السفير المصرى ومصير سفارته . استقبال الخليفة لإبن منقذ وتسلم هدية صلاح الدين . فشل هذه السفارة وبواعث هذا الفشل . المغزى العظيم الذى تنطوى عليه . أهبة المنصور لاستئناف الغزو . خروجه فى قواته من إشبيلية . مسيره إلى البرتغال . مهاجمته لقصر الفتح . تسليم النصارى إياها بالأمان . استيلاء الخليفة على حصن قلهالة والحصون المجاورة . مسير الموحدين إلى شلب . محاصرتها وضربها بالمجانيق . اقتحامها وتسليمها بالأمان . عود المنصور إلى إشبيلية . عبوره إلى العدوة ومسيره إلى الحضرة . مرض المنصور . اختياره لولده محمد لولاية العهد . ملخص بيعة أهل قرطبة لولى العهد . مقدم السيد أبى زيد وأشياخ العرب . استجمام الخليفة بفاس . مسيره إلى رباط الفتح وتجديد قصبتها . عوده إلى مراكش . أمره بإنشاء حصن الفرج بشرف إشبيلية . فتنة الأشل ببلاد الزاب . مطاردة والى بجاية له . حماية العرب له . تحيل الوالى فى القبض على العرب . اضطرار عشائرهم إلى القبض على الثائر وتسليمه . استئناف بنى غانية لحركاتهم . عيثهم فى بلاد الجريد . وفاة على بن إسحاق ابن غانية . قيام أخيه يحيى مكانه بالأمر . توحيد قراقش ومسيره إلى تونس . بواعث هذا التصرف . فراره من تونس وعوده إلى مغامراته . استيلاؤه على طرابلس . الخلاف بينه وبين يحيى . هزيمة قراقش وفراره . استيلاء يحيى على طرابلس . ثورة أهل طرابلس وعودهم لطاعة الموحدين .

لم يكن ثمة شك فى أن نكبة شنترين ، وما ظهر خلالها من عجز الجيوش الموحدية الجرارة ، واختلال نظامها ، كان له أكبر الأثر فى إذكاء أطماع ملك البرتغال ألفونسو هنريكيز ( ابن الرنق ) فى انتزاع ما تبقى من ولاية الغرب الأندلسية ، وفى مضاعفة شهوة العدوان والتغلب ، فى نفسه الوثابة المضطرمة . ولكن ألفونسو هنريكيز لم يعش طويلا ليقوم بنفسه بتحقيق هذه الأطماع العريضة ، إذ توفى فى السادس من شهر ديسمبر سنة ١١٨٥ م ( أواخر سنة ٥٨١ هـ ) ، بعد أن حكم مملكة البرتغال زهاء نصف قرن ، وبعد أن وطد أركانها ، ووسع حدودها شرقاً وجنوباً على حساب الأراضى الإسلامية ، وكانت وفاته لنحو عام ونصف فقط من وفاة الخليفة أبى يعقوب يوسف عقب نكبة شنترين . فخلفه ولده سانشو الأول ، وهو يضطرم بمثل أطماعه ، وقضى أعوام حكمه الأولى فى العمل على إصلاح البلاد والحصون التى خربتها الحرب ، وتعميرها بالسكان . ومنذ بداية سنة ١١٨٩ م ( ٥٨٥ هـ ) نراه يعد العدة لاستئناف غزو الأراضى الإسلامية . وكانت كل الظروف تشجعه ، وتعضد مشاريعه . فقد كان الخليفة الموحدى ، بعيدا فى المغرب تشغله أحداث إفريقية ، ومغامرات بنى غانية ، ومؤمرات الخوارج عليه ، وكانت هذه الأحداث المحلية الخطيرة تجعل من المتعذر على الخليفة الموحدى ، أن يبعث بشىء من حشوده إلى شبه الجزيرة ، وكانت القوات الموحدية بالأندلس قليلة العدد والعُدد ، لاتكفى لدفع عدوان النصارى سواء من ناحية مملكة قشتالة أو مملكة البرتغال . ومن جهة أخرى ، فقد كانت الظروف تهيئ لنصارى البرتغال أمداداً طارئة لم تكن فى الحسبان ، هى الأمداد الصليبية ، التى عادت تتقاطر إلى المشرق من ناحية المحيط ، لتنجد الجيوش الصليبية التى ضعضعتها ضربات صلاح الدين ، وسقوط المملكة اللاتينية ، باسترداد صلاح الدين لبيت المقدس فى رجب سنة ٥٨٣ ( أكتوبر سنة ١١٨٧ م ) .

ففى أوائل سنة ١١٨٩ م ( أوائل ٥٨٥ هـ ) ، وصل أسطول صليبى ضخم من خمسين سفينة ، يحمل عدداً وافراً من الجند الألمان والفلمنك إلى مياه اسبانيا الغربية فى طريقه إلى البحر المتوسط ، ورسا فى مياه جليقية قبالة مدينة شنت ياقب المقدسة ، ونزلت منه بعض طوائف من الجند لتزور قبر القديس ياقب ، ولكن أهل المدينة توجسوا شراً من مقدم أولئك الجند ، وخشوا أن تمتد أيديهم إلى الذخائر التى يحفل بها مزار هذا القديس ، فردوهم بعد معركة عنيفة ، قتل فيها عدد من

الجانبين ، وعاد الجند الصليبيون إلى سفنهم ، فسارت بهم نحو الجنوب : وتقدم فى نفس الوقت إلى هذه المياه أسطول صليبي آخر من انجلترا وبلاد الفلاندر ، ودفعته الأنواء والعواصف الجامحة نحو مياه أشبونة ، ثم انضمت إليه السفن القادمة من مياه جليقية ، فاجتمع بذلك فى مياه أشبونة عدد ضخم من السفن الصليبية ، تحمل ألوفاً عديدة من المقاتلة ، فتلقاهم سانشو ملك البرتغال بترحاب ، وألفى فى مقدمهم فرصة طيبة للاستعانة بهم فى غزو القواعد الإسلامية الجنوبية ، وتفاهم مع الرؤساء والقادة الصليبيين على تسيير حملة قوية مشتركة إلى مدينة شلب ، لانتزاعها من المسلمين ، لأنهم يتخذونها بالأخص قاعدة للخروج إلى شواطئ المحيط يغزونها ، وينهبون ثغورها ، ويأسرون كثيراً من النصارى[1] ، فاستجاب إليه الصليبيون ، بما أذكى أطماعهم من إحراز الغنائم والثروات من أراضى المسلمين .

وكانت شلب ، فى ذلك الوقت ، بعد باجة ويابرة ، أمنع قواعد ولاية الغرب الأندلسية ، وأوفرها عمراناً وثراء ، وهى تقع فى أقصى جنوبى البرتغال ، على مقربة من المحيط ، فوق ربوة متدرجة تشرف على نهر دراد الذى يصب فى المحيط جنوباً قرب ثغر بورتماو الصغير ، ومن حولها بسائط خضراء ، تكثر فيها غابات الزيتون ، والحدائق والحقول اليانعة ، وإليك كيف يصفها لنا الشريف الإدريسى ، وقد زارها قبل ذلك بنحو نصف قرن :

« ومدينة شلب حسنة فى بسيط من الأرض وعليها سور حصين ، ولها غلات وجنات . وشرب أهلها من واديها الجارى إليها من جهة جنوبها وعليه أرحاء البلد ، والبحر منها فى الغرب على ثلاثة أميال ، ولها مرسى فى الوادى وبها الإنشاء ، والعود بجبالها كثير ، يحمل منها إلى كل الجهات . والمدينة فى ذاتها حسنة الهيئة بديعة المبانى مرتبة الأسواق ، وأهلها سكان قراها من عرب اليمن وغيرها ، وكلامهم بالعربية الصريحة ، ويقولون الشعر ، وهم فصحاء نبلاء خاصتهم وعامتهم »[2] .

تلك هى شلب الإسلامية التى أزمع سانشو ملك البرتغال وحلفاؤه الصليبيون

---

(۱) البيان المغرب القسم الثالث ص۱۷٥ ، وأشباخ فى تاريخ المرابطين والموحدين ، الترجمة العربية ، الطبعة الثانية ، ص ۳۲۹ و ۳۳۰ ، وراجع أيضاً :

**Huici Miranda: Imperio Almohade, cit. Las Crónicas dos Sete Reis de Portugal p. 342**

(۲) الإدريسى فى وصف المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس (ص ۱۷۹ و ۱۸۰) ، ونقله صاحب الروض المعطار (صفة جزيرة الأندلس) ص ۱۰٦ .

أن ينتزعوها من المسلمين . فني أوائل سنة ٥٨٥ ﻫ ( أوائل سنة ١١٨٩ م ) ، بعث سانشو بقواته البرية جنوبا صوب شلب ، وسارت سفن الصليبيين من خليج التاجُه حذاء الشاطئ البرتغالى حتى مياه ثغر بورتماو الصغير ، الواقع على قيد إثنى عشر كيلومتراً من جنوبى شلب . وبدأ البرتغاليون بمهاجمة حصن ألبور(١) الواقع على مقربة من غربى بورتماو ، وقتلت حاميته الإسلامية ومن كان به من اللاجئين المسلمين ، وعددهم جميعاً يقرب من الستة آلاف(٢) ، ثم زحف سانشو بعد ذلك فى قواته وقوات حلفائه الصليبيين ، نحو المدينة الإسلامية ، وهاجموا أرباضها ، واستولوا عليها فى الحال . وكان والى المدينة عندئذ الحافظ عيسى بن أبى حفص ابن على ، رجلا عاجزاً قليل الخبرة بشئون الدفاع ، فامتنع بقواته داخل المدينة ، معتمداً على حصانتها الطبيعية ، وأسوارها القوية العالية ، وشغل الصليبيون عن مهاجمة المدينة بنهب ما حولها من الأرباض والمحلات ، وحاول سانشو مدى بضعة أسابيع أن يقتحم المدينة بالهجوم فى قواته ، ولكن محاولاته ذهبت عبثاً . فاضطر أن يلجأ إلى الحصار ، وأن يستدعى قوات جديدة لمعاونته قدمت فى أربعين سفينة جديدة . وتضع الرواية النصرانية بدأ حصار شلب فى ٢١ يوليه سنة ١١٨٩ م ( ربيع الآخر سنة ٥٨٥ ﻫ ) . وحاول سانشو فى بدء الحصار أن يعاود اقتحام المدينة ، فضربها بالمجانيق والنبال ضرباً شديداً ، ولكن ذلك لم يؤثر شيئاً على تحصينات المدينة القوية ، وحاول الجند الفلمنك من جهة أخرى أن يحفروا السراديب تحت الأسوار وان يحدثوا بها ثلمات للدخول ، فأحبط أهل المدينة كل محاولاتهم . وكان من الممكن أن يطول هذا الموقف ، وأن تصمد المدينة للحصار ، مدة طويلة ، لولا أن عمد سانشو إلى محاولة قطع الماء عن المدينة ، وإرغامها إلى التسليم من جراء العطش . وكانت شلب تستمد ماءها من النهر القريب بواسطة بئر كبيرة أقيمت قرب السور تسمى « القراجة » ، وأقيم فوقها لحمايتها برج قوى ، ففكر المحاصرون فى هدم هذا البرج ، وهاجموه بواسطة السلالم ، فلما رأى المسلمون هذه المحاولة ، خرجوا لمنعها ، ونشبت حولها معركة تفوق فيها النصارى واستولوا على البئر . وكانت هذه بالنسبة للمسلمين ضربة مؤلمة ، لم تلبث أن حققت نتيجتها المحتومة . ذلك أن العطش أخذ إلى جانب الجوع ، يحدث أثره

( ١ ) حصن ألبور بالإفرنجية Alvor .

( ٢ ) البيان المغرب – القسم الثالث ص ١٧٥ .

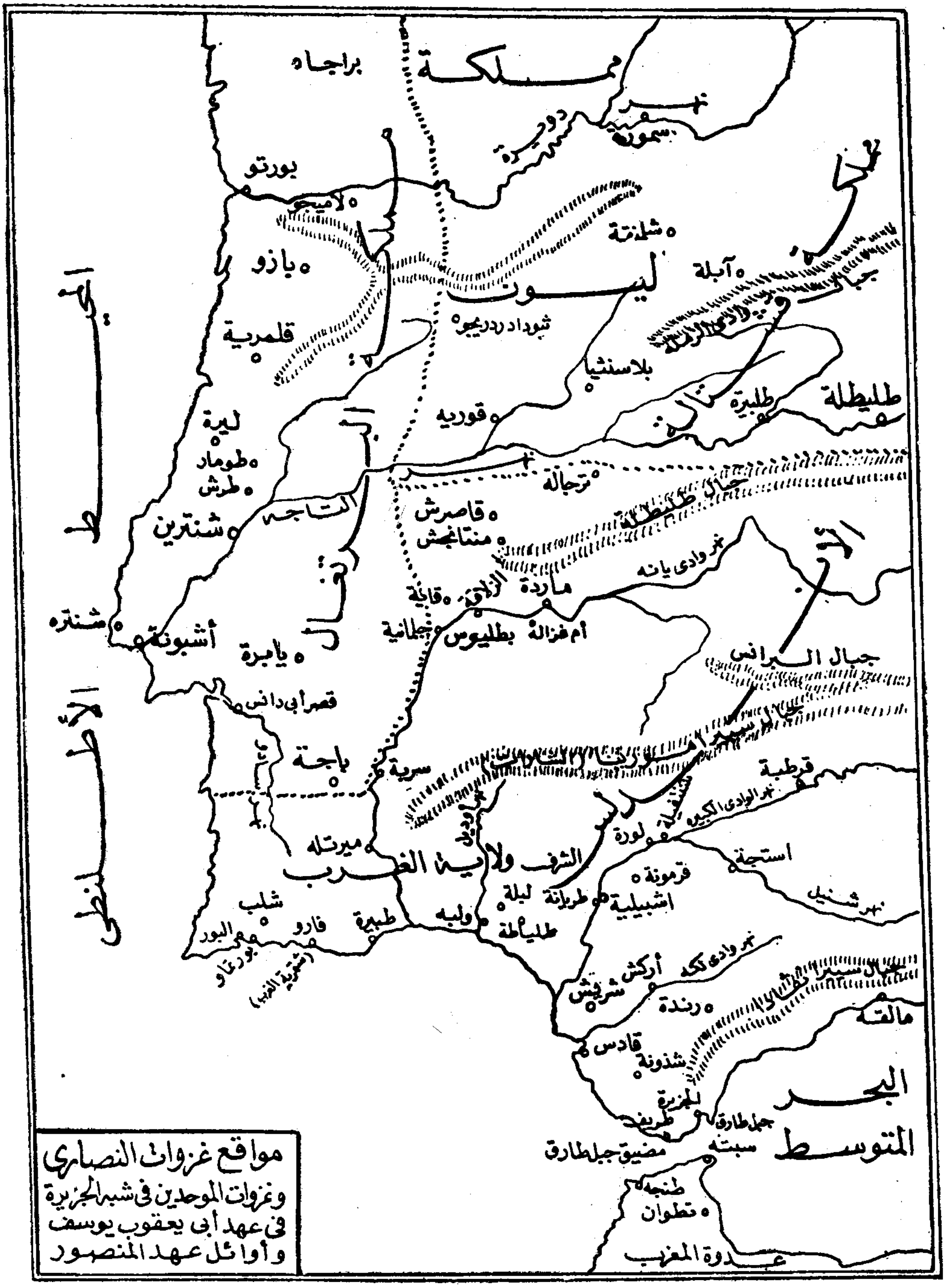


مواقع غزوات النصارى
وغزوات الموحدين في شبه الجزيرة
في عهد أبي يعقوب يوسف
وأوائل عهد المنصور

المروع فى أهل المدينة ، وكان النصارى يترقبون الفرصة القريبة لمهاجمة المدينة واقتحامها ، بعد أن يعجز أهلها عن الدفاع تماماً . ولكن المدينة لم تستطع أن تصمد حتى هذه اللحظة ، ولم يلبث أن بعث أهلها وفدهم إلى سانشو ، يعرض عليه تسليم المدينة ، إذا وافق على أن يخرجوا منها حاملين سائر أمتعتهم ، فتفاوض سانشو مع حلفائه ، وكان رأى الفلمنك الصليبيين أن يقتل أهلها المسلمون جميعاً ، ولكن الرأى انتهى بإقناعهم بالحصول على أسلاب المدينة ، واتفق فى النهاية على أن يؤمن أهل المدينة فى أنفسهم ، وأن يتركوا البلد بجميع ما فيه من أموالهم وأثاثهم . وهكذا غادر أهل شلب مدينتهم « مسلوبين » ، ودخل النصارى مدينة شلب ، بعد حصار دام ثلاثة أشهر ، فى يوم الاثنين العشرين من رجب سنة ٥٨٥ هـ ( ٣ سبتمبر سنة ١١٨٩ م )[١] .

وكان سقوط مدينة شلب على هذا النحو ضربة قاصمة لسلطان الموحدين فى ولاية الغرب ، إذ كانت هى آخر معاقلهم فى تلك المنطقة الحساسة ، وسقوطها بعد سقوط باجة قبل ذلك بعشرة أعوام ، يفتح الطريق لتهديد بقية ولاية الغرب فى اتجاه ولبة ولبلة ثم إشبيلية . على أن الأمر لم يقف عند ذلك الحد . ذلك أن القشتاليين كانوا من الناحية الأخرى ، يهددون موسطة الأندلس ، ومنطقة إشبيلية بالذات ، بغاراتهم المتوالية . فى نفس الوقت الذى سارت فيه القوات البرتغالية والصليبية لافتتاح شلب ، خرج ألفونسو الثامن ملك قشتالة فى قواته ، نحو منطقة قرطبة ، ثم اكتسح البسائط شرقاً نحو إشبيلية ، وهو يعيث فيها قتلا وسلباً ، فخرجت قوات إشبيلية إلى لقائه فأوقع بها الهزيمة ، والتجأت فلولهم إلى حصن المنار ، فطاردهم النصارى واستولوا على الحصن ، واستأصلوا من فيه من المسلمين قتلا وأسراً . ولم يمض قليل على ذلك ، حتى سار ألفونسو إلى أم غزالة ، وكانت قد أخليت من سكانها قبل وصوله ، فحاصرها وقتاً ثم تركها ، وسار إلى ربينة ، واستولى عليها ، وقتل معظم سكانها وأسر الباقين ، واستمر فى حملته الغازية حتى قلعـة جابر ، ثم حصن شلبر ، وكان ذلك فى جمادى الآخرة من سنة ٥٨٥ هـ ( أغسطس سنة ١١٨٩ )[٢] .

---

( ١ ) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٧٥ و١٧٦ ، والروض المعطار ( صفة جزيرة الأندلس ص ١٠٦ ) وراجع: Huici Miranda : ibid; (cit. Relaciones). p. 342 - 345

( ٢ ) البيان المغرب ص ١٧٥ و١٧٦ .

وعاد ملك قشتالة بعد حملته المظفرة إلى طليطلة ه

— ١ —

كان لتلك الحوادث أعمق وقع فى نفس الخليفة يعقوب المنصور ، فما كاد يقف على أخبارها ، حتى أخذ فى التأهب للعبور إلى الأندلس ، واستئناف الجهاد ، واعتمد فى هذه المرة على التطوع فى جمع الحشود ، حسبما ذكرنا من قبل ، وعنى عناية خاصة بتوفير العتاد والسلاح والمؤن ، ثم خرج فى قواته من مراكش فى الرابع عشر من شهر ذى الحجة سنة ٥٨٥ هـ ( ٢٣ يناير سنة ١١٩٠م ) ، وذلك بعد أن وجه كتبه إلى إشبيلية ، وغيرها من قواعد الأندلس ، بما اعتزمه من قدومه إلى شبه الجزيرة لنصرة أهلها على عدوهم، وما يرجوه من تيسير استقبال الجيوش الوافدة ، وسار إلى رباط الفتح ، فلما وصلها ، أقام بها نحو الأربعين يوما ، حتى وصلت باقى الحشود وقوات القبائل، واستكملت أهبة الجيش الغازى .

وفى أواخر شهر المحرم من سنة ٥٨٦ هـ ( أوائل مارس سنة ١١٩٠ م ) غادر المنصور رباط الفتح فى قواته ، وسار إلى قصر مصمودة ( القصر الصغير ) وجدد منه كتبه إلى إشبيلية متضمنة قرب وصوله . ولبث مقيما بالقصر ، حتى كان بدء الجواز فى الخامس عشر من ربيع الأول ، ولما انتهى جواز الجند ، عبر المنصور البحر فى يوم الأحد الثالث والعشرين من ربيع الأول ، ونزل بجزيرة طريف ، وهنالك أقبلت وفود بعض البلاد للسلام عليه ، وشكا البعض مما يقع من ظلم العمال ، فأغضى المنصور عن مناقشة هذا الأمر فى هذه الظروف الدقيقة . ثم تحرك من طريف فى غرة جمادى الأولى ، وسار شمالا صوب مدينة أركش ، وهنالك ودع الوفود الملتفة حوله ، وسار إلى قرطبة . وبعث إلى السيد يعقوب بن أبى حفص والى إشبيلية ، بأن يتحرك منها بعساكره ، وأن يجمع سائر الحشود ، من العرب والبربر ، من غرناطة وغيرها ، ومن تأخر من صنهاجة وهسكورة ، وسائر المتطوعة والمجاهدين . فصدع السيد يعقوب بالأمر ، وحشد سائر القوات المتقدمة ، وسار فيها قاصداً إلى شلب ، وذلك فى غرة جمادى الأولى ( ٦ يونيه ) وعسكر فى ظاهر المدينة . ولم يمض شهر على ذلك حتى وصلت سفن الأسطول الموحدى إلى مياه البرتغال الجنوبية

على مقربة من ثغر بورتماو. ثم دنا الموحدون من أسوار شلب ، ونصبوا عليها المجانيق ، وآلات الرمى ، وضربوا حول المدينة حصاراً صارماً مرهقاً .

وأما المنصور ، فإنه لما وصل بقواته إلى قرطبة نزل بها بالقصر الذى كان أنشأه السيد أبو يحيى . ثم تجول بأطلال مدينة الزهراء ، ليشاهد آثار القرون الماضية ، وليعتبر بما أحدثته صروف الدهر ، وأمر بإنزال التمثال الذى كان منصوباً فوق بابها ، وقد كان وفقاً لقول البكرى تمثالا للعذراء . ويقول لنا صاحب البيان إنه هبت فى عصر ذلك اليوم ريح عاصفة أحدثت بعض الخلل فى محلة الساقة ، فأذاع بعض عامة قرطبة أن ذلك كان بسبب إنزال تمثال الزهراء ، وأن هذا التمثال كان طلسما لحمايتها ، وبلغ المنصور ذلك فسخر منه ، وأنحى باللائمة على جهل أهل قرطبة[1] ، وأمر بالاجتهاد والتأهب .

وكان قد وصل إلى قرطبة رسل من قبل ملك قشتالة ، جاءوا ليسعوا إلى عقد الهدنة ، وكان مقدم الجيوش الموحدية إلى شبه الجزيرة ، قد بث حسبما تحدثنا رسالة الخليفة ، بين النصارى ، أسباب الجزع والفزع ، فبادر ملوكهم إلى إرسال رسلهم فى التماس المسالمة والتهادن ، وأنه بينما كان الخليفة على وشك العبور من القصر الصغير ، وصل رسل ملك قشتالة إلى إشبيلية ، يعرضون السلم ويطلبون عقد الهدنة ، ويعرضون التحالف على قتال غيرهم من النصارى . وتكررت هذه العروض عند وصول الخليفة إلى قرطبة ، فاستجاب الخليفة إلى مطالبهم ، لأنه حسبما يقول لنا فى رسالته ، رأى مصلحة المسلمين فى افتراق كلمة الكفر ، وكذلك عقد ملك ليون الهدنة مع الخليفة ، ولم يأبه بالحلف القديم الذى كان قد عقده أبوه فرناندو مع ملك البرتغال أيام موقعة شنترين[2] .

ثم أمر الخليفة السيد أبا زكريا بن أبى حفص أن يسير إلى إشبيلية فى جيش خاص من العرب وزناتة وأهل تلمسان ومن إليهم ، ليتجهز هنالك وليلحق به وبإخوته فى طريق الغزو . وقام المنصور بعد ذلك بتمييز القوات المرتزقة ، والحشود الواصلة من العدوة ، وفرقت فيهم البركة ، ثم أمر بعقد الرايات ، وخرج فى قواته من قرطبة متجهاً نحو الشمال الغربى إلى وادى التاجُه ، ولحق به السيد أبو زكريا فى قواته فى نفس الاتجاه . وكانت خطة المنصور ، فيما يبدو هى العمل

---

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٧٥ .

(٢) رسائل موحدية — الرسالة الرابعة والثلاثون ص ٢٢٢ و ٢٢٣ .

على إرغام ملك البرتغال على احتجاز قسم كبير من قواته وقوات حلفائه الصليبيين ، فى الشمال بعيداً عن شاب ، لكى يخفف ضغط النصارى بذلك على القوات الموحدية الضاربة حولها ، فتستطيع تكريس جهودها للتغلب على منعة المدينة ذاتها . ومن ثم فقد سار المنصور صوب السهل الممتد على ضفاف التاجه شمالى شنترين ، وأثخن الموحدون فى تلك الرقعة الخضراء ، فانتسفوا زروعها ، وخربوا ضياعها ، ثم عبروا النهر وساروا لمهاجمة قلعة طرش[1] الواقعة على مقربة من شمال شنترين ، وهى قلعة عظيمة شديدة المنعة ، تقع فوق ربوة عالية ، فحاصروها بشدة ، ولم تمض أيام قلائل ، حتى عرض قائدها التسليم بالأمان ، فوافق الخليفة وغادر القلعة كل من كان فيها من النصارى ، وفى الحال خرب الموحدون القلعة وسائر متعلقاتها ، وتركوها قاعاً صفصفاً ، وكانت حسبما تصفها رسالة الخليفة محلة عامرة نضرة ، تغص بالغراس والكروم . ثم سار الموحدون بعد ذلك شمالا ، وهاجموا مدينة طومار[2] ، وهى قاعدة منيعة ، تقع فى بسيط مخصب زاهر ، وكانت تدافع عنها حامية من فرسان المعبد ( الداوية ) فخرب الموحدون بسائطها ، ولكنهم اضطروا الى حصارها ، نظراً لما أبدته حاميتها من شدة فى الدفاع . ودام الحصار وقتاً دون أن تسلم طومار ، ويقول لنا صاحب البيان المغرب ، إن رسل ابن الرنك ( ملك البرتغال ) قدموا عندئذ فى طلب المهادنة والسلم ، وأن المنصور أمر بتخفيف القتال ريثما ينعقد السلم ، وتنتظم الأمور[3] . ومن جهة أخرى ، فإنه يبدو مما يقصه علينا الخليفة فى رسالته أن الموحدين ، كانوا خلال هذا الحصار ، يوجهون سراياهم فى سائر البسائط القريبة تثخن فيها ، وتمعن فى تخريبها ، وأن سانشو ملك البرتغال كان فى ذلك الحين مرابطا بقواته فى شنترين ، لا يجرؤ على الخروج منها لملاقاة الموحدين[4] .

وعلى أى حال فإن الموحدين لم يستمروا فى حصار طومار ، ولم يأخذوها ، وحدث العكس حيث أمر الخليفة بالكف عن القتال واختتام أعمال الغزو . ويقدم إلينا صاحب البيان تفسيراً لذلك خلاصته ، أن الخليفة شعر بتوعك تمادى أمره ،

(١) هى بالإفرنجية Torres ، وتقوم اليوم مكانها بلدة Torres Novas البرتغالية .
(٢) هى بالإفرنجية Tomar وهى تقع على مقربة من شمالى T. Novas .
(٣) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٨٠ .
(٤) الرسالة الموحدية الرابعة والثلاثون ص ٢٢٥ و ٢٢٦ .

وأنه من جهة أخرى لاحظ أن شئون التموين بالجيش قد اختلت ، وأخذت المؤن والعلوفات تنضب ، وقد كانت تحمل إليهم على خط تموين طويل يمتد من قرطبة . وهذا بعكس ماكان عليه البرتغاليون حيث استطاعوا قبل الغزو أن يحصدوا معظم زروعهم ، وأن يختزنوا المؤن الكافية[١] . ولهذا كله قرر الخليفة أن يختم أعمال الغزو ، وأن يأمر بالارتداد إلى إشبيلية ، وصدرت الأوامر فى نفس الوقت إلى الجيش المحاصر لشلب بأن يغادرها على وجه السرعة ، وأن يرتد كذلك أدراجه . وقضى المنصور فى هذه الغزوة ثلاثة وأربعين يوما . وكانت عودته إلى إشبيلية فى الحادى عشر من شهر جمادى الآخرة سنة ٥٨٦ هـ ( يوليه ١١٩٠ م )[٢].

ونستطيع أن نقول إن غزوة المنصور لأراضى البرتغال لم تسفر عن نتائج ذى شأن ، وأنها كانت بالعكس غزوة فاشلة ، فلم تؤخذ طومار ، ولم تُسترد شلب ، وهى غاية الغزو الأولى . ونستطيع أيضاً أن نلاحظ مرة أخرى أن اختلال شئون التموين فى الجيوش الموحدية ، كان دائماً فى مقدمة أسباب فشلها فى تحقيق أغراضها العسكرية . على أننا نستطيع أن نلاحظ فى نفس الوقت ، أن ما تذرع به المنصور من الحزم فى تنظيم الارتداد فى الوقت المناسب ، كان كفيلا بسلامة الجيش الموحدى ، وعدم تعرضه لكارثة أخرى ، من طراز كارثة شنترين .

على أن المنصور لم تقف همته ومشاريعه عند هذا الحد . ذلك أنه كان يشعر أنه لابد من تحقيق الهدف الرئيسى من عبوره إلى شبه الجزيرة ، باسترداد شلب ؛ وضرب قوى البرتغال العسكرية ، ومن ثم فقد عول على البقاء بالأندلس ، والعكوف على الاستعداد الوئيد المجدى .

وانتهز المنصور فرصة وجوده بإشبيلية، فأخذ ينظر فى شئون الناس والعمال ، وأمر بفحص قضايا المسجونين الذين طال سجنهم ، وإعدام من يستحق الإعدام منهم بعد عرض أمره عليه ، واشتد فى مطاردة المنكرات والملاهى . وأما عن العمال فقد أمر المنصور ، بالقبض على ابن سنان لما نمى إليه من أنه كان فى موقعة المنار أول من بادر بالفرار ، وأمر كذلك باستصفاء أمواله .

---

( ١ ) الرسالة الموحدية السالفة الذكر ص ٢٢٧ .

( ٢ ) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٨٠ .

وفى ذلك الحين بالذات ، رُفع إلى المنصور أمر ثائر من نوع جديد ظهر بمراكش . ويدعى على الجزيرى . ويقدم إلينا صاحب البيان بالمغرب هذا الثائر فى صورة غامضة مثيرة ، فيقول لنا إنه كان يتظاهر بطلب العلم ، ويعنى بنوع خاص « بحفظ المتشابهات » ، وإنه لما ظهر أمره لأول مرة ، أمر الخليفة بطرده من مراكش ، فغادرها ، وأخذ يتجول فى الأقطار ، وهو يبث دعوته سراً ، ولاسيما بين العامة حيث يخاطبهم ، ويسايرهم فى أفكارهم ، ثم ظهر من جديد بمراكش وكثر القول عن دعايته ومساعيه ، فأمر والى المدينة السيد أبو الحسن ابن أبى حفص بمطاردته والبحث عنه أينما وجد ، ولكنه استطاع أن يلوذ بالفرار ، ثم ظهر بمدينة فاس ، وأخذ يختلط بعامتها وأوباشها وتبعه منهم جماعة ، فرفع خبره إلى واليها ابن ومازير ، فقبض على عدة من أتباعه وقتلهم ، وأفلت الثائر من المطاردة مرة أخرى ، واختفى ولم يوقف له على أثر .

ثم تواترت الأنباء بأن الثائر قد عبر إلى الأندلس ، فأمر المنصور بالكتب إلى سائر الولاة والعمال بصفته وهيئته وأماراته ، وبأن يقبض عليه أينما وجد . وذاعت بهذه المناسبة عن الثائر أقوال وروايات خرافية كثيرة ، فقيل إنه ساحر قدير ، وإنه يتصور فى صور الحيوانات المختلفة ، مثل الحمير والكلاب والسنانير ، وترددت هذه الأقاويل بين العامة . ثم قيل إنه عُثر عليه فى مالقة ، وقُبض على كثير من الأوباش الذين التفوا حوله ، وفيهم أخوه ، فأمر المنصور بإحضارهم إلى إشبيلية ، وقيل إن الثائر كان ضمن هؤلاء المقبوض عليهم ، ولكنه استطاع أن يفلت بواسطة رشوة دفعها أتباعه للقاضى المختص ، ويدعى الوانى . فأمر المنصور بقتل أولئك الأتباع ، وعددهم تسعة وتسعون ، وأمر بأن يجلد القاضى بعدد الدنانير التى تقاضاها على سبيل الرشوه ، فهلك قبل أن يستوفى هـذا العدد ، وقتل فى نفس الوقت فى مختلف الأنحاء كثيرون آخرون ممن نسب إليهم مسايرة الثائر واتباع دعايته .

وأخيراً ، وبعد بحوث ومطاردات عنيفة ، قبض على الثائر فى بعض قرى مرسية ، وأخذ إلى إشبيلية ، وحمل إلى مجلس الموحدين ، وطيف به على الحاضرين وهو يعلن إنكاره لما نسب إليه من المبادئ والنظريات الثورية ، ثم انتهى الأمر بصلبه ، والقضاء على مادار حول شخصه من ضروب الإرجاف والخرافة[1].

---

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٨٢ .

ونظم الشعراء قصائدهم كالعادة فى امتداح المنصور ، وتهنئته بالقضاء على هذه الفتنة . فمن ذلك ماقاله الجراوى من قصيدة طويلة :

نار من الفتنة العمياء أطفأها ... سعد الإمام وحد الصارم الذكر
مازال إبليس فى الأقطار يوقدها ... وترتمى من شرار الخلق بالشرر
زاد الشقى على الخفاش مشبهه ... ضعف البصيرة إذا ساواه فى البصر
جارى إلى سقر أصحابه فهووا ... فيها سراعا ووافاهم على الأثر

تلك هى رواية صاحب البيان المغرب عن ثورة الجزيرى ، وهى فيما يبدو مستمدة من أقوال ابن صاحب الصلاة ، وهى رواية بلاط لاتمثل سوى وجهة النظر الرسمية .

بيد أنه يبدو من جهة أخرى أن ثورة الجزيرى ، كان لها شأن آخر ، وأن الجزيرى واسمه الكامل أبو عبد الله محمد بن عبد الله الجزيرى ، لم يكن ذلك الدجال المشعوذ ، الذى تقدمه إلينا الرواية الموحدية . فهو عالم أندلسى من أهل الجزيرة الخضراء ، أخذ من مختلف العلوم بقسط وافر ، وكان يُنعى على الدولة الموحدية ما جنحت إليه من الأخذ بأسباب الأبهة والترف ، ومن مخالفة تعاليم المهدى الأصلية . وكان يضطرم بنزعة إصلاحية ، ويطمح إلى إحياء سنن المهدى ابن تومرت ، ويبث دعوته بين الكافة بقوة وبراعة ، حتى عظم أمره ، وكان شاعراً مجيداً . ومن قوله يشير إلى رسالته الإصلاحية :

فى أم رأسى سر ... يبدو لكم بعد حين
لأطلبن مرادى ... إن كان سعدى معينى
أو لا فأكتب ممن ... سعى لإظهار دينى

وكانت الجموع تهرع إلى الالتفاف حوله أينما وجد ، وتذاع عنه وعن دعايته أغرب الروايات ، حتى زعم بعض الناس أنه يتصور فى صور الحيوانات مثل القطط والكلاب وغيرها . وكان من الطبيعى أن تفزع السلطات الموحدية لأمر هذا المصلح الثائر ، وأن تخشى من تأثير دعايته فى الجموع ، وأن تبث عليه العيون والأرصاد فى كل مكان . وكان ينجح فى الإفلات من المطاردة فى أحيان كثيرة ، حتى قبض عليه أخيراً فى بعض قرى مدينة بسطة ، وقتل ،

وأرسل إلى مراكش . وكانت ثورة الجزيرة فى سنة ٥٨٦ هـ ( ١١٩٠ م )(١) .

— ٢ —

وفى هذا العام بالذات أعنى فى سنة ٥٨٦ هـ ، تلقى الخليفة الموحدى سفارة هامة ، من الملك الناصر صلاح الدين سلطان مصر والشام ، على يد وزيره عبد الرحمن بن منقذ . ولم تكن هذه أول مرة يحاول فيها عاهل مصر ، أن يتصل بالخليفة الموحدى ، وأن يكتب إليه . ولابد لنا قبل التحدث عن موضوع هذه السفارة ، أن نشير إلى الظروف التى كان الشرق الإسلامى يجوزها فى تلك الفترة ، والتى حملت صلاح الدين ، على أن يتجه ببصره إلى الغرب الإسلامى ، ذلك أن الشرق الإسلامى كان منذ أواخر القرن الخامس الهجرى ( أواخر القرن الحادى عشر الميلادى ) ، يواجه عدوان الغرب المنظم فى صورة الحملات الصليبية المتوالية . وكان هذا العدوان قد أسفر عن ثماره الأولى باستيلاء الصليبيين على ثغور الشام وبيت المقدس ، وقيام المملكة الفرنجية اللاتينية فى بيت المقدس . وكانت مصر فى تلك الفترة المؤلمة ، وهى أواخر العهد الفاطمى ، تجوز مرحلة انحلال وضعف ، وتعوزها الوسائل والقوى الدفاعية الناجعة . فلما انتهت الدولة الفاطمية ، ونهضت مصر نهضتها المشهورة ، على يد الملك الناصر صلاح الدين ، واستطاعت أن تسحق قوى الصليبيين ، وأن تسترد بيت المقدس ، وأن تقضى بذلك على المملكة اللاتينية ( ٥٨٣ هـ — ١١٨٧ م ) هرع الغرب فى حشوده العظيمة مرة أخرى إلى الشرق ، ليقضى على تلك القوة الجديدة ، التى تهدد أطماعه ومشاريعه بالانهيار . وكان صلاح الدين ، بالرغم مما شاده من القوى العظيمة ، وما أحرزه من الانتصارات الباهرة ، يشعر بأخطار هذا التكتل الصليبى الجديد ، ويخشى إذا لم يتداركه العون من إحدى النواحى ، أن يضعف عن مدافعته . وهنا اتجه صلاح الدين ببصره نحو المغرب ، يرجو منه العون والغوث . وكان يرى فى الدولة الموحدية التى بلغت يومئذ ذروة عظمتها وقوتها ، ملاذاً يجدر قصده والالتجاء إليه . فكتب إلى الخليفة الموحدى ، — يعقوب المنصور — فى سنة ٥٨٥هـ ( ١١٨٩م ) رسالته الشهيرة مدبجة بقلم القاضى الفاضل يستصرخه ، ويستنصر به على قتال الجيوش الفرنجية الزاحفة يومئذ على مصر والشام ، وفيها

(١) هذه رواية صاحب المغرب فى حلى المغرب ( ج ١ ص ٣٢٣ و ٣٢٤ ) . وقد نقل المقرى هذه الرواية وهذا الشعر فى نفح الطيب .

يصفه « بأمير المؤمنين ، وسيد العالمين ، وقسيم الدنيا والدين » ويصف له جهوده محاربة الصليبيين وهزيمتهم ، وماكان لذلك من أثر فى تحالف النصرانية ، ودول الغرب عليه ، ونهوض ملوكه بجيوشهم وأساطيلهم لمحاربته ، ومحاولة الاستيلاء على ثغور المشرق ، والقضاء على قوى الإسلام المجتمعة تحت لوائه ، ويطلب صلاح الدين إلى عاهل المغرب ، أن يمد الشام ، مسرح القتال ، بشطر من أساطيله المنصورة ، وأن يرسل فى الوقت نفسه ، جناحاً من أسطوله إلى صقلية ، فيشغل طاغيتها ، ويعطله عن الاشتراك مع زملائه الملوك النصارى فى مهاجمة مصر ، ويعتقله بذلك فى جزيرته . ثم يقول صلاح الدين فى رسالته إلى الخليفة الموحدى : « وبذلك يذهب سيدنا وعقبه بشرف ذكر لاترد به المحامد على عقبها ، ويقيم على الكفر قيامة ، يطلع بها شمس النصر من مغربها »(١) .

والظاهر أن البلاط المصرى لم يكن على علم تام بحقيقة سير الأمور فى المغرب والأندلس فى تلك الفترة . ذلك أن يعقوب المنصور ، ماكاد يتولى الخلافة عقب مصرع أبيه فى موقعة شنترين ، حتى أخذ يواجه حسبما رأينا سلسلة من الأحداث المزعجة سواء فى المغرب أو الأندلس . فأما فى المغرب فقد رأينا كيف شغل بثورة بنى غانية ، واعتدائهم على إفريقية ، واستخلاص ثغورها من أيديهم . وأما فى الأندلس ، فقد عنى المنصور ، كما رأينا بحشد الجيوش ، لاستئناف حركة الجهاد ، ورد عدوان النصارى عن أراضى الأندلس ، بعد ما تفاقم هذا العدوان سواء من جانب قشتالة أو من جانب مملكة البرتغال . وقد كان من الطبيعى ، فى تلك الظروف الدقيقة التى يجوزها الموحدون ، فى المغرب والأندلس ، أن صريخ صلاح الدين إلى الخليفة الموحدى ، لم يلق صدى ، وان رسالته لم يكن لها الأثر المرغوب .

على أن صلاح الدين لم ييأس من الفوز بعون الخليفة الموحدى. ذلك أنه كان يشعر بأنه يتوجه بصريخه إلى الوجهة الصحيحة ، وأن نزعة الجهاد ، كانت تضطرم فى المغرب على يد الدولة الموحدية ، اضطرامها فى المشرق ، وأن الكفاح الذى يضطرم به الموحدون ضد اسبانيا النصرانية ، لم يكن إلا شطراً من الكفاح الذى تضطلع به مصر فى المشرق . ومن ثم فقد اعتزم صلاح الدين أن يكرر محاولته . فعاد فى العام التالى فى سنة ٥٨٦ هـ ( ١١٩٠ م ) ، فأرسل إلى الخليفة

---

( ١ ) تراجع رسالة صلاح الدين إلى الخليفة الموحدى فى صبح الأعشى ج ٦ ص ٥٢٦ — ٥٣٠ .

يعقوب المنصور ، سفارة على يد وزيره الشهير شمس الدولة ابى الحارث عبدالرحمن ابن منقذ ، يحمل إليه رسالة وهدية فخمة . وكان ابن منقذ ، وهو سليل أمراء بنى منقذ أصحاب حصن شيزر السابقين بالشام ، من رجالات الدولة الصلاحية البارزين ، وممن يصطفيهم السلطان لقضاء المهام الدقيقة . ويصف صلاح الدين فى رسالته إلى الخليفة الموحدى ، ما حدث من تقاطر الفرنج على الشام براً وبحراً ، وفى مقدمتهم جيوش ملك الألمان وملك الإنجليز وأساطيله ، وما وقع حول عكا التى حاصرها الفرنج من المعارك الخطيرة ، وما بذله السلطان لإنقاذها من الجهود فى البر والبحر . ثم يتجه إلى الخليفة يطلب الإنجاد ويقول : إنه كان من المتوقع من « تلك الدولة العالية ، والعزمة الفادية ، مع القدرة الوافية ، والهمة المهدية الهادية ، أن يمد غرب الإسلام المسلمين ، بأكثر مما أمد غرب الكفار الكافرين ، فيملأها عليهم جوارى كالأعلام » ، وأنه لما تأخرت الإجابة « ظن أنها توقفت على الاستدعاء ، فاستصرخه بهذه التحية فقد تحفل السحاب ولا تمطر ، إلى أن تحركها الرياح »[1] .

وهنا تختلف الروايتان المصرية والمغربية فى تاريخ وصول السفير المصرى إلى المغرب ، وفى ظروف لقائه مع الخليفة . فتقول الرواية المصرية إن ابن منقذ أبحر من الإسكندرية قاصداً إلى المغرب فى شهر رمضان سنة ٥٨٦ هـ ، وأنه وصل إلى مراكش فى شهر ذى الحجة من هذا العام ، وأدخل إلى الخليفة فى العشرين منه ، وحملت هدية السلطان إلى الخليفة فى نفس اليوم . بيد أنه يبدو أن الرواية المصرية لم تكن مطلعة تمام الاطلاع على سير الحوادث فى المغرب والأندلس فى تلك الفترة . ومن ثم فإنها لم تستطع أن تتبع حركات السفير المصرى بدقة . ذلك أن الخليفة المنصور ، كان وقت وصول السفير المصرى إلى المغرب ، قد عبر البحر حسبما تقدم فى جيوشه إلى الأندلس معتزماً مقاتلة النصارى ، وإنقاذ مدينة شلب من قبضة البرتغاليين ، وأنه كان فى تلك الآونة بالذات مقيما بإشبيلية ، يجد فى الأهبة ، ويترقب الحوادث . ومن ثم فإن الرواية المغربية ، وهى رواية صاحب البيان المغرب ، المستقاة فيما يبدو من رواية ابن صاحب الصلاة ، مؤرخ البلاط الموحدى ، تقدم إلينا تفاصيل أخرى عن تحركات السفير المصرى ،

---

(١) الروضتين فى تاريخ الدولتين ج ٢ ص ١٧١ — ١٧٣ . وراجع مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ( المنشور بعناية الدكتور جمال الدين الشيال ) ج ٢ ص ٣٦١ و٣٦٢ .

تبدو أكثر اتفاقاً مع سير الحوادث . فتقول لنا إن السفير المصرى حينما وصل إلى المغرب ، نزل بثغر تونس، ثم بثغر بجاية، فاستقبله السيد أبوزيد والى إفريقية والسيد أبوالحسن والى بجاية ، بمنتهى الحفاوة والإكرام، وكتبا إلى الخليفة المنصور وهو يومئذ بإشبيلية بمقدم السفير ، فوصلت كتبهما إليه فى شهر رجب سنة ٥٨٦هـ فرد الخليفة عليهما بالشكر ، وأن يستمرا فى مجاملة السفير وإكرامه ، وأن يطلب إليه كتمان رسالته حتى يستقباه الخليفة ، وبأن يستقر بمدينة فاس معززاً مكرما ، حتى يتم هذا الاستقبال(١) .

ولبث ابن منقذ مقيما بفاس زهاء عام ينتظر لقاء الخليفة . وكان المنصور فى تلك الأثناء ، حسبما نفصل بعد ، قد نظم غزوته الكبيرة لأراضى البرتغال ، واستولى على ثغر قصر أبى دانس أو قصر الفتح فى جمادى الأولى فى سنة ٥٨٧هـ ، ثم سار إلى مدينة شلب واستولى عليها فى جمادى الثانية ، وعاد ظافراً إلى إشبيلية، ثم غادرها عائداً إلى المغرب فى شهر رمضان سنة ٥٨٧هـ (يوليه ١١٩١م) ، ولما وصل إلى مراكش واستقر بها ، استقبل ابن منقذ ، وقدمت اليه هدية السلطان ، وكان فيها مصحف كريم فى ربعة مخيشة بالمسك، وثلاثمائة مثقال من العنبر ، وعشر قلائد من الجوهر ، ومائة قوس بأوتارها ، ونصول سيوف هندية وغيرها. ويقول لنا صاحب كتاب « الإستبصار» إن اجتماع ابن منقذ بالخليفة كان فى السادس من محرم سنة ٥٨٨ هـ ( يناير ١١٩٢ م ) وإنه غادر الحضرة بعد ذلك بخمسة أيام(٢) . وأفضى ابن منقذ إلى عاهل المغرب بمضون سفارته ، فتلقى جواب المنصور عنها مجملا. ويقول لنا ابن خلدون إن الخليفة اعتذر عن إعارة الأسطول(٣) وأحيل ابن منقذ إلى الوزراء لاستكمال التفاصيل . ثم غادر مراكش فى العاشر من المحرم سنة ٥٨٨ هـ ، وهو يحمل من الخليفة إلى السلطان هدية تضارع هديته فى القيمة والفخامة ، فوصل إلى الإسكندرية فى أواخر جمادى الثانية من هذا العام(٤) .

---

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٨٣ .

(٢) كتاب الإستبصار فى عجائب الأمصار ( المنشور بعناية الدكتور سعد زغلول عبد الحميد ١٩٥٨ ) ص ١٠٧ .

(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٦ .

(٤) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٨٣ ، و١٨٤ .

ومما تذكره الرواية بهذه المناسبة أن ابن منقذ رفع إلى المنصور ، قصيدة من نظمه من أربعين بيتاً ، يمدحه فيها ، فمنحه المنصور صلة سخية قدرها أربعون ألف دينار ، ألفاً عن كل بيت ، وقال له إنما أعطيناك لفضلك ولبيتك ، وهذا بعض ما جاء فى القصيدة المذكورة :

سأشكر بحراً ذا عباب قطعته   إلى بحر جود ما لأخراه ساحل

إليك أمير المؤمنين ولم تزل   إلى بابك المأمول تزجى الرواحل

قطعت إليك البر والبحر موقنا   بأن نداك الغمر بالنجح كافل

فلازلت للعلياء والجود بانياً   تبلغك الآمال ما أنت آمل[1]

ونحن نعرف أنه لم يكن لهذه السفارة نتائج عملية ، ولم يحصل صلاح الدين على ما كان يرجوه منها من عون وإنجاد . وفى بعض الروايات أن الخليفة المنصور لم يستجب إلى صريخ صلاح الدين ، لأنه لم يلقبه فى رسالته بألقاب الخلافة[2]. وهى رواية ظاهرة الضعف . ذلك أن الأسباب الحقيقية لموقف الخليفة الموحدى، يجب أن تفهم على ضوء الحوادث والظروف التى كان يجوزها الغرب الإسلامى. أعنى المغرب والأندلس ، فى تلك الفترة . فقد كانت إفريقية وهى منطقة حساسة من المغرب ما تزال معرضة لعدوان بنى غانية ، ومن إليهم من الأعراب الضالعين معهم ، وكانت الأندلس تواجه مثل الأخطار التى كان يواجهها الشرق الإسلامى، من عدوان النصارى والصليبيين . وبالرغم من نجاح الموحدين فى غزو البرتغال، واستردادهم لقصر الفتح وشلب ، فإنه كان ثمة احتمال دائم ، بأن يتكرر عدوان البرتغاليين وحلفائهم الصليبيين القادمين من الثغور الشمالية ، على غربى الأندلس، وأن يتكرر عدوان القشتاليين على أواسطها . وقد كانت الأساطيل الموحدية ، التى كان صلاح الدين يطمح بالأخص إلى عونها ،ترابط باستمرار فى مياه الأندلس الجنوبية والغربية ، استعداداً لمؤازرة الجيوش الموحدية لرد كل عدوان محتمل . ومن ثم فإنه لم يك ثمة إزاء هذه الظروف والأخطار كلها ، فيما يبدو، مجال لأن يتقدم عاهل المغرب إلى غوث إخوانه المشارقة ، بقوات كان هو فى أشد الحاجة إليها . وكان على كل فريق أن يعتمد على نفسه فى رد العدوان الذى يواجهه .

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٢٠٧ .

(٢) ابن خلكان فى الوفيات ج ٢ ص ٤٣٢ .

على أننا نستطيع ، بالرغم من هذه الآثار السلبية ، التى انتهت إليها محاولات صلاح الدين للحصول على عون الخليفة الموحدى ، أن تقول إنها كانت تنطوى على نفس المغزى العظيم الذى أوحى ببذلها ، وهو رسوخ التضامن الروحى ، وقوة المشاعر المشتركة ، بين شطرى الكتلة الإسلامية ، فى المشرق والمغرب ، فى تلك العصور التى تعرض فيها كلاهما لمحنة العدوان الصليبى .

— ٣ —

لبث المنصور خلال إقامته بإشبيلية ، مذ عاد إليها فى جمادى الآخرة سنة ٥٨٦ هـ ، يجد فى أهباته العسكرية ، ويجمع الآلات والعدد ، ويستكمل ضم الحشود . فلما تمت أهباته ، واستكملت من سائر نواحيها ، عزم على الحركة والسير لاستئناف الغزو ، فخرج من إشبيلية فى غرة ربيع الآخر سنة ٥٨٧ هـ ( ٢٨ أبريل سنة ١١٩١م ) فى قوات كثيفة، حسنة الأهبة والهيئة والنظام ، وعبر نهر وادى يانه مخترقاً أراضى البرتغال ، ومتجهاً نحو الشمال الغربى ، وكان مقصد الخليفة الأول ، هو قاعدة قصر الفتح أوقصر أبى دانس الحصينة ، الواقعة جنوب شرقى أشبونة على الضفة اليمنى لنهر سادو ، على مقربة من البحر[١]، فلما وصل إليها قسمت الحشود الموحدية وفق نظام خاص، وقام العبيد وأهل الخدمة بردم خندق المدينة من جهاتها الأربع ، وأقبلت القوات الموحدية إلى السور تحاول اقتحام المدينة ، ولكن البرتغاليين أمطروا الهاجمين وابلا كثيفاً من النبال والحجارة ، فأصيب كثير من الجند الموحدين بالجراح . فلما رأى المنصور فتك النبال بجنده ، أمر بوقف القتال ثلاثة أيام، طلباً للراحة ، والعود إلى مهاجمة المدينة بعزائم أشد . ووصل فى تلك الأثناء جانب من الأسطول الموحدى ، دخلت سفنه النهر الذى تقع عليه المدينة ، وهى تحمل آلات الهجوم الفتاكة . وفى الحال — فى خلال يوم وليلة فقط — نصبت حول المدينة أربعة عشر منجنيقاً . وفى اليوم الخامس عشر من جمادى الأولى ( سنة ٥٨٧ هـ ) الموافق ١٠ يونيه سنة ١١٩١ ، صدر الأمر لسائر الجيش الموحدى بمهاجمة المدينة ، فانقض عليها من سائر الجهات ، وأخذت

---

( ١ ) كانت قاعدة القصر Alcacer do Sal فى ذلك الوقت ، حسبما يصفها لنا الإدريسى ، مدينة حسنة متوسطة على النهر المسمى شطوبر (Sadoa) وهو نهر كبير تصعد فيه السفن والمراكب السفرية بكثرة . وفيها استدار بها من الأرض كلها أشجار الصنوبر ، وبها الإنشاء الكثير ، وبينها وبين البحر عشرون ميلا ( وصف المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ص ١٨١ ) .

المجانيق تضرب المدينة بشدة، فلما تفاقم الأمر ، ووصل هجوم الموحدين إلى ذروة عنفه وروعته ، بادر أهل المدينة بطلب الأمان ، ونزلوا من المدينة مستسلمين فحملوا فى المراكب ، وبعثوا إلى إشبيلية ليكونوا هنالك عنوان الفتح. واستولى الموحدون على المدينة ، وشرع المنصور فى النظر فى شئون الحصن وأحواله ، وأمر بإصلاحه وشحنه بالمقاتلة الأنجاد من الموحدين، ورتب لهم من المؤن والمواد رواتب شهرية وسنوية، فى مخازن إشبيلية وسبتة ، وندب لولاية الحصن المذكور أبا بكر محمد بن وزير وهو ابن أبى محمد سيدراى بن وزير زعيم الغرب السابق، أيام ثورة ابن قسىّ ، وكان حاكم الحصن من قبل ، قبل أن يسقط فى أيدى البرتغاليين فى سنة ٥٥٥ هـ ( ١١٦٠ م )(١) .

وسار الموحدون بعد ذلك إلى حصن قلماله (٢) ، وكان أمنع حصون هذه المنطقة ، وبه حامية قوية ، ولكنهم أيقنوا باستحالة المقاومة ، وعرضوا التسليم فى الحال ، والجلاء عن الحصن ، فاستجاب المنصور لرغبتهم ، وأخلى سبيلهم ، فساروا آمنين الى بلادهم ، ونهب الموحدون سائر ما فى الحصن من من الأثاث والأقوات والسلاح. ثم أمر المنصور بهدمه ، فهدم حتى محيت آثاره . وزحف الموحدون على حصن المعدن(٣) القريب ، فاستولوا عليه، وأمر المنصور كذلك بهدمه ، فهدم حتى صار أثراً بعد عين .

وتقول الرواية النصرانية فى شأن هذه الحصون ، إن أهل الحصون المجاورة، وهى حصون قلماله ، وكوينا والمعدن ، لما رأوا سقوط حصن القصر بالرغم من مناعته بهذه السرعة ، بادروا باخلاء حصونهم ، وفروا فى مختلف الأنحاء ، ولما أشرف الموحدون عليها ، أمر المنصور بهدمها ، فهدمت حتى سويت بالأرض(٤) .

ثم اتجه الموحدون بعد ذلك جنوباً إلى المقصد الرئيسى فى هذه الغزوة، وهو مدينة شلب . فوصلوا إليها فى يوم الخميس الثانى من جمادى الآخرة (٢٧ يونيه سنة ١١٩١ م) . وفى الحال طوقها الموحدون بقوات كثيفة ، وردمت الخنادق

---

(١) البيان المغرب ص ١٨٥ .

(٢) حصن قلماله ، وهو بالبرتغالية **Palmela** .

(٣) حصن المعدن هو بالبرتغالية **Almada** .

(٤) **Huici Miranda: ibid; (cit Crónica de Sancho 1, p. 537)**

لمحيطة بها ، ونصبت حول أسوارها المجانيق ، وأخذت تضربها بشدة . واستمر الحصار والضرب حتى يوم الأربعاء الخامس عشر من جمادى ، فى فجر تلك الليلة ، كان الموحدون ساهرين يرقبون الفرص . وكان الحراس وأهل المدينة ، قد غلب عليهم التعب والنوم ، ولم يتوقعوا أن يقوم الموحدون بأية محاولة فى مثل هذه الفترة . ولكن الموحدين بالعكس ، لما رأوا إغفاء أهل المدينة ، تقدم أحد أدلائهم من السور ، ووثب إلى ثلمة فيه ، وتبعه جماعة من الأنجاد ، فرفعوا الرايات على السور ، وضربت الطبول ، وضج الجند بالتهليل والتكبير ، واقتحم الموحدون المدينة ، فلم يستيقظ أهلها ، إلا وقد سيطر عليها الفاتحون ، يثخنون فيهم قتلا وجرحاً ، فبادروا بطلب التسليم والأمان ، فضرب لهم المنصور أجلا قدره عشرة أيام لإخلاء المدينة ، وخرج النصارى من قصبة شلب فى يوم الخميس الخامس والعشرين من جمادى الثانية ( ٢٣ يوليه سنة ١١٩١م ) ودخلها الموحدون فى الحال ، وعادت شلب بذلك إلى قبضة الإسلام ، بعد أن لبثت فى أيدى البرتغاليين ، منذ سقوطها فى رجب سنة ٥٨٥ هـ ، زهاء عامين[١] . وقدم المنصور على ولايتها ابن وزير[٢] .

تلك هى الرواية الإسلامية عن استرداد شلب . أما الرواية النصرانية ، فلا تقدم إلينا شيئاً من تلك التفاصيل ، بل تكتفى بالقول بأن الموحدين نصبوا المجانيق حول المدينة ، وأخذوا فى ضربها بالنهار والليل دون هوادة ، حتى اضطر أهلها إلى التسليم ، وخرجوا منها بأنفسهم وأمتعتهم .

ولبث المنصور ثلاثة أيام أخرى فى ظاهر شلب ، ثم غادرها فى قواته يوم الثلاثاء الثامن والعشرين من جمادى الثانية ، بعد أن أنفق فى غزوته زهاء ثلاثة أشهر ، فوصل إلى إشبيلية فى الرابع من شهر رجب سنة ٥٨٧ هـ ( ٢٨ يوليه سنة ١١٩١ م ) .

وأنفق المنصور فى إشبيلية شهرين آخرين ، عنى خلالها بتنظيم شئون الأندلس واختيار أكفاء القادة لرياسة الثغور ، أو بعبارة أخرى مدن الحدود وحصونها ، وشحنها بصفوة الجند ، وتعيين بعض قرابته لولاية المدن الشاغرة من الولاة .

---

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٨٥ و١٨٦ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٥ .

وفى غرة رمضان ، جلس بحدائق البحيرة خارج إشبيلية ، لتلقى تحيات المودعين ، ولما تمت مراسيم الوداع ، غادر إشبيلية ، ميمماً شطر العدوة ، وعبر البحر فى الخامس عشر من رمضان ، واستمر فى سيره حتى وصل إلى حضرة مراكش[١] وماكاد يستقر بها حتى استقبله الشعراء كالعادة بقصائد التحية والتهنئة . فمن ذلك ما قاله شاعره الجراوى :

إياب الإمام حيـــاة الأمم　　توالى السرور به وانتظم
وجاد به الأرض صوب الحيا　　وجلى الظلام به بدر تم
فتوح عظام جناها الزمان　　لذى همم دونهن الهمم

على أن المنصور ماكاد يستريح من وعثاء السير والسفر ، حتى دهمه المرض واشتد به ، وطال أشهراً حتى خيف منه على حياته . وأشار عليه الأطباء بالانتقال إلى فاس ، فحُمل إليها فى محفة ، واستمر بها أشهراً حتى تماثل إلى الشفاء . ويروى لنا المراكشى بهذه المناسبة أن الخليفة حينما اشتد مرضه ، أرسل يستدعى أخاه السيد أبا يحيى والى إشبيلية ، وأن أبا يحيى لبث يتلكأ فى العود مؤملا أن يموت أخوه ، وأنه قام فى ظل هذا الأمل باستكتاب بعض أشياخ الجزيرة مساطير لتأييد دعوته ؛ فلما برىء الخليفة من مرضه عاد أبو يحيى إلى المغرب . وكان أخوه الخليفة قد وقف على حركته ، فأمر القبض عليه وقتله ، فتولى قتله أخوه لأبيه السيد عبد الرحمن بن يوسف ، وذلك بمحضر من الناس[٢] . ونحن نلاحظ على هذه الرواية بأنها متأخرة عن موضعها ، وأن حادث ائتمار السادة بالخليفة وقع فى سنة ٥٨٤ هـ ( ١١٨٨م ) ، حسبما أشرنا إليه فى موضعه ، وأن السيد أبا يحيى وهو ولد الخليفة وليس بأخيه ، لم يكن بين المتآمرين ، الذين عاقبهم الخليفة بالإعدام .

---

( ١ ) يقدم إلينا صاحب روض القرطاس ، رواية أخرى عن غزوة الموحدين للبرتغال واسترداد مدينة شلب ، فيقول لنا إن الذى اضطلع بهذه الغزوة هو محمد بن يوسف والى قرطبة ، وأنه سار إلى شلب فى جيش عظيم من الموحدين والعرب والأندلس ، حتى نزل شلب فحاصرها ، وشد عليها القتال حتى فتحها ، وفتح قصر أبى دانس ومدينة باجة ويابرة ، ورجع إلى قرطبة فدخلها بخمس عشرة ألف سبية وآلاف من أسرى الروم ، وذلك فى شوال سنة سبع وثمانين وخمسمائة ( ص ١٤٤ ) وهى رواية ظاهرة الضعف والخلط ، خصوصاً وأنها تغفل ذكر المنصور بالمرة وتنسب لغيره قيادة هذه الغزوة .

( ٢ ) المعجب ص ١٥٨ و١٥٩ .

وشعر الخليفة إبان مرضه بدقة الموقف ، وأراد أن يحتاط لكل احتمال ، فعقد البيعة لابنه أبى عبد الله محمد بولاية عهده ، وكان سنه نحو عشر سنين[١] ، وهو الذى تسمى بالناصر فيما بعد ، وكتب بذلك إلى خاصة القرابة كالسيد أبى زيد والى إفريقية ، وولده السيد أبى يحيى والى إشبيلية ، فبادروا بالحضور إلى الحضرة ، مطيعين مؤيدين لذلك العهد ، وجاء وفد من شبه الجزيرة يحمل تأييد أهل الأندلس ، وجاء معهم يوسف بن الفخار اليهودى رسول ملك قشتالة يسعى إلى توطيد الهدنة المعقودة . وكان الخليفة قد أبل عندئذ من مرضه ، فتلقى تهنئة الوفود والأكابر بإبلاله ، وأنشد الشعراء قصائدهم كالمعتاد[٢] .

وقد انتهت إلينا صورة وثيقة البيعة الرسمية التى كتبها أهل قرطبة بمبايعة ولى العهد أبى عبد الله محمد الناصر ، وهى مؤرخة فى العشر الأوائل من ذى القعدة سنة ٥٨٨ هـ ، وتبدأ بالتنويه بأهمية الاستخلاف فى الولاية ، وشرعيته ، منذ عهد النبى ، حينما استخلف أبا بكر فى الصلاة ، ثم تنوه بقيام المهدى ، وإعلاء كلمة الدين بظهوره ؛ وتقول لنا بعد ذلك فى صدد البيعة ما يأتى :

« وبعد فهذا ما أجمع عليه الملأ بقرطبة وأعمالها حرسها الله ، من الطلبة ، والموحدين والعرب والأجناد والوجوه من الأشياخ والأعيان والقواد والخواص والعوام من الرعية ، من حاضر منهم ومن باد ، أجمعوا بتوفيق الله وعونه ، وإحسانه العميم ومنه ، على المبايعة للأمير الأجل الملك السعيد ، السيد الأوحد . . . المؤهل المؤثل ، الحائز لشرف الانتساب . . . . فرع الشجرة المباركة الطيبة الانتماء التى أصلها فى مقر الهدى ثابت ، وفرعها فى السماء . . . أبو عبد الله محمد بن سيدنا الإمام المنصور ، الناصر لدين الله تعالى الخليفة المرتضى أمير المؤمنين بن سيدنا أمير المؤمنين ، بن سيدنا أمير المؤمنين أعلى الله أمرهم وأسماه » .

ثم يقول « فبايعوه بمقتضى أمره العلى ، ونصه الواضح الجلى ، بيعة مباركة سعيدة ، استقبلو بها آمالا فسيحة مديدة ، وأعمالا من البر والتقوى جديدة . أسكبت عليهم شآبيب الرحمة والأمان ، وأسحبت فواضل الإنعام والإحسان ، وازدادت بهاء وجمالا معالم الإسلام والإيمان . . » وإن أهل قرطبة « بادروا إلى

(١) المعجب ص ١٧٥ .

(٢) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٨٧ .

التزام عهد هذه البيعة المباركة عهداً ، وإحكام عقدها السعيد عقداً ، فبايعوا للأمير الأجل السيد السعيد الأوحد . . .بيعة إخوانهم الموحدين ، على صفاء من قلوبهم ، وخلوص من عيوبهم ، وصحة من عقائدهم وضمائرهم ، وتوافق من بواطنهم ، وطوايرهم ، وعلى أوفى عهود البيعة وشروطها ، وأكمل عقودها وربوطها ، من من السمع والطاعة فى السر والجهر ، والعسر واليسر ، وعلى اعتقاد النصيحة والموالاة الصريحة ، أعطوه بذلك عهد الله المؤكد ، وميثاقه المشدد ، وأعطوه به صفقة قلوبهم وإيمانهم ،وعهدة إسلامهم وإيمانهم ، وخالصة سرهم وإعلانهم»[١].

وفى العام التالى سنة ٥٨٨هـ ( ١١٩٢م ) وصل السيد أبو زيد والى إفريقية ، ومعه برسم الخليفة هدية جليلة من التحف الملوكية ، وفى صحبته وفد من أعيان عرب سليم ورياح ، وأنجادهم[٢] ، وكان الخليفة قد تحرك فى تلك الأثناء من الحضرة قاصداً إلى فاس نزولا على نصح أطبائه ، فالتقى به السيد أبوزيد ومن معه فى تانسيفت ، وأمر الخليفة بعد انقضاء مراسيم التحية واللقاء ، بمسير الوفود القادمة إلى مراكش لمشاهدة القصور والمرافق الخلافية ، وما تحويه الحضرة من جليل الآثار والمنشآت ، الدالة على عظمة الدولة الموحدية وقوتها . فأمضت الوفود بالحضرة أياما ، ثم لحقت بأمير المؤمنين فى طريقه لتزجى إليه آيات الشكر والعرفان .

ورحل الخليفة إلى رباط الفتح ثم إلى فاس . وعنى خلال إقامته بفاس بالنظر فى شئون إفريقية . وكانت هذه الشئون بما يعتورها من المتاعب ، ومن الأخطار المترتبة على عدوان بنى غانية ، تلقى من الخليفة أعظم اهتمام ، وغمر الخليفة بهذه المناسبة وفود العرب من سليم ورياح بوافر صلاته وإكرامه ، والتزمت الوفود من جانبها بالوفاء ومقابلة البر بحسن الصنيعة ، ثم عادت إلى مواطنها بإفريقية ، وقد نالت من إنعام الخليفة وبره أضعاف ما أملت .

ولما شعر الخليفة باكتمال الصحة والعافية ، سار إلى رباط الفتح مرة أخرى ، وكان يؤثر هذه المدينة التى أسسها جده عبد المؤمن بحبه ، ويميل إلى سكناها والاستجمام بها . وكان فى تلك المرة قد عقد العزم على الانتقال إليها بصفة نهائية ،

---

( ١ ) ورد نص هذه البيعة كاملا ضمن المخطوط رقم ٤٨٨ الغزيرى بمكتبة الإسكوريال ، وهو الذى سبق أن نقلنا عنه عدة من الوثائق المرابطية .

( ٢ ) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٥ .

واتخاذها حاضرة لمملكته ، فأمر بتجديد قصبتها ، وكانت تسمى بالمهدية ، إذ كانت تخططها وموقعها على البحر ، وأحاطته بها ، تشبه المهدية الفاطمية بإفريقية ، وألقى بشأن تنظيمها وتجميلها بقية أوامره ، ثم عاد إلى مراكش فى منتصف هذا العام ( ٥٨٨ هـ ) ، واستقر بها ، وهو دائب الاهتمام بأعمال الإنشاء ، وتجديد الأهبات ، واستكمال العدد[١] .

وفى العام التالى سنة ٥٨٩ هـ ، أمر المنصور بإقامة صرح عظيم حصين خارج إشبيلية ليكون منزلا للمجاهدين ، وأن يكون موقعة فى وسط الشَّرْف. ويقدم إلينا المراكشى بعض تفاصيل عن هذا الصرح ، فيقول لنا ، إن المنصور حينما عاد ظافراً من غزوته لاسترداد شلب ، أمر أن يُبنى له على النهر الأعظم ( نهر الوادى الكبير) حصن ، وأن تبنى له فى ذلك الحصن قصور وقباب ، جاريا فى ذلك على عادته من حب البناء ، وإيثار التشييد ، فتمت له هذه القصور المذكورة على ما أراد ، وسمى ذلك الحصن حصن الفرج . ويضيف صاحب البيان المغرب إلى ذلك ، وهو ينقل فيما يرجح عن ابن صاحب الصلاة ، أن هذا الحصن أو القصر الكبير ، قد كمل بمجالسه المشرفة على إشبيلية وما والاها من البطاح ، وأنه جاء من أضخم ما عمل ، وكان المنصور وهو بالحضرة دائب التشوف إلى متابعة أخبار هذا الصرح ، والوقوف على ما تم فيه ، وعلى صفاته ، حتى إنه أمر أخيراً باستدعاء المشرف على بنائه إلى الحضرة ليقص عليه بنفسه كل مايتعلق بهذا الصرح وطرازه وصفاته[٢] .

ووقعت فى تلك السنة سنة ٥٨٨ هـ ، ببلاد الزاب ، جنوبى إفريقية ، فتنة جديدة كان بطلها زعيم يدعى الأشل . وليس فى الرواية الموحدية ، ما يلقى ضوءاً على شخصية هذا الزعيم الثائر ، ولا كنه دعوته ، وكل ما هنالك أنها تقول لنا ، إن الأشل قام ببلاد الزاب ودعا لنفسه ، فالتف حوله شرذمة من العرب ، وكثير من أشتات الناس من أهل تلك المنطقة ، ومن أهل الجبال المجاورة ممن تصفهم الرواية « بالغوغاء والسفلة » وكان يلقى فى روع أتباعه بأنه موعود بأمره ، وأن

---

( ١ ) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٨٨ و ١٨٩ . ويقول ابن خلكان إن رباط الفتح كانت على هيئة الإسكندرية فى الاتساع وحسن التقسيم وإتقان البناء وتحسينه ( الوفيات ج ٢ ص ٤٣١ ) وهو قول تطبعه المبالغة .

( ٢ ) المعجب ص ١٦٥ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ١٨٩ .

الكتب والدلائل نصت على خبره : وعظم أمره ، وذاع ذكره ، وكثر عدوانه فى تلك المناطق، وتوالت على الخليفة المنصور أنباؤه ، فبعث إلى السيد أبى زكريا والى بجاية ، بأن يبذل كل ما فى وسعه للقبض على هذا الزعيم الثائر : فخرج السيد أبو زكريا فى عسكره من بجاية، وهو يتحسس أخبار الأشل، ويتقصى آثاره. ولما توغل بعيداً فى الصحراء ، اجتمعت طوائف من عرب البوادى ليحاولوا مهاجمته ، وانتهاب محلته ، ولكنه استطاع أن يجتنب اعتداءهم طوراً بلين القول وطوراً بالوعيد وإظهار القوة ، وأنفذ السيد رهطاً من رجاله ، يتحسسون أخبار الثائر ومكان وجوده : وحاول فى نفس الوقت أن يغرى بعض الأعراب بالصلات والوعود ليكشفوا له مكان وجوده ، ولكنه لم يظفر منهم بطائل : ثم عاد إليه رسله الثقاة ، وأخبره بعضهم بمكان وجود الثائر ، وأنه يتصدر مجلس الزعامة وهو فى ثياب فاخرة ، وعلى رأسه عمامة خضراء ، وبين يديه سيف مُحلّى ، وقد التف حوله لفيف من شيعته وهو يحدثهم بلسان حضرى . وعندئذ حاول السيد مرة أخرى أن يحمل بعض الأعراب على إرشاده عن هذا المكان ، وهو يبذل لهم أطيب الوعود . ولكن الأعراب عقدوا العزم على مخادعته وغدره . ثم سار السيد فى قواته ميمماً شطر قلعة بنى حماد ، وهى من أعمال بجاية، ودخلها بعسكره . وهنالك وفد عليه الزعماء العرب يطالبونه بإنجاز وعوده ، فاحتفل بهم وقدم لهم الطعام . فلما استقروا داخل القلعة ، أغلقت أبوابها ، وأمر السيد بالقبض على جملة من أولادهم ، ثم استدعى آباءهم ورؤساء العشائر منهم ، وأقسم لهم بأوثق الأيمان أنه لن يحل وثاقهم ، ولن يطلق سراحهم إلا بإحضار الأشل أو رأسه ، أو يحمل رؤوسهم مكان رأس الأشل إلى الخليفة المنصور . فأبدى العرب أنهم لا يستطيعون الغدر بمن لجأ إليهم ، واحتمى بجوارهم ، ولو قتلوا جميعاً . وعندئذ تدخل أمهات الأبناء المعتقلين ، وصاحوا كيف نضحى بأبنائنا فى سبيل شقى منافق . وعندئذ نشب الخلاف بين الأمهات والآباء ، وذاع الخبر فى مختلف الأحياء، ووقف الأشل على ما حدث فأراد الفرار اتقاء الغدر ، ولكن رهطاً من عشائر المعتقلين بادروه بالهجوم ، وقبضوا عليه وعلى وزيره وحملوهما إلى القلعة ، فغمرهم السيد بإحسانه وصلاته، وأخلى سبيل المعتقلين ، وأمر بإعدام الثائر وصاحبه، وحملت رأسه إلى بجاية، وعلقت على بابها مع ذراعه وعضده ، وأخمدت بذلك ثورته فى مهدها[1].

---

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٩٠ و ١٩١ .

ولم تكد تنتهى هذه الفتنة حتى وردت على المنصور فى سنة ٥٩٠ هـ ، أنباء مقلقة عن إفريقية ، خلاصتها أن بنى غانية قد استأنفوا حركاتهم بنشاط مضاعف ، وأن حلفاءهم من العرب والغز ، يعيثون فساداً فى أنحاء إفريقية ولاسيما بلاد الجريد . ونحن نعرف أن على بن إسحاق بن غانية الميورقى ، بطل هذه الحركة التى كادت تقضى على سلطان الموحدين فى إفريقية ، كان على أثر هزيمته الساحقة فى معركة الحمّة ( سنة ٥٨٤ هـ ) قد فر جريحاً إلى أعماق الصحراء . وهنا تختلف الرواية فى مصيره ، فيقول لنا صاحب المعجب إنه توفى بعد قليل متأثراً بجراحه التى أصابته فى معركة الحمة[١] . ويقول ابن خلدون إنه توفى فى بعض حروبه مع أهل نفزاوة من سهم أصابه فى بعض المعارك ، وذلك فى نفس العام ( ٥٨٤ هـ ) فدفن هنالك ، ثم حمل رفاته إلى ميورقة[٢] . ويقول التجانى فى رحلته إن على بن غانية ، حينما طارده المنصور بعد موقعة الحمّة ، توغل فى صحراء توزر ، فرجع عنه المنصور ، ثم مات على بعد ذلك على توزر من سهم أصابه فى ترقوته فقضى عليه[٣] .

ولما توفى على بن غانية ، قام بالأمر من بعده أخوه يحيى ، وهو يضطرم بمثل مُثُله ، ويرمى إلى تحقيق مثل غاياته ، أعنى قيادة الثورة ضد الموحدين ، والقضاء على سلطانهم فى إفريقية ، معتمداً فى ذلك ، مثل أخيه على محالفة سائر العناصر الخصيمة من العرب والغز وغيرهم . ومن ثم فإنه جدد التحالف الذى كان بين أخيه وبين قراقوش أو قراقش زعيم الغز . ولكن هذا التحالف لم يطل أمده . ذلك أن قراقش مالبث أن جنح إلى طاعة الموحدين ، فسار إلى تونس واجتمع بواليها السيد أبى زيد ، فتلقاه بمنتهى الترحاب والتكريم ، وأقام بها وقتاً فى كنفه وتحت رعايته ، وكان ذلك فى سنة ٥٨٦ هـ[٤] . وهنا يحق لنا أن نتساءل هل كانت ثمة علاقة بين تصرف قراقوش وبين سفارة ابن منقذ التى أوفدها صلاح الدين فى نفس هذا العام إلى الخليفة الموحدى ؟ لقد كان قراقوش مملوكاً للملك المظفر تقى الدين بن شاهنشاه بن أيوب بن شادى ، ابن أخى السلطان

---

( ١ ) المعجب ص ١٥٤ .

( ٢ ) ابن خلدون فى كتاب العبر ج ٦ ص ١٩٣ .

( ٣ ) رحلة التجانى ص ١٦٢ .

( ٤ ) رحلة التجانى ص ١٠٤ .

صلاح الدين، ومن الممكن أن يكون تصرف قراقوش قد وقع بإيحاء السلطان ، حتى لاتعتور الصعاب مهمة سفيره لدى البلاط الموحدى . بيد أننا لانميل إلى الأخذ بهذا الرأى ، لأن قراقوش لم يكن إلا مغامراً لا ذمام له ، ولا يدين فى الظروف التى كان يجوزها بدين الولاء لأحد . وقد أقدم قراقوش من قبل على على مثل هذه الخطوة حينما كتب إلى المنصور عقب موقعة الحمّة بعرض التوبة والطاعة . ومن ثم فإنا نراه بعد فترة يسيرة من التظاهر بطاعة الموحدين، يفر من تونس ليستأنف مغامراته ، وذلك قبل أن ينتهى ابن منقذ من تأدية سفارته . ولما وصل قراقوش إلى قابس ، استطاع أن يدخلها مخادعة ، وقتل جماعة من أهلها ، وأعلن خروجه على الموحدين مرة أخرى ، واستدعى أشياخ العرب من ذباب وسليم ، فقتل سبعين منهم ، ومن بينهم محمود بن طوق بن بقية زعيم المحاميد ، وحميد بن جارية ، وذلك داخل قصر العروسين بقابس[(١)]. ثم سار إلى طرابلس فاستولى عليها من يد حاكمها الموحدى ، وسار بعد ذلك إلى بلاد الجريد فاستولى على معظم أنحائها . وكانت بلاد الجريد مقر حليفه يحيى بن غانية . وعندئذ وقع الخلاف بينهما ، وسار يحيى لقتال حليفه السابق، فالتقيا بموضع يعرف « بمحسن» من أعمال طرابلس ، فهزم قراقوش هزيمة شنيعة ، وفر إلى الجبال ، وأتبع يحيى نصره بانتزاع طرابلس من يد ياقوت نائب قراقوش ، وذلك بعد حصارها من البحر بمركبين بعث بهما إليه أخوه عبد الله والى ميورقة ، وقبض على ياقوت وأرسله مصفداً إلى ميورقة ، فلبث سجيناً بها ، حتى استولى الموحدون على ميورقة سنة ٥٩٩ هـ ، وعندئذ أفرج عنه ، وقصد إلى مراكش . وعين يحيى ابن عمه تاشفين بن غازى نائباً عنه بطرابلس، وغادرها ليتابع مغامراته . فلم يمض سوى قليل حتى ثار أهل طرابلس بنائب الميورقى وأخرجوه منها ، وأعلنوا طاعتهم للموحدين مرة أخرى[(٢)] .

ونحن نقف فى حوادث إفريقية عند هذا الحد ، لنعود إلى تتبع حركات يحيى بن غانية ، الذى قدر له أن يمضى فى قيادة المعركة ضد الموحدين زهاء زهاء خمسين عاما ، وهو ينزل بقواتهم الضربة تلو الأخرى ، وسلطان الدولة الموحدية بإفريقية يهتز ويتصدع تباعا .

---

(١) رحلة التجانى ص ١٠٤ ، وابن خلدون فى العبر ج ٦ ص ١٩٣ .

(٢) رحلة التجانى ص ٢٤٤ و ٢٤٥ .

# الفصل الثالث

## موقعة الأرك

عزم المنصور على السير إلى إفريقية . مسيره إلى رباط الفتح . مقدم ولاة الأندلس وإبلاغهم بانقضاء الهدنة مع النصارى . غارات النصارى وعيثهم فى أراضى الأندلس . تعديل المنصور لخطته وعزمه على العبور إلى الأندلس . رواية أخرى عن بواعث هذا التحول . إتمام الأهبة ومقدم سائر الحشود . مسير المنصور من مراكش إلى قصر المجاز . جواز الجيوش الموحدية ثم الخليفة إلى شبه الجزيرة . مسيره إلى إشبيلية . إجراء التمييز واستكمال الأهبة . مسير الخليفة إلى قرطبة ثم خروجه إلى قشتالة . أهبة ألفونسو الثامن . مسيره نحو قلعة رباح . نزوله بقواته فى ربوة الأرك . مسير الخليفة إلى لقائه ونزوله قرب الأرك . اشتباك الطلائع . رأى ابن صناديد فى خطة القتال . تقسيم الجيش الموحدى وقواده . زحف الموحدين صوب الأرك . استعدادهم لخوض المعركة . ترتيب الجيوش الموحدية . تبادل الغفران والحث على الجهاد . وصف عيان لميدان معركة الأرك . بدء المعركة فى ضحى التاسع من شعبان . نزول القشتاليين واندفاعهم نحو المعسكر الموحدى . هجوم القشتاليين على القلب . عنف القتال وروعته . مقتل القائد العام أبى يحيى . اندفاع جيوش الأندلس والمغرب والأغزاز نحو النصارى. اضطرار النصارى إلى الارتداد والفرار إلى الربوة . حملة العرب والمطوعة والأغزاز عليهم وحصدهم . زحف الخليفة فى سائر قواته نحو النصارى . ارتياع النصارى وفرارهم . اقتحام الموحدين لحصن الأرك . وصف الرواية النصرانية لأدوار المعركة . ارتداد ملك قشتالة فى فله نحو طليطلة . الاتفاق بين الفريقين على تسليم حصن الأرك . استنقاذ الأسرى المسلمين وتسريح حامية الحصن . نتائج المعركة . عدد الجيش القشتالى وخسائره . خسائر المسلمين . الغنائم والأسلاب . المقارنة بين موقعة الزلاقة وموقعة الأرك . عنصر الأسطورة فى المعركتين . الخلاف بين الموقعتين من حيث الظروف والنتائج . أسباب نصر الموحدين . زحف الموحدين على قلعة رباح واقتحامها . وصف عيان لأطلال هذه القلعة . تقسيم المنصور للغنائم . عوده إلى إشبيلية . توجيه كتب الفتح . تهانى الشعراء . عناية المنصور بإصلاح الجامع وإتمام صومعته . قضاؤه للشتاء فى إشبيلية . التمييز والاستعداد لاستئناف الغزو . مسير المنصور من إشبيلية إلى منطقة استرمادورة . افتتاح الموحدين لحصن منتانجش . استيلاؤهم على مدينة ترجالة ، وسانتاكروث . اقتحامهم لمدينة بلاسنثيا وأسر حاميتها . مسيرهم إلى طلبيرة وتخريبهم لأحوازها . احتجاب القشتاليين وإحجامهم عن لقاء الغزاة . اقتراب الموحدين من طليطلة وتخريبهم لبسائطها . رواية عن غزوهم لطليطلة . استنصار ملك ليون بالمنصور . إمداده بقوة من الموحدين . غزو الموحدين والليونيين لقشتالة وتخريبهم لأراضيها . عود المنصور إلى قرطبة ثم إلى إشبيلية . نتائج هذه الغزوة السلبية . عناية المنصور بأمر العمال والنظار . قيامه بتعيين بعض الولاة . استعداده للغزوة التالية . مسيره إلى قرطبة ونزوله بها .

لما تواترت على المنصور خلال سنة ٥٩٠ هـ ( ١١٩٤ م ) تلك الأنباء المقلقة عن حوادث إفريقية ، وتوالت عليه كتب واليها الشيخ أبى سعيد بن أبى حفص عن استفحال أمر بنى غانية ، وتفاقم غارات العرب واشتداد عيثهم ، اعتزم أن يسير إلى إفريقية لمعالجة الأمور بنفسه ، فغادر مراكش إلى رباط الفتح ، ليقوم هنالك بإعداد الحملة المرغوبة ، وبعث بكتبه إلى ولاة الأندلس بالحضور لتلقى تعلياته فلما وفدوا عليه بالرباط قرروا أن الهدنة التى عقدت مع ملك قشتالة فى سنة ٥٨٦ هـ ( ١١٩٠ ) عقب جوازه السابق إلى الأندلس ، قد انتهى أجلها ، وأنه أى ملك قشتالة قد بعث إلى جميع الثغور الإسلامية الواقعة على حدودها ينذرها بذلك ، وأنه اعتماداً على انشغال الخليفة بحوادث إفريقية ، وباستعداده للحركة إليها ، قد بعث أقماطه وقادته إلى مختلف أنحاء الأندلس يغيرون عليها ، ويثخنون فيها ، حتى بلغت غاراتهم أحواز إشبيلية(١). فصرف المنصور ولاة الأندلس ، وغادر رباط الفتح إلى مكناسة ، وهو على عزمه أن يسير إلى إفريقية . ولكن توالت عليه عندئذ كتب أهل الأندلس ، وقادة الثغور فيها ، باشتداد وطأة العدو ، وتفاقم غاراته . وكان ألفونسو الثامن ملك قشتالة ، قد بعث مطران طليطلة مارتن لوبث فى حملة تخريبية محضة إلى أراضى الأندلس ، عاثت فيها أشد عيث ، واستولت على كثير من الغنائم والماشية . فرفعت هذه المخاطبات والأنباء كلها إلى المنصور ، وهو فى مكناسة يستعد للسير إلى إفريقية فأقلقته وأهمته ، ورأى عندئذ أن يُعدل خطة سيره ، فأمر بأن تُبعث الأمداد إلى ولاة إفريقية ، وأن تعد العدة للسير إلى الأندلس ، فاشتدت الحركة عندئذ ، وأقبلت الحشود من كل صوب ، وكانت رغبة المجاهدين فى العبور إلى الأندلس أشد لقربها ، وتيسير المؤن والأقوات بها(٢).

تلك هى البواعث والظروف التى أملت على المنصور عزمه على العبور إلى الأندلس للمرة الثانية . ولكن توجد ثمة رواية أخرى خلاصتها أن ملك قشتالة ،

---

( ١ ) وتوجد ثمة رواية أخرى خلاصتها أن ملك قشتالة كان قد بعث إلى المنصور ، وهو يتأهب لغزو إفريقية ، رسوله يطلب تجديد الهدنة ، وهو يضمر الكيد ، فلما وصلت أنباء الغارات التى قام بها القشتاليون فى أراضى الأندلس ، والرسول فى محلة المنصور ، أمر المنصور بطرده وتجهيزه إلى البحر ( أورد هذه الرواية خلال حديثه عن موقعة الأرك أبو الحسن حازم القرطاجنى فى كتابه « رفع الحجب المستورة فى محاسن المقصورة » ( مخطوط المتحف البريطانى ص ١٥٢ ) .

( ٢ ) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٩١ و١٩٢ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٥ .

على أثر انقضاء الهدنة التى كانت معقودة بينه وبين الموحدين، غزا أراضى الأندلس، وتوغل فى غاراته حتى الجزيرة الخضراء. وهناك وجه إلى الخليفة المنصور كتابا من إنشاء وزيره اليهودى ابن الفخار، يتحداه فيه بأسلوب يفيض غروراً ووقاحة، أن يأتى لقتاله، فإن جبُن أوعجز، فليرسل إليه السفن ليجوز فيها إليه، ويقاتله فى أعز مكان لديه، وأن المنصور غضب لذلك، واستنفر الناس للجهاد، وكانت حركته الثانية إلى الأندلس(١). على أنه يبدو من نص هذا الخطاب، ومن تحدثه عن « تواكل رؤساء الأندلس، وإخلادهم إلى الراحة » أنه يمكن بطريقة أرجح نسبته إلى ألفونسو السادس ملك قشتالة، وأنه كان موجهاً إلى يوسف بن تاشفين، وليس إلى الخليفة الموحدى.

وفى أوائل سنة ٥٩١ هـ ( ١١٩٤ م ) كانت أهبات الحملة الموحدية، قد تقدمت تقدماً كبيراً، واجتمعت الحشود من سائر بلاد المغرب والقبلة. وفى يوم الخميس الثامن عشر من جمادى الأولى من السنة المذكورة، خرج الخليفة يعقوب المنصور من حضرة مراكش، والجيوش تتلاحق فى أثره من سائر النواحى، وسار تواً الى قصر المجاز ( القصر الصغير )، وهنالك عنى بتنظيم تموين الجيوش، ثم بدأ الجواز، فكان أول من جاز البحر قبائل العرب ثم قبائل زناتة، ثم المصامدة، فغمارة، فالجيوش المطوعة، ثم الموحدون، فالعبيد، ولما تم جواز الجيوش على هذا النحو واستقرت بأراضى الجزيرة الخضراء، عبر الخليفة المنصور البحر فى جمع كبير من أشياخ الموحدين والزعماء والفقهاء، والعلماء، وكان عبوره إلى طريف(٢) فى يوم الخميس عشرين من جمادى الآخرة سنة ٥٩١ هـ ( أول يونيه سنة ١١٩٥ م ).

وأقام المنصور بطريف يوما واحداً، ثم استأنف سيره إلى إشبيلية، ولقيه فى الطريق والى إشبيلية السيد يعقوب بن أبى حفص وجماعة من أعيانها، ثم تقدمه ليعد له أسباب النزول فى الحضرة الأندلسية، ونزل الخليفة بقصر البحيرة خارج باب جَهور، وهرع أهل الحاضرة للسلام عليه، وعهد الخليفة إلى أبى بكر

---

( ١ ) راجع ابن الأثير ج ١٢ ص ٤٤، وابن خلكان فى الوفيات ج ٢ ص ٤٢٥، وروض القرطاس ص ١٤٥، والنويرى طبعة ريميرو فى مجلة **(Revista del Centro de Estudios Historicos T. VIII ano 1919 p. 218)** ج ٨ ص ٢٧٣

( ٢ ) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٩٢، وفى روض القرطاس أنه عبر إلى الجزيرة الخضراء (ص ١٤٦).

ابن زُهر وزملائه أشياخ المدينة ، بإنزال الأشياخ والأكابر فى الدور المعدة لنزولهم ، وبعد الظهر أذن بدخول السادات للسلام عليه ، وكان ذلك يوم الخميس السابع والعشرين من جمادى الثانية . وفى الغد ركب الخليفة إلى حصن الفرج الذى كان قد أمر بإنشائه خارج إشبيلية ، وأعجب بمنعته وحسن روائه . ثم عاد فزار المسجد الجامع . وفى يوم السبت أمر بإجراء التميز ، فانتظم سائر الجند بالزى الفاخر ، والعدد الكاملة ، وركب الخليفة ومعه من حضر من الأبناء ، والقرابة والوزراء ، واستعرض الجند صفاً صفاً ، وقبيلا قبيلا ، ثم أخرجت الرواتب والبركات ، ووزعت على سائر الحشود[1] .

وأنفق المنصور فى إشبيلية أسبوعين وهو يستكمل أهباته ، ويضع خططه فى أناة وروية ، وفى صبيحة يوم الخميس الحادى عشر من رجب ( ٢٢ يونيه ) غادر إشبيلية قاصداً إلى قرطبة ، مخترقاً طريق نهر الوادى الكبير فوصل إليها يوم الجمعة التاسع عشر منه ، واستراح بها ثلاثة أيام . ثم خرج منها من باب مورادال فى يوم الثلاثاء الثالث والعشرين منه ، وسار فى قواته شمالا ميمماً صوب سهول شلبطَرّة وقلعة رباح .

— ١ —

وكانت أنباء عبور الخليفة الموحدى وجيوشه الزاخرة ، قد ترامت أثناء ذلك إلى ملك قشتالة ألفونسو الثامن ، فجمع « الكورتيس » فى مدينة كريون على عجل وأخذ يتأهب للحرب بكل ماوسع ، واستدعى سائر أتباعه من الأمراء والأشراف فى قواتهم، وحشد كل ما استطاع من الجند، وبعث إلى زميليه ملكى ليون وناڤارا فى طلب العون ، فوعداه بذلك ، وانتظر أياما بطليطلة حتّى وفد أتباعه فى حشودهم ، ثم غادرها مسرعاً إلى الجنوب ، واخترق نهر وادى يانه متجهاً نحو أراضى قلعة رباح ، ولم ينتظر مقدم زميله وحليفه ملك ليون ، وكان قد وصل فى قواته إلى طلبيرة ، ولم ينتظر كذلك مقدم قريبه ملك ناڤارا ( نبرّة ) ، إذ كان واثقاً من رجحان كفة قواته وأهباته ، واثقاً من النصر على أعدائه ، مهما بلغت قواتهم .

وكان ملك قشتالة قد بدأ قبل ذلك بقليل بإنشاء حصن جديد فى المحلة المسماة

---

( ١ ) البيان المغرب ص ١٩٢ و١٩٣ .

« بالأرك » . وهى محلة صغيرة من أعمال قلعة رباح ، تقع على مسافة أحد عشر كيلومتراً فى غربى مدينة « ثيوداد ريال » الحديثة[1]، وتقوم فوق ربوة عالية ، تمتد سفوحها حتى نهر وادى يانه ، وكانت عندئذ هى نقطة الحدود بين قشتالة وأراضى المسلمين ، فإلى هذه المحلة اتجه ملك قشتالة بقواته ، وعسكر بها معتزما أن يلقى الموحدين وألا يسمح لهم بعبور الحدود إلى داخل أراضيه .

وأما الخليفة المنصور فاستمر فى سيره مخترقاً قلعة رباح حتى وصل إلى مقربة من محلة الجيش القشتالى المعسكر فى الأرك . ويقول لنا صاحب روض القرطاس إن الخليفة استمر فى سيره حتى بقى بينه وبين الأرك مرحلتان قريبتان ، وإنه نزل هنالك، وذلك فى يوم الخميس الثالث من شعبان سنة ٥٩١ هـ ( ١٣ يوليه سنة ١١٩٤م ) . وماكاد الجيش الموحدى يستقر فى محلته حتى ظهرت سرية من خيل القشتاليين خرجت لتستطلع أخبار المسلمين ، فظفرت بها طائفة من الجند الموحدين وأبادتها قتلا . ومضت بضعة أيام أخرى قبل أن يقع الاشتباك بين الجيشين ، ولم تكن ثمة سوى الطلائع من الجانبين ، وكانت الخسارة تقع فى معظم الأحيان على القشتاليين . وفى خلال ذلك كان الخليفة المنصور ، يعقد المؤتمرات الحربية ، ويجرى مشاوراته مع أشياخ مختلف القبائل ، ويروى لنا صاحب روض القرطاس أنه لما استشار قواد الأندلس أحالوه على كبيرهم أبى عبد الله ابن صناديد، وأن ابن صناديد أبدى رأيه للخليفة ، بأنه يجب أن تبدأ المعركة باشتباك سائر حشود الأندلس وقبائل العرب ، وسائر قبائل المغرب من زناتة والمصامدة وغيرهم وجند المتطوعة ، وأن ينتظر الخليفة فى المؤخرة ومعه جيوش الموحدين والعبيد والحشم فى موضع مستور ، فإن أسفرت المعركة عن انتصار المسلمين فيها ، وإن أسفرت عن هزيمتهم ، فعندئذ يبادر الخليفة فى قواته إلى لقاء العدو ، وليحمى ظهور المسلمين ، ويكون العدو عندئذ قد خبت قواه ، فيكون النصر للمسلمين ، وأن الخليفة قد أعجب بهذا الرأى وقرر اتباعه[2] .

ويقدم إلينا صاحب روض القرطاس فوق ذلك تفاصيل هامة عن تقسيم الجيش

---

( ١ ) الأرك هى بالإسبانية **Alarcos** ، وثيوداد ريال هى **Ciudad Real** ومعناها المدينة الملكية . وتقوم مكان الأرك اليوم محلة صغيرة تسمى **Sta Maria de Alarcos** فى فحص قلعة رباح .

( ٢ ) روض القرطاس ص ١٤٧ .

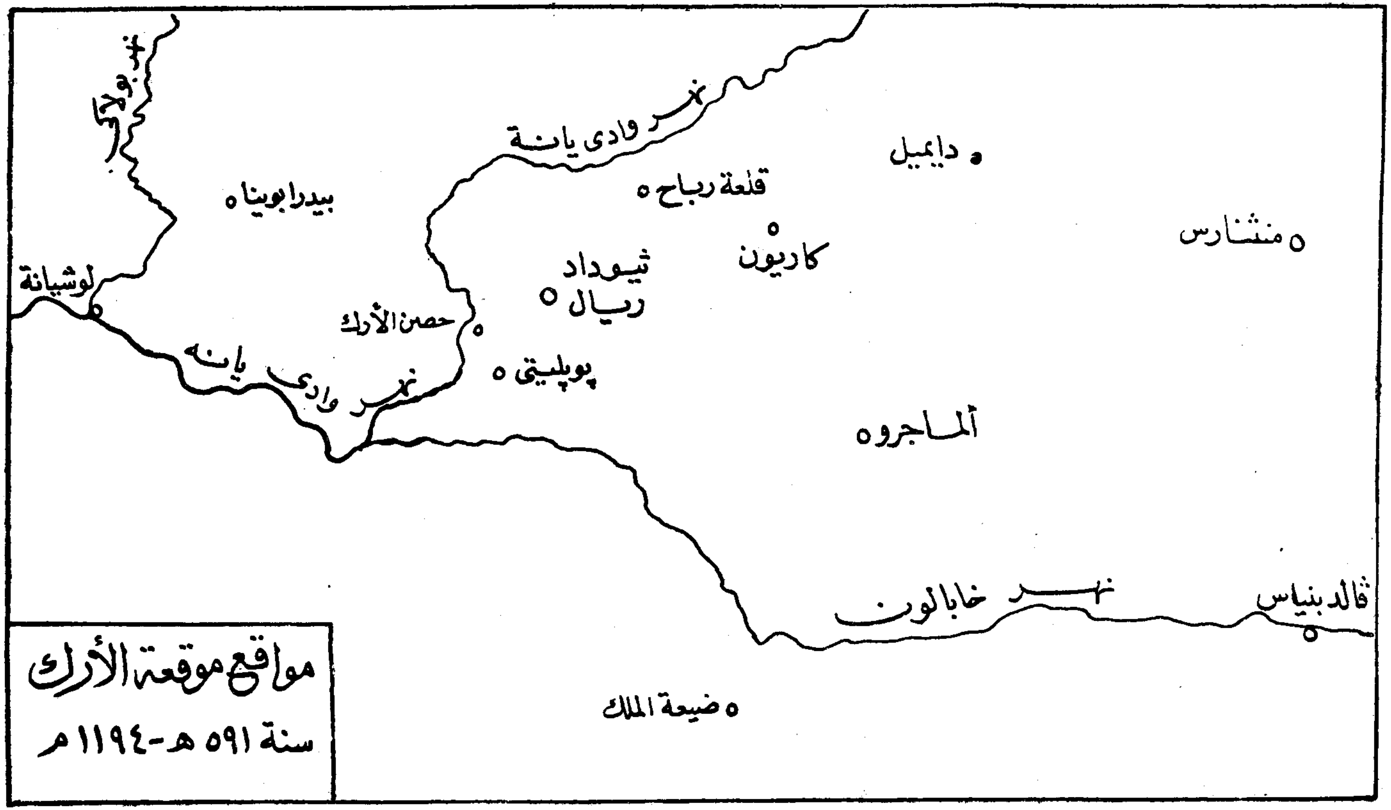


مواقع موقعة الأرك
سنة ٥٩١ هـ-١١٩٤م

الموحدى وقواده فى ذلك اللقاء الهام ، فيقول لنا إن الخليفة جلس فى يوم السبت الخامس من شعبان فى قبته الحمراء واستدعى الشيخ أبا يحيى بن أبى محمد بن أبى حفص ، وهو حفيد الزعيم عمر بن أبى حفص الهنتاتى صاحب المهدى ، وكان من أكبر وزرائه ، فولاه قيادة الجيش العامة ، وقدم ابن صناديد على عساكر الأندلس وحشودها ، وجبرمور بن رياح على جميع قبائل العرب ، ومنديل المغراوى على قبائل مغراوة ، وعقد لمحيو بن أبى بكر بن حمامة على جميع قبائل بنى مرين ، ولجابر بن يوسف على قبائل عبد الواد ، وعقد لعبد القوى التجينى على قبائل تجين ، ولتجليدر على قبائل هسكورة وسائر المصامدة ، ولمحمد بن منغفاد على قبائل غمارة . وعقد أخيراً للحاج أبى خزر يخلف الأوربى على سائر المتطوعة ، وذلك على أن تكون هذه القيادات جميعها تحت القيادة العامة لأبى يحيى بن أبى حفص . واختص أمير المؤمنين من جانبه بكافة عسكر الموحدين والعبيد(١) .

وكان الخليفة المنصور ، قد قرر مع قادته أن تبدأ الجيوش الموحدية بالزحف على محلة النصارى . وتحركت الجيوش الموحدية بالفعل خلال السهل المنبسط أمام ربوة الأرك ، حتى صارت على مقربة منها ، ونزلت فى السهل المنخفض الممتد أمامها ، وهى تشرف عليه بمنعتها ووعورتها من عل ، وكان ذلك فى يوم الثلاثاء الثامن من شعبان ( ١٧ يوليه ) فلما رأى النصارى اقتراب الموحدين خرجت جملة من قواتهم ، وتقدمت قليلا من مراكز الجيش الموحدى ، ولكن الموحدين لم يفعلوا شيئاً للاشتباك مع العدو . ذلك أن الخليفة المنصور لم يشأ أن يخوض الموحدون المعركة فى ذلك اليوم ، بل قرر خوضها فى اليوم التالى . فلما رأى النصارى المتقدمون جمود الموحدين ، عادوا إلى محلتهم فوق ربوة الأرك وقد أثقلتهم أسلحتهم(٢) .

وفى اليوم التالى . وهو يوم الأربعاء التاسع من شعبان سنة ٥٩١ هـ ( ١٨ يوليه سنة ١١٩٥ م ) كانت الجيوش الموحدية كلها على قدم الأهبة ، وقد « عبئت تعبئة حرب » ، وعقدت الرايات لسائر القبائل والطوائف ، وجعل القائد العام أبو يحيى عسكر الأندلس فى الميمنة ، وزناتة وسائر القبائل المغربية والعرب فى

---

( ١ ) روض القرطاس ص ١٤٨ .

( ٢ ) الرواية النصرانية اللاتينية **Chronique latine des Rois de Castille** وقد أوردها الأستاذ هويثى فى بحثه عن معركة الأرك **Campana de Alarcos** المنشور بمجلة المعهد المصرى بمدريد **Vol. II. p. 62-67** ، ثم فى كتابه **Grandes Batallas de la Reconquista, p. 152.**

الميسرة ، وجعل المتطوعة والرماة والأغزاز فى المقدمة ، واحتل هو القلب مع قومه من قبيلة هنتاتة . وبقى المنصور فى خاصته ، وفى جند الموحدين والعبيد فى المؤخرة ، على أهبة للتدخل فى اللحظة الحاسمة[١] .

ووقعت قبيل المعركة بقليل فى المعسكر الموحدى ، مناظر مؤثرة ، حيث قام القائد العام الوزير أبو يحيى وصاح بصوت جهورى يقول للناس : إن أمير المؤمنين يطلب إليهم أن يغفروا له ، فإن هذا موضع غفران ، وأن يتغافروا فيما بينهم ، وأن يطيبوا نفوسهم ، وأن يخلصوا نياتهم لله ، فبكى الناس ، وصاحوا من جانبهم بطلب الغفران من الخليفة ، وأنهم بيمن نيته وصدق طويته ، يرجون الخير من الرحمن . ثم قام القاضى أبو على بن حجاج ، وألقى خطبة بليغة تفيض حماسة وبياناً ، فى الحث على الجهاد وفضله ومكانته وقدره عند الله ، وكان لهذه الحركة آثارها فى إنعاش النفوس وتنبيه الضمائر ، وتنقية السرائر ، وإذكاء العزائم[٢] .

ويجدر بنا قبل أن نصف أدوار المعركة ، أن نصف البقعة التاريخية ، التى وقعت فيها ، وقد أتيح لنا زيارتها ودراستها[٣] .

إن ميدان معركة الأرك Alarcos ، مازال معروفاً بمواقعه وحدوده ، تعينه وتحدده ، لا الرواية المتواترة فقط ، ولكن تحدده كذلك آثار حصن الأرك الشهير ، الذى عرفت باسمه المعركة ، والذى تقوم اليوم مكانه ، فوق نفس الربوة التى كان يحتلها ، كنيسة ، أو معبد يسمى «كنيسة القديسة مريم صاحبة الأرك» Sta Maria de Alarcos .

ويقع هذا المكان على قيد نحو ستة كيلومترات من غربى مدينة « ثيوداد ريال» الحديثة ، وشمال غربى بلدة « بوبليّى » الصغيرة ، وتفضى إليه طريق جبلية معبدة ، تخترق فى البداية بسيطاً أخضر من الأرض ، يفضى غير بعيد إلى مجموعة من الهضاب الصغيرة . وعلى نحو أربعة كيلومترات من هذه الهضاب ، تقع ربوة الأرك Alarcos التى تقوم عليها اليوم ، فوق أنقاض الحصن القديم كنيسة القديسة مريم ، أو سيدة الأرك ، وهذه الكنيسة أو المعبد ، حسبما يسمى فى تلك الناحية Ermita

---

(١) روض القرطاس ص ١٤٨ و ١٤٩ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٣٧ .

(٢) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٩٤ .

(٣) كان ذلك فى اليوم الثالث والعشرين من أبريل سنة ١٩٦٣ .

عبارة عن بناء قديم ، يقوم وسط فناء شاسع ، تحيط به أسوار قديمة . وتوجد بداخله كنيسة بها صفان من العقود الكبيرة ، يحتوى كل منهما على أربعة عقود ، وهى بسيطة جداً ، وليست بها أية مظاهر فخمة .

وأما آثار حصن الأرك القديم ، فتبدو أولا فى مصطبة صخرية كبيرة تمتد خارج سور المعبد على حافة الربوة ، وتدور حولها ، وهو ما يدل على أن المعبد قد بنى فوق موقع الحصن القديم ، وتبدو ثانياً فى وجود عدة بقايا صغيرة من أسوار الحصن تقع فى غربيه . وظاهر من وجود الأحجار والأنقاض المتماثلة ، وامتدادها غرباً حتى قرب النهر أن بناء الحصن ، كان يمتد نحو ثلاثمائة متر ، كما أنه يوجد فى الناحية الخلفية ، من الربوة ، وهى تطل أيضاً على نهر وادى يانه ، آثار عقدين قديمين .

ويوجد عند نهاية الأنقاض غرباً ، كتلة كبيرة من الأحجار والصخور ، وتحتها أثر سرب قديم ، يقال إن الفرسان ، كانت تقود منه خيلها إلى النهر لتشرب من مائه . وأنقاض مصطبة الحصن التى سبق ذكرها ، تصل إلى هذه الكتلة من الأنقاض ، مما يدل على أن الحصن كان يمتد حتى ذلك المكان . كما أنه يبدو خلال الأنقاض الممتدة كثير من أسس الجدران القديمة .

وتشرف الربوة فى اتجاه الجنوب على واد عميق متدرج ، يصطلح على أنه المكان الذى وقعت فيه الموقعة . ويجرى نهر وادى يانه بحذاء هذا الوادى من شماله وغربه ، ويدور فى انحناءة كبيرة حول ربوة الأرك ، ويطلق اليوم على هذا الوادى الذى تغمره الخضرة اسم « محلة ديجو » Villa Diego .

ويبدو من أوصاف أدوار المعركة أن محلة الجيش القشتالى ، كانت تحتل مكاناً يتصل بمشارف ربوة الأرك ، على مقربة من الحصن ، ويمتد فى اتجاه قرية بوبليتى ، ويستند إلى الحصن ، وإلى نهر وادى يانه ، وأن المسلمين كانوا يحتلون البسيط الواقع قبالتهم فى أسفل الوادى ، وتستند محلتهم غرباً إلى يسار النهر .

وفى ضحى هذا اليوم — التاسع من شعبان سنة ٥٩١ هـ ( ١٨ يوليه سنة ١١٩٤م ) — نشبت المعركة المرتقبة . وكان القشتاليون حينما رأوا جيوش الموحدين تزحف نحو محلتهم ببطء ، وقد عبئت للهجوم أكمل تعبئة ، قد نزلوا من محلتهم فى صفوف كثيفة قاتمة ، أو حسبما تصفهم الرواية الإسلامية وهم « كالليل الدامس »

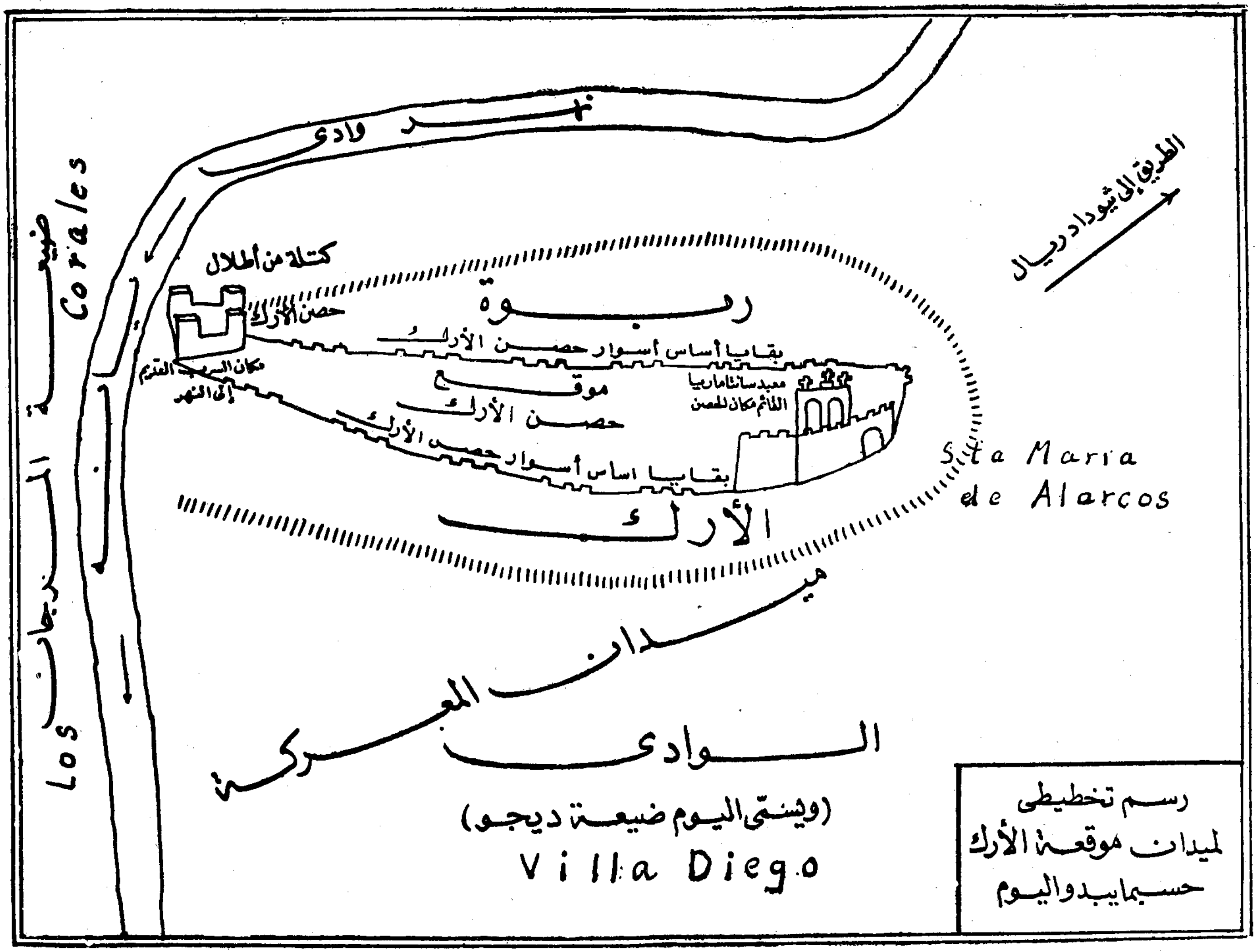
ضيعة المرجان
Los Corales
وادي نهر
كتلة من أطلال
حصن الأرك
مكان السرب القديم إلى النهر
ربوة
بقايا أساس أسوار حصن الأرك
موقع حصن الأرك
معبد سانتا ماريا القائم مكان الحصن
Sta Maria de Alarcos
الأرك
الطريق إلى ثيوداد ريال
ميدان المعركة
الوادي
(ويسمى اليوم ضيعة ديجو)
Villa Diego
رسم تخطيطي لميدان موقعة الأرك حسبما يبدو اليوم

والبحر الزاخر ، أسراباً تتلو أسراباً وأمواجاً تعقب أمواجاً » . ويقدر صاحب روض القرطاس، من هبط فى هذه الدفعة الأولى من القشتاليين بنحو سبعة آلاف أو ثمانية آلاف فارس «كلهم قد احتجب بالحديد والبيضات والزرد » . ثم يتتبع حركات هذه القوة النصرانية المهاجمة ، فيقول إنها اندفعت حتى لطمت خيلها أطراف رماح المسلمين أوكادت ، ثم تقهقرت قليلا ؛ وعادت إلى الاقتراب من المسلمين ، ثم ارتدت وتهيأت للهجوم الفعلى ، وفى أثناء ذلك كان الشيخ أبو يحيي والقائد ابن صناديد ، يحث كل منهما الجند على الثبات وإخلاص النيات والأعمال . وأخيراً تركز هجوم القشتاليين على قوات القلب التى يقودها القائد العام أبو يحيي ، معتقدين أنه هو الجناح الذى يقوده الخليفة ، وكان المنصور قد أمر بالفعل بأن ترفع الأعلام الخليفية على القلب ، فقاتل أبو يحيي وجنوده أشد قتال ، ولكن الصدمة كانت عنيفة ، فقتل أبو يحيي ، وقتل معه جماعة من من هنتاتة، والمطوعة وغيرهم . وعندئذ تقدمت قبائل العرب والمطوعة والأغزاز والرماة ، وأحاطوا بالنصارى من كل جانب ، ودفع القائد ابن صناديد بجيوش الأندلس إلى المعركة وزحفت معه قبائل زناتة وسائر قبائل البربر ، واندفعت الجيوش الموحدية بجملتها نحو محلة القشتاليين ، واشتد القتال بين الفريقين ، وسالت الدماء بغزارة ، وكثر القتل فى مقدمة القشتاليين ، التى اضطلعت بالهجمة الأولى ، واستمر القتال على هذا النحو بعنف وشدة ، حتى اضطر القشتاليون إلى التقهقر والفرار نحو الربوة التى تحتلها محلتهم ، وبدت بوادر الهزيمة على القشتاليين[1].

ولكن صاحب البيان المغرب ، وهو فيما يرجح ينقل عن رواية ابن صاحب الصلاة وهى رواية معاصرة ، يقدم إلينا عن المعركة صورة أخرى . فيقول لنا إن هجوم القشتاليين تركز أولا على ميسرة الجيوش الموحدية ، وأنه أسفر عن تقهقر جماعة من المطوعة وأخلاط السوقة ، فلما رأى المنصور ذلك ، نهض بنفسه ، وترك ساقته على حالها ، وتقدم منفرداً ، وهو يحث الجند على الثبات والهجوم على العدو، فكان لحركته أعمق وقع فى نفوس الجند، فاضطرمت هممهم وعزائمهم، واندفعت سائر الحشود والقبائل نحو القشتاليين بشدة ، والتحم الجيشان ، واشتد القتال ، وكثر القتل فى صفوف القشتاليين ، واضطروا فى النهاية إلى التقهقر والفرار . ودامت المعركة من ضحى اليوم حتى غروب الشمس ، وأسفرت عن قتل جموع

---

(١) روض القرطاس ص ١٤٩ — ١٥٠ .

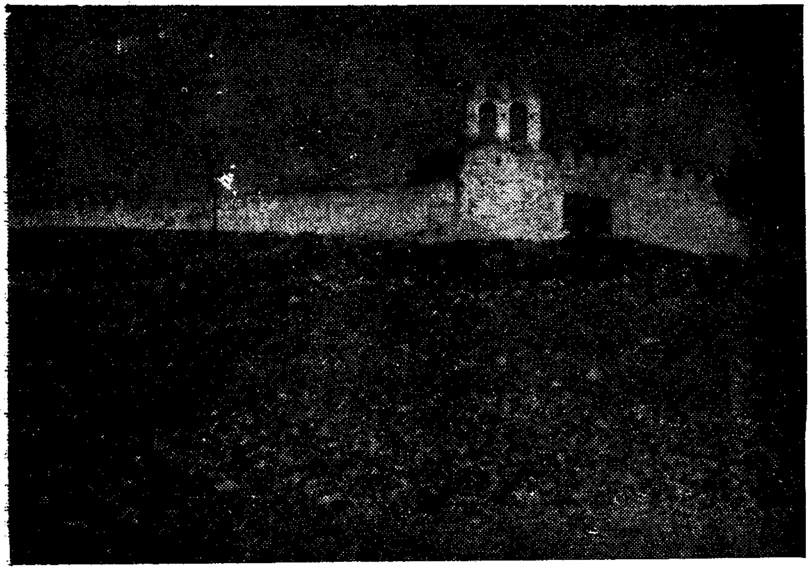

كنيسة الأرك ( سانتا ماريا دى ألاركوس ) التى أقيمت على أنقاض حصن الأرك

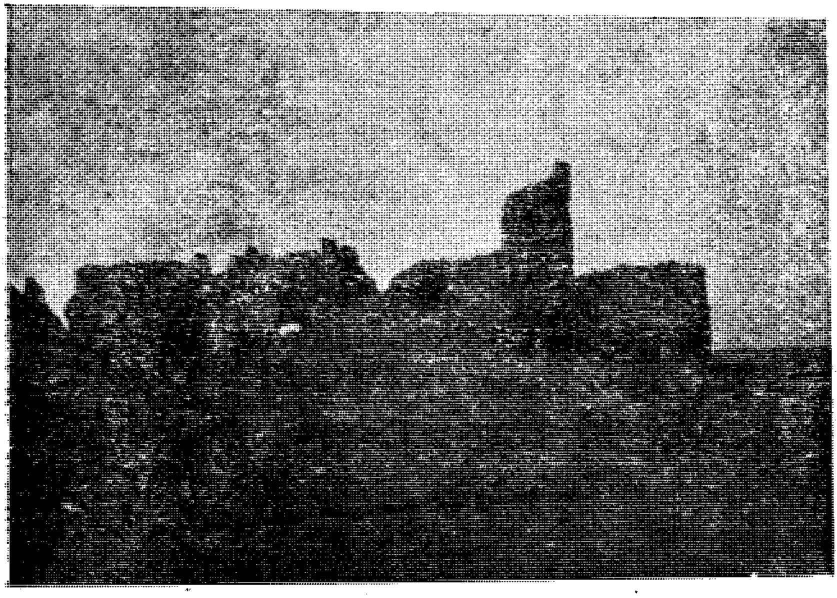

مجموعة أطلال قلعة رباح

عظيمة من النصارى ، واستطاع ملك قشتالة أن يفر فى نحو عشرين فارساً من من أصحابه ، فسار تحت جنح الليل صوب طليطلة لايلوى على شىء ، واعتصمت معظم فلول النصارى بحصن الأرك[١] .

وتفصل لنا الرواية الإسلامية ما حدث بعد هزيمة القشتاليين فى الجولة الأولى . ويبدو من أقوال صاحب روض القرطاس ، أن ألفونسو الثامن ملك قشتالة ، كان عندئذ معتصما مع باقى قواته بربوة الأرك . فلما ارتد القشتاليون ، وفروا نحو الربوة يحاولون الاعتصام بها ، حالت بينهم القوات الموحدية ، فارتدوا ثانية نحو السهل ، فحملت عليهم العرب والمطوعة وهنتاتة والأغزاز والرماة ، وحصدوهم حصداً ، وأفنوهم حسبما تقول الرواية عن آخرهم . ولما علم أمير المؤمنين بما حدث ، ضربت الطبول ونشرت الرايات ، وفى مقدمتها اللواء الخليفى الأبيض ، وزحف المنصور فى القوات الموحدية نحو القشتاليين ، تؤيده سائر الحشود والقبائل . وكان ملك قشتالة حينما رأى ما حل بقواته ، وسمع ضرب الطبول ، وعجيج الأبواق ، قد اعتزم أن يلقى ضد الموحدين بما تبقى من قواته ، ولكن القشتاليين حينما رأوا كثافة الجيوش الموحدية ، وروعة هجومها واضطرامها عولوا على الفرار ، فتلاحقت بهم فرسان الموحدين ، تحصدهم قتلا وأسرا ، وأحاط المسلمون بحصن الأرك ، يظنون أن ألفونسو الثامن قد اعتصم به ، ولكن تبين أنه قد لاذ بالفرار من أحد أبوابه الخلفية ، فدخل المسلمون الحصن عنوة ، وأضرموا النار فى أبوابه ، واحتووا على جميع مافيه ، ومافى محلة النصارى ، من الذخائر والأسلاب والسلاح والمتاع والدواب والنساء[٢] .

وعلى أى حال ، فإنه يبدو من أقوال الرواية الإسلامية ، أن القشتاليين هم الذين بدأوا بالهجوم على الموحدين . وتؤيدها فى ذلك الرواية النصرانية . وتقدم إلينا الرواية النصرانية عن المعركة ، وصفاً موجزاً يختلف قليلا عما تقوله الرواية الإسلامية ، وهو أنه لما رأى القشتاليون الموحدين ، يتقدمون من محلتهم فى الصباح الباكر من ذلك اليوم ، حدثت ضجة فى معسكر النصارى ، وخرج القشتاليون فى قليل من النظام وتقدموا ، ثم اشتبكوا مع المسلمين . وفى الصدمة الأولى سقط عدة من أكابر النصارى ، واشتد القتال بين الفريقين ، وسالت الدماء بغزارة .

---

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٩٤ و ١٩٥ .
(٢) روض القرطاس ص ١٥٠ .

ولما رأى ملك قشتالة رجاله يسقطون فى المعركة على هذا النحو تقدم بنفسه إلى الأمام ، وأخذ يثخن مع طائفة من رجاله فى المسلمين يميناً وشمالا . ولكن رجاله رأوا أنه يستحيل عليهم أن يقاوموا ضغط الحشود الموحدية ، خصوصاً بعد أن سقط كثير من النصارى ، وقد استطالت المعركة إلى منتصف النهار ، فتضرعوا إليه أن يحتفظ بحياته ، خصوصاً وأنه يبدو أن الله قد تخلى عن النصارى . ولكنه أبى أن يصغى إليهم ، فجذبوه من المعركة رغم إرادته ، وارتد نحو طليطلة فى نفر من الفرسان وقلوبهم تنفطر لما حدث حزناً وأسى[١] .

وتتفق الروايتان الإسلامية والنصرانية على أنه عقب الهزيمة ، لجأت فلول القشتاليين إلى حصن الأرك بقيادة دون ديجولوپث دى بسكاية . وتقدر الرواية الإسلامية هذه الفلول بخمسة آلاف ، فطوق الموحدون الحصن ، وكان الخليفة المنصور يعتقد أن ملك قشتالة قد لجأ إليه ، ولكنه تأكد من أقوال حليفه وخديمه القشتالى دون پيدرو فرنانديث دى كاسترو الموجود بمحلته ، أن الملك قد لاذ بالفرار إلى طليطلة ، فعندئذ طالب المنصور بتسليم الحصن فى الحال ، وأن يُعطى اثنى عشر فارساً كرهينة ، حتى يحضر دون ديجو إليه بمراكش ويسلم نفسه أسيراً ، وإلا فإنه سوف يقتحم الحصن ويقتل كل من فيه . وتقول لنا الرواية الإسلامية من جهة أخرى ، إن الاتفاق تم بواسطة دون پيدرو فرنانديث ( وتسميه ببطره ابن فراندس ) على أن يفرج عن خمسة آلاف من أسرى المسلمين مقابل إطلاق القشتاليين المحصورين بالحصن ، وأن المنصور ارتضى هذا الاتفاق ، حرصاً على استنقاذ أسرى المسلمين ، وأخذت رهائن وُجهت إلى إشبيلية . وهكذا استطاع دون ديجولوپث أن يخرج من الحصن ، وأن يلحق بمليكه فى طليطلة[٢] .

ولكن صاحب روض القرطاس يقدم إلينا عن تسليم حصن الأرك رواية بطبعها شىء من الخيال ، وهو أن الموحدين أخذوا فى حصن الأرك أربعة وعشرين ألف أسير من زعماء الروم ، فرأى الخليفة المنصور أن يمن عليهم بالإفراج ، فأطلق سراحهم وأقالهم من الأسر بعد أن ملكهم ، وأن هذا التصرف من جانبه ،

---

( ١ ) الرواية النصرانية اللاتينية **Chronique Latine des Rois de Castille** التى سبقت الإشارة اليها .

( ٢ ) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٩٥ و ١٩٦ . والرواية النصرانية اللاتينية التى سبقت الإشارة إليها . وينقل صاحب الحجب المستورة هذه الرواية ( مخطوط المتحف البريطانى ص ١٥٤ ) .

قد عز على الموحدين وعلى كافة المسلمين ، واعتبروه سقطة من سقطات الملوك[١]

تلك هي تفاصيل موقعة الأرك العظيمة التي أحرز فيها الموحدون أعظم نصر ، حققوه خلال حكمهم الطويل لشبه الجزيرة الأندلسية . على أن الرواية الإسلامية تقدم إلينا عن نتائج المعركة بعض الأقوال والأرقام المغرقة ، وهي قبل ذلك تقدم إلينا عن عدد الجيش القشتالي أرقاماً لا يسيغها العقل لكي تتفق مع هذه النتائج . وهي لا تقدم إلينا شيئاً واضحاً عن عدد الجيش الموحدي ، وتكتفي بأن تتحدث عن عظمة حشوده ، وبأن تصفه بأنه جيش يضيق له الفضاء[٢] . ولكنها تقول لنا إن جيش القشتاليين كان يزيد على ثلاثمائة ألف ما بين فارس وراجل[٣]. ويقول الضبي إنه كان ينيف على خمسة وعشرين ألف فارس ومائتي ألف راجل[٤]. أما عن خسائر النصارى ، فيقول لنا صاحب روض القرطاس ، إنه قتل في المعركة من الكفرة ألوف لا تعد ولا تحصى. ويقول لنا ابن الأثير ويتابعه النويري، إن عدد القتلى من الفرنج بلغ مائة ألف وستة وأربعين ألفاً، وبلغ عدد الأسرى ثلاثة عشر ألفاً[٥]. بيد أنه توجد عن خسائر النصارى رواية أخرى أكثر اعتدالا ، هي رواية يوسف بن عمر ، مؤرخ الموحدين ، التي نقلها إلينا صاحب البيان المغرب ، وهو أنه قتل في المعركة من النصارى زهاء ثلاثين ألفاً[٦] . ويأخذ بهذه الرواية صاحب كتاب « الحجب المستورة » وهو يتابع في روايته رواية البيان المغرب مع تعديلات يسيرة[٧]. وأما عن خسائر المسلمين فيقول لنا ابن الأثير ، ويتابعه النويري ، إنه قتل من المسلمين نحو العشرين ألفاً ، وهي رواية تبدو معقولة وربما مبالغاً فيها بعض الشيء من حيث الكثرة[٨] . وتقول لنا بعض الروايات الأخرى إنه قتل من أعيان المسلمين نفر قلائل ، وإن عدد القتلى من المسلمين يبلغ نحو الخمسمائة وهو عدد ضئيل بالنسبة لاشتداد القتال، وطول أمد المعركة .

---

(١) روض القرطاس ص ١٥١ .

(٢) ابن الأثير ج ١٢ ص ٤٥ ، والنويري (طبعة جسبار ريميرو السالفة الذكر ج٨ ص ٢٧٤) .

(٣) روض القرطاس ص ١٤٩ .

(٤) بغية الملتمس ( المكتبة الأندلسية ) ج ٣ ص ٣٥ .

(٥) ابن الأثير ج ١٢ ص ٤٥ ، والنويري ، الطبعة المشار إليها ص ٢٧٤ .

(٦) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٩٥ .

(٧) كتاب الحجب المستورة في محاسن المقصورة ( مخطوط المتحف البريطاني ص ١٥٤ ) .

(٨) ابن الأثير ج ١٢ ص ٤٥ ، والنويري ( الطبعة السالفة الذكر ) ج٨ ص ٢٧٤ .

وعلى أى حال ، فإنه لايسعنا إلا أن نلاحظ أن الرواية الإسلامية هنا ، وكعادتها فى مثل هذه المواقع العظيمة الحاسمة ، التى تضطرم بين الإسلام والنصرانية ، تجنح إلى نوع من المبالغة والإغراق ، يمكن فهمه وتعليله وإن لم تمكن استساغته . ومن المحقق أن خسائر النصارى كانت فادحة فى مثل هذه المعركة التى بلغ فيها القتال أشده ، والتى ثقلت فيها وطأة المطاردة على الجيش المنهزم ، وأثخن الموحدون فى فلوله قتلا وأسرا ، ولكنها لايمكن أن تعدو بضع عشرات من الألوف . ومن ثم كان الرقم الذى يقدمه إلينا المؤرخ الموحدى المعاصروهو ثلاثون ألفاً ، يطبعه التعقل والاعتدال . ثم إن الرواية الإسلامية تقدم إلينا بعد ذلك عن الغنائم والأسلاب أرقاماً مدهشة . فيقول لنا ابن الاثير ، ويتابعه النويرى ، إن المسلمين حازوا من الخيام مائة وخمسين ألفاً ، ومن الخيل ستة وأربعين ألفاً ، ومن البغال مائة ألف ، ومن الحمير مائة ألف ، هذا غير مقادير لاتحصى من الأموال والتحف . وقسم الخليفة الغنائم بعد استبعاد الأخماس ، بين المسلمين وفقاً لأحكام الشريعة . وكان الخليفة فضلا عن ذلك ، قد نادى فى عسكره أن من غنم شيئاً فهو له سوى السلاح ، فحُصر ما حمل إليه منه ، فكان يزيد على سبعين ألف لباس(١) .

وثمة مسألة أخرى تميل الرواية الإسلامية إلى ذكرها بمناسبة وقيعة الأرك ، وهى المقارنة بين هذه الموقعة وبين موقعة الزلاّقة ، وذلك من حيث ظروفها ونتائجها . فهى تذكر كيف أن جنود الأندلس كانوا أول من أصيب من عسكر المسلمين فى الزلاقة ، وكيف كثر القتل فيهم لولا أن تداركتهم فى النهاية قوات ابن تاشفين المرابطية ، وهذا بخلاف ماحدث يوم الأرك حيث لقيت الجيوش الموحدية النصارى ، مجتمعة وفى جبهة واحدة ، ومن ثم فقد كانت موقعة الزلاقة « مقسومة الثقل ، مكدرة الصفو » ، ولكن موقعة الأرك جاءت « هنيئة الموقع عامة المسرة » . ثم هى ترى بحق أن غزوة الأرك ، كانت مثل الزلاقة من أيام الإسلام المشهورة ، وبها اعتز الإسلام وعلت كلمته ، بل ترى أنها كانت أعظم من موقعة الزلاقة ، وأنها أنست كل فتح تقدمها بالأندلس(٢) . على أن المقارنة

---

(١) ابن الأثير ج ١٢ ص ٤٥ ، والنويرى ( طبعة ريميرو المشار إليها ) ص ٢٧٤ ، ونفح الطيب ج ١ ص ٢٠٧ .

(٢) راجع البيان المغرب – القسم الثالث ص ١٩٦ ، وروض القرطاس ص ١٥١ .

لاتقف عند هذا الحد ، فقد رأينا فيما تقدم من حديثنا عن موقعة الزلاقة[١] ، كيف أن الرواية الإسلامية تحيطها بطائفة من الأساطير التى تسبغ عليها هالة من القدسية ، وكذلك فإن حديثها عن موقعة الأرك لايخلو من ذكر هذه الأساطير : وأسطع ما تقصه علينا فى ذلك هو حديث الحلم الذى يقال إن الخليفة يعقوب المنصور رآه قبل الموقعة ببضعة أيام ، فى ليلة الجمعة الرابع من شعبان ، واستبشر به ببلوغ النصر ، وهو أنه لبث طوال الليل راكعاً ساجداً مبتهلا ، وداعياً لتأييد المسلمين على أعدائهم ، فبينما هو راكع فى مصلاه إذ غلبه النوم ، فرأى كأن باباً قد فتح فى السماء ، ونزل منه فارس أبيض حسن الوجه ، وبيده راية خضراء منشورة ، قد سدت الأفق من عظمها ، فسلم عليه ، فقال له من أنت يرحمك الله ، فقال أنا ملك من السماء ، جئت لأبشرك بفتح من رب العالمين ، لك ولعصابتك المجاهدين الذين أتوا تحت رايتك . ثم أنشد هذا الفارس أبياتاً حفظها الخليفة وهى :

بشائر نصر الله جاءتك سافرة     لتعلم أن الله ينصر ناصره
فأبشر بنصر الله والفتح إنه     قريب وخيل الله لاشك ظافرة
فتفنى جيوش الروم بالسيف والقنا     وتخلى بلاداً لاترى بعد عامرة

وأن الخليفة نهض من نومه موقناً بالفتح والظفر[٢] . فهذا الحلم الذى تقصه الرواية الإسلامية بمناسبة معركة الأرك ، يذكرنا بالحلم الذى تذكره لمناسبة موقعة الزلاّقة وهو أن الفقيه الناسك أبا العباس بن رميلة القرطبى وكان بمحلة ابن عباد ، نهض فى جوف الليل ، قبيل نشوب المعركة فرحاً مسروراً ، وهو يقول إنه رأى النبى ، وإن النبى بشره بالفتح والشهادة[٣] . ثم تذكرنا كذلك بالحلم الذى تقول لنا إن ألفونسو السادس ملك قشتالة رآه قبيل معركة الزلاقة ، وخلاصته أنه رأى أنه يركب فيلا ، قد تدلى بجانبه طبل يحدث صوتاً مزعجاً كلما قرعه ، وأن فقيهاً من أهل طليطلة ، نبأه بأن هذا الحلم هو نذير هزيمته ، مشبهاً ذلك بما حدث عام الفيل من سحق أبرهة ، وقد كان يركب الفيل أيضاً . ثم يذكرنا كذلك ، بما تزعمه الرواية النصرانية من آن لآخر ، من أن الملوك النصارى ، كانوا متى اشتد القتال بينهم وبين المسلمين ، يرون ملاكاً يهبط من السماء وفى يده صليب أونحوذلك .

(١) راجع كتابى « دول الطوائف » ص ٣١٩ – ٣٢١ .
(٢) روض القرطاس ص ١٤٧ ، ١٤٨ .
(٣) الروض المعطار ص ٩١ .

والرواية سواء أكانت إسلامية أونصرانية تجنح إلى مثل هذه الأساطير ، بالأخص فى المواقع العظيمة الحاسمة بين الإسلام والنصرانية ، مثل الزلاقة ، والأرك وغيرهما ؛

على أن موقعة الأرك تختلف عن موقعة الزلاقة من بعض الوجوه الهامة . فقد كان المسلمون من أندلسيين ومرابطين يواجهون فى الزلاقة ، قوى اسبانيا النصرانية كلها ، ملتفة حول عميدها ألفونسو السادس . أما فى يوم الأرك فقد كانت الجبهة النصرانية ، مقتصرة على ملك قشتالة وقواته . وقد غادر ألفونسو الثامن طليطلة فى قواته ، حينما علم بزحف الموحدين نحو أراضى قشتالة ، ولم يرد أن ينتظر حليفه ملك ليون ، وكان قد وصل عندئذ بقواته إلى طلبيرة ، ولكنه لم يقدم على معاونة زميله ، لأنه أبى أن يعطيه بعض الحصون التى طلبها ، ثم انقلب بعد ذلك إلى خصومته ، ومحالفة الموحدين أعدائه . وكذلك لم ينتظر ألفونسو الثامن معاونة من ملك نافارا ، أومن ملك أراجون وذلك لوثوقه من رجحان قواته ، ويقينه ببلوغ النصر على أعدائه . وقد انتصر عليهم من قبل مراراً فى معارك محلية . ومن الغريب المدهش ما تقصه علينا الرواية الإسلامية من دلائل يقين ملك قشتالة بإحراز النصر على أعدائه ، وهو أنه كان يصطحب معه حين مسيره لقتال الموحدين جماعات من التجار اليهود ، جاءوا لشراء أسرى المسلمين ، وأسلابهم ، وأعدوا لذلك الأموال اللازمة(١).

وتختلف كذلك موقعة الأرك فى نتائجها عن موقعة الزلاقة . ذلك أن موقعة الزلاقة بالرغم من كونها قد صدعت من قوى مملكة قشتالة ، وقضت موقتاً على الخطر الذى كان يهدد دول الطوائف ، فإنها اقتصرت على تحقيق النصر للمسلمين ، ولم يُتبع يوسف بن تاشفين نصره فى الموقعة ، بأية محاولة أخرى لاسترداد طليطلة أو غزو أراضى قشتالة . هذا فى حين أن المنصور بث جيوشه عقب النصر مباشرة فى أراضى قلعة رباح فاستولت على عدة حصون . ثم إنه لم تمض بضعة أشهر على معركة الأرك ، حتى خرج المنصور فى قواته ثانية لغزو أراضى قشتالة ، واخترقها حتى شمالى طليطلة ، واستولى على طائفة من المواقع والحصون حسبما نفصل بعد .

ولقد كان انتصار الموحدين فى معركة الأرك ، يرجع فضلا عن تفوقهم العددى ، إلى عدة أسباب ، روعى تحقيقها لأول مرة فى الغزوات الموحدية

(١) بغية الملتمس ( المكتبة الأندلسية ) ج ٣ ص ٣٥ .

الكبرى ، وأولها وأهمها العناية بالمحافظة على نظام الجيش ، وتوفير تموينه ومؤنه بصورة مؤكدة ، وتقسيم حشوده ، وتنظيم قياداته ، وتعيين قائد عام يشرف على هذه القيادات ، واعتماد الخليفة على مشورة قواده ، ثم مراعاة الحزم والسرعة فى تحرك الجيش ، وإعداده لضرب العدو على الفور . فهذه المميزات التى روعى تحقيقها فى الجيش الموحدى ، كانت كفيلة بأن تحقق له الظفر فى معركة الأرك ، وأن تجنبه تلك المفاجآت السيئة ، التى أصيب بها فى غزوة وبذة ، ثم بعد ذلك فى نكبة شنترين[١] .

— ٢ —

ماكادت تنتهى معركة الأرك العظيمة ، حتى بث المنصور سريات من جنده فى أراضى قلعة رباح ، فاستولت على عدة من حصون العدو فى هذه المنطقة ، ثم هاجم الموحدون قلعة رباح ذاتها ، واقتحموها بعد قتال عنيف ، وانتزعوها من أيدى فرسان جمعية قلعة رباح المتولين للدفاع عنها ، وقتل أثناء المعركة أستاذ الجماعة نونيو دى فوينتس . وغادر الفرسان القلعة ، ولجأوا إلى قلعة شلبطرّة القريبة منها . وهكذا استرد المسلمون هذه القلعة المنيعة ، بعد أن لبثت فى حوزة النصارى منذ سقوطها فى أيديهم فى سنة ١١٤٧ م ، زهاء نصف قرن . وأمر المنصور بتطهير جامعها الذى كان قد حول إلى كنيسة ، وقدم على حاميتها يوسف بن قادس[٢].

نقول ، وقد أتيح لنا أن نزور أطلال قلعة رباح القديمة[٣] هذه ، وأن نشهد بقايا هذه القلعة المنيعة ، التى لبثت دهراً من حصون الأندلس الأمامية ، والتى لعبت دوراً كبيراً فى الصراع بين المسلمين والنصارى . وتقع هذه

---

(١) راجع فى معركة الأرك ، روض القرطاس ص ١٤٥ – ١٥١ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ١٩٣ – ١٩٦ ، وابن الأثير ج ١٢ ص ٤٤ و ٤٥ ، والنويرى (طبعة جسبار ريميرو) ص ٢٧٤ و ٢٧٥ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤٢٩ و ٤٣٠ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٥ ، والمعجب للمراكشى ص ١٥٩ و ١٦٠ ، ورفع الحجب المستورة فى محاسن المقصورة (مخطوط المتحف البريطانى ج ٢ ص ١٥٢ – ١٥٦ ) . ونشره الأستاذ هويثى ضمن مقاله المنشور بمجلة المعهد المصرى بمدريد ج ٢ ص ٥٧ – ٦١ وراجع أيضاً :

**H. Miranda : Las Grandes Batallas de la Reconquista , p. 137-169**

(٢) الروض المعطار ص ١٦٣ .

(٣) وهى بالإسبانية **Calatrava la Vieja** .

الأطلال على قيد خمسة عشر كيلومتراً من مدينة ثيوداد ريال ، وعلى قيد نحو سبعة كيلومترات من ضاحيتها كريون ، وهى عبارة عن مجموعة ضخمة من الأطلال الدارسة ، تقع فوق ربوة قليلة الارتفاع ، وسط بسيط كبير تظلله الجبال الشاهقة ، ويستند من الشمال إلى نهر وادى يانه ، وتنقسم هذه الأطلال إلى مجموعتين ، فى إحداهما وهى اليمنى ، يوجد جدار برج عال ، ومن تحته عضادة تظلل عقداً كبيراً كاملا ، وفى الوسط يقوم جدار ضخم من عقد سابق . والمجموعة الأخرى ، يفصلها عن المجموعة الأولى فراغ كبير تتخلله الأنقاض والخرائب ، يبلغ طوله نحو ثمانين متراً ، وهى عبارة عن كتلة كبيرة ، يبدو أنها كانت قاعدة لعدة أبراج ضخمة . وتمتد الأطلال من الناحية الأخرى إلى مدى يبلغ نحو مائة وخمسين متراً ، ويغمر هذه الأطلال الضخمة العالية ، والمكان كله ، جو من الوحشة والرهبة انقبضت له نفسى ، وأنا أطوف حول المكان منفرداً ، بين الأشواك والأدغال البرية ، تحت أشعة الشمس الساطعة ، وعواء الكلاب المتوحشة ، ونعيق الغربان والنسور الصغيرة ، التى تعمر المكان ، يزعجنى ، وينذرنى بسرعة الرحيل .

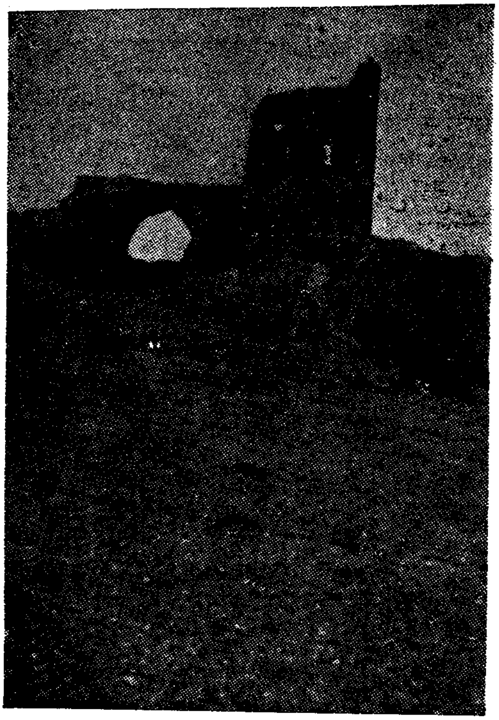

جانب من أطلال قلعة رباح

ويقول لنا صاحب روض القرطاس ، إن المنصور لم يكتف بذلك ، بل سار مخترقاً أراضى قشتالة يثخن فيها قتلا وأسراً وسبياً حتى وصل إلى جبل سليمان(١) على مقربة من قلعة هنارس شمالى طليطلة . بيد أنه لا يوجد ما يؤيد هذه

(١) وهو بالإسبانية Cuesta de Zulema « مرتفع سليمان » .

الرواية . والظاهر أن صاحب روض القرطاس يشير بذلك إلى غزوة المنصور التالية لأراضى قشتالة بعد ذلك بعامين ، وهى غزوة سوف نتحدث عنها فيما بعد[1].

وبعد أن أخرج المنصور خمس الغنائم ، وقسم ما فيها على المجاهدين، سار فى جيوشه المظفرة ميمماً شطر إشبيلية ، وقد محا بهذا النصر الباهر ما لحق سمعة الحراب الموحدية فى شبه الجزيرة ، عقب نكبة شنترين من الانتكاس والتصدع ، فوصل إليها فى يوم الثلاثاء السابع والعشرين من شعبان سنة ٥٩١ هـ ( ٦ أغسطس سنة ١١٩٥ م ) ، وأقبلت إليه الوفود من كل فج تزجى إليه تهانى النصر . ثم أمر أن يكتب بالفتح إلى سائر جهات الأندلس والمغرب. وطلب إلى أبى الفضل بن طاهر ابن محشرة أن يتوخى فى كتب الفتح غاية الإيجاز ، وأن يكتبها على مثل كتب الصحابة فى فتوحهم ، فصدع أبو طاهر بالأمر . ورفع الشعراء قصائدهم إلى الخليفة كالعادة ، ونظم أبو العباس الجراوى شاعر البلاط الموحدى ، فى الفتح قصيدة جاء فيها :

هو الفتح أعيى وصفه النظم والنثرا ... وعمت جميع المسلمين به البشرى
وأنجد فى الدنيا وغار حديثه ... فراقت به حسناً وطابت به نشرا
لقد أورد الأذفونش شيعته الردى ... وساقهم جهلا إلى البطشة الكبرى
حكى فعل إبليس بأصحابه الألى ... تبرأ منهم حين أوردهم بدرا
رأى الموت للأبطال حوليه ينتقى ... فطار إلى أقصى مصارعه ذعرا
ألوف غدت مأهولة بهم الفلا ... وأمست خلاء منهم دورهم قفرا
ودارت رحى الهيجا عليهم فأصبحوا ... هشيما طحينا فى مهب الصبا يذرا

وأنشد الشاعر الأندلسى المرسى ، على بن حزمون بين يدى الخليفة قصيدة ، وقعت منه أجمل وقع ، وهذا بعض ما جاء فيها :

حيتك معطرة النفس ... نفحات الفتح بأندلس
فذر الكفار ومأتمهم ... إن الإسلام لفى عرس
أإمام الحق وناصره ... طهرت الأرض من الدنس
وملأت قلوب الناس هدى ... فدنا التوفيق لملتمس
ورفعت منار الدين على ... عُمُد شُمٍّ وعلى أسس

---

(١) راجع روض القرطاس ص ١٥١ .

وصدعت رداء الكفر كما | صدع الديجــور سنا قبس
لاقيت جمـــوعهم فغدوا | فرسا فى قبضة مفترس
جاءوك تضيق الأرض بهم | عدداً لم يحص ولم يقس
ومضيت لأمر الله على | ثقة بالله ولم تخس
فأناخ الموت كلاكلـــه | بظباك على بشر رجس
وتساوى القـــاع بهامهم | المرفض مع الحدب والضرس
فأولئك حزب الكفر ألا | إن الكفار لفى نكس(١)

وأمر المنصور بتسريح الحشود والقبائل وسائر الجنود ، على أن يكونوا على أهبة للاستعداد للجهاد فى أية لحظة . وقضى فصل الشتاء بإشبيلية ، وانتقل إلى حصن الفرج ، الواقع جنوب غربى المدينة على الضفة الأخرى من النهر الأعظم ( الوادى الكبير ) وهو الحصن ، الذى أمر بإنشائه قبل ذلك بقليل ، وكان يحبه ويؤثر الإقامة فيه ، وأمر باستكمال غروس بستانه ، وإنشاء النواعير على شاطئ النهر تحت الحصن لربه ، كما أمر بإصلاح المسجد الجامع ، واستكمال بناء صومعته ، وهو الجامع الذى كان قد أنشأه أبوه ، وأمر بإنشاء صومعته قبيل وفاته بقليل . ولما انتهى الشتاء وأقبل الربيع ، أمر المنصور باستئناف الحركة والاستعداد لمعاودة الجهاد ، واستنفار مختلف الحشود من منازلها ، فلما تم وصول مختلف الطوائف وحشدها ، أمر الخليفة بتمييز الجيوش وتنظيمها ، واستعدادها لاستئناف الغزو .

على أن المنصور ، قبل أن يبدأ الحركة ، رأى أن يستشير الزعماء والقادة فى أمر توجيه الغزو ، واختيار المنطقة الملائمة فى أراضى النصارى لإجرائه . وفى أثناء ذلك تردد رسل ملك قشتالة فى طلب المهادنة وعقد السلم ، فرفض المنصور(٢) ، واستقر الرأى على أن توجه الغزوة إلى ما تسميه الرواية الإسلامية « ببلاد الحوف » أعنى منطقة إسترمادورة ، وذلك لاسترداد ما انتزعه النصارى من قواعد هذه المنطقة . وخرج المنصور من إشبيلية فى قواته فى منتصف جمادى الأولى سنة ٥٩٢(٣) ( منتصف أبريل سنة ١١٩٦ م ) ، واتجه شمالا إلى حصن منتانجش(٤) .

---

( ١ ) راجع هذه القصيدة بأكملها فى المعجب ص ١٦٥ — ١٦٧ .

( ٢ ) الرسالة الخامسة والثلاثون من رسائل موحدية ( ص ٢٣١ ) .

( ٣ ) ذكر صاحب البيان المغرب أنه منتصف رجب . ولكن هذا التاريخ يتعارض مع سياق الحوادث ومع التواريخ التى توردها الرواية النصرانية .

( ٤ ) ورد اسمه فى الرسالة الموحدية الخامسة والثلاثين الخاصة بهذه الغزوة (منت أنتش ) ص ٢٣١

وقد كان حسبما أشرنا إليه من قبل من أمنع حصون منطقة بطليوس ، فتقدمت لمهاجمته قوة من الأندلسيين ، فلما رأت الحامية القشتالية مقدم الجيوش الموحدية الزاخرة ، طالبت بالأمان والتسليم ، فأجيبوا إلى ما طلبوا ، وأمر قائد الجيوش الأندلسية أبو عبد الله بن صناديد ، بتوصيلهم إلى المنطقة الآمنة ، ولكن حدث حينما بدأوا السير أن هاجمتهم جماعة من « أوباش العرب » وسبت من كان معهم من النساء والأطفال ، فغضب الخليفة لهذا الاجترَاء والإخلال بالعهود المقطوعة، وأمر بسجن من عثر عليه من المعتدين، ورد النساء والأطفال إلى ذويهم، وأوصل الجند القشتاليين آمنين إلى أوائل بلادهم .

وقصدت القوات الموحدية بعد ذلك إلى مدينة تَرجالُه « قاعدة الثغر الشمالى » الواقعة شمال شرقى منتانجش ، وشرقى مدينة قاصرش ، وكان سكانها النصارى قد أخذوا فى إخلائها ، حينما شعروا باقتراب الموحدين ، فاستولى الموحدون على المدينة ، وطاردوا سكانها وأفنوا الكثير منهم ، وسبوا الكثيرين من نسائهم . واستولوا كذلك على بلدة « سانتاكروث »[١] القريبة منها ، وكانت حاميتها قد لاذت بالفرار. ثم عبر الموحدون نهرالتاجُه ، واتجهوا شمالا نحو مدينة « بلاسنثيا » وهى التى تسميها رسالة الفتح الموحدية ( ابلتانسية ) وكان ألفونسو الثامن ملك قشتالة ، قد انفق بضع سنين فى إنشائها وتحصينها ، ونقل إليها كثيراً من أهل الشمال ، وكان أهلها المدنيون قد غادروها ، وبقيت حاميتها فى قلعتها ، فاستولى الموحدون على المدينة ودمروها، ثم هاجموا القلعة وضربوها بالنبال ضرباً شديداً، حتى اضطرت الحامية بعد ليلة واحدة فقط من الاعتصام إلى التسليم ، واعتبر أفرادها أسرى بحكم مقاومتهم[٢]. ويقول صاحب الروض المعطار ، وهو يسمى ( بلاسنثيا ) بلنسية ، إن الموحدين فتحوها عنوة ، وقبضوا على قائدها ، مع مائة وخمسين من أعيان النصارى ، وجهوا إلى خدمة الجامع الكبير بسلا مع أسارى معركة الأرك[٣]. وتقول الرواية النصرانية إن الموحدين بالعكس قتلوا الأسقف والرهبان وكثيراً من النصارى .

---

( ١ ) وتسميها الرسالة الموحدية « شنتقروس Santa Cruz وتصفها بالقلعة « الحسيبة فى الامتناع » ص ٢٣٢ .

( ٢ ) الرسالة الموحدية السالفة الذكر ، ص ٢٣٤ .

( ٣ ) الروض المعطار ص ١٣ .

واستمر الموحدون فى زحفهم شرقاً صوب مدينة طلبيرة ، وهى أكبر مدن ولاية طليطلة ، وهم يثخنون فى أراضى قشتالة ، تخريباً ، وأسرا وسبيا ، فلما أشرفوا على طلبيرة انتسفوا زروعها ، وحدائقها وأشجارها، ولكنهم لم يحاولوا اقتحام المدينة لمنعتها، ولعدم استعدادهم لضرب الحصار حولها ، إذكانت تنقصهم آلات الحصار ، فقنعوا باجتياح كل ما حولها من مظاهر العمران ، وصيروا أراضيها قاعاً صفصفاً . كل ذلك وملك قشتالة محتجب داخل مملكته ، غير مجترئ على لقاء الغزاة فى أية ساحة . ثم اتجه الموحدون شمالا إلى مكّادة(١) ، وأنزلوا بأراضيها من التخريب ما أنزلوه بطلبيرة . وهبطوا أخيراً إلى طليطلة من ناحيتها الشمالية ، وبرزت أمامها الحشود الموحدية فرسانا ومشاة فى أكمل عددها وعدتها، وقد امتنع النصارى بداخلها مستعدين للكفاح والدفاع ، ثم عبر الموحدون بعد ذلك نهر التاجُه، إلى ساحتها الجنوبية، وانتسفوا زروعها ، وكرومها وحدائقها ، ولاسيما منيتها الشهيرة ، وهى التى كانت من قبل لبنى ذى النون، وورثها النصارى، وامتدت أيامها حتى خربها الموحدون فيما خربوه من مرافقها وأراضيها ، وقضى الموحدون حول طليطلة بضعة أيام ، واقتصروا على تخريب ديارها ، وإبراز مظاهر قوتهم ، وروعة حشودهم الزاخرة(٢) .

ويقدم إلينا المقرى عن غزوة طليطلة رواية خلاصتها أن المنصور لما حاصر طليطلة وضيق عليها ، واشتد فى ضربها بالمجانيق حتى أوشكت على السقوط ، خرجت إليه والدة ألفونسو الثامن ملك قشتالة ، وبناته ونساؤه ، ومثلن بين يديه باكيات متضرعات إليه ، أن يبقى البلد عليهن ، فرق المنصور لضراعتهن ، وكف عن ضرب المدينة، ووهب لهن قدراً من المال والجواهر الجليلة ، وردهن مكرمات. وهذه رواية يصعب علينا تصديقها لمجانبتها للمنطق والمعقول(٣) .

وفى خلال الغزوة الموحدية لأراضى قشتالة ، بعث ملك ليون ، وهو ألفونسو التاسع إلى المنصور ، يرجوه أن يعاونه ببعض قواته ، على غزو قشتالة، فاستجاب المنصور لرغبته ، لما كان من سالف موقفه قبيل معركة الأرك ، وتنحيه عن معاونة ملك قشتالة ضد الموحدين ، وجنوحه إلى مصادقتهم ومحالفتهم . وغزا ملك ليون، ومعه قوة من الموحدين أراضى قشتالة من ناحية « تيرادى كامبوس » ،

---

(١) وهى بالإسبانية Maqueda . راجع الروض المعطار ص ١٣ .
(٢) الرسالة الموحدية الخامسة والثلاثون ص ٣٣٦ و٣٣٧ . والبيان المغرب ص ١٩٩ .
(٣) المقرى فى نفح الطيب ج ٢ ص ٢٠٧ .

وتقول الرواية النصرانية إن الموحدين الذين كانوا يقاتلون معه ، ضربوا الكنائس والأديار القشتالية بمنتهى القسوة ، وقام الليونيون بانتساف وتخريب الضياع ؛ ووصل ألفونسو التاسع فى غزوته هذه حتى مدينة كريون . وفى نفس الوقت أغار سانشو ملك ناڤارا من جانبه على أراضى قشتالة المتاخمة له ، واقتحم مدينة سُرية ، وعاث فى تلك المنطقة تخريباً ونهباً .

ولما انتهى المنصور من غزاته ، وأثخن ما شاء فى أراضى عدوه ، وأبرزت حشوده أمام أعين النصارى كل مظاهر قوتها وروعتها ، قرر العود بسرعة ، قبل أن يختل نظام التموين فى الجيش ، فارتد بقواته نحو الجنوب ، واقتحم الموحدون فى طريقهم بعض حصون منطقة طليطلة الجنوبية ، فاخترق أراضى قلعة رباح ، ثم اتجه نحو جيان ثم إلى قرطبة ، وسار من قرطبة إلى إستجة فقرمونة ، ووصل إلى إشبيلية فى أوائل رمضان ( ٥٩٢ هـ ) بعد أن قضى فى غزوته نحو ثلاثة أشهر(١) .

وما نود أن نلاحظه هو أن هذه الغزوة الموحدية التى استطاع الموحدون أن يدفعوها إلى صميم أراضى قشتالة ، وإلى تطويق العاصمة القشتالية ذاتها ، أعنى طليطلة ، لم تسفر عن أية نتائج مستقرة ، ولم يحرز الموحدون خلالها أية أراضٍ أو مواقع ذات شأن . وإنه لما يلفت النظر أن يكتفى الخليفة المنصور ، وهو الذى حطم قوى قشتالة قبل ذلك بأقل من عام فى موقعة الأرك بالعيث والتخريب ، والسبى والنهب فى أراضى العدو ، دون أن يتحرى غاية عسكرية جليلة ، فى وقت كان فيه فى أوج قوته وأهباته العسكرية ، وفى وقت كان فيه عدوه الرئيسى ملك قشتالة فى منتهى الضعف والاستسلام ، حتى أنه لم يحرك ساكنا للقاء الغزاة فى أية مرحلة من مراحل الغزو . وإنه يحق لنا أن نتساءل ألم يكن فى وسع الخليفة الظافر ، فى مثل هذه الظروف المؤاتية ، أن يركز جهوده على محاولة الاستيلاء على طليطلة حصن الإسلام القديم على نهر التاجُه ، وفى اعتقادنا أنه لو فعل ، لما كانت هنالك ثمة عقبات خطيرة تحول دون بغيته ، ولكن السياسة العسكرية الموحدية آثرت مع الأسف أن تقنع بالمظاهرات العسكرية الجوفاء ، التى يستطيع العدو القديم الخالد دائماً أن يصبر عليها ، وأن يهضمها بسرعة ليعود إلى عدوانه .

---

( ١ ) فصلت لنا الرسالة الموحدية المؤرخة فى التاسع من شهر رمضان سنة ٥٩٢ هـ ، وهى الرسالة الخامسة والثلاثون من رسائل موحدية ، مراحل هذه الغزوة بإسهاب يغلب عليه الزخرف الأدبى ، وهى من إنشاء الكاتب أبى عبد الله بن عياش ( ص ٢٢٨ — ٢٤١ ) .

وعنى المنصور خلال إقامته عندئذ بإشبيلية بأمرين ، الأول النظر فى أحوال الأعمال والنفقات ومحاسبة بعض العمال والنظار ، الذين لحقت بهم ريب التقصير والاختلاس ، والثانى الاستعداد للغزوة القادمة بعد أن ينال الجند قسطهم من الراحة والاستجام والضيافة والإحسان . وقد أمر المنصور فيما يتعلق بالأموال بمحاسبة أبى سليمان داود بن أبى داود ، وندب لمحاسبته لجنة من الكتاب ، فحققت فى سائر أعماله وتصرفاته مدى ستة أشهر ، ثم انتهت بإدانته وإثبات مافى ذمته من أموال ، بلغت فى الأعمال نحو مائة وخمسين ألف ، فاستصفيت أمواله ، ولكنه لم ينكب ولم يعاقب حتى عُفى عنه . وأمر الخليفة فى نفس الوقت بمحاسبة أبى على عمر بن أيوب ، على ماكان تحت يده من أموال النفقات ، فتبين أن فى ذمته قدراً كبيراً من المال ، فطولب به ، ولما عجز عن الوفاء ، اعتقل مع أبى سليمان حتى عفى عنه أمير المؤمنين .

وفى هذا العام أيضاً قام الخليفة ببعض التعيينات الهامة ، فقلد أبا زيد بن يوجان أشغال البرين ( المغرب والأندلس ) من الأعمال العلية والشئون السلطانية والوزارة ، وما يتعلق به من أشغال الموحدين وملازمة الخدمة ، فأبدى فى تأدية مهامه المختلفة كفاية ظاهرة ، وقدم أبا القاسم بن نصير على الإسراف على عمل إشبيلية ، وقدم الكاتب المؤرخ يوسف بن عمر ، بعد أن ترك خدمة بنى حفص ابن عبد المؤمن ، على المستخلص بمنطقة الشَّرْف ومدينة لبلة .

وكان المنصور يعنى فى نفس الوقت بالاستعداد لاستئناف الغزو فى أراضى قشتالة . فلما انتهى فصل الشتاء أمر بالحركة وتعبئة الحشود ، فاجتمعت مختلف الطوائف والقبائل حتى ضاقت إشبيلية بجموعهم ، فلما استكمل الحشد والاستعداد ، خرج الخليفة فى قواته من إشبيلية فى الرابع والعشرين من جمادى الأولى سنة ٥٩٣ ( ١٤ أبريل سنة ١١٩٦ ) وسار ميمماً شطر قرطبة ، وكانت سنة خصب ورخاء ، فسارت الجموع طول الطريق فى دعة وعيش طيب . ولما وصل المنصور إلى قرطبة ، دخلها ونزل بها وقسم جيوشه لانتجاع الخصب ووفرة الأقوات ، حتى تحل الفترة التى تكثر فيها المؤن والأقوات بأراضى قشتالة[1] .

---

( ١ ) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٠١ و ٢٠٢ .

# الفصل الرابع

## ما بعـــد الأرك

## حتى وفاة المنصـور

إقامة الخليفة المنصور بقرطبة . الفيلسوف ابن رشد ومؤلفاته ومكانته العلمية . اجتماع الأسباب لنكبته . سعى خصومه فى الإيقاع به . تأويل آرائه ومسخها . إتهامه وبعض زملائه بالمروق . توجيه الاتهام إليه بالمسجد الجامع . إدانته ونفيه إلى بلدة اليسانة . مصادرة كتبه وإحراقها . كتاب المنصور فى تبرير تصرفه وفى شرح تهم المارقين . أسباب أخرى لغضب المنصور على الفيلسوف . عفو المنصور عنه وعن زملائه . عودة ابن رشد إلى مراكش ثم وفاته . ما تكشف عنه نكبة الفيلسوف من مغزى . خروج المنصور إلى الغزو . مسيره إلى طلبيرة ثم إلى طليطلة . مسيره إلى مجريط وحصارها . تخريبه لمنطقة وادى الحجارة . توجيه كتاب الغزو . عود المنصور إلى قرطبة ثم إشبيلية . أمره بإتمام صومعة الجامع . أقوال ابن صاحب الصلاة فى بناء الصومعة . تزويدها بالتفافيح الذهبيه . وصف لهذه التفافيح وعملية رفعها . قيام هذه الصومعة حتى اليوم . انتقال المنصور إلى حصن الفرج . تعيينه للعمال . تحالف قشتالة وأراجون ضد الموحدين . غزو قوات قشتالة وأراجون لمملكة ليون . عقد السلم بين المنصور وملك قشتالة . رفض المنصور معاونة ملك ليون . عبور المنصور إلى المغرب . وعوده إلى مراكش . أخذ البيعة لولده الناصر . عطفة على اليتامى . أمره بإلزام اليهود بزى خاص . بواعث هذا القرار . مرض المنصور وشعوره بدنو أجله . استدعاؤه للشيوخ والقرابة . توصيته بولده وبمن يثق بهم من السادة . توصيته برعاية الأندلس والذود عنها . توصيته بالأغزاز والعرب والطلبة . توصيته بقبائل الموحدين . ما ينسب إليه من آخر أقواله . وفاة المنصور . عظمته والإشادة بصفاته . عنايته بتنظيم الجيش وتقويته . شغفه بالجهاد . حزمه وعنايته بتوطيد العدل . ورعه وتقواه . عنايته بتطبيق أحكام الشرع وإقامة الصلاة والحدود . مطاردته لعلم الفروع والمذهب المالكى . اعتناقه المذهب الظاهرى . انتشار الظاهرية فى عهده . إجلاله للعلامة ابن حزم . موقفه من إمامة المهدى وعصمته . ما ينسب إليه من نيته فى افتتاح مصر . قول المراكشى فى ذلك . أقوال الرحالة ابن جبير عن أحوال المشرق وضلال أهله . أقواله عن صدى الدعوة الموحدية بمصر . الفكرة الموحدية فى غزو مصر . الفكرة لم تكن سوى أمنية . عظمة مصر وقوتها أيام المنصور . صفات المنصور العلمية . عطفه على العلماء وطلبة العلم . أدبه وفصاحته . اجتماع الشعراء حوله . أبو العباس الجراوى يؤلف له كتاب « صفوة الأدب » . مدائح ابن مجبر . مواهب المنصور الإدارية والإنشائية . عنايته بالشئون المالية . منشآته العمرانية . إنشاؤه لضاحية الصالحة . تجديده لرباط الفتح وإنشاء مسجدها العظيم . إنشاؤه البيمارستان بمراكش . منشآته بالأندلس . وزراؤه وكتابه . قضاته . أولاده . صفته .

- ١ -

فى خلال إقامة المنصور بقرطبة ، فى تلك الفترة من شهور سنة ٥٩٣ هـ ، وقع حادث مؤسف ذو مغزى عميق ، هو نكبة القاضى الفيلسوف أبى الوليد بن رشد. وقد سبق أن أشرنا إلى صلة ابن رشد بالبلاط الموحدى ، وإلى ما كان يتمتع به من عطف الخليفة أبى يعقوب يوسف ، ولاسيما عن طريق أستاذه العلامة الفيلسوف الطبيب أبى بكر بن طفيل ، صديق هذا الخليفة وأستاذه الأثير لديه. وكان ابن رشد فى هذا الوقت يتولى قضاء إشبيلية ، ويشغل فى نفس منصب الطبيب الخاص للخليفة إلى جانب أستاذه ابن طفيل. ثم تقلب بعد ذلك فى عدة من المناصب القضائية والإدارية الهامة ، أحياناً بقرطبة وأحياناً بإشبيلية ، وكان يتنقل فى معظم الأحيان مع بلاط الخليفة، سواء بالمغرب أو الأندلس. ولما توفى أستاذه ابن طفيل فى سنة ٥٨١ هـ ( ١١٨٥ م ) انفرد بمنصب الطبيب الخاص للخليفة ، واستمر على حظوته ومكانته لدى الخليفة يعقوب المنصور ، كما كان من قبل لدى والده الخليفة أبى يعقوب يوسف .

وكان ابن رشد خلال ذلك قد ذاعت شهرته الطبية والفلسفية ذيوعاً عظيما ، وكتب كثيراً من كتبه الفلسفية ، ومعظمها فى تلخيص كتب أرسطو وشروحها ، وكتب كذلك كثيراً من الكتب الطبية ، ومعظمها تلخيص وشروح لكتب جالينوس . ومنها « شرح الأرجوزة » الشيخ الرئيس ابن سيناء فى الطب ، وكتب كذلك كتابه « الكليات » ، ليتناول فيه أبواب الطب الكلية أو الرئيسية ، مقابل التفاصيل الجزئية التى تناولها أستاذه العلامة الطبيب أبو مروان عبد الملك بن زهر فى كتابه « التيسير » . وهذا كله عدا ما كتبه فى الأصول والفقه وعلم الكلام والحكمة والمنطق . وقد بلغت تصانيف ابن رشد فى مختلف العلوم أكثر من سبعين كتاباً ورسالة اشتهرت كلها فى المشرق والمغرب ، وترجم الكثير منها فيما بعد إلى اللاتينية ، ولاسيما شروحه لفلسفة أرسطو ، وهى التى جعلت لابن رشد أعظم مكانة فى ميدان التفكير الأوربى .

وكان الخليفة يعقوب المنصور ، كأبيه عالماً متمكناً يجمع حوله صفوة العلماء والمفكرين ، وكان يعشق الجدل والمناقشات الفلسفية ، ويعقد مجالس خاصة يستمع فيها إلى آراء ابن رشد وشروحه ، ولاسيما فى علاقة الفلسفة بالدين ، وهو

الموضوع الذى كتب فيه ابن رشد فيما بعد رسالة « فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال » . وكان الفيلسوف يقضى معظم أوقاته عندئذ فى البلاط الموحدى ، حيثما كان الخليفة ، وكان المنصور يعظم الفيلسوف ويقدره ، إلى حد أنه كان يجلس إلى جانبه مباشرة ، ويتعدى بموضعه مواضع أشياخ الموحدين الأكابر. ومن الغريب أن يقال لنا إن ابن رشد ، بالرغم مما كان يحيط بمقامه العلمى من ضروب التوقير والتكريم ، لم يكن يتمتع بالمظهر اللائق بمكانته من حيث الملبس والتجمل . وقد وصفه لنا القاضى أبومروان الباجى فى قوله «كان القاضى أبو الوليد ابن رشد حسن الرأى ذكياً ، رث البزة ، قوى النفس » .

وقد شاء القدر أن يُنكب الفيلسوف ، فى تلك الفترة التى نزل فيها المنصور بقرطبة . وكان ابن رشد قد عاد إلى الأندلس فى ركاب الخليفة ، ونزل بدار أسرته فى قرطبة . وكانت أسباب هذه النكبة فى الواقع تتجمع منذ بعيد . وكانت قد نشأت من قديم بين الفيلسوف وبين أهل قرطبة وحشة . « أحدثتها أسباب الحسد » . وكان الحفاظ والطلبة والفقهاء الموحدون فضلا عن ذلك ، ينقمون على ابن رشد آراءه ودراساته الجدلية والفلسفية ، وينقمون بالأخص منزلته لدى الخليفة . ونحن نعرف ماكان يتمتع به أولئك الحفاظ والطلبة لدى الخليفة الموحدى من عظيم النفوذ ، ولاسيما وقد كانوا نصحاءه ومستشاريه الروحيين . وكان كثير من هؤلاء وكثير من غيرهم من خصوم الفيلسوف ، يبثون حول آرائه ونظرياته دعاية مسمومة ، ويرمونه بالمروق والخروج على أحكام الشريعة ، « وإيثاره فيها لحكم الطبيعة» . وكانت الفلسفة ودراساتها بالرغم مما كان يتسم به البلاط الموحدى ، منذ عهد الخليفة عبد المؤمن ، من رعاية العلم والعلماء ، من الموضوعات المريبة المكروهة . وهكذا كان خصوم ابن رشد يجدون فى صميم دراساته وكتاباته ، مواد اتهامهم . وأكثر من ذلك أنهم كانوا يدسون عليه ألفاظاً وعبارات محرجة . ومن ذلك وصفه فى أحد شروحه « الزهرة » بأنها « أحد الآلهة » وقد جمع أولئك الخصوم مقالات وأوراق كثيرة منسوبة إلى الفيلسوف ، وحملوها إلى مراكش فى أوائل سنة ٥٩١ هـ ( ١١٩٤ م ) ، وحاولوا أن يرفعوها إلى الخليفة . ولكن المنصور كان يشغل عندئذ بالأهبة للعبور إلى الأندلس . ومن ثم فقد فشل الساعون فى مسعاهم ، واضطروا للعودة خائبين .

ويقول لنا ابن عبد الملك فى « الذيل والتكملة » وهو فيما يرجح ينقل عن

ابن صاحب الصلاة: « فلما كان التلوم من المنصور بمدينة قرطبة، وامتد بها أمد الإقامة ، وانبسط الناس من مجالس المذاكرة ، تجددت للطالبين آمالهم ، وقوى تألبهم ، واسترسالهم ، فأدلوا بتلك الألقيات، وأوضحوا ما احتجنوه من شنيع الهفوات الماحية لأبى الوليد كثيراً من الحسنات ، فقرئت بالمجالس، وتؤولت أغراضها ، ومعانيها وقواعدها ومبانيها ، فخرجت بما دلت عليه أسوأ مخرج ، وربما ذيلها مكر الطالبين ، فلم يمكن عند اجتماع الملأ إلا المدافعة عن شريعة الإسلام . ثم آثر الخليفة فضيلة الإبقاء ، وأغمد السيف بالتماس جميل الجزاء ، وأمر طلبة مجلسه ، وفقهاء دولته ، بالحضور بجامع المسلمين ، وتعريف الملأ بأنه مرق من الدين ، وأنه استحق لعنة الضالين »[1] .

ولم يكن الاتهام بالمروق مقصوراً على الفيلسوف ، ولكنه شمل عدة من زملائه وتلاميذه ممن يشتغلون « بالحكمة وعلوم الأوائل » . وكان من هؤلاء أبو جعفر الذهبى ، والفقيه أبو عبد الله محمد بن إبراهيم المهرى المشهور بالأصولى ، وأبو الربيع الكفيف ، وأبو العباس الحافظ الشاعر . وأحضر ابن رشد ، والفقيه أبو عبد الله المهرى وحدهما إلى جامع قرطبة ، وتوارى الباقون . وتولى توجيه الاتهام إلى الفيلسوف وزميله ، القاضى أبو عبد الله بن مروان، والخطيب أبو على بن الحجاج . ولم يقل لنا صاحب « التكملة » ، ماذا كان موقف ابن رشد ، ولكن المرجح أنه قام بالرد على أسانيد متهميه .

وعلى أى حال فقد انتهى الأمر بإدانة الفيلسوف ، وقضى الخليفة المنصور بمعاقبته بالنفى من قرطبة ، واعتقاله ببلدة « أليسّانة » أو« اللسّانة » ، الواقعة فى جنوبها على مقربة من نهر شَنيل . وكانت هذه البلدة منذ عصور منزل اليهود فى هـذه المنطقة من الأندلس . وكانت بالأخص مدينة غنية زاهرة أيام دولة بنى باديس أصحاب غرناطة[2] . وقيل فى اختيارها لاعتقال الفيلسوف « إنه يُنسب فى بنى إسرائيل، ولأنه لايعرف له نسب فى قبائل الأندلس » . وكان من الواضح أن الخليفة قد راعى فى الاقتصار على عقوبة الفيلسوف بالنفى، سنه

---

(١) التكملة لابن عبد الملك المراكشى المجلد الخامس من مخطوط المتحف البريطانى . ونقله إلينا صاحب البيان المغرب مع الاختصار ص ٢٠٢ .

(٢) وهى بالإسبانية **Lucena** . راجع الإدريسى ، وصف المغرب والأندلس ( طبعة دوزى ) ص ٢٠٥ .

وحالته الصحية . وكان ابن رشد يومئذ قد جاوز السبعين من عمره . وقُضى على زملاء الفيلسوف الذين تقدم ذكرهم كذلك بالنفى إلى جهات أخرى ، وكان أبرزهم بعد ابن رشد ، هو إبراهيم الأصولى . وصودرت كتب الجميع ، وأمر بإحراقها أينما وجدت .

ولم يكتف البلاط الموحدى بتوقيع العقوبة المادية على المتهمين ، ولكنه رأى أن يقرنها بإعلان وجهة نظره ، وتبرير تصرفه ، فوجه المنصور كتاباً فى هذا الموضوع ، من إنشاء كاتبه أبى عبد الله بن عياش ، إلى مراكش وغيرها من قواعد المغرب والأندلس . وإليك بعض ماجاء فى هذا الكتاب المشهور ، الذى انفرد بتدوينه ابن عبد الملك صاحب « الذيل والتكملة » :

« وقد كان فى سالف الدهر قوم ، خاضوا فى بحور الأوهام ، وأقرّ لهم عوامّهم ، بشفوف عليهم فى الإفهام ، حيث لاداعى يدعو للحىّ القيوم ، ولاحاكم يفصل بين المشكوك فيه والمعلوم ، فخلّدوا فى العالم صحفاً ، مالها من خلاق ، مسوّدة المعانى والأوراق ، بعدها من الشريعة بعد المشرقين ، وتباينها تباين الثقلين ، يوهمون أن العقل ميزانها ، والحق برهانها ، وهم يتشعبون فى القضية الواحدة فرقاً ، ويشيدون فيها شواكل وطرقاً . ذلكم ما فى الله خلقهم للنار ، وبعمل أهل النار يعملون ، ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ، ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يذرون . ونشأ منهم فى هذه [ اللمحة ] البيضاء شياطين .. يخادعون الله والذين آمنوا ، وما يخادعون إلا أنفسهم ومايشعرون ، يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ، ولوشاء ربك مافعلوه ، فذرهم وما يفترون ، فكانوا عليها أضر من أهل الكتاب ، وأبعد عن الرجعة إلى الله .. لأن الكتابى يجتهد فى ضلال ، ويجد فى كلال ، وهاؤلاء جهدهم التعطيل ، وقصاراهم [ الغمومة ] والتخييل ، وبث عقاربهم فى الآفاق برهة من الزمان ، إلى أن أطلعنا الله سبحانه منهم ، على رجال كان الدهر قد سالمهم على شدة حروبهم ، وأغفى عنهم سنين على كثرة ذنوبهم ، إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ، وما أمهلوا إلا ليأخذهم الله الذى لا إله إلا هو ، وسع كل شىء علما .

« وما زلنا وصل الله كرامتكم ، نذكرهم على مقدار ظننا فيهم ، وندعوهم على بصيرة إلى ما يقربهم إلى الله سبحانه ويدنيهم . فلما أراد الله فضيحة عمايتهم ، وكشف غوايتهم ، وقف لبعضهم على كتب مسطورة من الضلال ، موجبة أخذ

كتاب صاحبها بالشمال ، ظاهرها موشّحٌ بكتاب الله ، وباطنها مصرّحٌ بالإعراض عن الله ، لُبّس منها الإيمان بالظلم ، وجيء منها بالحرب الزبون فى صورة السِّلم ، مزلّة للإقدام ، وسمٌ يدب فى باطن الإسلام ، وأسياف أهل الصليب دونها مفلولة ، وأيديهم عما يناله هؤلاء مغلولة ، فإنهم يوافقون الأمة فى ظاهرهم وزيهم ولسانهم ، ويخالفونهم بباطنهم وبهتانهم ، فلما وقفنا منهم على ما هو قذًى فى جفن الدين ، ونكتة سوداء فى صفحة النور المبين ، نبذناهم فى الله نبذ النواة ، وأقصيناهم حيث يقصى السفهاء من الغواة . وأبغضناهم فى الله ، كما أنا نحب المؤمنين فى الله ، وقلنا اللهم إن دينك هو الحق اليقين ، وعبادك هم الموصوفون بالمتقين ، وهاؤلاء قد صدفوا عن [ الله ] وعميت أبصارهم وبصائرهم عن بيناتك ، فباعدت أسفارهم ، وألحق بهم أشياعهم حيث كانوا وأنصارهم ، ولم يكن بينهم إلا قليل وبين الإلجام فلا . . فى مجال ألسنتهم ، والإيقاظ [ بحدة ] من عقلهم ونصتهم ، ولاكنهم رفعوا بموقف الخزى والهوى ، ثم طردوا عن رحمة الله ، ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه ، وإنهم لكاذبون .

« فاحذروا وفقكم الله هذه الشرذمة على الإيمان ، حذركم من السموم السارية فى الأبدان . ومن عُثر له على كتاب من كتبهم ، فجزاؤه النار التى بها يُعذب أربابه ، وإليها يكون مآل مؤلفه وقارئه ومآبه ، ومتى عُثر منهم على مُجْرٍ فى غلوائه ، عم عن سبيل الله استقامته واهتدائه ، فليُعاجل فيه بالتثقيف والتعريف ، ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لاتنصرون . أو لايرد الذين حبطت أعمالهم ، أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار ، وحبط ما صنعوا فيها ، وباطل ماكانوا يعملون . . . والله تعالى يطهر من دنس الملحدين أصقاعكم ، ويكتب فى صحف الأبرار تضافركم على الحق واجتماعكم ، إنه منعم كريم »(١) .

هذا كله فيما يتعلق بناحية التكفير ، وناحية العقيدة ، وهى التى اتخذت ذريعة لاتهام الفيلسوف وإدانته . بيد أنه كانت ثمة أسباب أخرى لغضب المنصور على الفيلسوف . منها توثق صلاته بالسيد أبى يحيى أخى المنصور ووالى قرطبة ، وقد

---

(١) أورد ابن عبد الملك المراكشى نص هذا الكتاب الموحدى فى « الذيل والتكملة » فى ترجمة ابن رشد ( المجلد الخامس من مخطوط المتحف البريطانى ) .

كان بين الأخوين موجدة وجفاء . ومنها أنه أى ابن رشد ، كان يجرى فى أحاديثه مع الخليفة على مخاطبته دائماً بقوله « تسمع يا أخى » وكان المنصور يُسرّ له هذه الجرأة فى مخاطبته . ومنها أخيراً ، وهو ما يدخل فى باب العيب فى ذات الخليفة ، إن ابن رشد قال فى شرحه لكتاب الحيوان لأرسطاطاليس ما يأتى : « ورأيت الزرافة عند ملك البربر » مشيراً إلى المنصور ، وقد وجد ذلك مكتوباً بخطه[1] . فهذه الأسباب كلها قد اجتمعت لتهيئ لخصوم الفيلسوف ومتهميه فرصة النيل منه ، وإقناع الخليفة بصحة مانسب إليه من تهم المروق والإلحاد .

ولبث ابن رشد فى معتقله فى «اليسّانة» زهاء ثلاثة أعوام . ثم إن جماعة من أكابر أهل إشبيلية ، خاطبوا المنصور فى شأن الفيلسوف وزملائه ، وتشفعوا لديه فى سبيل إقالتهم والعفو عنهم ، ونفوا بالأخص عن الفيلسوف تهمة المروق والزيغ ، وشهدوا بحسن إيمانه وسلامة عقيدته . ونفى ابن رشد عن نفسه من جهة أخرى ، تهمة العيب فى حق المنصور ، بوصفه « ملك البربر » وقال إن صحة الوصف هى ملك « البرين » وإن ما وقع هو تحريف من الناسخ ، فاستجاب المنصور إلى شفاعتهم ، وعفا عن ابن رشد وزملائه ، وذلك فى سنة ٥٩٤ هـ .

وهكذا استرد الفيلسوف حظوته ومكانته فى البلاط الموحدى ، وعاد إلى مراكش ليلتحق ببلاط الخليفة . بيد أنه لم يمكث بها سوى فترة يسيرة ، وتوفى فى التاسع من شهر صفر سنة ٥٩٥ هـ ( ١٠ ديسمبر سنة ١١٩٨ م ) ، وهو فى الخامسة والسبعين من عمره . ودفن ابن رشد أولا فى مقبرة « باب تاغزوت» خارج مراكش ، ثم حمل منها بعد أشهر قلائل إلى قرطبة مسقط رأسه ، وموئل أسرته ، ودفن فى روضة آبائه بمقبرة ابن عباس[2] .

تلك هى أدوار المأساة المشجية التى اقترنت بحياة فيلسوف من أعظم أقطاب التفكير الإسلامى والتفكير العالمى . ولقد تكررت هذه المأساة ، التى اتخذت صورة الاضطهاد الفكرى ، غير مرة فى ظل المرابطين ثم الموحدين ، وكانت مطاردة ابن رشد ومحاكمته ، بلا ريب وصمة فى عهد خليفة عظيم عالم كالخليفة

---

( ١ ) المعجب للمراكشى ص ١٧٤ و ١٧٥ .

( ٢ ) راجع فى نكبة ابن رشد « الذيل والتكملة » لعبد الملك المراكشى ( المخطوط المشار إليه ) ، والتكملة لابن الأبار فى ترجمته ( القاهرة ) رقم ١٤٩٧ .

المنصور . بيد أنها تكشف بالأخص عن روح التزمت العميق التى كان يتسم بها التفكير الدينى فى عهد الموحدين .

— ٢ —

وكان الخليفة فى تلك الأثناء يستكمل أهبته للغزوة المنشودة ، فلما تم له ما أراد من ذلك ، غادر قرطبة فى قواته ، واخترق جبل الشارات ( سيرا مورينا ) ميمماً شطر طلبيرة . فلما وصل إلى حدود قشتالة ، قصد إليه رسل ألفونسو الثامن فى طلب المهادنة ، فصرفهم دون جواب ، وقد عقد العزم على اختراق أراضى قشتالة ، وغزوها وفقاً للخطة التى وضعها . ولما وصل إلى طلبيرة ، سار إلى مكادة ، وضرب ما حولها من الأراضى دون أن ينال منها شيئاً ، ثم انعطف جنوباً نحو طليطلة وحاصرها ، وهنالك علم أن ملك قشتالة قد حصل على عون زميله ملك أراجون ، وأنهما يرابطان بقواتهما عند قلعة مجريط[1] فى انتظار الاشتباك مع الموحدين ، فتحول المنصور نحو مجريط بسرعة ، بعد أن خرب أراضى طليطلة ، مؤملا أن يلتقى بالقوات النصرانية . ولما وصل إلى مجريط ، حاصرها بضعة أيام ، ولكن الملكين لم يكونا بها ، بل كانا قد انسحبا فى معظم قواتهما إلى جبال وادى الرملة[2] ، وتركا فى حصن مجريط قوة مختارة بقيادة دون ديجولوپث دى هارو ، وهو الذى كان قد لجأ إلى حصن الأرك يوم الموقعة . فدافع القشتاليون عن مجريط بشدة ، فغادرها المنصور عندئذ ، وسار ميمماً شطر قلعة هنارس (قلعة النهر) ثم وادى الحجارة ، وهو ينتسف الزروع ، ويخرب الضياع والقرى ، ولكن الموحدين لم يستطيعوا كذلك الاستيلاء على وادى الحجارة لمنعتها . وخرجت حاميتها ، وفاجأت قافلة المتاع والعتاد والخدم ، فأوقعت بها ، واستطاعت أن تنتزع منها بعض الأسلاب ، قبل أن يتدا ركها الموحدون ، ويردوا المغيرين على أعقابهم ، ويقتلوا عدداً منهم .

وفى اليوم التالى ، نظم الموحدون مظاهرة عسكرية ضخمة فى ظاهر وادى الحجارة ، بدا فيها الجيش الموحدى بمختلف طوائفه وحشوده ، إظهاراً لقوتهم وإرهاباً للعدو ، وبعث المنصور من محلته بتفاصيل الغزوة إلى مختلف الجهات .

---

( ١ ) وهى التى غدا موقعها فيما بعد نواة لموقع مدريد عاصمة اسبانيا الحديثة ، وتطور اسمها العربى من مجريط Majerit إلى Madrid

( ٢ ) جبال وادى الرملة هى بالإسبانية Guadarrama .

ثم أمر بالحركة والعود، وسار بطريق وبذة. وهنا اتجه المنصور، وفقاً للرواية النصرانية شرقاً نحو قونقة وحاصرها، ثم ارتد نحو أقليش وسار منها جنوبا نحو الكرس وبيّاسة، ووصل إلى قرطبة فى أواخر رمضان سنة ٥٩٣ هـ، ثم غادرها فى الحال إلى إشبيلية، فوصلها فى يوم عيد الفطر (أغسطس سنة ١١٩٧م) وذلك بعد أن أنفق فى غزوته الثانية لأراضى قشتالة أربعة أشهر[(١)] .

وماكاد المنصور يستقر فى إشبيلية، حتى عنى بإتمام الأعمال الأخيرة لصومعة الجامع الأعظم (المنارة) وهى التى كان أبوه الخليفة أبو يعقوب يوسف، قد أمر ببنائها قبل خروجه إلى غزوة شنترين فى سنة ٥٨٠ هـ. وكان المنصور قد أمر بالمضى فى إنشائها عقب توليه الخلافة. ووضع العريف أحمد بن باسُه أسسها لصق الجامع ثم تعطل البناء حيناً لعزل بعض العمال المختصين، أو لغير ذلك من الأسباب. وفى سنة ٥٨٤ هـ (١١٨٨ م) بعد أن فرغ المنصور من غزواته بإفريقية، أصدر أمره بإصلاح ما اختل من الجامع الأعظم وإتمام بناء صومعته. ويقول لنا ابن صاحب الصلاة، وهو حسبما أشرنا من قبل غير مرة مؤرخ معاصر وشاهد عيان، أنه شُرع فى بناء الصومعة بالآجر الذى يؤخذ من سور قصر ابن عباد، ودام العمل فى ذلك أعواماً، يجرى البناء فيها بصورة متقطعة، فإذا حضر الخليفة إلى إشبيلية، ضوعفت الهمة فى البناء، وإذا غادرها إلى الحضرة تعطل البناء، ثم يُستأنف متى حضر. وكان الخليفة المنصور كأبيه الخليفة أبى يعقوب، شغوفاً بالبناء، وكان وقت وجوده بإشبيلية، يلازم فى أوقات فراغه الإشراف على أعمال البناء بنفسه، واستمر الأمر كذلك حتى عاد المنصور من موقعة الأرك مكللا بغار الظفر، وأصدر أوامره بمضاعفة الهمة لإتمام الصومعة، ولما عاد إلى إشبيلية من غزوته الأخيرة، كان بناء الصومعة قد تم، ولم تبق سوى أعمال التجميل. وبالرغم من أن المنشآت الموحدية، كانت حتى ذلك العهد تقتصر على مراعاة الروعة والمتانة، ولا تميل إلى الزخرف والزينة، فقد أصدر الخليفة أمره، بأن تزود صومعة الجامع بتفافيحها الذهبية الشهيرة. وإليك كيف يصف لنا ابن صاحب الصلاة قصة هـذه التفافيح، ورفعها إلى أعلى المنارة، فى حفل كان من شهوده :

(١) البيان المغرب – القسم الثالث ص ٢٠٣، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٥. وراجع:
Altamira : Historia de Espana; Vol. I. p. 364 .

صومعة جامع المنصور بإشبيلية المسماة لاخيرالدا **La Giralda**

« فلما وصل أمير المؤمنين ، وهزم الله أذفونش الطاغية ، أمر رضى الله عنه فى مدة إقامته بإشبيلية بعمل التفافيح الغريبة الصنعة العظيمة الرفعة ، الكبيرة الجرم ، المذهبة الرسم ، الرفيعة الاسم والجسم ، فرفعت فى منازلها بمحضره ، وحضر المهندسون فى إعلائها على رأيه ، وبلوغ وطره ، مركبة فى عمود عظيم من الحديد مرسى أصله فى بنيان أعلى الصومعة أعلاها ، زنة العمود ماية وأربعون ربعاً من الحديد ، موثقاً هناك فى تلاحك البنيان ، بارز طرفه الحامل لهذه الأشكال المسماة بالتفافيح إلى الهواء ، يكابد من زعازع الرياح ، وصدمات الأمطار ، ما يطول التعجب من مقاومته وثباته . وكان عدد الذهب الذى طليت به هذه التفافيح الثلاثة الكبار والرابعة الصغرى ، سبعة آلاف مثقال كباراً يعقوبية ، عملها الصياغ بين يدى أمير المؤمنين وحضوره . ولما كملت سترت بالأغشية من شقاق الكتان ليلا ينالها الدنس من الأيدى والغبار ، وحملت على العجل مجرورة حتى إلى الصومعة ، بالتبكير عليها والتهليل ، حتى وصلت ورفعت بالمسدسة حتى إلى أعلى الصومعة المذكورة ، ووضعت فى العمود ، وحصلت فيه ، وحصلت بمحضر أمير المؤمنين أبى يوسف المنصور رضى الله عنه ، وبمحضر ابنه وولى عهده أبى عبد الله السعيد الناصر لدين الله ، وجميع بنيه وأشياخ الموحدين والقاضى وطلبة الحضر ، وأهل الوجاهة من الناس ، وذلك فى يوم الأربعاء عقب ربيع الآخر بموافقة التاسع عشر من شهر مارس العجمى عام أربعة وتسعين وخمس ماية ، ثم كشف عن أغشيتها فكادت تغشى الأبصار من تألقها بالذهب الخالص الإبريز وشعاع رونقها »[١].

ويضيف صاحب روض القرطاس إلى ما تقدم ، أن الذى قام بالإشراف على صنع هذه التفافيح الذهبية ، ورفعها إلى أعلى المنار ، هو المعلم أبو الليث الصقلى ، وأن هذه التفافيح قومت يومئذ بمائة ألف دينار من الذهب[٢].

ونقول نحن ، إن هذه الصومعة أو المنارة العظيمة التى أمر بإنشائها الخليفة أبو يعقوب يوسف لجامع إشبيلية الأعظم ، وأتمها ولده يعقوب المنصور ، وزودها بتفافيحها الذهبية الرائعة ، مازالت تقوم حتى يومنا ، وإن كانت قد فقدت تفافيحها الذهبية منذ بعيد ، وحولت طبقتها العليا إلى برج للأجراس لكنيسة إشبيلية

(١) ابن صاحب الصلاة فى المن بالإمامة ( المخطوط السابق ذكره لوحة ١٧١ ، ا و ب ) .

(٢) روض القرطاس ص ١٥١ .

العظمى ، وهى التى قامت بدورها فوق أنقاض الجامع الأعظم . وهى تحمل اليوم اسمها الإسبانى « لاخيرالدا La Giralda » ، بيد أنها مازالت بالرغم من تحولها إلى برج للأجراس، تحتفظ بكثير من روعتها الإسلامية القديمة، ومازالت تعتبر من أعظم الآثار الأندلسية الباقية[١] .

ولما تم الاحتفال بإتمام صومعة الجامع الأعظم على هذا النحو انتقل المنصور إلى حصن الفرج ، وقضى به فصل الصيف ، وكان يؤثره لجمال موقعه ، وطيب هوائه ، ثم عاد إلى إشبيلية ، فأقام بها أربعين يوما أخرى ، وعنى خلال هذه الفترة بتنظيم الشئون ، وتعيين الولاة والعمال ، فأسند ولاية إشبيلية إلى ولده السيد أبى زيد ، وولاية بطليوس وجهاتها إلى السيد أبى الربيع بن أبى حفص بن عبد المؤمن ، وولاية منطقة الغرب إلى أبى عبد الله بن أبى حفص بن عبد المؤمن ، وندب العمال للنظر فى شئون الجباية فى مختلف الجهات ، ورتب الحاميات المختارة فى مختلف القواعد ، وأمر بتحصينها وإصلاح أسوارها[٢] .

وكانت الأحوال قد تطورت عندئذ فى مملكتى قشتالة وليون ، وأنشئ حلف جديد لمقاومة الموحدين بين قشتالة وأراجون ، وتقدم ملك أراجون پيدور الثانى لمعاونة حليفه ألفونسو الثامن ، وظهر أثر هذه المعاونة فى اجتماع القوات المتحالفة لمقاومة الموحدين فى منطقة وادى الحجارة ، حينما قام المنصور بغزوته الثانية لأراضى قشتالة . ومع أنه لم يقع بين الفريقين اشتباك ذو شأن ، فإن المنصور لم يغفل من حسابه أمر ذلك التكتل الجديد بين القوى النصرانية ، ومن جهة أخرى فقد كان لذلك التطور أثره فى موقف ألفونسو التاسع ملك ليون حليف الموحدين . ذلك أنه كان قد غزا أراضى قشتالة بمعاونة قوة من الموحدين ، ووصل فى زحفه حتى مدينة كَرْيون ، وذلك فى نفس الوقت الذى غزا فيه الموحدون أراضى قشتالة من الجنوب . فلما انتهى الموحدون من غزوتهم ، وانسحبوا إلى الجنوب ، قامت قوة مشتركة من القشتاليين والأرجونيين بغزو مملكة ليون ، واخترقت أراضيها حتى كويانسا ( بلنسية دى دون خوان ) ، وحاصرت ملك ليون وحلفاءه الموحدين فى قاعدة بنافنتى ، فالتزم ملك ليون الدفاع ، ولم يحاول

---

( ١ ) راجع تاريخ منارة المنصور ، وأوصافها القديمة والحالية فى كتابى « الآثار الأندلسية الباقية » الطبعة الثانية ص ٥١ — ٥٦ .

( ٢ ) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٠٤ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٥ .

أن يشتبك مع خصومه . ثم انسحب القشتاليون وحلفاؤهم من أراضى ليون مثقلين بالغنائم ، وعاد ملك أراجون إلى بلاده وزال الخطر عن مملكة ليون .

وقبيل مغادرة المنصور لإشبيلية ، وفدت عليه رسل ملك قشتالة مرة أخرى فى طلب المهادنة والسلم ، فرأى المنصور على ضوء هذه التطورات ، أن يجيبه إلى رغبته بشروط اشترطها ، وهو مما يصفه صاحب البيان المغرب بأن التهادن عقد وفقاً لشريعة الإسلام[1]. ومن جهة أخرى فإن ملك ليون ، بعد أن تحرج مركزه ، وأعلن البابا نفيه من الكنيسة ، باعتباره خارجاً على الدين ، وأذن لملك البرتغال بمحاربته متشحاً بالصفة الصليبية ، قصد بنفسه إلى إشبيلية ملتجئاً إلى المنصور ، وطالباً إليه معاونته بالجند والمال ، ولكنه لم يوفق فى مسعاه هذه المرة ، نظراً لقيام التهادن والسلم بين الموحدين وبين مملكة قشتالة .

ولما انتهى المنصور من النظر فى سائر الشئون ، أصدر أوامره بالتأهب للعودة إلى حضرة مراكش . ثم غادر إشبيلية فى أواسط جمادى الأولى سنة ٥٩٤ هـ ( أواخر مارس سنة ١١٩٨ م ) وعبر البحر فى غرة جمادى الثانية ، وقصد أولا إلى فاس ، فأقام بها نحو عشرين يوماً طلباً للراحة والاستجمام ، ثم غادرها إلى الحضرة ، فدخلها فى شعبان سنة ٥٩٤ هـ .

استقر المنصور فى حاضرته ، وهو متعب منهوك القوى ، من جراء ما اضطلع به من الغزوات والأعمال مدى أربعة أعوام متوالية . وكان أول ما عنى به هو أخذ البيعة لولده أبى عبد الله محمد الملقب بالناصر ، وكان قد اختاره لولاية عهده ، حينما اشتد به المرض فى سنة ٥٨٧ هـ ، حسبما أشرنا إلى ذلك من قبل ، فبايعه سائر أشياخ الموحدين ، وأخذت له البيعة فى سائر القواعد والجهات .

وكانت تصرفات الخليفة فى هذه الفترة الأخيرة من حياته ، تصطبغ بنوع من التقى والورع . فمن ذلك أنه أمر أن يجمع الأطفال الأيتام ، وأن يختنوا ، وأمر لكل منهم بثوب ودينار من الذهب ودرهم من الفضة وحبة من الفاكهة ، توضع فى يده تخفيفاً لألمه . ويقول لنا المراكشى إن هذا الموسم لتختين اليتامى كان يقام كل عام[2] .

---

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٠٤ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٥. ويقول المراكشى إن الهدنة عقدت بين الموحدين وملك قشتالة لمدة عشر سنين ( المعجب ص ١٦٠ ) .

(٢) المعجب ص ١٦٢ .

ومن ذلك أنه أمر بتمييز اليهود بلباس خاص : ونحن نعرف أن السياسة الموحدية ، كانت منذ عهد الخليفة عبد المؤمن ، تجرى نحو الذميين على قاعدة التزمت وعدم التسامح ، وأن عبد المؤمن ، أمر فى أواخر عهده بأن يعتنق النصارى واليهود والإسلام ، أو يغادروا الأراضى الموحدية ، وقرر الموت عقوبة للمخالفين. ولكن السياسة الموحدية جنحت من بعد عبد المؤمن إلى نوع من الاعتدال والتسامح ، فترك النصارى واليهود أحراراً يعيشون فى البلاد الموحدية. وكانت النظرة إلى اليهود دائماً أكثر تزمتاً وشدة منها إلى النصارى. وكان الذى حدا بالمنصور إلى تمييز لباسهم ، هو أنهم ازدهروا فى عهده وتشبهوا بالمسلمين فى اللباس ، وشاركوهم فى مظاهرهم وأساليب حياتهم ، فرأى أن يفرض عليهم لباساً خاصاً يميزهم عن المسلمين. وكان هذا الزى عبارة عن قميص أزرق طوله ذراع وعرضه ذراع ، وبرنس أزرق ذو أكمام مفرطة السعة والطول ، وقلنسوة زرقاء يضعونها على الرأس مكان العمامة ، تصل إلى الأذنين . ويقول لنا المراكشى إن الذى حمل المنصور على هذا التصرف إزاء اليهود ، هو شكه فى إسلامهم ، وأنه كان يقول لو صح عندى إسلامهم ، لتركتهم يختلطون بالمسلمين فى سائر أمورهم ، ولو صح عندى كفرهم لقتلت رجالهم وسبيت ذراريهم ، وجعلت أموالهم فيئاً للمسلمين ، لكنى متردد فى أمرهم ، وهم يظهرون الإسلام ، ويغشون المساجد ، والله أعلم بما تكن وصدرهم . وصدر قرار المنصور بتمييز اليهود فى أوائل سنة ٥٩٥هـ. وقد نظم ابن نغرالة زعيم اليهود المغاربة يومئذ ، وهو فيما يبدو سليل أسرة بنى نغرالة أوبنى النغريلى التى ازدهرت فى غرناطة أيام باديس بن حبوس ، أرجوزة يتهكم فيها على هذا القرار ،ومافرضه من اللباس الأزرق ، ويواسى مواطنيه اليهود ، هذا مطلعها :

لبس ذا الأزرق ليس فيه خسارا    فافهموا يا قوم هذه الإشارا

ولما تولى الخلافة أبو عبدالله محمد الناصر لدين الله ولد المنصور ، استغاث به اليهود ، واستشفعوا لديه بكل من استطاعوا لإقالتهم من هذا الزى المرهق ، فأمر أن يستبدلوه بثياب صفر وعمائم صفر ، واستمروا على ذلك بقية عهد الموحدين(١) .

(١) المعجب ص ١٧٣ — والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢٠٥ ، ودائرة المعارف اليهودية : Vol. I. p. 483 .

— ٣ —

ولم يمض قليل على ذلك حتى مرض المنصور مرضه الأخير ، وكان قد انتقل من الحضرة إلى ضاحية الصالحة الملكية التى كان قد أنشأها فى بداية عهده ، ولما شعر بخطورة مرضه ، ودنو أجله ، استدعى شيوخ الموحدين ، ووجوه أهل بيته ، وأعيان بلاطه . وقد وصف لنا صاحب البيان المغرب ، ما وقع فى هذا المجلس الأخير للخليفة الراحل ، وما أوصى به أشياخ دولته وأهل بيته ، فقال إنه لما استقر المجلس بالحضور ، اتجه الخليفة إليهم ببصره ، وقد اغرورقت عيناه بالدمع ، فسألهم عن أحوالهم وأعمالهم ، ثم قال : « أيها الناس رحمكم الله ، إن هذه العلل والأمراض قد توالت علينا ، وهدت قوانا ، وهتكت جوارحنا ، وأظن والله أعلم بغيبه أن هذه العلة هى آخر عهدنا بهذه الدنيا ، وأنها القاضية علينا ، فانظروا رحمكم الله ، وأعانكم على طاعته ، من تقدمون على أنفسكم وعلى رقاب المسلمين » .

قال ، فغلب البكاء على الحاضرين ، وتكلم أبو موسى بن محمد بن الشيخ أبى حفص بن على ، وقال «كأنكم يا أمير المؤمنين يا سيدنا تخرسنا بهذا القول ، أنتم أمير المؤمنين ، فإن توفيتم فإلى رحمة الله تعالى ، والجميع صائرون ومنقلبون إلى ما تصيرون إليه ، وكنتم قلدتمونا عهدكم الكريم لسيدنا الأمير الأجل أبى عبد الله ابنكم ، فنحن باقون عليه ، إلى أن تلحق نفوسنا بنفوسكم ، وهو خليفتكم علينا بعدكم » .

ثم تعاقب الحضور فى الكلام ، وأبدى الخليفة لهم قلقه لصغر سن ولده ، وطلب إليهم أن يدعوا الله تعالى باليمن والإقبال ، فيما انعقدت عليه النية ، وأن يتولوه بمعونتهم ، ولايتركوه لرأيه ، حتى ينتبه ، ويكمل عقله . ثم التفت إلى السيد أبى الحسن ، وأخيه السيد أبى زيد ، ابنى السيد أبى حفص . وقال إنهما لخير هذا البيت ، وإنه قدّمهما على الإخوان ، وعلى البلاد ، فليكونا على ما عهد منهما ، وعلى ما ربط لهما من قبل .

ثم أوصى الخليفة الحاضرين بالسادات ، وبعض الأشياخ ، وخص منهم بالذكر الشيخ أبا زكريا ، وأبا محمد عبد الواحد ، وأن يعتبر هذان الشيخان مستشارين لولده محمد ، لايصدر إلا عن رأيهما ومشورتهما :

وقال الخليفة للحضور بعد ذلك وعيناه تذرفان الدمع ، أوصيكم بتقوى الله تعالى ، وبالأيتام واليتيمة . فسأله الشيخ أبو محمد عبدالواحد ، يا سيدنا يا أمير المؤمنين ، ومن الأيتام واليتيمة ؟ قال اليتيمة جزيرة الأندلس . والأيتام سكانها المسلمون ، وإياكم الغفلة فيما يصلح بها من تشييد أسوارها وحماية ثغورها ، وتربية أجنادها وتوفير رعيتها ، ولتعلموا أنه ليس فى نفوسنا أعظم من همها ، ونحن الآن قد استودعنا الله تعالى ، وحسن نظركم فيها ، فانظروا من المسلمين ، وأجروا الشرائع على مناهجها .

وأوصى الخليفة أخيراً بالأغزاز (الغز) ومنحهم البركة التى أمر بها ، كما أوصى بملاطفة العرب والإحسان إليهم ، وشغلهم بالحركات ، وعدم تركهم للعطلة والراحة . وأوصى بطلبة الحضر ، وأن يكون لهم موضع خاص يشتغلون فيه بالمذاكرة . وأوصى أخيراً ببعض أصحاب المناصب ، والعمال الذين أولاهم ثقته .

واختتم المنصور حديثه بالتوصية بقبائل الموحدين ووجوب مزاورتهم ، وسماهم قبيلا بعد قبيل . وكرر حديثه إلى الأشياخ بأن يحفظوا الأمانة التى ألقيت إلى أعناقهم ، وأن يجروا الشرائع على سننها ، وأن يحرصوا على اجتناب الباطل . ثم دعا للناس ، وانفض المجلس ، وانصرف الموحدون ، وكان هذا آخر العهد به[1].

ويقول لنا صاحب روض القرطاس ، إن المنصور لما اشتد به المرض ، وشعر بدنو أجله ، قال لمن كان حوله من الأشياخ ، ما ندمت على شىء فعلته فى خلافتى ، إلا على ثلاث ، وددت أنى لم أفعلها ، أولها إدخال العرب من إفريقية إلى المغرب لأنى أعلم أنهم أهل فساد ، والثانية بناء رباط الفتح ، أنفقت فيه من بيت المال ، وهو بعد لا يعمر ، والثالثة إطلاق أسارى الأرك ، ولابد لهم أن يطلبوا بثأرهم[2] .

وفى ليلة الجمعة الثانى والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ٥٩٥هـ (٢٢ يناير سنة ١١٩٩م) ، توفى الخليفة أبو يوسف يعقوب المنصور بقصره بالصالحة[3].

---

(١) البيان المغرب – القسم الثالث ص ٢٠٦ – ٢٠٩ .

(٢) روض القرطاس ص ١٥٢ .

(٣) ويقول لنا صاحب روض القرطاس إنه توفى بقصبة مراكش ( ص ١٥٢ ) وفى رواية أنه توفى فى غرة جمادى الأولى سنة ٥٩٥ ، وفى أخرى أنه توفى غرة صفر ( ابن خلكان ج ٢ ص ٤٣١ ) ويقول ابن الأثير إنه توفى ثامن عشر ربيع الآخر ، وأن وفاته كانت بمدينة سلا (ج ١٢ ص ٥٧ ) .

ودفن موقتا بمجلسه بالقصر ، وكتمت وفاته حيناً ، ثم نقل رفاته إلى تينملل ، ودفن بها ، وثارت حول اختفائه بعض الروايات والأساطير ، فزعم البعض أنه ترك الملك وأضحى مرابطاً بالأندلس ، وزعم آخرون أنه تزهد وساح فى البلاد ، وقصد المشرق ومات خاملا ، ودفن بالشام ، إلى غير ذلك(١) .

وبوفاة المنصور يختتم عهد من ألمع عهود الدولة الموحدية :

— ٤ —

كان الخليفة يعقوب المنصور أعظم خلفاء الدولة الموحدية ، إذا استثنينا جده عبد المؤمن ، مؤسس الدولة وموطد دعائمها . وفى ظله بلغت الدولة الموحدية أوج قوتها وعظمتها ، وظهرت على يديه روعة الملك وفخامته ، فى أبهى حللها .

ويصفه ابن الخطيب بأنه كان « نجم بنى عبد المؤمن » وهى كلمة قوية جامعة(٢) .

وتشيد الرواية الإسلامية بخلال المنصور ، وتفيض فى استعراض مآثره ، وامتداح تصرفاته وسياسته ، سواء من الناحية الداخلية أومن الناحية الخارجية ، وتشيد بنوع خاص بغيرته فى الجهاد ، وتفانيه فى الذود عن قضية الإسلام بالأندلس ، ومن ثم كانت عنايته بتنظيم الجيش وتنميته ، وشحنه بالفرق الجديدة من الفرسان والرجالة ، وتزويده بموفور العتاد والسلاح ، والإنفاق عليه بسعة وسخاء ، وإعداده للجهاد بصفة مستمرة . وكان يعنى بتوفير أرزاق الجند ، ومنحها فى مواعيدها المقررة . وكان نظام العطاء فى الجيش ، أن يمنح الجند الموحدون العطاء ، ( الحامكية ) ثلاث مرات فى العام بصورة منتظمة ، مرة فى كل أربعة أشهر ، ويمنح الجند الغز أو الأغزاز ، وكذلك العرب عطاءهم كل شهر . وكان رأى المنصور فى اختصاص الأجناد الغز والعرب بهذه المزية ، هو أن الموحدين من أهل البلاد الأصليين ولهم بها الإقطاع والأموال الكثيرة . أما الغز والعرب ، فهم غرباء لاشىء لهم فى البلاد يعتمدون عليه سوى هذا العطاء الرسمى المنظم(٣) . وكان لهذه العناية بتوفير أعطية الجيش أثرها القوى فى رفع همم الجند ، وشحذ

---

(١) البيان المغرب ص ٢١١ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤٣١ .

(٢) ابن الخطيب فى الإحاطة فى ترجمة أبي يعقوب يوسف ( مخطوط الإسكوريال السالف الذكر — لوحة ٣٩٥ ) .

(٣) المراكشى فى المعجب ص ١٦٣ ، والبيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٠٨ .

الرغبة فى الجهاد . والواقع أن الجهاد هو ألمع ما فى حياة المنصور العامة ، وقد أسبغت عليه غزواته الموفقة للمالك النصرانية فى شبه الجزيرة ، ولاسيما انتصاره الباهر فى موقعه الأرك ، على شخصه وعلى جهاده ، هالة من العظمة والجلال غلبت على كل خلاله ومناقبه الأخرى .

وقد رأينا المنصور منذ بداية حكمه ملكاً حازماً ، يعمل على إقامة العدل وتوطيد أسسه ، والنظر فى الأحكام بنفسه ، ومراقبة أعمال الولاية والعمال ، ومحاسبتهم ، ومطاردة من ينحرف منهم عن جادة الحق والعدل وعزلهم ، ثم رأيناه ملكاً مصلحاً ، يضطرم بروح إنشائية قوية ، ويعنى بإقامة المنشآت العظيمة ، من مدن وحصون وجوامع وغيرها ، سواء بالمغرب أوالأندلس .

وأول ما تشيد به الرواية من صفات المنصور هو ورعه وتقواه ، والتزامه أحكام الشريعة وسننها ، ومحاولة تطبيقها على حقيقتها ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وإقامة الحدود ، حتى فى أهله ، وعشيرته الأقربين ، وكان مثل جده عبد المؤمن يشدد فى إلزام الرعية بإقامة الصلوات الخمس ، ويأمر بالمناداة عليها ، ويعاقب على تركها ، وكان يشتد كذلك فى إقامة الحدود ، ويذهب فى ذلك أحياناً إلى حدود بعيدة ، حتى قيل إنه عاقب على شرب الخمر بالقتل ، وأمر بقتل بعض العمال الذين تشكو الرعية منهم[1] .

وقد كان للمنصور من الناحية الدينية موقف خاص ، يمكن أن يوصف بأنه انقلاب فى ميدان المذهب والعقيدة فى الدولة الموحدية ، فهو أولا قد طارد علم الفروع ، أعنى دراسة تفاصيل العبادات والمعاملات . وأمر بإحراق كتب المذهب المالكى فى سائر البلاد مثل مدونة سحنون ، وكتاب ابن يونس ، ونوادر ابن أبى زيد ، وكتاب التهذيب للبرادعى ، وواضحة ابن حبيب ، وأمر الناس بترك الاشتغال بعلم الرأى والخوض فيه ، وأنذر من يفعل ذلك بشديد العقاب ، وأمر جماعة من العلماء المحدثين بجمع أحاديث من المصنفات العشرة فى الصلاة ومايتعلق بها على نحو المجموعة التى جمعها ابن تومرت فى الطهارة ، وذاع هذا المجموع فى المغرب ، وأقبل الناس على حفظه . وكان قصد المنصور من ذلك أن يمحو

---

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ٤١٨ ، و٤٣٣ ، وابن الأثير ج ١٢ ص ٥٧ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢٠٥ ، والمقرى فى نفح الطيب ج ٢ ص ٥٣٦ .

مذهب مالك وأن يزيله من المغرب[١]. وكان المنصور أيضاً من أشد دعاة المذهب الظاهرى ، وهذا المذهب الذى اشتهر على يد الفيلسوف ابن حزم القرطبي فى أوائل القرن الخامس الهجرى ، يرجع إلى القرن الثالث ، ومؤسسه هو خلف بن داود الأصفهانى المتوفى سنة ٢٧٠ هـ ، وقد وضع أسسه فى نحو منتصف القرن الثالث ، وخلاصتها أنه يجب فى صوغ أحكام الشريعة أن يُرجع فقط إلى ظاهر القرآن والسنة أى الحديث ، وألا يُؤخذ فى ذلك بالرأى أو القياس ، وأن يبقى الإجماع محصوراً فى إجماع صحابة رسول الله . ويبدى ابن حزم إمام المذهب الظاهرى بالأندلس تشدداً فى تطبيقه على العقائد ، وهو لا يأخذ فى تفسير الأحكام إلا بالكلمة المكتوبة ، والحديث الثابت ، ويعتبرهما حاسمين فى صوغ الأحكام . وقد حمل الخليفة المنصور الناس على اعتناق المذهب الظاهرى ، والتزام الأخذ بالظاهر من القرآن والحديث . وكان المنصور يشكو من تعدد الآراء والأحكام المذهبية فى المسألة الواحدة ، ويرى أن الأخذ بالمذهب الظاهرى يحسم كثيراً من هذه الخلافات . ونستطيع القول إن المذهب الظاهرى ، غدا هو المذهب الرسمى فى عهد المنصور ، وعظم أمر الظاهرية ، وانتشروا بالمغرب ، وكانوا يسمون بالحزمية نسبة إلى الفيلسوف ابن حزم عميد المذهب. وكان المنصور يبجل ابن حزم ، ويرتفع به وبعلمه إلى أسمى مكانة . ومما يذكر فى هذا الصدد، ما يروى ، من أن المنصور ، مر فى عودته من غزوه لأراضى البرتغال فى سنة ٥٨٧ هـ ( ١١٩١ م ) ، بشمال مدينة ولبة ، حيث توجد قرية منت ليشم ، وهى بلد بنى حزم ، وبها قبر العلامة ابن حزم ، فوقف المنصور على قبره ، وهو يقول عجباً لهذا الموضع يخرج منه مثل هذا العالم ؛ ثم قال « إن كل العلماء عيال على ابن حزم »[٢] . ويقول لنا ابن الأثير إن المنصور عين فى أواخر أيامه قضاة من الشافعية . وقد كان الجنوح إلى مذهب الظاهرية ، فيما يذكرلنا المراكشى من صفات أبيه الخليفة أبى يعقوب يوسف ، وجده الخليفة الفقيه العالم عبد المؤمن بن على ، إلا أنهما لم يفصحا عن هذا الاتجاه بشكل ظاهر ،

---

( ١ ) المراكشى فى المعجب ص ١٥٧ و ١٥٨ ، والتكملة لابن الأبار (القاهرة) ج ٢ ص ٥٦٣ . وابن الأثير ج ١٢ ص ٥٧ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤٣٢ ، والنويرى طبعة جسبار ريميرو السابق الإشارة إليها ج ٨ ص ٢٧٧ .

( ٢ ) المقرى فى نفح الطيب ج ٢ ص ١٦٢ . ومازالت هذه القرية التى دفن بها العلامة الأندلسى الكبير ، قائمة حتى يومنا ، وهى تسمى اليوم باسمها الحديث «كاسا مونتيخو **Casa Montejo** » .

إذ كانت الدولة الموحدية ما تزال فى بدايتها ، وكانت عقيدة التوحيد تعلو على كل ما عداها . وكان من آثار هذا الاتجاه أن ازدهر علم الحديث فى عهد المنصور ، وحظى طلابه بمنتهى التشجيع والرعاية[١] .

ومن جهة أخرى فإنه يوجد ما يحمل على الاعتقاد بأن المنصور لم يكن من الغلاة فى تصوير إمامة المهدى ، ولم يكن بالأخص من المؤمنين بعصمته ، وهو اتجاه تبلور فيما بعد ، واتخذ على يد خلفائه صورته العملية [٢] .

ومما يتصل بتقى المنصور ، وورعه ، وحماسته الدينية ، ما ينسب إليه من أنه كان ينوى افتتاح مصر ، وضمها إلى الإمبراطورية الموحدية ، لأنها كانت فى نظر الموحدين بلداً يجنح إلى البدع ، وتشيع فيه المنكرات . وقد نوه بمشروع المنصور هذا نحو مصر ، غير واحد من المؤرخين والرواة . فيقول لنا المراكشى ، وهو معاصر لعهد المنصور إنه قد بلغه عن غير واحد « أن المنصور صرح للموحدين بالرحلة إلى المشرق ، وأنه كان يذكر البلاد المصرية وما فيها من المناكر والبدع ، ويقول ، نحن إنشاء الله مطهروها ، ولم يزل هذا عزمه إلى أن مات»[٣]. ويفيض الرحالة ابن جبير ، وهو أيضاً معاصر المنصور ، فى رحلته ، فى الكلام عن هذه النية الموحدية فى غزو مصر ، وصداها فى مصر ذاتها ، ويبدأ حديثه بالحملة على أحوال البلاد المشرقية ، ولاسيما ما يقع ببلاد الحجاز من ظلم الحجاج وانتهاب أموالهم ، ويعرب عن أمله فى أن تقمع هذه البدع المجحفة بالمسلمين « بسيوف الموحدين أنصار الدين ، وحزب الله أولى الحق والصدق ، والذابين عن حرم الله عز وجل ، والغائرين على محارمه ، والجادين فى إعلاء كلمته ، وإظهار دعوته ، ونصر ملته » .

ثم يقول ابن جبير فى التنديد بأحوال المشرق وضعف إسلامه : « وليتحقق المتحقق ، ويعتقد الصحيح الاعتقاد ، أنه لا إسلام إلا ببلاد المغرب ، لأنهم على جادة واضحة لابنيات فيها ، وما سوى ذلك مما بهذه الجهات المشرقية ، فأهواء وبدع ، وفرقة ضالة وشيع ، إلا من عصم الله عز وجل من أهلها ، كما أنه لا عدل ولا حق ولا دين على وجهه ، إلا عند الموحدين أعزهم الله ، فهم أئمة العدل فى هذا الزمان ، وكل من سواهم من الملوك فى هذا الأوان ، فعلى غير

(١) المراكشى فى المعجب ص ١٥٧ و ١٥٨ .
(٢) المراكشى فى المعجب ص ١٦٤ .
(٣) المعجب ص ١٦٠ .

الطريقة ، يُعشرون تجار المسلمين كأنهم أهل ذمة لديهم ، ويستجلبون أموالهم بكل حيلة وسبب ، ويركبون طرائق من الظلم لم يسمع بمثلها ، اللهم إلا هذا السلطان العادل صلاح الدين ، الذى قد ذكرنا سيرته ومناقبه ، لو كان له أعوان على الحق » .

وأهم من ذلك ما ينوه ابن جبير من صدى الدعوة الموحدية بمصر ، وانتشارها بصورة تدعو إلى الدهشة ، ومن أن أكثر أهل مصر ، بل كلهم « يرمزون بذلك رمزاً خفياً ، وينسبون ذلك إلى آثار حدثانية ، وقعت بأيدى بعضهم ، وأنذرت بأشياء من الكوائن . . ولم يبق إلا الكائنة السعيدة من تملك الموحدين لهذه البلاد ، فهم يستطلعون بها صبحاً جلياً ، ويقطعون بصحتها ، ويرتقبونها ارتقاب الساعة التى لايمترون فى إنجاز وعدها . شاهدنا من ذلك بالإسكندرية ومصر وسواهما مشافهة وسماعا ، أمراً غريباً ، يدل على أن ذلك الأمر العزيز ، أمر الله الحق ، ودعوته الصدق . ونُمى إلينا أن بعض فقهاء البلاد المذكورة وزعمائها ، قد حبّر خطباً أعدها للقيام بين يدى سيدنا أمير المؤمنين ، وهو يرتقب ذلك اليوم ارتقاب يوم السعادة ، والله عز وجل يبسطها من كلمة ، ويعليها من دعوة ، إنه على ما يشاء قدير »[1] .

ونستطيع أن نربط بين هذه الأقوال التى يصف فيها ابن جبير صدى الدعوة الموحدية بمصر خلال مروره بها فى سنة ٥٧٩ هـ ( ١١٨٣ م ) ، أعنى قبيل عهد المنصور بقليل ، وبين ما ذكره أبو القاسم المؤمن المصرى فى كتابه المسمى « بالأنساب فى معرفة الأصحاب » ، ونقله البيذق ، عن أصحاب المهدى بمصر ، فقد ذكر لنا من هؤلاء واحداً وخمسين رجلا بأسمائهم ، وقال إنهم كانوا من أعيان بلادهم « وإنهم كانوا سامعين لقوله ، مجيبين لأمره ، مؤمنين به ، مختارين صحبته ، مؤثرين لحقه ، معظمين لحرمته »[2] .

ويستخلص مما تقدم ، ومن أقوال ابن جبير خاصة ، أنه كانت توجد ثمة فكرة موحدية لغزو مصر ، وأن هذه الفكرة ترجع إلى ما قبل عهد المنصور ، وأنها ربما تبلورت فى عهد المنصور ، واتخذت طابعاً قوياً ، وذلك لما أبداه

---

( ١ ) رحلة ابن جبير ( المنشورة بعناية الدكتور حسين نصار — القاهرة سنة ١٩٥٥ ) ص ٥٣ و ٥٤ .

( ٢ ) نقله البيذق فى « أخبار المهدى ابن تومرت » ص ٣٠ — ٣٢ .

المنصور من عزم وضخامة فى أهباته العسكرية ، وما وفق إليه من انتصارات باهرة ضد النصارى فى شبه الجزيرة الإسبانية، ولاسيا فى معركة الأرك العظيمة . وربما كان من بواعث هذه الفكرة ومشجعاتها ، مثل الفاطميين ، الذين ساروا من المغرب ، قبل ذلك بأكثر من قرنين ، وغزوا مصر ، واستولوا عليها بأيسر أمر . ولكن شتان بين العصرين ، وشتان بين ماكانت عليه مصر وقت الفتح الفاطمى ، وماكانت عليه أيام الخليفة المنصور . بيد أننا لانستطيع مع ذلك ، أن نعتقد أن الموحدين كانوا يحتضنون مشروع غزو مصر بصورة جدية . وأكبر الظن أنها ربما كانت أمنية ، وربما كانت مثل هذه الأمنية ترجع إلى عصر المهدى ذاته ، فقد رأينا المهدى أثناء مقامه بثغر الإسكندرية يغضب لما رآه فيها من « البدع » ثم يقوم بها بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، حتى قيل بأنه خرج منها منفيا ، لما ترتب على دعايته من الشغب . بل قيل أكثر من ذلك ، وهو أن المهدى قال ذات يوم لبعض أصحابه فيما قال ووعدهم به، وكانوا يجلسون تحت شجرة الخروب المواجهة لمسجد تينملّل : « ليبصرنّ منكم من طالت حياته أمراء أهل مصر، مستظلين بهذه الشجرة ، قاعدين تحتها »(١) كذلك يلوح لنا أن ما يذكره ابن جبير عن انتشار فكرة الغزو الموحدى بمصر ، وماكان يهمس به الناس من ذلك الأمر ، إنما هو مبالغة ترجع إلى ولاء ابن جبير للدولة الموحدية ، التى خدم فى ظلالها وتمتع برعايتها ، والأغلب أن ابن جبير تلقى أخباره من بعض الغلاة الهائمين من أتباع المهدى وأنصاره بمصر ، فصورها على أنها تعبر عن اتجاه أغلبية الأمة المصرية ، وهو مايعتبر فى نظرنا من ضروب الوهم المغرق .

ولاشك أن الموحدين ، وفى مقدمتهم الخليفة المنصور ، كانوا يعرفون ماكانت عليه قوة مصر فى ذلك العهد ، التى نعمت فيه بقيادة الملك الناصر صلاح الدين ، وما أحرزته بقواتها العسكرية الضخمة البرية والبحرية ، من انتصارات باهرة على الصليبيين ، فلم يكن من المعقول أن يفكروا فى غزو مثل هذه الإمبراطورية الإسلامية الضخمة ، التى تحطمت على صخرة قوتها الراسخة حملات الصليبيين المتوالية ؛ ومن جهة أخرى ، فإن قصور الموحدين فى هذا الوقت بالذات عن القضاء على ثورة بنى غانية فى إفريقية بصورة حاسمة ، واستمرار هذه الثورة العتيدة ، أيام المنصور ومن بعده أعواما طويلة ، يقطع بأن فكرة

---

(١) المراكشى فى المعجب ص ١٦٤ .

غزو مصر، إن كانت، لم تكن لدى الموحدين سوى أمنية خيالية بعيدة المنال .

وكان المنصور عالما مستنيراً، متقناً للحديث والفقه واللغة، مشاركاً فى كثير من العلوم، وكان محباً للعلماء مؤثراً لهم يجمع حوله صفوة العلماء والمفكرين، وقد أشرنا من قبل إلى شغفه بالجدل والمناقشات الفلسفية، وما كان يعقده من مجالس خاصة يستمع فيها إلى آراء الفيلسوف ابن رشد : وقد كانت نكبة الفيلسوف العظيم ونفيه إلى اليسّانة من سقطاته البارزة، ولكن كان متأثراً فى ذلك بضغط الفقهاء والطلبة الموحدين . وكان المنصور يعنى بأمر طلبة العلم أعنى علم الحديث، أعظم عناية، حتى نالوا على يديه من الرعاية والنفوذ ما لم ينالوه أيام أبيه وجده . وكان الموحدون يتبرمون بالطلبة، وينقمون عليهم خظوتهم ونفوذهم لدى الخليفة، حتى اضطر المنصور ذات يوم، أن يصرح أمام سائر الموحدين، وقد بلغه موقفهم من الطلبه، « يا معشر الموحدين، أنتم قبائل، فمن نابه منكم أمر فزع إلى قبيله، وهؤلاء الطلبة لا قبيل لهم سواى، فمهما نابهم أمر، فأنا ملجؤهم، وإلىّ فزعهم، وإلىّ ينتسبون » . يقول المراكشى، فعظم من ذلك اليوم أمر الطلبة، وبالغ الموحدون فى برهم وإكرامهم[١] .

وكان المنصور أديباً فصيحاً، جزل الألفاظ، وكان يجتمع حوله شعراء العصر من العدوتين، المغرب والأندلس، يصغى إلى مدائحهم، ويغمرهم بصلاته، وقد وضع له شاعره الأثير أبو العباس أحمد بن عبد السلام الجراوى كتابه الذى سماه « صفوة الأدب وديوان العرب » فى مختار الشعر[٢] . وانتشر هذا الديوان بين أهل المغرب انتشاراً عظيما، وكان لديهم ككتاب الحماسة لأبى تمام عند أهل المشرق، وقد سبق أن أشرنا فى غير موضع إلى قصائد الجراوى ومدائحه للمنصور، وأبيه الخليفة أبى يعقوب يوسف، فى مختلف المناسبات . وكان من شعراء دولته أيضا أبو بكر يحيى بن عبد الجليل بن مُجْبَر المرسى الأندلسى، وقد أشرنا إلى مدائحه كذلك من قبل غير مرة، وقد ذكر لنا ابن خلكان أن مدائح ابن مُجبر للمنصور جمعت فى ديوان، وأورد لنا منها قصيدة رقيقة فى مطلعها :

أتراه يترك الغـزلا     وعليه شب واكتهـلا

---

(١) المراكشى فى المعجب ص ١٥٨ .

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ٤٣٢ و ٤٩٤، وروض القرطاس ص ١٤٢ .

كلف بالغيد ما عقلت نفسه السلوان مذ عقلا

وإلى جانب هذه الصفات العلمية والأدبية اللامعة ، كان المنصور جواداً ، وافر البذل ، كثير الصدقات ، وكان يقدر قيمة البذل فى أسر النفوس وترويضها ، وكان يؤثر بصلاته الوفيرة أجناد الغز ( الأغزاز ) والعرب الذين ينضمون لجيشه ، استبقاء وتأكيداً لولائهم(١).

هذا وإما عن كفاية المنصور ومواهبه الإدارية والإنشائية ، فلدينا من ذلك تفاصيل عديدة . فقد كان المنصور فى الواقع من أقدر الخلفاء الموحدين فى فهم شئون الدولة الإدارية وتنظيمها ، وكانت ولايته لوزارة أبيه مدرسة درس فيها هذه الشئون خير دراسة . وفيها « بحث عن الأمور بحثاً شافياً ، وطالع أحوال العمال والولاة والقضاة وسائر من ترجع إليه الأمور مطالعة أفادته معرفة جزئيات الأمور »(٢) . وقد رأيناه سواء فى المغرب أو الأندلس يعكف على معالجة شئون الدولة بهمة ، ويتقصى شئون الولاة والعمال . وكان يولى شئون الأندلس فى ذلك عناية خاصة ، ففى كل مرة يعبر فيها إلى شبه الجزيرة ، يعنى إلى جانب أهباته للغزو ، بتنظيم شئونها الداخلية ، وفى سنة ٥٩٢ هـ ، نراه بعد ظفره فى معركة الأرك ، يعنى خلال إقامته بإشبيلية ، بمطاردة العمال المقصرين والمختلسين ومحاسبتهم ، واستصفاء أموالهم ، كما يعنى بتعيين غيرهم من الحائزين لثقته . ثم هو فى نفس الوقت يولى شئون الدولة المالية اهتماماً خاصاً ، ويندب لأعمال الجباية رجالا من ذوى الأمانة والنزاهة . وكان من أهم مافعله المنصور فى باب السياسة المالية ، هو تغييره للدينار الموحدى ، ومضاعفته لوزنه ، حسبما أشرنا إلى ذلك فى موضعه .

وكذلك أبدى المنصور همة ظاهرة فى إقامة المنشآت العمرانية العظيمة ، فأنشأ لأول عهده ضاحية الصالحة الملوكية فى جنوبى مراكش ، فوق البسيط الممتد بين باب أغمات شرقاً وباب الشريعة غرباً ، فجاء إنشاؤها دليلا على ماكانت تجيش به نفسه من إظهار أبهة الملك وروعته ، على مثل ماكان عليه خلفاء الأندلس ، وعنى بتوسيع مدينة رباط الفتح ، التى كان قد اختطها جده فأبوه وتجديد قصبتها ، وإتمام أسوارها وأبوابها ، واستكمال أحيائها ومبانيها . وأنشأ

---

( ١ ) المراكشى فى المعجب ص ١٦٣ ، والبيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٠٨ .

( ٢ ) المعجب ص ١٤٨ ، ونقله ابن خلكان ج ٢ ص ٤٢٨ .

بها مسجداً عظيما واسع الفناء ، يقول المراكشى بأنه كان أكبر مسجد فى المغرب ، وأنشأ له صومعة متناهية فى العلو « على هيئة منار الإسكندرية » يُصعد إليها بغير درج . ولكن هذا المسجد لم يتم إذ انقطع العمل فيه بوفاة المنصور[١] . ونزيد نحن على ذلك بأن معالم المسجد المشار إليه ، وقواعد أعمدته مازالت قائمة فى مكانها ، تدل على عظم مساحته ، وما زالت صومعته الشاهقة التى لم يكمل بناؤها قائمة فى مكانها ، على مقربة من شاطئ المحيط ، وهى التى تعرف اليوم بمنارة حسّان ( تورحسان ) ، وهى على نمط صومعة جامع إشبيلية الشهيرة ( لاخيرالدا )[١] .
بيد أن أهم منشآت المنصور فى الحاضرة الموحدية — مراكش — كان هو البيمارستان ( المستشفى ) العظيم ، الذى كان أول صرح من نوعه حظيت به مراكش . وقد اختار لإقامته ساحة شاسعة ، وعنى بتخطيطه وبنائه أعظم عناية ، وغرست من حواله الحدائق ، وأجريت المياه إلى سائر أجنحته ، وزود بنفيس الأثاث والرياش ، ومختلف صنوف الأدوية ، وعين له رهط من مهرة الصيادلة لإعداد الأدوية على اختلاف أصنافها ، ورصدت الأموال اللازمة للإنفاق على المرضى ، وإطعامهم وكسائهم ، وكان المريض الفقير إذا تم شفاؤه ، زُود عند خروجه بمال يعيش منه حتى يرزق بعمل ، وإن كان غنياً دُفع إليه ماله وتُرك وشأنه ، وكان يؤم هذا المستشفى الكبير سائر المرضى من المحليين والغرباء ، وكان المنصور يركب إليه فى كل جمعة بعد الصلاة ، ويعود المرضى ، ويسأل عن أحوالهم وحاجاتهم ، وكانت هذه المأثرة الإنسانية من أعظم مآثر المنصور وأخلدها[٢] .

وأما عن منشآته بالأندلس فقد أشرنا إلى ماكان من إنشائه لحصن الفرج خارج مدينة إشبيلية ، وإنشاء قصوره وقبابه ، ثم إتمامه لصومعة جامع إشبيلية العظيمة ، وهى التى كان أبوه قد أمر بإنشائها ، ولم تكمل فى عهده ، فقام المنصور على إتمامها ، وتزويدها بتفافيحها الذهبية حسبما أشرنا إليه فى موضعه . وأنشأ المنصور فى نفس الوقت بمدينة مراكش منارة الكُتُيبة العظيمة على نسق صومعة جامع إشبيلية ، كما أنشأ بمدينة الرباط صومعة مسجدها على نفس الطراز ، وهى منارة حسّان التى لم يكمل بناؤها ، حسبما تقدم . وقيل فى شأن منارة الكتيبة إنه بدئ بإنشائها فى عهد جده الخليفة عبد المؤمن ، وقام هو بالعمل على إتمامها ،

---

( ١ ) المراكشى فى المعجب ص ١٥٠ .

( ٢ ) المراكشى فى المعجب ص ١٦٢ .

وطبقاً لهذه الرواية تكون منارة الكتيبة سابقة على صومعة إشبيلية ، وتكون هى أم هذا الطراز من الصوامع الموحدية ، وعلى أى حال فقد تم إنشاء الكتيبة فى سنة ٥٩٤ هـ ، قبيل وفاة المنصور بقليل(١) .

ووزر للخليفة المنصور فى بداية أمره أخوه السيد أبوعبد الله . ثم خلفه فى الوزارة أبو حفص عمر بن أبى زيد الهنتاتى ، ولما توفى خلفه أبو يحيى أبو بكر ابن عبد الله بن أبى حفص عمر الكبير ، واستمر فى منصبه إلى أن قُتل فى موقعة الأرك وهو يقود الصفوف . فتولى الوزارة من بعده أبو عبدالله محمد بن أبى بكر ابن الشيخ أبى حفص ، وهو ابن عم أبى يحيى الشهيد المتقدم الذكر ، ولكنه لم يلبث فى الوزارة سوى أيام يسيرة ، ثم تركها مختاراً وهام على وجهه فى بعض نواحى إشبيلية ، وتزهد ، فأرسل الخليفة إليه من استرده وأعفاه من الوزارة، وخلفه فى الوزارة أبو زيد عبد الرحمن بن موسى بن يوجّان الهنتاتى ، فلم يزل فى منصبه حتى توفى الخليفة المنصور ، فتولى الوزارة بتوصية الخليفة ، لابنه محمد الناصر مدى حين(٢) .

وكتب للمنصور عدة من أكابر الكتاب منهم أبو الفضل جعفر ابن محشرة من أهل مدينة بجاية ، وكان تلميذاً لأبى القاسم القالمى ، كاتب أبيه الخليفة أبى يعقوب ، وكان كاتبا مجيداً ، بارع الأسلوب ، واسع الرواية غزير الحفظ ، تشهد له بذلك رسائله العديدة التى انتهت إلينا ، واستمر فى منصب الكتابة حتى توفى . فكتب من بعده للمنصور أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن ابن عياش ، وهو أندلسى من أهل بُرْشانة من أعمال ألمرية، واستمر فى منصبه حتى توفى المنصور ، فكتب من بعده حيناً لابنه محمد الناصر ، ثم لحفيده يوسف. وكان من ألمع كتاب الدولة الموحدية وأبرعهم أسلوباً . وقد انتهت إلينا كذلك عدة من رسائله الصادرة عن الخليفة المنصور ، ومنها الرسالة التى وضعها فى اتهام ابن رشد وزملائه بالخروج على شريعة الإسلام ، وكلها تشهد بروعة بيانه(٣) .

(١) روض القرطاس ص ١٥١ .

(٢) المعجب ص ١٤٨ ، والحلل الموشية ص ١٢١ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص٢٠٩.

(٣) راجع فى مجموعة الرسائل الموحدية الرسالة السادسة والعشرين إلى الرسالة الرابعة والثلاثين وهى جميعها من إنشاء ابن محشرة ، وراجع الرسائل الخامسة والثلاثين والسادسة والثلاثين والسابعة والثلاثين وهى من إنشاء ابى عبد الله بن عياش .

وتولى القضاء فى عهد المنصور ، أبو جعفر أحمد بن مضاء من أهل قرطبة ، وكان يتولاه من قبل فى عهد أبيه الخليفة أبى يعقوب ، ولما توفى خلفه فى القضاء أبو عبد الله محمد بن مروان من أهل وهران ، ثم عـُزل وتولى القضاء من بعده أبو القاسم أحمد بن محمد من ولد بقى بن مخلد فقيه الأندلس الأشهر، واستمر فى منصبه حتى وفاة المنصور ، ووقتا من عهد ولده محمد الناصر(١).

وترك المنصور من الولد ستة عشر من الذكور ، هم محمد ولى عهده والخليفة من بعده ، وإبراهيم، وعبد الله ، وعبد العزيز ، وأبو بكر ، وزكريا، وإدريس ، وعيسى ، وموسى ، وصالح ، وعثمان ، ويونس ، وسعد ، ومساعد ، والحسن، والحسين . وقد تولى الخلافة منهم غير محمد ، اثنان آخران هما أبو محمد عبد الله العادل ، وأبو العلاء إدريس المأمون . وترك المنصور كذلك عدة من البنات .

هذا ، وأما عن شخص الخليفة يعقوب المنصور ، فقد وصفته الرواية المعاصرة ، بأنه كان شديد السمرة ، طويل القامة ، جميل المحيا ، أعين ، أفوه ، أقنى الأنف ، شديد الكحل ، مستدير اللحية ، ضخم الأعضاء ، جهورى الصوت ، جزل الألفاظ(٢) .

تلك هى مآثر الخليفة الموحدى، الظافر فى معركة الأرك العظيمة ، وتلك هى صفاته وخلاله الوضاءة اللامعة .

---

(١) المعجب ص ١٤٩ .

(٢) المعجب ص ١٤٧ و١٤٨، وابن خلكان ج ٢ ص ٤٢٨ .

# الفصل الخامس

## عصر الخليفة محمد الناصر

جلوس الخليفة محمد الناصر . وزيره ومستشاروه . أعماله الأولى . أحوال إفريقية . استيلاء يحيى ابن غانية على قابس . ابن عبدالكريم وظهوره . خلافه مع والى المهدية . القبض عليه ثم إطلاق سراحه . استيلاؤه على المهدية واستبداده بها . مسيره لغزو تونس . اشتباكه مع الموحدين وهزيمتهم . لومه وعوده إلى المهدية . الخلاف بينه وبين يحيى الميورقى . استيلاؤه على قفصة . اشتباكه مع الميورقى . هزيمته والتجاؤه إلى المهدية . محاصرة الميورقى له . تسليمه للمهدية . قبض الميورقى عليه هو وولده ثم اغتيالها . امتداد سلطان يحيى إلى معظم أنحاء إفريقية . سيره إلى باجة واقتحامها . مسير الموحدين لقتاله . هزيمة الموحدين وسقوط محلتهم . مسير يحيى إلى بسكره واقتحامها . عوده إلى المهدية . قلق البلاط الموحدى لحوادث إفريقية . تجهيز حملة كبيرة لقتال الميورقى وتوقفها . ثورة أبى قصبة ببلاد السوس . مسير الموحدين لقتاله . هزيمة الدعى ومقتله . وقوع السيل العظيم بإشبيلية . تأهب الموحدين لافتتاح الجزائر الشرقية . عبد الله بن إسحاق حاكم الجزائر . مسالمته للدول النصرانية وتعاونه معها . انتزاعه لمدينة ميورقة من الموحدين . إعداد الحملة الموحدية لافتتاح الجزائر . خروجها من دانية إلى يابسة ثم إلى ميورقة . استيلاء السفن الموحدية على منورقة . نزول الموحدين فى ميورقة . القتال بينهم وبين عبد الله بن إسحاق . هزيمة عبد الله ومقتله . اقتحام الموحدين لمدينة ميورقة وافتتاحها . تعيين ابن طاع الله الكومى لولايتها . صدى هذا الفتح فى أراجون والدول النصرانية الأخرى . تأثيره فى خطط يحيى بن إسحاق . عزم يحيى على فتح تونس . مسيره إليها فى قواته . قطع اتصالها بالبحر ومحاصرتها . اقتحام يحيى لها . قبضه على واليها السيد أبى زيد وأولاده وأشياخ الموحدين . يحيى يفرض غرامة فادحة على تونس . خروجه إلى جبل نفوسة وتغريم أهله . وقع سقوط تونس فى بلاط مراكش . الناصر يعين ولاة الأندلس . عزمه على سحق الميورقى . مسير الحملة الموحدية والأسطول الموحدى إلى إفريقية . حركات يحيى بن إسحاق فى الجنوب . وصول الأسطول الموحدى . وصول الحملة الموحدية بقيادة الناصر . عودة يحيى إلى تونس . إرساله لأمواله وذخائره إلى المهدية . إخلاؤه لتونس ومسيره فى قواته إلى قفصة . احتلال الموحدين لتونس . مسير الحملة الموحدية فى أثر الميورقى . تحصن الميورقى بجبل دمر . تحصينه للمهدية . مسير الناصر لمحاصرة المهدية . مسير حملة موحدية بقيادة الشيخ أبى حفص إلى جبل دمر . معركة دموية فى رأس تاجرا . هزيمة الميورقى ومقتل أصحابه . فراره فى فلوله . إنقاذ السيد أبى زيد وصحبه . اشتداد المقاومة بالمهدية . المعارك المستمرة . طلب الغانى حاكم المهدية التسليم بالأمان . موافقة الناصر . خروجه من المهدية مع صحبه . دخوله فى طاعة الموحدين . سحق بنى غانية وتحرير إفريقية . مثل بنى غانية فى محاربة الموحدين . نحوها إلى مغامرة فى سبيل السلطان والثراء . مثالب حكومة الميورقى وأساليبها الهمجية . بغض المحكومين لها . التجاء يحيى الميورقى إلى الصحراء الجنوبية . مطاردة الموحدين لطوائف المفسدين . تعيين الشيخ ابن محمد عبد الواحد لولاية إفريقية . اعتذاره وشروطه للقبول . موافقة الناصر ومغادرته لتونس . مسيره إلى تلمسان ثم إلى فاس . أعماله ومطاردته لعاملى فاس ومكناسة .

مسيره إلى رباط الفتح ثم إلى مراكش . نظره فى الأعمال السلطانية ومراجعته لأعمال العمال . وفاة السيد أبى الربيع والى بجاية . تعيين السيد أبى عمران موسى والياً لتلمسان . عود يحيى الميورقى إلى الحركة . تحول بعض طوائف العرب عن محالفته إلى الموحدين . مسير يحيى إلى الشمال . خروج الشيخ أبى محمد إلى لقائه . معركة تبيشة . هزيمة الميورقى وفراره . جمعه لقواته ومسيره غرباً صوب واحات سجلماسة . اقتحامه لسجلماسة ونهبها . اهتمام الموحدين فى إفريقية ومراكش . عوده صوب تلمسان . مفاجأته لواليها السيد أبى عمران وقواته . هزيمة الموحدين ومصرع السيد وصحبه . اقتحام الميورقى لمدينة تاهرت . عيث الميورقى فى أحواز تلمسان . إنجاد المدينة وتأمينها . مسير حملة جديدة لمقاتلة الميورقى . ارتداده صوب طرابلس . عوده إلى الحركة . تضخم جيشه بالعرب والأغزاز . خروج الشيخ أبى محمد لقتاله . مسيره نحو جبل نفوسة . اشتباك الفريقين . هزيمة الميارقة وحلفائهم . مقتل أشياخ العرب . فرار يحيى وفله . عود القائد الظافر أبى محمد . كتابه إلى الخليفة بالفتح . معالجة الشيخ أبى محمد لشئون إفريقية . فضله فى إخماد ثورة بنى غانية . توطيده لسلطان الموحدين فى إفريقية . التجاء سيراخى يحيى إلى الشيخ أبى محمد . أعمال الناصر وتعييناته للولاة والكتاب والقضاة . بعض حوادث المغرب فى تلك الفترة . حريق مراكش . وفد المسلمين الصقليين إلى تونس . أحوال مسلمى صقلية منذ افتتاح النصارى للجزيرة . أقوال الرحالة ابن جبير عن ذلك .

لما توفى الخليفة يعقوب المنصور ، فى ليلة الجمعة الثانى والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ٥٩٥ هـ ( ٢٢ يناير سنة ١١٩٩م ) ، خلفه فى صباح اليوم التالى ولده أبو محمد عبد الله الملقب بالناصر لدين الله ، وأخذت له البيعة العامة بعد ذلك بأسبوع فى نهاية شهر ربيع الأول . ولم يعارضه أحد من الإخوة ولا العمومة . وكان المنصور قد اختاره لولاية عهده ، وعقد له البيعة بذلك فى أواخر سنة ٥٨٧ هـ ، حينما دهمه المرض الشديد ، عقب عوده إلى المغرب ، من جوازه الأول إلى الأندلس . ثم أخذت له البيعة بعد ذلك فى سائر أقطار المغرب والأندلس . وكان الخليفة الجديد حين جلوسه ، فى نحو السابعة عشر من عمره ، إذ كان مولده فى أواخر سنة ٥٧٦هـ . ويقول لنا المراكشى إن أمه أم ولد رومية تدعى زهر . ولكن صاحب روض القرطاس ، يقول إن أمه بالعكس كانت حرة اسمها أمة الله ، وأنها ابنة السيد أبى إسحق بن عبد المؤمن[1] .

وتولى الوزارة للخليفة الجديد ، وزير أبيه أبو زيد عبد الرحمن بن موسى ابن يوجان ، وهو ابن أخى الشيخ أبى حفص[2] ، وتولى مهمة الاستشارة والتوجيه ، الشيخ أبو زكريا وأخوه الشيخ أبو محمد عبد الواحد ، إبنا الشيخ

---

(١) المعجب ص ١٧٥ ، وروض القرطاس ص ١٥٢ .

(٢) وقد ورد فى بعض الروايات « أبو زيد بن يوجاق » ( راجع رحلة التجانى ص ٣٦٣ ) .

أبى حفص عمر الهنتاتى ، وتولى رياسة البيت المالك السيد أبو الحسن وأخوه السيد أبو زيد ، ابنا السيد أبى حفص عم الخليفة الراحل ، وذلك كله ، وفقاً لوصية المنصور فى مرض موته حسبما أشرنا إليه من قبل .

وأقام الخليفة الجديد عقب ولايته بحضرة مراكش بضعة أسابيع ، حتى آخر شهر ربيع الثانى من سنة ٥٩٥ هـ ، وتمت البيعة خلال ذلك فى سائر النواحى ، ووصلت إلى الحضرة ، وخرجت البركات للموحدين والأجناد كالعادة ، وقدّم الشعراء تهانيهم بتجديد البيعة . ثم غادر الخليفة مراكش فى أول شهر جمادى الأولى ، وقصد إلى مدينة فاس ، فأقام بها حتى نهاية هذا العام . وعنى الخليفة خلال ذلك بتصريف الشئون ، بمعاونة وزيره عبد الرحمن بن يوجان ، وكان فى مقدمة المراسم الجديدة ، أن عين الخليفة السيد الحسن بن السيد أبى حفص والياً لبجاية وأعمالها ، وأمده بالرجال والأموال ليستطيع مواجهة الحوادث فى تلك المنطقة المضطرمة ، وعين أخاه السيد أبا محمد عبد الله بن المنصور والياً على إشبيلية مكان أخيه السيد أبى زيد(١) .

وكانت الأحوال فى إفريقية قد ساءت فى أواخر عهد المنصور ، ولا سيما حين شغل بأمر الجهاد فى الأندلس ، ولم تسعفه الظروف حين عودته بعد ذلك إلى المغرب ، ليعنى بالنظر فى شئون إفريقية ، وتدارك مادهمها من الحوادث ، حيث فاجأه المرض وتوفى . فكان على ولده الخليفة الفتىّ محمد الناصر ، أن يواجه هذه الظروف ، وأن يقوم بتداركها .

— ١ —

وقد وصلنا فيما تقدم من سرد حوادث إفريقية ، إلى ظفر يحيى بن إسحاق ابن غانية الميورقى ، بخصمه شرف الدين قراقوش ، وفراره إلى الجبال ، وانتزاع طرابلس من يد نائبه . ولما تم ليحيى ماتقدم سار إلى قابس ، وكان نائب قراقوش قد غادرها على أثر هزيمة سيده ، ووجه إليها الشيخ أبو سعيد بن أبى حفص والى تونس ، حافظاً من الموحدين يسمى ابن تفراجين . فقصد إليها يحيى بقواته ووجه إلى أهلها كتابا ينذرهم فيه بالتسليم ، ويحذرهم من المخالفة ، ويحدد لهم ثلاثة أيام لإجابة مطلبه ، فلما انتهى هذا الأجل دون أية إجابة ، زحف

---

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢١٢ و٢٦٣ .

يحيى على المدينة ، وحاصرها حصاراً شديداً ، وقطع غابات النخيل القريبة منها ، إلا نخلة واحدة تركها للعبرة . فأذعن أهل المدينة إلى التسليم ، على أن يؤمن واليهم ابن تفراجين ، ويُسمح له أن يغادر المدينة بأهله من طريق البحر ، فأوفى لهم يحيى بذلك ، وفرض على المدينة إتاوة قدرها ستون ألف دينار . وكتب كاتبه أبو محمد عبد البر بن فرسان كتابا بهذا الفتح ، يشيد فيه بعود المدينة إلى الدعوة العباسية[1] .

وبينما كان الميورقى يتابع مغامراته ، ويعمل على توطيد سلطانه فى بلاد الجريد ، إذ ظهر بإفريقية عامل مقلق جديد بثورة ابن عبد الكريم . وكان محمد ابن عبد الكريم الرجراجى هذا ، من زعماء الجند ، الذين امتازوا بالشجاعة والنجدة ، وأبوه جندى من أهل المهدية ، ينتمى إلى قبيلة كومية الموحدية . وكان قد ظهر فى مقاتلة الأعراب وغيرهم من العناصر المشاغبة المفسدة ، واستطاع فى كثير من المواطن أن يقمع شغبهم وضررهم ، بمن التف حوله من الجند والأنصار ، فلما قوى أمره ، وظهرت كفايته ، قدمه الوالى لتلك المهمة ، وأطلق يده فى محاربة الخوارج والمعتدين ، فكان يطاردهم وينكل بهم ، ويقتل من يقتل ، ويعتقل من يعتقل ، فلا يطلقه إلا بعد دفع الأموال الكثيرة ، وإعطاء العهود المؤكدة على التزام الطاعة والسكينة .

فلما وُلى الشيخ أبو سعيد بن أبى حفص ، من قبل الخليفة المنصور ، على إفريقية ، قدم على المهدية ، أخاه أبا على يونس بن أبى حفص ، فطالب ابن عبد الكريم أن يُشركه فيما يغنمه من أموال الأعراب المخالفين ، فرفض ابن عبد الكريم تحقيق رغبته ، وطلب إليه أن يتركه على ما كان عليه الولاة من قبل . فقبض عليه أبو على وأهانه ، وزجه إلى السجن ، فاستغاث ابن عبد الكريم بالشيخ أبى سعيد والى إفريقية فلم يسعفه . وحدث عندئذ أن اشتد عيث الأعراب بالساحل ، وكثرت الشكوى منهم ، وألح الناس على أبى على أن يطلق ابن عبد الكريم ، فاضطر إلى إطلاقه خشية الفتنة ، ورد إليه منصبه وجنده ، وأمره بالعمل على كف عيث أولئك الأعراب . فخرج ابن عبد الكريم فى صحبه ، وأقام محلته فى ظاهر المهدية ، وشكا إلى جنده ما لحقه من ظلم الوالى ، وتفاهم معهم على الغدر بأبى على والاستيلاء على المدينة . ويقدم إلينا ابن الأثير تفسيراً آخر لتصرف ابن عبد الكريم ، خلاصته أن جماعة من عرب بنى عوف نزلوا على مقربة من المهدية ، فخرج

(١) راجع رحلة التجانى ص ١٠٥ — ١٠٨ .

إليهم ابن عبدالكريم ، فخافوا وفروا تاركين عيالهم و أموالهم ، فاستولى ابن عبد الكريم على المال والعيال ، وسلم العيال وجزءاً من المال والأسلاب إلى الوالى واحتفظ بالباقى ، فسار رؤساء بنى عوف إلى الشيخ أبى سعيد ، وقدموا الطاعة ووحّدوا واستغاثوا به ، أن يرد إليهم أموالهم وعيالهم ، فاستدعى ابن عبد الكريم وطالبه برد ما أخذ من أسلابهم ، فاعتذر ابن عبد الكريم بأن أعطاه إلى الجند ولا يستطيع رده . فأغلظ له الشيخ أبو سعيد القول ، وهم أن يبطش به ، فاستمهله حتى يعود إلى المهدية ، ويحاول أن يسترد من الجند ما استطاع . فلما عاد إلى المهدية ، نبأ صحبه بما حدث ، واتفق معهم على الوثوب بأبى على يونس . وعلى أى حال فقد نفذ ابن عبد الكريم مشروعه ، ودخل المدينة فى أواخر الليل فى ثُلة مختارة من صحبه ، وبادر إلى قصر الوالى ونفذ إليه ، وقبض على أبى على ، وحبسه فى موضع من القصر ، ولم يطلقه إلا بعد أن وصل فداؤه من قبل أخيه الشيخ أبى سعيد ، فارتد إلى أخيه مخذولا ، وبسط ابن عبد الكريم بذلك حكمه على المهدية ، وكان استيلاؤه عليها فى شهر شعبان سنة ٥٩٥ هـ[1] ، لأشهر قلائل من ولاية الناصر .

واستبد ابن عبدالكريم بحكم المهدية ، وتسمى « المتوكل على الله » ، واستفحل أمره . وفى تلك الأثناء وصل السيد أبو زيد ابن السيد أبى حفص من قبل الناصر والياً على إفريقية ، مكان الشيخ أبى سعيد ، ومعه جماعة من الأشياخ والأجناد . فاعتزم ابن عبد الكريم أن يحاصره بتونس ، قبل أن يستعد لقتاله ، فسار إلى جهة قرطاجنة وعسكر عند مدخل البحر إلى البحيرة ، فسير السيد أبو زيد السفن فى البحر ، والجند فى البر لقتاله ، وكان ابن عبد الكريم قد رتب كمائنه فى بعض المواضع ، فلما أقبل إليها الموحدون ، خرجت عليهم تلك الكمائن ، فأوقعت بهم الهزيمة وفتكت بمعظمهم ، وانتشر عسكر ابن عبد الكريم فى أحواز تونس ، وعاثوا فيها نهباً . وعندئذ بعث السيد أبو زيد والشيخ أبو سعيد إلى ابن عبدالكريم ، أشياخاً من الموحدين يسوقون إليه اللوم ، ويذكرونه بانتمائه إلى الموحدين ، وأن ما يفعله مروق ونكران لا يليق به ، وأنه من الخير أن يعود إلى طائفته ، فوعدهم ابن عبد الكريم خيراً ، ثم عاد إلى المهدية .

وكانت قد حدثت فى تلك الأثناء وحشة بين ابن عبد الكريم ، ويحيى الميورقى

---

(١) رحلة التجانى ص ٣٥٠ – ٣٥٢ ، وابن الأثير ج ١٢ ص ٥٧ .

لما دب بينهما من عوامل التنافس والحسد ، وفكر ابن عبد الكريم فى محاربته ومحاصرته ، وهو يومئذ بقابس، فاستخلف على المهدية ولده عبد الله وسار إلى قابس، ولكنه لما أشرف عليها بجموعه هالته منعتها، فارتد منها إلى قفصة واستولى عليها . وعندئذ خرج الميورقى من قابس لمطاردته ومحاربته ، فخرج ابن عبدالكريم بقواته من قفصة ، والتقى الفريقان فى مكان يعرف بقصور لالة ، فهزم ابن عبد الكريم ، وفر إلى المهدية ناجياً بنفسه ، وتبعه إليها من نجا من فاوله ، واحتوى الميورقى على معسكره وجميع أسلابه . وكان ذلك فى بداية سنة ٥٩٧ هـ .

وأراد الميورقى أن يقضى نهائياً على خصمه ، وأن ينتزع منه المهدية ، فبعث إلى السيد أبى زيد بتونس يسأله المهادنة والسلم ، ويطلب منه أن يعينه بعدة سفن يستطيع بها محاصرة المهدية من البحر ، والقضاء على ابن عبد الكريم . وكان السيد أبو زيد يتوق إلى التخلص من هذا الثائر الذى استفحل أمره ، فبعث إلى الميورقى سفينتين ، فعندئذ أدرك ابن عبد الكريم أنه لامفر من التسليم ، وبعث إلى الميورقى ولده عبد الله يعرض التسليم على أن يؤمن فى نفسه وماله ، فأجابه الميورقى إلى ذلك ، وخرج ابن عبد الكريم وولده من المهدية وتوجها إلى الميورقى للسلام عليه ، فلما رآهما أمر فى الحال بالقبض عليهما متفرقين، واستولى على المهدية وعلى سائر ما كان بها لابن عبدالكريم من الأموال والذخائر. ثم زج بابن عبدالكريم وولده إلى السجن ولم تمض أيام قلائل حتى أخرج ابن عبد الكريم ميتاً من سجنه ، ثم أخرج ولده عبد الله وحمل إلى السفينة، بزعم إرساله إلى ميورقة، ولكن السفينة ما كادت تصل إلى مقربة من قسنطينة ، حتى ألقى به مكبولا إلى البحر ، فابتلعته المياه[1] .

وهكذا بسط يحيى بن إسحاق الميورقى حكمه على سائر إفريقية ، ما عدا شاطئها الشمالى ، واستولى على سائر قواعدها ، طرابلس وقابس وصفاقس والمهدية والقيروان وسائر بلاد الجريد ، ووصلت دعوته إلى بونة ولم يبق بيد الموحدين منها سوى تونس وبجاية وقسنطينة ، وقد أصبحت كذلك فى خطر السقوط . وبينما كان السيد أبو زيد والى إفريقية ، مايزال يعتقد أن الميورقى يرغب حقاً فى السلم ، وأنه ينوى أن يضع حداً لأعماله العدائية ، إذا بالميورقى

---

(١) نقلنا هذه التفاصيل عن رحلة التجانى، وهى فيما يبدو أوثق الروايات عن هذه الحوادث ص ٣٥٢ — ٣٥٤ . وراجع ابن خلدون فى كتاب العبر ج ٦ ص ١٩٤ و١٩٥ ، وهو فيما يرجح ، ينقل عن التجانى .

يسير فجأة إلى بلدة باجة الواقعة غربى تونس، وقد كانت من أخصب بلاده هذه المنطقة وأوفرها حنطة وطعاما[١] ويقتحمها عنوة ، ويستولى عليها ، ويقتل حاكمها الموحدى على الفور . فبعث السيد أبو زيد فى الحال جيشاً ، تحت إمرة أخيه السيد أبى الحسن والى بجاية ، لكى يعمل على إنقاذ باجة وحماية سكانها الذين عادوا إليها ، وكان الميورقى قد عاد لحصارها ، فلما علم بمقدم الموحدين ، رفع الحصار عن المدينة وسار للقاء خصومه ، وعسكر فى موضع حصين بالقرب من قسنطينة ، وهنالك أشرف عليه السيد أبو الحسن بجموعه ، ونشبت بين الفريقين معركة هزم فيها الموحدون، واستولى الميورقى على معسكرهم وأسلابهم . وارتد أبو الحسن فى بعض فلوله إلى بجاية وهو فى أسوأ حال[٢] .

وكانت مدينة بسكرة التى استولى عليها الميورقى من قبل قد خلعت طاعته ، وعادت إلى طاعة الموحدين ، فسار إليها يحيى ، واقتحمها عنوة ، وعاقب السكان على نكثهم ، بقطع أيدى الكثير منهم ، وقبض على عاملها الموحدى وزجه إلى السجن . وخشى أهل بونة أن يصيبهم ما أصاب أهل بسكرة ،فبعثوا إلى الميورقى بطاعتهم . ووقعت هذه الحوادث فى سنة ٥٩٨ هـ ( ١٢٠٢ م ) . وعاد يحيى بعد ذلك إلى المهدية فاستقر بها بعض الوقت[٣] .

وفى خلال ذلك كان البلاط الموحدى بمراكش يتتبع أنباء الحوادث فى إفريقية بمنتهى الجزع ، ويحاول أن يقمع العدوان بالحملات المحلية المتواليه . فلما توالى فشل هذه المحاولات ، جهز الخليفة الناصر ، أوبالحرى مستشاروه من أشياخ الموحدين ، حملة كبيرة ندب لقيادتها الوزير ابن يوجان ، وسارت هذه الحملة إلى تلمسان ثم إلى بجاية ثم إلى قسنطينة ، ولكنها لم تقم بأية محاولة لمقاتلة الميورقى ، وعاد الوزير إلى تلمسان ، وهنالك وصله الأمر بالنظر فى أعمالها ، ثم نُدب إلى ولاية فاس ، وأقام بها حتى ندبه الناصر للسير معه إلى إفريقية[٤] .

وكان هذا التردد فى مطاردة الميورقى ، راجعاً إلى اضطرام ثورة جديدة فى منطقة السوس . وذلك أن دعياً من أصل أندلسى ، ينتمى إلى قبيلة جزولة ،

---

( ١ ) وهى طبعاً غير باجة بالأندلس . راجع الاستبصار فى عجائب الأمصار ص ١٦٠ .
( ٢ ) المعجب ص ١٧٩ .
( ٣ ) ابن خلدون ج ٦ ص ١٩٥ ، وكذلك : **A. Bel : Les Benou Ghania. p. 113.**
( ٤ ) البيان المغرب – القسم الثالث ص ٢١٤ ، والمعجب ص ١٧٩ . هذا وتراجع خريطة إفريقية فى ص ١٦٣ ، حيث وضحت بها سائر المواقع التى كانت مسرحا لتلك المعارك المتوالية .

يسمى عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن الفرس ، ويعرف بالمهر وبأبي قصبة ، كما يعرف عند البربر بما معناه « ابن الجزارة » ثار بالسوس . وكان هذا الدعى من طبقة العلماء بالأندلس . وحضر ذات يوم مجلس الخليفة يعقوب المنصور وبدرت منه بعض أقوال جدلية خشى عاقبتها ، فاختفى حيناً ، ثم ظهر بعد وفاة المنصور ، فى السوس فى منازل جزولة ، وانتحل الإمامة ، وادعى أنه « القطحانى » الذى ورد ذكره فى الحديث ، بأنه لاتقوم الساعة ، حتى يخرج رجل من قطحان ، يقود الناس ، ويملأ الأرض عدلا كما ملئت جوراً ، ومما ينسب إليه فى مصير بنى عبد المؤمن شعر يقول فيه :

قولوا لأبناء عبد المؤمن بن على ... تأهبوا لوقوع الحادث الجلل

قد جاء سيد قحطان وعالمها ... ومنتهى القول والغلاب للدول

وذاعت دعوة أبى قصبة فى أرجاء بلاد السوس ، والتفت حوله جموع غفيرة ، فبعث إليه بلاط مراكش عدة حملات صغيرة متوالية ، كان يهزمها تباعاً ، وأخيراً اضطر الناصر أن يجهز لقتاله حملة كبيرة من الموحدين والغز وغيرهم ، وسار الموحدون إلى بلاد السوس ، وأنذروا المصامدة وغيرهم من القبائل المجاورة ، بأن الدعى يعتمد على تسامحهم وتغافلهم ، وبذلك يقوى أمره ، ولو شاءوا لقضوا عليه ، فعند ذلك تحركت ، القبائل وانضمت إلى الجيش الموحدى القادم ، فى مقاتلة الدعى ، فانفض عنه معظم جموعه ، وقتل منهم من وقف إلى جانبه ، وقبض على الدعى وقتل ، واحتز رأسه ، وأرسل إلى مراكش ، وكان مصرع أبى قصبة وانهيار ثورته ، على هذا النحو سنة ٥٩٨ هـ ( ١٢٠٢ م )(١) .

وكان من حوادث الأندلس فى تلك الفترة أن عزل الناصر أخاه السيد أبا محمد عبدالله بن المنصور عن ولاية إشبيلية ، ولكنه عاد فاستبقاه فى منصبه تحقيقاً لرغبته . وكان ذلك فى سنة ٥٩٧ هـ . وفى أوائل هذا العام بالذات ، وقع بإشبيلية حادث مفزع هو وقوع السيل العظيم ، الذى لم يسمع بمثله من قبل ، فاجتاح أجزاء كبيرة من سور المدينة ، ولاسيما ما بين باب طُريانة وباب المؤذن ، وغمرت المياه المدينة بأسرها ، وسقط عدد كبير من دورها قيل إنه ستة آلاف ، وكان من رحمة القدر أن وقع هذا السيل ظهراً ، وكان وقوعه يوم الاثنين ١٩ من جمادى الأولى سنة ٥٩٧ هـ

---

( ١ ) ابن خلدون فى العبر ج ٦ ص ٢٤٦ و ٢٥٠ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢١٥ ، والمعجب ص ١٨٠ .

( ٢٦ مارس ١٢٠١ م ) واستمر ثلاثة أيام ، ولو حدث وقوعه بالليل لغرق آلاف من أهل المدينة . واجتاح هذا السيل وادى النهر الكبير كله من قرطبة إلى إشبيلية ، وحتى ثغر قادس ، ومات من جرائه الكثيرون غرقاً . وكان من أشنع الحوادث التى شهدتها إشبيلية منعهد طويل (١) .

— ٢ —

وكان الخليفة الناصر ، وأشياخ الموحدين ، يتأهبون فى نفس الوقت لمشروع ضخم ، هو افتتاح الجزائر الشرقية ( جزائر البليار ) . وكان استمرار يحيى ابن إسحاق الميورقى فى عدوانه ، وتفاقم أمره فى إفريقية ، وفشل الحملات الموحدية المتوالية فى القضاء على سلطانه ، قد حمل البلاط الموحدى على أن يفكر فى افتتاح ميورقة ، والقضاء على سلطان بنى غانية فيها ، وضربهم بذلك فى موطن قوتهم الأصلى ، ومصدر مواردهم وأمدادهم البحرية ، فيكون ذلك الفتح ذاته ، وسيلة لضرب سلطان يحيى الميورقى فى إفريقية ، والتمهيد للقضاء على حركته .

وقد سبق أن فصلنا ظروف استيلاء بنى غانية على الجزائر الشرقية ، وقيام حكمهم فى ميورقة ، ومحاولة الخليفة أبى يعقوب يوسف أن يخضع عميدهم إسحاق ابن غانية لسلطان الموحدين ، وماكان من إرساله سفيره علياً الربرتير إلى ميورقة ، ليعمل على تحقيق هذه الغاية ، وإخفاق الربرتير فى مهمته ، ثم قيام على بن إسحاق بافتتاح بجاية ، وبداية تلك الحركة المضطرمة ، وتلك الحملات المخربة المتوالية ، التى قام بها بنو غانية فى إفريقية ، واستيلائهم تباعاً على معظم قواعدها .

وكان على حكم ميورقة فى ذلك الوقت الذى اشتدت فيه حركة يحيى بن إسحاق بإفريقية ، أخوه عبد الله بن إسحاق بن غانية . وقد سبق أن أشرنا إلى الظروف التى استطاع فيها عبد الله أن ينتزع حكم ميورقة من أخيه محمد بن إسحاق وذلك فى سنة ٥٨٤ هـ ( ١١٨٨م ) ، واستبد عبد الله بحكم ميورقة ، كبرى الجزائر ، وازدهرت فى عهده ، واستمر على رياستها طوال هذه الأعوام دون منازع . وكان عبد الله ، يتبع سياسة أبيه إسحاق بن غانية فى مسالمة الدول النصرانية القريبة ،

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ٢١٤ . والذيل والتكملة لابن عبد الملك ( الجزء الرابع من مخطوط المتحف البريطانى ، فى ترجمة محمد بن أحمد بن تمام العذرى .

ولاسيما جنوة وبيزة ، ويعقد معها الصلات الودية ، وكان ذلك مما يساعد على رواج التجارة بين ميورقة وبين هذه الدول البحرية . وفى سنة ٥٩٤هـ (١١٩٨م) عقد عبد الله مع جمهورية جنوة معاهدة صلح وتجارة لمدة عشرين عاما ، وذلك بواسطة نيقولا لاكانوتزى سفير جنوة إلى ميورقة . وكان التجار النصارى فى الجزيرة ، يعيشون فى دعة وطمأنينة آمنين على أنفسهم وأموالهم ، وتعاون جهودهم فى ترويج تجارة الصادر والوارد بين الفريقين. وكان من الواضح أنه منذ اضطرمت الخصومة بين بنى غانية والموحدين، لم يكن فى وسع الجزائر أن تعتمد فى تموينها ومواردها الحيوية على الأندلس المعادية ، ومن ثم فقد كانت تسعى للحصول على مواردها من النصارى ، وكان هؤلاء يمدونها بالسفن والسلاح والذخائر ، مقابل الحبوب ومنتجات الجزيرة الأخرى . ومن جهة أخرى ، فقد كان النصارى يجنون ثمار هذه الصلات الودية مع ميورقة ، وذلك بامتناع عبد الله عن الإغارة على شواطئهم . على أن عبد الله كان ما يزال ينظم غاراته البحرية على شواطئ الدول التى لم يكن يرتبط معها بعهود الصداقة والمودة ، مثل فرنسا ، وكانت هذه الغارات ، توطد من مكانته لدى شعبه وتزيد فى ثرائه . وبالرغم من أن عبد الله لم يكن فى وسعه دائماً ، أن يمد أخاه يحيى بالسفن والجند ، فى مغامراته الإفريقية ، فإن ميورقة كانت تعتبر مع ذلك بالنسبة لبنى غانية ، مركزهم الرئيسى وموطن قوتهم الحقيقية[1] .

كانت هذه أحوال ميورقة ، حينما وصلت غزوات يحيى بن غانية للثغور الإفريقية إلى ذروتها، وحينما اعتزم البلاط الموحدى أن ينفذ مشروعه لغزو ميورقة، كوسيلة لضرب بنى غانية فى صميم مثوى قوتهم وسلطانهم . وكان الموحدون يرون أنه متى سقطت ميورقة فى أيديهم ، فإنهم يستطيعون عندئذ أن يتفرغوا لمطاردة يحيى بن غانية والقضاء على سلطانه فى إفريقية ، دون أن يكون أمامه ملاذاً وملجأ أخيراً يتجه إليه .

وبذل الخليفة الناصر وأعوانه من أشياخ الموحدين جهوداً مضاعفة لإعداد حملة بحرية عظيمة توجه لغزو ميورقة . وفى تلك الأثناء ، وقبل أن يتم إعداد الحملة ، عمد عبد الله بن إسحاق بن غانية إلى مهاجمة جزيرة يابسة الواقعة جنوب

(١) A. Bel : Les Benou Ghania, p. 118 & 119

غربى ميورقة محاولا انتزاعها من الموحدين ، وكان ذلك فى أوائل سنة ٥٩٧هـ ، خلال فصل الشتاء ، حينما تكون الأساطيل الموحدية راسية فى سبتة ، فقاومته السفن الموحدية المرابطة بقيادة ابن ميمون ، وانتزع ابن ميمون منه سفينتين وأحرقهما ، فارتد إلى ميورقة خائباً . ولكنه سار فى العام الثانى ( ٥٩٨ ) هـ ، وهاجم جزيرة منورقة وانتزعها من أيدى الموحدين؛ وولى عليها من قبله رجلا اسمه الزبير بن نجاح. والظاهر أن عبدالله كان قد ترامت إليه الأخبار عن مشروع الموحدين فى غزو ميورقة ، فأراد أن يبادر بإبعادهم عن هذه المياه ، وتأمين ميورقة بالسيطرة على منورقة ويابسة جناحيها من الشرق والغرب .

وأخيراً تم إعداد الحملة البحرية المنشودة ، مكونة من أسطول سبتة بقيادة السيد أبى العلاء إدريس بن يوسف بن عبد المؤمن ، ومن جيش من الفرسان والرماة والرجالة ، بقيادة الشيخ أبى سعيد بن أبى حفص . والتقت القوتان بثغر دانية ، أقرب قواعد الأندلس البحرية إلى الجزائر . وكانت القوى البرية تتألف من ألفى ومائتى فارس ، وسبعمائة من الرماة ، وخمسة عشر ألفاً من الرجالة غير غزاة القطع ( أى السفن ) . وكان الأسطول يتكون من ثلاثمائة جفن ( سفينة ) منها سبعون غرابا ، وثلاثون طريدة ، وخمسون مركباً كباراً ، ومائة وخمسون قارباً من مختلف الأنواع ، وكانت الحملة مزودة بكميات كبيرة من العدد والسلاح والمجانيق والسلالم ، ومختلف الأدوات ، وكذلك من الدروع والسيوف والرماح والبيضات والدرق ، والقسىّ ، وصناديق النشاب ، وكانت بالأخص مزودة بكميات وافرة من الطعام استعداداً لطول المقاومة أوطول الحصار . وأقلعت الحملة من ثغر دانية فى أواخر سنة ٥٩٩هـ (١٢٠٣م)، فوصلت بعد أيام قلائل إلى جزيرة يابسة ، فصلوا بها الجمعة، ثم أقلعت منها يوم السبت الرابع والعشرين من شهر ذى الحجة (٣ سبتمبر سنة ١٢٠٣ ) قاصدة إلى ميورقة[١] . ويبدو مما يقوله صاحب البيان المغرب ، أن السيد أبا العلاء ، قد انحرف أولا بجزء من الأسطول نحو جزيرة منورقة ، وانتزعها من ابن نجاح ، وقبض عليه ، وأرسله مع بعض صحبه مصفداً إلى الحضرة ، وهنالك أعدم وعاقت رأسه[٢] . وبذلك تم تأمين جناحى الحملة الموحدية ، وتطويق ميورقة كبرى الجزائر . ثم أقبلت

---

( ١ ) نقلنا هذه التفاصيل عن صاحب الروض المعطار ( ص ١٨٩ ) وهو ينفرد بها .

( ٢ ) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢١٦ .

السفن الموحدية إلى ميورقة واحتلت مرساها ، وأنزل العسكر المهاجم بالقرب من مدينة ميورقة عاصمة الجزيرة ، فخرج إليهم عبد الله بن إسحاق فى جموعه ، واضطرم القتال بين الفريقين ، واستمرت المعارك بينهما سبعة أيام ، وعبد الله وجنوده يدافعون بمنتهى الشدة ويقاتلون قتال اليأس ، وأخيراً دارت عليه الدائرة فهزم وقتل ومعظم أصحابه . وأغلق المدافعون فى الداخل أبواب المدينة فطوقها الرماة وغزاة البحر ، واقتحموها ، ودخلها الموحدون وبدأوا نهبها ، ودخل السيد أبو العلاء والشيخ أبو سعيد المدينة ، وأمامهما رأس عبد الله مرفوعة على قناة ، فأمر فى الحال بمنع النهب ، وتأمين الناس ، وقبض على أولاد عبد الله وأهله ، فخرج الناس ، وقد أمنوا واطمأنوا ، وكُتب فى الحال بالفتح إلى الخليفة الناصر . وكان فتح ميورقة على هذا النحو فى شهر ربيع الأول سنة ستمائة ( شهر ديسمبر سنة ١٢٠٣ م )[١] .

تلك هى تفاصيل الفتح الموحدى لميورقة حسبما يوردها لنا صاحب الروض المعطار ، وحسبما تقصها علينا رسالة الفتح الصادرة عن الخليفة الناصر ، والمدبجة بقلم كاتبه أبى عبد الله بن عياش . ويقول لنا صاحب روض القرطاس ، إن الحملة الموحدية لفتح ميورقة كانت بقيادة الخليفة الناصر نفسه ، وأنه خرج من مدينة فاس فوصل إلى جزائر بنى مزغنة ، وجهز من هنالك الأساطيل والعساكر لفتح ميورقة ، ففتحها وانتزعها من أيدى المرابطين[٢] . بيد أنه لا توجد أية رواية أخرى تؤيد هذا القول ، فضلا عن أن رسالة الفتح الرسمية صريحة قاطعة فى عدم صحته . ويقدم إلينا ابن خلدون إسمى قائدى الحملة وهما كما تقدم السيد أبو العلاء إدريس قائد الأسطول ، والشيخ أبو سعيد بن أبى حفص قائد القوى البرية[٣] . ويقول لنا صاحب البيان المغرب إن الناصر كان فى الوقت الذى سارت فيه الحملة الموحدية إلى الجزائر مقيما بحضرة مراكش[٤] .

وندب السيد أبو العلاء لولاية الجزائر عبد الله بن طاع الله الكومى ، فكان

---

( ١ ) الروض المعطار فى روايته السابقة الذكر ص ١٨٩ ، وراجع الرسالة السادسة والثلاثين من رسائل من موحدية ، وهى خاصة بفتح ميورقة ( ص ٢٣٥ وما بعدها ) ، وكذلك روض القرطاس ص ١٥٣ .

( ٢ ) روض القرطاس ص ١٥٣ ، ويتابعه فى ذلك الأستاذ الفرد بل: **Les Benou Ghaina, p. 167**

( ٣ ) ابن خلدون فى العبر ج ٦ ص ٢٤٧ .

( ٤ ) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢١٨ .

أول ولاتها من الموحدين ، وعين لقضائها الفقيه المحدث عبد الله بن حوط الله .
ثم ولى الناصر عليها عمه السيد أبا زيد بن أبى يعقوب يوسف ، وندب ابن طاع الله
لقيادة البحر .

وكان فتح الموحدين لميورقة ضربة شديدة لبنى غانية ، قضت نهائياً على سلطانهم فى الجزائر ، ومن جهة أخرى فقد كان له وقع عميق لدى الممالك النصرانية القريبة ، ولاسيما مملكة أراجون المواجهة فى شبه الجزيرة . وإلى هذا تشير رسالة الفتح صراحة بقولها « ولأخذُ ميورقة على صاحب أرغون وبرشلونة ، أشدُّ من رشق النبل وأهول من وقع السيف ، وأوحش من القطع بحلول الممات » وقد سبق أن أشرنا لى ماكان يتبعه بنو غانية من سياسة المسالمة والمودة نحو الدول النصرانية المجاورة ، ولاسيما مملكة أراجون وجمهوريتى چنوة وبيزة . وكانت تجمع بين بنى غانية أصحاب الجزائر وبين أراجون بالأخص فكرة مشتركة ، هى خصومة الموحدين والكفاح ضدهم . وكانت أراجون وحليفاتها من الدول النصرانية المذلك ، تنظر إلى سيادة بنى غانية للجزائر بعين الإغضاء ، ما التزم بنو غانية سياسة المودة والمسالمة . أما الآن ، وقد احتل الموحدون الجزائر ، فإنه كان لابد للدول النصرانية ، وفى مقدمتها أراجون أن تتخذ نحو الجزائر موقفاً آخر . ومن المحقق أن أراجون ومن ورائها چنوة وبيزة كانت تطمع دائماً ، إلى انتزاع الجزائر من المسلمين . وقد جاء استيلاء الموحدين على الجزائر عاملا جديداً ، يذكى هذه الرغبة ويؤكدها . على أن ظفر الموحدين بالاستيلاء على الجزائر ، كانت تقابله من الناحية الأخرى ، ضربة جديدة مؤلمة للموحدين فى فى إفريقية . ذلك أن يحيى بن إسحاق بن غانية ، كان يشعر حين ترامت إليه أنباء الحملة الموحدية ، التى سيرت إلى الجزائر ، أن مصير ميورقة قد بت فيه ، وأنه لم يبق لبنى غانية إلا أن يعملوا على توطيد أمرهم بإفريقية ، وأنه لابد لتحقيق هـذه الغاية أن يسحق سلطان الموحدين نهائيا فى تلك المنطقة . وكان يحيى قد ظفر عندئذ بالاستيلاء على المهدية ، والقضاء على خصمه ابن عبد الكريم . ففكر عندئذ فى الاستيلاء على تونس عاصمة إفريقية . وكانت سائر الثغور الشرقية ، وسائر القواعد الجنوبية القريبة من تونس قد سقطت فى يد يحيى ، وجردت العاصمة من سائر مواردها المعتادة ، وكان والى إفريقية السيد أبوزيد لايحتكم على قوى كافية للدفاع . ومن جهة أخرى ، فإن انشغال الموحدين فى نفس

هذا الوقت بالذات ، بتسيير حملتهم الكبيرة إلى الجزائر ، كان يحول دون إرسالهم الأمداد العاجلة إلى إفريقية . ومن ثم فإن الظروف كلها كانت مواتية لمشروع يحيى الميورقى . فاستعمل على المهدية ابن عمه على بن الغانى بن عبد الله بن محمد ابن غانية ويعرف بالكافى . وسار فى قواته وعُدده صوب تونس ، وذلك فى أوائل شهر ذى الحجة سنة ٥٩٩ هـ ، ونزل بالجبل الأحمر فى ظاهر تونس ، ونزل أخوه الغازى بن إسحق بالموضع المعروف بحلق الوادى حيث يتصل البحر بالبحيرة شرقى المدينة ، فردم المجرى الموصل بينهما وجعله أرضا يابسة ، ورتب عليه الحرس ، وقطع بذلك سير القوارب الداخلة إلى المدينة والخارجة منها ، ثم تحول إلى قبلى المدينة ، على مقربة من باب الجزيرة وردم الخندق المواجه له ، ونصب أمام الباب المجانيق وآلات الحرب ، وضرب الميورقيون حول تونس حصاراً صارما ، ولم يجرؤ الموحدون على الخروج من المدينة ، والاشتباك مع العدو فى أية معركة ، لقلة عددهم ، وضآلة مواردهم . واستمر هذا الحصار المرهق أربعة أشهر . وفى يوم السبت السابع من شهر ربيع الآخر سنة ستمائة (١٥ ديسمبر سنة ١٢٠٣م) ، اقتحم يحيى فى قواته البلد ، وقبض على واليها السيد أبى زيد وولديه ، وجماعة من أشياخ الموحدين ، وثقفوا بمكان بداخل القصبة تحت حرس قوى ، وأعلن يحيى الأمان لأهل تونس فى أنفسهم وأملاكهم ، ولكنه فرض عليهم غرامة قدرها مائة ألف دينار ، قال إنها هى مقدار ما أنفقه فى الاستيلاء عليها ، وقُسّطت هذه الغرامة على أهل المدينة وفق أحوالهم المالية ، وعهد باقتضائها إلى كاتبه الأثير ابن عصفور ، وإلى أبى بكر من عبد العزيز السكاك من أهل المدينة ، فاشتطا فى تحصيل المال ، ولحق الناس من ذلك منتهى الإرهاق والعنت ، وقتل منهم كثير بسبب ذلك ، وانتحر إسماعيل بن عبد الرفيع المقدم على قبض مال المخزن وغيره من الناس ، فلما علم الميورقى بذلك ، أمر برفع ما بقى من الغرامة عن الناس ، ونودى فيهم بالأمان . وعلم الميورقى بعد ذلك أن أهل جبل نفوسة توقفوا عن أداء الإتاوة المفروضة عليهم ، وكان أهل هذه المنطقة معظمهم من الخوارج ، وكانوا يبغضون نير الموحدين ونير بنى غانية معا ، ويثورون من آن لآخر محافظة على استقلالهم . فخرج إليهم يحيى بنفسه ، واستصحب معه السيد أبا زيد وزملاءه من الموحدين المعتقلين ، مبالغة فى التحفظ عليهم ، وفرض على أهل نفوسة ألفى ألف دينار . ولما انتهى من اقتضائها منهم

بوسائله المروعة ، عاد إلى تونس واستقر بقصبتها(١) .

— ٣ —

وهكذا تم ليحيي بن إسحاق الميورقى الاستيلاء على عاصمة إفريقية ، ولم يبق بيد الموحدين من إفريقية ، بعد أن سقطت جميع قواعدها الشرقية والداخلية فى يد الميورقى ، سوى ثغر بجاية ، وما يليه غرباً . وكان لسقوط تونس ، وما اقترن به من أسر واليها وزملائه من أشياخ الموحدين ، وقع عميق فى بلاط مراكش . وكان مما يضاعف هذا الوقع ، ما يرتكبه الميورقى باستمرار من ضروب العيث والقمع والقسوة ، فى مختلف القواعد التى يسيطر عليها . وكان الموحدون ، بعد أن ظفروا بالاستيلاء على ميورقة ، وجرداو بنى غانية بذلك من ملاذهم ومركز سلطانهم فى الأندلس ، يرون أن الوقت قد حان للقضاء على سلطانهم بإفريقية ، وتحريرها من نيرهم ومن عيثهم ، واسترداد سلطان الموحدين ، والعمل على توطيد هيبتهم فى تلك الأنحاء . بيد أن الموحدين كانوا يشعرون فى نفس الوقت بفداحة هذه المهمة ، ومن ثم فإن الخليفة الناصر حينما شاور الأشياخ فى ذلك الأمر ، رأى معظمهم أن يكتفى بمسالمة ابن غانية والاتفاق معه ، ولكن أبا محمد بن الشيخ أبى حفص أشار بوجوب السير إلى إفريقية ، ومحاربة ابن غانية ، ووافق الناصر على هذا الرأى .

وكان الناصر فى الوقت الذى سار فيه الموحدون لفتح ميورقة ، أعنى فى سنة ستمائة ، يقيم بحضرة مراكش ، ويعنى بشئون الأندلس الإدارية والعسكرية ، وكان من أهم ما عنى بذلك إرسال الأوامر المؤكدة إلى سائر ولاة الأندلس بالنظر فى صنع الآلات الحربية . ففى شهر المحرم من هذا العام ، وصل الأمر إلى إشبيلية بضرب الآلات وشراء الدروع المحكمة . وفى شهر ربيع الأول ندب الناصر عمه السيد أبا إسحق بن يوسف بن عبد المؤمن لولاية إشبيلية ، مكان الشيخ أبى عبدالله ابن يحيى ، الذى نقل إلى ولاية بسطة . ووُلّى السيد أبا محمد عبد الواحد بن يوسف ابن عبد المؤمن على مدينة شلب وبلاد غربى الأندلس ، والشخ أبا يحيى بن أبى سنان على مدينة بطليوس وجهاتها . وندب أبا عبد الله بن عبد السلام الكومى لقيادة أسطول سبتة . وفى نفس العام وصل إبراهيم بن الفخار اليهودى رسول

---

(١) رحلة التجانى ص ٣٥٤ – ٣٥٦ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٩٥ و٢٤٨ .

ألفونسو التاسع ملك قشتالة ووزيره ، إلى مراكش ، يطلب تجديد المهادنة .

فلما ترامت الأنباء بسقوط تونس فى يد الميورقى ، واشتداد عيثه وبطشه بأنحاء إفريقية ، وعقد الخليفة الناصر عزمه على محاربته والقضاء على سلطانه ، أعدت حملة موحدية جديدة للسير إلى إفريقية ، وصدرت الأوامر إلى الأسطول بالسير من سبتة إلى مياه إفريقية ، وعين لقيادة وحداته أبو يحيى بن أبى زكريا الهزرجى . وكان يحيى الميورقى فى ذلك الوقت بالذات ، ما يزال ينزل ضرباته بمختلف أنحاء إفريقية ، وكان بعد أن قام بإخماد ثورة أهل جبل نفوسة ، قد سار إلى ناحية طرّة قاعدة بلاد نفزاوة لإخماد ثورتهم أيضاً ، فاقتحم أحياءهم ، واشتد فى معاقبتهم ، وقتل جنده كثيراً منهم ، وأضرموا النار فى دورهم ، ثم سار إلى حمة مطماطة ، ففعل بأهلها مثل ذلك ، وضجت هذه الأنحاء كلها من سفكه وشديد عيثه[1] .

هذا وبينما الميورقى سادر فى هذا العيث والسفك ، إذ بلغته الأنباء باقتراب القوات الموحدية ، وعلى رأسها الخليفة الناصر . وكان الناصر قد غادر مراكش على رأس قواته فى أواسط جمادى الآخرة سنة ٦٠١ هـ ( فبراير سنة ١٢٠٥ م ) وسار إلى رباط الفتح قاعدة تجمع الجيوش الموحدية . ثم غادر رباط الفتح فى قواته متجهاً صوب إفريقية ، وكانت وحدات الأسطول الموحدى ، تسير فى نفس الوقت بحذاء الشاطئ ، صوب بجاية وتونس ، بقيادة أبى يحيى بن أبى زكريا الهزرجى . فلما علم الميورقى باقتراب الأسطول الموحدى من تونس ، ووصول الجيش الموحدى إلى بجاية ، وأدرك أنه لاقبل له بالصمود أمام هذه القوى الجرارة جمع أمواله وذخائره ، وأرسلها إلى المهدية ، لتكون تحت حراسة ابن عمه على ابن الغانى ، ثم بادر بإخلاء تونس ، وارتد فى قواته جنوبا ، فوصل إلى القيروان وأقام بها أياما ، وهو يجد فى الأهبة ، ثم سار إلى قفصة ، وهنالك استدعى طوائف العربان ، وبذل لهم الأموال والوعود ، وأخذ مواثيقهم ورهائنهم على مناصرته والقتال معه . ووقف الموحدون على انسحاب الميورقى من تونس ، فنزلتها القوات البحرية الموحدية ، وقتلوا كل من وجدوه بها من أتباع الميورقى ، وأصدر قائد الأسطول الأمان لأهلها . ولما علم الناصر باستيلاء قواته على تونس ، وفرار الميورقى فى قواته نحو الجنوب ، سار فى أثره

(١) رحلة التجانى ص ٣٥٦ .

صوب قفصة . فسار الميورقى فى قواته إلى جبل دمّر ، وتحصن به . وسار الناصر إلى قفصة ، فأقام بها أياما ، ثم توجه إلى قابس وندب لها عاملا من قبله . وكان يحيى الميورقى قد قرر أن يركز مقاومته الأخيرة فى المهدية ، فضاعف تحصيناتها ، وشحنها بطائفة من قواته المختارة ، ووكل الدفاع عنها لابن عمه على بن الغازى . واستعد هو للقاء القوات الموحدية بمكانه الحصين من جبل دمّر ، وقرر الموحدون من جهة أخرى مطاردة الميورقى فى مركزى مقاومته فى وقت واحد ، فسار الناصر بنفسه لمحاصرة المهدية ، وطوقها بقوات كثيفة من الموحدين والعرب ، ونصب عليها المجانيق ، وسار إليها الأسطول الموحدى ليحصرها من ناحية البحر. وبعث الناصر فى نفس الوقت جانباً من القوات الموحدية يحتوى على أربعة آلاف فارس بقيادة الشيخ أبى محمد عبد الواحد بن أبى حفص لمقاتلة الميورقى فى جبل دمّر ، فلما أشرف الموحدون على محلته ، وشهد ضخامة عددهم ، أراد الفرار بقواته فى البداية ، ولكن ضباطه شجعوه على الثبات وخوض المعركة ، فنشبت بين الفريقين فوق جبل صغير يعرف برأس تاجْرَا ، على مقربة من وادى مجسر ، جنوب شرقى قابس[1] معركة دموية عنيفة ، استمرت نحو ثلاث ساعات ودارت فيها الدائرة على الميورقى وأصحابه ، فقتل وأسر معظمهم ، وكان بين القتلى أخوه جبارة ، وكاتبه على بن اللمطى ، وعامله الفتح بن محمد ؛ وفر يحيى مع جماعة قليلة من صحبه ، وكان قد ترك ولده وأهله فى موضع بعيد عن مكان المعركة فصحبهم فى فراره ، وأنقذوا بذلك من الأسر ؛ واستطاع الشيخ أبومحمد القائد المظفر أن ينقذ السيد أبا زيد وأصحابه أحياء من أسر الميورقى ، وكان الموكل بالسيد أبى زيد على وشك أن يجهز عليه ، واستولى الموحدون على محلة الميورقى ، ورايته العباسية السوداء ، وسائر ماكان بالمحلة من الأموال والأسلاب والإبل ، وكانت غنيمة وافرة تحتوى على ثمانية عشر ألفاً من أحمال المال والمتاع والآلات ، وحمل ذلك كله إلى الخليفة الناصر ، وهو تحت أسوار المهدية ، وكان بين الأسرى الأمين الموكل بثقاف السيد أبى زيد ، فشهر به فوق جمل عال ، وبيده الراية السوداء ؛ ووقعت هذه الهزيمة الساحقة بالميورقى بجبل تاجْرا فى اليوم الثانى عشر من ربيع الأول سنة ٦٠٢ هـ ( ١٧ أكتوبر سنة ١٢٠٥ م )[2].

---

(١) تراجع خريطة إفريقية المنشورة فى ص ١٦٣ ففيها بيان لمواقع هذه المعركة .

(٢) رحلة التجانى ص ٣٥٧ – ٣٥٩ ، وروض القرطاس ص ١٢٣ و ١٢٤ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢٢٠ و ٢٢١ ، وراجع أيضاً : A. Bel : Les Benou Ghania, p. 129

وكان الموحدون فى تلك الأثناء يضاعفون جهودهم للضغط على المهدية ، وإرغامها على التسليم . وكان يحيى الميورقى ، توقعاً لهذا الحصار ، قد بالغ فى اتخاذ الأهبة ، وشحن المهدية بالرجال والمؤن . وكان حاكم المدينة على بن الغازى جندياً جريئاً ، ومدافعاً قوى الشكيمة ، فبذل جهوداً عنيفة لرد المحاصرين ، وخرج لقتالهم عدة مرات ، وفى كل مرة يوقع بهم ويحرق مجانيقهم وآلاتهم ويسبب لهم خسائر شديدة ، واضطر الموحدون إزاء ذلك إلى الإكثار من المجانيق والآلات ، وإعداد السلالم والأبراج العالية للإشراف على المدينة ، ومضاعفة الحشود حولها ، واستمر الأمر على هذا المنوال ، حتى وقعت معركة رأس تاجْرا ، وهزم يحيي وألجئ إلى الفرار ، وحمل الموحدون الغنائم والعلم الأسود إلى الناصر تحت أسوار المهدية ، وقاموا بتبريز الغنائم ، وتوزيعها بمشهد ظاهر من أهل المدينة المحصورة : ومع ذلك فإن الغازى وصحبه لبثوا حيناً غير مؤمنين بهزيمة يحيي ، واستمرت المعارك بينهم وبين المحاصرين وقتاً ، وجمع الناصر المجانيق على جهة واحدة من السور ، وشدد فى ضرب المدينة ، فكثر القتلى والجرحى من أهلها ، واضطر الغازى وصحبه أخيراً إلى طلب الأمان والتسليم ، على أن يُسمح لهم باللحاق بيحيي ، فوافق الناصر على طلبهم ، وسلمت المدينة للناصر فى اليوم السابع والعشرين من جمادى الأولى سنة ٦٠٢ هـ ( ١١ يناير سنة ١٢٠٦ م ) وغادر على بن الغازى — وكان الموحدون يسمونه بالحاج الكافر — المدينة مع صحبه ، ونزل بموضع قريب منها بنية اللحاق بيحيي ، ولكنه عاد فى اليوم التالى ، فعدل عن هذه النية ، وبعث إلى الناصر يعلن طاعته ودخوله فى الدعوة الموحدية ، فاغتبط الناصر بتوحيده ، واستدعاه إليه ، وغمره بعطفه وإكرامه ، وصحبه معه فيما بعد إلى مراكش ، ولما عبر الناصر البحر بعد ذلك إلى الأندلس بقصد الجهاد ، سار علىٌّ معه ، واشترك مع الموحدين فى معركة العقاب ، وقتل ضمن من قتل منهم (١) .

وفى يوم عشرين من جمادى الأخرى ، غادر الناصر المهدية ، بعد أن عفا عن سائر أهلها ، من المقاتلين وغيرهم ، وأمر بترميم أسوارها ، وتنظيم أمورها ، وعين لها والياً هو الشيخ أبو عبد الله محمد بن يغمور الهنتاتى ، وعين لولاية طرابلس عبد الله بن إبراهيم بن جامع . ثم سار إلى تونس ، ومنها أصدر كتب الفتح ، واستقر بها بقية عام اثنين وستمائة ، ومعظم العام التالى .

---

(١) رحلة التجانى ص ٣٥٨ و ٣٥٩ ، وروض القرطاس ص ١٥٣ و ١٥٤ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢٢٠ و ٢٢١ و ٢٢٣ .

— ٤ —

وهكذا انتهت هذه المعركة العنيفة الشاملة، بسحق يحي بن إسحاق الميورقى ، وسحق سلطان بنى غانية فى إفريقية ، واسترداد الموحدين لسلطانهم وهيبتهم ، فى تلك المناطق الغنية الآهلة . وكان قد مضى نحو ربع قرن ، منذ نفذ بنو غانية أصحاب الجزائر الشرقية ، مشروعهم فى مهاجمة إفريقية ، واتخاذها مسرحاً للصراع ضد الموحدين خصوم الدولة المرابطية والمنتزعين لتراثها ، ومنذ استولى عميدهم على بن إسحاق بن غانية الميورقى ، على ثغر بجاية فى سنة ٥٨٠هـ ( ١١٨٤م ) فى أوائل عهد الخليفة المنصور . وقد تتبعنا حركات بنى غانية ومغامراتهم فى إفريقية من ذلك التاريخ ، وأتينا على فتوحاتهم المتوالية للقواعد والثغور الإفريقية ، وعلى ما نشب بينهم وبين الموحدين ، فى مختلف المواطن والتواريخ ، من معارك مريرة مستمرة . ولقد كان بنو غانية رجال حرب وسياسة معا ، يبغون افتتاح الأقطار ، وبسط السيادة والسلطان على ما يفتحونه من الأراضى ، ولكن كانت تحفزهم إلى خوض هذه المعارك مع الموحدين مشاعر ومثل خاصة ، فقد كانت تجثم وراء هذه المعارك والفتوحات المتوالية ، إلى جانب شهوة السلطان والملك ، رغبة مضطرمة فى تقويض أسس الدعوة الموحدية ، والقضاء على سلطان الموحدين . وكانوا يرون الدعوة الموحدية ، دعوة ختل وخداع ، ويعتبرون الموحدين غاصبين آثمين ، استولوا بغير حق ولا سند شرعى ، على تراث الدولة المرابطية غدراً وظلما ، ويعتبرون المرابطين سادتهم وحماتهم الأوائل ، وبنى قبيلهم وجلدتهم ، مجاهدين شهداء ، يجب الانتقام لهم ، والانتصاف لحقهم المغصوب .

كانت هذه العواطف والمثل هى التى تحرك بنى غانية فى البداية إلى شهر صراعهم ضد الموحدين فى إفريقية ، ولكنهم بعدما تحقق لهم الظفر فى ذلك الصراع ، وبعد أن استولوا على معظم القواعد والثغور الإفريقية ، ونعموا بالملك والسلطان ، وامتلأت أيديهم من الأموال والغنائم ، تحولوا إلى فئة من المغامرين ، تقصد قبل كل شىء إلى تحقيق الغُنم والسلطان بأى الوسائل، وتضاءل لون المعركة المذهبى والمثالى شيئاً فشيئاً ، واستحال إلى صراع مادى على امتلاك تلك المنطقة الغنية الآهلة — إفريقية — وانتزاعها من أيدى الموحدين ، لتغدو غنما لبنى غانية . وقد أسفر هذا الصراع عن تحقيق أمنية بنى غانية كاملة ،واستطاع

يحيى بن غانية ، بعد فترة قليلة من مصرع أخيه على بن غانية ، أن يفتتح سائر القواعد والثغور الإفريقية — القيروان وسوسة والمهدية وصفاقس وقفصة وبلاد الجريد ، وجبل نفوسة وطرابلس وغيرها ، وانتهى أخيراً بأن افتتح تونس ذاتها ، وتغلب على خصومه من الغز فى المنطقة الشرقية ، وسحق سائر الحملات الموحدية التى وجهت لقتاله ، ولم يبق بيد الموحدين من إفريقية سوى بجاية ، وما يليها من الشاطئ .

على أن هذه المملكة العظمية ، التى استطاع يحيى بن غانية أن يبسط عليها سلطانه ، لم تكن وحدة متماسكة متناسقة ، فقد كان سكانها يتألفون من عناصر مختلفة متنافرة ، من العرب والبربر ، وكان من بينها فى الجنوب فى جبل نفوسة ، وما يليه ، طوائف من الخوارج لاتدين بالولاء لأحد . ولم يكن يحيى بن غانية بالرغم من براعته وبسالته كجندى وقائد ، يتصف بشىء من المقدرة الإدارية والنظامية ، ولم يستطع بالرغم من ظفره على خصومه فى معظم المعارك التى خاضها ، أن ينشئ فى البلاد التى افتتحها أية نوع من الحكومة المنظمة ، بل كان يجرى فى حكمها على نوع من الارتجال الخطر ، وكانت أساليبه فى الحكم هى أساليب الطاغية المطلق ، أعنى حكم عسف وهوى ، لايعرف معنى للحق والعدل ، فلم يكن ثمة فى ظله ضمان للنفس أوالأموال أوالحرم ، بل كان يتميز قبل كل شىء بالقتل والغصب واستباحة الحُرم ، وعلى الجملة ، فلم تكن حكومة الميورقى ، وعماله فى تلك الأقطار ، سوى حكومة عصابات ناهبة تعتمد فى تدعيم سلطانها على الإرهاب المطبق . وكان يحيى لايدخر وسعاً فى استلاب المال بكافة الوسائل ، ينفق منه على حملاته ومشاريعه الحربية التى لاتنتهى ، ويبذل الوفير لأحلافه من طوائف الإعراب القُلَّب الذين لايخبو لهم جشع . وقد رأينا ماكان من بالغ جشعه واشتطاطه فى فرض الغرامات على أهل تونس ، وجبل نفوسة ، وما اقترن باقتضائها من رائع السفاك والتقتيل .

وقدكان حريًّا يمثل هذا الحكم أن يثير بغض سائر المحكومين ومقتهم وأن يحفزهم إلى ترقب انهياره والخلاص منه . وهكذا كان سلطان بنى غانية ، يقوم على بركان من البغض الخطر ، الذى لايلطف منه أى عطف أو ولاء . وبالرغم من أن حكم الموحدين لإفريقية لم يكن حكما مثالياً ، فقدكان على الأقل حكما نظامياً ، فى معنى من المعانى ، وكان بعيداً عن مثل هذه الفظائع ، التى كانت تصم حكم

بنى غانية باستمرار ، ومن ثم فإنه لم يكن غريباً أن يتوق أهل المدن الإفريقية إلى عودة الحكم الموحدى ، وأن يستقبلوا الجيوش الموحدية بالترحيب والرضى ، وأن يبتهجوا لسقوط الميورقى وانهيار سلطانه .

تلك هى الظروف والعوامل التى اجتمعت لتقوض سلطان بنى غانية فى إفريقية ، ولتحول انتصارات يحيى الميورقى وفتوحاته ، إلى حملات ناهبة غير مستقرة الدعائم ، ولتجعل من حكمه لتلك المملكة الغنية الشاسعة ، حكم عصابة مغامرة ، ولتحمل إليه فى النهاية عوامل الانهيار والسقوط .

على أن يحيى الميورقى ، بالرغم من هزيمته الساحقة فى جبل تاجرا ، ومن فقده لأمواله وعتاده ، ومعظم صحبه ، وفراره فى فلوله شريداً إلى الصحراء الجنوبية ، لم ييأس مع ذلك ، ولم تتكسر نفسه الوثابة ، ولم تخب قواه المعنوية ، ولم يعتبرها كلمة الفصل النهائية ، فى معركته مع الموحدين ، وسوف نراه عما قريب ينزل إلى ميدان النضال والصراع مرة أخرى ، مزوداً بقوى جديدة ، وآمال جديدة .

— ٥ —

كان أهم ما عنى به الناصر خلال إقامته بتونس ، هو أن يتخذ كل إجراء ممكن ، لتأمين إفريقية ، وتوطيد سلطان الموحدين بها ، والحيلولة دون قيام أمر بنى غانية مرة أخرى . وكان يحيى الميورقى على أثر هزيمته الساحقة فى موقعة تاجرا ، قد فر فى فلوله حسبما تقدم إلى الواحات الجنوبية ، بيد أنه لم يكن ثمة ما يدل على أنه قد سحق بصورة نهائية . ومن جهة أخرى فقد كانت توجد ثمة طوائف أخرى من البربر والأعراب فى الجهات الجنوبية ، دائبة الشغب والعصيان . ففى شهر صفر سنة ٦٠٣ هـ ، وجه الناصر وهو ما يزال بتونس حملة موحدية جديدة ، تحت إمرة أخيه السيد أبى إسحق ، إلى الأطراف الجنوبية لاستئصال أهل الشر والفساد ، فسارت هذه الحملة ، وهى تتقصى آثار « الأشقياء » شرقاً وغرباً ، حتى وصلت إلى أحواز طرابلس ، وقامت بردع بنى دمر ، ومطماطة ، ووصلت إلى آخر جبال نفوسة ، وهى تعمل على مطاردة العناصر المشاغبة وسحقها ، ثم عادت إلى تونس بعد أن قامت بتأدية مهمتها ، دون أن تلقى معارضة أو مقاومة(١) .

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٢٣ و ٢٢٥ .

على أن أنجع إجراء اتخذه الناصر لتأمين إفريقية هو إسناده ولايتها إلى الشيخ أبى محمد عبد الواحد بن أبى حفص عمر الهنتاتى ، وهو الظافر فى معركة تاجرا . وكان أبو محمد يومئذ عميد أشياخ الموحدين، وأعلاهم مكانة ، وأشدهم نفوذاً لدى الخليفة . وكان يمت إلى الخليفة بصلة النسب الوثيق ، إذ كان متزوجاً أخته إبنة الخليفة المنصور . وكان الناصر يثق بحكمته ، وسديد رأيه ووافر مقدرته . وقد اعتذر أبو محمد بادى ذى بدء عن قبول هذا المنصب ، وشعر أنه نوع من الإبعاد له عن البلاط ، والمشاركة فى الجليل من الشئون ، فبعث الناصر إليه ابنه وولى عهده الفتى يوسف ، ليقنعه بالقبول . ويفصل لنا التجانى فى رحلته ، ما قاله ولى العهد للشيخ ، وما نوه به من أهمية إفريقية ، وماضحى به الموحدون فى سبيلها من المال والرجال ، وأن الخليفة لم يجد عن اختيار الشيخ معدلا ، وقد أكبر الشيخ حركة الخليفة ومقدم ولى عهده، فأبدى قبوله لولاية إفريقية، بشروط خلاصتها أنه لايبقى فى منصبه إلا بقدر ما تصلح أحوال إفريقية ، وينقشع خطر الميورقى عنها ، وهو يقدر لذلك ثلاث سنين ، وأن يختار من قوات الجيش من يرى بقاءهم معه ، وألا يسئل عن تصرفاته كائنة ماكانت ، وأن يخير فى أمر الولاة الذين اختارهم الخليفة لبلاد إفريقية ، فيبقى من يشاء ويعزل من يشاء ، فقبل الناصر كل شروطه . ثم أزمع الرحلة إلى المغرب ، فغادر تونس فى السابع من شهر شوال سنة ٦٠٣ هـ ، وصحبه الشيخ أبومحمد مدى ثلاثة أيام . وحدث عند خروج الناصر أن مثل بين يديه أهل تونس وأبدوا له خوفهم ، من أن يعود الميورقى إلى عدوانه ، بعد سفره ، فاستدعى الناصر أعيانهم ، وطمأنهم بوجود الشيخ أبى محمد على رأس الولاية ، وأنه آثرهم بوجوده رغم شدة حاجته إليه ، فاطمأن الناس لقوله واستبشروا بولاية الشيخ(١) .

وسار الناصر أولا إلى تلمسان ، فوصل إليها فى أوائل شهر ذى الحجة ، واستقر بها وقتاً ، وأنفذ منها الأوامر إلى ولاة إشبيلية وقرطبة وغرناطة وبسطة والمرية ومرسية ، لموافاته مع أتباعهم . وكان عند خروجه إلى غزوته فى إفريقية ، قد أمر بعزل السيد أبى إسحق عن ولاية إشبيلية، وقدم عليها أخاه السيد أبا موسى . وقضى أيام عيد النحر بتلمسان ، وبقى بها حتى نهاية ذى الحجة ، ثم غادرها إلى مدينة فاس ، ونزل بها فى أوائل شهر المحرم سنة ٦٠٤هـ ، واستأنف بها النظر فى

(١) رحلة التجانى ص ٣٦١ و٣٦٢ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٨ و٢٤٩ .

الأعمال ، وشكا إليه أهل فاس من مظالم عاملهم أبى الحسن بن أبى بكر ، كما شكا إليه أهل مكناسة من مظالم عاملهم أبى الربيع بن أبى عمران ، فأمر بالقبض عليهما ، واستصفاء أموالهما . ثم رحل إلى مكناسة ، ونزل بها فى صفر ، وأصابته هنالك وعكة ، يبدو أنها كانت من أثر مرض وبائى فشا ببلاد الأندلس وانتقل إلى العدوة . فلما تماثل للشفاء ، غادر مكناسة إلى رباط الفتح ، فوصل إليها فى شهر ربيع الأول ، ثم رحل منها مباشرة ، إلى مراكش ، فوصلها بعد أيام قلائل[١] .

وماكاد الناصر يستريح من وعثاء السفر ، حتى عاد إلى النظر فى الأعمال السلطانية ، فقدم أبا محمد عبد العزيز بن عمر بن أبى زيد على الأشغال بالعدوتين المغرب والأندلس . وكان أبو سعيد بن جامع متولياً للوزارة ، فبقى على ماكان عليه ، وكانت تربطه بعبد العزيز بن أبى زيد روابط الصداقة . ووصل معظم العمال مع أتباعهم وكتابهم ، وفقاً للأمر الصادر بذلك ، وأخذ فى تصفح أعمالهم ومراجعتها ، وكان ممن وصل من العمال بالأندلس ، يوسف بن عمرو الكاتب ومؤرخ الخليفة المنصور ، وكان يتولى النظر على بعض الأشغال المخزنية والسهام السلطانية ، وكان قد لحقت بتصرفاته بعض الريب ، فماكاد يقترب من الحضرة حتى أحيط بأحماله ومتاعه وقبض عليه وثقف ، ثم فتحت أحماله وأمتعته بحضور الشهود وروجعت ، فلم يوجد بينها شىء مما يدينه ، فأمر الخليفة بإطلاق سراحه ، ورد ماله ومتاعه إليه ، وكان مما شفع له فى ذلك عند الناصر ، كتابه الذى ألفه فى محاسن والده المنصور[٢] .

وفى هذا العام توفى السيد أبو الربيع بن عبد الله بن عبد المؤمن والى بجاية ، وكان قد قام بتجديدها عقب الحريق الذى أصابها وخرب كثيراً من ربوعها . وفى العام التالى أعنى سنة خمس وستمائة أقيل السيد أبو الحسن بن عمر والى تلمسان لمرضه وعجزه عن ضبط الأمور ، واضطراب قبائل زناتة فى تلك المنطقة ، وعين مكانه فى الولاية السيد أبوعمران موسى أخو الخليفة ، فقدم إلى تلمسان ومعه عسكر من الموحدين ليستعين بهم فى ضبط الأمن والسكينة فى تلك المنطقة .

وفى تلك الأثناء كانت الحوادث فى إفريقية قد عادت إلى اضطرامها ، وعاد يحيى الميورقى إلى استئناف نشاطه ومغامراته . وكان مذ لحقت به

(١) البيان المغرب – القسم الثالث ص ٢٢٥ و ٢٢٦ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٩ ، والبيان المغرب ص ٢٢٧ و ٢٢٨ .

الهزيمة الساحقة ، بجبل تاجرا ، وارتد بفلوله إلى الجنوب ، يرقب الفرص للانتقام واسترداد شيء من سلطانه الضائع . وكان ما يزال يلتف حوله بعض طوائف من حلفائه الأعراب ، الذين بقوا إلى جانبه بالرغم من محنته . وقد أشرنا من قبل غير مرة إلى الدور الذى كانت تقوم به طوائف العرب فى أرجاء إفريقية ، من احتراف الحرب ، والتقلب فى محالفة مختلف الجهات . وكان بنو غانية يعتمدون بالأخص على معاونة العرب فى سائر مشاريعهم الحربية . وكان يحيى الميورقى يجمع حوله كثيراً من حشودهم ، ويأسرهم بوافر بذله ، وإطلاق أيديهم كلما سنحت الفرص ، فى أعمال السلب والنهب . وكذلك كان الموحدون يعتمدون على بعض طوائف العرب فى تزويد جيوشهم بفرق المرتزقة . فلما حلت الهزيمة بيحيي وتحطم سلطانه ، تركه كثير من حلفائه العرب السابقين ، وانضموا إلى جانب الموحدين الظافرين ، وكان من هؤلاء بنو مرداس وبنو عوف من بطون بنى سُليم ، وكانت أحياؤهم تقع فى المنطقة الممتدة من قابس نحو بونة ، أما بنو زغبة فقد كانوا أصلا من خصوم بنى غانية ، ولم ينقطعوا عن محاربتهم قط ، وكانوا دائماً إلى جانب الموحدين ، ثم تحالفوا بعد ذلك مع بربر زناته الضاربين فى المغرب الأوسط ، واستمرت المصادمات بينهم وبين بنى غانية . بيد أن يحيي استطاع بالرغم من محنته أن يستبقى إلى جانبه بالأخص، حشوداً كبيرة من رياح وسليم ، ومن الزواودة من بطون رياح ، وشيخهم محمد بن مسعود الباط لم يفارقه فى ضرائه .

فلما غادر الخليفة الناصر ، تونس ، وسار فى معظم قواته صوب المغرب ، فى أواخر سنة ٦٠٣ هـ ، أخذ يحيي الميورقى يتأهب للنهوض والحركة مرة أخرى ، ثم سار على رأس جموعه نحو الشمال ، وهو يعيث حيثما حل، وكان الشيخ أبو محمد الحفصى والى إفريقية ساهراً ، يرقب عن طريق عيونه حركات الميورقى ، فلما ترامت إليه الأخبار بتحركه ، خرج فى جيش من الموحدين والعرب ، من بنى عوف وسليم ومرداس ، وسار توا للقائه . والتقى الفريقان فى منطقة تبيشة على ضفة وادى شبرو ، واقتتل الفريقان بشدة وعنف ، واستمرت المعركة طول اليوم ، وأسفرت فى النهاية عن ظفر الموحدين وهزيمة المرابطين الميورقيين ومن معهم من العرب ، فارتد يحيي فى فلوله وهو جريح ، والموحدون فى أثره ، ولكنه استطاع أن يلحق بالصحراء فى اتجاه طرابلس ، واستولى الموحدون على

محلته وسائر عتاده وأسلابه ومتاعه ، وكانت غنيمة وافرة ، وتمت هذه الهزيمة على يحيي الميورقى فى ٣٠ ربيع الأول سنة ٦٠٤هـ ( ٢٤ أكتوبر سنة ١٢٠٧م ) . ورجع أبو محمد إلى تونس مكللا بغار الظفر ، وكتب إلى الناصر بالفتح ، واستنجزه وعده فى الإقالة من منصبه ، فبعث إليه الخليفة يشكره ويعتذر له بانشغاله بشئون المغرب ، ويرجوه الاستمرار فى النظر ، وبعث إليه بالمال والخيل والكسى للإنفاق والعطاء ، وبلغ ما أرسله من المال وحده مائتى ألف دينار(١) .

على أن هذه الهزيمة الثانية لم تفت فى عضد يحيى بن غانية ، ولم تخمد المديه عزم التوثب والنضال ، فجمع أشتات قواته مرة أخرى ، ورأى تلك المرة ، تجنباً للصدام مع أبى محمد ، وتفاديا لضرباته القاصمة ، أن يتجه نحو المغرب ، فسار فى جموعه من المرابطين وطوائف العرب ، متجهاً صوب الجنوب الغربى ، وهو يعيث قتلا ونهباً أينما حل ، وتحالف مع بطون زناتة الضاربة فى تلك الأنحاء ، واستمر فى سيره حتى وصل إلى واحات سجلماسة ، ثم هاجم سجلماسة واقتحمها ، ونهبها ، وفرق الغنائم فى أصحابه ، وكانت وفيرة ، فانتعشت نفوسهم . وكان وصول الميورقى على هذا النحو إلى أعماق المغرب ، واقترابه من العاصمة الموحدية ، مثار الدهشة والروع بين الموحدين ، ونهض الشيخ أبو محمد فى قواته مرة أخرى للقاء الميورقى عند العود ، وبعث إلى والى تلمسان السيد أبى عمران موسى يحذره من مفاجآت الميورقى ، وأن يتجنب لقاءه ، وكان السيد أبو عمران قد خرج من تلمسان يجوس بين قبائل زناتة الضاربة فى جنوبها ، يسترضيهم ويستميلهم إلى أداء الجبايات ، والتزام الطاعة والسكينة . وكان بين قوات الميورقى كثير من بطون زناتة ، الخوارج على طاعة الموحدين ، فاتصل بهم زملاؤهم زعماء زناتة المقيمين فى جنوبى تلمسان ، وعرّفوا الميورقى بظروف السيد أبى عمران ، وعدم استعداده وضعف قواته ، وابتعاده عن مدينته المحصنة ، فسار الميورقى نحو الشمال حتى اقترب من جنوبى تلمسان . وعلم السيد أبو عمران

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٩٦ و٢٧٨ . وقد جاء فى « العبر » أن مبلغ ما أرسله الخليفة من مال كان « مائة ألف ألف دينار ثنتان » . ومعنى ذلك أن المال بلغت جملته مائة مليون دينار . وهذا رقم يصعب تصديقه ، ولا يتفق بأى حال مع تقديرات العصر وموارده . وربما كان هناك تحريف فى النص .

بمقدمه وتردد وقتاً فى لقائه . ولكن الميورقى لم يلبث أن فاجأه بجموعه من المرابطين والعرب . واضطر السيد أن يلقاه فى قواته القليلة ، وتكاثر المرابطون والعرب على القوات الموحدية ، وفتكوا بها ، وصمد السيد أبوعمران ومن معه ، فقتلوا جميعاً ، وأسر بعض بنى السيد ، والكاتب أبو الحسن بن عياش ، وبعض طلبة تلمسان ، واستولى الميورقى على المحلة الموحدية وسائر ما فيها من العتاد والسلاح والخيل ، واقتحمت مدينة تاهَرْت ونهبت وخربت حتى غدت أطلالا (٦٠٥هـ – ١٢٠٩م) ، وانتشرت جنود الميورقى من المرابطين والعرب فى أحواز تلمسان ونهبوها ، وانتسفوا زروعها ، فارتاع أهل المدينة ، وأغلقوا أبوابها ، وهم يتوقعون أسوأ مصير ، وبادر السيد أبو زكريا يحيى والى فاس فى قوة من الموحدين ، فوصل مسرعاً إلى تلمسان ، وطمأن أهلها وسكن روعهم . وأمر الناصر فى نفس الوقت بتجهيز حملة كبيرة من قوات مختارة ، زودت بوافر العدد والأقوات ، وعين لولاية تلمسان الوزير أبا زيد بن يوجان ، وقدّمه على العسكر ، فسار ابن يوجان فى قواته إلى تلمسان ، وعلم يحيى الميورقى بهذه الاستعدادات الضخمة كلها ، فغادر منطقة تاهرت فى قواته ، وقصد إلى الصحراء متجهاً نحو طرابلس ، ومعه محمد بن مسعود شيخ الزواودة ، وطوائف رياح وسليم وغيرهم [1] .

ولم يمض قليل على ذلك حتى اعتزم يحيى بن غانية أن يستأنف غاراته . وكانت نفسه قد قويت بما أحرز من نصر فى تاهرت ، وانتعشت جموعه لما أحرزت من المال والغنائم ، وكان حلفاؤه العرب من جهة أخرى يتوقون إلى استئناف العيث والنهب ، وهو قوام أطماعهم ، ومورد عيشهم ، وقد تضخم جيش يحيى بما انضم إليه من طوائف جديدة من الغز والعرب ، جاءت لتبحث عن مطامعها ، ولتغتنم فرص الكسب ، وكان من هؤلاء رياح وزغبة وعوف ودباب ونعات وغيرهم ، هذا إلى الزواودة وشيخهم محمد بن مسعود . وكان يحيى ينوى هذه المرة أن يعود إلى مهاجمة أراضى إفريقية ذاتها . ولم تكن نيات الثائر بخافية على أبى محمد بن أبى حفص والى إفريقية اليقظ الحازم . فبادر بحشد قواته ، معتزماً أن يبادر الميارقة وحلفاءهم قبل أن يخترقوا إفريقية ، وخرج من تونس

---

(١) البيان المغرب – القسم الثالث ص٢٢٩ و٢٣٠ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٩ و ٢٧٨ . وراجع أيضاً : A. Bel : Les Benou Ghania p. 148 & 149 .

سنة ست وستمائة ، فى جيش كثيف وافر العُدة ، وسار جنوبا نحو قابس ، ثم اتجه نحو جبل نفوسة ، حيث كان يحتشد المرابطون وحلفاؤهم العرب . والتقى الفريقان فى موضع من جبل نفوسة ، وأقام أبو محمد محلته مزودة بالفساطيط والأبنية ، حتى لاتكون ثمة أية فكرة فى التراجع . ثم اشتبك الفريقان فى معركة عنيفة دامية ، فانكشفت ميسرة الموحدين فى البداية ، وولى من كان بها من الغُز والأعراب منهزمين ، وثبت الشيخ أبو محمد فى القلب مع الموحدين والحفاظ ، وانحازت إليه بعض طوائف من بنى عوف وبنى سليم ، واستمر القتال طول اليوم على أشده ، وأسفر فى النهاية عن هزيمة المرابطين وحلفائهم ، وطارد الموحدون الجيش المنهزم ، وأمعنوا فيه قتلا وأسراً ، ولم ينقذهم من الفناء الشامل سوى دخول الليل ، واستولى الموحدون على محلة الميورقى ، وسائر ما بها من الأسلاب والغنائم ، واستولوا كذلك على ظعائن العرب وغنائمهم التى كانوا يحتفظون بها ، وذكر ابن خلدون نقلا عن ابن نجيل كاتب أبى محمد أن أحمال الغنائم فى هذه الموقعة بلغت ثمانية عشر ألفا ، وكان بين القتلى محمد بن مسعود شيخ الزواودة ، وابن عمه حركات بن أبى الشيخ ، وشيخ بنى قرة ، وشيخ مغراوة ، ومحمد بن الغازى ابن غانية ، وكثيرون من أنجاد بنى رياح وبنى هلال . وكانت ضربة ساحقة ليحيى ابن غانية ، وحلفائه ، تضارع فى عنفها وأهمية نتائجها ضربة جبل تاجْرا ، وفر يحيى فى فلٍّ من صحبه ، وقد هدته النكبة ، وأوقعت فى قلبه اليأس ، وارتد أبو محمد فى قواته إلى تونس مكللا بغار الظفر ، وكتب إلى الخليفة الناصر بالفتح ، فقرئ كتابه بالمسجد الجامع : وجلس الناصر لتقبل الهناء والاستماع لمدائح الشعر(١) ، وكان منها قصيدة لأبى عبد الله بن يخلفتن الفازازى هذا مطلعها :

هذه فتوح تفتحت أزهارها   وتدفقت ملء الملا أنهارها
وتأرّجت نفحاتها وتبرجت   صفحاتها وتبلجت أنوارها
وأتت بشائرها إليك سوافرا   عن أوجه يا حبذا إسفارها

ولم ينس أبو محمد ما قام به عرب سليم من مخالفة الميورقى والقتال إلى جانبه ، فاخترق ديارهم خلال عوده ، وأمر بالقبض على زعمائهم ، وأرسلهم مصفدين إلى تونس ، فكان لتصرفه وقع عميق فى تلك المنطقة ، التى كثر فيها تقلب

---

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٣١ و ٢٣٢ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٩٦ و ٢٧٨ .

الأعراب وفسادهم . وبالعكس عومل العرب الذين وقفوا إلى جانب الموحدين بالرعاية والإحسان ، ووزعت عليهم أراض شاسعة خصبة فى وادى القيروان .

وكان أهل جبال نفوسة قد أرهقهم ابن عصفور نائب يحيى بجوره ، وأثقل كاهلهم بالمظالم والفروض ، فما كادت تقع الهزيمة على الميورقى ، حتى وثبوا بابن عصفور فقتلوه ومعاونيه من المرابطين ، كما قتلوا ولدين ليحيى .

وعكف أبومحمد بعد نصره الحاسم على معالجة شئون إفريقية ، بما عرف عنه من الحزم والبراعة ، فقمع كل صنوف الفساد والشغب ، ووطد دعائم السكينة والنظام ، واستوفى فروض الجباية من سائر الطوائف ، فازدهرت فى ظله بلاد إفريقية ، وعمها الأمن والرخاء ،وذاع اسم أبى محمد ، واشتهر أمره ، وسمت مكانته ،حتى غدا ثانى رجل فى الدولة بعد الخليفة ذاته ، وكان العمل الذى اضطلع به ونجح فى تحقيقه ، وهو إخماد ثورة بنى غانية ، وتحرير إفريقية من نيرهم ، وردها إلى سلطان الموحدين ، وذلك فى فترة يسيرة لاتتجاوز خمسة أعوام أو ستة ، من أعظم الأعمال العسكرية والسياسية ، التى استطاعت الدولة الموحدية أن تقوم بها فى مدى ربع قرن ، مذ نزل بنوغانية بإفريقية لأول مرة . ولم يكن ذلك عملا هيناً ولا ميسوراً إزاء ماكان يتصف به على بن غانية وأخوه يحيى ، وبقية هذه العصبة ، من الجرأة والبسالة وشدة المراس . وكان توطيد سلطان الموحدين بإفريقية على هذا النحو ، عمل إنقاذ وقى الدولة الموحدية كثيراً من أخطار التمزق والتفكك ، التى كانت تتعرض لها ، من جراء تغلب بنى غانية على جزء من أهم أراضى الدولة ، وعجزها عن رد عدوانهم . واستمر أبو محمد بن أبى حفص عدة أعوام أخرى حتى وفاته فى سنة ٦١٨ ﻫ ( ١٢٢١ م ) يسيطر على مصاير إفريقية ، ويسهر على سلامتها وأمنها ، ويوطد شئونها بمقدرة فائقة ، فهل كان عندئذ يضمر أو يدور بخلده أنه إنما يمهد بهذا التوطيد لسلطان عقبه ، وتأسيس أسرته الملوكية المستقلة ، التى قامت بعد ذلك بقليل ، فى هذا القطر من أقطار الإمبراطورية الموحدية[١] .

أما يحيى بن غانية فقد لبث بعد نكبته الأخيرة فى جبل نفوسة ، ملتجئاً مع فلوله إلى الصحراء الجنوبية ، يلوذ مؤقتاً بأهداب السكينة ، ويرقب الحوادث . بيد أنه لم يمض قليل على ذلك ، حتى انفصل عنه أخوه سير بن إسحاق بن غانية ،

---

(١) ابن خلدون ج٦ ص٢٧٩. وراجع أيضاً A. Bel : Les Benou Ghania p. 152 - 154

وكان ممن شهد معه غزوة تلمسان ، وسار إلى تونس ملتجئاً إلى الشيخ أبى محمد ، لائذاً بطاعة الموحدين ، فأكرم الشيخ مثواه ، ثم استأذنه فى السفر إلى الحضرة فأذن له ، واستقبل هناك بالمودة والترحاب ( سنة ٦٠٧ هـ ) .

وفى خلال ذلك كان الخليفة الناصر عاكفاً على معالجة الشئون الإدارية ، والنظر فى أعمال الولايات . وكان كثير التغيير والتبديل للولاة ورجال الدولة . ومن ذلك أنه فى سنة خمس وستمائة ، أقال أبا يحيى بن الحسن بن أبى عمران من الوزارة ،وألزمه أن يبقى فى داره ، ثم عينه بعد ذلك والياً لميورقة مكان السيد أبى عبد الله بن أبى حفص ، وعين السيد أبا عبد الله واليا لبلنسية ، وقدم للوزارة أباسعيد ابن أبى إسحاق بن جامع مكان أبى زيد بن يوجان . ثم عين أخاه السيد أبا إسحق والياً لإشبيلية ، وأخاه السيد أبا محمد والياً لشرقى الأندلس ، والشيخ أباعمران بن ياسين الهنتاتى والياً لمرسيه ، مكان أبى الحسن بن واجاج ، وعين السيد أبا زيد والياً لجيان ، وأبا عبد الله بن أبى يحيى بن الشيخ أبى حفص والياً لغرناطة . وعين لكتابة الديوان الكاتبين أبا محمد بن الحسن ، وأبا عبد الله بن منيع ، وكان كلاهما من الكتاب المجيدين ، واختص الأول بكتب التوقيعات والظهائر ، واختص الثانى بديوان العسكر ، والتنفيذات السلطانية . وكذلك تناولت هذه التعيينات شئون القضاء فعُزل القاضى أبوعبد الله الباجى عن قضاء إشبيلية ، وعُين مكانه أبو محمد عبد الحق بن عبد الحق . وعُين لقضاء قرطبة ابن حوط الله ، مكان أبى على بن أبى محمد المالقى ، واستدعى أبوعلى إلى الحضرة حيث قُدم على طلبة الحضر ، وهو المنصب الذى كان يتولاه أبوه وإخوته من قبل . وعُين أبو إبراهيم ابن يغمور لقضاء بلنسية . وندب القائد أبوعبد الله بن عيسى المرسى لقيادة قوات الغرب بشلب ، ونُدب أبو الجيش محارب لاستقبال ملوك الروم وسفرائهم ، والاشتغال بإنزالهم وضيافتهم ، والترجمة عنهم ، مكان ابن عوبيل ، وهى وظيفة مستحدثة فى البلاط الموحدى ، ولم يسبق أن وقفنا على ذكرها من قبل ضمن مناصب الإدارة الموحدية . ووقعت هذه التغييرات والتعيينات كلها فى عام واحد ، هو سنة ٦٠٧ هـ ( ١٢١٠ م )[1] .

ووقعت بالمغرب فى هذا العام عدة حوادث أخرى تستحق الذكر ، منها

( ١ ) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٣٠ و ٢٣١ و ٢٣٣ و٢٣٤ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٩ .

مصرع ابن عطية الزناتى ، أحد رؤساء زناتة الخوارج فى منطقة تلمسان الجنوبية ، وكان ممن تحالف مع ابن غانية حين غزوته لمنطقة تلمسان ، فدس إليه ابن يوجان والى تلمسان من اغتاله بمقره . وفى هذا الحادث ما يدل على أن الاغتيال السياسى كان من وسائل الموحدين فى القضاء على خصومهم . ومنها أن الشيخ أبا محمد قام بغارة على أحياء الخوارج والمشاغبين من بنى سليم ، واستاق أشياخهم وأموالهم ، وجعلهم رهينة لديه فى تونس ، حسماً لفسادهم وشغبهم ، وإرغامهم على قطع إمدادهم ومعاونتهم لابن غانية ، ومن جهة أخرى فقد قام محمد بن عبد السلام عامل طرابلس بغارة على منطقة جبل نفوسة واقتحم بها قصراً ، ألفى فيه جملة من ثمين المتاع والأموال لبنى غانية ، ووطد أسباب الهدوء فى تلك المنطقة

وكان من أهم الحوادث فى هذا العام أيضاً ، الحريق الكبير الذى وقع بمراكش ، وكان وقوعه فى ليلة يوم الخميس الثالث عشر لجمادى الأولى ، والناس يرقدون فى مضاجعهم . وشبت النار أولا فى حى القيسارية ، وانتشرت بسرعة ، وأتت على الحى كله ، فشب الناس مذعورين من نومهم ، وكثر الصراخ والاستغاثة ، ونهض الخليفة الناصر على الضجيج وغادر قصره مسرعاً ، واعتلى صومعة الجامع ليشهد تغلغل النار عاجزاً . واقتحم الغوغاء كثيراً من الدروب ، وسلبوا ما استطاعوا سلبه مما سلم من الحريق ، واستمر الحريق حتى صباح اليوم التالى ، وقد أتى على كثير من أحياء المدينة . وأمر الناصر فى اليوم التالى ، بتتبع السفلة الناهبين ، واسترداد ما يمكن استرداده منهم ، فقبض على كثيرين من هؤلاء وأعدموا على الأثر . وهلك فى تلك النكبة كثير من الأموال والدور ، وافتقر كثير من ذوى اليسار ، وفقدوا دورهم وثرواتهم . وأمر الناصر بأن يعاد تشييد الأحياء المحترقة بأحسن مما كانت عليه ، خصوصاً وقد كانت تواجه القصر الخليفى يسبغ عليها أضواءه(١) .

هذا ويذكر لنا صاحب البيان ضمن حوادث هذا العام ، أعنى عام ٦٠٧هـ ، حادثاً يستوقف النظر ، وهو أن بعض أعيان جزيرة صقلية ووجوهها ، وفدوا على الشيخ أبى محمد بن أبى حفص بتونس ، ونبأوه بأن المسلمين فى صقلية انتزعوا كثيرا من المعاقل من أيدى الروم ، وأقاموا الخطبة فى بلادهم بالدعوة المهدية الموحدية ، وقطعوا ما سواها من الدعوات من عباسية وغيرها .

---

(١) البيان المغرب ص ٢٣٤ و ٢٣٥ .

ويبدو من تتبع تاريخ صقلية ، فى تلك الفترة أن الأقلية الإسلامية التى كانت بالجزيرة حتى هذا العهد ، كانت تعانى من الضغط والاضطهاد . وكان المسلمون مذ سقطت الجزيرة فى أيدى الأمراء النورمان فى سنة ٤٧٩ هـ ( ١٠٨٦ م ) ، يتمتعون بطائفة من الحقوق والامتيازات ، ومنها السكنى فى بعض الأحياء ، والأراضى ، فى مسينى ، وبلرم ، وترابانى ، وجرجنت ، ومازرة ، وغيرها من المدن ، ومزاولة شعائرهم الدينية فى مساجدهم القليلة الباقية ، ومزاولة مهنهم وأعمالهم السلمية . واستمر الأمر على ذلك نحو قرن ، فى ظل عدة متعاقبة من الأمراء النورمان ذوى التسامح المستنير ، وفى مقدمتهم ولد فاتح الجزيرة ، الدوق روجر ( رجّار ) الثانى ، وهو الذى أسبغ رعايته على الشريف الإدريسى ، وعهد إليه بوضع موسوعته الجغرافية الشهيرة « نزهة المشتاق » . فلما توفى فى سنة ١١٥٤م ، خلفه ولده وليم الأول ( غليام ) ، فولده وليم الثانى . وفى عهد هذا الملك ، اشتدت وطأة الحكم على المسلمين وأراد أن ينزع منهم بعض الأراضى التى يحتلونها ليعطيها لبعض الأديرة المجاورة ، فقام المسلمون ببعض ثورات محلية ، واستولوا على بعض الحصون النصرانية ؛ والظاهر أن الملك وليم ، عدل بعد ذلك عن سياسة الضغط والقمع التى حاول أن يتخذها إزاء المسلمين ، وعاد الصفاء يخيم على علائق المسلمين والنصارى .

وقد أورد لنا الرحالة الأندلسى ابن جبير وصفاً دقيقاً لأحوال مسلمى صقلية فى عهد الملك وليم ( ويسميه غليام ) مما وقف عليه حين زيارته للجزيرة فى شهر رمضان سنة ٥٨٠هـ ( يناير سنة ١١٨٥م ) ، وقد زار منها عدة مدن مثل مسينه ، وبلارمه ( بلرم ) ، واطرابنش ، واجتمع فيها بالمسلمين ، ووقف على أحوالهم . وهو يقول بصفة عامة ، إن المسلمين يعيشون مع النصارى على أملاكهم وضياعهم ، وأن النصارى قد أحسنوا السيرة فى استقبالهم واصطناعهم ، وضربوا عليهم إتاوة يؤدونها فى فصلين من العام ، وحالوا بينهم وبين سعة فى الأرض كانوا يجدونها ، ثم يقول لنا ، إنه لم يكن فى مسينه إلا نفر يسير من المسلمين من ذوى المهن . وأما بلرم ، وهى عاصمة الجزيرة ، ففيها كثير من المسلمين وفيها سكنى الحضريين منهم ، ولهم فيها المساجد ، والأسواق المختصة بهم فى الأرباض كثير ، وسائر المسلمين بضياعها وجميع قراها ، وسائر مدنها كسرقوسة وغيرها . وللمسلمين فى بارم « رسم باق من الإيمان يعمرون به أكثر مساجدهم ، ويقيمون الصلاة بآذان

مسموع ، ولهم أرباض قد انفردوا فيها بسكناهم عن النصارى ، والأسواق معمورة بهم ، وهم التجار فيها ؛ ولا جمعة لهم بسبب الخطبة المحظورة عليهم ، ويصلون الأعياد بخطبة دعاؤهم فيها للعباسي . ولهم بها قاض ، يرتفعون إليه فى أحكامهم ؛ وجامع يجتمعون للصلاة فيه . وأما المساجد فكثيرة لا تحصى ، وأكثرها محاضر لمعلمى القرآن ، وبالجملة فهم غرباء عن إخوانهم المسلمين ، تحت ذمة الكفار ، ولا أمن لهم فى أموالهم ولا فى حريمهم ، ولا فى أبنائهم ، تلافاهم الله بصنع جميل »[1].

وهذه العبارة الأخيرة من أقوال ابن جبير ، تلخص لنا حقيقة أحوال المسلمين فى صقلية فى أواخر القرن السادس الهجرى ( الثانى عشر الميلادى ) . ذلك أنه بالرغم من تلك الامتيازات الشكلية فى السكنى والتجارة ومزاولة الشعائر ، فإنه لم يكن ثمة شك فى أن الأقلية المسلمة كانت تعيش داخل الجزيرة ذليلة مضطهدة . وهذا ما يفصله لنا ابن جبير بعد ذلك ، إذ يقول إنه خلال إقامته ببلدة إطرابنش ، « تعرف ما يؤلم تعرفه من سوء حال أهل هذه الجزيرة مع عباد الصليب بها ، وما هم عليه من الذل والمسكنة ، والمقام تحت عهد الذمة ، وغلظة الملك ، إلى طوارئ دواعى الفتنة فى الدين » . ثم يقول لنا ، إنه التقى فى هذه البلدة بزعيم مسلمى صقلية ، وهو القاسم بن حمود المعروف بابن الحجر وهو من ورثة أهل السيادة ، وكان من خيرة مسلمى الجزيرة كرماً ومآثر ، وكان قد اتهم بمخاطبة الموحدين ، واضطهد من أجل ذلك ، وغرم أموالا طائلة . ويزيد ابن جبير على ذلك ، أنه وقف من هذا الزعيم ، على بواطن أحوال مسلمى الجزيرة مع أعدائهم « مما يبكى العيون دما ، ويذيب القلوب ألماً »[2] .

ويحدثنا ابن جبير عن الملك وليم ( غليام ) ، فيقول إنه عجيب فى حسن السيرة ، واستعمال المسلمين ، وإنه كثير الثقة بهم ، وساكن إليهم فى أحواله ، والمهم من أشغاله ، وله جملة من العبيد المسلمين وعليهم قائد منهم . ثم يصف لنا فخامة قصوره ، وتناهيه فى الترف ورفاهة العيش ، وشغفه باتخاذ الفتيان والجوارى ، وأنه يقرأ العربية ويكتبها ، وأهل عمالته فى ملكه منهم مسلمون .

ولما توفى الملك وليم الثانى فى سنة ١١٨٩م ، وخلفه فى حكم صقلية الإمبراطور فردريك الثانى ، أول حكامها من آل هوهنشتاوفن ، عاد فانتزع من المسلمين

---

( ١ ) رحلة ابن جبير ( القاهرة ١٩٥٥ ) ص ٣١٤ و٣٢٣ .

( ٢ ) رحلة ابن جبير ص ٣٣٢ و٣٣٣ .

كثيراً من أراضيهم وأعطاها للكنيسة : وكان ذلك فى سنة ١٢٠٨م ( ٦٠٥ هـ)[١] والظاهر أن المسلمين عادوا يومئذ إلى الثورة ، وانتزعوا بعض الحصون النصرانية مرة أخرى . ويبدو من مقارنة التواريخ ، أن هذه هى الحوادث التى يشير إليها وفد المسلمين الصقليين إلى الشيخ محمد الحفصى . على أنه يبدو كذلك أنه لم يترتب على مسعى هذا الوفد أى أثر ، وأن الموحدين لم يفكروا فى التدخل فى حوادث صقلية بأية صورة . وسنرى فيما بعد أن هذا الصراع يتجدد فى صقلية بين المسلمين وحكامهم النصارى ، ثم ينتهى بإخماد كل نزعة تحريرية للمسلمين ، وإخراجهم من ديارهم .

---

( ١ ) راجع : M. Amari : Storia dei Musulmani di Sicilia (Fierenze 1872) p. 586 & 591

# الفصل السادس

## موقعة العقاب

انشغال الموحدين بحوادث إفريقية عن شئون الأندلس . سكون الممالك النصرانية منذ الأرك . شعورها بسنوح الفرصة لاستئناف الغزو . انتهاء الهدنة بين قشتالة والموحدين . إغارة الفونسو الثامن وفرسان قلعة رباح على أراضى الأندلس . إغارة ملك أراجون على أراضى بلنسية . اهتمام الناصر لتلك الحوادث . اعتزامه العبور للجهاد واستنفاره للقبائل . خروج الناصر فى قواته إلى رباط الفتح . مسيره إلى قصر كتامة . صعوبة تموين الجيش . مؤاخذة العمال المقصرين . عبور الجيوش الموحدية إلى شبه الجزيرة . عبور الناصر ومسيره إلى إشبيلية . الاستعداد وحشد الجند فى سائر الكور . خروج الناصر فى الجيوش من إشبيلية إلى قرطبة . مسيره إلى قلعة شلبطرة . أحوال الممالك النصرانية عندئذ . الصلح والتهادن بينها . عدوان ملك قشتالة على الأندلس . اتخاذ قلعة شلبطرة قاعدة لهذا العدوان . غارات أراجون فى الشرق . البابوية والصفة الصليبية لحروب النصارى ضد الأندلس . سعى البابا إنوصان لمعاونة ملك قشتالة . صدى مقدم الجيوش الموحدية . حصار الناصر لقلعة شلبطرة . عجز ألفونسو عن إنجادها وتسليمها بالأمان . رواية صاحب روض القرطاس عن الحصار . ما ينقض هذه الرواية . عود الناصر إلى إشبيلية . أهبة ملك قشتالة . معاونة البابا والأحبار النصارى . احتشاد جماعات الفرسان . مقدم المتطوعة الصليبيين من سائر الأنحاء . اجتماع جيوش قشتالة وأراجون وناڤارا . الصوم والابتهال فى رومة . أقوال الرواية الإسلامية عن هذه الأهبة . ما ورد فى كتاب الخليفة . أهبة الناصر . مقدم الحشود الجديدة . خروج الجيوش النصرانية من طليطلة . خروج الناصر فى جيوشه من إشبيلية . مسير النصارى إلى قلعة رباح ومهاجمتهم إياها . يأس حاكمها ابن قادس من النجدة وتسليمه بالأمان . ما أثاره هذا من خلاف بين القشتاليين وحلفائهم الأجانب . مغادرة معظم المتطوعة الأجانب للمعسكر النصرانى . إشارة الرواية الإسلامية إلى ذلك . وصول الناصر إلى جيان . مقدم ابن قادس إليه . اتهامه وصهره بالخيانة وإعدامهما . سخط الأندلسيين لذلك . إصلاح ما حدث بالمعسكر النصرانى . مسير سائر الجيوش النصرانية إلى الجنوب . صعودها إلى جبل الشارات ونزولها فى ممر مورادال . مسير الجيوش الموحدية لملاقاة العدو . أقسام الجيش الموحدى وعدده . مبالغة الرواية الإسلامية فى تقديره . عبور الموحدين لنهر الوادى الكبير . احتلالهم لممرات جبل الشارات . نزولهم فى السهل المواجه لممر تولوسا . توقف الناصر للقاء النصارى . وصف عيان لميدان الموقعة . حصن العقاب . الطريق الرومانى والنهر . بويرتو دل مورادال . مائدة الملك . استيلاء النصارى على قلعة فيرال أو حصن العقاب . تعذر عبورهم لجبل الشارات من تلك الناحية . قصة الراعى والممر السهل . تحول الجيش النصرانى واحتلاله لمرتفع « مائدة الملك » . وقوف الموحدين على تلك الحركة . تعبئة الجيوش الموحدية للقتال . المناوشات الأولى . ترتيب الجيش الموحدى لخوض المعركة . موقع قبة الخليفة وحرسه . تنظيم الجيش النصرانى وقيادته . استعداد الفريقين للمعركة . بدء النصارى بالهجوم . هجوم طلائعهم على مقدمة الجيش الموحدى . هجوم جناحى النصارى على جناحى الموحدين . المعركة الهائلة . ارتداد المتطوعة المسلمين . ثبات الموحدين ورد جناحى النصارى .

نزول ملك قشتالة بالقوات الاحتياطية . اشتداد هجوم النصارى . ارتداد ميمنة وميسرة الجيش الموحدى . فرار الأندلسيين والعرب . هجوم النصارى على القلب . مقاومة الحرس الخليفى العنيفة . ثبات الخليفة الناصر وحثه جنده على الثبات . اختراق النصارى للقلب . اختراقهم للدائرة الخليفية المدرعة . تمزق الجيش الموحدى وكثرة ضحاياه . صمود الناصر . مصرع الآلاف من حرسه الأسود . اضطراره فى النهاية إلى الفرار . مسيره صوب بياسة ثم جيان . فرار الموحدين فى كل ناحية . المطاردة المروعة والقتل الذريع لهم . الاستيلاء على المحلة الموحدية وانتهاب سائر ما فيها . مختلف أسماء الموقعة . خسائر المسلمين فى الموقعة . مبالغة الرواية الإسلامية فى تقديرها . اعتدال الرواية النصرانية فى ذلك . مبالغتها فى التقليل من خسائر النصارى . ما يمكن أن يقال فى ذلك . وفرة السلاح والغنائم التى استولى عليها النصارى . خيمة الناصر والعلم الموحدى . الأسباب المادية والمعنوية لتلك النكبة . آثار النكبة بالنسبة للأندلس والمغرب . توكيد التفوق السياسى والعسكرى لإسبانيا النصرانية . الفزع فى أرجاء الأندلس . شبح السقوط والفناء . فناء الجيوش الموحدية والفروسية المغربية . تضعضع الدولة الموحدية وتفككها . مقارنة بين الأرك والعقاب . كتاب الناصر عن الموقعة . ألفونسو الثامن يتبع نصره بالاستيلاء على الحصون الإسلامية . مهاجمته لبياسة وحصاره لأبدة . اقتحام أبدة وقتل وسبى أهلها . ظهور الوباء وارتداد النصارى إلى أراضيهم . وصول الناصر إلى إشبيلية ، ثم عبوره إلى مراكش . أخذه البيعة لولده أبى يعقوب يوسف . احتجابه بقصره . مرضه ووفاته . ما قيل فى وفاته . الناصر وعهده . بدايته الحسنة . استبداده بالأمر . خلو عهده من الأعمال الإنشائية . عطله عن أنواع العلوم والمعرفة . صفات الناصر وفقاً لقول المراكشى وروض القرطاس . وزراء الناصر . قضاته وكتابه . أبناؤه .

شغل الخليفة محمد الناصر لدين الله ، منذ ارتقائه العرش فى أوائل سنة ٥٩٥ هـ ، بحوادث إفريقية واستيلاء بنى غانية على قواعدها وثغورها ، والعمل على تحريرها واسترداد سيادة الموحدين بها ، عن سير الحوادث فى الأندلس ، ولم يستطع خلال هذه الفترة التى استطالت زهاء اثنتى عشرة عاما ، أن يعنى بشىء من شئون الأندلس الجوهرية ، أو يعبر إليها بنفسه ، وحتى اهتمامه بافتتاح الجزائر الشرقية ، لم يكن سوى نتيجة مباشرة لصراعه مع بنى غانية فى إفريقية .

بيد أن شئون الأندلس ، كانت خلال ذلك تثير قلق الموحدين ، وتوجسهم من العواقب . وكانت الممالك الإسبانية النصرانية ، وفى مقدمتها قشتالة ، قد لزمت السكينة حينا منذ موقعة الأرك ، ولبثت بضعة أعوام تتهيب الاشتباك مع القوات الموحدية فى شبه الجزيرة ، وفضلا عن ذلك فقد كانت قشتالة وليون ، ترتبط كل منهما بعقد الهدنة مع الموحدين . فلما شغل الموحدون بصراعهم مع بنى غانية فى إفريقية ، ولما استطال أمر هذا الصراع أعواما ، واتسع نطاقه وانقطع عبور الجيوش الموحدية إلى شبه الجزيرة ، أدركت الممالك النصرانية أن الفرصة قد سنحت مرة أخرى ، لاستئناف غزواتها للأراضى الإسلامية ، ولم يعقها

عن انتهاز هـذه الفرصة على الفور سوى منازعاتها الداخلية .

فلما اقترب أجل انتهاء الهدنة بين قشتالة وبين الموحدين ، أخذ ملك قشتالة ألفونسو الثامن ، يتأهب لغزو الأندلس . وكان منذ هزيمة الأرك الساحقة ، يتوق إلى الانتقام لهزيمته ، ورفع الوصمة التى لحقت من جرائها الجيوش النصرانية ، وفى أوائل سنة ١٢٠٩ م ، خرج ألفونسو الثامن من قشتالة فى قواته ، واحتشد فرسان قلعة رباح ، فى قلعة شلبَطَرّة ، على مقربة من قلعة رباح ، وكانوا قد لجأوا إليها منذ انتزع الخليفة يعقوب المنصور قلعة رباح من أيديهم عقب معركة الأرك وسار ألفونسو صوب جيّان وبيّاسة ، فانتسف الحقول وخرب الضياع ، وقتل وسبى ، وعاث الفرسان فى أحواز أندوجر ، واستولوا على عدة حصون ، وأصاب المسلمين من جراء تلك الغارات ، محن وخسائر فادحة . وفى العام التالى خرج ألفونسو إلى الأندلس مرة أخرى ، وعاث فى أراضى جيان وبياسة ، ووصل فى عيثه إلى أراضى ولاية مرسية ، ثم عاد إلى طليطلة مثقلا بالغنائم .

وفى نفس الوقت ، وقعت فى شرقى الأندلس حوادث مماثلة ، وكان السيد أبو العلاء إدريس بن يوسف قائد الأسطول الموحدى وفاتح الجزائر الشرقية ، قد سار فى جميع وحدات الأسطول الموحدى إلى مياه برشلونة ، وعاثت سفنه فى شواطئ قطلونية ، وأنزل بها خسائر فادحة ، واستولى على كثير من الأموال والغنائم ، وكان ذلك فى صيف سنة ١٢١٠م ( ٦٠٧هـ ) . فاستشاط بيدرو الثانى ملك أراجون لذلك غضبا ، وجمع قواته وخرج من منتشون ومعه فرقة من فرسان المعبد ( الداوية ) ، وسار جنوبا نحو أراضى ولاية بلنسية الشمالية وعاث فيها ، واستولى على عدة من الحصون الإسلامية فى تلك المنطقة[١] .

وكان لاستئناف النصارى لغزواتهم المخربة ، فى أراضى الأندلس ، على هذا النحو ، أعمق صدى ، وكان من الواضح أن الحاميات الموحدية الصغيرة التى ترابط فى مختلف القواعد ، لم يكن فى مقدورها أن تقوم برد الجيوش النصرانية الغازية ، ولم يك ثمة مندوحة من أن يعبر أمير المؤمنين بنفسه ، فى جيوشه الجرارة ، إلى شبه الجزيرة ليضطلع بنفسه بجهاد النصارى ، على نحو ما فعل أبوه وجده . وقد عبر بالفعل وجوه شرقى الأندلس ، على أثر غارات ملك أراجون ، إلى العدوة ، وقصدوا إلى الناصر ، مستغيثين به ، منضرعين إليه أن يسعفهم بعبوره ، فاهتز

---

( ١ ) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٣٤ .

الناصر لهذه الأنباء المزعجة ، وخصوصاً لما أبداه ملك قشتالة من الإصرار على خطته العدوانية ، بالرغم من احتجاج رسل الناصر إليه ، على خرق الهدنة . ومما هو جدير بالذكر أن الناصر كتب إلى الشيخ محمد بن أبى حفص والى إفريقية يستشيره فى ذلك الأمر ، وفيما يلتويه من استئناف الجهاد والغزو ، فأبدى له الشيخ رأيه وجوب التريث ونصح بعدم العبور واستئناف الغزو فى تلك الآونة . ولكن الناصر لم يستمع إلى رأيه[١] ، وقرر الاستجابة لداعى الجهاد ، وأخذ بالفعل فى الاستعداد ، ونفذت كتبه إلى سائر أنحاء المغرب وإفريقية وبلاد القبلة باستنفار الناس إلى الجهاد ، فاستجابت سائر الجهات والقبائل إلى الدعوة ، وكتب الناصر فى نفس الوقت ، إلى ولاة إشبيلية وقرطبة ، بوجوب تجديد حشد الجند ، وإعداد المؤن ، وتمهيد السبل فى جميع المناطق[٢] .

ولما كملت الأهبة ، وأقبلت الحشود من سائر الأنحاء ، وجهزت بما يلزم من العتاد والسلاح والكسى والمؤن ، خرج الناصر فى قواته الجرارة من حضرة مراكش فى يوم السبت عشرين من شعبان سنة ٦٠٧ هـ ( ٥ فبراير سنة ١٢١١م ) وسار إلى رباط الفتح ، وعسكر فى الضاحية المجاورة المسماة ببرج الحمّام ، وقضى هنالك نحو شهرين وهو يعمل على استيفاء الأهبة ، وتنظيم الشئون ، ونفذت كتبه مرة أخرى إلى الأندلس ، يطلب إلى ولاتها حث الناس على الجهاد ، واتخاذ ما يجب من ضروب الاستعداد ، فعكف الولاة على تنفيذ تلك الأوامر ، بكل ما وسعوا من غيرة وجهد .

وخرج الناصر فى جيوشه من رباط الفتح ، فى يوم الاثنين الثامن عشر من شوال ( ٤ أبريل سنة ١٢١١م ) ، قاصداً إلى قصر كتامة ( القصر الصغير ) ، ونحن نعرف أن هذه المنطقة الممتدة من رباط الفتح شمالا حتى البحر ، وهى طريق الجيوش الموحدية إلى الأندلس ، كانت مزودة بمراكز هامة لتموين الجيوش المسافرة ، سواء فى الذهاب والإياب ، وأن هذه المراكز كانت تزخر دائماً بالمؤن والعلوفات اللازمة . ولكن الجيوش الموحدية لقيت هذه المرة خلال مسيرها ، صعابا مرهقة فى التمرين ، ونضبت الأقوات ، وغلت الأسعار بصورة لم تعهد

---

( ١ ) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٩ .

( ٢ ) البيان المغرب ، القسم الثالث ص ٢٣٥ و ٢٣٦ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٩ ، وروض القرطاس ص ١٥٤ .

من قبل ، ولحق الجند والناس من جراء ذلك ضيق وشدة . ووقف الناصر على ذلك ، فاستشاط غضباً، وأدرك ما هنالك مما يرتكب من ضروب الإهمال والاختلاس ، فأمر بمؤاخذة سائر العمال المقصورين ومعاقبتهم ، وطلب إلى الشيخ أبى محمد بن أبى على بن مثنى صاحب الأعمال المخزية والأشغال العملية ، بالقبض على عامل فاس ، وهو عبد الحق بن أبى داود ، فقبض عليه وعلى سائر نوابه من العمال المحليين ، واستصفيت أموالهم . وكذلك أمر الناصر ، حينما وصل إلى قصر كتامة بالقبض على عامل سبتة محمد بن يحيي المسّوفى ، لما بدا من إهماله وفساده ، والقبض كذلك على سائر نوابه ، وتوجيههم جميعاً مصفدين إلى صاحب الأعمال بفاس(١) .

وحشدت السفن من سائر الأنحاء ، لعبور الجيوش الموحدية إلى شبه الجزيرة ، واستمر عبورها بضعة أسابيع ، واستمر الناصر مقيما بالقصر ، حتى تم عبور ساقته وأثقاله وحاشيته وحرسه . وركب البحر فى يوم الاثنين أول شهر ذى الحجة ( ١٥ مايو ) ونزل بساحل طريف ، وهنالك استقبله قواد الأندلس وفقهاؤهم ، وأقام بطريف ثلاثة أيام ، ثم سار فى جيوشه الجرارة إلى إشبيلية ، فوصلها يوم الاثنين منتصف ذى الحجة (آخر مايو) ونزل بقصور البحيرة الواقعة إزاء باب جهور ، وتم استقرار الجيوش الموحدية بالحاضرة الأندلسية ، وذلك فى نهاية سنة ٦٠٧ هـ ( منتصف يونيه سنة ١٢١١ م ) .

وماكاد الناصر يستقر بإشبيلية حتى أمر باستنفار الحشود الأندلسية ، وصنع الآلات الحربية ، واستدعاء الجند والغزاة ، من سائر الكور ، ووصولهم مع العمال والولاة ، فلما تم تنفيذ هذه الأوامر ، وتم حشد الجند ، واستكمال الأمداد من سائر الجهات ، وأصبحت الجيوش الموحدية فى حالة تعبئة كاملة ، شرع الناصر فى الحركة ، وخرج من إشبيلية فى جيوشه من الموحدين والعرب وأهل الأندلس والمطوعة والأغزاز وغيرهم من طوائف الجند ، وسار جنوبى الوادى متجهاً نحو قرطبة ، ثم سار منها إلى جيّان وبيّاسة ، وكان النصارى هم الذين حددوا بتصرفهم ، الهدف الذى يقصد إليه الناصر بجيوشه ، وهو قلعة شَلْبَطَرة(٢)

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٣٧ ، وروض القرطاس ص ١٥٥ .

(٢) شلبطرة حسبما يرسمها صاحب الروض المعطار ( ص ١٠٩ ) هى بالإسبانية **Salvatierra** ويرسمها صاحب روض القرطاس ( ص ١٥٦ ) وابن خلدون ( ج ٦ ص ٢٤٩ ) سربطرة أو شربطرة . ويرسمها المراكشى ( المعجب ص ١٨٢ ) شلب ترة ، ويقول إن معناها « الأرض البيضاء » ويتابعه فى هذا الرسم النويرى ( طبعة ريميرو ج ٨ ص ٢٧٩ ) .

التى تقع على مقربة من جنوبى غربى قلعة رباح ، بينها وبين جبال الشارات (سييرا مورينا) . وكان الخليفة يعقوب المنصور ، قد انتزع قاعدة قلعة رباح المنيعة ، حسبما تقدم، من أيدى فرسان جمعية قلعة رباح الدينية فى سنة ١١٩٥ م ، عقب هزيمة القشتاليين فى معركة الأرك ، ونزل أولئك الفرسان فى قلعة شلبطرة القريبة منها . وكانت هذه القلعة المنيعة ، فضلا عن مضايقتها لقلعة رباح باستمرار ، يتخذها النصارى قاعدة لغزواتهم المخربة داخل الأراضى الإسلامية ، ومنها سار القشتاليون والفرسان بالفعل للقيام بغاراتهم المخربة فى أحواز جيان وبياسة وأندوجر قبل ذلك بقليل ، فى سنة ١٢٠٩م . ومن ثم فقد آلى الناصر على نفسه أن يفتتح غزاته بالاستيلاء على تلك القلعة المنيعة .

— ١ —

ويجدر بنا بادئ ذى بدء أن نلم بطرف من أحوال اسبانيا النصرانية فى تلك الآونة ، التى أخذت فيها طوالع الصراع الحاسم ، بين الموحدين والنصارى ، تبدو فى الأفق مرة أخرى . وذلك أنه حينما وقعت معركة الأرك العظيمة فى سنة ٥٩١ هـ (١١٩٤ م) ، لم يكن الوئام سائداً بين الممالك الإسبانية النصرانية ، وخاضت قشتالة المعركة وحدها ضد الموحدين . ولم تجد قشتالة بعد هذه الهزيمة الساحقة ضمانا لسلامتها ، سوى عقد الهدنة مع الموحدين ، وارتضى الخليفة المنصور يومئذ ، أن يعقد السلم مع النصارى ، بعد أن بلغ غايته من سحق قواهم ، وقمع عدوانهم .

وقضت اسبانيا النصرانية منذ معركة الأرك فترة قصيرة من الهدوء والسلام ، وعُقد الصلح أخيراً بين قشتالة وليون ، وذلك بزواج ألفونسو التاسع ملك ليون بالأميرة برنجيلا إبنة ألفونسو الثامن ملك قشتالة . بيد أن هذا الصلح لم يطل أمده ، إذ اضطر ملك ليون أن يطلق هذه الأميرة ، بعد ذلك بخمسة أعوام ، بناء على تدخل البابا وضغطه المستمر . ومن جهة أخرى فإن شريفاً قشتالياً كبيراً ، هو دون دجولوبث دى هارو ، سيد بسكاية ، وهو أخ لزوجة ملك ليون الأولى ، دونيا أوراكا ، قد ثار لما لحق بأخته من غبن ولمهانة ، وارتد فى أصحابه إلى أراضى ناڤارا ، وأخذ يغير منها على أراضى قشتالة ، فسار ألفونسو الثامن فى قواته صوب ناڤارا ، فخشى ملكها سانشو الثامن العاقبة ، وقام بإخراج دون دجو من مملكته ، فلجأ دون دجو إلى بيدرو الثانى ملك أراجون ، فنكل عن غوثه ، فاضطر أن يلتجئ عندئذ إلى

المسلمين فى ولاية بلنسية ، وأخذ يغير من هنالك فى صحبه على أراضى أراجون ؛

وكانت أول نتيجة لهذه الحوادث أن عقدت بين نافارا وقشتالة فى سنة ١٢٠٧ م الهدنة لمدة خمسة أعوام . ثم تدخل ملك قشتالة بعد ذلك ، بين زميليه ملك نافارا وملك أراجون ، فعقدت بينهما الهدنة ، وذلك فى سنة ١٢٠٩ م ، وانعقد بذلك نوع من الوئام والتفاهم ، بين الممالك الإسبانية النصرانية خلا مملكة ليون .

وكان أجل الهدنة المعقودة بين ألفونسو الثامن وبين الموحدين ، وهو سنة ١٢١٠م ، يدنو عندئذ من نهايته ، وكان ملك قشتالة ، بعد أن شعر بنوع من الطمأنينة والأمل فى عون زملائه ، يضطرم رغبة فى استئناف الحرب ضد الموحدين ، فبدأ بالقيام بغاراته المخربة التى أشرنا إليها فى منطقة جيّان وبياسة وأندوجر ، وذلك خلال سنتى ١٢٠٩ ، ١٢١٠م ، ولم يحفل باحتجاج رسل الخليفة الموحدى ، على هذا الخرق لنصوص الهدنة المعقودة ، وكانت قلعة شابطرّة ، التى يحتلها فرسان قلعة رباح ، قاعدة لهذه الغارات الدموية التى ضج لها المسلمون يومئذ . وحذا بيدرو الثانى ملك أراجون حذو زميله ملك قشتالة ، فعاث فى منطقة بلنسية ، انتقاماً لغزو السفن الموحدية لشواطئه ، واستولى على عدة من حصون هذه المنطقة ، وكان من الواضح أن ملك قشتالة يستطيع أن يعتمد على مؤازرة حليفه ملك أراجون ، إذا ما اضطرمت الحرب بينه وبين الموحدين .

وكان على رأس البابوية يومئذ حبر يضطرم بروح صليبية عميقة ، هو البابا إنوصان الثالث ، الذى اعتلى الكرسى الرسولى فى سنة ١١٩٨م ، وقد سبق أن أشرنا فى غير فرصة إلى ما كان يتمتع به الكرسى الرسولى لدى الممالك الإسبانية النصرانية ، من مكانة راسخة ونفوذ قوى ، وإلى ما كان يعلقه الملوك الإسبان ، من أهمية بالغة ، على الصفة الصليبية لحروبهم ضد المسلمين ، ولاسيما عند اضطرام الحرب الشاملة بين الفريقين ، وذلك استدراراً لعطف الأمم النصرانية المجاورة ، واستجلابا للمتطوعة والمرتزقة النصارى من سائر الأنحاء . وكان ملك قشتالة ، حينما اعتزم أن يشهر الحرب على الموحدين ، قد بعث جرهارد أسقف شقوبية إلى البابا إنوصان ، ليرجوه أن يدعو أمم أوربا النصرانية لمؤازرته ، وذلك بتنظيم حملة صليبية ضد المسلمين فى اسبانيا ، وأرسل كذلك ردريك مطران طليطلة[1] وعدة أخر

(١) هو ردريك الطليطلى صاحب التاريخ المشهور المنسوب إليه المكتوب باللاتينية **Anales Toledanes** ، والمتضمن لتاريخ اسبانيا النصرانية حتى أوائل القرن الثالث عشر . وقد طبع بفرانكفورت —

من أكابر الأحبار إلى فرنسا ، وإلى الأمم المجاورة ، للدعوة إلى قضيته واستثارة حماسة النصارى للعبور إلى اسبانيا ، ومؤازرة الجيوش النصرانية فى قتالها ضد المسلمين . ونزل البابا عند رغبة ملك قشتالة ، وبعث إلى أساقفة جنوب فرنسا فى يناير سنة ١٢١٢ ، بأن يعظوا رعاياهم بأن يسيروا بأنفسهم وأموالهم لمؤازرة ملك قشتالة ، وأنه أى البابا يمنح كل من لبى هذه الدعوة الغفران التام . وكان الإنفانت الفتى دون فرناندو ولى عهد قشتالة ، وولد ألفونسو الثامن قد توفى عندئذ ، فبعث إليه البابا يعزيه عن فقد ولده ، وكذلك عن فقد حصن شابطرّة الذى استولى عليه الموحدون حسبما نفصل بعد ، ويعرب عن خوفه بأن الحرب ضد « الألبيين »(١) فى جنوب فرنسا قد تحول دون كثرة المتطوعين ، وأنه يتمنى له الفوز فى جميع الأحوال . بيد أن يعرب عن نصحه له بأنه إذا استطاع أن يعقد الهدنة مع « أمير المؤمنين » فليفعل ، حتى تسنح فرصة أفضل لضمان النصر المنشود .

كانت هذه هى أحوال قشتالة والممالك الإسبانية النصرانية ، حينما عبر الناصر فى جيوشه الجرارة إلى شبه الجزيرة الأندلسية ، فى شهر ذى الحجة سنة ٦٠٧ ﻫ ( مايو ١٢١١م ) . ويعلق صاحب روض القرطاس على عبور الخليفة الموحدى بقوله : « واهتزت جميع بلاد الروم بجوازه ، ووقع خوفه فى قلوب ملوكهم ، وأخذوا فى تحصين بلادهم ، وإخلاء ما قرب من المسلمين من قراهم وحصونهم . وكتب إليه أكثر أمرائهم يسئلون سلامته ويطلبون منه عفوه » ، ثم يقدم إلينا قصة غامضة عن مقدم ملك « بيونة » على الخليفة بإشبيلية « مستسلما خاضعاً مستصغراً ، يطلب صلحه ، ويسأل منه عفوه وصفحه » وكيف أن الناصر وافق على مهادنته إلى الأبد ، وأعطاه تحفاً جليلة(٢) . ويرجع غموض هذا النص ، إلى أن مدينة بيونة ، وهى تقع فى الطرف الآخر من البرنيه على خليج بسكونية ، قرب مملكة ناقارا ، لم تكن يومئذ داخلة فى حظيرة اسبانيا النصرانية ، بل كانت من أملاك چون ملك

= سنة ١٦٠٦ ضمن سلسلة **Hispana Ilustrata** ونشر أيضاً مع الطبعة العربية لتاريخ المكين بن العميد المطبوع بلندن سنة ١٦٢٥ .

( ١ ) الألبيون **Albigences** هم فرقة من الملاحدة ظهرت فى جنوبى فرنسا فى أوائل القرن الحادى عشر ، واتخذوا مدينة « ألبى » مركزاً لهم ومنها اشتق اسمهم . وشهروا على الكثلكة ومبادئها ورسومها حرباً شديدة ، واستمروا يبثون عقائدهم الإلحادية حتى نظم سيمون دى مونفور فى أوائل القرن الثانى عشر عليهم حرباً صليبية انتهت بتمزيقهم .

( ٢ ) روض القرطاس ص ١٥٥ و ١٥٦ .

انجلترا ( ولد هنرى الثانى ) ، وذلك بالوراثة عن أمه دوقة أكوتين . وقد ترتب على ذلك أن بعض الباحثين ، رأو ، بالاستناد فى نفس الوقت إلى مؤرخ إنجليزى عاش فى القرن الثالث عشر ، أن صاحب روض القرطاس ، يشير بذلك الى سفارة وردت إلى محمد الناصر من قبل ملك انجلترا يومئذ ، وهو الملك چون . ولكنا نلاحظ أولا أن صاحب روض القرطاس يتحدث عن مقدم « ملك بيونة » بنفسه ، وليس عن مقدم سفيره ، ومن جهة أخرى فإن كلمة « بيونة » هذه التى وردت فى طبعة تورنبرج التى نعتمد عليها قد وردت مكانها كلمة « بنبلونة » فى النص الذى نقله السلاوى ( عن روض القرطاس )[1]. ومعنى ذلك أن الذى ورد على الناصر ، أثناء مقامه بإشبيلية هو ملك ناڤارا ( نبرّة ) ، وهو حدث مفهوم معقول ، يتفق مع ما سبق عقده من علائق المودة والتحالف بين سانشو السابع ملك ناڤارا الملقب « بالقوى » وبين البلاط الموحدى . وتسجل لنا التواريخ النصرانية نفسها أن سانشو السابع ، كان قبل ذلك ببضعة أعوام ، حينما شعر بالخطر يتهدد مملكته من جراء تحالف جاريه ملكى قشتالة وأراجون ضده ، قد عبر البحر إلى المغرب ملتجئاً إلى عون الخليفة الموحدى ، وذلك فى سنة ١١٩٩ م ، وأنه قد أقام بمراكش فى ضيافة الخليفة الناصر ، زهاء عامين ، توطدت فيهما الصداقة والتحالف بين الملكين[2] . يضاف إلى ما تقدم أن الألفاظ التى صيغ بها نص روض القرطاس ، والقصة كلها التى يوردها عن كيفية استقبال الناصر للملك المذكور ، لا يمكن أن تنصرف إلى أية سفارة واردة من خارج شبه الجزيرة الإسبانية . وإذاً فمن المرجح المعقول أن يكون ملك ناڤارا حليف الموحدين القديم هو الذى ورد على الناصر ، وهو ملك « بنبلونة » . وهناك دليل آخر يؤيد هذا الرأى ، وهو ما ورد فى كتاب الناصر عن موقعة العقاب من إشارته إلى صاحب نبرّة ونكثه بحلفه وكونه « كان متعلقاً من الموحدين بزمام ، فسخط عليه صاحب رومة إن لم يكن لقومه معسكراً ، ولسواد أهل ملته مكثرا ، فلحق بتلك الجموع مرهجاً »[3] ، ويقول لنا ابن خلدون إن الذى ورد على الناصر فى تلك المناسبة ، هو ملك ليون المعروف « بالبيبوج » ، قدم عليه عام العقاب « فداخله ، وأظهر له

---

( ١ ) الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ج ١ ص ١٩٢ .

( ٢ ) M. Lafuente : Historia General de Espana, T. III, p. 345 - 346.

( ٣ ) البيان المغرب القسم الثالث ص ٢٤١ .

التنصيح ، فبذل له أموالا ثم غدر به »[١] . ونستطيع أن نلاحظ أخيراً أنه لم تكن ثمة أية علاقات سياسية ومصلحية ، بين الموحدين وبين ملك انجلترا ، تستدعى أن يأتى ملك انجلترا بنفسه إلى الخليفة الموحدى : « مستسلما خاضعا مستصغراً » وليس من الممكن أن ينسب مثل هذا التصرف إلا إلى ملك من ملوك اسبانيا النصرانية[٢] .

وخرج الناصر فى جيوشه من إشبيلية ، حسبما تقدم فى الأيام الأولى من سنة ٦٠٨هـ ( أواخر يوليه ١٢١١م ) متجهاً إلى جيان ، فأبدّة وبيّاسة ، ثم سار شمالا نحو قلعة شلبَطـرّة . وكانت هذه القلعة تقع على ربوة عالية على مقربة من جبل الشارات ، وكانت من أكبر وأمنع قلاع تلك الناحية . ويبدو من أقوال صاحب روض القرطاس ، أن الناصر كان يقصد السير توًّا إلى غزو قشتالة ، ولكن وزيره أبا سعيد بن جامع ، أقنعه بوجوب الاستيلاء أولا على قلعة شلبطرة ، نظراً لمناعتها الفائقة ، وأهمية موقعها[٣] . بيد أنه يبدو من الروايات الأخرى أن غزو أراضى قشتالة ، لم يكن قد تقرر لدى الخليفة بعد ، وأنه كان يقصد الاستيلاء على شلبطرّة بادئ ذى بدء . ويؤيد ذلك ما ورد فى كتاب الفتح الخاص بشلبطرة على لسان الخليفة ، بأنه وإن كان صاحب قشتالة أقرب من تعينت حربه دارا ، فإن فصل الغزو ، كان قد ذهب جُله ، واستحالت الأرض من جراء الأمطار الغزيرة إلى غدور وأوحال ، تحول دون مسير الخيل ، وذهبت معظم الجسور ، وأنه قصد إلى معقل شلبطرة لقيامه فى قلب الإسلام ، وكون النصرانية قد جعلته جناحاً لكل غاية ، تخدمه ملوكها ورهبانها ، وتتخذ منه عاصما يعصمها[٤] . وعلى أى حال فقد طوق الموحدون قلعة شلبطرة ، بعد أن استولوا على أرباضها ، وقتلوا بها من النصارى أربعمائة ، وأضرموا النيران فيها ، واستولوا على حصن آخر قريب منها تسميه الرواية « بحصن الّلج » ثم نصبوا حولها أربعين قطعة من المجانيق الهائلة ، وضربوها بالحجارة الضخمة ، ورموها

---

( ١ ) ابن خلدون ج ٤ ص ١٨٣ .

( ٢ ) روض القرطاس ص ١٥٥ و١٥٦ .

( ٣ ) روض القرطاس ص ١٥٦ و١٥٧ .

( ٤ ) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٣٩ ، وراجع أيضاً المعجب ص ١٨٢ ، وتضع بعض الروايات النصرانية سقوط القلعة فى أيدى الموحدين فى شهر سبتمبر سنة ١٢١٠ راجع : **La Orden de Calatrava (Ciudad Real 1959) (p. 18)**

بالنبال والسهام الممطرة ، حتى اضطر النصارى إلى تسليم القلعة ومغادرتها . وقد استمر الحصار وفقاً لرواية صاحب الروض المعطار واحداً وخمسين يوما. وكانت حامية القلعة ، وفقاً للرواية المذكورة ، حينما اشتد بها البلاء من جراء الضرب المروع المتواصل ، وتساقط الحجارة الهائلة ، قد طالبوا من الموحدين أجلا يتصلون فيه بملكهم ألفونسو الثامن ليستأذنوه فى تسليم القلعة ، إذا لم يستطع إنجادهم ، وكان ألفونسو الثامن عندئذ بجوار طلبيرة بجد فى أهباته ، فاتصل به رسلهم ، واضطر أن يوافق على تسليم القلعة لعجزه عن إمدادهم ، ولأنه لم يكن قد استكمل أهباته بعد . فعادوا وسلمت شلبطرة للموحدين ، فدخلوها وحولوا كنيستها فى الحال مسجداً ، ووفى الخليفة بوعده فى ترك الحامية النصرانية تعود إلى بلادها ، وكان ذلك فى أوائل ربيع الأول سنة ٦٠٨ هـ ( أواخر أغسطس سنة ١٢١١م )[١]. ويقول صاحب روض القرطاس إن الحصار قد طال بالعكس ثمانية أشهر ، واستمر بذلك حتى دخل الشتاء واشتد البرد ، وقلت المؤن وكلت عزائم الجند ، وفسدت نياتهم التى قصدوا بها للجهاد ، ونضبت المواد من الحملة ، وأن ملك قشتالة لما وقف على ذلك وعلم أن شوكة المسلمين قد انكسرت ، والحدة التى قاموا بها قد خمدت ، تأهب لأخذ الثأر ، وجاءته ملوك الروم وهم فى غاية الاستعداد ، ثم جاء ألفونسو بقواته وهاجم قلعة رباح واستولى عليها . ويضع تاريخ تسليم شلبطرة فى أواخر ذى الحجة سنة ٦٠٨هـ ، ثم يقول لنا إن ملك قشتالة ، لما وقف على سقوط القلعة ، سار وسائر من كان معه من ملوك الروم ، وحشودهم والتقى بالموحدين فى موضع يسمى «حصن العقبان »[٢]. بيد أن هذه الرواية التى يستخلص منها أن سقوط شلبطرة فى أيدى الموحدين ، وسقوط قلعة رباح فى أيدى القشتاليين ، ثم نشوب معركة العقاب بين الفريقين ، قد حدثت كلها متتابعة فى حلقة واحدة ، ينقضها أولا كتاب الفتح الصادر عن الخليفة ذاته بفتح شلبطرة ، وهو مؤرخ فى الثانى من شهر ربيع الآخر سنة ٦٠٨ ، ولابد أنه كتب بعد سقوط القلعة بأيام قلائل[٣] ، ثم تنقضها أكثر من رواية وثيقة . فصاحب الروض المعطار يقول لنا ، إن الناصر بعد افتتاح شلبطرة « رجع إلى إشبيلية ظافراً غانماً ، ثم استغاث الأذفونش

---

( ١ ) الروض المعطار ص ١١٠ .

( ٢ ) روض القرطاس ص ١٥٨ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢٣٨ .

( ٣ ) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٣٨ .

بأهل ملته وحثهم على حماية دينهم ، فاستجابوا ، وانثالوا عليه من كل مكان » . ويقول لنا المراكشى وهو مؤرخ معاصر ، إنه بعد رجوع أمير المؤمنين أبى عبد الله من هذا الفتح المتقدم الذكر ( أعنى فتح شلبطرة ) إلى إشبيلية ، استنفر الناس من أقاصى البلاد ، فاجتمعت له جموع كثيفة[١]. وإذن فمن الواضح أن غزوة شلبطرة كانت غزوة مستقلة ، اقتصرت على فتح هذه القلعة المنيعة ، وأن القوات الموحدية التى قامت بفتحها ، لم تكن هى تلك الجيوش الجرارة التى عادت بعد ذلك بأشهر ، لتلتقى مع الجيوش النصرانية فى « مرتفعات » العقاب ، وأن الموحدين والنصارى ، قد انتفع كلاهما بتلك الفترة لمضاعفة الأهبة والاستعداد .

فى الوقت الذى حل فيه الناصر بإشبيلية ، بعد عوده من غزوة شلبطرة ، كان ملك قشتالة ، يبذل أقصى جهوده فى استكمال أهباته لمقاتلة الموحدين . ولم تكن هذه الأهبة تقتصر على قشتالة وحلفائها من ملوك اسبانيا النصرانية ؛ ولكنها كانت تمتد بعيداً إلى ما وراء ذلك . وقد سبق أن أشرنا إلى مسعى ملك قشتالة لدى البابا ، ليسبغ الصفة الصليبية على محاربته للمسلمين ، وأن البابا قد استجاب إلى رغبته ، وكتب إلى الأساقفة بدعوة النصارى فى جنوبى فرنسا وغيرها إلى التطوع لمقاتلة المسلمين ، وكان سقوط شلبطرة وهى مركز فرسان قلعة رباح فى أيدى الموحدين على النحو المتقدم ، نذيراً جديداً بتفاقم الخطر على مصاير اسبانيا النصرانية ، وبتأكيد هذه الصفة الصليبية[٢]. وكان المطران المؤرخ ردريك الطليطلى ، وعدة من أكابر الأحبار عندئذ يجوبون جنوبى فرنسا لجمع المتطوعين. واستمرت هذه الجهود الصليبية تبذل خلال عام ١٢١١ م ، وكانت الوفود المتطوعة تأتى تباعا إلى طليطلة ، التى تقرر أن تكون مكانا لاجتماع الجيوش، والوفود المختلفة . وفى أوائل سنة ١٢١٢ م ، عاد المطران ردريك ومعه جمهرة كبيرة من المتطوعة الفرنسيين ، ثم اجتمعت بعد ذلك وفود المدن الإسبانية ، وفرسان الولايات القشتالية المختلفة، وفرسان الجمعيات الدينية ، وهم فرسان قلعة رباح ، وشنت ياقب ، والأسبتارية ، والداوية ( فرسان المعبد ) ، واجتمع كذلك سائر القوامس والفرسان القشتاليين ، وفى مقدمتهم رؤساء أسرة لارا وفرسانها، والكونت ديجولوبيث ،ولو بى دياث دى هارو ، ومن معهم من الفرسان . وكان

---

( ١ ) الروض المعطار ص ١٣٧ ، والمعجب ص ١٨٢ .

( ٢ ) La Orden de Calatrava ; p . 18 .

يرأس فرسان قلعة رباح جوميث راميريس، وفرسان شنت ياقب پيدرو آرياس، ويرأس فرسان الأسبتارية ولد جوتيرو هرمنجلد ، وكان الأساقفة يرأسون صفوف المحاربين من مختلف المدن ، ويتولون الإنفاق على حشودهم . وقدم فوق ذلك عدة من أحبار فرنسا يقود كل منهم جماعة من المحاربين ، وفى مقدمتهم مطران أربونة وأسقفا بوزدو ونانت وغيرهم من أكابر رجال الدين .

ولم يأت شهر مايو سنة ١٢١٢م ، حتى اجتمع فى قشتالة من المحاربين الصليبيين الذين هرعوا من جميع أنحاء أوربا لمعاونة اسبانيا النصرانية ، زهاء ألفين من البارونات مع حاشياتهم ، وعشرة آلاف من الفرسان والمقاتلة ، وخمسين ألفاً من الرّجالة ، أو بعبارة أخرى اجتمع من هذه الوفود الصليبية المختلفة جيش ضخم يبلغ زهاء سبعين ألف مقاتل ، لمؤازرة الجيوش الإسبانية النصرانية ،وكانت تتألف من جيوش قشتالة وأراجون وناڤارا ، ومن أمداد من جليقية والبرتغال . وتلقى ملك قشتالة ، فوق ذلك ، مقادير عظيمة من الأموال والسلاح ، والمؤن ، أرسلت إليه من أنحاء فرنسا وإيطاليا . ولم يأت شهر يونيه سنة ١٢١٢م ، حتى بلغ عدد الجيوش الوافدة على قشتالة أكثر من عشرة آلاف فارس ، ومائة ألف من الرجالة . وأمر البابا إنوصان الثالث فى رومه بالصوم ثلاثة أيام ، التماساً لانتصار الجيوش النصرانية فى اسبانيا على المسلمين ، وأقيمت الصلوات العامة . وعمد رجال الدين والرهبان والراهبات إلى ارتداء السواد والسير حفاة ، وسارت المواكب الدينية فى الطرقات خاضعة متمهلة ، من كنيسة إلى أخرى ، وألقى البابا بنفسه موعظة صليبية ، طلب فيها إلى النصارى أن يضرعوا إلى الله التماساً لنصر الإسبانيين[1] .

وتشير الرواية الإسلامية إلى هذه الاستعدادات الضخمة كلها، وإلى ما سعى إليه ملك قشتالة من صبغ محاربته للموحدين بالصبغة الصليبية . وكان المراكشى أكثرهم إلماماً بذلك ، إذ يقول : « وخرج الأدفنش لعنه الله إلى قاصية بلاد الروم، مستنفراً من أجابه من عظماء الروم وفرسانهم وذوى النجدة منهم، فاجتمعت له جموع عظيمة من الجزيرة نفسها ومن ألمان ، حتى بلغ نفيره إلى القسطنطينية ، وجاء معه صاحب بلاد أرغن المعروف بالبرشنونى لعنه الله »[2]. ويقول صاحب

---

(١) تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين لأشباخ ( الترجمة العربية ص ٣٥٨– ٣٦٠ ) .
(٢) المعجب ص ١٨٢ .

البيان المغرب « فاستعد له ( أى للقاء الناصر ) وجمع أهل قشتالة أجمعين وغيرهم من سائر جموع ملوك النصرانية الذين هم للجزيرة مكتنفين »[١] . ويقول أيضاً صاحب الروض المعطار « ثم استغاث الأذقونش بأهل ملته وحثهم على حماية دينهم ، فاستجابوا له وانثالوا عليه من كل مكان »[٢] . وأبلغ من ذلك ماورد فى كتاب الخليفة الناصر ذاته عن موقعة العقاب إذ يقول « إن صاحب قشتالة رأى أن يضرع للملوك أهل ملته ، ويصانعهم على معونته بالتالد والطريف . . فبث القسيسين والرهبان من برتقال إلى القسطنطينية العظمى . . فجاءه عباد الصليب من كل فج عميق ومكان سحيق . . وكان أولهم سبقاً الأفرنج المتوغلون فى الشرق والشمال »[٣] فهذه الفقرات الموجزة تدل دلالة واضحة ، على أن الموحدين كانوا يعلمون بحقيقة الوسائل والاستعدادات البعيدة المدى ، التى لجأ إليها ألفونسو الثامن ليقود إلى ميدان الحرب أكبر قوة نصرانية يمكن حشدها ، وليسبغ صبغة الحرب المقدسة على المعركة التى يضطلع بها ، مثلما كان المسلمون يسبغون صفة الجهاد فى سبيل الله ، على المعارك التى يخوضونها ضد النصارى .

وكان الموحدون من جانبهم يقومون بمثل هذه الاستعدادات ، وقد استنفر الناصر عقب عوده من غزوة شلبطرة إلى إشبيلية ، الناس من سائر الجهات ، ليضاعف حشوده ، وليدعم جيوشه ، فاجتمعت له قوات جديدة كثيفة ، وكان من الواضح أن الفريقين يرى كل منهما أن أجل اللقاء الحاسم يدنو بسرعة .

فى يوم ٢٠ يونيه سنة ١٢١٢ م ، خرجت الجيوش النصرانية ، من طليطلة قاصدة إلى الجنوب . وكانت مقسمة إلى ثلاثة جيوش رئيسية ، جيش الطليعة ويتألف من قوات الوافدين ، وقد قدرته بعض الروايات بستين ألف مقاتل ، وقدره البعض الآخر بمائة ألف ، وكان يقوده القائد القشتالى دييجو لوبيث دى هارو يعاونه عدد من أكابر الأحبار والقوامس . ويتألف الجيش الثانى من قوات أراجون وقطلونية وفرسان الداوية ، ويقوده بيدرو الثانى ملك أراجون . ويتألف الجيش الثالث ، وهو جيش المؤخرة من قوات قشتالة وليون والبرتغال ، وفرسان قلعة رباح وشنت ياقب والأسبتارية ، ويقوده ألفونسو الثامن ملك قشتالة ، يعاونه

---

( ١ ) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٤٠ .

( ٢ ) الروض المعطار ص ١٣٧ .

( ٣ ) البيان المغرب ص ٢٤١ .

عدة قواد من الأحبار والسادة ، وفى مقدمتهم ردريك مطران طليطلة ، وتقدر الرواية عدد الفرسان فى هذه الجيوش بثلاثين ألفاً ، وذلك غير المشاة .

وخرج الناصر فى جيوشه من إشبيلية فى العشرين من محرم سنة ٦٠٩ هـ (٢٣ يونيه سنة ١٢١٢م) متجهاً صوب جيان ، وقاصداً لقاء النصارى. وكانت الجيوش النصرانية تسير فى نفس الوقت نحو الأراضى الإسلامية ، فوصلت طلائعها فى اليوم الرابع والعشرين من يونيه ، إلى حصن مَلَجون ، وهو من حصون الحدود الإسلامية ، فاستولت عليه ، وقتلت حاميته الإسلامية الصغيرة ، ثم استمرت الجيوش النصرانية فى سيرها صوب قلعة رباح أكبر وأمنع القواعد الإسلامية فى تلك المنطقة . وكان الخليفة المنصور قد انتزعها عقب موقعة الأرك من فرسان قلعة رباح حسبما تقدم وحول كنيستها إلى مسجد ، وعين لقيادتها أبا الحجاج يوسف بن قادس ، وهو من أنجاد الفرسان والقادة الأندلسيين ، وكان يسهر على حمايتها ، والدفاع عنها ، من ذلك التاريخ ، وكان لديه وقت مقدم النصارى حامية من سبعين فارسا[1]. ولقى النصارى فى عبور نهر وادى يانه الذى تقع قلعة رباح على مقربة من ضفته الجنوبية صعابا ، إذ كان المسلمون قد نثروا على جانبيه الصنانير والخوازيق الحديدية ، فلما عبروا النهر ، طوقوا القلعة فى الحال ، ولكن القلعة كانت فضلا عن مناعتها الطبيعية بوقوعها جنوبى النهر ، تتمتع بأسوار وأبراج فى منتهى المناعة ، ومن ثم فقد تردد النصارى فى مهاجمتها بادئ ذى بدء ، ولبثوا تحت أسوارها ثلاثة أيام يبحثون فيما إذا كان من الأفضل الاكتفاء بتطويق القلعة ، وترك افتتاحها لما بعد وقوع النصر ، ولكن غلب الرأى فى النهاية بوجوب مهاجمتها ، فهوجمت بشدة فى يوم ٣٠ يونيه ، واستطاع النصارى أن يحتلوا قسمها الخارجى الذى يحاذى النهر ، وهو أضعف قسميها من حيث المناعة . وهنا تتفق الروايتان النصرانية والإسلامية ، فيما تلا من تفاهم المسلمين والنصارى على تسليم القلعة ، ومنح الأمان لحاميتها ، وتركهم أحراراً فى مغادرتها إلى بلادهم ، وذلك على نحو ماحدث فى شلبطرّة بالنسبة لحاميتها النصرانية . وكان ابن قادس قد انتهى إلى هذا الرأى ، بعد أن حاول الاستنجاد عبثاً بالناصر ، وهو بمحلته القريبة ، وبعد أن أيقن بعبث الدفاع ، وتعريض رجاله لموت محقق ، إذا هو أصر على القتال . وكان ألفونسو ملك قشتالة ، يؤيد هذا الحل السلمى الذى يمكنه

(١) روض القرطاس ص ١٥٧ .

من الاستيلاء على قلعة رباح دون تأخير ودون سفك دماء . ولكن حلفاءه من الأرجونيين والأجانب الوافدين ، عارضوا فى أية تسوية تحقن بها دماء الحامية الإسلامية . ولكن غلب الرأى بقبول هذا الحل فى النهاية، خصوصاً ، وقد صمم ابن قادس على الدفاع ، إذا لم يجب إلى ما طلب من منح الأمان والحرية لرجاله . واتفق على أن يغادر الفرسان المسلمون القلعة دون سلاح ، ومعهم خمسة وثلاثون من الخيل . وهكذا استولى ألفونسو الثامن على قلعة رباح ، وسلمها فى الحال إلى « فرسان قلعة رباح » أصحابها السابقين ، قبل أن يفتحها الخليفة المنصور(١).

وكان افتتاح قلعة رباح مثار التنابذ والخلاف بين القشتاليين وحلفائهم الوافدين . ذلك لأن الوافدين الصليبيين ، رأوا فى إفلات المسلمين من القلعة أحراراً أحياء ، عملا لامبرر له ، ولايتفق مع أغراض الحرب الصليبية، وثانيا لأن ألفونسو وجد فى قلعة رباح مقادير وافرة من المؤن قسمها بالتساوى بين الجند الوافدين وزملائهم المحاربين الأصليين ، ولكن سرت الإشاعة بين الجند الوافدين، أن ملك قشتالة، قد عثر بالقلعة على تحف وذخائر كثيرة استأثر بها لنفسه . ومن ثم فقد أبدت طوائف كثيرة من الجند الوافدين تبرمها وسخطها ، واحتج كثير منهم بأنهم لايحتملون جو اسبانيا الحار، وأنهم وفوا بعهودهم فى مقاتلة المسلمين فى ملجون وقلعة رباح، وأبدوا عزمهم على الرجوع إلى بلادهم ، وأيدهم فى ذلك مطران بوردو أعظم أحبارهم ، ولم تنجح جهود ملك قشتالة وزملائه الإسبان ، فى إقناعهم بالعدول عن قرارهم ، وغادرت معظم الطوائف الوافدة المعسكر القشتالى ، ولم يبق منهم سوى أرنولد أسقف أربونة فى رجاله ، والكونت تيوبالد بلاسكون وهو قشتالى المنبت ، وكانت عدة رجالهم مائة وثلاثون فارساً ، وبلغ من غادر المعسكر القشتالى على هذا النحو زهاء خمسين ألف مقاتل ، اخترقوا قشتالة ، صوب جبال البرنيه عائدين إلى بلادهم ، وقد أغلقت سائر المدن الإسبانية أبوابها فى وجوهم خوفاً من اعتدائهم وعيثهم(٢).

---

(١) المعجب ص ١٨٣ ، وروض القرطاس ص ١٥٧ . وراجع أيضاً رواية أسقف أربونة ، وكان مشتركاً فى الموقعة ، وقد أوردها **Huici Miranda ; Las Grandes Batallas de la Reconquista (Madrid 1956) p. 242, 244 & 245** ، وكذلك أشباخ فى تاريخ المرابطين والموحدين « الترجمة العربية » ص ٣٦١ و٣٦٢ .

(٢) أشباخ فى تاريخ المرابطين والموحدين الترجمة العربية ص ٣٦٢ و٣٦٣ . وراجع أيضاً رواية أسقف أربونة **H. Miranda : ibid ; p. 245** .

وإنه لما يلفت النظر أن الرواية الإسلامية ، لم يفتها أن تشير إلى هذا الشقاق الذى وقع فى المعسكر النصرانى ، على أثر افتتاح قلعة رباح ، فنرى المراكشى يقول مشيراً إلى افتتاح القلعة « فسلمها إليه المسلمون الذين بها بعد أن أمنهم على أنفسهم ، فرجع عن الأدفنش لعنه الله بهذا السبب من الروم جموع كثيرة ، حين منعهم من قتل المسلمين الذين كانوا بالقلعة المذكورة ، وقالوا إنما جئت لتفتتح بنا البلاد ، وتمنعنا من الغزو وقتل المسلمين ، مالنا فى صحبتك من حاجة على هذا الوجه »(١) .

— ٢ —

وفى ذلك الحين كان الناصر قد وصل فى جيوشه الجرارة إلى جيان ، وهنالك استقر بظاهرها أياما ، منتظراً عبور النهر ، ووقف على ما وقع من أحداث على الحدود ، من سقوط قلعة رباح فى يد العدو ، وماحدث على أثر ذلك فى المعسكر النصرانى من الشقاق ، وما عمدت إليه طوائف الجند الوافدين من العود إلى بلادها . وقدم ابن قادس قائد قلعة رباح عندئذ ، إلى المحلة الموحدية ، مع صهره ونفر من أصحابه ، ليقص أمره على الخليفة ، فمنعه الوزير أبو سعيد بن جامع من ذلك ، وصوّر موقفه للخليفة أسوأ تصوير ، واتهمه بالخيانة وتسليم القلعة للنصارى ، فأمر الناصر بإعدامه هو وصهره ، دون أن يستمع إليه ، أو يستوضح أمره ، فأعدما طعناً بالرماح ، وكان لمصرع هذا القائد الأندلسى الباسل على هذا النحو ، وقع عميق بين مواطنيه الجند الأندلسيين ، ولما شعر الوزير ابن جامع بما حدث من تغير نفوس الأندلسيين ، استدعى قادتهم ، وطلب إليهم أن يعتزلوا جيش الموحدين ، وأنه لاحاجة للموحدين بهم . وكانت هذه إحدى البوادر المقلقة فى المعسكر الموحدى(٢) .

وكان لسقوط قلعة رباح فى أيدى النصارى أسوأ وقع فى نفس الخليفة الناصر ، وكان ألفونسو الثامن عقب استيلائه على القلعة ، قد استطاع أن يتغلب بسرعة على ماحدث فى المعسكر النصرانى ، من جراء ذلك من خلل ، بسبب رحيل بعض طوائف المحاربين الوافدين ، وأن ينظم ما تبقى من قواته المكونة من قوات قشتالة وأراجون وجليقية والبرتغال . وكان ملك نافارا ، قد ارتضى

---

(١) المعجب ص ١٨٣ .

(٢) روض القرطاس ص ١٥٨ ، والروض المعطار ص ١٣٧ .

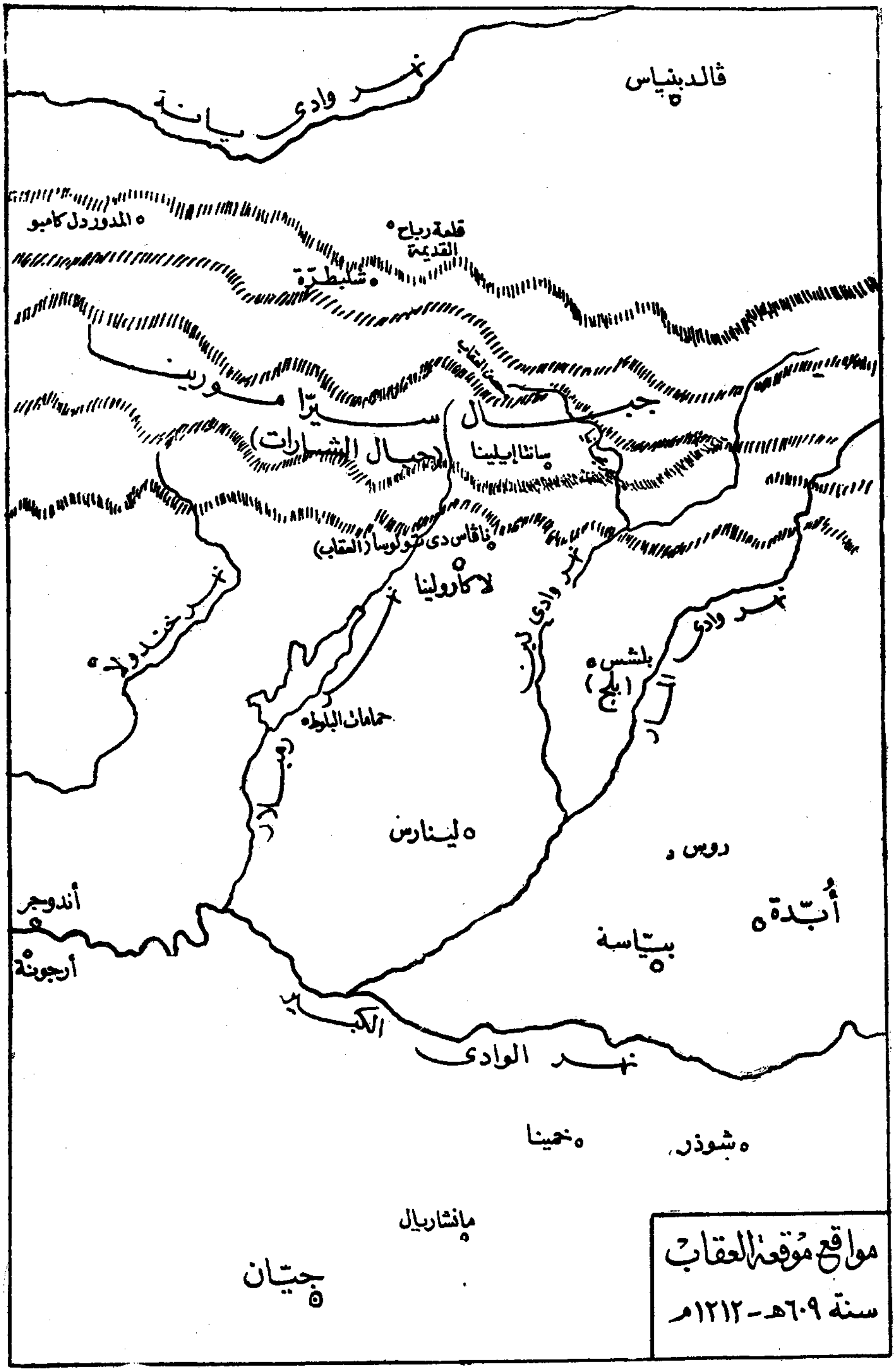


مواقع موقعة العقاب
سنة ٦٠٩هـ - ١٢١٢م

أخيراً بالرغم من خصومته القديمة لقشتالة ، ومهادنته للموحدين ، أن يشترك فى تلك الحملة الصليبية بقوة صغيرة من الفرسان ، وذلك نزولا على نصح البابا وإلحاحه[١] ، وهكذا استأنفت القوات النصرانية المتحدة سيرها إلى الجنوب نحو الأراضى الإسلامية ، ومرت بشلبطرة دون أن تتعرض لها ، حتى أشرفت طلائعها على مرتفعات جبال الشارات ( سيرا مورينا ) ، ثم لحقت بها سائر القوات الأخرى ، واحتلت البسيط العلوى المقفر المسمى ممر مورادال ، وذلك فى يوم ١٣ يوليه ( العاشر من صفر سنة ٦٠٩ هـ ) .

وفى خلال ذلك كان الخليفة الناصر ، قد تحرك فى جيوشه الجرارة نحو الشمال لملاقاة العدو ، وكانت الجيوش الموحدية ، قد قسمت كالعادة إلى وحداتها العنصرية والقبلية ، فكانت خمسة أقسام ، يتكون القسم الأول من طوائف العرب ، ويتكون القسم الثانى من القبائل المغربية مثل صنهاجة وزناتة والمصامدة وغمارة وغيرها ، والقسم الثالث من الجنود المتطوعة ، والقسم الرابع من جند الموحدين النظامية ، والقسم الخامس من جنود الأندلس . أما عن عدد الجيوش الموحدية التى كان يقودها الناصر ، فقد بولغ فى شأنه مبالغة كبيرة . ويقول لنا صاحب روض القرطاس ، إن الناصر قد خرج فى جيوش لاتحصى وأمم كالجراد المنتشر ، قد ملأت السهل والوعر ، وضاق بهم المتسع والنجد والغور . ثم يقدم إلينا فى موضع آخر أرقام الجيوش الموحدية مفصلة ، فيقول إن عدد المتطوعة بلغ مائة وستين ألفا بين فارس وراجل ، وبلغ عدد الرجال المحشودين ثلاثمائة ألف راجل ، وبلغ عدد العبيد الذين يمشون بين يدى الخليفة بالحراب ويدورون حوله ثلاثون ألف عبد ، ومن الرماة والأغزاز ( الغز ) عشرة آلاف . وذلك كله دون المرتزقة من الموحدين وزناتة والعرب وغيرهم . ومعنى ذلك أن الجيوش الموحدية بلغت مجتمعة نصف مليون مقاتل غير المرتزقة[٢] . وفى رواية أخرى لاتقل مبالغة وإغراقاً أن الجيوش الموحدية كانت تضم ستمائة ألف مقاتل[٣] ، وهذا تقدير لا يمكن أن يسيغه العقل ، إذ كان من المستحيل مادياً أن يكفل تموين مثل هذا الجيش ، وخصوصاً فى مثل هذه المنطقة الوعرة التى كان يخترقها الجيش الموحدى للقاء

( ١ ) البيان المغرب – القسم الثالث ص ٢٤١ .

( ٢ ) روض القرطاس ص ١٥٥ و ١٥٩ و ١٦٠ .

( ٣ ) المقرى فى نفح الطيب ج ٢ ص ٥٣٨ ، ونقله السلاوى فى الإستقصاء ج ١ ص ١٩١ .

أعدائه . ونحن نعرف أن مسألة التموين بالذات كانت من أعقد مشاكل الجيش الموحدى ، وكانت تسبب له دائماً أزمات ومتاعب عديدة . ونحن نعتقد أننا لو قدرنا الجيش الموحدى بمختلف وحداته بمائتى ألف مقاتل ، لكنا أقرب كثيراً إلى الحقيقة والمعقول .

واخترقت الجيوش الموحدية نهر الوادى الكبير ، واتجهت صوب بياسة ، وكانت قد تخلفت أياماً عن عبوره لارتفاع مائه ، ثم عبرته حين نضب الماء ، واحتلت سريات من خيرة أنجادها ممرات جبل الشارات المؤدية إلى بياسة وأبدة ، ومنها ممر « لوسا » الوعر ، الذى تستطيع قوة صغيرة باحتلاله أن تمنع جيشاً كبيراً من جوازه ، ثم نزلت الجيوش الموحدية فى البسيط الواقع تجاه هذا الممر وهو يقع اليوم أمام الطرف الغربى لقرية سانتا إيلينا Sta. Elena وتسميه رسالة الغزو الرسمية « بالمرشة » .

واعتزم الخليفة الناصر أن يصمد فى هذا المكان للقاء النصارى . وكان الناصر يعتمد على ما بلغه من حوادث الانشقاق فى الجيوش النصرانية ، وما تلقاه من متاعب التموين ، لانتهاز الفرصة فى لقائها ، وهى متعبة ، فاترة الهمم . ويبدو من أقوال سائر الروايات الإسلامية ، أن الناصر كان واثقاً من النصر ، معتزا غاية الاعتزاز بضخامة حشوده ، وتفوقه العددى .

ولابد لنا قبل أن نعرض إلى تحركات الجيشين المتحاربين ، أن نحاول أن نرسم للقارئ صورة واضحة من أوضاع هذه المعركة الشهيرة ، والأمكنة التى وقعت فيها . ذلك أن دراسة ميدان معركة العقاب ، وخواصه الطبوغرافية ، مما يساعد على إيضاح كثير من الروايات التى وردت بشأن المعركة ، وقد كان من حسن الطالع أن أتيح لنا أن نقوم بهذه الدراسة الشاقة ، وأن نتجول فى هضاب جبال سييرا مورينا ( جبال الشارات ) وأن نصعد إلى قممها الشاهقة ، وأن نشهد الأمكنة التى اجتازتها وعسكرت فيها الجيوش النصرانية ، وأن ندرس طبيعة المكان الذى كان يحتله الجيش الموحدى فى أسفل الجبال .

ويجب أن نذكر أولا أن المعركة تعرف فى التواريخ النصرانية ، بمعركة ناڤاس دى تولوسا Navas de Tolosa ، وهذا الاسم مازال يطلق حتى اليوم على محلة أوضيعة صغيرة ، تقع فى سفح جبال الشارات على مقربة من شمال شرقى بلدة « لاكارولينا » الواقعة على الطريق الكبير الممتد من مدريد جنوبا إلى الأندلس .

بيد أن هذا الاسم القديم الذى يعنى « هضاب تولوسا » أو « عقاب تولوسا » قد فقد مدلوله القديم : وتدل سائر المعلومات والوثائق التاريخية ، وكذلك البحوث الحديثة ، على أن المعركة لم تقع فى هذا المكان الذى أطلق اسمه عليها ، بل وقعت شمالى هذا المكان بنحو عشرة كيلومترات ، فى الهضاب والبسائط ، الواقعة غربى قرية « سانتا إيلينا » فيما بينها وبين قرية « ميرانده دل رى » وفى أسفل الأكمة المسماة « مائدة الملك » Mesa del Rey التى سوف نذكرها فيما بعد ، وذلك حسبما يوضح لنا الرسم التخطيطى ، الذى نقدمه نتيجة لدراستنا لمعالم الموقعة . ونستطيع من جهة أخرى أن نقدم دليلا على صحة هذا التحديد الطبوغرافى لميدان الموقعة ، ما يعثر عليه الباحثون فى هذا المكان ، من آن لآخر ، من السهام الموحدية الأرضية التى كانت تنصب للخيل ، وقد عثرنا نحن على خمسة منها بالحفر بأنفسنا فى هذه الساحة ، وهى التى نقدم صورتها بعد .

## حصن العقاب

وجبال الشارات ، التى لبثت عصوراً تفصل بين الأندلس ، واسبانيا النصرانية ، فى هذه البقعة ، عبارة عن عدة متعاقبة من الجبال السوداء العالية ، تفصلها هضاب وعرة أو بعض السهول المتدرجة . وقد بدأنا بعد رحلة شاقة فى أعماق الجبال ، استغرقت بضع ساعات ، بالصعود إلى موقع الحصن ، الذى يسمى بالإسبانية حصن كسترو فرال Castro Ferral ويسميه صاحب روض القرطاس ، حسبما يأتى بعد ، بحصن العقاب أو حصن العقبان . وهو يقع فوق قمة أحد الجبال فى الصف الثالث أو الرابع تجاه بلدة سانتا إيلينا . وهو يحتل أعلى قمة فى الجبل ، ويقع شمال غربى سانتا إيلينا ، إلى يسار المنحدر الجبلى الشهير المسمى دسبنيابروس Despeñaperros ( أو منحدر الكلاب ) . ولم تبق اليوم من هذا الحصن سوى أطلال دارسة هى عبارة عن بقايا جدارين عاليين متواليين . ويبلغ ارتفاع الجدار الأول نحو ثمانية أمتار ، وبه ثغرة كبيرة فى وسطه . ويبلغ ارتفاع الجدار الثانى نحو عشرة أمتار ، وهو يليه ويبعد عنه نحو خمسة أمتار . وتوجد كذلك بقية جدار جانبى إلى يمين الداخل ، طولها نحو عشرة أمتار وارتفاعها نحو ستة ، وفيه ثغرتان من أسفل ، ومساحة هذا الطلل كلها تبلغ نحو عشرين متراً فى خمسة عشر . ومازالت أسس الجدران ظاهرة فى أرض المكان .

أطلال حصن العقاب كما تبدو عن بعد فوق الجبال

الجدار الأوسط لأطلال حصن للعقاب

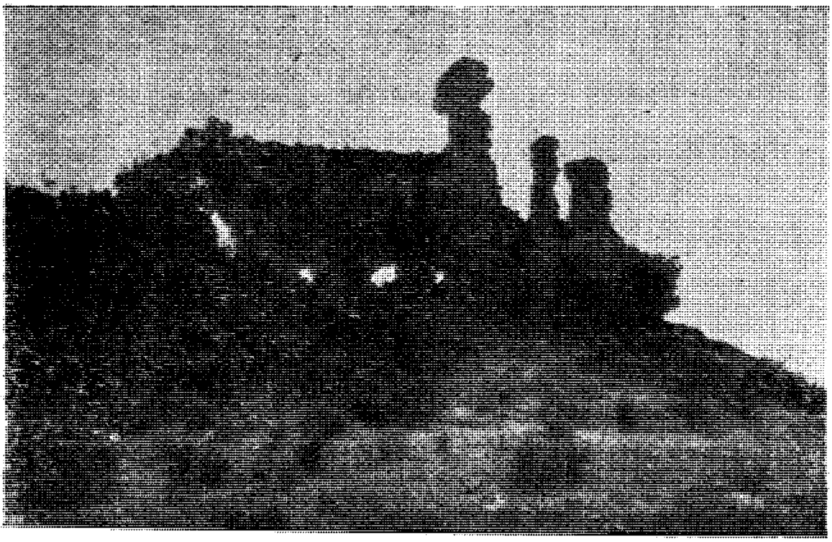

الواجهة الخلفية لأطلال حصن العقاب

## الطريق الرومانى والنهر

وإنه لما يسترعى النظر فى أعماق هذه الجبال الوعرة ، هو طريق عبورها ، سواء من الشمال إلى الجنوب أو من الجنوب أعنى من الأندلس إلى الشمال ( أراضى قشتالة ) . وقد تتبعنا هذا الطريق المسمى «كارثادا» Carzada ، وهوالطريق الرومانى القديم ، وهو يوجد وراء الجبال فى المنحدرات النازلة نحو النهر الصغير الذى يقع فى سهل خفيض فى أسفل الجبل ويسمى نهر مجانيا Magaña وهوعبارة عن فرع صغير من نهر وادى لين المتفرع من نهر الوادى الكبير ، وكان الطريق الهابط يستمر حتى النهر ، ثم بعد عبوره ، يعود فيصعد الصف الثانى من الجبال نحو الشمال . أما النهر ذاته فهو يقع خلف الصف الأول ، وأسفل الصف الثانى من الجبال ، وهو نهر صغيرلايزيد عرضه عن خمسة عشر متراً ، وقد رأينا به قليلامن الماء . وكان المسلمون يعبرون هذا الطريق الذى كان يعبره الرومانيون من قبل ، إلى أراضى قشتالة .

## پويرتو دل مورادال

وهذا الطريق المسمى «كرثادا» يسير من ناحية أخرى صاعداً نحو القمة الكبيرة الواسعة من السفح المسماه Puerto del Moradal ( بويرتودل مورادال ) أوثغر مورادال ، وكان هذا هو أهم ممرات جبل الشارات . والطريق الصاعد إليه فيما يبدو من آثاره الحجرية ، كان طريقاً عريضاً ، يبلغ عرضه نحو العشرة أمتار . وكذلك يبدو من بعض أجزائه القليلة الباقية ، المعبدة بالحجر الأسود ، أنه كان طريقاً معبداً كله ، وهذا الممر يحتل فوق قمة جبل الشارات مساحة كبيرة منبسطة ، ثم ينزل من الناحيتين صاعداً وهابطاً ، ويسمى منزل هذا الممر وما حوله باسم « الإمبدرادليو » Empedradillo . وقد شاهدنا فوق قمة مورادال ، وأمام الممر ، أنقاض أحجار كثيرة ، قيل لنا إنها كانت أنقاض محلة رومانية Venta خلال الطريق القديم ، ومنها ينزل نحو نهر مجانيا . ويوجد على مقربة من ممر مورادال جبل مطل على النهر يسمى « جبل المسلم» Cerro del Moro .

## مائدة الملك

وإلى يسار ممر مورادال ، على مسافة نحو ساعة منه ، توجد قمة أخرى تشغل بسيطا كبيراً بيضاويا ، يمتد نحو اليمين ونحواليسار إلى مسافة عدة كيلومترات ،

نهر مجانيا كما يبدو فى أسفل الجبال

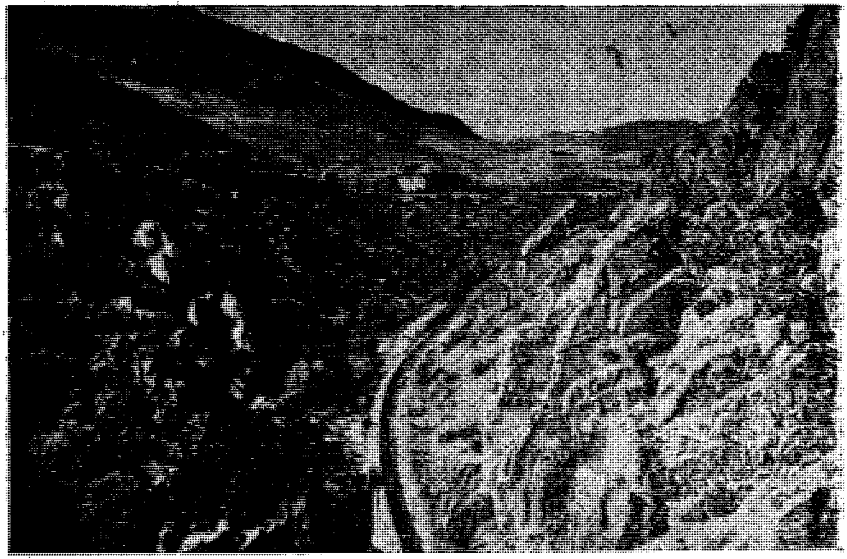

منحدر دسبينياپروس

وهو البسيط الذى يسمى « مائدة الملك » Mesa del Rey ، وقد شهدناه من بعد أولا ، ولاح لنا أنه بالفعل ، مستدير أوبيضاوى كالمائدة ، ومن ثم كان الاسم الذى أطلق عليه . وتنحرف جوانب هذه القمة إلى أسفل الوادى ، مغطاة بالخضرة ، وإلى جانبها الأيمن مرتفعات متعددة صاعدة ونازلة . وهذا المرتفع المستدير يمتد كما قلنا من الجانبين إلى مسافات شاسعة يطلق عليها جميعا نفس الاسم « مائدة الملك » ، ويبدو من انبساطها وضخامة مساحتها ، أنها كانت بالفعل تصلح محلة للجيوش الغازية .

* * *

ونحن نستطيع بعد تتبع هذا الوصف لأوضاع المعركة وأماكنها المختلفة ، أن نتتبع تحركات الجيشين القشتالى والموحدى ، وأن نكوّن فكرة واضحة عن مسرح معركة العقاب الحقيقى .

وكان النصارى بعد احتلالهم بسيط مورادال الواقع فوق الجبل ، قد استطاعوا أن ينتزعوا قلعة كسترو فيرال الإسلامية الواقعة فى قمة الجبل والتى وصفناها من قبل ، وهى التى تسمى أحيانا بحصن العقاب ، وكانت بها حامية موحدية صغيرة ، ولكنهم شعروا مع ذلك بحرج موقفهم فى ذلك المكان نظراً لوعورته ، ونقص وسائل التموين والمياه فيه ، وكان لابد لهم بأى حال أن يعبروا جبل الشارات إلى الناحية الأخرى ، وكان ذلك متعذراً عليهم نظراً لاحتلال الموحدين سائر ممراته بقوات كافية ، ولاسيما ممر لوسا الواقع جنوب غربى الحصن ، وهوالذى يفضى إلى سهول تولوسا ، والذى لايمكن لجيش عظيم بأسره اقتحامه . عندئذ اجتمع الملوك النصارى مع قوادهم للبحث عن مخرج لهذا المأزق ، وكان الرأى الغالب ، هو أن يعود الجيش النصرانى أدراجه إلى السهل ، ثم يحاول دخول أراضى الأندلس من طريق آخر ، ولكن ملك قشتالة عارض فى هذا الرأى ، لأن أية حركة ارتداد كانت فى نظره خطراً على روح الجيش المعنوية ، فضلا عن اعتبارها من جانب الأعداء فراراً ونكولا عن خوض المعركة . وهنا تعرض لنا الرواية النصرانية قصة يطبعها لون من الأسطورة ، وهى أن راعياً من رعاة هذه الأنحاء ، تقدم إلى القادة النصارى ، وأخبرهم أنه يستطيع إرشادهم إلى طريق آخر لعبور الجبل ، يقع فى موتفع آخر ، ويفضى إلى سهل أبدّة ، ويمكن أن يسلكه الجيش دون أن يفطن العدو إلى ذلك . فسار معه القائدان لوبث دى هارو ،

ممر بورتو دل مورادال كما يبدو من أسفل الجبل

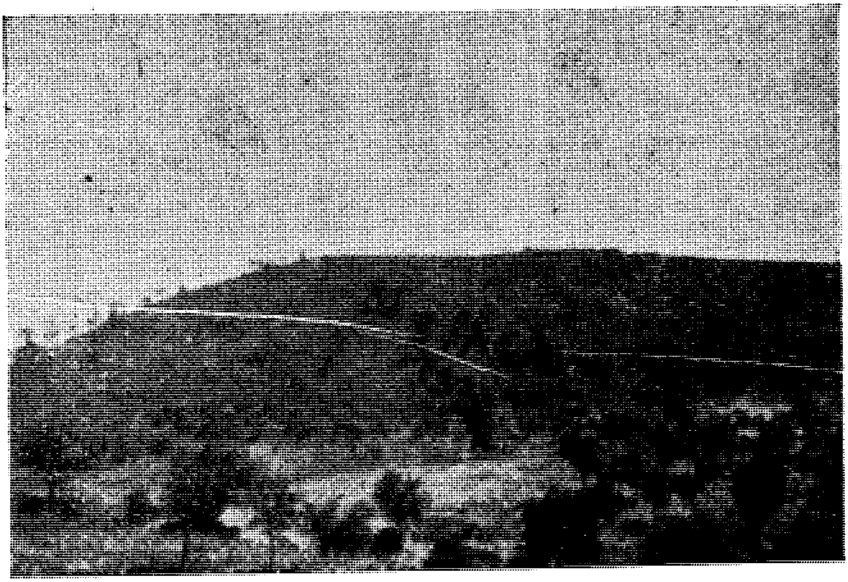

بسيط مائدة الملك Mesa del Rey كما يبدو من أسفل الجبل

وغرسية روميرو لمعاينة هذا الطريق ، ولما تحققا من صحة كل ما قاله الراعى ، بادر الجيش النصرانى فى نفس اليوم — وهو يوم السبت ١٤ يوليه — بالسير إلى ذلك المرتفع الجديد ، واحتلوا بسيطه — وهو البسيط الذى يطلق عليه اليوم اسم « مائدة الملك » Mesa del Rey وهو الذى وصفناه ، وبينا موقعه فيما تقدم . وحصنوا ما حوله ، وبقيت بقية الجيش النصرانى مرابطة من ورائه ، واعتبر هذا الراعى المرشد منقذاً أرسله الله(١) .

ولم يخف أمر هذه الحركة التى قام بها الجيش النصرانى على الموحدين ، وقد وقفوا فى الحال على مكان عدوهم الجديد، وحاولت فرقة من الفرسان الموحدين عبثاً أن تنتزع هذا المرتفع الجديد من أيدى النصارى . وصدرت أوامر الخليفة الناصر بتعبئة الجيوش الموحدية لخوض المعركة فى الحال ، ولكن الملوك النصارى آثروا الاعتصام مؤقتاً بمركزهم المنيع ، ولم يريدوا بالأخص أن يخوضوا المعركة فى يوم أحد ، واقتصر الأمر على بعض المناوشات البسيطة بين سريات الفرسان من الفريقين . بيد أنه لم يكن من الميسور على النصارى أن يؤخروا خوض المعركة لأكثر من يوم ، أولا لقلة مؤنهم ، وخوفهم أن تنضب بسرعة ، وثانيا لكون الجيش الموحدى ، لبث منذ يوم السبت فى حالة تعبئة مستمرة للقتال ، وقد يفاجئ الجيش النصرانى بالهجوم . وكان الناصر على علم مستمر بأحوال الجيش النصرانى ، وكانت كل تقديراته تؤكد له تحقيق الظفر المنشود .

وليس لدينا فى الرواية الإسلامية تفاصيل شافية ، عن التنظيمات التى وضعت للجيوش الموحدية لخوض المعركة ، بيد أنه يبدو مما ذكره لنا صاحب روض القرطاس ، وكذلك ما يذكره لنا ردريك الطليطلى ، وهو من شهود المعركة ، أن الجيش الموحدى ، قسم وفق الأوضاع الموحدية إلى خمس فرق ، تتألف الفرقة الأمامية من القوات المتطوعة من مختلف الطوائف ، وتتألف قوات القلب والقوات الاحتياطية من الجند الموحدين ، وهم أغلبية الجند النظامية ، وتتألف الميمنة من القوات الأندلسية ، والميسرة من قوات البربر من مختلف القبائل .

---

(١) وردت هذه التفاصيل وهذه القصة فى معظم التواريخ النصرانية الإسبانية . ويراجع فى ذلك Primera Crónica General ( Ed. Pidal ) Vol. II. p. 698 ونقلها الأستاذ هويثى فى كتابه : Las Grandes Batallas de la Reconquista ; p. 250. ونقلها أيضاً أشباخ فى تاريخ المرابطين والموحدين ( الترجمة العربية ) ص ٣٦٥ .

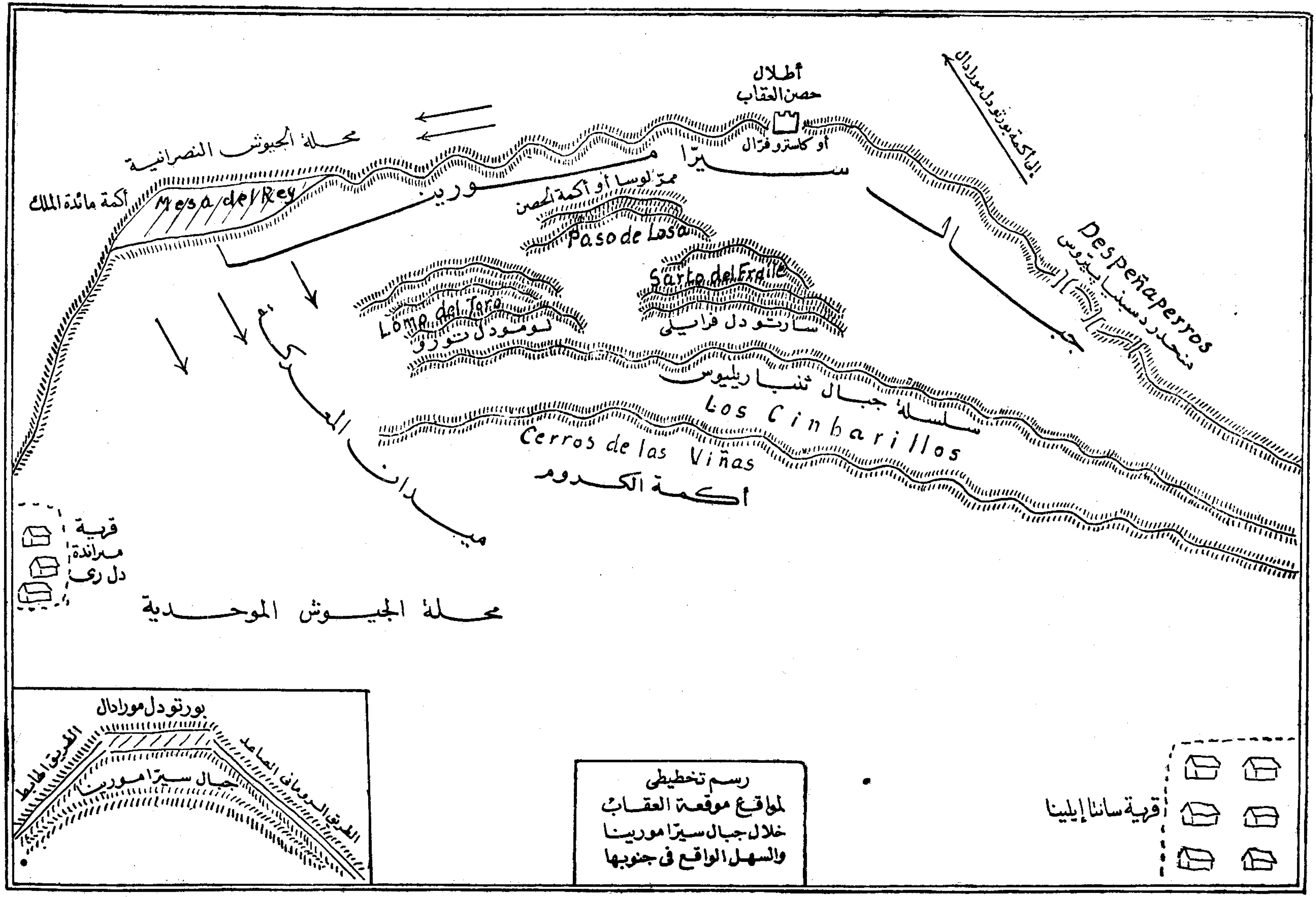
أطلال
حصن العقاب
أو كاسترو فرّال
إلى أكمة بورتو دل مورادال
محلة الجيوش النصرانية
أكمة مائدة الملك
Mesa del Rey
جبال سيرّا مورينا
ممر لوسا أو أكمة الحصن
Paso de Losa
Sarto del Fraile
سارتو دل فرايلي
Loma del Toro
لومو دل تورو
سلسلة جبال ثنباريليوس
Los Cinbarillos
Cerros de las Viñas
أكمة الكروم
Despeñaperros
منحدر دسبنيابيرّوس
ميدان المعركة
قرية
مراندة
دل رى
محلة الجيوش الموحدية
بورتو دل مورادال
الطريق الهابط
الطريق الروماني الصاعد
جبال سيرّا مورينا
رسم تخطيطي
لمواقع موقعة العقاب
خلال جبال سيرّا مورينا
والسهل الواقع في جنوبها
قرية سانتا إيلينا

وضربت قبة الخليفة الحمراء ، فوق ربوة عالية تتوسط البسيط الذى تحتله الجيوش الموحدية ، والذى يواجه مواقع الجيش النصرانى. ودارت العبيد ، وهم أغلبية الحرس الخليفى حول القبة من كل ناحية ، وكلها مزودة بالسلاح والعدة ، وضرب فى نفس الوقت حول القبة الخليفية سياج من الأعمدة وعدة من السلاسل الحديدية الضخمة ، وشهر جند الحرس حرابهم فى اتجاه العدو ، فكانت سداً منيعاً دون اختراقه الموت ، وجلس الناصر فى قبته مستنداً إلى درقته ، ومعه أشياخ الموحدين ، وربطت فرسه مسرجة أمامه ، ووضعت الساقات والبنود والطبول أمام العبيد ، تحت إمرة الوزير أبى سعيد بن جامع . وكان بوسع النصارى أن يروا من مواقعهم العالية ، جموع المسلمين التى لاتحصى ، وفى قلبها قبة أمير المؤمنين الحمراء[1] .

أما عن تنظيم الجيش النصرانى فلدينا تفاصيل كثيرة ، يقدمها إلينا ردريك الطليطلى وغيره من شهود المعركة ، وخلاصتها أن الجيش النصرانى قسم إلى ثلاثة أقسام رئيسية ، يتزعم كل قسم منها ، ملك من ملوك النصارى الثلاثة ، الأول يتكون من القلب ويقوده ملك قشتالة ألفونسو الثامن ، هذا إلى جانب احتفاظه بالقيادة العليا . ويتكون الثانى من الجناح الأيمن ، ويقوده سانشو ملك ناڤارا ، ويضم فضلا عن القوات الناڤارية ، جند سرية وآبلة وشقوبية ومدينة سالم ، وفرسان فرنسا الذين يرأسهم مطران أربونة ، وجند جليقية والبرتغال . ويتكون القسم الثالث من الجناح الأيسر ، ويقوده پيدرو الثالث ملك أراجون ، ويشتمل على قوات الطليعة والقوات التى يقودها أشراف أراجون . وقد وزع كل قسم من هذه الأقسام إلى وحدات عديدة ، فوضع فى القلب فرسان الداوية والأسبتارية وفرسان قلعة رباح كل منها تحت إمرة قائده الخاص ، وكذلك الصفوف التى يقودها مطران طليطلة وخمسة من الأساقفة القشتاليين[2] .

وفى ليلة يوم الاثنين الخامس عشر من صفر سنة ٦٠٩ هـ ( ليلة ١٦ يوليه سنة ١٢١٢ م ) ، استعد الفريقان لخوض المعركة ، وقضى النصارى شطراً من

---

( ١ ) روض القرطاس ص ١٥٨ ، وراجع أيضاً أشباخ فى تاريخ المرابطين والموحدين ، الترجمة العربية ص ٣٦٧ ، وكذلك :
**Huici : cit. Anales Toledanes, Las G. Batallas de la Reconquista p. 257**

( ٢ ) أشباخ الترجمة العربية ، ص٣٦٦ ، وكذلك : **Huici : ibid; p. 253 & 254 .**

الليل فى الصلاة والدعاء ، وتلقى البركة والغفران البابوى على يد الأساقفة ورجال الدين . ولم نجد فى الرواية الإسلامية ما يشير إلى أنه وقع الجيش الموحدى فى تلك الليلة ، شيء من تلك المناظر المؤثرة ، التى وقعت به قبيل اضطرام معركة الأرك ، من تبادل الاستغفار بين الخليفة والناس ، ومن وعظ وبكاء وحث على الجهاد ، فقد كان الخليفة الناصر حسبما تشير سائر الروايات ، واثقاً من النصر ، واثقاً من تفوقه العددى الهائل ، ولم يكن ينتظر سوى بدء المعركة لإحراز النصر المنشود .

وبدأت المعركة فى الصباح الباكر من يوم الاثنين الخامس عشر من صفر ، وكان كل من الجيشين على أهبة لخوضها ، وقد رتبت صفوفه وفقاً للأوضاع التى سبق وصفها . وبدأ النصارى بالهجوم ، فهبطت طلائعهم مسرعة من المرتفع الذى تحتله الجيوش النصرانية فى بسيط « مائدة الملك » **Mesa del Rey** إلى السهل الأسفل الذى يحتله الجيش الموحدى ، والذى يشغل بسيطاً شاسعاً ، يقع عند الطرف الغربى من بلدة « سانتا إيلينا » ، ويستند من الخلف إلى سلسلة من المرتفعات المنخفضة ، وانقضت على مقدمة الجيش الموحدى ، فلقيتهم صفوف المتطوعة بقوة وثبات ، واقتتل الفريقان بشدة حتى بدأ النصارى فى التراجع ، فأدركتهم الأمداد ، وعادوا إلى الثبات تعززهم فرق الفرسان ، التى صعب على المتطوعة الموحدين اختراقها ، وهجم فى نفس الوقت جناحا الجيش النصرانى على جناحى الجيش الموحدى ، واحتدمت بين الجيشين معركة هائلة عامة ، وكانت طبول الساقة الموحدية ، تهز الآفاق بدويها الرائع . ويستفاد من أقوال الروايتين الإسلامية والنصرانية ، أن المتطوعة المسلمين بعد ثباتهم الأول ، قد ارتدوا تحت ضغط النصارى الهائل ، وكثر القتل فيهم ، بل يقول لنا صاحب روض القرطاس ، إنهم لبثوا يقاتلون حتى استشهدوا عن آخرهم « وعساكر الموحدين والعرب وقواد الأندلس ينظرون إليهم لم يتحرك منهم أحد »[1]. ولكن النصارى حين تقدموا بعد التغلب على فرق المتطوعة إلى قلب الجيش الموحدى ، لقوا من الجند الموحدين أشد مقاومة ، وردوا على أعقابهم . ومن جهة أخرى ، فإن قوات الميمنة والميسرة الموحدية استطاعت بعد قتال عنيف أن ترد جناحى الجيش النصرانى ، وأخذ النصارى حسبما تقول لنا الرواية النصرانية ذاتها ، فى الارتداد

(١) روض القرطاس ص ١٥٨ .

والفرار[1]، ولاح للفريقين أن لواء النصر سوف يعقد للموحدين .

ولكن هذه البارقة لم يطل أمدها . ذلك أن ألفونسو الثامن ملك قشتالة ، حينما شهد من فوق المرتفع ما آلت إليه المعركة ، من تراجع القوات النصرانية فى القلب والجناحين ، وما ينذر به ذلك من هزيمة محققة ، اعتزم فى الحال أن ينزل إلى الميدان بقواته الاحتياطية المختارة ، من قوات قشتالة وليون ، ليقاتل قتال اليائس، واندفع بالرغم من اعتراض المطران والأساقفة والقوامس على مسلكه الخطر ، فى قواته إلى الصف الأمامى . وتبعه فى نفس الوقت ملكا أراجون وناڤارا كل فى قواته ، نحو جناحى الجيش الموحدى ، وهجمت القوات النصرانية كلها فى وقت واحد ، بمنتهى العنف والشدة ، حتى بدأت ميمنة الجيش الموحدى وميسرته فى الارتداد أمام ضغط الفرسان النصارى ، وفرّ الأندلسيون والعرب ؛ وأحدث فرارهم اضطرابا فى الصفوف . وهنا تمركز هجوم النصارى على قلب الجيش الموحدى ، المكون من الجنود النظامية والاحتياطية ، والذى تتوسطة قبة الخليفة الحمراء ، ومن حولها الحرس الخليقى الأسود ، وكان النصارى قد انتعشوا ، بما شهدوا من تطور المعركة فى صالحهم ، فشددوا الهجوم على الموحدين. وصمد الموحدون ، ودافعوا بمنتهى الشدة، ومن ورائهم الحرس الأسود شاهراً رماحه ، من وراء السلاسل الحديدية الضخمة ، وكان الخليفة الناصر قد أدرك حقيقة الموقف، فنهض من مجلسه وجلس أمام خبائه على درقته، وهو يحث جنوده على الاستبسال ، واستطاع النصارى أخيراً أن يخترقوا قلب الجيش الموحدى إلى دائرة الحرس الأسود ، فردتهم السلاسل الحديدية ورماح العبيد المشهرة حيناً ، وهم كالبنيان المرصوص حول القبة الخليفية . ولكن النصارى « ردوا أكفال الخيل المدرعة إلى رماح العبيد »[2] فاخترقوا الدائرة المدرعة ، وكان أول من دخلها منهم الكونت ألبارو نونيز دى لارا على رأس كتيبة من الفرسان القشتاليين ، وفى يده علم قشتالة الأبيض ، ودخلها فى نفس الوقت ملكا أراجون وناڤارا كل من ناحيته ، وبذلك مزق الجيش الموحدى من كل ناحية ، وكثر القتل فيه كثرة مروعة ، ولبث الخليفة الناصر حتى آخر لحظة فى مجلسه الحرج ، وهو يحاول

---

(١) وهذا ما تقوله لنا رواية ألفونسو العالم . وتراجع فى: **Primera Crónica General (Ed. Pidal) Vol.II p. 701** .

(٢) روض القرطاس ص ١٥٨ .

حث جنده على الصمود . وتنوه الرواية الإسلامية بثبات الناصر وصموده اليائس فى تلك اللحظة الرهيبة ، التى تناثر فيها الجيش الموحدى ، والحرس الخليفى من حوله أشلاء دامية ، وشراذم فارة فى كل ناحية ، وتقول لنا إنه لبث فى مكانه لايتزحزح ، حتى كادت الروم أن تصل إليه ، بل كاد أن يهلك ، وقتل حوله من العبيد أكثر من عشرة آلاف عبد ، وأنه لولا ثباته على هذا النحو لاستؤصلت جموع الجيش الموحدى كلها قتلا وأسرا[1] . واضطر الناصر فى آخر لحظة أن يمتطى صهوة فرس قدمها إليه أعرابى كان إلى جانبه ، وأن يفر مع نفر من خاصته على جناح السرعة جنوبا نحو بيّاسة ، ثم اتخذ طريقه منها إلى جيان ، وكانت فلول الجيش الموحدى عندئذ تفر فى كل ناحية ، ومن ورائها الفرسان النصارى يمعنون فيها قتلا وإفناء . واستمرت هذه المطاردة المروعة على مدى ثلاث مراحل حتى دخل الليل ، وكانت أشنع ماوقع من ضروب السفك والتقتيل ، إذ هلك فيها عشرات الألوف من الجند الفارين ، وانقض الجند النصارى على المحلة الموحدية ينتزعون منها ما استطاعوا من المتاع والأسلاب ، بالرغم من تحذير مطران طليطلة . وقبيل مغيب الشمس ، كان الملوك النصارى ، والمطران ، والأساقفة ، وجزء كبير من الجيش النصرانى ، قد دخلوا محلة الجيش الموحدى ، واستقروا بها ، وأضحى الجيش الموحدى العظيم الذى كان بها منذ ساعات قلائل فقط ، أثراً بعد عين .

وكان وقوع هذه النكبة المروعة بالجيش الموحدى فى يوم الاثنين الخامس عشر من شهر صفر سنة ٦٠٩ هـ الموافق يوم ١٦ يوليه سنة ١٢١٢[2] ، وهى تعرف فى التواريخ النصرانية حسبما قدمنا بموقعة هضاب أو عقاب تولوسا **Las Navas de Tolosa** لوقوعها فوق مجموعة من الوديان الصغيرة ، التى تحيط بها الربى ، تقع فى سفح جبل الشارات الجنوبى ، وتعرف أيضاً بموقعة أُبَّدة لوقوعها على مقربة من شمال غربى هذه المدينة . وأما فى التواريخ الإسلامية فإنها تعرف

---

(١) روض القرطاس ص ١٥٩ ، والمراكشى فى المعجب ص ١٨٣ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢٤١ .

(٢) هذا هو التاريخ الذى تأخذ به معظم الروايات الإسلامية ، وهو الذى يتفق بالفعل مع الروايات النصرانية ( راجع المعجب ص ١٨٣ ، وروض القرطاس ص ١٥٩ ، والروض المعطار ص ١٣٨ ) . ولكن ابن خلدون يضع تاريخها فى أواخر صفر سنة ٦٠٩ هـ (كتاب العبر ج ٦ ص ٢٤٩ ) . ويضع صاحب البيان المغرب تاريخها فى يوم الاثنين ٨ صفر سنة ٦٠٩ – القسم الثالث ص ٢٤١ .

بموقعة العِقاب ، من مفردها عقبة ، وذلك فيما يرجح لوقوعها بين الربى والتلال المانعة[١] ، وليس بمعنى المعاقبة على الذنب ، وإن كان بعض الكتاب والشعراء قد نسبوا إليها مثل هذا المعنى ، فى معرض التلويح بغضب الله وعقابه للموحدين ، لأنهم حادوا عن جادته ، وبغوا وتجبروا ، واعتمدوا على كثرتهم ولم يعتمدوا على عونه . وينفرد صاحب روض القرطاس إلى جانب تسميتها بموقعة العقاب بتسميتها بموقعة « حصن العقاب » أو «حصن العقبان»[٢] وهو باسمه الإسبانى حصن فرّال أوكاستروفرال Castro Ferral الواقع فى قمة جبل الشارات ، والذى استولى عليه القشتاليون قبيل المعركة ثم تركوه ليعبروا الجبل من الناحية الأخرى التى أرشد عنها الراعى .

ومن المسلم أن خسائر المسلمين فى معركة العقاب كانت فادحة جداً . والروايات الإسلامية تجمع كلها على أن الجيش الموحدى ، قد هلك معظمه . بيد أنها تذهب أحيانا إلى تقديرات لايستسيغها العقل ، ومن ذلك مايقوله صاحب روض القرطاس أنه لم ينج من الجيش الموحدى إلا الواحد من الألف ، فإذا ذكرنا أنه يقدر جموع الجيش الموحدى بأكثر من نصف مليون ، فمعنى ذلك أنه لم ينج من الموحدين فى المعركة سوى خمسمائة جندى ، وهذا منتهى الإغراق . ثم هو من جهة أخرى يقول لنا بأن سبب هذه الكثرة الفادحة من القتلى ، يرجع إلى أن ملك قشتالة أمر أن ينادى فى جيشه بأن لا أسر إلا القتل ، ومن أتى بأسير قتل هو وأسيره[٣] . ويصف صاحب الحلل الموشية الموقعة « بالهزيمة العظمى » التى فنى فيها أهل المغرب والأندلس . ويقول صاحب « الذخيرة السنية » مشيراً إلى الموقعة أنه قتل من المسلمين خلق كثير لايحصر ، وفنيها فنى جيوش الغرب والأندلس[٤] ، ولكن المراكشى وهو مؤرخ معاصر يقول لنا فى نوع من الاعتدال ، إنه قتل من الموحدين خلق كثير ، ويتابعه فى هذا الوصف صاحب الروض المعطار ، ويقول لنا إنه قد هلك فى الموقعة جملة من الأعيان والطلبة ، منهم أبو بكر بن عبد الله بن أبى حفص ، وعلى بن الغانى الميورقى . وسقط كذلك فى المعركة عدة من أكابر

(١) جاء فى القاموس المحيط أن عقبه بالتحريك هى مرقى صعب من الجبال والجمع عقاب ( بكسر العين ) .

(٢) روض القرطاس ص ١٥٩ و ١٥٨ .

(٣) روض القرطاس ص ١٥٩ .

(٤) الحلل الموشية ص ١٢٢ ، والذخيرة السنية ص ٤٨ .

العلماء والحفاظ ، منهم أحمد بن هارون بن عات النفزى ، وإسحاق بن إبراهيم المجابرى ، ومحمد بن حسن الأنصارى المعروف بابن صاحب الصلاة ، ومحمد ابن إبراهيم الحضرمى ، وأيوب بن عبد الله بن عمر الفهرى ، والشاعر الزاهد تاشفين بن محمد المكتب وغيرهم[1] . بيد أنه مما يلفت النظر حقاً أن الرواية النصرانية مع ما يؤثر عنها من المبالغة فى مثل هذه المواطن ، تقدم إلينا عن خسائر الموحدين فى الموقعة ، أرقاما يطبعها نوع من الاعتدال ، بكونها تقل كثيراً عما تقدمه إلينا الرواية الإسلامية ، بيد أنها من جهة أخرى تبالغ فى التقليل من خسائر النصارى . ذلك أن ردريك الطليطلى يقدر من قتل من المسلمين فى الموقعة بمائتى ألف ، وذلك من مجموع الجيوش الموحدية التى يقدرها بمائة وخمسة وثمانين ألف فارس ، وعدد لا يحصى من المشاة ، ويقدر الملك ألفونسو الثامن قتلى المسلمين فى خطابه إلى البابا بمائة ألف ، ويقدرهم أرنولد مطران أربونة بستين ألفاً ، ثم يقول إنه من الممكن أن يكون قد هلك منهم أكثر من هذا العدد أثناء الفرار ، وتقدر الأميرة برنجاريا القشتالية فى خطابها إلى أختها الملكة بلانكا ملكة فرنسا ، قتلى المسلمين بخمسة وثمانين ألفاً . بيد أن الروايات النصرانية تقدم إلينا فى نفس الوقت عن خسائر النصارى فى المعركة أرقاما لا يمكن أن يصدقها العقل ، ومن الغريب أن شهود العيان الذين تقدم ذكرهم هم الذين يقدمون هذه الأرقام . فالمطران ردريك يقول لنا إنه لم يقتل فى الموقعة من النصارى سوى خمسة وعشرين ، والملك ألفونسو يذكر فى خطابه إلى البابا أنهم لم يتجاوزوا الثلاثين ، وأرنولد مطران أربونة يقول إنهم لم يتجاوزوا الخمسين ، ولاريب أن مثل هذه الأرقام الضئيلة لم تملها سوى أثرة الرواية النصرانية ، ومحاولتها أن تسبغ ثوب المعجزة ، على النصر الذى أحرزه النصارى . ومن المحقق أن خسائر النصارى كانت شديدة أيضاً ، فى مثل هذه المعركة التى التحم فيها الجيشان بأسرهما ، وردت فيها هجمات النصارى الأولى بخسائر كبيرة لاريب ، ولم ينجحوا فى اختراق قلب الجيش الموحدى إلا بعد جهود فادحة ، وبعد أن ألقوا فى المعركة بقواتهم الاحتياطية ، ولا يمكن أن تقل هذه الخسائر عن الألوف العديدة ، فى جيش لم يكن يقل تعداده عن ثمانين ألف أو مائة ألف من الفرسان والمشاة . ويقدم إلينا الراهب ألبريكوس الذى عاش

---

(١) المعجب ص ١٨٣ ، والروض المعطار ص ١٣٨ ، وابن الأبار فى التكلة ( القاهرة ) فى التراجم رقم ٢٦٢ و٥١٧ و١٥٠٨ و١٥٥٩ .

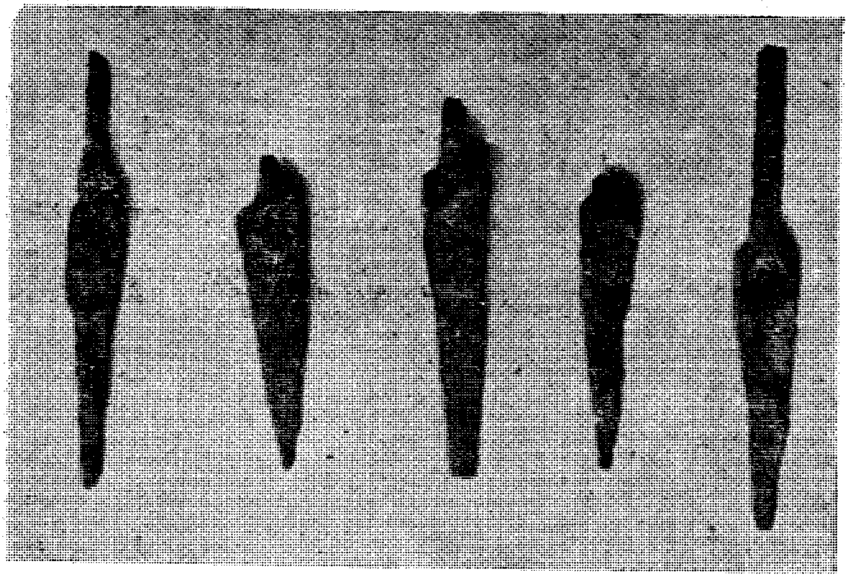

سهام خيل أرضية عثر بها المؤلف بالحفر فى بعض نواحى السهل الذى كانت به المحلة الموحدية

قريباً من هذا العصر تفسيراً لهذا الرقم الضئيل ، الذى تقدمه الرواية النصرانية عن خسائر النصارى ، فيقول إنه قد هلك فى الموقعة من المسلمين مائة ألف ، ولكن هلك فى نفس الوقت من النصارى خلال التحام المعركة عدد كبير ، بيد أنه لم يهلك منهم خلال مطاردة المسلمين سوى نحو ثلاثين[1] .

واستولى النصارى فى محلة الجيوش الموحدية على مقادير وافرة من الغنائم من العتاد والسلاح والخيام والذهب والفضة ، والنقود الذهبية والبسط والآنية الثمينة والثياب والأقمشة الفخمة ، وكذلك على مقادير عظيمة من المؤن ، وعلى ألوف مؤلفة من دواب الحمل ، فكانت من أعظم الغنائم التى ظفر بها النصارى[2] .

---

(١) تراجع الروايات النصرانية عن خسائر المسلمين والنصارى فى أشباخ (الترجمة العربية) ص ٣٧٠ و٣٧١ . وكذلك فى :

**Huici: Las Grandes Batallas de la Reconquista p. 266 & 267**

(٢) راجع فى تفاصيل موقعة العقاب ، المعجب ص ١٨٣ — ١٨٥ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢٤٠ —٢٤٢ ، وروض القرطاس ص ١٥٦—١٦٠ ، والروض العطار ص ١٣٧و١٣٨ والنويرى ( طبعة ريميرو السابق الإشارة إليها ج ٨ ص ٣٧٩ ) والحلل الموشية ص ١٢٢ ، =

وكان من أهم الغنائم الغنائم التى أحرزها النصارى خيمة الناصر الحريرية الموشاة بالذهب ، وعَلَمٌ موحدى ضخم مازال يحفظ حتى اليوم بين ذخائر اسبانيا النصرانية . وقد أرسلت الخيمة مع طائفة أخرى من نفيس الهدايا إلى البابا برسم كنيسة القديس بطرس، لتعرض بها تذكاراً للنصر ، واستولى ملك نافارا على السلاسل الحديدية التى كانت تحيط بقبة الخليفة . وأما العَلَم الموحدى فما زال يحفظ حتى اليوم بالدير الملكى بمدينة برغش[1]، وقد شهدناه وقت زيارتنا لهذه المدينة التاريخية ، وهو عبارة عن سجادة كبيرة طولها ٣,٣٠ مترا وعرضها ٢,٢٠ متراً . وبها فى الوسط دائرة كبيرة صفراء يحيط بها مربع ذو مقاطع أربعة ، وقد ملئت الدائرة والمربع بنقوش عربية جميلة ، ويحيط بهذا المربع من الجوانب الأربعة أحزمة بنية ، نقشت عليها آيات قرآنية بخط أزرق ، وفى ذيلها دوائر نقشت فيها أدعية مختلفة . والظاهر أن هذا العلم لم يكن من الأعلام التى كانت تحمل خلال المواقع ، وإنما كان من الأعلام التى تعلق بخيمة الخليفة . ومن ثم كان الاسم الذى يعرف به وهو « معلق معركة العقاب » Pendón de las Navas ، وكذلك الوصف الذى سطر تحته بالإسبانية وهو « غنيمة انتزعت من العدو فى موقعة العقاب »[2].

— ٣ —

ولابد لنا أن نحاول بعد ذلك أن نتلمس الأسباب المادية والمعنوية ، التى أدت بالجيش الموحدى إلى تلك الكارثة المروعة . فالحقيقة أنه إلى جانب الأسباب التقليدية المعروفة ، من اختلال نظام الجيوش الموحدية الكبيرة العدد ، وعدم اتساق تنظيماتها ، وتنافر العناصر المكونة منها ، وعدم توحيد قيادتها بأيدى قادة يتسمون بالبراعة العسكرية ، واختلال نظام التموين بها ، نظراً لابتعادها عن قواعدها مسافات شاسعة، إلى جانب ذلك توجد عدة أسباب أدبية عاونت

---

= وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٩ ، ونفح الطيب ج٢ص ٥٢٨ وراجع الروايات النصرانية P. Crónica General(Ed. Pidal) P.690 - 704. Huici : Las Grandes Batallas de la, Reconquista; p. 231 - 308 والمراجع . وكذلك أشباخ ( الترجمة العربيه ) ص ٣٦٥ — ٣٧٨ .

( ١ ) واسمه بالإسبانية Real Monasterio de las Huelagas .

( ٢ ) راجع وصف هذا العلم وما نقش عليه من آيات فى كتابنا الآثار الأندلسية الباقية فى اسبانيا والبرتغال ( الطبعة الثانية ) ص ٢١٣ و ٢١٤ . وراجع أيضاً : A. de los Rios : Trofeos Mlitares de la Reconquista, Ensenas Musulmanes del Real Monasterio de las Huelgas (Burgos). (Madrid 1893) p. 27 - 48.

على وقوع الكارثة . وتشير الرواية الإسلامية إلى طرف من هذه الأسباب ، وتلخصها فى تغير قلوب الموحدين ، وسخطهم على الوزراء والقادة ، وذلك بسبب حبس أعطيتهم وتأخرها ، وقد كان المتبع منذ أيام المنصور ، أن يُمنح العطاء للجند مرة فى كل أربعة أشهر دون تأخير ، ولكن العطاء كان يؤخر فى عهد الناصر ولاسيما فى هذه الحملة الكبيرة ، فنسب الجند أسباب التأخير للوزارة ، وخرجوا إلى الغزو وهم كارهون ، وقد خبت قواهم المعنوية ، وهكذا خرج الناصر إلى الغزو « بحشود لاغرض لهم فى الغزو ، وقد أمسكت أرزاقهم ، وقتر عليهم » . ويقول لنا المراكشى فضلا عن ذلك ، أنه بلغه من جماعة منهم « أنهم لم يسلوا سيفاً ولاشرعوا رمحا ، ولا أخذوا فى شىء من أهبة القتال ، بل انهزموا لأول حملة الإفرنج عليهم ، قاصدين لذلك »(١) . أضف إلى ذلك ما حدث قبيل نشوب المعركة فى المعسكر الموحدى ، من حوادث كان لها نذير . منها قتل الخليفة الناصر للقائد الأندلسى الباسل ابن قادس قائد قلعة رباح هو وصهره ، دون أن يستقبله أويستمع إلى عذره ، ومنها إهانة الوزير أبى سعيد بن جامع للقواد الأندلسيين وإنذارهم بمغادرة الجيش ، وقد كان لهذه الحوادث أسوأ وقع فى نفوس الأندلسيين ، وفى تثبيط هممهم فى القتال ، وكان الأندلسيون بالرغم من قلتهم العددية ، عنصراً هاما فى جيوش الغزو الموحدية المقاتلة بالأندلس ، لأنهم كانوا أكثر خبرة بقتال النصارى الإسبان ، وأكثر دراية بطريقتهم فى الحرب(٢) . وقد رأينا كيف كان اعتماد الخليفة المنصور على نصح ابن صناديد قائد الأندلس ومشورته ، من أسباب نصره فى معركة الأرك . وأخيراً فإن ما أبداه الناصر من العُجب والاعتداد بكثرة جموعه ، واعتماده على تفوقه العددى البالغ ، والتقليل من شأن العدو ، كان له أكبر الأثر فيما بدا من الرعونة ، وعدم الحرص والتحوط فى لقاء العدو ، ومن ثم فقد كان ظفر القشتاليين باختراق قلب الجيش الموحدى بتلك السرعة ، مفاجأة هائلة لم تخطر للناصر ولا للقادة الموحدين . وترى بعض الروايات الإسلامية أن نكبة الناصر فى العقاب كانت عقوبة من الله على ما أبداه من العجب والاعتزاز بكثرة جموعه ، واعتقاده أنه لاغالب له من الناس ، فأراه

---

(١) المراكشى فى المعجب ص ١٨٣ ، والروض المعطار ص ١٣٨ .

(٢) روض القرطاس ص ١٤٦ و ١٤٧ ، والروض المعطار ص ١٣٨ ، وراجع أيضاً نفح الطيب ج ٢ ص ٥٣٨ .

العلم الموحدى الذى غنمه الإسبان فى معركة العقاب ويحفظ الآن بدير برغش الملكى ( لاس هويلجاس )

الله تلك الآية ليعلم أن النصر من عند الله ، وأن القدرة والحول والقوة بيد الله[1].

وقد أسفرت هزيمة العقاب الساحقة ، عن أفدح وأروع الآثار التى يمكن تصورها ، سواء بالنسبة للأندلس أوالمغرب أو الدولة الموحدية . فأما بالنسبة للأندلس ، فقد قضت هذه الهزيمة نهائياً ، على سمعة الموحدين العسكرية فى شبه الجزيرة ، وتحطم ذلك الدرع الذى كانت تسبغه الجيوش الموحدية ، القادمة من وراء البحر ، على الأندلس وعلى دولة الإسلام بها ، وتضعضع سلطان الحكم الموحدى بالأندلس ، وأخذت الأندلس من ذلك الحين تنحدر إلى براثن الفوضى الطاحنة ، وانتثرت غير بعيد إلى أحزاب وشيع جديدة ، قامت لتضرب بعضها بعضاً ، ولتبدأ عهداً جديداً من المعارك الانتحارية الصغيرة التى لانهاية لها ، والتى تذكرنا بعهد الطوائف. وضمن ذلك النصر الباهر الذى أحرزته الجيوش النصرانية المتحالفة فى هضاب تولوسا ، لإسبانيا النصرانية ، تفوقها السياسى والعسكرى فى شبه الجزيرة ، وفتح الباب واسعاً لغزو الاسترداد **La Reconquista** النصرانى المنظم ، الذى سوف يستمر من ذلك الحين فى اجتناء ثمارە ، بانتزاع القواعد الأندلسية ، واقتطاع أشلاء الأندلس الكبرى بصورة متتابعة ، وفى فترات قصيرة مذهلة .

وقد تردد هذا الفزع الذى سرى إلى الاندلس يومئذ ، وماكان ينوح لها من من شبح الفناء ، من جراء كارثة العقاب ، واضحاً فى الأدب والشعر . فمن ذلك ما قاله أبو إسحق إبراهيم بن الدباغ الإشبيلى :

وقائلة أراك تطـــل تفكرا ... كأنك قد وقفت لدى الحساب
فقات لها أفكر فى عقاب ... غدا سبباً لمعركة العقــاب
فما فى أرض أندلس مقام ... وقد دخل البلا من كل باب[2]

وأما بالنسبة للمغرب ، والدولة الموحدية ، فقد كانت كارثة العقاب ضربة شديدة للمغرب ، ولأهل المغرب ، بما هلك فيها من حشود القبائل البربرية ، وزهرة جنودهم ، ومن الجيوش الموحدية النظامية ، ولم يعد فى مقدور هذه القبائل أن تقدم للغزو الكثير من حشودها ، ولم يعد فى مقدور الدولة الموحدية أن تجدد مثل

---

(١) روض القرطاس ص ١٦٠ .
(٢) نفح الطيب ج ٢ ص ٥٨٢ .

هذه الحملات العسكرية العظيمة ، التى كان يقودها خلفاء مثل عبد المؤمن وأبى يعقوب يوسف والمنصور والناصر . وكما أن الرواية الإسلامية تنوه بخطورة آثار الهزيمة فى مصير الأندلس ، وتصفها بأنها كانت سبباً فى « هلاك الأندلس »(١)، فإنها تنوه كذلك ، وبنوع خاص، بالخسارة الآدمية الهائلة، التى وقعت من جرائها بالمغرب والأندلس ، وتصف الموقعة بالهزيمة العظمى « التى فنى فيها أهل المغرب والأندلس(٢)، أو التى خلا بسببها أكثر المغرب(٣)، أو حسبما تقول لنا فى عبارة أوضح وأشمل « إن المغرب قد باد أهله ورجاله وفنى خيله وحماته وأبطاله ، وقتلت قبائله وأقياله ، قد استشهد الجميع فى غزوة العقاب»(٤). ويلخص لنا ابن الأبار ، نتائج الموقعة المدمرة بالنسبة للأندلس فى قوله إنها « أفضت إلى خراب الأندلس بالدائرة على المسلمين فيها ، وكانت السبب الأقوى فى تحيف الروم بلادها ، حتى استولت عليها »(٥) . وأما بالنسبة للدولة الموحدية ، فقد هزت كارثة العقاب أركانها إلى الأعماق، وقضت على كل عوامل التوطد، التى أسبغها عليها المنصور بانتصاره فى معركة الأرك ، والتى تأيدت بإخماد ثورة بنى غانية فى إفريقية . ومما لاريب فيه أن تضعضع الدولة الموحدية على هذا النحو ، كان أكبر مشجع لبنى حفص على اقتطاع إفريقية وإقامتهم غير بعيد لدولتهم المستقلة بها . ويلخص لنا صاحب الروض المعطار أثر الهزيمة فى الدولة الموحدية بقوله « وكانت هذه الوقيعة أول وهن دخل على الموحدين ، فلم تقم بعد ذلك لأهل المغرب قائمة»(٦).

ونستطيع بعد أن استعرضنا آثار هزيمة العقاب أن نقول فى معرض المقارنة بينها وبين معركة الأرك ، إن انتصار الموحدين فى الأرك ، بالرغم من عظمته ولمعانه ، لم يسفر بالنسبة لإسبانيا النصرانية عن آثار عميقة ، ولم يصب قشتالة بأكثر من ضعف عسكرى موقت ، استطاعت أن تنهض منه فى فترة قصيرة ، ولم يستطع الموحدون أن يقوموا فى أعقابه إلا بغزوات عابرة لمنطقة إسترامادورة،

---

(١) البيان المغرب – القسم الثالث ص ٢٤٠ .

(٢) الحلل الموشية ص ١٢٢ .

(٣) المقرى فى نفح الطيب ج ٢ ص ٥٣٨ .

(٤) الذخيرة السنية ص ٢٤ .

(٥) ابن الأبار فى « التكملة » ( القاهرة ) ج ١ ص ١٠٢ .

(٦) الروض المعطار ص ١٣٨ .

ثم لمنطقتى طلبيرة وطليطلة ، وقد حاصروا طليطلة بالفعل ، ولكنهم لم يحاولو أولم يستطيعوا الاستيلاء عليها . أما هزيمة العقاب ، فقد رأينا بالعكس مما تقدم ، ماكان لها من الآثار الهدامة العميقة .

ومن الغريب المدهش حقاً ، أن الناصر لم يرد أن يلوذ بالصمت إزاء هذه الكارثة الفادحة ، بل أراد أن يقدم عنها اعتذاره فى رسالة رسمية ، وجهت من إشبيلية إلى حضرة مراكش وإلى غيرها من قواعد المغرب والأندلس، وذلك فى أواخر صفر سنة ٦٠٩ هـ . وقد نقل إلينا صاحب البيان المغرب بعض فصول هذه الرسالة ، وهى من إنشاء الوزير الكاتب أبى عبد الله بن عياش، وفيها يقص علينا الناصر قصة استعدادات ألفونسو الثامن لمحاربة المسلمين ، واهتمام البابا ، والأحبار النصارى بمعاونته وشد أزره، وماكان من انضمام ملكى أراجون ونافارا إليه . ثم يصف لنا سيره للقاء النصارى ، ويقول لنا إنه نشبت بين الفريقين فى الموضع المعروف « بالمرشة » معركة « اشتد فيها الكفاح ،وأرخصت الأرواح » . ثم يقول « ولكن الله أراد أن يمحص المؤمنين ، ويبلى الكافرين ، فكانت عاقبة اليوم على الخصوص لأهل الصلبان، والعاقبة المطلقة هى لأهل الإسلام والإيمان، وتحاجز الفريقان ، والمسلمون عزيزة جوانبهم ، محروسة بقدرة الله كتائبهم ، لم تصب الحرب منهم أحدا ، ولا نقصت لهم عدداً . وهى الحروب قضى الله أن تكون سجالا ، وأن يجعل الله فيها لكل قوم مجالا » . ثم يقول فى ختام رسالته : « وإذا كانت وفقكم الله الجيوش موفورة ، والرايات منشورة ، والعزائم باقية ، وكفايات الله وافية ، فلا تهنوا فإنا لا نهن ، وانتظروا الكرة على الكفار، والإمداد عليهم ، بجند الله الذين هم خير الأنصار ، فما كان الله ليترك المؤمنين ، حتى يأخذ أعداءهم أخذاً وبيلا ، ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا . وعرفناكم لتكون عندكم هذه الوقيعة على وجهها ، والنازلة على كنهها ، ولتعلموا أنه لم يلدر للموحدين قتيل ، ولا أصيب منهم كثير ولاقليل والسلام »[1] .

وإذا كان من الصعب أن يعلق المؤرخ على مثل تلك الرسالة ، التى يصفها صاحب الروض المعطار بأنها من قبيل « الزخرف الكاذب » ، فإنه يمكن القول بأنها محاولة جريئة من الخليفة المهزوم ، للاعتذار عن نكبته وتهوين شأنها فى نفوس أمته ، واستدرار عطفهم ، والتخفيف من سخطهم .

---

(١) راجع البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٤١ ، ٢٤٢ .

— ٤ —

حاول ألفونسو الثامن ملك قشتالة ، على أثر ظفره العظيم فى موقعة العقاب أن يجتنى ثمار نصره باقتطاع ما يستطاع من الأراضى الإسلامية ، فاستولى فى أيام قلائل على معظم الحصون الإسلامية فى تلك الناحية ، وكان من بينها حصن فرّال ( حصن العقاب ) ، الذى كان قد أخلاه قبل الموقعة ، وبلج ، وبانيوس ، وتولوسا . ثم سار إلى مدينتى بيّاسة ، وأبّدة ، اللتين لاتبعدان عن مسرح المعركة سوى بضع مراحل . وكانت بياسة قد غادرها معظم أهلها ، ولكن كان بها كثير من الجرحى والضعاف والفارين ، فأحرق دورها ، وخرب مسجدها الجامع ، وقتل معظم من وجده بها ، وأخذ بعضهم أسرى . ثم سار إلى مدينة أبدة ، القريبة منها ، وكانت تموج بأهلها ، وبمن وفد عليهم من أهل بياسة ، ومن الفارين ، ولكنها كانت فى حالة دفاع وأهبة ، وقد امتنعت وراء أسوارها الحصينة ، فحاصرها ألفونسو ثلاثة عشر يوما ، وصمد المسلمون ، ولحقت بالنصارى بعض الخسائر ، ثم عرض المسلمون فى النهاية أن يدفعوا فدية قدرها ألف ألف دينار على أن تترك المدينة حرة ، وأن يتمتعوا بدينهم وشعائرهم ، فقبل ألفونسو وزميلاه ملكا أراجون وناڤارا هذا العرض ، ولكن الأحبار عارضوا فى تنفيذه ، وأصروا على تسليم المدينة بلا قيد ولا شرط ، فنزل الملوك عند هذا الضغط ، ونقضوا العهد المقطوع ، واقتحم الجنود النصارى المدينة ، وقتلوا من أهلها زهاء ستين ألفاً ، وسبوا منهم مثل هذا القدر . وتعترف الرواية النصرانية نفسها بهذه الشناعات ، وتقدر من قتل وسبى من أهل أبّدة ، بمائة ألف ، ويقدر بعضها السبايا وحدهم بمائة ألف[1] ، ويقول لنا المراكشى ، وهو المؤرخ المعاصر ، إن ألفونسو دخل أبدة عنوة ، فقتل وسبى وفصل هو وأصحابه من السبى من النساء والصبيان ، بما ملئوا به بلاد الروم قاطبة ، فكانت هذه أشد على المسلمين من الهزيمة[2] . ثم هدم النصارى دور المدينة ، بعد أن خلت من سكانها حتى أصبحت خرابا يبابا .

ولم يكن بين النصارى الظافرين وبين مدينة جيان سوى بضع مراحل ، وكان من الطبيعى أن يقصد ملك قشتالة إلى انتزاع هذه القاعدة الأندلسية الهامة ،

---

( ١ ) راجع أشباخ — الترجمة العربية ص ٣٧٢ ، وكذلك :
**. Huici : Imperio Almohade, Vol. II p. 427**

( ٢ ) المعجب ص ١٨٤ .

ولو حاول ذلك لكان من المحقق أن يفوز ببغيته، فى تلك الظروف التى انهار فيها خط الدفاع الأمامى بالأندلس . ولكن مصاعب التموين كانت تتفاقم، وقد سادت الفوضى بين جنود الجيش الظافر ، الذين امتلأت أيديهم بالغنائم ، ثم كانت الطامة بانتشار الوباء بينهم من جراء اشتداد الحرارة ، وتعفن الجثث التى غصت بها تلك الوديان ، فارتد الملوك النصارى فى قواتهم نحو الشمال ، ودخلوا طليطلة عاصمة قشتالة فى موكب ملوكى ضخم ، وأقيمت صلوات الشكر ابتهاجاً بالنصر ، وتقرر أن يغدو يوم ١٦ يوليه ، وهو اليوم الذى تحقق فيه النصر ، عيداً قومياً يحتفل به فى طليطلة وسائر أنحاء قشتالة ، ويسمى عيد « ظفر الصليب » .

هذا وأما الخليفة الناصر لدين الله ، فإنه بعد أن فرّ من ميدان المعركة فى آخر لحظة ، حسبما أشرنا من قبل، سار إلى جيّان ثم غادرها مسرعاً إلى إشبيلية فوصلها فى أيام قلائل ، فى أواخر شهر صفر سنة ٦٠٩ ﻫ ، ووجه منها كتابه بالاعتذار عن الكارثة، إلى قواعد المغرب والأندلس . ولبث مقيما بإشبيلية حتى شهر رمضان من هذا العام ، وهو لايحرك ساكنا ولايبالى بأمر ، ثم عبر البحر إلى العدوة ، قافلا إلى حضرة مراكش ، وماكاد يستقر بها حتى أخذ البيعة بولاية العهد لولده السيد أبى يعقوب يوسف الملقب بالمستنصر ، فبايعه كافة الموحدين ، وخطب له على جميع المنابر بالمغرب والأندلس ، وذلك فى أواخر شهر ذى الحجة سنة تسع وستمائة . ثم لزم الناصر بعد ذلك قصره ، واحتجب عن الناس . يقول صاحب روض القرطاس : « وانغمس فى لذاته ، فأقام فيه مصطبحاً ومغتبقاً » أى صباح مساء . وفى أوائل شهر شعبان سنة ٦١٠ﻫ ، مرض الناصر ، وتوفى فى مساء يوم الأربعاء العاشر من شعبان ( ٢٢ ديسمبر سنة ١٢١٣م )[١]. وقد اختلف فى أسباب وفاته ، فقيل إنه توفى غما وألماً من آثار نكبته فى العقاب[٢] . وقيل إنه توفى من عضة كلب[٣]، وقيل إنه مات مسموماً ، بتدبير بعض وزرائه، ممن خشوا من نقمته وانتقامه ، لما بلغه عنهم من سوء فعلهم ودسائسهم ، فأغروا

---

( ١ ) اختلف فى يوم وفاته ، فذكر إنه اليوم الخامس من شعبان أو اليوم العاشر (النويرى- طبعة ريميرو ج ٨ ص ٢٨٠ ) ، وذكر أنه اليوم الحادى عشر ( روض القرطاس ص ١٦٠ ) . ولكن المراكشى وهو أقرب من عاصره يضع تاريخ وفاته فى يوم الأربعاء العاشر من شعبان ( المعجب ص ١٨٤ ) .

( ٢ ) الحلل الموشية ص ١٢٢ .

( ٣ ) الروض المعطار ص ١٣٨ .

بعض جواريه بوضع السم له فى قدح من الخمر فمات من حينه(١). ولكن المراكشى وهو فى ذلك أكثر اطلاعاً وأقرب إلى الثقة، لمعاصرته لتلك الحوادث؛ يقول لنا إن أصح ما بلغه عن وفاة الناصر «أنه أصابته سكتة من ورم فى دماغه، وذلك يوم الجمعة لخمس خلون من شعبان، فأقام ساكتا لا يتكلم يوم السبت والأحد والاثنين والثلاثاء، وأشار عليه الأطباء بالفصد فأبى ذلك، وتوفى يوم الأربعاء لعشر خلون من شعبان سنة ٦١٠، ودفن يوم الخميس، وصلى عليه خاصة الحشم»(٢).

وكان الخليفة محمد الناصر لدين الله، آخر ذلك الثبت من الخلفاء الموحدين الذين اقترنت بعصرهم بعض الأحداث الضخمة الحاسمة، وكان أهم تلك الأحداث أولا تحطيم ثورة بنى غانية فى إفريقية، وهو ألمع حادث فى عهده، ويقترن بذلك فتح الموحدين لميورقة، وثانيا نكبة العقاب المشئومة التى هزت أركان الدولة الموحدية بالمغرب والأندلس. ولم يكن ثمة فى بداية عهده ما يؤذن بأنه صائر إلى ذلك الانهيار، الذى انتهى إليه فى فترته القصيرة، بل كانت صولة أبيه العظيمة، وذكريات نصر الأرك الباهر، مازالت تظلل الخلافة الموحدية. وقد بدأ الناصر عهده بداية حسنة، وأبدى همة ظاهرة فى إدارة الشئون وتنظيم الإدارة، ومطاردة الفساد، وإقصاء العمال الظلمة والمرتشين، ولكنه لم يتذرع فى ذلك بالروية وبعد النظر، بل كان يغلب فى ذلك النزق والاستبداد. وكان الناصر فى البداية، وهو مايزال فى شرخ فتوته يسترشد بآراء أشياخ الموحدين، فى تسيير الشئون الكبرى، ولاسيما بآراء الشيخ أبى محمد عبدالواحد بن أبى حفص، وفقاً لوصية أبيه المنصور، ولكنه لما اشتد ساعده، استبد بالأمر، ولم يعد يقبل نصحاً أومشورة من أحد، حتى أنه رفض نصح الشيخ أبى محمد عبد الواحد، حينما استشاره فى شئون الأندلس، بألا يسير إلى غزوته الكبرى، التى انتهت بنكبته فى موقعة العقاب. ولم يقع فى عهد الناصر شىء يذكر من الأعمال الإنشائية، التى امتاز بها عهد أبيه وجده، ولم يكن الناصر على شىء خاص من أنواع العلوم أوالمعرفة، ولم يجتمع فى بلاطه أحد من أولئك العلماء المبرزين، الذين اجتمعوا حول أبيه، وإنما كان يلوذ ببلاطه فقط بعض الشعراء الملقين، الذين عرفناهم فيما تقدم، مثل أبى العباس الجراوى، ووزيره خالد اللخمى وغيرهما.

(١) البيان المغرب – القسم الثالث ص ٢٤٣، وروض القرطاس ص ١٦٠.

(٢) المعجب ص ١٨٤، ونقله النويرى (طبعة ريميرو ج ٨ ص ٢٨٠).

وقد وصف لنا المراكشي وهو مؤرخ معاصر ، وربما شاهد عيان ، صفات الناصر فى قوله : «كان كثيراً الإطراق ، شديد الصمت ، بعيد الغور ، كان أكبر أسباب صمته لثغاً كان بلسانه ، حليما ، شجاعاً ، عفيفاً عن الدماء ، قليل الخوض فيما لايعنيه ، إلاأنه كان بخيلا»[1]. ونحن نعتقد أن وصف الناصر بالعفة عن الدماء ، وصف فى غير موضعه ، لما رأيناه ، فيما تقدم ، من تسرعه فى سفك دماء بعض العمال ، ودماء القادة الأندلسيين . ويقول صاحب روض القرطاس «إنه كان كبير الهمة ، غليظ الحجاب ، لا تكاد تصله الأمور إلا بعد الجهد ، مصيب برأيه ، مستبد فى أموره وتدبير مملكته بنفسه»[2] وأما عن شخصه ، فيوصف الناصر ، بأنه كان أبيض ، أشقر اللحية ، أشهل العينين ، نحيل الجسم ، حسن القامة .

ووزر للناصر فى البداية وزير أبيه عبد الرحمن بن يوجان ، ثم استوزر من بعده أخاه إبراهيم بن الخليفة المنصور ، ثم ولى الوزارة من بعده أبو عبد الله محمد ابن على بن أبى عمران ، فسار فيها سيرة حسنة ، وكان يحض الخليفة على فعل الخير ، ونشر العدل ، والإحسان إلى الرعية والجند ، ثم عزله الناصر ، وولّى الوزارة من بعده ، أبو سعيد عثمان بن عبد الله بن إبراهيم بن جامع . وإبراهيم هو جد هذه الأسرة من الوزراء ومن صحب المهدى ابن تومرت حسبما سبقت الإشارة إليه . وتولى القضاء للناصر ، أبو القاسم أحمد بن بقى قاضى أبيه ، ثم أبوعبد الله محمد بن مروان ، فلبث فى منصبه حتى توفى فى سنة ٦٠١ هـ ، فخلفه فى القضاء أبوعمران موسى بن عيسى بن عمران ، واستمر بقية عهد الناصر وشطراً من عهد ابنه المستنصر . وكان من كتاب الناصر اثنان من أسرة بنى عياش اللامعة ، هما الكاتب الأديب البارع أبوعبد الله محمد بن عبد الرحمن بن عياش كاتب أبيه من قبل ، وأبو الحسن على بن عياش بن عبد الملك بن عياش ، وكان أبوه من كتاب عبد المؤمن ، وأبو عبد الله محمد بن يخلفتن الفازازى .

وكان من كتاب جيشه أبو الحجاج يوسف المرانى وهو أندلسى من أهل شريش ، وأبو جعفر أحمد بن منيع . ولم ينجب الناصر لدين الله من الولد سوى ثلاثة من البنين ، هم يوسف المستنصر ولى عهده ، والخليفة من بعده ، ويحيى وقد توفى فى حياة أبيه فى سنة ٦٠٨ هـ ، وإسحاق ، وعدد من البنات .

---

(١) المعجب ص ١٧٦ .

(٢) روض القرطاس ص ١٥٣ .

# الكتاب الثامن

# الدولة الموحدية
# فى طريق الانحلال والتفكك

# الفصل الأول

## عصر الخليفة يوسف المستنصر بالله

## وأوائل ظهور بنى مرين

يوسف المستنصر يخلف أباه الناصر . بيعته الخاصة ثم بيعته العامة . وزراؤه وكتابه . ميله إلى حياة الدعة . عماله على الولايات . السيد أبو إسحق والى غرناطة . السيد أبو العلاء أمير تونس . ثورة الفاطمى العبيدى . تفاصيل حركته . إخماد ثورته وإعدامه . مقدم سفير قشتالة فى طلب السلم . عقد السلم مع قشتالة . بواعث إيثار قشتالة للسلم . طلائع بنى مرين عند أحواز فاس . أصول بنى مرين ومنازلهم . انتسابهم إلى العرب . أمراؤهم الأوائل . صراعهم مع القبائل الخصيمة . اللقاء الأول بينهم وبين الموحدين . هزيمتهم ومقتل أميرهم . اشتراكهم فى الجهاد مع الموحدين . انحلال قوى الموحدين عقب موقعة العقاب . نهوض بنى مرين لانتهاز الفرصة . إغارتهم على أطراف المغرب . تأهب الموحدين لردهم . اللقاء بين الفريقين . موقعة المشعلة . هزيمة موحدية أخرى فى رباط تازة . الخلاف بين بنى مرين . خروج بنى حمامة منهم . أميرهم عبدالحق . تحالف المنشقين مع الموحدين والعرب . القتال بين الفريقين . مقتل عبد الحق وولده إدريس . تجدد الحرب وهزيمة بنى حمامة . أبو سعيد عثمان يتولى رياسة بنى مرين . حوادث الأندلس . مهاجمة البرتغاليين والصليبيين لثغر القصر . محاصرة النصارى للثغر . مبادرة الموحدين إلى إنجاده . اللقاء بين المسلمين والنصارى . هزيمة المسلمين . صمود حصن القصر ثم تسليمه . استيلاء النصارى على حصن القصر . محاصرة ملك ليون لقاصرش وصمودها . تكرار الهجوم عليها ومعاودة حصارها . سقوطها فى أيدى النصارى . أحوال المغرب فى هذا الوقت . ركود بلاط مراكش وتواكله . اضطراب الأمن . الأحوال الاقتصادية وانتشار المجاعة . كتاب الخليفة المستنصر إلى الولاة والأعيان والكافة . تجدد التهادن بين الموحدين وقشتالة . كتاب البلاط الموحدى إلى ملكة قشتالة . مصرع المستنصر الفجائى . ركود عهده واضطراب الأحوال فيه . أقوال المؤرخين فى ذلك . أحوال المغرب حسبما يصورها ابن عبد الملك . صورة أخرى للمستنصر وخلاله . حكومة المستنصر . وزراؤه وكتابه وقضاته .

تدخل الدولة الموحدية ، بعد وفاة الخليفة محمد الناصر لدين الله ، فى العاشر من شعبان سنة ٦١٠ هـ ، فى مرحلة جديدة من مراحل حياتها ، مرحلة انحلال مضطرد ، وصراع داخلى مستمر على انتزاع العرش ، وتنتثر أسرة بنى عبد المؤمن الشامخة ، إلى شيع وأحزاب ضعيفة متخاصمة ، وينتثر شمل القبائل الموحدية ، حول تأييد هذا الفريق أوذاك ، وتنهار قوى الدولة الموحدية ومواردها الضخمة تباعاً ، سواء بالمغرب أوالأندلس ، فى معارك انتحارية مستمرة ، وتتخذ هذه

المرحلة فى الأندلس بالأخص ، طابعاً مشئوماً ، لم يسبق للأندلس أن نكبت بمثله ، فتغدو من جديد مسرحاً مضطرما للحرب الأهلية ، أولا فيما بين الموحدين المتنافسين على العرش ، وثانيا فيما بين أبناء الأندلس أنفسهم ، وفى خلال هذه الموجة الغامرة من المحنة القومية ، تتحفز اسبانيا النصرانية ، لانتهاز الفرصة السانحة ، وتنظم متعاونة متفاهمة ، أخطر برنامج لفتوح « الاسترداد » ، وتهتز مصاير القواعد الأندلسية الكبرى ، ومصاير الأمة الأندلسية كلها

خلف المستنصر بالله ، أبو يعقوب يوسف ، أباه محمد الناصر ، فى اليوم التالى لوفاته ، فى الحادى عشر من شعبان سنة ٦١٠ هـ (٢٣ ديسمبر سنة ١٢١٣م) وأمه حرة ، هى فاطمة بنت السيد أبى على بن يوسف بن عبد المؤمن ، وقيل إنها أم ولد نصرانية تدعى قمر[1] . وكان المستنصر حين ولايته فتى فى السادسة عشرة من عمره ، إذ كان مولده فى أول شوال سنة ٥٩٤ هـ[2] ، وهناك أقوال أخرى بأنه كان فى العاشرة من عمره[3] ، ولكننا نفضل الأخذ بالرواية الأولى ، إذ هى رواية المؤرخ الموحدى المعاصر ، وهو الذى يقدم لنا تاريخ مولده ، ويأخذ بهذه الرواية مؤرخان كبيران هما ابن خلكان وابن خلدون[4] .

وكان يوسف المستنصر فتى وسيما ، حسن القد ، جميل المحيا ، صافى السمرة ، شديد الكحل ، ولم يكن على قول المؤرخ فى بنى عبد المؤمن أحسن وجها منه ، ولا أبلغ فى المخاطبة[5] . وكان أبوه الناصر لدين الله قد أخذ له البيعة بولاية عهده عقب عوده من الأندلس ، على أثر موقعة العقاب ، فى أواخر ذى الحجة سنة ٦٠٩ هـ ، قبيل وفاته بأشهر قلائل ، وكان أول من أخذ له البيعة الخاصة ، عم جده أبو موسى عيسى بن عبد المؤمن ، وأبو زكريا يحيى بن أبى حفص عمر بن عبد المؤمن ، ومن أشياخ الموحدين أبو محمد عبد العزيز بن عمر ابن أبى زيد الهنتانى ، وأبو على عمر بن موسى عبد الواحد الشرقى ، وأبو مروان

---

(١) يقول بالرواية الأولى صاحب روض القرطاس ( ص ١٦٠ ) ، وبالثانية المراكشى ( المعجب ص ١٨٤ ) .

(٢) المراكشى فى المعجب ص ١٨٤ .

(٣) هذه هى رواية ابن عذارى فى البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٤٣ ، وصاحب الحلل الموشية ص ١٣٣ .

(٤) ابن خلكان فى وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٣٤ ، وابن خلدون فى العبر ج ٦ ص ٢٥٠ .

(٥) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٣٤ .

عبد الملك بن يوسف من أهل تينملل ، وكان هؤلاء النفر من القرابة والأشياخ هم الذين نصبوا أنفسهم للوصاية على الخليفة الصبى وتوجيهه ، وذلك بتوصية من والده الخليفة المتوفى ، واستغرقت البيعة الخاصة يومى الخميس والجمعة ، الحادى عشر والثانى عشر من شعبان ، وفى يوم السبت أذن بأداء البيعة العامة . ويقول لنا المراكشى ، وقد كان من شهود ذلك اليوم ، أن أبا عبد الله بن عيّاش الكاتب كان قائماً يقول للناس « تُبايعون أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين على ما بايع عليه أصحاب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، رسول الله ، من السمع والطاعة فى المنشط والمكره ، والعسر واليسر ، والنصح له ولولاته ولعامة المسلمين . هذا ما له عليكم . ولكم عليه ألا يجمر بعوثكم ، وأن لايدخر عنكم شيئاً مما تعمكم مصلحته ، وأن يعجل لكم عطاءكم ، وأن لايحتجب دونكم ، أعانكم الله على الوفاء ، وأعانه على ما قلد من أموركم» . وكان يعيد هذا القول لكل طائفة إلى أن انقضت البيعة[١] . وأخذت بعد ذلك بيعات الأعيان والوفود القادمين من مختلف الأنحاء ، ثم وردت بيعات مختلف البلاد بالمغرب والأندلس . واتخذ الخليفة الجديد لقب المستنصر بالله ، وفى بعض الروايات أنه لُقب أيضاً بالمنتصر بالله[٢] .

ولم يتأخر فى تقديم البيعة سوى الشيخ أبى محمد عبد الواحد بن أبى حفص والى إفريقية ، وذلك لصغر سن المستنصر . ولكن الوزير أبا سعيد بن جامع بذل سعيه لدى الشيخ لتسوية هذا الأمر ، فوصلت بيعته فيما بعد[٣] .

وتولى الوزارة للمستنصر وزير أبيه من قبل ، أبو سعيد عثمان بن عبد الله ابن إبراهيم بن جامع ، فاستمر فى الوزارة حتى سنة ٦١٥ هـ ، ثم عُزل وخلفه زكريا ابن يحيى بن إسماعيل الهزرجى . وهو ابن بنت الخليفة يعقوب المنصور ، أعنى ابن عمة المستنصر ، فاستمر فى الوزارة حتى نهاية عهده . وتولى الكتابة للمستنصر كاتب أبيه وجده من قبل أبو عبد الله بن عياش ، وأبو الحسن بن عياش .

وكان الخليفة الجديد ميالا إلى حياة الدعة والبطالة مشتغلا عن تدبير الأمور بما تقتضيه نوازع الشباب[٣] لايعنيه شىء من مهام الملك ، أو بعبارة أخرى لا يمكن من العناية بشىء منها . وكانت الأمور تجرى وفقاً لما يراه ويبرمه الأشياخ

---

(١) المعجب ص ١٨٥ و ١٨٦ .

(٢) روض القرطاس ص ١٦٠ ، وتاريخ الدولتين للزركشى (تونس ١٢٨٩ هـ) ص ١٤ .

(٣) ابن خلكان ج ٢ ص ٢٣٤ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٠ .

الأوصياء . وكان عهده على العموم ، يمتاز بالهدوء والركود ، لم تقع خلاله حوادث ذات شأن ، ولم تنظم غزوات ما ، ولم تُحشد الجيوش الموحدية ، ولم تعبر البحر إلى شبه الجزيرة ، وفقاً لما جرى عليه الأمر ، منذ عهد أول الخلفاء الموحدين عبد المؤمن بن على .

وعقد المستنصر لأول ولايته للسادة ، على عمالات الولايات بالمغرب ، والأندلس . فولّى على مدينة فاس السيد أبا إبراهيم إسحق الملقب بالأمير الظاهر ابن يوسف بن عبد المؤمن وكان والياً على غرناطة ، وهو أبو الخليفة المرتضى . وقد اشتهر السيد أبو إبراهيم إسحق هذا أيام ولايته لغرناطة فى آخر عهد الناصر ، بمنشآته العمرانية بها ، وكان من أهمها وأجملها القصر الذى أنشأه خارج غرناطة على مقربة من ضفة نهر شنيل ، وهو القصر الذى عرف فيما بعد أيام ملوك غرناطة « بقصر السيد » . والظاهر أن السيد إسحق ولى حكم غرناطة فى عهد المستنصر مرة أخرى ، إذ يقول لنا صاحب « الحلل الموشية » إنه أنشأ أمام هذا القصر ، رابطة فى سنة ٦١٥ هـ . وقد استعمل « قصر السيد » أيام ملوك غرناطة منزلا للضيافة الملوكية ، وما زالت تقوم حتى اليوم بعض أطلاله ، فى ضاحية غرناطة المسماة « أرملة »[(1)] .

وولى على إشبيلية عمه السيد أبا إسحاق بن يعقوب المنصور ، وهو المعروف بالأحول ، وبعث عم أبيه أبا العلاء الكبير إدريس بن يوسف بن عبد المؤمن إلى تونس ليستقر فى قصبتها ، وأن يكون أميراً عليها ، يعنى بتدبير شئونها ، والدفاع عنها ضد الميورقى ، إلى جانب الشيخ أبى محمد بن أبى حفص والى إفريقية . والسيد أبو العلاء هذا هو الذى أنشأ البرجين على باب المهدية ، وأنشأ باب سبتة الحديد ، ثم أنشأ بإشبيلية برج الذهب الشهير أيام ولايته لها[(2)] .

وكان أول حادث ذو شأن وقع فى ولاية المستنصر ، هو إخماد ثورة الفاطمى العبيدى . وقد روى لنا المراكشى قصة هذا الدعى كاملة ، وقد عرفه

---

(١) راجع فى ذكر « قصر السيد » ووصفه ، الحلل الموشية ص ١٢٦ ، والإحاطة فى أخبار غرناطة (١٩٥٦) ج ١ ص ١٢٥ ، ٣٢٤ و٥٦١ . وراجع كتابى « الآثار الأندلسية الباقية » (الطبعة الثانية) ص ١٧٦ .

(٢) البيان المغرب القسم الثالث ص ٢٤٣ و١٧٣ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٥ ، وروض القرطاس ص ١٦١ .

واجتمع به . وكان اسمه عبد الرحمن ، ويدعى أنه من بنى عُبيد ، وأنه ولد الخليفة العاضد بالله آخر الخلفاء الفاطميين . وكان قد ورد على المغرب ، أيام الخليفة المنصور ، وسعى إلى الاجتماع به فلم يأذن له ، واستمر يطوف بالبلاد ، إلى أن قُبض عليه بأمر الخليفة الناصر ، واعتقل فى سنة ٥٩٦ هـ ، فلم يزل فى سجنه إلى أن تحرك الناصر إلى إفريقية فى سنة ٦٠٨ هـ ، فشفع له فيه أبو زكريا يحيى بن إسماعيل الهزرجى ، فوافق على إطلاق سراحه ، على أن يلتزم السكينة ، وألا يشتغل بأى أمر غير مرغوب فيه . ولكن الدعى ما كاد يسترد حريته ، حتى غادر مراكش إلى بلاد صنهاجة ، وهنالك التف حوله كثيرون ممن جذبتهم دعوته ، وكانوا يعظمونه ويبجلونه . يقول المراكشى « وكان هذا الرجل كثير الإطراق والصمت ، حسن الهيئة ، لقيته مرتين ، فلم أر فى أكثر من شهدته من المشبهين بالصالحين ، مثله فى الآداب الظاهرة ، من هدوء النفس ، وسكون الأطراف ، ووزن الكلام وترتيب الألفاظ ، ووضع الأشياء مواضعها ، مع الرياضة المفرطة » . ثم خرج هذا الرجل فى جموعه متجهاً صوب مدينة سجلماسة ، فخرج إليه واليها السيد أبو الربيع سليمان بن أبى حفص عمر بن عبد المؤمن ، فهزمه العُبيدى ، واضطر أن يرتد فى فلوله إلى سجلماسة ، ومازال العبيدى يتنقل بين قبائل البربر ، من موضع إلى موضع ، دون أن يستقر فى مكان ، أوتثبت حوله جماعة ، إذ كان وفقاً لقول المراكشى « غريب البلد واللسان ، لا عشيرة له ولا أصل بالبلاد يُرجع إليه » حتى رمت به المقادير إلى أحواز فاس . وكانت السلطات الموحدية تطارده أينما حل ، فقُبض عليه بظاهر المدينة ، وأودعه حاكم فاس ، وهو السيد إسحاق ، المطبق ، وكتب إلى الخليفة المستنصر بأمره ، فكتب إليه المستنصر يأمر بقتله وصلبه ، فضُرب عنقه ، وصلب جسده ، وأرسلت رأسه إلى مراكش ، حيث علقت هنالك إلى جانب عدة أخرى من رؤوس الثوار والمتغلبين(١) .

ويضع ابن عذارى تاريخ ثورة العبيدى فى سنة ٦١٢ هـ ( ١٢١٥ م ) ، ويقول إنه قام بثورته فى بلاد جزولة ، من إقليم السّوس ، وكان يزعم أنه فاطمى من ذرية عبد الله الشيعى ، ولم يزل يبث دعوته حتى ظفر به الموحدون فقتل وعلق رأسه على باب فاس(٢) . بيد أننا نؤثر الأخذ برواية المراكشى ،

( ١ ) المراكشى فى المعجب ص ١٨٦ .
( ٢ ) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٤٣ .

وهو معاصر وشاهد عيان ، وهو ينفرد بما يقدمه إلينا من التفاصيل .

وفى نفس هذا العام ، سنة ٦١٢هـ ( ١٢١٥م ) وصل إلى مراكش إبراهيم ابن الفخار اليهودى وزير ملك قشتالة ، سفيراً إلى الخليفة الموحدى فى شأن التهادن وعقد السلم ، فرحب المستنصر وأوصياؤه ، بهذه الرغبة ، ووجه كتابين إلى الأندلس ، أحدهما إلى السيد أبى الربيع والى جيان ، والثانى إلى الشيخ أبى العباس بن أبى حفص والى قرطبة ، يطلب إليهما عقد التهادن والسلم مع ملك قشتالة ، على جميع بلاد الموحدين بالأندلس ، وفقاً للشروط التى اتُّفق عليها بين الخليفة وبين ابن الفخار ، والتزم بها السفير القشتالى نيابة عن مليكه ، وكان عقد السلم مع قشتالة على هذا النحو ، خطوة طيبة ، حققت للأندلس فترة من الهدوء والسلام[1] .

ويجب لكى نفهم البواعث التى حملت قشتالة ، على أن تسعى إلى عقد السلم مع الموحدين ، ولما يمض سوى ثلاثة أعوام على انتصارها الساحق فى معركة العقاب ، أن نذكر أنه لما توفى ألفونسو الثامن ملك قشتالة ، وهو الظافر فى فى معركة العقاب ، فى أكتوبر سنة ١٢١٤ م ، خلفه على العرش ولده الطفل هنرى ( إنريكى ) ، ولم يكن قد جاوز الحادية عشرة من عمره ، فتولت أمه الملكة إليونور ، الوصاية عليه ، ولكنها توفيت بعد أشهر قلائل ، فخلفتها فى الوصاية أخته دونيا برنجيلا ، زوجة ألفونسو التاسع ملك ليون المُطلّقة ، وكان آل لارا الأقوياء يطمحون إلى انتزاع الوصاية لأنفسهم ، فتنازلت عنها إليهم دونيا برنجيلا بشروط تعهدوا باحترامها ، أهمها ألا يعلنوا الحرب على أى ملك ، أو يتنازلوا عن الأراضى للأتباع ، أو يفرضوا أية ضرائب ، دون موافقة الملكة ( برنجيلا ) . وسارت الأمور فى قشتالة على هذا النحو حيناً ، حتى توفى الملك الصبى هنرى بعد ذلك بقليل من جرح أصابه خلال اللعب مع بعض الصبية الآخرين ، وذلك فى يونيه سنة ١٢١٧ . فعندئذ بادرت الملكة برنجيلا باستقدام ولدها فرناندو وهو الذى رزقت به من ألفونسو ملك ليون ، وكان صبياً فى الثانية عشرة من عمره ، واستدعاء صحبها المخلصين ، وسارت إلى بلد الوليد ، وهنالك أعلنت نفسها ملكة لقشتالة ، بيد أنها تنازلت فى الحال عن العرش لولدها

---

( ١ ) البيان المغرب – القسم الثالث ص ٢٤٤ .

فرناندو فأصبح ملكاً على قشتالة ( أول يوليه سنة ١٢١٧ م ) وهذا الملك الصبى ، هو الذى غدا فيما بعد فرناندو الثالث ، أو فرناندو المقدس(١) .

وفضلا عما كان يحيق بعرش قشتالة من عوامل التقلقل والضعف ، فإن أحوال قشتالة العامة لم تكن يومئذ تدعو إلى الرضى ، فإن آثار الوباء كانت ماتزال متفشية فى معظم الأنحاء ، وكان الإنتاج الزراعى قد انخفض من جراء ذلك ، وهلكت المحاصيل ، وانتشرت المجاعة بين السكان .

نستطيع على ضوء هذه الظروف التى كانت تجوزها قشتالة عندئذ ، أن نفهم كيف جنحت قشتالة إلى المسالمة ، وآثرت أن تجوز فترة هدوء وسلام ، تستطيع خلالها أن تنظم شئونها ، وأن توطد عرشها ، وأن تعمل على إنعاش مواردها وأحوالها الزراعية والاقتصادية .

وفى العام التالى أعنى فى سنة ٦١٣ هـ ( ١٢١٦ م ) ، وقع حادث ضئيل فى ظاهره ، كبير فى مغزاه ، ونتائجه المحتملة ، هو ظهور طلائع بنى مَرين فى أحواز مدينة فاس . وقد شرح لنا ابن خلدون أصل أولئك القوم ، الذين كتب لهم ، أن ينتزعوا ملك الموحدين فيما بعد ، فهم من شعوب بنى واسين من بطون قبيلة زناتة الشهيرة ، التى ينتمى إليها عدة من القبائل البربرية التى لعبت أدواراً بارزة فى تاريخ المغرب ، مثل مغراوة ، ومغيلة ، ومديونه ، وبنى يفرن ، وبنى دمر ، وزواغة ، وجراوة ، وبنى عبد الواد ، وغيرهم . ومع ذلك فإن بنى مرين ، كمعظم الأسر البربرية التى شادت بالمغرب دولا شامخة ، يُرجعون نسبتهم إلى العرب وقد رأيت أن هذا كان شأن المرابطين حيث تُرجع صنهاجة التى تنتمى إليها لمتونة نسبتها إلى العرب اليمانية ، وشأن الموحدين ، حيث ينتسب صاحب دعوتهم المهدى ابن تومرت ، إلى آل البيت ، ويُرجع مؤسس دولتهم عبدالمؤمن نسبته إلى قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معدّ بن عدنان . وإلى هذا الفرع أيضاً ينتسب بنو مرين ، فيقولون إنهم من ولد بر بن قيس عيلان بن مضر بن نزار ، وجدهم الأعلى جرماط بن مرين بن ورتاجى بن ماخوخ بن وجديج بن فاتن بن يدّر ابن يخفت بن يصليتن بن عبد الله بن ورتيب بن المعز بن إبراهيم بن سجيك ابن واسين(٢) . وكانت منازل بنى مرين ، وإخوانهم من بنى مديونة وبنى يلومى

---

(١) M.Lafuente : Historia General de Espana. T. III. p. 380 & 381

(٢) الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية ( طبع الجزائر ١٩٢٠ ) ص ١٠ ، ١١ ، ١٦ .

وبنى يادين بن محمد فى المغرب الأوسط ، مابين وادى ملوية شمالا وسجلماسة جنوباً . وكانت المعارك كثيراً ما تنشب بين بنى مرين وجيرانهم من بنى يادين ، وهم الذين ينتمى إليهم بنو عبد الواد ، أصحاب مملكة تلمسان فيما بعد ، وكانت الغلبة فى معظم الأحيان على بنى مرين ، لكثرة خصومهم من بنى يادين ، وكان بنو مرين كمعظم البطون البربرية فى تلك المنطقة ، من البدو الرحل ، يتجولون فى هاتيك القفار شرقاً وغرباً ، وربما وصلوا فى ظعنهم شرقاً إلى بلاد الزاب . وقد كانت الرياسة فيهم ، حسبما تذكر الرواية قبل ذلك بعصور ، لمحمد بن وزير ابن فكوس بن كرماط بن مرين . ولما توفى محمد قام بأمر بنى مرين من بعده أكبر أولاده حمامة ، ثم خلفه أخوه عسكر ، فلما توفى قام مكانه فى الرياسة ولده أبو يكنى الملقب بالمخضب ، فلم يزل أميراً عليهم حتى ظهر أمر الموحدين ، وزحف عبد المؤمن إلى تلمسان فى أثر تاشفين بن على ، ليخوض معه المعركة الحاسمة ( ٥٣٩ هـ ) ، وبعث قوة من الموحدين بقيادة الشيخ أبى حفص عمر الهنتانى ، لمحاربة الخوارج من بطون زناتة ، فاجتمع لقتاله بنو يادين وبنو يلومى وبنو مرين ومغراوة ، فمزق الموحدون جموعهم ، وأذعن بنو يلومى وبنو بادين وبنوعبد الواد إلى الطاعة . ولكن بنى مرين لحقوا بالصحراء فى اتجاه الزاب . ولما دخل عبد المؤمن وهران ، على أثر مصرع تاشفين وتبدد قواته ، واستولى على أموال لمتونة وذخائرها ، عهد بهذه الأموال والذخائر إلى قوة من الموحدين لتحملها إلى تينملل ، فعلم بنومرين بذلك ، واعترضوا تلك القوة ، وانتزعوا الغنائم من أيدى الموحدين . فحشد عبد المؤمن أولياءه من بطون زناتة ، وبعثهم مع الموحدين لاستنقاذ الغنائم . والتقى الموحدون وبنو مرين فى مكان يعرف بفحص مسون ، فهزم بنو مرين ، وقتل شيخهم المخضب بن عسكر ، وذلك فى سنة ٥٤٠هـ ( ١١٤٥ م ) . ولجأ بنو مرين على أثر ذلك إلى الصحراء ، وعادوا إلى القفر يرقبون الفرص .

وقام بأمر بنى مرين بعد المُخضب بن عسكر ، ابن عمه أبو بكر بن حمامة ابن محمد . ولما توفى فى سنة ٥٦١ هـ ، قام بأمرهم ولده محيو ، فلم يزل فى

---

= و١٧ ، وابن خلدون فى كتاب العبر ج ٧ ص ١٦١ . ويقدم لنا صاحب الذخيرة السنية شرحاً طويلا لكيفية تحول نسل بر بن قيس عيلان بالمغرب من العروبة إلى البربرية .

( ١ ) الذخيرة السنية ص ١٨ و١٩ .

رياستهم ، حتى استنفرهم الخليفة يعقوب المنصور للجهاد معه بالأندلس ، فاشتركت معه منهم جماعة كبيرة فى موقعة الأرك ، وأبلوا فيها البلاء الحسن ( ٥٩١ هـ — ١١٩٥ م ) ، وأصيب عميدهم محيو فى المعركة بجرح توفى منه بعد بضعة أشهر ، فخلفه فى الرياسة أكبر أولاده أبو محمد عبد الحق ، وكان من خيرة أمرائهم ، وعلى يديه أخذ نجم بنى مرين يبزغ فى الأفق(١) .

ولما وقعت كارثة العقاب ، وفنى معظم الجيوش الموحدية ، فى شبه الجزيرة الأندلسية ، أخذت بوادر التفكك والضعف تبدو على سلطان الموحدين ، فى معظم العمالات والأطراف . ولم يكن ذلك بخاف على القبائل المتوثبة مثل بنى مرين . ولما توفى الخليفة الناصر ، وخلفه ولده الصبى يوسف المستنصر ، وشغلته نزوات الحداثة والشباب ، عن تدبير شئون الدولة ، وغلب التواكل والتراخى ، على السادة والأشياخ ، فى مختلف النواحى ، لاح لبنى مرين أن فرصتهم قد سنحت. وكانوا لايأوون إلا إلى القفار ، ولايخضعون لأى حكم ، ولايؤدون الجزية لأحد ، ولايعرفون الحرث والزرع ، ولا شاغل لهم غير الصيد والغارات ، وجل أموالهم من الإبل والخيل(٢) . وكانت منازلهم ما تزال فى جنوبى وادى ملوية ، وكانوا يترددون فى تلك الأنحاء ، ولاسيا فى المنطقة الممتدة مابين وادى ملوية ومكناسة ، ويأنسون بمن بها من عشائر زناتة ، وينتجعون المرعى أيام الربيع والصيف ، ويجمعون الحبوب لأقواتهم طيلة الشتاء ، ثم يرتدون إلى منازلهم فى القفر فوق التلال والربى . فلما شهدوا من تضعضع الدولة الموحدية ، وتخاذل أطرافها ماشهدوا ، اعتزموا أن يهجروا القفر ، وأن ينتجوا العمران ، فنفذوا إلى نواحى المغرب المجاورة ، واكتسحوا بخيلهم البسائط ، وملأوا أيديهم بالغارة والنهب ، وكان ذلك بداية عهد الخليفة المستنصر . فثار لذلك بلاط مراكش ، وأمر المستنصر بتجهيز الحشود ، وندب أبا على بن وانودين للقيادة ، وبعثه إلى السيد إبراهيم إسماعيل والى فاس ، وأمر بأن يخرج السيد لغزو بنى مرين ، وأن يثخن فيهم وأن يستأصل شأفتهم ، وكان بنو مرين حينما عاموا بأمر هذه الأهبة قد اجتمعوا وتشاوروا ، واتفق رأيهم على التأهب للحرب والنزال ، فتركوا أموالهم وحريمهم فى حصن تاروطا بأرض غمارة ، وساروا جنوبا صوب فاس ،

---

( ١ ) ابن خلدون فى العبر ج ٧ ص ١٦٧ .

( ٢ ) الذخيرة السنية ص ٢٣ .

وكانوا فى نحو أربعمائة فارس غير الرجّالة ، وخرج الموحدون إليهم بقيادة السيد أبى إبراهيم ، وكانوا فى عشرين ألف مقاتل أو فى عشرة آلاف وفقاً لرواية أخرى. والتقى الفريقان بوادى نكور ، فكانت الهزيمة على الموحدين ، واستولى بنو مرين على أسلابهم ودوابهم ومتاعهم بل وثيابهم ، وأسروا السيد أبا إبراهيم ثم أطلقوا سراحه بعد ذلك ، وارتدت فلول الموحدين إلى فاس ، وبعضهم نحو رباط تازة ، وكثير منهم يسترون أنفسهم بورق النبات المعروف « بالمشعلة » حتى لقد سميت هذه الموقعة بموقعة المشعلة ، بل سمى هذا العام ( سنة ٦١٣ هـ ) بعام المشعلة[1] ، وسار بنو مرين بعد ذلك شرقاً نحو بلدة رباط تازة ، وبعث أميرهم أبو محمد عبد الحق إلى عاملها الموحدى ، يطلب إليه أن يقيم فى خارجها سوقاً لبنى مرين ، يتزودون منها بما يحتاجون إليه ، فأنف العامل الموحدى ، وثار لذلك الطلب ، وخرج فى جمع غفير من الموحدين والعرب وأبناء القبائل المجاورة ، ونشبت بينه وبين المرينيين معركة شديدة هزم فيها وقتل ، ونهبت محلته . فكان ثانى نصر لبنى مرين على الموحدين فى ظرف بضعة أشهر[2] .

ثم وقع الخلاف بين بنى مرين أنفسهم ، وانقسموا إلى فرقتين ، الأولى يتزعمها بنو عسكر بن محمد ، والثانية يتزعمها بنو حمامة بن محمد ، وقد كانت الرياسة فى البداية فى بنى عسكر ، ثم انتقلت إلى بنى حمامة ، فغص بذلك فريق بنى عسكر ، وخرجوا على أميرهم أبى محمد عبد الحق ، وتحالفوا مع أولياء الموحدين من عرب رياح ، وكان الخليفة المنصور قد أنزلهم بتلك المنطقة . وفى سنة ٦١٤ هـ ، نشبت بين بنى عسكر وحلفائهم من أولياء الموحدين ، وبين بنى حمامة فى وادى سبو ، موقعة هزم فيها بنو حمامة فى البداية ، وقتل أميرهم عبدالحق وولده الأكبر إدريس ، فاضطرم بنو حمامة سخطاً ، واستجمعوا قواهم ، وحملوا على خصومهم من الموحدين والعرب حملة عنيفة ، كثر فيها القتل من الجانبين ، وانتهت بهزيمة الموحدين والعرب وتمزيق جموعهم ، وانتهاب سائر أسلابهم . ( جمادى الآخرة سنة ٦١٤ هـ ) . وقام برياسة بنى مرين بعد مقتل أميرهم عبد الحق ، ولده أبو سعيد

---

( ١ ) ابن خلدون ج ٧ ص ١٦٩ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢٤٤ و٢٤٧ ، وروض القرطاس ص ١٨٨ ، والذخيرة السنية ص ٢٦ — ٢٨ .

( ٢ ) الذخيرة السنية ص ٣١ و٣٢ .

عثمان ، وهو الذى بزغ على يديه نجم بنى مرين ، وأصبحوا قوة لها خطرها[١] .

* * *

ولقد أشرنا فيما تقدم إلى عقد التهادن والسلم بين الموحدين ومملكة قشتالة ، ولكن هذا التهادن لم يتحقق بالنسبة لباقى الممالك الإسبانية النصرانية ، ومن ثم فقد وقعت بالأندلس ، فى قطاع الغرب ، حوادث هامة ، كان من نتائجها ، أن نكبت الأندلس بفقد طائفة جديدة من الأراضى والحصون .

وكان أول ضربة أصابت الأندلس من جراء العدوان النصرانى ، فقد ثغر القصر أوقصر أبى دانس[٢] ، وهو أمنع قاعدة دفاعية اسلامية فى منطقة الغرب . وكانت القصر قد سقطت فى أيدى البرتغاليين فى سنة ٥٥٥ هـ ( ١١٦٠ م ) ، على أثر اضطراب الحوادث فى منطقة الغرب ، ولما عبر الخليفة المنصور إلى شبه الجزيرة لأول مرة ، لاسترداد شلب التى استولى عليها البرتغاليون بمعاونة النصارى الصليبيين ، فى سنة ٥٨٥ هـ ، غزا منطقة الغرب واستطاع أن يسترد حصن القصر من النصارى فى جمادى الأولى سنة ٥٨٧ هـ ( يونيه ١١٩١ م ) ، وولى عليه أبا بكر محمد بن وزير . ويقع ثغر القصر جنوب شرقى أشبونة على مصب نهر شطوبر Sadoa ، على مقربة من المحيط الأطلنطى ، ويتسع مصب هذا النهر لدخول السفن الكبيرة ، تشقه حتى أسوار المدينة ، ويتصل قبل مصبه فى المحيط بخليج واسع يصلح لتجمع السفن الغازية . وكانت مناعة القصر تقف سداً منيعاً ضد تقدم البرتغاليين نحو الجنوب . ففى أوائل سنة ٦١٤ هـ ( ١٢١٧م ) وصل إلى شواطىء البرتغال أسطول من الصليبيين الألمان فى طريقه إلى المشرق ، ورسا فى مياه أشبونة ( لشبونة ) ، فانتهز البرتغاليون تلك الفرصة ، ودعوا إلى إشهار الحرب الصليبية ، ضد مسلمى الأندلس ، وسار البرتغاليون وحلفاؤهم الصليبيون الألمان إلى ثغر القصر ، وضربوا حوله الحصار من البحر ومن البر ، وذلك فى ٣٠ يوليه سنة ١٢١٧ م ، فامتنع المسلمون داخل ثغرهم ، وبادر واليها عبد الله ابن وزير ، وهو ولد واليها السابق أبى بكر بن وزير ، يطلب الإنجاد من الموحدين ، ووصل صريخه إلى بلاط مراكش ، فبعث المستنصر إلى ولاة قرطبة وإشبيلية ، وجيان وولاة الغرب ، بحشد جيوشهم ، والمبادرة إلى إنجاد الثغر المحصور ،

---

( ١ ) الذخيرة السنية ص ٣٢ — ٣٤ ، وابن خلدون ج ٧ ص ١٧٠ .

( ٢ ) وهى بالبرتغالية Alcácer do Sal

وسارت الجيوش الموحدية المجتمعة صوب القصر ، فوصلت إليه فى أوائل شهر سبتمبر ، وكان المسلمون مازالوا صامدين فى ثغرهم ، وقد استطاعوا أن يردوا عدة هجمات للمحاصرين . وسارت فى نفس الوقت طائفة من السفن الموحدية إلى مياه القصر ، لتسد الطريق على السفن المحاصرة . ونشب القتال بين الجيوش الموحدية المتحدة وبين النصارى . والظاهر أن البرتغاليين كانوا يتفوقون فى الكثرة على المسلمين ، إذ كان جيشهم يضم وفقاً للرواية النصرانية ذاتها ، عشرين ألفاً من الرجالة وعدداً من الفرسان . فهزم المسلمون ومزقت صفوفهم . ويقول لنا صاحب روض القرطاس ، إن المسلمين ماكادوا يرون النصارى حتى أدركهم الرعب ، وولوا الأدبار ، وذلك لسابق رعبهم منذ هزيمة العقاب ، فطاردهم النصارى وقتلوهم عن آخرهم[1] ، ويقول صاحب الروض المعطار ، إنه قد اجتمع من الأمداد جيش عظيم ، لكنهم تخاذلوا على عادتهم ، فكانت الهزيمة عليهم وولوا مدبرين ، ووقع القتل والأسر ، ولم يبرز للمسلمين من الروم إلا نحو سبعين فارساً ، ورأى أهل الحصن ذلك فأيقنوا بالتغلب عليهم[2] .

ويضع ابن الأبار تاريخ الموقعة فى شهر جمادى الأولى سنة ٦١٤ هـ ( أغسطس ١٢١٧م ) ، وفى موطن آخر فى أحد شهرى ربيع سنة ٦١٤ هـ متقدماً قليلا عن الرواية النصرانية ، ويقول إنه فقد فيها آلاف من المسلمين بتخاذل رؤسائهم ، يوم التقى الجمعان ، وأن الموقعة كانت « إحدى الكوائن المنذرة حينئذ بما آل إليه أمر الأندلس »[3] .

ومع ذلك فقد بقيت حصن القصر صامدة ، فلما رأى النصارى أنهم لم يستطيعوا ثلم الأسوار ، صنعوا برجين عاليين من الخشب ، يضارعان فى ارتفاعهما أبراج المدينة ، وشحنوهما بالرماة ، وركبوا فى جوانبهما آلات الرمى ، وضربوا الأسوار من هذين البرجين ضرباً شديداً ، حتى أيقن المدافعون أنه لا أمل فى الصمود ، فعرضوا التسليم . على أن يسمح لهم بالخروج بأموالهم ، فرفض النصارى ، ووافقوا فقط أن يسمح لهم بالخروج أحياء ، دون أن يحملوا شيئاً معهم . ففتحوا الأبواب ، وانطلقوا إلى حال سبيلهم ، وسلمت المدينة بعد أن لم تبق أية وسيلة

---

(١) روض القرطاس ص ١٦١ . (٢) الروض المعطار ص ١٦٢ .

(٣) الرواية الأولى فى الحلة السيراء ص ٢٤٢ . والثانية فى التكملة ( القاهرة ) ج ٢ فى الترجمة رقم ١٥٧٧ .

للدفاع ، وذلك فى ١٨ أكتوبر سنة ١٢١٧ م (١٤ رجب ٦١٤ هـ) ، بعد شهرين ونصف من بدء الحصار . وسلم قائد الثغر ، وهو عبد الله بن وزير ، نفسه للنصارى ، وتظاهر باعتناق النصرانية طلباً للسلامة ، ولكن لم تمض أيام قلائل حتى استطاع الفرار ، والوصول إلى الأراضى الإسلامية . ولجأ فيما بعد إلى مدينة إشبيلية . ودخل النصارى مدينة القصر أوقصر أبى دانس ، وقتلوا كل من كان بها ، وبالضياع المجاورة ، من المسلمين . وفتح سقوط هذا الثغر المنيع ، الطريق إلى زحف البرتغاليين وحلفائهم الصليبيين نحو الجنوب ، نحو باجة وميرتلة وشلب. ولكن ملك البرتغال ألفونسو الثانى ( ألفنش ) ، وهو لم يشترك فى حصار القصر ، آثر أن يتمهل بعض الوقت لتعمير الأراضى المفتوحة . ومن جهة أخرى فإن الصليبيين لم يستطيعوا الزحف إلى الجنوب ، بعد أن وصلتهم أوامر البابا قاطعة بأن يستأنفوا سيرهم إلى المشرق[١] .

ومن الغريب أن ابن عذارى ، وهو فى معظم ما يكتبه ، يقظ متنبه للأحداث ، يقول لنا إنه لم يتحقق خبراً يذكره فى سنة أربع عشرة أو خمس عشرة ، هذا فى حين أن صاحب روض القرطاس ، يذكر واقعة سقوط القصر ، وتاريخ وقوعها فى سنة ٦١٤هـ ، ويصفها بأنها كانت من الهزائم الكبار التى تقرب من هزيمة العقاب .

ولم تمض بضعة أعوام على نكبة مدينة القصر ، حتى منيت الأندلس بفقد قاعدة أخرى من حصونها الأمامية المنيعة هى قاصرش[٢]. وكان ألفونسو التاسع ملك ليون غير مرتبط مع الموحدين برباط التهادن والسلم ، وكان يطمح إلى الاستيلاء على قاصرش ، الواقعة شمالى ماردة وغربى ترجاله ، وذلك لكى يضمن سلامة حصن القنطرة الواقع على نهر التاجُه فى شمالها الغربى ، والذى كان مركز جمعية فرسان القنطرة ، فسار إليها فى شهر نوفمبر سنة ١٢١٨م (٦١٦ هـ) وضرب حولها الحصار ، ولكن حاميتها الإسلامية صمدت ، واضطر أن يرفع الحصار عند حلول الميلاد ، وفى سنة ١٢٢١ م (٦١٩هـ) استولى فرسان القنطرة على قاعدة « بلنسية »[٣] الإسلامية . وفى العام التالى ، اشترك فرسان شنت ياقب

---

(١) راجع فى سقوط حصن القصر ، روض القرطاس ص ١٦١ ، والروض المعطار ص ١٦١ و ١٦٢ وكذلك : **A. Huici : Historia Politica del Imperio Almohade, p. 442 & 443**

(٢) وهى بالإسبانية **Cáceres**

(٣) هى المعروفة ببلنسية القنطرة الواقعة غربى قاصرش ، وهى طبعاً غير ثغر بلنسية الكبير ، فى الشرق .

وملك ليون فى حصار قاصرش ، ولكن ألفونسو التاسع عاد فرفع الحصار للمرة الثانية ، عن القاعدة الإسلامية . وفى الأعوام التالية ، تكرر هجوم الليونيين على قاصرش بمعاونة جماعة من القشتاليين ، وانتهى الأمر بسقوطها فى أيديهم ، وذلك فى صيف سنة ١٢٢٣ م ( ٦٢٢ ﻫ ) ، بعد وفاة الخليفة المستنصر بنحو عامين .

ومن جهة أخرى فإنه بالرغم من عقد المهادنة بين قشتالة ، والخليفة الموحدى ، كانت العناصر النصرانية المتعصبة التى لا يروقها الكف عن محاربة المسلمين تتربص الفرص ، لتجديد غزو الأندلس ، وكان فى مقدمة هؤلاء الحبر المتعصب ، ردريجو خمينث دى رادا مطران طليطلة ، فإنه قام بتجهيز حملة صليبية ، وعبر إلى الأراضى الإسلامية من ناحية الشرق ، واستولى على عدة من حصون المسلمين ، ووصل فى زحفه إلى بلدة ركّانة الواقعة غربى بلنسية ، وحاول النصارى الاستيلاء على ركّانة فضربوها بالمجانيق ، وهاجموها مراراً ، وهدموا بعض أبراجها ، ولكنهم لم يستطيعوا تحقيق بغيتهم ، وارتدوا عنها خائبين . وكان ذلك فى أواخر سنة ١٢١٩ م ( ٦١٧ ﻫ ) .

* * *

وكانت الأمور خلال ذلك كله ، تسير فى العاصمة الموحدية رتيبة راكدة ، وبلاط مراكش على ما هو عليه من التواكل والسكون ، والخليفة الفتى يوسف المستنصر ، مكب على حياة اللهو والمرح ، وأشياخ الموحدين المضطلعين بتدبير الأمور ، غير حافلين بشىء ، ولم توقظهم نهضة بنى مرين وفورتهم الخطيرة ، التى لم يحدها سوى خلافهم فيما بين أنفسهم ، ولم تهزهم حوادث الأندلس وسقوط ثغر القصر ، وما اقترن به من الحوادث المؤلمة ، ولم يفكروا فى العمل على تعزيز معاقل الأندلس ، وخطوطها الدفاعية ، تحوطاً للحوادث . ثم جاءت سنة ٦١٦ ﻫ ( ١٢١٨ م ) ، وقد هلكت الزروع ونضبت الحبوب ، وانتشرت المجاعة ، وارتفعت الأسعار ارتفاعاً هائلا . وكانت الأحوال الاقتصادية قبل ذلك ، تسير من سيئ إلى أسوأ ، وقد سجلت لنا الرواية عن أحوال المغرب فى هذا الوقت صورة قاتمة ، حيث كثرت الفتن بين قبائل المغرب ، ونبذ أكثرها الطاعة ، وقطعت السابلة ، واشتد الخوف فى الطرقات ، وكثر اعتداء الأقوياء على الضعفاء ، وكسدت التجارة ، وانكمش الأخذ والعطاء لاختلال الأمن ، وإغارة القبائل

البربرية وجموع العرب على مختلف الأنحاء[1]. كل ذلك والحكومة الموحدية جامدة لاتفكر فى اتخاذ أى إجراء لإصلاح الأحوال . فلما اشتدت المجاعة وعلم المستنصر بما يقاسيه الناس من أهوالها ، أمر بفتح المخازن السلطانية ، المعدة لاختزان الحبوب والمؤن ، ففتحت وفرقت منها مقادير عظيمة على العامة والضعفاء دون ثمن ، وفرق منها على الأقوياء والميسورين بالثمن ، وفرق الخليفة كذلك مبالغ كبيرة من المال على الناس ، فكان لذلك أثر طيب فى تخفيف الضيق . ومن الغريب أنه طافت بالأندلس فى العام التالى سنة ٦١٧ هـ ، مثل هذه الشدة ، فقلت الأقوات ، وارتفعت الأسعار ، ولكن الأزمة لم تطل ، وعادت الأمور إلى مجراها الطبيعى[2] .

وفى هذا العام ، سنة ٦١٧ هـ ( ١٢١٩ م ) ، وجه الخليفة المستنصر بالله كتابا إلى قواعد المغرب والأندلس ، على نمط الكتب التى كان يوجهها الخلفاء الموحدون ، منذ عبد المومن ، إلى الولاة والأعيان والكافة ، فى مختلف المناسبات ، بوجوب التمسك بالدين ، واتباع أحكام الشرع ، والتزام الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وما إلى ذلك من النصائح والوصايا ، وربما كان لذلك أيضاً علاقة باختلال الأحوال ، ومحاولة تطمين الرعايا ، وإلقاء السكينة فى روعهم . وقد نقل إلينا ابن عذارى فصلا من ذلك الكتاب ، ونحن ننقل بعض فقراته فيما يلى :

« وإلى هذا ، وصل الله توفيقكم ، فقد علمتم أن الدين هو الأساس الوثيق ، والبناء العتيق ، والفسطاط المضروب ، والعلم المنصوب ، والتجر الذى لايبور ، والطريق الذى لايجور ، من استمسك به فقد استمسك بالعروة الوثقى ، ومن تحصن به ، فقد تحصن بالمعقل الأحصن الأرقى ، فإذا وقفتم على كتابنا هذا ، فجددوا للناس به الذكرى ، وعرفوهم أن الدنيا مطية إلى الدار الأخرى ، وحضوهم على العمل الصالح ، والتجر الرابح ، عسى أن يجعلهم الله تعالى فى الدارين ، من الذين لهم البشرى ، وبثوا فى جهاتكم كلها ، الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . . واستحفظوا الكافة صلواتهم ، فإنها الكتاب الموقوف على على المؤمنين ، وخذوهم باعتياد المساجد ، فإنها الشاهد الأزكى بشهادة خاتم النبيين ، وسيد المرسلين ، واطلبوهم بقراءة الحزب والتوحيد بالمساجد والأسواق ،

( ١ ) الذخيرة السنية ص ٣٥ .

( ٢ ) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٤٥ .

فإنه الخير المألوف ، والشعار المعروف ، والرسم الذى عليه العمل ، والعهدالذى لايجب فيه التغيير والخلل .

« ونحن قد قلدنا الله قلادة نعلم لوازمها ، وتحفظ مراسمها ، ومن جملتها التذكير بالدين ، فهو الشافع الذى لا يغفل ، والوسيلة التى لاتضاع ولاتهمل ، فاعلموا أعزكم الله هذا المقصود علما ، وكونوا فى القيام به لاتخالفون يقظة ، ولانوماً ، وللناس عليكم ما نأمركم به من العدل التام ، والإنصاف العام ، وكف الأيدى ، وقبضها عن التعدى . وهذا خطاب قد أرشدنا فيه إلى مناهج سوية ، وحضضنا فيه على أمور ضرورية ، وأتينا فيه بما يجب البدار إليه ، وخير العمل ما دووم عليه ، والله معينكم والسلام عليكم ، وكتب فى عاشر ربيع الأول سنة سبع عشر وستمائة »(١) .

والظاهر أن توجيه هذا الكتاب ، لم يكن إلا محاولة من الخليفة الفتى ، للعمل على إحياء تقليد من تقاليد آبائه الخلفاء الموحدين ، فى تذكير الناس من وقت إلى آخر بدستورهم الدينى ، والتنبيه إلى توقيره ، والمحافظة عليه .

وفى العام التالى ، سنة ٦١٨ هـ ( ١٢٢٠ م ) ، قدم سفير قشتالة إلى مراكش مرة أخرى ليسعى فى تجديد المهادنة والسلم . وكانت المفاوضات الأولى قد تمت بين القشتاليين ، وولاة الأندلس من السادة الموحدين ، وتم تجديد المهادنة بين الفريقين ، وفقاً لتوجيه الخليفة المستنصر . ثم كتب وزير المستنصر ، أبو يحيى بن أبى زكريا ، إلى « ملكة قشتالة بنت ملك قشتالة وطليطلة » كتاباً من إنشاء الكاتب ابن عيّاش بما أبرم بينه وبين رسولها من عقد السلم . ومن الواضح أن ملكة قشتالة المشار إليها هنا ، لم تكن سوى الملكة برنجيلا بنت ألفونسو الثامن ملك قشتالة ، ومطلقة ألفونسو التاسع ملك ليون ، وكانت يومئذ تتولى الوصاية على ابنها الصبى فرناندو ، الذى أعلن ملكاً على قشتالةفىسنة سنة ١٢١٧ م ، وكانت بذلك تعتبر هى الملكة الأصيلة فى نظر الموحدين .

وقد أورد لنا ابن عذارى نبذة من الكتاب المشار إليه ننقلها فيما يلى :

« وقد انقلب إليكم رسول منكم ، بما تعرفونه فى السلم المنعقد ، النير شهابه ، المتقد بين الموحدين وبينكم ، بالمخاطبة الكريمة ، التى حملها إليكم ، وحمل نحوكم

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٤٥ و ٢٤٦ .

من الإتحاف ما يبغاكم على يديه ، الذى هو عنوان المخالصة ، وثمرة المواصلة ، وكل ما يكون من هذا بيننا وبينكم ، ينبغى أن يكون متقبلا ، وعلى أحسن المتأولات متأولا ، ان شاء الله ، وأنتم بحول الله تقفون عند حدود السلم ، وتحافظون عليها ، وتعاقبون كل من هم بإذاية المسلمين ، فإن الوفاء شعار الملوك ، وعليهم فيه يجب السلوك . وكتب فى سادس رمضان سنة ثمان عشرة وستمائة »[1] .

وكان من تصرفات المستنصر الأخيرة ، أن عين عمه أبا محمد عبد الله ابن يعقوب المنصور والى غرناطة ، وهو الذى تسمى بالعادل فيما بعد ، والياً على مرسية ، وذلك فى سنة ٦١٩ هـ ( ١٢٢١م ) .

ولم يك ثمة ما يؤذن بوفاة الخليفة المستنصر فى سن مبكرة ، وقد كان فتى فى عنفوانه ، لم يجاوز الرابعة والعشرين من عمره ، وكان متين البنية ، حسن التكوين . ولكن حياة اللهو الصاخب المستمر ، التى انهمك فيها ، حطمت بنيته ، ومهدت الألعاب والرياضات العنيفة ، التى كان يشغف بها لوفاته الفجائية . ويقص علينا صاحب روض القرطاس قصة هذه الوفاة الفجائية ، فيقول لنا إن يوسف المستنصر ، كان مولعاً بالبقر والخيل ، وكان يستجلب الأبقار من الأندلس ، ويربيها فى رياضه الكبيرة بمدينة مراكش ، فى عشية ذات يوم ، ركب المستنصر فنشيا ( مهرا ) ، وذهب إلى الروض ليتأمل خيله وأبقاره فى ضوء القمر ، فبينما هو يسير بين البقر ، إذ قصدت إليه بقرة شرود منهن ، فضربته بقرنيها بعنف ، ضربة أصابته فى القلب ، وأودت بحياته على الأثر . وكان ذلك فى مساء يوم السبت الثانى عشر من شهر ذى الحجة سنة ٦٢٠هـ ( ٤ يناير ١٢٢٤ م )[2] . ولكن هذه الرواية ، التى ينقلها بعض المؤرخين المتأخرين ، ليست هى الوحيدة فى شرح ظروف وفاة الخليفة المستنصر الفجائية ، فإن هناك رواية أخرى ، مفادها ان المستنصر توفى مسموماً ، بتدبير وزيره أبى سعيد بن جامع والفتى مسرور ، وهذا ، نقله إلينا الزركشى عن « ترجمان العبر »[3] .

والآن فلنلق نظرة عابرة على هذه الأعوام العشرة ، التى شغلتها خلافة المستنصر ، وعلى شخصية هذا الخليفة الفتى ، وهى شخصية لم تتميز بشىء من الخلال العظيمة ، والأعمال البارزة .

---

( ١ ) البيان المغرب القسم الثالث ص ٢٤٦ ( ٢ ) روض القرطاس ص ١٦١ .

( ٣ ) الزركشى فى تاريخ الدولتين ص ١٤ .

ان سائر التواريخ المعاصرةوالقريبة من العصر ، تحدثنا عما كان عليه عهد الخليفة المستنصر ، من التعطل والركود ، وعما كان عليه المغرب يومئذ ، من من اختلال الأحوال ، واضطراب السكينة والأمن ، وذيوع التوجس والقلق ، وضعف الموارد العامة والخاصة ، وانتشار الضيق والفقر ، وفتور همم أولى الأمر ، ونكولهم عن القيام بأية إجراءات ناجعة ، لتنظيم شئون الدولة ، أو معالجة الأحوال العامة ، أو معاونة الشعب على اجتياز أزماته الاقتصادية والاجتماعية .

ولم يكن ثمة شك فى أن هذه كلها ، كانت علامات مزعجة ، تؤذن بدبيب الوهن والانحلال إلى الدولة الموحدية العظيمة ، وبانحدارها إلى المصير ، الذى لابد أن تنحدر إليه دولة يصيبها مثلما أصاب الدولة ، فى عهد المستنصر بالله .

وإنا لنقرأ فى وصف المؤرخين لشخصية المستنصر ، وفى تعليقاتهم على عصره ، تلك الصور المروعة ، لدولة تنحدر بسرعة إلى هاوية السقوط .

فمثلا يقول لنا ابن عذارى : « ولم تكن للمستنصر بالله حركة ولاغزوة ، ولاخرج من حضرته إلا لمدينة تينملل ، على العادة فى التبرك بالمهدى . فما وقفت له على خبر أذكره إلا ما رأيت فى بعض الرسائل ، والله يؤتى ملكه من يشاء »[١] .

ويقول صاحب روض القرطاس : « ولم يخرج من حضرة مراكش طول خلافته إلى أن توفى ، وكانت أوامره لا تتمثل ، أكثرها لضعفه وليانه ، وإذامته على الخلافة ، وركونه إلى اللذات . وتفويضه أمور مملكته ، ومهمات أموره ، إلى السفلة »[٢] .

ويقول ابن خلدون : « وقام بأمر الموحدين من بعده ( أى بعد الناصر ) ابنه يوسف المستنصر ، فنصبه الموحدون غلاماً لم يبلغ الحلم ، وشغلته أحوال الصبا وجنونه ، عن القيام بالسياسة وتدبير الملك ، فأضاع الحزم ، وأغفل الأمور ، وتواكل الموحدون بما أرخى لهم من طيل الدالة عليه ، ونفس عن مخنقهم ، من قبضة الاستبداد والقهر ، فضاعت الثغور ، وضعفت الحامية ، وتهاونوا بأمرهم وفشلت ريحهم »[٣] .

على أن أبلغ ما وقفنا عليه من هذه التعليقات يتمثل فى تلك الفقرة التى يوردها ابن عبد الملك المراكشى ، فى ترجمة أبى الحسن بن القطان ، تعليقاً على اختلال

( ١ ) البيان المغرب – القسم الثالث ص ٢٤٧ . ( ٢ ) روض القرطاس ص ١٦١ .
( ٣ ) ابن خلدون ج ٧ ص ١٦٩ .

الأحوال فى المغرب وقطع السبل ، ووقوع النهب على التجار وغير ذلك :

« واستمرت الأمور على هذه الحال ، وهذه السبيل زمانا ، والمستنصر فى غفلة عن كل ما يجرى ، غير سايل عن رعيته التى يسئل عنها ، وإن بدر منه سؤال عن أحوال الناس والبلاد ، أجاب الوزير أبو سعيد ، أن الجميع فى سبوغ نعمه ، وشمول عافية ، واتساع أحوال ، وبسط أموال ، فيقنعه ذلك ، ويعود إلى انهماكه فى لذاته . وأهمل مع ذلك جانب الأجناد الذين هم آلة الملك وأعوانه ، فأرجل فرسانهم ، وصرفت رجّالتهم ، فتفاقم الأمر ، واستشرى شرى المفسدين وكثر أضرارهم ، وعم عدوانهم . ولما تمادى ظهور الفساد ، واشتدت شوكة أهله ، أجرى أبو الحسن ( المترجم ) ذكر ذلك بمجلس الوزير أبى سعيد ، وأشار عليه بإنفاذ جيش إلى بعض نواحى مراكش لردع من نجم من أهل البغى ، فأجابه بأن ذلك لا يحتاج إليه ، وأنه سيكتب إلى أهل تلك الناحية ، بالنفوذ إلى من تعرض إلى أرضهم ومرافقهم ، والقبض عليهم وقتلهم ، ونحو هذا »[1] .

فى تلك الفقرة ، التى يقدمها إلينا مؤرخ عاش فيها قريباً من العصر ، تبدو أصدق صورة للمستنصر وأحوال عصره ، وهى صورة تنطق بنفسها ، عما يمكن أن يترتب على مثلها بالنسبة للدولة التى تجوزها من النتائج الخطيرة .

على أنه توجد لدينا فى نفس الوقت بعض نصوص تقدم إلينا المستنصر ، هذا الفتى المتعطل المستهتر ، فى صورة أخرى ، هى صورة الطاغية القوى المستبد ، الذى يستأثر بالأمور ، وإليك ما يقوله لنا فى ذلك مؤرخ موحدى معاصر وشاهد عيان ، هو عبد الواحد المراكشى ، وقد عرف المستنصر شخصياً واتصل به .

يقول عبد الواحد خلال حديثه عن المستنصر : « ولم يغير أبو يعقوب هذا على الناس شيئاً من سير آبائه ، ولا أحدث أمراً يتميز به عمن كان قبله ، خلا أنى رأيت كلّ من يعرفه من خواص الدولة ، قد مُلِئ قلبه رعباً لما يعلمون من شهامته وشدة تيقظة . لقيته وجلست بين يديه خالياً به ، وذلك فى غرة سنة ٦١١ ، فرأيت من حدة نفسه ، وتيقظ قلبه ، وسؤاله عن جزئيات لا يعرفها أكثر السوق ، فكيف الملوك ، ما قضيت منه العجب ، وإلى وقتنا هذا لم يظهر منه شىء مما يتوقع »[2] .

---

( ١ ) كتاب الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشى ( السفر الخامس من مخطوط المتحف البريطانى لوحة ١٩ ) فى ترجمة على بن محمد بن عبد الملك بن سماحة الحميرى الكتامى ، أبى الحسن بن القطان .

( ٢ ) المعجب ص ١٨٧ .

ويؤيد هذه الصورة فى بعض نواحيها صاحب روض القرطاس حين يقول فى حديثه عن المستنصر : « فضعفت دولة الموحدين فى أيامه ، واعتراها النقص، وأخذت فى الإدبار ، إلا أن أيامه كانت أيام هدنة ودعة وعافية . فلما كبر ، واشتغل بأمره ونهيه، واستبد بملكه، جعل يفرق أعمامه، وحواليه الذين أقاموها، وأشياخ الموحدين الذين أسسوها ، وقرب أناسا وتمسك بهم ، لم يكن لهم أصل فيها »[1] .

هذا وقد كانت حكومة الخليفة المستنصر ، تتألف من معظم الأشخاص الذين عملوا مع أبيه الناصر ، فكان وزيره وزير أبيه أبو سعيد عثمان بن عبد الله بن إدريس بن إبراهيم بن جامع ، وهو سليل تلك الأسرة التى استأثرت بوزارة الخلافة الموحدية زهاء نصف قرن ، وكان عميدها ابراهيم بن جامع من أصحاب المهدى، واستمرت وزارته إلى آخر سنة ٦١٥ هـ ، ثم صرفه المستنصر، واستوزر من بعده أحد القرابة ، وهو زكريا بن يحيى بن اسماعيل الهزرجى ، فاستمر فى الوزارة حتى نهاية عهده ، بيد أن هناك ما يدل على أن المستنصر، عاد فاستدعى الوزير أبا سعيد للعمل مرة أخرى ، وذلك فى أواخر عهده . وتولى الكتابة للمستنصر كاتبا أبيه وجده من قبل ، وهما أبو عبد الله بن عياش ، وأبو الحسن بن عياش، ولما توفيا متعاقبين فى شهور سنة ٦١٩ هـ ، استدعى للكتابة أبوعبد الله محمد ابن يخلفتن الفازازى، كاتب الناصر من قبل ، وكان عندئذ يشغل منصب القضاء بمرسية ، وعين معه للكتابة أبو جعفر أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن عياش ، وبقى كاتب الجيش أحمد بن منيع ، وهو كاتب الناصر من قبل ، فى منصبه دون تغيير . وتولى الحجابة للمستنصر، مبشر الخصى حاجب أبيه ، ولما توفى خلفه فى الحجابة فارح الخصى المعروف بأبى السرور، واستمر فى الحجابة حتى وفاة المستنصر.

وتولى القضاء للمستنصر ، أبوعمران موسى بن عيسى بن عمران قاضى أبيه ، فلم يزل فى منصبه حتى نهاية عهده، وهذا القاضى هو أيضاً ، حفيد أسرة استأثرت بمناصب القضاء منذ أيام عبد المؤمن ، وكان عميدها أبو عمران موسى الضرير صهر عبد المؤمن .

ولم ينجب المستنصر ولدا ، ولم يعقب إلا حملا من جارية ، لم تذكر لنا الرواية مصيره[1] .

---

(١) روض القرطاس ص ١٦١ . (٢) روض القرطاس ص ١٦١ .

# الفصل الثانى

## أبو محمد عبد الواحد والعادل

### وثورة البياسى بالأندلس

ولاية الخليفة أبى محمد عبد الواحد . نشأته وصفاته . تصرفاته الأولى . اعتراض السيد أبى محمد عبد الله والى مرسية على خلافته . قيامه بالدعوة لنفسه وتلقبه بالعادل . انضمام إخوته ولاة قرطبة وغرناطة ومالقة إليه . تأييد أبى محمد عبدالله البياسى والى جيان له . مخالفة السيد أبى زيد والى بلنسية . استوزاره لابن يوجان ونزوحه إلى إشبيلية . القيام بدعوته فى مراكش . مصرع الخليفة أبى محمد عبد الواحد . تطور الحوادث بالأندلس . خروج البياسى على العادل ودعوته لنفسه . مسير أبى العلى إدريس لقتاله . استنصار البياسى بملك قشتالة . تخاذل أبى العلى عن قتاله وارتداده . العادل يرسل جيشاً آخر لقتال البياسى . هزيمة هذا الجيش وفراره . استيلاء البياسى على قرطبة . إغارة النصارى على أحواز إشبيلية . خروج أهلها لرد الغزاة . هزيمتهم وتمزيق صفوفهم . إغارة النصارى على أحواز مرسية . هزيمة المسلمين . مغادرة العادل للأندلس ومسيره إلى مراكش . العادل ونشأته وصفاته . اهتمامه بشئون الأندلس وكتابه فى ذلك . تفاقم الحوادث فى الأندلس . أعمال البياسى والقشتاليين فى أواسط الأندلس . تحالف البياسى وملك قشتالة . محاصرة ملك قشتالة لجيان . فشل الحصار وارتداد النصارى . افتتاح القشتاليين للقبذاق وباغة . غزوهم للوشة والحامة . محاصرتهم لغرناطة ثم جلاؤهم عنها . زحف البياسى على إشبيلية . خروج أبو العلى إدريس فى الموحدين لمدافعته . هزيمة الموحدين وأهل إشبيلية . خضوع قرطبة وبلاد شرق إشبيلية للبياسى . ما سلمه البياسى لملك قشتالة من المواقع والحصون . عود البياسى إلى مهاجمة إشبيلية . خروج أبى العلى للقائه . هزيمته وتمزيق جموعه . عود بلاد شرق إشبيلية إلى طاعة العادل . كتاب أبى العلى إلى أخيه الخليفة . ثورة أهل قرطبة ضد البياسى. مطاردته ومصرعه وانهيار ثورته . صفاته الذميمة . افتتاح ملك قشتالة لحصن قبالة . استنجاد أهل بياسة بصاحب جيان . خروج أهلها منها واستيلاء النصارى عليها . استيلاء فرناندو الثالث على شوذر ومواضع أخرى. مسير السيد أبى العلى إلى مرتش وعجزه عن مهاجمتها . يعقد الهدنة مع القشتاليين . اضطراب الأحوال فى المغرب . عيث الخلط وهسكورة فى أحواز مراكش . خروج أبى العلى إدريس بالأندلس على أخيه . دعوته لنفسه بالخلافة . كيف مهد لنفسه طريق الدعوة . مبايعته واتخاذه لقب المأمون . سعى الوزير ابن يوجان لتأييده . اتفاق الموحدين على خلع العادل . رفض العادل التنازل ومصرعه . بيعة الأشياخ للعادل ثم عدولهم عنه إلى ابن أخيه يحيى الناصر . تلقب يحيى بالمعتصم . غضب المأمون واعتزامه العبور إلى العدوة .

لما توفى الخليفة يوسف المستنصر بالله دون عقب فى يوم السبت الثانى عشر من ذى الحجة سنة ٦٢٠ هـ ، اجتمع رأى أشياخ الموحدين ، وفى مقدمتهم الوزير أبو سعيد بن جامع ، على أن يقدموا مكانه للخلافة السيد أبا محمد عبد الواحد

ابن الخليفة يوسف بن عبد المؤمن[1] ، وكان شيخاً قد جاوز الستين ، يعيش مغموراً فى هدوء ودعة . ويقول لنا المراكشى ، فيما بلغه ، أنه لما توفى المستنصر ، اضطرب الأمر ، وتطلع الناس لنشوب الخلاف ، ولكن معظمهم اجتمعوا على تقديم السيد الأجل أبى محمد عبد العزيز ( عبد الواحد )[2] . على أنه يبدو أن اختيار عبد الواحد ، كان أمراً تقرر بمنتهى السرعة ، إذ بويع فى اليوم التالى لوفاة المستنصر ، أعنى فى يوم الأحد الثالث عشر لذى الحجة ، ويبدو فى نفس الوقت أن هذا الاختيار لشيخ جاوز الستين ، يرجع إلى حكمة مزدوجة ، أولا لكى يكون أداة مطواعة للزعماء الذين يقبضون على ناصية الحكم ، وثانياً لكى تكون خلافته ، ومفروض أنها سوف تكون قصيرة الأمد ، فترة انتقال ، يتمكن الأشياخ فيها من حسم خلافاتهم ، والاتفاق على الخليفة الحقيقى .

ويقدم إلينا المراكشى ، وقد عرف السيد عبد الواحد شخصياً ، تفاصيل عديدة عنه ، وعن حميد صفاته . فهو من أصغر أولاد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن وأمه حرة اسمها مريم وهى صنهاجية من أهل قلعة بنى حماد ، كانت قد سبيت هى وأمها فيمن سبوا عند افتتاح عبد المؤمن للقلعة ، فأعتقهما عبد المؤمن ، وزوج مريم لابنه أبى يعقوب يوسف ، فرزق منها بثمانية من الولد ، أربعة ذكور ، وأربع إناث ، وكان الذكور هم ابراهيم وموسى وإدريس وعبد الواحد وهو أصغرهم . ولبث عبد الواحد طيلة شبابه مغموراً ، لم تسند إليه ولاية ما ، حتى تولى الخلافة ابن عمه الناصر لدين الله ، فأسند إليه ولاية مالقة ، وذلك فى سنة ٥٩٨ هـ ، ثم صرفه عنها فى سنة ٦٠٣هـ ، وولاه أمر قبيلة هسكورة ، وهى ولاية ضخمة ، فاستمر فى ولايته هذه طوال عهد الناصر ، وشطراً من عهد ولده المستنصر . ثم اختاره المستنصر والياً لسجلماسة ، ثم والياً لإشبيلية ، وذلك حينما عزل عنها أخوه أبو العلاء إدريس ، ونقل إلى ولاية تونس ، ثم صرف عنها وعاد إلى مراكش .

وقد بويع السيد أبو محمد عبد الواحد بالخلافة على كره منه ، فلم يك راغباً فيها ، ولم يك يصلح لها[3] . وكان حسبما يصفه لنا المراكشى عن علم ومشاهدة ،

---

( ١ ) وفى الحلل الموشية أن كنيته « أبو مالك » ص ١٢٣ .

( ٢ ) المعجب ص ١٨٧ .

( ٣ ) روض القرطاس ص ١٦٢ .

رجلا ورعا صالحاً ، بعيد النظر ، قوى العزم ، شديد الشكيمة ، حريصاً على اتباع الحق ، لاتأخذه فيه لومة لائم ، كثير التلاوة لكتاب الله ، دؤوباً على تلاوة الأوراد ، لايمنعه عن ذلك مانع ، ولايترك وظيفة من الوظائف التى رتبها لنفسه، من أخذ العلم وقراءة القرآن والأذكار ، رتبها على أوقات الليل والنهار . يقول المراكشى : « شهدت هذا كله بنفسى ، لا أنقله عن أحد ، ولا أستند فيه إلى رواية . هذا مع دماثة خلق ، ولين جانب ، وخفض جناح لأصحابه ، ولمن علم فيه خيراً للمسلمين » . وأما عن شخصه فيصفه المراكشى بأنه كان « أبيض تعلوه صفرة ، جميل الوجه جداً ، معتدل القامة ، متناسب الأعضاء »[١] .

وتمت بيعة السيد أبى محمد عبد الواحد فى جو من التفاهم والوفاق ، ولم يختلف أحد فى المغرب على بيعته ، ولم يبد عليها اعتراض من أحد ، ولم يتخذ الخليفة الجديد لقباً خلافياً كأسلافه ، ولكنه عرف فيما بعد « بالمخلوع » لأنه كان أول من خلع بنى عبد المؤمن عن كرسى الخلافة . وكان فى مقدمة تصرفاته أن أمر بمحاسبة ابن أشرفى صاحب المخزن ، ومطالبته بالمال . وكتب لأخيه أبى العلاء الكبير بتجديد الولاية على إفريقية ، وكان المستنصر قد أوعز بعزله ، بيد أنه توفى قبل استئناف ولايته ، وأمر باطلاق سراح الوزير السابق أبى زيد عبد الرحمن بن موسى ابن يوجان ، ولكن الوزير ابن جامع اعترض على تنفيذ هذا الأمر ، وبعث بابن يوجان مع الأسطول بقصد تغريبه إلى ميورقة[٢] . ولكنه لما وصل إلى الأندلس ، أخذ وسجن فى حصن جنجالة ، فبقى فيه حتى توفى ابن جامع ، وعندئذ أطلق سراحه[٣] . ثم كان ظهور الخلاف والمعارضة للخليفة الجديد ، لا فى المغرب ولكن فى جهة أخرى ، فيما وراء البحر ، أعنى فى شبه الجزيرة الأندلسية . وذلك أنه لم يمض شهران على بيعته بالمغرب ومعظم أنحاء الأندلس ، حتى ارتفع أول صوت ضد بيعته فى شرقى الأندلس ، وكان هو صوت ابن أخيه السيد أبى محمد عبد الله ابن يعقوب المنصور . وكان أبو محمد عبد الله عندئذ ، واليا لمرسية . وكان إخوته أبو العُلى ( أبو العلاء ) والياً على قرطبة ، وأبو الحسن والياً على غرناطة ، وأبو موسى والياً على مالقة . وكان قد استوزر أبا زيد بن يوجان بعد إطلاق سراحه .

---

( ١ ) المعجب ص ١٨٨ .

( ٢ ) ابن خلدون فى العبر ج ٦ ص ٢٥١ .

( ٣ ) الروض المعطار ص ٦٧ فى مقال جنجالة .

وكان ابن يوجان هذا داهية زمانه ، فلما وردت الأنباء بأخذ البيعة لأبى محمد عبد الواحد ، تقدم ابن يوجان إلى السيد أبى محمد عبد الله ، وحذره من المبايعة للخليفة الجديد ، وقال له إنهم بتنصيب عبد الواحد ، قد أخرجوا الإمامة عن عقب سيدنا المنصور ، وأنه يشهد بأن المنصور قال إن لم يصلح محمد (أعنى الناصر) فعبد الله ، وأنه أى عبد الله أحق بالخلافة ، فهو ولد المنصور ، وأخو الناصر ، وعم المستنصر ، وأنه صاحب عقل وحزم وسياسة وبعد نظر ، ولن يختلف اثنان على استحقاقه للخلافة ، خصوصاً وأن الناس يكرهون بنى جامع الذين توارثوا الوزارة ، وجعلوا يقصون عن الحضرة كل ذى رأى ومقدرة ، وأخيراً فإن له من وجود أخوته الثلاثة فى رياسة قرطبة وغرناطة ومالقة أكبر عضد[1] . وكان لتوجيه ابن يوجان وتحريضه أكبر الأثر ، فنهض السيد أبومحمد واستدعى أشياخ الموحدين والفقهاء والأعيان بمرسية وأحوازها ، ودعاهم إلى مبايعته ، فلبوا دعوته ، وتسمى بالعادل ، وكان ذلك فى يوم ١٣ صفر سنة ٦٢١هـ وذلك لشهرين من بيعة أبى محمد عبد الواحد ، وبايعه إخوته ولاة قرطبة ، وغرناطة ومالقة . وكذلك بايعه السيد أبو محمد عبد الله بن أبى عبد الله محمد ابن يوسف بن عبد المؤمن صاحب جيان ، وهو الذى عرف فيما بعد بالبيّاسى ، لقيامه فيما بعد ضد العادل ببياسة . وكان سبب انضمامه للعادل ما قرره الخليفة عبد الواحد من عزله ، بعمه أبى الربيع بن أبى حفص ، فانتقض عليه وبايع للعادل[2] . وفى رواية أخرى أن عبد الله البياسى كان عند قيام العادل والياً على إشبيلية[3] . وعلى أى حال ، فقد استطاع العادل أن يحصل على تأييد سائر قواعد الأندلس ، خلا بلنسية ودانية وشاطبة ، حيث امتنع واليها السيد أبو زيد بن أبى عبد الله محمد أخو البياسى عن مبايعته ، وبقيت هذه القواعد على طاعته . ثم خرج العادل من مرسية وبصحبته وزيره أبو زيد بن يوجان ، وسار إلى إشبيلية ، وأخذ فى تدبير الأمور ، ولم يلبث أن برم بطغيان ابن يوجان واستئثاره بكل أمر ، فبعثه إلى سبتة ، ليكون هناك نائبه ، ولينظر فى شئون العودة . وهنا يحيق الغموض بسير الحوادث سواء بالمغرب أو الأندلس.

---

(١) الروض المعطار ص ٦٨ ، وروض القرطاس ص ١٦٢ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٥١ .

(٣) هذه رواية ابن عذارى فى البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٤٨ .

فى رواية أن العادل حينما وصل إلى إشبيلية ، وصلته هنالك بيعة أهل مراكش وبلاد المغرب. وفى رواية أخرى أنه كتب إلى الأشياخ الموحدين بحضرة مراكش يدعوهم إلى بيعته ، وخلع عبد الواحد ووعدهم بجزيل الصلات ، ورفيع المناصب والولايات ، فصدعوا برغبته ودخلوا على الخليفة عبد الواحد ، وهددوه ، وأرغموه على أن يعلن خلع نفسه ، وأن يشهد بذلك على نفسه أمام القاضى والفقهاء والأشياخ ، وكان ذلك فى اليوم الثانى والعشرين من شهر شعبان سنة ٦٢١ هـ . ولم تمض أيام قلائل على ذلك ، حتى دخلت عليه جماعة من الموحدين ، وخنقوه ، ونهبوا قصره ، وسبوا حريمه ، فكان بذلك أول من خلع وقتل من بنى عبد المؤمن[1] ومن جهة أخرى فإنه يبدو أن أشياخ الموحدين بمراكش ، لما بلغتهم بيعة العادل بالأندلس ، اختلفوا فيما بينهم أولا ، وبادروا بعزل الوزير ابن جامع ، واقتسموا السلطات فيما بينهم ، وأنفذوا أوامرهم إلى الأسطول بمنع جوار العادل إلى المغرب. ولكن الظاهر أنهم قرروا أمرهم فيما بعد ، وبعثوا ببيعتهم إلى العادل[2].

— ١ —

وفى أثناء ذلك اضطربت الحوادث بالأندلس ، واتخذت وجهة جديدة لم تكن فى الحسبان . وكان لبيعة العادل أكبر أثر فى تطورها على هذا النحو . وذلك أن السيد أبا محمد عبدالله بن محمد بن يوسف بن عبد المؤمن صاحب جيان ، لما رأى من رفض أخيه السيد أبى زيد والى بلنسية ودانية وشاطبة ، بيعة العادل ، واعتصامه بهذه القواعد الشرقية ، عاد بدوره ، فأعلن خلعه لطاعة ابن عمه العادل ودعا لنفسه وتلقب بالظافر ، وأطاعته جيان وأبدة وقيجاطه وبياسة ، وسائر أراضى تلك المنطقة . فبادر العادل ، وبعث من إشبيلية أخاه أبا العلاء إدريس ابن المنصور ، فى قوة كبيرة من الموحدين ، لقتال السيد أبى محمد عبد الله وإخماد ثورته ، فخرج السيد عندئذ من جيان ولجأ إلى بياسة وامتنع بها . وسمى من ذلك التاريخ بالبياسى ، وبعث إلى فرناندو الثالث ملك قشتالة ، يستنصر به . ونحن نعرف منذ أيام الطوائف ، ماذا كان الثمن الذى يتقاضاه الملوك النصارى نظير هذه المعونة ، فقد كان دائماً قطعة من أشلاء الأندلس ، تبذل دون تحفظ ، إلى

---

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٤٧ ، وروض القرطاس ص ١٦٢ و ١٦٣ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٥١ و ٢٥٢ .

جانب الخضوع والطاعة . ولم يشذ البياسى عن هذه القاعدة المؤلمة ، بل سنرى أنه ذهب فيها إلى أبعد حد .

وأشرف الجند الموحدون بقيادة أبى العلاء على بيّاسة فى أواخر سنة ٦٢١ هـ ( أواخر سنة ١٢٢٣ م ) ، ونزلوا فى ظاهرها ، وكان الوقت شتاء ، وقد بلغ البرد ذروته ، واشتد هطل الأمطار ، وغمرت السيول كل صقع ، فحاصر أبو العلاء بياسة أياما قلائل ، ثم خشى أن يفيض النهر ( الوادى الكبير ) فيتعذر عليه العبور عند العودة ، وخشى كذلك أن يداهمه القشتاليون حلفاء البياسى ، وبعث إليه البياسى من جهة أخرى بعوده إلى طاعة العادل ، وأرسل إليه ولده الأصغر رهينة لديه ، فاكتفى أبو العلاء بذلك وارتد عائدا بقواته إلى إشبيلية ، دون أن يحقق شيئاً من مهمته ، فقوبل فى إشبيلية بمنتهى الاستهجان والسخط ، ورمى بالخور والجبن[1] . وعندئذ بادر العادل بتجهيز جيش موحدى آخر ، أسندت قيادته إلى أبى سعيد عثمان بن أبى حفص . فسار هذا الجيش إلى بياسة ونزل على بعد خمسة أميال من جنوبى المدينة ، على مقربة من شمال الوادى الكبير ، فخرج إلى قتاله نحو مائة فارس من أصحاب البياسى ، وقوة من حلفائه القشتاليين ، فسرى الرعب إلى الموحدين عند رؤيتهم ؛ وبادروا إلى الفرار دون قتال وارتدوا إلى إشبيلية ، وبقى البيّاسى فى بياسة دون منازع ، وقد احتل حلفاؤه القشتاليون قصبتها[2] .

وهنا يحيق الغموض بموقف البياسى وتحركاته ، ويبدو من مختلف الروايات أنه استطاع فى تلك الآونة أن يبسط سلطانه ، فضلا عن منطقة بياسة ، على مدينة قرطبة ، وذلك على خلاف فى طريق تملكها ، فابن عذارى يقول لنا إن العادل هو الذى أسند إليه ولايتها ، وقت أن كان مُقراً بطاعته ، وصاحب روض القرطاس يقول إن أهل قرطبة هم الذين انضموا إليه . وأما صاحب الروض المعطار ، فيقول إن البياسى هو الذى تملك قرطبة ، بل يزيد على ذلك أنه تملك أيضا مالقة ، « وكاد يستولى على الأمر لوساعده القدر »[3]. وعلى أى حال

---

( ١ ) الروض المعطار فى مقاله عن بياسة ص ٥٧ ، وروض القرطاس ص ١٦٣ .

( ٢ ) الروض المعطار ص ٥٨ .

( ٣ ) البيان المغرب — القسم الثالث ٢٤٩ ، وروض القرطاس ص ١٦٤ ، والروض المعطار ص ٥٨ .

فقد كان من الواضح أن البياسى ، كان يحتل فى الأندلس الوسطى مركزاً له خطره ، وكان منافساً قوياً للعادل ، يكاد ينتزع الأمرمنه .

وكان العادل قد غدا بإشبيلية على أثر فشل قواته فى إخضاع البياسى ،فى مأزق حرج . وزاد من حرج مركزه عندئذ ، غزوة قام بها النصارى فى أراضى الشّرف غربى إشبيلية . وذلك أن قوة من الجند الليونيين يقودها مارتن سانشيز ، وهو ابن غير شرعى للملك البرتغال سانشو الثانى ، دخل فى خدمة ملك ليون ، عبرت جبال الشارات ، وسارت جنوبا حتّى وصلت إلى أراضى الشّرف ، وعاثت فى تلك المنطقة ، واستولت على كثير من الغنائم والسبى ، وألفى العادل ، وأخوه أبو العلاء ، ووزيره ابن يوجان ، ومن معهم من أشياخ الموحدين ، أنفسهم عاجزين عن دفع النصارى ، وحماية المدينة مما قد يصيبها . ووقع الهرج بين أهل المدينة ، واجتمع الناس خاصتهم وعامتهم بالمسجد الجامع ، وطالبوا العادل وأشياخ الموحدين بجمع الصفوف ، والخروج إلى لقاء العدو ، فاستنفر العادل الناس ، واحتشدت منهم جموع غفيرة ، ومعظمهم من غير سلاح ، واجتمع من الفرسان نحو مائة ، وسارت هذه الجموع إلى حيث نزل النصارى على مقربة من طلياطة(١) وهى تقع غربى إشبيلية على مقربة من لبلة ، وكان النصارى فى قوة كبيرة حسنة الأهبة والسلاح ، فأراد العامة أن يدفعوا قوة الفرسان الصغيرة إلى لقاء العدو ، فامتنع قائدها عبد الله بن أبى بكر بن يزيد ، وحاول أن يقنع العامة بعبث هذه المحاولة ، وبأن التزام الدفاع أفضل وأولى ، فتطاولوا عليه وسبوه ، فانسحب مع فرسانه . وعندئذ انقض النصارى على هذه الجموع الهزيلة المفككة من المسلمين ، ففتكوا بها وأفنوا الكثير منها قتلا وأسراً ، وفر الكثير منهم فى مختلف الأنحاء . ويقدر من هلك من المسلمين فى الموقعة بعدة آلاف ، ويبالغ بعضهم فيقدرها بنحو عشرين ألفاً ، ووقعت موقعة طلياطة هذه فى شهر جمادى الأولى سنة ٦٢٢ هـ ( مايو ١٢٢٤ م )(٢) .

ولم يمض شهران على ذلك ، حتّى وقعت فى شرقى الأندلس غزوة نصرانية مماثلة ، وهزيمة مماثلة للمسلمين . وذلك أن حكام قونقة ووبذة والأركون ومويا ،

---

( ١ ) وهى بالإسبانية Tejada

( ٢ ) ينفرد صاحب الروض المعطار بما يقدمه إلينا عن هذه الموقعة من تفاصيل وافية ( ص ١٢٨ و ١٢٩ ) .

جمعوا قواتهم ، وسارت منها حملة غازية بقيادة ألبرو تليس اخترقت وادى شُقر جنوباً حتى أراضى مرسية ، فخرج لردهم جند مرسية وأهلها بقيادة أبى على ابن أشرق ، وكانوا على مثل أهل إشبيلية من التفكك والفوضى ، فنشبت بينهم وبين النصارى ، فى مكان يعرف بعفص Aspe يقع شرقى مرسية ، معركة شديدة هزم فيها المسلمون هزيمة فادحة ، وأسر وقتل منهم فيها الكثير . وكان ذلك فى شهر رجب سنة ٦٢٢هـ ( يوليه ١٢٢٤م ) ، وفى ذلك يقول شاعر مرسى ، مقارنا بين موقعتى عفص وطلياطة :

موقعة عفص وطاياطة تكامل إقبـــال أيامنا
فبالغرب تلك وبالشرق ذى أناخا على شم أعلامنا[١]

— ٢ —

فى ذلك الحين ، كانت بيعات الموحدين بمراكش والمغرب ، قد وصلت إلى العادل بإشبيلية ، وكان الخليفة عبد الواحد، قد خُلع ولقى مصرعه ، وأصبح عرش الخلافة الموحدية خاليا ، فرأى العادل أن الوقت قد حان لكى يعبر إلى المغرب ، خصوصاً وقد أخذت الحوادث تتجهم فى الأندلس ، على أثر فشله فى التغلب على البياسى ، وفى رد النصارى عن أراضى إشبيلية ، فندب أخاه أبا العلاء إدريس للنظر على شئون الأندلس ، وغادر إشبيلية ، وعبر البحر إلى المغرب ، وذلك فى شهر ذى القعدة سنة ٦٢٢ هـ ( أكتوبر سنة ١٢٢٤ م )[٢] . والظاهر أنه لقى فى طريقه إلى مراكش صعابا من تعرض العربان وغيرهم إليه .

ولما وصل العادل إلى مراكش ، واستقر بقصر الخلافة ، استوزر أبازيد

---

( ١ ) راجع الروض المعطار ص ١٣٦ .

( ٢ ) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٢ ، والروض المعطار ص ١٢٩. ونحن نرجح الأخذ بهذا التاريخ الذى يقدمه إلينا صاحب الروض المعطار لعودة العادل ، ولكن يبدو من أقوال ابن عذارى أن العادل عاد إلى مراكش يوم السبت ٢٠ شعبان سنة ٦٢٢ ، وهو آخر يوم من حكم عبد الواحد ، وأنه دخل عليه القصر فى هذا اليوم . وفى اليوم التالى أشهده على نفسه بالخلع ، وأن عبد الواحد خنق بعد ثلاثة أيام من خلعه (البيان المغرب ص٢٤٧ و ٢٤٨) ومعنى ذلك أن العادل هو الذى قام بخلع عبدالواحد ثم أوعز بقتله ، ونهب قصره وسبى حريمه . وهذه الرواية التى ينفرد بها ابن عذارى ، تبدو فى نظرنا ضعيفة بعيدة الاحتمال . وبالعكس فإن الظروف والقرائن الزمنية تحمل كلها على الاعتقاد بأن عودة العادل كانت بعد خلع عبد الواحد ومصرعه . ويستفاد ذلك فضلا عن قول صاحب الروض المعطار ، من قول ابن خلكان (ج ٢ ص ٤٣٤) ، وصاحب الحلل الموشية (ص ١٢٣ ) وصاحب روض القرطاس ( ص ١٦٣ ) وكذلك ابن الخطيب فى الإحاطة (مخطوط الإسكوريال ١٦٧٤ الغزيرى ) لوحة ١٥٤ ا .

ابن أبى محمد بن أبى حفص ، وأقر عماله سواء بالمغرب أو الأندلس على أعمالهم ، وأقر خاصته وحشمه كل فى وظائفهم وطبقاتهم .

وقد تقدم نسب العادل ، فهو أبو محمد عبد الله بن يعقوب المنصور بن يوسف ابن عبد المؤمن بن على ، وأمه أم ولد نصرانية برتغالية ، من سبى شنترين اسمها سر الحسن أسرت فيما يبدو ، حين غزوة المنصور الأولى للبرتغال فى سنة ٥٨٦هـ ( ١١٩٠ م ) ، وبذلك يمكن أن نضع تاريخ مولد العادل فى نحو سنة ٥٨٧ هـ (١١٩١ م ) فيكون عمره وقت أن تولى الخلافة ، نحواً من أربعة وثلاثين عاما . ولقبه الكامل هو « العادل فى أحكام الله تعالى » . وأما عن صفته ، فقد كان العادل نحيل القد ، أشهل العينين ، أقنى الأنف ، خفيف العارضين[1] . وكان العادل من خيرة بنى عبد المؤمن ، فاضلا وقوراً ، كبير النفس ، عالى الهمة ، من أهل العلم والمعرفة[2] .

وتولى العادل حكم غرناطة فى سنة ٦١٩ هـ ، أيام ابن أخيه يوسف المستنصر ، ثم نقل باختياره إلى ولاية مرسية . ولما تولى الخلافة عمه أبو محمد عبد الواحد ، خرج عليه بمرسية ، كما تقدم ، ودعا لنفسه بالخلافة ، وذلك فى يوم ١٣ صفر سنة ٦٢١هـ ، ولم يتخلف عن بيعته بالأندلس سوى السيد أبى زيد والى بلنسية ، وأخوه السيد أبو عبدالله صاحب جيّان ، وهو المعروف بالبياسى . وأما فى المغرب فقد تلقى بيعة سائر الموحدين ، ما عدا بيعة بنى حفص ولاة افريقية ، وكان هؤلاء عندئذ يدبرون الخطة لانفصالهم عن الدولة الموحدية ، والاستقلال بحكم ما تحت أيديهم .

وكان فى مقدمة ما فعله العادل ، أن وجه إلى قواعد الأندلس ، كتابا يؤكد فيه عناية الموحدين بشئون الجزيرة ، واجتماع كلمتهم على الجهاد . وقد أوردلنا ابن عذارى من الكتاب المذكور فقرة ننقل منها ما يلى : .

« وها هم بحمد الله ( أى الموحدين ) قد انتظم شملهم ، واتصل حبلهم ، واجتمعت أهواءهم ، واتفقت على إعزاز الحق آراؤهم ، وحلوا بدار الموحدين ، ومطلع الخلفاء الراشدين المهتدين ، حيث الجموع وافرة . والأعداد متكاثرة ، وطائفة الحق متعاضدة متظاهرة ، وذلك حلول استدعاء واستنفار ، لا حلول إقامة واستقرار ، عازمين على الجهاد ، والله تعالى يمضى عزائمهم ، ويجبرهم

---

(١) روض القرطاس ص ١٦٣ .

(٢) ابن الخطيب الإحاطة ( مخطوط الإسكوريال المشار إليه ) لوحة ٥٤ ا .

على جميل معتقداتهم ، على جهاد أعداء الله الكفار ، فاعملوا وفقكم الله على ذلك ، والله يبلغكم آمالكم والسلام عليكم »[١] .

والواقع أن شئون الأندلس ، كانت أهم ما يشغل العادل ، وقد تركها عند مغادرته لشبه الجزيرة ، فى حالة اضطراب مروع ، تتجاذبها تيارات جارفة ، من الفتن الداخلية ، ومن عدوان النصارى .

— ٣ —

غادر العادل الأندلس ، وترك أخاه أبا العُلى إدريس فى إشبيلية ليواجه العاصفة . وكانت الأندلس قد غدت كما قدمنا مرة أخرى ، منذ أعلن العادل دعوته بالخلافة ، مسرحاً لصراع المتغلبين . وكانت حركة البياسى أبى محمد عبد الله بن محمد بن يوسف بن عبد المؤمن ، فى أواسط الأندلس ، قد اتسع نطاقها ، وكادت أن تمتد بعد الأندلس الوسطى ، إلى إشبيلية ،والأندلس الغربية. وكان البياسى ، قد لجأ حسبما تقدم ، إلى فرناندو الثالث ملك قشتالة ، يستنصر به ، ويطلب عونه ضد خصومه ، وكان فرناندو ، وهو الذى قدر له أن يفتتح فيما بعد معظم قواعد الأندلس الكبرى ، يقدر كأسلافه ، مزايا هذا التدخل فى فى حوادث الأندلس ، وفى حروبها الأهلية ، وما يترتب عليه من مغانم سياسية ، وإقليمية جليلة ، فلبى نداء البياسى ، وبعث إليه بالأمداد ، وامتنع البياسى بمدينة بياسة ، وصمد أمام الجيوش الموحدية ، التى بعثها العادل لإخضاعه . ولما اطمأن إلى حصانة مركزه ، خرج مع حليفه ملك قشتالة ، ليعاونه على افتتاح أول قاعدة أندلسية من قواعد هذه المنطقة ، وهى مدنية قيجاطة[٢] الواقعة جنوب شرقى بياسة . وكان فرناندو الثالث قد خرج بجيشه فى خريف سنة ١٢٢٤ م ( أواخر سنة ٦٢٢ هـ ) ، واخترق أراضى أبدّة قاصداً إلى قيجاطة ، وكانت تزخر بالأموال والثروات ، فاقتحمها القشتاليون ، وهدموا معظم أسوارها ، وقتلوا من أهلها الألوف ، وقتلوا وأسروا كذلك معظم حاميتها الموحدية ( سبتمبر ١٢٢٤ م ) . واستولى القشتاليون فى نفس الوقت على عدة أخرى من حصون هذه المنطقة . ثم ساروا بعد ذلك ، ومعهم حليفهم البياسى ، فعاثوا فى أراضى جيان ، وقتلوا من أهلها نحو ألف وخمسمائة ( أكتوبر ١٢٢٤ م ) . ثم ارتد ملك قشتالة

( ١ ) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٤٩ .

( ٢ ) وهى بالإسبانية Quesada .

فى قواته مثقلا بالغنائم والأسرى ، عند اقتراب الشتاء ، وعبر نهر الوادى الكبير عائداً إلى بلاده[١] .

وفى صيف العام التالى ، أعنى فى سنة ٦٢٣ هـ ( ١٢٢٥ م ) ، خرج فرناندو الثالث من قشتالة بجيش ضخم ، وعبر ممر مورادال بجبال سيرّا مورينا ( جبل الشارات ) ونزل فى سهل العقاب ، على مقربة من شمالى بياسة ، وبعث إلى البياسى يستدعيه ، فهرع البياسى إلى لقاء ملك قشتالة ، وقدم إليه خضوعه بصفة رسمية ، وعقد معه عهداً يعترف فيه بطاعته ، ويتعهد بأن يسلم إليه حصون مرتُش ، وأندوجر ، وجيان ، متى حصلت فى يده ، وكذلك سائر الحصون ، التى يطلب ملك قشتالة الاستيلاء عليها ، فى أراضى المسلمين ، وسلم البياسى ولده الأصغر إلى ملك قشتالة كفالة بولائه وإخلاصه . وتعهد ملك قشتالة من جانبه بأن يقدم إلى البياسى المعونة العسكرية الكافية ، لاسترداد أملاكه وتأمينها[٢] .

وعلى أثر ذلك قصد ملك قشتالة ومعه حليفه أو تابعه البياسى إلى مدينة جيان وهو يخرب سائر الأراضى التى يمر بها ، خلا تلك التى يسيطر عليها البياسى . ولما وصل إلى جيان ، ضرب حولها الحصار ، وأخذ القشتاليون مدى أيام يهاجمونها دون جدوى . وكانت جيان أمنع قاعدة فى تلك المنطقة ، ولها أسوار عالية ، وقصبة فى منتهى المناعة ، مازالت أطلالها قائمة حتى اليوم ، تشهد بسابق حصانتها . وكانت تدافع عنها حامية موحدية قوية بقيادة عمر بن عيسى بن أبى حفص بن يحيى ، ومعهم فرقة من الفرسان النصارى بقيادة ألبار بيريث دى كاسترو ، وكان مثل أبيه يعمل فى خدمة الموحدين بغيرة وإخلاص ، ولما اشتدت هجمات النصارى ، خرج المسلمون لهم ، واشتبكوا معهم فى معركة ، قتل فيها من المسلمين مائة وثمانون ، وأسر نحو ألفين . ثم امتنع المسلمون بالمدينة ، ولبثوا صامدين ، وكرر القشتاليون هجماتهم على المدينة ، وهم فى كل مرة يرتدون عنها خائبين . وأخيراً اضطر ملك قشتالة أن يرفع الحصار عن المدينة ، وأن يرحل عنها[٣] .

---

( ١ ) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٤٩ ، والروض المعطار ص ٦١ وكذلك :
J. Gonzalez : Las Conquistas de Fernando III en Andalucia (Madrid 1946) ; cit. Anales Toledanes; p. 36 & 37 .

( ٢ ) J. Gonzalez : ibid; p. 38 .

( ٣ ) J. Gonzalez : ibid, cit. Crónica Latina; p. 40 .

وسار ملك قشتالة بعد ذلك ومعه البياسى إلى القبذاق[١] ، فاستولى عليها وسلمها لحليفه ، إذ كانت من أملاكه ، ثم سار جنوبا نحو باغة[٢]، فقاومته حاميتها بشدة ، واضطر إلى محاصرتها مدة ، ثم سلمت حاميتها بالأمان نظير فدية كبيرة ، وقصد بعد ذلك إلى لوشة ، وهى جنوب باغه على ضفة نهر شنيل . فاقتحمها وفتك بأهلها . ولما وصل إلى مدينة الحامة فى جنوبها ، الفاها خالية ، إذ هجرها أهلها خوفاً أن يصيبهم ما أصاب أهل لوشة .

ثم سار القشتاليون بعد ذلك شمالا صوب غرناطة ، وكان أهلها قد استدعوا ألبار بيريث لمعاونتهم على الدفاع . فلما اقترب القشتاليون من المدينة ، وضربوا حولها الحصار ، وسّط أهلها ألبار بيريث ليفاوض ملك قشتالة فى أن يرحل عنهم ، نظير تسليمهم إياه ألفا وثلاثمائة أسير من النصارى كانوا لديهم ، فتم الاتفاق على ذلك ، وعفا ملك قشتالة عن ألبار بيريث ، فترك خدمة الموحدين ، وعاد إلى خدمة مليكه ، وارتد ملك قشتالة فى قواته شمالا ، حتى اقترب من بياسة ، وهنالك قام البياسى بتسليمه حصنى مرتش وأندوجر ، وفقاً لعهده الذى أخذه على نفسه[٣].

وكان البياسى قد شعر عندئذ بتوطد مركزه ، وضخامة العون الذى يلقاه من حلفائه النصارى ، فما كاد فرناندو الثالث يختتم غزوته فى أراضى المسلمين ، حتى سار البياسى فى قواته ، ومعه جيش من النصارى ، تقدره الرواية بعشرين ألفاً[٤] صوب إشبيلية ، وعبر نهر الوادى الكبير إلى الشّرف ، وخرجت القوات الموحدية وأهل المدينة بقيادة السيد أبى العلاء لرد الغزاة ، وهنالك أيضاً ، على مقربة من طلياطة ، فى فحص القصر ، اشتبك الفريقان فهزم الموحدون وأهل إشبيلية ، هزيمة شديدة ، وقتل منهم نحو ألفين[٥] وكان من نتيجة هذا النصر ، أن خضعت معظم البلاد والحصون الواقعة شرقا بين اشبيلية وقرطبة لسلطان البياسى ، بل إن أهل مدينة قرطبة ذاتها ، حينما رأوا تفوق البياسى على هذا النحو ، خلعوا طاعة حاكمهم الموحدى السيد أبى موسى أخى العادل ، وأعلنوا طاعتهم للبياسى .

وكان فرناندو الثالث قد عاد فى تلك الأثناء ، فعبر بقواته إلى أراضى

---

(١) وهى بالإسبانية Alcaudete . (٢) وهى بالإسبانية Priego .

(٣) راجع الروض المعطار ص ٦١ و١٦٥ و١٧٤ . وكذلك :

J. Gonzalez, ibid; cit. Crónica Latina p. 42

(٤) روض القرطاس ص ١٦٤ . (٥) الروض المعطار ص ٥٨ .

الأندلس مرة أخرى ، واستدعى البياسي إلى حصن أندوجر ، وطلب إليه أن يسلم إليه طائفة من الحصون التي يرغب الاستيلاء عليها في منطقة قرطبة ،فوعد البياسي بأن يسلمه حصون شلبطرّة، وقبالة، وبرج الحمة[١]، وارتضى أن يسلمه قصبة بياسة كفالة بتنفيذ وعده ، واحتل استاذ فرسان قلعة رباح ورجاله بالفعل قصر بياسة ، وبقى المسلمون على حالهم بالمدينة . ثم بذل البياسي جهده في تسليم حصن شلبطرة ، وندب لذلك رسولا من قبله استطاع بعد مشقة أن يقنع حاميته بتسليمه للنصارى ، وكذلك سلم النصارى حصن برج الحمة، ولم يبق عليه إلا أن يسلمهم حصن قبالة ، الذى امتنع عليه[٢] .

ولم يقنع البياسي بما تم من توطد مركزه ، واستقراره بعاصمة الخلافة القديمة ، وسيطرته على معظم نواحي الأندلس الوسطى ، ولكنه أراد أن يستولى على إشبيلية ذاتها ، وأن يقضى نهائياً على سلطان منافسه العادل وأخيه أبي العلاء، فسار في قواته مرة أخرى صوب إشبيلية ، وحاول أن يضرب حولها الحصار . وكان أبو العلاء قد استعد للقائه فخرج إليه في حشود الموحدين وأهل المدينة ، ونشبت بين الفريقين معركة عنيفة هزم فيها البياسي ، ومزقت جموعه ، وارتد في فلوله صوب قرطبة . ويضع ابن عذارى تاريخ هذه الموقعة ،في الخامس والعشرين من شهر صفر سنة ٦٢٣ هـ ، وهو يوافق التاريخ الذى تضعه الرواية النصرانية للموقعة ، وهو ٢٥ فبراير سنة ١٢٢٦ م[٣] .

وكان لهذا النصر الحاسم الذى أحرزته القوات الموحدية على البياسي ، نتائج هامة ، فقد ارتدت طلياطة وحصن القصر ، وبقية الحصون والبلاد الممتدة شرقي إشبيلية عن طاعة البياسي ، وعادت إلى طاعة الخليفة العادل[٤] وكتب السيد أبو العلاء إلى أخيه العادل بمراكش ، كتاباً ينبئه فيه بهذا النصر ، ومما جاء في الكتاب المذكور :

« إن المحنة بهذا البائس قد بلغت مداها ، وانقبضت بعد البسط يداها ،

---

(١) وهى بالإسبانية على التوالى Salvatierra و Banos de la Encina, Capilla ، وتقع الأخيرة شمالى اندوجر .

(٢) الروض المعطار ص ٥٨ ، وكذلك : J. Gonzalez : ibid; p. 46 & 47

(٣) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٥٠ ، وكذلك : J. Gonzalez : ibid; p. 48

(٤) البيان المغرب ص ٢٥١ .

وانتهى إلى غاية لايتعداها ، والحمد لله الذى أذل للخلافة العادلية ، أحد عداتها وأنصفها من منازعها بأداتها ، فكافر النعم تستحيل عليه نقماً ، وحاجب الشمس ضوءها ، حافظاً بين ظلام وعماء ، والموحدون عازمون على اتباع هذا العدو ، إلى أن يدعوه عقيراً ، أو يستثبتوه أسيراً إن شاء الله تعالى ، وكتب فى ربيع الأول من عام ثلاثة وعشرين وستمائة » .

وهنا خرج فرناندو الثالث فى قواته مرة أخرى ، وكان هدفه فى هذه المرة الاستيلاء على حصن قبالة[1] ، وهو من حصون الحدود الواقعة فى شمالى قرطبة ، وشمالى جبل الشارات ، وكان قد تعذر على البياسى ، أن يقوم بتسليمه وفقاً لتعهداته ، وكان البياسى قد وصل فى تلك الأثناء إلى قرطبة منهزما مدحوراً ، وكان أهل قرطبة لما رأوا إفراطه فى محالفة النصارى ، وإسرافه فى تسليم الحصون الإسلامية إليهم ، قد خشوا أن ينتهى الأمر بأن يغدر بهم ، ويسلم قرطبة ذاتها للنصارى ، فاعتزموا الفتك به والتخلص منه ، فثاروا به ، وشعر البياسى بخطورة الأمر ، ففر من المدينة ، والتجأ إلى حصن المدوّر الواقع جنوبى النهر على مقربة من جنوب غربى قرطبة ، ولكن الثوار طاردوه بشدة ، وحاصروه فى الحصن ، ثم اقتحموه ، وقتلوا البياسى ، واحتزوا رأسه ، وبعثوا بها إلى السيد أبى العلى بإشبيلية ، فأرسلها بدوره مع كتاب إلى أخيه العادل بمراكش ، فرد العادل بكتاب يتضمن تعيين أخيه أبى العلى واليا لقرطبة بالإضافة إلى إشبيلية[2] ، وكان البياسى عند مصرعه شيخاً قد جاوز السنين .

وهكذا تحطمت ثورة أبى محمد عبد الله بن محمد بن يوسف بن عبد المؤمن ، المسمى بالبياسى ، بعد أن لبثت ثلاثة أعوام تبث الاضطراب والدمار إلى أواسط الأندلس ، وتمهد للنصارى اقتطاع القواعد والحصون الواقعة فى شرقى قرطبة وفى شمالها ، وقد اقتطعوا منها بالفعل طائفة كبيرة ، كان ضياعها سبباً فى إضعاف خطوط الدفاع عن قرطبة ، والتمهيد لسقوطها .

وتقدم إلينا الرواية الإسلامية ، البياسى ، فى صور بغيضة قاتمة[3] . ونستطيع أن نعتبر البياسى بالفعل على ضوء ماتقدم ، من أعماله وخياناته المتوالية لقضية

---

(١) وبالإسبانية **Capilla** .

(٢) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٥٢ ، والروض المعطار ص ٥٩ .

(٣) راجع الروض المعطار ص ٥٨ و٦١ ، والبيان المغرب ص ٢٤٩ و٢٥٠ .

الإسلام ، وقضية الأندلس ، تحقيقاً لأطماعه الوضيعة ، شخصية بغيضة مثيرة ، تستحق أن يدمغها التاريخ بأقسى الأحكام ، ويرميه ابن عذارى بالارتداد عن عن الإسلام ، واعتناق النصرانية ، بيد أننا لم نجد فى الروايات النصرانية مايؤيد هذا الاتهام ، ولو وقع لكانت الرواية النصرانية أول من يسجله ويشيد به .

— ٤ —

وكان فرناندو الثالث حينما وصلته أنباء هذه الحوادث أمام حصن قبالة المنيع ، وقد ضرب حوله الحصار ( أوائل يونيه سنة ١٢٢٦ ) وأخذ يهاجمه باستمرار ، وحاميته الإسلامية ، صامدة ، بيد أنه لما طال الحصار ، واشتدت هجمات النصارى ، اضطر المسلمون إلى مفاوضة ملك قشتالة ، وعرضوا أن يقدموا رهائنهم بالتسليم ، وأن يبعثوا رسلهم إلى السيد أبى العلاء ، وكان عندئذ بقرطبة ، يطلبون إليه الإنجاد ، فإذا لم تصل إليهم النجدة خلال ثمانية أيام ، سلموا الحصن بالأمان ، فقبل فرناندو هذا العرض . ولم تمض أيام قلائل حتى عاد الرسل من قرطبة خائبين ، فسلم المسلمون الحصن ، وسمح لهم وفقاً للاتفاق ، أن يخرجوا بنسائهم وأولادهم وأموالهم ، وأن يسيروا محروسين حتى حصن « غافق » الواقع جنوب قبالة ، وهو أقرب الحصون الإسلامية إليهم ، ودخل فرناندو الحصن وفى الحال حول مسجده إلى كنيسة ، ووضع به حامية نصرانية ، وكان تسليم حصن قبالة فى أوائل أغسطس سنة ١٢٢٦م ( أواخر سنة ٦٢٣ هـ ) .

وجاء بعدئذ دور بيّاسة ، وكان من الواضح ، بعد مصرع البياسى ، أن مصير بياسة غدا فى كفة القدر ، وأن ملك قشتالة كان يتطلع إلى أخذها باعتبارها من أملاك تابعه . وكان فرسان قلعة رباح قد احتلوا قصبة بياسة كما قدمنا ، كفالة بتنفيذ البياسى لتعهداته ، فلما قتل البياسى ، أراد أهل بياسة أن يخرجوا النصارى من قصبتهم ، فبعثوا إلى صاحب جيّان عمر بن عيسى بن أبى حفص بن يحيى ، يستنجدون به ، فقدم عليهم فى بعض قواته ، ومعه القائد محمد بن يوسف المسكدالى ، ودخل المدينة ، وكان بها سوى من بالقصبة ، طائفة كبيرة من النصارى ، فقتلوا جميعاً مدافعين عن أنفسهم ، ولكن صمد من كان منهم بالقصبة لحصانتها ، فطلب أهل بياسة إلى الوالى الموحدى ، أن يبقى يوماً أو يومين لحصار النصارى بالقصبة لإرغامهم على التسليم ، لأنهم كانوا يتلقون مؤنهم من أهل المدينة يوماً بعد يوم ، فأبى وأصر على الخروج من فوره ، وذلك خوفاً من قدوم القشتاليين ،

وقال لأهل المدينة ، إنى ذاهب ، فمن أحب أن يخرج معى فليخرج ، ومن أراد البقاء فليبق ، فاضطر أهل المدينة إلى مغادرتها خوفاً من الوقوع أسرى فى أيدى النصارى ، وتفرقوا فى مختلف الأنحاء . وهكذا استولى النصارى الذين بالقصبة وهم فرسان قلعة رباح على سائر المدينة ، وذلك فى اليوم التاسع من شهر ذى الحجة سنة ٦٢٣ هـ ( أول ديسمبر سنة ١٢٢٦م ) ووهب فرناندو الثالث الفرسان من أجل ذلك كثيراً من دور المدينة ورياضها وضياعها[١] .

وفى العام التالى استولى فرناندو الثالث على شوذر[٢] الواقعة جنوبى بياسة ، وعلى عدة من الحصون المجاورة ، وأخرج من بقى من المسلمين فى بياسة ومرتُش وغيرهما من القواعد والحصون التى استولى عليها .

وهكذا استطاع القشتاليون أن يخرجوا من ثورة البياسى ، بأكبر غنم ، وأن يضعوا أيديهم على طائفة كبيرة من القواعد والحصون الأندلسية الهامة فى منطقة جيان وقرطبة ، وأن يتحكموا بذلك فى خطوط الدفاع عن الأندلس الوسطى ، وأن يقتربوا من قرطبة عاصمة الخلافة القديمة ، التى كان الاستيلاء عليها من أعز أمانيهم .

وكان السيد أبو العُلى (أبو العلاء ) إدريس ، مذ حلّ بقرطبة عقب مصرع البياسى ، يحاول أن يضع حداً لعدوان النصارى فى تلك المنطقة ، فسار فى بعض قواته إلى مرتش وحاصرها ، وحاول أن يستولى عليها ، ولكن الأمداد القشتالية جاءت أخيراً لتنقذها من السقوط ، واضطر السيد أبو العلى أن يرفع الحصار وأن ينصرف بقواته ، وذلك فى أوائل سنة ٦٢٤ هـ — ١٢٢٧ م . فلما شعر أبو العلى باشتداد وطأة القشتاليين على الأراضى الإسلامية ، سعى إلى عقد الهدنة معهم ، وبعث رسوله أبا القاسم للمفاوضة ، وتم الاتفاق على أن تعقد الهدنة بين الفريقين لمدة عام واحد ، وأن يدفع الموحدون لقاء عقدها ثلاثمائة ألف قطعة Naravedi من الفضة ، دفع بعضها عند توقيع التعاقد ودفع الباقى بعد ذلك[٣] .

— ٥ —

لم نجد بعد أن سجلنا أحداث الأندلس الأليمة فى عهد الخليفة العادل ، مانسجله

---

(١) الروض المعطار ص ٥٨ و٥٩ ، وكذلك : J. Gonzalez : ibid, p. 52 .

(٢) وهى بالإسبانية Jodar .

(٣) J. Gonzalez : ibid; cit. Crónica Latina, p. 65 .

من الأحداث فى عهده بالمغرب ، وهو عهد لم يطل إلا نحو عامين ، إلا ما كان من تفاقم الأحوال ، واضطراب حبل الأمن ، وازدياد الفوضى ، وتوالى عيث العرب ، وبعض القبائل البربرية ، ولاسيما هسكورة ، فى الأنحاء القريبة من العاصمة وازدياد شأن بنى مَرِين ، وتغلبهم على كثير من النواحى والقبائل ، وفرض المغارم عليها ، بل وفرضهم الإتاوات على بعض المدن القريبة من منازلهم ، مثل فاس وتازى ومكناسة ، وذلك لكى يكفوا الغارة عنهم (١) .

وكان أهم ما حدث فى تلك الفترة القصيرة ، قيام عرب الخُلط ، وشيخهم هلال بن مقدم ، وهسكورة ، وشيخها عمر بن وقاريط ، بالعيث فى نواحى مراكش ، وتخريبهم بلاد دُكالة . وخرج إليهم فى البداية ابن يوجان فلم يستطيع شيئاً ، فوجه إليهم العادل عسكراً من الموحدين بقيادة إبراهيم بن إسماعيل بن أبى حفص ، فهزم وقتل ، واستمرت أعمال العدوان والعيث على حالها(٢) .

وبينما المغرب يجوز فى ظل العادل ، هذه الفترة المدلهمة ، إذ وقع بالأندلس حدث جديد ضخم ، هو خروج السيد أبى العلى والى إشبيلية وقرطبة على أخيه العادل ، وخلع طاعته ، وإعلانه الدعوة لنفسه ، ومبايعته بالخلافة فى إشبيلية ، وذلك فى الثانى من شهر شوال سنة ٦٢٤هـ ( ١٥ سبتمبر سنة ١٢٢٧ م ) . ولم يتخذ السيد أبو العلى قراره ارتجالا ، بل مهد إليه بالسعى والاتصالات ، وكان معه بإشبيلية عدة من وجوه الموحدين وأشياخهم ، الذين يعتد برأيهم ، فأراد أن يسبر غورهم أولا ، فاتفق مع قاضى المدينة ، أبى الوليد بن أبى الأصبغ ابن الحجاج ، وكان ذلك فى أواخر شهر رمضان ، أن ينشىء خطبة بليغة يلقيها فى يوم الفطر ، وأن يتعرض فيها لمسألة الخلافة ، وأن يشير بلباقة إلى ما يجول بخاطره من القيام بالأمر ، فألقى القاضى خطبته حسبما اتفق ، وأطنب فى ذكر السيد واستحقاقه للأمر ، وفى اليوم التالى ، اجتمع أشياخ الموحدين بمجلس السيد أبى العلى ، وقام الجميع بمبايعته ، واتخذ لقب المأمون ، وبايعه على أثر ذلك بعض ولاة الأندلس ، وفى مقدمتهم السيد أبو زيد والى بلنسية ، وبعثوا ببيعاتهم إليه . وكذلك بايعته من أنحاء العدوة سبتة وطنجة(٣) .

---

(١) روض القرطاس ص ١٦٦ ، وابن خلدون ج ٧ ص ١٧٠ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٢ .

(٣) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٥٥ ، وروض القرطاس ١٦٦ .

ويقول لنا ابن الخطيب ، إن أبا العلى ، قام على أخيه العادل بممالأة أخيه السيد أبى زيد أمير بلنسية وتحريكه إياه ، وقد وهم ابن الخطيب فجعل من السيد أ زيد وأخيه عبد الله البياسى ، أخوين للعادل وأبى العلى ، فى حين أنهما من أبناء عمومتهما ، إذ أن أبا زيد عبد الرحمن والى بلنسية ، وأخاه عبد الله البياسى ، هما ولدا محمد بن يوسف بن عبد المؤمن ، ومحمد هو أخ ليعقوب المنصور(١).

وبعث أبو العلى المأمون إلى ابن يوجان ، يدعوه إلى مبايعته والعمل على نصرته ، وكان العادل قد تغير على ابن يوجان وأقصاه ، وخاطب ابن يوجان هلال بن مقدم أمير الخُلْط ، وعمر بن وقاريط شيخ هسكورة ، وأوعز إليهما بالاستمرار فى الإغارة على أحواز مراكش ، حتى يذعن الموحدون إلى خلع العادل ومبايعة المأمون(٢). ويقول لنا صاحب روض القرطاس من جهة أخرى إن المأمون أرسل إلى الموحدين بمراكش يدعوهم إلى بيعته ، وإلى الفتك بأخيه العادل ، وأنهم صدعوا بأمره ، وقتلوا العادل ، وكتبوا ببيعتهم إليه(٣) . على أن الأمور اتخذت فى بلاط مراكش وجهة أخرى. وكان يسيطر على الدولة رجلان هما أبو زكريا بن الشهيد زعيم هنتاتة ، ويوسف بن على شيخ تينملّل . فلما وردت الأنباء بقيام أبى العلى المأمون وبيعته ، ولما تفاقم أمر الخُلط وهسكورة ، اتفقا على خلع العادل وعقد البيعة لأبى زكريا يحيى بن محمد الناصر . فدخل الموحدون القصر على العادل ، وطلبوا إليه أن يخلع نفسه ، ولما أصر على الرفض قتاوه ؛ وذلك فى اليوم الثانى والعشرين من شهر شوال سنة ٦٢٤ هـ . ويقول لنا صاحب روض القرطاس إن القتلة ، وضعوا رأس العادل فى خصة تفور بالماء ، وشنقوه بعمامته حتى مات . ويزيد على ذلك بأن الموحدين عقدوا البيعة أولا للمأمون ، وبعثوا بها إليه ، وخُطب له بالفعل على منبر جامع المنصور ، ثم خشوا بعد ذلك بطشه وانتقامه ، فنكثوا البيعة ، وبايعوا إلى ابن أخيه يحيى بن الناصر(٤).

ويؤيد ابن الخطيب هذه الرواية ، فيقول لنا إن الموحدين عقدو البيعة للمأمون بمراكش والأندلس ، ثم إن الموحدين بمراكش بدا لهم فى أمره ،وعدلوا

---

(١) ابن الخطيب فى الإحاطة (القاهرة ١٩٥٦) ج ١ ص ٤١٩ ، ومخطوط الإسكوريال (١٦٧٤ الغزيرى ) لوحة ٥٤ .

(٢) الروض المعطار ص ٦٩ . (٣) روض القرطاس ص ١٦٦ و١٦٧ .

(٤) البيان المغرب ص ٢٥٣ ، وروض القرطاس ص ١٦٤ و١٦٧ .

عنه إلى ابن عمه (والصحيح ابن أخيه)، أبي زكريا يحيى بن الناصر[1] ثم يؤيدها بعد ذلك بصورة قاطعة ، ماحدث ، عقب استيلاء المأمون على العرش ، من قتله لأشياخ الموحدين ، جزاء لهم على نكث بيعته بعد عقدها[2] .

وعلى أى حال فقد انتهى الموحدون بمراكش ، إلى البيعة ليحيى بن الناصر. ويقول ابن عذارى إن هذه البيعة قد تمت فى اليوم الثانى والعشرين من شهر شوال أعنى فى نفس اليوم الذى قتل فيه العادل[3] ، وهذا ما لايتفق مع سير الحوادث ، وعقد البيعة للمأمون ثم النكث بها ، ومن ثم فأنا نوثر الأخذ برواية صاحب روض القرطاس وهو أن بيعة يحيى قد تمت فى اليوم الثامن والعشرين من شهر شوال سنة ٦٢٤ هـ[4] ، أعنى بعد مصرع العادل بأسبوع ، وهو أكثر اتفاقاً مع المنطق . وكان يحيى بن الناصر ، هو الذى اجتنى ثمرة الجريمة ، وليس أخو الخليفة المقتول ، وقبض بعد ذلك بأشهر قلائل على الوزير السابق أبى زيد بن يوجان ، وولده الأكبر بالرغم من اختفائهما وقتلا ، وذلك لما نسب إليهما من تحريض عرب الخُلط وهسكورة على الاستمرار فى عيثهما[5] .

وتلقب يحيى بن الناصر ، بالمعتصم ، وكان وقت تقلده الخلافة ، فتى حدثاً فى السادسة عشرة من عمره ، وامتنع من بيعته عرب الخُلط ، وقبيلة هسكورة ، وبقيا على ولائهما فى بيعة المأمون .

ولما وصلت هذه الأنباء إلى المأمون بالأندلس ، استشاط سخطاً وغضباً ، وكان قد أخذ بالفعل فى الأهبة للمسير ، وقصد إلى الجزيرة الخضراء ليجوز منها إلى العدوة ، فارتد إلى إشبيلية ، وقد آلى على نفسه أن يعمل بكل ما وسع لانتزاع عرش الخلافة ، والانتقام من أولئك الأشياخ المنافقين الذين غدروا به ونكثوا بيعته .

بيد أنه يجب قبل أن نتتبع مصاير الخليفة المأمون ، وما اقترن بعهده من أحداث المغرب ، أن نقف لحظة لكى نستأنف الكلام على سير الحوادث بالأندلس .

---

(١) الإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٤١٩ .
(٢) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٦٥ .
(٣) البيان المغرب ص ٢٥٣ .
(٤) روض القرطاس ص ١٦٥ .
(٥) الروض المعطار ص ٦٩ و ٧٠ .

# الفصل الثالث

## عصر الخليفة أبى العـــلى المأمون

### إلغاء رسوم المهدى ابن تومرت

### وقيام الدولة الحفصية بإفريقية

المأمون يعقد حلفاً مع قشتالة . شروط هذا الحلف . معاونة فرناندو الثالث العسكرية للمأمون . عبور المأمون إلى المغرب . اللقاء بينه وبين يحيى المعتصم . هزيمة يحيى وفراره . دخول المأمون مراكش. فتكه بأشياخ الموحدين . القتال ثانية بين يحيى والمأمون . هزيمة يحيى وفراره للمرة الثانية . مرسوم المأمون بإزالة رسوم المهدى وإعلانه بطلان دعوته . كتابه فى ذلك . رواية أخرى عن إزالته للدعوة المهدية . ماكان يجيش به المنصور من ذلك . بناء النصارى لكنيستهم فى مراكش . إفريقية تحت ولاية الشيخ أبى محمد عبد الواحد . وفاته وقيام ولده أبى محمد عبد الله مكانه . الخليفة الموحدى يعين أميراً لتونس . تحرك يحيى بن إسحاق بن غانية . نهوض السيد أبى العلاء من تونس لقتاله . أطوار القتال بين الفريقين . هزيمة ابن غانية وفراره . ولاية السيد أبى زيد لإمارة تونس ثم إقالته . العادل يعين أبا محمد عبد الله لولاية إفريقية . دخوله تونس وتعيينه لأخيه أبى زكريا لحكم قابس ، وأخيه أبى ابراهيم لحكم توزر . تأثل هيبة الشيخ أبى محمد عبد الواحد وبنيه بإفريقية . عود ابن غانية للعيث فى شمال إفريقية . اقتحامه لقسنطينة ومليانة والجزائر . خروج الشيخ أبى محمد لمطاردته . مسيره صوب أحواز مجلماسة . استعراض لمغامرات بنى غانية . تدهور مثلهم الثورية . هزيمتهم وانهيار أحلامهم . الأعوام الأخيرة من حياة يحيى بن غانية . وفاته وتعليق ابن خلدون عليها . مصرع الخليفة العادل وقيام يحيى مكانه . اضطراب أمر الخلافة الموحدية . قيام الخليفة المأمون وماتلا ذلك . توقف أبى محمد عبد الله عن مبايعته . عزله وتعيين أخيه أبى زكريا لولاية إفريقية . محاولة أبى محمد مقاتلة أخيه ورده عن ذلك . استدعاء الأشياخ لأبى زكريا واعتقال أبى محمد . مسير أبى زكريا إلى تونس. تعيين المأمون لبعض العمال الجدد. غضب أبى زكريا لذلك . خلعه لطاعة المأمون . رواية أخرى عن نزاع الأخوين وقيام أبى زكريا فى الحكم. خلع طاعة بنى عبد المؤمن واستقلال إفريقية . استيلاء أبى زكريا على قسنطينة وبجاية من الولاة الموحدين . قيام إفريقية المستقلة تحت حكم الدولة الحفصية . بنو حفص والشيخ أبو محمد عبد الواحد . انشغال بلاط مراكش وعجزه . كتاب المأمون بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . السيد أبو موسى والى سبتة يدعو لنفسه بالخلافة . الثورة فى منطقة فازاز . مسير المأمون لمعاقبة الثوار . تفرق الثوار ومسير المأمون إلى سبتة . فشل محاصرته لها . عبور أبى موسى إلى الأندلس . تنازله عن سبتة لابن هود . اقتحام يحيى لمراكش . احراقه لكنيستها وقتله للنصارى . عود المأمون ووفاته فى الطريق . اتفاق الأشياخ على مبايعة ولده الرشيد . مسير جيش المأمون إلى مراكش . امتناعها واستعدادها للقاومة خشية انتقام الجند النصارى . صدور ظهير الرشيد بتأمينها . دخوله المدينة . تعويض النصارى افتداء للمدينة . الخليفة أبى العلى المأمون ونشأته وصفاته . براعته البيانية . نموذج من بلاغته . بعض شعره . وزراؤه وكتابه . شخصه وأولاده .

لما عاد المأمون إلى إشبيلية ، بعد أن أخفق فى التغلب على ابن هود ، كانت تشغله فكرة واحدة ، هى العبور إلى المغرب ، وانتزاع العرش من يد أبن أخيه يحيى ، ومعاقبة الناكثين لبيعته . وكان مما يشجعه على العبور ، أن وردت إليه من المغرب بيعات والى فاس ، ووالى تلمسان محمد بن أبى زيد بن يوجان ، ووالى سبتة ، وهو أخوه أبو موسى بن المنصور ، ووالى بجاية ، وهو ابن أخته ، وكذلك وصلت إليه بيعة مقدم بن هلال أمير عرب الخلط ودعوته بالقدوم[1] .
على أن المأمون لم يرد العودة دون قوة عسكرية تكفل له النجاح ، ومن ثم فقد اتجه نحو ملك قشتالة ، وكان فرناندو الثالث ، قد عبر الحدود إلى الأندلس فى أواخر سنة ١٢٢٨ م ( أوائل سنة ٦٢٦ هـ ) ، وهو يرقب حوادث الأندلس وما تجوزه من فتن ومعارك داخلية ، تمهد سبل الوثوب . فبعث إليه المأمون يعرض تجديد الهدنة السابقة إلى عام آخر بنفس الشروط ، أعنى مقابل دفع ثلاثمائة ألف قطعة Maravedi من الفضة ، ويطالب إليه فى نفس الوقت عقد حلف يحصل بمقتضاه على قوات عسكرية تعبر معه إلى المغرب . ويقدم لنا صاحب روض القرطاس خلاصة الشروط التى اشترطها ملك قشتالة لعقد هذا الحلف وقبلها المأمون ، وهى أن يسلمه المأمون عشرة من الحصون الإسلامية فى منطقة الحدود يختارها بنفسه ، وأن تُبنى بمراكش كنيسة للنصارى يقيمون فيها شعائرهم ، وأنه إذا أسلم أحد من النصارى فلا يقبل إسلامه ، ويرد إلى إخوانه يقضون فى أمره ، وفق ما يرون ، وإن تنصر بالعكس أحد من المسلمين فليس لأحد عليه سبيل . بيد أنه يبالغ فى قيمة العون الذى قدمه ملك قشتالة للمأمون ، فيقول إنه بعث إليه بجيش كثيف من إثنى عشر ألف فارس من النصارى ، برسم الخدمة معه ، والجواز إلى العدوة ، وأن هذا الجيش الضخم ، وصل إلى المأمون فى شهر رمضان سنة ٦٢٦ هـ ، فكان المأمون بذلك أول من قام بإجازة الروم إلى العدوة على هذا النحو[2] ، وفى هذا القول مبالغة ظاهرة ، وليس من المعقول أن يعبر ملك قشتالة مثل هذا العدد الضخم من فرسانه للخليفة الموحدى ، والجيش القشتالى كله لم يكن يضم فى كثير من المواقع الضخمة أكثر من هذا العدد من الفرسان .
والحقيقة التى تقدمها إلينا الرواية النصرانية ، هى أن ملك قشتالة لم يمد المأمون

( ١ ) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٣ ، والزركشى فى تاريخ الدولتين ص ١٦ .

( ٢ ) روض القرطاس ص ١٦٧ .

بأكثر من خمسمائة فارس(١) . وهذا هو بالذات مايقرره ابن عذارى ، إذ يقول مشيراً إلى عزم المأمون على الجواز إلى العدوة : « فحشد الحشود ، وزم الجنود ، وجمع نحو خمسمائة فارس من الروم ، لما كان يبغى من الحركة ويروم »(٢) . ويكتفى ابن الخطيب بأن يصف هذه القوه التى أمد بها ملك قشتالة حليفه المأمون بأنها « جمع من فرسان الروم »(٣) .

وعبر المأمون البحر فى حشوده من الموحدين والعرب والقشتاليين ، ولم يترك بإشبيلية وباقى القواعد الأندلسية الباقية على طاعته ، سوى بعض الحاميات الضئيلة . وكان جوازه من الجزيرة الخضراء إلى سبتة ، وذلك فى شهر ذى القعدة سنة ٦٢٦ هـ ( أكتوبر سنة ١٢٢٨ م ) . فأقام فى سبتة أياماً ، ينظم قواته ، ويستعد للسير إلى غزوته المنشودة . ثم سار فى قواته صوب الحاضرة الموحدية ، وكان ابن أخيه الخليفة الفتى يحيى بن الناصر وأشياخ الموحدين الموالين له ، حينما بلغهم عبور المأمون إلى العدوة ، قد استعدوا للقائه . وخرج يحيى فى قواته من العرب ، والموحدين ، لرد المأمون ، وكان اللقاء على جبل إيجليز ، على مقربة من مراكش ، وذلك فى اليوم الخامس والعشرين لربيع الأول سنة ٦٢٧ هـ ( يناير ١٢٢٩ م ) ، فهجم الفرسان النصارى على قبة يحيى الحمراء واقتحموها ، ومزقت حشوده وقتل معظمهم ، وفر هو ناجياً بنفسه ، والتجأ إلى جبل هنتاتة . ودخل المأمون حضرة مراكش ، فبادر أشياخ الموحدين إلى بيعته ، واستقر فى كرسى الخلافة(٤) .

وكان أول عمل قام به المأمون ، هو تتبع خصومه والناكثين لبيعته ، ولاسيما من أشياخ هنتاتة ، وتينملل ، ولجأ فى ذلك إلى حيلة لاجتذابهم فأعلن الأمان ، فهرع معظمهم للسلام عليه ، ولما تم اجتماعهم ، استحضر خطوطهم وبيعاتهم ، ثم أخذ يحاسبهم على تصرفاتهم وعلى خديعتهم ، ونكثهم المتكرر ببيعاتهم ، وذلك بحضرة القاضى الفقيه المكيدى ، وكان قد حضر معه من إشبيلية ، ثم خاطب القاضى بقوله : « ما تقول يا فقيه فى قوم بايعوا شخصاً ، ثم نكثوا عليه وخلعوه ، ثم قتلوه ، ثم بايعوا شخصاً آخر فنكثوا عليه وقتلوه ، ثم بعثوا ببيعتهم هذه إلى ثم نكثوا

(١) J. Gonzalez : Las Conqusitas de Fernando III en Andalucia p. 59, Nota 14

(٢) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٦٤ .

(٣) الإحاطة ( القاهرة ١٩٥٦ ) ج ١ ص ٤١٩ .

(٤) البيان المغرب ص ٢٦٥ ، وروض القرطاس ص ١٦٧ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٣ ، وابن الخطيب فى الإحاطة ج ١ ص ٤١٩ .

أيضاً على » فقال القاضى : « وجب عليهم القتل أجمعين » وتلا الآية : « ومن نكث فإنما ينكث على نفسه » فأمر المأمون بإعدامهم جميعاً ، وكانوا نحو مائة من أعيان الموحدين ، ودفنوا على الأثر فى حفرة كبيرة حفرت لهم خارج باب السادة ، ثم تتبع من بقى منهم بمراكش ، حتى فنى معظمهم ، وتضاءلت بذلك مشيخة الموحدين ، وضعف نفوذها القوى ، الذى لبث ، منذ أيام المهدى ، يأخذ بأكبر نصيب فى توجيه مصاير الدولة الموحدية[1] .

وفى شهر رمضان من هذا العام ( ٦٢٧ هـ ) خرج المأمون من مراكش ليرد هجوماً جديداً كان يدبره يحيى بن الناصر وأنصاره من الموحدين . فالتقى الفريقان بفحص واونزرت ، فوقعت الهزيمة للمرة الثانية على يحيى وأصحابه ، وقتل منهم عدد ضخم ، وفر يحيى فى فلوله إلى بلاد درعة وسجلماسة ، وعلق المأمون من رؤوسهم على أسوار مراكش نحو أربعة آلاف ، وكان الوقت قيظاً ، فانتشرت روائحها الكريهة فى المدينة ، وضج الناس من ذلك ، ورفع الأمر إلى المأمون ، فكان جوابه أنه يوجد ثمة مجانين ، وتلك الرؤوس لهم أحراز لايصاح حالهم إلا بها ، وإنها لعطرة عند المحبين ، كريهة عند المبغضين[2] .

وكان المأمون يجيش بأفكار ومشاريع عظيمة ، نحو تجديد الدولة الموحدية ، وتجديد رسومها وتعاليمها ، بعد أن أضحت فى نظره عتيقة بالية . وقد تذرع فى تنفيذ خطته بمنتهى الشجاعة والجرأة ، وقد كان المأمون فى الواقع شجاعاً صارماً ، مضطرم النفس ، فأصدر مرسومه إلى سائر بلاده بإزالة اسم المهدى من الخطبة ومن السكة ، ومحو اسمه من المخاطبات ، وقطع النداء عند الصلاة بالنداءات البربرية مثل « تاصليت الإسلام » « وسودود » و« ناردى » « وأصبح ولله الحمد » وغير ذلك مما كان العمل جارياً عليه منذ بداية الدولة الموحدية . وأذاع فى كتابه الرسمى ، الذى أنشأه بنفسه ، أن وصف ابن تومرت بالمهدى وبالإمام المعصوم « إنما هو نفاق وبدعة وأمر باطل ، وأنه يجب نبذه والقضاء عليه » . وقد أورد لنا ابن عذارى نص هذا الكتاب الشهير ، الذى يعتبر صدوره حدثاً حاسما فى تاريخ العقيدة الموحدية ، ونحن ننقله هنا لبالغ أهميته :

« من عبد الله إدريس أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين ،

---

( ١ ) البيان المغرب ص ٢٦٥ ، وروض القرطاس ص ١٦٨ ، والإحاطة ج ١ ص ٤١٩ .

( ٢ ) البيان المغرب ص ٢٧١ ، وروض القرطاس ص ١٦٨ .

إلى الطلبة والأعيان والكافة ، ومن معهم من المؤمنين والمسلمين ، أوزعهم الله شكر أنعمه الجسام ، ولا أعدمهم طلاقة أوجه الأيام الوسام ، وإنا كتبناه إليكم ، كتب الله لكم عملا منقاداً ، وسعداً وقاداً ، وخاطراً سليما ، لايزال على الطاعة قائماً مقيما ، من مراكش كلأها الله تعالى ، وللحق لسان ساطع ، وحسام قاطع ، وقضاء لايرد ، وباب لايسد ، وظلال على الآفاق لمحو النفاق بعد ، والذى نوصيكم به تقوى الله والاستعانة به ، والتوكل عليه ، ولتعلموا أنا نبذنا الباطل ، وأظهرنا الحق ، وأن لامهدى إلا عيسى بن مريم ، وما سمى مهدياً إلا أنه تكلم فى المهد ، وتلك بدعة قد أزلناها ، والله يعيننا على القلادة التى تقلدناها . وقد أزلنا لفظة العصمة عمن لاتثبت له عصمة ، فلذلك أزلنا عنه رسمه ، فتسقط وتبيت ، وتمحى ولاتثبت . وقد كان سيدنا المنصور ، رضى الله عنه ، هم أن يصدع بما به الآن صدعنا ، وأن يرقع للإمة الخرق الذى رقعنا ، فلم يساعده لذلك أمله ، ولا أجّله إليه أجله ، فقدم على ربه بصدق نية ، وخالص طوية ، وإذا كانت العصمة لم تثبت عند العلماء للصحابة ، فما الظن بمن لم يدر بأى يد يأخذ كتابه ، أف لهم قد ضلوا وأضلوا ، ولذلك ولوا وذلوا ، ما تكون لهم الحجة على تلك المحجة ، اللهم ، اشهد اللهم اشهد أنا قد تبرأنا منهم تبرأ أهل الجنة من أهل النار ، ونعوذ بك يا جبار من فعلهم الرثيث ، وأمرهم الخبيث ، إنهم فى المعتقد من الكفار ، وإنا فيهم كما قال نبيكم عليه السلام « رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا » والسلام على من اتبع الهدى واستقام »[1] .

وفى رواية أخرى هى رواية صاحب روض القرطاس ، أن المأمون بعد أن دخل مراكش وبايعه الموحدون ، صعد إلى المنبر بجامع المنصور ، وخطب الناس ، ولعن المهدى ، وقال أيها الناس لا تدعوه بالمعصوم ، وادعوه بالغوى المذموم ، إنه لامهدى إلا عيسى ، وانا قد نبذنا أمره النحيس به ، ثم أصدر مرسومه المتقدم ، بإزالة اسم المهدى من الخطبة والسكة ، وأن كل ما فعله المهدى ، وتابعه أسلافنا فهو بدعة ، ولا سبيل لإبقاء البدع . ثم دخل قصره فاحتجب ثلاثة أيام ، ثم خرج فى اليوم الرابع ، فاستدعى أشياخ الموحدين بين يديه ،

---

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٦٧ و ٢٦٨ ، وابن الخطيب فى الإحاطة (١٩٥٦) ص ٤١٩ ، و ٤٢٠ .

وعاتبهم على نقض عهودهم ، ثم أمر بإعدامهم حسبما تقدم[١]. بيد أنه يبدو من المرجح أن المأمون ، قد عمد أولا إلى التخلص من خصومه من أشياخ الموحدين ، ثم أقدم على تنفيذ خطته فى إزالة رسوم المهدى وتعاليمه .

ولاريب أن عمل المأمون كان أعظم انقلاب ثورى حدث فى أصول العقيدة الموحدية على يد بنى عبد المؤمن ، وقد أصاب الصميم من أسس هذه العقيدة وتعاليمها ، وقضى بصورة رسمية قاطعة ، ببطلان أحداث الأسطورة التى مثلت فى جبل إيجليز قبل ذلك بمائة واثنتى عشرة عاما ، وأعلن فيها محمد بن تومرت أنه المهدى المنتظر ، والإمام المعصوم .

ونحن نعرف أن الخليفة يعقوب المنصور ، كانت تساوره نحو المهدى مثل هذه الأفكار ، وأنه لم يكن من الغلاة فى تصوير إمامته ومهديته ، ولم يكن بالأخص من المؤمنين بعصمته ، فكان عمل المأمون فى الواقع ، وحسبما يشير إليه كتابه ، تنفيذاً لما كان يجيش به والده المنصور ، ولم يكن يجرأ فى وقته على المجاهرة به ، أو الإقدام على تنفيذه .

والظاهر أن عمل المأمون فى إزالة رسوم المهدى وتعاليمه ، لم يكن له كبير صدى ، ولم تترتب عليه أية معارضة أوبوادر انتقاض ، وبالعكس فقد أشاد الشعراء بتصرفه ، وأزجوا إليه مدائحهم فى قصائد عديدة ، يورد لنا ابن عذارى بعضها[١] .

وأذن المأمون فى نفس الوقت لحلفائه النصارى القادمين معه ، فى بناء الكنيسة بمراكش ، وهى التى اشترط ملك قشتالة إنشاءها ، وأخذت النواقيس منذ إتمامها ، تدق لأول مرة فى العاصمة الموحدية[٣] .

— ١ —

وكان من أعظم الحوادث الحاسمة فى عصر المأمون ، إلى جانب محو أصول العقيدة الموحدية ، انفصال إفريقية عن الدولة الموحدية ، وقيامها دولة مستقلة تحت سلطان بنى حفص . ونحن نعرف أنه لما تفاقم أمر يحيى بن إسحاق بن غانية

---

(١) روض القرطاس ص ١٦٧ و١٦٨ .
(٢) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٦٨ و٢٦٩ .
(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٣ .

الميورقى فى إفريقية ، واشتد عيثه بها ، واستولى على معظم قواعدها ، ثم استولى على تونس ذاتها ، وكاد سلطان الموحدين يمحى فى ذلك الركن من إمبراطوريتهم الشاسعة ، سار إليه الخليفة الناصر لدين الله فى الجيوش الموحدية ، ولبثت هذه الجيوش تطارده من مكان إلى مكان ، حتى ضربته ضربتها الحاسمة فى موقعة جبل رأس تاجرا فى سنة ٦٠٢ هـ ، وانتزعت منه قواعد إفريقية واحدة بعد أخرى ، ورأى الناصر تأميناً لإفريقية ، وتوطيداً لسلطان الموحدين بها ، أن يسند ولايتها إلى الشيخ أبى محمد عبد الواحد بن أبى حفص بن عمر الهنتاتى ، وهو الظافر فى معركة رأس تاجرا ، وكان الشيخ أبو محمد يومئذ عميد أشياخ الموحدين وأشدهم نفوذاً لدى الخليفة ، وكان فوق ذلك صهر الخليفة متزوجاً بأخته ابنة الخليفة المنصور ، فقبل الشيخ الولاية ، على كره منه ، واشترط لتقلدها شروطاً تكفل له الاستقلال التام برأيه وتصرفاته ، وأبدى الشيخ فى ولايته منتهى الحصافة والحزم ، ووقف بالمرصاد للميورقى ، وقضى على كل محاولاته ، ومحاولات حلفائه من طوائف العرب ، وغيرهم من المغامرين المفسدين ، وحقق لإفريقية عهداً من الاستقرار والطمأنينة والرخاء لم تعرفه منذ بعيد .

ولما توفى الخليفة الناصر ، بعد موقعة العقاب المشئومة بقليل ، فى اليوم العاشر من شعبان سنة ٦١٠ هـ ، وخلفه ولده يوسف المستنصر ، وبادر أشياخ الموحدين من سائر الأنحاء إلى بيعته ، تمهل الشيخ أبو محمد فى تقديم بيعته بعض الوقت ، وأحيط تصرفه يومئذ بمختلف التعليقات ، ولكنه انتهى بسعى الوزير ابن جامع إلى تقديم البيعة المنشودة . ولكن حدث حينما قام الخليفة المستنصر بتعيين عمال النواحى ، أن ندب عمه السيد أبا العلاء الكبير إدريس بن يوسف بن عبد المؤمن ليكون أميراً على تونس ، وليستقر بقصبتها ، ليعنى بتدبير شئونها ، والسهر منها على حركات الميورقى ، إلى جانب الشيخ أبى محمد عبد الواحد ، وأن يبقى الشيخ على ما هو من تقلد أعمال ولايته ، ولم يك ثمة شك فى أن هذا التعين لم يكن محلا لرضى الشيخ ، وأنه رأى فيه مضايقة له ، وافتئاتا على حقوقه وسلطانه[1].

وهناك قول آخر بأن تعيين السيد أبى العلاء لإمارة تونس لولاية إفريقية ، لم يقع إلا بعد وفاة الشيخ أبى محمد ببضعة أشهر ، فى أواخر سنة ٦١٨ هـ ، وأنه عين خلفاً للشيخ . ومما يعزز هذا القول ، هو أن السيد أبا العلاء ما كاد يتولى

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٧٣ و ٢٧٤ .

منصبه ، حتى أمر بالقبض على كاتب الشيخ ،محمد بن أحمد بن النجيل ، وأخويه أبي بكر ويحيى ، واستصفاء أموالهم ، وذلك بتهمة تآمرهم على سلامة الدولة ، ثم أمر بعد ذلك بإعدام ابن النجيل وأخيه يحيى [1] .

وتوفى الشيخ أبو محمد عبد الواحد بتونس فى مستهل شهر محرم سنة ٦١٨ هـ ( ٨ مارس سنة ١٢٢٠ م ) ، بعد أن لبث نيفاً وأربعة عشر عاما يضطلع بأعباء منصبه الشاقة ، وكان الشيخ بلاريب أقدر الحكام الذين ولوا حكم إفريقية ، وأمضاهم عزماً ، وأوفرهم شجاعة وجرأة ، وكان لعزمه وشجاعته أكبر الأثر فى تحطيم ثورة بنى غانية ، وإنقاذ سلطان الموحدين بإفريقية ، وحماية جناح الدولة الموحدية الشمالى الشرقى من الانهيار مدى حين .

وهنا تختلف الرواية مرة أخرى فى أمر من ولى حكم إفريقية عقب وفاة الشيخ ، فيقول لنا ابن عذارى متفقاً مع روايته الأولى ، إن ابنه أبا محمد عبد الله هو الذى خلفه فى منصبه ، وذلك تحت إشراف السيد أبى العلاء إدريس [2] ، وهناك قول آخر ، يتمشى مع الرواية الثانية ، وهو أن الذى خلفه فى منصبه هو السيد أبو العلاء إدريس ، معيناً من قبل الخليفة يوسف المستنصر .

وعلى أى حال فإن وفاة الشيخ أبى محمد عبد الواحد ، قد تمخضت عن نتيجتين فى منتهى الأهمية ، الأولى تحرك ابن غانية من جديد ، والثانية تحول مجرى الحكم فى إفريقية .

— ٢ —

وذلك أن يحيى بن إسحاق بن غانية ، ماكاد يعلم بوفاة خصمه العتيد ، الشيخ أبى محمد ، حتى تنفس الصعداء ، وأخذ فى التحرك من منفاه السحيق فى الصحراء ، وكان قد لزم ودّان وأحوازها ، منذ هزائمه الفادحة على يد الشيخ أبى محمد ، ولبث هناك زهاء تسعة أعوام يرقب الفرص ، فلما لاحت الفرصة بوفاة الشيخ ، سار فى الصحراء نحو الشمال ، وعاث فى بلاد الجريد ، فنهض السيد أبو العلاء فى جيش من الموحدين ، وسار إلى قابس ، ونزل بها بقصر العروسين ، حتى لاتسقط فى يد الثائر ، وبعث ولده السيد أبا زيد فى قوة إلى درج وغدامس ، وبعث قوة أخرى إلى ودان لرد ابن غانية ، ومحاصرته . ولكن العرب من أنصار

---

( ١ ) ابن خلدون ج ٦ ص ١٩٦ ، وكذلك : A. Bel : Les Benou Ghania, p. 164

( ٢ ) البيان المغرب ص ٢٧٤ .

ابن غانية وحلفائه اعترضوا سبيل الموحدين ، وفر ابن غانية فى جمعه من الملثمين والأعراب إلى جهة الزّاب ، فسار السيد أبو زيد فى أثره ، ونجح ابن غانية فى الوصول إلى الشمال والاستيلاء على بلدة بسكرة جنوبى قسنطينة ، وتخريبها ونهبها ، فهاجمه السيد أبو زيد ، وانتزعها منه ، وفر ابن غانية فى حشوده من العرب والبربر وسار شرقاً حتى اقترب من أحواز تونس ، فأتبعه السيد أبو زيد فى عسكر الموحدين والعرب الموالين ، ولاسيما عرب هوارة ، ونشب بين الفريقين فى مكان يسمى مجدول قتال مرير ، وهزم فيه ابن غانية ، وقتل كثير من جنده ، وامتلأت أيدى الموحدين من غنائمهم . وكان ذلك فى أوائل سنة ٦٢١ هـ ( ١٢٢٣ م ) . وفر ابن غانية فى فلوله نحو الجنوب مرة أخرى ، وأخذ يتجول بين الواحات ، وهو يحشد الأنصار ، وينتهب الأموال أينما استطاع ، ويرقب الفرص السانحة(١) .

وعلم السيد أبو زيد على أثر الموقعة بوفاة أبيه السيد أبى العلاء ، فارتد إلى تونس ليشغل منصبه فى الإمارة ، ووفقاً لهذه الرواية يكون تعيين السيد أبى زيد لولاية إفريقية ، قد جاء من قبل الخليفة أبى محمد عبد الواحد المخلوع ، الذى تولى الخلافة ، فى أواخر ذى الحجة سنة ٦٢٠ هـ . على أن ابن عذارى ، يقول لنا متفقاً مع روايته أن ولاية السيد أبى زيد الإمارة ، كانت على نمط ولاية أبيه السيد أبى العلاء ، وأن الشيخ أبا محمد عبد الله بن الشيخ أبى محمد عبد الواحد بقى على حاله مكان أبيه فى ولاية افريقية ، ينظر بالأخص فى تدبير الشئون وجباية الأموال . ولكن السيد أبا زيد أساء السيرة ، واشتد فى معاملة الناس ، خلافاً لما كان عليه الشيخ أبى محمد عبد الواحد وولده عبد الله . فسخط عليه الناس وتمنوا زوال حكمه ، واستمر السيد فى منصبه حتى توفى الخليفة أبومحمد عبد الواحد وتولى الخليفة العادل ، فأقال السيد أبا زيد من منصبه ، وذلك فى شهر ربيع الثانى سنة ٦٢٣ هـ ، وأرسل إلى إفريقية عمه السيد أبا عمران موسى بن ابراهيم بن اسماعيل الحفصى ليتولى الحكم بها حتى يصل إليها حاكمها الأصلى الذى اختاره الخليفة ، وهو أبو محمد عبد الله ابن الشيخ محمد عبد الواحد . وبعد ذلك ببضعة أشهر سار أبو محمد عبد الله وأخوه أبو زكريا يحيى إلى إفريقية ، وتوقف أبومحمد قليلا فى بجاية ، ومعه أخوه أبو عبد الله اللحيانى(٢) ، وبعث أخاه أبا زكريا إلى تونس

( ١ ) ابن خلدون ج ٦ ص ١٩٦ و١٩٧ ، والزركشى فى تاريخ الدولتين ص ١٤ وكذلك : **A. Bel : ibid; p. 167.**

( ٢ ) وقد عرف بهذا الاسم لطول لحيته ( ابن خلدون ج ٦ ص ٢٨١ ) .

ليمهد لاستقباله . ثم سار إلى تونس ، ودخلها فى اليوم السابع عشر من ذى القعدة سنة ٦٣٣هـ ( نوفمبر سنة ١٢٢٥ م ) فى مواكب حافلة ، واستقر فى منصبه دون منازع ، وندب الشيخ أبومحمد عبد الله ، أخاه الأمير أبا زكريا يحيى لحكم قابس والحمة ، وأخاه الأمير أبا ابراهيم لحكم توزر ونفطة ، وسائر بلاد قسطيلة[1] ، وتمكن بذلك سلطان بنى حفص بإفريقية . وكانت سيرة الشيخ أبى محمد ، وحكمه العادل ، وسياسته اللينة الرفيقة ، مما يسبغ على أسرته وبنيه من بعده ، حسن الذكرى ويحبوها بالمحبة والولاء من سائر الناس .

وفى تلك الأثناء ، كان يحيى بن غانية ، وهو فى مثواه بالصحراء ، يجد فى تحصيل الأموال ، وحشد الرجال ، ويرقب الفرصة للقيام بضربة جديدة ؛ وفى أواخر سنة ٦٢٣ هـ ، سار نحو الشمال فى اتجاه منطقة قسنطينة ، ثم اجتازها بسرعة ، واقتحم بجاية ، ثم غادرها لوقته صوب تدلس ، وهو يعيث قتلا ونهباً أينما حل ، ثم اتجه نحو الغرب ، وغزا متيجة ، وتوغل فى منازل زناتة ، واكتسح أحياءها ، وانتهب ثرواتها ، وحاول شيخ مغراوة ، عبد الرحمن بن منديل ، وهو من أولياء الموحدين ، أن يقف فى سبيله ، فهزمه ابن غانية وأسره ثم قتله ، ثم اتجه ابن غانية بعد ذلك شمالا واقتحم مليانة ، ثم استولى على الجزائر وصلب جثة ابن منديل على سورها . وخرج الشيخ أبومحمد عبد الله من تونس على عجل لمطاردة ابن غانية ، ووضع حد لعيثه ، وذلك فى أواسط سنة ٦٢٤هـ ، فسار أولا إلى أبة ، وهاجم منازل هوّارة ، وكانت ضالعه مع ابن غانية ، وقبض على زعمائها وأرسلهم مصفدين إلى المهدية . ثم سار فى أثر ابن غانية ، ودخل بجاية ، وأصلح شئونها ، وقصد بعد ذلك إلى مليانة ، وكان ابن غانية فى تلك الأثناء ، قد غادر الجزائر بعد اقتحامها ، وسار نحو الجنوب الغربى ، واستمر فى مسيره حتى وصل إلى أحواز سجلماسة ، فترك الشيخ أبومحمد مطاردته ، وعاد إلى تونس ، وذلك فى شهر رمضان سنة ٦٢٤ هـ[2] .

ومن ذلك الحين ، تغيض أخبار يحيى بن اسحاق بن غانية . وكان إلى ذلك الحين ، قد قطع أربعين عاما فى متابعة ذلك الصراع المرير ، الذى بدأه أخوه علىّ ضد الموحدين ، فى إفريقية ، والذى اتُخذت إفريقية ، لموقعها من الجزائر

---

(١) الزركشى فى تاريخ الدولتين ص ١٥ ، والبيان المغرب ص ٢٧٤ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ١٩٧ ، وكذلك : A. Bel : ibid; p. 174

الشرقية مثوى بنى غانية ، ونأيها عن مركز الحكومة الموحدية، وثرواتها الطائلة ، مسرحاً له ، والذى كانت تحدوه فى البداية مثلٌ سياسية وقومية ، ثم انحدر بعد طول النضال ، إلى غزوات خاطفة ، ومعارك ناهبة . وقد وصل ابن غانية إلى ذروة سلطانه، بالاستيلاء على سائر قواعد إفريقية بما فيها العاصمة تونس، خلا بجاية ، ثم قلب له الحظ ظهر المجن ، فانتزع الموحدون الجزائر الشرقية ، مثوى أسرته وموئل سلطانها ، ومستودع مواردها ، وذلك فى سنة ٦٠٠ هـ ، ثم لقى هزيمته الحاسمة فى موقعة جبل تاجرا فى سنة ٦٠٢ هـ . ومع ذلك ، وبالرغم من تمزق حشوده ، وتضاءل موارده ، فإنه لم يخْبُ لهعزم ، ولم تضعف له إرادة ، فاستمر فى نضاله اليائس أعواماً طويلة أخرى ، ولكنه كان نضال العصبة المغامرة، والانتقام المضطرم . وكان من الواضح أن الحلم الذى كان يجيش به بنو غانية ، وهو العمل على إحياء الإمبراطورية المرابطية فى إفريقية ، وفوق أنقاض سلطان الإمبراطورية الموحدية ، قد تحطم وتلاشى ، بيد أنه لم يك شك أيضاً فى أن هذه الضربات المتوالية ، التى أنزلها على بن إسحاق بن غانية ، وأخوه يحيى ، مدى نصف قرن بسلطان الموحدين وجيوشهم فى إفريقية، قد هزت من أركان الدولة الموحدية وساعدت على تفككها ، وتبديد مواردها وقواها ، وكانت عاملا من أهم العوامل التى اجتمعت فى تلك الفترة ، لتمهد إلى انهيارها وسقوطها .

وقد عاش يحيى بن غانية أعوامه الأخيرة بين قليل من الصحب والجند ، حياة شريد لايستقر له مقام ، بيد أنه لم ينقطع عن الإغارة على تخوم إفريقية كلما استطاع ، ولم ينقطع أمير افريقية ، وكان عندئذ أبازكريا يحيى عن مطاردته ورده عن أراضيه ، وأقام فوق ذلك فى مختلف الحدود مراكز ثابتة ، مزودة بالجند للسهر على حركات الثائر ، وإخمادها فى بدايتها ، ومع ذلك فإن ابن غانية كان دائم النشاط والحركة ، دائم الإغارة والعيث ، حتى أنه كان من وقت لآخر يصل فى غاراته شمالا حتى وادى شليف ، واستمرت هذه الغارات حتى سنة ٦٢٦ هـ . بيد أن هذه لم تكن سوى النفثات الأخيرة لثورة عاتية ، ولم يكن يلتف حوله عندئذ سوى القلائل من صحبه المخاصين ، ولم يكن له أهل ولاولد ، بعد أن مات أخوته وولداه فى ساحة الحرب ، سوى عدد من البنات، وكان فى هذه الأعوام الأخيرة ، يشهد انحلال الدولة الموحدية التى نذر نفسه لكفاحها ، ولكنه كان يرى فى نفس الوقت أنه لم يجن من صراعه وصراع أسرته

الذى استطال خمسين عاما ، أية نتائج مادية ، وأن علم الدولة المرابطية الذى حاول أن يرفعه سوف يخبو بوفاته إلى الأبد . ثم كانت الخاتمة النهائية ، وتوفى يحي بن اسحاق بن غانية ، وهو فى محلته على ضفاف نهر شليف على مقربة من مليانة ، وذلك فى سنة ٦٣١هـ أو سنة ٦٣٣هـ ( ١٢٣٤م ) ودفن هنالك ، ثم عفى أثر مدفنه . قال ابن خلدون معلقاً على موته : « وانفض أمر الملثمين من مسوفة ولمتونة من جميع بلاد إفريقية ، والمغرب والأندلس ، بمهلكه ، وذهب ملك صنهاجة ، من الأرض ، بذهاب ملكه وانقطاع أمره » . وقيل إن يحي بعث قبيل وفاته ببناته إلى الأمير أبى زكريا ليعشن فى كنفه ، فأكبر الأمير الحفصى حسن ظنه ، وأحسن كفالتهن ، وابتنى لصونهن داراً خاصة بحضرة تونس ، عرفت بقصر البنات ، وأقمن بها فى عيش رغد ، محروسات مشمولات بأقصى رعاية ، حتى توفين عانسات معمرات ، ولم يقبلن الزواج من أحد[1] .

— ٣ —

وهنا نعطف على ذكر الحدث الثانى الذى ترتب على فاة الشيخ أبى محمد عبد الواحد بن أبى حفص والى افريقية ، وذلك فى مستهل شهر المحرم سنة ٦١٨هـ .

وقد رأينا فيما تقدم أن الذى خلف الشيخ أبا محمد فى ولاية إفريقية ، هو ولده أبو محمد عبد الله ، وذلك على خلاف فى تاريخ هذه الولاية وكيفية نوعها ، مما سبق لنا تفصيله ، وعلى أى فقد كان أبو محمد عبد الله قائماً فى ولاية إفريقية ، مذ حل بتونس فى شهر ذى الحجة سنة ٦٢٣هـ ، وكان الذى قلده ولايتها وفقاً لذلك ، هو الخليفة العادل .

ولم تمض عدة أشهر على ذلك ، حتى وقع مصرع الخليفة العادل ، بعد مصرع سلفه الخليفة أبى محمد عبد الواحد ، وجلوس الخليفة الفتى يحي المعتصم على كرسى الخلافة ، مكانه فى شوال سنة ٦٢٤ . ثم تفاقم اضطراب أمر الخلافة الموحدية ، بقيام السيد أبى العلى بن المنصور بالأندلس ، والدعوة لنفسه باسم المأمون ، وجوازه إلى العدوة ، واستيلائه على كرسى الخلافة من يد ابن أخيه يحي المعتصم ، وقتله لأشياخ الموحدين ، وذلك فى أوائل سنة ٦٢٦ هـ . وقد كان لذلك كله أعمق وقع فى إفريقية . ولما بعث المأمون إلى أبى محمد عبد الله والى إفريقية ليأخذ له البيعة ،

( ١ ) نقلنا هذه التفاصيل الأخيرة عن وفاة يحيى وبناته عن ابن خلدون ج ٦ ص ١٩٧ ، وكذلك : A. Bel : ibid; p. 186 .

توقف عن عقدها ، فكتب المأمون عندئذ إلى أبى زكريا يحيى أخى السيد أبى محمد ، وكان يومئذ حاكماً لقابس ، بالولاية على إفريقية ، وعزل أخيه السيد أبى محمد ، فبادر أبوزكريا بعقد البيعة للمأمون ، ووقعت الوحشة بذلك بين الأخوين .

ذلك أنه لما علم أبومحمد عبد الله ، بما كان من أخيه أبى زكريا ، خرج فى عسكره من تونس ، فلما وصل إلى القيروان جميع أشياخ الموحدين ونبأهم بما اعتزم من قتال أخيه ، فأنكر الأشياخ عليه ذلك ، واعتذروا إليه عن تنفيذ فكرته ، وذلك لحبتهم للأمير أبى زكريا وتقدير صفاته ، فأصر أبومحمد على رأيه ونهرهم ، فأغلظوا له القول ، وكادوا يعتدون عليه . وبعث الأشياخ إلى أبى زكريا ينبئونه بما حدث ، ويستدعونه إليهم ، فقدم أبوزكريا على الأثر ، وتسلم قيادة العسكر ، وأمر بالقبض على أخيه أبى محمد ، وحمل محروساً إلى تونس ، وهناك اعتقل حيناً بقصر ابن فاخر . ودخل الأمير أبوزكريا تونس فى اليوم الرابع والعشرين من رجب سنة ٦٢٥هـ ، وأمر فى الحال بالقبض على أبى عمر كاتب أخيه ، فقبض عليه وعذب وقتل ، ثم بعث بأخيه أبى محمد إلى المغرب عن طريق البحر . وتولى أبوزكريا حكم إفريقية باسم الخليفة المأمون . ولكن لم يمض قليل على ذلك حتى بعث المأمون من قبله بعض عمال (حكام) إلى تونس ، فثار لذلك أبو زكريا ، وصرفهم ، وخلع طاعة المأمون ، وأمر بالخطبة ليحيى المعتصم . وكانت هذه أول خطوة فى استقلال إفريقية[1] .

بيد ابن عذارى يقدم إلينا عن نزاع الأخوين ، واستيلاء أبى زكريا على الحكم ، رواية أخرى ، خلاصتها أنه لما تفاقم اضطراب الأحوال فى البلاط الموحدى ، وتوالى قتل أشياخ الموحدين ، جمع الأمير أبو زكريا أشياخ الموحدين بتونس ، وشرح لهم الأحوال ، وفاوض أخاه أبا محمد عبد الله فى وجوب خلع طاعة الخلافة المؤمنية ، والاستقلال بالحكم ، فأبى عبد الله كل الإباء ، واعتقل أخاه أبا زكريا بداره ، ففر أبو زكريا من معتقله ، وسار إلى قابس ، وهنالك تفاوض مع شيخها ابن يكى ، فوافقه على مشروعه ، ثم خاطبه الموحدون من تونس ، باجتماع كلمتهم على اختياره ، واتفقوا معه على التنفيذ ، متى خرج أخوه عبد الله برسم الحركة إلى القيروان . فلما خرج عبد الله بقواته ، ونزل بظاهر تونس ، طالبه الجند ببركاتهم ، فتلكأ فى الإجابة ، وكان أبو زكريا قد قدم فى صحبه ، ونزل على مقربة من محلة أخيه ، فبادر الجند إلى خباء أخيه ، ورموه بالحجارة حتى

---

(١) الزركشى فى تاريخ الدولتين ص ١٧ .

كاد يهلك ، ففر أمامهم ، وعفّ الجند عن قتله إكراماً لأخيه ، وقصد عبد الله إلى مراكش ، وفى الحال جلس الأمير أبوزكريا مجلس الأمراء ، وبايعه أشياخ الموحدين ، ثم دخل تونس وبويع بها بيعة الخلفاء ، واختار وزراءه وكتابه . وأبقى أبو زكريا فى البداية ذكر الإمام المهدى ، فى الخطبة وغيرها من المراسيم(١).

وتمت هذه الخطوة الأولى فى استقلال إفريقية فى أول سنة ٦٢٧هـ ( نوفمبر ١٢٢٩ م ) وأعلن أبوزكريا يحيى خلع طاعة بنى عبدالمؤمن ، وتسمى أولاً بالأمير وجعل ذلك اللقب فى صدر كتبه . ولما كانت قسنطينة وبجاية ، مازالتا بيد الحكام الموحدين ، وكان أبوزكريا ، يرمى إلى تحقيق استقلال إفريقية بسائر جهاتها وأراضيها ، فقد بادر فى العام التالى ( ٦٢٨هـ ) بالزحف على قسنطينة ، وحاصرها أياما ، وانتهى الأمر بأن مُكن من دخولها ، فدخلها وقبض على واليها الموحدى ، وولى عليها عاملا من قبله ، ثم سار إلى بجاية فافتتحها ، وقبض على واليها الموحدى أبى زكريا عمران ، وبعث بالواليين المقبوض عليهما إلى المهدية ، وبعث بأهلهما وأولادهما فى البحر إلى الأندلس ، وقبض كذلك على عدة من أشياخ الموحدين والعرب الموالين لهم ، وأرسلهم أيضاً إلى المهدية ، فزجوا إلى مطبقها ، واستكملت بذلك سيادة بنى حفص على سائر رقعة الوطن الإفريقى . وصحب الأمير أبا زكريا أخوه أبوعبدالله اللحيانى ، وكان متولياً أشغال بجاية . أما أخوه أبو محمد عبدالله والى إفريقية السابق ، فقد لقى مصرعه بمراكش ، وكان قد لجأ إليها .

وفى يوم الجمعة السابع من صفر سنة ٦٣٣ هـ دعى فى الخطبة للأمير أبى زكريا بعد ذكر الإمام ، وبويع للمرة الثانية بيعة تامة شاملة ، لم يتخلف فيها أحد ، ولكنه استمر مقتصراً على لقب الأمير ، ولم يتسم بأمير المؤمنين(٢).

وهكذا قامت بإفريقية ، بأحد أقاليم الدولة الموحدية الكبرى ، دولة جديدة ، هى الدولة الحفصية ، نسبة للأسرة التى أنشأتها وحكمتها ، وهم بنو حفص ، أبناء الشيخ أبى محمد عبد الواحد بن أبى حفص عمر بن يحيى الهنتاتى ، وقد كان أبوحفص عمر بن يحيى من أصحاب المهدى العشرة ، وكان زعيم هنتاتة أقوى قبائل مصمودة ، وهو الذى مهد لخلافة عبد المؤمن عقب وفاة المهدى ، وكان له أعظم شأن وأقوى نفوذ لدى الخلافة الموحدية ، وكانت وفاته بعد حياة حافلة بجلائل الأمور فى سنة

---

( ١ ) البيان المغرب القسم الثالث ص ٢٧٤ ، ٢٧٦ ، والإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٣٢٠ و ٣٢١ .

( ٢ ) الزركشى فى تاريخ الدولتين ص ١٨ ، والبيان المغرب ص ٢٧٦ .

٥٧١ هـ[1]، وكان لولده الشيخ أبى محمد عبد الواحد ، وهو أحد أبناء عدة تولوا جميعاً رفيع المناصب بالمغرب والأندلس، مثل مقامه ونفوذه لدى البلاط الموحدى، وكان يعتبر كبير أشياخ الموحدين ، وقد رأينا ماكان من إخماده لحركة ابن غانية ، بعد أن كادت تقضى على سيادة الموحدين بإفريقية، وما كان من اضطلاعه بولاية إفريقية ، فى أحرج الظروف وأدقها ، وماوفق إليه بعزمه وحزمه وقوة نفسه ، من إنقاذها من عيث ابن غانية وحلفائه العرب ، ومن توطيد أمنها وسلامها .

وقد كان انفصال إفريقية واستقلالها على هذا النحو ، ضربة جديدة للدولة الموحدية . وكان عاملا جديداً فى إضعاف قواها ومواردها . بيد أنه لم يحدث كبير صدى فى مراكش . وكان البلاط الموحدى فى هذا الوقت ذاته مشغولا ، بما يدور حول كرسى الخلافة ، من حروب ومنافسات ، ومايقوم به بنو مرين من استطالة ، وعيث مستمر ، فى أطراف المغرب ، ومايضطرم من ثورات محلية فى بعض القواعد الهامة مثل مكناسة وسبتة ، ولم تكن لديه أية قوة أو وسيلة يستطيع أن يحاول بها الوقوف فى سبيل هذا الحدث المحتوم .

— ٤ —

تركنا أخبار الخليفة المأمون ، وقد هزم منافسه وابن أخيه يحيى المعتصم مرة أخرى، بفحص واونزرت على مقربة من مراكش، فى شهر رمضان سنة ٦٢٧هـ ؛ ثم أصدر مرسومه بعد ذلك بمحو اسم المهدى ابن تومرت ورسومه . وفى العام التالى، سنة ٦٢٨ هـ ، وجّه المأمون كتبه إلى سائر بلاد الموحدين بالمغرب ،والأندلس ، يدعو فيها إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والحض على إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة والصدقات ، والنهى عن شرب الخمر والمسكرات ، والتحريض على الدعاية . وقد أورد لنا ابن الخطيب فصولا من كتابه المشار إليه ننقل منها الفقرة الآتية :

« وإذا كنا نوفى الأمة تمهيد دنياها ، ونعنى بحماية أقصاها وأدناها ، فالدين أهم وأولى ، والتهمم بإقامة الشريعة وإحياء شعائرها ، أحق أن يقدم وأحرى وعلينا أن نأخذ بحسب ما يأمر به الشرع وندع ، ونتتبع السنن المشروعة ، ونذر البدع . ولنا أن لاندخر عنها نصيحة ، ولا نغبها أداة من الأدوات مريحة ، ولنا عليها أن تطيع وتسمع »[2].

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٧٥ ، وابن الخطيب فى الإحاطة ج ١ ص ٣٢١ .
(٢) الإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٤٢١ ، و٤٢٢ .

وقد صدر مثل هذا الكتاب بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والحث على اتباع أحكام الشريعة ، ونبذ البدع ، عن معظم الخلفاء الموحدين ، حسبما أشرنا إليه فى مواضعه .

هذا وبينما المأمون مشغول على هذا النحو ، بإصلاحاته المذهبية والدينية ، إذ وقع انفصام جديد فى الخلافة الموحدية ، وظهر مدّع جديد للخلافة ، هو السيد أبو موسى بن يعقوب المنصور أخو المأمون . وذلك أن المأمون كان قد ولى أخاه السيد أبا موسى حكم ثغر سبتة ، فنى سنة ٦٢٩هـ ، دعا السيد أبو موسى لنفسه بالخلافة ، وتسمى بالمؤيد بالله ، وفى نفس الوقت كانت قبائل فازاز ومكلاته ، قد جاهرت بالعصيان ، وعاثت فى منطقة مكناسة ، وحاصرت مكناسة ذاتها ، فحشد المأمون قواته ، وخرج من مراكش يريد تأديب القبائل الثائرة أولا ، ثم يسير إلى سبتة ثانيا ، وكان عندئذ قد اطمأن إلى عجز ابن أخيه يحيى المعتصم عن القيام بأية محاولة جديدة ، بعد أن تركه الموحدون ،وعادوا إلى جبالهم ، وسار هو فى صحبه القليل إلى منطقة درعة وسجلماسة .

ولما أشرف المأمون بقواته الكثيفة على مكناسة ، بادرت القبائل الثائرة بالتفرق والفرار ، وعندئذ استمر فى سيره إلى سبتة ، فلما وصل إليها ضرب حولها الحصار من البر ، ولكن المدينة المحصورة لم تشعر بشىء من الضيق ، إذ كانت حرة مفتوحة من جهة البحر ، فلم تنقطع عنها الموارد . وفضلا عن ذلك فإن السيد أبا موسى ، بعث إلى ابن هود صاحب الأندلس يستنصر به ، فأمده ابن هود ببعض سفنه . ومن ثم فقد لبث المأمون على حصارها ثلاثة أشهر ، وهو يضربها بالمجانيق كل يوم ، دون أن يلحقها شىء من الضيق أو تقع ثلمة فى أسوارها ، أو يهدم شىء من دورها ، وربما كان فى عزم المأمون أن يتابع هذا الحصار الفاشل حيناً آخر ، لولا أن بلغه عندئذ خبر رُوع له ، وأرغمه فى الحال على رفع الحصار ، هو وقوع مراكش فى يد يحيى المعتصم .

وما كاد المأمون يبتعد عن سبتة حتى عبر أخوه ، السيد أبو موسى إلى الأندلس . وكان ابن هود قد بلغ عندئذ ذروة سلطانه ، وبايعت له معظم قواعد الأندلس ، فبايعه ، ونزل له عن سبتة ، فعوضه عنها بولاية ألمرية . وبعث ابن هود إلى سبتة بحليفه ، وقائده السابق الغشتى والياً لها ، فلبث بها بضعة أشهر إلى أن أخرجه أهلها وخلعوا طاعة ابن هود ، وبايعوا أبا العباس أحمد بن محمد

اليانشتى ، فاستبد بحكمها ، وتسمى بالموفق بالله ، وذلك فى سنة ٦٣٠ هـ[1] .

وكان يحيي المعتصم قد انتهز غيبة المأمون عن الحضرة ، فجمع حشوده على عجل ، وانضم إليه عرب سفيان بقيادة شيخهم جرمون بن عيسى ، وأبوسعيد بن وانودين شيخ هنتانة ، وسار إلى مراكش ، واقتحمها عنوة ، وكانت بلا دفاع ، ودخل القصر ، وجمع سائر مافيه من الأموال والذخائر ، وبعث بها إلى الجبل ، وقتل وسبى الكثيرين ولاسيما من اليهود ، وأحرق الكنيسة ، وقتل من بها من القسس والنصارى . وبلغت هذه الأنباء إلى المأمون وهو على حصار سبتة ، فرفع الحصار من فوره ، وارتد فى قواته منصرفاً صوب مراكش ، وذلك فى أوائل شهر ذى القعدة سنة ٦٢٩هـ ، وهو يعتزم أن ينكل بيحيى وصحبه ، وأقسم لحلفائه النصارى الذين معه ، وقد اضطرموا سخطاً لما حل بكنيستهم ومواطنيهم ، أن يطلقهم على مراكش ثلاثة أيام ينتصفوا فيها لأنفسهم. ولما وصل المأمون إلى وادى العبيد ، الفرع الشمالى لوادى أم الربيع ، مرض وتوفى فجأة ، وذلك فى آخر شهر ذى الحجة سنة ٦٢٩ هـ ، فكتمت زوجه حبابة الرومية ، وهى أم ولده الأكبر وولى عهده الرشيد ، وفاته ، ولم يقف عليها سوى القادة وأشياخ الخُلط وبعض القرابة ، ولم يقف عليها أحد من عامة الجيش . وفى اليوم التالى وهو مستهل شهر المحرم سنة ٦٣٠هـ (١٨ أكتوبر سنة ١٢٣٢م )، اجتمع الأشياخ والقادة واتفقوا على بيعة ولد المأمون أبى محمد عبد الواحد الرشيد بالخلافة ، مبايعة سرية خاصة، وكان فتى فى الرابعة عشرة من عمره . وأذيع فى المحلة أن أمير المؤمنين مريض ، لايستطيع الركوب ولا الظهور ، وحمل المأمون فى تابوت وضع فى هودج ، وسارت الجيوش أمامه وهى على أهبها للقاء يحيي المعتصم[2]،

ولما وصلت حشود المأمون إلى مقربة من مراكش ، خرج إليها يحيي المعتصم فى قواته من الموحدين وعرب سفيان وغيرهم ، فنشبت بين الفريقين معركة هزم فيها يحيي ، وقتل معظم جنده ، وتفرق الباقون فى مختلف الأنحاء . ولكن قوات المأمون ، حينما أشرفت على مراكش ، وعلى رأسها ولده الرشيد ، ألفت الحاضرة وقد استعدت للدفاع . وكان واليها من قبل يحيي ، أبوسعيد بن وانودين قد تخلى عن

---

(١) البيان المغرب ص ٢٧٦ ، وروض القرطاس ص ١٦٩ .

(٢) البيان المغرب القسم الثالث ص ٢٨٠ — ٢٨٢ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٣ و ٢٥٤، وروض القرطاس ص ١٦٩ ، وابن الخطيب فى الإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٤٢٥ .

عن منصبه ، واختار الناس مكانه السيد أبا الفضل جعفر بن السيد أبى سعيد ، وكان أهل مراكش قد ترامى إليهم ما أعلنه المأمون قبل وفاته ، من أنه سوف يبيح المدينة للنصارى ، انتقاماً من أهلها ، لما أبدوه من استسلامهم ليحيى ، وتمكينه من دخولها ، ومن ثم فإنهم لما رأوا مقدم جيش المأمون ، ازدحموا فوق الأسوار ، واستعدوا للدفاع ، فعندئذ أصدر الرشيد لأهل المدينة ظهيراً بتأمينهم والعفو عنهم جميعاً ، وعمن كان معهم من الموحدين ، ورفع المغارم عنهم ، وضمن ظهيره كثيراً من الوعود الطيبة ، وحمل هذا الظهير القاضى أبو محمد عبد الحق ، ومعه جملة من الناس ، واقتربوا من السور من جهة باب السادة . وأعلن للناس وفاة المأمون وولاية ابنه الرشيد ، وهزيمة يحيى ، وعرفهم بما يتضمنه الظهير من تأمينهم والإنعام عليهم ، فاطمأن الناس وسكنت نفوسهم ، وأذنوا له ولرفاقه بالدخول إلى المدينة ، ثم سار معه واليها السيد أبو الفضل والوجوه إلى القصر الخليفى ، وقرئ الظهير على الكافة ، فعم البشر والاطمئنان ، وكتب الأشياخ والوجوه إلى الخليفة بالسمع والطاعة ، وعاد القاضى وأصحابه ومعهم وفد من الكبراء للسلام على الخليفة واستقباله . وكانت حبابة أم الخليفة قد تفاهمت مع القواد النصارى ، ودفعت لهم مقابل فيء المدينة التى وُعدوا باستباحتها ، وافتدائها من الاعتداء والنهب ، مبالغ طائلة ، ويقال إن الرشيد دفع لهم مقابل ذلك خمسمائة ألف دينار[1] ، وهكذا أنقذ الموقف ، ومهد كل شىء لدخول الخليفة الفتى إلى حاضرته .

— ٥ —

بيد أنه يجدر بنا قبل أن نبدأ الكلام عن خلافة الرشيد ، أن نذكر كلمة عن عن الخليفة المأمون ، وعن صفاته وخلاله .

كان أبو العُلى ( أو أبو العلاء ) من أنبه الخلفاء الموحدين وأقدرهم ، وكان يتسم بكثير من صفات أبيه العظيم الخليفة يعقوب المنصور ، ولو أتاح له القدر فسحة من الوقت ، فربما كان من المرجح أن يعمل الكثير لإنقاذ الدولة الموحدية من محنتها ، ولتأخر انحلالها وسقوطها ، ولكنه أنفق أعوام خلافته الخمسة فى منازعات وحروب متوالية ، لم يفق منها حتى أدركه الموت . وكانت سقطته الجوهرية ، هى التجاؤه إلى النصارى لتحقيق مشروعه فى انتزاع الخلافة . ولكنها

(١) البيان المغرب ص ٢٨٤ و٢٨٥ ، وروض القرطاس ص ١٧٠ .

كانت سقطة العصر وظروفه المؤلمة ، وقد تردى فيها من قبله ومن بعده كثير من زعماء الأندلس .

وكان مولد المأمون بمدينة مالقة سنة ٥٨١ هـ( ١١٨٥ م ) ، وأمه حرة هى صفية ابنة أمير الشرق محمد بن سعد بن مردنيش ، وكان المأمون صنو أبيه المنصور فى صفاته العلمية . فقد كان فقيهاً حافظاً ، ضابطاً للرواية ، متمكناً من علوم الدين ، إماماً فى اللغة ، أديباً واسع المعرفة بالأدب والسير ، كاتباً بليغاً ، متين البيان ، وشاعراً محسناً ، وكان يعنى عناية خاصة بتدريس كتاب البخارى ، وكتاب الموطأ ، وسنن أبى داود . وكان فوق ذلك حاكماً مقتدراً ، بارعاً فى الإدارة ومعالجة الشئون ، ذكياً وافر الهمة والعزم . ويجمل ابن الخطيب صفاته فى قوله : « كان رحمه الله شهماً ، شجاعاً جريئاً ، بعيد الهمة ، نافذ العزيمة ، قوى الشكيمة ، لبيبا ، كاتباً أديباً ، فصيحاً ، بليغاً ، أبيا ، جواداً ، حازماً »(١) . بيد أنه كان فى نفس الوقت صارماً ، سفاكاً للدماء . وقد رأينا كيف أسرف فى استباحة دماء خصومه وقضى عليهم جميعاً .

وكان المأمون كاتباً جزلا ، يشغف بتسطير كتبه بنفسه ، بالرغم من وجود عدة من أئمة البلاغة بين كتابه . وقد نقل إلينا ابن عذارى وابن الخطيب كتابه ، الذى كتبه بخطه إلى أهل أندوجر بالأندلس ، وفيه ينحى باللائمة عليهم ، ويتوعدهم بالنكال لجنوحهم إلى الاستسلام للنصارى ، وهو ينطق بروعة أسلوبه ، وإليك بعض ما جاء فيه :

« إلى الجماعة والكافة من أهل . . ، وقاهم الله عثرات الألسنة ، وأرشدهم إلى محو السيئة بالحسنة . أما بعد فقد وصل من قبلكم كتابكم الذى جرد لكم أسهم الانتقاد ، ورماكم من السهاد ، بالداهية الساد ، أتعتذرون من المحال ، بضعف الحال ، وقلة الرجال ، إذاً نلحقكم بربات الحجال ، كأنا لانعرف مناحى أقوالكم ، وسوء منقلبكم وأحوالكم ، لاجرم أنكم سمعتم بالعدو قصمه الله ، وقصده إلى ذلك الموضع عصمه الله ، فطاشت قلوبكم خوراً ، وعاد صفوكم كدراً ، وشممتم ريح الموت ورداً وصدراً ، وظننتم أنكم أحيط بكم من كل جانب ، وأن الفضاء قد غص بالتفاف القنا ، واصطفاف المناكب ، ورأيتم غير شىء ، فتخيلتموه طلائع الكتائب ، تباً لهمتكم المنحطة ، وشيمتكم الراضية بأدون خطة . أحين

(١) الإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٤١٨ .

ندبتم إلى حماية إخوانكم، والذب عن كلمة إيمانكم، نسقتم الأقوال وهى مكذوبة، ولفقتم الأعذار وهى بالباطل مشوبة، لقد آن لكم أن تبدلوا جل الخرصان، إلى مغازل النسوان، وما لكم ولصهوات الخيول، وإنما على الغانيات جر الذيول، أتظهرون العناد تخريصاً، بل تصريحاً وتلويحاً، ونظن أن لايجمع لكم شتاً ولايدنى منكم نزوحاً. أين المفر وأمر الله يدرككم، وطلبنا الحثيث لايتركم، فأزيلوا هذه النزعة النفاقية من خواطركم، قبل أن نمحوا بالسيف أقوالكم، وأفعالكم، ونستبدل قوماً غيركم، ثم لايكونوا أمثالكم»[1].

ومن نظمه قوله عند ظفره بخصومه الناكثين بيعته، وقتلهم وتعليق رؤوسهم:

أهل الحرابة والفساد من الورى     يعزون فى التشبيه بالذكار
ففساده فيه الصلاح لغيره     بالقطع والتعليق فى الأشجار
ذكارهم ذكرى إذا ما أبصرو     فوق الجذوع وفى ذرى الأسوار
لو عم عفو الله سائر خلقه     ماكان أكثرهم من أهل النار

ووزر للمأمون الشيخ أبو زكريا بن أبى الغمر، وكتب له عدة من أعلام البلاغة فى ذلك العصر، مهم أبو زكريا الفازازى، وأبو المطرّف بن عميرة المخزومى، قطب البلاغة بالأندلس يومئذ، وأبو الحسن الرُّعينى، وأبو عبد الله بن عيّاش، وأبو العباس بن عمران، وغيرهم[2].

وأما عن شخصه فقد كان المأمون أبيض اللون، معتدل القامة، جميل المحيا، أكحل العينين، فصيح اللسان، حسن الصوت والتلاوة[3].

وترك المأمون عدة من البنين هم، أبو محمد عبد الواحد الرشيد ولى عهده والخليفة من بعده، وعبد الله، وعبد العزيز، وعثمان، وأبو الحسن على، الملقب بالسعيد، والوالى بعد أخيه الرشيد، وترك كذلك عدة من البنات، وأمهات الجميع روميات وسريات مغربيات[4].

---

(١) وردت هذه الرسالة فى البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٦٦ و٢٦٧، وفى الإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٤٢٢، و٤٢٣.
(٢) البيان المغرب ش ٢٨٣، والإحاطة ج ١ ص ٤٢٤.
(٣) روض القرطاس ص ١٦٦.
(٤) البيان المغرب ص٢٨٢ و ٢٨٣.

# الكتاب التاسع

# انهيار الأندلس

# وسقوط قواعدها الكبرى

# الفصل الأول

## الثورة فى مرسية وبلنسية

## ونذر الانهيار الأولى

صدى انحلال الخلافة الموحدية فى الأندلس . اضطرامها من جديد بالفورات القومية . محمد بن هود أول زعماء هذه الحركة . ظهوره فى أحواز مرسية . ماقيل عن طريقة ظهوره . زحفه على مرسية وهزيمته لواليها الموحدى . دخوله مرسية ومعه الراية السوداء . دعاؤه للخليفة العباسى وتلقبه بأمير المسلمين . فكرته فى الانضواء تحت لواء الخلافة العباسية . دخول عدة من القواعد فى طاعته . نهوض المأمون من إشبيلية لقتاله . ما يقال عن اللقاء بين الفريقين . اعتراف إشبيلية بطاعة ابن هود . صدى الثورة فى بلنسية . السيد أبو زيد والى بلنسية . أبو جميل زيان سليل آل مردنيش . آل مردنيش ومركزهم فى الشرق . وزارة أبى جميل زيان للسيد أبى زيد. قيام الثورة فى بلنسية . اختيار أهلها لرياسة زيان . الوحشة بينه وبين السيد أبى زيد . مغادرة السيد أبى زيد لبلنسية . دخول زيان بلنسية وعقده البيعة لنفسه . دعاؤه للخليفة العباسى . النزاع بينه وبين ابن هود . امتناعه ببلنسية . الخوف من عواقب الفتنة . دعوة إلى الاتحاد . إلتجاء السيد أبى زيد إلى النصارى . مرافقة كاتبه ابن الأبار له . مسير السيد إلى ملك أراجون . المعاهدة التى عقدها معه . تعهده بتسليم عدد من الحصون . تنازله عن سائر حقوقه الإقليمية . اعتناقه للنصرانية . تأييد الرواية الإسلامية لهذه الواقعة . عودة ابن الأبار إلى بلنسية . إلتحاقه بخدمة أميرها زيان . ضعف الأندلس . توثب الملوك النصارى لمهاجمتها . غزو ملك ليون لشمالى منطقة الغرب . محاصرته لماردة . مسير ابن هود لمدافعته . هزيمته وارتداده . استيلاء الليونيين على ماردة وبطليوس . توقف ابن هود بإشبيلية . مصرع ولدى ابن وزير . غزو فرناندو الثالث للأندلس الوسطى . محاصرته لمدينة جيان . فشل الحصار وانسحاب النصارى . غزوة ثانية للقشتاليين . فرناندو الثالث يستأنف الغزو . محاصرته لأبدة واستيلاؤه عليها . عقد الهدنة بين ابن هود وفرناندو . الجزائر الشرقية تحت حكم الموحدين . مقدمات غزو النصارى للجزائر . تطلع الدول النصرانية إلى افتتاحها . اهتمام ملك أراجون الخاص بذلك . خايمى الأول واستعداد أراجون لهذا المشروع . خروج أسطول الغزو النصرانى . استعداد أبى يحيى حاكم الجزائر للمقاومة . التآمر والنزاع فى ميورقة . نزول النصارى بأرض الجزيرة . القتال بينهم وبين المسلمين . محاصرة النصارى لمدينة ميورقة . مفاوضة ابن يحيى للنصارى . إصرار النصارى على التسليم . اقتحامهم للمدينة . دفاع المسلمين اليائس . هزيمتهم وتمزقهم . المذبحة الرائعة . دخول الملك خايمى المدينة . مقاومة المسلمين فى الجبال . تحطيم المقاومة وسقوط سائر الحصون . تقسيم ميورقة بين الفاتحين . كتاب التقسيم الخاص بذلك . استيلاء الأرجونيين على يابسة . منورقة وبقاؤها عصراً تحت حكم المسلمين . الرئيس سعيد بن حكم الأموى . حكمه لمنورقة . حزمه وكفايته . أدبه وشعره . ولده أبو عمر . افتتاح الأرجونيين لمنورقة .

لقد كان انتثار الخلافة الموحدية ، على هذا النحو ، وقيام الخليفة العادل بالأندلس ، خروجاً على الخليفة أبى محمد عبد الواحد ، ثم قيام أبى العلى المأمون بالأندلس أيضاً ، خروجاً على أخيه العادل ، أعمق وقع وأبعد صدى فى الأندلس . ولم يقتصر الأمر فى ذلك ، على تصدع أركان الحكم الموحدى ، وماحدث من ثورة أبى محمد عبد الله البيّاسى ، وما ترتب عليها من الآثار المؤلمة ، بل كان أن اهتزت الأندلس من أقصاها إلى أقصاها لهذه الأحداث الخطيرة ، ونهضت من من سباتها الطويل ، الذى فرضة عليها الحكم الموحدى ، زهاء ثمانين عاما ، وأخذت تضطرم بسلسلة جديدة من الفورات القومية ، على غرار ماحدث فى أواخر العهد المرابطى . بيد أن هذه الفورا ت كانت مع الأسف ، حركات متناثرة ، متنافسة ، متخاصمة ، تفرق بينها الأطماع الخاصة ، وإن كانت تجمع بينها رابطة الغرض المشترك ، وهو تحرير الأندلس من نير الموحدين ، وحمايتها من عدوان النصارى .

قامت هذه الحركات التحريرية فى شرقى الجزيرة وفى وسطها ، فى وقت واحد ، وكانت بالرغم من طابعها الشخصى ، وهو مايتفق مع روح العصر ، حركات قومية أندلسية محضة ، وكان قيامها فى غمار المحن التى نزلت بالأندلس من جراء تخاذل السادة والحكام الموحدين ، عن تأدية واجبهم الأول فى شبه الجزيرة ، وهو الدفاع عن الأندلس وحمايتها من عدوان النصارى ، وتحول نشاطهم إلى معارك داخلية شخصية ، بل وإلى مصانعة وتسليم للنصارى . ولم تكن حال الموحدين ، وتضعضع قواهم ، وانهيار مواردهم بالمغرب ، خافية على الأمة الأندلسية ، وعلى زعمائها الذين نهضوا فى تلك الآونة العصيبة ، يحاولون إنقاذ الموقف ، بكل ما يمكن أن تسمح به الظروف والأحوال .

وكان أول من ظهر من أولئك الزعماء الأندلسيين ، زعيم من بيت عريق فى الزعامة والرياسة ، هو محمد بن يوسف بن هود الجذامى ، وهو سليل بنى هود ملوك سرقسطة أيام الطوائف . وكان آخر من أتينا على ذكرهم من زعماء هذا البيت ، هو أبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن أحمد بن يوسف بن هود ، وهو الملقب بسيف الدولة وبالمستنصر بالله ، وأحياناً بالمستعين ، وقد تتبعنا أخباره فيما تقدم ، مذ غادر قلعة روطة آخر مستقر لبنى هود ، بعد سقوط سرقسطة فى أيدى الأرجونيين فى سنة ٥١٢ هـ ( ١١١٨م ) وانضوى تحت لواء ملك قشتالة

ألفونسو ريموند يس . ولما اضطرمت الأندلس بالثورة ضد المرابطين ، عمد سيف الدولة إلى خوض غمارها ، أولا فى القواعد الوسطى فى جيّان ، وقرطبة وغرناطة ، ثم فى شرقى الأندلس ، فى بلنسية ومرسية ، وانتهى الأمر إلى أن قتل فى معركة البسيط ، فى شهر شعبان سنة ٥٤٠ هـ ( فبراير سنة ١١٤٦م )(١). ولم يرد من ذلك التاريخ ذكر لبنى هود فى حوادث الأندلس ، حتى قيام محمد بن يوسف ابن هود ، هذا المتقدم الذكر . وأما نسبته فهى وفقاً لقوله ، أنه محمد بن يوسف ابن محمد بن عبد العليم بن أحمد المستنصر ، فهوبذلك ثانى حفيد لولد سيف الدولة المتقدم ذكره .

وكان ظهور محمد بن يوسف بن هود ، فى نفس المنطقة التى كانت قبل ثمانين عاما مسرحاً لظهور جده سيف الدولة ، أعنى فى شرقى الأندلس ، وفى مدينة مرسية . ولاتحدثنا الرواية بشىء عن حياته الأولى ، وكل ما تذكره من ذلك أنه كان رجلا من أصناف الجند بمرسية وغيرها(٢) ، ويبدو من أقوال الرواية أنه ظهر بطريقة متواضعة جداً ، وذلك بمعاونة قائد أومقدم من رؤساء العصابات يسمى الغشّى ، وكان الغشّى هذا زعيما لعصبة من المحاورين أو « المغاورين » الذين يحاربون النصارى ، وأحيانا يقطعون الطرق على المسلمين . ونحن نضرب صفحاً عما تذكره لنا الرواية عن تنبوءات المنجمين بشأن ظهوره ، ونكتفى بأن نقول بأن ابن هود تفاهم مع الغشّى على التعاون فى العمل ، وأفضى إليه بما يخالجه من أمل فى الاستيلاء على الأمر ، وبدأ الاثنان بالإغارة على بعض أراضى النصارى المجاورة لأحواز مرسية ، فأصابا غنائم من الماشية والأسرى ، وأخذ جمع ابن هود يكثر شيئاً فشيئاً ، وتتوطد مكانته فى تلك النواحى ، وكانت أرومته الملوكية تسبغ عليه مهابة وتجذب إليه الأنصار . ولما كثر جمعه ، نهض فى رجاله إلى موضع يعرف« بالصخيرات » أو بالصخور ، وهو حصن صغير يقع على نهر شقورة على مقربة من مرسية ، وهنالك بايعه أنصاره بالإمارة(٣) ، فذاع أمره ، وسارع كثيرون من الفرسان والجند بالانضمام إليه ، وكانت أحوال

---

( ١ ) تراجع تفاصيل هذه الحوادث فى ص ٣٦٠و٣٦١ من القسم الأول من هذا الكتاب .

( ٢ ) الروض المعطار ص ١١٨ .

( ٣ ) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٥٦-٢٥٧ ، وابن الخطيب فى أعمال الأعلام ص٢٧٨ و٢٧٩ ، والروض المعطار ص ١١٨ .

الموحدين ، وما نشب بينهم من خلاف ، وما وقع من قتل خلفائهم بمراكش ، وما يبشر به ذلك كله من ذهاب أمرهم ، وانهيار دولتهم ، مما يذكى حماسة الجموع ، ويبعث إليها روح الأمل والاستبشار .

وكانت ولاية مرسية ، مذ غادرها السيد أبو محمد عبد الله بن يعقوب المنصور أو العادل ، على أثر مبايعته بالخلافة ، قد أسندت إلى ابن عمه السيد أبى العباس ابن أبى عمران موسى بن يوسف بن عبد المؤمن . وكان من الواضح أن أولئك السادة الولاة ، كانوا ينظرون إلى الموقف فى خشية وتوجس ، وأن الحاميات الضئيلة التى تركت لهم ، كانت قد خبت قواها المعنوية ، ومن ثم فإن ابن هود حينما شعر بقوة جمعه ، لم يحجم عن الزحف على مرسية . فخرج إليه السيد أبو العباس بعساكر مرسية ، فهزمه ابن هود واعتقله ، وذلك فى رجب سنة ٦٢٥هـ ( يونيه سنة ١٢٢٨م ) . وعلى أثر ذلك خرج إليه السيد أبو زيد والى بلنسية فى قواته ، فهزمه ابن هود أيضاً ، واستولى على محلته ، ولكنه لم يحاول دخول بلنسية . ثم عاد إلى مرسية ، ودخلها وهو يرفع راية سوداء عباسية ، وذلك بتفاهم مع قاضيها أبى الحسن على بن محمد القسطلى ، وهو قتيله فيما بعد ، وقبض على واليها السيد أبى العباس[1] . وبويع ابن هود بمرسية غرة رمضان سنة ٦٢٥هـ ( ٤ أغسطس ١٢٢٨ م )[2] وتسمى بأمير المسلمين ، ومعز الدين ، ودعا للخليفة العباسى المستنصر بالله ، وكتب إليه ببغداد ، فبعث إليه بالخلع والمراسيم ، وسماه مجاهد الدين ، سيف أمير المؤمنين ، عبد الله المتوكل على الله ، وهكذا كانت علامة ابن هود « توكلت على الله الواحد القهار » .

وكانت فكرة ابن هود فى الانضواء تحت راية الخلافة العباسية ، هو أن يتشح بثوب من الشرعية فى انتحال الولاية ، وفى محاربة الموحدين ، وهو قد أعلن أنه سوف يعمل على تحرير الأندلس من نير الموحدين ، ومن عدوان النصارى معا ، وسوف يعمل على إحياء الشريعة وسننها ، بعد ما درست فى ظل الموحدين ،

---

( ١ ) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٢٤٩ . ويستفاد من رواية صاحب الروض المعطار أن هود لم يشتبك فى معركة مع والى مرسية ، السيد أبى العباس ، ولكنه دخلها بحيله رتبها القاضى المذكور ، وإيهامه للوالى ، أن ابن هود سوف ينضوى تحت لوائه ويخدمه برجاله ، فلما دخل عليه ابن هود غدر به وقبض عليه ( الروض المعطار ص ١١٩ ) .

( ٢ ) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٧٠ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٦٩ ، وروض القرطاس ص ١٨٢ .

وسرعان ماقوى أمره ، وذاع ذكره ، وأطاعته من قواعد الشرق شاطبة ، وجزيرة شقر وما والاهما ، وأعلنت بطاعته عدة من قواعد الأندلس الوسطى والجنوبية ، مثل جيان وقرطبة ، حيث قتل أهلها واليها الموحدى السيد أبا الربيع ، وأخرجوا منها الموحدين ، وكذلك أطاعته غرناطة ومالقة والمرية .

ولما ذاع أمر ابن هود ، ووقف السيد أبو العُلى بإشبيلية — وكان يومئذ قد غدا الخليفة المأمون — على ما حدث فى الشرق من هزيمة الموحدين ، وضياع مرسية ، ووصله صريخ السيد أبى زيد ، أهمه ذلك ، وكان على وشك العبور إلى العدوة ، فآثر أن يبادر إلى الشرق لحسم الأمر قبل استفحاله ، فغادر إشبيلية ، وسار فى بعض قواته صوب مرسية . وهنا تختلف الرواية حول ما حدث بينه وبين ابن هود ، فهناك قول بأنه اشتبك مع ابن هود على مقربة من مرسية فى معركة هزم فيها ابن هود ، وارتد إلى مرسية فامتنع بها ، وذلك فى أواخر سنة ٦٢٥ هـ ، وعاد المأمون ظافراً إلى إشبيلية ، فامتدحه الشعراء وأجزل لهم العطاء(١) . ويزيد ابن الخطيب هذه الرواية تفصيلا فيقول ، إن المأمون تحرك فى جيش إشبيلية باستدعاء أخيه السيد أبى زيد والى بلنسيه(٢) ، فتحرك المأمون إليه ، واحتل غرناطة فى رمضان من عام خمسة وعشرين وستمائة ، وأنفذ منها كتابه إليه يشجعه ، ويعلمه بنفوذه إليه ، وانضم إليه جيش غرناطة وماوالاها ، ثم سار نحو الشرق ، فبرز ابن هود إلى لقائه ، فكان اللقاء بخارج لورّقة ، فانهزم ابن هود ، وفر إلى مرسية وعساكر الموحدين فى عقبه(٣) . وفى رواية أخرى أنه لم يقع قتال ، ولكن المأمون حاصر مرسية ، حينا فامتنعت عليه فكرّ راجعاً إلى إشبيلية ، وذلك فى أوائل سنة ٦٢٦ هـ ( ١٢٢٩ م )(٤) .

---

( ١ ) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٥٨ ، ويورد لنا ابن عذارى عدة من القصائد التى ألقيت بهذه المناسبة ، وكذلك ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٨ .

( ٢ ) الإحاطة ( القاهرة ١٩٥٦ ) ج ١ ص ٤٢٠ . وقد وهم ابن الخطيب هنا فى وصف السيد أبى زيد والى بلنسية بأن أخ للمأمون . والحقيقة أن السيد أبا زيد وهو عبد الرحمن بن محمد بن يوسف ابن عبد المؤمن — إنما هو ابن عم المأمون ( وهو إدريس بن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن ) لا أخوه . وابن الخطيب يصحح نفسه فى ترجمته للسيد أبى زيد الواردة فى الإحاطة أيضاً ( مخطوط الإسكوريال ٦٧٤ ا الغزيرى لوحة ١٣٨ ا ) فيذكر نسبته الحقيقية ، وهى كما تقدم ، عبد الرحمن بن محمد بن يوسف ابن عبد المؤمن . وذكر المقرى من جهة أخرى أن السيد أبا زيد هو عبد الرحمن بن السيد أبى عبد الله محمد بن أبى حفص بن عبد المؤمن . ( نفح الطيب ج ٢ ص ٥٧٧ ) .

( ٣ ) الإحاطة ( ١٩٥٦ ) ج ١ ص ٤٢٠ .

( ٤ ) الروض المعطار ص ١٢٠ .

وماكاد أبو العُلى المأمون ، يغادر إشبيلية ليعبر البحر إلى العدوة ، حتّى اجتمع أهل إشبيلية وذلك فى اليوم الثانى من عيد الأضحى سنة ٦٢٦ ه ، وأعلنوا خلع طاعة الدولة الموحدية ، والاعتراف بطاعة ابن هود فى ظل الخلافة العباسية ، وكتب عنهم أبو بكر بن البناء إلى المتوكل ابن هود كتابا بهذا المعنى ، فأوفد إليهم ابن هود فى الحال أخاه أبا النجاء سالم الملقب عضد الدولة ليكون واليا عليهم . وحذت ماردة وبطليوس حذو إشبيلية ، فى الإعلان بطاعة ابن هود . وهكذا اتسع نطاق الدعوة الهودية وشملت أواسط الأندلس وغربها ، وأخذت الأندلس كلها ، تتطلع إلى لواء هذا الزعيم الأندلسى الجديد ، ترجو أن يكون حاميها وقائدها ، وجامع كلمتها ، وموحد صفوفها .

— ٢ —

وفى نفس الوقت الذى قامت فيه ثورة ابن هود بمرسية ، كانت ثمة ثورة أخرى تضطرم فى بلنسية ، وتجرى فيها أحداث مماثلة . وذلك أن بلنسية كان يحكمها منذ سنة ٦٢٠هـ ، واليها السيد أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن يوسف بن عبد المؤمن ، وهو أخو السيد أبو محمد عبد الله البياسى ، الذى أتينا على أخباره فيما تقدم . ولما قام ابن هود بمرسية ، خرج السيد أبوزيد بقواته لمحاربته ، ولكن ابن هود تغلب عليه فارتد منهزماً إلى بلنسية . وسرعان ماظهر صدى هذه التطورات فى بلنسية ذاتها . وذلك أن أهل بلنسية ، حينما رأوا تطور الحوادث فى مرسية ، وهزيمة القوات الموحدية فى منطقة الشرق ، سرت إليهم روح الانتقاض والثورة ، وقديماً كانت بلنسية حصن الثورة ضد الموحدين . وقد لبثت مملكة الشرق أيام الأمير محمد بن سعد بن مردنيش ، زهاء ربع قرن تتحدى الدولة الموحدية ، وهى فى إبان قوتها . والآن فإنا نعود فنشهد صفحة جديدة من ثورة بلنسية ، ضد الموحدين ، وإن كانت هذه المرة تضطرم فى ظروف عصيبة ، تواجه فيها بلنسية وقواعد الشرق خطر العدوان الداهم ، من جانب عدوها الخالد اسبانيا النصرانية .

وكان زعيم الثورة فى هذه المرة ، أيضاً ينتمى إلى زعمائها السابقين من آل مردنيش . وهو أبو جميل زيّان بن أبى الحملات مدافع بن يوسف بن سعد ابن مردنيش الجذامى ، وجده أبو الحجاج يوسف بن سعد بن مردنيش هو كما نذكر ، أخو أمير الشرق محمد بن سعد بن مردنيش . وكان الخليفة أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، حينما استسلم إليه آل مردنيش ، عقب وفاة عميدهم

الأمير محمد بن سعد فى سنة ٥٦٧ هـ ( ١١٧١ م ) ، واستولى على مرسية وبقية مملكة الشرق ، قد شملهم برعايته ، وأسند إليهم جليل المناصب ، فقدّم الأمير أبا الحجاج يوسف بن سعد بن مردنيش ، أخا الأمير محمد المتوفى ، على بلنسية وجهاتها ، كما كان أيام أخيه ، واستمر أبو الحجاج يوسف ، وكان يعرف بالرئيس ، والياً لبلنسية حتى توفى فى سنة ٥٨٢ هـ ، فخلفه فى ولايتها السيد أبو عبد الله محمد حفيد الخليفة عبد المؤمن ، ثم خلفه بعد وفاته ولده السيدأبوزيد .

وترك الرئيس أبو الحجاج يوسف عدة من الأولاد ، منهم أبو الحملات مدافع ، وأبو الظفر غالب ، وأبو الحارث سبع ، وأبو سلطان عزيز ، وأبو ساكن عامر ، وأبو محمد طلحة ، وقد تولوا جميعاً فى ظل حكومة الموحدين ، مناصب هامة فى مختلف قواعد الشرق ، من قيادة وولاية ، واشتهروا فى أواخر أيام الدولة الموحدية بالأندلس ، وكانوا مثل أبيهم يعرفون بالرؤساء . فلما اضطربت الأحوال وسرت الفتنة إلى مختلف النواحى ، عقب وفاة الخليفة يوسف المستنصر ، خاضوا الفتنة مع الخائضين ، وكان عميدهم يومئذ الرئيس أبو جميل زيان بن أبى الحملات مدافع بن الرئيس يوسف أبى الحجاج ، وكان أبوه مدافع ، قد استشهد شابا فى حياة أخيه أبى سلطان عزيز والى جزيرة شقر ، وكان إلى جانبه ببلنسية وأحوازها ، عشرة من رؤساء بيته من الإخوة أو أبناء العمومة . وكان أبو جميل زيان وقتئذ وزير السيد أبى زيد والى بلنسية، وكبير بطانته ومدبر أمره[1] ، وفى رواية أخرى أنه كان قائد الأعنة المتولى أمر الدفاع عن بلنسية[2] . فلما ارتد السيد أبو زيد منهزماً أمام ابن هود كما تقدم، اضطرمت الثورة فى بلنسية، والتف البلنسون حول عميد بيت إماراتهم القديم ، أبى جميل زيّان ، ونادوا برياسته ، فوقعت الوحشة بينه وبين السيد أبى زيد ، فغادر بلنسية إلى حصن أُندة القريب وامتنع به، واشتد الهياج وتفاقم الأمر فى المدينة، فخشى السيد سوء العاقبة،وغادر بلنسية بدوره فى أهله وولده وأمواله ، وذلك فى أوائل شهر صفر سنة ٦٢٦هـ ، واعتصم ببعض الحصون القريبة . وعندئذ بادر الرئيس أبو جميل زيان بالقدوم إلى بلنسية من مقره بحصن أندة ، فدخلها فى اليوم السادس والعشرين من شهر صفر سنة ٦٢٦هـ ( يناير ١٢٢٩ م ) ونزل بالقصر ، وعقد البيعة لنفسه ، وذلك

( ١ ) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٧ .

( ٢ ) المقرى فى نفح الطيب ج ٢ ص ٥٧٨ .

فى أول شهر ربيع الأول ، ودعا للخليفة المستنصر العباسى ، وفى الحال دخلت فى طاعته دانية وجنجالة ، وعدة من الحصون ، وذاع أمره واشتد ساعده . ولكن خرج عليه أبو سلطان عزيز بن يوسف والى جزيرة شقر ، ودعا لابن هود ، وكذلك فعلت شاطبة وواليها أحد أبناء عمومة زيان ، واضطرمت الفتنة بين زيان وابن هود وزحف ابن هود على بلنسية ، فخرج زيان للقائه ، فكانت عليه الهزيمة ، وتبعه ابن هود إلى بلنسية فامتنعت عليه ، وشغل ابن هود عندئذ بحوادث ومشاريع أخرى[1].

وهكذا عمت الثورة أو الفتنة ، شرقى الأندلس ، وسرى الاضطراب إلى سائر أنحائه ، وفى ذلك يقول شاعر معاصر من أبنائه ، هو أبو عبد الله محمد ابن إدريس بن على المعروف بمرج الكحل :

ولاسيما فى فتنة مدلهمة فلا أحد فيها أخاه يشمت
وكان قضا صمتنا عنه واجب وسلم الأحداث من كان يصمت

ولم يكن يخفى على ذوى النظر البعيد ، ما يترتب على تلك الفتنة من عواقب خطيرة ، وكان بعضهم يسعى إلى تداركها بجمع الكلمة . وقد وقفنا فى ذلك على رسالة ، وجهها العلامة الفقيه أبو بكر عزيز بن خطاب ، عميد علماء مرسية والمنتزى فيها فيما بعد ، إلى الخطيب أبى عبد الله بن قاسم ببلنسية ، يشير عليه فيها بأن يحض الرئيس أبا جميل زيان على الدخول فى طاعة « أمير المسلمين » ابن هود وذلك قبل أن يتحرك ابن هود لمحاربة زيان فى بلنسية . وفيها ينوه بوجوب اتحاد المدن المختلفة التى تدين بدين واحد لمقاومة أعداء الدين ؛ وأن القوة فى الاتحاد وهو ما يحض عليه الله والرسول . وأنه يجب على علماء الدين أن يسعوا فى ذلك بالنصح ، وأن مآل الخلاف انقطاع الرياسة ، واستيلاء عدو الدين على البلاد ؛ ثم يطلب إليه أن يهيب بالأمير أبى جميل أن يدخل فيما دخل فيه المسلمون ، فذلك مما يكسبه محبة أهل الأندلس ، ومحبة المسلمين[2] .

وأما السيد أبو زيد ، فقد لبث مذ غادر بلنسية ، وامتنع بأهله وأمواله ، فى

---

(١) راجع تفاصيل هذه الحوادث فى أعمال الأعلام لابن الخطيب ص ١٧٢ ، والبيان المغرب ص ٢٧٠ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٦٧ ، وكذلك : M. Gaspar Remiro: Historia de Murcia Musulmana (Zaragoza 1905) p. 275 & 276

(٢) وردت هذه الرسالة فى كتاب « زواهر الفكر وجواهر الفكر » لمحمد بن على بن عبد الرحمن المكنى بابن المرابط ، وهو مخطوط الإسكوريال ، رقم ٥١٨ الغزيرى ( ديرنبور رقم ٥٢٠ ) .

بعض الحصون القريبة ، حيناً يرقب سير الحوادث ، فلما رأى تطور الموقف على هذا النحو ، ورأى سلطان الموحدين ينهار فى سائر النواحى ، وأن الظروف كلها تدعو إلى اليأس ، لم يجد أمامه سبيلا إلا أن يلتجىء إلى النصارى. فغادر مقره فى أهله وولده ، وقصد إلى ملك أراجون خايمى الأول ، مستجيراً به وملتجئاً إلى حمايته . وكان بصحبة السيد أبى زيد كاتبه ، وكاتب أبيه من قبل ، الفقيه الكاتب الشاعر والمؤرخ المبدع ، أبوعبد الله محمد بن عبد الله بن أبى بكر القضاعى الشهير بابن الأبار ، وقد وصف لنا ابن الأبار موقفه يومئذ ، فى بيتين من الشعر ، بعث بهما إلى بعض أصحابه على أثر مغادرته لبلنسية وهما :

الحمد لله لا أهـل ولا ولد ... ولا قرار ولا صبر ولا جلد
كان الزمان لنا سلما إلى أمـــد ... فعاد حربا لنا لما انقضى الأمد[1]

ويضع ابن الخطيب تاريخ مغادرة السيد أبى زيد بلنسية ، ولحاقه بالنصارى فى السادس والعشرين من صفر سنة ٦٢٦هـ ، أعنى فى نفس اليوم الذى دخل فيه الرئيس أبو جميل زيان بلنسية[2] . ولكنا ذكرنا فيما تقدم اعتماداً على ابن الخطيب نفسه أن السيد أبا زيد غادر بلنسية قبل ذلك بمدة وجيزة ، والتجأ إلى بعض حصونها القريبة .

وتكتفى الرواية الإسلامية بأن تذكر لنا أن السيد أبا زيد لحق بالنصارى ، ودخل فى دينهم[3] . ولكن لهذا السيد الموحدى ، قصة مفصلة متعددة النواحى ، تقدم إلينا تفاصيلها ، الرواية والوثائق النصرانية المعاصرة ، ويجدر بنا أن نلخصها هنا .

سار السيد أبو زيد وصحبه إلى قلعة أيوب ، حيث كان خايمى الأول ، ملك أراجون[4] يعقد بلاطه يومئذ . وفى اليوم العشرين من شهر أبريل سنة ١٢٢٩م

---

(١) وقفنا على هذين البيتين فى مخطوط الإسكوريال « زواهر الفكر ، وجواهر الفكر » السابق ذكره لوحة ٨٧ ا . وراجع فى مصاحبة ابن الأبار لمخدومه ، أزهار الرياض ( المطبوع ) ج ٣ ص ٢٠٥ .

(٢) الإحاطة فى مخطوط الإسكوريال ( ١٦٧٤ الغزيرى ) لوحة ١٣٨ ا .

(٣) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٧٠ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٦٧ و ١٦٨ ، وابن الخطيب فى الإحاطة فى مخطوط الإسكوريال المشار إليه .

(٤) تسمى الرواية الإسلامية Jaime خايمى : « جاقمة ملك أرغون » ( الروض المعطار ص ٤٨ ) ، وأعمال الأعلام ص ٢٧٣ ) وتسميه أحياناً دون جايمش ( أعمال الأعلام ص ٣٣٧ ) . وخايمى هو الرسم الإسبانى ليعقوب .

الموافق الثالث والعشرين من جمادى الأولى سنة ٦٢٦هـ ، اجتمع السيد أبو زيد وولده أبو محمد مع ملك أراجون وولده ألفونسو ، وكان يومئذ يقوم بأهبته لافتتاح ميورقة ، وعقدت بين الفريقين معاهدة ، نص فيها على أن يعطى السيد أبو زيد من سائر الأراضى والأماكن والحصون التى يغنمها سواء بالقوة أو الرضى ، مقدار الربع إلى الملك خايمى ، وعلى أن يحتفظ الملك خايمى لنفسه بكل ما يقوم هو بافتتاحه ، أوما يقع تسليمه إليه ، وأن يقدم السيد كفالة بتنفيذ هذا الاتفاق ، حصون بنشكلة ، ومرلّة ، وقله ، وألبونت ، وشارقه ، وشبرب[1] بصفة رهينة ، وأن يقوم الملك خايمى تأكيداً لعهوده ، بحماية السيد والدفاع عنه وعن ولده ضد أعدائه ، بتسليم حصنى الديموس ، وقشتيل الحبيب[2] اللذين افتتحهما أبوه الملك بيدرو .

وكان من الواضح أن السيد أبا زيد ، حينما عقد هذا الاتفاق مع ملك أراجون ، كانت له أسوة بما فعله من قبل أخوه السيد عبد الله البياسى ، حينما انضوى تحت لواء فرناندو الثالث ملك قشتالة ، وتعهد بتسليم الحصون والأراضى الإسلامية ، بل وبما فعله ابن عمه الخليفة المأمون نفسه ، من تعهده لملك قشتالة بتسليمه الحصون التى يرغبها فى الأراضى الإسلامية ، وغير ذلك مما قطعه على نفسه من العهود ، إزاء قيام هذا الملك النصرانى بمعاونته على انتزاع العرش من خصمه .

وتنفيذاً لهذا الاتفاق خرج السيد أبو زيد ، ومعه الفارس بيدرو دى أساجرا صاحب شنتمرية الشرق ، وبلاسكو دى ألاجون ، وهو زعيم أرجونى كان قبل عامين قد لجأ إلى بلنسية وخدم الموحدين ، ثم عاد إلى أراجون وعفا عنه الملك ، فى قوات طرويل وبعض الفرسان الأرجونيين ، واخترقت الحملة الأراضى التى كان ما يزال السيد أبو زيد يتمتع فيها بشىء من التأييد . وبالرغم من أن السيد استطاع فيما بعد أن يبسط سلطانه على بعض النواحى والضياع القريبة من بلنسية ، فإنه أدرك فى النهاية أنه لن يستطيع تنفيذ العهود التى قطعها على نفسه لملك أراجون ، ومن ثم فإنه عاد فى يناير سنة ١٢٣٢ ، وتنازل للملك خايمى عن سائر الحقوق الإقليمية التى احتفظ بها لنفسه بمقتضى المعاهدة ، وذلك سواء فى مدينة بلنسية

---

(١) وهى بالإسبانية على التوالى Segorbe, Jérica, Alpuente, Culla, Morella, Penoscola

(٢) وهما بالإسبانية Castielfabit, Ademuz

ذاتها ، أو فى أراضيها ، واستبقى لنفسه ولأهله ما سوى ذلك من الحقوق (١) .

وفى خلال ذلك سقط السيد أبو زيد سقطته المؤسية . ذلك أنه لم يكتف بهذا الانضواء المطلق تحت نير الملك النصرانى ، ولكنه هوى إلى الدرك الأسفل ، فاعتنق دين النصرانية ، وهو سليل بنى عبد المؤمن أئمة التوحيد وأقطابه ، ونبذ اسمه المسلم ، واختار اسما نصرانياً هو بثنتى Vicente أو بالعربية « بجنت » وتزوج فيما بعد من سيدة نصرانية من أهل سرقسطة ، وكان يسمى فى الوثائق النصرانية « بثنتى » ، ملك بلنسية وحفيد أمير المؤمنين » ، ولم تقدم إلينا الرواية النصرانية تاريخ تنصر السيد أبى زيد ، ولكنها تقدم إلينا ما يفيد أنه كان يضمر هذه النية منذ عهد بعيد ، أعنى منذ أيام أن كان فى بلنسية والياً عليها ، وتقول لنا إن السيد طرد من بلنسية ، لما علم من أنه يبعث رسله السريين إلى البابا وإلى ملك أراجون ، يعرض اعتناقه للنصرانية ، ولما كان يبدو من إمارات استحسانه لهذا الدين (٢) .

وتجمع الرواية الإسلامية على صحة ارتداد هذا السيد الموحدى عن دين الإسلام ، وتعرب عن أسفها وسخطها لانحداره إلى هذا الدرك المؤسى (٣) . ومن جهة أخرى فإنه مما لاشك فيه أن كاتبه ابن الأبار ، الذى صحبه فى رحلته إلى بلاط ملك أراجون ، قد تركه لمصيره غير بعيد ، لما رأى من استسلامه للنصارى ، ونيته فى اعتناق دينهم ، وعاد إلى بلنسية ، والتحق بخدمة أميرها الجديد أبو جميل زيان (٤) . وسوف يكون ابن الأبار منذ الآن من أبرز شهود المأساة التى اقترنت بمصير بلنسية ، وسوف يأخذ قلمه فى تدوين محنتها بأوفى نصيب .

— ٣ —

فى تلك الآونة التى أخذت فيها نيران الفتنة ، تندلع إلى ربوع الأندلس ، ويسرى دبيب التفكك إلى هيكلها المتداعى ، كانت اسبانيا النصرانية تتطلع فى ثقة وأمل إلى اجتناء التراث المنهار ، وانتزاع الأشلاء المتساقطة ، وكان كل شىء يمهد إلى تحقيق هذا الأمل ، فإن حركة الاسترداد Reconquista ، لم تحظ

---

(١) Andres Piles Ibars : Valencia Aarabe (Valencia 1901). p. 622, 625, 626 & 629

(٢) A. P. Ibars : ibid; p. 617,618 & 622, cit. Zurita, Nota

(٣) يراجع بالأخص ابن عذارى فى البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٧٠ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٦٧ ، و١٦٨ .

(٤) أزهار الرياض ج ٣ ص ٢٠٥ .

من قبل قط ، بما كانت تحظى به يومئذ من سهولة الانقضاض ، وانهيار الجبهة الدفاعية الحصيمة ، بانهيار القوى العسكرية الموحدية فى شبه الجزيرة ، وانشغال البلاط الموحدى بالمغرب ، بخلافاته وحروبه الأهلية . وكانت قوى الأندلس ومواردها الخاصة ، قد تضاءلت تحت ضغط الحكم الموحدى المرهق ، واستئثار الموحدين بشئون الدفاع ، ثم أخذت على ضعفها وضآلتها ، تنتثر هنا وهنالك ، بين أولئك المتغلبين ، أولئك « الطوائف » الجدد ، وكان ملوك اسبانيا الثلاثة ، خايمى الأول ملك أراجون ، وفرناندو الثالث ملك قشتالة ، وألفونسو التاسع ملك ليون ، يسيطر كل منهم ، على مصاير منطقة من شبه الجزيرة ، فملك أراجون يسيطر على مصايرها من ناحية الشرق ، وملك قشتالة يسيطر على مصايرها من ناحية الوسط ، وملك ليون يسيطر على مصايرها من ناحية الغرب ، وكل منهم يرقب الفرص المواتية للانقضاض على الفريسة ، على تلك الأندلس ، التى مزقتها الفتنة ، وفقدت وسائل الدفاع الحقيقية ، وأضحت معظم قواعدها تحت رحمة العدو القوى المتحفز .

ووقعت الضربات الأولى فى الغرب ، من جانب ملك ليون ، وهو أقل الملوك الثلاثة شأناً ، ثم تلتها فى الحال ضربات قشتالة وأراجون القوية ، ووجهت قشتالة اهتمامها إلى القواعد الأندلسية الوسطى ، واتجهت أراجون أولا إلى افتتاح الجزائر الشرقية ، لكى تتفرغ بعد ذلك إلى انتزاع القواعد الشرقية ، وفى مقدمتها ثغر بلنسية العظيم .

وكان ملك ليون ، ألفونسو التاسع ( وهو والد فرناندو الثالث ) ، منذ استولى على مدينة قاصرش المنيعة فى سنة ٦٢٢ هـ ( ١٢٢٧م ) حسبما تقدم ذكره ، يرقب الفرصة لإنزال ضربته التالية ، فى منطقة الغرب الأندلسية . وكانت ماردة ، وبطليوس ، وهما جنوبى قاصرش هما أقرب القواعد الأندلسية العظيمة إلى حدود ليون . فلما عمت الفتنة أرجاء الأندلس ، ولاح لملك ليون ، أن منطقة الغرب أضحت دون مدافع ، وأن قيام ابن هود فى شرقى الأندلس ، لا يمكن أن يحول دون مشاريعه ، خرج من ليون فى قواته ، وذلك فى أواخر فى أواخر سنة ١٢٢٩ م ( أوائل سنة ٦٢٧هـ ) ، وسار جنوبا فى اتجاه نهر وادى يانه ، واستولى أولا على حصن منتانجش[1] . الواقع على مقربة من شمال ماردة ، ثم سار إلى ماردة ،

---

( ١ ) وهو بالإسبانية **Moutanchez** .

وهى تقع شرقى بطليوس ، على ضفة نهر وادى يانه ، وضرب حولها الحصار . ووقف ابن هود على حركة ملك ليون ، فحشد ما استطاع من قواته ، وسار نحو الغرب لإنقاذ المدينة المحصورة ، وكانت من القواعد التى دخلت فى طاعته ، فلما وصل على مقربة من ماردة ، ترك ألفونسو التاسع الحصار ، وتقدم للقاء جيش ابن هود ، ونشبت بين الفريقين عند حصن الحنش[1] معركة عنيفة ، هزم فيها ابن هود ، وارتد فى قواته دون نظام ، وفى الحال ، احتل الليونيون مدينة ماردة ، ثم احتلوا بعد ذلك بقليل ، مدينة بطليوس العظيمة ، وذلك فى مايو سنة ١٢٣٠م ( أواسط سنة ٦٢٧هـ ) . وينحى ابن عذارى بهذه المناسبة باللائمة على ابن هود ، لأنه انهزم بساقته فى بداية الموقعة ، فولى الناس منهزمين من أجل ذلك . ويقول لنا إنه كان بطبعه ملولا عجولا ، وكانت هذه الغزوة أول غزواته وأضخمها[2] .

وعرج ابن هود فى مسيره بعد هزيمته على إشبيلية . وكان مما حدث عند حلوله بها ، أن ثارت العامة بعبد الله بن وزير حاكم ثغر القصر السابق ، وكان قد لجأ إليها ، وقبضت عليه ، فأمر ابن هود بإعدامه هو وأخوه عبد الرحمن ابن وزير ، ويقول لنا ابن الأبار إن ما حدث من العامة نحو الأخوين قد وقع بتحريض ابن هود نفسه[3] .

وفى هذا الوقت نفسه ، كان فرناندو الثالث ، ملك قشتالة يحاول أن يقوم بضرباته فى الأندلس الوسطى . وكان فرناندو يرقب الدعوة الهودية ، واتساع نطاق سلطان ابن هود ، وتوالى طاعة القواعد الأندلسية له ، بمنتهى الاهتمام والتوجس . وكان يخشى أن تجتمع كلمة الأندلس كلها حول هذا الزعيم الجديد ، وأن تغدو مرة أخرى ، كتلة قوية متماسكة يصعب تحطيمها . وكان يرى وجوب المبادرة إلى العمل ، قبل أن يصبح ابن هود وهو فى نظره زعيم الأندلس الحقيقى ، قوة لا تقهر ، ومن ثم فإنا نراه فى أوائل سنة ١٢٣٠م ( أوائل سنة ٦٢٧هـ ) يخرج فى قواته من قشتالة متجهاً نحو أندوجر ، ثم يعبر نهر الوادى الكبير ، وهو أينما

---

( ١ ) وهو بالإسبانية Alanje

( ٢ ) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٧٠ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٦٩ ، والمقرى فى نفح الطيب ج ٢ ص ٥٨٢ .

( ٣ ) الحلة السيراء ص ٢٤٢ .

حل ينسف الزروع ، ويخرب القرى ، ويسبي الذرية، واستمر فى سيره نحو الجنوب حتى فحص غرناطة ، ثم عاد إلى الشمال ثانية . والظاهر أن هذه الغارة الأولى كانت عملا استكشافياً ، لمعرفة ماقد يلقى الغزاة من مقاومة .ولما اخترق ابن هود عندئذ بقواته تلك المنطقة فى طريقه إلى الغرب ، ظن القشتاليون أنه قدم لمحاربتهم ، ولكن ابن هود كان يقصد إلى إنجاد ماردة ، وألفى ملك قشتالة نفسه حرًّا فى خططه وتحركاته ، وعندئذ اتجه فرناندو الثالث بقواته صوب مدينة جيّان الحصينة ، وهى أكبر قواعد تلك المنطقة ، وضرب حولها الحصار ، وذلك فى أواخر يونيه سنة ١٢٣٠ م ، وقذفها بالمجانيق بشدة ، وحاول القشتاليون اقتحامها بكل الوسائل ، ولكن المدينة لبثت صامدة كالصخرة ، أولا لمنعتها الفائقة ، وثانياً لوفرة المدافعين عنها، وبعد حصار دام ثلاثة أشهر اضطر فرناندو أن يترك جيّان ، وأن يعود أدراجه . وماكاد يصل إلى قشتالة حتى علم بوفاة أبيه ألفونسو التاسع ملك ليون ، عقب عودته من افتتاح ماردة وبطليوس ، فاتجه مسرعاً إلى ليون ليجلس على عرشها مكان أبيـه ، وبذا اتحدت قشتالة ، وليون مرة أخرى[١] .

وهكذا نجت القاعدة الإسلامية — جيان — من السقوط إلى حين . ولكن ملك قشتالة ، عاد فبعث فى العام التالى حملة غازية إلى الأندلس ، بقيادة أخيه الإنفانت ألفونسو ، فسارت من أندوجر ، وعاثت فى أنحاء قرطبة ، واستمرت فى سيرها غرباً حتى أحواز إشبيلية ، ثم ارتدت بعد ذلك إلى شريش ، وهى تعيث أينما حلت قتلا وتخريباً . وهنا تحرك ابن هود مرة أخرى لبرد الغزاة ، فسار فى قوات كثيفة ، والتقى بالقشتاليين فى فحص شريش ، ولكنه هزم مرة أخرى ، بالرغم من تفوقه فى العدد ، وذلك فى أواخر سنة ٦٣٠ هـ (١٢٣٣م) .

والظاهر أن القشتاليين كانوا يقصدون بهذه الغزوة ، أن يقطعوا صلة ابن هود بالثغور الجنوبية . وكان ابن هود قد افتتح الجزيرة الخضراء فى سنة ٦٢٩ هـ ، ثم افتتح جبل طارق ، وفى نفس هذا العام دخلت سبتة فى طاعته حسبما قدمنا ، ولكن ابن هود لبث بالرغم من هزيمته ، محتفظاً بسلطانه فى القواعد والثغور الجنوبية . وماكاد فرناندو الثالث ينتهى من تنظيم الشئون الداخلية التى ترتبت على وفاة أبيه حتى تأهب لاستئناف الغزو . وكان بعد أن أخفق فى الاستيلاء على جيان ،

(١) J. Gonzalez : Las Conquistas de Fernando III en Andalucia p: 62 & 63

يعتزم افتتاح مدينة أبّدة ، وكانت أيضاً من أمنع مدن هذه المنطقة وأوفرها سكانا وأقواها حامية ، ولكن فرناندو صمم على أن يمضى فى حصارها حتى ترغم على التسليم . واستمر حصار أبدة من يناير حتى يوليه سنة ١٢٣٣م ( أواخر سنة ٦٣٠هـ ) فلما عدمت الأقوات ولم ترد أية نجدة من أى جهة ، اضطرت أبّدة إلى التسليم بالأمان ، على أن يؤمن سكانها فى أنفسهم ؛ وأن يسمح لهم بأن ينقلوا من أموالهم ما يستطيعون حمله معهم ، وأن تضمن سلامتهم حتى يصلوا إلى الأراضى الإسلامية[١]

وفى نفس هذا العام ٦٣٠هـ ، عقدت الهدنة بين ابن هود وملك قشتالة ، نظير ألف دينار يؤديها اليه ابن هود فى كل يوم[٢]. وكان ابن هود ، قد تكاثر عليه الخصوم ، بقيام منافسه ابن الأحمر فى قطاع جيان ، وخروج بعض المدن ، ولاسيما إشبيلية عن طاعته وذلك حسبما نفصل فى موضعه ، فرأى أن يتفرغ لمحاربتهم بعقد الهدنة مع النصارى .

— ٤ —

بينما كان ملك قشتالة ينزل ضرباته المتوالية بالأندلس الوسطى ، كان ملك أراجون خايمى الأول ، يقوم بأول غزواته الكبرى فى الناحية الشرقية لشبه الجزيرة ، ونعنى غزو الجزائر الشرقية .

كانت الجزائر الشرقية أو جزر البليار ، وهى ميورقة ومنورقة ويابسة ، وعدة جزائر صغيرة أخرى ، منذ افتتحها الموحدون من أيدى بنى غانية فى سنة ٦٠٠هـ ، يتعاقب فى حكمها الولاة الموحدون ، وكانت تتبع ولاية بلنسية من الناحية الإدارية . ولما اضطرمت الأندلس بالثورة على الموحدين ، كان على الجزائر واليها أبو يحيى ابن يحيى بن أبى عمران التينمللى . وكان رابع الولاة الموحدين ، مذ قام الموحدون بافتتاحها من أيدى بنى غانية فى سنة ٦٠٠هـ (١٢٠٣م) ، ووليها منذ سنة ٦٠٦هـ . وفى رواية أخرى هى رواية ابن عميرة المخزومى ، فى كتابه « تاريخ ميورقة » ، أن أمير الجزائر كان عندئذ هو محمد بن على بن موسى ، وأنه هو الذى وليها فى سنة ٦٠٦ هـ[٣] ولكننا نرجح الرواية الأولى ، لأن الرواية النصرانية المعاصرة

---

(١) البيان المغرب ص ٢٨٨ ، وكذلك : J. Gonzalez: ibid; p. 29 y nota (64)

(٢) البيان المغرب ص ٢٨٨ ، وروض القرطاس ص ١٨٣ .

(٣) المقرى فى نفح الطيب ج ٢ ص ٥٨٤ نقلا عن تاريخ ميورقة للمخزومى ، وهو كتاب لم يصل إلينا . ويقول لنا ابن الخطيب فى ترجمته للمخزومى إنه ألف كتابا فى « كائنة ميورقة » وتغلب الروم عليها . ( الإحاطة ١٩٥٦ — ج ١ ص ١٨٤ ) .

ومنها تاريخ الملك خايمى نفسه ، تردد اسم أبى يحيى كأمير للجزيرة[1]. ويقص علينا المخزومى سبب غزو النصارى لميورقة ، أو مقدمات هذا الغزو فى قوله ، إن والى ميورقة بعث طريدة بحرية ومعها سفينة حربية إلى جزيرة يابسة ، لتأتى إليه ، بالأخشاب التى يحتاج إليها ، فعلم بأمرها والى طرطوشة النصرانى ، فبعث إليها قوة بحرية استولت عليها ، فاستشاط الوالى لذلك غضباً ، واعتزم أن يغزو مياه بلاد الروم . وفى أواخر سنة ٦٢٣هـ ( أوائل يناير سنة ١٢٢٥م ) ظهرت فى مياه يابسة سفينة من برشلونة ، وأخرى من طرطوشة ، فبعث الوالى ولده فى عدة قطع بحرية ، فرسى فى مياه يابسة ، وألفى بها مركباً جنوية كبيرة فاستولى عليها ، ثم استولى على المركب البرشلونية . فلما وقف الروم على ذلك ، اضطرموا سخطاً ، وأهابوا بملكهم أن يقوم بغزو الجزيرة ، وعرضوا عليه أن يتطوعوا بانفسهم ، وأموالهم ، فأخذ عليهم العهد بذلك ، وحشد من أهل البلاد عشرين ألفاً ، وجهز فى البحر ستة عشر ألفاً آخرين ، وكان ذلك فى أوائل سنة ٦٢٦ هـ[2] .

هذا ما يقوله المخزومى عن مقدمات غزو ميورقة . ولكن هذه المقدمات ترجع فى الواقع إلى أسباب أقدم وأبعد مدى . فقد كان أمراء قطلونية ومعهم جمهوريتا بيزة وجنوة يتوقون دائماً إلى افتتاح هذه الجزائر ، ووضع حد لغزوات ولاتها المسلمين ، فى مياه الشواطىء النصرانية ، وكان الكرسى الرسولى يشجع ويبارك كل مشروع لافتتاحها . وقد افتتحها النصارى بالفعل قبل ذلك بنحو قرن فى سنة ٥٠٨ هـ ( ١١١٦ م ) فى أوائل العهد المرابطى ، واستعادها المرابطون على أثر ذلك . ولما استقل بنوغانية بالجزائر وقوى أمرهم ، كانت غزواتهم المتكررة ، لشواطىء الدول النصرانية القريبة ، تزعج هذه الدول ، وتحملها على مهادنة أصحاب الجزائر ، وعقد معاهدات السلم معهم . فلما افتتح الموحدون الجزائر من أيدى بنى غانية ، تجددت رغبة الدول النصرانية ، فى انتزاع هذه الجزائر من أيدى المسلمين ، وكان أشدهم رغبة فى ذلك مملكة أراجون ، التى كانت ترى من حقها الطبيعى ، أن تستولى على تلك الجزائر التى تواجه شواطئها ، وذلك تأميناً لمواصلاتها وتجارتها ، وكان بيدرو الثانى ملك أراجون قد فكر فى افتتاح الجزائر بصفة جدية ، ولكن لم يتح له تحقيق أمنيته . فكان على ولده الملك الفتى

---

( ١ ) M.Lafuente : Historia General de Espana, T. IV. p. 77, Nota 2

( ٢ ) نفح الطيب ج ٢ ص ٥٨٤ .

خايمى الأول أن يحقق تلك الأمنية . وكان انهيار سلطان الموحدين فى شبه الجزيرة واضطرام أنحاء الأندلس بالفتنة ، وانتثار وحدتها وتفرق كلمتها مما يمهد لاسبانيا النصرانية السبيل إلى تحقيق غايات الاسترداد La Reconquista بايسر أمر ، وانتزاع أشلاء الأندلس المهيضة الممزقة ، وكان على أراجون وهى تسيطر على شرقى شبه الجزيرة ، أن تجتنى تراث شرقى الأندلس ، وكان الملك خايمى حينما وفد عليه السيد أبو زيد الموحدى مطروداً من بلنسية فى أوائل سنة ٦٢٦ هـ ، يستعد بالفعل لافتتاح الجزائر ، وكان قد استدعى الكورتيس القطلونية فى برشلونة فى شهر ديسمبر سنة ١٢٢٨ م ، واقترح عليه أن يقوم بحملة عسكرية ضد ميورقة بغية افتتاحها ، وذلك لتأمين تجارة قطلونية فى البحر المتوسط ، فوافق الكورتيس على هذا الاقتراح ، ووافق على أن يقوم الملك بتحصيل ضريبة الماشية القرنية للمعاونة فى نفقات الحملة . وعرض أكابر الأحبار والرهبان ، أن يشتركوا فى الحملة بأنفسهم وبمن يحشدونه من الفرسان والجند ، كل وفق طاقته . وعرض أكابر الأشراف القطلان ، وفى مقدمتهم نونيو سانشيز كونت روسيون ، وهوجو دى أمبرياس ، والأخان رامون وجلين دى مونكادا وغيرهم من الأكابر ، أن يشتركوا فى الحملة ، بحشود كبيرة من الفرسان والرماة والجند ، فقبل الملك هذه العروض ، وتعهد من جانبه بأن يقدم مائتى فارس من أهل أراجون بخيلهم وسلاحهم ، كما تعهد بتقسيم الأراضى المفتوحة ، والغنائم المكتسبة بالعدل والقسطاس ، بين المشتركين فى الحملة ، كل وفق ما تكبده من النفقات ، محتفظاً لنفسه بالقصور والسيادة العليا على الحصون والقلاع . وأقسم الجميع على ذلك ، واتفقوا على الاجتماع فى طرطوشة بعد اتمام العدة ، فى شهر أغسطس من العام التالى[١] .

وتم كل شيء وفق ما اتفق عليه. وفى اليوم الخامس من سبتمبر سنة ١٢٢٩م ( ١٤ شوال سنة ٦٢٦ هـ ) خرج الأسطول الأرجونى يحمل قوات ضخمة من ثغور سالو وطركونة وكامبريلس، وكان مؤلفاً من مائة وخمس وخمسين سفينة حربية وعدد من القطع الخفيفة ، التى يقودها بحارة مغامرون من الجنويين وغيرهم . وبلغ عدد المقاتلين ألفاً وخمسمائة من الفرسان وخمسة عشر ألفاً من المشاة ، هذا عدا حشود من المتطوعين من أهل جنوة وبروفانس وغيرهم . ودفعت الرياح العنيفة

---

( ١ ) M. Lafuente : ibid; T. IV. p. 76 .

السفن إلى وجهة غير التى كانت تقصدها ، ولكنها وصلت بعد جهد الى خليج بالما ، وهو الخليج الذى تقع عليه مدينة ميورقة عاصمة الجزيرة ، وكان والى الجزيرة أبو يحيى بن أبى عمران ، قد علم بأمر هذه الأهبة الضخمة التى اتخذها النصارى لفتح الجزيرة ، فاستعد من جانبه للدفاع ، واستطاع أن يحشد قوة مختارة من نحو ألف فارس ، ومن فرسان الرعية والحضر ألفا أخرى ، ومن الرجالة ثمانية عشر ألفاً ، بيد أنه اكتشف فيما يبدو ، مؤامرة لخلعه ، فقبض على أربعة من أكابر الأعيان ، وأمر بإعدامهم ، وكان منهم اثنان هما ابنا أخت أبى حفص بن سيرى وهو من ذوى المكانة والوجاهة ، فاجتمع الناس حوله ، وأبدوا سخطهم وتوجسهم مما حدث به ، وأمر الوالى بعد ذلك بالقبض على خمسين آخرين من الأشخاص البارزين ، وكان ذلك فى منتصف شهر شوال ، وقد اضطرب الناس ، وكثر الإرجاف ، ولم يمض على ذلك يومان أو ثلاثة حتى أقبلت سفن النصارى وظهرت ، فبادر أبو يحيى بالصفح عن خصومه ، وتأهبت الحشود لدفع النصارى[1] . ولكن السفن النصرانية استطاعت أن تدخل مياه الخليج ليلا ، وبمنتهى السرعة ، حتى أن القوات المسلمة التى أرسلت لردها ، وهى مكونة من مائتى فارس وخمسة آلاف راجل لم تستطع شيئاً لمنعها .

وكان أول من نزل إلى البر قوة من سبعمائة من النصارى بقيادة برناردو دى ارخنتونا ، تحصنت باحدى التلال ، وتبعتها فرقة من فرسان رامون دى مونكادا هاجمت المحلة الإسلامية المقابلة ، ففرقتها ، ثم نزل الفرسان القطلان وبعض طوائف الأرجونيين . وهنا وقعت أول معركة بين المسلمين والنصارى ، وكان المسلمون قد استجمعوا سائر قواتهم المرابطة على الشاطىء وانقضوا على الأرجونيين ، وحلفائهم بشدة ، فهزموهم هزيمة شديدة ، وقتل منهم عدد من الأشراف ، والفرسان القطلان ، وفى مقدمتهم جلين دى مونكادا ، وأخوه رامون ، وهرعت أمداد من النصارى لإنجاد المهزومين .

وعندئذ ضرب النصارى الحصار حول مدينة ميورقة ، وأخذوا يضربونها بمختلف الآلات بشدة ، ورد المسلمون على ذلك ، بأن دفعوا قوة منهم حاولت أن تقطع مورد المياه الذى يمد المحلة النصرانية من الجبل . فهاجمها النصارى وقتلوا عدداً منها ، وألقوا ببعض رؤوسهم إلى داخل المدينة ، على أن الدفاع عن المدينة ،

---

(١) المقرى فى نفح الطيب نقلا عن المخزومى ج ٢ ص ٥٨٤ .

لم يكن لسوء الطالع محكماً ، وكان الخلاف يسود بين المدافعين . وكان كثير من الجند الساخطين يتسربون إلى المعسكر النصرانى . وأخيراً استطاع النصارى أن يقتربوا من الأسوار ، وأن يحطموا أربعة من الأبراج . ورأى الوالى أبو يحيى أن الوقت قد حان للمفاوضة فى تسليم المدينة ، فبعث إلى الملك خايمى على يد دون نونيو سانشيز ، أحد أقطاب الحملة ، يعاونه يهودى من سرقسطة يسمى باشول كان يعرف العربية ، يعرض أن يدفع ثمناً لانسحاب ملك أراجون ، وذلك بأن يؤدى إليه سائر نفقات الحملة ، مذ خرجت من ثغر طركونة إلى يوم انسحابها ، على أن لاتترك فى الجزيرة حامية نصرانية ، ولكنه لما علم أن ملك أراجون يصر كل الإصرار على أخذ المدينة ، بعث إليه يعرض تسليم المدينة على أن يسمح له بالخروج إلى المغرب مع أهله وحشمه وأمواله ، وأن تترك له السفن التى تحمله إلى شاطىء افريقية ، وأن يبقى فى الجزيرة من شاء من أهلها المسلمين . ولكن الملك خايمى رفض هذا العرض أيضاً ، تحت ضغط الزعماء القطلان . لأنهم كانوا يريدون الانتقام لآل مونكادا ، والاستيلاء على غنائم المدينة وثرواتها .

وعندئذ عول أبو يحيى على أن يدافع دفاع اليأس ، وعول النصارى من جانبهم على مهاجمة المدينة واقتحامها . وفى يوم ٣٠ ديسمبر سنة ١٢٢٩ م ، استعد الجيش النصرانى للهجوم ، واستمع الجند للقداس ، وعند الفجر بدأوا الهجوم وأحدثوا ثلمة فى السور ، وانثالوا إلى المدينة فى طوائف متعاقبة من ناحية باب الكحل ، فلقيهم المسلمون فى داخلها ، واضطرم بين الفريقين فى الميادين والشوارع قتال عنيف ، وكان الوالى أبو يحيى على رأس جنده ممتطياً صهوة جواده الأبيض ، وهو يحثهم على الثبات ، ودخل الملك خايمى أمام جنده المدينة ، وهو شاهر سيفه . ولم يمض سوى قليل حتى ظهر التفكك فى صفوف المسلمين ، وأخذوا يفرون من باب بورتبين ، وباب برتوليت ، وفى سائر النواحى ، والنصارى فى أثرهم يمعنون فيهم قتلا ، وتقدر الرواية الإسلامية من قتل من المسلمين خلال هذه المعركة الدموية بأربعة وعشرين ألفاً[1] . وفر منهم إلى الجبال نحو ثلاثين ألفاً ، وأسر الوالى أبو يحيى وولده ، واستولى النصارى على ميورقة فى مناظر مروعة من السفك . وكان استيلاؤهم عليها فى يوم الاثنين ٣١ ديسمبر سنة ١٢٢٩ ،

---

(١) المقرى فى نفح الطيب ج ٢ ص ٥٨٥ .

وهو يوافق بالهجرية الثالث عشر من شهر صفر سنة ٦٢٧هـ[١] .

وتتفق التواريخ النصرانية على روعة المذبحة التى وقعت عند دخول النصارى ميورقة ، ويقدر بعضهم من هلك فيها من المسلمين بثلاثين ألفاً ، والبعض الآخر بخمسين ألفاً . بيد أنه يبدو أن ذلك مبالغ فيه[٢] .

ودخل الملك خايمى الأول ، قصر المُدَينة ، وهو قصر الولاة المسلمين ، وأتى بالوالى أبى يحيى ، وأمر بتعذيبه ، واستمر تحت العذاب خمسة وأربعين يوما حتى توفى . وأما ابنه وكان صبياً فى الثالثة عشرة ، فتقول لنا الرواية النصرانية إنه نُصر وسمى بدون خايمى[٣].

على أن المعركة لم تكن قد انتهت بعد ، فإن أبا حفص بن سيرى ، وهو الزعيم الذى أشير إليه فيما تقدم ، لما رأى هزيمة المسلمين ، وسقوط المدينة فى أيدى النصارى ، خرج إلى الجبل، وتبعته طوائف كبيرة من الفارين ، واجتمع له منهم عدة آلاف مقاتل ، واعتزم المقاومة إلى النهاية ، فلم تمض سوى أيام قلائل حتى خرج إليه الملك خايمى فى بعض قواته ، ومعه فرسان من القطلان ، واستمرت هذه القوة فى مطاردة المسلمين ، والاشتباك معهم فى معارك متوالية ، حتى قضت فى النهاية على حشودهم ، وقتل قائدهم ابن سيرى وذلك فى اليوم العاشر من ربيع الآخر سنة ٦٢٨ هـ (١٣ فبراير ١٢٣١ م) أى لأكثر من عام من سقوط المدينة ، وتم كذلك استيلاء النصارى على ما تخلف من المعاقل والحصون وذلك فى شهر رجب من نفس العام[٤] .

وهكذا فقد المسلمون جزيرة ميورقة الغنية الزاهرة كبرى الجزائر الشرقية ، بعد أن حكموها أكثر من خمسة قرون ، وكان لافتتاحها وقع عميق فى الأمم البحرية النصرانية ، فى غربى البحر المتوسط ، واستقبل فيها بمنتهى الغبطة والرضى . بيد أنه لم يحدث كبير صدى فى الأندلس ، حيث كانت المعارك الأهلية الصغيرة

---

(١) ابن الأبار فى التكملة (القاهرة) الترجمة ٤٠٠ و٦٣١ ، وهو يجعل يوم الاثنين يوافق ١٤ صفر ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٧١ ، والروض المعطار ص ١٩١ ، وكذلك ؛ **Campaner y Fuertes: Bosquejo Historico de la Dominación Islamita en las Islas Baleares (Palma 1888). p. 179-186**

(٢) **Campaner y Fuertes : ibid; p. 188**

(٣) **M. Lafuente : ibid; T. IV. p. 79, Nota I**

(٤) نفح الطيب ج ٢ ص ٥٨٥ .

تستغرق كل اهتمام . وعاد الملك خايمى إلى أراجون مكللا بغار الظفر ، بعد أن قضى فى غزوته زهاء خمسة عشر شهرا ، ولقب من ذلك التاريخ « بالفاتح » .

وعاد خايمى بعد ذلك إلى ميورقة أولا فى أواخر سنة ١٢٣١ م ، حينما نمى إليه أن أمير إفريقية الحفصى ينوى أن يبعث بحملة لاسترداد الجزيرة ، وقام عندئذ بإخضاع عدد من المعاقل الجبلية ، التى كانت ما زالت قائمة بالمقاومة ، وعقد مع بعض الزعماء المسلمين الأقوياء فى الأنحاء الجبلية بعض عهود واتفاقات؛ ثم عاد إلى الجزيرة مرة أخرى فى صيف سنة ١٢٣٢ م ، واستطاع عندئذ أن يقوم بالقضاء على أعمال العصيان والمقاومة الأخيرة . على أن أهم ما قام به خايمى يومئذ ، هو تقسيم أراضى الجزيرة وأحياء ميورقة ودورها بين الزعماء الفاتحين ، وفقاً للعهد الذى قطعه على نفسه بذلك ، وتم ذلك على يد هيئة من الأحبار والأكابر . وكتب بهذا التقسيم كتاب باللغات اللاتينية ، والقطلانية ، والعربية ، اشتهر « بكتاب التقسيم » El Libro del Repartimiento وقام بتحريره فى أول يوليه سنة ١٢٣٢ الكاتب الموثق بيدرو روملينو . وما زال هذا الكتاب يحفظ حتى اليوم فى دار المحفوظات ببلدية ميورقة ، وقد اطلعنا عليه خلال زيارتنا لميورقة[١] .

وكان من الواضح أن مصير باقى الجزائر بعد سقوط ميورقة ، قد بت فيه وأضحى رهن مشيئة الفاتحين . فأما جزيرة يابسة Ibiza وهى صغرى الجزائر الثلاثة الكبيرة ، وهى تقع جنوب غربى ميورقة ، فقد نزل بها الأرجونيون فى سنة ٦٣٢هـ ( ١٢٣٥ م ) ، فقاومهم أهلها المسلمون ، واستمر الصراع بين الفريقين نحو خمسة أشهر ، وانتهى بتسليم المسلمين ، واستيلاء الأرجونيين على الجزيرة[٢] . واستولى النصارى فى نفس الوقت على جزيرة فرمنتيرا الصغيرة الواقعة على مقربة من جنوبى يابسة وكانت خالية ليس بها أحد من المسلمين .

هذا فيما يختص بميورقة كبرى الجزائر الشرقية وزميلتها يابسة . وأما جزيرة منورقة أو منرقة الواقعة فى شرقى ميورقة ، وهى ثانى الجزائر من حيث الحجم ، فقد استمرت حقبة أخرى تحت الحكم الإسلامى . ذلك أن واليها الرئيس أبا عثمان

( ١ ) حصلنا على نسخة مصورة من هذا المخطوط الذى يتكون من كراسة كبيرة مستطيلة ، تضم تسع ورقات حجمها نحو ٣٠ فى ١٥ سنتى . وامام كل صفحة من صفحاته العربية مقابلها باللاتينية ، والقطلانية . راجع وصف الكتاب وبعض نصوصه فى كتابنا « الآثار الأندلسية الباقية » ( الطبعة الثانية ص ١٣٣ – ١٣٦ ) .

( ٢ ) روض القرطاس ص ١٨٣ .

سعيد بن حكم الأموى ، وهو من أهل طبيرة من غربى الأندلس ، كان رجلا طموحاً وتجول فى شبابه فى أنحاء الأندلس وإفريقية ، ثم دخل منرقة فى سنة ٦٢٤ هـ ، واشتغل بها مشرفاً على شئون الجباية والأجناد ، ثم ظفر برياستها لما اضطربت الأحوال ، وتقلص سلطان الموحدين ، فوليها من قبل أبى يحيى ، وضبط شئونها بهمة وبراعة وذلك منذ سنة ٦٣١هـ ، وكان عالماً محدثاً ، ونحوياً أديبا يجيد النثر وينظم الشعر مع مشاركة طيبة فى علم الطب ، يجتذب إليه العلماء من كل صوب ، ويفتدى منهم من يقع فى أسر العدو ، وكان ورعاً حريصاً على تنفيذ أحكام الشريعة ، وكان يلقب بالرئيس ، فصلحت أحوال الجزيرة فى عهده ، وعمها الرخاء والأمن . ولما استولى الملك خايمى على جزيرة ميورقة ، رأى أبوعثمان أن يبادر بالتفاهم مع النصارى ، فاعترف بطاعة الملك خايمى ، على أن يؤدى له جزية سنوية ، وأن يسلم إليه حصن تيوداديلا وذلك على أن لا يدخل الجزيرة أحد من النصارى . وهكذا ترك أبوعثمان وشأنه ، فلبث على رياسته للجزيرة زهاء نصف قرن آخر ، وضبط شئونها بحزم ، وسار فى الناس أعدل سيرة ، واستقام أمر الجزيرة على يديه ، وهابه جيرانه من النصارى ، وكان يقصده الناس والعلماء والطلاب من سائر أنحاء الأندلس والمغرب ، ويتردد عليه التجار ، فيشمل الجميع ببره ، ورفقه وأنسه . وكان شغوفاً بجمع الكتب ، حتى اجتمع له منها ما لا نظير له كثرة وجودة وندرة ، ومن شعره قوله فى الحض على الجود :

لا تمنع المعروف يوما معرضا ومعرضا ... كلاهما من حقه فيه له أن يعرضا
هذا تنزه فاستحق على نزاهته الرضا ... والآخر استحيا من التصريح فيه فعرضا

وتوفى سعيد بن حكم فى رمضان سنة ٦٨٠هـ (١٢٨١م) ، فخلفه فى حكم الجزيرة ولده أبو عمر حكم بن سعيد ، وكان مثل أبيه أديباً وعالما ، ولكن أمد حكمه لم يطل ، لأن النصارى رأوا أخيراً أن ينتزعوا منورقة من أيدى المسلمين ، فقام الأرجونيون بافتتاحها فى سنة ٦٨٦ هـ (١٢٨٧ م) وأجلى عنها المسلمون ، وانتهى بذلك أمر الإسلام بالجزائر الشرقية ، وغادر أبو عمر الجزيرة ومعه أهله ورفات أبيه ، وسار أولا إلى سبتة ، ثم قصد إلى تونس ، فغرق فى البحر هو وآله(١).

(١) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٢٥٥ ، والروض المعطار ص ١٨٥ ، وابن الخطيب فى أعمال الأعلام ص ٢٧٥ — ٢٧٧ . وقد أورد ابن عبد الملك فى التكملة ترجمة ضافية لسعيد بن حكم (مخطوط الإسكوريال ١٦٨٢ الغزيرى لوحة ٩ ا — ١٠ ب) .

# الفصل الثانى

## ابن هـــود وابن الأحمر

### وسقوط قرطبة

تقدم دعوة ابن هود . صراعه ضد القشتاليين . رفعه للشعار الأسود ومطالبته بمرسوم الخليفة العباسى. وصول المرسوم وقراءته وهو بغرناطة . محتويات هذا المرسوم . ابن هود أمير الأندلس الشرعى . مدى امتداد سلطانه . اختياره لولده أبى بكر لولاية العهد . رسالته إلى أهل شاطبة بذلك . توجس ابن هود من حركة ابن الأحمر . قيام محمد بن يوسف بن الأحمر فى أواسط الأندلس . نشأته وقومه بنو نصر . قيام دعوته فى أرجونة وجيان وبسطة ووداى آش . دعوته لأبى زكريا الحفص ثم للخليفة العباسى . تأهب ابن هود لمقاومته . تحالف ابن الأحمر مع الباجى زعيم إشبيلية القتال بين ابن هود وابن الأحمر . انتصار ابن الأحمر ودخوله إشبيلية . مصرع الباجى وثورة أهل إشبيلية بابن الأحمر. عودهم لطاعة ابن هود . عقد السلم بين الزعيمين . اعتراف ابن الأحمر بطاعة ابن هود . قيام ابن شعيب بلبلة . فشل ابن هود فى محاصرته . غزو ملك قشتالة لمنطقة جيان . تجديد الهدنة بين ابن هود وملك قشتالة . شروط هذه الهدنة . افتتاح القشتاليين لحصن الأطراف وعدة حصون أخرى . طموح ملك قشتالة إلى افتتاح قرطبة . قرطبة واضطراب أحوالها عندئذ . غزو الفرسان القشتاليين لشرق قرطبة . اقتحامهم للمنطقة الشرقية . اختلاف الرواية فى ظروف هذا الحادث . احتلال النصارى لبعض الأبراج . ما تقوله الرواية الإسلامية فى ذلك . إسراع قوات الحدود لإنجاد النصارى . اهتمام فرناندو الثالث بالحادث . مسيره فى الحال إلى قرطبة . تضخم الحشود النصرانية تحت أسوار قرطبة . موقف القرطبيين الحرج . إسراع ابن هود بقواته نحو قرطبة . إحجامه عن إنجاد المدينة . اختلاف الرواية فى أسباب هذا الإحجام. رواية نصرانية عن ذلك . رواية إسلامية عن تجدد الهدنة بين ابن هود وملك قشتالة . اشتداد فرناندو الثالث فى محاصرة المدينة . اضطرار أهل المدينة إلى المفاوضة فى التسليم . شروط هذا التسليم وظروفه . قبول فرناندو الثالث . إيجاز الرواية الإسلامية فى ذلك . ما تقوله الرواية النصرانية عن مغادرة المسلمين لمدينتهم . دخول القشتاليين قرطبة . رفع الصليب على صومعة جامعها . دخول فرناندو الثالث المدينة ومثوله فى الجامع . إقامة قداس الشكر . نزع رؤوس الثريات القديمة وردها إلى شنت ياقب . تأملات عن سقوط قرطبة . كتاب ابن هود إلى عماله . مسيره إلى ثغر ألمرية . واليها أبو يحيى الرميمى ودعوته لابن هود . بواعث مقدم ابن هود إلى ألمرية . رواية إسلامية عن ذلك . غدر الرميمى بابن هود ومصرعه . تأملات عن ثورة ابن هود وحركته . سياسته وخلاله . مبايعة ولده ابى بكر بمرسية . صدى وفاته فى إشبيلية . عودها إلى طاعة الموحدين . سبتة تحذو حذوها . استيلاء ابن الأحمر على غرناطة . مسيره إلى ألمرية ومحاصرتها . فرار الرميمى والتجاؤه إلى إفريقية . دخول ألمرية فى طاعة ابن الأحمر. دخول مالقة فى طاعته . اجتماع بقايا الأندلس فى مملكة غرناطة . تغدو مستودعا لتراث الأندلس . دعاء ابن الأحمر للخلافة الموحدية ، ثم لأمير إفريقية الحفصى . غزو القشتاليين لمنطقة جيان . استيلاؤهم

على أرجونة وغيرها . فشلهم فى محاصرة جيان . ابن الأحمر يعقد الصلح مع ملك قشتالة . شروط هذا الصلح . ماخسرت الأندلس من جرائه . اعتراف ابن الأحمر بطاعة قشتالة . استيلاء ملك قشتالة على إشبيلية . ابن الأحمر يختار ولى عهده . النزاع بين ابن الأحمر وبين صاحب سبتة . مسير ابن الأحمر إلى إشبيلية لتجديد الصلح مع ملك قشتالة . شعوره بنية الغدر والخيانة ومغادرته للمدينة . عود ملك قشتالة لغزو الأندلس . صدى محنة الأندلس فى الغرب . النجدة الأولى من عسكر بنى مرين . إغارة القشتاليين على غرناطة . اضطرار ابن الأحمر إلى تجديد الهدنة مع ألفونسو العاشر . خسائر جديدة للأندلس . رثاء أبى الطيب الرندى للقواعد الذاهبة . وفاة ابن الأحمر . بعض صفاته وخلاله .

تركنا محمد بن يوسف بن هود ، المتوكل على الله ، وقد اعترفت بطاعته ، عدا مرسية ، مطلع ثورته ، ومهد حركته ، شاطبة ، وجيان ، وغرناطة ، ومالقه ، وألمرية ، ثم إشبيلية قاعدة الحكم الموحدى . وشعر ابن هود بحق أنه بانهيار الحكم الموحدى ، واجتماع معظم قواعد الأندلس تحت طاعته ، قد غدا زعيم الأندلس الحقيق ، وقائد حركتها التحريرية ، والمسئول عن حمايتها والذود عنها ضد النصارى ؛ وفى ظل هذا الشعار سار ابن هود لإنجاد ماردة ، حينما دهمها الليونيون ، ولكنه هزم فى المعركة التى نشبت بينه وبينهم ، وسقطت ماردة وبطليوس ، فى أيدى النصارى ( ٦٢٧ هـ ) . واستولى ابن هود على الجزيرة الخضراء ، وجبل الفتح ، من أيدى الموحدين فى سنة ٦٢٩ هـ ، وكان استيلاؤه عليهما بمعاونة السيد أبى عمران موسى والى سبتة ، وأخى الخليفة المأمون عندما ثار على أخيه ، ودعا بالخلافة لنفسه ؛ ونزل السيد أبو عمران فى نفس الوقت لابن هود عن سبتة ، وحكمها نائبه الغشتى حينا حسبما تقدم ذكره ، ثم خاض ابن هود وهو عائد إلى الشمال ، فى أواخر هذا العام ، مع القشتاليين وعلى مقربة من وادى آش ، معركة هزم فيها القشتاليون وقتل معظمهم (1) ، ولكنه عاد فاشتبك مع القشتاليين فى العام التالى ، على مقربة من شريش ، فى معركة هزم فيها ، ورأى على أثر ذلك أن يعقد الهدنة مع القشتاليين ، وذلك فى أواخر سنة ٦٣٠هـ ( ١٢٣٣ م ) وذلك حسبما فصلناه من قبل فى موضعه .

وكان ابن هود قد رأى منذ البداية ، أن يستظل بلواء الدولة العباسية ، فرفع الشعار الأسود ، ودعا للخليفة المستنصر بالله العباسى ، وبعث إليه ببغداد يطلب المرسوم والخلع الخلافية ، فبعث إليه المستنصر بالمرسوم والخلع والرايات ،

---

( ١ ) ابن الخطيب فى أعمال الأعلام ص ٢٨٠ .

وحملها من بغداد إلى الأندلس، مبعوث الخليفة أبو على حسن بن على بن حسن الكردى الملقب بالكمال ، وتلقاها ابن هود فى سنة ٦٣٠هـ ، وهو يومئذ بغرناطة، فقرئ المرسوم على الناس بمصلى العيد ، وقد اجتمعوا لطلب الغيث والاستسقاء وابن هود يرتدى السواد ، والرايه السوداء بين يديه[1] ، ومن حسن التوفيق أن نزل المطر على أثر على ذلك ، فاستبشر الناس ، وكان يوماً مشهوداً .

وقد نقل إلينا ابن الخطيب نص هذا المرسوم الخلافى ، وفيه يسبغ الخليفة على ابن هود ، لقب المتوكل على الله ، الذى اختاره لنفسه ، ومما جاء فيه بعد الديباجة ، وبعد الإشادة بالخليفة المستنصر وعهده :

« ولما انتهى إلى علومه الشريفه (أى المستنصر) زادها الله شرفاً وقدساً ، ما عليه مجاهد الدين ، محمد بن يوسف بن هود ، من سلوك سنن الطاعة المؤسس بنيانها على تقوى من الله ورضوان ، والتزام شروط الولاء ، الذى هو علامة متانة الدين وكمال الإيمان ، والتصدى لمقارعة الناكثين عن محجه الحق والهدى ، والتجرد لمرابطة من حاد عن السنة والإجماع ، اللذين بهما يسترشد ويهتدى ، اقتضت آراؤه الشريفة ، المقدسة النبوية الإمامية الظاهرة ، الزكية الممجدة ، المعظمة المكرمة ، المستنصريه ، زادها الله جلالا متألق الأنوار ، وشرفاً رفيع المنار ، واقتدارا تجوب جياده جنوب الآفاق والأقطار ، أن يقلده أمر جزيرة الأندلس ومايجرى معها من الولايات والبلاد ، ويسوغه ما يفتتحه من ممالك أهل الشرك والعناد ، تقليداً صحيحاً شرعياً ، وتسويغاً صريحاً إماميا ، وإنعاماً يضفو عليه لباس فخاره الفضفاض ، وتصفو لديه موارد مواهبه النميرة الحياض .

وقد أمره — صلوات الله عليه — بأوامر تهديه إلى سبيل الرشاد ، وتحظيه برضى الله الذى هو أنفع الذخائر فى الدنيا ويوم يقوم الإشهاد ، وماتوفيق أمير المؤمنين إلا بالله ، عليه يتوكل واليه ينيب » .

ويلى ذلك ما يسديه الخليفة إلى ابن هود من نصائح ، تتلخص فى وجوب تمسكه بتقوى الله ، وبأن يجعل كتاب الله مناراً يرجع إليه فى حل المشكلات ، وأن يعمل بسنة نبيه ، وأن يكثر من مجالسة الفقهاء والعلماء ، ومشاورة العقلاء

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٩ ، وابن الخطيب فى أعمال الأعلام ص ٢٨٠ . ويقول ابن عذارى إن وصول مرسوم الخليفة كان فى سنة ٦٢٩ هـ (البيان المغرب ص ٢٧٦) ، ولكنا نرجح الرواية الأولى .

الألباء ، وأن يحسن السيرة فى رعيته ، وأن يعنى بمجاهدة الكفار ، وفقاً لما أمر الله فى كتابه . ثم يختتم الكتاب بتلقيب ابن هود بالألقاب الآتية : « الأمير ، الأصفهصلار الكبير ، الأجل ، المرابط ، المثاغر ، الغازى ، مجاهد الدين ، مجد الإسلام ، جمال الأنام ، نجم الدولة ، عز الملة ، معين الأمة ، فخر الملوك ، قامع المشركين ، قاهر الخوارج والمتمردين ، زعيم الجيوش ، شرف الأمراء ، تاج الخواص ، أطال الله بقاءه ، وأدام علوه ونعمته »[1] .

وهكذا غدا ابن هود أمير الأندلس الشرعى ، وتوجت زعامته بشعار الخلافة العباسية ، حسبما كان عليه المرابطون أيام دولتهم وحكمهم للأندلس . وكان سلطان ابن هود يمتد يومئذ فى شرقى الاندلس من الجزيرة وشاطبة حتى ألمرية جنوباً ، وفيما بين ألمرية ، والجزيرة الخضراء ، وفى وسط الأندلس ، فيما بين قرطبة وغرناطة ، ولم يخرج عن سلطانه من القواعد الكبرى ، سوى بلنسية فى شرقى الأندلس ، وجيّان فى وسطها ، وإشبيلية فى غربها . وكانت إشبيلية قد دانت بطاعته ، وولى عليها أخاه عماد الدولة حسبما تقدم ، ولكن لم يمض طويل على ذلك ، حتى نكث أهل إشبيلية ببيعتهم ، وأخرجوا منها عماد الدولة ، والتفوا حول زعيم جديد هو القاضى أبومروان أحمد بن محمد الباجى ، فاعتذر عن قبول الولاية أولا ، ولبث حيناً على قاعدة الشورى ، ثم تقلد الولاية ، وبسط سلطانه على إشبيلية وقرمونة . وكان ذلك فى سنة ٦٢٩ هـ[2] .

وعمد ابن هود على أثر تلقيه المرسوم الخلافى بالولاية ، إلى اختيار ولده أبى بكر محمد لولاية عهده ، ولقبه بالواثق بالله ، المعتصم به . وقد وقفنا على رسالة فى ذلك مدبجة بقلم أبى عبد الله بن الجنان ، عن لسان ابن هود وموجهة منه إلى أهل شاطبة يبلغهم فيها ذلك الاختيار ، وفيها ينعت نفسه « بمجاهد الدين ، سيف أمير المؤمنين ، عبد الله المتوكل عليه ، أمير المسلمين محمد بن يوسف بن هود » ويخاطب الفقهاء والوزراء والقواد والأعيان والوجوه والنبهاء والكافة « بشاطبة وجهاتها ، وما انضاف إليها من جهة بيران ودانية ، وذلك من حضرتنا بمرسية » . ثم يعرب فيها ، بعد الدعاء للنبى وللخليفة المستنصر بالله ، عن محبته لهم ، ويعلن

---

(١) يراجع نص المرسوم فى أعمال الإعلام ص ٢٨٠ — ٢٨٦ ، ونشر البيان المغرب بعض فقراته ص ٢٧٧ و ٢٧٨ .

(٢) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٧٨ و ٢٧٩ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٦٩ .

إليهم أنه اختار : « ولى عهدنا ، المتولى لأمور المسلمين من بعدنا ، ابننا الأمير الموفق المبارك الميمون السعيد الرشيد ، الواثق بالله ، المعتصم به ، أبا بكر محمداً ، أدام لله توفيقه ، ومنحه إنجاده وعضده وإسعاده ، وتملكه جميع أمورها ، وكافة حواضر ها وثغورها ، وتقدمه فيها فى بلاد هى منشأه ومشيئته ومبدأه » ، وأنه يوليه « جميع أقطار المشرق ، وبلاده ، وأغواره وأنجاده ، تولية عامة فى حياتنا ، مع أنه المتولى بحكم العهد الذى ارتضينا له لكل ممالكنا وطاعاتنا ، وخصصنا هذه البلاد الشرقية ، حاطها الله تعالى بتقديمه فيها »[1] .

وكان مما يوطد مركز ابن هود ، ويدعم زعامته وهيبته ، هو تجرده لمحاربة النصارى ، وما يخوضه معهم من معارك متوالية ، وإذا كان ابن هود قد انتهى بأن عقد الهدنة ، مع ملك قشتالة ، نظير إتاوة يؤديها إليه ، فإن ذلك لم يكن إلا نزولا منه على حكم الظروف ، لكى يتفرغ لمقارعة خصومه ومنافسيه .

— ١ —

على أن ابن هود لم يكن منفرداً برياسة الأندلس ، ولو أتيح له هذا الانفراد بالرياسة ، لكان من المرجح أن يكون له فى قيادة الأندلس شأن آخر ، وقد رأينا فيما تقدم ، أنه فى الوقت الذى قام فيه بمرسية ، كان له فى شرق الأندلس ، منافس آخر ، هو أبو جميل زيان بن مردنيش القائم فى بلنسية . بيد أن هذه المنافسة المحلية فى الشرق ، لم تكن مما يضايق ابن هود أو يهدد زعامته ، وإنما كان يتوجس ابن هود ويخشى من قيام زعيم آخر ، أخذ نجمه يبزغ فى أواسط الأندلس وجنوبها بسرعة ، ويظفر بطاعة قاعدة بعد أخرى ، ولم يكن هذا الزعيم الأندلسى الجديد ، سوى محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن خميس النصرى المعروف بابن الأحمر . وكان بنو نصر هؤلاء ، وهم يرجعون نسبتهم إلى سعد بن عبادة سيد الخزرج ، فى الأصل سادة حصن أرجونة ، الواقع على مقربة من نهر الوادى الكبير ، ومن أعمال ولاية جيان . وكان لبنى نصر فى تلك المنطقة عصبية ووجاهة مؤثلة ، فلما اضطربت الأمور ، وانهار سلطان الموحدين بالأندلس ، وظهر ابن هود فى الشرق ، وأخذ سلطانه يمتد نحو الجنوب ، لاحت لمحمد بن يوسف فرصة للظهور والعمل ، وكان هذا الزعيم المتواضع الموهوب معاً ،

---

(١) وردت هذه الرسالة فى كتاب « زواهر الفكر » الذى سبقت الإشارة إليه ( مخطوط الإسكوريال رقم ٥٢٠ الغزيرى ، و٥١٨ ديرنبور ) .

يضطرم بكثير من الشجاعة والإقدام والعزم ، فدعا لنفسه وبويع أولا فى أرجونة موطن أسرته ومثوى عصبيته وأنصاره ، وفى الجهات المجاورة لها ، وذلك فى سنة ٦٢٩هـ . وفى العام التالى ، دخل مدينة جيان وبويع بها ، ثم أطاعته بسطة ، ووادى آش؛ وهكذا قوى أمره وامتد سلطانه بسرعة إلى أنحاء الأندلس الوسطى وأخذ يتطلع إلى الاستيلاء على القواعد الجنوبية . وكان ابن الأحمر ، يرى منذ البداية ، أن يستظل بلواء سلطة إسلامية مرموقة . فدعا أولا للأمير أبى زكريا الحفصى صاحب إفريقية ، وتلقى منه بعض العون ، ولكنه عاد ، فدعا على نمط ابن هود للخليفة العباسى ، المستنصر بالله[1] .

ولم يلبث ابن هود أن شعر بخطورة هذه الحركة ، التى يضطلع بها منافسه الجديد ، فى المناطق الوسطى والجنوبية ، ومن ثم فقد اعتزم أن يتأهب لمقارعته والقضاء على حركته ، ولم يكن يخاف أيضاً على ابن الأحمر خطورة ، المعركة التى يجب عليه أن يخوضها مع ابن هود ، لكى تخلص له رياسة الأندلس ، ومن ثم فقد أخذ من جانبه يتأهب لخوضها ، وكان عقد ابن هود للهدنة ، مع القشتاليين ، يرجع قبل كل شىء إلى رغبته فى التفرغ لهذه المعركة الداخلية . ومن جهة أخرى فقد اتجه ابن الأحمر إلى العمل على تقوية جانبه ، بالتفاهم مع أبى مروان أحمد ابن محمد الباجى المتغلب على إشبيلية ، وذلك بأن عقد معه حلفاً ، وصاهره على ابنته ، واتفق الاثنان على مقاومة ابن هود ومحاربته .

وتأهب الفريقان للحرب ، وحشد كل منهما ما استطاع من قواته ، والتقيا على مقربة من إشبيلية ، ووقعت بينهما معركة ، كانت الهزيمة فيها على ابن هود ، وكان النصر لابن الأحمر وحليفه الباجى ، وكان وقوعها فى أوائل سنة ٦٣١هـ ( ١٢٣٣ م )[2] . ودخل ابن الأحمر إشبيلية بعد ذلك بقليل، وهو يضمر الغدر بحليفه وصهره الباجى ، ولم يلبث أن دس عليه أحد أصهاره من بنى أشقيلولة فقتله وذلك فى جمادى الأولى من نفس العام ، وبادر ابن الأحمر فاحتل القصبة ، وحاول أن يبسط سلطانه على المدينة ، ولكنه لم يلبث فيها سوى شهر ، وثار به أهل إشبيلية ، وأخرجوه من القصبة ومن المدينة ، عنوة ، ثم عادوا فدعوا

---

( ١ ) البيان المغرب ص ٢٧٩ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٧٠ . وراجع كتابى « نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين » الطبعة الثانية ص ٣١ و ٣٢ .

( ٢ ) روض القرطاس ص ١٨٣ .

لابن هود ، وبعث إليهم ابن هود أخاه سالما عماد الدولة ليضطلع بولاية إشبيلية مرة أخرى ، والظاهر مما يقوله ابن عذارى أنه قد وقع لابن الأحمر بقرطبة ، مثلما وقع بإشبيلية، وأن أهل قرطبة ، كانوا قد بايعوه فى بداية أمره ، فلما رأوا فعلته بالباجى ، وما ترتب عليها من إخراجه من إشبيلية ، نكثوا ببيعته وخلعوا طاعته وعادوا إلى طاعة ابن هود(١) .

وحدث عندئذ حادث لم يكن متوقعاً ، هو عقد الهدنة والصلح بين ابن هود وابن الأحمر . وذلك أن كلا الزعيمين ، أدرك فيما يبدو ، خطر الحرب الأهلية الانتحارية ، التى يخوضها كل منهما ضد صاحبه ، وأنه لن يستفيد من هذا الصراع الأخوى المؤلم ، سوى ملك قشتالة ، المتربص بهما معا ، فتفاهما ، وعقد الصلح بينهما، وذلك فى شوال سنة ٦٣١ هـ ( يونيه ١٢٣٤م ) ، وذلك على إن يعترف ابن الأحمر بطاعة ابن هود ، وعلى أن يقره ابن هود فى ولاية جيان وأرجونة ، وبركونة وأحوازها . ويقول لنا ابن خلدون من جهة أخرى ، إن اعتراف ابن الأحمر بطاعة ابن هود ، وقع على أثر وصول العهد الخلافى من بغداد لابن هود وذلك فى سنة ٦٣١(٢) .

ولم يمض قليل على ذلك حتى ثار بمدينة لبلة فى سنة ٦٣٢ هـ ، وهى من أعمال إشبيلية ، قاضيها شعيب بن محمد بن محفوظ ودعا لنفسه ، وتسمى بالمعتصم ، فسار ابن هود لقتاله ، فامتنع بمدينته ، وهى ذات موقع طبيعى حصين وأسوار عاليه ، فحاصرها ابن هود واستمر على محاصرتها حينا ، وهى صامدة ممتنعة عليه(٣) .

وقد كان سير الحوادث فى الواقع يدعو إلى عقد مثل هذا التهادن بين الزعيمين المتنافسين . ذلك أن ابن هود ، علم وهو على حصار لبلة ، بأن ملك قشتالة قد خرج فى قواته صوب الأندلس ، يريد محاربته، ولكن فرناندو الثالث ، انحرف بقواته نحو منطقة جيان التى يسيطر عليها ابن الأحمر ، وأخذ يعيث فى أحواز أرجونة ، وجيان ، وترك ابن هود حصار لبلة ، دون أن ينال منها مأرباً ، ليعود إلى أراضيه ، وهنالك فيما بين إشبيلية وقرطبة وفد إليه سفير فرناندو ،

---

( ١ ) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٧٩ و٣٢٢ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٧٠ .
( ٢ ) روض القرطاس ص ١٨٣ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٧٠ .
( ٣ ) روض القرطاس ص ١٨٣ ، والبيان المغرب ص ٣٢٢ .

ألبار ببرث ، وجرت بينهما مفاوضات ، انتهت بالاتفاق على تجديد الهدنة ، بين ابن هود وملك قشتالة لمدة ثلاثة أعوام ، وذلك على أن يدفع ابن هود لملك قشتالة إتاوة قدرها مائة ألف وثلاثون ألف دينار ، دفع منها فى الحال خمسين ألفا ، وقسط الباقى على الأعوام الثلاثة ، وعلى أن ينزل ابن هود عن بعض الحصون الواقعة فى منطقة جبل الشارات (سيرّا مورينا) ، وهى حصون نائية ، منقطعة لم يكن من السهل أن يدافع عنها أوينجدها المسلمون[1] . ويقول لنا ابن خلدون إن هذه الحصون كانت ثلاثين ، وأن ملك قشتالة تعهد بأن يتخلى عن معاونة ابن الأحمر ، وأن يعاون ابن هود على تملك قرطبه[2]. على أن هذا القول بالنسبة لابن الأحمر لم يكن يتفق مع ماتم من عقده للسلم مع ابن هود ومبايعته له ، وهو ما يقرره لنا ابن خلدون نفسه حسبما سبقت الإشارة إليه . وكان عقد هذه الهدنة، بين ملك قشتالة وابن هود فى أواخر سنة ٦٣٢ هـ (صيف سنة ١٢٣٥م) .

وعلى أثر ذلك ارتد ملك قشتاله فى قواته عائداً إلى بلاده ، وفى خلال هذا العود ، قام بمحاصرة « حصن الأطراف » Iznataraf ، فاستسلم إليه فى الحال على أن يمنح الأمان لمن كان به من المسلمين ، وأن يغادروه حاملين ماستطاعوا من أمتعتهم . ثم حاصر من بعده حصن شنت إشتين ، وهو من الحصون الواقعة ، فى طريق بياسة وأبدة ، فسلمه المسلمون إليه بنفس الشروط ، واستولى فرناندو فى طريقه أيضاً على عدة حصون أخرى فى منطقة جيان ، وكانت هذه الحصون كلها من الحصون التى نص على تسليمها فى الهدنة التى عقدت مع ابن هود .

— ٢ —

والواقع أن هذه الحوادث كلها : غزوات فرناندو الثالث المتوالية لأراضى الأندلس ، وتهدئته لابن هود بعقد السلم معه ، واستيلاؤه ، واستيلاء الجماعات الديلية العاملة باسمه ، تباعا على حصون منطقة جيان ، لم تكن سوى مقدمات لغاية أخطر وأبعد مدى ، كان يضمرها ويعمل لها ملك قشتالة ، أوبعبارة أخرى لم يكن سوى تمهيد لضربة مؤلمة جديدة ، يزمع إنزالها بالأندلس ، تلك هى استيلاؤه على مدينة قرطبة العظيمة .

كانت عاصمة الخلافة القديمة ، منذ انهيار سلطان الموحدين فى شبه الجزيرة ،

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص٣٢٢ ، وكذلك: J.Gonzalez : ibid ; p. 71 y notas
(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٧١ .

ومذ ثار شعبها المتوثب ، بواليها الموحدى السيد أبى الربيع وقتله ، حيرى فى أمرها ، لا زعيم لها ولاقائد ، تتردد فى الطاعة بين مبايعه، ابن الأحمر ومبايعة ابن هود ، ولكنها أميل إلى الانضواء تحت لواء ابن هود . ومن الأسف أن الرواية الإسلامية التى تعنى دائماً أشد عناية بأحوال قرطبة وأخبارها ، لاتمدنا عن هذه الفترة الأخيرة من حياة المدينة الأندلسية العظيمة ، أوعن مأساة سقوطها ، بأية تفاصيل شافية . ومن ثم فإنه لابد لنا أن نعتمد فى ذلك بالأخص على أقوال الرواية النصرانية المعاصرة ، إذ هى أكثر عناية وتفصيلا .

ولقد عرفنا من قبل فى مواطن وظروف كثيرة ، ماكان عليه أهل قرطبة من خلق متمرد مضطرم ، لايلين ولا تصقله عبر الحوادث ، ومن ثم فإنا نراهم فى تلك الآونة العصيبة ، التى كان مصيرهم فيها يهتز فى كفة القدر ، على خلاف فى الرأى ، لايجمعهم شعار الخطر المشترك ، ونرى الأحقاد والخصومات ، تدفع فريقاً منهم إلى المغامرة ، بسلامة مدينتهم ، فيما يمكن أن يوصم بعمل من أعمال الخيانة ، التى لا يمكن أن يغتفرها التاريخ .

فنى أوائل سنة ١٢٣٦ م ( أواخر ربيع الثانى سنة ٦٣٣ ﻫ ) خرجت جماعة من الفرسان القشتاليين ، وهم من أهل الحدود المغاورين المحترفين ، ومعظمهم من منطقة أندوجر الواقعة شرقى قرطبة ، وساروا صوب قرطبة ، فأشرفوا عليها حينما دخل الليل . وكانت مدينة قرطبة فى ذلك الوقت تنقسم إلى خمس مناطق أو أحياء متعاقبة ، وبين كل منطقة وأخرى ، سور فاصل(١) ، وكانت المنطقة الأولى الواقعة شرقى قرطبة ، تعرف بالربض الشرقى أو « الشرقية » وتجتمع باقى المناطق فيما يسمى « بالمدينة » ، وهى تقع غربى « الشرقية » وكلتاهما الشرقية والمدينة ، تقع على الضفة الشمالية لنهر الوادى الكبير . فلما وصل الفرسان القشتاليون وهم فئة قليلة ، لاتحدد لنا الرواية عددها ، وربما كانت تضم بضع عشرات — إلى مشارف « الشرقية » وضعوا فى الحال خطة اقتحامها . وهنا تختلف الرواية فى شأن الخطة التى تم بها هذا الاقتحام . فنى رواية ألفونسو الحكيم أن الفرسان القشتاليين أسروا بعض المسلمين من الساخطين على زعمائهم ، وعلموا منهم أن المدينة محروسة بشدة ، وتفاهموا معهم على إحداث ثلمة فى سور الشرقية ، واستطاعوا بهذه الطريقة أن يقتحموا السور ، وأن يستولوا على الأبراج فى ليلة حالكة عاتية

( ١ ) الروض المعطار ص ١٥٣ .

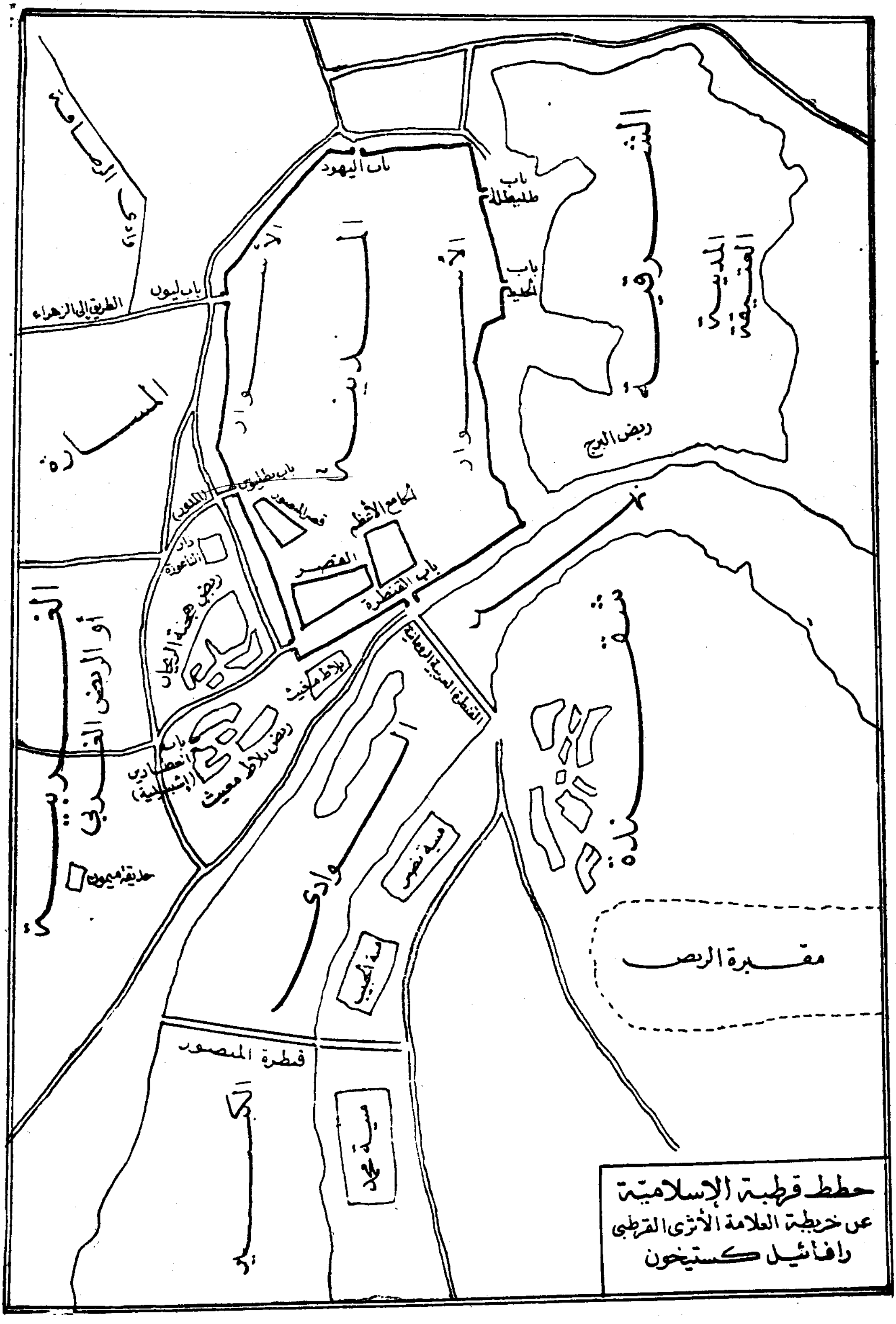


حطط قرطبة الإسلامية
عن خريطة العلامة الأثري القرطبي
رافائيل كستيخون

الريح[١] . وفى رواية أخرى أن بعض المسلمين ، ومنهم بالأخص واحد كان قد تنصر ، ساعدوا القشتاليين على تحقيق خطتهم ، وبينوا لهم أن الشرقية ، ليس بها سوى قليل من السكان ، وأن أسوارها الخارجية ضعيفة الحراسة ، ومن ثم فقد استطاع القشتاليون ، بإرشاد هذا المسلم المتنصر ، أن يتسلقوا السور ، وأن يستولوا على الشرقية بطريق المباغتة ، وكان هذا السور ، هو أول الأسوار الخارجية ، وليس هو السور الذى يفصل الشرقية عن باقى أحياء المدينة ، وقتل من أهل الشرقية عدد كبير ، وهرب الباقون إلى داخل المدينة . واحتل النصارى بعض الأبراج المنيعة فى السور . وفى الحال وقع الهرج بالمدينة ، وتقدم المدافعون لمهاجمة النصارى ، وقتل عدد من الجانبين ، ولكن النصارى لبثوا صامدين فى الأبراج ، وأرسلوا فى الحال يطلبون الإمداد[٢] .

وتجمل الرواية الإسلامية، ذلك العدوان المفاجىء فى قولها: « وفيها ( أى فى سنة ٦٣٣ هـ ) غدر النصارى شرقية قرطبة ، وذلك فى ثالث شوال ، غبشاً فى غفلة السحار ، وسلم الله عز وجل النساء والذرارى حتى لحقوا بالغربية ، وبقى الناس معهم فى قتال شديد »[٣] .

ووصل نداء القشتاليين إلى إخوانهم على الحدود بسرعة ، وفى الحال هرع اثنان من قادة الحدود ، هما أردونيو ألباريث ، وألبار بيرث ، الذى عرفناه من قبل ، كل فى قواته ، وتبعهما أسقف بياسة مع رجاله ، ثم أسقف قونقة فى قواته ، وسار فى أثرهم آخرون . وماكادت هذه الأنباء تصل إلى فرناندو الثالث ملك قشتالة ، وهو فى بنقنتى على مقربة من ليون ، حتى اهتم لها أيما اهتمام ، وكان ثمة من وزرائه ومستشاريه من يرى فى الأمر كثيراً من الخطورة والتعقيد، فهو يرتبط أولا مع ابن هود باتفاق الهدنة ، وقرطبة تدين بطاعة ابن هود ، وقرطبة مدينة عظيمة ، تزخر بالسكان والمدافعين ، ولايتأتى افتتاحها الا بقوات ضخمة ، ومن جهة أخرى فإن ابن هود قد يضطر إلى إنجادها بقواته ، خصوصاً وأن قرطبة تعتبر فى نظر المسلمين كبرى قواعد الأندلس ، ولها فى نفوسهم مكانة خاصة .

---

(١) Crónica General (Ed.M. Pidal) No. 1044 .

(٢) J. Gonzalez : ibid; cit. Crónica Latina y Jimenez de Rada; p. 74 - 76 y notas .

(٣) هذه رواية روض القرطاس ( ص ١٨٣ ) .

وهذا كله إلى ظروف الجو وقسوة الشتاء وفيضان الأنهار . ولكن ملك قشتالة لم يلق بالا إلى شيء من هذه الاعتراضات ، ولم يكن يرى بالأخص فى مهاجمة قرطبة نقضا لعهوده مع ابن هود ، إذ كان فريق من أهل المدينة هم الذين استدعوا النصارى . ومن ثم فقد بادر فرناندو الثالث من فوره بالمسير إلى الجنوب ، ومعه قوة من مائة فارس فقط ، وقصد من فوره إلى قرطبة ، فوصل إليها فى اليوم السابع من فبراير ، واضطرمت الحشود النصرانية المرابطة تحت أسوار المدينة حماسة لمقدمه ، وكانت تتضخم كل يوم بمن يفد إليها من حشود قشتالة وليون ، ومن فرسان الجماعات الدينية المختلفة . ونصب ملك قشتالة محلته قبالة قنطرة قرطبة التى تؤدى إلى طريق إستجة . وأخذ فى الحال فى وضع خطة للاستيلاء على المدينة(١) .

وهنا يحق لنا أن نتساءل ، ماذا كان موقف القرطبيين إزاء هذا الخطر الداهم ، وماذا كان بالأخص موقف ابن هود . أما عن القرطبيين ، فليس ثمة شك فى أنهم اعتزموا منذ اللحظة الأولى الدفاع عن مدينتهم وحاضرتهم ، ولكن كان من الواضح أنه كانت تنقصهم القيادة الحازمة ، وكان ينقصهم بالأخص اجتماع الكلمة . وعلى أى حال فإن الرواية الإسلامية تذكر لنا أن أهل قرطبة لبثوا مع النصارى فى قتال شديد(٢) ، وهى لاتذكر لنا اسم الزعيم أو القائد الذى اجتمع حوله أهل قرطبة فى تلك الآونة العصيبة ، وإن كانت الرواية النصرانية تذكر لنا أنه كان يسمى أبا الحسن . وأما عن ابن هود ، وهو صاحب الولاية الشرعية على قرطبة ، فقد كان من الطبيعى أن يتجه اليه القرطبيون لإنجادهم والدفاع عن مدينتهم . وكان ابن هود فى الواقع قد هرع فى قواته من قطاع مرسية ، حينما علم بالخطر الذى يحدق بعاصمة الخلافة القديمة . وكان فى جيش قوى يبلغ نحو خمسة وثلاثين ألف مقاتل ، ومعه نحو مائتى فارس من المرتزقة النصارى ، فسار فى قواته مسرعاً صوب قرطبة ، وانحرف عن العاصمة قليلا نحو الجنوب الشرقى ، وعسكر على مقربة من إستجة . وكان أهل قرطبة ينتظرون بفارغ الصبر مقدم ابن هود ، واشتباكه مع النصارى فى معركة فاصلة ، ولم يكن ثمة ريب أن ابن هود لو اشتبك بجيشه مع القشتاليين ، لحقت عليهم الهزيمة ، ولتركوا

---

(١) J. Gonzalez : ibid : p. 76-78; M. Lafuente : Historia General de Espana; T. IV. p. 43

(٢) روض القرطاس ص ١٨٣ .

المدينة المحصورة وشأنها . ذلك أن القشتاليين كانوا فى قلة من العدد ، ولم يكن مع ملك قشتالة سوى نحو مائتى فارس من الأشراف ، ولم تكن الحشود الواردة من مختلف أنحاء قشتالة ، تؤلف قوة ذات شأن . ولكن الذى حدث هو أن ابن هود لبث جامداً فى قواته . وهنا تختلف الرواية فى إيضاح سبب هذا الجمود . فيقال لنا إن قسوة الطقس ، وهطل الأمطار بشدة ، ونقص المؤن ، حملت ابن‌هود على التريث والإحجام . ووردت فى تاريخ ألفونسو الحكيم قصة أخرى ، خلاصتها أنه كان يوجد فى جيش ابن‌هود فارس قشتالى منفى بأمر مليكه يدعى لورنسو خواريز ، ومعه مائتان من المرتزقة النصارى ، وكان ابن هود يقربه ويثق به ويعمل بنصحه . فلما نزل ابن هود وجيشه فى إستجة ، وهو يعتزم مقاتلة القشتاليين ، فكر هذا الفارس فى أن يسترد رضى مليكه بخدمة عظيمة يؤديها إليه ، وهو أن يعمل على خدعة ابن هود ورده عن مقاتلة القشتاليين ، وإنجاد أهل قرطبة ، فتظاهر بأنه سوف يتسلل إلى المعسكر النصرانى تحت جنح الليل ، ويقف على مبلغ عدده وعدته . وسار لورنسو بالفعل ليلا مع أصحابه إلى المعسكر النصرانى ، وترك أصحابه على مقربة من المعسكر ، وتقدم بنفسه إلى خيمه الملك ، وطلب مقابلته لأمر خطير ، فاقتيد إليه ، وكان الملك غاضباً عليه ، فلما شرح إليه مهمته ، وأنه يريد أن يعمل على خدعة ابن هود ، وتخويفه من قوة الجيش القشتالى وعدده ، ورده عن مقاتلته ، عفا عنه الملك ، ووعده برعايته ، وتفاهم الإثنان على ما يجب عمله . وعاد لورنسو إلى ابن هود ، وحذره بشدة من الاشتباك مع القشتاليين ، لأنهم فى جيش قوى ، حسن الأهبة والعدد ، ولايؤمن الدخول معه فى معركة ، فاستمع ابن هود إلى نصحه ، وقرر أن يتخلى عن مشروعه فى إنجاد أهل قرطبة والاشتباك مع القشتاليين (١) .

هذا ما تقرره الرواية النصرانية عن السبب فى إحجام ابن هود عن إنجاد أهل قرطبة . وتزيد الرواية النصرانية على ذلك ، أن ابن‌هود تلقى فى اليوم التالى رسالة من صاحب بلنسية أبى جميل زيان ، ينبئه فيها بأن خايمى ملك أراجون يشتد فى مضايقته وإرهاقه ، ويطلب إليه الإنجاد والغوث ، وأن ابن هود عملا بنصح مستشاره لورنسو خواريز ، قرر أن يسير إلى بلنسية ، وقد كان يطمح إلى

---

(١) Crónica General (Ed. Pidal) T. II. p.7 82 ، وكذلك : J. Gonzalez : ibid; cit. Crónica Latina ; p. 78 y notas

امتلاكها ، وأنه ترك قرطبة إلى مصيرها ، مؤملا أن يصمد أهلها للدفاع عنها ، إلى أن يستطيع هو انقاذها فيما بعد[١] . على أن هذه الروايات النصرانية لاتلقى فى نظرنا أى ضوء مقنع على تصرف ابن هود . ومن جهة أخرى فإن الرواية الإسلامية تكاد تلزم الصمت المطبق فى هذا الموطن . وكل ماهنالك أن صاحب روض القرطاس ، يقدم إلينا خلال حديثه عن حوادث سنة ٦٣٣ ﻫ وبعد ذكره لسقوط قرطبة ، نصاً موجزاً يقول فيه : « وفيها ( أى فى سنة ٦٣٣ﻫ ) انعقد الصلح بين ملك قشتالة ، وابن هود لأربعة أعوام بأربع مائة آلاف دينار فى السنة »[٢] . ويبدو من هذا النص أن الهدنة ، بين ابن هود وبين فرناندو الثالث ، كانت قد انتهت أو انقطع سريانها ، لتخلف ابن هود عن أداء الإتاوة المشروطة أو غير ذلك من الأسباب ، وأن التخلى عن إنجاد قرطبة ربما كان ضمن شروط الهدنة الجديدة ، التى يشير إليها صاحب روض القرطاس ، وهذا ما يمكن أن يستدل كذلك من سير الحوادث تحت أسوار المدينة المحصورة .

ذلك أن فرناندو الثالث شدد فى حصار قرطبة ، وقطع كل علائقها من جهة البر ، ومن جهة الوادى الكبير ، حتى لاتستطيع أن تتلقى أية مؤن أو أمداد من الخارج ، وحتى لايستطيع أن يدخلها أو يخرج منها أحد . واستمر هذا الحصار المرهق دون هوادة ، حتى نضبت موارد المدينة وأقواتها أوكادت ، وعندئذ اضطر أهل المدينة إلى مفاوضة ملك قشتالة فى التسليم على أن يؤمنوا فى أنفسهم ، وفيما يستطيعون حمله من أموالهم ، ووافق ملك قشتالة على هذا الشرط ، ولكن أهل قرطبة علموا عندئذ أن الجيش القشتالى تنقصه المؤن ، وأنه يعانى أيضاً من قلة الأقوات ، فنكلوا عن توقيع عهد التسليم أملا فى أن يضطر القشتاليون إلى رفع الحصار ، وتنجو المدينة من السقوط . وعندئذ شعر ملك قشتالة أن لابن هود يداً فى هذا التحول ، فبعث فى الحال إلى محمد بن الأحمر أمير جيان ، وعقد معه عهداً جديداً بالتحالف . وقد كان ابن الأحمر بالرغم من عقد الهدنة مع ابن هود ما يزال هو خصمه ، ومنافسه فى رياسة الأندلس ، وكان فوق ذلك خصيما لأهل قرطبة لأنهم طردوه من مدينتهم . وعندئذ شعر أهل قرطبة بخسران قضيتهم ، وانهيار آمالهم ، وعادوا إلى المفاوضة فى التسليم ، على شروطهم السابقة . وكان قد مضى على الحصار

---

( ١ ) Crónica General; T. II. p. 733 .

( ٢ ) روض القرطاس ص ١٨٣ .

بضعة أشهر ، وأضحى الموقف مستحيلا ، خصوصاً بعد أن نكل ابن هود عن إنجاد المدينة المحصورة ، وأحجم عن كل اشتباك مع القشتاليين . وكان بعض الغلاة من صحب ملك قشتالة من الأحبار والأشراف ، يرون رفض التسليم واقتحام المدينة ، وقتل كل أهلها المسلمين ، ولكن ملك قشتالة ومعه فريق آخر من مستشاريه ، كان يرى أن هذا الإجراء قد يدفع أهل المدينة إلى اليأس ، وتخريب المدينة ، ومسجدها الجامع ، وتحطيم سائر ذخائرها وثرواتها . والظاهر أيضاً أن ابن الأحمر ، حليف ملك قشتالة أوتابعه ، كان له يد فى إقناعه بقبول التسليم ، وتأمين أهل المدينة . وفى نفس الوقت عقدت بين ملك قشتالة ، وابن هود هدنة جديدة ، لمدة ستة أعوام يلتزم فيها ابن هود بأن يدفع إتاوة قدرها اثنين وخمسين ألف مرافيدى على ثلاثة أقساط سنوية[١] .

وهنا أيضاً ، لاتقدم إلينا الرواية الإسلامية ، أية تفاصيل شافية عن تسليم قرطبة ودخول النصارى إياها ، وذلك حسبما فعلت بالنسبة لسقوط بلنسية ، وكل ماتذكره فى هذا الشأن كلمات موجزة ، مثل « وتغلب عليها النصارى » أو « كان دخول النصارى مدينة قرطبة » أو « ملكها النصارى » أوماشابه هذه العبارات من كلمات مقتضبة[٢] . وهنا أيضاً يجب أن نعتمد فى ذكر هذه التفاصيل على الرواية النصرانية . فإنه ماكاد عهد التسليم يعقد بين أهل المدينة ، وبين ملك قشتالة حتى ترك أهل قرطبة دورهم ، وأوطانهم ، وغادروا مدينتهم العزيزة التالدة ، حاملين ما استطاعوا من أمتعتهم ، وقد برح بهم الجوع والحزن ، وتفرقوا فى أنحاء الأندلس الأخرى . وفى يوم الأحد الثالث والعشرين من شهر شوال سنة ٦٣٣هـ ، الموافق ٢٩ يونيه سنة ١٢٣٦[٣] م ، دخل الجند القشتاليون مدينة قرطبة ، وفى الحال رفع الصليب على قمة صومعة جامعها الأعظم ، ودخل أسقف أوسمة إلى الجامع ، وحوّل فى الحال إلى كنيسة . وفى اليوم التالى ، يوم الاثنين ٣٠ يونيه دخل فرناندو الثالث ومن معه من الأشراف والكافة ، قرطبة ، ثم دخل الجامع ، وهنالك استقبله أساقفة أوسمة ، وبياسة ، وقونقة ، وسائر رجال الدين ، وأقيم

---

(١) J. Gonzalez : Ibid, p. 79 & 80 y notas .

(٢) ابن الأبار فى التكملة (القاهرة) فى الترجمة ٣٠٢ ، والبيان المغرب ص ٣٢٢ ، وابن خلدون ج٤ ص١٧١ ، وروض القرطاس ص ١٨٣ ، والروض المعطار ص١٥٨ ، ونفح الطيب ج ٢ ص٥٨٥ .

(٣) ابن الأبار فى التكملة ( القاهرة ) ص ٢٠٢ .

فى الحال قداس شكر بورك فيه الملك . ومما تذكره الرواية النصرانية فى هذا الموطن ، أن الملك فرناندو أمر بأن تنزع النواقيس التى كان الحاجب المنصور قد أخذها من كنيسة شنت ياقب ( سنتياجو ) حين غزوه لمدينة شنت ياقب فى سنة ٣٨٧ هـ ( ٩٩٧ م ) وحملها الأسرى النصارى على كواهلهم حتى قرطبة ، وهنالك جعلت رؤوسا للثريات الكبرى بالجامع — أمر بأن تنزع هذه النواقيس، وأن يحملها الإسرى المسلمون على كواهلهم ، إلى شنت ياقب ، لترد هنالك إلى أمكنتها بالكنيسة الكبرى[١]. ثم سار الملك بعد ذلك إلى قصر قرطبة ، القريب ، وهو قصر الأمراء والخلفاء الأمويين القدماء ، ونزل فيه ، وندب لحكم المدينة المفتوحة الدون تليو ألفونسو ، وحشدت لحراسة المدينة حامية كافية من الفرسان، وأخذ النصارى يفدون إليها من سائر الأنحاء لسكناها وتعميرها ، وفق الخطة التى وضعها الملك لذلك ، وانصرف ملك قشتالة ، عائداً إلى بلاده[٢] .

وهكذا سقطت قرطبة ، عاصمة الخلافة القديمة ، وكبرى قواعد الأندلس، ومثوى العلوم والآداب الأندلسية ، وذلك بعد أن حكمها المسلمون ، منذ افتتاحها فى سنة ٩٢هـ (٧١١ م ) خمسمائة وخمسة وعشرين عاما ، وبعد أن لبثت قرونا منارة ساطعة ، تبث أضواء علومها وفنونها ، فى سائر أنحاء شبه الجزيرة، وفيما وراء جبال البرنيه . ومن الغريب المحزن ، أن الرواية الإسلامية لاتكاد ترثى قرطبة إلا بمقتضب الكلم ، وأن الشعر الأندلسى وكذلك النثر ، لايخصانها بشىء من تلك القصائد الرنانة المؤسية ، وتلك الرسائل البليغة المبكية، التى يخصان بها قواعد مثل طليطلة ، وبلنسية ، وإشبيلية . وربما كان سبب ذلك أنه لم يكن ثمة بقرطبة ، عند سقوطها ، كتاب وشعراء مثل ابن الأبار ، وأبى المطرّف بن عميرة المخزومى ، وإبراهيم بن سهل الإشبيلى .

ومن الواضح أن سقوط قرطبة ، كان نذيراً بخضوع معظم البلاد والحصون القريبة، لسلطان النصارى . ومع أن ملك قشتالة لم يضع يده نهائياً على تلك البلاد والحصون ، إلا أنها خضعت جميعاً لطاعته ، وتعهدت بأداء الجزية ، والسماح بإقامة حاميات نصرانية بها . وكان من هذه البلاد والحصون ، إستجة، والمدور ، وإشتبة، وبيانة، وأجيلار (بلاى) ومرشانة وقبرة وأشونة، واللسانة، ومورور وغيرها.

---

(١) Crónica General (Ed. Pidal); p. 734 .

(٢) J. Gonzalez : ibid; p. 80 & 81 y notas .

— ٣ —

لما جددت الهدنة بين ملك قشتالة، وابن هود، وانتهت المأساة بتخلى ابن هود عن إنجاد قرطبة، لتسقط بعد ذلك بقليل فى أيدى النصارى، غادر ابن هود فى قواته مدينة إستجة. وليس فى الرواية ما يبين لنا اتجاهه، وخط سيره فى تلك الآونة. بيد أنه وجّه بعد ذلك بقليل، فى الرابع والعشرين من جمادى الأولى سنة ٦٣٤هـ، إلى نوابه وعماله فى مختلف القواعد التى تدين بطاعته، كتابا يحثهم فيه على تقوى الله، ومراعاة أحكامه وحدوده، والاقتداء بالسلف الصالح، والحرص على صون الدماء، وحقنها، وعدم إراقتها إلا بمسوغ شرعى، واختيار المشرفين على الأموال من ذوى العفة والنزاهة والدين، لأن حرمة الأموال مشبهة بحرمة الدماء، وأن تكون معاملة الناس فى الحق سواء، دون محاباة ولا مفاضلة، ولا مجاوزة فى تغليب قوى على ضعيف، ولا يؤخذ أحد بجريمة غيره، وأن يجرى العمل باتباع أحكام كتاب الله، وأن يتلى كتابه هذا على الناس جملة وتفصيلا [(١)].

ولسنا نعرف شيئاً عن حركات ابن هود وأعماله فى الأشهر التالية، ولكنا نراه يتجه فى قواته نحو ثغر ألمرية فى أوائل سنة ٦٣٥ هـ. وكانت ألمرية فى مقدمة البلاد التى نادت بطاعته، ودعا له بها أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبى يحيى الرميمى، وهو حفيد واليها السابق أبى يحى الذى افتتحها النصارى من يده، فى سنة ٥٤٥ هـ، واستردها الموحدون بعد ذلك أيام الخليفة عبد المؤمن بن على فى سنة ٥٥٢ هـ. ولما دعا أبو عبد الله لابن هود بألمرية، قصد إليه بمرسية، فولاه ابن هود وزارته، وصرف إليه أموره، فأبدى غيرة فى خدمته، وأقنعه بأن يحصن ألمرية، وأن يجعل منها مثوى له، يلجأ إليه عند الحاجة، ثم تولى الرميمى شئون ألمرية، واستبد بها، ولبث أثيراً عند ابن هود وموضع ثقته، وكان يدعى بذى الوزارتين. وتختلف الرواية فى أمر البواعث التى حدت بابن هود إلى أن يقصد إلى ألمرية بعد أن ترك قرطبة لمصيرها، فهناك قول بأنه كان يقصد السير بقواته إلى بلنسية لإنجاد صاحبها أبى جميل زيان، وأنه كان يزمع أن ينقل جنده بالسفن من ألمرية إلى بلنسية، وهذا قول الرواية النصرانية، متمشياً مع ما سبق ذكره من قولها، إن أبا جميل زيان بعث إلى ابن هود يستغيث به وهو فى

(١) أورد لنا صاحب البيان المغرب نبذة طويلة من هذا الكتاب (ص ٣٣٢ — ٣٣٥).

إستجة ، وأن ابن هود قرّر أن يستجيب إلى هذا الصريخ ، لأنه كان يطمح إلى امتلاك بلنسية. بيد أنه يبدو من الأرجح أن ابن هود كان يقصد إلى العمل، على توطيد سلطانه فى المنطقة الجنوبية ، خصوصاً وقد كانت غرناطة تضطرم يومئذ بالثورة عليه وتنادى بخلع طاعته ، حسبما نبين بعد ، وأنه سار إلى ألمرية أولا لينظم خطة العمل . ثم إن الرواية الإسلامية تقدم إلينا تعليلا آخر ، هو أن ابن هود كانت له جارية إسبانية رائعة الحسن من بنات الإشراف ، وكان قد أودعها لدى الرميمى بألمرية خشية أن يتسرب خبرها إلى زوجته ، فشغف بها الرميمى ، واستأثر بها ، فنمى ذلك أن ابن هود ، فسار إلى ألمرية ، وهو يضمر معاقبة الرميمى ، فلما وصل إلى ظاهر ألمرية ، استقبله الرميمى بمنتهى الحفاوة ودعاه إلى قصره ، ليقوم بحقه ، وليجتمع هنالك بجاريته الحسناء ، فقبل ابن هود دعوته ، ولما حل بالقصر على مأدبة حافلة ، كان ابن الرميمى قد دبر أمره للقضاء عليه متى جن الليل ، فقيل إنه دس عليه بالحمام أربعة من رجاله قضوا عليه ، وقيل إنه قتله خنقاً بمخدتين أقعدهما على نفسه وفيه . وهكذا لجأ الرميمى إلى الجريمة احتفاظا بسلامته وسلطانه. وفى صباح اليوم التالى أعلن وفاه ابن هود ، وأنه توفى فجأة من صرع أصابه ، ووضعت جثته فى تابوت أرسل بحراً إلى مرسية ، وكان مصرع ابن هود على هذا النحو فى الرابع والعشرين من جمادى الأولى سنة ٦٣٥هـ ( ٢١ يناير ١١٣٨م )(١). واستمر الرميمى على رياسته لألمرية فترة أخرى حتى انتزعها منه ابن الأحمر .

وهكذا توفى محمد بن يوسف بن هود المتوكل، وهو فى ذروة سلطانه ، ومشاريعه ، وانهارت بوفاته دولته التى لم يطل أمدها سوى تسع سنين وبضعة أشهر ، والتى كانت تبشر حين قيامها ، بعهد جديد من الإحياء والاستقرار بالنسبة للأندلس . وكانت ثورة ابن هود وحركته ، رمزاً لتلك الأمنية القديمة ، التى اتخذت من قبل شعاراً لمختلف الثورات التى قامت ضد المرابطين فى نهاية عهدهم ، والتى اضطلع بها محمد بن سعد بن مردنيش ، فى أوائل عهد الموحدين وهى العمل على تحرير الأندلس. من نير حكامها الأجانب ، وكان ابن هود فى الوقت الذى يعمل فيه لتدعيم سلطانه ، وزعامته ، مخلصاً لدعوته ، وغايته فى

---

( ١ ) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٣٣٥ و ٣٣٦ ، والمقرى فى نفح الطيب ج ٢ ص ٥٨١ و ٥٨٢ . ويقول ابن الأبار إن مصرع ابن هود وقع فى السابع والعشرين من جمادى الأولى سنة ٦٣٥ هـ ( الحلة السيراء ص ٢٤٩ ) .

جمع كامة الأندلس تحت لواء قومى جديد، والذود عما بقى من أراضيها وقواعدها ضد تيار الفتح النصرانى ، وكان الانحلال المؤلم الذى انتهت إليه الأندلس فى أواخر عهد الموحدين ، وتراخى الموحدين فى الدفاع عنها ، واهتمامهم بشئونهم الخاصة ، واتخاذهم من الأندلس أداة للتطاحن والمساومة مع النصارى ، تحقيقاً لمطامعهم الخاصة — كان ذلك كله مما يسبغ على حركة ابن هود وَدعوته قوة ، ورجحانا ، ولكن ابن هود لم يكن بصفاته وموارده كفوًا للمهمة العظيمة ، التى اضطلع بها ، وكانت تعتور جهوده نفس المثالب القديمة ، التى كانت تصدع دائماً من جهاد الزعماء الأندلسيين ، والتى كانت تجتمع فى مصانعه النصارى ، ومساومتهم على حساب المصالح القومية . ولم يكن ابن هود أيضاً بالرغم من إخلاصه لقضية الأندلس ، يتمتع بمثل تلك المواهب اللامعة التى كانت يتمتع بها زميله ومنافسه محمد بن الأحمر ، من الروية والدهاء وحسن السياسة ، بل كان بالعكس حسبما يخبرنا ابن عذارى ، بطبعه ملولا عجولا. وكان شجاعاً كريماً وفيا ، متوكلا على الله ، ولكنه كان قليل المبالاة بالأمور محدود الأفق ، غير موفق فى آرائه وخططه لتسرعه وغلبة الخفة عليه ، ولقائه اعداءه دون روية واستعداد ، فكان ذلك مما يعوق نجاحه فى أحيان كثيرة[١] .

وإذا كانت الرسائل السلطانية ، تلقى من جهة أخرى ضوءاً خاصاً على أخلاق ابن هود وسياسته ، فإنا نستطيع أن نقول إنه كان يتجه فى حكمه إلى توطيد العدل وقمع الظلم ، والرفق بالرعية ، وذلك بالاستناد إلى رسالته التى وجهها فى سنة ٦٣٤ هـ ، إلى الولاة ، يوصيهم فيها بالمحافظة على أحكام الشريعة ، وتوخى الحق ، والعمل على صون الدماء ، والتحوط ضد قتل المسلم ، وعزل العمال الظلمة غير الأمناء ، وأن تطبق المساواة فى الحق على الجميع[٢] ، وكذلك بالاستناد إلى رسالة أخرى كتبها عنه أبو عبدالله بن الجنان ، إلى أحد ولاة المدن ، يقول فيها إنه وقف على كتابه فى طلب تحصين هذه المدينة وتأمينها ، وأنه مع موافقته على ذلك ، يهيب به أن يرفع ما يقع بالناس من الحيف وضرر الخدمة ، وأنه لابد من اتباع الرفق مع الناس ، وإيثار العدل فى معاملتهم[٣].

---

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٧٠ ، وأعمال الأعلام لإبن الخطيب ص ٢٧٨ .

(٢) تراجع هذه الرسالة فى البيان المغرب ص ٣٣٢ — ٣٣٥ .

(٣) تراجع هذه الرسالة فى صبح الأعشى ج ٧ ص ٣٤ و ٣٥ .

وكان لوفاة ابن هود وقع عميق فى الأندلس ، ولاسيما فى الشرق مركز دعوته ومثوى رياسته . ولما وصل نبأ وفاته إلى مرسية ، اجتمع أهلها على مبايعة ولده وولى عهده أبى بكر بن محمد بن يوسف بن هود ، وكان أبوه قد اختاره حسبما تقدم لولاية عهده منذ سنة ٦٢٩ هـ ، ولقبه بالواثق ، وأطاعته بلاد الشرق التى كانت تحت طاعة أبيه(١) .

ويقول لنا ابن الأبار من جهة أخرى، إنه لما توفى ابن هود ، كان على رياسة مرسية أخوه على بن يوسف الملقب بعضد الدولة(٢) . وعلى أى حال فإن رياسة بنى هود لمرسية ، لم يطل أمدها ، حسبما نفصل بعد فى موضعه .

وأما فى غربى الأندلس فقد كان لاختفاء ابن هود من الميدان صدى كبير فى إشبيلية ، وكان من أثره أن وقع بالمدينة تحول جديد خطير ، بعودها إلى طاعة الموحدين . ففى شوال سنة ٦٣٥ هـ ، أعلن أهل إشبيلية ، بزعامة أبى عمرو بن الجد طاعتهم للخليفة أبى محمد عبد الواحد الرشيد ، وقدموا للولاية عليهم أبا عبد الله بن السيد أبى عمران ، وكان قد لجأ مع أخويه أبى زيد وأبى موسى إلى إشبيلية ، بعد أن قتل والدهم السيد أبو عمران فى إفريقية ، وأقاموا بها فى ظل ابن هود . وسار إلى مراكش وفد من أهل إشبيلية ليقدم بيعتها إلى الخليفة ، وأقر الخليفة السيد أبا عبد الله على ولايتها . وحدث مثل هذا التحول فى ثغر سبتة ، وكانت قد خلعت طاعة الموحدين منذ سنة ٦٣٠هـ ، فلما مر وفد أهل إشبيلية فى سفنه بها فى طريقه إلى مراكش ، قام أهلها أيضاً بإعلان طاعتهم للخليفة الرشيد، وبعثوا إلى مراكش وفداً لتقديم بيعتهم . وكان لهذا التحول الذى وقع بعود إشبيلية وسبتة ، إلى طاعة الدولة الموحدية ، رنة فرح واستبشار فى مراكش، وأحيط مقدم الوفدين الإشبيلى والسبتى إلى الحاضرة بأعظم مظاهر الترحاب والتكريم ، ومما زاد فى ارتياح البلاط الموحدى ، ماقام به أهل إشبيلية من القبض على عمر بن وقاريط زعيم هسكورة السابق ، الثائر على الدولة الموحدية ، وإرساله إلى المغرب ، وكان بعد هزيمته ، قد لجأ إلى إشبيلية ، فى ظل ابن هود(٣) . وسوف نعود إلى تفصيل ذلك فى موضعه المناسب .

---

(١) البيان المغرب ص ٣٧٧ .

(٢) الحلة السيراء ص ٢٥٠ .

(٣) البيان المغرب — ص ٣٣٧ ٣٣٩ .

— ٤ —

وكان محمد بن يوسف بن الأحمر ، خلال ذلك ، يرقب الحوادث ، فلما توفى ابن هود ، أدرك أن الفرصة قد سنحت للعمل على اجتناء تراثه فى الاندلس الوسطى ، وهى التى كان ابن الأحمر يسيطر منها على المنطقة الشمالية ، وكان مقصده الأول ، مدينة غرناطة قاعدة المنطقة الجنوبية . وكان ابن هود قد ولّى عليها عتبة بن يحيى المغيلى ، وكان عتبة رجلا فظا ظلوما جائراً ، يبغض ابن الأحمر ويأمر بسبه على المنابر ، فلما اشتدت وطأته على أهل المدينة ، ثار عليه جماعة من أشرافها ، بزعامة ابن خالد ، واقتحموا القصبة والقصر فى عصبتهم ، وقتلوا عتبة ، وأعلنوا طاعتهم لابن الأحمر ، وبعثوا إليه يستدعونه ، لتولى الرياسة عليهم ، فكانت فرصة مواتية لابن الأحمر . فبادر بالسير إلى غرناطة فى جمع من صحبه ، ونزل بخارجها فى البداية مبالغة فى التحوط والطمأنينة . ثم دخلها من الغد عند مغيب الشمس ، فى يوم من أواخر رمضان سنة ٦٣٥هـ ( أبريل سنة ١٢٣٨ م ) وهو يرتدى ثيابا خشنة وحلة مرقعة ، وقصد إلى مسجد القصبة ، وأم الناس لصلاة المغرب . ثم غادر المسجد إلى قصر باديس ، والشموع بين يديه ، ونزل فيه مع خاصته . وغدت غرناطة من ذلك اليوم حاضرته ، ومقر حكمه ، بدلا من جيّان ، التى كان يهددها النصارى باستمرار(١) .

وماكاد ابن الأحمر يستقر فى غرناطة ، حتى اعتزم أن يسير إلى ألمرية لافتتاحها ، وسحق ابن الرميمى وزير ابن هود وقاتله ، فسار إليها فى بعض قواته ؛ وحاصرها من ناحية البر بشدة ، ولبث على حصارها حينا ، فلما رأى ابن الرميمى أنه لا أمل له فى النجاة من مصيره ، غادر ألمرية من جهة البحر ، فى مركب شحنه بأهله وأمواله ، وسار إلى تونس ، حيث لجأ إلى أميرها أبى زكريا الحفصى ، واستقر بها تحت كنفه ورعايته(٢) .

وكان استيلاء ابن الأحمر على ألمرية فى أواخر سنة ٦٣٥هـ ، وكانت قد أطاعته من قبل من القواعد الجنوبية شريش ووادى آش ، ثم نادت بطاعته مالقة ، العام التالى ( ٦٣٦هـ ) ، وقدم إلى غرناطة وفد من أعيانها يقدم إليه بيعتها ، وكانت من إنشاء أديبها الكبير ابن عسكر ، فولاه ابن الأحمر قضاءها(٣) .

---

( ١ ) البيان المغرب ص ٣٣٦ و٣٣٧ ، واللمحة البدرية لابن الخطيب ص ٣٥ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٧٠ ، والذخيرة السنية ص ٦٠ .

( ٢ ) البيان المغرب ص ٣٣٧ .

( ٣ ) البيان المغرب ص ٣٤٥ .

وهكذا كانت ترتسم باستيلاء ابن الأحمر على غرناطة وألمرية ومالقة، حدود المملكة الإسلامية الجديدة ، التى شاء القدر أن يكون هو منشؤها فى شبه الجزيرة الأندلسية ، والتى غدت غرناطة ، مذ نزل بها ، قاعدتها وحاضرتها . وكانت هذه الدولة الإسلامية الجديدة ، وهى التى اجتمعت فى ظلالها ، أشلاء الأندلس المنهارة ، والتى انكمشت أطرافها فيما وراء نهر الوادى الكبير جنوبا وشرقا ، تحتل رقعة متواضعة ، تمتد من جيّان وبياسة ، وإستجة ، جنوبا حتى البحر ، وشرقا حتى ألمرية وبيرة ، وغربا حتى مصب الوادى الكبير ، ويخترقها من الوسط نهر شنّيل ، ثم جبال سييرّا نفادا وهضبات البشرّات . على أن هذه المملكة الصغيرة وهى الدولة النصرية أومملكة غرناطة ، آخر دول الإسلام بالأندلس ، كانت بالرغم من صغر رقعتها ، وبالرغم من مواردها المحدودة ، جديرة بأن ترث تراث الأندلس الكبرى ؛ وقد شاء القدر أن تبقى فى شبه الجزيرة الإسبانية ، زهاء مائتين وخمسين عاما أخرى ، مستودعا لعبقرية الأمة الأندلسية ، وعلومها وفنونها ، تحمل مشعل حضارتها وضّاء ، فى تلك الأوطان الأندلسية القديمة ، وتضطلع فى نفس الوقت ، بذلك الكفاح القديم الخالد ، ضد إسبانيا النصرانية ، إلى أن تلقى مصرعها فى النهاية أبية كريمة شهيدة .

وبالرغم من توطد أمر ابن الأحمر ، وتمكن سلطانه فى الأقاليم الوسطى والجنوبية ، فإنه لبث مدى حين يشعر بأنه مازالت تنقصه صفة الرياسة الشرعية . وقد رأينا فيما تقدم كيف عقد الصلح مع المتوكل ابن هود ، واعترف بطاعته ( ٦٣١ هـ ) . فلما توفى ابن هود ، اتجهت أنظاره إلى الانضواء تحت لواء الدولة الموحدية ، وذلك بالرغم من انهيار سلطانها بالأندلس ، فأعلن بيعته للخليفة الرشيد ، وأخذ له البيعة على أهل غرناطة ومالقة وجيان وسائر البلاد التى كانت تحت طاعته ، وبعث إلى الرشيد ببيعته ، وذلك فى سنة ٦٣٧ هـ ( ١٢٣٩ م ) . فتقبلها الرشيد بالشكر والرضى [١] . واستمر على طاعته للخلافة الموحدية طوال خلافة الرشيد ، وقنع الرشيد منه بالدعاء فى الخطبة . ولكنه لما توفى الرشيد سنة ٦٤٠هـ ، قطع دعوة الخلافة الموحدية ، واتجه إلى الدولة الحفصية بإفريقية ، فأعلن طاعته للأمير أبى زكريا الحفصى ، وبعث ببيعته إلى تونس مع أبى بكر بن عياش شيخ مالقة ، وأبى جعفر التنزولى ، فبعث

---

( ١ ) البيان المغرب ص ٣٥٥ .

إليه الأمير أبو زكريا قدراً كبيراً من المال برسم المعاونة على الجهاد[١] . واستمر ابن الأحمر على طاعته للدولة الحفصية ردحا طويلا من الزمن ، وجدد بيعته بعد ذلك للأمير المستنصر ولد الأمير أبى زكريا ، وذلك فى سنة ٦٦٤ هـ ، وبعث إليه المستنصر بطريق البحر هدية وأموالاً[٢] .

ولبث محمد بن الأحمر يعمل بهمة وإقدام ، على توسيع مملكته وتوطيد سلطانه ، ولكنه كان يشعر دائما بخطر النصارى ،ويرقب حركات فرناندوالثالث ملك قشتالة فى توجس وحذر . والواقع أن سائر القواعد الوسطى ، ولاسيما جيان وأحوازها ، قد أضحت منذ سقوط قرطبة ، تحت رحمة القشتاليين . وكان فرناندو الثالث قد بعث بالفعل جيشاً بقيادة ولده ألفونسو ، فعاث فى منطقة جيان ، واستولى على حصن أرجونة ، موطن ابن الأحمر وقومه ( بنى نصر ) ، وعدة حصون ومواضع أخرى من أملاك ابن الأحمر ، ثم زحف القشتاليون جنوبا صوب غرناطة ذاتها ، وضربوا حولها الحصار ، ولكنهم ردوا عن أسوارها بخسارة فادحة ، وذلك فى سنة ٦٤٢ هـ ( ١٢٤٤ م ) . وفى العام التالى عاد القشتاليون فزحفوا على مدينة جيان وحاصروها ، ولكنها صمدت ضدهم مرة أخرى.

فلما رأى ابن الأحمر تفاقم عدوان القشتاليين ، وخطورة اندفاعهم نحو أراضيه ، وأيقن أنه من العبث أن يبدد موارده وقواه فى صراع لاتؤمن عواقبه ، عول على أن يسلك سبيل المصانعة والتقرب من ملك قشتالة ، وأن يشترى سلامه وسلام مملكته ، بمهادنته والخضوع له . وقد لخصت لنا الرواية الإسلامية مجمل هذا الصلح ، الذى عقد بين ابن الأحمر وبين ملك قشتالة ، وذلك فى أواخر سنة ٦٤٣ هـ ( فبراير ١٢٤٦ م ) ، وخلاصته أن يعقد الصلح بينهما لمدة عشرين سنة ، وأن يسلم ابن الأحمر لملك قشتالة مدينة جيان ، وما يلحق بها من الحصون والمعاقل ، وأن ينزل له عن أرجونة وبيغ والحجار وقلعة جابر وأرض الفرنتيرة ، ولم تدخل فى هذا الصلح مدينة إشبيلية ، ولامدينة شريش[٣] . وتزيد الرواية النصرانية على ذلك إن ابن الأحمر اعترف بمقتضى هذه المعاهدة بالطاعة لملك قشتالة على سائر مايحكمه من الأراضى ، وتعهد بأن يؤدى إليه جزية سنوية قدرها مائة وخمسون ألف

---

( ١ ) البيان المغرب ص ٣٥٦ .

( ٢ ) الذخيرة السنية ص ١٢٥ .

( ٣ ) البيان المغرب ص ٣٦٧ ، والذخيرة السنية ص ٧٢ و ٧٣ ، وابن خلدون ج ٧ ص ١٩٠ .

مراڤيدى ، وأن يعاونه فى حروبه ضد أعدائه ، وأن يشهد اجتماع الكورتيس (مجلس قشتالة النيابى) كل عام باعتباره من الأمراء التابعين للعرش[١] .

وهكذا استطاع ابن الأحمر أن يعقد السلم مع ملك قشتالة القوى بهذا الثمن الفادح . بيد أنه استطاع فى ظل هذا السلم ، المشوب بكدر الخضوع والمهانة ، أن ينصرف إلى العمل على توطيد مملكته وتنظيم شئونها ، وتنمية مواردها .

واستطاع ملك قشتالة من جانبه ، أن ينصرف إلى فتوحاته فى أراضى الأندلس التى لم يشملها هذا الصلح ، وهى الواقعة فى غربى مملكة غرناطة ، وكانت أعظمها حاضرة إشبيلية قاعدة غربى الأندلس كله ، وقد استولى عليها فرناندو الثالث فى ٢٧ رمضان سنة ٦٤٦ هـ ( ٢٣ نوفمبر ١٢٤٨ م ) بعد حصار طويل وذلك حسبما نفصل بعد فى موضعه ، وكان أشد ما فى حوادث هذا الحصار إيلاما للنفس ، هو أن ابن الأحمر اضطر أن يشترك فيه مع القشتاليين بقوة من فرسانه ، تنفيذاً للعهد الذى قطعه على نفسه فى معاهدة الصلح مع ملك قشتالة . وفى الرواية الإسلامية مايدل على أنه كان فى كل عام يسعى إلى الاجتماع بملك قشتالة ، وفقاً لنصوص هذه المعاهدة ، باعتباره من الأمراء الخاضعين لطاعته[٢] .

وكان ابن الأحمر حينما شعر بتوطد سلطانه ، واستقرار الأمور فى مملكته ، قد اختار لولاية عهده ولده الأمير أباسعيد فرج بن محمداً بن يوسف بن نصر . ولكن هذا الأمير توفى فى سنة ٦٥٢ هـ ( ١٢٥٤ م )[٣] فلبثت ولاية العهد شاغرة نحو ثلاثة أعوام . ثم اختار ابن الاحمر لولاية عهده ولده محمداً الملقب بالفقيه ، وذلك فى سنة ٦٥٥هـ (١٢٥٧ م ) ، وهو الذى خلفه بعد وفاته على عرش غرناطة[٤] .

وفى سنة ٦٥٩هـ ساءت العلاقات بين ابن الأحمر وبين الفقيه أبى القاسم العزفى صاحب سبتة ، لأسباب لم تذكرها الرواية ، فسير ابن الأحمر سفنه لغزو سبتة . فخرجت من الجزيرة الخضراء بقيادة أمير البحر ظافر ، ونفذت إلى مياه سبتة ،

---

(١) Crónica General (Ed. Pidal) Vol.1 p. 746. وكذلك : J. Gonzalez: ibid : p. 95

(٢) البيان المغرب ص ٤١٠ .

(٣) الذخيرة السنية ص ٨٨ .

(٤) البيان المغرب ص ٤١٥ .

وأخذت فى مهاجمتها والتضييق عليها ، فأمر العزفى قائد أسطوله أبا العباس الرنداحى أن يخرج فى سفنه لردها . ووقعت بين الفريقين معركة بحرية ، هزمت فيها السفن الأندلسية وقتل قائدها ظافر ، وحملت رأسه إلى سبتة ، وطيف بها ، وسمى هذا العام فى سبتة بعام ظافر[1] . ثم هدأت الأحوال بعد ذلك ، ولم يفكر ابن الأحمر فى استئناف محاولته ضد سبتة .

ولما اقترب أجل انتهاء معاهدة التهادن والسلم المعقودة بين ابن الأحمر ومملكة قشتالة ، وقد عقدت حسبما تقدم فى سنة ٦٤٣ﻫ لمدة عشرين عاما ، سار ابن الأحمر فى أوائل سنة ٦٦٢ ﻫ ( ١٢٦٤ م ) لمقابلة ملك قشتالة فى إشبيلية ، وهو يومئذ ألفونسو العاشر الملقب بالحكيم ، وكان قد خلف أباه فرناندو الثالث فى الملك عقب وفاته فى مايو سنة ١٢٥٢ م ، ليسعى لديه فى تجديد المعاهدة . وكان معه صهراه الزعيمان أبو محمد وأبو اسحق ابنا أشقيلولة ، وقوة من خمسمائة فارس . فخرج إليه ألفونسو ودعاه لزيارته داخل المدينة ، فاستجاب ابن الأحمر ، ودخل إشبيلية مع صهريه وثلة من فرسانه ، ونزل بالعبادية من أحيائها . ولكنه سرعان ما نمى إليه أن النصارى ، قد سدوا الدروب الموصلة إلى مكانه ليلا بالخشب المسمرة ، وذلك لكى تعيق سير الخيل ، فخشى البادرة على نفسه ، وخرج فى الحال مع صحبه ، واقتحموا تلك الدروب ، وغادر ابن الأحمر إشبيلية مغضباً ، وقد شعر بنية الغدر والخيانة ، ولم يقنع بما أبداه له ألفونسو من أعذار وإيضاحات . ومر فى طريقه إلى غرناطة بشذونة ( مدينة ابن السليم )[2] وغيرها ، وهو يوصى أهلها بالأهبة والتحرز من غدر النصارى ، وكان هذا الحادث سبباً فى فساد العلائق بين غرناطة وقشتالة[3] .

والواقع أن ابن الأحمر كان يعتزم فى قرارة نفسه ، أن ينتهز أول فرصة للتحرر من ذلك الغل المهين ، الذى صفدته به معاهدته مع قشتالة ، بيد أنه كان يرى من جهة أخرى أنه لايستطيع بمفرده أن يناهض قوة قشتالة الضخمة المتزايدة . وقد كشف ألفونسو العاشر نفسه عن نيات قشتالة العدائية ، بزحفه فى نفس العام ( ٦٦٢ ﻫ ) على غرناطة ومضايقتها أياما[4] . وبالرغم من أنه لم ينل منها مأربا ،

---

( ١ ) البيان المغرب ص ٤٣١ .

( ٢ ) شذونة أو مدينة ابن السليم هى بالإسبانية **Medina Sedonia**

( ٣ ) البيان المغرب ص ٤٣٧ و٤٣٨ .

( ٤ ) الذخيرة السنية ص ١١١ .

فإن ابن الأحمر قد أخذ على ضوء هذه الحركة ، يدرس وسائل المقاومة والصمود فى وجه العدوان القشتالى . وكان تطور الحوادث فى الأندلس شرقيها وغربيها ، وتفاقم محنتها ، وتوالى سقوط قواعدها فى أيدى العدو ، قد أخذ يحدث صداه قويا فى الصفة الأخرى من البحر ، فى المغرب ، حيث أخذ نجم الدولة المرينية يتألق ، وتبدو ضخامة حشودها وقواتها ومواردها ، مشجعة على الالتجاء إليها ، وطلب إنجادها وغوثها . وكانت النجدات الأولى من متطوعى بنى مرين قد أخذت تعبر إلى شبه الجزيرة ، وفى مقدمتها حملة يقودها عامر بن إدريس بن عبد الحق ، نزلت مدينة شريش وأخرجت النصارى من قصبتها ( أواخر ٦٦٢هـ ) . وقامت فى داخل المغرب حركة قوية للحث على إنجاد الأندلس وتداركها ، قبل أن يفوت الوقت ويتم العدو القوى الإجهاز عليها ، واشترك فى هذه الحركة شعراء نظموا القصائد المبكية مثل أبى الحكم مالك بن المرحل ، وعلماء أدباء توجهوا برسائلهم البليغة ، مثل أبى القاسم العزفى صاحب سبتة[1] . بيد أنه كان لابد أن تمضى بضع سنوات أخرى حتى تؤتى هذه الحركة ثمارها العملية ، ويعبر بنو مرين بقواتهم الجرارة إلى شبه الجزيرة .

وفى تلك الأثناء كان ابن الأحمر يعانى من عدوان القشتاليين وغاراتهم المتوالية . فلما تفاقم أمر هده الغزوات ، وزحف القشتاليون على غرناطة للمرة الثانية ( ٦٦٤هـ ) ورأى ابن الأحمر أنه عاجز عن رد هذا البلاء ، اضطر أن يتقدم خطوة أخرى ، فى سبيل طلب المهادنة والسلم ، وأن يبذل لتحقيق هذه الغاية مزيداً من التضحية ، فعقد مع ألفونسو العاشر ملك قشتالة فى أواخر سنة ٦٦٥ هـ ( ١٢٦٧ م ) معاهدة صداقة وسلم جديدة ، نزل له بمقتضاها عن عدد كبير من البلاد والحصون ، منها شريش والمدينة ( مدينة شذونة ) والقلعة وغيرها ، وقيل إن ما أعطاه ابن الأحمر بمقتضى هذا الصلح لملك قشتالة من البلاد والحصون الإسلامية المسورة ، بلغ مائة وخمس من بلاد غرب الأندلس[2] .

وقد أذكى هذا الانهيار الفادح لصرح الوطن الأندلسى ، وما أصابه من فقد معظم قواعده التالدة ، فى نحو ثلاثين عاما فقط ، لوعة الشعر والأدب ، ونظم شاعر العصر ، أبو الطيب صالح بن شريف الرندى ، مرثيته الشهيرة فى رثاء الأندلس ، وبكاء قواعدها الذاهبة ، وهى قصيدة ماتزال إلى يومنا تهز أوتار القلوب أسى ، وهذا مطلعها :

---

( ١ ) راجع كتابى « نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين » ، الطبعة الثانية ص ٤٠ و ٤١ .

( ٢ ) الذخيرة السنية ص ١٢٥ و ١٢٧ .

لكل شيء إذا ما تم نقصان    فلا يُغر بطيب العيش إنسان
هي الأمور كما شاهدتها دول    من سره زمن ساءته أزمان(١)

وقضى محمد بن الأحمر الأعوام الستة الباقية من حكمه، فى توطيد مملكته وتنظيم شئونها ، وتوفى فى التاسع والعشرين من جمادى الثانية سنة ٦٧١ هـ ( ديسمبر ١٢٧٢ م ) عقب جرح أصابه فى معركة خاضها ضد جماعة من الخوارج عليه ، وقد قارب الثمانين من عمره .

وكان هذا الرجل العبقرى ، مؤسس مملكة غرناطة ، آخر دول الإسلام بالأندلس ، يتمتع بخلال باهرة ، من الشجاعة والإقدام ، والمقدرة ، وشغف الجهاد ، هذا إلى جم البساطة والتواضع . ويقدم إلينا ابن الخطيب مؤرخ الدولة النصرية عنه وعن خلاله هذه الصورة المؤثرة : « كان هذا الرجل آية من آيات الله فى السذاجة ، والسلامة والجمهورية ، جنديا ، شهماً ، ثغريا أبداً ، عظيم التجلد ، رافضاً للدعة والراحة ، مؤثراً للتقشف ، والاجتزاء باليسير ، متبلغاً بالقليل ، بعيداً عن التصنع ، جافى السلاح ، شديد العزم ، موهوب الإقدام ، عظيم التشمير ، محتقراً للعظمة ، مصطنعاً لأهل بيته ، فضاً فى طلب حظه ، حاميا لقرابته وأقرانه وجيرانه ، مباشراً للحروب بنفسه ، تتغالى الحكايات فى سلاحه وزينة ديابوزه ، يخصف النعل ، ويلبس الخشن ، ويؤثر البداوة ، ويستشعر الجد فى أموره »(٢) .

وقد رأينا أن نكتفى هنا بما تقدم من الشذور الموجزة عن قيام مملكة غرناطة ، وعن حياة منشئها العبقرى محمد بن الأحمر . ذلك أننا قد سبق أن تناولنا قصة مملكة غرناطة ، وقصة بنائها كاملة ، فى كتابنا « نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين » ، وكان جل غايتنا فى كتابنا الحالى أن نصل بتاريخ الأندلس إلى حيث بدأنا بتاريخ مملكة غرناطة .

---

( ١ ) راجع هذه القصيدة بأكلها فى الذخيرة السنية ص ١٢٧ — ١٢٩ ، وفى نفح الطيب ج ٢ ص ٥٩٤ و٥٩٥ ، وفى أزهار الرياض ج ١ ص ٤٧ — ٥٠ . وراجع كتابى « نهاية الأندلس » ص ٣ د هامش . وفى ترجمة الرندى ص ٤٣٨ و ٤٣٩ .
( ٢ ) كتاب الإحاطة فى أخبار غرناطة ( المطبوع ) ج ٢ ص ٦١ .

# الفصل الثالث

## سقوط بلنسـيـة

### وقواعد الشرق

أبو جميل زيان يوطد سلطانه فى بلنسية . استيلاؤه على دانية . خروجه لغزو أراضى أراجون . مشروع ملك أراجون لافتتاح بلنسية . إعلانه الصفة الصليبية لهذا الفتح . بداية حرب بلنسية . استيلاء الأرجونيين على آرش . انضمام السيد أبى زيد لجيش الغزو الأرجونى . حصار ملك أراجون لبريانة وأخذها . استيلاؤه على بنشكلة وعدةحصون أخرى. سقوط قسطلونة . سقوط مونكادة ومشروس . حصن أنيشة واهميته . هدمه واحتلال الملك خايمى لموقعة . تأهب زيان لمدافعته . موقعة أنيشة . هزيمة المسلمين ومصرع كثير من علمائهم . مصرع أبى الربيع سليمان كبير علماء الأندلس . رثاء ابن الأبار له . تعجيل خايمى بالاستعداد لفتح بلنسية . اجتماع الكورتيس وحشد الجنود . مسيره فى قواته صوب بلنسية . تسليم حصون بلنسية الأمامية . تضخم جيش الفتح . حشود الأحبار والمتطوعة . محاصرة خايمى لبلنسية . سوء الأحوال داخل المدينة . اعتزام المقاومة . استنجاد زيان بالقواعد القريبة . اتجاهه إلى الاستنصار بأمير إفريقية . إرساله كاتبه ابن الأبار سفيراً إليه . قصيدة ابن الأبار فى صريخ الأندلس . اهتمام الأمير أبى زكريا . إرساله أسطولا لإنجاد بلنسية . عجز هذا الأسطول عن الاتصال بالمدينة المحصورة . تفريغه لشحنته فى دانية . اشتداد محن الحصار على بلنسية . اضطرار زيان إلى المفاوضة فى التسـليم . لقاؤه للملك خايمى . ماكتبه ابن الأبار عن وصف اللقاء وشروط التسليم . ما تقوله الرواية النصرانية فى ذلك . جلاء المسلمين عن بلنسية . خايمى الفاتح وأكابر الأحبار يدخلونها . خواطر عن سقوط بلنسية . سقوطها يذكى فجيعة الشعر والنثر . شىء من رثاء ابن الأبار. بعض ما قاله أبو المطرف بن عميرة. شىء من نظمه فى ذلك . قصيدة أخرى موجهة إلى أمير إفريقية . مرسوم الخليفة الرشيد بالتصريح لأهل بلنسية وقواعد الشرق بالنزول فى رباط الفتح . مسير الأمير زيان إلى جزيرة شقر ثم إلى دانية . نزوح ابن الأبار الى تونس . اتجاه زيان إلى مرسية . أحوال مرسية بعد وفاة ابن هود . أبو بكر عزيز بن عبد الملك بن خطاب ينتزع رياسها . استدعاء بعض أهلها لزيان . قدومه إلى مرسية . قبضه على ابن خطاب وإعدامه . دعوته لأمير إفريقية . رسالته إلى الأمير فى ذلك . استخدامه لابن عميرة فى منصب الكتابة . محاولة عقد السلم مع ملك قشتالة . خروج محمد ابن هود عليه . مغادرة زيان لمرسية والتجاؤه إلى لقنت . سقوطها فى أيدى الأرجونيين ونزوحه إلى إفريقية . استيلاء الأرجونيين على دانية وشاطبة . نقضهم للهدنة مع أهل شاطبة وإجلاؤهم عنها . اتفاق محمد بن هود وأهل مرسية على التفاهم مع النصارى. أرسالهم سفيرا إلى ملك قشتالة يعرض الاعتراف بطاعته . قبول ملك قشتالة والتفاهم على التسليم. مسير ولى عهد قشتالة وتسلمه مرسية صلحاً . احتلال النصارى لمرسية وبعض حصونها . احتفاظ لورقة ومولة وقرطاجنة باستقلالها . استمرار محمد ابن هود فى حكم مرسية ومن بعده ولده أحمد . تعليل هذه الظاهرة . ثورات المدجنين فى بلنسية واشتداد ساعد مملكة غرناطة . ثورة أبى بكر بن هود الواثق . انتزاعه لحكم مرسية . محاولته أن يخلع نير النصارى.

يعلن طاعته لابن الأحمر . رواية ابن عذارى . تفاهم ملكى قشتالة وأراجون على قمع ثورة مرسية . مسير خايمى إلى مرسية ومحاصرتها . اضطرار الواثق إلى التسليم . سقوط سائر قواعد الشرق فى أيدى النصارى . قيام مجتمع المدجنين .

— ١ —

نعود الآن إلى شرقى الأندلس لنتابع ما وقع فيه من الأحداث ، وذلك منذ اضطرمت الثورة فى بلنسية ، وقام بها أبو جميل زيان بن مدافع بن مردنيش الجذامى ، عقب انسحاب واليها الموحدى السيد أبى زيد بن أبى عبد الله محمد ، وانهيار سلطان الموحدين بالشرق .

وقد ذكرنا فيما تقدم ، كيف لجأ السيد أبو زيد إلى ملك أراجون خايمى الأول ، وانضوى تحت حمايته ، وعقد معه معاهدة ، يتعهد فيها بأن يسلمه جزءاً من البلاد والحصون التى يستردها بمعاونته ، وكيف انتهى به الأمر بأن اعتنق دين النصرانية ، واندمج فى القوم الذين لجأ إلى حمايتهم ، وأخذ من ذلك الحين يصحبهم فى غزواتهم للأراضى الإسلامية .

وكان ذلك فى سنة ٦٢٦ هـ ( ١٢٣٠ م ) ، قبل أن يسير الملك خايمى إلى غزو الجزائر الشرقية بقليل . ثم كان غزو الجزائر ، وافتتاح ميورقة فى العام التالى سنة ٦٢٧هـ ( ١٢٣١ م ) ، ثم افتتاح يابسة ، وسيطرة الأرجونيين على الجزائر ، وذلك فى سنة ٦٣٢ هـ ( ١٢٣٤ م ) .

فى تلك الأثناء كان أبو جميل زيّان أمير بلنسية يعمل على توطيد سلطانه فى فى بلنسية وأحوازها . وكانت دانية من أملاك ابن هود ، وعليها وال من قبله هو الأديب الشاعر أبو الحسن يحيى بن أحمد بن عيسى الخزرجى ، وهو والى شاطبة فى نفس الوقت[1] ، فانتزع زيان منه دانية ، وولّى عليها ابن عمه محمدا ابن سبيع بن يوسف بن سعد الجذامى[2] . ولم يكتف زيّان بالعمل على توسيع أملاكه على هذا النحو ، ولكنه اعتزم فى نفس الوقت أن ينتقم لما قام به النصارى من غزوات مخربة ، فى أراضى بلنسية ، ولاسيما بتحريض السيد أبى زيد واليها المخلوع ، وكانت الظروف تتيح له يومئذ أن يحقق بغيته ، إذ كان ملك أراجون مشغولا بافتتاح

---

( ١ ) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٢٤٩ .

( ٢ ) الحلة السيراء ص ٢٥٥ .

الجزائر ، وتوطيد سلطانه بها ، ولم يترك فى قواعد الحدود سوى حاميات ضئيلة ، ومن ثم فقد خرج زيان بقواته شمالا ، وقام بالعيث فى أراضى أراجون على طول الشاطىء حتى ثغر طرطوشة ، واستاق غنائم وأسرى[1] . وكان هذا الاعتداء يحز فى نفس ملك أراجون ، وهو يزمع أن يرده مضاعفاً فى أول فرصة .

وماكاد ملك أراجون ينتهى من افتتاح الجزائر ، حتى أخذ يضع خطته لافتتاح الثغر الإسلامى العظيم بلنسية ، وكان يقتضى لنجاح ذلك المشروع أن يستولى ملك أراجون على سائر القواعد الأمامية لإقليم بلنسية ، حتى يستطيع أن يعزل بلنسية ، وأن يحرمها من كل وسائل الدفاع . وكان ملك أراجون يرى أن ظروف بلنسية ، ومواردها المحدودة ، وما يضطرم بين الزعماء المسلمين فى شرقى الأندلس من خلاف ، مما يعاون على تحقيق أمنيته ، ولكنه كان يرى فى نفس الوقت أن يستعد لهذا المشروع بكل ما يستطيع ، وأن يسعى لتتويجه بالصفة الصليبية . وقد استجاب البابا جريجورى التاسع لمسعى ملك أراجون ، وأصدر مرسومه بإسباغ الصفة الصليبية ، على مشروع فتح بلنسية ، وأعلن أمر هذه الحرب الصليبية الجديدة فى مونتشون ، وهرع إلى لوائها كثير من الفرسان والسادة ، ولاسيما جماعة الأسبتارية ، ووافق القطلان على سن ضريبة الماشية العينية ، مساهمة فى نفقات الحرب .

وبدأت حرب بلنسية فى أوائل سنة ١٢٣٣ م ( أواخر سنة ٦٣١ ﻫ ) وخرجت جماعات من الجيش الأرجونى وتفرقت فى أراضى إقليم بلنسية الشمالية ، وبدأت بالاستيلاء على بلده آرش ، ثم استولت على بلده مورلة وهى أقصى بلاد بلنسية الشمالية . وكان الملك خايمى يومئذ فى طرويل . وكان يصحبه فى هذه الغزاة السيد أبو زيد والى بلنسية المتنصر باسم بثنتى ، وأستاذ الفرسان الأسبتارية هوجو دى فولكاركير ، ودون بلاسكودى ألاجون ، وهو أرجونى عاش طويلا فى بلنسية ، وخدم واليها الموحدى ، وكان يجيد العربية ، ويعرف أحوال المسلمين . وكان السيد أبو زيد ، قد استقر فى منطقة طرويل ، فى طاعة ملك أراجون وتحت حمايته ، على أن يعاونه بنفسه وصحبه ضد المسلمين .

وكانت أول قاعدة هامة من إقليم بلنسية قصد إليها ملك أراجون هى بلدة بريّانة ، الواقعة على البحر على مقربة من شمال بلنسية ، فضرب الأرجونيون حولها الحصار ، بعد أن خربوا ضياعها وزروعها القريبة ، واشترك فى الحصار

---

(١) A.P. Ibars : Valencia Arabe, p. 628

عدد من الأشراف ، وفرسان الداوية ، والأسبتارية ، وقلعة رياح . وكانت بريّانة تتمتع بحصانة فائقة ، وقد استعد أهلها المسلمون للدفاع عنها بشدة . وضرب الأرجونيون البلدة بالآلات ، وحاولوا اقتحامها غير مرة ، وهى صامدة ، واستمر الحصار زهاء شهرين ، حتى نضبت مواردها وأقواتها ، واضطر المسلمون فى النهاية إلى التسليم وذلك فى شهر يوليه سنة ١٢٣٣ م . ثم استولى الأرجونيون بعد ذلك على قلعة بنشكلة Peñiscola صلحاً ، ووعد أهلها المسلمون بأن يبقوا على دينهم وشريعتهم ، ثم تلتها فى التسليم عدة حصون وأماكن منها شفيت ، وبريول ، وكويڤاس ، والمصورة ، وغيرها من القرى والضياع ، الواقعة على ضفة نهر شقر ، واستولى الأرجونيون فى نفس الوقت على ثغر قسطلونة الهام الواقع على مقربة من شمالى بريّانة ، وكان سقوطه فى أيدى النصارى أمراً محتوماً بعد استيلائهم على بريّانة ، وكان لسقوط هذين الثغرين نتائج هامة ، إذ كانا لقربهما من بلنسية يصلحان قواعد لتموين الجيوش الغازية . ونفذ ملك أراجون بعد ذلك فى قواته الخفيفة إلى فحص بلنسية ذاته ، واستولى على بعض قلاع هذه المنطقة ومنها قلعتا مونكادة ومشروس القريبتين من شمالى بلنسية ذاتها . ووقعت هذه الفتوح الأرجونية كلها فى سنة ١٢٣٤م ( ٦٣٢—٦٣٣هـ )(١) .

ووقف مشروع غزو بلنسية عند هذه المرحلة الأولى من الاستيلاء على معظم المواقع والثغور القريبة من بلنسية ، وعاد ملك أراجون إلى بلاده ليعنى ببعض الشئون الداخلية والعائلية .

ومضى نحو عامين ، لم تقع خلالها فى إقليم بلنسية سوى بعض غارات أرجونية صغيرة . ولكن ملك أراجون لم ينس خلال مشاغله الداخلية ، مشروع فتح بلنسية ، ولم ينقطع عن أن يوليه اهتمامه المستمر ، وكان يتوق بالأخص إلى أن يحتل حصن أنيشة أو أنيجة المنيع الواقع على مقربة من شمالى بلنسية ، على سبعة أميال منها ، وهو من أهم حصونها الأمامية ، وكان يقع على ربوة عالية تزيد موقعه مناعة ، ويشرف على مرج بلنسية وحدائقها(٢) ، وكان الأمير زيّان قد

---

(١) M. Lafuente : Historia General de Espana T. IV. p. 82 & 83

(٢) يسمى الإدريسى هذا الحصن بأنيشة ( طبعة دوزى ص ١٩١ ) وكذا يسميه ابن الأبار ( التكملة رقم ١٩٩١ ) ، وابن عبد الملك المراكشى فى « الذيل والتكملة » ( مخطوط الإسكوريال ١٦٨٤ الغزيرى ) ويميه أبو المطرف بن عميره « أنيجة » ( الروض المعطار ص ٤٩ ) وكذلك =

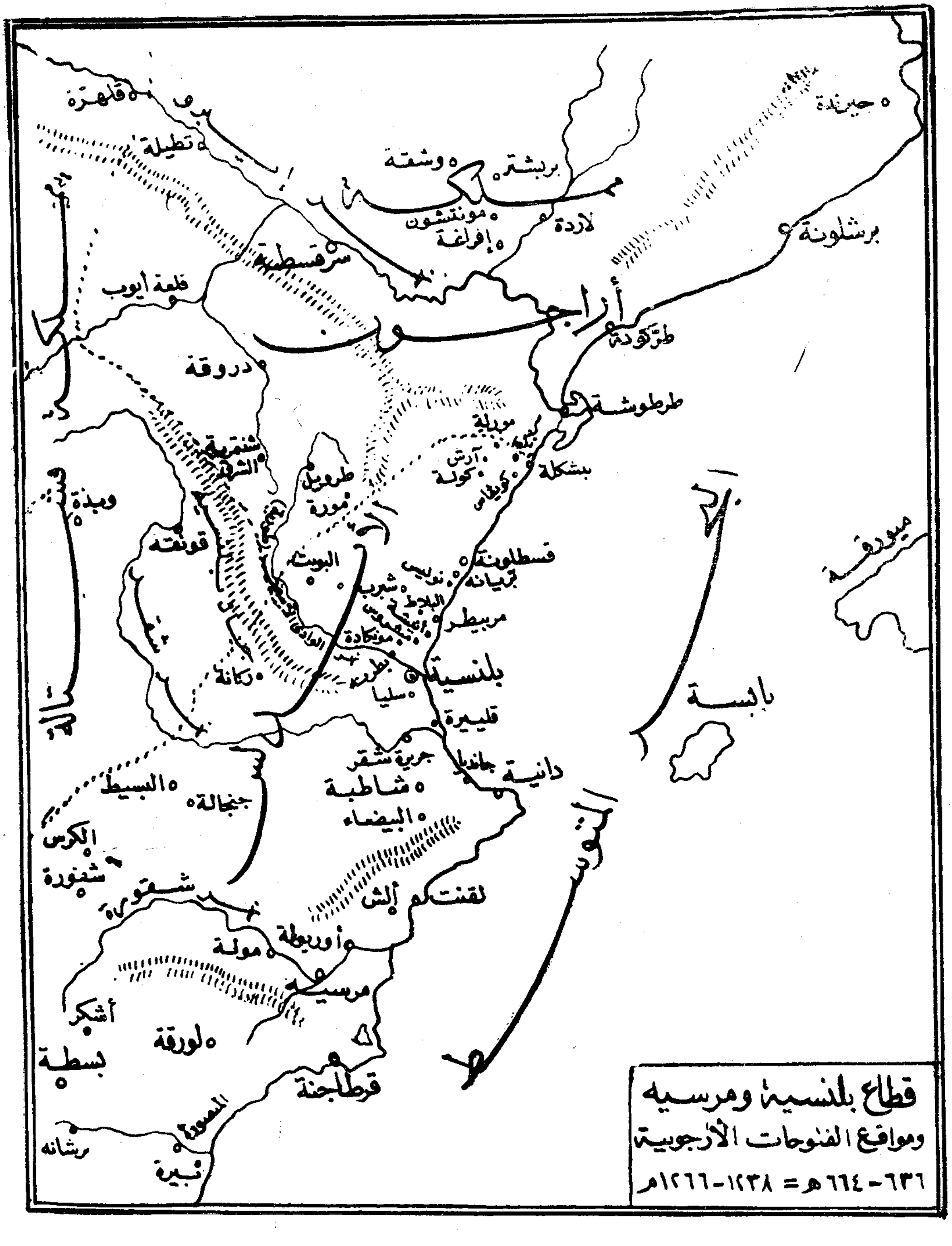


قطاع بلنسية ومرسيه
ومواقع الفتوحات الأرجونية
٦٣٦-٦٦٤هـ = ١٢٣٨-١٢٦٦م

فطن إلى أهبة هذا الحصن، وخطورة سقوطه فى أيدى النصارى، فأمر بهدمه ؛ ولكن الملك خايمى أصر مع ذلك على احتلال موقعه ، فسار فى جيشه من قلعة أيوب ، ومعه السيد أبو زيد أمير بلنسية المتنصر ، وهاجم أنيشة وهزم المسلمين الذين تصدوا لمقاومته ، واحتل المكان ، وابتنى فوق نفس الربوة حصناً جديداً منيعاً ، ووضع به حامية عهد بقيادتها إلى خاله دون برناردو دى انتنزا . واتخذ الأرجونيون من هذا الحصن قاعدة للعيث والإغارة فى مختلف نواحى إقليم بلنسية . وشعر زيّان بخطر وجود الحامية الأرجونية فى هذا المركز الدقيق المهدد لسلامة المدينة ، فصمم على انتزاعه من أيديهم ، وحشد جيشاً قوياً تقدره الرواية النصرانية بستمائة فارس وأربعين ألف راجل ، وهو تقدير واضح المبالغة ، وسار فى قواته نحو تل أنيشة ، ونشبت بين المسلمين والأرجونيين فى ظاهر أنيشة معركة عنيفة ، قاتل الفريقان فيها بشجاعة ، وانتهت بأن أصيب المسلمون بهزيمة فادحة ، وقتل منهم جملة كبيرة ، وكان بين القتلى عدد كبير من علماء بلنسية ووجوهها وصلحائها ، وفى مقدمتهم كبير علماء الأندلس ومحدثيها يومئذ ، أبو الربيع سليمان بن موسى ابن سالم الكلاعى ، وهو فوق علمه وأدبه الجم جندى وافر الشجاعة والجرأة ، كان يشهد معظم الغزوات ، ويشترك فى القتال ، وكان فى موقعة أنيشة يتقدم الصفوف ، وهو يقاتل بشجاعة ، ويحث المنهزمين على الثبات ، ويصيح بهم « أعن الجنة تفرون » حتى قتل . ورثاه ومن سقط معه ، من علماء بلنسية ، وهم نحو سبعين ، تلميذه الكاتب المؤرخ ، أبو عبد الله بن الأبار القضاعى ، وكان إلى جانب مخدومه الأمير زيان فى الموقعة ، بقصيدته الشهيرة التى مطلعها :

| | |
|---|---|
| ألما بأشلاء العلا والمكارم | تقد بأطراف القنا والصوارم |
| وعوجا عليها مأربا وحفاوة | مصارع غصت بالطلى والجماجم |
| نحيي وجوها فى الجنان وجيهة | بما لقيت حُمراً وجوه الملاحم |

ووقعت نكبة أنيشة فى يوم الخميس عشرين من ذى الحجة سنة ٦٣٤ هـ ( ١٤ أغسطس سنة ١٢٣٧م ) . وكانت هزيمة المسلمين الفادحة فيها على هذا النحو

= المقرى (نفح الطيب ج٢ ص ٥٨٤ ) ويسميه ابن خلدون « أنيسة » ( ج ٦ ص٢٨٣ ) والغزيرى أنيشة ( الفهرس ج ٢ ص ١١٥ ) . وتسميه الرواية الإسبانية **Puig de Cebolla** ( تل البصل ) . أو **Puig de Sta Maria** ( تل شنتا مارية ) .

نذيراً بانهيار قوى بلنسية الدفاعية ، نذيراً بأن مصير بلنسية ذاتها ، قد بت فيه ، وأن النهاية قد اضحت وشيكة الوقوع[١] .

— ٢ —

وكانت أسباب المرحلة الثانية والأخيرة من افتتاح بلنسية تتهيأ وتدنو بسرعة . وكان سقوط قرطبة ، قبل ذلك بأكثر من عام ، فى يد فرناندو الثالث ملك قشتالة ، وتغلبه على معظم المنطقة الشمالية من الأندلس الوسطى ، مما يدفع خايمى إلى التعجيل بفتح بلنسية خشية أن يمتد زحف القشتاليين إلى تلك المنطقة ، ويقع الخلاف بين المملكتين ، وذلك بالرغم من أن أراجون ، قد اختصت بمقتضى معاهدة كاسولا Cazola ، المعقودة مع قشتالة منذ سنة ١١٧٩ م ، بافتتاح قطاع بلنسية . وكان مما يشجع خايمى على هذا التعجيل ، ثقته فى أن همم المسلمين الدفاعية قد خبت من جراء موقعة أنيشة ، وأن مواردهم قد تضاءلت . وكان هذا شعور البلنسيين أنفسهم ، حسبما يعبر لنا عنه كاتب بلنسية المبدع أبو المطرف ابن عميرة فى إحدى رسائله المبكية عن سقوط بلنسية[٢] . ثم جاءت وفاة ابن هود فى جمادى الأولى سنة ٦٣٥هـ ( يناير ١٢٣٨ ) ، عقب موقعة أنيشة بقليل ، لتزيد من ثقة خايمى ، بأنه لم يبق ثمة أمل لأهل بلنسية فى أن يأتيهم الإنجاد من أية جهة أندلسية .

ومن ثم فقد عكف خايمى على إعداد عدته لهذا الفتح . وكان قد عقد الكورتيس فى مونتشون لكى يوافق على ضريبة المراڤيدى Matavedi ، وهى ضريبة تؤدى مرة كل سبعة أعوام ، واستمر فى أهبته حتى جهزت الحشود التى اعتزم أن يسيرها لافتتاح بلنسية ، وهى حشود قليلة حسبما يتضح من أرقامها بعد . ووصله أثناء ذلك نبأ وفاة خاله دون برناردو قائد حامية أنيشة ، وكان بعض مستشاريه يرى أن يترك هذا الموقع ، ولكنه أصر على الاحتفاظ به ، وعين ولد المتوفى مكانه لقيادة حاميته ، وكانت تتألف من خمسين فارساً .

ولما أتم خايمى أهباته ، أقسم بين يدى الأشراف والقادة ، أنه سوف يسير

---

( ١ ) راجع فى موقعة أنيشة : ابن الأبار فى التكلمة (الأندلسية) رقم ١٩٩١ (ج ٢ ص ٧٠٩ ) ، وابن عبد الملك فى «الذيل والتكملة» ( مخطوط الإسكوريال ١٦٨٢ فى ترجمة أبى الربيع بن سالم ) ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٨٣ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٨٦ ، وكذلك فى : **M. Lafuente : ibid. T. IV. p. 84**

( ٢ ) الروض المعطار ص ٤٩ .

إلى فتح بلنسية ، وأنه لن يعود إلى المرور بطرويل أوعبور نهر طرطوشه ( نهر إيبرو ) قبل أن تسقط بلنسية فى يده ، وأنه تأكيدا لذلك سوف يصحب معه الملكة والأميرة ابنته[1] . وفى شهر مارس سنة ١٢٣٨ م ، خرج خايمى فى قواته متجهاً إلى الجنوب صوب بلنسية ، ووصلته أثناء مسيره رسائل من معظم الحصون الإسلامية القريبة من بلنسية تعلن الدخول فى طاعته ، وفى مقدمتها المنارة ، ونوليس ، وبطرنة ، وبوليا ، وأوشو ، وغيرها . ولم تكن قوات ملك أراجون ، عند مسيره ، تعدو بضع مئات من فرسان الداوية والأسبتارية وقلعة رباح ، والفرسان الملكيين ، وبضع آلاف من الرجّالة ، ولكن هذا الجيش تضخم فيما بعد أمام بلنسية ، بمن انضم إليه من أشراف وأحبار أراجون وقطلونية وأجنادهم العديدين ، ومن حشود الحرس الوطنى ببرشلونة ، وحشود المتطوعين الفرنسيين بقيادة مطران أربونة ، وكانوا جماعة كبيرة من الفرسان ، ونحو ألف من المشاة . وقد جاء معظم هذه القوات بطريق البحر ، وانضمت كلها إلى الجيش الفاتح . وعول الملك خايمى على أخذ بلنسية بالحصار ، فطوقها أولا بالقوات التى جاءت معه ، وضرب محلته بين المدينة ، وبين خليج جراو ( الميناء ) . ولما انثالت الأمداد ، وحشود المتطوعة على الجيش الأرجونى ، شدد فى إحكام الحصار حول المدينة ، وقطع علائقها مع الخارج . وتقدر الرواية النصرانية عدد القوات التى اشتركت فى حصار بلنسية بعشرة آلاف فارس ، وستين ألف راجل . وكانت هذه القوات تمون بسهولة ، عن طريق البحر من ثغور بنشكلة وبريّانة وقسطاونة ، وقد افتتحها الأرجونيون قبل ذلك بقليل .

وبدأ حصار بلنسية فى الخامس من شهر رمضان سنة ٦٣٥هـ ( أبريل سنة ١٢٣٨م )[2] وشدد النصارى فى التضييق على المدينة المحصورة ، وبدأوا يضربونها بالآلات المخربة . وكانت بلنسية ، مذ هزمت قواتها ، وسقط أبناؤها فى موقعة أنيشة ، قبل ذلك بأشهر قلائل ، قد ساءت أحوالها ، وانهارت قوى شعبها المعنوية وأخذت تتوقع سوء المصير . بيد أنه لما ظهر النصارى تحت أسوارها ، وبدت طلائع المعركة الأخيرة ، اعتزم البلنسيون أن يدافعوا عن مدينتهم حتى آخر رمق . ولم يكن أميرهم أبو جميل زيان أقل عزماً منهم فى مدافعة النصارى ، فوجه بعض

---

(١) M. Lafuente : ibid ; cit. Hist. del Rey don Jaime, T. IV. p 85

(٢) ابن الأبار فى التكلة (القاهرة) فى الترجمة رقم ٣٠٣ .

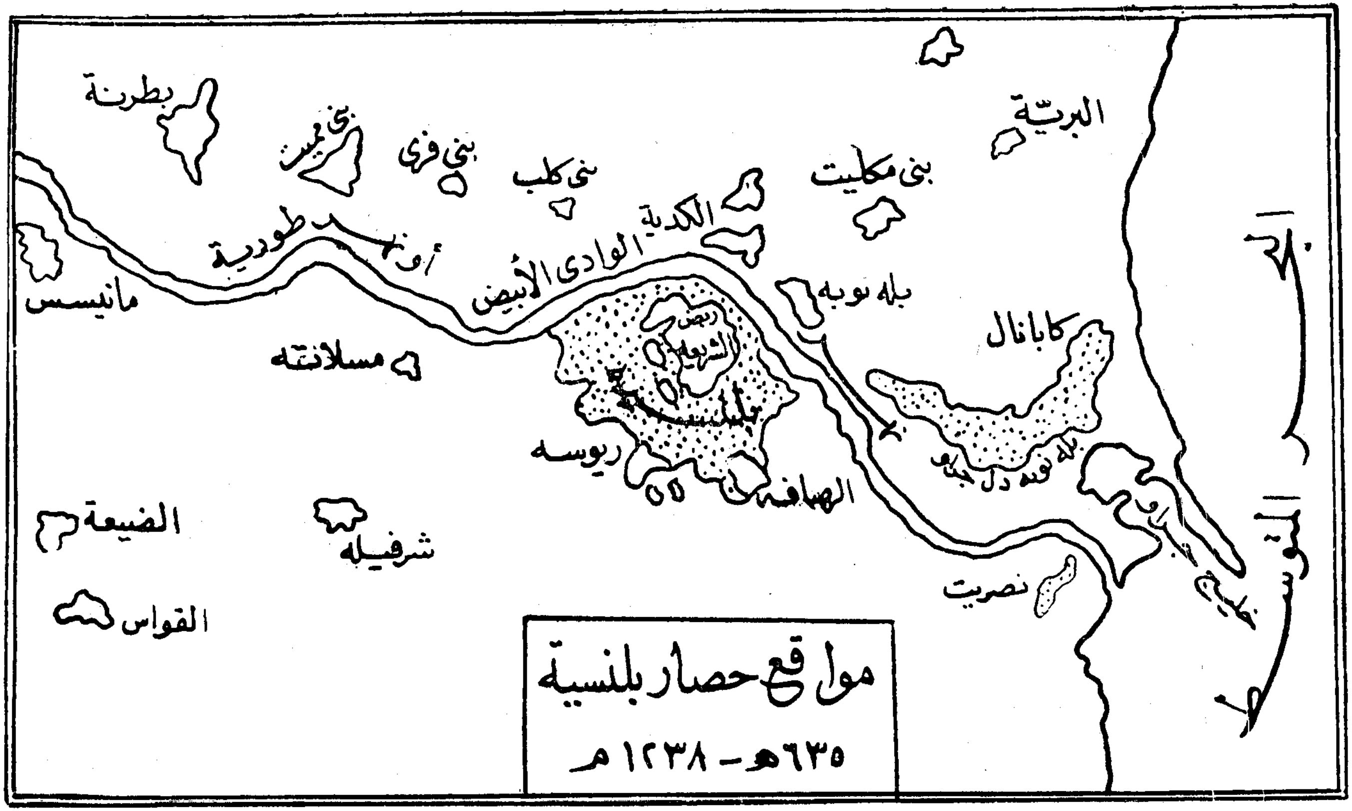


مواقع حصار بلنسية
٦٣٥هـ - ١٢٣٨م

رسله إلى القواعد الإسلامية القريبة فى طلب النجدة والإمداد . وكان رسوله إلى مرسية الفقيه المتصوف محمد بن خلف بن قاسم الأنصارى[1]. بيد أن زيان لم يقف عند هذا الاستمداد المحدود . ذلك أنه فى تلك الآونة العصيبة ، قد اتجه وجهة أخرى أوسع آفاقاً وأجدى أملا ، اتجه إلى إخوانه المسلمين ، فى الضفة الأخرى من البحر ، ولم يكن ذلك الاتجاه يومئذ إلى أولئك الموحدين ، الذين عبروا البحر قبل غير مرة لإنجاد الأندلس ، إذ كانت دولتهم بالمغرب تجوز مرحلة الانحلال الأخير ، ولكن إلى تلك الدولة الفتية ، التى قامت فى وسط الضفة الأخرى من البحر ، إلى دولة بنى حفص بإفريقية ، وإلى عميدها ومنشئها الأمير أبى زكريا يحيى ابن الشيخ أبى محمد عبد الواحد بن أبى حفص ، وكانت قد أخذت تلفت الأنظار بقوتها وثرائها ، واتساع مواردها . وبعث زيان إلى أمير إفريقية سفارة على رأسها وزيره وكاتبه العلامة الشاعر والمؤرخ الكبير أبو عبد الله محمد ابن عبد الله بن أبى بكر بن الأبار القضاعى ، يحمل إليه بيعته وبيعة أهل بلنسية ، وصريخه بسرعة الغوث والإنجاد قبل أن يفوت الوقت . ولما وصل ابن الأبار إلى تونس ، مثل بين يدى سلطانها الأمير أبى زكريا الحفصى ، فى حفل مشهود ، وألقى قصيدته السينية الرائعة التى اشتهرت فى التاريخ ، كما اشتهرت فى الشعر ، يستصرخه فيها لنصرة الأندلس ونصرة الدين ، وهذا بعض ماجاء فيها :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا ... إن السبيل إلى منجاتها درسا
وهب لها من عزيز النصر ما التمست ... فلم يزل منك عز النصر ملتمسا
وحاش مما تعانيه حشاشتها ... فطال ما ذاقت البلوى صباح مسا
يا للجزيرة أضحى أهلها جزرا ... للنائبات وأمسى جدها تعسا
فى كل شارقة إلمام بائقة ... يعود مأتمها عند العدا عرسا
وكل غاربة إجحاف نائبة ... تثنى الأمان حذاراً والسرور أسى
تقاسم الروم لا نالت مقاسمهم ... إلا عقائلها المحجوبة الأنسا
وفى بلنسية منها وقرطبة ... ما ينسف النفس أو ما ينزف النفسا
مدائن حلها الإشراك مبتسما ... جذلان وارتحل الإيمان مبتئسا
وصيرتها العوادى العابثات بها ... يستوحش الطرف ضعف ما أنسا

---

(١) ابن الأبار فى التكملة (القاهرة) فى الترجمة رقم ١٦٧ .

فمن دساكر كانت دونها حرسا ... ومن كنائس كانت قبلها كُنسا
يا للمساجد عادت للعدا بيعاً ... وللنداء غدى أثناءها جرسا
كانت حدائق للأحداق مونقة ... فصوح النصر من أدواحها دعسا
وحال ما حولها من منظر عجب ... يستجلس الركب أو يستركب الجلسا
فأين عيش جنيناه بها خضرا ... وأين عصر جليناه بها سلسا
محا محاسنها طاغ أتيح لها ... ما نام عن هضمها حينا ولا نعسا
ورج أرجاءها لما أحاط بها ... فغادر الشم من أعلامها خنسا
خلا له الجو فامتدت يداه إلى ... إدراك ما لم تطأه رجلاه مختلسا
وأكثر الزعم بالتثليث منفردا ... ولو رأى راية التوحيد ما نبسا
صل حبلها أيها المولى الرحيم فما ... أبقى المراس لها حبلا ولا مرسا
وأحى ماطمست منها العداة كما ... أحييت من دعوة المهدى ماطُمسا
أيام صرت لنصرة الحق مستبقا ... وبثّ من نور ذاك الهدى مقتبسا
وقمت فيها بأمر الله منتصراً ... كالصارم اهتز أو كالعارض انبجسا
هذى رسائلها تدعوك من كثب ... وأنت أفضل مرجو لمن يئسا
وافتكّ جاريةً بالنجع راجية ... منك الأمير الرضا والسيد الندسا

ومنها :

ملك تقلدت الأملاك طاعته ... دينا ودنيا فغشاها الرضا لبسا
من كل غاد على يمناه مستلما ... وكل صاد إلى نعماه ملتمسا
قد نور الله بالتقوى بصيرته ... فما يبالى طروق الخطب ماتبسا
من ساطع النور صاغ الله جوهره ... وصان صيقله أن يقرب الدنسا
إن السعيد أمرؤ ألقى بحضرته ... عصاه محتزماً بالعدل محترسا

وفى ختامها :

يا أيها الملك المنصور أنت لها ... علياء توسع أعداء الهدى تعسا
وقد تواترت الأنباء أنك من ... يحيي بقتل ملوك الصفر أندلسا
طهر بلادك منهم أنهم نجس ... ولاطهارة مالم تغسل النجسا
وأوطىء الفيلق الجرار أرضهم ... حتى يطأطأ رأسا كل من رأسا
وانصر عبيدا بأقصى شرقها شرقت ... عيونهم دمعا تهمى زكا وخسا

هم شيعة الأمر وهى الدار قد نهكت　　داء متى لم تباشر جسمها انتكسا
فاملأ هنيئاً لك لتمكين ساحتهـــا　　جردا سلاهب أو خطية دعسا
واضرب لها موعدا بالفتح ترقبه　　لعل يوم الأعادى قد أتى وعسا(١)

وكان لهذه القصيدة المبكية ، التى مازالت تحتفظ حتى يومنا برنينها المحزن ، والتى كانت كأنها نفثة الأندلس الجريح ، أبلغ الأثر فى نفس الأمير أبى زكريا الحفصى ، فبادر بتجهيز أسطول شحنه بالسلاح والأطعمة والكسى والأموال ، يتألف من اثنتى عشرة سفينة كبيرة ، وست صغيرة ، وعهد بقيادته إلى أبى يحيى ابن يحيى بن الشهيد بن إسحق أبن أبى حفص الكبير ، وتقدر الرواية الإسلامية قيمه ما شحن بهذا الأسطول بمائة لف دينار من الذهب ، وهى قيمة لها خطرها فى ذلك العصر (٢) . وأقلعت هذه السفن المنجدة على جناح السرعة من ثغر تونس قاصدة إلى ثغر بلنسية ومعها ابن الأبار ورفاقه ، وهى رحلة تستغرق عدة أيام .

وكان الأرجونيون فى تلك الأثناء قد شددوا الحصار على بلنسية ، وحاولوا فى البداية ، أن يقتحموا الرُّصافة ضاحيتها الجنوبية الشرقية ، ففشلت المحاولة ، وردهم المسلمون بخسارة كبيرة . وكان المسلمون يخرجون من آن لآخر لمقاتلة النصارى فى جماعات صغيرة ، ووقعت أعنف معركة من هذا النوع بين الفريقين حول بلدة سليا ضاحية بلنسية الجنوبية ، وانتهت باستيلاء النصارى عليها . ولم تمض أيام على ذلك حتى ظهر الأسطول التونسى فى مياه بلنسية ، واستطاع أن يصل إلى خليج جراو Grao الواقع جنوب شرقى المدينة بحذاء مصب نهر طورية أو نهر الوادى الأبيض Guadalaviar ، الذى يخترق بلنسية بعد مصبه بقليل ، ولكن المحلة النصرانية كانت تحتل اللسان الواقع بين الخليج وبين المدينة ، ومن ثم فإن رجال الأسطول ، لم يستطيعوا الوصول إلى المدينة ، ولم يستطع أهل المدينة من جهة أخرى ، أن يصلوا إليهم ، وعندئذ حاولت السفن المسلمة أن تبعث الأمداد إلى أهل المدينة من ناحية الشمال ، فسارت شمالا بحذاء الشاطىء

---

(١) راجعنا ما نقلناه من قصيدة ابن الأبار على نصها المخطوط الوارد فى مخطوط الإسكوريال رقم ٥١٨ الفزيرى الموسوم بكتاب « زواهر الفكر » وهى طويلة تقع فى سبعة وستين بيتاً . وقد نقلها المقرى كاملة فى نفح الطيب ج ٢ ص ٥٧٨ — ٥٨٠ ، وكذلك ابن خلدون مع إغفال بعض أبياتها فى ج ٦ ص ٢٨٣ — ٢٨٥ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٨٥ ، والزركشى فى تاريخ الدولتين ص ٢٠ .

حتى ثغر بُنُشكلة الصغير ، الواقع شمالى قسطلونة ، ولكن هذه المحاولة لم تنجح أيضاً لظهور السفن الأرجونية ، واضطرار السفن التونسية إلى الإقلاع صوب الجنوب ، وانتهى الأمر بأن أفرغت السفن التونسية شحنتها فى ثغر دانية ، بعيداً عن الثغر المحصور ، ثم أقلعت عائدة إلى إفريقية ومعها المال إذ لم يحضر من قبل الأمير زيان من يتسامه . وهكذا فشلت هذه المحاولة التى نظمت لإمداد المدينة المحصورة وإنجادها ، وتركت بلنسية لمصيرها .

وهنا ضاعف النصارى جهودهم فى التضييق على المدينة ، وإرهاقها . وبينما كان أهل بلنسية ، يعانون الحرمان والجوع داخل مدينتهم ، كان النصارى فى سعة تأتيهم المؤن من البحر بانتظام : وكان النصارى يضربون المدينة ، وأسوارها وأبراجها ، بالآلات الثقيلة باستمرار ، والبلنسيون مع كل هذا البلاء يخرجون لمقاتلة النصارى ، وتنشب المعارك الكثيرة بين الفريقين. وفى إحدى هذه المعارك أصيب الملك خايمى بجرح فى رأسه . واستمر الحصار المرهق على هذا النحو زهاء خمسة أشهر ، من أبريل حتى أوائل سبتمبر ، حتى فنيت الأقوات ، وعدمت الموارد ، واشتد البلاء بأهل المدينة ، وثلمت الأسوار والأبراج فى غير موضع ، وعندئذ رأى وجوه المدينة وعلى رأسهم الأمير زيان ، بأنه لا مفر من التسليم قبل أن يفوت الوقت ، ويقتحم النصارى المدينة ، فبعث بابن أخيه أبى الحملات ليفاوض ملك أراجون فى شروط التسليم . واتفق الفريقان على أن تسلم المدينة صلحاً . وإليك كيف يصف لنا ابن الأبار ، وقد كان شاهد عيان ، ما تلا ذلك من لقاء بين الأمير زيان والملك خايمى ، ومن إبرام شروط التسليم بينهما ، وذلك فى يوم الثلاثاء السابع عشر من صفر سنة ٦٣٦ هـ . قال :

« وفى هذا اليوم خرج أبو جميل زيان بن مدافع بن يوسف بن سعد الجذامى من المدينة ، وهو يومئذ أميرها ، فى أهل بيته ووجوه الطلبة والجند ، وأقبل الطاغية ، وقد تزيا بأحسن زى فى عظماء قومه ، من حيث نزل بالرصافة أول هذه المنازلة ، فتلاقيا بالولجة ، واتفقا على أن يتسلم الطاغية البلد سلما لعشرين يوماً ، ينتقل أهله أثناءها بأموالهم وأسبابهم . وحضرت ذلك كله ، وتوليت العقد عن أبى جميل فى ذلك . وابتدئ بضعفة الناس فسيروا فى البحر إلى نواحى دانية ، واتصل انتقال سائرهم براً وبحراً : وصبيحة يوم الجمعة السابع والعشرين من صفر المذكور ، كان خروج أبى جميل بأهله من القصر ، فى

طائفة يسيرة أقامت معه : وعند ذلك استولى عليها الروم أحانهم الله »[١].

وتقدم إلينا الرواية النصرانية عن شروط تسليم بلنسية تفاصيل لا تخرج فى جملتها عن مضمون الرواية المتقدمة ، فتقول إن المفاوضة وقعت أولا بين أحد الرؤساء المسلمين ، وأحد الأشراف الأرجونيين ، وذلك بمحضر من الملكة ، التى شاء الملك أن تشهد سائر التفاصيل ، وانتهى الأمر بأن اقترح الأمير زيان على الملك خايمى ، أن يسلم إليه المدينة ، على أن يسمح لسائر المسلمين بها رجالا ونساء ، بأن يحملوا سائر أمتعتهم دون أن يعترضهم أحد ، وأن يسيروا آمنين حتى قليرة ( أو غليرة )[٢] أو دانية ، فوافق الملك والملكة على اقتراحه ، واتفق على أن تسلم المدينة ، بعد خمسة أيام ، يبدأ فى نهايتها جلاء المسلمين عنها . وأبلغ الملك هذا الاتفاق إلى الأحبار والأشراف ، فلم يرق لبعض القادة ، والفرسان ، الذين كانوا يؤملون الثراء بنهب المدينة . وفى اليوم الثالث بدأ المسلمون جلاءهم عن بلنسية ، وخرج منهم منها خمسون ألفا ، وساروا آمنين حتى قليرة Cullera ، وهى ثغر صغير يقع على مقربة من جنوبى بلنسية ، ومنحوا عشرين يوما لإتمام الجلاء . وعقد الملك خايمى كذلك مع الأمير زيان هدنة مدتها سبع سنين ، وأقسم باحترامها بالنسبة لدانية وقليرة ، طوال هذه المدة . وتم ذلك فى اليوم الثامن والعشرين من شهر سبتمبر سنة ١٢٣٨ م[٣] .

وفى يوم الجمعة التاسع من أكتوبر سنة ١٢٣٨م ، الموافق للسابع والعشرين من صفر سنة ٦٣٦هـ دخل خايمى الفاتح ملك أراجون ، وزوجه الملكة ڤيولانتى وأكابر الأحبار والأشراف والفرسان الأرجونيين والقطلان ، وممثلو الجماعات الدينية والمدن ، مدينة بلنسية ، ورفع علم أراجون على قمة أعلى برج فى أسوار المدينة ، وحولت المساجد فى الحال إلى كنائس وطمست سائر قبور المسلمين[٤] . وقضى الملك خايمى بضعة أيام فى تقسيم دور المدينة وأموالها بين الأحبار والأشراف والفرسان ، كل وفق ما اشترك به فى الفتح ، وبلغ عدد من وزع عليهم من فرسان أراجون وقطلونية ،

---

( ١ ) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ١٩٠ ، وفى التكملة ( القاهرة ) فى الترجمة رقم ١٧٤٥ و٢١١٩ ، والبيان المغرب ص ٣٤٥ .

( ٢ ) وبالإسبانية **Cullera**

( ٣ ) **M. Lafuente : ibid; cit. Hist: del Rey don Jaime ; T. IV. p. 87**

( ٤ ) التكملة لابن الأبار ( القاهرة ) رقم ١٣٠٦ .

ثلاثمائة وثمانون ، هذا عدا الأحبار والأشراف ، وجعلت هذه الأملاك وراثية بالنسبة لأعقابهم ، وسموا بفرسان الفتح ، وترك لهم حراسة المدينة والدفاع عنها . وأقبل النصارى من كل فج على سكنى بلنسية وتعميرها . ومع ذلك فقد بقيت بها جماعة كبيرة من أهلها المسلمين ، تدجّنوا واستسلموا لمصيرهم الجديد .

وهكذا سقطت بلنسية فى أيدى النصارى ، بعد أن حكمها المسلمون ، منذ الفتح خمسة قرون وربع قرن ، سطعت خلالها فى شرقى الأندلس ، وتزعمت قواعده ، ولعبت أعظم دور فى أحداثه ومصايره ، ولبثت فترات طويلة ، مثوى الثورة الوطنية الأندلسية ، وكانت أعظم مركز للعلوم والآداب فى شرقى شبه الجزيرة . وكانت بلنسية منذ بعيد هدفاً لأطماع النصارى ، القشتاليين منهم والقطلان ، وكانت مسرحاً لمغامرات السيد الكنبيطور ( السيد الكمبيادور ) ،وقد استولى عليها بالفعل فى جمادى الأولى سنة ٤٨٧هـ ( يونيه ١٠٩٤ م ) ولبثت تحت نير النصارى زهاء ثمانية أعوام ، حتى استردها المرابطون فى شعبان سنة ٤٩٥ هـ ( مايو ١١٠٢ م ) ، وذلك حسبما فصلناه فى كتابنا « دول الطوائف » .

على أن بلنسية وأحوازها ، استمرت بعد سقوطها فى أيدى النصارى ،مدى عصور ، مثوى لجماعات كبيرة من المدجّنين المسلمين ، ثم بعد ذلك من العرب المتنصرين ( الموريسكيين ) وقد لعب هؤلاء فى تاريخها السياسى والاجتماعى منذ القرن الرابع عشر حتى أواخر القرن السادس عشر ، أدواراً ذات شأن . وهو مافصلناه فى كتابنا « نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين » .

— ٣ —

وقد أذكت محنة بلنسية وسقوطها فى أيدى النصارى ، فجيعة الشعر والنثر بالأندلس ، على نحو مافعلت محنة طليطلة ، وسقوطها ، وصدرت فى رثائها طائفة كبيرة من القصائد والرسائل المبكية . ويرجع ذلك بالأخص إلى وجود عدد من أكابر الكتاب والشعراء المعاصرين ، الذين شهدوا المحنة من أبناء بلنسية ذاتها ، أو شرقى الأندلس ، وفى مقدمتهم أبوعبد الله بن الأبار ، وأبو المطرف بن عميرة المخزومى ، وأبو عبد الله بن الجنان ، وهم جميعاً من كتاب أمير بلنسية ، أبى جميل زيان . وإذا كنا لانعنى هنا إلا بتسطير الأحداث والمحن ، فإنه يسوغ لنا مع ذلك أن نقف مدى لحظة ، لنستعرض خلالها ، بعض نماذج من النثر والنظم ، فى رثاء بلنسية من كلام أبنائها .

ولامراء فى أن ما صدر عن ابن الأبار فى ذلك وهو من أعظم أبناء بلنسية ، وقد قضى فيها معظم شبابه وكهولته ، وشهد أدوار المحنة من بدايتها إلى نهايتها ، سواء من النثر أو النظم ، إنما هو غرة هذه المراثى ، وأبلغها استثارة للأسى ، وقد أوردنا فيما تقدم شطراً من قصيدته الرائعة :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا    إن السبيل إلى منجاتها درسا

ورأينا كيف يصور فيها محنة الأندلس العامة أروع تصوير وأبلغه . ولما سقطت بلنسية ، بعد ذلك ، صدرت عنه رسائل وقصائد أخرى ، فى رثاء بلنسية وبقية قواعد الأندلس الذاهبة ، وبكاء أمجادها ومحاسنها ، فمن ذلك قوله من رسالة إلى صديقه أبى المطرّف ابن عميرة :

« وأما الأوطان المحبب عهدها بحكم الشباب ، المشبب فيها بمحاسن الأحباب ، فقد ودعنا معاهدها وداع الأبد ، وأخنى عليها الذى أخنى على لبد ، أسلمها الإسلام ، وانتظمها الانتثار والاصطلام ، حين وقعت أنسرها الطائرة ، وطاعت أنحسها الغائرة ، فغلب على الجذل الحزن ، وذهب مع المسكن السكن .

كزعزع الريح صك الدوح عاصفها    فلم يدع من جنًى فيها ولا غصن
واها وواها بموت الصبر بينهما    موت المحامد بين البخل والجُبُن

أين بلنسية ومغانيها ، وأغاريد وُرْقها وأغانيها ، أين حلى رصافتها وجسرها ، ومنزلا عطائها ونصرها ، أين أفياؤها تندى غضارة ، وركاؤها تبدو من خضارة ؛ أين جداولها الطفاحة وخمائلها ، أين جناتها النفاحة وشمائلها ، شد ماعطل من قلائد أزهارها نحرُها ، وخلعت شعشعانية ضحاها بحيرتها وبحرها ، فأية حيلة لاحيلة فى صرفها مع صرف الزمان ، وهل كانت حتى بانت إلا رونق الحق وبشاشة الإيمان ، ثم لم يلبث داء عقرها ، أن دب إلى جزيرة شُقرها ، فأمرَّ عذبها النمير ، وذوى غصنها النضير ، وخرست حمائم أدواحها ، وركدت نواسم أرواحها ، ومع ذلك اقتحمت دانية ، فنزحت قطوفها وهى دانية ، ويالشاطبة وبطحائها ، من حيف الأيام وأنحائها ، ولهفاه ثم لهفاه على تُدمير وتلاعها ، وجيّان وقلاعها ، وقرطبة ونواديها ، وحمص ووداها ، كلها رُعى كَلأُها ، ودهى بالتفريق والتمزيق ملأها ، غضَّ الحصار أكثرها ، وطمس الكفر عينها وأثرها . . وما لأندلس أصيبت بأشرافها ، ونقصت من أطرافها ، قوض عن صوامعها الأذان ، صُمّت بالنواقيس فيها الآذان ، أجنت ما لم تجن الأصقاع ، أعقّت

الحق فحاق بها الإيقاع ، كلا بل دانت للسُّنة ، وكانت من البدع فى أحصن جُنّة ، فليت شعرى بم استوثق تمحيصها ، ولم تعلّق بعموم البلوى تخصيصها ، اللهم غُفْراً ، طالما ضر ضجر ، ومن الأنباء مافيه مزدجر ، جرى بما لم تقدّره المقدور ، فما عسى أن ينفث به المصدور ، وربنا الحكيم العليم ، فحسبنا التفويض له والتسليم»(١)

ولأبى المطرِّف بن عميره ، وهو أيضاً من أبناء بلنسية ، ومن أبلغ كتابها ، رسائل عديدة فى رثاء المدينة العظيمة ، فمن ذلك رسالة خاطب بها زميله وصديقه ابن الأبار جوابا عن رسالته المتقدمة يقول فيها :

« طارحنى حديث مورد جف ، وقطين خفّ ، فيا لله لأتراب درجوا ، وأصحاب عن الأوطان خرجوا ، قصت الأجنحة وقيل : طيروا ، وإنما هو القتل والأسر أو تسيروا ، فتفرقوا أيدى سبا ، وانتشروا ملء الوهاد والربا ، ففى كل جانب عويل وزفرة ، وبكل صدر غليل وحسرة ، ولكل عين عبرة لاترقأ من أجلها عَبرة ، داء خامر بلادنا حين أتاها ، ومازال بها حتى سجى على موتاها ، وشجا ليومها الأطول كهلها وفتاها ، وأنذر بها فى القوم بحران أنيجة ، يوم أثاروا أسْدها المهيجه ، فكانت تلك الحطمة طل الشؤبوب ، وباكورة البلاء المصبوب .. وبعد ذلك أخذ من الأم بالمخنق ، وهى بلنسية ذات الحسن والبهجة والرونق ، وما لبث أن أخرس من مسجدها لسان الأذان ، وأخرج من جسدها روح الإيمان ، فبرح الخفاء ، وقيل على آثار من ذهب العفاء ، وانعطفت النوائب مفردة ومركبة كما تعطف الفاء ، وأودت الخفة والحصافة ، وذهب الجسر والرُّصافة ، ومزقت الحلة والسهلة ، وأوحشت الجرف والرملة ، ونزلت بالجارة وقعة الحرة ، وحصلت الكنيسة من جآذرها وظباها على طول الحسرة ، فأين تلك الخمائل ونضرتها ، والجداول وخضرتها ، والأندية وأرجها ، والأودية ومنعرجها ، والنواسم وهبوب مبتلها ، والأصائل وشحوب معتلها ، دار ضاحكت الشمس بحرها وبحيرتها ، وأزهار ترى من أدمع الطل فى أعينها ترددها وحيرتها ، ثم زحفت كتيبة الكفر بزرقها وشقرها ، حتى أحاطت بجزيرة شقرها ، فآها لمسقط الرأس هوى نجمه ، ولفادح الخطب سرى كَلْمه ، وبالجنة أجرى الله تعالى النهر تحتها ، وروضة أجاد أبو اسحق نعتها ، وإنما كانت داره التى فيها دب ، وعلى

(١) واضح من هذه الرسالة انها أنشئت بعد سقوط قواعد الشرق ، وبعد سقوط إشبيلية فى سنة ٦٤٦ هـ أعنى بعد سقوط بلنسية بنحو عشرة أعوام .

أوصاف محاسنها ألَبّ ، وفيها أتته منيته كما شاء وأحب ، ولم تعدم بعد محبين قشيبهم إليها ساقوه ، ودمعهم عليها أراقوه » .

ويقول فى رسالة أخرى :

« ثم ردف الخطاب الثانى بقاصمه المتون ، وقاطبه المنون ، ومضرمة نار الشجون ، ومذرية ماء الشئون ، وهو الحادث فى بلنسية ، دار النحر ، وحاضرة البر والبحر ، ومطمح أهل السيادة ، ومطرح شعاع البهجة والنضادة ، أودى الكفر بإيمانها ، وأبطل الناقوس صوت أذانها ، ودهاها الخطب الذى أنسى الخطوب ، وأذاب القلوب ، وعلّم سهام الأحزان أن تصيب ، ودموع الأجفان أن تصوب ، فياثكل الإسلام ، وياشجو الصلاة والصيام ، يوم الثلاثاء ، وما يوم الثلاثاء ، ياويح الداهية الدهياء ، وتأخير الإقدام عن موقف العزاء ، أين الصبر وفؤادى أنسيه ، لم يبق لقومى على الرمى سيه ، هيهات نجد ما مضى من أتنسيّه ، من بعد مصاب حل فى بلنسية .

« يا طول الحسرة ، ألا جابر لهذه الكسرة ، أكل أوقاتنا ساعة العسرة ، أخى أين أيامنا الخوالى ، ولياليا على التوالى . . كل رزء فى هذه الرزء يندرج ، وقد اشتدت الأزمة فقل لى متى تنفرج ، كيف انتفاعنا بالضحى والأصائل ، إذ لم يعد ذلك النسيم الأرج ، ليس لنا إلا التسليم والرضى ، بما قضاه الخلاق العليم .

ومن نظم أبى المطرّف بن عميرة فى رثاء بلنسية قوله :

| | |
|---|---|
| ما بال دمعك لاينى مدراره | أم ما لقلبك لايقر قـــراره |
| اللوعة بين الضـلوع لظاعن | سارت ركائبه وشطّت داره |
| أم للشباب تقاذفت أوطانه | بعد الدنو وأخفقت أوطاره |
| أم للزمان أتى بخطب فادح | من مثل حادثة خلت أعصاره |
| بحر من الأحزان عبّ عبابه | وارتج ما بين الحشا زخّـاره |
| فى كل قلب منه وجد عنده | أسف طويل ليس تخبو ناره |
| أما بلنسية فمثـوى كافـــر | حُفت به فى عقرها كفّـاره |
| زرع من المكروه حلّ حصاده | عند الغُدوّ غداة لجّ حصاره |
| ماكان ذاك المصر إلا جنّـــة | للحسن تجرى تحته أنهـاره |
| طابت بطيب بهاره آصـــاله | وتعطرت بنســيمه أشجاره |

قد كان يشرق بالهداية ليله ... والآن أظلم بالظلال نهاره
ودجا به ليلُ الخطوب بصبحه ... أعيا على أبصارنا إسفاره[1]

وجاء فى قصيدة طويلة ، وجهها بعضهم إلى أمير إفريقية أبى زكريا الحفصى يستنهض همته لنصرة الأندلس ، وذلك على أثر سقوط بلنسية :

نادتك أندلس فلب نداءها ... واجعل طواغيت الصليب فداءها
صرخت بدعوتك العلية فاحبها ... من عاطفاتك ما يقى حوباءها
هى دارك القصوى أوت لإيالة ... ضمنت لها مع نصرها ايواءها
تلك الجزيرة لا بقاء لها إذا ... لم يضمن الفتح القريب بقاءها

ومنها فى رثاء بلنسية :

ايه بلنسية وفى ذكراك ما ... يجرى الشؤون دماءها لاماءها
كيف السبيل إلى احتلال معاهد ... شب الأعاجم دونها هيجاءها
والى رُباً وأباطح لم تعر من ... حلل الربيع مصيفها وشتاءها
طاب المعرس والمقيل خلالها ... وتطلعت غرر المنى أثناءها
بأبى مدارس كالطلول دوارس ... نسخت نواقيس الصليب نداءها
ناحت بها الورقاء تسمع شدوها ... وغدت ترجع نوحها وبكاءها[2]

ونكتفى بهذه المقتطفات النثرية والشعرية التى قيلت فى رثاء بلنسية ، وإنما أوردناها دليلا على شعور أبنائها بفداحة المحنة ، وفداحة آثارها ، التى انتهت فى أعوام قليلة بسقوط سائر قواعد الشرق فى أيدى النصارى .

ولما سقطت بلنسية ، وما يليها من القواعد القريبة فى أيدى النصارى ، نزح الكثير من أهلها إلى قواعد الأندلس الباقية ، فى الشرق والجنوب والوسط ، وعبر فى نفس الوقت كثير منهم البحر إلى العدوة ، واستقروا فى مختلف أنحائها . وقد وقفنا على نص ظهير ، أصدره الخليفة الموحدى الرشيد ، فى الحادى والعشرين من شهر شعبان سنة ٦٣٧ هـ ، من إنشاء كاتبه القاضى أبى المطرف بن عميرة

---

(١) وردت هذه القصيدة وما تقدمها من رسائل فى كتاب «الروض المعطار» فى مقال «بلنسية» (ص ٤٨ — ٥٢) . وقد أورد لنا المقرى نص الرسالتين كاملا ، رسالة ابن الأبار ، ورسالة ابن عميرة فى الرد عليها ، وذلك فى نفح الطيب ج ٢ ص ٥٩٦ — ٦٠١ .

(٢) وردت هذه القصيدة الطويلة فى نفح الطيب ج ٢ ص ٥٨٩ — ٥٩٢ .

المخزومى ، إلى « المنتقلين من أهل بانسية وجزيرة شقر وشاطبة ومن جرى من ساير بلاد الشرق مجراهم ، وعراه من عبر الأيام ماعراهم » يأذن لهم فيه بالنزول فى رباط الفتح « وأن يتخذوا مساكنه وأرضه بدلا من مساكنهم وأرضهم ، ويعمروا منه بلداً يقبل منهم أولى من قبل ، ويحملهم إنشاء الله تعالى ، وخير البلاد ماحمل » ، وأن « لهم أفضل ماعهده رعايا هذا الأمر العزيز ، أدامه الله تعالى من التوسعة على قويهم حتى يزداد قوة ، والرفق بضعيفهم ، حتى ينال يساراً وثروة » ، وأن يقوموا بحرث أرضه ، وغرس كرومه ، وأن يتأثلوا الأملاك لأنفسهم وأولادهم وأولاد أولادهم ، ولا يطالبوا بغير حقوق الشرع ، وأن الأوامر قد صدرت إلى الولاة والعمال بحمايتهم والرفق بهم ، وعدم إلحاق الأذى بهم ، أو منعهم من تحقيق مآربهم . وقد صدر هذا الظهير ، حسبما نوه فى بدايته بمسعى ذى الوزارتين الشيخ أبى على بن أبى جعفر بن خلاص البلنسى . وهو وثيقة ذات أهمية خاصة ، تلقى ضوءاً كبيراً على مصاير من شردتهم محنة الانهيار من أهل الأندلس ، وماكانوا يلقون فى أنحاء العدوة من ضروب المواساة والعطف والترحيب[1]

— ٤ —

لما غادر الأمير أبوجميل زيّان وطنه القديم ومقر رياسته ، ورياسة آبائه وأجداده ، مدينة بلنسية العظيمة ، بعد أن سلمها إلى الملك خايمى الفاتح ، سار فى آله وصحبه إلى الجزيرة أوجزيرة شُقر ، الواقعة جنوبها على ضفة نهر شقر ، وسار وزيره ابن الأبار فى أهله إلى تونس بعد أن أيقن أنه لا أمل فى حياة مستقرة فى ربوع الوطن القديم ، وأخذ زيان بيعة أهل الجزيرة للأمير أبى زكريا الحفصى صاحب إفريقية ، ولكنه ماكاد يستقربها حتى زحف عليها الأرجونيون وطوقوها لأنها لم تكن داخلة فى نطاق الهدنة ، التى كانت تشمل فقط دانية وقليرة ، فاضطر زيان إلى التخلى عن الجزيرة للنصارى ، وغادرها إلى دانية ، ونزل بها وذلك فى شهر رجب سنة ٦٣٦ هـ ، لبضعة أشهر من تسليم بلنسية ، ودعابها للأمير أبى زكريا الحفصى ، وأغضى النصارى مدى حين عن مهاجمة هذا القطاع من من إقليم بلنسية . وعرض زيان خلال ذلك على الملك خايمى أن يسلمه حصن لَقَنت على أن يمنحه جزيرة مِنُرقة كإقطاع يحكمها باسمه وتحت طاعته ، فاعتذر

---

(١) وقفنا على نص هذا الظهير فى المخطوط المعنون « بزواهر الفكر » المحفوظ بمكتبة الإسكوريال رقم ٥١٨ الغزيرى ، ورقم ٥٢٠ ديرنبور (لوحة ١١٥ ا — ١١٦ ا) .

خايمى بأن لقنت لاتدخل فى نطاق فتوحه ، وإنما هى داخلة فى نطاق فتوح قشتالة(١)، هذا إلى أن مرقه كان يحكمها عندئذ أبو عثمان سعيد بن حكم الأموى تحت حماية الملك خايمى ، ويؤدى إليه الجزية حسبما تقدم فى موضعه .

وعندئذ اتجه نظر زيان إلى مرسية . وكانت مرسية أيام ابن هود مقر رياسته . ولما توفى بألمرية فى جمادى الأولى سنة ٦٣٥ هـ ، بايع أهل مرسية ولده أبا بكر محمد بن يوسف بن هود ، وتلقب بالواثق ، ولكن الظاهر أن عمه على بن يوسف تغلب عليه بعد قليل ، ودعا لنفسه وتلقب بعضد الدولة ، بيد أن رياسته لم يطل أمدها أيضاً ، إذ ثار به عميد مرسية وكبير علمائها الفقيه أبو بكر عزيز بن عبد الملك ابن محمد بن خطاب ، وأخرجه من المدينة ، ودعا لنفسه ، وبايعه أهل مرسية ، وذلك فى الرابع من محرم سنة ٦٣٦هـ ، وتلقب بضياء الدولة. ثم سقطت بلنسية بعد ذلك بأسابيع قلائل فى أيدى النصارى ، وتجهمت الحوادث فى شرق الأندلس، وقلقت النفوس فى مرسية وغيرها ، ورأى جماعة من أهل مرسية استدعاء أمير بلنسية السابق أبا جميل زيان ، ليتولى الرياسة عليهم ، وهو يومئذ بدانية يرقب الحوادث. فسار زيان إلى مرسية ودخلها ، فثار أهلها بأبى بكر عزيز ضياء الدولة وانتزع زيان منه الرياسة وقبض عليه ، وذلك فى الخامس عشر من شهر رمضان سنة ٦٣٦ هـ ، ثم أمر بقتله ، فقتل فى السادس والعشرين من الشهر ، وكان ابن خطاب سليل أعرق بيوت مرسية ، وجده الكبير أبو عمر أحمد بن خطاب ، هو الذى استضاف المنصور بن أبى عامر وسائر جيشه ، حين مروره بمرسية فى طريق غزاته إلى برشلونة ، وذلك فى أوائل سنة ٣٧٥هـ ( ٩٨٥ م )(٢) .

ودعا زيان بمرسية للأمير أبى زكريا الحفصى صاحب إفريقية ، ودخلت فى طاعته معظم البلاد الباقية فى شرق الأندلس، وبعث زيان ببيعتها جميعاً مع وفد ندبه لذلك إلى الأمير أبى زكريا بتونس، فعاد الوفد يحمل إليه من الأمير تقليد ولايته على مرسية وبلاد شرق الأندلس ، وقدراً من المال لمعاونته ، وذلك فى سنة ٦٣٧هـ . وقد وقفنا على نص الرسالة التى بعث بها الرئيس زيان إلى الأمير أبى زكريا على أثر تلقيه مرسوم الولاية ، وهى من إنشاء الكاتب البليغ أبى عبد الله بن الجنان،

---

(١) M. Lafuente : ibid; T. IV. p. 88

(٢) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٢٥٠ — ٢٥٢ ، والذخيرة السنية ص ٥٩ ، وكذلك : M.G. Remiro : Murcia Musulmana p. 295

وفيها يعرب زيان بعد الديباجة « والرضا عن الإمام المعصوم ، المهدى المعلوم ، الطالع من أنوار الهدايات » ، وبعد الدعوات الجمة ، عن ولائه وإخلاصه ، ويقول : « فلا جرم أن الخادم يطمئن بذلك قلبا » . ثم يبدى شكره على التفات « الحضرة الكريمة » ، وأنه تلقى الكتب الكريمة بارتياح ، وأنه فى سائر أحواله ، وجميع أفعاله وأقواله « يهتدى بهدى الحضرة العلية ، والانقياد لما أمره به مولاه من النظر فى هذه البلاد ، عاكفاً على المراسم الكريمة فى كل القصد والاعتماد ، باذلا مستطاعة فى الجد والاجتهاد » وخصوصاً فى هذه الأوقات التى اشتدت فيها نكايات الأعداء، ولكنه يؤمل أن الأحوال سوف تصلح. ثم يختتم كلامه بالدعاء . والرسالة صادرة « من مرسية حرسها الله تعالى » ؛ ولكن ليس لها تاريخ[1].

على أن زيان لم يتح له أن يجمع سائر الشرق تحت طاعته ، فقد خرجت على رياسته أوريولة ، واستقل بها ابن عصام ، وكذلك خرجت لورقة ، واستقل برياستها الفقيه محمد بن على بن أحلى .

واستمر الأمير زيان فى رياسته لمرسية زهاء عامين. وكان كاتبه فى تلك الفترة ، القاضى والكاتب اللامع أبو المطرف بن عميرة المخزومى . وهنالك مايدل على أن الأمير زيان ، قد بذل عندئذ محاولة للتفاهم مع فرناندو الثالث ملك قشتالة ، وذلك حسبما تدل عليه رسالة موجهة منه إلى فرناندو ، ومحررة بقلم أبى المطرف ، يذكر فيها ما تم له من فتح مرسية ، ورضاء المسلمين بهذا الفتح ، وأنه رأى مفاوضته فى عقد السلم ، وأن يكون ذلك على يد رسول أوفده إليه ، وأنه على استعداد للتفاوض مع من يرسله إليه ملك قشتالة من رجاله لهذا الغرض[2]. ومن الواضح أن هذه المحاولة من جانب زيان ترجع إلى ماكان معقوداً بين مملكتى قشتالة وأراجون من أن الاستيلاء على منطقة مرسية ، كان من حق ملك قشتالة . على أن الأمر لم يطل برياسة زيان لمرسية ، فقد خرج عليه زعيم من بنى هود ، من أبناء عمومة المتوكل ، يدعى محمد بن هود، والتف حوله أهل مرسية ، فانتزع الحكم من زيان وتلقب ببهاء الدولة ، وخرج زيان من مرسية ، فى أهله وأمواله ولجأ فى قومه وعشيرته إلى لقنت ذلك فى سنة ٦٣٨ هـ ( ١٢٤٠ م ) . وعاش بها بضعة

---

( ١ ) وردت هذه الرسالة فى كتاب « زواهر الفكر » الذى سبقت الإشارة إليه ( مخطوط الإسكوريال رقم ٥١٨ الغزيرى ( رقم ٥٢٠ ديرنبور ) .

( ٢ ) أورد لنا القلقشندى نص هذه الرسالة فى صبح الأعشى ج ٧ ص ١١٦ و١١٧ .

أعوام فى خمول ، وهو يشهد سقوط قواعد الشرق المتوالى فى أيدى النصارى، إلى أن وصل الأرجونيون إلى بلده واستولوا عليها ، وذلك فى سنة ٦٤٤ هـ ( ١٢٤٦ م ) فعندئذ عول على مغادرة الأندلس قاطبة ، وركب البحر فى أهله إلى تونس، ونزل بها فى كنف أميرها ، إلى أن توفى سنة ٦٦٨هـ ( ١٢٦٩م )(١).

وكان الأرجونيون خلال ذلك قد استولوا على ثغر دانية ، وذلك فى شهر ذى الحجة سنة ٦٤١هـ ( مايو ١٢٤٤م ) ، وبعد ذلك بنحو عامين استولوا على شاطبة ، وذلك فى آخر صفر سنة ٦٤٤هـ ( يوليه ١٢٤٦ م ) . وكانت شاطبة منذ أيام المتوكل ابن هود ، قد تولى رياستها من قبله يحيي بن أحمد بن عيسى الخزرجى ، فلما توفى فى شعبان سنة ٦٣٤ هـ ، وليها من بعده ، ولده أبو بكر محمد ، وولى كذلك دانية حيناً ، واستمر على ولايته لشاطبة أعواماً من بعد سقوط بلنسية ، وهو يصانع الملك خايمى ، ويؤدى إليه ماشاء من جزية ، إلى أن قرر خايمى فى النهاية الاستيلاء عليها ، فدخلها الأرجونيون صلحاً فى التاريخ المتقدم (صفر ٦٤٤هـ ) وذلك بعد حصار قصير . ولم يمض سوى عام ونصف حتى نقضوا الهدنة مع أهلها المسلمين ، وأرغموهم على الجلاء عنها وذلك فى رمضان سنة ٦٤٥ هـ(٢) فتفرقوا فى مختلف البلاد ، وغادرها واليها السابق أبو بكر فى أهله ولجأ إلى أحد الحصون القريبة منها . وكان أبو بكر بن يحيي هذا ، أديبا متمكناً من النثر والنظم ، وقد أورد لنا ابن الأبار شيئاً من نظمه(٣) .

وهكذا استولى الأرجونيون من بعد بلنسية ، خلال أعوام قلائل فقط على سائر القواعد القريبة منها ، جزيرة شقر ، ودانية ، وشاطبة ، والبيضاء ، ولقنت(٤) وغيرها ، ولم يبق من قواعد الشرق بيد المسلمين سوى مرسية وأحوازها . على

---

( ١ ) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٨ ، و ج ٦ ص ٢٨٥ . ويقول صاحب الذخيرة السنية إن زيان لجأ إلى حصن اللش ( ألش ) . وراجع : M.G. Remiro : Ibid; p. 295 & 296

( ٢ ) ابن الأبار فى التكملة ( القاهرة ) ج ١ ص ١٢٤ و ٣٣٤ .

( ٣ ) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٢٤٧ و ٢٤٨ . وفى التكملة « القاهرة » فى الترجمة رقم ٣١٠ و ٩٠٧ .

( ٤ ) يضع صاحب الذخيرة السنية تاريخ استيلاء النصارى على دانية ولقنت وألش وأوريولة وقرطاجنة فى سنة ٦٤٠ هـ ( ١٢٤٢ م ) ( ص ٦٥ ) ولكنا نرجح فيما يتعلق بدانية ولقنت ، ماتقدم من الروايات . ثم هو يعود فيذكر لنا مرة أخرى ان سقوط أوريولة كان فى سنة ٦٤٩ هـ ( ١٢٥١ م ) ( ص ٨٧ ) . ولكن سنرى أن هذه القواعد الأخيرة قد تأخر سقوطها إلى ما بعد ذلك .

أن القدر كان أيضاً بالمرصاد لمرسية ، وإن كان قد طوح بها إلى مصير آخر .

— ٥ —

وذلك أنه لما نجح بهاء الدولة محمد بن هود ، فى انتزاع حكم مرسية من الأمير أبى جميل زيان ، وذلك فى سنة ٦٣٨هـ ، كان ابن عصام صاحب أوريولة من أنصاره والمعترفين بطاعته ، ولكن لورقة لبثت مع ذلك محتفظة باستقلالها برياسة واليها ابن أحلى .

على أنه لم يمض سوى قليل حتى شعر أهل مرسية أن الأمور لا يمكن أن تسير على هذا النحو ، وأن توالى سقوط قواعد الشرق فى يد الأرجونيين ، سوف يحدد مصير مرسية ، عاجلا أوآجلا ، ومن جهة أخرى فإن انضواء مرسية تحت لواء أمير إفريقية الحفصى لن يغنى شيئاً ، لبعد الشقة ، وتعذر العون ، ومن ثم فقد قرر أشياخ مرسية بالاتفاق مع بهاء الدولة أن يتفاهموا مع النصارى ، رجاء صونها من الغزو والتخريب ، واتجهوا فى ذلك إلى ملك قشتالة ، إما لأنهم آثروا القشتاليين على الأرجونيين ، وإما لأنهم كانوا يعلمون أن مدينتهم تقع فى منطقة الغزو القشتالى ، وبعثوا إلى ملك قشتالة سفارة على رأسها أحمد بن محمد بن هود ولد واليها ، يعرضون عليه الاعتراف بطاعته وتأدية الجزية إليه ، وأن يسمح له بوضع حامية بالمدينة . وتضع الرواية الإسلامية تاريخ هذا العرض فى سنة ٦٣٩هـ الموافقة لسنة ١٢٤١م ، وهو التاريخ الذى تقدمه لنا الرواية النصرانية[١] .

وكان ملك قشتالة فرناندو الثالث يومئذ مريضاً فى برغش ، وكان ولده وولى عهده الإنفانت ألفونسو بمدينة طليطلة ، فوفدت عليه هنالك سفارة مرسية ، فاستقبلهم باسم والده الملك ، وأبلغ النبأ فى الحال إلى فرناندو ، فوافق على عرض أهل مرسية ، وصرفهم الإنفانت بعد التفاهم معهم على تسلم المدينة ، ثم سار بعد قليل فى نفر من صحبه صوب مرسية ، حيث التقى فى الكَرَس بنواب مرسية ، وعقد معهم معاهدة التسليم ، ودخل ألفونسو ولى عهد قشتالة وصحبه ، ومعهم أحمد بن محمد هود مرسية ، وتسلموها صلحاً ، وذلك على الاعتراف بالطاعة ، وأداء الجزية ، وبقاء حكمها بأيدى أهلها ، وذلك فى اليوم العاشر من شوال سنة ٦٤٠ هـ ( ٢ أبريل ١٢٤٣ م )[٢] . ووضع القشتاليون بعض

---

( ١ ) الذخيرة السنية ص ٦٤ ، وكذلك : **J. Gonzalez : ibid; p. 88**

( ٢ ) هذه هى رواية ابن الأبار فى التكملة ( القاهرة ) فى الترجمة رقم ٢٦٧١ ، ولكن المقرى =

الجند فى مرسية ، وفى بعض الحصون التابعة لها ، واحتفظ أمير مرسيه بسيادته التامة على لقنت ، وأوريوله ، وألش ، وبعض الأماكن الأخرى الداخلة فى أعمال مرسية . وكذلك فإن لورقة ، ومولة ، وقرطاجنة ، وهى من أعمال مرسية ، لم تدخل فى هذا التسليم ، واحتفظت باستقلالها حيناً ، حتى استولى عليها القشتاليون فى سنة ١٢٤٥ م . أما مرسية فلبثت عدة أعوام أخرى تحت حكم واليها محمد بن هود ، بهاء الدولة ، ثم بعد وفاته تحت حكم ولده أبى جعفر أحمد ، وذلك تحت حماية ملك قشتالة . وكان والى مرسية يعرف عندئذ عند النصارى بملك مرسية . وكان من الغريب أن « تبقى مملكة مرسية » الإسلامية قائمة على هذا النحو تتمتع بنوع من الاستقلال ، بعد أن سقطت بلنسية ، وكل أعمالها ، وأضحى النصارى يشرفون عليها من لقنت وألش وغيرها من قواعد هذه المنطقة . ولكن ذلك يمكن تفسيره أولا ، بما وقع من الاضطرابات المستمرة فى بلنسية ضد الأرجونيين ، وقيام المسلمين المدجنين فى بلنسية ، وشاطبة ، ومربيطر وقسطلونة وغيرها ، ومحاولتهم استرداد استقلالهم بقوة السلاح ، واستردادهم بالفعل لبعض الحصون الهامة ( سنة ١٢٥٤م )، وثانيا باشتداد ساعد مملكة غرناطة ، المملكة الإسلامية الجديدة التى أنشأها ابن الأحمر فى جنوبى الأندلس ، وتهديدها من آن لآخر بإنجاد أهل مرسية ومعاونتهم . وكان خايمى ملك أراجون حينما اشتدت الاضطرابات فى بلنسية وأحوازها ، قد عمل على تدعيم معظم الحصون بحاميات جديدة ، وأخرج بالقوة آلافا مؤلفة من المسلمين المدجنين من أراضى بلنسية ، فقصدوا إلى مرسية وأعمالها وتفرقوا فيها ، وذهبت آلاف أخرى منهم إلى مملكة غرناطة . وفرض القشتاليون على المهاجرين منهم إلى مرسية وأعمالها ضريبة لدخولهم قدرها بيسانتى Besante عن كل فرد . واشتد ساعد « مملكة مرسية » بمن وفد إليها من هذه الجموع المهاجرة ، واستطاعت أن تفرض احترام استقلالها الداخلى على النصارى فترة أخرى .

واستمر أبو جعفر أحمد بن هود واليا لمرسية وأحوازها حتى سنة ٦٦٢هـ ( ١٢٦٤ م ) ؛ وفى هذا العام خروج عليه ، أبو بكر محمد بن محمد بن يوسف ابن هود ، وكان قد حكم مرسية بضعة أشهر عقب وفاة أبيه المتوكل ، وتسمى

---

= يقول لنا إن ذلك وقع فى العاشر من شوال سنة ٦٣٩ هـ ( ١١ أبريل ١٢٤٢ م ) (نفح الطيب ج٢ ص ٥٨٥ ) وراجع أيضاً : **M.G. Remiro ; ibid ; p. 296**

بالواثق ، ثم تغلب عليه عمه عضد الدولة بن هود ، ثم جاء أبوجميل زيان فانتزع الحكم منه حسبما فصلناه فيما تقدم ، إلى أن تغلب عليه بها الدولة ابن هود ، وفى خلال ذلك كان الواثق يعيش مغموراً هادئاً ، إلى أن سنحت له الفرصة لينتزع الحكم من أبى جعفر . وكان الواثق يعتقد أنه يستطيع بمعاونة المسلمين المدجّنين فى منطقة الشرق ، ومعاونة ابن الأحمر ملك غرناطة ، أن يخلع طاعة النصارى، وأن يسترد لمرسية كامل استقلالها . وربما كان قد شعر أيضاً أن قشتالة لم تكن من القوة كما كانت أيام فرناندو الثالث . وكان فرناندو قد توفى منذ سنة ١٢٥٢م، وخلفه ولده ألفونسو العاشر ، وشغلت قشتالة فى ظله بصراعها مع مملكة غرناطة . ومن ثم فقد أعلن الواثق خلع طاعة ملك قشتالة ، لأنه لم يلتزم الوفاء بما تعهد به فى معاهدة التسليم ، وخرق نصوصها بالاستطالة على حقوق مملكة مرسية ، وبعث إلى رومة سفيراً يسعى لدى البابا ، ليحمل ملك قشتالة على الوفاء بعهوده ، من عدم التدخل فى شئون مملكة مرسية، واستمر متمسكاً باستقلاله ، ولكنه لما شعر بأن جند الملك خايمى ملك أراجون ، بدأت تغير على أراضى مرسية وترهق أهلها ، أعلن طاعته لابن الأحمر ملك غرناطة ، وبعث إليه ابن الأحمر قوة من جنده بقيادة صهره الرئيس أبى محمد بن أشقيلولة ، فقدم إلى مرسية وضبط أمورها ، وخطب بها لابن الأحمر .

ويقدم إلينا ابن عذارى شرحاً آخر لتطور الحوادث فى مرسية فيقول ، إن أهل شرق الأندلس كانوا قد صالحو الروم بمال معلوم، يدفعونه لهم فى كل عام، وأعطى أهل مرسية قصبتهم للروم . فلما ذاع فيهم ضرر الروم وأذاهم ، أخرجوهم بالقتال والحصر ، وكتب أهل مرسية إلى الأمير ابن الأحمر ببيعتهم ، فبعث إليهم الرئيس أبا محمد بن أشقيلولة والياً . فزحف النصارى إليها، ونزلوا عليها ، وحصر الرئيس فيها ، ثم غادرها مع صحبه . وهكذا اضطر ابن الأحمر أن يتخلى عن حماية مرسية ، واضطر نائبه ابن أشقيلولة أن يغادرها مع جنده . ويضع ابن عذارى تاريخ هذا الحادث فى سنة ٦٦٢ هـ ( ١٢٦٤م ) ويزيد على ذلك أن أهل مرسية لم يجدوا بعد ابن الأحمر حماة ولا أنصاراً ، واشتد عليهم حصار العدو وتألبه ، فأعطوا مرسية للنصارى وخرجوا منها بالأمان إلى «الرشاقة»، فسكنوا بها نحو عشرة أعوام، إلى أن أخرجهم النصارى منها بالأمان فى سنة ثلاث وسبعين ، ولكنهم غدروا بهم فى الطريق بموضع يعرف ببوركال ، فقتلوا الرجال ، وسبوا النساء

والأطفال[١] . ولكن الرواية النصرانية تقول لنا بالعكس ، إنه على أثر مغادرة جند ابن الأحمر لمرسية ، رد أهلها الأمر ثانية إلى الواثق ابن هود ، فمضى فى حكمها فترة قصيرة أخرى ، إلى أن افتتحها الملك خايمى ، وذلك على النحو الآتى :

فى تلك الأثناء ، كان ملك قشتالة ألفونسو العاشر ، يعانى صعابا فى الاحتفاظ بفتوحه الجديدة فى الأندلس ، ولاسيما فى منطقة شريش وشذونة ، ويرقب نشاط ابن الأحمر ملك غرناطة وازدياد قوته بعين التوجس والخوف . وزاد قلقه من جراء ذلك بما حدث من عبور بعض قوات بنى مرين من المغرب إلى الأندلس ، لمناصرة ابن الأحمر . وكان من جهة أخرى يرى نفسه عاجزاً عن قمع ثورة مرسية ، واسترداد سيادته عليها ، ومن ثم فقد بعث إلى حميه خايمى ملك أراجون ــ وكان قد تزوج بابنته الأميرة ڤيولانتى ، وارتبط معه برباط المصاهرة والصداقة الوثيقة ــ يطلب إليه المعاونة فى منطقة مرسية ، لأن الثورة فى مرسية تهدد سيادته فى بلنسية ، ومن ثم فقد قرر الملك خايمى ، بعد استشارة الأمراء والأحبار ، أن يسير لافتتاح مرسية ، بالرغم من كونها تقع فى منطقة نفوذ قشتالة ، وذلك نزولا على رغبة ملك قشتالة نفسه[٢] . فجهز حملة قوية ، وسار جنوبا صوب مملكة مرسية ، وزحف أولا على حصونها الأمامية ألش ولقنت وأوريوله ، واستولى عليها ، ثم بقى فى أوريولة ، وضربت جنده الحصار حول مرسية ، وبذل الأرجونيون كل جهد للتضييق على المدينة المحصورة ، ورد كل أمداد يصل إليها من غرناطة ، واستمر الحصار بضعة أشهر . فلما رأى الواثق أنه لامفر من التسليم ، بعد أن نفدت سائر الموارد ، وغاض كل أمل ، فاوض الملك خايمى فى التسليم ، واتفق معه على أن يعوضه عن مرسية بحصن « يسر » ليقيم فيه هو وأهله وصحبه . وهكذا سلمت مرسية آخر قواعد الشرق الكبرى ، ودخلها الملك خايمى الأرجونى وذلك فى فى شهر فبراير سنة ١٢٦٦ م . وهو يوافق التاريخ الذى تضعه الرواية الإسلامية لسقوط مرسية ، وهو سنة ٦٦٤ هـ ، وأن كانت ثمة روايات نصرانية أخرى تضع تسليم مرسية فى سنة ١٢٦٩ أو ١٢٧٠[٣] م . ولم يطلب الملك خايمى

---

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ٤٣٨ .

(٢) **M. Lafuente : Ibid ; T. IV. p. 132**

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٧١ . وهو يجمل سقوط مرسية فى كلمة عابرة ، وإنما استقينا التفاصيل المتقدمة من كتاب : **G. Remiro : ibid; p. 300-303** . وفيها يلخص مختلف الروايات النصرانية .

من اهل مرسية الجلاء عن أرضهم كما حدث فى بلنسية وقواعدها ، ولكنه طلب إليهم فقط أن يسمح لأهل أراجون وقطلونية بالهجرة إلى أراضى مملكة مرسية . وكان قد حمل على هذا الاعتدال ، بما حدث فى بلنسية وقواعد الشرق الشمالية من الاضطرابات العنيفة على إثر إخراج سكانها من أوطانهم .

وهكذا استولى خايمى الفاتح على سائر ثغور شرقى الأندلس وقواعده ، من بنشكلة وقسطلونة شمالا ، حتى قرطاجنة ولورقة جنوبا ، وذلك فى فترة لاتتجاوز الثلاثين عاما ، وانتهت بذلك سيادة الإسلام فى تلك الرقعة الكبيرة من الوطن الأندلسى القديم ، بعد أن لبثت بها أكثر من خمسة قرون ، وأضحى أهلها المسلمون الذين آثروا البقاء بأوطانهم القديمة ، واستسلموا إلى قدرهم فى ظل حكم السادة النصارى الجدد ، مدجنين Mudéjares تعصف بهم إرادة الفاتح ، وتسلبهم حقوقهم الدينية والمدنية ، ومميزاتهم القوية شيئاً فشيئاً ، ولاتنفعهم ثوراتهم المتكررة فى سبيل الاحتفاظ بكيانهم ، حتى غدوا بمضى الزمن مجتمعاً غريبا فى بلاده ، وفقدوا دينهم القديم ، ولغتهم العربية ، وغلبت عليهم الذلة والعبودية ، وحتى هذه الحياة المسكينة الذليلة فى ظل آثار دينهم ولغتهم لم تدم ، وكان أن أرغموا بعد ذلك على التنصير ، واعتناق دين الغالب ولغته ، وأضحى تاريخهم فى ظل الحكم الإسبانى ، وظل الكنيسة الإسبانية ، ومحاكم التحقيق ، مأساة من أروع مآسى التاريخ ، وأبلغها إيلاما للنفس ، وهى التى تعرف بمأساة الموريسكيين أو العرب المتنصرين (١) .

---

(١) تناولنا كل ما يتعلق بمصاير المدجنين وأحوالهم وتاريخ الموريسكيين بتفصيل واف فى كتابنا « نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين » ( ص ٤٧ — ٥٨ ) .

# الفصل الرابع

## سقوط اشبيلية

### وقواعد الغرب

ابن الأحمر واشتداد ساعده . يعتزم محاربة القشتاليين . محاصرته لمرقش . هزيمته للقشتاليين . غزو فرناندو الثالث للأندلس الوسطى . عيثه فى أحواز جيان . افتتاحه لأرجونة وغزوه لفحص غرناطة . يعتزم افتتاح جيان . أهبة جيان وحصانتها . مسيره إلى جيان وحصارها . استنجاد واليها بابن الأحمر . طول الحصار ونفاد المؤن . موقف ابن الأحمر . يؤثر التفاهم مع ملك قشتالة . اعترافه بطاعة فرناندو . بقية شروط المعاهدة المعقودة . دخول القشتاليين جيان . جيان ومركزها التالد بين قواعد الأندلس . الأماكن الأخرى التى نزل عنها ابن الأحمر . انهيار الأندلس الشرقية والوسطى . تحول أنظار النصارى إلى إشبيلية . إشبيلية ومركزها أيام الفتنة . تطور مصايرها منذ قيام ابن هود . عودها إلى طاعة الموحدين . استقلالها المحلى . اعترافها بطاعة الدولة الحفصية . سبتة تحذو حذوها . الأمير أبو زكريا يعين والياً لإشبيلية ويوجه رسالة إلى أهلها . سوء تصرف الحكام الإفريقيين . أهل إشبيلية يخرجونهم ويقتلون زعيمهم ابن الجد . ماذا وراء ثورة أهل إشبيلية . زعماء إشبيلية الجدد . إعلانهم إلغاء المعاهدة التى عقدت بين ابن الجد وملك قشتالة . مضمون هذه المعاهدة . غضب ملك قشتالة لمصرع ابن الجد . محاولة الزعماء تجديد المعاهدة مع فرناندو . رفض فرناندو واعتزامه فتح إشبيلية . منعة إشبيلية وظروفها الجغرافيه . فرناندو يعتزم أخذها بالحصار . مسيره إليها فى قواته . معاونة ابن الأحمر للنصارى . استيلاء فرناندو على قلعة جابر . عيث القوات القشتالية فى فحص الشرف وفحص شريش . تجهيز السفن للحصار . معاونة البابا فى المشروع . فرناندو يجهز قوات الغزو النهائى فى قرطبة . البدء بمهاجمة قرمونة . اشتراك جند ابن الأحمر فى ذلك . تطويق النصارى لقرمونة . عرض أهلها للتسليم . استيلاء فرناندو على لورة وقنطلانة . تسليم غليانة وجرينة . مهاجمته للقلعة . دفاعها ثم تسليمها . دور ابن الأحمر فى تسليم هذه المعاقل . مقدم أسطول الحصار . يرابط فى الوادى الكبير . ظروف إشبيلية الدفاعية واستعدادها للدفاع . قصور الرواية الإسلامية فى التعريف بزعماء إشبيلية ودروها الدفاعى . بداية الحصار . مهمة الأسطول النصرانى . اشتراك ابن الأحمر وجنده فى الحصار . إشبيلية تتلقى الأمداد من النهر ومن وادى الشرف . المعارك المستمرة بين الإشبيليين والنصارى . عيث النصارى فى ضواحيها . السفن المغربية تصارع السفن النصرانية وتحمى خط إمداد المدينة . محاولتها حرق السفن النصرانية . مقدم قوات الفرسان والأحبار والمدن النصرانية لتعزيز الحصار . صريخ أهل إشبيلية إلى أمراء المغرب . قصيدة ابن سهل الإشبيلى . قصيدة أبى موسى هرون . تحطيم النصارى لقنطرة طريانة . مهاجمة النصارى لطريانة . دفاع الحامية الإسلامية . محاصرة طريانة وفصلها عن إشبيلية . اشتداد محن الحصار على المدينة . وصف ابن عذارى لذلك . اجتماع الزعماء وبحث الموقف . عرض الزعماء التسليم الجزئى . رفض ملك قشتالة وإصراره على التسليم الشامل . المفاوضة فى التسليم وشروطه . إخلاء المسلمين للمدينة . تأمين

النصارى للمهاجرين . مسيرهم إلى العدوة ومختلف أنحاء الأندلس الباقية . عبور القائد شقاف وزملائه إلى سبتة . مصيرهم المؤسى . دخول فرناندو الثالث إشبيلية . تحويل الجامع الأعظم إلى كنيسة . تقسيم دور المسلمين بين الفاتحين . إشبيلية تغدو عاصمة قشتالة . تأملات عن سقوط إشبيلية . افتتاح القشتاليين لقواعد هذه المنطقة . خضوع ابن محفوظ صاحب لبلة . خضوع صاحب شريش . أحوال شريش بعد ذلك . سقوط قادس . القاضى ابن محفوظ ومدى رياسته . تفاهمه مع ملك قشتالة . نزوله عن بعض الحصون والأماكن . استيلاء البرتغاليين على ميرتلة وشلب وطبيرة وشنتمرية الغرب . خروج ابن محفوظ على ملك قشتالة ألفونسو العاشر . مسير ألفونسو إلى لبلة ومحاصرتها . مناعة لبلة وصمودها . إطلاق المسلمين منها آلات تشبه المدافع . تسليم لبلة . مصير ابن محفوظ . الخلاف بين البرتغال وقشتالة على بعض قواعد الغرب . فرناندو الثالث . إشادة الرواية النصرانية بعبقريته . يعتبر قاهر الأندلس الحقيق . البابا يسبغ عليه صفة القداسة .

— ١ —

فى نفس الوقت الذى كانت فيه قواعد الشرق ، تسقط تباعا فى أيدى الأرجونيين ، كان ملك قشتالة فرناندو الثالث ، منذ استولى على قرطبة عاصمة الخلافة القديمة فى شوال سنة ٦٣٣ هـ ، يتابع غزواته وفتوحه فى منطقة الأندلس الوسطى .

وكان محمد بن الأحمر أمير غرناطة ، يعمل خلال هذه الفترة على توطيد مركزه فى الأندلس الجنوبية ، وقد قوى أمره ، واشتد ساعده ، ونمت موارده ، باستيلائه على ألمرية ومالقة عقب وفاة ابن هود ، وغدا يبسط سلطانه على سائر المنطقة الممتدة من جنوبى الوادى الكبير حتى البحر ، ومن ألمرية غربا حتى رندة .

ولم ينس ابن الأحمر أمر المنطقة الشمالية التى بدأ منها ، والتى بها موطنه ومنشأ أسرته ، وهى منطقة جيان وأرجونة . وكان القشتاليون ، منذ استيلائهم على قرطبة ، قد عاثوا مراراً فى تلك المنطقة ، وخربوا ربوعها ، فلما شعر ابن الأحمر باشتداد ساعده وتكاثر جمعه ، اعتزم أن يسير لقتال القشتاليين ، وأن يعمل على تحرير تلك المنطقة من عيثهم ، فخرج من غرناطة فى قوة كبيرة ، وقصد إلى مرتش وهى بلدة حصينة تقع جنوب غربى جيان ، وكانت بيد القشتاليين ، وضرب حولها الحصار ، ( سنة ٦٣٦ هـ ) ، ولكن النصارى قدموا لإنجادها بسرعة ، واضطر ابن الأحمر أن يرفع الحصار . وهنا وقعت بينه وبين القشتاليين بقيادة دون ردريجو ألونسو ، وهو أخ غير شرعى لفرناندو الثالث ، معركة عنيفة هزم فيها القشتاليون هزيمة شديدة ، وقتل منهم وممن كان معهم من فرسان

شنت ياقب عدد جم . وكان لذلك الحادث أعمق وقع فى قشتالة . ومضى على ذلك نحو عامين أوثلاثة ، ثم نهض فرناندو الثالث لتدارك الموقف ، وخرج فى قواته قاصداً إلى الأندلس من ناحية أرجونة ، وهو يخرب تلك الأنحاء ، وينتسف زروعها . ثم سار جنوبا نحو جيان والقبذاق ، وكان يتوق للانتقام لهزيمة جنده فى مرتش ، فخرب أيضاً أراضى تلك المنطقة . ثم بعث جانبا من قواته لافتتاح أرجونة ، وهى موطن ابن الأحمر ومثوى أسرته ، فحاصرها القشتاليون مدى يومين ، وفى اليوم الثالث أشرف عليها فرناندو فى بقية جيشه ، فلما أيقن أهلها المسلمون أنه لا أمل لهم فى الصمود والإنجاد ، سلموها بالأمان وغادروها حاملين أمتعتهم وذخائرهم ، وبعث فرناندو قواته صوب الجنوب لتغزو فحص غرناطة ، فعاثت فى أنحائه وخربت كثيراً من ربوعه . ووقعت هذه الحوادث فى أواخر سنة ١٢٤٤ م ( أواسط سنة ٦٤٢ هـ ) ثم قصد فرناندو بعد ذلك إلى قرطبة فاستراح بها حتى أوائل العام التالى .

وكان أهم هدف لملك قشتالة فى تلك المنطقة ، هو الاستيلاء على مدينة جيان عاصمتها التالدة ، وأمنع قواعدها ، وكان قد حاصرها قبل ذلك فى سنة ١٢٣٠م ( ٦٢٧ هـ ) ولكنه أخفق فى الاستيلاء عليها ، وكان ابن الأحمر قد اتخذها مقرا لرياسته فى مبدأ أمره . وكانت جيان مدينة عظيمة ، حسنة التخطيط والبناء ، ذات صروح وآثار جميلة ، وكانت تتمتع بمناعة فائقة ، سواء بأسوارها العالية ، أو بقلعتها الحصينة الشامخة ، التى مازالت أطلالها القائمة تنبىء بحصانتها القديمة ، كما أنها بموقعها الطبيعى فى منطقة من البسائط الخضراء اليانعة ، كانت من أغنى قواعد الأندلس الوسطى وأكثرها رخاء[1] . وكان الاستيلاء عليها يحقق للقشتاليين بسط سلطانهم على سائر أنحاء تلك المنطقة الغنية الخصبة . ومن ثم فقد عول فرناندو على افتتاحها ، ولم يك ثمة سبيل آخر لتحقيق هـذه الغاية سوى محاصرة هذه المدينة الكبيرة الغنية ، حتى يرغمها الجوع على التسليم .

وفى أواخر سنة ٦٤٢هـ ( أوائل سنة ١٢٤٥ م ) ، أشرف فرناندو الثالث بقواته على مدينة جيان ، وضرب حولها الحصار . ولم يكن هذا الحصار أمراً هيناً لوقوعه فى قلب الشتاء ، وكان اشتداد البرد وهطل الأمطار ، يضاعف متاعب الجند المحاصرين ، واستمر الحصار على هذا النحو شهراً ، وجيان صامدة ، وقد

---

( ١ ) الروض المعطار ص ٧٠ و٧١ .

خرج أهلها غير مرة لمقاتلة القشتاليين ففتكوا بهم وقتلوا وجرحوا الكثير منهم . بيد أن المدينة المحصورة كانت من جهة أخرى تعانى من الحرمان والجوع . وكان واليها أبو عمر على بن موسى ، حينما شعر بتحركات القشتاليين ومراميهم ، قد أرسل قبل الحصار إلى ابن الأحمر يستغيث به ، ويطلب إنجاده بالمؤن ، لكى تستطيع المدينة مقاومة النصارى ، فبعث إليه ابن الأحمر بقافلة كبيرة من المؤن استطاعت أن تجتنب القشتاليين ، وأن تصل إلى المدينة ، فلما طال الحصار نفدت الأقوات ، وأخذ الموقف يتحرج ، ومع ذلك فقد لبثت المدينة على صمودها .

وكان ابن الأحمر خلال ذلك يرقب الحوادث بمنتهى الجزع ، وكانت غزوات القشتاليين قد وصلت غير مرة ، إلى فحص غرناطة ، وإلى غرناطة ذاتها ، وشعر ابن الأحمر أنه لابد أن يلتمس الوسيلة لتأمين سلطانه ، واجتناب عادية القشتاليين ، ولم يك ثمة وسيلة أنجع من التفاهم مع ملك قشتالة ، والحصول على مهادنته . ومن جهة أخرى فقد أدرك ابن الأحمر ، أنه لاسبيل إلى إنجاد جيان ، أو اجتناب مصيرها المحتوم ، وأنه يحسن تدارك الموقف ، قبل أن تسقط المدينة فى أيدى القشتاليين ، أو يقومون باقتحامها وتخريبها . ومن ثم فقد بدأ بن الأحمر بمفاوضة ملك قشتالة ؛ وكان فرناندو الثالث يصر على أن يكون أساس التفاهم مبدأ واحداً لاسبيل إلى تغييره ، هو وجوب خضوع ابن الأحمر لسيادته ، والاعتراف بطاعته . ولم ير ابن الأحمر محيصاً عن قبول هذا الشرط المؤلم ، فسار بنفسه إلى المعسكر القشتالى تحت أسوار مدينة جيان ، وقدم طاعته إلى ملك قشتالة . وعقدت بين الملكين معاهدة سلام وتحالف ، خلاصتها أن تسلم مدينة جيان وأعمالها فى الحال إلى ملك قشتالة ، وأن يحكم ابن الأحمر مملكة غرناطة وسائر أراضيها ، باعتباره تابعا لملك قشتالة ، بكل ما يستتبعه هذا الاعتراف من فروض ، ومنها أن يتعاون ابن الأحمر مع قشتالة فى الحرب وفى السلم ، وأن يشهد اجتماع الكورتيس ( مجلس قشتالة النيابى ) ، وأخيراً أن يؤدى ابن الأحمر إلى ملك قشتالة جزية قدرها مائة وخمسون ألف مراقيدى تؤدى خلال عشرين عاما ، وهى المدة التى اتفق أن يعقد خلالها السلم والتهادن بين الفريقين . وتم عقد هذه المعاهدة فى أوائل سنة ١٢٤٦ م ( أواخر سنة ٦٤٣ هـ )[١] .

وعلى أثر ذلك دخل القشتاليون مدينة جيان العظيمة ، وحول مسجدها الجامع

---

(١) J. Gonzalez : Las Conqnistas de Fernando III en Andalucia, p. 94 & 95

فى الحال إلى كنيسة ، وغادرها معظم أهلها المسلمين ، وتفرقوا فى قواعد الأندلس الجنوبية . ولما تم احتلال الجند النصارى للمدينة، دخلها ملك قشتالة ، فى موكب فخم ، وشهد القداس الذى أقيم فى جامعها ابتهاجاً بالنصر ، ووزع دور المدينة على أكابر الفرسان ، ومعظمهم من جماعة فرسان شنت ياقب ، وجماعة فرسان قلعة رباح .

وكانت جيان من مراكز العلوم والآداب بالأندلس ، وإليها ينتسب عدد كبير من العلماء والأدباء ، ومنهم الحافظ أبوعلى الجيانى ، والفقيه أبوذر مصعب ابن محمد بن مسعود الخشنى . ومما أنشده بعض أهل جيان عند الخروج منها هذان البيتان :

أودعكم أودعكم جيّانى  وأنثر عبرتى نثر الجمان
وانى لا أريد لكم فراقا  ولكن هكذا حكم الزمان(١)

ونزل ابن الأحمر للقشتاليين ، عدا جيان ، عن أرجونة بلده ومثوى أسرته ، وعن بركونة وبيغ والحجار ، وكذلك نزل إليهم عن أرض الفرنتيرة لعجزه عن الاحتفاظ بها(٢) . وهكذا اشترى ابن الأحمر سلامته ، وسلامة مملكته وأراضيه بهذا الثمن الفادح ، وارتضى بالأخص أن يضحى باستقلاله السياسى وهيبته الملوكية إلى حين ، وذلك لكى يأمن شر عدوان خصمه القوى القاهر ، ولكى يتفرغ إلى تنظيم مملكته وإلى توطيد سلطانه الداخلى(٣).

— ٢ —

كان من الواضح ، فى تلك الآونة ، بعد أن توالى سقوط قواعد الأندلس الكبرى ، الشرقية والوسطى : قرطبة وبلنسية وشاطبة ، ودانية ، وبياسة ، وأبدة وجيان ، وكثير غيرها ، وذلك كله فى فترة قصيرة لاتعدوعشرة أعوام ، أن الأندلس الكبرى قد انهارت دعائمها ، وتحطمت منعتها ، وقواها الدفاعية ،وأنه باستثناء القواعد الجنوبية التى اجتمعت فى ظل مملكة غرناطة ، والتى يسيطر عليها

---

(١) الروض المعطار ص ٧٢ .

(٢) أرجونة بالإسبانية **Arjona** ، وبركونة **Porcuna** ، وبيغ أوبيغو **Priego** ، والحجار هى **Higuéra** ، وكلها تقع فى منطقة جيان .

(٣) راجع ابن خلدون ج ٧ ص ١٩٠ ، والذخيرة السنية ص ٧٢ ، وابن الخطيب فى اللمحة البدرية ص ٣٦ ، وفى الإحاطة المطبوع ج ٢ ص ٦٥ .

ابن الأحمر ، لم يبق من قواعدها الكبرى دون فتح ، سوى مدينة إشبيلية العظيمة وأحوازها ، والقواعد القريبة منها فى الشرق والغرب والجنوب .

كانت إشبيلية بعد قرطبة ، هى التى تجذب عندئذ أنظار ملك قشتالة ، وأنظار الأحبار وجماعات الفرسان النصارى ، وهم الذين كانوا يفوزون من غنائم المدن المفتوحة ، بأعظم قسط . ولكن إشبيلية لم تكن هدفاً سهل المنال ، ولم تكن مثل قرطبة مجردة من وسائل الدفاع ، وكانت خطوطها الدفاعية الأمامية ، ماتزال تدعمها طائفة من القواعد والحصون القوية ، التى كان لابد من إخضاعها قبل الإقدام على منازلة إشبيلية ذاتها .

وكانت إشبيلية مذ عمت الفتنة أرجاء الأندلس، وتوالت الثورة ضد الموحدين فى مختلف القواعد ، تتولى مصايرها بنفسها، وترسم لنفسها خطة قيادتها وحكمها. وكانت باعتبارها أعظم حواضر الأندلس فى ذلك العصر ، وباعتبارها مركز الحكم الموحدى بالأندلس ، تتخذ مركز القيادة فى تصرفاتها واتجاهاتها ، وقد لبثت تحتفظ بهذه الصفة ، حتى قيام أبى العلى المأمون بها ، واتخاذه لقب الخلافة ، وذلك فى سنة ٦٢٤هـ ، ثم مغادرته لها ليعبر إلى العدوة، وذلك فى أواخر سنة ٦٢٦هـ ( أواخر سنة ١٢٢٨ م ) .

ولما قام ابن هود بثورته فى شرقى الأندلس ، وبزغ نجمه ، وأطاعته معظم القواعد الشرقية والوسطى ، خلعت إشبيلية طاعة الموحدين ، ونادت بطاعته ، وولى عليها أخاه عماد الدولة . ولكن أهل إشبيلية لم يلبثوا طويلا على طاعته ، فنكثوا ببيعته ، وأخرجوا أخاه من المدينة ، والتفوا حول قاضيهم ابن مروان الباجى ، وذلك فى سنة ٦٢٩هـ . ولما قوى أمر ابن الأحمر أمير جيان يومئذ فى المنطقة الوسطى ، واشتدت المنافسة بينه وبين ابن هود ، تفاهم ابن الأحمر مع الباجى ، وتحالف الإثنان على قتال ابن هود ، وهزماه على مقربة من إشبيلية ( ٦٣١ هـ ) ، ودخل ابن الأحمر إشبيلية ، وغدر بحليفه الباجى ، ودس عليه من قتله ، فثار به أهل إشبيلية ، وأخرجوه منها ، ونادوا بطاعة ابن هود مرة أخرى .

ولما توفى ابن هود فى أوائل سنة ٦٣٥ هـ ، وانهارت بوفاته دعوته فى معظم القواعد ، رأى أهل إشبيلية أن يعودوا إلى طاعة الدولة الموحدية . وكان زعيمهم عندئذ الفقيه أبو عمرو بن الجد ، وهو حفيد الحافظ الشهير أبى بكر بن الجد، وبعث أهل إشبيلية بدعوتهم وفداً إلى الخليفة الرشيد بمراكش ، وقدموا للولاية عليهم

السيد أبا عبد الله بن السيد أبى عمران ، وأقره الرشيد فى منصبه ، وهكذا عادت الحاضرة الأندلسية الكبرى إلى الانضواء تحت لواء الخلافة الموحدية .

على أن هذا العود إلى طاعة الخليفة الموحدى لم يكن سوى مسألة شكلية فقط ، وكان حكم المدينة الفعلى باقيا بيد زعيمها القوى ابن الجد . وكانت إشبيلية فى الواقع منذ اضطرب أمر الموحدين ، وعمت الفتنة أرجاء الأندلس ، تتمتع فى إدارة شئونها بنوع من الإستقلال المحلى ، وذلك بالرغم من انضوائها تحت لواء هذا الأمير أوذاك . ثم ان هذا العود لم يطل أمده ، ذلك أن أحوال الخلافة الموحدية وماكان يضطرم حول عرش مراكش من الخلافات والحروب ، كان نذيراً بانحلال الدولة الموحدية وتضعضع قواها ، وعجزها عن أن تنجد الأندلس وقت الخطر الداهم . ومن جهة أخرى ، فقدكانت الدولة الحفصية التى قامت بإفريقية على أنقاض سلطان الدولة الموحدية ، وأخذ نجمها يبزغ فى الأفق ، تبدو بما تتمتع به من القوى والموارد والفتوة ، ملاذاً أفضل وأقدرعلى تأدية رسالة المغرب القديمة فى إنجاد شبه الجزيرة ، وكانت مبادرة أميرها أبى زكريا الحفصى إلى إنجاد بلنسية ، حينما دهمها النصارى استجابة لصريخ أميرها أبى جميل زيان سنة ٦٣٦ﻫ ، ماتزال بالرغم من إخفاقها فى تحقيق الغاية المنشودة ، مثلا يضرب فى الشهامة والوفاء ، والجهاد فى سبيل الله . ومن ثم فقد انتهى أهل إشبيلية بتوجيه زعيمهم أبى عمرو ابن الجد ، إلى خلع طاعة الخلافة الموحدية ، والاتجاه إلى الدولة الحفصية ، وإعلان بيعتها . وكان لهم فى ذلك أسوة ، بما قام به ابن الأحمر نفسه فى بداية أمره ، وما قام به أبو جميل زيان أمير بلنسية ، من مبايعة الدولة الحفصية والانضواء تحت لوائها .

وعقد أهل إشبيلية بيعتهم للأمير أبى زكريا يحيى الحفصى فى سنة ٦٤٣ ﻫ ( ١٢٤٥ م ) ، وبعثوا بها إلى تونس مع وفد من كبرائهم . وفى نفس هذا العام أعلن أبو على بن خلاص صاحب سبتة بيعته أيضاً إلى الأمير أبى زكريا ، وبعث بها مصحوبة بهدية إلى الأمير مع ولده فى سفينة خاصة ، فغرقت باليم بمن فيها . ولما وصل وفد إشبيلية إلى تونس ، وعلم بأمر بيعة سبتة ، استقبل الأمير أبوزكريا البيعتين بمنتهى الارتياح ، وندب للولاية على سبتة ابن الشهيد الهنتاتى ، وعلى أشغالها ابن أبى خالد البلنسى ، وندب لولاية إشبيلية ابن أخيه أبا فارس عبد العزيز ابن الشيخ أبى حفص اكى يستقر فى قصبتها ، ويشرف على شئونها إلى جانب

ابن الجد[1] ووجه الأمير إلى أهل إشبيلية بتاريخ العاشر من محرم سنة ٦٤٦ هـ رسالة ، يعرب فيها عن اغتباطه ببيعتهم ، ويعدهم بأن يمهد لهم سبل إصلاح شئونهم ، وتوفير أمنهم وسلامتهم ، والبدار إلى إنجادهم عند النوائب والخطوب ، وأن يثقوا بنصر الله وإمداده[2] .

وعاد وفد إشبيلية بعد إتمام مهمته ، فى تقديم البيعة للأمير الحفصى ، وصحبهم الوالى وبعض رجاله والقائم بالأعمال ، ووصلوا فى جملة من السفن إلى إشبيلية ، وهنالك قام أولئك النفر من أهل إفريقية بارتكاب ضروب من الفساد والأمور الشنيعة « التى لايمكن ذكرها » . فأخرجهم أهل إشبيلية من مدينتهم ، وقتلوا ابن الجد ، إذ كان هو السبب فيما حدث ، وأدى إلى مقدم هؤلاء القوم المفسدين . وتزيد الرواية على ذلك ، أن مقتل ابن الجد كان سببا فى زحف النصارى على إشبيلية وحصارهم لها ، إذ كان ملك قشتالة مصادقا لابن الجد « ومصالحا له على المسلمين » فلما قتل فسد هذا الصلح ، وقام النصارى بحصارهم[3] .

على أن ذلك لم يكن وحده سبباً فى قيام الثورة التى أودت برياسة ابن الجد وحياته ، ذلك أنه كان لابن الجد خصوم ومنافسون أقوياء ، وكان من أخطاء ابن الجد ، أنه طرد أولئك الخصوم من ديوان الحكم ، وأخرج بعضهم من قيادة الجيش ، فنظمت المؤامرة ، وقامت الثورة . وكان أبرز زعمائها القائد شقاف وهو الذى تسميه الرواية الإسلامية « بقائد الفحص شقّاف »[4] وتسميه الرواية النصرانية Axataf . وفى الحال تولى الزعماء الجدد الرياسة ، وأعلنوا بطلان المعاهدة التى عقدها ابن الجد مع النصارى ، وجددوا الدعوة إلى طاعة أمير إفريقية الحفصى ، وانضواء إشبيلية تحت لوائه[5] .

— ٣ —

وأما حقيقة هذه العلاقات التى كانت قائمة بين ابن الجد وبين فرناندو الثالث ملك قشتالة ، والتى كانت كفيلة بقيام التهادن بينه وبين النصارى ، وتأمين سلام

---

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٣٧٥ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٧١ .
(٢) راجع نص هذه الرسالة فى البيان المغرب ص ٣٧٩ و ٣٨٠ .
(٣) البيان المغرب ص ٣٨١ .
(٤) البيان المغرب ص ٤٠٠ .
(٥) ابن خلدون ج ٤ ص ١٧١ ، وكذلك : **Is. de las Cagicas : Sevilla Almohade y ultimo Anos de su Vida Musulmana (Madrid 1951) p. 30**

إشبيلية ، فردها إلى معاهدة كانت قد عقدت بين ابن الجد باعتباره صاحب إشبيلية أو أميرها ، وبين ملك قشتالة ، على نمط المعاهدة التى عقدت بين هذا الملك وبين ابن الأحمر ، وخلاصتها أن يعترف بطاعة ملك قشتالة ، وأن يؤدى إليه الجزية . وأن يشهد اجتماعات « الكورتيس » باعتباره من أتباعه ، وأن يقدم إليه العون متى طلب إليه ذلك . وربما كانت تتضمن فوق ذلك، تعهده بتسليم بعض المواقع والحصون فى منطقة إشبيلية . وقد رأينا فيما تقدم أنه لم يكن يكفل سكون ملك قشتالة المؤقت ، ومسالمة الزعماء المسلمين سوى هذه العهود وأمثالها . فلما قتل ابن الجد ، وانقلب أهل إشبيلية إلى مخاصمة النصارى ؛ غضب ملك قشتالة لما حدث ، وأبدى امتعاضه لمقتل صديقه ابن الجد[1]. وكان زعماء إشبيلية الجدد ، قد أدركوا غير بعيد ، ماقد يؤدى إليه مخاصمة النصارى من سيئ العواقب ، فحاولوا السعى فى تجديد الهدنة مع ملك قشتالة ، ولكن فرناندو الثالث لم يرد أن يعقد التفاهم مع زعماء إشبيلية الجدد ، وبالعكس فقد كان يرى أن يتخذ مصرع ابن الجد ذريعة للتدخل والانتقام ، وأن هذا هو الطريق المفضل عندئذ للتصرف والعمل ، وأن الوقت حان لكى ينهض إلى افتتاح إشبيلية ؛ خصوصاً وقد أصبحت الحاضرة الأندلسية العظيمة ،معزولة ، لاتستطيع أن تعتمد على أية معاونة عاجلة ، لامن ملك غرناطة ، وقد خضع لملك قشتالة ، ولامن الموحدين، وقد نكثت إشبيلية ببيعتهم غير مرة ، ولامن أمير إفريقية ، بعد الذى حدث نحو عماله . وهكذا استقر الأمر على غزو إشبيلية وانتهى السلم الذى كان معقوداً بينها وبين القشتاليين[2] .

على أن افتتاح إشبيلية كبرى حواضر الأندلس ، وهى أزخرها سكاناً ، وأمنعها جانبا ، وأكثرها حصوناً وقلاعاً ، كان يقتضى أهبات خاصة . ومن جهة أخرى ، فإن أخذها بالحصار ، لم يكن أمراً ميسوراً ، إذ كانت تقع فى منطقة كثيرة الخصب والنماء ، وكان اتصالها بالبحر عن طريق نهر الوادى الكبير ، يمكنها من تلقى الأمداد والمؤن من عدوة المغرب . ومن ثم فإنه كان من الواجب إذا استقر الأمر على أخذها بالحصار ، أن تخضع أولا سائر حصونها الأمامية من سائر النواحى، وثانيا أن تخرب سائر بسائطها الخضراء التى تمدها بالمحاصيل

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٧١ .
(٢) J. Gonzalez : ibid; p. 100 & 101

والمؤن ، وثالثا أن تحكم محاصرتها من ناحية البحر بالسفن حتى لايتسرب إليها شيء من الأمداد من وراء البحر .

وقد انتهى ملك قشتالة ، بعد التشاور مع أكابر قادته وفرسانه ، بأن قرر أن يلتجيء إلى وسيلة الحصار لإخضاع الحاضرة الأندلسية الكبرى ، وأن يسير سفنه من الثغور الشمالية إلى مصب الوادى الكبير ، ليحول دون تلقى المسلمين لأية أمداد أومؤن تأتى من عدوة المغرب .

وفى خريف سنة ١٢٤٦ م ( أوائل سنة ٦٤٤ هـ ) حشد ملك قشتالة بعض قواته ، ولاسيما من فرسان شنت ياقب وفرسان قلعة رباح ، وجيش قرطبة ، وسار فى قواته صوب إشبيلية ، وعبر الوادى الكبير تجاه قرمونة ، وأخذ ينتسف زروع هذه المنطقة ويخرب ضياعها ، ويأسر من يلقى من المسلمين . وهنالك على مقربة من قرمونة ، وافاه ابن الأحمر حليفه وتابعه فى قوة قوامها خمسمائة فارس ، مقدماً عونه وفقاً لعهوده . وسارت القوات المشتركة جنوبا نحو قلعة جابر[1] حصن إشبيلية من الجنوب الشرقى ، وانتهى ابن الأحمر باقناع حاميتها الإسلامية بتسليمها حقنا للدماء ، وصونا للأموال والأرزاق ، وتسلم فرناندو الثالث القلعة ، ووضع بها حامية نصرانية ، وأخذ النصارى فى إصلاحها وتحصينها[2] . وبعث فرناندو بعد ذلك بعض قواته بقيادة أخيه دون ألفونسو وبلاى كوريا أستاذ فرسان شنت ياقب ، لكى تعبر الوادى الكبير غربا ، وتقوم بتخريب فحص الشرف الممتد أمام إشبيلية ، وبعث حملة مشتركة من قوات غرناطة وقشتالة وفرسان قلعة رباح ، لتسير جنوبا ، ولتقوم بتخريب فحص شريش . وفى الوقت الذى كانت تقوم فيه هاتان الحملتان كل بمهمتها ، ورد على ملك قشتالة نبأ وفاة والدته ، فأمر باختتام الغزو ، وصرف ملك غرناطة ، فى قواته ، وسار إلى قرطبة ومنها إلى جيان ، وهنالك قضى جانبا من الشتاء .

وكانت هذه أول مرحلة فى افتتاح إشبيلية . وفى أثناء ذلك كان أمير البحر رامون بونيفاس ، قد حشد فى ثغور كنتبريا أسطولا قويا ، وشحنه بالبحارة والجند والمؤن . وحصل فرناندو من البابا على قرار بأن تخصص الكنيسة القشتالية والليونية ثلث إيراداتها للمساهمة فى نفقات الحرب . ولما تمت هذه الأهبة سار

---

( ١ ) وهى بالإسبانية Alcalà de Guadaira .

( ٢ ) راجع الذخيرة السنية ص ٧٢ و٧٣ .

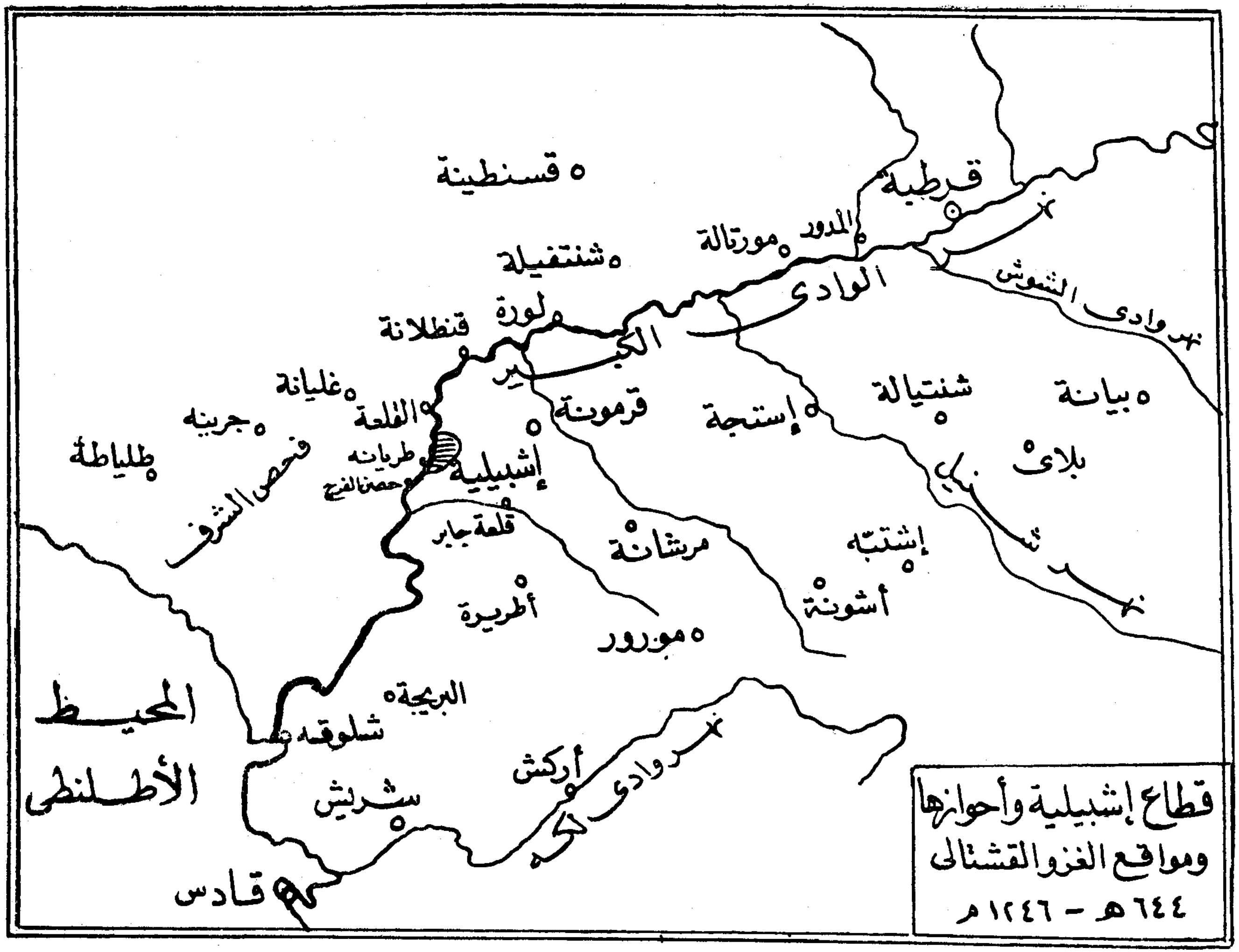


قطاع إشبيلية وأحوازها
ومواقع الغزو القشتالى
٦٤٤هـ - ١٢٤٦م

فرناندو إلى قرطبة ، وهى التى اتخذها مركزاً لتجهيز الحملة ( صيف سنة ١٢٤٧م) وهنالك احتشدت قوات جماعات الفرسان الدينية ، وقوات ليون وبطليوس وغيرها ، وسير فرناندو بعض قواته إلى قرمونة ، وهى أمنع حصون إشبيلية الأمامية من ناحية الشمال الشرقى ، فخربت سائر البسائط المحيطة بها ، ثم لحقت بها بعد ذلك قوات أخرى من مختلف ولايات قشتالة ، وتزيد الرواية النصرانية على ذلك أن قوات غرناطة ، كانت ضمن الحشود الوافدة على قرمونة ، وهو ما يعنى اشتراك ابن الأحمر فى جيش الغزو القشتالى لإشبيلية[1] . والواقع أن الرواية الإسلامية حسبما نرى بعد ، تؤيد وجود ابن الأحمر وجنده ، تحت أسوار إشبيلية إلى جانب القوات القشتالية المحاصرة[2]. وطوق النصارى قرمونة بحشود ضخمة ، فلما رأى أهل قرمونة ضخامة هذه الحشود ، وأيقنوا بعبث الدفاع ، عرضوا تسليم المدينة بعد ستة أشهر ، إذا لم تصلهم خلالها نجدة ما ، فقبل ملك قشتالة هذا العرض ، ثم سار فى قواته صوب إشبيلية من طريق شمالية بحذاء الوادى الكبير ، واستولى فى طريقه على لورة بالأمان ، واعترف أهلها بطاعته ، ثم سار بعد ذلك إلى قنطلانة ، الواقعة شمالى إشبيلية على الوادى الكبير ، وهاجمها ، واقتحمها عنوة ، وأسر منها سبعمائة مسلم ، وقصد بعد ذلك إلى غليانة ، فسلم أهلها اعتباراً بما حدث لقنطلانة ، وكذلك سلمت جرينة القريبة منها ، وبعث فرناندو بعد ذلك قوه إلى بلدة القلعة الحصينة الواقعة على الوادى الكبير[3]، على مقربة من شمالى إشبيلية ، فصمدت حاميتها وصممت على المقاومة . وكان أهل إشبيلية قد شحنوها بالجند والمؤن تقديراً لأهميتها فى الدفاع عن المدينة . واضطر فرناندو أن يحاصرها ، وضربها القشتاليون بالآلات ، وخرجت حاميتها غير مرة لتشتبك مع النصارى فى معارك عنيفة ، وقام النصارى بتخريب سائر ما حولها من الكروم والزروع ، وأخيراً رأى قائد الحصن أبوالحسن بن أبى على حاكم قرمونة السابق ، أنه من العبث أن يستمر فى الدفاع على هذا النحو ، فاتفق مع ملك قشتالة على أن ينسحب فى جنده ، وهم ثلاثمائة فارس إلى إشبيلية ، وأن

(١) Crónica General (Ed. Pidal) V. II. p. 749 .

(٢) ابن خلدون ج ٧ ص ١٩٠ .

(٣) قنطلانة هى بالإسبانية Cantillana ، وغليانه Guillena ، وجرينة هى Gerena ، والقلعة أو قلعة النهر هى Alcalá del Rio .

تسلم المدينة بالأمان ، وفقاً لأفضل الشروط الممكنة ، وهكذا سقطت القلعة ، وبسقوطها أصبحت سائر الحصون الأمامية لإشبيلية من جهة الشرق والشمال ، والغرب كلها فى أيدى القشتاليين[1] .

ونستطيع أن نتصور الدور الذى قام به ابن الأحمر ملك غرناطة فى معاونة ملك قشتالة على إخضاع هذه المجموعة الكبيرة من البلاد والحصون الهامة ، منذ قرمونة حتى القلعة ، وذلك بإقناع أهلها والمدافعين عنها بالتسليم بالأمان ، وإقناع ملك قشتالة من جهة أخرى بالتساهل فى شروط التسليم ، على أن دور الزعيم المسلم لم يقف عند هذا الحد ، بل تعداه كما سنرى إلى معاونة النصارى ومؤازرة جهودهم ضد المسلمين ، بطريقة إيجابية فعالة .

— ٤ —

وهنا وبعد أن جردت إشبيلية من سائر حصونها الأمامية وخطوطها الدفاعية الأولى ، يأتى دور المرحلة الأخير فى افتتاح الحاضرة الأندلسية الكبرى ، ولم تكن هذه المرحلة سوى محاصرتها وإرهاقها ، حتى ترغم على التسليم .

وبدأ التمهيد للحصار بمقدم الأسطول النصرانى بقيادة رامون بونيفاس ، وكان يتألف من ثلاث عشرة سفينة كبيرة وعدة أخرى صغيرة ، مشحونة بالرجال والمؤن ، ودخوله إلى مياه مصب الوادى الكبير ، وتخصيص قوة برية لمؤازرته على إحكام حصار المدينة من ناحية البحر ، وثانيا على رد أية قوات تأتى لمناجزته ، سواء من طنجة أوسبتة أو إشبيلية .

وغادر فرناندو بلدة القلعة فى قواته جنوبا إلى إشبيلية ، وذلك فى الخامس عشر من أغسطس سنة ١٢٤٧ ، وأخذ يضع خطته لتنظيم الحصار . ولم يكن حصار إشبيلية أمراً سهلا ، وكان لابد لتحقيقه من تعاون سائر القوات البرية والبحرية ، ومن جهة أخرى فقد كان من الضرورى أن يعمل حساب لهجات المسلمين على مختلف القوات النصرانية ، وقد كانت إشبيلية تموج بقوات مدافعة زاخرة حسنة الأهبة ، وكانت مشحونة بكميات وافرة من الطعام توقعاً لحدوث هذا الحصار ، وكان من حسن الحظ أن استطاع أهل المدينة أن يجمعوا محاصيل فحص الشرف قبل مقدم النصارى . وكانت مهمة القشتاليين فى المرابطة على ضفة الوادى الكبير ،

---

(١) وردت سائر هذه التفاصيل فى موسوعة Crònica General; V. II. p. 749 & 750 وراجع أيضاً : J. Gonzalez : ibid; p. 104—106 .

لحماية أسطولهم من الهجمات الفجائية من الأمور الشاقة ، إذ كانت حامية حصن الفرج الإسلامية ، وهو حصن إشبيلية الجنوبى الواقع على النهر ، تهدد القوات القشتالية المرابطة على النهر باستمرار ، وفضلا عن ذلك فقد كان طريق الشرف مفتوحا أمام ابن محفوظ صاحب لبلة ، وكان بوسعه أن يفاجىء القشتاليين فى أية لحظة .

وفى الوقت الذى كان فيه ملك قشتالة يمهد لتنفيذ خطته فى حصار إشبيلية ، كان أهل إشبيلية من جانبهم يستعدون للذود عن مدينتهم بكل ماوسعوا . وقد سجل لنا التاريخ ، ولاسيما عن طريق الرواية النصرانية ، عن دفاع أهل إشبيلية، صحفاً رائعة من البسالة والتضحية . ولكن الرواية الإسلامية ، لاتقدم إلينا مع الأسف تفاصيل شافية عن هذا الدفاع . بل هى لاتذكر لنا سوى القليل عن الزعماء الذين قادوا هذه المعركة الدفاعية المجيدة، التى استطالت خمسة عشر شهراً . فهى لاتعرفنا بشىء عن القائد شقّاف وزملائه، يحيى بن خلدون ، وابن شعيب، ومسعود بن خيار ، وهم زعماء إشبيلية ، الذين ألقى القدر عليهم تبعة السهر على مصايرها ، فى تلك الفترة الدقيقة، وكل ما هنالك أنها تحدثنا عن شقاف فى كلمة عابرة ، وتصفه « بقائد الفحص شقاف المشهور ، الذى كان السبب مع قضاء الله تعالى فى دخول النصارى مدينة إشبيلية »[1] .وتحدثنا الرواية النصرانية عن زعماء إشبيلية وقت حصارها ، فتذكر منهم شقاف وهو لديها Axataf ، وتسميه أحيانا أبو الحسن الشقاف ، والرئيس ابن شعيب[2] . وإذا فلابد لنا أن نعتمد فى استقاء تفاصيل الأحداث التى اقترنت بمصير إشبيلة الأخير ، وكذلك أعمال الزعماء الذين قادوها عندئذ ، بالأخص على أقوال الرواية النصرانية .

وبدأ حصار إشبيلية فى النصف الثانى من أغسطس سنة ١٢٤٧ م ( جمادى الأولى سنة ٦٤٥ هـ ) ، وتقاسمت الكتائب القشتالية والليونية والجليقية ، وغيرها من القوات النصرانية ، مناطق الحصار ، وضرب فرناندو الثالث محلته جنوبا على ضفة نهر الوادى الكبير ، قريباً من سفن الأسطول النصرانى ، ولكنه اضطر إزاء هجمات المسلمين العنيفة ، أن ينقل محلته إلى مكان قريب يسمى « بتلاطة » . واحتل الأسطول النصرانى مياه مصب الوادى الكبير ، وكانت مهمته

---

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ٤٠٠ .

(٢) Crónica General ; No. 1077, 1122 & 1123 ; - M. Lafuente : Historia General de Espana ; T. IV.p.59

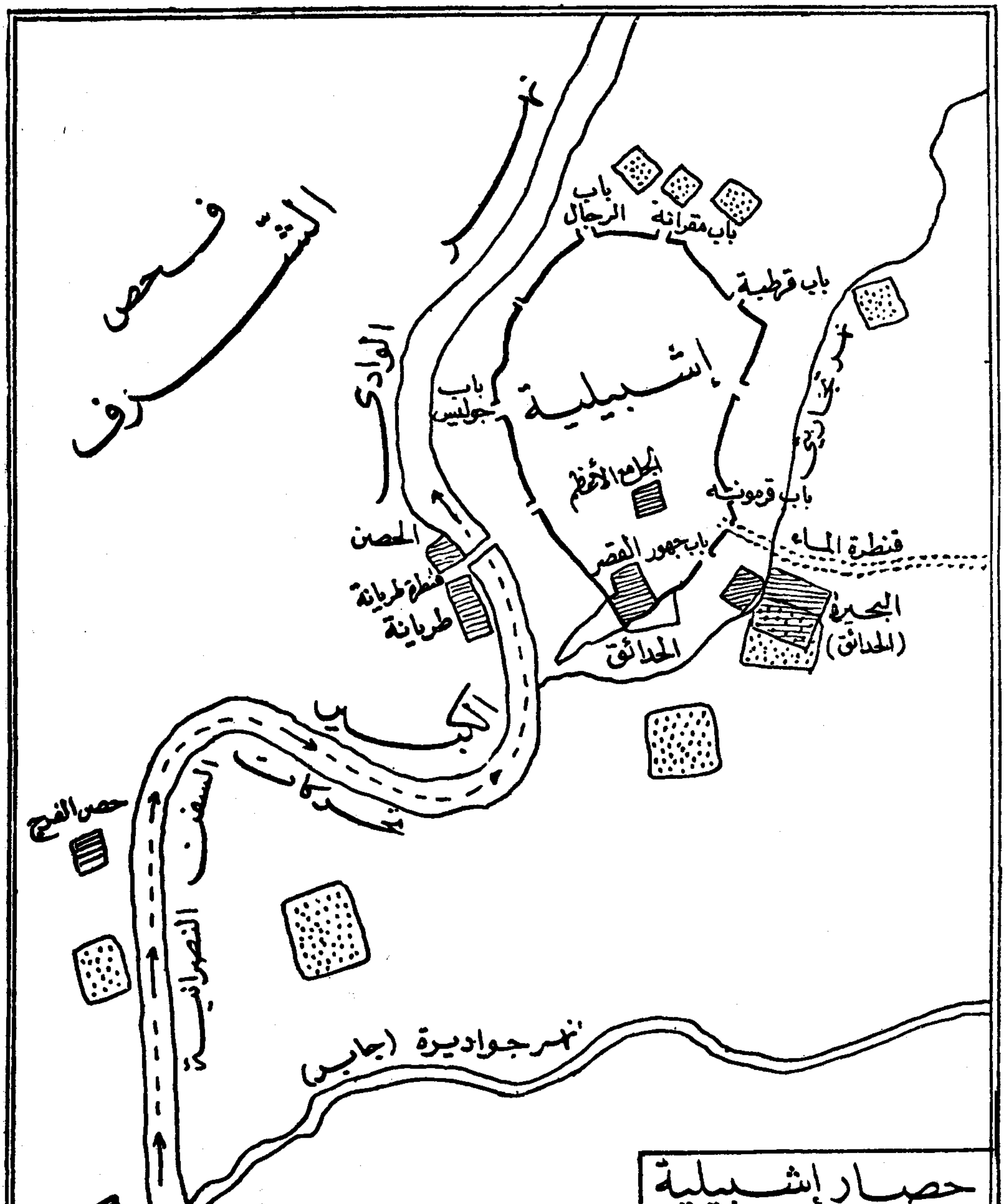
فحص الشرف
نهر الوادي الكبير
إشبيلية
باب مقرانة
باب الرجال
باب قرطبة
باب جوليس
الجامع الأعظم
باب قرمونة
قنطرة الماء
باب جهور القصر
الحصن
قنطرة طريانة
طريانة
الحدائق
البحيرة (الحدائق)
حصن الفرج
السفن النصرانية
نهر جواديرة
حصار إشبيلية
٦٤٥-٦٤٧ هـ = ١٢٤٧-١٢٤٨ م
محلات الجيوش النصرانية المحاصرة

الأولى هي أن يمنع ورود الأمداد والمؤن على المدينة من طريق البحر . ولم يأت يوم ٢٠ أغسطس ، حتى كانت إشبيلية قد طوقت من كل ناحية ، سواء من البر أو البحر . وكان من الأحداث المؤلمة التي تنفطر لها النفس ، وجود ابن الأحمر أمير غرناطة على رأس قوة من فرسانه ، إلى جانب القوات النصرانية المحاصرة ، وذلك وفاء بتعهداته لملك قشتالة ، وكان يرابط بقواته إلى جانب فرسان شنت ياقب جنوبى حصن الفرج ، وهكذا كان هذا الأمير المسلم يشترك مع أعداء أمته ودينه فى تطويق الحاضرة الإسلامية ، ومحاولة افتتاحها ، وتشريد أهلها وسحق دعوة الإسلام بها . ويفسر لنا ابن خلدون هذا التصرف المشين من جانب الأمير المسلم ، بأن ابن الأحمر كان يرمى بمعاونة النصارى على هذا النحو ، إلى الانتقام من أهل إشبيلية ، لأنهم خذلوه ونكلوا عن طاعته ، وأخرجوه من المدينة[1] . على أن ذلك لم يكن يعنى أن المدينة ، قد قطعت سائر علائقها الخارجية أو أنها عدمت وسائل الاتصال ، ولا سيما مع عدوة المغرب . فمن الحقائق التى تسجلها الرواية النصرانية أنه فى الوقت الذى يرابط فيه الأسطول النصرانى فى مياه الوادى الكبير ، كان يوجد فى نفس المياه عدد من السفن الإسلامية ، ومعظمها فى الغالب سفن مغربية ، قدمت من مياه سبتة وطنجة ، وأن اتصال إشبيلية بوادى الشرف ، كان مكفولا عن طريق حصنها الغربى طريانة الذى تربطها به عبر الوادى الكبير قنطرة من السفن المثبتة بسلاسل حديدية ضخمة . وكانت المؤن مازالت بالرغم من الحصار ، ترد على المدينة المحصورة ، من العدوة ، ومن الشرف ، وغربى الأندلس ، وكان أهل إشبيلية ، لاطمئنانهم إلى حالة التموين يحصرون اهتمامهم فى مقاتلة النصارى ، والاشتباك معهم كلما سنحت الفرص . وقد نظم المسلمون غير كمين للإيقاع بالنصارى ، وأصيب النصارى بالهزيمة غير مرة ، ومنى منهم فرسان القنطرة وقلعة رباح ، بخسائر فادحة ، وخرج المسلمون فى قوة كبيرة ، هاجمت المحلة الملكية ، فردتها قوات ولى العهد ألفونسو والإنفانت إنريكى ، فعادت إلى المدينة بعد أن تكبدت بعض الخسائر . وكان النصارى خلال الحصار يخرجون إلى القرى والضياع المجاورة ، ويقومون بتخريبها وانتهابها ، ومن ذلك أنهم اقتحموا منية البحيرة الغاصة بالحدائق والرياض ، الواقعة فى جنوب شرقى المدينة ، والتى كان قد أنشأها الموحدون ،

---

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ١٩٠ .

وعاثوا فيها ، ونهبوا الماشية والمتاع والثياب ، وقتلوا من كان بها من المسلمين ، وأحرقوا دورها ، وفعلوا مثل ذلك بربض مقرينه ، الواقع فى شمالها الشرقى.

وأما ، فى مياه مصب الوادى الكبير ، فقد كانت مهمة الأسطول النصرانى ، وهى قطع الإمداد والمؤن عن المدينة ، من طريق البحر ، مهمة شاقة ، وكانت السفن الإسلامية التى وردت من مياه طنجة وسبتة ، تثير فى وجه السفن النصرانية ، صعابا جمة ، وكانت تفسح الطريق للأمداد والمؤن الواردة من العُدوة ، وتعمل على حمايتها ، حتى تجد سبيلها إلى المدينة ، وقد حاول البحارة المسلمون فوق ذلك أن يحرقوا السفن النصرانية بالنار اليونانية ، واقتربوا منها بالفعل ، تحميهم من ضفة النهر بعض حشود من الجند ، وأمامهم مواعين مملوءة بالزيت والمواد الملتهبة ولكن النصارى فطنوا إلى المحاولة ، وهاجموا المسلمين من البر والبحر ، فلجأ الجند الذين بالشاطىء إلى قلعة طريانة ، ونشبت بين سفن الفريقين معركة شديدة ، واستطاع المسلمون أن يقذفوا موادهم الملتهبة ، ولكن النصارى استطاعوا أن يخمدوا النار قبل اندلاعها . وهكذا فشلت المحاولة ، ولكن المعارك البحرية الجزئية كانت تضطرم بين الفريقين باستمرار . وفى ربيع سنة ١٢٤٨ م ، وفدت على المعسكر النصرانى طوائف كثيرة من الجند ، منها قوة من فرسان قشتالة ، بقيادة ولى العهد ألفونسو ، وقوة من فرسان قطلونية ، بقيادة ألفونسو ولى عهد أراجون ، وقوة من الفرسان البرتغاليين بقيادة بيدرو ولى عهد البرتغال ، وقوة من جند بسكونية وقشتالة القديمة بقيادة لوبيث دى هارو ، وكذلك قدم يوحنا مطران شنت ياقب فى قوة من جند جلّيقية ، وقدمت حشود أخرى من مدينة سالم ، ومدلين ، وقورية ، وغيرها ، ووفد كثير من الأساقفة والرهبان ، وفرسان الجماعات الدينية ، وانضمت هذه الحشود الجديدة ، إلى القوات المحاصرة ، فى فى مختلف مناطق الحصار ، وهكذا عزز الحصار حول إشبيلية ، وأحكمت حلقاته ، وعول ملك قشتالة ، أن يلجأ إلى الوسيلة ، المأمونة المؤكدة ، وهى إرهاق المدينة بأقصى ما يستطاع ، وإرغامها على التسليم بالجوع والحرمان .

وكان قد مضى على حصار النصارى لإشبيلية زهاء تسعة أشهر وهى صامدة ، تزداد ثباتا وإصراراً على مدافعة النصارى ، ولكنها مذ أحكمت حولها حلقات الحصار ، أخذت تشعر بالضيق يدب إليها حثيثاً ، وشبح الجوع يقترب منها شيئاً فشيئاً . ولم يبق لديها عندئذ سبيل للتنفس البطىء سوى طريانة ، قلعتها

الجنوبية الغربية المشرفة على الشّرف. وهنا كرر أهل إشبيلية صريخهم إلى المغرب، وإلى سائر أمرائه وزعمائه ، يصفون محنتهم الغامرة ، ويلتمسون الغوث والإنجاد قبل فوات الوقت . وكان مما نظمه فى هذه المناسبة شاعر إشبيلية يومئذ ، إبراهيم ابن سهل الإشبيلى الإسرائيلى قصيدة مؤثرة ، يستصرخ فيها أهل العدوة، ويستحثهم على المبادرة إلى نصرة إخوانهم فى الدين وفيها يقول :

ورداً فصفون نجاح المصدر … هى عزة الدنيا وفوز المحشر
نادى الجهاد بكم بنصر مضمر … يبدو لكم بين القنا والضُّمر
خلوا الديار لدار عز واركبوا … عبر العجاج إلى النعيم الأخضر
وتسوغوا كدر المناهل فى السرى … ترووا بماء الحوض غير مُكدَّر
يا معشر العرب الذين توارثوا … شيم الحميّة كابرا عن أكبر
إن الإله قد اشترى أرواحكم … بيعوا ويهنئكم وفاء المشترى
أنتم أحق بنصر دين نبيكم … ولكم تمهد فى قديم الأعصر
أنتم بنيتم ركنه فاتدعموا … ذاك البناء بكل لون أسمر(١)

ونظم أبو موسى هرون بن هرون قصيدة طويلة ، يصف فيها محنة أهل إشبيلية حينما طوقها النصارى ، وما نزل بأهلها من ضنوف الآلام والخطوب ، ويهيب فيها بأهل العُدوة أن يبادروا إلى إنجادها ، وتدارك أهلها ، وقد جاء فى أولهـا :

ياحمص أقصدك المقدور حين رما … لم حق فيك الردى إلا ولا ذمما
جرت عليك يد الدهر ظـالمة … لايعدل الدهر فى شىء إذا حكما
ماكنت أحسب أن الحادثات إذا … همت بك السوء لاتاتى لك السلما
قد كان حسنك فتان الشباب فمذ … أصبت عوضت منها القبح والهرما
ياجنة زجرتنا عن زخارفهـا … ذنوبنا فلزمنا البت والندما

ومنها فى وصف الحصار ومصائبه ، واستنهاض همم أهل العدوة :

ويمموا حمص فى جمع يضيق به … ذرع الفضا بالمرهفات الماع فاكتتما
واستوطنوا القبر فى الوادى وقام لهم … جسر منه الفلك لاتشكو به السأما
فكم أسارى غدت فى القيد موثقة … تشكوا من الذل أقداما لها حطما

(١) أورد لنا هذه القصيدة صاحب الذخيرة السنية ، ص ٧٤ وما بعدها .

وكم صريع رضيع ظل مختطفا عن أمه فهو بالأمواج قد فطما
وكم بطريانة أبقى الأسى ندبا فى القلب يبعث وجدا كلما كلما
يا حسنها عرف للحسن جامعة ما طار قط لها إلا النعيم جما
ياعين فابك على حمص وقل لها منك البكاء إذا ما ترسليه دما
وقد أصيبت بها الدنيا وساكنها حقاً وأصبح ركن الدين قد ثلما
سطا بها الكفر إذ قل النصير بها فمن معز بها الإسلام ما سلما
يا أهل وادى الحما بالعدوة انتعشوا هذا الذماء فقد أشفى به سقما
فماذا يبطئكم عنا وحولكم أن تبصروا دار قوم أصبحت رمما
وحقنا واجب فالدين يجمعنا مع الجوار الذى مازال منتظما
وقد دعونا فأسمعنا على كثب بما قد استنفد القرطاس والقلما[1]

وكان الاستيلاء على قلعة طريانة حصن إشبيلية من الجنوب الغربى ، أهم ما يشغل بال النصارى ، وكان لابد قبل محاولة الاستيلاء عليها أن تحطم القنطرة القوية الضخمة ، التى تربطها بإشبيلية عبر الوادى الكبير ، عند برج الذهب. وكانت هذه القنطرة ، تتكون حسبما قدمنا ، من مجموعة من السفن المثبتة بسلاسل ضخمة من الحديد . وهذا ما اعتزمه النصارى بالفعل . وجهز بونيفاس قائد الأسطول النصرانى لهذا الغرض مركبين كبيرين ، وركب فى إحداهما . ودُفع المركبان نحو القنطرة ، فنجحت إحداهما فى قطع السلاسل الحديدية ، وإحداث ثغرة فى القنطرة ، وأسرع الملك فرناندو فى قوة كبيرة ليحمى بونيفاس ومركبه ، وليحقق الفصل بين المسلمين فى طريانة ، وأهل المدينة ، ووقع ذلك الحادث فى اليوم الثالث من مايو سنة ١٢٤٨ م .

وكان تحطيم القنطرة على هذا النحو ضربة شديدة للمسلمين ، إذ ترتب عليه الفصل بين قلعة طريانة ، وبين المدينة ، وقطع طريق الشّرف ، وهو الملاذ الأخير الذى كان باقيا للمحصورين ، لاسترداد الأقوات والمؤن ، بعد أن أضحى طريق النهر محفوفاً بأعظم المخاطر . كما ترتب عليه عزل طُريانة وتعرضها لخطر هجوم النصارى . وهذا ما عول عليه النصارى بالفعل على أثر تحطيم القنطرة .

(١) أورد لنا ابن عذارى نص هذه القصيدة بأكلها فى البيان المغرب ص ٣٨٢ — ٣٨٤ .

على أن الاستيلاء على طريانة لم يكن مهمة سهلة . ذلك أن المسلمين كانوا على حذر ، وكانوا يدركون أهمية طريانة الدفاعية ، وكانوا لذلك قد شحنوها بالرجال والسلاح والمؤن ، ورتبوا بها بالأخص جماعة من الرماة يستطيعون إصابة الفرسان بقذائفهم عن بعد . ومن ثم فإنه لما هاجمها النصارى بقوات كثيفة استطاعت حاميتها القوية أن تحطم هذا الهجوم الأول بسرعة ، وعندئذ كرر النصارى هجومهم بشدة ، والمسلمون يحبطون كل محاولة ، وكان بالقلعة عندئذ زعيم إشبيلية الأول القائد شقاف . ولما تكرر فشل النصارى فى اقتحام القلعة اقترب منها فرناندو بقواته ، ودفع الحفارين إلى السور لإحداث ثلمة به ،ولكن المسلمين نجحوا أيضاً فى إحباط هذه المحاولة ، وعندئذ عمد النصارى إلى محاصرة القلعة براً وبحراً ، وضربها بمختلف الآلات ، واعتزموا أخذها بالحصار ، وقدمت سفنهم إلى النهر أسفل القلعة فنجحت بعد مجهود عنيف فى قطع كل صلة بين طريانة وبين إشبيلية .

واستمر الحصار حول إشبيلية وطريانة ، وهو يشتد كل يوم ، والحاضرة المحصورة تشعر بالضيق ، يرهقها شيئاً فشيئاً ، والنصارى يوالون ضربها بالآلات المخربة ، حتى نفدت الأقوات ، وأخذ الجوع يفتك بالمحصورين . ويصف ابن عذارى حالة المدينة المحصورة فى قوله : « وعدموا المرافق كلها ، قليلها وجليلها ، إلا ما كان فى بعض ديار الأغنياء مثل الفقيه القاضى ابن منظور ، فإنه كان يطمع فى إقلاع النصارى عن المدينة ، فيأمر الناس بالقتال والرمى بالنبال ، والناس مع ذلك حيارى ، يمشون سكارى وما هم بسكارى . ومات بالجوع خلق كثير ، وعدمت الأطعمة من القمح والشعير ، وأكل الناس الجلود، وفنيت المقاتلة من العامة وأصناف الجنود »(١). وهكذا فتك الجوع والحرمان والمرض بأهل إشبيلية ، وأضنتهم المعارك المستمرة بعد حصار صارم مرهق استمر خمسة عشر شهراً ، وغاض كل أمل فى الإنقاذ والإنجاد ، فلم يتحرك الموحدون لانشغالهم بمكافحة بنى مرين ، وأمير إفريقية الذى اتخذ لقب الخلافة ، ولم يتحرك أمير إفريقية لما سبق من موقف الإشبيليين نحو عماله ، وربما أيضاً اعتباراً بما حدث من فشل محاولته لإنقاذ بلنسية ، وقد كان إنجادها أقرب وأيسر . فلما بلغ الضيق أشده ، طلب القائد شقاف وهو فى طريانة ، إلى النصارى هدنة ليتمكن

---

(١) البيان المغرب ص ٣٨١ و٣٨٢ .

من الاتصال بأهل المدينة، والتفاهم معهم على التسليم . وبحث زعماء المدينة الموقف من سائر نواحيه ، واتفقوا على أن يسلموا إلى ملك قشتالة القصر وجباية المدينة ، على أن لايدفعوا من المكوس أكثر مما كانوا يدفعونه لملوكهم، ولكن ملك قشتالة رفض هذا العرض الجزئى رفضاً باتا ، فعاد الزعماء وعرضوا أن يسلموا القصر وثلث المدينة، فرفض هذا العرض أيضاً . واضطر الزعماء أن يتقدموا خطوة أخرى. فعرضوا أن يسلموا نصف المدينة ، بعد أن يخليه المسلمون ، وأن يترك النصف الآخر للمسلمين ، وأن يقام بين النصفين سورفاصل . ونصح بعض مستشارى الملك إليه بقبول هذا العرض ، ولكن ملك قشتالة أصر على أن يتسلم المدينة كلها حرة ودون شروط[١] .

وعندئذ لم ير زعماء إشبيلية وأهلها ، بدّاً من قبول مصيرهم المحتوم ، وجرت المفاوضة بينهم وبين ملك قشتالة فى تسليم المدينة ، وذلك عن طريق ممثل ملك قشتالة ، دون ردريجو ألباريس، وانتهت المفاوضات بين الفريقين على أن تسلم المدينة بالشروط الآتية: أن تسلم المدينة كاملة حرة سليمة ، لايهدم من صروحها شيء، وأن يغادرها سكانها مع السماح لهم بأن يحملوا معهم كل أمتعتهم المنقولة والمال والسلاح ، وأن يسلم القصر فى الحال بعد إخلائه عقب وضع شروط التسليم، وأن تسلم مع المدينة سائر الأراضى التابعة لها ، وأن يعطى ملك قشتالة إلى القائد شقاف ، والرئيس ابن شعيب ، من بلاد الشرف، شلوقه وحصن الفرج، ثم لبلة متى تم افتتاحها ، واتفق على أن تُمنح لأهل المدينة مهلة لاتقل عن الشهر لتسوية شئونهم وإخلاء دورهم ، والتأهب للرحيل.

ولما وُقع عهد التسليم بين الفريقين ، سُلّم القصر ، وهو مقر الولاة ، ويقع فى جنوبى المدينة على مقربة من باب جَهْور ، إلى ملك قشتالة ، وبعث ملك قشتالة مندوبه ليرفع شعاره الملكى فوق برجه الأعلى ، وكان ذلك فى اليوم الثالث والعشرين من شهر نوفمبر سنة ١٢٤٨ م ، وهو يوافق يوم الاثنين الخامس من شعبان سنة ٦٤٦ هـ ، وهو اليوم الذى تضعه الرواية الإسلامية لسقوط إشبيلية فى أيدى النصارى[٢] . بيد أنه يوجد تاريخ آخر ، هو

---

(١) M. Lafuente: ibid; T. IV. p. 69; J. Gonzalez: ibid; p. 118; Crónica Geneнral, No. 1122

(٢) ابن الأبار فى التكلة (القاهرة) ج ٢ ص ٩٠٣ . ويقول صاحب الروض المعطار إنه اليوم الثالث من شعبان (ص ٢٢) .

تاريخ دخول النصارى المدينة ، وهو يعتبر أحيانا تاريخ سقوطها .

وقضى المسلمون زهاء شهر فى إخلاء المدينة ، وتصفية شئونهم ، وبيع متاعهم ، وكان ملك قشتالة ، يسرح سريات من فرسانه لتأمين المهاجرين منهم بطريق البر حتى مدينة شريش ، وحتى نغر سبتة لتأمين المهاجرين منهم بطريق البحر ، وخصص لذلك الغرض أسطولا يتكون من خمس سفن كبيرة ، وثمانى صغيرة[١]. وخرجت من إشبيلية جموع غفيرة من المسلمين يصعب تحديد عددها ، وتشمل سائر الطبقات . ولم تحدد لنا الرواية الإسلامية عدد المهاجرين منها ، ولكنها تقول لنا فقط إنه قد خرج الخاص منها والعام « وكل منهم فى بحر المنايا غاص وعام ، مما حل بهم من الأوجال والآلام »[٢] . وتقدر بعض الروايات من خرج من أهل إشبيلية من المسلمين بأربعمائة ألف ، منهم مائة ألف هاجروا بطريق البحر إلى سبتة ، وثلاثمائة ألف ساروا براً بطريق شريش[٣] . وتفرقوا فى مختلف الأنحاء بالأندلس والمغرب . وقصد أكثرهم بالأندلس مملكة غرناطة ، وذلك بتشجيع ابن الأحمر ، وكورة لبلة وغربى الأندلس ، وقصد من عبر البحر منهم إلى مختلف ثغور المغرب ، ولاسيما سبتة وتونس ، وكان فى مقدمة من غادرها منهم زعيمها القائد شقاف ، ولم يحفل بما عرضه النصارى عليه من منح وإقطاعات وعبر البحر إلى سبتة مع جماعة من القواد والأجناد ، والظاهر أنه استطاع أن يتدخل فى شئونها ، وأن يشاطر واليها الحفصى ابن أبى خالد قسطامن السلطة ، ولكن حدث بعد فترة قصيرة أن نهض زعيم سبتة الدينى الفقيه أبو القاسم العزفى ، واستطاع بمعاونة حليفه القائد أبى العباس الرنداحى أن ينتزع الرياسة لنفسه ، وقتل شقاف وعدة من أصحابه فيمن قتل من ضحايا الانقلاب ، وذلك فى شهر رمضان سنة ٦٤٧ هـ[٤] .

وبقيت إشبيلية ، بعد أن غادرها أهلها ، خالية ثلاثة أيام . وفى اليوم الثانى والعشرين من شهر ديسمبر سنة ١٢٤٨م « ( أوائل رمضان سنة ٦٤٧ هـ ) دخل فرناندو الثالث ملك قشتالة ، مدينة إشبيلية فى موكب فخم ، وكان مطران

---

(١) الروض المعطار ص ٢٢ ، وكذلك : J. Gonzalez : ibid; p. 120

(٢) البيان المغرب ص ٣٨٥ .

(٣) Crónica General : ibid ; No1124

(٤) الذخيرة السنية ص ٨٥ ، والبيان المغرب ص ٤٠٠ و٤٠١ .

طليطلة قد قام بتحويل الجامع الأعظم إلى كنيسة ، وصنع به هيكل موقت ، فقصد إليه الملك النصرانى ، وحاشيته من أكابر الأحبار والقادة والفرسان ، وأقيم قدّاس الشكر ، ثم قصد فرناندو بعد ذلك إلى القصر وتسلمه ، وعنى بوضع أسس الحكم للحاضرة المفتوحة ، وجعل منها مركز مطرانية ، كما كانت قبل الفتح الإسلامى ، وقام بتقسيم دور المسلمين وأراضيهم ، بين أولئك الذين بذلوا أكبر جهد فى تحقيق الفتح . وبذلك اختتم الفتح ، وأخذ النصارى فى تقويض محلاتهم خارج المدينة ونزلوا بها[1] .

ومن ذلك التاريخ تغدو إشبيلية ، عاصمة مملكة قشتالة ، ومقر البلاط القشتالى ، بدلا من طليطلة .

وهكذا سقطت إشبيلية ، حاضرة الأندلس العظمى ، بعد أن حكمها المسلمون منذ افتتحها موسى بن نصير فى سنة ٧١٢م ، خمسة قرون وثلث قرن ، وحكمها الموحدون زهاء قرن ، وكانت قاعدة حكومتهم بالأندلس ، فجاء سقوطها ، بعد سقوط قرطبة ، وقواعد الشرق ، تصفية نهائية لسلطانهم فى شبه الجزيرة الإسبانية . وكانت إشبيلية إلى جانب قرطبة من أعظم مراكز العلوم والآداب فى الغرب الإسلامى ، وبها سطعت عبقريات فريدة فى تاريخ الفكر الإنسانى ، مثل بنى زهر أعظم أساتذة الطب والكمياء فى الغرب فى العصور الوسطى ، وأبى العباس بن الرومية أعظم النباتيين والعشابين ، بعد ديسقوريدس . وسطعت إشبيلية أيام الطوائف فى ظل بنى عباد ، ولبثت زهاء نصف قرن أعظم مجمع للآداب وللشعر والنثر فى الأندلس . وجعل منها الموحدون قاعدة الحكم فى فى الأندلس ، وغدت فى ظلهم أعظم حواضر شبه الجزيرة ، وأزخرها عمرانا ، وأجملها تخطيطاً وصروحاً ، تتيه بمسجدها الجامع أعظم جوامع الأندلس ، بعد جامع قرطبة ، وبمنارته الشاهقة الرائعة ، التى مازالت تقوم حتى اليوم أثراً من أعظم الآثار الأندلسية الباقية ، وذلك بالرغم من تحويلها إلى برج لأجراس الكنيسة .

---

(١) يراجع فى فتح إشبيلية : البيان المغرب ص ٣٨١ و٣٨٢ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٧١ وج ٧ ص ١٩٠ ، والذخيرة السنية ص ٧١ — ٧٦ وص ٨٠ ، والروض المعطار ص ٢٢ ، ومن المراجع القشتالية : Crónica General (Ed. Pidal) No. 1080 - 1125 - J. Gonzalez ibid; p. 98 - 121 - Is. de las Cagicas : Sevilla Almohade ; p. 31 - 33 — M. Lafuente : ibid; T. IV. p. 53 - 59

وكان لسقوط إشبيلية وقع عظيم فى الأندلس ، أوبعبارة أخرى فيما بقى من قواعدها وربوعها ، وفى شبه الجزيرة الإسبانية كلها ، وفى المغرب وسائر أنحاء العالم الإسلامى . وقد رثاها الشعر فى قصائد عديدة مبكية ، حتى قبل أن تسقط نهائيا فى أيدى النصارى . وقد أوردنا فيما تقدم بعض ما نظمه الشعر فى ذلك .

— ٥ —

وكان سقوط إشبيلية نذيراً بسقوط سائر القواعد والبلاد القريبة منها ، ولاسيما قواعد الغرب التى أصبحت معزولة عن بقية القواعد الأندلسية .

وماكاد فرناندو الثالث ينتهى من تنظيم شئون « مملكة إشبيلية » ويستريح من عناء الغزوة الكبرى ، حتى سيّر بعض قواته شرقاً وجنوبا ، لتفتتح قواعد هذه المنطقة . وليست لدينا تفاصيل عن كيفية افتتاح هذه القواعد أوسقوطها فى أيدى النصارى ، ولكن الرواية النصرانية تجمل قصة هذه القواعد فى قولها ، إن فرناندو الثالث ، استطاع عقب افتتاحه لإشبيلية أن يبسط سلطانه على شريش وشذونه والقلعة وقادس وشلوقة وأركش والبريجة وروطة أو روضة[١] بعضها بالفتح وبعضها بعقد المعاهدات ، وأن إخضاع هذه القواعد قد تم فى سنة ١٢٤٩م ( ٦٤٧هـ ) ، وتزيد على ذلك أن ابن محفوظ صاحب لبلة وما إليها من الأراضى والحصون ، قد اعترف بطاعة فرناندو الثالث[٢]. ولكن الرواية الإسلامية تقدم إلينا عن إخضاع هذه القواعد بعض تفاصيل أخرى ، فتقول لنا إن الوزير أبا خالد صاحب شريش أعطى فى سنة ٦٤٨ هـ للفنش ( وتريد هنا فرناندو الثالث ) مدينة أركش وحصن فريس ، وحصن تنكر ، والأفراس ، وأن النصارى استولوا فى نفس العام على قرمونة ، والقلعة ، والقليعة ، وشلوقة ، وغليانة ، وروطة ، وجميع حصن الوادى وحصن الفرج[٣]. ولنلاحظ أولا أن قرمونة ، والقلعة ، وغليانة ، وهى من حصون إشبيلية الأمامية ، قد سقطت كلها فى أيدى النصارى ، فى سنة ٦٤٥هـ قبيل حصار إشبيلية . وأما عن شريش وهى أهم قواعد الفرنتيرة ، فيلوح لنا أنها قد خضعت بمقتضى الاعتراف ، وأن صاحبها أبا خالد ، قد أعلن خضوعه

---

( ١ ) هى بالإسبانية على التوالى Jerez، Medina Sedonia ، Alcala، Cadiz، San Lucar، Rota ، Lebrija, Arcos

( ٢ ) J. Gonzalez : ibid; p. 121 & 122

( ٣ ) الذخيرة السنية ص ٨٧ .

لملك قشتالة ، وتعهد بأداء الجزية ، ومكّن النصارى من القصر دون أن يحتلوا المدينة ، ونزل لملك قشتالة عن أركش والحصون التى سبق ذكرها ، رهينة بحسن طاعته. والظاهر أن هذه الحالة قد استمرت عدة أعوام أخرى، لأن الرواية الإسلامية تقول لنا إن سرية من الفرسان النصارى قصدت إلى شريش فى سنة ٦٥٨هـ ( ١٢٦٠ م ) برسم إخلاء موضع القناطر ، وإخراج المسلمين منها، وأن ديارها قد أخليت بالفعل برسم الطاغية ( ملك قشتالة ) ، وأن النصارى دخلوا قصبة شريش صلحاً فى العام الثانى ( ٦٥٩ هـ ) ، ثم أرادوا أن يغدروا بالمسلمين، فتغلب المسلمون عليهم ، واستطاعوا إخراجهم منها بمعاونة قوة من عسكر بنى مرين عبرت إلى شبه الجزيرة بقيادة عامر بن إدريس بن عبد الحق ، وذلك فى سنة ٦٦٢ هـ ( ١٢٦٣ م ) ، واحتل عامر بن إدريس ، ومن معه من المجاهدين مدينة شريش ، واستمرو بها زهاء عامين حتى أخرجهم القشتاليون منها ، بقيادة ملكهم ألفونسو العاشر الملقب بالحكيم وذلك فى سنة ١٢٦٤م ( ٦٦٣ هـ )[١]

وقد شاطرت مدينة قادس فيما يبدو نفس الظروف ونفس المصير ، فخضعت أولا بإعلان الطاعة وأداء الجزية لملك قشتالة . ويبدوكذلك أن النصارى قداحتلوا قصبتها على غرار ما حدث فى شريش . يدل على ذلك ماتذكره الروايةالإسلامية فى حوادث سنة ٦٤٧ هـ ( ١٢٤٩ م ) من أن القائد الرنداحى ، وهو قائدالأسطول بها ، قتل ثمانين من زعماء الروم بجزيرة ( ثغر ) قادس[٢] . وقد استمرت الأحوال على اضطرابها بقادس حتى افتتحها القشتاليون فى سنة ١٢٦١ م ، وافتتحوا فى نفس الوقت شذونة ، والبريجه ، وغيرهما من قواعد الفرنتيرة .

واستولى القشتاليون فى العام التالى ( ٦٦٢ هـ ) على مدينة إستجة ، الواقعة فى جنوب غربى قرطبة . سلمها إليهم صاحبها ابن يونس بالأمان ، ولكن قائدهم دون خيل ماكاد يدخلها فى قواته ، حتى أخرج المسلمين منها ، وقتل معظمهم، واستولى على أموالهم ، وسبى نساءهم ، حتى أطلقهن من يده دون نونيو قائد قشتالة الأكبر ، وعذل دون خيل على غدره بالمسلمين[٣] .

وأما عن بقية قواعد ولاية الغرب ، الواقعة غربى الوادى الكبير ، وحتى

---

( ١ ) البيان المغرب ص ٤٣٠ و ٤٣١ ، والذخيرة السنية ص ١١١ و ١١٢ .

( ٢ ) الذخيرة السنية ص ٨٥ .

( ٣ ) الذخيرة السنية ص ١١٢ .

أراضي البرتغال ، فقدكان معظمها تحت سلطان القاضي شعيب بن محفوظ ، أقوى زعماء هذه المنطقة ، وكانت مدينة لبلة الحصينة قاعدة حكمه ، وبها ثار منذ سنة ٦٣٢هـ ، ودعا لنفسه وتسمى بالمعتصم ، واستطاع أن يبسط سيادته على معظم القواعد والأنحاء الواقعة غربي الوادى الكبير ، وفيما وراء نهر وادى يانه . ولا تحدثنا الرواية عن شخصية ابن محفوظ ، ولا عن أصله ونشأته . ويبدو لنا من مختلف القرائن ، أنه كان من بقية زعماء الموحدين فى تلك المنطقة ، وتسبغ الرواية النصرانية عليه بالفعل هذه الصفة . ولما زحف القشتاليون على قطاع إشبيلية ، وأخذت قواعدها وحصونها الأمامية تسقط فى أيديهم ، شعر ابن محفوظ بأن سلطانه فى تلك المنطقة أضحى معرضاً للانهيار ، فسعى إلى التفاهم مع ملك قشتالة ، وذلك بنفس الطريقة التى كان يجرى عليها سائر الزعماء المسلمين يومئذ ، فنزل إليه وفقاً لقول الرواية الإسلامية عن مدينة طبيرة والعُلى وشلب والخزانة ، ومرشوشة ، وبطرنا ، والحرة ، وكلها من قواعد أقصى الغرب ، وذلك فى سنة ٦٤٥ هـ ( ١٢٤٧ م )(١) . واعترف بطاعته على حكم لبلة كما تقدم . بيد أنه يبدو أن سلطان ابن محفوظ على قواعد الغرب ، لم يكن يمتد إلى هذا المدى البعيد من قواعد الغرب البرتغالية ، مثل طبيرة وشلب وشنتمرية الغرب . يدل على ذلك ما تذكره لنا الرواية الإسلامية بعد ذلك ، من أنه لما تم لفرناندو الثالث افتتاح إشبيلية ، تقدم ابن محفوظ فى سبيل إرضائه خطوة أخرى ، فنزل له عن حصن اللقوه ، وجبل العيون ، ووادى أنه ، وشنتيل ، والحصين ، وشلطيش ، وذلك صلحاً ، على أن يبقى محتفظاً بلبلة وأحوازها مع الاعتراف بالطاعة وأداء الجزية(٢) . وهذه الأماكن كلها تقع فى منطقة ولبة ( أونبة القديمة ) ، شرقى نهر وادى يانه ، وهو أقصى مدى كان يمتد إليه سلطان ابن محفوظ .

أما قواعد الغرب البرتغالية ، وهى شلب وطبيرة وشنتمرية الغرب ، فقد كانت من نصيب الفتوح البرتغالية . وكان ألفونسو الثالث ملك البرتغال ، قد أدرك مذ سقطت إشبيلية فى أيدى القشتاليين ، وساد الانحلال والفزع فى سائر قواعد الغرب الإسلامية ، وانهارت فيها الروح الدفاعية ، أن الفرصة قد سنحت للاستيلاء على ما بقى بأيدى المسلمين من هذه القواعد ، فى أراضى البرتغال

---

( ١ ) الذخيرة السنية ص ٧٦ .

( ٢ ) الذخيرة السنية ص ٨٥ .

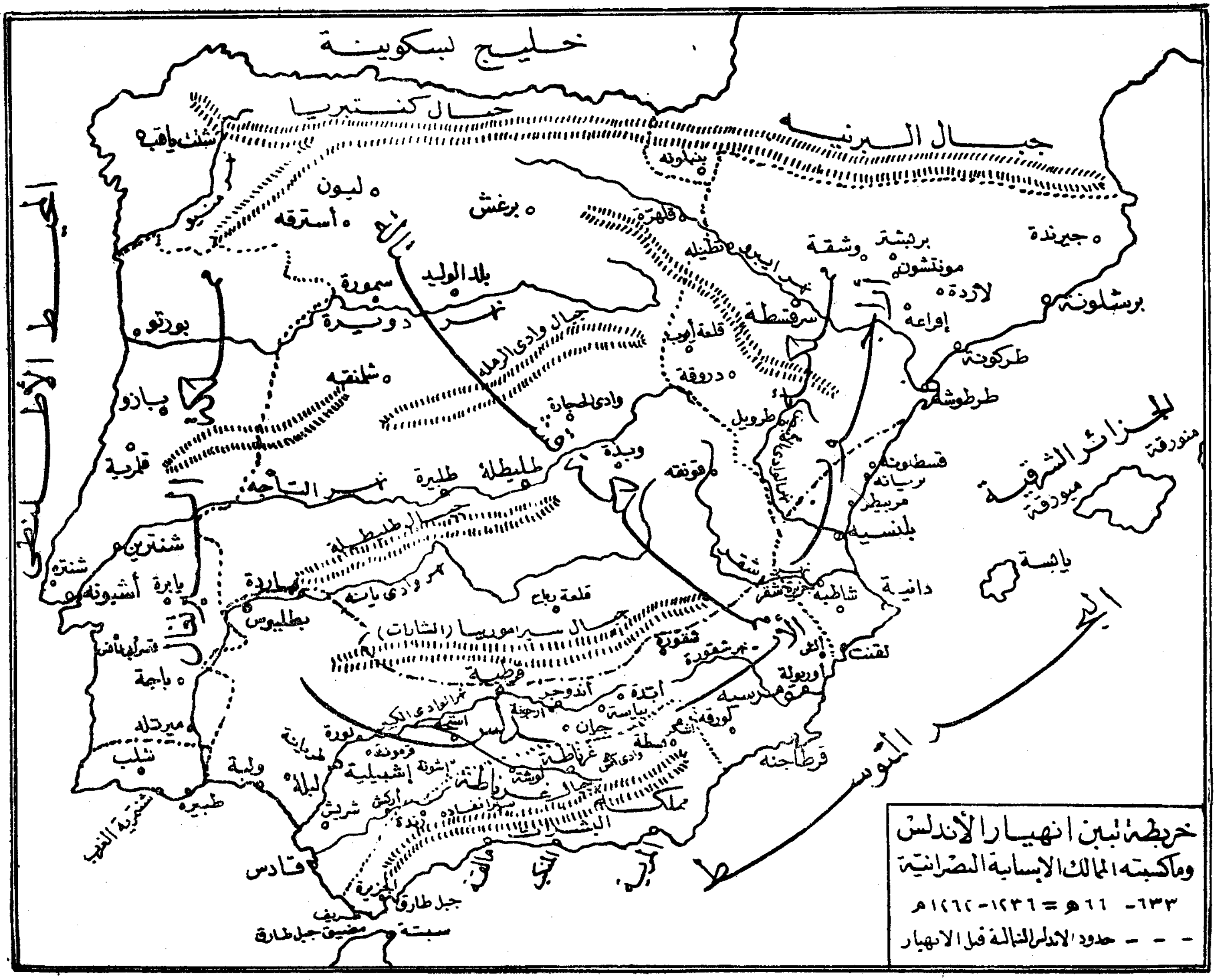

خريطة تبين انهيار الأندلس
وماكسبته الممالك الإسبانية النصرانية
٦٣٣ - ٦٦٠ هـ = ١٢٣٦ - ١٢٦٢ م
- - - حدود الأندلس الشمالية قبل الانهيار

الجنوبية . وكان أخوه وسلفه الملك سانشو الثانى قد استولى على مدينة ميرتلة من المسلمين ، وسلمها لفرسان شنت ياقب للقيام بالمحافظة عليها . وفى سنة ٦٤٠ هـ ( ١٢٤٢ م ) استولى البرتغاليون على مدينة شلب ، من يد واليها الموحدى واسمه المنصور ، ولم يبق بعد الاستيلاء على شلب ، وهى أهم قواعد الغرب الجنوبية ، سوى طبيرة وشنتمرية الغرب . فأما طبيرة ، فقد سقطت فى أيدى الفرسان البرتغاليين فى سنة ٦٤١ هـ ( ١٢٤٣ م ) . وأما شنتمرية الغرب[1] فقد قام بافتتاحها ألفونسو الثالث ، بعد أن حاصرها من البر والبحر ، حتى اضطرت إلى التسليم ، وذلك فى سنة ٦٤٧ هـ ( ١٢٤٩ م ) ، واتفق على أن يحتفظ المسلمون الذين يريدون البقاء بها ، بدينهم وشرائعهم وأموالهم ، وأن يكونوا رعايا لملك البرتغال يؤدون إليه من المكوس ما كانوا يؤدونه إلى ملوكهم . وتابع ألفونسو الثالث بعد ذلك فتوحاته فى هذه المنطقة الجنوبية ، فاستولى على سائر الحصون والبلاد الإسلامية الباقية فيها ، ولم تأت سنة ١٢٥٠ م ، حتى كانت ولاية الغرب البرتغالية كلها قد سقطت فى أيدى البرتغاليين . وفى العام التالى عبر البرتغاليون نهر وادى يانه ، ومضوا فى فتوحهم فى أراضى الغرب الأندلسية ، وافتتحوا عدة من الحصون والقواعد على ضفته اليسرى ، ومنها قلعتا أورشه وأورسينة الواقعتان على مقربة من لبلة . وكان ملك قشتالة ، يعتبر عبور البرتغاليين إلى هذه المنطقة ، اعتداء على أراضيه ، ويرقب الفرصة لردهم إلى ما وراء نهر وادى يانه .

ولما توفى فرناندو الثالث ( ١٢٥٢ م ) ، وخلفه ولده ألفونسو العاشر ، شعر ابن محفوظ صاحب لبلة أن ملك قشتالة الجديد ، ليس له من الحزم والسطوة ما كان لأبيه ، فأخذ يتحلل من عهوده ، ثم أبى أن يدفع الجزية ، وثار بمدينة لبلة الحصينة وامتنع بها ، فسار ألفونسو العاشر إلى لبلة فى جيش قوى ، وضرب حولها الحصار ، وكان ضمن حشوده فرقة من جند ابن الأحمر ، بعث بها لتشترك فى الحصار ، وإخضاع ابن محفوظ ، وفاء بعهوده القديمة ، وبغضا منه لهذا الزعيم الموحدى ، بقية الدولة البائدة فى شبه الجزيرة . ولم يكن افتتاح لبلة أمراً سهلا ، نظراً لمنعتها الطبيعية بوقوعها فوق ربوة عالية ، ونظراً لأسوارها الصلدة العالية التى تحيط بها إحاطة تامة ، ومن ثم فقد صمدت المدينة فى وجه المحاصرين ، واستمر صمودها عدة أشهر . وكان أبرز ما فى حوادث هذا الحصار ، ما قام به

---

( ١ ) وهى التى قامت فيما بعد على أنقاضها مدينة فارو Faro الحديثة .

المسلمون من إطلاق النار والحجارة من فوق أسوار المدينة ، من آلات قاذفة شديدة الفتك ، يصحبها دوى كالرعد ، لم يعرف كنهها ولم يسبق استعمالها فى شبه الجزيرة ، تشبه المدافع البدائية ، وقد فتكت هذه الآلات بالجيش المحاصر ، وأرغمته على إطالة الحصار أكثر من تسعة أشهر ، ولكن المدينة المحصورة ، اضطرت آخر الأمر ، وبعد أن برحت بأهلها مصائب الحصار ، ويئست من تلقى أية نجدة أو مدد ، اضطرت إلى التسليم إلى القشتاليين بالأمان ، وعوض ألفونسو صاحبها ابن محفوظ مقابل تسليمها ، بأملاك وضياع واسعة فى أحواز إشبيلية ، وفى فحص الشرف . وكان تسليم لبلة فى سنة ٦٥٧ هـ ( ١٢٥٧ م )[١].

هذا ما تقوله الرواية النصرانية عن حصار لبلة وتسليمها . ولكن الرواية الإسلامية مع تأييدها لخضوع ابن محفوظ ، وأدائه للجزية وفق صلح منفرد عقده مع النصارى ، ومع تنويهها بهول حصار لبلة وروعته ، تضع تاريخ تسليم لبلة فى سنة ٦٦٠هـ ، أو ٦٦١هـ ( ١٢٦٢ أو ١٢٦٣ م ) ، أعنى بعد التاريخ الذى تضعه الرواية النصرانية بنحو أربعة أعوام . ثم هى تذكر لنا عن مصير ابن محفوظ رواية أخرى ، خلاصتها أن ابن محفوظ عبر البحر إلى المغرب مع أهله وصحبه ، وقصد إلى الخليفة المرتضى بمراكش ، وانضوى تحت لوائه ، قائداً بالجيش الموحدى ، وظل على تلك الحالة حتى توفى[٢].

وأما قواعد الغرب الواقعة شرقى نهر وادى يانه ، والتى استولى عليها البرتغاليون ، ومنها قلعتا أورشة ، وأورسينة ، فقد ثار بشأنها الخلاف بين البرتغال وقشتالة ، وكاد يؤدى بهما إلى الحرب ، لولا أن تدخل البابا ، وانتهى الأمر بتسوية الخلاف بين ألفونسو العاشر ملك قشتالة وزميله ألفونسو الثالث ملك البرتغال ، وذلك بأن يتزوج ملك البرتغال الأميرة بياتريس ، وهى إبنة غير شرعية لملك قشتالة ، وأن ينزل ملك قشتالة إليه ، عن قواعد الغرب المذكورة ، على أن يكون ذلك بطريق الإقطاع ، وأن يقدم ملك البرتغال عربوناً بطاعته خمسين فارسا لمعاونة ملك قشتالة فى حروبه كلما طلب ذلك إليه ، وتم ذلك فى سنة ١٢٦٣ م[٣].

* * *

(١) M. Lafuente : ibid; T. IV. p. 119

(٢) البيان المغرب ص ٤٣٦ .

(٣) M. Lafuent : ibid ; T. IV p. 120

هذا وقد توفى فرناندو الثالث ملك قشتالة ، بعد مرض شديد ، فى الثلاثين من شهر مايو سنة ١٢٥٢ م ، فى الرابعة والخمسين من عمره ، وذلك بعد أن حكم ستة وثلاثين عاما ، ودفن بمدينة إشبيلية آخر وأعظم فتوحه ، وحاضرته الجديدة ، فخلفه ولده ، وولى عهده ألفونسو العاشر ، وهو الذى لقب فيما بعد بالحكيم أو العالم .

وتشيد التواريخ الإسبانية بخلال فرناندو الثالث وعبقريته ، وعظيم مآثره ، وتعتبره من أعظم ملوك إسبانيا ، ومن أعظم ملوك العصور الوسطى ، وترى أن فتوح « الاسترداد » La Reconquista ، قد وصلت على يديه إلى ذروتها ، وذلك بافتتاح قرطبة عاصمة الخلافة القديمة ، وإشبيلية أعظم حواضر الأندلس. والواقع أننا نستطيع أن نعتبر فرناندو الثالث ، هو قاهر الأندلس الحقيقى ، وأنه هو الذى استطاع بضرباته وفتوحاته المتوالية لأراضيها وقواعدها ، أن يحطم وحدتها وتماسكها ، وأن يقوض صرحها الشامخ ، الذى استطاع الموحدون أن يحتفظوا بسلامته زهاء قرن ، وقد وضع افتتاحه لقواعدها الكبرى ، حداً نهائياً لسيادة الإسلام فى الأندلس الوسطى والغربية ، وجاء استيلاؤه على قرطبة ، وإشبيلية بالأخص ، وهما أعظم مراكز الإشعاع الحضارى فى الغرب الإسلامى ، ضربة قاضية للنفوذ الحضارى والمؤثرات الأدبية الأندلسية ، التى لبثت خمسة قرون متغلغلة فى شبه الجزيرة الإسبانية .

وقد لبثت ذكرى فرناندو الثالث عصوراً ، تقترن بالأخص بحماسته الدينية وغيرته الكاثوليكية ، والصفة الصليبية التى كانت شعار حروبه ضد الإسلام فى الأندلس ، حتى جاء البابا كليمنضوس العاشر ، فأسبغ عليه صفة القداسة وتوّجه قديسا ، وذلك فى سنة ١٦٧١ ، م وأضحى فرناندو الثالث من ذلك التاريخ يعرف بالقدّيس فرناندو San Fernando أوفرناندو المقدس Fernando el Santo

# الكتاب العاشر

# نهاية الدولة الموحدية

# الفصل الأول

## عصر الخليفة أبى محمد عبد الواحد الرشيد

بيعه الخليفة الرشيد . دخوله مراكش . بعض خواص عهده . قدوم ابن وقاريط زعيم هسكورة . موقفه من الرشيد . مغادرته للحضرة وإعلانه للعصيان . تحالفه مع يحيى . خروج الرشيد لقتال يحيى وحلفائه . هزيمة يحيى وفراره . قدوم الزعيم غنصلة إلى الحضرة . مافعله قبل مقدمه بأهل قادس . أبو عثمان الجدميوى ورغبته فى العودة إلى الطاعة . توسيطه لمبعوث الروى جوان كيس فى ذلك . ميل الزعماء الموحدين إلى العودة إلى الطاعة . القائد شانجه يعرض الأمر على الرشيد . موافقة الرشيد واغتباطه . مقدم أبى عثمان وصحبه إلى الحضرة . مساعيه ومفاوضاته فى سبيل عود الموحدين إلى الطاعة . مساعى الرشيد ودعوته لهم . تأهبهم للقدوم ثم احجامهم خوفا من عدوان الخلط . مسعود شيخ الخلط وأعماله العدوانية . اعتزام الرشيد القضاء عليه . يضع خطة لذلك . استدراج مسعود إلى الحضرة . تدبير المؤامرة لاغتياله . البطش به وبأصحابه ومصرعهم داخل القصر . القبض على عرب الخلط وإهلاكهم . دعوة الرشيد للموحدين للقدوم . رسل الموحدين إلى الرشيد . مطالبة الموحدين باعادة رسوم المهدى. وعد الرشيد بتحقيقها . مقدم الموحدين إلى الحضرة . إعادة رسوم المهدى . إعادة حقوق الموحدين وأملاكهم . تضعضع الدولة الموحدية . تحالف الخلط وابن وقاريط ويحيى . زحف الحلفاء على مراكش . خروج الرشيد فى قواته لقتالهم . هزيمة الرشيد وتمزيق قواته . عزمه على مغادرة الحضرة صونا لها . حيلته ليشق لنفسه طريق الخروج . نجاحه فى الخروج والفرار . التجاؤه إلى الجبل ثم إلى سجلماسة . الضيق والجوع فى مراكش . عيث العرب فى أحوازها . دخول يحيى وابن وقاريط والخلط المدينة . تغلب ابن وقاريط على الخليفة . فرار الموحدين من المدينة . استعداد الرشيد لاستئناف القتال . مسيره إلى مراكش . اللقاء بينه وبين يحيى وحلفائه . هزيمة يحيى والخلط . دخول الرشيد الحضرة وإنقاذها من العيث . غزو الجنويين لسبتة . ظروف هذه المحاولة وفشلها . التنكيل بالجنويين المحليين . مقدم أسطول جنوة ومحاصرته لسبتة . تعويض الجنويين وإقلاعهم . الخلط يدبرون خطة الانتقام . يبعثون ابن وقاريط سفيراً إلى ابن هود . استعداد الرشيد للقضاء على خصومه . مسيره إلى فاس . التجاء يحيى إلى عرب المعقل ومصرعه بأيديهم . يحيى وصفاته . عودة الرشيد إلى الحضرة . حوادث سجلماسة . مسير الرشيد إلى فاس . مهاجمة ابن وقاريط لسلا وفشل المحاولة . عوده إلى إشبيلية . وفاة ابن هود وعودة إشبيلية إلى طاعة الخلافة الموحدية . القبض على ابن وقاريط وإرساله إلى المغرب. إعدام جملة من زعماء الخلط . تعذيب ابن وقاريط وإعدامه . بيعة ابن الأحمر للرشيد . الثورة فى السوس ومصرع زعيمها . المجاعة فى سبتة وأسبابها . بنومرين وسيطرتهم على الأقطار الغربية . وصولهم إلى فاس . تعيين ابن وانودين لولاية الأقطار الغربية . النزاع بينه وبين بنى مرين . تقدم دعوة بنى مرين . مصرع أبى سعيد عثمان أمير بنى مرين . أخوه أبو معرف يخلفه فى الإمارة . الشقاق بين بنى مرين . تحالف ابن وانودين مع بنىعسكر . محاربته لبنىمرين . اجتماع بنى مرين حول زعيمهم أبى معرف محمد بن عبد الحق . مسيرهم إلى مكناسة وفتكهم بالروم التابعين لابن وانودين . مسير

ابن وانودين لقتالهم . لقاء الفريقين قرب مكناسة . هزيمة ابن وانودين وحلفائه . التجاؤه إلى قصر عبد الكريم . تضاعف هيبة بنى مرين وامتداد سلطانهم . ابن وانودين وقصته وعوده إلى مراكش . الرشيد يبطش بوزيره المومنانى . مصرع الرشيد فى حادث البحيرة . مختلف الروايات حول ذلك . خلال الرشيد وصفاته . وزراؤه وكتابه . شخصه .

بويع أبو محمد عبد الواحد الرشيد ، حسبما تقدم عقب وفاة أبيه ، وهو فى طريق عودته على رأس جيشه من سلا إلى مراكش ، وذلك فى مستهل شهر المحرم سنة ٦٣٠ هـ ( ١٨ أكتوبر سنة ١٢٣٢م ) ، وكانت بيعة خاصة انحصرت فى أكابر الأشياخ والسادة ، إذ كتمت وفاة الخليفة الراحل إلى حين . ولما وصل الرشيد فى جيشه إلى الحضرة ، بعد هزيمته لابن عمه يحيى بن الناصر ، واستعدت الحضرة لاستقباله ، بعد أن كانت على أهبة لرده ، مما فصلناه من قبل ، دخلها فى منتصف شهر المحرم ، ونزل بالقصر ، وساد التفاؤل والبشر بين الناس ، وكانت طوائف الموحدين والعرب التى قدمت مع يحيى ، ولاسيما عرب سفيان وشيخهم يومئذ جرمون بن عيسى ، قد عاثت فى أرجاء العاصمة وخربتها ، ونهبت من الأموال والذخائر مقادير طائلة . ووصل مع الرشيد كثير من عرب الخُلط المخلصين له ولأبيه من قبل ، واستقروا فى مختلف الأنحاء ، ووصل معه كذلك عمه السيد أبو محمد عبد الله بن أبى سعد بن المنصور ، فأنزله الرشيد أكرم منزل وولاه وزارته ، وكانت له فى الدولة مكانة رفيعة .

ولما استقر الرشيد بمراكش ، اجتمع الناس على طاعته ، ووصلته البيعات من مختلف الجهات من الحواضر ومن القبائل .

وكان عهد الرشيد الذى استطال زهاء عشرة أعوام ، عهداً بعيداً عن الهدوء والاستقرار ، مليئاً على قصره بالأحداث والانقلابات العنيفة . بيد أنه قد امتاز فى نفس الوقت بوقوع بعض الظواهر الهامة ، وفى مقدمتها عود الموحدين الخوارج ، إلى تأييد الدولة الموحدية ، وإحياء ما اندثر من رسوم المهدى ، والقضاء على تمرد عرب الخلط ، وقبيلة هسكورة ، وتحرير البلاد من عيثهم ، وطغيانهم ، وامتاز أخيراً بتقدم دعوة بنى مرين ، وسيطرتها على معظم الأنحاء الشمالية .

وفى أوائل سنة ٦٣٠ هـ ، قدم إلى مراكش عمر بن وقاريط زعيم هسكورة من جبله ، ومعه أولاد الخليفة المأمون إخوة الرشيد الصغار ، ومنهم السيد أبو الحسن ، وكان أبوه قد تركه بإشبيلية فى كفالة بعض الأشياخ ، ثم أخرجه أهلها ، فأخذ

إلى عمه أبي موسى بسبتة ، ولجأ أولئك الصبية أثناء احتلال يحيي لمراكش إلى هسكورة ، تحت كنف ابن وقاريط ورعايته .

وكان ابن وقاريط منذ البداية من أنصار الخليفة المأمون ، وخصوم ابن أخيه يحيي ، ولكنه لما تولى الرشيد شعر نحوه بشيء من التوجس ، بيد أنه توسل باستصحاب إخوته الصغار أبناء المأمون إلى الحضرة ، إلى نيل عطفه وثقته ؛ ولما وصل إلى مراكش واستقر بها ، توثقت أواصر المودة بينه وبين السيد أبي محمد ابن أبي سعد عم الرشيد ، وصديقه الحميم العلامة الفقيه أبي إسحاق بن الحجر ، وكان من أقطاب عصره علما ومكانة ، بيد أن ابن وقاريط لم يكن صادق الولاء ، وكانت نفسه تجيش بنيات ونوازع مختلفة ، لم تلبث أن كشفت عنها الحوادث .

وكان ابن وقاريط ، شعوراً منه بكثرة جمعه ، وتوطد نفوذ قبيلته ، يكثر من الرغبات والمطالب ، وخصوصاً منذ توفى صديقه وناصحه السيد أبو محمد بن أبي سعد ، وكان الرشيد يستجيب إلى معظم رغباته ، ومن ذلك أنه منحه جباية هزرجة وأغمات وريكة ، وغير ذلك . بيد أنه لم تهدأ ثائرة نفسه ، وفى ذات يوم — آخر سنة ٦٣٠ هـ — غادر مراكش بحجة الاتصال بإخوانه وإصلاح شئونه ، ولكنه لم يعد ، ولم يلبث أن كشف القناع ، وأظهر العصيان للرشيد ، والانضواء تحت طاعة منافسه يحيي المعتصم ، وسار إليه بمقره ببلاد مزالة ، وكان من الواضح أن عمله كان نذيراً ببدء فصل جديد ، من الصراع بين الرشيد ، وبين يحيي وحلفائه .

— ١ —

وذلك أن الرشيد لما علم بما وقع من عقد التحالف بين هسكورة ويحيي ، حشد قواته ، وخرج لقتال خصومه ، واستخلف على مراكش صهره زوج أخته السيد أبا العلى إدريس ، فقام على ضبطها وتسيير أمورها بحزم وكفاية . ولما وقف ابن وقاريط ويحيي ، على أهبة الرشيد للقتال ، أخذا فى استنفار أنصارهما ، واجتمعت حشود هسكورة ومزالة وجلاوة ، وأخذت تتأهب للسير صوب مراكش ، فبعثت أم الرشيد إلى ولدها تستحثه وتهيب به أن يستدرك الموقف قبل أن يهدد الأعداء العاصمة ، فحول الرشيد خط سيره ، وقصد إلى بلاد هزرجة ، واخترق فى طريقه بلاد هسكورة وخرب بسائطها ، واستعد يحيي وحلفاؤه لمنازلته فى حمى بعض الجبال ، فسار الرشيد لقتالهم ، ولما اضطرمت المعركة بين الفريقين ، تخاذل أنصار يحيي وولوا الأدبار ، واعتصموا بالجبال ،

وتركوا محلاتهم ، فاستولى عسكر الرشيد على ما فيها ، وفر يحيى فى فلوله إلى بلاد سجلماسة ، وعاد الرشيد ظافراً إلى مراكش[1] .

وقدم عندئذ إلى الحضرة الزعيم غنصلة (كونثالو) أخو شانجه (سانشو) قائد الروم (الجند النصارى) مع طائفة من الجند النصارى ، وكان قبل مقدمه ، قد جاز على مدينة قادس ، وانقض عليها فى عصبته ، وفتك بأهلها ، وحمل منهم عدداً من الأسرى . وكانت قادس يومئذ تدين بالطاعة لابن هود ، ألد خصوم الخلافة الموحدية ، واستاق غنصلة الأسرى المسلمين معه حتى ثغر آسفى ، فقام أهله بافتدائهم ، وتم تسريحهم ، وبقيت قادس بعد ذلك خرابا حتى تملكها النصارى فيما بعد ، فى عهد ألفونسو العاشر[2] .

وكان أهم ماحدث فى هذا العام — ٦٣١ هـ — هو التقرب بين زعماء الموحدين وبين الرشيد ، وذلك على يد أبى عثمان سعيد بن زكريا الجدميوى . وكان يتردد على جدميوه ، وهى من منازل الموحدين القديمة ، بعض التجار النصارى ، وكان من هؤلاء مبعوث « للرومى » جوان كيس وكيل شانجه قائد النصارى ، وكان هذا المبعوث يتردد على أبى عثمان ، ويقدم إليه مختلف الهدايا تسهيلا لمهامه ، وأبو عثمان من جانبه يقوم بخدمته ومعاونته . ولما علم بذلك جوان كيس قرر أن يزور أبا عثمان وان يوثق معه علائقه ، فاستقبله الزعيم الجدميوى أجمل استقبال ، وانتهز الفرصة فأبدى له رغبته فى العودة إلى الطاعة ، وأن يقوم بذلك المسعى القائد شانجه ، لمكانته من الرشيد ، فأبدى جوان كيس اغتباطه بذلك ، ووعد بتحقيقه . وكان الزعماء الموحدون الخوارج على الرشيد ، قد برموا بحركات يحيى ، وارتمائه فى أحضان هسكورة وابن وقاريط ، وهو خصمهم الأكبر ، وسرت بينهم فكرة العودة إلى الطاعة ، وعقد الصلح مع الرشيد . وكان أبو عثمان يسره أن يكون البادئ بهذا المسعى الحميد . ولما وقف القائد شانجه على ذلك أدرك ما لهذا المسعى من الأهمية والفائدة ، وعرض الأمر على الرشيد وطلب موافقته ، فأبدى الرشيد اغتباطه ، وأصدر عهده لأبى عثمان بالأمان والقبول ، فلما وصل العهد إلى أبى عثمان ، بادر بالسير إلى الحضرة فى أهله وإخوانه ، ومن اتبعه من قبيلته ، فاستقبله شانجه أجمل استقبال ، وصحبه إلى الدار التى خصصت له ، وشمله الخليفة هو وسائر

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٩١ و ٢٩٢ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٤ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٩٢ ، والذخيرة السنية ص ٧٠ .

صحبه بعنايته ورعايته وجزيل صلاته . وأخذ أبو عثمان يعمل على توثيق علائقه برجال الدولة من جهة ، وعلى بث سعيه الحثيث ، لدى زملائه الموجدين من جهة أخرى ، ليجمع كلمتهم على الطاعة ، والعود إلى الالتفاف حول كرسي الخلافة . واستمرت مساعيه ومفاوضاته فى سبيل ذلك حينا ، واستطاع فى النهاية ، أن يقنع زملاءه الموحدين بالعود إلى الطاعة ، على أن يشملهم العفو التام ، وعلى أن تعاد رسوم إمامهم وقوانينهم وتقاليدهم كما كانت ، وهو ما وعد الخليفة بتنفيذه ، وبذل الرشيد من جانبه ، مساعيه لاستجلاب الموحدين ، واستدعائهم إلى الحضرة ، لما فيه خيرهم وصلاحهم ، فبعث الموحدون إليه بالشكر والدخول فى الطاعة ، وأخذوا فى الأهبة للسير إلى الحضرة ، وندب الرشيد لمصاحبتهم والوصول معهم ، عمه موسى بن الناصر ، ولكن حدث أن وقف على ذلك شيخ الخلط مسعود بن حميدان ، ورأى فى انضمام الموحدين إلى الرشيد تقوية لشوكته ، وإضعافا لمركز الخلط ، فرتب قوة من رجاله ، لتعترض الموحدين وتفتك بهم ، وعلم الموحدون بتلك الخطة الغادرة ، فارتدوا إلى جبلهم سالمين . ولما نمى ذلك إلى الرشيد ، استشاط غيظاً ، وتشاور فى الأمر مع وزرائه وخاصته ، واستقر الرأى على استدراج زعيم الخلط والقضاء عليه .

وكان ابن وقاريط خلال ذلك ، يجد فى وضع خططه وإحكام وسائله ، وكان يوحى إلى حليفه القديم ، شيخ الخلط بمختلف المشاريع العدوانية ، وشيخ الخلط مسعود من جانبه ، يعيث فسادا فى الأرض أينما حل ، ويفرض سلطانه الغاشم على الناس ، ويرهقهم بالمغارم والفروض ، ويستبيح الأموال والحُرم ، وكان وكيله ، واسمه موسى الكافر ، رجلا فاجراً يستطيل على رجال الخليفة وخدامه ، دون حياء ولا وازع ، وكان الرشيد يشهد ذلك كله ، مظهراً الصبر والإغضاء ، وهو يضطرم فى قرارة نفسه رغبة فى التخلص من هذا الزعيم المتجبر الباغى ، ويرقب الفرص لتحقيق بغيته .

ولم يكن القضاء على شيخ الخلط بالأمر الهين ، فقد كان يعتمد على قوة محاربة تتألف من نيف وإثنى عشر ألف فارس ، غير الأتباع والحشود التى لاتحصى ، وكانت فرسانه وجنده ، حسنة الأهبة كاملة السلاح ، ولديه من الأموال والثياب والدواب والإبل مقادير وافرة ، وبالجملة فقد كان مسعود ابن حميدان ملكاً غير متوج ، قوى الشوكة ، وافر البأس ، وكان لابد للقضاء عليه

وعلى سلطانه ، من التذرع بكثير من الحكمة والصبر والدهاء (١) .

ووضع الرشيد خطته لذلك بالاتفاق مع وزرائه ونصحائه ، وخلاصتها ، أن يرسل الجيش مع وزيره السيد أبي محمد الكبير فى مهمة إلى بلاد حاحة . ذلك لأن شيخ الخلط كان يخشى المثول فى الحضرة ، مع وجود الجيش ، ومن ثم فقد تحرك السيد أبو محمد بالجيش إلى حاحة يرسم جبايتها . وعلى أثر ذلك بدأ الرشيد مسعاه فى استدعاء مسعود بن حميدان إلى الحضرة ، فقبل الدعوة بعد لأى وتسويف ، واستقبل بمنتهى المودة والإكرام ، وصار يتردد إلى باب الخليفة فى جموعه ، وكان يقيم بالحضرة معاوية بن وقاريط عم عمر بن وقاريط ، وهو يظهر التبرؤ من عمر وفعله ، والولاء للرشيد ، بيد أنه كان من جهة أخرى ، يبدى صداقته لمسعود ، وقد أعد له هو وإخوانه ذات صباح مأدبة حافلة ، ولكن الرشيد لم يصبر على تلك المظاهرة فأمر بالقبض على معاوية وإعدامه ، وكان مسعود فى ذلك الوقت نفسه فى دار الخلافة لمصالح يقضيها ، فلما نمى إليه الخبر لم يهتز له ، وقال لقد أفسد علينا غذاء الخلط ، فأقيمت له ولأصحابه فى الحال مأدبة عظيمة ، وبولغ فى إكرامه والحفاوة به .

وهنا وضع الرشيد خطته للإيقاع بمسعود ، حينما يفد على القصر ، وبث له الكمائن من الفتيان والعبيد والحشود ، داخل القصر وحواليه . فلما حضر مسعود أذن له بالدخول ، فطلب أن يدخل مع أصحابه ، ولكنه أجيب إلى الدخول بمفرده ، ومنع الصحب ، فتردد أولا ثم ارتضى أن يدخل وحده ، فلما وصل إلى مكان معين احتاط به يحيى بن عبد الرحيم ، ونفر من العبيد والفتيان ، فشعر بالخطر يحدق به ، وشهر سيفه وصاح برفاقه الذين تخلفوا ورائه ، وتمكن من اللحاق بهم ، فشهروا سلاحهم وحاولوا الخروج ، ولكن الأبواب كانت قد أغلقت ، ففتحوا الباب الأول ، بعد جهد ، ولكن لقيهم من ورائه ابن ماكسن صاحب الشرطة وأعوانه ، ولكنهم استطاعوا التغلب عليهم ، ووثبوا إلى الباب الثانى ، ولكنه كان أيضاً مغلقاً ، وهجم عليهم فى ذلك الفناء ، كل من كان كامنا فى الرياض من الفتيان والكتاب والخدم ، وعرف الجميع أن العرب هم المطلوبون ، ودافع مسعود ورفاقه عن أنفسهم أعنف دفاع ، ولكن السيوف تلقفتهم من كل ناحية ، وتساقطوا حول زعيمهم واحداً بعد الآخر ، ثم كانت الخاتمة بمصرع

---

(١) البيان المغرب ص ٢٩٥ — ٢٩٨ .

مسعود، فسقط مضرجا بدمه، واحتز رأسه فى الحال، وحمل إلى الرشيد ، فحمد الله على ما حقق من هلاك هذا الخصم الخطر ، وفى الحال أمر الرشيد بالقبض على من كان بالحضرة من عرب الخلط ، وقتلهم ، والطواف بجثهم ، وكان مصرع مسعود بن حميدان ، وانهيار سلطانه على هذا النحو ، عمل انقاذ لموقف شديد الحرج ، إذ كان عرب الخلط قد اشتد عيثهم فى أنحاء البلاد ، واغتصبوا جباياتها وعشورها ، وأصاب البلاط الموحدى من جراء ذلك منتهى الضيق والإرهاق(١).

ولم يمض على مصرع زعيم الخلط سوى أيام قلائل ، حتى عاد الجيش الذى أوفد إلى بلاد حاحة ، بقيادة السيد أبى محمد ، بعد أن قام بمهمته . وعلى أثر ذلك قام الرشيد بتوجيه كتبه إلى الموحدين بالوفادة عليه، بعد أن مهد السبيل، وزالت العقبات ، فبعث الموحدون إليه منهم رسولين ، هما أبو بكر بن يعزى التينمللى ، ومحمد بن بزريجن الهنتاتى ، فاستقبلا فى الحضرة بمنتهى الترحاب والبشر والتكريم ، وغمرهما الرشيد بعطفه ورعايته . وأبديا للخليفة شروط الموحدين للعودة ، وهى إعادة ما نسخه أبوه الخليفة المأمون ، من رسوم الإمام المهدى ، وذلك بإعادة اسمه فى الخطبة ، ونقشه فى السكة ، وإعادة الدعاء له بعد الصلاة ، والنداء « بتاصليت الإسلام» « وسودوت» « ناردى » « وأصبح ولله الحمد» وغير ذلك مما جرى عليه التقليد ، منذ قيام الدولة الموحدية ، وقضى المأمون بإزالته ، وتبعه فى ذلك ولده الرشيد ، فوعد الرشيد بتحقيق مطالبهم . وعلى أثر ذلك قدم الموحدون إلى الحضرة ، ونزلوا فيما خصص لهم من الدور ، وانتظموا كما كانوا فى طاعة الخلافة، وتمهل الرشيد وقتاً فى تنفيذ ماوعد به من إحياء رسوم المهدى، ولكنه لما شهد قلقهم وتوجسهم من ذلك ، بادر بتنفيذ عهده ، وأعيدت رسوم المهدى ابن تومرت كما كانت قبل إلغائها ، واستقبل الموحدون ذلك بمنتهى العرفان والرضى(٢)،وقرن الرشيد ذلك بأن رد على الموحدين دورهم وأملاكهم وأموالهم، وسائر حقوقهم وامتيازاتهم القديمة، فطابت نفوسهم، واتسعت أحوالهم، وأقبلوا على الانضمام إلى الجيش، والاضطلاع بنصيبهم من المسئوليات والشئون ، ولاح أن الدولة الموحدية قد استردت سابق تماسكها ووحدتها وقوتها(٣) .

---

(١) البيان المغرب ص ٣٠١ — ٣٠٣ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٥ .

(٢) البيان المغرب ص ٣٠٤ و ٣٠٥ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٤ .

(٣) البيان المغرب ص ٣٠٦ .

— ٢ —

على أن الأمر لم يكن كذلك فى الواقع . ذلك أن الدولة الموحدية لم تكن عندئذ سوى بقية هزيلة مما كانت عليه . ولم يكن سلطان الخليفة الموحدى يتعدى يومئذ أحواز العاصمة الموحدية — مراكش — وما إليها ، وكانت أطرافها قد قصت من كل ناحية ، ففضلا عن انسلاخ إفريقية ، وقيام دولة بنى حفص المستقلة بها ، فقد غلب بنو مرين على معظم الأنحاء الشمالية الشرقية ، وابثت طوائف العرب ، ولاسيما عرب الخلط ، مسيطرة على الأنحاء القريبة من العاصمة ، واستقر يحيى المعتصم مع فلوله فى قطاع سجلماسة . ومن جهة أخرى ، فقد كان لمقتل مسعود ابن حميدان زعيم الخلط ، نتائج بعيدة المدى . ذلك أن طوائف الخلط هاجت وماجت ، وأزمعت الانتقام ، واختارت لزعامتها يحيى بن هلال بن حميدان ، واضطرمت كلها بنار الفتنة ، وانتهز ابن وقاريط تلك الفرصة ، ليضع يده مع الخلط ، وليذكى فيهم ظمأ الانتقام والعيث ، وكان منذ هزيمته فى هزرجة ، قد لبث إلى جانب يحيى المعتصم . واستنفر الخلط سائر حشودهم ، فاجتمعت منهم جموع غفيرة ، وانضم إليهم يحيى وابن وقاريط بقواتهما ؛ وزحفت الجموع المشتركة على مراكش ، وعاثت فى أحوازها ، وانتسفت الزروع والرياض والبحائر القريبة ، وضربت المدائن والقرى ، وانقطعت المؤن والأمداد عن الحضرة ، واشتد بها الضيق ، وأخذ الجند فى التسلل إلى الخلط ، فعندئذ رأى الرشيد أن يدفع بقواته لمقاتلة المهاجمين ، فخرج غنصالة ، (كونثالو) قائد الروم فى فرسانه ، ومعه جند الرشيد ، إلى وادى تانسيفت ، حيث اجتمع الخلط وهسكورة ، وكان معه أيضاً عبد الصمد بن يلولان الهسكورى ، خصم ابن وقاريط الألد فى جمع من أنصاره ، ونشب بين الفريقين قتال عنيف ، وقاتل الروم ومن معهم بمنتهى الشجاعة ، ولكن تكاثرت عليهم الخلط وهسكورة وفتكت بهم ، فهزموا هزيمة شديدة ، وارتدت فلولهم عند دخول الليل إلى المدينة ، فأغلقت أبوابها ، وساد بها الاضطراب والفزع ، وزاد الضيق وعدمت الأقوات ، وانهارت هيبة الخلافة والخليفة ، وأخذت الأمور تنذر بأخطر العواقب ( ٦٣٢ هـ — ١٢٣٤ م )[١].

وعندئذ اقترح الموحدون على الرشيد ، صونا للمدينة ، وانقاذاً لها من الحصار والخراب ، وانقاذاً لأهلها من الهلاك والأسر ، أن يغادرها الرشيد ، وأن يلجأ

(١) البيان المغرب ص ٣٠٧ و٣٠٨ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٥ .

إلى جبال الموحدين فى قاصية جبال الأطلس ، فقبل الرشيد هذا الرأى ، ولكن كان لابد لتنفيذه من أن يلتمس الرشيد له طريقاً للخروج والإفلات ، من خصومه المتربصين به خارج الحضرة ، ومن ثم لجأ الرشيد إلى الحيلة ، فأمر بأن يكتب خطابان على لسان جرمون شيخ عرب سفيان ، موجهان إليه ، بانتصار عرب سفيان على الخلط ، وأنهم مرابطون فى وادى أم الربيع ، وأنهم مازالوا على ولائه وطاعته . وقد كان عرب سفيان دائماً من أنصار المأمون وولده الرشيد ، وكانوا من أعداء الخلط ، ثم عهد بالخطابين المزورين إلى رسولين ( رقاصين ) أجزل لهما العطاء ، وأمرا بأن يمرا قرب محلة الخلط ، وأن يتظاهرا بأنهما قادمين من لدن عرب سفيان إلى الرشيد ، فتمت الحيلة ، وقبض الخلط على الرسولين ، وضبط الكتابان ، فقررا أنهما قدما من لدن جرمون ، وأنه مقيم بحشوده فى وادى أم الربيع ، وخشى الخلط أن يكون قد وقع مكروه لباقى مواطنهم ، فقوضوا محلتهم خارج الحضرة ، وساروا مع حلفائهم بنى هسكورة صوب وادى أم الربيع[1] .

وماكاد الخلط وحلفاؤهم يبتعدون عن الحضرة ، حتى بادر الرشيد فجمع أمواله وعتاده ومتاعه ، وغادر مراكش فى أهله وولده ، ووجوه دولته ، وأشياخ الموحدين ، واستخلف على المدينة أبا محمد عبد الله بن زكريا ، وخرج فى أثره كثير من الناس بأهلهم ، ولحسن الطالع لم يتعرض له أحد فى ذلك اليوم ، فسار فى أمن حتى وصل ومن معه إلى أغمات . ولما علم الخلط بما حدث بعد يوم أو اثنين ، هرعوا فى أثر الخليفة الفار ، وحاصروه بأغمات مدى يومين ، شغلوا خلالها بالبحث عن الأقوات والمؤن ، وتحيل الرشيد من جهة أخرى فى الخروج صوب الجبل ، فنجح ، ووصل إلى أطراف الجبل ، قبل أن يفطن إلى ذلك خصومه ، ثم بعث بجنده إلى تينملل ، ولما أدرك الخلط ماحدث ، ولم يجدوا أحداً بالمحلة ، ارتدوا على أعقابهم إلى حيث أتوا .

وسار الرشيد فى قواته جنوبا ، فاخترق بلاد هرغة ، ثم اتجه شرقاً صوب سجلماسة ، وكان واليها أرقم بن يحيى بن شجاع بن مردنيش ، فامتنع ، واستعد للمقاومة . ولكن طائفة من النصارى كانت بالمدينة ، فتحت الأبواب وأعلنت الطاعة ، فدخل الناس المدينة وأسعفوا بالأقوات ، وهدأت الأحوال .

وكانت مراكش ، منذ غادرها الرشيد ، قد ساد بها الاضطراب والضيق ،

---

(١) البيان المغرب ص ٣١٠ و ٣١١ .

وعزت الأقوات واشتد الكرب ، وأكل الناس كل ما وصل إلى أيديهم من صنوف النبات والحشائش ، ومات كثير من الجوع ، وكان العرب خارج المدينة يحولون دون إغاثتها وتموينها ، ويقيمون هم فى خصب وسعة . ثم كان أن تسور المدينة السيد أبو إبراهيم بن أبى حفص الملقب بأبى حاقة ، وفر الوالى أبو محمد بن أبى زكريا ، وضبط السيد أبو ابراهيم البلد ، وأمل الناس أن ينقذهم من عيث العرب وبطشهم ، وبدأت تباشير الفرج بوصول الناس إلى الحقول والزرع الأخضر.

وفى تلك الأثناء وصل يحيى المعتصم وابن وقاريط وطوائف الخلط إلى المدينة ، فتوجس الناس شراً ، ودخل يحيى فى الحال مراكش واحتلها ، واستولى أصحابه من العرب والهساكرة على الدور ، ووزر ليحيى يومئذ أبو محمد بن وانودين ، وأبو يحيى بن زكريا بن يجلد ، ودخل ابن وقاريط فى أشياعه ، ونزل بدار الوزير السابق أبى سعيد بن جامع ، واقتسم الزعماء القصور والرباع الفخمة ، وغلب ابن وقاريط والعرب على الخليفة الضعيف يحيى . وكان المسيطر عليه يومئذ فتى أفاق يدعى بلال ويكنى أبا حمامة ، وأوقع بلال هذا بعلى أخى يحيى ووشى به ، فأمر يحيى بالقبض عليه ثم إعدامه ، بالرغم من شفاعة ابن وقاريط والخلط ، وكثر الإرجاف ، وساءت الظنون ، وخرج الموحدون الذين كانوا بالمدينة ، وغادروها تباعا بمختلف الوسائل والحيل ، وساروا إلى الجبل ، وانتظروا يرقبون الحوادث .

وكان دخول يحيى مراكش على هذا النحو فى أواخر سنة ٦٣٢هـ ( ١٢٣٥م ) فلبث بها حتى أوائل العام التالى ، وكان الرشيد فى تلك الأثناء بسجلماسة ، ينظم شئونه ، ويتخذ أهبته للمعركة المرتقبة . فلما شعر بعد بضعة أشهر بتحسن أحواله وازدياد قواته ، واستجاب إلى نصرته عرب سفيان ، وشيخهم جرمون بن عيسى ، عول على التحرك والعمل . فخرج فى قواته من سجلماسة ، قاصداً إلى مراكش ، وترامت هذه الأنباء إلى الحضرة ، فسرى إليها الاضطراب ، وخرج منها يحيى ، وضرب محلته فى ظاهرها استعداداً للقاء الرشيد ، وقد تزايدت قواته بحشود حلفائه من الخلط وهسكورة .

وسار الرشيد فى قواته أولا صوب وادى أم الربيع ، ثم هبط منه نحو العاصمة ، وهنالك فى مكان يسمى أوجدام التقى الفريقان ، ونشب بينهما قتال هائل ، استمر طول اليوم دون حسم ، ثم استؤنفت المعركة بعد بضعة أيام ، ونشبت بينهما معركة عنيفة أخرى ، انقض خلالها الروم من عسكر الرشيد ، على ناحية

الخلط ، وهاجموهم بشدة ، وفتكوا بهم ، فولى الخلط الأدبار مع أميرهم ، وتحطمت جبهة يحيى وحلفائه ، وانتهبت محلاتهم ، وسبى أولادهم ونساؤهم ، وتحقق للرشيد نصر كامل ، ودخل الرشيد حاضرته فى حفل فخم ، فأغدق صلاته على حلفائه من عرب سفيان ، فاتسعت أحوالهم ، وزادت جموعهم ، وأعلن الصفح عن خصومه ، وساد التهادن والسلم ، وتم ذلك فى أواسط أو أواخر سنة ٦٣٣ هـ ( ١٢٣٦ م )(١) .

وكانت هزيمة الخلط على هذا النحو الشامل ، ضربة شديدة لتلك الطوائف الباغية المفسدة ، أنقذت بها الخلافة الموحدية ، وأنقذت مراكش من كابوس خانق ، فانتظمت الأحوال وانتعشت النفوس ، وعمرت الديار ، وارتفعت المظالم المرهقة ، التى كانت هذه الطوائف تنزلها بالناس ، وأخذ الرشيد يستعد لمطاردة الخلط ، والقضاء عليهم ، وكانوا عندئذ قد انفضوا عن يحيى ، وفر يحيى فى نفر يسير من صحبه مفلولا كسيراً ، والتجأ إلى جماعة من عرب المعقل .

وحدث فى هذا العام — سنة ٦٣٣ هـ — الذى بلغت فيه الحرب الأهلية ذروتها من الاضطرام ، حادث لم يلتفت البلاط الموحدى إلى خطورته ، وإلى خطورة دلالته ، وهو غزو الجنويين لثغر سبتة ، ومحاولة الاستيلاء عليه . وكان الجنويون يفدون فى سفنهم إلى سبتة للاتجار مع أهلها ، ومع القبائل المجاورة ، وترتب على ذلك أن نزل بها وبأرباضها كثير منهم ، ففكر جماعة منهم فى الاستيلاء عليها ، لأهميتها البحرية والتجارية ، فنمى ذلك إلى واليها عندئذ ، وهو أبو العباس اليانشتى ، فكتب إلى القبائل المجاورة يستنفرهم ، وحدد لوفودهم يوما معينا . وفى ذلك اليوم ، وفدت على سبتة ، منهم جموع غفيرة ، وخرج اليانشتى للقائهم ، فأدرك الجنويون فشل مشروعهم ، وأسرعوا إلى باب المدينة ، يحاولون امتلاكه فردتهم عساكر البربر ، وقتلوا منهم عددا كبيرا ، ورمى كثير منهم أنفسهم إلى البحر ، ووصلوا إلى سفنهم الراسية فيه ، ونهبت أموال الجنويين وفنادقهم ، وهرع من بقى منهم إلى جنوة ، وأبلغوا أهلها ماحدث ، فحشد أهل جنوة فى الحال نحو مائة مركب ، وساروا لمحاصرة سبتة ، ولما وصلوا إليها نصبوا عليها المجانيق ، وضيقوا عليها ، وعولوا على ضربها وأخذها بالحصار ، فبادر صاحب المدينة اليانشتى إلى مفاوضتهم ، واتفق معهم على تعويضهم عن كل ماحدث من الخسائر

(١) البيان المغرب ص ٣١٨ — ٣٢٤ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٥ .

لمواطنهم ، وقدر هذا التعويض بمبلغ أربعمائة ألف دينار دفعها أهل سبتة، فتسلم الجنويون المال ، وأقلعوا عن المدينة، ووقع ذلك فى سنة ٦٣٣هـ ( ١٢٣٦م ) ، أو فى سنة ٦٣٢ هـ( ١٢٣٥ م ) وفقاً لرواية صاحب روض القرطاس ، وتضع بعض الروايات تاريخ هذا الحادث فى سنة ٦٣٦ هـ( ١٢٣٨ م )[١] .

وفى تلك الأثناء كان عرب الخلط يجمعون فلولهم ويدبرون خططهم . ذلك أنهم لم ييأسوا من المقاومة ، واقترح عليهم ابن وقاريط أن يعترفوا بطاعة صاحب الأندلس ، محمد بن يوسف بن هود ، وأن يستنصروا به ، لكى يرسل إليهم جنداً لمحاربة الرشيد ، فوافق العرب على ذلك ، وندبوا ابن وقاريط وجماعة من أعيانهم للسير إلى ابن هود . وكان ابن وقاريط فى الواقع يتوق إلى مغادرة المغرب ، بعد أن شعر بفداحة هزيمته وخسران قضيته ، فعبر البحر مع رفاقه إلى الأندلس ، ووفد على ابن هود ، فرحب بمقدمهم ، وشملهم بعطفه وجوده، ولبثوا بإشبيلية فى ضيافته وتحت كنفه، حتى سنة ٦٣٥هـ ، وانتظر عرب الخلط وأمرهم فوضى ، نتيجة هذه السفارة ، حتى تحرك الرشيد حركته الثانية ، فدب إليهم الذعر وتفرقوا فى مختلف الأنحاء .

وكان الرشيد عندئذ ، قد استعد لحرب خصومه أعظم استعداد ، وبذل الأعطية على نطاق واسع ، وشمل الموحدين بسابغ عطفه وكرمه ، وندب لولاية مراكش الشيخ أبا على بن أبى محمد عبدالعزيز ، ولأشغالها أبا عبدالله بن أبى زيد التينمللى ، ولقضائها أبا زيد المكادى ، ولشرطتها يوسف بن عثمان الهنتاتى .

وسار الرشيد فى قواته أولا إلى فاس ، والناس يرحبون به أينما حل . وفى فاس نظر فى الشئون ، وطلب تحصيل الجبايات، وأرسل الجيش إلى غُمارة بقيادة الوزير السيد أبى محمد سعيد بن المنصور . وخلفه فى الوزارة الشيخ أبو موسى ابن عطوش . وبقى الموحدون فى فاس . وحصلت الجبايات العظيمة من قبائل غمارة وفازاز ، ومنح الجند أعطيتهم ، ووسع عليهم ، واستقامت الأمور ، وتحسنت الأحوال .

ووقع خلال إقامة الرشيد بفاس حادث حسم ، هو مصرع يحيى المعتصم . وذلك أنه كان عقب هزيمته الأخيرة الساحقة ، قد لجأ إلى عرب المعقل بقرب رباط تازا ، واستجار بهم ، فآووه ووعدوه بمؤازرتهم ونصرتهم ، ولكنهم

---

( ١ ) راجع فى غزو سبتة البيان المغرب ص ٣٤٦ و ٣٤٧ ، وروض القرطاس ص ١٨٣ .

أخذوا يرهقونه بمطالبهم ، فى إصدار الظهائر لهم بامتيازات وحقوق معينة ، أملا منهم فى عوده إلى الخلافة ، فأبى يحي ذلك عليهم ، فقتلوه غيلة ، ودفنوا شلوه ، وذلك فى يوم الاثنين ٢٨ رمضان سنة ٦٣٣هـ ( مايو سنة ١٢٣٦ م ) ، وذلك بمكان يسمى فحص الزاد ، يقع بين فاس ورباط تازا ، ثم بعثوا برأسه إلى الرشيد وهو بفاس(١) ، فبعث بها الرشيد « فى زق عسل » إلى مراكش ، ومعها كتاب إلى الوالى أبى على بن أبى محمد ، فاستدعى الوالى الناس ، وقرأ عليهم كتاب الخليفة ، وعلق الرأس على باب الشريعة(٢) .

وقام الوالى أبو على فى نفس الوقت ، بناء على أمر الخليفة ، بإعدام بعض زعماء العرب من سفيان وجابر ، وكانوا معتقلين بسجن الحضرة .

وهكذا كانت خاتمة يحي المعتصم بن الناصر بن المنصور ، بعد حياة مضطربة شريدة ، استطالت مذ بويع بالخلافة لأول مرة فى شوال سنة ٦٢٤ هـ ، حتى مصرعه فى رمضان سنة ٦٣٣ هـ ، تسعة أعوام ، لم ينعم خلالها بالاستقرار ، والاتشاح بثوب الخلافة ، سوى فترات يسيرة ، كانت تتخللها مغامرات ومعارك مستمرة ، أولا مع عمه ومنافسه القوى ، أبى العُلى المأمون ، ثم بعد ذلك مع ابنه الرشيد . وكان يحي شخصية ضعيفة ، لا تتميز بشىء من الإرادة أو حسن التصرف ، وكان طول الوقت آلة فى يد أنصاره ، يوجهونه كيفما شاءوا ، وإذا كنا نضعه من حيث الشكل فى ثبت الخلفاء الموحدين ، فإن عهد خلافته المتقطع ، لم يقترن من الناحية العملية ، بأى تصرف أو أثر يذكر .

— ٣ —

وفى أوائل سنة ٦٣٤ هـ ، غادر الرشيد فاس عائداً إلى مراكش ، فدخلها فى موكب فخم ، واستقرت الأمور ، وانتظمت الأحوال ، وساد الهدوء والسلام ، وقام الرشيد بتعيين عمال النواحى ، واستقام أمر الموحدين ، وأخذوا فى تنظيم شئونهم ، وحرث أراضيهم ، وتذوق الحياة الوديعة الهادئة .

وحدث فى هذا العام أن استطاع أبو محمد بن وانودين والى درعة ، الاستيلاء على سجلماسة ، وكانت قد خرجت عن الطاعة . وذلك أن الرشيد لما غادر سجلماسة

---

(١) البيان المغرب ص ٣٣٩ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٥ ، وروض القرطاس ص ١٦٦ . وهو يسمى الموضع الذى قتل به يحيى ، « بفيج عبد الله من أحواز رباط تازا » .

(٢) البيان المغرب ص ٣٣٠ .

عين يوسف بن على التينمللى والياً لها ، فاستعمل قريبا له وهو يحى بن أرقم ابن مردنيش لإدارتها ، وثار بيحيى ثائر من صنهاجة وقتله ، فقام ولده أرقم ، واستطاع أن يتغلب على المدينة ، وأن يفوز بحكمها مكان أبيه ، وخشى أرقم أن يعزله الرشيد ، فاستقل بالمدينة ، وامتنع بها ، فمازال أبومحمد بن وانودين به ، حتى أقنعه بالعودة إلى الطاعة ، واستطاع أن يسترد منه المدينة ، وعفاعنه الرشيد[1]

وغادر الرشيد الحضرة إلى فاس مرة أخرى ، واستخلف على مراكش الشيخ أبا محمد بن أبى ابراهيم. وفى أثناء إقامته بفاس، وفد عليه رسل بنى مرين، فأكرم مقدمهم ، وأجزل صلتهم . وكان الخليفة الموحدى يدرك ما انتهى إليه بنو مرين يومئذ من القوة والشأن ، ويبذل وسعه فى مصانعتهم واسترضائهم .

ووقع عندئذ حادث مزعج ، هو مفاجأة ابن وقاريط سلا بالهجوم عليها ، ومحاولة أخذها . وكان ابن وقاريط مذ عبر إلى الأندلس لاستنصار ابن هود ، قد لبث فى إشبيلية يرقب الفرص ، ثم اقترح على ابن هود مشروعاً لفتح سلا ورباط الفتح ، وطلب منه بعض السفن ، ليستعين بها فى تنفيذ مشروعه ، فوافق ابن هود ، وقدم لابن وقاريط سفينتين . وكان على ولاية سلا يومئذ ، السيد أبو العُلى صهر الرشيد زوج أخته فاطمة بنت المأمون ، فسار ابن وقاريط فى حملته البحرية الصغيرة ، وفاجأ سلا بالهجوم عليها ، ولكنه لقى مقاومة شديدة ،واضطر أن يرتد أدراجه . واهتم الرشيد لذلك الحادث وبعث إلى سلا فاستقدم أخته وأمه إليه ، وكانت معها ، حرصا على سلامتهما[2] .

وكانت هذه خاتمة محاولات ابن وقاريط . ذلك أنه ماكاد يعود إلى إشبيلية حتى تطورت الحوادث، وتوفى المتوكل ابن هود فى ألمرية فى جمادى الأولى سنة ٦٣٥هـ ، حسبما فصلنا ذلك فى موضعه ، وعندئذ قام أهل إشبيلية بزعامة أبى عمرو ابن الجد وأعلنوا خلع طاعة بنى هود ، والعودة إلى طاعة الخلافة الموحدية ، وعقدوا بيعتهم للرشيد ، وبعثوا إلى مراكش وفداً لتقديم بيعتهم . وحدث مثل ذلك فى سبتة ، حيث قام أهلها بخلع صاحبها أبى العباس اليانشتى ، وبايعوا للرشيد، وبعثوا ببيعتهم وفداً إلى الحضرة . وحدث فى نفس الوقت أن قام أهل إشبيلية بالقبض على ابن وقاريط ، وكان الفضل فى ذلك راجعاً إلى فقيه من أهل فاس يدعى

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٦ ، والبيان المغرب ص ٣٣١ .

(٢) البيان المغرب ص ٣٤١ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٦ .

أبو عبد الله المومنانى كان مقيما بإشبيلية ، وبه ولاء للدولة الموحدية ، فحرض أهل المدينة على القبض على الزعيم الخارج ، وإرساله إلى المغرب ، لما فى ذلك من إرضاء للخلافة ، وتحقيقاً لسلامها ، فقبض على ابن وقاريط ، وأرسل إلى المغرب محروساً فى سفينة ، رست به على ثغر أزمُّور ، وهنالك تسلمه الوزير الشيخ أبو زكريا بن عطوش . وكان فى سجن أزمور عدة من زعماء الخلط ، كان الرشيد قد تحيل فى استدعائهم وقبض عليهم ، وبعث جنده فاستباحت محلاتهم وسبت أولادهم ونساءهم ، ثم اعتقلوا بأزمور ، فأمر الرشيد بإعدامهم ، فأعدموا وحزت رؤوسهم ، وأودعت فى سفط وضع فوق جمل ، أركب عليه ابن وقاريط وأرسل إلى مراكش على تلك الحالة . فلما وصل إلى الحضرة ، احتاط به الناس ، وأخذوا فى لعنه ، ثم أودع السجن ، وأعدم بعد أيام قلائل ، وعلقت جثته على باب الشريعة ( أواخر سنة ٦٣٥ هـ ) وبذلك انتهى أمره ، واستراح الرشيد من خصم من أخطر خصومه ، وأشدهم عناداً وجلداً[١] .

وفى العام التالى ( ٦٣٦ هـ ) ، وصلت إلى الرشيد بيعة محمد بن الأحمر صاحب غرناطة ومالقة ، وكان ابن الأحمر ، يتردد فى الطاعة بين الانضواء تحت طاعة ابن هود ، والخلافة الموحدية والخلافة العباسية ، وقد لبث يدعو للرشيد وللخلافة الموحدية ، حتى وفاة الرشيد فى سنة ٦٤٠ هـ .

وحدث فى هذا العام أيضا — ٦٣٦ هـ — أن خرج ببلاد السوس ثائر يدعى بابن ياوجى ، وامتنع بحصن تيوينوين ، والتف حوله كثير من الناس ، وانضم إليه عرب المعقل ، فدس إليه أبومحمد بن أبى زكريا والى السوس رجلا من جزولة ، استطاع أن يدخل الحصن وأن يقتله ، ثم قطع رأسه وحمل إلى مراكش ، وبذلك أخمدت ثورته فى مهدها ، وقد عرف حصن تيوينوين هذا من قديم ، بأنه كان دائماً مركزاً للشقاق والعصيان ، وبه خرج من قبل أبو قصبة ، ثم ثار به ابن الفرس وامتنع به حتى اغتيل وقتل[٢] .

وفى سنة ٦٣٧ هـ ، وقعت بسبتة وأحوازها مجاعة عظيمة ، واشتد القحط والغلاء ، وسمى هذا العام « عام سبعة » وكان ذلك من جراء الفتن المتوالية ، التى عصفت بالمناطق الغربية ، ومن جراء الشرق وقلة الأمطار حتى عدمت الموارد ،

---

( ١ ) البيان المغرب ص ٣٤١ و٣٤٢ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٦ .

( ٢ ) البيان المغرب ص ٣٤٤ .

وهلكت الزروع ، وتفاقم الضر بعيث طوائف العرب ، ولاسيما عرب رياح ، فى أحواز مكناسة ، وفاس ، ونشوب المعارك المتوالية بينهم وبين زناتة ، وأحيانا بينهم وبين بنى مرين . وقد أوقع بهم بنو مرين ومزقوا جموعهم ، واستولوا على أموالهم ودوابهم وسلاحهم ، وكان بنو مرين يجوبون عندئذ سائر الأقطار الغربية ، ويفرضون سلطانهم ، على معظم القبائل والطوائف النازلة فى تلك الأنحاء ، ويقمعون أهل الشر والفساد ، من العرب وغيرهم ، ممن يعيثون فى تلك المناطق فساداً ، حتى أمنت السبل ، واستقامت الأمور ، وعلت كلمة بنى مرين وهيبتهم ، ودخل الناس فى طاعتهم ، وأخذوا فى جباية الضرائب والمكوس ، فاتسعت أحوالهم ، وقويت شوكتهم ، وغلب لديهم الرخاء والنماء[1] .

وقد سبق أن تناولنا نشأة بنى مرين ، وخروجهم من منازلهم القفرة بوادى ملوية ، إلى أنحاء المغرب ، وما وقع بينهم وبين الموحدين ، أيام يوسف المستنصر من المعارك ، وكيف أنهم وصلوا فى زحفهم داخل أنحاء المغرب حتى أحواز فاس ، وكيف أنه لم ينقذ الدولة الموحدية يومئذ من خطر تقدمهم الداهم ، سوى ما وقع بينهم من الشقاق الداخلى . وقد لبث بنو مرين فى تلك الفترة التى اشتغلت فيها الخلافة الموحدية بحروبها الداخلية ، يعملون على توطيد مركزهم ، وتوسيع سلطانهم ، والاندفاع غربا داخل أقطار المغرب ، حتى أنهم فرضوا الإتاوة على مكناسة وغيرها من البلاد المجاورة ، وكان أميرهم فى الوقت الذى نتحدث عنه ، هو أبو سعيد عثمان بن عبد الحق ، ولم يكن الرشيد غافلا عن خطورة حلول بنى مرين فى تلك المنطقة الهامة من مناطق المغرب ، ولكنه نظراً لازدياد قوتهم ، كان يؤثر مصانعتهم وعقد السلم معهم .

ولما دخلت طنجة وسبتة فى طاعة الرشيد ، واستقامت الأمور نوعا فى أواخر سنة ٦٣٥هـ ، عين الرشيد لولاية المناطق الغربية أبا محمد عبد الله بن وانودين . وكان ابن وانودين من خيرة زعماء الموحدين ، وكان يمت إلى بيت الخلافة بصلة المصاهرة ، إذ كان متزوجاً بالسيدة بنت يوسف المستنصر ، وكانت له بذلك مكانة فى الدولة . وكان قد وزر ليحيى المعتصم ، ثم تركه ولحق بخدمة الرشيد ، فولاه بلاد درعة فى سنة ٦٣٢ هـ ، ونجح ابن وانودين أثناء ذلك فى استخلاص سجلماسة ، من يد أرقم ابن مردنيش حسبما تقدم ، فولاه الرشيد عليها ، ثم عاد إلى مراكش فى سنة ٦٣٤هـ .

(١) البيان المغرب ص ٣٤٨ ، ٣٤٩ .

ولما عين الرشيد ابن وانودين لولاية الغرب ، عين معه فى نفس الوقت أبا على بن خلاص البلنسى لولاية سبتة ، وعين للنظر على دار الصناعة أبا زكريا ابن مزاحم الكومى . وخرج ابن وانودين من مراكش فى عسكر كبير ، من الموحدين والمطوعة والعرب ، وفوض له الرشيد النظر فى أحوال البلاد ، فسار أولا إلى بلاد غمارة ، لينظر فى شئونها ، فثارت عليه بعض قبائلها ، وكان عدد من هذه القبائل قد دخل فى طاعة بنى مرين . وكان الرشيد يعتمد على فطنة ابن وانودين ، ولباقته فى معالجته الأمور مع بنى مرين بالكياسة والحسنى ، وقد بعث معه بعض أحمال من الكسى الفاخرة برسم بنى عبد الحق وأشياخ بنى مرين ، ولكن ابن وانودين ماكاد يصل إلى مقربة من أحيائهم ، حتى بادرهم بالخصومة والعداء ، وطالبهم برد الفارين إليهم من بنى غمارة ، فرفضوا ، ووقع النزاع بين الفريقين ، وانتهى إلى القتال بينهما ، فأغار بنو مرين على محلة ابن وانودين ، وقتلوا جملة كبيرة من أجناده ، وعلم الرشيد بما حدث ، فأمره بالاستقرار فى تلك المنطقة ، تحوطا لحركات بنى مرين[1] .

واستمر أمر بنى مرين فى تقدم ، وأطاعتهم معظم القبائل فى تلك المنطقة ومنها هوارة وتسولة ومكناسة ، وصالحتهم بعض المدن على أموال معلومة ، يؤدونها فى كل عام ، وكان منها فاس ومكناسة ورباط تازا وغيرها . وكان بنو مرين يرون ، بعد أن ضعفت الدولة الموحدية ، وعجز الخلفاء الموحدون عن ضبط البلاد ، وخرجت معظم المدن والقبائل عن طاعتهم ، وانتشرت الفوضى فى معظم الأنحاء ، أنهم غدوا أولى بالنظر فى شئون الدين ، وصون مصالح المسلمين ، وحمايتهم من العدوان والفوضى[2] .

وفى سنة ٦٣٧ ﻫ ، وقيل فى محرم سنة ٦٣٨ﻫ ( ١٢٤٠ م ) قتل أمير بنى مرين أبوسعيد عثمان بن عبدالحق ، اغتاله فتى من علوجه رباه صغيراً ، ثم هرب هذا العلج إلى ابن وانودين . وقيل عندئذ أن ابن وانودين هو الذى حرضه على ارتكاب جريمته[3] . فخلفه فى رياسة بنى مرين أخوه الأمير أبو معرف محمد ابن عبد الحق . فاطاعه بنو مرين ، ولكن خالف عليه أبناء عمومته بنو حمامة ، وعاد

---

( ١ ) البيان المغرب ص ٣٥٠ و ٣٥١ .

( ٢ ) روض القرطاس ص ١٩٢ .

( ٣ ) البيان المغرب ص ٣٥١ ، وروض القرطاس ص ١٩٢ ، والذخيرة السنية ص ٦٢ .

الشقاق القديم بين بنى حمامة وبنى عسكر يمزق صفوفهم . وبعث ابن وانودين ، بقلم كاتبه أبى الحسن السرقسطى إلى الرشيد ، يعرفه بما تقدم من شئون بنى مرين ، وقد اغتر ابن وانودين بما حدث بينهم من شقاق ، وأظهر المودة لبنى عسكر وتحالف معهم ، ونهض معهم بالفعل إلى مقاتلة بنى عبد الحق ( بنى حمامة ) ، والتقى الفريقان على مقربة من سلفات ، وخسر كل من الفريقين قتلى ، وارتد ابن وانودين مع الموحدين وبنى عسكر ، ونزل بظاهر مكناسة ، واشتد فى معاملة أهلها ، وفرض عليهم المغارم الفادحة ، لأنهم كانوا يدينون بطاعة بنى عبد الحق ، ثم سار إلى فاس ففعل بها مثل ماتقدم ، ثم عاد إلى مكناسة ، ونزل على مقربة من جبل زرهون الواقع فى شمالها ، ففر منه الناس فى مختلف الأنحاء[١] .

واجتمع بنو مرين حول أميرهم محمد بن عبد الحق ، وانضمت إليهم حشود من زناتة ، وغيرها ، وساروا إلى مقربة من مكناسة واصطدموا هنالك بقوة من النصارى ( الروم ) كان ابن وانودين قد بعثها لحراسة تلك المنطقة ففتكوا بها ، وعندئذ وضع ابن وانودين خطة لمهاجمة بنى مرين ، وسار فى قواته من الموحدين والعرب وبنى عسكر ، وتأهب بنو مرين للقائه . ونشبت المعركة بين الفريقين على قيد نحو ثمانية أميال من مكناسة ، فقاتل بنو مرين بعنف وشجاعة ، وفتكوا بالموحدين وحلفائهم ، وحقت الهزيمة الفادحة على ابن وانودين ، ومزق عسكره ، من العرب وبنى عسكر ، فلجأ ابن وانودين إلى مكناسة ، وامتنع بها . واستولى بنو مرين على محلته ، وسائر ما فيها من المتاع والدواب ، ثم غادر ابن وانودين مكناسة فى جملة من الخيل ، ومعه ابنه أبو زكريا ، وقصد إلى قصر عبد الكريم ( القصر الكبير ) حيث لحق هنالك بأسرته وامتنع به . ووقعت هذه الحوادث فى أواخر سنة ٦٣٧ هـ[٢] .

وكانت هزيمة ابن وانودين على هذا النحو ، ضربة جديدة للخلافة الموحدية وكسبا جديداً لبنى مرين زاد فى قوتهم وفى هيبتهم ، وامتد سلطانهم بذلك إلى جهة القصر الكبير ، ومن فيها من عرب رياح ، ودخل فى طاعة الأمير محمد بن عبد الحق ، من تخلف من قبائل بنى مرين ، وسائر قبائل غمارة وغيرها ، وأصبح

( ١ ) البيان المغرب ص ٣٥٢ .

( ٢ ) البيان المغرب ص ٣٥٣ .

بنو مرين يتجولون فى تلك الأنحاء سادة أحراراً ، وجنح الرشيد إلى مهادنتهم ، ومصانعتهم ، وكانت بينه وبينهم مراسلات ودية .

وعلم ابن وانودين وهو فى ملجئه بقصر عبد الكريم ، أن كثيراً من أهل البلاد التى كانت تحت حكمه ، قد كتبوا فى حقه إلى الرشيد ، وشكوا مما كان ينزله بهم من المظالم ، واتهموه بأنه كان يقصد أن يحذو فى منطقته حذو بنى حفص ، وأن يستقل بحكمها ، وأن الرشيد قد صدق هذه الاتهامات ، فغادر قصر عبد الكريم ، وقصد إلى جبال الموحدين ، وسار ليلا ونهاراً حتى وصل إليها ، بالرغم من مطاردة بنى مرين ، وبقى لاجئاً إليها ، حتى نمى إليه أن الرشيد ، تحقق فى النهاية من براءته مما نسب إليه ، فعاد إلى مراكش ، وأكرم الرشيد وفادته .

وفى سنة ٦٣٩هـ ( ١٢٤١ م ) ، بطش الرشيد بوزيره وكاتبه أبى حفص ابن المومنانى ، وكان من أكابر الدولة وأعلام الكتاب ، وله عند الرشيد حظوة ومكانة رفيعة . ولكنه ارتكب زلة خطيرة حينما وجه خطابا خاصاً إلى صديقه السيد أبى حفص عمر بن عبد العزيز بن المنصور ، يهنئه فيه باسناد إحدى الولايات إليه ، ويقول له فى خطابه إنها « إنشاء الله ابتداء الخلافة » ، وأخطأ الرسول ، ودفع الخطاب إلى أهل القصر ، فوقع فى يد القائد أبى المسك ، ودفعه أبو المسك إلى الرشيد ، فلما وقف عليه الرشيد ، أمر من فوره بقتل المومنانى والسيد أبى حفص ، فنفذ أمره فى الحال وهلك الرجلان ضحية عبارة طائشة[١] .

بيد أنه لم تمض بضعة أشهر على ذلك الحادث الدموى ، حتى هلك الرشيد نفسه . ذلك أنه خرج ذات يوم للتنزه فى إحدى الرياض التى كان قد أنشأها بجوار القصر ، وكانت توجد فى تلك الروضة بحيرة صغيرة ، أو صهريج وفقا لوصف المؤرخ ، فنزل فى هذه البحيرة مع بعض جواريه فى زورق برسم التنزه ، فانقلب الزورق بمن فيه ، وغرق الرشيد ومات لوقته ، وقيل إنه انتشل محموما من الماء ، وحمل إلى القصر ، وهنالك توفى بعد ثلاثة أيام . وكان غرق الرشيد فى يوم الثلاثاء السابع من جمادى الآخرة سنة ٦٤٠هـ (٢ديسمبر سنة١٢٤٢م) فإذا أخذنا بالرواية الثانية ، فتكون وفاته فى اليوم العاشر من جمادى الآخرة الموافق ليوم ٥ ديسمبر . وفى رواية ثالثة ينقلها إلينا ابن عذارى عن مصادر مسندة عن حاجب الرشيد ، أن الرشيد نزل بزورقه فى الصهريج فى ليلة باردة ،

---

(١) البيان المغرب ص ٣٥٧ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٦ .

ثم خلع عمامته ، فلما أزالها أصابته نزلة شديدة ، فأخرج من الزورق ، وحمل إلى قصره حيث توفى ، فى يوم الجمعة العاشر من جمادى الثانية سنة ٦٤٠ هـ[١] . وكان الرشيد حينما توفى فى الرابعة والعشرين من عمره ، وقد استطالت خلافته أكثر من عشرة أعوام .

* * *

وكان الرشيد ، كأبيه الخليفة المأمون ، يتمتع بطائفة من الخلال القوية اللامعة ، من الذكاء والجرأة، وحدة النفس ، وقوة العزم، وبعد النظر ، ولو لم ترغمه الحوادث على أن ينفق أعوامه العشرة فى مقارعة خصومه ، والدفاع عن عرشه ، لكان لنا أن نتوقع منه خططا وأعمالا إنشائية أخرى ، ربما كان لها أثرها فى إنقاذ الدولة الموحدية ، وإطالة حياتها . بيد أنه تولى العرش وحكم فى ظروف سيئة ، وكانت التيارات الخصيمة ، قد سارت قدما فى تقويض هيكل الدولة الموحدية ، وتحطيم أسسها ، ولم يكن باقيا منها سوى شبح باهت ، يرتكز من الناحية المادية ، على رقعتها الجنوبية . وكان من أهم ماعمله المأمون لتقوية الدولة من الناحية المعنوية ، هو استدعاء بقية الزعماء الموحدين إلى مؤازرته ، بعد أن بطش بهم أبوه ، ومزق شملهم ، ولو أنه اضطر فى سبيل ذلك إلى إعادة العمل برسوم المهدى الدارسة .

وقد وزر للرشيد ، السيد أبو محمد عبدالله بن أبى سعد بن المنصور ، وأبو زكريا بن أبى الغمر ، وأبو عبد الله محمد بن عبد الله الجنفيسى ، وأبو على بن أبى محمد عبد العزيز ، وذلك بالتعاقب ، ثم تولى الجنفيسى مرة أخرى ، وبالرغم من أن الرشيد لم يكن كأبيه المأمون أديبا ولا كاتبا ، فقد استخدم لكتابته ، عدة من أعلام كتاب العصر المغاربة والأندلسيين ، مثل أبى زكريا الفازازى ، وأبى عبد الله القباجى ، وأبى عبد الله ابن أبى عشرة ، وأبى عبد الله الفازازى ، وأبى المطرف ابن عميرة المخزومى ، وأبى الحسن الرُّعينى ، وأبى عبد الله التلمسانى . وكان من هؤلاء من كتب لأبيه من قبل مثل أبى زكريا الفازازى ، وأبى المطرف بن عميرة ، وأبى الحسن الرعينى .

وتصف الرواية الرشيد ، بأنه كان فتى أزهر اللون ، أشقر ، كث اللحية ، حسن القد ، فى وجهه نمش يسير[٢] .

---

(١) البيان المغرب ص ٣٥٨ . وفى روض القرطاس (ص ١٧١ ) والذخيرة السنية (ص ٦٤) أن وفاة الرشيد كانت فى يوم الخميس التاسع من جمادى الآخرة .

(٢) البيان المغرب ص ٢٨٣ .

# الفصل الثانى

## عصر الخليفة أبى الحسن على السـعيد

مبايعة الخليفة ، أبى الحسن على السعيد . شخصيته القوية . وزراؤه وكتابه . مطاردته لخصومه . مصانعته لعرب الخلط وغيرهم . عنايته بأمر الروم . خروج الهزرجى بسجلماسة . تلمسان والمغرب الأوسط . بطون زناتة الخارجة على الموحدين . استيلاء يغمراسن زعيم بنى عبد الواد على تلمسان . يقيم بها إمارة مستقلة . خصومته لبنى مرين وبنى حفص . علائقه الودية ببلاط مراكش . توجس الأمير أبى زكريا من ذلك . تأهبه لغزو تلمسان . محاصرته لها . فرار يغمراسن واستيلاء أبى زكريا على تلمسان . ستدعاؤه ليغمراسن وتأمينه وتعيينه لولايتها . اهتمام الخليفة السعيد بأمر سجلماسة . فرار بعض أشياخ الموحدين والتجاؤهم إليها . مسير السعيد إلى درعة . مخاطبته لأشياخ سجلماسة ووعوده لهم . سعى أبى زيد بن زكريا الجدميوى لرد المدينة إلى الطاعة . نجاحه فى ذلك بمداخلة الجند النصارى . القبض على الهزرجى واعدامه . خلع سبتة وإشبيلية لطاعة الخلافة الموحدية ومبايعتهما لأمير إفريقية . خروج السعيد لمقاتلة بنى مرين . هزيمة بنى مرين ومصرع أميرهم . رواية أخرى عن حركة السعيد وعلاقته الودية ببنى مرين . قبض السعيد على ابن وانودين والوزير ابن عطوش وغيرهم . إعتقالهم بأزمور . فرار ابن وانودين والتجاؤه إلى جبل هنتاتة . ما تدل به محنته من اضطراب البلاط الموحدى . خروج كانون زعيم عرب سفيان وتحالفه مع بنى مرين . تأهب السعيد للحرب . مسيره فى قواته صوب تامسنا . القتال بينه وبين بنى مرين وحلفائهم . هزيمة بنى مرين ومسيرهم نحو الغرب . مسير عرب سفيان لمهاجمة أزمور . مسير السعيد إلى مطاردتهم . مهاجمة السعيد لهم وتمزيقهم . فرار كانون فى فلوله . تولى الأمير أبى يحيى لزعامة بنى مرين . خروج بنى عسكر عليه . تحالفهم مع الموحدين ثم نكثهم . محاولة السعيد لاستمالة يغمراسن وفشل محاولته . محاصرة بنى مرين لمكناسة . ثورة أهلها على الموحدين . إقناع بنى مرين لزعيمها أبى العافية بمبايعته أمير إفريقية . صدى هذه الحوادث فى البلاط الموحدى . ماأصاب الدولة الموحدية من التمزق . أهبة السعيد لتدارك الموقف . عود عرب سفيان وغيرهم من العرب إلى الطاعة. مسير السعيد فى حشوده صوب وادى ملوية . نزوله قبالة بنى مرين . توجس بنى مرين وإيثارهم للسلم . نزولهم عن البلاد التى احتلوها . عقد الصلح بين الفريقين . مسير السعيد إلى مكناسة . خروج أهلها إليه والتماسهم العفو. العفو عنهم وتأمينهم . بيعتهم الجديدة . مسير السعيد إلى فاس ثم تلمسان . مشروع السعيد فى استردادها ثم محاربة أمير إفريقية . التقرب بين صقلية وبين الموحدين . استدعاء السعيد ليغمراسن ورفض يغمراسن الحضور . فراره والتجاؤه إلى تامزجدرت . مسير السعيد لمطاردته . سلوكه شعب الجبال . خروج كائن بنى عبد الواد عليه . مصرعه ووزيره . تمزق قوى الموحدين وارتداد فلولهم إلى مراكش . السعيد وعزمه وخلاله . صفته .

فى نفس اليوم الذى توفى فيه الرشيد ، وهو يوم الجمعة العاشر من جمادى الآخرة سنة ٦٤٠هـ ( ٥ ديسمبر سنة ١٢٤٢ م ) ، تم اختيار الخليفة الجديد ،

وهو أبو الحسن على بن أبى العُلا إدريس بن يعقوب المنصور ، وهو أخو الخليفة الراحل . وكان أكابر الدولة، وأشياخ الموحدين ، قد اتجهوا أولا إلى اختيار ولد الخليفة المتوفى الصبى ، فاعترض بعضهم على ذلك ، وقالوا سئمنا خلافة الصغار، ولم يلتفت الجماعة فى البداية إلى أبى الحسن على ، أخى الخليفة ، لأنه كان أسود ، شديد السواد ، ولد جارية نوبية ، ولكن أبا محمد بن وانودين كبير أشياخ الموحدين ، نهض فبايع السيد أبا الحسن ، وكان موجوداً ضمن السادة من القرابة، وأقعده فى مجلس الخلافة ، فتتابع فى أثره القرابة والأشياخ ، وبايعوه ، وبذا تم اختياره لكرسى الخلافة(١) .

وتلقب الخليفة الجديد بالسعيد ، وبالمعتضد بالله ، ولكن غلب عليه اللقب الأول . وكان اختيار أبى الحسن للخلافة أمراً موفقاً ، فقدكان بشخصيته القوية ، وعزمه ، وسطوته ، أقوى رجل فى الدولة ، وكان وجوده فى كرسى الخلافة فى تلك الظروف العصيبة ، التى تجوزها الدولة الموحدية ، من العوامل المطمئنة المشجعة ، الباعثة على الاستبشار والأمل .

واستوزر السعيد ، السيد أبا اسحق بن أبى ابراهيم ، وأبا زكريا بن عطوش، وأبقى فى منصب الكتابة ، الكاتبين البليغين ، أبا الحسن الرعينى ، وأبا عبد الله التلمسانى .

وكان أول عمل قام به السعيد ، هو أن قبض على جملة من أشياخ الموحدين ، المعارضين لبيعته ، وسجنهم ، وأغرمهم أموالا ، وسجن كذلك أم أخيه الرشيد ، حبابة الرومية وأغرمها أموالا ، وذلك اتقاء لشرها ودسائسها ، ثم أخذ فى مصانعة عرب الخُلط ، واستدعى طوائفهم من بلاد السوس وغيرها ، وقربهم ، وأغدق عليهم صلاته ، وكذلك استدعى زعماء العرب ، من جشم وغيرهم ، ليستظهر بهم ، وكان شيخ سفيان كانون بن جرمون من أوثق حلفائه ، ولم ينس كذلك أمر المرتزقة ، وهم فرقة الجند « الروم » التى جلبها معه أبوه المأمون ، فعنى بأمرهم أشد عناية ، وكانوا يقيمون بكنيستهم التى بنوها فى العاصمة الموحدية ، ويشتركون فى سائر حملات الخليفة الحربية(٢) .

وفى بداية عهده خرج عليه عبد الله بن زكريا الهزرجى بسجلماسة ، وكان

---

(١) البيان المغرب ص ٣٥٨ و ٣٥٩ .

(٢) البيان المغرب ص ٣٥٩ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٦ .

من المعارضين لبيعته ، ودعا للأمير أبى زكريا الحفصى صاحب إفريقية ، ومن جهة أخرى فقد حدثت بالمغرب الأوسط حوادث مقلقة حول تلمسان . وكانت تلمسان ، كإفريقية ، قد خرجت عن سيادة الموحدين ، وقام على رياستها زعيم بنى عبد الواد القوى يَغْمُراسن بن زيان . ويجدر بنا أن نشرح ظروف هذا التحول فى مصاير تلمسان . وذلك أنه على أثر غزوات ابن غانية للمغرب الأوسط وأحواز تلمسان ، وتخريبه لهذه النواحى ، نهضت قبائل زناتة الخارجة على الموحدين ، وفى مقدمتهم بنو عبد الواد ، وبنو راشد ، وبنو توجين ، ونفذوا إلى أحواز تلمسان والمغرب الأوسط ، وكانت أمصار المغرب الشرقية ، قد خربت من جراء غزوات ابن غانية ، فلم تجد قبائل زناتة ، الضاربة فى المغرب الأوسط أمامها من الحواضر الغنية سوى تلمسان ، تعيث فى أحوازها ، وتقوم بأعمال النهب والسلب المستمرة . وكان الموحدون قد عنوا بتحصين تلمسان ، وتشييد أسوارها ، حتى غدت من أمنع أمصار المغرب ، ولكن ذلك لم ينجها من قدرها المحتوم . وكان آل زيان من بنى عبد الواد من أقوى وأبرز بطون زناتة المغامرة ، وكانت منازلهم تقع فيما بين البطحاء ووادى ملوية غربى تلمسان ، وكان زعيمهم يَغْمُراسن بن زيّان بن ثابت من أشد زعماء هذا الحى بأسا ، وأعظمهم مكانة ، وقد تولى رياسة قومه منذ سنة ٦٣٣ هـ ، وانضم إليه بنو مظهر وبنو راشد الخارجان من قبل على قومه ، ولم يجد يغمراسن صعوبة فى الاستيلاء على تلمسان ، وانتزاعها من حاميتها الموحدية الضعيفة ، فجعل منها قاعدته ، وجند الجند وتزيا بزى الإمارة ، ومحا آثار الدولة المؤمنية ، ولم يترك من رسومها سوى الدعاء للخليفة بمراكش ، ووفد عليه من الأندلس لفيف كبير من شرقها ، وعلى رأسهم ابن وضّاح ، فأكرم وفادتهم ، وقرب ابن وضاح وقدمه للشورى ، ووفد عليه أيضاً أبو بكر بن خطاب وكان كاتبا بليغا ، وشاعراً جزلا ، فعينه لكتابته ، ولاسيما فى مخاطبته للخلفاء الموحدين ، وأمراء تونس . وكان يغمراسن يتحرز من نيات بنى عبد المؤمن وبنى حفص ، وكذلك من أطاع بنى مرين ، وكان بينه وبينهم وقائع متعددة [1] . ولكنه كان يرتبط مع البلاط الموحدى برباط المودة ، وكان الرشيد يحبوه بصداقته ، ويهاديه حتى لاينحرف إلى محالفة بنى مرين ،

---

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ٧٧ و ٧٨ و ٧٩ .

وكان عند جلوس الخليفة السعيد ، قد بعث إليه بهدية من الخيل العتاق ، وكتب إليه يعاهده على قتال بنى مرين ، فلما وقف الأمير أبوزكريا ، أمير إفريقية على ذلك ، خشى أن يعقد السلم كذلك بين يغمراسن وبنى مرين ، ثم يقع التحالف بين الثلاثة على محاربة إفريقية ، ورأى أن يبادر بالعمل لإحباط مثل هذه الخطة ، ووفد عليه عندئذ بعض زعماء زناتة ، وشجعوه فى مشروعه ، لغزو تلمسان وأخذها ، وجمع كلمة زناتة بذلك ، والتمهيد لخطته فى الاستيلاء على ملك الموحدين . وقام الأمير أبو زكريا بأهبات عظيمة ، وسار إلى تلمسان فى جيش ضخم ، ومعه عدد وافر من الرماة ، وضرب حولها الحصار ( أواخر سنة ٦٣٩ هـ ) وضربها الرماة بشدة ، فأدرك يغمراسن أنه لا أمل فى المدافعة ، وخرج من تلمسان فى أهله وخاصته ، فلما اعترضه الجند المحاصرون فتك بهم ، وشق لنفسه طريقا ، ولحق بالصحراء ، ولجأ إلى جبل قريب ، ودخل أبو زكريا تلمسان ، وعفا عن أهلها ، ولما بحث مع خاصته من الموحدين ، فى أمر من يوليه عليها ، أشاروا عليه بتقديم يَغْمُراسن ، باعتباره أصلح من يقوم بأمرها ، فاستدعاه ، وأمنه ، وولاه عليها وعلى أعمالها ، وفق عهود وشروط معينة ، وذلك لكى تغدو حاجزاً بين مملكة إفريقية ، وبين شمال المغرب ، حيث أخذ سلطان بنى مرين ينمو بصورة مزعجة ، وكان ذلك فى شهر ربيع الأول سنة ٦٤٠هـ ( أوائل ١٢٤٣ م)(١) .

وعنى الخليفة السعيد أولا بأمر سجلماسة ، وكان واليها الثائر يدعو بها للأمير أبى زكريا الحفصى ، ويستجلب إليه العرب من كل صوب ، وقد فوض إليه الأمير أبو زكريا الأمور ، ووعده بالعون والإمداد ، وكان جماعة من أشياخ الموحدين ، ممن خشوا بطش السعيد وغدره ، يعتزمون الفرار والالتجاء إلى سجلماسة ، وكان السعيد قد خرج عندئذ فى قواته من مراكش ، ونزل فى وادى تانسيفت على مقربة منها ، واستطاع الفرار من أولئك الأشياخ ، أبوزيد عبدالرحمن ابن زكريا الجدميوى ، وابن واجاج ، وأبو سعيد العود الرطب الهنتاتى ، ولكن قبض على أبى عثمان سعيد أخى أبى زيد ، وهو زعيم حركة التقرب الموحدى من الخلافة ، وأمر السعيد بقتله ، بعد أن استصفى سائر أمواله بمراكش . ولحق الزعماء الفارون بسجلماسة بعد جهد ومشقة ، ونزلوا فى كنف واليها الثائر ، وسار

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٧ و ج ٧ ص ٨١ ، والبيان المغرب ص ٣٦١ و ٣٦٢ ، والذخيرة السنية ص ٦٤ و ٦٥ ، وتاريخ الدولتين للزركشى ص ٢١ .

أبو سعيد الهنتاتى إلى تونس ، فتلقاه أميرها بترحاب وإكرام[1] .

وكان والى سجلماسة عبد الله بن زكريا الهزرجي يجد عندئذ فى الحركة والأهبة للمدافعة ، والامتناع بمدينته الحصينة ، وكان السعيد من جانبه ينوى أن ينكل بالثائر ، وأن يسحق حركته ، لتكون عبرة لأمثاله ، فسار فى قواته إلى درعة ، فبعث إلى أشياخ سجلماسة بظهير يعدهم فيه بالاعتناء والتكريم ، وعندئذ رأى أبو زيد بن زكريا الجدميوى فرصة سانحة للعمل والعود إلى الطاعة ، فداخل قواد النصارى بالمدينة ، وقام النصارى بالضغط على العرب ، من حراس باب القصبة ، واستطاع أبو زيد أن يدخل القصبة مع أشياخ سجلماسة ، وأن يشحنها بالرماة والحماة ، وفى الحال بعث إلى السعيد ينبئه بما حدث ، فشكره السعيد أجزل الشكر ، وعفا عنه ، وحظى لديه ، وقبض فى تلك الأثناء على عبد الله بن زكريا ، وساقه بعض العرب مصفدا إلى السعيد ، فأمر بإعدامه ، وأعدم بالرغم مما بُذل لإنقاذه من شفاعة وضراعة ، وحمل رأسه وعلق على باب الكحول بمراكش . وعاد السعيد إلى الحضرة ، دون أن يدخل سجلماسة ، وذلك فى سنة ٦٤٢ هـ ( ١٢٤٤ م )[2] .

ووقعت عندئذ حوادث أخرى تدلى بتفكك الدولة الموحدية ، وتصدع هيبتها ، ومن ذلك ما عمد إليه أبو على بن خلاص البلنسى والى سبتة ، من خلع طاعة الدولة الموحدية ، وماعمد إليه أيضاً أهل إشبيلية بالأندلس ، حيث خلعوا كذلك طاعة الدولة الموحدية ، وذلك بتوجيه زعيمهم أبى عمرو بن الجد ، واتجهت المدينتان سبتة وإشبيلية إلى مبايعة صاحب إفريقية ، الأمير أبى زكريا الحفصى ، وبعثت إشبيلية بيعتها إلى تونس مع وفد من كبرائها ، وكذلك بعث ابن خلاص ولده ببيعته فى سفينة خاصة ومعه هدية للأمير الحفصى ، فغرقت السفينة بمن فيها ، وذلك كله حسبما فصلناه فى موضعه من قبل ، أضف إلى ذلك ماكان من تقدم الدعوة المرينية فى شمال المغرب ، وزحف بنى مرين باضطراد داخل الأقاليم المغربية .

ومن ثم فقد خرج السعيد فى نفس العام — ٦٤٢ هـ — من مراكش مرة أخرى قاصدا إلى الأقاليم الغربية ، ومعه حشود المصامدة والعرب والروم ،

---

( ١ ) البيان المغرب ص ٣٦٣ و ٣٦٤ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٧ .

( ٢ ) البيان المغرب ص ٣٦٦ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٧ .

فى جيش ضخم ، تقدره بعض الروايات بعشرة آلاف فارس ، والبعض الآخر بأكثر من عشرين ألفا . وهنا تختلف الرواية ويحيق الغموض بما تلا من تحركات السعيد، ذلك أنه يقال تمشياً مع هذه الرواية ، أن السعيد زحف نحو بنى مرين ، واستعد بنو مرين بقيادة أميرهم أبى معرّف محمد بن عبد الحق للقاء الموحدين ، ووقع اللقاء بين الفريقين بموضع من أحواز فاس يسمى « أغلان » فنشبت بينهما معركة عنيفة ، واستمر القتال حتى دخل الليل ، وكان أمير بنى مرين يتقدم جنده ، فقصد إليه فارس من فرسان الروم يدعى خوان جايتان ، وطعنه بحربته فسقط صريعاً ، وانكشف بنو مرين ، وطاردهم الموحدون فلحقوا بجبال غياثة على مقربة من أحيائهم ، فامتنعوا بها ، واختاروا للولاية عليهم مكان أميرهم القتيل ، أخاه أبا يحيي أو أبا بكر بن عبد الحق ، وكان ذلك فى جمادى الآخرة سنة ٦٤٢ هـ ( أواخر ١٢٤٤ م )[١] .

هذا ما يقوله لنا صاحب الذخيرة السنية وابن خلدون ، ولكن توجد ثمة رواية أخرى هى رواية ابن عذارى ، وهى أن السعيد حينما خرج فى سنة ٦٤٢هـ، إلى الأقاليم الغربية ، قصد أولا إلى مدينة فاس ، وأقام بها أياما ، نظر فى شئونها وعزل بعض عمالها وعين آخرين غيرهم ، ثم غادر فاس إلى المقرمدة ، ضاحيتها الشرقية مستطلعاً لأحوال بنى مرين وأخبارهم . ثم يقول ابن عذارى أن جو المهادنة كان يسود بين الفريقين ، وأنه وقعت بين السعيد وبين زعيم بنى مرين الأمير أبى يحيي ، مراسلات ودية ، فارتد السعيد أدراجه إلى مركش ، دون أن يعكر صفو السلم بين الفريقين[٢]. فهل يمكن أن يكون الصلح قد عقد بين السعيد وبنى مرين ، عقب هزيمتهم ومقتل أميرهم ، وبذلك يمكن التوفيق بين الروايتين ؟

على أن ما حدث بعد ذلك ، من تصرفات بنى مرين العدائية ، ضد الدولة الموحدية ، مما سوف نذكره بعد ، لايمكن أن يؤيد هذا الفرض .

وتتمة لأحداث سنة ٦٤٢هـ ،نقول إنه حدث فى هذا العام أيضاً أن أمر السعيد بالقبض على أبى محمد بن وانودين ، وهو كما تقدم قطب أشياخ الموحدين، وإليه يرجع الفضل فى اختيار السعيد لكرسى الخلافة ، وذلك دون أسباب واضحة، وقبض معه فى نفس الوقت على أبى زكريا بن مزاحم ، وأبى زكريا بن عطوش،

---

( ١ ) الذخيرة السنية ص٦٦و٦٧وابن خلدون ج ٧ ص١٧١ وكذلك روض القرطاس ص ١٩٣ .
( ٢ ) ابن عذارى فى البيان المغرب ص ٣٦٦ .

وأرسلوا جميعاً إلى أزمور ، فسجنوا بها تحت حراسة قوية ، ولكن ابن وانودين لم يستكن إلى محنته ، وأخذ يدبر الحيلة فى فراره ، حتى أتيح له أن يشترى أحد حراسه ، وأن يفر من السجن بمعاونته وتدبيره ، وخرج من سجنه تحت جنح الظلام ، فقصد إلى منازل عرب سفيان ، فوصلها عند الصبح ، وبعث معه زعيمهم كانون بن جرمون ، لفيفاً من الفرسان ، سار فى صحبتهم ، حتى وصل إلى جبال الموحدين ، ولحق بقومه هنتاتة . ولما علم السعيد بما حدث أمر بضرب رقاب الحراس ، وعلقت رؤوسهم على السور ، كما أمر بالإفراج عن ابن عطوش وابن مزاحم، وبعث إلى ابن وانودين عشرة من وجوه الموحدين مع خاصته ، فقصدوا إليه بتامزاورت وأبلغوه أسف السعيد لما حدث ، وبزوال ماكان فى نفسه ، فأعرب ابن وانودوين عن شكره للخليفة ، ولكنه تمسك ببقائه فى جباله ، ليعيش بها مع أهله وولده ، فوافق السعيد على مطلبه ، وعاش ابن وانودوين بتيفنوت حتى توفى(١)، وكانت محنة ابن وانودوين هذه ، مثلا بارزا ، لما كان عليه البلاط الموحدى فى ذلك الوقت ، الذى غرب فيه نجم الخلافة الموحدية ، من اضطرام بمختلف الأهواء العنيفة ، والخيانات المزرية ، التى لايبررها أى باعث معقول أو أية مصلحة عامة .

ثم خرج على السعيد كانون بن جرمون وقومه عرب سفيان ، وعاد إلى طاعته بالعكس عرب الخُلط وبنو جابر . وتحالف كانون مع الأمير أبى يحيى ابن عبد الحق ، أمير بنى مرين ، وحشد بنو مرين حشوداً كبيرة ، فى منطقة الغرب ، واجتمعت حولهم بنو راشد الزناتيين ، وبنو وراو ، وبنو سفيان . وأدرك السعيد خطورة هذه الحركة ، فتأهب للحرب ، ومنح الموحدين والجند بركاتهم وأعطياتهم التقليدية ، واستدعى حشود العرب من بنى جابر والخلط وغيرهم ، وخرج من مراكش فى قوات غفيرة ، وسار موكبه وفقاً للترتيب القديم المأثور لدى بنى عبد المؤمن ، من تعاقب السادات والوزراء والأشياخ ، وكان وزيراه يومئذ أبو زكريا بن عطوش الكومى والسيد أبو اسحق بن أبى ابراهيم . واستخلف على مراكش أخاه أبا زيد ، وندب أخاه أبا حفص عمر واليا لسلا ، واستمر سير الخليفة وجيشه ، على هذا النحو شمالا ، حتى منطقة تامسنا ، وقد اجتمعت هنالك حشود بنى مرين ، تحت إمرة الأمير أبى يحيى ، ومعهم حلفاؤهم الذين

(١) البيان المغرب ص ٣٦٨ — ٣٧٠ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٧ .

سبق ذكرهم ، وذلك على مقربة من واسنات ، وقد استعدوا للقتال .

ووقعت المناوشة الأولى بين الطلائع على شرب الماء ، ففتك جند بنى مرين بالمرتزقة النصارى ، فلما علم السعيد بذلك ، أمر بخوض المعركة ، فاضطرم القتال بين الفريقين حتى جن الليل فافترقا . وفى اليوم التالى وقع بين أيدى الموحدين ، عبد من عبيد بنى مرين العارفين بأمورهم ، وأخذ إلى السعيد ، فذكر أن الأمير أبى يحيى قد اتفق مع حلفائه ، على القتال فى يوم معين ، فاستعد السعيد للقتال ، فى اليوم المذكور ، ووقع القتال فيه فعلا ، وضاعف الموحدون جهودهم ، حتى اضطر بنو مرين وحلفاؤهم ، إلى الارتداد ، وقصدوا إلى جهة الغرب . وهمّ السعيد أن يطاردهم فى اليوم التالى ، لولا أن ترامى إليه أن كانون بن جرمون وعرب سفيان ، قد غادروا الميدان ، فخشى السعيد أن تكون هذه الحركة ، موجهة إلى مراكش ، على نحو ماحدث من قبل ، من عرب الخلط ، فترك مطاردة المرينيين ، وسار فى قواته جنوبا صوب مراكش .

ولكن كانون وقومه كانوا قد سلكوا طريقاً آخر ، أقرب وأيسر منالا من الحضرة ، هو طريق أزمُّور ، فسار إليها كانون واستولى عليها ، بمعاونة زعيمها على بن يزيمر التامردى ، ونهبها عرب سفيان وأغرموا أهلها أموالا ، ولاسيما اليهود الساكنين بها ، وكان واليها ابن معنصر الكومى ، قد غادرها ، وسار إلى تحية السعيد بتامسنا . ولما علم كانون برجوع السعيد من قتال بنى مرين ، غادر أزمور فى حشوده ، وسار إلى أحياء دُكالة . ووقف السعيد على وجهته فسار إليه ، ودهمه هنالك ، وفتك بقومه ، وأفنى معظمهم ، وفر كانون فى فله القايل إلى الغرب ، وبعث السعيد برؤوس قتلى سفيان إلى مراكش ، فعلقت على سورها ، ودخل السعيد أزمور ، وعفا عن أهلها وقبض على ابن يزيمر ، وأرسله مصفداً إلى مراكش ، حيث قتل هنالك ، ولم تحدد لنا الرواية تاريخ هذه الوقائع ولكن يبدو من المرجح أنها وقعت فى أوائل سنة ٦٤٣ هـ ( ١٢٤٥ م )[١] .

— ٢ —

لما تولى الأمير أبو يحيى بن عبد الحق ، زعامة قومه بنى مرين ، كان أول ما فعله هو أن قسم مناطق المغرب ، الواقعة تحت سيادة بنى مرين ، بين القبائل المرينية ، وخص كل قبيلة بناحية منها لاتتعداها ، ثم سار فى أهله وحشمه وجنده

---

( ١ ) البيان المغرب ص ٣٧٠ — ٣٧٣ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٣٥٧ .

فنزل فيما بين سلفات وجبل زرهون ، شمالى مكناسة ، فاضطرمت المنافسة القديمة بين أحيائهم ، وخالف بنوعسكر مرة أخرى على أميرهم ، وانحازوا إلى الموحدين ، فحرضوهم على بنى عبد الحق . واهتم الخليفة السعيد ، بنزول بنى مرين ، على مقربة من مكناسة ، وضغطهم عليها ، فسار فى قواته مرة أخرى إلى فاس ونزل بها ، وهنالك بايعته قبائل بنى عسكر ، وفاوض من جهة أخرى يَغْمُراسن بن زيّان صاحب تلمسان ، للانضمام إليه ، فقدم عليه فى قوة من الفرسان ، ولكن هذه المحاولة فى جمع خصوم بنى مرين ، انتهت بالفشل ، لأن بنى عسكر عادوا فنكثوا لرفض السعيد أن يطلق سراح رهائنهم ، واضطروا إلى مهاجمته سرية من الحشم والروم ، كان قد أرسلها إليهم مع مولاه عنبر لملاطفتهم ، فقبضوا على أفرادها ، حتى اضطر السعيد ، إلى تسريح رهائنهم . ومن جهة أخرى فقد كان يغمراسن ، زعيما لاتؤمن نياته ، وخططه ، فلم يلبث أن عاد فى جنده إلى تلمسان[1] .

ولما اشتد ضغط بنى مرين على مكناسة ، وقطعوا عنها المرافق والموارد ، ولاح أنها أصبحت رهن مشيئتهم ، ثار بها العامة ، وقتلوا واليها الموحدى ، وداخل الأمير يعقوب بن عبد الحق ، أخو الأمير أبو يحيى ، زعيم مكناسة أبا الحسن بن أبى العافية ، على أن تقوم المدينة بمبايعة الأمير أبى زكريا الحفصى ، وكان بنو مرين يومئذ يدينون إسما بطاعته ، فتم الاتفاق على ذلك ، وكتب كتاب البيعة كاتب الأندلس البليغ القاضى أبو المطرّف بن عميرة ، وكان يشغل يومئذ منصب القضاء بمكناسة . وقد أورد لنا ابن عذارى نص هذه البيعة بأكمله ، وهى طويلة ومؤرخة فى يوم الجمعة ٢٠ ربيع الأول سنة ٦٤٣ هـ[2] ، فسر أمير إفريقية الحفصى لذلك ، وأقطع ثلث جباية المدينة للأمير يعقوب بن عبد الحق .

وكان لذلك أبلغ وقع فى البلاط الموحدى ، وقد بدا له عندئذ روعته ، لما أصاب الإمبراطورية الموحدية الكبرى من التمزق . فقد خرجت جزيرة الأندلس من حوزة الموحدين ، واستقل بها ابن هود وابن الأحمر ، ثم أخذ يلتهمها العدو المتربص بها . قاعدة فأخرى ، وقد انفصلت إفريقية ، واستقل بها بنو حفص ، وخرجت سبتة عن الطاعة ، وغلب بنو عبد الواد على تلمسان وأحوازها ، وتوغل بنو مرين فى أعماق المغرب ، وغلبوا على معظم أنحائه الغربية ، ثم استولوا

---

(١) الذخيرة السنية ص ٦٨ — ٧٠ ، وابن خلدون ج ٧ ص ١٧١ و١٧٢ .

(٢) يراجع نص هذه البيعة فى البيان المغرب ص ٣٧٣ — ٣٧٨ .

على مكناسة ، وهى لاتبعد عن فاس عاصمة الإمبراطورية الثانية ، سوى مسافة يسيرة ، ومن ثم فإنه كان لزاما على الخليفة الموحدى أن ينهض بقوة وعزم ، لتدارك هذا الصدع الذى ينذر بانهيار الدولة كلها . وهذا مافعله السعيد ، فإنه مذ ولى الخلافة ، لم يكن غافلا عن خطورة الموقف ، وكان منذ البداية يرقب الفرصة للعمل ، لإنقاذ الدولة ، من عدوان الخارجين عليها ، وكان الزحف على إفريقية ذاتها ، مما يدخل فى برنامجه ، فاستنفر الموحدين والمصامدة ، وسائر القبائل والروم والأغزاز ، ووافاه كانون بن جرمون فى قومه سفيان ، وكان قد عاد إلى الطاعة ، ووافته جشم وغيرها من طوائف العرب ، واجتمعت له حشود عظيمة ، يضيق لها الفضاء ، وخرج من مراكش فى شهر ذى الحجة سنة ٦٤٥هـ ( أبريل سنة ١٢٤٨م ) وسار حتى نزل بوادى تانسيفت وقد اهتزت بلاد المغرب لحركته ، وكانت خطته تقضى ، أولا بمحاربة بنى مرين ، واجلائهم عن أقطار المغرب الوسطى ، ثم السير إلى تلمسان وافتتاحها ، من أيدى بنى عبد الواد ، ثم السير بعد ذلك إلى مقاتلة بنى حفص ، وانتزاع إفريقية منهم . وسار السعيد فى قواته بعد ذلك صوب الشمال الشرقى ، حتى وصل إلى وادى ملوية ورباط تازة ، ونزل قبالة منازل بنى مرين . ولما وقف الأمير أبو يحيى زعيم بنى مرين ، على حركة السعيد ، وشهد بنفسه ضخامة الجيوش الموحدية ، وأدرك أنه لاقبل له بها ، آثر السلم والتهادن ، ونزل له عن البلاد والجهات التى احتلها بنو مرين ، وارتد بحشوده نحو بلاد الريف ، وذلك بعد أن عقد مع السعيد صلحاً ، يتعهد فيه بأن يمده بفرقة من عساكر بنى مرين ، فى حربه ضد أميرى تلمسان وإفريقية(١).

واقترب السعيد بحشوده ، بعد ذلك ، من مدينة مكناسة ، فخرج إليه أهلها ، وقد قدموا أمامهم أولادهم يحملون المصاحف ، والتمسوا إليه العفو والغفران ، مما حدث ، فعفا عنهم وأمنهم . ومما هو جدير بالذكر مايقصه علينا ابن عذارى ، من أن أهل مكناسة ، لما سمعوا عقب عقدهم البيعة لأمير إفريقية ، من تأهب السعيد للحركة نحو بلادهم ، بعثوا إليهم صلحاءهم وعلماءهم ، يعتذرون ويستغفرون ، وبعثوا معهم بيعة جديدة للخليفة السعيد ، مدبجة بقلم الكاتب ابن عبدون ، وهو يورد لنا نص هذه البيعة ، مؤرخة فى تاسع عشر ذى الحجة

---

( ١ ) الذخيرة السنية ص ٧٦ و٧٧ ، والبيان المغرب ص ٣٨٦ و٣٨٧ ، وابن خلدون ج ٧ ص ١٧٢ .

عام ٦٤٣ هـ [1] ، ولاتناقض بين الروايتين :

وتحرك السعيد بعد ذلك إلى فاس ، ونزل فى ظاهرها ، وخرج إليه أشياخها وفقهاؤها يؤدون له التحية ، فأكرم وفادتهم ، ولكنه لم يدخل المدينة . ثم غادر فاس فى التاسع عشر من المحرم سنة ٦٤٦هـ ، وسار متجهاً إلى تلمسان ، حتى إذا ما فرغ من أمرها ، زحف على إفريقية . وكان مما يلقى ضوءاً على مشروع الموحدين نحو إفريقية ، تقربهم من بلاط صقلّية ، وسعيهم إلى التحالف معه . وكان فردريك الأول ملك صقلية ، قد أرسل إلى الرشيد سفارة وهدية ، ولكنه توفى قبل وصولها ، فاستقبلها أخوه السعيد ، وبعث السعيد إلى ملك صقلية بدوره هدية ، وعهد إلى رسله ، بأن يبلغوه رغبته فى معاونته له بأساطيله فى البحر ضد إفريقية [2] . هذا ولما وصل السعيد بحشوده ، إلى مقربة من تلمسان ، وكان من جملة عسكره فرقة من خمسمائة فارس من بنى مرين ، أمده بها الأمير أبويحيى وفقاً لعهوده ، بعث إلى يغمراسن بن زيان صاحب تلمسان ، يطلب إليه لقاءه والدخول فى طاعته ، فبعث إليه يغمراسن وزيره الفقيه عبدون ، مؤكداً الطاعة ، ومعتذراً عن قدومه ، وأنه مستعد لأن يرسل إليه جملة وافرة من بنى عبد الواد ليحاربوا تحت رايته . وكان يغمراسن قد غادر عندئذ تلمسان فى أهله وولده وخاصته ، ولجأ إلى قلعة تامزجدرت أوتاجردرت ، الواقعة جنوبى مدينة وجدة ، وامتنع بها ، فألح السعيد فى وجوب مقدم يغمراسن إليه بنفسه . ولما أصر يغمراسن على موقفه ، عول السعيد على مطاردته وقتاله ، فسار إلى قلعة تامزجدرت حيث امتنع ، وكان الوصول إليها خلال شعب وأوعار ضيقة ، قد كمن بها بنو عبد الواد . فأشار على السعيد وزيره ابن عطوش وغيره أن يحذر من سلوك تلك المضايق ، فأبى وأصر على اقتحام القلعة ، وسار فى جانب من قواته ، وأمامه وزيره راجلا ، شاهراً سيفه ، فلما توسط الموحدون تلك الأوعار ، انقضت عليهم ، من الجبل ، كمائن بنى عبد الواد ، بمنتهى العنف ، فقتل الوزير ابن عطوش فى الحال ، وتلاه سيده السعيد فسقط صريعاً من فوق فرسه ، ومُزق الموحدون شر ممزق ، وارتدت فلولهم صوب المحلة الموحدية ، فساد بها الرعب والفزع ، وكان الذى قتل السعيد فارس يدعى يوسف بن عبد المؤمن الشيطان ، وكان يكمن أسفل الجبل ، ومن

---

(١) ابن عذارى فى البيان المغرب ص ٣٧٨ و ٣٧٩ .

(٢) البيان المغرب ص ٣٨٦ .

ورائه يغمراسن نفسه ، وابن عمه يعقوب بن جابر . ولما سقط الخليفة الموحدى صريعاً، وقبل أن يلفظ أنفاسه، انحنى عليه يغمراسن وحياه، وأقسم له على براءته من مصرعه ، ثم فاضت روح السعيد ، وأمر يغمراسن بتكفينه وغسله ، ثم حمل فدفن بمكان يعرف بالعباد خارج مدينة تلمسان ، وانتهبت محلة السعيد، واستولى بنو عبد الواد على سائر ما فيها، وتفرق عسكره أيدى سبا، وارتدت فلولهم مسرعة إلى مراكش . ووقعت تلك النكبة المروعة فى يوم الثلاثاء آخر صفر سنة ٦٤٦ هـ (٢٣ يونيه ١٢٤٨ م )[١].

وهكذا هلك الخليفة أبو الحسن على السعيد فجأة ، وبصورة لم يكن يتوقعها أحد ، وهو فى إبان ظفره وطموحه ، وقد كان حريا أن يسير فى قواته الجرارة صوب إفريقية ، وأن يفتتحها ، وقد لاح مدى لحظة أن الخلافة الموحدية ، قد نهضت من سباتها ، وتداركت عثرتها ، وأنها أضحت على وشك الظفر بخصومها، واسترداد كامل سلطانها ، وكان يبدو أن ما يتصف به السعيد ، من العزم والصرامة وقوة النفس ، كانت كفيلة بتحقيق هذه الغاية الضخمة ، بل لقد بدا أنها بدأت تتحقق بالفعل ، حينما زحف السعيد فى قواته الجرارة للقاء بنى مرين ، وحينما رأى بنو مرين ، وهم أقوى وأخطر خصوم الخلافة الموحدية ، أن ينحنوا أمام عزم السعيد وقوته ، وأن ينسحبوا من معظم الأراضى ، التى كانوا يحتلونها من أنحاء المغرب . ولو أتاح القدر للسعيد فرصته ، ولو لم يسقط صريعا على هذا النحو المفاجىء ، لكانت أمامه ثمة فرصة ، بل فرص سانحة ، لتحقيق برنامجه الضخم ، فى إقالة الدولة الموحدية من عثرتها، واستردادها لسابق تماسكها ومنعتها .

وتنوه الرواية بعزم السعيد ، وهمته ، وشجاعته ، وتقول لنا إنه كان مهابا ذا إقدام ونجدة فى الحروب ، فاق بها من تقدم من آبائه ، وهذا ماتدلى به فى الواقع أعمال السعيد وحملاته الحربية المتوالية . وتصفه الرواية بأنه كان أسمر شديد السمرة ، تام القد ، معتدل القوام ، سبط الشعر ، مليح العينين[٢].

---

(١) الذخيرة السنية ص ٧٨ ، والبيان المغرب ص ٣٨٧ و ٣٨٨ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٥٨ و ج ٧ ص ٨٢ ، وروض القرطاس ص ١٠٢ ، وهو يقدم إلينا مصرع السعيد فى صورة حادث استكشاف خاص قام به السعيد فى شعب الجبل ، ففاجأته جماعة من بنى عبد الواد ، ومعهم يغمراسن ، فقتلوه .

(٢) روض القرطاس ص ١٧١ .

# الفصل الثالث

## عصر الخليفة المرتضى لأمر الله

اختيار الخليفة الجديد . مبايعة السيد أبى حفص عمر المرتضى لأمر الله . تصرفاته الأولى . عصره نذير انهيار الدولة الموحدية . أثر مصرع السعيد فى تحرك بنى مرين . استيلاء الأمير أبى يحيى على رباط تازا . زحف أبى يحيى على فاس ومحاصرتها . تسليمها إليه صلحا . مبايعة أشياخها له . دخول أبى يحيى فاس . استتباب الأمن والسكينة . مغادرة أبى يحيى لفاس وخروجه إلى بلاد فازاز . مؤامرة الموحدين لخلع أبى يحيى . مؤازرة الجند الروم لهم . وثوبهم بالوالى المرينى وقتله . إعلانهم بالعودة لطاعة الخليفة الموحدى . عودة أبى يحيى إلى الزحف على فاس . تحرك يغمراسن لأخذ رباط تازا . مسير أبى يحيى لقتاله . هزيمة يغمراسن . عودة أبى يحيى إلى فاس وتشديد الحصار عليها . طلب أهل المدينة العفو والتسليم . موافقة أبى يحيى ودخوله المدينة .القبض على زعماء المؤامرة وإعدامهم. إلزام أهل المدينة برد المال المنهوب . وفاة أبى زكريا الحفصى خلال مسيره للغزو . صفاته وخلاله . صدى وفاته فى موقف الأقلية المسلمة بصقلية . أحوال هذه الطائفة وتلاشيها . الثورة فى سبتة والبطش بالولاة الحفصيين . خلع طاعة بنى حفص وقيام القاضى العزفى فى الرياسة . علاقة الخلافة الموحدية بالكرسى الرسولى . بدء نفوذ النصارى منذ أيام المأمون . قيام الكنيسة بمراكش . تضخم الجالية النصرانية بها . البابا يرسل أسقفاً إلى مراكش وخطابا إلى الخليفة السعيد . حثه الخليفه على اعتناق النصرانية وتخصيص حصون لحماية النصارى . عدم اكتراث السعيد برسالة البابا . الخليفة المرتضى يرسل رده إلى البابا مع الأسقف لوبى . إشارة الخليفة بوحدانية الله وحملته على التثليث . إشارته إلى كتب البابا ، وما يوجبه الخليفة لمنصبه من الإجلال . تنويهه بتكريم اليشب رسول البابا . رجاؤه أن يكون خلفه من ذوى العقل والخلق الراجح . مغزى كتاب الخليفة الموحدى ودلالاته . وفود بعض زعماء بنى مرين المنشقين على المرتضى . تأهبه بتحريضهم لقتال بنى مرين . خروجه فى قوات الموحدين والعرب إلى سلا . الأمير أبو يحيى يكتب إلى المرتضى فى طلب السلم . ضغط الوزراء على المرتضى وجنوحه إلى الحرب . مسيره إلى محلات بنى مرين ونزوله باميلولين . نشوب المعركة بين الفريقين . خدعة شيخ سفيان باذاعة الصلح . أمر المرتضى بالعودة . هجوم المرينيين على مؤخرة الجيش الموحدى وانتهاب عتاده وأمواله . عود المرتضى إلى الحضرة . ثورة والى السوس على بن يدر . عجز القوات الموحدية عن إخضاعه . محاولته الاستيلاء على تارودانت . ارتياب المرتضى فى ابن يونس وأمره باعدامه . توطيد بنى مرين لحكومتهم فى فاس . ما خسرته الدولة الموحدية من أراضيها . إخضاع أبى يحيى لبلاد فازاز . مسيره صوب سلا . المرتضى يدبر مصرع زعماء الخلط . ثورة زعيم بنى جابر والقبض عليه .خروج المرتضى لمحاربة بنى مرين . اللقاء بين الفريقين عند جبل بهلولة . هزيمة الموحدين وفرار المرتضى . الهدوء المؤقت . نية بنى مرين فى القضاء على الدولة الموحدية . افتتاحهم لسجلماسة ودرعة . اشتداد ثورة السوس . فشل الموحدين فى إخمادها . وفاة الأمير أبى يحيى . الانقلاب فى سجلماسة . عود زعيمها القطرانى إلى طاعة الموحدين . موافقة المرتضى ثم تدبيره لمصرعه . الخلاف على وراثة عرش بنى مرين .

خلوص الأمر للأمير أبي يعقوب . افتتاح بنى مرين لثغر سلا ورباط الفتح . مختلف الروايات فى ذلك . خلع يعقوب بن عبد الله للطاعة واستقلاله بسلا . مخاطبته لألفونسو العاشر . ألفونسو يدبر مشروعا لغزو سلا . مقدم السفن القشتالية واعتداؤها الغادر على سلا . اهتمام السلطان أبي يوسف ومسيره إلى سلا . مقاتلته للنصارى وإجلاؤهم . استيلاؤه على سلا ورباط الفتح . انهيار مشروع ألفونسو العاشر . افتداء أسرى سلا . ماكان ينذر به هذا العدوان . سعى المرتضى إلى الصلح مع بنى مرين . خروج أبناء إدريس المرينى بغمارة . استنزالهم واسترضاؤهم . أبو يوسف يرسل حملة لإنجاد الأندلس بقيادة عامر ابن إدريس . احتلالها لمدينة شريش . بداية عون بنى مرين للأندلس . الخلاف بين ابن الأحمر والعزفى . أحوال عرب سفيان والخلط . ترددهم بين طاعة الموحدين وبنى مرين . موقف المرتضى . تدبيره لمصرع الزعماء الناكثين . عود المرتضى إلى التأهب لمحاربة بنى مرين . مسير الموحدين لقتالهم . موقعة أم الرجلين . هزيمة الموحدين وتمزيق صفوفهم . محاولة جديدة لإخماد ثورة السوس وفشلها . حوادث طنجة وسبتة . مسير السلطان أبي يوسف لمحاصرة سبتة ثم عوده . مسير السلطان أبي يوسف إلى مراكش . القتال بينه وبين الموحدين . مصرع ولد السلطان . توقف القتال وتعهد المرتضى بدفع إتاوة سنوية . السيد أبو العلاء إدريس الملقب بأبي دبوس . الوحشة بينه وبين المرتضى . اختلاف الرواية فى تعليل ذلك . فرار أبي دبوس والتجاؤه إلى السلطان أبي يوسف . موافقة أبي يوسف على مشروعه لفتح مراكش . إمداده بعسكر من بنى مرين . مسير أبي دبوس ونزوله بهسكورة . التفاف القبائل حوله . توجس المرتضى ومطاردته لزعيم سفيان وقائد الروم . إنضمام العرب والروم إلى أبي دبوس . مسير أبي دبوس إلى أغمات ثم إلى مراكش . الاضطراب فى المدينة وخلوها من القوات المدافعة . اقتحام رجال هسكورة للسور وفتحهم لباب الصالحة . دخول أبي دبوس المدينة وفرار المرتضى . مسيره إلى أزمور وغدر واليها صهره . مبايعة أبي دبوس بالخلافة وتلقبه بالواثق بالله . خلاله وصفته . وزراؤه . إجراءاته الأولى . نضوب الأموال . كتابه فى ذلك ورد المرتضى . تأثره لمحنة المرتضى . نصح وزيره بالقضاء على المرتضى . إعدام المرتضى . المرتضى وتمام تفكك الدولة فى عهده . صفاته . وزراؤه وكتابه . أدبه وشعره . ابن القطان يؤلف له تاريخه . شخصه . إعتقال أولاده . إطلاقهم والتجاؤهم إلى حماية ملك قشتالة . انتقالهم إلى غرناطة . ولده أبو حمارة . السيد أبو زيد أخو أبي دبوس . التجاؤه إلى ملك قشتالة وتنصره . تأملات عن هذه الظاهرة .

— ١ —

لما لقى الخليفة أبو الحسن السعيد مصرعه فى شعب جبل تلمسان ، فى نهاية شهر صفر سنة ٦٤٦هـ ، ووصل نبأ مصرعه ونكبة جيشه ، إلى مراكش ، كان لذلك أعمق وقع فى البلاط الموحدى ، وبادر السيد أبو زيد ، أخو الخليفة القتيل ووالى مراكش ، فاستدعى أشياخ الموحدين الموجودين بالحضرة ، لبحث الموقف ، واختيار الخليفة الجديد ، فاتجه الرأى أولا إلى اختيار السيد أبي زيد نفسه ، ولكنه امتنع واعتذر ، فاقترح البعض أن يولى السيد أبو حفص عمر والى سلا ، وذلك لعقله وورعه وصيانته ، فوافق الموحدون على ذلك ، وبايعوا السيد أبا حفص فى غيبته ، وتلقى الدعوة نيابة عنه ، أخوه السيد أبو زيد . والسيد أبو حفص عمر هذا ، هو ولد السيد أبي ابراهيم بن الخليفة أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن

أو بعبارة أخرى هو ابن أخ للخليفة يعقوب المنصور ، وعم للمأمون والد السعيد. وكان من قبل والياً لأغمات ، ثم عينه السعيد لولاية سلا ورباط لفتح . وعقدت له البيعة بجامع المنصور ، فى أوائل شهر ربيع الأول ، وحمل كتابها إليه الحاكم ابن أصلماط ، وكان مقبلا من سلا إلى تامسنا ، فى طريقه إلى الحضرة ، مع بعض أشياخ الموحدين والعرب ، فتلقى البيعة ، وضربت له فى الطريق قبة ، قرئت فيها البيعة ، وبايعه فيها من حضر ، وذاع الأمير بين الناس . ثم نظم لركوبه موكب خلافى ، سار فيه بعض السادة والوزراء والقرابة ، وبعض حشود العرب والخدم، واستمر الموكب فى سيره حتى قرب من العاصمة ، فخرج إليه عندئذ أشياخ الموحدين، ومعهم الخيل والأجهزة والكسى ، والطبل والبنود، فنزل الخليفة أولا بالبحيرة ، ثم دخل الحضرة فى موكبه الفخم ، واجتمعت الناس على طاعته[1].

وتلقب الخليفة الجديد بالمرتضى لأمر الله . وكان كهلا فى نحو الخمسين من عمره ، هادئ الطبع ، شديد الورع ، قليل الأطماع .وكان أول ماقام به أن قدم أبا محمد ابن يونس للوزارة ، ثم قدم لها أخاه السيد أبا اسحق ، عندما وفد إليه من سجلماسة ، وعين يعقوب بن كانون شيخاً لعرب بنى جابر ، وعمه يعقوب بن جرمون شيخاً لعرب سفيان ، وأقر كلا منهما على بلاده . وكان فى مقدمة أعماله أيضاً أن قبض على حاشية السعيد وخدمه ، ولاسيما صاحبه ابن المسلك ، وسجن الحرّة عزونة أخت السعيد ، واقتضى منها أموالا فادحة[2] .

وكانت خلافة المرتضى ، التى استطالت نحو تسعة عشر عاما ، هى الفترة القاتمة التى تم فيها تفكك الإمبراطورية الموحدية ، الذى مهدت إليه حوادث الحقبة السابقة ، منذ انسلاخ إفريقية ، وانهيار الأندلس ، واستقلال تلمسان . ثم عجل بوقوعه ، استمرار الحروب الأهلية بين الموحدين من جهة ، واشتداد ساعد بنى مرين من جهة أخرى . وسوف نشهد منذ الآن فصاعداً ، كيف تتساقط أشلاء الإمبراطورية الموحدية الباقية ، واحداً بعد الآخر ، والخلافة الموحدية عاجزة عن أن تتدارك أية ضربة ، من الضربات القاصمة الموجهة إليها.

وقد ترتب على مصرع الخليفة السعيد ، فى الناحية الأخرى ، أعنى ناحية بنى مرين ، نتائج هامة . ذلك أن الأمير أبا يحيى بن عبد الحق أمير بنى مرين ،

---

(١) البيان المغرب ٣٨٩ و ٣٩٠ ، وروض القرطاس ص ١٧٣ .

(٢) البيان المغرب ٣٩١ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٨ .

ماكاد يقف على مصرع السعيد وتبدد جيشه ، حتى نهض للعمل . وكان قد عقد الصلح مع السعيد وأمده بشطر من فرسانه ، ضد بنى عبد الواد أصحاب تلمسان، وأعطاه رهائن من قومه ، أودعها السعيد برباط تازا . فلما انتهى السعيد وجيشه الجرار ، سار أبو يحيى فى قواته فوراً صوب تازا ، وكان واليها هو السيد أبوعلى، أخو السيد أبى العلا إدريس المسمى بأبى دبوس وهو الخليفة المستقبل ، فبعث إلى أبى يحيى يطلب الاجتماع به ، ولما اجتمعا تعهد أبو يحيى بأن يعمل على صون أهل تازا، وحمايتهم من كل أذى. وعندئذ غادر السيد أبوعلى تازا بأهله وولده ومتاعه ، ودخلها أبو يحيى وبنو مرين ، وبايع أهل تازا وسائر أحوازها للأمير المرينى ، وكانت تازا أول مدينة مغربية استولى عليها بنومرين من أيدى الموحدين وذلك فى أوائل شهر ربيع الأول سنة ٦٤٦ هـ ( يوليه ١٢٤٨ م )[١].

ولم تمض على ذلك أسابيع قلائل ، حتى وقعت الخطوة الثانية ، فى تقدم بنى مرين داخل الإمبراطورية الموحدية ، وكانت أخطر وأبعد مدى. ذلك أن الأمير أبا يحيى ، ماكاد يرتب شئونه برباط تازا ، ويرتب بها رسوم الإمارة ، حتى سلمها لأخيه الأمير أبى يوسف ، ثم غادرها وسار فى قواته غربا صوب مدينة فاس ، وهى العاصمة الثانية للإمبراطورية الموحدية ، وافتتح فى طريقه مدينة أجرسيف ، وسائر حصون وادى ملوية[٢]. ثم نزل قبالة فاس معتزماً فتحها ، وضرب حولها الحصار وقطع علائقها مع الخارج ، فاشتد بأهلها الضيق ، وطلبوا إلى أشياخهم مفاوضة الأمير أبى يحيى ، وكان واليها الموحدى يومئذ هو السيد أبوالعباس بن أبى حفص، وكان عاجزاً عن أى دفاع ولم يتلق أية نجدة ، ولم يكن لدية سوى مائتى جندى من الروم ، وفدوا إلى المدينة عقب مصرع السعيد، مع قائدهم شديد . ويقول لنا ابن عذارى إن هذه الفرقة من الروم دافعت وقت الحصار ضد بنى مرين دفاعا شديداً ، واضطر أشياخ المدينة نزولا على ضغط أهلها ، أن يتقدموا إلى أبى يحيى بطلب الصلح ، فتلطف أبويحيى بهم ، وتعهد لهم بحسن النظر ، وإقامة العدل وحمايتهم ، وكف الأذى عنهم ، فتقبلوا عهده ، وبايعوه على الطاعة ، بالرابطة الواقعة خارج باب الشريعة ، وكان فى مقدمة من بايعه كبير فقهاء مراكش ، الشيخ الورع أبومحمد الفشتالى ، وسائر

---

( ١ ) البيان المغرب ص ٣٩٢ ؛ وابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٢ ، وروض القرطاس ص ١٩٥ .

( ٢ ) الذخيرة السنية ص ٧٩ ، وروض القرطاس ١٩٥ .

الفقهاء والأشياخ ، وأخلى القصبة ، والى الخليفة الموحدى ، السيد أبو العباس ، وغادرها فى أهله وولده ، وأمنه أبو يحيى ، وأعطاه خمسين فارساً يحرسونه حتى وادى أم الربيع ، ثم دخل أبو يحيى مدينة فاس فى اليوم السادس والعشرين من ربيع الآخر سنة ٦٤٦ هـ ، وذلك بعد وفاة الخليفة السعيد بنحو شهرين(١) .

ولبث الأمير أبو يحيى بفاس أكثر من عام ، وهو ينظم الشئون ، ويضع القواعد والرسوم ، لحكم مملكة بنى مرين ، التى أخذ طالعها يتألق فى الأفق . وكانت الوفود تترى عليه من كل صوب ، متقدمة لبيعته ، والانضواء تحت رايته ، وقد عم فى سائر المنطقة جو من الهدوء ، والاستبشار بالدعة والخير ، بعد أن طال عهد الاضطراب والفوضى ، فأمنت السبل ، ونشط التعامل ، وأخذ الناس فى الحرث والعمارة والاستقرار . وكان استيلاء بنى مرين على تلك المدينة العظيمة — حاضرة المغرب العلمية التالدة — وهى التى غدت فيما بعد ، عاصمة لمملكتهم الزاهرة ، بداية النهاية فى خاتمة الدولة الموحدية . وفى شهر رجب سنة ٦٤٧ هـ ، غادر الأمير أبو يحيى فاس ، بعد أن استخلف عليها مولاه المسعود ابن خرباش الحشمى ، وخرج إلى بلاد فازاز وما يليها ، يعمل على إخضاع قبائلها وتحصيل الجباية منهم ، ولكنه ما كاد يبتعد عن فاس حتى أخذ بعض زعماء المدينة من الموحدين ، وغيرهم من المعارضين ، يحاول قلب الأوضاع الجديدة ، والعود إلى طاعة الخلافة الموحدية ، وخاطب أولئك المعارضون قاضى المدينة أبا عبدالرحمن المغيلى ، فى خلع أبى يحيى وقتل نائبه المسعود ، وطرد أنصاره من المدينة ، وعبثا حاول القاضى أن يردهم عن مشروعهم ، فنظموا مؤامرتهم على ما رتبوه ، من خلع أبى يحيى وقتل نائبه ، وإعادة البيعة للخليفة المرتضى ، وتفاهموا مع قائدى جند الروم الذين بالقصبة ، وهما شديد وزنار ، وكان أبو يحيى قد تركهم على ما كانوا عليه(٢) . وفى رواية أخرى أنه كان قد حبسهم عند دخول فاس(٣) . وعلى أى حال فقد كان قواد الجند الروم مع المتآمرين ، وكانوا بطبيعتهم من أولياء

---

(١) الذخيرة السنية ص ٧٩ ، وروض القرطاس ص ١٩٥ ، وابن خلدون ج ٧ ص ١٧٤ . ويضع ابن عذارى دخول أبى يحيى فاس فى ١٨ ربيع الآخر سنة ٦٤٦ هـ ( البيان المغرب ص ٣٩٣ ) .

(٢) الذخيرة السنية ص ٨٢ .

(٣) البيان المغرب ص ٣٩٩ .

الدولة الموحدية ، المخلصين لها . وقصد أشياخ المدينة ، وعلى رأسهم المشرف ابن جشّار وأخوه ابن أبى طاهر إلى القصبة ، ومع قواد الروم ، وبعدمشادة قصيرة مع المسعود بن خرباش ، انقض عليه الروم وقتلوه مع عدة من أصحابه ، واستولى الأشياخ على القصبة ، وعلى ما فيها من المال والذخيرة ، ورُفع رأس المسعود على رمح وطيف به ، وأغلقت المدينة أبوابها ، وتولى قائد الروم ضبطها ، ونادى الأشياخ بطاعة الخليفة الموحدى ، وبعثوا بها إليه ، وطلبوا عونه ونصرته ، فبعث المرتضى إليهم ، يعدهم بالعون والقدوم . ووقع هذا الانقلاب بمدينة فاس فى شهر شوال وقيل فى العشرين من شعبان سنة ٦٤٧ هـ(١) .

ولكن المرتضى لم يسر إلى فاس ، ولم يبعث إليها بمدد من جنده ، وبقيت المدينة الثائرة مغلقة ، تترقب مصيرها . ولما علم الأمير أبو يحيى بما حدث ،وكان يغزو بلاد فازاز ، تركها وارتد لمعاقبة أهل فاس على نكثهم ، وضرب الحصار حول المدينة . وكان المرتضى حينما شعر بعجزه ، عن تدارك فاس بعونه ، قد بعث إلى يغمراسن بن زيان ، يغريه على انتهاز الفرصة فى بنى مرين . فلما سار أبو يحيى إلى فاس ، نهض يغمراسن فى قواته إلى رباط تازا ، يحاول الاستيلاء عليها ، فاضطر أبو يحيى عندئذ ، أن يترك بعض قواته لمتابعة حصار فاس ، وان يسير بنفسه لمحاربة يغمراسن . ولما وصل أبويحيى إلى تازا ، ارتد عنها يغمراسن ، فسار أبو يحيى فى أثره ، ونشبت بين الفريقين فى وادى إيسلى ، على مقربة من وجدة ، عدة معارك شديدة ، انتهت بهزيمة يغمراسن ، وسقوط محلته وأسلابه فى أيدى العدو ، فارتد فى فلوله صوب تلمسان ، وذلك فى شهر ذى الحجة سنة ٦٤٧هـ(٢) .

ثم سار أبو يحيى فى قواته إلى فاس ، وشدد فى محاصرتها ومنازلتها ،فلما رأى أهل المدينة أنه لامناص من التسليم ، بعثوا إلى أبى يحيى بطلب العفو والأمان ، فأجاب ملتمسهم ، ودخل فاس وذلك للمرة الثانية ، فى العشرين من جمادى الآخرة سنة ٦٤٨هـ ( أكتوبر سنة ١٢٥٠ م ) ، ونزل بالقصر ، وألزم أشياخ المدينة ، أن يردوا إليه ما سلب من الأموال والذخائر ، وقدر ذلك بمائة ألف دينار ، أو ثلاثمائة ألف وفقاً لابن عذارى ، فماطل الأشياخ أوعجزوا ، فقبض على زعمائهم

---

( ١ ) ابن خلدون ج ٧ ص ١٧٤ و١٧٥ ، والذخيرة السنية ص ٨١ و٨٢ ، والبيان المغرب ص ٣٩٩ ، وروض القرطاس ص ١٩٦ .

( ٢ ) ابن خلدون ج ٧ ص ١٧٥ ، والذخيرة السنية ص ٨٣ .

وفى مقدمتهم القاضى أبو عبد الرحمن المغيلى ، وابن جشار وأخوه ابن أبى طاهر وغيرهم ، وأمر بقتلهم ، وعلقت رؤوسهم على أبواب المدينة ( رجب ٦٤٨هـ ) ، وألزم أهل المدينة ، ومن بقى من شيوخهم ، برد المال المنهوب ، وساد على المدينة حكم إرهاب ، خشعت له القلوب ، وأخمدت كل نزعة إلى الفتنة والخروج [1] .

— ٢ —

وفى تلك الأثناء توفى عاهل إفريقية ، الأمير أبو زكريا يحيى ابن الشيخ أبى محمد عبد الواحد الحفصى ، وكان حينما وقع مصرع الخليفة السعيد ، قد أخذ فى الأهبة ، لتحقيق ما كان يجيش به من أطماع ، نحو الأقاليم المغربية ، وخرج فى جيشه من تونس ، فى أوائل سنة ٦٤٧هـ . فلما وصل إلى بلدة العناب على مقربة من بونة أصابه مرض مفاجىء ، واشتد به حتى توفى ، وذلك فى الثانى والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٦٤٧ هـ ( ١٢٤٩ م ) ، وكان فى التاسعة والأربعين من عمره . وكان أميراً عظيما وافر الشجاعة والمقدرة والعزم ، وهو الذى أنشأ الدولة الحفصية المستقلة بإفريقية ، حسبما ذكرنا من قبل فى موضعه ، وكان فوق ذلك عالما أديبا ، مجيداً للنثر والنظم ، محباً للعلماء ، مؤثراً لهم ، وقد وفد عليه كثير من علماء الأندلس وأدبائها النازحين منها ، حينما تغلب النصارى على قواعد الأندلس ، وكان فى مقدمة هؤلاء الفقيه الكاتب المؤرخ والشاعر الكبير ابن الأبار القضاعى . ولما توفى أبو زكريا بويع ولده أبو عبد الله محمد بتونس ، وتلقب بالمستنصر بالله ، وهو الذى لقى ابن الأبار مصرعه على يديه ، حسبما نفصل ذلك فى ترجمته .

وكان لوفاة عاهل إفريقية ، صدى فيما أصاب البقية الباقية من مسلمى صقلية ، من اضطهاد وتشريد . وكانت الأقلية المسلمة ، قد لبثت عصراً ، بعد افتتاح النورمانيين ، للجزيرة ، عنصراً من أهم عناصر سكانها ، وأوفرهم تقدما وحضارة ، يتمتعون فى ظل الملك رجّار فاتح الجزيرة ، وخلفائه الأوائل ، بقسط كبير من الرعاية والحرية ، ولكنهم غدوا بعد ذلك موضع الاضطهاد والمطاردة . وقد سبق أن أشرنا فيما تقدم ، إلى ما كانت عليه أحوالهم ، وأوردنا طرفا مما ذكره عنها الرحالة ابن جبير ، وأشرنا إلى ما كان من وفود بعض أعيانهم على الشيخ أبى محمد الحفصى والى افريقية ، فى نحو سنة ٦٠٥ هـ ، سعياً إلى الاستنصار بعون

( ١ ) ابن خلدون ج ٧ ص ١٧٥ ، والذخيرة السنية ص ٨٤ ، والبيان المغرب ص ٣٩٥ ، وروض القرطاس ص ١٩٧ .

الخليفة الموحدى محمد الناصر . بيد أن مسعاهم لم يسفر يومئذ عن أية نتيجة عملية : فلما استقلت إفريقية ، وغدت فى عهد أول أمرائها من بنى حفص أبى زكريا يحيى ، دولة قوية زاهرة ، اتجه نظر مسلمى صقلية إلى غوث هذه الجارة المسلمة القوية ؛ والظاهر مما تذكره لنا الرواية الإسلامية ، أنه وقعت بين الأمير أبى زكريا ، وبين ملك الجزيرة ، وكان يومئذ الإمبراطور فردريك الثانى ، مفاوضات بشأن مسلمى صقلية ، أسفرت عن استردادهم لامتيازاتهم القديمة ، من سكنى بلرم وضواحيها وبعض أماكن أخرى . بيد أنه لما توفى الأمير أبو زكريا عاد ملك صقلية إلى إضطهاد المسلمين ومطاردتهم . فاضطروا إلى مغادرة السهول ، ولجأوا حسبما كانوا يفعلون من قبل ، إلى الجبال والأوعار ، ونصبوا عليهم أميراً من بنى عباس . بيد أن هذه الثورة الأخيرة لمسلمى صقلية ، لم تغنهم شيئاً ، لأن ملك صقلية حاصرهم ، واشتد فى إرهاقهم حتى استنزلهم من الجبال ، ثم أرغمهم على السكنى فى منطقة لوجارا ، ثم سار إلى جزيرة مالطة ، وأخرج منها المسلمين ، وألحقهم بإخوانهم ، وكانت هذه الضربة الأخيرة لمسلمى صقلية ، هى بداية انحلالهم وتلاشيهم النهائى ، وغاضت آثار الإسلام من صقلية شيئاً فشيئاً ، حتى انتهى أمره ، من تلك الربوع ، التى ازدهرت فيها حضارته زهاء أربعة قرون[1].

وكان من أصداء وفاة الأمير أبى زكريا أيضاً ، ماوقع بثغر سبتة ، من انقلاب جديد ، وقيام دولة جديدة . وذلك أن سبتة ، كانت قد قامت بالدعوة للأمير أبى زكريا ، حسبما ذكر فى موضعه ، وأوفد إليها الأمير أبوزكريا ، رجلين من قبله ، للإشراف على شئونها ، هما ابن أبى خالد وابن الشهيد ، فلم يحسنا السيرة ، وبرم بهما أهل المدينة . فلما توفى أبو زكريا تهيأت الفرصة لانقلاب لاجديد ، فى رياسة هذا الثغر ، الذى لبث عصوراً من أهم الثغور الموحدية الشمالية ، كما لبث عصوراً قاعدة رئيسية ، لعبور الجيوش الموحدية إلى الأندلس . وذلك أن أهل سبتة ، اضطرموا بالثورة ، واتفق قاضى المدينة وكبير علمائها ، أبو القاسم العزفى مع أمير البحر أبى العباس الرنداحى ، وكان راسيا بسفنه فى مياه سبتة ، على تدبير الانقلاب المنشود . وكان ممن يخشى بأسهم بسبتة ، غير رجال الأمير الحفصى ، جماعة من فرسان الأندلس النازحين ، وعلى رأسهم القائد شقّاف بطل إشبيلية السابق . فتم التفاهم على التخلص من الجميع . ودبر الرنداحى الأمر بإقامة وليمة

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٨٠ .

كبيرة بمنزله، دعا إليها معظم القادة والجند، وبعث رجاله بالليل، فقاموا بقتل القائد شقاف وزملائه، ثم نفذوا إلى القصبة، فقتلوا ابن أبى خالد، وأخرجوا ابن الشهيد فى زورق سيروه إلى الأندلس. وهكذا تم تدبير الانقلاب المنشود، وخلعت طاعة بنى حفص، وتولى القاضى أبو القاسم العزفى زمام السلطة (٦٤٧ هـ). وكان أبو القاسم، وهو ولد العلامة الكبير الورع الزاهد أبى العباس العزفى، عالما جليلا، ورئيساً حازما، ورعا كأبيه، فضبط أمر سبتة بقوة وكفاية. وكان ذلك بداية رياسة هذه الأسرة العريقة، للثغر الموحدى القديم، واستمر العزفى فى حكم سبتة، زهاء ثلاثين عاما، حتى توفى فى سنة ٦٧٧هـ (١).

— ٣ —

ولابد لنا أن نشير هنا، إلى حادث ذى مغزى عميق، من الناحيتين الدينية والأدبية، وإن لم يكن له نتائج مادية أو سياسية هامة، ذلك هوما وقع من مكاتبة بين الخليفة الموحدى المرتضى لأمر الله، وبين البابا إنوسان الرابع، وقد انتهى إلينا لحسن الطالع، كتاب الخليفة الموحدى، إلى عميد النصرانية، وهو مايزال محفوظاً بأصله فى مكتبة الڤاتيكان الرسولية. بيد أنه يجدر بنا قبل أن نعرض إلى محتويات الكتاب المذكور، أن نشير إلى ما تقدم، من علاقات، بين الخلافة الموحدية، والكرسى الرسولى.

وقد بدأت هذه العلاقات منذ عصر الخليفة المأمون، وهو المسئول عن تشجيع الكرسى الرسولى، على محاولة بث نفوذه، داخل الإمبراطورية الموحدية. وذلك أن المأمون حينما دعا لنفسه بالخلافة، وهو بالأندلس، واعتزم العبور إلى المغرب، رأى أن يستنصر بفرناندو الثالث ملك قشتالة، لكى يمده بقوة من المرتزقة النصارى، يستعين بها على قتال خصومه. وقد رأينا فيما تقدم كيف أن فرناندو الثالث، اشترط على المأمون لمحالفته وإمداده، غير ما رغب فى امتلاكه من الحصون الأندلسية، شروطاً أخرى منها أن يبنى للنصارى فى مراكش كنيسة يقيمون فيها شعائرهم، وأنه إذا أسلم أحد من النصارى فلا يقبل إسلامه، بل يرد إلى إخوانه يقضون فى أمره وفق ما يرون، وإن تنصر بالعكس أحد من المسلمين فليس لأحد عليه سبيل (٢). ولما استطاع المأمون أن

(١) البيان المغرب ص ٤٠٢، وابن خلدون ج ٧ ص ١٨٦.

(٢) روض القرطاس ص ١٦٧. وراجع ص ٣٦٨ من هذا الكتاب.

يتغلب على خصومه ، بمعاونة أولئك الجند النصارى ، أو الروم حسبما تنعتهم الرواية الإسلامية ، كان فى مقدمة ماعمله ، إن ابتنى للنصارى فى داخل مراكش كنيسة كبرى . وقد كانت أول كنيسة أقيمت بالعاصمة الموحدية ، وكانت فيما يبدو أكثر من محل للعبادة ، إذ كانت فى أحيان كثيرة ملاذا للقادة والجند الروم ، حسبما يستدل على ذلك من إشارات عديدة ، وتكاثر أولئك الجند النصارى بما كان يفد إليهم من إخوانهم المرتزقة ، من وراء البحر ، ولبثوا أعمدة الخليفة الموحدى فى مقارعة خصومه ، وكانوا قوة يحسب حسابها ، فى سائر المنازعات والانقلابات السياسية والعسكرية .

وقد لفت قيام هذه الجالية النصرانية القوية ، فى العاصمة الموحدية ، منذ البداية ، نظر الكرسى الرسولى ، ورأى فيها سنداً لتدخله ، ومحاولة بث نفوذه . وكان أول ما وقع من ذلك أن بعث البابا إنوسان الرابع ، بالقس لوبى فرنانديث إلى مراكش فى سنة ١٢٤٦م ، فى عهد الخليفة السعيد ، ليكون أسقفا بها ، وكان السعيد كأبيه المأمون ، يغمر الجند النصارى بعطفه وصلاته ، ويعتبرهم ملاذ العرش الموحدى ، وسنده القوى . وبعث البابا إلى الخليفة مع الأسقف كتابا يهنئه فيه ، بانتصاراته على خصومه ، فى سجلماسة ، وبلاد الغرب ، ويشيد بالدور الذى قام به الجند النصارى فى هذه الانتصارات ، بل وينصح الخليفة ، لما كان يعلمه من من استعداده ، لاستقبال طوائف جديدة من أولئك الجند ، ولما كان يحبوهم به من عطف — ينصحه بأن يعتنق النصرانية لكى يغنم حماية الله والكرسى الرسولى ، ثم يرجوه لضمان حماية النصارى ، ولكى لايتعرضوا إلى مثل ماحدث لهم أيام يحيى المنتصر ، من القتل ومن حرق كنيستهم ، أن يخصص لهم بعض الحصون المنيعة ، الواقعة تحت سلطانه ، لكى يلجأوا إليها عند الضرورة ، وكتب البابا فى نفس الوقت إلى أمراء تونس وبجاية وسبتة ، يرجوهم أن يسهلوا لنصارى مراكش الاتصال بإخوانهم فى تلك الثغور .

على أن رسالة البابا المتقدمة إلى الخليفة السعيد ، لم يكن لها أى صدى . ذلك أن السعيد ، بالرغم من حرصه على إرضاء جنده ، لم يكن على استعداد ، لكى يمنح للكرسى الرسولى ذاته ، أية امتيازات أوحقوق من أى نوع . ومن المحقق أنه لم يلق أية التفاتة ، لما دعاه إليه البابا ، من اعتناق النصرانية ، بل سوف نرى بالعكس ، ماورد فى شأن ذلك من الاستنكار ، فى خطاب خلفه ، الخليفة المرتضى إلى البابا .

وقد بعث الخليفة المرتضى كتابه ، إلى البابا ، مع الأسقف لوبى المتقدم ذكره وهو كتاب طويل ، ومؤرخ فى ختامه ، فى الثامن عشر من شهر ربيع الأول سنة ٦٤٨ هـ ، وفيه يوصف البابا بعد الديباجة « بمطاع ملوك النصرانية ، ومعظم عظماء الأمة الرومية ، وقيم الملة المسيحية ، ووارث رياستها الدينية ، البابا إينه سانس ، أنار الله بصيرته ، بتوفيقه وإرشاده ، وجعل التقوى التى أمر عز وجل بها ، عدته لمحياه ومعاده » .

ويفتتح الكتاب بالإشارة إلى المسالة الدينية الجوهرية، التى تفرق بين الإسلام والنصرانية ، ويعرضها الكتاب بقوة وحسم ، ردا على ما أشار به البابا إلى الخليفة الموحدى ، من اعتناق النصرانية ، فيقول مايأتى :

« أما بعد فإنا نحمد الله الذى لا إله إلا هو ، حمد من علم أنه الرب الواحد ، الذى دلت على وحدانيته البراهين القاطعة والشواهد ، ونزهته العقول الراجحة ، عن أن يكون له ولد ، أو يدعى أنه الوالد ، تعالى الملك الرحمن عما يقول المثلث والمشبه والجاحد » .

ويلى ذلك الصلاة على النبى ، ثم طلب الرضى عن الإمام المعصوم ، المهدى المعلوم ، وعن الخلفاء الراشدين ، ثم عن الخليفة المرتضى ذاته ، موجه هذا الكتاب .

ويعرض الكتاب بعد الدعاء ، والشكر لله تعالى ، إلى موضوع المراسلة ، ويشير إلى أنه كانت قد تبودلت كتب بين البابا والخليفة الموحدى ، وذلك حينما يقول « فإنه سبقت منا إليكم مراجعات ، عن كتبكم المؤثرة الواصلة إلينا » ثم يؤكد الخليفة للبابا ، أنه يوجب لمنصبه « الذى أبرفى ملتكم على المناصب حقه » ، وأنه لذلك عند الخليفة « بالتكرمة الحفيلة ملحوظون ، وبالعناية الجميلة محظوظون ، على « ما توالى علينا من حسن إيثاركم لجانبنا وتردد »

ثم يشير الكتاب بعد ذلك إلى أنه « قد انصرف عن حضرة الموحدين البشب ، الذى كان قد وصل بكتابكم إلينا ، انصرافا لم يعزه منا فيه بر واكرام ، ولم يغبه فيه اعتناء به واهتمام « وأنه لبث طوال إقامته بالحضرة معززاً مكرماً ، فى حله وترحاله ، وأنه رحل مختاراً ، وهو يحمل كتاب الخليفة، تعريفاً بذلك . ويرجو الخليفة إلى البابا ، أن يراعى فى اختيار خلفه للإشراف على النصارى « المستخدمين ببلاد الموحدين » أن يكون من أهل العقل الراجح ،

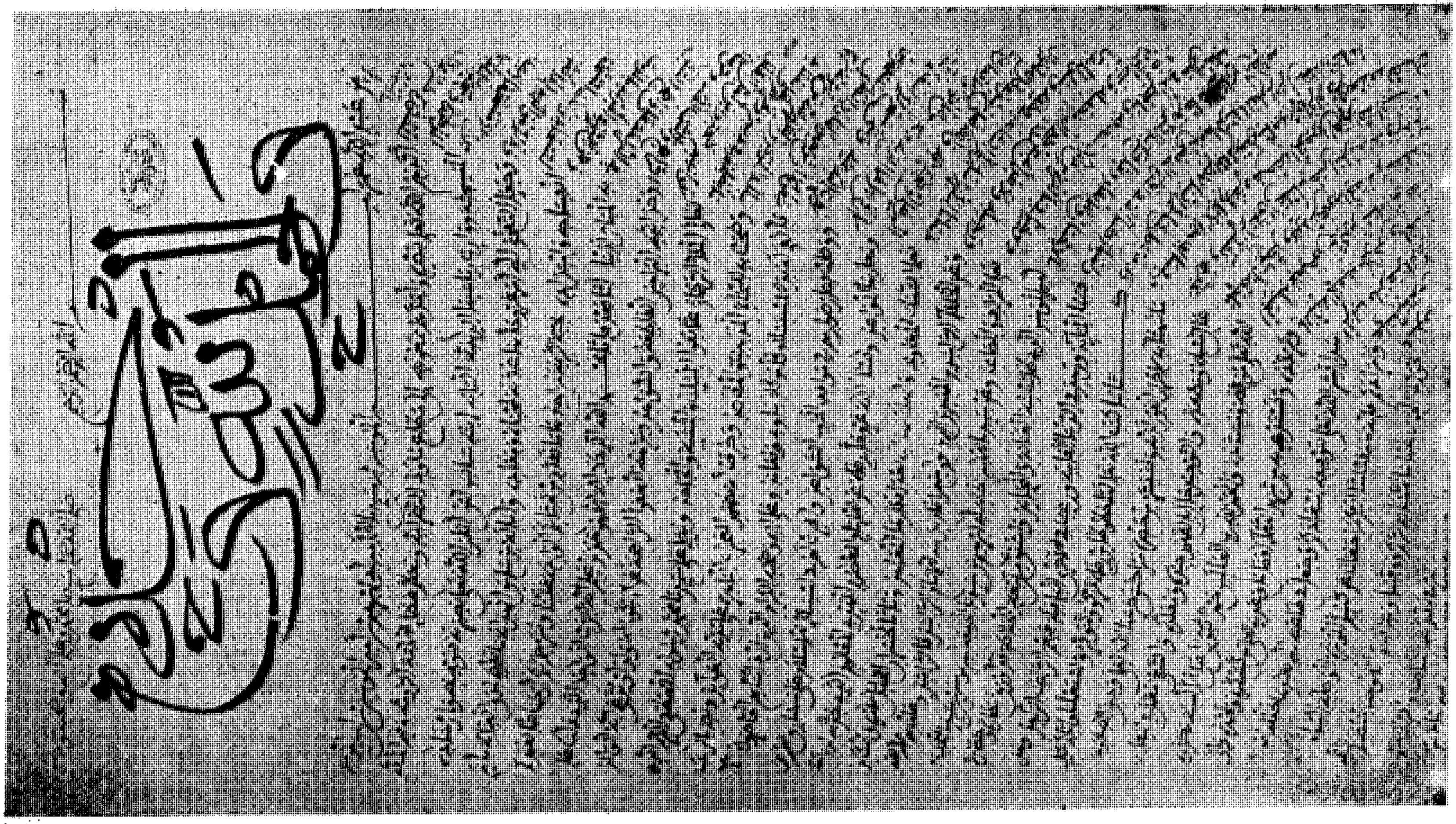

صورة فوتوغرافية لخطاب الخليفة المرتضى إلى البابا إنوسان الثالث المحفوظ بمكتبة الفاتيكان الرسولية

والسمت الحسن والنزاهة ، وذوى الخلال المشكورة . ويختم الكتاب بتوجيه الشكر إلى البابا « لما تذهبون إليه من تمشية الأغراض والمذاهب ، والمساعدة الصادرة منكم عن كرم الضرائب »[1] .

هذا هو ملخص كتاب الخليفة الموحدى إلى البابا ، وهو كما تقدم مؤرخ فى الثامن عشر من شهر ربيع الأول سنة ٦٤٨ هـ الموافق العاشر من يونيه سنة ١٢٥٠ م . ومن الأسف أننا لم نعثر فى التواريخ العربية بأية إشارة ، إلى هذه المكاتبات الهامة ، بين الخلافة الموحدية ، وبين الكرسى الرسولى[1].

وإذا كان لنا أن نعلق بشىء على هذا الكتاب ، فهو أن ما يكشفه لنا من نقاش حول العقيدة الدينية ، بين البابوية والخليفة الموحدى ، وما جنح إليه الخليفة الموحدى فى كتابه ، من دحض نظريات ألوهية المسيح والتثليث ، بقوة وعنف ، يدل على ما حدث من أصداء عميقة ، لدى الخلافة الموحدية ، فى أواخر عهدها من جراء ازدياد نفوذ الجالية النصرانية ، ومحاولة استغلال البابوية لهذا النفوذ ، بصورة انتهت إلى الاجتراء ، على دعوة الخليفة الموحدى إلى نبذ دينه وعقيدته الإسلامية .

— ٤ —

وفى نفس هذا العام أعنى فى سنة ٦٤٨ هـ ، وفد على الخليفة المرتضى ، زعيمان من زعماء بنى مرين ، المنشقين على الأمير أبى يحيى ، هما أبو عمران موسى ابن زيان المونكاسى ، وأخوه على بن زيان ، فأكرم وفادتهما ، ورتب لهما أموالا سخية ، وشجعاه على النهوض لقتال بنى مرين . فأخذ المرتضى فى الأهبة ، وبعث بعض رسله إلى الأندلس ، ليحشدوا له فرقة جديدة من المرتزقة النصارى ، فجمعوا له عدداً منهم . وفى سنة ٦٤٩هـ ( ١٢٥١ م) غادر المرتضى مراكش ، فى قوات الموحدين والعرب ، ومعه على بن زيان وأخوه ، قاصداً محاربة بنى مرين ، ومنعهم من عبور وادى أبى رقراق ، إلى أرض تامسنا . وكان خروجه فى رمضان

---

( ١ ) نقلنا نص الكتاب الموحدى المشار إليه من محفوظات مكتبة الفاتيكان الرسولية وهو محفوظ بها تحت رقم A.A.L.XVIII. وقد قامت بنشر هذا الكتاب مجلة **Bulletin de l'Institut de Hautes Etudes Marocaines-Hespéris** فى عددها الصادر سنة ١٩٢٦ ونشرت صورة فوتوغرافية للكتاب المذكور وترجمة فرنسية ، وعلق عليه الكردينال تسيران والأستاذ ڤييت فى بحث طويل ( ص ٢٧ — ٥٣ ) وقد نشرنا نصه الكامل فى باب الوثائق كما نشرنا هنا صورته الفتوغرافية . ولم نجد بمحفوظات الڤاتيكان أية وثيقة مغربية أو أندلسية أخرى من وثائق ذلك العصر .

من هذه السنة . فسار أولا إلى تينملّل حيث قام بزيارة قبر المهدى ، وقبور أجداده ، ثم عاد إلى طريق مراكش ، واتجه صوب سلا . وكان واليها ابن أبى يعلى ، قد استعد فى حشوده للانضمام إليه . وأقام المرتضى أياما فى سلا ، يتعرف أخبار بنى مرين ، ثم خرج من سلا فى حشود وافرة ، قاصداً إلى مكان بنى مرين . وكان الأمير أبويحيى ، حينما علم بخروج المرتضى إلى قتاله ، قد جمع أشياخ بنى مرين وحلفاءهم ، وبحث الأمر معهم ، فرأوا أن يجنحوا إلى المسالمة ، فكتب أبو يحيى إلى المرتضى ، يطلب إليه السلم والمهادنة ، وكان المرتضى يميل إلى عقد السلم ، ولكن وزراءه عارضوا فى ذلك ، وبينوا له خطورة مهادنة بنى مرين ، وإغفال أمرهم ، فجنح المرتضى إلى الحرب ، وسار فى حشوده الزاخرة ، إلى لقاء خصومه ، ومعه أحمال كثيرة من المال برسم النفقة ، حتى صار على مقربة من محلات بنى مرين ، ونزل بمكان يسمى أمن ملولنين ( أو أميلولين ) من أحواز مكناسة . وكان الأمير أبو يحيى وبنومرين ، قد استعدوا للقتال ، وبدأ الموحدون المعركة ، وهجم الموحدون وعلى بن زيان وجنوده ، كل من ناحية ، فتظاهر بنو مرين بالانسحاب ، وكانوا قد رتبو كمائنهم ، فى أماكن قريبة مستوره ، ولكن الموحدين فطنوا إلى الخدعة ، فلم يتبعوهم ، وعندئذ أشاع حليف المرتضى ، يعقوب بن جرمون ، شيخ سفيان ، بناء على خطاب تلقاه من أبى يحيى ، فى المحلة الموحدية ، أن الصلح قد عقد بين الفريقين ، فاقتنع المرتضى بورود هذا الخطاب على يعقوب ، وإن لم يعقد صلح فى الواقع ، وأمر بالرحيل ، وتحركت الجيوش الموحدية ، عائدة صوب مراكش ، فعندئذ تبع بنو مرين الجيوش المرتدة ، وانتزعوا كثيراً من عتادها وأحمالها ، واستولوا بالأخص على أحمال الخليفة ، وأمواله ، واستمر انسحاب القوات الموحدية ، فى غير نظام ، حتى ثغر أزمور ، فاستراح بها المرتضى أياما ، ثم غادرها إلى الحضرة . وكانت هزيمة دون قتال ، وكانت دليلا جديداً على ما أصاب قوى الموحدين المعنوية من التخاذل والانهيار(١) .

ولما عاد المرتضى إلى الحضرة عزل وزيره ابن يونس ، وكان حاقداً عليه ، لمعارضته فى بيعته ، ومايزال يسرها له ( ٦٥٠ هـ ) .

وفى العام التالى — ٦٥١هـ — ثار والى السوس على بن يدّر ، وجاهر بالعصيان فبعث المرتضى حمله موحدية إلى السوس لإخضاعه ، ولكنها عجزت عن ذلك ،

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٨ وج ٧ ص ١٧٦ ، والبيان المغرب ص ٤٠٢ — ٤٠٥ .

فارتدت خائبة إلى مراكش ، واستمر الأمر على ذلك حتى العام التالى ، حيث تفاقم أمر الثورة فى السوس ، واشتد ساعد على بن يدر ، بمن انضم إليه من طوائف العرب ، من عرب الشبانات وبنى حسان وغيرهم ، ثم سار إلى حصار تارودانت عاصمة السوس ، يبغى الاستيلاء عليها ، فسارت من مراكش ، حملة موحدية جديدة لقتاله ، فترك تارودانت ، وامتنع بالداخل، ولم يستطع الموحدون إليه سبيلا ، فارتدوا عائدين إلى الحضرة ، وعاد ابن يدر إلى مضايقة تارودانت والعيث فى أحوازها ( ٦٥٢هـ ) . وحدث بعد ذلك أن وقف المرتضى ، على بعض كتب صادرة من ابن يدر ، إلى قريبه الوزير ابن يونس ، تدل على أنه كان يمده بالمال والسلاح ، فقبض على ابن يونس وأولاده ، ثم أمر به المرتضى فقتل ، وأفرج عن أولاده فيما بعد ( ٦٥٣ هـ )[١] .

وفى خلال ذلك ، كان الأمير أبو يحيى وبنو مرين ، يعملون على توطيد سلطانهم ، وتنظيم حكومتهم بمدينة فاس ، وهى التى سوف تغدو منذ الآن فصاعدا ، حاضرة ملكهم الفتى ؛ والواقع إن الإمبراطورية الموحدية ، كانت قد فقدت بانسلاخ إفريقية عنها ، ثم استقلال بنى عبد الواد بمملكة تلمسان ، سائر أقاليم المغرب الأوسط ، ثم جاء بنو مرين فانتزعوا النصف الشمالى ، من المغرب الأقصى ، واستولوا من قواعده على تازة ووجدة وفاس ومكناسة ، وأخضعوا سائر أقاليم تلك المنطقة ، من جبال غمارة حتى وادى أبى رقراق ، ولم يبق بيد الدولة الموحدية ، سوى ماوراء ذلك جنوبا من الأقاليم القليلة الباقية ، حتى بلاد السوس ، تتوسطها مراكش . ولم يكن خافيا على ذوى النظر البعيد ، من أشياخ الموحدين وغيرهم ، أن مصير الدولة الموحدية أضحى يهتز فى كفة القدر ، وأنها وصلت ، بما انتهت إليه من الضعف والتفكك ، إلى مرحلة الاحتضار .

ولما انتهى أبو يحيى ، من تنظيم الشئون بفاس ، ارتد فى بعض قواته إلى بلاد فازاز ، ليتم إخضاعها ، فافتتحها ، وأخضع بطون زناتة النازلة فى تلك المنطقة ، وفرض الجباية عليهم جميعاً ، وأخمد كل نزعة إلى الخروج والعصيان[٢]. ثم سار فى قواته غرباً ، فى المنطقة الممتدة ما بين وادى أبى رقراق ، ووادى أم الربيع ، وكان من الواضح أنه يقصد الزحف إلى سلا ورباط الفتح ، وقد

---

( ١ ) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٩ ، والبيان المغرب ص ٤٠٨ .

( ٢ ) الذخيرة السنية ص ٨٧ ، وابن خلدون ج ٧ ص ١٧٥ .

أثارت هذه الحركة جزع البلاط الموحدى ، فأخذ يستعد لمقاومتها بكل ماوسع.

وكان المرتضى ، وهو الشيخ الورع الهادئ يعكف خلال ذلك ، على تدبير ضرباته ، والانتقام من خصومه ، وكان الدور بعد مصرع ابن يونس ، على أشياخ الخلط ، وكانت الريبة قد اتجهت عقب مصرع الخليفة السعيد ، فى شعب جبل تلمسان فى سنة ٦٤٦ هـ ، إلى عرب الخلط ، وقوى الظن بأنهم اشتركوا فى مؤامرة قتله ، وذلك لأنهم تخاذلوا فى القتال أولا ، ثم لما قتل السعيد ، كانوا أول من بادر إلى نهب محلته ، واستلاب ما فيها ، وسلبوا فوق ذلك أموال أهله وأقاربه ، وذلك قبل أن يصل بنو عبد الواد ، إلى محلة الخليفة القتيل ، وكان المرتضى يتوق إلى معاقبة زعمائهم ، على ما ارتكبوه من الخيانة والغدر ، فدبر كمينا لإهلاكهم ، واحتال فى دعوتهم إلى مراكش ، بمختلف المعاذير ، فلما وصل معظمهم ، أذن لهم بالدخول إلى القصر ، وكان قد كمن لإهلاكهم ، عدد كبير من عبيد المخزن والجند ، فلما تقدموا إلى داخل الدار ، وأحيط بهم ، قتلوا أشنع قتل ، وقيل بل قتلوا بالسم ، فى الطعام الذى قدم لهم ، وكان عدد من قتل من زعماء الخلط سبعون شيخاً ، ووقع ذلك الحادث الدموى فى سنة ٦٥٢ هـ[(١)] .

وفى نفس هذا العام ، ثار يعقوب بن محمد بن قيطون ، زعيم بنى جابر ، وخلع الطاعة ، وكان المرتضى قد أكرمه ، ومنحه إقطاعات واسعة ، فبعث المرتضى إلى تامسنا ، عسكراً بقيادة أبى الحسن بن يعلى ، ليتفقد أحوالها ، وليدبر مع يعقوب بن جرمون شيخ سفيان ، طريقة القبض على ابن قيطون . ودعا أبو الحسن ومعه ابن جرمون ، ابن قيطون للتفاهم معه ، فلما حضر ، أبرز ظهيرا بتقديم يعقوب بن جرمون ، على سائر عرب المنطقة ، فثار لذلك ابن قيطون ، وحاول الانسحاب ، ولكن قبض عليه وعلى وزيره ابن مسلم ، وعاد أبو الحسن بهما مكبولين إلى مراكش[(٢)] .

وكان المرتضى ، قد استطاع فى تلك الأثناء ، أن يتم أهباته لمحاربة بنى مرين . وكان بنو مرين ، وعلى رأسهم الأمير أبو يحيى من جهة أخرى ، قد توطد أمرهم بفاس وأحوازها ، وأطاعتهم سائر القبائل المجاورة ، وعمد أبو يحيى إلى حشد الحشود ، والاستكثار من العدة والسلاح ، وكان من الواضح أن وقف تقدم

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٩ ، والبيان المغرب ص ٤٠٩

(٢) البيان المغرب ص ٤١٠ .

بنى مرين ، فى قلب المغرب ، أضحى بالنسبة للموحدين مسألة حياة أو موت. ومن ثم فان المرتضى ، عول على أن يسير بنفسه لقتال بنى مرين ، فقام بأداء الزيارة المأثورة إلى تينملل ، ثم خرج من مراكش فى حشود ضخمة ، من الموحدين والمصامدة والعرب ، وسار أولا إلى سلا ، ثم غادرها فى حشوده شرقاً صوب فاس ، وكان أبو يحيى قد استعد كذلك فى قواته للقاء الموحدين ، وكان المرتضى يزمع من وراء ذلك الصراع ، أن يسترد فاس وأحوازها ، إذ كان بقاؤها فى أيدى بنى مرين ، يمثل أعظم خطر على كيان الدولة الموحدية . ولما اقتربت القوات الموحدية من فاس ، وقعت بين المرتضى وأبى يحيى ، بعض مراسلات ومراجعات فى سبيل الصلح ، ولكنها لم تفض إلى أية نتيجة . ثم وقع اللقاء بين الفريقين ، عند جبل بهلولة أو بنى بهلول ، على مقربة من فاس ، وكانت معركة عنيفة ، انتهت بهزيمة الموحدين ، وتمزيق صفوفهم ، فقتلت منهم جموع عظيمة ، واستولى بنو مرين على محلتهم وعتادهم ، ومؤنهم ودوابهم ، واستولوا بالأخص على أحمال الأموال ، وكانت مقادير طائلة ، وكان أكبر عامل فى تلك الهزيمة الشنيعة ، خيانة العرب ، وتراجعهم عند بدء المعركة . وفر المرتضى فى بعض فلوله ، إلى أزمّور ، وهو فى حالة سيئة ، ولبث بها ، حتى بعث إليه والى مراكش ، أبى سعيد ابن تيجا ، بما يلزم من ضروب الإسعاف ، وكان وقوع تلك النكبة بالموحدين فى سنة ٦٥٣ ( ١٢٥٥ م )(١) .

وكانت هذه ضربة قاصمة ، لقوى الموحدين المادية والمعنوية ، وجنح المرتضى بعد ذلك إلى الدعة والراحة ، وعكف على تشييد القصور لأبنائه ، وأنفق فى ذلك أموالا طائلة ، وقام بإصلاح جامع على بن يوسف ، وكان إصلاحه من قبل يعتبر عملا مكروها ، فى نظر الموحدين . ويقول لنا ابن عذارى فوق ذلك ، إنه عقد الهدنة والسلم ، مع الأمير أبى يحيى ، وكانت تربطه بالفقيه أبى القاسم العزفى ، صاحب سبتة ، صلات ودية ، بالرغم من خروجه على الموحدين ، ودعوته لأمير إفريقية الحفصى ، وكذلك بأبى الحجاج يوسف بن الأمين صاحب طنجة ، وكان قد انضوى تحت لواء العزفى أولا ، ثم استبد بحكم طنجة(٢) .

---

(١) البيان المغرب ص ٤١١ ، و٤١٢ ، وروض القرطاس ص ١٩٧ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٩ وج ٧ ص ١٧٦ .

(٢) البيان المغرب ص ٤١٤ ، و٤١٥ ، وابن خلدون ج ٧ ص ١٨٦ .

على أن هذا الهدوء النسبى ، الذى بسط ظلاله ، على مابقى من أقطار الدولة الموحدية ، لم يستمر طويلا ، لأن بنى مرين ، لم يكن فى نيتهم ، أن يقفوا عند حدود الرقعة الواسعة ، التى انتزعوها من الموحدين ، والتى أضحت تكون وحدها مملكة ضخمة ، داخل المغرب الأقصى ، وإنما كانت تحدوهم رغبة قوية فى انتزاع ما بقى من أراضى المغرب ، والقضاء على الدولة الموحدية بصورة نهائية ، وإقامة مملكتهم الفتية على أنقاضها ، مستقلة دون منازع .

ومن ثم فإنه لم يمض سوى قليل ، على موقعة جبل بهاولة ، حتى نهض بنو مرين لافتتاح قطر جديد ، من أقطار الدولة الموحدية ، ووجهت الضربة فى هذه المرة ، إلى سجلماسة ودرعة . وهنا تختلف الرواية فى تاريخ هذا الفتح المرينى ، ففى رواية أنه وقع فى أواخر سنة ٦٥٣ هـ[١] ، وفى أخرى أنه كان فى سنة ٦٥٥ هـ[٢] . وتفصيل ذلك أن والى سجلماسة الموحدى أبا محمد عبد الحق الحنفيسى ، كان يرابط مع جنده فى قصبة سجلماسة ، فدبر رجل من زعماء المدينة يسمى أبويحيى محمد القطرانى ، مؤامرة للغدر بهم ، وتسليم المدينة إلى بنى مرين ، واتصل القطرانى بأبى يحيى وأغراه بفتح سجلماسة ، فبعث إليه أبويحيى جملة من جنده ، فتحيل القطرانى فى إدخالهم إلى المدينة ، وهاجم القصبة وقبض على واليها الموحدى ، وبعث به معتقلا إلى الأمير أبى يحيى ، ثم وفد أبو يحيى بنفسه إلى سجلماسة ، ودخلها ، واستولى على ماكان بالقصبة من المال ، وعين إلى جانب القطرانى ، واليا مرينيا للمدينة ، ثم استولى على درعة فى جنوب سجلماسة ، وعاد إلى فاس . وثار الخليفة المرتضى لما وقع ، وأبى أن يفتدى واليه أبا محمد عبد الحق من الأسر ، لاتهامه إياه بالتقصير والتفريط[٣] .

وفى نفس الوقت تفاقم الأمر فى بلاد السوس ، واشتد أمر على بن يدر ، المتغلب عليها حسبما تقدم ، فرأى المرتضى أن يبذل محاولة جديدة ، لإخماد هذه الحركة ، فبعث إلى السوس حملة موحدية جديدة ، بقيادة أبى محمد بن أصناج ، فسار إلى تارودانت ونزل بها ، وكان على بن يدر قد غادرها عندئذ ، إلى حصن تيونوين ، واعتصم به ، فسار ابن أصناج لقتاله ، فخرج إليه ابن يدر

---

(١) هذه رواية صاحب الذخيرة السنية ص ٨٩ ، وابن خلدون ج ٧ ص ١٧٦ .
(٢) هذه رواية ابن عذارى فى البيان المغرب ص ٤١٦ ، وروض القرطاس ص ١٩٧
(٣) البيان المغرب ص ٤١٧ ، وابن خلدون ج ٧ ص ١٧٦ ، وروض القرطاس ص ١٩٧ .

وهزمه ، وقتل معظم عسكره ، فارتد ابن أصناج فى فلوله ، منهزماً إلى مراكش ، وبقى ابن يدر على سلطانه وطغيانه[١] .

وأما فى سجلماسة ، فإن الأمر لم يقف فى شأنها عند ما تقدم . ذلك أن الأمير أبا يحيى مرض ، وتوفى بفاس فى رجب من العام التالى ( ٦٥٦ هـ ) ، ووقع الخلاف على ارتقاء العرش ، بين ولده عمر وأخيه أبى يوسف يعقوب ، فانتهز القطرانى هذه الفرصة ، واستولى على حكم سجلماسة ، واستطاع الوالى المرينى أن يغادر القصبة ، فى أهله وأصحابه ، وبعث القطرانى إلى المرتضى ، يعتذر عما حدث ، وأنه سوف يقوم بالدعوة الموحدية ، ولكن بشرط أن يبقى عاملا بسجلماسة ، مستقلا بأمرها ، فوافق المرتضى على ذلك ، وبعث إليه بالفقيه أبى عمرو بن حجاج ، ليكون قاضياً للمدينة ، وبسرية من الجند الروم مع قائدهم ، وزود القاضى والقائد بأوامر سرية معينة . واستمر القطرانى فى رياسة المدينة حيناً ، وفى ذات يوم وثب قائد الروم بالقطرانى فقتله ، وكان هذا تنفيذا لأوامر المرتضى ، فوقع الهرج بالمدينة ، وبادر القاضى فأعلن للناس أن ماوقع إنما كان تنفيذا لأمر الخليفة ، وعهد المرتضى إلى القاضى أبى عمرو بشئون المدينة ، وكان هذا الحادث دليلا جديداً على ما كانت تتسم به وسائل المرتضى من شيم النكث والغدر[٢] .

ولما توفى عاهل بنى مرين الأمير أبو يحيى ، تولى ولده عمر بن أبى يحيى العرش مكانه ، ولكن معظم أشياخ بنى مرين ، لم يكونوا راضين عن ولايته ، وكانوا يؤيدون بالعكس ولاية عمه الأمير أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق ، أخى أبى يحيى ، وكان عند وفاة أخيه غائباً برباط تازا ، فأسرع إلى حضرة فاس ، والتف حوله أكابر المشيخة ، ووقع الخلاف بين عمر وعمه ، واعتصم عمر بالقصبة وكان أبو يوسف يميل إلى حسم الأمر ، بالبقاء فى رباط تازا ، ولكن ألح عليه أشياخ بنى مرين ، والتف حوله جمع كبير من الأنصار ، وخرج عمر للقائه فى أنصاره ، فى ظاهر فاس : فخذل عمر وهزمه أنصاره ، وارتد إلى فاس مفلولا ، وانتهى الأمر بالصلح بين عمر وعمه ، على أن يرقى أبو يوسف العرش ، وأن يتولى عمر أمر مكناسة وما إليها ، ودخل أبو يوسف يعقوب ظافراً ، وتولى الملك ، وذلك فى شهر شوال سنة ٦٥٦ هـ ( أواخر ١٢٥٨ م )[٣] .

---

( ١ ) البيان المغرب ص ٤١٥ . ( ٢ ) البيان المغرب ص ٤١٩ .

( ٣ ) الذخيرة السنية ص ٩٢ و ٩٧ ، وابن خلدون ج ٧ ص ١٧٧ ، والبيان المغرب ص ٤٢٠ و ٤٢١ .

— ٥ —

لم يبق عندئذ ، تحت سلطان الخلافة الموحدية ، من إمبراطوريتها الشاسعة القديمة ، بعد العاصمة وأحوازها ، سوى المنطقة الواقعة بين وادى أبى رقراق ووادى أم الربيع ، وفيها سهل تامسنا وثغرا سلا ورباط الفتح ، فإلى هذه المنطقة ، وإلى هذين الثغرين ، اتجهت أنظار بنى مرين . فى سنة ٦٥٧ هـ ، سار كبير بنى مرين يعقوب بن عبد الله بن عبد الحق ، وهو ابن أخى السلطان أبى يوسف ، متجهاً صوب تامسنا ، مع قوة من الجنود المرينية ، وذلك بحجة ممارسة الصيد والكلأ ، ونزل بعين عبولة ، على مقربة من سلا . ويقول لنا صاحب الذخيرة السنية ، إنه قام بهذه الرحلة ، بإيعاز عمه السلطان أبى يوسف[1] ، ولكن ابن خلدون بالعكس ، يقدم إلينا رواية أخرى ، خلاصتها أن الأمير أبا يحيى ، كان قد افتتح سلا ، من أيدى الموحدين ، فى سنة ٦٤٩ هـ ، واستعمل عليها ابن أخيه ، يعقوبا المتقدم ذكره ، ولكن الموحدين عادوا فاستردوا سلا ، فأقام يعقوب مع صحبه ، فى بعض أحوازها ، يترقب الفرص ، ولما تولى عمه أبو يوسف الملك ، غضب منه لبعض الأمور ، وأخذ يدبر الحيلة فى الاستيلاء على سلا[2] . وعلى أى حال فقد دبر يعقوب خطة لافتتاح هذا الثغر الموحدى الهام . وكان والى سلا من قبل المرتضى يومئذ هو أبو عبد الله محمد بن أبى يعلى الكومى ، وكان حينما اقترب يعقوب برجاله من سلا ، قد اتخذ كل أهبة ، ورتب الحراس على أبواب المدينة ، ليلا ونهاراً ، بيد أن الدفاع عن المدينة كان بالرغم من ذلك ضعيفاً ، ولم يكن الاستيلاء عليها أمر صعباً . وكان يعقوب بن عبد الله يعرف هذه الحيقية ، ويقول صاحب الذخيرة السنية ، ويتابعه ابن خلدون ، إن يعقوبا استطاع أن يدخل إلى قصبة رباط الفتح بالحيلة ، وأن يخرج منها ابن أبى يعلى ، فسار فارا بنفسه إلى أزمّور ، واستولى يعقوب بذلك على سلا دون قتال[3] . ولكن ابن عذارى يقول لنا بالعكس ، إن يعقوبا طرق سلا مع رجاله بالليل ، وركبوا السلالم على السور ، أمام الباب ، وقتل الحراس أو أسقطوا من عل ، ثم كُسر الباب ، ودخل يعقوب وصحبه إلى المدينة ، ونهبوا دورها ، ووقع الاضطراب ، وفر الناس هنا وهنالك ، وفر ابن أبى يعلى من القصبة فى سفينة ، إلى ثغر أزمور ، وملك يعقوب سلا

---

(١) الذخيرة السنية ص ١٠٢ .    (٢) ابن خلدون ج ٧ ص ١٧٤ و ١٧٨ .

(٣) الذخيرة السنية ص ١٠٢ ، وابن خلدون ج ٧ ص ١٧٨ .

ورباط الفتح ، وكان ذلك فى أوائل سنة ٦٥٨ هـ[1] .

وماكاد يعقوب بن عبد الله يستقر بسلا ، حتى جاهر بخلع طاعة عمه السلطان أبى يوسف ، والاستقلال بأمره ، وأخذ فى الأهبة والاستعداد ، واقتناء السلاح والعدد ، واستدرج شيوخ سلا إلى القصبة ، ونزع سلاحهم ، اتقاء لشرهم ، وكتب إلى ألفونسو العاشر ملك قشتالة ، يرجوه أن يمده بمائتين من المرتزقة النصارى ، ليستعين بهم على مقاتلة أعدائه .

وعلى أن هذه المخاطبة لملك قشتالة ، قد أسفرت عن مفاجأة مروعة ، لم يكن يتوقعها أحد . وذلك أن ألفونسو العاشر ، كان منذ بداية حكمه ، يفكر فى نقل الحرب الصليبية ، التى اضطرمت عصوراً ، فى شبه الجزيرة الإسبانية ، إلى إفريقية ، وكان يشجعه فى مشروعه ، البابا إنوسان الرابع ، ومن بعده خلفه البابا اسكندر الرابع ، وكان ألفونسو قد أنشأ فى إشبيلية أحواضاً كبيرة لبناء السفن ، لتكون نواة لأسطول الغزو المنشود . فلما وردت عليه مكاتبة الأمير المرينى صاحب سلا ، رأى أن ينتهز هذه الفرصة ، وأن يرسل حملة بحرية صغيرة لافتتاح سلا ، وجهزت سفن هذه الحملة فى مياه إشبيلية ، ووقف الفقيه العزفى صاحب سبتة ، من عيونه ، على هذه الأهبة ، فبعث النذير إلى سائر ثغور المغرب ، على المحيط ، ينصحهم بالحذر والاستعداد . وسارت السفن القشتالية مشحونة بالمقاتلة ، حتى رست فى مياه سلا ، فاعتقد أهل المدينة أنهم قدموا للمتاجرة ، واعتقد يعقوب بن عبد الله ، أنهم الجند الذين طلب إلى ملك قشتالة إرسالهم لإنجاده ، ولم يخالج أحد شك ، فى حقيقة المشروع الغادر ، الذى قدمت من أجله هذه السفن النصرانية . وجمع القشتاليون سفنهم تدريجيا ، فى خليج المدينة ، ثم فاجأوها بالهجوم ، ودخلوها بعنف ، وقتلوا كثيراً من أهلها ، وهم دون دفاع ، وسبوا النساء والأطفال ، فى مناظر مروعة ، واحتشد جماعة من أهل المدينة لمدافعة النصارى ، وقاتلوا بكل ما وصل إلى أيديهم ، من صنوف السلاح ، فلم يغن ذلك شيئاً ، وهلك معظمهم ، وهرع الناس إلى مغادرة المدينة ، فى جموع متراصة ، وهلك فى الزحام كثير منهم . كل ذلك ويعقوب بن عبد الله ممتنع بالقصبة ، لايستطيع شيئاً ، وهو يرى عاقبة تصرفه الشنيع ، وجمع النصارى السبايا من النساء والأطفال بالجامع ، واغتصبوا النساء والأبكار ، وقتلوا الشيوخ ، وخربوا المساجد ، ولم تقف فظائعهم عند

---

(١) البيان المغرب ص ٤٢٢ .

حد . وكان وقوع هذا الاعتداء المروع على ثغر سلا ، فى اليوم الثانى من شهر شوال سنة ٦٥٨ هـ ( ١٠ سبتمبر ١٢٦٠ م )[١] .

وترامت هذه الأنباء المؤلمة ، إلى السلطان أبى يوسف ، وهو بفاس ، فأهمته وأزعجته ، فهرع فى بعض قواته إلى سلا ، وحاصر النصارى بها ، واجتمعت من الأنحاء القريبة ، طوائف كبيرة من المتطوعة ، وقاتل النصارى من فوق الأسوار ، وتبادل الفريقان الرمى بالنبال والأحجار ، واستمر القتال على هذا النحو بضعة أيام ، حتى اليوم الثالث عشر من شوال ، وقتل عدد من النصارى ، وأيقنوا أنهم لايستطيعون الصمود ، واضطروا أخيراً إلى مغادرة المدينة ، ومعهم جماعة كبيرة من أسرى المسلمين ، وما نهبوه من المال والمتاع ، واستقلوا سفنهم المرتبطة إلى الشاطىء ، وأقلعوا بها على عجل ، وذلك فى اليوم الرابع عشر من شوال . وفى الحال استولى أبو يوسف على سلا ورباط الفتح ، وأمر بإصلاح ما تهدم من سورها الغربى ، وإصلاح جامعها ومساجدها ، وكان يشترك مع كبراء قومه ، فى رفع الأحجار ، ابتغاء الأجر .

وأما يعقوب بن عبد الله ، فقد فر من القصبة ، ولحق بحصن علودان من جبال غمارة ، وامتنع به ، فبعث أبو يوسف فى أثره ولده الأمير أبا مالك ، فى قوة من الجند لمنازلته . وسار النصارى بسفنهم حذاء الشاطىء ، دون أن يتزودوا ، وهم يحاولون الحصول على الماء والطعام ، والمسلمون يردونهم أينما حلوا ، واستنقذ أهل العرائش منهم ثلاثة وخمسين أسيراً ، نظير الماء ، وانفصل بعض النصارى عن جماعتهم ، وحصلوا على الأمان ، والتحقوا بخدمة أبى يوسف ، ودلت أنباء الطلائع المسلمة ، على أن ملك قشتالة ، كان قد جهز حشوداً أخرى ، لإنجاد رجاله ، ومعاونتهم على الاحتفاظ بسلا ، فلما علم بانسحابهم ، قرر معاقبة قائدهم خوان غرسية ، ولكن خوان استطاع الفرار مع نفر من صحبه ، إلى مياه أشبونة ، ولم يعد إلى قاعدته فى قادس[٢] .

وأما أسرى سلا ، الذين حملهم النصارى معهم ، فى سفنهم ، فقد بالغت الرواية فى تقدير عددهم . وقيل إن ما أنزل منهم فى إشبيلية ، بلغ نحو ثلاثة آلاف من الجنسين كباراً وصغارا ، فافتدى أهل شريش المدجنون ، منهم ثلاثمائة وثمانين ،

( ١ ) الذخيرة السنية ص ١٠٣ ، والبيان المغرب ص ٤٢٤ .
( ٢ ) البيان المغرب ص ٤٢٦ — ٤٢٨ ، وابن خلدون ج ٧ ص ١٧٨ .

وبعث السلطان أبو يوسف ، فى أواسط شهر ذى الحجة من نفس العام ، رسولا خاصا إلى الأندلس ، هو أبو بكر بن يعلى ، ليعمل على افتداء الأسرى ، فافتدى معظمهم ، ومنهم قاضى سلا . بيد أنه بقى منهم عدد لم يعرف مصيرهم[1] .

وبعث الخليفة المرتضى بهذه المناسبة ، إلى الفقيه العزفى صاحب سبتة ، رسالة مؤرخة فى الثالث من ذى القعدة سنة ٦٥٨ ﻫ ، يزجى إليه الشكر فيها ، على ما قام به من تحذير أهل السواحل ، ويشيد بخلاله وإخلاصه ، ويرجوه أن يستمر ، على التعريف بكل ما يقف عليه ، من خطط العدو تجاه المغرب ، وقد أورد لنا ابن عذارى نص على هذه الرسالة[2] .

وقد كشف عدوان النصارى على سلا ، عن وجود خطر جديد ، يهدد سلامة المغرب ، لم يكن متوقعا ، ولم يحسب حسابه . ونستطيع القول بأن هذه المحاولة ، من جانب اسبانيا النصرانية ، كانت هى البداية الأولى ، لتلك السلسلة المتوالية من حملات العدوان المنظم ، التى اضطلعت بها اسبانيا النصرانية ، والبرتغال فيما بعد ، ضد شواطىء المغرب الشمالية والغربية ، والتى بدأها البرتغاليون بالاستيلاء على ثغر سبتة فى سنة ٨١٨ﻫ ( ١٤١٥ م ) ثم طنجة فى سنة ٨٦٩ ﻫ ( ١٤٦٤م ) .

ولبث السلطان أبو يوسف حينا بثغر سلا ، ينظم أمورها ويصلح ما خرب منها ، وكان النصارى قد أحرقوا وخربوا وأتلفوا معظمها ، وقدّم على ولايتها أبا عبد الله بن أحمد الفنزارى ، ثم غادرها ، واستولى على بلاد تامسنا ، وخضعت له سائر القبائل المجاورة[3] .

ولما رأى الخليفة الموحدى — المرتضى بالله — ، أنه لم يبق ثمة أمل فى المقاومة ، والكفاح ضد بنى مرين ، بعث إلى السلطان أبى يوسف هدية سنية ، ومعها رسالة من أشياخ الموحدين ، وسائر الفقهاء والصلحاء ، يلتمسون إليه الصلح والموادعة ، فاستجاب السلطان لرغبتهم فى عقد السلم ، وجعل وادى أم الربيع ، حدا بينه وبين ماتبقى من مملكة الموحدين[4] .

وكان من ذيول ثورة يعقوب بن عبد الله بسلا ، أن حذا حذوه أبناء عمه أولاد إدريس ، وهم أبناء أخى السلطان ، فثاروا بقصر كتامة ، تضامنا مع يعقوب ، واجتمعوا تحت راية كبيرهم محمد بن إدريس ، والتف حولهم جمع

(١) البيان المغرب ص ٤٢٨ .
(٢) البيان المغرب ص ٤٢٥ .
(٣) الذخيرة السنية ص ١٠٤ .
(٤) الذخيرة السنية ص ١٠٤ .

كبير من القرابة والصحب ، واعتصموا بجبال غمارة ، فبعث السلطان حملة ، لقتالهم ، ثم استنزلهم واسترضاهم ، وعقد لأخيهم عامر بن إدريس ، على جيش من نحو ثلاثة آلاف مقاتل ، من بنى مرين ومن المطوعة . وكانت رسائل ابن الأحمر صاحب غرناطة ، تترى منذ حين على أبى يوسف ، طلبا للعون والنصرة ، والمشاركة فى الجهاد فى سبيل الله ، فبعث أبو يوسف ذلك الجيش الصغير ، إلى الجهاد بالأندلس ، فعبروا إلى شبه الجزيرة ، واستقبلهم ابن الأحمر بالضيافات والكرامات ، وساروا أولا إلى مالقة ، فاستقروا بها بقية سنة ستين . وفى العام التالى سنة ٦٦١ هـ ، سار أولئك المجاهدون إلى أرض الفرنتيرة ، وقصدوا إلى مدينة شريش ، وكانت قد دعت بطاعة ابن الأحمر ، ولكن النصارى احتلوها ، فانتزعها المرينيون من أيدى النصارى واحتلوها ، ولكن لمدى قصير فقط . بيد أن عبور هذه الكتائب المرينية القليلة ، إلى شبه الجزيرة ، كان فاتحة لهذا التعاون القوى المثمر ، الذى انعقد بين بنى الأحمر ملوك غرناطة ، وبين بنى مرين ، ضد اسبانيا النصرانية ، واستمر عصراً يشد من أزر مملكة غرناطة ، ويمكنها من الصمود ضد أعدائها[١] .

أما يعقوب بن عبد الله ، فقد استمر على ثورته وعصيانه ، معتصما بمختلف النواحى ، إلى أن قتله قائد المرينيين طلحة بن على ، بناحية أرض عبولة ، على مقربة من ثغر سلا ، فى سنة ٦٦٨ هـ ، فلقى بذلك جزاءه وانتهى أمره[٢] .

وكان من حوادث هذا العام أيضاً — ٦٥٩ هـ — أن بعث ابن الأحمر صاحب غرناطة سفنه لغزو سبتة ، لسوء تفاهم وقع بينه وبين صاحبها العزفى ، فلقيتها سفن سبتة ، بقيادة الرنداحى ، وهزم أسطول الأندلس وقتل قائده ظافر ، وسمى هذا العام بعام ظافر[٣] .

— ٦ —

فى خلال هذه الفترة المليئة بالحوادث ، من تاريخ بنى مرين ، والتى انتزعوا فيها رقاعا وثغوراً جديدة هامة ، من أشلاء الدولة الموحدية ، وأخذ نجمهم يتألق فى قلب المغرب الأقصى ، كان الخليفة الموحدى المرتضى لأمر الله ، عاكفاً فى

(١) الذخيرة السنية ص ١١٢ ، والبيان المغرب ص ٤٣٩ ، وابن خلدون ج ٧ ص ١٧٩ .
(٢) ابن خلدون ج ٧ ص ١٧٩ . (٣) البيان المغرب ص ٤٣١ .

حاضرته ، التى قصت أطرافها ، على معالجة الصغائر من الأمور ، ومساجلة طوائف العرب ومصانعتها ، وكان قد قدّم يعقوب بن جرمون على عرب سفيان حسبما ذكرنا من قبل، فأمر يعقوب لأمرٍ ما بقتل ابن أخيه كانون . فثار عليه إخوة القتيل ، وتربصوا به وقتلوه ، ورحلوا إلى بلاد بنى مرين ، ودخلوا فى طاعتهم. فلما وقف المرتضى على ذلك ، قدم على سفيان عبد الرحمن بن يعقوب ، ولكنه لم يكن عاقلا حريصاً كأبيه ، ففى ذات يوم قام بنهب قوافل التجار المارة فى وادى تانسيفت ، على مقربة من مراكش ، ولما خشى عواقب فعلته ، جاهر بخلع طاعة الموحدين ، وفر إلى أرض بنى مرين ، والتجأ إلى حمايتهم ، فقدم المرتضى عندئذ على سفيان ، مسعود بن كانون ، وكان حازماً عاقلا فاستقامت على يده الأمور .

ووفد عندئذ على مراكش عواج بن هلال ، من زعماء الخلط ، ناكثا لطاعة بنى مرين ، وكان معه عسكر كبير من قومه ، فأكرم المرتضى وفادتهم ، وأجزل صلاتهم ، ولما علم بذلك عبد الرحمن بن يعقوب ، بعث إلى الخليفة فى طلب الصفح والأمان ، فأجيب إلى طلبه ، ووفد هو أيضاً إلى مراكش ، فى جمع كبير من قومه ، فاستقبله الخليفة بالترحاب ، ثم دبر الحيلة فى التخلص منه ، جريا على طريقته المأثورة ، فى إزهاق من يخرج على طاعته ، فاستُدرج ذات يوم مع وزرائه ، وقتلوا جميعا ، وعلقت رؤوسهم على باب دُكاله ، وبقى مسعود بن كانون أميراً على سفيان . وقدم اسماعيل بن يعقوب بن قيطون، أميراً على بنى جابر ، وعلى بن أبى على ، أميراً على عرب الخلط . أما عواج بن هلال فقد وشى به وأعدم[1] .

على أن اشتغال المرتضى ، بأمر أولئك الأعراب ، لم ينسه المسألة الرئيسية ، وهى الكفاح ضد بنى مرين . ولم يكن ذلك الصلح الذى عقد بينه وبين أبى يوسف ، عقب سقوط سلا ورباط الفتح ، سوى هدنة مؤقتة ، وسلام زائف ، ولم يكن أبو يوسف من جانبه ، ينوى التوقف عن مطاردة الموحدين ، حتى يظفر بالقضاء على دولتهم بصورة نهائية . ومن ثم فإنه لم يمض سوى قليل، حتى خرج أبو يوسف من حضرته فاس ، إلى أرض تامسنا ، بقصد الرعى والكلأ ، وتوطيد نفوذه بين القبائل الضاربة فى تلك الأنحاء ، مثل برغواطة وغيرها . وكان المرتضى من جانبه يتأهب لمحاولة جديدة لقتال بنى مرين وصد تقدمهم . فحشد جيشاً مختاراً

(١) البيان المغرب ص ٤٣٢ و٤٣٣ .

من الموحدين والعرب والأغزاز والروم ( النصارى المرتزقة ) ، وعهد بقيادته إلى أبى زكريا يحيى بن وانودين . فسار هذا الجيش إلى وادى أم الربيع شمالى مراكش، وكان السلطان أبو يوسف قد استعد هنالك للقاء الموحدين أتم استعداد . ووقع اللقاء بين الجيشين ، عند مكان من الوادى ( النهر) تبدو فيه كدى ، أو جزائر صغيرة ، ينحسر عنها الماء وكأنها أرجل ، ومن ثم فقد سميت الواقعة ، التى نشبت هنالك بين الجيشين ، موقعة « أم الرجلين » . وكانت موقعة عنيفة انتهت بوقوع الهزيمة على الموحدين، وتمزيق صفوفهم ، ومقتل العدد الجم منهم . فولوا الأدبار واستولى بنو مرين على محلتهم وسائر عتادهم ومتاعهم . وكان ذلك فى سنة ٦٦٠هـ ( ١٢٦٢ م ) . وارتد ابن وانودين فى فلوله إلى مراكش ، واعتذر للخليفة بأن الهزيمة، ترجع إلى تخاذل عرب بنى جابر وغدرهم . وكان للهزيمة أعمق وقع فى العاصمة الموحدية وخشى الناس أن يزحف المرينيون إليها ، فأغلقت بعض أبوابها ، ثم ساد الهدوء بعد ذلك، بعد أن جاءت الأخبار بانصراف بنى مرين إلى بلادهم[١] .

وفى نفس هذا العام ، خرجت عقب موقعة « أم الرجلين » ، حملة موحدية جديدة ، إلى بلاد السوس ، بقيادة محمد بن على بن آصلماط ، وذلك لإخماد ثورة على بن يدر ،ولكنها ماكادت تشتبك مع قوات الثائر ، حتى هزم الموحدون، وقتل قائدهم ابن آصلماط ، فكان لتلك الكسرة الجديدة ، أسوأ صدى. وعندئذ قدّم المرتضى على بلاد السوس أبا زيد بن يخيت أحد وزرائه ، وبعث معه قائد الروم ( النصارى المرتزقة ) المسمى ذا اللب ( دون لوبى ) فى قوة من جنده ، واضطرمت الحرب بين الموحدين وبين على بن يدر مرة أخرى ، فصمد على ابن يدر ، وافترق الجيشان دون حسم، وأبدى دون لوبى تهاونا وتخاذلا ، وكان على غير تفاهم مع ابن يخيت ،فكتب ابن يخيت بذلك إلى الخليفة ، فاستدعاه وأمر سراً بقتله وزملائه، فقتلوا فى طريق العودة على يد أبى زيد بن زكريا الحدميوى[٢]

وكان السلطان أبو يوسف يعتزم بعد موقعة ( أم الرجلين ) ، أن يسير أخيراً إلى مراكش ، لافتتاحها والقضاء على الدولة الموحدية المحتضرة ،

---

( ١ ) الذخيرة السنية ص ١٠٥ ، وهو يضع تاريخ الموقعة فى سنة ٦٥٩ هـ ،والبيان المغرب ص ٤٣١ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٩ وج ٧ ص ١٧٩ ، وكلاهما يضع تاريخها فى سنة ٦٦٠ هـ .

( ٢ ) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٦٠ ، والبيان المغرب ص ٤٣٦ .

ولكن أخّره عن ذلك حادث لم يكن فى الحسبان . وذلك أن أبناء أخيه الأمير أبى يحيى وهم أبومظهر وأبوسالم وأبوحديد، ساروا إلى طنجة فى ثلاثمائة فارس من بنى مرين وغيرهم ، ونزلوا بها ، فأكرم صاحبها ابن الأمين وفادتهم ، ولكنهم غدروا به وقتلوه ، فثار لذلك رجال ابن الأمين ، وقتلوا من بالقصر من بنى مرين واستدرجوا من كان منهم بالمدينة إلى القصبة ، وقتلوهم تباعا ، ووقع الهرج بالمدينة ، وخشى أهلها من انتقام بنى مرين ، فخاطبوا الفقيه العزفى صاحب سبتة، فبعث إليهم بسفنه وعلى رأسها القائد الرنداحى ، فاستولى على طنجة ، وقبض على أولاد ابن الأمين وصحبه ، واستاقهم إلى سبتة ، وولى العزفى على طنجة واليا من قبله هو ابن حمدان . ولما وقف الأمير أبو يوسف على ما حدث من مقتل قرابته وفرسانه ، وحماية العزفى لأهل طنجة ، سار فى بعض قواته إلى سبتة ، فحاصرها وقتا ، وقاتله أهلها من فوق السور ، ولم يستطع أن ينال منها مأربا ( ٦٦٢ هـ )[1] .

— ٧ —

وهنا أزفت الخطوة الحاسمة ، واعتزم أبو يوسف أن يقوم بضربته الأخيرة، بالسير إلى مراكش، فسار فى قواته وعبر وادى أم الربيع ، واستمر فى تقدمه ، حتى نزل بجبل إيجليز ، على مقربة من العاصمة الموحدية ، وتقدمت عساكر الموحدين لصده ، ونشبت عدة معارك محلية ، كانت سجالا بين الفريقين ، وقتل ولد أبى يوسف الأمير عبد الله ، فى إحدى هذه المعارك ، وكانوا يسمونه برطانتهم « العجوب » أو« العجب» ، وذلك لفائق جماله ، وفروسته وشجاعته، وعلو همته . فوقف القتال ، وساد الحزن والوجوم فى المحلة المرينية ، وبعث المرتضى رسولا خاصاً إلى أبى يوسف ، يعزيه فى فقد ولده ، فتأثر أبويوسف لذلك أيما تأثر ، ووافق رسل المرتضى على الارتحال ، على مال معلوم ، يدفع إليه كل عام . وتضع الرواية تاريخ هذه الحملة فى سنة إحدى وستين اواثنتين وستين وهو الأرجح[2] .

بيد أنه وقع حادث جديد ، أذكى من عزم أبى يوسف ، ومهد له السبيل لتنفيذ مشروعه . وذلك أن السيد أبا العلاء إدريس بن السيد عبد الله بن السيد

---

( ١ ) البيان المغرب ص ٤٣٩ و ٤٤٠ .

( ٢ ) البيان المغرب ص ٤٤٠ ، والذخيرة السنية ص ١٠٨ ، وابن خلدون ج ٧ ص ١٧٩ .

أبى حفص بن الخليفة عبد المؤمن ، وهو كما يبدو من نسبه ، من أبناء عمومة المرتضى ، ويعرف بالأخص بأبى دبوس لأنه كان وقت وجوده بالأندلس ، يحمل الدبوس باستمرار فشهربه[1] ، كان السيد أبو العلاء هذا أو أبو دبوس ، ناقما على المرتضى ، لأمور تختلف فى شأنها الرواية ، فمن ذلك مايقوله روض القرطاس من أنه كان يخشى أن يقتله المرتضى ، لوشاية رفعت إليه فى حقه[2] ، وما يقوله لنا ابن خلدون من أن أبادبوس ، كان من قادة الجيش الموحدى ، فى موقعة « أم الرجلين » ، فلما وقعت الهزيمة على الموحدين ، سعى بعض خصومه ، فى حقه لدى الخليفة ، فشعر بهذه السعاية ، وخشى سطوة المرتضى . ويزيد الأمر ايضاحا ما يقوله صاحب الذخيرة السنية ، من أن السعاية فى حق أبى دبوس للمرتضى ، كانت تتلخص فى أنه يكاتب بنى مرين ويصانعهم ، وأنه يفكر فى القيام ضد المرتضى ، ويعتمد فى ذلك على محبة الناس له لشجاعته[3] . وأخيراً يقول لنا ابن عذارى ، إن نقمة أبى دبوس على المرتضى ، كانت ترجع إلى « اهتضام جانبه فى أحواله » . وهكذا اضطرب الجو بين الخليفة ، وبين ابن عمه ، وشعر أبو دبوس ، أن حياته أصبحت فى خطر ، ففر من القصبة ، مع ابن عمه السيد أبى موسى ، وذلك فى المحرم سنة ٦٦٣هـ ، وقصد توا إلى فاس ، ملتجئاً إلى السلطان أبى يوسف . فلما وقف المرتضى على ما حدث أمر بالقبض على أولاد السيدين الفارين ، والتحوط على دورهما ، ومطاردة كل من يشتبه فى اتصاله بهما . وسأل أبودبوس أبا يوسف العون والنصرة ، وعرض عليه مشروعه ، فى أن يعينه بقوة من بنى مرين ، وما يلزم من النفقة ، لافتتاح مراكش وأحوازها ، وأنه يتمتع فى ذلك بتأييد معظم الموحدين والكافة ، وأن يكون هذا الفتح مشتركا ، ومناصفة بينهما ، فوافق أبو يوسف على مشروعه ، وأمده بجيش من بنى مرين ، قوامه ألف فارس أوثلاثة أو خمسة آلاف وفقاً لأقوال أخرى ، وزوده بالخيل والعتاد والسلاح والمال ، وبالكتب اللازمة ، لحث زعماء العرب والقبائل ، الذين فى طريقه ، للنهوض إلى معاونته . وخرج أبو دبوس فى حشوده من فاس ، فى شهر ذى القعدة سنة ٦٦٣هـ ( أغسطس ١٢٥٦ م ) ، وسار أولا إلى مكناسة ،

---

(١) الحلل الموشية ص ١٢٧ ، والبيان المغرب ص ٤٥٤ .

(٢) روض القرطاس ص ١٧٤ .

(٣) ابن خلدون ج ٧ ص ١٧٩ ، والذخيرة السنية ص ١٢٣ .

ثم إلى المعدن ثم إلى تادلا ، ثم سار إلى هسكورة ، فى جنوب شرقى مراكش ، فنزل بها ، على زعيمها مسعود بن جلداسن ، ولبث هنالك مدى حين[1].

وتوافد على أبى دبوس ، خلال إقامته بجبال هسكورة ، كثير من الأنصار من كل صوب ، وأطاعته قبائل هزرجة ، وسائر بطون هسكورة ، ووفد عليه كثير من الموحدين ، والجند الراغبين فى خدمته ، فقوى أمره بالجبل ، وتوجس المرتضى لما بلغه من ذلك ، وقبض على مسعود بن كانون شيخ سفيان ، وزجه إلى السجن ، وقبض كذلك على شيخ بنى جابر ، وقائد الروم غرسية ، وذلك لشبهة تواطئهم مع أبى العلاء . على أنه لم يفعل شيئاً ، للتحوط ضد الهجوم المنتظر ، بل لقد بعث بعسكره فى تلك الآونة الدقيقة ، لقتال حاحة ورجراجة ، والظاهر أن ذلك كان بتحريض الوزراء ، الضالعين مع أبى دبوس ، وذلك لكى تخلو العاصمة ، من أسباب الدفاع . وكان من جراء مطاردة المرتضى للزعماء ، والقبض عليهم ، أن هرع كثير من جند سفيان وبنى جابر ، وكذلك فر كثير من الجند الروم ، مع قائدهم زنار ، وانضموا إلى قوات أبى دبوس .

ولما وقف أبو دبوس ، من أنصاره فى مراكش على مجرى الحوادث ، وعلم أن العاصمة أضحت بلا دفاع ، وأنه من جهة أخرى قد استكمل أهباته ، وكثرت حشوده وعساكره ، عول على تحقيق مشروعه ، فى انتزاع العاصمة الموحدية ، والاتشاح بثوب الخلافة . فسار فى قواته صوب أغمات ، فخرج إليه واليها أبو زيد ابن يخيت ، فى جند الموحدين ، لصده عن أغمات ، فهاجمتهم فرسان أبى دبوس ، فهزموا شر هزيمة ، وقتل ابن يخيت وجنده ، وسار أبو دبوس بعد ذلك إلى مراكش ، بعد أن تحقق من أخبار أنصاره وعيونه فى العاصمة ، أن الفرصة قد أضحت مؤاتية ، وتقدمه عرب سفيان الموالين له ، حتى وصلوا إلى باب الشريعة ، فسرى الاضطراب إلى المدينة ، كل ذلك والمرتضى صامت جامد ، إلى أن قرر أخيراً مواجهة الموقف ، وبعث رجاله فتفقدوا الأسوار فلم يجدوا بها حراسة ولا حراسا ، وكان الوقت قد فات لاتخاذ أى إجراء مجدى ، وصعد بعض رجال هسكورة إلى السور ، وهبطوا إلى الداخل ، وفتحوا باب الصالحة ، الواقع فى جنوبى المدينة ، وكان أبو دبوس قد وصل إليها فى حشوده ، ووقف المرتضى

---

(١) الذخيرة السنية ص ١٢٣ و١٢٤ ، وروض القرطاس ص ١٧٤ ، ابن خلدون ج ٧ ص ١٧٩ ، والبيان المغرب ص ٤٤١ .

على ما تقدم ، وشهد بنفسه اجتماع الجند القادمين بين الأبواب ، وسمع قرع الطبول ، وأدرك أنه لم يبق أمل فى المقاومة ، فقرر الفرار ، وأخذ فى الأهبة له . وقرر أبو دبوس من جانبه دخول المدينة ، فدخلها من باب الصالحة أو باب الكحل ، وذلك فى ضحى يوم السبت الثانى والعشرين من المحرم سنة ٦٦٥هـ (أكتوبر سنة ١٢٦٦م) ، ولكنه لم يستطع دخول القصبة حتى العصر ، حينما أيقن بفرار المرتضى ، وخلو القصر من عاهله ، ودخل رجال هسكورة إلى المدينة ، وانقضوا على القيسارية ، ونهبوها وأحرقوها ، ونهبوا الدروعاثوا فيها[١] .

أما المرتضى فإنه فر من القصر فى عصر ذلك اليوم ، وخرج من باب النحل ، ومعه اثنان من وزرائه وبعض أولاده ، وقصد إلى الجبل ، صوب منازل كيك . ولكنه لم يجد بينهم نصيراً يلتجىء إليه ، وألفى معظمهم بالعكس ، قد انضم إلى جانب خصمه ، فسار مع أولاده إلى مدينة أزمور ، وكان واليها عبد العزيز ابن عطوش صهره ، وكان قد افتداه من أسر بنى مرين بمال كثير ، ولكنه لم يستطع دخول المدينة ، لأن واليها الغادر ، كان قد بعث ببيعته إلى أبى دبوس ، ولجأ المرتضى وأولاده ، إلى غار على شاطىء البحر ، حتى يظفر بمثوى أمين . وكان أبو دبوس مذ دخل القصر ، قد أرسل فى أثره جماعة من الخيل والرجال ، فطاردوه حتى أزمور ، وظفروا به ، وكبله الوالى هو وأولاده ، فى انتظار إرسالهم إلى أبى دبوس[٢] .

وهكذا استولى أبو العلاء إدريس ، أبو دبوس ، على العاصمة الموحدية ، وبويع بالخلافة بجامع المنصور ، وبايعه كافة الموحدين ، والأشياخ والوزراء والقضاة ، وذلك فى اليوم التالى لدخوله المدينة ، يوم الأحد الثالث والعشرين من المحرم سنة ٦٦٥ هـ ، وتلقب بالواثق بالله . وكان هذا الأمير الموحدى ، الذى شاء القدر ، أن تنتهى على يديه الدولة الموحدية ، حسبما تصفه الرواية ، داهية شجاعا ، وافر الفروسة ، حازما مقداما فى الأمور ، وكانت أمه أم ولد رومية اسمها شمس الضحى . وكان أبيض اللون أشقر الشعر واللحية ، أزرق العينين ، طويل القامة ، كبير اللحية ، مهيب الطلعة[٣] .

---

(١) البيان المغرب ص ٤٤٤ — ٤٤٦ ، والذخيرة السنية ص ١٢٥ ، وروض القرطاس ص ١٧٥ ، وابن خلدون ج ٧ ص ١٨٠ .

(٢) البيان المغرب ص ٤٤٨ و٤٤٩ .

(٣) روض القرطاس ص ١٧٤ والبيان المغرب ص ٤٥٤ .

ووزر للخليفة الجديد ، السيد أبو زيد عبد الرحمن بن السيد أبى عمران ، وأخوه السيد أبو موسى عمران بن أبى عمران ، وكتب له أبو الحسن الرعينى ، وأبو عبد الله التلمسانى ، وهما من كتاب سلفه .

وماكاد الواثق بالله يستقر بالحضرة ، حتى أجمع الناس على طاعته ، وتوافدوا على الحضرة ، من كل مكان ، ورأى اجتذابا لعطف الشعب وتأييده ، أن يرفع المغارم والكلف عن الناس ، سواء فى الحواضر أو البوادى ، وأن يقتصر على الفروض الشرعية ، التى جرى عليها العمل فى بداية الدولة ، وأمر بالعفو عن المجرمين . ولكن كانت تنقصه الموارد والأموال ، ولم يجد شيئاً منها بالقصر أو بيت المال ، فكتب وزيره السيد أبو موسى عمران عن لسانه ، إلى الخليفة المعتقل — المرتضى — كتابا ، يسأله عن مصير الأموال التى كانت بيده ، وأن يعرفه بمكان إيداعها ، إذ هى أموال المسلمين ، وأنه إن فعل « شمله عفو أمير المؤمنين » فكتب إليه المرتضى بخطه ، يؤكد أنه لا يعرف أى مستودع للمال ، وأنه لم يودع ولم يدفن شيئاً ، وأن المال كان كثيراً ، وقت وصول المرينى ، ولكنه نفد بعد ذلك ، ثم يقسم له على صحة كلامه ويناشده أن يحقن دمه ، ويبقى على حياته ، ويسترحمه ويدعو له ، فى عبارات مؤثرة(١) . فلما وقف الواثق بالله على كتابه ، تأثر لمحنته ، وبعث السيد أبا موسى عمران ، مع أبى سرحان بن كانون ، وجماعة من سفيان ، للقيام باستقدام المرتضى ، واستحضاره إليه . ولكن حدث بعد مسيرهم ، أن نصح السيد أبو زيد إلى الواثق ، بعدم الإبقاء على المرتضى ، وحذره مما قد يترتب على مقدمه ، من التأثير فى موقف الجند والرعية ، فبعث الواثق براءة بخطه ، إلى السيد أبى موسى ، وحملها إليه عمر بن آصلماط ، تتضمن وجوب قتل المرتضى ، فى أول مكان يلتقى به فيه . فالتقى به فى موضع يسمى « فرزغون » من أرض دكاله ، وكان السيد أبو موسى ، قد وصل إلى هذا المكان ، ومعه المرتضى وأولاده ، وهم فى الأصفاد على الدواب ، فلما وقف على أمر الخليفة الواثق ، أخذ المرتضى جانبا ، وأنزله عن دابته ، وأعدم قتلا بالسيف ، ودفن حيث قتل ، وكان مصرعه فى يوم الثلاثاء الثانى والعشرين من صفر سنة ٦٦٥ هـ ( ٢٢ نوفمبر سنة ١٢٦٦م)(٢)

---

(١) نقل إلينا صاحب البيان المغرب نص كتاب أبى موسى إلى المرتضى ، ونص رد المرتضى عليه ص ٤٤٩ و٤٥٠ .

(٢) البيان المغرب ص ٤٥٠ و٤٥١ .

وهكذا هلك الخليفة المرتضى بالله ، بعد أن تولى الخلافة ، زهاء تسعة عشر عاما ، وهى فترة طويلة ، لم تتح لخليفة موحدى آخر ، من بعد عبدالمؤمن وولده أبى يعقوب يوسف ، وكانت فترة حاسمة فى تاريخ الدولة الموحدية . ففى خلالها تم تفكك الإمبراطورية الموحدية الشاسعة ، وأخذت أشلاؤها المقتطعة ، تسقط تباعا فى أيدى خصومها ، فانفصلت سبتة وطنجة ، وقامت فى كل منهما حكومة مستقلة ، ثم توالى استيلاء بنى مرين ، بعد انتزاعهم لرباط تازا ، على حضرة فاس ، ثم سجلماسة ودرعة ، ثم على سلا ورباط الفتح ، وقامت ببلاد السوس ثورة وحكومة مستقلة . وهكذا فقدت الإمبراطورية الموحدية ، فى عصر المرتضى سائر أقطارها وحواضرها الهامة ، ولم يبق منها بيد الخلافة الموحدية ، سوى حضرة مراكش ، ورقعة تمتد بين وادى أم الربيع ووادى تانسيفت ، حتى ثغر أزمور ، ولقد حاول المرتضى غير مرة ، أن يكافح وأن يصد بنى مرين ، وقد خاض أكثر من موقعة ، ولكنه لم يبد فى أية مرة ، من صدق العزم والجلد ، ماكان يبديه أسلافه ، فى الدفاع عن تراثهم وعن أراضيهم ، وكان أكثر اهتماما بالدعة والاستقرار ، وحياكة الدسائس ، والبطش بخصومه بأساليبه الغادرة ، التى جرى عليها طوال حكمه ، ولم يكن للمرتضى خلال أومناقب بارزة ، يمكن أن يشيد بها المؤرخ ، ولم يكن ماتذكره الرواية عن علمه وورعه وزهده ، سوى ستار ، يحجب ما يضطرم داخل نفسه ، من مشاعر الحقد والضغن ، وشهوة البطش والغدر .

ووزر المرتضى رجال غير لامعين ، مثل أبى محمد بن يونس ، وأبى عبدالله محمد الحنفيسى ، وأبى زيد بن عزوز ، وأخيه السيد أبى اسحق ، وأبى محمد بن أصناج ، وأبى يوسف بن تيجا الجدميوى ، وأبى موسى بن عزوز الهنتاتى ، وغيرهم ، وقد صاهر المرتضى هذين الوزيرين الأخيرين ، وزوج كل منهما ابنة من بناته . وكتب للمرتضى أبو الحسن الرعينى ، وأبو عبد الله التلمسانى ، وكلاهما من كتاب العصر البلغاء(١) .

وكان الخليفة المرتضى فقيها عالما ، وأديبا شاعراً . ويقول لنا ابن عذارى إنه قد وقف على مجلد من شعره ونثره ، بيد أن شعره كان ضعيفاً ، ثم يورد لنا شيئاً من نظمه . فمن ذلك قوله من قصيدة نظمها فى شهر ربيع :

(١) البيان المغرب ص ٣٨٩ .

وافى ربيع قد تعطر نفحه ... أذكى من المسك العتيق نسيما
بولادة المختار أحمد قد بدا ... يزهو به فخرا وحاز عظيما

وقوله فى معنى الزهد :

ولما مضى العمر إلا الأقل ... وحان لروحى فراق الجسد
دعوت إلآهى مستعطفا ... ليصلح منى ما قد فسد

وكان شغوفاً بالكتب والتصانيف ، وكان ممن يتمتع بعطفه ورعايته ، من علماء عصره ، الفقيه أبو محمد ابن القطان ، وقد ألف له جملة من الكتب : منها كتاب « نظم الجمان وواضح البيان فيما سلف من أخبار الزمان » وهو الذى انتفعنا به ، وأشرنا إليه فيما تقدم ، فى غير موطن . وكتاب «شفاء الغالل فى أخبار الأنبياء والرسل » وكتاب « الأحكام لبيان آياته عليه السلام » وكتاب « المناجاة » وكتاب « المسموعات » وفيه قصائد مختارة فى فضائل المولد النبوى ، وشهور رجب وشعبان ورمضان ، وغير ذلك[1] . وقد أشاد ابن القطان فى كتابه « نظم الجمان » بذكر المرتضى ومديحه ، مما يدل على أنه كان متمتعاً بسابغ رعايته وجزيل صلاته[2] .

وتصف الرواية المرتضى ، بأنه كان معتدل القامة ، ساطع البياض ، عالى الأنف ، أسيل الخد ، أشيب ، لايخضب بحناء أو غيرها[3] .

أما أولاد الخليفة المرتضى ، فقد زجهم أبو دبوس إلى السجن ، فلبثوا معتقلين فيه طوال مدته ، حتى أطلق سراحهم الأمير أبو يوسف المرينى ، حينما دخل مراكش فى أوائل سنة ٦٦٨هـ ، إلا كبيرهم محمد ، فكان قد قتل فى سجنه بأمر أبى دبوس . ولما أطلق سراحهم ، غادروا المغرب وعبروا إلى الأندلس ، والتجأوا إلى حماية ألفونسو العاشر ملك قشتالة ، وعاشوا بإشبيلية تحت كنفه أعواما طويلة ، ثم انتقلوا بعد ذلك إلى غرناطة ، وأقاموا بها تحت رعاية ملكها ابن الأحمر ، وأطلق لهم ملك غرناطة ، مايكفيهم من الأرزاق الشهرية . ويقول ابن عذارى إنهم كانوا بغرناطة حتى هذا الوقت الذى كتب فيه قصتهم . ويزيد على ذلك أن أخاهم أبا زيد ، غادر الأندلس فى سنة ٦٨٤هـ ، وعبر إلى المغرب وسار إلى السوس راكبا على حمارة ، وسمته العامة من أجل ذلك بأبى حمارة ،

---

(١) البيان المغرب ص ٤٥٢ و٤٥٣ .

(٢) كتاب « نظم الجمان » المخطوط السابق ذكره لوحة ٦٧ .

(٣) البيان المغرب ص ٣٨٩ .

وأنه نزل بجبل سكسا وعاش هنالك ، وهو يرتزق من النسخ ، وأنه كان مايزال بقيد الحياة ، هو وأخوه محمد المقيم بغرناطة ، حتى الوقت الذى كتب فيه ابن‌عذارى هذه السطور ، وهو عام اثنى عشر وسبعمائة[١] .

هذا ، وتقدم إلينا الرواية الإسلامية ، قصة أخرى عن أخ لأبى دبوس ، آخر الخلفاء الموحدين ، هو السيد أبو زيد بن السيد عبد الله ، حفيد الخليفة عبد المؤمن ، خلاصتها أن هذا السيد ، أو السويد حسبما تنعته الرواية ، كان مقيما بالأندلس ، وكان قد لجأ إلى ملك قشتالة ألفونسو العاشر ، وعاش تحت رعايته بمدينة إشبيلية . وفى أواخر سنة ٦٥٩ هـ ( ١٢٦١ م ) ، أعلن هذا السويد اعتناقه لدين النصرانية ، فى حفل عام أقيم لهذا الغرض ، فقام ملك قشتالة بحلق لحيته بيده ، وكساه حلة ملوكية ، وعندئذ صعد السويد الموحدى ، إلى كرسى عال يشرف منه على الناس ، ثم قال : « أشهدكم يا من حضر من المسلمين والنصارى واليهود ، أنى قدمت على دين النصرانية منذ أربعين سنة ، وكنت أكتمه ، وأنا الآن قد أبحته وأظهرته ، وأن دين المسيح بن مريم ، هو الدين القديم الأزلى » ؛ ثم تحدث ملك قشتالة ، فأثنى على السويد وهنأه باعتناق النصرانية . على أن هذا السويد المتنصر لم يعش طويلا بعد تنصره ، فقد توفى بإشبيلية بعد ذلك بأربعة أشهر فقط ، وذلك فى أوائل سنة ٦٦٠هـ ( ١٢٦٢ م )[٢] .

وإنا لنقف قليلا ، عند هذه الظاهرة الأليمة ، التى تكررت بين بعض السادة من بنى عبد المؤمن ، وهى إقبالهم على اعتناق النصرانية ، وخروجهم بهذه الطريقة المثيرة ، على دين آبائهم وأجدادهم العريق ، الذين جاهدوا فى سبيل إعزازه أيما جهاد ، وعلى إمامتهم الموحدية ، ومقام خلافتهم العظيمة . وليس من شك فى أن هذه الردة ، التى تكررت على يد أبى محمد عبد الله البياسى ، وأخيه السيد أبى زيد والى بلنسية ، ثم على يد هذا السويد أبى زيد ، لم تكن ترجع إلى بواعث تتعلق بالإيمان أو العقيدة ، وإنما كانت ترجع إلى بواعث مادية ودنيوية ، وذلك حسبما تدلى به بالأخص حالة البياسى وأخيه السيد أبى زيد . ولاريب أن فى هذه الصفحة المؤلمة ما يصدع من هيبة الخلافة الموحدية ، ومن عظمة تاريخها .

---

( ١ ) البيان المغرب ص ٤٥٤ . وهذه السطور تكشف لنا لأول مرة ، عن جانب من حياة المؤرخ ابن عذارى ، والعصر الذى عاش فيه ، وقد امتد حسبما ينبئنا بنفسه ، إلى ما بعد سنة ٧١٢ هـ ، ومن ثم فقد عاصر المرحلة الأخيرة من حياة الدولة الموحدية ، وشطراً كبيراً من حياة الدولة المرينية فى مراحلها الأولى .

( ٢ ) الذخيرة السنية ص ١٠٦ .

# الفصل الرابع

## نهاية الدولة الموحدية

### وعوامل تفككها وسقوطها

مبايعة أبي العلاء إدريس الواثق . الوحشة بينه وبين زعيم هسكورة . خروج الواثق فى قواته . تصرفاته ومحاولاته لدى هسكورة . مخاطبته ووعوده للأمير أبي يوسف . مؤامرة فى مراكش ضد الواثق . ضبطها وإخمادها . تأهب الواثق للزحف على بلاد السوس . ورود مبايعة يغمراسن وتحذيره من بنى مرين . مسير الواثق ونزوله فى جبال السوس . مهاجمته لحصن تيزغت واقتحامه . مسيره إلى حصن تيوينوين . مهاجمة الحصن وصموده . على بن يدر يتظاهر بعرض الطاعة . مسير الواثق إلى الحضرة فى موكبه الخلافى الفخم . أبو يوسف يطالب الواثق بتنفيذه عهوده . شعور الواثق بقوته وكثرة حلفائه . رده الجاف على أبي يوسف . غضب أبي يوسف وزحفه على الحضرة الموحدية . استنجاد الواثق بيغمراسن . مهاجمة يغمراسن لأطراف الأراضى المرينية . ارتداد أبي يوسف لمحاربته . اللقاء بينهما فى وادى تلاغ . المعركة العنيفة . هزيمة يغمراسن وفراره إلى تلمسان . عود أبي يوسف إلى التأهب لمحاربة الواثق . مسيره إلى مراكش وغزواته المخربة فى طريقه . أبودبوس يحشد سائر قواته . خروجه للقاء بنى مرين . ارتداد أبي يوسف نحو الشمال ومطاولة الموحدين . اللقاء بين الفريقين فى وادى غفو . المعركة المضطرمة . بلاء أبي دبوس وجيشه . صمود بنى مرين . مصرع أبي دبوس وتمزيق قواته . تعليق رأسه على سور فاس . مسير أبي يوسف إلىمراكش . فرار الموحدين إلى تينملل . دخول أبييوسف مراكش واستقباله ومبايعته . انتهاء الدولة الموحدية . سيطرة بنى مرين على سائر المغرب الأقصى . أبو يوسف يرسل حملة لإخضاع بلاد السوس . خروجه لمطاردة العرب فى قطاع درعة وإخماد حركتهم . عوده إلى مراكش . مطاردته لبقايا الموحدين . ظفره بالقبض على بعض أكابرهم وإعدامهم. أبو يوسف يعقد ولاية العهد لولده أبي مالك . مسيره صوب سبتة وطنجة . استيلاؤه علىطنجة . إذعان العزفى صاحب سبتة وإقراره بالطاعة . مسير أبي يوسف إلى سجلماسة وافتتاحها . جهاد أبي يوسف بالأندلس ونصرته لمملكة غرناطة . كون هذا الجهاد استمرار لرسالة المغرب التاريخية . وفاة السلطان أبييوسف . الدولة الموحدية وعوامل تفككها . موقعة العقاب وآثارها . العوامل الأدبية . الحكومة الموحدية وصفتها الإقطاعية والعائلية. ضعفهذا النظاموقصوره. استطالةالممالكالنصرانيةعلىالأندلس. قصورالجيوش الموحدية عن حمايتها . التنافس على عرش الخلافة . خروج البياسى وأخيه السيد أبي زيد وما ترتب على ذلك . ثورةبنىغانية وتخريبها لبلاد إفريقية . إنسلاخ إفريقية وقيام الدولة الحفصية . إنسلاخ تلمسان وسبتة وطنجة . نهوض بنىمرين واستيلاؤهم تباعا على المغرب الأقصى . العوامل الأدبية . تحول الإمامة إلى ملك دنيوى . إلغاء الإمامة الموحدية ورسومها . ماخسرته الخلافة الموحدية بذلك . تقلب القبائل البربرية وطوائف العرب . الحرب الأهلية بين الخلفاء . انهيار الدولة الموحدية وكونه لم يحدث صدى قويا . انهيار الصرح القبلى الموحدى . عناصر هذا الصرح من القبائل والبطون . مصير هذه القبائل . اندثار هرغة قبيلة المهدى . قبر المهدى بتينملل . هنتاتة وفوزها بسلطان إفريقية . مصير جدميوه وغيرها .

— ١ —

لما دخل أبو العلى إدريس ، الملقب بأبي دبوس حضرة مراكش فى اليوم الثانى والعشرين من محرم سنة ٦٦٥هـ ، واحتل القصر عقب فرار الخليفة المرتضى بايعه سائر الأشياخ والطلبة والكافة ، وتلقب حسبما تقدم بالواثق بالله . وكان أول

ما قام به أن ركب فى اليوم التالى ، وطاف بأحياء الحضرة ، للعمل على توطيد السكينة والنظام ، وتهدئة روع الناس ، وقمع المعتدين والمفسدين ، ثم كتب إلى حليفه ، الأمير أبى يوسف عاهل بنى مرين ، ينبئه بما تم ، وما انتهى إليه مجرى الحوادث ، ولبثت المخاطبات بينهما مدى حين .

بيد أنه وقعت وحشة ، بين الواثق وبين ابن جلداسن زعيم هسكورة ، لم لم توضح لنا الرواية أسبابها ، وكان ابن جلداسن من حلفائه ، ومعاونيه فى حركته إلى افتتاح مراكش ، حسبما ذكر فى موضعه ، ومن ثم فإنه لم تمض بضعة أشهر حتى أخذ الواثق فى الأهبة للحركة والخروج ، فخرج فى قواته من مراكش ، فى الثانى عشر من شعبان سنة ٦٦٥ ، ه فنزل أولا بالبحيرة ، ثم سار إلى بلاد هيلانة فوادى أغمات ، ونزل فيه بمكان يسمى تادارت معطاسة ، وهنالك وفد عليه بعض أشياخ هسكورة ، ومنهم الشيخ حميدى بن مخلوف الهسكورى ، وكان يقوم من قبل الواثق بالاتصال بالأمير أبى يوسف ، ويتردد بينهما فى مراسلات ومفاوضات مختلفة . وقدم الواثق أبا موسى بن عزوز على بلاد حاحة ، ليقوم بالنظر فى أعمالها وتحصيل جباياتها ، وبعث رجلا من ثقاته ، هو عبدالعزيز بن عطوش إلى ابن جلداسن زعيم هسكورة ، ليستطلع الأمر ، وليحادثه فى بعض الشؤون ، فعاد هذا الرسول ، وأبلغه ما وقف عليه ، والظاهر أن الأمور كانت قد هدأت عندئذ ولم ير الواثق فى موقف ابن جلداسن مايستدعى الغضب والمؤاخذة ، فتركه على حاله ، وقنع منه بالطاعة ، مؤثراً مودته على خصومته(١) .

وسار الواثق بعد ذلك من تادارت إلى الولجة الواقعة فى شرقها ، وفى أثناء ذلك جاءت الأنباء بانصراف بنى مرين ، وإجازتهم لوادى أم الربيع ومسيرهم إلى بلادهم ، وكان الأمير أبو يوسف يعقوب ، قد خرج فى حشوده من فاس ، وسار إلى بلاد دُكاله وانتسف زروعها ، نذيرا لأبى دبوس ، فبعث إليه أبو دبوس الشيخ الصالح أبا العباس الهسكورى بهدية سنية ، ليطمئه وليؤكد له أنه سوف يفى بعهوده وينفذ ما اشترطه على نفسه ، فتقبل أبو يوسف ذلك الوعد ، وارتد منصرفا إلى بلاده . فكان ذلك من بواعث الارتياح فى المحلة الموحدية(٢). بيد أنه وصلت فى نفس الوقت ، أنباء تدل على أنه يخشى من وقوع أحداث فى الحضرة ، من جراء نشاط مريب ، يقوم به السيد عبدالعزيز بن الخليفة السعيد ، فسار الواثق فى

---

(١) البيان المغرب ٤٥٧ و٤٥٨ .   (٢) الذخيرة السنية ص ١٢٦ .

جنده، إلى تاونزرت على مقربة من الحضرة، وبعث من هنالك بعض قواته لتحصيل الجباية من حاحة ورجراجة، وكان السيد عبدالعزيز هذا، من ولد الخليفة الراحل السعيد، وكان يرى أن قيام الواثق فى الخلافة، وهو ليس من عقب المنصور، اغتصابا يجب منعه، وانضم إليه فى ذلك بعض الزعماء، وكاتب ابن جلداسن شيخ هسكورة سراً، ليقوم بمعاونته، ووقف الواثق على ذلك من صهره، السيد أبى زيد ابن السيد أبى عمران والى مراكش، وضبطت بعض كتب كانت مرسلة، من السيد عبدالعزيز إلى جلداسن، وكان السيد عبدالعزيز يلزم داره متحرزاً على نفسه، فعمل السيد أبو زيد على استدراجه واستدعائه، فقصد إليه مع بعض أشياخ الموحدين، فواجهه بما نسب إليه، وأبرز له كتبه المكتوبة بخطه، فأسقط فى يده وبهت، وعندئذ قبض عليه، وأعدم بأمر الواثق، وأخمدت هذه المؤامرة فى مهدها(١).

وعلى أثر ذلك أخذ الواثق فى الأهبة للزحف على السوس، وفى خلال وجوده بوادى تانسيفت، وردت إليه هدية ومكاتبة، من الأمير يغمراسن بن زيان صاحب تلمسان، يقدم فيها بيعته للخليفة الموحدى، ويحذره من أطماع بنى مرين فيما بقى من أقطار الدولة الموحدية، ويعد بمحالفته، وتعهده بأن يكفيه شر بنى مرين. وذاع أمر هذه البيعة الهامة بين الجند، وضربت الطبول ابتهاجا بها، وعم السرور لذلك فى المحلة الموحدية(٢). ثم تحرك الواثق صوب بلاد السوس، وتقدمه الشيخ أبو زكريا ابن وانودين، ليستنفر القبائل للخدمة، والحركة ضد على بن يدر الثائر بالسوس، واستمرت الحملة فى مسيرها حتى وصلت إلى جبال السوس (وهى شعبة من جبال الأطلس)، ونزلت هنالك فى بعض البسائط، وهنالك قضى الواثق عيد الفطر.

وأخذت الحملة بعد ذلك فى التنقل بين القبائل، وأصدر الواثق عدداً من الظهائر لبطون جزولة وغيرها، يبلغهم عزمه، على القضاء على ثورة على بن يدر وتأمين أرجاء نواحى السوس. ثم مرت الحملة بتارودنت حاضرة السوس، وقد خرب أكثرها، ونزلت المحلة هنالك فى واد أخضر، فى أسفل حصن تيزغت المنيع، وكانت به حامية قوية، من جند على بن يدر، فاستعد الجند لمهاجمته، ونشبت بينهم وبين حاميته معارك عنيفة، استمرت بضعة أيام، حتى اضطر قائده أخيراً، واسمه حمدين، إلى طلب الأمان، وقرر بأن على بن يدر، على

---

(١) البيان المغرب ص ٤٥٩ و ٤٦٠.

(٢) الذخيرة السنية ص ١٢٧، والبيان المغرب ص ٤٦١.

استعداد لإعلان الطاعة ، وقبل الواثق طلبه ، ولكن لم يتم التسليم ، وانتهى الأمر ، بأن اقتحم الموحدون أحواز الحصن ، بعد قتال شديد ، ولجأت الحامية إلى الداخل ، بعد أن قتل منهم عدد جم . وأخيراً اقتحم الحصن نفسه ، وأبيدت حاميته قتلا وأسراً ، وكانت أخت على بن يدر ضمن الأسرى ، وكتب بالفتح إلى الحضرة ، وكان ذلك فى ١٣ شوال سنة ٦٦٥ هـ(١).

وفى اليوم الحادى والعشرين من شوال ، استأنفت الحملة سيرها داخل بلاد السوس ، وقدم عندئذ أبو زكريا بن وانودين مع جمع كبير من واوزجيت ، وهم من خصوم على بن يدر ، وبعد يومين نزلت الحملة قرب تارودنت ، وكان ابن يدر قد خرب حصنها الكبير وهدمه ، فأمر الواثق بتجديده وأعادة بنائه ، ولكن لم يتم أمره بذلك . واتجهت الحملة بعد ذلك ، إلى حصن تيوينوين ، وهو من أعظم حصون السوس وأمنعها ، وكان فى معظم الأحيان مركزاً للعصيان والثورة ، فاستعدت حاميته القوية للدفاع ، وهاجم الموحدون الحصن ، وذلك فى الثانى من ذى القعدة ، فدافعت حاميته دفاعا شديداً ، ووصل عندئذ كتاب من السيد أبى زيد والى مراكش ، ومعه كتاب ببيعة أبى الحسن على بن أبى على ، من زعماء الخلط ، ودخوله فى الطاعة ، فكان لذلك أطيب وقع . ولما رأى الواثق مناعة الحصن ، وشدة بأس حاميته ، قرر اتخاذ الأهبة لاقتحامه ، بمعاونة من كان معه ، من حشود العرب وزناتة ، ولمطة وبنى واوزجيت ، وهوجم الحصن بشدة ، وضرب بالمنجنيق ، ولكن حاميته استمرت فى المقاومة .

واستمر الأمر كذلك حتى مر عيد الأضحى . وفى الحادى والعشرين من ذى الحجة ، وصل رسل على بن يدر ، يعرضون التوبة ، ويعلمون البيعة والطاعة ، ولكن لم يتم شىء من ذلك ، واستمر حصن تيوبنوين على امتناعه. وورد على المحلة خلال ذلك كثير من عرب المعقل فى أهلهم وأموالهم برياسة شيخهم عبد المؤمن بن أبى الطيب لتقديم بيعتهم ، فتلقاهم الوزير أبو موسى ومعه العسكر ، وأكرم الواثق وفادتهم ، وأجزل صلاتهم ، وسمح لهم برؤية إخوانهم من المعتقلين ، فاطمأنوا عليهم ، ووعدوا بتسريحهم ، ثم عادوا إلى منازلهم(٢) .

وفى الثامن والعشرين من المحرم سنة ٦٦٦ هـ ، تأهب الواثق للعود إلى

(١) البيان المغرب ص ٤٦٥ و٤٦٦ .

(٢) الذخيرة السنية ١٢٦ و١٢٧ ، والبيان المغرب ص ٤٧٠ .

حاضرته ، وانتظم الموكب الخلافى ، فى أكمل وضع وأفخمه ، على نسق المواكب الموحدية ، فحمل المصحف الكريم ( مصحف عثمان ) ، فى هودجه بزينته القديمة ، وجعلت قلائد الفضة فى عنق الجمل الذى يحمله ، وجملت البغال بالكسى الجميلة ، وارتدى العبيد الذين يقودونها الثياب البيض ، وسار الواثق وراء المصحف ، ومعه الأهل والقرابة والحاشية ، ومن بعدهم الوزراء فى الساقة ، ومعهم الأعلام الخلافية السبعة ، وقبائل الموحدين كل منها رافعة علامتها التقليدية ، وسار الموكب على هذا النمط حتى أشرف على الحضرة ، فبرزت الناس والفرسان لاستقباله أعظم بروز ، وهم يحملون البنود والطبول ، واحتشد العرب من سائر البطون ، وكان يوما مشهوداً (١). ولم يكن يخطر يومئذ ببال أحد أن الخلافة الموحدية تشهر آخر مواكبها ، وأنه سيكون لها بمثابة موكب الوداع ، الذى تنهار من بعده ، وتلفظ أنفاسها الأخيرة .

— ٢ —

وكان قد مضى عندئذ زهاء عام ، مذ دخل أبو العلى إدريس أو أبو دبوس حضرة مراكش ، وتبوأ الخلافة ، بمعاونة أبى يوسف ، ولم تبدر أية بادرة من أبى دبوس ، تدل على أنه يعتزم الوفاء بعهوده ، وإشراك العاهل المرينى ، فيما افتتحه من بقايا الدولة الموحدية القديمة ، بمعاونة جنده وأمواله ، وعندئذ كتب أبو يوسف إلى أبى دبوس ينذره بوجوب تنفيذ عهوده ، وتمكينه من نصف البلاد التى غلب عليها ، وفاء بعهوده . وكان أبودبوس مذ وعده يغمراسن صاحب تلمسان بحلفه ومعاونته ، ومذ توالت عليه بيعات القبائل من العرب والبربر ، خلال زحفه على السوس ، قد شعر بتوطد سلطانه ، واشتداد ساعده ، واعتزم أن يدافع عن عرشه ، وعن تراث الدولة الموحدية . فلما جاءه نذير أبو يوسف ، رد رسوله بجفاء ، وطلب إليه أن يبلغ سيده ، بأن يقنع بما فى يده من البلاد ، وإلا جرد عليه جنوداً لاقبل له بها ، وكتب إلى أبى يوسف كتابا شديد اللهجة ، يخاطبه فيه مخاطبة الخلفاء والرؤساء إلى عمالهم . فثار لذلك أبو يوسف ، وخرج من فاس فى حشود بنى مرين والمغرب ، وعبر وادى أم الربيع ، وزحف على العاصمة

---

( ١ ) البيان المغرب ص ٤٧١ و٤٧٢ . وهنا ينتهى المجلد الثالث من كتاب «البيان المغرب فى اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب» لابن عذارى المراكشى وهو المخطوط الذى وجد فى الخزانة الناصرية بتامجروت بالمغرب وأشرنا إليه فى الفصل الخاص بالمصادر . وقد تم نشره بمدينة تطوان بعناية الأستاذ ا . هويسى ميرانده ومساهمة الأستاذين محمد بن تاويت وابراهيم الكتانى (أواخر سنة ١٩٦٣) وقد كان لنا خلال قيامنا بتأليف هذا الكتاب من أقيم مصادرنا ، وأهمها ، وأكثرها تفصيلا .

الموحدية ، وهو ينتسف الزروع ، ويخرب المنازل والضياع ، فاضطربت الأحوال فى مراكش ، وانقطعت عنها الموارد ، وقلت المؤن ، وارتفعت الأسعار فامتنع أبو دبوس بالحضرة ، وبعث إلى حليفه يغمراسن بن زيان أمير تلمسان ، يستغيث به ، ومع رسله إليه هدية سنية . فنهض يغمراسن فى حشوده ، منتهزاً فرصة ابتعاد أبى يوسف بالقوات المرينية ، وأخذ يغير على أطراف المغرب الخاضعة لبنى مرين ، ولاسيما فى وادى ملوية ، أصل منازلهم ، ويعيث فيها تخريباً ونهبا وسلبا . فلما وقف أبو يوسف على ذلك اعتزم لفوره ، أن يترك أمر العاصمة الموحدية مؤقتا ، وأن يسير لقتال يغمراسن ، والقضاء على حركته أولا ، ثم يعود لمناجزة الموحدين . ومن ثم فقد غادر وادى تانسيفت ، وارتد راجعا فى قواته إلى فاس ، فأقام بها أياما يستكمل أهبته ، ثم غادرها فى جموع عظيمة ، حسنة الأهبة والسلاح ، وذلك فى منتصف شهر ربيع الأول سنة ٦٦٦هـ وكان يغمراسن فى تلك الأثناء قد استكمل من جانبه أهباته ، وحشد سائر قواته لملاقاة المرينيين . وسار أبو يوسف نحو وادى ملوية ، من طريق أجر سيف أو كرسيف ، وكان اللقاء بوادى تلاغ ، فنشبت بين الفريقين معركة عنيفة طاحنة ، قاتل فيها كلاهما بمنتهى الإقدام والشجاعة ، وامتازت بالأخص بمثول النساء فى الهوادج والمراكب سافرات بين الفريقين ، وتحريضهن للشجعان على الثبات والإقدام ، وانتهت بانتصار بنى مرين ، وهزيمة يغمراسن وقومه بنى عبد الواد ، وتمزيق صفوفهم ، ومصرع جماعة من أكابرهم ، وفى مقدمتهم أبو حفص ولد يغمراسن . وفر يغمراسن بفلوله صوب تلمسان ، وتبددت جموعه ، واستولى بنو مرين على سائر مافى محلته ، من السلاح والعتاد والأموال ، ووقعت هذه الهزيمة الشنيعة على يغمراسن فى الثانى عشر من جمادى الآخرة سنة ٦٦٦هـ[1].

وهكذا قضى أبو يوسف ، على الجبهة المعادية فى مؤخرته ، بالقضاء على قوى أمير تلمسان ، وارتد بقواته إلى فاس فاستراح بها حينا ، وهو يستكمل أهباته للمعركة التالية . ثم غادر فاس فى شهر شعبان من نفس العام ( ٦٦٦هـ ) فى حشود ضخمة ، وعبر وادى أم الربيع ، وهبط إلى البسائط المؤدية إلى مراكش ، وهو يسرح جنده فى كل ناحية لانتساف الزروع ، وتخريب الضياع ، والنهب والسبى ، وأنفق بقية سنة ٦٦٦ هـ فى القيام بتلك الغزوات المخربة ، ثم غزا عرب الخلط

---

(١) الذخيرة السنية ص ١٣١ و ١٣٢ وابن خلدون ج ٧ ص ١٨٠ .

ومنازلهم بناحية تادلا ، وأثخن فيهم ، ومزق جموعهم ثم غزا وادى العبيد ، ونفذ إلى منازل صنهاجة ، وهى الواقعة فى شمالى وادى تانسيفت ، وعاث فيها . واستغرقت هذه الغزوات المحلية عاما آخر هو عام ٦٦٧ھ ( ١٢٦٨ م )(١).

وكان البلاط الموحدى خلال ذلك ، قد ساده الاضطراب والجزع ، وأخذ أشياخ الموحدين والعرب ، يهيبون بأبى دبوس أن ينهض لرد بنى مرين ، ودفع عاديتهم ، بعد أن تفاقم الأمر ، وخربت الديار ، وقتل الأهل والإخوة أو شردوا ، ولم يكن أمام أبى دبوس فى الواقع أى سبيل آخر سوى خوض هذه المعركة الحاسمة ، فحشد سائر قواته من الموحدين والعرب والأغزاز وبقايا الروم ، واجتمع له من ذلك جيش ضخم ، وخرج فى قواته من مراكش يريد لقاء بنى مرين ، وكان آخر الخلفاء الموحدين شجاعا مقداما ، وكان يعرف أنه سوف يخوض المعركة الأخيرة والحاسمة ، فإما أن يكتب له النصر على بنى مرين ، وعندئذ يستطيع أن يردهم إلى منازلهم ، فيما وراء وادى أم الربيع ، وأما أن يلقى هزيمته الحاسمة ويسقط مدافعا عن عرشه وقومه الموحدين . ولما علم أبو يوسف بخروج أبى دبوس فى قواته لمحاربته ، رأى أن يلجأ إلى خطة لاستدراجه وإبعاده عن قواعده ، فارتد فى قواته صوب الشمال . وتصور لنا الرواية ارتداد بنى مرين ، أمام زحف أبى دبوس ، فى صورة الخدعة الحربية ، وقد يكون ذلك صحيحاً ، ولكنه قد يدل من جهة أخرى على أن الأمير المرينى ، وقف على ضخامة الجيش الموحدى وحسن استعداده ، وأنه خشى أن يخوض معه المعركة الحاسمة ، قبل العمل على مطاولته وإنهاكه . وعلى أى حال فقد ارتد أبو يوسف فى قواته نحو الشمال ، وسار الجيش الموحدى فى أثره ، وهو يطاوله من موضع لآخر ، واعتقد أبو دبوس من جهة أخرى أنه يطارد جيشاً يخشى لقاءه ، واستمرت هذه المطاردة حتى وادى غفو ، وهنالك وقف بنو مرين واستعدوا للقاء الموحدين . ونشبت فى وادى غفو بين الجيشين معركة عنيفة ، قاتل فيها الفريقان بمنتهى الشجاعة والجلد ، وكان الموحدون يوالون الهجوم على بنى مرين ، وأبو دبوس يقود المعركة بنفسه ، ولكن بنو مرين ثبتوا كالصخر وقاتلوا بشدة حتى اختلت صفوف الموحدين ، وتمكنت جماعة من أنجاد فرسانهم ، من تطويق أبى دبوس وصحبه الذين حوله ، والتحمت بينهما معركة عنيفة ، أثخن فيها أبو دبوس

---

(١) روض القرطاس ص ٢٠٤ ، وابن خلدون ج ٧ ص ١٨٢ .

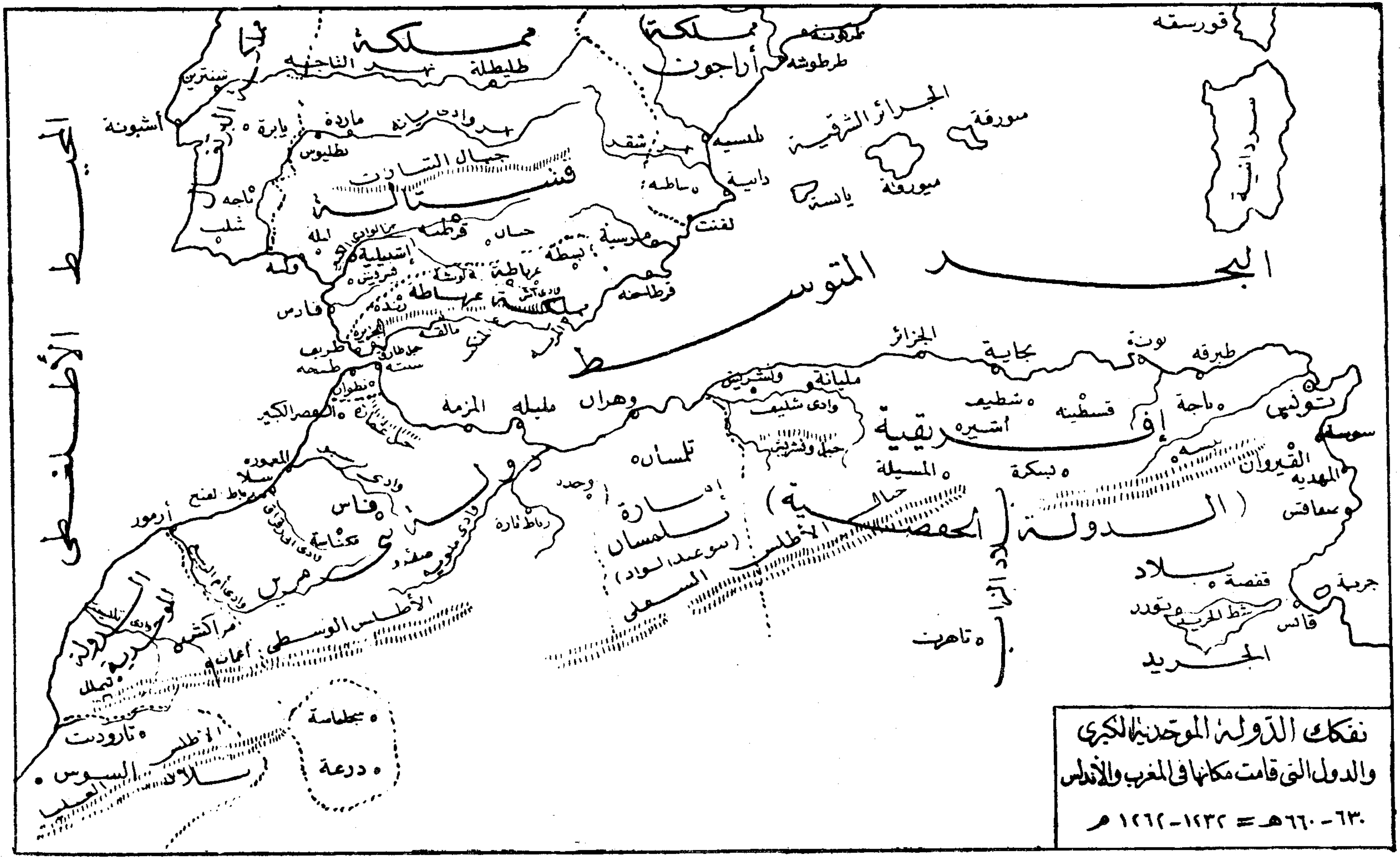

نفكك الدولة الموحدية الكبرى
والدول التي قامت مكانها في المغرب والأندلس
٦٣٠ - ٦٦٠ هـ = ١٢٣٢ - ١٢٦٢ م

طعناً بالرماح ، وسقط صريعا عن جواده ، وقتل معه وزيره أبو موسى عمران ، وكاتبه على بن عبد الله المغيلى ، ومزقت صفوف الموحدين وبدد شملهم ، وسقطت محلتهم ، بسائر ما فيها من الأمتعة والأموال ، فى أيدى بنى مرين ، واحتز رأس آخر الخلفاء الموحدين ، وحمل إلى أبى يوسف ، فخرساجداً شكراً لله على ما أولاه من النصر ، وأرسلت الرأس فعلقت على سورفاس « ليعتبر برؤيتها جميع الناس » . ووقعت هذه الهزيمة الساحقة على الموحدين وهلك آخر خلفائهم فى يوم الأحد الثانى من شهر المحرم سنة ٦٦٨ ﻫ ( أول سبتمبر ١٢٦٩ م )[١].

وعلى أثر هذا النصر الحاسم ، سار الأمير أبو يوسف إلى مراكش ، وكان قد فر من كان بها من قرابة الخليفة وأشياخ الموحدين ، على أثر وقوفهم على نبأ النكبة المروعة ، ولجأوا إلى جبال الموحدين فى تينملل ، وهنالك بايعوا بالخلافة السيد أبا اسحاق أخا الخليفة المرتضى . بيد أنها لم تكن سوى شبح باهت ومهزلة تدعو إلى الرثاء . وفى يوم الأحد التاسع من المحرم سنة ٦٦٨ﻫ ، دخل عاهل بنى مرين أبو يوسف يعقوب حضرة مراكش فى موكب فخم ، فاستقبله سائر الأكابر والوجوه ، من الفقهاء والقضاة والأشياخ ، وبايعوه بالطاعة ، والتمسوا إليه الأمان والحماية ، فأمنهم أبو يوسف وطمأنهم ، وأذاع الأمان لسائر أهل المدينة ، وأحوازها فاطمأن الجميع ، وسادت السكينة والأمن ، واستقرت الأمور ، ونزل أبو يوسف بالقصبة ، وتم له بفتح مراكش ملك المغرب الأقصى ، وقامت على أنقاض الدولة الموحدية الأخيرة ، دولة جديدة هى دولة بنى مرين الفتية ، تسيطر على سائر أنحاء المغرب الأقصى ، من وادى ملوية وجبال الأطلس الوسطى شرقا ، حتى المحيط الأطلنطى غربا ، ومن رباط تازا وجبال غمارة شمالا حتى وادى تانسيفت جنوبا ، وتسمى أبو يوسف منذ دخوله حضرة مراكش « بأمير المسلمين » ، وخرجت كتبه إلى القبائل بهذا اللقب ، وكان قبل ذلك يكتفى بلقب « الأمير »[٢].

ولبث أمير المسلمين أبو يوسف يعقوب ، مقيما بمراكش إلى شهر رمضان سنة ٦٦٩ ﻫ ، وهو ينظر فى شئونها وينظم أحوالها ، وترد إليه الوفود مهنئة من كل صوب ، وفى خلال ذلك ، بعث ابنه الأمير أبا مالك عبد الواحد فى حملة قوية إلى بلاد السوس لغزوها ، وإخضاع من بها ، من الثوار والقبائل الخارجة

---

( ١ ) الذخيرة السنية ص ١٣٢ و١٣٣ ، وروض القرطاس ص ٢٠٥ ، وابن خلدون ج ٦ص ٢٦٥ وج ٧ ص ١٨٢ .

( ٢ ) الذخيرة السنية ص ١٣٤ .

عن الطاعة ، فسار إليها ، وغزا مختلف نواحيها ، واستمر فى توغله حتى ماسة ، ثغر السوس الأقصى ، وفرض الطاعة على سائر النواحى والقبائل ، ثم عاد إلى الحضرة . وبعد ذلك خرج أبو يوسف بنفسه ، إلى غزو طوائف العرب ، التى بسطت سلطانها على منطقة درعة ، وملكت حصونها ، وعاثت فيها قتلا ونهبا ، فسار إليهم فى رمضان ، واخترق منطق درعة ، واستنزلهم تباعاً ، وقتل منهم عدداً كبيراً ، واستولى على أموالهم ودوابهم ، وسبى نساءهم، وافتتح سائر بلاد درعة وحصونها ، وقضى فى غزوته هذه زهاء شهرين ، ثم عاد إلى مراكش فى منتصف شهر شوال ، فأقام بها فترة قصيرة ، وعقد عليها وعلى أعمالها لمحمد ابن على بن يحيى ، وهو من أكابر قرابته ووزرائه ، وأنزله بالقصبة ، وفوض إليه النظر فى شئونها ، وعهد إليه بالقضاء على آثار بنى عبد المؤمن وتتبع آثارهم أينما كانوا[1] . وكان من آثار هذه المطاردة أن قبض فى سنة ٦٧٤هـ ، بأحواز تينملل ، على السيد إسحق بن السيد أبى ابراهيم ، أخى الخليفة المرتضى ، وكان قد نصبه الموحدون هنالك خليفة كما تقدم ، وقبض كذلك على ابن عمه السيد أبى الربيع وغيره من القرابة ، وسيقوا مع أولادهم إلى مراكش وقتلوا جميعا[2] .

وغادر أبو يوسف مراكش فى منتصف ذى القعدة (٦٦٩هـ) فسار إلى رباط الفتح ، وقضى بها عيد الأضحى ، ثم أخذ البيعة لولده الأمير أبى مالك بولاية عهده[3] ، وعاد بعد ذلك إلى حاضرته فاس .

وعنى أبو يوسف بأمر سبتة وطنجة لما لهما من أهمية بارزة بموقعهما على المضيق ، وكونهما معبر المغرب إلى الأندلس، ومعبر الأندلس إلى المغرب ، ولاسيما بعد ما ظهر من نيات اسبانيا العدوانية نحو المغرب ، منذ غزو سفنها لثغر سلا ، فاعتزم الاستيلاء على هذين الثغرين الهامين ، وكان ابنه الأمير أبومالك قد زحف على طنجة فى سنة ٦٦٦هـ ، ولكنها امتنعت عليه، وكان يسيطر على كلا الثغرين، الفقيه العزفى حسبما تقدم ذكره . فسار أبو يوسف فى قواته إلى طنجة فى أوائل سنة ٦٧٢هـ ، واستولى عليها، ومنح الأمان لأهلها، ثم بعث ولده الأمير أبا يعقوب فى قوة كبيرة إلى سبتة فنازلتها أياما ، ثم أذعن العزفى إلى الطاعة ، وتعهد بأداء

---

(١) الذخيرة السنية ص ١٣٤و١٣٨، وروض القرطاس ص ٢٠٥و٢٠٦، وابن خلدون ج ٧ ص ١٨٢ .

(٢) ابن خلدون ج ٧ ص ١٨٢ .

(٣) الذخيرة السنية ص ١٣٩ ، وروض القرطاس ص ٢٠٦ .

الجزية ، فتقبل السلطان منه ذلك ، وارتد عائداً فى قواته إلى فاس[1] .

ولم يكن باقيا من قواعد المغرب الأقصى دون فتح سوى سجلماسة ، وكانت بيد يغمراسن بن زيان صاحب تلمسان ، وحلفائه من عرب المنبّات من بطون المعقل ، فسار إليها أبو يوسف فى جيش ضخم ، وضرب حولها الحصار ، ثم اقتحمها عنوة ، وكان افتتاحها فى شهر صفر سنة ٦٧٣ هـ . وتم بذلك افتتاح بنى مرين لسائر أمصار المغرب الأقصى وأقطاره ، وبسطهم لسيادتهم عليه كاملة شاملة .

ووقعت قبل ذلك فى سنة ٦٧٠ هـ ، حروب ومعارك طاحنة بين أبى يوسف ويغمراسن فى أحواز تلمسان ، ووجدة ، كان النصر فيها لأبى يوسف ، وهى أحداث ليس من موضوعنا أن نتناولها هنا ، لأنها تتعلق بتاريخ بنى مرين وبنى عبد الواد ، ولاعلاقة لها بتاريخ الدولة الموحدية .

أما عبور السلطان أبى يوسف إلى الأندلس بعد ذلك غير مرة ، استجابة لنداء ابن الأحمر صاحب غرناطة ، وجهاده بها ضد النصارى ، وانتصاراته الباهرة فى ذلك الميدان ، وماكان بينه وبين ابن الأحمر طوراً بعد طور ، من التحالف والقطيعة ، فقد تناولناه مفصلا فى كتابنا « نهاية الأندلس » . وإنما نود أن نشير هنا إلى أن نزول بنى مرين ميدان الجهاد بالأندلس ، إنما كان قياما بنفس الرسالة التاريخية ، التى بدأ بها المغرب منذ عصر المرابطين ، وأن بنى مرين خلفوا الموحدين ، فى القيام بأعمال الجهاد فى الأندلس ، ولكن بعد فوات الوقت ، وبعد سقوط معظم القواعد الأندلسية التالدة ، فى أيدى النصارى ، خلال الفترة التى انهار فيها سلطان الدولة الموحدية ، وتضاءلت قواها ومواردها بالأندلس ثم المغرب . بيد أن تدخل بنى مرين فى سير الحوادث بالأندلس ، ومناصرتهم لمملكة غرناطة ، آخر الممالك الإسلامية بالأندلس ، عصراً امتد زهاء ثمانين عاما ، كان أكبر عون لها فى كفاحها ضد اسبانيا النصرانية ، وفى صمودها الطويل ، فى ميدان الصراع ، ولولا عون بنى مرين وعبورهم المتوالى إلى شبه الجزيرة ، ليشدوا بأزر المملكة الإسلامية الصغيرة ، لما كتب لغرناطة كل هذا العمر الطويل الذى عاشته ، والذى امتد بعد انهيار الأندلس الكبرى زهاء قرنين آخرين .

وتوفى السلطان أبو يوسف يعقوب المرينى ، قاهر الدولة الموحدية ومبيدها بعد حياة حافلة بالفتوح المظفرة ، فى أنحاء المغرب ، وأعمال الجهاد الجليلة بالأندلس

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ١٨٧

وذلك بثغر الجزيرة الخضراء ، فى المحرم سنة ٦٨٥هـ ( مارس سنة ١٢٨٥ م ) وقد أسبغت عليه انتصاراته الباهرة بالأندلس لقب المنصور بالله(١).

— ٣ —

والآن نقف لحظة تأمل ، نحاول فيها أن نستعرض بعض العوامل والأسباب التى أدت إلى سقوط الدولة الموحدية ، بعد أن عاشت منذ قيامها ، بإعلان المهدى ابن تومرت لإمامته ورياسته ، فى جبل إيجليز فى رمضان سنة ٥١٥ هـ ، حتى سقوط حاضرتها مراكش ، فى يد السلطان أبى يوسف يعقوب المرينى فى المحرم سنة ٦٦٨ هـ ، مائة واثنتين وخمسين عاما ، قضت منها زهاء نصف قرن ، فى القضاء على الدولة المرابطية بالمغرب ، وافتتاح سائر أقطاره ، ثم افتتاح إفريقية وثغورها ، وافتتاح قواعد الأندلس بعد ذلك ، والقضاء على ثورة ابن مردنيش والاستيلاء على مملكة مرسية ، آخر مهاد الثورة والمقاومة بالاندلس ، وذلك فى سنة ٥٦٧هـ ، وقامت الإمبراطورية الموحدية الكبرى من ذلك التاريخ ، تمتد من لوبية وساحل تونس شرقا ، حتى المحيط الأطلنطى غربا ، ومن ضفاف نهر التاجُه بالأندلس شمالا ، حتى وادى درعة وبلاد السوس ومشارف الصحراء الكبرى جنوبا . على أن هذه الإمبراطورية العظيمة المترامية الأطراف ، لم تمكث على وحدتها وتماسكها أكثر من نحو نصف قرن ، هو الذى يشغله الشطر الأخير من عهد الخليفة عبد المؤمن ، وعهد ولده الخليفة أبى يعقوب يوسف ، ثم عهد الخليفة المنصور . ومنذ عهد ولد المنصور ، الخليفة محمد الناصر ( ٥٩٥ — ٦١٠هـ ) ، تعمل عوامل الانحلال والتفكك ، التى بدأت قبل ذلك حتى فى عهد المنصور ، وحجبتها قوته وعزمه وانتصاراته الباهرة ، عملها الفعال ، فى تقويض دعائم الدولة الموحدية ، وتمزيق وحدتها . ويمكننا أن نعتبر موقعة العقاب المشئومة ( صفر ٦٠٩ هـ — يوليه ١٢١٢ م ) أخطر العوامل الحاسمة ، فى تسرب هذا الانحلال ، إلى ذلك الصرح الشامخ ، فقد هزت هذه الكارثة العظيمة أسس الدولة الموحدية إلى الأعماق ، وكان ماوقع فيها من إفناء مروع للجيوش الموحدية وسحق لقوى الدولة ومواردها العسكرية ، نذيراً واضحاً بانحلالها ، وتضعضع قواها ، وتضاءل مواردها . ثم جاء عصر الخلفاء الأحداث والخلفاء الضعاف ،

(١) راجع فى جهاد أبى يوسف وغزواته بالأندلس كتاب « نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين » الطبعة الثانية ص ٨٨ — ٩٨ .

وعصر التنافس على عرش الخلافة ، والحروب الأهلية المستمرة ، وذلك كله فى ظل دولة تقتص أطرافها وتنهار مواردها تباعا .

على أن موقعة العقاب الحاسمة ، جاءت لتعزز عوامل خطيرة أخرى ، كانت تجتمع تباعا ، لتحدث آثارها المخربة المادية والأدبية ، فى صرح الدولة الموحدية . وقد كانت هذه العوامل تعمل عملها حتى فى ظل عصر النهضة ، وعصر الخلفاء الأقوياء ، وقد كان فى مقدمة هذه العوامل ، نظام الحكومة الموحدية ذاته ، وأسلوب الحكم الموحدى . فقد كانت الحكومة الموحدية تقوم على أساس العصبية والقبيلة والأسرة ، وكان الخليفة الموحدى وهو رأس الدولة ، يجعل من أقطار الدولة وعمالاتها إقطاعات قبلية وعائلية ، فلايتولى الحكم فى الأقطار والعمالات سوى السادة من أبناء الخليفة ، وأبناء عمومته وقرابته ، إلا فى أحوال نادرة ، وكانت هذه القاعدة تطبق فى المغرب والأندلس فى وقت واحد . ولم يكن أولئك السادة أوالحفاظ ، أو الزعماء القبليين ، الذين يتولون الحكم ، فى المقاطعات والمدن ، يتمتعون دائماً بمستوى عال ، من الكفاية والحزم والنزاهة ، وإن كان منهم فى أحيان كثيرة ، رجال من ذوى المقدرة ، والنباهة والعفة ، وقادة من أقدر رجال الحرب . ولاشك أن هذا الأسلوب الإقطاعى الضيق ، فى حكم العمالات والمدن ، لم يكن دائماً كفيلا بتحقيق النظام والأمن والرخاء ، أوبالدفاع عن مختلف أقطار الإمبراطورية وثغورها ، ومن ثم فقد كشفت حوادث الأندلس وإفريقية ، غير بعيد ، عن ضعف هذا النظام وقصوره . فأما فى الأندلس فقد استطالت اسبانيا النصرانية والبرتغال على الأراضى الإسلامية ، ونفذت قشتالة بغزواتها إلى ما وراء جبل الشارات ( سيرّا مورينا ) ، ووصلت جيوشها إلى بسائط قرطبة وإشبيلية ، ونفذت مملكة ليون الصغيرة حتى ضفاف نهر وادى يانه ، واستطاعت مملكة البرتغال الناشئة من جانبها ، أن تستولى على قواعد ما وراء التاجه ، وأن تنفذ بغزواتها جنوبا حتى شلب ، وشرقا حتى بطليوس . ولم تستطع القيادة الموحدية بالأندلس بالرغم مما كان لديها من الموارد والحاميات العديدة ، وبالرغم مما كان يتدفق عليها من القوات من وراء البحر ، أن تقمع هذا العدوان المستمر من جانب النصارى ، أو أن تقف فى وجه الغزوات النصرانية بطريقة ثابتة ، بل لم يستطع الخلفاء الموحدون أنفسهم ، بالرغم من عبورهم إلى شبه الجزيرة غير مرة ، فى جيوشهم الزاخرة ، وعُددهم الهائلة ، حماية الأندلس

واسترداد قواعدها وثغورها المفقودة ، وكان ما أصابهم من مرارة الإخفاق أكثر مما حققوا من الفتح والنجح ، ولم يكن بين غزواتهم الموفقة اللامعة سوى غزوات المنصور وانتصاره الباهر فى معركة الأرك العظيمة ( شعبان ٥٩١ هـ — يوليه ١١٩٤م ) وهو انتصار لم تلبث أن محت آثاره هزيمة العقاب الساحقة ( ٦٠٩هـ ) . وتفاقمت هذه الآثار فى الأندلس بقيام الخليفة العادل ، خروجا على خلافة أبى محمد عبد الواحد بمراكش ، ثم اضطرام ثورة البياسى ( ٦٢١–٦٢٣هـ ) ، وجنوحه إلى ممالأة ملك قشتالة ، وتسليمه إليه عديد الأراضى والحصون ، ثم خروج الخليفة المأمون على أخيه العادل ٦٢٤ هـ ، والتجائه إلى ملك قشتالة ، واستعانته بالجند النصارى على تحقيق أمره ، وتسليمه بدوره لملك قشتالة طائفة جديدة من الحصون الأندلسية . ويجب أن نضيف إلى ذلك مأساة السيد أبى زيد والى بلنسية وأخى عبدالله البياسى ، فقد رأينا ما كان من أمر هذا السيد ، حينما نهض الأمير أبو جميل زيان وانتزع منه حكم بلنسية ، فقد التجأ إلى حماية ملك أراجون ، واعتنق النصرانية وأصبح حربا على أمته ودينه ، يسلم للنصارى ما كان بيده من الحصون ، ويقودهم إلى غزو الأراضى الإسلامية . وقد كانت هذه الأحداث المبيرة كلها ، نذيراً بانهيار الأندلس ، وتمزيق وحدتها ، وتفكك أوصالها ، والتمهيد لسقوط قواعدها الكبرى ، وكان فى الوقت نفسه نذيراً بفقد الدولة الموحدية لهذا القطر العظيم من أقطارها .

وأما فى إفريقية ، فقد كان غزو بنى غانية لثغورها وقواعدها الغنية ، وعيثهم فى بسائطها ، وقتلهم لسكانها وانتهابهم لأموالها ، وذلك مدى ثلاثين عاما ، وما اضطرت الخلافة الموحدية أن تخوضه من المعارك المستمرة فى إفريقية ، خلال هذه الفترة ، وما تكبدته من الجهود والنفقات الهائلة ، فى سبيل هذه المعارك ، وما هلك من جيوشها فى ميدان القتال لمدافعة بنى غانية ، وللذود عن سلطانها فى إفريقية : كان لذلك كله أثر بالغ فى تقويض مواردها ، وإضعاف قواها ، وتخريب قطر من أعظم أقطارها ، وأغناها وأزخرها بالموارد . وبالرغم من أن الخلافة الموحدية ، استطاعت فى النهاية أن تقضى على فورة بنى غانية ، وأن تسترد منهم سائر الثغور والأراضى الإفريقية ، وأن تفتتح ميورقة موطنهم الرئيسى ، ومثوى حكومتهم ورياستهم ، فإن ذلك لم يكن كافيا لتوطيد سلطان الدولة الموحدية بإفريقية ، ولم يكن ليحول دون تيار الحوادث الجارف ، وقد كان يندفع بإفريقية إلى قدر آخر غير البقاء فى ظل الدولة الموحدية .

وقد كان انسلاخ إفريقية عن الدولة الموحدية ، وقيام الدولة الحفصية بها منذ سنة ٦٢٧هـ ( ١٢٢٩ م) فى الواقع نتيجة لفورة بنى غانية ، والأحداث العظيمة التى أثارتها ، وكان هذا الانفصال ، بعد ضياع الأندلس ، أخطر ضربة أصابت الإمبراطورية الموحدية من الناحية الإقليمية ، ثم تبعتها تلمسان فاستولى عليها يغمراسن بن زيان وقومه من بنى عبد الواد ، وقامت بها أمارة مستقلة ، أخذت فى التوطد والنماء ، وبذلك فقدت الدولة الموحدية إفريقية والمغرب الأوسط وفقدت فى نفس الوقت ثغرى سبتة وطنجة ، حيث قامت كلتاهما أولا بالدعوة الحفصية ، ثم استقلت سبتة برياسة الفقيه العزفى ( سنة ٦٤٧ هـ) وتبعتها طنجة ، فاستقلت برياسة ابن الأمين . وبذلك فقدت الدولة الموحدية سائر ثغورها الشمالية .

ثم كانت المرحلة الأخيرة فى تفكك الدولة الموحدية ، وهى المرحلة التى ظهر فيها بنومرين ، وقوى أمرهم بوادى ملوية ، وغلبوا تباعا على أطراف المغرب الأقصى . وفى الوقت الذى شغلت فيه الخلافة الموحدية بمصانعة طوائف العرب من الخلط وغيرهم ، ومعالجة غدرهم وخياناتهم ، وبقمع الثورة فى الأنحاء الجنوبية ، كان بنومرين يتوغلون تباعا فى الأنحاء الشمالية . ولما شعر الموحدون بخطر بنى مرين ، على ما تبقى من إمبراطوريتهم الشاسعة ، فى المغرب الأقصى ، كان الوقت قد فات للتغلب على تلك القوة الناهضة الدافعة ، وكان سقوط مكناسة فى أيدى بنى مرين فى سنة ٦٤٣هـ ، بداية النهاية فى ضياع أمصار المغرب الأقصى ، وتلتها فاس عاصمة المغرب القديمة التالدة ، فسقطت لأول مرة فى أيدى بنى مرين فى سنة ٦٤٦هـ ، ثم استولوا عليها نهائيا بعد ذلك بعامين ، وكان سقوط فاس أعظم أمصار المغرب الأقصى بعد مراكش ، عنوان الانهيار الأخير ، فلم تمض عشرون عاما أخرى هى عهد الخليفة المرتضى ، حتى اجتاح بنو مرين سائر أراضى المغرب الأقصى ، فيما وراء وادى أبى رقراق ووادى أم الربيع ، واستولوا على سائر تلك المنطقة ، ثم كان استيلاؤهم على مراكش فى المحرم سنة ٦٦٨ هـ من يد صنيعتهم أبى بوس ، خاتمة ذلك الصراع المرير المؤلم ، وكان خاتمة الدولة الموحدية .

وإذا تركنا العوامل والأسباب المادية جانبا ، فإن العوامل الأدبية قد لعبت أيضاً ، دوراً فى هذه المأساة التاريخية . ذلك أن الدولة الموحدية ، قامت على أسس الإمامة المهدية ، والعقيدة الموحدية ، وكانت هذه الأسس بغض النظر عن حقيقة أمرها ، توثق أواصر الزعامة الموحدية ، وتجمع كلمة الموحدين القبلية

والعقيدية ، حول إمامة واحدة ، فلما تحولت الإمامة الموحدية ، إلى خلافة دنيوية ، وانحصرت فى بنى عبد المؤمن ، ضعفت هذه الأواصر العقيدية ، التى كانت توثق بين الزعامة الموحدية ، ولم يبد الخلفاء الموحدون من بعد عبد المؤمن أية حماسة ظاهرة فى تمجيد الإمامة المهدية . وكان الخليفة المنصور بالعكس ، يبدى ريبه فى صحة إمامة المهدى ، وفى عصمته ، ولكنه لم يجرأ على أن يحدث أى تغيير ظاهر ، فى رسوم الإمامة الموحدية . فلما تولى ولده أبو العلا إدريس المأمون الخلافة ، كان فى ذلك أشد منه جرأة وإقداما ، فأصدر مرسومه الشهير بإلغاء الإمامة المهدية ، ومحو رسومها وآثارها (٦٢٧هـ) وقام بذلك بثورة حقيقية فى كيان العقيدة الموحدية . وكان من أثر هذا الاجتراء على محو تراث المهدى ووصيته الدينية ، أن خرج معظم الأشياخ الموحدين على خلافة بنى عبد المؤمن ، ولجأوا إلى منازلهم فى جبال المصامدة . وبالرغم من أن هذا الانفصام لم يكن له أثر مباشر من الناحية المادية ، فقد كان له من الناحية الأدبية أعمق وقع ، وفقدت خلافة مراكش من جرائه كثيراً مما كانت تتمتع به ، من التأييد الروحى والقبلى ، ولاسيما فى منطقة جبال المصامدة وبلاد السوس . فلما كان عهد الرشيد ولد المأمون ، وقع التقرب بين الزعماء الموحدين وبين الخلافة الموحدية ، وأعاد الرشيد رسوم الإمامة المهدية ، وتقاليدها السابقة ، إرضاء لهؤلاء الزعماء ، وجمعا للكلمة . ولكن الخلافة الموحدية لم تبرأ من ذلك الصدع الذى أصابها ، ولم يكن ذلك التقرب الحديد بينها وبين أوليائها القدماء ، وثيق العرى ، بل كانت تغشاه الريب المتبادلة والحذر الدائم .

وكذلك كان أمر الروابط القبلية بين الخلافة الموحدية ، وبين بعض القبائل البربرية القوية ، وطوائف العرب من أنصارها القدماء . وقد كانت هسكورة وهى من أقوى هذه القبائل وأكثرها عدداً ، تتردد بين تأييد الخلافة الموحدية وبين الخروج عليها ، لا بسبب العقيدة أو المبدأ ، ولكن لبواعث المصلحة الشخصية ، وقد لعبت بذلك دورا هاما فى المرحلة الأخيرة ، من مصاير الخلافة الموحدية . وأما طوائف العرب مثل عرب الخلط وعرب المعقل وبنى جابر وغيرهم ، فقد كان موقفهم من الخلافة الموحدية ، موقفاً ذميا مؤلما ، ولم يكن يحدوهم فى تأييدها أية عاطفة من الولاء الثابت ، أو شكر الصنيعة ، مهما أغدقت عليهم ، وكان تقلبهم فى تأييد الجهات المختلفة ، لا تمليه سوى البواعث المادية الوضيعة . وكانت أعمال التخريب والعيث والسفك والنهب ، هى جل ما يستغرق نشاطهم أينما حلوا ، وكانت خياناتهم

وتخاذلهم عن نصرة حلفائهم، فى مختلف المعارك، مضرب الأمثال، وقد عانت الخلافة الموحدية كثيراً من أعمال غدرهم ونكولهم، وذلك حسبما فصلناه فى مختلف المواطن .

ويجب ألا ننسى تبعة الخلفاء الموحدين أنفسهم ، فى العمل على تقويض أسس سلطانهم ودولتهم . فقد رأينا الخلفاء ، منذ وفاة يوسف المستنصر ، ينحدرون إلى هاوية الحرب الأهلية ، ويشتغلون بالصراع فيما بينهم ، حول اغتنام العرش، ويبددون قوى الدولة ومواردها ، فى معارك أهلية عقيمة ، وقد استغرقت معارك المأمون ، ثم ولده الرشيد ، ويحيى المعتصم ، فترة طويلة وموارد زاخرة ، فى الوقت الذى كان فيه بنو مرين يتوغلون داخل أنحاء المغرب ، ويوطدون سلطانهم فيها ، وقد اجترأ الموحدون فى أواخر عهدهم على قتل خلفائهم ، فقتل الخليفة أبو محمد عبد الواحد ، ثم قتل خلفه الخليفة العادل ، وقتل المأمون أشياخ الموحدين ، الذين نكثوا بيعته ، وقد كانوا نحو مائة أو تزيد ، وقد أفنيت بهذا العمل الدموى، خلاصة الزعامة الموحدية، وانهار نفوذها القوى فى توجيه الشئون .

ومما تجدر ملاحظته أن الدولة الموحدية ، جازت عهداً طويلا من الانحلال والتفكك ، استطال زهاء ستين عاما ، قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة ، وتدرجت فى هذا الانحلال أطواراً متعاقبة، فلم يكن سقوطها أمراً سريعا مفاجئاً ، كما حدث فى أمر الدولة المرابطية ، وإنما كانت كل مرحلة تنبىء عن المرحلة التالية ، ومن ثم فإن سقوطها لم يحدث فى الأمة المغربية هزة عميقة ، كتلك التى أحدثها سقوط الدولة المرابطية ، ولم يقع فى مراكش أو غيرها من المدن المغربية ، عند انهيار الحكم الموحدى ، شىء من تلك المناظر المروعة ، التى اقترنت بدخول الموحدين مراكش ، وغيرها من الحواضر ، واستقبلت الأمة المغربية دولتها الحاكمة الجديدة — دولة بنى مرين — بشعور الاستبشار والرضى ، ولم يلبث أن تألق الحكم الجديد ، وسطعت دولة بنى مرين الزاهرة ، وساد الأمن والنظام ، وعم اليسر والرخاء فى الحواضر والبوادى، واختفت تلك الهزات والأحداث العنيفة ، التى لبثت تعكر صفاء السلم والحياة الوادعة ، أكثر من نصف قرن .

— ٤ —

وعلى أثر انهيار الدولة الموحدية ، انهار ذلك الصرح القبلى الشامخ ، الذى كان ينتظم عقده ، من سائر قبائل المصامدة ، والموحدين ، كلما جد الجد أو أقبل الجهاد ، فيغدو عماد الجيوش الموحدية الحرارة ، وكانت هذه القبائل تنقسم

إلى مجموعتين : الأولى قبائل المصامدة ، والثانية قبائل الموحدين . فاما المجموعة الأولى ، فكانت تضم قبائل هسكورة ودُكالة وهيلانة وحاجة وغيرها ، من قبائل المصامدة ، وكانت هسكورة أكبر هذه القبائل عددا وأكثرها بطونا ، ومن بطونها قبيلة جنفسية ( كنفيسة ) ، وكانت لضخامتها ووفرة حشودها ، تحتل مكانة ملحوظة ، بين قبائل الدولة الموحدية ، بيد أن أهلها كانت تغلب عليهم البداوة ، لايخالطون الموحدين ، فيما انغمسوا فيه من حياة الحضر والترف ، بل يؤثرون التزام جبالهم المتشعبة من جبال الأطلس الشامخة ، والممتدة فى جنوب شرقى مراكش حتى مشارف السوس الأقصى . ولما غلب بنو مرين على الدولة الموحدية ومحوا آثارها ، اضطهدوا هسكورة وفرضوا عليها المغارم الثقيلة ، فلزموا السكينة ، ولبثوا معتصمين بجبالهم ، ولم يرتضوا خدمة الدولة الجديدة ، ولم يدينوا بدعوتها ، وكانت كلما اشتدت عليهم وطأة عسكر بنى مرين ردوهم بدفع الإتاوات من آن لآخر . وكان رؤساؤهم يتمتعون بنوع من الاستقلال المحلى ، ويحشدون حولهم الحشود لحماية سلطانهم ، وتحصيل جباياتهم ، ويستعينون أحيانا ببعض قبائل الجبل من أهل بسائط السوس من بطون هسكورة وجنفيسة ، وكذلك ببعض بطون العرب مثل بنى الحارث من سفيان ، والشبانات من عرب المعقل . وهكذا لبثت هسكورة بعيدة عن الولاء لبنى مرين ، لاتدين بطاعتهم ، إلا عن طريق الجزية ، كما حدث أيام السلطان أبى الحسن المرينى ، وأحيانا تناوئهم متى شعرت بضعف الدولة وتراخيها[1] .

وكذلك استقلت بقية قبائل المصامدة غربى مراكش ، مثل دكالة وهيلانة وحاحة ، بأمرها ورياستها ، وكانت منازلهم تمتد غربا حتى شاطىء المحيط[2] .

وأما المجموعة الثانية فكانت تضم قبائل الموحدين ، ومنازلها على مقربة من مراكش ، وكانت منها سبع قبائل امتازت بالسبق والإيثار على غيرها ، لاعتناقها دعوة المهدى ابن تومرت ، قبل أن يتوطد أمره ، أو بعبارة أخرى قبل افتتاح مراكش . وهذه القبائل السبع تنتمى إلى المصامدة ، وهى هرغة قبيلة الإمام المهدى ، وهنتاتة ، وتينملّل وهم الذين بايعوه مع هرغة فى بداية أمره ، وجنفيسة ، وهزرجة ، وجدميوة (كدميوة ) ووريكة . وتلحق بها قبيلة ثامنة ، هى كومية قبيلة الخليفة عبد المؤمن ابن على كبير صحابة المهدى . وكانت هذه القبائل الثمان لسبقها فى البيعة والطاعة ، تتمتع بمزايا الإيثار فى السلطان والنفوذ ، وتولى المناصب والقيام بمهام الأمور . فلما

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٦٢ و٢٦٣ . (٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٦٤ .

انهارت الدولة الموحدية ضعف أمرهم ، وأضحوا من الرعايا العادين للدولة الغالبة[١] .

وقد دثرت قبيلة هرغة — قبيلة المهدى — بعد سقوط الدولة بقليل ، وفقدت كل مكانة ونفوذ ، وكذا كان مصير قبيلة أو أهل تينملّل ، وهم الذين نزل بينهم المهدى وأعلن إمامته ، وأنشأ داره ومسجده ، وكان لهم شأن فى مناصب الدولة ، وعمالاتها ، ولكن رجالاتهم انقرضوا غير بعيد ، وملك أمرهم غيرهم من زعماء المصامدة .

وكان قبر المهدى لديهم بتينملّل ، مايزال حتى العصر الذى كتب فيه ابن خلدون تاريخه ، حوالى سنة ٧٨٠هـ ، مايزال مزارا مرموقاً ، وعلى ما كان عليه من التجلة والتعظيم ، يتلى به القرآن والأحزاب باستمرار ، ويقوم عليه الحجاب والحفاظ ، وتترى إليه الوفود من كل فج ، وتقدم الصدقات نذرا وتبركا . وكان أهل تينملل ومعهم كافة المصامدة ، يعتقدون اعتقاداً جازما ، بأن أمر المهدى سيعود ، وأن الدولة ستظهر على أهل المشرق ، ويملأ المهدى الأرض عدلا كما ملئت جوراً ، وذلك وفق ماوعدهم به[٢] .

وأما هنتاتة ، فكانت من أشد قبائل الموحدين بأسا وتمكنا فى الدولة ، وذلك لما كان عليه زعيمها الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتى ، أحد الصحب العشرة ، من مكانة ملحوظ لدى المهدى ، وقد لبث أبناؤه يتبوأون أرفع مناصب الدولة ، وانتهى زعيمهم أيام الناصر ، الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن أبى حفص ، بأن غلب على ولاية إفريقية ، ومهد ملكها لعقبة ، فأقاموا بها دولة مستقلة عظيمة . ولما انتهت الدولة الموحدية ، لبثت هنتاتة فى موطنها القديم بجبال درن ، على مقربة من مراكش ، وكانوا أيام بنى مرين ، من القبائل الخاضعة لسلطان الدولة الجديدة ، يولون عليها من شاءوا لضبطها وتحصيل جبايتها .

وكانت قبيلة جدميوة تابعة لهنتاتة ، وتينملل ، وجبلهم بجوار جبل هنتاتة ، فلما انهارت الدولة افترق أمرهم ، وخضع بعضهم لبنى مرين ، وامتنع البعض الآخر عن الطاعة . وكانت وريكة كذلك من القبائل المجاورة لهنتاتة ، وكانت بينهم فتن وحروب مستمرة هلك فيها كثير من الفريقين المتخاصمين[٣] .

وهكذا كانت الخاتمة المؤسية ، لتلك المجموعة من القبائل البربرية والبدوية ، التى هزتها دعوة المهدى ابن تومرت إلى الأعماق ، ومكنتها من أن تنشىء دولة من أعظم الدول ، فى الغرب الإسلامى ، هى الدولة الموحدية الكبرى .

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٦٦ .
(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٦٧ ، وراجع ماورد فى القسم الأول بشأن قبر المهدى ص ١٩٨ .
(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٧٠ و ٢٧١ .

# الكتاب الحادي عشر

# الممالك الإسبانية النصرانية

# خلال العصر الموحّدي

# الفصل الأول

## قشتالة وليون

### منذ عهد الفونسو الثامن حتى عهد فرناندو الثالث

ألفونسو الثامن الملقب بالنبيل . الممالك النصرانية الإسبانية فى عهده . ألفونسو الثانى ملك أراجون . العلائق بين قشتالة وأراجون . اجتماع ألفونسو الثامن وألفونسو الثانى . تسوية العلائق بينهما وتحالفهما . زواج ألفونسو الثامن من إبنة ملك انجلترا هنرى الثانى . ألفونسو الثامن يشهر الحرب على ناڤارا . غزوه للأراضى الإسلامية . استيلاؤه على قونقة . توثق العلائق بين قشتالة وأراجون . التحكيم بين قشتالة وناڤارا . تنظيم فتوح الإسترداد بين قشالة وأراجون . اضطراب العلائق بين قشتالة وناڤارا . وفاة فرناندو ملك ليون . يخلفه ولده ألفونسو التاسع . غزوات القشتاليين لأراضى الأندلس حتى موقعة الأرك . غزوات الموحدين لأراضى قشتالة . تحالف ملك قشتالة وبيدرو الثانى ملك أراجون . تعاونهما فى محاربة ناڤارا وليون . استنصار سانشو ملك ناڤارا بالموحدين . عبوره إلى الغرب وزيارته للخليفة الناصر . غزو ملك قشتالة لناڤارا واستيلاؤه على جيبوسكوا . اهتمام البابوية بالتجاء ملكى ناڤارا وليون إلى الموحدين . مطالبتها بإلغاء زواج ألفونسو التاسع من ابنة عمه برنجيلا . إلغاء هذا الزواج وآثاره . إهتمام ألفونسو الثامن بفتوح الإسترداد . سعيه فى جمع كلمة الملوك النصارى . تكتل اسبانيا النصرانية ضد اسبانيا المسلمة . تأييد البابوية والنصرانية لهذا التكتل . عبور الناصر إلى الأندلس . موقعة العقاب ونتائجها المشئومة . غزوات ألفونسو الثامن لأراضى الأندلس . وفاته وخلاله . إصلاحاته الداخلية . ولده الطفل إنريكى يخلفه على العرش . وقوعه تحت وصاية آل لارا . مشروع لزواجه وإلغاء البابوية لهذا المشروع . وفاة إنريكى فى حادث . الملكة برنجيلا تنصب ولدها فرناندو الثالث على عرش قشتالة . فرناندو الثانى ملك ليون . يعقد الصلح مع ألفونسو الثامن . وفاته وقيام ولده ألفونسو التاسع فى العرش . عقده لمجلس الكورتيس . يعقد الصلح مع قشتالة والبرتغال . زواجه من الأميرة تريسا البرتغالية وإلغاء البابوية لهذا الزواج . تحالفه مع الموحدين . عقد التحالف بين ناڤارا وليون والموحدين . عود ألفونسو التاسع إلى التفاهم مع قشتالة . زواجه من الأميرة برنجيلا ثم إلغاء هذا الزواج . تردده بين مخاصمة قشتالة ومسالمتها . إجتماع كلمة الملوك النصارى تحت ضغط البابوية . غزوات القشتاليين لقطاع أبدة ، ومحاصرة ألفونسو التاسع لقاصرش . قيام فرناندو الثالث فى عرش قشتالة أثر وفاة ألفونسو الثامن . محاولة ملك ليون معارضته وانتزاع العرش منه . فشل هذه المحاولة . عقد السلام بين قشتالة وليون . عود ألفونسو التاسع لمحاصرة قاصرش وافتتاحها . استيلاؤه على ماردة وبطليوس . وفاته . بترك العرش لإبنتيه . تنازلهما عنه لفرناندو الثالث . عود اتحاد قشتالة وليون . فرناندو الثالث ملك قشتاله وليون ، وخايمى الأول ملك أراجون . اهتمام فرناندو الثالث بفتوح الإسترداد . ظروف الأندلس تمهد لهذه الفتوح . غزوات فرناندو فى الأندلس الوسطى . استيلاؤه على أبدة . استيلاؤه على قرطبة وأحوازها . تنافس ابن هود

وابن الأحمر على مصانعته . وفاة ابن هود واحتواء ابن الأحمر على معظم تراثه . اهتمام فرناندو بالضغط على ابن الأحمر. ابن الأحمر يعقد الصلح مع فرناندو ويعترف بطاعته . أعظم أعمال فرناندو استيلاؤه على إشبيلية . استيلاؤه على بقية قواعد هذه المنطقة . عنايته بالشئون الداخلية . إصلاحه لنظم الحكم والإدارة إنشاؤه لجامعة شلمنقة . إنشاؤه لدار الصناعة بإشبيلية . مشروعه فى توحيد القوانين القشتالية . إتمام هذا المشروع فى عهد ولده ألفونسو العاشر. وفاته وخلاله .

## ١ — مملكة قشتالة

انتهينا فيما تقدم ، من تاريخ الممالك الإسبانية النصرانية حتى وفاة القيصر ألفونسو ريمونديس ( ١١٥٧ م ) وما أعقب وفاته من تقسيم مملكته ، بين ولديه سانشو وفرناندو ، حيث اختص أكبرهما سانشو بعرش قشتالة ، واختص الأصغر فرناندو بمملكة ليون وجلّيقية ، وما حدث بعد ذلك من وفاة سانشو فجأة فى سنة ١١٥٨ م ، لعام فقط من حكمه ، دون أن يترك لوراثة العرش سوى طفل فى الثالثة من عمره هو ألفونسو ، وما أثارته مسألة الوصاية على هذا الأمير الطفل فى قشتالة من حرب أهلية مضطرمة بين أسرتى كاسترو ولارا ، استمرت بضعة أعوام ، وانتهت حينما بلغ الطفل الحادية عشر من عمره بإعلانه ملكاً على قشتالة ، تحت كنف أسرة لارا القوية .

كما تحدثنا فيما تقدم ، عن قيام جماعات الفرسان الدينية ، فى الممالك الإسبانية النصرانية ، وعن قيام مملكة البرتغال ، واشتداد ساعدها ، فى عصر ملكها ومنشئها الحقيقى ألفونسو هنريكيز .

ونود الآن أن نتابع تاريخ هذه الممالك الإسبانية النصرانية ، خلال العصر الموحدى ، وذلك فى شىء من الإيجاز ، ولاسيما فيما يتعلق بمراحل الصراع ، بينها وبين الأندلس المسلمة ، أو بعبارة أخرى بينها وبين الدولة الموحدية ، صاحبة السيادة على الأندلس فى تلك الفترة ، وذلك لأننا تتبعنا مراحل هذا الصراع خلال كتابنا بإفاضة وافية .

بدأ ملك قشتالة الصبى ألفونسو الثامن ، الملقب بألفونسو النبيل ، حكمه حينما بلغ الرابعة عشرة فى سنة ١١٦٩ م . وكانت اسبانيا النصرانية ، تنقسم يومئذ إلى أربع ممالك ، هى قشتالة وليون وأراجون وناڤارا ( نبرّة ) ، هذا عدا مملكة البرتغال ، وكانت تشق طريقها الخاص فى غربى شبه الجزيرة ، وتتخذ لنفسها سياسة مستقلة ، عن باقى الممالك الإسبانية . وكانت قشتالة ، بالرغم من انفصال ليون عنها ، وقيامها مملكة مستقلة ، ما تزال أكبر الممالك الإسبانية رقعة ،

وأوفرها قوة وموارد ، تليها فى ذلك مملكة أراجون التى اتسعت رقعتها ، ونمت قوتها باتحاد إمارة قطلونية أوإمارة برشلونة معها ، وذلك منذ سنة ١١٣٧ م حسبما سبق أن فصلناه فى موضعه . وكانت ليون ثالثة الممالك الإسبانية ، بيد أنها لم تكن فى الواقع ، بالرغم من استقلالها وانفصالها عن قشتالة ، وفقاً لوصية القيصر ألفونسو ريمونديس ، سوى إمارة ضعيفة تشق طريقها بصعوبة ، ولم يكن لها كبير شأن ، فى سير الحوادث الهامة فى شبه الجزيرة ، وكان التوتر سائداً بينها وبين شقيقتها الكبرى قشتالة . وكانت ناڤارا وهى رابعة هذه الممالك كعهدها دائماً ، مملكة صغيرة الرقعة ، ولكن قوية الشكيمة ، ممتنعة وراء جبالها الوعرة ، وحرصها المأثور على استقلالها .

وكان على عرش أراجون فى الوقت نفسه ملك فتى آخر ، هو رامون برنجير الذى سمى ألفونسو الثانى ، وقد تولى العرش عقب وفاة أبيه رامون برنجير الربع فى سنة ١١٦٢ م ، ولقب كأبيه بملك أراجون وقطلونية ، وكانت علائق أراجون وقشتالة ، منذ أواخر عهد القيصر ألفونسو ريمونديس ، على أتم صفاء ووفاق ، وذلك لما كان يربط القيصر بعاهل أراجون رامون برنجير الرابع ، من وشائج المصاهرة ، بزواجه ، من ابنته الملكة برنجيلا . وكان أول عمل قام به ألفونسو الثامن ، أن اجتمع فى ساهاجون بزميله الفتى ملك أراجون ألفونسو الثانى ، وذلك فى سنة ١١٧٠ م ، وقد شهد هذا الاجتماع أكابر الأحبار ، والأشراف من المملكتين ، واتفق الملكان على تسوية سائر الشئون والخلافات القائمة بين المملكتين ، وعقدا معا حلفا ضد باقى الملوك والأمراء ، ماعدا ملك انجلترا هنرى الثانى ، وذلك لأن ألفونسو الثامن كان قد عقد خطبته على ابنته الأميرة إلينور ، ثم سار الملكان إلى سرقسطة عاصمة أراجوان ، وقضى ألفونسو الثامن فى سرقسطة زهاء شهرين فى انتظار مقدم عروسه الأميرة الإنجليزية ، وكانت قادمة من انجلترا فى حاشية فخمة من الأحبار والفرسان الإنجليز والنورمان والغسقونيين ، وكانت قد سارت بعثة ملكية قشتالية ، على رأسها أسقف طليطلة حتى ثغر بوردو ، وعادت بالأميرة الإنجليزية إلى اسبانيا . وسار الملكان إلى طرسونة حيث عقد زواج ألفونسو الثامن بالأميرة إلينور فى حفلات باذخة ، فى تلك المدينة الأرجونية المتواضعة .

وكانت أول حركة قام بها ألفونسو الثامن هو شهره الحرب على ناڤارا ،

وكان سانشو السادس ملك ناڤارا قد انتهز فرصة قصر ألفونسو ، وانتزع جزءاً كبيراً من أراضى قشتالة المجاورة ، فلما عقد التحالف بين أراجون وقشتالة ، زحف ألفونسو على ناڤارا فى جيش ضخم فى صيف سنة ١١٧٣ م ، واستولى على بريفسكا ولوجرينو ونابارِيّى ، وهزم ملك ناڤارا ، وطارده حتى أحواز بنبلونة . وبعد ذلك بعامين عاد ملك قشتالة وحليفه ملك أراجون، فشهرا الحرب ضد ناڤارا ، وأوقعا بها هزائم أخرى .

وكانت فكرة غزو الأراضى الإسلامية، هى الهدف الأول للسياسة القشتالية. ولم يشذ ألفونسو الثامن عن هذه القاعدة ، فى أواخر سنة ١١٧٦ م ، خرج ألفونسو ووصيه السابق الكونت نونيودى لارا ، واتجها صوب حدود شرقى الأندلس ، وكانت مدينة قونقة إحدى قواعد الحدود الإسلامية ، هدف هذه الغزوة ، خصوصاً وقد كان الموحدون ، يتخذونها قاعدة للإغارة على أراضى شرقى قشتالة ، واضطرت القوات القشتالية ، نظراً لمناعة المدينة ، أن تضرب حولها الحصار ، واستمرت قونقة ، صامدة نحو تسعة أشهر ، ولم تستطع الأمداد الموحدية أن تصل إليها، حيث اعترضتها قوات ملك أراجون حليف ملك قشتالة، وسقطت المدينة المسلمة فى النهاية ، فى أيدى القشتاليين ، فى سبتمبر سنة ١١٧٧م، وذلك كله حسبما سبق أن فصلناه فى موضعه[١] .

وجدد ملك قشتالة وملك أراجون تحالفهما ، بمناسبة ما أبداه ملك أراجون، من المعاونة فى فتح قونقة ، وأحلّ ملك قشتالة زميله الفتىّ ، من عهد الولاء الذى كانت ترتبط به أراجون نحو قشتالة ، منذ عهد رامون برنجير الرابع. وفى الوقت نفسه اتفق ملك قشتالة مع خصمه سانشو السادس ملك ناڤارا ، على تسوية ما بينهما من خلاف ، واتفقا على أن يخضعا فى ذلك لتحكيم هنرى الثانى ملك انجلترا ، وبعث كل من الملكين سفراء إلى لندن ، ليعرضا ما بينهما من أوجه الخلاف . وبعد أن درس هنرى الثانى ، وجوه النظر المختلفة ، وأخذ رأى البرلمان فى ذلك ، أصدر قراره بأن يرد كل من الملكين إلى الآخر بعض القواعد والأراضى ، التى كان يدعى كل ملكيتها ، وأن يرد ملك قشتالة بالأخص إلى ناڤارا ، لوجرينو وأوسيخو ونابارِيّى ، وأن يدفع ملك قشتالة لملك ناڤارا مدى عشرة أعوام ثلاثة آلاف مراڤيدى كل عام ، فقبل الملكان هذا القرار ،

---

(١) تراجع قصة حصار قونقة وسقوطها فى ص ٩٦ ، ٩٧ من هذا الكتاب .

وعقد بينهما السلم لمدة عشرة أعوام .

وكانت فكرة التحالف بين قشتالة وأراجون ، وهما أقوى الممالك الإسبانية النصرانية ، تنطوى قبل كل شىء على التكتل ضد الجبهة الإسلامية فى شبه الجزيرة ، والتعاون فى دفع حركة الإسترداد النصرانية La Reconquista ضد الأندلس ، ومن ثم فقد كان لابد من تنظيم هذه الحركة ، وتحديد مناطقها بالنسبة لكل من المملكتين ، وقد عقد اتفاق جديد من هذا النوع بين الملكين فى بلدة كسولا Cazola حيث التقيا ، وذلك فى سنة ١١٧٩ م ، وفيه خصت مملكة أراجون بالفتوح فى منطقة بلنسية الإسلامية جنوبا حتى ثغر لقنت ، وخصت مملكة قشتالة بالفتوح فى سائر الأراضى الواقعة جنوب هذا الثغر ، وجاء هذا الاتفاق ، مؤيداً لأول اتفاق عقد بهذا الشأن ، بين القيصر ألفونسو ريموندیس ، والكونت رامون برنجير ، بمدينة كربون فى سنة ١١٥٠م ، حسبما سبق أن أشرنا إليه فى موضعه[١] .

وعقد ملكا قشتالة وأراجون أيضاً ، حلفا جديداً ضد ملك ناڤارا ، لأنه بدأ يعارض فى قرارات التحكيم التى أصدرها ملك انجلترا ، والتزم كل من الفريقين بتنفيذها ، واضطر ملك قشتالة من جراء ذلك أن يحتل لوجرنيو ونابارتى وبريفيسكا وغيرها ، وهى الأماكن التى تقرر ردها إلى ناڤارا ، لأن ملك ناڤارا أبى من جانبه أن يرد الأماكن التى تقرر ردها إلى ملك قشتالة . وقد اقترح ملك أراجون ، أن يعقد اجتماع جديد بين الملكين المتخاصمين ، وعقد هذا الاجتماع بالفعل فى جريدا ، فى سنة ١١٨٥م ، ولكنه لم يسفر عن نتائج حاسمة ، واستمر التوتر فى العلائق قائما بين ناڤارا وقشتالة .

وفى سنة ١١٨٨ م . توفى فرناندو الثانى ملك ليون وجليقية ، وهو كما نذكر عم ملك قشتالة ، وخلفه فى الحكم ولده ألفونسو التاسع ، ورأى ملك ليون الجديد ، أن يعدل سياسة الخصومة التى كان يتبعها أبوه نحو قشتالة ، وأن يعقد معها أواصر الود ، فقابل ألفونسو الثامن فى كريون ، وقدم إليه طاعته ، وأسبغ عليه ملك قشتالة ثوب الفروسية ، وهكذا ارتدت ليون إلى التفاهم مع قشتالة ، بعد أن لبثت حينا تناصبها العداء .

ولسنا فى حاجة لأن نكرر هنا ، الحديث عند الغزوات المتوالية ، التى قام

---

(١) راجع ص ٥٠٩ من القسم الأول من هذا الكتاب .

بها القشتاليون فى أراضى الأندلس ، منذ استيلائهم على حصن شنتفيلة فى سنة ١١٨٢ م ، حتى غزوة مطران طليطلة وفرسان قلعة رباح لأراضى جيان وقرطبة فى سنة ١١٩١ م ، وخروج ملك قشتالة فى قواته لاختراق جبال الشارات ، وغزو أراضى الأندلس مرة أخرى فى سنة ١١٩٤ م ، على أثر انتهاء أجل الهدنة التى سبق أن عقدها مع الخليفة يعقوب المنصور ، منتهزاً فرصة انشغال المنصور بحوادث إفريقية ، وماكان لهذا العدوان من أثر ، فى تحرك الخليفة الموحدى ، وعبوره إلى الأندلس فى جيوشه الزاخرة ، لقمح هذا العدوان ، وما تلا ذلك من نشوب موقعة الأرك العظيمة بين الموحدين وبين قوى قشتالة ، وذلك فى ١٨ يوليه سنة ١١٩٤م ( ٩ شعبان سنة٥٩١ هـ ) ، وهى معركة انتهت بنصر الموحدين الباهر ، وذلك كله حسبما فصلناه فيما تقدم من كتابنا .

وقد وضعت هزيمة الأرك ، حدا موقتا ، لتفوق قشتالة العسكرى فى شبه الجزيرة ، ولنشاطها المخرب فى أراضى الأندلس ، وكانت فرصة انتهزها سانشو ملك ناڤارا ، فأغار على أراضى قشتالة من ناحية سُرية وعاث فيها ، وهذا إلى ما قام به الموحدون من جانبهم ، من استردادهم لقلعة رباح ، ومن غزوات مخربة متوالية ، فى منطقة طلبيرة وطليطلة والقلعة ، ووادى الحجارة وغيرها ، وما قام به ألفونسو التاسع ملك ليون من غزو أراضى قشتالة بمعاونة الموحدين ، واجتياحها حتى مدينة كريون ، وهى غزوة تعاونت قوات قشتالة وأراجون فى دفعها[1] .

ولم يجد ملك قشتالة ، إزاء هذه الخطوب المتوالية ، ملاذا إلا فى محالفة أراجون . وكان ملكها ألفونسو الثانى قد توفى فى سنة ١١٩٦م ، وخلفه ولده الملك پيدور الثانى ، وتوثقت أواصر هذا الحلف مع أراجون ، وغدا ملكها الجديد ، أكبر عون لملك قشتالة . وبدت ثمار هذا الحلف فى معاونة ملك أراجون لقشتالة فى محاربة ناڤارا وليون وحلفائها الموحدين ، وشهر الملكان الحرب على ناڤارا ، ثم على ليون ، ونفذت الجيوش المتحدة إلى ليون وعاثت فيها . وترتب على هذه الحرب أن ألغى مشروع زواج ألفونسو التاسع ملك ليون ، من الأميرة برنجيلا إبنة ملك قشتالة ، وكان ألفونسو الثامن قد جعل مهرها رد الأراضى والحصون التى اقتطعها من ليون .

---

( ١ ) راجع ص ٢٣٣ من هذا الكتاب .

ولما شعر سانشو ملك ناڤارا ، بما يتهدده من جراء هذا الحلف القوى ، بين خصميه ملكى أراجون وقشتالة ، فكر فى الاستنصار بالموحدين على غرار ملك ليون ، وعبر البحر فى جماعة كبيرة من الفرسان إلى مراكش ، ملتجئاً إلى الخليفة المنصور ومستنجدا به ، ولكنه ماكاد يصل إلى العاصمة الموحدية حتى كان المنصور قد توفى ، وخلفه ولده محمد الناصر ( أواخر يناير سنة ١١٩٩ ) فاستقبل الناصر الملك النصرانى بمنتهى الحفاوة والتكريم ، وأمضى سانشو فى مراكش زهاء عامين ، وتوثقت علائقه بالخليفة الموحدى وبلاطه ، حتى كاد وفقاً لقول الرواية الإسلامية : أن يعتنق الإسلام[1] ، وفى الرواية النصرانية أن سانشو اشترك خلال إقامته بالمغرب ، فى حروب الناصر فى إفريقية وأبلى فيها[2] ، وهو ما لم نجد له أثراً فى الرواية العربية .

ويجب أن نذكر أن هذه الزيارة من جانب ملك ناڤارا لبلاط مراكش ، قد تلتها زيارته الأخرى للناصر ، عقب عبوره إلى الأندلس فى سنة ٦٠٧ هـ ( ١٢١٠ م ) ، وقد زاره ملك ناڤارا خلال إقامته باشبيلية ، وهى الزيارة التى تقدمها إلينا الرواية العربية فى عبارات غامضة رنانة فى نفس الوقت ، وقد سبق أن أشرنا إليها تفصيلا .

وفى خلال ذلك ، انتهز ملك قشتالة الفرصة ، وغزا أراضى ناڤارا ، وكانت ولاية جيبوسكوا ، بالرغم من كونها لبثت دهراً منضمة إلى قشتالة ، قد احتلها ملوك ناڤارا ، وضموها إلى مملكتهم ، فلما نفذ ألفونسو الثامن بقواته ، إلى أراضى ناڤارا ، وحاصر مدينة ڤتورية ، طلب إليه أهل جيبوسكوا ، أن تعود ولايتهم إلى أراضى قشتالة ، فترك حصار ڤتورية للدون دى هارو ، وسار إلى جيبوسكوا واتفق مع زعمائها على شروط وضعها تحت حماية قشتالة ، واحتلت قواته سان سبستيان ، وفوانتى رابيا ، وحصن بلاسكواجا ووادى اديارسون كما استولى على مقاطعة ألبة ( سنة ١٢٠٠ م ) ، وعلى أثر ذلك سلمت ڤتورية ، وذلك بموافقة سانشو نفسه ، وكان نتنبه أسقف بنبلونة قد عبر البحر إلى مراكش لينبئه بما حدث وعاد بموافقته ، وبذلك فقدت ناڤارا شطراً كبيراً من أراضيها[3] .

---

( ١ ) راجع ص ٢٩٠ من هذا الكتاب .

( ٢ ) La Fuente : Historia General de Espana, T. III. p. 346 .

( ٣ ) La Fuente : ibid ; T. III. p. 346

وحاول ملك أراجون فى نفس الوقت أن يحصل على نصيبه من أراضى ناڤارا ، فهاجمها بقواته ، ولكنه لم يستطع أن يفتتح منها ، إلا بضعة أماكن صغيرة . ودافعت بنبلونة، وغيرها من المدن الكبيرة ، عن نفسها أعنف دفاع ، واستطاعت أن ترد القوى المغيرة على أعقابها .

وقد أثار التجاء ملك ليون ألفونسو التاسع ، وملك ناڤارا سانشو القوى ، إلى الموحدين ، صدى سيئاً فى اسبانيا ، واهتمت البابوية ، بجنوح هذين الملكين النصرانيين إلى محالفة المسلمين أعداء الدين ، وبعث البابا سلستينو الثالث ، بسفير خاص من قبله ، ليسدى النصح إلى الملكين الخارجين ، وليهددهما بصدور القرار بنفيهما من الكنيسة ، إذا لم يعدلا عن مسلكهما ، فنزل سانشو مرغما على هذا الوعيد ، وعقد هدنة مع خصميه ، ملكى أراجون وقشتالة ، ولكنه نقضها قبل بعيد ، ثم توفى البابا سلستينو ، وخلفه البابا إنوصان الثالث ، فبعث إلى اسبانيا برسول جديد ، ليرى على من تقع تبعة هذه الحروب الأهلية المتوالية ، بين الملوك النصارى ، وليعمل فى نفس الوقت على إلغاء زواج ألفونسو التاسع من إبنة عمه الأميرة برنجيلا إبنه ألفونسو الثامن ، وكان الزواج قد تم قبل ذلك ببضعة أعوام ، واعتبرته البابوية باطلا لشدة القرابة بين الزوجين.

وقد أثارت مطالبة البابوية بإلغاء هذا الزواج ، مشكلة قومية فى ليون ، وخصوصاً بعد أن أصدر البابا إنوصان الثالث قراره بالحرمان الكنسى ، وانقسم الأحبار فى شأنه ، بين مؤيد له ، ومنكر لصحته . ومع ذلك فقد عاد البابا ، ووافق على تخفيف نصوص الحرمان ، وسمح بتنصير أول ولد جاء من هذا الزواج فى كنيسة ليون الكبرى . وقد كان هذا الإبن هو فرناندو الذى احتفل الكورتيس بتعيينه وليا للعهد (سنة ١٢٠٤م ) ، والذى غدا فيما بعد فرناندو الثالث ملك قشتالة الكبرى ، وفاتح قرطبة وإشبيلية . وبعد ذلك ارتضت الملكة برنجيلا الطلاق من زوجها ، وألغى البابا قرار الحرمان الكنسى ، وانتهت بذلك مشكلة كانت تهدد سلام ليون وسكينتها .

وكاد الخلاف ينشب من جديد بين قشتالة وليون ، بسبب طلاق الأميرة القشتالية ، ومطالبة أبيها برد ما استولت عليه ليون من الحصون والأراضى مهراً لها ، ولكن تغلب صوت العقل والسلم . وكان ألفونسو الثامن ، يشعر بأن مهمته الأساسية هى أن يتفرغ لمقارعة الموحدين ، وفتوح الإسترداد **La Recon uista**

وأن يبذل كل ما فى وسعه لجمع كلمة الملوك النصارى فى شبه الجزيرة ، للتعاون فى تحقيق هذه المهمة الكبرى ، وقد نجح ألفونسو فى سعيه . ونحن نعرف أنه كانت تربطه بملك أراجون پيدرو الثانى أواصر التحالف الوثيق ، ثم كان أن زاره سانشو السابع (القوى) ملك ناڤارا فى وادى الحجارة (سنة ١٢٠٧م) ، وتم التفاهم بين الخصمين القديمين ، وعقدت بينهما الهدنة والتحالف لمدة خمسة أعوام ، ووعد ملك قشتالة بتوسطه لدى پيدرو الثانى لكى يعقد مثل هذه الهدنة مع الملك سانشو[1] ، وفى نفس الوقت عقد السلم بين ملكى قشتالة وليون على نسق ما تم فى مؤتمر وادى الحجارة ، وأخيراً تم التفاهم بين ألفونسو الثامن ، وسانشو ملك البرتغال ، وتوثق التحالف بينهما بزواج الأميرة أوراكا القشتالية ، بألفونسو ولى عهد البرتغال .

وهكذا اجتمعت الممالك الإسبانية النصرانية كلها فى جبهة واحدة ، تحت رعاية ملك قشتالة وقيادته .

وكان اجتماع كلمة اسبانيا النصرانية على هذا النحو ، لايقصد به فقط تحقيق سلامها الداخلى ، بل كان ينطوى قبل كل شىء على المضى فى تحقيق الهدف الرئيسى الذى تدخر له اسبانيا النصرانية كل مواردها وقواها ، وهو محاربة اسبانيا المسلمة ، ودفع تيار فتوح «الاسترداد» بأقصى ما يستطاع . ولم تكن اسبانيا النصرانية تقف وحدها إزاء هذا الهدف ، بل كانت البابوية والنصرانية كلها ، تحبو تلك الغاية بعطفها ومؤازرتها الفعلية ، ولم تبخل البابوية بأن تسبغ الصفة الصليبية على أية طور من أطوار هذا الصراع ، وكان البابا إنوصان الثالث ، يشمل بنصحه ورعايته كل حركة تقارب واتحاد بين الملوك الإسبان ، وكان فوق ذلك يوعز إلى الأحبار فى جنوب فرنسا ، أن يبثوا كل دعاية ممكنة ، لحشد السادة والفرسان ، للتطوع إلى هذه الحرب المقدسة . وقد سبق أن أشرنا فى الفصل الذى خصصناه لموقعة العقاب إلى تلك الجهود فى حشد قوى النصرانية كلها ضد اسبانيا المسلمة . وكان عبور الخليفة محمد الناصر فى جيوشه الجرارة إلى الأندلس فى أواخر سنة ٦٠٧ هـ (١٢١١ م) عاملا جديداً فى إذكاء تلك الحركة الصليبية . ولم يلبث ملك قشتالة أن بدأ أهباته لشهر الحرب على الأندلس ، وبدأ القشتاليون غزواتهم المخربة للأندلس ، وذلك بالرغم من قيام الهدنة بينهم

(١) راجع ص ٢٨٨ من هذا الكتاب .

وبين الموحدين ، وكان عبور الناصر رداً على هذا التحدى السافر ، وبدأ الناصر بالعمل على وقف هذا العدوان ، فزحف أولا نحو منطقة جيان واستولى على قلعة شلبطرّة ، ثم عاد إلى إشبيلية وضاعف أهباته وحشوده ، وخرج للمرة الثانية ، من إشبيلية فى المحرم سنة ٦٠٩ ﻫ ( يونيه ١٢١٢ م ) . وكان ألفونسو الثامن ، وحلفاؤه الملوك الإسبان ، قد استكملوا أهباتهم عندئذ ، ووفد لمؤازرتهم سيل من الأحبار والفرسان ، والمتطوعة من وراء البرنيه ، واتخذت الحرب الصليبية شكلها الحقيقى ، والتقت الجيوش النصرانية المتحدة بالجيوش الموحدية فى هضبة العقاب أسفل جبال الشارات ( سيرّا مورينا ) ، وكانت الموقعة المشئومة التى هزمت فيها الجيوش الموحدية شر هزيمة ، ومزقت شر ممزق ، وذلك فى الخامس عشر من صفر سنة ٦٠٩ﻫ ( ١٦ يوليه ١٢١٢ م ) ، وذلك كله حسبما فصلناه فيما تقدم تفصيلا شافيا .

وكانت نكبة العقاب ، نذير انحلال الجبهة الدفاعية الموحدية للأندلس ، ونذير انهيار الأندلس ذاتها ، وقد عجل بهذا الانهيار ، ما اضطرمت به الأنداس على أثر ذلك من ثورات جديدة ، ومن تبدد قواها ومواردها الباقية ، فى حروب أهلية جديدة ، ومنافسات على الزعامة ، كان لها أسوأ الأثر فى تفكك وحدتها ، وفى تمهيد الطريق إلى سقوط قواعدها ، واقتطاع أراضيها .

ولم يفت اسبانيا النصرانية ، بعد أن خرجت من موقعة العقاب ، مكللة بغار الظفر الساحق ، أن تعمل لاجتناء الفرصة السانحة ، وخرج ألفونسو الثامن فى ربيع سنة ١٢١٣م ، لغزو أراضى الأندلس ، من ناحية قلعة رباح ، واستولى على بلدة الكرس ، وحول مسجدها إلى كنيسة .

وبالرغم مما حدث هذا العام فى قشتالة ، من تلف الزروع ونفق الماشية ، وانتشار القحط ، وموت الكثيرين من الجوع والمرض ، فإن ملك قشتالة لم يحجم عن استئناف الغزو ، وفى تلك المرة اخترق جبال الشارات ، وسار منحدراً نحو بيّاسة ، وضرب حولها الحصار ، ولكن المسلمين كانوا قد أحكموا تحصينها ، وطال الحصار ، والمدينة صامدة ، وحل القحط فى المعسكر النصرانى ، فاضطر ملك قشتالة إلى رفع الحصار ، وعاد فى قواته إلى طليطلة . ولم تمض بضعة أشهر حتى غادر العاصمة ، وسار غربا بقصد لقاء ملك البرتغال ومفاوضته ، ولكنه ما كاد يصل إلى بلدة جوتيرى مونيوس ، حتى مرض وتفاقم مرضه

بسرعة ، وتوفى فى اليوم السادس من أكتوبر سنة ١٢١٤ م .

ويوضع ألفونسو الثامن فى ثبت ملوك اسبانيا العظام ، وقد أسبغ عليه انتصاره فى موقعة العقاب هالة من المجد ، وفى ظله احتفظت قشتالة بتفوقها السياسى والعسكرى ، على باقى الممالك الإسبانية النصرانية ، على نحو ماكانت عليه أيام فرناندو الأول وألفونسو السابع (ألفونسو ريموندیس) . وكان هذا التفوق يتخذ أحيانا صفة السيادة على هذه الممالك ، وكان يثير لديها كثيراً من المرارة والاحتجاج ، ويحملها أحيانا على التحالف ضد قشتالة[1] .

وكان ألفونسو الثامن ، فضلا عما أحرزه من الظفر العسكرى الباهر ، ملكاً مصلحاً ، وكان من أثر عنايته بشئون الإصلاح ، توسعه فى إنشاء البلديات ، وتوسيع مهامها واختصاصاتها ، وإصداره القوانين الخاصة بذلك Fueros . وقد أنشأ ألفونسو أول جامعة إسبانية هى جامعة بالنسيا ، Palencia وذلك فى سنة ١٢٠٩ م ، وجلب إليها الأساتذة من فرنسا وإيطاليا . وكان حسبما تصفه الرواية الإسبانية ، يتسم بالتقى والورع ، وقد أنشأ عدداً من الأسقفيات الجديدة ، والأديار الفخمة ، وكان من بينها دير برغش الشهير المسمى بالدير الملكى (لاس هوياجاس) ، وأسبغ على الكنائس والأديار امتيازات جمة .

وخلف ألفونسو الثامن على عرش قشتالة ، ولده هنرى الأول (إنريكى) ولما يبلغ الحادية عشرة من عمره ، وتولت الوصاية عليه أمه الملكة إلينور ، ولكن لأجل قصير فقط ، إذ توفيت بعد ذلك بقليل ، وعندئذ تولت الوصاية عليه أخته الملكة برنجيلا ، مطلقة ألفونسو التاسع ملك ليون ، بيد أنها لم تستطع مقاومة أطماع آل لارا الأقوياء فى انتزاع الوصاية ، وهم الكونت ألبارو نونيز وإخوته ، فتنازلت إليهم عنها بشروط خاصة ، أقسموا بالعمل على تنفيذها ، وخلاصتها ألا يعلن الكونت دى لارا الحرب على أى ملك ، ولا أن يعطى أويتنازل عن الأراضى للاتباع ، أويفرض أية ضرائب دون موافقة الملكة برنجيلا ، ولكن الكونت دى لارا لم يحترم عهوده ، وكان مقصد آل لارا الأول أن يوطدوا نفوذهم على الملك الصبى ، فلما اطمأنوا إلى ذلك ، قرروا تزوجه من الأميرة ما فالدا إبنة سانشو الأول ملك البرتغال ؛ ولم يكن الملك الصبى قد جاوز

---

(1) R. Altamira : Historia de Espana y de la Civilización Espanola; T. I. p. 366

الثانية عشرة من عمره، وكانت الأميرة قد جاوزت العشرين، ومع ذلك فقد عقد هذا الزواج بالفعل (سنة ١٢١٥)، فى انتظار بلوغ الملك الصبى سن الرشد. ولكن الملكة برنجيلا وأكابر قشتالة، اعترضوا على هذا الزواج بشدة، ورفعوا أمره إلى البابا إنوصان الثالث، فأصدر البابا قرارا بالغائه بسبب القرابة بين الزوجين، وعادت الأميرة البرتغالية إلى وطنها، ودخلت أحد الأديار.

وكان الملك الصبى يتوق إلى التحرر من نير آل لارا والعودة إلى أخته برنجيلا. ولكن الكونت ألبارو نونيز حال دون ذلك. ثم سار فضرب الحصار حول قلعة أوتليو وبها برنجيلا وبعض أنصارها، فاستغاثت برنجيلا بزوجها السابق ألفونسو التاسع ملك ليون، فبعث لإنجادها ولدها وولده فرناندو فى بعض قواته، فرفع آل لارا الحصار عن الملكة، وساروا إلى بالنسيا، وكان الملك الصبى قد نزل فى قصر أسقف بالنسيا، وكان يلعب فى فنائه مع بعض صبية فى سنه، فرماه أحدهم بحجر أصابه فى رأسه بجرح بالغ، لم يلبث أن توفى منه، وذلك فى يوم ٦ يونيه سنة ١٢١٧ م.

فبادرت أخته دونيا برنجيلا باستدعاء ولدها فرناندو وصحبها المخلصين. وسارت إلى بلد الوليد، وهنالك أعلنت نفسها ملكة لقشتالة، ولكنها نزلت فى الحال عن العرش لولدها فرناندو، وكان يومئذ فتى فى الثامنة عشرة من عمره (أول يوليه ١٢١٧) وكان القدر يدخر لهذا الفتى الذى تولى الملك فى تلك الظروف المؤسية، مستقبلا باهراً، حيث غدا هو فرناندو الثالث، قاهر الأندلس، والمستولى على قواعدها الكبرى.

## ٢ — مملكة ليون

لما توفى القيصر ألفونسو ريموندیس فى سنة ١١٥٧ م، قسمت مملكته بين ولديه، فاختص ولده الأكبر سانشو بملك قشتالة، واختص ولده الأصغر فرناندو بملك ليون. وتوفى سانشو بعد عام واحد من حكمه فى سنة ١١٥٨، وخلفه على عرش قشتالة ولده ألفونسو الثامن الذى أتينا على سيرته فيما تقدم.

أما فرناندو الثانى فاستمر ملكاً على ليون حتى توفى فى سنة ١١٨٨م. وفرناندو الثانى هذا هو الذى تعرفه الرواية الإسلامية (بالببوج) وقد لبث خلال حكمه يتردد بين محالفة الموحدين وبين خصومهم، وكان له فى إنجاد الموحدين بطليوس، وفى التحول إلى خصومهم مواقف متناقضة، سبق أن أتينا عليها

فى مواضعها . وكان من أهم أعماله تصفية الخصومة بين ليون والبرتغال . وكان ألفونسو الثانى ملك البرتغال قد غزا جليقية ، واستولى على بعض مواضع فيها ، فسعى فرناندو الثانى إلى عقد الصلح ، واجتمع الملكان ، واتفقا على أن يتزوج فرناندو بالأميرة أوراكا إبنة ألفونسو الثانى ، وأن تكون المواضع التى استولى عليها البرتغاليون فى جليقية مهرا لها . وكذلك انتهى فرناندو بأن عقد الصلح مع ألفونسو الثامن ملك قشتالة ( سنة ١١٨٠ م ) بمقتضى معاهدة خططت فيها الحدود النهائية بين المملكتين ، ونظمت العلائق بينهما ، وعقدت محالفة للتعاون على تحقيق فتوح « الاسترداد » وتعهدت كل منهما ألا تعقد أى صلح أو هدنة مع المسلمين . وكان من أبرز أعمال فرناندو العسكرية حصاره لقاصرش ، ثم انسحابه عنها ليسير إلى نجدة البرتغاليين ، حينما كان الخليفة أبو يعقوب يوسف يحاصر شنترين . وكانت هذه الحركة ، وفقا لبعض الروايات ، هى السبب الرئيسى فى انسحاب الخليفة الموحدى ، وفيما تلا ذلك من نكبة الجيش الموحدى ( سنة ١١٨٤ م ) .

ولما توفى فرناندو الثانى فى سنة ١١٨٨م ، خلفه على العرش ولده ألفونسو التاسع . وفى بداية حكمه وقعت فى أنحاء ليون ، اضطرابات كان يحركها ويغذيها ملك قشتالة ، فدعا الملك لمعالجة الحالة إلى عقد مؤتمر بمدينة ليون ، مثل فيه الأحبار والأشراف ، ونواب المدن . ويعتبر المؤرخون الإسبان أن هذا المؤتمر كان أول « كورتيس » Cortes أو برلمان إسبانى حقيقى . وكان ألفونسو التاسع ، يواجه كأبيه ، مشكلة العلائق المتوترة مع جارتيه قشتالة والبرتغال . وكانت قشتالة فى الواقع تحتل معظم القواعد الأمامية التى تؤلف خط الدفاع عن ليون ، فسعى ألفونسو التاسع إلى الاجتماع مع ابن عمه ملك قشتالة ، فى كريون ، حسبما قدمنا ، وعقدت أواصر المودة والتفاهم بين الملكين . بيد أن ألفونسو التاسع لم يكن مخلصاً فى هذا الاتجاه الودى نحو قشتالة ، إذ كان يشعر دائماً أن قشتالة هى المتجنية على بلاده .

وأما فيما يتعلق بالبرتغال ، وتسوية مشكلة الحدود بينها وبين ليون ، فقد رأى ألفونسو التاسع أن يرتبط مع ملك البرتغال سانشو الأول ، برباط المصاهرة ، بعد أن كان قد قطع مثل هذا الوعد لملك قشتالة ، وعقد بالفعل زواج ألفونسو التاسع بالأميرة تريسا إبنة سانشو ( سنة ١١٩١م ) وذلك بالرغم من القرابة الوثيقة بين الزوجين ، إذ كانت أم ألفونسو دونيا أوراكا ، هى أخت سانشو . ومن ثم فإن البابوية لم توافق على هذا الزواج ، وأصدر البابا سلستينو قراره بإبطاله ، وبالتحريم ضد المملكتين ، واضطر

ألفونسو التاسع أخيراً ، بعد أن رزق من هذا الزواج ، بثلاثة أولاد ، أن ينزل عند إرادة البابوية ، وأن ينفصل بالطلاق عن زوجته ( ١١٩٤ م ) .

وعاد ألفونسو التاسع ، أسوة بما فعل أبوه إلى التحالف مع الموحدين . وكانت الممالك الإسبانية النصرانية الأخرى ، تشعر كلها فى الواقع بالنفور من قشتالة ، لما يدعيه ملكها من السيطرة الأدبية عليها ، وكان الموحدون فى تلك الآونة قد عبروا فى حشودهم الجرارة إلى اسبانيا بقيادة الخليفة المنصور ، ووقع اللقاء فى الأرك بين الجيوش القشتالية بقيادة ألفونسو الثامن وبين الموحدين ، وأسفر عن هزيمة القشتاليين وظفر الموحدين الساحق ( ١٩ يوليه سنة ١١٩٥م). وعلى أثر ذلك عقد التحالف بين ليون وناڤارا، وبين ليون والموحدين، وهوجمت قشتالة من الشرق والغرب ( ربيع سنة ١١٩٦م )، ولكن ألفونسو استطاع بمعاونة أراجون فى الشرق ، والبرتغال فى الغرب ، أن يصمد ضد هذا الهجوم .

وفى ربيع العام التالى ( ١١٩٧م ) قام الموحدون بغزو أراضى طلبيرة والقلعة ومدريد وقونقة ، وقام القشتاليون والبرتغاليون بغزو أراضى ليون وجليقية . ورأى ألفونسو التاسع عندئذ أن يعود إلى مسالمة قشتالة ، وأن يعقد معها أواصر المودة والتفاهم . وقد تحقق ذلك بزواجه من الأميرة برنجيلا ابنة ألفونسو الثامن ، ولكن البابوية عادت فاعترضت على هذا الزواج الثانى لملك ليون ، وطالبت بإلغائه بسبب القرابة ، وانتهى الأمر بإلغائه حسبما فصلنا ذلك من قبل .

ولبث ألفونسو التاسع يتردد حيناً بين خصومة قشتالة ومسالمتها ، وانتهى الأمر ، بعد أن بذلت البابوية مابذلت من ضغط ووعيد، ومن جهود متوالية فى التقريب بين الملوك النصارى ، إلى أن نجح ألفونسو الثامن ملك قشتالة فيما بذل من سعى لجمع كلمة الملوك النصارى فى شبه الجزيرة (سنة ١٢٠٧م ) ونزل ألفونسو التاسع عند هذا المسعى ، وتم التفاهم بينه وبين خصمه القديم ألفونسو الثامن ، وكان من أثر ذلك أن وقف إلى جانبه فى معركة العقاب ( سنة ١٢١٢م ) .

وكان ملك قشتالة ألفونسو الثامن ، قد خرج فى العام التالى لموقعة العقاب (١٢١٣م) لغزو أراضى الأندلس الوسطى ، وقام حيناً على حصار مدينة بياسة ، وكان قد اتفق مع زميله ملك ليون أن يقوم من جانبه بغزو قطاع إشبيلية ، وأمده فى ذلك بقوة من الفرسان القشتاليين . ولكن ألفونسو التاسع ، بعد أن سار فى قواته نحو قاصرش، وحاول الاستيلاء عليها عبثاً ، ومضى فى تقدمه نحو ماردة ، قرر أن يوقف الغزو

نظراً لاقتراب الشتاء، وأن يعود أدراجه. وسار حلفاؤه القشتاليون غاضبين ولحقوا بملكهم ، وهو على حصار أبدة ، ولكن المدينة المسلمة لبثت صامدة ، واضطر القشتاليون بدورهم إلى الانسحاب ، والعودة إلى بلادهم ( يناير سنة ١٢١٤م ) .

وفى هذا العام — سنة ١٢١٤م — توفى دون فرناندو ولد ألفونسو التاسع وولى عهده ، وهو فتى فى الثانية والعشرين من عمره . وكان لألفونسو ولدين آخرين من مطلقته الملكة برنجيلا ، هما فرناندو وألفونسو ، ولكنه لم يقرر بصفة حاسمة من يخلفه منهما على العرش . ولما توفى ملك قشتالة الصبى هنرى الأول فى يونيه سنة ١٢١٧ ، بادرت أخته الملكة برنجيلا باستدعاء ولدها فرناندو ، وأعلنت فى الحال نفسها ملكة لقشتالة ، ثم تنازلت على الأثر عن العرش لولدها فرناندو ، فأصبح هو ملكاً لقشتالة . وهنا ثارت أطماع ألفونسو التاسع ، ورأى وفقاً لنصح بطانته ، أن يعلن نفسه إمبراطوراً لقشتالة وليون ، وفى الحال دخل قشتالة بجيشه ، ولكنه ماكاد يقترب من بلد الوليد ، حتى علم بأن ولده فرنابدو قد أعلن ملكاً لقشتالة . وبعثت إليه الملكة برنجيلا بعض أكابر الأحبار يرجونه احترام الأمر الواقع ، والمحافظة على سلام المملكة ، ولكنه لم يصغ إليهم ومضى فى سيره نحو برغش . وهنا استعدت الملكة وولدها ، وأكابر فرسان قشتالة ، لرده ، فعندئذ ارتضى ألفونسو ، أن يعود أدراجه ، بعد أن عقد مع ابنه الهدنة لمدة عامين ( نوفمبر ١٢١٧ م ) وتلتها بعد ذلك معاهدة سلام دائم بين قشتالة وليون عقدت فى أغسطس سنة ١٢١٨م .

ولما استقر السلام على هذا النحو بين قشتالة وليون، اتجه ألفونسو التاسع إلى العناية بفتوح « الإسترداد » فى القطاع الذى خصص من أراضى الأندلس لغزوات ليون . وكانت حملات الغزو من أى الممالك الإسبانية ، تتخذ عندئذ صفة الحرب الصليبية ، ويشترك فيها بالأخص فرسان الجمعيات الدينية ، والمتطوعة الأجانب . فى أواخر سنة ١٢١٧م ، سار ألفونسو التاسع فى حملة مختلطة من قوات ليون وقشتالة ، وبعض فرسان الجماعات الدينية ، وضرب الحصار حول مدينة قاصرش، ولكنه لم يلبث أن رفع الحصار بعد أسابيع قلائل، وكرر ملك ليون وحلفاؤه بعد ذلك حملاتهم لافتتاح هذه القاعدة الإسلامية المنيعة، وانتهى الأمر بسقوطها فى أيديهم فى صيف سنة ١٢٢٧م .

وفى أواخر سنة ١٢٢٩م، قام ملك ليون بغزوة جديدة فى أراضى الأندلس، واستولى فى هذه المرة على حصن منتانجش على مقربة من ماردة ، ثم ضرب الحصار حول ماردة ، وفى خلال ذلك وصل المتوكل بن هود فى قواته لإنجاد

المدينة المحصورة ، واشتبك الفريقان فى معركة هزم فيها ابن هود وارتد فى قواته نحو الشرق ، وكان من أثر ذلك أن سقطت ماردة وبطليوس فى أيدى الليونيين ، وذلك فى صيف سنة ١٢٣٠ م ( أوسط ٦٢٧ هـ ) .

ولم تمض أسابيع قلائل على ذلك حتى توفى ألفونسو التاسع ملك ليون ، وذلك فى يوم ٢٤ سبتمبر سنة ١٢٣٠ م ، وكانت مسألة وراثة عرش ليون ، هى أهم المسائل المعلقة فى الأعوام الأخيرة من حكمه . ذلك أنه لم يرد أن يوصى بعرش ليون إلى ولده فرناندو الثالث ملك قشتالة ، ولكنه أوصى به إلى ابنتيه سانشا ودولثى . ولكن هاتين الأميرتين ما لبثتا أن تنازلتا عن العرش إلى أخيهما فرناندو ( أواخر سنة ١٢٣٠ ) ، وبذا وحدت مملكة قشتالة وليون مرة أخرى ، كما كانتا قبل وفاة القيصر ألفونسو ريمونديس فى سنة ١١٥٧ م ، وعادت قشتالة كما كانت ، أعظم ممالك اسبانيا النصرانية وأقواها .

### ٣ ــ قشتالة وعهد فرناندو الثالث

لما جلس فرناندو الثالث على عرش قشتالة فى يوليه سنة ١٢١٧ م ، ثم على عرش ليون ( ١٢٣٠ م ) وفقاً للظروف التى شرحناها ، وعادت قشتالة بذلك إلى حدودها ووحدتها القديمة ، كان القدر يدخر لهذا الملك الفتى ، عهدا حافلا بصنوف الفخار والظفر .

وكان من غرائب القدر ، أن يقوم على عرش أراجون فى نفس الوقت ملك فتىّ آخر ، يدخر له القدر مثل هذا المستقبل الحافل ، هو خايمى الأول ، وبينما كان فرناندو يحقق فتوحه العظيمة المتوالية فى أواسط الأندلس ، كان خايمى يحقق مثل هذه الفتوح فى شرقى الأندلس .

وكان أبرز ما فى حكم فرناندو الثالث ، هو غيرته فى متابعة فتوح الإسترداد La Reconquista فى أراضى الأندلس ، وتكريسه لها كل جهوده وموارده . وقد بدأ بها مبكراً ، وكانت أحوال الأندلس التى شرحناها ، من انهيار سلطان الموحدين بالأندلس ، عقب موقعة العقاب ، وما تلاها غير بعيد من اضطرام الحرب الأهلية بين بنى عبد المؤمن حول الخلافة الموحدية ، وما كان من ثورة البياسى وانضوائه تحت لواء ملك قشتالة ، وما أقدم عليه الخليفة المأمون من الاستنصار بملك قشتالة ، واستعانته على أمره بالجند النصارى ، ثم ما كان بعد ذلك من قيام ابن هود فى شرقى الأندلس ، وابن الأحمر فى الأندلس الوسطى ،

وتنافس هذين الزعيمين ، كل فى بسط سلطانه ، وفى مصانعة ملك قشتالة وغلبة التفكك والفوضى على شئون الأندلس : كانت هذه الظروف كلها تفسح مجالا طيباً لنشاط فرناندو ومحاولاته العدوانية ضد الأندلس . فنى سنة ١٢٣٠ م ، غزا فرناندو منطقة أندوجر وجيان ، وتوغل فى جنوب الأندلس . وفى سنة ١٢٣٣ ، غزا أحواز قرطبة وإشبيلية وعاث فيها . وفى نفس هذا العام حاصر مدينة أبدة واستولى عليها . وكان من الواضح أن تضعضع قوى الأندلس ، وما يمزقها من المعارك الأهلية ، يفسح لأطماع فرناندو أعظم مجال . ومن ثم فإنا نراه ، بعد ذلك بعامين يستولى على قرطبة عاصمة الخلافة القديمة ، وذلك فى شوال سنة ٦٣٣ ﻫ ( يونيه ١٢٣٦ م ) ثم يستولى على سائر المدن والحصون القريبة منها ، مثل إستجة والمدور وإشتبة وغيرها . ثم نرى ابن هود ، وابن الأحمر كل يسعى إلى مصانعته والانضواء تحت لوائه . ولما توفى ابن هود فى سنة ٦٣٥ﻫ ( ١٢٣٧ م ) وخلصت القواعد الجنوبية ، غرناطة ومالقة وألمرية لابن الأحمر ، كان فرناندو الثالث يلقى بكل ثقله ضد هذا الزعيم الأندلسى ، خشية أن تلتف حوله كل القوى الباقية فى الأندلس ، فيغدو حجر عثرة ضد مشاريعه ، ومن ثم نراه يكرر غزواته للأندلس الوسطى التى نشأ فيها ابن الأحمر ، وبها موطنه ومثوى أسرته ، أرجونة ، ونراه يدفع غزواته جنوبا حتى غرناطة ذاتها ، ونرى ابن الأحمر نزولا على هذا الضغط الخطير ، يضطر إلى عقد الصلح مع ملك قشتالة ، وإلى الاعتراف بطاعته ، وإلى أن يسلمه مدينة جيان ، وعدة كبيرة أخرى من القواعد والحصون ( ٦٤٣ﻫ — ١٢٤٦م ) ، وذلك كله حسبما فصلناه فى مواضعه ولا حاجة بنا إلى تكراره .

على أن أعظم أعمال فرناندو الثالث ، هو افتتاحه لمدينة إشبيلية أعظم حواضر الأندلس ، وذلك فى سنة ١٢٤٨ م ( ٦٤٧ ﻫ ) ، ولم يكن فتح إشبيلية أمراً هينا كفتح قرطبة ، ولكنه كان محاولة عسكرية وبحرية ضخمة ، قاومتها الحاضرة الإسلامية العظيمة ، بمنتهى البسالة ، وصمدت للحصار المرهق خمسة عشر شهراً ، قبل أن تستسلم إلى قدرها المحتوم . وقد فصلنا أطوار هذه المأساة كلها فى الفصل الذى خصصناه لذلك[1] . وفتح إشبيلية هو الذى أسبغ على فرناندو الثالث أروع آيات مجده ، الذى تطنب الروايات القشتالية فى الإشادة به .

وقد سقطت على أثر افتتاح إشبيلية ، فى أيدى القشتاليين ، سائر القواعد الواقعة فى

( ١ ) وهو الفصل الرابع من الكتاب التاسع ص ٤٦٥ .

جنوبى الوادى الكبير ، مثل أركش وشذونة وشلوقة (سان لوكار) وقادس وغيرها .

وبالرغم من أن فرناندو الثالث ، أنفق شطراً كبيراً من حكمه ، فى فتوح القواعد والأراضى الأندلسية ، فإنه عنى فى نفس الوقت بتنظيم الشئون الداخلية، فأصلح نظم الحكم والإدارة ، وأصدر طائفة من القوانين البلدية لعديد من المدن ، وعنى بتدعيم الجامعات وتقدمها، وأنشأ جامعة شلمنقة التى لبثت عصورا أعظم الجامعات الإسبانية ، والتى ما زالت حتى يومنا تتمتع بكثير من سمعتها العلمية القديمة . ولما افتتح إشبيلية جعل منها عاصمة قشتالة ، وأنشأ بها دار صناعة بحرية عظيمة لإنشاء السفن والقطائع الحربية ، وفرناندو هو أول من عنى بإنشاء قوة قشتالة البحرية ، وقد غدا الأسطول القشتالى منذ أيام ولده ألفونسو العاشر خطراً جديداً ، يهدد شواطىء المغرب الشمالية والغربية . بيد أن أهم ما قام به فرناندو فى مجال الإصلاح الداخلى ، هو تنظيم القوانين وتوحيدها ، وقد أنشأ لذلك مجلساً تشريعياً خاصا من اثنى عشر مشرعا من أعظم فقهاء الدولة سمى « مجلس قشتالة الملكى » وعهد إليه بأن يضع مجموعة موحدة من القوانين للمملكة كلها ، وقطع هذا المجلس فى تحقيق المشروع خطوات كبيرة ، ولكن فرناندو توفى قبل إتمامه ، فقام على إتمامه ولده ألفونسو العاشر ، وسميت هذه المجموعة التشريعية « بالبنود السبعة » Siete Partidas وغدت وحدها مرجع التشريع فى قشتالة(١).

وتوفى فرناندو الثالث فى اليوم الثلاثين من مايو سنة ١٢٥٤ م ، فى الرابعة والخمسين من عمره ، بعد حكم دام ستة وثلاثين عاما . ويعتبر فرناندو الثالث بما قام به من فتوح واسعة فى أراضى الأندلس ، وبما استولى عليه من قواعدها العظيمة ، ولاسيما قرطبة وإشبيلية ، قاهر الأندلس الحقيقى ، وتعتبره الرواية القشتالية أعظم ملوك قشتالة ، وتشيد بخلاله أعظم إشادة ، وقد لبثت سيرته مدى عصور نموذجا للبطولة النصرانية ، حتى أن البابوية أسبغت عليه صفة القداسة ، وتوج قديساً فى سنة ١٦٧١م ، على يد البابا كليمنضوس العاشر ، وسمى من ذلك التاريخ بالقديس فرناندو ( سان فرناندو ) .

وخلف فرناندو الثالث على عرش قشتالة وليون ، ولده ألفونسو العاشر ، وهو الملقب بالعالم أو الحكيم El Sabio ؛ وقد تحدثنا عن هذا الملك وعصره وعلائقه مع مملكة غرناطة وبنى مرين ، فى كتابنا « نهاية الأندلس » فلا حاجة بنا إلى تناوله هنا .

---

(١) M. Lafuente : ibid; T. IV. p.96

# الفصل الثاني

## أراجـــون وناڤارا والبرتغال

### منذ أواخر القرن الحادى عشر إلى أواخر القرن الثانى عشر

قيام مملكة أراجون الكبرى . ألفونسو الثانى ملك أراجون . سياسة قشتالة وأراجون الموحدة نحو فتوح الإسترداد . غزوة ألفونسو لأراضى بلنسية . شنتمرية الشرق تحول دون تقدمه . خروجه للغزو ثانية وإنشاؤه لقلعة طرويل . غزوته لأحواز بلنسية ورده . اتفاقه مع ملك قشتالة بشأن شنتمرية الشرق . اتفاق الملكين بشأن مناطق الفتح فى شرق الأندلس . تحالفهما ضد ناڤارا . فشل أراجون فى غزو ناڤارا وتحالفها مع ليون والبرتغال . وفاة ألفونسو الثانى وجلوس ولده بيدرو مكانه . عقده لمجلس الكورتيس . اتفاقه مع ألفونسو الثامن على مسائل الحدود . تحالفهما فى موقعة العقاب . مشروعه فى زيارة رومة والتماسه لحماية البابا . البابا يقوم بتتويجه فى رومة . اعترافه بطاعة أراجون للكرسى الرسولى . غضب الشعب الأرجونى لمسلكه . إتحاد الشعب والأشراف ضده . سحبه للاعتراف بالطاعة . سيطرة الأشراف الإقطاعيين على المملكة . سعى بيدرو فى تخفيف هذا النظام . التنظيم القضائى . غزو بيدرو لأراضى بلنسية . تدخله فى الحرب القائمة ضد الألبيين ومصرعه . ولده الطفل خايمى يخلفه . اجتماع الكورتيس واختياره للوصى . ثورة عميه ضده . الحرب بين الفريقين . انتصار خايمى على منافسيه . عقد السلم بين الخصوم . عناية خايمى بأمر الفتح . افتتاحه للجزائر الشرقية . غزواته لأراضى بلنسية . استيلاؤه على بلنسية وقواعد الشرق . تدخله فى حوادث مرسية . افتتاحه إياها بالاتفاق مع صهره ألفونسو العاشر . مشروعه فى إعداد حملة صليبية إلى المشرق . فشل هذا المشروع . صراع خايمى مع النبلاء . وفاته وخلاله . مصير مملكة ناڤارا . تربص جارتيها أراجون وقشتالة بها . سانشو السادس وإصلاحاته . ولده شانشو السابع الملقب بالقوى . خوضه لنفس المعارك القديمة ضد قشتالة وأراجون . التهادن والسلم بين الملوك النصارى . سانشو ووراثة العرش . اتفاقه مع خايمى ملك أراجون على أن يكون وارثه . تنحى خايمى وقيام الكونت تيوبالدو ابن أخت سانشو فى العرش . تطور مصاير ناڤارا . عهد كونتات شمبانا . تيوبالدو الثانى وأمه الملكة مرجريتا . التجاؤها إلى حماية خايمى الثانى . مهاجمة قشتالة لناڤارا ثم عقد الصلح بين الفريقين . تزوج تيوبالدو من ابنة لويس التاسع . مسيره معه إلى الحرب الصليبية فى الشرق . وفاته وقيام أخيه إنريكى مكانه . وقوع ناڤارا تحت حماية فرنسا . مملكة البرتغال . ألفونسو هنريكيز وإصلاحاته . غزواته للأراضى الإسلامية . وفاته وقيام ولده سانشو الأول مكانه . غزوات سانشو للأراضى الإسلامية . استيلاؤه على شلب واستعادة المنصور إياها . الخلاف بينه وبين البابوية ورجال الدين . وفاته وجلوس ولده ألفونسو الثانى مكانه . الخلاف بينه وبين إخواته الأميرات . استيلاؤه على حصن القصر . النزاع بينه وبين البابوية . وفاته وقيام ولده سانشو الثانى مكانه . عقده الصلح مع رجال الدين ومع الأميرات . غزوه للأراضى الإسلامية . إستيلاؤه على إلفاس وشربه وجلمانية .

استيلاؤه على شلب وطبيرة . عود النزاع بينه وبين رجال الدين والأشراف . بواعث هذا النزاع . أخواه ألفونسو فرناندو وعمه بيدرو يؤيدون الثورة ضده . إصدار البابوية قراراً بعزله وتنصيب أخيه ألفونسو مكانه . فراره والتجاؤه إلى ملك قشتالة فرناندو الثالث . محاولة فرناندو معاونته وفشل هذه المحاولة . استيلاء ألفونسو على شنتمرية الغرب وقضاؤه على سلطان المسلمين فى أراضى البرتغال .

## ١ — مملكة أراجون

قامت مملكة أراجون الكبرى باتحاد أراجون وقطلونية فى سنة ١١٣٧م ، على يد الكونت رامون برنجير الرابع أمير برشلونة ، ولما توفى هذا الأمير فى سنة ١١٦٢ م ، خلفه على العرش ولده ألفونسو الثانى . وبقيام هذا الأمير على رياسة أراجون ، يعود إليها ثبت الملوك الأقوياء الذى انقطع بوفاة ألفونسو المحارب فى سنة ١١٣٤ م . وكانت علائق قشتالة وأراجون على أتم وفاق وصفاء منذ عهد القيصر ألفونسو ريمونديس ، وهكذا استمرت العلائق بينهما فى عهد ألفونسو الثانى ، وزميله الفتى ألفونسو الثامن ملك قشتالة . وكانت تجمع بينهما بالأخص سياسة موحدة نحو فتوح الإسترداد La Reconquista فى أراضى الأندلس ، وذلك وفق برنامج مشترك تحددت معالمه فيما بعد بين الملكين بمعاهدة كاسولا ( سنة ١١٧٩ م ) التى سبقت الإشارة إليها .

وبدأ ألفونسو الثانى غزواته فى الأراضى الإسلامية مبكراً ، فنى سنة ١١٧٠م سار جنوبا نحو بداية الوادى الأبيض Guadalaviar ، قاصداً أن يخترق مملكة بلنسية ، ولكن حال دون تقدمه من تلك الناحية ، أن شنتمرية الشرق[1] ، وما حولها من المواقع والحصون كانت يومئذ تحت حكم الفارس بيدرو دى أساجرا ، وهو من أشراف نبرّة ، وكان الأمير محمد بن سعد بن مردنيش قد أقطعة هذه المدينة المسلمة وحصونها ، لمعاونات قدمها إليه ، ولم يعترف هذا الفارس بطاعة أراجون ولاقشتالة ، ولكنه أعلن نفسه حاكماً مستقلا باسم « صاحب شنتمرية الشرق » ، واستطاع أن يحصل على موافقة مطران طليطلة ، على أن ينشئ بها أسقفية خاصة .

وفى العام التالى ( ١١٧١ م ) خرج ألفونسو الثانى فى قواته إلى الوادى الأبيض

( ١ ) وتسمى بالإسبانية Albaracin نسبة إلى بنى رزين ، الذين حكموها أيام الطوائف ، ومن ثم فإنها تسمى كذلك شنتمرية ابن رزين .

مرة أخرى ، وأنشأ فى تلك المرة عند منابع هذا النهر ، قلعة سميت « طرويل » ومنح من يومها هى وأرضها من السكان النصارى ، بعض المزايا المغرية ،وتقوم اليوم مكانها مدينة طرويل الحديثة .

وفى سنة ١١٧٢ م ، خرج ألفونسو الثانى فى غزوة إلى أراضى بلنسية ، منتهزاً فرصة ضغط الموحدين على ابن مردنيش أمير مملكة الشرق أو الملك لوبى كما تسميه الرواية الإسبانية . وفى بعض الروايات النصرانية أن ملك أراجون وصل فى زحفه حتى شاطبة وحاصرها ، وأن أمير بلنسية عرض أن يدفع إليه الجزية ، وأن يساعده فى فتح مملكة بلنسية . والحقيقة أن القوات الأندلسية استطاعت أن ترد القوات الغازية سواء فى البر أو البحر ، ولم تنل القوات الأرجونية من أراضى بلنسية مأربا(١) .

وعقد ألفونسو الثانى مع زميله ملك قشتالة اتفاقا بشأن مقاطعة شنتمرية الشرق ، نص فيه على أن تغدو مدينة شنتمرية الشرق ذاتها ( البراثين ) ملكاً لأراجون ، وأن تكون حصونها ملكاً لقشتالة . وفى رواية أخرى أن الفارس بيدرو دى أساجرا صاحب شنتمرية الشرق ، اعترف بطاعة ألفونسو الثامن .

وفى سنة ١١٧٩ م ، غزا ألفونسو أراضى بلنسية بجيش ضخم ، وحاصر ثغر مربيطر . وكانت هذه الغزوات الأرجونية المتكررة لأراضى شرقى الأندلس مثار التوجس والقلق لدى قشتالة ، ومن ثم فقد استدعى ألفونسو الثامن زميله ملك أراجون إلى بلدة كسولا ، وعقد الملكان اتفاقهما الذى سبقت الإشارة إليه ، بتقسيم مناطق الفتح فى شرقى الأندلس ، كما عقدا معاحلفاً لمتابعة الحرب ضد ناڤارا . ولكن الأمور ما لبثت أن تطورت ، وبينما نجح القشتاليون فى غزو ناڤارا من ناحية الغرب ، إذ فشل الأرجونون وردوا إلى أراضيهم بخسارة . وقد أحدث ذلك صدى سيئاً فى نفس ألفونسو الثانى ، وحقد على زميله الظافر ألفونسو الثامن . ثم ذهب إلى أبعد من ذلك فعقد حلفا مع سانشو ملك ناڤارا لمحاربة قشتالة (١١٩٠م) وقد انضم إلى هذا التحالف ملكا ليون والبرتغال (١١٩١م) ، ورأى ملك قشتالة فى ذلك نذيراً خطراً ، إذ كانت الأنباء تترامى إليه فى تلك الآونة بالذات بما يقوم به الموحدون من استعدادات عظيمة للعبور إلى شبه الجزيرة ، وقد رأينا ما انتهى إليه ألفونسو الثامن من اضطراره إلى لقاء الجيوش الموحدية فى الأرك فى القوات

---

(١) راجع ص ٥٢ من هذا الكتاب ، وكذلك : A.P. Ibars : Valencia Arabe, p. 532

القشتالية وحدها ، وما أصيبت به يومئذ من هزيمة فادحة (١٨ يوليه ١١٩٥م) .

وتوفى ألفونسو الثانى فى ٢٥ أبريل سنة ١١٩٦ م ، فخلفه فى مملكة أراجون وإمارة قطلونية ، ولده الصبى بيدرو ، وخلفه فى باقى الإمارات الفرنجية، وهى روسيون وبليارش ومونبلييه وغيرها ولده ألفونسو .

وبدأ الملك پيدرو حكمه تحت وصاية أمه دونيا سانشا . وكان أول ماعمله أن دعا إلى اجتماع ممثلى الأحبار والأشراف والفرسان وممثلى الولايات والمدن ، بمدينة دروقة فى هيئة «كورتيس» . وفى هذا الاجتماع وافق الملك على سائر الحقوق والامتيازات ، التى منحها أسلافه لمختلف الهيئات والطبقات . بيد أنه سرعان مادب الخلاف بين الملك وأمه ، ثم سوى بينهما على أن تحتفظ الملكة بملكية البلاد والحصون الواقعة فى قطلونية، والتى أوصى زوجها بتركها لها .

وكان ثمة بين أراجون وقشتالة خلاف على بعض مواقع الحدود ، فاجتمع پيدرو الثانى وألفونسو الثامن ملك قشتالة على مقربة من طرسونة (١٢٠٤ م) واتفقا على التحكيم فى مسائل الحدود ، وقام المحكمون بالمهمة ، وسوى الخلاف بين المملكتين .

وقد رأينا فيما تقدم ، أن الوئام كان سائداً بين أراجون وقشتالة ، منذ عهد القيصر ألفونسو ريمونديس ، وأن أواصر هذا الوئام قد توثقت بنوع خاص فى عهد الملك پيدرو الثانى ، وظهر ذلك فى تحالف المملكتين على محاربة ناڤارا وليون، ثم ظهر فى تحالفهما الوثيق ضد الموحدين فى معركة العقاب (١٢١٢ م) . وقد سبق أن أشرنا إلى الدور الذى اضطلع به الملك پيدرو فى تلك الموقعة .

وشغل پيدرو الثانى وقتا بشئون أملاكه فيما وراء البرنيه، وهى ولاية بروڤانص وبعض الإمارات الفرنجية الأخرى . ولكنه ماكاد يفرغ من هذه الشئون حتى اعتزم أن يزور رومة ، وكانت له فى مصانعة البابوية والانضواء تحت لوائها ، فكرة لم ترق لشعبه . وذلك أنه سار إلى رومة ، فى عدة من السفن وعرج فى طريقه على چنوة وبيزة ، ويقال إنه كان يرمى إلى التفاهم مع هاتين الجمهوريتين البحريتين القويتين، على الاتفاق والتحالف على غزو الجزائر الشرقية ، وانتزاعها من المسلمين . أما فى رومة فقد كانت له أمنية أخطر وأبعد أثراً ، وذلك أنه التمس إلى البابا إنوصان الثالث أن يقوم بتتويجه ، وقد استجاب البابا لرغبته ومنحه الشارات الملكية ، وأسبغ عليه درع الفروسية ، وقام بتتويجه فى كنيسة

القديس بطرس (سنة ١٢٠٤م) ، ومنحه هو وأعقابه من ملوك أراجون حق التتويج فى سرقسطة عاصمة المملكة ، وتعهد پيدرو نظير ذلك بأن يحمى الدين الكاثوليكى ، وأن يحترم حريات الكنائس وامتيازاتها ، وأن يطارد الكفرة ، وأن يقيم العدل فى سائر بلاده ، واعترف ملك أراجون فوق ذلك بأنه تابع للبابا ، وأنه يحكم أراجون وقطلونية بمثابة إقطاع من البابوية ، وتعهد بأداء الجزية السنوية . وتعهد الكرسى الرسولى من جانبه بأن يدافع البابوات عن أراجون عن طريق سلطانهم الرسولى . وقد كان لذلك أسوأ وقع بين الأرجونيين والقطلان ، وأنكروا على الملك أن يقوم بمثل هذا العمل دون موافقتهم ، واتحد الأشراف والشعب ضد الملك ، وأرغموه على أن يسحب اعترافه بالتبعية للبابوية ، ومع ذلك فإن أراجون اضطرت أن تدفع إلى البابوية الجزية التى تعهدت بها . ومن جهة أخرى فقد بدأت معارضة السادةوالفرسان فيما بعد لكثير منالتشريعات التى حاول پيدرو سنها فى شئون الضرائب وغيرها[1] .

وكان السادة والنبلاء فى أراجون يبسطون سيادتهم على سائر المدن والبلاد الهامة ، ويستولون على دخولها ، لكى ينفقوا منها على الفرسان التابعين لهم ، والذين يقودونهم فى الحرب ، فكان الأشراف بذلك يسيطرون على قوى المملكة العسكرية ، ولايستطيع الملك أن يفعل بذلك شيئاً لافى السلم ولا فى الحرب دون مشاورتهم وموافقتهم ، وكانت هذه السيادة الإقطاعية تؤول إلى عقب أصحابها . وقد بذل پيدرو جهوداً شاقة فى العمل على تخفيف أوضاع هذا النظام المرهق ، ونجح فى أن يعدل توزيع هذه السلطات بين الأشراف بصورة أقرب إلى العدالة مع السماح لهم بتوريثها لأعقابهم ، ولكنه احتفظ للعرش بالسلطات القضائية ، وكان الاختصاص القضائى يمنح للأشراف والفرسان ، ولايسترد منهم إلا لسبب جوهرى ، ويُزاول القضاء بالنيابة عن الملك على يد الأساقفة والأشراف . وللمحكوم عليه حتى الاستئناف إلى العرش . وكان الحق الوحيد الذى يحتفظ به الأشراف لمارسة القضاء هوأن يكونوا أعضاء فى مجلس الملك ، أويعينهم الملك قضاة فى المدن والبلاد التى تخضع لسيادتهم .

ولم يغفل پيدرو الثانى العناية بغزو الأراضى الإسلامية ، وهى مهمة من مهام السياسة الأرجونية الأساسية ، فخرج فى حشوده سنة ١٢١٠م ، وسار جنوبا

---

(١) R. Altamira : Historia de Espana, T. I. p. 345&346

صوب أراضى بلنسية ، واستولى بمساعدة فرسان الداوية على حصن الديموس، وعدة حصون أخرى من حصون منطقة شنتمرية الشرق .

واضطر بيدرو أن يتدخل فى الحرب الصليبية التى شهرها سيمون دى مونفور وزملاؤه السادة الفرنسيون على الملاحدة الألبيين[1]، وذلك لحماية أملاكه فيما وراء البرنية، وقد كانت مسرحا لهذه الحرب وخربت فيها عدة مدن . وكان من سوء حظه أن سقط فى إحدى المواقع التى خاضها ضد سيمون دى مونفور ، وذلك فى ١٣ سبتمبر سنة ١٢١٣ م .

وترك پيدرو الثانى ولداً وحيداً هو دون خايمى ، وكان عند وفاته طفلا حدثاً ، وكان محجوزاً لدى سيمون دى مونفور ، إذ كان ثمة قبل اضطرام الخصومة بين الفريقين ، مشروع لتزويج خايمى بإبنة لسيمون ، ولم يفرج سيمون عن خايمى ألا بتدخل شديد من البابوية ، فأفرج عنه فى العام التالى ( ١٢١٤م ) ، واستقبل الأرجونيون والقطلان ملكهم الطفل بابتهاج وحماسة . واجتمع نواب المملكة فى(الكورتيس) فى لاردة ، واختاروا للوصاية على خايمى أستاذ فرسان الداوية جليم دى مونرادو . ولكن الأمور ما لبثت أن تعقدت إذ ثار عماه دون فرناندو ودون سانشو فى محاولة لانتزاع العرش منه ، ومن جهة أخرى فقد أعلن كثير من الأشراف استقلالهم ، وأخذوا يحاربون بعضهم بعضاً ، وعمت الفوضى فى المملكة . واستطاع أنصار الملك خايمى أن ينتزعوه من وصيه أستاذ الداوية ، وكان يعتقله بقلعة مونتشون ، وكان قد بلغ التاسعة من عمره . واضطرم الصراع عندئذ بين حزب خايمى وبين خصومه ، وكان يؤازره بالأخص الأشراف القطلان ، ونواب الكورتيس ، واستطاع خايمى أن يتغلب على منافسيه فى العرش ، بيد أنه استمر أعواما أخرى يكافح ضد الأشراف الخوارج، وانتهى الأمر بأن عقد بينهما سلم عام ، وذلك فى شهر مارس سنة ١٢٢٧ م[2] .

وكان الملك خايمى قد بلغ عندئذ نحو العشرين من عمره . وكان يشعر عندئذ أنه بعد أن فرغ من المشاغل الداخلية ، يستطيع أن يوجه عنايته إلى تحقيق أطماع الفتح ، واقتطاع ما يمكن اقتطاعه من الأراضى الإسلامية فى قطاع بلنسية . بيد أنه كان يتوق إلى أن يحقق قبل ذلك أمنيته فى افتتاح الجزائر الشرقية . ولقد

---

( ١ ) راجع الهامش فى ص ٢٨٩ من هذا الكتاب .

( ٢ ) A. Altamira : ibid; T. I. p 377 & 378

تحدثنا فيما تقدم تفصيلا عما قام به خايمى من الاستعداد لافتتاح الجزائر، وما وفق إليه من افتتاحها بين سنتى ١٢٢٩ و ١٢٣٢ م . أما عن قطاع بلنسية فلم يكن يخاف على خايمى ، ما تجوزه بلنسية ، وسائر ثغور هذه المنطقة وقواعدها ، من الضعف والفوضى ، وافتراق الكلمة ، وتوالى المعارك الأهلية الانتحارية . ولقد تحدثنا فيما تقدم كذلك تفصيلا عن حملات خايمى المتوالية على أراضى بلنسية ، وافتتاحه تباعا لثغور الشرق وقواعده ، وفوزه أخيراً بالاستيلاء على ثغر بلنسية العظيم وذلك فى صفر سنة ٦٣٦هـ ( أكتوبر سنة ١٢٣٨ م ) ، ثم استيلائه بعد ذلك على دانية ، ثم شاطبة ، وجزيرة شقر ، وغيرها من قواعد هذه المنطقة ، مما كان يدخل فى نطاق الفتوحات الأرجونية ، وفقاً للاتفاقات التى عقدت لتقسيم مناطق الفتح ، فى شرق الأندلس ، بين أراجون وقشتالة ، وهو ما سبقت الإشارة إليه فى موضعه .

وأما مرسية وأحوازها ، فقد كان من المتفق عليه أن تكون ضمن حظيرة الفتوح القشتالية . وقد أعلنت مرسية خضوعها بالفعل لملك قشتالة فرناندو الثالث منذ سنة ١٢٤١م، واستقرت فيها حامية قشتالية صغيرة، ولكنها لبثت حينا تستقل بشئونها الداخلية ، ويحكمها أعقاب بنى هود وغيرهم من الزعماء المسلمين ، حسبما سبق أن فصلناه . ولكن تطور الحوادث فى مملكة بلنسية واضطراب الأحوال فيها ، وثورة المدجَّنين بها ، حملت ملك أراجون دون خايمى إلى أن يسعى إلى افتتاح مرسية ، وذلك بالاتفاق مع صهره ، زوج ابنته ألفونسو العاشر ملك قشتالة ، وكانت ظروفه غير مسعفة له على القيام بهذا الفتح ، وكان الملك خايمى يخشى من أن مرسية إن بقيت تحت حكم زعمائها المسلمين ، تغدو مصدر خطر على سلامة بلنسية ، ومن ثم فقد زحف خايمى فى قواته على أراضى مرسية واحتل لقنت وألش وغيرهما من قواعدها الأمامية ، ثم استولى على مرسية ذاتها، وذلك فى سنة ١٢٦٦م ( ٦٦٥هـ ) وانتهى بذلك حكم المسلمين فى شرق الأندلس .

وحاول خايمى بعد ذلك أن يسير إلى المشرق فى حملة صليبية ، وجهز بالفعل جيشاً وأسطولا لتلك الغاية ، وخرج فى قواته البرية والبحرية متجهاً إلى الشرق فى سنة ١٢٦٩ م ، ولكن العواصف الجامحة حطمت معظم السفن الأرجونية ، ودفعت بباقيها إلى الشاطىء الفرنسى ، فعدل الملك خايمى عن مشروعه وسارت بضع سفن فقط ، بها قوة صغيرة من القطلان والأرجونيين وفرسان شنت ياقب ،

ووصلت إلى ثغر حيفا بالشام ، وانضمت إلى من كان هناك من القوات الصليبية فى محاربة المسلمين .

وكان الملك خايمى ، طوال حكمه ، يعانى من عنت النبلاء ، ومعارضتهم لكثير من تصرفاته ومشاريعه ، وقد لبث معهم فى صراع مستمر ، لكى يتغلب على عنتهم ، ويحطم سلطانهم الإقطاعى القوى ، ولكنهم قاوموه ، ووقعت الحرب الأهلية بين الفريقين ، ولم يهدأ ذلك الصراع إلا حينما تفاقمت الأحوال فى مملكة بلنسية ، واشتدت بها ثورات المدجنين ، وخشى أن يؤدى ذلك إلى ضياع الفتوحات الأرجونية .

وتوفى الملك خايمى فى ٢٧ يوليه سنة ١٢٧٦ م ، بعد حكم طويل استطاع فيه أن يضاعف رقعة مملكته أراجون ، وأن يقضى على دولة الإسلام فى الجزائر وشرقى الأندلس، وهو مالقب من أجله « بالفاتح ». ويعتبر خايمى الأول مؤسس مملكة أراجون الحقيقى ، وموطد استقلالها ، وقد قاوم فى هذا السبيل مطامع البابوية، ورفض أن يعترف لها بأى نوع من التبعية كما فعل أبوه . وقد عمل كثيراً لإصلاح القوانين ، وتنظيم الإدارة والشئون المالية بالمملكة ، بيد أنه يوصف بالقسوة وغلبة الشهوات عليه ، ومما يؤثر عنه أن كتب تاريخا لحكمه(١) .

ولما توفى خايمى قسمت مملكته بين ولديه ، فتولى حكم أراجون وقطلونية وبلنسية ولده الأكبر پيدرو ، وتولى حكم الجزائر والإمارات الفرنجية فيما وراء البرنية ، ولده الأصغر خايمى ، على أن هذا التقسيم لم يدم طويلا .

## ٢ — مملكة ناڤارا ( نبرّة )

لبث الصراع قائماً دون انقطاع بين ناڤارا وبين جارتيها من الجانبين ، أراجون وقشتالة . وقد تتبعنا فيما تقدم مصاير ناڤارا ، منذ اتحادها مع أراجون تحت حكم ألفونسو المحارب ، ثم انفصالها بعد ذلك عند وفاته فى سنة ١١٣٤ م واستئنافها لحياتها المستقلة ، تحت حكم ملكها غرسية رامريس حفيد سانشو الكبير . ولما توفى غرسية فى سنة ١١٥٠ م ، خلفه ولده سانشو السادس الملقب بالعالم . وقد خاض سانشو ضد قشتالة وأراجون بعض الأحداث المماثلة ، إذ كان التربص بناڤارا سياسة مرسومة تنفذ بالاعتداء عليها كلما سنحت الفرص . وعقد السلم حيناً بين قشتالة وناڤارا ، نتيجة لتدخل هنرى الثانى ملك انجلترا ، وتسوية

(١) ويسمى تاريخ الملك خايمى **Historia del Rey don Jaime**

المشاكل الإقليمية بينهما بصورة ارتضاها كل من البلدين[1]. واستطاع سانشو بعد ذلك أن يتفرغ حينا لمعالجة الشئون الداخلية لمملكته ، فأصدر لمختلف المدن طائفة من القوانين البلدية ، وعنى بتنظيم التجارة وتوطيد الرخاء والأمن . ولما توفى سانشو السادس خلفه على العرش ولده سانشو السابع الملقب بالقوى El Fuerte . وقد خاض سانشو السابع نفس المعارك القديمة ضد أراجون وقشتالة وذلك حسبما فصلنا فيما تقدم . وقد أشرنا كذلك إلى ما سعى إليه سانشو من محالفة الموحدين والاستنصار بهم ضد ملكى قشتالة وأراجون ، بعد أن تكرر ائتمارهما بنافارا واعتداءاتهم عليها ، واقتطاع أراضيها من الجانبين ، وإلى ما حدث بعد ذلك من تقارب بين ملوك اسبانيا النصرانية ، ومن عقد الوئام والتحالف بين ملك قشتالة ألفونسو الثامن ، وسانشو السابع وذلك فى اجتماع وادى الحجارة فى سنة ١٢٠٧م ، ثم عقد السلم والتحالف كذلك بين ملكى نافارا وأراجون ، وما كان لذلك من أثر فى اجتماع كلمة الملوك النصارى ، على لقاء الموحدين فى جبهة موحدة فى معركة العقاب (١٢١٢م) ، وهى التى خرجت منها الجبهة النصرانية مكللة بغار الظفر الباهر .

وقد شاء القدر أن تتطور مصاير نافارا على يد سانشو السابع . ذلك أنه لبث قائماً على عرشها بعد موقعة العقاب زهاء عشرين عاما أخرى . وكانت تزعجه مسألة وراثة العرش ، لأنه لم يعقب بالرغم من زواجه . وكان يبغض مرشح العرش الوحيد وهو تيوبالدو ابن أخته الأميرة بلانكا وتيوبالدو الرابع كونت شامبانيا . وفى أواخر أيامه ارتد مريضاً إلى تطيلة ، وبعث إلى ملك أراجون خايمى الأول يعرب له عن رغبته فى تبنيه ، وترشيحه لخلافته على العرش ، فوافاه ملك أراجون ، وعقدت بينهما فى تطيلة معاهدة لتحقيق هذا الغرض (فبراير ١٢٣١) . ثم توفى سانشو بعد ذلك بثلاثة أعوام (١٢٣٤م). على أن خايمى لم يحاول أن ينفذ معاهدة تطيلة ، ولا أن يسعى للجلوس على عرش نافارا . ذلك أنه كان مشغولا بافتتاح مملكة بلنسية ، وبمسائل داخلية كثيرة أخرى ، وكان يخشى أن يعرضه الطموح إلى عرش نافارا لمشاكل كثيرة لاقبل له بها ، ومن ثم فقد آل عرش نافارا إلى الكونت تيوبالدو دى شمبانيا ، ابن أخت سانشو ، وكان هذا التحول أول خطوة فى انسلاخ نافارا عن حظيرة الممالك الإسبانية النصرانية ، ووقوعها تحت نفوذ فرنسا ، وابتعادها عن الاندماج فى مشاكل شبه الجزيرة الإسبانية . واستمر

---

(١) راجع ص ٥٨٥ و ٥٨٦ من هذا الكتاب .

حكم تيوبالدو حتى وفاته فى سنة ١٢٥٣ م . وكانت وفاته بالمشرق فى الحرب الصليبية السادسة . وكانت أيام حكمه مليئة بالاضطرابات ، والخلاف مع شعبه ، لأنه لم يتبع فى الحكم قواعده المأثورة ، ولم يفهم روح الشعب النافارى . وترك تيوبالدو ، ولده تيوبالدو وارث العرش طفلا فى الخامسة من عمره تحت وصاية أمه الملكة مرجريتا : وعندئذ رأت مرجريتا ، اتقاءا لمطامع قشتالة القديمة ، أن تضع المملكة تحت حماية خايمى الثانى ملك أراجون ، وقطع خايمى على نفسه العهد بحماية نافارا من كل أعدائها ، وأن يزوج ابنته كونستنزا لتيوبالدو ، فإذا توفى ، تزوجت من أخيه الأصغر إنريكى . وتعهدت الملكة مرجريتا من جانبها أن تقف نافارا إلى جانب أراجون ضد سائر أعدائها خلا ملك فرنسا وامبراطور ألمانيا . ووقع ما توقعته الملكة مرجريتا ، وقام ملك قشتالة بمهاجمة نافارا ، وهرع خايمى فى قواته لحمايتها وفقاً لعهوده ، وكادت الحرب تنشب بين الملكين بالرغم مما كان يربطهما من رباط المصاهرة الوثيق ، ولكن تدخل الأحبار ، وعقدت الهدنة بين الفريقين ، وهكذا استطاع الملك تيوبالدو الثانى أن يحكم مملكته فى سلام(١). ولم يتزوج تيوبالدو إبنة الملك خايمى ، ولكنه تزوج إبنة لويس التاسع ملك فرنسا ( القديس لويس ) ، وصحبه إلى المشرق ، وخاض معه الحرب الصليبية السابعة ، ثم صحبه إلى تونس وتوفى هنالك سنة (١٢٧٠م ) . وحل محله فى الحكم أخوه إنريكى الأول خلال غيابه ، فلما توفى أعلن ملكاً لنافارا ، واستمر فى الحكم أربعة أعوام أخرى ثم توفى سنة ١٢٧٤م . واستمرت نافارا بعد ذلك عصراً تحت حماية فرنسا .

### ٣ — مملكة البرتغال

تحدثنا فيما تقدم من تاريخ الممالك النصرانية ، عن نشوء مملكة البرتغال ، ثم اشتداد ساعدها وتوطد أمرها ، فى ظل ملكها ألفونسو هنريكيز ، وكيف استطاع هذا الملك أن يوطد استقلال مملكته ، وان يحميه ضد دعاوى قيصر قشتالة فى السيادة. وقد كان للبابوية ، فضل معاونته على اتخاذ صفة الملك المستقل ، ومن ثم فقد كان للبابوية نفوذها على العرش البرتغالى . وقد أبدى ألفونسو هنريكيز فوق ذلك ، غيرة ملحوظة فى إنشاء جماعات الفرسان الدينية ، للاستعانة بها فى محاربة المسلمين وقام بتنظيم وراثة العرش ، ووضع القوانين المدنية والجنائية التى تكفل تحقيق العدل .

(١) M. Lafuente : ibid; T.IV. p. 120 & 121 — Altamira : ibid; T. I. p. 390 & 391

وكرس ألفونسو هنريكيز معظم نشاطه لغزو الأراضى الإسلامية ، وبدأ بمحاصرة أشبونة وافتتاحها ( ١١٤٧ م ) ، ثم استولى فى نفس الوقت على مدينة شنترين حصنها الشمالى ، واستولى على ثغر قصر الفتح أو قصر أبى دانس فى سنة ١١٦٠ م ، ولبث فى أيدى البرتغاليين ، حتى قام الخليفة يعقوب المنصور باسترداده فى سنة ١١٩١ م ، ثم غزا بطليوس فى سنة ١١٦٩م ، واستولى عليها بالفعل ، ولكن الموحدين استردوها فى الحال بمعاونة حليفهم فرناندو الثانى ملك ليون ، واستولى أخيراً على مدينة باجة فى سنة ١١٧٧ م . وقد أتينا على تفاصيل هذه الغزوات كلها فى مواضعها من الكتاب.

ولما توفى ألفونسو هنريكيز فى شهر ديسمبر ١١٨٥م ، خلفه ولده سانشو الأول . وكان سانشو كأبيه يضطرم حماسة لغزو الأراضى الإسلامية ، والقضاء على بقايا الحكم الإسلامى فى البرتغال ، فقضى أعوام حكمه الأولى فى إصلاح البلاد والحصون التى خربتها الحرب ، ثم زحف نحو الجنوب ، وقام بمحاصرة مدينة شلب أهم القواعد الإسلامية الباقية وافتتاحها ، وذلك بمعاونة القوات الصليبية المسافرة إلى المشرق (سنة١١٨٩م) ولكنه لم يستطع الاحتفاظ بها أكثر من عامين ، إذ قام الخليفة المنصور باستردادها من أيدى البرتغاليين فى سنة١١٩١م ، وكان قد غزا أراضى البرتغال قبل ذلك ، وقام بزحفه المظفر نحو الشمال[1] .

ولم تقع خلال حكم سانشو حوادث خارجية ذات شأن ، وهدأ الصراع حيناً بين البرتغاليين والمسلمين . ولبث المسلمون عصراً آخر يحتلون الرقعة الجنوبية من البرتغال ، تتوسطها مدينة شلب ، والرقعة المتصلة بولاية الغرب ، وبها ميرتلة وعدة قواعد أخرى، وشغل سانشو معظم أعوام حكمه بما نشب بينه وبين البابوية من خلاف ، أولا بسبب رفضه لأداء الجزية ، التى تعهد والده ألفونسو هنريكيز بأدائها للكرسى الرسولى ، نظير حمايته ضد دعاوى قشتالة ، وثانيا بسبب النزاع المستمر بينه وبين الأحبار ، ولاسيما أسقف بورتو ، وأسقف قلمرية . وقد أصدر الأساقفة ضده أكثر من قرار بالحرمان الكنسى ، وتوفى فى مارس سنة ١٢١١ م ، ولم يرفع عنه قرار الحرمان إلا بعد موته . فخلفه ولده ألفونسو الثانى وهو الملقب بالبادن لبدانته المفرطة . وفى بداية حكمه نشب الخلاف بينه وبين إخواته . وكان والدهن قد أوصى لهن ببعض القلاع والأراضى ، وأبين

---

( ١ ) راجع ص ١٧٠ - ١٧٤ ، وص ١٨٧ و ١٨٨ من هذا الكتاب.

أن يعترفن بسيادة أخيهن عليها ، وقصدن إلى البابا لحمايتهن ، ثم نشبت الحرب بعد ذلك بين الملك والأميرات ، وتدخلت البابوية فى الأمر ، وأصدر مندوبو البابا قراراً بالحرمان ضد الملك ، وكاد النزاع يتفاقم . وأخيراً تدخل البابا ، وألغى قرار الحرمان ، وقضى بأن يُعهد بالأماكن المتنازع عليها إلى فرسان الداوية على أن تكون خاضعة لسيادة الملك ، وأن يعطى دخلها للأميرات ، فارتضى الطرفان هذا الحل وعاد السلام إلى المملكة .

وكان أهم حدث حربى وقع فى عصر ألفونسو الثانى ، هو استيلاؤه بمعاونة القوات الصليبية المتجهة إلى المشرق ، على ثغر قصر أبى دانس ، وذلك فى سنة ١٢١٧ م ( ٦١٤ هـ ) وذلك حسبما فصلناه فى موضعه .

وفى الأعوام الأخيرة من حكم ألفونسو ، عاد النزاع بينه وبين البابوية بسبب مطاردته لمطران براجا ، واعتدائه على امتيازات رجال الدين ، وتدخل البابا مرة أخرى وهدد الملك بالحرمان، ولكنه لم يذعن للوعيد ، وما لبث أن مرض وتوفى فى مارس سنة ١٢٢٣ م .

فخلفه ولده سانشو الثانى ، وبدأ حكمه بأن عقد مجلساً نيابياً فى قلمرية عنى بتسوية النزاع بين العرش ورجال الدين ، وكذلك عقد الصلح بين الملك وعماته الأميرات وقرر أن يمنحهن مخصصات مجزية ، على أن يعترفن بطاعته ، وأن تؤول الأراضى والحصون التى لهن بعد وفاتهن إلى العرش . ثم تأهب سانشو بعد ذلك لمنازلة المسلمين ، وانتزاع ما بقى بأيديهم من أراضى البرتغال . فاستولى على إلفاس ( ١٢٢٦م )، وافتتح حصنى شربة وجلمانية وغيرهما من حصون الحدود الواقعة على ضفة وادى يانه . ثم استولى على ميرتلة ، وسلمها لفرسان شنت ياقب ، واستولى على شلب ( ١٢٤٢م ) ثم استولى أخيراً على ثغر طبيرة ( ١٢٤٣ م ) فى الجنوب ، وكان سانشو يستعين فى معظم فتوحه بالصليبيين الوافدين ، وكانت البابوية ، تمده بعونها الأدبى ، وتسبغ الصفة الصليبية على حروبه ضد المسلمين.

على أن سانشو لم يوفق إلى تدعيم السلام فى مملكته . ذلك أن النزاع عاد يضطرم بينه وبين رجال الدين ، لأسباب عديدة تلخص فى محاولة العرش أن يحتفظ بسلطاته الدنيوية والقضائية ، ومحاولة رجال الدين أن يحافظوا على سلطاتهم وامتيازاتهم ، واختصاصاتهم القضائية . وكانت مبالغة الأحبار فى توسيع امتيازاتهم ، ينعكس أثرها على امتيازات الأشراف ، فيضطر العرش إلى إرهاقهم

بمطالبه المالية والعسكرية ، فكانت منهم كذلك طائفة كبيرة تنقم على العرش هذا الإرهاق ، وكان سانشو يشعر بقصوره عن إخماد هذه النزعات الثورية ضد العرش، خصوصاً وأن البابوية كانت دائماً تصغى إلى شكوى الأحبار وتحريضهم . ومن جهة أخرى فإن سانشو كان دون ولد ، وكان أخواه ألفونسو وفرناندو وعمه بيدرو ، جميعاً يمالئون الحركة الثورية ، سعياً إلى انتزاع العرش من سانشو، وكان أكثر هؤلاء حظاً من التأييد الإنفانت ألفونسو ، وكان قد تزوج من الأميرة ماتيلدة صاحبة بولونيا بإيطاليا، وغدا بزواجه أميراً لهذه الولاية، وكان الأحبار ، والأشراف الثوار يرون فيه أداة صالحة لتنفيذ خططهم ، خصوصاً وأنه كان يتمتع بعطف البابوية . وانتهى الأمر بأن نجح هؤلاء فى سعيهم لدى البابوية ، وأصدر البابا إنوصان الرابع فى يوليه سنة ١٢٤٥م ، قرارا بإقالة سانشو الثانى وتنصيب أخيه ألفونسو مكانه فى العرش . فقطع ألفونسو على نفسه عهداً باحترام امتيازات رجال الدين، وركب البحر مع طائفة من الأحبار والأشراف البرتغاليين إلى ثغر أشبونة ، وفى الحال أعلن ملكاً ، واضطر سانشو إلى الفرار ، والالتجاء إلى ملك قشتالة فرناندو الثالث ، فوعده بتأييده ، وبعث معه ولده ألفونسو فى جيش جهزه لمقارعة خصومه ، ولكن هذه المحاولة انتهت بالفشل ، حيث استطاع ألفونسو ملك البرتغال الجديد ، أن يقنع الأمير القشتالى ، بأنه ارتقى العرش بأمر الكرسى الرسولى ، وأن معظم الأحبار والأشراف والشعب إلى جانبه ، فارتد القشتاليون أدراجهم دون قتال ، وارتد سانشو معهم ليقضى أعوامه الأخيرة ، فى طليطلة ، وهناك توفى فى يناير سنة ١٢٤٨ م .

وتأهب ألفونسو الثالث ، بعد أن اطمأن إلى توطيد عرشه ، إلى اتمام فتوح ما تبقى بأيدى المسلمين من أراضى البرتغال ، وبدأ بحصار قلعة فارو أوشنتمرية الغرب ، واستولى عليها فى سنة ١٢٤٩ م ، ولم يكن بهذه القواعد الإسلامية الأخيرة سوى حاميات ضئيلة من الموحدين وغيرهم ، ثم استولى ألفونسو تباعا على سائر ما كان باقيا بأيدى المسلمين من القواعد ، والحصون بهذه المنطقة وبذلك تم القضاء على سلطان المسلمين نهائيا من الأراضى البرتغالية ، ولم يكتف ألفونسو الثالث بذلك بل عبر فى قواته نهر وادى يانه ، ومضى فى فتوحه فى أراضى ولاية الغرب الأندلسية ، ولكنه اضطر فيما بعد أن ينزل عما فتحه من الأماكن فى تلك المنطقة لملك قشتالة ، إذكانت داخلة فى نطاق الفتوح القشتالية .

## الكتاب الثاني عشر

# نظم الدولة الموحدية

# وخواص العصر الموحدى

# الفصل الأول

## الحكومة الموحدية بالمغرب والأندلس

### وأوضاعها السياسية والعسكرية والإدارية

الدولة الموحدية وقيامها على أسس دينية . الفرق بينها وبين الدولتين المرابطية والفاطمية . الحكومة الإمامية فى عهد المهدى . تحول الإمامة الموحدية إلى خلافة دنيوية . صفة الإمامة الشكلية . الأساس القبلى لهيكل الدولة الموحدية . قبائل المصامدة وغيرهم . غلبة نفوذ المصامدة فى تسيير الدولة . تصنيف عبد المؤمن لطوائف الموحدين . وضع أسس الحكم الدنيوى الجديد . تخليده فى بنى عبد المؤمن . اختيار عبد المؤمن لولى عهده . زعمه بأنه يحقق بذلك رغبة القبائل البربرية والعربية . تعيينه أولاده لحكم الولايات . اختصاصهم وأعقابهم بلقب السادة . إيثار القرابة والأصهار بمناصب الحكم والوزارة. ولايات المغرب والأندلس فى ظل الدولة الموحدية . إشبيلية قاعدة الحكم الموحدى بالأندلس . بواعث هذا الاختيار . الأسس الأولى للحكم الموحدى حسبما وردت فى رسالة عبد المؤمن . ظهور الخلافة الموحدية بحرصها على توطيد العدل . الوزارة الموحدية . نظامها أيام المهدى. خطة الوزارة منذ عبدالمؤمن. الوزارة والكتابة . اضطلاع الأبناء والقرابة بالوزارة والحجابة . تعيين الوزراء العاديين . اختيارهم من خاصة القبائل الموحدية . الكتابة من أهم الخطط . اختيار أكابر الكتاب لهذه الخطة . معظمهم من أهل الأندلس . بعض الكتاب الأندلسيين والمغاربة . الخلفاء المتعاقبون وكتابهم . حرص الخلافة الموحدية على بلاغة الترسل . العلامة وديوان العسكر . منصب أشغال البرين وأهميته . وزراء الشئون المالية . ديوان الأعمال المخزنية واختصاصاته . متولى المجابى . متولى المستخلص . صاحب الشرطة . منصب مقدم إرسال ملوك الروم وإنزالهم والترجمة عنهم . سياسة الموحدين فى شئون الجباية . رسائل عبد المؤمن فى ذلك . تضخم الدولة وتطور سياسة الضرائب . تكسير عبدالمؤمن لأراضى الدولة . فرض الخراج وغيره من المكوس . مضاعفة وزن الدينار الموحدى . الأحوال الاقتصادية فى بداية الدولة . خراب إفريقية وأثره فى تحطيم رخاء المغرب . موقعة العقاب وآثارها الاقتصادية المدمرة . اضطراب شئون الخلافة وأثره . عيث العرب وقبائل البربر. القحط والغلاء . تردد صدى هذه المحن بالأندلس . الحروب الأهلية وغزوات النصارى وآثارها المدمرة . المناصب الدينية . القضاء والتعيين فى مناصبه . استئثار قضاة الأندلس بمناصبه فى بلادهم. توليهم أحيانا قضاء الجماعة بالمغرب. خطةالشورى. خطة الأحكام . خطة المواريث . حسبة السوق . منصب الخطابة . صاحب الصلاة . متولى شئون طلبة الحضر . تحول الخلافة إلى ملك دنيوى . الاحتفاظ برسوم المهدى . تطور الفكرة المذهبية فى عصر المنصور . مرسوم المأمون بازالة رسوم المهدى ومحو أسطورته . فتكه بالزعامة الموحدية . الرشيد وعوده إلى استرضاء الأشياخ . إعادته لرسوم المهدى . القوة العسكرية الموحدية . الحشود القبلية مصدرها الرئيسى . بداية حشدها أيام المهدى . علم المهدى الأبيض . تضخم الجيوش فى عهد عبدالمؤمن . تأليف عبدالمؤمن للحشود القبلية وتنسيقها . طريقة مسير الجيوش الموحدية . سلا ورباط الفتح مركز

لتجمع الجيوش الموحدية . مراكز التموين . طريق العبور إلى شبه الجزيرة . خطة المربع الموحدى ومنعتها . طوائف العرب بعد الحشود القبلية . عبد المؤمن يضع خطته لاستمالة العرب . مساعى ولده الخليفة أبى يعقوب فى ذلك . العرب يؤلفون جناحا خاصا فى الجيوش الموحدية . هدف السياسة الموحدية فى حشد العرب . تقلبهم وعدم ولائهم . دورهم فى الحرب الأهلية. القوات الأندلسية ودربتها وولاؤها. الخليفة قائد الجيش العام . المؤتمرات الحربية . ساقة الجيش وقبة الخليفة . الاستعانة بالمرتزقة النصارى. البنود والطبول . الإنعام والبركات . المطوعة ونظامهم . القوى البحرية . عناية الموحدين بإنشاء القطائع . أهمية الأسطول ودوره فى حماية الشواطئ . مراسى الأسطول . إدارة شئون الجيش . ديوان العسكر . ديوان التمييز . التمييز وتطور غايته . الحج إلى تينملل . الثغرات فى الجيش الموحدى. فوضى القيادة . اختلال التموين . تفوق الموحدين فى فنون الحصار والآلات المدمرة . المدافع البدائية . تفوقهم فى فن التحصينات . موقعة العقاب وانهيار الدفاع بالأندلس . انشغال الموحدين بالتنافس على الخلافة. توثب الممالك النصرانية . الحكومة الموحدية بالأندلس . ميلها إلى الطابع المدنى . أقسام الأندلس الإدارية. السادة والقرابة يتولون حكم الولايات . إشبيلية مركز الحكم الموحدى والحاكم العام . البلاط الموحدى بإشبيلية . حكومات الولايات المحلية . عناصر هذه الحكومات . استخدام السادة لكتاب الأندلس . إشبيلية مركز تجمع الجيوش الموحدية الغازية . القوات الأندلسية . قيادتها ودورها فى الدفاع والحراسة . مملكة الشرق . احتفاظها بالطابع الأندلسى . كونها أول مركز لقيام الحركات القومية . اللون الانتحارى لهذه الحركات . مصانعة زعمائها للنصارى واستمدادهم . حكومة إشبيلية بعد انهيار سلطان الموحدين . الاضطراب والفوضى فى الأندلس .

الآن وقد انتهينا من استعراض تاريخ الدولة الموحدية ، بالمغرب والأنداس ، منذ قيامها على يد إمامها المهدى ابن تومرت ، حتى انحلالها وسقوطها ، على يد آخر خلفائها ، أبى العلى إدريس الملقب بأبى دبوس ، فيما يملأ نحو قرن ونصف قرن ، نحاول فى هذا الفصل ، أن ندرس طبيعة النظم ، التى سارت عليها الدولة الموحدية ، فى حكم تلك الإمبراطورية العظيمة ، خلال هذا المدى الطويل من الزمان .

قامت الدولة الموحدية ، حسبما رأينا ، على أسس دينية محضة ، وهى فى ذلك قرينة الدولة المرابطية ، التى قامت كذلك على أسس دينية . ولكن شتان بين الحالتين . ذلك أن الأساس الدينى ، الذى قامت عليه الدولة المرابطية ، كان أساس العقيدة الدينية ، والجهاد فى سبيل نشرها . ولكن الدولة الموحدية ، تمتاز باستنادها إلى أسس الإمامة الدينية ، ونظرية المهدى المنتظر ، وهى فى ذلك تضارع الدولة العبيدية الفاطمية . بيد أنها بالرغم من اشتراكها مع الدولة الفاطمية فى وحدة المصدر ، وهو الدعوة الشيعية ، تمتاز باستقلالها عن الحركة الشيعية المشرقية ، وبصفتها المغربية المحلية .

وامتازت رياسة الدولة الموحدية ، فى البداية ، بإمامة منشئها المهدى

ابن تومرت ، ولم تتخذ فى حكمها مدى العشرة أعوام ، التى لبثها المهدى على رياستها أى طابع آخر ، وكانت هذه الإمامة مصدر السلطات الدينية والسياسية معاً . وكانت الحكومة الموحدية عندئذ ، عبارة عن ثيوقراطية ( حكومة دينية ) يعاون الإمام فيها ، صحبه العشرة الأوائل ، المسمون بالجماعة ، فيما يمكن أن نصفه بالوزارة ، وكان هؤلاء يضطلعون بمشورة الإمام فى جلائل الأمور ، بيد أنه كان يوجد إلى جانب هؤلاء ، أفراد آخرون من ذوى النفوذ ، كان الإمام يرجع إليهم فى تدبير الشئون ، وذلك حسبما يخبرنا ابن القطان[1] ، ثم كان هناك من صحب المهدى أهل خمسين ، وهؤلاء يشتركون فى بحث الشئون الأقل أهمية ، ثم أهل سبعين ، ويشتركون أيضاً فى بحث الشئون العادية .

فلما توفى المهدى ، فى رمضان سنة ٥٢٤ هـ ( أغسطس سنة ١١٣٠ م ) عقب هزيمة أنصاره الساحقة فى موقعة البحيرة ، بأشهر قلائل ، وخلفه فى رياسة الموحدين كبير صحبه وآثرهم لديه عبد المؤمن بن على ، وبزغ نجم الموحدين بعد ذلك على يد عبد المؤمن ، واستمروا فى صراعهم ضد المرابطين ، حتى انتهوا بسحق دولتهم ، وذلك بالاستيلاء على حضرة مراكش ، فى شوال سنة ٥٤١ هـ ( مارس ١١٤٧ م ) ، واستكملت الدولة الموحدية بذلك سيادتها ، على سائر أنحاء المغرب ، لم يكن ثمة بد ، من أن تتحول الإمامة الموحدية إلى خلافة دنيوية. وبالرغم من أن الإمامة الموحدية ، لم تفقد فى ظل هذا التحول صفتها الدينية ، ولا اعتبارها كشعار للدولة الموحدية ، فإنها لم تكن عندئذ سوى عنوان إسمى يتوج الخلافة الجديدة . والواقع أن الخليفة عبد المؤمن ، هو المنشىء الحقيقى للدولة الموحدية الكبرى ، وعلى يديه ، توطد سلطانها بالمغرب وإفريقية والأندلس ، وفى ظله تحولت الخلافة الموحدية شيئاً فشيئاً ، من إمامة دينية إلى ملك سياسى باذخ ، وذلك مع الاحتفاظ دائماً برسوم الإمامة المهدية ، وتعاليم المهدى الدينية ، والدعاء له فى الخطبة ، وفى المكاتبات الرسمية ، ووصفه دائما «بالإمام المعصوم ، المهدى المعلوم » .

ومن ذلك الحين ، نستطيع أن نتتبع ملامح النظم الموحدية ، وطبائع الحكم الموحدى ، بصورة واضحة . ويجب أن نذكر أولا ، أن هيكل الدولة الموحدية الأساسى ، كان يقوم منذ البداية ، على أسس قَبَلية ، وذلك سواء من الناحية المدنية أو العسكرية . وكانت القبائل ، التى يرتكز إليها هذا الهيكل ، ينتمى

---

(١) نظم الجمان ( المخطوط السالف ذكره ، لوحة ١٠ ب و ٣٣ ب ) وراجع ص ١٩٦ من هذا الكتاب .

معظمها إلى مصمودة ، ومنها القبائل السبع الأولى ، التى اتسمت بالصفة الموحدية ، وكانت أسبق القبائل إلى مبايعة المهدى ، وهى هرغة قبيلة الإمام المهدى ذاته ، وهنتاتة ، وأهل تينملل، وجنفيسة، وهزرجة ، وجدميوة ، ووريكة ، ويلحق بهذه القبائل التى اكتسبت قبل غيرها صفة التوحيد ، قبيلة كومية وهى قبيلة الخليفة عبد المؤمن ، وكذلك مجموعة أخرى من قبائل المصامدة القوية ، مثل هسكورة ، ودُكاله ، وهيلانة، وحاحة، وغيرها ، ومن غير المصامدة، زناتة تيفسرت وصنهاجة القبلية[1]. وقد انضم بعض هذه القبائل ، إلى العصبة الموحدية بطريق الفتح ، مثل هسكورة وحاحة . وكان سلطان الدولة الموحدية يقوم على تأييد هذه القبائل، وتستأثر القبائل الموحدية السبع فى الدولة ، بأكبر قسط من النفوذ ، وتحتل معظم المناصب الكبرى، من الوزارة والولاية والقيادة، وتغذى هذه المجموعة الكبيرة من القبائل الجيوش الموحدية الجرارة، بحشودها الزاخرة المدربة على القتال .

وقد وضع عبد المؤمن لتنظيم الموحدين ، نظاما جديداً غير الذى وضعه المهدى ابن تومرت من قبل ؛ وكان المهدى حسبما تقدم فى موضعه ، قد جعل من الجماعة أو الصحب العشرة ، رأس الطوائف الموحدية ، ومن بعدهم أهل خمسين ثم أهل سبعين ، فطلبة العلم ، فالحفاظ ، فأهل الدار . بيد أنه لما تعاقبت الحوادث ، وفُقد الكثير من أهل الجماعة ، وأشياخ الموحدين ، رأى عبد المؤمن أن يصنف الموحدين، إلى ثلاث طوائف : الأولى هى طائفة السابقين الأولين ، وهم الذين سبقوا إلى مبايعة الإمام المهدى ، وصحبوه أو غزوا معه ، أو صلّوا خلفه ، والذين اشتركوا فى موقعة البحيرة الفاصلة . والثانية هى طبقة الموحدين، ممن دخلوا فى زمرة الموحدين ، منذ موقعة البحيرة حتى فتح وهران . والثالثة هى طبقة الذين دخلوا فى التوحيد ، منذ فتح وهران إلى ما هلم جرا ، وهذا كله مع المحافظة على هيكل النظام القبلى الذى تقدم شرحه[2] .

ولما توطد سلطان الخليفة عبد المؤمن ، بما تم له من استكمال فتوح المغرب والأندلس ، وإخضاع سائر القبائل الخصيمة ، وغلب لون الخلافة الدنيوى، بتضخم صرحها السياسى ، وتحولت فى الواقع إلى ملك باذخ ، وضعت القواعد الأولى لتنظيم هذا الملك ، وتخليده فى بنى عبد المؤمن ، كما وضعت الأسس التى

---

(١) يقدم إلينا البيذق فى أخبار المهدى ابن تومرت تفصيلا شاملا لبطون هذه القبائل (٣٥-٤٣).

(٢) راجع الرسالة الثانية عشرة من رسائل موحدية ص ٥٣ و ٥٤ ، وراجع أيضاً ص ٣٩٨, ٣٩٩ من هذا الكتاب

تحكم بمقتضاها ، أقطار الدولة الموحدية وشعوبها . وبدأ عبد المؤمن فى ذلك ، باختيار أكبر أولاده أبى عبد الله محمد لولاية عهده ( سنة ٥٤٩ ﻫ ) ، وقد أوضحنا فيما تقدم كيف اختير عبد المؤمن للخلافة ، عقب وفاة المهدى ، وما أحاط بذلك الاختيار من ظروف خاصة . ولم يكن ثمة ما يؤذن عندئذ أو يسمح للخليفة ، بأن يجعل من الخلافة أمراً وراثياً فى عقبه ، ومن ثم فقد أبدى عبد المؤمن ، فى رسائله الرسمية عن ولاية العهد ، أنه لم يكن له فى ذلك رغبة خاصة ، وإنما حمل على تصرفه برغبة القبائل والعشائر البربرية والعربية المختلفة ، وهى التى دفعته ، إلى القيام باختيار ولده لولاية العهد . وقام عبد المؤمن فى نفس الوقت باتخاذ الخطوة الثانية ، لتنظيم الحكم ، وتوكيد سيادة بنى عبد المؤمن . فعين بقية أولاده ، لحكم ولايات المغرب والأندلس ، وذلك حسبما فصلنا فى موضعه . وكان أولاد الخليفة ينعتون هم وأعقابهم بالسادة ، وهو لقب اختصوا به طوال أيام دولتهم . وقد جرت الخلافة الموحدية ، على نسق الدولة المرابطية ، فى تعيين الأبناء والقرابة والأصهار ، لحكم الولايات والمدن ، وأحيانا للقيادة والوزارة ، هذا مع تعيين بعض الأشياخ والحفاظ المقربين أحيانا ، فى هذه المناصب الكبرى . وقد حرصت الخلافة الموحدية ، على هذه القاعدة ، حتى أواخر أيامها ، سواء فى المغرب أو الأندلس . وكانت ولايات المغرب أو عمالاته ، فى ظل الخلافة الموحدية ، تشمل بلاد السوس ، وسجلماسة ، ومراكش ، وفاس ، وتلمسان ، وبجاية ، وإفريقية ، ثم سلا فيما بعد ، وكانت سبتة ، أحيانا ولاية مستقلة ، وأحيانا تلحق بمالقة والجزيرة الخضراء . وأما ولايات الأندلس ، فكانت تشمل ولاية الغرب ( شلب وأحوازها ) ، وإشبيلية ، وقرطبة ، وجيان ، وغرناطة ، ومالقة ، ومرسية ، وبلنسية .

وكانت قاعدة الحكومة الموحدية بالأندلس أولا إشبيلية ، وذلك لأنها كانت أول قاعدة أندلسية كبرى ، نادت بطاعة الموحدين ، وبعثت بيعتها إلى عبد المؤمن على يد وفد من أعيانها ، وثانيا لأنها كانت أول قاعدة كبرى استولى الموحدون عليها ، ولكن عبد المؤمن ، قبيل وفاته بقليل ، أمر ولده السيد أبا يعقوب يوسف ، وكان عندئذ واليا لإشبيلية ، أن ينتقل منها إلى قرطبة ، وأن يجعل بها قاعدة الحكم الموحدى ، ومستقر الجيوش الموحدية ، لأنها « مُوَسَّطة الأندلس » . بيد أن هذا التغيير لم يطل أمده ، ولم يمض سوى وقت قصير ، حتى

أعيد مركز الحكم الموحدى إلى إشبيلية ، واستقر بها بعد ذلك ، طوال عهد الدولة الموحدية ، وذلك بالأخص لبعدها عن حدود قشتالة ، وعن خطر الغزو النصرانى ، ولأنها باتصالها بالبحر ، بواسطة مصب نهرها الوادى الكبير ، ووفرة مواردها الزاخرة من وادى الشّرف ، كانت تعتبر خير قاعدة ، لنزول الجيوش الموحدية ، القادمة من وراء البحر ، وغدت إشبيلية فى ظل الحكم الموحدى ، أعظم حواضر الأندلس ، وازدانت بكثير من الصروح ، والمنشآت العمرانية العظيمة ، التى أتينا على ذكرها فى موضعها .

## ١ — نظم الحكم الموحدى

وأما عن نظم الحكم الموحدى ، فقد كان الخليفة عبد المؤمن أيضاً ، هو أول من وضع أسسها الرئيسية ، وكان ذلك نتيجة طبيعية ، لتحول الخلافة الموحدية على يده ، إلى ملك دنيوى ، ووضعه لنظام ولاية العهد . ونجد هذه الأسس الأولى ، لنظام الحكم الموحدى ، مدونة فى الرسالة التى وجهها عبد المؤمن ، بتاريخ ربيع الأول سنة ٥٤٣ هـ ، إلى الطلبة والأعيان والمشيخة والكافة بالأندلس والتى أوردها لنا ابن القطان ، ولخصنا ما تضمنته فيما تقدم[١] . وتنحصر هذه الأسس فى خمس نقط هى : وجوب التزام الدقة فى تطبيق الأحكام الشرعية ، ووجوب الكف عن اقتضاء أية مغارم أومكوس ، لاتبيحها الشريعة ولاتتفق مع قواعد العدل ، وأنه لايجوز الحكم فى مواد الحدود بالإعدام ، أوتنفيده قبل الرجوع إلى الخليفة ، ليصدر هو قراره فى هذا الشأن ، وأنه يجب تحريم الخمر ، ومطاردتها فى سائر أنحاء الدولة ، وأنه يجب حماية أموال « المخزن » ( أموال الدولة ) ، وصونها وعدم التصرف فى شىء منها ، دون استئذان الخليفة . وقد حذا الخليفة يوسف بن عبد المؤمن ، حذو أبيه ، بتأكيد هذه الأسس الدستورية ، للحكم الموحدى ، وذلك فى رسالة شبيهة برسالة أبيه ، وجهها فى رمضان سنة ٥٦١هـ ، إلى أخيه السيد أبى سعيد والى قرطبة ، وأصحابه الطلبة ، وفيها يحث على وجوب تطبيق أحكام الشرع ، أوامرها ونواهيها بدقة ، واتباع الحق والعدل ، فى الفصل فى قضايا العباد ، وأنه فيما يتعلق بالدماء ، فإنه يحظر على سائر عمال الموحدين أن يحكموا فى الدماء من تلقاء أنفسهم ، وأنه لابد من أن ترفع قضايا القتل إلى الخليفة ، مشفوعة بتفاصيلها وأدلتها وشروحها ، ويسرى ذلك حتى على القضايا

---

(١) راجع ص ٤٠٠ و٤٠١ من القسم الأول من هذا الكتاب .

التى وقع فيها اعتراف بالقتل ، أودليل أوشهادة مقبولة ، أوغير ذلك ، فإنه يجب فى سائر الأحوال ، أن يرفع الأمر إلى الخليفة ، وأن ما ورد فى كتاب الله من الحظر المؤكد والوعيد الشديد ، نحو إراقة الدماء ، واستباحة الأموال ، واستحلال الحرمات إلا بوجه صحيح ، يوجب عليهم اتباع ما رسم ، ووجوب التوقيف والبيان والتعريف ، هذا مع وجوب تقوى الله ، وطاعة أوامره ، والجرى على سننه . وتكرار هذا النصح ، بالعف عن إراقة الدماء ، والتحوط فى تنفيذ أحكام الإعدام ، هو صدى طبيعى ، لما اتسمت به الدولة الموحدية ، منذ قيام المهدى ابن تومرت ، من المبالغة فى استباحة دماء خصومها وإراقتها . وقد ذكرنا من ذلك ، طائفة من الحوادث المروعة المثيرة ، أيام المهدى ، وخليفته الأول عبد المؤمن . فلما انتهت الدولة الموحدية ، من القضاء على خصومها ، ولما توطدت دعائمها ، وضخم سلطانها ، لم يبق ثمة موجب لهذا الإغراق فى سفك الدم ، وكان من حسن السياسة ، أن تؤكد الخلافة الموحدية حرصها على احترام دماء الناس ، وتمسكها بتنفيذ أحكام الشريعة ، وحثها عمالها على مراعاة ذلك ، وبالأخص على عدم التورط فى إراقة الدم ، إلا بموافقة الخليفة نفسه .

وكانت الخلافة الموحدية ، تؤثر أن تبدو فى نفس الوقت ، حريصة على توطيد العدل ، وقمع الظلم ، وقد رأيناها منذ البداية ، تتبع العمال الظلمة وتطاردهم وتقضى فى أحيان كثيرة ، بعزلهم ومحاسبتهم ، وأحيانا باعتقالهم وإعدامهم . وقد كانت للخليفة عبد المؤمن ، ولولده وخليفته أبى يعقوب يوسف ، وحفيده يعقوب المنصور ، فى ذلك جهود ضخمة ، ذكرناها فى مواضعها ، بل لقد حذا الخليفة الناصر نفسه ، فى ذلك حذو أبيه وجده ، فى مطاردة العمال الظلمة وإزالتهم ، وكان تكرار هذه المطاردة للعمال الظلمة ، وعمال المخزن وغيرهم ، وتوقيع العقوبات الرادعة عليهم ، مما يصل أحيانا إلى الإعدام والمصادرة ، فى ذاته دليلا ، على ما كان يغشى الإدارة الموحدية ، فى بعض الأحيان ، من ضروب الفساد ، التى ترمى هذه المطاردة إلى قمعها .

وكانت الوزارة الموحدية ، وهى أداة الحكم المباشر ، أوسع نطاقا منها ، فى عهد الدولة المرابطية . وقد رأينا أن المهدى ابن تومرت ، لم يكن له وزير خاص ، وإنما كان يتخذ من الجماعة ، وهم الصحاب العشرة الأوائل ، أعضاء

وزارته ، ويبحث معهم شئون الحكم ، وكان يجعل من باقى الصحب ، وهم أهل خمسين ، وأحيانا أهل سبعين ، نوعا من الجمعية الاستشارية[١] . ثم بدأت خطة الوزارة ، فى عهد عبد المؤمن أول الخلفاء الموحدين ، وانتظمت على يده أداة الحكم ، بصورتها التقليدية ، من الاعتماد على معاونة وزير أو أكثر ، يتولون أعباء الحكم والإدارة بتوجيه الخليفة وإرشاده ،ويطالعونه بمختلف الشئون الهامة ، وعلى معاونة كاتب أو أكثر من الكتاب المجيدين ، يكونون ترجمانا لدعوته ، ويضطلعون بتوجيه رسائله وتعلياته ، إلى مختلف العمال والجهات .وكان الخليفة ، يعهد فى بعض الأحيان بوزارته ، إلى أحد أولاده أو إخوته ، فقد رأينا مثلا كيف عهد عبد المؤمن ، فى أواخر أيامه ، بالوزارة إلى ولده السيد أبى حفص[٢] . ولما توفى عبد المؤمن ، وخلفه ولده السيد أبو يعقوب يوسف ، تولى شئون الحجابة مدى حين ، أخوه السيد أبو حفص ، وذلك على معنى الوزارة والإمارة[٣] . ثم لما توفى الخليفة أبو يعقوب ، عقب موقعة شنترين ، وخلفه ولده الخليفة أبو يوسف يعقوب المنصور ، تولى حجابته أخوه كبيره السيد أبو حفص ، والحجابة هنا معناها رياسة الوزارة . ثم تولى له الوزارة أخوه السيد أبو عبد الله محمد . وأحيانا كان يضطلع بالوزارة بعض القرابة ، كما حدث أيام الخليفة المستنصر والرشيد . بيد أن تعيين الحجاب والوزراء من الأبناء والإخوة أو القرابة ، لم يكن يحول دون تعيين الوزراء العاديين ، للاضطلاع بتدبير الشئون ، وقد كان أولئك الوزراء أيضاً ، فى الغالب ، من خاصة القبائل الموحدية الموالية . وكانت الوزارة تبقى فى الأسرة الواحدة أجيالا متعاقبة ، كما حدث فى أسرة بنى جامع ، التى تولى أبناؤها الوزارة ، منذ خلافة عبد المؤمن ، واستمروا فى توليها فترات مختلفة ، حتى عصر الناصر ، وأسرة بنى يوجان ، التى تولى أبناؤها أيضاً الوزارة غير مرة .

وأما الكتابة ، فقد كانت من أهم خطط الحكومة الموحدية . وكان الخليفة الموحدى ، يحشد فى بلاطه ، أقطاب الكتاب المجيدين ، وكان السادة من الولاة سواء بالمغرب أو الأندلس ، يتخذون لكتابتهم أبلغ كتاب العصر . ومنذ عصر الخليفة عبد المؤمن ، نرى ثبتا طويلاً ، من أئمة النثر والبلاغة ، ينتظمون فى

---

(١) راجع ص ١٩٦ من ق ١ من هذا الكتاب. (٢) راجع ص ٣٩٤ من ق ١ من هذا الكتاب .
(٣) كتاب المن بالإمامة لوحة ٤٨ ب .

فى بلاط مراكش ، ليكونوا لسانا للخليفة الموحدى ، وترجمانا له ، فى مخاطبة الولاة والقبائل والكافة ، سواء المغرب أو الأندلس ، وكان معظم هؤلاء الكتاب من أهل الأندلس ، ومنهم كذلك عدة من أكابر الكتاب المغاربة . فكان من الأندلسيين فى بلاط عبد المؤمن ، أبو الحسن بن عياش القرطبى ، وأخيل ابن إدريس الرندى ، والخطيب أبو الحسن بن الإشبيلى . ومن المغاربة ، أبوجعفر ابن عطية ، وأخوه عقيل بن عطية ، ولو أنهما ينتميان إلى أصل أندلسى . واستمر أبو الحسن ابن عياش فى منصب الكتابة ، فى عهد أبى يعقوب يوسف . وكان يعاونه اثنان من ألمع الكتاب المغاربة فى ذلك ، هما أبو القاسم القالمى ، وتلميذه أبو الفضل طاهر بن محشرة . وتولى الكتابة فى عهد يعقوب المنصور ، أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن عياش البرشانى ، وأبو الفضل بن محشرة . وكتب للناصر ولد المنصور ، أبو عبد الله محمد بن عياش ، وأبو الحسن على ابن عياش ، ومن المغاربة أبو عبد الله محمد بن يخلفتن الفازازى ، وكتب الأول كذلك للمستنصر . وحتى فى أواخر عهد الدولة الموحدية حينما أدركها الانحلال والوهن ، نجد مثل هذه العناية بمنصب الكتابة ، والحرص على استخدام الكتاب البلغاء . فقد كتب للمأمون ، وهو نفسه من الكتاب البلغاء ، كاتب من أعظم أئمة البيان الأندلسيين ، هو أبو المطرف بن عميرة المخزومى ، وكتب معه أبو الحسن الرعينى ، وأبو عبد الله بن عياش ، ومن كتاب المغرب ، أبو زكريا الفازازى . وكتب أبو المطرّف بن عميرة وأبو زكريا الفازازى كذلك للرشيد . وهكذا نجد البلاط الموحدى ، حتى أواخر عهد الدولة ، حريصاً على الاحتفاظ لديوان الكتابة والترسل ، بمستواه الرفيع ، الذى بلغه منذ عهد الخليفة عبد المؤمن . وإنا لنجد ذلك الحرص ، من جانب الخلافة الموحدية ، على بلاغة الترسل المترجم عنها فى تلك المجموعة من الرسائل ، التى صدرت عن الخلفاء المتعاقبين ، فى مختلف الشئون ، الشرعية ، والإدارية ، وعن سير الغزوات والفتوحات الموحدية ، والتى أشرنا إليها ، واقتبسنا من محتوياتها ، فى مواطن عديدة ، فيما تقدم ، من فصول هذا الكتاب[1] .

(١) نود أن نشير هنا مرة أخرى إلى مجموعة الرسائل الموحدية التى نشرت بعناية العلامة الأستاذ ليفى بروفنسال ( الرباط سنة ١٩٤١ ) والتى رجعنا إليها مراراً عديدة فيما نقدم ، وكذلك إلى مختلف الرسائل الموحدية الأخرى التى جاء ذكرها فى كتاب « المن بالإمامة » ، وكتاب ( البيان المغرب ) مما سبقت الإشارة إليه فى مواضعه . وقد نشرنا بعضها فى نهاية الكتاب .

وكان مما يلحق بديوان الكتابة ، كتب التوقيعات والظهائر وكل ما يمهر بالعلامة ، وكذلك ديوان العسكر ، وما انضاف إليه من التنفيذات السلطانية ، وتقييد الجزيات العامة فى أنواع النفقات[١]. وكان لديوان العسكر كتابه المختصون به ، وهم غير كتاب الديوان المختصين بالشئون الأخرى .

وكانت أداة الحكومة التنفيذية ، تضم عدة مناصب هامة ، فى مقدمتها منصب « متولى أشغال البرين » أعنى المغرب والأندلس ، وكان لذلك المنصب أهمية خاصة ، أيام عنفوان الدولة الموحدية وتماسكها ، ويوصف اختصاصه « بالأعمال العلية والأشغال السلطانية » . فنراه أيام الخليفة المنصور ، يسند إلى كبير الوزراء نفسه أبى زيد بن يوجان[٢] ويوصف أحيانا « بإشراف البرين وضم الأعمال وتفقد الأشغال » ويسند إلى وزير أو أكثر يسمون « أصحاب الأشغال »[٣] ويلى ذلك فى الأهمية الوزراء المختصون بالشئون المالية ، وهم « صاحب الأعمال المخزنية » ، ومتولى المجابى ، ومتولى أموال النفقات والمحاسبة ، ومتولى أعمال المستخلص . وكان لصاحب ديوان الأعمال المخزنية ، اختصاصات وسلطات واسعة فى السهر على تحصيل الأموال العامة وإنفاقها ، وفى رقابة العمال والمشرفين ، ومحاسبتهم والقبض عليهم[٤]، وكان له وكلاء فى سائر المدن الكبرى ، يسمون بالمشرفين ، ويمثله فى إشبيلية عاصمة الأندلس « صاحب المخزن » ، وكان للمشرف بدوره خازن على المال ، وخازن على الطعام ، يتولى الإشراف على حركة الوارد والصادر بالمخازن العامة ، وأحيانا يقع ضمن أعمال المشرف الرقابة على تقييد المجابى[٥]. وكان أولئك الوكلاء المشرفون على الأموال العامة يتحملون مسئوليات خطيرة ، ونراهم من آن لآخر ، عرضة لمختلف الاتهامات والمطاردات[٦] وكان من التقاليد المأثورة أن يقوم الخليفة الجديد ، فى بداية ولايته بالعفو عن المسجونين ، ورفع الأموال المتخلفة ، عن عاتق العمال المبددين ، وتأمينهم من العقاب[٧] . وأما متولى المجابى ، فهو المختص بتحصيل الضرائب ، والجزيات على مختلف صنوفها ، وله عمال فى المدن وفى البوادى . وكانت الحملات

---

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ٢٣١ (٢) البيان المغرب ٢٠١ و ٢٣٦ .

(٣) البيان المغرب ص ٢٢٧ و ٢٨٣ . (٤) البيان المغرب ص ١٣١ و ٢٠١ و ٢٣٧ .

(٥) راجع البيان المغرب ص ١٣١ و ١٧٢ .

(٦) البيان المغرب ص ٣١ و ١٠٨ و ١١٢ ، و ١٣١ ، و ٢٣٧ (٧) البيان المغرب ص ٧٣ .

العسكرية ، تحشد أحيانا ، لإرغام القبائل المتخلفة عن أداء الجباية ، على أدائها ، وذلك حسبما ذكرنا فيما تقدم غير مرة . وأما متولى المستخلص ، فهو المشرف على الأموال الخليفية ، والمحافظة عليها ، وتحصيل ما يتعلق بها ، من مختلف أبواب الدخل . وقد يتولى صاحب الأشغال المخزنية أحيانا ، الإشراف على ما يتعلق «بالسهام السلطانية» أى أنصبة الخليفة أو حقوقه الشرعية فى الغنائم وغيرها[1].

وكان منصب صاحب الشرطة ، من المناصب الإدارية الهامة ، وكانت أهميته تبدو بنوع خاص فى الأوقات المضطربة ، وعند اضطرام الفتن ، وكان يشغله أحيانا ، رجال من ذوى المكانة الرفيعة فى الدولة من أكابر الوزراء ، كما حدث أيام الرشيد[2] .

وبرز فى أواخر العصر الموحدى ، منصب هام فى الحكومة الموحدية ، هو منصب وزير يقوم فيه صاحبه ، بالتقدم إلى إرسال ملوك الروم ، والاشتغال بإنزالهم ، وتضييفهم ، والترجمة عنهم[3] . ومن الواضح أن هذا المنصب ، لم تبرز أهميته ، إلا منذ أيام الخليفة المأمون ، حينما عقد حلفه المشهور ، مع فرناندو الثالث ملك قشتالة ، وأمده هذا الملك النصرانى ، بفرقة كبيرة من جنده ، ليعبر بها إلى المغرب ، ويستعين بها على قتال منافسه فى الخلافة ، يحيى المنتصر . ومن ذلك التاريخ ، يأخذ الروم بقسط بارز ، فى الحروب ، التى يشهرها الخليفة الموحدى ، على خصومه ، ويقتضى أن يمثل فى بلاط مراكش ، شخص يتولى استقبال الوافدين من « الروم » ( القشتاليين ) ، من أمراء وقادة وسفراء وغيرهم ، ويتولى الإشراف على رعايتهم ، والترجمة بينهم وبين الخليفة ، وذوى الشأن من رجال الدولة.

وقد أشرنا فيما تقدم ، إلى سياسة الحكومة الموحدية فى شئون الجباية ، ووجوب التزام أحكام الشرع فى شأنها ، والاقتصار فى ذلك ، على ما يجيزه الشرع من الزكوات والأعشار . وقد نوه الخليفة عبد المؤمن ، بوجوب التزام هذه السياسة ، فى رسائله الرسمية غير مرة ، وكانت له شعاراً ، فى حملاته للقضاء على الدولة المرابطية ، فنراه يذكرها فى أولى رسائله الدستورية ، وهى الرسالة الجامعة ، التى وجهها إلى الطلبة والمشيخة والأعيان والكافة بالأندلس ، فى ربيع الأول سنة ٥٤٣ هـ ، وفيها يتحدث عن المغارم ، والمكوس والقبالات ،

---

(١) البيان المغرب ص ٢٠١ و٢٢٧ . (٢) البيان المغرب ص ٢٨٣ .

(٣) البيان المغرب ص ٢٣٤ .

وتحجير المراسي ، وغيرها من المظالم ، ووجوب القضاء عليها ، وإجراء العدل فى شأنها(١) ، ونراه بعد ذلك ببضعة أعوام ، يعود إلى ذكرها ، فى رسالة إلى إلى أهل قسنطينة عن فتح بجاية فى جمادى الأولى سنة ٥٤٧ هـ ، وفيها يتحدث عما فرضه « أهل الاختلاق والابتداع » من « القبالات والمكوس والمغارم وسائر تلك الأنواع » دون التفات إلى ما أوجب الله من الزكوات والأعشار ، حتى قضى الله بإزالتهم ، ورد الأمر إلى نصابه ، بإجراء الشريعة على حقيقتها ، وإراحة أهل البلاد المعمورة بالتوحيد من جميع هذه المغارم(٢).

على أن هذه العهود الرسمية، التى كانت تستند فى جوهرها، إلى تعاليم المهدى ابن تومرت ، ودعايته ضد الدولة المرابطية ، فيما جرت عليه من فرض المغارم والمكوس غير الشرعية ، لم تكن سوى شعار مؤقت ، تستظل به الدولة الموحدية فى بداية عهدها ؛ ذلك أنه لما توطدت دعائم الدولة الجديدة ، واتسع نطاق مسئولياتها المدنية والعسكرية ، سواء فى المغرب والأندلس ، كان من الواضح أن الاقتصار على تحصيل الفروض الشرعية فى شئون الجباية ، لايمكن أن يفى بما تتطلبه نفقات الدولة ، أو نفقات الجيوش الموحدية الضخمة فى المغرب ، أو فيما وراء البحر ، ومن ثم فقد اضطرت الدولة الموحدية غير بعيد ، أن تبحث عن وجوه أخرى ، لتحقيق الجباية وتوفير النفقات ، فكان مما فعله عبد المؤمن فى ذلك ، قيامه بمسح (أو تكسير) بلاد إفريقية والمغرب ، من برقة إلى السوس الأقصى ، وإسقاط مقدار الثلث من مساحتها ، مقابل الجبال والأنهار والطرقات وغيرها ، وفرض الخراج على ما بقى بعد ذلك ، من الأراضى الصالحة للزرع ، وألزمت كل قبيلة أن تؤدى قسطها من الزرع والمال(٣) . ومن جهة أخرى فإن الخلافة الموحدية ، كانت إلى جانب ما يدخل خزائنها ، من غنائم الفتوحات المظفرة ، وأبواب المصادرة لأموال الخصوم ، ومن يلحق بهم من العمال المنكوبين ، لم تحجم عن أن تفرض مختلف الضرائب والمكوس ، على مختلف أنواع المعاملات ، من البيع والشراء ، والصادر والوارد ، وغير ذلك ، مما كان متبعاً فى سائر دول العصور الوسطى ، وهذا إلى ما كانت تستولى عليه ، من أموال

(١) راجع ص ٤٠٠ من القسم الأول من هذا الكتاب .

(٢) راجع رسالة عبد المؤمن المذكورة فى « رسائل موحدية » وهى الرسالة السابعة ص٢١ .

(٣) راجع ص ٣٧٧ من القسم الأول من هذا الكتاب .

النصارى واليهود ، الذين بقوا فى أراضى الدولة ، ولاسيما خلال حركات الاضطهاد والمطاردة ، وقد كانت تحدث من آن إلى آخر .

وكان من الإجراءات المالية الهامة ، التى قامت بها الخلافة الموحدية ، مضاعفة وزن الدينار الموحدى ، وقد تم ذلك فى بداية عهد الخليفة المنصور ، وكان له أثره فى دعم طمأنينة التعامل ، وتحسين الشئون الاقتصادية ، بوجه عام .

وقد لبثت الأحوال الاقتصادية بالمغرب والأندلس ، فى ظل الدولة الموحدية ، أيام عنفوانها وقوتها ، طيبة يدعمها الأمن والرخاء ، وتقدم الزراعة والتجارة ، وكان ذلك فى عهد الخلفاء الأقوياء منذ عبد المؤمن ، حتى أواخر عهد المنصور ، وهى فترة دامت زهاء نصف قرن . ولم يكن يعكر هذا الرخاء ، إلا فتنة محلية ، أو محنة طبيعية ، من جدب أوشرق أوغيره . بيد أنه لما اشتد عيث طوائف العرب بإفريقية ، وخربوا مدنها ، واجتاحوا بسائطها ، وتفاقم هذا العيث والتخريب ، أيام ثورة بنى غانية ، بما ترتب على مغامراتهم ، من صنوف الدمار المطبق ، وقطع السبل ، ونهب التجار ، وانقطاع المعاملات السامية ، أخذ خراب إفريقية ، وهى أغنى أقطار الدولة ، وأوفرها خصبا وموارد ، يحدث أثره فى اقتصاد المغرب ، وفى تحطيم رخائه . ولما انتهت فتنة بنى غانية فى أوائل عهد الناصر ، وعاد الأمن والرخاء لإفريقية ، كانت حركة الناصر إلى الأندلس ، تمهد لأعظم كارثة عسكرية ، منيت بها الدولة الموحدية ، ومنى بها المغرب . وكان لهزيمة العقاب الساحقة ، فضلا عن آثارها العسكرية المدمرة ، آثار اقتصادية بعيدة المدى ، فقضى بفناء الجند على الأيدى العاملة ، وانهارت الزراعة والتجارة ، وعدمت الأقوات ، وفشت المجاعة فى المغرب والأندلس ، وكان يذكى من هذه المحنة الاقتصادية ، ضعف الحكومة وتواكلها ، واحتجاب الخليفة ، وعدم اهتمامه بآلام الشعب . وفى عهد المستنصر ولد الناصر ، تفاقمت الأزمة الاقتصادية بالمغرب والأندلس ، واشتدت الحال ، وتناهى الغلاء[1] ، واختلت أحوال الخلافة الموحدية ، واضطرب الأمن ، وقطعت السابلة ، ووقع النهب على التجار ، واستمرت هذه الأحوال طوال عهد المستنصر ، وهو فى غفلة عن كل ما يجرى ، غير مهتم بشئون رعيته أوجاهل لها ، لتواكل وزرائه ، وإخفائهم عنه حقائق الشئون[2] .

---

(١) البيان المغرب ص ٢٣٦ و ٢٤٥ .

(٢) الذيل والتكملة لابن عبد الملك ( المجلد الخامس من مخطوط المتحف البريطانى لوحة ١٩ ) .

ثم تفاقم الأمر ، باضطراب شئون الخلافة الموحدية ، ووقوع الفتنة والحروب الأهلية حول كرسى الخلافة ، وتدخل بعض طوائف العرب ، مثل عرب الخُلط وبعض القبائل البربرية القوية ، مثل هسكورة ، فى هذا النزاع ، وتقلبهم فى مناصرة المتنافسين على العرش ، وعيثهم بأحواز العاصمة ، ومهاجمتها أحيانا ، وكانت المجاعة تقع حينما تضطرم الفتنة ، ومن ذلك ما يقصه علينا صاحب البيان المغرب ، من وقوع المجاعة فى مراكش ، حينما هاجمها عرب الخلط ، وعاثوا فى أحوازها ، فعدمت الأقوات وارتفعت الأسعار ، وتحطمت المرافق ، وعانى الناس منتهى الشدة ، ووصل الربع الواحد من الدقيق إلى ثلاثة دنانير [1] . وحدثت مجاعة مماثلة ، حينما اضطر الخليفة الرشيد ، أن يغادر الحضرة ، أمام ضغط عرب الخلط ، فقاسى الناس أهوالا ، وخلت الأسواق من كل شىء ، ووصل المد من القمح إلى سبعة دراهم ، وأكل الناس فيتور الزيتون ، ونوار الخروب ، وغير ذلك من النباتات الطفيلية ، وكانت محنة مروعة [2]. واستمرت الأزمات الاقتصادية ، طوال أيام الفتنة ، والحروب الأهلية بين الرشيد والخلط ، والرشيد ويحيى بن الناصر ، وخفت حدتها أيام السعيد والمرتضى ، وكان القحط يقترن بوقوع الوباء . وفى سنة ٦٤٧ هـ ، وقعت بمدينة سبتة وأحوازها مجاعة عظيمة ، وغلاء فاحش ، وذلك بسبب الفتن والحروب الأهلية المستمرة [3]. وكان صدى هذه الأزمات الاقتصادية ، يحدث أثره فى الأندلس . وكان من أثر المحن والأحداث السياسية فى الأندلس ، أن كانت أهوال الغلاء والجوع ، تعصف بالناس من آن لآخر ، وحدث ذلك فى بلنسية حين حصارها ، ووقعت شدة مماثلة بإشبيلية وقت حصارها ومات كثير من أهلها بسبب الجوع [4] . وكانت الفترة التى تلت قيام ابن هود ، فى شرقى الأندلس ، وقيام ابن الأحمر فى أواسط الأندلس ، ثم فى الجنوب ، وما تخلل ذلك من فتن وحروب أهليه ، وما قام به النصارى ، من غزوات لأراضى الأندلس ، ومن استيلائهم على معظم قواعدها الكبرى ، وذلك كله فى النصف الأول من القرن السابع الهجرى ، فيما بين سنتى ٦٢٠ و ٦٥٠ هـ ، كانت هذه الفترة المدلهمة من تاريخ الأندلس ، وما اقترن بها من محن ونوائب ، وتشريد لأهل القواعد المفتوحة ، وضياع للأموال والثروات ، مليئة بالأزمات الإقتصادية

(١) البيان المغرب ص ٣٠٧ .

(٢) البيان المغرب ص ٣١٥ و ٣١٦ .

(٣) البيان المغرب ص ٣٤٧ .

(٤) البيان المغرب ص ٣٨١ ، ٣٨٢ .

وأهوال الغلاء والجوع والحرمان ، والأوبئة ، وكانت من أشد ماعانت الأمة الأندلسية عقب انهيار الحكم الموحدى ، وما ترتب عليه ، من انهيار خط دفاعها القديم ، ووقوعها فريسة هينة للغزو النصرانى .

* * *

وكانت المناصب الدينية تنحصر فى القضاء ، وهو أهمها ، والشورى ، وهى من متعلقات القضاء ، والخطبة فى المساجد الجامعة . وكان يعين فى عاصمة كل ولاية قاض للجماعة ، وهو يتولى اختيار نوابه فى مناصب القضاء المحلية . وقد لبث القضاء فى عهد الدولة الموحدية ، سواء بالمغرب أوالأندلس ، محتفظاً بأهميته وجلاله القديم . وكان الخليفة الموحدى ، يقوم بتعيين قضاة الجماعة ، فى سائر المدن الكبرى ، دون تدخل فى ذلك من الولاة[1]. وتتبع نفس القاعدة فى تعيين قضاة الأندلس . ومما هو جدير بالذكر ، أن الأندلسيين كانوا يستأثرون بمناصب القضاء فى بلادهم ، وذلك منذ أيام الدولة المرابطية ، ولم تحاول الخلافة الموحدية أن تحيد عن ذلك التقليد الراسخ إلا فى أحوال نادرة كان يتولى فيها القضاء بالأندلس بعض الممتازين من القضاة المغاربة[2]. بل لقد كان الخليفة الموحدى ، يختار لقضاء الجماعة بمراكش ، بعض اللامعين من فقهاء الأندلس ، كما حدث أيام الخليفة أبى يعقوب يوسف حينما تولى قضاء الجماعة بالعاصمة الموحدية ، أبومحمد المالقى ، ثم أبوجعفر بن مضاء ، وتولاه أيام الخليفة المنصور أبو جعفر بن مضاء ، وأبوالقاسم أحمد بن بقى ، وشغل أبو القاسم نفس منصبه أيام الخليفة الناصر ، وذلك حسبما ذكرنا فى مواضعه من قبل . ويرجع ذلك كما هو واضح ، إلى تفوق الدراسات الشرعية فى الأندلس ، وتفوق القضاة الأندلسيين فى الفقه المالكى ، وفى ممارسة الأحكام وتطبيقها . وقد لبثت الأندلس محتفظة بهذا التفوق ، سواء فى الكتابة أو القضاء ، حتى إبان انحلالها فى أواخر العهد الموحدى .

وأما خطة الشورى ، فقد كانت أيضاً من المناصب القضائية ، ولكنها كانت حسبما يبدو من مختلف الإشارات الخاصة بها ، أقل فى الرتبة من القضاء . ويختص

(١) البيان المغرب ص ١٢٩ و ٢٣١ .

(٢) مثال ذلك ما يرويه لنا ابن الأبار فى التكملة من أن أبا عبد الله محمد بن يخلفتن الفازازى التلمسانى ، ولى قضاء مرسية ثم قضاء قرطبة ( التكملة رقم ١٦١٦ ) ، وأن ابن جبل الهمدانى من أهل وهران ، ولى قضاء إشبيلية سنة ٥٩٢ هـ ( التكملة رقم ١٧١٩ ) .

صاحبها بإبداء الرأى والفتوى فى مسائل الأحكام ، ويشغلها على الأغلب أحد الفقهاء . وفى مواضع كثيرة من « التكملة » وغيرها ، يوصف صاحب هذه الوظيفة بأنه كان « فقيهاً مشاوراً » ، أو أنه كان فقيهاً يشاور فى الأحكام ، أو أنه ولى « خطة الشورى »[1] . وقد أورد لنا ابن الأبار نص كتاب صادر عن أمير مرسية ، بتولية أبى بكر بن أبى جمرة خطة الشورى ، يبين لنا ماهية هذه الخطة واختصاصها[2] .

وكانت خطة الأحكام ، فيما يبدو أيضاً من شرح صاحب « التكملة » ، وظيفة تابعة للقضاء ، شبيهة بخطة الشورى ، وكان صاحبها يضطلع بالفتيا أو إبداء الرأى فى الأحكام الشرعية[3] .

وقد كانت للمواريث خطة خاصة بالرغم من كونها داخلة فى اختصاص القضاء العام . وهذا ما يشير إليه ابن الأبار فى غير موضع من « التكملة » ، وهذا ما يدل على أهمية المواريث ، والعناية بالدقة فى تطبيقها[4] .

ويلحق بهذه المناصب القضائية منصب « حسبة السوق » ، وقد أشار إليه ابن الأبار أيضاً ، وهو فى الحقيقة ، ناحية ، من نواحى الحسبة العامة ، يتعلق بالإشراف على ضبط التعامل ، وسلامة السلع المعروضة ، وصحة الموازين ، والمكاييل[5] .

ويلحق بالمناصب الدينية الهامة منصب الخطابة بجوامع المدن الكبرى ، وكان لايلى هذا المنصب إلا الفقهاء المبرزين فى فن الخطابة ، ولاسيما فى جوامع قواعد كإشبيلية وقرطبة وغرناطة ومالقة وبلنسية ، وأهمها فى الرتبة منصب الخطابة بجامع إشبيلية وجامع قرطبة[6] . وكذلك كان يؤم الصلوات بجوامع المدن الكبرى « صاحب الصلاة » وكان منصبه يعتبر أيضاً من المناصب الدينية الكبيرة ، ولاسيما إذا كان بجامع إشبيلية أوجامع قرطبة .

وكان منصب متولى شئون طلبة الحضر ، من المناصب العلمية والدينية الرفيعة ، وقد سبق أن أشرنا إلى نشأة هذه الطبقة من الطلاب الموحدين «المصامدة»

---

(١) راجع التكملة لإبن الأبار ( القاهرة ) ج ١ ص ٣٤ و ٤٤ و ٦٦ و ٧١ و ٨٦ و ١٤٩ و ٢٠٩ و ٢٤٣ .

(٢) راجع التكملة ج ٢ ص ٥٦٢ . وقد نشرنا هذا الكتاب فى باب الوثائق .

(٣) راجع التكملة ج ١ ص ٧١ و ٢٢٨ .

(٤) راجع التكملة ج ١ ص ٦٧ .

(٥) التكملة ج ١ ص ٨٢ .

(٦) البيان المغرب ص ١٩٣ .

وطلاب الحضر ، منذ عصر الخليفة عبد المؤمن . وقد سما شأن هؤلاء الطلاب ، ولاسيما فى عهد الخليفة يعقوب المنصور ، وكانت لهم لديه مكانة ملحوظة[١] وكان المقدم على طلبة الحضر بحضرة مراكش ، ينتخب من أكابر العلماء ، ويقوم الخليفة بتعيينه مباشرة ، وقد تولى هذا المنصب علماء أجلاء ، مثل أبى محمد المالقى ، وأبيه عبد الرحمن المالقى من قبل[٢] .

## ٢ — تطور الأساس الروحى
## للخلافة الموحدية

قامت الدولة الموحدية فى بدايتها ، حسبما قدمنا ، على فكرة الإمامة والتوحيد ، فلما توفى المهدى ابن تومرت ، وقام فى رياسة الدولة زعيم لايتشح بثوب المهدية أو الإمامة الروحية ، واتسعت رقعة الدولة ، وعظمت صولتها العسكرية ، والسياسية ، تحولت الخلافة الموحدية على يد عبد المؤمن ، إلى ملك دنيوى باذخ ، وغاضت فكرة الإمامة المهدية شيئاً فشيئاً ، وإن كانت الدولة الموحدية ، قد لبثت حريصة على تقديس ذكرى المهدى ، ونعته دائماً فى الخطب والرسائل الرسمية « بالإمام المعصوم ، المهدى المعلوم » ، وذكر اسمه فى السكة ، والمناداة بشعائره البربرية القديمة فى أوقات الصلاة . واستمر الأمر على ذلك حتى عهد الخليفة يعقوب المنصور ، وفيه بلغت الدولة الموحدية أوج عظمتها وروعتها . وكان المنصور عالما مستنيراً ، متمكناً من الشريعة وعلوم الدين ، ولم يكن حسبما تبين بعد من تصرفاته المذهبية ، من الغلاة فى تقدير العقيدة الموحدية ، أو المؤمنين بعصمة المهدى ابن تومرت ، بيد أنه بالرغم من عظيم هيبته وسلطانه ، وبالرغم مما قام به من تغييرات مذهبية بعيدة المدى ، مثل مطاردة كتب المذهب المالكى ، وإحياء المذهب الظاهرى ، فإن الخلافة الموحدية لبثت مع ذلك تنضوى من الناحية الدستورية تحت لواء « الدعوة المهدية » ، ولبثت رسائلها الرسمية تتوج « بالرضا عن الإمام المعصوم المهدى المعلوم »[٣] .

على أنه لم يك ثمة شك ، فى أن العقيدة الموحدية لم تكن عندئذ ، سوى

---

(١) المراكشى فى المعجب ص ١٥٨ ، وراجع ص ٢٤٤ من هذا الكتاب .

(٢) البيان المغرب ص ٢٣٣ و ٢٣٤ .

(٣) راجع الرسائل الثانية والثلاثون والرابعة والثلاثون والخامسة والثلاثون من مجموعة « الرسائل الموحدية » وهى صادرة عن الخليفة المنصور ( ص ١٩٩ و ٢١٩ و ٢٢٩ ) .

شعار إسمى ، وأن بقاء الخليفة الموحدى ، على رسوم المهدى ابن تومرت ، لم يكن سوى إجراء شكلى ، يقصد به إلى جمع كلمة الموحدين ، تحت شعار موحد ، وكانت هذه سياسة حكيمة من جانب الخلافة الموحدية ، كان لها أثرها القوى فى تدعيم أركان الدولة ، وحمايتها من أخطار الفتنة والتفرق .

فلما كان عهد الخليفة أبى العُلى المأمون ولد الخليفة المنصور ، وقع الحدث الحسم ، فى دستور الخلافة الموحدية ، وشعارها الروحى ، وأصدر المأمون مرسومه الشهير (٦٢٧هـ) بإزالة اسم المهدى من الخطبة ، ومن السكة ، ومن المخاطبات الرسمية ، وقطع النداء عند الصلوات بشعائره البربرية ، التى كان العمل جاريا باتباعها منذ بداية الدولة الموحدية ، ولم يحجم المأمون عن أن يصرح فى كتابه الرسمى الذى أنشأه بنفسه ، أن وصف ابن تومرت « بالمهدى وبالإمام المعصوم » إنما هو نفاق وبدعة وأمر باطل ، وأنه يجب نبذه والقضاء عليه[1]

وهكذا قضى بضربة جريئة على أسطورة المهدى ابن تومرت ، وأسطورة إمامته وعصمته ، وهى الأسطورة التى اتشح بها ابن تومرت ، وبويع فى ظلها بجبل إيجليز فى رمضان سنة ٥١٥هـ (ديسمبر سنة ١١٢١م) ، وكانت هى الأساس الروحى لقيام الدولة الموحدية .

وفضلا عن ذلك فقد قضى المأمون على عصبة الموحدين ، بقتله لزعمائهم الذين نكثوا بيعته ، حتى فنى معظمهم ، وفر الباقون ليعتصموا بجبالهم القديمة فى تينملل ، وبذلك ضربت الزعامة الموحدية فى الصميم ، وفقدت الخلافة الموحدية بذلك عضدا ، كان له فى عونها ومؤازرتها ، قيمته الأدبية والمادية .

ثم كانت خلافة الرشيد ، ولد المأمون ، فوقع تطور جديد فى رسوم الخلافة الموحدية وأسسها الروحية . وذلك أن الرشيد شعر بأهمية مؤازرة أشياخ الموحدين ، واتجه إلى استرضائهم ، واستعادتهم إلى جانب الخلافة الموحدية ، وقبل الزعماء الموحدون ، أن يعودوا إلى سابق ولائهم ، وتعاونهم مع الخلافة ، على أن تعود رسوم الدعوة المهدية كما كانت ، من ذكر المهدى فى الخطبة والسكة ، والنداءات الموحدية فى الصلوات ، وغير ذلك مما كان العمل جاريا عليه ، قبل أن يصدر المأمون مرسومه بإلغاء الدعوة المهدية . وقبل الرشيد ذلك ، وقام بتنفيذه ، وأعيدت رسوم الدعوة المهدية كما كانت . بيد أنها لم تكن يومئذ سوى

---

(١) راجع مرسوم المأمون فى البيان المغرب ص٢٦٧ و٢٦٨ ، وراجع ص٣٧١ من هذا الكتاب .

إجراء شكلى ، وشبح باهت ، ولم تلبث الخلافة الموحدية ، أن دخلت فى مرحلة انحلالها الأخير ، وأخذت تسير إلى قضائها المحتوم .

### ٣ — النظم العسكرية

ليس ثمة شك فى أن القوة العسكرية ، كانت منذ البداية ، عماد الدولة الموحدية الأول ، وقد بلغت التنظيمات العسكرية فى ظل الدولة الموحدية ، من حيث الضخامة مبلغاً لم تبلغه فى أية دولة أخرى ، فى الغرب الإسلامى .

وقد كانت الحشود القبلية ، هى المصدر الرئيسى للجيوش الموحدية . وقد بدأت هذه الحشود بصورة متواضعة ، حينما أعلن المهدى ابن تومرت إمامته ، وبايعته القبائل الموحدية ، وأخذ يتأهب لمحاربة المرابطين . وكان المهدى هو أول من وضع نظاما عسكريا لأنصاره الموحدين ، فرتبهم صفوفا ، وجعل لكل عشرة منهم نقيباً . والتقت هذه الحشود القبلية لأول مرة بالمرابطين ، وهى قليلة الأهبة ، قليلة العدة ، ودون نظام عسكرى محكم ، فكانت الحماسة لديها تغنى عن السلاح والنظام ، وكانت انتصاراتها فى المعارك الصغيرة الأولى ، التى نشبت بينها وبين المرابطين ، تذكى من عزمها وإقدامها ، وتساعد فى تضخم جموعها . وهكذا بدأ الجيش الموحدى فى التجمع والانتظام ، وإذا استثنينا موقعة البحيرة ، التى فنى فيها معظم الجيش الموحدى الأول تحت أسوار مراكش ، فإن الجيوش الموحدية ، لم تلبث أن نهضت من هذه الضربة ، وعادت منذ خلافة عبد المؤمن إلى سابق منعتها وتضخمها .

واتخذ المهدى لجيشه منذ البداية علما أبيض ، كتب على أحد وجهيه « الواحد الله . محمد رسول الله . المهدى خليفة الله » ، وكتب على الوجه الثانى « وما من إله إلا الله . وما توفيقى إلا بالله . وأفوض أمرى إلى الله »(١). وقد لبث البياض شعار العلم الموحدى دهراً ، ولكن مع تغيير الأدعية والآيات التى تكتب عليه ، ثم غيرت ألوانه بعد ذلك فيما يبدو ، فى أواخر عهد الدولة الموحدية ، حسبما يبدو ذلك من ألوان العلم الموحدى الذى غنمه القشتاليون فى معركة العقاب ٦٠٩ هـ ، والذى يحفظ حتى اليوم فى دير برغش الملكى(٢) .

وفى عهد عبد المؤمن بن على ، أول الخلفاء الموحدين ، اتسع نطاق الجيوش الموحدية ، وزادت حشودها زيادة هائلة ، وذلك بعد أن دانت سائر

---

(١) راجع ص١٩٦ من القسم الأول من هذا الكتاب (٢) راجع ص٣١٧ من هذا الكتاب .

قبائل المغرب للطاعة ، وأخذت تساهم بحشودها فى الجيوش الموحدية ، وبالرغم من أن الحشود كان يجرى تنظيمها على أساس قبلى محض ، فقد استطاع عبد المؤمن بسياسته فى تأليف القبائل المختلفة ، أن يؤلف بين هذه الحشود القبلية ، وأن يجعل منها وحدة عظيمة متناسقة كانت هى عماد الجيش الموحدى ، وقد استطاع عبد المؤمن من أن يحشد لغزو إفريقية جيشاً جراراً تقدره الرواية بخمسة وسبعين ألف فارس وخمسمائة ألف راجل ، وهو رقم هائل فى ذلك العصر(١). وقد وصف لنا صاحب الحلل الموشية بهذه المناسبة ، طريقة مسير الجيش الموحدى، وخلا صتها أن يبدأ السير عقب صلاة الصبح ، على صوت طبل الرحيل ، فإذا ركب الخليفة ، اجتمع حوله الأشياخ والأعيان ، ويسير على بعد منه نحو مائة فارس ، ويتقدم الموكب الخليفى مصحف عثمان ، وهو فى تابوته المغلف بصفائح الذهب ، والمرصع بالياقوت الأحمر ، موضوع فى هودج يحمله نجيب، ويتبعه الخليفة ومن ورائه أولاده، ثم البنود والطبول ، فالوزراء وأكابر الدولة. وتسير الجيوش على ترتيبها ، دون تزاحم ، فلا يتعدى أحد طوره ، فإذا كان وقت النزول ، نزلت كل قبيلة فى منزلها ، وكانت محلة الجيش تضم إلى جانب موارد المؤن ، جميع الصناع وسائر أرباب الحرف ، وكل ما يحتاج إليه «كأن المسافر معهم مقيم»(٢) .

وكانت سلا ورباط الفتح ، مركزاً لتجميع الجيوش الموحدية ، سواء الذاهبة منها إلى إفريقية ، أو تلك التى تقصد العبور إلى الأندلس ، وكانت المنطقة الواقعة شمالا ، ، فيما بين سلا وسبتة ، تحتوى عدة مراكز كبيرة متتالية لتخزين المؤن اللازمة لإمداد الجيوش الذاهبة والعائدة . وكان طريق العبور المفضل للجيوش الموحدية ، إلى شبه الجزيرة ، قصر مصمودة أو القصر الصغير ، الواقع على مسافة قريبة غربى سبتة . وموضع نزولها المفضل فى شبه الجزيرة ، هو ثغر طريف أوالجزيرة الخضراء ، وذلك بالرغم مما قام به الخليفة عبد المؤمن من إعداد جبل طارق لنزول الجيوش الموحدية ، وتزويدها بالحصون والمرافق اللازمة .

وقد سبق أن أشرنا إلى رواية ابن اليسع عن ابتكار الموحدين ، منذ عصر عبد المؤمن ، لخطة المربع الموحدى ، التى اتخذت من ذلك الوقت ، أساسا لخطط

---

(١) الحلل الموشية ص ١١٥ . (٢) الحلل الموشية ص ١١٦ .

الدفاع الموحدية ، وخلاصتها أن « تصنع دارة مربعة فى بسيط المعركة ، يجعل فيها من جهاتها الأربع ، صف من الرجال بأيديهم القنا الطوال ، والطوارق المانعة ، ومن ورائهم أصحاب الدروق والحراب صفاً ثانيا ، ومن ورائهم أصحاب المخالى فيها الحجارة صفاً ثالثا ، ومن وراء هؤلاء الرماة صفاً رابعا . وفى وسط المربعة ، ترابط قوى الفرسان » . وكانت صفوف الفرسان تخصص لها أمكنة معينة ، فى جميع جوانب المربع ، وتفتح لها مخارج سريعة تستطيع أن تنطلق منها ، ثم تعود إلى أماكنها الداخلية ، دون أن تخل بنظام الرجّالة (المشاه) . ويقوم بالهجوم الأول قوات المتطوعة المجاهدة ، تؤيدها القوات الخفيفة ، فإذا استطاع العدو أن يرد هؤلاء ، وأن يتقدم حتى مواقف الجنود الموحدية النظامية ، وقف حملة الحراب أمامه كالسد الحديدى الذى لايخترق ، واستقبله الرماة من حملة القسى والنبال بسيل من السهام والحجارة ، فإذا استطاع العدو أن يخترق الصف الأول وهم حملة الحراب ، استقبله حملة السيوف والدروع متأهبين لرده ، وبادر الفرسان إلى معاونتهم من الأماكن الداخلية ، فإذا استطاع العدو بعد كل ما تقدم ، أن يتغلب على القلب والجناحين ، فعندئذ يقوم الجيش الموحدى بالضربة الأخيرة ، وتتقدم قوات الضلع الرابع من المربع ، وهى الساقة أو الاحتياطى ، المكون من صفوة الجند ، ولاسيما الحرس الخاص ، ويقودها الخليفة بنفسه ، وكثيراً ماكانت هذه الصفوف الاحتياطية ، تساعد على إحراز النصر بشجاعتها وخبرتها . وكانت هذه القوات تمتنع أحيانا داخل نطاق من السلاسل الحديدية ، تبرز من خلالها الحراب الطويلة ، فتثخن بذلك فى العدو متى اجترأ على الدنو منها[1] .

وكان التجمع القبلى حسبما أشرنا من قبل ، هو الدعامة الأولى لحشد الجيوش الموحدية ، وكانت معظم الحشود تجمع من القبائل الموحدية الرئيسية ، التى يرتكز إليها هيكل الدولة الموحدية ، والتى ذكرناها فيما تقدم ، ومعظمها ينتمى إلى مصمودة . ولما اتسع نطاق الغزوات الموحدية فى المغرب والأندلس ، ولم تعد القبائل البربرية تكفى وحدها ، لإمداد الجيوس الموحدية ، بما تحتاج إليه من الحشود الضخمة ، عمدت الخلافة الموحدية إلى التفكير فى استمالة طوائف

(١) الحلل الموشية ص ٩٨ ، وتاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين لأشباخ ص ٤٤٨ و٤٨٩ . وراجع ص ٢٤٦ من القسم الأول من هذا الكتاب .

العرب النازحين لإفريقية ، والاستعانة بهم فى مختلف حروبها وغزواتها ، وكان أول من فكر فى ذلك الخليفة عبد المؤمن ، وذلك حينما اصطدم بأولئك العرب لأول مرة عند افتتاحه لبجاية ، ثم افتتاحه للمهدية ، بيد أنه لم ينجح فى ذلك نجاحا يذكر . فلما تولى الخلافة ولده أبو يعقوب يوسف ، بذل فى سبيل استنفار طوائف العرب ، واستمالتها إلى المشاركة فى الجهاد بالأندلس جهوداً مضاعفة ، واستعان فى ذلك بتوجيه القصائد الرنانة لهم ، وكان ممن اشترك فى توجيه الشعر إليهم طبيبه الفيلسوف ابن طفيل ، فوجه إليهم قصيدته الرائعة التى مطلعها :

أقيموا صدور الخيل نحو المضارب  لغزو الأعادى واقتناء الرغائب

ونجحت هذه المحاولة ، فى استمالة طوائف كبيرة ، من عرب هلال وسُليم وزغبة ورياح وغيرهم ، إلى الانضمام إلى الجيوش الموحدية المجاهدة ، وغمرهم الخليفة بإنعاماته وصلاته ، من المال والكساء والسلاح ، وذلك كله حسبما سبق أن فصلناه فى موضعه[1] .

ومن ذلك الحين تؤلف طوائف العرب ، جناحا هاما فى الجيوش الموحدية ، وتشترك فى سائر الحروب والغزوات الموحدية بالمغرب والأندلس . بيد أنه تبين فيما بعد ، فى كثير من الوقائع ، أن انضمام أولئك العرب إلى الجيش الموحدى ، كان خطأ عسكرياً فادحاً ، وأن ضررهم كان أكثر من نفعهم فى مشاركته ، وذلك لما كانوا يتسمون به من التقلب وعدم الولاء ، وشغف انتهاز الفرص السانحة . وقد خذلوا الجيش الموحدى فى كثير من الوقائع فى إفريقية والأندلس. وقد كان اجتذاب الخلافة الموحدية ، لهذه الطوائف العربية ، يرمى إلى تحقيق غايتين : الأولى إنقاذ إفريقية من عيثهم وتخريبهم المستمر ، والثانى الاستعانة بهم فى أعمال الجهاد بالأندلس . ولكن تبين على ضوء الحوادث ، أنهم لبثوا فى إفريقية عامل تخريب ودمار ، طوال أيام ثورة بنى غانية ، يتقلبون طول الوقت بين الفريقين المتحاربين ، وأنهم كانوا فى الحملات الموحدية بالأندلس عامل تثبيط وخذلان . على أن السياسة الموحدية لم تعدل عن المضى فى سياستها ، فى استمالة العرب ومصانعتهم حتى النهاية . فنراهم فى أواخر عهد الخلافة الموحدية يشغلون فى شئونها ، وفى تكييف مصيرها ، مكانة ملحوظة . ونرى الخليفة الموحدى ، عند اضطرام الحرب الأهلية بينه وبين منافسيه ، يستعين بعرب الخُلط ، وأحيانا

---

(٢) راجع ص ٥٩ — ٦١ من هذا الكتاب .

بعرب سفيان وبنى جابر ، ونراه يقوم بتعيين مشايخ هذه الطوائف ، ونرى هذه الطوائف ، تلعب فى الأعوام الأخيرة الحاسمة ، من حياة الدولة الموحدية ، فى مصايرها دوراً له خطره .

وكذا كانت القوات الأندلسية ، تؤلف بالجيش الموحدى بالأندلس جناحا هاما ، وتشترك فى سائر الغزوات والحروب التى تشهرها الجيوش الموحدية ضد النصارى ، سواء فى البرتغال أو فى الممالك الإسبانية . وكانت القوات الأندلسية ، تمتاز بشجاعتها ودربتها ، وولائها لقضية الإسلام بالأندلس ، وكانت تقاتل فى طليعة الجيوش الموحدية ، لخبرتها بقتال النصارى ، وتغدو فى معظم الأحيان عاملا من عوامل النصر .

وكان الخليفة الموحدى ، يقود جيوشه فى الحملات والغزوات الكبرى ، بالمغرب والأندلس ، وكان قبيل نشوب المعركة ، أوبداية الغزو ، يعقد مؤتمراً حربياً لوضع خطة الغزو ، ويستمع فيه إلى آراء قادته[1] . وكان لآراء القادة الأندلسيين ، فى غزوات شبه الجزيرة رأى مسموع ، وقد دلت الحوادث غير مرة ، على سلامة آرائهم ونصحهم . ومتى عبىء الجيش تعبئة قتال ، ضربت قبة الخليفة الحمراء ، ورفع فوقها العلم الموحدى الأبيض ، وأحيطت بالسلاسل الحديدية الضخمة ، وكانت تضرب عادة فى ساقة الجيش ، ويحف بها الحرس الخليفى ، وهو يتألف عادة من الجند العبيد ، ونخبة من الجند البربر ، يحملون الرماح الطويلة ، وكان الخليفة ، متى رأى قواته خلال المعركة فى حاجة إلى العون ، يقود الساقة بنفسه ، ويشد أزر قواته ، ويعاونها بذلك على إحراز النصر ، وقد تقع الكارثة فيهلك الخليفة ، كما حدث لأبى يعقوب يوسف فى نكبة شنترين ، أو يلجأ إلى الفرار ، كما حدث للناصر فى موقعة العقاب .

وعلى غرار ما حدث للجيوش المرابطية ، فى أواخر عهدها ، من الاستعانة بالمرتزقة النصارى ، لجأ الخليفة الموحدى ، إلى حشد المرتزقة النصارى فى جيشه وذلك منذ أيام الخليفة المأمون . ونحن نعرف قصة التجاء المأمون إلى ملك قشتالة فرناندو الثالث ، والثمن الفادح الذى دفعه إليه ، لقاء عونه إياه بفرقة من الفرسان النصارى ، لكى يعبر بها إلى المغرب ، ويستعين بها على مقاتلة خصمه يحيى المنتصر ، وانتزاع الخلافة منه ، ومنها أن تقام كنيسة كبيرة للنصارى فى مراكش ،

(١) ابن صاحب الصلاة فى « المن بالإمامة » لوحة ٤١ ا .

وكانت هذه الفرقة ، وعددها نحو خمسمائة فارس ، هى أساس القوة النصرانية أو جيش الروم بالجيش الموحدى . وقد لعب الجند النصارى فى عهد المأمون ، وولده الرشيد أدوارا حاسمة ، فى المعارك التى خاضتها الخلافة الموحدية يومئذ ضد خصومها ، وقامت بمراكش تحت رعاية الفرقة النصرانية ، جالية نصرانية كبيرة .

وقد استعملت البنود والطبول بالجيش الموحدى منذ البداية ، وكذلك بالأساطيل الموحدية ، وكان لها فرق خاصة ، ونظم معينة تجرى عليها ، وكانت تستعمل عند الرحيل ، وعند بدء المعركة ، وعند كل إجراء عام يجب أن يقوم به الجند ، وكان منها الطبل الكبير الذى يضرب للرحيل ، وهو مستدير الشكل يبلغ دوره خمسة عشر ذراعا من خشب أخضر اللون ، مذهب الحافة ، وكان يضرب للرحيل ثلاث مرات ، ويسمع على مسيرة نصف يوم ، من مكان مرتفع فى يوم لاريح فيه[1] . وكانت الرسائل تستعمل لإذاعة الأوامر والنواهى ، والانتصارات . وعند النصر يقترن ذلك بالاحتفال والإطعام .

وكانت الإنعامات والبركات من أخص امتيازات الجيش الموحدى ، ولاسيما فى إبان ازدهار الدولة وقوتها ، وكان ذلك يشتمل فضلا عن منح الأجور والأعطية للجند ، على إقامة المآدب للطعام ، وتوزيع الأسلحة والكسى ، وكان كساء الفارس عبارة عن طقم كامل من عفارة وعمامة وكساء وقسطة وشقة . وهذا عدا مبالغ من النقود الذهبية تصل للقادة والأعيان أحيانا إلى مائة دينار لكل منهم[2] ، وكذلك لأشياخ العرب مائة دينار لكل منهم ، وللفارس عشرون دينارا .

وكان النظام القبلى ، هو حسبما قدمنا ، أساس حشد الجيوش الموحدية ، فتقدم كل قبيلة ما يتعين عليها من الفرسان والرجّالة ، عند الاستنفار العام . وكان نظام التطوع يقوم كذلك إلى جانب نظام الحشد الجبرى ، فتحشد أعداد كبيرة من الجند على سبيل التطوع دون تكليف ، ويسمى هؤلاء بالمطوعة[3] وتعنى الخلافة الموحدية فى نفس الوقت ، وعند الاستعداد للجهاد ، باستجلاب الخيل والعدد والأسلحة والرماح والبيضات والدروع والتروس وكذلك الكسى ، وتوزيعها على الفرسان والجند وفق نظام معين .

ولم تغفل الخلافة الموحدية عن أهمية القوى البحرية ، وخصوصاً منذ

---

(١) الحلل الموشية ص ١١٥ . (٢) ابن صاحب الصلاة فى المن بالإمامة ص ١٧٤ .
(٣) البيان المغرب ص ١٧٤ .

استولت على إفريقية والأندلس . ومنذ عصر عبد المؤمن أول الخلفاء الموحدين، نرى الخلافة الموحدية ، فضلا عما آل إليها من بقايا الأسطول الموحدى ، تعنى بإنشاء القطائع البحرية سواء فى مياه المغرب ، أو إفريقية أوالأندلس . وقد أنشأ عبد المؤمن فى أواخر عهده عدداً ضخماً من هذه القطائع بلغ نحو ثلاثمائة أو أربعمائة ، كانت عماد الأسطول الموحدى الكبير ، وكان الأسطول ، فضلا عن قيامه بنقل الجيوش الموحدية الزاخرة ، وعتادها الهائل، عبر المضيق إلى الأندلس فى الذهاب والأوبة ، يقوم بحراسة الشواطىء الأندلسية ، من مياه البرتغال جنوبا ، حتى مياه بلنسية والجزائر الشرقية ، وشواطىء المغرب الشمالية حتى مياه تونس والمهدية . وكانت للأسطول الموحدى وحدات كبيرة ، ترابط فى المعمورة وسبتة، وتونس، ومالقة وقادس، وأحيانا فى مياه البرتغال الجنوبية . وقد لعب الأسطول الموحدى أدواراً هامة فى معارك الخلافة الموحدية مع البرتغال، وكذلك فى افتتاح المهدية، وحوادث الصراع مع بنى غانية، وفى افتتاح الجزائر الشرقية، وغيرها من مواطن الصراع بينها وبين خصومها .

وكانت شئون الجيش ، توكل إلى ديوانين أو وزارتين هامتين : الأول هو ديوان العسكر ، وعلى رأسه وزير ، يكون فى الغالب من الجند ، يشرف على كل ما يتعلق بشئون الجيش(١). والثانى هو ديوان التميز . وقد رأينا كيف بدأ التميز فى بداية الدولة الموحدية ، إجراء تعسفياً لاستبعاد الخصوم أوالمارقين أو إعدامهم ، وتطهير صفوف الجيش منهم ، ثم تطور هذا الإجراء بمضى الزمن ، وأصبح ينصرف إلى اختيار الصفوة من الجند، وكان يجرى التميز قبيل كل غزوة أوحرب هامة ، يضطلع بها الخليفة الموحدى ، ويعمل بالتميز زمام ، ويقرن بالإنعام والبركات على الجند الذين فازوا بالتميز . وكان يتولى ديوان التميز ، وزير يسمى كاتب ديوان التميز(٢) ، وكان للجيش فى نفس الوقت، فى ديوان الكتابة ، كاتب أو أكثر يختصون بالكتابة فى شئونه .

وكان حج الخليفة الموحدى إلى قبر المهدى وقبور آبائه بتينملل ، من الرسوم المأثورة، وكان الخليفة يقوم بهذه الزيارة حينما يعتزم الغزو ، أوالاضطلاع بعظائم الأمور ، وكانت تعتبر دائماً حركة مباركة ، وعنوان التشجيع والتيمن .

بيد أنه بالرغم مما بلغه الجيش الموحدى ، فى ظل الخلفاء الأقوياء منذ عبدالمؤمن

(١) البيان المغرب ص ١٤١ . (٢) ابن صاحب الصلاة فى المن بالإمامة لوحة ١٥٠ ب.

حتى نهاية عهد المنصور ، من الضخامة والقوة ، فإنه كانت توجد به ثمة ثغرات ، تعرضه من آن لآخر إلى وقوع الكوارث المؤلمة . ومن ذلك فوضى القيادة ، فإنه لم تكن للجيش من بعد عبد المؤمن قيادة قوية حارمة ، وكان اختيار القادة يتوقف على الظروف ، ويتم غالبا قبيل وقوع الغزو أو المعركة المرتقبة ، هذا مع اعتبار الخليفة دائماً هو القائد الأول لجيشه ، وكان استئثار الخليفة بالقيادة ، وعدم استماعه للخبراء من قادته ، ينتهى بالفشل كما حدث فى غزوة وبذه ، أو بالكارثة كما حدث فى موقعة شنترين . ولم يوفق المنصور إلى نصره الباهر فى معركة الأرك ، إلا بفضل حزمه ونصح قادته ، ولاسيما القادة الأندلسيين ، وكان اختيار القادة يتأثر غالبا بصلات القربى والمصاهرة ، مما يترتب عليه استبعاد القادة الأكفاء . وكان حظ القيادة الأندلسية ، على كفايتها وخبرتها بحروب شبه الجزيرة ضئيلا ، وقد أدت هذه الفوضى فى تنظيم القيادة الموحدية واختيارها : إلى هزيمة الجيش الموحدى غير مرة ، فى ظروف كان يلوح فيها أن النصر قريب منه .

وكان اختلال التموين فى الجيوش الموحدية ، يحدث كذلك أثره السيئ فى كفاية هذه الجيوش ومقدرتها . وقد كان امتداد خطوط التموين من أعماق المغرب عبر البحر إلى الأندلس، مسافات طويلة، أهم سبب فى هذا الاختلال . وبالرغم من إقامة قواعد التموين الهائلة فيما بين سلا وسبتة ، ولاسيما فى وادى سبو ، فإن الجيوش الموحدية ، كانت حينما تعبر إلى شبه الجزيرة ، وتتوغل فى أراضى العدو ، تشعر بنقص فى تموينها ، وكان هذا النقص ، يؤدى فى بعض الأحيان إلى اختلال نظام الجيش كله، وإلى انشغال معظم الجند بالبحث عن القوت . وقد تحدثنا فيما تقدم ، غير مرة ، عن هذه الظاهرة المؤسفة فى نظام الجيش الموحدى .

وكان من أهم ما تمتاز به الجيوش الموحدية ، تفوقها فى فن الحصار ، ومقدرتها على اقتحام المدن المنيعة ، بالآلات الفتاكة . وقد كانت تتفوق فى ذلك تفوقاً واضحاً ، على الجيوش المرابطية ، وكانت أمنع الأسوار والتحصينات تتحطم تحت ضربات هذه الآلات المدمرة . وقد دلل الموحدون على هذا التفوق فى حوادث كثيرة ، سواء فى إفريقية أو فى اسبانيا أو البرتغال ، حينما كانت تنهار تحصينات المدن والقلاع المنيعة ، أمام قصف مجانقهم وآلاتهم المدمرة ، ولنا من ذلك أمثلة بارزة فى حوادث حصار وهران والمهدية بإفريقية . وطرُّش وحصن

القصر أوقصر أبى دانس وشلب بالبرتغال . ومن جهة أخرى ، فإنه مما يلفت النظر ، أن الموحدين لم يقتصروا على استعمال الآلات القديمة وتحسينها ، بل كانوا يستعملون آلات جديدة قاذفة ، تقذف الحجارة والكرات الحديدة الملتهبة . وفى أواخر العهد الموحدى بالأندلس نرى الموحدين فى لبلة حين حصارها ، يطلقون على القوات النصرانية المحاصرة ، آلات تقذف الحجارة والحديد ، ويصحبها دوى كالرعد ، تشبه المدافع البدائية[1]. وكان الموحدون فى نفس الوقت يتفوقون فى تشييد الحصون والمنشآت الدفاعية ، ومازالت أطلال قصبة بطليوس العظيمة ، وقلعة جابر ، والأسوار الموحدية فى إشبيلية ولبلة ، تقوم شاهداً على هذا التفوق فى فنون التحصينات .

ولما وقعت نكبة العقاب المشئومة ، وسحقت الجيوش الموحدية ، وتعذر على الخلافة الموحدية أن تبعث حشودها إلى الأندلس ، انهارت الجبهة الدفاعية الأندلسية ، ونهضت الممالك الإسبانية النصرانية لتجنى ثمار نصرها ، وتلتهم من أشلاء الأندلس المهيضة ماستطاعت ، وشغل الولاة الموحدون ، وشغلت القوات الموحدية القليلة الباقية ، بما نشب حول كرسى الخلافة الموحدية من خلاف ، بدأ بالمغرب ، وتردد صداه بالأندلس ، فنهض أبومحمد عبد الله بن يعقوب المنصور ، المتلقب بالعادل ، أولا بإشبيلية ، ونادى لنفسه بالخلافة ضد عمه أبى محمد عبد الواحد ، وقام من بعده أيضاً بإشبيلية أخوه أبو العلى إدريس المتلقب بالمأمون ، مدعيا الخلافة لنفسه ، وتركت الأندلس لمصيرها ، بعد أن تخلت عنها الخلافة الموحدية ، تحاول بمواردها وقواها المضعضعة ، أن تقف فى وجه السيل المتدفق عليها ، من جيوش الفتح الإسبانية ، ولكن هيهات ، فقد كانت مصاير الأندلس كلها ، ترتجف فى كفة القدر ، وكان أن فقدت الأندلس ، سائر قواعدها الكبرى ، فى أقل من ربع قرن .

## ٤ — الحكومة الموحدية بالأندلس

كانت نظم الحكم المرابطية للأندلس ، يغلب عليها الطابع العسكرى ، وكان معظم حكام الولايات الأندلسية ، من قادة الجيش البارزين ، مثل سير بن أبى بكر اللمتونى ، ومحمد بن الحاج ، ومزدلى بن تيولتكان ، ويحيى بن غانية ، وغيرهم من أكابر القادة . ولكن النظم الموحدية ، كانت أميل إلى الطابع المدنى ، وكانت

---

(١) راجع ص ٤٩٣ من هذا الكتاب .

الأندلس ، أوشبه جزيرة الأندلس كما كانت تنعت فى الرسائل الموحدية الرسمية ، تعتبر خلال العصر الموحدى ، مثلما كانت عليه فى العهد المرابطى ، قطراً من أقطار الدولة الموحدية الكبرى . وكانت تنقسم إلى عدة ولايات أوعمالات ، هى ولاية الغرب ( شلب وأحوازها ) ، وباجة ويابره ، وبطليوس وماردة وأحوازهما ، وإشبيلية وكانت أعظمها رقعة ، وتشتمل على قواعد شريش وشذونة وأركش وقرمونة وإستجه ؛ وقرطبة وأحوازها ؛ وجيان وأحوازها ، وتشتمل على بياسة وأبدة ؛ وغرناطة وتشتمل على وادى آش وبسطة والمنكب والمرية وأحوازها، ومالقة وأحوازها ، وكانت عمالاتها تضم أحيانا إلى سبتة والجزيرة الخضراء[1] ؛ وبلنسية وتشتمل على قواعد قسطلونة ، والجزيرة وشاطبة ودانية والجزائر الشرقية ( وذلك قبل أن يستقل بها بنوغانية ) ؛ ومرسية وتشتمل على لقنت ، وأوريولة ولورقة . وكان يتولى حكم هذه الولايات عادة أبناء الخليفة وإخوته أو قرابته وأصهاره . وكانت مدينة إشبيلية هى مركز الحكومة الموحدية العامة بالأندلس لما تقدم شرحه من الأسباب والبواعث ، العمرانية والجغرافية والعسكرية ، وقد نقلت منها الحكومة إلى قرطبة فى أواخر عهد عبد المؤمن ، ولكن لفترة قصيرة فقط ، ثم أعيدت إلى إشبيلية ، وبقيت بها حتى نهاية العهد الموحدى . وكان يتولى منصب الحاكم العام للأندلس ، على الأغلب واحد من أبناء الخليفة أو إخوته ، وكان أول من تولاه من أبناء الخليفة السيد أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، وذلك فى سنة ٥٥١ هـ ، وذلك تحقيقاً لرغبة أشياخ إشبيلية[2] . وفى إشبيلية ، كان ينتظم حول ولد الخليفة ، أو أخيه ، بلاط موحدى صغير ، كان يسطع أحيانا بمن يلتف حول السيد الحاكم ، من أكابر الشخصيات الأندلسية المعاصرة ، وقد كان هذا شأن بلاط السيد أبى يعقوب يوسف حينما كان يتولى حكم إشبيلية ، ثم بعد ذلك لما عاد إليها بعد وفاة أبيه ، متشحا بثوب الخلافة ، وأقام بها بضعة أعوام . وكذلك سطع البلاط الموحدى بإشبيلية ، أيام أن أقام بها ولده الخليفة أبو يوسف يعقوب المنصور ، وحظيت إشبيلية فى عهد أبى يعقوب وولده المنصور بطائفة من الصروح والمنشئات العمرانية العظيمة مثل جامع إشبيلية الأعظم ، وصومعته الرائعة ( لاخيرالدا ) ، والقصور والبساتين الموحدية خارج باب جهور ، وحصن الفرج ، وقنطرة طريانة ، وغيرها مما سبق أن فصلناه فى موضعه .

(١) راجع ص ٣٣٩ ق١ من هذا الكتاب . (٢) راجع ص ٣٤٨ ق١ من هذا الكتاب .

وكان لكل ولاية أندلسية حكومتها المحلية ، تضم إلى جانب الوالى الموحدى ، الوزير والكاتب وصاحب العمل ، والمشرف على الجباية ، هذا عدا المناصب الدينية من القضاء والخطبة والشورى وغيرها . وكانت تؤلف هذه الحكومات المحلية عادة من أهل الأندلس ، وهم يختصون عادة بمناصب الكتابة والقضاء . وكان بعض السادة من أبناء الخليفة أو إخوته ، يستخدمون فى حكوماتهم المحلية أكابر كتاب الأندلس ، جريا على سنة بلاط مراكش ، فنرى مثلا السيد أبا سعيد ابن الخليفة عبد المؤمن ، حين ولايته لغرناطة ، يستخدم لكتابته ، الكاتب والشاعر الكبير أحمد بن عبد الملك بن سعيد العنسى(١) . ونرى فى أواخر العهد الموحدى ، السيد أبا زيد بن محمد بن يوسف بن عبد المؤمن والى بلنسية ، يستخدم لوزارته وكتابته ، كاتبا من أعظم كتاب الأندلس وشعرائها هو ابن الأبار القضاعى(٢). بيد أنه كانت تسند بعض المناصب الحساسة، إلى الموحدين ، مثل الإشراف على الجباية والأعمال . أما حكم القواعد فكان يسند على الأغلب إلى حكام من الأندلسيين ، الموثوق بولائهم وإخلاصهم للحكم الموحدى .

وكانت إشبيلية فضلا عن كونها مركز الحكومة الموحدية العامة ، تتخذ فى نفس الوقت ، مركزاً لتجمع الجيوش الموحدية ، القادمة من وراء البحر ، أو العائدة من الغزو ، لتعبر البحر مرة أخرى إلى أوطانها بالمغرب .

وكانت القوات الأندلسية ، حسبما ذكرنا فى موضعه ، تؤلف جناحا خاصاً فى الجيوش الموحدية الوافدة إلى شبه الجزيرة ، وكانت تقوم بحراسة كثير من الحصون فى مناطق الحدود ، أما مستقلة ، وإما بالاشتراك مع بعض الحاميات الموحدية . وكان لجند الأندلس قيادتها الاندلسية الخاصة ، إلى جانب القيادة الموحدية ، وكانت هذه القيادة الأندلسية تلعب أدواراً هامة فى التوجيه والإرشاد فى بعض المعارك الكبرى .

ومما هو جدير بالذكر أن مملكة الشرق ، أعنى منطقة بلنسية ومرسية ،كانت خاضعة قبل سقوطها فى أيدى الموحدين فى سنة ٥٦٧هـ ( ١١٧١ م ) لحكومة أندلسية محضة ، كانت تقوم بحكمها وفقاً للتقاليد الأندلسية الخالصة، وقد لبثت هذه المنطقة دائماً، حتى بعد استيلاء الموحدين عليها ، تحتفظ بطابع أندلسى قوى، يميزها عن بقية المناطق الأندلسية فى الوسط وفى الغرب. ويرجع ذلك من بعض

---

(١) الإحاطة فى أخبار غرناطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٢٢٤ (٢) راجع ص ٣٩٦ من هذا الكتاب .

الوجوه إلى حظوة آل مردنيش بعد وفاة عميدهم محمد بن سعد ، لدى الخليفة الموحدى ، والى موافقة الخليفة على استبقاء آل مردنيش لسلطانهم ونفوذهم فى تلك المنطقة مدى حين . ولما تضعضع سلطان الحكومة الموحدية ، بعد ذلك بنحو ثلث قرن ، على أثر نكبة الجيوش الموحدية فىموقعة العقاب ( ٦٠٩ هـ ) وضعفت الحاميات الموحدية المحلية ، كان شرقى الأندلس كذلك ، أول المناطق التى قامت بها الحركة التحريرية الأندلسية ، على يد المتوكل بن هود ، فى مرسية وأحوازها ، والرئيس أبى جميل زيان بن مردنيش فى بلنسية . ولم يكن ذلك سوى تجديد للحركة القومية الأندلسية ، التى اضطرمت ضدالحكم الموحدى فى شرقى الأندلس ، على يد محمد بن سعد بن مردنيش ، ولبثت صامدة زهاء ربع قرن . بيد أن هذه المرحلة الأخيرة من الحركة القومية الأندلسية ، كانت ضعيفة ، ولم يكتب لها الصمود ، إزاء توثب الممالك النصرانية وهجماتها المتوالية ، فكانت بداية المحنة ونذير الانهيار .

ونهض محمد بن الأحمر فى أواسط الأندلس، فكانت ثمة حركة قومية أندلسية أخرى . وكانت هذه الحركات القومية الأندلسية المحلية ، فى الظروف الدقيقة التى كانت تعمل فيها ، وبالرغم من صفتها القومية والتحريرية ، تصطبغ بلون انتحارى مؤلم ، وكانت الزعامات والقوى الموحدية ، التى بقيت فى شبه الجزيرة تشغل بمشاريعها الخاصة ، وأطماعها فى عرش مراكش، الذى أحاقت به الخلافات والفتن ، عن الاهتمام بقضية الأندلس ، أو التفكير فى مدافعة أعدائها المتربصين بها ، أعنى النصارى الإسبان ، بل كانت بالعكس تصانع أولئك الأعداء ، وتستمد عونهم ، وتقطعهم ما بيدها من حصون الأندلس وأراضيها . وقد لبثت إشبيلية حتى بيعة المأمون بالخلافة ، مركز الحكم الموحدى بالأندلس ، ولكنها مذ غادر المأمون شبه الجزيرة إلى المغرب ( ٦٢٦ هـ ) ، قامت بها حكومة محلية فى ظل الخلافة الموحدية ، ثم أخذت تتردد بين الاستقلال ، وبين الانضواء تحت حكم ابن هود تارة ، وتارة تحت ظل الخلافة الموحدية ، وأخيراً تحت ظل الدولةالحفصية بإفريقية . وكانحكم الأندلس فىتلك الفترة العصيبة ،كلهاضطراب وفوضى ، ولم تكن ثمة حكومة موحدة ، فى أية منطقة من المناطق ، بل كانت ثمة حكومات محلية عديدة فى منطقة الشرق ، وفى أواسط الأندلس ، وفى إشبيلية وقواعد الغرب ، حسبما فصلناه كله فى مواطنه .

# الفصل الثانى

## الحركة الفكرية الأندلسية

### خلال العصر الموحدى

### القسم الأول

الدولة المرابطية دولة دينية عسكرية . الحركة الفكرية فى ظلها امتداد لها فى عصر الطوائف . إزدهار الحركة الفكرية خلال العصر الموحدى . المهدى ابن تومرت وسمته العلمية . الخلفاء الموحدون العلماء . رعايتهم للعلماء والحركة العلمية . الخلافة الموحدية وإطلاقها لحرية البحث . دور الأندلس فى إذكاء الحركة الفكرية فى الغرب الإسلامى . تقاطر علماء الأندلس على العدوة . أثر ذلك فى تقدم الحركة الفكرية بالمغرب . إزدهار الحركة الفكرية خلال العصر الموحدى . تماوج الحركة الفكرية الأندلسية من جراء سقوط القواعد الاندلسية . نزوح علماء الشرق إلى إفريقية . إتجاه الحركة الفكرية خلال عصر الانهيار إلى العلوم الدينية . إزدهار العلوم الدينية والآداب حتى خلال عصر الانهيار . ضعف الحركة العلمية . كثرة علماء الدين والفقه والأدب بالأندلس خلال العصر الموحدى . الفقهاء والمحدثون وعلماء الدين الذين ظهروا فى أوائل هذا العصر . نماذج من أعلامهم . أبوعبد الله بن الفرس . ابن الجد الفهرى . أبوعبد الله بن الفجار . ابن ذى النون الحجرى. ابن أبى جمرة . ابن أبى زمنين . ابن عون الله المعروف بالحصار . عبد الله بن سليمان بن حوط الله الأنصارى . أخوه داود بن سليمان بن حوط الله. الحافظ أبو الربيع بن سالم الكلاعى . محمد بن ابراهيم المهرى . ابن زرقون الابن. علماء الدين الذين جمعوا بين الحديث والفقه والأدب والشعر واللغة . نماذج من هؤلاء . عبد الله بن عمر الحضرمى . ابن الأشيرى. محمد بن إدريس العبدرى . محمد بن أحمد المتانجشى . محمد بن خير الإشبيلى . عبد الله بن يحيى بن صاحب الصلاة . ابن صاف اللخمى . محمد بن جعفر بن حمدين الأموى . ابن زرقون الأب . ابن نجبة الرعينى . أحمد بن عبد الرحمن بن مضاء . ابن عيسى التادلى . أحمد بن عتيق الذهبى . ابن خلف الأموى الخطيب . ابن عمران القيسى الميرتلى . ابن نوح الغافقى . أبو عمر أحمد بن عات النفرى . أحمد بن خلف الشنتيالى . ابن خلصة الحميرى . ابن عبد العزيز الأنصارى النحوى . ابن حزم الأموى النحوى . . ابن عبد المؤمن القيسى الشريشى . من نبغ فى أواخر العصر الموحدى من العلماء الذين جمعوا بين علوم الدين واللغة والأدب والشعر . محمد بن يخلفتن الفازارى التلمسانى . أحمد بن يزيد بن بقى بن مخلد الأموى . ابن أصبغ الأزدى . ثابت بن خيار الكلاعى . محمد بن جابر السقى . ابن السقاء . من ظهر من هؤلاء وقت الانهيار . ابن مطروح التجيبى . ابن عسكر المالقى . ابن الصفار الضرير . ابن أبى حجة . أحمد بن على بن أحمد الأنصارى . عبد الله بن خلف اللخمى الحرار . ابن محرز . أكابر المتصوفة . أحمد بن عمر المعافرى المعروف بابن إفرندو . ابن مراد السلمى . محمد بن عبد الله بن العربى المعافرى . ابن سيدبونه الخزاعى . محمد بن عبد الله بن قاسم الأنصارى . ابن مهيب اللخمى . الشيخ محيى الدين الطائى ابن عربى .

لم تكن الدولة المرابطية ، حسبما وضح من تاريخها ، سوى دولة دينية عسكرية ، استمدت حياتها ومنعتها خلال عهدها القصير ، مما كانت تتسم من صفات البداوة والخشونة ، وكانت روح التزمت التى تغلب عليها ، وتدفعها إلى تجاهل القيم الفكرية والأدبية ، تحول دون تفتح الحركات العقلية وتقدمها ، ولم تكن تلك الحركة الفكرية التى ازدهرت فى ظلها ، والتى استعرضنا بعض ملامحها فيما تقدم ، سوى امتداد طبيعى ، واندفاع حتمى ، لتلك الحركة الفكرية العظيمة التى ازدهرت فى ظل دول الطوائف ، والتى أسبغ عليها ملوك الطوائف كل تشجيع ورعاية ، ثم جاءت الدولة المرابطية ، فاحتضنت بعض جوانبها الرسمية ، بمن كانت تحشدهم حولها من الوزراء العلماء ، والكتاب البلغاء ، ليكونوا لسانا لها ، لدى الشعوب المحكومة ، سواء بالمغرب ، أوالأندلس ، ولكى يستكمل البلاط المرابطى ، بعد أن ضخمت الدولة وتوطد سلطانها ، ما ينقصه من أسباب الهيبة والبهاء

أما الدولة الموحدية فكان لها شأن آخر . ذلك أن عصر الدولة الموحدية ، الذى استطال زهاء قرن ونصف قرن من الزمان ، كان من أحفل عصور التاريخ الأندلسى والمغربى بالحركات الفكرية . وإنه ليبدو من الغريب المدهش ، أن نجد الحركة الفكرية الأندلسية ، حتى فى مرحلة الانحلال والانهيار ، التى توالى فيها سقوط القواعد الأندلسية الكبرى ، مستمرة فى الاحتفاظ بنشاطها وعنفوانها ، ونراها تنحدر عبر البحر من القواعد الأندلسية الذاهبة ، إلى قواعد إفريقية والمغرب ، تحمل معها تراثها الزاخر ، وتزدهر هنالك حقبة أخرى .

ويجب قبل أن نتحدث عن هذه الحركة الفكرية الباذخة ، التى ازدهرت بالمغرب والأندلس ، خلال العصر الموحدى ، أن نحاول أن نستكشف فى ملامح الدولة الموحدية ، بعض العوامل المشجعة ، أو الدافعة لمثل هذه الحركة ، إذ أنه لاريب فى أن الدولة الموحدية ، بالرغم مما كان يقع فى ظلها بين آونة وأخرى ، من ضروب المطاردة الفكرية ، كانت دولة حامية للعلوم والآداب والفنون .

لقد كان مؤسس الدولة الموحدية الروحى ، المهدى محمد بن تومرت ، من أقطاب علماء عصره ، وقد أفسح فى دعوته للعلم أيما مكانة ، وحض على تحصيله بقوة وحماسة ، فى عبارته المشهورة ، التى يفتتح بها كتابه وهى :

« أعز ما يطلب ، وأفضل ما يكتسب ، وأنفس مايدخر ، وأحسن مايعمل ، العلم الذى جعله الله سبب الهداية إلى كل خير ، هو أعز المطالب ، وأفضل

المكاسب ، وأنفس الذخائر ، وأحسن الأعمال » .

وقد كان أول خلفاء المهدى ، وهو عبد المؤمن بن على ، مؤسس الدولة الموحدية الحقيقى ، وموطد دعائمها ، كذلك كان عالما من ألمع علماء عصره ، يلتف حوله العلماء والكتاب والشعراء من المغرب والأندلس ، يبسط عليهم رعايته ، ويغمرهم بصلاته ، وهو الذى نظم جماعة الحفاظ الموحدين ، وعنى بأمرها أشد عناية ، حتى بلغت فى أيامه نحو ثلاثة آلاف حافظ ، يدرسون كتب المهدى وتعاليمه ، وقد تولى الكثير منهم فيما بعد كثيراً من مناصب الثقة والمسئولية ، فى الدولة الموحدية بالمغرب والأندلس .

وكان الخليفة أبو يعقوب يوسف بن عبدالمؤمن ، كذلك من أكابر علماء عصره ، وكان أديبا متمكناً ، وفقيهاً ، ومحدثاً بارعا ، يشغف فى نفس الوقت بالدراسات الفلسفية ، ويجمع حوله طائفة من أعظم علماء العصر ومفكريه ، وفى مقدمتهم أبو بكر ابن طفيل ، وأبو الوليد بن رشد ، وأبو بكر بن عبد الملك بن زهر ، وهم أساتذة الفلسفة والطب فى هذا العصر . وقد انتهى إلينا من آثاره كتابه فى « الجهاد » وهو الملحق بكتاب المهدى ابن تومرت . وذلك حسبما أشرنا إلى ذلك فى موضعه .

وكان ولده الخليفة يعقوب المنصور عالما مستنيراً ، متمكنا من الحديث والفقه واللغة ، وكان مثل أبيه وجده ، يجمع حوله العلماء والأدباء والشعراء ، من المغرب والأندلس ، ويجزل صلتهم ، ويجرى المرتبات على الفقهاء والطلبة ، وفقا لمراتبهم وطبقاتهم (١) . وكان كذلك يجرى الرواتب المنتظمة ، لكثير من الأطباء ، والمهندسين والكتاب والشعراء وغيرهم (٢) ، وكان له بتمكنه من الفقه ، دور فعال فى تطور العقيدة الموحدية ، وجنوحها إلى المذهب الظاهرى .

ونجد حتى فى أواخر الدولة الموحدية ، حينما شاخت وأدركها الوهن ، فى الخلفاء الموحدين ، من يتسم بالصفات العلمية البارزة ، فقد كان الخليفة المأمون ابن المنصور ، عالما متمكناً من اللغة والأدب والشعر ، وكان كاتبا مقتدراً ، وكان الخليفة المرتضى لأمر الله ، فقيهاً وأديبا وشاعراً . وكانت هذه الصفات العلمية للأواخر من الخلفاء الموحدين ، تبرز على ما عداها ، بالرغم مما كانت تتردى فيه الدولة ، من الفتن والحروب الأهلية المتواصلة .

وقد كان لهذه النزعة العلمية التى غلبت على معظم الخلفاء الموحدين ، أثر

(١) روض القرطاس ص ١٤٣ .    (٢) المراكشى فى المعجب ص ١٣٤ .

كبير فيما جرت عليه الدولة الموحدية طوال أيامها ، من رعاية للعلماء والمفكرين من كل ضرب ، وحشدها لأعلام الكتاب والمفكرين حول البلاط الموحدى ، سواء فى مراكش أو إشبيلية .

ونستطيع أن نضيف إلى ذلك أن الخلافة الموحدية ، تحملها هذه النزعة العلمية الأصيلة ، قد جرت على سياسة إطلاق حرية البحث والتفكير ، خلافا لما كانت عليه الدولة المرابطية ، من تزمت وتقييد لحرية الفكر ، ومطاردة منظمة لكتب الغزالى وأضرابها من كتب الأصول المشرقية . ولم تشذ الخلافة الموحدية عن هذا المبدأ الحر ، إلا فى أحيان قليلة ، كان أهمها حادثان ، هما اضطهاد العلامة الفيلسوف والطبيب اليهودى الرئيس موسى بن ميمون ، ومحنة العلامة الفيلسوف والطبيب أبى الوليد بن رشد ، وذلك حسبما نشير إليه فيما بعد عند الكلام على هذين المفكرين .

بيد أنه بالرغم من هذا التنويه ، بما كان عليه الخلفاء الموحدون من الصفات العلمية ، ورعاية العلوم والآداب ، وماجرت عليه الخلافة الموحدية من إطلاق حرية الفكر ، يجب ألا ننسى حقيقة هامة ، وهى ذلك الدور الفعّال الذى لعبته الأندلس ، وهى يومئذ إحدى ولايات الإمبراطورية الموحدية الكبرى ، فى إذكاء الحركة الفكرية العامة ، بالغرب الإسلامى ، خلال العصر الموحدى . وإذا تركنا جانبا ماكان يحشده البلاط الموحدى حوله ، من أعلام الكتاب الأندلسيين ، فإن تقاطر العلماء على اختلاف طوائفهم باستمرار من شبه الجزيرة الأندلسية ، إلى العدوة ، واستقرار الكثير منهم بالحاضرة الموحدية ، أوبغيرها من قواعد المغرب ، وعبور الطلاب والعلماء المغاربة من جهة أخرى إلى الأندلس ، للدراسة بمعاهدها التالدة فى إشبيلية ، وقرطبة وغرناطة وبلنسية ومرسية ، كان له أكبر الأثر فى ازدهار الحركة الفكرية ، بالقطرين العظيمين المغرب والأندلس ولما انهار سلطان الموحدين بالأندلس ، وأخذت قواعد الأندلس الكبرى ، تسقط تباعا فى أيدى النصارى ، عبر كثير من علماء الأندلس ، من أبناء القواعد الذاهبة ، إلى ثغور إفريقية وقواعدها ، ولاسيما تونس وبجاية وتلمسان ، وقامت فى شمال إفريقية فى أواسط القرن السابع الهجرى ، حركة فكرية وأدبية زاهرة .

ومن ثم فإنه من الواضح ، إزاء ذلك كله ، أن الحركة الفكرية فى الغرب الإسلامى ، كانت خلال العصر الموحدى ، تجوز ، سواء بالمغرب أوالأندلس ،

فترة من القوة والازدهار . وإذا كان من الصعب علينا ، خلال هذا البحث الذى خصص لتاريخ الدولة الموحدية السياسى ، أن نستوعب سائر جوانب هذه الحركة الفكرية العظيمة ، التى لايمكن أن يتسع لتفاصيلها ، سوى تاريخ خاص للآداب فى هذا العصر ، فإننا سوف نحاول مع ذلك ، أن نلم بعناصرها بصفة عامة ، وأن نستعرض الكثير من أعلامها ، فى مختلف العلوم والفنون ، ولاسيما فى شبه الجزيرة الأندلسية . هذا مع ذكر طائفة من أعلام التفكير المغاربة ، الذين يقتضى المقام أن نذكرهم .

ومما يلاحظ فى سير الحركة الفكرية الأندلسية فى العصر الموحدى ، تماوجها وعدم استقرارها ، ولاسيما منذ أواخر القرن السادس الهجرى ، وذلك حينما بدأت قواعد الغرب الإسلامية تسقط فى أيدى النصارى ، واتجهت هجرة العلماء وغيرهم ، من أوطانهم القديمة ، صوب منطقة إشبيلية . وحدث مثل هذا التقلقل فى الأندلس الوسطى ، وذلك حينما سقطت قرطبة عاصمة الخلافة القديمة ، وأعظم مراكز التفكير الأندلسى ، فى أيدى القشتاليين (٦٣٣هـ) . وتلتها بقية قواعد المنطقة مثل جيان وغيرها ، فعندئذ تحول مركز التفكير الأندلسى من هذه المنطقة إلى الجنوب ، صوب غرناطة وغيرها من قواعد الأندلس الجنوبية ، وكانت قد بدأت تجتمع فى ظل زعامة إسلامية جديدة ، هى زعامة ابن الأحمر . ثم لما وقع الانهيار العام فى شرق الأندلس ، وسقطت بلنسية وشاطبة ودانية وغيرها من قواعد الشرق فى أيدى النصارى ( الأرجونيين ) ( ٦٣٦ — ٦٤١هـ ) ، غادرها العلماء والخاصة ، بعضهم إلى مرسية وأحوازها ، ومعظمهم إلى ثغور إفريقية ، ولاسيما تونس وبجاية ، وكان فى مقدمة هؤلاء علماء وكتاب أعلام ، مثل ابن الأبار القضاعى ، وأبى المطرف بن عميرة المخزومى ، وأبى عبد الله بن الجنان وغيرهم . ولبثت مرسية وأحوازها ، بعد سقوط بلنسية ، زهاء ثلاثين عاما أخرى ، مركزاً للعلوم الأندلسية ، وإن كان ذلك فى ظروف مقلقة ، وتحت ضغط العدو المستمر ، حتى سقطت بدورها فى أيدى النصارى ، وخبا بذلك آخر مشعل للعلوم الإسلامية فى شرقى الأندلس ، وتفرقت بقية علماء الشرق ، فى مختلف القواعد الجنوبية ، وقصد الكثير منهم إلى ثغور إفريقية وقواعد المغرب .

وثمة ملاحظة أخرى تتعلق بعناصر الحركة الفكرية الأندلسية ، فى هذا العصر الذى اضطربت فيه أوضاع الحياة الإجتماعية بالأندلس ، وهى أن هذه

العناصر كانت تتجه قبل كل شىء إلى العلوم الدينية والآداب ، بينما لا تحظر العلوم الدنيوية المحضة منها إلا بالقليل النادر ، فلانجد من علماء الطب والفلك والنبات مثلا سوى أفراد قلائل ، ولانجد، إذا استثنينا العالم النباتى الكبير أبا العباس ابن الرومية، شخصيات علمية بارزة، من طراز ابن زهر وابن طفيل وابن رشد . أما العلوم الدينية والآداب ، فقد لبثت حتى خلال المحنة ، محتفظة بمستواها الرفيع السابق ، بل لقد بلغت الآداب ، وقت الانهيار العام ، مستوى عظيما من التفوق ، لم تبلغه فى عصور سابقة ، وبلغ النثر والشعر منتهى الروعة . ذلك أن المحنة بسقوط الأوطان القديمة، وتبدد الشمل، وفقد المال والأهل والولد، وانهيار أركان الدين ، وانطفاء نور الإسلام ، فى تلك الربوع العزيزة ، كل ذلك قد أذكى لوعة الشعر والنثر ، وصدرت عندئذ فى بكاء الأندلس، من المراثى البليغة ، من النظم والنثر ، ما يهز أوتار القلوب ، وما لا يزال يحتفظ حتى اليوم بكل روعته وتأثيره .

والآن بعد أن استعرضنا بعض ملامح الحركة الفكرية الأندلسية ، خلال العصر الموحدى ، نحاول أن نستعرض ذلك الثبت الحافل من أعلام التفكير الأندلسى ، الذين ظهروا فى هذا العصر ، وسوف نبدأ فى ذلك بعلماء الدين ، من فقهاء ومحدثين ، ومن إليهم من علماء الكلام والأصول وغيرهم .

— ١ —

قلنا إن الحركة الفكرية الأندلسية ، خلال العصر الموحدى ، تمتاز بوفرة فى دراسة علوم الدين والفقه والأدب ، ومن ثم فإنا نجد أمامنا جمهرة كبيرة من علماء الدين والفقه يعدون بالمئات ، ومن المتعذر علينا فى هذا المقام المحدود ، أن نذكرهم جميعاً ، ولهذا فسوف نقتصر على ذكر الأعلام البارزين منهم .

ومن جهة أخرى فإن كثيراً من هؤلاء العلماء والفقهاء ، الذين امتازوا بالتفوق فى العلوم الدينية ، كالحديث والأصول والتفسير والفقه ، كانوا فى نفس الوقت يمتازون بتمكنهم من الأدب وعلوم اللغة ، وبعضهم ينظم الشعر ، ومن ثم فإنا سوف نحاول أن نقدم منهم من غلب عليهم التفوق فى العلوم الدينية ، ثم نتبعهم بمن مزجوا بين علوم الدين والأدب ، بيد أن مثل هذا التصنيف لا يمكن إلا أن يكون أمراً نسبياً .

ونود أن نشير كذلك ، إلى مسألة الفارق الزمنى بين عصر المرابطين وعصر الموحدين . ذلك أننا أدرجنا ضمن أعلام التفكير الأندلسى فى عصر المرابطين ،

بعض من امتدت حياتهم إلى صميم العصر الموحدى ، إلى سنة ٥٦٠ هـ ، وأحيانا إلى سنة ٥٧٠ هـ ، وسوف ندرج هنا ضمن أعلام العصر الموحدى بعض من توفوا قبل ذلك ، ممن أدركوا العصر المرابطى وظهروا فيه . والتفرقة هنا نسبية أيضاً ، ولاضير منهما ، مادمنا نعنى فى كتابنا بعصر المرابطين والموحدين معا .

ونبدأ بذكر طائفة من الفقهاء والمحدثين وعلماء الدين ، الذين ظهروا بالأندلس فى أوائل العصر الموحدى ، منذ منتصف القرن السادس الهجرى . ومن الواضح أن معظمهم ظهر كذلك فى العصر المرابطى ، قبل عبور الموحدين إلى شبه الجزيرة واستيلائهم عليها .

كان من هؤلاء ابراهيم بن الحاج أحمد بن عبد الرحمن بن سعيد بن خالد ابن عماره الأنصارى ، من أهل غرناطة ، وبها نشأ ودرس على أعلام عصره بها ، وبقرطبة ومالقة ، وألمرية ، وكان ممن أخذ عنهم أبو بكر بن عطية ، وأبو الحسن ابن الباذش ، وابن عتاب ، وابن رشد ، وغيرهم من الأقطاب ، وبرع فى الفقه والحديث ، والقراءات ، ومارس عقد الشروط ، وولى القضاء بعدة جهات من ولاية غرناطة ، ولما انهار سلطان المرابطين بالأندلس غادر موطنه غرناطة ، يتجول فى البلاد ، حتى استقر أخيراً بمدينة ميورقة فى كنف أميرها إسحاق بن محمد بن غانية ، فولاه قضاءها ، وتصدر للدرس والإقراء وكان من أعلام دولة بنى غانية . وتوفى بميورقة فى جمادى الأول سنة ٥٧٩ هـ ، ومولده بغرناطة سنة ٤٩٥ هـ[1] .

ومحمد بن عبد الرحيم بن محمد بن الفرج بن هاشم الأنصارى الخزرجى ، ويعرف بابن الفرس ، من أهل غرناطة ، درس على أبيه أبى القاسم ، وأبى بكر بن عطية ، وأبى الحسن بن الباذش ، وأبى القاسم بن ورد ، ودرس فى قرطبة على ابن عتاب وابن رشد ، وابن الوراق وغيرهم من أعلام العصر . وعنى بالحديث والفقه والقراءات ، والرواية ، مع تمكن من الفتوى . غادر بلده غرناطة عند وقوع الفتنة بها على أثر انهيار سلطان المرابطين واستوطن مرسية ، وولى بها خطة الشورى ثم تولى قضاء بلنسية ، ولكنه غادرها عند قيام ثورة ابن شلبان ، وأدى اضطراب الأحوال إلى أن صرفه الأمير محمد بن سعد عما كان بيده من الخطط ، ثم عاد فاسترضاه لما رأى من علمه وفضله وزهده ، وكان فى وقته من أعلام حفاظ الأندلس ، مع مشاركة فى الأدب . أخذ عنه الكثير

(١) ترجمته فى التكملة ( القاهرة ) رقم ٤٠٠ .

وانتفعوا به ، وكانت وفاته بمدينة إشبيلية ، عند وفوده عليها مع وجوه أهل مرسية لتحية الخليفة ، وذلك فى شوال سنة ٥٦٧ هـ(١) .

وبيبش بن محمد بن أحمد بن خلف بن بيبش العبدرى من أهل أندة ، وسكن مع أبيه بلنسية ، ودرس بها وبرع فى الفقه ، وولى الشورى ببلنسية ، وكذلك خطة الأحكام ، وكان بصيراً بعقد الشروط ، مدركا لصحة الأحكام ، وتطوع فى جيش الخليفة أبى يعقوب يوسف حينما سار لغزو مدينة وبذة فى سنة ٥٦٧ هـ ، ثم توفى عقب عوده من الغزو المذكور فى سنة ٥٦٨ هـ(٢) .

وعبد الله بن أحمد بن سعيد بن عبد الرحمن العبدرى من أهل بلنسية ويعرف بابن موجوال ، درس الفقه والحديث والقراءات ، ونزح إلى إشبيلية ، فسكنها وأخذ عن أبى مروان الباجى ، وأبى بكر بن العربى وغيرهما ، وبرع بالأخص فى دراسة الفقه ، وكان بصيراً بالأحكام ، وعرف فوق ذلك بالورع والزهد ، وحدث عنه جماعة من الأعلام . ألف شرحاً فى صحيح مسلم ، ولكنه توفى قبل إتمامه ، وله كذلك شرح لرسالة أبى زيد القيروانى . وتوفى فى إشبيلية سنة ٥٦٦ هـ(٣)

ومحمد بن عبد العزيز بن على بن عيسى بن مختار الغافقى ، من أهل قرطبة ، ويعرف بالشقورى لأن أصله من شقورة . كان معنيا بصناعة الحديث ، بصيراً بطرائقه ، وكان فوق ذلك حافظا لأخبار الأندلس متمكنا من الفقه والأحكام . ولى قضاء شقورة بلده الأصلى ، فحمدت سيرته ، واشتهر بالعدل والنزاهة ، وحدث وأخذ عنه الناس ، وتوفى فى المحرم سنة ٥٧٩ هـ(٤) .

وأحمد بن يوسف بن عبد العزيز بن محمد القيسى الوراق من أهل قرطبة أخذ عن ابن عتاب وابن رشد والقاضى عياض وغيرهم من أقطاب عصره ، وكان عالما بالحديث ، حدث وأخذ عنه جماعة كبيرة ، وكان أصم ، وتوفى بمراكش سنة ٥٨٢ هـ(٥) .

وأحمد بن عبد الصمد بن أبى عبيدة الخزرجى من أهل قرطبة ، وسكن غرناطة وقتا ، ثم نزح إلى بجاية ، وكان محدثاً متمكنا من الرواية . وكتب فى أحكام النبى كتابا سماه « آفاق الشموس وأعلاق النفوس » وكتابا آخر عنوانه « مقامع الصلبان ومراتع رياض أهل الإيمان » ، وتوفى بمدينة فاس فى شهر ذى الحجة سنة ٥٨٢ هـ(٦) .

---

(١) ترجمته فى التكملة رقم ١٣٩٤ .
(٢) ترجمته فى التكملة رقم ٦٠٩ .
(٣) ترجمته فى التكملة رقم ٢٠٥٠ .
(٤) ترجمته فى التكملة رقم ١٤٣٦ .
(٥) ترجمته فى التكملة رقم ٢٢٢ .
(٦) ترجمته فى التكملة رقم ٢٢٣ .

وبيبش بن محمد بن على بن بيبش العبدرى من أهل شاطبة ، درس الفقه والحديث والتفسير مع مشاركة فى النحو ومارس الشورى والفتيا زمنا ، وعرف بمقدرته وكفايته . ثم تولى قضاء شاطبة بلده . وألف فى التعليق على صحيح البخارى كتابين ، وأخذ عنه جماعة من أعلام عصره ، توفى فى جمادى الأولى سنة ٥٨٢ (١)

وكان من أعظم فقهاء هذا العصر وحفاظه ، ابن الجد الفهرى ، وهو محمد ابن عبد الله بن يحيى بن فرح بن الجد ، وأصله من لبلة وبها ولد سنة ٤٩٦ هـ ، وتلقى بها دراسته الأولى ثم درس بقرطبة ، وأخذ فيها عن ابن عتاب ، وابن رشد ، وأخذ فى إشبيلية عن أبى بكر بن العربى وغيره ، وعنى لأول أمره بدراسة العربية فبرع فيها ، وعزم على التخصص فيها، والتصدر لاقرائها ، ولكنه مال بعدئذ بتوجيه أستاذه ابن رشد إلى دراسة الفقه والحديث ، فبرع فى هذا الميدان وبلغ فيه الذروة ، وانتهت إليه رياسة عصره فى الحفظ والفيتا ، وقدم للشورى بإشبيلية مع أبى بكر بن العربى ونظرائه من الفقهاء البارزين يومئذ ، وكان فى عصره فقيه الأندلس والمغرب وحافظهما دون منافس ولا منازع ؛ كما كان أبرع أهل عصره فى التمكن من مذهب مالك . وكان فوق ذلك فصيحاً، وخطيباً مفوها ، وذاع صيته فى المغرب والأندلس ، وتبوأ ذروة النفوذ والجاه فى ظل الدولة الموحدية ، ولكنه لم يترك من قلمه آثارا ذات شأن ، ونوفى بإشبيلية فى الرابع عشر من شوال سنة ٥٨٦هـ عن تسعين عاما ، ولبثت أسرته عصراً تحتفظ بمكانتها ونفوذها ، وتولى حفيده الفقيه أبو عمرو بن الجد زعامة إشبيلية وقتا ، أيام الانهيار والفتنة ، وتوفى قتيلا قبل سقوط إشبيلية بوقت قصير (٢)

ومن الفقهاء والمتكلمين ، صالح بن أبى صالح خلف بن عامر الأنصارى الأوسى من أهل مالقة ، درس بها على أعلام عصره ثم رحل إلى تلمسان، ثم إلى تونس ، والمهدية ، وأخذ عن أقطابها سماعا وإجازة . وكان فقيها متمكناً من علم الكلام . وروى عنه الأخوان أبو محمد وأبو سليمان إبنا حوط الله ، وتوفى فى رمضان سنة ٥٨٦ هـ (٣) .

ومنهم أحمد بن محمد بن أخلف بن عبد العزيز الكلاعى ، من أهل إشبيلية

---

(١) ترجمته فى التكملة رقم ٦١٠ .

(٢) راجع ترجمة الحافظ ابن الجد فى التكملة رقم ١٤٦٩ ، وراجع ص ٤٧٠–٤٧٢ من هذا الكتاب .

(٣) ترجمته فى التكملة رقم ١٨٨٧ .

ويعرف بالحوفى . درس الفقه والحديث ،وسمع من أبى بكر بن العربى وغيره ، وتولى قضاء إشبيلية ، وعنى بنوع خاص بعلم الفرائض ، وألف فيه كتابا حسنا وتوفى فى شعبان سنة ٥٨٨ هـ[١] .

وأبو بكر بن خلف الأنصارى ، من أهل قرطبة ، ويعرف بالموافق ، درس الحديث والفقه ، ونزح إلى مدينة فاس ، واشتهر بغزارة الحفظ ، وتولى تدريس الفقه عصراً ، واشتهر بمقدرته وتبحره ، وعنى فى الحديث بالتعليل والبحث عن الأسانيد والرجال ، ولم يعن بالرواية ، والتحق وقتا بخدمة الخليفة فى مراكش ، ونال جاها وثراءً ، ثم ولى قضاء فاس ، فلبث فيه حتى توفى فى شوال سنة ٥٩٠ هـ[٢] .

ومحمد بن ابراهيم بن خلف بن أحمد الأنصارى من أهل مالقة ، وأصله من بلنسية ، ويعرف بابن الفخار . كان أماما فى الحديث ، مقدما فيه ، وفى المعرفة بسرد المتون والأسانيد ، وتمييز الرجال . سمع من أبى بكر بن العربى ، وأكثر عنه واختص به ، وعن أبى مروان بن بونه ، وأبى جعفر البطروجى ، وشريح ابن محمد ، وأبى طاهر السلفى . وكانت له فوق ذلك مشاركة فى اللغة ومعرفة الشروط ، وكان يتولى عقدها بباب قنتنالة ، وكان يحفظ «صحيح مسلم» ، وكان شديد الورع ، جليل القدر ، شديد التمسك بالعدل ، مكرما لطلاب العلم . واستدعى فى أواخر حياته من الخليفة يعقوب المنصور إلى مراكش ليسمع عليه بها ، فقصد إليها ، ولكنه توفى بها بعد قليل فى شعبان سنة ٥٩٠ هـ ، ومولده بمالقة سنة ٥١١ هـ[٣] .

وعبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن ذى النون الحجرى ، من أهل ألمرية ، وأصلهم القديم من طليطلة ، ولهم فيما يبدو صلة رحم ببنى ذى النون سادة طليطلة أيام الطوائف . درس الحديث والفقه ثم رحل إلى قرطبة ، ثم إلى إشبيلية ، ودرس فيهما على أعلام عصره ، ولاسيما أبى القاسم بن بقى ، وابن مغيث ، وأبى بكر بن العربى ، وشريح بن محمد ، واشتهر بتبحره وغزارة حفظه . وكان آية فى الصلاح والورع والفضل والعدالة ، وولى الخطبة والصلاة بجامع بلده ألمرية ، ودعى إلى القضاء ، فاعتذر . ولما غلب النصارى على ألمرية فى سنة

---

(١) ترجمته فى التكملة رقم ٢٢٧ .
(٢) ترجمته فى التكملة رقم ٥٩٦ .
(٣) ترجمته فى التكملة رقم ١٤٨٠ .

٥٤٢ هـ (١١٤٧ م) غادرها إلى مرسية ، وعاش بها وقتا فى خمول وضعة ، ثم غادرها إلى مالقة، ولكنه لم يجد بها طيب المستقر ، فعبر البحر إلى العدوة ، ونزل بمدينة فاس وأقام بها مدة ، ثم انتقل منها إلى سبتة ، فاستوطنها ، وهو عاكف على إقراء القرآن وتدريس الحديث ، وسار ذكره ، وبعد صيته ، حتى قصد إليه الناس من كل صوب للأخذ عنه ، واستدعاه الخليفة ، أبويعقوب يوسف ، إلى مراكش ، ليسمع بها ، فقصد إليها وأقام بها مدة ، ثم استأذن فى العود إلى سبتة وقضى بها بقية حياته . حدث عنه عدد كبير من جلة العلماء من الأندلس والمغرب . وكان مولده بحصن قنجاير على مقربة ألمرية فى سنة ٥٠٥ هـ ، وتوفى بسبتة فى شهر المحرم ، وقيل فى صفر سنة ٥٩١[١] .

ومحمد بن عبد الكريم الفندلاوى من أهل مدينة فاس ، ويعرف بابن الكتانى ، كان إماما فى علم الكلام وأصول الفقه ، وعكف على تدريسهما طول حياته ، وكان له معرفة بالآداب ، وله رجز فى أصول الفقه ، وروى عنه جماعة من أهل المغرب ، وتوفى سنة ٥٩٦ هـ[٢] .

وأحمد بن سلمة بن أحمد بن يوسف بن سلمة الأنصارى من أهل اورقة ، وسكن تلمسان ، ويعرف بابن الصيقل . درس الحديث وبرع فى صناعته ، وروى عن ابن الدباغ ، وابن بشكوال ، وابن خير ، وابن الجد ، وغيرهم من الأقطاب ، وكان من أهل الضبط والإتقان . حدث ، وسمع منه الكثير ، وذكر لنا ابن الأبار أن شيخه أبا الربيع بن سالم كبير علماء بلنسية فى عصره ، كان يطنب فى الثناء عليه . وتوفى فى المحرم سنة ٥٩٨ هـ[٣] .

ومحمد بن أحمد بن عبد الملك بن موسى بن محمد بن مروان بن خطاب ابن عبد الجبار ، ويعرف بابن أبى جمرة ، من أهل مرسية . درس الفقه والحديث على أقطاب عصره ، وعنى بالرأى وحفظه ، وولى خطة الشورى ، وهو شاب فى الحادية والعشرين أيام إمامة القاضى ابن أبى جعفر ، ثم فى ظل إمارة محمد بن سعد ، واستمر فيها وقتا ، وكان أول من شاوره من القضاة أبو الحسن بن برطلة . ثم ولى قضاء مرسية وبلنسية وشاطبة وأوريولة فى أوقات مختلفة . وكان حافظا متقنا ، وفقيهاً بارعا ، بصيراً بمذهب مالك ، متخصصاً فى تدريسه ، عدلا دقيقاً فى

(١) ترجمته فى التكلة رقم ٢٠٨٠ .
(٢) ترجمته فى التكلة رقم ١٧١٨ .
(٣) ترجمته فى التكلة رقم ٢٣٨ .

أحكامه ، فصيحاً ، حسن البيان . ومن مؤلفاته ، كتاب« نتائج الأبكار ، ومناهج النظار ، فى معانى الآثار » ، ألفه بعد سنة ٥٨٠ هـ ، حينما قام الخليفة المنصور بمطاردة أهل الرأى ، وأمر بإحراق المدونة وغيرها ، من كتبه ، وكتاب « إقليد التقليد المؤدى إلى النظر السديد » . وله برنامج عدد فيه الأعلام من علماء أسرته . وقد حمل عليه وعلى أسلافه بعض علماء عصره ، ودافع عنه ابن الأبار ، فى ترجمته بالتكملة ، ونوه بفضل بعض الأعلام من سلفه ، تأييداً لدفاعه ، واستشهد كذلك بأقوال بعض شيوخه مثل أبى عمر بن عات ، وأبى سليمان بن حوط الله ، وأبى بكر ابن وضاح وغيرهم . وكانت وفاته بمرسية مصروفا عن القضاء، فى اليوم الثلاثين من المحرم سنة ٥٩٩ هـ(١) .

ومحمد بن على بن مروان بن جبل الهمدانى ، من أهل وهران ، وأصله أندلسى ، ونشأ بتلمسان، ودرس بها، وولى قضاءها، ثم ولى قضاء الجماعة بمراكش فى سنة ٥٨٥ هـ ، بعد أبى جعفر بن مضاء ، ثم نقل إلى قضاء إشبيلية عام ٥٩٢هـ ، ثم أعيد ثانية إلى قضاء مراكش بعد إقالة أبى القاسم بن بقى، وكان فقيهاً متمكناً ، حميد السيرة ، شديد الهيبة ، عارفا بالأحكام ، ميالا إلى العدل ، وتوفى سنة ٦٠١ هـ . ويقول لنا صاحب التكملة إن أحداً لم يجلد طوال ولايته للقضاء ، مما يدل على أن عقوبة الجلد ، كانت مستعملة فى هذا العصر ، للمعاقبة على الذنوب التى يقضى فيها بالتعزير(٢).

ومحمد بن أبى خالد عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن . . بن محمد بن أبى زمنين عدنان بن بشير بن كثير المرّى الإلبيرى ، من أهل غرناطة ، كان من ألمع فقهاء عصره ، وأخذ عن أبى مروان بن قزمان ، وأبى الحسن الزهرى ، وأبى القاسم بن بشكوال ، وغيرهم من أقطاب عصره . ولى قضاء غرناطة ، ثم قضاء مالقة ، وكان فوق براعته فى الفقه ، محدثا متقناً ، بارعا فى الرواية ، عارفاً بتاريخ من نزل بالأندلس قديماً من العرب . وحدث عنه جماعة ممن تبوءوا الطليعة فيما بعد، ومنهم أبو سليمان بن حوط الله، وأبو القاسم الملاّحى، وأبو الربيع ابن سالم وغيرهم . توفى مصروفا عن القضاء فى شهر ربيع الأول سنة ٦٠٢ هـ . وكان مولده بغرناطة سنة ٥٣٣ هـ(٣) .

---

(١) أورد له ابن الأبار ترجمة مطولة فى التكملة رقم ١٥١٤ .

(٢) ترجمته فى التكملة رقم ١٧١٩ . (٣) ترجمته فى التكملة رقم ١٥٣٠ .

وإسحاق بن ابراهيم بن يعمر الجابرى ، من مدينة فاس ، ودرس بها ، ودرس كذلك بسبتة ، ثم رحل إلى الأندلس ، ودرس الفقه بمرسية . وولى قضاء فاس وسبتة ، وكان متبحراً فى الفقه المالكى ، حافظا متقنا ، ويقال إنه كان يستظهر المدونة . وولى قضاء بلنسية فى أواخر عمره سنة ست وستمائة ، ثم ولى قضاء جيان ، وفقد فى موقعة العقاب فى شهر صفر سنة ٦٠٩ هـ[١] .

وأحمد بن على بن يحيى بن عون الله الأنصارى ، ويعرف بالحصّار . أصله من دانية وسكن بلنسية ، ودرس القراءات وبرع فيها ، وتبوأ رياستها فى عصره ، ولم يكن أحد يدانيه فى صناعته فى الضبط والتجويد والإتقان . وكان يقصده الطلاب من كل صوب للأخذ عنه ، ويصفه تلميذه ابن الأبار ، الذى ننقل عنه هذه الترجمة ، بأنه كان « آخر المقرئين » بشرق الأندلس . وكانت وفاته ببلنسية فى فى الثالث من شهر صفر سنة ٦٠٩ هـ ، قبيل كارثة العقاب بأيام قلائل ، وقد قارب الثمانين من عمره[٢] .

وعبد الله بن الحسن بن أحمد بن يحيى بن عبد الله الأنصارى من أهل مالقة ، ويعرف بابن القرطبى ، لأن أصلهم من قرطبة . ودرس الحديث ، وبرع فيه ، وأخذ عنه جمهرة من أقطاب عصره مثل أبى بكر بن الجد ، وابن زرقون، وأبى القاسم بن حبيش ، وأبى عبد الله بن الفخار ، وعنى بالرواية عناية شديدة ، وأكثر من الرحلة فى لقاء الشيوخ ، وطلب العلم ، وكان من أشهر أهل عصره فى صناعة الحديث ، والتصرف فى فنونه ، ولم يكن أحد يدانيه فى حفظ التاريخ ، إلا القلائل من أهل عصره ، وكان فوق ذلك له مشاركة طيبة فى علم العربية والآداب ، إلا أن شهرته فى الحديث كانت هى الغالبة عليه . وقد حدث ودرس وأخذ عنه الكثير ، وألف مجموعة فى « تلخيص أسانيد الموطأ » توفى بمالقة فى شهر ربيع الآخر سنة ٦١١ هـ[٣] .

وكان من أبرز أقطاب الحديث والفقه فى أواخر العصر الموحدى بالأندلس، الأخوان عبد الله وداود ، إبنا حوط الله الأنصارى الحارثى . وأكبرهما عبد الله ، وهو عبد الله بن سليمان بن داود بن عبد الرحمن بن سليمان بن عمرو بن خلف ابن حوط الله الأنصارى الحارثى ، ولد بأندة من أعمال بلنسية فى سنة ٥٤٩ هـ ،

---

(١) ترجمته فى التكملة رقم ٥١٧ . (٢) ترجمته فى التكملة رقم ٢٦١ .
(٣) ترجمته فى التكملة رقم ٢٠٩٧ .

وهى موطنهم وأصل دارهم ، ودرس ببلنسية ومرسية وقرطبة . وتجول فى سائر قواعد الأندلس الأخرى . وبرز فى الحديث ، والقراءات ، وأخذ عن جمهرة من أقطاب العصر ، منهم بمرسية أبو القاسم بن حبيش ، وبقرطبة أبو القاسم ابن بشكوال ، وأبو العباس المجريطى ، وأبو اليد بن رشد ، وبإشبيلية أبو بكر ابن الجد، وأبو اسحق بن ملكون ، وبمالقة أبو عبد الله بن الفخار وأبو القاسم السهيلى ، وغير هؤلاء . وكان أماما فى صناعة الحديث ، متفوقاً فى الرواية والضبط ، حافظاً لأسماء الرجال ، متمكنا من التعديل والتجريح ، ولم يكن فى وقته أبعد صيتا منه ، ومن أخيه أبى سليمان فى هذا الميدان ، وكان فوق ذلك متفوقاً فى علم العربية ، كاتبا بليغاً ، وخطيباً مقتدراً ، وشاعراً محسنا . استدعاه الخليفة المنصور لتأديب بنيه فحظى لديه ، ونال جاها ودنيا عريضة . وتولى فى أوقات مختلفة قضاء قرطبة وإشبيلية ومرسية وسبتة وسلا وغيرها ، وألف كتاباً فى « تسمية شيوخ البخارى ومسلم وأبى داود والنسائى والترمذى » ولكنه لم يكمل، ووضع فهرسا حافلا لشيوخه . حدث وسمع منه الكثيرون من أعلام عصره . وتوفى بغرناطة ، وهو فى طريقه إلى مرسية، وذلك فى الثانى من شهر ربيع الأول سنة ٦١٢ هـ ، ثم نقل إلى مالقة ودفن بها[١] .

وأما أخوه داود بن سليمان بن داود ، فقد ولد بأندة سنة ٥٦٠ هـ ، ودرس الحديث على أبيه وأخيه كبيره عبد الله ، وبرع مثله فى الحديث ، وطاف بقواعد الأندلس طلباً للعلم ؛ وأخذ من الجلة أينما حل ، ورحل كذلك إلى سبتة وغيرها من بلاد العدوة ، وكان خبيراً بعقد الشروط . وكان ممن أخذ عنهم أبو العباس المجريطى ، وابن بشكوال ، وأبو بكر بن الجد ، وأبو عبد الله بن زرقون ، وأبو عبد الله بن الفخار ، وأبو العباس بن مضاء، وابن الفرس، وأبو بكر بن أبى زمنين وغيرهم وغيرهم . وتولى قضاء سبتة والمرية والجزيرة الخضراء ، ثم تولى قضاء بلنسية ، ومالقة ، وعرف أينما حل بالعلم والحلم والنزاهة ، وكان ورعا متواضعا، لين الجانب، يشاطر أخاه الشهرة وعلو المكانة . وتوفى بمالقة فى سادس ربيع الآخر سنة ٦٢١ هـ ، ودفن بسفح جبل فاره إلى جانب أخيه[٢] .

ونختم هذا الثبت من علماء الحديث والحفاظ بذكر إمامهم وشيخهم فى وقته، العلامة الحافظ أبو الربيع بن سالم . وهو سليمان بن موسى بن سالم بن حسان

---

(١) ترجمته فى التكملة رقم ٢٠٩٩ . (٢) ترجمته فى الإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٥١١-٥١٤ .

ابن سليمان الحميرى الكلاعى من أهل بلنسية ، وأصله من بعض ثغورها الشرقية . درس القراءات والحديث ، وأخذ وروى عن جماعة كبيرة من شيوخ عصره ، مثل أبى العطاء بن نذير وأبى القاسم بن حبيش وأبى بكر بن الجد ، وأبى الوليد بن رشد وأبى محمد بن الفرس وغيرهم . وبرع فى الحديث والفقه والأدب . وكان حسبما يصفه تلميذه ابن الأبار « إماما فى صناعة الحديث ، بصيراً ، حافظا حافلا ، عارفا بالجرح والتعديل ، ذاكراً للمواليد والوفيات ، يتقدم أهل زمانه فى ذلك وفى حفظ أسماء الرجال ، مع الاستبحار فى الأدب والاشتهار فى البلاغة ، فرداً فى إنشاء الرسائل ، مجيداً فى النظم ، خطيباً فصيحاً مفوها ». ويصفه ابن عبد الملك بأنه « بقية الأكابر من أهل العلم بصقع الأندلس الشرقى ، حافظا للحديث مبرزاً فى نقده ، ضابطا لأحكام أسانيده ، كاتبا بليغاً شاعراً مجيداً ، خطيباً مصقعاً » . تولى الخطبة بجامع بلنسية غير مرة ، وقدم إلى سماعه الطلاب من كل صوب . وكتب عدة مصنفات فى الحديث والسير والآداب ، منها حلية الأمانى فى الموافقات العوالى ، وتحفة الرواد فى الغوالى البدلية والإسناد ، والمسلسلات من الأحاديث ، وكتاب الاكتفاء فى مغازى رسول الله ، ومغازى الثلاثة الخلفاء ، وكتاب حافل فى معرفة الصحابة والتابعين لم يكمله ، وبرنامج مروياته ، وجنى الرطب فى سنى الخطب ، جمع فيه طائفة كبيرة من خطبه ، ومؤلفات أخرى فى الأدب ، ومجموع رسائله ، وغير ذلك ، وجمع شعره فى ديوان . ومما يؤثر عنه أنه كان ينحى باللائمة على الإمام الغزالى فى اختيار عنوان كتابه « إحياء علوم الدين » ويقول متى ماتت العلوم حتى نقول بإحيائها ، فهى مازالت حية وسوف تبقى كذلك .

وكان فوق علمه الغزير ، مجاهداً من أولى الإقدام والبسالة ، وثبات الجأش. يحضر الغزوات والوقائع ، ويشترك بنفسه فى القتال ، ويبلى البلاء الحسن ، وكانت آخر وقيعة اشترك فيها هى وقيعة أنيشة التى اضطرمت بين المسلمين والنصارى فى ظاهر بلنسية فى اليوم العشرين من ذى الحجة سنة ٦٣٤ هـ ، ودارت فيها الدائرة على المسلمين ، واستشهد منهم عدد جم بينهم كثير من الفقهاء والعلماء . وكان أبو الربيع فى مقدمة من استشهد وهو يخوض المعمعمة ، ويحث إخوانه على القتال ، وذلك حسبما سبق أن ذكرناه فى موضعه . وقد رثاه تلميذه ابن الأبار ، ومن سقط معه من علماء بلنسية ، بقصيدته الشهيرة التى مطلعها :

ألمّا بأشلاء العلى والمكارم      تقد بأطراف القنا والصوارم

وعوجـا عليها مأربا وحفاوة مصارع غصت بالطلى والجماجم

وهى فى نحو مائة بيت . وكان مولد أبى الربيع بن سالم فى قرية من قرى مرسية فى شهر رمضان سنة ٥٦٥ هـ[١] .

ومن الفقهاء الذين نبغوا فى الأصول وعلم الكلام ، محمد بن ابراهيم المهرى من أهل بجاية ، وأصله من إشبيلية . رحل إلى المشرق ، وأخذ عن جمهرة من أقطاب المحدثين ، وبرز فى علم الكلام ، وأصول الفقه ، حتى اشتهر بالأصولى ، وكان علم وقته فى هذا الميدان . وولى قضاء بجاية غير مرة ، وعنى بإصلاح كتاب «المستصفى» لأبى حامد الغزالى ، ورحل إلى الأندلس ، واتصل بابن رشد وكان يدرس معه « علوم الأوائل » . ولما امتحن ابن رشد سنة ٥٩٣هـ ، محنته المشهورة ، التى سبق ذكرها فى موضعها ، امتحن معه المهرى ، ونفى مثله من قرطبة ، إلى بعض الجهات ، ثم عفى عنه ، وكف بصره فى أواخر حياته ، وتوفى سنة ٦١٢هـ[٢] .

ومنهم عبد الله بن باديس بن عبد الله بن باديس اليحصبى من أهل جزيرة شقر ، نشأ فى بلنسية ، ورحل إلى إشبيلية فأخذ بها عن أقطابها ، ثم عبر البحر إلى فاس ، وتبحر فى الأصول وعلم الكلام على أشياخها ، ثم عاد إلى بلنسية ، وتصدر للتدريس بالمسجد الجامع ، ونوظر فى « المستصفى » لأبى حامد الغزالى ، وكان من أساتذة ابن الأبار ، أخذ عليه وصحبه وقتا ، وتزهد فى آخر حياته ، وتوفى فى شعبان سنة ٦٢٢ هـ[٣] .

ومنهم محمد بن محمد بن سعيد . . بن مجاهد الأنصارى من أهل إشبيلية ويعرف بابن زرقون ، وأصلهم من بطليوس ، أخذ عن أقطاب عصره ، وفى مقدمتهم أبو بكر بن الجد ، وأبو جعفر بن مضاء . وكان فقيها مالكيا متبحراً فى المذهب ، متعصبا له ، وأخذ عنه أهل عصره ، وكان فوق ذلك يشارك فى الأدب مشاركة طيبة ، وينظم اليسير من الشعر . ومن مؤلفاته « الكتاب المعلى فى الرد على المُحلّى لابن حزم » وكتاب « قطب الشريعة فى الجمع بين الصحيحين » واختصر كتاب « الأموال » لأبى عبيد ، وغير ذلك . وكانت وفاته بإشبيلية فى شوال سنة ٦٢١ هـ ، ومولده بها فى سنة ٥٣٩ هـ[٤] .

---

(١) ترجمته فى التكملة لابن الأبار (الأندلسية) رقم ١٩٩١ ، وفى الذيل والتكملة لابن عبد الملك ، مخطوط الإسكوريال ١٦٨٢ الغزيرى — لوحة ٢٣ وما بعدها ، وعنوان الدراية ص ١٦٧—١٦٩ .

(٢) ترجمته فى التكملة رقم ١٧٢٦ . (٣) ترجمته فى التكملة رقم ٢١٠٩ .

(٤) ترجمته فى التكملة رقم ١٦١٢ .

— ٢ —

وهنالك طائفة كبيرة من علماء الدين ، الذين نبغوا فى الفقه أو الحديث والقراءات ، ونبغوا فى نفس الوقت فى الأدب والشعر أواللغة ، وقد رأينا أن نذكرهم مجتمعين فى هذا القسم على النحو الآتى :

كان من هؤلاء عبيد الله بن عمر بن هشام الحضرمى ، أصله من إشبيلية ، ونزح أهله إلى قرطبة ، وبها ولد ونشأ . ودرس القراءات والحديث ، والعربية والآداب ، على أقطاب عصره ، وتحول فى حواضر الأندلس فى طلب الاستزادة والتمكن . وكان مقرئاً ، نحويا ، أديبا شاعراً . عبر البحر إلى المغرب ، وتصدر للإقراء وتعليم الآداب والعربية ، وتنقل بين مراكش ومكناسة وتلمسان . ثم قفل إلى الأندلس ، ونزل ألمرية حينا ، ثم غادرها إلى مرسية وولى الخطبة بجامعها ، وله تصانيف عدة ، منها « كتاب الإفصاح فى اختصار المصباح » وكتاب فى « شرح مقصورة ابن دريد » . وكان انفصاله عن مرسية فى سنة ٥٥٠ هـ ، ولايعرف كم عاش بعدها . ومولده فى سنة ٤٨٩ هـ(١) .

وعبد الله بن محمد عبد الله الصنهاجى المعروف بابن الأشيرى ، نسبة إلى إلى أشير من أعمال المغرب الأوسط . درس الحديث والفقه بالأندلس ، وأخذ بها عن أبى بكر بن العربى ، وابن عساكر ، وشريح بن محمد ، وأبى الفضل عياض ، وأبى الوليد بن الدباغ وغيرهم . وكان أديبا ، وكاتبا بليغا ، كتب لصاحب المغرب ( وهو فيما يرجح على بن يوسف ) ، فلما توفى استتر وغادر المغرب إلى المشرق وحج ، وجاور حينا بمكة ، ثم توجه فى أواخر حياته إلى حلب ، وحدث بها وهنالك توفى فى سنة ٥٦١ هـ(٢) .

ومحمد بن عبد الله بن ميمون بن إدريس العبدرى ، من أهل قرطبة . درس الفقه والحديث على أقطاب عصره ، مثل ابن عتاب ، وابن رشد ، وابن مغيث ، وابن العربى ، وابن الباذش وغيرهم ، وبرع بنوع خاص فى علم اللغة ، وكان مشاركا فى فنون كثيرة ، حافظا متمكنا ، وشاعراً محسنا . غادر قرطبة أيام الفتنة وعبر البحر إلى المغرب ، ونزل بمراكش ، فاقرأ بها العربية والآداب ، وله شرح مشهور « لجمل الزجاجى » ، ومعشرات فى الغزل ، ونظم فى الزهد ،

(١) ترجمته فى التكملة رقم ٣١٧٢ .

(٢) ترجمته فى التكملة رقم ٢١٤٩ .

وتوفى بمراكش سنة ٥٦٧ هـ(١) .

ومحمد بن أحمد بن محرز بن عبد الله بن أميه ، من أهل بطليوس ، واستوطن إشبيلية ويعرف بالمنتانجشى نسبة إلى حصن منتانجش . عنى بالقراءات والفقه والحديث ، ودرس العربية على أبى عبد الله بن أبى العافية وأبى بكر بن القبطورنة وغيرهما ، وكان فقيهاً مشاورا ،حافظا، له حظ من الأدب والكتابة . وقد أخذ عنه عدة من الجلة مثل ابن خير ، وأبى بكر بن أبى زمنين ، وأبى الخطاب بن واجب وغيرهم ، وتوفى فى آخر سنة ٥٦٩ هـ ، ومولده فى سنة٤٧٩هـ سنة الزلاقة(٢) .

ومنهم وهو من أنبغهم ، محمد بن خير بن عمر بن خليفة الأموى ، مولى ابراهيم بن محمد بن يغمور اللمتونى من أهل إشبيلية . ودرس بها وبقرطبة والمرية وغيرها ، وشغف بالقراءات والحديث والفقه ، وبرع فيها ، وعنى عناية كبيرة بتقييد الرواية والآثار ، وأخذ عن جمهرة كبيرة من أقطاب عصره ، منهم أبو مروان الباجى ، وأبو بكر بن العربى، وأبو اسحاق بن حبيش ، وأبو القاسم ابن بقى ، وابن مغيث ، وابن أبى الخصال ، وأبو الفضل عياض وغيرهم . وقد اشتهر بالإتقان والضبط ، وكان فوق ذلك أديبا كبيراً ، بارعا فى اللغة والنحو . وفى أواخر حياته ولى الصلاة بجامع قرطبة وتوفى بها فى ربيع الأول سنة ٥٧٥هـ ، ومولده فى سنة ٥٠٢هـ . وقد اشتهر ابن خير بنوع خاص بفهرسه الجامع الذى ألفه عن شيوخه ، وعن الكتب التى رواها وقرأها ، عنهم ، ومن هذا الثبت الحافل ، نستطيع أن نكون فكرة جامعة عن الكتب الدراسية وكتب النصوص ، التى كانت متداولة بمدارس الأندلس فى القرن السادس الهجرى(٣) .

ومنهم محمد بن عبيد الله بن أحمد . . بن نصر بن سالم الحشنى ، من أهل رندة وسكن مالقة ، ودرس بها ، وبقرطبة، وبرع فى القراءات واللغة والنحو، وأنفق حياته فى إقراء القرآن وتعليم العربية ، وكان كذلك محدثا حافظا ، حدث، وأخذ عنه الكثيرون . وتوفى بمالقة فى سنة ٥٧٦ هـ(٤) .

وعبد الله بن محمد بن عيسى الأنصارى ، ويعرف بابن المالقى ،لأن أصله

---

(١) ترجمته فى التكملة رقم ١٣٩٥ . (٢) ترجمته فى التكملة رقم ١٤٠٠ .

(٣) ترجمته فى التكملة رقم ١٤٢٤ . وقد نشر فهرست ابن خير ضمن المكتبة الأندلسية ، وهو يشغل المجلد العاشر منها ، ونشر بعناية الأستاذين كوديرا وخوليان ربيرا ( سنة ١٨٩٣ ) .

(٤) ترجمته فى التكملة رقم ١٤٢٧ .

من مالقة، ودرس باشبيلية وغيرها ، ثم نزح إلى العدوة وسكن مراكش وكان فقيهاً متمكنا ، وخطيباً مفوها ، وأديبا كبيراً محسنا ، ندبه الخليفة أبو يعقوب يوسف لرياسة طلبة الحضرة ، ونال فى ظل رعايته جاها ودنيا عريضة . وتوفى بمراكش فى سنة ٥٧٤ هـ ، وعلى قول آخر فى سنة ٥٧٣ هـ[١] .

وعبد الله بن يحي بن عبد الله بن فتوح الحضرمى النحوى من أهل دانية ، ويعرف بابن صاحب الصلاة. درس القراءات والعربية والأدب، ونزح إلى شاطبة فدرس بها الأدب والنحو زمانا ، وكان أديبا متمكنا ، مبرزاً فى صناعة العربية، استدعاه ابن سعد أمير الشرق إلى بلنسية ، وذلك لتأديب أولاده ، وأخذ عنه كثير من أهل عصره ، ومنهم أعلام مثل أبى الربيع بن سالم ، وكان له كذلك حظ من قرض الشعر . ومن ذلك قوله :

وعجل شيبى أن ذا الفضل مبتلى    بدهر غدا ذوالنقص فيه مؤمّلا
ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى    بها الحر يشقى واللئيم ممـــولا

وتوفى ببلنسية فى شهر رجب سنة ٥٧٨ هـ ثم حمل إلى بلده دانية ، ودفن بها . ومولده فى سنة ٥١٧ هـ[٢] .

وأحمد بن محمد بن مفرج الأموى أصله من سرقسطة، ونزل مرسية، ويعرف باللآحى ، عنى بالقرآن والحديث والعربية وبرع فيها ، وأقرأ القرآن بمرسية ، وحدث وأخذ عنه ، وعلم العربية زمنا ، وتوفى فى سنة ٥٨٢ هـ[٣] .

والحسن بن أحمد بن يحي بن عبد الله الأنصارى ، من أهل قرطبة ، ونزل مالقة ، درس القراءات والحديث وبرع فى الرواية ، وأخذ عن عدة من أقطاب عصره ، ومنهم أبو القاسم بن بشكوال ، أخذ عنه كتاب الصلة ، وكان متمكنا من العربية ومن علم العروض . وحدث عنه أهل عصره . وتوفى بمالقة فى رمضان سنة ٥٨٥ هـ ، ومولده فى سنة ٥١٨ هـ[٤] .

ومحمد بن خلف بن محمد بن عبد الله بن صاف اللخمى من أهل إشبيلية . عنى بالقراءات والعربية ، ودرس ببلده إشبيلية ، ثم رحل إلى جيان ، فدرس على أبى بكر بن مسعود الخشنى . واشتهر ببراعته فى القراءات والعربية ، وله شرح فى أشعار الستة وفى تغلب . وكتاب فى ألفات الوصل والقطع ، وشروح

(١) ترجمته فى التكملة رقم ٢٠٥٨ .
(٢) ترجمته فى التكملة رقم ٢٠٦٦ .
(٣) ترجمته فى التكملة رقم ٢٢٠ .
(٤) ترجمته فى التكملة رقم ٦٩٤ .

لآيات من القرآن ، وأجوبة لأهل طنجة فى مسائل القراءات والنحو . حدث ، وأخذ عنه جماعة . وتوفى فى سنة ٥٨٥ ﻫ وقيل فى ٥٨٦ ﻫ ، ومولده سنة ٥١٢ ﻫ[١]

ومحمد بن جعفر بن أحمد بن خاف بن حميد بن مأمون الأموى ، من أهل بلنسية . درس القراءات بإشبيلية وغرناطة على أقطاب عصره ، ورحل إلى جيان فدرس بها العربية والآداب على أبى بكر بن مسعود. ثم رحل إلى ألمرية فدرس على من كان بها من أقطاب العصر . ثم قفل إلى بلده ، وقد ذاع صيته ، واشتهر بغزير علمه ، فاقرأ وحدث وعلم العربية . ثم ندب لقضاء بلنسية فقضى فى منصبه عدة أعوام ، واشتهر بنزاهته وعدالته وحسن تصريفه ، وهو فى نفس الوقت يقرئ القرآن والعربية ، مع حظ وافر من البلاغة والبيان والبديع . وانتقل إلى مرسية فى أواخر حياته ، وتولى بها الصلاة والخطبة ، وتوفى فى جمادى الأولى سنة ٥٨٦ ﻫ ومولده فى سنة ٥١٣ ﻫ[٢] .

ومحمد بن سعيد بن أحمد بن سعيد بن عبد البر بن مجاهد الأنصارى ، من أهل إشبيلية ويعرف بابن زرقون . درس على أبيه ، وعلى عدد من الجلة ، مثل أبى محمد ابن عبدون ، وأبى بكر بن القبطورنة ، وأبى الفضل عياض ، واختص به ولازمة كثيراً ، وكتب له أيام ولايته لقضاء غرناطة . وكان متمكنا من الحديث والفقه ، مع براعته فى الأدب وقرض الشعر . ولى قضاء شلب ، ثم قضاء سبتة ، فحمدت سيرته ، واشتهر بكفايته ونزاهته . وله عدة مؤلفات منها كتاب الأنوار ، جمع فيه بين المنتقى والاستذكار ، وجمع أيضاً بين مصنف الترمذى وسنن أبى داود ، وكان الطلاب يرحلون إليه لعلو روايته . وتوفى بإشبيلية فى رجب سنة ٥٨٦ ﻫ . ومولده بشريش سنة ٥١٢ ﻫ[٣] .

ومفوز بن طاهر بن حيدرة المعافرى ، من أهل شاطبة ، درس القراءات والفقه ، وبرع فيهما ، وكان فقيهاً مشاوراً ، ولى قضاء شاطبة ، زمنا فحمدت سيرته ، وكان فوق ذلك متمكنا من الأدب ، بليغاً حسن البيان ، وله حظ من قرض الشعر ، ومن نظمه :

وقفت على الوادى المنعم دوحه     فأرسلت من دمعى هنالك واديا
وغنمت به ورق الحمام عشية     فأذكرنا أياما مضت ولياليا

---

(١) ترجمته فى التكملة رقم ١٤٦٥ .
(٢) ترجمته فى التكملة رقم ١٤٦٧ .
(٣) ترجمته فى التكملة رقم ١٤٦٨ .

وتوفى بشاطبة فى شعبان سنة ٥٩٠ هـ ، ومولده فى سنة ٥١٧ هـ[١].

ونجبة بن يحيى بن خلف .. بن نجبة الرعينى من أهل إشبيلية ، درس على أقطاب عصره مثل أبى مروان الباجى ، وأبى بكر بن العربى ، وأبى بكر بن طاهر ، وأبى القاسم بن الرماك ، وغيرهم . وكان إماما فى القراءات والعربية ، وقد تصدر لإقراء القرآن ، وتعليم العربية زمانا ، ثم عبر إلى المغرب ، ونزل بمراكش استجابة لدعوة الخليفة ، وهنالك أقرأ القرآن بالحاضرة الموحدية ، وكان يرافق حملات الغزو الموحدية . وقد حدث عنه جماعة من الشيوخ ، وتوفى على مقربة من شريش سنة ٥٩١ هـ ، وهو مرافق لجيش المنصور المتجه إلى الغزو ، وحمل إلى إشبيلية ودفن بها ، ومولده فى سنة ٥٢٠ هـ[٢] .

وأحمد بن عبد الرحمن بن محمد . . ابن مضاء بن مهند بن عمير اللخمى ، من أهل قرطبة ، وأصله من شذونة ، درس القراءات والحديث والعربية ، وأخذ عن عدة من الجلة ، مثل ابن أبى الخصال ، وابن مسرة ، وأبى بكر بن مدبر ، وأبى بكر بن سمجون ، وأخذ العربية بإشبيلية عن أبى القاسم بن الرماك ، وسمع من أبى بكر بن العربى ، وسمع بألمرية أبا محمد عبد الحق بن عطية ، وأبا الفضل عياض ، ومال إلى العربية وبرع فيها ، ثم عبر إلى المغرب والتحق بخدمة الخلافة ، وولى قضاء فاس ، ثم نقل إلى قضاء الجماعة بمراكش . وكان له حظ وافر من الأدب ، والبيان والشعر ، وله فى العربية كتاب سماه « بالمشرق » وكتاب « تنزيه القرآن عما لايليق من البيان » . وتوفى بإشبيلية مصروفا عن القضاء فى جمادى الأولى سنة ٥٩٣ هـ ، ومولده بقرطبة سنة ٥١١ هـ[٣] .

وعبيد الله بن عبد الرحمن . . بن عيسى بن عبد الملك بن قزمان ، من أهل قرطبة ، واستوطن أشونة من أعمالها . درس الحديث والفقه ، وسمع من عدة من الأقطاب ، منهم أبوه القاضى أبو مروان ، وأبو جعفر البطروجى ، وأبو إسحق ابن فرقد ، وغيرهم . وولى القضاء بعدة بلاد من أعمال قرطبة ، وكان فقيهاً متمكنا بصيراً بالأحكام ، وكان فوق ذلك أديبا محسنا وشاعراً ، من بيت علم وأدب ونباهة . توفى بأشونة سنة ٥٩٣ ، أو ٥٩٤ هـ[٤] .

---

(١) ترجمته فى التكملة رقم ١٨٤٤ . (٢) ترجمته فى التكملة رقم ١٨٧٩ .

(٣) ترجمته فى التكملة رقم ٢٣٤ .

(٤) ترجمته فى الذيل والتكملة لابن عبدالملك المجلد الأول من مخطوط باريس لوحة ١٧٦٥ ، وكذلك فى التكملة رقم ٢١٨١ .

ومنهم من علماء المغرب عبد الله بن محمد بن عيسى التادلى ، من أهل فاس ، ودخل الأندلس فى أواخر العهد المرابطى ، ودرس بإشبيلية ، وسمع من القاضى عياض ، وأجاز له ابن بشكوال ، وتلقى الحديث عن ابن عتاب ، وأبى بحر الأسدى ، وكان فقيهاً متمكنا ، أديبا محسنا ، وله رسائل وأشعار جيدة ، وولى قضاء بلده فاس فى أواخر أيام الخليفة أبى يعقوب يوسف . وحدث عنه جماعة من أقطاب الأندلس ، مثل أبى محمد بن حوطه الله ، وأبى الربيع بن سالم . وتوفى بمكناسة سنة ٥٩٧ هـ . ومولده فى سنة ٥١١ هـ(١) .

ومنهم أحمد بن عتيق بن الحسن بن زياد بن فرج ، أصله من ألمرية ، وسكن بلنسية ، ويعرف بالذهبى ، درس القراءات والفقه والآداب والعربية ، ومهر فى عدة فنون ، وكان فقيها مبرزاً فى علم الأصول ، متبحراً فى علوم الأوائل ، ماهراً فى العربية ، وكان آية فى الحفظ والذكاء والفهم ، وحسن الاستنباط ، والغوص على المعانى الدقيقة . حدث وأقرأ العربية ، واستدعاه الخليفة المنصور إلى مراكش فحظى لديه ، وكان من أبرز أعضاء مجلسه العلمى ، وكان يتلقى عليه بعض العلوم النظرية . وقدمه للشورى والفتوى ، فأبدى فى هذا الميدان ما يشهد بتمكنه وغزارة علمه . ولما امتحن ابن رشد وزملاؤه محنتهم المشهورة فى سنة سنة ٥٩١ هـ ، اختفى ابن فرج حينا خشية توجيه الاتهام إليه ، ثم ظهر وطمأنه المنصور ، وحظى بعد المنصور لدى ولده محمد الناصر ، ونال جاها وثراء . وله تآليف ، منها كتاب الإعلام بفوائد مسلم للمهدى الإمام ، وكتاب حسن العبارة فى فضل الخلافة والإمارة . وكانت وفاته بتلمسان فى شول سنة ٦٠١هـ ، أثناء مرافقته الجيش الموحدى المتجه إلى إفريقية(٢) .

والحسن بن على بن خلف الأموى من أهل قرطبة ، وسكن إشبيلية ، ويعرف بالخطيب ، أخذ عن عدة من أقطاب عصره ، مثل ابن مغيث ، وأبى بكر بن العربى ، وابن مسرة ، وأبى بكر بن مسعود ، وابن أبى الخصال ، وبرع فى القراءات والحديث والأدب . وتولى الخطابة ببعض جهات إشبيلية ، وله عدة مصنفات نفيسة ، منها كتاب روضة الأزهار ، وكتاب فى الأنواء ، وكتاب اللؤلؤ المنظوم فى معرفة الأوقات بالنجوم ، وكتاب روضة الحقيقة فى بدء الخليقة ، وكتاب تهافت

---

(١) ترجمته فى التكملة رقم ٢١٥٥ .
(٢) ترجمته فى التكملة رقم ٢٤٧ .

الشعراء وغيرها . توفى بإشبيلية سنة ٦٠٢ هـ ، ومولده بقرطبة سنة ٥١٤[١] .

ومحمد بن يوسف بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن أبي زيد ، من أهل لرية من عمل بلنسية ، ويعرف بابن عياد . أخذ عن أبيه أبي عمر ، وعدة من الأقطاب مثل أبي الحسن بن النعمة ، وأبي عبد الله بن الفرس ، وأبي القاسم ابن حبيش ، وغيرهم ، وعنى أشد العناية بالرواية ، وتقييد الآثار والأخبار ، والتواريخ . وكان له حظ وافر من الآداب والعربية ، وله مشاركة فى النظم ، وحدث وأخذ عنه البعض ، وله مجموع فى مشيخة أبيه أبي عمر . توفى ببلده سنة ٦٠٣ هـ ، ومولده فى سنة ٥٤٤ هـ[٢] .

وموسى بن حسين بن موسى بن عمران القيسى ، الميرتلى ، نزيل إشبيلية ، درس القراءات والأدب ، وبرع فيهما ، وصحب أبا عبد الله بن المجاهد ، واختص به وسلك طريقته فى الزهد والورع والعزلة والعبادة ، وكان فى ذلك منقطع القرين . وكان يلازم مسجده داخل إشبيلية ، يقرئ ويعلم ، وله حظ وافر من قرض الشعر ، ومعظمه فى الزهد والتخويف من سطوة الله . توفى فى أوائل سنة ٦٠٤ هـ ، وقد تجاوز الثمانين. ومن نظمه قوله :

سليخة وحصير ... لبيت مثلى كثير
وفيه ، شكراً لربى ... خبز وماء نمير
وفوق جسمى ثوب ... من الهواء ستير
إن قلت أنى مقل ... إنى إذاً لكفور
قررت عينا بعيشى ... فدون حالى الأمير[٣]

وأحمد بن محمد بن أحمد بن مقدام الرعينى ، من أهل إشبيلية ، أخذ عن ابن العربى ، وأبي القاسم بن الرماك ، وأبي الحسن بن عظيمة ، وغيرهم ، ومهر فى القراءات والأدب ، وكان أديبا حافظا ، يستظهر شعر المعرى المدون بسقط الزند ، ولما توجه ابن العربى على رأس وفد إشبيلية إلى مراكش لمقابلة الخليفة عبد المؤمن، صحبه فى رحلته ، وحضر وفاته عند عوده بفاس ، وتوفى فى أواخر سنة ٦٠٤ هـ ، ومولده سنة ٥١٦[٤] .

وإدريس بن ابراهيم بن عبدالرحمن بن عيسى بن إدريس التجيبى من أهل مرسية

(١) ترجمته فى التكملة رقم ٦٩٨ .
(٢) ترجمته فى التكملة رقم ١٥٣٣ .
(٣) ترجمته فى التكملة رقم ١٧٣١ .
(٤) ترجمته فى التكملة رقم ٢٥٢ .

درس الحديث والفقه والأدب ، وكان فى مقدمة من أخذ عنهم أبو العباس بن الحلاّل صاحب الأحكام بمرسية ، وكان ماهراً فى شئون الوثائق والعقود ، وولى قضاء شاطبة ، ثم ولى الخطابة والصلاة بجامعها ، وكانت له مشاركة طيبة فى الأدب وله موجز فى السيرة لابن إسحاق سماه « بالإشراق » وتوفى فى سنة ٦٠٦ هـ(١).

وأحمد بن عبد الودود بن عبد الرحمن . . بن صالح الهلالى ، من أهل غرناطة وسكن المنكب حينا . ويعرف بابن سمجون . أخذ عن أبيه أبى محمد ، وعدة من أقطاب عصره . وبرع فى الحديث والفقه ، وولى قضاء المنكب ، ثم تولى الخطبة ، بجامع قرطبة وقتا . وكان فوق ذلك أديبا محسنا فى النثر والنظم ، حدث وأخذ عنه بعض الشيوخ الجلة . وتوفى بغرناطة ، فى أوائل سنة ٦٠٨ هـ ، ومولده فى سنة ٥٢٨ هـ(٢) .

ومحمد بن أيوب بن محمد بن وهب . . بن نوح الغافقى من أهل بلنسية ، ودار سلفه بسرقسطة . وكان من أشهر وأنبغ الفقهاء الذين جمعوا بين الفقه والأدب فى تلك الفترة . درس القراءات والفقه والأدب ، وأخذ عن عدة من الأقطاب ، واستظهر المدوّنة ، وأخذ العربية والآداب عن ابن النعمة . ولى خطة الشورى ببلنسية فى حياة شيوخه ، وتفوق عليهم فى الحفظ والتحصيل ، ولم يكن فى وقته بشرقى الأندلس ، أغزر منه علما وتبحراً ، وانتهت إليه الرياسة يومئذ فى عقد الشروط والفتيا . وكان فوق براعته فى الفقه والقراءات والتفسير ، أديبا متمكنا ، ماهراً فى الغريب من اللغة ، حافظا للأنساب والأخبار ، متقنا لما استغلق من معانى الأشعار الجاهلية والإسلامية ، مشاركا فى فنون كثيرة أخرى . وولى بعد الشورى ، قضاء بعض الكور ببلنسية ، وخطب بجامعها وقتا . وكان له حظ متوسط من النظم . أسمع الحديث ودرس الفقه وعلوم العربية والآداب وأخذ عنه كثير من الناس ، وسمع منه جلة من الشيوخ ، ودرس عليه ابن الأبار ، وهو يقول لنا إنه كان « أغزر من لقيت علما ، وأبعدهم صيتاً » . توفى فى شوال سنة ٦٠٨ هـ ، ومولده سنة ٥٣٠ هـ(٣) .

ومنهم ، ومن أشهرهم ، أبو عمر أحمد بن هارون بن أحمد بن جعفر بن عات النفزى ، من أهل شاطبة ، أخذ عن أبيه وغيره من شيوخ وقته ، ورحل إلى

---

(١) ترجمته فى التكملة رقم ٥٢١ . (٢) ترجمته فى التكملة رقم ٢٥٩ .
(٣) ترجمته فى التكملة رقم ١٥٥٦ .

المشرق ، فأدى فريضة الحج ، وسمع بمصر أبا طاهر السلفى، وغيره من الأقطاب وكان آية فى الحفظ ، يسرد المتون والأسانيد ظاهراً ، ولا يخل بشىء منها ، مع مشاركة طيبة فى النظم والنثر ، وكان موصوفا بالدراية والرواية ، يغلب عليه الزهد والورع ، حدث عنه بعض الشيوخ الجلة، وكان من العلماء المرافقين للجيش الموحدى فى موقعة العقاب ، وفيها لقى حتفه ، وذلك يوم الاثنين منتصف صفر سنة ٦٠٩ هـ ، ومولده سنة ٥٤٢ هـ(١) .

وحيان بن عبد الله بن محمد بن هشام . . بن حيان الأنصارى الأوسى من أهل بلنسية ، وأصلهم من أروش من عمل قرطبة ، درس القراءات والنحو ، واقرأ وقتا بجامع بلنسية ، وكان نحويا بارعا ، متقنا لكتاب سيبويه، لغويا ، أديبا شاعراً ماهراً فى الكتابة ، يميل إلى استعمال العويص من اللغة ، وكان من أساتذة ابن الأبار وتوفى سنة ٦٠٩ هـ(٢) .

ومحمد بن أحمد بن خلف بن عياش الأنصارى الخزرجى ، من أهل قرطبة، ويعرف بالشنتيالى ، درس على أبى القاسم بن بشكوال ، وأبى القاسم بن غالب الشراط ، وأبى إسحاق بن طلحة ، وأبى الحسن بن بقى ، وأبى بكر بن خير ، وأبى القاسم السهيلى وغيرهم، وبرع فى علم القراءات، والحديث والفقه، والنحو، وكانت له كذلك مشاركة فى الفرائض والحساب ، تولى الصلاة بجامع قرطبة نحواً من ثلاثين سنة ، واقرأ به القرآن ، وحدث زمنا ، وأخذ عنه عدد من الشيوخ ، وكان من أهل العلم والعمل ، والصلاح والتواضع ، توفى فى شعبان سنة ٦٠٩ هـ. ومولده فى سنة ٥٣٢هـ(٣) .

وأحمد بن محمد بن إبراهيم بن يحيى بن إبراهيم بن خلصة الحميرى ، من أهل قرطبة، درس القراءات والعربية والآداب واللغة ، وبرع فيها ، وعين خطيبا للجامع الأعظم، وتصدر للاقراء به مدة طويلة ، وعكف بالأخص على تدريس علوم اللغة ، وكان متمكنا منها متفوقاً فيها ، وكان له حظ من قرض الشعر. لبث دهراً يدرس علوم اللسان بجامع قرطبة ، وتولى به الخطبة نحو ثلاثة أعوم وكانت وفاته وهو قائم يخطب فوق منبر الجامع الأعظم ، وذلك فى شهر صفر

---

(١) ترجمته فى التكملة رقم ٢٦٢ .
(٢) ترجمته فى التكملة رقم ٧٧٤ .
(٣) ترجمته فى التكملة رقم ١٥٦٠ .

سنة ٦١٠ هـ ، ومولده فى سنة ٥٢٤ هـ[١] .

ومحمد بن محمد بن سليمان بن محمد بن عبد العزيز الأنصارى النحوى ، من أهل بلنسية ، وأصله من سرقسطة. عنى بالحديث والرواية ، وبرع فى علم اللسان والعربية ، وكان من شيوخه عدة من الجلة مثل أبى الخطاب بن واجب ، وأبى عمر ابن عات ، وأبى بكر عتيق بن على . وكان غزير العلم والمعرفة ، حافظا متمكنا ، متفوقاً فى صناعة العربية عاكفا على إقرائها وتعليمها ، وكان فوق ذلك شاعراً مجيداً ، حسن التصرف والذوق . وكانت وفاته فى ربيع الأول سنة ٦١٠ هـ ، ومولده فى سنة ٥٦٣[٢] .

وعبد الله بن عمرو بن محمد بن يوسف الخزرجى من أهل قرطبة ، ونشأ بتلمسان ، درس القراءات والعربية، وكان أديبا كاتبا بليغا ، نزح إلى قرطبة ، وعاش بها ، وخدم بعض ولاتها الموحدين بالكتابة عنهم . ثم ولى القضاء وظهر بكفايته ونزاهته . وتوفى بقرطبة فى رمضان سنة ٦١٣هـ ، وقد نيف على السبعين[٣] .

ومحمد بن أحمد بن عبد العزيز بن سعادة من أهل شاطبة ، درس القراءات والحديث ، وأخذ عن أبى الحسن بن هذيل ، وأبى بكر بن سيدبونه ، وأخذ العربية والآداب عن أبى الحسن بن النعمة ، وغيره من أقطاب العصر . وكان مقرئا بارعا ، ونحويا متمكنا ، ولغويا محققاً . وقد أخذ عنه ابن الأبار وجماعة من أصحابه . وتوفى سنة ٦١٤ هـ[٤] .

وإبراهيم بن على بن ابراهيم . . بن أغلب الخولانى ، من أهل إسطبة من عمل قرطبة ، يعرف بالزواتى ، درس بأشونة على أبى مروان بن قزمان ، وبإشبيلية على ابن فرقد، وأخذ كذلك عن ابن النعمة، وابن سعادة ، وأبى الحسن الزهرى ، وغيرهم . وتجول فى مختلف البلاد فى طلب العلم ، وعنى بالأخص بالآداب واشتهر ببراعته فيها . وولى قضاء ألش من أعمال مرسية ، وحدث وأخذ عنه . وكانت وفاته بمراكش فى آخر سنة ٦١٦ هـ ، ومولده فى سنة ٥٤٠هـ[٥]

ومحمد بن طلحة بن محمد بن عبد الملك . . بن حزم الأموى النحوى ، سكن إشبيلية ، وأصلهم من يابرة من أعمال الغرب (البرتغال) ، عنى بالقراءات

---

(١) ترجمته فى الذيل والتكملة (مخطوط خزانة الرباط المصور) ج ١ لوحة ١٣٤ وفى تكملة ابن الأبار رقم ٢٦٣ .
(٢) ترجمته فى التكملة رقم ١٥٦٢ .
(٣) ترجمته فى التكملة رقم ٢١٠٠ .
(٤) ترجمته فى التكملة رقم ١٥٧٩ .
(٥) ترجمته فى التكملة رقم ٤٣٥ .

والعربية ، وأخذ عن أبي بكر بن صاف ، وأبي اسحاق بن ملكون ، وأبي بكر ابن الجد ، وأبي زيد السهلي ، وغلب عليه التخصص فى العربية ، والتمكن منها ، والتحقق من غوامضها ، فعكف على تعليمها ، واعتبر فى هذا الميدان أستاذ إشبيلية الذى لايبارى ، وقد انتفع به عدد من الشيوخ اللاحقين ، مثل أبي على الشلوبين وغيره ، وغلب عليه فى أواخر حياته حب العزلة ، فاعكتف عن الناس ،وتوفى فى صفر سنة ٦١٨ هـ . ومولده بيابرة فى سنة ٥٤٥ هـ(١) .

وسليمان بن حكم بن محمد بن أحمد بن على الغافقي من أهل قرطبة ، درس القرآن والحديث واللغة ، وأخذ عن جمهرة من أقطاب عصره ، منهم ابن الفخار ، وأبو عمر بن عات ، وأبو القاسم بن بشكوال ، وأبو جعفر بن يحيي وغيرهم . امتهن عقد الشروط بقرطبة مدة ، وكان متقناً مبرزاً فى العدالة والضبط ، عارفا بالأحكام ، أديبا كاتبا وشاعراً مبرزاً فى النظم ، وضع أرجوزة جيدة فى فى الفقه . وله غير ذلك من النظم . ولد بقرطبة سنة ٥٤٦ هـ ، وتوفى بها فى ربيع الآخر سنة ٦١٨ هـ(٢) .

وأحمد بن عبد المؤمن بن موسى بن عبد المؤمن القيسي ، من أهل شريش . درس الحديث والعربية على شيوخ عصره . وعكف زمنا على تدريس اللغة . وله فى هذا الميدان عدة مصنفات نفيسة ، منها شرح الإيضاح للفارسي ، والجمل للزجاجي ، وله تأليف فى العروض ، ومجموع فى مشاهير قصائد العرب ، ومختصر لنوادر أبي على القالي ، ولكنه اشتهر بنوع خاص بشرحه لمقامات الحريرى . وله فى ذلك ثلاث نسخ ، كبرى ، ووسطى ، وصغرى . وأخذ عنه عدد من أقطاب العصر ، ومنهم ابن الأبار حسبما يحدثنا فى ترجمته . وقد نشرت شروحه على هامش المقامات مراراً ، وما تزال هى عمدتنا فى فهم غوامضها . وكانت وفاته ببلدته شريش سنة ٦١٩ هـ(٣) .

وعبد الله بن أبي بكر بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أحمد بن أبي بكر القضاعي ، وهو والد ابن الأبار صاحب التكملة ، أصله من أندة وسكن بلنسية ، درس القراءات والأدب ، وكان حسبما يصفه لنا ولده ، « مقدما فى حملة القرآن ،

---

(١) ترجمته فى التكملة رقم ١٥٩٥ .

(٢) ترجمته فى الذيل والتكملة ( مخطوط الإسكوريال ١٦٨٢ الغزيرى ) .

(٣) ترجمته فى التكملة رقم ٢٨١ ، وفى نفح الطيب ج ١ ص ٣٧٦ .

كثير التلاوة له ، والتهجد به ، ذاكراً للقراءات ، مشاركا فى حفظ المسائل ، آخذاً فيما يستحسن من الأدب معدّلا عند الحكام » . وقد كان أول أساتذة ابنه فى القراءات والأدب ، وقد اطلع على جميع كتبه ، وشاركه فى الأخذ عن معظم شيوخه ، وتوفى بأندة فى ربيع الأول سنة ٦١٩هـ ، وولده المؤرخ يومئذ ببطليوس ، ومولده بأندة سنة ٥٧١ هـ(١) .

— ٣ —

وظهرت من هذه الطبقة التى تجمع بين علوم الدين ، وبين اللغة أو الأدب أو الشعر ، إلى جانب من تقدم ذكرهم ، جمهرة كبيرة أخرى ، ممن نبغوا فى أواخر العصر الموحدى ، وفى خلال عهد الفتنة والانهيار بالأندلس نذكرهم فيما يلى :

كان من هؤلاء عبد الله بن حامد بن يحيى بن سليمان بن أبى حامد المعافرى من أهل مرسية ، درس الحديث على أبى القاسم بن حبيش ، وأبى محمد بن حوط الله وغيرهما من أعلام عصره ، ثم درس العربية وبرع فيها ، وصحب الأديب الكبير أبا بحر صفوان بن إدريس ، وغيره . وكان له حظ من قرض الشعر ، والبراعة فى الكتابة ، وكان فى وقته من رؤساء مرسية وأعيانها . وكانت وفاته فى سنة ٦٢١(٢) .

ومحمد بن مخلفتن بن أحمد بن تنفليت الجنفيسى الفازازى التلمسانى ، نزح من المغرب إلى الأندلس ، ودرس على عدة من الأعلام ، وكان فقيهاً متمكنا ، وأديبا مبرزاً ، وكاتبا بليغا ، وشاعراً محسنا ، ولى قضاء مرسية ثم قضاء قرطبة ، وقيل إنه كان يحفظ صحيح البخارى أومعظمه . وتوفى بقرطبة سنة ٦٢١هـ (٣) .

وأحمد بن يزيد بن عبد الرحمن . . بن بقى بن مخلد بن يزيد الأموى ، من أهل قرطبة ، ومن أعرق بيوتاتها فى العلم والنباهة ، درس على جمهرة من أقطاب عصره ومنهم ابن بشكوال ، وابن مضاء ، وابن فرقد وغيرهم ، وبرع فى الفقه والحديث والأدب . وتولى قضاء الجماعة بمراكش حينا ، وكذلك خطتى المظالم والكتابة العليا . وكان من أعلم رجالات عصره ، وأوفرهم سراوة وجلالا . وعاش بمراكش معظم حياته ، ثم غادرها إلى الأندلس وولى قضاء قرطبة قبل وفاته بيسير . وكان فوق تضلعه فى الفقه أديبا كبيراً ، وشاعراً مجيداً . وتوفى بقرطبة فى شهر رمضان

---

(١) ترجمته فى التكملة رقم ٢١٠٥ . (٢) ترجمته فى التكملة رقم ٢١٠٧ .

(٣) ترجمته فى التكملة رقم ١٦١٦ .

سنة ٦٢٥ هـ ، ومولده فى سنة ٥٣٧ هـ(١) .

واسماعيل بن أحمد بن عبد الرحمن الأنصارى من أهل إشبيلية ، ويعرف بابن السراج ، درس القراءات والحديث ، ودرس العربية على أبى اسحاق بن ملكون أستاذ عصره فى ذلك الميدان ، وولى قضاء بعض الكور ، وكان عاكفا على عقد الشروط خبيراً بصناعتها . وتوفى بإشبيلية فى حدود سنة ٦٢٥هـ(٢) .

وإبراهيم بن عيسى بن محمد بن أصبغ الأزدرى من أهل قرطبة . درس الحديث والفقه ، وأخذ العربية عن أبى ذر الخشنى ، وبرع فيها وفى النحو ، وولى قضاء دانية ، ثم صرف عنه لما اضطرمت الفتنة ببلنسية فى سنة ٦٢١ ، وسيق إلى بلنسية ، واعتقل بها وقتا ، ثم أطلق سراحه ، فعبر البحر إلى مراكش . وله مؤلف حسن فى « مسائل الخلاف بين النحويين » ، وولى فى أواخر حياته قضاء سجلماسة ، وتوفى بها سنة ٦٢٧هـ(٣)

وثابت بن محمد بن يوسف بن خيار الكلاعى من أهل لبلة بغرب الأندلس ونزل جيان ، ثم سكن غرناطة . درس القراءات والحديث والفقه ، وسمع بقرطبة ، وإشبيلية ، ووادى آش وغيرها ، وأخذ عن عدة من الأقطاب مثل أبى القاسم بن بشكوال ، وأبى بكر بن بيبش ، وأبى بكر بن خطاب ، وأبى الحسن بن كوثر . ودرس العربية والنحو وبرع فيهما . واقرأ القرآن والعربية بجيان وغرناطة ، وبها توفى سنة ٦٢٨ هـ(٤) .

وأحمد بن محمد بن عبد اله بن محمد الأزدى ، من أهل لقنت من أعمال مرسية ، عنى بالقراءات والفقه وولى القضاء بجزيرة شقر ، ثم ولى قضاء دانية ، وكان فوق ذلك أديبا ، متحققاً من العربية . وتوفى فى ربيع الأول سنة ٦٢٩هـ(٥) .

ومحمد بن جابر بن على بن سعيد الأنصارى من أهل إشبيلية ، ويعرف بالسقطى . درس القرآن والحديث وأخذ فى ذلك عن نجبة بن يحيى ، وأبى الوليد بن نام ، وأبى ذر الخشنى وغيرهم ، ودرس العربية والأدب ، وكان من أهل العناية بالرواية ولقاء الرجال ، رحل إلى شرق الأندلس ، وأخذ عن أبى الخطاب بن واجب وغيره ببلنسية . وكان يقرئ القرآن والعربية ، وقد حُدث عنه . وتوفى بعد سنة ٦٣٠هـ(٦) .

---

(١) ترجمته فى التكملة رقم ٢٩٢ .

(٢) ترجمته فى التكملة رقم ٤٩٥ .

(٣) ترجمته فى التكملة رقم ٤٤٠ .

(٤) ترجمته فى التكملة رقم ٦٢٦

(٥) ترجمته فى التكملة رقم ٢٩٧ .

(٦) ترجمته فى التكملة رقم ١٦٤٦ .

وأحمد بن مليك بن غالب بن سعيد بن عبد الرحمن التجيبي من أهل أبّدة ويعرف بابن السقاء . درس القراءات والحديث ، وأخذ عن جمهرة من أقطاب عصره مثل أبي محمد بن غلبون ، وأبي الخطاب بن واجب ، وابن عات ، وابن بقى وغيرهم ، وأخذ العربية واللغات عن أبي عبد الله بن يربوع وبرع فيها ، وتصدر ببلده للإقراء والتدريس . ولما استولى القشتاليون على أبدة ، غادرها إلى غرناطة واستوطنها ، وتوفى بها بعد سنة ٦٣٠ هـ(١) .

وبسام بن أحمد بن حبيب . . بن شاكر الغافقى ، من أهل جيان ، وسكن مالقة ، أخذ الحديث والفقه عن جماعة من الأقطاب مثل أبي عبد الله بن الفخار ، وأبي جعفر بن مضاء ، وأبي القاسم بن بشكوال وغيرهم ، ودرس العربية والأدب ، وولى قضاء ثغر المنكب وغيره ، وكان له أيضاً حظ من قرض الشعر . توفى بمالقة في شعبان سنة ٦٣١ هـ ، ومولده فى سنة ٥٥٧ هـ(٢) .

ومن هؤلاء الذين جمعوا بين علوم الدين واللغة والأدب والشعر أحيانا ، جمهرة أخرى ، ظهرت وقت انهيار سلطان الموحدين ، ثم انهيار الأندلس الكبرى ، وسقوط قواعدها ، نذكرهم فيما يلى :

كان من هؤلاء المتأخرين ، عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أبي يحيى بن مطروح التجيبى من أهل بلنسية ، وأصله من سرقسطة . درس القراءات والفقه والعربية والآداب ، وكان من أساتذته أقطاب مثل أبي عبد الله بن نوح ، وأبي ذر الخشنى ، وأبي الخطاب بن واجب ، ، وأبي محمد بن حوط الله وغيرهم. وكان فقيها متمكنا عارفا بالأحكام ، من أهل الشورى والفتيا . ولى القضاء بعدة كور من بلنسية ، ثم ولى قضاء دانية ، وكان فوق ذلك أديبا شاعراً ، راوية . وكانت وفاته ببلنسية ، أثناء حصار النصارى لها ، فى شهر ذى القعدة سنة ٦٣٥ هـ ومولده سنة ٥٧٤ هـ(٣) .

ومحمد بن ابراهيم بن محمد بن عبد الجليل . . بن غالب بن حمدون الأنصارى الخزرجى ، من أهل ألش من عمل بلنسية . أخذ بمرسية وشاطبة عن أقطاب الشرق ، مثل أبي الخطاب بن واجب ، وأبي عمر بن عات ، وأقطاب الغرب مثل أبي القاسم ابن بقى ، وأبي سليمان بن حوط الله ، وأبي القاسم الملاّحى ، وغيرهم ، وعنى

(١) ترجمته فى التكملة رقم ٣٠١ .
(٢) ترجمته فى التكملة رقم ٦٠٦ .
(٣) ترجمته فى التكملة رقم ٢١١٧ .

بالحديث والفقه أتم عناية ، وكان له حظ من الأدب واللغة . ولى قضاء ألمرية ، وتوفى بغرناطة فى شهر صفر سنة ٦٣٦ هـ(١).

ومحمد بن على بن خضر بن هارون الغسانى ، من أهل مالقة ، يعرف بابن عسكر ، كان فى مقدمة أعلام عصره فى الفقه واللغة والأدب ، فكان فقيهاً متمكنا ، ماهراً فى عقد الشروط ، وكان حافظا للغة ، أديبا ، وكاتبا بليغا ، وله كذلك حظ من قرض الشعر . ولى قضاء بلده مالقة مرتين . وكتب عدة كتب قيمة فى اللغة والأدب منها كتاب « المشرع المروى فى الزيادة على غريبى الهروى » وكتاب « نزهة الناظر فى مناقب عمار بن ياسر » وكتاب « الجزء المختصر فى السلو عن ذهاب البصر » . وله رسالة فى الزهد عنوانها « ادخار الصبر فى افتخار القصر والقبر » . وتوفى وهو يتولى قضاء مالقة فى جمادى الآخرة سنة ٦٣٦ هـ . ومولده فى نحو سنة ٥٨٤ هـ(٢).

وابراهيم بن محمد بن ابراهيم ، من أهل بطليوس ، ونزح إلى إشبيلية ، ويعرف بالأعلم . درس القرآن والحديث والعربية ، وبرع فيها ، وتصدر لإقرائها . وله شروح قيمة فى كتب الإيضاح والجمل ، والكامل ، والأمالى ، وغيرها . وألف أيضاً كتابا فى « آداب أهل بطليوس » . وتوفى فى سنة ٦٣٧(٣).

واسماعيل بن سعد السعود بن أحمد بن هشام . . بن عفير الأموى ، من أهل لبلة ، وسكن إشبيلية ، وينتسب إلى موالى بنى أمية ، عنى بالحديث والفقه ودرس بقرطبة ، وأخذ بها عن أبى بكر بن خير ، وابن بشكوال ، وابن فرقد ، وغيرهم ، وكان فقيهاً متمكنا ، ولى قضاء مراكش أيام الفتنة . ثم صرف عنه وعاد إلى إشبيلية . وكان فى نفس الوقت أديبا بارعا ، وتوفى سنة ٦٣٧(٤) .

ومحمد بن اسماعيل بن محمد بن اسماعيل بن خميس الجمحى ، من أهل قسنطانة من عمل دانية ، درس الحديث والفقه ، وصحب أبى عبد الله بن نوح ولازمه ، وكتب للقضاة ، ثم ولى قضاء بلنسية أيام الفتنة . وكان فوق براعته فى الفقه ، أديبا متمكنا له حظ من قرض الشعر ، بصيراً فى الأحكام وعقد الشروط ، ثم غادر بلنسية مصروفا عن القضاء ، وقدم إلى قضاء شاطبة . وكان من أساتذة ابن الأبار . وتوفى بشاطبة فى صفر سنة ٦٣٩ هـ(٥).

---

(١) ترجمته فى التكملة رقم ١٦٦٠ .
(٢) ترجمته فى التكملة رقم ١٦٦١ .
(٣) ترجمته فى التكملة رقم ٤٤٧ .
(٤) ترجمته فى التكملة رقم ٤٩٦ .
(٥) ترجمته فى التكملة رقم ١٦٣٨ .

وسهل بن محمد سهل بن ملك الأزدرى من أهل غرناطة . أخذ ببلده عن أبي عبدالله بن عروس، وأبي الحسن بن كوثر ، وعبد المنعم بن الفرس ، وأخذ بمالقة عن أبي عبد الله بن الفخار ، وبإشبيلية عن أبي بكر بن الجد وأبي عبد الله بن زرقون وأبي العباس بن مضاء وأبي الوليد بن رشد ، وأخذ عن غيرهم من أقطاب العصر. وبرع فى الفقه والأصول والعربية ، وكان كاتبا مقتدراً وشاعراً محسنا . نفى من وطنه غرناطة إلى مرسية بسعى بعض خصومه، وبقى بها حتى توفى المتوكل ابن هود بألمرية فى سنة ٦٣٥ ﻫ ، فعندئذ سرح إلى بلده . وقد صدر عنه كثير من النثر والنظم الجيد ، وصنف فى العربية كتابا رتب الكلام فيه على أبواب كتاب سيبويه . ولد سنة ٥٥٩ ﻫ ، وتوفى بغرناطة سنة ٦٣٩ ﻫ[1].

ومحمد بن عبد الله بن عمر بن على بن اسماعيل بن عمر الأنصارى الأوسى الضرير ، من أهل قرطبة، ويعرف بابن الصفار . أخذ عن أبي القاسم بن بشكوال ، وأبي بكر ابن الجد، وأبي عبد الله بن زرقون، وابن مضاء ، وأبي ذر الخشنى ، وغيرهم من أعلام العصر ، وبرع فى القراءات والحديث . ورحل إلى المشرق وأخذ عن بعض أقطابه ، ثم عاد إلى المغرب ، وسكن مراكش ، وكان يقرئ العربية والآداب ، ويسمع الحديث ، واستقر أخيراً بمدينة تونس ، وبها توفى سنة ٦٣٩ ﻫ[2] .

وعلى بن ابراهيم بن على بن عبد الرحمن المعروف بابن الفخار من أهل أركش ، درس الحديث والفقه على جماعة من أهل عصره مثل ابن الغزال وابن زرقون وغيرهما ، وكان حافظاً متقناً ، ذاكراً لأسماء الرجال وأحوالهم ، بارعاً فى الفقه والأدب، وكان على قول ابن عبد الملك « أعجوبة زمانه فى حضور الذكر لذلك كله »، وكان مشاركاً فى النظم . تولى القضاء برندة والجزيرة الخضراء وغيرهما ، وتوفى بشريش فى صفر سنة ٦٤٢ ﻫ[3] .

وأحمد بن محمد بن القيسى من أهل قرطبة ، ويعرف بابن أبي حجة . أخذ عن أقطاب عصره ، وفى مقدمتهم ابن بشكوال ، وابن مضاء ، وأبي العباس المجريطى ، وبرع فى علوم القرآن والعربية ، وتصدر لاقرائها . وله عدة تآليف، منها كتاب منهاج العبادة ، وكتاب تفهيم القلوب فى آيات علام الغيوب ، وكتاب

---

(١) ترجمة فى الذيل والتكلة (مخطوط الإسكوريال ١٦٨٢ الغزيرى) .

(٢) ترجمته فى التكلة رقم ١٦٦٨ .

(٣) ترجمته فى الذيل والتكلة (السفر الرابع من مخطوط المتحف البريطانى) .

تسديد اللسان لذكر أنواع البيان ، وغيرها . ولما سقطت قرطبة فى أيدى النصارى غادرها إلى إشبيلية ، وسكن بها حينا ، ثم غادرها متجها إلى ميورقة ، وأسرته الروم فى البحر ، وامتحن بالتعذيب ، وتوفى على أثر ذلك بميورقة فى سنة ٦٤٣ هـ(١).

وأحمد بن محمد بن وهب البكرى من أهل شاطبة ، أخذ عن ابن نوح وابن عات وغيرهما ، وبرع فى الفقه والعربية ، ومهر فى عقد الشروط . وغادر شاطبة عند إجلاء النصارى لأهلها المسلمين ، وذلك فى سنة ٦٤٥ هـ ، وقصد إلى أوريولة ، وهناك توفى فى أواخر هذا العام(٢) .

وأحمد بن على بن أحمد . . بن عبد الله الأنصارى من أهل قرطبة ، درس الفقه والأدب بقرطبة وإشبيلية وجيان ، وولى الأحكام ببعض الكور ، وعنى بعقد الشروط ، وكتب لوالى قرطبة وقتا . ولما سقطت قرطبة فى أيدى النصارى غادرها ، وعبر البحر إلى تونس ، ونزل بها . وكان يقرئ بها اللغة والأدب ، وممن أخذ عنه بها ابن الأبار ، وكان قد استقر بها كذلك . ثم قصد إلى المشرق لتأدية فريضة الحج ، ولكنه توفى بقوص وذلك فى رجب سنة ٦٤٦ هـ(٣) .

وعبد الله بن قاسم بن عبد الله بن محمد بن خلف اللخمى من أهل إشبيلية ويعرف بالحرار وبالحريرى . أخذ عن أبى الحسن الشقورى ، وأبى محمد بن حوط الله وأبى القاسم الملاّحى ، وابن زرقون ، وابن عات ، وغيرهم من الأقطاب . وبرع فى الحديث ، والأدب ، وقرض الشعر . وله عدة مؤلفات منها ، « حديقة الأنوار » وهو فى تذييل « اقتباس الأنوار » فى الأنساب للرشاطى ، وكتاب « المنهج الرضى ، فى الجمع بين كتابى ابن بشكوال وابن الفرضى » . وكانت وفاته بإشبيلية خلال حصار النصارى لها فى أوائل سنة ٦٤٦ هـ ، ومولده بجزيرة شقر ، بلد أسلافه فى سنة ٥٩١ هـ(٤) .

ومحمد بن محمد بن أحمد . . بن سليمان الزهرى ، من أهل بلنسية ، ويعرف بابن محرز ، درس على جماعة من أقطاب الشرق ، مثل أبى عبد الله بن نوح ، وأبى بكر بن جمرة ، وأبى العطاء بن نذير ، وغيرهم ، وكان متمكنا من الحديث والفقه والأدب واللغة وحفظ الغريب ، وله شعر رائق . ولما استولى النصارى على بلنسية ، عبر البحر إلى إفريقية ، ونزل ببجاية ، واستوطنها وأخذ يقرئ بها

---

(١) ترجمته فى التكملة رقم ٣٠٧ .

(٢) ترجمته فى التكملة رقم ٣١٠ .

(٣) ترجمته فى التكملة رقم ٣١٢ .

(٤) ترجمته فى التكملة رقم ٢١٢١ .

الحديث والفقه واللغة . وكانت له بين علمائها مكانة رفيعة ، وبها توفى فى سنة ٦٥٥ هـ . ومولده سنة ٥٦٩ هـ[١] .

ومحمد بن ابراهيم بن محمد بن ابراهيم بن المفرح الأوسى المعروف بابن الدباغ الإشبيلى ، برع فى الفقه ، وكان أوحد عصره فى حفظ مذهب مالك ، وفى عقد الوثائق ، وكان فى الوقت نفسه ، عارفا بالنحو واللغة ، أديبا بارعا ، مشاركا فى النظم والتاريخ . انتقل إلى غرناطة ولبث يقرئ بجامعها حينا ، وتوفى فى سنة ٦٦٨ هـ[٢] .

* * *

وازدهرت فى هذا العصر ، الذى توالت فيه المحن على الأندلس ، ومالت شمسها إلى الغروب ، حركة التصوف ، وظهر عدة من أكابر المتصوفة نذكرهم فيما يلى :

كان من هؤلاء أحمد بن عمر المعافرى من أهل مرسية ، وأصله من طبيرة من ولاية الغرب ، ويعرف بابن إفرندو ، أخذ عن أبى على بن سكرة ، وأبى بكر بن العربى ، وأبى محمد الرُشاطى وغيرهم ، ورحل إلى المشرق ، وأخذ عن بعض أقطابه ، ومنهم بعض أصحاب الإمام الغزالى . وكان محدثاً حافظا ، ومال إلى الزهد والتصرف ، وأخذ عنه بعض أعلام العصر ، مثل أبى الخطاب بن واجب وغيره . ولم نقف على تاريخ وفاته[٣]

ومنهم ابراهيم بن محمد بن خلف بن سوار بن أحمد بن حزب الله ، بن أبى العباس بن مرداس السلمى من أهل بلفيق من أعمال ألمرية ، وبها ولد ونشأ ، ويعرف بابن الحاج . درس القراءات والحديث ، وأخذ فى ذلك عن أبى محمد البسطى الخطيب ، وابن كوثر ، وابن عروس ، وابن أبى زمنين وغيرهم . وكان فوق براعته فى علوم السنة ، مشاركا فى الأدب ، ومال إلى التصوف ، وشغف به ، وأقبل الناس إليه من كل صوب ، وكثر الازدحام عليه ، فنفاه الوالى إلى المغرب ، وتوفى بمراكش فى جمادى الآخرة سنة ٦١٦ هـ[٤] .

ومحمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن العربى المعافرى ، من أهل إشبيلية ومن بيت القاضى أبى بكر بن العربى ، درس بإشبيلية وقرطبة ، ورحل إلى المشرق ، فأخذ عن أبى طاهر السلفى بالإسكندرية ، ورحل إليه ثانية ، ودخل الشأم ،

---

(١) ترجمته فى التكملة رقم ١٦٩٢ ، وفى عنوان الدراية للغبرينى ص ١٧٠ — ١٧٣ .

(٢) ترجمته فى الإحاطة — مخطوط الإسكوريال (١٦٧٣ الغزيرى) لوحة ١٠٧ .

(٣) ترجمته فى التكملة رقم ١٩٠ .

(٤) ترجمته فى التكملة رقم ٤٣٤ .

والعراق وبغداد ، وأخذ عن أكابر علمائها ، وجاور بمكة ، وسمع الحديث من أكابر حفاظها . وعاد من رحلته الثانية إلى إشبيلية سنه ٦٠٤ هـ ، وأخذ عنه الطلاب عندئذ بإشبيلية وقرطبة . ثم رحل إلى المشرق للمرة الثالثة سنة ٦١٢ ، وجاور بالحرمين عدة أعوام ، وحج مراراً ، وسلك طريقة التصوف ، وغلب عليه الزهد ، وتوفى فى طريق العود ، بثغر الإسكندرية سنة ٦١٧هـ(١) .

ومن أشهرهم وأبعدهم صيتاً ، جعفر بن عبد الله بن محمد بن سيدبونه الخزاعى العابد ، من أهل قسنطانة من عمل دانية . درس القراءات والحديث ، وأخذ عن ابن هذيل ، وابن النعمة ، ورحل إلى المشرق ، فأدى فريضة الحج ، ودخل الإسكندرية فسمع السلفى ، ثم عاد إلى بلده ، ولزم العزلة والزهد ، والإعراض عن الدنيا ، وسلك طريقة التصوف ، وكان شيخ المتصوفة بالأندلس فى وقته ، وعلا صيته ، وذاع ذكره ، فى الزهد والورع ، وتوفى عن نحو مائةعام فى شهر ذى العقدة سنة ٦٢٤هـ ، ولبث قبره حينا مزارا يتبرك به الناس(٢).

ومنهم محمد بن عبد الله بن محمد بن خلف بن قاسم الأنصارى بن أهل بلنسية ، وأصلهم من قلعة أيوب بالثغر الأعلى . درس القراءات والفقه والعربية والآداب ، وأخذ عن أبى العطاء بن نذير ، وأبى عبد الله بن نوح ، وأبى الخطاب ابن واجب وغيرهم . وعنى لأول أمره بعقد الشروط ، ثم اعتزل الحياة وتزهد، وانقطع للعلم والعبادة ، وتصدر لإقراء التفسير بجامع بلنسية ، وغلب عليه التصوف . وألف كتاب « نسيم الصبا » فى الوعظ، وكتاب « النفوس الزكية فى فى الخطب الوعظية » ، وكان من أساتذة ابن الأبار، أخذ عنه وكتب عنه بعض كتبه . ولما وقع حصار النصارى لبلنسية ، وجهه أمرها إلى مرسية لاستنهاض هم أهلها . وتوفى بأوريولة فى رجب سنة ٦٤٠ هـ(٣) .

ومحمد بن مفضل بن حسن بن عبد الرحمن بن محمد بن مهيب اللخمى ، أصله من طبيرة من أعمال الغرب ، وسكن ألمرية . كان فقيهاً وأديبا وشاعراً ، مائلا إلى التصوف ، ولى الخطبة بقصبة ألمرية حيناً ، ثم نزح إلى تونس ، ثم إلى سبتة وبها توفى سنة ٦٤٥ هـ ، ومن مؤلفاته كتاب « الجواهر الثمينة »(٤) .

ونختم هذا الثبت القصير من متصوفة الأندلس فى أواخر العهد الموحدى ،

---

(١) ترجمته فى التكملة رقم ١٥٩٣ .

(٢) ترجمته فى التكملة رقم ٦٤٣ .

(٣) ترجمته فى التكملة رقم ١٦٧١ .

(٤) ترجمته فى التكملة رقم ١٦٨٢ .

بذكر قطبهم الأكبر الشيخ محيي الدين الطائى ، الذى يعتبر شيخ المتصوفة على الإطلاق . وهو محمد بن على بن محمد بن أحمد بن عبد الله ، الشيخ محيي الدين الطائى الحاتمى ، ويكنى أبا محمد وأبا بكر ، ويعرف بابن عربى تمييزاً له من العلامة أبى بكر بن العربى. ولد فى شهر رمضان سنة ٥٦٠هـ بمدينة مرسية، وسكن إشبيلية وقتا ، وأخذ بمرسية عن أشياخها ، ومنهم ابن بشكوال ، وكان يقيم بها يومئذ ، وعبر إلى المغرب ونزل بجاية فى رمضان سنة ٥٩٧ هـ ، وأخذ عن أشياخها ، ثم رحل إلى المشرق حاجا ، فأدى الفريضة ، ولم يرجع بعدها إلى وطنه ، وسمع بمكة وبغداد ودمشق ، ودرس الحديث ومال إلى التصوف ، وشغف به ، حتى ملك عليه كل جوارحه ، وكان ظاهرى المذهب ، وكان يحدث بالإجازة العامة عن أبى طاهر السلفى . واشتهر ابن عربى ، بانقطاعه إلى التصوف وتبحره فى مذاهبه وطرائقه، حتى وصفه بعض مترجميه « بالبحر الزاخر فى المعارف الإلهية »، وله ثبت حافل من المؤلفات الجليلة التى تدل على غزير علمه وسمو معارفه ، نذكر منها « الفتوحات المكية » وهو مؤلف ضخم يعالج فيه طرائق الصوفية علاجا شاملا ، « والتدبيرات الإلهية » « وفصوص الحكم » ، «وتاج الرسائل ومنهاج الوسائل » « وكتاب العظمة » ، « والمتجليات» « ومفاتيح الغيب »، وكتاب الحق، ومراتب علوم الوهب، والأعلام بإشارات أهل الإلهام ، والعبادة والخلوة ، والمدخل إلى معرفة الأسماء ، وأسرار الخلوة ، وعقيدة أهل السنة ، وناصحة النفس واليقين ، ومشكاة الأنوار ، وكثير غيرها . وقد ذكر منها صاحب فوات الوفيات أكثر من خمسين مؤلفا . وكان ابن عربى يجاهر بكثير من الآراء الحرة التى تؤخذ عليه أحيانا ، وتعتبر من ضروب الإلحاد ، حتى أنه حينما كان بمصر ، وصدرت عنه تلك الآراء أو الشطحات كما كان يصفها ابن عربى، اشتد العلماء المصريون فى محاسبته، ورموه بالإلحاد والكفر،وطالبوا بإهدار دمه ، لولا أن شفع له بعضهم ونجا من تلك المحنة . وكان ابن عربى آية فى الذكاء والحافظة وسرعة الخاطر ، فصيحا ، بارع البيان ، وعلى الجملة فقد كان قطبا من أعظم أقطاب عصره، وكان صيته يطبق أنحاء المشرق والمغرب. وتوفى ابن عربى فى دمشق فى نحو الثمانين من عمره ، وقد اختلف فى تاريخ وفاته ، فذكر صاحب فوات الوفيات أنه توفى فى الثامن والعشرين من ربيع الأول سنة ٦٣٨هـ . وذكر ابن الأبار أنه توفى بعد الأربعين وستمائة .

وعنى كثير من أكابر المستشرقين بدراسة حياة ابن عربى وتراثه، ومن هؤلاء آسين بلاثيوس ، وجولد سيهر ، ومكدونالد .

وكان ابن عربى ، فوق براعته فى التصوف، شاعراً جزلا ينظم الشعر الرقيق الجيد ، ومن ذلك قوله فى التعبير عن الشوق :

سلام على سلمى ومن هل بالحمى ... وحق لمثلى رقة أن يسلما
وماذا عليها أن ترد تحية ... علينا ولكن لا احتكام على الدمى
سروا وظلام الليل أرخى سدوله ... فقلت لها صبّا غريبا متيما
فأبدت ثناياها وأومض بارق ... فلم أدر من شق الحنادس منهما
وقالت أما يكفيه أنى بقلبه ... يشاهدنى من كل وقت أما أما

وقوله :

درست عهودهم وإن هواهم ... أبدا جديد فى الحشا ما يدرس
هذى طلولهم وهذى الأدمع ... ولذكرهم أبدا تذوب الأنفس
ناديت خلف ركابهم من حبهم ... يا من غناه الحسن ها أنا مفلس
يا موقدا نارا رويدا هذه ... نار الصبابة شأنكم فلتقبسوا[1]

(١) راجع فى ترجمة ابن عربى فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٤١ — ٢٤٣ ، والتكملة لابن الأبار رقم ١٦٧٣ ، وعنوان الدراية للغبرينى (طبع الجزائر ١٣٣٨ هـ) ، ص ٩٧ — ٩٩ .

# الفصل الثالث

## الحركة الفكرية الأندلسية

### خلال العصر الموحدى

### القسم الثانى

علماء اللغة والنحو والأدب . ابن سمحون الأنصارى . عبدالرحمن بن محمد السلمى . داود بن يزيد السعدى . ابن طاهر الأنصارى النحوى . ابن ملكون الحضرمى . عبد الله بن محمد بن عبيد البكرى . سليمان الحضرمى النحوى . أبو ذر الخشنى . ابن خروف . ابن سعدون الأزدى . ابن وهب البكرى. ابن البرذعى . ابن عامر الجزيرى . أبوعلى الشلوبين . نهضة الشعر الأندلسى خلال العصر الموحدى . أثر المحنة فى اضطرابه . ابن حبوس . ابن أبى العافية الأزدى . ابن مغاور . ابن غلبون . ابن غالب البلنسى الرصافى . شىء من شعره . ابن عياض القرطبى . أبو بحر صفوان بن إدريس التجيبى . محمد ابن أحمد الصابونى . ابن المناصف . ابن حريق . محمد بن ادريس مرج الكحل ، شىء من شعره . ابن حزمون . ابراهيم بن سهم الإشبيلى . شىء من شعره . أحمد بن محمد بن حجاج اللخمى . أبو العباس الجراوى . أبو بكر بن مجبر . أعلام الكتاب فى العصر الموحدى . أبو القاسم بن خيرة المواعينى . ابن هرودس ابن سعد الخير الأنصارى . الحسن بن حجاج الهوارى . أبو الفضل بن محشرة . الرحالة ابن جبير . بنو عياش . أبو الحسن بن عياش . محمد بن عبدالعزيز بن عياش . أبوالحسن على بن عياش . أحمد بن عبد العزيز بن عياش . عزيز بن عبد الملك بن خطاب . أبو عبد الله بن الجنان . أحمد بن محمد القضاعى البلوى . ابن هيصم الرعينى . أبو المطرف بن عميرة المخزومى . الرواة والمؤرخون فى العصر الموحدى . صلة ابن بشكوال ثم تكملة ابن الأبار ثم الذيل والتكملة ، ثم صلة الصلة . عبد الملك بن صاحب الصلاة . عبد الواحد المراكشى . ابن مدرك الغسانى . أحمد بن محمد الأزدى . أبو القاسم الملاحى . عيسى بن سليمان الرعينى . ابن قسوم اللخمى . ابن الأبار القضاعى . آثاره وتراثه . ابن سعيد الأندلسى . ابن فرتون السلمى . ابن عذارى المراكشى . ابن القطان . ابن الزبير . ابن عبد الملك المراكشى .

استعرضنا فى الفصل السابق طائفة كبيرة من أعلام الفكر الأندلسى ، ممن نبغوا فى العلوم الدينية ، ومن جمعوا بينها وبين اللغة والأدب ، ومن برزوا فى ميدان التصوف ، خلال العصر الموحدى ، وهم حسبما بينا فيما تقدم ، الكثرة الغالبة فى ميدان التفكير الأندلسى فى ذلك العصر ، الذى قدر أن تجوز فيه الأندلس محنتها الكبرى ، بانهيار صرحها القديم الشامخ ، وسقوط معظم قواعدها الكبرى ، فى يد اسبانيا النصرانية .

ونريد الآن أن نستعرض بقية أعلام الفكر الأندلسى فى تلك الحقبة ممن ظهروا فى ميادين التفكير الأخرى .

— ١ —

ونبدأ فى ذلك بذكر طائفة من علماء اللغة والنحو والأدب وما إليها ، وهم ليسوا من الناحية العددية كثرة تلفت النظر ، ولكن ظهرت منهم شخصيات بارزة ، لاتقل عن مثيلاتها فى أى عصر ، من عصور النهضة والاستقرار .

كان من هؤلاء ، أحمد بن بن محمد القيسى ، من أهل جيان ويعرف بالفندرى . درس ببلده ، ثم نزح إلى مرسية ، ودرس بها الآداب والعربية ، وبرع فيها ثم انتقل إلى بلدة ألش من أعمالها ، واستقر بها وقتا ، وكانت له إلى جانب ذلك مشاركة فى علم الطب ، وتوفى بمرسية فى شهر ربيع الأول سنة ٥٥٩ هـ(١) .

وأبو بكر بن سليمان بن سمحون الأنصارى ، من أهل قرطبة ، درس القراءات والعربية والآداب ، وبرع فى علم النحو حتى فاق سائر أقرانه ، وكان يوصف بأنه أعلم معاصريه بالنحو ، وكان يدرس العربية ، وله مشاركة فى علم الحساب ، وأخذ عنه عدة من أعلام عصره ، مثل أبى جعفر بن مضاء ، وأبى محمد عبد الحق بن محمد الخزرجى ، وأبى القاسم بن بقى ، وتوفى بقرطبة سنة ٥٦٣ هـ(٢) .

وعبد الرحمن بن محمد السلمى من أهل شرق الأندلس ، وبه نشأ ، ويعرف بالمكناسى . درس على أقطاب صقعه ، وبرع فى الآداب واللغات ، ومعرفة أيام العرب ورجالها ، وكان كاتبا جيد النظم ، مقتدرا فى إنشاء الرسائل اللزومية ، وله منها طائفة جليلة . وتوفى بمراكش سنة ٥٧١ هـ(٣) .

وداود بن يزيد بن عبد الله السعدى النحوى ، من أهل قلعة يحصب من عمل غرناطة ، درس بغرناطة وأخذ بها عن أبى الحسن بن الباذش ، واختص به ، ثم رحل إلى قرطبة فسمع من أقطابها ، وكان أستاذ النحويين فى وقته ، وكان ممن أخذ عنه أعلام ، مثل أبى بكر بن أبى زمنين ، وأبى الحسن بن خروف ، وأبى القاسم الملاحى ، وتوفى عن سن عالية فى سنة ٥٧٣ هـ(٤) .

وعبد الله بن أحمد بن على بن قرشى الحجرى ، من أهل قرطبة ، ونشأ

---

(١) ترجمته فى التكملة رقم ١٧٨ .
(٢) ترجمته فى التكملة رقم ٥٩١ .
(٣) نقلنا ترجمته من أوراق مخطوطة من صلة الصلة لابن الزبير عثرنا عليها بمكتبة القرويين .
(٤) ترجمته فى التكملة رقم ٨٥٥ .

بشرق الاندلس ، وأخذ عن أبي الحسن بن النعمة ، وأبي الوليد بن الدباغ ، وأبي عبد الله بن سعادة ، ومهر فى صناعة العربية والآداب ، وضبط اللغات ، وتصدر لإقرائها زمنا. وكان له إلى جانب ذلك حظ من النثر والنظم. وتوفى بقرطبة سنة ٥٧٥ هـ(١).

ومحمد بن أحمد بن طاهر الأنصارى النحوى ، من أهل إشبيلية . درس العربية على أبي القاسم بن الرماك ، وأبي الحسن بن مسلم ، وبرع فيها ، وتفوق على أقران عصره ، وعكف على تدريسها فى مختلف البلاد . ودخل مدينة فاس محترفاً للتجارة ، فرغب إليه أهلها فى الإقراء ، فاستجاب إليهم ، وأقام بها وقتا ، ثم رحل إلى المشرق ودرس بمصر وحلب والبصرة ، وعاد بعد أداء الفريضة فنزل مدينة بجاية ، وله تعليق جيد على كتاب سيبويه سماه « بالطرر » . وكان ممن أخذ عنه أقطاب مثل أبي ذر الخشنى ، وأبي الحسن بن خروف ، وغيرهما . وتوفى ببجاية سنة ٥٨٠ هـ(٢) .

وابراهيم بن محمد بن منذر بن أحمد بن سعيد بن ملكون الحضرمى النحوى ، من أهل إشبيلية ، أخذ بها عن أقطاب العصر ، مثل أبي مروان الباجى ، وشريح ابن محمد ، وأبي الوليد بن حجاج ، وأبي القاسم بن الرماك ، وبرز فى علم العربية والآداب ، ومهر فيها ، وقام على إقرائها ، وكان ممن أخذ عنه الخليفة أبو يعقوب يوسف وعدة من الجلة ، وله فى اللغة والنحو عدة مؤلفات قيمة منها « إيضاح المنهج » وقد جمع فيه بين كتابى ابن جنى ، ووضع شرحا لكتاب الجمل للزجاجى ، وشرحا آخر لكتاب التبصرة للصميرى وغيرها . وتوفى بإشبيلية سنة ٥٨١ هـ(٣).

وعبد الله بن محمد بن أبي عبيد بن عبد العزيز البكرى ، من أهل قرطبة ، وأصلهم من لبلة ، ومن سادة جزيرة شلطيش أيام الطوائف ، وجده أبو عبيد البكرى ، وهو العلامة الجغرافى اللغوى الشهير صاحب المسالك والممالك ، ومعجم ما استعجم . ونبغ عبد الله كجده فى اللغة والآداب وغريبها ، وأخذ على أبي عبد الله ابن مكى ، وأبي جعفر البطروجى ، وأبي بكر بن عبد العزيز وغيرهم . وأخذ عنه الجلة مصنفات جده ، وكانت وفاته بقرطبة فى جمادى الأول سنة ٥٨١ هـ ، ومولده فى سنة ٥٠٧ هـ(٤) .

ولب بن عبد الله بن لب بن أحمد الرُّصافى ، نسبة إلى رُصافة بلنسية ، أخذ

---

(١) ترجمته فى التكملة رقم ٢٠٦٠ .

(٢) ترجمته فى التكملة رقم ١٤٤٧ .

(٣) ترجمته فى التكملة رقم ٤٠٦ .

(٤) ترجمته فى التكملة رقم ٢٠٧١ .

العربية عن أبى الحسن بن النعمة وغيره ، وبرع فيها ، وقام بتعليمها ، وبرع كذلك فى النحو ، وكان قائما على شرح ابن بابشاذ لجمل الزجاجى ، وأخذ عنه كثير من شيوخ عصره . وتوفى نحو سنة ٥٩٠ هـ(١) .

وجابر بن محمد بن نام بن أبى أيوب ، ويعرف بسليمان الحضرمى النحوى ، من أهل إشبيلية . عنى بالحديث والرواية ، ثم درس العربية على أبى القاسم ابن الرماك ، وأبى الحسن بن مسلم ، وبرع فيها وغاص على دقائقها وأسرارها ، وتصدر لإقرائها ، ولم يكن فى وقته بإشبيلية أقدر منه على شرح كتاب سيبويه ، وتوفى سنة ٥٩٦ أو ٥٩٧ هـ(٢) .

ومصعب بن محمد بن مسعود الخشنى ، من أهل جيان ، ويكنى بأبى ذر ، ويعرف بابن أبى ركب ، درس العربية والآداب واللغات بالأندلس والمغرب دراسة مستفيضة ، وكان فى مقدمة أساتذته العلامة النحوى أبو اسحاق بن ملكون . وبرع فى العربية وتبوأ رياستها فى عصره ، وقصده ، الطلاب من كل صوب للأخذ عنه ، هذا مع مشاركته فى الآداب واللغات ، وقرض الشعر . ولى الخطبة بجامع إشبيلية وقتا ، وكان يقرئ العربية بمسجد ابن الرماك ، ثم ولى قضاء جيان ، واستوطن فى أواخر حياته مدينة فاس . وتصدر بها لإقراء العربية ، وله تأليف فى « شرح غريب السير لأبى اسحاق » ، ورسالة فى العروض . وتوفى بمدينة فاس فى شهر شوال سنة ٦٠٤ هـ(٣) .

وعلى بن محمد بن على بن خروف الحضرمى النحوى من أهل إشبيلية ، ويعرف بابن خروف . درس الكلام والأصول ، وأخذ عن أبى مروان بن قزمان ، وأبى إسحاق بن ملكون ، وداود بن يزيد السعدى ، وبرع فى العربية ، وانقطع لها ، وأصبح من أئمتها البارزين ، وتصدر لإقرائها طول حياته ، بإشبيلية وقرطبة ورندة ، وبالمغرب بفاس وسبتة . ورحل إلى المشرق ، وأقام مدة بحلب . وتفوق بالأخص فى شرح كتاب سيبويه ، وأخذه عنه جمهرة من الحلة . وألف شرحه المشهور عليه ، ويقال إنه حمل منه نسخة إلى الخليفة الناصر بمراكش ، فوصله عنها بألف دينار ، وألف كذلك شرحا لكتاب الجمل للزجاجى ، وكانت له مشاركة فى علم الفرائض وفى القراءات . وكان ذا أسلوب بارع فى الدرس والمحاضرة والمناظرة .

(١) ترجمته فى التكملة رقم ٩٤٦ .
(٢) ترجمته فى التكملة رقم ٦٥٥ .
(٣) ترجمته فى التكملة رقم ١٧٨٥ .

وأخذ عنه ولازمه كثير من شيوخ العصر . وتوفى بإشبيلية سنة ٦٠٩ هـ[١].

وأحمد بن طلحة بن محمد بن عبد الملك الأموى ، أصله من أهل يابرة ، ونشأ بإشبيلية ، أخذ العربية عن أخيه أبى بكر بن طلحة ، وغيره ، وبرع فى الأدب والنحو والعروض ، وله فى ذلك تآليف وأخذ عنه . وتوفى فى نحو سنة ٦٢٠ هـ[٢].

وعبد الله بن محمد بن عبد العزيز . . بن سعدون الأزدى ، من أهل بلنسية ، درس العربية والآداب ومهر فيها ، وكان من أهل المعرفة الكاملة بها وبفنونها ، مبرزاً فى العربية واللغة ، متقنا ، متحققا ، بديع الخط ، وكان إلى جانب ذلك بارع النظم والنثر ، وكتب عن بعض الرؤساء . وتوفى فى آخر سنة ٦٢٢ هـ[٣]

وأحمد بن محمد بن وهب البكرى ، من أهل شاطبة ، أخذ عن عدة من أقطاب عصره مثل ابن نوح وابن عات وغيرهما . ومهر فى صناعة العربية ، إلى جانب مشاركته فى حفظ المسائل ، وعقد الشروط . قال ابن الأبار : « وكان صاحبا لأبى رحمه الله ، اشتركا فى الأخذ عن ابن نوح ، وانفرد هو بالأخذ عن أبى بكر ابن عتيق » . وغادر موطنه شاطبة حينما قام النصارى بإجلاء أهلها عنها بعد نقض هدنتهم وذلك فى رمضان سنة ٦٤٥ هـ ، وتوفى على أثر ذلك بمدينة أوريولة[٤].

ومحمد بن يحيى بن هشام بن عبد الله بن أحمد الأنصارى الخزرجى ، من أهل الجزيرة الخضراء ويعرف بابن البرذعى ، درس القراءات والعربية ، وأخذ العربية عن أبى ذر الخشنى ، وأبى الحسن بن خروف ، وأبى على الرندى وغيرهم ، وأخذ كذلك عن القاضى ابن رشد ، وأبى الحسن بن الصائغ ، وأبى محمد بن حوط الله وأخيه ، وأبى على الشلوبين وغيرهم ، وكان إماما فى صناعة العربية منقطعا إليها ، مقدما فيها ، وكان أستاذه الشلوبين يثنى عليه ، ويشهد بتفوقه فيها ، وله فيها عدة مؤلفات منها ، « كتاب الإفصاح بفوائد الإيضاح » « وكتاب فصل المقال فى تلخيص أبنية الأفعال » ، وكتاب « غرة الإصباح فى شرح أبيات الإيضاح » . وكان يشارك أيضاً فى فنون شتى . ونزح فى أواخر حياته إلى تونس ، وهنالك لقيه ابن الأبار وأخذ عنه . وتوفى بتونس

(١) ترجمته فى صلة الصلة لابن الزبير رقم ٢٤٥ ، وفى فوات الوفيات ج ٢ ص ٨٠ ، وفى الذيل والتكملة لابن عبد الملك ( الجزء الأول من مخطوط الرباط المصور ) .

(٢) ترجمته فى التكملة رقم ٢٨٣ . (٣) ترجمته فى التكملة رقم ٢١١٠ .

(٤) ترجمته فى التكملة رقم ٣١٠ .

فى شهر جمادى الأخرى سنة ٦٤٦ هـ[1]

وإدريس بن محمد بن موسى الأنصارى ، من أهل قرطبة ، أخذ عن أبى جعفر بن يحيى الحطيب ، وأبى محمد بن حوط الله ، ومال إلى العربية والآداب ، وبرع فيها ، وتصدر لإقرائها بقرطبة ، إلى أن تملكها القشتاليون فى سنة ٦٣٣ هـ ، فغادرها وعبر البحر إلى سبتة ، واستأنف بها الإقراء ، وكانت له مشاركة فى النظم والنثر ، وتوفى سنة ٦٤٧ هـ[2] .

والحسن بن أحمد بن الحصين بن عطاف العقيلى ، من أهل جيان ، أخذ عن أبيه وغيره من أشياخ بلده ، وبرع فى اللغة والأدب ، وكانت جيان من مناطق التفوق فى دراسة العربية ، وله شرح فى « مقصورة ابن دريد » . ولم تذكر لنا تاريخ وفاته[3] .

ومحمد بن محمد بن مخلد النحوى ، من أهل شاطبة ، درس العربية وبرع فيها ، ثم انتقل من بلده إلى غرب الأندلس . وله كتاب فى شرح « الجمل للزجاجى » ولم تذكر لنا تاريخ وفاته[4] .

وموسى بن على بن عامر من أهل إشبيلية يعرف بالجزيرى ، لأن أصله من من الجزيرة الخضراء ، درس القراءات والحديث والعربية ، ومهر فى العربية وكان عمدة فى النحو فى عصره ، يؤخذ عنه ، ويؤثر به . وله شرح فى كتاب « لحن العامة » للزبيدى ، وشرح لكتاب « التبصره » للصميرى ، وكتاب آخر عنوانه « الاستيضاح فى شرح الإيضاح » ولم نعثر كذلك على تاريخ وفاته[5] .

ونختتم هذا الثبت من علماء اللغة والنحو بذكر أمامهم وقطبهم الأكبر فى ذلك العصر ، وهو العلامة عمر بن محمد بن عمر بن عبد الله الأزدى الإشبيلى ، أبو على الشلوبين — قال ولده إنه سمى بالشلوبين ، لأنه كان أشقر أزرق ، وكان خبازا . ودرس الشلوبين القراءات والآداب واللغات وأخذ بقسط من رواية الحديث ، وروى عن جمهرة من أقطاب عصره مثل ابن بشكوال ، وأبى بكر بن زهر ، وأبى محمد بن بونه ، وأبى زيد السهلى ، وابن مضاء ، وابن حبيش ، وابن كوثر وغيرهم . ولكن غلبت عليه دراسة العربية ونبغ فيها حتى غدا إمامها الذى لايبارى ، وتصدر لإقرائها بإشبيلية دهراً ، وكانت تشد إليه الرحال من سائر

---

(١) ترجمته فى التكلة رقم ٥٢٢ .

(٢) ترجمته فى التكلة رقم ١٦٨٤ .

(٣) ترجمته فى التكلة رقم ٦٩٢ .

(٤) ترجمته فى التكلة رقم ١٥٤٨ .

(٥) ترجمته فى التكلة رقم ١٧٣٦ .

الآفاق للأخذ عنه ، والتضلع عليه ، وذاع صيته فى سائر أنحاء الأندلس والمغرب ، وكان أمام العربية بالمشرق والمغرب دون مدافع ، وكان ذا معرفة بنقد الشعر وغيره ، بارعا فى التعليم والإلقاء ، أخذ عنه كثير من الجلة مثل القاضى أبى عبدالله ابن عياض ، وأبى العباس الأزدى ، وأبى بكر بن رشيق ، وأبى عمر بن حوط الله وغيرهم . وكان منقطعاً بإشبيلية إلى ابن زهر . عبر البحر إلى مراكش أيام المنصور ، وعاد إلى بلده ، وكرس حياته للعربية ، وقد لبث يقرئها زهاء ستين عاما ، وله شرح للكراسة المنسوبة للجزولى ، وألف كتاب التوطئة ، إتماما للكراسة المذكورة . ولد بإشبيلية سنة ٥٦٢ هـ ، وتوفى بها فى أواخر صفر سنة ٦٤٥هـ ، أثناء حصار القشتاليين إياها(١) .

— ٢ —

ازدهر الشعر خلال العصر الموحدى بالأندلس والمغرب معا ، وكان الخلفاء الموحدون يتذوقون الشعر الجيد ، ويقدرون أثر الإشادة والمديح ، فى تأييد هيبة الدولة والخلافة ، ومن ثم فقد أسبغوا رعايهم على الشعراء ، وأغدقوا عليهم الصلات . وكان للخلافة الموحدية شعراؤها الأثيرون لديها مثل الجراوى ، وابن حزمون ، وابن مجبر ، وغيرهم ، ينظمون قصائدهم فى مختلف المواطن ، والمناسبات السعيدة ، من ولاية وفتوح ومقدم وإبلال وغيرها ، يشيدون فيها بقوة الخلافة الموحدية ومجدها وسعدها .

وبلغ الشعر فى الأندلس فى تلك الفترة مستوى عاليا من الازدهار والقوة فى ظل الخلافة الموحدية ، التى قدرت قدره ، وأظلته برعايتها ، وتبارى الشعراء الأندلسيون ، منذ عهد عبد المؤمن فى مديح الخلافة الموحدية ، والإشادة بذكرها . على أن نهضة الشعر الأندلسى ، فى أوائل العصر الموحدى لم تكن سوى امتداد طبيعى لنهضتها القديمة منذ الطوائف ، وذلك إذا استثنينا عهد المرابطين القصير الذى لم يحظ فيه الشعر بشىء من التقدير والرعاية ، من الدولة المرابطية . ولم تخب النهضة الشعرية القوية ، حتى فى عصر الانهيار ، فى أواخر العهد الموحدى ، بل بالعكس فقد زادتها المحنة قوة واضطراما . وصدرت فى الصريخ من المحنة وفى الأندلس ورثاء قواعدها الذاهبة ، وشعبها المغلوب ، من غرر القصائد المبكية ، مايشهد بأن الشعر

---

(١) ترجمته فى صلة الصلة لابن الزبير المنشور بعناية الأستاذ ليڤى بروڤنسال ( الرباط سنة ١٩٣٧ ) رقم ١٢٨ ، وفى الذيل والتكملة لابن عبد الملك ( الجزء الرابع من مخطوط المتحف البريطانى ) .

الأندلسى ، قد بلغ فى تلك الفترة المؤسية من حياة الأمة الأندلسية ، ذروة قوته وروعته.

وسوف نستعرض فيما يلى ، أهم الشعراء ، الذين ظهروا فى العصر الموحدى سواء بالأندلس أو المغرب ، وقد كانت الخلافة الموحدية تجذبهم إليها أينما حلت ، ولم تكن الأندلس يومئذ ، سوى قطر من أقطار الدولة الموحدية الكبرى.

كان فى مقدمة هؤلاء الشعراء ، أبو عبد الله محمد بن حسين بن عبد الله ابن حبوس ، وهو من أهل فاس ، وكان عالما محققاً ، وشاعراً كبيراً ، يقول لنا المراكشى إن طريقته فى الشعر كانت على نحو طريقة ابن هانىء الأندلسى فى تخير الألفاظ الرائعة . وظهر ابن حبوس فى ميدان الشعر منذ أيام المرابطين ، ومدح بعض أمرائهم ، ولكن نقلت إليهم عنه بعض تهم وحماقات خشى منها على نفسه ، ففر إلى الأندلس ونزل مدينة شلب حيناً ، ولما غلب أمر الموحدين ، انضوى تحت لوائهم ، ولقى الخليفة عبد المؤمن بجبل طارق مع باقى الشعراء ، وامتدحه بقصيدته التى أشرنا إليها فى موضعها . وكثرت مدائحه من بعده لولده الخليفة أبى يعقوب يوسف ، وأمراء بنى عبد المؤمن . وجمع شعره فى ديوان حافل ، يدل على جزالته ، وقوة شاعريته . وكانت وفاته فى سنة ٥٧٠هـ عن سبعين عاما(١)

ومحمد بن عبد الرحمن بن عبد العزيز بن أبى العافية الأزدى ، من أهل غرناطة ، ويعرف بالكتندى لأن أصله من كتندة . كان أديبا كاتبا شاعراً ، متمكنا من العربية ، أخذ عن أقطاب عصره ، وحدث عنه أبو سليمان بن حوط الله ، وأبو القاسم الملاّحي وغيرهما ، ومن شعره :

| | |
|---|---|
| يا سرحة الحى يا مطـــول | شرح الذى بيننـا يطـول |
| ماض من العيش كان فيــه | ملبسنا ظلك الظليـــــلْ |
| زال ، وماذا عليك ماذا | يا سرح ، لو لم يكن يزول |
| حيّاً عن المدنف المعنّى | منبتك القطـــر والقبـول |

وتوفى الكتندى سنة ٥٨٣ هـ(٢) .

ومنهم عبد الرحمن بن محمد بن مغاور بن حكم بن مغاور من أهل شاطبة ، كان من العلماء المحققين ، وأخذ عن أبى على الصدفى وغيره ، وكان من الكتاب البلغاء ، والشعراء المجيدين ، ومن شعره فى الزهد :

(١) ترجمته فى التكملة رقم ١٧١١ ، وراجع المعجب للمراكشى ص ١١٧ و ١١٨ .

(٢) ترجمته فى التكملة رقم ١٤٥٨ .

أيها الواقف اعتبارا بقربى　　استمع فيه قـول عظيم رميم
أودعونى بطن الضريح وخافوا　　من ذنوب كلومهـا بأديم
قلت لا تجزعوا على فإنى حسن　　الظن بالرؤوف الرحـيم

وتوفى ابن مغاور فى صفر سنة ٥٨٧ هـ(١) .

وأبو رجال بن غلبون من أهل مرسية ، وكان أيضاً كاتبا شاعراً بليغا يجيد النثر والنظم ، وأخذ عنه الأدب جماعة من الأقطاب ، مثل أبى بحر صفوان ، وأبى الربيع بن سالم ، وكان يحمل عن أبى اسحاق بن خفاجة ديوان شعره ويرويه ويؤخذ عنه ، وتوفى سنة ٥٧٩ هـ(٢).

وكان من أعلام الشعر فى تلك الفترة من أوائل العصر الموحدى ، وأعظمهم شأنا ، أبو عبد الله محمد بن غالب البلنسى الرفاء المعروف بالرُّصافى ، نسبة إلى رُصافة بلنسية . ولد ببلنسية ، وسكن غرناطة ومالقة ، وبرع فى الشعر والأدب ، وكان ظهوره فى أواخر العصر المرابطى . وكان ممن مدح الخليفة عبد المؤمن عند وفوده على جبل طارق سنة ٥٥٦ هـ ، وألقى بين يديه قصيدته الغراء التى مطلعها :

لو جئت نار الهدى من جانب الطور　　قبست ما شئت من علم ومن نور
من كل زهراء لم ترفع ذوائبهـــا　　ليلا لســار ولم تشبب لمغمــور

وقد أشرنا إليها فى موضعها . وكان الرصافى يومئذ فتى فى عنفوانه ، ولكنه كان قد لمع فى ميدان الشعر وكان له فيه افتنان وإبداع ، ومع ذلك فقد كان كثير التواضع ، لا يحب أن يشتهر بشعره ، مع إجادته فى كثير منه . وكان عزيز النفس موفور الكرامة ، يعيش من صناعة الرفو ، ولايبتذل نفسه فى خدمة أحد ، ولا يتجر بشعره ولايتخذه سبيلا إلى الزلفى ، أو التقرب من أحد . ومن نظمه يصف نهر إشبيليه ( الوادى الكبير ) :

ومهول الشطين تحسب أنه　　متسايل من درة لصفائه
فاءت عليه مع الهجيرة سرحة　　صدئت لفيأتها صفيحة مائه
فتراه أزرق فى غلالة سمرة　　كالدارع استلقى بظل لوائه

ومن قوله :

وفتيــان صــدق كالنجـوم تألقوا　　على الناس من شتى بروج وآفاق

---

(١) ترجمته نقلناها من أوراق مخطوطة من صلة الصلة لابن الزبير .
(٢) ترجمته فى التكملة رقم ٨٨٢ .

على حين راق البرق فى الجو مغمدا صباه ودمع المزن فى جوه راق
وحانت بعينى فى الرياض التفاته حبست وكاساتى قليل على الساق
على سطر خير ذكرتك فانثنى يميل بأعناق ويرنو بأحداق

ومن قصائده المشهورة ، قصيدة طويلة ، يتشوق فيها إلى وطنه بلنسية ويشيد بمحاسنها وفيها يقول :

خليلى ما لليد قد عبقت نسرا وما لرؤوس الركب قد رجحت سكرا
أظنك مفتونا بمدرجة الصبا أم القوم أجروا من بلنسية ذكرا
خليلى عوجا بى قليلا فإنه حديث كبرد الماء فى الكبد الحرّا
قفا غير مأمورين ولتضربا على بقية للمزن فاستبقيا القطرا
بجسر معان والرُّصافة أنه على القطران يسقى الرصافة والجسرا
بلادى التى ريشت قويدمتى منها صريحا وأدوانى قرارتها وكرا
لبسنا بها ثوب الشباب لباسها ولا كن عرينا من حلاه ولم تعرا

وتوفى الرصافى بمالقه فى شهر رمضان سنة ٥٧٢ هـ[١] .

ومنهم محمد بن عيسى بن عياض القرطبى ، كان من أقطاب الأدب وأفذاذ الشعراء والكتاب ، وإليه تنسب المقامة العياضية الغزلية .

ومما ينسب إليه من الشعر قوله :

كم من أخ فى فؤاده دغل أخوف من كاشح تجاهده
برء السقام الخفى أعسر من برء سقام بدت شواهده

ولم يذكر له تاريخ وفاة[٢] .

وأبو بحر صفران بن إدريس بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عيسى بن إدريس التجيبى ، من أهل مرسية ، درس الحديث والأدب ، وبرع فى النثر والنظم ، وكان من أقطاب الكتاب البلغاء ، والشعراء المجيدين ، وله رسائل عديدة وقصائد جليلة . وجمع ماصدر منها فى كتاب سماه « عجالة المحتفز ، وبداهة المستوفز » ، . وألف كتابا آخر عنوانه « زاد المسافر » . وتوفى شابا ببلده مرسية فى شوال سنة ٥٩٨ هـ ، ومولده سنة ٥٦١ هـ[٣] .

ومحمد بن أحمد بن الصابونى الصدفى من أهل إشبيلية . كان من أعظم أدباء

---

(١) راجع المعجب ص ١١٩–١٢٤ ، وابن خلكان ج ٢ ص ١٠ ، والتكملة لابن الأبار رقم ١٤١٦ .
(٢) ترجمته فى التكملة رقم ١٤٠٦ . (٣) ترجمته فى التكملة رقم ١٨٩٥ .

عصره ، وألمع شعرائه ، ويقول ابن الأبار إن ابن الصابونى كان شاعر وقته ، ويقول أيضاً إن الآداب ذهبت بذهابه ، وختمت الأندلس شعراءها به . وهو قول يحمل طابع المبالغة . ورحل ابن الصابونى إلى المشرق فتوفى بالإسكندرية ، وهو فى طريقه إلى القاهرة ، وذلك فى سنة ٦٤٠ هـ .

ومن نظمه قصيدته المشهورة فى مدح عزيز بن عبد الملك بن خطاب والى مرسية ، حين وفد عليه فى سنة ٦٣٢ هـ ، وهذا مطالعها :

أهلا بطيف خيال منك منساب ... أزال عتبك عندى حين إعتابى

ومنها :

لا درّ درٌّ ليالى البعد من زمن ... يطول فيه اجتراع الصب للصاب

نابت صروف نبا بى عندها وطنى ... قرعت بابى لها من رحلى الناب

جوابة الأرض لا ألوى على سكن ... تشجى الركاب وتجرى بى لتجواب

ومن قوله من قصيدة :

أقسم فرق الليل عن سنة الضحى ... وأهبط خصر القاع من كفل الدعص

إلى أن أرى برقا إذا شمت وجهه ... رأيت جبين البدر مكتمل القرص (١)

وطلحة بن يعقوب بن محمد بن خلف بن يونس بن طلحة الأنصارى من أهل شاطبة ، وأصله من جزيرة شقر . كان كاتبا بليغا ، وشاعراً مجيداً ، أخذ عن أشياخ عصره ، ورُوى عنه . وتوفى فى رمضان سنة ٦١٨هـ (٢) .

ومحمد بن عيسى بن محمد بن أصبغ . . بن عيسى بن أصبغ ، ويعرف بابن المناصف ، أصلهم من قرطبة ، وخرج أبوه منها أيام الثورة على المرابطين ، واستوطن إفريقية ، وبها نشأ ولده هذا . وكان عالما متمكنا من الفقه مع حظ وافر من اللغة والأدب ، وقرض الشعر الجيد . وله أراجيز فى عدة فنون منها « الدرة السنية فى المعالم السنية» . وألف كتاب « الإنجاد فى الجهاد» وكتاب الأحكام . وفى أواخر حياته ولى قضاء بلنسية ، ثم قضاء مرسية ، ولما صرف عن القضاء عاد إلى المغرب وتوفى بمراكش فى شهر ربيع الآخر سنة ٦٢٠ هـ (٣) .

وعلى بن محمد بن أحمد بن حريق من أهل بلنسية ، كان بارعا فى اللغة والأدب ، حافظا لإشعار العرب ، وأيامها ، شاعراً مجيداً ، وافر الإنتاج ، ذاع

---

(١) ترجمته فى فوات الوفيات ج ٢ ص ١٦٨ . وراجع الحلة السيراء ص ٢٤٩ و ٢٥٠ .

(٢) ترجمته فى التكملة رقم ٩١٣ . (٣) ترجمته فى التكملة رقم ١٦٠٦ .

شعره فى الأندلس وتداوله الناس ، وله عدة كتب فى الأدب ، ومن نظمه قوله :

يا صاحبي وما البخيل بصاحبي　　هذى الخيام فأين تلك الأدمع
أتمر بالعرصات لا تبكى بها　　وهى المعاهد منهم والأربع
يا سعد ماهذا القيام وقد نأوا　　أتقيم من بعد القلوب الأضلع
هيهات لاريح اللواعج بعدهم　　زهر ولاطير الصبابة وقع

وتوفى ابن حريق ببلده بلنسية فى سنة ٦٢٢ هـ(١) .

ومحمد بن على بن حماد بن عيسى الصنهاجى ، أصله من قلعة بنى حماد ، وسكن بجاية ، وأخذ عن أشياخها ثم دخل الأندلس ، فسمع بها ، وولى قضاء الجزيرة الخضراء ثم قضاء سلا ، وكان كاتبا بليغا ، وشاعراً مجيداً ، وله ديوان شعر معروف . وله أيضا كتاب «الإعلام بفوائد الأحكام» وشرح لمقصورة ابن دريد . وتوفى سنة ٦٢٨ هـ(٢) .

ومنهم ومن أشهرهم وألمعهم ، محمد بن إدريس بن على بن ابراهيم بن القاسم من أهل جزيرة شقر ، ويعرف بمرج الكحل ، وكان من أعظم شعراء عصره مقدرة على الإبداع والتوليد والتجويد ، وبرع فى الأخص فى الغزل ، والشعر الوصفى المبتكر ، وعاش حينا فى غرناطة ، وذاع صيته فى سائر أنحاء الأندلس . وأخذ عنه عدة من أشياخ العصر ، مثل أبى الربيع بن سالم ، وأبى عبد الله بن أبى البقاء ، وابن عسكر ، ومترجمه ابن الأبار وغيرهم . ومن شعره قوله :

مثَل الرزق الذى تطلبه　　مثَل الظل الذى يمشى معك
أنت لاتدركه متّبعا　　فإذا وليت عنه أتّبعك

وقوله يصف عشة بنهر الفنداق الذى يمر بلوشة :

عرج بمنعرج الكثيب الأخضر　　بين الفرات وبين شط الكوثر
ولنغتبقها قهوة ذهبية　　من راحتى أحوى المراشف أحور
والروض ما بين مفضض ومذهب　　والزهر بين مدرهم ومدنر
والنهر مرقوم الأباطح والربا　　بمصندل من زهره ومعصفر

وتوفى مرج الكحل ببلده فى شهر ربيع الأول سنة ٦٣٤ هـ(٣) .

ومنهم أبو بكر بن هشام بن عبد الله بن هشام . . بن عبد الغافر الأزدرى

---

(١) ترجمته فى صلة الصلة لابن الزبير رقم ٢٦٣ ، وفوات الوفيات ج ٢ ص ٧٠ .
(٢) ترجمته فى التكملة رقم ١٦٣٧ .　　(٣) ترجمته فى التكملة رقم ١٦٥٦ .

من أهل قرطبة . درس الفقه والحديث على أقطاب عصره . وبرع فى الأدب ، وكان كاتبا بليغا وشاعراً مجيداً ، كتب لبعض الولاة، وولى قضاء بعض الكور . وتوفى بالجزيرة الخضراء سنة ٦٣٥ هـ(١) .

ومن أشهرهم أيضاً على بن عبد الرحمن بن حزمون، أصله من مرسية . وكان شاعراً مجيداً ، متمكنا من الآداب والتواريخ ، وكان بارع التصرف فى النظم ، مقذع الهجاء . قال ابن عبد الملك فى الذيل والتكملة « وكان شديد القنا ، وارد الأنف ، أزرق حاد النظر ، أسيل الوجه ، بادى الشر ، مهيبا » . ووقعت بينه وبين بعض أدباء عصره مخاطبات ومساجلات تشهد بتقدمه وتمكنه . دخل مراكش غير مرة ، جاء فى آخرها متظلما إلى الخليفة المستنصر من الجريطى والى مرسية ، لاضطهاده ، والاعتداء عليه وضربه بالسياط . ولما ظهرت براءته مما نسب إليه من هجو الجريطى ، أصدر المستنصر أمره بإنصافه ، وإعدايه على الجريطى ، وتمكينه منه ، حتى ينتصف لنفسه ، وعاد ابن حزمون إلى الأندلس ، يحمل أمر المستنصر بإنصافه ، ولكنه ماكاد يصل إلى مرسية حتى ورد الخبر بوفاة المستنصر ، وتحطم بذلك أمله من الانتصاف لنفسه ، ومن نظمه قوله :

يا من له بالأنـــام أنسى وهو إلى اللهـو ذو التفات
استغفرَ الله من ذنـــوب أناها نازل الصـــفات

وقوله وهو مطلع قصيدته فى الشكوى إلى الخليفة :

إليك إمام الحق جبت المفاوز وخلفت خلفى صبية وعجائزا
يرجين سبب الله ثم حنانــكم إمام الهدى حتى يمنّ عجــائزا

وتوفى ابن حزمون حول سنة ٦٣٠ هـ(٢) .

ومن ألمعهم أيام الانهيار ، إبراهيم بن سهل الإشبيلى ، وقد كان يهوديا واعتنق الإسلام ، وبرع فى الشعر ولاسيما فى الموشحات . ومن أبدع قصائده ، قصيدة نظمها فى مدح النبى . وقد توفى غريقاً فى النهر وهو شاب فى عنفوانه ، وذلك فى سنة ٦٤٩ هـ . ومن شعره ، حينما حاصر النصارى إشبيلية فى سنة ٦٤٥هـ واشتدت الحال بأهل إشبيلية ، قصيدة مؤثرة ، يحثهم فيها على الصبر والثبات ، وفيها يقول :

---

(١) ترجمته فى التكملة رقم ٥٩٨ .

(٢) ترجمته فى الذيل والتكملة لابن عبد الملك ، الجزء الرابع من مخطوط المتحف البريطانى . وقد أورد لنا ابن عذارى كثيرا من شعره . وراجع البيان المغرب ص ٧٤ — ٧٧ .

ورداً فمضمون نجاح المصـــدر ... هى عزة الدنيـا وفوز المحشـــر
نادى الجهاد بكم بنصر مضمر ... يبدو لكم بين القنا والضمر
خلوا الديار لدار عز واركبوا ... عبر العجاج إلى النعيم الأخضـر
وتسوغوا كدر المناهـل فى السرى ... ترووا بماء الحوض غير مكدر

ومن شعره قوله :

مضى الوصل إلا منية تبعث الأسى ... أدارى بها همى إذا الليل عسعسا
أتانى حديث الوصل زورا على النوى ... أعد ذلك الزور اللذيذ المؤنســـا
ويا أيها الشوق الذى جـاء زائرا ... أصبت الأمانى خـذ قلوبا وأنفسا

وقوله :

ليـل الهـوى يقظـان ... والحب مترب السهـر
والصبر لى خـــوان ... والنوم من عينى برى[1]

ومنهم أحمد بن محمد بن عيسى . . بن عبد الرحمن بن حجاج اللخمى من أهل إشبيلية، ويعرف بالأفيلح تصغير الأفلح وهو المشقوق الشقة السفلى ، كان أديبا بارعا وشاعراً مجيداً ، وزر للمتوكل ابن هود ، وخاض معه حوادث إمارته ، وحظى لديه . وله أرجوزة مخمسة فى السير عنوانها « نظم الدرر ونثر الزهر » وهى من أحسن ما نظم فى موضوعها . وله شعر جيد ، وعدة مدائح فى أمراء بنى عبد المؤمن ، ومن ذلك قوله يهنىء المأمون أبا العلاء إدريس :

هنأ الله بلاد العـــرب ... ما تتمنـاه بلاد المشرق
طلع المأمون فيها أمـــل ... الراجى وأمن التـــق
وكساها من سنا أنـواره ... رونقا يدهش نور الحدق[2]

ومالك بن عبد الرحمن بن على، يكنى أبا الحكم ويعرف بابن المرحل ، درس الفقه والأدب ، وامتهن صناعة التوثيق حيناً ، وولى القضاء بغرناطة وغيرها ، وكان شاعراً رقيقاً مطبوعا، وله شعر كثير أورد لنا منه ابن الخطيب فى الإحاطة عدة قصائد . ولد سنة ٦٠٤ هـ وتوفى عن سن عالية فى سنة ٦٩٩هـ[3].

ومن شعراء الخلافة الموحدية الأثيرين ، شاعران ، اختصا عصراً بمدائح

---

(١) راجع نفح الطيب ج ٤ ص ٣٠٤ .

(٢) ترجمته فى الذيل والتكلة ، الجزء الأول من مخطوط الرباط المصور لوحة ١١٠ و١١١.

(١) ترجمته ومقتطفات من شعره فى الإحاطة ( مخطوط الإسكوريال لوحات ١٨٩ — ١٩٦ ) .

الخلفاء الموحدين ، منذ عصر أبى يعقوب يوسف حتى عصر الناصر ، وهما أبو العباس أحمد بن عبد السلام الجراوى ، وأبو بكر بن عبد الجليل بن مُجبر ، وقد سبق أن أشرنا فى غير موضع إلى مدائح هذين الشاعرين . وكان الجراوى ، وأصله من تادلا ، وسكن مراكش ، شاعراً مبرزاً ، عالما بالآداب ، حافظاً لأصول البلاغة ، ورحل إلى الأندلس مراراً . وقد وضع للخليفة المنصور كتابه الذى سماه « صفوة الأدب وديوان العرب » فى مختار الشعر ، وانتشر هذا الديوان فى المغرب انتشارا عظيما ، وكان لديهم ككتاب الحماسة عند أهل المشرق[1] . وكذلك جمعت مدائح ابن مجبر للمنصور فى ديوان وأورد لنا منها ابن خلكان قصيدته التى مطلعها :

أتراه يترك الغـــزلا وعليه شب واكتهـــلا
كلف بالغيـــد ما عقلت نفسه السلوان مذ عقلا[2]

ومن شعراء الخلافة الموحدية أيضاً أبو الحسن الرعينى ، وأبو زيد الفازازى ، وعبد الرحمن الجزولى وغيرهم . وقد أورد لنا صاحب البيان المغرب كثيراً من مدائح هؤلاء الشعراء للخلفاء الموحدين فى غير موضع[3] .

ولدينا ثبت آخر من أكابر الشعراء ، مثل ابن طفيل الوادى آشى ، وابن الأبار القضاعى ، وأبى المطرِّف بن عميرة المخزومى ، ولكنا رأينا أن نضع هؤلاء فى مواضع هم أكثر ارتباطا بها وألصق ، فابن الأبار ، بالرغم من إنتاجه الشعرى الرائع ، أكثر انتسابا إلى ميدان التاريخ ، وابن عميرة أكثر انتسابا إلى الكتابة ، وابن طفيل موضعه الحقيقى بين الفلاسفة والعلماء .

— ٣ —

ولنعرض الآن إلى أكابر الكتاب خلال العصر الموحدى . ولدينا من ذلك ثبت حافل يصعب علينا أن نستوعبه فى هذا المقام المحدود ، ولكنا سوف نحاول أن نذكر ألمعهم فى هذا الميدان .

كان من هؤلاء أبو القاسم محمد بن ابراهيم بن خيرة ، ويعرف بالمواعينى من أهل قرطبة ، وسكن إشبيلية . سمع ابن مغيث ، وابن مكى ، وابن العربى ،

---

(١) ترجمة الجراوى فى التكملة رقم ٣٢٣ ، وقد أورد لنا ابن عذارى كثيراً من شعر الجراوى (يراجع البيان المغرب ص ٨١ و ٩٣ و ١١٤ و ١٥١ و ١٥٤ ) .

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ٤٣٢ و ٤٩٤ .

(٣) راجع البيان المغرب ، القسم الثالث ص ٢٢٦ و ٢٢٧ و ٢٣٢ و ٢٥٨ و ٢٦٠ و ٢٦٦ و ٢٦٨ .

وابن أبى الخصال وغيرهم ، وبرع فى الأدب ، وكان كاتبا بليغاً ، وشاعراً مجيداً . كتب أولا للسيد أبى اسماعيل الوالى بغرناطة ، ثم كتب من بعده للسيد أبى جعفر بن عبد المؤمن وحظى عنده ، ونال جاها عريضا . وله عدة مؤلفات تاريخية وأدبية منها : « ريحان الإعراب وريعان الشباب» و« الوشاح المفصل » وكتاب فى « الأمثال السائرة » ، وكتاب فى الأدب نحى فيه منحى ابن عبد البر فى « بهجة المجالس » . وتوفى بمراكش سنة ٥٦٤هـ ، أونحو سنة ٥٧٠ هـ ، وفقاً لرواية ابن الأبار(١)

وأبو الحكم إبراهيم بن على بن إبراهيم بن محمد الأنصارى ، أصله من وادى آش وسكن مالقة ، ويعرف بابن هرَوْدس . كان عالما متمكنا ، وكاتبا بليغا ، وله حظ من قرض الشعر . كتب أيام الفتنة لأحمد بن ملحان الطائى القائم بوادى آش ، إلى جانب العلامة ابن طفيل . وتوفى فى سنة ٥٧٣هـ(٢) .

ومنهم أبو عبد الرحمن بن طاهر ، زعيم مرسية أيام الفتنة ، وقد سبق أن أتينا على ترجمته بين الكتاب الذين ظهروا فى العصر المرابطى(٣) .

ومنهم على بن ابراهيم بن محمد عيسى بن سعد الخير الأنصارى من أهل بلنسية، وأصله من بلدة قشتيل من أعمالها ، كان إماما بارعا فى علوم اللسان والأدب وكاتبا بليغاً وشاعراً محسنا ، بديع التشبيه . وكتب عن السيد أبى الربيع سليمان ابن عبد الله بن عبدالمؤمن . وله مصنفات أدبية عديدة منها اختصاره للعقد الفريد، وجمع طرر أبى الوليد الوقشى ، وكتاب مشاهير الموشحين بالأندلس ، وهم عشرون ، ذكرهم بصفاتهم ومحاسنهم ، على طريقة الفتح فى القلائد والمطمح ، وابن بسام فى الذخيرة . وله رسائل عديدة . وسار إلى إشبيلية مع مخدومه السيد أبى الربيع ، حينما قدم إليها مهنئا ابن عمه الخليفة المنصور بفتح شلب ، وارتجاعها من أيدى البرتغاليين ، وهنالك توفى فى شهر ربيع الآخر سنة ٥٩١ هـ(٤) .

والحسن بن حجاج بن يوسف الهوارى التجيبى ، أصله من بجاية وسكن مراكش ، ودخل الأندلس مرارا . وولى الخطبة بإشبيلية . وكان أديبا مبرزاً

---

(١) ترجمته فى الإحاطة مخطوط الإسكوريال ١٦٧٣ الغزيرى ، لوحة ١١ ، وفى التكملة رقم ١٤٠٧ .
(٢) ترجمته فى التكملة رقم ٣٩٧ .
(٣) راجع ترجمة ابن طاهر فى ص ٤٤٥ من القسم الأول من هذا الكتاب .
(٤) ترجمته فى الذيل والتكملة ، مخطوط المتحف البريطانى ، السفر الرابع لوحات ٤١ — ٤٣ .

وكاتبا بليغا ، أخذ عن أقطاب العصر ، وأخذ عنه عدة من الجلة ، منهم أبو الربيع ابن سالم ، وتوفى بمدينة فاس سنة ٥٩٨ هـ[١] .

ومنهم أبو الفضل محمد بن على بن طاهر بن تميم القيسى من أهل بجاية ، ويعرف بابن محشرة . كان عالما متمكنا ، وأديبا بارعا ، وكاتبا مجيداً ، وكان تلميذاً لأبى القاسم القالمى . استدعاه الخليفة أبو يعقوب يوسف ليتولى كتابة السر ، فظهر فى هذا المنصب بمقدرته ، وروعة أسلوبه وبيانه . ولما توفى أبو يعقوب ، كتب من بعده لولده الخليفة يعقوب المنصور . وفى مجموعة الرسائل الموحدية ، عدد من الرسائل مدبجة بقلمه ، تشهد بتفوقه ، وتفننه فى أساليب البلاغة ، وكانت وفاته فى سنة ٥٩٨ هـ[٢] .

ونستطيع أن نضع بين أعلام كتاب الأندلس فى العصر الموحدى ، الرحالة ابن جبير ، وهو محمد بن أحمد بن جبير بن محمد بن جبير الكنانى ، أصله من بلنسية ، ونزل أبوه شاطبة ، وانتقل إلى غرناطة . ودرس ابن جبير القراءات والحديث ، وبرع فى الآداب ، وبرز فى الكتابة والنظم ، وكتب فى شبابه بسبتة للسيد أبى سعيد عثمان بن عبد المؤمن ، ثم كتب لوالى غرناطة ، ونال جاها وثراء . ثم تزهد ورحل إلى المشرق لأول مرة فى سنة ٥٧٨ هـ ، لقضاء فريضة الحج ، وسمع الحديث بمكة على أبى حفص اليانشى ، وأخذ مقامات الحريرى بدمشق عن أبى طاهر الخشوعى . ثم عاد إلى الأندلس وأخذ بها عليه ما كان عنده ، وحُمل عنه شعره فى الزهد ، وهو كثير . وقام برحلته الثانية إلى المشرق سنة ٥٨٥ هـ ، وعاد إلى المغرب . ثم رحل رحلته الثالثة بعد سنة ٦٠١ هـ ودرس بمكة والقدس ، وحدث هناك وأخذ عنه . وتوفى بالإسكندرية فى شهر شعبان سنة ٦١٤ هـ ، ومولده ببلنسية ، أوشاطبة سنة ٥٤٠ هـ[٣] . ومن أشهر آثار ابن جبير رحلته القيمة المسماة « اعتبار الناسك ، فى ذكر الآثار الكريمة ، والمناسك » أوبعبارة أخصر « رحلة ابن جبير » وفيها يدون مشاهداته وملاحظاته بأسلوب قوى شائق .

وظهر فى أواسط العصر الموحدى فى ميدان الكتابة بنو عيّاش ، وهم من

---

(١) ترجمته فى التكملة رقم ٧٢٢ .

(٢) ترجمته فى « عنوان الدراية » ص ٣٠ ، وراجع المعجب ص ١٤٩ .

(٣) ترجمته فى التكملة رقم ١٥٨١ .

أقطاب الكتاب البلغاء، وهم أسرة أندلسية نزحت إلى المغرب ، وكان أول من ظهر منهم فى خدمة الخلافة الموحدية أبو الحسن بن عياش من كتاب الخليفة عبد المؤمن، ثم ولده الخليفة أبى يعقوب يوسف . ومحمد بن عبد العزيز بن عياش ، كاتب الخليفة يعقوب المنصور ، ثم ولده الناصر . وأبو الحسن على بن عياش ابن عبد الملك كاتب الخليفة الناصر وولده يوسف المستنصر . وكان أنبههم ، وأشهرهم ، هو أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عياش التجيبى ، وأصله من برشانة من أعمال ألمرية(١) . ونزح إلى المغرب ، وسكن مراكش ، وبرع فى الآداب وعلوم اللغة ، وكان قطب عصره فى البيان والبلاغة ، خطيباً مصقعاً ، وله حظ من قرض الشعر . وقد وصفه ابن عبد الملك فى التكملة بقوله : «كان كاتبا بارعا ، فصيحاً ، مشرفا على علوم اللسان ، حافظا للغات والآداب ، كبير المقدار ، حسن الخلق ، كريم الطباع ، دفاعا مجاهداً ، كثير الاعتناء بطلبة العلم ، والسعى الجميل لهم » ، وتولى ابن عياش منصب الكتابة للخليفة المنصور ، وظهر فيه برسائله المشرقة ، وبيانه الرائع ، عن أحوال الخلافة الموحدية ومراسيمها ، وتحركاتها(٢) . وهو الذى دبج بقلمه المنشور الصادر بأمر المنصور ضد الفيلسوف ابن رشد وزملائه . ولما توفى المنصور ، تولى منصب الكتابة لولده الخليفة الناصر ، ثم ولده الخليفة يوسف المستنصر . وكان من آثر رجال الدولة ، وأرفعهم مكانة لدى الخلافة الموحدية . وكان صديقاً شخصياً للخليفة المنصور ، وله معه أخبار كثيرة . وتوفى أبو عبد الله ابن عياش بمراكش فى شهر جمادى الآخر سنة ٦١٨هـ ، ومولده ببرشانة سنة ٥٥٠هـ(٣).

وتولى ولده ، أحمد بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن عياش ، منصب الكتابة للخليفة يوسف المستنصر ثم للخليفة المأمون، وتولى قضاء تلمسان وسبتة ، وكان كذلك كاتبا محسنا ، مشرق البيان، بارع الطريقة ، وتوفى فى محرم سنة ٦٢٩هـ(٤)

ومن أشهر كتاب الاندلس فى هذا العصر ، الذى اضطرمت فيه الفتنة فى كل

---

(١) برشانة هى بالإسبانية Puchena .

(٢) وردت فى الرسائل الخامسة والثلاثين ، والسادسة والثلاثين ، والسابعة والثلاثين ، من مجموعة رسائل موحدية نماذج بديعة من أسلوب ابن عياش .

(٣) ترجمته فى التكملة رقم ١٥٩٦ ، وفى الإحاطة – مخطوط الإسكوريال السالف الذكر لوحة ٥٠ – ٥٩ . وقد أورد لنا أيضاً نماذج من كتابته .

(٤) ترجمته فى التكملة رقم ٣٠٠ ، وفى الذيل والتكملة (مخطوط باريس لوحة ١٧٤ ) .

ناحية، أبو بكر عزيز بن عبد الملك بن محمد بن خطاب القيسى ، وهو سليل آل خطاب أعيان مرسية ورؤسائها أحيانا منذ القرن الرابع الهجرى . وكانت له كأسلافه مشاركة فى العلوم ، وتمكن من النثر والنظم . ولما تغلب ابن هود على مرسية فى سنة ٦٢٥ ﻫ ، اختاره لرياستها نائبا عنه ، فلبث على ولايتها حتى توفى ابن هود فى أوائل سنة ٦٣٥ ﻫ ، وعندئذ ، استبد عزيز بمرسية ، ولكن لم يمض سوى قليل حتى تغلب عليه أبو جميل زيان أمير بلنسية السابق ، وانتهى الأمر باعتقاله ثم قتله فى رمضان سنة ٦٣٦ ﻫ . قال ابن عبد الملك فى حقه «كان وجيه أهل بلده وصدرهم المعظم لديهم ، مشهور الفضل لديهم ، أجمل الناس صورة ، وأحسنهم شارة ، زاهدا ورعا ناسكا عابدا . . حريصاً على نشر العلم ، مثابراً على التدريس مستبحراً فى المعارف ، إلى بيان فى الخطابة وبلاغة فى النظم والنثر» . وكان يميل إلى طرائق الصوفية وله نظم حسن ، ورسائل نثرية بليغة(١) .

ومنهم أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد الأنصارى المعروف بابن الحنّان وهو من أهل مرسية ، وكان محدثا راوية ، وكاتبا بليغاً ، وشاعراً محسنا ، ظهر بنثره البارع ، وكتب لابن هود أيام إمارته ، ثم استكتبه الرئيس أبو جميل زيان ، أيام تغلبه على مرسية . ولما تغلب النصارى على مرسية سنة ٦٤٠ﻫ ، غادرها إلى أوريولة ، واستقر بها وقتاً ، ثم نزح إلى إفريقية ، مع من نزح إليها من أهل الشرق ، ونزل ببجاية ، وكانت بينه وبين كتاب عصره أمثال أبى المطرف بن عميرة وغيره مراسلات بليغة ، ظهرت فيها براعة أسلوبه . وكانت وفاته ببجاية سنة ٦٥٠ﻫ (٢) .

وأحمد بن محمد بن عبد الرحمن . . بن على القضاعى ثم البلوى ، من أهل إشبيلية ، كان كاتبا مطبوعا بارعا فى النثر والنظم . كتب فى شبابه لبعض ولاة الأندلس من أبناء الخليفة عبد المؤمن وأحفاده ، ثم ترك الكتابة ، واشتغل بكتب الشروط . ونزح إلى مراكش فى أيام الناصر ، واستقر بها وقتا ، وغادرها إلى إشبيلية ، ثم عاد إلى مراكش مع وفد إشبيلية الذى يحمل بيعة أهلها إلى الخليفة السعيد ، ومدحه بقصيدة فريدة وخطبة بارعة ، وحظى لديه ، وتوفى بمراكش سنة ٦٥٧ﻫ (٣) .

---

(١) ترجمته فى الحلة السيراء لابن الأبار ص ٢٤٩ — ٢٥٣ ، وفى الذيل والتكملة لابن عبد الملك (مخطوط باريس) .

(٢) ترجمته فى الإحاطة ، مخطوط الإسكوريال (١٦٧٣ الغزيرى) لوحة ١٤ — ١٨ . وكذلك فى عنوان الدراية ص ٢١٣ — ٢١٥ .

(٣) ترجمته فى الذيل والتكملة لابن عبد الملك المجلد الأول (مخطوط باريس) لوحة ١٧١ و١٧٢ .

وعلى بن محمد بن على بن هيصم الرعينى من أهل إشبيلية ، كان محدثا ، وكاتبا بليغاً ، مشاركا فى علوم كثيرة . وغلبت عليه الكتابة السلطانية ، فبرع فيها ، وانقطع لها ، وكتب عن عدة من أمراء الأندلس والعدوة ، فكتب للمتوكل ابن هود ، ثم كتب بعد وفاته لمحمد بن الأحمر صاحب غرناطة ، ووقعت مساجلات أدبية بينه وبين أبى عبد الله بن الجنان ، وأبى المطرِّف بن عميرة ، ينقلها إلينا صاحب التكملة . ثم نزح من الأندلس إلى العدوة ، فكتب عن أمير سبتة ، ثم عن الأواخر من الخلفاء الموحدين ، خلفاً لشيخه أبى زيد الفازازى ، وكان من شيوخ ابن عبد الملك صاحب التكملة وتوفى بمراكش سنة ٦٦٦ هـ[١] .

ونستطيع أن نختتم هذا الثبت من الكتاب ، بكاتب من أبرع وألمع كتاب الأندلس ، فى عصر الانهيار ، هو أبو المطرِّف أحمد بن عبد الله بن الحسين بن عميرة المخزومى . وأصله من جزيرة شقر من أعمال بلنسية وبها ولد سنة ٥٨٢هـ . وسكن بلنسية ودرس بها الحديث والفقه ، ولكنه شغف باللغة وعلومها ، وبالأدب ، وبرع فى النثر . قال ابن عبد الملك : « وتفنن فى العلوم ، ونظر فى العقليات وأصول الفقه ، ومال إلى الأدب ، فبرع فبه براعة عد بها فى كبار مجيدى النظم . وأما الكتابة ، فهو علمها المشهور ، وواحدها الذى عجزت عن ثانيه الدهور » ، وقال ابن الخطيب فى وصفه « كان نسيج وحده إدراكا وتفننا ، بصيراً بالعلوم ، محدثا مكثراً ، راوية ثبتاً ، متبحراً فى التاريخ والأخبار ، قائماً على العربية واللغة ، جم العيون ، غزير المعانى والمحاسن »[٢] وأخذ ابن عميرة عن عدة من أقطاب عصره ، منهم أبو الخطاب بن واجب ، وأبو الربيع بن سالم ، وأبو على الشلوبين وأبو عمر بن عات ، وأبو محمد بن حوط الله . وولى لأول أمره القضاء بأوريولة ثم شاطبة ، ولكنه ظهر فى ميدان الكتابة والترسل ، وكتب عن الأمير أبى جميل زيان ، وصدرت عنه فى تلك الفترة المدلهمة من تاريخ شرق الأندلس رسائل عديدة ، منها ماهو موجه منه ، وهو قاض بشاطبة إلى المتوكل بن هود ، وما كتبه عن أبى جميل زيان أيام ولايته لمرسية إلى ملك قشتالة ، وإلى أبى زكريا الحفصى أمير إفريقية ، ومنها ماتبادله مع زميله وصديقه وقرينه فى الشهرة والبراعة ابن الأبار

---

(١) ترجمته فى الإحاطة مخطوط الإسكوريال السالف الذكر لوحة ٣٢٨ و٣٢٩ . وفى الذيل والتكملة المجلد الرابع من مخطوط المتحف البريطانى .

(٢) الإحاطة لابن الخطيب (١٩٥٦) ج ١ ص ١٨٠ .

القضاعى . وقد انتهى إلينا عدد كبير من هذه الرسائل التى دبجها ابن عميرة فى تلك الفترة ، وكلها تدلى بروعة بيانه، ومقدرته الفائقة فى الترسل(١). وكان مما نقله إلينا صاحب « صبح الأعشى » من رسائله ، رسالة كتبها عن « صاحب أرغون » إلى الخليفة الموحدى يوسف المستنصر ، يخبره فيها بأن صاحب أرغون، قد وقع بينه وبين بلده خلاف ، انتهى بنكبته ، وإخراجه من بلاده ، ففكر فى « أن يلجأ إلى المقام الباهر الأنوار ، العزيز الجوار ، فقدم إلى بلنسية ، التى صدرت منها هذه الرسالة ، وبأنه إن وجد من الأمر العالى تأييداً ، واستطاع أن ينتصر على خصومه ، كانت لذلك نتائج هامة ، خصوصاً وأن له فى « أرغون » كثير من الزعماء والأقارب والفرسان المناصرين له »(٢). وقد ظن بعض الباحثين أن ابن عميرة التحق بخدمة ملك أراجون، وكتب عنه هذه الرسالة وهو فى خدمته. والحقيقة كما يبدو من نص الرسالة الواضح ، أن ابن عميرة ، كان وقت كتابة الرسالة مقيماً ببلاده بلنسية ، وربما كان عندئذ يتولى الكتابة لواليها السيد أبى زيد ؛ أما « صاحب أرغون » ، الذى كتبت عنه هذه الرسالة ، فالمرجح أنه الدون فرناندو الأرجونى عم ملك أراجون الصبى « خايمى » ، وكان يحاول مع جماعة من أعيان أراجون أن يناوئه ، وأن ينتزع العرش لنفسه(٣)، ومن ثم كان قدومه إلى بلنسية ، وتوجيه رسالة منها إلى الخليفة الموحدى ، وكان ذلك ، فيما يبدو حوالى سنة ٦١٨هـ ( ١٢٢٠ م ) ، فى أواخر عهد المستنصر . ولما تفاقمت الحوادث فى شرق الأندلس ، وشعر ابن عميرة أنه لم يبق له ثمة أمل فى البقاء فى الوطن المنكوب ، عبر البحر إلى المغرب، والتحق بخدمة الخليفة الموحدى الرشيد، وكتب عنه فى أواخر عهده . ثم ولى بعد ذلك قضاء سلا ومكناسة . ولما قتل الخليفة المعتضد ( السعيد ) لحق بسبتة ، وهنالك انقض عليه جمع من بنى مرين وسلبوه كل أمواله، فارتد فى أسوأ حال إلى إفريقية ، وسكن بجاية حينا، ثم رحل إلى تونس ، وحظى لدى أميرها المستنصر بالله ، فولاه قضاء قسنطينة ثم قضاء

---

( ١ ) نشرت عدة من رسائل ابن عميرة فى صبح الأعشى ج ٦ ص٥٣٤ وج ٧ ص ٩٨ و٩٤ و١١٦ . ونشرت منها عدة بكتاب زواهر الفكر ، لابن المرابط – مخطوط الإسكوريال رقم ٥١٨ الغزيرى ، ورقم ٥٢٠ ديرنبور . ونشر المقرى بعضها فى نفح الطيب ج ٢ ص ٥٩٦ – ٦٠١ ، وفى الروض المعطار – صفة جزيرة الأندلس ص ٤٨ – ٥٢ ، وكذلك الإحاطة ص ١٨٢ .

( ٢ ) تراجع هذه الرسالة فى صبح الأعشى ج ٦ ص ٥٣٤ – ٥٣٥ .

( ٣ ) M. Lafuente : Historia General de Espana T.IV, p. 69 & 70

قابس ، ثم كتب حينا عن المستنصر . وقد كان ابن عميرة إلى جانب براعته فى الكتابة، شاعراً مجيداً له النظم الرائق . وله تأليف فى «كائنة ميورقة » وسقوطها فى أيدى النصارى ، نحى فيه بأسلوبه المسجع منحى العماد الأصفهانى فى الفتح القدسى . وكتاب فى التعقيب على فخر الدين الرازى فى كتاب المعالم فى أصول الفقه ، ومختصر فى « ثورة المريدين » وغيرها . وجمع ابن هانىء السبتى رسائل ابن عميرة وشعره فى كتاب فى سفرين ، وسماه « بغية المستطرف وغنية المتطرف ، من كلام إمام الكتابة ابن عميرة أبى المطرِّف» . والخلاصة أن القاضى ابن عميرة ، مثل زميله ابن الأبار ، يمثل كلاهما ، بشعره ونثره نفثة من نفثات الأندلس المحتضرة ، ويودع كلاهما رسائله أنفس نماذج تراثها الأدبى الأخير . وتوفى ابن عميرة بتونس عن سن عالية ، فى شهر رمضان سنة ٦٥٨هـ ، وقيل فى ذى الحجة سنة ٦٥٦هـ[١] .

— ٤ —

وأما عن الرواة والمؤرخين الذين ظهروا فى العصر الموحدى ، فليس لدينا منهم سوى القليل ، بيد أنه قد انتهى إلينا من تراث هذه الحقبة ، عدد من المصادر القيمة الهامة ، وفى مقدمتها تلك السلسلة النفيسة من تراجم العصرين المرابطى والموحدى ، وهى التى بدأت بكتاب « الصلة » لابن بشكوال . وقد سبق أن ترجمنا لابن بشكوال ضمن مؤرخى العصر المرابطى ، وجاء ابن الأبار القضاعى فوضع معجمه « التكملة » ليتم به معجم « الصلة » وليصل بما يتضمنه من التراجم إلى ما بعد سنة ٦٥٠هـ بقليل ، وليقدم لنا بذلك ثبتا حافلا ضخماً من أعلام الفكر الأندلسى ، فى سائر ميادينه ، خلال العصر الموحدى. وجاء من بعد ابن الأبار ، العلامة المغربى الثقة ، ابن عبد الملك المراكشى المتوفى أواخر القرن السابع ، فوضع معجمه الضخم « الذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة » تكملة لهذه السلسلة النفيسة . مستدركا فيها الكثير مما فات سلفيه ، ومتوسعا فى كثير من التراجم المشتركة ، هذا إلى ما يقدمه إلينا خلال هذه التراجم عن أحداث العصر الموحدى ، سواء بالمغرب أو الأندلس من نبذ تاريخية قيمة ، ومن وثائق فريدة أحيانا . وقد عاش ابن عبد الملك فى أواخر العصر الموحدى ، وأدرك نهايته ، ثم توفى بعد ذلك بنحو ثلث قرن . وجاء أخيراً من بعد ابن عبد الملك

(١) تراجع ترجمته ابن عميرة فى الإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ١٧٩ — ١٨٦ ، وعنوان الدراية ص ١٧٨ — ١٨٠.

راوية ومؤرخ أندلسى ، ولد فى أواخر العصر الموحدى بالاندلس ، هو أبو جعفر ابن الزبير المتوفى فى سنة ٧٠٨ هـ ، فوضع لنا معجماً جديداً من التراجم الأندلسية والمغربية ، سماه « صلة الصلة » ، وبه يضيف إلى سلسلة المعاجم السابقة ، مرحلة أخرى من تراجم العصر الموحدى .

وسوف نحاول التعريف بأولئك الرواة المؤرخين ، أصحاب المعاجم المذكورة خلال حديثنا عن المؤرخين الذين ظهروا خلال العصر الموحدى .

كان من هؤلاء مؤرخان لاينتميان فقط إلى العصر الموحدى ، ولكن يعتبر كلاهما من أولياء الدولة الموحدية ومؤرخيها الأوائل ، هما ابن صاحب الصلاة ، وعبد الواحد المراكشى .

فأما ابن صاحب الصلاة ، فهو عبد الملك بن محمد بن أحمد بن محمد بن ابراهيم الباجى ، ويكنى أبا مروان وأبامحمد ، ويعرف بابن صاحب الصلاة وصاحب التاريخ . وقد سبق أن أتينا على ترجمته ، ووصف أثره التاريخى الهام عن الدولة الموحدية وهو كتاب « المن بالإمامة » ، كما أشرنا إلى ما يوجد من خلاف حول تاريخ وفاته ، وإلى ما يبدو بالرجوع إلى بعض شذور تاريخية من كتابه من أنه قد عاش حتى أواخر القرن السادس الهجرى ، وتوفى فيما يرجح حوالى سنة ٦٠٥ هـ[١] .

وأما المراكشى فهو أبو محمد عبد الواحد بن على التيمى المراكشى ، ولد بمدينة مراكش ، حسبما يحدثنا فى سنة ٥٨١ هـ ، وغادرها فى صباه إلى فاس ، وهناك درس القرآن والنحو ، ثم عبر إلى الأندلس فى سنة ٦٠٣ هـ ، وتجول بها حيناً ، وعاد إلى مراكش ، وبقى بها حتى سنة ٦١١هـ ، ثم عبر إلى الأندلس مرة أخرى وهناك اتصل ببعض الولاة الموحدين ، وغادرها فى أواخر سنة ٦١٣ هـ إلى المشرق ، وقضى بمصر حيناً . وكتب كتابه « المعجب فى تلخيص أخبار المغرب » ، وفيه يتحدث عن تاريخ الأندلس بإيجاز ، ثم تاريخ المغرب خلال عصر المرابطين والموحدين ، فى شىء من التفصيل ، ويبدى عناية خاصة بسرد أخبار الموحدين ويبدى فى سردها إعجابا وعطفاً ، لما كان يربطه قبل مغادرته الأندلس والمغرب ، من أواصر المودة ببعض الولاة والأمراء الموحدين . وبالرغم مما يبدو فى تاريخه من ثغرات كثيرة ، فإنه يعتبر من المصادر القيمة لتاريخ الدولة الموحدية ، لما يحتويه من إشارات ونبذ قيمة عن تاريخ الخلافة الموحدية ، منذ عهد عبد المؤمن

(١) راجع القسم الأول من هذا الكتاب ص ٩ و ١٠ .

حتى عهد الناصر . ولم نعثر على تاريخ وفاته(١) .

ومنهم محمد بن سعيد بن محمد . . بن مدرك الغسانى من أهل مالقة ، درس الحديث والفقه على عدة من أعلام عصره ، ومنهم أبو بكر بن العربى ، وبرع فى الرواية والتاريخ وتحقيق الأنساب ، وكان يقتنى مكتبة من أكبر مكتبات بلده . ولم يذكر له تاريخ وفاة(٢) .

وأحمد بن محمد الأزدى المؤرخ من أهل قرطبة ، كان من تلاميذ ابن بشكوال وأخذ عنه كثيراً ، وكان يلازم المسجد الجامع ، متعبداً متبتلا ، وقيد كثيراً من التواريخ والمواليد والوفيات ، ولكن لم يصلنا من آثاره شيء ، وتوفى سنة ٦١١ هـ(٣)

ومن أشهر مؤرخى العصر الموحدى بالاندلس ، أبو القاسم محمد بن عبد الواحد بن ابراهيم بن مفرج بن حريث بن مروان الغافقى ، من أهل غرناطة ويعرف بالملاّحى نسبة إلى « الملاحة » وهى قرية من أعمال إلبيرة على مقربة من غرناطة ، وكان بها منزل سلفه . درس الحديث وشغف بالرواية والأدب والسير ، وأخذ عن عدة من أقطاب عصره ، مثل أبى الحسن بن كوثر ، وأبى محمد ابن الفرس ، وأبى عبد الله بن بونه ، وأبى بكر بن أبى زمنين وغيرهم ، وكان محدثا وراوية متقنا ، وأديبا مؤرخا بارعا . وله عدة مؤلفات أشهرها كتابه « تاريخ علماء إلبيرة وأنسابهم وأنبائهم » ، وهو مؤلف يقتبس منه المتأخرون بكثرة مثل ابن الخطيب وغيره . ومن مؤلفاته أيضاً « كتاب الشجرة فى أنساب الأمم العرب والعجم » وكتاب الأربعين حديثا » ، وله استدراك على كتاب الصحابة لأبى عمر ابن عبد البر . توفى فى شهر شعبان سنة ٦١٩ هـ ، ومولده سنة ٥٤٩ هـ(٤) .

ومنهم عيسى بن سليمان بن عبد الله بن عبد الملك الرعينى ، ويعرف بالرندى ، لأن أصله من رندة وسكن مالقة . عنى بالإسناد والرواية ، وأخذ بالأندلس عن عدة من الأشياخ ، ورحل إلى المشرق وحج ، وأخذ هنالك عن كثيرين ، وأنفق فى المشرق نحو عشرين عاما ، ثم عاد إلى بلده مالقة ، وأخذ عنه الكثيرون ، وكان ضابطا متقنا ، عارفا بالرجال والأسانيد ، وألف كتابا فى « الصحابة » ووضع معجم أشياخه . وتوفى سنة ٦٣٢ هـ(٥)

---

(١) راجع المعجب ص ١٣٠ و ١٨٧ و ١٨٩ و ٢٠٣ حيث يشير المراكشى إلى بعض مراحل حياته .

(٢) ترجمته فى التكملة رقم ١٤١٢ .

(٣) ترجمته فى التكملة رقم ٢٦٩ .

(٤) ترجمته فى التكملة رقم ١٦٠٤ ، وفى الإحاطة مخطوط الإسكوريال ١٦٧٣ الغزيرى لوحة ١٤٦ .

(٥) ترجمته فى صلة الصلة لابن الزبير ص ٥١ .

ومحمد بن‌عبد الله بن ابراهيم بن عبد الله بن قسوم اللخمى من أهل إشبيلية ، كان أديبا شاعراً راوية . وعكف على الزهد والعبادة ، فطار ذكره ، وقصر شعره على الزهد والمراثى ، وأخذ البعض عنه . وعنى بالسير ، وألف كتابا سماه « محاسن الأبرار فى معاملة الجبار » يشتمل على أخبار الصالحين من أهل إشبيلية . وتوفى فى ذى الحجة سنة ٦٣٩ هـ[١] .

على أن أعظم أقطاب الرواية والتاريخ ، فى هذه الفترة القاتمة من تاريخ الأندلس ، هو بلا ريب أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبى بكر القضاعى المعروف بابن‌الأبار . وقد آثرنا أن نضع هذا المفكر الأندلسى العظيم بين المؤرخين ، لأن تراثه التاريخى هو أقيم ما انتهى إلينا من آثاره العديدة . ذلك أن ابن الأبار ، هو علامة متعددة الجوانب ، فهو فقيه راسخ ، وكاتب بلغ ذروة البيان ، وشاعر مبدع مبكى ، ثم هو بعد ذلك كله مؤرخ محقق ، وكان مولده بثغر بلنسية فى سنة ٥٩٥ هـ ، فى بيت علم ونبل ، وأصلهم من أندة على مقربة من غربى بلنسية . ودرس ابن الأبار على أبيه عبد الله ، وعلى عدة من أقطاب عصره ، منهم أبو عبدالله ابن نوح ، وأبو جعفر الحصار ، وأبو الخطاب بن واجب ، وأبو سليمان بن‌حوط الله ، وكبير محدثى الأندلس يومئذ أبو الربيع بن سالم ، وقد لازمه ابن الأبار أكثر من عشرين سنة ، وهو الذى أشار عليه فيما بعد أن يضع معجمه الشهير « التكملة » لكتاب الصلة . وبرع ابن الأبار فى اللغة والأدب ، وشغف بالأخبار والسير ، ورحل فى مطلع شبابه إلى غربى الأندلس ، فزار قرطبة ، ثم إشبيلية ، وهو يأخذ أينما حل عن أساتذة العصر . وتولى ابن الأبار فى شبابه قضاء دانيه[٢] ، ولكن القدر كان يدخره لمهام أخطر . ذلك أنه تولى منصب الكتابة للسيد أبى زيد والى بلنسية الموحدى ، ولما اضطرمت الثورة ببلنسية ضد الموحدين وغلب على بلنسية الرئيس أبو جميل زيان بن مردنيش ، تولى ابن الأبار له منصب الكتابة ، ولكنه لم يمكث طويلا فى ذلك المنصب ، وشاء القدر أن تسقط بلنسية فى أيدى النصارى سنة ٦٣٦ هـ ، وأن يكون ابن الأبار يوم تسليمها إلى جانب أميره ، وأن يقوم هو بتحرير شروط التسليم ، وكان ذلك بعد أن عبر ابن الأبار البحر سفيراً إلى تونس يطلب إلى أميرها باسم أميره ، وباسم الإسلام فى الأندلس ، الإنجاد

---

( ١ ) ترجمته فى التكملة رقم ١٦٦٩ .

( ٢ ) هذا ما يستفاد من قول ابن الأبار فى التكملة فى الترجمة رقم ٢١١٧ .

والغوث ، وينشد بين يديه قصيدته السينية الرائعة التى مطلعها :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا     إن السبيل إلى منجاتها درسا

وقد أتينا على ذلك كله مفصلا فى موضعه . ونود أن نضيف هنا أن ابن الأبار هزته هذه المحنة إلى الأعماق ، فلم يطق البقاء فى الوطن المنكوب ، وغادر الأندلس وعبر البحر مرة أخرى إلى تونس ، فوصلها فى أواخر سنة ٦٣٦ هـ[1]. وعاش حيناً فى كنف أميرها أبى زكريا الحفصى يتولى له كتابة العلامة ، ثم أخذ يتردد بين تونس وبجاية يدرس هنا وهناك . ولما توفى الأمير أبو زكريا فى سنة ٦٤٧ هـ ، وخلفه ولده المستنصر بالله ، التحق ابن الأبار ببطانته العلمية ، ولكنه لم يكن قريراً مطمئناً إلى هذه الحياة ، لما كان يتخللها من غضب السلطان بسبب دسائس خصومه أحيانا ، وبسبب تصرفاته الشخصية النزقة أحيانا أخرى . واستطاع خصوم ابن الأبار فى النهاية أن يوقعوا به ، ورفعت إلى السلطان بعض أقوال وأبيات شعر نسبت إليه طعنا فى السلطان وتعريضاً به ، فأمر المستنصر بجلده ثم بقتله ، فجلد بالسياط ، ثم قتل طعناً بالرماح ، وأخذت كتبه وأحرقت فى موضع قتله . ووقع مصرع ابن الأبار على هذا النحو المؤسى فى الحادى والعشرين من شهر المحرم سنة ٦٥٨ هـ ( ٨ يناير سنة ١٢٦٠ م ) ، واختتمت بذلك حياة أعظم شخصية فى الأدب الأندلسى فى القرن السابع الهجرى .

وقد ترك لنا ابن الأبار تراثا حافلا من المنثور والمنظوم ، والمصنفات التاريخية الجليلة . وأقوى وأروع ماصدر عن الأبار من نثر ونظم ، هو ماكتبه أيام المحنة ، أيام انهيار الأندلس ، وأيام سقوط وطنه بلنسية ، من القصائد والرسائل ، التى مازالت تحتفظ حتى يومنا برنينها المبكى ، الذى يتفطر له الفؤاد ، وقد أشرنا إلى بعضها فيما تقدم من فصول هذا الكتاب . وأما تراثه التاريخى ، فهو من أنفس ما انتهى إلينا عن تاريخ الأندلس ، وتاريخ رجالاتها ، ولاسيما فى القرن السادس الهجرى ، وأوائل القرن السابع ، وقد كان ابن الأبار وزيراً وكاتبا ، ومعاصراً لكثير من الحوادث التى يرويها . وأهم مصنفاته التاريخية هو بلا ريب كتاب « التكملة لكتاب الصلة » وهو موسوعة حافلة فى التراجم ، يتخللها كثير من النبذ التاريخية الهامة ، وقد وضعه ابن الأبار تنفيذاً لإشارة أستاذه أبى الربيع بن سالم كبير علماء الشرق الأندلسى يومئذ ، وأريد به أن يكون « تكملة » لكتاب الصلة

(١) هذا ما يقوله ابن الأبار فى التكملة فى الترجمة رقم ١٨٨٠

لابن بشكوال القرطبي ، ويقول لنا ابن الأبار إنه كان قد انتهى من وضع كتاب «التكملة» فى سنة ٦٣٦هـ(١) ، وهنالك ما يدل على أنه لبث ينقحها ويزيد فيها حتى أواخر سنة ٦٥٥هـ أعنى إلى ما قبل وفاته بنحو عامين(٢). وظاهر من محتويات «التكملة» أن ابن الأبار يعنى عناية خاصة بعلماء شرقى الأندلس ، وأحداثه التاريخية، وهى المنطقة التى ولد فيها ، وسلخ فيها شبابه ، واكتمل نضجه، واتصل بالعدد الجم من علمائها . وكتاب« الحلة السيراء » وهو أيضاً مجموعة نفيسة من تراجم رجال الأندلس والمغرب وغيرهم ، تبدأ من المائة الأولى للهجرة حتى أوائل المائة السابعة ، وكتاب « المعجم فى أصحاب القاضى أبى على الصدفى السرقسطى » ينحو نحو القاضى عياض فى وضعه لمعجم شيوخه(٣)، وهذه هى معاجم التراجم الكبيرة ، التى انتهت إلينا من تراث ابن الأبار، وهناك مايدل خلال بعض تراجم التكملة أن الأبار قد وضع معجما لشيوخه ، ومعجما آخر فى أصحاب ابن العربى . وانتهت إلينا من قلمه مجموعة صغيرة أخرى من التراجم عنوانها « إعتاب الكتاب » تشتمل على تراجم طائفة من كتاب الأندلس وبعض الكتاب المشارقة(٤)، ولابن الأبار مؤلفات أخرى لم تصل إلينا منها كتاب « درر السمط فى أخبار السبط» ، وهو مؤلف يشير إليه المقرى نفح الطيب ويقتبس منه(٥) ، وكتاب « معدن اللجين فى مراثى الحسين(٦) . ويوجد بمكتبة الإسكوريال كذلك مخطوط عنوانه « تحفة القادم » من تأليف ابن الأبار، يوصف بأنه « مقتضب من كتاب تحفة

---

(١) راجع التكملة فى الترجمة رقم ١٦٩٠ .

(٢) هذا ما يبدو من مراجعة ماورد فى الترجمة رقم ١٦٥٢ .

(٣) نشر كتاب التكملة فى مجلدين بمدريد منذ سنة ١٨٨٧ ضمن المكتبة الأندلسية . ونشر كذلك فى طبعة ناقصة بالقاهرة ( ١٩٥٥ ) . ونشر كتاب المعجم فى أصحاب القاضى أبىعلى الصد فى أيضا ضمن المكتبة الأندلسية (سنة ١٨٨٦ ) . ونشر كتاب الحلة السيراء بعناية المستشرق دوزى فى طبعة ناقصة حذف منها كثير من التراجم (سنة ١٨٥١) نشر بعضها بمعرفة دوزى أيضاً فى مجموعة « نصوص بنى عباد » **Historia Abbadidarum** ، والبعض الآخر بعناية المستشرق ميللر فى : **Beiträge** . وقد قام أخيراً الدكتور حسين مؤنس باصدار طبعة كاملة محققة من الحلة السيراء فى مجلدين ( القاهرة سنة ١٩٦٤ ) وذلك أثناء قيامنا بطبع هذا الكتاب .

(٤) وتوجد منه نسخة قديمة بالية ، بمكتبة الإسكوريال رقم ١٧٣١ الغزيرى .

(٥) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ٦٠١ — ٦٠٤ حيث يقتبس المقرى منه عدة فصول .

(٦) وقد ورد ذكره خلال الترجمة رقم ١٦٥٤ من كتاب التكملة حيث يشير ابن الأبار نفسه إلى أنه ألف كتابا بهذا الإسم .

القادم » وهو حسبما يصفه ابن الأبار فى الديباجة « اقتضاب من بارع الأشعار » وفيه يورد ابن الأبار تراجم بعض الشعراء الأندلسيين والغرباء ، ومختارات من من أشعارهم[1] . وذكر لنا ابن الأبار فى الحلة أن له مؤلفا آخر عنوانه « إيماض البرق فى أدباء الشرق »[2] .

وبعد فهذه لمحة فى التعريف بابن الأبار وتراثه ، حسبما وسع هذا المقام المحدود . وقد خلدت لنا آثار ابن الأبار صوراً حية من محنة الأندلس، وعوامل انهيارها ، لم يستطع كاتب آخر من معاصريه ، أن يقدم إلينا شيئاً يدانيها . ومازالت هذه الآثار حتى يومنا ، أهم وأوثق مصادرنا عن تلك الفترة المشجية من التاريخ الأندلسى[3] .

ومن الأدباء المؤرخين الذين نبغوا فى تلك الفترة ، على بن موسى بن سعيد الأندلسى ، المعروف بابن سعيد المغربى ، وأصله من سادة قلعة يحصب من أعمال شمالى غرناطة ، وهو أديب ورحالة وسليل أسرة من الأدباء والمؤرخين ، تعاقب منها قبله خمسة فى مدى قرن ، على تصنيف مؤلف ضخم فى فضائل مدن الأندلس والمغرب والمشرق ، بضم كتابين كبيرين هما «كتاب المشرق فى حلى المشرق » و « كتاب » المغرب فى حلى المغرب » وأتمه على بن موسى آخر من نبغ من هذه الأسرة . وقد ولد بغرناطة سنة ٦١٠ هـ ، وتجول بقواعد الأندلس ، والمغرب والمشرق ، وتوفى بدمشق سنة ٦٧٣ هـ ، ومؤلفه أثر أدبى كبير ، تاريخى جغرافى ، بارع الأسلوب . وله كتب أخرى منها « المرقص والمطرب » وملوك الشعر ، والطالع السعيد فى تاريخ بنى سعيد ، ولذة الأحلام فى تاريخ أمم الإعجام ، ونشوة الطرب فى تاريخ جاهلية العرب ، وغيرها[4] .

ومن المؤرخين المغاربة فى العصر الموحدى ، أحمد بن يوسف بن أحمد ابن يوسف بن فُرتون السلمى ، من أهل مدينة فاس، واستوطن سبتة ، ويعرف

---

(١) يحفظ هذا المخطوط بمكتبه الإسكوريال برقم ٣٥٦ الغزيرى .

(٢) الحلة السيراء ص ٢٢٢ .

(٣) راجع ترجمة ابن الأبار فى فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٢٦–٢٢٧ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٧٨ – ٥٨٠ ، وعنوان الدراية ص ١٨٣ – ١٨٦ ، والزركشى فى تاريخ الدولتين ص ٢٧ . وراجع أيضاً فى ترجمة ابن الأبار وتعداد آثاره **Pons Boigues; ibid, p. 291-296** .

(٤) ترجمته فى فوات الوفيات ج ٢ ص ٨٩ – ٩١ وكذلك فى : **Pons Boigues : p. 306**

بابن فرتون ، عنى بالتاريخ والسير ، وتراجم الرجال ، إلى جانب عنايته بالحديث ، وألف مجموعا فى التراجم عنوانه « الذيل » ، وتوفى بسبتة فى شعبان سنة ٦٦٠هـ[١].

ونبغ فى أواخر العصر الموحدى ، وتجاوزه بقليل عدة من المؤرخين ، وأصحاب المعاجم والسير ، التى كانت من أخصب مصادرنا فى كتابة تاريخ العصر الموحدى وتراجم رجاله ، وفى مقدمة هؤلاء أبو عبد الله محمد المراكشى المعروف بابن عذارى صاحب الموسوعة الجليلة فى تاريخ المغرب والأندلس ، « البيان المغرب » ، وهى التى كانت من أهم وأوثق مصادرنا . وقد أشرنا إليها وإلى أهميتها فى بداية هذا الكتاب ، فى الفصل الذى كتبناه عن « المصادر » . أما عن حياة ابن عذارى فلسنا نعرف الكثير ، ولا نعرف إلا أنه عاش فى النصف الثانى من القرن السابع وأوائل القرن الثامن ، وكان حيا فى سنة ٧١٢ هـ ، حسبما يذكر لنا ذلك فى مؤلفه ، وربما توفى بعد ذلك بقليل[٢] .

وابن القطان صاحب كتاب « نظم الجمان » ، وقد كان حيا فى عصر الخليفة المرتضى ، وقد أشرنا إلى ذلك فى فصل المصادر .

وأحمد بن ابراهيم بن الزبير بن الحسن بن الحسين بن الزبير ، الشهير بابن الزبير ، وهو أندلسى من أهل جيان ولد بها سنة ٦٢٧هـ ، وتوفى بغرناطة سنة ٧٠٨ هـ ، وكان محدثا متقنا . وقد ترك لنا مجموعة نفيسة من التراجم عنوانها « صلة الصلة » مذيلا بها على صلة ابن بشكوال ، ومنها كثير من التراجم لرجال العصرين المرابطى والموحدى[٣] .

وأبو عبد الله محمد بن عبد الملك بن محمد بن سعيد الأنصارى الأوسى ، المراكشى ، وقد كان فقيهاً جليلا ، ومؤرخاً ثقة ، تولى قضاء الجماعة حينا . ويصفه ابن الخطيب خلال ترجمته لولده « بقاضى القضاة ، نسيج وحده الإمام العالم التاريخى المتبحر فى الأدب »[٤] ، وقد ترك لنا ابن عبد الملك موسوعة من أجل موسوعات التراجم لرجالات المغرب والأندلس ، تشغل عدة مجلدات كبيرة ، وتوجد منها نحو خمسة مجلدات ، مبعثرة بالمتحف البريطانى ، والمكتبة الوطنية

---

(١) ترجمته فى مقدمة صلة الصلة (ص ط) (٢) راجع البيان المغرب القسم الثالث ص٤٥٤ .

(٣) نشر كتاب « صلة الصلة » بعناية المرحوم الأستاذ ليڤى بروڤنسال ( الرباط سنة ١٩٣٧ ) ، وورد به ترجمة ابن الزبير فى المقدمة ( ص هـ ) منقولة عن تكملة ابن عبد الملك .

(٤) فى الإحاطة فى ترجمة محمد بن عبد الملك ولد المؤرخ ، مخطوط الإسكوريال ١٦٧٣ الغزيرى لوحة ٦٧ .

بباريس ، ودار الكتب المصرية ، ومنها قطعة بالإسكوريال ، وقد أشرنا إلى ذلك فى الفصل الخاص بالمصادر . أما عن حياة مؤلفها فلسنا نعرف الكثير ، ولا نعرف إلا أنه عاش فى النصف الثانى من القرن السابع الهجرى ، وتوفى أواخر هذا القرن وربما فى أوائل القرن الثامن[1] .

وتسمى موسوعة ابن عبد الملك « بالذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة » أى لكتابى « ابن الفرضى وصلة ابن بشكوال » وقد كتبت تراجمها بلغة أدبية ونقدية قوية ، وتخللها نبذ تاريخية عديدة هامة ، انتفعنا بالكثير منها .

---

( ١ ) ذكر بونس بويجيس **P. Boiguas** فى معجمه فى ترجمة ابن عبد الملك أنه كان معاصراً للعبدرى صاحب « الرحلة المغربية » التى كتبت فى سنة ٦٨٨ هـ ، وأنه يجب أن يكون قد توفى فى سنة ٦٦٩ هـ ( ١٢٧٠ م ) **Historiadores y Oeograficos Arab. Espanoles** (ص٣١٠ و٤١٤ ) . وقد وهم هذا العلامة فيما استنتج . وقد وقفنا على ما يدحض هذا الوهم ، أولا فى الجزء المحفوظ من التكملة المحفوظ بمكتبة الإسكوريال ( ١٦٨٢ الغزيرى ) ففيه يترجم ابن عبد الملك لأبى الطيب صالح ابن شريف الرندى المتوفى سنة ٦٨٤ هـ ويذكر فى هذا الترجمة كما يأتى « وروى عنه جماعة من أصحابنا ، وكتب إلى بإجازة مارواه وألفه وأنشأه نظماً ونثراً » ومعنى ذلك أن ابن عبد الملك ، أخذ عن الرندى وتتلمذ عليه ، فهو بذلك متأخر عنه ، وثانيا وقفنا فى كتاب الإحاطة لابن الخطيب ( مخطوط الإسكوريال ١٦٧٣ الغزيرى ) على ترجمة لمحمد بن محمد بن عبد الملك وهو ابن صاحب التكملة ، وفيها أنه توفى فى وقيعة على المسلمين من جيش مالقة فى شهر ذى القعدة سنة ٧٤٣ هـ ( لوحة ٦٧ — ٧٤ من المخطوط ) وهو مايؤيد مرة أخرى أن صاحب التكملة امتدت حياته فيما يرجح إلى أواخر القرن السابع أو أوائل القرن الثامن الهجرى .

# الفصل الرابع

## الحركة الفكرية الأندلسية

### خلال العصر الموحدى

### القسم الثالث

إزدهار العلوم فى ظل الدولة الموحدية . أعلام الطب فى العصر الموحدى . أبو جعفر الغافقى القرطبى . ابن غلندة الأموى . أبو مروان بن جريول . محمد بن عبد الملك بن زهير . أبو جعفر ابن حسان القضاعى . عبيد الله بن الوليد المذحجى . محمد بن على القرشى الزهرى . علماء النبات . أبو على ابن مفرج البكرى الأشبونى . جودى بن عدنان القيسى . ابن مفرج الأموى المعروف بابن الرومية . ابن البيطار المالقى . علماء الرياضيات . ابن سهل الضرير . أبو اسحق البطروجى المراكشى . عبد الله ابن محمد بن حجاج . محمد بن بكر الفهرى . الحسن بن على المراكشى . أبو بكر الرقوطى المرسى . العالم الزراعى ابن العوام الإشبيلى . عباقرة الطب والفلسفة . أبو بكر بن طفيل القيسى . رسالة « حى ابن يقظان » . أبو الوليد ابن رشد . تصانيفه الفلسفية والطبية . اتهامه ونكبته أيام المنصور . الرئيس موسى بن ميمون القرطبى . الفنون فى ظل العهد الموحدى . تحول الخلافة الموحدية إلى ملك دنيوى باذخ . الإتجاه إلى استكمال مظاهر الأبهة الملوكية . إنشاء مدينة جبل طارق . رعاية الدولة الموحدية للفنون المعمارية . المنشآت الموحدية بإشبيلية . القصور الموحدية والجامع الأعظم وصومعته . قصر السيد أبى يحيى بقرطبة . قصر السيد أبى اسحق بغرناطة . بعض أقطاب الهندسة والفن فى هذا العصر . صدى هذه الحركة العمرانية والفنية فى العاصمة الموحدية . ضاحية الصالحة . صومعة الكتبية . الموسيقى وإغفال شأنها . فن كتابة المصاحف . تفوق الفنون الموحدية فى المنشآت الدفاعية .

بقى علينا أن نستعرض من الحركة الفكرية الأندلسية خلال العصر الموحدى ، ناحية من أهم نواحيها ، وهى ناحية العلوم والفنون . ففى هذا الميدان ميدان العلوم والفنون ، تصل الحركة الفكرية الأندلسية إلى ذروة قوتها وازدهارها ، وتسطع خلالها أسماء من أعظم شخصيات التفكير الأندلسى ، بل من أعظم شخصيات التفكير الإسلامى ، على الإطلاق ، ويكفى أن يكون من بينها ، عبقريات مثل ابن طفيل ، وابن زهر ، وابن رشد ، وابن الرومية ، وابن البيطار .

لم تكن الدولة الموحدية ، بالرغم من صفتها الدينية الراسخة ، من الناحية الفكرية ، كالدولة المرابطية ، دولة رجعية تطارد العلوم والفلسفة ، بل كانت بالعكس حسبما بينا من قبل ، دولة تفسح للتفكير مجالاته ، لما كان يتصف به

مؤسسها الروحى وخلفاؤه من الصفات العلمية البارزة، وإذا استثنينا بعض حوادث المطاردة الفكرية ، مثل حادث اتهام ابن رشد وزملائه أيام المنصور ، فإنا نستطيع أن نصف الدولة الموحدية ، بأنها كانت دولة حامية للعلوم ، كما كانت حامية للآداب ، حامية للفنون فى نفس الوقت ، حماية تشهد بها منشآتها العمرانية العظيمة فى المغرب والأندلس

ولدينا فى الواقع ثبت حافل ، من أكابر العلماء الذين نبغوا فى ذلك العصر فى مختلف العلوم ، فى الطب والنبات والرياضة والفلك والهندسة وغيرها ، وإذا كان هذا الثبت ليس مرتفعا من الناحية العددية ، كما هو الشأن فى ميدان العلوم الدينية والنظرية ، فإنه يضم أقطابا من الطراز الأول ، من أساتذة الطب والفلسفة والنبات فى العصور الوسطى .

— ١ —

ولنبدأ بذكر أعلام الطب فى هذا العصر ، وقد كانت منهم ثمة جمهرة كبيرة ، وأقطاب عظام .

كان من هؤلاء أبو جعفر أحمد بن محمد الغافقى القرطبى ، برع فى الطب والنبات ، وتجول فى أنحاء الأندلس وإفريقية ، وجمع منها أصنافا عديدة من النباتات الطبية ، وقام بتصنيفها من الناحية العلمية ، وسجلها بأسمائها العربية واللاتينية والبربرية ، وكان كتابه « الأدوية المفردة » من أهم المراجع الطبية فى عصره . وتوفى سنة ٥٦١ ﻫ

وعبيد الله بن غَلَندة الأموى ، أصله من سرقسطة، وسكن إشبيلية . غادر أهله سرقسطة حين تغلب عليها النصارى فى سنة ٥١٢ ﻫ ، ونزلوا أولا بقرطبة، وبها درس عبيد الله ، ثم رحل منها إلى إشبيلية واستقر بها ، وبرع فى الأدب والشعر . ولكنه برع فى الطب فى نفس الوقت ، وذاع صيته كطبيب ماهر فى العلاج . وفى أواخر حياته عبر البحر إلى المغرب ، واستقر بمدينة مراكش، وبها توفى فى سنة ٥٨١ ﻫ ، وقد بلغ السابعة والتسعين من عمره[1] .

ومنهم أبو مروان عبد الملك بن محمد بن جُرُّيول من أهل بلنسية ، وسكن قرطبة ويعرف بابن كنبراط ، كان من المبرزين فى معرفة الطب ، المتقدمين فى صناعته ، وعنه أخذ كثير من أقطاب العصر ، وفى مقدمتهم العلامة

(١) ترجمته فى التكملة رقم ٢١٨٠ .

ابو الوليد بن رشد ، وغيره . ولم يذكر تاريخ لوفاته[١] .

وعبد الله بن سيد أمير اللخمى من أهل شِلب ، من ناحية الغرب ، برع فى الحديث والنحو وكانت له مشاركة فى علم الطب عرف بها ، وانتفع به[٢] .

ومنهم ، ومن أشهرهم وألمعهم ، أبو بكر محمد بن عبد الملك بن زهر ابن عبد الملك بن زهر الأيادى ، سليل الأسرة الإشبيلية الشهيرة ، ولد العلامة والطبيب العظيم أبى مروان عبد الملك ، وحفيد أبيه وقرينه فى النبوغ أبى العلاء ابن زهر . وقد سبق أن قمنا بالتعريف بالأب والحد فى القسم الأول من هذا الكتاب[٣] . ودرس أبو بكر علم الطب على أبيه وجده ، وبرع فى نفس الوقت فى الحديث والأدب واللغة ، ولكنه تفوق فى صناعة الطب ، وبلغ الغاية منها ، وحظى لدى حكومة الموحدين ، منذ أيام أبى يعقوب يوسف ، وتولى فى بلده إشبيلية بعض المناصب الإدارية الهامة ، ثم عين فيما بعد طبيباً خاصاً للخليفة أبى يعقوب المنصور ، وبلغ فى ظل الخلافة الموحدية ذروة الجاه والنفوذ ، وتوفى بمراكش فى أواخر شهر ذى الحجة سنة ٥٩٥ هـ ، وصلى عليه الخليفة ( محمد الناصر ) ودفن بروضة الأمراء ، ومولده فى سنة ٥٠٧ هـ[٤] .

ومنهم أحمد بن داود بن يوسف الجذامى من أهل باغة من عمل غرناطة ، كان أديبا نحوياً عالما باللغة ومن العارفين بصناعة الطب . ومن مؤلفاته الأدبية شرحه لكتاب آداب الكتاب لابن قتيبة ، وبدأ فى وضع شرح لمقامات الحريرى ولم يتمه . وتوفى فى سنة ٥٩٨ هـ[٥]

وأبو جعفر بن الحسين بن أحمد بن الحسين بن حسان القضاعى ، أصله من أندة من عمل بلنسية ، وولد بمرسية ، ودرس الحديث ، ورحل إلى المشرق مرافقاً لابن جبير فى رحلته ، وسمع معه فى دمشق وبغداد وغيرهما ، وعاد معه إلى المغرب وكانت أبرز خلة لدى أبى جعفر هى براعته فى صناعة الطب ، وتحققه من دقائقها ، وقد وضع فيها تأليفاً مفيداً لم يذكر لنا عنوانه . وتوفى بمراكش سنة ٥٩٩ هـ[٦] .

وعبيد الله بن محمدبن عبيد الله . . بن ابراهيم بن الوليد المذحجى ، من أهل باغة ، وسكن قرطبة ودرس بها الحديث والأدب والطب ، وأخذ الطب بنوع

---

( ١ ) ترجمته فى التكملة ( الأندلسية ) رقم ١٧١٤ .
( ٢ ) ترجمته فى التكملة رقم ٢٠٧٥ .
( ٣ ) راجع ص ٤٧٣ من القسم الأول من هذا الكتاب.
( ٤ ) ترجمته فى التكملة رقم ١٤٩٩
( ٥ ) ترجمته فى التكملة رقم ٢٤٠ .
( ٦ ) ترجمته فى التكملة رقم ٢٤١ .

خاص عن أبي مروان عبد الملك بن جُرُّيول البلنسي ، وأبي نصر بن الحجام ، ومحمد بن ظهير وغيرهم ، وعنى بلقاء الشيوخ من المحدثين والأطباء، وكان فوق مهارته فى الطب أديبا يجيد النظم والنثر . وذكر ابن الطيلسان أنه سليل أسرة من الأطباء تعاقب أبناؤها فى المهنة منذ عهد عبد الرحمن الداخل . وتوفى ابن الوليد فى ربيع الآخر سنة ٦١٢ هـ (١) .

ومحمد بن على بن أحمد بن عبد الرحمن القرشى الزهرى من أهل إشبيلية ، درس الحديث والرواية ، ولكنه شغف بالطب ، ومهر فيه ، وكان يقصده الحكام والكبراء للعلاج ، ولما مرض والى إشبيلية الموحدى ، كان ممن شاركوا فى علاجه ، توفى سنة ٦٢٣ هـ ، وقد جاوز التسعين من عمره(٢) .

وأحمد بن عتيق بن على بن خلف . . بن سعيد، من سلالة عبد الرحمن الداخل ، أصله من سرقسطة . كان عالما نابهاً متقنا للطب وعلوم الأوائل. ولى القضاء بشريش حيناً . ثم اتصل بأبى العلى المأمون أيام ولايته لإشبيلية فحظى لديه، ولما دعا المأمون لنفسه بالخلافة ، وجهه إلى قبائل العدوة ليستميل شيوخها إلى بيعته ، فنجح فى مهمته . ثم صحب المأمون إلى العدوة ، ولكنه لما شعر باضطراب الأحوال استأذن المأمون فى العودة إلى الأندلس ، ونزل بمالقة ، فألفاها قد خلعت طاعة الموحدين وانضمت إلى ابن هود . واتجهت إليه الريبة عندئذ بأنه حضر إلى مالقة ليروج بها دعوة المأمون واعتقله الوالى ، ولكن العامة ألحوا عليه فى إخراجه وهددوه فأخرجه إليهم فقتلوه ، وذلك فى ربيع الآخر سنة ٦٢٧هـ(٣)

ومحمد بن على بن سليمان بن رفاعة من أهل شريش ، عنى بالحديث والرواية والأدب ، وكانت له مشاركة فى الطب ، وكان من أساتذته أبو بكر بن زهر ، وتوفى سنة ٦٣٦ هـ(٤) .

وعبدالله بن أحمد عبد الله . . بن حفص الأنصارى من أهل دانية ، وسكن شاطبة ، درس الحديث والعربية والأدب ، ورحل إلى المشرق فسمع بالإسكندرية ودمشق والموصل، ومال إلى علم الطب وعنى به، ومهر فيه . وعاد من رحلته الأولى إلى المغرب ونزل بتونس حيناً ، ثم رحل ثانية إلى المشرق ، وتوفى بالقاهرة فى سنة ٦٤٦ هـ(٥).

---

(١) ترجمته فى التكملة رقم ٢١٨٤ . (٢) ترجمته فى التكملة رقم ١٦١٨ .

(٣) ترجمته فى الذيل والتكملة لابن عبد الملك— المجلد الأول من مخطوط باريس لوحة ٦٧ و ٦٨ .

(٤) ترجمته فى التكملة رقم ١٦٦٦ . (٥) ترجمته فى التكملة رقم ٢١٢٢ .

هؤلاء هم طائفة من الأطباء الذين ظهروا فى العصر الموحدى ، ولم نذكر من بينهم أقطاب الطب العظام مثل ابن طفيل ، وابن رشد ، وابن ميمون ، لأننا آثرنا أن نذكر هؤلاء بين الفلاسفة ، وهى الصفة الغالبة عليهم بالرغم من مثولهم بين أعظم الأطباء فى العصور الوسطى .

— ٢ —

ونبغ فى هذا العصر عدة من علماء النبات ، منهم اثنان من أعظم النباتيين فى العصور الوسطى ، وهما ابن الرومية الإشبيلى ، وابن البيطار المالقى ، ونحن نذكرهم فيما يلى :

كان منهم أبو على حسن بن أحمد بن عمر بن مفرج البكرى الأشبونى ، لأن أصله من أشبونة عاصمة البرتغال الإسلامية ، وسكن الجزيرة الخضراء ، يعرف بالزرقالة ، درس الحديث والأدب ، ولكنه مهر فى الطب والعلاج ، وفى تمييز النبات والعشب ، وفاق فى ذلك أهل عصره ، وكان يقرض الشعر فى نفس الوقت وتوفى سنة ٦١٣ هـ(١).

وجودى بن عبد الرحمن بن جودى . . بن عدنان القيسى من أهل وادى آش ، درس القرآن والعربية على جماعة من أقطاب عصره مثل أبى جعفر بن حكم ، وأبى بكر بن أبى زمنين ، وأبى القاسم بن سمجون وغيرهم ، وكانت له معرفة بالنبات وتمييزه ، مع اشتهاره بالأدب فى نفس الوقت . وتوفى ببلده سنة ٦٣١ هـ(٢).

على أن أعظم النباتيين والعشابين فى العصر الموحدى ، بل أعظم النباتيين المسلمين فى سائر العصور ، هو أبو العباس أحمد بن محمد بن مفرج الأموى ، المعروف بابن الرومية ، وبالعشاب ، والنباتى . ولد بإشبيلية فى المحرم سنة ٥٦١ هـ ، وأصلهم من قرطبة ، ودرس الحديث على جماعة من أقطاب العصر مثل أبى بكر ابن الجد وأبى عبد الله بن زرقون ، وأبى الوليد بن عفير ، وعبد المنعم بن الفرس ، وأبى ذر الخشنى وغيرهم ، وتجول فى طلب العلم ، وسماع الحديث ، حتى صار فيه إماما حافظا ، ناقداً ، ذاكراً تاريخ المحدثين وأنسابهم وموالدهم ، ووفياتهم ، وتعديلهم وتجريحهم . ومال إلى علم النبات ودراسته ، وتمييزه ، وتصنيفه ، وتجول من أجل ذلك فى ربوع الأندلس ، والمغرب وإفريقية ، ثم رحل إلى المشرق ، بعد سنة ٥٨٠ هـ ، وتجول فى مصر والشام والعراق والحجاز ، فدرس الكثير من أصناف النباتات غير المعروفة ، ووقف على كثير من غوامضها ، قال

---

(١) ترجمته فى التكملة رقم ٦٩٩ .

(٢) ترجمته فى التكملة رقم ٦٦١ .

ابن عبد الملك « حتى وقف من ذلك على ما يقف عليه غيره ، ممن تقدم فى الملة الإسلامية ، فصار واحد عصره فرداً ، لايجاريه فيه أحد باجماع ذلك الشأن » ووصفه ابن الخطيب بأنه « عجيبة نوع الأنسان فى عصره ، وماقبله ، وما بعده فى معرفة علم النبات ، وتميز العشب ، وتحليلها ، وإثبات أعيانها ، على اختلاف أطوار منابتها بمشرق أو بمغرب ، حسا ، ومشاهدة وتحقيقاً ، لامدافع له فى ذلك ولامنازع ، حجة لاترد ولاتدفع . قام على الصنعتين لوجود القدر المشترك بينهما وهما الحديث والنبات ، إذ موادهما الرحلة والتقييد ، وتصحيح الأصول وتحقيق المشكلات اللفظية ، وحفظ الأديان والأبدان وغير ذلك » .

وكان ابن الرومية فقيهاً ظاهرى المذهب ، من أنصار ابن حزم ، وانتشرت على يديه تصانيف ابن حزم ، بما أبداه من غيرة وعناية فى إظهارها واستنساخها والإنفاق عليها ، وكان إلى ذلك ورعا ، زاهدا ، وكان بعد أن عاد من رحلاته الدراسية بالمشرق قد استقر ببلده إشبيلية ، وافتتح متجراً لبيع الأعشاب الطبية . قال ابن الأبار : « وهناك رأيته ولقيته غير مرة » .

ولإبن الرومية تصانيف عديدة فى الحديث والنبات ، منها فى الحديث ، رجالة المعلم بزوائد البخارى على مسلم ، واختصار حديث مالك للدارقطنى ، ونظم الدرارى فيما تفرد به مسلم عن البخارى ، والحافل فى تدليل الكامل وغيرها . ومن مصنفاته فى النبات « شرح حشائش دياسقوريدس وأدوية جالينوس ، والتنبيه على أوهام ترجمتها » و« التنبيه على أغلاط الغافقى » ، و« الرحلة النباتية » و« المستدركة » وغيرها ، وله كتاب فى « الأدوية المفردة » على نمط كتب بنى زهر فى ذلك . ويعتبر ابن الرومية أعظم العشابين والنباتيين فى العصور الوسطى ، ولايتقدمه أحد فى هذا الشأن من القدماء سوى دياسقوريديس اليونانى ، الذى عاش فى القرن الأول للميلاد ، والذى وضع ابن الرومية شرحه لحشائشه .

وتوفى ابن الرومية بإشبيلية فى شهر ربيع الآخر سنة ٦٣٧ هـ ، قبل سقوطها فى أيدى القشتاليين بنحو تسعة أعوام[١].

وجاء بعد ابن الرومية تلميذه ابن البيطار المالقى ، فكان أعظم علماء النبات بعد أستاذه ، وهو ضياء الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد ، ولد بمالقة فى أواخر القرن السادس الهجرى ، ودرس على أستاذه ابن الرومية وبرع مثله فى النبات

---

(١) ترجمته فى التكملة رقم ٣٠٤ ، وفى الإحاطة لابن الخطيب (١٩٥٦) ج١ ص ٢١٥ — ٢٢١ .

والوسائل العلاجية ، ثم غادر الأندلس ، وطاف بأنحاء المغرب باحثا عن الفصائل النباتية دارسا لخصائصها ، ثم قصد إلى مصر أيام الملك الكامل فدخل طبيبا فى خدمته ، ثم خدم ابنه الملك الصالح من بعده ، وعنى بدراسة النبات والأعشاب فى مصر والشام وآسيا الصغرى ، وبلاد اليونان . ووضع فى ذلك كتابين ، هما : « كتاب الجامع فى الأدوية المفردة » تناول فيه الأدوية النباتية المعروفة فى عصره ، ورتبها على حروف المعجم ، « وكتاب المغنى فى الأدوية المفردة » وهو مرتب على أبواب معالجة الأعضاء . وله أيضاً كتاب « الأفعال الغريبة والخواص العجيبة » . وكان ممن تتلمذ على ابن البيطار ودرس عليه ، العلامة الطبيب ابن أبى أصيبعة صاحب معجم طبقات الأطباء ، وقد أشاد ببراعته وغزارة علمه ، ودقة فهمه لكتب الأقدمين . وتوفى ابن البيطار بدمشق سنة ٦٤٦ هـ(١) .

ونبغ فى تلك الفترة كذلك عدة من علماء الرياضيات والفلك ، نذكر منهم :

عبدالله بن محمد بن سهل الضرير ، من أهل غرناطة . درس القراءات والحديث ، وبرع فى العربية والآداب . ولكنه مال كذلك إلى العلوم الرياضية ، وأخذها من بعض أصحاب أبى بكر بن الصائغ ( ابن باجة ) . واستدعاه الأمير محمد بن سعد أمير الشرق لتأديب ولده فسكن مرسية وقتا . ولما تفاقمت الحوادث شغل عنه ، فبقى مضاعا إلى أن توفى بها فى أواخر سنة ٥٧١ هـ(٢) .

وأبو إسحق نور الدين البطروجى المراكشى ، تلميذ الفيلسوف ابن طفيل ، وقد برع فى العلوم الطبيعية والفلك ، وحاول أن يصحح أخطاء الطريقة البطلمية فى الأفلاك بوضع شرح جديد للدورة الفلكية ، ويعرف البطروجى عند علماء الغرب باسمه اللاتينى **Alpetragius** ، وقد توفى بإشبيلية فى سنة ٦٠١ هـ .

وعبد الله بن محمد بن حجاج من أهل فاس ، ويعرف بابن الياسمين ، وهو من قبيلة أساسة البربرية النازلة فى أحواز فاس ، أخذ عن أبيه عبد الله بن قاسم علم الحساب والعدد وبرع فيه ، وعبر إلى الأندلس فأتم بها دراسته . وله أرجوزة فى علم الجبر ، وخدم البلاط الموحدى بمراكش ، وكانت له فيه حظوة . وتوفى قتيلا بمراكش سنة ٦٠١ هـ(٣) .

ومحمد بن بكر بن محمد عبد الرحمن بن بكر الفهرى من أهل بلنسية ، كان

(١) ترجمته فى فوات الوفيات ج ١ ص ٢٠٤ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٤٤ و ٤٥ .
(٢) ترجمته فى التكملة رقم ٢٠٥٦ .
(٣) ترجمته فى التكملة رقم ٢١٥٦ .

إماما فى الحديث ، ودرس على أقطاب عصره مثل أبى عبدالله بن نوح ، وأبى الخطاب ابن واجب ، وأبى عمر بن عات ، وامتاز ببراعته فى علم الحساب ، وتحققه من مسائله ، وكان فضلا عن ذلك مشاركا فى الطب ، حافظا للتواريخ ، وتوفى سنة ٦١٨ هـ[١].

وكان من أبرع علماء الفلك فى أواخر العصر الموحدى ، أبو على الحسن بن على ابن عمر المراكشى من أهل مراكش ، اشتهر بكتابه المسمى « جامع المبادئ والغايات » وهو موسوعة جليلة فى الفلك ، وتشتمل كذلك على أوصاف الآلات الفلكية التى كانت معروفة فى عصره ، وبه جداول فلكية ، وفهرس للنجوم عن سنة ٦٢٢ هـ ، وشروح لخطوط الطول والعرض لكثير من الأماكن . وبالجملة فقد كان أبو على آية عصره فى علمه وفنه ، وتوفى فى أواخر العصر الموحدى فى سنة ٦٦١ هـ ( ١٢٦٢ م ) .

ومن أواخر علماء شرق الأندلس أبو بكر محمد بن أحمد الرقوطى المرسى ، وكان آية فى المعرفة والبراعة ، فى المنطق والهندسة والرياضيات والطب والموسيقى ، وكان فوق ذلك فيلسوفا وطبيباً ماهراً ، يتقن عدة لغات ، وكان قد بقى فى وطنه مرسية بعد تغلب النصارى عليها ( ٦٦٤ هـ — ١٢٦٦ م ) ولم يقبل أن يغادرها فيمن غادرها من بنى وطنه ، وقدر المتغلب (خايمى الأول ) قدره ، وابتنى له مدرسة ، يعلم فيها المسلمين والنصارى واليهود ، وحاول عبثا أن يغريه باعتناق النصرانية ، ثم غادر مرسية أخيراً ، تلبية لدعوة ابن الأحمر سلطان غرناطة ، فنزل بها ، وأقبل عليه طلابها ، وكان يدرس الطب ، والرياضة والفلك وغيرها ، ولم يذكر لنا تاريخ وفاة الرقوطى ، ولكن المرجح أنه توفى أواخر القرن السابع[٢] .

ونستطيع أن نضيف إلى هذا الثبت من علماء الرياضة والفلك ، اسم عالم من علماء الزراعة ، هو أبو زكريا يحيى بن أحمد بن العوام الإشبيلى ، وقد عاش فى إشبيلية فى أواخر القرن السادس الهجرى ( أواخر القرن الثانى عشر الميلادى ) واشتهر بكتابة « الفلاحة » وقد اعتمد فيه بالأخص على كتاب الفلاحة لابن بصال الطليطلى ، ويقدم إلينا ابن العوام فى مؤلفه الضخم عرضا مستفيضا للفنون الزراعية وكيفية العمل فى الزراعة والغراسة ، وتسميد الأرض وإصلاحها ، واختيار البذور والغراس الصالحة ، والمواسم الملائمة لزراعة كل صنف ،

---

( ١ ) ترجمته فى التكملة رقم ١٦٠٠ .

( ٢ ) ترجمة الرقوطى فى الإحاطة ، مخطوط الإسكوريال ١٦٧٣ الغزيرى — لوحة ١٠٧ .

وغير ذلك مما يؤدى إلى جودة الأرض ووفرة الإنتاج(١) .

— ٣ —

ونعود الآن إلى ذكر عباقرة الطب خلال العصر الموحدى ، وهم الذين غلبت عليهم صفة الفلسفة قبل كل شيء ، بالرغم من نبوغهم فى الطب ،واعتبارهم من أعظم الأطباء فى العصور الوسطى .

هؤلاء هم ثلاثة ، أبو بكر بن طفيل ، وأبو الوليد بن رشد ، وموسى بن ميمون القرطبي .

فأما ابن طفيل ، فهو أبو بكر محمد بن عبد الملك بن محمد بن طفيل القيسى ، من أهل وادى آش . ولسنا نعرف تاريخ مولده بالتحقيق، وربما ولد فى الأعوام الأولى من القرن السادس الهجرى . ودرس ابن طفيل الحديث والفقه واللغة ، على أبى محمد الرُشاطى ، وعبد الحق بن عطية ، وغيرهما من أقطاب العصر . ولكنه مال إلى الحكمة وعلوم الأوائل ، ودرس الحكمة على أبى بكر ابن الصائغ ( ابن باجة ) وغيره ، وبرع فى الفاسفة والطب، وكان عالما محققاً ، شغوفا بالحكمة المشرقية ، متصوفا ، طبيباً ماهراً فى أصول العلاج ، وفقيهاً بارع الإعراب، وكاتبا بليغاً ، ناظما ناثراً ، مشاركا فى عدة فنون . وبدأ ابن طفيل حياته العامة بخدمة المتغلب على بلده وادى آش ، أحمد بن ملحان الطائى فى سنة ٥٤٠ هـ . ولما سقطت حكومة ابن ملحان بعد ذلك بأعوام قلائل ، انتقل ابن طفيل إلى خدمة الموحدين ، وكتب لوالى غرناطة الموحدى. ولما ولى السيد أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن حكم إشبيلية ، التف حوله جماعة من العلماء والمفكرين ، كان منهم ابن طفيل . وكان الأمير يشغف بمجالس العلم ، ويؤثر العلماء بصحبته . ولما تولى هذا الأمير الخلافة عقب وفاة أبيه فى سنة ٥٥٨ هـ ، عين ابن طفيل طبيبه الخاص وكان فضلا عن ذلك يندبه لبعض المهام الخلافية الدقيقة ، ومن ذلك أن عهد إليه بالسعى لتأليف طوائف العرب ، وترغيبهم فى الجهاد، وفى سبيل ذلك وضع ابن طفيل، وكان إلى جانب علمه الغزير ، شاعراً مجيداً، قصيدته الشهيرة ، يهيب فيها بالعرب أن ينهضوا للمشاركة فى الجهاد ، ومطلعها :

أقيموا صدور الخيل نحو المضارب    لغزو الأعـادى واقتنـاء الرغائب

(١) نشر كتاب الفلاحة لابن العوام لأول مرة بمدريد سنة ١٨٠٢ فى مجلدين كبيرين عن مخطوطه الموجود بمكتبة الإسكوريال ، بعناية القس يوسف أنطونيو بانكيرى مقرونا بترجمة إسبانية .

ولما عبر الخليفة أبو يعقوب يوسف إلى الأندلس فى أواخر سنة ٥٦٦ هـ ، واستطالت إقامته فى إشبيلية بضعة أعوام ، التف حوله رهط من صفوة العلماء ، كان فى مقدمتهم ثلاثة من أعظم الأطباء والفلاسفة المسلمين ، هم طبيبه الخاص ابن طفيل ، وتلميذه القاضى الفيلسوف أبو اليد بن رشد ، والعلامة الطبيب أبو بكر ابن زهر. وقد سبق أن أشرنا إلى شغف الخليفة أبى يعقوب يوسف بالدراسات الفلسفية ، وشغفه بملازمة ابن طفيل ، والأخذ عليه ، كما أشرنا إلى الدور الذى قام به ابن طفيل فى الإيعاز إلى تلميذه ابن رشد بعمل تلخيص جديد لشروح أرسطو . وكان ابن طفيل يقوم بمهمة السفارة بين الخليفة وبين العلماء ، ويدعوهم باسمه من مختلف الأقطار ، وينبه على أقدارهم لديه ، ويحثه على إكرامهم والتنويه بهم ، وهو الذى نوه بفضل تلميذه ابن رشد وبراعته لدى الخليفة حتى علت مكانته لديه . ولما توفى الخليفة أبو يعقوب يوسف فى ربيع الآخر سنة ٥٨٠هـ ، عقب نكبة جيشه فى موقعة شنترين ، استمر ابن طفيل فى منصبه طبيبا خاصا لولده الخليفة الجديد أبى يوسف يعقوب المنصور ، ولكنه لم يعش بعد ذلك طويلا إذ توفى بمراكش فى أواخر سنة ٥٨١ هـ ( ١١٨٥ م ) ، وحضر الخليفة جنازته(١) .

وأشهر مؤلفات أبى طفيل رسالة «حى بن يقظان» أو «أسرار الحكمة المشرقية» و«الأرجوزة الطبية المجهولة» «ورسالة فى النفس» وغيرها من مؤلفات ورسائل لم تصل إلينا . وقد انتهت إلينا لحسن الحظ رسالة «حى بن يقظان» وهى تلخيص فلسفى رائع لأسرار الطبيعة والخليقة ، عرضت خلال حياة وأعمال طفل ، خلق من «بطن الأرض» فى جزيرة مجهولة من جزائر الهند جنوبى خط الاستواء ، وهذا الطفل هو «حى» . وقد استطاع بالملاحظة والتأمل التدريجى لظروف الحياة ، ومظاهرها الطبيعية ، أن يصل إلى أسرار الطبيعة ، وأسرار الحكمة العليا ، وأن يتقرب فى تأمله وصومه من الله . وبالرغم من صغر حجم هذه الرسالة الفلسفية ، وهو لايزيد عن خمسين صفحة ، فقد لفتت بروعتها أنظار النقد الحديث ، وترجمت إلى اللاتينية منذ القرن السابع عشر ، كما ترجمت بعد ذلك إلى لغات أخرى(٢) .

وأما ابن رشد ، فهو أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن أحمد

---

(١) راجع فى ترجمته ابن طفيل ، الإحاطة مخطوط الإسكوريال ١٦٧٣! الغزيرى لوحة ٥٠ — ٥٧ ، والمعجب للمراكشى ص ١٣٤ — ١٣٥ . وراجع ص ١٣٦ من هذا الكتاب .

(٢) ترجمها إلى اللاتينية **Pockocke** ، ونشرت باكسفورد سنة ١٦٧١ بعنوان **Philosophus Autodidactus** ونشرت ترجمتها الإنجليزية فى سنة ١٧٠٨ بقلم **Ockly** والفرنسية سنة ١٩٠٠ بقلم **Gautier** ونشرت ترجمتها الإسبانية سنة ١٩٠٠ بقلم المستشرق **Pons Boigues**

ابن رشد ، وهو سليل بيت من بيوتات العلم والنباهة العريقة بقرطبة ، وبها ولد سنة ٥٢٠ هـ ( ١١٢٦ م ) ، ودرس بها دراسة حسنة ، وأخذ الحديث عن أبيه أبى القاسم ، وابن بشكوال ، وأبى مروان بن مسرة ، وغيرهم . درس الطب أولا على أبى مروان بن جرّيول البلنسى ، ثم بعد ذلك على أستاذه الأثير عبد الملك بن زهر ، ودرس الفقه والأصول والكلام على أقطاب عصره . وبرع ابن رشد بالأخص فى الحكمة والطب . ولما بلغ الثلاثين من عمره غادر موطنه قرطبة إلى إشبيلية ، وكانت دولة المرابطين قد انهارت يومئذ ، وخلفتها دولة الموحدين ، وكان والى إشبيلية الموحدى يومئذ ، هو حسبما قدمنا الأمير العالم ، السيد أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، فاتصل به ابن رشد ، وحظى برعايته ، وكان من آثار هذه الرعاية أن وُلى ابن رشد قضاء مدينة إشبيلية ، ثم ولى بعد ذلك قضاء قرطبة بعض الوقت . وكان من أنفس ما حظى ابن رشد خلال إقامته بإشبيلية ، دراسته المستفيضة على أستاذه العلامة الطبيب العبقرى عبد الملك ابن زهر ، وهو الذى وصفه ابن رشد فيما بعد بأنه أعظم طبيب بعد جالينوس . ولما تولى أبو يعقوب يوسف الخلافة ، وقدم إلى إشبيلية وأقام بها ، زادت مكانة ابن رشد وتوطدت فى البلاط الموحدى ، ولاسيما عن طريق أستاذه ابن طفيل طبيب الخليفة الخاص ، وصديقه وناصحه الأثير لديه ، وكان من آثار هذه الرعاية ، أن عين الخليفة ابن رشد ، طبيباً خاصاً له إلى جانب ابن طفيل . وكان ابن رشد يتنقل معظم الوقت مع بلاط الخليفة سواء بالمغرب أو الأندلس ، ولما توفى الخليفة أبو يعقوب يوسف فى سنة ٥٨٠ هـ ، وخلفه ولده الخليفة أبو يوسف يعقوب المنصور ، بقى ابن رشد فى منصب الطبيب الخاص . ولما توفى ابن طفيل ، انفرد ابن رشد بمنصب الطبيب الخاص . وكان الخليفة المنصور صنو أبيه فى الشغف بالعلوم والفنون ، ومن ثم لقى ابن رشد لديه نفس التقدير والرعاية ، ولبث على مكانته المرموقة فى هذا الجو العلمى الرفيع .

وكان ابن رشد خلال ذلك قد بلغ ذروة مجده العلمى ، وكتب كثيراً من مصنفاته الفلسفية والطبية . وأهم مؤلفات ابن رشد الفلسفية ، هى شروح فلسفة أرسطو ، ويقال إن الذى أوعز إليه بكتابتها أستاذه ابن طفيل (١) ، وهى تشغل عدة مؤلفات ورسائل ، هى جوامع كتب أرسطوطاليس فى الطبيعيات والإلهيات ،

(١) المراكشى فى المعجب ص ١٣٦ .

وتلخيص كتاب ما بعد الطبيعة ، وتلخيص كتاب الأخلاق ، وتلخيص كتاب البرهان ، وتلخيص كتاب السماع الطبيعى ، وشرح كتاب النفس وغيرها . وتشمل مؤلفات ابن رشد الطبية كذلك عدة مصنفات ، منها شرح أرجوزة الطب للشيخ الرئيس ابن سينا ، وتلخيص عدة كتب لجالينوس ، منها كتاب المزاج ، وكتاب القوى الطبيعية ، وكتاب العلل والأعراض ، وكتاب الحميات ، وكتاب الأدوية المفردة ، وغيرها . بيد أن أشهر مصنفات ابن رشد الطبية هى كتابة « الكليات » وفيه يتناول أبواب الطب الكلية أو الرئيسية ، وذلك مقابل التفاصيل الجزئية التى يتناولها أستاذه عبد الملك بن زهر فى كتابه « التيسير »[1] . وله كتاب فى الحيوان . ولابن رشد كذلك ، فى الفقه والأصول عدة مصنفات ، منها كتاب « تهافت التهافت » وفيه يرد على كتاب « التهافت » للغزالى ، وكتاب مناهج الأدلة فى علم الأصول ، ورسالة فى « فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال » ، وكتاب المقدمات ، وكتاب بداية المجتهد فى الفقه ، وغيرها . وله فضلا عن ذلك عدة رسائل أخرى فى الفلسفة والطب والأصول والمنطق لايتسع المقام لذكرها .

وقد عرف التفكير الغربى ابن رشد فى عصر مبكر ، وعرفه بالأخص فيلسوفا وطبيبا من أعظم الفلاسفة والأطباء المسلمين ، بل من أعظم الفلاسفة والأطباء فى كل قطر ، وكل عصر ، واشتهر ابن رشد فى الغرب بالأخص بشروحه لفلسفة أرسطو ، وهى شروح ترجمت إلى اللاتينية ، وذاعت فى دوائر التفكير الغربى منذ القرن الثالث عشر الميلادى .

ولبث ابن رشد على حظوته فى البلاط الموحدى أعواما طويلة ، ولكن الفقهاء والطلبة الموحدين ، الذين ضاقوا ذرعا بتفكيره الدينى والفقهى المستنير ، وبحوثه الفلسفية الرفيعة ، عملوا على مناوئته ، والوشاية به لدى الخليفة المنصور ، واتهامه بالانحراف والمروق ، وانتهى المنصور ، بالرغم مما كان يكنه لابن رشد من التوقير والتقدير ، أن ينزل عند تحريضهم ، وأن يصدر قراره الشهير بمحاكمة الفيلسوف وبعض زملائه وتلاميذه ، وأن يقضى بنفيه إلى بلدة اليسّانة على مقربة من غرناطة ( سنة ٥٩١ هـ ) ، وصدر إلى جانب ذلك بيان للمنصور بقلم كاتبه أبى عبد الله بن عياش ، بالحملة على ابن رشد وزملائه ، واتهامهم بالمروق والزيغ .

---

( ١ ) رأينا خلال إحدى زياراتنا لغرناطة نسخة خطية نادرة من كتاب « الكليات » لابن رشد بمكتبة دير ساكرومنتى القريب من غرناطة . وقد طبع هذا المخطوط بأصله كما هو ألواحا مصورة .

وقضى ابن رشد فى منفاه فى اليسّانة نحو ثلاثة أعوام ، ثم عفا عنه المنصور ، ورده إلى سابق منصبه وحظوته (٥٩٤هـ) . وعاد ابن رشد إلى مراكش، ولكنه لم يمكث بها سوى فترة يسيرة ، وتوفى فى التاسع من شهر صفر سنة ٥٩٥هـ ( ١٠ ديسمبر سنة ١١٩٨م ) وهو فى الخامسة والسبعين من عمره . وقد سبق أن أفضنا القول فى اتهام ابن رشد ونكبته ، وأوردنا نص المرسوم الموحدى الصادر بشأن اتهامه[1] .

وكان من أعلام المفكرين والفلاسفة الأندلسيين فى أوائل العهد الموحدى ، العلامة اليهودى ، موسى بن ميمون ، واسمه العربى ، أبوعمران موسى بن ميمون ابن عبد الله القرطبى الأندلسى الإسرائيلى ، واسمه اليهودى موشى بن ميمون ، وقد ولد بقرطبة سنة ٥٣٠هـ ( ١١٣٥ م ) ودرس بها علوم الأوائل والرياضيات والفلسفة على أقطاب عصره ، وبرع فى الطب والفلسفة والدراسات التلمودية . ولما غلب الموحدون على الأندلس ، وأصدر الخليفة عبد المؤمن فى أواخر عهده قراره الشهير بنفى النصارى واليهود من المغرب والأندلس، إلا من اعتنق الإسلام منهم ، ومن بقى ولم يعتنق الإسلام ، حل ماله ودمه ، تظاهر كثير من النصارى واليهود الذين آثروا البقاء باعتناق الإسلام ، وكان من هؤلاء موسى بن ميمون وأسرته . وعبر ابن ميمون البحر إلى المغرب فى سنة ٥٥٧ هـ ، وأنفق بضعة أعوام فى فاس حاضرته العلمية، وهو يزاول مهنة الطب التى اشتهر بها، ويستتر فى نفس الوقت بمزاولة شعائر الإسلام ، ولكنه كان يرقب الفرصة لمغادرة المغرب إلى بلاد أوسع آفاقا ورزقا. فلما سنحت هذه الفرصة ، سار مع أهله إلى مصر ، ونزل بالقاهرة ( سنة ٥٦١ هـ ) ، وأقام بالفسطاط بين أبناء دينه اليهود ، مظهراً دينه الحقيقى ، وأخذ يرتزق بتجارة الجوهر ، وتزوج أختا لرجل يهودى من كتاب السلطان يدعى أبا المعالى ، واتصل بواسطته بالبلاط ، وأسبغ عليه القاضى الفاضل رعايته لما كان يتصف به من علم غزير وبراعة فى الطب . وعين ابن ميمون طبيبا خاصاً للسلطان صلاح الدين ، وغدا عميد الجالية اليهودية بالقاهرة . وكان يلقب بالرئيس لمكانته العلمية البارزة . ولما توفى صلاح الدين،

---

(١) راجع ترجمة ابن رشد فى التكلة لإبن الأبار رقم ١٤٩٧ ، والمراكشى فى المعجب ص١٣٤ و١٣٦ و١٧٤ و١٧٥ ، والبيان المغرب ص٢٠٢ . وقد وردت فى الذيل والتكلة لابن عبد الملك ترجمة ضافية لابن رشد ، ذكر خلالها نص المرسوم الموحدى ، وذلك فى مخطوط المتحف البريطانى الجزء الخامس . وراجع ص ٢٢٣ — ٢٢٨ من هذا الكتاب .

خدم طبيبا لولده الملك الأفضل ، وأخذ عليه بالقاهرة كثير من علمائها وأطبائها ، ومنهم العلامة الطبيب عبد اللطيف البغدادى ، وكان يقيم وقتئذ بالقاهرة ، وتوفى ابن ميمون فى سنة ٦٠٢هـ ( ١٢٠٤ م ) . ويعتبر ابن ميمون من أعظم المفكرين اليهود فى العصور الوسطى ، ومن أعظم شراح الشريعة اليهودية ، وقد ترك تراثاً حافلا من المؤلفات الدينية والفلسفية والطبية ، من ذلك شرح للتلمود ، وعدة شروح لكتب جالينوس ، « ودلالات الحائزين » فى شرح فلسفة أرسطو ، وهو أعظم كتبه الفلسفية ، وتهذيب كتاب الإستكمال لابن هود فى الرياضيات ، ومقالة فى صناعة المنطق ، وكثير غيرها فى أبواب الشريعة اليهودية . وكان لكتابات ابن ميمون الدينية والفلسفية تأثير عظيم فى التفكير الأوربى فى العصور الوسطى .

— ٤ —

هذا ، ونختتم هذا الحديث الطويل عن الحركة الفكرية الأندلسية وأعلامها ، بكلمة موجزة عن سير الفنون خلال العصر الموحدى .

لقد امتاز العصر الموحدى بالأندلس والمغرب ، بظهور حركة فنية مستقلة ، تتمثل بالأخص فى الصروح والمنشآت العظيمة ، التى أقيمت خلال هذا العصر ، سواء بالمغرب أوالأندلس ، وتميزت بخصائصها المعمارية والفنية الخاصة ، والتى بقيت منها حتى اليوم آثار عديدة ، تشهد بتقدم العلوم الهندسية والفنون المعمارية فى هذا العصر.

وقد نشأت الدولة الموحدية فى البداية على أسس دينية محضة ، تباعد بينها وبين المظاهر الدنيوية البراقة . بيد أنه لما تحولت الخلافة الموحدية ، على يد عبد المؤمن إلى ملك دنيوى باذخ ، كان من الطبيعى أن تتجه الدولة الموحدية إلى استكمال مظاهر الفخامة والأبهة الملوكية . وبدأ ذلك الاتجاه منذ أواخر عهد عبد المؤمن بإقامة مدينة جبل طارق الملوكية ، لتكون منزلا للخليفة أو السادة ، عند عبورهم فى جيوشهم إلى الأندلس ، وكان هذا العمل الإنشائى العظيم مسرحا لظهور عبقرية بعض أعلام المهندسين الأندلسيين ، الذين اقترن اسمهم فيما بعد بأعمال إنشائية جليلة أخرى ، مثل الحاج يعيش المالقى . وظهرت رعاية الدولة الموحدية للفنون المعمارية بالأخص بمدينة إشبيلية ، عاصمة الأندلس خلال العصر الموحدى ، وهى التى كانت مسرحا لأعظم وأجمل المنشآت العمرانية الموحدية بالأندلس . وقد سبق أن تحدثنا عن إنشاء القصور الموحدية الفخمة خارج إشبيلية أمام باب جهور أيام الخليفة أبى يعقوب يوسف ، وعن بساتينها اليانعة ، كما

تحدثنا عن إنشاء جامع إشبيلية الأعظم على يد الخليفة أبى يعقوب يوسف ثم ولده الخليفة أبى يوسف يعقوب المنصور ، وعناية المنصور بإقامة صومعته العظيمة ، (وهى التى يسميها الإسبان اليوم لاخيرالدا) . وأقام الموحدون كذلك عدداً من المنشآت العمرانية بقرطبة عاصمة الخلافة القديمة، من قصور وغيرها . وكان قصر السيد أبى يحي بن أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن خارج قرطبة على النهر الأعظم تحمله أقواس . وأنشأ ولده السيد أبو إبراهيم اسحق أيام أن كان واليا لغرناطة ، قصره الفخم على مقربة من ضفة شنيل ، ومازالت تقوم حتى اليوم بعض أطلاله وعقوده[1]. وقد كانت الخلافة الموحدية تبتعد فى البداية عن مظاهر الترف والزخرف فى منشآتها العمرانية، وتكتفى بمراعاة المتانة والجلال ، ولكنها لما بلغت ذروة عظمتها الدنيوية أيام المنصور ، أخذت تغدق على منشآتها أعظم مظاهر الفخامة والزخرف ، فنرى المنصور يزود جامع إشبيلية بمنبره الفخم المرصع بالصندل المجزع والعاج وبصفائح الذهب والفضة ، وبمقصورته المزينة بالفضة ، ونراه يزود صومعة هذا الجامع بتفافيحها الذهبية الشهيرة[2] . وفى خلال هذه الحركة العمرانية والفنية العظيمة ، نرى عدداً من أقطاب الهندسة والفن مثل الحاج يعيش المالقى المتقدم الذكر ، والعريف أحمد بن باسُه ، والمعلم أبو الليث الصقلى ، وغيرهم ممن اقترنت أسماؤهم بهذه المنشآت العظيمة ، يتزعمون بالأندلس خلال العصر الموحدى حركة فنية زاهرة ، ونرى أصداء هذه الحركة العمرانية والفنية الزاهرة ، تتردد فى نفس الوقت فى المغرب ، وفى عاصمة الخلافة الموحدية مدينة مراكش العظيمة، فى إنشاء الخليفة المنصور فى بداية عهده لضاحية الصالحة الملوكية، وقصورها الفخمة، جنوبى مراكش، وفى إنشاء أو إتمام صومعة جامع الكتبية ، على نمط صومعة جامع إشبيلية العظيمة ، وإنشاء صومعة حسان بمدينة رباط الفتح، وهى صومعة لم تكمل، ومازالت هذه الصوامع العظيمة، وهى من أبرز آثار العصر الموحدى الفنية ، قائمة إلى يومنا ، ومنها صومعة جامع إشبيلية التى تحول فقط جزؤها الأعلى، إلى برج للأجراس لكنيسة إشبيلية العظمى، التى أنشئت فوق موقع الجامع ، بيد أنها لم تفقد بالرغم من ذلك سمتها الإسلامية ، ومازالت زخارفها العربية ، فى مشارفها ونوافذها السفلى ، تشهد بروعة الفنون الزخرفية خلال العصر الموحدى .

---

(١) راجع ص ٣٣١ من هذا الكتاب . (٢) راجع ص ٢٣٢ و ٢٣٣ من هذا الكتاب .

ولم نجد فى أخبار العصر الموحدى ما يدلنا على تطور الموسيقى الأندلسية ، ومن المعروف أن الموحدين مهما بلغ تسامحهم وتشجيعهم ، نحو فنون العمارة والزخارف المعمارية ، فإنهم لم يكونوا بطبيعة نظامهم ، وتزمتهم الدينى ، حماة للفنون الجميلة المحضة من الموسيقى غيرها ، ومن ثم فإننا لم نعثر على أحد من نبغ فى الموسيقى فى تلك الحقبة ، اللهم إلا محمد بن أحمد الرّقوطى المرسى ، الذى جمع إلى براعته فى الهندسة والمنطق ، والفلسفة والطب ، براعته فى الموسيقى ، وكان ظهوره فى الشرق عقب انهيارسلطان الموحدين ، وانهيار شرق الأندلس، وسقوط قواعده فى أيدى النصارى[١] .

بيد أنه كان ثمة فن من الفنون الجميلة ازدهر خلال العصر الموحدى ، هو فن كتابة المصاحف وتنميقها وزخرفتها ، ونستطيع أن نذكر عدة ممن نبغوا فى هذا الفن ، فمنهم محمد بن عبد الله بن سهيل الأنصارى البلنسى المعروف بابن غطوس، والمتوفى فى سنة ٦١٠ هـ ، فقد وهب ابن غطوس حياته لكتابة كتاب الله ، وبرع فى تنميق المصاحف وزخرفتها براعة عظيمة ، جعلت الملوك والأمراء يتنافسون فى اقتنائها[٢] . ومنهم محمد بن محمد بن يحيى بن حسين من أهل جزيرة شقر ، المتوفى نحو سنة ٦٣٠ هـ ، وكان أبرع أهل وقته فى كتابة المصاحف[٣] ، ومنهم محمد بن عبد الرحمن بن عبد العزيز المعروف بابن حمنال ، من أهل مرسية والمتوفى سنة ٦٣٣هـ[٤] ، ومنهم موسى بن عيسى اللخمى القرطبى المعروف بابن الفخار ، وقد توفى فى سنة ٦٢١ هـ[٥] ، وغير هؤلاء .

هذا وقد سبق أن أشرنا إلى تفوق الهندسة والفنون الموحدية ، فى إقامة المنشآت الدفاعية ، من حصون وأسوار وأبراج ، مازالت تشهد بروعتها حتى اليوم أطلال قصبة بطليوس ، وقلعة جابر ، وأسوار إشبيلية ولبلة الموحدية[٦] .

---

(١) سبق أن أتينا على ترجمة الرقوطى فى ص ٧١٨ من هذا الكتاب .
(٢) ترجمة ابن غطوس فى التكملة رقم ١٥٧١ .
(٣) ترجمته فى التكملة رقم ١٦٤٤ .
(٤) ترجمته فى التكملة رقم ١٦٥٢ .
(٥) ترجمته فى التكملة رقم ١٧٣٣ .
(٦) راجع ص ٦٤٠ من هذا الكتاب .

# وثائق موحّدية

# ١

# رســـــالة

## الخليفة أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن

إلى أخيه السيد أبى سعيد عثمان وأصحابه الطلبة بقرطبة، يوصى فيها بأن تجرى الأحكام وفقاً للعدل وتحرى الدقة ، وألا يقضى فى أمر الدماء إلا بعد رفعه إلى الخليفة، من إنشاء الوزير الكاتب أبى الحسن بن عياش ، ومؤرخه فى شهر رمضان سنة ٥٦١هـ .

( منقولة عن كتاب « المن بالإمامة » لابن صاحب الصلاة مخطوط أكسفورد لوحات ٧٩ ب — ٨٢ ب . ونشرها العلامة جولدسيهر فى بحثه :
Materialien zur Kenntniss der Almohaden Bewegung p. 134-138 )

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد وآله وسلم
والحمد لله وحده .

من الأمير يوسف بن أمير المؤمنين أيدهم الله بنصره، وأمدهم بمعونته ، إلى الشيخ الأجل أخينا الأعز علينا ، الأكرم لدينا ، أبى سعيد وأصحابه ، الطلبة الذين بقرطبة أعزهم الله، ودام كرامتهم بتقواه، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أما بعد فإنا نحمد اليكم الله الذى لا إله إلا هو، ونشكره على آلائه ونعمه، ونصلى على محمد نبيه المصطفى ورسوله ، ونرضى عن الإمام المعصوم المهدى المعلوم نجله وسليله ، ونوالى الدعاء لسيدنا أمير المؤمنين القائم بأمره والداعى إلى سبيله . وإنا كتبناه إليكم أكرمكم الله بتقواه ، وكلأ جانبكم وحماه ، من حضرة مراكش حرسها الله . والذى نوصيكم به تقوى الله تعالى، والعمل بطاعته والاستعانة به والتوكل عليه ، وموالاة شكره على ما هدى أولياء أمره ، وأنصار دعوته ، وحماة كلمته ، من صرف أعنة المحبة والاهتمام ، وإحكام منابر الأحكام ، فيما وكله إليهم من أمور الإسلام ، إلى أن تجرى على السداد ، وتنسق على سبيل الإرشاد ، وتستقيم على المهيع ، وتمضى على المنهج، وتسير فى الواضح ، وتهتدى على اللاحب ، ويسلك بها فى الجدد، الذى من سلكه أحمدت منه الآثار وأمن عليه العثار ، وارتضى له الإيراد والإصدار ، فيكون العمل فيها على اليقين ، الهادى إلى الصراط المستبين ، المأمون فى سلوكه من المزلة والضلال، المرجو فى الاهتداء به حسن العاقبة وصلاح الحال، فنسئله تعالى جده عونا من قبله على هذا الغرض العام الجدوى يصاحب، وتوفيقاً من لدنه فى هذا النظر الشامل المنفعة يجاور ويصاقب ، وأنه أدام الله

كرامتكم ، لما كانت مبانى هذا الأمر العزيز أدامه الله على التقوى مؤسسة ، وأوامره ونواهيه على أمر الله ورسوله جرية مترقبة ، وإليها فى الأخذ والتركة مستندة ، وبمقتضياتها فى جميع الأحكام آخذة عاملة ، إذ هى نور الحق وسراجه ، وعمود الصدق ومعراجه ، وسبيل الفوز ومنهاجه ، ورائد الثواب وبشيره ، وقائد العقاب ونكيره ، فمن ائتم بكتاب الله ، الذى هو الإمام المنادى والحق الواضح البدى ، وبسنة رسوله صلعم ، التى جعل العمل بها كالعمل بكتابه ، والوقوف عند حدها كالوقوف عند حده ، أمن من الغوائل ، فى العاجل والآجل ، وبلغ من السلامة فى الحالين إلى أقصى أمد الآمل ، ولم يوجد للباطل إليه سبيلا ، ولم يتمكن للشيطان أن يجد فى تضليله واستهواءه صرفاً ولاحويلا ، فتوفرت الدواعى على الدعاء إليها ، وحمل الكافة عليها ، وأخذ الجميع بما يفقههم لديها ، وقد أمر الله تعالى من أمر الناس بطاعته ، أن يحكموا بالعدل ، ويضعوا للعبد موازين القسط ، فلم يكن لهم بد من امتثال أمره ، والاستناد إلى حكمه ، وكانت الوجوه التى تفضى إلى الحق ، فى فصل قضايا العباد متنقبة ، والطرق المؤدية إلى مغنى الصدق ومعناه ملتبسة ومتشعبة ، فخرج فيها بُنَيات تخطىء الصراط المستقيم ، وتضل الضلال البعيد ، فصار امضاءها من غير استناد إلى هذا الهدى المتبوع ، والعلم المرفوع ، خطراً على ممضيها ، وإنفاذها على غير هذا السنن غررا على منفذها ، ولما كان الأمر كذلك ، تعين ووجب وثبت وترقب ، أن نخاطب جميع عمال بلاد الموحدين أعزهم الله ، شرقاً وغربا وبعداً وقربا ، خطابا يتساوى فيه جميعهم ، ويتوازى فى العمل فيه كافتهم ، بألاّ يحكموا فى الدماء حكماً من تلقائهم ، ولايريقوها بباد أو رأى من آرائهم ، ولايقدموا على سفكها بما يظهر إليهم ، ويتقرر فيما يروقه لديهم ، إلا بعد أن تُرفع إلينا النازلة على وجهها ، وتؤدى على كنهها ، وتشرح حسب ما وقعت عليه ، وتنتهى بالتوثق والبيان إلى ما انتهت إليه ، وتقيد بالشهود العدول ، المعروفين فى مواضعهم بالعدل والرضا ، الموجبين للقبول ، وتكتب أقوال المظلومين وحججهم ، وإقرارهم واعترافهم ، وحجج الظالمين فى مقالاتهم واستظهارهم فى بيناتهم ، مُعطّى كل جانب حقه ، موفى كل قائل قوله ، فتكون مخاطبتكم أعزكم الله ، ومخاطبة من يتناول هذا الكتاب وتوجه إليه هذا القصد ، خطاب من تَحَمَّل الشهادة ويؤدى فيها الأمانة ، على ما يجب من البيان الذى لايعتوره التباس ولايطمس وجهه إشكال ، ويتوثقون فى المطلوبين بالدماء بسجنهم

وتثقيفهم ، ويتوكفون ما تصلكم به المخاطبة ، فتقفون عند مقتضاه ، ولايعدلون عن شيء من معناه ، مراقبا كل منكم إلاهه ومولاه ، علما بأنه يعلم سره ونجواه ، وأنه يسمعه ويراه ، واعلموا وفقكم الله وأسعدكم ، أن هذا الحكم عام فى جميع النوازل ، التى أطلقت السُّنّة فيها القتل وسنته ، وحكمت به وشرعته ، كمن قتل نفساً وأقر بالقتل ، أوشهد العدول عليه به ، ومن بدّل دينا وارتد عنه ، ومن أتى الفاحشة بعد الإحصان ، باعتراف أودليل أوشهادة مقبولة ، وما خيّر الأئمة فيه من قتل المحاربين والساعين فى الأرض بالفساد ، والمتأملين أمر الله بالاستهزاء والعناد ، سواء سُنّ ذلك كله أو وقع فيه ضرب يشاكله مجراه ، واحد فى التوقف عن امضاءه ، والتأخر عن تنفيذه ، إلا بعد المطالعة ، وتعرف وجه العمل من المجاوبة . وكذلك وفقكم الله يكون التوقف فيما عدا المذكور من النوازل ، التى يكون [ فيها ] أحكام دون النفوس من قتل الخطأ وديات الشّجاج ، وعقول الأعضاء ، وأورش الجراحات ، ووجه القصاص ، والقطع فى السرقات ، إلى غير ذلك من القضايا المشكلة فى الأموال وإطلاقها واستحقاقها ، وفى الرقاب وإعتاقها واسترقاقها ، وملتبسات المناكحات والمعاملات ، وما أشبهها من الأمور التى الإقدام على الحكم فيها تهجم ، والعمل فيها بغير استناد إلى ما يجب تسور ، فتوقفوا أعزكم الله عن جميع ما فُسّر لكم ، ولو أخفه توقف الساعى فى نجاته ، العامل لدنياه وآخرته ، وقد ورد فى كتاب الله تعالى وسنة رسوله من الحظر الوكيد ، والوعيد الشديد ، فى إراقة الدماء ، واستباحة الأموال ، واستحلال الحرمات إلا بوجه صحيح ، لايسلم إلا من طريق العصمة ، ولاتهتدى إليه إلا أنوار الحكمة ، ما يزع العقلاء ، ويكف الألباء ، ويحذرهم من سطو الله وعقابه ، ويخوفهم من أليم عذابه ، فعولوا على ما رسم فى هذا الكتاب ، من التعريف بما يبطن ، وانهاء كل ما ينزل ، ليتصلكم من التوقيف ، والبيان والتعريف ، لما يظهر لكم به بركة الاقتداء ، وتستبرق منه عليكم أنوار الائتمام والاهتداء ، ويتراءى لكم به الحق فى صوره الصادقة ، ومثله المطابقة ، ومناظره الموافقة ، ومطالعه المشرقة ، بفضل الله ورحمته ، وملاك مايسدد مقاصدكم فى جميع أحوالكم ، ويوجب لكم الرضا فى كافة أقوالكم وأفعالكم ، تقوى الله فى السر والجهر ، وخيفته فى الباطن والظاهر ، وقدع النفس عن هواها ، وكبحها بلجام النهى عن الركض ، فى ميدان رداها ، وطاعة أمره العظيم والجرى على سننه المستقيم ، فذلك عصمة من الزلل ،

وتوفيق فى القول والعمل بفضل الله ، وقد وجب أكرمكم الله لهذا الكتاب ، بما انطوى عليه من الأغراض الشاملة المنفعة ، العامة المصلحة ، أن يعطى حقه من الإشاعة والتشهير ، وينهض مقتضاه إلى الصغير والكبير ، ويجمع الناس لقراءته وتلقى مضمنه ، ويساوى فيه بين الغائب والشاهد ، والبادى والحاضر ، بإسماع من حضر ومخاطبة من غاب ، ممن يتعلق بنظركم ويدخل تحت عملكم ، فتوجهون بنسخ منه إلى كل جهة من جهاتكم ، وعمل من أعمالكم ، ليأخذ الجميع بقسطه من المسرة ، وتعرف بركته واستشعار عائدته ، وأنسه بما أمر به هذا الأمر العزيز ، من إفاضة العدل ، وبسط الدعة والأمن ، وإقامة أمر الله تعالى على وجهه المتعين ، وسننه الواضح المبين ، إن شاء الله تعالى ، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ، كتب فى الثالث من شهر رمضان المعظم سنة إحدى وستين وخمسمائة .

## ٢
## بيعة أهل إشبيلية للخليفة أبى يوسف يعقوب

استكتبها ولده والى إشبيلية السيد أبو إبراهيم إسماعيل ، ووجهها إلى الحضرة مع بعض أشياخ إشبيلية ، وهى من إنشاء الفقيه أحمد بن محمد ، ومؤرخه فى جمادى الآخرة سنة ٥٦٣ هـ

( منقولة عن كتاب « المن بالإمامة » ، مخطوط اكسفورد لوحة ١٠١ ا و ب . ونشرها العلامة جولدسيهر فى بحثه الذى سبق ذكره ص ١٣٩ — ١٤٠ ) .

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد وآله وسلم

الحمد لله الذى جعل الإمامة قواما للحق ، ونظاما للخلق ، وتماما على الذى أحسن رعاية العدل والرفق ، وأوجب الاعتصام بطاعتها ، والانتظام بجماعتها ، والصلاة على محمد نبيه المبتعث بنور الحق ، الساطع الأضواء ، المبلغ عن الله سبحانه بأكمل وجوه التبليغ والإنهاء ، وعلى آله وأصحابه الذين والوه بالنصر والإيواء ، والرضا عن الإمام المعصوم ، المهدى المعلوم ، المخصوص بأثرة الاصطفاء والاجتباء ، والدعاء لسيدنا ومولانا أمير المؤمنين الخليفة المرتضى ، متمم أنوار الهدى ، ومجلى غياهب الظلماء ، والإمام الأعدل الأهدى ، سيدنا ومولانا أمير المؤمنين أبى يعقوب بن أمير المؤمنين بدوام النصر والاستيلاء ، واستصحاب الظهور والاعتلاء . أما بعد فإنه لما اجتمعت طائفة التوحيد ، وهم الذين يحضرهم من الله حاضرة التوفيق ، وينظر إليهم نظر الاقتداء والاهتداء من وراءهم من أهل الحق والتحقيق ، على تجديد البيعة المباركة لسيدنا ومولانا

أمير المؤمنين أبي يعقوب بن أمير المؤمنين خلد الله أمرهم ، وأعز نصرهم بالإسم المبارك الكريم ، الذى أول من دعى به الفاروق رضوان الله تعالى عليه ، فعرف الله من يمنه ما فتح لملة الإسلام شرقاً وغربا ، وأحال الدلو بيد ساقيهم فاستحالت غربا ، حتى ضرب الدين بجرانه ، وألقى الناس بعطن من يمنه وأمانه ، جددنا من بيعته على الإسمية المباركة ، فرضا أوجبه الشرع وجوب الإلزام ، واقتضى الوفاء بشروطه المؤكدة على الكمال والتمام ، فبايعنا على السمع والطاعة بيعة أمان وإيمان وعدل وعبادة ، والتزمنا بها ، فى اليسر والعسر ، والمنبسط والمكروه ، واعتقدناها عصمة ديننا ، وذخر معادنا ، وتمسكنا بها بالعروة الوثقى ، والعصمة التى من يعلق بحبلها ، وأوى إلى ظلها ، فقد اعتصم بالجانب الأمنع الأوفى ، علما أنها البيعة الرضوانية ، والدعوة التى تتكفل بنصرها وإعلاء أمرها ، العناية الربانية ، علينا بذلك عهد الله الأوكد الألزم ، وميثاقه الأغلظ الأعظم ، وذمته التى لا يقطع حبلها على مرور الزمان ولا يصرم ، مستبصرين فى هذه البيعة الكريمة بنور الاهتداء ، سالكين فى التزام الطاعة على الحجة البيضاء ، عارفين بما أمر الله سبحانه من طاعة الخلفاء ، والله سبحانه يحفظ بها أكناف الإسلام ، ويجعلها كلمة باقية على مرور الأيام ، بفضل الله ويمنه ، وعلى مضمن ما نص فوق هذا ، التزم أهل إشبيلية كافة ، وكتبوا على ذلك شهادتهم فى النصف من جمادى الآخرة سنة ثلث وستين وخمس مائة .

٣

## رســـــالة

## من الخليفة أبي يعقوب يوسف

إلى الطلبة الذين بغرناطة ، يشير فيها إلى وصول بيعتهم مع أشياخ غرناطة ، وبنوه بولائهم ووفائهم ، ويوصى بإكرامهم وبرهم .

( منقولة عن كتاب « المن بالإمامة » مخطوط أكسفورد لوحة ١٠٥ ب ) .

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد وآله وسلم

والحمد لله وحده . من أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين أيده الله بنصره ، وأعزه بمعونته . إلى الطلبة الذين بأغرناطة أكرمهم الله بتقواه . سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته . أما بعد فإنا نحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو ونشكره

على آلايه ونعمه ، ونصلى على محمد نبيه المصطفى ورسوله ، ونسأله الرضا عن الإمام المعصوم ، المهدى المعلوم ، القايم بأمر الله ، والداعي إلى سبيله ، ونوالى الدعاء لصاحبه وخليفته الإمام أمير المؤمنين مسنى أمره العزيز إلى غاية تتميمه وتكميله ، فإنا كتبناه إليكم أكرمكم الله بتقواه من حضرة مراكش حرسها الله . والذى نوصيكم به تقوى الله والعمل بطاعته ، والاستعانة به والتوكل عليه . وقد وصلنا كتابكم من عند الشيوخ من إغرناطة ، حرسها الله والموحدين ، وفق الله جميعهم ، ووفقنا عليه ، ورأينا ما تحملوه عن الموحدين بأغرناطة وجبرانهم من انعقاد إجماعهم على ما أجمع عليه شيوخ أهل [الهدى] وأعيانهم من الأمر الذى أوجبوا على أنفسهم المبايعة عليه ، وأعطاه صفقة اليد فيه ، وقد وفقهم الله لما وفق إليه أهل أمره ، وذوى العصمة من طايفته ، والله تعالى يتقبل منهم عملهم ويعرفهم بركة ما التزموه ، ويعينهم على القيام بواجبهم والوفاء بحقه . وقد انصرف هؤلاء الأشياخ المذكورين بعد إقامتهم بهذه الحضرة ونيلهم بركاتنا ، ما يجدون أثره فى أحوالهم [ وسريان ] الانتفاع به فى أقوالهم وأعمالهم ، فأعرفوا لهم حق وفادتهم ومكان رفادتهم وأحملوهم.. خيراً بهم على الرعاية المتصلة ، والمبرة الحافلة المشتملة ، إن شاء الله تعالى ، والله ولى عونكم وصوبكم ، لارب غيره ، والسلام الكريم العميم عليكم ورحمة الله وبركاته . كتب فى الثانى عشر من شوال عام ثلثة وستين وخمس مائة .

## ٤

## رســــالة

### موجهة من السيد أبى إسحق إبراهيم بن الخليفة أبى يعقوب يوسف

إلى الحافظ أبى عبد الله بن أبى ابراهيم والى غرناطة يبلغه فيها بدخول ابن همشك فى الدعوة الموحدية وهى من إنشاء ابن مصادق .

(منقولة عن كتاب « المن بالإمامة » مخطوط أكسفورد لوحة ١٢٧ ا ب و ١٢٨ ا) .

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد وآله وسلم

الشيخ الأجل الحافظ الأعلى ولينا فى الله تعالى ، أبو عبد الله محمد بن ابراهيم أدام الله عزه وكرامته بتقواه .

وليكم فى الله تعالى ابراهيم بن أمير المؤمنين ، سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته . أما بعد حمد الله على ما أولى ومنح ، والصلاة على محمد نبيه الذى تبين

به دين الحق ووضح ، والرضا عن الإمام المعصوم ، المهدى المعلوم ، معيد دين الله ، بعد ما عفى رسمه ومضى ، والدعاء لسيدنا أمير المؤمنين خليفته الذى طهر بعدله البلاد وفتح ، ولسيدنا أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين الذى أثمر سعيه وأنجح ، وكمل فيمن جلا فيه الأمور الدينية وأصلح ، فكتبناه إليكم أدام الله كرامتكم بتقواه ، من قرطبة حرسها الله ، ولاجديد إلا ما عود الله بركة هذا الأمر العزيز من فتح ، لاتزال تفتح أبوابه وتتصل أعتابه ، وترفع قبابه ، وتتعرف مع كل حين انهلال ما فيه وإسكانه . والحمد لله على ذلك حمداً كثيراً ، يصفو به سربال إحسانه وجلبابه . وإن من النعم التى ببركة هذا الأمر العزيز حديدها ، واقتضى بسعادته مزيدها ، واتبع بطريقها تأييدها ، وانجرفيها لأولياء الأمر العزيز الموعود ، ووافقهم فيها الحد المصحب المسعد . وإن الشيخ أبا اسحق ابراهيم بن همشك وفقه الله ، كشف له عن وجه هداه ، وجلى عن موارد رواه ، وتبين له أن هذا الأمر العزيز هو المركب المنجى ، السابق له السعادة الباقية المزجى ، الذى لايؤخر عثار من صدف عنه ولايرجى ، فبادر إلى الدخول فيه بدار من خلصت سرائره ، وطويت على موعبة ضمايره ، ورأى أن ذلك يمحى به خطاياه ويغفر جرايره . وأذاع الدعوة المهدية فى جميع بلاده ، وأعلن بها ، وأبدى الاعتلاق بعصمتها ، والتمسك بسننها ، ولقى الموحدين أيدهم الله بتقواه ، ملاقاة اللايذ بظلهم ، المتمسك بحبلهم ، المستنيم ، المستسلم ، المنطوى على الولاء الأخلص ، والود الأسلم ، والحمد لله على ذلك حمداً تتوالى به فتوحه ، ويتصل به مبذول إحسانه وممنوحه ، وخاطبناكم بذلك أدام الله كرامتكم لتجروا شكرالله تعالى على ما أسبغ من نعمه وأولى ، وتسلكوا معه سبيلا يكون أحرى بازديادها ، ما من عفا وولى ، والله تعالى يوالى لديكم آلاه ، ويسبغ عليكم ظاهره وباطنه نعماه ، والسلام الأتم عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته .

كتب فى شهر رمضان المعظم عام أربعة وستين وخمس ماية .

٥

## رســـالة

## الخليفة أبى يعقوب يوسف

إلى الطلبة والموحدين بجزيرة الأندلس ، ينبههم فيها باهتمامه بأمر الأندلس ، والعمل على نصرتها ، ومجاهدة أعدائها ، ويطمئنهم على تنفيذ هذا العزم ؛ بما بعثه

من عسكر موحدى تحت إمرة الشيخ أبى حفص ، تمهيدا لجواز الموحدين إليها، من إنشاء أبى الحسن بن عياش ، ومؤرخة فى ربيع الآخر سنة ٥٦٤ هـ .

( منقولة عن كتاب « المن بالإمامة » مخطوط أكسفورد لوحات ١٢٠ – ١٢٢ ) .

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد وآله وسلم

والحمد لله وحده . من أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين أيده الله بنصره ، وأمده بمعونته . إلى الطلبة والموحدين الذين بجزيرة الأندلس أدام الله توفيقهم وكرامتهم . سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته . أما بعد فانا نحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو ، ونشكره على آلايه ونعمه ، ونصلى على محمد نبيه المصطفى ورسوله ، ونسأله الرضا عن الإمام المعصوم ، المهدى المعلوم ، القايم بأمر الله تعالى ، والداعى إلى سبيله ، ونوالى الدعاء لصاحبه وخليفته الإمام أمير المؤمنين ، ممشى أمره العزيز إلى غاية تتميمة وتكميله . وأنا كتبناه إليكم وصل الله توفيقكم وكرامتكم بتقواه ، من حضرة مراكش حرسها الله . والذى نوصيكم به تقوى الله تعالى والعمل بطاعته ، والاستعانة به ، والتوكل عليه . وهذا الأمر العزيز بما وعده الله من النصر ، وضمن له من التأييد ، وتكفل له من التمكين ، وزاد من تبسطه وامتداد علوايه ، واتصال مضماره وخلوصه ، إلى كافة الأرجاء ، وتغلغله فى كل الأنحاء ، لإكمال دينه وإتمام نوره ، وبث دعوته وتصديق وعده ، لاتزال [ موارده ] الحافظة لصوره ، المبقية لأثره ، المثبتة لأركانه ، الممكنة لقواعده ، تشيع من الأسباب القوية واللطائف المنهضة ، والمعانى المعينة على سريانه ، المزعجة لتشربه وجريانه ، مما يؤذن له بإنجازه موعوداته ، وتتبع مضموناته ، حتى يستوى على مداه الذى لاغاية بعده ، ويقف على منتهاه الذى لامطلع وراءه ، يقينا اطمأنت بمقدمات العلبه القلوب ، وقرت على ظهور براهينه النفوس ، وعضدته الآيات البينة ، ونطقت به الآثار المفصحة ، وناقدت شد أحواله لمن ألقى السمع وهو شهيد . .

وما زلنا وفقكم الله ، على أتم العناية بتلكم الجزيرة مهدها الله ، والحرص على غوثها ، والانتواء لنصرتها ، والعمل على قصد ذلك بالمباشرة والمشاهدة إشفاقا على ما استضام منها جيرتها الأعداء ، وأبناؤها الأغفاء ، مجمعين وردها ، وماكادوها به من التلف والتحفيف والتنقيض ، وفغر الأفواه ، وكسر الثبوب والأرصاد ، لغيض ما فض فيها من نور التوحيد ، وخفض مانصب من أعلام هذا الأمر ، والمناصبة للمنحاشين إليه ، المتعلقين بأسبابه ، المستذمين بذمته ، ممن صح

ولاؤه ، وصدقت طاعته ، وخلص على السبك ، ونصح على السبر ، ونجعل لها من الفكر حظا ، يستحق الصدق على ما سواه ، من الأفكار ، ويأخذ السبق على غيره من معنيات الأمور ، ونراه من الأهم الأغنى ، والأول الأولى ، قياما بحق الله في جهاد أعدابها ومكابرى مناوبها ، ومن لم تنفعه العبر على مرورها على بصره ، وتواردها على مشاهدته ، وإدايتها به ، ولم يرع سمعا دعوة الحق التى ملأت الخافقين ، وقرع صوتها مسامع الثقلين ، وتمكن أسباب التفرغ لذلك ، والتوسع فيه ، والنظر فى أحكامه ، فيعترض من أهل هذه المغارب ، شواغب يثيرها الجهال ، ويبغيها النعقة الضلال ، فلايسمع أسبالها ، ولايسوغ الإضراب عنها ، قياما بحق الدين ، وتوقياً من استشراء الشر ، وتوقد أسباب الفتنة ، فينصرف إليها من الالتفات والقصد ، لحسم عللها ، وإبراء أدوائها ، ما يقشع غياباتها ، ويطهر أقذاءها ، ويفضى إلى المقصود الأول من التفرغ للجزيرة مهدها الله ، والتوطيد لأمرها دوما . . الاشتغال بهذا الغرب يلط بأرجائه ، ويشتمل على جوانبه ، ويتخلل زواياه ، وينتظم أوعاره وسهوله ، حتى صفى الله مشاربه ، وخلص من الشوب مشارعه ، ووقف بأهل الانتزاء من أصناف مشغبية على تايب أنات بقلبه ، وندم على ما فرط من ذنبه ، وعلى شقى تمادى فى غلوايه ، ولج فى تمرده فولى كل ما استحق ، وسهم خطة ما رضى ، ووجد التايب برد الأمان ، وتبوأ كنف الإحسان ، وحقت على العاصى كلمة العذاب ، وأخذه التباب ، والصيرورة إلى سوء المآل ، وشر المآب ، وماربك بظلام للعبيد . ولما تولى الله هذه الجهات منة التمهيد ، وبسط لها نعمة التمكين والتوطيد ، انعطف النظر إلى محل مثاره ، وسال سيل الاعتقاد إلى قراره ، وتوجه حفل الاشتغال إلى الجزيرة مهدها الله ، وتوفرت دواعى الاستعداد لنصرتها وجهاد عدوها ، ورأينا فى أثناء ما نحاوله من مروم هذه الغزوة المتممة المباشرة ، أن نقدم بين أيدينا عسكراً مباركاً من الموحدين أعانهم الله ، صحبة الشيخ الأجل أبى حفص أعزه الله ، يكون تقدمه لجواز جمهور الموحدين ، ومؤذيا بما عزمنا عليه ، والله المستعان ، من التحرك لحملة أهل التوحيد ، والقصد لهذا الغزو الميمون ، الذى جعلناه نصب العين ، وتجاه الخاطر ، فتتعاونون مع إخوانكم الواصلين على بركة الله إليكم ، على جهاد أعدايكم ، إلى أن يوافيكم إن شاء الله هذا العزم ، ويلم بكم هذا القصد ، ويعتمدكم هذه الحركة المحكمة أسبابها ، المبرمة أغراضها ، التى انعقدت بها النية ،

واحتدمت لها فى ذات الله الحمية، واستعانت بتوفيق الله فى تأصيل أصولها الفكرة الموجهة والروية، وإنا لنرجو من المبلغ لآمال القلوب، المتفضل بإدراك كل مطلوب، أن يهب فيها من العون ما يتمم مبدأها، ويكمل منشأها، وتشفى به صدور أوليائه، بالنعمة فى أعدايه، وإن فضله تعالى ليسمح ببلوغ هذه الأمنية، والإطلال منها على كل شرف وثنية، فما ذلك على الله بعزيز، وإذا طالعتم وفقكم الله هذه الأنباء، واستعلمتم مافى ضمنها من البشائر، وعنوانات الفتوح، وآثار هذه القصود، وحملتم ذلك على الثقة بما وعد الله هذا الأمر، والتلفت إلى ما عودة رأيتموها نعمى تحولتكم، ورحمى انتحتكم وأتتكم، وشرحتم لها صدوركم، وعمرتهم بها أحناكم، وشغلتم بها مشاهدكم، وسررتم بها غايتكم وشاهدكم، وأذعتموها إذاعة تثلج بها صدور الأولياء، وتحرج منها صدور الأعداء، ويكون للمؤمنين منها مطلع أمل، وللكافر مطلع هول ووجل، عرفكم الله شكر النعمة بها، وأعانكم على أداء واجبها، وبلغكم الغاية الحميلة منها بمنه ويمنه. وإذا وصلكم هذا الكتاب، فأشيعوه قراءة على من حضركم من أصناف الناس، وإرسالا بنسخه إلى من نأى عنكم، حتى يجد أثر الاستبشار به، ويترقب بموعده الغايب والشاهد، والحاضر والناءى انشاء الله. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

كتب فى الحادى والعشرين من ربيع الآخر سنة أربع وستين وخمس مائة.

## ٦

## ظهير الخليفة الرشيد بإسكان المهاجرين من أهل بلنسبة وجزيرة شقر وشاطبة وغيرهم من بلاد الشرق فى مدينة رباط الفتح من إنشاء كاتبه أبى المطرف بن عميرة المخزومى.

(منقولة من كتاب «زواهر الفكر» مخطوط الإسكوريال رقم ٥٢٠ الغزيرى لوحة ١١٥ و ١١٦)

هذا ظهير كريم أمر به أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين، أيدهم الله تعالى بنصره، وأمدهم بمعونته ويسره، للمنتقلين من أهل بلنسية وجزيرة شقر وشاطبة، ومن جرى من ساير بلاد الشرق مجراهم، وعراه من عبر الأيام ما عراهم، حين أنهى ذو الوزارتين الشيخ الأجل الأكرم، الأعز، الأفضل، أبو على ابن الشيخ الأجل الأكرم، أبى جعفر بن خلاص، أدم الله تعالى أثرته وكرامته، ما أصابهم من الجلاء، ودهاهم من أمر الأعداء، وسعى لهم سعى من يقضى فيهم . . ، ويلتمس لهم

مكانا للقرار ، ومنزلا لإلقاء عصى التسيار . وعند ذلك أذن لهم ، أعلى الله تعالى إذنه ، وجدد مجده ويمنه ، فى النقلة إلى رباط الفتح عمره الله تعالى ، بقضيضهم وقضهم ، وأن يتخذوا مساكنه وأرضه بدلا من مساكنهم وأرضهم ، ويعمروا منه بلداً بقبل منهم أولى من قبل ، ويحملهم إنشاء الله تعالى ، وخير البلاد ما حمل ، فإنه مناخ التاجر والفلاح ، وملتقى الحادى الملاح ، والمرافق من بر أو بحر ، موجودة فى فصول السنة ، مؤذنة لقاطنه بالمعيشة الهنية ، والحال الحسنية ، ولهم أفضل ما عهده رعايا هذا الأمر العزيز ، أدامه الله تعالى ، من التوسعة على قويهم ، كى يزداد قوة ، والرفق بضعيفهم حتى ينال يسارا وثروة ، وأن يتوسعوا فى الحرث ، ففى أرضه هنالك متسع ، ويتبسطوا فى كل ما لهم منه مكافىء وبه منتفع ، ويغرسوا الكروم وأنواع . . على عادتهم ببلادهم ، ويتأثلوا الأملاك لأنفسهم وأولادهم ، وأولاد أولادهم ، وكل ما يعمرون من الضياع ، ويقتنون من الأصول والركاع ، فله حكم . . على الإطلاق والدوام ، لايلزمون فيه شيئاً من وجوه الإلزام ، ولايطلبون بغير حقوق الشرع ، التى جعلها الله تعالى فى أموال أهل الإسلام ، وأقوالهم فى مقاديرها مصدقة ، وأمانيهم كلها لهم ، واللاحقين بهم محققة ، والولاة والعمال حفظهم الله تعالى ، مأمورون بأن يحفظوهم من كل أذى يلم بجانب من جوانبهم ، ويعوق عن مأرب صغير أو كبير من مآربهم ، وأن يكرموا غاية الإكرام ، نبهاءهم وأعيانهم ، ويولونهم من حسن الجوار ، ما ينسيهم أوطانهم ، حتى تدفع عنهم كل شبهة من شبه الحيف ، ويجمع لهم بين الرعاية حرمة البلوى ، والعناية بحق الضيف . احسـ... منه على الله تعالى أمره ، وأوزع شكره ، ينسحب على جماعتهم وأفرادهم ، ويحملهم على موجب اعتلامهم بهذا الأمر العلى ، أدامه الله تعالى وملاه بهم ، فمن وقف عليه من المكانة والعمال ، أكرمهم الله تعالى ، فليعمل بحسبه ، ولا يعدل عن كريم مذهبه ، إن شاء الله تعالى ، وهو تعالى المستعان ، لا رب سواه . كتب فى الحادى والعشرين لشعبان المكرم من سنة سبع وثلاثين وستماية .

## ٧

## رســـالة

## الخليفة المرتضى لأمر الله إلى البابا إنوصان الرابع

ينوه فى بدايتها بدحض نظرية التثليث ، ويشير فيها إلى ما ورد من كتب البابا إلى الخلافة الموحدية ، ويرجوه أن يكون اختيار الحبر المكلف بالنظر فى شئون

النصارى بالمغرب من ذوى العقل الراجح ، والأخلاق الحميدة ، والنزاهة الوافرة . مؤرخة فى الثامن عشر من ربيع الأول سنة ٦٤٨ ﻫ .

( وتحفظ الرسالة المذكورة بمحفوظات مكتبة الفاتيكان الرسولية بروما برقم A. A. I. XVIII (1802) وهى الوثيقة الوحيدة من نوعها وعصرها ، التى تحتفظ بها مكتبة الفاتيكان ) .

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما والحمد لله وحده

من عبد الله عمر أمير المؤمنين بن سيدنا الأمير أبى ابراهيم بن أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين أيدهم الله تعالى بنصره ، وأمدهم بمعونته . إلى مطاع ملوك النصرانية ومعظم عظماء الأمة الرومية ، وقيم الملة المسيحية واورث رياستها الدينية، البابه إينه سانس أش ، أنار الله تعالى بصيرته بتوفيقه وإرشاده ، وجعل التقوى التى أمر عز وجل بها عدته لمحياه ومعاده ، وأناله من سابق الهداية ، ما يفضى لمدى الغاية ، بأتم انفساحه وامتداده، تحية كريمة نراجع بها ما تقدم من تحياتكم الواردة علينا ، ويترجم لكم أرجها عما تعتمدكم به البار لدينا .

أما بعد فإنا نحمد الله الذى لا إله إلا هو ، حمد من علم أنه الرب الواحد ، الذى دلت على وحدانيته البراهين القاطعة والشواهد ، ونزهته العقول الراجحة عن أن يكون له ولد أو يدعى أنه الوالد ، تعالى الملك الرحمن عما يقول المثلث والمشبه والجاحد ، ونصلى على سيدنا محمد رسوله المصطفى الكريم ، الذى وضحت به للنجاة المذاهب والمقاصد ، وخرقت له بظهور المعجزات الباهرة على يديه العوايد ، ونصر بالرعب فألقى له يد الاستسلام كل من كان ينادى ويعاند ، وعلى آله وصحبه الكرام ، الذين ازدانت بهم المحاضر والمشاهد ، ووصلت صوارمهم فى مواقف الحروب السواعد ، وأنجزت لهم فى استيلاء الإسلام على مشارق الأرض ومغاربها المواعد . ونسئل الله عز وجل رضاه عن الإمام المعصوم المهدى المعلوم ، الذى جذبه لدين الله تعالى الشباب المعاود ، وأهلت بهدايته بعد إقفارها المعاهد ، وباء بالخسران المخاتل لأمره والمكايد ، وعن الخلفاء الراشدين المهتدين ، الذين تولى منهم إتمام بدايته الإمام الراشد فالراشد ، وعلت بهم لأمر الله تعالى المراقى والمصاعد ، وعن سيدنا الأمير الطاهر أبى إبراهيم بن سيدنا الخليفة أمير المؤمنين بن سيدنا الخليفة أمير المؤمنين الذى طابت منه العناصر والمحاتد ، واشتق من نبعة للخلافة مذ أورق نضارة وغضارة قنتها المآئد ، وزهد

فى الدنيا الفانية ، ورغب فى الأخرى الباقية ، فنعم الراغب الزاهد .

وبعد كتابنا كتب الله تعالى لنا حظوظا من رضاه ، تزكو وتتوفر ، واستعملنا وإياكم بكل ما نتهيأ به لإحراز الفوز لديه ونتيسر ، من حضرة مراكش حرسها الله تعالى ، ودين الله عز وجل عال مسماه ومصعده ، والتوحيد حال بالظهور جيده ومقلده ، والسعى معمل فى ابتغاء [ من ] الله تعالى موفقه ومسدده ، والحمد لله رب العالمين حمداً يتوالى على الألسنة تكرره وتردده ، ونستدعى به من مزيد النعماء أفضل ما وعد به تعلى من يشكره ويحمده ، وإلى هذا يسر الله تعلى بتوفيقه إسعادكم ، وجعل فى طاعته التى تعبّد بها خلقه أصدار[ كم ] وإيرادكم ، فإنه سبقت منا إليكم مراجعات عن كتبكم الموثرة الواصلة إلينا [ وأرسلنا ] نحوكم من الجواب عنها ، ما تممنا به بركم ووفينا ، وعرفناكم أنا نوجب لمنصبكم الذى أبز فى ملتكم على المناصب ، وأقر لرتبتكم فيه أهل دينكم ، بالشفوف على سائر ما لهم من المراتب ، فأنتم عندنا لذلكم بالتكرمة الحفيلة ملحوظون ، وبالعناية الجميلة محظوظون ، نؤكد من أسباب المواصلة لكم ماحقه أن يؤكد ، ونجدد من عهود الحفاية بكم ما شأنه أن يُجدد ، ونشكر لكم ماتوالى علينا من حسن إيثاركم لجانبنا وتردد .

وفى سالف هذه الأيام انصرف عن حضرة الموحدين أعزهم الله ، البِشُب الذى كان قد وصل بكتابكم إلينا ، انصرافا لم يعده منا فيه بر وإكرام ، ولم يغبه فيه اعتناء به واهتمام ، كما أنه فى المدة التى قضى له فيها لدينا بالمقام ، لم نزل نتعهده أثناءها بالإحسان والإنعام ، وتحمّل كتابنا إليكم تعريفاً بما اختار من انصرافه ، وتوخياً فى ما آثره من ذلك لإسعافه ، وما قصر له فى حالى مقامه ورحيله ، ولا عدل به عن حفى البر وحفيله ، وسنى المن وجزيله ، ذهابا لتكريم إشارتكم السابقة فى حقه ، وسلوكاً به من البر على أوضح طرقه ، والله تعالى يرشد فى كل الأحوال لأزكى الأعمال لديه ، وينجد من الأقوال والأفعال على ما يقرب إليه بمنه . ومتى سنح لكم أسعدكم الله تعالى بتقواه ، أن توجهوا لها ولاء النصارى المستخدمين ببلاد الموحدين أعزهم الله ، من ترونه برسم ما يصلحهم فى دينهم ويجريهم على معتاد قوانينهم ، فتخيروه من أهل العقل الراجح ، والسمت الحسن وممن يستلذ فى النزاهة على واضح السنن ، وممن يتميز فى الخدمة بالمذهب المستجاد والقصد المستحسن ، وذلكم هو الذى إذا تعين من قبلكم مستجمعاً للصفات المذكورة ، ومتحلياً بالخلال المشكورة ، حسن فى كل ما يستخدم ، وتسنى له

بذلك أجزل الخير وأوفره، وأنتم تفون بهذا المقصود فى ما تعملون من اختياركم، متى ظهر لكم التوجيه بهذا الرسم لأحد، وتعتمدون فيه أجمل معتمد، وشكرنا لكم على كل ماتذهبون إليه فى جانبنا من تمشية الأغراض والمذاهب، وتحتفلون فيه من المساعدة الصادرة فيكم عن كرم الضرايب، وتبادرون إلى بذله من المكارمة المناسبة لما لكم فى نحلتكم من إناقة المناصب، مما نكافىء به صدق مصادقتكم، ونتوخى فيه ما لايعدل عن موافقتكم، جزاء لبركم بأمثاله، واعتناء بما يقضى لولائكم بدوامه واتصاله، بحول الله تعالى وقوته، وهو سبحانه ييسرنا لنيل الحسنى، والزيادة من فضله، ويأخذ ما فى ديننا ودنيانا على أقوم سبله، ويجعلنا وإياكم بما يمنحنا من التوفيق، فى أول رعيل من حزب الحق وأهله، بمنه وكرمه، لارب سواه. وكتب فى الثامن عشر من شهر ربيع الأول عام ثمانية وأربعين وستمائة.

## ٨

## كتاب بتقليد خطة الشورى

### صادر من أبى جعفر بن أبى جعفر بن أبى جعفر أمير مرسية إلى الفقيه أبى بكر بن أبى جمرة

هذا كتاب تنويه وترفيع، وإنهاض إلى مرقى رفيع، أمر بكتبه الأمير الناصر الدين، أبو جعفر بن أبى جعفر أدام الله تأييده ونصره، للوزير الفقيه الأجل المشاور الحسيب الأكمل، أبى بكر بن أبى جمرة أدام الله عزه، أنهضه به إلى الشورى، ليكون عند ما يقطع لأمر، أو يحكم فى نازلة، يجرى الحكم بها على ما يصدر عن مشورته ومذهبه، لما علمه من فضله وذكائه، وجده فى اكتساب العلم واقتنائه، ولكون هذه المرتبة ليست طريقة له، بل تليدة متوارثة عن أسلافه الكريمة وآبائه، فليتحملها تحمل المستقبل بأعبائها المحسن بأنبائها، العالم بمقاصدها المتوخاة المعتهدة وانحائها، والله يزيده تنويهاً وترفيعاً، ويبوئه من حظوته وتمجيده مكانا رفيعاً. وكتب فى التاسع لذى حجة سنة ٥٣٩، الثقة بالله عز وجل.

---

(١) نقلنا هذا الكتاب من التكملة لإبن الأبار (القاهرة) ج ٢ ص ٥٦٢؛ وقد فاتنا أن نلحقه بالوثائق المرابطية المنشورة بالقسم الأول فألحقناه هنا بالوثائق الموحدية.

# استدراك

— ١ —

جاء فى القسم الأول من هذا المؤلف (عصر المرابطين وبداية الدولة الموحدية) ص ٣٥٢ عند الكلام عن مصرع الكاتب الشاعر أبى جعفر بن عطية ، أنه كان عند مصرعه فتى فى السادسة والعشرين . وهذا ما نقلناه عن « الإحاطة » لابن الخطيب ، وعلقنا عليه فى حاشية أبدينا فيها أن مايذكره ابن الخطيب عن سن ابن عطية لايتفق مع مراحل حياته . وقد وقفنا بعد ذلك على رواية أخرى هى رواية ابن الأبار ، وهى أن ابن عطية كان وقت مصرعه فى السادسة والثلاثين من عمره ، وأن مولده فى سنة ٥١٧هـ[1] لا فى سنة ٥٢٧هـ حسبما يقول لنا ابن الخطيب . وهذه الرواية أكثر تناسقاً واتفاقاً مع حياة ابن عطية ، إذ يقال لنا إنه تولى الكتابة عن أمير المسلمين ، على بن يوسف ، ثم عن ولده تاشفين ، ثم عن حفيده ابراهيم .

— ٢ —

قرأنا فى مقدمة ابن خلدون عن ابن قسى زعيم ثوار الغرب ودعوته ، فقرة فاتنا أن نشير إليها عند كلامنا عنه (ص ٣٧٧ و٤٦٦ من القسم الأول من كتابنا) . ويقول لنا ابن خلدون فى حديثه فى الفصل الذى عنوانه « فصل فى أن الدعوة الدينية من غير عصبية لاتتم » ما يأتى :

« وهذا لما قدمناه من أن كل أمر تحمل عليه الكافة ، فلا بدله من العصبية . وفى الحديث الصحيح كما مر : « ما بعث الله نبياً إلا فى منعة من قومه » . وإذا كان هذا فى الأنبياء وهم أولى الناس بخرق العوائد ، فما ظنك بغيرهم أن لاتخرق له العادة فى الغلب بغير عصبية . وقد وقع هذا لابن قسى شيخ الصوفية ، وصاحب كتاب « خلع النعلين » فى التصوف ، ثار بالأندلس داعياً إلى الحق ، وسمى أصحابه بالمرابطين قبيل دعوة المهدى . فاستتب له الأمر قليلا لشغل لمتونة بما دهمهم من أمر الموحدين . ولم تكن هناك عصائب ولاقبائل يدفعون فى شأنه ، فلم يلبث حين استولى الموحدون على الغرب أن أذعن لهم ، ودخل فى دعوتهم ، وكان أول داعية لهم بالأندلس ، وكانت ثورته تسمى ثورة المرابطين (المقدمة ص ١٣٣) .

---

(١) تراجع رواية ابن الأبار فى الحلة السيراء الطبعة الجديدة بتحقيق الدكتور حسين مؤنس ج ٢ ص ٢٣٨ . وهى واردة فى ترجمة عبد الله بن خيار الجيانى . وقد نقل الأستاذ بروفنسال هذه الترجمة كذلك فى كتاب « أخبار المهدى ابن تومرت » ص ١٤٦ — ١٤٨ ووردت بها نفس الرواية .

# ثبت المراجع

— ١ —

تاريخ ابن خلدون المسمى بكتاب العبر ( بولاق ١٢٨٤ هـ ) .
مقدمة ابن خلدون ( بولاق ) .
تاريخ ابن الأثير ( الكامل ) المطبعة الأهلية ( ١٣٠٣ هـ ) .
نهاية الأرب للنويرى ( القسم التاريخى ) طبعة جسبار ريميرو (Rev. del Cent. de Est. Hist. Granada 1919)
صبح الأعشى للقلقشندى ( طبعة دار الكتب المصرية ١٣٣٢ هـ ) .
وفيات الأعيان لابن خلكان ( بولاق ١٢٩٩ هـ ) .
فوات الوفيات لإبن شاكر الكتبى ( بولاق ١٢٩٩ هـ ) .
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقرى ( القاهرة ١٣٠٢ هـ )
أزهار الرياض فى أخبار القاضى عياض للمقرى ( القاهرة ١٩٣٩ ) .
الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، لابن أبى زرع الفاسى المنشور بعناية كارل تورنبرج ( أبسالة ١٨٤٣ ) .
الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية ( طبع تونس ) .
الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية ( طبع الجزائر ١٩٢٠ ) .
المعجب فى تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشى ( القاهرة ١٣٣٢ هـ ) .
الإحاطة فى أخبار غرناطة لإبن الخطيب ( القاهرة سنة ١٩٠٤ و١٩٥٦ ) .
أعمال الأعلام لابن الخطيب ( طبع بيروت ١٩٥٦ ) .
اللحمة البدرية فى تاريخ الدولة النصرية لابن الخطيب ( ١٣٤٧ هـ ) .
المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد الأندلسى المنشور بعناية الدكتور شوقى ضيف ( القاهرة ١٩٥٣ ) .
قلائد العقيان للفتح بن خاقان ( القاهرة ١٢٨٣ هـ ) .
الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة لابن بسام الشنترينى ( طبعة جامعة القاهرة ) .
البيان المغرب فى اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب ( القسم الثالث ) لابن عذارى المراكشى ( المنشور بعناية معهد مولاى الحسن بتطوان ١٩٦٠—١٩٦٤ ) .

كتاب محمد بن تومرت أوكتاب « أعزما يطلب » المطبوع بالجزائر سنة ١٩٠٣ ، مع مقدمة فرنسية للعلامة المستشرق إجناس جولد سيهر .
كتاب موطأ الإمام المهدى ( ابن تومرت ) المطبوع بالجزائر سنة ١٩٠٥ هـ .
أخبار المهدى ابن تومرت وابتداء دولة الموحدين لأبى بكر الصنهاجى المكنى بالبيذق ، ومنشور بعناية الأستاذ ليڤى بروڤنسال ( باريس ١٩٢٨ ) .
تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية للزركشى ( تونس ١٢٨٩ هـ ) .
مجموع رسائل موحدية المنشور بعناية الأستاذ ليڤى بروڤنسال ( الرباط ١٩٤١ ) .
الإستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى للسلاوى ( القاهرة ١٣٠٦ هـ ) .
المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس لابن دينار ( طبع تونس ) .
المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، المشتق من كتاب المسالك والممالك لأبى عبيد البكرى ( طبعة دى سلان ) .
وصف المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس المشتق من كتاب نزهة المشتاق للإدريسى ( طبعة دوزى ) .
الروض المعطار ( صفة جزيرة الأندلس ) لابن عبد المنعم الحميرى المنشور بعناية الأستاذ ليڤى بروڤنسال ( القاهرة ١٩٣٧ ) .
الاستبصار فى عجائب الأمصار المنشور بعناية الدكتور سعد زغلول ( جامعة الإسكندرية ١٩٥٨ ) .
رحلة التجّانى ( أبو محمد عبد الله بن محمد ) المطبوعة بعناية المطبعة الرسمية بتونس ١٩٥٨ .
رحلة ابن جبير المنشورة بعناية الدكتور حسين نصار ( القاهرة ١٩٥٥ ) .
الروضتين فى تاريخ الدولتين (القاهرة ١٢٨٧ هـ ) .
مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب المنشور بعناية الدكتور جمال الدين الشيال ( القاهرة ١٩٥٣ ) .
الرسالة المصرية لإبن أبى الصلت المنشورة بعناية الأستاذ عبد السلام هارون ( القاهرة ١٩٥١ ) .
المطرب من أشعار أهل المغرب لإبن دحية البلنسى ( القاهرة ١٩٥٤ )
رسالة ابن عبدون فى الحسبة المنشورة بعناية الأستاذ بروڤنسال ( طبع المعهد الفرنسى بالقاهرة ) .

الفصل فى الملل والأهواء والنحل لابن حزم القرطبي ( القاهرة ١٣٢١ هـ ) .
الملل والنحل للشهرستانى ، المنشور على هامش كتاب « الفصل » .
المنقذ من الضلال لأبى حامد الغزالى ( القاهرة ١٣٠٩ هـ ) .
كتاب الحلة السيراء لابن الأبار ( طبعة دوزى ١٨٥١ ) .
كتاب الصلة لابن بشكوال ( طبع القاهرة ١٩٥٥ ) .
كتاب التكملة لابن الأبار ( طبع القاهرة ١٩٥٦ ) ، وضمن المكتبة الأندلسية ( مدريد ١٨٨٦ ) .
المعجم فى أصحاب القاضى أبى على الصدفى لابن الأبار ( ضمن المكتبة الأندلسية ) .
بغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الأندلس للضبي ( ضمن المكتبة الأندلسية ) .
كتاب صلة الصلة لابن الزبير المنشور بعناية الأستاذ بروفنسال ( الجزائر ١٩٣٧ ) .
عنوان الدراية لأبى العباس الغبرينى ( الجزائر ١٣٢٨ هـ ) .
جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام بمدينة فاس لابن أبى العافية ( فاس ١٣٠٩ هـ )
أخبار العلماء بأخبار الحكماء لجمال الدين القفطى ( القاهرة ١٣٢٦ هـ ) .
تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين لأشباخ ( الترجمة العربية ١٩٥٨ ) .
دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطى لمحمد عبد الله عنان ( القاهرة ١٩٦٠ )
نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين لمحمد عبد الله عنان ( القاهرة ١٩٥٨ ) .
الآثار الأندلسية الباقية لمحمد عبد الله عنان ( القاهرة ١٩٦١ ) .
صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ( المجلدان السابع والثامن ) .

المصادر المخطوطة

سبق أن تناولنا فى بداية القسم الأول من هذا الكتاب فى الفصل الذى عقدناه بعنوان « بيان عن المصادر » أهم المصادر المخطوطة التى اعتمدنا عليها وانتفعنا بها ، وذكرنا أوصافها ، وأماكن وجودها . ولذا لانرى حاجة لتكرار ذكرها فى هذا الثبت .

— ٢ —

F. Codera : Decadencía y Disparición de los Almorávides en España (Zaragoza 1899).
Primera Crónica General, Ed. M. Pidal (Madrid 1956) .
Mariana : Historia General de España.
Sandoval : Historia de los Reyes de Castilla y de León
Florez : Historia de las Reinas Católicas
Chronicon Lusitanum (Espana Sagrada Vol. XXIV).
Chronique Latine des Rois de Castille

M. Lafuente : Historia General de Espana
A. de los Rios : Trofeos Militares de la Reconquista (Madrid 1893)
F. J. Simonet : Historia de los Mozárabes de España (Madrid 1896)
Pons Boigues : Historiadores y Geógraficos Arábigo-Españoles (Madrid 1898)
R. Altamira : Historia de Espana y de Civilización Española (Barcelona 1900)
A. Campaner y Fuertes : Bosquejo Historico de la Dominación Islamita en las Islas Baleares (Palma 1888)
P.y Vives : Los Reyes de Taifas (Madrid 1926)
G. Palencia y M. Alarcón : Miscelenea de Estudios y Textos Arabes (Madrid 1916)
A.P. Ibars : Valencia Arabe (Valencia 1901)
M. Gaspar Remiro : Historia de Murcia Musulmana (Zaragoza 1903)
A. Huici Miranda : Historia Politica del Imperio Almohade (Tetuan 1957)
A.H. Miranda : Las Grandes Batallas de la Reconquista (Madrid 1956)
J. Gonzalez : Las Conquistas de Fernando III en Andalucia (Madrid 1946)
Is. de las Cagigas : Sevilla Almohade y Ultimos Años de su Vida Musulmana (Madrid 1951)
La Orden de Calatrava (Ciudad Real 1959)
Al-Andalus : Revista de las Escuelas de Estudios Arabes de Madrid y Granada
M. Amari : Storia dei Musulmani di Sicilia (Fierenze 1867)
R. Dozy : Histoire des Musulmans d'Espagne (Leiden 1932)
R. Dozy : Recherches sur l'Histoire et Littérature de l'Espagne pendant le moyen âge (Leiden 1881)
Alfred Bel : Les Benou Ghania (Paris 1903)
A Müller : Der Islam im Morgen und Abendland (Berlin 1885)
I. Goldziher : Materialien zur Kenntniss der Almohaden Bewegung (Z. der Morg. Gesell. 1887)
I. Goldziher : Le Livre de Mohamed ibn Toumert (Alger 1903), Introduction
M. Müller : Beiträge zur Geschichte des Wesentlichen Araber.

## فهرست الموضـــوعات


ص

تصـــدير ٣

الكتاب السادس

عصر الخليفة أبى يعقوب يوسف

الفصل الأول : عصر الخليفة أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ... ... ١٠

الفصل الثانى : حوادث الأندلس وسقوط مملكة الشرق ... ... ... ٣٣

الفصل الثالث : حركة الجهاد بالأندلس والإخفاق فى غزوة وبذة ... ٥٨

الفصل الرابع : أحداث الأندلس والمغرب ... ... ... ... ... ٩٤

الفصل الخامس : غزوة شنترين ومصرع الخليفة أبى يعقوب يوسف ... ١١٣

الكتاب السابع

عصر الخليفة يعقوب المنصور

حتى موقعة العقاب

الفصل الأول : عصر الخليفة يعقوب المنصور وبداية ثورة بنى غانية ... ١٤٠

الفصل الثانى : حوادث الأندلس وإفريقية... ... ... ... ... ... ١٦٩

الفصل الثالث : موقعة الأرك ... ... ... ... ... ... ... ... ١٩٦

الفصل الرابع : ما بعد الأرك حتى وفاة المنصور ... ... ... ... ٢٢٢

الفصل الخامس : عصر الخليفة محمد الناصر ... ... ... ... ... ... ٢٤٩

الفصل السادس : موقعة العقـاب ... ... ... ... ... ... ... ... ٢٨٢

الكتاب الثامن

الدولة الموحدية

فى طريق الانحلال والتفكك

الفصل الأول : عصر الخليفة يوسف المستنصر بالله وأوائل ظهور بنى مرين ٣٢٨

الفصل الثانى : أبو محمد عبد الواحد والعادل وثورة البياسى بالأندلس ٣٤٨

الفصل الثالث : عصر الخليفة أبى العلى المأمون — إلغاء رسوم المهدى
ابن تومرت وقيام الدولة الحفصية بإفريقية ... ... ٣٦٧

ص

الكتاب التاسع

إنهيار الأندلس

وسقوط قواعدها الكبرى


الفصل الأول : الثورة فى مرسية وبلنسية ونذر الإنهيار الأولى ... ... ... ٣٨٨

الفصل الثانى : ابن هود وابن الأحمر وسقوط قرطبة ... ... ... ... ٤١٠

الفصل الثالث : سقوط بلنسية وقواعد الشرق ... ... ... ... ... ... ٤٣٧

الفصل الرابع : سقوط إشبيلية وقواعد الغرب ... ... ... ... ... ... ٤٦٥


الكتاب العاشر

نهاية الدولة الموحدية


الفصل الأول : عصر الخليفة أبى محمد عبد الواحد الرشيد ... ... ... ٤٩٦

الفصل الثانى : عصر الخليفة أبى الحسن على السعيد ... ... ... ... ... ٥١٦

الفصل الثالث : عصر الخليفة المرتضى لأمر الله ... ... ... ... ... ... ٥٢٨

الفصل الرابع : نهاية الدولة الموحدية ... ... ... ... ... ... ... ... ٥٦١


الكتاب الحادى عشر

الممالك الإسبانية النصرانية

خلال العصر الموحدى


الفصل الأول : قشتالة وليون منذ عهد ألفونسو الثامن حتى عهد

فرناندو الثالث ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٥٨٢

١ — مملكة قشتالة ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٥٨٣

٢ — مملكة ليون ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٥٩٣

٣ — قشتالة وعهد فرناندو الثالث ... ... ... ... ... ... ٥٩٧

الفصل الثانى : أراجون وناڤارا والبرتغال ، منذ أواخر القرن

الحادى عشر إلى أواخر القرن الثانى عشر ... ... ... ٦٠٠

١ — مملكة أراجون ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٦٠١

٢ — مملكة ناڤارا ( نبرّة )... ... ... ... ... ... ... ... ٦٠٧

٣ — مملكة البرتغال ... ... ... ... ... ... ... ... ٦٠٩

ص

الكتاب الثانى عشر
نظم الدولة الموحدية
وخواص العهد الموحدى

الفصل الأول : الحكومة الموحدية بالمغرب والأندلس وأوضاعها السياسية والعسكرية والإدارية ... ... ... ... ٦١٤
١ — نظم الحكم الموحدى ... ... ... ... ... ... ٦١٩
٢ — تطور الأساس الروحى للخلافة الموحدية ... ... ٦٣٠
٣ — النظم العسكرية ... ... ... ... ... ... ... ٦٣٢
٤ — الحكومة الموحدية بالأندلس ... ... ... ... ٦٤٠
الفصل الثانى : الحركة الفكرية الأندلسية خلال العصر الموحدى — القسم الأول ٦٤٤
الفصل الثالث : الحركة الفكرية الأندلسية خلال العصر الموحدى — القسم الثانى ٦٨١
الفصل الرابع : الحركة الفكرية الأندلسية خلال العصر الموحدى — القسم الثالث ٧١١

وثائق موحـــدية

١ — رسالة الخليفة أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بالتوصية بأن تجرى الأحكام وفقاً للعدل ، وبأن يرفع إليه أمر الدماء قبل البت فيه ... ٧٢٨
٢ — بيعة أهل إشبيلية للخليفة أبى يعقوب يوسف ... ... ... ... ... ٧٣١
٣ — رسالة الخليفة أبى يعقوب يوسف إلى الطلبة الذين بغرناطة ... ... ٧٣٢
٤ — رسالة للسيد أبى إسحق ابراهيم يبلغ فيها عن دخول ابن همشك فى الدعوة الموحدية ... ... ... ... ... ... ... ... ٧٣٣
٥ — رسالة الخليفة أبى يعقوب يوسف إلى الطلبة والموحدين بالأندلس ينبههم فيها باهتمامه بأمر الأندلس والعمل على نصرتها ... ... ... ٧٣٤
٦ — ظهير الخليفة الرشيد بإسكان المهاجرين من شرق الأندلس بمدينة رباط الفتح ... ... ... ... ... ... ... ... ٧٣٧
٧ — رسالة الخليفة المرتضى لأمر الله إلى البابا إنوصان الرابع ... ... ٧٣٨
٨ — كتاب بتقليد خطة الشورى ... ... ... ... ... ... ٧٤١
استدراك ... ... ... ... ... ... ... ... ٧٤٢
ثبت المراجع ... ... ... ... ... ... ... ... ٧٤٣

ص

# فهرست الخرائط والصور


١ — مواقع غزوات الموحدين لمملكة الشرق وغزوة وبذة ... ... ٤٩
٢ — خط سير الجيش الموحدى والأسطول الموحدى إلى غزوة شنترين ١٢٠
٣ — مواقع معركة شنترين ... ... ... ... ... ... ... ... ... ١٢٠
٤ — إفريقية والمغرب الأوسط ، ومواقع الصراع بين بنى غانية والموحدين ١٦٣
٥ — مواقع موقعة الأرك ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٢٠١
٦ — رسم تخطيطى لميدان معركة الأرك حسبما يبدو اليوم ... ... ... ٢٠٥
٧ — كنيسة الأرك — مجموعة أطلال قلعة رباح ... ... ... ... ٢٠٧
٨ — صومعة جامع المنصور بإشبيلية ( لاخيرالدا ) ... ... ... ... ٢٣١
٩ — مواقع موقعة العقاب ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٢٩٩
١٠ — أطلال حصن العقاب ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٣٠٣
١١ — نهر مجانيا كما يبدو فى أسفل الجبال ... ... ... ... ... ... ٣٠٤
١٢ — منحدر دسبنيابروس ... ... ... ... ... ... ... ... ٣٠٤
١٣ — ممر پورتو دل مورادال ... ... ... ... ... ... ... ... ٣٠٧
١٤ — بسيط مائدة الملك ( ميسا دل رى ) ... ... ... ... ... ... ٣٠٧
١٥ — رسم تخطيطى لموقعة العقاب خلال جبال سيرّا مورينا ... ... ... ٣٠٩
١٦ — صورة سهام أرضية عثر بها المؤلف فى ميدان الموقعة ... ... ... ٣١٦
١٧ — صورة العلم الموحدى الذى غنمه الإسبان ... ... ... ... ... ٣١٩
١٨ — خطط قرطبة الإسلامية ... ... ... ... ... ... ... ... ٤١٩
١٩ — قطاع بلنسية ومرسية ومواقع الفتوحات الأرجونية ... ... ... ٤٤١
٢٠ — مواقع حصار بلنسية ... ... ... ... ... ... ... ... ٤٤٥
٢١ — قطاع إشبيلية وأحوازها ومواقع الغزو القشتالى ... ... ... ... ٤٧٥
٢٢ — حصار إشبيلية ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٤٧٩
٢٣ — خريطة تبين انهيار الأندلس وما كسبته الممالك النصرانية ... ... ٤٩١
٢٤ — صورة فتوغرافية لخطاب الخليفة المرتضى إلى البابا إنوسان الرابع ٥٣٩
٢٥ — خريطة تبين تفكك الدولة الموحدية والدول التى قامت مكانها ... ٥٦٩

# فهرست الشـــعر


| | | ص |
|---|---|---|
| أبو عمر بن حربون | بسعدك أضحى الدين جذلان باسما | ٣٩ |
| أبو بكر بن طفيل | أقيموا صدور الخيل نحو المضارب | ٦٠ |
| أبو الحسن بن عياش | أقيموا إلى العلياء عوج الرواحل | ٦١ |
| أبو بكر بن المنخل | شرف الخلافة أن ملكت زمامها | ٦٧ |
| أبو بكر بن طفيل | ولما انقضى الفتح الذى كان يرتجى | ١٠٩ |
| ابن صاحب الصلاة | خير البشائر صوغت حمل المنى | ١٠٩ |
| شاعر من الجزائر | سلام على قبر الإمام الممجد | ١١٠ |
| أبو بكر بن مجبر | إسائلكم لمن جيش لهام | ١٦٥ |
| أبو العباس الجراوى | نار من الفتنة العمياء أطفأها | ١٨٠ |
| أبو عبد الله الجزيرى | فى أم رأسى سر | ١٨٠ |
| عبد الرحمن بن منقذ | سأشكر بحراً ذا عباب قطعته | ١٨٥ |
| أبو العباس الجراوى | إياب الإمام حياة الأمم | ١٨٩ |
| « « | بشائر نصر الله جاءتك سافرة | ٢١٢ |
| « « | هو الفتح أعيى وصفه النظم والنثرا | ٢١٦ |
| على بن حزمون | حيتك معطرة النفس | ٢١٦ |
| أبو بكر بن مجبر | أتراه يترك الغزلا | ٢٤٤ |
| عبد الرحمن بن الفرس | قولوا لأبناء عبد المؤمن بن على | ٢٥٦ |
| ابن يخلفتن الفازازى | هذى فتوح تفتحت أزهارها | ٢٧٥ |
| شاعر مرسى | موقعة عفص وطلياطة | ٣٥٥ |
| ابن الأبار القضاعى | الحمد لله لا أهل ولا والد | ٣٩٦ |
| سعيد بن حكم الأموى | لاتمنع المعروف يوما معرضاً ومعرضا | ٤٠٩ |
| ابن الأبار القضاعى | ألما بأشلاء العلا والمكارم | ٤٤٢ |
| « « | أدرك بخيلك خيل الله أندلسا | ٤٤٦ |
| أبو المطرف بن عميرة | ما بال دمعك لاينى مدراره | ٤٥٤ |

| | | ص |
|---|---|---|
| شاعر من جيان | أودعكم أودعكم جيانى | ٤٦٩ |
| إبراهيم بن سهل الإشبيلى | ورداً فضمون نجاح المصدر | ٤٨٢ |
| أبوموسى بن هرون | يا حمص أقصدك المقدور حين رمى | ٤٨٢ |
| الخليفة المرتضى لأمر الله | وافى ربيع قد تعطر نفحه | ٥٦٠ |
| » » » | ولما مضى العمر إلا الأقل | ٥٦٠ |
| عبد الله بن فتوح الحضرمى | وعجل شيبى أن ذا الفضل مبتلى | ٦٦٢ |
| مفوز بن حيدرة المعافرى | وقفت على الوادى المنعم دوحه | ٦٦٣ |
| موسى بن حسين الميرتلى | سليخة وحصير | ٦٦٦ |
| الشيخ محيي الدين بن عربى | سلام على سلمى ومن هل بالحمى | ٦٨٠ |
| » » » » | درست عهودهم وأن هواهم | ٦٨٠ |
| ابن أبى العافية الأزدى | يا سرحة الحى يا مطول | ٦٨٨ |
| عبد الرحمن بن مغاور | أيها الواقف اعتباراً بقبرى | ٦٨٩ |
| ابن غالب البلنسى | لوجئت نار الهدى من جانب الطور | ٦٨٩ |
| » » » | ومهول الشطين تحسب أنه | ٦٨٩ |
| » » » | وفتيان صدق كالنجوم تألقوا | ٦٨٩ |
| » » » | خليلى ما لليد قد عبقت نسرا | ٦٩٠ |
| ابن عياض القرطبى | كم من أخ فى فؤاده دغل | ٦٩٠ |
| ابن الصابونى الصدفى | أهلا بطيف خيال مناك منساب | ٦٩١ |
| ابن حريق | يا صاحبى وما البخيل بصاحبى | ٦٩٢ |
| مرج الكحل | مثل الرزق الذى تطلبه | ٦٩٢ |
| » » | عرج بمنعرج الكثيب الأخضر | ٦٩٢ |
| عبد الرحمن بن حزمون | يا من له بالأنام أنسى | ٦٩٣ |
| » » » | إليك أمام الحق جبت المفاوز | ٦٩٣ |
| إبراهيم بن سهل الإشبيلى | مضى الوصل إلا منية تبعث الأسى | ٦٩٤ |
| » » » » | ليل الهوى يقظان | ٦٩٤ |
| ابن حجاج اللخمى | هنأ الله بلاد العرب | ٦٩٤ |
| أبو العباس الجراوى | أتراه يترك الغزلا | ٦٩٥ |

# فهرست البلدان والأماكن[1]

— ا —

أبدة ؛ ج١-١٤٣، ٣٣٢، ٣٣٥، ٣٦١، ٣٦٢، ٣٦٩، ٣٧٢ ، ٥٠٤ وج٢-٤٠، ٥٣، ٢٩١ ، ٣٠١ ، ٣٢٣، ٣٥٢، ٣٥٧، ٤٠٢، ٤١٧ ، ٤٦٩ ، ٥٩٦، ٥٩٨ ، ٦٧٣

آبلة؛ ج١-٥١٧ وج٢-٣١ ، ٨٧ ، ٨٨ .

أجرسيف ؛ ج ١-٢٥٥ وج٢-٥٣١ ، ٥٦٧ .

أجرفرجان ؛ ج١-٢٢٨ - ٢٣٠ .

أراجون: ج١-٨٧، ٨٨، ١٠٣، ١٢٠، ١٢١، ١٢٦، ١٣٤، ٣٤٦، ٣٩٤، ٤٢٨، ٤٨٠، ٤٨١، ٤٨٨، ٤٨٩، ٤٩٥-٤٩٨، ٥٠٥-٥١٠، ٥١٤، ٥١٥، ٥١٧، ٥١٨ وج٢-٢٣٣، ٢٦١، ٢٨٨ ، ٣٩٧، ٤٠٤، ٤٠٨، ٤٣٩، ٤٤٣، ٤٤٤، ٤٥٨، ٤٦٤، ٥٨٣-٥٨٧، ٥٩٥، ٥٩٧، ٦٠١-٦٠٩ .

أربونة ، ج١-٥٧، ٤٩٥ ، وج ٢-٢٩٧ .

أرجونة؛ ج٢-٤١٤-٤١٦، ٤٦٧، ٤٦٩، ٥٩٨.

آرش ؛ ج٢-٤٣٩ .

أرض برغواطة ؛ ج١ - ٢٧٢، ٢٧٤ .

أرض دكالة ؛ ج٢ - ٥٥٨ ، ٥٦٢ .

أرض كيك ؛ ج٢ - ٥٥٧ .

أرض نفيس ؛ ج١ - ٢٧٢ .

أركش ؛ ج١-٣٢١ ، ٣٢٥ وج٢-٩٧، ١١٦ ، ١٧٥ ، ٤٨٨ ، ٤٨٩ ، ٥٩٩ ، ٦٧٥ .

آرل ؛ ج ١ - ٩٠ ، ٥١٤ .

أروش ؛ ج ٢ - ٦٨٨ .

آزرو؛ ج ١ - ٢٣٥ ، ٢٣٦ .

أزمور؛ ج١-٢٥٩، ٢٦٠، ٢٧٥ وج٢-٥١٠ ، ٥٢٢، ٥٢٣، ٥٤١، ٥٤٤، ٥٤٧، ٥٥٧، ٥٥٩

إسبانيا المسلمة؛ ج١-٢٥، ٣٣، ٥٠، ٥٥، ٥٦، ١٠٤ ، ٤٩١، ٥١٨، ٥٢١، ٥٢٨ وج٢-٣٧، ٤٧ ، ٦٩ ، ٥٩٠ .

إسبانيا النصرانية؛ ج١-٧، ٢٥-٢٩، ٣٣، ٣٦، ٥٢، ٥٥، ٥٦، ٧٣، ٨٦، ٩٠، ١٠٢، ١١٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦، ١٦٨، ٢٤٨، ٣٠٦، ٣١٥ ، ٣٤٦ ، ٤١٣، ٤٢٢، ٤٣٦، ٤٥٤، ٤٧٨ - ٤٨٢ ، ٤٨٦، ٤٩١، ٤٩٣، ٤٩٥، ٤٩٦ ، ٥٠٢ ، ٥١٠، ٥١٢، ٥١٤، ٥١٨، ٥٢٣ ، ٥٢٨ و ج٢ - ٤٧، ٥٤، ٦٩، ١٨٢، ٢١٣ ، ٢٨٧-٢٩١، ٢٩٣، ٢٩٤، ٢٩٧، ٣١٧، ٣٢٠، ٣٢١ ، ٣٢٩ ، ٣٩٣، ٣٩٨، ٤٣١، ٥٥٠ ، ٥٥١ ، ٥٧١، ٥٧٢، ٥٧٤، ٥٨٣، ٥٨٤ ، ٥٨٩ ، ٥٩٢، ٥٩٥، ٦٠٨، ٦٣٩، ٦٨١ .

إستجة ؛ ج١-١٤٩، ٣١٤، ٣٣٢، ٤٦٥ وج ٢ - ٨٨، ١٠٢، ٤٢١، ٤٢٢، ٤٢٥ - ٤٢٧ ، ٤٣١، ٤٨٩، ٥٩٨ .

إسترامادورة: ج١-١٢٨، ١٣٠، ٥١٧، وج٢-٢٥، ٢١٧، ٣٢١ .

أسترقة ؛ ج١-٤٨١، ٤٨٢، ٥٢٤ .

أستورياس (أشتوريش) ؛ ج١-٤٧٩، ٤٨٤ ، ٤٩١، ٥١٥، وج٢-٣٢ .

آسفى ؛ ج٢-٤٩٩ .

الإسكندرية ؛ ج٢-٤٤، ٥١، ٧٨، ١٦٠ ، ١٦١، ١٦٤، ٤٦٨، ٤٧١، ٤٧٢، وج٢-١٠٨، ١٨٣، ١٨٤، ٢٤٢، ٢٤٣، ٦٧٧، ٦٨٧ ، ٦٩١، ٦٩٧، ٧١٤ .

أشبونة؛ ج ١-٧٠، ٧٣، ٥٢٢-٥٢٤ وج٢-٢٤، ٢٥، ٣٣، ٣٧، ٩٩، ١٠٠، ١٠٢، ١١٩، ١٢٠، ١٢٥، ١٧١، ١٨٦، ٣٣٨، ٥٤٩، ٦١٠، ٦١٢، ٧١٥ .

إشبيلية ؛ ج١-٩، ٣١ ، ٣٣، ٤٥، ٤٦، ٦٠، ٦٩ ، ٧٠ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ١٠٣، ١١٠، ١١١، ١١٥، ١٣١، ١٣٢-١٣٥ ، ١٣٦، ١٣٨ ، ١٤٠-١٤٤، ١٤٨ ، ١٥١ ، ١٨٤، ٢٢٧ ، ٣٦٧ ، ٣٠٧-٣١٥ ، ٣٢١، ٣٢٥-٣٢٩، ٣٣١، ٣٣٢، ٣٣٩، ٣٤٠، ٣٤٥ - ٣٤٨ ، ٣٥٤ ، ٣٧٢ - ٣٨٠، ٣٨٢ ، ٣٨٦-٣٨٨ ، ٣٩١ ، ٣٩٢ ، ٤٠٢ ، ٤١٥ ، ٤١٩ ، ٤٢٥ ، ٤٢٦ ، ٤٤١ ، ٤٤٤ ، ٤٤٧-٤٤٩ ، ٤٥٣ ، ٤٥٦ ، ٤٥٨ ، ٤٦١، ٤٦٤ ، ٤٦٧ ، ٤٧٠-٤٧٤، ٥٠٤ ، ٥٠٦،

---

(١) هذا الفهرس وما يليه ، يضم فهارس القسمين الأول والثانى من الكتاب (ج ١ و ج ٢)

٥٠٧ ، ٥٢٥ ، ٥٢٦ ، وج٢-١٢، ١٥ ،
١٦ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢٨-٣٢ ، ٣٤ ، ٣٦ ،
٣٧ ، ٣٩ ، ٤١-٤٦ ، ٤٨ ، ٥٢ ، ٥٥ ،
٥٦ ، ٦٧-٧٤ ، ٨٣-٩٣ ، ٩٥-١٠٥ ،
١٠٨-١١٠ ، ١١٤-١١٨ ، ١٢٤-١٢٦ ،
١٢٩-١٣٨ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٦٨ ، ١٧٤-
١٧٩ ، ١٨٣-١٨٩ ، ١٩٢ ، ١٩٧-١٩٩ ،
٢٠٩ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢٢١ ، ٢٢٣، ٢٢٨
٢٣٠-٢٣٤ ، ٢٤٥-٢٤٧ ، ٢٥١ ، ٢٥٦ ،
٢٥٧ ، ٢٦٣، ٢٧٠ ، ٢٧٧ ، ٢٨٥ ،
٢٨٦ ، ٢٨٩ - ٢٩٦ ، ٣٢٢ ، ٣٢٤ ،
٣٣١ ، ٣٤٩ ، ٣٥١-٣٥٧، ٣٥٩-٣٦٤ ،
٣٦٦ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٩٢ ، ٣٩٣ ،
٤٠٠-٤٠٢ ، ٤١١ ، ٤١٣ ، ٤١٥ ، ٤١٦،
٤٢٥ ، ٤٢٩ ، ٤٣٢ -٤٣٤ ، ٤٧٠-٤٧٦،
٤٧٨، ٤٨٠- ٤٩٠، ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٥٠٧ ،
٥٠٩، ٥١٠، ٥٢٠ ، ٥٤٨، ٥٤٩، ٥٦٠ ،
٥٦١ ، ٥٧٤، ٥٨٩، ٥٩١ ، ٥٩٥، ٥٩٨ ،
٥٩٩، ٦١٨، ٦١٩، ٦٢٣، ٦٢٧ ، ٦٢٩ ،
٦٤٠-٦٤٣ ، ٦٤٧ ، ٦٥٣ ، ٦٥٧-٦٦٦ ،
٦٦٩-٦٧٧ ، ٦٧٩ ، ٦٨٣-٦٨٧، ٦٩٠ ،
٦٩٣ ، ٦٩٥ ، ٦٩٦ ، ٦٩٩ ، ٧٠٠ ،
٧٠٥ ، ٧١٢-٧٢١ ، ٧٢٤ .
إشتبة ( إصطبة ) ؛ ج٢-٤٢٥ ، ٥٩٨، ٦٦٩ .
أشكونية؛ ج١-١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٦ .
أشونة ؛ ج٢ ، ٤٢٥ ، ٦٦٤ ، ٦٦٩ .
أشير ؛ ج١-٢٨١ وج ٢-١٥٠، ١٥٤، ٦٦٠.
إطرانش ج ٢-٢٧٩ ، ٢٨٠ .
أغلان ؛ ج ١ - ٥٢١ .
أغمات؛ ج١ - ١٧٢ ، ١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٨٩،
٢٠١ ، ٢٢٧ ، ٣٤١ ، ٤١٥ ، ٤٢٦ ،
وج٢ - ٥٠٤ ، ٥٣٠ ، ٥٥٦ .
إفراغة (وموقعة)؛ ج١ - ٢٧، ٨٧ ، ١٠٨ ،
١١٧ ، ١١٨ ، ١٢٠-١٢٦، ١٤٠، ١٥٠ ،
٣٠٥ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥، ٣٦٥ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠،
٤١٣ ، ٤٢٨ ، ٤٨٩ ، ٤٩١ ، ٤٩٣ ،
٥٠٢ ، ٥٠٨ وج ٢ - ٨٥ .
إفريقية ؛ ج١ - ١٨ ، ٣٢ ، ١٤٩ ، ١٥٧،
١٦٥ ، ١٦٨ ، ٢٠٧ ، ٢٤٨ ، ٢٧٩-٢٨١،
٢٨٦ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠-٢٩٤ ، ٢٩٧-٣٠١،
٣٣٧ ، ٣٧٣، ٣٧٥-٣٧٧، ٣٩٢ ، ٣٩٩ ،
٤٠٧ ، ٤٧٢ ، ٥٢٢ ، وج ٢-١٣ ، ٤٤ ،
٥٩ ، ٦١ ، ٦٥ ، ٨٧، ١٠٦-١٠٩ ،
١١٢، ١١٤ ، ١١٥، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٨،
١٤٩ ، ١٥٥-١٥٩ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٨،
١٧٠ ، ١٨٢ ، ١٨٥ ، ١٩١ ، ١٩٤ ،
١٩٥ ، ١٩٧ ، ٢٣٠ ، ٢٣٧ ، ٢٤٣ ،
٢٥١-٢٥٨ ، ٢٦١-٢٦٤ ، ٢٦٧-٢٧٠ ،
٢٧٢ ، ٢٧٤ ، ٢٧٦ ، ٢٨٣ ، ٢٨٥ ،
٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٥ ، ٣٣١، ٣٣٢، ٣٥٠،
٣٧٢- ٣٨١ ، ٤٠٦ ، ٤٠٩، ٤٤٩، ٤٧٢ ،
٥٠٣ ، ٥١٨ ، ٥١٩ ، ٥٢٤ ، ٥٢٥-٥٢٧،
٥٣٠ ، ٥٣٤ ، ٥٣٥ ، ٥٤٢ ، ٥٤٨ ،
٥٧٣-٥٧٦ ، ٥٨٠ ، ٥٨٨ ، ٦١٦ ، ٦١٨،
٦٢٥، ٦٢٦، ٦٣٣، ٦٣٥، ٦٣٨ ، ٦٣٩ ،
٦٤٥، ٦٤٧ ، ٦٤٨، ٦٦٥، ٦٧٦، ٦٩١ ،
٦٩٩ ، ٧٠١ ، ٧١٢ ، ٧١٤ .
أقليش (وموقعة) ؛ ج١-١٥، ٢٧، ٦١ ، ٦٣-
٦٧، ٩٩، ١٠٢، ١٢٣، ١٣١ ، ٣٠٥، ٣٧٠ ،
٤١٣ ، ٤٢٨ ، ٤٦٧ ، ٤٧٦ -٤٧٨ ، ٥٣٣ ،
٥٣٤ ، ٥٣٨ وج ٢ - ٨٥ ، ٢٣٠ .
أكاديمية التاريخ بمدريد ؛ ج١-٤٨ .
أكشونبة ؛ ج١-٣٠٩ .
الأركون ؛ ج١-١٤٣ وج٢-٣٥٤ .
ألبريجة ؛ ج٢-٤٨٨ ، ٤٨٩ .
ألبونت ؛ ج٢ - ٣٩٧ .
إلبيرة ؛ ج٢-٧٠٤ .
الحامة ؛ ج٢-٣٥٩ .
ألش ؛ ج١-١٠٨ وج٢-١٧ ، ٥٠ ، ٨٣ ،
٤٦١ ، ٤٦٣ ، ٦٠٦ ، ٦٦٩، ٦٧٣، ٦٨٢.
ألمرية ؛ ج١-٣٢ ، ٥٣ ، ١١٥ ، ١٤٦ ،
١٤٨ ، ١٦٠ ، ٢٤٩ ، ٣٠٧ ، ٣١٦ ،
٣٤٦-٣٤٩ ، ٣٥٣ ، ٣٥٦ ، ٣٦٧ ، ٣٧١،
٤١٧ ، ٤٢٠ ، ٤٣٢ ، ٤٤٠ ، ٤٥٠ ، ٤٥٥
٤٥٧ ، ٤٥٨ ، ٤٦٤-٤٦٩ ، ٥٠٧ ، ٥٠٨،
٥١٤ ، ٥١٩ ، وج ٢-٥٢ ، ٥٣ ، ٢٤٧ ،
٢٧٠ ، ٢٨٣ ، ٣٩٢ ، ٤١١ ، ٤١٣ ،
٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٣٠ ، ٤٣١ ، ٤٥٧ ،
٤٦٦ ، ٥٠٩ ، ٥٩٨ ، ٦٤١ ، ٦٥٠ ،
٦٥٣ ، ٦٦٠ - ٦٦٥ ، ٦٧٥ ، ٦٧٨ .
أليسانة (اللسانة) ؛ ج١-١١١ ، ٤٢٠ ، ٤٢١
وج٢-٢٢٥، ٢٢٨، ٢٤٤، ٤٢٥، ٧٢٢، ٧٢٣.
أمسبميصى ؛ ج ١-٢٣٣ .
أم غزالة ؛ ج ٢ - ١٧٤ .
أميلولين ؛ ج٢ - ٥٤١ .
أنتقيرة ؛ ج ١ - ٣١٩ ، ٣٣٦ .

انجلترا ؛ ج١ - ٧ ، ٣٦٧ وج ٢ - ١٧١ ، ٢٩١ .
الأندلس ؛ ج١-٧ ، ١١ ، ١٤ ، ١٥ ، ٢٥-٣٣ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٩-٤٧ ، ٥٠ - ٦٠ ، ٦٧ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٨ - ٨٣ ، ٨٦ ، ١٠٢ - ١٠٨ ، ١١٣ - ١١٥ ، ١٢٠ ، ١٢٥ ، ١٣٠ - ١٣٣ ، ١٣٨ ، ١٤٠ - ١٤٧ ١٤٩ ، ١٥٢ ، ١٥٤ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٧٢ ، ١٧٨ ، ١٩٤ ، ٢١٦ ، ٢٢٢ ، ٢٢٥ ، ٢٢٩ ، ٢٣٢ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٨ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٩ ، ٢٦٥ ، ٢٦٧ - ٢٦٩ ، ٢٧٣ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٥ - ٣١٢ ، ٣١٥ ، ٣١٩ ، ٣٢١ - ٣٢٧ ، ٣٢٩ ، ٣٣٢ - ٣٣٦ ، ٣٤٠ ، ٣٤٣ - ٣٤٩ ، ٣٥٢ - ٣٥٥ ، ٣٦١ ، ٣٦٥ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ - ٣٨٢ ، ٣٨٦ ، ٣٩١ - ٣٩٣ ، ٣٩٩ ، ٤٠٢ ، ٤٠٤ ، ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤١٠-٤٣١ ، ٤٣٣- ٤٤٠ ، ٤٤٣ - ٤٤٤ ، ٤٤٧ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠ ، ٤٥٢ ، ٤٥٤ ، ٤٥٦ ، ٤٥٨ ، ٤٦٠ - ٤٦٢ ، ٤٦٥ ، ٤٦٨ ، ٤٧٠-٤٧٤ ، ٤٨٧ ، ٤٩١ ، ٤٩٣ ، ٥٠٠ ، ٥٠٤ ، ٥٠٧ ، ٥٠٨ ، ٥١١ ، ٥١٣ ، ٥٣٠ ، ٥٣١ ، ٥٥٢ وج ٢ - ١١ - ١٥ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٢ ، ٢٥ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٤ ، ٤١ - ٤٦ ، ٥٢ - ٥٥ ، ٥٩ ، ٦٧ - ٧٠ ، ٧٢ - ٧٦ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٥ ، ٩٨ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٥ ، ١٠٧-١٠٩ ، ١١١ - ١١٦ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٣١-١٣٧ ، ١٤١ ، ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٤٨ ، ١٥٨ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٧٥ ، ١٧٧ ، ١٧٩ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٥ ، ١٨٨ ، ١٩٠ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٠٠ ، ٢١١ ، ٢١٦ ، ٢٢٣ - ٢٢٦ ، ٢٣٨ - ٢٤٠ ، ٢٤٤-٢٤٦ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٦ ، ٢٦٣ ، ٢٦٦ ، ٢٧٠ ، ٢٨٣ - ٢٨٥ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٤ ، ٣٠٦ ، ٣١٤ ، ٣١٨ ، ٣٢٠ - ٣٢٥ ، ٣٢٨ - ٣٣٢ ، ٣٣٦ ، ٣٣٨ - ٣٤٤ ، ٣٥٠- ٣٥٢ ، ٣٥٥ - ٣٥٧ ، ٣٦٠ ، ٣٦٢-٣٦٨ ، ٣٧٨ ، ٣٨٠ - ٣٨٣ ، ٣٨٥ ، ٣٨٩-٣٩٢ ، ٣٩٨ - ٤٠٤ ، ٤٠٧ ، ٤٠٩ ، ٤١١-٤١٧ ، ٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٦ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣١ ٤٣٣ ، ٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ٤٤٦ ، ٤٥١ ، ٤٥٢ ، ٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ٤٥٩ ، ٤٦٣ ، ٤٦٧ ، ٤٦٩ - ٤٧١ ، ٤٨٦ - ٤٨٨ ، ٤٩٤ ، ٥٠٧ ، ٥٠٩ ، ٥١٨ ، ٥٢٤ ، ٥٣٠ ، ٥٣٤ - ٥٣٦ ، ٥٤٠ ، ٥٥٠ ، ٥٥١ ، ٥٥٥ ، ٥٦٠ ، ٥٦١ ، ٥٧١ - ٥٧٦ ، ٥٨٣ ٥٨٦ - ٥٩١ ، ٥٩٣ ، ٥٩٦ - ٦٠١ ، ٦١٥- ٦٢٣ ، ٦٢٥ - ٦٢٨ ، ٦٣٣ - ٦٤٣ ، ٦٤٥- ٦٥٠ ، ٦٥٢ ، ٦٥٤ - ٦٦٠ ، ٦٦٥ ، ٦٧١ ، ٦٧٣ ، ٦٧٧ - ٦٨٠ ، ٦٨٤ ، ٦٨٧ ٦٨٨ ، ٦٩٢ ، ٦٩٣ ، ٦٩٥ ، ٦٩٧ ، ٧٠٠ ، ٧٠٢ ، ٧٠٣ ، ٧٠٤ ، ٧٠٦ ، ٧٠٨ ، ٧١٢ ، ٧١٤ ، ٧١٥ ، ٧١٧ ، ٧٢٠-٧٢٥ .
أندة ؛ ج١ - ٤٥٩ ، ٤٦٠ وج ٢ - ٣٩٤ ، ٦٥١ ، ٦٥٦ ، ٦٥٧ ، ٦٧٠ ، ٦٧١ ، ٧٠٥ ، ٧١٣
أندوجر ؛ ج١ - ٣١٤ ، ٣٣٢ ، ٣٣٤ ، ٣٤٤ ، ٥٠٤ ، ٥١١ وج٢ - ١٦ ، ٤٣ ، ٧٥ ، ٢٨٤ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٣٥٨ - ٣٦٠ ، ٣٨٥ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤١٨ ، ٥٩٨ .
أنسا ؛ ج١ - ١٨٠ ، ٣٤٢ .
أنيشة (وموقعة) ؛ ج٢ - ٤٤٠ - ٤٤٤ .
أورنسى ؛ ج١ - ٤٨٤ ، ٤٨٥ .
أوريولة ؛ ج١ - ١٠٨ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٤٥٠ ، ٤٥٩ ، ٤٦٠ ، وج٢ - ١٧ ، ٨٣ ، ٤٥٨ ، ٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٤٦٣ ، ٦٧٦ ، ٦٧٨ ، ٦٨٥ ، ٦٩٩ ، ٧٠٠ .
أوشو ؛ ج٢ - ٤٤٤ .
إيطاليا ؛ ج١ - ٤٢٢ وج ٢ - ٢٩٤ ، ٥٩٢ .
إيمران تابورت ؛ ج١ - ٢٣١ .

— ب —

باب أغمات ؛ ج١ - ٢٦٢ ، ٢٨٦ ، وج٢ - ١٤٣ ، ٢٤٥ .
باب البحر (أشبونة) ؛ ج٢ - ٢٤ .
باب إلبيرة ؛ ج١ - ١٠٦ ، ١١٥ .
باب الحمة (أشبونة) ؛ ج٢ - ٢٤ .
باب الدباغين ؛ ج١ - ١٨٦ ، ٢٦٢ ، ٢٨٦ -
باب الربض (قرطبة) ، ج١ - ٣٨٧ .
باب الرملة ؛ ج١ - ١١٥ .
باب السادة (مراكش) : ج٢ - ٣٧٠ .
باب السدة (مراكش) ؛ ج٢ - ٦٢ .
باب السلسلة (فاس) : ج١ - ٢٥٧ .

باب الشريعة (مراكش) ؛ ج ١ - ١٨٦ ، ٢٦١ ، ٢٧٠ وج ٢ - ١٤٣ ، ٢٤٥ ، ٥١٠ ، ٥٥٦ .
باب الشريعة (فاس) ؛ ج ٢ - ٥٣١ .
باب الفارقة (بلنسية) ؛ ج ١ - ٣٦٤ .
باب الفتوح (فاس) ؛ ج ١ - ٢٥٨ .
باب الفتوح (جبل طارق) ؛ ج ١ - ٣٨١ .
باب القطائع (إشبيلية) ج ٢ - ١١٧ .
باب القنطرة (قرطبة) ؛ ج ١ - ٣٩٠ .
باب الكحل (إشبيلية) ؛ ج ٢ - ٧٠ ، ١١٧ .
باب الكحل (ميورقة) ؛ ج ٢ - ٤٠٦ .
باب الكحل (مراكش) ؛ ج ٢ - ٥٥٧ .
باب المخزن ؛ ج ١ - ١٨٦ .
باب إيلان ؛ ج ١ - ١٨٨ .
باب برتوليت ؛ ج ٢ - ٤٠٦ .
باب بورتبين ؛ ج ٢ - ٤٠٦ .
باب جهور ؛ ج ٢ - ٧٠ ، ٨٧ ، ١٩٨ ، ٢٨٦ ، ٤٨٥ ، ٦٤١ ، ٧٢٤ .
باب دكالة ؛ ج ١ - ١٨٦ ، ٢٦١ - ٢٦٣ ، وج ٢ - ١١٤ ، ٥٥٢ .
باب طريانة ؛ ج ٢ - ٢٥٦ .
باب فاس (مراكش) ؛ ج ٢ - ٣٣٢ .
باب قرمونة ؛ ج ١ - ٣٧٨ وج ٢ - ٧١ ، ١١٦
باب قنتنالة ؛ ج ٢ - ٦٥٣ .
باب مورور ؛ ج ١ - ٣١٧ .
باب ينتان ؛ ج ١ - ٢٦٢ .
باجة (الأندلس) ؛ ج ١ - ٩ ، ٣٠ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣٢٥ ، ٣٢٧ ، ٣٣٠ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٨ ، ٣٥٠ ، ٣٩٣ ، ٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ٥٣٦ ، وج ٢ - ٢٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٧ - ٩٩ ، ١٧١ ، ١٧٤ ، ٣٤٠ ، ٦١٠ ، ٦٤١ .
باجة (إفريقية) ؛ ج ٢ — ٢٥٥
بازو ؛ ج ١ - ٥٤٢ .
باغة ؛ ج ١ - ٣١٢ ، وج ٢ - ٣٥٩ ، ٧١٣ .
بالنسيا ؛ ج ١ - ٤٨٣ ، ٤٨٨ ، ٤٨٩ ، ٤٩١ ، ٥٠٩ .
بتيكا (باطقة) ؛ ج ١ - ٥٢٢ .
بجاية ؛ ج ١ - ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٧٢ ، ٢٢٤ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٧٩ - ٢٨٥ ، ٢٨٩ ، ٢٩١ - ٢٩٣ ، ٣٠٠ ، ٣٣٧ ، ٣٣٩ ، ٣٤٩ ، ٣٥٧ ، ٣٧٦ ، ٤٠٧ ، ٤٢٥ ، ٤٦٩ وج ٢ - ١١ ، ١٢ ، ١٤ ، ٢٠ ، ٥٦ ، ٦١ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٣٨ ، ١٤٤ ، ١٤٨ - ١٥٤ ، ١٨٤ ، ١٩٣ ، ٢٤٧ ، ٢٥٤ - ٢٥٧ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٧١ ، ٣٦٨ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٨٠ ، ٦١٨ ، ٦٣٥ ، ٦٤٧ ، ٦٤٨ ، ٦٥١ ، ٦٥٩ ، ٦٧٦ ، ٦٧٩ ، ٦٨٣ ، ٦٩٢ ، ٦٩٧ ، ٦٩٩ ، ٧٠١ ، ٧٠٦ .
البحر المتوسط ؛ ج ١ - ٨٧ ، ١١٣ ، ١١٦ ، ٢٣٨ ، ٣٧٧ ، وج ٢ - ١٤٦ ، ١٧٠ ، ٤٠٤ .
البحرين ؛ ج ١ - ٣٩٨ .
البحيرة (وموقعة) ؛ ج ١ - ١٨٨ - ١٩٠ ، ٢٢٥ ، ٢٦٣ ، ٣٩٩ ، وج ٢ - ٦٣ ، ٥٣٠ ، ٦١٦ ، ٦١٧ ، ٦٣٢ .
البحيرة (إشبيلية) ؛ ج ٢ - ٧٠ ، ١٨٩ ، ١٩٨ ، ٢٨٦ ، ٤٨٠ .
براجا ؛ ج ١ - ٤٥٨ ، ٥٢٢ ، ٥٢٤ .
براشة ؛ ج ١ - ١٣٥ .
بربشتر ؛ ج ١ - ٨٧ ، ٩٠ ، ٤٩٨ ، ٥١٨ .
البرتغال ؛ ج ١ - ٦٩ ، ٨٠ ، ٨٩ ، ٣٠٧ ، ٣٤٥ ، ٣٩٢ ، ٤٧٩ ، ٤٨٠ ، ٤٨١ - ٤٨٥ ، ٤٩٠ ، ٥٠٢ ، ٥٠٤ ، ٥١٥ ، ٥١٧ ، ٥٢٢ - ٥٢٨ وج ٢ - ٦ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٦ ، ٤١ ، ٩٠ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١١٦ - ١١٩ ، ١٧١ ، ١٧٨ ، ١٨٤ - ١٨٦ ، ٢٤٠ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٤٩٠ ، ٤٩٣ ، ٥٥٠ ، ٥٧٤ ، ٥٩٥ ، ٦١٠ ، ٦١٢ ، ٦٣٦ ، ٦٣٧ ، ٦٣٩ ، ٧١٥ .
برتقال (بورتو) ؛ ج ١ - ٧٠ ، ٥٢٢ ، ٥٢٤ وج ٢ - ٩٥ .
برج الحمام ؛ ج ٢ - ٢٨٥ .
برج الحمة ؛ ج ٢ - ٣٦٠ .
برج الذهب ؛ ج ٢ - ٣٣١ ، ٤٨٣ .
برجة ؛ ج ١ - ٨٩ ، ١٠٢ ، ١٢٧ .
برشانة ؛ ج ١ - ١٠٨ ، وج ٢ - ٢٤٧ ، ٤٢٥ ، ٦٩٨ .
برشلونة (وإمارة) ؛ ج ١ - ٧٥ ، ١١٦ ، ٢٣٢ ، ٣٦٣ ، ٣٦٧ - ٣٧٠ ، ٤٩٠ ، ٤٩٤ ، ٤٩٧ ، ٤٩٩ ، ٥٠٠ ، ٥١١ ، ٥١٨ وج ٢ - ١٤٦ ، ٢٦١ ، ٢٨٤ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٤٤٤ ، ٤٥٧ .
برغش ؛ ج ١ - ٤٨١ ، ٥١٠ وج ٢ - ٥٦٠ ، ٥٩٦ .
برقة ؛ ج ١ - ٢٩٩ ، ٣٧٧ ، ٤٠٧ وج ٢ - ١٠٨ ، ٦٢٥ .
بركونة ؛ ج ٢ - ٤١٦ ، ٤٦٩ .
بروقانس ؛ ج ١ - ٥٠٠ ، ٥٠١ ، ٥١٤ ،

وج ٢ - ٤٠٤ ، ٦٠٣ .
بريانة ؛ ج ٢ - ٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ٤٤٤ .
بسطة ؛ ج ١ - ١٠٨ ، ٣٢٠ ، ٣٣٥ ، ٣٧٢ وج ٢ - ١٦ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ١٨٠ ، ٢٦٣ ، ٢٧٠ ، ٤١٥ .
بسكرة ؛ ج ٢ - ٢٥٥ ، ٣٧٥ .
بسكونية ؛ ج ٢ - ٤٨١ .
البشرات ج ٢ - ٤٣١ .
البصرة ؛ ج ١ - ٣٤٣ وج ٢ - ٦٨٣ .
بطرنة ؛ ج ٢ - ٤٤٤ .
بطليوس ؛ ج ١ - ٣٢ ، ٣٣ ، ٧٠ ، ١٣٦ ، ١٤٠ ، ٣١٤ ، ٣٢٣ ، ٣٢٧ ، ٣٢٩ ، ٣٤٤ ، ٤٢٦ ، ٤٤١ ، ٤٥٣ ، ٤٦٨ ، ٤٧٠ ، ٥٢٢ ، ٥٢٦ ، وج ٢ - ١٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٣٢ - ٤٦ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٩ ، ٩١ ، ٩٤ ، ١٠٥ ، ١١٢ ، ١١٧ - ١١٩ ، ١٢٥ ، ٢١٨ ، ٢٣٣ ، ٢٦٣ ، ٣٩٣ ، ٣٩٩ - ٤٠١ ، ٤١١ ، ٤٧٦ ، ٥٧٤ ، ٥٩٣ ، ٥٩٧ ، ٦١٠ ، ٦٤١ ، ٦٥٩ ، ٦٧٧ .
بغداد ؛ ج ١ - ٤٠ ، ١٦٠ ، ١٦٢ ، ٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ٥٣٠ ، ٥٣٢ ، وج ٢ - ١٥٨ ، ٣٩١ ، ٤١٢ ، ٤١٦ ، ٦٧٨ ، ٦٧٩ ، ٧١٣ .
بكيرس ؛ ج ١ - ٢٤٧ .
بلاد الجريد ؛ ج ١ - ١٨ وج ٢ - ١٥٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ٢٥٢ ، ٢٥٤ ، ٢٦٨ ، ٣٧٤ .
بلاد جزولة ؛ ج ١ - ٢٦٩ .
بلاد حاحة ؛ ج ٢ - ٥٠١ ، ٥٠٢ ، ٥٦٢ .
بلاد الريف ؛ ؛ ج ٢ - ٢٢ ، ٢٣ ، ٥٢٥ .
بلاد الزاب ؛ ج ١ - ٢٨١ ، ٢٩٤ ، ٣٠٠ ، وج ٢ - ٦١ ، ١٠٧ ، ١٤٩ ، ١٩٢ ، ٣٣٥ ، ٣٧٥ .
بلاد السودان ؛ ج ١ - ٥٥ ، ٢١٢ ، ٤٢٥ .
بلاد السوس (الأدنى والأقصى) ؛ ج ١ - ١٢ ، ٣٧ ، ٨٥ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٦٠ ، ١٧٢ ، ١٧٨ ، ١٨٠ ، ٢٠١ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٣١ - ٢٣٤ ، ٢٦٩ ، ٢٧٧ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٣٣٧ ، ٣٣٩ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٧٧ ، ٤٠٧ ، ٤١٥ ، ٤٢٣ وج٢ - ٩٠ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٣٣٢ ، ٥١٠ ، ٥١٧ ، ٥٤١ ، ٥٤٢ ، ٥٤٥ ، ٥٤٦ ، ٥٥٣ ، ٥٥٩ ، ٥٦٠ ، ٥٦٤ - ٥٦٦ ، ٥٧٠ - ٥٧٣ ، ٥٧٧ ، ٥٧٩ ، ٦١٨ ، ٦٢٥ .
بلاد غمارة ؛ ج ١ - ٢٣٧ ، ٢٣٨ وج ٢ - ٥١٢ .
بلاد فازاز ؛ ج ١ - ٢٣٥ ، ٢٧٧ ، ٤١٥ ، وج ٢ - ٥٣٢ ، ٥٣٣ ، ٥٤٢ .
بلادالقبلة ؛ ج١ - ٣٨ ، ٥٨ وج٢ - ١٩٨ ، ٢٨٥ .
بلاد مزالة ؛ ج ٢ - ٤٩٨ .
بلاد المصامدة ؛ ج ١ - ٢٦٩ ، ٤١٥ .
بلاد هرغة ؛ ج ١ - ١٧٣ ، ١٨٢ وج ٢ - ١١٠ ، ٥٠٤ .
بلاد هزرجة ؛ ج ٢ - ٤٩٨ .
بلاد هيلانة ؛ ج ١ - ١٨٩ ، ٢٧٢ وج ٢ - ٥٦٢ .
بلاط الصوف ؛ ج ٢ - ٧٦ .
بلاى : ج ١ - ١١١ ، ٥ ج ٢ - ٤٢٥
بلد الوليد ؛ ج ١ - ٤٨٢ ، ٤٨٦ ، وج ٢ - ٣٣٣ ، ٥٩٣ ، ٥٩٦ .
بلد جنفيسة ؛ ج ١ - ٢١٠ .
بلرم ؛ ج ٢ - ٢٧٩ ، ٥٣٥ .
بلش مالقة ؛ ج ١ - ١١٢ .
بلفيق ؛ ج ٢ - ٦٧٧ .
بلنسية ؛ ج ١ - ١٣ ، ١٥ ، ١٦ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٥٠ ، ٦٠ - ٦٤ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٧٢ - ٧٦ ، ٩٠ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٩ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١٠٨ ، ١١٢ ، ١١٧ - ١٢٢ ، ١٣٤ ، ١٤٨ - ١٥٠ ، ٣١٨ ، ٣٣٥ ، ٣٤٩ ، ٣٥٣ - ٣٦٠ ، ٣٦٢ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٦٧ - ٣٧٢ ، ٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤١٩ ، ٤٣٢ ، ٤٤٢ ، ٤٤٥ ، ٤٤٦ ، ٤٥٢ ، ٤٥٥ ، ٤٥٩ ، ٤٦٠ - ٤٦٢ ، ٤٦٥ ، ٤٦٧ - ٤٦٩ ، ٤٧٧ ، ٤٩١ ، ٥٠٩ ، ٥٤٣ ، ٥٤٤ ، ٥٤٨ وج ٢ - ٤٧ - ٥١ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٧٨ ، ٨١ - ٨٣ ، ٩٦ ، ١٦٧ ، ٢٧٧ ، ٢٨٤ ، ٢٨٨ ، ٣٤١ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٦٥ ، ٣٩٠ - ٣٩٩ ، ٤٠٢ ، ٤٠٤ ، ٤١٣ ، ٤١٤ ، ٤٢٢ - ٤٢٧ ، ٤٣٨ - ٤٤٤ ، ٤٤٨ - ٤٥٩ ، ٤٦١ ، ٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ٤٦٩ ، ٤٧١ ، ٤٨٤ ، ٥٧٥ ، ٥٨٦ ، ٦٠٥ - ٦٠٧ ، ٦١٨ ، ٦٢٧ ، ٦٢٩ ، ٦٣٨ ، ٦٤١ ، ٦٤٧ - ٦٥١ ، ٦٥٦ - ٦٥٩ ، ٦٦٢ ، ٦٦٣ ، ٦٦٧ ، ٦٦٩ - ٦٧٤ ، ٦٧٦ ، ٦٧٨ ، ٦٨٥ ، ٦٨٩ ، ٦٩٠ ، ٦٩١ ، ٦٩٦ ، ٦٩٧ ، ٧٠٠ ، ٧٠١ ، ٧٠٥ ، ٧٠٦ .
بنبلونة ؛ ج ١ - ٩٠ ، ٤٩٥ ، ٥٠٥ وج٢ -

٢٩٠ ، ٥٨٥ ، ٥٨٩ .
البتدقية ؛ ج ٢ - ١٤٦
بشكلة ؛ ج ١ - ٣٦٥ وج ٢ - ٣٩٧ ، ٤٤٠ ،
٤٤٤ ، ٤٤٩ ، ٤٦٤ .
بورتماو ؛ ج ٢ - ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٦ .
بورتودى موس ؛ ج ٢ - ١٠٠ ، ١٠١ .
بونة ؛ ج ١ - ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٩٢ ،
٢٩٣ وج ٢-٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٧٢ ، ٥٣٤ .
بيارن ؛ ج ١-٩٠ ، ٩٥ ، ٤٨٩ ، ٥١١ .
بياسة ؛ ج ١- ٦١ ، ٧٢ ، ١٤٣ ، ٣٣٢ ،
٣٣٥ ، ٣٦١ ، ٣٧٢ ، ٥٠٤ ، وج ٢ -٤٠ ،
٥٣ ، ٧٥ ، ٢٣٠ ، ٢٨٤ ، ٢٨٦ - ٢٨٨ ،
٢٩١ ، ٣٠١ ، ٣١٣ ، ٣٢٣ ، ٣٥١ -
٣٥٣ ، ٣٥٧ - ٣٥٩ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٤١٧ ،
٤٣١ ، ٤٦٩ ، ٥٩١ ، ٥٩٥ .
بيت المقدس ؛ ج ١ - ٩٠ ، ٩٥ ، ١٦١ ،
٢٣٣ ، ٤٩٤ وج ٢ - ١٧٠ ، ١٨١ .
بيبش ؛ ج ١ - ١١١ .
بئر الشهداء ؛ ج ٢ - ١٥٣ .
بيران ؛ ج ٢ - ٤١٣ .
بيرة ؛ ج ١ - ١٠٨ .
بيزنطية ؛ ج ١ - ٤٢٢ .
بيرة ؛ ج ١ - ٧٦ ، ٣٤٦ ، ٣٦٧ ، ٣٧١ ،
٥٠٠ ، ٥٠٨ وج ٢ - ١٤٦ ، ٢٥٨ ، ٢٦١ ،
٤٠٣ ، ٤٠٦ .
البيضاء ؛ ج ٢ - ٤٥٩ .
بيغ ؛ ج ٢ - ٤٣٢ ، ٤٦٩ .
البيمارستان ( مراكش ) ؛ ج ٢ - ، ٢٤٦ .
بيونة ؛ ج ١ - ١٢٠ ، ٤٨٩ ، ٤٩٠ ، وج ٢-
٢٨٩ ، ٢٩٠ .

## ت — ث

تاجرا ( تاجررت ) ؛ ج ١ - ٢٢٤ ، ٢٤٠ ،
٢٤١ ، ٢٥٢ ، ٢٨٨ .
تادرارت ؛ ج ١ - ١٨٠ .
تادرارت معطاشة ؛ ج ٢ - ٥٦٢ .
تادلا ؛ ج ١ - ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٥٩ ،
٢٧٤ ، ٢٧٧ ، ٣٣٩ وج ٢ - ١٦٧ ، ٥٥٦ ،
٥٦٨ ، ٦٩٥ .
تارودانت ؛ ج ١ - ٢٢٨ ، ٢٣٣ ، ٣٤٢ ،
وج ٢ - ٥٤٢ ، ٥٤٥ ، ٥٦٤ ، ٥٦٥ .
تازاجارت ؛ ج ١ - ٢٣٥ .
تاساوت ؛ ج ١ - ٢٣٤ .
تاسلولت ؛ ج ١ - ٢٣٣ .
تاغزوت ؛ ج ١ - ٢٣٨ .
تاماداجوست ؛ ج ١ - ٢٢٦ .
تامسنا ؛ ج ١ - ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧٧ ،
٢٧٩ وج ٢ - ٥٢٢ ، ٥٢٣ ، ٥٣٠ ، ٥٤٠ ،
٥٤٣ ، ٥٤٧ ، ٥٥٠ ، ٥٥٢ .
تاهرت ؛ ج ٢ - ١٥١ ، ١٦٦ ، ٢٧٤ .
تاودا ؛ ج ٢ - ١٥ .
تاونزرت ؛ ج ٢ - ٥٦٤ .
تبشه ؛ ج ٢ - ٢٧٢ .
تدلس ؛ ج ٢ - ٣٧٦ .
تدمير ؛ ج ١ - ١٤٣ ، ٤٦٩ .
ترابانى ؛ ج ٢ - ٢٧٩ .
ترجاله ؛ ج ١ - ١٤٠ وج ٢ - ٢٧ ، ٣٤ ،
٣٨ ، ١١٧ ، ٢١٨ ، ٣٤١ .
تطيلة ؛ ج ١ - ٨٧ ، ٩٠ ، ٩٤ ، ١٠٠ ،
١٠٢ ، ١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٣٠ ، ٥٠٩ وج٢-٦٠٨ .
تغمرت ؛ ج ١ - ٣٥٢ .
تغنر ؛ ج ١ - ٤٧٤ .
تغيفايين ؛ ج ١ - ٢٣٣ .
تقيوس ؛ ج ٢ - ١٦٤ .
تل السبيكة ؛ ج ١ - ٣٨٨ ، ٣٨٩ .
تلمسان ؛ ج ١ - ٥٩ ، ٧١ ، ١٦٦ ، ٢٢٢ ،
٢٢٥ ، ٢٤١ ، ٢٤٥ - ٢٥٣ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ،
٢٨٠ ، ٢٨٥ ، ٣٠٩ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ،
٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٤٠٢ ، ٤١٥ وج ٢ - ٦٢ ،
١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١٢ ، ١٣٢ ، ١٣٨ ،
١٤٩ - ١٥١ ، ١٦٦ ، ١٦٨ ، ٢٥٥ ،
٢٧٠ - ٢٧٤ ، ٢٧٧ ٢٧٨ ، ٣٦٨ ، ٥١٨ ،
٥١٩ ، ٥٢٤ ، ٥٢٥ ، ٥٢٦ ، ٥٣٠ ،
٥٣٣ ، ٥٦٧ ، ٥٧٢ ، ٥٧٦ ، ٦١٨ ،
٦٤٧ ، ٦٥٢ ، ٦٥٤ ، ٦٥٥ ، ٦٦٠ ، ٦٦٥ ، ٦٦٩
توبين ؛ ج ٢ - ٦٥ .
تودجا ؛ ج ١ - ٢٣٦ .
تودجين ؛ ج ٢ - ٦٥ .
تورينو ؛ ج ١ - ٥١٤ .
توزر ؛ ج٢-١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٦٢ ، ١٦٤ ، ١٩٤ .
تولوز (تونوشة) ؛ ج ١ - ٩٠ ، ٤٩٧ ، ٥٠٦
تونس ؛ ج ١ - ١٨ ، ٤٩ ، ٥٥ ، ١٩٤ ،
٢٨٠ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٩ ،
وج ٢ - ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١٢ ، ١٥٩ - ١٦١

١٦٦ ، ١٨٤ ، ١٩١ ، ١٩٥ ، ٢٥١-٢٥٥ ، ٢٦١ - ٢٦٦ ، ٢٦٨ - ٢٧٥ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٣٣١ ، ٣٤٩ ، ٣٧٣ ، ٣٧٥ - ٣٨٠ ، ٤٠٩ ، ٤٣٠ ، ٤٣١ ، ٤٤٦ ، ٤٤٨ ، ٤٥٦-٤٥٩ ، ٤٧١ ، ٤٨٦ ، ٥٢٠ ، ٥٣٤ ، ٥٧٣ ، ٦٠٩ ، ٦٣٨ ، ٦٤٧ ، ٦٤٨ ، ٦٥٢ ، ٦٧٥ - ٦٧٨ ، ٦٨٥ ، ٧٠١ ، ٧٠٢ ، ٧٠٥ ، ٧٠٦ ، ٧١٤ .

توى ؛ ج ١ - ٤٨٤ ، ٤٨٥ ، ٥٠٢ ، ٥٠٤ ، ٥٢٤ ، ٥٢٦ وج ٢ - ٣٧ .

تيطاوين (تطوان) ؛ ج١-١٢ ، ٢٣٨ ، ٢٧٧ .

تيفسرت ؛ ج ١ - ٢٤١ ، ٢٤٨ ، ٢٧٧ .

تيكلات ؛ ج ٢ - ١٥٣ .

تينملل ؛ ج ١ - ١٤٧ ، ١٨٢ ، ١٨٤ ، ١٨٩ ، ١٩٦ ، ١٩٨ ، ٢٢٤ - ٢٢٦ ، ٢٢٩ - ٢٣٥ ، ٢٥٠ ، ٢٦٨ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٣٣٧ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٩٢ ، ٣٩٥ ، ٣٩٩ ، ٤٠٦ ، ٥٥٢ وج ٢ - ١١ ، ١١٠ ، ١٢٩ ، ١٣٢ ، ١٣٥ ، ١٥٩ ، ٢٣٧ ، ٣٣٠ ، ٣٣٥ ، ٣٤٥ ، ٥٠٣ ، ٥٤١ ، ٥٤٤ ، ٥٧٠ ، ٥٧١ ، ٥٨٠ ، ٦٣٨ .

الثغر الأعلى ؛ ج ١ - ٧٤ ، ٧٦ ، ٨٠ ، ٨٦ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٩ - ١٠٣ ، ١٠٦ ، ١١٣ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١٢١ - ١٢٦ ، ١٣٠ ، ١٤٨ ، ٣١٣ ، ٣٣٥ ، ٣٦٢ ، ٣٦٥ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٤٥٠ ، ٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ٤٦٤ ، ٤٩١ ، ٤٩٣ ، ٤٩٩ ، ٥٠٨ ، ٥١٤ وج ٢ - ٦٧٨ .

ثماجروت ؛ ج ١ - ١٢ ، ٢٤٨ .

ثيوداد ريال ؛ ج٢ - ٢٠٠ ، ٢٠٣ ، ٢١٥ .

## ج — خ

جاقة ؛ ج ١ - ٤٩٥ .

جامع ابن عدبس ؛ ج ٢ - ٧٢ ، ٧٣ .

جامع إشبيلية ؛ ج ٢ - ٧٢ ، ٧٣ ، ٨٧ ، ١١٧ ، ١٣٧ ، ٢١٧ ، ٢٣٠ ، ٣٥٤ ، ٤٨٧ ، ٦٢٩ ، ٦٤١ ، ٦٨٤ ، ٧٢٥ .

جامع القيروان ؛ ج ٢ - ١٦٢ .

جامع المرية ؛ ج ٢ - ٦٥٣ .

جامع المنصور ؛ ج ٢ - ٣٦٥ ، ٣٧١ ، ٥٣٠ ، ٥٥٧ .

جامع بلنسية ج ٢ - ٦٧٨ .

جامع تينملل ؛ ج ١ - ٢٢١ وج ٢ - ٢٤٣ .

جامع سلا ؛ ج ٢-٢١٨ .

جامع سرقسطة ؛ ج ١ - ١٠١ .

جامع على بن يوسف ؛ ج ١ - ٢٦٦ ج٢-٥٤٤

جامع قادس ؛ ج ١ - ٢٥٩ .

جامع قرطبة ؛ ج ١ - ٧٩ ، ١٤١ ، ٣١٤ ، ٣٤٣ وج ٢ - ٧٣ ، ٢٢٥ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٨٧ ، ٦٢٦ ، ٦٦٧ ، ٦٦٨ .

جامع مراكش؛ ج ١ - ٣٤٣ وج٢ - ٩٤ ، ٢٧٨

جامعة بالنسيا ؛ ج ٢ - ٥٩٢ .

جامعة شلمنقة ؛ ج ٢ - ٥٩٩ .

جبال الأطلس ؛ ج ١ - ١٨٢ ، ٢٣٦ ، ٣٤١ وج ٢ - ١٥٣ ، ٥٠٤ ، ٥٧٠ ، ٥٧٩ .

جبال البرنيه ؛ ج ١ - ٩٠ ، ١٢٠ ، ٣٤٦ ، ٣٧١ ، ٤٧٧ ، ٤٨٩ ، ٥٠٠ ، ٥١١ ، ٥١٤ وج ٢ - ٢٧٩ ، ٢٩٧ ، ٤٢٥ ، ٥٩١ ، ٦٠٣ ، ٦٠٥ ، ٦٠٧ .

جبال الذهب ؛ ج ١ - ٤٢٥ .

جبال الشارات (سيرا مورينا)؛ ج ١ - ٦٨ ، ١٤١ ، ١٤٣ وج ٢ - ١٠٤ ، ٢٢٩ ، ٢٨٧ ، ٢٩١ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٤ ، ٣٠٦ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣٥٤ ، ٣٥٨ ، ٣٦١ ، ٤١٧ ، ٥٧٤ ، ٥٨٧ ، ٥٩١ .

جبال الكرس ؛ ج ١ - ١٣٣ .

جبال المصامدة ؛ ج ١ - ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٥ ، ١٨٧ وج ٢ - ٥٧٧ .

جبال الموحدين ؛ ج ٢ - ٥٠٤ ، ٥١٤ ، ٥٢٢ ، ٥٧٠ .

جبال سيرا نفادا ؛ ج ١ - ١١٢ وج٢- ٤٣١

جبال طليطلة ؛ ج ١ - ٦١ ، ٦٨ .

جبال غمارة ؛ ج ٢-٢٢ ، ٤١ ، ٥٤٢ ، ٥٤٩ ، ٥٥١ ، ٥٧٠ .

جبال هسكورة ؛ ج٢ - ٥٥٦ .

جبال وادى الرملة ؛ ج ٢ - ٢٢٩ .

جبل السوس ؛ ج ٢ - ١١٠ .

جبل الصومعة ؛ ج ٢ - ٨١ .

جبل العرض ؛ ج ١ - ٢٣٦ ، ٢٥٦ .

جبل العيون ؛ ج ٢ - ٤٩٠ .

جبل الفتح ؛ انظر جبل طارق .

جبل القرن ؛ ج ١ - ٣٠٢ .

جبل إنجلير ؛ ج ١ - ١٧٣ ، ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨٤ ، ٢٦٠ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، وج ٢ - ١١٠ ، ٣٦٩ ، ٣٧٢ ، ٥٥٤ ، ٥٧٣ ، ٦٣١

جبل بهلواة (وموقعة) ؛ ٥٤٤ ، ٥٤٥ .

جبل تاجرا (وموقعة) ؛ ج ٢-٢٦٥، ٢٦٦، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٥ ، ٣٧٣ ، ٣٧٧ .
جبل تاسررت ؛ ج ٢-٢٣ .
جبل تلمسان ؛ ج ٢-٢٢٩ ، ٥٤٣ .
جبل تونيس ؛ ج ٢-٨١ .
جبل درن ؛ ج ١-٥٨ ، ١٨٠ ، ١٨٢ ، ٢٢٧ ، وج ٢-٥٨٠ .
جبل دمر ؛ ج ٢-٢٦٥ .
جبل زلاغ ؛ ج ١-٢٥٦ .
جبل زرهون ؛ ج ٢-٥١٣ ، ٥٢٣ .
جبل زغوان ؛ ج ١-٣٠١ .
جبل سكسا ؛ ج ٢-٥٦١ .
جبل سليمان ؛ ج ٢-٢١٥ .
جبل طارق (ومدينة) ؛ ج ١-٩ ، ٣٧٨-٣٨٢ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٤٥٢ ، ٦٦٤ وج٢-١٢ ، ١٣ ، ١٥ ، ٧١ ، ١١٦ ، ٤٠١ ، ٤١١ ، ٦٣٣ ، ٦٨٨ ، ٦٨٩ ، ٧٢٤ .
جبل عفرا ؛ ج ١-٢٣٦ .
جبل غزوان ؛ ج ١-٢٩٧ .
جبل غياثة ؛ ج١-٢٣٦، ٢٣٧ وج ٢-٥٢١ .
جبل فحص السرادق ؛ ج ٢-٧٥ .
جبل كراندة ؛ ج ١-٢٣٥ ، ٢٤٨ .
جبل كسرى ؛ ج ٢-١١٢ .
جبل كيك ؛ ج ١-١٨٤ ، ١٨٥ .
جبل مديونة ؛ ج ١-٢٤١ .
جبل نفوسة ؛ ج ١-٢٩٦ ، وج ٢-١٥٦ ، ٢٦٢ ، ٢٦٤ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٨ .
جبل هنتاتة ؛ ج ٢-٣٦٩ .
جبل وانشريش ؛ ج٢-١٥٠ .
جبل وريكة ؛ ج ١-١٨٤ .
جراندة ؛ ج ١-٢٣٧ .
جرجنت ؛ ج ٢-٢٧٩ .
جرينة ؛ ج ٢-٤٧٦ .
الجزايرة ؛ ج ٢-١١٠، ١٥٠ ، ١٥٢ ، ٢٦٠ ، ٣٧٦ .
الجزائر الشرقية ؛ ج ١-٣٣ ، ٧٦-٨٠ ، ١٤٩ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ٢٣٢ ، ٢٩٦ ، ٣٣٤ ، ٣٥٦ ، ٥٠٠ وج٢-١٤٤-١٤٧ ، ١٥٧ ، ١٥٩ ، ٢٥٧ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٧ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٣٧٧ ، ٣٩٩ ، ٤٠٢-٤٠٤ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ ، ٦٠٣-٦٠٧ ، ٦٣٨ .
الجزيرة الخضراء ؛ ج١-٥٣ ، ٥٩ ، ٢٤٤ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٩ ، ٣٣٩ ، ٣٤٥ ، ٣٨٩ ، ٤٢٠ وج٢-١٢ ، ٦٣ ، ٨٨ ، ١٠٣ ، ١١٦ ، ١٨٠ ، ١٩٨ ، ٢٦٦ ، ٣٦٩ ، ٤٠١ ، ٤١١ ، ٤١٣ ، ٤٣٣ ، ٥٧٣ ، ٦١٨ ، ٦٣٣ ، ٦٧٥ ، ٦٨٥ ، ٦٨٦ ، ٦٩٢ ، ٦٩٣ ، ٧١٥ .
جزائر بني مزغنة ؛ ج ١-٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ .
جزيرة باشو ؛ ج ٢-١٥٩ .
جزيرة جربة ؛ ج ١-٢٩٠ ، ٢٩٢ .
جزيرة شقر ؛ ج ١-١٠٨ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١٥٠ ، ٤٦٥ ، ٤٦٧ ، وج ٢-٥٠ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٣٩٢-٣٩٥ ، ٤١٣ ، ٤٥٦ ، ٤٥٩ ، ٦٠٦ ، ٦٥٩ ، ٦٧٢ ، ٦٩١ ، ٦٩٢ ، ٧٠٠ ، ٧٢٦ .
جزيرة شلطيش ؛ ج ٢-٩٩ ، ٤٩٠ ، ٦٨٣ .
جزيرة فرمنتيرا ؛ ج ٢-٤٠٨ .
جزيرة قوصرة ؛ ج ١-٢٩٠ .
جزيرة مالطة ؛ ج ٢-٥٣٥ .
جليقية ؛ ج ١-٧٣ ، ٤٢٢ ، ٤٧٨-٤٨٥ ، ٤٨٨ ، ٤٩٠ ، ٤٩٨ ، ٥٠٢ ، ٥٠٤ ، ٥١٥ ، ٥٢٠ ، ٥٢٢-٥٢٦ وج٢-٣٧ ، ٣٨ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ٢٩٤ ، ٤٨١ ، ٥٩٤ ، ٥٩٥ .
جنجالة ؛ ج ١-٣٦١ ، ٣٦٢ وج٢-٣٩٥ .
چنوة ؛ ج١-٧٦ ، ٣٤٩ ، ٣٦٧ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ، ٥٠٠ ، ٥٠١ ، ٥٠٨ وج٢-١٤٦ ، ٢٥٨ ، ٢٦١ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٥٠٦ ، ٦٠٣ .
جيان ؛ ج ١-٣٣ ، ٦١ ، ٩٣ ، ١١٥ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٤٣ ، ٣١٣ ، ٣١٦-٣٢١ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٦٠-٣٦٢ ، ٣٧٢ ، ٣٧٤ ، ٣٧٧ ، ٣٨٦ ، ٣٨٧ ، ٣٩٠ ، ٤٦١ ، ٤٧٠ ، ٥٠٤ ، ٥١١ ، ٥١٩ ، وج ٢-٣٩ ، ٤٠ ، ٤٨ ، ٥٣ ، ٥٧ ، ٢٧٧ ، ٢٨٤ ، ٢٨٦-٢٨٨ ، ٢٩١ ، ٢٩٦ ، ٢٩٨ ، ٣١٣ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٩٠ ، ٣٩٢ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ ، ٤١١ ، ٤١٥-٤١٧ ، ٤٣٠-٤٣٢ ، ٤٦٦-٤٦٩ ، ٤٧٤ ، ٥٨٧ ، ٥٩١ ، ٥٩٨ ، ٦١٨ ، ٦٤١ ، ٦٤٨ ، ٦٦٢ ، ٦٦٣ ، ٦٧٢ ، ٦٧٣ ، ٦٧٦ ، ٦٨١ ، ٧٠٩ .
جيرندة ؛ ج ١-٥٠١ ، ٥١٩ .
الحجار ؛ ج ٢-٤٣٢ ، ٤٦٩ .
الحجاز ؛ ج ١-٤٣ ، ٤٤ ، ٥٩ ، ٢٩٧ ،

٥٣٢ ، وج ٢ - ٢٤١ ، ٧١٥ .
حجر الإبل ؛ ج٢ - ١٣٢ .
الحرمين ؛ ج ١ - ٣٩ وج ٢ - ٦٧٨ .
حصن أربلية ؛ ج ١ - ١٥٢ .
حصن أرجنة ( أوريخا ) ؛ ج ١ - ٧١ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ٥٠٤ ، ٥٠٥ ، ٥١٣ ، ٥٤٧ .
حصن أرجونة ؛ ج ١ - ١٣٥ وج ٢ - ٤١٤ ، ٤١٦ ، ٤٣٢ ، ٤٦٦ ، ٤٦٩ ، ٥٩٨ .
حصن صف ؛ ج ٢ - ٨٣ .
حصن أطرونكس ؛ ج ١ - ٣٤٥ .
حصن الأرك ( وموقعة ) ؛ ج ١ - ٨ ، ١٠ ، ٢٧ وج ٢ - ١٤١ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ - ٢٠٤ ، ٢٠٩ - ٢١٤ ، ٢١٨ - ٢٢٠ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣٧ ، ٢٣٩ ، ٢٤٥ ، ٢٤٧ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٧ ، ٢٩٦ ، ٣١١ ، ٣١٨ ، ٣٢١ ، ٣٢٥ ، ٣٣٦ ، ٥٧٥ ، ٥٨٧ ، ٥٩٥ ، ٦٠٢ ، ٦٣٩ .
حصن الأطراف ؛ ج ٢ - ٤١٧ .
حصن البطروج ؛ ج ١ - ٣٤٤ ، ٥١١ .
حصن إلبور ؛ ج ٢ - ١٧٢ .
حصن الحنش ؛ ج ٢ - ٤٠٠ .
حصن الديموس ؛ ج ٢ - ٣٩٧ ، ٦٠٥ .
حصن السكة ؛ ج ١ - ١٣٤ .
حصن العقاب ( كسترو فرال ) ؛ ج ٢ - ٢٩٢ ، ٣٠٢ ، ٣٠٦ ، ٣١٤ ، ٣٢٣ .
حصن الفرح ( إشبيلية ) ؛ ج ٢ - ١٩٢ ، ١٩٩ ، ٢١٧ ، ٢٣٣ ، ٢٤٦ ، ٤٧٨ ، ٤٨٠ ، ٤٨٥ ، ٤٨٨ ، ٦٤١ .
حصن الفرج ( مرسية ) ؛ ج ٢ - ٤٨ .
حصن القصر ؛ ج١ - ٣٠٩ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، وج ٢ - ١٠٢ ، ٣٦٠ .
حصن القنطرة ؛ ج ٢ - ٩٢ ، ٣٤٠ .
حصن اللج ؛ ج ٢ - ٢٩١ .
حصن المدور ؛ ج ١ - ٣٤٤ وج ٢ - ٣٦١ ، ٤٢٥ ، ٥٩٨ .
الحصن المزهر ؛ ج ١ - ٣٠٩ .
حصن المعدن ( البرتغال ) ؛ ج ٢ - ١٨٧ .
حصن المنار ؛ ج ٢ - ١٧٤ .
حصن أنوط ؛ ج ٢ - ٨٣ .
حصن بارجاس ؛ ج ١ - ١٣٤ .
حصن بانيوس ؛ ج ٢ - ٣٢٣ .
حصن ببشتر ؛ ج ١ - ٣٢٩ .
حصن برجة ( المرية ) ؛ ج ١ - ٣٤٦ .
حصن بلج ؛ ج ٢ - ٧٥ .
حصن بلمة ؛ ج ٢ - ٨٨ .
حصن بلشون ؛ ج ١ - ٦٥ .
حصن بليانة ؛ ج ٢ - ٨٣ .
حصن بنيول ؛ ج ٢ - ٨٢ .
حصن بنى بشير ؛ ج ١ - ٣٣٣ .
حصن تاسغيموت ؛ ج ١ - ٢٢٦ .
حصن تنلين ؛ ج ١ - ٢٣٣ .
حصن تولوسا ؛ ج ٢ - ٣٢٣ .
حصن تيزغيت ؛ ج ٢ - ٥٦٤ .
حصن تيونوين ؛ ج ١ - ٢٢٨ ، ٢٣٣ ، وج ٢ - ٥٤٥ ، ٥٦٥ .
حصن جرانينا ؛ ج ٢ - ٥٠١ ، ٥١٨ .
حصن جلاوة ؛ ج ١ - ٢٢٦ .
حصن جلمانية ؛ ج ٢ - ٢٧ ، ٣٤ ، ٣٦ ، ٤١ ، ٤٦ ، ١١٧ ، ٦١١ .
حصن جنجالة ؛ ج ٢ - ٨٣ ، ٣٥٠ .
حصن حلال ؛ ج ١ - ٣٧١ .
حصن ركانة ؛ ج ٢ - ٨٢ ، ٣٤١ .
حصن روطة ( وإمارة ) ؛ ج١ - ٧٤ ، ٨٩ ، ١٢٧ - ١٣٠ ، ٣١٣ ، ٣٩٣ وج ٢ - ٣٨٩ .
حصن سانتاماريا ؛ ج ١ - ٩٨ ، ٤٨١ .
حصن شربة ؛ ج ٢ - ٢٧ ، ٣٨ ، ٩٧ ، ١١٧ ، ٢٢٠ ، ٦١١ .
حصن شفوبش ؛ ج ١ - ٣٦٨ .
حصن شنت إشتبن ؛ج١ - ١٣٥وج ٢ - ٤١٧ .
حصن شنتفيلة ؛ ج ٢-١٠٣ ، ١٠٤ ، ٥٨٧ .
حصن شيزر ؛ ج ٢ - ١٨٣ .
حصن طاروطا ؛ ج ٢ - ٣٣٦ .
حصن طرش ؛ ج ٢-١٣٠ ، ١٧٧ ، ٦٣٩
حصن علودان ؛ ج ٢ - ٥٤٩ .
حصن فرنجولش ؛ ج ١ - ٣١٣ - ٣١٥ .
حصن قبالة ؛ ج ٢ - ٣٦٠ - ٣٦٢ .
حصن قسطلة ؛ ج ٢ - ٣٠ .
حصن قلهالة ؛ ج ٢ - ١٨٧ .
حصن لبيط (أليدو) ؛ج١-٢٩ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٧٧
حصن مرتش ؛ ج ٢ - ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٣ ، ٤٦٦ ، ٤٦٧ .
حصن مرجانة ؛ ج ١ - ٣١٣ .
حصن مرجيق ؛ ج ١ - ٣٠٨ .
حصن مرسية ؛ ج ٢ - ٦٩ .
حصن مسطانية ؛ ج ١ - ٧١ .

حصن مطرنيش ؛ ج ١ - ٤٨ .
حصن ملجون ؛ ج ٢ - ٢٩٦ ، ٢٩٧ .
حصن منتانجش ؛ ج ٢ - ٢٧ ، ٣٦ - ٣٨ - ١١٧ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٣٩٩ ، ٥٩٦ ، ٦٦١ .
حصن منتور ؛ ج ١ - ٣٤٤ .
حصن مورة ؛ ج ١ - ١٥٢ .
حصن هزرجة ؛ ج ١ - ٢٢٦ .
حصن يسر ؛ ج ٢ - ٤٦٣ .
حلب ؛ ج ٢ - ٦٦٠ ، ٦٦٣ ، ٦٨٤ .
حلق الوادى ؛ ج ٢ - ٢٦٢ .
الحمة ( وموقعة ) ؛ ج ٢ - ١٦٢ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٧ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ٣٧٦ .
حمة مطاطة ؛ ج ٢ - ٢٦٤ .
حيفا ؛ ج ٢ - ٦٠٧ .
الخزانة الناصرية ؛ ج ١ - ١٢ .
خزانة الرباط ج ١ - ١٧ ، ٤٢ .
خليج جراو ؛ ج ٢ - ٤١٤ ، ٤٤٨ .

## د — ز

دار السكة ؛ ج ٢ - ١٤٤ .
دار الكتب المصرية ؛ ج ١ - ١٧ وج٢- ٧١٠
دانية ؛ ج ١ - ٣٣ ، ١٠٨ ، ١٥٠ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ٢٧٠ ، ٣٦٧ ، ٤٦١ ، ٤٦٧ ، ٤٧١ ، ٤٧٣ ، وج ٢ - ١٥٨ ، ٢٥٩ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٩٥ ، ٤١٣ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠ ، ٤٥٦ ، ٤٥٩ ، ٤٦٩ ، ٦٠٦ ، ٦٤٨ ، ٦٥٦ ، ٦٧٢ ، ٦٧٣ ، ٧١٤ .
داى ؛ ج ١ - ٢٣٤ .
دجة ؛ ج ١ - ١١٠ .
درعة ؛ ج ١ - ٢٧٧ ، ٤١٥ وج ٢ - ٩٠ ، ٩١ ، ٣٧٠ ، ٣٨٢ ، ٥٠٨ ، ٥١١ ، ٥٢٠ ، ٥٤٥ ، ٥٥٩ ، ٥٧١ .
دروقة ؛ ج ١ - ١٠٣ - ١٠٤ ، ١٢٥ ، ٤٥٦ ، ٥١٨ ، وج ٢ - ٦٠٣ .
دلر ؛ ج ١ - ١١٢ ، ٣٨٩ .
دمشق ؛ ج ١ - ١٦١ ، ٤٥٦ ، وج ٢ - ٦٧٩ ، ٦٩٧ ، ٧٠٨ ، ٧١٣ ، ٧١٤ ، ٧١٧ .
دمنات ، ج ١ - ٢٣٤ .
الدير الملكى ببرغش ؛ ج٢-٣١٧ ، ٥٩٢ ، ٦٣٢
ديرخوان دى‌لابنيا ؛ ج ١ - ١٢٤ .
ديرسان بيدرو ؛ ج ١ - ٤٩٨ .
ديرساهاجون ؛ ج١ - ٤٧٨ ، ٤٨٤ ، ٥٨٤ .
رباط الفتح ؛ ج١-١٦ ، ٢٧٩ ، ٢٩٤ ، ٣٣٧ ، ٣٩٠ ، ٣٩٢ وج٢ - ٦٥ ، ٦٦ ، ٩٤ ، ١١٥ ، ١٣٢ ، ١٥٩ ، ١٦٧ ، ١٧٥ ، ١٩١ ، ١٩٧ ، ٢٣٦ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٦٤ ، ٢٧١ ، ٢٨٥ ، ٤٥٦ ، ٥٠٩ ، ٥٣٠ ، ٥٤٢ ، ٥٤٧ ، ٥٤٨ ، ٥٤٩ ، ٥٥٠ ، ٥٥٢ ، ٥٥٩ ، ٥٧١ ، ٦٣٣ ، ٧٢٥
رباط تازة ؛ ج١-٢٣٦ وج٢-١٦٠ ، ٣٣٧ ، ٣٦٤ ، ٥٠٧ ، ٥٠٨ ، ٥١٢ ، ٥٢٥ ، ٥٣١ ، ٥٣٣ ، ٥٤٢ ، ٥٤٦ ، ٥٥٩ ، ٥٧٠
رباط ماسة ؛ ج ١ - ٢٦٩ .
رباط هرغة ؛ ج ١ - ٢٠١ .
رباط هسكورة ؛ ج ٢ - ٩٤ .
الربض الغربى (قرطبة )؛ج ١-٨٢ وج ٢-٤٢٠ .
ربض البيازين ؛ ج ١ - ٣٨٨ .
ربض الدباغين ( سرقسطة ) ؛ ج ١-٩٣ ، ١٠٠
ربض شنترين ؛ ج ٢ - ١٢٠ ، ١٢٢ ، ١٢٥
ربينة ؛ ج ٢ - ١٧٤ .
رحبة ابن خلدون ( إشبيلية ) ؛ ج ٢ - ١١٧ .
الرصافة ( بلنسية ) ؛ ج٢ - ١٨٣ ، ٤٤٨ ، ٤٤٩ ، ٦٨٩ .
ركانة ؛ ج ٢ - ٨٢ ، ٣٤١ .
رندة ؛ ج ١ - ٣٢١ ، ٣٢٥ ، ٣٨٢ ، ٤٠٦ ، ٤٤٤ ، وج ٢ - ٢٩ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١١٤ ، ٤٦٦ ، ٦٦١ ، ٦٧٥ ، ٦٨٤ ، ٧٠٤
روسيون ؛ ج ٢ - ٦٠٣ .
روضة ؛ ج ٢ - ٤٨٨ .
رومة؛ج١ - ٤٨٥وج٢- ٢٩٤ ، ٤٦٢ ، ٦٠٣ .
ريباجورسا ؛ ج ١ - ٤٩٦ ، ٥٠١
ريوخا ؛ ج ١-٤٨٣ ، ٤٨٩ ، ٥٠٥ ، ٥١٥ .
ريه (كورة ) ؛ ج ١ - ٣٣٦ .
الزلاقة ( موقعة ) ؛ ج ١ - ١٥ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٦ ، ٣٩ - ٤١ ، ٤٥ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٨ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ٧٣ ، ٨٦ ، ٨٨ ، ١٠٢ ، ١٢٣ ، ١٢٦ ، ١٣٦ ، ٣٠٥ ، ٤١٤ ، ٤١٨ ، ٤١٩ ، ٤٢٥ ، ٤٢٨ ، ٤٣٥ ، ٤٧٧ ، ٥٢٣ ، وج ٢ - ٤٥ ، ٢١١ - ٢١٣ .
الزاهرة ؛ ج ٢ - ٧٥ .
الزهراء ؛ ج ٢ - ١٧٥ .
زويلة ؛ ج ١ - ٢٩٣ ، ٢٩٥ وج ٢ -١٥٦ .

## س — ش

سانتا إيلينا ؛ ج ٢ - ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣١١ .

سبتة ؛ ج ١ - ٤٥ ، ٤٦ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٧ ، ٢٤٧ ، ٢٥٩ ، ٢٧١ - ٢٧٥ ، ٢٨٠ ، ٢٨٧ ، ٣١١ ، ٣٢٩ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٨١ ، ٣٨٦ ، ٤١٥ ، ٤٢٠ ، ٤٤١ ، ٤٥٩ ، ٤٦١ ، ٤٦٢ وج ٢ - ١٢ ، ١٣ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٤١ ، ٥٦ ، ٦٧ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١١٦ ، ١٤٧ ، ١٥١ ، ١٥٤ ، ٢٥٩ ، ٢٦٤ ، ٢٨٦ ، ٣٥١ ، ٣٦٤ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٨١ - ٣٨٢ ، ٤٠١ ؛ ٤٠٩ ، ٤١١ ، ٤٢٩ ، ٤٣٣ ، ٤٣٤ ، ٤٧١ ، ٤٧٧ ، ٤٨٠ ، ٤٨١ ، ٤٨٦ ، ٥٠٦ - ٥١٢ ، ٥٢٠ ، ٥٢٤ ، ٥٣٥ ، ٥٣٦ ، ٥٥٠ ، ٥٥١ ، ٥٥٤ ، ٥٥٩ ، ٥٧١ ، ٥٧٦ ، ٦١٨ ، ٦٢٧ ، ٦٣٣ ، ٦٣٨ ، ٦٣٩ ، ٦٥٤ ، ٦٥٦ ، ٦٥٧ ، ٦٧٨ ، ٦٨٤ ، ٦٨٥ ، ٦٩٧ ، ٧٠١ ، ٧٠٨ .

السبطاط ( ثيوداد ردريجو ) ؛ ج ٢ - ٣٢ .

سجلماسة ؛ ج ١ - ١٨٨ ، ٢٣٦ ، ٢٤٨ ، ٢٧٢ ، ٢٧٧ ، ٤١٥ و ج ٢ - ٩٠ ، ٩٩ ، ٢٧٣ ، ٣٣٢ ، ٣٣٥ ، ٣٤٩ ، ٣٧٠ ، ٣٧٦ ، ٣٨٢ ، ٤٩٩ ، ٥٠٣ - ٥٠٥ ، ٥٠٨ ، ٥١١ ، ٥١٧ ، ٥١٩ ، ٥٢٠ ، ٥٣٠ ، ٥٣٧ ، ٥٤٥ ، ٥٥٩ ، ٥٦٩ ، ٥٦٤ - ٥٦٦ ، ٥٧٠ ، ٥٧٣ ، ٥٧٧ ، ٦١٨

سرقسطة ؛ ج ١ - ١٣ ، ١٥ ، ٢٧ ، ٥٠ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٧٣ - ٧٥ ، ٧٦ ، ٨٠ ، ٨٦ - ١٠٥ ، ١٠٨ ، ١١٣ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١٢١ ، ١٢٤ - ١٢٧ ، ١٣١ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥١ ، ٣١٣ ، ٣٦٨ - ٣٧٠ ، ٤١٥ ، ٤٢٩ ، ٤٤٨ ٤٥٥ ، ٤٥٧ ، ٤٦٤ ، ٤٧٠ ، ٤٧٩ ، ٤٩٣ ، ٤٩٥ - ٤٩٩ ، ٥١٨ ، ٥٣٨ ، ٥٤٠ وج ٢ - ٣٨٩ ، ٣٩٨ ، ٥٨٤ ، ٦٠٤ ، ٦٦٢ ، ٦٦٧ ، ٦٦٩ ، ٦٧٣ ، ٧٠٢ ، ٧١٤

سرقوسة ؛ ج ٢ - ٢٧٩ .

سطفسيف ؛ ج ١ - ٢٤٩ .

سطيف ؛ ج ١ - ٢٨٤ .

سلا ؛ ج ١ - ١١٤ ، ٢٥٩ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤ ، ٣١١ ، ٣٢٥ ، ٣٢٩ ، ٣٣١ ، ٣٣٧ ، ٣٤١ ، ٣٧٦ ، ٣٨٨ - ٣٩٦ ، ٤٦٢ ، وج ٢ - ١١ ، ١٢ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ١٠٦ ، ١١٥ ، ١٣٢ ، ١٤١ ، ١٥٤ ، ٤٩٧ ، ٥٠٩ ، ٥٢٢ ، ٥٣٠ ، ٥٤١ - ٥٤٤ ، ٥٤٧ - ٥٥٢ ؛ ٥٥٩ ، ٥٧١ ، ٦٠٨ ، ٦٣٣ ، ٦٣٩ ، ٦٥٧ ، ٦٩٢ ، ٧٠١ .

سلفات ؛ ج ٢ - ٥١٣ ، ٥٢٣ .

سلمية ؛ ج ١ - ١٦٣ .

سليا ؛ ج ٢ - ٤٢٨ .

سمورة ؛ ج ١ - ٤٨٥ ، ٥٢٥ وج ٢ - ٣١ .

سهل أبدة ؛ ج ٢ - ٣٠٦ .

سهل الفندون ؛ ج ٢ - ١٦ .

سوبرانى ؛ ج ١ - ٤٩٦ .

سوسة؛ ج ١-٢٩١ ، ٢٩٣ ، ٣٠٠ وج ٢-٢٦٨ .

شارقة ؛ ج ٢ - ٣٩٧ .

شاطبة ؛ ج ١ - ١٦ ، ٣٣ ، ١٠٨ ، ١١٢ ، ١٤٨ ، ١٥٠ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٨ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٤٥١ ، ٤٥٥ ، ٤٦٠ ، ٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ٤٦٨ ، ٤٧٠ ، وج ٢ - ٤٨ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٩٢ ، ٣٩٥ ، ٤١١ ، ٤١٣ ، ٤٣٨ ، ٤٥٦ ، ٤٥٩ ، ٤٦١ ، ٤٦٩ ، ٦٠٢ ، ٦٠٦ ، ٦٤٨ ، ٦٥٢ ، ٦٦٢ - ٦٦٤ ، ٦٦٧ ، ٦٦٩ ، ٦٧٣ - ٦٧٦ ، ٦٨٥ - ٦٨٨ ، ٦٩١ ، ٦٩٧ ، ٧٠٠ ، ٧١٤ .

الشام ؛ ج ١ - ١٦١ ، ٢٩٨ ، ٣٤٣ وج ٢ - ١٨١ - ١٨٣ ، ٢٣٨ ، ٦٧٧ ، ٧٠٥ ، ٧١٧ .

شبرب ؛ ج ٢ - ٣٩٧ .

شبه الجزيرة الإسبانية ؛ ج ١ - ٢٨ ، ٣٢ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٤٩ ، ٥٣ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٦ - ٨٩ ، ٩٧ ، ٩٩ ، ١٠٢ ، ١٠٧ ، ١٣٣ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٥٠ - ١٥٢ ، ٢٤٢ ، ٣٠١ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٢٥ - ٣٢٩ ، ٣٣٢ ، ٣٣٦ ، ٣٤٦ ، ٣٥٠ ، ٣٦٧ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٩٦ ، ٤١٣ ، ٤١٩ ، ٤٢٠ ، ٤٢٦ ، ٤٢٨ ، ٤٤٠ ، ٤٥٥ ، ٤٧٧ ، ٤٨٦ ، ٤٩٧ ، ٥١٣ ، ٥٢١ - ٥٢٣ ، وج ٢ - ٤٤ ، ٥٤ ، ٦٠ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٨٥ ، ٩٥ - ٩٨ ، ١٠٨ ، ١١٤ - ١١٨ ، ١٣٤ ، ١٤٢ ، ١٤٥ ، ١٧٠ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ١٩٠ ، ٢١٠ ، ٢١٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٩ ، ٢٤٣ ، ٢٤٥ ، ٢٨٣ - ٢٨٦ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٣٢٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٦ ، ٣٣٨ ، ٣٥٠ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٩٩ ، ٤٠٤ ، ٤١٧ ،

٤٣١ ، ٤٣٥ ، ٤٥١ ، ٤٧١ ، ٤٨٧ -
٤٨٩ ، ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٥٤٨ ، ٥٥١ ،
٥٧٢ ، ٥٧٤ ، ٥٨٤ ، ٥٨٦ ، ٥٩٠ ،
٦٠٢ ، ٦٠٨ ، ٦٣٣ ، ٦٣٩ ، ٦٤٢ ،
٦٤٣ ، ٦٤٧ ، ٦٤٨ ، ٦٥٠ .
شذونة ؛ ج ٢ - ١٣٢ ، ٤٣٤ ، ٤٣٥ ،
٤٦٣ ، ٤٨٨ ، ٤٨٩ ، ٥٩٩ ، ٦٦٤ .
الشرق الإسلامى ؛ ج ٢ - ١٨١ ، ١٨٥ .
شرق الأندلس ؛ ج ١ - ١٦ ، ٢٦ ، ٣٠ ،
٣٢ ، ٤٦ ، ٦٠ ، ٦٣ ، ٧٣ ، ٧٦ ، ٧٧ ،
٨٨ ، ٩٣ ، ٩٦ ، ١٠٢ ، ١١٥ ، ١١٧ ،
١٢١ - ١٢٥ ، ١٤٨ ، ١٤٩ - ١٥٢ ، ٣١٠ ،
٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٤٦ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ،
٣٥٧ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ ،
٣٧٤ ، ٤١٩ ، ٤٤٥ ، ٤٥٠ ، ٤٥٥ ،
٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٤٦٧ ، ٤٩١ ، ٥٣٢ ،
وج ٢ - ٢٦ ، ٢٧ ، ٣٩ ، ٤٤ - ٤٧ ، ٥٣ ،
٦٨ ، ٧٨ ، ١٠٦ ، ١٤٥ - ١٤٧ ، ١٦٢ ،
٢٧٧ ، ٢٨٤ ، ٣٥٠ ، ٣٥٤ ، ٣٩٠ ، ٣٩٥ ،
٣٩٩ ، ٤٠٤ ، ٤١٣ ، ٤١٤ ، ٤٢٩ ،
٤٣٨ ، ٤٣٩ ، ٤٥١ ، ٤٥٥ ، ٤٥٧ ،
٤٥٩ ، ٤٦٠ - ٤٦٤ ، ٤٦٦ ، ٤٧٠ ،
٥٩٧ ، ٦٠٢ ، ٦٠٦ ، ٦٠٧ ، ٦٢٧ ،
٦٤٣ ، ٦٤٨ ، ٦٥٦ ، ٦٦٧ ، ٦٧٢ ،
٦٨٢ ، ٦٨٣ ، ٧٠١ ، ٧٠٦ ، ٧٢٦ .
شريش ؛ ج ١ - ١٤١ ، ١٤٢ ، ٣١٤ ،
٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٥ - ٣٢٩ ، ٣٣٤ ،
٣٧٢ ، ٣٧٤ ، ٣٨٢ ، ٤٤٤ ، ٥١٣ ،
وج ٢ - ٩٧ ، ١٠٨ ، ١١٦ ، ١٣٢ ، ٣٢٦ ،
٤٠١ ، ٤١١ ، ٤٣٠ ، ٤٣٢ ، ٤٣٥ ،
٤٦٣ ، ٤٨٦ ، ٤٨٩ ، ٥٤٩ ، ٥٥١ ،
٦٦٤ ، ٦٧٠ ، ٦٧٥ ، ٧١٤ .
شقوبية ؛ ج ١ - ٤٨١ .
شقورة ؛ ج ١ - ٣٦٩ ، ٣٧٢ وج ٢ - ٦٥١ .
شلب ؛ ج ١ - ٣٠ ، ٣٣ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ -
٣١٠ ، ٣٢٥ - ٣٣١ ، ٣٤٨ ، ٣٥٠ ،
٤٥١ ، ٤٦١ ، ٤٦٤ وج ٢ - ٣٧ ، ٩١ ،
١٤١ ، ١٦٨ ، ١٧١ - ١٧٨ ، ١٨٣ -
١٨٥ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٩٢ ، ٢٦٣ ،
٢٧٧ ، ٣٣٨ ، ٣٤٠ ، ٤٩٠ ، ٤٩٢ ،
٥٧٤ ، ٦١٠ ، ٦١١ ، ٦٤٠ ، ٦٦٣ ،
٦٨٨ ، ٦٩٦ ، ٧١٣ .
شلبطرة ؛ ج ٢ - ١٩٩ ، ٢١٤ ، ٢٨٤ ،
٢٨٦ - ٢٩٣ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٣٠٠ ، ٣٦٠ ، ٥٩١ .
شلمنقة ؛ ج ١ - ٤٨٥ ، ٥١٧ .
شلوبانية ؛ ج ١ - ١١٢ .
شلوقة ؛ ج ٢ - ١٠١ ، ١١٧ ، ٤٨٥ ،
٤٨٨ ، ٥٩٩ .
شنتبرية (كورة) ؛ ج ١ - ٦١ .
شنترة ؛ ج ١ - ٧٠ ، ٥٢٢ ، ٥٢٣ .
شنترين (وموقعة) ؛ ج ١ - ٩ ، ٢٧ ، ٧٠ ،
١٥٢ ، ٣٩٣ ، ٤٤٨ ، ٤٧٧ ، ٥٢٢ -
٥٢٤ وج ٢ - ١٥ ، ٢٠ ، ٢٥ ، ٣٣ ، ٤١ ،
٤٣ ، ٩٧ ، ١٠٠ ، ١٠٢ ، ١١٦ - ١٢٥ ،
١٢٨ - ١٣٠ ، ١٣٤ ، ١٤١ ، ١٤٨ ، ١٧٠ ،
١٧٦ - ١٧٨ ، ١٨٢ ، ٢١٤ ، ٢١٦ ، ٢٣٠ ،
٣٥٦ ، ٥٩٤ ، ٦١٠ ، ٦٢١ ، ٦٣٦ ، ٦٣٩ .
شنتمرية الشرق ؛ ج ١ - ٣٦٦ وج ٢ - ٣٩٧ ،
٦٠١ ، ٦٠٢ ، ٦٠٥ .
شنتمرية الغرب ؛ ج ٢ - ٤٩٠ ، ٤٩٢ ، ٦١٢
شنت ياقب ؛ ج ١ - ٤٨١ ، ٤٨٣ - ٤٨٦ ،
٤٩٠ ، ٥٠٦ ، ٥١٠ وج ٢ - ١٧٠ ، ٤٢٥ .
شوذر ؛ ج ٢ - ٣٦٣ .

## ص — غ

الصالحة ؛ ج ٢ - ١٤٣ ، ١٥٩ ، ٢٣٦ ،
٢٣٧ ، ٤٤٥ ، ٧٢٥ .
الصحراء الكبرى ؛ ج ١ - ٣٨ ، ٤٩ ، ١٤٩ ،
٣٩٦ ، ٤١٣ ، وج ٢ - ٥٧٣ .
الصخيرات ؛ ج ٢ - ٣٩٠ .
الصعيد (مصر) ؛ ج ١ - ٢٩٨ .
صفاقس ؛ ج ١ - ٢٩١ ، ٢٩٣ ، ٢٩٦ ،
وج ٢ - ٢٥٤ ، ٢٦٨ .
صفرو ؛ ج ١ - ٢٣٦ .
صقلية ؛ ج ١ - ٢٨٢ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ -
٢٩٣ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٥٠١ وج ٢ - ١٠٨ ،
١٥٨ ، ١٨٢ ، ٢٧٨ - ٢٨١ ، ٥٢٦ ، ٥٣٤ ،
صومعة الكتبية ؛ ج ٢ - ٢٤٦ ، ٧٢٥ .
صومعة جامع إشبيلية (لاخيرالدا) ؛ ج ١ -
١٠ وج ٢ - ٧٤ ، ١٣٧ ، ٢١٧ ، ٢٣٠ -
٢٣٢ ، ٢٤٦ ، ٦٤١ ، ٧٢٥ .
الطائف ؛ ج ١ - ٢٩٧ .
طبيرة ؛ ج ١ - ٣٢٣ ، ٣٢٩ ، ٣٤٧ ،
٣٤٨ ، وج ٢ - ٣٠ ، ٤١ ، ٤٠٩ ، ٤٩٠ ،

٤٩٢ ، ٦١١ ، ٦٧٧ ، ٦٧٨ .
طرابلس (الغرب) ؛ ج ١ - ١٨ ، ٢٨٠ ، ٢٩٠ ، ٢٩٣ ، ٢٩٦ ، ٣٠٠ ، ٣٩٦ ، وج ٢ - ١٠٨ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٦٥ ، ٢٥١ ، ٢٥٤ ، ٢٦٦ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٢ ، ٢٧٤ ، ٢٧٨ .
طرسونة ؛ ج ١ - ٩٣ ، ١٠٢ ، ١٢٥ ، وج ٢ - ٦٠٣ .
طرطوشة ؛ ج ١ - ٧٥ ، ٨٧ ، ١٠٠ ، ١١٦ ، ١٢١ ، ٢٧٠ ، ٣٣٥ ، ٣٦٥ - ٣٧٠ ، ٤٥٠ ، ٤٥٩ - ٤٦١ ، ٤٨٩ ، ٥٠٠ ، ٥٠٣ ، ٥٠٨ وج ٢ - ٥٣ ، ٤٠٣ ، ٤٣٩ .
طركونة ؛ ج ١ - ١١٦ ، ١١٧ وج ٢ - ٤٠٤ ، ٤٠٦ .
طرويل ؛ ج ٢ - ٤٤٤ ، ٦٠٢ .
طرة ؛ ج ٢ - ٢٦٤ .
طريانة ( وقلعة ) ؛ ج ١ - ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١٢ ، وج ٢ - ٦٩ ، ٧٠ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١١٧ ، ١٣٢ ، ٤٨٠ - ٤٨٤ .
طريف ؛ ج ١ - ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٤٢٠ وج ٢ - ٦٧ ، ٨٨ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٧٥ ، ١٩٨ ، ٢٨٦ ، ٦٣٣ .
طلبيرة ؛ ج ١ - ٦٨ ، ٦٩ وج ٢ - ٨٩ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٩٩ ، ٢١٣ ، ٢١٩ ، ٢٢٩ ، ٢٩٢ ، ٣٢٢ ، ٥٨٧ ، ٥٩٥ .
طلياطة ( وموقعة ) ؛ ج ١ - ٣٠٩ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ وج ٢ - ٢٠ ، ٩٣ ، ٣٥٤ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ .
طليطلة ؛ ج ١ - ٢٥ ، ٢٩ ، ٣٦ ، ٦١ ، ٦٤ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٨٦ ، ٨٨ ، ٩٣ ، ١٠٢ ، ١١٣ ، ١٢٥ - ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٤١ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ٢٤٨ ، ٣١٣ ، ٣٤٧ ، ٣٥٨ ، ٤٢٨ ، ٤٧١ ، ٤٨٠ ، ٤٩٠ ، ٤٩٣ ، ٥٠٤ ، ٥٠٧ ، ٥١٠ ، ٥١٥ ، ٥١٧ ، ٥١٩ ، ٥٢٢ ، ٥٢٣ ، ٥٣٦ ، ٥٣٨ ، وج ٢ - ٣٢ ، ٤٢ ، ٨٩ ، ٩٦ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١١٨ ، ١٧٥ ، ١٩٩ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٩ ، ٢٤٨ ، ٢٩٣ ، ٢٩٥ ، ٣٢٢ ، ٣٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٥١ ، ٤٦٠ ، ٤٨٧ ، ٥٨٧ ، ٥٩١ ، ٦١٢ ، ٦٥٣ .
طنجة ؛ ج ١ - ٢٤٢ ، ٢٥٨ ، ٢٧٢ - ٢٧٤ ، ٤١٥ ، ٤٢٠ ، وج ٢ - ١٢ ، ٩٣ ، ١٦٤ ، ٤٧٧ ، ٤٨٠ ، ٤٨١ ، ٥١١ ، ٥٤٤ ، ٥٥٠ ، ٥٥٤ ، ٥٥٩ ، ٥٧١ ، ٥٧٦ ، ٦٨٤

طوس ؛ ج ١ - ١٦١ .
طولون ؛ ج ٢ - ١٤٦ .
طومار ؛ ج ٢ - ١٧٧ ، ١٧٨ .
العدوة ( عدوة المغرب ) ؛ ج ١ - ٥٣ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١٣٢ ، ١٤٣ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ٣٤٥ ، ٣٩٢ ، ٤٢٥ وج ٢ - ١٩ ، ٤٤ ، ٥٧ ، ٦٨ ، ١٤١ ، ٢٧١ ، ٢٨٤ ، ٣٢٤ ، ٣٦٦ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٩٢ ، ٣٩٣ ، ٤٥٥ ، ٤٧٣ ، ٤٧٤ ، ٤٨٠ ، ٤٨٢ ، ٦٤٧ ، ٦٥٤ ، ٦٥٧ ، ٦٦٢ ، ٧٠٠ ، ٧١٤ .
العراق ؛ ج ١ - ٤٣ ، ٢٩٨ ، ٥٣٠ ، ٥٣٢ وج ٢ - ٦٧٨ ، ٧١٥ .
العرائش ؛ ج ٢ - ٥٤٩ .
العقاب ( هضبة وموقعة ) ؛ ؛ ج ١ - ٢٨ ، ٣٢ وج ٢ - ٢٦٦ ، ٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٥ ، ٣٠١ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٧ - ٣٢٥ ، ٣٢٩ ، ٣٣٣ ، ٣٣٦ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٥٨ ، ٣٧٣ ، ٥٧٣ ، ٥٧٥ ، ٥٩٠ ، ٥٩٢ ، ٥٩٥ ، ٥٩٧ ، ٦٠٣ ، ٦٠٨ ، ٦٢٦ ، ٦٣٢ ، ٦٣٦ ، ٦٤٠ ، ٦٤٣ ، ٦٥٦ ، ٦٦٨ .
عقبة البقر ؛ ج ١ - ٢٥٦ .
عمرة ( سهل وموقعة ) ؛ ج ١ - ٢٩٩ وج ٢ - ١٦١ ، ١٦٦ ، ١٦٧ .
عين إطسة ؛ ؛ ج ١ - ١١٢ .
عين عبولة ؛ ج ١ - ٢٧٩ وج ٢ - ٦٥ ، ٥٤٧
غانة ؛ ج ١ - ١٤٩ ، ٤١٣ ، ٤١٨ .
غافق ؛ ج ٢ - ١٠٥ ، ٣٦٢ .
غدامس ؛ ج ٢ - ٣٧٤ .
الغدر ؛ ج ٢ - ٧٦ .
الغرب الإسلامى ؛ ج ١ - ٤٩ ، ١٥٧ ، ٣٩٧ ، ٤٣٤ وج ٢ - ١٨١ ، ١٨٥ ، ٤٩٤ ، ٦٣٢ ، ٦٤٧ .
غرب الأندلس (وولاية الغرب) ؛ ج ١ - ٢٧ ، ٣٠ ، ٧٠ ، ١٣٦ ، ١٣٨ ، ٣٠٦ - ٣٠٩ ، ٣١٢ ، ٣٢١ - ٣٢٥ ، ٣٢٧ - ٣٣٢ ، ٣٣٦ ، ٣٤٠ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٥٤ ، ٣٥٧ ، ٤٦٨ ، ٣٧٢ ، ٣٨٢ ، ٣٨٧ ، ٤١٦ ، ٤٤٨ ، ٤٥١ ، ٤٥٥ ، ٤٦٥ - ٤٦٨ ، ٤٧٧ ، ٥١٥ ، ٥٢٢ ، ٥٢٨ ، وج ٢ - ٢٠ ، ٢٤ - ٢٨ ، ٣٠ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٤١ ، ٤٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٩١ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١١٣ ، ١١٧ ،

١٢٠ ، ١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٤ ،
١٨٥ ، ١٨٧ ، ٢٦٣ ، ٣٥٧ ، ٣٩٩ ،
٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٢٩ ، ٤٣٣ ، ٤٣٥ ،
٤٨٠ ، ٤٨٦ - ٤٨٩ ، ٤٩٢ ، ٦١٠ ،
٦١٢ ، ٦١٨ ، ٦٤١ ، ٦٦٩ ، ٦٨٦ ، ٧٠٥
غرناطة ؛ ج ١ - ٣٠ ، ٣٢ ، ٤٦ ، ٤٨ ،
٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٦ ، ٦٨ ، ٧١ ،
٧٣ ، ٨٠ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٩٢ ، ١٠٣ ،
١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١٠ - ١١٦ ، ١٣١ -
١٣٥ ، ١٣٨ ، ١٤٣ - ١٤٦ ، ٢٧٣ ،
٣١١ ، ٣١٦ - ٣٢١ ، ٣٣٢ - ٣٣٥ ،
٣٤٥ - ٣٤٧ ، ٣٥٦ - ٣٦٠ ، ٣٦٢ ،
٣٧٦ ، ٣٧٨ ، ٣٨٠ ، ٣٨٢ ، ٣٨٥ -
٣٩١ ، ٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤١٩ ، ٤٤١ ،
٤٤٣ ، ٤٤٦ ، ٤٤٩ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣ ،
٤٥٧ ، ٤٥٨ ، ٤٦١ ، ٤٦٢ ، ٤٧٤ ،
٥٠٧ ، ٥٣٤ وج ٢ - ١٢ ، ١٦ ، ١٧ ،
٢٠ ، ٢٣ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٧ ، ٤١ ،
٤٣ ، ٥٤ ، ٦٨ ، ٧١ ، ٨٤ ، ١٠٢ ،
١١٠ ، ١١٤ ، ١٤٥ ، ١٧٥ ، ٢٢٥ ،
٢٣٥ ، ٢٧٠ ، ٢٧٧ ، ٣٣١ ، ٣٤٤ ،
٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٦ ، ٣٩٠ ، ٣٩٢ ،
٤١١ - ٤١٣ ، ٤٢٧ ، ٤٣٠ - ٤٣٥ ،
٤٦٣ ، ٤٦٦ ، ٤٦٨ ، ٤٧٤ ، ٥١٠ ،
٥٦٠ ، ٥٦١ ، ٥٧٢ ، ٥٩٨ ، ٦١٨ ،
٦٢٩ ، ٦٤١ ، ٦٤٢ ، ٦٤٧ - ٦٥١ ،
٦٥٥ ، ٦٥٧ ، ٦٦٣ ، ٦٦٧ ، ٦٧٢ ،
٦٧٣ ، ٦٧٥ ، ٦٧٧ ، ٦٨٢ ، ٦٨٨ ،
٦٩٢ ، ٦٩٤ ، ٦٩٧ ، ٧٠٤ ، ٧٠٨ ،
٧٠٩ ، ٧١٧ ، ٧٢٢ .
غريس ؛ ج ١ - ٢٣٦ .
غليانة ؛ ج ٢ - ٤٧٦ ، ٤٨٨ .

## — ف —

فاس ؛ ج ١ - ١٣ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٨٤ ،
١٦٧ ، ٢٣٥ - ٢٣٨ ، ٢٤١ ، ٢٤٣ ، ٢٥٢ -
٢٥٩ ، ٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٢٧١ ، ٢٧٥ ،
٢٧٧ ، ٢٨٠ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٩٤ ،
٣٢٢ ، ٣٢٦ ، ٣٣٩ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ،
٤٠٢ ، ٤١٥ ، ٤٤١ ، ٤٥٦ ، ٤٧٠ وج ٢ -
٦٥ ، ٧٢ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ،
١٤٤ ، ١٥١ ، ١٦٠ ، ١٦٥ ، ١٧٩ ، ١٨٤ ،
١٨٩ ، ١٩١ ، ٢٣٤ ، ٢٥١ ، ٢٥٥ ،
٢٦٠ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٨٦ ، ٣٣١ -
٣٣٤ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٦٤ ، ٣٦٨ ،
٥٠٧ - ٥٠٩ ، ٥١١ - ٥١٣ ، ٥٢١ ،
٥٢٤ - ٥٢٦ ، ٥٣١ - ٥٣٣ ، ٥٤٢ - ٥٤٦ ،
٥٤٩ ، ٥٥٢ ، ٥٥٥ ، ٥٥٩ ، ٥٦٢ ،
٥٦٦ ، ٥٦٧ ، ٥٧٠ - ٥٧٢ ، ٥٧٦ ،
٦١٨ ، ٦٥١ ، ٦٥٣ ، ٦٥٤ ، ٦٥٦ ،
٦٥٩ ، ٦٦٤ - ٦٦٦ ، ٦٨٣ ، ٦٨٤ ،
٦٨٨ ، ٦٩٧ ، ٧٠٣ ، ٧٠٨ ، ٧١٧ ، ٧٢٣ .
فحص الجلاب (وموقعة) ؛ ج ٢ - ١٧ ،
١٨ ، ٣٩ ، ٤٦ ، ٤٧ .
فحص الرنيسول ؛ ج١ - ١١١ .
فحص الريحان ؛ ج ١ - ١٣٨ .
فحص الشرف ؛ ج ١ - ١٣٥ ج ٢ - ١٨ ،
١٠٢ ، ١١٧ ، ١٩٢ ، ٢٢١ ، ٣٥٤ ،
٣٥٩ ، ٤٧٤ ، ٤٧٧ ، ٤٧٨ ، ٤٨٠ ،
٤٨٢ - ٤٨٥ ، ٤٩٣ ، ٦١٩ .
فحص إشبيلية ؛ ج ٢ - ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ .
فحص غرناطة ؛ انظر المرج .
فحص كركوى ؛ ج ٢ - ٨٨ .
فحص مرسية ؛ ج ٢ - ١٦ .
فحص واونزرت ؛ ج ٢ - ٣٧٠ ، ٣٨١ .
الفرنتيرة ؛ ج ١ - ٣٢٢ ، ٣٣٦ ، ٥١٣ ،
وج ٢ - ٤٣٢ ، ٤٦٩ ، ٤٨٨ ، ٤٨٩ ، ٥٥١ .
فرنسا ؛ ج ١ - ٧٦ ، ٩٠ ، ١٢٠ ، ٤٨٠ ،
٥٢٣ ، ٥٢٣ وج ٢ - ١٤٦ ، ٢٥٨ ، ٢٨٩ ،
٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٥٩٠ ، ٥٩٣ ، ٦٠٨ ، ٦٠٩ .
فزان ؛ ج ٢ - ١٥٥ .

## ق — ك

قابس ؛ ج ١ - ٢٩٠ ، ٢٩٦ ، ٣٠٠ ،
٣٠١ ، ٣٧٦ ، وج ٢ - ١١٢ ، ١٤٩ ،
١٦٢ ، ١٦٤ ، ١٩٥ ، ٢٥١ ، ٢٥٤ ، ٢٦٥ ،
٢٧٢ ، ٢٧٥ ، ٣٧٤ ، ٣٧٦ ، ٣٧٩ ، ٧٠١ .
قادس ؛ ج ١ - ١٤١ ، ٢٧١ ، ٣٢١ ،
٣٢٢ ، ٣٢٦ - ٣٢٩ ، ٣٣٩ ، ٤٢٠ وج ٢ - ١٠٠ ،
٢٥٧ ، ٤٨٨ ، ٤٨٩ ، ٤٩٩ ، ٥٩٩ ، ٦٣٨ .
قاصرش ؛ ج ١ - ١٣٨ ، ١٤٠ وج ٢ - ٢٧ ،
٣٤ ، ٣٨ ، ١١٧ - ١١٩ ، ١٢٥ ، ٢١٨ ،
٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٩٩ ، ٥٩٤ - ٥٩٦ .
القاهرة ؛ ج ١ - ٤٠٥ ، ٤٥٦ ، ٤٧١ ،

وج ٢ - ٦٩١ ، ٧١٤ ، ٧٢٣ .
قاية ؛ ج ٢ - ٣٨ .
القبذاق ؛ ج ١ - ٤٧٠ وج ٢ - ٣٥٩ ، ٤٦٧ ،
قبر ابن حزم ؛ ج ٢ - ٢٤٠ .
قبر القديس ياقب ؛ ج ١ - ٥٢٠ .
قبر المهدى ؛ ج ١ - ٢٨٩ ، ٣٤٠ - ٣٤٢ ،
٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٩٢ وج ٢ - ٥٤١ .
قبره ؛ ج ١ - ١١١ وج ٢ - ٤٢٥ .
قرطاجنة ؛ ج ١ - ٣٠ ، ٣٦٤ ، ٣٦٦ ،
٣٦٧ وج ٢ - ١٦ ، ٤٦١ ، ٤٦٤ .
قرطاجنة ( إفريقية ) ؛ ج ٢ - ٢٥٣ .
قرطبة ؛ ج ١ - ١٣ ، ١٥ ، ٣٠ - ٣٣ ،
٤٦ - ٤٨ ، ٥٣ ، ٥٧ - ٦١ ، ٦٣ ، ٦٤ ،
٦٧ - ٧٣ ، ٧٥ ، ٧٨ - ٨٤ ، ٩٣ ، ٩٩ ،
١٠٣ ، ١١٣ - ١١٥ ، ١٢٢ ، ١٣٣ - ١٣٥ ،
١٣٨ - ١٤٤ ، ١٤٦ ، ١٥٠ ، ١٥٣ ،
١٥٤ ، ١٦٠ ، ١٧٢ ، ١٧٨ ، ٢٤٨ ،
٢٧٩ ، ٣٠٥ ، ٣٠٩ - ٣١٦ ، ٣١٨ - ٣٢٢ ،
٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٣١ - ٣٣٤ ، ٣٤٠ ،
٣٤٢ - ٣٤٦ ، ٣٥٤ ، ٣٥٧ ، ٣٥٧ ،
٣٥٩ - ٣٦٢ ، ٣٦٨ ، ٣٧٢ - ٣٧٨ ، ٣٨٢ ،
٣٨٦ ، ٣٨٧ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٥ ، ٤٠٢ ،
٤٠٤ ، ٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤١٩ ، ٤٣٣ ،
٤٤٠ - ٤٤٤ ، ٤٤٨ ، ٤٤٩ ، ٤٥١ - ٤٥٤ ،
٤٥٧ ، ٤٥٩ - ٤٦٥ ، ٤٦٩ ، ٤٧١ ،
٤٧٣ ، ٥٠٤ ، ٥٦٠ - ٥٠٨ ، ٥١٣ وج ٢ -
١١ - ١٦ ، ١٩ - ٢٢ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٩ -
٤٥ ، ٤٨ ، ٥٤ ، ٦٧ - ٦٩ ، ٧٤ ، ٧٥ ،
٨٨ ، ٩٣ - ٩٦ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٧ -
١١٠ ، ١١٤ ، ١٣٥ ، ١٣٨ ، ١٤٥ ،
١٧٤ - ١٧٧ ، ١٩٠ ، ١٩٩ ، ٢٢١ -
٢٢٤ ، ٢٢٧ - ٢٣٠ ، ٢٤٨ ، ٢٥٧ ،
٢٧٠ ، ٢٧٧ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٣٥٠ -
٣٥٣ ، ٣٥٩ - ٣٦٤ ، ٣٩٠ ، ٤٠١ ، ٤١٣ ،
٤١٦ - ٤١٨ ، ٤٢٠ - ٤٢٥ ، ٤٣٢ ، ٤٤٣ ،
٤٦٦ - ٤٧٠ ، ٤٧٤ ، ٤٧٦ ، ٤٨٧ ، ٤٨٩ ،
٤٩٤ ، ٥٧٤ ، ٥٨٧ ، ٥٨٩ ، ٥٩٨ ،
٥٩٩ ، ٦١٨ ، ٦٢٩ ، ٦٤١ ، ٦٤٧ -
٦٥٣ ، ٦٥٦ - ٦٦٢ ، ٦٦٤ ، ٦٦٥ ، ٦٦٨ ،
٦٧٠ - ٦٧٨ ، ٦٨٢ - ٦٨٥ ، ٦٩١ ، ٦٩٣ ،
٦٩٥ ، ٧٠٥ ، ٧١٢ - ٧١٥ ، ٧٢١ ،
٧٢٣ ، ٧٢٥ .
قرطمة ؛ ج ٢ - ٣١٩ .
قرقشونة ؛ ج ١ - ٥٠٠ ، ٥٠١ .
قرمونة ؛ ج ١ - ٣٢٨ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ،
٣٧٥ ، ٣٨١ ، ٤٨٦ ، ٣٨٧ وج ٢ - ج ٢ -
٧١ ، ٤٧٤ ، ٤٧٦ .
قسطلونة ؛ ج ١ - ٤٦٤ وج ٢ - ٤٤٠ ، ٤٤٤ ،
٤٤٩ ، ٤٦١ ، ٤٦٤ .
قسطنطينية ؛ ج ٢ - ٢٩٤ ، ٢٩٥ .
قسطيلة ( إفريقية ) ؛ ج ٢ - ٣٧٦ .
قسنطانة ( دانية ) ؛ ج ٢ - ٦٧٤ ، ٦٧٨ .
قسنطينة ؛ ج ١ - ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٩٩ ،
٣٠١ ، ٣٧٩ ، ٤٠٧ وج ٢ - ١٠٦ ، ١٥١ ،
١٥٢ ، ١٦٠ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٣٧٦ ،
٣٨٠ ، ٦٢٥ ، ٧٠١ .
قشتالة ؛ ج ١ - ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٧ - ٧٥ ،
٨٧ ، ٨٨ ، ٩٢ ، ١٠٣ ، ١٢٠ ، ١٢١ ،
١٢٦ - ١٣٠ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٦ ،
١٤٢ ، ١٥٠ ، ٣٤٦ ، ٣٦٧ ، ٣٦٨ ،
٣٧١ ، ٣٩٤ ، ٤٢٨ ، ٤٧٦ ، ٤٧٨ - ٤٨٩ ،
٤٩١ ، ٤٩٣ ، ٤٩٥ - ٤٩٨ ، ٥٠٢ ، ٥٠٥ -
٥٠٩ ، ٥١٢ ، ٥١٥ - ٥١٩ ، ٥٢٤ ، ٥٢٦ ،
وج ٢ - ٣١ ، ٣٢ ، ٣٧ ، ٤٢ ، ٤٧ ، ٦٨ ،
٧٦ ، ٨٤ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٩١ ، ٩٦ ، ١١٨ ،
١١٩ ، ١٨٢ ، ٢٠٠ ، ٢١٣ - ٢١٦ ،
٢١٩ - ٢٢١ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣٣ ، ٢٨٣ ،
٢٨٤ ، ٢٨٧ - ٢٩١ ، ٢٩٣ - ٢٩٧ ،
٣٠٠ ، ٣٠٤ ، ٣١٢ ، ٣٢١ ، ٣٣٣ ،
٣٣٤ ، ٣٣٨ ، ٣٤١ ، ٣٤٣ ، ٣٥٨ ،
٣٩٩ - ٤٠١ ، ٤٢١ ، ٤٤٣ ، ٤٥٧ ، ٤٥٨ ،
٤٦١ ، ٤٦٣ ، ٤٦٧ ، ٤٦٨ ، ٤٧٤ ،
٤٩٣ ، ٥٧٤ ، ٥٨٣ - ٥٨٩ ، ٥٩٣ - ٥٩٩ ،
٦٠٢ ، ٦٠٣ ، ٦٠٦ - ٦٠٨ ، ٦١٩ .
قصبة إشبيلية ؛ ج ٢ - ١١٧ ، ٤١٥ .
قصبة أقليش ؛ ج ١ - ٦١ ، ٦٨ .
قصبة المرية ؛ ج ١ - ٣٤٦ .
قصبة بطليوس ؛ ج ٢ - ٣٦ ، ٣٨ ، ٤١ ،
١٣٧ ، ٦٤٠ .
قصبة بياسة ؛ ج ٢ - ٣٦٠ ، ٣٦٢ .
قصبة تادلة ؛ ج ١ - ٢٥٥ .
قصبة تلمسان ؛ ج ١ - ٢٦٧ .
قصبة تونس ؛ ج ٢ - ٢٦٢ .
قصبة رباط الفتح ؛ ج ١ - ٢٥٩ وج ٢ - ١٦٨ ، ٥٤٧ .

قصبة سلا ؛ ج ٢ - ٥٤٨ ، ٥٤٩ .
قصبة شلب ؛ ج ٢ - ١٨٨ .
قصبة شنترين ؛ ج ٢ - ١٢٢ ، ١٢٣ .
قصبة غرناطة ؛ ج ١-٣٨٩ ، ٣٩١ وج ٢-٤٣٠ .
قصبة قونقة ؛ ج ٢ - ٨٠ .
القصر ( بلدة ) ؛ ج ١ - ١١٠ وج ٢ - ٧٥ ، ٨٨ .
القصر الكبير ( قصر عبدالكريم ) ؛ ج ١ - ٣٣٩ وج ٢ - ٢٢ ، ١٤١ ، ٥١٣ ، ٥١٤ .
قصر ابن عباد ؛ ج ١ - ٣٨٧ وج ٢ - ٥٦ ، ٧٠ ، ٨٤ ، ٢٣٠ .
قصر ابن فاخر ؛ ج ٢ - ٣٧٩ .
قصر أبي دانس ( قصر الفتح ) ؛ ج ٢ - ٢٥ ، ٨٦ ، ١٨٤ - ١٨٧ ، ٣٣٨ - ٣٤١ ، ٤٠٠ ، ٦١٠ ، ٦١١ ، ٦٤٠ .
قصر الجعفرية ؛ ج ١ - ٩٣ ، ٩٤ .
قصر السيد ؛ ج ٢ - ٣٣١ .
قصر الشراجب ؛ ج ١ - ٣٣٠ .
قصر العروسين ؛ ج ٢ - ١٩٥ ، ٣٧٤ .
قصر المدينة ؛ ج ١ - ٧٧ وج ٢ - ٤٠٧ .
قصر دار الحجر ؛ ج ١ - ٢٦٣ ، ٢٦٧ ، ٢٨٧ وج ٢ - ٦٣ ، ١٤٣ .
قصر شريش ؛ ج ٢ - ٤٨٩ .
قصر قرطبة ؛ ج ١ - ٨٢ وج ٢ - ٧٥ ، ٤٢٥ .
قصر كتامة ( القصر الصغير ) ؛ ج ٢ - ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٥٥٠ .
قصر مصمودة (الصغير) ؛ ج ٢-١٣٢ ، ١٧٢ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٩٨ ، ٦٣٣ .
قصور إفريقية ؛ ج ١ - ٢٩٦ .
قصور لانة ؛ ج ٢ - ٢٥٤ .
قطلونية ؛ ج ١ - ٧٦ ، ٩٠ ، ١١٦ ، ٣٤٦ ، ٤٢٢ ، ٤٨٩ ، ٥٠٠ ، ٥٠١ ، ٥٠٢ ، ٥٠٥ ، ٥٠٨ وج ٢ - ٤٧ ، ٥٢ ، ٢٨٤ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٤٤٤ ، ٤٦٤ ، ٦٠١ ، ٦٠٤ ، ٦٠٧ .
قفصة ؛ ج ١ - ٢٩٦ ، وج ٢ - ١٠٠ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١٣٤ ، ١٤٩ ، ١٥٣ ، ١٦١ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ٢٥٤ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٨ .
القلعة أو القلاعة ( موقعة ) ؛ ج ١ - ١٥ ، ١١٧ - ١٢٠ ، ٤٩١ ، ٥٤١ ، ٥٤٤ .
القلعة ( إشبيلية ) ؛ ج ٢ - ٤٣٥ ، ٤٧٦ ، ٤٧٧ ، ٤٨٨ .
القلعة الحمراء ؛ ج ١ - ٣١٧ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ .
قلعة النسور ؛ ج ١ - ٦٢ ، ٥٣٦ .
قلعة الولجة ج ١ - ٢٣٨ .
قلعة أورسينه ؛ ج ٢ - ٤٩٢ ، ٤٩٣ .
قلعة أورشة ؛ ج ٢ - ٤٩٢ ، ٤٩٣ .
قلعة أيوب ؛ ج ١ - ٧٤ ، ١٠٣ ، ١٢٥ ، ٤٥٦ ، ٤٩٧ ، ٥١٨ وج ٢ - ٣٩٦ ، ٤٤٢ ، ٦٧٨ .
قلعة باديس ؛ ج ١ - ٢٣٨ .
قلعة بنى حماد ؛ ج ١ - ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٩٢ وج ٢ - ١٥٠ ، ١٩٣ ، ٣٤٩ ، ٦٩٢ .
قلعة تازاجورت ؛ ج ١ - ٢٢٥ ، ٢٨٨ .
قلعة تاماريت ؛ ج ١ - ٨٨ .
قلعة جابر ؛ ج ١ - ٣٨٦ وج ٢-٧١ ، ١٧٤ ، ٤٣٢ ، ٤٧٤ .
قلعة جيان ؛ ج ٢ - ٤٦٧ .
قلعة رباح ؛ ج ١ - ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٥ ، ١٤٢ ، ١٥١ ، ٣٧١ ، ٥٠٧ ، ٥١٤ ، ٥١٩ وج ٢ - ٨٨ ، ١٠٥ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢٢٠ ، ٢٨٤ ، ٢٨٧ ، ٢٩٢ ، ٢٩٦ - ٢٩٨ ، ٣١٨ ، ٥٩١ .
قلعة عبد السلام ؛ ج ١ - ٦٢ ، ٥٣٦ وج ٢- ٢١٥ ، ٢٢٩ ، ٥٨٧ ، ٥٩٥ .
قلعة كاستيلار ؛ ج ١ - ٤٨٠ ، ٤٨١ .
قلعة مجريط ج ٢ - ٢٢٩ ، ٥٩٥ .
قلعة مورة ؛ ج ١ - ٥٠٦ ، ٥٠٧ .
قلعة موشروش ؛ ج ١ - ٤٤٠ .
قلعة مونريال ؛ ج ١ - ١٠٤ ، ٥١٨ .
قلعة مونكادة ؛ ج ٢ - ٤٤٠ .
قلعة هنارس ؛ انظر قلعة عبد السلام .
قلعة يحصب ( بنى سعيد ) ؛ ج ١-١١١ ، ٣٣٢ ، ٣٨٥ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠ ، ٤٥٢ ، ٤٧٠ وج ٢-٧٠٨ .
قلمرية ؛ ج ١ - ٧٠ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٩٠ ، ٥٢٢ - ٥٢٦ وج ٢ - ٢٦ ، ٣٨ ، ٩٨ ، ٦١١ .
قلهرة ؛ ج ١ - ٤٩٥ ، ٥٠٦ ، ٥٠٩ .
قليبرة ( غليرة ) ؛ ج ١ - ١٢٠ وج ٢ - ٤٥٠ ، ٤٥٦ .
قناليش ؛ ج ١ - ٦٩ .
قنطرة طريانة ؛ ج ٢ - ١١٧ ، ١١٣٧ ، ٤٨٣ ، ٦٤١ .
قنطلانة ؛ ج ٢ - ٤٧٦ .
قورية ؛ ج ١-٥٠٤ ، ٥٠٦ ، ٥١٣ ، وج ٢-٤٨١ .

قوص (مصر) ؛ ج ١ - ٤٦٨ وج ٢ - ٦٧٦.
قولجر ؛ ج ١ - ١٠٦ .
قونقة ؛ ج ١ - ٦٦ ، ٧١ ، ١٢٣ ، ١٤٨ ، ١٥٠ ، ٣٥٨ ، ٣٦٢ وج - ٨٠ ، ٨١ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٢٣٠ ، ٣٥٤ ، ٥٨٥ ، ٥٩٥ .
قبجاطة ؛ ج ٢ - ٤٨ ، ٣٥٢ ، ٣٥٧ .
القيروان ؛ ج ١ - ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠٢ ، ٤٧٣ وج ٢ - ٦١ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ٢٥٤ ، ٢٦٤ ، ٢٦٨ ، ٣٧٩ .
كامبودى سبينا ؛ ج ١ - ٤٨١ ، ٥٢٤ .
كاسولا ، معاهدة ؛ ج٢-٤٤٣ ، ٥٨٦ ، ٦٠١ ، ٦٠٢
كدية ابن مردنيش ؛ ج ١ - ٣٨٨ .
الكرس ؛ ج ٢ - ٢٣٠ ، ٤٦٠ ، ٥٩١ .
كركى ؛ ج ١ - ١٤٢ .
كريون ؛ ج ١ - ٥٠٥ ، ٥٠٦ ، ٥٠٩ ، وج ٢ - ١٩٩ ، ٢٢٠ ، ٢٣٣ ، ٥٨٦ ، ٥٨٧ ، ٥٩٤ .
كنيسة الأرك ؛ ج ٢ - ٢٠٣ ، ٢٠٤ .
كنيسة إشبيلية العظمى ؛ ج ٢ - ٧٢ ، ٧٤ ، ٢٣٢ ، ٦٢٥ .
كنيسة سان سالبادور (سرقسطة) ؛ ج١ - ١٠١ .
كنيسة شنت ياقب ؛ ج ٢ - ٤٢٥ .
كنيسة القديس بطرس ؛ ج ٢ - ٣١٧ ، ٦٠٤ .
كنيسة لاسيو (سرقسطة) ؛ ج ١ - ١٠١ .
كنيسة مراكش ؛ ج ٢ - ٣٧٢ ، ٣٨٣ ، ٥١٧ ، ٦٣٦ .
الكوفة ؛ ج ١ - ٣٤٣ .
كومبة ، بلاد ؛ ج ١ - ٢٤٠ .

## ل ـ م

لاردة ؛ ج ١ - ٧٥ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٩٢ - ٩٤ ، ١٠٨ ، ١١٧ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ٣٣٥ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٥٠٠ - ٥٠٢ ، ٥٠٨ ، ٥١١ ، ٦٠٥ .
لاكارولينا ؛ ج ٢ - ٣٠١ .
لاميجو ؛ ج ١ - ٥٢٤ ، ٥٢٧ .
لبلة ؛ ج ١ - ٣٠٧ - ٣١٠ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣٢٣ ، ٣٢٧ ، ٣٣٤ ، ٣٤٠ ، ٣٤٤ ، ٣٤٧ ، ٤٤١ ، ٤٥٩ ، ٤٦١ ، وج ٢ - ٢٠ ، ٣٧ ، ٩٨ ، ١٠٢ ، ٢٢١ ، ٣٥٤ ، ٤١٦ ، ٤٧٨ ، ٤٨٥ ، ٤٨٦ ، ٤٩٠ - ٤٩٣ ، ٦٤٠ ، ٦٥٢ ، ٦٧٤ ، ٦٨٣ .
لقنت ؛ ج ٢ - ٤٥٦ - ٤٦١ ، ٤٦٣ ، ٥٨٦ ، ٦٠٦ .
اللج ؛ ج ١ - ٣٦١ .
لوبية ؛ ج ٢ - ٥٧٣ .
لوجارا ؛ ج ٢ - ٥٣٥ .
لوجرنيو ؛ ج ٢ - ٥٨٥ ، ٥٨٦ .
لورقة ؛ ج ١ - ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٦٧ ، ٤٧٧ وج ٢ - ١٦ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ٣٩٢ ، ٤٥٨ - ٤٦١ ، ٤٦٤ ، ٦٥٤ .
لورة ؛ ج ٢ - ٤٧٦ .
لوزيتانيا ؛ ج ١ - ٤٧٨ ، ٥٢١ - ٥٢٣ .
لوشة ؛ ج ١ - ٣٣٣ وج ٢ - ٣٥٩ ، ٦٩٢ .
ليون (مملكة ومدينة) ؛ ج ١ - ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٤١ ، ٤٧٩ ، ٤٨١ ، ٤٨٣ ، ٤٨٤ ، ٤٩٠ ، ٤٩٦ ، ٥٠٦ ، ٥١٥ ، ٥١٧ وج٢ - ٣١ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ١١٨ ، ١٩٩ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٨٣ - ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٩٥ ، ٣٩٩ ، ٤٠١ ، ٤٢٠ ، ٤٧٦ ، ٥٨٤ ، ٥٨٧ ، ٥٨٩ ، ٥٩٣ - ٥٩٩ ، ٦٠٣ .
ماردة ؛ ج ١ - ٣٢ ، ٣٣ ، ٥٢٢ وج٢ - ٢٧ ، ٣٤ ، ٣٧ ، ٩٨ ، ٣٤٠ ، ٣٩٣ ، ٣٩٩ - ٤٠١ ، ٤١١ ، ٥٩٥ - ٥٩٧ ، ٦٤١ .
مازرة ؛ ج ٢ - ٢٧٩ .
ماسة ؛ ج ٢ - ٥٧١ .
ماغوصة ؛ ج١ - ١٨٠ .
مالقة ؛ ج ١ - ٣٢ ، ٣١٥ - ٣٢١ ، ٣٣٦ ، ٣٣٩ ، ٣٨٢ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٤١٦ ، ٤١٩ ، ٤٣١ ، ٤٤٧ ، ٤٥٢ ، ٤٦٥ وج٢ ٩٩ ، ١٠٢ ، ١١٤ ، ١٧٩ ، ٣٤٩ - ٣٥٣ ، ٣٨٥ ، ٣٩٢ ، ٤١١ ، ٤٣٠ ، ٤٣١ ، ٤٦٦ ، ٥١٠ ، ٥٥١ ، ٥٩٨ ، ٦١٨ ، ٦٢٩ ، ٦٣٨ ، ٦٤١ ، ٦٥٠ ، ٦٥٢ ، ٦٥٤ ، ٦٥٧ ، ٦٦١ ، ٦٦٢ ، ٦٧٣ - ٦٧٥ ، ٦٩٦ ، ٧٠٤ ، ٧١٤ .
مالى ؛ ج ١ - ٤١٣ .
مائدة الملك ؛ ج ٢ - ٣٠٢ ، ٣٠٤ ، ٣٠٦ ، ٣٠٨ ، ٣١١ .
المتحف البريطانى ؛ ج ١ - ١٧ وج ٢ - ٧٠٩ .
متيجة ؛ ج ١ - ١٦٦ وج ٢ - ٣٧٦ .
مجدول ؛ ج ٢ - ٣٧٥ .
مجريط ؛ ج ١ - ٦٨ ، ٦٩ .
المدرسة النظامية ؛ ج ١ - ١٦١ .

مدلين ؛ ج ١ - ٤٨١ .
المدينة ؛ ج ١ - ١٦١ ، ٢٠١ ، ٢٩٧ ،
٢٩٨ ، ٣٤٣ .
مدينة ردريجو ؛ ج ٢ - ٣١ ، ٣٦ ، ٣٧ ،
٩٢ ، ١١٩ ، ١٢٥ .
مدينة سالم ؛ ج ٢ - ٤٨١ .
مدينة مصر ؛ ج ٢ - ٢٤٢ .
المخزن ؛ ج ١ - ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٣ وج ٢ -
٦٩ ، ٧١ ، ١١٥ ، ٦١٩ ، ٦٢٠ .
مراكش ؛ ج ١ - ١١ ، ٢٥ ، ٣٨ - ٤٠ ،
٥٣ - ٥٥ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٨٥ ،
١١٣ - ١١٥ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٣٤ ،
١٤٣ - ١٤٦ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ،
١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧٢ ، ١٧٨ ، ١٨٢ ،
١٨٤ - ١٨٦ ، ١٨٩ ، ٢١٢ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ،
٢٣٠ - ٢٣٤ ، ٢٤١ ، ٢٤٣ ، ٢٤٩ ،
٢٥٠ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٩ - ٢٦٧ ، ٢٦٩
٢٧٠ ، ٢٧٤ - ٢٨٢ ، ٢٨٥ - ٢٨٨ ، ٢٩٢ -
٢٩٤ ، ٣١١ ، ٣١٥ ، ٣٢٠ - ٣٢٢ ، ٣٢٥ ،
٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٥ ، ٣٣٧ ، ٣٤٠ -
٣٤٥ ، ٣٤٨ - ٣٥٢ ، ٣٥٧ ، ٣٦٠ ،
٣٨٦ ، ٣٨٨ ، ٣٩٣ ، ٣٩٥ - ٣٩٨ ، ٤٠٢
٤٠٣ ، ٤١٤ ، ٤١٥ ، ٤٢٥ ، ٤٣١ -
٤٣٥ ، ٤٤٢ - ٤٤٨ ، ٤٥٧ ، ٤٥٨ ،
٤٦٢ ، ٤٦٤ ، ٤٦٥ ، ٤٧٤ ، ٥٠٧ ، ٥٤١ ،
٥٤٣ ، ٥٤٤ ، وج ٢ - ١١ - ٢٠ ، ٢٢ ،
٢٣ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٤٢ - ٤٥ ، ٦٢ - ٦٦ ،
٧٢ ، ٧٣ ، ٧٩ ، ٨٧ ، ٩٣ - ٩٧ ، ١٠٦ ،
١٠٩ - ١١٢ ، ١١٥ ، ١٣٢ ، ١٣٧ ، ١٤١ ،
١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٥٤ ، ١٥٧ ، ١٥٩ ،
١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧٥ ،
١٧٩ ، ١٨١ - ١٨٤ ، ١٨٩ ، ١٩١ ،
١٩٢ ، ١٩٥ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٠٩ ،
٢٢٤ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٢٣٤ ، ٢٤٦ ٢٥١ ،
٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٦٠ ، ٢٦٣ - ٢٦٦ ،
٢٧١ ، ٢٧٨ ، ٢٨٥ ، ٢٩٠ ، ٣٢٢ ، ٣٢٤ ،
٣٣٢ ، ٣٤٢ - ٣٤٥ ، ٣٤٩ ، ٣٥٢ ،
٣٥٥ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٤ - ٣٧١ ،
٣٨٠ - ٣٨٤ ، ٣٩١ ، ٤٢٩ ، ٤٧٠ ،
٤٩٣ ، ٤٩٧ - ٤٩٩ ، ٥٠٣ - ٥١١ ، ٥١٢ ،
٥١٤ ، ٥١٨ - ٥٢٥ ، ٥٢٧ ، ٥٢٩ ،
٥٣٦ ، ٥٣٧ ، ٥٤٠ - ٥٤٦ ، ٥٥٢ -
٥٥٦ ، ٥٥٩ - ٥٦٢ ، ٥٦٦ - ٥٦٨ ، ٥٧٠ -
٥٧٣ ، ٥٧٦ ، ٥٧٨ - ٥٨٠ ، ٥٨٨ ، ٦١٦ ،
٦١٨ ، ٦٢٧ - ٦٣٠ ، ٦٣٢ ، ٦٣٧ ،
٦٤٧ ، ٦٥١ ، ٦٥٣ - ٦٥٥ ، ٦٦٠ - ٦٦٦ ،
٦٧١ - ٦٧٥ ، ٦٧٧ ، ٦٨٧ ، ٦٩١ ، ٦٩٣ ،
٦٩٥ - ٧٠٠ ، ٧٠٣ ، ٧١٢ ، ٧١٣ ، ٧١٧ ،
٧١٨ ، ٧٢٠ ، ٧٢٣ ، ٧٢٥ .
مربيطر ؛ ج ١ - ٤٦٠ - وج ٢ - ٤٦١ ، ٦٠٢ .
المرج (غرناطة) ؛ ج ١ - ١١٢ ، ٣٨٨
وج ٢ - ٤٠١ ، ٤٦٧ ، ٤٦٨ .
مرج الرقاد ؛ ج ٢ - ٥٤ .
مرسانة ؛ ج ١ - ١١١ .
مرسى هنين ؛ ج ١ - ٢٢٤ .
مرسية ؛ ج ١ - ١١ ، ٣٠ - ٣٣ ، ٦١ ،
٦٤ ، ٦٦ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٨٩ ، ٩٩ ، ١٠٤ ،
١٠٨ ، ١١٠ ، ١١٢ ، ١٢٢ ، ١٤٢ ،
١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ٣١٤ ، ٣١٧ ،
٣١٨ ، ٣٢١ ، ٣٣٥ ، ٣٥٥ - ٣٦٤ ،
٣٦٧ ، ٣٦٩ ، ٣٧١ - ٣٧٤ ، ٣٨٧ ،
٣٩٠ ، ٤٠٤ ، ٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤١٩ ،
٤٤٥ ، ٤٥٠ ، ٤٥٥ ، ٤٥٩ ، ٤٦٠ ، ٤٦٤ ،
٤٦٨ ، ٤٧٧ ، ٥٠٤ ، ٥٠٩ ، وج ٢ -
١٦ ، ١٧ ، ١٩ ، ٤٤ ، ٤٨ ، ٥٠ - ٥٥ ،
٦٨ ، ٧٨ ، ٨٣ ، ٨٥ ، ٩٢ ، ١١٠ ،
١٤٧ ، ١٦٧ ، ١٧٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧٧ ،
٢٨٤ ، ٣٤٤ ، ٣٤٧ ، ٣٥٠ ، ٣٥١ ،
٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٩٠ - ٣٩٤ ، ٤١١ - ٤١٤ ،
٤٢١ ، ٤٢٦ - ٤٢٩ ، ٤٤٦ ، ٤٥٧ - ٤٦٤ ،
٦٠٦ ، ٦١٨ ، ٦٤١ ، ٦٤٣ ، ٦٤٧ ،
٦٤٨ ، ٦٥٠ ، ٦٥١ ، ٦٥٤ - ٦٦٠ ،
٦٦٢ ، ٦٦٣ ، ٦٦٧ ، ٦٧١ ، ٦٧٣ ،
٦٧٥ ، ٦٧٧ - ٦٧٩ ، ٦٨٢ ، ٦٨٩ - ٦٩٣ ،
٦٩٩ ، ٧١٣ ، ٧١٧ ، ٧١٨ ، ٧٢٦ .
المرشة ؛ ج ٢ - ٣٠١ ، ٣٢٢ .
مرله ؛ ج ٢ - ٣٩٧ ، ٤١٩ .
المزمة ؛ ج ١ - ٢٣٨ .
مسينى ؛ ج ٢ - ٢٧٩ .
المشرق ؛ ج ١ - ٥١ ، ٧٨ ، ١٦٣ ، ١٦٤ -
١٦٦ ، ١٦٨ ، ١٧٦ ، ٢٠٤ ، ٢١٦ ،
٢٢٤ ، ٤٤٩ ، ٤٥٦ ، ٤٦١ ، ٤٦٧ ،
٤٦٨ ، ٤٧٣ ، ٥٠١ ، ٥١٨ وج ٢ - ٦١ ،
١٨٢ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ٢٣٨ ، ٢٤١ ،

٢٤٤ ، ٣٣٨ ، ٣٤٠ ، ٦٠١ ، ٦٠٩ ، ٦١٠ ،
٦٥٩ ، ٦٦٠ ، ٦٦٨ ، ٦٧٥ - ٦٧٩ ،
٦٨٣ ، ٦٨٤ ، ٦٨٧ ، ٦٩١ ، ٦٩٥ ،
٦٩٧ ، ٦٩٩ ، ٧٠٣ ، ٧٠٤ ، ٧١٣ ، ٧١٦ .
مصر ؛ ج ١ - ١٥٧ ، ٢٠٧ ، ٢٨١ ، ٢٩١ ،
٢٩٨ ، ٤٠٤ ، ٤٧١ - ٤٧٣ وج ٢ - ١٥٥ ،
١٥٨ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ٢٤١ - ٢٤٤ ،
٦٧٩ ، ٦٨٣ ، ٧٠٣ ، ٧١٧ ، ٧٢٣ .
مصطروكن ؛ ج ١ - ٢٢٩ .
المصورة ؛ ج ٢ - ٤٤٠ .
المعمورة ؛ ج ١ - ٢٧٩ ، ٣٩٣ وج ٢ - ٦٦ .
معهد الدراسات الإسلامية ؛ ج ١ - ١٢ ، ١٤ ، ١٥ .
المغرب ؛ ج ١ - ٧ ، ١٢ - ١٤ ، ٢٥ - ٢٩ ،
٣١ ، ٣٢ ، ٣٦ - ٤١ ، ٤٣ - ٤٥ ، ٥٠ -
٥٦ ، ٥٨ - ٦٠ ، ٧٣ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ٧٩ ،
١١٣ ، ١١٤ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٩ ،
١٥٤ ، ١٥٧ ، ١٦١ - ١٦٤ ، ١٧٦ ،
١٩٣ ، ٢١٤ ، ٢١٦ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ،
٢٣٠ ، ٢٣٢ ، ٢٣٦ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ،
٢٤٧ - ٢٤٩ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٩ ، ٢٩٠
٢٩٤ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٥ ،
٣٠٦ ، ٣١٠ - ٣١٢ ، ٣١٥ ، ٣٢٠ - ٣٢٣ ،
٣٢٩ ، ٣٣١ ، ٣٤٣ ، ٣٤٨ ، ٣٥٢ ،
٣٥٣ ، ٣٦٠ ، ٣٧٢ ، ٣٧٧ ، ٣٨١ ،
٣٨٢ ، ٣٨٦ ، ٣٨٧ ، ٣٩٢ ، ٣٩٨ ،
٣٩٩ ، ٤٠٢ ، ٤٠٤ ، ٤٠٦ ، ٤٠٧ ،
٤١٠ ، ٤١١ ، ٤١٥ - ٤٢٠ ، ٤٢٨ ، ٤٣٣ -
٤٣٨ ، ٤٤٠ ، ٤٤٥ ، ٤٤٨ ، ٤٥٢ ،
٤٥٤ ، ٤٥٦ ، ٤٥٨ ، ٤٦١ ، ٤٦٣ ،
٤٧٠ ، ٤٧٣ ، ٥٣٢ ، وج ٢ - ١٣ ، ٢٢ ،
٢٣ ، ٢٨ ، ٣٤ ، ٦٥ ، ٦٩ ، ٩٠ ، ٩١ ،
٩٥ ، ١٠٥ ، ١٠٨ ، ١١١ ، ١٣٦ ، ١٤٢ ،
١٤٣ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٦٦ ، ١٦٨ ،
١٧٠ ، ١٨١ - ١٨٩ ، ١٩٨ ، ٢١٦ ، ٢٢٣
٢٢٦ ، ٢٣٧ ، ٢٤١ ، ٢٤٣ - ٢٤٦ ، ٢٥٠
٢٥١ ، ٢٧٠ - ٢٧٣ ، ٢٧٧ ، ٢٨٥ ، ٢٩٠
٣١٤ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ،
٣٢٨ ، ٣٣٠ - ٣٣٤ ، ٣٣٦ ، ٣٣٨ ، ٣٤١
٣٤٢ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٥٠ - ٣٥٢ ،
٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٦٤ ، ٣٦٦ ، ٣٦٨ ،
٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨١ ، ٣٨٩ ، ٣٩٩ ،
٤٠٦ ، ٤٠٩ ، ٤٢٩ ، ٤٣٥ ، ٤٤٦ ، ٤٦٣
٤٧١ ، ٤٨٢ ، ٤٨٦ ، ٤٨٨ ، ٤٩٣ ،
٥٠٧ ، ٥١٠ ، ٥١١ ، ٥١٨ ، ٥٢٣ -
٥٢٧ ، ٥٣٦ ، ٥٤٤ ، ٥٤٥ ، ٥٥٠ ،
٥٦٠ ، ٥٦٧ ، ٥٧١ - ٥٧٤ ، ٥٧٨ ،
٥٨٨ ، ٥٩٩ ، ٦١٥ - ٦١٨ ، ٦٢٠ -
٦٢٨ ، ٦٣٤ - ٦٤٠ ، ٦٤٣ ، ٦٤٥ - ٦٤٧ ،
٦٥٢ ، ٦٥٤ ، ٦٦٠ ، ٦٦٤ ، ٦٦٥ ،
٦٧١ ، ٦٧٥ ، ٦٧٧ ، ٦٧٩ ، ٦٨٤ ،
٦٨٧ ، ٦٨٨ ، ٦٩١ ، ٦٩٥ ، ٦٩٧ ،
٧٠١ - ٧٠٣ ، ٧١٢ - ٧١٤ ، ٧١٧ ، ٧٢١ - ٧٢٥ .
المغرب الأقصى ؛ ج ١ - ١٦٢ ، ١٦٦ ، ١٧٣ ،
٢٨٤ وج ٢ - ٥٤٢ ، ٥٥١ ، ٥٧٠ ، ٥٧٢ ، ٥٧٦
المغرب الأوسط ؛ ج ١ - ٢٥٤ ، ٢٨٠ ،
٢٨١ ، ٢٨٤ ، ٣٠٠ ، ٣٤٦ ، وج ٢ -
٢٧٢ ، ٣٣٥ ، ٥١٨ ، ٥٤٢ ، ٥٧٦ .
مقبرة ابن عباس ( قرطبة ) ؛ ج ٢ - ٢٢٨ .
مقبرة باب تاغزوت ( مراكش ) ؛ ج ٢ - ٢٢٨
المقرمدة ؛ ج ١ - ٢٥٥ .
مقرة ؛ ج ٢ - ١٥٣ .
مقرينة ( إشبيلية ) ؛ ج ٢ - ٤٨١ .
مكتبة الإسكوريال ؛ ج ١ - ١٤ ، ١٦ ،
١٧ وج ٢ - ٧٠٧ ، ٧١٠ .
المكتبة البودلية ( أكسفورد ) ؛ ج ١ - ٧ .
مكتبة جامع القرويين ؛ ج ١ - ١٣ ، ١٤ ، ٣٨
مكناسة الأندلس ؛ ج ١ - ١٢١ ، ١٢٢ ،
٣٣٥ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٤٨٩ ، ٤٩١ ، ٥٠٨
مكناسة المغرب ؛ ج ١ - ١١٤ ، ١٦٧ ،
٦٣٥ ، ٢٥٦ — ٢٥٩ ، ٢٧٤ ، ٢٧٧ ،
٢٨٠ ، ٢٨٥ ، ٤١٥ ، وج ٢ - ٥٧ ،
١١٥ ، ١٣٢ ، ١٦٧ ، ١٩٧ ، ٢٧١ ،
٣٣٦ ، ٣٦٤ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٥١١ - ٥١٣
٥٢٤ ، ٥٢٥ ، ٥٤١ ، ٥٤٢ ، ٥٤٦ ،
٥٥٥ ، ٥٧٦ ، ٦٦٠ ، ٦٦٥ ، ٧٠١ .
مكة ؛ ج ١ - ١٦١ ، ٢٩٨ ، ٤٥٥ ، ٤٥٦ ،
٤٦٧ ، ٤٦٨ وج ٢ - ٦٧٨ ، ٦٧٩ ، ٦٩٧ .
ملالة ؛ ج ١ - ١٦٥ ، ١٦٦ ، ٢٢٤ .
مليانة ؛ ج ٢ - ١٥٠ ، ١٥٢ ، ٣٧٦ ، ٣٧٨
مليلة ؛ ج ١ - ٢٤٠ ، ٤٠٤ .
ممر تولوسا ؛ ج ٢ - ٣٠١ .
ممر لوسا ؛ ج ٢ - ٣٠٦ .
ممر مورادال ( بسيط وقمة ) ؛ ج ٢ - ٣٠٠ ،
٣٠٤ ، ٣٠٦ ، ٣٥٨ .

المنارة ؛ ج ١ - ٨٧ وج ٢ - ٤٤٤ .
منار الإسكندرية ؛ ج ٢ - ٢٤٦ .
منارة حسان ؛ ج ٢ - ٢٤٦ .
منارة الكتبية ؛ ج ٢ - ٢٤٦ ، ٢٤٧ .
منت ليشم ؛ ج ٢ - ٢٤٠ .
منداس ؛ ج ١ - ٢٤٥ ، ٢٤٦ .
المنصورة ( الأندلس ) ؛ ج ١ - ١٠٨ .
المنكب ؛ ج ٢ - ٦٦٧ .
منورقة ؛ ج ٢ - ١٥٨ ، ٤٠٢ ، ٤٠٩ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ .
المهدية ؛ ج ١ - ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ٢٨٠ ، ٢٩٠ - ٢٩٧ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٤٣ ، ٣٧٣ - ٣٧٨ ، ٤٦٤ ، ٤٧٢ وج ٢ - ١٠٩ ، ١٥٨ ، ١٦٦ ، ١٩٢ ، ٢٥٢ - ٢٥٤ ، ٢٦١ - ٢٦٦ ، ٢٦٨ ، ٣٧٦ ، ٣٨٠ ، ٦٣٥ ، ٦٣٨ ، ٦٣٩ ، ٦٥٢ .
مورتلة ؛ ج ١ - ٣٤٧ ، ٥١٢ وج ٢ - ٤٨ .
موقعة السبيكة ؛ ج ١ - ٣٩٠ ، ٣٩٢ ، ٤٤٦ وج ٢ - ٥٤ .
موقعة العقاب ؛ انظر العقاب .
موقعة المشعلة ؛ ج ٢ - ٣٣٧ .
موقعة المنار ؛ ج ٢ - ١٧٨ .
موقعة أم الرجلين ؛ ج ٢ - ٥٥٣ ، ٥٥٥ .
موقعة كتندة ؛ ج ١ - ١٣ ، ٨٢ ، ١٠٣ ، ١٠٨ ، ١٣١ ، ١٤٨ ، ١٥١ ، ٤٥٦ ، ٥١٨ وج ٢ - ٦٨٨ .
موررور ؛ ج ١ - ٤٦١ .
الموصل ؛ ج ٢ - ٧١٤ .
موريتانيا ؛ ج ١ - ٢١٢ ، ٤١٣ .
مولة ؛ ج ٢ - ٤٦١ .
مونبلييه ؛ ج ٢ - ٦٠٣ .
مونتشون ؛ ج ١ - ٨٧ ، ٤٩٥ ، ٥١٨ .
ميرانده دل ري ؛ ج ٢ - ٣٠٢ .
ميرتلة ؛ ج ١ - ٣٠٨ ، ٣١٠ ، ٣١١ وج ٢-٨٧ ، ٩٨ ، ٣٤٠ ، ٤٩٢ ، ٦١٠ ، ٦١١
ميورقة ( جزيرة ) ؛ ج ١ - ٥٩ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ٢٣٢ ، ٣٤٩ ، ٣٥١ ، ٣٥٦ ، ٣٧٠ ، ٤٦٠ ، ٥٠٠ وج ٢ -١٤٥ - ١٤٩ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ٢٥٤ ، ٢٥٧-٢٦١ ، ٢٦٣ ، ٢٧٧ ، ٣٢٥ ، ٣٥٠ ، ٣٩٧ ، ٤٠٢ - ٤٠٨ ، ٤٣٨ ، ٥٧٥ ، ٥٧٦ .
ميورقة ( مدينة ) ؛ ج ١ - ٧٦ ، ٧٧ وج ٢- ١٤٤ ، ٢٦٠ ، ٤٠٥ - ٤٠٧ ، ٦٥٠ .

## ن — ى

ناجرة ؛ ج ١ - ٤٧٩ ، ٤٩٥ .
ناصرة ؛ ج ١ - ٢٩٩ .
ناڤارا ( نبره ) ؛ ج ١ - ٨٧ ، ١٢٠ ، ٣٤٦ ، ٣٧١ ، ٤٩٥ - ٤٩٧ ، ٥٠٢ ، ٥٠٥ - ٥٠٩ ، ٥١١ ، ٥١٣ ، ٥١٥ ، ٥١٧ ، ٥٢٦ ، وج ٢ - ١٩٩ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٥٨٣ - ٥٨٦ ، ٥٨٨ ، ٥٨٩ ، ٥٩٥ ، ٦٠١ - ٦٠٣ ، ٦٠٧ - ٦٠٩ .
ناڤاس دي تولوسا ؛ ج ٢ - ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٦ ، ٣١٣ ، ٣٢٠ .
نفاوس : ج ٢ - ١٥٣ .
نفزاوة ؛ ج ٢ - ٢٦٤ .
نفطة ؛ ج ٢ - ١٦٤ ، ٣٧٦ .
نواوة : ج ٢ - ١٦٤ .
نوليس ؛ ج ٢ - ٤٤٤ .
نهر التاجه ؛ ج ١ - ٤٩ ، ٥٥ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ١٤٠ ، ١٥١ ، ٣٤٥ ، ٤٩٣ ، ٥١٥ ، ٥٢٢ - ٥٢٦ وج ٢ - ٢٤ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٦٨ ، ٨٩ ، ٩٦ ، ١٠٤ ، ١١٨ - ١٢٠ ، ١٢٦ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ٢١٨ - ٢٢٠ ، ٣٤٠ ، ٥٧٣ ، ٥٧٤ .
نهر النيجر ؛ ج ١ - ٣٨ ، ٥٥ .
نهر النيل ؛ ج ١ - ٢٩٨ ، ٢٩٩ .
نهر الوادي الأبيض ( طورية ) ؛ ج ٢ -٤٤٨ .
نهر الوادي الكبير ؛ ج ١ - ٣٣ ، ١٤٣ ، ٣١٠ ، ٥٠٤ ، وج ٢ - ٣٧ ، ٤٢ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٨٨ ، ٩١ ، ٩٣ ، ١٠٢ ، ١٢٠ ، ١٣٢ ، ١٩٢ ، ١٩٩ ، ٢١٧ ، ٢٥٧ ، ٣٠١ ، ٣٠٤ ، ٣٥٣ ، ٣٥٩ ، ٤٠٠ ، ٤١٤ ، ٤١٨ ، ٤٣١ ، ٤٧٣ - ٤٧٨ ، ٤٨٠ ، ٤٨١ ، ٤٨٩ ، ٤٩٠ ، ٥٩٩ ، ٦١٩ .
نهر إيبرو ( إبرة ) ؛ ج ١ - ٤٩ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ١٩٤ ، ١١٦ - ١١٨ ، ١٢١ ، ١٢٧ ، ٣٦٩ ، ٤٧٧ ، ٤٩٥-٤٩٨ ، ٥٠٥ ، وج٢- ٤٤٤ .
نهر حدره ؛ ج ١ - ٣٨٩ ، ٣٩٠ .
نهر خالون ؛ ج ١ - ٧٤ ، ١٢٧ .
نهر دويرة ؛ ج ١ - ٥٢٢ ، ٥٢٣ وج ٢-١١٨
نهر سجرى ؛ ج ١ - ١١٦ ، ١٢١ .

نهر سنكا ؛ ج ١ - ١١٦ - ١١٨ ، ١٢١ .
نهر شطوبر ؛ ج ٢ - ٢٥ ، ١٨٦ ، ٣٣٨ .
نهر شقر ؛ ج٢- ٨١، ٨٢، ٩٩، ٤٤٠، ٤٥٦ .
نهر شقورة ؛ ج ١ - ١٤٨ ، وج ٢ - ٣٩٠ .
نهرشليف ؛ ج٢- ١٥٠، ١٥٢، ٢٧٧، ٢٧٨ .
نهر شنيل ؛ ج ١ - ٣٨٩ وج ٢-٢٩ ، ٤٢ ،
٢٢٥ ، ٣٣١ ، ٣٥٩ ، ٤٣١ .
نهر مجانيا ؛ ج ٢ - ٣٠٤ .
نهر منيو ؛ ج ١ - ٥٢٤ .
نهر وادى لين ؛ ج ٢ - ٣٠٤ .
نهر وادى يانة ، ؛ ج ١ - ٣٠٩ ، ٣٤٨ ،
٥٠٦ ، ٥٢٢ وج ٢ - ٢٦ ، ٣٠ ، ٣٤ ،
٤١ ، ٤٥ ، ٧٠ ، ٧٦ ، ١٠١ - ١٠٤ ،
١٢٠ ، ١٨٦ ، ٢٠٠ ، ٢٠٤ ، ٢١٥ ،
٢٩٦ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٩٠ - ٤٩٣ ، ٥٧٢
٦١١ ، ٦١٢ .
نهر وزغة ؛ ج ١ - ٢٣٨ .
نيسابور ؛ ج ١ - ١٦١ ، ١٦٢ .
وادى إبسلى ؛ ج ٢ - ٥٣٣ .
وادى أبو رقراق ؛ ج ٢ - ٦٦ ، ٥٤٠ ،
٥٤٢ ، ٥٤٧ ، ٥٧٧ .
وادى آش ؛ ج ١-١٠٨، ١١٢، ٣٢٠، ٣٣٥،
٣٤١ ، ٣٤٦ ، ٣٧٢ ، ٤٥٣ وج ٢ - ٢٣ ،
٣٠ ، ٥٣ ، ٧١ ، ٤١١ ، ٤١٥ ، ٤٣٠ ،
٦٧٢ ، ٦٩٦ ، ٧١٥ .
وادى الحجارة ؛ ج ١-٦٨ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٤٤٩ .
وادى العبيد ؛ ج ٢ - ٣٨٣ ، ٥٦٨ .
وادى أم الربيع ؛ ج ١-١٨٨ ، ٢٥٩ وج ٢ -
٦٥ ، ٣٨٣ ، ٥٠٥ ، ٥٣٢ ، ٥٤٢ ،
٥٤٧ ، ٥٥٣ ، ٥٥٤ ، ٥٥٩ ، ٥٦٢ ،
٥٦٦ ، ٥٦٨ ، ٥٧٦ .
وادى تامطة ؛ ج ٢ - ٨١ .
وادى تانسيفت ؛ ج ١ - ٢١٧ وج ٢ -٤٣ ،
٦٥ ، ١٩١ ، ٥٠٣ ، ٥١٩ ، ٥٢٥ .
وادى تلاغ ؛ ج ٢ - ٥٦٧ .
وادى سبو ؛ ج ١ - ٥٦ ، ٣٩٧ وج ٢ -٦٦ ،
٣٣٧ ، ٦٣٩ .
وادى شقر ؛ ج ٢ - ٧٦ ، ٨١ ، ٣٥٥ .
وادى غفو ؛ ج ٢ - ٥٦٨ .
وادى ماسة ؛ ج ١ - ٢٧٠ ، ٢٧١ .
وادى ملوية ؛ ج ١ - ٢٣٦ وج ٢ - ٣٣٥ ،
٣٣٦ ، ٥١١ ، ٥١٨ ، ٥٢٥ ، ٥٣١ ،
٥٦٧ ، ٥٧٠ ، ٥٧٦ .
وادى نكور ؛ ج ٢ - ٣٣٧ .
و اسنات ؛ ج ٢ - ٥٢٣ .
وانشريش ؛ ج ١ - ١٦٦ .
وبذة ؛ ج ١ - ٩ ، ٢٧ ، ٦١ ، ٦٦ ، ١٤٣
وج ٢ - ٥٦ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ٨٠ ، ٨١،
٨٤ ، ٨٥، ٨٦ ، ٨٩ ، ١٠٨ ، ١١٩ ،
١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٤ ، ٢١٤ ، ٢٣٠ ،
٣٥٤ ، ٦٣٩ ، ٦٥١ .
وجدة ؛ ؛ ج ١ - ٢٤١ ، ٢٥٥ .
ودان ؛ ج ٢ - ٣٧٤ .
وهران (وموقعة) ؛ ج ١ - ٢٤٠ ، ٢٤٩ -
٢٥١ ، ٣٠٦ ، ٣٠٩ ، ٣٩٩ ، ٤٢٠ وج٢
٢٤٨ ، ٣٣٥ ، ٦١٧ ، ٦٣٩ .
يابرة ؛ ج ١ - ٧٠ ، ٧٣ ، ١٣٦ ، ١٥٢، ،
٣٠٧ ، ٣٣٠ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٥٢٢ ،
٥٢٦ ، ٥٢٨ ، وج ٢ - ٢٥ ، ٢٧ ، ٣٤ ،
٣٧ ، ٨٦ ، ١٠١ ، ١٧١ ، ٦٦٩، ٦٨٥ .
يابسة ، جزيرة ؛ ج ٢ - ١٥٨ ، ٢٥٨ ،
٢٥٩ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٤٠٨ ، ٤٨٣ .

# فهرست القبائل والطــوائف والدول


— ا —

أبناء الجماعة ؛ ج ١ - ١٧٤ ، ١٩٦ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٣٨ ، ٢٤٠ ، ٣٩٨ وج ٢ - ٧٦ ، ٨٤ ، ٦١٧ ، ٦٢٠ .

الأرجونيون ؛ ج ١ - ٩٠ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١٢١ ، ١٢٣ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٤٥٦ ، ٤٨١ ، ٤٩٥ ، ٥٠٦ ، وج ٢ - ٢٣٣ ، ٢٩٧ ، ٣٨٩ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩ ، ٤٣٨ ، ٤٤٠ ، ٤٤٤ ، ٤٥٦ ، ٤٥٩ - ٤٦٣ ، ٤٦٦ ، ٦٠٢ ، ٦٠٤ - ٦٠٦ ، ٦٤٨ .

الأزارقة ؛ ج ٢ - ١١٢ .

الإسبان ؛ ج ١ - ٤٧٠ وج٢ - ٢٩٤ .

الأسبتارية ؛ ج ١ - ٤٩٤ ، ٥١٨ وج ٢ - ٢٩٣ ، ٢٩٥ ، ٣١٠ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ٤٤٤ .

الإسترداد ( لاريكونكستا ) ؛ ج١ - ٣٣ ، ٥١٢ وج ٢- ٣٢٠ ، ٣٢٩ ، ٣٩٨ ، ٤٠٤ ، ٤٩٣ ، ٥٨٥ ، ٥٨٦ ، ٥٨٩ ، ٥٩٤ ، ٥٩٦ ، ٥٩٧ ، ٦٠١ .

الأسرة البرجونية ؛ ج ١ - ٥١٢ .

أسرة كاسترو ؛ ج ١ - ٥١٦ ، ٥١٧ وج ٢ - ٤٢ ، ٥٨٣ .

أسرة لارا ؛ ج ١ - ٥١٦ ، ٥١٧ ، وج ٢ - ٤٢ ، ٢٩٣ ، ٥٨٣ ، ٥٩٣ .

الإسلام ؛ ج ١ - ٥٥ ، ١١٩ ، وج ٢ - ٥٣٨ ، ٦٣٦ ، ٧٠٥ ، ٧٢١ .

الأشعرية ؛ ج ١ - ١٦٣ ، ١٧٠ .

الأغزاز ( الغز ) ؛ ج ١ - ٢٩٤ وج ٢ - ١٦٠ ، ١٩٤ ، ٢٠٣ ، ٢٠٦ ، ٢٠٨ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤٥ ، ٢٥٦ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٨٦ ، ٣٠٠ ، ٥٢٥ ، ٥٥٣ ، ٥٦٨ .

أغمات وريكة ؛ ج٢ - ٤٩٨ ، ٥٧٩ ، ٥٨٠ ، ٦١٧ .

آل البيت ؛ ج ١ - ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦٢ ، ١٦٦ ، ١٩٣ - ١٩٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٢٢ ، ٤٢٥ وج ٢ - ٣٣٤ .

الألبيون ؛ ج ٢ - ٢٨٩ ، ٦٠٥ .

الألمان ؛ ج ٢ - ٢٤ ، ١٧٠ .

إمارة برشلونة ؛ ج ١ - ٧٥ ، ٧٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ١٢١ ، ٤٧٧ .

الإمامة ؛ ج ١ - ١٧٨ ، ٢٠٥ - ٢٠٧ .

الإمامة الموحدية ( المهدية ) ؛ ج ٢ - ٥٧٦ ، ٥٧٧ ، ٦١٥ ، ٦١٦ ، ٦٣٠ .

الأمة الأندلسية ؛ ج ١ - ٢٩ ، ٣٠ ، ٥٢ ، ١١٣ ، ٤٢٩ ، ٤٣٤ - ٤٣٦ ، ٥٠٧ وج٢ - ٥٤ ، ٣٢٩ ، ٤٣١ ، ٦٢٨ ، ٦٨٨ .

الأمة المغربية ؛ ج ١ - ٤٣٧ وج ٢ ، ٥٧٨ .

الأندلسيون ؛ ج ١ - ٣٨٦ ، ٤١٦ ، ٤٢٠ ، ٤٣٣ ، ٤٥٣ وج ٢ - ١٢٧ ، ٢١٨ ، ٢٩٨ ، ٣١٢ ، ٣١٨ ، ٣٢٦ .

أهل تينملل ؛ ج ١- ١٧٤ ، ١٧٨ ، ٢٦٢ ، وج ٢ - ١٧ ، ١١٥ ، ٣٦٩ ، ٥٧٩ ، ٥٨٠ ، ٦١٧ .

أهل الدار ؛ ج ١ - ١٧٤ ، ٢١٩ ، ٢٨٧ وج ٢ - ٧٦ ، ٥٧١ ، ٦١٧ .

أهل خمسين ؛ ج ١ - ١٧٤ ، ١٩٦ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٧ ، ٢٣٦ ، ٢٦٤ ، ٢٨٥ ، ٣٩٨ ، ٤٠٦ وج ٢ - ١١ ، ٤١ ، ٧٦ ، ١٠٥ ، ٦١٦ ، ٦١٧ ، ٦٢١ .

أهل سبعين ؛ ج ١ - ١٧٤ ، ١٩٦ ، ٣٩٨ ، وج ٢ - ٦١٦ ، ٦١٧ ، ٦٢١ .

أورية ( قبيلة ) ؛ ج٢ - ٦٥ ، ١١٦ ، ١٥٠ .

إيجلى ( قبيلة ) ؛ ج ١ - ٢٧٧ .

إينجيست ( قبيلة ) ؛ ج ١ - ٢٧٧ .

— ب —

البابوية ؛ ج ١ - ٥١٣ ، ٥٢٧ وج ٢ - ٥٤٠ ، ٥٨٩ ، ٥٩٠ ، ٥٩٤ ، ٥٩٥ ، ٥٩٨ ، ٦٠٣ - ٦٠٧ ، ٦٠٩ - ٦١٢ .

البربر ( والقبائل البربرية ) ؛ ج ١ - ٢٥ ، ٥٦ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٣ ، ١٥٧ ، ٢٢٩ ، ٢٨٠ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣١٩ ، ٣٩٣ ، ٣٩٨ ، ٤١٧ ، ٤٣٤ وج ٢ - ١١٦ ، ١٣٥ ، ١٥٠ ، ١٧٥ ، ٢٠٦ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٣٢٠ ، ٣٣٢ ، ٣٣٤ ، ٣٤٢ ، ٣٦٤ ، ٣٧٥ ، ٥٦٦ ، ٥٧٥ ، ٦١٨ ، ٦٢٧ ، ٦٣٤ .

البرتغاليون ؛ ج ١ - ٢٧ ، ٤٨٢ ، ٤٩٠ ،

٥٢٣ ، ٥٢٦ - ٥٢٨ وج ٢ - ٢٤ ، ٢٥ ، ٣٤ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٩٢ ؛ ٩٨ - ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١١٣ ، ١١٧ ، ١٢٠ ، ١٢٥ ، ١٧٢ ، ١٧٨ ، ١٨٣ - ١٨٨ ، ٣٣٨ - ٣٤٠ ، ٤٩٢ ، ٥٥٠ ، ٥٩٤ ، ٥٩٥ ، ٦١٠ ، ٦٩٦ .
برغواطة ؛ ج ١ - ٣٧ ، ٢٦٠ ، ٢٧٣ - ٢٧٩ وج ٢ - ٥٢٢ .
البتكنس ؛ ج ١ - ٩٠ ، ٩٤ ، ٣٦٦ .
بنو الأثيج ؛ ج ١ - ٢٨٤ ، ٢٩٨ ، ٣٠٢ وج ٢ - ٥٩ ، ١٤٩ ، ١٥٨ .
بنوإسرائيل ؛ انظر اليهود .
بنو أشقيلولة ؛ ج ٢ - ٤١٥ .
بنوالأفطس؛ ج١- ٧٣ ، ٢٤٤ ، ٤١١ ، ٥٢٢ .
بنو أمية ؛ ج ١ - ٣٤٣ .
بنو أيوب ؛ ج ٢ - ١٥٥ .
بنوباديس ؛ ج ٢ - ٢٢٥ .
بنو توجين ؛ ج١- ٢٤٩ ،وج ٢-٢٠٢ ، ٥١٨
بنوجامع ؛ ج ٢ - ١٣٣ ، ٦٢١ .
بنوجشم ؛ ج ١ - ٢٩٧ ، ٢٩٩ ، ٣٨١ ، وج ٢ - ١٧ ، ١٥٣ ، ١٥٨ ، ٥٢٥ .
بنو الحارث ؛ ج ٢ - ٥٧٩ .
بنو حسان ؛ ج ٢ - ٥٤٢ .
بنو حفص ؛ ج ١ - ١٩٤ وج ٢ - ٣٢١ ، ٣٧٢ ، ٣٨٠ ، ٥١٤ ، ٥١٨ ، ٥٢٤ ، ٥٣٦ .
بنوحماد ؛ ج ١ - ٢٤٨ ، ٢٨٠ - ٢٨٤ ، ٢٩٢ ، ٤٦٩ وج ٢ - ١٤٨ .
بنوحمامة ؛ ج ٢ - ٣٣٧ ، ٥١٣ .
بنو حمدون ؛ ج ٢ - ١٥٤ .
بنو حمود ؛ ج ١ - ٢٦ ، ١٦٠ .
بنو خلدون ؛ ج ١ - ١٩٤ .
بنو دياب ؛ ج ١ - ٢٩٩ وج ٢ - ١٥٦ ، ١٩٥ ، ٢٥٦ ، ٢٧٤ .
بنودمر ؛ ج ٢ - ٢٦٩ ، ٣٣٤ .
بنو ذو النون ؛ ج ١ - ٦٨ وج ٢ - ٢١٩ .
بنو راشد ؛ ج ٢ - ٥١٨ ، ٥٢٢ .
بنو ربيعة ؛ ج ١ - ٢٩٨ .
بنو الرند ؛ ج ٢ - ١٠٦ ، ١٤٩ ، ١٥٤ .
بنورياح ؛ ج ١ - ٢٨٤ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٨١ وج ٢ - ١٧ ، ٥٩ ، ٦١ ، ١٠٧ ، ١٤٩ ، ١٥٣ ، ١٥٥ ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٩١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٤ ، ٥١١ ، ٥١٣ ، ٦٣٥ ،
بنوزغبة ؛ ج ١ - ٢٨٤ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٣٨ ، وج ٢ - ٥٩ ، ١٣٢ ، ٢٧٢ ، ٢٧٤ ، ٦٣٥ .
بنو زهر ؛ ج ١ - ٤٧٣ وج ٢ - ٤٨٧ .
بنوزيرى ؛ ج ١ - ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٩٠ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ .
بنو زيان ؛ ج ٢ - ١٥٩ .
بنوسعيد ؛ ج ١ - ٣٨٥ .
بنو سفيان ؛ انظر عرب سفيان .
بنو سليم ؛ ج ١ - ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠١ ، وج ٢ - ٥٩ ، ١٠٨ ، ١١٢ ، ١٤٩ ، ١٥٥ ، ١٦٠ ، ١٩١ ، ١٩٥ ، ٢٧٢ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٦٣٥ .
بنوسندم ؛ ج ١ - ٢٤٨ .
بنو سوار ؛ ج ١ - ٢٣٠ .
بنو صمادح ؛ ج ١ - ٥٣ .
بنو عامر ؛ ج ١ - ٤٢٥ .
بنو عباد : ج ١- ٧٣ وج ٢ - ٦٩ ، ٧٢.
بنو العباس ؛ ج ١ - ٣٩ ، ١٥٤ ، ١٩٥ ، وج ٢ - ٥١ ، ١٤٥ ، ١٥٠ .
بنو عبد الحق ؛ ج ٢ - ٥١٢ ، ٥١٣ ، ٥٢٤.
بنو عبد المؤمن؛ ج٢ - ١٥٦ ، ٢٣٨ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٥٠ - ٣٥٢ ، ٣٧٢ ، ٣٨٠ ، ٥٢٢ ، ٥٦١ ، ٥٧١ ، ٥٧٧ ، ٥٩٧ ، ٦١٧ ، ٦١٨ ، ٦٩٤ .
بنو عبد الواد ؛ ج ١ - ٢٤٥ ، ٢٤٩ ، وج٢- ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٥١٨ ، ٥٢٤ - ٥٢٧ ، ٥٣١ ، ٥٤٢ ، ٥٤٣ ، ٥٦٧ - ٥٧٢ ، ٥٧٦
بنو عبيد ؛ انظر الفاطميون .
بنو عدى؛ ج١ - ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٣٨ ، ٣٨١ ،
بنو عسكر ؛ ج ٢ - ٣٣٧ ، ٥١٣ ، ٥٢٤ .
بنو عوف ؛ ج ٢ - ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٧٢ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ .
بنو غانية ؛ ج ١ - ١٨ ، ٣٢ ، ٧٧ ، ١٤٩ ، ٣٠١ ، ٣٥٧ ، ٣٩٩ وج ٢ - ١٤١ ، ١٤٤ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٢ ، ١٥٤ ، ١٥٩ ، ١٧٠ ، ١٨٢ ، ١٨٥ ، ١٩١ ، ١٩٤ ، ١٩٧ ، ٢٤٣ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٦١ - ٢٦٣ ، ٢٦٧ -٢٦٩ ، ٢٧٦ ، ٢٨٣ ، ٣٢٢ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٧٤ ، ٣٧٧ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٥٧٥ ، ٥٧٦ ، ٦٢٦ ، ٦٣٥ ، ٦٣٨ ، ٦٤١ .
بنوقرن ؛ ج ٢ - ٢٧٥ .

بنو قرة ، ج ١ - ٢٩٩ .
بنو مرداس ؛ ج ١ - ٢٩٩ ، وج ٢-٢٧٢ .
بنو مردنيش ؛ ج ٢ - ٨٤ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٣٩٣ ، ٦٤٣ .
بنو مرين ؛ ج ٢ - ٣٣٤ - ٣٣٨ ، ٣٤١ ، ٣٦٤ ، ٣٨١ ، ٤٣٥ ، ٤٨٤ ، ٤٨٩ ، ٤٩٧ ، ٥٠٣ ، ٥١١ - ٥١٤ ، ٥١٨ - ٥٢٧ ، ٥٣٠ - ٥٣٣ ، ٥٤٠ - ٥٤٥ ، ٥٥٠ - ٥٥٧ ، ٥٥٩ ، ٥٦٢ ، ٥٦٤ ، ٥٦٦ ، ٥٦٨ ، ٥٧٠ ، ٥٧٢ ، ٥٧٦ ، ٥٧٨ - ٥٨٠ ، ٥٩٩ ، ٧٠١ .
بنو مظهر ؛ ج ٢ - ٥١٨ .
بنو ملول ؛ ج ١ - ٢٣٠ ، ٢٣١ .
بنو مليليت ؛ ج ٢ - ١٥٠ .
بنو منقذ ؛ ج ٢ - ١٨٣ .
بنو نصر ؛ ج ٢ - ٤١٤ ، ٤٣٢ .
بنو نغرالة ؛ ج ٢ - ٢٣٥
بنو هلال ؛ ج١ - ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٣٨ وج٢- ١٧ ، ٥٩ ، ١٤٩ ، ١٥٨ .
بنو هود ؛ ج ١ - ٥٨ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٨٦ ، ١١٦ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٣٠ ، ٣١١ ، ٣٦٢ ، ٣٦٨ ، وج٢-٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٥٠٩ ، ٦٠٦ .
بنو واورتجان ؛ ج ٢ - ١٥٠ .
بنو واسين ؛ ج ٢ - ٣٣٤ .
بنو واوزجيت ؛ ج ١ - ٢٨٨ .
بنو وجدزان ؛ ج ١ - ٢٣٠ .
بنو وراد ؛ ج ٢ - ٥٢٢ .
بنو ورسفين ؛ ج ١ - ٢٤٩ .
بنو ورياغيل ؛ ج ١ - ٢٧٤ .
بنو ومانو ؛ ج ١ - ٢٤٥ ، ٢٤٩ .
بنو يادين ؛ ج ٢ - ٣٣٥ .
بنو يفرن ؛ ج ٢ - ٣٣٤ .
بنو يلوى ؛ ج ١ - ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٩ .
بنو يوجان ؛ ج ٢ - ٦٢١ .
البيزيون ؛ ج ١ - ٧٧ ، ١٥٢ ، ٣٦٩ ، ٥٠٠ وج ٢ - ١٤٤ .

## ت — خ

تاعجيزت ؛ ج ١ - ٢٧٧ .
تاودا ؛ ج ٢ - ١٥ .
الترك ؛ ج ٢ - ١٦١ ، ١٦٢ .
التوحيد ؛ ج ١ - ١٩٢ ، ٢٠٠ ، ٢٠٥ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٤٠٤ وج ٢ - ٤٠ ، ٤٤ ، ٥٣ ، ١٦٥ ، ٦١٧ .
تسولة ؛ ج ٢ - ٥١٢ .
جدميوه ؛ ج ١ - ١٧٤ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٣٤٢ وج ٢ - ١٧ ، ٤٩٩ ، ٥٧٩ ، ٥٨٠ ، ٦١٧ .
جراوة ؛ ج ١ - ٢٧٥ ، ٢٧٧ ، ٤٠٤ ، وج ٢ - ٣٣٤ .
جزولة ؛ ج ١ - ١٨٥ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٤٧ ، ٢٧٧ ، ٢٨٧ ، ٣٤٢ ، ٤١٨ ، وج ٢ - ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٣٣٢ ، ٥٦٤ .
الجلالقة ؛ ج ١ - ٤٨١ ، ٤٨٢ ، ٥٠٢ .
جلاوة ؛ ج ١ - ٢٢٦ وج ٢ - ٤٩٨ .
جندافة ؛ ج ١ - ١٩٨ .
جنفيسة ؛ ج ١ - ١٦٠ ، ١٧٤ ، ٢٢٦ ، ٢٣٠ ، ٣٤٢ وج ٢ - ٧٩ ، ٦١٧ .
الجنويون ؛ ج ١ - ١٥٢ ، ٣٦٩ ، ٥٠٠ ، وج ٢ - ١٤٤ ، ٥٠٦ ، ٥٠٧ .
حاحة ؛ ج ١ - ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٤ ، ٢٦٩ ، ٢٧٤ ، ٢٧٧ ، ٣٤٢ وج ٢ -٥٠١ ، ٥٦٤ ، ٥٧٩ ، ٦١٧ .
حرسون ( قبيلة ) ؛ ج ٢ - ١٥٠ .
الحزمية ؛ ج ٢ - ٢٤٠ .
الحشم ؛ ج ١ - ١٧٩ ، ١٨٥ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٤٧ ، ٢٥٧ ، ٤١٨ وج ٢ - ٥٢٤
الحفاظ ؛ ج١-١٧٤ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤ وج٢-٦٤٦ .
الخزرج ؛ ج ٢ - ٤٠٤ .
الخلافة العباسية ؛ ج ١ - ٤٢ ، ٤٤ ، ٥٤ ، ٢٩٨ ، وج ٢ - ١٥٨ ، ٣٩٣ ، ٤١١ ، ٤١٣ ، ٥١٠ .
خلافة قرطبة ؛ ج ١ - ٢٥ ، ٣٩٧ .
الخلافة الموحدية ؛ ج ١ - ٣٩٧ وج ٢ - ٣٤ ، ٣٢٥ ، ٣٤٧ ، ٣٧٨ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٩ ، ٤٣١ ، ٤٧١ ، ٤٩٩ ، ٥٠٠ ، ٥٠٦ ، ٥٠٩ ، ٥١٠ ، ٥١٣ ، ٥٢٢ ، ٥٢٧ ، ٥٣٢ ، ٥٣٦ ، ٥٤٠ ، ٥٤٧ ، ٥٥٩ ، ٥٦١ ، ٥٦٦ ، ٥٧٥ - ٥٧٨ ، ٥٩٧ ، ٦١٦ - ٦٢٠ ، ٦٢٢ ، ٦٢٥ - ٦٣٢ ، ٦٣٤ ، ٦٣٥ ، ٦٣٧ ، ٦٤٠ ، ٦٤٣ ، ٦٨٧ ، ٦٩٨ ، ٧٠٣ ، ٧١٣ ، ٧٢٤ ، ٧٢٥ .

الخلافة المؤمنية ؛ ج ٢ - ٣٧٩ .

الخوارج ؛ ج ١ - ١٦٧ وج ٢ - ١١٢ ، ٢٦٢ ، ٢٨٦ .


## د — ش


الداوية ؛ انظر فرسان المعبد .

درعة (قبيلة) ؛ ج ١ - ١٨٥ .

الدعوة الشيعية ؛ ج ١ - ٢٠٦ ، ٢٩٨ ، وج ٢ - ٦١٥ .

الدعوة العباسية ؛ ج ٢ - ٢٥٢ .

الدعوة المرابطية ؛ ج ١ - ٣٣٣ .

الدعوة الموحدية ؛ ج ١ - ٢٦٩ ، ٢٧٤ ، ٣٣٠ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٤٢ ، ٣٩٧ ، ٤٠٥ ، ٤٤٥ ، ٥٢٨ ، وج ٢ - ١٢٨ ، ٢٤٢ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٧٨ ، ٥٤٦، ٦٣١

دكالة ؛ ج ١ - ٢٥٩ ، ٢٦٥ ، ٢٦٩ ، ٢٧٤ - ٢٧٨وج٢-١٦٤، ٥٢٣، ٥٧٩، ٦١٧.

الدولة الأموية ؛ ج ١ - ٢٥ ، ٤١٢، ٥٢٢ .

دولة بنى غانية ؛ ج ١ - ١٥٣ .

الدولة الحفصية ؛ ج ١ - ١٩٤ وج ٢ - ٣٨٠، ٤٣١ ، ٤٣٢ ، ٤٤٦ ، ٤٧٧ ، ٥٠٣ ، ٥٣٤ ، ٥٧٦ ، ٦٤٣ .

الدولة الرومانية المقدسة ؛ ج ١ - ٤٩٧ .

الدولة العامرية ؛ ج ١ - ٢٦ ، ٤٣٦ .

الدولة الفاطمية (والخلافة) ؛ ج ١ - ١٥٧، ١٩٥ ، ٢٠٧ ، ٢٨١ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩وج٢ - ١٥٥ ، ١٨١ ، ٦١٥ .

الدولة المرابطية (والإمبراطورية) ؛ج ١ - ١٢، ١٣، ١٧ ، ٢٦ ، ٣٦، ٣٧ ، ٤٤ ، ٤٩ ، ٥٤ - ٥٦ ، ٧٨ ، ٨٩ ، ١٣١ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٥٤ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٦٠ ، ١٧٩ ، ١٨٥ ، ٢٣٤ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٥ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٦١ ، ٢٦٥ ، ٢٦٩ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣١١ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٥ ، ٣٣٨ ، ٣٩٧ ، ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤١٠ - ٤٢١ ، ٤٢٧ ، ٤٣٣، ٤٣٤ ، ٤٣٥ ، ٤٣٧ - ٤٤٤ ، ٤٥٦وج ٢ - ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٥٨ ، ٢٦٧ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٥٧٣ ، ٥٧٨ ، ٦١٥ ، ٦١٨ ، ٦٢٠ ، ٦٢٥ ، ٦٢٨ ، ٦٤٥ ، ٦٤٧ ، ٦٨٧ ، ٧٢١ .

الدولة المرينية (دولة بنى مرين) ؛ ج ٢ - ٤٣٥ ، ٥٣٢ ، ٥٧٠ ، ٥٧٨ .

الدولة الموحدية ؛ ج ١ - ٧ ، ٢٦، ٧٨ ، ١٤٧ ، ١٥٧ ، ١٦٠ ، ١٧٥ ، ١٩١ ، ١٩٣ ، ١٩٨ ، ٢١٢ ، ٢١٦ ، ٢١٩ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٧٨ ، ٣٠٦ ، ٣١٩ ، ٣٣٤ ، ٣٣٨ ، ٣٧٥ ، ٣٧٧ ، ٣٩٧ ، ٤٠٤ - ٤٠٦ ، ٤٢٠ ، ٤٢٤ .وج ٢ -١٢ ، ٢٨ ، ٤٠، ٩٤ ، ٩٩، ١٠٦-١٠٩، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٤٤ ، ١٨٠ - ١٨٢ ، ١٩١ ، ٢٣٨ - ٢٤١ ، ٢٤٣ ، ٢٧٦ ، ٣٢٠ ، ٣٢١، ٣٢٥ ، ٣٢٨ ، ٣٣٦ ، ٣٤٥ ، ٣٤٧ ، ٣٥٦ ، ٣٧٠ - ٣٧٢ ، ٣٧٧ ، ٣٨٠ -٣٨٤، ٣٩٣ ، ٤٢٩ ، ٤٣١ ، ٤٧٠ ، ٤٧١ ، ٤٩٧ ، ٥٠٢ ، ٥٠٣ ، ٥١٠ - ٥١٢ ، ٥١٥ ، ٥١٧ ، ٥٢٠ ، ٥٢١ ، ٥٢٤ ، ٥٢٧ ، ٥٣٠ - ٥٣٣ ، ٥٣٦ ، ٥٤٢ ، ٥٤٤ ، ٥٥١ ، ٥٥٣ ، ٥٥٧ ، ٥٥٩ ، ٥٦٤ ، ٥٦٦ ، ٥٧٠ ، ٥٧٦ ، ٥٧٨ ، ٥٧٩ ، ٦١٥ - ٦٢٠ ، ٦٢٣ . ٦٢٥ ، ٦٢٨ ، ٦٣٠ - ٦٣٤ ، ٦٣٦ ، ٦٣٨ ، ٦٤١ ، ٦٤٥ - ٦٤٨ ، ٦٥٢ ، ٦٨٨ ، ٧٠٣، ٧١١ ، ٧١٢ ، ٧٢١ ، ٧٢٤ .

الدولة المؤمنية ؛ ج ١ - ٣٤٩ .

الدولة النصرية ؛ ج ٢ - ٤٣١ ، ٤٣٦ .

الذميون ؛ ج ٢ - ٢٣٥ ، ٢٤٢ .

رجراجة ؛ ج ١ - ١٨٠ ، ٢٣٠ ، ٢٦٩ ، ٢٧٤ - ٢٧٧ ، ٣٤٢ وج ٢ - ٥٦٤ .

رواحة ج ١ - ٢٩٩ .

الروم ؛ ج ١ - ٩٣ ، ١٠٠ ، ٢٣٢ ، ٢٤٧ ، ٢٥٧ ، ٢٦٢ ، ٢٧٠ ، ٤٢١وج ٢- ١٤٧ ، ٢٩٨ ، ٣٢١ ، ٣٣٩ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٤٥٠ ، ٤٦٢ ، ٥٠٦ ، ٥١٣ ، ٥١٧ ، ٥٢٠ ، ٥٢٤ ، ٥٢٥ ، ٥٣١ -٥٣٣

الروم (الفرنج) الصقليون ؛ ج ١ - ٢٨٠، ٢٨٩ ، وج ٢ - ٢٧٨ .

الرومان ؛ ج ١ - ٥٢٢ وج ٢ - ٣٠٤ .

الزراجنة ؛ ج ١ - ١٨٥ .

زناتة ؛ ج ١ - ٨٠ ، ٨١ ، ١٣٦ ، ٢٢٢، ٢٣١ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٤٥ ، ٢٤٨ ، ٢٧٥ ، ٢٧٧ ، ٢٩٤ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ،

٤١٨ ، وج ٢ - ١١٦ ، ١٧٦ ، ١٩٨ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٦ ، ٢٧١ - ٢٧٣ ، ٣٠٠ ، ٣٣٤ ، ٣٣٦ ، ٣٧٦ ، ٥١١ ، ٥١٣ ، ٥١٨ ، ٥١٩ ، ٥٤٢ ، ٥٦٥ .
زناتة تيفسرت ؛ ج ٢ - ٦١٧ .
زواغة ؛ ؛ ج ٢ - ٣٣٤ .
الزواودة ؛ ج ١ - ٢٧٢ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ .
زواوة ؛ ج ٢ - ١٥١ .
زولات ؛ ج ٢ - ١٥١ .
الزيدية ؛ ج ١ - ١٦٧ .
الشرق الإسلامى ؛ ج ٢ - ١٨١ ، ١٨٥ .
الشوابيون ؛ ج ١ - ٥٢٢ .
الشيعة ؛ ج ١ - ٥٧ ، ٢٠٤ ، ٢٠٧ .

## ص – غ

الصحابة ؛ ج ١ - ٢٠١ ، ٢٠٧ ، ٤٤٢ ، وج ٢ - ٢١٦ ، ٢٤٠ .
الصليبيون ؛ ج ١ - ٩٠ ، ٥١٨ ، وج ٢ - ١٧١ ، ١٧٢ ١٧٧ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٥ ، ٢٤٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٧ ، ٣٤٠ .
صنهاجة ؛ ج ١ - ٥٧ ، ٨١ ، ١٤٩ ، ١٥٧ ، ١٦٥ ، ٢٢٧ ، ٢٢٩ ، ٢٣٥ ، ٢٣٨ ، ٢٥٦ ، ٢٥٩ ، ٢٦٢ ، ٢٧٥ ، ٢٧٧ ، ٢٨٥ ، ٢٩٥ ، ٢٩٩ ، وج ٢ - ١٤ ، ١٨ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ١١١ ، ١١٦ ، ١٣٤ ، ١٦٧ ، ١٧٥ ، ٣٠٠ ، ٣٣٤ ، ٣٧٨ ، ٥٦٨ .
صنهاجةالقبلية ؛ ج١-١٨٥ وج٢-٩٥ ، ٦١٧ .
صنهاجة مفتاح ؛ ج ٢ - ١٤ .
الطوائف ( دول وأمراء ) ؛ ج ١ - ٢٥ - ٢٩ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٤٠ - ٤٥ ، ٤٩ - ٥١ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٧٣ ، ٧٨ ، ٨٧ ، ١٠٥ ، ٢٤٤ ، ٣٠٦ ، ٣١٨ ، ٣٥٧ ، ٣٥٩ ، ٤١٧ ، ٤٢٦ ، ٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ٤٧٨ ، ٤٤٠ ، ٤٤٣ ، ٤٤٥ ، ٤٧٧ ، ٥٢٢ ، وج ٢ - ٢٦ ، ٢١٣ ، ٣٢٠ ، ٣٥٢ ، ٣٨٩ ، ٤٨٧ ، ٦٤٥ ، ٦٥٣ ، ٦٨٧ .
الظاهرية ؛ ج ١ - ٢٠٣ ، وج ٢ - ٢٤٠ .
العرب ج ١ - ٢٥ ، ٨٠ ، ٢٨٠ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٧ ، ٢٩١ - ٢٩٧ ، ٣٠٢ ، ٣٧٦ ، ٣٧٨ ، ٣٨١ ، ٣٩٢ ، ٣٩٣ ، ٤٦٣ ، ٤٦٤ ، وج ٢ - ١٦ ، ١٧ ، ٢٩ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٩ - ٦٦ ، ٧٦ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٥ ، ١٠٦ ، ١١٢ - ١١٦ ، ١٣١ ، ١٤٨ ، ١٥٦ ، ١٦٠ - ١٦٢ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٩٢ - ١٩٤ ، ١٩٧ - ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٨ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٨٦ ، ٣٠٠ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣٣٤ ، ٣٣٧ ، ٣٤٢ ، ٣٦٤ ، ٣٦٩ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٣٨١ ، ٤٩٧ ، ٥٠٥ ، ٥١١ - ٥١٣ ، ٥١٩ ، ٥٢٠ ، ٥٤٠ ، ٥٥٢ - ٥٥٥ ، ٥٦٥ - ٥٦٨ ، ٥٧١ ، ٦١٨ ، ٦٢٧ .
عرب جابر ؛ ج ١ - ٥٠٨ ، ٥٢٢ ، ٥٣٠ ، ٥٤٣ ، ٥٥٢ ، ٥٥٣ ، ٥٥٦ ، ٥٧٧ ، ٦٣٥
عرب الخلط ؛ ج ٢ - ٣٦٤ ، ٣٦٦ ، ٣٦٨ ، ٤٩٧ ، ٥٠٠ - ٥٠٥ ، ٥٠٧ ، ٥١٠ ، ٥١٧ ، ٥٢٢ ، ٥٢٣ ، ٥٤٣ ، ٥٥٢ ، ٥٦٥ ، ٥٦٧ ، ٥٧٧ ، ٦٢٧ ، ٦٣٥
عرب سفيان ؛ ج ٢ - ٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٤٩٧ ، ٥٠٤ ، ٥٠٥ ، ٥٠٨ ، ٥٢٢ ، ٥٢٣ ، ٥٣٠ ، ٥٥٢ ، ٥٥٦ ، ٥٥٨ ، ٦٣٥ .
عرب الشبانات ؛ ج ٢ - ٥٤٢ ، ٥٧٩ .
عرب المعقل ؛ ج ٢ - ٥٠٦ ، ٥١٠ ، ٥٦٥ ، ٥٧٢ ، ٥٧٧ .
عرب المنبات ؛ ج ٢ - ٥٧٢ .
العرب اليمانية ؛ ج ١ - ١٦٠ وج ٢ - ١٧١ .
غجدامة : ج ١ - ١٧٠ ، ٢٢٦
غمارة : ج ١ - ٢٧٥ ، ٢٧٧ وج ٢ - ١٤ ، ١٨ ، ٢٣ ، ٢٧ ، ١٣٤ ، ١٩٨ ، ٢٠٣ ، ٣٠٠ ، ٣٣٦ ، ٥٠٧ ، ٥١٣ .

## ف – ل

فازاز ؛ ج ٢ - ٣٨٢ ، ٥٠٧ .
الفاطميون ؛ ج ١ - ١٩٥ ، ٢٨١ وج٢-٣٣٢
فرسان آفيس ؛ ج ١ - ٥٢٨ .
فرسان شنت ياقب ؛ج٢- ٢٩٣ ، ٢٩٥ ، ٣٤٠ ، ٤٦٩ ، ٤٧٤ ، ٤٨٠ ، ٤٩٢ ، ٥٢٠ ، ٦٠٦ ، ٦١١ .
فرسان القديس يوحنا ؛ ج ١ - ٥٢٨
فرسان قلعة رباح ؛ ج ١ - ٥١٩ ، ٥٢٠ ، ٥٢٨ وج ٢ - ٢١٤ ، ٢٨٤ ، ٢٨٨ ، ٢٩٣ - ٢٩٧ ، ٣١٠ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٤٤٠ ، ٤٤٤ ، ٤٦٩ ، ٤٧٤ ، ٥٨٧ .
فرسان القنطرة ؛ ج ٢ - ٣٤٠ .

فرسان المعبد ( الداوية ) ؛ ج ١ - ٣٦٩ ، ٤٩٤ ، ٥٠١ ، ٥١٨ ، ٥١٩ ، ٥٢٨ ، وج ٢ - ١٧٧ ، ٢٨٤ ، ٢٩٣ ، ٢٩٥ ، ٣١٠ ، ٤٤٠ ، ٤٤٤ ، ٦٠٥ ، ٦١١ .

فرسان يابرة ؛ ج ١ - ٥٢٨ .

الفرنج ؛ ج ١ - ٩٠ ، ٩٢ ، ٩٤ ، ١٠٠ ، ٢٨٢ ، ٢٩٠ - ٢٩٥ ، ٢٩٧ ، ٤٩٩ وج ٢ - ١٨٣ ، ٢٩٥ ، ٣١٨ .

الفرنج الصقليون؛ ج١- ٢٩٢ ، ٢٩٧ ، ٣٧٣ .

الفلمنك ؛ ج ٢ - ٢٤ ، ١٧٠ .

القبائل الجرمانية ؛ ج ١ - ٥٢٢ .

قحطان ؛ ج ٢ - ٢٥٦ .

القرامطة ؛ ج ١ - ٢٩٨ .

قريش ؛ ج ١ - ٤٢ .

القشتاليون ؛ ج ١ - ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٦٠ - ٦٥ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٦ ، ١٢٦ ، ١٣٢ - ١٣٦ ، ١٤١ - ١٤٣ ، ١٥٠ ، ٣١٤ ، ٣٣٤ ، ٣٤٧ ، ٣٥٥ ، ٣٦٤ ، ٣٧٠ ، ٣٧٢ ، ٤٧١ ، ٤٨٢ ، ٤٨٣ ، ٤٩١ ، وج ٢ - ٤٢ ، ٦٨ ، ٧٦ - ٧٩ ، ٨٤ ، ٨٨ ، ٩٦ ، ١٠١ - ١٠٥ ، ١٦٨ ، ١٧٤ ، ١٨٥ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢٢٩ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٨٧ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٧ ، ٣١٤ ، ٣١٨ ، ٣٤١ ، ٣٤٣ ، ٣٥٣ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٦٩ ، ٤٠١ ، ٤١٥ ، ٤٢٠ - ٤٢٤ ، ٤٣٢ ، ٤٣٥ ، ٤٤٣ ، ٤٥١ ، ٤٦٠ ، ٤٦٦ - ٤٦٩ ، ٤٧٣ ، ٤٧٦ ، ٤٧٧ ، ٤٨٩ ، ٤٩٠ ، ٤٩٣ ، ٥٤٨ ، ٥٨٥ ، ٥٨٧ ، ٥٩٥ ، ٥٩٦ ، ٥٩٨ ، ٦٠٢ ، ٦١٢ ، ٦٣٢ ، ٦٤٨ ، ٦٨٧ .

القطلان ؛ ج ١ - ٩٤ ، ٣٦٦ ، ٣٦٩ ، ٥٠٠ ، وج ٢ - ٤٣٩ ، ٤٥١ ، ٦٠٤ - ٦٠٦

القوط ؛ ج ١ - ٥٢٢ وج ٢ - ٩٦ .

كتامة ؛ ج ١ - ٢٨٥ وج ٢ - ١٥٠ .

كدالة ؛ ج ١ - ٢٦ ، ١٥٧ .

الكرسي الرسولي ؛ ج ٢ - ٢٨٨ ، ٤٠٣ ، ٥٣٦ ، ٥٣٧ ، ٥٤٠ ، ٦٠٤ ، ٦١٠ ، ٦١٢ .

الكنيسة الإسبانية ؛ ج ٢ - ٤٦٤ .

الكورتيس : ج٢ - ٤٠٤ ، ٤٣٣ ، ٤٣٤ ، ٤٦٨ ، ٤٧٣ ، ٦٠٥

كومية ؛ ج ١ - ٢٢٢ ، ٢٤٦ ، ٢٥٣ ، ٣٤٩ ، ٣٧٦ ، وج ٢ - ١١٢ ، ١١٨ ، ٢٥٢ ، ٥٧٩ ، ٦١٧ .

كيك ؛ ج ١ - ١٨٤ .

الليونيون ؛ ج ١ - ١٧ ، ٥١ وج ٢ - ٣٨ ، ٢٢٠ ، ٤٠٠ ، ٤١١ ، ٥٩٧ .

لمتونة ؛ ج ١ - ٢٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٥٧ ، ٦٣ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ١٤٤ ، ١٤٩ ، ١٥٧ ، ١٦٠ ، ١٦٩ ، ١٧٥ ، ١٨٠ ، ١٨٤ ، ١٨٨ ، ١٩٣ ، ٢١٢ ، ٢٢٧ ، ٢٣١ ، ٢٣٣ ، ٢٤٥ ، ٢٤٧ ، ٢٤٩ ، ٢٥٢ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٦٠ ، ٢٦٤ - ٢٦٦ ، ٢٧٤ ، ٣٣٣ ، ٣٥١ ، ٣٥٥ ، ٣٧٧ ، ٤٠٦ ، ٤١٣ ، ٤١٤ ، ٤١٧ ، ٤١٨ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، وج ٢ - ١٢ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٧٨ .

لمطة ؛ ج ١ - ١٨٥ ، ٢٦٠ ، ٢٨٨ ، ٤١٨ ، وج ٢ - ٥٦٥ .

لواتة ؛ ج ١ - ٢٨٥ .

## — م —

المجسمون ؛ ج ١ - ١٨٣ ، ١٨٥ ، ٢٠٠ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٣ ، ٢٢٥ ، ٢٦٥ .

محاكم التحقيق ؛ ج ٢ - ٤٦٤ .

المحاميد ؛ ج ٢ - ١٩٥ .

المدجنون ؛ ج ٢ - ٤٥١ ، ٤٦١ ، ٤٦٢ ، ٤٦٤ ، ٦٠٦ ، ٦٠٧ .

مديونة ؛ ج ٢ - ٣٣٤ .

المرابطون ؛ ج ١ - ٧ ، ٨ ، ١١ - ١٣ ، ١٧ ، ٢٥ - ٣٣ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٤٦ ، ٤٩ ، ٥٢ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٩ ، ٦٣ ، ٦٥ - ٧٧ ، ٧٩ - ٨٨ ، ٩٢ ، ٩٥ - ١٠٣ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١٦ - ١١٨ ، ١٢١ - ١٢٣ ، ١٢٥ - ١٢٧ ، ١٣٣ - ١٣٥ ، ١٤١ ، ١٤٧ - ١٤٩ ، ١٥٤ ، ١٥٧ ، ١٦١ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٣ ، ١٧٦ - ١٨٠ ، ١٨٣ - ١٨٩ ، ١٩٢ ، ١٩٩ ، ٢١٠ - ٢١٤ ، ٢٢٤ - ٢٣٨ ، ٢٤١ - ٢٥١ ، ٢٥٤ ، ٢٦١ - ٢٦٤ ، ٢٦٦ ، ٢٧٦ ، ٣٠٥ - ٣١٢ ، ٣١٥ - ٣١٩ ، ٣٢٢ - ٣٢٧ ، ٣٢٩ - ٣٣٥ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٤٩ ، ٣٥٣ - ٣٥٩ ، ٣٦٢ ، ٣٦٩ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٤٠٣ ، ٤٠٧ ، ٤١٣ - ٤١٧ ، ٤٢٠ - ٤٢٩ ، ٤٣٢ - ٤٣٦ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ ،

٤٤٤ ، ٤٤٥ ، ٤٥٦ - ٤٥٩ ، ٤٧٣ ، ٤٧٤ ، ٤٧٧ ، ٤٩٥ ، ٤٩٩ ، ٥٠٠ ، ٥٠٢ ، ٥٠٤ ، ٥٠٦ ، ٥٠٧ ، ٥٢٣ ، ٥٢٥ ، ٥٢٦ ، ٥٣٢ ، ٥٤٠ وج ٢ -٤٦ ، ٥٤ ، ١٤٤ - ١٤٦ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ، ٢٢٨ ، ٢٦٠ ، ٢٦٧ ، ٢٧٣ - ٢٧٦ ، ٣٣٤ ، ٣٩٠ ، ٤٠٣ ، ٤١٣ ، ٤٢٧ ، ٤٥١ ، ٥٧٢ ، ٦١٦ ، ٦٣٢ ، ٦٥٠ ، ٦٨٧ ، ٦٨٨ ، ٦٩١ ، ٧٠٣ .

المريدون ؛ ج ١ - ٩٠ ، ٣٠٧ - ٣١٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٣٠ ، ٤٤٨ ، ٤٦٥ ، وج ٢ - ٢٥ .

مزالة ؛ ج ٢ - ٤٩٨ .

مسفيوة ؛ ج ١ - ١٧٢ .

مسلموصقلية ؛ ج٢-٢٧٨-٢٨١ ، ٥٣٤ ، ٥٣٥ .

مسوفة ؛ ج ١ - ٢٦ ، ٣٨ ، ١٤٩ ، ١٥٧ ، ١٦٩ ، ٢٤٥ ، ٣٣٣ ، ٤٠٦ ، ٤٢٤ ، وج ٢ - ١٢ ، ٣٧٨ .

مصمودة (المصامدة) ؛ ج ١ - ٥٨ ، ٥٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ١٥٧ - ١٦٠ ، ١٧٣ ، ١٧٥ ، ١٨٠ ، ١٨٥ ، ١٨٩ ، ١٩٥ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٧٧ ، ٣٤٢ ، ٣٨٩ ، ٣٩٨ ، ٤٠٦ ، ٤٣٣ وج ٢ -١١٦ ، ١٩٨ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٥٦ ، ٣٠٠ ، ٣٨١ ، ٥٢٠ ، ٥٢٥ ، ٥٤٤ ، ٥٧٨ - ٥٨٠ ، ٦١٧ ، ٦٣٤ .

مضر ؛ ج ١ - ٢٩٧ .

مطماطة ؛ ج ١ - ٢٢٢ وج ٢ - ١٥٠ ، ٢٦٩ .

المعتزلة ؛ ج ١ - ١٦٧ ، ٢١٣ .

مغراوة ؛ ج١-٣٠٠ وج٢-١١٦ ، ٢٧٥ ، ٣٣٤ .

مغيلة ؛ ج ٢ - ٣٣٤ .

مكلاتة ؛ ج ٢ - ٣٨٢ .

مكناسة (قبيلة) ؛ ج ٢ - ١٥٠ ، ٥١٢ .

الملثمون ؛ ج ١ - ٧ ، ١٨٥ ، ٢٠٠ ، ٢١٠ ، ٢١٣ ، ٢٦٥ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣٢١ ، ٣٥٨ وج ٢ - ٣٧٥ ، ٣٧٨ .

الممالك الإسبانية النصرانية ؛ ج ١ - ٢٧ ، ٣٢ ، ٤٧٧ ، ٤٩٣ ، ٤٩٥ ، ٤٩٧ ، ٤٩٩ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩ ، ٥١٥ ، وج ٢ - ٤٢ ، ١١٣ ، ١١٨ ، ٢٣٩ ، ٢٨٣ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٣٣٨ ، ٥٨٣ ، ٥٨٦ ، ٥٩٠ ، ٥٩٢ ، ٥٩٥ ، ٥٩٧ ، ٦٠٨ ، ٦٣٦ ، ٦٤٠ .

مملكة أراجون ؛ ج١ - ١٠١ ، ١٠٢ ، ٤٧٧ ، ٤٩٩ - ٥٠١ ، ٥١٤ وج ٢ - ٤٧ ، ٢٦١ ، ٤٠٣ ، ٥٨٤ ، ٦٠١ ، ٦٠٣ ، ٦٠٧ .

مملكة إشبيلية ؛ ج ١ - ٧٣ وج ٢ - ٤٨٨ .

مملكة إفريقية ؛ ج ١ - ٢٩٠ ، وج ٢ -٥١٩ .

مملكة البرتغال ؛ ج ١ - ٢٧ وج ٢ - ٢٤ ، ٣١ ، ٦٩ ، ١٢٠ ، ١٧٠ ، ١٨٢ ، ٥٧٤ ، ٥٨٣ ، ٦٠٩ .

مملكة بطليوس ؛ ج ١ - ٧٣ .

مملكة بلنسية ؛ ج ١ - ١٠٨ وج ٢-٦٠١ ، ٦٠٦ ، ٦٠٧ .

مملكة بنى حماد ؛ ج ١ - ٢٨١ - ٢٨٤ .

مملكة بنى زيرى ؛ ج ١ - ٢٩١ .

مملكة تلمسان ؛ ج ٢ - ٣٣٥ ، ٥٤٢ .

مملكة دانية ؛ ج ١ - ٧٦ .

مملكة سرقسطة ؛ ج ١ - ٧٣ ، ٨٧ ، ١٠٢ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١٣٠ ، ٣٦٢ ، ٣٧٠ ، ٤٩٣ ، ٤٩٩

مملكة السودان ؛ ج ١ - ٣٨ .

مملكة الشرق ؛ ج٢ - ٥٦ ، ٥٧ ، ٨٣ ، ١٠٦ ، ١٤٧ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٦٠٢ ، ٦٤٢ .

مملكة طليطلة ؛ ج ١ - ٦١ .

مملكة غانة ؛ ج ١ - ٣٨ .

مملكة غرناطة ؛ ج ١ - ٣٣ ، ١٠٧ وج ٢ - ٤٣٣ ، ٤٦٢ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ٤٨٦ ، ٥٥١ ، ٥٧٢ ، ٥٩٩ .

مملكة قشتالة ؛ ج ١ - ١٢٥ ، ٤٧٧ ، ٥٠١ .

مملكة قطلونية ؛ ج ١ - ١١٧ ، ٤٩٩ .

المملكة اللاتينية ؛ ج ٢ - ١٧٠ ، ١٨١ .

مملكة مالى ؛ ج ١ - ٣٨ .

مملكة مرسية ؛ ج ١ - ٣١ ، ٣٥٩ .

مملكة ميورقة ؛ ج ٢ - ١٤٦ .

مملكة نافارا ؛ (نبره) ؛ ج ١ - ١٢٥ ، ٤٧٧ ، ٤٩٩ وج ٢ - ٢٨٩ .

الموحدون ؛ ج ١ - ٧ ، ٨ ، ١١ ، ١٢ ، ١٧ ، ١٨ ، ٢٦ - ٣٠ - ٣٣ ، ٦٤ ، ١٥٧ ، ١٦٠ ، ١٧٥ ، ١٧٧ ، ١٧٨ - ١٨٣ ، ١٨٥ ، ١٨٨ - ١٩٠ ، ١٩٣ ، ١٩٩ ، ٢٠٣ ، ٢١٣ ، ٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٢١ ، ٢٢٥ - ٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤٠ - ٢٥٠ ، ٢٥٢ ، ٢٥٤ ، ٢٥٦ ، ٣٥٩ ، ٢٦٠ - ٢٧٢ ، ٢٧٤ - ٢٧٩ ،

٢٨٤ - ٢٨٩ ٢٩٢ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٧ ، ٣٠٠ ، ٣٠٢ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٣ ، ٣٢٥ ، ٣٢٧ - ٣٢٩ ، ٣٣٢ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٧ ، ٣٣٩ ، ٣٤٥ - ٣٤٩ ، ٣٥٤ ، ٣٥٦ ، ٣٦٧ ، ٣٦٩ ، ٣٧٢ - ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٦ ، ٣٨٧ - ٣٩٣ ، ٣٩٨ - ٤٠٠ ، ٤١٤ ، ٤١٦ ، ٤٣٧ ، ٤٤٣ ، ٤٤٥ - ٤٤٧ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ ، ٤٦٢ ، ٤٦٦ ، ٤٦٧ ، ٥٠٨ ، ٥١١ ، ٥١٥ ، ٥١٩ ، وج ٢ - ١٣ - ١٨ ، ٢١ - ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٢ - ٤٤ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٥٠ - ٥٥ ، ٥٩ ، ٦٣ - ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٤ - ٨٤ ، ٨٦ - ٩٣ ، ٩٦ - ٩٩ ، ١٠٢ - ١٠٥ ، ١١٠ ، ١١٤ - ١١٦ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٣١ ، ١٣٣ ، ١٤٤ - ١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٤ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧٤ ، ١٨٢ ، ١٨٥ - ١٨٨ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٨ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٨ - ٢١٠ ، ٢١٣ ، ٢١٨ - ٢٢٠ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٣ - ٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤١ - ٢٤٤ ، ٢٤٧ ، ٢٥١ ، ٢٥٣ - ٢٦٦ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٣ - ٢٧٨ ، ٢٨٠ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٦ - ٢٩٥ ، ٢٩٨ ، ٣٠٠ ، ٣٠٨ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٤ ، ٣١٨ ، ٣٢١ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٩ ، ٣٣٢ - ٣٣٨ ، ٣٤٣ ، ٣٤٥ ، ٣٥٢ ، ٣٥٥ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦١ ، ٣٦٤ - ٣٦٦ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٣٧٣ - ٣٧٧ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٩ ، ٣٩١ ، ٣٩٣ ، ٣٩٧ ، ٣٩٩ ، ٤٠٢ - ٤٠٤ ، ٤٠٩ ، ٤١١ ، ٤١٤ ، ٤١٧ ، ٤٢٧ - ٤٢٩ ، ٤٤٤ ، ٤٧٠ ، ٤٧١ ، ٤٧٣ ، ٤٨٠ ، ٤٨٤ ، ٤٨٧ ، ٤٩٧ ، ٤٩٩ ، ٥٠٠ ، ٥٠٢ ، ٥٠٣ ، ٥٠٧ ، ٥١١ ، ٥١٢ ، ٥١٨ ، ٥٢١ - ٥٢٦ ، ٥٢٩ - ٥٣١ ، ٥٤٠ ، ٥٤١ ، ٥٤٤ ، ٥٤٧ ، ٥٥٢ ، ٥٥٣ ، ٥٥٥ ، ٥٥٦ ، ٥٦٥ ، ٥٦٧ ، ٥٦٨ ، ٥٧٠ ، ٥٧٢ ، ٥٧٦ ، ٥٧٨ - ٥٨٠ ، ٥٨٣ ، ٥٨٥ ، ٥٨٧ - ٥٩١ ، ٥٩٣ ، ٥٩٥ ، ٥٩٧ ، ٦٠٢ ، ٦٠٣ ، ٦٠٨ ، ٦١٠ ، ٦١٦ ، ٦١٧ ، ٦٨٨ ، ٧٠٣ ، ٧١٩ ، ٧٢٣ ، ٧٢٥ ، ٧٢٦ .

الموريسكيون؛ ج١-١١٤وج٢-٤٥١،٤٦٤ .

المولدون ؛ ج ١ - ٣٦٦ ، ٥٢٢ .

الميورقيون ج ٢ - ١٥٢ ، ١٦٠ - ١٦٢ ، ١٦٤ ، ٢٦٢ ، ٢٧٢ ، ٢٧٤ .

## ن — ى

النصارى المعاهدون ؛ ج ١ - ١٠١ ، ١٠٥ ، ١٠٨ ، ١١٠ - ١١٤ ، ١٣٢ ، ١٥٠ ، ٢٤٢ ، ٤١٦ ، ٤١٨ .

النصرانية ؛ ج ١ - ٣٨ ، ٢٩٧وج٢-٥٣٧ .

النورمان ؛ج١-٢٩٠، ٢٩٢وج٢-٢٧٩، ٥٣٤

نفزاوة ؛ ج ٢ - ١٩٤ .

نعات ؛ ج ٢ - ٢٧٤ .

هرغة ؛ ج ١ - ١٢٧ ، ١٥٨ - ١٦٠ ، ١٦٦ ، ١٧٤ ، ١٧٨ ، ١٩٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ وج٢- ١٧٠ ، ٥٧٩ ، ٥٨٠ ، ٦١٧ .

هزرجة ؛ ج ١ - ١٨ ، ٢٢٦ ، ٢٧٧ وج٢- ٤٩٨ ، ٥٠٣ ، ٥٥٦ ، ٥٧٩ ، ٦١٧ .

هزميرة الجبل ؛ ج ١ - ١٨٢ ، ٢٦٩ ، ٢٧٧

هسكورة ؛ ج ١ - ١٨٠ ، ٢٢٦ ، ٢٥٦ ، ٢٥٩ ، ٢٦٢ ، ٢٦٩ ، ٢٧٢ ، ٢٧٧ ، وج ٢ - ١٠١ ، ١٧٥ ، ٢٠٢ ، ٣٤٩ ، ٣٦٤ ، ٤٩٧ ، ٤٩٩ ، ٥٠٣ - ٥٠٥ ، ٥٥٦ ، ٥٥٧ ، ٥٦٢ ، ٥٧٧ ، ٥٧٩ ، ٦١٧ ، ٦٢٧ .

هسكورة القبلية ؛ ج ١ - ١٨٥ .

هشتوكة ؛ ج ١ - ٢٧٧ ، ٢٨٨ .

هنتاتة ؛ ج ١ - ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٧٨ ، ٢٦٢ ، ٢٨٨ ، ٣٤٢ ، وج ٢ - ١٧ ، ١١٥ ، ٢٠٣ ، ٢٠٨ ، ٣٦٩ ، ٣٨١ ، ٣٨٣ ، ٥٢٢ ، ٥٧٩ ، ٥٨٠ ، ٦١٧ .

هنكيشة ؛ ج ١ - ١٨٥ .

هوارة؛ج٢-١٥١، ١٥٥، ٣٧٥، ٣٢٦، ٥١٢ .

هيلانة ؛ ج ١ - ٢٧٧ وج ٢ - ٥٧٩ ، ٦١٧ .

وريكة ؛ ج ١ - ٢٧٧ .

الوندال ؛ ج ١ - ٥٢٢ .

اليهود ؛ ج ١ - ٥٢ ، ١٤٠ ، ٢٩٥ ، ٣٨٧ ، ٤٠٤ ، ٤٢٠ ، ٤٢١ وج ٢ - ٢٢٥ ، ٢٣٥ ، ٣٨٣ ، ٥٢٣ ، ٦٢٦ ، ٧٢٣ .

# فهرست الأعـــلام


— ا —

إبراهيم بن اسماعيل بن أبي حفص ؛ ج ٢- ٣٦٤
إبراهيم بن اسماعيل الخزرجي ؛ ج ١-١٧٤ ، ٢٢٠ ، ٢٤٠ .
إبراهيم بن أغلب الخولاني ؛ ج ٢ - ٦٦٩ .
إبراهيم بن الدباغ الإشبيلي ؛ ج ٢ - ٣٢٠ .
إبراهيم بن الفخار ؛ ج - ٢ ٢٦٣ ، ٣٣٣ .
إبراهيم بن المنصور ؛ ج ٢ - ٢٤٨ ، ٢٧٧ ، ٣٢٦ ، ٣٣١ .
إبراهيم بن تاشفين ؛ ج ١ - ٢٤٨ - ٢٥٠ ، ٢٥٥ ، ٢٦٠ - ٢٦٥ ، ٢٧٠ ، ٢٧٨ ، ٤١٤ .
إبراهيم بن تيعشت ؛ ج ١ - ١٧٨ ، ٢٢٨ .
إبراهيم بن جامع ؛ ج ١ - ٢٥٢ ، ٢٥٨ ، وج ٢ - ٩٨ ، ٣٢٦ ، ٣٤٧ .
إبراهيم بن سهل الإشبيلي ؛ ج ٢ - ٤٢٥ ، ٤٨٢ ، ٦٩٣ .
إبراهيم بن عبد المؤمن ؛ج١- ٤٠٨وج٢-٢٩، ٣٩ - ٤١ ، ١٦٦ ، ٢٥٠ .
إبراهيم بن علي ؛ ج ١ - ٢٤٠ ، ٢٧٨ .
إبراهيم بن عيسى الأزدي ؛ ج ٢ - ٦٧٢ .
إبراهيم بن قراتكين؛ ج ٢ - ١٥٥ ، ١٦٤ .
إبراهيم بن محمد الأعلم ؛ ج ٢ - ٦٧٤ .
إبراهيم بن همشك ؛ ج ١ - ٢٠٥ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٣٧٢ ، ٣٧٥ ، ٣٧٨ ، ٣٨١ ، ٣٨٦ - ٣٩٠ ، ٤٤٦ ، ٤٤٧ ، وج ٢ -٣٩ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٥٤، ٥٦، ٥٧ ، ٧٥، ٧٦، ٧٩، ٨٠ ، ٩٣، ١٤٧.
إبراهيم بن يوسف بن تاشفين ؛ ج ١ - ٤٥ ، ٨٩ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٤٨ ، ٤١٥ ، ٤٥٦ ، ٤٧٤ .
إبراهيم بن يوسف بن عبد المؤمن ؛ ج ٢ - ١٠٩ ، ١١٤ ، ١٢٦ ، ١٣٢ ، ١٣٨ ، ٢٦٣ ، ٢٧٠ ، ٣٤٩ وج ٢ - ٧٣، ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١١٩ ، ١٢٤ .
إبراهيم المزرجي ؛ ؛ ج ٢ - ١٥٨ .
ابن أبي أصيبعة ؛ ج ٢ - ٧١٧ .
ابن أبي الخصال ، أبو عبد الله ؛ ج ١ - ١٥ ، ١٤٢ ، ١٤٤ ، ٢٤٤ ، ٤١٧ ، ٤٣٤ ، ٤٤١، ٤٤٢ وج٢-٦٦١، ٦٦٤، ٦٦٥، ٦٩٦.
ابن أبي الخصال ، أبو مروان ؛ ج ١ - ١١٩، ٢٤٤ ، ٤٤١ ، ٤٤٢ .
ابن أبي السداد ؛ ج ١ - ٧٧ ، ١٥٢ ، ١٥٣ .
ابن أبي العافية القسطلي ؛ ج ١ - ٤٦٤ .
ابن أبي حجة ؛ ج ٢ - ٦٧٥ .
ابن أبي خالد؛ ج٢ -٤٧١، ٤٨٦، ٥٣٥، ٥٣٦.
ابن أبي زرع الفاسي ؛ ج ١ - ١٧ .
ابن أبي عبيد البكري ؛ ج ١ - ١٨ ، ٤١٧ ، وج ٢ - ١٧٦ ، ٦٨٣ .
ابن اشكبندر ؛ ج ١ - ٤٦٤ .
ابن إفرندو ؛ ج ٢ - ٦٧٧ .
ابن الأبار القضاعي ؛ ج ١-١١ ، ١٧ ، ٩٦، ٩٩ ، ١٣٠ ، ٢٥٠ ، ٣١١ ، ٣١٣ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣٢٢ ، ٣٢٦ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٥، ٣٥٨ ، ٣٦٣، ٣٦٤ ، ٤٤٤، ٤٤٦ ، ٤٤٧ ، ٤٥١ ، ٤٦٤ ، ٤٦٦ ، ٤٧٣ وج ٢ - ٥٣ ، ٣٢١ ، ٣٩٦ ، ٣٩٨، ٤٠٠ ، ٤٢٥ ، ٤٢٩ ، ٤٤٢ ، ٤٤٦ ، ٤٤٨ - ٤٥٣ ، ٤٥٦ ، ٤٥٩ ، ٥٣٤ ، ٦٢٩ ، ٦٤٢ ، ٦٤٨ ، ٦٥٤ ، ٦٥٥ ، ٦٥٨ ، ٦٦٧ ، ٦٦٩ ، ٦٧٠ ، ٦٧٤ ، ٦٧٦، ٦٧٩، ٦٨٥، ٦٩١، ٦٩٢، ٦٩٥ ، ٦٩٦، ٧٠٠، ٧٠٢، ٧٠٥ - ٧٠٨، ٧١٦.
ابن الأثير ؛ ج١ - ٤٠ ، ٨٢، ٨٤ ، ١٠٣، ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٢٩ ، ١٥٨ ، ١٦٣ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ٣٩٦ ، ٤٠٥ ، ٤٥٣ ، وج ٢ - ١٢٩ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢٤٠، ٢٥٢.
ابن الأزرق ( عبد الله بن عباس ) ؛ ج١-٤٤٧.
ابن الإقليشي ؛ ج ١ - ٤٦٧ ، ٤٦٨ .
ابن البرذعي ؛ ج ٢ - ٦٨٥ .
ابن البيطار المالقي ؛ ج٢- ٧١١، ٧١٥، ٧١٦ .
ابن الحجام؛ج١-٣٢٣، ٣٢٩، ٣٤٤وج٢-٣٦-

ابن الخطيب ؛ ج ١ - ١٦ ، ١٧ ، ٤٠ ، ٤٨ ، ٥١ ، ٧٢ ، ٨٠ ، ٨٩ ، ١١٠ ، ١٣٠ ، ١٤٢ ، ١٤٤ ، ١٥٨ ، ١٦٣ ، ٢٥١ ، ٢٦٤ ، ٢٧١ ، ٣١١ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣٣٢ - ٣٣٤ ، ٣٤٩ ، ٣٥٢ ، ٣٦٧ ، ٣٦٨ ، ٣٧٠ ، ٣٧٥ ، ٣٨٥ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٤٤٠ ، ٤٤١ ، ٤٤٤ ، ٤٥٣ ، وج ٢ - ٣٩ ، ٥٦ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٤ ، ٢٣٨ ، ٣٦٥ ، ٣٦٩ ، ٣٨١ ، ٣٨٥ ، ٣٩٢ ، ٣٩٦ ، ٤٣٦ ، ٦٩٤ ، ٧٠٤ ، ٧٠٩ ، ٧١٦ .
ابن الدباغ (يوسف) ؛ ج ١ - ٤٦٠ .
ابن الدباغ ، أبو الوليد ؛ ج ٢ - ٦٥٤ ، ٦٦٠ ، ٦٧٧ ، ٦٨٣ .
ابن الراعى ؛ ج ١ - ٢٢٨ .
ابن الرنك ؛ انظر ألفونسو هنريكيز .
ابن السراج ؛ ج ٢ - ٦٧٢ .
ابن السقا ؛ ج ٢ - ٦٧٣ .
ابن السيد البطليوسى ؛ ج ١ - ٤٦٨ ، ٤٦٩ .
ابن الشرق ؛ ج ١ - ٣٦٨ .
ابن الشماخ ؛ ج ١ - ٣١٣ .
ابن الصقر الأنصارى ؛ ج ١ - ٤٥٧ ، ٤٥٨ ،
ابن الصيرفى ؛ ج ١ - ٤٩ - ٥٣ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١٣٩ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ٤٤٠ ، ٤٤١ ، ٤٤٤ .
ابن الصيقل ؛ ج ٢ - ٦٥٤ .
ابن الطيلسان ؛ ج ٢ - ٧١٤ .
ابن العريف ، أبو العباس ؛ ج ١ - ٣٠٧ ، ٤٣٢ ، ٤٦٥ ، ٤٦٦ .
ابن العوام الإشبيلى ؛ ج ٢ - ٧١٨ .
ابن الفراء ؛ ج ١ - ٥٢ ، ١٠٤ ، ٣١٦ .
ابن الفرس ؛ ج ٢ - ٥١٠ ، ٦٥٧ ، ٦٥٨ ، ٦٦٦ ، ٦٧٥ ، ٧٠٤ ، ٧١٥ .
ابن الفرضى ؛ ج ١ - ٤٥١ وج ٢ - ٧٠٩ .
ابن القطان ؛ ج ١ - ١٠ - ١٤ ، ٦٤ ، ٦٦ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ١١٥ - ١١٩ ، ١٣٢ ، ١٣٥ ، ١٤٠ - ١٤٢ ، ١٤٧ ، ١٥٩ - ١٦٢ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٧٣ - ١٧٦ ، ١٨٠ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٥ ، ١٨٩ - ١٩١ ، ١٩٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٣ ، ٢٢٧ - ٢٣١ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٤٠٤ وج ٢ - ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٥٦٠ ، ٦١٦ ، ٦١٩ ، ٧٠٩ .
ابن القلاس ؛ ج ١ - ١١١ .
ابن الكردبوس ؛ ج ١ - ٤٨ ، ٩٢ ، ١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٢٩ .
ابن المرابط ؛ ج ١ - ١٦ .
ابن المرحل ؛ ج ٢ - ٤٣٥ ، ٦٩٤ .
ابن النجيل ؛ ج ٢ - ٢٧٥ ، ٣٧٤ .
ابن الوراق ؛ ج ١ - ١٣٢ وج ٢ - ٦٥٠ .
ابن الياسمين ؛ ج ٢ - ٧١٧ .
ابن أم العماد ؛ ج ١ - ٣١٥ ، ٣١٦ .
ابن بسام ؛ ج ١ - ٣٥٩ ، ٤٤١ ، ٤٤٨ ، ٤٤٩ ، وج ٢ - ٦٩٦ .
ابن بشكوال ؛ ج ١ - ١٧ ، ٤٠ ، ٤٤١ ، ٤٤٢ ، ٤٥٦ ، ٤٦٠ ، ٤٦٤ ، ٤٦٩ وج ٢ - ٦٥٤ ، ٦٥٥ ، ٦٥٧ ، ٦٥٩ ، ٦٦٢ ، ٦٦٥ ، ٦٦٨ ، ٦٧٠ - ٦٧٥ ، ٦٧٩ ، ٦٨٦ ، ٧٠٢ ، ٧٠٤ ، ٧٠٧ ، ٧٠٩ ، ٧٢١ .
ابن بصال الطليطلى ؛ ج ٢ - ٧١٨ .
ابن تفرتاش ، أمير البحر ؛ ج ١ - ٧٧ .
ابن تمركيد ؛ ج ١ - ٢٧٩ .
ابن تومرت (المهدى) ؛ ج ١ - ١١ ، ١٢ ، ١٨ ، ٢٦ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨٥ ، ١١٤ ، ١٤٧ ، ١٥٦ - ١٨٦ ، ١٨٩ - ١٩٤ ، ١٩٦ ، ١٩٨ - ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٤ ، ٢٠٧ ، ٢١٧ ، ٢١٩ - ٢٢٩ ، ٢٣٥ ، ٢٣٤ ، ٢٤٠ - ٢٤٢ ، ٢٥٥ ، ٢٥٨ ، ٢٦٥ ، ٢٧٦ ، ٢٨٦ - ٢٨٨ ، ٣٣٥ - ٣٣٨ ، ٣٩٥ ، ٣٩٧ - ٣٩٩ ، ٤٠٢ ، ٤٠٤ - ٤٠٧ ، ٤١٣ ، ٤١٩ ، ٤٢١ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٣٣ - ٤٣٧ ، ٤٤٥ وج ٢ - ١١ ، ١٤ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٦٥ ، ٩٩ ، ١١٠ ، ١٣٢ ، ١٣٥ ، ١٨٠ ، ٢٠٢ ، ٢٣٩ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٣٢٦ ، ٣٣٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٧ ، ٣٧٠ ، ٣٧٢ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٤٩٧ ، ٥٠٢ ، ٥٧٣ ، ٥٧٧ ، ٥٧٩ ، ٥٨٠ ، ٦١٥ - ٦١٧ ، ٦٢٠ ، ٦٢٥ ، ٦٣٠ - ٦٣٢ ، ٦٤٥ ، ٦٤٦ .
ابن جبير ؛ ج ٢ - ٢٤١ - ٢٤٣ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٥٣٤ ، ٦٩٧ ، ٧١٣ .
ابن جزى ؛ ج ١ - ٣١٣ ، ٣١٦ ، ٣٢٠ ، ٣٦٠ .
ابن جشار ؛ ج ٢ - ٥٣٣ ، ٥٣٤ .
ابن جنون ؛ ج ١ - ٤٢٥ ، ٤٧٣ .

ابن حبوس ؛ ج ١ - ٣٨٢ ، ٣٨٤ وج ٢ - ٦٨٨ .
ابن حريق ؛ ج ٢ - ٦٩٢ .
ابن حزم القرطبى ؛ ج ١ - ٢٠٣ ، ٤٥٩ ، ٤٦٥ وج ٢ - ٢٤٠ ، ٧١٦ .
ابن حزمون ؛ ج ٢ - ٢١٦ ، ٦٨٧ ، ٦٩٣ .
ابن حمادة ؛ ج ١ - ١٤٢ ، ٢٤٣ .
ابن حمنال ؛ ج ٢ - ٧٢٦ .
ابن خالد ؛ ج ٢ - ٤٣٠ .
ابن خروف ؛ ج ٢ - ٦٨٢ ، ٦٨٣ ، ٦٨٥ .
ابن خلاص البلنسى ؛ ج ٢ - ٤٥٦ ، ٤٧١ ، ٥١٢ ، ٥٢٠ .
ابن خلدون ؛ ج ١ - ٣٨ ، ٤١ ، ٥١ ، ١١٥ ، ١٥٣ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٧٥ ، ١٩٠ ، ١٩٣ - ١٩٥ ، ١٩٨ ، ٢٤٨ ، ٢٥٨ ، ٢٦٣ ، ٢٧٣ ، ٢٧٥ ، ٣١١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٦ - ٣٣٣ ، ٤٥٣ ، وج ٢ - ١٢٩ ، ١٨٤ ، ١٩٤ ، ٢٦٠ ، ٢٧٥ ، ٢٩٠ ، ٣٢٩ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٧٨ ، ٤١٦ ، ٤١٧ ، ٤٨٠ ، ٥٢١ ، ٥٤٧ ، ٥٥٥ ، ٥٨٠ ، ٧٤٢ .
ابن خلكان ؛ ج ١ - ١٧ ، ٥١ ، ١٥٨ ، ١٩٨ ، ٣٩٦ ، ٤٠٨ ، ٤٦٨ ، ٤٧٢ ، وج ٢ - ١٢٤ ، ٢٤٤ ، ٣٢٩ ، ٦٩٥ .
ابن دهرى ؛ ج ١ - ٣٨٧ .
ابن دينار ؛ ج ١ - ٣٩ ، ٥١ .
ابن رشد ، أبو القاسم ؛ ج ١ - ٣١٢ .
ابن رشد ، الجد ؛ ج ١ - ٨٠ ، ٨٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ١٣٢ ٤١٦ ، ٤٣٠ ، ٤٥٦ ، ٤٦٠ ، ٤٦١ .
ابن رشد ، الحفيد ؛ ج ١ - ٣٢ ، ٤٧٣ ، وج - ٧٧ ، ١١٠ ، ١١٤ ، ١٣٦ ، ٢٢٣ - ٢٢٨ ، ٢٤٤ ، ٢٤٧ ، ٦٤٦ ، ٦٤٩ - ٦٥٢ ، ٦٥٧ ، ٦٥٨ - ٦٦٠ ، ٦٦٥ ، ٦٧٥ ، ٦٨٥ ، ٦٩٨ ، ٧١١ ، ٧١٢ ، ٧١٥ ، ٧١٩ - ٧٢٢ ،
ابن رشيق ؛ ج ١ - ١٥٩ وج ٢ - ٦٨٧ .
ابن زهر ، أبو بكر ؛ ج ١ - ٣٢ ، ٤٧٤ ، وج ٢ - ٧٣ ، ١١٠ ، ١٢٧ ، ١٣٦ ، ١٩٩ ، ٦٤٦ ، ٦٤٩ ، ٦٨٦ ، ٦٨٧ ، ٧١٣ ، ٧١٤ ، ٧٢٠ .
ابن زهر ، عبدالملك ؛ ج ١ - ٤٧٣ ، ٤٧٤ ، وج ٢ - ٢٢٣ ، ٧١١ ، ٧١٣ ، ٧٢١ .
ابن سعد الخير الأنصارى ؛ ج ٢ - ٦٩٦ .
ابن سعيد الأندلسى ؛ ج ١ - ١٥٨ ، ٤٤١ ، وج ٢ - ٧٠٨ .
ابن سفيان المخزومى ؛ ج ١ - ٤٦٧ وج ٢ - ٥٠ ، ٥١ .
ابن سمجون ؛ ج ٢ - ٦٦٧ ، ٧١٥ .
ابن سمحون ؛ ج ٢ - ٦٦٤ ، ٦٨٢ .
ابن سيد الإشبيلى ؛ ج ١ - ٣٨٤ ، ٤٥٣ .
ابن سيد الجراوى ؛ ج ١ - ٤٦٥ .
ابن سيداله التجيبى ؛ ج ١ - ٤٥١ .
ابن سينا ؛ ج ٢ - ٢٢٣ ، ٧٢٢ .
ابن شرف ؛ ج ١ - ١٥ ، ٥٣٣ .
ابن شعيب ؛ ج ٢ - ٤٧٨ ، ٤٨٥ .
ابن شلبان ؛ ج ١ - ٣٣٥ ، وج ٢ - ٦٥٠ .
ابن صاحب الصلاة ، أبو الحسن ؛ ج ١ - ٢٦٧
ابن صاحب الصلاة ؛ أحمد بن يوسف ؛ ج ١ - ٤٦٣ .
ابن صاحب الصلاة ، عبد الملك ؛ ج ١ - ٧ ، ١٠ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٠٩ ، ١٦٦ ، ١٧٤ ، ١٨٩ ، ٢٠٥ ، ٢١٩ ، ٢٢٧ ، ٢٢٩ ، ٢٣٢ ، ٢٤٧ ، ٢٥٣ ، ٢٥٨ ، ٣٣١ ، ٣٥٨ ، ٣٧٥ ، ٣٧٨ - ٣٨٢ ، ٣٨٨ ، ٣٩١ ، ٣٩٤ ، ٣٩٦ ، ٤٦٦ وج ٢ - ١٢ ، ١٣ ، ١٩ ، ٢٦ - ٢٨ ، ٣١ ، ٣٤ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٨ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٦٠ - ٦٤ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧١ - ٨٠ ، ٨٢ ، ٩٥ ، ١٠٦ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١٢٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٨٠ ، ١٨٣ ، ١٩٢ ، ٢٢٥ ، ٢٣٠ ، ٧٠٣ .
ابن صاحب الصلاة عبد الله ، ج ١ - ٣٨٢ ، ٣٨٤ .
ابن صناديد ، أبو عبدالله ؛ ج ١ - ٣٨٦ وج ٢ - ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٦ ، ٢١٨ ، ٣١٨ .
ابن صنعون القنطرى ؛ ج ١ - ٤٦٤ .
ابن طفيل ؛ ج ١ - ٣٢ ، ٣٢٠ ، ٣٣٩ ، ٤٥٨ ، وج ٢ - ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ١٠٩ ، ١٢٧ ، ١٣٦ ، ٢٢٣ ، ٦٣٧ ، ٦٤٦ ، ٦٤٩ ، ٦٩٥ ، ٦٩٦ ، ٧١١ ، ٧١٥ ، ٧١٧ ، ٧١٩ - ٧٢١ .
ابن عبد الجليل التدميرى ؛ ج ١ - ٤٦٩ .
ابن عبد الملك المراكشى ؛ ج ١ - ٩ ، ١١ ، ١٦ ، ٤٤٧ وج ٢ - ٥٣ ، ٥٥ ، ١٢٣ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٤٦ ، ١٨٩ ، ١٩٢ ، ٢٢٤ ، ٢٣٥ ، ٢٤٠ ،

٢٤١ ، ٢٤٤ ، ٢٤٦ ، ٢٥٠ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٨ ، ٣١٤ ، ٣١٨ ، ٣٢٣ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٣٠ - ٣٣٢ ، ٣٤٦ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٦٥٨ ، ٦٧٥ ، ٦٨٨ ، ٦٩٩ ، ٧٠٠ - ٧٠٣ ، ٧٠٩ ، ٧١٦ .
ابن عبد المنعم الحميرى ؛ ج ١ - ٩٢ .
ابن عبد ربه ، أبوعمر ؛ ج ١ - ٢٢٣ .
ابن عبدون ، أبو محمد عبد المجيد ، ج ١ - ٧٠ ، ١١٣ ، ٢٤٤ ، ٤١٧ ، ٤٣٢ ، ٤٣٤
ابن عذارى المراكشى ؛ ج ١ - ١٠٠٨ ، ١٢ - ١٤ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٥٠ ، ٥٣ ، ٦٤ ، ٧٥ ، ٨٠ ، ٨٤ ، ٨٩ ، ٩٣ ، ١١٠ ، ١١٥ ، ١٣٢ ، ١٤٢ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ٢٣١ - ٢٣٥ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٧ ، ٢٥٨ ، ٣٢٢ ، ٣٤٨ ، ٣٧٥ ، ٣٨٦ وج ٢ - ١٠٠ ، ١٦٦ ، ٣٣٢ ، ٣٤٠ ، ٣٤٢ ، ٣٤٥ ، ٣٥٣ ، ٣٥٦ ، ٣٦٠ ، ٣٦٢ ، ٣٦٦ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٣٧٢ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٣٧٩ ، ٣٨٥ ، ٤٠٠ ، ٤١٦ ، ٤٢٨ ، ٤٦٢ ، ٤٨٤ ، ٥١٤ ، ٥٢١ ، ٥٢٤ ، ٥٢٥ ، ٥٣٢ ، ٥٤٤ ، ٥٤٧ ، ٥٥٠ ، ٥٥٥ ، ٥٥٩ - ٥٦١ ، ٧٠٩ .
ابن عزفى ، محيى الدين الطائى ؛ ج ٢ - ٦٧٩ ، ٦٨٠
ابن عسكر المالقى ؛ ج ٢ - ٤٣٠ ، ٦٧٤ ، ٦٩٢
ابن عصام ؛ ج ٢ - ٤٥٨ ، ٤٦٠ .
ابن عصام الخولانى ؛ ج ١ - ٩٦ ، ٤٤٨ .
ابن عصفور ؛ ج ٢ - ٢٦٢ ، ٢٧٦ .
ابن عطاف العقيلى ؛ ج ٢ - ٦٨٦ .
ابن عطوش ؛ ج ٢ - ٧٢٦ .
ابن عطية الزناتى ؛ ج ٢ - ٢٧٨ .
ابن عطية المحاربى ؛ ج ١ - ٤٥٨ .
ابن عوبيل ؛ ج ٢ - ٢٧٧ .
ابن غالب البلنسى الرصافى ؛ ج ١ - ٣٨٢ ، ٣٨٤ ، ٤٤٧ وج ٢ - ٦٨٩ ، ٦٩٠ .
ابن فرحون ؛ ج ١ - ٣٢٦ .
ابن قاسم ، أمير البحر ؛ ج ٢ - ٥٢ .
ابن قسوم اللخمى ؛ ج ٢ - ٧٠٥ .
ابن قنونة ؛ ج ١ - ١١٨ - ١٢٠ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٤٤ .
ابن مجبر ، أبو بكر ؛ ج ٢ - ١٦٥ ، ٢٣٤ ، ٦٨٧ ، ٦٩٥ .
ابن محفوظ ، شعيب ؛ ج ٢ - ٤١٦ ، ٤٧٨ ، ٤٨٨ ، ٤٩٠ ، ٤٩٢ ، ٤٩٣ .
ابن مخلد النحوى ، ج ٢ - ٦٨٦ .
ابن مخلوف ؛ ج ١ - ٣١١ .
ابن مرداس السلمى ؛ ج ٢ - ٦٧٧ .
ابن مطروح النجيبى ؛ ج ٢ - ٦٧٣ .
ابن مطروح القيسى ؛ ج ١ - ١٦٠ .
ابن معنصر الكومى : ج ٢ - ٥٢٣ .
ابن مغيث ؛ ج ٢ - ٦٥٣ ، ٦٦٠ ، ٦٦١ ، ٦٦٥ .
ابن ملحان الطائى ؛ ج ١ - ٣٢٠ ، ٣٣٥ ، ٣٤١ ، ٣٤٦ ، ٣٧٢ وج ٢ - ٦٩٦ ، ٧١٩ .
ابن منظور ، القاضى ، ج ٢ - ٤٨٤ .
ابن ميمون ، أمير البحر ؛ ج ١ - ٢٤٧ ، ٢٤٩ ، ٢٥١ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٤٢٢ ، وج ٢ - ٢٥٩ .
ابن نغرالة ( ابن النغريلى ) ؛ ج ٢ - ٢٣٥ .
ابن هانىء ؛ ج ٢ - ٦٨٨ .
ابن هانىء السبتى ؛ ج ٢ - ٧٠٢ .
ابن هود ، المتوكل ؛ ج ١ - ١٦ ، ٣٢ ، ٣٣ وج ٢ - ٣٦٨ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ٣٩٠ ، ٣٩٥ ، ٣٩٩ - ٤٠٢ ، ٤١١ - ٤٢٤ ، ٤٢٦ - ٤٣١ ، ٤٣٨ ، ٤٤٣ ، ٤٥٧ - ٤٦٢ ، ٤٦٦ ، ٤٧٠ ، ٤٩٩ ، ٥٠٧ - ٥٠٩ ، ٥١٠ ، ٥٢٤ ، ٥٩٦ - ٥٩٨ ، ٦٢٧ ، ٦٤٣ ، ٦٩٤ ، ٦٩٩ ، ٧٠٠ ، ٧١٤
ابن وافد ، أبو المطرف ، ج ١ - ٤٧١ .
ابن ورد التميمى ؛ ج ١ - ٤٥٧ .
ابن وزمر الحجارى ؛ ج ١ - ٤١٩ ، ٤٥٠ .
ابن وضاح المرسى ؛ ج ١ - ١٢٥ .
ابن ياوجى ؛ ج ٢ - ٥١٠ .
ابن يومور ، أبوزكريا ؛ ج ١ - ٢٤٥ ، ٢٥٩
ابن يونس ؛ ج ٢ - ٤٨٩ .
أبو إبراهيم ، الشيخ ؛ ج ١ - ٢٥٢ ، ٢٥٧ ، ٢٧٩ .
أبو إبراهيم بن يغمور ؛ ج ٢ - ٢٧٧ .
أبو اسحق بن أبى ابراهيم ؛ ج ٢ - ٥١٧ ، ٥٢٢ ، ٥٣٠ ، ٥٧٠ ، ٥٧١ .
أبو اسحق بن أشقيلولة ؛ ج ٢ - ٤٣٤ .
أبو اسحق بن الحجر ؛ ج ٢ - ٤٩٨ .
أبو اسحق بن خفاجة ؛ ج ٢ - ٦٨٩ .
أبو اسحق بن دانية ؛ ج ١ - ٧٢ .

أبو اسحق بن طلحة ؛ ج ٢ - ٦٦٨ .
أبو اسحق بن فرقد ؛ ج ٢ - ٦٦٤، ٦٦٩ ، ٦٧١ ، ٦٧٤ .
أبو اسحق بن ملكون ؛ ج٢ - ١٣٥، ٦٥٧ ، ٦٧١ ، ٦٧٢ ، ٦٨٣ ، ٦٨٤ .
أبو اسحق البطروجي المراكشي ؛ ج٢ - ٧١٧.
أبو الجيش محارب ؛ ج ٢ - ٢٧٧ .
أبو الحسن بن أبي العافية ؛ ج ٢ - ٥٢٤ .
أبو الحسن بن أبي حفص ، السيد ؛ ج ٢ - ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٦٨ ، ١٧٩ ، ٢٣٦ ، ٢٥١ ، ٢٥٥ ، ٢٧١ .
أبو الحسن بن أضحى ؛ ج١ - ٣٠، ٣١٦ ، ٣٢٠ ، ٣٥٦ ، ٣٥٨ ، ٣٦٠ ، ٤١٦ .
أبو الحسن بن الباذش ؛ ج ١ - ٤٦١ ، ٤٧٠ ، وج ٢ - ٦٥٠ ، ٦٦٠ ، ٦٨٢ .
أبو الحسن بن الصائغ ؛ ج ٢ - ٦٨٥ .
أبو الحسن بن النعمة ؛ ج ٢ - ٦٦٦ ، ٦٦٧، ٦٦٩ ، ٦٧٨ ، ٦٨٣ ، ٦٨٤ .
أبو الحسن بن برطلة ؛ ج ٢ - ٦٥٤ .
أبو الحسن بن بق ؛ ج ٢ - ٦٦٨ .
أبو الحسن بن عبد العزيز البطليوسي ؛ج١ - ٢٤٣ ، ٤٤١ .
أبو الحسن بن عز الناس ؛ ج ١ - ٤٦٠ .
أبو الحسن بن علي ؛ ج ٢ - ٤٧٦ .
أبو الحسن بن عياش ؛ ج١- ٣٣٩ ، ٤٠٦ ، وج ٢ - ١٧ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٣٤ ، ٦١ ، ١٣٨ ، ٢٧٤ ، ٣٢٦ ، ٣٣٠ ، ٣٤٧ ، ٦٢٢ ، ٦٩٨ .
أبو الحسن بن كوثر ؛ ج ٢ - ٦٧٢ ، ٦٧٥ ، ٦٧٧ ، ٦٨٦ ، ٧٠٤ .
أبو الحسن بن مسلم ؛ ج ٢ - ٦٨٣ .
أبو الحسن بن واجاج ؛ ج١ - ٢٦٤ ، ٢٦٥، وج ٢ - ٢٧٧ .
أبو الحسن بن يعلى ؛ ج ٢ - ٥٤٣ .
أبو الحسن الإشبيلي ؛ ج١ - ٣٨٢ ، ٤٠٦، وج ٢ - ١٨ ، ٦٢٢ .
أبو الحسن الرعيني ؛ ج ٢ - ٣٨٦ ، ٥١٥ ، ٥١٧ ، ٥٥٨ ، ٥٥٩ ، ٦٢٢ ، ٦٩٥ ، ٧٠٠ .
أبو الحسن السعيد ، الخليفة ؛ ج ٢ - ٣٨٦، ٥١٨ ، ٥١٩ - ٥٢٧ ، ٥٢٩ ، ٥٣١ - ٥٣٤ ، ٥٣٧ ، ٥٤٣ ، ٦٢٧ ، ٦٩٩ ، ٧٠١ .
أبو الحسن الفرياني ؛ ج ١ - ٢٩٣ .
أبو الحسن المالقي ؛ ج ٢ - ١٢٤ .
أبو الحسن المريني ؛ ج ٢ - ٥٧٩ .
أبو الحكم بن بطال ، ج ١ - ٣٤٠ .
أبو الحكم بن حسون ؛ ج ١ - ٣١٥ ، ٣١٩، ٣٣٤ ، ٤١٦ .
أبو الحكم بن عبد العزيز ؛ ج ٢ - ٦٩ .
أبو الحكم بن هرودس ؛ ج ١ - ٣٢٠ ، ٣٣٩ ، وج ٢ - ٩٥ ، ٦٩٦ .
أبو الحملات بن مردنيش ؛ ج ٢ - ٤٤٩ .
أبو الخطاب بن واجب؛ ج٢ - ٦٦١ ، ٦٦٩، ٦٧٢ ، ٦٧٣ ، ٦٧٧ ، ٦٧٨ ، ٧٠٠ ، ٧٠٥ ، ٧١٨ .
أبو الربيع بن أبي حفص ؛ ج ٢ - ٣٣٣ ، ٣٥١ ، ٣٩٢ ، ٤١٨ .
أبو الربيع بن عبد المؤمن؛ ج ١ - ٣٣٩، ٤٠٧ .
أبو الربيع بن سالم ؛ ج ٢ - ٤٤٢ ، ٦٥٤ ، ٦٥٥ ، ٦٥٧ ، ٦٦٢ ، ٦٦٥ ، ٦٨٩ ، ٦٩٢ ، ٦٩٧ ، ٧٠٠ ، ٧٠٥ ، ٧٠٦ .
أبو الربيع الكفيف ؛ ج ٢ - ٢٢٥ .
أبو الظفر بن مردنيش ؛ ج ٢ - ١٥٤ .
أبو العباس بن أبي حفص ؛ ج ٢ - ٣٣٣ ، ٥٣١ ، ٥٣٢ .
أبو العباس بن الحلال ؛ ج ١ - ٣٥٨، ٤٥٩، ٤٦٠ وج ٢ - ٦٦٧ .
أبو العباس بن الخطيب ؛ ج ٢ - ١٥٤ .
أبو العباس بن الرومية ؛ ج٢ - ٤٨٧، ٦٩٩ ، ٧١١ ، ٧١٥ ، ٧١٦ .
أبو العباس بن رميلة ؛ ج ٢ - ١٢ .
أبو العباس بن عبد المؤمن ؛ ج ٢ - ٩٩ .
أبو العباس بن مضاء ؛ ج ٢ - ٦٥٧ ، ٦٧٥ .
أبو العباس الجراوي ؛ ج١-٤٠٤ وج٢-١٨٠، ١٨٩ ، ٢١٦ ، ٢٤٤ ، ٣٢٥، ٦٨٧ ، ٦٩٥ .
أبو العباس الحافظ ، ج ٢ - ٢٢٥ .
أبو العباس الحفصي ، السلطان ؛ ج ١ - ١٩٤
أبو العباس الرنداحي ؛ ج ٢ - ٤٣٤ ، ٤٨٦ ، ٤٨٩ ، ٥٣٥ ، ٥٥١ ، ٥٥٤ .
أبو العباس الصقلي ، أمير البحر ؛ ج ٢-١٠٠ ، ١٠١ ، ١٣١ ، ١٥١ ، ١٥٢ .
أبو العباس العذري ؛ ج ١ - ٤٥٥ .
أبو العباس المجريطي؛ج ٢-٦٠٧ ، ٦٥٧ ، ٦٩٣ .

أبو العباس المسكورى ؛ ج ٢ - ٥٦٣ .
أبو العباس اليانشتى ؛ ج ٢ - ٣٨٣ ، ٥٠٦ ، ٥٠٩ .
أبو العطاء بن نذير ؛ ج٢ - ٦٥٨ ، ٦٧٦ ، ٦٧٨
أبو العلاء بن عزون ؛ ج ١ - ٣٧٤ ، ٣٨٢ ، ٣٨٦ ، ٤٤٤ وج ٢ - ٢٠ ، ٣٢ ، ٤٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٨٠ ، ٨١ .
أبو العلا بن مردنيش ؛ ج ٢ - ١٠٠ .
أبو الغمر بن عزون ؛ ج ١ - ٣١٤ ، ٣٢١ ، ٣٢٣ ، ٣٢٥ - ٣٢٧ ، ٣٢٩ ، ٣٣٤ ، ٣٤٠ .
أبو الغمر الشايب بن غرون ؛ ج ١ - ٩٦ ، ٢٦١
أبو القاسم بن الجد ؛ ج١ - ٢٤٣ ، ٤١٧ ، ٤٣٤ .
أبو القاسم بن الرماك ؛ ج ٢ - ٦٦٤ ، ٦٦٦ ، ٦٨٣ ، ٦٨٤ .
أبو القاسم بن بقى ؛ ج ٢ - ٦٥٣ ، ٦٥٥ ، ٦٦١ ، ٦٧٣ ، ٦٨٢ .
أبو القاسم بن حبيش ؛ ج ٢ - ٦٥٦ - ٦٥٨ ، ٦٦٦ ، ٦٧١ ، ٦٨٦ .
أبو القاسم بن حمدون ؛ ج١ - ٧٩ ، ٨٠ ، ٨٤ ، ٤١٦ ، ٤٤١ ، ٤٤٧ .
أبو القاسم بن محمد بن بقى ، ج ٢ - ٢٤٨ .
أبو القاسم السهيلى ؛ ج ٢ - ٦٥٧ ، ٦٦٨ .
أبو القاسم العزفى ؛ ج ٢ - ٤٣٣ - ٤٣٥ ، ٤٨٦ ، ٥٣٥ ، ٥٣٦ ، ٥٤٤ ، ٥٤٨ ، ٥٥٠ ، ٥٥١ ، ٥٥٤ ، ٥٧١ ، ٥٧٦ .
أبو القاسم القالمى ؛ ج ٢ - ١٣٨ ، ٢٤٧ ، ٦٢٢ ، ٦٩٧ .
أبو القاسم الملاحى ؛ ج ١ - ٤٤٢ وج ٢ - ٦٢٥ ، ٦٧٣ ، ٦٧٦ ، ٦٨٢ ، ٦٨٨ ، ٧٠٤
أبو القاسم المؤمن المصرى ؛ ج ١ - ٢٢٣ ، ٢٢٤ وج ٢ - ٢٤٢ .
أبو الليث الصقلى ؛ ج ٢ - ٢٣٢ ، ٧٢٥ .
أبو المطرف بن عميرة ؛ ج ١ - ٦١ وج ٢ - ٣٨٦ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٤٢٥ ، ٤٤٣ ، ٤٥١ - ٤٥٥ ، ٤٥٨ ، ٥١٥ ، ٥٥٤ ، ٦٢٢ ، ٦٤٨ ، ٦٩٥ ، ٦٩٩ - ٧٠٢ .
أبو الوليد بن الأصبغ ؛ ج ٢ - ٣٦٤ .
أبو الوليد الباجى ؛ ج ١ - ٤٥٥ .
أبو الوليد الوقشى ؛ ج ١ - ٤٧١ .
أبو الوليد بن نام ؛ ج ٢ - ٦٧٢ ، ٦٨٤ .
أبو بكر بن إبراهيم المسوفى ؛ ج١ - ٧٥ ، ٨٩ ، ٩٣ ، ١٢٧ ، ٤٧٠ ، ٤٧١ ، ٤٩٩ .
أبو بكر بن أبى جمرة : ج٢ - ٦٢٩ ، ٦٥٤ ، ٦٧٦ .
أبو بكر بن أبى زمنين ؛ ج ٢ - ٦٥٥ ، ٦٥٧ ، ٦٦١ ، ٦٧٧ ، ٦٨٢ ، ٧٠٤ ، ٧١٥ .
أبو بكر بن الجبر ؛ ج١ - ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٧٥ .
أبو بكر بن الجد ؛ ج ١ - ٢٦٧ ، ٢٧٩ ، ٣٨٢ وج ٢ - ١٢ ، ٧٧ ، ٨٤ ، ٨٩ ، ١٠٩ ، ١١٦ ، ٤٧٠ ، ٦٥٢ ، ٦٥٤ - ٦٦٠ ، ٦٧٠ ، ٦٧٥ ، ٧١٥ .
أبو بكر بن الجوهر ، ج ١ - ٢٤١ .
أبو بكر بن الصائغ ( ابن باجة ) ؛ ج١ - ٨٩ ، ٤٧٠ ، ٤٧١ ، وج ٢ - ٧١٧ ، ٧١٩ .
أبو بكر بن العربى ؛ ج ١ - ٤١ ، ٤٤ ، ١٤٠ ، ٢٦٧ ، ٣٢٥ ، ٣٢٨ ، ٤٢٥ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ ، ٤٦٠ ، ٤٦٨ وج ٢ - ٦٥١ - ٦٥٣ ، ٦٦١ ، ٦٦٤ - ٦٦٦ ، ٦٧٧ ، ٦٧٩ ، ٧٠٤ .
أبو بكر بن القصيرة ؛ ج ١ - ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٣ ، ٢٤٣ ، ٤١٧ ، ٤٣٤ ، ٤٤٠ ، ٤٤١ ، ٤٥١ .
أبو بكر بن المنخل ؛ ج ١ - ٣٣١ ، ٣٤٨ ، ٣٨٤ ، ٤١٦ ، ٤٦٦ وج ٢ - ٦٧ .
أبو بكر بن المنصور ؛ ج ٢ - ٢٤٨ .
أبو بكر بن تاشفين ؛ ج ١ - ٧٢ .
أبو بكر بن تيزميت ؛ ج ١ - ٢٦٥ .
أبو بكر بن حمامة ؛ ج ٢ - ٣٣٥ .
أبو بكر بن خطاب ؛ ج ٢ - ٥١٨ ، ٦٧٢ .
أبو بكر بن خلف الأنصارى ؛ ج ٢ - ٦٥٣ .
أبو بكر بن خير الأموى ؛ ج٢ - ٦٥٤ ، ٦٦١ ، ٦٦٨ ، ٦٧٤ .
أبو بكر بن سيدبونه ؛ ج ٢ - ٦٦٩ ، ٦٧٨ .
أبو بكر بن صاف ؛ ج ٢ - ٦٧٠ .
أبو بكر بن صارة ؛ ج ١ - ٢٣٦ .
أبو بكر بن عبد العزيز البطليوسى ؛ ج ١ - ٢٤٣ ، ٤١٧ ، ٤٤١ وج ٢ - ٦٦١ ، ٦٦٣ .
أبو بكر بن عبد الله بن أبى حفص ؛ ج ٢ - ٢٤٧
أبو بكر بن عبد العزيز السكاك ؛ ج ٢ - ٢٦٢ .
أبو بكر بن عتيق ؛ ج ٢ - ٦٨٥ .
أبو بكر بن عطية ؛ ج ٢ - ٦٥٠ .
أبو بكر بن على بن يوسف ؛ ج١ - ٨٥ ، ١١١ ، ١٣٢ ، ١٨٤ ، ٢٤٤ ، ٤١٥ ، ٤٢٩ .
أبو بكر بن عمار ؛ ج ١ - ٤٤٩ .

أبو بكر بن عياش ؛ ج ٢ - ٤٣١ .
أبو بكر بن عمر اللمتونى ؛ ج ١ - ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٤ ، ٤٩ .
أبو بكر بن قزمان ؛ ج ١ - ٤٥٣ ، ٤٥٤ .
أبو بكر بن محمد اللمتونى ؛ ج ١ - ١٧٨ .
أبو بكر بن مسعود الخشنى ؛ ج ٢ - ٦٦٢ ، ٦٦٣ ، ٦٦٥ .
أبو بكر بن ميمون القرطبى ؛ ج ١ - ٤٠٦ .
أبو بكر بن هشام الأزدى ؛ ج ١ - ٦٩٢ .
أبو بكر بن هود ، الواثق ؛ ج ١ - ٣٦٠ ، وج ٢ - ٤١٣ ، ٤١٤ ، ٤٢٩ ، ٤٥٧ ، ٤٦١ - ٤٦٣ .
أبو بكر بن وارصول ؛ ج ١ - ٢٢٦ .
أبو بكر بن واسينو ؛ ج ١ - ٧٢ .
أبو بكر بن يحيى الخزرجى ؛ ج ٢ - ٤٥٩ .
أبو بكر بن وزير ؛ ج ٢ - ٩١ .
أبو بكر بن وضاح ؛ ج ٢ - ٦٥٥ .
أبو بكر بن يحيى القرطبى ؛ ج ٢ - ١٣٦ .
أبو بكر بن يعزى التينملى ؛ ج ٢ - ٥٠٢ .
أبو بكر بن يكيت ؛ ج ١ - ١٧٤ ، ١٨٩ ، ٢٧٠ .
أبو بكر بن يندوج ؛ ج ١ - ١٨٥ .
أبو بكر بن يوسف الكومى ؛ ج ٢ - ١٣٧ .
أبو بكر بن يوسف بن تاشفين ؛ ج ١ - ٥٨ .
أبو بكر الرازى ؛ ج ١ - ٤٧٣ .
أبو بكر الساقى ؛ ج ١ - ٧٣ .
أبو بكر الشاشى ؛ ج ١ - ١٦١ ، ٤٥٦ .
أبو بكر الصنهاجى ( البيذق ) ؛ ج ١ - ١٨ ، ١٥٩ ، ١٧٢ ، ١٨٠ ، ١٨٣ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٤ ، ٢٢٩ — ٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤٠ ، ٢٤٧ ، ٢٥٥ ، ٢٥٨ - ٢٦٥ ، ٢٧٢ ، ٢٧٤ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٣٣٧ ، ٣٣٩ ، ٣٤١ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥ ، ٣٩٦ وج ٢ - ١٣ ، ١٥ ، ١٦ ، ٧٧ ، ٢٤٢ .
أبو بكر الغافقى ؛ ج ١ - ٣٨٢ وج ٢ - ١٢ .
أبو بكر الشلطيشى ؛ ج ١ - ٤٤٨ .
أبو بكر الطرطوشى ؛ ج ١ - ٤١ ، ٤٤ ، ٥١ ، ١٦٠ ، ٤٥٦ .
أبو جعفر بن أبى جعفر ؛ ج ١ - ٣١٤ ، ٣١٧ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٨ ، ٤١٦ .
أبو جعفر بن الحسين القضاعى ؛ ج ٢ - ٧١٣ .
أبو جعفر بن الزبير ؛ ج ١ - ١٤ ، ١٧ ، ٤٥١ وج ٢ - ٧٠٣ ، ٧٠٩ .
أبو جعفر بن حمدين ؛ ج ١ - ٣٠ ، ٢٦٠ ، ٣١٠ - ٣٢٢ ، ٣٢٥ ، ٣٣٢ ، ٣٥٤ ، ٣٥٧ - ٣٦١ ، ٤١٦ ، ٤٤٤ ، ٤٤٧ ، ٤٥٣ ، ٤٦١ ، ٤٦٢ ، ٥٠٧ .
أبو جعفر بن عطية ؛ ج ١ - ٢٤٤ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٧٠ - ٢٧٢ ، ٢٧٩ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٩٤ ، ٣٢١ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٤٧ ، ٣٥٢ ، ٣٥٧ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٩٩ ، ٤٠٣ ، ٤٠٦ ، ٤٤٣ ، ٤٤٦ - ٤٤٨ وج ٢ - ١٣٨ ، ٦٢٢ .
أبو جعفر بن مضاء ؛ ج ٢ - ١٣٨ ، ٢٤٨ ، ٦٢٨ ، ٦٥٥ ، ٦٥٩ ، ٦٧١ ، ٦٧٣ ، ٦٧٥ ، ٦٨٢ ، ٦٨٦ .
أبو جعفر بن يحيى ؛ ج ٢ - ٦٧٠ .
أبو جعفر البطروجى ؛ ج ٢ - ٦٥٣ ، ٦٦٤ ، ٦٨٣
أجو جعفر البنى ؛ ج ١ - ٤١١ .
أبو جعفر التنزولى ؛ ج ٢ - ٤٣١ .
أبو جعفر الذهبى ؛ ج ٢ - ٢٢٥ .
أبو جعفر الوقشى : ج ١ - ٣٩٠ ، ٤٤٦ ، ٤٤٧ وج ٢ - ٤٤ .
أبو جعفر بن أبى زيد ؛ ج ٢ - ١٥٤ .
أبو حفص بن المومنانى ؛ ج ٢ - ٥١٤ .
أبو حفص بن سيرى ؛ ج ٢ - ٤٠٥ ، ٤٠٧ .
أبو حفص بن يغمراسن ؛ ج ٢ - ٥٦٧ .
أبو حفص بن يوسف بن عبد المؤمن ؛ ج ٢ - ٦٢١ .
أبو حفص عمر اينتى ، انظر عمر بن يحيى الهنتاتى
أبو خالد صاحب شريش ؛ ج ٢ - ٤٨٨ .
أبو دبوس ، الواثق بالله ، الخليفة ؛ ج ١ - ١٢ وج ٢ - ٥٥٤ - ٥٥٨ ، ٥٦٠ ، ٥٦٢ - ٥٦٨ ، ٥٧٠ ، ٦١٥ .
أبو رحال بن غليون ؛ ج ٢ - ٦٧٩ .
أبو زكريا بن أبى حفص بن عبد المؤمن ؛ ج ٢ - ١٣٢ ، ١٦٧ ، ١٧٦ ، ١٩٣ ، ٢٣٦ ، ٢٥٠ ، ٢٧٤ .
أبو زكريا بن أبى الغمر ؛ ج ٢ - ٣٨٦ ، ٥١٥ .
أبو زكريا بن حيون ؛ ج ٢ - ١١٢ ، ١١٨ .
أبو زكريا بن سنان ؛ ج ٢ - ٢٠ ، ١٧٨ .
أبو زكريا بن عطوش ؛ ج ٢ - ٥١٠ ، ٥١٧ ، ٥٢١ ، ٥٢٢ ، ٥٢٦ .
أبو زكريا بن مزاحم الكومى : ج ٢ - ٥١٢ ، ٥٢١ ، ٥٢٢ .

أبو زكريا الفازازى ؛ ج ٢ - ٣٨٦ ،
٥١٥ ، ٦٢٢ .
أبو زيان الغزى ؛ ج ٢ - ١٦٥ .
أبو زيد بن أبي حفص ، السيد ؛ ج ٢ - ١٥١ -
١٥٤ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٨٤ ، ١٩٠ ،
١٩١ ، ١٩٤ ، ٢٣٦ ، ٢٥١ - ٢٥٥ ،
٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٥ ، ٢٧٧ .
أبوزيد بن إدريس الكبير ؛ ج ٢ - ٣٧٤ ، ٣٧٥ .
أبو زيد بن المرتضى ( أبو حمارة ) ؛ ج ٢ - ٥٦٠
أبو زيد بن زكريا الجدميوى ، ج ٢ - ٥١٩ ،
٥٢٠ ، ٥٥٣ .
أبو زيد بن عبد الله ، السويد ، ج ٢ - ٥٦١
أبو زيد بن محمد بن يوسف ، السيد ؛ ج ٢ -
٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٦ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ ،
٣٩١ - ٣٩٨ ، ٤٠٤ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ ،
٤٤٢ ، ٥٦١ ، ٥٧٥ ، ٦٤٢ ، ٧٠١ ، ٧٠٥ .
أبو زيد بن عبد المؤمن ؛ ج ٢ - ٣٣٩ ، ٤٠٨ .
أبو زيد بن منتيال ؛ ج ١ - ٩٦ ، ٤٤٨ .
أبو زيد بن ومصال ؛ ج ١ - ٢٧٥ .
أبوزيد بن يخيت ؛ ج ٢ - ٥٥٣ ، ٥٥٦ .
أبو زيد بن يوسف بن عبد المؤمن ؛ ج ٢ -
١١٤ ، ١٣٠ - ١٣٢ ، ١٦٦ ، ٢٦١ .
أبوزيد البهيلى ؛ ج ٢ - ٦٧١ ، ٦٨٦ .
أبوزيد الفازازى ؛ ج ٢ - ٦٩٥ ، ٧٠٠ .
أبوسالم بن أبي يحيى ؛ ج ٢ - ٥٥٤ .
أبو سعيد بن أبي حفص ، السيد ؛ ج ٢ - ١٩٧ ،
٢٥١ - ٢٥٣ ، ٢٥٩ .
أبو سعيد بن أبي زيد ؛ ج ٢ - ٢٦٠ .
أبو سعيد بن تيجا ؛ ج ٢ - ٥٤٤ .
أبو سعيد بن جامع ؛ ج ٢ - ٢٧١ ، ٢٧٧ ،
٢٩٠ ، ٢٩٨ ، ٣١٠ ، ٣١٨ ، ٣٢٦ ، ٣٣٠ ،
٣٤٤ ، ٣٤٦ - ٣٥٠ ، ٣٥٢ ، ٣٧٣ ، ٥٠٥ .
أبو سعيد بن وانودين ؛ ج ٢ - ٣٨٣ ، ٣٨٤ .
أبوسعيد الهنتاتى ؛ ج ٢ - ٥١٩ ، ٥٢٠
أبو سليمان بن حوط الله الأنصارى ؛ ج ٢ -
٦٥٢ ، ٦٥٥ ، ٦٥٧ ، ٦٧٣ ، ٦٨٨ ، ٧٠٥
أبو سليمان الهرغى ؛ ج ١ - ١٩٦ .
أبوطاهر السلفى ؛ ج ٢ - ٦٥٣ ، ٦٦٨ ،
٦٧٧ ، ٦٧٨ ، ٦٧٩ .
أبو عامر الطرطوشى السالمى ؛ ج ١ - ٤٥٠
أبو عبدالرحمن بن طاهر الجد ، ج ١ - ٣٥٩ ، ٤٤٥ .
أبو عبد الرحمن بن طاهر الحفيد ؛ ج ١ - ١١ ،
٣٥٦ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٤٠٤ ، ٤١٦ ،
٤٤٥ ، ٤٤٦ وج ٢ - ٦٩٦ .
أبو عبد الرحمن الطوسى ؛ ج ١ - ١٣٨ .
أبو عبد الرحمن المغيلى ؛ ج ٢ - ٥٣٢ ، ٥٣٤
أبو عبد الله بن أبي إبراهيم ؛ ج ٢ - ١٢ ،
٢٠ ، ٢٣ ، ٤١ ، ٥٠ .
أبو عبد الله بن أبي حفص ؛ ج ٢ - ٢٧٥ .
أبو عبد الله بن أبي عشرة ، ج ٢ - ٥١٥ .
أبو عبد الله بن أبي يحيى بن أبي حفص ؛ ج ٢ - ٢٧٣
أبو عبد الله بن الجنان ؛ ج ٢ - ٤١٣ ، ٤٢٨ ،
٤٥١ ، ٤٥٧ ، ٦٤٨ ، ٦٩٩ ، ٧٠٠ .
أبو عبد الله بن الحاج ؛ ج ٢ - ٤٦١ ، ٤٦٢ .
أبو عبد الله بن المجاهد ؛ ج ٢ - ٦٦٦ .
أبو عبد الله بن حسون ؛ ج ١ - ٤٥٧ .
أبو عبد الله بن زرقون ؛ ج ٢ - ٦٥٦ ،
٦٥٧ ، ٦٥٩ ، ٦٧٥ ، ٦٧٦ ، ٧١٥ .
أبو عبد الله بن عياش ؛ ج ٢ - ٢٢٦ ، ٢٦٠ ،
٣٢٢ ، ٣٢٦ ، ٣٣٠ ، ٣٤٣ ، ٣٤٧ ،
٣٨٦ ، ٦٢٢ ، ٧٢٢ .
أبو عبد الله بن عيسى المرسى ؛ ج ٢ - ٢٧٧ .
أبو عبد الله بن مروان ؛ ج ٢ - ٢٢٥ .
أبو عبد الله بن منيع ؛ ج ٢ - ٢٧٧ .
أبو عبد الله بن ميمون ؛ ج ١ - ٧٧ .
أبو عبد الله بن نوح ؛ ج ٢ - ٦٧٣ ، ٦٧٤ ،
٦٧٦ ، ٦٧٨ ، ٦٨٠ ، ٧١٨ .
أبو عبد الله بن واجاج ؛ ج ٢ - ١٣٢ .
أبوعبد الله الباجى ، ج ٢ - ٢٧٧ .
أبو عبد الله الباقر ؛ ج ١ - ٢٢٣ .
أبو عبد الله التغنرى ؛ ج ١ - ٤٧٤ .
أبو عبد الله التلمسانى ؛ ج ٢ - ٥١٥ ، ٥١٧ ،
٥٥٨ ، ٥٥٩ .
أبو عبد الله الجنفيسى ؛ ج ٢ - ٢٢٩ .
أبو عبد الله القباجى ؛ ج ٢ - ٥١٥ .
أبو عبد الله الجيانى ؛ ج ١ - ٤٠٣ .
أبو عبد الله اللحيانى ؛ ج ٢ - ٣٧٥ ، ٣٨٣ .
أبو عقيل بن عطية ؛ ج ١ - ٣٤٢ ، ٣٤٨ ،
٣٥٠ ، ٣٥٢ ، ٤٠٦ وج ٢ - ٦٢٢ .
أبو على بن الأشيرى ؛ ج ١ - ٢٥٠ ، ٢٦٣ .
أبو على بن الحجاج ؛ ج ٢ - ٢٢٥ .
أبو على بن عبد العزيز ؛ ج ٢ - ٥٠٧ ،
٥٠٨ ، ٥١٥ .
أبو على بن عزون ؛ ج ٢ - ٩٨ ، ٩٩ .

أبو علي بن محمد المالقي ؛ ج ٢ - ٢٧٧ .
أبو علي بن وانودين ؛ ج ٢ - ٣٣٦ .
أبو علي بن يومور ؛ ج ٢ - ١٦١ .
أبو علي الجياني ؛ ج ٢ - ٤٦٩ .
أبوعلي الشلوبين ؛ ج ٢ - ٦٨٥ ، ٧٠٠ .
أبو علي الصدفي ؛ ج ١ - ١٠٤ ، ٤٥٠ ، ٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ٤٦٠ ، ٤٦٢ ، ٤٦٤ ، ٤٦٨ ، وج ٢ - ٦٨٨ .
أبو عمر بن أفلح ؛ ج ٢ - ٩٥ .
أبو عمر بن حربون ؛ ج ٢ - ٢٨ ، ٣٩ ، ٦٨٧
أبوعمر بن عات ؛ ج ٢ - ٦٦٧ ، ٦٦٩ ، ٦٧٠ ، ٦٧٣ ، ٦٧٦ ، ٦٨٥ ، ٧٠٠ ، ٧١٨
أبوعمران بن ياسين الهنتاتي ؛ ج ٢ - ٢٧٧ .
أبوعمرو بن الجد ؛ ج ٢ - ٤٢٩ ، ٤٧٠ - ٤٧٣ ، ٥٠٩ ، ٥٢٠ ، ٦٥٢ .
أبو عمرو بن حجاج ؛ ج ٢ - ٥٤٦ .
أبو مالك بن يعقوب المريني ؛ وج ٢ - ٥٤٩ ، ٥٧٠ ، ٥٧١
أبومحمد بن إبراهيم بن جامع ؛ ج ٢ - ١١٥ .
أبو محمد بن إشقيلولة ؛ ج ٢ - ٤٣٤ ، ٤٦٢ .
أبو محمد بن أصناج ؛ ج ٢ - ٥٤٥ ، ٥٤٦ ، ٥٥٩
أبو محمد بن الحاج اللورقي ؛ ج ١ - ٣٥٧ - ٣٥٩
أبو محمد بن جبل ؛ ج ١ - ٣٨٢ ، ٤٠٦ .
أبو محمد بن حوط الله الأنصاري ؛ ج ٢ - ٢٦١ ، ٢٧٧ ، ٦٥٦ ، ٦٦٥ ، ٦٧١ ، ٦٧٣ ، ٦٧٦ ، ٦٨٥ ، ٦٨٦ ، ٧٠٠ .
أبو محمد بن طاع الله الكومي ؛ ج ٢ - ١٠٢ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ .
أبو محمد بن عبد العزيز البطليوسي ؛ ج ١ - ٢٤٤ ، ٤٤١ ، ٤٦٧ .
أبومحمد بن عبد الغفور ؛ ج ١ - ٤٥ .
أبو محمد بن عتاب ؛ ج ١ - ٤٦١ ، ٤٦٢ ، ٤٦٨ ، وج ٢ - ٦٥٠ ، ٦٥٢ ، ٦٦٠ ، ٦٦٥ .
أبو محمد بن فاطمة ؛ ج ١ - ٤٣٠ ، ٤٤١ .
أبو محمد بن مثنى ؛ ج ٢ - ٢٨٦ .
أبو محمد بن وانوين ؛ ج ٢ - ٥٠٥ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩ ، ٥١١ - ٥١٤ ، ٥١٧ ، ٥٢١ ، ٥٢٢
أبو محمد بن يونس ؛ ج ٢ - ٥٣٠ ، ٥٤١ - ٥٤٣ ، ٥٥٩ .
أبو محمد البشير ؛ ج ١ - ١٦٦ ، ١٧٤ ، ١٧٨ ، ١٨٣ - ١٨٦ ، ١٨٩ ، ٢٢٥ .
أبو محمد الرشاطي ؛ ج ١ - ٤٥٠ ؛ وج ٢ - ٦٧٦ ، ٦٧٧ ، ٧١٩ .
أبو محمد الغيغائي ؛ ج ١ - ٢٢٩ .
أبو محمد الفشتالي ؛ ج ٢ - ٥٣١ .
أبو محمد المالقي ؛ ج ١ - ٣٨٢ وج ٢ - ٥٩ ، ٦٢ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٩ ، ٧٧ ، ٨٩ ، ٩٩ ، ١٣٨ ، ٦٢٨ ، ٦٣٠ .
أبو محمد الوحيدي ؛ ج ١ - ٣١٩ .
أبو محمدعبدالعزيز ؛ ج ١ - ٢٨٦ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩
أبو محمد عبد الواحد المخلوع ؛ ج ٢ - ٣٤٨ - ٣٥٢ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٧٥ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٥٧٥ ، ٥٧٨ ، ٦٤٠ .
أبو مروان بن قاسم ؛ ج ٢ - ٥٩ ، ١٢٧ .
أبو مروان بن قزمان ؛ ج ٢ - ٦٥٥ ، ٦٦٩ ، ٦٨٤ .
أبو مروان الباجي ؛ ج ٢ - ٢٢٤ ، ٤١٣ ، ٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤٧٠ ، ٦٥١ ، ٦٦١ ، ٦٦٤ ، ٦٨٣ .
أبو مظهر بن أبي يحيى ج ٢ - ٥٥٤ .
أبوموسى بن عزوز الهنتاتي ؛ ج ٢ - ٥٥٩ ، ٥٦٣ .
أبو موسى بن عطوش ؛ ج ٢ - ٥٠٧ .
أبوموسى عيسى ؛ ج ١ - ٢٨٦ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩
أبو نصر بن الحجام ؛ ج ٢ - ٧١٤ .
أبو وزغيغ بن ياموهل ؛ ج ١ - ١٩٦ .
أبو يحيى بن أبي حفص ، الحافظ ؛ ج ٢ - ١٢ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٦ .
أبو يحيى بن أبي زكريا ؛ ج ٢ - ٣٤٣ .
أبو يحيى بن الحسن بن أبي عمران ؛ ج ٢ - ٢٧٧
أبو يحيى بن أبي زكريا الهزرجي ؛ ج ٢ - ٢٦٤
أبو يحيى بن أبي سفيان ؛ ج ٢ - ٢٦٣ .
أبو يحيى بن الشهيد ؛ ج ٢ - ٢٤٧ ، ٤٤٨ ، ٤٧١ ، ٥٣٥ ، ٥٣٦ .
أبو يحيى بن روادة ؛ ج ١ - ٨٢ .
أبو يحيى بن عبد الحق ، الأمير ؛ ج ٢ - ٥٢١ ، ٥٢٦ ، ٥٣١ ، ٥٤٠ - ٥٤٦ .
أبو يحيى بن مطروح ؛ ج ١ - ٢٩٣ ، ٢٩٦ .
أبو يحيى بن يجليد ؛ ج ٢ - ٥١٥ .
أبو يحيى بن يحيى بن عمران ؛ ج ٢ - ٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٤٠٥ - ٤٠٩ .
أبو يحيى بن يوسف بن عبد المؤمن ؛ ج ٢ - ١٣٢ ، ١٦٨ ، ١٧٦ ، ١٨٩ ، ٢٢٧ ، ٧٢٥
أبو يحيى الرميمي ؛ ج ٢ - ٤٢٦ .
أبو يحيى القطراني ؛ ج ٢ - ٥٤٥ ، ٥٤٦ .

أبو يعقوب بن أبى يوسف ؛ ج ٢ - ٥٧١ .
أبو يوسف بن تيجا ؛ ج ٢ - ٥٥٩ .
أجداى بن سير اللمتونى ؛ ج ١ - ٨٢ ، ١٣٢ .
أحمد بن باسه ؛ ج ١ - ٣٨٠ ، وج ٢ - ٧١ ، ٧٣ ، ٧٣ ، ٢٣٠ ، ٧٢٥ .
أحمد بن بقى ؛ ج ٢ - ٣٢٦ ، ٣٢٨ .
أحمد بن خراسان ؛ ج ١ - ٢٩٥ .
أحمد بن خلصة الحميرى ؛ ج ٢ - ٦٦٧ .
أحمد بن خلف التجيبى ، ج ١ - ١٤١ .
أحمد بن داود الجذامى ؛ ج ٢ - ٧١٣ .
أحمد بن طلحة الأموى ؛ ج ٢ - ٦٨٥ .
أحمد بن عبد الجليل التدميرى ؛ ج ١ - ٤٦٩ .
أحمد بن عبد الرحمن البطروجى ؛ ج ١ - ٤٦٠ ، ٤٧٠
أحمد بن عبد الرحمن التجيبى ؛ ج ١ - ٤٦٤ .
أحمد بن عبد الرحمن اللخمى ؛ ج ٢ - ٦٦٤ .
أحمد بن عبد الصمد الخزرجى ؛ ج ٢ - ٦٥١ .
أحمد بن عبد العزيز الأزدى ؛ ج ١ - ٤٦٠ .
أحمد بن عبد العزيز بن عياش ؛ ج ٢ - ٦٩٨ .
أحمد بن عبد الملك بن سعيد ؛ ج ١ - ٣٨٢ ، ٣٨٥ ، ٤٥٢ وج ٢ - ٦٤٢ .
أحمد بن عبد الملك الأنصارى ج ١ - ٤٥٩ .
أحمد بن عبد المؤمن القيسى ؛ ج ٢ - ٦٧٠ .
أحمد بن عتبة ؛ ج ٢ - ٧١٤ .
أحمد بن عتيق الذهبى ؛ ج ٢ - ٦٦٥ .
أحمد بن على الأنصارى ؛ ج ٢ - ٦٧٦ .
أحمد بن عون الله الأنصارى ؛ ج ٢ - ٦٥٦ .
أحمد بن قسى ؛ ج ١ - ٩ ، ٣٠٧ - ٣١٢ ، ٣٢١ ، ٣٢٣ ، ٣٢٥ ، ٣٣٠ ، ٤١٦ ، ٤٦٦ وج ٢ - ٢٥٠ ، ٧٤٢ .
أحمد بن محمد الأزدى ؛ ج ٢ - ٦٧٢ ، ٧٠٤ .
أحمد بن محمد البلوى ؛ ج ٢ - ٦٩٩ .
أحمد محمد الخوخى ؛ ج ٢ - ٧١ .
أحمد بن محمد الغافقى ؛ ج ٢ - ٧١٢ .
أحمد بن محمد القيسى ؛ ج ٢ - ٦٨٢ .
أحمد بن محمد الكلاعى ؛ ج ٢ - ٦٥٢ .
أحمد بن محمد اللخمى ؛ ج ٢ - ٦٩٤ .
أحمد بن محمد بن عياش ؛ ج ٢ - ٣٤٧ .
أحمد بن محمد بن هذيل ؛ ج ١ - ٤٦٥ .
أحمد بن محمد بن هود ؛ ج ٢ - ٤٦٠ ، ٤٦١ .
أحمد بن محمد بن وهب البكرى ؛ ج ٢ - ٦٨٥
أحمد بن مفرج الأموى ، ج ٢ - ٦٦٣ .
أحمد بن مقدم الرعينى ؛ ج ٢ - ٦٦٦ .
أحمد بن منيع ، ج ٢ - ٣٣٦ ، ٣٤٦ .
أحمد بن يزيد الأموى ؛ ج ٢ - ٦٧١ .
أحمد بن يوسف بن فرتون ؛ ج ٢ - ٧٠٨ .
أحمد بن يوسف الوراق ؛ ج ٢ - ٦٥١ .
أخيل بن إدريس الرندى ؛ ج ١ - ٣٢١ ، ٣٧٤ ، ٤٠٦ ، ٤٤٤ ، وج ٢ - ٦٢٢ .
إدريس بن إبراهيم التجيبى ؛ ج ٢ - ٦٦٦ .
إدريس بن إبراهيم بن جامع ؛ ج ١ - ٤٠٦ وج ٢ - ١٤ ، ١٨ ، ١٩ ، ٥٩ ، ٦٢ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٧١ ، ٨٠ ، ٩٨ ، ١١٨ ، ١٣٧ ، ١٥٧ ، ١٥٨ .
إدريس بن إدريس ؛ ج ١ - ٢٢٣ .
إدريس بن المنصور ؛ انظر المأمون .
إدريس بن عبد الحق ؛ ج ٢ - ٣٣٧ .
إدريس بن محمد الأنصارى ؛ ج ٢ - ٦٨٦ .
إدريس بن يوسف ، السيد ؛ ج ٢ - ٢٨٤ .
إدريس بن يوسف بن عبدالمؤمن ؛ ج٢-٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٣٣١ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، وج ٢ ٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٤٩٨ .
الإدريسى ، الشريف ؛ ج ١ - ١٨ ، ٣٨ ، ٢٦٦ ، ٢٨١ ، ٢٨٤ ، ٣٤٣ وج٢ - ١٥ ، ١٧١ ، ٢٧٩ .
أردنيو الباريت ؛ ج ٢ - ٤٢٠
أرقم بن يحيى بن مردنيش ؛ ج٢-٥٠٤ ، ٥٠٩ ، ٥١١
أرنولد مطران أربونة ؛ ج ٢ - ٢٩٤ ، ٢٩٧ ، ٣١٠ ، ٣١٥ .
اسحاق بن إبراهيم المجابرى ؛ ج ٢ - ٦٥٦ .
اسحاق بن أبى إبراهيم ، السيد ؛ ج٢-٥٧٠ ، ٥٧١
اسحاق بن على بن يوسف ؛ ج١-٢٤٢ ، ٢٥٥
اسحاق بن محمد بن غانية ؛ ج١ - ١٥٤ ، ٣٣٣ ، ٣٤٩ ، ٣٥٧ وج٢- ١٤٥ ، ١٤٦ ، ٢٥٧ ، ٦٥٠
اسحاق بن يوسف بن تاشفين ؛ ج١ - ٤٤٣ .
اسحاق بن يوسف بن عبد المؤمن ؛ ج٢ - ١٣٥ ، ١٣٨ ، ٣٣١ ، ٧٢٥ .
إسكندر الثالث ( البابا ) ؛ ج ١ - ٥٢٠ .
إسكندر الرابع ( البابا ) ؛ ج ٢ - ٥٤٨ .
إسماعيل بن ذى النون ؛ ج ٢ - ٦١ .
إسماعيل بن سعد الأموى ؛ ج ٢ - ٦٧٤ .
إسماعيل بن عبد المؤمن ؛ ج ١ - ٣٣٩ ، ٤٠٨ ، وج ٢ - ٢٠ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٤١ ، ٥٦ ، ٨٨ .

إسماعيل بن يعقوب بن قيطون ؛ ج ٢ - ٥٥٢ .
آسين بلاثيوس ؛ ج ٢ - ٦٨٠ .
الأشل ؛ ج ٢ - ١٩٢ ، ١٩٣ .
الأفضل شاهنشاه ؛ ج ١ - ٤٧١ ، ٤٧٢ .
ألباربيريث دى كاسترو ؛ ج٢ - ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٤١٧ ، ٤٢٠ .
ألبار ردريجس الأقرع ؛ ج ١ - ٣٨٨ ، ٣٩٠ .
ألبارو نونيو ؛ ج ٢ - ٥٩٢ ، ٥٩٣ .
ألبارو نونيز دى لارا ؛ ج ٢ - ٣١٢ .
ألبرهانس ؛ ج ١ - ٦٢ ، ٦٥ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٣٨٩ ، ٤٨١ .
البريكوس الراهب ؛ ج ٢ - ٣١٥ .
ألتاميرا ، رافائيل ؛ ج ١ - ٤٩٧ .
السيد الكمبيادور ج١ - ٧٢ ، ٧٣ ، ٤٧٧ وج٢ - ٢٦ ، ٤٥١ .
ألفونسو الثانى ( البرتغال ) ؛ ج ١ - ٥٢٨ ، وج ٢ - ٣٤٠ ، ٥٩٤ ، ٦٠٠ ، ٦١١ .
ألفونسو الثالث ( البرتغال ) ؛ ج ٢ - ٤٩٠ ، ٤٩٢ ، ٤٩٣ ، ٦١٢ .
ألفونسو السادس ؛ ج ١ - ٣١ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٦ ، ٦٩ ، ٧٣ ، ٨٦ ، ٨٨ ، ١٢٥ ، ٤٣٦ ، ٤٤٠ ، ٤٤٦ ، ٤٧٦ - ٤٧٩ ، ٤٨٤ ، ٤٨٧ - ٤٩١ ، ٤٩٣ ، ٤٩٦ ، ٥٠٢ ، ٥٠٥ ، ٥٠٩ ، ٥٢٣ ، ٥٢٤ وج٢ - ٣٧ ، ١٢٠ ، ١٩٨ ، ٢١٣ .
ألفونسو الثامن ( النبيل ) ؛ ج ١ - ٣٩٤ ، ٥١٦ ، ٥١٧ ، وج ٢ - ٣٢ ، ٤٢ ، ٤٧ ، ٧٨ ، ٨١ ، ٩٠ ، ٩٥ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٦٧ ، ١٧٤ ، ١٩٧ ، ١٩٩ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٣ ، ٢١٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٢ ، ٢٦٤ ، ٢٨٤ ، ٢٨٧ - ٢٨٩ ، ٢٩٢ ، ٢٩٥ - ٢٩٨ ، ٣١٠ ، ٣١٢ ، ٣١٥ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٣٣ ، ٣٤٣ ، ٥٨٣ - ٥٩٣ ، ٥٩٥ ، ٦٠١ - ٦٠٣ .
ألفونسو التاسع ( ليون ) ؛ ج ١ - ٣٢ وج٢ - ٢١٩ ، ٢٣٣ ، ٢٨٧ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٣ . ٣٩٩ ، ٤٠١ ، ٥٨٦ ، ٥٨٧ ، ٥٨٩ ، ٥٩٢ - ٥٩٧ .
ألفونسو العاشر ( الحكيم ) ؛ ج ٢ - ٤٠١ ، ٤٣٢ ، ٤٣٤ ، ٤٣٥ ، ٤٦٠ ، ٤٦٢ ، ٤٦٣ ، ٤٨٠ ، ٤٨١ ، ٤٨٩ ، ٤٩٢ - ٤٩٥ ، ٥٤٨ ، ٥٦٠ ، ٥٦١ ، ٥٩٩ ، ٦٠٦ ، ٦١٢
ألفونسو ريمونديس ؛ ج ١ - ٧٣ ، ١٢٠ ، ١٢٨ ، ١٣٦ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٥٢ ، ٢٤٨ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٤٤ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٦١ ، ٣٦٣ ، ٣٦٧ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٩٤ ، ٤٢٨ ، ٤٧٩ - ٤٨٣ ، ٤٨٥ - ٤٩٠ ، ٤٩٥ - ٤٩٨ ، ٥٠١ - ٥٠٩ ، ٥١١ - ٥١٥ ، ٥١٨ ، ٥١٩ ، ٥٢٣ ، ٥٢٥ - ٥٢٧ وج ٢ - ٣٠ ، ٣١ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٤٢ ، ٣٩٠ ، ٥٨٣ - ٥٨٦ ، ٥٩٢ ، ٥٩٣ ، ٥٩٧ ، ٦٠١ ، ٦٠٣ .
ألفونسو المحارب ؛ ج ١ - ١٣ ، ١٥ ، ٨٣ ، ٧٤ ، ٨٨ - ٩٦ ، ١٠٠ - ١٠٥ ، ١٠٧ - ١١٤ ، ١١٦ - ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٤٠ ، ١٥٠ ، ٣٣٤ ، ٣٦٥ ، ٤٢٨ ، ٤٤٤ ، ٤٥٦ ، ٤٧٧ ، ٤٧٩ - ٤٨٣ ، ٤٨٧ - ٤٩١ ، ٤٩٣ ، ٤٩٥ ، ٤٩٧ ، ٤٩٩ ، ٥٠٠ ، ٥٠٢ ، ٥١٠ ، ٥١٢ ، ٥١٨ ، ٥٢٤ ، وج ٢ - ٤٢ ، ٦٠١ ، ٦٠٧ .
ألفونسو الثانى ( أراجون ) ؛ ج ١ - ٣٩٤ ، وج ٢ - ٤٧ ، ٥١ ، ١٤٦ ، ٥٨٤ ، ٥٨٧ ، ٦٠١ - ٦٠٣ .
ألفونسو هنريكيز ؛ ج١ - ٣٣٠ ، ٣٤٠ ، ٣٤٥ ، ٣٩٣ ، ٤٩٠ ، ٤٩٧ ، ٥٠٤ ، ٥٢٤ - ٥٢٨ وج ٢ - ٢٤ - ٢٦ ، ٣١ ، ٣٤ - ٣٨ ، ٤٥ ، ٦٩ ، ٨٦ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٥ ، ٩٧ ، ٩٩ ، ١١٧ ، ١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٧٠ ، ٥٨٣ ، ٦٠٩ ، ٦١٠ .
ألمانوييش دى لارا ؛ ج ١ - ٥١٦ ، ٥١٧ .
أليسع بن اليسع ؛ ج ١ - ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٥ ، ١٩٠ ، ٢٢٩ ، ٢٤٦ ، ٢٥٢ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٣٤١ وج ٢ - ٦٣٣ .
إلينور الملكة ؛ ج ٢ - ٣٣٣ ، ٥٨٤ ، ٥٩٢ ،
أمارى ، ميكائيلى ؛ ج ١ - ١٠ .
الإمام المعصوم ؛ ج ١ - ١٥٧ ، ١٥٩ ، ١٧٠ ، ١٧٣ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٨٠ ، ١٩٢ ، ٢٠٠ - ٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢١٠ ، ٢١٣ ، ٢١٥ .
الإمامة ؛ ج ١ - ٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ،
أمية بن أبى الصلت ؛ ج ١ - ٤٧١ - ٤٧٣ .
إنريكى ، إلانفانت ، ج ٢ - ٣٣٣ ، ٤٨٠ ، ٥٩٢ ، ٥٩٦ .

انريكى الأول ( نافار ) ؛ ج ٢ - ٦٠٩ .
إنوصان الثالث ( البابا ) ؛ ج ١ - ٥٢٠ وج ٢- ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٤ ، ٣٠٠ ، ٣١٥ ، ٣١٧ ، ٣٢٢ ، ٥٨٩ ، ٥٩٠ ، ٥٩٣، ٦٠٣
إنوصان الرابع ( البابا ) ؛ ج ٢ - ٥٣٦-٥٣٨، ٥٤١ ، ٥٤٨ ، ٦١٢ .
أوجين الثالث ( البابا ) ؛ ج ١ - ٣٦٩ .
أوراكا ، ملكة قشتالة ؛ ج ١ - ٧٣، ٨٨ ، ١٢٠ ، ١٢٥ ، ١٢٨ ، ٤٧٨-٤٩١، ٤٩٣ ، ٥٠٦ ، ٥١٢ ، ٥٢٣ - ٥٢٤ .
أوربان الثانى ( البابا ) ؛ ج ١ - ١١٦ .

## ب — ث

باديس بن المنصور ؛ ج ١ - ٢٨١ .
باديس بن حبوس ؛ ج ١ - ٣٣٣ وج ٢-٢٣٥
البيوج ؛ انظر فرناندو الثانى .
بترونيلا الأرجونية ؛ ج ١ - ٤٩٧، ٤٩٨ ، ٥٠٢ ، ٥٠٨ - ٥١٠ .
بثنى ؛ انظر أبو زيد بن محمد بن يوسف .
براز بن محمد المسوفى ؛ ج ١ - ٢٣٥، ٣١١ ، ٣٢٧ ، ٣٢٩ ، ٣٣٢ ، ٣٣٤ ، ٣٤٠ ، ٣٨٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٢، ٤٠٦ ، ٤٤٧ .
برنار المطران ؛ ج ١ - ٤٧٨ ، ٤٩٦ .
برناردودى انتنزا ؛ ج ٢ - ٤٤٢ ، ٤٤٣ .
برنجاررامون ؛ ج ١ - ٢٣٢ .
برنجاريا القشتالية ؛ ج ٢ - ٣١٥ .
برنجيررامون ؛ ج ١ - ٥٠١ ، ٥١٤ .
برنجيلا ، ملكة قشتالة ؛ ج ١ - ١٥١ ، ٤٩٠ ، ٥٠١ ، ٥٠٤ ، ٥٠٥ ، ٥٠٩ ، ٥١٠
برنجيلا ، ابنة ألفونسو الثامن ؛ ج ٢ -٢٨٧، ٣٣٣ ، ٣٤٣ ، ٥٨٤ ، ٥٨٧ ، ٥٨٩ ، ٥٩٢ ، ٥٩٣ ، ٥٩٥ ، ٥٩٦ .
بروكلمان ؛ ج ١ - ١٠ .
بسام بن أحمد الغافقى ؛ ج ٢ - ٦٧٣ .
بشير الروى ؛ ج ١ - ٢٥٠ .
بقى بن مخلد ؛ ج ١ - ٤١٢ وج ٢- ٢٤٨ .
بكو بن على بن يوسف ؛ ج ١ - ١٨٦ .
بلاسكو دى ألاجون ؛ ج ٢ - ٣٩٧ ، ٤٣٩ .
بلانكا ملكة نافارا ؛ ج١- ٥٠٦ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩
بلاى كوريا ؛ ج ٢ - ٤٧٤ .
بلول بن جلداسن ؛ ج ١ - ٣٩٢ وج ٢- ٦٩ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٩٣ ، ١١٧ .
بهاء الدولة بن هود ؛ ج٢- ٤٥٨ ، ٤٦٠-٤٦٢
بباتريس ابنة ألفونسو الحكيم ؛ ج ٢-٤٩٣ .
بيبش بن محمد العبدرى ؛ ج ٢ - ٦٥١ .
بيبش بن محمد بن على ؛ ج ٢ - ٦٥٢ .
بيدرو الأول ( أراجون ) ؛ ج١-٤٩٣ ، ٥٠٥ .
بيدرو الثانى ( أراجون ) ؛ ج ٢ - ٢٣٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٨ ، ٢٩٥ ، ٣١٠ ، ٣٩٧ ، ٤٠٣ ، ٥٨٧ ، ٥٩٠ ، ٦٠٣-٦٠٥ .
بيدرو الثالث ( أراجون ) ؛ ج ٢ - ٦٠٧ .
بيدرو آرياس ؛ ج ٢ - ٢٩٤ .
بيدرودى أساجر ؛ ج ١ - ٣٦٦ وج٢ - ٣٩٧ ، ٦٠١ ، ٦٠٢ .
بيدرو دى لارا ؛ ج ٢ - ٤٨١ ، ٤٨٣ ، ٤٨٦ ، ٤٨٨ - ٤٩٠ .
بيدرو فرنانديث ؛ ج ٢ - ٢٠٩ .
تاشفين بن اسحاق بن غانية ؛ ج٢ - ١٥٧ .
تاشفين بن على بن يوسف ؛ ج ١ - ١٢ ، ١٣ ، ١٥ ، ١٢٦ ، ١٣٢ - ١٣٦ ، ١٣٨- ١٤٧ ، ١٥٠ ، ١٥٢ ، ١٥٤ ، ٢٢٩ ، ٢٣١ ، ٢٣٤ - ٢٣٧ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٥ ، ٢٥٢ ، ٢٥٥ ، ٢٥٩ ، ٢٦٤، ٢٧٠ ، ٣٠٦ ، ٣٠٩ ، ٣١١ ، ٣٢٧ ، ٣٣١ ، ٣٥٤ ، ٣٦٨ ، ٤١٤ ، ٤١٥ ، ٤٢٠ ، ٤٣١ ، ٤٣٩ ، ٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٦٢ ، ٤٩١ ، وج ٢ - ٣٣٥ .
تاشفين بن غازى ؛ ج ٢ - ١٩٥ .
تاشفين بن ماخوخ ؛ ج ١ - ٢٧٥ .
تاشفين بن محمد المكتب ؛ ج ٢ - ٣١٥
التجانى ، أبو محمد عبد الله ؛ ج١ - ١٨وج٢ - ١٩٤ ، ٢٧٠ .
تريسا ملكة البرتغال؛ ج ١ - ٩٦، ٨١، ٤٧٨-٤٨٥ ، ٤٩٠ ، ٥٢٣-٥٢٦ وج٢ - ٣٧
تريسا ابنة سانشو الأول ؛ ج ٢ - ٥٩٤ .
تعلو بنت عطية ، ج ١ - ٢٢٢ .
تليو ألفونسو ؛ ج ٢ - ٤٢٥ .
تليو فرنانديث ؛ ج ١ - ١٣٤ .
تماجونت بنت ينتان ؛ ج ١ - ٢٣٣ .
تميم بن المعز بن باديس ؛ ج ١ - ٢٨٠ .
تميم بن يوسف ، أبو الطاهر ؛ ج ١ - ١٥ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٥٧ ، ٥٩ - ٦٦ ، ٧١ ، ٨٤،

٩٣ - ٩٩ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٥ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٤٣ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٨٤ ، ٣٥٤ ، ٤١٤ ، ٤٢٩ ، ٤٤٤ ، ٤٤٨ ، ٤٧٧

تميمة بنت يوسف ؛ ج ١ - ٤٥ .

تومرت بن وحليد ؛ ج ١ - ١٥٩ .

تيوبالدو دى شمبانيا ؛ ج ٢ - ٦٠٨ ، ٦٠٩ .

تيوبالدو الثانى ؛ ج ٢ - ٦٠٩ .

ثابت بن خيار الكلاعى ؛ ج ٢ - ٦٧٢ .

ثابت بن عبد الله ، ج ١ - ٩٦ .

الثعالبى ؛ ج ١ - ٤٧٢ .

ثوريتا المؤرخ ؛ ج ١ - ١٢٤ .


## ج - ز


جاستون دى بيارن ؛ ج ١ - ٩٠ ، ٩٢ ، ١٠١ ، ١٠٨ ، ١٣٤ .

جالينوس ؛ ج ١ - ٤٧٣ وج ٢ - ٧٢١ .

جبارة بن اسحق بن غانية ؛ ج ٢ - ٢٦٥ .

جبارة بن كامل ؛ ج ١ - ٣٠٢ وج ٢-٦١ .

جرجس الأنطاكى ؛ ج ٢ - ٢٩٠ ، ٢٩١ .

جرماط بن مرين ؛ ج ٢ - ٣٧٤ .

جرمون بن عيسى ؛ ج ٢ - ٣٨٣ ، ٤٩٧ ، ٥٠٤ ، ٥٠٥ .

جريجورى التاسع ، البابا ، ج ٢ - ٤٣٩ .

الجزولى ، الإمام ؛ ج ١ - ٦٦ .

جلين دى مونكادا ؛ ج ٢ - ٤٠٤ ، ٤٠٥ .

جوان كيس ؛ ج ٢ - ٤٩٩ .

جوتيرو فرنانديث ؛ ج ١ - ٥١٦ .

جوتيرو هرمنجلد ؛ ج ٢ - ٢٩٤ .

جودى بن عبد الرحمن القيسى ؛ ج ٢ -٧١٥ .

جولدسيهر ، إجناس ؛ ج ١ - ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٨ ، ١٩٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٥ ، ٢١٣ ، وج ٢ - ٦٨٠ .

جومث جونثالث ؛ ج ١ - ٤٨١ .

جومث راميرس ؛ ج ٢ - ٢٩٤ .

جومث دى كاندسبينا ؛ ج ١ - ٤٨٠ .

جومث نونيو ؛ ج ١ - ٥٠٢ .

جون ملك انجلترا ؛ ج ٢ - ٢٨٩ ، ٢٩٠ .

جيرالدوسمبافور ( جراندة الجليق ) ؛ ج ١ - ٥٢٨ ، وج ٢ - ٢٦ ، ٢٧ ، ٣٥ - ٣٨ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٧٠ ، ٨٦ ، ٩٠ ، ٩١ ، ١١٧ .

الحاجب المنصور ( ابن أبى عامر) ؛ ج ١ - ٦١ وج ٢ - ٥٤ ، ٤٥٧ .

جيرمور بن رياح ؛ ج ٢ - ٢٠٢ .

حبابة الرومية ؛ ج ٢ - ٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٥١٧ .

حجاج بن يوسف ؛ ج ٢ - ٩٥ ، ١٣٨ .

الحسن بن أحمد الأنصارى ؛ ج ٢ - ٦٦٢ .

الحسن بن حجاج التجيبى ؛ ج ٢ - ٦٩٦ .

الحسن بن عطاف العقيلى ؛ ج ٢ - ٦٨٦ .

الحسن بن على الصنهاجى ؛ ج ١ - ٢٨٠ ؛ ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٧ .

الحسن بن عبد الله العباسى ؛ ج ١ - ١٩٥ .

الحسن بن على بن أبى طالب ؛ ج ١ - ١٦٠ .

الحسن بن على الأموى ؛ ج ٢ - ٦٦٥ .

الحسن بن على المراكشى ؛ ج ٢ - ٧١٨ .

الحسن بن على اليازورى ؛ ج ١ - ٢٩٨ .

حسن بن مفرج البكرى ؛ ج ٢ - ٧١٥ .

الحسين بن عبد المؤمن ؛ ج٢ - ٩٣ ، ٩٦ ، ٩٨

حفصة بنت الحاج الركونى ؛ ج١ - ٣٨٥ ، ٤٢٥

الحكم المستنصر ؛ ج ٢ - ١٣٦ .

حكم بن سعيد الأموى ؛ ج ٢ - ٤٠٩ .

حماد بن بلكين ؛ ج ١ - ٢٩٩ .

حماد بن يوسف بن زيرى ؛ ج ١ - ٢٨١ .

حمامة بن محمد بن وزير ؛ ج٢ - ٣٣٥ ، ٣٣٧ .

حميد بن جارية ؛ ج ٢ - ١٩٥ .

حيان بن عبد الله الأوسى ؛ ج ٢ - ٦٦٨ .

خالد اللخمى ؛ ج ٢ - ٣٢٥ .

خايمى الأول ، الفاتح ؛ ج ١ - ٣٣ وج٢ -٣٩٦ ، ٣٩٧ ، ٣٩٩ ، ٤٠٢ ، ٤٠٤ ، ٤٠٦-٤٠٩ ، ٤٢٢ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ ، ٤٤٢ - ٤٤٤ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ ، ٤٥٩ ، ٤٦١ -٤٦٤ ، ٥٩٧ ، ٦٠٥ - ٦٠٨ ، ٧٠١ ، ٧١٨ .

خايمى الثانى ؛ ج ٢ - ٦٠٩ .

الخطيب أبو الحسن ؛ ج ١ - ١٢٠ .

خمينا نونيس ؛ ج ١ - ٤٨٠ .

خمينو ، الكونت ( أبوبرذعة ) ؛ ج١ - ٨٧-٨٩ .

خوان جايتان ؛ ج ٢ - ٥٢١ .

خوان غرسية ؛ ج ٢ - ٥٤٩ .

داود بن أبى داود ؛ ج ٢ - ٢٢١ .

داود بن عائشة ؛ ج ١ - ٥٠ .

داود بن يزيد السعدى ؛ ج ٢ - ٦٨٢ .

الدجال ؛ ج ١ - ٢١٣ ، ٢١٥ .

دوزى ، المستشرق ؛ ج ١-١٠٧ ، ٤٢١ -٤٢٤ .
دون خيل ؛ ج ٢ - ٤٨٩ .
ديجوبلاسكيث ؛ ج ١ - ٥١٩ .
ديجوخلمريث الأسقف ؛ ج ١ - ٤٨١ -٤٨٦ ، ٤٩٠ ، ٥٠٢ ، ٥٢٤ .
ديجولوبث دى بسكاية ؛ ج ٢ - ٢٠٩ .
ديجولوبث دى هارو ؛ ج ٢ - ٢٢٩ ، ٢٧٨ ، ٢٩٣ ، ٢٩٥ ، ٣٠٦ ، ٤٨١ .
ديسقوريدس ؛ ج ٢ - ٤٨٧ ، ٨١٦ .
رامون برنجير ؛ ج ١ - ٧٥ ، ١١٦ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ .
رامون برنجير الثالث ؛ ج ١ - ١٢١ ، ١٢٢ ، ٤٩٠ ، ٤٩٤ ، ٤٩٩ - ٥٠١ ، ٥١٨ .
رامون برنجير الرابع ؛ ج ١ - ٤٩٦ ، ٤٩٨ ، ٥٠١ ، ٥٠٢ ، ٥٠٥ ، ٥٠٦ ، ٥٠٨ ، ٥١١ ، ٥١٤ ، ٥١٨ ، وج ٢ - ٤٧ ، ٥٨٤ - ٥٨٦ ، ٦٠١ .
رامون بونيفاس ؛ ج ٢ - ٤٧٤ ، ٤٧٧ ، ٤٨٣
رامون دى مونكادا ؛ ج ٢ - ٤٠٤ ، ٤٠٥ .
راميرو الراهب الملك ؛ ج ١-٤٩٥ ، ٥٠٢ ، ٥٠٨ .
راؤول ديسيتو ؛ ج ٢ - ١٢٢ .
الربرتير ؛ ج ١ - ٢٢٨ - ٢٣٦ ، ٢٣٨ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٥ ، ٢٤٨ ، ٤٧٨ ، وج ٢ - ١٤٧ .
ربيعة بن عامر ؛ ج ١ - ٢٩٨ .
رجار الأول ؛ ج ٢ - ٥٣٤ .
رجار الثانى ( روجر ) ؛ ج ١ - ٢٩٠ -٢٩٣ وج ٢ - ٢٧٩ .
ردريجو ألباريس ؛ ج ٢ - ٤٨٥ .
ردريجو ألفونسو ؛ ج ٢ - ٤٦٦ .
ردريجو دى رادا ، المطران ؛ ج ٢-٣٤١ .
ردريجودى لارا ؛ ج ١ - ٤٨٩ ، ٤٩٠ .
ردريجوكونثالث ؛ ج ١ - ١٣٥ ، ١٤١ .
ردريك الطليطلى ؛ ج ١ - ١٢٤ ، ٤٨٧ وج ٢- ٢٨٨ ، ٢٩٣ ، ٢٩٦ ، ٣٠٨ ، ٣٠٠ ، ٣١٣ ، ٣١٥
الرشيد ، أبومحمد عبد الواحد ؛ ج ١ - ١٦ وج ٢ - ٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٣٨٦ ، ٤٢٩ ، ٤٣١ ، ٤٧١ ، ٤٩٧ - ٥١٨ ، ٥٢٦ ، ٥٧٧ ، ٥٧٨ ، ٦٢١ ، ٦٢٢ ، ٦٢٧ ، ٦٣١ ، ٦٣٧ ، ٧٠١ .
الرشيد بن المعتمد بن عباد ؛ ج ١ - ٢٩ .
رشيد الرومى ؛ ج ٢ - ١٤٩ - ١٥١ ، ١٥٤ .
روجر ، الدوق ؛ ج ١ - ٥٠١ .
ريموند البرجونى ؛ ج ١ - ١٢٨ ، ٤٧٨ ، ٤٨٥ ، ٥١٤ ، ٥٢٣ .
ريموندو دى ڤيتيرو الراهب ؛ ج ١ - ٥١٩ .
زائدة المتنصرة ؛ ج ١ - ٦٢ ، ٦٧ .
زاندة بنت مردنيش ؛ ج ٢ - ٥٦ ، ٩٢ .
الزبير بن على بن يوسف ؛ ج ١ - ١٨٦ .
الزبير بن عمر اللمتونى ؛ ج ١-١٢٢ ، ١٤٤ ، ١٥٢
الزبير بن محمد بن غانية ؛ ج ١ - ١٤٥ ، ١٤٩
الزبير بن نجاح ؛ ج ٢ - ٢٥٩ .
الزركشى ؛ ج ١ - ١٩٠ وج ٢ - ٣٤٤ .
زعنون القائد ؛ ج ١ - ٣٥٨ ، ٣٥٩ .
زكريا بن يحيى الحافظ ؛ ج ٢ - ٤١ -٤٣ .
زكريا بن يحيى الهزرجى ؛ ج ٢-٣٣٠ ، ٣٤٧
الزندغرسيس ؛ ج ١ - ٧١ .
زهر بن عبد الملك بن زهر ؛ ج ١ - ٤٧٣ .
زهر أم الناصر ؛ ج ٢ - ٢٥٠ .
زيرى بن ماخوخ ؛ ج ١ - ٢٣٧ .
زيرى بن مناد ؛ ج ١ - ٢٩١ وج ٢ - ١٥٠
زينب بنت أبى بكر ؛ ج ١ - ٣٥١ .
زينب بنت إسحق النفزاوية ؛ ج ١ - ٥٣ .
زينب بنت على بن يوسف ؛ ج ١- ٢٦٧ ، ٣٤٩ .
زينب بنت موسى الضرير ؛ ج ٢ - ١١ ، ١٠٥
زيان بن مردنيش ، ابو جميل ؛ ج ١ - ٣٢ وج ٢ - ٣٩٤ - ٣٩٨ ، ٤١٤ ، ٤٢٢ ، ٤٢٦ ، ٤٣٨ - ٤٤٢ ، ٤٤٤ ، ٤٤٦ ، ٤٤٩ - ٤٥١ ، ٤٥٦ - ٤٦٠ ، ٤٦٢ ، ٤٧١ ، ٥٧٥ ، ٦٤٣ ، ٦٩٩ ، ٧٠٠ ، ٧٠٥ .


## س — ط


سالم بن هود ، عماد الدولة ؛ ج ٢ - ٣٩٣ ، ٤١٣ ، ٤١٦ ، ٤٧٠ .
سانشو الأول ( البرتغال ) ؛ ج ٢ - ٣٧ ، ٩٨ ، ١٧٠ ، ١٧٤ ، ١٧٧ ، ٥٩٠ ، ٥٩٢ ، ٥٩٤ ، ٦١٠ .
سانشو الثانى (البرتغال) ؛ ج ٢-٣٥٤ ، ٤٩٢ ، ٦١١ ، ٦١٢ .
سانشو ، الإنفانت ( قشتالة ) ؛ ج ١ -٦٢ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٤٧٧ .

سانشو الثالث (قشتالة) ؛ ج ١ - ٥٠٦ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩ ، ٥١٥ ، ٥١٦ ، ٥١٩ وج ٢- ٣٧ ، ٥٨٣ ، ٥٩٣ .
سانشو (أراجون) ؛ ج ١ - ٥٠٥ .
سانشو صاحب آبلة ؛ ج ٢ - ٩٦ .
سانشو (نافارا) ؛ ج١-٥٠٩ ، ٥١٠ ، ٥١٥ .
سانشو الكبير ؛ ج ١ - ٤٩٥ ، ٥٠٩ .
سانشو السادس (نافارا) ؛ ج ٢ - ٥٨٥ ، ٥٨٧ ، ٥٨٨ ، ٦٠٨ .
سانشو السابع (نافارا) ؛ ج ٢ - ٢٩٠ ، ٣٢٠ ، ٥٩٠ ، ٦٠٧ ، ٦٠٨ .
سانشو الثامن (نافارا) ؛ ج ٢ - ٢٩٧ .
سانشو راميريز ؛ ج ١ - ١٢٢ ، ١٢٥ ، ٤٧٧ ، ٤٩٥ .
سبع بن منغفاد ؛ ج ٢ - ١٨ ، ٢٢ ، ٢٣ .
سر الحسن أم العادل ؛ ج ٢ - ٣٥٦ .
سسنندو داڤيدس ؛ ج ١ - ٥٢٣ .
سعد بن عبادة ؛ ج ٢ - ٤١٤ .
سعد بن محمد بن مردنيش ؛ ج ١ - ١٢٢ ، ٣٦٥
سعيد بن أبي زكريا الجدميوى ؛ ج ٢ - ٤٩٩ ، ٥٠٠ ، ٥١٩ .
سعيد بن حكم الأموى ؛ ج ٢ - ٤٩ ، ٤٥٧ .
سعيد بن عيسى ؛ ج ٢ - ٥٠ ، ٥٦ ، ٧٤ ، ٨٣
سعيد بن ميمون الصنهاجى ؛ ج ١ -٣٩٩ .
سفيان بن أحمد العاصى ؛ ج ١ - ٤٦٠ .
السلاوى ، أحمد بن خالد ؛ ج ٢ - ٢٩٠ .
السليطين ؛ انظر ألفونسو ريمونديس .
سلستينو الثالث ، البابا ؛ ج ٢ - ٥٨٩ ، ٥٩٤ .
سليمان بن أبي حفص ؛ ج ٢ - ٢٣٣ ، ٣٣٢ .
سليمان بن حكم الغافقى ؛ ج ٢ - ٦٧٠ .
سليمان بن عبد المؤمن ، أبو الربيع ؛ ج ٢ - ١٤٩ ، ١٥١ ، ١٦٦ ، ١٦٧ .
سليمان بن محمود بن وانودين ؛ ج ١-٢٥٣
سليمان بن مخلوف الحضرمى ؛ ج ١ -١٧٤ ، ١٨٩
سليمان بن هود ؛ ج ١ - ١١٦ .
سهل بن محمد الأزدى ؛ ج ٢ - ٦٧٥ .
سيدراى بن وزير ؛ ج ١ - ٣٠٧ ، ٣١١ ، ٣٢٣ ، ٣٢٥ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤٨ ، ٣٥٠ ، ٣٧٤ ، ٣٩٤ ، وج ٢ - ١٢ ، ٢٥ ، ٣٤ ، ٤٥ ، ٨٦ ، ١٤١ ، ١٨٧ .
سير بن أبي بكر اللمتونى ؛ ج ١ - ٥٠ ، ٦٠ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٩٩ ، ١٣١ ، ٤١٣ ، ٤١٥ ، ٤٢٦ ؛ وج ٢ - ٦٤٠ .
سير بن إسحاق بن غانية ؛ ج ٢ - ٢٧٦ .
سير بن الحاج ؛ ج ١ - ٢٦٠ ، ٢٦٤ .
سير بن على ؛ ج ١ - ١٤٦ ، ١٤٧ ، ٢٢٩ ، ٢٣٧ ، ٢٤٤ ، ٤١٤ .
سير بن مزدلى اللمتونى ؛ ج ١ - ١٧٩ .
سيف الدولة بن هود ؛ ج ١ - ٣٠ ، ١٢٨ - ١٣٠ ، ١٤٢ ، ٣١٠ ، ٣١٣ - ٣١٨ ، ٣٢١ ، ٣٥٦ - ٣٦٣ ، ٤٥٠ ، ٥٠٨ ، وج٢ - ٣٨٩ ، ٣٩٠ .
سيمون دى مونفور ؛ ج ٢ - ٦٠٥ .
سيمونيت ، المستشرق ؛ ج ١ - ١٠٧ ، ١١٤ .
شريح بن محمد ؛ ج ٢ - ٦٥٣ ، ٦٦٠ ، ٦٨٣
شقاف القائد ؛ ج ٢ - ٤٧٢ ، ٤٧٨ ، ٤٨٤ ، ٤٨٦ ، ٥٣٥ ، ٥٣٦ .
الشقندى ؛ ج ١ - ٤٣٨ .
شمس الدولة ، الملك المعظم ؛ ج ٢ - ١٥٥ .
الشهرستانى ؛ ج ١ - ٢٠٤ ، ٢١٣ .
صالح بن خلف الأنصارى ؛ ج ٢ - ٦٥٢ .
الصالح ، الملك ؛ ج ٢ - ٧١٧ .
صبيحة بنت ابراهيم بن همشك ؛ ج٢ - ٣٩ .
صفوان بن إدريس ، أبو بحر ؛ ج ٢ -٦٧١ ، ٦٨٩ ، ٦٩٠ .
صفية بنت مردنيش ؛ ج ٢ - ٥٦ ، ٣٨٥ .
صلاح الدين ؛ ج ١ - ٤٠٥ وج ٢ - ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٨ ، ١٧٠ ، ١٨١ - ١٨٦ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٧٤٣ .
الصورة بنت على بن يوسف ؛ ج ١ - ١٦٩ .
الضبى ، ابن عميرة ؛ ج ١ - ١٧ ، ٣٦٤ وج ٢ - ٢١٠ .
طاهر بن كباب الصنهاجى ؛ ج ١ - ٢٤٨ .
طاهر بن محشرة ؛ ج ٢ - ١٣٨ ، ٢١٦ ، ٢٤٧ ، ٦٢٢ ، ٦٩٧ .
طلحة بن اسحاق بن غانية ؛ ج ٢ - ١٥٦ .
طلحة بن محمد بن غانية ؛ ج ٢ - ١٤٥ .
طلحة بن يعقوب الأنصارى ؛ ج ٢ - ٦٩١ .
ظافر أمير البحر ؛ ج ٢ - ٤٣٣ ، ٤٣٤ ، ٥٥١


## ع – غ


العادل ، الخليفة ؛ ج ٢ - ٢٤٨ ، ٢٥١ ، ٢٥٦ ، ٢٧٧ ، ٣٤٤ ، ٣٥٠ ، ٣٥١ -

٣٥٧ ، ٣٦٠ - ٣٦٦ ، ٣٧٥ ، ٣٨٩ ،
٣٩١ ، ٥٧٥ ، ٥٧٨ ، ٦٤٠ .
العاضد الفاطمى ؛ ج ٢ - ١٢٥ ، ٣٣٢ .
عامر بن إدريس بن عبد الحق ؛ ج ٢ -٤٧٢ ،
٤٨٩ ، ٥٥١ .
عائد بن أبي الغيث ؛ ج ١ - ٢٩٩ ، ٣٠٠ .
عبد الحق بن عبد الرحمن الأزدى ؛ ج ٢ -١٥٠
عبد الحق بن عطية ؛ ج ٢ - ٦٦٤ ، ٧١٩ .
عبد الحق بن محيو؛ ج ٢ - ٣٣٦ ، ٣٣٧ .
عبد الحق الجنفيسى ؛ ج ٢ - ٥٤٥ .
عبد الرحمن بن أبي عمران ؛ ج ٢ -٥٥٨، ٥٦٤
عبد الرحمن بن أبي مروان ؛ ج ٢ - ٧٩ .
عبد الرحمن بن أسباط ؛ ج ١ - ٥٣، ٤١٧، ٤٤٠
عبد الرحمن بن الحكم ، الأمير ج ٢ - ٧٢ .
عبد الرحمن بن زكو ( زجو ) ؛ ج ١ - ٢٢٠ ،
٢٣٦ ، ٢٤٠ ، ٢٤٥ ، ٢٤٩ .
عبد الرحمن بن عياض ؛ ج ١ - ٣٥٩ .
عبد الرحمن بن محمد السلمى ؛ ج ٢ - ٦٨٢ .
عبد الرحمن بن محمد المعافرى ؛ ج ١ - ٤٥٩ .
عبدالرحمن بن محمدبن مغاور ؛ج٢-٦٨٨، ٦٨٩.
عبد الرحمن بن منقذ ؛ ج ٢ - ١٧١ ، ١٨٣،
١٨٥ ، ١٩٤ ، ١٩٥ .
عبد الرحمن بن يعقوب ، ج ٢ - ٥٥٢ .
عبد الرحمن بن يكيت ؛ ج ١ - ٣٤٤ ، ٣٤٥،
٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٣٧٨ ، ٥١١ .
عبد الرحمن بن يوجان ، أبوزيد ؛ ج ٢-٢٢١،
٢٤٧ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٥ ، ٢٧٤ ، ٢٧٧
٢٧٨ ، ٣٢٦ ، ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٤،
٣٦٤ ، ٣٦٦ ، ٦٢٣ .
عبد الرحمن الجزولى ؛ ج ٢ - ٦٩٥ .
عبد الرحمن الداخل ؛ ج ٢ - ٧١٤ .
عبد الرحمن الناصر ؛ ج ١ - ٣٩٧ .
عبد الرحيم بن الفرس ؛ ج ٢ - ٢٥٦ .
عبد السلام بن محمد الكومى ؛ ج ١ - ٢٩٤،
٢٩٦ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٧٥ ، ٣٧٧ ،
٤٠٦ وج ٢ - ١٠٦ .
عبد العزيز بن أبي حفص ؛ ج ٢ - ٤٧١ .
عبد العزيز بن السعيد ؛ ج ٢ - ٥٦٣ ، ٥٦٤
عبد العزيز بن عطوش ؛ ؛ ج ٢ - ٥٦٣ .
عبد العزيز عمر بن أبي زيد ؛ ج ٢ - ٢٧١ .
عبد العزيز بن عمر الهنتاتى ؛ ج ٢ -٣٢٩ .
عبد اللطيف البغدادى ؛ ج ٢ - ٧٢٤ .
عبد الله ، أمير الأندلس ؛ ج ١ - ٦١ .
عبد الله بن أبي بكر ، الأمير ؛ ج ١ - ١٥٠ .
عبد الله بن أبي بكر القضاعى؛ ج٢-٦٧٠، ٧٠٥
عبد الله بن أبي بكر بن ونكى ؛ ج ١ - ٢٨٨
عبد الله بن أبي بكر بن يزيد ؛ ج ٢ - ٣٥٤ .
عبد الله بن أبي حفص ؛ ج ١ - ٣٤٠، ٣٤٥ ،
٣٨٦ ، ٣٨٨ .
عبد الله بن أبي حفص التيمنللى ؛ ج ١ - ٣٤٤
عبد الله بن أبي زكريا ؛ ج ٢ - ٥٠٤ ، ٥٠٥،
٥١٠ ، ٥١٧ .
عبد الله بن أبي سعد بن المنصور ؛ ج ٢ -٤٩٧،
٤٩٨ ، ٥٠٧ ، ٥١٥ .
عبد الله بن أبي يوسف ( العجوب ) ؛ ج٢-٥٥٤
عبد الله بن أحمد الأنصارى ؛ ج ٢-٧١٤ .
عبد الله بن أحمد الحجرى ؛ ج ٢ - ٦٨٢ .
عبد الله بن أحمدالعبدرى ؛ ج ١ - ٦٥١ .
عبد الله بن اسحق بن غانية ؛ ج ٢ - ١٥٨ ،
١٥٩ ، ١٩٥ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠ .
عبد الله بن اسحق بن جامع ؛ ح ٢ - ١٠٠ ،
١٠١ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ٢٦٦ .
عبد الله بن الحسن الأنصارى ؛ ج ٢ - ٦٥٦ .
عبد الله بن الحسن السعدى ؛ ؛ ج ١ - ٤٧٠ .
عبد الله بن الصميل ؛ ج ١ - ٣٠٩ ، ٣١٤ ،
٣٢٣ ، ٣٢٧ .
عبد الله بن العزيز بالله ؛ ج ١ - ٢٨٢ .
عبد الله بن المنصور ؛ انظر العادل .
عبد الله بن باديس اليحصبى ؛ ج ٢ - ٦٥٩ .
عبد الله بن تفراجين ، الحافظ ؛ ج ٢ - ٦٨،
٧٩ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ .
عبد الله بن تينغمر ؛ ج ١ - ٨٤، ١٣٣، ٤١٥
عبد الله بن خالد المعافرى ؛ ج ٢ - ٦٧١ .
عبد الله بن حبيب ؛ ج ١ - ٤١٢ .
عبد الله بن خلف القرشى ؛ ج ١ - ٤٦١ .
عبد الله بن خيار الجيانى ؛ ج ١ - ٢٥٧ ،
٢٥٨ ، ٢٧٥ ، ٢٨٦ .
عبد الله بن ذى النون الحجرى ج ٢ -٦٥٣
عبد الله بن سعدون الأزدى ؛ ج ٢ - ٦٨٥ .
عبد الله بن سليمان ؛ ج ١ - ٢٧٥ ، ٢٨٧ ،
٣٤١ ، ٣٤٥ - ٣٤٧ .
عبد الله بن سيد أمير اللخمى ؛ ج ٢ - ٧١٣ .

عبدالله بن شراحيل ؛ ج ١-٣٧٥، ٣٨٦، ٣٨٧ .
عبد الله بن عبد الكريم ؛ ج ٢ - ٢٥٤ .
عبد الله بن عبد المؤمن ؛ ج ١ - ٢٨٢ ، ٢٨٥، ٢٩٦ ، ٣٠١ ، ٤٠٧ وج ٢ - ١١ ، ١٣ .
عبد الله بن عبد الواحد بن أبي حفص ؛ ج ٢- ٣٧٤ - ٣٨٠ .
عبد الله بن على بن عبد المؤمن ؛ ج ٢-٩٩ .
عبد الله بن على بن غانية ؛ ج ٢ - ١٥٨ .
عبد الله بن عمرو الخزرجى ؛ ج ٢ - ٦٦٩ .
عبد الله بن عياض ؛ ج ١ - ٣٠ ، ١٢٢ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٦٠ - ٣٦٥ ، ٣٦٨ ، ٤٤٥
عبد الله بن فاطمة ، أبو محمد ؛ ج ١ - ٨١، ٩٩ ، ٢٨٨ .
عبد الله بن فتوح الثغرى ؛ ج ١ - ٣٥٨ ، ٣٦٠ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ .
عبد الله بن قاسم اللخمى ؛ ج ٢ - ٦٧٦ .
عبد الله بن محمد بن الرند ؛ ج ٢ - ١٠٦ .
عبد الله بن محمد بن العربى ؛ ج ١ - ٤١ ، ٤٢، ٤٤ ، ٢٦٧ ، ٣٢٨ .
عبد الله بن محمد التادلى ؛ ج ٢ - ٦٦٥ .
عبد الله بن محمد الصنهاجى ؛ ج ٢ - ٦٦٠ .
عبد الله بن محمد الضرير ؛ ج ٢ - ٧١٧ .
عبد الله بن محمد النفزى ؛ ج ١ - ٤٥٩ .
عبد الله بن محمد بن غانية ؛ ج ١ - ١٥٤، ٣٥٤- ٣٥٨ وج ٢ - ١٤٥
عبد الله بن محمد بن وزير ؛ ج ٢ - ٣٣٨ ، ٣٤٠ ، ٤٠٠ .
عبد الله بن محمد بن يوسف ( البياسى) ؛ ج ٢ - ٣٥١ - ٣٦٣ ، ٣٦٥ ، ٣٨٩ ، ٣٩٣ ، ٣٩٧ ، ٥٦١ ، ٥٧٥ ، ٥٩٧ .
عبد الله بن مردنيش ؛ ج ١ - ٣٥٥ ، ٣٥٦، ٣٦٠ - ٣٦٢ ، ٣٦٥ .
عبد الله بن مردلى ؛ ج ١ - ٧١ ، ٧٢ ، ٩٠ - ٩٥ ، ٤١٥ .
عبد الله بن ملويات ؛ ج ١ - ١٧٤ ، ٢٢٦ .
عبد الله بن وانودين ؛ ج ١ - ٢٨٤، ٢٨٧ .
عبد الله بن وسيدرن ؛ ج ١ - ٢٢٦ .
عبد الله بن ياسين ؛ ج ١ - ٢٦ ، ٣٧ ، ٤١١ ، ٤١٧ .
عبد الله بن يحيى بن تيفلوت ؛ ج ١ - ٢٣٧ .
عبد الله بن يحيى الحضرمى ؛ ج ٢ - ٦٦٢ .
عبد الله الطغرانى : ج ١ — ٣٦٢
عبد الله المرتضى : ج ١ — ٧٦
عبد الملك بن جريول ؛ ج ٢-٧١٢، ٧١٤، ٧٢١
عبد الملك بن زهر ؛ ج ١ - ٤٧٣ ، ٤٧٤ .
عبد الملك بن سعيد ؛ ج ١ - ٤٤٩ ، ٤٥٠ .
عبد الملك بن عياش ؛ ج ١ - ٢٩٤ وج ٢-١٢
عبد الملك بن مروان بن زهر ؛ ج ١ -٤٧٣ .
عبد المؤمن بن على ؛ ج ١ - ٨ ، ٩ ، ١١ ، ١٢ ، ١٦ ، ١٨ ، ٢٦ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٧٠ ، ١٧٣ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٩ -١٩١ ، ١٩٨ ، ٢٠٠ ، ٢١٣ ، ٢١٥ ، ٢١٩-٢٤٠ ، ٢٤٤-٢٥٣ ، ٢٥٥-٢٧٠ ، ٢٧٢-٢٨٠ ، ٢٨٢ ، ٢٨٤-٢٩٧ ، ٣٠٠-٣٠٢ ، ٣٠٩ - ٣١٢ ، ٣٢٢ - ٣٢٩ ، ٣٣٢ ، ٣٣٤-٣٤٦، ٣٤٨-٣٥٢ ، ٣٧٣-٣٧٨ ، ٣٨١ ، ٣٨٢، ٣٨٥ ، ٣٨٨-٣٩٤ ، ٣٩٦-٣٩٩ ، ٤٠٢ - ٤٠٨ ، ٤٢٥ ، ٤٤٣ ، ٤٤٥ وج ٢ - ١١ ، ١٤ ، ٢٢ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٣٠ ، ٣٤ ، ٥٩، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٧٠ ، ٧٤ ، ٩٩ ، ١٠٥ ، ١٠٦-١١١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٥، ١٣٨ ، ٢٢٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٨-٢٤٠ ، ٢٤٦، ٣٢١ ، ٣٢٦ ، ٣٣١ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٤٢ ، ٣٤٧ ، ٣٤٩ ، ٣٥١ ، ٣٨٠ ، ٤٢٦ ، ٤٤٦ ، ٤٤٨ ، ٤٥٢ ، ٤٥٦، ٥٥٩، ٥٧٣ ، ٥٧٧ ، ٥٧٩ ، ٦١٦-٦٢٦ ، ٦٢٩، ٦٣٠ ، ٦٣٣ ، ٦٣٥ ، ٦٣٧ ، ٦٣٩ ، ٦٤١ ، ٦٤٦ ، ٦٦٦ ، ٦٨٧-٦٨٩ ، ٦٩٨، ٦٩٩ ، ٧٠٣ ، ٧٢٣ ، ٧٢٤ .
عبدالواحد بن أبي حفص ، أبو محمد ؛ ج ٢-٢٣٦ ، ٢٣٧، ٢٥٠ ، ٢٦٣، ٢٦٥، ٢٧٠، ٢٧٢ - ٢٧٨ ، ٢٨١ ، ٢٨٥ ، ٣٢٥ ، ٣٣١ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٣٧٦، ٣٧٨، ٣٨١، ٥٨٠ .
عبدالواحد بن عمر ؛ ج ٢-٦٢ ، ٦٥، ٧٩، ٨٩ .
عبد الواحد بن عمر التونسى ؛ ؛ ج ١-١٦٦ .
عبد الواجد بن يوسف بن عبدالمؤمن ؛ ج ٢-٢٦٣
عبد الواحد الحضرمى ؛ ج ١ - ١٧٤ .
عبد الواحد الشرقى ؛ ج ١ - ٢٥٩ .
عبد الواخد المراكشى ؛ ج ١ - ١٧ ، ١٦٠ ، ١٦٩ ، ١٧١ ، ١٧٦ ، ٢١٢ ، ٢٢١ - ٢٢٣ ، ٢٥١ ، ٢٦٦ ، ٢٧٦ ، ٣٥١ ، ٣٦٤ ، ٣٩٦ ، ٤٠٥ ، ٤١١ ، ٤٢٤ ،

٤٣٧ وج ٢ - ٥٣ ، ٥٥ ، ١٢٣ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٤٦ ، ١٨٩ ، ١٩٢ ، ٢٣٥ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٤ ، ٢٤٦ ، ٢٥٠ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٨ ، ٣١٤ ، ٣١٨ ، ٣٢٣ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٣٠ - ٣٣٢ ، ٣٤٦ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٦٨٨ ، ٧٠٣ .

عبد الله بن عبد الرحمن بن قزمان ؛ ج ٢ - ٦٦٤ .

عبيد الله بن عمر الحضرمى ؛ ج ٢ - ٦٦٠ .

عبيد الله بن غلندة ؛ ج ٢ - ٧١٢ .

عبيد الله بن محمد المذحجى ؛ ج ٢ - ٧١٣ .

عبيد الله المهدى ؛ ج ١ - ١٥٧ .

عتبة بن يحيى المغيلى ؛ ج ٢ - ٤٣٠ .

عثمان ، الخليفة ؛ ج ١ - ٣٤٣ .

عثمان بن أبى حفص ؛ ج ٢ - ٣٥٣ .

عثمان بن عبد الحق ، أبو سعيد ؛ ج ٢ - ٣٣٨ ، ٥١١ ، ٥١٢ .

عثمان بن عبد المؤمن ، أبو سعيد ؛ ج ١ - ٣١٩ ، ٣٤٣ ، ٣٤٥ - ٣٤٧ ، ٣٧٨ ، ٣٨٢ ، ٣٨٥ - ٣٨٩ ، ٣٩١ ، ٣٩٢ ، ٤٠٧ ، ٤٥٢ وج ٢ - ١١ ، ١٣ ، ١٥ ، ١٧ ، ٢٢ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٨ ، ٧٥ ، ٨٤ ، ٩٤ ، ١٣٣ ، ٦١٩ ، ٦٤٢ ، ٦٩٧ .

العزيز بن المنصور الصنهاجى ؛ ج ١ - ١٦٥ .

عزيز بن عبد الملك بن خطاب ؛ ج ٢ - ٣٩٥ ، ٤٥٧ ، ٦٩١ ، ٦٩٩ .

عزيز بن يوسف بن مردنيش ؛ ج ٢ - ٣٩٤ ، ٣٩٥

العزيز بالله الفاطمى ؛ ج ١ - ٢٩٨ .

عسكر بن وزير ؛ ج ٢ - ٣٣٥ ، ٣٣٧ .

عضد الدولة بن هود ؛ ج ٢ - ٤٢٩ ، ٤٥٧ ، ٤٦٢ .

عا بن إبراهيم الفخار ؛ ج ٢ - ٦٧٥ .

بن أبى بكر (ابن فنو) ؛ ج ١ - ٣١٦ ، ٣١٨ .

ى بن أبى طالب ؛ ج ١ - ٣١٥ .

على بن أبى على ؛ ج ٢ - ٥٥٢ ، ٥٦٥ .

على بن أحمد الشلطيشى ؛ ج ١ - ٤٤٨ .

على بن اسحاق بن غانية ، الميورقى ؛ ج ٢ - ١٤٩ - ١٦٢ ، ١٦٤ ، ١٦٧ ، ١٨٤ ، ٢٥٧ ، ٢٦٨ ، ٢٧٦ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ .

على بن الحسن الجذامى ؛ ج ١ - ١٧٦ .

على بن الحسن الصنهاجى ؛ ج ١ - ٢٩١ ، ٢٩٢ .

على بن الغانى ؛ ج ٢ - ٢٦٢ ، ٢٦٤ ، ٢٦٦ - ٣١٤ .

على بن المنتصر ؛ ج ٢ - ١٠٦ ، ١٠٧ .

على بن حيون ؛ ج ٢ - ١١٢ .

على بن زيان المونكاسى ؛ ج ٢ - ٥٤٠ ، ٥٤١

على بن عبد الرحمن الخزرجى ؛ ج ١ - ٤٧١ .

على بن عبد العزيز بن الإمام ؛ ج ١ - ٤٤٤ .

على بن عبد العزيز بن الرند ؛ ج ٢ - ١٠٦ ، ١٠٧

على بن عبد المؤمن ؛ ج ١ - ٢٩٤ وج ٢ - ١١ ، ٢١ ، ٩٣ ، ٩٦ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٧ ، ١٥٩

على بن عبيد ؛ ج ١ - ٣٦٤ ، ٣٧٢ ، ٣٩٠ .

عن بن عيسى بن ميمون ؛ ج ١ - ٢٥٩ ، ٢٧٢ .

على بن كنفاط اللمتونى ؛ ج ١ - ٧٤ .

على بن مجاهد ؛ ج ١ - ٧٦ .

على بن محمد بن غانية ؛ ج ٢ - ١٤٨ .

على بن محمد الجزيرى ؛ ج ٢ - ١١٢ ، ١٧٩ ، ١٨١

على بن محمد القسطلى ؛ ج ٢ - ٣٩١ .

على بن موسى ج ٢ - ٤٦٨ .

على بن وزير ؛ ج ٢ - ٤٥ ، ٩٧ ، ٩٨ .

على بن يحيى بن تميم ؛ ج ١ - ٤٧٢ .

على بن يدر ؛ ج ٢ - ٥٤١ ، ٥٤٢ ، ٥٤٥ ، ٥٤٦ ، ٥٥٣ ، ٥٦٤ ، ٥٦٥ .

على بن يزيمر النامردى ؛ ج ٢ - ٥٢٣ .

على بن يوسف ؛ ج ١ - ١٣ ، ١٥ ، ١٦ ، ٤٥ - ٤٧ ، ٥٣ ، ٥٧ - ٦٠ ، ٦٦ ، ٦٨ - ٧٤ ، ٧٨ - ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٣ ، ١٠٣ ، ١١٠ ، ١١٤ - ١١٩ ، ١٢٢ ، ١٣١ - ١٣٤ ، ١٤٠ ، ١٤٤ ، ١٤٦ - ١٤٩ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٨ ، ١٦٢ ، ١٦٩ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٨٤ ، ١٨٨ ، ٢١٢ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٣٠ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٤١ - ٢٤٥ ، ٢٥٨ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٧٠ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٦ ، ٣٣٤ ، ٤١١ ، ٤١٤ - ٤٢٢ ، ٤٢٤ ، ٤٢٦ - ٤٣٥ ، ٤٣٧ ، ٤٣٩ ، ٤٤١ ، ٤٤٢ - ٤٤٤ ، ٤٥٣ ، ٤٥٧ ، ٤٥٩ ، ٤٦٥ ، ٤٧٠ ، ٤٧٤ ، ٤٧٧ ، ٤٩٩ ، ٥٠٠ ، ٥٢٥ ، وج ٢ - ١٤٤ ، ١٤٧ ، ٦٦٠

على بن يوسف عبد المؤمن ؛ ج ٢ - ١١٢ ، ١٦٧

على الربرتير ؛ ج ١ - ٢٣٢ وج ٢ - ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٦١ ، ٢٥٧ .

على الوهيبى ؛ ج ١ - ٣٤٠ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ،

عماد الدولة بن هود ؛ ج ١ - ٧٤ ، ٨٩ ،

١٢٦ ، ١٢٧ ، ٣١٧ .
العماد الإصفهانى ؛ ج ٢ - ٧١٢ .
عمر بن أبى الحسن الفريانى ؛ ج ١ - ٢٩٣ .
عمر بن أبى زيد الهنتاتى ؛ ج ٢ - ٢٤٧ .
عمر بن الحاج اللمتونى ؛ ج ١ - ١٣٥ .
عمر بن الحسين ؛ ج ١ - ٢٩٦ .
عمر بن الخطاب ؛ ج ١ - ٥٢ ، ٢١١ .
عمر بن تفراجين ؛ ج ١ - ٢٨٦ .
عمر بن تيمصلت ؛ ج ٢ - ٣٢ ، ٣٦ ، ٣٨- ٤٠ ، ٨٦ ، ٩١ ، ٩٧ ، ٢٩٨ .
عمر بن سحنون ؛ ج ٢ - ٨٦ .
عمر بن سير اللمتونى ؛ ج ١ - ١٣٢ ، ١٣٣ .
عمر بن شاهنشاه ؛ ج ٢ - ١٥٥ ، ١٩٤ .
عمر بن صالح الصنهاجى ؛ ج ١ - ٣٢٧ .
عمر بن عبد العزيز بن المنصور ؛ ج ٢ - ٥١٤
عمر بن عبد المؤمن ، أبوحفص ؛ ج ٢-١١ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٤٤ - ٤٦ ، ٤٨ ، ٥٠ -٥٢ ، ٥٥ ، ٥٩ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٧٦ ، ٧٧، ٨٠ ، ٨٤ ، ٨٩ ، ٩٢ ، ٩٥ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٣١ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ٣٣٥، ٦٢١
عمر بن عدبس ؛ ج ٢ - ٧١ .
عمر بن على بن أصناج (أزناج) ؛ ج ١ - ١٧٤ ، ١٨٦ ، ٢٢٠ ، ٢٣٠ ، ٢٣٨ .
عمر بن على ين يوسف ؛ ج١- ١١٥ ، ١١٦ .
عمر بن عيسى بن أبى حفص ؛ ج٢ - ٣٥٨ ، ٣٦٢
عمر بن فلفول ؛ ج ١ - ١٦٥ .
عمر بن موسى بن عبد الواحد ؛ ج ١ - ٣٢٩ .
عمر بن وقاريط ؛ ج ٢ - ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٤٢٩ ، ٤٩٧ ، ٤٩٩ ، ٥٠٠ ، ٥٠٣ ، ٥٠٥ ، ٥٠٧ ، ٥٠٩ ، ٥١٠ .
عمر بن يحيى الهنتاتى ، أبو حفص ؛ ج ١ - ١٧٤ ، ٢٢٦ ، ٢٤٠ ، ٢٤٣ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٧ ، ٢٦٠ ، ٢٦٥ ، ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٦ - ٢٧٩ ، ٢٨٨ ، ٢٩٤ ، ٣٣٧ - ٣٣٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨٦ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥ ، وج ٢ - ١١ ، ١٨ ، ٢٢ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٦، ٤٨ ، ٦٧ ، ٧٨ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٤ ، ١٠٦ ، ٢٠٢ ، ٢٥٠ ، ٣٨٠ ، ٥٨٠ .
عمر بن يوسف بن عبد المؤمن ؛ ج ٢ - ١١٥، ١٣٨ ، ١٦٦ ، ١٦٧ .
عمر الرشيد بن عبد المؤمن ؛ ج ١ - ٢٥٨ .
عمران بن موسى الصنهاجى ؛ ج ٢ -١٠٦ .
عوج بن هلال ؛ ج ٢ - ٥٢٢ .
عياض بن موسى اليحصبى ؛ ج ١ - ٢٧٣ - ٢٧٥ ، ٣٢٩ ، ٤٢٨ ، ٤٦٢ - ٤٦٥ وج٢ - ٦٥١ ، ٦٦٠ - ٦٦٥ .
عيسى بن المنصور ؛ ج ٢ - ٢٤٨ ، ٢٧٠ ، ٣٥٠ ، ٣٥٩ ، ٣٦٨ ، ٣٨٢، ٣٨٣، ٤٩٨
عيسى بن دينار ؛ ج ١ - ٤١٢ .
عيسى بن عبد المؤمن ، أبو موسى ؛ ج ١ -٤٠٨ وج ٢ -١٠٧ ، ١٤٩ ١٥٢ ، ١٥٣ .
عيسى بن عمران ؛ ج٢ - ٦٥ ، ٧٧، ٨٩، ١٣٨
عيسى بن مريم ؛ ج ١-٢١٣ وج٢-٣٧١، ٥٦١
الغازى بن اسحاق بن غانية ؛ ج ٢ - ٢٦٢ .
غانم بن مردنيش ؛ ج ٢ - ٥٥ ، ٥٦، ٧٤ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ١٠٠ .
غرسية القائد ؛ ج ٢ - ٥٥٦ .
غرسية أردونث ؛ ج ١ - ٦٢ ، ٦٥ ، ٦٦ .
غرسية بن فرناندو ؛ ج ١ -٥٢٣ .
غرسية راميريس ؛ ج ١ - ٤٩٥ ، ٤٩٦ ، ٥٠٠ - ٥١٠ ، ٥٢٦ ، وج ٢- ٦٠٧ .
الغزالى ، أبوحامد ؛ ج ١ - ١٥ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٥١ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ١٦١- ١٦٤ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧٦ ، ٢٠٤ ، ٢٤٣، ٣٠٧ ، ٤١٣ ، ٤١٦ ، ٤٢٦ ، ٤٣١ ، ٤٣٢ ، ٤٥٦ وج ٢ - ٦٤٧ ، ٦٥٨ ، ٦٧٧ .
الغشتى ؛ ج ٢ - ٣٨٣ ، ٣٩٠ ، ٤١١ .
غنصلة (كونثالو) ؛ ج ٢ - ٤٩٩ ، ٥٠٣ .

## ف ــ ك

فارس بن أبى الغيث ؛ ج ١ - ٣٠٠ .
فاطمة بنت النبى ؛ ج ١ - ٢١٥ .
فاطمة بنت على بن يوسف ؛ ج ٢ - ٣٢٩ .
فاطمة بنت يوسف الزناتية ؛ ج ١ - ٢٤٠ .
فانو بنت عمر بن ينتان ؛ ج ١ - ٢٦٣ .
الفتح بن خاقان ؛ ج ١ - ١٠٤ ، ٤٤٣ ، وج ٢ - ٦٩٦ .
الفتح بن المعتمد بن عباد ؛ ج ١ - ٦٢ ، ٦٧ .
فرج بن محمد بن الأحمر ؛ ج ٢ - ٤٣٣ .
فردريك الأول (صقلية) ؛ ج ١ - ٥١٤، وج ٢ - ٥٢٦ .

فردريك الثانى، الإمبراطور ؛ ج٢-٢٨٠، ٥٢٥.
فرناندو الأول ؛ ج ١ - ١٢٥ ، ٥٢٢، ٥٢٣.
فرناندو الثانى ( ليون ) ؛ ج ١ - ٥١٥ ، ٥١٦، ٥١٧ وج ٢ - ٣١ ، ٣٢ ، ٣٦ ، ٣٧-٣٩ ، ٤٥ ، ٩١ ، ٩٧ ، ١١٧ - ١١٩ ، ١٢٥ ، ١٧٦ ، ٢٩٠ ، ٢٩٤ ، ٥٨٣ ، ٥٨٦ ، ٥٩٣ ، ٥٩٤ ، ٦١٠ .
فرناندو الثالث ( القديس ) ؛ ج ١ - ٣٢١ ، وج ٢ - ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٤٣ ، ٣٥٢ ، ٣٥٧ - ٣٦٣ ، ٣٦٨ ، ٣٩٧ ، ٣٩٩ -٤٠٢ ، ٤١٦ ، ٤١٧ ، ٤٢٠ - ٤٢٥ ، ٤٣٢ -٤٣٤ ، ٤٤٣ ، ٤٥٨ ، ٤٦٠ ، ٤٦٦ - ٤٦٨ ، ٤٧٢- ٤٧٤ ، ٤٧٦ ، ٤٧٨ ، ٤٨٣ ، ٤٨٤ ، ٤٨٦ ، ٤٨٧ ، ٤٩٠ ، ٤٩٢ ، ٤٩٤ ، ٥٣٦ ، ٥٨٩ ، ٥٩٣ ، ٥٩٦ - ٥٩٩ ، ٦٠٦ ، ٦١٢ ، ٦٢٤ ، ٦٣٦ .
فرناندو الأرجونى ؛ ج ٢ - ٧٠١ .
فرناندو بيريث ؛ ج ١ - ٤٩٠ ، ٥٢٥ .
فرناندو خوانس ، الدوق ؛ ج ١ - ٣١٤ .
فرناندو راس ؛ ج ٢ - ٣١ .
فرناندو ردريجس ؛ ج ٢ - ٣٠ ، ٩٢ .
الفضل بن على المرادى ؛ ج ١ - ٣٠٠ .
الفلاكى الأندلسى ؛ ج ١ - ١٨٤ ، ٢٢٧، ٢٣٣
فلوج العلج ؛ ج ١ - ٣١٥ ، ٣٣٣ .
فلورس ، الأب ؛ ج ١ - ٤٨٧ .
فيليب المهدوى ؛ ج ١ - ٢٩١ .
فيولانتى ، الملكة ؛ ج ٢ - ٤٦٣ .
القاسم بن حمود ( ابن الحجر ) ؛ ج ٢ - ٢٨٠
القاضى الفاضل ؛ ج ٢ - ٧٢٣ .
القاسم بن يحيى الصنهاجى ؛ ج ١ - ٢٨٠ .
القديس أوغسطين ؛ ج ١ - ٥٢٠ .
القديس ياقب ؛ ج ١ - ٤٨٥ .
قراقوش الأرمنى ؛ ج٢-١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ٢٥١ .
قراقوش ، بهاء الدين ؛ ج ٢ - ١٥٥ .
القرشى القرطبى ؛ ج ١ - ٣٨٢ ، ٣٨٤ .
قطران بن ماغليفة ؛ ج ١ - ١٩٦ .
قمر زوجة على بن يوسف ؛ ج١-١٤٧ ، ٤٢٢
قيس عيلان بن مضر ؛ ج ١ - ٢٢٣ .
كارل الأكبر ( شارلمان ) ؛ ج ١ - ٤٩٧ .
كالستوس الثانى ، البابا ؛ ج ١ - ٤٨٥ ، ٤٨٦
الكامل ، الملك ؛ ج ٢ - ٧١٢ .
كانون بن جرمون ؛ ج٢- ٥١٧ ، ٥٢٢ ، ٥٢٥ .
كليمنضوس العاشر ، البابا ؛ ج ٢ - ٤٩٤ .
كنونة بنت إدريس ؛ ج ١ - ٢٢٢ .
كوديرا ، المستشرق ؛ ج١-٣٠٦ ، ٤٢٣ ، ٤٣٤
الكونت دى تراڤا ؛ ج١-٤٨١ ، ٤٨٣ ، ٥٢٤
كوندرادا ؛ ج ١ - ٤٩١ ، ٥١٠ .
كونستانس الملكة ؛ ج ١ - ٤٧٨ .
كونستنزا ابنة القيصر ؛ ج ١ - ٥١٠ .

## ل — م

لب بن عبد الملك الرصافى ؛ ج ٢ - ٦٨٣ .
لوبى فرنانديث الأسقف ؛ ج ٢-٥٣٧ ، ٥٣٨
لورنسو خواريز ؛ ج ٢ - ٤٢٢ .
لويس السابع ؛ ج ١ - ٥١٠ .
لويس التاسع ؛ ج ٢ - ٦٠٩ .
ليڤى بروڤنسال ؛ ج ١ - ١٢ ، ١٣ ، ١٥ ، ١٦
المأمون ، أبو العلى ؛ ج ٢ - ٢٤٨ ، ٣٥٠ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ - ٣٥٥ ، ٣٥٧ ، ٣٥٩ - ٣٦٦ ، ٣٦٨ - ٣٧٢ ، ٣٧٨ - ٣٨٦ ، ٣٨٩ ، ٣٩٢ ، ٣٩٣ ، ٣٩٧ ، ٤٧٠ ، ٤٩٧ ، ٤٩٨ ، ٥٠٢ ، ٥٠٤ ، ٥٠٨ ، ٥١٥ ، ٥١٧ ، ٥٣٠ ، ٥٣٦ ، ٥٣٧ ، ٥٧٥ ، ٥٧٧ ، ٥٧٨ ، ٥٩٧ ، ٦٢٢ ، ٦٢٤ ، ٦٣١ ، ٦٣٦ ، ٦٣٧ ، ٦٤٠ ، ٦٤٣ ، ٦٤٦ ، ٦٩٤ ، ٦٩٨ ، ٧١٤ .
مارتن سانشيز ؛ ج ٢ - ٣٥٤ .
مارتن فرنانديث ؛ ج ١ - ٥٠٧ .
مارتن لوبث ؛ ج ٢ - ١٩٧ .
ماريانا ، المؤرخ ؛ ج ١-٤٨٧ وج٢-٩٦ .
المازرى ، الإمام ؛ ج ١ - ١٦٠ .
الماسى ؛ ج ١ - ٢٦٩ - ٢٧٢ ، ٣٢٩ ، ٣٤٩
ماكس بن المعز ؛ ج ١- ٢٤٠ .
مافالدا البرتغالية ؛ ج ٢ - ٥٩٢ .
مالك ، الإمام ؛ ج ١ - ١٥ ، ١٨ ، ١٧١ ، ٢١٦ ، ٤١٢ ، ٤٣٢ .
مالك بن وهيب ؛ ج ١ - ١٧١ .
مانريكى دى لارا ؛ ج ٢ - ٧٩ .
المبارك بن عبد الجبار ؛ ج ١ - ١٦١ .
مبشر بن سليمان ؛ ج ١ - ٧٦ ، ٧٧ .
المتوكل بن الأفطس ؛ ج ١ - ٤٢٦ ، ٤٥٣ .

محرز بن زياد ؛ ج ١ - ٢٩١ ، ٣٠٢ .
محمد بن إبراهيم الأنصارى ؛ ج ٢ - ٦٧٣ .
محمد بن إبراهيم الحضرمى ؛ ج ١ - ٣١٥ .
محمد بن إبراهيم بن الفخار ؛ ج ٢ - ٦٥٣ ، ٦٥٦ ، ٦٥٧ ، ٦٧٠ ، ٦٧٣ ، ٦٧٥ .
محمد بن إبراهيم المهرى الأصولى ؛ ج ٢ - ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٦٥٨ .
محمد بن إبراهيم المواعينى ؛ ج ٢ - ٦٩٥ .
محمد بن أبى الحسن بن أضحى ؛ ج ١ - ٣١٧ ، ٣١٨ .
محمد بن أبى العباس التيفاشى ؛ ج ١ - ٢٩٦ .
محمد بن أبى بكر اللمتونى ؛ ج ١ - ٦٠ .
محمد بن أبى بكر بن يكيت ؛ ج ١ - ٢٤٠ .
محمد بن أبى رنق ؛ ج ١ - ٦١ .
محمد بن أبى يعلى الكومى ؛ ج ٢ - ٥٤١ ، ٥٤٧
محمد بن أحمد بن سعادة ؛ ج ٢ - ٦٦٩ ، ٦٨٣
محمد بن أحمد بن خلف الخزرجى ؛ ج ٢ - ٦٦٨ .
محمد بن أحمد الرقوطى ؛ ج ٢ - ٧١٨ ، ٧٢٦
محمد بن أحمد الصابونى ؛ ج ٢ - ٦٩٠ ، ٦٩١ .
محمد بن أحمد المتنانجشتى ؛ ج ٢ - ٦٦١ .
محمد بن أسحق بن غانية ؛ ج ٢ - ١٤٧ ، ١٥٦ - ١٥٨ ، ٢٥٧ .
محمد بن اسماعيل الجمحى ؛ ج ٢ - ٦٧٤ .
محمد بن الأحمر ؛ ج ١ - ٣٣ وج ٢ - ٤٠٢ ، ٤١٤ - ٤١٨ ، ٤٢٣ ، ٤٢٧ - ٤٣٦ ، ٤٦١ - ٤٦٣ ، ٤٦٦ - ٤٧٤ ، ٤٧٦ ، ٤٧٧ ، ٤٨٠ ، ٤٨٦ ، ٤٩٢ ، ٥١٠ ، ٥٢٤ ، ٥٥١ ، ٥٦٠ ، ٥٧٢ ، ٥٩٧ ، ٥٩٨ ، ٦٢٧ ، ٦٤٣ ، ٦٤٨ ، ٧٠٠ ، ٧١٨ .
محمد بن الحاج ؛ ج ١ - ٥٠ ، ٦٠ ، ٧٢ - ٧٦ ، ٨٨ ، ٩٩ ، ١٢٧ ، ٤١٣ ، ٤١٥ ، ٤٩٩ ، وج ٢ - ٦٤٠ .
محمد بن الغازى بن غانية ؛ ج ٢ - ٢٧٥ .
محمد بن المرتضى ؛ ج ٢ - ٥٦٠ ، ٥٦١ .
محمد بن المعلم ؛ ج ١ - ٣٩٢ وج ٢ - ١٣ ، ٦٩ ، ٩٩ .
محمد بن أمرجال ؛ ج ١ - ٢٨٨ .
محمد بن أيوب الغافقى ؛ ج ٢ - ٦٦٧ .
محمد الفازازى ؛ ج ٢ - ٥١٥ .
محمد الناصر ، الخليفة ؛ ج ١ - ١٠ ، ١١ ، ١٥ ، ١٦ ، ٢٨ ، ٣٢ ، ٢٥٩ ، ٤٠٤ ، وج ٢ - ١٩٠ ، ٢٣٢ - ٢٣٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٥٠ - ٢٥٨ ، ٢٧٥ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٨٣ - ٢٩١ ، ٢٩٣ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٨ ، ٣١٠ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣٢١ - ٣٢٦ ، ٣٢٨ ، ٣٣٢ ، ٣٣٦ ، ٣٤٥ ، ٣٤٧ ، ٣٤٩ ، ٣٥١ ، ٣٧٣ ، ٥٣٥ ، ٥٧٣ ، ٥٨٨ ، ٥٩٠ ، ٥٩١ ، ٦٢٠ ، ٦٢٢ ، ٦٢٦ ، ٦٢٨ ، ٦٣٦ ، ٦٦٥ ، ٦٨٤ ، ٦٩٥ ، ٦٩٩ ، ٧٠٣ ، ٧١٣ .
محمد بن بكر الفهرى ؛ ج ٢ - ٧١٧ .
محمد بن جابر الأنصارى ؛ ج ٢ - ٦٧٢ .
محمد بن جبل الهمدانى ؛ ج ٢ - ٦٥٥ .
محمد بن جعفر الأموى ؛ ج ٢ - ٦٦٣ .
محمد بن خلف الأنصارى ؛ ج ١ - ٤٤٦ .
محمد بن خلف الغسانى ؛ ج ١ - ٤٦١ .
محمد بن داود ؛ ج ١ - ٨٤ .
محمد بن سبيع بن سعد ؛ ج ٢ - ٤٣٨ .
محمد بن سعد بن مردنيش ؛ ج ١ - ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢٠ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٤١ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٥٤ ، ٣٥٦ ، ٣٦٠ ، ٣٦٣ - ٣٧٥ ، ٣٧٧ ، ٣٨٥ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٣٩٠ ، ٤٤٥ ، ٤٤٧ ، ٤٥٢ ، ٤٥٩ ، ٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٤٦٥ ، ٤٦٧ ، ٥١٢ ، وج ٢ - ١٥ - ١٨ ، ٢٣ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٩ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٦ - ٥٧ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٧٥ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٤٥ - ١٤٧ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٤٢٧ ، ٥٧٣ ، ٦٠١ ، ٦٠٢ ، ٦٤٣ ، ٦٥٠ ، ٦٥٤ ، ٦٦٢ ، ٧١٧ .
محمد بن سعيد الأنصارى ؛ ج ٢ - ٦٦٣ .
محمد بن سعيد الغسانى ؛ ج ١ — ٧٠٤
محمد بن سليمان الأنصارى ؛ ج ٢ - ٦٦٩ .
محمد بن سليمان النفزى ؛ ج ١ - ٤٦٨ .
محمد بن طاهر الأنصارى ؛ ج ٢ - ٦٨٣ .
محمد بن طلحة النحوى ؛ ج ٢ - ٦٦٩ .
محمد بن عائشة ؛ ج ١ - ٦١ ، ٦٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٨٨ ، ٩٩ ، ١٤٩ ، ٤١٥ .
محمد بن عبد الحق ، أبو معرف ؛ ج ٢ - ٥١٢ ، ٥٢١ .
محمد بن عبد الرحمن بن عياش ؛ ج ٢ - ٢٤٧ ، ٦٢٢ .
محمد بن عبد الرحمن الجراوى ؛ ج ١ - ٤٥٣ .
محمد بن عبد الرحيم الأنصارى ؛ ج ٢ - ٦٥٠ .
محمد بن عبد السلام الكومى ؛ ج ٢ - ٢٦٣ ، ٢٧٨
محمد بن عبد العزيز بن عياش ؛ ج ٢ - ٦٩٨ .

محمد بن عبد العزيز الغافقى ؛ ج ٢ - ٦٥١ .
محمد بن عبد الكريم ؛ ج ٢-٢٥٢، ٢٥٤، ٢٦١ .
محمد بن عبد الكريم الفندلاوى ؛ ج ٢ - ٦٥٤ .
محمد بن عبد الله بن العربى ؛ ج ٢ - ٦٧٧ .
محمد بن عبد الله الأنصارى ( ابن الصفار ) ؛ ج ٢ - ٦٧٥ .
محمدبن عبد الله بن قاسم الأنصارى ؛ ج٢ -٦٧٨ .
محمد بن عبد الله بن هود ؛ ج ١ - ٢٦٩ .
محمد بن عبد الله الحنفيسى ؛ ج ٢ - ٥١٥ .
محمد بن عبد الله الخشنى ؛ ج ٢ - ٦٦١ .
محمد بن عبد الله الرميمى ؛ ج ٢ - ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٣٠ .
محمد بن عبد الله العبدرى ؛ ج ٢ - ٦٦٠ .
محمد بن عبد المؤمن ؛ ج ١ - ٢١٣ ، ٣٠١ ، ٣٣٦ - ٣٤٠ ، ٣٧٦ ، ٣٩٤ - ٣٩٦ ، ٤٠٧ وج ٢ - ٢٧ ، ٣٠ ، ٩٤ .
محمد بن مردنيش ( صاحب البسيط ) ؛ ج٢-٥٢ .
محمد بن على بن أحلى ؛ ج ٢ -٤٥٨ ، ٤٦٠ .
محمد بن على بن حماد الصنهاجى ؛ ج ٢ - ٦٩٢ .
محمد بن على بن حمدون ؛ ج ١ - ٢٨٢ .
محمد بن على بن رفاعة ؛ ج ٢ - ٧١٤ .
محمد بن على بن غانية ؛ ج ١ - ٣٣٤ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٧٠ .
محمد بن على بن موسى ؛ ج ٢ - ٤٠٢ .
محمد بن على الزهرى ؛ ج ٢ - ٧١٤ .
محمد بن على الكومى ؛ ج ١ - ٣٧٤ .
محمد بن عمر بن المنذر ؛ ج ١ - ٣٠٨ -٣١٠ ، ٣٢٧ ، ٣٣٠ ، ٣٧١ ، ٤١٦ ، ٤٦٦ .
محمد بن عيسى ؛ ج ٢ - ٩٣ .
محمد بن عيسى بن أصبغ ؛ ج ٢ - ٦٩١ .
محمد بن عيسى الأنصارى ؛ ج ٢ - ٦٦١ .
محمد بن عيسى بن عياض ؛ ج ٢ - ٦٩٠ .
محمد بن غانية ؛ ج ١ - ١٤٩ ، ١٥٣ ، ١٥٤ وج ٢ - ١٤٥ : ١٤٨ .
محمد بن فاطمة ؛ ج ١ - ٦١ ، ٦٣ ، ٧٢ ، ٩٩ ، ١٠٣ ، ١٤٩ ، ٤١٣ ، ٤١٥ ، ٤٣١
محمد بن فرج الكومى ؛ ج ١ - ٢٩٧ .
محمد بن محمد بن الأحمر ؛ ج ٢ - ٤٣٣ .
محمد بن محمد بن حسين ؛ ج ٢ - ٧٢٦ .
محمد بن مزدلى ؛ ج ١ - ٧١ ، ٧٢ ، ٤١٥ .
محمد بن مسعود ؛ ج ١ - ٢٧٢ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ،
محمد بن مفضل اللخمى ؛ ج ١ - ٦٧٨ .
محمد بن ميمون ، أمير البحر ؛ ج ١ -٣٥٦
محمد بن هلال ؛ ج ٢ - ٥٢ .
محمد بن وانودين الهنتاتى ؛ ج ٢ - ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٩ .
محمد بن وزير بن فكوس ؛ ج ٢ - ٣٣٥ .
محمد بن يحيى بن فانو ؛ ج ١ - ٢٤١ .
محمد بن يحيى الشلطيشى ؛ ج ١ - ٣٠٨ ، ٣١٠
محمد بن يحيى المسوفى ؛ ج ٢ - ٢٨٦ .
محمد بن يخلفتن الفازازى ؛ ج ٢ - ٢٧٥ ، ٣٢٦ ، ٣٤٧ ، ٦٢٢ ، ٦٧١ .
محمد بن يزريجن الهنتاتى ؛ ج ٢ - ٥٠٢ .
محمد بن يغمور الهنتاتى ؛ ج ٢ - ٢٦٦ .
محمد بن يوسف بن أبى زيد ؛ ج ٢ - ٦٦٦ .
محمد بن يوسف بن سعادة ؛ ج ١ - ٤٦٨ .
محمد بن يوسف بن عبد المؤمن ؛ ج ٢ -١١٤ ، ١٣٥ ، ١٣٨ ، ٣٦٥ ، ٦٢١ .
محمد بن يوسف بن يدر ؛ ج ١ - ٣٥٤ .
محمد بن يوسف الشلبى ؛ ج ١ - ٤٥١ .
محمد بن يوسف المسكدالى ؛ ج ٢ - ٣٦١ .
محمد بن أبى بكر بن حمامة ؛ ج ٢-٢٠٢ ، ٣٣٥
المخضب بن عسكر بن محمد ؛ ج ٢ - ٣٣٥ .
مدافع بن رشيد بن مدافع ؛ ج ١ - ٢٩٦ .
مرج الكحل ؛ ج ٢ - ٣٩٥ ، ٦٩٢ .
المرتضى لأمر الله ، الخليفة ؛ ج ١ - ١١ وج ٢ - ٣٣١ ، ٤٩٣ ، ٥٢٩ - ٥٣٣ ، ٥٣٦ - ٥٣٨ ، ٥٤١ - ٥٤٣ ، ٥٤٦ ، ٥٥٠ - ٥٦٠ ، ٥٦٢ ، ٥٧٦ ، ٦٢٧ ، ٦٤٦ .
مروان بن عبد العزيز ؛ ج ١ - ٣٠ ، ٣٤٠ ، ٣٥٤ - ٣٦٠ ، ٤١٦ ، ٤٤٥ ، ٤٤٦ .
مزدلى بن تيولتكان ؛ ج١ -٥٠ ، ٥٩ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٩٩ ، ٣٥٤ ، ٤١٣ ، ٤١٥ ، وج ٢ - ٦٤٠ .
مزيزدغ الغمارى ؛ ج ٢ - ١٤ ، ١٥ .
المستظهر بالله ؛ ج ١ - ٤١ ، ٤٤ ، ٤٥٦ .
المستعلى ، الفاطمى ؛ ج ١ - ٤٧١ .
المستعين بن هود ؛ ج ١ - ٨٨ ، ١١٦ ، ١٢٧ ، ٤٦٩ .
المستنجد بالله العباسى ؛ ج ٢ - ٥١ .
المستنصر بالله الحفصى ؛ ج ٢ - ٥٣٤ ، ٧٠١ ، ٧٠٢ ، ٧٠٦ .

المستنصر بالله العباسى ؛ ج ٢ - ٣٩١ ، ٣٩٥ ، ٤١١ - ٤١٣ ، ٤١٥ .
المستنصر بالله الفاطمى ؛ ج ١ - ٢٩٨ ، ٤٧١ .
مسعود بن جلداسن ؛ ج ٢-٥٥٦ ، ٥٦٢-٥٦٤
المسعود بن خرباش ؛ ج ٢ - ٥٣٢ ، ٥٣٣ .
مسعود بن حمدان ؛ ج ٢ - ٥٠٠ - ٥٠٣ .
مسعود بن خيار ؛ ج ٢ - ٤٧٨ .
مسعود بن زمام ؛ ج ١ - ٣٠٢ وج ٢-١٥٦ .
مسعود بن سلطان ؛ ج ٢ - ١٠٧ .
مسعود بن كانون ؛ ج ٢ - ٥٥٢ .
مصحف عثمان ؛ ج ١ - ٣١٤ ، ٣٤٣ .
معاوية بن وقاريط ؛ ج ٢ - ٥٠١ .
المعتضد بن عباد ؛ ج ١ - ٤٤٠ .
المعتمد بن عباد ؛ ج ١ - ٢٩ ، ٥٣ ، ٦٧ ، ٤٢٦ ، ٤٢٩ ، ٤٤٠ ، ٤٤٩ ، ٤٥١ ، وج ٢ - ٢١٢ .
المعز بن باديس ؛ ج ١ - ٢٩٨ - ٣٠٠ .
المعز لدين الله ؛ ج ١ - ٢٩١ ، ٢٩٨ .
المقتدر بن هود ؛ ج ١ - ٧٦ ، ٩٤ ، ١١٦ ، ٤٧٠ .
المقتدى بأمر الله ؛ ج ١ - ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ .
مقدم بن هلال ؛ ج ٢ - ٣٦٨ .
المقرى ، شهاب الدين ؛ ج ١ - ٣٦٨ ، ٤٥٠ ، ٤٦٣ وج ٢ - ٢١٩ ، ٧٠٧ .
ملك شاه ؛ ج ١ - ١٦١ .
منديل المغراوى ؛ ج ٢ - ٢٠٢ .
المنذر بن هود ؛ ج ١ - ١١٦ .
المنصور بن حماد ؛ ج ١ - ٢٨١ .
المنصور بن محمد بن الحاج ؛ ج ١ - ١٥٠ .
المهدى (عام) ؛ ج ١ - ٢٠٠ ، ٢٠٥ ، ٢٠٧ - ٢١٠ ، ٢١٤
المهدى المنتظر ؛ ج ١ - ١٧٣ ، ١٧٦ ، ١٩٢ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢١٠ ، ٢٢٤ .
المؤتمن بن هود ؛ ج ١ - ١١٦ .
موسى بن المنصور ؛ ج ٢ - ٢٤٨ ، ٢٧١ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٤١١ .
موسى بن تمازى ؛ ج ١ - ١٧٤ ، ١٨٦ ، ١٨٩
موسى بن زبان المونكاسى ؛ ج ٢ - ٥٤٠ .
موسى بن زيرى الهنتاتى ؛ ج ١ - ٢٧٤ .
موسى بن سعيد ؛ ج ١ - ٣٢٦ ، ٣٢٧ .
موسى بن سليمان الضرير ؛ ج ١ - ٤٠٦ ، وج ٢ - ٣٤٧ .
موسى بن عيسى بن عمران ؛ ج ٢ - ٣٤٧ .
موسى بن عيسى اللخمى ؛ ج ٢ - ٧٢٦ .
موسى بن ميمون القرطى ؛ ج ١ - ٤٠٤ ، وج ٢ - ٦٤٧ ، ٧١٥ ، ٧١٩ ، ٧٢٣ ، ٧٢٤
موسى بن نصير ؛ ج ٢ - ٤٨٧ .
موسى بن واحدين ؛ ج ١ - ١٩٦ .
ميللر ، المستشرق ؛ ج ١ - ١٦١ .
ميمون بن على بن حمدون ؛ ج ١ - ٢٨٢ .
ميمون بن يدر بن ورقا ؛ ج ١ - ٣١٨ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٤٥ .
ميمونة بنت ينتان بن عمر ؛ ج ١ - ٢٢٥ .


## ن — ى


الناصر العباسى ؛ ج ٢ - ١٥ ، ١٥٥ ، ١٥٨ .
الناصر بن علناس ؛ ج ١ - ٢٨٠ ، ٢٨٢ .
النبى العربى ؛ ج ١ - ٣٩ ، ٢٠١ ، ٢٠٧ ، ٢١١ ، ٢١٣ ، ٢١٥ ، ٣١٥ ، ٤٠٢ ، ٤٢٠ ، ٤٤٢ وج ٢ - ٣٣٠ .
نجبة بن يحيى الرعينى ؛ ج ٢ - ٦٦٤ ، ٦٧٢
نور الدين ، السلطان ؛ ج ٢ - ١٥٥ .
نونيو ألفونسو ؛ ج ١ - ٥٠٧ .
نونيودى لارا ؛ ج ٢ - ٣٢ ، ٤٢ ، ٦٨ ، ٨١ ، ٨٩ ، ٩٥ ، ٩٦ .
نونيودى فوينتس ؛ ج ٢ - ٢١٤ .
نونيوسانشيز ؛ ج ٢ - ٤٠٤ ، ٤٠٦ .
نونيو منديس ؛ ج ١ - ٥٢٣ .
نيقولا لاكانوتزى ؛ ج ٢ - ٢٥٨ .
هرون بن هرون ؛ ج ٢ - ٤٨٢ .
هلال بن عامر ؛ ج ١ - ٢٨٥ .
هلال بن مردنيش ؛ ج٢ - ٥٥ ، ٥٦ ، ٧٤ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ١٠٠ .
هلال بن مقدم ؛ ج ٢ - ٣٦٤ ، ٣٦٥ .
هشك (مفرج) ؛ ج ١ - ٣٦٨ .
هنرى الثانى (انجلترا) ؛ ج ٢ - ٢٩٠ ، ٥٨٤ ، ٥٨٥ ، ٦٠٧ .
هنرى البرجونى ؛ ج ١ - ٤٧٨ - ٤٨٢ ، ٥٢٤ ، ٥٢٨ .
هوجودى أمبرياس ؛ ج ٢ - ٤٠٤ .
هويثى ميرانده ؛ ج ١ - ٣٨ ، ٢٤٠ .
وانودين بن سير ؛ ج ١ - ١٨٨ ، ٢٢٧ .

وانور بن أبي بكر اللمتوني ؛ ج ١ - ٧٧ ، ١٥٢ ، ١٥٣ وج ٢ - ١٤٤ .
الوحيشي القاضي ؛ ج ١ - ٤٣١ .
وليم الطيب ( غليالم ) ؛ ج ١ - ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ وج ٢ - ١٠٨ ، ٢٧٩ .
وليم الثاني ؛ ج ٢ - ٢٧٩ ، ٢٨٠ .
ياقوت الحموي ؛ ج ١ - ٢٨١ .
يحيى بن إبراهيم الكدالي ؛ ج ١ - ٣٧ .
يحيى بن أبي بكر الصحراوي ؛ ج ١ - ٢٥٢ ، ٢٥٥ - ٢٥٨ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٨٨ ، ٣٢٩ ، ٣٥١ ، ٤٤١ .
يحيى بن أبي بكر بن يوسف ؛ ج ١ - ٥٩ ، ١٤٩ .
يحيى بن أحمد الخزرجي ؛ ج ٢ - ٤٣٨ ، ٤٥٩ .
يحيى بن إدريس بن جامع ؛ ج ٢ - ٧١ ، ٨٩ .
يحيى بن أرقم بن مردنيش ؛ ج ٢ - ٥٠٩ .
يحيى بن اسحاق بن غانية ، الميورقي ؛ ج ٢ - ١٥٠ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ٢٥١ - ٢٥٥ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٦١ - ٢٧٨ ، ٣٣١ ، ٣٧٢ - ٣٨٠ .
يحيى بن اسحاق المسوفي ( أنجمار ) ؛ ج ١ - ٢٤٥ ، ٢٦٧ ، ٢٧٠ .
يحيى بن أغوال ؛ ج ١ - ٢٣٦ .
يحيى بن تاشفين ، أبو بكر ؛ ج ١ - ٧٢ .
يحيى بن تاكفت ؛ ج ١ - ٢٤٥ .
يحيى بن تايشا - ج ١ - ٢٧٣ ، ٢٧٤ .
يحيى بن تميم بن الرند ؛ ج ٢ - ١٠٦ .
يحيى بن تميم بن المعز ؛ ج ١ - ١٦٥ ، ٢٩٦ .
يحيى بن تميم الصنهاجي ؛ ج ١ - ٤٧٢ .
يحيى بن المعتصم ( ابن الناصر ) ؛ ج ١ - ١١ وج ٢ - ٣٦٥ - ٣٧٠ ، ٣٧٨ - ٣٨٤ ، ٤٩٧ - ٤٩٩ ، ٥٠٣ ، ٥٠٥ - ٥٠٨ ، ٥٣٧ ، ٥٧٨ ، ٦٢٤ ، ٦٢٧ ، ٦٣٦ .
يحيى بن زيد ؛ ج ١ - ٢٢٣ .
يحيى بن ساقطرا ؛ ج ١ - ٢٣٥ .
يحيى بن طلحة بن غانية ؛ ج ٢ - ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٣ .
يحيى بن عبد العزيز الصنهاجي ؛ ج ١ - ٢٨٠ ، ٢٨٢ ، ٢٩١ .
يحيى بن عبد المؤمن ؛ ج ٢ - ٢٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٦ ، ٩٤ .
يحيى بن عبد الواحد ، أبو زكريا الحفصي ؛ ج ١ - ١٩٤ وج ٢ - ٣٧٥ - ٣٨٠ ، ٤١٥ ، ٤٣٠ - ٤٣٢ ، ٤٤٦ ، ٤٤٨ ، ٤٥٥ ، ٤٥٧ ، ٤٧١ ، ٥١٨ - ٥٢٠ ، ٥٢٤ ، ٥٣٤ ، ٥٣٥ ، ٧٠٠ ، ٧٠٦ .
يحيى بن علي بن الحاج ؛ ج ١ - ١٣٣ .
يحيى بن غانية الكبير ؛ ج ١ - ٣٠ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٤٨ - ١٥٤ ، ٢٧٣ ، ٣٠٩ - ٣١٥ ، ٣٢١ ، ٣٢٩ ، ٣٣١ - ٣٣٤ ، ٣٤٥ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٦٥ ، ٣٦٨ ، ٤١٥ ، ٤٦٠ ، ٤٦٢ ، ٥٠٤ ، ٥٠٥ ، ٥٠٨ ، ٥١٤ وج ٢ - ١٤٥ ، ٦٤٠ .
يحيى بن فانو ؛ ج ١ - ٢٣٧ .
يحيى بن وانودين ؛ ج ٢ - ٥٥٣ ، ٥٦٤ ، ٥٦٥ .
يحيى بن وسنا ؛ ج ١ - ٦٠ .
يحيى بن يحيى ؛ ج ١ - ٢١٦ ، ٤١٢ .
يحيى بن يوسف بن عبد المؤمن ؛ ج ٢ - ٨٨ ، ١٣٨ .
يخلف بن الحسين ؛ ج ١ - ٢٢٦ ، ٢٨٥ ، ٣٣٩ وج ٢ - ٢٢ ، ٦٦ .
يدر بن عائشة ؛ ج ٢ - ١٥١ ، ١٥٢ .
يدر بن ورقا ؛ ج ١ - ١٠٨ ، ١١٧ ، ١٤٨ - ١٥٠
يدر بن ولجوط ؛ ج ١ - ٢٢٥ ، ٢٣٦ ، ٢٥٧ ،
يرجين بن ويدرن ؛ ج ١ - ٢٣٣ .
يصلاصن بن المعز ؛ ج ١ - ٢٤١ ، ٢٥٢ ، ٢٧٤ ، ٢٧٦ ، ٢٨٤ ، ٢٨٧ .
يعلى بن اسماعيل ؛ ج ١ - ١٨٦ .
يعلى اللمتوني ؛ ج ١ - ١٨٤ .
يعزى بن مخلوف ؛ ج ١ - ٢٣٣ .
يعقوب بن أبي حفص ، السيد ؛ ج ٢ - ١٦١ ، ١٦٨ ، ١٧٥ ، ١٩٨ .
يعقوب بن جابر ؛ ج ٢ - ٥٢٧ .
يعقوب بن جبون الخزرجي ؛ ج ١ - ٣٤٨ .
يعقوب بن جرمون ؛ ج ٢ - ٥٣٠ ، ٥٤١ ، ٥٤٣ ، ٥٥٢ .
يعقوب بن عبد الحق ، ، أبو يوسف المريني ؛ ج ٢ - ٥٢٤ ، ٥٤٦ - ٥٥٥ ، ٥٦٠ ، ٥٦٢ ، ٥٦٦ ، ٥٦٨ ، ٥٧٠ - ٥٧٣ .
يعقوب بن عبد الله بن عبد الحق ؛ ؛ ج ٢ - ٥٤٧ - ٥٥١ .
يعقوب بن كانون ؛ ج ٢ - ٥٣٠ .
يعقوب بن محمد بن قيطون ؛ ج ٢ - ٥٤٣ .
يعقوب المنصور ، أبو يوسف ؛ ج ١ - ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٥ ، ١٦ ، ٢٧ ، ٢٠٣ ،

٢٥٩ ، ٣٤٤ ، ٣٩٧ ، ٣٩٩ ، ٤٠٤ ، ٤٠٨ ، وج ٢ - ٥٦ ، ٦٦ ، ٩٨ ، ١٠٧ ، ١١٢ ، ١١٥ ، ١٢٦ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٣ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤١ - ١٤٣ ، ١٤٨ ، ١٥١ ، ١٥٧ - ١٦١ ، ١٦٤ - ١٦٨ ، ١٧٤ ، ١٧٦ - ١٨٩ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٥ ، ١٩٧ - ١٩٩ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٦ - ٢٠٩ ، ٢١٢ ، ٢١٧ ، ٢١٩ - ٢٣٠ ، ٢٣٢ - ٢٤٨ ، ٢٥٠ - ٢٥٦ ، ٢٦٧ ، ٢٧١ ، ٢٨٤ ، ٢٨٧ ، ٢٩٧ ، ٣١٨ ، ٣٢١ ، ٣٢٥ ، ٣٣٠ ، ٣٣٢ ، ٣٣٦ - ٣٣٨ ، ٣٥١ ، ٣٥٦ ، ٣٦٥ ، ٣٧١ - ٣٧٣ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٤٩٢ ، ٥٢٩ ، ٥٦٤ ، ٥٧٣ ، ٥٧٥ ، ٥٧٧ ، ٥٨٨ ، ٥٩٥ ، ٦١٠ ، ٦٢١ - ٦٢٣ ، ٦٢٦ ، ٦٣٠ ، ٦٣٩ ، ٦٤١ ، ٦٤٦ ، ٦٥٣ ، ٦٥٥ ، ٦٦٥ ، ٦٨٧ ، ٦٩٥ - ٦٩٧ ، ٧١٢ ، ٧١٣ ، ٧٢١ ، ٧٢٣ ، ٧٢٥ .

يعيش المالقي ؛ ج ١ - ٣٤٤ ، ٣٨٠ ، وج ٢ - ٧١ ، ٧٢ ، ٧٢٤ ، ٧٢٥ .

يغمراسن بن زيان ؛ ج ٢ - ٥١٨ ، ٥١٩ ، ٥٢٤ ، ٥٢٦ ، ٥٢٧ ، ٥٣٣ ، ٥٦٤ ، ٥٦٦ ، ٥٦٧ ، ٥٧٢ ، ٥٧٦ .

ينالة اللمتوني ؛ ج ١ - ١١٥ ، ١١٦ .

ينتان بن علي ؛ ج ١ - ١٠٣ ، ١٣٤ .

ينتان بن عمر ؛ ج ١ - ١٥٨ ، ١٦٩ ، ١٧١ ، ٢٥٨ .

يوحنا مطران طليطلة ؛ ج ١ - ٥١٩ .

يوحنا مطران شنت ياقب ؛ ج ٢ - ٤٨١ .

يوسف بن أحمد البطروجي ؛ ج ١ - ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣٢٧ - ٣٢٩ ، ٣٣٤ .

يوسف بن الفخار ؛ ج ٢ - ١٨٩ ، ١٩٨ .

يوسف بن تاشفين ؛ ج ١ - ١٣ ، ١٥ ، ١٦ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٨ ، ٣٦ - ٦٠ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٥ ، ٧٨ ، ٨٨ ، ١٠٦ ، ١١٤ ، ١٢٦ ، ١٣١ ، ١٤٦ ، ١٤٩ ، ١٦٢ ، ٢٤١ ، ٢٤٣ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٤١٠ ، ٤١١ ، ٤١٤ ، ٤١٥ ، ٤١٧ ، ٤١٨ - ٤٢٤ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٢٩ ، ٤٣٥ - ٤٤٠ ، ٤٥٦ ، ٤٧٧ وج ٢ - ١٩٧ ، ٢١١ ، ٢١٣ .

يوسف بن تيجا الجدميوي ؛ ج ٢ - ٥٥٩ .

يوسف بن تيجيت ؛ ج ٢ - ٨٩ .

يوسف بن سعد بن مردنيش ؛ ج ٢ - ٥١ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٧٨ ، ٨٠ ، ٨٢ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ .

يوسف بن سليمان ؛ ج ١ - ٢٩٤ ، ٣٢٣ ، ٣٢٩ ، ٣٣٩ ، ٣٨٧ ، ٣٨٩ ، ٣٩٢ .

يوسف بن عبد المؤمن ، أبو يعقوب ؛ ج ١ - ٩ ، ١٦ ، ٢٧ ، ٢٠٠ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٣٠٢ ، ٣٣٩ ، ٣٤٣ ، ٣٤٧ - ٣٤٩ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٣٧٨ - ٣٨٢ ، ٣٨٦ ، ٣٨٩ - ٣٩٧ ، ٣٩٩ ، ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٤٥٨ وج ٢ - ١١ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٧ - ٢١ ، ٢٣ ، ٢٧ - ٣٠ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٣ ، ٥٢ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٨٤ - ٨٧ ، ٩٢ ، ٩٤ ، ٩٨ - ١٠٠ ، ١٠٥ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٥ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٦ - ١٤١ ، ١٤٧ - ١٥٠ ، ١٧٠ ، ٢٢٣ ، ٢٣٠ ، ٢٣٢ ، ٢٤٠ ، ٢٤٤ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٥٧ ، ٣٢١ ، ٣٤٩ ، ٣٩٣ ، ٥٥٩ ، ٥٧٣ ، ٥٩٤ ، ٦١٨ - ٦٢٢ ، ٦٢٧ ، ٦٣٥ ، ٦٤١ ، ٦٤٦ ، ٦٥١ ، ٦٥٤ ، ٦٦٢ ، ٦٦٥ ، ٦٨٣ ، ٦٨٨ ، ٦٩٥ ، ٦٩٧ ، ٦٩٨ ، ٧١٣ ، ٧١٩ ، ٧٢٠ ، ٧٢٣ - ٧٢٥ .

يوسف بن علي التينمللي ؛ ج ٢ - ٥٠٩ .

يوسف بن عمر ؛ ج ١ - ٤٠٦ وج ٢ - ١٤ ، ١٢٣ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ٢١٠ ، ٢٢١ ، ٢٧١ .

يوسف بن قادس ؛ ج ٢ - ٢١٤ ، ٢٩٦ - ٢٩٨ ، ٣١٨ .

يوسف بن مالك ؛ ج ١ - ٣٠١ .

يوسف بن مخلوف التينمللي ؛ ج ١ - ٢٠٩ ، ٢٧٣ ، ٣٢٩ .

يوسف بن هلال ؛ ج ٢ - ٤٨ .

يوسف بن وانودين ؛ ج ١ - ٢٤١ ، ٢٤٥ ، ٢٧٥ .

يوسف المستنصر ؛ ج ٢ - ٢٤٧ ، ٢٧٠ ، ٣٢٤ ، ٣٢٦ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ - ٣٣٣ ، ٣٣٦ ، ٣٣٨ ، ٣٤١ - ٣٥١ ، ٣٥٦ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٣٩٤ ، ٥١١ ، ٥٧٨ ، ٦٢١ ، ٦٢٢ ، ٦٢٦ ، ٦٩٣ ، ٦٩٨ ، ٧٠١ .

# دولة الإسلام في الأندلس

تأليف
محمد عبد الله عنان

العصر الرابع

# نهاية الأندلس
## وتاريخ العرب المتنصرين

الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة

حقوق الطبع محفوظة للناشر

الطبعة الرابعة

١٤١٧ هـ = ١٩٩٧ م

رقم الإيداع : 90/8988

الترقيم الدولى : 977-505-082-4

مطبعة المدني المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة - ت : ٤٨٢٧٨٥١

بسم الله الرحمن الرحيم

## مقـــدمة[1]

صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب فى سنة ١٩٤٩، وصدرت طبعته الثانية فى سنة ١٩٥٨ ، مدعمة بكثير من المراجع والوثائق التى أتيح لى أن أجمعها خلال رحلاتى وبحوثى العديدة فى اسبانيا والمغرب وغيرهما .

وقد قمت حتى اليوم باثنتى عشرة رحلة دراسية فى شبه الجزيرة الإسبانية ، وزرت سائر المدن الأندلسية القديمة فى اسبانيا والبرتغال ، وعنيت بدراسة سائر ما بها من الآثار والأطلال والنقوش الأندلسية ، كما زرت سائر المدن الإسبانية النصرانية التى لها علاقة بتاريخ الأندلس ، فى قشتالة ، وناڤار ، وليون وجليقية ؛ ووقفت خلال هذا التجوال الشامل فى أنحاء شبه الجزيرة ، على كثير من خواصها وطبائعها الجغرافية والإقليمية ، وكثير من تقاليدها وخواصها الاجتماعية والأدبية ، وقد كان لذلك كله ، أعمق الأثر فى نفسى ، وفى إمدادى بكثير من الآراء والفكر الجديدة ، المتعلقة بتاريخ الأندلس والأمة الاندلسية .

وهناك حقيقة سبق أن نوهت بها فى مقدمة الطبعة الأولى من هذا الكتاب ، وهى أن المصادر الإسلامية بالنسبة لهذه المراحل الأخيرة ، من حياة الأمة الأندلسية قليلة ضنينة . أجل لقد انتهت إلينا عن تاريخ مملكة غرناطة وأحوالها طائفة من المراجع القيمة ، فى مقدمتها كتب الوزير ابن الخطيب ، وماكتبه عنها ابن خلدون حتى حوادث عصره ؛ وكذلك انتهت إلينا طائفة حسنة أخرى ، عن تاريخ مملكة بنى مرين ، قرينة مملكة غرناطة، وعضدها الأيمن فى الجهاد . ولكن هذه المراجع الإسلامية تقف بنا عند أواخر القرن الثامن الهجرى ( الرابع عشر الميلادى ) ، ولا نكاد نظفر بعد ذلك ، خلال القرن التاسع الهجرى ، وهو بالنسبة لمملكة غرناطة ، عصر الانحلال والسقوط النهائى ، بأية مراجع إسلامية ذات شأن ،

---

[1] ( ١ ) هذه هى مقدمة الطبعة الثانية مع تعديلات يسيرة .

وليس لدينا من تراث الرواية الإسلامية عن تلك المرحلة القاتمة ، من تاريخ دولة الإسلام فى الأندلس ، سوى رواية صاحب « أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر» عن سقوط غرناطة ، وما نقله إلينا المقرى من شذور قليلة متفرقة ، فى نفح الطيب ، وفى أزهار الرياض ، عن تلك المرحلة الأخيرة من حياة غرناطة .

أما عن مأساة الموريسكيين أو العرب المتنصرين ، وهم بقايا الأمة المغلوبة ، فلسنا نظفر من الرواية الإسلامية إلا بأقوال وشذور يسيرة ، معظمها أيضاً مما نقل إلينا المقرى فى كتابيه السابقين . ولهذا كان جل اعتمادنا فى استعراض هذه المرحلة الأخيرة ، من حياة الأمة الأندلسية ، على المصادر الغربية ، والإسبانية بنوع خاص ، ومنها بعض المصادر المعاصرة ، التى تروى لنا تفاصيل المأساة عن مشاهدة فعلية ؛ وإذا كانت المصادر الإسبانية ، يفيض معظمها بالمؤثرات القومية والدينية ، فإنه لما يشهد للبحث الغربى بالاعتدال والروية ، وروح الإنصاف ، ما يبديه فى مواطن كثيرة ، من تقدير مؤثر لعبقرية الأمة المغلوبة وحضارتها ، وروعة كفاحها للذود عن حياتها وكرامتها وتراثها ، وما يبديه بالأخص من عطف على محنتها وآلامها ، ومن استنكار لخطط السياسة الإسبانية ، وأساليب محاكم التحقيق فى العمل على إبادتها . ويكفى أن ننقل فى هذا الموطن تلك العبارة الموجزة القوية ، التى يجمل فيها الدكتور « لى » ، وهو من أحدث الباحثين فى هذا الموضوع ، مأساة العرب المتنصرين ، إذ يقول فى مقدمة كتابه : « إن تاريخ الموريسكيين لا يتضمن فقط مأساة تثير أبلغ عطف ، ولكنه أيضاً خلاصة لجميع الأخطاء والأهواء ، التى اتحدت لتنحدر بإسبانيا فى خلال قرن ، من عظمتها أيام شارل الخامس ، إلى ذلتها فى عصر كارلوس الثانى » .

* * *

ومن ثم فقد وطنت النفس على ألا أدخر وسعاً ، فى تقصى المصادر والوثائق المتعلقة بهذه المرحلة الغامضة القاتمة ، من تاريخ الأمة الأندلسية — مرحلة الإنحلال والفناء — والسعى وراءها أينما وجدت ، سواء منها العربية أو القشتالية ؛ وأعتقد أننى بذلت فى هذا السبيل جهد المستطاع ، ووفقت إلى نتائج ذات شأن ، سواء بالنسبة لتاريخ مملكة غرناطة ، أو تاريخ الموريسكيين . فى خلال الرحلات العديدة التى قمت بها حتى اليوم فى شبه الجزيرة الإسبانية ، لم أترك موطناً من

مواطن البحث والدرس ، أومستودعاً من مستودعات المصادر والوثائق المخطوطة أوالمطبوعة إلا قصدته ، ونهلت منه ؛ وقد أنفقت أوقاتاً عديدة فى البحث فى المجموعات العربية المخطوطة ، التى تحتفظ بها مكتبة مدريد الوطنية ، وأكاديمية التاريخ ، والإسكوريال ، وغرناطة ، وأنفقت كذلك أوقاتاً أوفى فى البحث والتنقيب وراء الوثائق المخطوطة ، الأندلسية ، والمغربية ، والمدجنية ، والمستعربية العربية ، والوثائق المخطوطة القشتالية ، وذلك سواء فى دار المحفوظات التاريخية بمدريد ، أو الإسكوريال ، أو دار المحفوظات العامة فى شنت منكش Simancas ، أو محفوظات التاج الأرجونى ببرشلونة ، أو محفوظات مملكة بلنسية ، أو بلدية غرناطة ، وكتدرائية سرقسطة ، وبلدية بنبلونة ، وغيرها من المجموعات المحلية الخاصة ، وقد ظفرت من وراء ذلك كله بمجموعة زاخرة من الوثائق التى تلقى أعظم ضوء ، على هذه المرحلة المشجية من تاريخ الأمة الأندلسية ، ومنها وثائق عديدة لم تر الضياء من قبل ، وهى تمدنا بكثير من الحقائق والتفاصيل .

وقد ألفيت بغيتى بنوع خاص ، فى دار المحفوظات الإسبانية العامة ، فى شنت منكش ( سيمانقا ) ؛ وشنت منكش هى قاعة أندلسية قديمة تحيط بها محلة صغيرة ، وتقع جنوب غربى مدينة بلد الوليد Valladolid ، على قيد عشرة كيلومترات منها ، وقد اتخذت منذ القرن السادس عشر دارا للمحفوظات الملكية الإسبانية ، وهى ما تزال إلى يومنا مستودع هذه المحفوظات الشهيرة ، التى تضم مجموعات عديدة زاخرة من أهم وأنفس الوثائق التاريخية والسياسية والقضائية ، ومنها عدد من الوثائق الأندلسية والمغربية النادرة . وقد اطلعت فيها على عدد كبير من الوثائق الأندلسية والقشتالية المتعلقة بتاريخ مملكة غرناطة ، ومجموعة كبيرة من المراسيم الملكية الصادرة إلى العرب المتنصرين ، ومن وثائق ديوان التحقيق المتعلقة بهم وبمحاكماتهم ، وحصلت على صور فوتوغرافية لهذه الوثائق ، التى استقينا من محتوياتها خلال هذا الكتاب ، كثيراً من الحقائق والتفاصيل ، ونشرنا لوحات من بعضها .

كما أوردت كثيراً من محتويات الوثائق المدجنية والمستعربية ، التى استطعت الحصول عليها من مختلف المجموعات الإسبانية التى سبق ذكرها ، وهى تلقى ضوءاً كبيراً على حياة المدجنين وأحوالهم فى العصور المتأخرة ، التى انقطعت فيها كل

صلاتهم بماضيهم القديم ، وبدينهم ولغتهم ، وأمتهم الأصيلة .

وبالرغم من أن مجموعة الإسكوريال الأندلسية ، لا تحتوى فيما يتعلق بتاريخ مملكة غرناطة ، عدا كتب ابن الخطيب ، على كثير من الآثار ، ولم يكن بها من قبل عن المرحلة الأخيرة سوى نسخة مخطوطة من كتاب « أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر » الذى عنى بنشره المستشرق ميللر ، ثم فقد بعد نشره ، فإنى وقفت خلال بحوثى بها على طائفة من النصوص الهامة ، وردت فى بعض الرسائل المغمورة ، مثل رسالة « أسنى المتاجر » عن هجرة المدجنين ، ورسالة ابن خاتمة عن الوباء الكبير . وقد ألفيت بالطبع فى كتب ابن الخطيب — ومنها بالإسكوريال عدة — مادة نفيسة ، وانتفعت بها فى كثير من المواطن . بيد أنى لم أجد مع الأسف هنالك شيئاً يتعلق بالموريسكيين أو العرب المتنصرين .

ووقفت خلال بحوثى بمكتبة الڤاتيكان الرسولية برومة ، على مؤلف مخطوط هام لرحالة ومؤرخ مصرى ، هو عبد الباسط بن خليل الحنفى ، عنوانه « الروض الباسم فى حوادث العمر والتراجم » وقد وردت به فقرات كثيرة عن حوادث غرناطة الأخيرة ، وقد شهدها الرحالة المذكور ، أو وقف عليها خلال زيارته لغرناطة أيام السلطان أبى الحسن . وعثرت هنالك فوق ذلك على وثيقة فقهية هامة بها نصائح وتوجيهات دينية للعرب المتنصرين ، وقد نشرت برمتها فى موضعها من الكتاب .

كما وقفت خلال بحوثى بالمغرب على بعض النصوص المفيدة ، ومنها رواية مخطوطة ضافية عن أحوال العرب المتنصرين وموقف السياسة الإسبانية منهم ، كتبها موريسكى هاجر وعاد إلى الإسلام فى أواخر العهد الموريسكى .

وقد كان لما تضمنته هذه الوثائق العديدة ، وما تلقيه من أضواء هامة على كثير من الحوادث والتطورات ، المتعلقة بالمرحلة الأخيرة من تاريخ مملكة غرناطة وتاريخ العرب المتنصرين ، وحياتهم فى ظل الإستعباد الإسبانى المرهق ، المدنى والدينى ، نحو مائة عام — كان لذلك كله أثره العميق فى تصحيح كثير من النصوص والروايات المتواترة ، وفى إخراج قصة سقوط الأندلس ، وقصة العرب المتنصرين واستشهادهم المؤثر ، فى ثوبها التاريخى الحق ، المدعم بالأدلة والنصوص التى لا شك فيها .

ورأيت إلى جانب هذه الوثائق التاريخية ، أن أتقصى المصادر القشتالية الكلاسيكية ، ومنها بعض الروايات المعاصرة للمأساة أو القريبة منها ، ولم أشأ أن أترك آراء المؤرخين القشتاليين وأحكامهم جانباً ، بالرغم مما يشوب هذه الآراء والأحكام فى كثير من الأحيان من التحامل . وقد انتفعت بثمار مراجعة دقيقة شاملة لأهم المصادر القشتالية ، ونخص فيما يتعلق بالرواية التاريخية بالذكر ثلاثة منها هى : رواية هرناندو دى بايثا المعاصرة عن أحداث الأعوام الأخيرة لمملكة غرناطة ؛ ورواية لويس دل مارمول المستفيضة عن سقوط غرناطة، وثورة العرب المتنصرين وقد كتب روايته بعد سقوط غرناطة بنحو ثمانين عاماً، وشهد ثورة العرب المتنصرين منذ بدايتها إلى نهايتها ؛ وتاريخ غرناطة للمؤرخ الغرناطى لافونتى ألقنطرة ، وقد كتب فى القرن الماضى ، وهو زاخر بالمعلومات والتفاصيل القيمة ؛ ورجعت فيما يتعلق بالعرب المتنصرين ونفيهم، إلى عدة من أكابر المفكرين والمؤرخين الإسبان الذين يعتد بآرائهم فى هذا الميدان ، وفى مقدمتهم موديستو لافونتى ، وخانير ، وبيكاتوستى ، ومننديث إى پلايو ، ونقلت من تعليقاتهم على مأساة النفى ونتائجها فقرات طويلة ، تعرض آراءهم وأحكامهم بوضوح ، وحرصت على نقل آراء المؤيدين والمعارضين على السواء .

وقد عنيت عناية خاصة بالتجوال فى مملكة غرناطة القديمة ، فزرت سائر مدنها : غرناطة ، وألمرية، والمنكب، وبسطة ، ووادى آش، ومالقة، وبلش ، ولوشة ، والحامة ، ورندة ، وأركش ، والجزيرة ، وطريف ، وجبل طارق ، كما زرت كثيراً من بلدانها وقراها ، وزرت مدينة غرناطة ذاتها عشر مرات ، وشهدت فى بسائطها ونجودها وأحيائها ، كثيراً من الأماكن التى كانت مسرحاً لكثير من الحوادث والوقائع الشهيرة ، وتجولت فى مرجها الشهير ، وعلى ضفاف نهرها القديم شنيل ، وصعدت إلى جبال سيرًا نفاذا ذات الآكام الناصعة ، وشهدت بمدينة الحمراء — وهى التى ما زال قصرها المنيف ، وأبهاؤها الرائعة ، عنواناً لمجد غرناطة الإسلامية وحضارتها العظيمة — سائر الأماكن التى اختتمت فيها المأساة الأندلسية ، والتى تذكرها الرواية فى كثير من المناسبات المشجية .

وشغلت مدى أعوام ، بدراسة هذه المجموعة الزاخرة من الوثائق والمصادر ، وإعداد هذه الطبعة الجديدة من « نهاية الأندلس » ، أو بعبارة أخرى بكتابة

الكتاب من جديد ، بعد أن اجتمعت لدى سائر هذه العناصر الحية . ولقد كان لهذا التجوال المستفيض فى مواطن الحوادث ، وهذه المشاهدات العديدة ، للديار والربوع ، أعمق الأثر فى نفسى ، وفى ذهنى ، وفى تكييف قلمى ، حتى لقد كنت أشعر ، حين تدوين الحوادث ، وأمام مخيلتى تلك الأماكن والمشاهد ، أننى كأنما قد عشت فى تلك الأيام ، وفى تلك الربوع ، وبين أولئك الناس أبطال المأساة ، الذين أتتبع سيرهم ومصايرهم .

ولهذا كله ، وعلى ضوء كل ما تقدم من الوثائق والنصوص ، العربية والقشتالية ، التى اجتمعت لى منها أغزر مادة ، يمكن أن تجتمع لباحث فى هذا الميدان ، أرجو أن أكون قد وفقت لأن أضع اليوم بين يدى القارئ ، أوفى وأوثق رواية كتبت عن نهاية الأندلس ، وعن مأساة العرب المتنصرين .

وانى لأنتهز هذه الفرصة لأقدم جزيل الشكر إلى الآباء المحترمين القائمين على إدارة مكتبة الإسكوريال لما لقيت من جميل عونهم وعنايتهم خلال زياراتى العديدة لهذه المكتبة الجليلة . وإنى ما زلت أذكر بالأخص بعميق العرفان ما قدمه إلى صديقى المرحوم الأب الجليل نمسيو موراتا أمين مكتبة الإسكوريال السابق ، من معاونات قيمة ، كما أقدم وافر شكرى لمديرى وأمناء دور المحفوظات فى سيمانقا ومدريد وبرشلونة وبلنسية وغرناطة ، ومدير وأمناء مكتبة مدريد الوطنية ، لما لقيت من معاوناتهم القيمة خلال بحوثى بها مدى أعوام طويلة . وأود أخيراً أن أعرب عن وافر امتنانى وعرفانى ، لإخوانى القائمين على معهدنا المصرى بمدريد ، لما أسدوا إلى فى مختلف المناسبات من معاونات قيمة ، كان لها أكبر الأثر فى تسهيل مهمتى .

صفر سنة ١٣٧٨
الموافق أغسطس سنة ١٩٥٨

محمد عبد الله عنان

# تصـــــدير

صدرت الطبعة الثانية من هذا الكتاب فى سنة ١٩٥٨ ، أعنى منذ نحو سبعة أعوام . والآن ، وقد أنجزت كتابة مرحلة التاريخ الأندلسى ،التى تسبق مرحلة الإنهيار والسقوط ، وهى تاريخ « عصر المرابطين والموحدين » وتمت بذلك سلسلة تاريخ الأندلس ، منذ الفتح حتى إخراج بقايا الأمة الأندلسية نهائياً من الأراضى الإسبانية ، فانى أقدم هذه الطبعة الثالثة من « نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين » .

وقد كان فى مقدمة ما عنينا به فى هذه الطبعة الجديدة ، هوأن نراجع فصول الكتاب الأولى ، المتعلقة بسقوط القواعد الأندلسية الكبرى ، ونهوض محمد ابن يوسف بن الأحمر ، ونشوء مملكة غرناطة ، وأن نصل وأن ننسق بين هذه الفصول ، وبين ماورد عن نفس الموضوعات فى القسم الثانى من كتابنا « عصر المرابطين والموحدين » ، وهو« عصر الموحدين وانهيار الأندلس الكبرى » . وقد اقتضى هذا التنسيق بعض التكرار فى سرد هذه الحوادث ، وهو تكرار يقصد به قبل كل شىء ، المحافظة على استقلال هذا القسم الأخير من تاريخ الأندلس ، بيد أننا توخينا الإيجاز فى استعراض هذه الحوادث ، تمهيداً لموضوعنا الأساسى ، وهو نشوء مملكة غرناطة ، آخر دول الإسلام بالأندلس ، وتاريخها خلال حياتها الطويلة ، هذا بينما تناولنا مرحلة انحلال الأندلس الكبرى وسقوط قواعدها ، فى كثير من الإسهاب والإفاضة فى كتابنا « عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس » وهو الذى يسبق مباشرة كتاب « نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين » ، وهو الحلقة الختامية فى هذه السلسلة الكبرى من تاريخ « دولة الإسلام فى الأندلس » .

وقد أتيح لنا فى نفس الوقت ، أن نقوم بكثير من التعديلات والإضافات الجديدة ، التى استطعنا أن نفيد الكثير منها ، خلال بحوثنا فى الأعوام الأخيرة

فى مدريد وفى المغرب . وبالرغم من أن هذه التعديلات والإضافات ، ليست كثيرة ، فإنها مع ذلك تضفى على الكتاب قيما وفوائد جديدة .

وإنا لنرجو أن تتوج هذه الطبعة الجديدة من « نهاية الأندلس » ذلك المجهود الطويل المضنى الذى بذلناه مدى خمسة وعشرين عاماً فى كتابة هذه القصة المشجية — تاريخ الأمة الأندلسية — منذ بدايتها حتى نهايتها .

ربيع الأول سنة ١٣٨٦
الموافق يوليه سنة ١٩٦٦

محمد عبد الله عنان

صفحتان من كتاب « الإحاطة فى أخبار غرناطة » لابن الخطيب ، من ترجمته لنفسه . مخطوط الإسكوريال رقم ١٦٧٣ الغزيرى .

الصفحتان الأوليان من رسالة « أسنى المتاجر فيمن غلب النصارى على وطنه ولم يهاجر » وهى توجد ضمن مجموعة مخطوطة بالإسكوريال رقم ١٧٥٨ الغزيرى

# تاريخ مملكة غرناطة

٦٣٥ ـ ٨٩٧ هـ : ١٢٣٨ ـ ١٤٩٢ م

# الكتاب الأول

## مملكة غرناطة

منذ قيامها حتى ولاية السلطان أبى الحسن

٦٣٥ - ٨٦٨ هـ : ١٢٣٨ - ١٤٦٣ م

# الفصل الأول

## الأندلس الغـــاربة

دول الطوائف . المرابطون والموحدون . سياسة الإسترداد النصرانية . سقوط القواعد الأندلسية في يد النصارى . موجة الاسترداد الغامرة في القرن السابع . شعور أهل الأندلس بمصيرهم . مدينة غرناطة . صفتها أيام الدولة الاسلامية . ما بقي من خططها ومعالمها الأندلسية .

— ١ —

يقدم إلينا تاريخ الأندلس فى مراحله الأولى ، صفحات باهرات من ضروب المجد الحربي والسياسي ، وآيات ساطعات من ضروب التمدن والعرفان . ولكنه يقدم إلينا فى مراحله الأخيرة ، صفحات مشجية مؤثرة من تقلب الحدود ، وتعاقب المحن ، والانحدار البطىء المؤلم ، إلى معترك الهزيمة ، والذلة والسقوط .

ولا تمثل قصة الأندلس ، سوى الحقيقة التاريخية الخالدة . وليس مجرى التاريخ سوى تعاقب الأجيال والأمم ، وتبدل الحضارات والدول . ولكن الصراع الطويل المضطرم ، الذى خاضته الأمة الإسلامية فى الأندلس ، قبل أن تستسلم إلى قدرها المحتوم ، يبدو فضلا عما يحف به من ألوان البطولة الخالدة ، صفحة رائعة من الاستشهاد المؤثر ، قلما يقدمها إلينا تاريخ أمة من الأمم ، التى اشتهرت بالذود عن حياتها وحرياتها .

وقد سقطت قواعد الأندلس الشهيرة ، فى سلسلة من المعارك والمحن الطاحنة ، التى تقلبت فيها الأمة الأندلسية ، منذ انهار صرح الخلافة الأموية فى الأندلس ، فى أواخر القرن الرابع الهجرى ، وقامت دول الطوائف الصغيرة المفككة ، على أنقاض دولة عظيمة شامخة . وكان سقوط كل قاعدة من هذه القواعد الشهيرة التى كانت تسطع بمجتمعاتها وحضارتها الزاهرة ، خلال حلك العصور الوسطى ، يمثل ضربة مميتة للدولة الإسلامية فى الأندلس ، ويحدث أعمق صدى فى جنبات الدول الإسلامية فى الشرق والغرب ، وينتزع من وحى النثر والنظم أروع المراثى . وكانت الأمة الأندلسية ، كلما سقطت قاعدة من قواعدها الشهيرة ، فى يد عدوتها القديمة المتربصة بها — إسبانيا النصرانية — ألفت عزاءها فى قواعدها الأخرى ،

وهرع معظم السكان المسلمين إلى تلك القواعد الإسلامية الباقية ، إستبقاء لحرياتهم ودينهم وكرامتهم ، حتى لم يبق من تلك القواعد الشهيرة سوى غرناطة وأعمالها ، تؤلف مملكة إسلامية صغيرة ، ولكن أبية ساطعة ، استطاعت عبقرية بناتها النصريين ، أن تسير بها خلال العاصفة أكثر من مائتى عام .

والحقيقة أن مصير الأندلس ، كان يهتز فى يد القدر ، منذ فشلت ريح دول الطوائف ، وغلب عليها الخلاف والتفرق ، وانحدرت إلى معترك الحرب الأهلية ، تفسح لعدوها الخطر مجال التفوق عليها ، والضرب والتفريق بينها . وقد استطاع بعض ذوى النظر الثاقب من رجالات الأندلس ، حتى فى ذلك العصر ، الذى كان الإسلام يسيطر فيه على معظم أنحاء شبه الجزيرة الإسبانية ، أن يستشفوا ما وراء هذا التفرق من الخطر الداهم . فنرى ابن حيان مؤرخ الأندلس فى القرن الخامس الهجرى ، يقول لنا بعد أن يصف حوادث سقوط بربشتر ، من أعمال الثغر الأعلى ( أراجون ) ، فى يد النصارى ( النورمان ) فى سنة ٤٥٦هـ (١٠٦٣م) وما اقترن بسقوطها من القتل والسبى وشنيع الاعتداء: « وقد استوفينا فى شرح هذه الفادحة مصائب جليلة ، مؤذنة يوشك القلعة ، طالما حذر أسلافنا لحاقها ، بما احتملوه عمن قبلهم من آثاره . ولاشك عند أولى الألباب ، أن ذلك مما دهانا من داء التقاطع ، وقد أخذنا بالتواصل والألفة ، فأصبحنا من استشعار ذلك والتمادى عليه ، على شفا جرف يؤدى إلى الهلكة لا محالة ، إذ قدر الله زماننا هذا بالإضافة إلى ما عهدنا فى القرن الذى سلخه من آخر أمد الجماعة ، على إدراك ما لحق الذى قبله ، فمثل دهرنا هذا — لا قدس — بهيم الشبه ، ما أن يباهى بعرجه ، فضلا عن نزوح خيره ، قد غربل ضمائرهم ، فاحتوى عليهم الجهل ، فليسوا فى سبيل الرشد بأتقياء ، ولا على معالى الغى بأقوياء . نشأ من الناس هامل يعللون أنفسهم بالباطل ، من أول الدلائل على فرط جهلهم ، اغترارهم بزمانهم ، وبعادهم عن طاعة خالقهم ، ورفضهم وصية نبيهم ، وغفلتهم عن سد ثغرهم ، حتى أطل عدوهم الساعى لإطفاء نورهم ، يتبجح عراص دورهم ، ويستقرى بسائط بقاعهم ، يقطع كل يوم طرفا ، ويبيد أمة ، ومن لدينا وحوالينا من أهل كلمتنا صموت عن ذكراهم ، لهاة عن بثهم »[1] ، ولم يكن هذا التنديد من

(١) نقلنا هذه الفقرة من تعليقات ابن حيان على نكبة بربشتر ، عن الذخيرة لابن بسام ، القسم الثالث المخطوط بمكتبة أكاديمية التاريخ بمدريد ( لوحات ٣٤ — ٣٦ ) . ونقل المقرى بعض هذه التعليقات فى نفح الطيب ( مصر ) ج ٢ ص ٥٧٦ .

جانب المؤرخ الأندلسى الكبير ، بتواكل أهل الأندلس ، وتخاذلهم عن نصرة دينهم وإخوانهم ، إلا معبراً عن حقيقة راسخة مؤلمة ، ظهرت بأروع مظاهرها ، فى عصر الطوائف. بل لقد لاح مدى لحظة ، حينما سقطت طليطلة أول قاعدة إسلامية كبيرة ، فى يد اسبانيا النصرانية فى سنة ٤٧٨ هـ ( ١٠٨٥ م ) ، أن الأندلس أضحت على وشك الفناء ، وأن دول الطوائف المنهوكة الممزقة ، سوف تسقط تباعاً فى يد عدوها القوى ، وأن دولة الإسلام فى اسبانيا سوف تطوى وتختتم حياتها المجيدة فى شبه الجزيرة . وقد ساد الفزع والتوجس يومئذ جنبات الأندلس كلها ، حتى قال شاعرهم حينما سقطت طليطلة :

يا أهل أندلس شدوا رحالكم ... فما المقام بها إلا من الغلط
السلك ينثر من أطرافه وأرى ... سلك الجزيرة منثوراً من الوسط
من جاور الشر لا يأمن بوائقه ... كيف الحياة مع الحيات فى سفط

ولكن الدرس كان عميق الأثر ، فجنح زعماء الطوائف إلى الرشاد ، وجمعت المحنة منهم الكلمة ، وارتدوا إلى ما وراء البحر ، يلتمسون الغوث إلى « المرابطين » إخوانهم فى الدين . وكان المرابطون يومئذ فى عنفوان دولتهم ، وأميرهم يوسف ابن تاشفين يبسط سلطانه القوى على أمم المغرب ، من المحيط غرباً حتى تونس شرقاً . فاستجاب المرابطون إلى صريخ الطوائف ، وعبروا البحر إلى الأندلس فى قوات ضخمة ، والتقت الجيوش الإسلامية المتحدة بقيادة يوسف بن تاشفين ، بالجيوش النصرانية المتحدة بقيادة ألفونسو السادس زعيم اسبانيا النصرانية ، فى سهول الزلاّقة فى رجب سنة ٤٧٩ هـ ( أكتوبر سنة ١٠٨٦ م ) فأحرز المسلمون نصراً عظيماً حاسماً . وكانت موقعة الزلاّقة من أيام الأندلس المشهورة ، وانتعشت دول الطوائف ، وقويت نفوس الأمة الأندلسية ، وبدأت الأندلس حياة جديدة . ولكن سرعان ما انقلب المرابطون على إخوانهم وحلفائهم ، واجتذبتهم نعماء الأندلس وثرواتها ، فحطموا دول الطوائف ، وبسطوا حكمهم على الأندلس زهاء نصف قرن . ولما سقطت دولتهم فى المغرب ، وقامت على أنقاضها دولة الموحدين ، جاشت مختلف القواعد الأندلسية بالثورة على المرابطين ، وعبر الموحدون البحر إلى اسبانيا ، واستولوا تباعا على القواعد الأندلسية الكبرى وبسطوا على الأندلس حكمهم زهاء قرن آخر . وفى ظل الموحدين أحرزت الجيوش الإسلامية كما أحرزت فى الزلاّقة أيام المرابطين ، نصرها الحاسم على اسبانيا

النصرانية ، بقيادة الخليفة الموحدى يعقوب المنصور ، وذلك فى موقعة الأرك الشهيرة ( ٥٩٣ هـ — ١١٩٥ م )[1] . ولكنها ما لبثت أن لقيت هزيمتها الحاسمة ، بعد ذلك بقليل على يد اسبانيا النصرانية ، فى عهد الخليفة محمد الناصر ولد المنصور فى موقعة العقاب المشئومة التى فنى فيها معظم الجيوش الموحدية والأندلسية (٦٠٩ هـ — ١٢١٢ م )[2] . وكانت هزيمة العقاب ضربة شديدة لسلطان الموحدين ولاسبانيا المسلمة ، فعاد شبح الفناء يلوح للأندلس قوياً منذراً ، وسرى هذا التوجس إلى كتاب العصر وشعرائه ، وظهر واضحاً فى رسائلهم وقصائدهم . ومن ذلك ما قاله أبو اسحق ابراهيم بن الدباغ الإشبيلى معلقاً على موقعة العقاب :

وقائلة أراك تطيل تفكراً كأنك قد وقفت لدى الحساب
فقلت لها أفكر فى عقاب غدا سبباً لمعركة العقاب
فما فى أرض أندلس مقام وقد دخل البلا من كل باب[3]

وفى خلال ذلك كانت الأندلس تضطرم بأشنع ضروب الخلاف والفتن ، والقواعد والثغور يتناوبها الزعماء والمتغلبون ، واسبانيا النصرانية تنزل بالأندلس ضرباتها المتوالية ، وتستولى تباعاً على القواعد والثغور .

والحقيقة أن الجهد المضطرم الذى بذلته اسبانيا النصرانية يومئذ ، لانتزاع القواعد الأندلسية لم يكن سوى الذروة فى مرحلة طال أمدها ، من حركة الفتح والاسترداد النصرانية La Reconquista . وقد بدأ هذا الاسترداد من جانب اسبانيا النصرانية لأراضيها المفتوحة منذ عصر مبكر جداً ، أعنى منذ قامت المملكة النصرانية الشمالية عقب الفتح الإسلامى بقليل فى حمى الجبال الشمالية ، واشتد ساعدها بسرعة ، واستطاعت منذ منتصف القرن الثامن الميلادى أن تدفع حدودها تباعاً نحو الجنوب . وكانت أولى القواعد الإسلامية التى سقطت هى « لُك » فى أقصى الشمال الغربى لشبه الجزيرة ، وأسترقة فى شمال نهر دويرة ، وسمورة وشلمنقة وشقوبية وآبلة فى الناحية الأخرى من دويرة . ولم تتأثر الأندلس المسلمة

---

( ١ ) وتعرف فى الاسبانية بموقعة **Alarcos** . وتراجع تفاصيلها فى كتاب « عصر المرابطين والموحدين » القسم الثانى ص ٢٠٠ — ٢١٤ .

( ٢ ) وتعرف فى الاسبانية بموقعة **Las Navas de Tolosa** . وتراجع تفاصيلها فى الكتاب السالف الذكر القسم الثانى ص ٢٩٣ — ٣٢٢ .

( ٣ ) نفح الطيب ج ٢ ص ٥٨٢ .

كثيراً بفقد هذه القواعد الأولى لنأيها وقربها من المملكة النصرانية . ولكن الأندلس شعرت بالخطر الحقيقى منذ استطاع النصارى عبور نهر التاجه متوسط شبه الجزيرة فى غزوات قوية ، واستيلائهم بعد ذلك على طليطلة ثالثة القواعد الاندلسية الكبرى بعد قرطبة وإشبيلية . ووضع نصر الزلاّقة ، وقيام سلطان المرابطين فى شبه الجزيرة ، حداً مؤقتاً لتقدم النصارى فى وسط شبه الجزيرة وشرقيها . ولكن موجة جديدة من الغزو النصرانى اجتاحت شمال شرقى الأندلس منذ بداية القرن السادس الهجرى ، فسقطت سرقسطة فى يد النصارى ( ٥١٢ هـ — ١١١٨ م ) ، وكانت تطيلة حصنها الأمامى قد سقطت قبل ذلك بعام ، ثم تلتها بقية قواعد الثغر الأعلى ، لاردة وإفراغة ومكناسة وطرطوشة ( ٥٤٣هـ — ٥٤٤هـ ) ( ١١٤٨ — ١١٤٩م ) : وفى تلك الآونة ذاتها بدأ سقوط القواعد الإسلامية فى غربى شبه الجزيرة أعنى فى البرتغال ، فسقطت أشبونة وشنترة وشنترين فى يد النصارى فى سنة ١١٤٧ م ( ٥٤٢ هـ ) ، وسقطت باجة بعد ذلك بقليل فى سنة ١١٦١ م ( ٥٥٦ هـ ) ، ثم تلتها يابرة فى سنة ١١٦٥ م ( ٥٦١ هـ )

ولما توطد سلطان الموحدين بالأندلس فى أواخر القرن السادس الهجرى ، توقفت حركة الإسترداد النصرانى مدى حين ، ثم عادت تضطرم قوية بعد إحراز اسبانيا النصرانية لفوزها الحاسم على الموحدين فى موقعة العقاب ( ٦٠٩هـ ) . ومنذ أوائل القرن السابع الهجرى تجتاح اسبانيا المسلمة موجة عاتية من الغزو النصرانى وتسقط قواعد الأندلس التالدة شرقاً وغرباً فى يد النصارى . وهكذا سقطت جزيرة ميورقة ( ٦٢٧هـ — ١٢٢٩ م ) ، وبياسة ( ٦٢٣هـ — ١٢٢٦ م ) وأبدّة ( ٦٣٠هـ — ١٢٣٣م ) ثم قرطبة ( ٦٣٣هـ — ١٢٣٦م ) وإستجة والمدور ( ٦٣٣هـ — ١٢٣٦م ) وبلنسية ( ٦٣٦ هـ — ١٢٣٨م ) ودانية ولقنت ( ٦٤١ هـ — ١٢٤٤ م ) وأوريولة وقرطاجنة ( ٦٤٣ هـ — ١٢٤٥ م ) وشاطبة ( ٦٤٤ هـ — ١٢٤٦ م ) ومرسية ( ٦٤٠ هـ — ١٢٤٣ م ) وجيان ( ٦٤٣ هـ — ١٢٤٦ م ) ، ثم إشبيلية ( ٦٤٦ هـ — ١٢٤٨ م ) . واجتاحت غرب الأندلس فى الوقت نفسه موجة مماثلة من الغزو النصرانى ، فسقطت بطليوس ( ٦٢٧ هـ — ١٢٣٠ م ) وماردة ( ٦٢٨ هـ — ١٢٣١ م ) وشلب ( ٦٤٠ هـ — ١٢٤٢ م ) وشنتمرية الغرب ( ٦٤٧ هـ — ١٢٤٩ م ) ولبلة وولبة ( ٦٥٥ هـ — ١٢٥٧ م ) . ثم سقطت قادس فى سنة ١٢٦١ م ، وتلتها شريش فى سنة ١٢٦٤ م . وهكذا لم يأت منتصف القرن

السابع الهجرى ( القرن الثالث عشر الميلادى ) حتى كانت ولايات الأندلس الشرقية والوسطى كلها ، قد سقطت فى يد اسبانيا النصرانية ، ولم يبق من تراث الدولة الإسلامية بالأندلس ، سوى بضع ولايات صغيرة فى طرف اسبانيا الجنوبى .

وأخذت الأندلس عندئذ ، تواجه شبح الفناء مرة أخرى ، وطافت بالأمة الأندلسية التى احتشدت يومئذ فى الجنوب فى بسيطها الضيق ، ريح من التوجس والفزع ، وعاد النذير يهيب بالمسلمين ، أن يغادروا ذلك الوطن الخطر ، الذى يتخاطف العدو أشلاءه الدامية ، وسرى إلى الأمة الأندلسية شعور عميق بمصيرها المحتوم .

ولكن شاء القدر أن يرجىء هذا المصير بضعة أجيال أخرى ، وشاء أن يسبغ على الدولة الإسلامية بالأندلس . حياة جديدة فى ظل مملكة غرناطة ، التى استطاعت أن تبرز من غمر الفوضى ضئيلة فى البداية ، وأن توطد دعائم قوتها شيئاً فشيئاً ، وأن تذود عن الإسلام ودولته الباقية بنجاح ، أكثر من قرنين . وكان من حسن طالع هذه المملكة الإسلامية الصغيرة ، أن شغلت عدوتها القوية اسبانيا النصرانية مدى حين ، بمنازعاتها وحروبها الداخلية ، فلم توفق إلى تحقيق غايتها الكبرى ، وهى القضاء على دولة الإسلام فى الأندلس ، وعلى الأمة الأندلسية بصورة نهائية ، إلا بعد أن تهيأت لذلك جميع الظروف والأسباب . ولم يكن ذلك قبل مائتين وخمسين عاماً ، عاشتها مملكة غرناطة الصغيرة أبية كريمة ، ترفع لواء الإسلام عالياً فى تلك الربوع ، التى افتتحها الإسلام قبلى ذلك بعدة قرون ، وأنشأ بها المسلمون حضارتهم العظيمة التى حفلت بأرقى نظم للحياة المادية والأدبية ، وأرفع ضروب العلوم والفنون التى عرفت فى العصور الوسطى .

— ٢ —

كانت غرناطة وقت افتتاح الأندلس ، مدينة صغيرة من أعمال ولاية «إلبيرة» تقع على مقربة من مدينة إلبيرة قاعدة الولاية ، من الناحية الجنوبية[1] ، افتتحها المسلمون عقب انتصارهم على القوط ، بقيادة طارق بن زياد فاتح الأندلس ، فى موقعة شريش فى رمضان سنة ٩٢ هـ . ( يوليه سنة ٧١١م ) . ولما اضطرمت الفتنة بالأندلس ، ودب الخلاف بين القبائل ، عقب موقعة بلاط الشهداء (٧٣٢م)

---

( ١ ) إلبيرة وبالاسبانية **Elvira** هى مدينة رومانية قديمة كانت تسمى أيام الرومان **Illiboris** وكانت عاصمة للولاية التى تسمى بهذا الاسم ، وكانت أيام الفتح الإسلامى مدينة كبيرة عامرة .

واشتد التنافس على الإمارة بين الشاميين من ناحية ، والعرب والبربر من ناحية أخرى ، رأى أمير الأندلس أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي ، أن يعمل على تهدئة الفتنة بتمزيق عصبة الشاميين ، ففرقهم فى أنحاء الأندلس ، وأنزل جند الشام بكورة إلبيرة ، وجند حمص بإشبيلية ، وجند فلسطين بشذونه والجزيرة ، وجند الأردن بريُّه ، وهكذا نزل الشاميون منذ البداية بولاية إلبيرة ، وغدوا بمضى الزمن كثْرة فيها . واستمرت مدينة إلبيرة قاعدة لهذه الولاية ومركز قضائها فى ظل الدولة الأموية ، حتى أواخر القرن الرابع حينما انهارت الخلافة الأموية وتعاقبت الفتن ، وعاث البربر فى النواحى ، وخربت مدينة إلبيرة شيئاً فشيئاً ، حتى غدت غرناطة قاعدة الولاية مكانها ، وغلب اسم غرناطة على الولاية نفسها . ومن ذلك الحين يختفى اسم إلبيرة كقاعدة من قواعد الأندلس ، ويذكر مكانها اسم غرناطة . والواقع أن إلبيرة وغرناطة تعتبران فى معظم الأحيان ولاسيما فى المراحل الأولى لتاريخ الأندلس ، إسمين لمكان واحد ، وقد جرى كثير من المؤرخين والجغرافيين على المزج بينهما[1] .

وغَرناطة أو إغرناطة اسم قديم يرجع إلى عهد الرومان والقوط ، وقد اختلفت آراء الباحثين فى أصل هذه التسمية ، فيرى البعض أنه مشتق من الكلمة الرومانية Granata أى الرمانة ، وأنها سميت كذلك لجمالها ، ولكثْرة حدائق الرمان التى تحيط بها[2] ، ويرى البعض الآخر أن التسمية ترجع إلى أصل قوطى أو أنها ترجع إلى أصل بربرى مشتق من اسم إحدى القبائل[3] . والواقع أن غرناطة تتمتع بموقع فائق فى الحسن ، فهى تقع فى واد عميق يمتد من المنحدر

---

(١) كتاب الإحاطة فى أخبار غرناطة ، لابن الخطيب ( القاهرة ١٩٥٦ ) ج ١ ص ٩٩–١٠٥

(٢) المستشرق سيبولد فى **Ency. de l'Islame : Grenade** ؛ وكذلك فى معجم ياقوت حيث يقول إن معنى غرناطة « الرمانة » بلسان عجم الأندلس سمى البلد كذلك لحسنه ( راجع معجم ياقوت تحت كلمة غرناطة ) . وقيل إنها سميت كذلك لانها أنشئت على البقعة التى زرع فيها الرمان لأول مرة عند نقله من إفريقية اليها ، وقيل أيضاً إنها سميت كذلك لأنها بموقعها وانقسامها على انتلين تشبه بمنازلها الكثيفة الرمانة المشقوقة . راجع كتاب : **(Prescott : Ferdinand and Isabella, p. 190, Note)**

(٣) هذا ما يراه المستشرق الإسبانى سيمونيت ، إذ يقول إن المرجح أن الاسم قوطى الأصل ، وأنه مركب من كلمة « ناطة » وهو اسم قرية قديمة كانت تقع على مقربة من إلبيرة و « غار » وهو المقطع الذى أضافه المسلمون إليها فصارت « غرناطة » . أو أن البربر سموها كذلك عند نزولهم بها وهو اسم أحد قبائلهم راجع : **(Simonet : Descripción del Reino de Granada (Granada 1872) p. 40 & 41)** وراجع كتاب الإحاطة فى أخبار غرناطة ( القاهرة ١٩٥٦ ) ج ١ ص ٩٩ الهامش .

الشمالى الغربى لجبال سيرّا نفادا ، وتظللها الآكام العالية من الشرق والجنوب ، ويحدها من الجنوب نهر شَنيل فرع الوادى الكبير(١) ، وهو ينبع من جبال سيرّا نفادا ، ويخترقها فرعه المسمى نهر حدرُه أو هدره El-Darro ، ويلتقى به عند جنوبى المدينة . وقد كان شنيل وفرعه حدره أيام المسلمين يفيض بالماء ، ولاسيما فى الصيف حين تذوب الثلوج ، وكانت ضفافهما خضراء يانعة تغص بالحدائق الغناء . أما اليوم فقد جف مجرى شنيل ، وقلما يجرى فيه الماء سوى القليل أيام الشتاء . وأما فرعه حدرُه فيخترق المدينة من الشرق عند سفح التل الذى تقع عليه « الحمراء » ويتصل بشنيل عند القنطرة الأندلسية القديمة . وهو يكاد يختفى اليوم ولم يبق من مجراه سوى الجزء الصغير المجاور لتل الحمراء . وأما جزؤه الذى كان يخترق وسط المدينة فقد غطى اليوم بشارعها الرئيسى الأوسط المسمى « شارع الملكين الكاثوليكيين » ، وامتداده فى الميدان الكبير حتى قنطرة شنيل .

وتشرف غرناطة من الجنوب الغربى ، على بسيط شاسع أخضر وافر الخصب ، هو المرج أو الفحص الشهير La Vega(٢) الذى يمتد غرباً حتى مدينة لَوْشة ، ومن الجنوب الشرقى على جبال سيرّا نفادا Sierra Nevada ( جبل شُلير أو جبل الثلج )(٣) التى تغطى آكامها الثلوج الناصعة .

وكانت غرناطة أيام الدولة الإسلامية ، جنة من جنات الدنيا ، تغص بالغياض والبساتين اليانعة ، التى كانت لوفرة خصبها وروعة نضرتها ، تعرف « بالجنات » ، فيقال للمزرعة أو البستان « جنة كذا » أو جنة فلان ، مثل جنة الحرف ، وجنة العرض ، وجنة الحفرة ، ومدرج نجد ، ومدرج السبيكة ، وجنة ابن عمران وجنة العريف وغيرها . وقد ذكر ابن الخطيب أن هذه الجنات الغرناطية الشهيرة كانت تبلغ فى عصره زهاء المائة ، كما ذكر لنا أن منطقة غرناطة ، كانت تضم زهاء ثلاثمائة قرية عامرة ، منها ماكان يبلغ سكانه الألوف ومنها ماكان يملكه

---

( ١ ) شنيل هو بالاسبانية Xenil أو Genil ، ويسمى أيضاً عند الأندلسيين بنهر سنجيل مشتقاً من اسمه اللاتينى Singilis .

( ٢ ) وهى كلمة إسبانية معناها المرج . ولعلها مشتقة من كلمة « فحص » العربية .

( ٣ ) يطلق الجغرافيون الأندلسيون اسم شلير أو جبل الثلج على جبال « سيرا نفادا » . فأما « شلير » فهو محرف عن اللاتينية Solarius ومعناها جبل الشمس ، وذلك لأن الشمس تسلط أشعتها الساطعة على تلك الجبال فينعكس ضوؤها على الثلوج الناصعة التى تغطيها . وأما تسميتها بجبل الثلج ، فهى ترجمة عربية مطابقة لاسمها القشتالى Sierra Nevada .

مالك واحد أوملاك قلائل . هذا عدا الأملاك السلطانية والحصون[١] . وبذلك نستطيع أن نقدر أن مدينة غرناطة ، كانت تضم أيام أن كانت عاصمة للدولة الإسلامية ، أكثر من نصف مليون من الأنفس . وأما خارج المدينة فيصفه ابن الخطيب فى قوله :

« ويحف بسور المدينة المعصومة بدفاع الله تعالى ، البساتين العريضة المستخلصة ، والأدواح الملتفة ، فيصير سورها خلف ذلك كأنه من دون سياج كثيفة ، تلوح نجوم الشرفات البيض أثناء خضرايه ، فليس تعرى جنباته من الكروم والجنات جهة » . وأما المرج الشهير أو الفحص La Vega فقد كان بسيطاً رائع الخضرة يشبهونه بغوطة دمشق ، وتخترقه الجداول والأنهار ، ويغص بالقرى والجنات ، ويهرع إليه الرواد فى ليالى الربيع والصيف فيغدو مسرح الأسمار والأنس .

وكانت المدينة ذاتها نموذجاً بديعاً للعمارة الإسلامية ، تغص بالصروح والأبنية الفخمة ، وتتخللها الميادين والطرقات الفسيحة. وكانت مدينة الحمراء أو دار الملك أروع ما فيها ، تطل على أحيائها « فى سمت من القبلة ، تشرف عليه منها الشرفات البيض ، والأبراج السامية والمعاقل المنيعة ، والقصور الرفيعة ، تغشى العيون وتبهر العقول »[٢] .

وقد أشاد بذكر محاسن غرناطة وفضائلها كتاب الأندلس وشعراؤها ؛ وانتهت إلينا من منظومهم ومنثورهم فيها تراث حافل ، ينم بالرغم مما يحمله أحياناً من طابع المبالغة ، عما كانت تثيره غرناطة فى نفوسهم من عميق الإعجاب والحب . وقد أورد لنا ابن الخطيب فى « الإحاطة » والمقرى فى « نفح الطيب » ، و« أزهار الرياض » كثيراً من هذه القصائد والرسائل ، وإليك بعض نماذج منها :

قال ابن الخطيب :

بلد تحف به الرياض كأنه ... وجه جميل والرياض عـذاره
وكأنما واديه معصم غـــادة ... ومن الجسور المحكمات سواره

(١) الإحاطة فى أخبار غرناطة ( القاهرة ١٩٥٦ ) ج ١ ص ١٢٢ و١٢٣ . ويقدم لنا ابن الخطيب بياناً وافياً عن القرى الغرناطية . ( راجع ص ١٣١ – ١٣٨ والهوامش حيث تبين مواقع هذه القرى وأسماؤها الاسبانية الحالية ) .

(٢) راجع الإحاطة فى أخبار غرناطة ج ١ ص ١٢١ . واللمحة البدرية فى تاريخ الدولة النصرية لابن الخطيب أيضاً ص ١٣ و١٤ .

وقال أبو الحجاج يوسف بن سعيد :

أغرناطة العلياء بالله خبرى ‏ ‏ ألهائم الباكى إليك طريق
وما شاقنى إلا نضارة منظر ‏ ‏ وبهجة واد للعيون تروق
تأمل إذا أملت «حوز مؤمل »[1] ‏ ‏ ومد من الحمراء عليك شقيق
وأعلامه نجد والسبيكة قد علت ‏ ‏ وللشفق الأعلى تلوح بروق
وقد سل شَنيل فرندا مهندا ‏ ‏ يضىء فوق درٍّ ذُرَّ فيه عقيق

وقال آخر :

غرناطة ما لها نظير ‏ ‏ ما مصر ما الشام ما العراق
ما هى إلا العروس تجلى ‏ ‏ والأرض من جملة الصداق

أما اليوم فقد غدت غرناطة مدينة متواضعة لا يزيد سكانها على مائة وثلاثين ألفاً . وهى عاصمة الولاية الأندلسية المسماة بنفس الإسم . وبالرغم من أنها قد فقدت بهاءها السالف ، فإنها ما زالت تتشح بطابع خاص من التحفظ والنبل المؤثر . وقد اختفت معظم خططها الإسلامية ، وقامت على أنقاضها مدينة أوربية حديثة . بيد أن غرناطة ما زالت مع ذلك تحتفظ ببقية من صروحها ومعالمها الأندلسية . وتجتمع هذه البقية بالأخص فى قسمها الشرقى حيث تربض أبراج « الحمراء » فوق هضبتها العالية ، وأعظم آثارها الإسلامية الباقية هو بلا ريب قصر الحمراء الملكى الذى ما زال يحتفظ بكثير من روعته القديمة ، وقصر « جنة العريف » El Generalife الواقع فى شرقه على مسافة قليلة ، وقد كان مصيفاً لملوك غرناطة ، وبقية ضئيلة من « قصر شنيل » Alcázar Genil[2] ، وهى تقع فى ضاحية أرملة ( أرمليا ) على مقربة من شنيل ، و« الخان » Alhóndiga ، وهو ذو عقد عربى رائع ، ويقع على مقربة من دار البريد القديمة . أما المسجد الجامع وبقية المساجد الأخرى فقد هدمت جميعاً وقامت على أنقاضها الكنائس . وأما ما بقى من خططها الإسلامية ، فهو ظاهر بالأخص فى « حى البيازين » Albaicin الواقع فى شمالها

---

( ١ ) هو اسم مكان بغرناطة الاسلامية كان يشتهر بنضرته ورياضه ، ويحتل مكانه اليوم الحى الغرناطى المسمى **Campo del Principe** ( راجع الإحاطة ج ١ ص ٤٤٩ والهامش ) .

( ٢ ) هو القصر الذى يعرف فى تاريخ غرناطة بقصر السيد ، وقد أنشىء فى عصر الموحدين ، أنشأه السيد أبو إبراهيم إسحاق بن يوسف بن عبد المؤمن والى غرناطة ، وذلك فى سنة ٦١٤هـ (١٢١٧م) وعرف عندئذ بقصر السيد . وكان أيام الدولة النصرية يستعمل قصرا للضيافة الملكية ( راجع كتابى عصر المرابطين والموحدين القسم الثانى ص ٣٣١ ) .

الغربي ، والميدان الكبير الذى ما زال يحمل اسمه القديم « رحبة باب الرملة » Plaza de Bibrambla ، وإلى جواره القيسرية القديمة Alcaicaría . هذا فضلا عما يبدو فى كثير من دروبها الضيقة الصاعدة ، ومنازلها العديدة ذات الطراز الأندلسى ، من الملامح الأندلسية الواضحة .

كذلك بقيت قطعة كبيرة من أسوار غرناطة الإسلامية ، وبضعة من أبوابها القديمة مثل باب البنود وباب إلبيرة وباب البيازين وباب فحص اللوز ، وباب الشريعة وهو مدخل الحمراء الرئيسى . هذا وما زالت « قنطرة شنيل » ، قائمة على النهر عند التقائه بفرعه « حدرُّه » ، وتحمل اسمها الإسلامى القديم Puente del Genil .

وتوجد فى متحف غرناطة الأثرى طائفة كبيرة من اللوحات والنقوش والتحف الأندلسية .

ولغرناطة منزلة خاصة فى نفوس الإسبان وفى التاريخ الإسبانى . فهى إلى كونها خاتمة الفتوح المظفرة التى توجت حروب الإسترداد الإسبانية La Reconquista تعتبر بتاريخها المؤثر أنبل المدن الأندلسية ، ويعتبر سقوطها فى أيدى الإسبان فاتحة عصر اسبانيا الذهبى . ومن ثم فقد اتخذت مثوى أبدياً لفاتحيها الملكين الكاثوليكيين فرناندو وإيسابيلا ، حيث يرقدان فى كنيستها العظمى التى أقيمت فوق موقع المسجد الجامع . ونالت غرناطة حظوة خاصة لدى ملوك اسبانيا المتوالين فحبوها بمختلف المنشآت وضروب الإصلاح والتجميل ؛ وحرص الإسبان على أن تبقى عاصمة الأندلس القديمة كما كانت مركز العلوم فى جنوبى اسبانيا ، فأنشئت جامعة غرناطة الشهيرة فى سنة ١٥٣١م ، فى عصر الإمبراطور شرلكان ، وهى اليوم من أهم وأقدم الجامعات الإسبانية ، ويوجد ضمن معاهدها الخاصة ، معهد لدراسة عصر الملكين الكاثوليكيين فاتحى غرناطة ، ومدرسة للدراسات العربية . وفى غرناطة معاهد علمية وثقافية عديدة أخرى ، وعدة متاحف فنية أثرية .

# الفصل الثانى

## نشـــأة مملكة غرناطة

### وقيام الدولة النصرية

غرناطة منذ عهد الفتنة حتى عهد الموحدين . اضمحلال دولة الموحدين بالأندلس والمغرب . النزاع حول عرش الخلافة الموحدية . قيام العادل ثم المأمون . ظهور ابن هود وثورته على الموحدين . استيلاؤه على مرسية . دعوته للخلافة العباسية . انهيار الدولة الموحدية . الحرب بين ابن هود وبين النصارى . هزيمة ابن هود . زحف النصارى على قرطبة . استغاثتها بابن هود . ابن هود يؤثر السير إلى بلنسية . حصار قرطبة وسقوطها فى يد النصارى . وفاة ابن هود . غزو ملك أراجون لبلنسية واستيلاؤه عليها . استيلاء القشتاليين على مرسية . أحوال جنوبى الأندلس . ظهور محمد بن الأحمر . طاعة القواعد الجنوبية له . دعوته لصاحب إفريقية . تحالفه مع الباجى وغدره به . دخول جيان ومالقة وشريش فى طاعته . الثورة فى غرناطة . دعوتها لابن الأحمر واستيلاؤه عليها . استيلاؤه على المرية . بنو أشقيلولة أصهار ابن الأحمر . قيام مملكة غرناطة . افتراق كلمة الأندلس . خضوع القواعد الشرقية للنصارى. غزو ابن الأحمر لمرتش . غزو فرناندو الثالث لأراضى ابن الأحمر وحصاره لغرناطة . خضوع ابن الأحمر لفرناندو وتعهده بأداء الجزية . سقوط القواعد الغربية فى يد النصارى . تأهب فرناندو لافتتاح إشبيلية . استيلاؤه على قرمونة . حصار إشبيلية . معاونة ابن الأحمر للنصارى . قصيدة ابن سهل فى استصراخ أهل العدوة . سقوط إشبيلية فى يد النصارى. سقوط باقى القواعد الغربية . ابن الأحمر ودقة موقفه . اتجاهه إلى عون بنى مرين . الحرب بينه وبين النصارى. سقوط إستجة . هزيمة ابن الأحمر. صدى صريخ الأندلس فى المغرب . نزول ابن الأحمر عن شريش والقلعة وغيرهما . صدى سقوط القواعد الأندلسية . مرثية أبى الطيب الرندى . ثورة بنى أشقيلولة بمالقة . غزو النصارى للجزيرة الخضراء . صفات ابن الأحمر وخلاله . كيف يصورها النقد الحديث . وفاة ابن الأحمر .

لبثت غرناطة فى ظل الدولة الأموية ، قاعدة متواضعة من قواعد الأندلس الجنوبية ، وهى تحتل مكان إلبيرة شيئاً فشيئاً ، حتى كانت أيام الفتنة عقب انهيار الدولة الأموية فى أواخر القرن الرابع ، فأخذت القواعد الجنوبية تغدو ، بعد تخريب قرطبة ، ونأى القواعد والثغور الشرقية والشمالية ، مركز التجاذب والتنافس بين زعماء الفتنة . ووقعت غرناطة يومئذ فى نصيب البربر ، واستولى عليها زعيم صنهاجة زاوى بن زيرى واتخذها دار ملكه ، وقامت فى قرطبة دولة بنى حمود الإدريسية. واستمرت الحرب والفتنة مدى حين ، سجالا بين المتغلبين من فلول بنى أمية وبنى عامر ، وفتيانهم ومواليهم ، وبين زعماء البربر . ولما ظهر المرتضى ، وهو من عقب

بنى أمية ، ودعا لنفسه بالخلافة ، سار فى عصبة الأمويين والموالى إلى غرناطة ، لانتزاعها واتخاذها دار ملكه، فرده عنها صاحبها زاوى الصنهاجى فى موقعة دموية ( ٤٠٨ هـ ) . واستقر زاوى فى حكم غرناطة وأعمالها بضعة أعوام ، ثم غادرها إلى دار قومه فى تونس ، واستخلف عليها ابن أخيه حبوس بن ماكسن ، فحكمها حتى توفى فى سنة ٤٢٩هـ . وخلفه فى ولايتها ولده باديس وتلقب بالمظفر ، واستولى على مالقة من يد الأدارسة ( بنى حمّود ) ، واتسع ملكه ، ولبث طول حكمه الذى استطال حتى سنة ٤٦٧ هـ ، فى قتال مستمر مع بنى عباد أمراء إشبيلية ، أعظم وأقوى ملوك الطوائف يومئذ . ولما توفى باديس المظفر ، خلفه فى حكم غرناطة وأعمالها ، حفيده عبد الله بن بُلُكّين بن باديس ، واستمر فى حكمها إلى أن عبر المرابطون البحر إلى الأندلس فى سنة ٤٨٣هـ ، بقيادة عاهلهم يوسف بن تاشفين ، واستولوا عندئذ على غرناطة ، كما استولوا على قواعد الأندلس الأخرى ، وانتهت بذلك دول الطوائف ، التى قامت على أنقاض الخلافة الأموية ، وعاشت زهاء ستين عاماً .

واستمر المرابطون فى حكم الأندلس وقواعدها ، زهاء ستين عاماً أخرى ؛ وتعاقب فى حكم غرناطة عدة من أمراء اللمتونيين(١) وسادتهم ، من قرابة يوسف بن تاشفين . فلما انهارت دولتهم فى المغرب ، جاز الموحدون المتغلبون على دولتهم إلى الأندلس فى سنة ٥٤١ هـ ( ١١٤٧ م ) ، وأخذوا يستولون تباعاً على القواعد والثغور ، فاستولوا أولا على قواعد الغرب ، شلب وميرتلة وباجة ، ثم استولوا على إشبيلية فى أواخر سنة ٥٤١ هـ ، فقرطبة فى سنة ٥٤٣ هـ ، واعتصم المرابطون بغرناطة بضعة أعوام أخرى ، ثم اضطروا أخيراً إلى تسليمها إلى الموحدين وذلك فى سنة ٥٥١ هـ ( ١١٥٦ م ) .

ولبثت غرناطة كباقى القواعد الأندلسية فى أيدى الموحدين ، يتناوب حكمها الأمراء والسادة من بنى عبد المؤمن وقرابته ، حتى كانت ثورة أبى عبد الله محمد ابن يوسف بن هود سليل بنى هود أمراء سرقسطة السابقين ، على الموحدين ، وانتزاعه معظم قواعد الأندلس من أيديهم .

وذلك أنه لما توفى أبو يعقوب يوسف المستنصر بالله خليفة الموحدين ، فى سنة ٦٢٠ هـ دون عقب ، أقام الموحدون مكانه السيد أبا محمد عبد الواحد

( ١ ) لمتونة هو اسم القبيلة التى ينتمى إليها المرابطون ، ولذا يسمون أحياناً باللمتونيين .

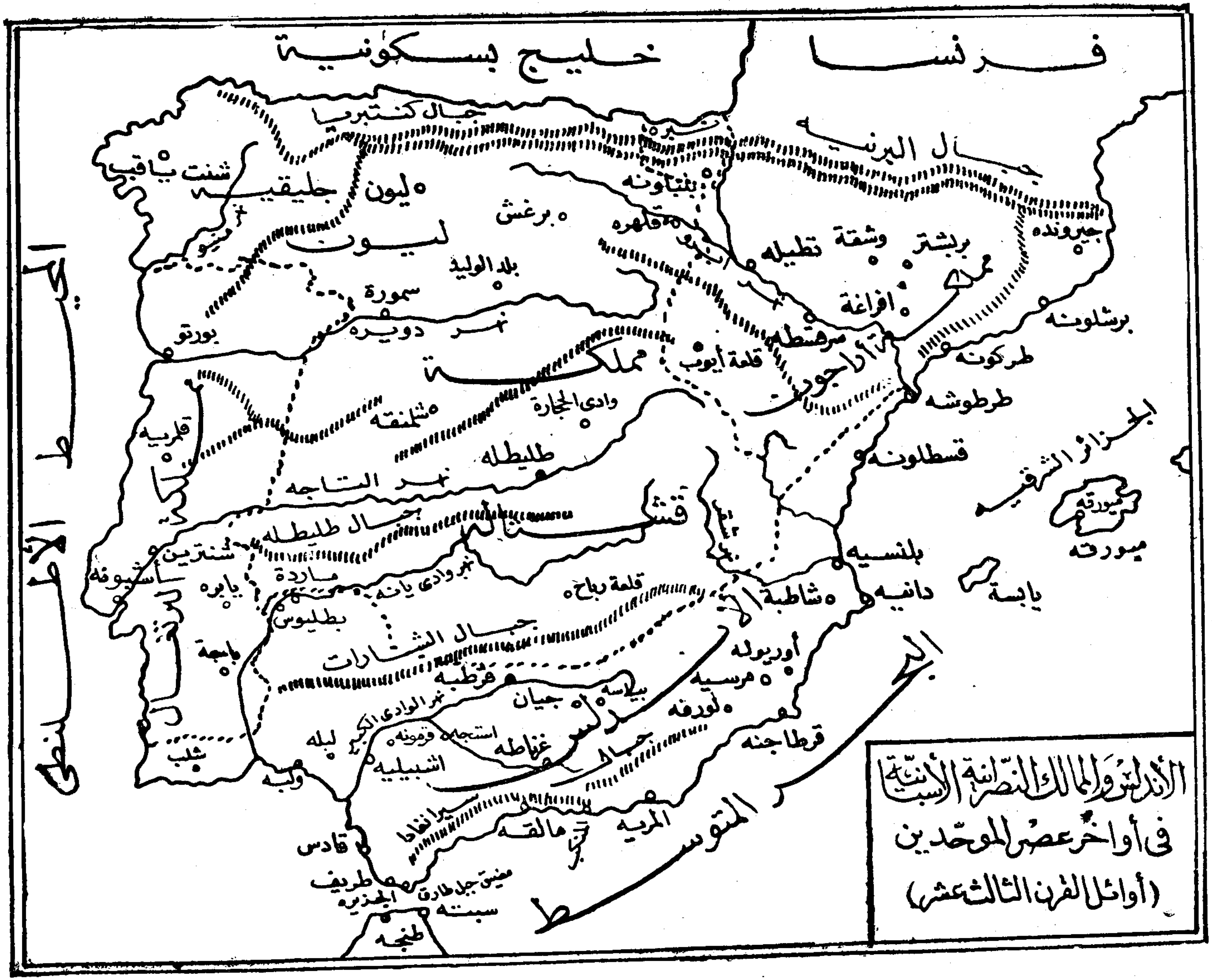
الأندلس والممالك النصرانية الأسبانية
فى أواخر عصر الموحدين
(أوائل القرن الثالث عشر)
خليج بسكونية
فرنسا
جبال كنتبريا
جبال البرنيه
المحيط الأطلنطي
البحر المتوسط
الجزائر الشرقية
شنت ياقب
جليقية
ليون
ليون
برغش
بنبلونه
قلهره
تطيله
وشقة
بربشتر
جيرونده
برشلونه
طركونه
طرطوشه
قسطلونه
بلنسيه
دانيه
يابسة
ميورقة
منورقه
افراغة
سرقسطة
قلعة أيوب
أراجون
بلد الوليد
سمورة
نهر دويره
بورتو
مملكة قشتالة
شلمنقه
وادي الحجارة
طليطله
نهر التاجه
جبال طليطله
قلمرية
شنترين
أشبونه
يابره
ماردة
نهر وادي يانه
بطليوس
قلعة رباح
شاطبة
أوريولة
مرسيه
لورقه
قرطاجنه
جبال الشارات
قرطبه
جيان
بياسه
نهر الوادي الكبير
استجه
قرمونه
غرناطه
لبله
اشبيليه
ولبه
شلب
باجة
سيرانفادا
مالقه
المريه
قادس
طريف
الجزيرة
مضيق جبل طارق
سبته
طنجه

ابن يوسف بن عبد المؤمن ، الملقب بالمخلوع ، ولكن الأمور لم تهدأ بذلك ولم تستقر ، إذ ظهر بالأندلس ، مدع جديد للخلافة ، هو السيد أبو محمد عبد الله ابن يعقوب المنصور ، والى مرسية ، وأعلن نفسه خليفة للموحدين باسم العادل ، وذلك فى شهر صفر سنة ٦٢١ هـ . وأيدته فى دعوته معظم القواعد الكبرى ، وكان ولاة قرطبة وغرناطة ومالقة ، وإشبيلية ، يومئذ من أخوته ، أولاد المنصور. ثم سار العادل إلى إشبيلية ، وهنالك وصلته بيعات أهل مراكش وبلاد المغرب . وقام أشياخ الموحدين بمراكش بخلع الخليفة أبى محمد عبد الواحد ، ثم دبروا قتله غيلة ( شعبان ٦٢١ هـ ) وعندئذ قرر العادل العبور إلى المغرب ، وترك أخاه السيد أبا العلاء إدريس بن المنصور والياً لإشبيلية ، وهى يومئذ قاعدة الحكم الموحدى بالأندلس .

وعبر العادل البحر إلى المغرب فى أواخر سنة ٦٢٢ هـ . وتربع على كرسى الخلافة . وكانت أحوال الدولة الموحدية قد ساءت يومئذ ومزقتها الأهواء والفتن ، وتضعضع سلطانها فى معظم انحاء المغرب والأندلس . ولم يمض قليل على قيام العادل فى الخلافة حتى خرج عليه بالأندلس ، أخوه أبو العلاء إدريس والى إشبيلية ، ودعا لنفسه ، وتسمى بالمأمون ، وكان من أصداء هذه الحركة الجديدة فى مراكش أن قام الموحدون بقتل العادل ، ولكنهم لم يعلنوا بيعة المأمون ، بل أقاموا مكانه فى الخلافة ولد أخيه ، يحيى بن الناصر ( شوال ٦٢٤ هـ ) ولما علم المأمون بذلك ، استشاط سخطاً ، وقصد إلى فرناندو الثالث ملك قشتالة ، وطاب إليه العون على انتزاع العرش من ابن أخيه ، وقدم إليه عدداً من الحصون الأندلسية الهامة ، ودفع إليه مبلغاً طائلا من المال ، وتعهد بأن يمنح النصارى فى مراكش امتيازات عديدة ، وأن يسمح لهم ببناء كنيسة لهم ، وفى نظير ذلك أمده ملك قشتالة بفرقة من جنوده ليستعين بها على مقاتلة خصمه . وعبر المأمون إلى المغرب فى حشوده من العرب والموحدين والقشتاليين ، وذلك فى أواخر سنة ٦٢٦ هـ ( ١٢٢٨ م ) ، وقصد توا إلى مراكش . وخرج الخليفة يحيى بن الناصر للقائه فى قواته . ونشبت بين الفريقين معركة هزم فيها يحيى ، وفر ناجياً بنفسه ، ودخل المأمون مراكش ، وتربع على كرسى الخلافة .

وكان المأمون ، أميراً وافر الهمة والعزم ؛ يجيش بمشاريع وأطماع عظيمة . فقضى الأعوام القلائل التالية فى العمل على توطيد سلطانه بالمغرب ، واستبد بالحكم

واستعمل الشدة والعنف ، فى قمع كل نزعة إلى الخروج ، وقضى بمرسومه الشهير ،على رسوم المهدى ابن تومرت وتعاليمه ونظام حكومته ، باعتبارها نظماً رجعية ، لا تتفق مع روح الدين الصحيح ، وفتك بخصومه والناكثين لبيعته من الموحدين وغيرهم . فسرت روح السخط إلى معظم القبائل ، وأخذ الزعماء المتوثبون يرقبون الفرص . ثم مرض المأمون وتوفى فجأة ، وهو فى إبان سلطانه ومشاريعه ، وذلك فى شهر ذى الحجة سنة ٦٢٩ هـ ( ١٢٣٢ م ) ، فخلفه ولده الفتى أبو محمد عبد الواحد الملقب بالرشيد .

وبينما كان المغرب يضطرم بعوامل الثورة والانتقاض على هذا النحو ، وكرسى الخلافة الموحدية يهتز إزاء أطماع الخوارج والمتوثبين ، كان سلطان الموحدين بالأندلس يهتز فى الوقت نفسه ، ويتداعى بسرعة ، وينهار حكمهم تباعا . فى تلك الآونة ، ظهر زعيم أندلسى جديد ، ينتمى إلى بيت عريق فى الزعامة والملوكية ، هو محمد بن يوسف بن هود الجذامى ، وهو سليل بنى هود ملوك سرقسطة القدماء ، وكان يومئذ فتى متواضعاً من أهل مرسية من طوائف الجند . ظهر يدعو إلى دعوة جديدة ، تمثل فيها روح الأندلس الحقيقية ، وهى وجوب العمل على تحرير الأندلس من نير الموحدين والنصارى معا . وكان تحالف المأمون مع ملك قشتالة ، وتنازله له عن الحصون الأندلسية ، وتعهده بأن يمنح النصارى فى أراضيه امتيازات خاصة ، وذلك مقابل عونه له بالجند على محاربة خصومه : كان ذلك يسبغ على دعوة ابن هود قوة خاصة ، ويدفع الأندلسيين إلى الانضواء تحت لوائه . وظهر ابن هود لأول مرة فى أحواز مرسية فى سنة ٦٢٥ هـ ( ١٢٢٨ م ) ، فى الوقت الذى أخذ فيه سلطان الموحدين ، يضطرب ويتصدع فى الثغور والنواحى ، ثم أغار على مرسية فى عصبته القليلة ، واستطاع أن ينتزعها من يد حاكمها الموحدى السيد أبى العباس . وأخذ نجمه يتألق من ذلك الحين ، فأعلن أنه يعتزم تحرير الأندلس من الموحدين والنصارى معاً ، والعمل على إحياء الشريعة وسننها ، ودعا للخلافة العباسية ، وكاتب الخليفة المستنصر العباسى ببغداد ، فبعث إليه بالخلع والمراسيم ، وتلقب بالمتوكل على الله . ولم يمض سوى قليل حتى دخلت فى طاعته عدة من قواعد الأندلس ، ومنها جيان وقرطبة وماردة وبطليوس . ثم استطاع أن ينتزع غرناطة

قصبة الأندلس الجنوبية ، من المأمون وذلك فى سنة ٦٢٨ هـ ( ١٢٣١م )[١].

وفى العام التالى ( ٦٢٩ هـ ) توفى المأمون خليفة الموحدين حسبما تقدم ، وهو فى طريقه إلى مراكش ، ليعمل على إنقاذ عرشه من المتغلبين عليه . وبينما كان سلطان الموحدين بالأندلس يدنو سراعاً من نهايته ، كانت دولتهم بالمغرب تدخل فى دور الانحلال وتجوز مراحلها الأخيرة . وبالرغم من أنه لاح مدى لحظة ، فى ظل الخليفة أبى الحسن على السعيد ( ٦٤٠ — ٦٤٦ هـ ) ، الذى خلف الرشيد، أن الدولة الموحدية سوف تنهض من كبوتها، وتسترد قوتها، وتصمد أمام هجمات بنى مرين المتوالية ، فإن مصرع السعيد الفجائى فى الحرب ضد أمير تلمسان ، قضى على هذه البارقة . ثم جاء الخليفة المرتضى بالله ( ٦٤٦ — ٦٦٥هـ ) ، فمضت الخلافة الموحدية فى ظله سراعاً إلى المنحدر ، ثم اختتمت حياتها ، بعد ذلك بقليل فى فاتحة سنة ٦٦٨ هـ ( سبتمبر ١٢٦٩ م ) ، على يد آخر خلفائها الواثق أبى دبوس ، لتقوم على أنقاضها دولة بنى مرين الفتية الشامخة .

وقد خاض ابن هود ، قبل أن تستقر دعوته، مع الموحدين والنصارى معارك متوالية . فأما عن صراعه مع الموحدين ، فقد بذل الخليفة المأمون قبل عبوره إلى المغرب محاولة لإخماد حركة ابن هود فى المشرق ، فلم يفلح ( ٦٢٦هـ ) ، وكان من أثر هذا الفشل ، أن تمكنت دعوة ابن هود ، وقامت إشبيلية عاصمة الأندلس الموحدية بالدخول فى طاعته . على أن ابن هود لم يحرز مثل ذلك التوفيق فى محاربة النصارى . ذلك أن ألفونسو التاسع ملك ليون ، رأى أن ينتهز فرصة اضطراب الأحوال فى الأندلس ، وانهيار سلطان الموحدين فى شبه الجزيرة ، فخرج فى قواته إلى منطقة الغرب الأندلسية ، وزحف على مدينة ماردة ، وضرب حولها الحصار . ولما علم ابن هود بذلك ، سار فى بعض قواته نحو الغرب لينقذ المدينة المحصورة ، واشتبك مع الليونيين فى معركة هزم فيها ، واستولى الليونيون على ماردة ، ثم احتلوا بعد ذلك بقليل مدينة بطليوس ، وذلك فى أواسط سنة ٦٢٧هـ ( ١٢٣٠ م ) . وكان فرناندو الثالث ملك قشتالة، وهو ولد ألفونسو التاسع ملك ليون ، يرقب الفرصة فى نفس الوقت ، لينتزع ما يمكن انتزاعه من أراضى الأندلس المتاخمة لقشتالة . فسير قواته لمقاتلة ابن هود ، وقد كان يبدو فى نظره

---

( ١ ) تحدثنا عن ظهور ابن هود تفصيلا فى كتابنا ( عصر المرابطين والموحدين ) القسم الثانى ص ٣٨٩ — ٣٩٣ .

ومئذ زعيم الأندلس الحقيقى . وكان ابن هود قد استطاع فى تلك الآونة ، أن يبسط سلطانه على الولايات والشواطىء الجنوبية ، فيما بين الجزيرة الخضراء وألمرية ، وفيما بين قرطبة وغرناطة ، وكان يرى فى مقاتلة النصارى عاملا لتدعيم دعوته وسلطانه . فسار للقائهم والتقى الجيشان فى فحص شريش على ضفاف نهر وادى لكه ، ولكن ابن هود هزم للمرة الثانية بالرغم من تفوقه فى العدد ( أواخر ٦٣٠ هـ — ١٢٣٣ م ) ، وسار فرناندو بعد ذلك لاجتياح أبدة ، فسقطت فى يده بعد حصار قصير ( ٦٣١ هـ — ١٢٣٤ م ) .

على أن سقوط قرطبة كان أعظم ضربة نزلت يومئذ بالأندلس . وكان ابن هود عقب هزيمته فى شريش ، قد جمع قواته ، وسار لقتال خصمه ومنافسه الجديد محمد بن الأحمر فى أحواز غرناطة ، وألفى النصارى من جانبهم الفرصة سانحة للزحف على قرطبة . وكانت عاصمة الخلافة القديمة ، بالرغم من دخولها فى طاعة ابن هود ، تعانى من حالة مؤلمة من الاضطراب والفوضى ، ولم يكن لها حاكم أو زعيم يجمع الكلمة أو يتزعم حركة الدفاع ضد النصارى . وكان القشتاليون فى الحصون القريبة ، يشعرون بضعف العاصمة التالدة ، وإمكان مهاجمتها ، فاجتمعت بعض قوى الفرسان القشتالية المرابطة فى حصون الحدود ، وسارت نحو قرطبة ، وهاجمت قسمها الشرقى المسمى « بالشرقية » ، واقتحمته ليلا ، وعلى غرة من أهله ، واستطاعوا الاستيلاء على بعض أبراجه ، ولكنهم رأوا أن الاستيلاء على المدينة ذاتها ليس بالأمر السهل ، ولابد لتحقيقه من قوات ضخمة . وعلم فرناندو الثالث ، وهو فى طريقه إلى ليون بما تم من استيلاء قواته على بعض أبراج المدينة ، وبما تبين من ضعف وسائل الدفاع عنها ، فارتد اليها مسرعاً تلاحقه قواته من سائر الأنحاء ، وضرب الحصار حول المدينة ، وبادر أهل قرطبة بالتأهب للدفاع عن مدينتهم ، وأرسلوا إلى ابن هود أميرهم الشرعى ، يطلبون الغوث والإنجاد . وقدر ابن هود خطورة الموقف ، واعتزم فى الحال أن يسير إلى إنجاد المدينة المحصورة ، فسار فى قواته نحو قرطبة ، ونزل فى إستجة على مقربة منها ، ولكنه لبث جامداً لا يحاول الاشتباك مع النصارى . وفى بعض الروايات أن ابن هود رأى جيش القشتاليين يفوقه فى الأهبة والكثرة ، فنكل عن الاشتباك معه . وفى البعض الآخر ، أن ابن هود ، وصله وهو على مقربة قرطبة صريخ أبى جميل

زيان زعيم بلنسية لمعاونته ضد خايمى[1] ملك أراجون ، الذى اشتد فى مناوأته وإرهاقه ؛ ولاح له أن السير إلى بلنسية التى كان يطمح إلى امتلاكها أيسر وأجدى ، فترك قرطبة لمصيرها ، مؤملا أن يصمد أهلها للدفاع عنها ، أو يستطيع إنقاذها فيما بعد . ولبث النصارى على حصار قرطبة بضعة أشهر ، ودافع القرطبيون عن مدينتهم وعن دينهم وحرياتهم ، أعنف دفاع وأروعه ، ولكنهم اضطروا فى النهاية ، وبعد أن أرهقهم الحصار ، وفقدوا كل أمل فى الغوث والإنقاذ ، إلى التسليم . ودخل القشتاليون قرطبة فى ٢٣ شوال سنة ٦٣٣ ﻫ ( ٢٩ يونيه سنة ١٢٣٦ م ) ، وفى الحال حولوا مسجدها الجامع إلى كنيسة[2] . وقد كان هذا شعارهم كلما دخلوا قاعدة أندلسية ، وذلك إيذاناً بظفر النصرانية على الإسلام . وكان لسقوط العاصمة الخلافية التالدة ، أعظم وقع فى الأندلس وفى سائر جنبات العالم الإسلامى ، وكان ضربة مميتة أخرى صوبتها اسبانيا النصرانية ، إلى قلب الأندلس المفككة المنهوكة القوى[3] .

ولم يلبث ابن هود أن توفى بعد ذلك بقليل فى أوائل سنة ٦٣٥ ﻫ (١٢٣٧م) . وكانت وفاته فى ثغر ألمرية ، فى ظروف غامضة . وكان قد سار إليها معتزماً أن ينقل بعض قواته فى البحر لإنجاد أمير بلنسية ، فقيل إن وزيره ونائبه فى ألمرية أبا عبد الله محمد بن عبد الله الرميمى استضافه فى قصره ، ودبر قتله غيلة ، وزعم فى اليوم التالى أنه توفى مصروعاً . وكان الرميمى قد قام بدعوته فى ألمرية ووفد عليه فى مرسية ، فقدر ابن هود عونه ، وولاه وزارته وعينه حاكماً لألمرية ، ثم تغير

---

( ١ ) خايمى **Jaime** وهو الرسم الإسبانى لاسم يعقوب .

( ٢ ) وما زال جامع قرطبة العظيم قائماً إلى يومنا بأروقته وعقوده وأعمدته الإسلامية كاملا كما كان أيام المسلمين . بيد أنه حول إلى كنيسة قرطبة الجامعة ، وأقيمت الهياكل فى سائر جوانبه تحت عقوده القديمة ، وأقيم فى وسطه مصلى كبير على شكل صليب **Crucéro** ؛ وقد أزيلت قبابه ونقوشه الإسلامية . ولم يبق محتفظاً بنقوشه القديمة سوى محاريبه الثلاثة . وما زال هذا الأثر الأندلسى العظيم إلى جانب تسميته بكتدرائية قرطبة يحمل اسمه الإسلامى القديم « المسجد الجامع » **La Mezquita Aljama** . راجع كتابى الآثار الأندلسية الباقية ( الطبعة الثانية ص ٢٠ — ٣٣ ) .

( ٣ ) راجع فى سقوط قرطبة ، ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٩ و ١٨٣ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٨٥ حيث يشير إليه إشارة عابرة مع تحريف فى التاريخ ، إذ يذكر أن سقوطها كان فى سنة ٦٣٦ ﻫ . وراجع التكملة لابن الأبار ( القاهرة ) ص ٢٠٢ . وقد تحدثنا عن سقوط قرطبة تفصيلا فى كتابنا « عصر المرابطين والموحدين » القسم الثانى ( ص ٤١٨ — ٤٢٥ ) .

عليه فيما يقال من أجل جارية نصرانية رائعة الحسن ، كان يودعها لديه وقد أغراها الرميمى واستأثر بها ، فسار إلى ألمرية لمعاقبته ، وخشى الرميمى العاقبة فدبر مصرعه ، ولجأ إلى الجريمة احتفاظاً بسلطانه . وكان مصرع ابن هود على هذا النحو فى الرابع والعشرين من جمادى الأولى سنة ٦٣٥ هـ ( ٢١ يناير ١١٣٨ م )[١] .

وهكذا توفى ابن هود وهو فى ذروة سلطانه ومشاريعه ، ولم تطل وثبته التى بثت إلى الأندلس مدى لحظة قصيرة أملا خلباً ، سوى بضعة أعوام ، فانهارت بوفاته دولته التى لم يتح لها كثير من أسباب الاستقرار والتوطد[٢] .

وكان المتوكل بن هود أميراً شجاعاً ، كريم الصفات ، يضطرم إخلاصاً وغيرة للقضية التى نصب نفسه للاضطلاع بها ، ولكنه لم يكن بصفاته وموارده كفوءا لتلك المهمة العظيمة ، وكانت تعتور جهوده نفس المثالب القديمة التى كانت تصدع دائماً من جهود الزعماء الأندلسيين ، والتى تتلخص فى مصانعة النصارى ، ومداراتهم ، ومساومتهم على حساب المصالح القومية .

وعلى أثر وفاة ابن هود وانهيار دولته ، بادر خايمى ملك أراجون بانتهاز الفرصة السانحة فغزا ولاية بلنسية . وكان قد استولى قبل ذلك بأعوام قلائل على الجزائر الشرقية ( جزائر البليار) فى سنة ٦٢٧—٦٣٢ هـ ( ١٢٣٠—١٢٣٥م ) . وكانت بلنسية ، فى الوقت الذى اضطرم فيه شرقى الأندلس بثورة ابن هود ، ما تزال فى أيدى الموحدين ، ويحكمها واليها السيد أبو زيد عبد الرحمن بن محمد ابن يوسف بن عبد المؤمن . ولما استولى ابن هود على مرسية ، خرج السيد أبو زيد فى قواته لمحاربته ، ولكنه ارتد مهزوما إلى بلنسية . فكان لذلك وقع عميق فى بلنسية ذاتها ، ونهض الشعب البلنسى ليحطم نير الموحدين ، وشعر السيد أبو زيد بحرج الموقف ، ونهض فى نفس الوقت زعيم من آل مردنيش ، زعماء بلنسية السابقين ، هو الأمير أبو جميل زيان بن مردنيش ، يحاول انتزاع السلطة ، والتف حوله الشعب البلنسى ، وعندئذ بادر السيد أبو زيد ، وغادر بلنسية فى أهله وأمواله والتجأ إلى أحد الحصون القريبة ، ولكنه لما رأى تفاقم الموقف ، اعتزم أمره

---

( ١ ) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٩ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٨٢ و٥٨٣ ؛ والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢٣٥ و٢٣٦ .

( ٢ ) راجع فى ثورة ابن هود ووفاته ، ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٨ — ١٧٠ ؛ والإحاطة ج ٢ ص ٩٠ — ٩٤ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٨١ — ٥٨٣ .

وسار ملتجئاً إلى خايمى الأول ملك أراجون ( ٦٢٦ هـ ) ، وعقد معه معاهدة تعهد فيها بأن يعطيه جزءاً من الحصون والأراضى الإسلامية التى يستردها أو يفتتحها ، ثم زاد على ذلك ، بأن اعتنق النصرانية ، وانضم بكليته إلى أعداء أمته ودينه ، وأخذ يسير مع حلفائه النصارى فى غزواتهم المتوالية لأراضى بلنسية . وأخذ الملك خايمى يستولى تباعا على حصون بلنسية الأمامية ، ثم هزم البلنسيين ، بقيادة أميرهم زيان ، هزيمة شديدة فى موقعة أنيشة ( ذى الحجة ٦٣٤ — أغسطس ١٢٣٧ ) . ولم تمض على ذلك أشهر قلائل ، حتى سار خايمى فى قواته صوب بلنسية وضرب حولها الحصار ( رمضان ٦٣٥ هـ ) ، وأخذ يضربها بالآلات المخربة . ودافع البلنسيون عن مدينتهم أشد دفاع ، وبعث الأمير أبوجميل كاتبه الفقيه الشاعر المؤرخ ، ابن الأبار القضاعى بصريخه سفيراً إلى الأمير أبى زكريا الحفصى عاهل إفريقية ، وألقى ابن الأبار بين يديه قصيدته السينية الرائعة التى نشير إليها فيما بعد ، وبعث الأمير أبو زكريا عدة من السفن محملة بالعتاد والأموال إنجادا للمدينة المحصورة ولكنها لم تستطع اختراق الحصار ، واضطر البلنسيون آخر الأمر إلى التسليم بعد أن استنفدوا كل وسائل الدفاع ، وسقطت بلنسية فى أيدى الأرجونيين ، وذلك فى اليوم السابع والعشرين من شهر صفر سنة ٦٣٦ هـ ( ٩ أكتوبر سنة ١٢٣٨ م )[١] ، وانهارت بذلك سائر خطط الدفاع عن شرقى الأندلس . وأتبع خايمى فتح بلنسية بالاستيلاء على شاطبة ودانية ولقنت وأوريولة وقرطاجنة ، وذلك فى سنة ٦٤١ — ٦٤٤ هـ . وأما ولاية مرسية فقد استولى عليها فى البداية الأمير أبو جميل زيان ، عقب فقده لبلنسية ، ولكن الزعماء المحليين آثروا الانضواء تحت حماية ملك قشتالة ، فتقدموا إليه يلتمسون مهادنته ومحالفته على الوضع المأثور ، وهو أن يسمح لهم باستبقاء مدنهم فى طاعته وتحت حمايته ، فأجابهم فرناندو ملك قشتالة إلى ملتمسهم ، وبعث إليهم ولده ألفونسو . ودخل النصارى مرسية صلحاً سنة ٦٤٠ هـ ( ١٢٤٣ م ) . وبذلك سقطت ولاية بلنسية ومرسية وشرقى الأندلس كله فى أيدى النصارى فى أعوام قلائل فقط ، وكانت نفس المأساة تتكرر فى ذلك الوقت نفسه ، بصورها وأوضاعها المحزنة ، فى غربى الأندلس حسبما نفصل بعد[٢] .

---

( ١ ) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٧ . والحلة السيراء لابن الأبار ص ١٩٠

( ٢ ) تناولنا حصار بلنسية وافتتاحها ، وسقوط باقى قواعد الشرق تفصيلا فى كتابنا « عصر المرابطين والموحدين » القسم الثانى ص ٤٣٧ — ٤٦٤ .

— ٢ —

وفى تلك الآونة العصيبة ، التى أخذت فيها قواعد الأندلس العظيمة : قرطبة ، وبلنسية ومرسية وإشبيلية ، تسقط تباعاً فى يد النصارى ، والتى أخذت الأندلس تواجه فيها شبح الفناء من جديد كما واجهته أيام الطوائف ، كانت عناصر الفتنة والفوضى تتمخض عن قيام مملكة إسلامية جديدة فى جنوبى الأندلس هى مملكة غرناطة . وقيام هذه المملكة فى الطرف الجنوبى للدولة الإسلامية القديمة ، يرجع إلى عوامل جغرافية وتاريخية واضحة . ذلك أن القواعد والثغور الجنوبية التى تقع فيما وراء نهر الوادى الكبير آخر الحواجز الطبيعية ، بين اسبانيا النصرانية وبين الأندلس المسلمة ، كانت أبعد المناطق عن متناول العدو وأمنعها ، وكانت فى الوقت نفسه أقربها إلى الضفة الأخرى من البحر ، إلى عُدوة المغرب وشمال إفريقية حيث تقوم دول إسلامية شقيقة ، وحيث تستطيع الأندلس وقت الخطر الداهم ، أن تستمد الغوث والعون من إخوانها فى الدين . وقد كان لها فى ذلك منذ أيام الطوائف أسوة ، بل لقد كان صريخ الأندلس يتردد فى تلك الآونة ذاتها على لسان شاعرها وسفيرها ابن الأبار القضاعى ، حينما دهم العدو بلنسية فى سنة ٦٣٥هـ ( ١٢٣٧م ) ، وكان الصريخ موجهاً من أميرها أبى جميل زيان ، إلى أبى زكريا الحفصى ملك إفريقية ( تونس ) ، وهو الذى ردده الشاعر فى قصيدته الشهيرة التى مطلعها : (١)

| | |
|---|---|
| أدرك بخيلك خيل الله أندلسا | إن السبيل إلى منجاتها درسا |
| وهب لها من عزيز النصر ما التمست | فلم يزل عز النصر منك ملتمسا |
| وحاش مما تعانيه حشاشتها | فطالما ذاقت البلوى صباح مسا |
| يا للجزيرة أضحى أهلها جزراً | للحادثات وأمسى جدها تعسا |
| فى كل شارقة إلمـام بائقـة | يعود مأتمها عند العـدا عرسا |
| وكل غاربة إجحـاف نائبـة | تثنى الأمان حذاراً والسرور أسى |
| تقاسم الروم لا نالت مقاسمهم | إلا عقائلها المحجوبة الأنسا |
| وفى بلنسية منهـا وقرطبـة | ما ينسف النفس أو ما ينزف النفسا |
| مدائن حلها الإشراك مبتسما | جذلان وارتحل الإيمان مبتئسا |
| وصيرتها العوادى العابثات بهـا | يستوحش الطرف منها ضعف ما أنسا |

(١) تراجع هذه القصيدة فى نفح الطيب ج ٢ ص ٥٧٨ وما بعدها ؛ وفى أزهار الرياض ج ٣ ص ٢٠٧ وما بعدها ، وهى من غرر القصائد الأندلسية السياسية .

وفى قول الشاعر يتمثل هذا المغزى التاريخى . الذى لبث أحقاباً يربط بين الأندلس وبين الدول الإسلامية الشقيقة فى عدوة المغرب ، وقد كان يتمثل واضحاً كلما اشتد الخطر بالأمة الأندلسية ، ولاح لها شبح الفناء فى جزيرتها المنقطعة قوياً رهيباً .

وقد قامت مملكة غرناطة ، التى شاء القدر أن تكون ملاذ الأمة الأندلسية دهراً طويلا آخر ، فى ظروف متواضعة . وذلك أنه لما ضعف أمر الموحدين بالأندلس ، وخرج عليهم محمد بن يوسف بن هود الملقب بالمتوكل كما قدمنا ، وأخذت قواعد الأندلس تخرج من قبضتهم تباعاً ، ينتزع بعضها ابن هود وثوار النواحى ، والبعض الآخر ينتزعه النصارى ، كان من الزعماء الذين ظهروا أثناء الفتنة محمد بن يوسف النصرى المعروف بابن الأحمر سليل بنى نصر ، وهم فى الأصل سادة حصن أرجونة[١] من أعمال ولاية جيّان . وهو محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن خميس بن نصر ابن قيس الخزرجى . ويُرجع بنو نصر نسبتهم إلى سعد بن عبادة سيد الخزرج وأحد أكابر الصحابة ، فهم بذلك من أعرق البطون العربية . وقد أشار إلى هذه النسبة بعض مؤرخى الأندلس ومنهم الرازى[٢]. وكان لبنى نصر وجاهة وعصبية. وولد محمد بن يوسف فى أرجونة سنة ٥٩٥ هـ ( ١١٩٨م ) ونشأ فى مهاد الفضيلة والتقشف جندياً وافر الجرأة والعزم ، يتزعم قومه ، ويقودهم إلى مواطن النضال ، وكان بالرغم من تقشفه وتواضعه يجيش بأطماع كبيرة ، وكانت حوادث الأندلس يومئذ تقدم لأولى العزم والإقدام كثيراً من فرص الظهور والمغامرة ، فلما تفاقمت الفتنة ، واضطربت الشئون فى الثغور والنواحى ، وكثرت غزوات النصارى لقواعد الأندلس ، وظهر ابن هود على الموحدين فى الثغور الشرقية ، لاحت لمحمد ابن يوسف فرصة العمل . وكان هذا الزعيم المتواضع الموهوب معاً ، يبدو لكثير من الزعماء وذوى الرأى ، معقد الآمال فى إنقاذ ما بقى من تراث الأندلس ، فالتفت حوله الصحب والأنصار ، أولا فى أرجونة موطن أسرته وعصبته ، وفى الجهات المجاورة لها . وبينما كان ابن هود يعمل لتوطيد سلطانه فى شرقى الأندلس وجنوبها ، كان محمد بن يوسف يعمل من جانبه فى الأنحاء الوسطى ، ولم يلبث

---

( ١ ) ومكانه اليوم بلدة أرجونه **Arjona** وهى بلدة صغيرة تقع شمال غربى مدينة جيان ، وجنوبى بلدة أندوجر .

( ٢ ) ابن خلدون ج ٤ ص ١٧٠ ؛ والإحاطة ج ١ ص ١٥٨ وج ٢ ص ٥٩ و ٦٠ ؛ وأزهار الرياض ج ١ ص ١٦٧ .

أن أطاعته جيّان وبسطة ووادى آش وما حولها من البلاد والحصون ، وبسط حكمه على تلك الأنحاء بالرغم من معارضة ابن هود . ثم اتجه ببصره إلى القواعد والثغور الجنوبية باعتبارها أقرب ميدان للعمل ، وأبعد الأماكن عن متناول العدو ، ورأى فى الوقت نفسه ، أن يستظل بدعوة أحد الأمراء المسلمين الظاهرين ، فدعا للأمير أبى زكريا الحفصى صاحب إفريقية ( تونس ) وتلقى منه بعض العون . وقيل أيضاً إنه حذا حذو ابن هود فى الدعاء للخليفة المستنصر بالله العباسى ؛ ونادت قرمونة وقرطبة وإشبيلية بطاعته لمدى قصير وذلك فى أواسط سنة ٦٢٩ هـ ، ثم عادلت قرطبة وإشبيلية عنه إلى طاعة ابن هود . ولما اضطرمت الثورة فى إشبيلية ، واستطاع زعيمها القاضى أبو مروان الباجى أن يبسط حكمه عليها ، وأن يخرج منها عامل ابن هود ، بادر محمد بن يوسف إلى محالفته على معارضة ابن هود ومقاتلته ، وهزماه سوياً فى بعض المواقع . ولكن محمداً غدر بعد ذلك بالباجى ليخلو له الجو ودس عليه من قتله . ولم يمض قليل على ذلك حتى أطاعته شريش ومالقة ، وكثير من القواعد والحصون القريبة ( سنة ٦٣٠هـ ) . أما إشبيلية وقواعد غربى الأندلس فقد احتفظت باستقلالها فى ظل بعض الزعماء المحليين . وهرع إلى لوائه كثير من المسلمين الذين غادروا المدن التى وقعت فى يد النصارى ، واستطاع أن يحشد جيشاً كبيراً من الفرسان والرجالة ، يؤازره فى تنفيذ خططه ومشاريعه[1]

ولما قويت دعوة ابن هود ، وامتد سلطانه نحو الغرب والجنوب ، واستولى على غرناطة وأقره الخليفة العباسى على دعوته ، رأى محمد بن يوسف ( ابن الأحمر ) مصانعته والانضواء تحت لوائه ، فانحاز إليه وجاهر بطاعته (٦٣١هـ) ولكن ابن هود ما لبث أن توفى فى أوائل سنة ٦٣٥ هـ وانهارت دولته كما قدمنا . وعندئذ بادر محمد بن يوسف إلى العمل ، لاجتناء تراثه فى الأنحاء الوسطى . وكان ابن هود قد ولى على غرناطة عتبة بن يحيى المغيلى ، وكان خصماً لابن الأحمر يأمر بسبه على المنابر ، وكان ظلوماً جائراً ، فلما اشتدت وطأته على أهل غرناطة ، ثار عليه جماعة من أشرافها بزعامة ابن خالد ، واقتحموا القصبة والقصر فى عصبتهم ، وقتلوا عتبة وأعلنوا طاعتهم لابن الأحمر ، وبعثوا إليه يستدعونه ؛ فسار ابن الأحمر إلى غرناطة ودخلها عند مغيب الشمس فى يوم من أواخر رمضان

---

( ١ ) البيان المغرب القسم الثالث ص ٢٧٩ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٦٩ ، واللمحة البدرية فى الدولة النصرية لابن الخطيب ص ٣١ .

سنة ٦٣٥ هـ (أبريل سنة ١٢٣٨ م) ، وهو يرتدى ثياباً خشنة وحلة مرقعة ، ونزل بجامع القصبة وأم الناس لصلاة المغرب ، ثم خرج من المسجد إلى قصر باديس ، والشموع بين يديه ، ونزل فيه مع خاصته ، وبذا غدت غرناطة حاضرته ومقر حكمه ، وكان ذلك لأشهر قلائل فقط من وفاة ابن هود[1] . وما كاد ابن الأحمر يستقر فى حاضرته الجديدة ، حتى عول على افتتاح ألمرية وسحق ابن الرميمى وزير ابن هود وقاتله ، فسار إليها فى بعض قواته وحاصرها مدة ، فلما اشتد عليها الحصار غادرها الرميمى من جهة البحر بأهله وماله فى سفينة خاصة ، وسار إلى تونس مستظلا بحماية أميرها أبى زكريا الحفصى ، وملك ابن الأحمر ألمرية وامتد بذلك سلطانه إلى سائر الشواطىء الجنوبية .

وكان من أعظم أعوان محمد بن يوسف فى تلك المعركة التى انتهت بتحقيق رياسته ، أصهاره بنو أشقيلولة وهم أسرة قوية نابهة من المولدين . وكان كبيرهم أبو الحسن بن أشقيلولة من رجالات الأندلس وزعمائها وقت الفتنة ، وكان من خصوم ابن هود ومن المقاومين لحركته ، فانحاز إلى محمد بن يوسف منذ الساعة الأولى ، وعاونه على مقاومة خصومه ، وتوثقت أواصر الزعيمين بالمصاهرة ، إذ تزوج أبو الحسن أخت محمد بن يوسف وتزوج ولده أبو محمد عبدالله بن أشقيلولة من ابنته . ولما استقام الأمر لابن الأحمر ، ندب صهره أبا الحسن لحكم وادى آش ، وندب أبا محمد لحكم مالقة . ولما توفى أبو الحسن خلفه فى حكم وادي آش ولده أبو إسحق . وتمكن نفوذ بنى أشقيلولة فى الرياسة وكانوا عضداً لابن الأحمر ، ولكن أطماعهم كانت تتجاوز حكم المدن ، وكان ابن الأحمر فى أواخر عهده يستريب بهم ويخشى بأسهم ، وقد ظهرت أعراض انتقاضهم غير بعيد[2] .

ويرى المستشرق الإسبانى دى لاس كاخيجاس ، أن قيام مملكة غرناطة فى ظل بنى نصر ، يبدو لغزاً حقيقياً . ذلك أنها ولدت فى ظروف غير ملائمة ، بل ضعيفة ذابلة ؛ ونشأ ابن الأحمر ، لا كابن هود أو ابن مردنيش ؛ وكلاهما ينتمى إلى أسرة حكمت ولاياتها منذ أيام الموحدين ، ولكن وحيداً فى بلده أرجونة

---

(١) اللمحة البدرية ص ٣٥ ؛ وراجع الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية ، وهو لمؤلف مجهول (طبع الجزائر سنة ١٩٢٠) ص ٦٠ ، وفيه أن دخول ابن الأحمر مدينة غرناطة كان فى آخر رمضان سنة ٦٣٦ هـ . ولكن معظم الروايات على أن دخوله كان فى ٦٣٥ .

(٢) ابن خلدون ج ٧ ص ١٩٧ هـ .

كحدث غير عادى ، بل ودون رسوخ محلى . وقد كانت قوته الحقيقية ، فضلا عن جرأة حركته ، تتركز فى أسرته الخاصة ، وفى جمع من الأصدقاء والحلفاء مثل بنى أشقيلولة المولدين .

ثم يبدى دهشته من أن مملكة غرناطة بالرغم من تكوينها من هضاب وبسائط يغلب عليها القفر أكثر مما يغلب الخصب ، وامتداد رقعتها من جيّان شمالا إلى الجزيرة جنوباً ، وبالرغم من أن الجند النصارى كانوا فى أحيان كثيرة يخترقونها بسهولة حتى مرج غرناطة ، فإن هذه العوامل كلها لم تكن شيئاً إزاء الحوادث المستقبلة . ولم يمنع تردد مؤسسها وتقلبه ، ولا ظروفها الجغرافية والاقتصادية السيئة ، من تقدمها وازدهارها ، ومن بقائها مدى قرنين ونصف سليمة موطدة ، وهى خلال هذا المدى الطويل تستأثر بأطماع النصارى الفتحية . ثم يقول : « حقاً إن ذلك كله لغريب ، بل إنه لينبو عن الإيضاح »(١) .

وهكذا نشأت إمارة غرناطة الصغيرة ، من غمر الفوضى التى سادت الأندلس ، على أثر انهيار سلطان الموحدين ، ولكنها كانت فى حاجة إلى الاستقرار والتوطد ، وكان محمد بن يوسف يواجه فى سبيل هذه المهمة كثيراً من الصعاب ، وكانت الأندلس قد مزقتها الحرب الأهلية شيعاً ، وانتثرت إلى حكومات ومناطق عديدة ، وكان ابن الأحمر يحظى بتأييد جمهرة كبيرة من الشعب الأندلسى ولاسيما فى الجنوب . ولم يك ثمة ما يمنع من التفاف الأمة الأندلسية كلها حول لواء هذا الزعيم المنقذ ، ولكن روح التفرق والتنافس كانت متأصلة فى نفوس المتغلبين والطامعين ، وكان أصاغر الزعماء والحكام يؤثرون الانضواء تحت لواء ملك النصارى ، والاحتفاظ فى ظله بمدنهم وقواعدهم ، على مظاهرة ابن الأحمر والانضواء تحت لوائه . وحدث ذلك بنوع خاص فى مرسية وشرق الأندلس حسبما أشرنا من قبل ، حيث ارتضى والى مرسية محمد بن على بن هود وحكام لقنت وأوريولة وقرطاجنة وجنجالة وغيرها ، أن يعقدوا الصلح مع ملك قشتالة على أن يعترفوا بطاعته ويؤدوا له الجزية ، وأن يبقوا متمتعين فى ظله بحكم مدنهم ومواردهم . وعلى أثر ذلك سلمت مرسية ودخلها ألفونسو ولد فرناندو الثالث ملك قشتالة فى احتفال فخم ( شوال ٦٤٠ هـ — أبريل ١٢٤٣ م ) . وهكذا كان الخلاف بين أبناء الأمة الأندلسية فى تلك الآونة العصيبة ، يذهب إلى حد التضحية

---

Isidro de la Cagicas : Los Mudéjares (Madrid 1948) P. 425 & 426. (١)

بأقدس المبادئ وأسمى الاعتبارات ، وكانت وشائج القومية والدين والخطر المشترك كلها ، تغيض أمام الأطماع الشخصية الوضيعة ، وكان فرناندو الثالث يرى فى ابن الأحمر بعد اختفاء ابن هود ، زعيم الأندلس الحقيقى والخصم الذى يجب تحطيمه . وكان ابن الأحمر من جانبه يقدر خطورة المهمة التى ألقاها القدر على عاتقه ، وكان يضطرم عزماً وإقداما لمحاربة النصارى ، واستخلاص تراث الوطن من أيديهم ، فما كاد يستقر فى غرناطة حتى نشط إلى محاربة النصارى وكانوا قد عاثوا فى أحواز جيان وخربوها ، وسار إلى قلعة مرتش[1] فى قوة كبيرة ، وضرب حولها الحصار ( ٦٣٦ هـ ) ، ولكن النصارى قدموا لإنجادها بسرعة ، واضطر ابن الأحمر إلى رفع الحصار ، ثم اشتبك فى معركة حامية مع النصارى ، وكان يقودهم ردريجو ألونسو وهو أخ غير شرعى لفرناندو الثالث ، وهزمهم هزيمة شديدة ، قتل فيها قائد مرتش ، وعدة من أكابر الفرسان وأحبار قلعة رباح . على أن مثل هذه المعارك المحلية لم تكن حاسمة فى سير الحوادث . وكان فرناندو الثالث يرقب نهوض هذه القوة الأندلسية الجديدة بعين التوجس ويتأهب لمقارعتها ، فما كاد ينتهى من إخضاع الثغور الشرقية والاستيلاء على مرسية ، حتى عمد إلى مهاجمة ابن الأحمر ، وكان يتوق إلى الانتقام لموقعة مرتش ، وبعث لقتاله جيشاً قوياً بقيادة ولده ألفونسو . وعاث النصارى فى منطقة جيان واستولوا على حصن أرجونة موطن بنى نصر ، وعدة حصون وأماكن أخرى من أملاك أمير غرناطة ، ثم حاصروا غرناطة نفسها (٦٤٢ هـ — ١٢٤٤ م ) ، ولكنهم ردوا عن أسوارها بخسائر فادحة . وفى العام التالى زحف النصارى على جيان وحاصروها ، حتى كادت تسقط فى أيديهم . فلما رأى ابن الأحمر تفوق النصارى وعبث المقاومة ، آثر مصانعة ملك قشتالة ومهادنته ، فسار إلى لقائه فى معسكره ، وقدم إليه طاعته ، ويرى بعض الباحثين أن قدوم ابن الأحمر على هذا النحو إلى فرناندو ، إنما كان تنفيذاً لاتفاق سابق ، تم فيه التفاهم على تحديد مملكة غرناطة[2] . وعلى أى حال فقد تم الاتفاق على أن يحكم ابن الأحمر مملكته وأراضيه باسم ملك قشتالة وفى طاعته ، وأن يؤدى له جزية سنوية ، قدرها مائة وخمسون ألف قطعة من الذهب (دوبلاس) ، وأن يعاونه فى حروبه ضد أعدائه ، فيقدم إليه عدداً من الجند أينما طلب منه ذلك ،

---

( ١ ) مرتش ، وبالاسبانية **Martos** ، بلدة حصينة تقع على مقربة من جنوب غربى مدينة جيان .

( ٢ ) **Prieto y Vives : De como debió nacer el Reino de Granada p. 14.**

وأن يشهد اجتماع مجلس قشتالة النيابى (الكورتيس)، باعتباره من الأمراء التابعين للعرش[1]. وسلم ابن الأحمر إلى فرناندو جيّان وأرجونة وبركونة وبيغ والحجار وقلعة جابر[2] رهينة بحسن طاعته، ونزل له عن أرض الفرنتيرة لعجزه عن الاحتفاظ بها[3]. وفى مقابل هذا الثمن الفادح عقد ملك قشتالة السلم مع ابن الأحمر لمدة عشرين سنة، وأقره على ما بقى بيده من القواعد والحصون (٦٤٣ هـ — ١٢٤٥ م)[4]. وهكذا أمنت غرناطة شر العدوان مدى حين، وقبل ابن الأحمر أن يضحى استقلاله السياسى وهيبته الأدبية احتفاظاً بأراضيه، وتطلعاً إلى ظروف أفضل يستطيع فيها النضال والصمود.

وفى تلك الفترة العصيبة، كانت الفتنة تمزق ما بقى من أوصال الأندلس، ويهرع الزعماء المسلمون الأصاغر، إلى مصانعة ملك قشتالة والانضواء تحت لوائه، وكانت اسبانيا النصرانية قد انتهت من الاستيلاء على الولايات الشرقية كلها، ولم يبق عليها سوى التهام الولايات الغربية. ولم يكن مثل ابن الأحمر وهو أعظم زعماء الأندلس يومئذ، مشجعاً على غير هذا المسلك المؤلم. فنى سنة ٦٤٥هـ (١٢٤٧م) نزل القاضى ابن محفوظ وهو من زعماء الغرب لملك قشتالة عن مدينة طبيرة، والعلى، وشلب، والخزانة، ومرشوشة، وبطرنا، والحرة[5]. وكان فرناندو الثالث يتأهب فى تلك الآونة ذاتها، لافتتاح إشبيلية أعظم القواعد الأندلسية. وكان قد استطاع قبل ذلك بأشهر أن يستولى على مدينة قرمونة حصن إشبيلية الأمامى، وذلك بمعاونة محمد بن الأحمر، وفقاً للتحالف المعقود بينهما، ثم عمد

---

(١) Crônica General (Ed. Pidal) Vol. I. p. 74

(٢) البيان المغرب القسم الثالث ص ٣٦٧، والذخيرة السنية ص ٧٢. وجيان وبالاسبانية Jáen من قواعد الأندلس القديمة وتقع جنوب شرق قرطبة، وشمال غرناطة. وأرجونة سبق التعريف بها. وبركونة Porcuna تقع جنوبى غربى أرجونة؛ والحجار Higuera تقع جنوب بركونة وكلتاهما من أعمال مدينة جيان، وبيغ أو بيغو Priego وتقع جنوب شرق قرطبة.

(٣) ابن خلدون ج ٧ ص ١٩٠، والفرنتيرة La Frontera هى المنطقة الساحلية الواقعة غربى الجزيرة الخضراء والممتدة من ثغر قادس جنوباً حتى طرف الغار.

(٤) الذخيرة السنية ص ٧٣؛ واللمحة البدرية ص ٣٦، والإحاطة ج ٢ ص ٦٥.

(٥) الذخيرة السنية ص ٧٦. وتقع هذه الأماكن كلها فى ولاية «الغرب» Algarve فى جنوبى البرتغال، ويحدد موقعها طبيرة Tavira وهى تقع على المحيط على مقربة من الحدود الإسبانية؛ وشلب Silves وهى تقع فى أقصى جنوب البرتغال الغربى على مقربة من المحيط.

بعد ذلك إلى افتتاح باقى الحصون القريبة من إشبيلية . واستطاع ابن الأحمر بنصحه وتدخله ، أن يقنع معظم أصحابها بتسليمها لملك قشتالة ، مقابل تعهده بأن يحقن دماء المسلمين ، وأن يمنحهم شروطاً سخية . ولم تأت أواسط سنة ١٢٤٧ م ( ٦٤٥هـ ) حتى كان ملك قشتالة ، قد استولى على جميع الحصون الأمامية لإشبيلية ، وانتسف سائر البسائط والضياع القريبة منها .

وبدأ النصارى حصارهم لإشبيلية فى أغسطس سنة ١٢٤٧م ( جمادى الأولى سنة ٦٤٥هـ ) . وحشد فرناندو حول المدينة المحصورة قوات عظيمة حشدت فى سائر أنحاء قشتالة ، وتسابق الأمراء والأشراف والأحبار النصارى ، فى الاشتراك فى هذه الحملة الصليبية الخطيرة ، ورابط أسطول قشتالى قوى فى نهر الوادى الكبير إحكاماً لمحاصرة المدينة من جهة البحر ، واضطر ابن الأحمر أن يقدم وفقاً لتعهده قوة من الفرسان للمعاونة فى حصار الحاضرة الإسلامية والاستيلاء عليها . وهكذا أرغم هذا الزعيم المسلم على أن يشرب الكأس المرة إلى الثمالة ، فى مخالفة أعداء وطنه ودينه . وتقول بعض الروايات الإسلامية ، إن ابن الأحمر كان يرمى بمعاونة النصارى على هذا النحو ، إلى الانتقام من أهل إشبيلية لخذلهم إياه ونكولهم عن طاعته[1]. وصمم أهل إشبيلية على الدفاع عن مدينتهم جهد الاستطاعة ، ولكن الموقف داخل المدينة كان غامضاً ومضطرباً . ذلك أن إشبيلية ، منذ خلعت طاعة الموحدين ، عند اضطراب أمرهم ، وانهيار سلطانهم ، كباقى القواعد الأندلسية ، لم تقم بها زعامة موحدة ، ولا تحدثنا الرواية الإسلامية عن أولئك الزعماء الذين ألقى القدر إليهم مهمة الدفاع عن إشبيلية فى تلك الآونة العصيبة ، ولكنا نعرف بعض الأسماء من الرواية النصرانية المعاصرة ، ومن بعض إشارات عابرة فى الرواية الإسلامية ، فهى تذكر لنا قائد الفحص شقّاف ، والرئيس ابن شعيب ، ويحيى ابن خلدون ، ومسعود بن خيار . وكان القائد شقاف ، فى الواقع ، هو الزعيم الحقيقى الذى يتولى أمر الدفاع ، وعليه تعقد الآمال . وطال الحصار حول إشبيلية وأخذ يشتد يوماً بعد يوم ، وكانت المدينة المحصورة تتلقى من وقت إلى آخر من عُدوة المغرب ، بعض المؤن عن طريق الوادى الكبير . ولما تفاقمت أهوال الحصار وضع شاعر إشبيلية يومئذ إبراهيم بن سهل الإشبيلى الإسرائيلى ، قصيدة مؤثرة يستصرخ فيها أهل العدوة ، ويستحثهم على المبادرة إلى نصرة إخوانهم فى الدين وفيها يقول :

( ١ ) ابن خلدون ج ٧ ص ١٩٠ .

وِرداً فمضمون نجاح المصـــدر ... هى عزة الدنيا وفوز المحشر
نادى الجهاد بكم بنصر مضمر ... يبدونكم بين القنــا والضُّـمَّر
خلوا الديار لدار عز واركبوا ... عبر العجاج إلى النعيم الأخضر
وتسوغوا كدر المناهل فى السرى ... ترووا بماء الحوض غير مكدر
يا معشر العرب الذين توارثوا ... شيم الحمية كابراً عن أكـبر
إن الإله قد اشترى أرواحكم ... بيعوا ويهنئكم وفاء المشترى
أنتم أحق بنصر دين نبيكم ... ولكم تمهـد فى قديم الأعصر
أنتم بنيتم ركنـــه فلتـدعموا ... ذاك البناء بكل لدن أسمر(١)

وطال حصار إشبيلية زهاء ثمانية عشر شهراً ، وأبدى المسلمون آيات من البسالة والجلد فى الدفاع عن حاضرتهم ، ولكن هذه البسالة لم تغن شيئاً أمام عزم النصارى وتصميمهم . وأخيراً اضطر الإشبيليون إلى قبول مصيرهم المحتوم ، وارتضوا تسليم المدينة ، على أن يؤمن المسلمون فى أنفسهم وأموالهم ، وأن يمهلوا شهراً لتسوية شئونهم وإخلاء دورهم والتأهب للرحيل ، ووضع ملك قشتالة الترتيبات اللازمة لنقل أهل المدينة بالبر والبحر إلى الجهات التى يقصدونها . وفى ٢٣ ديسمبر سنة ١٢٤٨ م ( أوائل رمضان سنة ٦٤٦ هـ ) دخل فرناندو الثالث مدينة إشبيلية فى موكب فخم ، وذلك بعد أن حكمها المسلمون أكثر من خمسة قرون ، وحكمها الموحدون زهاء قرن . وفى الحال حول مسجدها الجامع إلى كنيسة ، وأزيلت منها معالم الإسلام بسرعة ، وتفرق معظم أهلها المسلمين فى الحواضر الإسلامية الباقية ، ولا سيما غرناطة . وكان سقوط إشبيلية إيذاناً بسقوط سائر المدن والحصون الإسلامية الواقعة فيما بينها وبين مصب الوادى الكبير وفى المناطق المجاورة . وهكذا استولى النصارى تباعاً على شريش وشذونة وقادس وشلوقة وغليانة وروضة أوروطة وأركش وثغر شنتمرية(٢) ، وغيرها من قواعد الوادى

---

( ١ ) راجع هذه القصيدة بأكلها فى الذخيرة السنية ص ٧٤ وما بعدها .

( ٢ ) شريش وبالإسبانية **Jerez** تقع على مقربة من مصب نهر وادى لكه شمالى ثغر قادس ، وشذونة **Medina Sidonia** تقع جنوب شرقى قادس وسط أرض الفرنتيرة ، وقد اشتهرت بالموقعة التى حدثت على مقربة منها بين طارق فاتح الأندلس والقوط وانتهت بفتح اسبانيا ، وقادس **Cadiz** ، تقع جنوب شريش على المحيط الأطلنطى ، وشلوقة وهى الآن مدينة **San Lucar** ، وتقع شمالى شريش على المحيط ، وروضة هى **Ruta** أو **Roda** ، وتقع على مقربة من شلوقة على المحيط ، وأركش **Arcos** =

وحصونه ؛ وسلم ابن محفوظ فى الوقت نفسه للنصارى حصن اللقوة ووادى أنة وشنتل والحصين وشلطيش ، على أن يستبقى حكم لبلة وأحوازها(١) . وعاون ابن الأحمر النصارى فى الاستيلاء على ثغر قادس . وهكذا بسط القشتاليون سلطانهم على سائر الأراضى الإسلامية الواقعة غربى ولاية الأندلس ، وأخذت رقعة الدولة الإسلامية تنكمش بسرعة مروعة(٢) .

وكان موقف ابن الأحمر من هذه الحوادث موقفاً شاذاً مؤلماً ، فقد كان يقف إلى جانب أعداء أمته ودينه ، وكان يبذل للنصارى ما استطاع من العون المادى والأدبى ، وكان معظم الزعماء المسلمين من حكام المدن والحصون الباقية ، وقد أيقنوا بانهيار سلطان الإسلام فى الأندلس، يهرعون إلى احتذاء مثاله . وإلى الانضواء تحت لواء ملك قشتالة ، وكانت هذه المناظر المؤلمة تتكرر فى تاريخ الأندلس منذ الطوائف ، حيث نرى كثيراً من الأمراء المسلمين يظاهرون النصارى على إخوانهم فى الدين ، احتفاظاً بالملك والسلطان . ولكن ابن الأحمر كان يقبل هذا الوضع المؤلم إنقاذاً لتراث لم يكتمل الرسوخ بعد ، وتنفيذاً لأمنية كبيرة بعيدة المدى . ذلك أنه كان يطمح إلى جمع كلمة الأندلس تحت لوائه . وإدماج ما تبقى من تراثها وأراضيها فى مملكة موحدة ، تكون مُلكاً له ولعقبه . ولم تكن تحدوه رغبة فى توسع يجعله إلى الأبد أسيراً لحلفائه النصارى ، مثلما كان يفعل أسلافه زعماء الطوائف . بل كانت تحدوه قبل كل شىء رغبة فى الاستقلال ، والتوطد داخل حدود إمارته المتواضعة . وقد لبث يعمل على تحقيق هذه الغاية فى ولاية غرناطة والولايات المجاورة ، وهو يصانع النصارى ويتجنب الاشتباك معهم ، ويشهد التهامهم لأشلاء الوطن الممزق ، وقلبه يتفطر حزناً وأسى .

= تقع شمال شرقى شريش وسط المثلث الإسبانى ، وشنتمرية هى ثغر شنتمرية الغرب **Sta Maria de Algarve** وتقع جنوبى البرتغال على المحيط ، ومكانها اليوم مدينة فارو البرتغالية .

(١) الذخيرة السنية ص ٨٥ . وتقع هذه الأماكن فى ولاية الغرب على مقربة من مدينة أونبة (ولبة **Huelva** الحديثة ) شرقى نهر أوديل .

(٢) راجع حوادث حصار إشبيلية وسقوطها فى البيان المغرب القسم الثالث ص ٣٨١ و ٣٨٢ وابن خلدون ج ٤ ص ١٩٠ ، والذخيرة السنية ص ٧١ — ٧٦ . ومن المراجع القشتالية بالأخص : **Crónica General (Ed. Pidal) Vol. 1, No. 1080 - 1125** ، وقد أفردنا لسقوط إشبيلية ، فى كتابنا « عصر المرابطين والموحدين » فصلا كبيراً ، ويراجع فى القسم الثانى منه ص ٤٦٦ — ٤٨٨ .

على أن ابن الأحمر لم يكن يعتزم المضى فى ذلك المسلك المؤلم المهين إلى النهاية ، فقد كانت نفسه الوثابة تحدثه من وقت إلى آخر ، بأن يحطم هذه الأغلال الشائنة التى صفدته بها محالفة النصارى ، وكان كلما آنس ازدياد قوته ورسوخ سلطانه صلبت قناته وذكا عزمه ، وكان يتجه ببصره إلى ما وراء البحر ، إلى إخوانه فى الدين فى عدوة المغرب ، وكان جرياً على السياسة الأندلسية المأثورة يرى فى ملوك العدوة ، عضداً له قيمته فى مغالبة النصارى ، وكانت حوادث المغرب تتمخض فى ذلك الحين بالذات عن قيام دولة جديدة قوية هى دولة بنى مرين . ومع أن الكفاح بين دولة الموحدين المحتضرة وبين دولة بنى مرين الناشئة[1] ، كان يحول دون إنجاد الأندلس بصورة فعالة ، فإن كتائب المجاهدين من بنى مرين والمتطوعة من أهل المغرب ، لم تلبث أن هرعت إلى غوث الأندلس . وعبر القائد أبو معرف محمد بن إدريس بن عبد الحق المرينى وأخوه الفارس عامر ، البحر فى نحو ثلاثة آلاف مقاتل ، جهزهم أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق سلطان بنى مرين . وكانت حوادث الأندلس المؤسية تحدث وقعها العميق فى المغرب ، وكانت رسائل الأندلس تترى إلى أمراء المغرب وأكابرهم بالصريخ مما تكابده من عدوان النصارى واستطالتهم ، والاستنصار بأهل العدوة إخوانهم فى الدين ، وكان علماء المغرب وخطباؤه وشعراؤه يبثون دعوة الغوث والإنجاد ، ومن ذلك قصيدة مؤثرة وضعها أبو الحكم مالك بن المُرَحَّل ، وقرئت فى جامع القرويين بفاس فى يوم جمعة من أيام سنة ٦٦٢ هـ ، وبكى الناس تأثراً لسماعها ومما جاء فيها :

استنصر الدين بكم فاستقدموا    فإنكم إن تسلموه يسلم
لاذت بكم أندلس ناشرة    برحم الدين ونعم الرحم
فاسترحمتكم فارحموها إنه    لا يرحم الرحمن من لا يرحم
ماهى إلا قطعة من أرضكم    وأهلها منكم وأنتم منهم[2]

وكان لاهتمام المغرب بإنجاد الأندلس صداه . وكان ابن الأحمر قد بدأ فى الوقت نفسه يشعر بمقدرته على مواجهة النصارى والخروج على طاعتهم ، وحماية مملكته الفتية من عدوانهم . ولما فاتحه النصارى بالعدوان وغزوا أراضيه فى سنة ٦٦٠ هـ ( ١٢٦١ م ) ، استطاع بمعاونة قوات من المتطوعة والمجاهدين الذين

---

( ١ ) سنعود إلى التحدث عن قيام دولة بنى مرين فى موضع آخر .

( ٢ ) راجع الذخيرة السنية ص ١٠٨ — ١١٢ حيث يورد القصيدة بأكملها .

وفدوا من وراء البحر ، أن يهزمهم وأن يردهم عن أراضيه ، وبذلك ظهرت الأندلس على عدوها فى ميدان الحرب لأول مرة منذ انهيار دولة الموحدين . ولما عبرت الكتائب المرينية بعد ذلك بقليل ( ٦٦٢هـ ) ، استطاع قائدهم الفارس عامر ابن إدريس أن ينتزع مدينة شريش من يد النصارى ، ولكن لمدى قصير فقط[1].

وقد كانت هذه بارقة أمل متواضعة . ولكن الحوادث ما لبثت أن تجهمت للأندلس مرة أخرى . ذلك أن ملك قشتالة ( ألفونسو العاشر) خشى هذه البادرة على خططه وغزواته ، وخشى بالأخص أن تتضاعف الأمداد من وراء البحر فيشتد ساعد أمير غرناطة ، ومن ثم فقد عول أن يضاعف أهبته وضغطه على القواعد الأندلسية الباقية . ففى أواخر سنة ٦٦٢ هـ (١٢٦٣م) نزل ابن يونس صاحب مدينة إستجة عنها إلى النصارى[2] ، ودخلها دون خيل قائد القشتاليين ، فأخرج أهلها المسلمين منها ، وقتل وسبى كثيراً منهم وذلك بالرغم من تسليمها بالأمان . وفى العام التالى ( ٦٦٣هـ ) ظهرت نيات ملك قشتالة واضحة فى العمل على افتتاح ما بقى من القواعد الأندلسية ، وسرى الخوف إلى نواحى الأندلس ، وعادت الرسائل تترى على أمراء المغرب وزعمائه ، بالمبادرة إلى إمداد الأندلس ، وإغاثتها قبل أن يفوت الوقت ، خصوصاً وقد بدأ عدوان النصارى يحدث أثره ، وبدأت هزائم قوات ابن الأحمر فى ذلك الوقت على يد دون نونيودى لارا ( دوننه ) صهر ملك قشتالة وقائده الأكبر ( ٦٦٣ هـ — ١٢٦٤ م ) . وكتب الفقيه أبو القاسم العزفى صاحب سبتة رسالة طويلة إلى قبائل المغرب ، يستنصرهم فيها ويحثهم على الجهاد فى سبيل الأندلس ، وفيها يقول : « ولاتخلدوا بركون إلى سكون ، والدين يدعوكم لنصره ، وصارخ الإسلام قد أسمع أهل عصره ، والصليب قد أوعب فى حشده ، فالبدار البدار ، بإرهاب الحد وأعمال الجهاد فى نيل الجد.. »[3]. وتكرر مثل هذا الصريخ إلى سائر أمراء إفريقية ، وأعلن ابن الأحمر بيعته للملك المستنصر بالله الحفصى صاحب تونس ، فبعث إليه المستنصر

---

( ١ ) الذخيرة السنية ص ١١٢ .

( ٢ ) سبق أن أشرنا إلى سقوط إستجة فى يد النصارى سنة ١٢٣٧ م ، أعنى قبل ذلك بخمسة وعشرين عاماً ( ص ٢٠ ) . والظاهر أنها بقيت خلال هذه المدة بيد حكامها المسلمين تحت حماية ملك قشتالة على نسق كثير من المدن الأندلسية الأخرى ، التى لبثت حيناً بيد حكامها المسلمين بعد تسليمها صلحاً للنصارى .

( ٣ ) راجع هذه الرسالة فى الذخيرة السنية ص ١١٣ — ١٢٢ .

هدية ومالا لمعاونته(١) . ولكن هذه المساعى لم تسفر عن نتيجة سريعة ناجعة ، وبقيت الأندلس أعواماً أخرى تواجه عدوها القوى بمفردها وتتوجس من سوء المصير .

ولما تفاقم عدوان القشتاليين وضغطهم ، لم ير ابن الأحمر مناصاً من أن يخطو خطوة جديدة فى مهادنة ملك قشتالة ومصادقته ، فنزل له فى أواخر سنة ٦٦٥ ﻫ (١٢٦٧ م) عن عدد كبير من البلاد والحصون ، منها شَريش والمدينة والقلعة وغيرها . وقيل إن ما أعطاه ابن الأحمر يومئذ من البلاد والحصون المسورة للنصارى بلغ أكثر من مائة موضع ، ومعظمها فى غرب الأندلس(٢) ، وبذا عقد السلم بين الفريقين مرة أخرى(٣) .

وهكذا فقدت الأندلس معظم قواعدها التالدة فى نحو ثلاثين عاماً فقط (٦٢٧ــ ٦٥٥ ﻫ) فى وابل مروع من الأحداث والمحن ، واستحال الوطن الأندلسى الذى كان قبل قرن فقط ، يشغل نحو نصف الجزيرة الإسبانية ، إلى رقعة متواضعة هى مملكة غرناطة . وقد أثارت هذه المحن التى توالت على الأندلس ، فى تلك الفترة المظلمة من تاريخها لوعة الشعر والأدب ، ونظم شاعر العصر أبو الطيب صالح بن شريف الرندى ، مرثيته الشهيرة ، التى مازالت تعتبر حتى اليوم من أروع المراثى القومية وأبلغها تأثيراً فى النفس ، وفيها يبكى قواعد الأندلس الذاهبة ، ويستنهض همم المسلمين أهل العدوة لإنجاد الأندلس وغوثها ، وإليك بعض ما جاء . هذه المرثية الشهيرة التى خلدت ذكر ناظمها على كر الأحقاب :

لكل شىء إذا ما تم نقصان     فلا يغر بطيب العيش إنسان
هى الأمور كما شاهدتها دول     من سرّه زمن ساءته أزمان
وهذه الدار لا تبقى على أحد     ولا يدوم على حال لها شان
يمزق الدهر حتما كل سابغة     إذا نبت مشرفيات وخرصان

* * *

(١) الذخيرة السنية ص ١٢٥ .

(٢) راجع الذخيرة السنية ص ١٢٧ . وقد سبق أن أشرنا إلى تنازل ابن الأحمر لملك قشتالة عن أرض الفرنتيرة ، وفيها تقع شريش وقادس وغيرهما ، ولكن هذا التنازل كان اسميا ، واضطر النصارى إلى افتتاح هذه المدن بصورة فعلية . وكان سقوط شريش وقادس فى يد ألفونسو العاشر سنة ١٢٦٢ م . والظاهر أن المقصود هنا مصادقة ابن الأحمر على استيلاء النصارى على هذه القواعد .

(٣) يضع ابن الخطيب تاريخ عقد ابن الأحمر الصلح مع النصارى للمرة الثانية فى سنة ٦٦٢ﻫ .

فجائع الدهر أنواع منوعة ... وللزمان مسرّات وأحزان
وللحوادث سلوان يهونها ... وما لما حل بالإسلام سلوان
دهى الجزيرة أمر لا عزاء له ... هوى له أحد وانهد ثهلان
فاسأل بلنسيةً ما شأن مرسية ... وأين شاطبة أم أين جيّان
وأين قرطبة دار العلوم فكم ... من عالم قد سما فيها له شان
وأين حمص وما تحويه من نزه ... ونهرها العذب فيّاض وملآن
قواعد كن أركان البلاد فما ... عسى البقاء إذا لم تبق أركان
تبكي الحنيفية البيضاء من أسف ... كما بكى لفراق الإلف هيمان
على ديار من الإسلام خالية ... قد أقفرت ولها بالكفر عمران
حيث المساجد قد صارت كنائس ما ... فيهن إلا نواقيس وصلبان
حتى المحاريب تبكى وهى جامدة ... حتى المنابر ترثى وهى عيدان

* * *

أعندكم نبأ من أهل أندلس ... فقد سرى بحديث القوم ركبان
كم يستغيث بنا المستضعفون وهم ... أسرى وقتلى فما يهتز إنسان
ماذا التقاطع فى الإسلام بينكم ... وأنتم يا عباد الله إخوان(١)

* * *

وقضى ابن الأحمر الأعوام القليلة الباقية من حكمه ، فى توطيد مملكته وإصلاح

---

(١) راجع هذه المرثية البليغة بأكملها فى نفح الطيب ج ٢ ص ٥٩٤ و٥٩٥، وفى أزهار الرياض ج ١ ص ٤٧ — ٥٠ . وقد التبس الأمر على المقرى فى تعيين العصر الذى قيلت فيه هذه القصيدة والذى عاش فيه ناظمها صالح بن شريف فوصفه بأنه خاتمة أدباء الأندلس (أزهار الرياض ج ١ ص٤٧ ) . وذكر فى نفح الطيب أن أبياتاً أخرى أضيفت إليها تشتمل على ذكر بسطة وغرناطة وغيرهما ليست من نظم صاحبها لأنه توفى قبل سقوطها ( أى غرناطة ) مما يدل على اعتقاد المقرى بأن أبا الطيب عاش فى أواخر أيام مملكة غرناطة ( أواخر القرن التاسع الهجرى) . بيد أنه واضح من سياق القصيدة . وذكر القواعد الأندلسية التى تبكيها وهى بلنسية ومرسية وشاطبة وجيان وقرطبة وإشبيلية ، وهى التى سقطت كلها فى يد النصارى بين سنة ٦٣٥ هـ و٦٥٠ هـ ، أن الشاعر قد عاش فى هذا العصر . ومن جهة أخرى فقد ذكر صاحب الذخيرة السنية صراحة أنها نظمت حينما نزل ابن الأحمر للنصارى سنة ٦٦٥ هـ عن عدد كبير من القواعد الأندلسية . وقد توفى أبو الطيب الرندى بعد هذه الأحداث بنحو عشرين عاماً فى سنة ٦٨٤ هـ . وسنعود إلى ترجمته فى الكتاب الرابع .

شئونها ؛ وكان مذ شعر باستقرار الأمور فى مملكته ، قد اختار لولاية عهده ولده الأمير أبا سعيد فرج بن محمد بن يوسف ، ولكن هذا الأمير توفى فى سنة ٦٥٢هـ ، فاختار مكانه لولاية العهد ولده محمداً أكبر أولاده من بعده . وهكذا أسبغ ابن الأحمر على رياسة بنى نصر صفة الملوكية الوراثية(١) . ولم تقع فى تلك الفترة حوادث ذات شأن ، فقد لزم النصارى السكينة حيناً . ولكن ظهرت عندئذ أعراض الانتقاض على بنى أشقيلولة أصهار ابن الأحمر ومعاونيه ؛ وكان ابن الأحمر قد زوج فى سنة ٦٦٤ هـ إحدى بناته لابن عمه الرئيس أبى سعيد بن اسماعيل بن يوسف ووعده بولاية مالقة ، فنمى ذلك إلى واليها أبى محمد بن أشقيلولة ، وهو أيضاً زوج ابنته ، فغضب لذلك وأعلن العصيان والاستقلال بحكم المدينة ، فسار ابن الأحمر لقتاله تعاونه قوة من حلفائه النصارى ، وحاصروا مالقة ثلاثة أشهر ، ولكنهم ارتدوا عنها خائبين ( ٦٦٥ هـ — ١٢٦٦ م ) . وعاد ابن الأحمر فسار إلى مالقة مرة أخرى فى سنة ٦٦٨ هـ ، ولكنه لم ينل منها مأرباً (٢) .

وفى تلك الآونة عاد النصارى إلى التحرك والتحرش بالمملكة الإسلامية ، وسار ملك قشتالة ألفونسو العاشر إلى الجزيرة الخضراء فعاث فيها ، وعاد ابن الأحمر يتوجس شراً من نيات النصارى ، فبعث إلى أمير المسلمين السلطان أبى يوسف المرينى ملك المغرب يطلب منه الغوث والإنجاد ، ونصرة إخوانه المسلمين فيما وراء البحر ، ويخبره بما بدا من عدوان النصارى ونيتهم فى القضاء على ما بقى من ديار الأندلس ، ولكن ابن الأحمر لم يعش ليرى نتيجة هذه الدعوة ، إذ توفى بعد ذلك بقليل .

وكان محمد بن الأحمر يتمتع بخلال باهرة من الشجاعة والإقدام ، وشغف الجهاد ، والمقدرة على التنظيم ، إلى جم التواضع والبساطة . ويقدم لنا ابن الخطيب مؤرخ الدولة النصرية عنه هذه الصورة المؤثرة : «كان هذا الرجل آية من آيات الله فى السذاجة والسلامة والجمهورية ، جندياً ثغرياً ، شهماً ، أيِّداً ، عظيم التجلد ، رافضاً للدعة والراحة ، مؤثراً للتقشف والاجتزاء باليسير ، متبلغاً بالقليل ، بعيداً عن التصنع ، جافى السلاح ، شديد العزم ، مرهوب الإقدام ،

---

( ١ ) الإحاطة ج ٢ ص ٦٥ ، واللمحة البدرية ص ٣٦ ، والذخيرة السنية ص ٨٨ .
( ٢ ) الذخيرة السنية ص ١٢٥ و١٢٩ .

عظيم التشمير ، محتقراً للعظيمة ، مصطنعاً لأهل بيته ، فضاً فى طلب حظه ، حامياً لقرابته وأقرانه وجيرانه ، مباشراً للحروب بنفسه ، تتغالى الحكايات فى سلاحه وزينة ديابوزه ، يخصف النعل ،ويلبس الخشن ، ويؤثر البداوة ، ويستشعر الجد فى أموره »(١) .

وكان يعرف بالشيخ ويلقب بأمير المسلمين ، وهو اللقب الذى غلب على سلاطين غرناطة فيما بعد . وهو الذى ابتنى حصن الحمراء الشهير ، وجعله دار الملك، وجلب له الماء، وسكنه بأهله وولده . وأما تسميته بابن الأحمر فقد اختلفت فى شأنها الرواية . ويقال إن هذه التسمية ترجع إلى نضارة وجهه واحمرار شعره ؛ ويرى البعض أنها أسبغت عليه لإنشائه حصن الحمراء ؛ ولكن سوف نرى عند الكلام على تاريخ الحمراء ، أن هذا الاسم أقدم من الدولة النصرية ببضعة قرون، وأنه لا صلة بين هذا الإسم الذى أطلق على الحصن والقصور الملكية ، التى أنشأها محمد بن يوسف وبنوه من بعده ، وبين تلقيبهم ببنى الأحمر ، كما أنه ليس ثمة بين القبائل العربية أية قبيلة تحمل هذا اللقب ، ويمكن أن ينسب إليها بيت غرناطة الملكى(٢). وكان ابن الأحمر يباشر الأمور بنفسه، ويدقق فى جمع الأموال والجبايات حتى امتلأت خزائنه بالمال والسلاح . وكان يعقد للناس مجالس عامة يومين فى الأسبوع ، يستمع فيها إلى الظلامات وذوى الحاجات ، ويستقبل الوفود ، وينشده الشعراء . وكان يجرى فى تصريف شئون الملك على قاعدة الشورى ، فيعقد مجالس يحضرها الأعيان والقضاة ومن إليهم من ذوى الرأى ، للاسترشاد برأيهم ، ونصحهم(٣). وكان فى مقدمة وزرائه أبومروان عبد الملك بن يوسف بن صناديد زعيم جيّان ، وهو الذى مكنه من التغلب عليها ، والقائد أبو عبد الله محمد بن محمد الرميمى ولد صاحب المرية السابق . وكان بين كتابه المحدث الشهير أبو الحسن على بن محمد بن سعيد اليحصبى اللوشى . وكان من شعرائه أبو الطيب الرندى

---

(١) الإحاطة فى أخبار غرناطة ج ٢ ص ٦١ .

(٢) راجع مقدمة أطلس« الحمراء »**Alhambra** الذى وضعه **Owen Jones & Jules Goury** وكتبها المستشرق جاينجوس ( **London 1842** ) ص ٥ الهامش . وتسمى الدولة النصرية على الأغلب بدولة بنى الأحمر ، ويؤثر ابن خلدون تسميتها بذلك الاسم (ج ٤ ص ١٧٠ وما بعدها) .

(٣) ابن خلدون ج ٧ ص ١٩٠ ؛ واللمحة البدرية ص ٣١ .

صاحب المرثية الشهيرة ، وهو الذى سبقت الإشارة إليه . وكان أثيراً لديه ، وقد نظم فى مدحه بعض غرر قصائده .

وإليك كيف يصور النقد الغربى الحديث خلال منشىء مملكة غرناطة وظروف مملكته : «كان محمد بن الأحمر من أبرع أولئك الأمراء الذين كان لهم فضل خلال العصور المضطربة ، فى الدفاع عن الإسلام ومجد المسلمين ، وكان جريئاً بعيد الغور ، ولكن مكره لم يكن راجعاً إلى طبيعة خبيثة وضيعة ،ولكن إلى خلق خصومه الذين كان مرغماً على مقارعتهم . ففى العصور الوسطى كان قانون الأمم وعقد المعاهدات ، ومجاملات الفروسية وشروط السلم الشريف ، تفهم بطريقة ناقصة ، وكثيراً ما تنتهك بعمد ، وكانت معظم نقائص هذا الأمير العظيم، ترجع إلى أخلاق العصر المنحلة ، وكانت بوادر خضوعه لأعدائه الألداء مظاهر فقط لسياسة محكمة التدبير ، أقدم عليها لإحراز ملكه وتوطيد سلطانه ، وكان تقدم الغزو المستمر يرهق مملكته ، ولكنها كانت تغدو أقوى ويغدو الدفاع عنها أيسر ، كلما انكمشت حدودها . وكان القشتاليون كلما احتلوا مدينة جديدة ، هرعت منها جمهرة من المهاجرين العاملين إلى غرناطة ، فتزيد سكانها كثرة على كثرة ، يحملون معهم ثروات عظيمة ، وصفات هى أثمن من الثروة لدولة منحلة : النشاط والاقتصاد ، والمقدرة على هضم الظروف الجديدة ، وذكرى المظالم السابقة ، وآلام المطاردة المحزنة ، وأمل الانتصاف ، وشعور لا يقهر ببغض النصرانية . وكان الاندماج السياسى لهذه الجماعات المنفية المضطهدة ، فى حماية الجبال التى تظلل ملاذها الأخير ، هو الذى عاون فى حفظ مملكة غرناطة الزاهرة لمجدها المستقبل ومحنتها الغامرة »[1].

وتوفى محمد بن الأحمر فى التاسع والعشرين من جمادى الثانية سنة ٦٧١ هـ ( ديسمبر ١٢٧٢ م ) على أثر سقطة من جواده ، حين عوده من معركة رد فيها جمعاً من الخوارج الذين حاولوا الزحف على الحمراء فى منتصف جمادى الثانية من العام المذكور ، فحمل جريحاً إلى القصر وتوفى بعد ذلك بأسبوعين ، وقد قارب الثمانين من عمره ، ودفن بالمقبرة العتيقة بأرض السبيكة[2] . وكانت مملكة

---

( ١ ) **Scott : The Moorish Empire in Europe, V. II p. 433-34**

( ٢ ) الإحاطة ج ٢ ص ٦٦ . وقد كان اسم السبيكة يطلق على البسيط الذى يقع جنوب شرق الحمراء .

غرناطة قد توطدت دعائمها نوعاً ، واستقر بها ملك بنى نصر الفتىّ على أسس ثابتة . وكان من حسن الطالع أنه لم يظهر فى مملكة غرناطة فى بداية أمرها زعماء خوارج ينازعون بنى نصر زعامتهم . ولذا لم نشهد فى هذه الأندلس الجديدة مأساة الطوائف مرة أخرى ، وإن كان تاريخ الدولة النصرية لم يخل من ثورات وانقلابات محلية عديدة . وقد كان من غرائب القدر أن هذه المملكة الإسلامية الصغيرة ، استطاعت غير بعيد ، أن تعيد لمحة من مجد الأندلس الذاهب ، كما استطاعت بكثير من الشجاعة والجلد ، أن تسهر على تراث الإسلام فى الأندلس ، زهاء مائتين وخمسين عاماً أخرى .

# الفصل الثالث

## طوائف الأمـــة الأندلسية

### فى عصر الانحلال

مملكة غرناطة وحدودها . عناصر سكانها . المدجنون . تاريخهم وحياتهم فى ظل الممالك النصرانية . وثائق هامة تلقى ضوءاً على أحوالهم . الأحكام الشرعية فى شأنهم . اضطهادهم على يد الكنيسة . نشاطهم وتفوقهم . النصارى المعاهدون وأحوالهم فى ظل الحكومة الإسلامية . تعصبهم وخياناتهم . هجرة الأندلسيين من مختلف القواعد إلى غرناطة . عناصر الأمة الأندلسية . المولدون . اليهود . الشعب الغرناطى . صفاته وخلاله .

كانت مملكة غرناطة عند قيامها فى أواسط القرن السابع الهجرى تشمل القسم الجنوبى من الأندلس القديمة ، وتمتد فيما وراء نهر الوادى الكبير إلى الجنوب ، حتى شاطىء البحر الأبيض المتوسط ومضيق جبل طارق ، ويحدها من الشمال ولايات جيّان وقرطبة وإشبيلية ، ومن الشرق ولاية مرسية وشاطئ البحر المتوسط الممتد منها إلى الجنوب ، ومن الغرب ولاية قادس وأرض الفرنتيرة . وكانت تشتمل عندئذ على ثلاث ولايات كبيرة ، وهى ولاية غرناطة الواقعة فى الوسط ، والممتدة جنوباً حتى البحر ، وأهم مدنها العاصمة غرناطة ، ووادى آش وبسطة وأشكر وحصن اللوز ولوشة والحامة وأرحبة والمنكب وشلوبانية . وولاية ألمريّة وهى تمتد من ولاية مرسية حتى البحر ، وأهم مدنها ثغر ألمرية وبيرة والمنصورة وبرشانة وبرجة ودلاية وأندَرَش . وولاية مالقة ، وهى تقع على البحر غربى غرناطة ، وأهم مدنها ثغر مالقة ، وبلّش مالقة وطرُّش وقارش وآرشدونة وأنتقيرة ورندة ومربلة . ويلحق بها منطقة جبل طارق والجزيرة الخضراء وطريف .

وتخترق مملكة غرناطة من الوسط جبال سيرّا نقادا ( جبل شلير ) الشاهقة ، وهضاب البشرّات الوعرة وبسائطها الخضراء ، كما تخترقها عدة أنهار منها شَنيل فرع الوادى الكبير ونهر أندرش الصغير ، وفى الشرق نهر المنصورة . وكانت خواصها الطبيعية التى تجمع بين مزيج مدهش من المروج والوديان الخصبة ، والجبال والهضاب الوعرة ، تمدها بثروات زراعية ومعدنية حسنة ، ينميها

ويضاعفها الشعب الأندلسى الموهوب، بذكائه ونشاطه وبراعته المأثورة . وهكذا كانت مملكة غرناطة الصغيرة ، تستمد من مواردها الطبيعية ، أسباب القوة والمنعة والرخاء .

وقد رأينا فيما تقدم أن كورة إلبيرة ، وهى التى غدت فيما بعد كورة غرناطة ، كانت منذ الفتح منزل قبائل الشام ، وقد لبثت أعقاب هذه البطون مدى عصور كثيرة فى تلك الولاية . ولما اضطرمت الفتن بالأندلس عقب انهيار الدولة الأموية ، تقاطر البربر من الضفة الأخرى من البحر على قواعد غرناطة ، ثم غدت مدينة غرناطة مدى حين إمارة بربرية ، وأصبح البربر عنصراً بارزاً فى سكان هذه المقاطعة . وكانت الثغور الجنوبية بطبيعة الحال ، منزل البربر كلما عبروا إلى الأندلس ، وخصوصاً أيام المرابطين والموحدين . وكانت طوائف كبيرة من الغزاة ، تتخلف فى هاتيك الوديان النضرة وتستقر فيها ، يجذبهم خصبها ونعماؤها . ولما أخذت قواعد الأندلس الشرقية والوسطى تسقط تباعاً فى أيدى النصارى ، كان يهرع إلى القواعد والثغور الجنوبية كثير من الأسر المسلمة الكريمة ، التى آثرت الهجرة إلى أرض الإسلام ، على التدجُّن والبقاء تحت سلطان النصارى . على أنه بقيت فى القواعد والثغور التى استولى عليها النصارى جموع كبيرة من المسلمين ، الذين حملتهم ظروف الأسرة ودواعى العيش على البقاء فى الوطن القديم ، تحت حكم الإسبان سادتهم الجدد . وأولئك هم المدجَّنون[1] ( أو بالإسبانية Mudéjares ) أو أهل الدجن . وقد شاع استعمال هذا اللفظ بالأندلس منذ أوائل القرن السابع الهجرى ( الثالث عشر الميلادى ) أو بعبارة أخرى مذ كثرة استيلاء النصارى ، على أراضى المسلمين ، وكثر عدد الرعايا المسلمين الذين تضمهم اسبانيا النصرانية فى هذه الفترة بالذات سقطت معظم قواعد الأندلس فى أيدى النصارى ، وسقطت منها فى الشرق ، بلنسية وشاطبة ودانية ، ولقنت ، وأوريولة ، ثم مرسية ، وسقطت فى الوسط قرطبة وجيان ، وسقطت فى الغرب ماردة وبطليوس وإشبيلية وقرمونة ولبلة وغيرها — سقطت هذه القواعد الأندلسية التالدة كلها فى أيدى النصارى فى النصف الأول من القرن السابع الهجرى ، وبقيت من أهلها المسلمين طوائف كبيرة تحت حكم الإسبان ، وهى التى غدت مجتمع المدجنين . وكان أكثر

---

( ١ ) من دجن وتدجن أى أقام ، ومصدره الدجن والتدجن ومنه دواجن البيوت وهى طيور وحيوانات أليفة مقيمة .

المدجنين احتشاداً فى شرقى الأندلس فى منطقتى بلنسية ومرسية . ولهذا المجتمع الإسلامى الإسبانى تاريخ طويل مؤثر . فقد لبث المدجنون عصراً ، يتمتعون فى ظل ملوك قشتالة وأراجون ، بنوع من الطمأنينة والرخاء والأمن ، فكان يسمح لهم بالاحتفاظ بدينهم وشريعتهم ومساجدهم ومدارسهم ، وكان لهم فى العصور الأولى قضاة منهم يحكمون فى سائر المنازعات التى تقع فيما بينهم وفقاً للشريعة الإسلامية ؛ أما المنازعات التى تقع بين مسلم ونصرانى ، فكان ينظرها أحياناً قاض نصرانى أوتنظرها محكمة مختلطة من قضاة من المذهبين. وكان من امتيازاتهم ، أن لا يدفعوا من الضرائب غيرما كانوا يؤدونه من قبل لملوكهم ، ثم ترك هذا الامتياز بمضى الزمن ، وأصدر الفونسو العاشر فى سنة ١٢٥٤ م لسكان إشبيلية ، امتيازاً يخولهم حق شراء الأراضى من المسلمين فى منطقتهم ، مما يدل على أنه قد سمح للمسلمين بالاحتفاظ بأراضيهم ، وكان لهم حق البيع والشراء فى العقارات. فلما تطورت الحوادث ، وغلبت النزعة الرجعية فى أواخر القرن الثالث عشر ، صدر قانون يحرم على المسلمين واليهود شراء الأراضى من النصارى ، ولكن ترك هذا القانون فيما بعد . وكان يسمح للمدجنين أيضاً بحمل السلاح ، ويلزمون بتأدية الخدمة العسكرية ، ويعتبر الإعفاء منها امتيازاً خاصاً . ثم أعفى المدجنون بعد ذلك من الخدمة العسكرية نظير جزية سنوية يؤدونها، وكان انضمامهم إلى الجيوش النصرانية يقع فى حدود نسبتهم العددية . ولما توالى استيلاء الإسبان على القواعد والثغور الأندلسية ، كان يخصص للمدجنين فى كل مدينة مفتوحة حى خاص لإقامتهم ، يفصل بينه وبين أحياء النصارى سور ضخم ، وكان هذا هو شأن اليهود أيضاً حيث كانوا يلزمون بالإقامة فى حى خاص بهم(١).

وتوجد فى كتدرائية سرقسطة مجموعة من وثائق عربية تلقى ضوءاً على تاريخ المدجنين وأحوالهم فى مملكة أراجون منذ القرن العاشر الميلادى إلى القرن الخامس عشر. وهى عبارة عن طائفة من عقود البيع والشراء والوديعة وغيرها التى عقدت بين أفراد من المدجنين وبين المدجنين والنصارى ، وفيها وثائق محررة فى تواريخ متأخرة فى سنة ١٤٨٢ ، وسنة ١٤٩٦ . ويستفاد من تلاوتها أن المدجنين فى مملكة أراجون ، كانوا إلى هذا العصر المتأخر ، حتى بعد سقوط غرناطة فى يد الإسبان ،

---

Dr. H. Ch. Lea : History of the Inquisition in Spain, V. I. p. 62-64. (١)

يحتفظون بدينهم الإسلامى ، وأنه كانت ما تزال ثمة بعض مساجد قائمة فى بعض أنحاء ولاية سرقسطة .

( ١ ) ومن ذلك وثيقة مؤرخة فى شهر ربيع الأول سنة ٦٤٤ هـ (١٢٤٦م) تبدأ بالبسملة والصلاة على النبى ، وهى عقد شراء ، يشترى بمقتضاه « أحمد المران » من « محمد بن سلمة البرتيالى » جميع ما له من أملاك وديار ببطرة قرية ابتورة ... بثمن مبلغه وعدته تسعون دنبراً قناشر من القناشر الجارية بسرقسطة... وذلك كله على سنة المسلمين فى طيبات بيوعاتهم ومرجع أدركهم وارتضاء ذلك البيعة المذكورة الشنيور من القرية المذكورة القسيس الأجل دون برتُلماوو شنت جيل عن إذن الأقسة من الكنيسة المذكورة ، شهد على إشهاد المتبايعان المذكوران من أشهداه ، وسمع منهما ، وعرفهم ، والجميع بحالة الصحة والجواز فى شهر ربيع الأول من سنة أربعة وأربعين وستمائة » .

( ٢ ) ووثيقة مؤرخة فى ٩ أغسطس سنة ١٤٨٤، ورد فيها ما يأتى :

« الحمد لله وحده ، أشهد على نفسه الكريم فرج الطليطلى الساكن بموضع قلعة التراب شهداء هذا الكتاب قولا بالحق وانقياداً إليه، أن عليه وفى ذمته وماله من المكرمان برول وكبتلة من شنت مرى لميور والسبداد ذاسرغوس وديعة محضة وأمان مؤتمن وذلك خمسون قفزاً قمح طيباً نقباً من مكايل مدينة سرقسطة... » .

وكتب هذه الوثيقة : « محمد بن محمد الأزقة فقيه وخادم مسجد قلعة التراب »

( ٣ ) ووثيقة مؤرخة فى شهر فبراير عام احدى وتسعمائة (١٤٩٦م) تبدأ أيضاً بالبسملة والصلاة على النبى . وهى عبارة عن إقرار كل من « موسى الحسن وابن عبد الله محمد بن فرج المحه الساكنون فى بلدة الحمام بأنهم يحبسون وديعة قمح » لمن يدعى « أبو باكر ابن أبو باكر ، من أهل قاعة التراب » .

وكاتب الوثيقة هو : « ابراهيم البساتنى اليى هليجى خديم جامع البلد المذكور »(١) .

وعثرنا فى متحف بلدية بنبلونة على وثيقة عربية وحيدة مؤرخة فى « التاسع من شهر أبريل عام احدى وثمانمائة » (١٣٩٨ م) وهى عبارة عن إشهاد بالدين

---

( ١ ) قام بدراسة هذه الوثائق المستشرق الإسبانى R. Garcia di Linares فى بحث عنوانه **Escrituras Arabes pertenecientes al Archivo de Nuestra Senora del Pilar de Zaragoza** ومنشور فى كتاب **Homenaje a Francisco Codera (Zaragoza 1904) p. 171-197**

بسم الله الرحمن الرحيم

وثيقة مدجنية **Mudéjar** محفوظة بمتحف بلدية بنبلونة وهى عبارة عن إشهاد بالدين
ومؤرخة فى سنة ٨٠١ هـ ( ١٣٩٨ م )

مستهلة بالبسملة والصلاة على النبي ومحررة أمام « القاضى الأروع الأورع أبى الحسن على القريشى » . وقد جاء فيها ما يأتى :

« أشهدوا على أنفسهم أبو الحجاج يوسف الحضرمى ومحمد بن محمد بن جعفر الزهرى ، ويوسف بن زيد ، وأحمد بن المكحل، ويوسف شداد بن دجنبر مسلمان ساكنان فى ربض المسلمين ببلدة برجة حاضرون بغايبون كل واحد منهم عنه وعن الكل، بأنهم دانوا الاشتراك الشابلى إسرايل ساكن بلدة المذكورة أولمن ظهر هذا العقد عنده ثلثماية واثنين وثلثين فلريناش ذهباً قالب أرغون من سكة طيبة موزونة ... الخ » وفى ذيلها عدة من أسماء الشهود المسلمين .

وفيما أوردناه من نص هذه الوثيقة ، ما يدل على أنه كانت توجد فى تلك المنطقة النائية من شمال اسبانيا ، فى بلاد نافار ، أقليات مسلمة لها أحياء خاصة حيث وجدت ، وتتمتع بالتعامل بلغتها القومية أمام قاضيها الخاص، وذلك فى هذا العصر المتأخر ، فى أواخر القرن الرابع عشر ، أعنى بعد مرور أكثر من ثلاثة قرون على استيلاء النصارى على سائر القواعد الإسلامية فى تلك الأنحاء .

وكانت مسألة التدجن هذه وبقاء المسلمين فى الأرض التى يفتتحها النصارى تثير كثيراً من المسائل الفقهية ، وكان بعض الفقهاء يرمى أولئك المدجنين بالمروق عن الإسلام لبقائهم تحت حكم النصارى . وقد عثرت خلال بحوثى فى مكتبة الإسكوريال على رسالة مخطوطة تتناول هذه المسألة ، وهى عبارة عن فتوى طلبها أحد الفقهاء عن حكم الشرع فيمن آثر من المسلمين الأندلسيين الهجرة من دار الإسلام إلى الأراضى المفتوحة ليعيش تحت حكم النصارى ، والمقصود بهؤلاء بنوع خاص أولئك الذين هاجروا من القواعد الأندلسية المفتوحة إلى بلاد المغرب ، ثم لم يجدوا بها ما أملوا من رخاء ويسر فى العيش ، وترتب على ذلك أنهم ندموا على هجرتهم ، وتمنوا العودة إلى ديارهم القديمة تحت حكم ملك قشتالة ، وتتضمن الرسالة الأسئلة الآتية :

« ما حكم من تمادى من المسلمين فى ذلك ؟ وما حكم من عاد منهم إلى دار الكفر بعد حصوله فى دار الإسلام ؟ وهل يجب وعظ هؤلاء أو يعرض عنهم ويترك كل واحد منهم لما اختاره ؟ وهل من شرط الهجرة أن لا يهاجر أحد إلا إلى دنيا مضمونة يصيبها عاجلا عند وصوله ، جارية على وفق غرضه حيث حل من نواحى الإسلام ، أو ليس ذلك بشرط بل تجب عليهم الهجرة من دار الكفر إلى دار

الإسلام، إلى حلو أو مر أو وسع أوضيق أوعسر أو يسر بالنسبة لأحوال الدنيا ، وإنما القصد بها سلامة الدين والأهل والولد ، والخروج من حكم الملة الكافرة إلى حكم الملة المسلمة، إلا ما شاء الله من حلو أو مر أوضيق عيش أو سعة ونحو ذلك من أحوال الدنيا .

وقد رد الفقيه المسئول ، وهو أحمد بن يحيي التلمسانى الونشريشى عن هذه المسائل بما خلاصته :

١ — ان الهجرة من أرض الكفر إلى أرض الإسلام فريضة إلى يوم القيامة ، وكذلك الهجرة من أرض الحرام والباطل . وهو يؤيد قوله بطائفة من الأحاديث النبوية .

٢ — ولا يُسقط هذه الهجرة الواجبة على هؤلاء الذين استولى الطاغية على معاقلهم وبلادهم ، ولا يتصور العجز عنها بكل وجه وحال ، لا الوطن ولا المال ، فإن ذلك كله ملغى فى نظر الشرع . وأما المستطيع بأى وجه كان وبأى حيلة تمكنت ، فهو غير معذور وظالم لنفسه إن أقام . والظالمون أنفسهم إنما هم التاركون للهجرة مع القدرة عليها حسبما تضمنه قوله تعالى : « ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ... » . والمعاقب عليه إنما هو من مات مصراً على هذه الإقامة.

٣ — وتحريم هذه الإقامة تحريم مقطوع به من الدين ، كتحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وقتل النفس بغير حق ... ومن جوّز هذه الإقامة واستخف أمرها، واستسهل حكمها فهو مارق من الدين ، ومفارق لجماعة المسلمين ، ومحجوج بما لا مدفع فيه لمسلم ، ومنبوذ بالإجماع الذى لا سبيل إلى مخالفته وخرق سبيله . قال زعيم الفقهاء القاضى أبو الوليد بن رشد رحمه الله فى أول «كتاب التجارة ، إلى أرض الحرب » ، من مقدماته : فرض الهجرة غير ساقط بل الهجرة باقية لازمة إلى يوم القيامة ، وأجاب بإجماع المسلمين على من أسلم بدار الحرب أن لا يقيم بها حيث تجرى عليه أحكام المشركين ، وأن يهجره ويلحق بدار المسلمين حيث تجرى عليه أحكامهم .

٤ — ثم لما نبعت هذه الموالاة النصرانية فى المائة الخامسة وما بعدها من تاريخ الهجرة وقت استيلاء ملاعين النصارى دمرهم الله على جزيرة صقلية وبعض كور الأندلس ، سئل فيها بعض الفقهاء ، واستفهموا عن الأحكام الفقهية المتعلقة بمرتكبها ، فأجاب بأن أحكامهم جارية مع أحكام من أسلم ولم يهاجر ، وألحقوا

هؤلاء المسئول عنهم والسكوت عن حكمهم بهم ، وسووا بين الطائفتين فى الأحكام الفقهية المتعلقة بأموالهم وأولادهم ولم يروا فيها فرقاً بين الفريقين»(١).

على أن هذه الاعتبارات الدينية لم تحل دون بقاء طوائف كبيرة من المسلمين فى الأراضى التى يقتطعها النصارى تباعاً من الوطن الأندلسى . وكانت الإعتبارات الدنيوية ، وظروف الأسرة ، ودواعى العيش ، تغلب على كل الاعتبارات الأخرى. وكان تسامح النصارى فى البداية، وتركهم رعاياهم المسلمين ، يتمتعون بتطبيق شريعتهم وأحكام دينهم فيما بينهم حسبما تقدم ، يخفف عن أولئك المدجّنين مرارة الانسلاخ عن مجتمعهم القديم ، والانتماء إلى المجتمع النصرانى . وهكذا لبث المدجنون عصراً ، يتمتعون فى ظل الحكم الإسبانى بامتيازات كثيرة ، ويعيشون فى نوع من الأمن والدعة، بعيداً عن عصف الأهواء السياسية والقومية العنيفة . ولكن هذه الحال أخذت فى التبدل منذ اتسع نطاق الفتوحات النصرانية فى أراضى الأندلس ، وزاد بذلك عدد المدجنين فى مختلف المناطق المفتوحة . وكانت الكنيسة تبغض هذه الطوائف الإسلامية ، القائمة فى قلب المجتمع النصرانى ، وتنقم على المدجنين هذه الدعة وهذا التسامح ، وترى فى احتفاظهم بدينهم ولغتهم نوعاً من التحدى المذموم، وتأخذ على ملوك قشتالة وأراجون تسامحهم فى معاملتهم ، وتسعى جاهدة لتحريضهم على اتباع سياسة الإنتقام والعنف ، إزاء أولئك الرعايا المسلمين . ومنذ أوائل القرن الثالث عشر ، تتوالى أوامر البابوية وقراراتها ضد المدجنين ، والحض على استرقاقهم أوتنصيرهم، ومن ذلك ما أمر به البابا إنوسان الرابع فى سنة ١٢٤٨م ، ملك أراجون خايمى الأول من وجوب استرقاق المسلمين فى الجزائر الشرقية . ولكن خايمى لم يأبه لذلك الأمر . ولما فتح ثغر بلنسية فى سنة ٦٣٦هـ (١٢٣٨م) ، سمح للمسلمين أن يبقوا فيها كمدجنين . وكان ملوك قشتالة وأراجون يعارضون هذه السياسة العنيفة، لبواعث وأسباب تتعلق بمصالحهم القومية ورخاء بلادهم . ذلك لأن المدجنين كانوا بين رعاياهم، أفضل العناصر وأنشطها ،

---

(١) عنوان هذه الرسالة المخطوطة هو : «كتاب أسنى المتاجر فى بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر وما يترتب على ذلك من العقوبات والزواجر» ، وهى تقع فى عشر لوحات مزدوجة وتوجد ضمن مجموعة مخطوطة لا عنوان لها ، وتحفظ بمكتبة دير الإسكوريال برقم ١٧٥٨ الغزيرى، وفى نهاية هذه المجموعة أنها كتب سنة ٨٩٦هـ (١٤٩٠م) . وقد قام بتحقيقها ونشرها أخيرا الدكتور حسين مؤنس ، وذلك فى مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ( المجلد الخامس ص ١٢٩ — ١٩١ ) .

وأكثرها دأبا ومثابرة ، وأوفرها تأدية للضرائب ، وكانوا ساعد النبلاء الأيمن في زراعة أراضيهم واستغلالها . وكانوا يستأثرون بالتفوق في العلوم والفنون والمهن . وكانوا أبرع الأطباء والمهندسين والبنائين . وكان لهم الفضل الأول ، في إدخال محاصيل عديدة في اسبانيا النصرانية ، مثل القصب والقطن والأرز والحرير والتين والبرتقال واللوز وغيرها ، وما زالت مشاريع الري التي أنشأوها ، ولاسيما في مناطق اسبانيا الشرقية والشمالية الشرقية تشهد بعبقريتهم في هذا المضمار . وهم الذين وضعوا أسس الصناعة الإسبانية ، وكانوا أساتذة الصناعات الدقيقة ، وكانت صناعاتهم ولاسيما المنسوجات القطنية والحريرية ، والفخار والخزف والجلود ، نماذج بارعة تحذو حذوها الصناعة الأوربية ، فلم يك ثمة أشهر من خزف مالقة ، ولا أقمشة مرسية ، ولا حرير ألمرية وغرناطة ، ولا أسلحة طليطلة ، ولا منتجات قرطبة الجلدية . وكانت بلنسية التي تضم كتلة كبيرة من المدجنين ، تعتبر من أغنى ثغور أوربا بما تنتجه من السكر والنبيذ وغيرهما من المنتجات العديدة . وكان المدجنون مثال النشاط والدأب ، يزاولون التجارة بنجاح وشرف ، وكانوا أفضل التجار وأوفرهم أمانة ونزاهة ، ولم يكن بينهم متسولون إذ كانوا يعولون فقراءهم . وكانوا مثلا للنظام والسكينة ، يحسمون منازعاتهم بأنفسهم . وعلى الجملة فقد كانوا يؤلفون أصلح عنصر بين السكان الذين يمكن أن تحتويهم أي البلاد(١) .

ويلخص لنا المؤرخ الإسباني خانير أحوال المدجنين في عصور التسامح والتزمت معاً على النحو الآتي :

«كان ثمة معاهدات من كل ضرب ، تحترم بإخلاص في سائر نقطها الجوهرية وتعتبر أساساً للحقوق والتعهدات المدنية للأندلسيين المدجنين ، ويختلف بعضها عن بعض ، سواء في قشتالة أو أراجون ، وفقاً لتباين النقط التي تتعلق بالامتيازات المختلفة . فهنا مثلا تطبق بنوع من التوسع ، أو بروح يقل أو يكثر من الحرية أو التزمت ، وذلك وفقاً لما نصت عليه اتفاقات تُطيلة أوطرطوشة ، وقوانين قيجاطة أو عسقلونة ، أوقلعة أيوب أو طليطلة ، أوامتيازات بلنسية أو قرطبة أو إشبيلية ، أوامتيازات القرى أو المزايا التي منحت للأحياء أو الضياع التي

---

(١) Dr. Lea : History of the Inquisition in Spain, V. II. p. 66, 67 ; Dr, Lea : The Moriscos of Spain p. 57.

يسكنها كلها المسلمون . ومن أمثال التوسع والتسامح التي يقدمها إلينا التاريخ ، وهو واحد من عدة كثيرة ، الإمتياز الذى منحه خايمى الفاتح إلى مسلمى « وادى أوشو » ، بأن يسكنوا فيه ، وأن يقيلهم من الجرائم التي ارتكبت فيه ، والعقوبات التي وقعت بسببها ، ومن الديون التي عليهم لليهود ، وأن يستمروا فى تطبيق شريعتهم ، وأن يعلموا القرآن جهراً لأولادهم ، وأن يقوموا جهراً بسائر شعائرهم الإسلامية ، وأن يتعاملوا فى كل شيء داخل المنطقة كلها ، ويدفعوا الضرائب المعتادة ، باستثناء السنة الأولى حيث يعفون منها ، وأخيراً بأن يحكموا فى قضاياهم الخاصة ، وأن يقوموا بإدارة إيراد المساجد ، وتعيين القضاة والعلماء وفقاً لتقاليدهم القديمة ، ثم ولا يسمح لنصرانى أومتنصر أن يقيم بينهم دون إذن خاص منهم ، وأن يحصلوا على عهد بتأمين أنفسهم وأموالهم ، سواء بالنسبة لهم أوبالنسبة لأعقابهم ، وهم يتعهدون من جانبهم بأن يؤدوا العشور ، وأن يتعاونوا مع الدولة ومع باقى الرعايا من جيرانهم ، وألا يقتربوا مطلقاً من الأماكن التى توجد بها الحرب ، وألا يساعدوا أعداء ملوك أراجون .

بيد أنه كان ثمة طوائف أخرى من المدجنين أقل حظاً ، فى بعض القرى التى أخضعت لبعض الفروض ؛ ذلك أنه بالرغم من منحهم حرية التعبد ، وضمان أملاكهم ، فإنه نص مع ذلك على ألا يتخذوا الرقيق أو الخدم من النصارى ، وألا يأكلوا أو يستحموا مع النصارى ، وألا يقوموا بعلاجهم حال المرض ، وألا يدفنوهم فى مدافنهم ؛ كذلك حرم عليهم أن يقوموا علناً بشعائر دينهم ، وألا يتخذوا مسائل الدين المسيحى موضعاً للمناقشة . ويلاحظ ، أنه خلال هذه القيود العادلة التى كانت تقتضيها كرامتنا ، فى عصر كانت الحروب الدينية تلهب فيه حماسة الكافة ، أن حالة المدجَّنين كانت أفضل بكثير من حالة اليهود . وأن المدجنين قد استحقوا الثقة فى عهودهم . وقد كان المدجنون واليهود كلاهما يعاونون الدولة بدفع العشور من مواردهم ، وكان هذا مما يرضى العرش ، أو السادة ، أو الأحبار الذين يتبعونهم .

ونحن متى تدبرنا ذلك التنوع الذى يقدمه لنا التشريع النصرانى للجنس المغلوب خلال عصر الإسترداد ، يجب ألا نعتقد أننا نستطيع أن نكتشف نظاماً سياسياً معيناً ، يقصد إلى استغراق السكان المسلمين مباشرة ، سواء بالقوة أوبالمصانعة ، ويفضى تدريجياً إلى الوحدة ، التى حققت فى النهاية فى المملكة ، وكان واجباً أن

تحققها الأمة الإسبانية فى الدين كما تحققت فى شكل الحكومة . والواقع أنه إذا لم يكن ثمة نظام معين — كان من المستحيل تحقيقه أيام الاسترداد — فإنا نجد مع ذلك من خلال التعامل السلمى بين النصارى والمدجنين ، والحرية المطلقة فى التعبد ، ميولا واضحة للتوفيق قدر الإمكان بين الأجناس دون قوة ودون عنف . وهكذا فإنه مع ترك المساجد للمسلمين ، كان الظافرون يخصصون أحدها فقط ، وهو المسجد الجامع للعبادة النصرانية ، كما حدث فى جيّان وقرطبة وإشبيلية . ولنفس هذه الغاية أنشأ الفونسو العالم فى سنة ١٢٤٥م فى إشبيلية دراسات لاتينية وعربية ، وأمر أن تُرفع بعض الضرائب عن الأشخاص الذين ينتظمون فى دراستها . ويكفى للتدليل على روح التسامح التى كانت سائدة بين الأمتين أن نذكر التحية التى أداها ملك غرناطة المسلم لذكرى وفاة سان فرناندو ، حيث أرسل فى سنة ١٢٦٠ م ، إلى الاحتفالات الدينية التى أقيمت بهذه المناسبة فى كتدرائية إشبيلية ، طائفة من الفرسان من حاشيته ، ومائة من المسلمين ، حملوا فى أيديهم مع كثيرين آخرين شموعاً بيضاء . وفى خلال حرب غرناطة ، أيام الملكين الكاثوليكيين ، وهو عصر عظيم فى تاريخنا ، كانت فيه القسوة تمتزج بالبطولة ، سقطت أماكن كثيرة فى أيدى النصارى ، بفضل ما أبداه هذان الملكان من الكياسة والحكمة السياسية ، وما منحاه من ضروب الرحمة ، والمنح الاخرى إلى المغلوبين ، الذين فتحوا أبوابهم طوعاً ، فى حين أنهم لو قاوموا حتى النهاية ، لفرض الأسر على السكان ، وبيعوا كالرقيق ، ولم يمنحوا عهداً ما »[1] .

وقد لبث ملوك قشتالة عصوراً يحرصون على الانتفاع بنشاط المدجنين وحمايتهم . ونستطيع أن نقول على ضوء الوثائق التى سبقت الإشارة إليها إنه كانت ثمة طوائف كبيرة منهم حتى القرن الخامس عشر ، تعيش فى أنحاء كثيرة من اسبانيا النصرانية محتفظة بدينها ولغتها وتقاليدها[2] . وكانت البابوية تسير على خطتها ، من التحريض

---

(١) Florecio Janer : Condición Social de los Moriscos de Espana (Madrid 1857) p. 13 & 14..

(٢) نشر المستشرق ديرنبور صورة وثيقة عربية إسبانية مؤرخة فى سنة ١٣١٢ م بعنوان : Une Charte Hispano-Arabe de l'année 1312 : ، وقد عقدت بين جماعة من المدجنين المقيمين بناڤار وبين رئيس مستشفى يوهان دى أورشليم النصرانى . وفيها تبين حقوق كل طرف وواجباته . ومما رتب فيها على المدجنين « أن تعطوا للاشبطال Hospital المذكور الثلث من كل ما تجمعوا من طعام ومن عنب ومن زيتون ومن فول ، ومن كل نوع من كل ماتجمعوا من كل فاكهة . وهذا =

عليهم والمطالبة بتجريدهم من دينهم ، والعمل على تنصيرهم بطريق الاضطهاد والعنف ، وتردد الكنيسة الإسبانية من جانبها هذا التحريض . ولكن هذه السياسة الباغية لم تحدث أثرها إلا ببطيء ، ولم يتسع نطاقها إلا فى أواخر القرن الخامس عشر عندما أشرفت الدولة الإسلامية فى غرناطة على نهايتها . وكان قيام مملكة غرناطة فى ذاته ، عنصراً من عناصر تكييف السياسة الإسبانية إزاء المدجنين . ذلك أن ملوك اسبانيا فوق ماكان يحدوهم من رغبة المحافظة على مصالحهم وسكينة بلادهم بإيثار الرفق فى معاملة المدجنين ، كانوا أيضاً يخشون سياسة الانتقام من النصارى المقيمين فى غرناطة ، وفيما وراء البحر فى بلاد المغرب ، بل وفى الممالك الإسلامية الأخرى مثل مصر وتركيا . على أن العوامل الاجتماعية والمحلية كانت من جهة أخرى تحدث أثرها فى مجتمع المدجنين. ذلك أنه بالرغم من جميع الفوارق التى كانت تفصل بينهم وبين النصارى ، فقد جنح الكثير منهم إلى التشبه بجيرانهم ، وانتهوا بمضى الزمن وأثر الاختلاط والتزاوج إلى فقد دينهم ولغتهم، ومميزاتهم الجنسية والقومية، والاندماج شيئاً فشيئاً فى المجتمع الذى يعيشون فيه ؛ وهكذا أصبحوا بالتدريج قشتاليين ونصارى ، وأضحى علماؤهم يكتبون كتب الدين والشريعة بالقشتالية

---

= كله أن يعملوه فى عهد وميثاق وصدق . وكل مسلم أن يحبس دار ونار فى أسران المذكور أن يقدم لقائد أسران الذى يكون على الاشبطال المذكور ربع من قمح ، النصافة من قمح والنصافة من شعير فى شهر أغشت من كل عام طول الأبد ، وكل دار أن يعطى للاشبطال المذكور أربعة مرافق من تين فى كل عام ، وكل عامر مسلم ومسلمين فى الموضع المذكور أى يعملوا كل نفقة أن يحتاج فى الموضع المذكور .. »
ثم تقول الوثيقة :

« أن يطبخوا المسلمين المذكورة خبزهم فى فرن الإشبطال المذكور عن دايم الدهر ، وأن يعطوا من ستة عشر خبزة واحدة ، ولا يقطعوا أشجار ، ولا يقلعوا كرمان دون أمر قائد أسران ..

« يكون جميع خصماتكم لحكمه (أى القمندور ) وإن كان تريدوا تعملوا عند حكمه ارتفاع ( استئناف ) أن تعملوا أمام كل قاضى أن يكون مسلم من تطيلة كما هو سنتكم وشرعتكم ، وأن تكونوا أجسامكم وأموالكم ملتزمة للاشبطال المذكور ، وذلك بشرط أن لا يكون لأحد منكم أن يخرج من الموضع المذكور ، وكل واحد منكم لا يبيع ولا يرهن ميراث الاشبطال لنصرانى أو يهودى .

ونص فى نهاية الوثيقة أنها ختمت بخاتم دون بطره غرسيس ملك نبره ( نافار) ، وأرخت فى الثامن عشر من فبراير سنة أحد عشر وسبعمائة هجرية وهى توافق سنة ١٣١١ م . ووقعها من المدجنين سبعة منهم موسى الليلى المجتى والمراتب بن وليد وعيسى بن موسى ولب يا رس دريس . ووضعت أصولها الإسبانية فوق كل عبارة عربية .

ويبدو من مضمون هذه الوثيقة العربية الإسبانية ومن ركاكتها أن المدجنين فى هذه المنطقة من نافار كانوا اقل احتفاظاً بلغتهم وامتيازاتهم وأنهم كانوا قد بدأوا يومئذ يفقدون كيانهم الاجتماعى وامتيازاتهم القديمة .

للرجوع إليها . وقام أيضاً بين المدجنين أدب قشتالى ، استمر عصوراً حتى بعد إخراج العرب المتنصرين من اسبانيا[١] . على أن المدجنين لبثوا بالرغم من هذا الاندماج الاجتماعى تطبعهم مسحة خاصة تباعد بينهم وبين المجتمع النصرانى القديم[٢].

كان نظائر هؤلاء الأندلسيين المدجنين ، جمهرة من النصارى الإسبان يعيشون فى القواعد والثغور الإسلامية ، ويعرفون بالنصارى المعاهدين أو المستعربين ( وبالإسبانية Mozárabes ) . وقد لبثوا عصوراً يتمتعون فى ظل الحكم الإسلامى بضروب الرعاية والتسامح . وكانت الحكومات الأندلسية ، حتى فى أزهى عصورها ، تحافظ على سياسة التسامح التى اتبعت إزاءهم منذ الفتح ، وتعاملهم بالرفق ، وتحترم شعائرهم الدينية ونقاليدهم القومية ، وتجانب أية محاولة لإرغامهم على اعتناق الإسلام . وكان من ضروب هذه الرعاية ، أن أنشىء فى ظل حكومة قرطبة منذ عهد الحكم بن هشام ، ديوان خاص للنظر فى شئون أهل الذمة ( النصارى واليهود ) ، يتولاه كبير من الأحبار النصارى يطلق عليه « قومس أهل الذمة » . وهكذا استطاعوا دائماً أن يحتفظوا بدينهم ولغتهم ، ومميزاتهم القومية والاجتماعية. وكانت حال النصارى فى ظل الحكم الإسلامى ، أفضل بكثير مما كانت عليه أيام القوط ، وكثيراً ماكان يعهد إليهم بمناصب القيادة والوزارة ، أو ينتظمون فى البلاط والحرس الملكى . ومع ذلك فقد كانت منهم دائماً طوائف متعصبة تسيء استعمال هذا التسامح ، وتحاول بمختلف الوسائل أن تكيد للإسلام ودولته ومن ذلك ماحدث فى عهد عبد الرحمن بن الحكم ( أواسط القرن التاسع الميلادى) من الحوادث الدموية التى أثارها تعصب النصارى[٣]. وهكذا فإن النصارى المعاهدين ، لم يشعروا دائماً بالولاء والإخلاص للدولة الإسلامية . التى يعيشون فى ظلها ، والتى توليهم كثيراً من رعايتها ورفقها ، وكانوا دائماً يتربصون بها ، وينتهزون الفرص لمناوأتها والكيد لها ، ويستعدون عليها الوطن القديم ، كلما اضطربت شئونها . وعصفت بها عواصف الثورة والحرب الأهلية . وكانت أعظم

---

( ١ ) المقصود هنا أدب الألخميادو **Aljamiado** وهو عبارة عن كتابة اللغة القشتالية المحرفة بحروف عربية مشكلة . وكان العرب المتنصرون يضطرون إلى كتابة كتبهم الدينية بهذه اللغة بعد أن حرمت عليهم لغتهم العربية ، وسنعود إلى التحدث عن ذلك فيما بعد .

( ٢ ) **Dr. Lea : History of the Inquisition, V. I. p. 65**

( ٣ ) راجع كتابى « دولة الإسلام فى الأندلس » (الطبعة الثالثة) العصر الأول ص ٢٦٤— ٢٧٠ .

خيانة ارتكبوها من هذا النوع ، فى أواخر أيام المرابطين ، حينما دعوا ألفونسو الأول ملك أراجون الملقب بالمحارب عقب استيلائه على سرقسطة ، إلى أن يسير إلى غزو الأندلس ، بعد ما لاح من انحلال سلطان المرابطين فيها ، واستجاب ملك أراجون لتحريضهم ، وسار مخترقاً الأندلس بجيوشه ، والنصارى المعاهدون فى كل قاعدة ينهضون إلى معاونته بوسائلهم ، وذلك فى سنة ٥١٩ ﻫ ( ١١٢٥م ) ، حتى انتهى إلى فحص غرناطة وحاصرها حيناً ، ثم غادرها إلى الجنوب ، ونشب القتال بينه وبين المرابطين فهزمهم . ولبث حيناً يعيث فى تلك الأنحاء ، والنصارى المعاهدون يهرعون إلى شد أزره ، ويمدونه بالأقوات والمؤن . ثم عاد ثانية إلى اختراق الأندلس إلى أراجون ، وقد انضم إلى جيشه آلاف من النصارى المعاهدين. ولفتت هذه الغزوة أنظار المسلمين إلى خطر بقاء أولئك المعاهدين فى الثغور والقواعد الأندلسية ، فانقلبت الحكومة الإسلامية إلى مطاردتهم ، وأفتى القاضى أبو الوليد ابن رشد الجد بإدانتهم فى نقض العهد والخروج على الذمة ، ووجوب تغريبهم وإجلائهم عن الأندلس ، وأخذ أمير المرابطين على بن يوسف بهذه الفتوى ، وغربت ألوف من النصارى المعاهدين إلى إفريقية ، وفرقوا هنالك فى أماكن مختلفة ، وهلك الكثير منهم بسبب الطقس وتغير وسائل التغذية ، وضم السلطان كثيراً منهم إلى حرسه الخاص ، وكانت هذه المحنة سبباً فى تمزيق عصبتهم وإضعاف شوكتهم (١).

وقد كان مجتمع المستعربين أو النصارى المعاهدين ، حتى فى القواعد الأندلسية التى سقطت فى يد اسبانيا النصرانية ، وبسط عليها النصارى حكمهم ، يتأثر بمجتمع المدجنين ، وبأحواله وتقاليده ، حتى أنهم كانوا يتخذون اللغة العربية لغة التعامل ، ولغة التخاطب أحياناً ، إلى جانب لسانهم القومى . وقد قمنا بدراسة مجموعة من الوثائق العربية المحفوظة بدار المحفوظات التاريخية بمدريد ، والمنقولة اليها من ديرسان كليمنتى بطليطلة ، وهى مجموعة ضخمة ، كلها عقود تعامل من بيع وشراء وهبة وإيجار ووصية وغيرها ، ومعظمها مكتوب فى القرن الثالث عشر الميلادى ، وبعضها فى القرن الثانى عشر . وهى محررة على الأغلب بين المستعربين وأحياناً بينهم وبين المدجنين ، بأسلوب عربى لا بأس به ، وكلها تستهل بالبسملة مقرونة أحياناً بعبارة « وبه نستعين » أو « الحمد لله وحده » ، وعلى كثير منها شهود مسلمون

---

(١) راجع الإحاطة ج ١ ص ١١٥ و ١٢٠ ؛ والحلل الموشية ص ٧٠ و ٨١ : ؛ . وراجع كتاب « عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس » القسم الأول — ص ١٠٨ — ١١٢ .

مدجنون إلى جانب الشهود النصارى ، ومما يلفت النظر أن أسماء المستعربين النصرانية قد عربت فيها تعريباً حسناً ، وإليك ملخص لبعض ما جاء فيها :

( ١ ) من ذلك وثيقة مؤرخة فى « شهر دجنبر من عام سبعة وثمانين ومائة وألف من تاريخ الصفر » ( ١١٨٧ م ) وبمقتضاها « باعت الراهبة دونة بويابيه وأختها كرشتينة بنتى تمام الرطلى ومرتين ودمنغة إبنى بشتة بنت تمام الرطلى ومريّة ولوقاذة بنتى دمنغة بنت تمام الرطلى من دون ردريق مينوس ومن زوجته دونه سسيلية نصف الضيعة المعلومة لتمام الرطلى بقرية دليش مالمزنوفه من عمل طليطلة حرسها الله وذلك سهم ونصف والحنان كله الذى فيه البير إذ تبقت عواضه البيوت المعلومة لتمام المذكور بالقرية المذكورة .. بثمن عدته عشرون مثقالا ونصف ذهباً مرابطية دفع المبتاعان بجميع الثمن إلى البائعين وقبضوه منهما ... » وعلى الوثيقة أسماء شهود مدجنين مثل دمنغة بن عبد العزيز ، واشتامن بن حسان ، وشهود من النصارى .

( ٢ ) ووثيقة مؤرخة فى شهر « أغشت من سنة ثلاث وسبعين ومائة وألف لتاريخ الصفر» ( ١١٧٣ م ) بمقتضاها « اشترى الوزير دون ميقايال بيطس أعزه الله من بهلول وأخيه بيطرة ابنى مرتين بن بهلول رحمه الله جميع الدار الكبيرة ، والقرال المتصل بها من جهة الغرب والقبلاريسة المتصلة بها أيضاً من جهة القبلة حدود جميع ذلك كله فى الشرق الطريق السالك وإليه يشرع الباب ، وفى الغرب دار ابن طورينه المسلم أمين الفخارين ، وفى القبلة دار بيطرة البنا بن بهلول ، وفى الجوف دار تبقت بيد البائعين ، ودار سلمة بن حسان ... بثمن عدته ثمانون مثقال ذهباً مرابطية... » وتحمل الوثيقة أسماء عدة شهود مسلمين مثل عبد الله ابن داود ، وعامر بن تمام ، وعلى بن عياش .

( ٣ ) ووثيقة مؤرخة فى « العشر الأخر من شهر أكتوبر سنة خمس وأربعين ومايتين وألف للصفر» بمقتضاها « اشترى الوزير دون شانجه شقورة الفرايلى أدام الله عزته من دون خوان دمنغة بن الصباغ ومن زوجته دونة مريّة بنت تيان بيطر من جميع الكرم الكبير الذى لها بحومة خندق عقرون من أحواز مدينة طليطلة حرسها الله ، وحده فى الشرق كرم لورثة دون أندراش البرجمانس وفى الغرب مخدع سالك من نهر تاجه إلى الحقل وفى القبلة أرض بنصل لدون فرننده بن بوارى عبد الملك وفى الجوف كرم كان للوزير المتشرف أبى عمر بن جوفار

ومنزل الآن للقاضى دون يليان اڤمانس ... والثمن مبلغه وعدته ستون مثقالا ذهباً من الذهب الأذفونشى الضرب دفع المبتاع المذكور جميع الثمن للبايعين المذكورين وقبضاه منه ... وخلص بذلك للمبتاع المذكور ملك جميع المبيع الموصوف... الخ» وعلى الوثيقة شهود مسلمون ونصارى .

ونحن نكتفى بإيراد ما تقدم من هذه الوثائق . وهذه العقود تدلى بكثير من من الحقائق التاريخية ، فمنها يستدل أولا على أنه كانت توجد بطليطلة حتى أواخر القرن الثالث عشر ، أقلية مسلمة هامة من المدجنين. ونحن نعرف أن طليطلة سقطت فى أيدى النصارى منذ سنة ٤٧٨ هـ ( ١٠٨٥ م ) . ومنها نعرف الكثير عن خطط طليطلة فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر للميلاد ، ومنسوب أثمان العقارات ، ونوع العملة المستعملة فى التعامل ، وفيها ما يدل بوضوح على توثق أواصر المودة والتفاهم بين المدجنين والنصارى[١] .

على أن الكثرة الغالبة من المسلمين فى القواعد الأندلسية الذاهبة ، كانت تؤثر الالتجاء إلى أرض الإسلام والتشبث بلواء الدولة الإسلامية . وهكذا أخذت مملكة غرناطة ، تموج منذ أواسط القرن السابع الهجرى بسيول الوافدين عليها ، من بلنسية ومرسية وقرطبة وإشبيلية وجيان وبياسة وغيرها ، وهكذا غدت المملكة الصغيرة تضيق بسكانها المسلمين ، بعد أن احتشدت بقايا الأمة الأندلسية المتداعية فى تلك المنطقة الضيقة . ومن المرجح أن مملكة غرناطة كانت تضم فى عصورها الأخيرة ، زهاء خمسة أو ستة ملايين من الأنفس ، وكانت غرناطة وحدها تضم أكثر من نصف مليون نفس ، وقد كانت هذه الهجرة الغامرة من مختلف القواعد الأندلسية فى الشرق والغرب ، إلى ذلك الوطن الأندلسى الجديد ، تضفى على التكوين العنصرى لسكان مملكة غرناطة طابعاً خاصاً . وبالرغم من أن العناصر الأساسية التى تتكون منها الأمة الأندلسية ، وهى العرب والبربر والمولدون — وهم أعقاب الإسبان الذين أسلموا منذ الفتح — لبثت على كر العصور

---

( ١ ) تحفظ هذه الوثائق فى قسم **Archivos Historicos** الملحق بالمكتبة الوطنية بمدريد . وقد نشر معظم وثائق هذه المجموعة المستشرق الإسبانى الكبير كونثالث بالنثيا **Gonzalez Palencia** مقرونة بترجمته الإسبانية فى أربعة مجلدات كبيرة تحت عنوان **Los Mozárabes de Toledo en los Siglos XII y XIII (Madrid 1926-1930)** ونشرت مقتطفات منها فى **P.Boigues : Escrituras Mozárabes Toledanas**

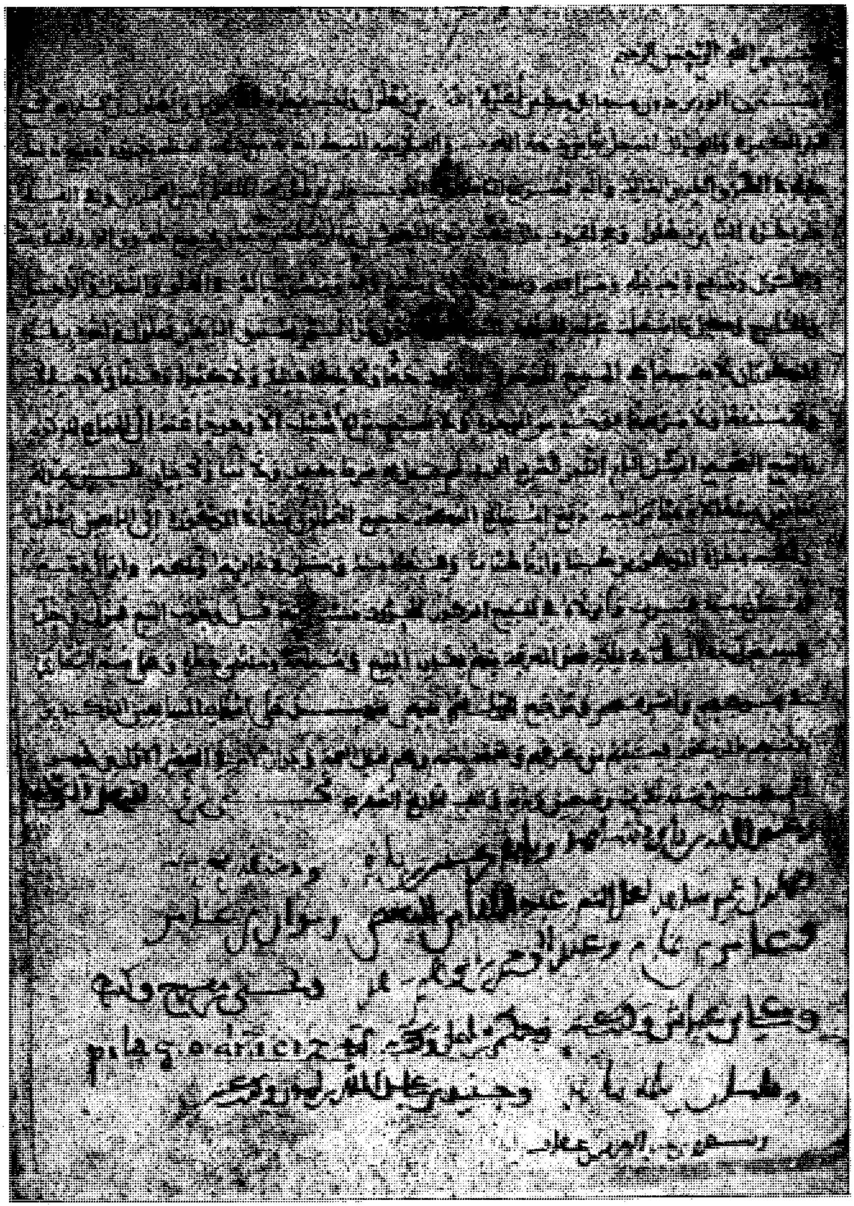
بسم الله الرحمن الرحيم

وثيقة مستعربية **Mozárabe** من مجموعة ديرسا ن كليمنتي بطليطلة ، وهى عبارة عن عقد شراء مؤرخ في شهر « أغشت » سنة ١١٧٣م ، وقدوقع عليها شهود مسلمون مدجنون إلى جانب المتعاقدين النصارى

دون تغيير ، فانه يلاحظ أن الجموع الوافدة على المملكة الإسلامية الجديدة ، كانت تضم كثيراً من العناصر التى صقلتها حضارة أرقى ، ومن ثم فإنه يمكن القول بأن الأمة الأندلسية الجديدة ، كانت تمثل أطيب وأثمن ما بقى من القيم العنصرية والحضارية للأندلس القديمة .

وكان المولدون يمثلون فى المجتمع الأندلسى الجديد مثولا قوياً . وكان أولئك المولدون قد نموا بمضى الزمن حتى غدوا عنصراً هاماً بين سكان الأمة الأندلسية . وكان العرب والبربر ينظرون إليهم بشىء من الريب . وكانوا بالرغم من تمتعهم فى ظل الحكومات الإسلامية المتعاقبة بنفس الحقوق التى يتمتع بها باقى المسلمين ، ينزعون إلى الثورة فى أحيان كثيرة ، وقد كان لهم شأن يذكر ، فى إضرام بعض الثورات الخطيرة التى اضطرمت ضد حكومة قرطبة ، مثل ثورة الربض ، وثورة طليطلة أيام الحكم بن هشام ، وثورة بنى قسىّ فى الثغر الأعلى ، وقد كان جدهم الكونت قسىّ قوطياً نصرانياً . وكان المولدون أعوان ابن حفصون أعظم وأخطر ثوار الأندلس ، وهو الذى استطاع بموازرتهم وموازرة النصارى المعاهدين ، أن ينشئ مدى حين مملكة مستقلة فى منطقة رندة ( أواخر القرن التاسع الميلادى ) . وكان ابن حفصون مولداً يرجع إلى أصل نصرانى . على أن المولدين كان لهم موقف آخر ضد الغزاة القادمين من إفريقية . فقد وقفوا إلى جانب مواطنيهم الأندلسيين ضد المرابطين ثم الموحدين ، وكان عماد الثورة ضد المرابطين فى غربى الأندلس زعيم من المولدين هو الفقيه المتصوف أحمد بن قسىّ شيخ المريدين ، وكان زعيم الثورة ضد الموحدين فى شرقى الأندلس زعيم من المولدين هو محمد بن سعد بن مردنيش أمير بلنسية ومرسية . وكان يتحدث القشتالية ويلبس الملابس الإفرنجية ، ويحشد فى جيشه كثيراً من الضباط والجند النصارى[1] . ولم يكن للعاطفة الدينية فى تلك العصور وفى تلك الظروف دائماً كبير أثر ، بل كانت تغلب فى معظم الأحيان عواطف القومية والمصلحة الخاصة . ويبدو ذلك بنوع خاص فى سياسة زعيم مثل ابن مردنيش كانت سياسته تقوم على مصادقة النصارى ، والاستعانة بهم على تنفيذ خططه[2] . كذلك كان يمثل بين سكان غرناطة أقلية يهودية قوية ، معظمهم من طائفة « السفرديم » القديمة أو اليهود الإسبان . وكان لليهود فى ظل معظم

(١) الإحاطة ج ٢ ص ٨٧ .

(٢) Dr. Lea : History of the Inquisition, V. I. p. 50

الحكومات الإسلامية نفوذ يذكر . وكان منهم أعلام فى العلوم والآداب مثل الرئيس موسى بن ميمون القرطبي ، الذى غادر الأندلس إلى المشرق فى أواسط القرن السادس الهجرى ، فراراً من اضطهاد الموحدين ، وكان لهم مثل هذا النفوذ فى مملكة غرناطة ، ومنهم معظم أطباء البلاط والخاصة .

وكانت العروبة تغلب على السكان المدنيين فى مملكة غرناطة ، ولاسيما بعد أن نزح اليها على أثر سقوط القواعد الأندلسية فى أيدى النصارى ، كثير من سادة البطون العربية القديمة . ويذكر لنا ابن الخطيب عشرات من الأنساب العربية العريقة التى كان ينتمى اليها أهل غرناطة . بيد أنها كانت عروبة من نوع خاص ، صقلتها الأمة الأندلسية ، وأضفت عليها طابعها وألوانها الخاصة . ويصف ابن الخطيب الغرناطيين بوسامة الوجوه ، واعتدال القدود ، وسواد الشعر ، ونضرة اللون ، وإناقة الملبس ، وحسن الطاعة والإباء ، يتحدثون بعربية فصيحة تغلب عليها الإمالة . ويصف نساءهم بالجمال والرشاقة والسحر ، ونبل الخلال ، ولكنه ينعى عليهن المبالغة فى التفنن فى الزينة والتبهرج فى عصره . أما الجند فكانت فيهم كثرة ظاهرة من البربر ، ولا سيما من قبائل زناتة ومغراوة وبنى مرين . ويرجع ذلك إلى أن طوائف البربر التى تخلفت منذ عهد المرابطين والموحدين بالأندلس ، كان أغلبها من الجند ؛ وقد بقيت على عهدها تؤثر الجندية على الزراعة والمهن والفنون المدنية[1] .

وهكذا كان الشعب الأندلسى حين آذنت شمسه بالمغيب ، كما كان يوم مجده ، يتكون من هذا المزيج العربى الإفريقى الإسبانى الذى أطلق عليه الغربيون عبارة « عرب الأندلس » أو « مسلمى الأندلس »[2] .

وكانت الأمة الأندلسية تتمتع حتى فى عصورها الأخيرة بحضارة زاهرة ، كانت مثار التقدير والإعجاب فى سائر الأمم الأوربية ، وكان يحج إلى معاهدها العلمية كثير من الطلاب من مختلف أنحاء أوربا .

وكان الشعب الغرناطى من أهل السنة يدين بمذهب مالك ، وهو المذهب الذى غلب على الأمة الأندلسية منذ أواخر القرن الثانى الهجرى ، أعنى منذ عصر هشام بن عبد الرحمن الداخل ، ولم تتأثر غرناطة فى نزعتها المذهبية ولا تقاليدها الدينية السمحة ، بما توالى عليها من سيادة المرابطين والموحدين حيناً من الدهر .

---

(١) راجع الإحاطة فى أخبار غرناطة ( القاهرة ١٩٥٦ ) ج ١ ص ١٤٠ — ١٤٥ ؛ واللمحة البدرية ، ص ٢٧ و ٢٨ .

(٢) وهى بالإسبانية **Los Moros** ، وبالإنجليزية **The Moors** ، وبالفرنسية **Les Maures**

# الفصل الرابع

## طبيعة الصراع بين الأندلس واسبانيا النصرانية

المعركة الخالدة بين الأندلس واسبانيا النصرانية . تضاؤل قوة الأندلس . قيام مملكة غرناطة . مرحلة جديدة فى الصراع. طبيعة هذا الصراع . العوامل القومية والدينية. نزعة الجهاد عند المسلمين . النزعة الصليبية عند النصارى . قيام الجماعات الدينية المحاربة فى اسبانيا . ضعف العامل الدينى فى بداية النضال . السيد الكبيادور . المرتزقة النصارى فى الجيوش الإسلامية . التجاء الأمراء النصارى إلى حماية الملوك المسلمين . زواج الأمراء المسلمين بنساء من النصارى . ابن مردنيش . التحالف بين المسلمين والنصارى . التعاون بينهما أيام السلم. الفروسة وعلائق المودة . طبيعة حرب الإسترداد . صبغتها الدينية فى مراحلها الأخيرة.

يبدأ بقيام مملكة غرناطة فوق أنقاض الدولة الإسلامية الكبرى فى اسبانيا ، طور جديد من أطوار الصراع الخالد بين الأندلس واسبانيا النصرانية ، أو بعبارة أخرى طور جديد فيما يمكن أن نسميه فى تلك المرحلة المتأخرة من تاريخ الأندلس حرب الإسترداد القومية .

وقد بدأت اسبانيا النصرانية حرب الاسترداد القومية **La Reconquista** منذ منتصف القرن الخامس الهجرى، أعنى حينما انهارت الدولة الإسلامية القوية ، وانتثرت إلى عدة دويلات صغيرة متنافسة هى دول الطوائف . وبلغت الأندلس أيام الطوائف من التفرق والضعف مبلغاً عظيما ، حتى لاح لاسبانيا النصرانية أن عهد الدولة الإسلامية أوشك على الزوال ، وأن الفرصة قد سنحت لتضرب ضربتها الحاسمة . وكانت مملكة قشتالة تتزعم اسبانيا النصرانية ، وتقودها فى ميدان الصراع مع المسلمين ، وكان ملكها أيام الطوائف ألفونسو السادس ، يعمل بذكاء لاستغلال منافسة الدول الإسلامية وتفرق كلمتها ، ويغلب أميراً على أمير ، حتى انتهى بالاستيلاء على مدينة طليطلة من يد صاحبها يحيى بن ذى النون ، وذلك فى صفر سنة ٤٧٨ هـ ( مايو سنة ١٠٨٥ م ) . وكانت طليطلة أول قاعدة إسلامية عظيمة تسقط فى يد اسبانيا النصرانية . ويعتبر بعض الباحثين سقوطها ختام مرحلة التفوق السياسى الذى احتفظت به الدولة الإسلامية فى شبه الجزيرة منذ الفتح ، وبدأ مرحلة التفوق السياسى لإسبانيا النصرانية[1] وعلى أى حال فقد كان سقوط

(1) Isidro de las Cagigas : Los Mudéjares, p. 45

ظليطلة نذيراً خطيراً للأمة الأندلسية ، يذكرها بقوة العدو المتربص بها ، ويحذرها عاقبة التنابذ والتفرق ، فاجتمعت كلمة أمراء الطوائف يومئذ على الاستعانة بإخوانهم فيما وراء البحر ، فى عدوة المغرب . وكان المرابطون يومئذ قد بسطوا سلطانهم على سائر بلاد المغرب ، وبدت دولتهم قوية شامخة ، فاستجاب زعيمهم يوسف بن تاشفين إلى صريخ الأندلس ، وعبر البحر بقواته إلى الأندلس . وكانت هزيمة اسبانيا النصرانية على يد جيوش المغرب والأندلس فى موقعة الزلاّقة ( ٤٧٩ هـ — ١٠٨٦م ) فاتحة حياة جديدة للأمة الأندلسية . وبالرغم من أن المرابطين استولوا على الأندلس بعد ذلك بأعوام قلائل وبسطوا حكمهم عليها ، فقد استمد الإسلام فى اسبانيا من قوتهم قوة جديدة ، وعاد الصراع الخالد بين الدولة الإسلامية وبين اسبانيا النصرانية ، يضطرم فى نوع من تكافىء القوى. ولما اضمحل سلطان المرابطين فى الأندلس بعد ذلك بنحو ستين عاماً ، وخلفهم الموحدون فى ملك المغرب والأندلس ، لبثت الدولة الإسلامية حقبة أخرى فى شبه الجزيرة عزيزة قوية الجانب نوعاً ، وإن كانت قد فقدت فى تلك الفترة بعض قواعدها التالدة ، مثل سَرقُسطة التى سقطت فى يد النصارى سنة ٥١٢ ( ١١١٨ م ) وبقية قواعد الثغر الأعلى التى سقطت بعد ذلك بفترة قصيرة . وأحرز الإسلام للمرة الثانية على النصرانية نصراً حاسماً فى موقعة الأرك الشهيرة ، التى انتصرت فيها جيوش يعقوب المنصور خليفة الموحدين على جيوش ألفونسو الثامن ملك قشتالة ( ٥٩٣هـ — ١١٩٥م ) ، وانكمشت اسبانيا النصرانية مدى حين ، ولكنها عادت فاجتمعت كلمتها تحت لواء ألفونسو الثامن ، وسارت الجيوش النصرانية المتحدة إلى لقاء المسلمين بقيادة خليفة الموحدين محمد الناصر ولد يعقوب المنصور ، وأصيب المسلمون فى موقعة العقاب بهزيمة فادحة ( ٦٠٩ هـ — ١٢١٢ م ) وأخذ سلطان الموحدين فى الأندلس يتداعى من ذلك الحين ، وبدأ مصير الأندلس يهتز فى يد القدر ، وبدت اسبانيا النصرانية يومئذ فى أوج سلطانها وقوتها . ولم تمض فترة وجيزة أخرى حتى بدأت قواعد الأندلس العظيمة ، تسقط تباعاً فى يد النصارى : قرطبة ( ٦٣٣هـ ) فبلنسية ( ٦٣٦ هـ ) فمرسية ( ٦٤١هـ ) فشاطبة ودانية ( ٦٤٤ هـ ) فإشبيلية ( ٦٤٦ هـ ) . وهكذا سقطت عدة من قواعد الأندلس التالدة ومنها عاصمة الخلافة القديمة فى يد اسبانيا النصرانية فى مدى عشرة أعوام فقط ، ولقيت الأندلس أعظم محنها فى تلك الفترة العصيبة ، ولاح لاسبانيا

النصرانية ان حرب الإسترداد القومية لن تلبث حتى تتوج فى أعوام قلائل أخرى ، بالقضاء على ما بقى من تراث الإسلام فى الأندلس .

ولكن شاء القدر أن تتمخض هذه المحنة ، التى غمرت الأندلس فى أوائل القرن السابع الهجرى ، عن قيام مملكة إسلامية جديدة هى مملكة غرناطة ، تتمتع بالرغم من صغرها بكثير من عناصر الفتوة والحيوية . وفى الوقت الذى خيل فيه لاسبانيا النصرانية أنها أضحت على وشك الإجهاز على المملكة الإسلامية ، كانت بذور صراع مرير طويل الأمد تنمو وتتوطد ، وإذا بالنهاية المرجوة تستحيل إلى بداية جديدة . ولقد استطالت هذه المرحلة الأخيرة من حرب الاسترداد زهاء مائتين وخمسين عاماً ، صمدت فيها المملكة الإسلامية لهجمات اسبانيا النصرانية المستمرة ، وعملت على استغلال كل فرصة للمطاولة والمقاومة ، وأبدت فى النضال على صغر رقعتها وضآلة مواردها ، بسالة عجيبة . وكانت كلما شعرت بالخطر الداهم يكاد ينقض عليها ويودى بحياتها ، استغاثت بجارتها المسلمة من وراء البحر ، أو عصفت باسبانيا النصرانية ريح الخلاف والتفرق فشغلتها عن إرهاق المملكة الإسلامية حيناً ، حتى شاء القدر بعد طول النضال أن تنتهى هذه المعركة القاسية الطويلة إلى نهايتها المحتومة ، وأن تنهار المملكة الإسلامية الصغيرة أمام ضغط القوة القاهرة ، وأن تختتم حياتها المجيدة أبية كريمة .

وهنا يجدر بنا أن نحاول أن نلقى شيئاً من الضياء ، على طبيعة هذا النضال ، الذى استمر قروناً بين الأمة الأندلسية وبين اسبانيا النصرانية ، وإلى أى حد كانت تحدوه العوامل القومية أو الدينية .

كانت العوامل القومية والدينية ، تمتزج بأدوار هذا النضال فى معظم أطواره ، وكانت تشتد حيناً وتخبو حيناً تبعاً لتطور الحوادث . ولما افتتح العرب اسبانيا ، وسيطرت الدولة الإسلامية على معظم أنحائها ، قامت المملكة الإسبانية النصرانية الناشئة فى قاصية الشمال ، ترقب الفرص للتوطد والتوسع . بيد أنها لم تجرؤ على تحدى المملكة الإسلامية والنزول إلى ميدان النضال قبل أواخر القرن التاسع ، ففى ذلك الحين اضطرمت الأندلس بالفتن والثورات الداخلية ، وشغلت حكومة قرطبة بأمر الثوار والنواحى . وكانت غزوات النصارى للأراضى الإسلامية يومئذ غزوات عيث يغلب عليها حب الانتقام والغنم . ولم يكن يطبعها شىء من تلك الروح الدينية العميقة ، التى جمعت أوربا النصرانية تحت لواء كارل مارتل

لمحاربة العرب على ضفاف اللوار ، والتى حفزت شارلمان فيما بعد إلى عبور جبال البرنيه وغزو الأندلس أيام عبد الرحمن الداخل . غير أنه لما اشتد ساعد الأندلس أيام عبد الرحمن الناصر ( أوائل القرن العاشر الميلادى ) وظهرت المملكة الإسلامية فى أوج قوتها وظفرها ، ونفذت الجيوش الإسلامية غير مرة إلى أعماق المملكة النصرانية ، وشعر النصارى بالخطر الداهم على كيانهم ، أخذت العوامل الدينية والقومية تستيقظ من سباتها ، واتحدت المملكتان النصرانيتان ليون وناڤار ( نبرّة ) على مقاومة الخطر الإسلامى . وكانت المعارك التى نشبت فى تلك الفترة فى عهد أردونيو الثانى وولده راميرو بين المسلمين والنصارى ، تحدوها من الجانبين ، فوق نزعتها القومية ، نزعة دينية واضحة ؛ فكانت غزوات المسلمين تحمل طابع الجهاد ، ويهرع أهل الثغور إلى مرافقة الجيش لمقاتلة النصارى ، وكان يرافق الجند النصارى إلى القتال جموع غفيرة من الأحبار ورجال الدين ، يسقطون إلى جانب الفرسان فى ساحة الوغى . وكانت هذه الصبغة القومية الدينية تبدو كلما اشتد الخطر من الجنوب على اسبانيا النصرانية . ففى أواخر القرن العاشر فى عهد الحاجب المنصور ، حينما اشتدت وطأة الأندلس على اسبانيا النصرانية ، وغزا المسلمون أقصى وأمنع معاقلها الشمالية ، اتحدت الممالك النصرانية الثلاثة ليون وقشتالة وناڤار ضد المسلمين فى جبهة دفاعية موحدة ؛ وبدت كذلك موحدة الرأى والقوى ، حينما عبرت جموع البربر إلى الأندلس تحت لواء المرابطين ، لتنقذ الأندلس من خطر الفناء الذى كان يهددها ، من جراء تفرق ملوك الطوائف . وكانت موقعة الزلاّقة تحمل فى نظر المسلمين طابع الجهاد فى سبيل الله ، وتطبعها فى نظر النصارى صبغة صليبية واضحة ، ولم يكن نصر الزلاّقة نصراً للأندلس على خصيمتها اسبانيا فقط ، ولكنه كان نصر الإسلام على النصرانية أيضاً . وكذا كان نصر الموحدين فى موقعة الأرك ، ثم هزيمتهم بعد ذلك فى موقعة العقاب ، يحمل كلاهما من الجانبين هذا الطابع الدينى العميق . ويجب أن نذكر أن الحروب الصليبية ، قد بدأت فى المشرق بعد موقعة الزلاّقة بقليل ، واستمرت تضطرم بين المسلمين والنصارى فى مصر والشأم زهاء قرنين ، وبلغت ذروتها أيام الملك الناصر صلاح الدين معاصر الخليفة يعقوب المنصور الظافر فى معركة الأرك . ولم يك ثمة شك فى أن النزعة الصليبية التى دفعت بجحافل الغرب إلى الشرق الإسلامى ، كانت تحدث صداها قوياً فى اسبانيا النصرانية وفى الغرب الإسلامى.

وفى الوقت الذى كانت جيوش الصليبيين تحاول فيه أن تغزو مصر حصن الإسلام فى المشرق ، فى أوائل القرن السابع الهجرى ، كانت قواعد الأندلس الكبيرة تسقط فى أيدى النصارى ، وكانت اسبانيا النصرانية تبدو يومئذ إزاء الأندلس ، موحدة الرأى والقوى ، كما كانت الجيوش الأوربية الصليبية تسير إلى المشرق متحدة لتحقيق الغرض المشترك .

وقد ظهر صدى النزعة الصليبية فى اسبانيا فى شكل آخر ، هو قيام الجماعات الدينية المحاربة . ونحن نعرف أن جماعات الفرسان الدينية قامت فى المشرق فى ظل الصليبيين ، واشتهر منهم بالأخص جماعة فرسان المعبد أو « الداوية » كما تسميهم الرواية العربية ، وفرسان القديس يوحنا أو الأسبتارية . وكانت هذه الجماعات الدينية المحاربة ، تشد أزر الأمراء النصارى وتؤدى للصليبيين أثناء الحرب والسلم خدمات جليلة . وكما أن قيامها فى المشرق كان أثراً من آثار المعارك الصليبية ، فكذلك كان قيامها فى اسبانيا أثراً من آثار النضال بين اسبانيا النصرانية وبين اسبانيا المسلمة . ذلك أن بعض الفرسان والرهبان الورعين المتحمسين ، كان يحزنهم تفرق الملوك النصارى وتخاذلهم أحياناً فى مقاتلة المسلمين ، وكانوا يرون أنه لابد من قيام جماعات غيورة مخلصة من الفرسان ، تنذر نفسها للدفاع عن الدين وعن الأراضى النصرانية . وكانت قدوتهم فى ذلك جماعات المسلمين من أهل الثغور والمرابطة ، فقد كانت هذه الجماعات المجاهدة التى ترابط عند حدود الأراضى الإسلامية ، تبدى فى محاربة النصارى بسالة منقطعة النظير ، وتؤدى للجيوش الإسلامية أجل الخدمات . فلما أنشئت جماعة فرسان المعبد ( الداوية ) فى بيت المقدس سنة ١١١٩ م عقب قيام المملكة اللاتينية بقليل ، كان لقيامها صدى عظيم فى اسبانيا ، ولم تمض أعوام قلائل حتى قامت أول جمعية محاربة دينية فى أراجون فى عهد ألفونسو المحارب ، فى صورة فرع لجماعة فرسان المعبد ، وأبدى ألفونسو فى تأييدها حماسة ، وانتظم فى سلكها الكونت ريمون برنجار أمير برشلونة ، وأقطعت عدة حصون وأراض شاسعة على حدود أراجون ، كما احتلت عدداً من الحصون فى قشتالة ، ونمت بسرعة وأخذت تضطلع من ذلك الحين بدور هام فى سائر المواقع التى تنشب بين النصارى والمسلمين .

وقامت فى قشتالة بعد ذلك بقليل أعظم الجمعيات الدينية المحاربة ، فى أواخر

عصر القيصر ألفونسو ريمونديس أو ألفونسو السابع[1] ملك قشتالة ، قامت حول سنة ١١٥٠ م جمعية فرسان دينية قوية فى بعض أديار منطقة شلمنقة ؛ وسميت بجمعية القديس يوليان ، ثم سميت بعد ذلك بجمعية فرسان القنطرة . وفى سنة ١١٥٨م قامت جمعية دينية محاربة أخرى، ربما كانت أشهر وأقوى جماعات الفرسان التى ظهرت فى اسبانيا فى هذا العصر ، وهى جمعية « فرسان قلعة رباح » ، ونشأت لأول أمرها على يد بعض الرهبان الورعين المتحمسين الذين عملوا على حشد الجند النصارى للتطوع للدفاع عن تلك القلعة الحصينة ضد المسلمين، واتخذت قلعة رباح مركزاً لها[2] . وقامت أيضاً فى البرتغال عدة فروع لفرسان المعبد ( الداوية ) وفرسان القديس يوحنا ( الأسبتارية ) . وظهرت هذه الجمعيات الدينية المحاربة ولاسيما فرسان القنطرة وفرسان قلعة رباح فى كثير من المعارك ، التى نشبت فى تلك العصور بين المسلمين والنصارى ، وكان تدخلهم فى كثير من الأحيان من عوامل النصر والإنقاذ للجيوش النصرانية ، بيد أنهم بالرغم من صفتهم الدينية والصليبية كانت تحدوهم بواعث وأطماع دنيوية، وكان ظمأ الكسب واجتناء المغانم روحهم المسيرة ، وكانوا يسيطرون على قلاع كثيرة وأراض واسعة ، ويعيشون فى بذخ وترف ، بما يحصلون عليه من الإقطاعات والهبات والنذور الوفيرة ، وكان تدخلهم فى شئون السياسة والعرش يشتد أحياناً ، ويفضى إلى أحداث وتطورات خطيرة .

كانت اسبانيا النصرانية حينما بدأت حرب الإسترداد الحقيقية **La Reconquista** فى أواسط القرن الثالث عشر ، عقب سقوط القواعد الأندلسية الكبيرة ، تجيش إلى جانب نزعتها القومية بهذه النزعة الصليبية الواضحة . على أنه يمكن القول أن ظهور هذه النزعة القومية والدينية العميقة فى حروب اسبانيا النصرانية مع المسلمين ، لم يكن ملحوظاً بصورة واضحة ، حينما كان التفوق فى القوة لإسبانيا المسلمة أيام الدولة الأموية ، وحينما كان ثمة نوع من توازن القوى السياسية والعسكرية بين الأندلس واسبانيا النصرانية أيام المرابطين والموحدين وتدل حوادث التاريخ الأندلسى حتى أواخر القرن الثانى عشر على أن التعصب

(١) **Alfonso Raimundez** وتعرفه الرواية الإسلامية باسم أدفنش بن رمند أو السليطين

(٢) تناولنا قيام الجماعات الدينية النصرانية ، ونشأة جمعية فرسان قلعة رباح تفصيلا فى « عصر المرابطين والموحدين » القسم الأول ص ٥١٨ — ٥٢٠ .

القومى أو الدينى لم يكن دائماً ظاهرة بارزة ، فى حروب المسلمين والنصارى. فقد كان الفريقان المتحاربان على وجه العموم يحترم بعضهم بعضاً ، وكان التعصب الدينى قاصراً على جماعات الفقهاء من ناحية ، وعلى القساوسة والأحبار من جهة أخرى ؛ ويوصف المسلمون فى الأناشيد الإسبانية القديمة بأنهم خصوم شرفاء ، ولا يجيش النصارى نحوهم ببغض أكثر مما كان يجيش به المسلمون أنفسهم ، بعضهم نحو بعض فى الحروب الأهلية التى كانت تنشب فيما بينهم[١] . يقول العلامة دوزى : « إن الفارس الإسبانى فى العصور الوسطى لم يكن يحارب من أجل دينه أو وطنه ، بل كان مثل « السيّد » يحارب لكسب عيشه ، سواء فى ظل أمير مسلم أو أمير نصرانى . ولقد كان « السيد » نفسه أقرب إلى روح المسلم منه إلى الكاثوليكى »[٢]. وفى حياة السيد الكمبيادور ( الكنبيطور)[٣] نفسه أوضح مثل لاتجاهات الفروسة الإسبانية فى تلك العصور ، فقد نشأ السيد وظهر فى كنف أمير مسلم ، وتقلب فى خدمة الأمراء المسلمين والنصارى على السواء ، بل لقد خدم الأمراء المسلمين أكثر مما خدم الأمراء النصارى ، ولو لم يمت وهو فى خدمة الجانب النصرانى لما حفلت به الأساطير الإسبانية ، ورفعته إلى مرتبة البطل القومى[٤]. وفى أحيان كثيرة نرى المرتزقة من الفرسان والجند النصارى يعملون فى الجيوش الإسلامية . وفى مواطن عديدة من تاريخ اسبانيا النصرانية ، نرى الملوك والأمراء النصارى خلال الحروب الأهلية يلوذون بحماية الأمراء المسلمين . فقد لجأ سانشو ملك ليون إلى حماية عبد الرحمن الناصر حينما استأثر أخوه أردونيو بالملك دونه ، ولجأ ألفونسو السادس ملك قشتالة إلى حماية المأمون بن ذى النون

---

( ١ ) Dr. Lea : History of the Inquisition in Spain ; V. I..p. 51.

( ٢ ) Dozy : Recherches sur l'Histoire et Littératuré de l'Espagne pendant le moyen âge ; V. II. p. 203 & 283.

( ٣ ) وبالإسبانية El Cid Campeador ؛ ومعناها « السيد الباسل جدا » .

( ٤ ) يختلف تقدير التفكير الغربى للسيد الكبيادوز ومنزلته من البطولة ، فيرى دوزى فى كتابه (Le Cid) أنه ليس سوى جندى مغامر يجمع فى شخصه من رذائل عصره أكثر مما يجمع من فضائله ويجاريه فى هذا الرأى معاصره العلامة الفرنسى رينان ، ويقول « إنه لم يفقد بطل بخروجه من حيز الاسطورة إلى حيز التاريخ كما فقد السيد » . ولكن العلامة الإسبانى المعاصر الأستاذ منندث بيدال يخالف هذا الرأى ، ويبالغ فى تقديره للسيد ، ويقول «إن الشعر والتاريخ يتفقان فى شأنه ، وأنه بالعكس لا يوجد بطل ملاحم أكثر لمعاناً فى ظل التاريخ » . R.M.Pidal : La Espana del Cid ; Vol. II.p. 594

أمير طليطلة ، حينما تغلب عليه أخوه سانشو الثانى وعاش فى بلاطه حتى توفى أخوه؛ فلما ارتقى عرش قشتالة كان أعظم مشاريعه أن ينتزع طليطلة من يد القادر بن ذى النون ولد المحسن إليه . وفى سنة ٩٩٠ م قدّم برمودو ( برمند ) الثانى أخته زوجة لحاكم طليطلة المسلم . ولم يكن زواج الأمراء المسلمين من الأميرات والعقائل النصارى أمراً نادراً . وربما كان تاريخ بلنسية فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر أسطع مثل لهذا الامتزاج والتفاهم بين الفريقين المتحاربين ، ففيه يكثر التحالف بين المسلمين والنصارى ولاسيما أيام « السيد » وبعدها . وقد كان أمير بلنسية فى أواخر عهد المرابطين وأوائل عهد الموحدين محمد بن سعد المعروف بابن مردنيش ينتمى حسبما قدمنا إلى أسرة من المولدين أعنى من أصل نصرانى ، وكان يرتدى الثياب القشتالية ، ويعتمد فى جيشه على الضباط والجند النصارى . ولم يحجم أمراء المرابطين فى الأندلس حينما انهارت دولتهم فى المغرب ، وبدأ الموحدون فى انتزاع الأندلس من أيديهم ، عن الإستعانة بألفونسو ريمونديس ملك قشتالة وحليفه غرسية ملك نافار على محاربة الموحدين . وهذا ما فعله بالأخص الأمير يحي بن غانية آخر زعماء المرابطين بالأندلس حينما استعان بالقيصر ألفونسو السابع على الاحتفاظ برياسته لقرطبة . وهذا ما فعله أيضاً الخليفة الموحدى أبو العلاء المأمون حينما اتفق مع فرناندو الثالث ملك قشتالة ، على معاونته بفرقة من الفرسان النصارى يستعين بها على استرداد العرش من خصومه . ولم ينقطع هذا التعاون بين المسلمين والنصارى حتى بعد أن بدأت مرحلة الإسترداد الأخيرة ؛ فقد كان مؤسس مملكة غرناطة محمد بن الأحمر فى بداية أمره ، ينضوى حسبما رأينا تحت حماية ملك قشتالة ، ويتعهد بمعاونته فى حروبه ضد خصومه من المسلمين والنصارى . ونجد من الجانب الآخر أمراء النصارى ، يلوذون من وقت إلى آخر بحماية المسلمين حتى فى ذلك العصر الذى تضاءلت فيه المملكة الإسلامية ، فنرى الإنفانت فيليب حينما ثار على أخيه الملك ألفونسو العاشر ، يلتجىء مع جماعة من النبلاء إلى حماية السلطان أبى يوسف المنصور المرينى ملك المغرب ، ويستقرون ضيوفاً فى بلاط غرناطة ، حتى انتهى ملك قشتالة إلى مصالحتهم واسترضائهم ( ١٢٧٠ م ) . وفى سنة ١٢٨٢ م اضطر ألفونسو العاشر نفسه حينما ثار عليه ولده سانشو وانتزع منه العرش ، إلى الاستعانة بالسلطان أبى يوسف ، وأرسل إليه تاجه مقابل ما ينفقه على معاونته ، فاستجاب إليه وأمده بالمال والجند . وفى سنة ١٣٣٢ م ثار حاكم

« الفرنتيرة » النصرانى ضد مليكه ألفونسو الحادى عشر ، وتحالف مع سلطان غرناطة وعاون بذلك فى رد النصارى عن جبل طارق ، وكانوا على وشك الاستيلاء عليه . ولما نشبت الثورة ضد ولده پيدرو القاسى ( دون بطره ) ونزع عن عرشه ، ونشبت بينه وبين خصومه موقعة مونتيل الفاصلة سنة ١٣٦٧ م ، كان إلى جانبه فرقة من الفرسان المسلمين ، أمده بها حليفه الغنى بالله ملك غرناطة(١) . وهكذا كان التعاون السياسى والحربى يجرى بين الفريقين من آونة إلى أخرى ، حتى فى تلك العصور التى مال فيها نجم الأندلس إلى الأفول ، ولم تكن تحول دون عقده عوامل القومية أو الدين ؛ وكانت العلائق التجارية أيام السلم تجرى بانتظام ، وتنظم بمعاهدات ودية بين الفريقين ، ومن ذلك معاهدة الصداقة والتحالف التى عقدها محمد بن يوسف ملك غرناطة مع مرتين ملك أراجون لتنظيم العلائق والمبادلات الحرة ، وتنظيم التحالف السياسى بين المملكتين ( سنة ١٤٠٥ م )(٢) .

هذا ويجب ألا ننسى ، ماكان هنالك من علائق المودة والتفاهم بين جماعات الفرسان من الفريقين ، وقد كانت الفروسية الإسبانية فى العصور الوسطى تقتبس كثيراً من تقاليد الفروسية الإسلامية وخلالها الرفيعة ، وتنظر إليها بعين التقدير والاحترام . وكانت مباريات الفروسية تجمع بين أنبل الفرسان من الجانبين ، وكثيراً ماكانت تعقد فى العاصمة الإسلامية فى جو من العطف والحماسة ، ويهرع إلى شهودها ألوف من المسلمين والنصارى ؛ وكانت هذه الاجتماعات المثالية البهجة التى تجمع بين العنصرين الخصيمين ، أبعد ما يكون عن الاعتبارات القومية والدينية ، وقد كانت غرناطة التى اشتهرت بفروستها النبيلة البارعة ، مسرحاً لكثير من هذه المباريات الشهيرة .

تلك هى الصورة المتباينة ، التى تقدمها إلينا معركة السلطان والقوة ، ومعركة الحياة والموت ، والحرية والاستعباد ، بين الأندلس واسبانيا النصرانية . ذلك أن بواعث الدين والقومية ، لم تكن دائماً كل شىء ، فى هذا الصراع المضطرم الطويل الأمد . ومع ذلك فقد كانت النزعة الدينية أو الصليبية ، تبدو كلما لاح شبح الخطر الداهم على كيان أحد الفريقين ، أو كلما اتخذ النضال بين الفريقين صبغة حاسمة . ولما شعرت اسبانيا النصرانية أنها أضحت بعد الاستيلاء على القواعد

---

( ١ ) سوف نعود إلى تفصيل هذه الحوادث فى مواضعها بعد .

( ٢ ) Dr. Lea: History of the Inquisition ; V. I. p. 52-55

الأندلسية الكبيرة ، وتضاؤل المملكة الإسلامية ، فى مركز التفوق والغلبة ، لم يكن ثمة ما يدعو لأن تتخذ حرب الإسترداد التى تلت بعد ذلك ، بين اسبانيا النصرانية وبين مملكة غرناطة ، ألوانا دينية أو قومية عميقة . ذلك أن معركة السلطان قد بت فيها نهائيا بظفر اسبانيا النصرانية ، وأضحى القضاء على الأندلس مسألة وقت فقط . وكانت اسبانيا النصرانية كلما حاولت أن تتعجل تحقيق هذه الغاية القومية الخطيرة ، عاقتها المنازعات والثورات الداخلية ، أو ردها تدخل الدولة الإسلامية القوية فيما وراء البحر . على أنه ماكاد يبدو تفكك المملكة الإسلامية قويا واضحاً ، وماكادت حرب الإسترداد تدخل فى طورها الأخير ، حتى بدت النزعة القومية والدينية واضحة قوية ، فى جهود اسبانيا النصرانية للقضاء على مملكة غرناطة . ولما اتحدت اسبانيا النصرانية نهائيا ، وتم اندماجها فى مملكة موحدة بزواج فرناندو ملك أراجون وإيسابيلا ملكة قشتالة ، اتخذت حروب غرناطة الأخيرة لوناً صليبياً عميقاً ، يذكيها ويزيد فى ضرامها حماسة هذه الملكة الورعة المتعصبة ، ومن حولها الأحبار المتعصبون ، وأسبغ على فرناندو لقب « الكاثوليكى » وعلى إيسابيلا لقب « الكاثوليكية » ، وكان أول عمل قام به الجند القشتاليون حينما دخلوا غرناطة فى الثانى من يناير سنة ١٤٩٢ ، أن رفعوا الصليب فوق أبراج الحمراء ، ورفعوا إلى جانب علم قشتالة علم القديس ياقب ، وأقام الرهبان القدّاس داخل قصر الحمراء ، ودفنت الملكة إيسابيلا وزوجها الملك فرناندو فى كتدرائية غرناطة التى أقيمت فوق أنقاض المسجد الجامع ، تنويهاً بظفرهما على الإسلام . وكانت سياسة اسبانيا النصرانية إزاء الأمة الأندلسية المغلوبة ، منذ إكراهها على التنصير فى عصر فرناندو حتى مأساة النفى النهائى فى عصر فيليب الثالث ، تقوم على بواعث دينية وصليبية محضة ، يصوغها ويمليها أحبار الكنيسة ، ويدعمها ديوان التحقيق بقضائه الكنسى المروع ووسائله الدموية ؛ وعلى الجملة فقد كانت جهود اسبانيا النصرانية فى القضاء على الأمة الأندلسية ، تمثل منذ بدايتها إلى نهايتها مأساة من أروع وأشنع مآسى التعصب الدينى والقومى التى عرفها التاريخ .

وتلك المأساة التى استطالت منذ قيام مملكة غرناطة زهاء مائتين وخمسين عاماً هى التى نستعرض حوادثها وظروفها فيما يلى من فصول هذا الكتاب .

# الفصل الخامس

## تاريخ اسبانيا النصرانية

### منذ أوائل القرن الحادى عشر حتى قيام مملكة غرناطة

انقسام اسبانيا النصرانية فى القرن الحادى عشر . تنافس الإمارات النصرانية . القضاء على مملكة ناڤار وعودها . اتحاد قطلونية وأراجون . الممالك النصرانية خلال القرن الثانى عشر . تنافسها وتنابذها . اجتماع كلمتها فى الصراع ضد المسلمين . قشتالة وأراجون . القيصر الفونسو ريمونديس . تحالف قشتالة وأراجون ضد ناڤار . اختفاؤها كمملكة مستقلة . فرناندو الثالث ملك قشتالة . اندماج مملكة ليون فى قشتالة . غزو فرناندو الثالث للأراضى الإسلامية . استيلاؤه على أبدة وقرطبة ومرسية . غزوه لأراضى ابن الأحمر . استيلاؤه على إشبيلية . وفاته وتلقيبه بالمقدس . مملكة أراجون . ملكها خايمى . غزوه للجزائر الشرقية . استيلاؤه على ميورقة . حصاره لبلنسية وسقوطها . استيلاؤه على دانية . وفاته وتلقيبه بالفاتح .

— ١ —

لما انهارت الدولة الإسلامية الكبرى بالأندلس ، فى أوائل القرن الحادى عشر الميلادى ، وانتثرت إلى عدة دول وإمارات صغيرة متنافسة هى دول الطوائف ، كانت اسبانيا النصرانية تجوز حالة مماثلة من تعدد الإمارات والدول ، وإن لم تبلغ ما بلغته اسبانيا المسلمة من الإنقسام والتفرق . والحقيقة أن اسبانيا النصرانية كانت قد اتحدت فى أوائل القرن الحادى عشر تحت سلطان ملك قوى ، هو سانشو الثالث الملقب بسانشو الكبير (شانجُه ) ملك ناڤار ( نبرّة أو بلاد البشكنس ) ، وكانت المملكة النصرانية تمتد يومئذ ، من جبال البرنيه شرقاً إلى شانت ياقب غرباً ، ومن خليج بسكونية شمالا إلى نهر دويرة جنوباً . فلما توفى سانشو فى سنة ١٠٣٥ م ، قسمت مملكته الكبيرة بين أولاده الأربعة ، فاختص ولده فرناندو بقشتالة وغرسية بناڤار ؛ وحكم راميرو رقعة ضيقة تمتد جنوباً بشرق باسم مملكة أراجون ، فكان هذا مولد هذه المملكة النصرانية التى نمت بسرعة ولعبت فيما بعد أعظم دور فى تاريخ النضال بين اسبانيا المسلمة واسبانيا النصرانية . وحكم ولده الرابع كونثالو ولاية سوبرابى فى أواسط البرنيه . وأما مملكة ليون وجلّيقية فى الغرب فكان يحكمها صهره برمودو الثالث . وكانت تقوم ثمة فى الشرق على

شاطىء البحر إمارة قطلونية المستقلة ويحكمها آل برنجير[١] . وهكذا انقسمت المملكة النصرانية إلى عدة وحدات متنافسة . وكان من حسن طالع المسلمين أن يقع هذا الإنقسام ، فى الوقت الذى انهارت فيه الدولة الإسلامية الكبرى ، وتقاسمت أشلاءها دول الطوائف الضعيفة ، وبذا قام مدى حين نوع من التوازن بين القوتين المتداعيتين. على أنه بينما استمرت الأندلس فريسة الإضطراب والتفرق، إذا باسبانيا النصرانية تسير بخطوات متعاقبة فى سبيل الإتحاد والتوطد . ومع أن هذه الخطوات لم تكن دائما ثابتة الأثر ، فإنها كانت تعمل بمضى الزمن على توحيد قوى الممالك النصرانية لمواجهة العدو المشترك أعنى اسبانيا المسلمة . وكانت قشتالة تعمل باستمرار لضم مملكة ليون اليها ، وقد نجحت غير مرة فى تحقيق مشروعها بالعنف لمدى قصير . وكانت أراجون تتوق إلى ضم إمارة قطلونية التى كانت تحجبها عن البحر ، وكانت المملكتان تعملان معاً للقضاء على مملكة نافار الصغيرة ، وقد ائتمرتا بالفعل على اقتسامها بالعنف ، فاستولت قشتالة على القسم المحاذى لنهر إيبرو ، واستولت أراجون على القسم الواقع على جبال البرنيه ، وبذلك اختفت مملكة نافار مدى حين (١٠٧٦م) . ولكن هذه المملكة الصغيرة الباسلة عادت فاستردت استقلالها بعد ذلك بنحو ستين عاماً . وذلك أنه حينما توفى ألفونسو المحارب ملك أراجون وتولى الملك مكانه أخوه الراهب راميرو سنة ١١٣٤ م ، رفع النافاريون على العرش أميراً من سلالة ملوكهم القدماء هو غرسية راميرس ، وانفصلت نافار بذلك عن أراجون وقشتالة ، واستأنفت حياتها المستقلة حقبة أخرى . ولكن أراجون وقطلونية أتيح لهما أن يتحدا غير بعيد فى مملكة موحدة ، وذلك أن ريمون برنجير أمير قطلونية تزوج بترونلا ابنة راميرو ملك أراجون ، ولما توفى راميرو دون عقب تولى ريمون برنجير أيضاً ملك أراجون واتحدت المملكتان تحت تاج واحد ، وقامت مملكة أراجون الكبيرة من ذلك الحين (١١٣٧م)[٢]

كانت الممالك الإسبانية النصرانية خلال القرن الثانى عشر خمساً ، هى قشتالة

---

(١) سبق أن فصلنا تاريخ إمارة قطلونية وحكامها من آل برنجير ، فى كتابنا « عصر المرابطين والموحدين » — القسم الأول — ص ٤٩٩ — ٥٠٢ .

(١) ذكرنا تفاصيل اتحاد قطلونية وأراجون فى « عصر المرابطين والموحدين » — القسم الأول ص ٤٩٨ و ٥١٠ .

وليون وأراجون وناڤار والبرتغال ، وكانت البرتغال قبل ذلك ولاية من ولايات جليقية أو إمارة تخضع لها ، ولم تفز باستقلالها إلا فى منتصف القرن الثانى عشر ، فى عهد أول ملوكها المستقلين ألفونسو هنريكيز (١) . وكانت هذه الممالك النصرانية الخمس دائمة الخلاف والتنافس ، هذا فضلا عما كان يعانيه كل منها من الثورات والحروب الداخلية حول وراثة العرش . بيد أن هذه الممالك المتنافسة ، كانت تجتمع دائماً تحت علم واحد هو علم النضال ضد اسبانيا المسلمة ، فنرى جيوشها تجتمع متحدة فى موقعة الزلاّقة للقاء الجيوش الإسلامية المتحدة (٤٧٩هـ — ١٠٨٦م) . وبالرغم من أن جيوش قشتالة بقيادة ألفونسو الثامن ، لقيت بمفردها جيوش الموحدين بقيادة يعقوب المنصور فى موقعة الأرك الشهيرة ( ٥٩٣هـ — ١١٩٥م) ، وهى التى ظفر الموحدون فيها بالنصر الباهر ، فإنه لم تمض خمسة عشر عاما أخرى ، حتى عادت اسبانيا النصرانية تشعر كلها بشعور واحد ، هو شعور الخطر المشترك إزاء العدو المشترك . ومن ثم فإنه لما نشبت موقعة العقاب ( ٦٠٩هـ — ١٢١٢ م ) وهى ثالثة المواقع العظيمة الحاسمة بين الإسلام والنصرانية فى اسبانيا منذ الزلاقة ، اجتمعت جيوش الممالك الاسبانية النصرانية كلها — قشتالة وأراجون وناڤار — فى قواتها ، ومعهم أمداد كبيرة من ليون ومن البرتغال ، للقاء الجيوش الموحدية بقيادة محمد الناصر ولد يعقوب المنصور ، وفيها أصيب المسلمون بهزيمة مروعة ، كانت بدء الإنحلال العام فى قوى الموحدين وقوى الأندلس . وهكذا كانت اسبانيا النصرانية تبدو إزاء اسبانيا المسلمة ، كلما جدّ الخطر ، موحدة الرأى والقوى . على أن الممالك النصرانية كانت تشعر فوق ذلك ، أن هذا التقسيم الجغرافى المتعدد يفت فى قواها ، ولا يلائم مصالحها القومية . وكانت قشتالة وجارتها الشرقية أراجون ، هما أقوى الممالك النصرانية وأكبرهما رقعة ، وكانت كلتاهما تطمح إلى التوسع وضم ما يليها من أراضى الممالك الصغرى ، فكانت أراجون تطمح بعد انضمام قطلونية إليها ، إلى انتزاع ولايات ناڤار المجاورة لها ، وكانت قشتالة تطمح إلى ضم قرينتها وجارتها القديمة ليون ، وإلى انتزاع ما بقى من ولايات ناڤار المجاورة لها ، وهى ولايات البشكنس ؛ وكانت إمارة البرتغال

---

( ٢ ) تحدثنا تفصيلا عن قيام مملكة البرتغال وملكها ألفونسو هنريكيز فى « عصر المرابطين والموحدين » القسم الأول — ص ٥٢١ — ٥٢٨ . ويعرف الفونسو هنريكيز فى الرواية العربية ، بابن الرنق أو ابن الرنك تحريفاً لهنريكيز أو إنريكى الإسبانية .

الصغيرة الناشئة تدافع عن كيانها واستقلالها بصعوبة ، خلال هذه الأطماع المضطرمة ، وقد استطاع ملك قشتالة القوى ألفونسو ريموندیس ( ١١١٧ — ١١٥٧ م ) الذى تلقب بالقيصر ، أن يبسط على اسبانيا النصرانية فى أواخر حكمه حماية عامة ، على أنه لم يحكم بالفعل سوى قشتالة وليون وجلّيقية .

وفى أواخر القرن الثانى عشر ، عادت الحرب الأهلية تعصف بالممالك النصرانية ، وتضطرم بين ناڤار وبين قشتالة وأراجون . ونراها تضطرم عقب موقعة الأرك ، بين قشتالة وبين ناڤار وليون المتحالفين على قتالها . وكانت ناڤار المملكة الصغيرة الباسلة تدافع عن استقلالها إزاء أطماع جيرانها الأقوياء دفاعاً متواصلا ، ولاسيما فى عهد ملكها سانشو السابع آخر ملوكها الأقوياء ، وكان سانشو ينظر إلى تحالف جارتيه قشتالة وأراجون بعين الجزع ، ويستشعر منه الخطر الداهم على ملكه واستقلال أمته ، ولم يكتف بالتحالف مع ليون وهى المملكة الصغيرة الأخرى التى تخشى على استقلالها من أطماع قشتالة ، بل حاول أن يستمد عون سلطان خليفة الموحدين الظافر يعقوب المنصور ، وأن يعقد معه محالفة دفاعية ، وسار فى بطانته إلى إشبيلية يحاول لقاءه ، ولكن الخليفة المنصور كان قد توفى فى ذلك الحين. ولما عاد سانشو ألفى جاريه القويين پيدرو الأول ملك أراجون وألفونسو الثامن ملك قشتالة ، قد انقضا فى غيابه على ناڤار يحاولان اقتسامها ؛ وبالرغم مما أبداه الناڤاريون من الدفاع الباسل فقد استطاع ألفونسو أن ينتزع ولايات بسكونية وأن يضمها إلى مملكته ( سنة ١٢٠٠ م ) ، واستطاع پيدرو أن ينتزع بعض الأراضى المجاورة لأراجون ، ولم يبق من مملكة ناڤار القديمة سوى جزئها الشمالى . ولم تمض فترة قصيرة أخرى حتى ذهب هذا الجزء إلى حوزة حكام فرنسا الجنوبيين بطريق المصاهرة والوراثة ( ١٢٣٤ م ) . وبذلك اختفت هذه المملكة الصغيرة الباسلة من بين ممالك اسبانيا النصرانية .

ولم يمض قليل على ذلك حتى اختفت مملكة ليون القديمة ، جارة قشتالة من الغرب . وذلك أنه لما توفى ألفونسو الثامن ( النبيل ) ملك قشتالة فى سنة ١٢١٤م ، خلفه ولده الطفل هنرى ، وكانت كبرى بناته الأميرة برنجريا قد تزوجت بألفونسو التاسع ملك ليون ، ثم طلقت منه بعد أن رزقت بعدة أولاد أكبرهم فرناندو . وثار فى قشتالة مدى حين نزاع على وصاية الملك الطفل هنرى ، ثم توفى قبل أن يبلغ رشده قتيلا فى حادث. وكان ألفونسو النبيل قد قرر فى وصيته أنه إذا انقرض

عقبه من الذكور ، فإن العرش يؤول عندئذ إلى ابنته الكبرى برنجيريا ثم إلى أعقابها الشرعيين ، وهكذا قدر لفرناندو ولد برنجيريا من ألفونسو التاسع ملك ليون ، أن يرقى عرش قشتالة باسم فرناندو الثالث ، وهو الذى غدا فيما بعد من أعظم ملوك قشتالة . ولما توفى أبوه ألفونسو التاسع ملك ليون وجليقية فى سنة ١٢٣٠م ، خلفه أيضاً فى ملك ليون باعتباره وارث العرش الشرعى ، وبذلك اتحدت مملكتا قشتالة وليون تحت تاج واحد ، واختفت مملكة ليون وجليقية القديمة من عداد الممالك الإسبانية النصرانية ، وأضحت قشتالة بهذا الاتحاد أقوى الممالك الإسبانية ، وأوسعها رقعة وأغناها موارد ، واستطاع فرناندو الثالث بفضله أن يحرز التفوق على المسلمين ، وأن يفتتح قواعد الأندلس العظيمة قرطبة وجيان وإشبيلية ، وهى التى عجز عن افتتاحها جميع أسلافه من الملوك النصارى .

وهكذا غدت الممالك الإسبانية النصرانية منذ أوائل القرن الثالث عشر ، ثلاثا فقط ، هى قشتالة وأراجون والبرتغال ؛ وبينما قنعت البرتغال بالعمل على توطيد استقلالها وافتتاح الأراضى الإسلامية الواقعة فى جنوبها ، وهى التى تعرف بولاية الغرب ، إذا بقشتالة وأراجون تعملان معا للمضى فى تحقيق الغاية القومية والدينية الكبرى ، التى تعمل لها اسبانيا النصرانية منذ قرون ، وهى القضاء على الدولة الإسلامية بالأندلس واستخلاص تراث الوطن القديم .

— ٢ —

فى الوقت الذى انهارت فيه دولة الموحدين بالأندلس ، على أثر انهيارها فى المغرب ، وملك ابن هود مرسية وشرقى الأندلس ، وغلب ابن الأحمر على بعض القواعد الجنوبية والوسطى ، مثل وادى آش وبسطة وجيان ، وغلب بعض الزعماء على إشبيلية وقواعد ولاية الغرب ، وأخذ هؤلاء الزعماء المسلمون يتربص بعضهم ببعض ويحاول كل منهم أن ينتزع ما فى يد الآخر من القواعد والحصون ؛ شعرت مملكة قشتالة المتحدة القوية بأن الفرصة قد سنحت لتسديد ضربتها المميتة إلى الأندلس وبادر ملكها فرناندو الثالث بغزو الأراضى الإسلامية . وكانت معظم القواعد والحصون المتاخمة لقشتالة دون دفاع يذكر ، فافتتح عدداً من الحصون واستولى على مدينة أُبَّدة فى سنة ١٢٣٢م ( ٦٣١هـ ) . وفى أوائل سنة ١٢٣٣ م سار فرناندو لغزو قرطبة عاصمة الخلافة القديمة ، وكانت أثناء الحرب الأهلية قد انضوت تحت لواء ابن هود ونادت بطاعته ، وهاجم القشتاليون قصبتها الشرقية بشدة ، وضربوا

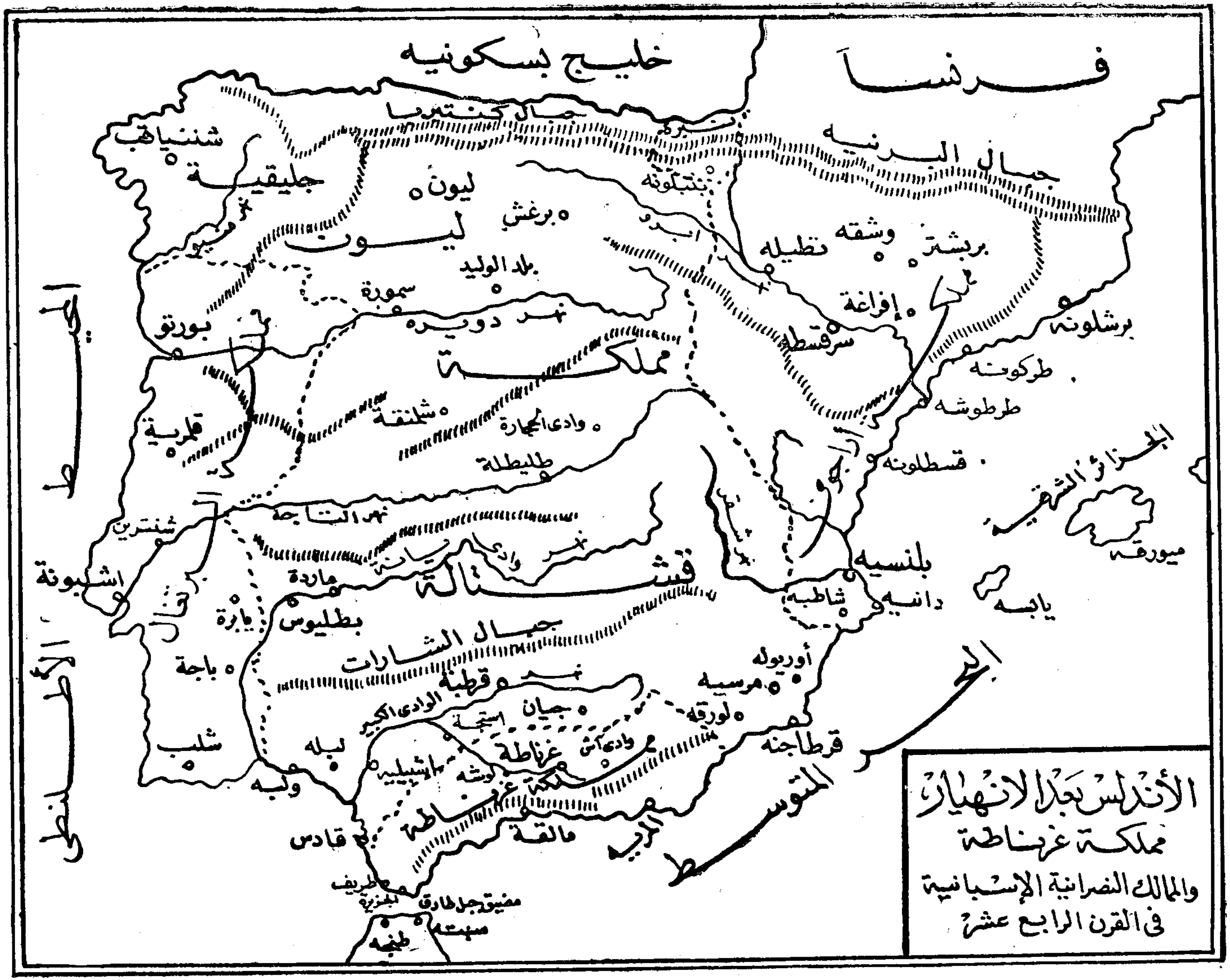


الأندلس بعد الانهيار
مملكة غرناطة
والممالك النصرانية الإسبانية
فى القرن الرابع عشر

حولها الحصار ، وكان ابن هود يضع خططه يومئذ لغزو بلنسية وقد وصله عندئذ صريخ أميرها زيان حينما هاجمه خايمى ملك أراجون ، فلم يشأ إنجاد المدينة المحصورة بالرغم من مسيره إليها ، خصوصاً وقد علم أن النصارى هاجموها بقوات كبيرة ، فترك قرطبة لمصيرها ، ودافع أهل قرطبة عن مدينتهم أعظم دفاع ، واشتبكوا مع النصارى خارج المدينة وفى داخلها فى عدة معارك دموية شديدة ، ولكن هذه البسالة لم تغن شيئاً ، وسقطت عاصمة الأندلس القديمة ، ودخلها القشتاليون فى ٢٩ يونيه سنة ١٢٣٦ م ( ٢٣ شوال سنة ٦٣٣هـ ) ورفعوا الصليب فى الحال فوق مسجدها الجامع تنويها بظفر النصرانية ، وكان سقوط قرطبة نذيراً بما انتهت إليه الأندلس من بالغ الضعف والفوضى .

ولما اشتدت الحرب الأهلية بين المسلمين فى شرقى الأندلس ، بعث فرناندو الثالث ولده ألفونسو إلى مرسية ، واستولى عليها صلحا فى سنة ١٢٤٣ م ( ٦٤٠ هـ ) . ثم التفت إلى إمارة غرناطة الناشئة التى أخذت تنمو ويشتد ساعدها فى ظل ابن الأحمر فانتزع منها حصن أرجونة وعدة حصون أخرى ، ووصلت قواته إلى أحواز غرناطة ، ثم أرسل جيشه لمحاصرة جيّان فى العام التالى ( سنة ١٢٤٥م ) ، وشعر ابن الأحمر أنه عاجز عن صد هذا السيل الجارف ، فاضطر إلى عقد الصلح والانضواء تحت حماية ملك قشتالة حسبما فصلنا من قبل ، وبلغ فرناندو الثالث بذلك ذروة القوة والسلطان ، وأضحت الأندلس الجنوبية كلها تحت حمايته ورهن مشيئته .

وأخذ فرناندو فى الوقت نفسه يتأهب لافتتاح إشبيلية أعظم قواعد الأندلس . وفى سنة ١٢٤٧ م ( ٦٤٤ هـ ) بث قواته فى أحواز إشبيلية فاستولت على معظم الحصون القريبة منها ، وسير فرناندو فى الوقت نفسه أسطولا فى مياه الوادى الكبير لكى يحول دون وصول الأمداد والمؤن إلى المدينة من ناحية البحر ؛ وكان يتولى الدفاع عن إشبيلية نفر من الزعماء البواسل . وأبدى المسلمون إصراراً وجلداً فى الدفاع عن مدينتهم ، ولكن النصارى أحكموا حصارها ، واستمر الحصار طول الشتاء ، ثم حشد فرناندو فى العام التالى حولها قوات جديدة ، وسارع إلى نجدته كثير من المتطوعة النصارى من أراجون والبرتغال ومنهم كثير من الأحبار والرهبان ، واضطر ابن الأحمر صاحب غرناطة إلى معاونة حليفه وحاميه فرناندو ببعض قواته ، وذلك كله حسبما فصلناه من قبل . وفى النهاية اضطرت الحاضرة

الإسلامية الكبيرة إلى التسليم ، ودخلها النصارى فى ٢٣ ديسمبر سنة ١٢٤٨ م ( أوائل رمضان سنة ٦٤٦هـ ) ، وفى الحال حولوا مسجدها الجامع إلى كنيسة جرياً على سنتهم ، وبذلك وقعت معظم القواعد الإسلامية الكبرى فى يد النصارى ، ولاح شبح الفناء للأندلس واضحا منذراً .

وتوفى فرناندو الثالث فى مايو سنة ١٢٥٢ م ، بعد أن حكم قشتالة خمسة وثلاثين عاما ، ودفن فى إشبيلية آخر فتوحه ، وقد غدت منذ افتتاحها عاصمة لقشتالة مكان طليطلة ؛ وقد أسبغت عليه فيما بعد صفة القداسة ، فسمى بسان فرناندو ( القديس فرناندو ) وذلك تنوبها بما تم على يديه من ظفر عظيم للنصرانية .

* * *

وأما مملكة أراجون فقد تخلفت حينا عن قرينتها قشتالة فى مناهضة المسلمين ، وكان ملكها بيدرو الثانى ، الذى خلف أباه ألفونسو على العرش فى سنة ١١٩٦ م ، أميراً وافر الشجاعة والفروسة ، ولكنه شغل بتنظيم شئون مملكته الداخلية ومقاومة سلطان الأشراف ، ثم حج إلى رومة ليتلقى تاجه من يد البابا . ولما عاد إلى أراجون شغل حينا بمحاربة الألبيين وغيرهم من الملاحدة فى جنوب فرنسا ، وتوفى قتيلا فى إحدى المعارك ( سنة ١٢٢٤ م ) . فخلفه ولده خايمى ( يعقوب ) طفلا بالرغم من معارضة عميه سانشو وفرناندو ، وثارت من جراء ذلك فى أراجون حرب أهلية استمرت عدة أعوام ، ولكنها انتهت بفوز خايمى وحزبه على الثوار ، فعاد إلى الجلوس على العرش دون منازع وذلك فى سنة ١٢٢٧ م .

وما كاد خايمى[١] يستقر فى عرشه ، حتى اعتزم أن ينزل ميدان الحرب ضد المسلمين ، وأن يحاول الفوز بنصيبه من الأراضى الأندلسية ، فبدأ بغزو الجزائر الشرقية ( جزائر البليار ) القريبة من شواطىء أراجون ، وسير اليها فى سنة ١٢٢٩م ( ٦٢٦ هـ ) حملة بحرية قوية . وكانت ميورقة وباقى الجزائر الشرقية يومئذ تابعة لإمارة بلنسية التى يسيطر عليها الأمير أبو جميل زيان بن مدافع بن مردنيش ، ويحكمها من قبله أبو يحيى بن يحيى أومحمد بن على بن موسى وفق رواية أخرى ، فنزل النصارى إلى الجزيرة ، ولكنهم لقوا داخلها مقاومة عنيفة ، ودافع المسلمون

( ١ ) خايمى وبالإسبانية Jaime ، تكتب أحياناً فى الرواية العربية « چايمس » ( ابن الخطيب : الإحاطة ج ١ ص ٥٤٨ و٥٥٩ و٥٧٢ ، واللمحة البدرية ص ٨٣ و١٠٧ ) . ورأيناها فى كثير من الوثائق العربية المحفوظة بمحفوظات أراجون تكتب هكذا : دون جيمى ، دون جقمى ، دون جاقمة .

عن جزيرتهم بمنتهى الشدة والبسالة ، ولكنهم اضطروا فى النهاية إلى التسليم ( صفر سنة ٦٢٧هـ ) . ومع ذلك فقد استمرت المقاومة فى شُعَب الجزيرة بعد ذلك حينا ، واضطر خايمى أن يعود إليها مرتين حتى أتم إخضاعها فى سنة ١٢٣٣ م ؛ وسلمت منورقة وهى ثانية الجزائر للنصارى بعد ذلك ببضع سنين(١) .

وماكاد ملك أراجون يستولى على جزيرة ميورقة حتى وجه عنايته إلى فتح بلنسية ، وسار إلى غزوها فى جيش ضخم فى سنة ١٢٣٨م ، ( رمضان سنة ٦٣٥هـ ) واستطاع أن ينتزع الحصون الواقعة حولها تباعا . وكانت بلنسية قد سادها الاضطراب والفوضى من جراء الحرب الأهلية ، ومع ذلك فقد تأهبت بقيادة أميرها أبى جميل زيان لمقاومة النصارى ، وطوق النصارى المدينة من البر والبحر ، وبعث الأمير أبو جميل وزيره وكاتبه ابن الأبّار القضاعى إلى أمير إفريقية ( تونس ) أبى زكريا الحفصى يستغيث به ، وألقى ابن الأبار بين يديه قصيدته الشهيرة التى مطلعها :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا    إن السبيل إلى منجاتها درسا

وبادر الأمير أبو زكريا بإغاثة بلنسية : وبعث إليهم بعض الأمداد والمؤن فى عدة سفن ، ولكنها لم توفق إلى الاتصال بالمدينة المحصورة ؛ واستمر الحصار أشهراً واشتد الكرب بالمسلمين ، وضاعف النصارى هجماتهم حتى اضطرت المدينة المحصورة فى النهاية إلى التسليم بشرط أن يؤمّن أهلها فى النفس والمال ، وأن يغادرها من شاء منهم ؛ وكان سقوط بلنسية فى يد النصارى فى ٢٨ سبتمبر سنة ١٢٣٨ م ( ١٧ صفر سنة ٦٣٦ هـ ) .

وعلى أثر سقوط بلنسية تابع خايمى غزواته لباقى الأراضى الإسلامية المجاورة لها ، واستولى على دانية ولقنت فى سنة ١٢٤٤ م ( ٦٤١ هـ ) . ثم استولى على شاطبة وأوريولة فى سنة ١٢٤٦ م ( آخر سنة ٦٤٤ هـ ) . وقرر خايمى أن يجلى جميع السكان المسلمين عن الأراضى التى تم افتتاحها ، فهرعت منهم جموع غفيرة إلى مملكة غرناطة حتى ضاقت بسكانها ، وهاجر الكثير منهم إلى إفريقية ،

---

( ١ ) تناولنا فتح الأرجونيين للجزائر الشرقية تفصيلا فى « عصر المرابطين والموحدين » القسم الثانى ص ٤٠٢ — ٤٠٩ .

وأخذت القواعد والثغور الإسلامية القديمة تتحول تباعا إلى مدن نصرانية ، وأخذت الكثرة المسلمة تتحول بسرعة إلى أقلية من المدجنين ، تعيش فى ظل الحكم الإسبانى فى ذلة وخضوع .

وعنى خايمى بعد ذلك بإصلاح الشئون الداخلية ، وتمت فى عهده عدة إصلاحات تشريعية خطيرة . ووضع مشروعا لتقسيم المملكة بعد وفاته بين أولاده الأربعة ، ولكنه لم يتحقق لوفاة أكبر أولاده ألفونسو ، ولما أثاره من اضطراب فى أنحاء المملكة . وتوفى خايمى بعد حكم طويل حافل فى سنة ١٢٧٤ م ، وقد أسبغت عليه فتوحاته فى الأراضى الإسلامية لقب « الفاتح » .

# الفصل السادس

## مملكة غرناطة عقب وفاة ابن الأحمر
## وعصر الجهاد المشترك بين بنى الأحمر وبنى مرين

ولاية محمد الفقيه . تربص النصارى بالأندلس . بنو مرين ومبدأ أمرهم . القتال بينهم وبين الموحدين . ولاية أبي يحيى المريني . ولاية أبي‌يوسف يعقوب . انهيار دولة الموحدين . استغاثة الأندلس ببنى مرين . استجابة السلطان أبي يوسف لصريخ الأندلس . إرساله حملة إلى الأندلس ثم عبوره إليها . موقف بنى أشقيلولة . غزو أبي يوسف لبسائط الفرنتيرة . موقعة إستجة وغزوات أبي يوسف . عوده إلى المغرب . توجس ابن الأحمر وعتابه لأبي يوسف . عبور أبي يوسف إلى الأندلس للمرة الثانية . توغله فى أراضى النصارى . اللقاء بينه وبين ابن الأحمر . استيلاء ابن الأحمر على مالقة . تفاهمه مع ملك قشتالة . انتصار المغاربة فى البحر . زحفهم على مربلة . القتال بينهم وبين ابن الأحمر . توجس أبي يوسف من العواقب . عود التفاهم بينه وبين ابن الأحمر . أثر غرناطة وبنى مرين فى شئون قشتالة . ألفونسو العالم ملك قشتالة . ثورة ولده سانشو عليه . التجاؤه إلى السلطان أبي يوسف المنصور . عبور المنصور لنصرته وغزوه لأراضى قشتالة . تفاهم ابن الأحمر مع سانشو . عود التفاهم بين ابن الأحمر والمنصور . توجس ابن‌الأحمر من المغاربة . عبور المنصور إلى الأندلس للمرة الرابعة . غزواته فى أرض النصارى . سانشو ملك قشتالة يذعن للصلح . خطة مشيخة الغزاة . وفاة المنصور وولاية ولده أبي يعقوب . خروج أبي الحسن بن أشقيلولة فى وادى آش . استرداد ابن الأحمر لوادى آش . إغارة ملك قشتالة على أراضى الأندلس . سير الجيوش المغربية إلى الأندلس . هزيمة المغاربة فى البحر . عبور السلطان أبي يعقوب إلى الأندلس . غزوه لأراضى النصارى . توجس ابن الأحمر من نيات أبي يعقوب وتفاهمه مع ملك قشتالة . انتزاع سانشو لطريف من المغاربة . نكثه لعهوده لابن الأحمر . سعيه للتفاهم مع أبي يعقوب وعبوره إلى المغرب . معاهدة تحالف بين غرناطة وأراجون . وفاة ابن الأحمر وخلاله . ولاية محمد الملقب بالمخلوع . غلبة وزيره ابن الحكيم عليه . اضطراب العلائق بين محمد والسلطان أبي يعقوب . استيلاء محمد على سبتة . مصرع أبي يعقوب . زحف عثمان بن أبي العلاء على المغرب . ولاية السلطان أبي ثابت لعرش المغرب . مسيره إلى الشمال ووفاته . ولاية السلطان أبي الربيع . هزيمة الأندلسيين ومقتل عثمان . الثورة فى غرناطة . اضطراب الأحوال فى عهد نصر . غزو القشتاليين لأرض الأندلس . مشروع فرناندو لغزو جبل طارق . حصار ألمرية وهزيمة النصارى . سقوط جبل طارق . الصلح بين ملك غرناطة وبنى مرين . مصانعة نصر لملك قشتالة . تعهده بأداء الجزية . الثورة فى غرناطة . هزيمة نصر وعزله .

لما توفى محمد بن الأحمر مؤسس مملكة غرناطة، خلفه فى الملك ولده وولى عهده أبو عبدالله محمد بن محمد بن يوسف الملقب بالفقيه لعلمه وتقواه . وكان مولده بغرناطة سنة ٥٣٣ هـ ( ١٢٣٥ م ) . وهو الذى رتب رسوم الملك للدولة النصرية ،

ووضع ألقاب خدمتها ، ونظم دواوينها وجبايتها ، وخلع عليها بذلك صفتها الملوكية الزاهية . وكان يتمتع بكثير من الخلال الحسنة ، من قوة العزم ، وبعد الهمة وسعة الأفق ، والبراعة السياسية . وكان عالماً أديبا يقرض الشعر ، ويؤثر مجالس العلماء ، والأدباء[1]. ولأول عهده نشط ملك قشتالة ألفونسو العاشر الملقب بالعالم أو الحكيم إلى محاربة المسلمين ، وكان مثل أبيه فرناندو الثالث ، يرى أن دولة الإسلام بالأندلس قد دنت نهايتها ، ويتربص الفرصة بالمملكة الإسلامية الفتية ، ويحاول أن يعمل كأبيه للقضاء عليها قبل استفحال أمرها . ولم يكن ملك غرناطة بغافل عن الخطر الذى يتهدده من مشاريع قشتالة . وكان محمد بن الأحمر قد أوصى ولده بالحرص على محالفة بنى مرين ، ملوك العدوة والاستنجاد بهم كلما لاح شبح الخطر الداهم[2]. وكان بنو مرين وهم الذين استولوا على ملك الموحدين بعد ذهاب دولتهم ، يومئذ فى عنفوان قوتهم ، وكانت مملكتهم الفتية ، تشغل فى نظر الأندلس ونظر اسبانيا النصرانية ، نفس الفراغ الذى تركه ذهاب دولة المرابطين ثم دولة الموحدين ، وكان من الطبيعى أن تؤدى هذه الدولة الجديدة فى ميدان السياسة والحرب نحو الجزيرة الإسبانية ، نفس الدور الذى أدته المملكتان المغربيتان الذاهبتان .

وبنو مرين بطن من بطون قبيلة زناتة البربرية الشهيرة ، التى ينتمى إليها عدة من القبائل التى لعبت أدواراً بارزة فى تاريخ المغرب ، مثل مغراوة ومغيلة ومديونة وجراوة وعبد الواد وغيرهم . ومع ذلك فإن بنى مرين يرجعون نسبتهم إلى العرب المضرية ، وذلك بالانتساب إلى بر بن قيس عيلان بن مضر بن نزار . وجدهم الأعلى جرماط بن مرين بن ورتاجى بن ماخوخ[3] . وكانت القبائل المرينية فى بداية أمرها من العشائر البدوية المتنقلة ، تجول فى صحارى المغرب الأوسط وهضابه وتسير نحو المغرب الأقصى أيام الصيف . وفى فاتحة القرن السابع الهجرى ، نشبت الحرب بينهم وبين بنى عبد الواد ، فتوغلوا فى هضاب المغرب ، ونزلوا بوادى ملوية الواقع بين المغرب والصحراء وأقاموا هنالك حينا . وكانت قوى الموحدين قد تضعضعت منذ موقعة العقاب ( ٦٠٩ هـ )[4] ، وسرت إلى دولتهم عوامل

---

(١) الإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٥٦٥ .

(٢) الذخيرة السنية ص ١٦٣ ؛ وابن خلدون ج ٧ ص ١٩١ .

(٣) الذخيرة السنية ص ١٠ و١١ و١٦ .

(٤) الذخيرة السنية ص ٥٢ و٥٣ ؛ والاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج ٢ ص٣و٥ .

التفكك والانحلال. ولما توفى ملكهم الناصر ، وهو المهزوم فى موقعة العقاب ، سنة ٦١٠ هـ ، ولى بعده ولده يوسف المستنصر ، وكان فتى حدثاً ضعيف الهمة والخلال ، فانكب على لهوه وساءت أمور المملكة وسرت إليها الفوضى . ففى تلك الآونة التى بدأ فيها ملك الموحدين يهتز فى يد القدر ، نفذ بنو مرين إلى المغرب ، وتوغلوا فى جنباته ، واشتبكوا مع الموحدين لأول مرة فى سنة ٦١٣ هـ ، إذ حاول الملك المستنصر أن يقضى عليهم ، فأرسل جيوشه لقتالهم ولكنها هزمت ، ووصل بنو مرين إلى أحواز فاس ؛ وكان أمير بنى مرين يومئذ أبو محمد عبد الحق بن خالد ابن محيو ، ولكنه قتل فى بعض المواقع فى سنة ٦١٤هـ ، فخلفه فى الإمارة ولده أبو سعيد عثمان ، واستمر يقود قومه فى ميدان النضال ضد الموحدين[1] .

وفى سنة ٦٣٩هـ ( ١٢٤١م ) سير الرشيد خليفة الموحدين جيشاً لقتال بنى مرين فهزم الموحدون هزيمة شديدة ، واستولى المرينيون على معسكرهم . وتوفى الرشيد فى العام التالى . فخلفه فى الملك أخوه أبو الحسن السعيد ، واعتزم أن يضاعف الجهد للقضاء على بنى مرين ، فسير لقتالهم فى سنة ٦٤٢هـ (١٢٤٤ م ) جيشاً ضخماً ونشبت بين الموحدين وبين بنى مرين موقعة هائلة ، هزم فيها بنو مرين وقتل أميرهم أبو معرف محمد بن عبدالحق ، وكانت ضربة شديدة هدت من عزائمهم مدى حين .

وتولى إمارة بنى مرين بعد مقتل أبى معرف ، أخوه أبو بكر بن عبد الحق الملقب بأبى يحيى . وفى عهد اشتد ساعد بنى مرين واستولوا على مكناسة (٦٤٣هـ) ثم زحفوا على فاس واستولوا عليها بعد حصار شديد ( ٦٤٨هـ — ١٢٥٠م ) . وكان سقوط فاس حاضرة المغرب القديمة ، أعظم ضربة أصابت دولة الموحدين ، وكان نذير الإنهيار النهائى . ثم استولوا على سجلماسة ودرعة ( ٦٥٥هـ ) . ولما توفى أبو يحيى سنة ٦٥٦هـ ، تولى أخوه أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق من بعده رياسة بنى مرين وجعل مدينة فاس حاضرة ملكه . وفى سنة ٦٥٧ هـ نشبت الحرب بين بنى مرين وبين الأمير يَغْمُراسن بن زيان ملك المغرب الأوسط وزعيم بنى عبد الواد ، فهزم يغمراسن وارتد إلى تلمسان . وفى العام التالى (٦٥٨هـ ) هاجم النصارى ( الإسبان ) فى سفنهم ثغر سلا فجأة ، وقتلوا وسبوا كثيراً من أهله ، فبادر أبو يوسف بإنجاده ، وحاصر النصارى بضعة أسابيع حتى جلوا عنه .

ثم كانت الموقعة الحاسمة بين الموحدين وبنى مرين ، فى أواخر سنة ٦٦٧ هـ

---

( ١ ) الذخيرة السنية ، ص ٩٣ و ٩٤ .

(١٢٦٩ م) سار الواثق بالله المعروف بأبي دبوس خليفة الموحدين من مراكش لقتال بني مرين ، والتقى الجمعان في وادى غفو بين فاس ومراكش ، فهزم الموحدون بعد معركة شديدة ، وقتل منهم عدد جم في مقدمتهم الواثق ، واستولى أبو يوسف على معسكرهم ومؤنهم وخزائنهم ، ثم سار إلى مراكش فدخلها في التاسع من المحرم سنة ٦٦٨ هـ ، وتسمى بأمير المسلمين ، وبذلك انتهت دولة الموحدين في المغرب ، كما انتهت في الأندلس ، بعد أن عاشت زهاء قرن وثلث قرن ، وقامت مكانها دولة بني مرين تسيطر على أنحاء المغرب الأقصى كله ، وتستقبل عهداً جديداً من القوة والسلطان(١) .

إلى تلك الدولة الجديدة الفتية ، كانت تتجه أنظار الأندلس كلما لاح لها شبح الخطر الداهم . وقد شاء القدر أن تلعب دولة بني مرين وريثة المرابطين والموحدين ، في حوادث الأندلس الداخلية والخارجية أعظم دور . ولم تفت مؤسس مملكة غرناطة أهمية التحالف مع بني مرين والاستنصار بهم ، فبعث قبيل وفاته بقليل حسبما رأينا إلى السلطان أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق الملقب بالمنصور يطلب إليه غوث الأندلس وإنجادها . وكان السلطان أبو يوسف حينما وصله صريخ ابن الأحمر في سنة ٦٧٠ هـ يسير إلى غزو تلمسان ، فلما وقف من الرسل على حال الأندلس وما يهددها من الأخطار ، جمع أشياخ القبائل ، واتفق الجميع على وجوب إنجاد الأندلس والجهاد في سبيل الله ، وأرسل السلطان إلى الأمير يَغْمُراسن صاحب تلمسان يعرض عليه عقد الصلح ، لكي يتمكن من العبور إلى الأندلس ، فأبى واقتتل الفريقان على مقربة من وَجْدة ، في شهر رجب سنة ٦٧٠ هـ (١٢٧٢م) فهزم يغمراسن وفرجريجا(٢) ، وعاد أبو يوسف مظفراً إلى المغرب ، وهو يعتزم استجابة دعوة الأندلس وإنجادها .

على أنه مضى أكثر من عامين ، قبل أن تسنح له الفرصة المرجوة . فلما تولى محمد الفقيه ، أرسل عقب ولايته بقليل وفداً من أكابر الأندلس إلى ملك

(١) راجع في أصل بني مرين ونشأتهم ، الذخيرة السنية ص ١٠ و ١٦ و ٩٤ و ٩٩ و ١٢٣ و ١٢٤ ؛ والاستقصاء ج ٢ ص ١٣ و ١٤ ؛ وابن خلدون ج ٧ ص ١٦٦ — ١٨٠ . هذا وقد عثرنا في مكتبة مدريد الوطنية على قطعة صغيرة من مخطوطة عنوانها « ذكر الياقوتة الحلية في الذرية السعيدية المرينية المباركة العبدالحقية » وهي في أربعة عشرة صفحة تتناول نشأة بني مرين وسيرتهم حتى بداية السلطان أبي يوسف ، ولا يخرج ما ورد فيها عما قدمنا خلاصته .

(٢) الذخيرة السنية ص ١٤٨ ؛ والاستقصاء ج ٢ ص ١٦ .

المغرب يحمل إليه رسالة استغاثة مؤثرة ، فشرحوا له حال الأندلس من الضعف ونقص الأهبة ، وتكالب العدو القوى عليها ، واستصرخوه للغوث والجهاد ومما جاء فى رسالة ابن الأحمر إلى أبى يوسف بعد الديباجة :

مرين جنود الله أكبر عصبة فهم فى بنى أعصارهم كالمواسم
مشنفة أسماعهم لمدائح مسورة إيمانهم بالصوارم

« تطول علينا بمعلوم حدك ومشهود جدك ، قد جعلك الله رحمة تحيى عيشها بجيوشك السريعة ، وخلفك سُلَّما إلى الخير وذريعة ، فقد تطاول العدو النصرانى على الإسلام ، واهتضم جناحه كل الإهتضام ، وقد استخلص قواعدها ، ومزق بلدانها ، وقتل رجالها وسبى ذراريها ونساءها ، وغنم أموالها . وقد جاء بإبراقه وإرعاده ، وعدده وإيعاده ، وطلب منا أن نسلم له ما بقى بأيدينا من المنابر والصوامع والمحاريب والجوامع ، ليقيم بها الصلبان ، ويثبت بها الأقسة والرهبان . وقد وطأ الله لك ملكا عظيما شكرك الله على جهادك فى سبيله ، وقيامك بحقه ، وإجهادك فى نصر دينه وتكميله ، ولديك من نية الخير ، فابعث باعث بعثك إلى نصر مناره ، واقتباس نوره ، وعندك من جنود الله من يشترى الجنات بنفسه . فإن شئت الدنيا فالأندلس قطوفها دانية ، وجناتها عالية ، وإن أردت الآخرة بها جهاد لا يفتر ، وهذه الجنة ادخرها الله لظلال سيوفكم ، واحتمال معروفكم ، ونحن نستعين بالله العظيم وبملائكته المسومين ، ثم بكم على الكافرين »(١) .

ثم تتابعت رسل ابن الأحمر وبنى أشقيلولة إلى السلطان أبى يوسف ، ينوهون بالخطر الداهم الذى يهدد الأندلس ، ويلتمسون إليه المبادرة بالإسعاف والإمداد ، فاستجاب السلطان أخيراً لدعوتهم ، وكتب إلى ابن الأحمر يطمئنه ، ويعرب عن عزمه على الجواز إلى الأندلس فى فاتحة سنة أربع وسبعين ، ومما جاء فى رسالته :

« وإنا لنرجو أن نصلكم بنفوس صلح جهرها وسرها ، ونسقى بماء الثلج واليقين غرها ، ونقدم عليكم بما يبسط نفوسكم ويسرها ، ويطلع لها الفرح من المكاره ويذهب عسرها ، فلتطب نفوسكم برحمة الله وعونه ، ولتفرحوا بفضل الله وصونه ، ونحن قادمون عليكم فى إثر هذا إنشاء الله ، ووعدنا بوفاء يعين الله على أعدائه »(٢) .

---

(١) راجع هذه الرسالة بأكملها فى الذخيرة السنية ص ١٥٩ — ١٦١ .
(٢) راجع نص رسالة السلطان أبى يوسف بأكمله فى الذخيرة السنية ص ١٦٢ و١٦٣ .

وهكذا اعتزم السلطان أبو يوسف أن يؤدى رسالة المغرب التاريخية فى إنجاد الأندلس ونصرتها ،وكان بنومرين فى عنفوان دولتهم يجيشون بنزعة الجهاد الفتية . وخرج السلطان من فاس فى رمضان سنة ٦٧٣هـ برسم الجهاد فى الأندلس، وأرسل للمرة الثانية إلى الأمير يَغْمُراسن صاحب تلمسان ، يعرض الصلح توحيداً للكلمة وتعضيداً للجهاد . فقبل يغمراسن وتم الصلح . وبادر السلطان فجهز ولده أبا زيان(١) فى خمسة آلاف مقاتل ، فعبر البحر من قصر المجاز (قصر مصمودة) إلى الأندلس ، ونزل بثغر طريف فى شهر ذى الحجة سنة ٦٧٣هـ (١٢٧٥ م) ، ونفذ إلى أرض النصارى حتى شَريش ، وعاث فيها وعاد مثقلا بالسبي والغنائم ، وقدَّم إليه ابن هشام وزير ابن الأحمر ثغر الجزيرة فنزل فيه ، وجاز ابن هشام إلى العدوة فلقى السلطان أبا يوسف فى معسكره على مقربة من طنجة . وكان السلطان قد استكمل أهبته ، فعبر من قصر المجاز إلى الأندلس فى صفر سنة ٦٧٤هـ (يوليه ١٢٧٥ م) ، فى جيش كثيف من البربر ، داعيا إلى الجهاد على سنة أسلافه المرابطين والموحدين . وكان أبو يوسف قد اشترط على ابن الأحمر حينما استنجد به ، أن ينزل له عن بعض الثغور والقواعد الساحلية ، لتنزل بها جنوده فى الذهاب والإياب . فنزل له عن رندة وطريف والجزيرة ، ونزل أبو يوسف بجيشه فى طريف ، وهرع ابن الأحمر وبنو أشقيلولة إلى لقائه ، واهتزت الأندلس كلها لعبور ملك المغرب . ولكن ابن الأحمر ما لبث أن غادره مغضبا لما رأى من تدخله فى شئون الأندلس بصورة مريبة . ذلك أن بنى أشقيلولة أصهار بنى الأحمر ، وفى مقدمتهم محمد بن أشقيلولة زعيم الأسرة وزوج أخت محمد بن الأحمر ، وأخوه أبو الحسن زوج ابنته ، كانوا يجيشون نحو عرش غرناطة بأطماع خفية . وكان أبو محمد ممتنعاً بمالقة مغاضبا لملك غرناطة حسبما قدمنا . فلما عبر أبو يوسف إلى الأندلس ، سار إليه وانضوى تحت لوائه ، ولم يفلح أبو يوسف فى التوفيق بين ابن الأحمر وبين أصهاره ، وخشى ابن الأحمر عاقبة هذا التحالف بين أصهاره وبين أبى يوسف ، فارتد إلى غرناطة حذرا متوجسا .

ونفذ السلطان أبو يوسف بجيشه إلى بسائط الفرنتيره(٢) وكانت فى يد النصارى

---

(١) الذخيرة السنية ص ١٦٤ ، ولكن ابن خلدون يقول إن السلطان بعث الجند مع ولده منديل (ج ٧ ص ١١٩) ومنديل حفيد السلطان أبى يوسف .

(٢) الفرنتيره **La Frontera** هى السهل الواقع فى غربى مثلث إسبانيا الجنوبى (الجزيرة) ويمتد من قادس جنوباً حتى طرف الغار .

وعاث فيها . ثم توغل غازيا ينتسف الضياع والمروج ويسبي السكان ، حتى وصل إلى حصن المقورة وأبدة على مقربة من شرقي قرطبة . وعندئذ عول القشتاليون على لقائه دفاعا عن أراضيهم . وخرج القشتاليون في جيش ضخم ، تقدره الرواية الإسلامية بنحو تسعين ألف مقاتل[١] ، وعلى رأسهم قائدهم الأشهر صهر ملك قشتالة الدون نونيو دى لارا ، الذى تسميه الرواية الإسلامية « دونونه أو دننه أوذنونه » . وكان أبو يوسف قد ارتد عندئذ بجيشه إلى ظاهر إستجة ، ومعه حشد عظيم من الغنائم والأسرى ، فأغلقت المدينة أبوابها ، واستعدت للقتال ، ووضع أبو يوسف الغنائم فى ناحية تحت إمرة حرس خاص حتى لا تعيق حركاته ، وعقد لولده أبى يعقوب على مقدمته ، وخطب جنده وحثهم على الجهاد والموت فى سبيل الله . ثم تقدم لملاقاة النصارى ، ومعه بعض قوات الأندلس برياسة بنى أشقيلولة . ووقع اللقاء بين المسلمين والنصارى ، على مقربة من إستجة جنوب غربى قرطبة ، فى اليوم الخامس عشر من شهر ربيع الأول سنة ٦٧٤ هـ ( ٩ سبتمبر ١٢٧٥ م ) ، فنشبت بين الفريقين معركة سريعة هائلة ، هزم النصارى على أثرها هزيمة شديدة ، وقتل قائدهم الدون نونيو دى لارا وعدة كبيرة منهم[٢] . وكان نصراً عظيما أعاد إلى الأذهان ، ذكريات موقعة الزلاّقة وموقعة الأرك ، وكان أول نصر باهر يحرزه المسلمون على النصارى ، منذ موقعة العقاب ، ومنذ انهيار الدولة الإسلامية بالأندلس ، وسقوط قواعدها العظيمة . وتبالغ الرواية الإسلامية فى تقدير خسائر النصارى ، فتقول إنه قتل منهم فى الموقعة ثمانية عشر ألفاً ، جمعت رؤوسهم وأذّن عليها المؤذن لصلاة العصر ، هذا فى حين أنه وفقاً لقولها أيضاً ، لم يقتل من المسلمين سوى أربعة وعشرين رجلا[٣] .

وبعث السلطان أبو يوسف برأس دون نونيو إلى ابن الأحمر ، فقيل إنه بعثها بدوره إلى ملك قشتالة مضمخة بالطيب ، مصانعة له وتوددا إليه . وكتب أبو يوسف إلى العُدوة رسالة يشرح فيها حوادث الموقعة ، وما انتهت إليه من نصر باهر ، فقرئت على المنابر ، وكتب رسالة مماثلة إلى ابن الأحمر ، فرد عليه بالشكر والدعاء . ورفع

---

( ١ ) الذخيرة السنية ص ١٦٩ و ١٧٠ .

( ٢ ) ابن خلدون ج ٧ ص ١٩١ ؛ واللمحة البدرية ص ٤٤ ؛ والإحاطة ج ١ ص ٥٧٣ ؛ والذخيرة السنية ص ١٧٠ — ١٧٢ .

( ٣ ) الذخيرة السنية ص ١٧٣ .

ابن أشقيلولة إلى أمير المسلمين أبي يوسف ، قصيدة يهنئه فيها بالنصر جاء فيها :

هبت بنصركم الرياح الأربع ... وسرت بسعدكم النجوم الطلع
وأتت لنصركم الملائك سيفا ... حتى أضاق بها الفضاء الأوسع
واستبشر الفلك الأثير تيقنـــا ... أن الأمور إلى مرادك ترجع
وأمدك الرحمن بالفتح الذى ... ملأ البسيطة نوره المتشعشع

ولبثت أبو يوسف بالجزيرة الخضراء بضعة أسبيع ، قسمت فيها الغنائم واستراحت الجند . ثم خرج للمرة الثانية فى جمادى الأولى سنة ٦٧٤هـ ، وتوغل غازيا فى أراضى قشتالة حتى وصل إلى أحواز إشبيلية ؛ فأغلقت المدينة أبوابها . وعاث أبو يوسف فى تلك الأنحاء ، ثم سار إلى شَرِيش فضرب حولها الحصار ، فخرج إليه زعماء المدينة ورهبانها وطلبوا إليه الأمان والصلح ، فأجابهم إلى طلبهم وعاد إلى قواعده مثقلا بالغنائم والسبي . وقضى بضعة أسابيع أخرى بالجزيرة الخضراء ، ثم عبر البحر إلى المغرب فى أواخر شهر رجب ٦٧٤هـ ، بعد أن قضى بالأندلس زهاء خمسة أشهر .

على أن هذا النصر الباهر ، الذى أحرزه السلطان أبو يوسف المرينى على النصارى ، لم يحدث أثره المنشود فى بلاط الأندلس . ذلك أن محمد بن الأحمر ، جنح إلى الارتياب فى نيات ملك المغرب ، وخصوصاً منذ أسبغ السلطان حمايته على بنى أشقيلولة ، وغيرهم من الخوارج على ملك غرناطة ، ومثلت بذهنه مأساة الطوائف وغدر المرابطين بهم (١) . وبعث ابن الأحمر إلى السلطان قبيل مغادرته الجزيرة ، يعاتبه على تصرفه فى حقه بقصائد مؤثرة يستعطفه فيها ويستنصره ، والسلطان يجيبه عنها بقصائد مثلها . ومن ذلك قصيدة من نظم أبي عمران بن المرابط كاتب ابن الأحمر هذا مطلعها :

هل من معيني فى الهوى أو منجدى ... من متهم فى الأرض أو من منجد
هذا الهوى داع فهل من مسعف ... بإجابة وإنابة أو مســـعد

ومنها فى الاستغاثة :

أفلا تذوب قلوبكم إخواننـــا ... مما دهانا من ردًى أو من ردى
أفلا تراعون الأذمة بيننـــا ... من حرمــة ومحبــة وتودد
أكذا يعيث الروم فى إخوانكم ... وســـيوفكم للثـــار لم تتقلد

---

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ١٩٨ و ٣٦٧ .

يا حسرتى لحمية الإسـلام قد خمدت وكانت من قبل ذا تتوقد
أبنى مرين أنتم جيراننـا وأحق من فى صرخة بهم ابتدى
أبنى مرين والقبائل كلهـا فى المغرب الأدنى لنا والأبعد
كتب الجهاد عليكم فتبادروا منه إلى القرض الأحق الأوكد
أنتم جيوش الله ملء فضـائه تأسون للدين الغريب المفرد(١)

وفى أوائل سنة ٦٧٦ هـ توفى أبو محمد بن أشقيلولة صاحب مالقة ، فعبر ولده محمد إلى المغرب ونزل عنها للسلطان ، فبعث إليها السلطان حاكما من قبله ، فزاد ذلك فى توجس ابن الأحمر ، وأرسل وزيره أبا سلطان عزيز الدانى فى بعض قواته إلى مالقة ، ليحاول الاستيلاء عليها ، فلم يوفق . ولم تمض أشهر قلائل على ذلك حتى عبر السلطان أبو يوسف المنصور البحر إلى الأندلس للمرة الثانية فى سنة ٦٧٧ هـ ( ١٢٧٨ م ) ، ونزل بمالقة فاحتفل به أهلها ، ثم توغل بجيشه فى أرض النصارى يعيث فيها ، ومعه بنو أشقيلولة فى جندهم ، حتى أحواز إشبيلية . واجتنب القشتاليون لقاءه . ثم دعا ابن الأحمر إلى لقائه ، فوافاه عند قرطبة والريب يملأ نفسه ، وتبادل الملكان عبارات العتاب والتعاطف ، ولكن ابن الأحمر لم تطمئن نفسه ، وعاد السلطان إلى المغرب دون أن تصفو القلوب .

وزاد توجس ابن الأحمر لحوادث مالقة وانحيازها إلى السلطان ، وجال بخاطره أن التفاهم مع ملك قشتالة خير وأبقى . وفى أواخر سنة ٦٧٧ هـ استطاع ابن الأحمر أن يستولى أخيراً على مالقة ، وذلك بإغراء صاحبها بالنزول عنها ، والاستعاضة بالمنكّب وشلوبانية(٢). ثم سعى إلى التفاهم مع ملك قشتالة والتحالف معه ، على منع السلطان المنصور من العبور إلى الأندلس . ونزلت القوات القشتالية بالفعل فى الجزيرة . وكاتب ابن الأحمر أيضاً الأمير يَغْمُراسن ملك المغرب الأوسط ، وخصم السلطان المنصور ، يسأله العون والتحالف . وعلم المنصور بذلك فأراد العبور توا إلى

---

( ١ ) نقل إلينا ابن خلدون هذه القصيدة بأكملها ( ج ٧ ص ١٩٨ — ٢٠٠ ) وفيها كثير من المعانى التى وردت فى مرثية أبى البقاء الرندى ، كما أشار إلى ردود السلطان أبى يوسف إشارة عابرة ( ص ٢٠٠ ) .

( ٢ ) المنكب ، وبالإسبانية **Almunecar** ، وشلوبانية وبالإسبانية **Salobrena** ، ثغران صغيران من ثغور مملكة غرناطة القديمة ، يقع كلاهما جنوبى غرناطة على البحر الأبيض المتوسط وتفصلهما عن بعضهما مسافة صغيرة .

الأندلس ، ولكن عاقته حوادث المغرب حينا . وفى أوائل سنة ٦٧٨هـ (١٢٧٩م ) بعث ولده الأمير أبا يعقوب إلى الأندلس فى أسطول ضخم ، ونشبت بينه وبين أسطول النصارى المرابط شرقى المضيق معركة هائلة ، هزم النصارى على أثرها واستولى المسلمون على سفنهم ، ونزلوا بالجزيرة ، فغادرها النصارى فى الحال .

وأراد الأمير أبو يعقوب أن يتبع نصره ، بعقد الصلح مع ملك قشتالة والتحالف معه على قتال ابن الأحمر ومهاجمة غرناطة ، فأنكر عليه أبوه السلطان ذلك ، ثم زحف جند المغرب على ثغر مربلّة ، وهو من أملاك ابن الأحمر تريد الاستيلاء عليه ، فامتنع عليهم . وانتهز القشتاليون تلك الفرصة ، فزحفوا على غرناطة ومعهم بنو أشقيلولة ، فلقيهم ابن الأحمر وردهم على أعقابهم ( ٦٧٩هـ ) . بيد أنه بالرغم من هذا النصر المؤقت أخذ يشعر بدقة موقفه ، وخطورة القوى التى يواجهها ، سواء من جانب القشتاليين ، أو من جانب الجيوش المغربية ، التى استدعيت فى الأصل لتكون له سنداً وغوثاً ، فانقلبت إلى مناوأته وقتاله . ومن جهة أخرى فقد كان السلطان المنصور يخشى عاقبة هذا التصرف على مصير المسلمين ؛ وعلى ذلك فقد بعث إلى ابن الأحمر فى وجوب عقد المودة والتفاهم ، فلقى لديه مثل رغبته ، وبادر السلطان إلى عقد أواصر الصلح والتحالف بين المسلمين ، على أن ينزل ابن الأحمر عن مالقة للسلطان المنصور ، لتكون له قاعدة للعبور والغزو . وصفا جو العلائق على أثر ذلك بين ابن الأحمر وبنى مرين ، وشغل السلطان المنصور حينا بمحاربة الخوارج عليه .

* * *

ولم يمض قليل على ذلك ، حتى عادت شئون الأندلس تستغرق اهتمام المنصور ؛ وكانت شئون الأندلس قد غدت فى الواقع عنصراً بارزا فى سياسة بنى مرين ، وكانت مملكة غرناطة حتى فى ذلك الوقت الذى انكمشت فيه الدولة الإسلامية فى الأندلس ، تلعب دورها فى شئون اسبانيا النصرانية كلما اضطربت فيها الحوادث . ولما سطع نجم الدولة المرينية فيما وراء البحر ، اتجه إليها اهتمام النصارى ، وكانت كلما وقعت فى قشتالة حرب أهلية ، لجأ هذا الفريق أو ذاك إلى مؤازرة غرناطة أو بنى مرين ، على غرار ما كان يحدث فى الماضى . ومن ذلك ماحدث فى سنة ٦٦٩هـ ( ١٢٧٠ م ) من خروج الإنفانت فيليب على أخيه ألفونسو العاشر مع جماعة من النبلاء ، والتجائهم إلى السلطان المنصور فى طلب العون واستجابته

لدعوتهم، واتخاذهم غرناطة قاعدة لجهودهم. وكادت تنشب من جراء ذلك حرب بين المسلمين والنصارى، لولا تدخل ڤيولا ملكة قشتالة، واسترضائها للخوارج بمختلف المنح. ولابد لنا أن نذكر هنا أن الفونسو العاشر ملك قشتالة هذا، هو ألفونسو العالم أو الحكيم El Sabio، وكانت له صلات وثيقة بعلماء الأندلس، ومنهم تلقى الكثير وتأثر بمناهجهم فى التفكير والدرس. وقد وضع ألفونسو جداوله الفلكية الشهيرة المسماة بالجداول «الألفونسية» على يد جماعة من العلماء المسلمين واليهود

الملك ألفونسو العالم

والنصارى، كما وضع تاريخاً عنوانه Crónica Gene al de España «تاريخ اسبانيا العام» وقد اعتمد فيه على مصادر عربية كثيرة. ومع أنه لا يخلو من كثير من الأساطير والروايات المغرقة، فإنه يعتبر من أهم مصادر التاريخ الإسبانى فى العصور الوسطى. وكان ألفونسو العاشر يحب جيرانه المسلمين، ويقدر علمهم ورفيع ثقافتهم، وكان هذا من أسباب السخط عليه فى مملكته. وكان من جراء اشتغاله بالعلوم والآداب، فى عصر لا تنهض الممالك فيه إلا بالحرب والسياسة، أن اضطربت شئون المملكة.

وفى سنة ١٢٨٢م ( أوائل ٦٨١ هـ ) ثار عليه ولده سانشو وآزره معظم النبلاء ، واستطاع أن ينتزع العرش لنفسه . فاتجه أبوه الملك المخلوع إلى السلطان أبي يوسف المنصور ، وأرسل إليه بالمغرب وفدا من الأحبار يستمد منه الغوث والعون ضد ولده . فاستجاب السلطان لصريخه ، وعبر البحر فى قواته إلى الأندلس فى ربيع الثانى سنة ٦٨١هـ ، وهرع ألفونسو إلى لقائه بمحلته بالجزيرة على مقربة من رندة ، مستجيراً به ، ملتمساً لنصرته ، وقدم إليه تاجه رهنا لمعونته . فأمده السلطان بمائة ألف من الذهب ، ليستعين بها على حشد الجند . قال ابن خلدون ، وقد رأى هذا التاج ببلاط بنى مرين أيام أن كان فى خدمتهم : « وبقى بيدهم فخراً للأعقاب لهذا العهد »[1]. وغزا أبو يوسف أراضى قشتالة وحاصر قرطبة ، ثم زحف على طليطلة ، وعاث فى نواحيها ، ووصل فى زحفه إلى حصن مجريط[2] . وتحاشى ابن الأحمر فى البداية لقاء السلطان لفتور العلائق بينهما ، ولتوجسه من مخالفته لألفونسو ، ورأى من جانبه أن يتفاهم مع سانشو ملك قشتالة الجديد ، وزحف على المنكّب وهى من الثغور التى تحتلها قوات المغرب ، فغضب السلطان وارتد لقتاله . وكادت تنشب بين الملكين المسلمين فتنة مستطيرة ، لولا أن خشى ابن الأحمر العاقبة ، وعاد إلى التفاهم مع المنصور ، وصفا الجو بينهما نوعا . وعاث المنصور فى أراضى قشتالة مرة أخرى ، وغص جيشه بالسبي والغنائم ، ثم عاد إلى المغرب بعد أن ولى على الجزيرة حاكما من قبله .

واستمرت الحرب الأهلية أثناء ذلك فى قشتالة بين الإبن والأب ، ولبث هذا النضال الدموى زهاء عامين ، حتى توفى ألفونسو العاشر طريداً مهزوما فى سنة ١٢٨٤ م ( ٦٨٣ هـ ) ، فكان لوفاته وقع عميق فى غرناطة والمغرب ، وأرسل كل من الملكين المسلمين عزاءه فى الملك العالم المنكود إلى بلاط قشتالة . وكان موقف المملكتين الإسلاميتين غريباً إزاء حوادث قشتالة ، إذ كان ملك المغرب يؤازر الملك المخلوع ، وكان ملك غرناطة بالرغم من عطفه على ألفونسو العاشر ، يؤازر ولده الخارج عليه . والحقيقة أن ابن الأحمر كان يشهد تقاطر الجيوش البربرية إلى

---

( ١ ) ابن خلدون ج ٧ ص ٢٠٥ ؛ والإحاطة ج ١ ص ٥٧٢ ؛ واللمحة البدرية ص٤٣ ؛ وأزهار الرياض ج ١ ص ٦١ .

( ٢ ) كانت محلة مجريط الإسلامية الحصينة تشغل موقعاً يقع بجوار موقع العاصمة الإسبانية الحديثة مدريد .

الجزيرة الخضراء بعين الجزع ، ويتوجس شراً من وجودهم بها ، وقد كانوا يحتلون معاقلها وثغورها ، ويظاهرون الخوارج عليه فى مالقة والمنكب وغيرهما من القواعد الجنوبية ، وكان يتوقع أسوأ العواقب من تدخل ملك المغرب فى شئون الأندلس على هذا النحو ، وكان مثل المرابطين ومأساة الطوائف عبرة خالدة . تساوره دائماً ، وتذكى جزعه . على أن موت ألفونسو العاشر ، وانتهاء الحرب الأهلية فى قشتالة ، خفف من هذا التوتر بين المملكتين . وكان ابن الأحمر يذكر فى الوقت نفسه ، غدر ملك قشتالة ، وخطر النصارى على مملكته ، فيجنح بعد التأمل إلى إيثار التفاهم مع ملك المسلمين .

وفى صفر سنة ٦٨٤ هـ ( ١٢٨٥ م ) عبر السلطان المنصور إلى الأندلس للمرة الرابعة ، وزحف على أراضى النصارى ، وغزا مدينة شَريش ؛ وسار ولده أبو يعقوب إلى أحواز إشبيلية فعاث فيها . ثم زحف المنصور على قرمونة والوادى الكبير ، وخرب جنده بسائط إشبيلية ولبلة وإستجة والفرنتيره . وسر ابن الأحمر لاجتياح أراضى قشتالة على هذا النحو ، وبعث الى السلطان مددا من غرناطة ، وجاءت الأساطيل المغربية ، فطاردت أساطيل العدو فى مياه المضيق واحتلته . ورأى سانشو ملك قشتالة تفاقم الأمر وعقم المقاومة ، فجنح إلى طلب السلم ، وبعث إلى السلطان وفداً من الأحبار يطلب الصلح ، ويفوض السلطان فى اشتراط ما يراه ، فاستجاب السلطان لرغبتهم ، واشترط عليهم مسالمة المسلمين كافة ، وأن يمتنع النصارى عن كل اعتداء على الأندلس ، وعلى أراضى المسلمين ومرافقهم ، وأن ترفع الضريبة عن التجار المسلمين بدار الحرب ( بلاد الأعداء ) ، وأن تنبذ قشتالة سياسة الدس بين الأمراء المسلمين ، فقبل النصارى جميع الشروط المطلوبة ، وتعهدوا بتنفيذها . وقدم سانشو بنفسه إلى معسكر السلطان ، فاستقبله المنصور بحفاوة ، وقدم إليه طائفة من الهدايا ، وتعهد سانشو بتحقيق شروط الصلح كاملة . وسأله السلطان أن يرسل إليه قدراً من الكتب العربية ، التى استولى عليها النصارى من القواعد الأندلسية ، فأرسل إليه « ثلاثة عشر حملا » منها ، وأرسلها السلطان إلى فاس ، فكانت نواة المكتبة السلطانية . واتخذ المنصور أهباته الأخيرة نحو شئون الأندلس ، وندب ابنه الأمير أبا زيان للنظر على الثغور الأندلسية ، وأوصاه بألا يتدخل فى شئون ابن الأحمر . وكان من آثار التفاهم بين ابن الأحمر والمنصور ، أن أفسح ابن الأحمر لقرابة السلطان من بنى مرين النازحين إلى الأندلس مجال

السلطان والنفوذ فى بلاطه . وكان عدة من هؤلاء من خاصة الفرسان ومشاهير الغزاة ، فأسند ابن الأحمر إليهم رياسة الجند فى منصب عرف فى الخطط الغرناطية « بمشيخة الغزاة » ، ويحتله بالأخص رئيس من بنى العلاء المرينيين يسمى « شيخ الغزاة » ، وتولى بنو العلاء قيادة الجيوش الأندلسية عصراً ، وكانت لهم فى ميدان الحرب والجهاد مواقف مشكورة(١) .

ولابد لنا أن نذكر كلمة عن أصل مشيخة الغزاة هذه ، التى لبثت عصراً أهم المناصب العسكرية فى مملكة غرناطة ، ولبثت فى الوقت نفسه دهراً وقفاً على القادة من بنى مرين . وذلك أنه لما اتجه بنو الأحمر إلى الاستنجاد بإخوانهم فيما وراء البحر ، ملوك بنى مرين ، جريا على سنة الأندلس القديمة منذ عهد المرابطين ، استجاب لندائهم عاهل بنى مرين السلطان أبو يوسف بن عبد الحق ، وعبرت إلى الأندلس النجدات المرينية الأولى بقيادة أبى معرف محمد بن إدريس بن عبد الحق وأخيه عامر ، وهما من خاصة قرابة السلطان ، وانتزعت مدينة شريش من النصارى ، وذلك حسبما تقدم ذكره . وكان السلطان أبو يوسف يخشى من انتقاض فريق من القرابة وأبناء العمومة ، تجديداً للخصومة القديمة بين فرعى بنى مرين الملكيين ، وهما بنو عسكر وبنو حمامة ، فلم يجد خيراً من إرسال من يخشى بأسهم من هؤلاء إلى الأندلس باسم الجهاد ، وكان ابن الأحمر يستقبلهم بترحاب ومودة ، فاجتمع لديه عدة من أولاد بنى عبد الحق ؛ وكان ابن الأحمر يعقد لهم على قيادة الغزاة المجاهدين من زناتة ، وبنى مرين . وكان أول من عقد له القيادة منهم ، موسى ابن رحّو ، ثم عقد لأخيه عبد الحق ، ثم لغيرهما من القرابة(٢) وكان أول من استعملهم لقيادة الغزاة على هذا النحو السلطان محمد بن الأحمر الملقب بالفقيه .

ثم توالى عبور هؤلاء القادة إلى الأندلس . وكان معظمهم من قرابة السلطان والخارجين عليه . وكان فى مقدمة من نزح إلى شبه الجزيرة ، أبو العلاء ورحّو ابنا عبدالحق ، وأولاد أبى يحيى بن عبدالحق وأولاد عثمان بن عبد الحق . واستقروا ، جميعاً بالأندلس فى كنف سلطان غرناطة ، وكانوا يرجعون فى رياستهم إلى كبيرهم عبد الله بن أبى العلاء .وعقد له ابن الأحمر محمد الفقيه على جند زناتة إلى أن هلك فى إحدى الغزوات ضد النصارى وذلك فى سنة ٦٩٣ﻫ ؛ ثم عقد ابن الأحمر ،

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ٢٠٩ و ٢١٠ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٦٣٩ .

(٢) ابن خلدون فى كتاب العبر ج ٧ ص ٣٦٧ و ٣٦٨ .

السلطان أبو عبد الله المخلوع ، القيادة لأخيه عثمان بن أبي العلاء على حامية مالقة وغربيها ، وكانت لنظر الرئيس أبي سعيد فرج بن إسماعيل . فلبث في منصبه إلى أن وقع الخلاف بين سلطان غرناطة وسلطان المغرب أبي يوسف المريني ، وقام عثمان بن أبي العلاء في ذلك بدور كبير ، سوف نأتي على تفاصيله في موضعه[١] .

وقفل السلطان المنصور راجعاً إلى الجزيرة ليستجم ثم يعود إلى المغرب ، ولكن لم تمض أشهر قلائل حتى أدركه المرض ، وتوفي بالجزيرة في المحرم سنة ٦٨٥ هـ ( مارس سنة ١٢٨٥م ) ، بعد حياة حافلة بصنوف الجهاد المستمر ، سواء بالمغرب أو الأندلس .

وكان السلطان أبو يوسف المنصور من أعظم ملوك المغرب قاطبة ، وكان يعيد بشغفه بالجهاد ، ووفرة جيوشه وأهبته الحربية ، ذكرى أسلافه العظام ، من أمثال يوسف بن تاشفين ، وعبد المؤمن ، ويعقوب المنصور . وقد وصفه مؤرخ معاصر فيما يلي : « أبيض اللون ، تام القد ، معتدل الجسم ، حسن الوجه ، واسع المنكبين ، كامل اللحية ، معتدلها ، أشيب ، كأن لحيته من بياضها قطعة ثلج ، سمح الوجه ، كريم اللقاء ، شديد الصفح ، كثير العفو ، حليما ، متواضعا شفيعاً كريماً ، سمحاً ، جواداً ، مظفراً ، منصور الراية »[٢] .

* * *

فخلفه على عرش المغرب ولده الأمير أبو يعقوب ، وكان مثل أبيه معنياً بشئون الأندلس خبيراً بها . واستمرت علائق بلاط غرناطة وبني مرين أعواماً أخرى على حالها من المودة والصفاء ، وزادت توطداً حينما قبل سلطان المغرب ، أن ينزل لابن الأحمر طوعاً عن وادي آش . وذلك أن محمداً الفقيه كان قد عين صهره أبا إسحاق ابن أبي الحسن بن أشقيلولة حاكماً على قُمارش ووادي آش ، فلما توفي أبو إسحاق سنة ٦٨٢ هـ استرد ابن الأحمر قمارش ، وخرج عليه أبو الحسن والد أبي إسحاق في وادي آش ، وتحالف أولا مع قشتالة ، فلما عقد السلم بين المسلمين والنصارى ، أعلن أبو الحسن انضواءه تحت لواء ملك المغرب ، وأغضى ابن الأحمر حيناً عن تصرفه . فلما اتصلت وشائج المودة من جديد ، بينه وبين السلطان أبي يعقوب ، سأله التنازل عن وادي آش ، فأجابه إلى سؤله ، ورحل عنها الثائر أبو الحسن إلى المغرب

---

( ١ ) كتاب العبر ج ٧ ص ٣٧٠ — ٣٧٢ .

( ٢ ) نقلنا هذا الوصف من المخطوط المعنون : « الياقوتة الحلية » الذي سبقت الإشارة إليه .

ملتجئاً إلى بلاط فاس . وبذا استطاع ابن الأحمر أن يبسط سلطانه على الأندلس كلها[١] .

وفى أوائل سنة ٦٩٠ هـ ( ١٢٩١ م ) أغار سانشو ملك قشتالة على الثغور الأندلسية ناكثاً لعهده ، فأرسل السلطان أبو يعقوب إلى قائده على الثغور أن يغزو شريش وأرض النصارى ، فزحف عليها وعاث فيها . وأعلن أبو يعقوب الجهاد ، وتقاطرت بعوث المجاهدين إلى الأندلس ، فبعث سانشو أسطوله إلى مياه المضيق ليحول دون وصول الأمداد ، فبعث السلطان أسطوله لمهاجمة السفن القشتالية ، ونشبت بين المسلمين والنصارى معركة بحرية هزم فيها المسلمون ( أغسطس سنة ١٢٩١ م ) . ولكن هذه الهزيمة لم تثن ملك المغرب عن عزمه ، فبعث أسطولا آخر لمقاتلة النصارى ، وانسحب النصارى هذه المرة . وعبر السلطان أبو يعقوب إلى الأندلس فى قواته فى رمضان سنة ٦٩٠ هـ ، واقتحم أرض النصارى ، وغزا شريش ووصل فى زحفه حتى أحواز إشبيلية وعاث فيها ، ثم عاد إلى الجزيرة ، وارتد عائداً إلى المغرب فى أوائل سنة ٦٩١ هـ .

وتوجس ملك قشتالة من مشاريع سلطان المغرب ، فسعى إلى محالفة ابن الأحمر وحذره من نيات المغاربة ، واستيلائهم على الثغور الأندلسية ، ولاسيما ثغر طريف مدخل الجزيرة ، وتفاهم الملكان على انتزاع هذا الثغر من المغاربة ، واشترط ابن الأحمر أن تسلم إليه طريف عقب انتزاعها . وسير سانشو أسطوله إلى مياه المضيق ليحاصر طريف من ناحية البحر ، وليحول دون وصول الأمداد إليها . وعسكر ابن الأحمر فى قواته بمالقة على مقربة منها ، يعاون النصارى بالأمداد والمؤن ، وصمدت حامية طريف أربعة أشهر ، ولكنها اضطرت فى النهاية إلى التسليم للنصارى ( سبتمبر سنة ١٢٩٢م ) . وهنا طالب ابن الأحمر سانشو بتسليمها فأبى وأعرض عنه ، مع أنه نزل له مقابلها عن عدد من الحصون الهامة ؛ فأدرك ملك غرناطة عندئذ خطأه فى الركون إلى وعود ملك قشتالة ، وفى مغاضبة ملك المغرب حليفه الطبيعى ، وسنده المخلص فى رد عدوان النصارى .

وعاد ابن الأحمر يخطب ود بنى مرين مرة أخرى ، وأوفد ابن عمه الرئيس أبا سعيد فرج بن اسماعيل ووزيره أبا سلطان عزيز الدانى على رأس وفد من كبراء الأندلس ، إلى السلطان أبى يعقوب فى طلب المودة ، وتجديد العهد ، والاعتذار عن مسلكه فى شأن طريف ، فأكرم السلطان وفادتهم ، وأجابهم إلى طلب الصلح .

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ٢١٢ و٢١٣ .

ولما عاد الوفد الى غرناطة ، سُر ابن الأحمر من كرم السلطان ونبل مسلكه ، واعتزم الرحلة للقائه بنفسه ، وتأكيد المودة والاعتذار ؛ فعبر البحر إلى العدوة فى أواخر سنة ٦٩٢هـ (١٢٩٢م ) ومعه طائفة من الهدايا الفخمة ، ونزل بطنجة حيث استقبله بعض أبناء السلطان ، ثم جاء السلطان بنفسه إلى طنجة ، وتلقاه بمنتهى الإكرام والحفاوة ، ونزل له ابن الأحمر عن الجزيرة ورندة وأراضى الغربية ، وعدة من الحصون كانت من قبل فى طاعة ملك المغرب . وعاد ابن الأحمر مغتبطاً بنجاح مهمته ؛ وأرسل السلطان معه حملة لغزو طريف بقيادة وزيره عمر بن السعود ، فحاصرتها حيناً ولكنها لم تظفر بافتتاحها(١) .

وكان لمحمد الفقيه ، بالرغم من سمته العلمية ، وقائع طيبة فى ميدان الجهاد ضد النصاري . ففى المحرم سنة ٦٩٥ هـ ( أواخر ١٢٩٥ م ) على أثر وفاة سانشو ملك قشتالة ، زحف جيشه على أراضى قشتالة ، وغزا منطقة جيّان ، ونازل مدينة قيجاطة(٢) واستولى عليها ، وعلى عدة من الحصون التابعة لها ، وأسكن بها المسلمين . وفى صيف سنة ٦٩٩ هـ (١٢٩٩م ) ، غزا أراضى قشتالة مرة أخرى ، وزحف على مدينة القبذاق الواقعة جنوب غربى جيان ، ودخل قصبتها وتملكها ، وأسكن بها المسلمين(٣) .

واستمر محمد بن محمد بن الأحمر أومحمد الفقيه فى حكم غرناطة أعواماً أخرى ، وهو ثابت العهد مقيم على صداقة بنى مرين . ومما هو جدير بالذكر أنه قبيل وفاته بقليل عقد معاهدة صلح وتحالف مع ملك أراجون خايمى الثانى ضد قشتالة ، وذلك تجديداً وتعديلا لمعاهدة صلح سابقة عقدت بينهما فى سنة ٦٩٥ هـ ( ١٢٩٩ م ) . وقد نص فى هذه المعاهدة الجديدة على عقد « صلح ثابت وصحبة صادقة » وأن يلتزم كل من الفريقين عدم الإضرار بالآخر على يد أحد من رعاياه ، وأن تكون أراجون معادية لأعداء غرناطة سواء من المسلمين أو قشتالة ، وأن يفتح بلد كل من الفريقين لمن يقصده من تجار البلد الآخر مؤمنين فى أنفسهم وأموالهم ، وأخيراً يتعهد ملك غرناطة بمعاونة أراجون ضد ملك قشتالة ، وألا يعقد معه صلحاً إلا

( ١ ) ابن خلدون ج ٧ ص ٢١٧ .

( ٢ ) مدينة قيجاطة هى بالإسبانية **Quesada** وتقع شمال شرق مدينة جيان ، وجنوب شرق مدينة أبدة . والقبذاق هى بالإسبانية **Alcaudete** .

( ٣ ) الإحاطة فى أخبار غرناطة ج ١ ص ٥٦٩ .

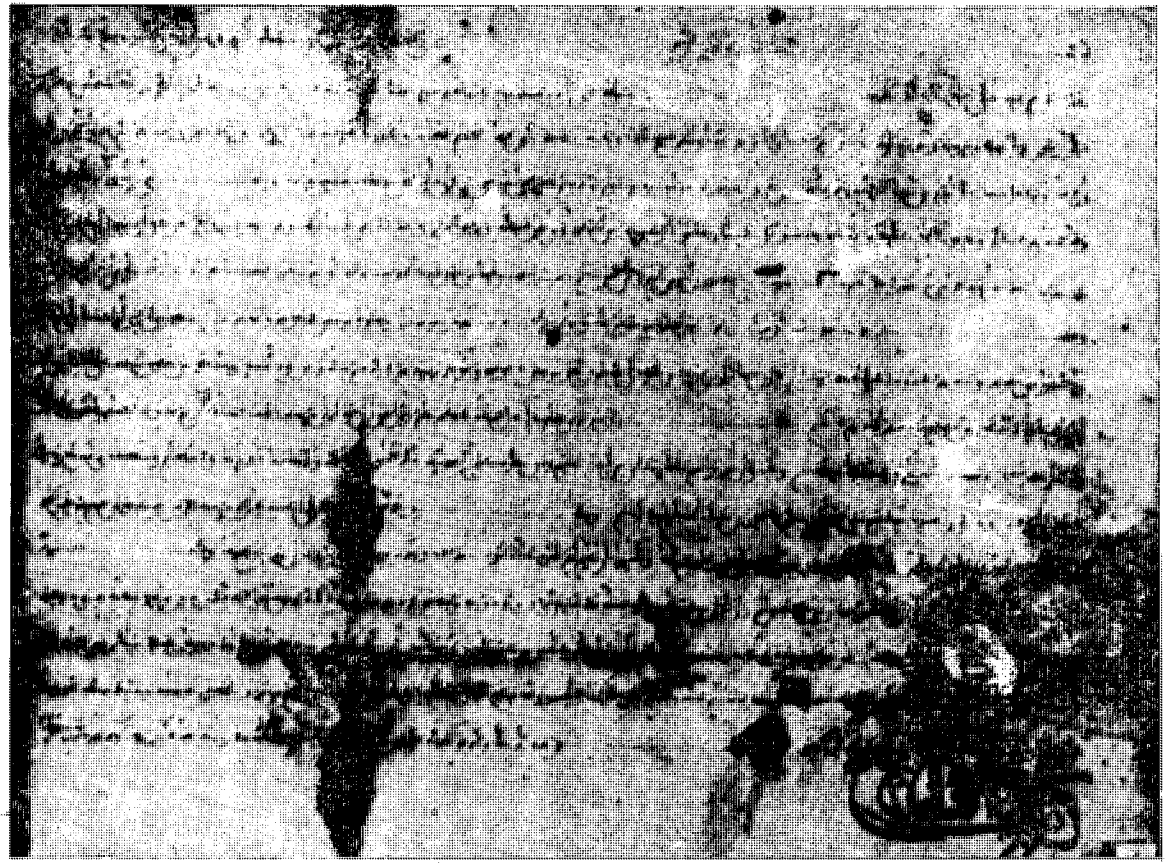

صورة وثيقة التحالف والصلح المعقودة بين محمد بن الأحمر (محمد الثانى) ملك غرناطة وخايمى الثانى ملك أراجون فى ربيع الثانى سنة ٧٠١ ﻫ (ديسمبر ١٣٠١ م) ومحفوظة بدار محفوظات التاج الأرجونى ببرشلونة برقم ١٤٨ .

بموافقة حليفه ، ويتعهد ملك أراجون لسلطان غرناطة بمثل ما تقدم ، كما يتعهد السلطان بمعاونة حليفه بفرسان من عنده فى أرض مرسية إذا احتاج إلى هذا العون ، وألا يعترض سلطان غرناطة على ما يأخذه ملك أراجون من أراضى قشتالة ، إلا المواضع التى كانت لغرناطة ، فهذه ترد إليها . وقد وقعت هذه المعاهدة فى آخر ربيع الثانى سنة ٧٠١ هـ ( ٣١ ديسمبر سنة ١٣٠١ م )(١) ؛ ولم يمض على عقدها بضعة أشهر حتى توفى السلطان فى شعبان سنة ٧٠١ هـ ( مايو سنة ١٣٠٢م ) بعد أن حكم أكثر من ثلاثين عاماً ، وقد زاد ملك بنى الأحمر فى عهده توطداً واستقراراً ، بالرغم مما توالى فيه من الأحداث والخطوب . وكان وزيره فى أواخر عهده الكاتب والشاعر الكبير أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن الحكيم اللخمى وهو من مشايخ رندة ، وكان من قبل من كتابه فى ديوان الإنشاء ، وكان رجلا وافر العزم قوى الشكيمة ، ولقب بذى الوزارتين لجمعه بين الكتابة والوزارة ، وكان لحزمه وقوة نفسه أكبر أثر فى استقرار الأمور فى هذا العهد(٢) .

— ٢ —

وخلف محمداً الفقيه ولده أبو عبد الله محمد الملقب بالمخلوع ، وكان ضريراً ، وكان ذا نباهة وعزم ، عالماً شاعراً يؤثر مجالس العلماء والشعراء ، ويصغى إليهم ويجزل صلاتهم ، محباً للإصلاح والإنشاء . وكان بين منشآته المسجد الأعظم بالحمراء ، فهو الذى أمر ببنائه على أبدع طراز ، وزوده بالعمد والنقوش والثريات الفخمة ؛ ولكنه لم يحسن تدبير شئون الملك والسياسة ، وغلب عليه كاتبه ووزيره ووزير أبيه من قبل أبو عبد الله محمد بن الحكيم اللخمى ، فاستبد بالأمر دونه وحجر عليه ، فاضطربت الأمور ، وأخذت عوامل الانتقاض تجتمع وتبدو فى الأفق .

وفى عهده القصير ، اضطربت علائق مملكة غرناطة وبنى مرين مرة أخرى . والواقع أنه حاول فى بداية عهده ، أن يعمل على إحكام المودة بينه وبين بنى مرين ،

---

( ١ ) حصلنا على صور فتوغرافية لأصل هذه الوثيقة وسائر الوثائق الأخرى التى تتضمن معاهدات أو مراسلات تبودلت بين ملوك غرناطة وملوك أراجون من دار المحفوظات ببرشلونة المسماة «محفوظات التاج الأرجونى» **Archivo de la Corana de Aragón** ، وتحفظ هذه الوثيقة بها برقم ١٤٨ . ومن جهة أخرى فقد نشر نصها فى مجموعة الوثائق الدبلوماسية التى أصدرها : **R. O. de Linares y Alarcón** بعنوان : **Los Documentos Arabes diplomaticos del Archivo de la Corona de Aragón (No. 3)**

( ٢ ) يترجم له ابن الخطيب بإفاضة فى الإحاطة ج ٢ ص ٢٧٨ وما بعدها ( طبعة قديمة ) .

فأرسل وزير أبيه أبا سلطان عزيز الدانى ووزيره ابن الحكيم إلى سلطان المغرب ، ليجددا عهد المودة والصداقة ، فوفدا عليه وهو بمعسكره محاصراً لتلمسان ، فأكرم وفادتهما وطلب إليهما إمداده ببعض جند الأندلس الخبراء فى منازلة الحصون ، فأرسلت إليه قوة منهم أدت مهمتها أحسن أداء . ولاح أن أواصر المودة أضحت أشد ما يكون توثقاً بين الفريقين ، ولكن ابن الأحمر عرض له فجأة أن يعدل عن محالفة سلطان المغرب ، وأن يعود إلى محالفة ملك قشتالة ، فغضب السلطان أبو يعقوب لذلك، ورد جند الأندلس (٧٠٣هـ) . وبدأ ابن الأحمر أعمال العدوان، بأن أوعز إلى عمه وصهره الرئيس أبى سعيد فرج بن إسماعيل صاحب مالقة ، أن يحرض أهل سبتة فى الضفة الأخرى من البحر ، على خلع طاعة السلطان ، واستعد ابن الأحمر فى الوقت نفسه لمحاربة السلطان ، إذا عنّ له أن يعبر إلى الأندلس ، وجهز الرئيس أبوسعيد حملة بحرية فى مياه مالقة بحجة مدافعة النصارى ، ثم سيرها فجأة إلى سبتة ، وذلك فى شوال سنة ٧٠٥ هـ ( ١٣٠٦ م ) . وكانت الحملة بقيادة عثمان بن أبى العلاء المرينى . فاستولت على سبتة ، وجاء الرئيس أبو سعيد فاستبد بأمرها ، وأعلن انضواءها تحت لواء ابن الأحمر ، وقبض على ابن العزفى حاكمها من قبل السلطان وآله ، وأرسل إلى غرناطة . ووقف السلطان أبو يعقوب على هذه الحوادث وهو تحت أسوار تلمسان ، فوجد لذلك الغدر ، وبعث حملة بقيادة ولده أبى سالم إلى سبتة فحاصرها حيناً ، ولكنه أخفق فى الاستيلاء عليها وارتد أدراجه ، وخرج فى إثره عثمان بن أبى العلاء فى جند الأندلس ، وعاث فى أحواز سبتة وما جاورها ( سنة ٧٠٦ هـ ) .

وكان لتطور الحوادث على هذا النحو أسوأ وقع فى نفس السلطان أبى يعقوب ؛ فاعتزم أن يسير بنفسه إلى استرداد سبتة، ولكن حدث بينما كان يجد فى الأهبة أن اغتاله كبير الخصيان، فى مؤامرة دبرها الخصيان للتخلص منه خوفاً من أن يبطش بهم ، فتوفى قتيلا فى ذى القعدة سنة ٧٠٦ هـ ( أبريل سنة ١٣٠٧ م ) ؛ ونشبت عقب مصرع السلطان حرب أهلية حول العرش بين ولديه أبى ثابت وأبى سالم ، هزم فيها أبوسالم وقتل ، واستقر أبو ثابت على العرش .

وفى ذلك الحين كان عثمان بن أبى العلاء المرينى ، يتوغل بجنده فى شمال المغرب ، وكان هذا الجندى الجرىء يتجه بأطماعه نحو عرش المغرب ، ويعتمد فى تحقيق مشروعه على أنه سليل بنى مرين . ولما توغل بجنده جنوبا ، دعا لنفسه بالملك

واستولى على بعض الحصون ، وأيدته بعض القبائل ، وهزم عساكر السلطان أبي يعقوب حينما تصدت لوقفه وانتهز فرصة مصرع السلطان ونشوب الحرب الأهلية بين ولديه ، فزاد إقداما وتوغلا واستفحل أمره ، ولاح الخطر يهدد ملك بني مرين .

وما كاد السلطان أبو ثابت يستقر في عرش أبيه ، حتى اعتزم أمره للقضاء على تلك الحركة الخطيرة ، واسترداد سبتة ، فسار إلى الشمال على رأس جيش ضخم في شهر ذى الحجة سنة ٧٠٧ هـ ؛ ولما شعر عثمان بن أبي العلاء بوفرة قوته وأهبته ، بادر بالفرار مع جنده خشية لقائه ، وزحف السلطان على الحصون الخارجة عليه فأثخن فيها واستولى عليها ، ثم سار إلى طنجة ؛ وامتنع عثمان بن أبي العلاء بقواته في سبتة ، فسار إليها السلطان وضرب حولها الحصار الصارم ، وأمر ببناء بلدة تيطاوين ( تطوان ) لنزول عسكره ، ولكنه مرض أثناء ذلك وتوفى في صفر سنة ٧٠٨ هـ ( يوليه سنة ١٣٠٨ م )[١] .

فخلفه في الملك أخوه السلطان سليمان أبو الربيع ، وارتد بالجيش إلى فاس تاركا سبتة لمصيرها . فخرج في أثره عثمان بن أبي العلاء في قواته ، ونشبت بين الفريقين معركة هزم فيها عثمان ، وقتل من الأندلسيين عدد جم ؛ وخشى عثمان العاقبة فعاد مع آله إلى الأندلس ولحق بغرناطة ، وتابع السلطان أبو الربيع سيره إلى فاس واستقام له الأمر .

ولم تمض على ذلك أشهر قلائل حتى وقعت بالأندلس حوادث هامة . ذلك أن عوامل الإنتقاض التى لبثت بضعة أعوام تعمل عملها في ظل محمد المخلوع ، تمخضت في النهاية عن نشوب الثورة . وكان مدبرها ومثير ضرامها أخوه أبو الجيوش نصر بن محمد الفقيه ، ومن ورائه رهط من أكابر الدولة ، سئموا نظام الطغيان الذى فرضه محمد المخلوع ووزيره ابن الحكيم . واضطرمت الثورة في يوم عيد الفطر سنة ٧٠٨ هـ ( أوائل سنة ١٣٠٩ م ) . ووثب الخوارج بالوزير ابن الحكيم فقتلوه ، واعتقلوا السلطان محمداً ، وأرغموه على التنازل عن العرش . وتربع أخوه نصر مكانه في الملك ، ونفى السلطان المخلوع إلى حصن المنكّب ، حيث قضى خمسة أعوام في أصفاد الأسر ، ثم أعيد بعد ذلك مريضاً إلى غرناطة حيث توفى في سنة ٧١٣ هـ[٢] .

ووقف سلطان المغرب على حوادث الأندلس ؛ وبلغه أن أهل سبتة قد سئموا

---

( ١ ) ابن خلدون ج ٧ ص ٢٣٧ .

( ٢ ) الإحاطة ج ١ ص ٥٥٢ – ٥٦٤ ، واللمحة البدرية ص ٤٨ – ٥٤ .

نير الأندلسيين ، فبعث إليها حملة بقيادة تاشفين بن يعقوب ، فلما وصلت إليها ثار أهل البلد ، وطردوا منها جند ابن الأحمر وعماله ، ودخلتها فى الحال جند المغرب واستولوا عليها ، وذلك فى شهر صفر سنة ٧٠٩ هـ ( يوليه ١٣٠٩م ) . واغتبط السلطان لانتهاء هذه المغامرة التى شغلت بنى مرين بضعة أعوام .

وكان سلطان غرناطة الجديد يوم جلوسه فتى فى الثالثة والعشرين من عمره ، وكان ولوعاً بالأبهة والمظاهر الملوكية . وكان فى الوقت نفسه أديباً عالماً بارعاً فى الرياضة والفلك ، وقد وضع جداول فلكية قيمة . ولكنه لم يحسن السيرة ، ولم يوفق فى تدبير الأمور . وسرعان ما سخط عليه الشعب كما سخط على أخيه من قبل . فاضطربت الأحوال ، وتوالت الأزمات ، وكانت حوادث سبتة نذيراً بتفاقم التوتر بين بلاط غرناطة وبلاط فاس . ومن جهة أخرى فقد ساءت العلائق بين غرناطة وقشتالة ، وانتهز القشتاليون كعادتهم فرصة اضطراب الأحوال فى غرناطة ، فغزوا أرض المسلمين فى أوائل سنة ٧٠٩ هـ ( ١٣٠٩ م ) ، ووضع فرناندو الرابع ملك قشتالة مشروعا جريئاً للاستيلاء على جبل طارق . وكانت الأمداد المغربية قد انقطعت منذ استولى النصارى على طريف ، وشغل بنو مرين بالحوادث ، والثورات الداخلية ، وساءت علائقهم ببنى الأحمر . ورأى فرناندو الرابع أن الفرصة سانحة ليضرب ضربته المفاجئة ، فغزا الجزيرة الخضراء ، وبعث أسطوله لحصار جبل طارق من البحر ، وأوعز فى الوقت نفسه إلى خايمى ملك أراجون أن يحاصر ثغر ألمرية لكى يشغل قوات الأندلس فاستجاب لتحريضه ، وذلك بالرغم من معاهدة التحالف والصداقة التى كانت تربطه بسلطان غرناطة . وبدأ حصار ألمرية وجبل طارق فى وقت واحد فى أوائل سنة ٧٠٩ هـ ، وبذل النصارى للاستيلاء على ألمرية جهوداً فادحة ، ونصبوا على أسوارها الآلات الضخمة ، وحفروا فى أسفل السور نفقاً واسعاً لدخولها ، فلقيهم المسلمون تحت الأرض وردوهم بخسارة فادحة ؛ ونشبت على مقربة من ألمرية معركة بين جند الأندلس بقيادة عثمان بن أبى العلاء وجند أراجون ، فهزم النصارى واضطروا إلى رفع الحصار ، ونجت ألمرية من خطر السقوط[1] . ولكن ثغر جبل طارق كان أسوأ طالعا . فقد شدد النصارى حوله الحصار من البر والبحر ، وبالرغم من هزيمتهم أمام المسلمين على مقربة من جبل طارق ، فقد لبثوا على حصاره بضعة أشهر حتى

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ٢٤٠ ؛ واللمحة البدرية ص ٦٢ .

أضنى الحصار المسلمين وأرغموا على التسليم . وسقط الثغر المنيع فى يد النصارى فى أواخر سنة ٧٠٩ هـ ( مارس سنة ١٣١٠ م ) فكان لسقوطه وقع عميق فى الأندلس والمغرب معا ؛ فقد كان باب الأندلس من الجنوب ، وكان صلة الوصل المباشر بين المملكتين الإسلاميتين .

وأدرك ابن الأحمر على أثر هذه النكبة ، فداحة الخطأ الذى ارتكبه بمجافاة بنى مرين ، فبادر بإرسال رسله إلى السلطان أبى الربيع يبدى أسفه على ما سلف ، ويسأله الصفح والصلح ؛ فأجابه السلطان إلى طلبه ، ونزل ابن الأحمر للسلطان عن الجزيرة ورندة وحصونها ترضية له وترغيباً فى الجهاد ، واقترن بأخت السلطان توثيقاً لوشائج المودة ، وأرسل السلطان إليه المدد والأموال ، وعادت علائق التفاهم والتحالف بين غرناطة وفاس إلى سابق عهدها .

على أن هذا التحسن فى علائق المملكتين الإسلاميتين ، لم يثن النصارى عن مشاريعهم تجاه غرناطة . ذلك أن الجيوش المغربية لم تعد تعبر إلى الجزيرة بكثرة . وكانت أحوال المغرب تعوق بنى مرين عن استئناف الجهاد فى الأندلس على نطاق واسع ، وكانت أحوال غرناطة من جهة أخرى تشجع النصارى على التحرش بها والإغارة على أراضيها . ولما رأى السلطان نصر تفاقم الأمور واشتداد بأس النصارى ، لم ير وسيلة لاجتناب الخطر الذى يهدده سوى مصانعة فرناندو الرابع ملك قشتالة والتعهد له بأداء الجزية . وكان ذلك مما زاد فى سوء سيرته وفى سخط الشعب عليه . ولم تلبث أعراض الثورة أن ظهرت فى الجنوب حيث أعلن الرئيس أبو سعيد فرج بن إسماعيل النصري صاحب مالقة وابن عم أبى السلطان ، الخروج والعصيان . ورشح الخوارج للملك مكان نصر ، أبا الوليد اسماعيل وهو حفيد لإسماعيل أخى محمد بن الأحمر رأس الأسرة النصرية . ولم يمض سوى قليل حتى استطاع أبو سعيد وشيعته التغلب على ألمرية وبلش وغيرهما من القواعد الجنوبية . وفى أوائل سنة ٧١٢ هـ ( ١٣١٣ م ) سار فى قواته إلى غرناطة ، وهرع السلطان نصر إلى لقائه فكانت الهزيمة على نصر ، فلجأ إلى غرناطة ؛ ولكنه لم يلبث أن أذعن واضطر إلى التنازل عن العرش ، وسار بأهله إلى وادى آش ، وتولى حكمها حتى توفى سنة ٧٢٢ هـ ( ١٣٢٢ م )(١) .

---

( ١ ) الإحاطة ج ١ ص ٣٩٣ و ٣٩٤ ؛ واللمحة البدرية ص ٥٧ — ٦٣ .

# الفصل السابع

## مملكة غرناطة فى النصف الأول من القرن الثامن الهجرى

## وذروة الصراع بين بنى مرين واسبانيا النصرانية

ولاية السلطان أبي الوليد اسماعيل . زحف القشتاليين على غرناطة . هزيمتهم ومقتل أمرائهم . سوء الأحوال فى قشتالة . تجديد الصلح بين غرناطة وأراجون . غزوات المسلمين فى أراضى النصارى . مقتل السلطان إسماعيل وخلاله . ولاية ولده أبي عبد الله محمد . بطشه بوزيره ابن المحروق . الخلاف بينه وبين شيوخ الغزاة . الحاجب أبو النعيم رضوان . استنجاد ملك غرناطة بملك المغرب . أبو الحسن يرسل الأمداد مع ولده . غزو الأندلسيين للجزيرة الخضراء . حصارهم لجبل طارق واسترداده من النصارى . المؤامرة على السلطان ومصرعه . السلطان أبو الحجاج يوسف . نكبته لبنى العلاء . الحاجب رضوان وخلاله . استئثاره بالسلطة . نفيه وعوده إلى الوزارة . الوزير ابن الجياب . بداية ظهور ابن الخطيب . تحرش القشتاليين بالمسلمين . قدوم الأمداد من المغرب . هزيمة المغاربة ومقتل قائدهم . عبور السلطان أبي الحسن إلى الأندلس . موقعة سالادو وهزيمة المسلمين . سقوط طريف والجزيرة الخضراء فى يد النصارى . مسير السلطان أبي الحسن للمرة الثانية . هزيمته فى البر والبحر . تبادل المكاتبة والسفارة بين أبي الحسن وسلطان مصر . تجديد الصلح مع أراجون . الوباء الكبير . عود القشتاليين إلى الغزو . حصارهم لجبل طارق . تفشى الوباء بين النصارى ومصرع ملك قشتالة . نجاة جبل طارق . أقوال ابن الخطيب . وصف ابن بطوطة لحوادث الأندلس وأحوالها . مصرع السلطان أبي الحجاج يوسف. وصف ابن الخطيب للحادث . خلال يوسف . استعراض للعلائق بين بنى الأحمر وبنى مرين .

جلس السلطان أبو الوليد اسماعيل على عرش غرناطة فى شوال سنة ٧١٣ هـ (١٣١٤م)، وامتاز عصره بتوطد الملك، واستقرار الأمور، واحياء عهد الجهاد . وفى أوائل عهده غزا القشتاليون كعاتهم بسائط غرناطة واستولوا على عدة من القواعد والحصون ، وهزموا المسلمين هزيمة شديدة فى وادى فرتونة (٧١٦ هـ) . ولما رأى القشتاليون نجاح غزوتهم اعتزموا منازلة الجزيرة الخضراء والاستيلاء عليها ليحولوا دون وصول الأمداد إلى المسلمين من عدوة المغرب . ولكن السلطان إسماعيل بادر إلى تحصينها وجهز الأساطيل لحمايتها من البحر ، فعدل القشتاليون عن مشروعهم ، وعولوا على مهاجمة الحاضرة الإسلامية ذاتها . وبادر ابن الأحمر بطلب الغوث والإمداد من السلطان أبي سعيد سلطان المغرب ، فنكل عن معاونته ،

وطالب بتسليم عثمان بن أبى العلاء لما كان منه فى حق بنى مرين ، فأبى ابن الأحمر خشية العواقب ؛ وزحف القشتاليون على غرناطة بجيش ضخم ، يقوده الدون پيدرو ( دون بطره) والدون خوان الوصيان على ألفونسو الحادى عشر ملك قشتالة ، ومعهما عدة من الأمراء القشتاليين ، وفرقة من المتطوعة الإنجليز بقيادة أمير إنجليزى ، فبادر المسلمون إلى لقائهم فى هضبة إلبيرة على مقربة من غرناطة . وكان الجيش الغرناطى لا يجاوز ستة أو سبعة آلاف جندى منهم نحو ألف وخمسمائة فارس ، ولكنهم صفوة المقاتلة المسلمين ، وكان قائده شيخ الغزاة أبو سعيد عثمان بن أبى العلاء ، جنديا جريئاً وافر العزم والبسالة ، فلم ترعه كثرة الجيش المهاجم ، وعول فى الحال على لقائه فى معركة حاسمة . وفى ٢٠ من ربيع الثانى سنة ٧١٨ﻫ (مايو سنة ١٣١٨م) التقى فرسان الأندلس بطلائع النصارى وردوهم بخسارة فادحة . ثم زحف أبو سعيد فى نخبة من جنده ، ونشبت بين الفريقين موقعة شديدة ، كانت الدائرة فيها على القشتاليين ، فمزقوا شر ممزق ، وقتل منهم عدد جم ، بينهم دون پيدرو ودون خوان ، ورهط كبير من الأمراء والنبلاء والأحبار ، وغرق منهم عند الفرار فى نهر شنيل عدة كبيرة ، وأسر منهم بضعة آلاف ، واستمر القتال والأسر فيهم ثلاثة أيام . وخرج أهل غرناطة فرحين مستبشرين ، يجمعون الأسلاب والأسرى ، وظفر المسلمون بغنائم عظيمة ، منها مقادير كبيرة من الذهب والفضة . وكان على العموم نصراً مشهوداً أعاد ذكرى الجهاد المجيد . وكان معظم الفضل فى إحرازه يرجع إلى الجند المغاربة وإلى شيوخهم بنى العلاء الذين تزعموا الجيوش الأندلسية ، وتولوا قيادتها فى تلك الفترة حسبما أسلفنا . ويعلل ابن خلدون ظهور القادة والجند المغاربة فى ميدان الجهاد بقرب عهدهم بالتقشف والبداوة . ووضع المسلمون جثة الدون پيدرو فى تابوت من ذهب على سور الحمراء تنويهاً بالنصر ، وتخليداً لذكرى الموقعة[١] .

والواقع أن مملكة قشتالة كانت فى أوائل القرن الرابع عشر فى حالة سيئة ، وقد نفدت مواردها من الرجال والأموال ، بسبب الحروب والثورات المتواصلة ، والمرض والقحط ؛ وكان إسراف البلاط وبذخ الخلائل ، واختلاس الموظفين ، ومطالب رجال الدين ، وجشع الأشراف ، تستنفد الأموال العامة ؛ وكانت

(١) راجع فى تفاصيل هذه الموقعة الشهيرة ، ابن خلدون ج ٤ ص ١٧٢ ، و ج ٧ ص ٢٥٠ ؛ والإحاطة ج ١ ص ٣٩٧ ؛ والمقرى فى نفح الطيب ج ١ ص ٢١٠ .

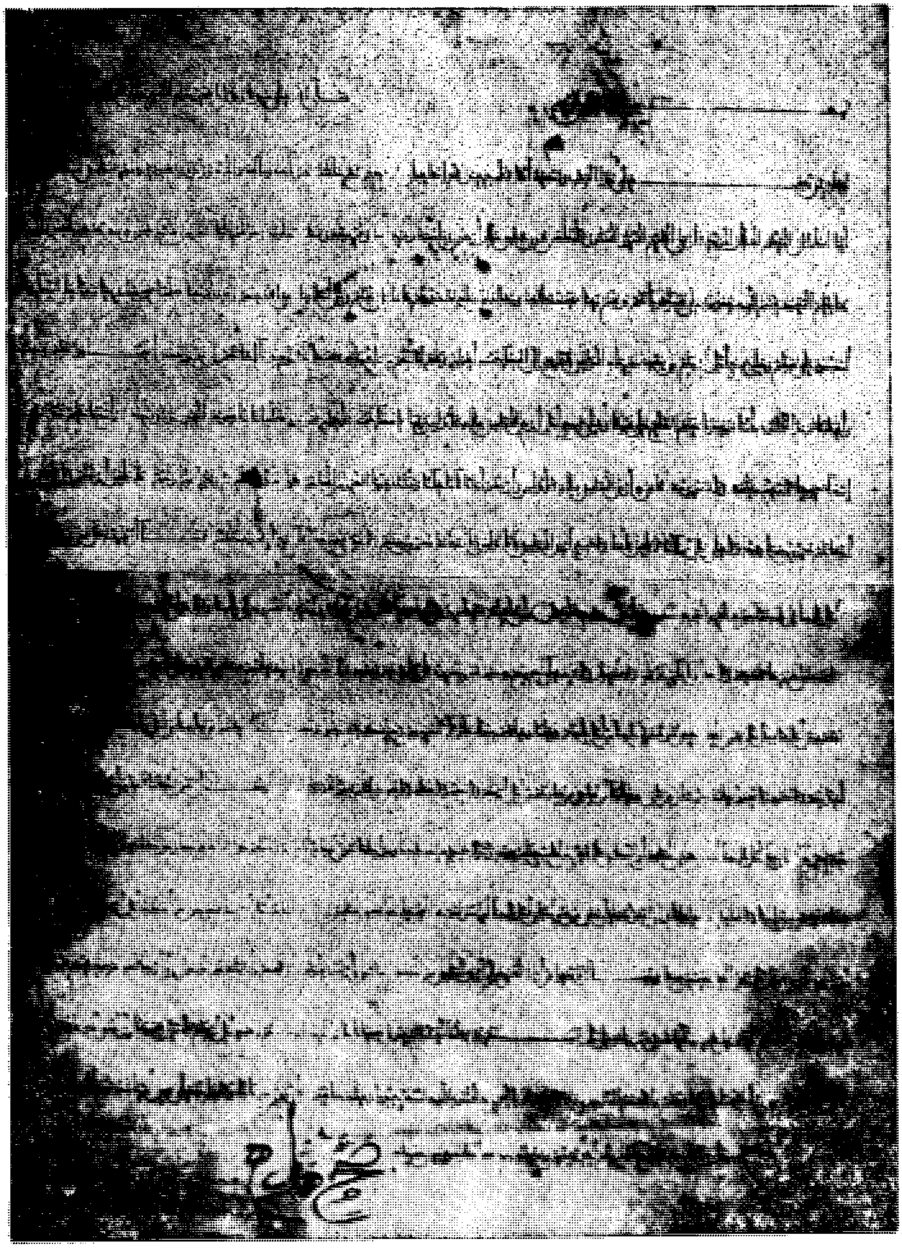

صورة معاهدة الصلح التى عقدت بين السلطان أبى الوليد اسماعيل بن فرج بن نصر ملك غرناطة ، وخايمى الثانى ملك أراجون فى ربيع الثانى سنة ٧٢١ هـ ( مايو ١٣٢١ م ) وهى محفوظة بدار محفوظات التاج الأرجونى ببرشلونة برقم ١٥١ .

الإدارة المالية فى يد اليهود ورجال الكنيسة وكلاهما يناوئ الآخر ، ويعمل على إحباط مساعيه ؛ وكانت الوصايات المتعاقبة ، وما تعمد إليه من اغتصاب الأموال ، وسوء استعمال السلطة ، وفساد القضاء ، وتطاول الحلائل الملكية ، وسحق الحقوق العامة والخاصة ، وتفشى الجريمة ، تثير غضب الشعب وسخطه ؛ وكان اللون الصليبى للحروب الإسبانية فى ذلك العصر يوطد نفوذ جماعات الفرسان الدينية العديدة ، وهى التى كانت فى الواقع توجه مصاير الحرب والسياسة ، بيد أنها كانت تخفى تحت ستار الدين رذائل كثيرة من الفجور والجشع والارتشاء وغيرها[1] .

وفى سنة ٧٢١ هـ ( ١٣٢١ م ) جدد السلطان إسماعيل معاهدة الصلح مع ملك أراجون خايمى الثانى وذلك تحقيقاً لرغبته ؛ ونص فى المعاهدة الجديدة على أن يعقد بين الفريقين صلح ثابت لمدة خمسة أعوام ، تؤمن خلالها أرض المسلمين بالأندلس وأرض أراجون تأميناً تاماً براً وبحراً ، وأن تباح التجارة لرعايا كل من الفريقين فى أرض الآخر ، وأن يتعهد كل من الملكين بمعاداة من يعادى الآخر ، وأن لا يأوى له عدواً أو يحميه ، وأن تكون سفن كل فريق وشواطئه ومراسيه آمنة ، وأن يسرح كل فريق من يؤسر فى البحر من رعايا الفريق الآخر . وتضمنت المعاهدة أيضاً نصاً خاصاً بتعهد ملك أراجون بألا يمنع خروج المدجنين من أراضيه إلى أرض المسلمين بأهلهم وأولادهم وأموالهم ، وهو نص يلفت النظر ، إذ كان المدجنون فى هذا العصر يؤلفون أقليات كبيرة فى بلنسية ومرسية وشاطبة وغيرها من القواعد الشرقية ، وكان ملوك أراجون يحرصون على بقائهم وعدم هجرتهم لأسباب اقتصادية وعمرانية[2] .

وعلى أثر موقعة إلبيرة تعاقبت غزوات المسلمين فى أراضى النصارى وعادت الدولة الإسلامية الفتية تجوز عهداً من القوة بعد أن لاح أنها شارفت طور الفناء .

ففى سنة ٧٢٤هـ (١٣٢٤م) زحف السلطان إسماعيل على مدينة بيَّاسة الحصينة وحاصرها بشدة ، وأطلق المسلمون عليها الحديد والنار من آلات قاذفة تشبه المدافع حتى سلمت . وفى رجب من العام التالى ( ٧٢٥ هـ ) سار اسماعيل إلى مرتش واستولى عليها عنوة ، وكانت أعظم غزواته ، وامتلأت أيدى المسلمين بالسبى والغنائم . ثم عاد السلطان إلى غرناطة مكللا بغار النصر . بيد أنه لم تمض على عوده

---

( ١ ) راجع : Scott : ibid ; V. II. p. 476-78

( ٢ ) Archivo de la Corona de Aragón, No. 151

ثلاثة أيام حتى قتل بباب قصره غيلة ، وكان قاتله ابن عمه محمد بن إسماعيل صاحب الجزيرة ، وقد حقد عليه لأنه انتزع منه جارية رائعة الحسن ، ظفر بها فى موقعة مرتش ، وبعث بها إلى حريمه بالقصر . ولما عاتبه محمد رده بجفاء وأنذره بمغادرة البلاط ، فتربص به وطعنه بخنجره وهو بين وزرائه وحشمه ، فحمل جريحاً حيث توفى على الأثر ، وكان مصرعه فى السادس والعشرين من رجب سنة ٧٢٥ هـ ( يونيه سنة ١٣٢٥ م ) .

وكان السلطان إسماعيل يتمتع بخلال باهرة ، وكان يشتد فى إخماد البدع وإقامة الحدود . وفى عهده حرمت المسكرات وطورد الفساد الأخلاق ، وحرم جلوس الفتيات فى ولائم الرجال ، وعومل اليهود بشىء من الشدة ، وألزموا أن يتخذوا لهم شعاراً خاصاً بهم ، هو عبارة عن العمائم الصفراء(١) .

فخلفه ولده أبو عبد الله محمد وهو فتى يافع لم يجاوز الحادية عشرة من عمره ، وكانت أمه نصرانية تدعى علوة ، وأخذ له البيعة وزير أبيه أبو الحسن بن مسعود ، وقام بكفالته بضعة أشهر حتى توفى ، ثم خلفه فى الوزارة وكيل أبيه محمد بن أحمد ابن المحروق ، فاستبد بالأمور واستأثر بكل سلطة ؛ فحقد عليه السلطان الفتى وكان رغم حداثته مقداماً قوى النفس ، ولم يلبث أن بطش بوزيره المتغلب عليه ، فقتل بأمره فى المحرم سنة ٧٢٩ هـ .

وكان من أوائل أعماله تجديد معاهدة الصداقة مع أراجون ، وكان ملكها خايمى الثانى قد أوفد إليه سفيره يطلب إليه تجديد معاهدة الصلح والصداقة التى عقدت بينه وبين أبيه ، وانقضى أجلها المحدد بانقضاء أعوامها الخمسة ، فوافق السلطان على تجديدها بسائر نصوصها وشروطها ، ووقعت المعاهدة الجديدة فى جمادى الثانية سنة ٧٢٦ هـ ( مايو سنة ١٣٢٦ م )(٢) .

ولأول عهده نشب الخلاف بينه وبين شيوخ الغزاة المغاربة ، وعلى رأسهم عثمان بن أبى العلاء ، وامتنعوا ببعض الثغور الجنوبية ولاسيما ألمرية ، وانضم إليهم عم السلطان ، محمد بن فرج بن إسماعيل ، فقاموا بدعوته ، ونشبت بين الفريقين عدة مواقع محلية ، كان النصر فيها سجالا بينهما . وانتهز القشتاليون كعادتهم تلك

---

( ١ ) الإحاطة ج ١ ص ٣٩٥ — ٤٠١ ؛ واللمحة البدرية ص ٧١ — ٧٤ .

( ٢ ) **Archivo de la Corona de Aragón, No. 148**

الفرصة، فأثخنوا فى الأراضى الإسلامية، واستولوا على ثغر بيره وعدة من الحصون[١].
ولما تفاقم عيث النصارى آثر السلطان التفاهم مع الخوارج عليه ، وعقدت بينهما الهدنة على أن يستقروا بوادى آش باسمه وتحت طاعته . وتولى تدبير الأمور بعد مقتل ابن المحروق ، الحاجب أبو النعيم رضوان النصرى ، فهدأت الفتنة واستقرت الأمور نوعاً . ولكن ابن الأحمر كان يتوجس شراً من اضطراب الأحوال فى مملكته ومن تربص النصارى بها ، ورأى أن يتجه بصريخه إلى بنى مرين مرة أخرى، وكانت العلائق يومئذ على صفائها بين غرناطة وفاس . وكان بنو مرين حينما شغلوا بشئونهم الداخلية قد تركوا الجزيرة وحصونها لابن الأحمر (سنة ٧١٢ هـ) ، فلما اشتدت وطأة النصارى على غرناطة ، عاد ابن الأحمر فنزل عن الجزيرة إلى ملك المغرب السلطان أبى سعيد (سنة ٧٢٩هـ)، لتكون رهينة ومنزلا للأمداد المرجوة من وراء البحر ؛ ولكن النصارى استولوا على معظم حصونها ، وأضحى طريق الجواز ولاسيما بعد ضياع جبل طارق عسيراً محفوفاً بالمخاطر . وعبر ابن الأحمر البحر فى أواخر سنة ٧٣٢ هـ إلى عدوة المغرب ، وقصد إلى فاس مستنجداً بملك المغرب ، السلطان أبى الحسن على بن عثمان بن أبى يعقوب المرينى ، فاستقبله السلطان بمنتهى الحفاوة ، وشرح له ابن الأحمر ما انتهت إليه شئون الأندلس ، وما ترتب على سقوط جبل طارق من قطع صلة الوصل بين المملكتين، ورجاه الغوث والعون .

والواقع أن استيلاء النصارى على جبل طارق فى سنة ٧٠٩ هـ (١٣١٠ م) كان أعظم نكبة منيت بها الأندلس منذ سقوط قواعدها الكبرى . وقد شعرت حكومة غرناطة بفداحة النكبة، وازداد منذ وقوعها توجسها من المستقبل . ولقد أتيح لنا أن نزور هذه الصخرة الهائلة ، وأن نشهد مبلغ روعتها ومنعتها . وكان المسلمون قد جددوا تحصيناتها فى منتصف القرن السادس الهجرى حينما عبر إليها خليفة الموحدين عبد المؤمن بن على (٥٥٥هـ)، وأسماها جبل الفتح ، وأمر بتجديد حصنها الذى ما يزال قائماً حتى اليوم فوق الصخرة من ناحيتها الشمالية . وكان سلطان غرناطة يتوق إلى استرداد هذا المعقل المنيع درع مملكته من الجنوب . وكان السلطان أبو الحسن مشغوفاً بالجهاد واستئناف ما تصرم من أسبابه . وكان فوق اضطرامه بعاطفة الجهاد ، يرى خطر اسبانيا النصرانية يلوح داهماً ليس على الأندلس فقط ،

---

(١) الإحاطة ج ١ ص ٥٤٤ . وبيره Vera بلدة حصينة تقع فى شمال شرقى ولاية المرية على مقربة من البحر .

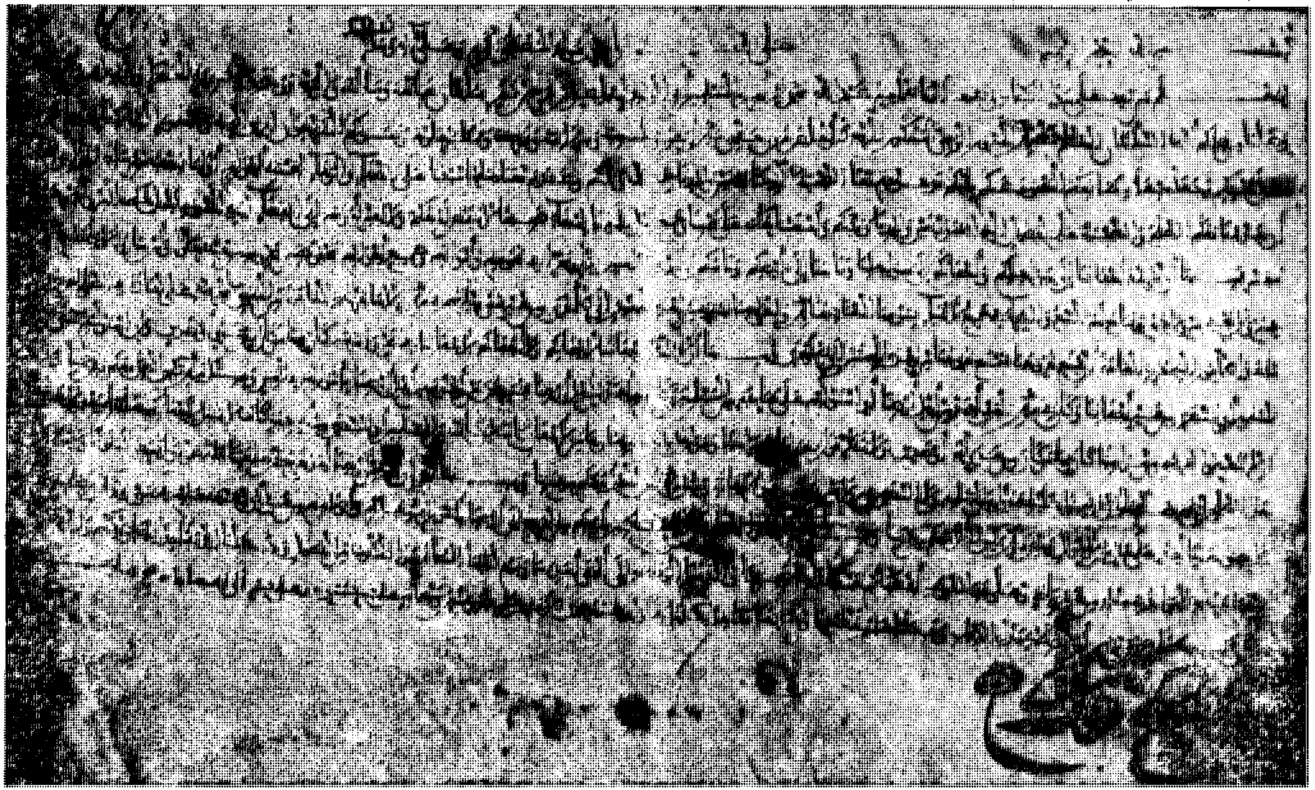

صورة وثيقة عقدت بين السلطان أبي عبد الله محمد بن إسماعيل وخايمي الثانى ملك أراجون بتجديد معاهدة الصلح التى عقدت بين والده وخايمي فى سنة ٧٢١ ﻫ ، مؤرخة فى جمادى الثانية سنة ٧٢٦ ﻫ (١٣٢٩ م) ومحفوظة بدار محفوظات التاج الأرجونى ببرشلونة برقم ١٥٤ .

بل وعلى المغرب أيضاً . ذلك لأن الأندلس أخذت تبدو من ذلك الحين جناح المغرب ، وخطه الدفاعى الأول من الشمال ، ولابد من تأمين هذا الخط والسهر على سلامته ، وذلك بدعم قوة الأندلس وتأييدها ، ورد خطر النصارى عنها . ومن ثم فقد استجاب أبوالحسن لدعوة ابن الأحمر وبعث معه الأمداد بقيادة ولده أبى مالك ، لمنازلة جبل طارق وافتتاحها ، وتلاحقت فى أثرهم السفن تحمل المدد والعُدد والمؤن . وحشد ابن الأحمر قواته ، وزحف على الجزيرة واستولى عليها . وطوق المسلمون جبل طارق من البر والبحر ، ورابط أسطول المغرب فى مياه المضيق ليحول دون وصول الأمداد إلى النصارى ، وهرع ملك قشتالة ( ألفونسو الحادى عشر ) فى قوة من الفرسان لإنجاد الحامية المحصورة ، فبادر ابن الأحمر إلى مهاجمة النصارى ، وهزمهم أمام جبل طارق تجاه البرزخ الإسبانى . وكان أكبر الفضل فى إحراز هذا النصر راجعاً إلى همة الحاجب رضوان النصرى وإقدامه وبراعته . ثم شدد المسلمون الحصار على الثغر ، وقطعوا كل صلاته من البر والبحر ، فلم تمض بضعة أسابيع حتى ساءت حال الحامية النصرانية ، واضطرت إلى التسليم قبل مقدم الجيش القشتالى . وبذلك استعاد المسلمون الثغر المنيع فى أواخر سنة ٧٣٣هـ ( ١٣٣٣ م ) بعد أن لبث فى حوزة النصارى أربعة وعشرين عاماً ، وكان أكبر الفضل فى استرداده راجعاً إلى معاونة السلطان أبى الحسن فى البر والبحر . ولما رابط المسلمون والنصارى فى الميدان وجهاً لوجه ، ورأى ملك قشتالة أنه لا أمل فى كسب معركة انتهت فعلا بظفر المسلمين ، آثر الصلح ، وانتهى الأمر بعقد الهدنة بين الملكين[1] . واعتزم السلطان محمد بن اسماعيل ( ابن الأحمر ) العودة بجنده إلى غرناطة ، ولكنه ماكاد يغادر جبل طارق فى اليوم التالى عائداً إلى عاصمة ملكه ، حتى اغتاله فى الطريق جماعة من المتآمرين بتحريض بنى أبى العلاء ، ( ذى الحجة سنة ٧٣٣هـ ) . وكان أولئك القواد المغاربة وعلى رأسهم شيخهم عثمان ابن أبى العلاء قد استفحل أمرهم فى الدولة ، وأخذوا ينازعون السلطان فى أمر تصرفاته ، ولما توفى شيخ الغزاة عثمان ابن أبى العلاء فى سنة ٧٢٩ هـ عين مكانه فى المشيخة ولده أبو ثابت عامر ، فاستمر يمارس سلطان أبيه ونفوذه ، وتدخله فى شئون الدولة ، وكان يؤازره إخوته إدريس ، ومنصور ، وسلطان . وبدأ ابن الأحمر

---

( ١ ) الإحاطة ج ١ ص ٥٤٠ – ٥٥٢ ؛ واللمحة البدرية ص ٧٧ – ٨٢ ؛ وابن خلدون ج ٧ ص ٢٥٥ .

يتبرم بتدخلهم واستبدادهم ، وكان حينما عبر السلطان أبو الحسن قد خاطبه فى شأنهم وفى سبيل الخلاص منهم، واستراب بنو العلاء منه وتوجسوا شراً، فأتمروا به للتخلص منه قبل أن يبطش بهم ، ولحق به المتآمرون حين عوده واغتالوه طعناً بالرماح، وتركت جثته فى العراء حيناً حتى نقلت بعد ذلك إلى مالقة ودفنت بها(١).

— ٢ —

وولى العرش من بعده أخوه أبو الحجاج يوسف بن أبى الوليد إسماعيل ، وهو فتى فى السادسة عشرة . وكان من أعظم ملوك بنى نصر وأبعدهم همة وأرفعهم خلالا . وكان عالماً شاعراً يحمى الآداب والفنون ، وهو الذى أضاف إلى قصر الحمراء أعظم منشآته وأروعها . وماكاد يتبوأ العرش حتى عنى بتتبع بنى أبى العلاء قتلة أخيه ، وتجريدهم من وظائفهم وتمزيق عصبتهم والقبض على شيوخهم ، وكان ذلك فى الوقت نفسه تحقيقاً لرغبة السلطان أبى الحسن . ثم نفاهم فى السفن إلى تونس ، وانتهت بذلك رياستهم بالأندلس ، بعد أن طالت زهاء نصف قرن ، ولما نزلوا على سلطان تونس أبى يحيى الحفصى ، طالب السلطان أبو الحسن بتسليمهم فأرسلهم إليه أبو يحيى ولكن مع طلب الشفاعة فيهم ، فعفا عنهم أبو الحسن ، وأكرم مثواهم مدى حين ، ولكنه عاد فقبض عليهم بتهمة التآمر عليه ، وأودعهم ظلام السجن(٢) .

وعهد السلطان أبو الحجاج بمشيخة الغزاة ، بعد سحق بنى أبى العلاء على النحو المتقدم ، إلى زعيم آخر من قرابة بنى مرين هو يحيى بن عمر بن رحّو ، فاضطلع بها على خير وجه ، ولبث مضطلعاً بها طول عصر أبى الحجاج .

وقام بتدبير الأمور للسلطان أبى الحجاج وزير أخيه الحاجب أبو النعيم رضوان ، وكان هذا الوزير القوى الذى لعب فى تاريخ غرناطة دوراً ذا شأن ، من أصل نصرانى قشتالى أوقطلونى ، وسبى طفلا فى بعض المواقع ، فأخذ إلى الدار السلطانية ، ونشأ فى بلاط السلطان أبى الوليد إسماعيل(٣). وظهرت نجابته وصفاته الممتازة ، فعهد إليه بتربية ولده أبى عبد الله محمد . ولما تولى محمد الملك بعد أبيه تولى وزارته الحاجب رضوان، فأظهر فى تدبير الشئون كفاية ممتازة ، وقاد بعض

---

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ٢٦٣ و ٢٦٤ و ٣٧٢ .
(٢) ابن خلدون ج ٧ ص ٢٦٤ .
(٣) الإحاطة ج ١ ص ٥١٥ .

الغزوات الناجحة إلى أرض النصارى ، فغزا فى سنة ٧٣٢ هـ أراضى قشتالة شرقاً حتى لورقة ومرسية وعاث فيها ، وفى العام التالى غزا مدينة باغة واستولى عليها[١].
ولما تولى الملك السلطان يوسف وقع الإجماع على اختياره للوزارة ، واستقرت الأمور فى عهده وساد الأمن والرخاء . وينوه ابن الخطيب — وهو معاصر الحاجب وصديقه — بصفاته ومواهبه ويسميه « حسنة الدولة النصرية ، وفخر مواليها » ويصفه فيما يلى : « وكان أصيل الرأى رصين العقل ، كثير التجمل ، عظيم الصبر ، قليل الخوف فى العهات ، ثابت القدم فى الأزمات ، ميمون النقيبة ، عزيز النفس عالى الهمة ، بادى الحشمة ، آية فى العفة ، مثلا فى النزاهة » . وكان من أعظم مآثره إنشاء مدرسة (جامعة) غرناطة الشهيرة . فأقام لها صرحا فخما ، ووقف عليها أوقافا جليلة وغدت غير بعيد من أعظم مناهل العلم فى الأندلس والمغرب[٢] ، وأمر ببناء السور الأعظم حول ربض البيازين ، وأنشأ عدداً كبيراً من الأبراج الدفاعية ، وأصلح كثيراً من الحصون الداخلية ؛ ولكنه كسائر المتغلبين على السلطان ، استبد بالأمر واستأثر بكل سلطة . فلما شعر السلطان يوسف باشتداد وطأته ، وكثرت السعايات فى حقه ، نكبه وأمر باعتقاله ونفيه إلى المرية ، وذلك فى رجب سنة ٧٤٠هـ . ولكنه اضطر إلى أن يعيده إلى الوزارة بعد ذلك ببضعة أشهر ، حينما شعر بالفراغ الذى أحدثه تنحيه عن تدبير الشئون ، فاستمر فى منصبه حتى نهاية عهده[٣].

وكان من بين وزراء السلطان يوسف ، الكاتب والشاعر الكبير الرئيس أبو الحسن على بن الجياب ؛ وقد تقلب فى ديوان الإنشاء حتى ظفر برياسته . وكان من زملائه وأعوانه فى ديوان الإنشاء عبدالله بن الخطيب والد لسان الدين . ولما توفى عبد الله خلفه فى خدمة القصر ولده لسان الدين ، وغدا أميناً لابن الجياب . فلما توفى ابن الجياب سنة ٧٤٩هـ فى الوباء الكبير خلفه فى الوزارة ، وبزغ نجم مجده من ذلك الحين .

وفى عهد السلطان يوسف كثرت غزوات النصارى لأراضى المسلمين ، وكان ألفونسو الحادى عشر تحدوه نحو المملكة الإسلامية أطماع عظيمة . ولما شعر يوسف

---

(١) الإحاطة ج ١ ص ٥٤٨ و٥٤٩ .
(٢) كانت مدرسة غرناطة تقوم إزاء المسجد الجامع وراء القيسرية . وقد أقيمت كتدرائية غرناطة مكان المسجد الجامع ، ولبثت المدرسة قائمة حتى القرن الثامن عشر ، ثم هدمت وأقيم مكانها بناء آخر ، ولم يبق منها إلا بعض أبهائها القديمة . ونقلت معظم زخارفها ونقوشها إلى متحف غرناطة .
(٣) راجع الإحاطة ج ١ ص ٥١٨ وما بعدها .

باشتداد وطأة القشتاليين ، وضعف وسائله فى الدفاع ، أرسل يستنجد بالسلطان أبى الحسن على بن عثمان ملك المغرب ، فأرسل الأمداد للمرة الثانية إلى الأندلس مع ولده الأمير أبى مالك ، فاخترق سهول الجزيرة الخضراء معلناً الجهاد . وتوجست اسبانيا النصرانية من مقدم الجيوش المغربية شراً ، واعتزمت أن تواجه الغزاة فى قواها المتحدة ، فسار أسطول مشترك من سفن قشتالة وأراجون والبرتغال ، إلى مياه جبل طارق ، بقيادة الدون چوفرى تنوريو ليمنع الأمداد عن جيوش المغرب ، وبارك البابا الحملة ، وسارت قوى اسبانيا المتحدة للقاء المسلمين . وكان أبو مالك فى تلك الأثناء قد زحف إلى أراضى النصارى ، واجتاح سهل بجانة[1] وحصل على غنائم لا تحصى ؛ وهنا فاجأه الإسبان قبل أن يستطيع الارتداد إلى أراضى المسلمين ، ونشبت بين الفريقين معركة دموية هزم فيها المسلمون هزيمة شديدة وقتل أبومالك ، وكان ذلك فى أواسط سنة ٧٤٠ هـ ( ١٣٣٩ م ) .

وعندئذ عول السلطان أبو الحسن على العبور بنفسه إلى الأندلس ، ليثأر لتلك الهزيمة المؤلمة ، فجهز الجيوش والأساطيل الضخمة ، وبلغ أسطول المغرب يومئذ مائة وأربعين سفينة منها عدد كبير من السفن الحربية ، وجاز السلطان البحر إلى الأندلس فى أوائل المحرم سنة ٧٤١ هـ ( يوليه سنة ١٣٤٠م ) ونزل بسهل طريف ولحق به السلطان يوسف فى قوات الأندلس . وكانت الجيوش الإسبانية قد نفذت يومئذ إلى أعماق مملكة غرناطة ، ووصلت إلى بسائط الجزيرة الخضراء ، ورابط الأسطول النصرانى فى مياه المضيق بين المغرب والأندلس ، ليمنع قدوم الأمداد والمؤن ، وضرب النصارى الحصار حول ثغر طريف وتغلبوا على حاميته ، ومضت أشهر قبل أن يقع اللقاء الحاسم بين الفريقين ؛ فشحت الأقوات بين المسلمين ، ووهنت قواهم . وكان الجيش الإسلامى يرابط عندئذ فى السهل الواقع شمال غربى طريف على مقربة من نهر « سالادو » الصغير الذى يصب فى المحيط الأطلنطى عند بلدة كونيل التى تبعد قليلا عن رأس طرف الغار . وفى يوم ٣٠ أكتوبر سنة ١٣٤٠ ( جمادى الأولى سنة ٧٤١ هـ ) نشبت بين الفريقين معركة عامة على ضفاف نهر سالادو ، وتولى السلطان أبو الحسن قيادة جيشه بنفسه ، وتولى السلطان يوسف قيادة فرسان الأندلس ، ويقال إن الأندلسيين كانت لديهم فى تلك الموقعة آلات تشبه المدافع ، وهى الآلات التى تطورت فيما بعد وكانت تسمى « بالأنفاط » .

---

( ١ ) وهو بالإسبانية **Pechina**

وتقدم ألفونسو الحادى عشر بجيشه لمهاجمة المغاربة، فصد فى البداية بقوة، واشتبك فرسان الأندلس مع جيش البرتغال . ولكن حدث عندئذ أن تسللت حامية طريف النصرانية من الجنوب وانقضت على مؤخرة الجيش الإسلامى ، فدب الخلل إلى صفوفه ، ونشبت بين الفريقين معركة هائلة سالت فيها الدماء غزيرة ، وقتل من المسلمين عدد جم ، وسقط معسكر سلطان المغرب الخاص فى يد النصارى وفيه حريمه وحشمه وبعض أولاده ، فذبحوا جميعاً على الأثر بوحشية مروعة ، وانتثرت قوات المسلمين وبددت ؛ وفر السلطان أبو الحسن، واستطاع أن يعبر إلى المغرب مع فلوله ؛ وارتد السلطان يوسف إلى غرناطة ، وكانت محنة عظيمة لم يشهد المسلمون مثلها منذ موقعة « العقاب »[١] وكان لها أعمق وقع فى المغرب والأندلس[٢].

وانتهز ملك قشتالة فرصة ظفره وضعف المسلمين، فغزا قلعة بنى سعيد أوقلعة يحصب من أحواز غرناطة واستولى عليها بعد حصار قصير ( ٧٤٢ هـ )[٣]. وكان ملك المغرب فى أثناء ذلك يضطرم ظمأ للانتقام ، ويحشد قواته من جديد . ولما كملت أهبته أرسل أساطيله إلى مياه المضيق ، وسار بالجيش إلى سبتة ، وبادر ملك قشتالة من جانبه بإرسال أسطوله للقاء المسلمين ، ونشبت بين الفريقين معركة بحرية هزم فيها المسلمون ومزق أسطولهم ( ٧٤٣ هـ — ١٣٤٢م ) . وحاصر النصارى ثغر الجزيرة الخضراء، وسار السلطان يوسف فى جيشه لإنجاد الثغر المحصور، وكان جيشه مجهزاً بالآلات القاذفة الجديدة التى تشبه المدافع ، ولكنه لم يفلح واضطر المسلمون إلى التسليم ، وبذلك أضحى الثغران الجنوبيان المشرفان على مضيق

---

( ١ ) هى الموقعة التى نشبت بين الموحدين والنصارى فى الأندلس على مقربة من أبدة فى سنة ٦٠٩ هـ (١٢١٢ م) وفيها هزم الموحدون هزيمة شديدة . وتسمى موقعة العقاب وبالإسبانية Las Navas de Tolosa وقد سبقت الإشارة إليها .

( ٢ ) راجع ابن خلدون ج ٧ ص ٢٦١ و٢٦٢ ؛ والاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ج ٢ ص ٦٥ و٦٦ ، واللمحة البدرية ص ٩٢ و٩٣ . ويوجد فى متحف كتدرائية مدينة طليطلة علمان كبيران من أعلام السلطان أبى الحسن كانا ضمن غنائم النصارى فى هذه الموقعة ، وقد نقشت عليهما آيات قرآنية وأدعية واسم السلطان أبى الحسن .

( ٣ ) قلعة يحصب أوقلعة بنى سعيد هى بلدة حصينة تقع شمال غرناطة ، وجنوب غربى جيان . وسميت قلعة بنى سعيد لأنها كانت منزل أسرة بنى سعيد الكتاب والمؤرخين أصحاب كتاب « المغرب » . ومكانها اليوم بلدة Alcalá la Real ( القلعة الملكية )الإسبانية .

جبل طارق وهما الجزيرة وطريف فى أيدى النصارى ، ولم يبق فى يد المسلمين سوى جبل طارق تؤدى مهمة الوصل بين المغرب والأندلس .

وكانت هذه الأحداث الخطيرة التى وقعت بالأندلس بين النصارى والسلطان أبى الحسن ، موضوعاً لمكاتبات سياسية ، بين بلاط مراكش وبلاط القاهرة . وكان ثمة بين ملوك مصر والمغرب منذ قيام دولة بنى مرين سفارات ومكاتبات ودية متصلة. ففى سنة ٧٣٩ ﻫ أرسل السلطان أبو الحسن إلى السلطان الناصر محمد بن قلاون ملك مصر والشأم ، سفارة من بعض أكابر دولته ، وبرفقتهم والدة أخت السلطان الأميرة الحرة تريد الحج ، ومعهم هدية فخمة من عتاق الخيل ونفيس المتاع والحلى قدرت بأكثر من مائة ألف دينار ، ومصحف كتبه السلطان بيده ، وزين بماء الذهب ووضع فى إطار فخم من الأبنوس والصندل ، ليودع فى الحرم الشريف ، فاستقبلهم الملك الناصر بالقاهرة أعظم استقبال وجهزهم بكل ما يلزم ، وأرسل إلى ملك المغرب هدية جليلة(١). ثم عاد السلطان أبو الحسن ، فكتب على أثر هزائمه أمام النصارى فى البر والبحر ، إلى سلطان مصر الملك الصالح بن الملك الناصر بن قلاوون ، كتاباً ينوه بما كان بينه وبين والد السلطان من رسائل الود ، ويبسط له ما وقع من استغاثة أهل الأندلس به وإعداده الأساطيل لقتال النصارى ، ثم مفاجأة النصارى لسفنه فى البحر بأساطيل قوية ، وزحفهم على الجزيرة الخضراء ومحاولة إنجادها عبثاً ، ومعاونته لصاحب الأندلس بالمال والرجال ، واستطالة الحرب ونفاد الأقوات ، واضطراره إلى عقد الصلح مع النصارى على تسليم الجزيرة ، وما فتحه الله من أخذ جبل طارق قبل ذلك ، وأنه ما زال يتأهب للجهاد بعد عوده . وقد كتب هذا الكتاب فى صفر سنة ٧٤٥ ﻫ ( ١٣٤٤ م ) .

ورد ملك مصر على كتاب ملك المغرب ، فى رمضان سنة ٧٤٥ﻫ ، بكتاب رقيق يبدى فيه أسفه على سقوط الجزيرة الخضراء ، ويعزيه عن فقد أسطوله وما نزل به من هزائم ، ويقول إن الحرب سجال ، وإن فى سلامته الكفاية ، وإن الله قد يمن عليه بالظفر مرة أخرى ، ويبدى اغتباطه لاستيلاء السلطان على ثغر جبل طارق(٢) .

---

( ١ ) المقريزى فى السلوك فى دول الملوك ج ٢ ( ٢ ) ص ٤٤٧ و٤٤٨ ، ويصف المقريزى الأميرة الحرة بابنة السلطان ؛ وابن خلدون ج ٧ ص ٢٦٤ .

( ٢ ) لم ينقل إلينا القلقشندى فى صبح الأعشى نص هذين الكتابين . ولكن نقلهما إلينا المقرى فى نفح الطيب ج ٢ ص ٥٣٩ — ٥٤٦ .

ولم يخل عصر السلطان أبي الحجاج يوسف من عقد العلائق الدبلوماسية مع الدول النصرانية . وكان عقدها بالأخص مع مملكة أراجون التي كانت أقرب إلى مسالمة مملكة غرناطة من زميلتها مملكة قشتالة . ففي سنة ٧٣٥هـ (١٣٣٥م) أرسل السلطان سفيره القائد أبا الحسن بن كُماشه إلى ألفونسو الرابع ملك أراجون ليطلب تجديد معاهدة الصلح المعقودة بين المملكتين ، فأجابه إلى ذلك وجددت المعاهدة .

وفي أواخر سنة ٧٤٥ هـ ( ١٣٤٥ م ) عقد السلطان يوسف مع بيدرو الرابع ملك أراجون ، معاهدة صلح ومهادنة جديدة ، في البر والبحر ، لمدة عشرة أعوام على يد سفيره القائد المذكور ، وطلب إلى السلطان أبي الحسن المريني ، ملك المغرب ، أن يوافق على هذا الصلح فوافق عليه ، وأبرمه من جانبه ، بنفس الشروط ولنفس المدة التي يسري فيها ، وذلك حسبما يدل عليه عهد الموافقة الذي أصدره بتاريخ صفر سنة ٧٤٦ هـ ( يونيه ١٣٤٥ م )(١) .

وهنا طافت بالأندلس واسبانيا تلك النكبة المروعة التي عصفت بالمشرق والمغرب معا ، ونعني بذلك الوباء الكبير الذي اجتاح سائر الأمم الإسلامية وحوض البحر الأبيض المتوسط في سنة ٧٤٩هـ — ٧٥٠ هـ ( ١٣٤٨ م ) . وكان بدء ظهوره على ما يرجح في إيطاليا في ربيع هذا العام . وحمل من الأندلس كثيراً من سكانها ، وفي مقدمتهم عدة من رجالها البارزين من الكبراء والعلماء . وقد وصف لنا الوزير ابن الخطيب تلك المحنة التي كان معاصراً لها وشاهد عيان لروعها وفتكها في رسالة عنوانها : « مُقنعة السائل عن المرض الهائل » ، وكذلك وصف لنا عصف الوباء بثغر ألمرية شاعر ألمرية الكبير ابن خاتمة في رسالة عنوانها « تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد »(٢) .

ولبث ملك قشتالة أعواماً أخرى على خطته من إرهاق المملكة الإسلامية والعيث فيها ، والمسلمون يدافعون جهد استطاعتهم ، وأمراء المغرب مشغولون عن نجدتهم بما أصابهم من هزائم متوالية ، وما شجر بينهم من خلاف . وفي سنة ٧٥٠هـ ( ١٣٤٩م ) غزا النصارى سهول الجزيرة الخضراء مرة أخرى ، وكان ملك قشتالة يرمي بهذه الغزوة إلى غاية هامة هي الاستيلاء على جبل طارق . وكان هذا

---

(١) Archivo de la Corona de Aragón No. 52; Alarcôn y Santón : Documentos Arabes Diplomáticos, Nos. 41, 56, & 96

(٢) توجد هاتان الرسالتان ضمن مجموعة خطية تحفظ بمكتبة الإسكوريال برقم ١٧٨٥ وقد نشرت رسالة ابن الخطيب مع ترجمتها الألمانية في مجلة أكاديمية العلوم البافارية ( سنة ١٨٦٣ ) .

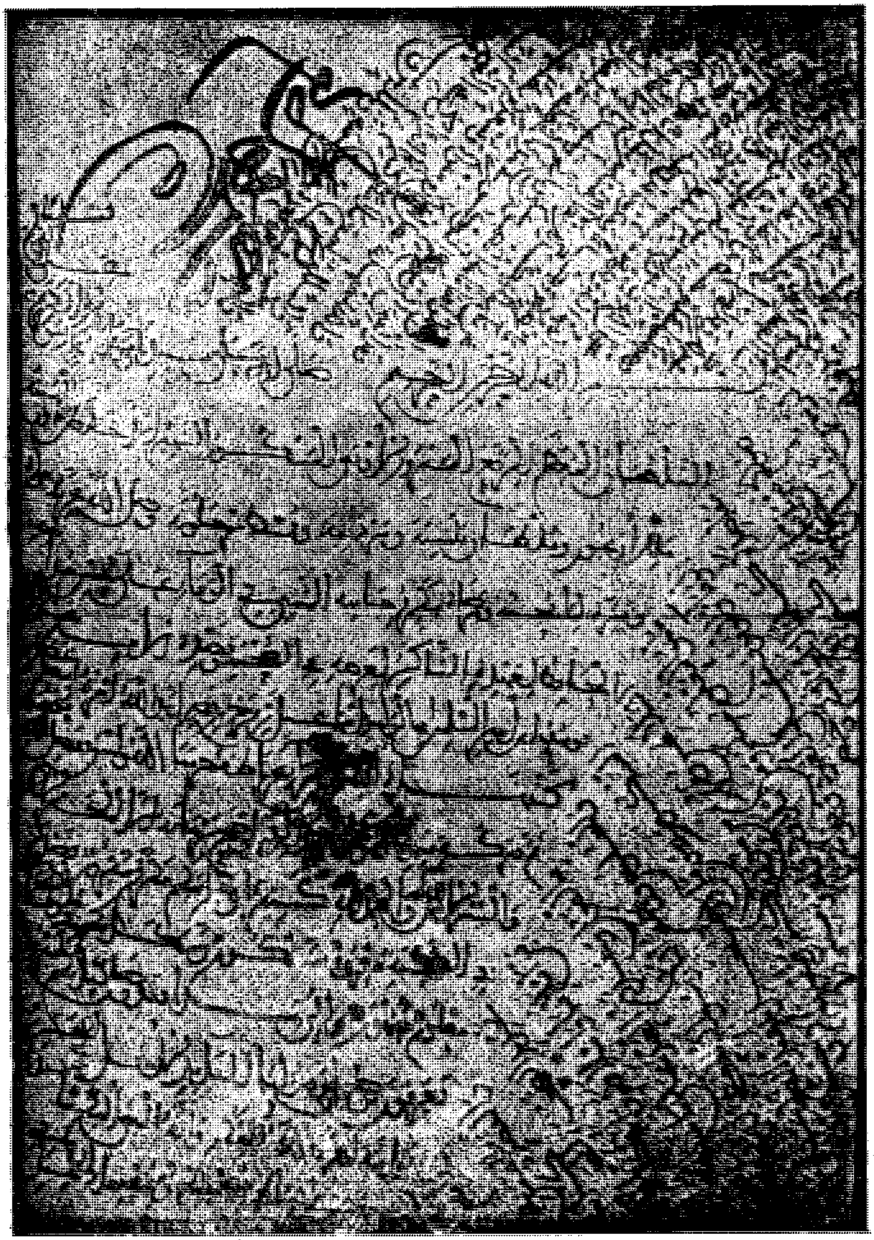

صورة رسالة من السلطان يوسف أبي الحجاج إلى دون المنشة ( ألفونسو ) ملك أراجون بشكره فيها على حسن لقائه لسفيره ، ويقرر تجديد الصلح المعقود بينهما ، مؤرخة فى ذى الحجة سنة ٧٣٥ هـ ( يوليه ١٣٣٥ م ) ، ومحفوظة بمحفوظات التاج الأرجونى ببرشلونة برقم ١٣٨ .

الثغر ما يزال منذ عصور أمنع ثغور المسلمين وأشدها مراسا . فلما رأى النصارى استحالة أخذه عنوة ، ضربوا حوله الحصار الصارم ، وكانت تدافع عنه حامية مغربية قوية ، ورابط ملك غرناطة بجيشه فى مؤخرة النصارى ؛ واستمر حصار جبل طارق زهاء عام كامل والمسلمون صامدون كالصخرة التى يدافعون عنها ، وقد عيل صبر الغزاة ودب الوهن إلى نفوسهم . ثم فشا الوباء فى الجيش النصرانى وهلك ملك قشتالة فى مقدمة من هلك من جنده ، فكان ذلك نذيراً بخلاص الثغر المنيع والمدافعين عنه ، واضطر النصارى إلى رفع الحصار ( ٧٥١هـ — ١٣٥٠م ) . وأنقذ المسلمون بذلك من كارثة فادحة ، وأبدى المسلمون بهذه المناسبة ضروبا مؤثرة من تسامح الفروسة ، فتركوا موكب الملك المتوفى ، يخترق طريقه إلى إشبيلية دون تعرض ، وارتدى كثير من أكابرهم شارة الحداد مجاملة وتكريما ، وخلف ألفونسو على العرش فى الحال ولده پيدرو ( بطره ) الملقب بالقاسى(١) .

ووصف ابن الخطيب كاتب الأندلس وشاعرها ، وقد كان يومئذ من كتاب السلطان يوسف ، هذه الأحداث الخطيرة فى رسالة بعث بها السلطان إلى ملك المغرب ، وفيها يشير إلى مهاجمة العدو لجبل طارق وطمعه فى الاستيلاء على الأندلس ويقول : « وانتهز الفرصة بانقطاع الأسباب وانبهام الأبواب ، والأمور التى لم تجر للمسلمين بالعدوتين على مألوف الحساب ، وتكالب التثليث على التوحيد ، وساءت الظنون فى هذا القطر الوحيد ، المنقطع بين الأمة الكافرة ، والبحور الزاخرة والمرام البعيد » ثم يصف كيف تداركت رحمة الله الأندلس بعد ذلك فهزم العدو ولم يبلغ مراما(٢) .

وكان لحصار جبل طارق ، ومصرع ملك قشتالة تحت أسواره ، صدى عميق فى المغرب وفى أنحاء العالم الإسلامى . ويشير الرحالة الأشهر ابن بطوطة الطنجى الذى زار الأندلس بعد ذلك بقليل فى رحلته إلى تلك الحوادث ، وإلى ماكان يتصوره ملك قشتالة ، من أنه أضحى على وشك الاستيلاء على ما بقى من بلاد الأندلس ، فأخذه الله من حيث لم يحتسب ومات بالوباء ، وقد كان من أشد الناس خوفاً منه ، ثم يصف لنا أهمية جبل طارق الدفاعية وما بدله السلطان أبو الحسن عقب استرداده من جهود فادحة لتحصينه ، وتجديد أسواره وحصونه ، وإنشائه لدار الصناعة ، وما قام به ولده السلطان أبو عنان بعد ذلك من تجديد تحصيناته ، وشحنه

---

( ١ ) ابن خلدون ج ٤ ص ١٨٣ .

( ٢ ) راجع هذه الرسالة فى نفح الطيب ج ٢ ص ٥٧٠ و ٥٧١ .

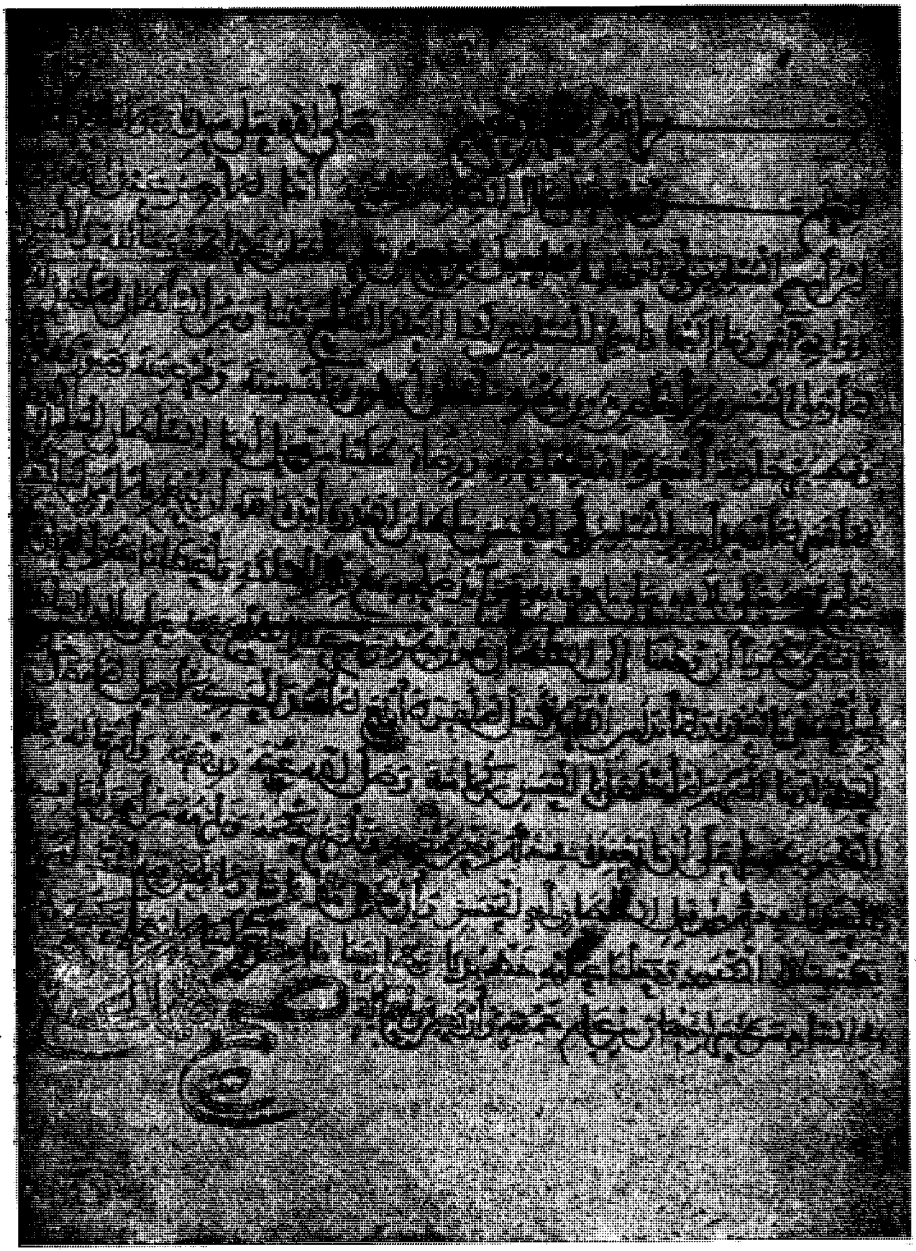

صورة وثيقة اعتماد صادرة من السلطان يوسف أبي الحجاج إلى وزيره القائد ابن كاشة الذى أرسله سفيراً إلى بيدرو الرابع (دون بطره) ملك أراجون ليقوم بعقد الصلح بينه وبين السلطان أبي الحسن المريني ملك المغرب مؤرخة فى شعبان سنة ٧٤٥ هـ ( ديسمبر ١٣٤٤م ) ومحفوظة بمحفوظات التاج الأرجونى ببرشلونة برقم ١٥ .

بالعدد والأقوات . ويصف لنا ابن بطوطة بعد ذلك ثغور الأندلس وقواعدها الأخرى التى طاف بها يومئذ ، مثل رندة ومربلة ومالقة وبلش ، وماشاهده فيها من الخيرات والصناعات الفريدة ، ولاسيما صناعة الخزف بمالقة ، ثم يعرج على غرناطة وينعتها بعروس الأندلس ، ويصف لنا رياضها وبساتينها الغراء ، ويشير إلى ملكها فى عهد دخوله إياها ، وهو السلطان أبوالحجاج يوسف ، ولم يوفق يومئذ إلى لقائه لمرض ألمّ به .

وتدلى أوصاف ابن بطوطة بأن الأندلس كانت يومئذ ، بالرغم من توالى غارات النصارى عليها وعيثهم فى ربوعها ، بلاداً زاهرة نضرة ، تزخر بالخيرات والنعم ، وتموج بالملايين من سكانها النشطين الأذكياء ، وصناعاتها الممتازة ، وتحتشد فيها جمهرة كبيرة من العلماء والفقهاء والكتاب والشعراء مما يدل على أنها كانت فى هذا العصر تجوز أيضاً نهضة أدبية زاهرة[1] . ولا غرو فقد كان هذا العصر هو الذى سطع فيه نجم ابن الخطيب أعظم كتاب الأندلس وشعرائها فى المائة الثامنة ، وبلغ فيه الشعر والترسل يومئذ ذروة الروعة والبهاء .

واستمر أبو الحجاج يوسف فى الحكم بضعة أعوام أخرى ، ساد فيها السلام والأمن ، ولكنه ما لبث أن قتل غيلة أثناء صلاته بالمسجد الأعظم فى يوم عيد الفطر سنة ٧٥٥هـ ( أكتوبر سنة ١٣٥٤م ) ، قتله مخبول لم يفصح عن بواعثه وأغراضه ، فمزق وأحرق بالنار على الأثر[2] . وكان مقتله وهو فى السابعة والثلاثين فى عنفوان فتوته ومجده . ويصف لنا ابن الخطيب ، وقد كان من شهود هذا المنظر المؤسى ، مقتل السلطان ، فى قوله من رسالة بعث بها إلى السلطان أبى عنان ملك المغرب « ولم يرعه وقد اطمأنت بذكر الله تعالى القلوب ، وخلصت الرغبات إلى فضله المطلوب ، إلا شقى قيضه الله تعالى لسعادته ، غير معروف ولا منسوب ، وخبيث لم يكن بمعتبر ولا محسوب ، تخلل الصفوف المعقودة ، وتجاوز الأبواب المسدودة ، وخاض الجموع المحشودة ، لا تدل العين عليه شارة ولا بزة ، ولا تحمل على الحذر من مثله أنفة ولا عزة ، وإنما هو خبيث ممرور وكلب عقور ، وآلة مصرفة لينفذ بها قدر مقدور ، فلما طعنه وأثبته وأعلق به شرك الحين ، فما أفلته حتى قبض عليه من الخلصان الأولياء ، من نخير ضميره وأحكم تقريره ، فلم يجب عند الاستفهام

---

(١) راجع رحلة ابن بطوطة ( مصر ) ج ٢ ص ١٨٣ — ١٨٨ .

(٢) اللمحة البدرية ص ٩٧ .

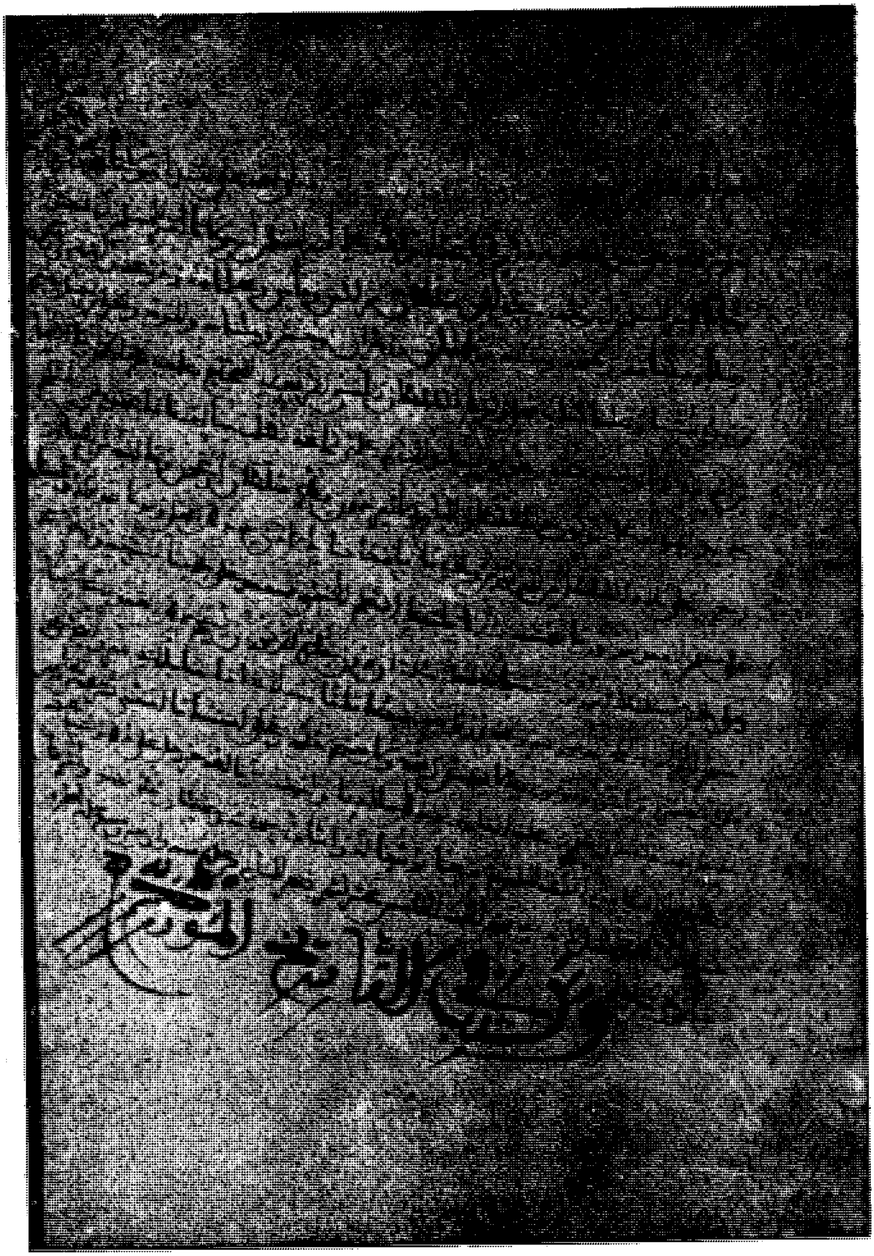

صورة وثيقة صادرة من السلطان أبي الحسن المريني ملك المغرب بالموافقة على الصلح الذى عقده باسمه سلطان غرناطة يوسف أبو الحجاج مع پيدرو الرابع (دون بطره) ملك أراجون مؤرخة فى صفر سنة ٧٤٦ هـ (يونيه ١٣٤٥ م) ومحفوظة بمحفوظات التاج الأرجونى برقم ٥٢ .

جواباً يعتمل ولاعثر على شيء عنه ينقل ، لطفاً من الله أفاد براءة الذمم ، وتعاورته للحين أيدى التمزيق . وأتبع شلوه بالتحريق »(١). ودفن السلطان الشهيد فى مقبرة الحمراء إلى جانب آبائه مبكياً عليه من شعبه بدموع غزيرة . وكان السلطان يوسف فى الواقع أعظم ملوك غرناطة همة وعزماً ، وأبدعهم خلالا ، وكان فوق فروسته ونجدته عالماً أديباً ، شغوفاً بالعمارة وإقامة الصروح الباذخة ، وهو الذى شيد البرج الأعظم بقصر الحمراء ، وأنشأ به أفخم أجنحته وأبدعها ، وهو الذى أسبغ على هذا الصرح العظيم بمنشآته وزخارفه ، بهاءه وروعته التى ما زال يحتفظ بلمحة منها . وفى عصره زهت العلوم والآداب ، وذاعت شهرة العلماء المسلمين ، ولا سيما فى الفلك والكيمياء .

وهكذا لبث بلاط غرناطة حقبة يقف من دولة بنى مرين مواقف متناقضة ، ويتردد بين سياسة التحالف والقطيعة ، وبين الثقة والتوجس ؛ وليس من شك فى أن بنى مرين كانوا عضداً قيما لمملكة غرناطة الناشئة ، وقد أدوا لها فى ميدان الجهاد وفى مقاتلة النصارى خدمات جليلة ، وبذلوا فى ذلك السبيل تضحيات جمة ، وأعادوا بانتصارهم على النصارى فى غير موقعة حاسمة ، ذكريات الزلاّقة والأرك ؛ ولولا غوث بنى مرين ، واشتغال مملكة قشتالة بحوادثها الداخلية غير مرة ، لما اشتد ساعد بنى الأحمر ، وسطعت دولتهم خلال هذه الفترة المليئة بالحوادث الجسام ، واستطالت أيام الإسلام بالأندلس زهاء مائة عام أخرى . وقد كان من سوء الطالع ألا يدرك بلاط غرناطة خطر الخلاف ، مع الحليف الطبيعى الذى رتبه القدر فيما وراء البحر ، لإنجاد الأندلس عند الخطر الداهم ، وأن يجنح من آن لآخر إلى مخاصمة هذا الحليف ومحاربته ، كما حدث حينما استولى ابن الأحمر على سبتة . كذلك لم تخل سياسة بنى مرين إزاء مملكة غرناطة أحياناً ، من الالتواء وبث الشكوك فى نفوس أمراء بنى نصر ، بما كانت تجنح إليه من مداخلة الخوارج عليهم . وهكذا كانت قوى الإسلام تبدد فى معارك أهلية ، وقد كان حرياً أن تتضافر على مغالبة العدو المشترك . على أن الدولة المرينية ذاتها ، تدخل منذ وفاة السلطان أبى الحسن فى سنة ٧٥٢ هـ ( ١٣٥١ م ) فى دور انحلالها ، وتنحدر إلى غمر الحرب الأهلية ، وتشغل بشئونها الداخلية ، وتفقد غرناطة بذلك ، العضد

---

(١) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ٥٦٥ .

الوحيد ، الذى كانت تدخره وقت الشدائد . وقد استمرت العلائق بين غرناطة وبنى مرين عصراً آخر ، ولكنها غدت غير بعيد علائق بلاط ، تغلب عليها دسائس القصور ، وانقطعت الجيوش المغربية عن العبور إلى الأندلس لمقاتلة النصارى ، كما كانت تفعل أيام أبى يوسف وأبى يعقوب وأبى الحسن ، ولم تعبر بعد ذلك سوى مرة واحدة لمعاونة الخوارج فى جبل طارق ضد ملك غرناطة حسبما يجىء ؛ وتركت غرناطة من ذلك الحين إلى مصيرها داخل الجزيرة الإسبانية ، تغالب قوى النصرانية بمفردها ، وقدر استطاعتها ، وكان ملاذها الأخير فى اختلاف كلمة النصارى ، وانشغالهم بذلك الخلاف عن محاربتها .

# الفصل الثامن

## الأندلس بين المـــدّ والجزر

ولاية محمد الغنى بالله . وزيره ابن الخطيب . سفارته إلى السلطان أبى عنان . ثورة حاكم جبل طارق المرينى . الثورة فى غرناطة . مقتل الحاجب رضوان . عزل الغنى بالله وفراره . ولاية أخيه اسماعيل . جواز الغنى بالله وابن الخطيب إلى المغرب . ترحيب ملك المغرب بهما . قصيدة ابن الخطيب . ابن الخطيب وابن خلدون . مصرع سلطان المغرب وتغلب الوزير عمر على الدولة . الثورة فى غرناطة ومقتل السلطان اسماعيل . عبور الغنى بالله وابن الخطيب إلى الأندلس . استرداد الغنى بالله العرش . زيارة ابن خلدون للأندلس وسفارته إلى بلاط قشتالة . الحرب الأهلية فى قشتالة . موقعة نجارا . موقعة مونتيل . مصرع بيدرو ملك قشتالة وولاية أخيه الكونت هنرى . رواية ابن الخطيب عن هذه الحوادث . وزارة ابن الخطيب الثانية . استئثاره بالسلطة وجنوحه إلى الاستبداد . تقلص نفوذه وفراره إلى المغرب . اتهامه بالزندقة ومقتله . بعد نظره السياسى . شعوره بمصير الأندلس . جهود الغنى بالله الإنشائية . توطد الصداقة بينه وبين بلاط مصر . معاهدة صداقة بينه وبين أراجون . سيادة السلام والأمن فى عصره . غزواته فى أرض النصارى . وفاته وولاية يوسف الثانى . وزيره خالد . عقد السلم بين الأندلس وقشتالة . ثورة محمد ولد يوسف . وفاة يوسف وولاية ولده محمد . اعتقاله لأخيه يوسف . الوزير ابن زمرك ومصرعه . الحرب بين المسلمين والنصارى . استنجاد الأندلس بملوك المغرب . غزو النصارى لأحواز رندة . غزو المسلمين لأراضى قشتالة . الهدنة بين الفريقين . وفاة محمد . تنظيم العلائق الدولية بين غرناطة وأراجون . ولاية يوسف الثالث . نقض القشتاليين للهدنة . زحفهم على أراضى غرناطة . سقوط أنتقيرة وهزيمة المسلمين . تجديد الهدنة . ثورة جبل طارق وإخمادها . السلم بين المسلمين والنصارى . حفلات الفروسية الأندلسية . وفاة السلطان يوسف وولاية ولده محمد الأيسر . صرامته وتكبره . الوزير يوسف بن سراج . بنو سراج وأصلهم . تعاقب الفتن فى غرناطة . غزوات النصارى . نشوب الثورة وسقوط الأيسر . ولاية محمد الزغير . خلاله وصفاته . مطاردته لبنى سراج . التجاؤهم إلى بلاط قشتالة . السعى لإعادة الأيسر . زحفه على غرناطة ودخوله الحمراء . مصرع الزغير وولاية الأيسر الثانية . الحرب بين الأيسر والنصارى . الفتن والدسائس حول غرناطة . قيام يوسف بن المول بمعاونة النصارى . عهده بالخضوع لملك قشتالة . تغلبه على الأيسر وانتزاعه العرش . وفاته وولاية الأيسر الثالثة . الحرب بين المسلمين والنصارى . مهاجمة النصارى لجبل طارق وهزيمتهم . تطور الحوادث فى غرناطة . ثورة محمد الأحنف وولايته . الأمير ابن إسماعيل وسعيه لانتزاع العرش . تدخل النصارى ودسائسهم . الحرب الأهلية فى غرناطة . هزيمة الأحنف وولاية ابن اسماعيل . تضارب الرواية فى شأن ولاية العرش . خلال ابن اسماعيل وصفاته . الخلاف بينه وبين قشتالة . غزو القشتاليين لغرناطة . سقوط جبل طارق . انحلال دولة بنى مرين وقيام دولة بنى وطاس . قصور المغرب عن إنجاد الأندلس . خضوع سلطان غرناطة لقشتالة . الصراع بين العرش والأسر الكبيرة . تفكك المملكة الإسلامية . ولاية السلطان سعد . الخلاف بينه وبين ولده أبى الحسن . رواية رحالة مصرى عن هذه الحوادث . فتح الترك لقسطنطينية وصداه فى اسبانيا . إحياء النزعة الصليبية .

لم تمض ساعات قلائل على مصرع السلطان يوسف أبى الحجاج فى صبيحة يوم عيد الفطر سنة ٧٥٥ هـ ، حتى خلفه فى الملك ولده محمد الملقب بالغنى بالله؛ وكان حدثاً يافعاً، فاستأثر بشئون الدولة حاجبه ومولى أبيه من قبل أبو النعيم رضوان. وكانت غرناطة بعد ما توالى عليها من الخطوب والأزمات فى أواخر عهد أبيه يوسف ، قد تنفست الصعداء نوعاً منذ وفاة ملك قشتالة . وكان من بين كتابه ثم وزرائه لسان الدين بن الخطيب ، مؤرخ الدولة النصرية وأعظم كتاب الأندلس وشعرائها يومئذ . وكان هذا المفكر البارع ، أحد رجلين عظيمين شغلا يومئذ فى الغرب الإسلامى ، مركز الصدارة فى التفكير والكتابة، هما ابن خلدون وابن الخطيب.

وكان مولد ابن الخطيب فى لَوْشة[1] من أعمال غرناطة فى سنة ٧١٣ هـ ( ١٣١٣م ) ، ودرس اللغة والأدب والطب والفلسفة ، وبرز فى النثر والنظم[2]، وخدم الدولة منذ حداثته ، فتولى ديوان الكتابة للسلطان أبى الحجاج ، ثم انتقل إلى خدمة ولده محمد ، فلم يلبث أن نال ثقته ورقاه إلى مرتبة الوزارة ، وأوفده بعد ولايته بقليل على رأس وفد من كبراء الأندلس سفيراً من قبله ، إلى ملك المغرب السلطان أبى عنان المرينى ( أواخر سنة ٧٥٥ هـ ) يستنصره على مغالبة طاغية قشتالة ، وليؤكد بينهما عهد الصداقة والمودة ، جرياً على سنة أسلافه من ملوك بنى الأحمر ، فاستقبله السلطان بحفاوة ، وأنشد بين يديه قصيدة هذا مطلعها :

خليفة الله ساعدَ القدرُ     عُلاك ما لاح فى الدجى قمرُ
ودافعتْ عنك كفُّ قدرته     ما ليس يستطيع دفْعَه البشرُ

فتأثر السلطان لقصيدته، ووعد بإجابة سائر مطالبه؛ وهكذا أدى ابن الخطيب سفارته بنجاح ، وكان له فيما تلا من حوادث الأندلس أعظم نصيب[3] .

وفى أواخر سنة ٧٥٦ هـ ( أواخر سنة ١٣٥٥ م ) ، حاول حاكم جبل طارق المرينى عيسى بن الحسن بن أبى منديل أن يثير ضرام الثورة ، وكانت محاولة خطيرة ربما أفسحت للنصارى ثغرة يضربون منها الأندلس وجحافل المغرب، ولكن أهل جبل طارق نكلوا عن مؤازرة الثائر، وأخمدت ثورته فى المهد ، وقبض

---

( ١ ) لوشة وبالإسبانية **Loja** تقع على مسافة خمسة وخمسين كيلومتراً من غربى غرناطة ، وهى اليوم بلدة متواضعة ، وقد كانت أيام الدولة الإسلامية بلدة زاهرة .

( ٢ ) سنعود إلى ترجمة ابن الخطيب واستعراض حياته الأدبية بإفاضة فى الكتاب الرابع .

( ٣ ) راجع الإحاطة ( المقدمة ص ٣٧ ) ؛ ونفح الطيب ج ٣ ص ٥٢ ؛ وابن خلدون ج ٧ ص ٣٧٣ .

عليه وعلى ولده . وأرسلا مصفدين إلى المغرب فقضى بإعدامهما ؛ وأرسل السلطان أبو عنان إلى جبل طارق ولده أبا بكر السعيد ومعه قوة من الفرسان ، لحماية الثغر وتجديد تحصيناته(١) .

وفى أوائل عهد السلطان محمد ، شغلت قشتالة بحروبها الداخلية ، فأمنت غرناطة شر العدوان مدى حين . ولكن الحوادث الداخلية كانت تؤذن بتطورات جديدة . ففى رمضان سنة ٧٦٠ هـ ( ١٣٥٩ م ) نشبت فى غرناطة ثورة فقد فيها الغنى بالله ملكه . وكان أخوه إسماعيل المعتقل فى بعض أبراج الحمراء ، تؤازره جماعة من الزعماء ، وفى مقدمتهم صهره الرئيس عبد الله، وتدعو له سراً ، وتترقب الفرص للوثوب بمحمد ؛ وكانت أمه المقيمة بالقصر تؤيد مشاريعه بالسعى والبذل الوفير ، وكان السلطان محمد قد تحول بوالده إلى سكنى قصر جنة العريف الواقع شمال شرقى الحمراء ، فانتهز المتآمرون ذات مساء فرصة ابتعاده عن دار الملك ، وهاجموا حصن الحمراء ( ٢٨ رمضان سنة ٧٦٠ هـ ) ، ونفذوا إلى قصر الحاجب رضوان وقتلوه بين أهله وولده ، ونادوا بإسماعيل أخى السلطان ملكاً مكانه . وشعر محمد بعقم المدافعة ، ففر إلى وادى آش . وحاول ابن الخطيب مصانعة السلطان الجديد ، فاستبقاه فى الوزارة لمدى قصير . ثم ارتاب فى نياته وأمر باعتقاله ومصادرة أمواله، وكذلك أمر السلطان الجديد بعزل شيخ الغزاة يحيى بن عمر ابن رحو من منصبه والقبض عليه ، وعين مكانه فى مشيخة الغزاة ، إدريس ابن عثمان بن أبى العلاء ، وكان وقت نكبة أسرته ، قد فر إلى أراجون واحتمى بملكها ، فاستدعاه السلطان الجديد ، وأسند إليه منصب أسرته القديم .

وكانت تربط السلطان المخلوع علائق مودة وصداقة بملك المغرب ، السلطان أبى سالم ولد السلطان أبى الحسن . وكان أبو سالم قد لجأ إليه حينما تغلب عليه أخوه السلطان أبو عنان ونفاه إلى الأندلس فأكرم محمد مثواه . ولما وقعت الفتنة وخلع محمد ، رعى له أبو سالم عهد الصداقة والوفاء ، وأرسل إلى غرناطة سفيراً يسعى لدى حكومتها ، فى إجازة السلطان المخلوع ووزيره المعتقل إلى المغرب ، فنجح السفير فى مهمته ، وعاد إلى المغرب ومعه محمد والوزير ابن الخطيب ( المحرم سنة ٧٦١ هـ ) . واستقبلهما أبو سالم فى فاس أجمل استقبال ، واحتفل بقدومهما فى يوم مشهود ، وأنشده ابن الخطيب يومئذ قصيدة رائعة ، يدعوه فيها لنصرة

---

(١) رحلة ابن بطوطة ج ٢ ص ج ١٨٤ .

سلطانه وغوثه ، هذا مطلعها :

سـلا هل لديها من مخـبرة ذكرُ  وهل أعشب الوادى ونمَّ به الزهر
وهل باكَرَ الوسمى داراً على اللوي  عفت آيها إلا التوهم والذكر
بلادى التى عاطيتُ مشمولة الهوى  بأكنافها والعيش فينان مخضر
وجوى الذى ربى جناحي وكره  فها أنا ذا مالى جناح ولا وكر

ومنها :

قصدناك يا خير الملوك على النـوى  لتنصفنا مما جنى عبـدك الدهر
وأنت الذى تُدعى إذا دهم الردى  وأنت الذى ترجى إذا أخلف القطر
ومثلك من يرعى الدخيل ومن دعا  ببالمرين جاءه العـز والنصر

فكان لإنشاده أعظم وقع فى النفوس ، وتأثر السلطان لدعوته وندائه أيما تأثر[١] . ولبث السلطان المخلوع فى بلاط فاس حيناً ، وتوثقت بينه وبين المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون ، وهو يومئذ من أكابر رجال الدولة المرينية ، روابط المحبة والصداقة ، وعقدت أيضاً بين المؤرخ وبين قرينه ابن الخطيب أواصر صداقة نمت وتوثقت فيما بعد . وكان كلا المفكرين العظيمين يقدر مواهب صاحبه ويحله أسمى مقام ، وكان كلاهما أستاذ عصره وقطره فى التفكير والكتابة . وكان محمد ابن الأحمر يؤمل أن يسترد ملكه المنزوع بمعاونة بيدرو الثانى ( بطره ) ملك قشتالة تنفيذاً للاتفاق الذى عقد بينهما ، ولكنه لم يفعل شيئاً لتحقيق هذا الأمل . والواقع أن ملك قشتالة كان مشغولا بشئون مملكته وما يسودها من اضطراب ، فآثر أن يعتمد السلم مع سلطان غرناطة الجديد . وفى أثناء ذلك حدث انقلاب لقى فيه السلطان أبو سالم مصرعه ، واستبد بالدولة الوزير عمر بن عبد الله ، فسعى لديه ابن الأحمر ليعاونه على استرداد ملكه ، فاستجاب إليه الوزير ، وما زال محمد يدبر أمره بمعاونته ، حتى تهيأت الفرصة بوقوع الثورة فى غرناطة ، ومقتل منافسه السلطان إسماعيل ، على يد المتغلب عليه الرئيس أبى سعيد ؛ فجاز إلى الأندلس ونزل بمالقة ، ثم سار إلى رندة ، وكانت عندئذ من أملاك بنى مرين ، وقد نزل له عنها الوزير عمر بن عبد الله ، وسار منها فى صحبه وعصبته إلى غرناطة فاستولى عليها ، وفر الرئيس أبو سعيد إلى ملك قشتالة ، واسترد محمد ملكه ( جمادى الآخرة

---

( ١ ) الإحاطة ، المقدمة ص ٣٨ — ٤٣ ؛ واللمحة البدرية ص ١٠٨ ؛ وابن خلدون ج ٧ ص ٣٠٦ وما بعدها ؛ وأزهار الرياض ج ١ ص ١٩٤ و ١٩٥ .

سنة٧٦٣هـ – ١٣٦١م ) وما لبث أن لحق به وزيره ابن الخطيب استجابة لدعوته ، وعاد إلى سابق مكانته ونفوذه . وكان فى مقدمة ما فعله الغنى بالله أن قبض على إدريس بن أبى العلاء وقرابته من الغزاة ، وأودعوا السجن ، ومحا خطة مشيخة الغزاة من بنى مرين ، وأسندها لابنه وولى عهده الأمير يوسف ، فلبث مضطلعا بها زهاء ثلاثة أعوام . وكان على بن بدر الدين بن موسى بن رحُو ، مقدما على الغزاة فى منطقة وادى آش ، وكان حينما فقد الغنى بالله ملكه ، قد صحبه فى منفاه . ولما عاد إلى الأندلس ، عاد معه . فلما فكر الغنى بالله فى إحياء مشيخة الغزاة ، وبحث عمن يسندها إليه ، وقع اختياره على على بن بدر الدين هذا ، فعينه فيها ( ٧٦٧ هـ ) ، ولكنه ما لبث أن توفى بعد عام فقط من تقلده إياها ، فعندئذ قرر الغنى بالله أن يمحو هذه الخطة نهائياً من خطط مملكته ، وصار أمر الغزاة والمجاهدين إلى السلطان مباشرة ، وعنى بشئونهم بنفسه ، وخص القرابة المضطلعين بها بعطفه وتكرمته . وانتهت بذلك رياسة بنى مرين لهذه الخطة الهامة من خطط مملكة غرناطة بعد أن اضطلعوا بها زهاء قرن(١) .

ووفد المؤرخ ابن خلدون بعد ذلك بقليل على غرناطة ، فاحتفى به السلطان وأكرم مثواه ، وأرسله سفيراً عنه إلى بيدرو ملك قشتالة ليوثق أواصر الصداقة بينهما ( ٧٦٥ هـ – ١٣٦٣ م ) ؛ فقصد ابن خلدون إلى بلاط إشبيلية ومعه هدية فخمة ، وأدى سفارته ببراعة ، وحظى بعطف ملك قشتالة وإعجابه . وهو يعرض لنا حوادث هذه السفارة فى « التعريف » بتفصيل شائق ، ويقول لنا إنه عاين آثار أسرته بإشبيلية ، وقد كانت منزل بنى خلدون أيام الدولة الإسلامية ، وفيها سطع نجمهم حيناً ، وإن ملك قشتالة وقف على تاريخ أسرته ، وعرفه به وبمكانته طبيب يهودى فى بلاطه يدعى إبراهيم بن زرزر ، وكان قد تعرف به فى مجلس السلطان أبى عنان من قبل ، ثم يقول لنا إن ملك قشتالة عرض عليه عندئذ أن يبقى فى خدمته ، وأن يسعى لدى زعماء دولته لبرد إليه تراث أسرته بإشبيلية ، ولكنه أبى . ولما اعتزم ابن خلدون العودة بعد أن أتم مهمته ، وهبه ملك قشتالة « بغلة فارهة بمركب ثقيل ولجام ذهبيين » فأهداهما إلى السلطان . وسر السلطان لنجاحه وأقطعه قرية إلبيرة بمرج غرناطة ، وعاش فى بلاط السلطان فترة أخرى ، معززاً مكرما(٢) .

---

( ١ ) راجع كتاب العبر ج ٧ ص ٣٧٧ – ٣٧٩ .

( ٢ ) راجع تفاصيل هذه السفارة فى ابن خلدون ، فى « التعريف » أو ترجمته لحياته فى —

ولم يمض قليل على ذلك حتى شغلت قشتالة مدى حين بمنازعاتها وحروبها الداخلية ، وتمتعت غرناطة خلال ذلك بهدنة قصيرة ؛ وكان پيدرو ملك قشتالة (دون بطره) الملقب بالقاسى ، الذى خلف أباه ألفونسو الحادى عشر فى سنة ١٣٥٠م قد غلا فى استبداده وقسوته ، حتى أنه لم يحجم عن قتل زوجته الملكة بلانش دى بوربون أخت ملكة فرنسا بالسم ، ليتزوج من خليلته ، فسخط عليه الأمراء والأشراف لما نالهم من عسفه ؛ وخرج عليه أخوه غير الشرعى الكونت هنرى دى تراستمارا ، ولد إلينورا دى كزمان، وفر إلى فرنسا ، وتحالف مع ملكها شارل الخامس، على أن يجمع له جيشاً من المرتزقة يقوده إلى قشتالة ؛ وأشرف على تنفيذ المشروع الدوق دى جسكلان زعيم الفروسية الفرنسية يومئذ . وقاد هنرى جيشه إلى قشتالة ( ١٣٦٦م ) ، فلم يقو پيدرو على مقاومته لاشتداد السخط عليه ، وتخلى الشعب عنه ، وفر إلى ولاية جوين الفرنسية فيما وراء البرنيه ، واستغاث بالأمير إدوارد ولى عهد انجلترا ، وقد كان يحكم هذه الأنحاء المحتلة من فرنسا باسم أبيه ، فاستجاب الأمير الإنجليزى لدعوته ، وسار معه إلى قشتالة فى قواته ، واستطاع الكونت هنرى بمعاونة شعبه، ومعاونة ملك أراجون، أن يحشد جيشاً عظيما . والتقى الفريقان فى « نجارا » فى الثالث من ابريل سنة ١٣٦٧ ، فهزم الكونت هنرى بالرغم من وفرة جموعه ، وقتل عدد كبير من جيشه ، واسترد پيدرو عرشه . ولكنه لم يف بوعده إلى الأمير الإنجليزى ، ولم يؤد إليه الجزية المشترطة ، فسخط عليه وارتد بقواته إلى الشمال . وعندئذ عادت الثورة إلى الاضطرام فى قشتاله، ووثب الشعب ببيدرو مرة أخرى ، وعاد أخوه الكونت هنرى فغزا قشتالة فى أنصاره ، ونشبت بين الفريقين فى « مونتيل » موقعة أخرى هزم فيها پيدرو وقتل ، وجلس أخوه مكانه على العرش ( سنة ١٣٦٨ م )[١] . وكان بين قوات الملك القتيل فرقة من حلفائه المسلمين ، تعاونه وتذود عنه .

وقد كان وراء هذه الحرب الأهلية ، فيما يبدو خطة نصرانية موضوعة للقضاء على المملكة الإسلامية بالأندلس . ولدينا ما يلقى الضياء على ذلك فى رسالة الوزير ابن الخطيب ، بعث بها فى تلك الآونة ، على لسان سلطانه الغنى بالله ، إلى سلطان

= كتاب العبر ج٧ ص ٣١٢ ، والتعريف ( طبعة لجنة التأليف والترجمة ) ص٨٤ و٨٥ ؛ والإحاطة ج ٢ ص ١٥ ( طبعة قديمة ) .

David Hume : History of England (1848) V. II p. 202-205 ( ١ )

تلمسان الأمير أبى حمّو عبد الرحمن بن موسى ، فنى هذه الرسالة التى وردت على بلاط تلمسان فى شهر رمضان سنة ٧٦٧ ه ( يونيه سنة ١٣٦٦م ) ، والتى وجهها بلاط غرناطة بطلب المعاونة والإنجاد ، يقول لنا ابن الخطيب ، إن كبير دين النصرانية ( يريد البابا ) ، لما أعيته الحيلة فى جمع كلمة النصرانية فى قشتالة ، حرك من النصارى جموعاً عظيمة لتعين القند ( الكونت ) على أخيه ، فإذا انتصر واستقل بالملك، تحالف النصارى الإسبان جميعاً ضد المسلمين ؛ وقسم البابا تراث المملكة الإسلامية ( الأندلس ) بين قشتالة وأراجون ، فتختص منها أراجون بما يلى الشاطىء الشرقى الجنوبى حتى ألمرية ، وتختص قشتالة بالباقى ، وتجتمع الأساطيل النصرانية فتحتل الساحل الجنوبى ، وتقطع ما بين المغرب والأندلس ، ويقوم النصارى بالعيث فى أراضى المسلمين ، وإتلاف سائر الغلات والأقوات. ويتوجه بلاط غرناطة بعد شرح هذه الخطة إلى أمير تلمسان بطلب الغوث والإنجاد . وقد استجاب أبو حمو إلى هذا النداء ، وبعث إلى الأندلس بالأموال ، والسفن المشحونة بالخيل والسلاح والأقوات . واستوجبت هذه الأريحية توجيه رسالة أخرى من سلطان غرناطة إلى الأمير أبى حمو معرباً فيها عن خالص الشكر والعرفان[1]

تلك هى الخطة التى يقول لنا ابن الخطيب فى رسالته ، إنها وضعت عندئذ للقضاء على مملكة غرناطة . ولكنها خطة لم يكن لها أى حظ من التنفيذ ، وكانت مملكة غرناطة دائماً يقظة على أهبة الذود والدفاع .

وقد فصل لنا ابن الخطيب حوادث الحرب الأهلية فى قشتالة فى تلك الفترة ، وقد كان معاصراً لها وقريباً من مسرحها . وروايته تدل على حسن اطلاعه، ودقة فهمه لسير الحوادث ، فهو يقول لنا مثلا بعد أن أشار إلى ثورة الكونت هنرى على أخيه واستيلائه على العرش :

« ولما توسد له الأمر تحرك لاستئصال شأفة المخلوع ، فأجلى عن غليسية فى البحر ، واستقر وراء دروب قشتالة ، وانتبذ عن الخطة القشتالية ،ولجأ إلى ابن صاحب الأنتكيرة ( انجلترا ) وهو المعروف ببرقسين ، وبين أرضه وبين قشتالة ثمانية أيام ، فقبله ولد السلطان المذكور بأول ما تلقاه من تلك الأرض ، وسفر

(١) وردت رسالة ابن الخطيب فى كتاب « بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد » تأليف الوزير يحيى بن خلدون ( طبع الجزائر ١٩١٠ ) ج ٢ ص ١٧٠ — ١٧٤ ، ووردت به الرسالة الثانية ، وهى أيضا من إنشاء ابن الخطيب ، فى ص ١٧٤ — ١٨١ .

بينه وبين أبيه ، فأنكر الأب استئذانه إياه والمراجعة فى نصره ، حمية له وامتعاضاً منه . وحال هذه الأمة غريبة فى الحماية الممزوجة بالوفاء، والرقة والاستهانة بالنفوس فى سبيل الحمية ، عادة العرب الأول ، وأخبارهم فى القتال غريبة ... وبعد انقضاء سبعة عشر يوما ، كان رجوعه ورجوع الرئيس المذكور معه ، مصاحباً بأمراء كثيرين من أخدانه ، وبعد أن تسلموا ما لا كثيراً ... وكان اللقاء بين الفريقين يوم السبت سادس أبريل العجمى بموافقة شعبان من عام ثمانية وستين ( ابريل ١٣٦٧ م ) . وكان هذا الجمع الإفرنجى آتين من الأرض الكبيرة (فرنسا) وكان على مقدم القوم الدك ( الدوق ) أخو البرنس (Prince of Wales) ، وكان فى مقدمة القند ( الكونت ) المستأثر بملك قشتالة أخوه شانجه (سانشو)... الخ » . ثم يحدثنا بعد ذلك عن هزيمة « القند » وفراره إلى فرنسا ، واستمرار الفتنة بينهم إلى وقت كتابة روايته[1]

تولى ابن الخطيب وزارة الغنى بالله للمرة الثانية ، وهو متمتع بأقصى مراتب العطف والثقة ، واستأثر فى البلاط وفى الدولة بكل نفوذ وسلطة ، وقضى على نفوذ منافسه الوحيد فى السطة وهو شيخ الغزاة عثمان بن يحيى ، وما زال بالسلطان حتى نكبه ، فخلا له الجو وتبوأ ذروة القوة والسلطان . وكان من معاونيه فى الوزارة تلميذه الكاتب والشاعر الكبير أبو عبد الله بن زَمْرَك، وقد تولى كتابة السر فى كنفه وتحت رعايته . والظاهر أن اجتماع السلطان والنفوذ فى يد ابن الخطيب على هذا النحو كان سبباً فى انحرافه عن جادة الاعتدال والروية ، فجنح إلى الاستبداد واتباع الهوى، وبث حوله معتركا من البغضاء والخصومة، وكثرت فى حقه السعاية والوشاية ، واتهمه خصومه بالإلحاد والزندقة ، لما ورد فى بعض كتاباته . وشعر ابن الخطيب فى النهاية أن السعاية قد بدأت تحدث أثرها ، وأن عطف مليكه قد فتر ، وخشى العاقبة على نفسه ، فعول على مغادرة الأندلس ، وسار إلى الثغور الغربية فى نفر من خاصته بحجة تفقدها ، فلما وصل إلى جبل طارق عبر البحر فجأة إلى سبتة (٧٧٣هـ) بتفاهم سابق بينه وبين ملك المغرب السلطان عبد العزيز المرينى ، وكانت تربطه به مودة وثيقة . وهكذا غادر ابن الخطيب الوطن والأهل والسلطان ، بعد أن تربع فى الوزارة للمرة الثانية زهاء عشرة أعوام . وخلفه فى الوزارة تلميذه ابن زَمْرك ، وكان قد انقلب عليه فى أواخر أيامه ، وغدا من خصومه ومن أشدهم سعياً إلى نكبته .

(١) الإحاطة ج ٢ ص ٢٤ — ٢٦ .

وقضى ابن الخطيب فى منفاه زهاء ثلاثة أعوام، واستقر فى فاس معززاً مكرماً، ولكن السلطان عبد العزيز ما لبث أن توفى ، وساءت الأمور فى عهد ولده الطفل الملك السعيد، ووقع انقلاب انتهى بجلوس السلطان أحمد بن أبى سالم على العرش، وهو صديق الغنى بالله وحليفه . وكان بلاط غرناطة وخصوم ابن الخطيب فى الأندلس يجدّون فى ملاحقته ومطاردته، فسعوا عندئذ لدى بلاط فاس فى القبض عليه واتهامه بالزندقة ، وكلل مسعاهم آخر الأمر بالنجاح ، واعتقل ابن الخطيب وأفتى بعض الفقهاء المتعصبين بوجوب قتله تنفيذاً لحكم الدين ، ودس عليه الوزير سليمان بن داود بعض الأوغاد ، فقتلوه فى سجنه ، وذلك فى أوائل سنة ٧٧٦ هـ ( أواخر ١٣٧٤م ) . وهكذا ذهب الكاتب والشاعر الكبير ضحية الغدر السياسى والتعصب الشائن(١) .

وكان ابن الخطيب سياسياً بعيد النظر ، وكان يرى فى حوادث الأندلس شبح المستقبل الرهيب واضحاً ، ويستشف بنافذ بصيرته ما وراء الحجب ، من نهاية محتومة لهذا الوطن الذى مزقته الأهواء وأضنته الفتنة ، وكان يرى هذا المصير المحزن قبل وقوعه بأكثر من قرن ، ويهيب بقومه وإخوانه المسلمين فيما وراء البحر أن يبادروا إلى غوثه ونصرته ، وله فى ذلك رسائل ونداءات عديدة مؤثرة تفيض قوة وبلاغة ، فى الحث على اليقظة ، والذود عن الدين والوطن ، والنذير بما يهددهم ويهدد دينهم ووطنهم ، من خطر المحو والفناء ، إذا تقاعسوا أو تخاذلوا وافترقت كلمتهم(٢) .

وأبلغ من ذلك كله فى الدلالة على شعور ابن الخطيب بخطر الفناء الذى ينتظر الأندلس ، ما وجهه فى وصيته إلى أولاده من النصح ، بعدم الإسراف فى اقتنا العقارات بالأندلس إذ يقول لهم : « ومن رزق منكم مالا بهذا الوطن القلق المهاد الذىء لا يصلح لغير الجهاد، فلا يستهلكه أجمع فى العقار ، فيصبح عرضة للمذلة والاحتقار ، وساعياً لنفسه أن يتغلب العدو على بلده فى الافتضاح والافتقار ، ومعوقا عن الانتقال

---

(١) تناولنا هذه الحوادث بالتفصيل عند كلامنا عن حياة ابن الخطيب فى الكتاب الرابع . وراجع ابن خلدون ج ٧ ص ٣٤٠ و ٣٤١ . هذا وقد دون ابن الخطيب ماشهده فى منفاه فى المغرب لأول مرة من الحوادث فى كتاب سماه « نفاضة الجراب فى علالة الإغتراب » . ومنه نسخة مخطوطة فى مكتبة الإسكوريال تحفظ برقم ١٧٥٥ الغزيرى .

(٢) نقل إلينا المقرى فى نفح الطيب وأزهار الرياض كثيراً من هذه الرسائل . وراجع الإحاطة ج ٢ ص ٣١ — ٣٩ .

أمام النواب الثقال، وإذا كان رزق العبد على المولى فالإجمال فى الطلب أولى»(١) .

وسلك الغنى بالله فى حكمه مسلك القوة والحزم ، واشتهر بصرامته وعدله ، وعنى بمشاريع الإنشاء والعمران، فأمر ببناء المارستان الأعظم (المستشفى) فى غرناطة، وأنفق عليه أموالا عظيمة ، وعنى بتحصين الثغور وعمل على بث روح الجهاد والحمية فى النفوس ، للدفاع عن الدين والوطن ، وكان داعيته فى ذلك وسفيره إلى جمهور الأمة ، وزيره القوى البليغ ابن الخطيب ، فعمل على إذكاء الشعور ببراعة ، واستمرت رسائله وخطبه المؤثرة فى ذلك تترى أينما كان ، بالأندلس أو المغرب ، حتى نهاية حياته .

وفى أواخر سنة ٧٦٧ هـ ( ١٣٦٦ م ) نظم بعض الزعماء الخوارج مؤامرة لخلع السلطان وإقامة بعض قرابته مكانه . وهاجم الخوارج قلعة الحمراء فمزقتهم الجند وقبض على زعيمهم ، وزاد فشل المؤامرة مركز السلطان توطدا .

وفى عصر الغنى بالله توثقت أواصر الصداقة والمودة بين بلاط غرناطة وبلاط القاهرة ، واتصلت بينهما السفارة والمكاتبة . ومما وقفنا عليه من ذلك رسالة بعث بها « أمير المسلمين » بالأندلس محمد بن يوسف بن اسماعيل الغنى بالله ، إلى سلطان مصر الأشرف شعبان ، وهى من إنشاء وزيره ابن الخطيب . وفيها يعرب سلطان غرناطة عن اغتباطه بتلقى رسالة سلطان مصر ، ويشيد بموقف غرناطة كمركز للجهاد ، وتعرضها الدائم لمهاجمة العدو ، ويتقدم إلى السلطان الأشرف بالتهنئة على ما أحرزت جنوده من نصر حاسم على الفرنج ، فى موقعة الإسكندرية فى سنة ٧٦٧ هـ ( ١٣٦٥ م )(٢) ، وأنه مما يزيد فى غبطتهم أن هذا الحادث لابد أن يذكى شعور الإشفاق والعطف على الأندلس ، التى يدهمها الأعداء بشرهم من البر والبحر بلا انقطاع(٣) .

وفيما يختص بالعلائق الدبلوماسية ، فقد عقد الغنى بالله بالأصالة عن نفسه وبالنيابة عن صديقه أبى فارس عبد العزيز سلطان المغرب ، مع پيدرو الرابع

---

(١) نقل إلينا المقرى فى نفح الطيب وصية ابن الخطيب كاملة ، وهى من أبدع الوصايا الأبوية السياسية (بولاق ج ٤ ص٨١٧ وما بعدها)؛ وكذلك فى أزهار الرياض ج ١ ص٣٢ ومابعدها .

(٢) هاجمت حملة من الفرنج بقيادة لوسنيان ملك قبرص ثغر الإسكندرية فى صفر سنة ٧٦٧هـ ، واحتل الفرنج الإسكندرية أياماً ، ولكنهم هزموا وطردوا بعد معارك شديدة .

(٣) يراجع نص هذه الرسالة بأكله فى صبح الأعشى ج ٨ ص ١٠٧ — ١١٥ ، وهى نموذج بارز من أسلوب ابن الخطيب السياسى .

ملك أراجون معاهده صلح وصداقة لمدة ثلاثة أعوام من تاريخ عقدها وهو شهر رجب سنة ٧٦٨ هـ ( مارس ١٣٦٧ م ) ، وفيها يتعهد كل من الفريقين بأن يمتنع رعاياه عن الإضرار بالفريق الآخر فى البر والبحر فى السر أو الجهر ، وأن يكون لرعايا كل فريق حق التجول والمتاجرة بأرض الفريق الآخر ، والمرور فى البر والبحر ، دون اعتراض أو مغارم غير عادية ، وأن تطلق أراجون حرية الهجرة للمدجّنين ، وأن يمتنع كل فريق عن معاونة أعداء الفريق الآخر[١] .

واستطال حكم الغنى بالله حتى سنة ٧٩٣ هـ ( ١٣٩١ م ) وساد الأمن والسلام فى عصره ، وشغلت قشتالة عن محاربة المسلمين بحوادثها الداخلية وحروبها الأهلية ، وغلب التهادن فى تلك الفترة بين غرناطة وقشتالة ، واستطاعت السياسة الغرناطية أن تنتهز فرصة الحوادث الداخلية فى المملكة النصرانية ، وأن تمد يد التحالف والحماية غير مرة لملك قشتالة المخلوع پيدرو القاسى ، إذكاء للحرب الأهلية بين النصارى .

ولم يخل عصر الغنى بالله من مواطن الجهاد واستئناف الصراع مع القشتاليين . وكانت القوات القشتالية ، قد تسربت من أطراف ولاية إشبيلية الجنوبية ، إلى أحواز رندة الشرقية ، واحتلت فيها موقعين حصينين من أراضى المسلمين هما برغة وجيرة[٢] ، واستطاعت بذلك أن تقطع الطريق بين رندة ومالقة ، ففى شعبان سنة ٧٦٧هـ (١٣٦٦م ) ، زحف المسلمون على هذين المعقلين من الشمال والجنوب واحتلوهما بعد قتال شديد . وفى الوقت نفسه استؤنفت حركة الغزو لأراضى النصارى ، ففى شعبان سنة ٧٦٨ هـ (١٣٦٧م ) ، زحف الغنى بالله فى قواته على أراضى ولاية إشبيلية ، وغزا مدينة أطريرة الواقعة جنوب شرقى إشبيلية ، وافتتح حصن أشر من معاقلها ، واستولى على كثير من الغنائم والسبى ، وعاث فى أحواز إشبيلية ذاتها ، وهى يومئذ عاصمة قشتالة . وفى أواخر هذا العام سار الغنى بالله فى قوة كبيرة إلى مدينة جيّان ، وحاصرها بشدة ، واقتحمها بعد معارك شديدة ، واستولى المسلمون على سائر ما فيها من الأموال والسلاح والنعم ، وأسروا جموعاً كثيرة ، ولكنهم لم يحتلوها ، لصعوبة الدفاع عنها ، وتعذر الاحتفاظ بها ، وهى

---

( ١ ) Archivo de la Corcna de Aragôn, No. 152

( ٢ ) برغة هى Burgo الحديثة ، وهى تقع على مقربة من شرقى رندة ، وجيرة Guera ، وتقع فى جنوب شرقى رندة .

واقعة فى قلب أراضى العدو. وكان ذلك فى أواخر شهر المحرم سنة ٧٦٩هـ (سبتمبر ١٣٦٧م) . ثم اقتحم الغزاة فى طريقهم مدينة باغة، الواقعة على مقربة من جنوب غربى جيان ، ونهبوها ودمروها . وفى شهر ربيع الأول من هذا العام ، زحف الغنى بالله على مدينة أبّدة ، شمال شرقى جيان ، وافتتحها عنوة ، ودمر صروحها وكنائسها، وأسوارها، وتركها خرابا بلقعا، وعاد إلى غرناطة مكللا بغار الظفر(١).

وفى أواخر سنة ٧٦٩ هـ ، سار الغنى بالله جنوبا إلى الجزيرة الخضراء ، وحاصرها ، وأرغم النصارى على إخلائها بعد قتال مرير ، وبذا عاد الثغر القديم فترة أخرى إلى أيدى المسلمين . ثم رأى المسلمون أن يهدموا حصونها وصروحها ومعالمها، حتى لا تعود سليمة إلى أيدى النصارى، فهدمت وغدت قاعاً صفصفاً .

وفى ربيع سنة ٧٧١هـ (١٣٧٠م) زحف المسلمون ثانية على أحواز إشبيلية، وحاصروا مدينة قرمونة الحصينة ، مدى حين ، واقتحموا مُرْشانة الواقعة فى جنوب شرقى قرمونة . وهكذا ظهرت المملكة الإسلامية فى تلك الفترة بمظهر من القوة لم تعرفه منذ بعيد ، وكان عصر الغنى بالله عصراً ذهبياً مليئاً بالسؤدد والرخاء والدعة ، لم تشهده الأمة الأندلسية منذ عصور .

— ٢ —

ولما توفى الغنى بالله سنة ٧٩٣ هـ (١٣٩١ م) خلفه ولده يوسف أبو الحجاج (يوسف الثانى) ، وقام بأمر دولته خالد مولى أبيه ، فاستبد بالأمر وقتل إخوة يوسف الثلاثة سعداً ومحمداً ونصراً فى محبسهم؛ ثم سخط يوسف على وزيره وقتله، لما نمى إليه من أنه يحاول اغتياله بالسم بالتفاهم مع طبيبه يحيى بن الصائغ اليهودى ، وزج الطبيب إلى السجن ثم قتل بعد ذلك(٢) . واستأثر يوسف بالسلطة ،وكتب إلى ملك قشتالة فى طلب المهادنة والسلم ، وأطلق سراح عدد من الفرسان النصارى الذين أسروا فى بعض المعارك السابقة ، وأرسلهم مكرمين إلى بلاط إشبيلية ، فاستجاب ملك قشتالة إلى دعوته وعقد السلم بين المملكتين .

---

(١) الإحاطة ج ٢ ص ٥٤ — ٥٨ ؛ والاستقصاء ج ٢ ص ١٣٢؛ وقد وصف ابن الخطيب هاتين الغزوتين ، وكان من مرافقى الحملة ، فى رسالتين بعث بهما عن لسان سلطانه إلى السلطان عبدالعزيز المرينى ملك المغرب ، وقد وردتا فى كتابه « ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب » مخطوط بالإسكوريال (رقم ١٨٢٥ الغزيرى) — اللوحات ٣٧ — ٤٤ .

(٢) الاستقصاء ج ٢ ص ١٤٢ .

وحاول محمد ولد السلطان يوسف الثورة ضد أبيه ، إذكان يؤثر أخاه الأكبر يوسف بمحبته وثقته ، وقد اختاره لولاية عهده ، وزحف بالفعل فى أنصاره على الحمراء ، ولكن المحاولة فشلت ، وتفرق الثوار حين برز إليهم سفير المغرب وقد كان وقتئذ بالقصر ، وأنبهم على مسلكهم ، وأنصحهم بالتزام الهدوء والاتحاد ضد النصارى[١] .

وقام المسلمون فى عهد يوسف بالإغارة على أراضى النصارى فى أحواز مرسية ولورقة ، وعاث الفرسان النصارى من جانبهم فى فحص غرناطة (المرج) La Vega فردهم المسلمون وأوقعوا بهم هزيمة شديدة . ثم عاد الفريقان إلى التهادن والسلم .

وتوفى السلطان يوسف فى أوائل سنة ٧٩٧هـ ( ١٣٩٤ م ) بعد حكم قصير لم يدم سوى ثلاثة أعوام وبضعة أشهر . وقيل إنه توفى مسموما على أثر مكيدة دبرها سلطان المغرب أبو العباس المرينى لإهلاكه ، وذلك بأن أرسل إليه هدايا بينها معطف جميل منقوع فى السم ، فلبسه يوسف ومسه أثناء ركوبه وهو عرقان ، فسرى إليه السم وتوفى ، وهى رواية تحمل طابع الخيال المغرق[٢] .

وخلف يوسف ولده محمد بعد أن دبر أمره مع الزعماء ورجال الدولة لإقصاء أخيه الأكبر يوسف عن العرش ، ثم قبض على أخيه يوسف وزجه إلى قلعة شلوبانية الحصينة على مقربة من ثغر المنكّب ، وشدد فى الحجر عليه حتى يأمن منازعته إياه على الملك . وكان محمد وافر العنف والجرأة بعيد الأطماع ، بيد أنه كان فى الوقت نفسه أميراً موهوباً ، رفيع الخلال ، فياض العزم والشجاعة . ولأول ولايته استدعى الوزير أبا عبد الله بن زَمْرك لحجابته . وكان هذا الوزير الطاغية قد حلف أستاذه ابن الخطيب فى وزارة الغنى بالله مدى أعوام طويلة ، فلما اشتد عيثه واستبداده نكبه الغنى بالله ونفاه من الحضرة ؛ ولم يمكث فى الوزارة هذه المرة سوى أشهر قلائل أساء فيها السيرة وكثر خصومه ، وفى أواخر سنة ٧٩٧ هـ ( ١٣٩٥ م ) دهمه جماعة من المتآمرين بمنزله وقتلوه وآله[٣] .

وسعى السلطان محمد إلى تجديد صلات المودة والتهادن بين غرناطة وقشتالة ،

---

(١) Condé : Historia de la Dominación de los Arabes en Espana; V. III. p. 169

(٢) Condé : ibid; V. III. p. 171 ؛ وراجع الاستقصاء حيث يردد هذه الرواية نقلا عن مصدر إسبانى آخر ، ج ٢ ص ١٤٢ .

(٣) نفح الطيب ج ٤ ص ٢٨٦ و ٢٩٠ ، وقد عرضنا إلى حياة الوزير ابن زمرك وآثاره الأدبية تفصيلا فى الكتاب الخامس .

وعقدت الهدنة فعلا بين الفريقين . بيد أنه لم يمض قليل على ذلك حتى أغار القشتاليون على بسائط غرناطة وعاثوا فيها ، فحشد محمد قواته وغزا ولاية الغرب[١] وخربها ، واستولى على حصن أيامونتى[٢] ، وعاد مثقلا بالغنائم والسبى . وانتقم النصارى بالعود إلى غزو أراضى غرناطة . وكان هنرى الثالث ملك قشتالة تحدوه نحو مملكة غرناطة أطماع عظيمة ، وكان يجد فى الأهبة للحرب ويجهز الجيوش والأساطيل ، وكان محمد من جانبه يتأهب للدفاع ، ويراسل ملوك العدوة لإنجاده ؛ وبعث ملك تونس وأمير تلمسان بالفعل إلى المسلمين نجدة من الوحدات البحرية ، ولكنها هزمت ومزقت تجاه جبل طارق . ثم عقد بين الفريقين اتفاق هدنة وتحكيم لتقدير الأضرار لمدة عامين ( ٦ أكتوبر سنة ١٤٠٦ م )[٣]. ولكن هنرى الثالث توفى بعد ذلك بقليل ( أواخر سنة ١٤٠٦ م ) وخلفه على عرش قشتالة ولده خوان ( يوحنا ) طفلا تحت وصاية أمه وعمه فرناندو . ولم يحترم الوصى الجديد أحكام الهدنة المعقودة ، بل عمد إلى تنفيذ مشاريع قشتالة بمنتهى القوة والعزم ، فسار إلى غزو أراضى المسلمين ، واستولى على حصن الصخرة على مقربة من رندة ، واقتحم حصن باغة[٤] ، وعاث فى تلك الأنحاء واسترد حصن أيامونتى من المسلمين . وبادر محمد من جانبه بغزو أراضى قشتالة من ناحية الشرق وعاث فى ولاية جيان ، فاضطر فرناندو أن يسير إلى الشرق لإنجاد النصارى ، واستمرت المعارك بين الفريقين حينا ، ثم انتهت بعقد الهدنة بينهما لمدة ثمانية أشهر ( أوائل سنة ١٤٠٨م ) . ولما عاد محمد إلى غرناطة اشتد به المرض ولم يلبث أن توفى وذلك فى سنة ٨١١هـ (١٤٠٨م) .

على أنه فى الوقت الذى كانت الحرب تضطرم فيه بين غرناطة وقشتالة على هذا النحو بلا انقطاع ، كانت غرناطة ترتبط بمملكة أراجون منافسة قشتالة وخصيمتها أحيانا ، بصلات المودة والصداقة . ففى ربيع الأول سنة ٨٠٨ هـ الموافق سبتمبر سنة ١٤٠٥م ، عقدت بين السلطان محمد وبين مرتين ملك أراجون وولده مرتين ملك صقلية ، معاهدة صداقة وتحالف ، توضح لنا نصوصها الدقيقة الشاملة

( ١ ) غربى الأندلس وهى بالإفرنجية **A'garve** محرفة عن كلمة الغرب .

( ٢ ) أيامونتى **Ayamonte** مدينة صغيرة تقع على المحيط الأطلنطى ، وهى بلد الحدود بين إسبانيا والبرتغال .

( ٣ ) **Archivo General de Simancas : P.R. 11-1** ، ولدينا صورة فتوغرافية من نصها القشتالى وفى ذيلها توقيع بالعربية لمندوب سلطان غرناطة .

( ٤ ) وهى بالإسبانية **Priego** .

مجمل المسائل التى كانت فى هذا العصر ، تشغل المسلمين والنصارى فى شبه الجزيرة الإسبانية ؟

وتنص هذه المعاهدة على أن يعقد بين الدولتين « صلح ثابت » لمدة خمسة أعوام من تاريخ عقدها ، وأنه يحق لرعايا كل من الفريقين أن يتردد على أراضى الفريق الآخر ، آمنين فى أنفسهم وأموالهم للتجارة والبيع والشراء ، وأنه متى احتاج ملك أراجون أو ملك صقلية إلى معاونة على أعدائهما ، فإن سلطان غرناطة ينجدهما بأربعمائة أو خمسمائة فارس على أن يتكفلا هما بنفقاتهم ، وذلك بشرط أن لا يكون هذا العدو صديقاً لمملكة غرناطة ، وأن يعامل الملكان سلطان غرناطة بالمثل فيقوما بإعانته بأربعة أو خمسة سفن مشحونة بالرجال والسلاح ، على أن يتكفل هو بنفقاتها ، وعلى ألا يكون هذا العدو صديقاً لمملكة أراجون ، وألا يساعد أحد من الفريقين الثوار الذين يخرجون على الفريق الآخر بأى نوع من أنواع المساعدة .

ونصت فيما يتعلق بالمسائل البحرية ، على أنه يسمح لسفن كل من الفريقين أن ترسو فى موانىء الفريق الآخر ، وأن تزاول البيع والشراء آمنة ، وأن تتلقى سائر أوجه الإعانة المشروعة ، وألا تتعرض سفينة تابعة لأحد الفريقين للسفن الراسية فى موانىء الآخر ، وأن يسمح للسفن التى تصاب بعطب من جراء العواصف أو غيرها ، وتكون تابعة لأحد الفريقين ، أن تصلح فى موانىء الآخر ، وتعان على ذلك ، وأنه إذا استولى عدو على سفينة تابعة لأحد الفريقين ، وقصدت مياه الطرف الآخر ، فإنه لا يسمح لها بأن تبيع شيئاً من حمولتها فيه ، وكذلك يكون الحكم فيما يتعلق بالأشخاص أو السلع المأخوذة من أحد الطرفين .

ونصت فيما يتعلق بتسريح الرعايا ، على أنه إذا انتزع أحد الطرفين من عدوه مدينة أو موضعاً ما ، وكان فيه أحد من رعايا الطرف الآخر ، فإنه يسرح فى الحال مؤمناً فى نفسه وماله ، ويكون الحكم كذلك فيما يتعلق بالسفن التى يستولى عليها أحد الطرفين من عدوه ؛ وأنه إذا كان لدى أحد الطرفين أسرى من رعايا الطرف الآخر ، فإنه يفك أسرهم لقاء دفع مائة دينار ذهبا عن الشخص الواحد ، فإذا كان الأسير ملكاً لأحد من رعايا أى الطرفين ، فإنه يسمح بافتكاك أسره نظير دفع الثمن الذى اشترى به ، ويلتزم كل من الفريقين بألا يخفى أو يغيب أحداً من الأسرى ؛ وأنه إذا دخل مجاورون تابعون لأحد الطرفين فى أرض الآخر واحتملوا منها أسرى أو بضائع ، فإنها تطلب ممن تستقر لديه ، ويأمر قائد الموضع الذى

به الأسرى والبضائع بردها لمن أخذت منهم، وبالبحث عن الفاعلين ومعاقبتهم (١)

ولما توفى محمد خلفه فى الملك أخوه يوسف ( الثالث ) ، وكان سجينا طوال حكمه بقلعة شلوبانية كما قدمنا . ودخل يوسف غرناطة فى حفل فخم ، واستقبله الشعب بحماسة . وكان يتمتع بخلال حسنة ، ويعلق عليه الشعب آمالا كبيرة . وكان أول ما عنى به أن سعى إلى تجديد الهدنة مع قشتالة ، فاستجاب بلاط قشتالة إلى دعوته فى البداية وعقدت الهدنة بين الفريقين لمدة عامين . ولكنه لما سعى بعد مضى العامين إلى تجديدها أبى القشتاليون ، وطلبوا إليه الخضوع لقشتالة إذا شاء استمرار السلم ، وأنذروه بإعلان الحرب ، فرفض وأخذ فى الأهبة للقتال . وكان ملك قشتالة يومئذ خوان الثانى تحت وصاية أمه وعمه فرناندو . فما كادت تنتهى الهدنة حتى زحف النصارى على أرض غرناطة بقيادة فرناندو الوصى ، وضربوا الحصار حول مدينة أنتقيرة فى شمال غربى مالقة ، فهرع يوسف إلى لقاء الغزاة ، وحاولت حامية أنتقيرة أن تحطم الحصار ، وأنزلت بالمحاصرين خسائر فادحة ، ثم نشبت بين المسلمين والنصارى معركة كبيرة بجوار أنتقيرة ، وبذل المسلمون لإنقاذ المدينة المحصورة جهوداً رائعة ، ولكنهم هزموا أخيراً واضطرت المدينة الباسلة إلى التسليم ، فدخلها النصارى ( سنة ١٤١٢م ) وأسبغ على فاتحها فرناندو من ذلك الحين لقب « صاحب أنتقيرة » . وعاث النصارى بعد ذلك فى أراضى المسلمين . وأخيراً رأى السلطان يوسف أن يسعى إلى عقد الهدنة مع قشتالة حقنا لدماء المسلمين ، واجتنابا لاستمرار هذه المعارك المخربة ، فارتضى بلاط قشتالة وعقد السلم بين الفريقين ، على أن يطلق ملك غرناطة سراح بضع مئات من الأسرى النصارى دون فدية .

وفى عهد يوسف ثار أهل جبل طارق ، ودعوا ملك المغرب أبا سعيد المرينى إلى احتلال الثغر ، لاعتقادهم أنه أقدر على حمايتهم من غارات النصارى ، فبعث إليهم أبو سعيد أخاه عبد الله فى الجند تخلصاً منه ، ولكن ابن الأحمر ما كاد يقف على هذه المؤامرة حتى أرسل المدد إلى حاكم جبل طارق ، واستطاع الغرناطيون أن يهزموا المغاربة فى موقعة حاسمة ، وأسر زعيمهم عبد الله ، فأكرم ابن الأحمر وفادته ، ثم رده إلى المغرب ، وزوده بالمال وبعض الجند ليناهض أخاه ،

---

(١) Archivo de la Corona de Aragón; No. 173

فهرعت القبائل لتأييده ، واستطاع أن ينتزع الملك لنفسه من أخيه(١) .

ولما عقدت الهدنة بين مملكتى قشتالة وغرناطة ، أخذت أواصر السلم تتوثق بينهما ، وسادت بين بلاط غرناطة وبلاط إشبيلية علائق المودة والاحترام المتبادل ؛ ولم تشهد غرناطة من قبل عهداً كعهد يوسف ساد فيه الوئام بين الأمتين الخصيمتين. وكانت غرناطة يومئذ تغص بالفرسان والأشراف النصارى ، تجتذبهم خلال أميرها وبهاء بلاطها وفروسيتها . وكانت حفلات المبارزات الرائعة تعقد بين الفرسان المسلمين والنصارى فى أعظم ساحات المدينة ، وتجرى طبقاً لأرفع رسوم الفروسية الإسلامية ، ويشهدها أجمل وأشرف العقائل المسلمات سافرات ، وتبدو غرناطة فى تلك الأيام المشهودة فى أروع الحلل وأبدع الزينات(٢). وكانت الأمة الأندلسية تتمتع يومئذ فى ظل ملكها الرشيد العادل بنعم الرخاء والسكينة والأمن ، ولكنها كانت تنحدر فى نفس الوقت فى ظل هذا السلم الخلب والترف الناعم ، إلى نوع من الانحلال الخطر الذى يعصف بمنعتها وأهباتها الدفاعية .

وتوفى السلطان يوسف فى سنة ٨٢٠ هـ (١٤١٧ م) بعد حكم دام نحو تسعة أعوام ، وكان أميراً راجح العقل ، بارع السياسة ، عظيم الفروسية والنجدة ، محباً لشعبه ، فكان حكمه القصير صفحة زاهية فى تاريخ مملكة غرناطة .

— ٣ —

وتوالى على عرش غرناطة بعد السلطان يوسف عدة من الأمراء الضعاف ، أولهم ولده أبوعبدالله محمد الملقب بالأيسر. وكان أميراً صارما سيئ الخلال ، متعاليا على أهل دولته ، بعيداً عن الاتصال بشعبه ، لا يكاد يبدو فى أية مناسبة عامة ، وكان وزيره يوسف بن سراج واسطته الوحيدة للاتصال بشعبه وكبراء دولته . وكان هذا الوزير النابه ، وهو يومئذ زعيم أعظم وأشرف بيوت غرناطة ، يعمل ببراعته ورقة خلاله ، لتلطيف حدة السخط العام على مليكه . بيد أنه كان يحاول أمراً صعبا . ولابد لنا أن نقول كلمة فى التعريف ببنى سراج ، وهم الذين يقترن اسمهم منذ الآن بحوادث مملكة غرناطة ، والذين غدت سيرتهم فيما بعد مستقى خصبا للقصص المغرق . فهم بنو سراج من أعرق الأسر الأندلسية العربية ، ويرجع أصلهم حسبما يشير

(١) السلاوى فى الاستقصاء ج ٢ ص ١٤٨ .

(٢) Condé: ibid; V. III. p. 197 & 198 . وكذلك Lafuente Alcantra : Historia de Granada (1906) V. III. p. 46

المقرى إلى مَذْحج وطىء من البطون العربية العريقة، التى وفد بنوها إلى الأندلس منذ الفتح ، وكان منزلهم بقرطبة وقبلى مرسية ، بيد أنهم لم يظهروا على مسرح الحوادث فى تاريخ الأندلس إلا فى مرحلته الأخيرة أعنى فى تاريخ غرناطة ، وقد كانوا بغرناطة من أعظم سادتها ، وكانوا أندادا للعرش والسلاطين(١). ومنذ عهد السلطان الأيسر نرى بنى سراج فى طليعة القادة والزعماء ، الذين يأخذون فى سير الحوادث بأعظم نصيب . وقد كان حكم السلطان الأيسر ، بداية سلسلة من الاضطرابات والقلاقل المتعاقبة . وفى عهده ساءت الأحوال ، واشتد سخط الشعب ولم تجد محاولات الوزير ابن سراج لتهدئة الأمور . وقامت ثورات متعاقبة ، فقد فيها الأيسر عرشه ثم استرده غير مرة ، وكان بلاط قشتالة يشجع هذه الإنقلابات ويؤازرها، وكان الزعماء الثائرون يتطلعون دائماً إلى عون قشتالة ووحيها . وسنرى فيما يلى كيف كانت دسائس قشتالة ومؤامراتها حول عرش غرناطة فى تلك الفترة ، من أعظم العوامل فى انحلال المملكة الإسلامية والتعجيل بسقوطها .

وفى خلال حكم الأيسر المضطرب ، كان النصارى يتربصون الفرص لغزو مملكة غرناطة ، فزحفوا عليها فى سنة ٨٣١ هـ (١٤٢٨م) وتوغلوا فى أرجائها ، وعاثوا فى بسائط وادى آش، فزادت الأمور فى غرناطة اضطرابا، وازداد الشعب على الأيسر سخطاً ، لأنه فوق غطرسته وتعاليه ، لم يفلح فى رد العدو عن أرض الوطن ؛ وسرعان ما انفجر بركان الثورة وزحف الثوار على الحمراء ، ونادوا بولاية الأمير محمد بن محمد بن يوسف الثالث ، وهو ابن أخى الأيسر. وفى رواية أنه ولده ، ومحمد هذا هو الملقب « بالزغير » . وفر الأيسر فى أهله ونفر من خاصته ، وركب البحر إلى تونس مستظلا بحماية سلطانها أبى فارس الحفصى .

وجلس محمد «الزغير» أو أبو عبدالله الصغير ، حسبما يسمى فى بعض الوثائق الرسمية(٢)

(١) راجع نفح الطيب ج ١ ص ١٣٨ حيث يشير إلى أصل بنى سراج إشارة عابرة . وقد ذكر البعض أن بنى سراج ينتمون إلى يوسف السراج ، وأن السراج هذا هو وزير السلطان الأيسر . ولكن إشارة المقرى الصريحة إلى الاسم والمنبت تنفى هذا التحريف فى الاسم . ويشغل بنو سراج فى الأساطير الإسبانية التى كتبت عقب سقوط غرناطة فراغاً كبيراً ، مما يدل على ما كان لهم فى غرناطة من عظيم الشأن . وسنعود إلى ذكر هذه القصص والأساطير فيما بعد . وراجع المستشرق سيبولد فى **Encyc. de l'Islam.** تحت كلمة **Abencerrages**

(٢) راجع كتاب « وثائق عربية غرناطية » للمستشرق الغرناطى لويس سيكودى لوثينا ، وقد وردت فى الوثيقة رقم ١٩ (ص ٤٠) إشارة إلى « دنانير من ضرب السلطان أبى عبد الله =

على عرش غرناطة . وكان أميراً بارع الخلال ، وافر الفروسية ، يعشق الآداب والفنون ، وكان يحاول اكتساب محبة الشعب ، بفيض من الحفلات ومباريات الفروسة ، ولكنه لم يوفق إلى إخماد الدسائس والفتن المستمرة . وكان بنو سراج ألد خصومه وأشدهم مراسا ، فمال عليهم وطاردهم وعول على سحقهم ، واستئصال نفوذهم القوى المتغلغل فى أنحاء المملكة ؛ وغادر يوسف بن سراج غرناطة مع عدد كبير من السادة والفرسان من أفراد أسرته ، تفاديا لانتقام «الزغير» وبطشه ، وسار أولا إلى ولاية مرسية ثم سار إلى إشبيلية ملتجئاً إلى حماية ملك قشتالة خوان الثانى ، فرحب بهم وأكرم وفادتهم . واتفق يوسف بن سراج مع ملك قشتالة على العمل لرد السلطان الأيسر إلى العرش . واستدعى الأيسر من تونس فلبى الدعوة ، وزوده السلطان أبو فارس بفرقة من الفرسان ، وهدايا ثمينة لملك قشتالة ، ونزل الأيسر فى عصبته فى ثغر ألمرية ، حيث استقبله الشعب بحفاوة ، ونودى به ملكا . ونمى الخبر إلى الزغير ، فأرسل بعض قواته لمقاتلة الأيسر والقبض عليه ، ولكن معظم جنده انضموا إلى الأيسر ؛ وسار الأيسر بعد ذلك إلى وادى آش حيث يحتشد أنصاره ، ثم زحف على غرناطة فى قوة كبيرة ؛ ورأى محمد الزغير أنصاره ينفضون من حوله تباعا ، بيد أنه امتنع فى عصبته القليلة بقلعة الحمراء ، معتزما الدفاع عن ملكه . ودخل الأيسر غرناطة ، واستقبل بحماسة وأعلن ملكاً ، وحاصر الحمراء بشدة فسلمها إليه أنصار الزغير ، وفى رواية أن الأيسر قبض على الزغير وقطع رأسه ، وقبض على أولاده وأهله ، وفى رواية أخرى أنه قبض عليه ، واعتقله هو وأخاه الأمير أبا الحسن على بن يوسف فى قلعة شلوبانية الحصينة وهى سجن الدولة الرسمى فى عهد بنى نصر . وهكذا انتهت مغامرة الزغير على هذا النحو المؤسى بعد أن حكم عامين وبضعة أشهر ( سنة ١٤٣٠ م )(١) .

ونظم السلطان الأيسر الأمور ، وأعاد يوسف بن سراج إلى الوزارة ،

---

= الصغير» . والواقع أن « زغير » هى النطق العامى الأندلسى لكلمة « صغير » : Dozy : Supp. aux Dict. Arabes Vol. I. p. 595 وذكر كوندى أن الزغير Zaquir معناها السكير : Coudé : ibid. V. III. p. 182

(١) Lafuente Alcantra : ibid.; V. III. p. 121 & 122 ; Condé ; ibid.; V. III. p. 184 & 185 ورجع أيضاً مقال الاستاذ سيكودى لوثينا المعنون Las Campanas de Castilla contra Granda en el ano 1431 المنشور فى مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ( المجلد الرابع ) ص ٨٠ .

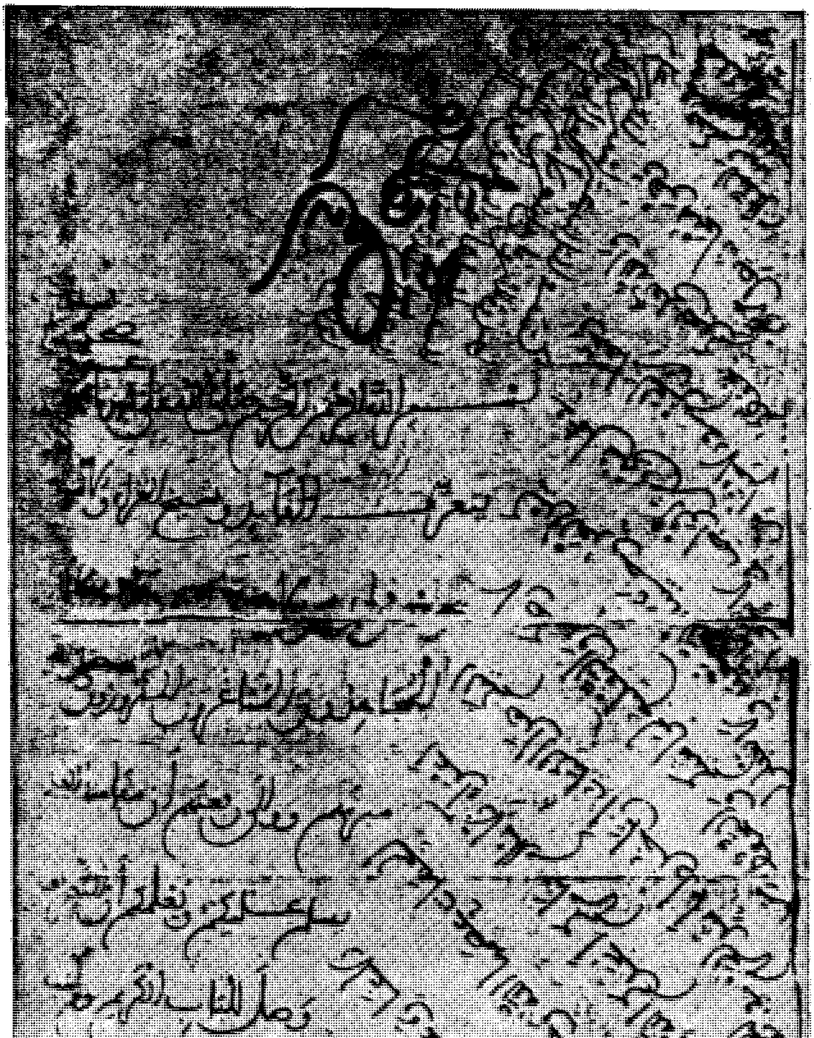

صورة رسالة وجهها السلطان أبوعبد الله الأيسر إلى قادة وأشياخ حصن قمارش بوجوب اليقظة والحرص على الدفاع عنه مؤرخه فى شعبان سنة ٨٣١ هـ ( ١٤٢٨ م ) ، وأوردها المستشرق ريميرو فى رسالته **Documentos Arabes de la Corte Nazari** ، منقولة من مجموعة هرناندو دى ثافرا **H. de Zafra**

وأرسل إلى ملك قشتالة خوان الثانى فى تجديد الهدنة ، فبعث إليه سفيره كونثالث دى لونا واشترط لتجديدها أن يؤدى الأيسر ما أنفقه بلاط قشتالة فى سبيل استرداد عرشه ، وأن يؤدى فوق ذلك جزية سنوية ضخمة اعترافاً منه بطاعة قشتالة ، وأن يفرج عن سائر الأسرى النصارى الموجودين ببلاده ، فرفض الأيسر وهدد ملك قشتالة بالحرب. وبعث خوان الثانى كذلك سفراءه ومعهم هدايا نفيسة إلى أبى فارس الحفصى سلطان تونس ، والى سلطان فاس عبد الحق بن عثمان المرينى يرجو كلا منهما أن يبتعد عن التدخل فى شئون غرناطة ، فوعد كلاهما بتحقيق رغبته . وما كادت تنتهى الفتنة الداخلية التى كانت يومئذ ناشئة فى قشتالة ، حتى أغار القشتاليون فى قواتهم من قرطبة وجيان وإستجه على أراضى المسلمين ، وقصدوا إلى احواز رندة ، فهرع الأيسر إلى لقائهم ، واستطاع أن يردهم فى البداية ، ولكن ملك قشتالة قدم بعدئذ بنفسه فى قوات كبيرة ، وزحف على حصن اللوز وأرشدونة ، وعاث فى تلك المنطقة ، ثم عاد إلى قرطبة ومعه كثير من السبى والغنائم ( ١٤٣١ م ) .

وفى أثناء ذلك عاد الأيسر إلى غرناطة ، متوجسا من سير الحوادث فيها : وكانت الفتن الداخلية قد عادت تنذر بانقلابات جديدة ، وغدا عرش غرناطة مرة أخرى يضطرب فى يد القدر ؛ وانقسمت المملكة الإسلامية شيعاً وأحزابا متنافسة متخاصمة ، وألفى النصارى فرصتهم السانحة لإذكاء الفتنة ، وبسط سيادتهم على مملكة يسودها الضعف والتفرق . وكان خصوم الأيسر قد التفوا حول أمير ينتمى إلى بيت الملك عن طريق أمه ، هو أبو الحجاج يوسف بن المول . وكانت أمه ابنة للسلطان محمد بن يوسف بن الغنى بالله ، وأبوه ابن المول من وزراء الدولة النصرية : ودبرت مؤامرة جديدة لخلع الأيسر . وكان يوسف أميراً قويا ، وافر الثراء والهيبة ، وكان ملك قشتالة ، خوان الثانى ، يعسكر يومئذ بجيشه على مقربة من غرناطة ، يتتبع سير الحوادث ، ويرقب الفرص . فقصد إليه يوسف ، وطلب إليه العون على انتزاع العرش لنفسه ، وتعهد بأن يحكم باسمه وتحت طاعته ، فلبى ملك قشتالة دعوته ، وعقد معه يوسف وثيقة بالخضوع ، يقرر فيها أنه من أتباع ملك قشتالة وخدامه ، وأنه إذا حصل على الملك ، فإنه يتعهد بتحرير جميع الأسرى النصارى ، وبأن يدفع الملك قشتالة جزية سنوية قدرها عشرون ألف دينار من الذهب ، وأن يعاونه بألف وخمسمائة فارس لمحاربة أعدائه سواء أكانوا نصارى أومسلمين ،

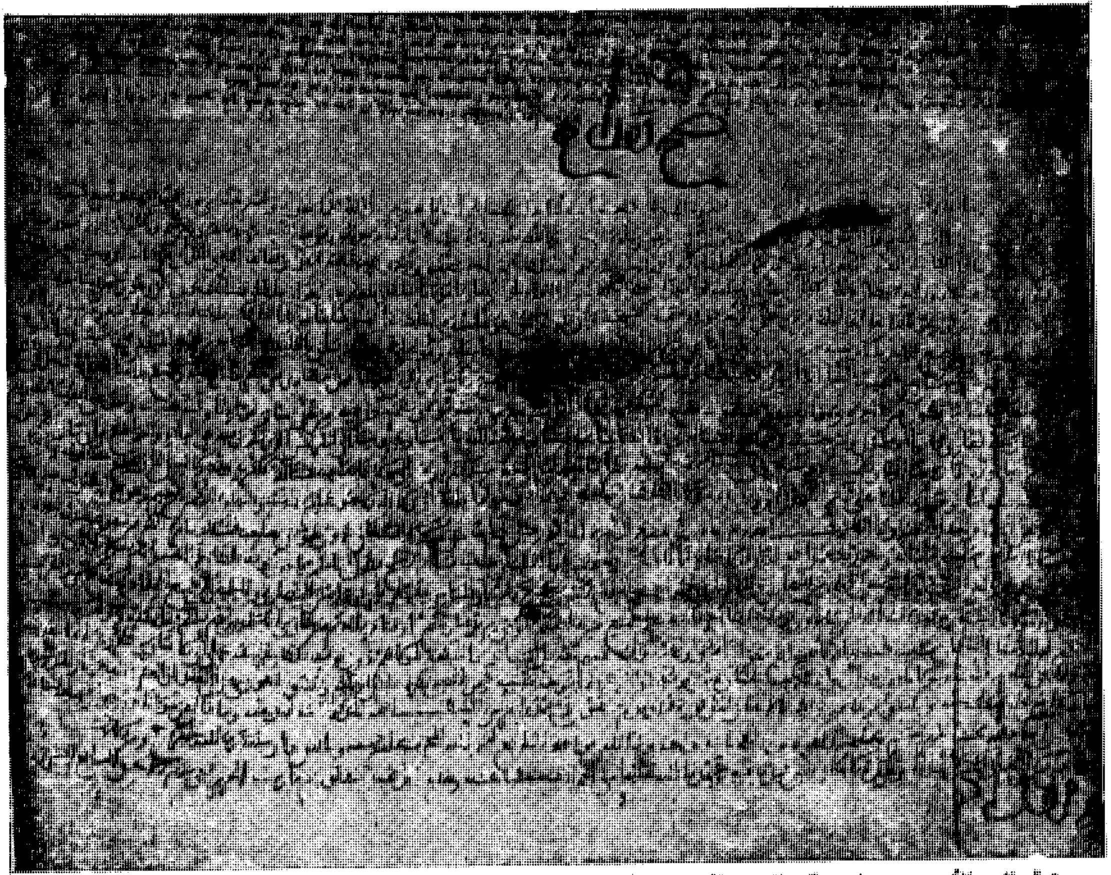

صورة للجانب الأيسر من معاهدة التحالف والخضوع التى عقدت بين يوسف بن المول ( يوسف الرابع ) وخوان الثانى ملك قشتالة ، وفوقه بضعة أسطر من النص القشتالى للمعاهدة . وهى مؤرخة فى جمادى الأولى سنة ٨٣٥ هـ ( يناير ١٤٣٢ م ) ومحفوظة بدار المحفوظات العامة Archivo General de Simancas برقم P, R. 11-124

وأن يحضر جلسات مجلس الكورتس ( مجلس النواب القشتالى ) بنفسه إن كان منعقداً جنوب طليطلة أو بإنابة أحد من أبنائه أو ذوى قرابته إن كان منعقداً داخل قشتالة . وتعهد ملك قشتالة من جانبه بأن يعقد الصلح مع يوسف طوال أيام حكمه وأيام أبنائه ، وبأن يعاونه على محاربة أعدائه من المسلمين والنصارى ، وألا يحمى من يلتجىء اليه من أعدائه . ووقع مشروع هذه المعاهدة بين الفريقين فى السابع من المحرم سنة ٨٣٥ هـ ( ١٦ سبتمبر سنة ١٤٣١ م ) ونفذت على الأثر ، إذ أرسل ملك قشتالة ، جنده فغزت مرج غرناطة ، وسار الأيسر على رأس قواته والتقى بالنصارى فى بسائط إلبيرة ، ونشبت بين الفريقين موقعة شديدة ، ارتد الأيسر على أثرها منهزماً إلى غرناطة . أما يوسف فقد استطاع بمؤازرة النصارى أن يستولى على عدة قواعد اعترفت بطاعته ، مثل رندة ولوشة وحصن اللوز وغيرها . وأعلن ملك قشتالة انحيازه إلى يوسف ونودى به ملكا ، وسار يوسف بعد ذلك فى قواته إلى غرناطة فلقيته جنود الأيسر بقيادة الوزير ابن سراج فهزم ابن سراج وقتل ، ودخلت جنود يوسف العاصمة ، ونادت بطاعته معظم الجهات ، وانفض الأشراف من حول الأيسر بعد أن رأوا خسران قضيته ، فاعتزم الأيسر أمره وحمل أمواله وغادر غرناطة فى أسرته ونفر من خاصته ، وقصد إلى مالقة التى بقيت على طاعته ، ودخل يوسف بن المول الحمراء ظافراً وتربع على العرش ، وذلك فى أول يناير سنة ١٤٣٢ م .

وكان أول ما فعله يوسف أن جدد لملك قشتالة عهد الخضوع ، فوقعه باعتباره سلطان غرناطة فى ٢٢ جمادى الأولى من نفس العام ( ٢٧ يناير سنة ١٤٣٢ م )[١]. بيد أن حكمه لم يطل إذ كان شيخاً مريضاً ، فتوفى بعد ستة أشهر لم يفعل خلالها شيئاً سوى اعترافه بطاعة ملك قشتالة ، وهو ما كانت تسعى إليه قشتالة دائما منذ قامت مملكة غرناطة .

ومن المدهش أن نجد تماثلا غريبا بين نصوص المعاهدة التى عقدها محمد ابن الأحمر مؤسس مملكة غرناطة بالخضوع لفرناندو الثالث ، وبين عهد الخضوع الذى وقعه يوسف بن المول ، والذى قطعت به قشتالة أكبر خطوة فى سبيل تحقيق

(١) Archivo General de Simancas; P.R. 11-129 . وقد حصلنا على صورة فتوغرافية لهذه الوثيقة بنسختيها العربية والقشتالية ، ونشرنا النصين فى بحث ظهر فى صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد ( المجلد الثانى – ١٩٥٤ ) .

أمنيتها القديمة . والواقع أن هذا العهد المؤلم كان أشنع ما انتهت إليه الخلافات الداخلية والحروب الأهلية فى مملكة غرناطة فى تلك الفترة الدقيقة من حياتها .

وعلى أثر وفاة السلطان يوسف ، اتفقت الأحزاب كلها على رد الأمر للسلطان الأيسر ، فجلس على العرش للمرة الثالثة ، وبادر بالسعى إلى عقد السلم مع ملك قشتالة ، فعقدت الهدنة بين الفريقين لمدة عام ، ولكن القشتاليين ما لبثوا بالرغم من عقدها أن أغاروا على أراضى غرناطة الشرقية ، فردهم المسلمون بقيادة الوزير ابن عبد البر زعيم بنى سراج ، ثم هزموهم ثانية عند مدينة أرشدونة ، وقتل وأسر منهم عدد كبير ( ٨٣٨ هـ — ١٤٣٤ م ) .

وفى العام التالى سار السلطان الأيسر لقتال القشتاليين ، فى أحواز غرناطة ووادى آش ، وهزمهم غير مرة ، ثم عاد النصارى فأغاروا على بسطة ووادى آش ، واحتلوا بعض الحصون والقرى المجاورة ، وزحفت قوة كبيرة من النصارى بقيادة حاكم لبلة ، على ثغر جبل طارق ، ولكن أهل الثغر باغتوا النصارى وهزموهم ، وقتل قائدهم وكثير منهم ( ٨٤٠ هـ — ١٤٣٦ م ) . ثم نشبت بعد ذلك بين المسلمين والنصارى موقعة أخرى على مقربة من كازورلا ، أصيب الفريقان فيها بخسائر فادحة ، وانتهت بنصر المسلمين ، ولكن قائدهم الفارس ابن سراج وهو ولد الوزير السابق ، سقط قتيلا فى الموقعة ، فحزنت غرناطة لفقده ، وقد كان يخلب الشعب الغرناطى بظرفه وبارع فروسته(١) .

وهكذا استمر الصراع بضعة أعوام سجالا بين المسلمين والنصارى . ولما رأى النصارى كثرة خسائرهم وعقم محاولاتهم ، لجأوا إلى السكينة حينا . وأرسل السلطان الأيسر فى أواخر عهده إلى مصر سفارة يرجو فيها سلطان مصر الإنجاد والغوث لما رآه من اشتداد وطأة النصارى على أراضى مملكته . وقد انتهت إلينا رواية مخطوطة مبتورة عن قصة هذه السفارة(٢) ، كما أشارت إليها التواريخ المصرية . وهذه أول مرة تتجه فيها مملكة غرناطة إلى الاستنجاد بمصر ، وقد كانت حتى ذلك الحين تتجه دائماً إلى ملوك العدوة . وقد رأينا كيف لبث بنو مرين عصراً ملاذ

---

( ١ ) Lafuente Alca.  .: ibid ; V. III. p. 147-150

( ٢ ) عثر بهذه الأوراق المخطوطة صديقى الأستاذ الدكتور عبد العزيز الأهوانى فى بعض محفوظات مكتبة مدريد الوطنية ؛ ونشر نصها ضمن بحث عنوانه « سفارة سياسية من غرناطة إلى القاهرة فى القرن التاسع الهجرى » وذلك بمجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ( المجلد السادس عشر . الجزء الأول ص ٩٥ — ١٢١ ) .

غرناطة ، وساعدها الأيمن حين الخطر الداهم . ولكن الدولة المرينية ، كانت قد دخلت يومئذ فى دور انحلالها ، وخبت قواها التى انسابت مرارا إلى شبه الجزيرة ، ومن ثم فقد وجه سلطان غرناطة صريخه إلى مصر . وتضع الروايات المصرية تاريخ هذه السفارة فى رجب سنة ٨٤٤هـ ، وهو يوافق شهر ديسمبر سنة ١٤٤٠ م . ولكنها تضطرب فى ذكر اسم سلطان غرناطة ، فيسميه المقريزى « الغالب بالله عبد الله بن محمد بن أبى الجيوش نصر » ، ويسميه السخاوى « عبدالله ابن محمد بن نصر »(١) . وفى رأينا أن المرجح أن هذه السفارة صدرت عن السلطان أبى عبد الله محمد بن يوسف أى السلطان الأيسر ، لأنه حكم حتى أوائل سنة ١٤٤١م. وهناك احتمال بأن يكون مرسلها هو خلفه الثائر عليه السلطان محمد بن نصر بن محمد الغنى بالله وهو المعروف بالأحنف حسبما نذكر بعد ، ولعل خبر هذا الانقلاب لم يكن قد وصل إلى مصر حين وصل السفراء الغرناطيون إلى القاهرة ، وقد كان وصولهم إليها فى نفس التاريخ الذى وقع فيه هذا الانقلاب بغرناطة ، وهو مما يرجح كون السلطان الأيسر هو مرسل هذه السفارة .

وعلى أى حال فقد وصل السفراء الغرناطيون وعددهم أربعة ، كما يستفاد من الرواية المخطوطة المشار إليها ، فى شهر رجب سنة ٨٤٤هـ ، وقدموا كتاب سلطانهم إلى سلطان مصر ، الظاهر چقمق ، وفيه يطلب الإنجاد من مصر . وقد رد سلطان مصر بأنه سوف يبعث إلى « ابن عثمان » أعنى إلى سلطان قسطنطينية ، بأن ينجد الأندلس ، ولما أكد السفراء الغرناطيون أنهم يتوجهون بصريخهم إلى مصر ، اعتذر السلطان بأن بعد الشقة يحول دون إرسال الجند إلى الأندلس ، فطلب السفراء عندئذ أن تساهم مصر فى المعونة بالمال والعدة ، فوعدهم السلطان بذلك .

وقدم السفراء الغرناطيون إلى السلطان هدية أندلسية من الفخار المالقى والأنجبار الغرناطى ، ومن ثياب الخز الأندلسية ، فاستحسنها السلطان ، وفرقها بين مماليكه وحشمه وأهله . ولسنا نعرف شيئاً عن نتيجة هذه السفارة ولا عن موعد عودة السفراء الأندلسيين إلى غرناطة ، لأن الرواية المخطوطة تنتهى بوصف رحلة هؤلاء السفراء إلى الحجاز مع ركب الحاج لقضاء الفريضة ، وتقف عند وصف كاتبها للبقاع المقدسة ، بيد أننا نرجح أنها لم تسفر عن أية نتائج عملية .

---

(١) الأول فى كتاب « السلوك فى دول الملوك » . والثانى فى كتاب « الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع » .

ولكن حوادث غرناطة كانت عندئذ تنذر بتطورات جديدة مزعجة . ذلك أن السلطان الأيسر بالرغم من حسن بلائه ضد النصارى لم يحسن السيرة فى الداخل، ولم ينجح فى اجتذاب شعبه ، وكان فريق من خصومه من السادة الفرسان يلوذ بحماية ملك قشتالة ، وعلى رأسهم الأمير يوسف بن أحمد حفيد السلطان يوسف الثانى ، وابن عم الأيسر ، وهو المعروف فى التواريخ القشتالية « بابن إسماعيل » وذلك لأن نسبه ينتهى إلى السلطان أبى الوليد إسماعيل الذى تولى العرش سنة ٧١٢هـ . وكان ثمة فريق آخر من الزعماء الناقمين فى ألمرية يناصر الأمير محمداً بن نصر بن محمد الغنى بالله وهو المعروف بالأحنف. وكان الأحنف قد نجح فى دخول غرناطة سراً مع نفر كبير من أنصاره ، وأخذ يعمل على إذكاء الفتنة . فلما آنس سنوح الفرصة ، ثار فى عصبته واستولى على الحمراء والحصون المجاور لها ، وقبض على الأيسر وآله وزجهم إلى السجن ، ونادى بنفسه ملكا ، وذلك فى أوائل سنة ١٤٤١ أو أوائل سنة ١٤٤٢ م ، حسبما تدل على ذلك وثيقة عربية ، هى عبارة عن خطاب موجه منه إلى ملك قشتالة فى شهر ذى القعدة سنة ٨٤٦ هـ ( مارس ١٤٤٣ م ). يشير فيه إلى بعض المشاكل القائمة بين البلدين ، ويطالب بإطلاق سراح سفيره المعتقل فى قشتالة(١) .

ولكن الفتنة لم تهدأ ولم تستقر الأمور . وكان يعارض ولاية الأحنف فريق قوى من الزعماء والشعب ، ويتزعم هذا الفريق المعارض الوزير ابن عبد البر زعيم بنى سراج . وكان يقيم فى حصن مونتى فريو فى شمال غربى غرناطة، ويؤيد ولاية الأمير يوسف ( ابن إسماعيل ) المقيم فى بلاط قشتالة . ولم يمض قليل حتى سار هذا الأمير من إشبيلية إلى غرناطة ومعه سرية من الفرسان النصارى أمده بها ملك قشتالة . والظاهر أن ابن إسماعيل استطاع التغلب عندئذ على الأحنف ، واحتل الحمراء، وحكم مدى أشهر قلائل . ولكن الأحنف عاد فتغلب عليه واسترد عرشه ( أوائل سنة ١٤٤٦ م ) . ورد السلطان الأحنف من جانبه بأن غزا أراضى قشتالة وهاجم قلعة بنى موريل وقلعة ابن سلامة ، وقتل من فيهما من النصارى (١٤٤٦م) وسير فى الوقت نفسه جزءاً من قواته لمقاتلة خصمه ابن إسماعيل ، وانتهز الأحنف فرصة الخلاف القائم يومئذ بين أراجون وقشتالة ، فأرسل إلى ملك أراجون يعرض

---

( ١ ) نشر نص هذا الخطاب مع صورته الفتوغرافية فى كتاب نبذة العصر فى أخبار ملوك بنى نصر ( المنشور بعناية معهد فرانكو بتطوان ) ص ٧٦ — ٧٨ .

محالفته ضد قشتالة، ونفذ هذا الحلف بأن غزا الأحنف أرض النصارى من ناحية أراضى مرسية ، والتقى بالقشتاليين قرب جنجالة وهزمهم هزيمة شديدة (١٤٥٠م) ثم عادت قواته تكرر الإغارة والعيث فى أرض النصارى وتشغل قواتهم . وكان ابن إسماعيل يقيم أثناء ذلك فى حصن مونتى فريو ، وقد أقرت بطاعته بعض البلاد والحصون المجاورة . وهكذا اتسع نطاق النضال ، وعصفت الحرب الأهلية من جهة، وغزوات النصارى من جهة أخرى بقوى غرناطة . وكان السلطان الأحنف بالرغم من عزمه وقوة نفسه، يثير غضب الشعب بطغيانه وقسوته وعنفه، وكانت معظم الأسر الكبيرة تعمل لإسقاطه ، لما لقيت من بطشه وعدوانه ، وهكذا تهيأ الجو لانقلاب جديد . وهنا يحيق الغموض بولاية العرش الغرناطى ويختلف القول فى شأنها . والرواية الإسلامية مقلة فى هذا الشأن ، ولم يصلنا منها عن حوادث هذه الفترة المضطربة من تاريخ غرناطة سوى القليل ، ومن ثم فإن جل اعتمادنا هنا على الروايات القشتالية . وفى بعض هذه الروايات أن ملك قشتالة عاد بعد أن سوى خلافه مع أراجون إلى التدخل فى شئون غرناطة ، فزود ابن إسماعيل ببعض قواته ، وسار الأحنف لقتال منافسه ، ونشبت بين الفريقين فى ظاهر غرناطة معركة شديدة ، انتهت بهزيمة الأحنف وفراره ؛ ودخل ابن إسماعيل غرناطة ، وجلس على العرش ، وكان ذلك فى سنة ١٤٥٤م . وفى بعض الروايات الأخرى أن السلطان الأحنف استمر فى الحكم حتى سنة ١٤٥٨ م . ثم خلفه فى الحكم الأمير سعد بن محمد حفيد السلطان يوسف الثانى ، واستمر فى الحكم أربعة أعوام . ثم عزل فى سنة ١٤٦٢ م ، وأعيد السلطان يوسف الخامس ( ابن إسماعيل ) ، وحكم حتى أواخر سنة ١٤٦٣م[1].

وكان السلطان ابن إسماعيل أميراً عاقلا حازما عادلا ، محبا للإصلاح والأعمال الإنشائية ، فعكف على ضبط الأمور وتوطيد الأمن ، وإقامة الأبنية وتحصين القواعد والثغور . وكان فارسا بارعا يشترك بنفسه أحيانا فى مباريات الفروسة . ولأول عهده أرسل إلى ملك قشتالة خوان الثانى يؤكد طاعته ، وساد السلم لفترة قصيرة بين المسلمين والنصارى . ولكن خوان الثانى توفى بعد أشهر قلائل ، وخلفه ولده هنرى الرابع ، وأبى ابن اسماعيل أن يعترف بحماية ملك قشتالة

---

(١) Condé : ibid; V. III. p. 201 & 202 : وراجع أيضاً Seco de Lucena : Una Rectificación a la Historia de los ultimos Nasries (Al-Andalus Vol. XVII, Fasc. 1)

الجديد ، محاولا بذلك أن يكتسب الشعب إلى جانبه ، وأن يوطد مركزه ؛ وسير بعض قواته فى نفس الوقت فأغارت على الأراضى القشتالية ، وأصر ملك قشتالة من جانبه على وجوب خضوع ملك غرناطة وطاعته ، واعتزم أن يتابع الضغط على المملكة الإسلامية الصغيرة دون هوادة ، فسار إلى أراضى غرناطة فى جيش ضخم وعاث فيها ، وانتسف المروج والضياع ، وقتل وسبى من أهلها جموعا كبيرة ، ولقيه المسلمون فى قوات صغيرة أنزلت بجيشه خسائر كبيرة . وعاد القشتاليون فى العام التالى إلى عيثهم فى أراضى المسلمين ، وغزا المسلمون من جانبهم منطقة جيّان وأوقعوا هنالك بالنصارى ، واستمرت هذه المعارك مدى حين سجالا بين الفريقين . وكان النصارى قد استولوا فى تلك الفترة المضطربة من حياة المملكة الإسلامية ، على عدة من القواعد والثغور الإسلامية ، بعضها اختيارا بتنازل سلاطين غرناطة والبعض الآخر بالفتح . وكانت أعظم ضربة أصابت مملكة غرناطة فى عهد السلطان ابن إسماعيل، سقوط ثغر جبل طارق فى يد النصارى . فنى سنة ١٤٦٢ م ( ٨٦٧ هـ ) سارت إليه قوة من القشتاليين بقيادة الدوق مدينا سيدونيا ، واستولت عليه بطريق المفاجأة . وكان سقوط هذا الثغر المنيع فى يد النصارى ، أول خطوة ناجعة فى سبيل قطع علائق مملكة غرناطة بعدوة المغرب ؛ والحول دون قدوم الأمداد إليها من وراء البحر .

على أن خطر الفورات الإسلامية القوية فيما وراء البحر ، كان قد خبا منذ بعيد ، وأخذت دولة بنى مرين القوية تجوز مرحلة الإنحلال والسقوط ، وكان آخر ملوكهم السلطان عبد الحق ، قد خلف أباه السلطان أبا سعيد المرينى فى سنة ٨٢٣هـ (١٤١٥م) . وفى عصره ساد الاضطراب والتفكك فى أنحاء المملكة ، واستبد وزيره يحيى بن يحيى الوطّاسى بالدولة . وكان بنو وطّاس ينتمون إلى بطن من بطون بنى مرين ، وينافسونهم فى طلب الرياسة والملك ، فلما اشتدت وطأتهم على السلطان عبد الحق، بطش بهم وقتل معظم رؤسائهم ، وفى مقدمتهم وزيره يحيى ، ونجا البعض منهم وتفرقوا فى مختلف الأنحاء . وأسلم عبد الحق زمام دولته إلى اليهود فبغوا وعاثوا فى الدولة ؛ وغضب الشعب على مليكه ، واضطرمت الثورة ، وعزل عبد الحق وقتل ( ٨٦٩هـ — ١٤٦٤م ) ؛ وانتهت بمصرعه دولة بنى مرين بعد أن عاشت زهاء مائتى عام ؛ واستولى على تراث بنى مرين وملكهم ، بنو وطّاس خصومهم القدماء ، واستطاع زعيمهم محمد الشيخ أن يستولى على فاس فى سنة

٨٧٦ هـ ( ١٤٧١ م )[1] وبذا قامت بالمغرب دولة فتية جديدة ، بيد أنها لم تكن من المنعة والقوة بحيث تستطيع الإقدام على عبور البحر إلى الأندلس ، فى سبيل الجهاد والنجدة ، أسوة بما كانت تعمله دولة بنى مرين القوية الشامخة .

وهكذا كانت الأمة الأندلسية تشعر بأنها أضحت فريدة ، فى مواجهة عدوها القوى ، دون حليف ولا ناصر. ولم ير سلطان غرناطة بعد أن أضناه النضال ، بداً من قبول ما فرضه عليه ملك قشتالة من الاعتراف بسلطانه ، وتأدية الجزية اغتناماً للمهادنة والسلم . وكانت مملكة غرناطة تجوز فى هذه الآونة العصيبة ذاتها مرحلة من الاضطراب الداخلى ، وكان من أهم أسباب هذا الاضطراب الخطر ، اضطرام المنافسة بين العرش وبين الأسر النبيلة القوية ، مثل بنى سراج وبنى أضحى وبنى الثغرى وغيرهم[2] ، واضطرام المنافسة فيما بين هذه الأسر القوية ذاتها ، وغلبة نفوذ النساء فى البلاط . وكان من أثر ذلك أن حدثت فى سنة ١٤٦٢ م فتنة خطيرة من جراء محاولة السلطان ابن إسماعيل أن يقضى على نفوذ بنى سراج أقوى هذه الأسر وأعرقها . وهكذا كانت نذر التفكك تعمل عملها المشئوم[3] . ومع أن غرناطة تمتعت بمزايا الهدنة الخادعة التى عقدتها مع قشتالة لمدى قصير ، فقد كان من الواضح أن المملكة الإسلامية كانت تنحدر سراعاً إلى مصيرها الخطر ، وتواجه شبح الإنحلال الأخير .

---

( ١ ) راجع الإستقصاء ج ٢ ص ١٤٨ و ١٥٠ و ١٥١ و ١٦٠ .

( ٢ ) بنو أضحى أو بنو ضحى من سادة غرناطة ، وقد ذكرهم ابن الخطيب فى الإحاطة مع من ذكر من الأسر الغرناطية ، ولكنا لم نعثر فى الرواية الإسلامية على أية إشارة تلقى ضوءاً على أصل بنى الثغرى وهم الذين يسمون فى الرواية النصرانية (Zegris) . ويقول المستشرق الإسبانى جاينجوس مترجم نفح الطيب إن التسمية الفرنجية هى تحريف لكلمة الثغريين وهم الذين نزحوا من أراجون أو الثغر الأعلى ( مملكة سرقسطة ) إلى غرناطة بعد سقوطه فى يد النصارى **(Mohammedan Dynastics in Spain; V. II. p. 541 & Alhambra; Intr. p. 15 Note)**. وقد كانت كلمة الثغرى فيما يبدو صفة أو لقبا لكثير من الأسر النازحة من الثغر الأعلى ( أراجون ) إلى مختلف أنحاء الأندلس ولا سيما منذ القرن السادس الهجرى. ولهذا نجد عدداً من الزعماء يحمل هذا اللقب (راجع الحلة السيراء لابن الأبار ص ٢١٧ و ٢١٨) . على أن هذا التعليل لا يكشف لنا لقب هذه الأسرة الغرناطية الحقيق وإنما ينصرف إلى الصفة والشهرة. وهنالك ما يدل على أن آل الثغرى كانوا من البربر ومن قبيلة غمارة ؛ وقد كانت لهم كما سنرى مواقف مشهودة فى حرب غرناطة الأخيرة .

( ٣ ) يرى المستشرق جاينجوس أن منافسات بنى سراج وبنى الثغرى ، كانت من أهم أسباب التعجيل بسقوط غرناطة **Gayangos; ibid; V. I. p. 315**

ولم يمض قليل على ذلك حتى وقع انقلاب جديد فى ولاية العرش الغرناطى . ذلك أن الأمير سعداً عاد فهاجم الحمراء مع أنصاره وانتزع العرش لنفسه (١٤٦٣م) وفر ابن إسماعيل وخصوم السلطان الجديد . وهنا تلقى الرواية الإسلامية بعض الضوء على ماتلا من الحوادث فى غرناطة ، وهذه الرواية هى رواية مؤرخ ورحالة مصرى زار المغرب والأندلس فى هذه الفترة ، هو عبد الباسط بن خليل الحنفى ، دونها فى مؤلفه المسمى « كتاب الروض الباسم فى حوادث العمر والتراجم »[١] ؛ وهو يحدثنا عن بعض أخبار الأندلس التى سمعها أثناء زيارته للمغرب ثم بعد ذلك أثناء زيارته لغرناطة (سنة ٨٧٠ هـ) ، ويروى لنا ما وقف عليه من الحوادث فى سنى ٨٦٧ — ٨٧٠ هـ ؛ ثم يستطرد فيما بعد فيروى لنا ما سمعه من أخبار الأندلس حتى سنة ٨٨٧ هـ (١٤٨٢ م) .

ويقول لنا الرحالة المصرى إن سلطان الأندلس فى سنة ٨٦٧هـ (١٤٦٢— ١٤٦٣ م) كان سعد بن محمد بن يوسف المستعين بالله المعروف بابن الأحمر ، وإنه ما كاد يجلس على العرش حتى ثار عليه ولده أبو الحسن بتحريض بنى سراج وأخرجه عن غرناطة وامتلكها ؛ فسار سعد إلى مالقة ، وحكم أبو الحسن مكانه . وفى العام التالى أعنى سنة ٨٦٨هـ ، لما اشتد ضغط النصارى على الأندلس ، عاد أبو الحسن فعقد الصلح مع أبيه ، وأطلق سراحه ، واختار سعد الإقامة فى ألمرية فلم يعترض ولده ، ولم يلبث أن توفى فى أواخر هذا العام ، وعندئذ خلص العرش لأبى الحسن .

ولكن حدثت بعد ذلك منازعات حول ولاية العرش بين أبى الحسن ، وأخيه أبى الحجاج يوسف ، ولم ينته هذا النزاع إلا بوفاة يوسف بعد ذلك بقليل .

ويذكر لنا الرحالة أنه قابل السلطان أبا الحسن بحمراء غرناطة فى أواخر جمادى الأولى سنة ٨٧٠ هـ (يناير سنة ١٤٦٦ م)[٢] .

---

(١) تحفظ نسخة مخطوطة وحيدة من هذا الكتاب بمكتبة الڤاتيكان الرسولية برقمى 729 & 728 **Borg.** ، وهى فى مجلدين ، الأول يقع فى ٢٥٩ ورقة كبيرة ، والثانى فى ٦٦ ورقة . وترد أخبار الأندلس مبعثرة فى حوليات المجلدين المتوالية .

(٢) نقل العلامة المستشرق الأستاذ **G. della Vida** ما ورد فى كتاب عبد الباسط عن أخبار الأندلس ، ونشره مجتمعاً فى مقال عنوانه : **Il Regno de Granata nel 1463-66 nei recordi di un viagiattero egiziano** وذلك بمجلة الاندلس **(Al-Andalus Vol. I-1933-Fasc. II)**

وهذه النبذ القليلة التى يقدمها إلينا الرحالة المصرى ، تلقى ضوءاً حسناً على حوادث مملكة غرناطة فى تلك الفترة الدقيقة من حياتها .

* * *

وفى ذلك الحين بالذات استولى محمد الفاتح عاهل الترك العثمانيين على قسطنطينية ( سنة ١٤٥٣ م ) وانهار هذا الصرح المنيع ، الذى كان يحمى أوربا النصرانية من جهة الشرق ، من غزوات الإسلام ، وانساب تيار الفتح العثمانى إلى جنوب شرقى أوربا ، يكتسح فى طريقه كل مقاومة ، وروعت أوربا النصرانية لهذا الخطر الجديد الذى يهدد حريتها وسلامها ، وأخذت النزعة الصليبية تضطرم من جديد بقوة مضاعفة . وتردد هذا الصدى فى اسبانيا النصرانية ، حيث كانت مملكة غرناطة ما تزال بالرغم من صغرها وضعفها ، تمثل صولة الإسلام القديمة فى اسبانيا وقد تغدو فى الغرب نواة لهذا الخطر الإسلامى الداهم ، الذى بدت طلائعه فى الشرق على يد الغزاة الترك ، ومن ثم فقد كان طبيعياً أن تجيش اسبانيا النصرانية بفورة صليبية جديدة ، وأن يذكى هذا الخطر الجديد ، اهتمامها بالقضاء على مملكة غرناطة . وبالرغم مما كانت تجوزه مملكة غرناطة يومئذ من فتن داخلية ، وما كان يفت فى قواها من عوامل الإنحلال السياسى والاجتماعى ، فقد كانت تعتبر دائماً فى نظر اسبانيا النصرانية عدواً داخلياً له خطره . وكان أشد ما تخشاه اسبانيا النصرانية أن تغدو غرناطة قاعدة لفورة جديدة من الغزو الإسلامى تنساب من وراء البحر ، كما حدث فى الحقبة الأخيرة غير مرة . والحقيقة أن حياة هذه المملكة الإسلامية الصغيرة ، قد استطالت أكثر مما كانت تقدره اسبانيا النصرانية . وكانت مملكة قشتالة فى تلك الآونة بالذات تشغل بمنازعاتها الداخلية ، ومضى زهاء ربع قرن آخر قبل أن تتحد اسبانيا النصرانية فى مملكة قوية موحدة . وقد كانت خلال الأحداث التى توالت عليها فى تلك الفترة ، تجيش دائماً بنزعتها الصليبية المأثورة . فلما تحققت الوحدة واستقرت الأحوال واجتمعت الموارد ، أخذت فرصة القضاء الأخير على المملكة الإسلامية الصغيرة ، تبدو لخصيمتها القوية اسبانيا النصرانية ، فى الأفق قوية سانحة .

# الفصل التاسع

## تاريخ اسبانيا النصرانية

### منذ قيام مملكة غرناطة حتى اتحاد مملكتي قشتالة وأراجون

ألفونسو العاشر ملك قشتالة . مشاريعه نحو مملكة غرناطة . الحرب الأهلية فى قشتالة . ولاية سانشو الباسل . الخلاف بينه وبين النبلاء . عقد الهدنة بين غرناطة وقشتالة . ولاية فرناندو الرابع ووصاية أمه . اضطراب الأحوال فى قشتالة . توطد مركز فرناندو . غزو القشتاليين لأراضى الأندلس . استيلاؤهم على جبل طارق . ولاية ألفونسو الحادى عشر والوصاية عليه . زحف القشتاليين على غرناطة . هزيمتهم ومقتل زعمائهم . طغيان ألفونسو وعيثه . عبور سلطان المغرب إلى الأندلس . هزيمة المسلمين . غزو القشتاليين للجزيرة الخضراء . حصار جبل طارق وفشل النصارى . ولاية بيدرو القاسى . طغيانه وعنفه . الحرب الأهلية فى قشتالة . انتصار الكونت هنرى وارتقاؤه العرش . ازدهار قشتالة فى عهده . ولاية خوان الأول . الخلاف بينه وبين البرتغاليين . مصرعه وولاية ولده هنرى الثالث . توطد السلام والأمن فى عهده . ولاية خوان الثانى والوصاية عليه . ضعفه ولهوه . فرناندو الوصى يدعى لولاية عرش أراجون . الصراع بين خوان والأشراف . التهادن بين قشتالة وغرناطة . ولاية هنرى الرابع . اضطراب الأحوال فى عصره . استيلاء القشتاليين على جبل طارق . بيدرو الثالث ملك أراجون . النزاع حول عرش نابل . افتتاحه لصقلية . ألفونسو الثالث . ضغط النبلاء عليه . خايمى الثانى . الاستقرار فى عهده . ألفونسو الرابع . طغيان النبلاء وامتيازاتهم . بيدرو الرابع . الحرب الأهلية بين العرش والنبلاء . استيلاء بيدرو على الجزائر الشرقية . استرداده لصقلية . ولاية خوان الأول . ولاية مرتين الأول . الصداقة بين أراجون وغرناطة . وفاة مرتين وجلوس فرناندو صاحب أنتقيرة على العرش . حكمه المطلق . ولده ألفونسو الخامس . افتتاحه لمملكة نابل . أخوه خوان يحكم أراجون . ازدهار مملكة نابل . ولاية خوان الثانى لعرش أراجون . الحرب الأهلية فى أراجون . الحرب بين أراجون وفرنسا . وفاته وولاية ولده فرناندو . عود إلى تاريخ قشتالة . النزاع حول العرش بعد وفاة هنرى الرابع . أخته الأميرة إيسابيلا . قصة زواجها من فرناندو الأرجونى . معارضة أخيها هنرى . موافقتها على هذا الزواج . شروط الزواج وعقده . إعلان ولاية إيسابيلا عقب وفاة أخيها . خوانا ابنة الملك هنرى . مشروع زواجها من ملك البرتغال . غزو ملك البرتغال لقشتالة . ارتداده وفشل مشروعه . ارتقاء فرناندو عرش أراجون . اتحاد مملكتى قشتالة وأراجون . اسبانيا النصرانية الموحدة . فرناندو الكاثوليكى وصفاته وخلاله . إيسابيلا الكاثوليكية وصفاتها وخلالها . انحلال مملكة غرناطة . عزم فرناندو وايسابيلا على القضاء عليها .

### ١ — قشتالة

لما توفى فرناندو الثالث ملك قشتالة فى شهر مايو سنة ١٢٥٢م، خلفه فى الملك ولده ألفونسو العاشر الملقب بالعالم أو الحكيم El Sabío لشغفه بالعلوم والآداب

حسبما أشرنا من قبل . وشغل ألفونسو بالشئون والإصلاحات الداخلية ، ولاسيما الإصلاحات التشريعية . وكان المجتمع الإسبانى فى هذا العصر يشعر بحاجة شديدة إلى تشريعات تتفق مع تطوراته ، وتقضى على ما كان يعتوره من شذوذ فى تكوينه ، وتحد من طغيان الأشراف والسادة ، وتلطف من حدة التنافس والبغضاء بين الطوائف. وقد رأينا أن خايمى الفاتح ملك أراجون كان فى الوقت نفسه يضطلع فى مملكته بمثل هذا الدور الإصلاحى الهام . وكان ألفونسو تحدوه أطماع إمبراطورية ضخمة ، إذ كان يطمح إلى تاج الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، وذلك بسبب انحداره من أم ألمانية من آل هوهنشتاوفن هى ابنة الإمبراطور فيليب ، وقد أنفق فى سبيل هذا المشروع الخيالى أموالا طائلة ، واضطر لحاجته إلى المال أن يصدر نقداً زائفاً ، وأن يتخذ إجراءات ، كان لها أسوأ الأثر فى سير الأحوال الاقتصادية .

وكان ألفونسو بالرغم من اشتغاله بالشئون الداخلية ، يجرى على خطة أسلافه فى متابعة غزو الأراضى الإسلامية . وفى أوائل عهده استطاع أن ينتزع مدينة قادس من سكانها المسلمين ، بمعاونة حليفه ابن الأحمر صاحب غرناطة . بيد أن أمير غرناطة محمداً الفقيه ، لما شعر بعد ذلك بما يدبره ملك قشتالة من خطط للقضاء على المملكة الإسلامية ، عبر البحر إلى المغرب يطلب الغوث والعون ، من السلطان أبى يوسف يعقوب المنصور . وقد رأينا فيما تقدم كيف استجاب المنصور إلى صريخ الأندلس ، وعبر البحر إلى اسبانيا غير مرة وأثخن فى جيوش قشتالة .

وفى أواخر عهد ألفونسو العاشر ساءت الأحوال فى قشتالة ، وثار الأشراف على العرش ، لمحاولته أن يقضى على سلطانهم وامتيازاتهم . ثم خرج على ألفونسو ولده سانشو مناديا بحقه فى العرش ، وكونه أولى من ولد أخيه المتوفى المرشح لولاية العهد . واضطرمت فى قشتالة حرب أهلية خسر فيها ألفونسو عرشه ، والتجأ إلى السلطان أبى يوسف فأمده بالمال والجند حسبما فصلنا ذلك فى موضعه . واستمرت الحرب الأهلية بين ألفونسو وولده سانشو ، حتى توفى ألفونسو فى سنة ١٢٨٤م فى إشبيلية ، منبوذاً مهزوما ، وبذلك انتهت الحرب الأهلية فى قشتالة .

واستمر ولده سانشو الملقب بالباسل El Bravo على عرش قشتالة مدى حين بلا منازع ، ولكنه لم يلبث أن اختلف مع النبلاء الذين آزروه ضد أبيه من قبل ، ومع إخوته الأصاغر ، وكذلك مع أبناء أخيه الأكبر فرناندو الذى توفى قبل وفاة أبيه ، وثارت حول عرش قشتالة من جديد منازعات واضطرابات لانهاية

لها . وعمد سانشو إلى الدس والغيلة للتخلص من خصومه ، وأبدى فى مطاردتهم قسوة متناهية . وفى تلك الفترة التى اضطربت فيها شئون قشتالة ، آثر سانشو أن يستجيب إلى عقد السلم مع مملكة غرناطة ، وكان ابن الأحمر من جانبه يتوق إلى عقد مثل هذه الهدنة مع قشتالة ، لما كان يساوره من جزع من جراء تدخل سلطان المغرب أبى يوسف المنصور فى شئون الأندلس ، بصورة خشى معها على سلطانه حسبما فصلنا ذلك فى موضعه ، وعلى ذلك تمتعت غرناطة ببضعة أعوام من السكينة والسلام .

ولما توفى سانشو فى سنة ١٢٩٦ م ، خلفه ولده فرناندو الرابع طفلا فى السادسة من عمره ، وتولت الوصاية عليه أمه ماريا دى مولينا ، وبالرغم مما أبدته أمه من الشجاعة فى الذود عن العرش وعن الملك الطفل ، ومن براعة فى تصريف الشئون ، فقد كان عهده عهد اضطراب وفوضى ، وعاد النبلاء والمتنافسون فى طلب العرش إلى تدبير الثورات المتعاقبة ، واضطر الملك الطفل وأمه إلى الفرار من إشبيلية ، والالتجاء إلى حماية أهل آبلة الذين آزروه واستقبلوه بترحاب وحماسة . ولما بلغ فرناندو أشده ، استطاع أن يعود إلى عرشه بمؤازرة أصدقائه وأنصاره ، ولكنه أبدى قصوراً وعجزاً فى تسيير الشئون ، كما أبدى عقوقاً ونكراناً لأمه ، التى كفلته وحمته فى طفولته . وفى عهد فرناندو ساءت العلائق بين قشتالة ومملكة غرناطة ، وعاد النصارى إلى غزو أراضى المسلمين. وكان من أعظم الحوادث فى هذا العهد ، استيلاء القشتاليين على ثغر جبل طارق ، وذلك فى سنة ٧٠٩ هـ ( ١٣١٠ م ) .

ولما توفى فرناندو خلفه على العرش ولده الطفل ألفونسو ( الحادى عشر ) ، ولما يبلغ الحول من عمره ، وتولى الوصاية عليه الدون پيدرو والدون خوان وهما زعيما النبلاء . وبالرغم مما كان يسود قشتالة يومئذ من ضروب الاضطراب والفوضى ، فقد اعتزم رهط الأمراء والنبلاء المضى فى غزو الأراضى الإسلامية ، وعاث الجند القشتاليون فى بسائط غرناطة ، واستولوا على عدة من الحصون ، وهزموا المسلمين فى موقعة شديدة (١٣١٧م ) . وكان ذلك فى بداية عصر السلطان أبى الوليد إسماعيل . وبعد ذلك بعامين زحف الجند القشتاليون ، بقيادة الدون پيدرو والدون خوان الوصيين وعدد كبير من الأمراء ، على العاصمة الأندلسية ذاتها ، والتقى المسلمون والنصارى على مقربة من غرناطة ، وكانت موقعة هائلة كتب فيها النصر للمسلمين وقتل الدون پيدرو والدون خوان ومعظم الأمراء القشتاليين ( ١٣١٩م ) .

وانتهز المسلمون هذه الفرصة ، فقاموا بعدة غزوات ناجحة فى أراضى قشتالة ، واستولوا على بعض القواعد والحصون حسبما فصلنا ذلك فى موضعه . وفى خلال ذلك تفاقمت الأمور فى قشتالة واشتد النزاع بين النبلاء ، واستمرت هذه الحال طوال عهد الوصاية .

ولما بلغ الملك الطفل أشده ، وتولى أمور الملك بنفسه ، أخذت تتكشف صفاته المثيرة شيئاً فشيئاً . وبالرغم مما أبداه من مقدرة فى ضبط المملكة وتسيير الشئون ، وما قام به من الإصلاحات الإدارية والقضائية ، لتوطيد النظم التى يقوم عليها المجتمع القشتالى ، فقد كان يلجأ إلى أشد أساليب العنف والقمع ، وكان القتل وسيلته المثلى لحماية العرش وصون الدولة ، وقد زهق على يديه كثير من الأمراء والنبلاء والزعماء ، دون إجراءات ودون محاكمة ، حتى لقب من أجل ذلك « بالمنتقم » . وكان البلاط القشتالى فى عهده مرتعا للفجور والإثم . وكانت الملكة الشرعية الأميرة ماريا البرتغالية تعيش منبوذة فى عزلة مطبقة ، وتسيطر على القصر والدولة خليلة الملك إليونورا دى كزمان ، وقد رزق منها ألفونسو بعدة أبناء غير شرعيين . وهكذا كانت قشتالة تجوز يومئذ عهداً من الإرهاب ، والانحلال السياسى والاجتماعى .

ومع ذلك فقد كان ألفونسو الحادى عشر ملكا قوى البأس والعزم . وكان يضطرم نحو المملكة الإسلامية بمشاريع خطرة . وكانت غرناطة شعوراً منها بالخطر الذى يحدق بها . قد استغاثت بجارتها القوية وراء البحر مرة أخرى ، وبعث السلطان أبو الحسن المرينى جيوشه لنجدة الأندلس ، واجتمعت جيوش الممالك النصرانية ، قشتالة وأراجون للقاء الجيوش المغربية وهزمتها فى موقعة دموية فى سنة ١٣٣٩ م ؛ فاعتزم السلطان أبو الحسن أن يثأر لنفسه من تلك الهزيمة ، وجاز البحر بنفسه إلى الأندلس فى أسطول وجيش عظيمين ، واجتمعت الجيوش النصرانية بقيادة ألفونسو الحادى عشر ، والتقت بجيوش الأندلس والمغرب على ضفاف نهر سالادو فى الجزيرة الخضراء ، ونشبت بين الفريقين موقعة حاسمة هزم فيها المسلمون شر هزيمة وسقط معسكر سلطان المغرب ومخيمه فى يد النصارى حسبما فصلنا فى موضعه ، وكان ذلك فى ٣٠ أكتوبر سنة ١٣٤٠ م ( جمادى الأولى سنة ٧٤١ هـ ) ، واستولى النصارى على طريف والجزيرة الخضراء .

واستمرت غزوات النصارى لأراضى غرناطة بضعة أعوام أخرى . وفى سنة

١٣٤٩ م زحف القشتاليون على سهول الجزيرة الخضراء . وكان ثغر جبل طارق الذى استولى عليه النصارى مدى حين قد عاد إلى المسلمين ،واعتزم ملك قشتالة أن يحاول استرداده ، فضرب حوله الحصار الصارم، واستمر الحصار زهاء عام، والمسلمون داخل الصخرة صامدين ، وملك غرناطة يرابط بجيشه من وراء النصارى . ثم فشا الوباء فى جيش النصارى ، وهلك منه عدد جم ، وكان ملك قشتالة فى مقدمة الضحايا ، فاضطر النصارى إلى رفع الحصار ، وأنقذ جبل طارق بما يشبه المعجزة ( سنة ١٣٥٠ م ) .

وهكذا توفى ألفونسو الحادى عشر ملك قشتالة فى إبان قوته ومجده ، ولما يبلغ الثامنة والثلاثين من عمره ، فخلفه ولده پيدرو الثانى الملقب بالقاسى الذى تعرفه الرواية الإسلامية « بدون بطره » .وپيدرو شهير فى الرواية الإسلامية أولا لأنه هو الملك الذى أوفد إليه المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون سفيراً من قبل ملك غرناطة ، ووصف لنا فى التعريف سفارته لديه وإقامته فى قشتالة[1]. وثانيا لأنه معاصر للوزير ابن الخطيب مؤرخ غرناطة، وقد تناول أخباره فى تاريخه بتفصيل ووضوح .

ولجأ پيدور الثانى إلى نفس الأساليب الدموية التى لجأ إليها أبوه فى توطيد سلطانه ، فأسرف فى قتل خصومه ، وبسط على قشتالة حكم إرهاب مروع ، وقيل إنه لجأ إلى قتل زوجه الشرعية بلانش دى بوربون بالسم ليتزوج من خليلته، وعهد بإدارة حكومته إلى رهط من اليهود ارتيابا منه فى أبناء وطنه، وأنشأ له حرساً من المدجنين . ونشب الخلاف بينه وبين إخوته غير الشرعيين أبناء إلينورا دى كزمان ، ولاسيما كبيرهم الكونت هنرى دى تراستمارا . وانحاز الأشراف إليهم، واضطرمت قشتالة مدى أعوام بثورات داخلية ، ثم استحالت إلى حرب أهلية ضروس، واستطاع الكونت هنرى أن يحصل على معاونة ملك فرنسا، وأن ينتزع لنفسه عرش قشتالة ، وفر پيدرو واستغاث بالأمير أدوارد ولى عهد انجلترا المعروف بالأمير الأسود ، فأمده بجنده واستطاع أن يسترد عرشه مدى حين . ولكن أخاه الكونت هنرى عاد إلى محاربته فهزم وقتل فى موقعة مونتيل فى سنة ١٣٦٨ م . وقد عرضنا إلى هذه الحوادث بالتفصيل فى حديثنا عن عصر السلطان محمد الغنى بالله . وقد كانت تربطه ببيدرو الثانى معاهدة صداقة وتحالف، وكانت

(١) راجع كتاب العبر ج ٧ ص ٣٠٦ وما بعدها .

غرناطة إلى جانبه فى محنته ، وكان لهذه الحوادث صدى خاص فى الرواية الإسلامية عرض إليه ابن الخطيب فى كتابه « الإحاطة » على نحوما قدمنا .

وعلى أثر موقعة مونتيل استقر الكونت هنرى دى تراستمارا مكان أخيه على العرش( ١٣٦٨م ) ، وبدأ بذلك ثبت جديد من ملوك قشتالة . وفى عهده استتب الهدوء والنظام فى قشتالة ، وأقبل الأشراف على تأييده ، وكان للمدن التى آزرته فى جهوده لنيل العرش امتيازات خاصة ، وكذلك ازدهر البرلمان القشتالى (الكورتيس) واشتد ساعده ، ولكنه لم يوفق إلى الحد من طغيان العرش . وأبدى الكونت هنرى فى تسيير الشئون الداخلية مقدرة ،وأصاب نجاحا يذكر ،واستطاع فى ميدان الشئون الخارجية أن يرغم البرتغال على عقد الصلح ، وأن يهزم حملة بحرية فى مياه لاروشل. وكان حكمه على العموم فترة رخاء وأمن . وفى عهده انتهزت مملكة غرناطة فرصة اشتغال قشتالة بشئونها الداخلية فنظمت قواها ، وأغارت غير مرة على أراضى قشتالة فى غزوات ناجحة ، حسبما أشرنا إلى ذلك فى موضعه .

ولما توفى الكونت هنرى فى سنة ١٣٧٩ م ، خلفه على العرش ولده خوان ( يوحنا ) الأول . وكان الأمير چون أوف جونت ولد إدوارد الثالث ملك انجلترا قد تزوج كبرى بنات پيدرو الثانى ، وأخذ يطالب باسمها بعرش قشتالة ، وكادت تضطرم من أجل ذلك حرب أهلية جديدة ، ولكن خوان الأول استطاع أن يجتنب هذا الخطر بالتفاهم مع الأمير چون ، والاتفاق معه على أن يقترن ولده بالأميرة كونستانس كبرى بنات الأمير الإنجليزى ، وتم بذلك الزواج اتحاد فرعى ألفونسو الحادى عشر ، وزوال خطر الحرب الأهلية المترتب على خصومتهما حول العرش ؛ وحاول خوان الأول من جهة أخرى أن يطالب بعرش البرتغال عقب وفاة ملكها فرناندو سنة ١٣٨٣م باسم زوجه الأميرة بياتريس ، وهى الإبنة الوحيدة للملك المتوفى ، وثارت من جراء ذلك بين قشتالة والبرتغال حرب هزم فيها القشتاليون فى موقعة « الخبرونا » فى سنة ١٣٨٥م ، واضطر ملك قشتالة أن ينزل عن دعواه .

وتوفى خوان الأول قتيلا على أثر سقوطه عن جواده ( أكتوبر سنة ١٣٩٠م ) فخلفه على عرش قشتالة ولده هنرى (إنريكى ) الثالث حدثا . وكان سقيما عليلا ، ولم يطل أمد حكمه حينما بلغ الرشد سوى أعوام قلائل . بيد أنه استطاع فى حكمه القصير أن يوطد النظام والأمن داخل مملكته ، وأن يقضى على شغب الأشراف ،

وأن يسترد منهم كل الإقطاعات التى انتزعوها من العرش إبان طفولته . وفى عهده نشبت الحرب حيناً بين المسلمين والنصارى ، وانتهت بعقد الهدنة بين الفريقين ، ثم توفى شابا فى أواخر سنة ١٤٠٦ م .

فخلفه ولده خوان الثانى طفلا فى نحو الثانية من عمره ، ووضع تحت وصاية أمه الملكة كونستانس الإنجليزية ، وعمه الأمير فرناندو الذى يعرف بفرناندو صاحب أنتقيرة ، نظراً لاستيلائه على هذه القاعدة من المسلمين فى سنة ١٤١٢م .

وطال حكم خوان الثانى زهاء نصف قرن ، وكان أميراً ضعيف الرأى والعزم سيئ الخلال ، يعشق اللهو وينفق أوقاته فى حفلات الصيد والفروسة وقرض الشعر ، وكان عمه الوصى فرناندو فى الأعوام الأولى من طفولته ، يقبض على زمام الأمور بحزم وبصيرة . بيد أنه دعى منذ سنة ١٤١٢ م إلى تبوىء عرش أراجون بقرار من الكورتيس ، فترك قشتالة لمصيرها . وما كاد خوان الثانى يبلغ أشده ، حتى بدأ النضال بينه وبين الأشراف من أجل السلطة وفرض الضرائب ، وشغلت قشتالة مدى حين بأمر هذا النضال . وفوض الملك شئون الدولة إلى وزيره وصفيه ألبارو دى لونا ، فاستأثر بكل سلطة ، واستطاع أن يوطد نفوذ العرش ، وأن يحقق النظام والأمن . فلما اقترن خوان بزوجه الثانية إيسابيلا البرتغالية ، عملت على تحريره من نفوذ وزيره القوى ، وما زالت به حتى أسقطه وأقصاه . ويقال إن هذا التصرف الغادر نغص عليه حياته فى أعوامه الأخيرة . وتوفى خوان الثانى فى يوليه سنة ١٤٥٤ م فى بلد الوليد ، وقد رزق من زواجه الثانى بابنته إيسابيلا وهى التى تبوأت العرش فيما بعد ، وعرفت بايسابيلا الكاثوليكية ، وكان لها أعظم شأن فى تاريخ اسبانيا النصرانية .

وفى معظم عصره ساد نوع من السلام والتهادن بين غرناطة وقشتالة ، وكانت حفلات الفروسية الأندلسية الشهيرة تجمع بين الأشراف والسادة من الفريقين ، فى جو من التعاطف والمودة . ولكن غرناطة ما لبثت أن شغلت بثوراتها الداخلية التى تعاقبت حول العرش فى عصر السلطان الأيسر وخلفائه . وكان بلاط قشتالة يلعب عندئذ دوره المأثور ، فى إذكاء عوامل الخلاف بين المتنافسين من أمراء غرناطة ، وتغليب البعض على البعض الآخر ، والتمهيد بذلك لإضعاف مملكة غرناطة والقضاء عليها .

وخلف خوان الثانى ولده هنرى ( إنريكى ) الرابع ، وكان كأبيه أميرا ضعيفاً

منحل الحلال ، حتى أنه لقب « بالعاجز » . وكان عصره عصر ركود وفوضى ؛ ومع ذلك فإن قشتالة لم تقعد فى عهده عن المضى فى غزو الأراضى الإسلامية ، وإرهاق مملكة غرناطة ، التى اضطربت شئونها وسادتها الخلافات الداخلية ، واضطر ملك غرناطة السلطان ابن إسماعيل أن يتعهد بتأدية الجزية لقشتالة . وكان من أعظم الحوادث فى عصر هنرى الرابع استيلاء القشتاليين نهائيا على ثغرجبل طارق ( ١٤٦٢م ) حسبما ذكرنا فى موضعه . وتوفى الملك هنرى فى سنة ١٤٧٤م . وعلى أثر وفاته عارض النبلاء فى جلوس ابنته الوحيدة خوانا على العرش لما يحيط بنسبتها إليه من الريب. وهنا تقدمت أخته الأميرة إيسابيلا مطالبة بعرش قشتالة . وكانت قد تزوجت فى سنة ١٤٦٩ م من ابن عمها الأمير فرناندو الأرجونى ، وذلك بالرغم من معارضة أخيها الملك هنرى ، وكان لهذا الزواج أثر بعيد المدى فى سير التاريخ الإسبانى حسبما نفصل بعد .

## ٢ — أراجون

لما توفى خايمى الأول أوخايمى الفاتح ملك أراجون فى سنة ١٢٧٤ م ، خلفه على العرش ولده پيدرو الثالث . وتبدأ منذ عهد هذا الملك صفحة جديدة فى تاريخ أراجون، حيث يمتد سلطان العرش الأرجونى واسبانيا النصرانية فيما وراء البحر ، إلى صقلية وجنوبى إيطاليا ( مملكة نابل ) . وذلك أن پيدرو الثالث تزوج الأميرة كونستانس إبنة مانفرد دوق بنڤونتوم وصاحب مملكة نابل وصقلية باعتباره سليل بيت هوهنشتاوفن الإمبراطورى . وكان البابا يريد التخلص من سلطان أولئك الأمراء الألمان ، فدعا شارل دانجو ولد ملك فرنسا إلى اعتلاء عرش نابل ، فاستجاب شارل إلى الدعوة وغزا نابل وقتل صاحبها مانفرد . وهنا تقدم بيدرو الثالث مطالبا بعرش نابل باسم زوجه، ونشب بين الحزب الأرجونى وبين حزب شارل دانجو نزاع طويل الأمد . وفى النهاية استطاع پيدرو أن يغزو صقلية وأن ينتزعها من يد الفرنسيين ، وأسبغ عليه هذا الفتح لقب « الأكبر » . ولما حاول الفرنسيون غزو قطلونية تأييداً لشارل دانجو ، ردهم پيدرو وأخفقت المحاولة . وكان افتتاح صقلية أول خطوة فى بسط السيادة الإسبانية على جنوبى إيطاليا فيما بعد . ولما توفى بيدرو الثالث فى سنة ١٢٨٥ م ، كانت سيادة أراجون تمتد فضلا عن صقلية إلى بعض أنحاء بروڤانس فى جنوبى فرنسا .

وخلفه على العرش ولده ألفونسو الثالث ، وكان ضعيفاً سيئ الخلال ، ولم يطل أمد حكمه سوى بضعة أعوام . وفى عهده اشتدت وطأة النبلاء وكثرت مطالبهم ، وعجز ألفونسو عن مقاومتهم ، وكان تخاذل العرش أمام طغيان الأشراف على هذا النحو ، سبباً فى اضطراب الأمور فى مملكة أراجون .

وتوفى ألفونسو الثالث سنة ١٢٩١ م دون عقب لأنه لم يتزوج ، فخلفه على عرش أراجون أخوه الأصغر خايمى الثانى . وكان يتولى عرش صقلية منذ وفاة أبيه فى سنة ١٢٨٥ م حتى وفاة أخيه الأكبر . ورأى خايمى أن يوفق بين أراجون وبين مملكة نابل ، فتزوج من بلانكا ابنة شارل دانجو ، وساد السلم حينا بين أراجون وفرنسا . واستطال حكم خايمى حتى سنة ١٣٢٧م ، وكان عهده اصلاح واستقرار . ثم خلفه فى الملك ولده ألفونسو الرابع ، فحكم زهاء تسعة أعوام ، وكان أميراً ضعيفاً . وفى عهده زاد طغيان النبلاء ولاسيما فى أراجون وبلنسية ، واشتد إرهاقهم للعرش حتى انتهوا بإرغام الفونسو على إصدار المرسوم المعروف بمرسوم الإتحاد ، وفيه يعترف العرش لهم بأنه لا تجوز معاقبتهم فيما يتعلق بالنفس أو المال إلا بحكم القانون ، وأن يكون لهم حق اختيار القاضى الأكبر الذى يصدر أحكامه مستقلا عن مصادقة العرش ، وأن يقوموا بالدفاع المسلح عن أنفسهم حيثما شعروا بما يهددهم . وكان فى صدور هذا المرسوم افتئات لم يسبق له مثيل على سلطات العرش .

وكان بيدرو الرابع الذى خلف أباه ألفونسو على العرش سنة ١٣٣٦ م ، أميراً قوياً وافر العزم . وكان يتوق إلى كبح جماح أولئك النبلاء الذين طال طغيانهم ، وإلغاء ذلك المرسوم الذى أرغم أبوه على إصداره . ولكن النبلاء تمسكوا بموقفهم ، وتأهبوا للدفاع عن امتيازاتهم ، واضطرمت أراجون بحرب أهلية بين العرش والنبلاء انتهت بفوز بيدرو الرابع على النبلاء الخوارج فى موقعة آبلة سنة ١٣٤٨م . وأمعن بيدرو بعد ذلك فى مطاردة خصومه وقتلهم ، وأرغم النبلاء على التنازل عن مرسوم الإتحاد ، وقام بنفسه بتمزيقه أمام مجالس النواب فى سرقسطة ، وبلغ من تلفهه على تمزيقه أن جرح يده بخنجره ، وصاح عندئذ بأن الدم الملكى حقيق بأن يجرى فى سبيل إبطال مثل هذه الوثيقة ، وعرف من جراء ذلك « بصاحب الخنجر » . على أن بيدرو كان حكيما فى ظفره ، فقد ترك للنبلاء الحق فى أن يحاكموا بمقتضى القانون ، وأن تكفل حمايتهم من الأحكام التعسفية ، وأكد احترامه لاستقلال القضاء ، وترك للمدن حق الإعراب عن رأيها . وفى العام التالى (١٣٤٩م)

استطاع بيدرو الرابع أن ينتزع الجزائر الشرقية ( البليار ) من ابن عمه خايمى الثالث ، بعد أن هزم وقتل فى موقعة دموية ، وأعيدت الجزائر الشرقية إلى مملكة أراجون مرة أخرى ، وكان خايمى الفاتح قد تركها بمقتضى وصيته لخايمى أحد أولاده ، وقامت بها مملكة مستقلة مدى حين . ونشبت الخصومة بعد ذلك بين بيدرو ملك أراجون ، وبيدرو القاسى ملك قشتالة ، وانحاز ملك أراجون إلى الكونت هنرى دى تراستمارا المطالب بعرش قشتالة ، واستمر يعاونه بالمال والجند ، حتى انتهى أخيراً بالتغلب على أخيه بيدرو القاسى ، والجلوس على عرش قشتالة سنة ١٣٦٩ م حسبما فصلنا من قبل . وظفر بيدرو كذلك باسترداد صقلية فى سنة ١٣٧٧ م ، ولكنه منح حكمها لابنه مرتين ، وزوج بيدرو ابنته إلينور لخوان الأول ملك قشتالة ، فكان ذلك فيما بعد سبباً فى انتقال عرش أراجون إلى بيت قشتالة الملكى حينما انقرض عقبه من الذكور .

وتوفى بيدرو الرابع سنة ١٣٨٧م ، وأراجون أوفر ما تكون قوة ، واستقرارا فخلفه ولده خوان ( يوحنا ) الأول . وكان أميراً ضعيف الخلال والعزم ، يعشق الأدب والشعر وتضجره مهام الملك ، ولم يطل أمد حكمه سوى بضعة أعوام ، إذ توفى فى حادث سقوطه عن جواده سنة ١٣٩٥ م .

فخلفه أخوه الأصغر مرتين الأول . وكان حكمه عهد هدوء واستقرار . ومنح عرش صقلية لولده مرتين . وفى عهده سادت علائق المودة والصداقة بين أراجون وغرناطة ، وعقدت بين المملكتين معاهدة صداقة وتحالف (سنة ١٤٠٥م) . ولما توفى مرتين فى سنة ١٤١٠ م دون عقب ، ثارت حول وراثة عرش أراجون مشكلة دقيقة ، وتولى مجلس الكورتيس ( البرلمان ) حكم البلاد ، واستمر مدى عامين فى مباحثات ومناقشات مستمرة حول مسألة العرش ، وفى النهاية أصدر قراره باختيار الأمير فرناندو القشتالى ولد خوان الأول ملك قشتالة ، والمعروف بفرناندو صاحب أنتقيرة ، للجلوس على عرش أراجون ، وذلك باعتباره ولد الملكة إلينور ابنة بيدرو الرابع ملك أراجون وأخت الملك مرتين ، فلبى فرناندو الدعوة وتخلى عن وصايته لابن أخيه خوان الثانى ملك قشتالة ، وجلس على عرش أراجون سنة ١٤١٢ م ، وبدأ بذلك ثبت جديد من ملوك أراجون .

ولم يطل أمد حكم الملك فرناندو سوى أربعة أعوام ، وكان أميراً قوى الخلال ذا مقدرة وفطنة فى تصريف الشئون ، ولكنه كان يضطرم بروح السلطان

المطلق التى ألفها فى قشتالة ، ويتبرم بالحدود والقيود التى وضعها الدستور الأرجونى للحد من سلطان العرش . والواقع أن الحريات الدستورية كانت فى أراجون ، أرسخ وأكثر نضوجا منها فى قشتالة ، وكان ذلك يرجع إلى طبيعة الشعب الأرجونى ، وشدة مراسه ، وتعلقه بمبادئ الحرية ، وهى صفات لم تكن تروق فى تلك العصور للملوكية رجعية ، تحرص على سلطانها المطلق .

ولما توفى فرناندو الأول فى سنة ١٤١٦ م ، خلفه على عرش أراجون ، ولده ألفونسو الخامس المعروف بألفونسو « الشهم » El Magnánimo ؛ على أن ألفونسو الخامس لا يكاد يمثل فى تاريخ أراجون ، وإنما يمثل بالأخص فى تاريخ إيطاليا ومملكة نابل . وقد ورث ألفونسو عرش صقلية مع عرش أراجون ، واستطاع بعد حوادث وخطوب جمة أن يفتتح مملكة نابل وأن يجلس على عرشها ( ١٤٤٢ م ) . واستقر ألفونسو فى نابل ، وترك حكم أراجون والأراضى التابعة لها لأخيه خوان ( يوحنا ) ، يحكمها باسمه ومن قبله . وبسط ألفونسو على نابل وصقلية حكمه الفخم ، وسطع بلاطه بين القصور الإيطالية ، وكان نصيراً للعلوم والآداب والفنون ، يأخذ فى تعضيدها بقسط وافر ، شأن معاصريه من الأمراء والبابوات الذين ساهموا فى بعث النهضة ، وسطعوا فى عصر الإحياء ( الرينصانص ) . ولما توفى فى سنة ١٤٥٨ م ، دون عقب شرعى ، ترك مملكة نابل لولده غير الشرعى فرناندو ، وجلس أخوه خوان على عرش أراجون باسم خوان الثانى .

وكان خوان الثانى أميراً وافر العزم والمقدرة ، ولكنه كان فى الوقت نفسه طاغية خطر الأهواء والأساليب . وشغل خوان عن شئون أراجون الداخلية ، بكفاحه فى سبيل الحصول على عرش ناڤارا ، باعتباره زوجا ووريثا لملكتها بلانش ، وكذلك شغلته ثورة ولده الأمير كارلوس المعروف بأمير ڤيانا مدى حين ، وكان ينافس أباه فى الحصول على عرش ناڤارا ، ويرى أنه أحق منه بميراث أمه . وحاول خوان بتحريض زوجه الثانية چنه هنريكيز أن يحرم ولده من نيابة العرش ، فثار إلى جانبه فريق من الشعب الأرجونى ، ونشبت بين الأب والإبن عدة وقائع انتهت بوفاة الإبن فى سنة ١٤٦١ م . وقيل إنه توفى مسموماً بيد زوج أبيه . وكذلك ثار الشعب القطلونى معلناً استقلاله . وشغل خوان بضعة أعوام حتى استطاع أن يخمد هذه الثورة الخطيرة (١٤٧٢ م ) . وكذلك نشبت الحرب بين أراجون وفرنسا ، من أجل ولاية روسيّون الفرنسية ، وهزم خوان غير مرة . على أن

أعظم مهمة شغلت خوان فى أواخر عهده ، هى السعى إلى تزويج ولده فرناندو من زوجه الثانية ، بالأميرة ( إيسابيل ) القشتالية(١) ؛ وقد كلل سعيه بالنجاح فى تحقيق هذا المشروع الخطير الذى كان إيذاناً باتحاد أراجون وقشتالة فى مملكة اسبانية موحدة .

واستطال حكم خوان الثانى حتى سنة ١٤٧٩ م ؛ وقد بلغ الثمانين من عمره وكف بصره ، فترك العرش لولده فرناندو ، الذى قدر له أن يضطلع مع زوجه إيسابيلا ، بأعظم دور فى العمل لإنشاء اسبانيا الكبرى .

## ٣ — اسبانيا النصرانية المتحدة

لما توفى هنرى الرابع ملك قشتالة فى سنة ١٤٧٤م ، ثارت حول وراثة العرش مشكلة دقيقة . ذلك أن الملك هنرى لم يترك سوى ابنة طفلة هى خوانا ( چنه) . وكانت مع ذلك يشك فى نسبتها إليه ، وتنسب أبوتها إلى صديقه وصفيه الدوق بلتران دى لاكويڤا ، ومن ثم كان اسمها الذائع خوانا بلترانيخا . وكان يناصرها فريق صغير من النبلاء . بيد أن الأميرة إيسابيلا أخت الملك هنرى ، كانت بالعكس تتمتع بعطف الشعب القشتالى ، ويناصر وراثتها للعرش فريق كبير من النبلاء ، وكان أخوها الملك هنرى قد اعترف بحقها فى العرش ، وأيدها الكورتيس ( مجلس النواب ) فى ذلك ، عقب وفاة أخيها ألفونسو فى سنة ١٤٦٨ م ، ومن ثم فقد كان حقها فى وراثة العرش أمراً واضحاً .

وكانت الملكة إيسابيلا قد تزوجت قبل وفاة أخيها ببضعة أعوام ، بابن عمها الأمير فرناندو الأرجونى ولد الملك خوان الثانى . ولهذا الزواج الذى مهد لتوحيد اسبانيا النصرانية قصة طريفة . فقد كانت الأميرة إيسابيلا مذ كبرت مطمح الأنظار لما يؤهلها لعرش قشتالة من الاحتمالات القوية . وكان خوان الثانى ملك أراجون يتوق إلى خطبتها لابنه فرناندو لما يربط أسرتى قشتالة وأراجون من أواصر القربى الوثيقة ، ويقرب سبل الإتحاد بين الفريقين . وكان فرناندو أول المتقدمين لخطبة الأميرة ، ولكن أخاها الملك هنرى لم يكن راضياً عن ترشيحه ؛ وكان ينافسه فى خطبتها عدة من الأمراء والنبلاء منهم كبير فرسان قلعة رباح ، وقد وافق أخوها

---

( ١ ) هى فى التواريخ القشتالية « دونيا إيسابيل » اى السيدة إيسابيل Dona Isabel ، أو Ysabel . ولكنا نؤثر تسميتها بإيسابيلا تمشياً مع التواريخ الغربية .

الملكة إيسابيلا الكاثوليكية
عن الصورة المحفوظة بمتحف سان تلمو بإشبيلية

الملك هنرى على زواجه منها ، ولكنه توفى قبل إتمامه ؛ وكذلك خطبها ألفونسو ملك البرتغال وأمراء آخرون ، ولكن إيسابيلا رغبت عنهم جميعا ، وآثرت بعد إمعان النظر أن تستجيب إلى دعوة ابن عمها فرناندو الأرجونى ، لنفس البواعث التى دعت إلى تقدمه إليها ، ولأنه يجمع بينهما من الجد بيت ملكى واحد . ووُضعت شروط الزواج بين الفريقين سراً نظراً لمعارضة الملك هنرى ، وفيها يتعهد فرناندو بأن يحترم قوانين قشتالة وتقاليدها ، وأن يجعل مقر إقامته فيها ، وألا يغادرها دون إذن إيسابيلا ، وألا يجرى أى قرارات أو تعيينات فى المملكة دون إذنها ، وتعهد بالأخص بأن يتابع الحرب ضد المسلمين . وفى أكتوبر سنة ١٤٦٩ عقد الزواج فى مدينة بلد الوليد Valladolid ، حيث كانت تقيم الأميرة ، فى حفل خاص لم يشهده سوى قليل من الأصدقاء ، وأخطرت الأميرة أخاها بعقد الزواج ، بكتاب تشرح فيه البواعث التى حدت بها إلى إتمامه . وهكذا حققت أمنية ملك أراجون ، وأثبتت الحوادث التالية بعد نظره ، وخطورة مشروعه .

وأعلنت إيسابيلا عقب وفاة أخيها ملكة لقشتالة وليون ، فى شقوبية[1] حيث كانت تقيم ، وذلك فى ديسمبر سنة ١٤٧٤م ، وحذت مدن أخرى حذو شقوبية ، ولكن الأمر لم يكن هيناً ، ذلك أنه كان ثمة فريق من النبلاء يناصر الأميرة خوانا ابنة الملك المتوفى ، وكان زوجها فرناندو يطمح فوق ذلك إلى انتزاع العرش لنفسه ، باعتباره آخر عقب من الذكور لبيت قشتالة الملكى ؛ ولكن إيسابيلا تمسكت بحقها ، وانتهى الأمر بينهما بالاتفاق على مزاولة الملك المشترك ، تعتبر فيه إيسابيلا ملكة أصلية لقشتالة ، لها الرأى الأول فى الجليل من الشئون ، ويجرى القضاء وتسك العملة باسميهما . وكان خصوم إيسابيلا فى ذلك الحين وعلى رأسهم مطران طليطلة ، قد تفاهموا مع ملك البرتغال ألفونسو الخامس ، على تأييد سعيهم فى تنصيب خوانا ملكة وهى ابنة أخته ، وعلى الاقتران بها . وفى مايو سنة ١٤٧٥ غزا ملك البرتغال قشتالة بقواته ، واخترق هضابها الشمالية حتى مدينة سمورة ، وبادر فرناندو وإيسابيلا بالسير فى قواتهما إلى لقائه ، واشتبك الفريقان على مقربة من تورو بجوار سمورة ، فارتد القشتاليون فى البداية ، ولكن ألفونسو لم يبادر إلى الاستفادة من تفوقه ، وطال الصراع بين الفريقين بضعة أشهر ، وفى النهاية رجحت كفة القشتاليين ، واضطر ملك البرتغال أن يرتد أدراجه ( فبراير سنة ١٤٧٦ م ) .

---

(١) هى بالإسبانية Segovia .

الملك فرناندو الخامس ( الكاثوليكى )
عن الصورة المحفوظة بمتحف سان تلمو بإشبيلية

وهكذا انتصر فرناندو وإيسابيلا على خصومهما ، واستقرا معا على عرش قشتالة بلا منازع . وفى سنة ١٤٧٩ ارتقى فرناندو عرش أراجون على أثر وفاة أبيه خوان الثانى ، وبذلك اتحدت المملكتان الإسبانيتان فى ظل عرش واحد ، بعد أن فرقت بينهما المنافسات والخطوب أحقاباً ، واجتمعت كلمة اسبانيا النصرانية بعد أن طال افتراقها ؛ وبدأت اسبانيا فى ظل فرناندو وإيسابيلا ، أو فى ظل الملكين الكاثوليكيين حسبما لقبا بعد ، عصراً من القوة والعظمة والسؤدد ، لم تشهده فى تاريخها من قبل ، وهو بحق فاتحة عصرها الذهبى .

وكان فرناندو الخامس أو فرناندو الكاثوليكى من أعظم ملوك اسبانيا النصرانية وأوفرهم عزماً وهمة ؛ وكان يتمتع بمقدرة فائقة ، سواء فى الإدارة أو فى ميادين الحرب والسياسة . بيد أن هذا الجانب الحسن من خلاله ، كانت تغشاه صفات سيئة ، فقد كان فرناندو أميراً لا وازع له ، يجنح فى سياسته إلى الغدر ، ومجانبة الوفاء ، وكان رجل الفرصة السانحة ، يلتمس إلى تحقيق أطماعه العظيمة أى الوسائل ، مهما كانت تجانب المبادئ الأخلاقية المقررة ، أو مقتضيات الفروسة والوفاء . وسوف نرى كيف تتجلى هذه الخلال البغيضة فى تصرفاته وأساليبه فى معاملة الأمة الأندلسية المغلوبة .

وكانت زوجه الملكة إيسابيلا تتمتع أيضاً بكثير من الذكاء والعزم . وكانت تثير برقتها وتواضعها واحتشامها ، حب الشعب القشتالى وإعجابه . بيد أنها كانت تجيش بنزعة دينية عميقة ، تذهب أحياناً مذهب التعصب المضطرم ، وكانت تقع تحت تأثير الأحبار المتعصبين ، وتنزل عند تحريضهم وتوجيههم ؛ وكان مشروع غزو مملكة غرناطة والقضاء على الأمة الأندلسية ، يذكى فى نفس هذه الملكة الورعة التى تنعت أيضاً « بالكاثوليكية » ، أشنع ضروب التعصب ، ويحملها على مؤازرة ديوان التحقيق الإسبانى(١) ، وإقرار كل ما جنح إلى ارتكابه باسم الدين ، من الأعمال والجرائم المثيرة .

وفى الوقت الذى جلس فيه فرناندو وإيسابيلا على عرش اسبانيا القوية الموحدة ، كانت مملكة غرناطة تدخل بعد سلسلة طويلة من الحروب الأهلية فى مرحلة النزع الأخيرة . وكان يجلس على عرشها وقتئذ السلطان على أبو الحسن ، ولد السلطان

---

(١) نريد هنا بديوان التحقيق Inquisición (Inquisition) المحاكم المعروفة خطأ باسم « محاكم التفتيش » .

سعد المستعين بالله . وكانت مملكتا قشتالة وأراجون قد شغلتا مدى حين بطائفة من الإضطرابات والحروب الداخلية ، المتعلقة بوراثة العرش وغيرها ، مما سبق أن فصلناه فى مواضعه ، فلم تسعفهما الفرص للاستمرار فى محاربة المسلمين . ولكن عهد الفتنة والخصومات الداخلية انتهى بجلوس فرناندو وإيسابيلا على عرش المملكة الإسبانية المتحدة . وكان شهر الحرب على مملكة غرناطة ، من أهم الأغراض القومية المشتركة التى تعاهد الملكان على الاضطلاع بها ، ومن ثم فإنه ما كادت تستقر شئون قشتالة الداخلية ، حتى أخذ الملكان « الكاثوليكيان » يستعدان لمحاربة المسلمين بكل ما أوتيا من قوة وعزم .

وهنا نقف فى سرد تاريخ اسبانيا النصرانية ، لنعود إلى استئناف حديثنا عن مملكة غرناطة والمأساة الأندلسية .

# الكتاب الثاني

## نهاية
## دولة الإسلام في الأندلس

٨٦٨ – ٨٩٧ هـ : ١٤٦٣ – ١٤٩٢ م

# الفصل الأول

## الأندلس على شفا المنحدر

انحلال مملكة غرناطة . ابن الخطيب وشعوره بمصير الأندلس . تشاؤم ابن خلدون . مملكة غرناطة وعون بنى مرين . تربص اسبانيا النصرانية . ولاية السلطان أبى الحسن . أسرة بنيغش . استرداده لبعض الحصون . خروج أخيه أبى عبد الله الزغل عليه . عقد الصلح بينهما . اتحاد اسبانيا النصرانية . العلائق بين غرناطة وقشتالة . فرناندو يطالب بالجزية . أبو الحسن يغزو أرض النصارى . استيلاؤه على قلعة الصخرة . طغيانه وانحرافه . زوجه عائشة الحرة والخلاف حول اسمها . اقترانه بثريا النصرانية . الزواج المختلط وأثره فى انحلال المجتمع الأندلسى . التنافس بين الملكة الشرعية وثريا . اعتقال الأميرة عائشة وولدها . انقسام الزعماء والقادة . استئثار ثريا بالسلطة . سعيها لسحق أبى عبد الله ولد عائشة . فرار الأميرة عائشة وولدها . ظهور دعوتهم فى وادى آش . الحرب بين المسلمين والنصارى . مهاجمة النصارى لمدينة الحامة واستيلاؤهم عليها . فشل أبى الحسن فى إنقاذها . مهاجمة فرناندو لمدينة لوشة . إنجادها وهزيمة النصارى . الثورة فى غرناطة . فرار أبى الحسن إلى مالقة . جلوس ولده أبى عبد الله على العرش . مسير النصارى إلى مالقة . هزيمتهم الفادحة . خروج أبى عبد الله إلى الغزو . هزيمة المسلمين عند حصن اللسانة. أسر النصارى لأبى عبد الله واقتياده إلى قرطبة . الاضطراب فى غرناطة . نزول أبى الحسن عن العرش لأخيه أبى عبد الله الزغل . السعى إلى افتداء أبى عبدالله . خطة ملكى قشتالة فى استغلاله . معاهدة سرية بين الملكين وأبى عبد الله . تسريح أبى عبد الله والخلاف حوله . ضعف أبى عبد الله . زحف النصارى على رندة واستيلاؤهم عليها . هزيمتهم أمام حصن موكلين . الحرب الأهلية فى غرناطة . ظهور أبى عبد الله فى المنطقة الشرقية . دعوته إلى الصلح مع النصارى . مهاجمة النصارى للوشه واستيلاؤهم عليها . ما يقال عن اشتراك أبى عبد الله فى الدفاع عنها . سقوط الحصون الإسلامية فى يد النصارى. الأنفاط التى استعملت فى حرب عبد الله وعمه الزغل . إمداد فرناندو لأبى عبد الله . مسير فرناندو إلى بلش مالقة . إسراع الزغل إلى إنجادها . سقوطها فى يد النصارى . تأييد غرناطة لأبى عبد الله . ارتداد الزغل إلى وادى آش . انقسام مملكة غرناطة .

— ١ —

وهكذا كانت شمس الأندلس تؤذن بالغروب ، وكانت تغرب فى الواقع بخطى وئيدة ، ولكن مؤكدة .

ولم يك ثمة شك فى أن هذه المملكة الإسلامية الصغيرة ، التى يسودها الخلاف والتفرق ، وتعصف بوحدتها ومنعتها الحروب الداخلية ، كانت تنتحر ببطئ ، وأن هذه الأمة الأندلسية ، التى أخذت تنكمش فى مدنها وثغورها القليلة ، كانت

تنظر إلى المستقبل بعين التوجس والجزع ، وأن هذه الحياة الباهرة الساطعة التى كانت تحياها بين آن وآخر ، كلما تربع على العرش أمير قوى رفيع الخلال ، لم تكن إلا سويعات النعماء الأخيرة ، فى حياة أمه عظيمة تالدة . وقد كان هذا الشعور يخالج رجالات الأندلس منذ بعيد ، حتى قبل أن تتفاقم الأمور ، وتغدو مملكة غرناطة ألعوبة فى يد بلاط قشتالة ، وكانوا يستشفون من وراء ذلك خطر الفناء المحقق ، وكان ابن الخطيب وزير الأندلس ومفكرها الكبير ، أشدهم شعوراً بذلك الخطر الداهم ، وقد استشعر به قبل وقوعه بأكثر من قرن ، فعكف يهيب بقومه وإخوانه المسلمين فيما وراء البحر ، ويستنفرهم إلى الجهاد . ومما خاطبهم به قوله : « أيها الناس رحمكم الله ، إخوانكم المسلمون بالأندلس قد دهم العدو قصمه الله ساحتهم ، ورام الكفر خذله الله استباحتهم ، وزحفت أحزاب الطواغيت عليهم ، ومد الصليب ذراعه إليهم ، وأيديكم بعزة الله أقوى ، وأنتم المؤمنون أهل البر والتقوى ، وهو دينكم فانصروه ، وجواركم القريب فلا تخفروه ، وسبيل الرشد قد وضح فلتبصروه . الجهاد الجهاد ، فقد تعين ، الجار الجار ، قد قرر الشرع حقه وبين ، الله الله فى الإسلام ، الله الله فى أمة محمد عليه السلام ، الله الله فى المساجد المعمورة بذكر الله ، الله الله فى وطن الجهاد فى سبيل الله ، فقد استغاث الدين فأغيثوه ، قد تأكد عهد الله وحاشاكم أن تنكثوه ، أعينوا إخوانكم بما أمكن من الإعانة ، أعانكم الله عند الشدائد . جددوا عوائد الخير يصل الله لكم جميع العوائد ... أدركوا رمق الدين قبل أن يفوت ، بادروا عليل الإسلام قبل أن يموت ... »(١) .

ويشير ابن الخطيب فى إحدى رسائله إلى السلطان أبى سالم المرينى ملك المغرب إلى ما تعانيه الأندلس من المحن والأخطار ، وينوه باتحاد الملوك النصارى على محاربتها والقضاء عليها فى قوله : « فاعلموا أننا فى هذه الأيام ندافع من العدو تياراً ، ونكابر بحراً زخاراً ، ونتوقع إلا أن وقى الله تعالى خطوباً كبارا ، ونمد اليد إلى الله تعالى انتصاراً ، ونلجأ إليه اضطراراً ، ونستمد دعاء المسلمين بكل قطر ، استعداداً به واستظهاراً »(٢) .

---

(١) راجع نفح الطيب ج ٤ ص ٤١١ ؛ وأزهار الرياض ج ١ ص ٦٤ ؛ وابن الخطيب يتوجه هنا بندائه إلى أهل العدوة وملوكهم من بنى مرين .

(٢) نفح الطيب ج ٢ ص ٥٧١ .

ثم يقول فى رسالة أخرى ، مشيراً إلى ما يهدد الأندلس من جراء ذلك من خطر الفناء المحقق : « وقد قرّت يا مولاى عين العبد بما رأت فى هذا الوطن المراكشى ، من وفور حشودكم ، وكثرة جنودكم ، وترادف أموالكم ، وعددكم ، زادكم الله من فضله . ولاشك عند عاقل أنكم إن انحلت عروة تأميلكم ، وأعرضتم عن ذلك الوطن ، استولت عليه يد عدوه »(١) .

وإلى جانب رسائله المنثورة ، كان ابن الخطيب ، يوجه إلى المسلمين بالمغرب قصائد مؤثره فى الاستنفار للجهاد وإغاثة الأندلس ، وإليك نموذج من هذه القصائد :

إخواننا لا تنسوا الفضـل والعطفا ... فقد كاد نور الله بالكفر أن يطفا
وإذ بلغ المـاء الزبا فتداركوا ... فقد بسط الدين الحنيف لكم كفّاً
تحكم فى سكان أندلس العـدا ... فلهفاً على الإسلام ما بينهم لهفا
وقد مزجت أفواههـا بدمائهـا ... فإن ظمئت لا رىّ إلا الردى صرفا
أنوماً وإغفاءً على سنة الكرى ... وما نام طرف فى حماها ولا أغفا
أحاط بنـا الأعداء من كل جانب ... فلا وزرا عنهم وحـدا ولا لهفا
ثغور غـدت مثل الثغور ضواحكا ... أقام عليها الكفر يرشفها رشـفا

ومنها :

وسيلتنا الإسلام وهو أخـوة ... من المـلأ الأعلى تقربنا زلفـا
أخوفاً وقد لذنا بجاه من ارتضى ... وذلاً وقد عذنا بعز من استعفا
فهل ناصر مستبصر فى يقينـه ... يجير من استعدا ويكفى من استكفا
ومنتجز فينـا من الله وعـده ... فلا نكث فى وعد الإله ولا خلفا
وهـل بائع فينا من الله نفسـه ... فلا مشتر أولى من الله أو أوفى
أفى الله شك بعد ما وضح الهدى ... وكيف لضوء الصبح فى الأفق أن يخفا
وكيف يعيث الكفر فينا ودوننا ... قبائل منكم تعجز الحصر والوصفا
غيوث نوال كلما سئلوا الندى ... ليوث نزال كلما حضروا الزحفا
فقوموا برسم الحق فينا فقد عفا ... وهبوا لنصر الدين فينا فقد أشفا(٢)

ويبدى المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون ، تشاؤمه وتوجسه ، من مصير

---

(١) نفح الطيب ج ٣ ص ٣٣١ ، وأزهار الرياض ج ١ ص ٦٦ .

(٢) نقلنا هذه القصيدة من ديوان ابن الخطيب المخطوط المحفوظ بمكتبة جامع القرويين بفاس المسمى « الصيب والجهام ، والماضى والكهام » .

الأندلس فى أكثر من موطن ، وهو الخبير بتقلبات الدول ومصايرها ، وكان قد زار غرناطة وأقام بها مدى حين ، ودرس أحوالها وشئونها[١] .

وقد رأينا فيما تقدم كيف كانت مملكة غرناطة ، جرياً منها على السياسة الأندلسية المأثورة منذ أيام المرابطين والموحدين ، تتجه كلما لاح لها شبح الخطر الداهم من عدوها القوى ، ببصرها إلى جارتها المسلمة القوية فيما وراء البحر ، أعنى دولة بنى مرين . وكانت صولة الإسلام فى الضفة الأخرى من البحر ، تروع اسبانيا النصرانية ، وترد عدوانها عن الأندلس بين آونة وأخرى . ولكن صريخ بنى الأحمر إلى ملوك العدوة ، لم يكن دائماً بعيداً عن التوجس والريب ، ولم يستجب بنو مرين دائماً إلى صريخ الأندلس المحتضرة ، وكانت لهم أحياناً مطامع ومشاريع فى الأندلس وقواعدها الجنوبية ، تزهد فى غوثهم ونصرتهم . وكانت اسبانيا النصرانية كلما آنست تصرم العلائق بين الدولتين الشقيقتين ، انقضت على الأندلس فاقتطعت منها أرضاً جديدة . ولما أشرفت دولة بنى مرين على الانهيار ، وشغلت عُدْوة المغرب بالفتن الداخلية ، خبا أمل الأمة الأندلسية ، فى تلقى الغوث والإمداد من تلك الناحية ، واضطرت مملكة غرناطة أن تعتمد فى الذود عن حياتها ، على قواها ومواردها المحدودة ، وعلى ما يمكن أن تفيده من تطور الحوادث فى اسبانيا النصرانية . ولم تأت فاتحة النصف الأخير من القرن التاسع الهجرى ( الخامس عشر الميلادى ) ، حتى غدت غرناطة وقد انتزعت معظم أطرافها من الغرب والجنوب ، وأحاطت بها قوى النصرانية من كل صوب ، تدبر عدتها الأخيرة للقضاء عليها .

— ٢ —

لما توفى السلطان سعد بن محمد بن يوسف النصرى فى أواخر سنة ٨٦٨ هـ ( ١٤٦٣ م ) كان ولده الأكبر على أبو الحسن الملقب بالغالب بالله[٢] متربعاً على عرش غرناطة قبل ذلك بأكثر من عام ، وكان أبو الحسن يومئذ فتى فى نحو الثلاثين من عمره ، لأنه ولد قبل سنة ٨٤٠ هـ ، حسبما يحدثنا الرحالة المصرى الذى سبقت الإشارة إليه[٣] . بيد أنه لم يستخلص الملك لنفسه إلا بعد نضال عنيف بينه وبين منافسيه ، وعلى رأسهم أخواه يوسف أبو الحجاج والسيد أبو عبد الله محمد

( ١ ) راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٧٨ ، وج ٧ ص ٣٧٩ .
( ٢ ) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ٦٠٧ .
( ٣ ) راجع ما نقله الأستاذ دللافيدا فى مجلة (Al-Andalus V.I. 1933 Fasc. -II).

المعروف « بالزغل » ، وقد توفى يوسف قبل بعيد، وبقى « الزغل » ليخوض حياة حافلة بالأحداث والمحن . وكان أبو الحسن أميراً وافر الشجاعة والعزم ، يعشق الحرب والجهاد ، وكانت له أيام أبيه غزوات موفقة فى أرض النصارى . وما كاد يستقر فى عرشه ، حتى أبدى همة فائقة فى تحصين المملكة ، وتنظيم شئونها ، وبث فيها روحاً جديدة من القوة والطمأنينة ، واستطاع أن يسترد عدة من الحصون والقواعد التى استولى عليها النصارى . وتولى وزارته ، وزير أبيه من قبل ، القائد أبو القاسم بن رضوان بنّيغش[١] . وكان هذا الوزير ، مثل سلفه الحاجب رضوان النصرى ، سليل أسرة نصرانية ، وأسر جده فى بعض المعارك ، وربى فى كنف الدار السلطانية ، وتبوأت أسرته بين الأسر الغرناطية مكانة رفيعة ، واشتركت فى كثير من حوادث غرناطة السياسية ، وتولت الوزارة .

وفى أوائل حكمه خرج عليه أخوه أبو عبد الله « الزغل »[٢] وكان يومئذ والياً لمالقة ، وكان يضارعه فى الشجاعة والجرأة وحب النضال . ولجأ الزغل إلى عون ملك قشتالة هنرى الرابع يستنصره على أخيه ، ولقيه فى محلته فى ظاهر أرشدونة ، سنة ٨٧٤ هـ ( ١٤٦٩ م ) فوعده بالعون والتأييد . وبادر السلطان أبو الحسن من جانبه بالإغارة على أراضى قشتالة ( ١٤٧٠ م ) . ثم عاد فى العام التالى فغزاها مرة أخرى ، وانتزع من النصارى بعض المواقع التى استولوا عليها . وشغل أبو الحسن فى الأعوام الثلاثة التالية بمحاربة أخيه أبى عبدالله الزغل، الثائر عليه . وكان النضال سجالا بينهما . وشغل أبو الحسن بذلك عن غزو أرض النصارى . وشغل القشتاليون أنفسهم بما نشب بينهم من الخلاف الداخلى ، وذلك حتى وفاة ملكهم هنرى الرابع فى سنة ١٤٧٤ م .

وفى تلك الأثناء خرجت مالقة عن طاعة أبى الحسن ، حيث ثار بها القائد محمد الفرسوطى ، وانضم إليه كثير من القواد والأجناد ، فسار أبو الحسن إلى مالقة وحاصرها غير مرة ، ولكنه لم يفلح فى إخماد الثورة ، واستدعى القواد الثائرون أخاه أبا عبد الله محمد بن سعد ( الزغل ) ، وكان يومئذ بقشتالة ، وأعلنوه ملكاً عليهم ، وانقسمت المملكة بذلك إلى شطرين متخاصمين[٣] .

---

( ١ ) تشغل أسرة بنيغش – وهو تحريف لاسمها الإسبانى **Los Venegas** – فى التواريخ القشتالية حيزاً ملحوظاً . وقد عاد بعض أفرادها إلى النصرانية عقب سقوط غرناطة ، وأحرزت أسرتهم فيما بعد مكانة كبيرة بين الأرستقراطية الإسبانية ، ونبغ فيها عدد من القادة ورجال الدين .

( ٢ ) الزغل وزغل أعنى الشجاع أو الباسل والمصدر « زغلة » . وسنرى فيما بعد كيف ينطبق هذا المعنى على سيرة الزغل وصفاته أتم الانطباق . راجع دوزى **Supp. aux Dict. arabes. V. II. p. 594**

( ٣ ) كتاب مرآة المحاسن لمؤلفه العربى الفاسى ( طبع فاس ١٣٢٤ هـ ) ص ١٤٢ .

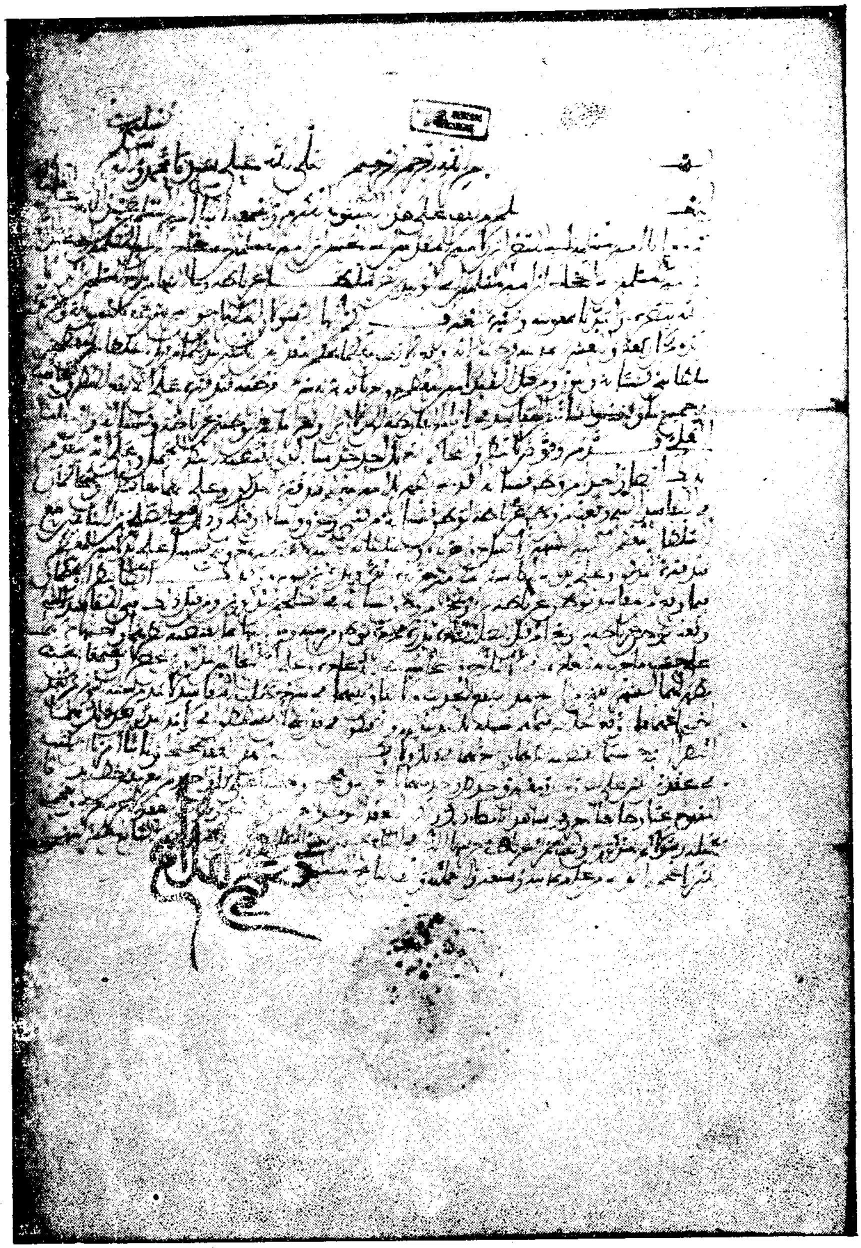

صورة مرسوم صادر من سلطان غرناطة علي الغالب بالله ( أبي الحسن ) إلى رسول الملكين الكاثوليكيين فرناندو وإيسابيلا يقرر فيه قبول التحكيم فيما وقع من أعمال العدوان المتبادلة بين غرناطة وقشتالة ، مؤرخ في ١٢ شوال سنة ٨٨٢ هـ ( ١٩ يناير ١٤٧٨ م ) ، ومختوم بخاتمه الملكي ، ومحفوظ بدار المحفوظات العامة **(Archivo general de Simancas, No. P. R. II.4)**

ولما تفاقم النزاع بين أبى الحسن وأخيه أبى عبد الله ، ولم يحسم بينهما السيف ووضحت لهما العواقب الخطيرة التى يمكن أن تترتب على هذه الحرب الأهلية ، جنح الفريقان إلى الروية وآثرا الصلح والتهادن ، فعقدت الهدنة بين الأخوين ، على أن تحترم الحالة القائمة ، فيبقى أبوعبد الله الزغل على استقلاله بمالقة وأحوازها ، ويستقر أبو الحسن فى عرش غرناطة وما إليها ، وعقدت فى نفس الوقت هدنة مؤقتة بين المسلمين والنصارى .

وفى هذه الآونة التى أخذت فيها عوامل التفرق تمزق أوصال المملكة الإسلامية الصغيرة ، كانت اسبانيا النصرانية تخطو خطوتها الأخيرة نحو الاتحاد النهائى ، وذلك باقتران فرناندو ولد خوان الثانى ملك أراجون بإيسابيلا أخت هنرى الرابع ملك قشتالة ، ثم إعلانهما ملكين لقشتالة فى سنة ١٤٧٩ ، وتبوىء فرناندو بعد ذلك عرش أراجون حسبما فصلنا . وهكذا اتحدت المملكتان الإسبانيتان القديمتان بعد أحقاب طويلة من الخلاف والحروب الأهلية ، وأصبحت اسبانيا النصرانية قوة عظيمة موحدة ، وكان تفرقها من قبل يتيح للأندلس فترات من السلام والأمن ، ولكن الأندلس وقد صارت إلى ما صارت إليه من الانحلال والضعف ، أضحت تواجه أعظم قوة واجهتها فى تاريخها .

وحاول السلطان أبو الحسن أن يجدد الهدنة مع القشتاليين ، ليتفرغ لأعمال التحصين والإنشاء ، وكان يلوح فى البداية أن العلائق بين الفريقين تسير نحو التفاهم والسلم . وهناك ما يدل فى الواقع على أنه كان يقوم يومئذ بين مملكة غرناطة ، وبين قشتالة ، صلح ثابت حسبما يؤيد ذلك اتفاق عقداه يومئذ على إجراء التحكيم فيما وقع من كل منهما على أراضى الآخر من ضروب العدوان التى ترتب عليها القتل والأسر والحرق ، سواء فى البر أو البحر . وقد انتهت إلينا وثيقة تحتوى النصين العربى والقشتالى لهذا الاتفاق الذى عقد بين السلطان أبى الحسن وبين فرناندو وإيسابيلا ملكى قشتالة وأراجون ، وهى مؤرخة فى شوال سنة ٨٨٢ هـ ( يناير سنة ١٤٧٨ م )(١) . وعلى هذا فقد أرسل السلطان أبو الحسن فى أوائل سنة ٨٨٣هـ ( ١٤٧٨م ) إلى ملك قشتالة يطلب تجديد الهدنة القائمة بينهما . وكان فرناندو وإيسابيلا يقيمان يومئذ فى إشبيلية ، فوافقا على ما طلبه أبو الحسن ، ولكن

---

(١) Archivo general de Simancas ; P. R. 11-4 ، وفيها يوصف فرناندو وإيسابيلا بما يأتى : « السلطان المعظم الكبير الشهير الأصيل دون هرندة ، والسلطانة الكبيرة الشهيرة دونيى قشبيل » .

بشرط أن تعترف مملكة غرناطة بطاعتهما ، وأن تؤدى إلى قشتالة نفس الجزية من المال والأسرى التى كان يؤديها السلاطين السالفون . وأرسلا بالفعل سفيراً إلى السلطان أبى الحسن ، يطالبه بعهد الطاعة وتأدية الجزية ، فرفض أبو الحسن طلب الملكين النصرانيين بإباء ، وأنذر السفير القشتالى بأنه ليس لديه سوى الحرب والكفاح . ولم يمض سوى قليل حتى أغار القشتاليون على حصن بللنقة ( ڤيلا لونجا ) واستولوا عليه ، وعاثوا فى أحواز رندة ، ورد أبو الحسن على ذلك بإعلان الحرب على قشتالة ، وزحف تواً على بلدة « الصخرة » Zahara وهى قاعدة حصينة تقع على حدود الأندلس الغربية فى شمال غربى مدينة رندة ، وكان قد انتزعها القشتاليون منذ عهد قريب ، فباغتها أبو الحسن ، واستولى عليها عنوة ، وقتل حاميتها ، وسبى سكانها ( ديسمبر سنة ١٤٨١ م ) . وبالرغم مما أحرزه أبو الحسن من الظفر فى تلك المعركة الأولى ، وبالرغم مما بثه هذا الظفر فى طوائف الشعب من الغبطة والحماسة ، فقد اعتبر بعض العقلاء تصرفه اعتداء لا مبرر له ، وتوجسوا شراً من عواقبه ، وتقول الرواية القشتالية إن فقيهاً زاهداً شيخاً عرف بنبوءاته ، كان بين الوفود التى ذهبت غداة هذا الانتصار إلى قصر الحمراء ، وأنه صاح فى وجه السلطان قائلا : « ويل لنا . لقد دنت ساعتك يا غرناطة ، ولسوف تسقط أنقاض الصخرة فوق رؤوسنا ، وقد حلت نهاية دولة الإسلام بالاندلس »[1]، على أن هذا الظفر المؤقت كان له أعظم الأثر فى إحياء قوى الشعب المعنوية ، ولاح لإسبانيا النصرانية يومئذ أن الأندلس المحتضرة تكاد تبدأ حياة جديدة من القوة . ولكن هذا البعث الخلب لم يطل أمده . ذلك لأن أبا الحسن لم يلبث أن ركن إلى الدعة ، وأطلق العنان لأهوائه وملاذه ، وبذر حوله بذور السخط والغضب ، بما ارتكبه فى حق الأكابر والقادة من صنوف العسف والشدة ، وما أساء إلى شئون الدولة والرعية ، وما أثقل به كاهلهم من صنوف المغارم ، وما أغرق فيه من ضروب اللهو والعبث ، وكان وزيره أبو القاسم بنّيغش يجاريه فى أهوائه وعسفه ، ويتظاهر أمام الشعب بغير ذلك . وهكذا عادت عوامل الفساد والانحلال والتفرق الخالدة ، تعمل عملها الهادم ، وتحدث آثارها الخطرة[2] .

* * *

( ١ ) Lafuente Alcantra: ibid; V.III.p.202-205 وكذلك Condé: ibid; V.III.p.210&211

( ٢ ) راجع كتاب «أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر» ( ص٣ ) ، وهو الرواية الإسلامية =

وكان السلطان أبو الحسن قد اقترن بابنة عمه السلطان الأيسر[1]. ولا تفصح الرواية الإسلامية لنا عن اسم تلك الأميرة ، التى تمثل فى تاريخ المأساة الأندلسية مثولا قوياً ، والتى تحيط الرواية شخصيتها بكثير من الأخبار والسير المشجية. فلم يذكره صاحب أخبار العصر، ولم يذكره المقرى الذى نقل روايته، ولم تذكره الروايات القشتالية المعاصرة . ولكن مؤرخاً قشتالياً ، كتب روايته بعد ذلك بنحو قرن ، يذكر لنا أن اسمها عائشة . بل وأكثر من ذلك فهو ينقل إلينا صورة رسمية للمعاهدة السرية ، التى أصدرها الملكان الكاثوليكيان عند تسليم غرناطة ، لأبى عبد الله ولد السلطان أبى الحسن، والتى نتحدث عنها بعد، وفيها يذكر صراحة اسم « الملكة عائشة والدته » أى والدة أبى عبد الله[2]. وقد جرت سائر التواريخ اللاحقة بعد ذلك ، على تسميتها بهذا الاسم ، ولكن بعض البحوث الحديثة تحاول على ضوء بعض الوثائق الغرناطية أن تقرر لنا أن تسمية هذه السلطانة باسم عائشة ،

= الوحيدة التى انتهت إلينا عن حوادث سقوط غرناطة وما تلاها من تنصير المسلمين . وسيكون منذ الآن مرجعنا فى كثير من حوادث هذه الفترة . ويقع هذا الكتاب فى ست وخمسين صفحة فقط ، وقد وضعه مؤلف مجهول لم يذكر اسمه ، ولكنه يذكر فى نهايته أنه كتبه فى جمادى الآخرة سنة ٩٤٧ هـ أعنى بعد سقوط غرناطة بخمسين عاماً، فروايته معاصرة تقريباً . ويدل وصفه للحوادث على أنه شهدها فتى بل وفى روايته ما يدل على أنه اشترك فى بعض الوقائع الحربية التى وقعت قبل سقوط غرناطة بين المسلمين والنصارى وأنه كان من أنجاد الفرسان ( ص ١٧ طبعة ميللر) . ولابد أيضاً أنه تلقى كثيراً من تفاصيل الحوادث ، من أفواه الشيخة الذين شاهدوها . ويبدو أيضاً أن المؤلف من أشراف غرناطة الذين بقوا فيها وأرغموا على التنصر ، ولكنهم بقوا مسلمين فى سرائرهم ، وأنه خشى أن يبوح باسمه لأنه يندب حظ الإسلام ، ويندد بغدر النصارى وفظائعهم . وقد نشر المستشرق الألمانى م . ى . ميلر هذا الكتاب عن النسخة الخطية الوحيدة التى كانت محفوظة بالإسكوريال وضاعت فيما بعد ( جوتنجن سنة ١٨٦٣) مقرونة بترجمة ألمانية تحت عنوان « أيام غرناطة الأخيرة » **Die letzten Zeiten von Granada.** ثم نشر معهد فرانكو بتطوان ( بعناية الأستاذ ألفريد البستانى ) طبعة جديدة من هذا الكتاب عن مخطوطة أخرى بها بعض زيادات عن نزوح الأندلسيين من الأندلس بعد التنصير بعنوان : « نبذة العصر فى أخبار ملوك بنى نصر » وقرنت هذه الطبعة بترجمة اسبانية بقلم المستشرق الأب كارلوس كيروس ( العرايش سنة ١٩٤٠ ) .

( ١ ) أخبار العصر : ميللر ص ٦ — وطبعة تطوان ص ٥ .

( ٢ ) هو المؤرخ **Luis del Marmol Carvajal** فى كتابه عن ثورة الموريسكيين المسمى : **Historia del Rebelión y Castigo de los Moriscos de Granada (Lib. I; Capit. XII & XIX)**

هى تسمية خاطئة ، وأن اسمها الحقيقى هو فاطمة ، وأنها لم تكن ابنة السلطان الأيسر وإنما كانت ابنة للسلطان الأحنف(١) .

بيد أننا وقد درسنا نصوص هذه الوثائق الجديدة ، لا نراها قاطعة فى تقرير اسم السلطانة المذكورة ، ولا نرى من جهة أخرى ، سبباً يحملنا على الشك فى رواية صاحب أخبار العصر ، وهى أنها كانت ابنه للسلطان الأيسر . وصاحب هذه الرواية مسلم معاصر ، كانت لديه سائر وسائل التحقيق والتثبت . وكذلك فإن المؤرخ القشتالى الذى يسميها بعائشة ، قد عاش قريباً من ذلك العصر ، واتصل بشيوخ الموريسكيين أو الأندلسيين المتنصرين بغرناطة ، ومن المرجح المعقول أن يكون هؤلاء على علم بحقيقة إسم هذه السلطانة ، التى عاصرها آباؤهم وكانت والدة لآخر ملوكهم . وهذا كله إلى الوثيقة التى يورد لنا هذا المؤرخ نصها ، وفيها القول القطع بأن والدة أبى عبد الله كانت تسمى عائشة .

ومن ثم فإننا على ضوء ما تقدم ، نميل إلى الاعتقاد بأن اسم عائشة هو الاسم الحقيقى ، لزوجة السلطان أبى الحسن ووالدة أبى عبد الله .

وتحتل شخصية عائشة الحرة فى حوادث سقوط غرناطة مكانة بارزة . وليس ثمة فى تاريخ تلك الفترة الأخيرة من المأساة الأندلسية شخصية تثير من الإعجاب والاحترام، ومن الأسى والشجن، قدر ما يثير ذكر هذه الأميرة النبيلة الساحرة، التى تذكرنا خلالها البديعة ، ومواقفها الباهرة ، وشجاعتها المثلى إبان الخطوب المدلهمة ، بما نقرأه فى أساطير البطولة القديمة من روائع السير والمواقف .

---

(١) نشر صديق المستشرق الغرناطى الأستاذ **Seco de Lucena** فى مجلة الأندلس بحثاً عنوانه «السلطانة والدة أبى عبدالله» **La Sultana Madre de Boabdil (Al-Andalus Vol XII, Fasc. II -1947)** أورد فيه نص وثيقتين عربيتين ، الأولى عقد بيع ملكى مؤرخ فى سنة ٨٥٢ هـ ( ١٤٤٨ م ) . والثانية أيضاً عقد بيع مؤرخ فى سنة ٨٩٧ هـ ( ١٤٩٢ م ) ، ومنهما تتضح الوقائع الآتية : أن السلطان محمد الأحنف كان له فضلا عن ابنته الكبرى أم الفتح ، ابنتان أخريان من زوجة أخرى هما عائشة وفاطمة، وأن إحداهن وهى فاطمة تزوجت من سلطان ، وأن قرية الصخيرة التى ورثتها أم الفتح ، انتقلت بعد ذلك إلى أختها السلطانة فاطمة ، وان هذه الأخيرة عاصرت تسليم عرناطة ، وأنه فى ٣٠ أكتوبر سنة ١٤٩٢ أعنى بعد سقوط غرناطة باعت السيدة فاطمة المذكورة ، وتوصف فى الوثيقة المشار اليها «بالسيدة الحرة» قرية الصخيرة المذكورة إلى فارس نصرانى ، بمبلغ ألفى وخمسمائة ريال من الفضة ، وحرر العقد بالنيابة عنها وكيل شئونها المسمى القائد محمد بن مقاتل .

ويرى الأستاذ دى لوسينا أن هذا النص قاطع ، فى أن السلطانة والدة أبى عبد الله، كانت تسمى «فاطمة» وليس عائشة ، وأنها وفقاً لنسبها المدون بالنص كانت ابنة للسلطان الأحنف .

والواقع أن حياة السلطانة « الحرة » ، تبدو لنا خلال الحوادث والخطوب ، كأنها صفحة من القصص المشجى ، أكثر مما تبدو كصفحة من التاريخ الحق ، وهذا اللون القصصى لا يرجع فقط إلى كونها أميرة أو امرأة ، تشترك فى تدبير الملك وتدبير الشئون والحوادث ، ولكن يرجع بالأخص إلى شخصيتها القوية ، وإلى سمو روحها ورفيع مثلها ، وإلى جنانها الجرىء يواجه كل خطر ، ويسمو فوق كل خطب ومصاب . والرواية القشتالية ذاتها — وهى تسميها عائشة حسبما قدمنا — لا تضن عليها بالتنويه والتقدير ، وهى التى تسبغ على شخصيتها وحياتها كثيراً من هذا اللون القصصى المشجى .

كانت عائشة « الحرة » ملكة غرناطة فى ظل ملك يحتضر ، ومجد يشع بضوئه الأخير ليخبو ويغيض . وقد رزقت من زوجها السلطان أبى الحسن بولدين هما : أبو عبد الله محمد وأبو الحجاج يوسف . وكانت روح العزم والتفاؤل ، التى سرت فى بداية هذا العهد إلى غرناطة ، تذكى بقية من الأمل فى إنقاذ هذا الملك التالد . وكانت عائشة ترى من الطبيعى أن يؤول الملك إلى ولدها ، ولكن حدث بعد ذلك ما يهدد هذا الأمل المشروع . ذلك أن السلطان أبا الحسن ركن فى أواخر أيامه إلى حياة الدعة ، واسترسل فى أهوائه وملاذه ، واقترن للمرة الثانية بفتاة نصرانية رائعة الحسن ، تعرفها الرواية الإسلامية باسم « ثريا » الرومية ، وتقول الرواية الإسبانية إن ثريا هذه واسمها النصرانى إيسابيلا ، وتعرفها الرواية أيضاً باسم « زريدة » ، كانت ابنة عظيم من عظماء اسبانيا وهو القائد « سانشوخمنيس دى سوايس » وأنها أخذت أسيرة فى بعض المعارك ، وهى صبية فتية ، وألحقت وصيفة بقصر الحمراء فاعتنقت الإسلام ، وتسمت باسم ثريا أو كوكب الصباح ، فهام بها السلطان أبو الحسن ، ولم يلبث أن تزوجها ، واصطفاها على زوجه الأميرة عائشة ، التى عرفت عندئذ « بالحرة » تمييزاً لها من الجارية الرومية ، أو إشادة بطهرها ورفيع خلالها[1] . ويقول لنا المؤرخ المعاصر هرناندو دى بايثا ، إن السلطان أبا الحسن

---

(١) راجع **Irving : Conquest of Granada** حيث يورد أقوال الرواية الإسبانية عن شخصية ثريا ( الفصل التاسع ) . ويقول كوندى إن ثريا كانت ابنة حاكم مرتش النصرانى **( Condé; ibid, V III.p. 242 )** . ولكن الرواية العربية تكتفى بالقول بأن ثريا كانت جارية رومية ( المقرى فى نفح الطيب ج٢ ص ٦٠٨ ، وأخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر طبعة ميللر ص ٦ ) ويتفق برسكوت مع الرواية العربية فيقول إن ثريا كانت جارية يونانية ، أى رومية . راجع **History of Ferdinand and Isabella, p. 219**

كان يقيم يومئذ مع زوجه الفتية الحسناء فى جناح الحمراء الكبير أو قصر قمارش ، وذلك بينما كانت تقيم الحرة وأولادها فى جناح بهو السباع (١) .

ولم يكن اقتران الأمير بفتاة نصرانية بدعة ، ولكنه تقليد قديم فى قصور الأندلس . وقد ولد بعض خلفاء الأندلس وأمرائها العظام من أمهات من النصارى ، مثل عبد الرحمن الناصر وحفيده هشام المؤيد ، وكذلك ولد بعض الأمراء من بنى نصر ملوك غرناطة من أمهات من النصارى مثل السلطان محمد بن اسماعيل النصرى (٢) . ولم يكن الزواج المختلط نادراً فى المجتمع الأندلسى الرفيع ، ولاسيما منذ أيام الطوائف ، وكان كثير من الأكابر والأشراف يتزوجون بفتيات من النصارى سواء كن من السبايا أم من الأحرار . ولم يكن العكس نادراً أيضاً . فمنذ توالى سقوط القواعد والثغور الأندلسية فى أيدى النصارى ، كثر الزواج بين المدجنين وبين النصارى ، وفقد المدجّنون بمضى الزمن دينهم ولغتهم ، واندمجوا فى المجتمع النصرانى . ونرى بين زعماء شرق الأندلس بعض أمراء يرجعون إلى أصل نصرانى ، مثل محمد بن سعد المعروف بابن مردنيش ملك بلنسية ومرسية ، وقد كان يتكلم القشتالية ، ويلبس الثياب القشتالية ، ويتقلد السلاح القشتالى ، وكان معظم ضباطه وجنده من النصارى ، وكان الإسبان يعرفونه بالملك « دون لوبى » (٣) .

ولم يكن ثمة ريب فى خطورة الآثار الاجتماعية ، التى يحدثها مثل هذا الامتزاج الوثيق ، وقد كانت فيما بعد من أهم العوامل التى أدت إلى انحلال المجتمع الإسلامى ، وانحلال عصبية الدولة الإسلامية . كذلك لم يكن ثمة ريب فى أن هذه الآثار الهدامة ، كانت أعمق وقعاً وأشد خطراً وقت الإنحلال العام .

وكان السلطان أبو الحسن قد شاخ يومئذ وأثقلته السنون ، وغدا أداة سهلة فى يد زوجه الفتية الحسناء . وكانت ثريا فضلا عن حسنها الرائع ، فتاة كثيرة الدهاء والأطماع ، وكان وجود هذه الأميرة الأجنبية فى قصر غرناطة ، واستئثارها بالسلطان والنفوذ فى هذه الظروف العصيبة ، التى تجوزها المملكة الإسلامية ،

---

(١) كتب هرناندو دى باينا **Hernando de Baeza** هذه الرواية المعاصرة بعنوان **Las Cosas de Granada** « شئون غرناطة » ، ونشرها المستشرق ميللر مع كتاب أخبار العصر ( ص ٦٥ ) .

(٢) الإحاطة ج ١ ص ٥٤٦ .

(٣) راجع الإحاطة ج ٢ ص ٨٢ ؛ وكتابى عصر المرابطين والموحدين القسم الأول ص ٣٦٦ وكذلك **A. P. Ibars : Valencia Arabe (Valencia 1901) p. 516,** و **Dozy : Recherches ( 1881 ) V. I. p. 365**

عاملا جديداً فى إذكاء عوامل الخصومة والتنافس الخطرة . وكانت ثريا فى الواقع تتطلع إلى أبعد من السيطرة على الملك الشيخ . ذلك أنها أنجبت من الأمير أبى الحسن كخصيمتها عائشة ولدين ، هما سعد ونصر ، وكانت ترجو أن يكون الملك لأحدهما . وقد بذلت كل ما استطاعت من صنوف الدس والإغراء لإبعاد خصيمتها الأميرة عائشة عن كل نفوذ وحظوة ، وحرمان ولديها محمد ويوسف من كل حق فى الملك ، وكان أكبرهما أبو عبد الله محمد ولى العهد المرشح للعرش ، وكان أشراف غرناطة يؤثرون ترشيح سليل بيت الملك ، على عقب الجارية النصرانية . ولكن ثريا لم تيأس ولم تفتر همتها ، فما زالت بأبى الحسن حتى نزل عند تحريضها ورغبتها ، وأقصى عائشة وولديها عن كل عطف ورعاية ، ثم ضاعفت ثريا سعيها ودسها حتى أمر السلطان باعتقالها ، وزجت عائشة مع ولديها إلى برج قمارش ، أمنع أبراج الحمراء ، وشدد فى الحجر عليهم ، وعوملوا بمنتهى الشدة والقسوة .

فأثار هذا التصرف غضب كثير من الكبراء الذين يؤثرون الأميرة الشرعية وولديها بعطفهم وتأييدهم ، وكان نذير الاضطراب والخلاف فى المجتمع الغرناطى . وانقسم الزعماء والقادة إلى فريقين خصيمين ، فريق يؤيد الأميرة الشرعية وولديها ، وفريق يؤيد السلطان وحظيته . واستأثر الفريق الأخير بالنفوذ مدى حين ، واضطرمت الأهواء والشهوات والأحقاد ، واشتد السخط على أبى الحسن وحظيته التى أضحت سيدة غرناطة الحقيقية ، واستأثرت بكل سلطة ونفوذ . وذهبت ثريا فى طغيانها إلى أبعد حد ، فحرضت الملك الشيخ على إزهاق ولده أبى عبد الله عثرة آمالها .

وكانت الأميرة عائشة امرأة وافرة العزم والشجاعة ، فلم تستسلم إلى قدرها الجائر ، بل عمدت إلى الاتصال بعصبتها وأنصارها ، وفى مقدمتهم بنو سراج أقوى أسر غرناطة ، وأخذت تدبر معهم وسائل الفرار والمقاومة ؛ ولم يغفر السلطان أبو الحسن لبنى سراج هذا الموقف قط . ويقال إنه عمد فيما بعد إلى تدبير إهلاكهم فى إحدى أبهاء الحمراء . ولما وقفت الأميرة عائشة من أصدقائها على نية أبى الحسن قررت أن تبادر بالعمل ، وأن تغادر قصر الحمراء مع ولديها بأية وسيلة. وفى ليلة من ليالى جمادى الثانية سنة ٨٨٧ هـ ( ١٤٨٢ م ) استطاعت الأميرة أن تفر مع ولديها محمد ويوسف بمعاونة بعض الأصدقاء المخلصين . والرواية

الإسلامية تشير إلى فرار الأميرين فقط دون أمهما[١] . ولكن الرواية القشتالية تحدثنا عن فرارها مع ولديها . وتقدم إلينا عن هذا الفرار صوراً شائقة ، فتقول إن بعض الخدم المخلصين ، كان ينتظر مع الجياد على مقربة من الحمراء على ضفة النهر ( نهر حدرُّه ) مما يلي برج قمارش ، وإن الأميرة استعانت بأغطية الفراش على الهبوط من نوافذ البرج الشاهق فى جوف الليل[٢] ، وانها هبطت بعد أن أدلت ولديها ، ثم اختفى الجميع تحت جنح الظلام .

وهكذا استطاعت هذه الأميرة الباسلة أن تفر من معتقلها فى إقدام وجرأة يخلفان بأبطال الرجال ، واختفى الفارون حيناً حتى قويت دعوتهم وانضم إليهم كثير من أهل غرناطة ، وكان اسم عائشة ورفيع خلالها، وقصة فرارها الجرىء ، تثير أيما عطف وإعجاب . وظهر ولدها الأمير الفتى أبو عبد الله محمد فى وادى آش حيث مجمع عصبته وأنصاره ، وكان السلطان أبو الحسن وقت فرار الأميرة وولديها بعيداً عن غرناطة ، يدافع النصارى عن أسوار لوشة ، وكانت الحوادث تسير بسرعة مؤذنة باضطرام عاصفة جديدة .

— ٣ —

وكان ملك قشتالة يرقب الحوادث فى مملكة غرناطة بمنتهى الاهتمام . فلما اضطرمت نار الحرب الأهلية بين المسلمين ، ولاحت الفرصة للغزو سانحة ، قرر بدء الحرب ضد غرناطة . وكان يضطرم سخطاً لاستيلاء المسلمين على قلعة الصخرة بالرغم من قيام الهدنة ، وعجزه عن استرداد هذه القاعدة الهامة ، فسير حملة قوية إلى الأندلس سارت منحرفة من جهة الغرب . ورأى القواد القشتاليون أن يبدأوا بمهاجمة ألحامَّة ( الحمة ) التى فى قلب الأندلس جنوب غربى غرناطة ، وذلك لما بلغهم من ضعف وسائل الدفاع عنها ، ولأن الاستيلاء عليها يمكنهم من تهديد غرناطة ومالقة معاً . وكانت ألحامة مدينة غنية ، ولها شهرة قديمة بحماماتها الشهيرة التى كانت مجتمع ملوك غرناطة وأمرائها . ونجحت الخطة واستطاع النصارى مفاجأة ألحامة والاستيلاء على قلعتها تحت جنح الظلام ، ثم استولوا على المدينة بالرغم من مقاومة أهلها الباسلة ، وأمعنوا فى المسلمين قتلا وأسراً وسبياً ( المحرم سنة ٨٨٧ —

---

( ١ ) أخبار العصر ص ١٢ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٦٠٩ .

( ٢ ) L. del Marmol: ibid; I. Cap. XII. وقد كتب روايته بعد هذه الحوادث بنحو قرن حسبما قدمنا .

فبراير سنة ١٤٨٢ ) . وهرع السلطان أبو الحسن فى قواته لإنقاذ الحامة واسترداداها وحاصرها بشدة، ولكنه لم يستطع اقتحامها ، ولم يلبث أن اضطر إلى مغادرتها حينما علم أن ملك قشتالة يتقدم لإنجادها فى جيش قوى ضخم(١) . ولم تمض أشهر قلائل حتى زحف ملك قشتالة على مدينة لَوْشة(٢) الواقعة على نهر شنيل فى شمال غربى ألحامة وعلى مقربة منها وحاصرها ، ودافعت عنها حاميتها أروع دفاع بقيادة قائدها الأمير الشيخ ، على العطار ، وكان رغم شيخوخته من أشجع وأبرع فرسان غرناطة فى ذلك العصر(٣). وسار أبو الحسن فى قواته مسرعاً لإنجاد لوشة وانتهى الأمر بأن رُد النصارى بخسارة فادحة فى الرجال والعدد ( جمادى الأولى ٨٨٧ — يوليه ١٤٨٢ ) . وكان مما استولى عليه المسلمون من النصارى ، بعض « الأنفاط» التى تستعمل لحصار المدن ، والتى سنتحدث عنها فيما بعد(٤) .

وما كاد أبو الحسن يعود إلى عاصمة ملكه حتى تجهم الجو من حوله . وكانت سياسته الداخلية قد أثارت حوله كثيراً من السخط ، بالرغم مما أحرز من نجاح ، وسرعان ما نشبت الثورة فى غرناطة ، وغلبت دعوة الأمير الفتى أبى عبد الله ، ولم يستطع أبو الحسن وصحبه مواجهة العاصفة ؛ ففر الملك الشيخ إلى مالقة، وكان بها أخوه الأمير أبو عبد الله محمد بن سعد ، المعروف « بالزغل » أى الشجاع الباسل ، يدفع عنها جيشاً جراراً سيره ملك قشتالة لافتتاحها . وجلس أبو عبد الله محمد(٥) مكان أبيه على عرش غرناطة ( أواخر سنة ٨٨٧هـ ) . وأطاعته غرناطة ووادى آش ، وأعمالها . وبقيت مالقة وغرب الأندلس على طاعة أبيه ، وكان أبو عبد الله يومئذ فتى فى نحو الخامسة والعشرين(٦) .

* * *

(١) أخبار العصر ص ٦ و ٩ ؛ وكذلك : Prescott : ibid ; p. 206-210

(٢) هى بالإسبانية **Loja** وهى بلد الوزير ابن الخطيب .

(٣) تنوه الرواية القشتالية ببطولة هذا القائد المسلم وتعرفه باسم **"Aiiatar"**. راجع رواية **Hernando de Baeza**، السالفة الذكر ، المنشورة بعناية المستشرق ميللر ضمن كتاب أخبار العصر (ص٧٨)

(٤) أخبار العصر ص ١١ .

(٥) يعرف السلطان أبو عبد الله فى الرواية القشتالية والإفرنجية بوجه عام باسم **Boabdil** محرفاً عن « أبى عبد الله » . وتورد الوثائق القشتالية الرسمية المتعلقة بسقوط غرناطة اسمه على النحو الآتى : **Muley Baaudili-Baudili- Beaudili** ويورد مارمول اسمه مصحماً **Abi Abdili, Abi Abdala, Abdilehi :**

(٦) يشير المؤرخ المصرى عبد الباسط بن خليل فى روايته التى سبقت الإشارة اليها إلى هذا =

وكان فرناندو الخامس عقب هزيمته أمام لَوْشه ، قد سير جنده إلى مالقة لافتتاحها . وكانت مالقة أعظم الثغور الباقية بيد المسلمين . وكان النصارى يتوقون للاستيلاء عليها لإتمام تطويق الأندلس من الجنوب ، ولكن المسلمين كانوا على أتم أهبة للدفاع عن هذا الثغر المنيع . واشتبك المسلمون والنصاري فى عدة مواقع دموية فى الهضاب الواقعة فيما بين مالقة وبَلّش (Velez) ، فهزم النصارى فى كل مكان وردوا بخسائر فادحة ، وخرج الأمير محمد بن سعد « الزغل » فى قواته من مالقة ولقى النصارى على مقربة منها ، ونشبت بين الفريقين معركة شديدة هزم فيها النصارى هزيمة ساحقة ، وقتل وأسر منهم عدة آلاف بينهم كثير من الزعماء والأكابر ( صفر ٨٨٨ — مارس ١٤٨٣ )[١] . وتعرف هذه الموقعة «بالشرقية» لوقوعها فى المنطقة المسماة بذلك فى شرقى مالقة . وكان منظم هذا الدفاع الباهر كله الأمير أبو عبد الله « الزغل » . وكان لانتصار المسلمين أعظم وقع فى جنبات الأندلس ؛ فانتعشت الآمال وسرت الحماسة فى كل مكان ، وهبت على غرناطة ريح جديدة من الاستبشار والنصر

واعتزم ملك غرناطة الفتى أبو عبد الله محمد ، أن يحذو حذو عمه الباسل فى الجهاد والغزو ، وأن ينتهز فرصة اضطراب النصارى عقب الهزيمة ، فخرج فى قواته فى شهر ربيع الأول سنة ٨٨٨ ( ابريل سنة ١٤٨٣ ) متجهاً نحو قرطبة ، شمال غربى غرناطة ، واجتاح فى طريقه عدداً من الحصون والضياع ، وهزم النصارى فى عدة معارك محلية . ثم ارتد مثقلا بالغنائم فى طريق العودة ، فأدركه النصارى فى ظاهر قلعة اللّسانة (Lucena)[٢] وكان يزمع حصارها . ونشبت بين الجيشين معركة هائلة ارتد فيها المسلمون إلى ضفاف نهر شنيل ، وقتل وأسر كثير من قادتهم وفرسانهم ،وكان بين الأسرى السلطان أبو عبد الله محمد نفسه[٣] ، عرفه الجند النصارى بين الأسرى أو عرّفهم بنفسه خشية الاعتداء عليه ، فأخذوه إلى قائدهم الكونت دى كابرا ( قبره ) فاستقبله بحفاوة وأدب ، وأنزله بإحدى

---

= الانقلاب ؛ ويندد بسلوك سلاطين غرناطة فى الوثوب بعضهم على بعض بقوله : « وهو غالب عادتهم بتلك البلاد مع الآباء والأولاد بل والأجداد » : (Al - Andalus ; Vol. I. 1933 ; Fasc. 2)

( ١ ) أخبار العصر ص ١٣ .

( ٢ ) هى بلدة صغيرة حصينة تقع اليوم فى نطاق ولاية قرطبة ، جنوب شرقى مدينة قرطبة .

( ٣ ) أخبار العصر ص ١٤ . ويشير عبد الباسط بن خليل المصرى فى حولياته إلى هذه الموقعة ويصفها ، « بالكائنة العظمى ، والداهية الطما » .

الحصون الغربية تحت حراسة قوية . وأخطر فى الحال ملكى قشتالة بالنبأ السعيد ، فأمر فرناندو أن يؤتى بالأسير الملكى إلى قرطبة ، وأن يستقبل استقبال الأمراء ؛ فأخذ أبو عبد الله وأصحابه إلى قرطبة فى حرس قوى ، واحتشد أهل قرطبة لرؤية موكب الملك المسلم ، وكان أبوعبد الله يرتدى ثوباً من القطيفة السوداء ، ويمتطى حصاناً أسود عليه سرج ثمين ، وكان وجهه يشع كآبة ، وأخذ الملك الأسير أولا إلى دار الأسقف المواجه للمسجد الجامع ، ثم أخذ بعد ذلك إلى أحد القلاع الحصينة ، وعومل هناك بإكرام وحفاوة ، وأقام فى أسره مكتئباً ينتظر يوم الخلاص .

وعاد المسلمون إلى غرناطة دون ملكهم ، وقد مزقتهم الهزيمة وفتت فى عزائمهم ، فارتاعت العاصمة لهذه النكبة واضطرب الشعب ، وساد الوجوم قصر الحمراء ، وسرى الحزن الأسى إلى حرم الأمير وقرابته ، ولم يحتفظ فيها بهدوئه وسكينته سوى أمه الأميرة عائشة . واجتمع الكبراء والقادة وقرروا استدعاء أبى الحسن السلطان المخلوع ليجلس على العرش مكان ولده الأسير . ولكن أبا الحسن كان قد هدمه الإعياء والمرض وفقد بصره ، ولم يستطع أن يضطلع بأعباء الحكم طويلا ، فنزل عن العرش لأخيه محمد أبى عبد الله « الزغل » حاكم مالقة ، وارتد إلى المنكَّب فأقام بها حيناً حتى توفى ( ٨٩٠هـ — ١٤٨٥م ) . وجلس « الزغل » على العرش يدبر شئون المملكة ، وينظم الدفاع عن أطرافها .

أما السلطان أبوعبد الله محمد فلبث يرسف فى أسره عند النصارى . وأدرك ملكا قشتالة فى الحال ما للأمير الأسير من الأهمية ، وأخذا يدبران أفضل الوسائل للاستعانة به فى تحقيق مآربهما فى مملكة غرناطة ، وبعد إمعان البحث والتدبير رؤى أن يفرج عن الملك الأسير لقاء أفضل الشروط التى يمكن الحصول عليها ، لأن هذا الإفراج من شأنه أن يزيد فى اضطرام الحرب الأهلية بين المسلمين ، وأن يعاون بذلك فى إضعاف قواهم والتمهيد لسحقهم . وبذل أبو الحسن حين عوده إلى العرش جهده لافتداء ولده ، لا بباعث الحب له والشفقة عليه ، ولكن لكى يحصل فى يده ويأمن شره ومنافسته ، وعرض على فرناندو نظير تسليمه أن يدفع فدية كبيرة ، وأن يطلق عدداً من أكابر النصارى المأسورين عنده ، فأبى فرناندو وآثر أن يحتفظ بالأسير إلى حين . وبذلت الأميرة عائشة من جهة أخرى مجهوداً آخر لإنقاذ ولدها بمؤازرة الحزب الذى يناصره ، وأرسلت إلى ملك قشتالة ، سفارة على رأسها الوزير ابن كماشة ، ليفاوض فى الإفراج عن الأسير

مقابل الشروط التى يرضاها : وانتهت المفاوضات بين الفريقين بعقد معاهدة سرية تتلخص نصوصها فيما يلى :

أن يعترف أبو عبد الله بطاعة الملك فرناندو وزوجه الملكة إيسابيلا ، وأن يدفع لهما جزية سنوية قدرها إثنا عشر ألف دوبلا من الذهب ، وأن يفرج فى الحال عن أربعمائة ، من أسرى النصارى الموجودين فى غرناطة ، يختارهم ملكهم ، ثم يطلق بعد ذلك فى كل عام ، سبعين أسيراً لمدة خمسة أعوام ، وأن يقدم أبو عبد الله ولده الأكبر رهينة مع عدد آخر من أبناء الأمراء والأكابر ضماناً بحسن وفائه . وتعهد الملكان الكاثوليكيان من جانبهما ، بالإفراج عن أبى عبد الله فوراً ، وألا يكلف فى حكمه بأى أمر يخالف الشريعة الإسلامية ، وأن يعاونه فى افتتاح المدن الثائرة عليه فى مملكة غرناطة ، وهذه المدن متى تم فتحها ، تغدو واقعة تحت طاعة ملك قشتالة ، وأن تستمر هذه الهدنة لمدة عامين ، من تاريخ الإفراج عن السلطان الأسير [١] ،

وتختلف الرواية فى تاريخ الإفراج عن أبى عبد الله ، فتقول بعض الروايات المعاصرة ، إنه أفرج عنه لأشهر قلائل من أسره ، فى أوائل سبتمبر سنة ١٤٨٣ ، ولكن هناك رواية أخرى ، تقول بأن أبا عبد الله استمر فى الأسر أكثر من عامين ، وأنه لم يفرج عنه إلا فى أواخر سنة ١٤٨٥ أو أوائل سنة ١٤٨٦ [٢] ، وهذه رواية يؤيدها صاحب أخبار العصر ، إذ يقول لنا إن العدو أطلق سراح أبى عبد الله فى أواخر سنة ٨٩٠ هـ ( ١٤٨٥ م ) ، عقب انتصار المسلمين على النصارى فى موقعة موكلين [٣] ، هذا فضلا عن أنه يذكر لنا أن أبا عبد الله ، قد أسر مرة أخرى فى موقعة لوشة حسبما يجىء ، وأنه لم يفرج عنه إلا فى أواخر سنة ٨٩١ هـ ( ١٤٨٦ م ) [٤] .

وعلى أى حال فقد أفرج عن أبى عبد الله ، بعد أن أخذ عليه ملكا قشتالة سائر العهود والمواثيق ، التى تكفل تحقيق سياستهما فى القضاء على مملكة غرناطة ، وبعد أن أتى بالرهائن المشترط تسليمهم . وسار أبو عبد الله وصحبه الذين قدموا

---

( ١ ) أورد العلامة المستشرق **M. Gaspar y Remiro** فى كتابه **Documentos Arabes de la Corte Nazari de Granada** خلاصة وافية لنصوص هذه المعاهدة السرية بالاستناد إلى المؤرخين القشتاليين المعاصرين ( ص ٢١ و ٢٢ ) .

( ٢ ) **Gaspar y Remiro ; ibid ; p. 27**

( ٣ ) أخبار العصر ص ١٨ .

( ٤ ) أخبار العصر ص ٢١ و ٢٢ .

لمرافقته ، ومعه سَرِيَّة من الجند القشتاليين ، إلى بعض الحصون الشرقية النائية ، التى قامت بدعوته(١) .

ولم يك ثمة شك فى أن عقد هذه المعاهدة كان خطوة كبيرة فى سبيل القضاء على مملكة غرناطة . وقد وضع فرناندو برنامجه المحكم لكى يستغل أسر ملك غرناطة ، ويستعين به على تنفيذ برنامجه المدمر . وكان أبو عبد الله أميراً ضعيف العزم والإرادة قليل الحزم والخبرة ، ولم يكن يتمتع بشىء من تلك الخلال الباهرة التى امتاز بها أسلافه وأجداده العظام من بنى الأحمر . وكان الملك والحكم غايته يبتغيها بأى الأثمان والوسائل . وقد ألفى ملك قشتالة القوى فى ذلك الأمير الضعيف الطموح ، أداة صالحة يوجهها كيفما شاء ، فاتخذه وسيلة لبث دعوته بين أنصاره ومؤيديه فى غرناطة وغيرها ، وليقنع المسلمين بأن الصلح مع ملك قشتالة خير وأبقى . وسير ملك قشتالة فى نفس الوقت قواته فى أنحاء مملكة غرناطة ، لكى تنتزع أثناء الاضطراب العام ، كل ما يمكن انتزاعه من القواعد والحصون الإسلامية . وزحف القشتاليون على منطقة الغربية ( غربى ولاية مالقة ) فى أوائل سنة ٨٩٠ ﻫ ، واستولوا على حصن قرطبة ، وحصن ذكوين وعدة حصون أخرى تقع شمال غربى مالقة ، فى منتصف الطريق بينها وبين رندة ، وبذلك عزلت مدينة رندة ، وأصبح الطريق ممهداً للاستيلاء عليها . وعلى أثر ذلك زحف القشتاليون على رندة وهى معقل الأندلس فى قاصية الغرب وهاجموها ، وضربوها بالأنفاط حتى هدمت أسوارها ، وكانت حاميتها بقيادة حامد الثغرى زعيم قبيلة غمارة ، ولم يستطع أهل رندة أن يثبتوا طويلا لعدم استعدادها للدفاع ، ولبعدهم عن العاصمة ، ويأسهم من تلقى الأمداد السريعة ، فطلبوا الأمان ، وغادروا المدينة بأمتعتهم ؛ واستولى القشتاليون على رندة فى جمادى الأولى سنة ٨٩٠ﻫ ( ابريل سنة ١٤٨٥م ) . ثم استولوا بعد ذلك على سائر الأماكن والحصون الواقعة فى تلك المنطقة . وكان سقوط هذه المدينة الأندلسية التالدة ضربة شديدة للمسلمين ، وبسقوطها انهارت كل وسيلة للدفاع عن منطقة الغربية ، وأصبح القشتاليون بذلك يهددون ثغر مالقة من الغرب(٢) . وحاول القشتاليون بعد ذلك مهاجمة حصن مُكْلين الواقع شمال غربى غرناطة ، وكان به الأمير أبو عبد الله الزغل فى قوة من الغرناطيين ليصلح أسواره ويتم تحصينه

---

(١) أخبار العصر ص ١٨ .

(٢) أخبار العصر ص ١٥ .

أبو عبد الله محمد سلطان غرناطة (وآخر ملوك الأندلس) عن الصورة المحفوظة بمتحف **Casa de los Tiros.** (دار الرماية) بغرناطة . والمظنون أنها الصورة التي رسمت له أثناء إقامته أسيراً في قرطبة يدل على ذلك السلسلة الرمزية التي طوق بها عنقه .

ونشبت بين الفريقين معركة شديدة ، وكان القشتاليون بقيادة الكونت دى قبره الظافر فى موقعة اللسَّانة ، وكادت الدائرة تدور فى البداية على المسلمين ، ولكنهم بذلوا جهد المستميت بقيادة أميرهم الباسل ، وانتهت المعركة بأن رد النصارى بخسائر فادحة فى الرجال والعُدد ( شعبان سنة ٨٩٠هـ — يوليه ١٤٨٥م ) ، وعاد الأمير وجنده إلى غرناطة فرحين مستبشرين[١] .

ولكن كان من سوء الطالع ، أنه لم يمض قليل على ذلك ، حتى نشبت فى غرناطة حرب أهلية جديدة . وكان الملكان الكاثوليكيان قد أطلقا سراح أبى عبدالله فى تلك الآونة بالذات ، بعد أن وقع معاهدة الخضوع والطاعة حسبما تقدم . والواقع أن الحرب الأهلية ، كانت تضطرم فى الأندلس خلال أسر أبى عبد الله ، وكان الزغل ، بعد أن تربع على عرش غرناطة ، يحاول استخلاص الأندلس كلها لنفسه . وكان الأمير يوسف أبو الحجاج شقيق أبى عبد الله ، قد استقر فى ألمرية يحاول منازعة عمه الزغل . فسار الزغل إلى ألمرية ، وثار بها أنصاره ، وغلبوا على خصومهم ، وفتحوا له أبواب المدينة ، وقتل يوسف أثناء ذلك . ويقال إن قتله كان بوحى من أبيه أبى الحسن أوعمه الزغل . وما كاد الزغل يعود إلى غرناطة ، حتى اضطرمت الفتنة من جديد . وكان أبو عبد الله حينما أطلق سراحه ، قد سار إلى بعض الحصون الشرقية ، فقامت بدعوته ، ثم سار إلى منطقة بَلِّش[٢] فى شرقى بسطة ، وأعلن نفسه ملكاً ، وأخذ يبث دعوته ، ويشيد بمزايا الصلح المعقود مع ملكى قشتالة ، وأنه يضمن للمسلمين الاستقرار والسلم ، وأنه يطبق فى سائر الأنحاء التى تدخل فى طاعته .

وكان من الواضح أن اضطرام الفتنة فى غرناطة ، فى هذا الوقت بالذات ، لم يكن بعيداً عن وحى أبى عبد الله وحزبه ، وقام أهل ربض البيّازين ، وهو حى غرناطة الشعبى ، الواقع فى شمالها الشرقى تجاه مدينة الحمراء ، بدعوة أبى عبدالله . وكان أهل البيّازين دائماً ، عنصراً من عناصر الإضطراب والشغب ، وكان لهم دائماً ضلع بارز فى كل ثورة وفتنة[٣] ، وشغل ملك غرناطة أبو عبد الله الزغل ، بإخماد

---

( ١ ) أخبار العصر ص ١٧ .

( ٢ ) المقصود هنا بمنطقة بلش بلدتا بلج أو بالاسبانية « بلش الحسناء » **Vélez Rubio** و « بلش البيضاء » **Vélez Blanco** ، وكلتاهما تقع على مقربة من الأخرى فى شمال شرق مدينة بسطة .

( ٣ ) أخبار العصر ص ١٨ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٦١١ ؛ وكذلك **Gaspar y Remiro** : **Ibid ; p. 23, 24 & 30** . ويسمى ربض البيازين بالإسبانية **Albaicin** ، وهو ما يزال قائماً فى موقعه القديم ، ومحتفظاً بكثير من معالمه القديمة .

هذه الفتنة الجديدة ، عن مقاتلة النصارى . وبذلك تحقق الغرض الذى يرمى إليه ملكا قشتالة . وكان ذلك فى أوائل سنة ٨٩١هـ ( أوائل ١٤٨٦م) . واشتدت الفتنة ، ونصب الزغل على البيازين المجانيق والأنفاظ ، ودافع أهل البيازين عن أنفسهم دفاعاً شديداً ، وكان أبو عبد الله خلال ذلك يبعث رسله إليهم ، ويعدهم بمقدمه . وطالت هذه الفتنة أكثر من شهرين ، ثم بدأت المفاوضة بين أبى عبد الله وبين عمه الزغل ( ملك غرناطة ) فى عقد الصلح ، وارتضى أبو عبد الله أن ينزل عن دعواه فى العرش ، وأن يدخل فى طاعة عمه[1] . وفى رواية أخرى أنهما اتفقا على تقسيم المملكة إلى قسمين ، فيختص الزغل بحكم غرناطة ومالقة والمرية وبلش مالقة والمنكب ، ويختص أبوعبد الله بحكم الأنحاء الشرقية[2] .

وعلى أى حال فقد انتهز ملك قشتالة ، فرصة هذه الفتنة ، للزحف على مدينة لوشة . وهنا تتفق الروايات الإسلامية والقشتالية ، على أن أبا عبد الله ، حينما علم بتهديد النصارى للوشة ، سار إليها وتحصن بها ، مع نخبة من أنجادالفرسان . وهاجم النصارى مدينة لوشة للمرة الثانية ، وشددوا الحصار عليها ، وسلطوا على أسوارها الأنفاط والعدد ، وأبدى المسلمون بسالة فائقة ، فى الدفاع عن مدينتهم . وتقول الرواية القشتالية إن أبا عبد الله بذل فى هذا الدفاع مجهوداً عظيما ، وإنه جرح أثناء ذلك[3] . ولكنا لم نعثر على ما يؤيد ذلك فى الرواية الإسلامية . ويكتفى صاحب « أخبار العصر » بالقول بأن أبا عبد الله كان فى لوشة وقت حصارها[4] ويزيد المقرى على ذلك بأن أهل غرناطة أذاعوا بأن أبا عبد الله ما جاء إلى لوشة إلا ليسلمها لملك قشتالة ، ويجعلها فداء له[5] .

وعلى أى حال فإن بسالة المسلمين ، فى الدفاع عن لوشة ، لم تغن شيئاً أمام القوة القاهرة ، وفتك الأنفاط والعدد الثقيلة ، فاضطروا إلى التسليم ، وذلك بالشروط الآتية :

---

(١) أخبار العصر ص ١٩ .

(٢) Gaspar y Remiro: ibid, p. 24

(٣) Gaspar y Remiro : ibid, p. 32; Irving : Conquest of Granada Ch. XXXIV; Lafuente Alcantra : ibid, V. II. p. 280

(٤) أخبار العصر ص ١٩ .

(٥) نفح الطيب ج ٢ ص ٦١١ .

أن يؤمن أهل لوشة الذين يرغبون مغادرتها فى أنفسهم ، وفيما يستطيعون حمله من أموالهم ، وأن يسمح لمن شاء منهم ، أن يعيش فى قشتالة أو أراجون أو بلنسية بذلك[١] ، وأن تسلم المدينة إلى ملك قشتالة مع سائر الأسرى النصارى . ودخل القشتاليون لوشة ، فى ٢٦ جمادى الأولى سنة ٨٩١ هـ ( مايو سنة ١٤٨٦ ) ، وسار معظم أهلها إلى غرناطة ، بأمتعتهم وخيلهم وسلاحهم .

وأما فيما يتعلق بأبى عبد الله ، فتقول لنا الرواية القشتالية ، إن موقفه فى الدفاع عن لوشة ، اعتبر منافياً لتعهداته للملكين الكاثوليكيين ، ونكراناً لحسن الصنيعة ، ومع ذلك فقد ارتضيا الصفح عنه ، وأن يسمح له بالاحتفاظ بلقب ملك غرناطة ، وأن يمنح لقب « صاحب وادى آش » إذا استطاع أن يستولى عليها ؛ وإذا أراد أن يلتجىء إلى قتشالة ، فإنه يسمح له أن يعيش هنالك آمناً على نفسه ، وإن شاء العبور إلى المغرب ، أمده ملك قشتالة بوسائل الانتقال[٢] . على أننا نرى على ضوء الرواية الإسلامية ، أن موقف أبى عبد الله من حوادث لوشة ، كان موقفاً مريبا . والواقع أنه كان يبذل جل جهده للدعوة إلى قضيته ، وإلى مقاومة عمه ونزعه عن العرش . وكان يمزج الدعوة لنفسه بالدعوة لملك قشتالة ، ويشيد بمزايا الصلح المعقود معه . ولم يكن خافياً أنه يستظل بمظاهرة النصارى وتأييدهم ، وأنه غدا آلة فى يد ملك قشتالة يعمل بوحيه وتوجيهه .

ولما غادر ملك قشتالة مدينة لوشة أخذ معه أبى عبد الله إما أسيراً ، حسبما يقول صاحب أخبار العصر ، أو أنه سار معه ليستمد عونه فى تنفيذ خطته للاستيلاء على عرش غرناطة ، وهى خطة يؤيدها ملك قشتالة ويشجعها ، لأنها تخدم أغراضه ومطامعه فى القضاء على تلك المملكة الصغيرة التى مزقتها الحرب الأهلية .

ولم يغفل فرناندو تلك الفرصة الذهبية لانتزاع ما يمكن انتزاعه من أراضى مملكة غرناطة . فبينما الحرب الأهلية تضطرم فى العاصمة وحولها ، إذ سار النصارى إلى حصن إليورة الواقع شمال غربى غرناطة وحاصروه وضربوه « بالأنفاط » حتى اضطروا أهله إلى التسليم والخروج عنه ؛ ثم ساروا إلى حصن مكلين الواقع شمال شرقى إليورة وهاجموه ونشبت بينهم وبين المدافعين عنه معركة عنيفة انتهت

---

( ١ ) ان اختيار أراجون وبلنسية بالذات لإيواء المسلمين المهاجرين من القواعد المفتوحة ، يرجع إلى أنه كان يوجد عندئذ فى أراجون وفى بلنسية بالأخص مجتمع كبير من المدجنين ، أو المسلمين القدماء الذين بقوا تحت حكم الاسبان .

( ٢ ) Gaspar y Reminro: ibid, p. 32

يتحطم أسواره بفعل « الأنفاط » واستيلائهم عليه ، وخروج أهله عنه إلى غرناطة[١] ثم استولى النصارى بعد ذلك على حصن قلنبيرة الواقع شرقى مكلين بالأمان[٢] ، إذ رأى أهله ما نزل بغيرهم ففضلوا التسليم دون قتال ، واستولوا بعده على سلسلة أخرى من القلاع والحصون التى تحمى مشارف غرناطة ، وأصلحوها وشحنوها بالرجال والمؤن ، لتؤدى دورها فيما بعد من التضييق على العاصمة وتهديدها[٣] .

وهنا نقف قليلا لنتساءل عن حقيقة هذه « الأنفاط » التى توالى ذكرها فى سير هذه المعارك ، التى اضطرمت بالأخص فى لوشة وفى رندة وفى الحصون المجاورة ، والتى كانت فيما يبدو عمدة النصارى فى التفوق على المسلمين ، فى تحطيم هذه الحصون القوية . ولقد أشارت الرواية الإسلامية عن سقوط غرناطة ، وهى رواية صاحب « أخبار العصر » وهى التى كتبها بعد وقوع هذه الأحداث بنحو نصف قرن فقط وكان شاهداً لها ومشتركاً فيها ، إلى تلك « الأنفاط » فى عدة مواضع ثم وصفها لنا فيما يأتى :

« وكان له ( أى لملك قشتالة ) أنفاط يرمى بها صخور من نار ، فتصعد فى الهواء ، وتنزل على الموضع ، وهى تشتعل ناراً ، فتهلك كل من نزلت عليه وتحرقه ، فكان تلك من جملة ما كان يخذل فى أهل المواضع التى كان ينزل بها »[٤] .

ونحن نعرف أن مسلمى المشرق كانوا منذ أيام الحروب الصليبية ، يحذقون استعمال الرمى بالنار والأنفاط ، وأن هذه النار كانت ترمى من آلات قاذفة تعرف بالحراقات ، على حصون العدو ومعسكراته وسفنه فى البحر فتفتك بها . وقد لعبت هذه النار دوراً هاماً فى الحروب الصليبية ، وألفت فيها مصر سلاحاً منيعاً لرد عدوان الصليبيين وتمزيق حملاتهم . والظاهر أن هذا السلاح الذى استأثر به المسلمون مدى حين فى المشرق ، قد عرفه مسلمو إفريقية والأندلس منذ منتصف القرن السابع الهجرى ، واستعملوه فى محاربة أعدائهم نصارى اسبانيا . فى حصار لبلة (٦٥٥هـ — ١٢٥٧م) استعمل الموحدون من فوق الأسوار لدفع جيوش ألفونسو العاشر ملك

---

( ١ ) ما تزال أنقاض هذا الحصن قائمة فى مكانها . وقد زرناه وشاهدنا أثر الأنفاط فى هدم بعض أبراجه وأسواره .

( ٢ ) حصن إليوره أو بلدة إليوره هى بالإسبانية **Illora** ؛ وموكلين أو مكلين هى بالإسبانية **Moclin** ؛ وقلنبيرة هى **Colomera** ، وهى اليوم من بلاد منطقة غرناطة الشمالية الغربية .

( ٣ ) أخبار العصر ص ٢٢ .

( ٤ ) أخبار العصر ص ٢٢ .

قشتالة ، آلات تقذف حجارة ومواد ملتهبة يصحبها دوى كالرعد[1] . وقد كان استعمال هذه النار أو الأنفاط الفتاكة يتطور بلا ريب مع العصور . ومنذ منتصف القرن الثامن الهجرى ( الرابع عشر الميلادى ) نرى مسلمى الأندلس يستعملون لمقاتلة النصارى آلات تقذف اللهب والحجارة ، ويصحبها دوى مخيف[2] . وظهرت براعة الأندلسيين فى استعمال هذه الآلات فى عدة مواقع . فى حصار بياسة فى سنة ٧٢٤ هـ ( ١٣٢٤ م ) فى عهد السلطان أبى الوليد اسماعيل ، أطلق المسلمون على المدينة الحديد والنار من آلات قاذفة تشبه المدافع ، واستعملت مثل هذه الآلات فى موقعة وادى لكه ( ريو سليتو ) سنة ١٣٤٠م ( ٧٤٠هـ ) ، وفى الدفاع عن الجزيرة سنة ١٣٤٢ م ( ٧٤٢ هـ ) وذلك فى عصر السلطان أبى الحجاج يوسف . والظاهر من وصف هذه الآلات أنها كانت نوعاً من المدافع الساذجة التى تحشى بالحديد والحجارة وبعض المواد الملتهبة ، التى كانت فيما مضى عماد الحراقات أو الأنفاط الشرقية . وليس بعيداً أن يكون مسلمو الأندلس قد وقفوا فى هذا العصر أيضاً إلى العثور على سر البارود ، قبل أن يقف على سره القس الألمانى برتولد شفارتز فى منتصف القرن الرابع عشر[3] . ومن المرجح أن النصارى الإسبان قد نقلوا سر الأنفاط عن مسلمى الأندلس ، وحذقوا فى استعمالها مع الزمن . ولما غلب الضعف على مملكة غرناطة تضاءلت أهباتها الدفاعية ، ونقصت مواردها من السلاح والذخيرة ، خصوصاً بعد أن فقدت معظم قواعدها الصناعية . بيد أنه من المحقق أن المسلمين كانوا يستعملون الأنفاط أيضاً فى محاربة أعدائهم وإن يك ذلك بنسبة صغيرة تتفق مع ضآلة مواردهم . أما القشتاليون فقد كانت لديهم « الأنفاط » بكثرة ، وكانت السلاح المفضل فى مهاجمة القواعد والحصون الإسلامية . وهنالك أيضا مايدل على أن هذه الانفاط التى كان يستعملها القشتاليون لم تكن سوى المدفع فى صورته البدائية ، فالرواية الغريبة تحدثنا عن اهتمام ملك قشتالة بصنع « المدافع » لمحاربة المسلمين ، وتقول لنا إن هذه المدافع كانت

---

( ١ ) راجع كتابى عصر المرابطين والموحدين القسم الثانى ص ٤٩٧ .

( ٢ ) راجع كتابى « مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام » الطبعة الرابعة ص ١٢٨ و ١٢٩ .

( ٣ ) ولدينا رواية موريسكية هى رواية ابن غانم الموريسكى الأندلسى مؤلف كتاب « العز والمنافع للمجاهدين بالمدافع » الذى سوف يأتى ذكره فى موضعه : وهو يقول لنا إن اختراع البارود وقع فى سنة ٧٦٨ هـ ( ١٣٦٦ م ) ، ومن الواضح أن هذا التاريخ المتأخر لا يتفق مع ما قدمناه من شواهد وحوادث تاريخية تدل على أن البارود قد اخترع قبل ذلك بنحو نصف قرن .

تصنع فى مدينة وشقه ، وإن كميات عظيمة من القنابل الخاصة بها كانت تصنع فى « جبال قسنطينة »[١]. وتحدثنا الرواية الإسلامية المعاصرة عن « البارود » وتقول لنا إن النصارى حينما نشبت الثورة فى ربض البيازين، أمدوا فريقاً من الثوار « بالرجال والأنفاط والبارود »[٢] إذكاء منهم للفتنة بين المسلمين . وهكذا نرى أن الأنفاط التى تنوه الرواية الإسلامية بفتكها بحصون المسلمين وصفوفهم فى معارك غرناطة، إنما هى المدافع بذاتها ، وأن تفوق القشتاليين فى استعمال هذا السلاح ، كان له أعظم الأثر فى التعجيل بإخضاع مملكة غرناطة والقضاء عليها .

* * *

ولنعد إلى قصة الحرب الأهلية فى غرناطة . فقد ثار أهل البيازين كما قدمنا بتحريض من دعاة أبى عبد الله وأمه الأميرة عائشة. والتف معظم الشعب الغرناطى حول أميره أبى عبد الله الزغل ، واستمرت المعارك سجالا بين الفريقين مدى أشهر. وفى أثناء ذلك استولى النصارى على لوشة وعلى كثير من الحصون الشمالية الغربية . وسار أبو عبد الله بعد سقوط لوشة مع ملك قشتالة، ولم يمض سوى قليل حتى عاد إلى الأنحاء الشرقية، إلى منطقة بلش، وأخذ يدبر خططه . وفى أوائل شوال سنة ٨٩١هـ (سبتمبر ١٤٨٦ ) غادر أبو عبد الله محمد الأنحاء الشرقية ، وظهر فجأة فى ربض البيازين ، واجتمع حوله أنصاره من الثوار ، وأذاع أنه عقد الصلح مع النصارى ، وأمده فرناندو حليفه بالرجال والعدد والذخائر والمؤن ومنها الأنفاط[٣]، فزادت الفتنة اضطراماً . وشدد أبو عبد الله الزغل الضغط على أهل البيازين ، وبينما هو على وشك تمزيقهم وإبادتهم، إذ بلغه أن ملك قشتالة قد سير قواته إلى مدينة بلش مالقة Vélez Málaga ، وذلك فى ربيع الثانى سنة ٨٩٢ هـ ( مارس ١٤٨٧ )[٤]. وكان طبيعياً أن ينتهز فرناندو الخامس فرصة اشتغال المسلمين بفتنتهم القاضية . وكانت بَلِّش حصن مالقة ، وسقوطها يعرض مالقة لأشد الأخطار. وأدرك مولاى الزغل فى الحال أهمية بلش فهرع إليها فى بعض قواته ، وترك البعض الآخر لقتال أبى عبد الله وأهل البيازين . ولكن إقدام الزغل وعزمه وشجاعته، واستبسال أهل

---

( ١ ) Sierra Constantina راجع : Prescott ; ibid; p. 223

( ٢ ) راجع أخبار العصر ص ٢٤ .

( ٣ ) Gaspar y Remiro : ibid ; p. 42

( ٤ ) أخبار العصر ص ٢٢ — ٢٤ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٦١٢ .

بلش فى الدفاع عن مدينتهم لم تغن شيئاً ، وسقطت بلش مالقة فى يد النصارى فى جمادى الأولى سنة ٨٩٢ ( أبريل سنة ١٤٨٧ ) وعاد الزغل بجنده ميمماً صوب غرناطة . ولكنه علم أثناء مسيره أن غرناطة قامت أثناء غيابه بدعوة أبى عبدالله ، وأنه دخلها وتبوأ العرش مكانه ( ٥ جمادى الأولى — ٢٨ أبريل ) . وكان أهل غرناطة يحبون الزغل، ويقدرون بطولته ووطنيته، واستبساله فى مقاومة النصارى، ولكنهم تحولوا عنه إلى تأييد أبى عبد الله لمحالفته للنصارى ، وأملهم بذلك فى اتقاء عدوانهم على أرباضهم وقراهم ، وصون أنفسهم ومصالحهم . وهكذا أيقن الزغل عبث المحاولة ، وارتد بصحبه إلى وادى آش، وامتنع فيها بقواته، وبذلك انقسمت مملكة غرناطة الصغيرة إلى شطرين يتربص كل منهما بالآخر : غرناطة وأعمالها ويحكمها أبو عبد الله محمد ابن السلطان أبى الحسن ، ووادى آش وأعمالها ويحكمها عمه الأمير محمد بن سعد ( أبوعبد الله الزغل ) . وتحقق بذلك ما كان يبتغيه ملك قشتالة ، من تمزيق البقية من دولة الإسلام بالأندلس ، تمهيداً للقضاء عليها .

# الفصل الثاني

## بداية النهـــاية

أبو عبد الله محمد يرقى العرش للمرة الثانية . تمزق المملكة الإسلامية . خطط ملك قشتالة للقضاء عليها . زحف النصارى على مالقة وحصارها . سعى الزغل إلى إنقاذها . استغاثته بملوك الإسلام . بسالة المسلمين فى الدفاع عنها . شدة الحصار وأهواله . تسليمها للنصارى . نكث فرناندو بوعوده . استغاثة الأندلس بمصر . تتبع مصر لحوادث الأندلس . صدى محنة الأندلس فى الشرق . رواية عن خطة مصر وتركيا لإنقاذ الأندلس . سفارة الأندلس إلى مصر . رواية ابن إياس عنها . مصر تلجأ إلى الوسائل الدبلوماسية . سفارة مصر إلى البابا وملك نابل وملكى اسبانيا . رد فرناندو وسفارته إلى ملك مصر . أثر سقوط مالقة . استيلاء النصارى على الأنحاء الشرقية . عهد فرناندو لأهل أشكر . حصار المنكب . تسليمها وعهد النصارى لأهلها . زحف فرناندو على مدينة بسطة . بسالة المسلمين فى الدفاع عنها . حصارها وتسليمها . عهد النصارى ليحيى النيار زعيم بسطة وألمرية . الشروط التى منحت له . تسليم ألمرية وشروط التسليم . يأس مولاى الزغل وخضوعه لفرناندو . دخول النصارى وادى آش . نزول الزغل عن حقوقه . الشروط التى منحت له . جوازه إلى المغرب . رواية عن سلوك الزغل .

تبوأ أبو عبد الله محمد بن السلطان على أبى الحسن عرش غرناطة للمرة الثانية ، عقب عودة من الأسر بنحو عام ، ولكنه لم يكن يحكم تلك المرة سوى مملكة صغيرة ، وكان المفروض فوق ذلك أنه يحكمها باسم ملك قشتالة وتحت حمايته ، وكانت الخطوب والفتن التى توالت على مملكة غرناطة قد مزقتها ، ولم يبق منها بيد المسلمين سوى بضع مدن وقواعد متناثرة ، مختلفة الرأى والكلمة ، ينضوى بعضها تحت لوائه وتشمل الأنحاء الشمالية الغربية ، وينضوى البعض الآخر تحت لواء عمه محمد ابن سعد (الزغل) ، وتشمل الأنحاء الشرقية والجنوبية . وكان واضحاً أن مصير المملكة الإسلامية أصبح يهتز فى يد القدر ، بعد أن نفذت جيوش النصرانية إلى قلبها ، واستولت على كثير من قواعدها وحصونها الداخلية ، مثل الحامة ورندة ولوشة وبلش مالقة وغيرها . وكان ملك قشتالة يحرص على المضى فى تحقيق خططه لسحق البقية الباقية من دولة الإسلام فى الأندلس قبل أن يعود إليها اتحاد الكلمة ، فيبعث إليها روحاً جديدة من العزم والمقاومة . وكان من الطبيعى أن يؤثر البدء بغزو القواعد الشرقية والجنوبية التى يسيطر عليها مولاى الزغل ، لأن الزغل

لم يكن يدين بطاعته ، وكان يبدى فى مقاومته عزماً لا يلين ولا يخبو ، ولأنه من جهة أخرى كان يرتبط بأمير غرناطة بصلح يمتد إلى عامين ، وقد أراد أن يسبغ على عهوده مسحة غادرة من الوفاء، وأخيراً لأنه كان يريد أن يعزل غرناطة وأن يطوقها من كل صوب ، قبل أن يسدد إليها الضربة الأخيرة .

وقد رأينا كيف سقطت قاعدة بَلِّش حصن مالقة من الشرق فى يد النصارى، بعد دفاع عنيف ، فى جمادى الأولى سنة ٨٩٢هـ (مايو ١٤٨٧م) . وعلى أثرسقوطها غادرها معظم أهلها، وتفرقوا فى أنحاء الأندلس الأخرىالباقية بيد المسلمين،وجاز كثير منهم إلى عدوة المغرب، واستولى النصارى على جميع الحصون والقرى المجاورة ومنها حصن قمارش وحصن مونتميور، واستطاعو بذلك أن يشرفوا على مالقة من كل صوب . وكانت مالقة ما تزال أمنع ثغور الأندلس، وقد أضحت بعد سقوط جبل طارق عقد صلتها الأخيرة بعدوة المغرب ، وكان فرناندو يحرص على أن يقطع كل وسيلة ناجعة لقدوم الأمداد من إفريقية وقت الصراع الأخير . وكان الاستيلاء على مالقة يحقق هذه الغاية . ومن ثم فإنه ماكاد النصارى يظفرون بالاستيلاء على بلش والحصون المجاورة ، حتى زحفوا على مالقة وطوقوها من البر والبحر بقوات كثيفة ، وذلك فى جمادى الثانية سنة ٨٩٢هـ ( يونيه ١٤٨٧م ) وامتنع المسلمون داخل مدينتهم ، وكانت تموج بالمدافعين وعلى رأسهم نخبة مختارة من أكابر الفرسان ، ومعهم بعض الأنفاط والعدد الثقيلة . وكانت مالقة تدين بالطاعة للأمير محمد بن سعد ( الزغل ) صاحب وادى آش ، ولكنه لم يستطيع أن يسير إلى إنجادها بقواته خوفاً من غدر ابن أخيه أمير غرناطة ، فترك مالقة إلى مصيرها وهو يذوب تحسراً وأسى .ولكنه فكر فى وسيلة أخيرة لعلها تجدى فى إنقاذ الأندلس من خطر الفناء الداهم، هى أن يستغيث بملوك الإسلام لآخر مرة، فأرسل رسلا إلى أمراء إفريقية وإلى سلطان مصر الأشرف قايتباى . ولم يكن من المنتظر إزاء بعد المسافة أن تصبر مالقة على ضغط النصارى حتى يأتيها المدد المنشود . وكان يتولى الدفاع عن الثغر المحصور جند غمارة وزعيمهم حامد الثغرى. وأبدى المسلمون فى الدفاع عن ثغرهم أروع ضروب البسالة والجلد ، وحاولوا غيرمرة تحطيم الحصار المضروب عليهم ، وفتكوا بالنصارى فى بضع مواقع محلية،ومع ذلك فقد ثابر النصارى على ضغطهم وتشديد نطاقهم ، حتى قطعت كل علاقة للمدينة المحصورة مع الخارج ، ومنعت عنها سائر الأمداد والأقوات ، وعانى المسلمون

داخل مدينتهم أهوال الحصار المروع ، واستنفدوا كل ما وصلت إليه أيديهم من الأقوات ، وأكلوا الجلود وأوراق الشجر ، وفتك بهم الجوع والإعياء والمرض ، ومات كثيرون من أنجاد فرسانهم ، ولم يجدوا فى النهاية لهم ملاذاً سوى التسليم على أن يؤمنوا فى أنفسهم وأموالهم . وهكذا سقطت مالقة بعد دفاع مجيد استطال ثلاثة أشهر فى أيدى النصارى ، وذلك فى أواخر شعبان سنة ٨٩٢ هـ ( أغسطس ١٤٨٧م ) . ولم يحافظ فرناندو على ما بذله لأهلها من عهود لتأمين النفس والمال ، وأصدر قراراً ملكياً باعتبار أهلها المسلمين رقيقاً يجب عليهم افتداء أنفسهم ومتاعهم ، ويفرض على كل مسلم أو مسلمة مهما كان السن والظروف ، الأحرار منهم والعبيد الذين فى خدمتهم ، فدية للنفس والمتاع ، قدرها ثلاثون دوبلا من الذهب الوازن اثنين وعشرين قيراطاً ، أوما يوازى هذا القدر من الذهب والفضة واللآلى والحلى والحرير ؛ وأنه يسمح لمن أدوا هذه الفدية ، إذا شاءوا ، بالعبور إلى المغرب وتقدم السفن لنقلهم ، وأنه لا يسمح للمسلمين ذكوراً أو أناثاً بالعيش أو الإقامة فى مملكة غرناطة ، ولكن يسمح لهم أن يعيشوا أحراراً آمنين فى أية ناحية من نواحى قشتالة ، وأنه لا يتمتع بهذه المنح بنوالثغرى وزوجاتهم وأولادهم ، وبعض أفراد أشار إليهم القرار(١). ودخل النصارى المدينة دخول الفاتحين ، وعاثوا فيها وسبوا النساء والأطفال ، ونهبوا الأموال والمتاع ، وفر من استطاع من المسلمين إلى غرناطة أو وادى آش أو جاز إلى العدوة . وكان هذا التصرف نموذجاً لما يضمره ملك النصارى نحو معاملة المسلمين المغلوبين ، ولما تنطوى عليه سياسته من نكث للوعود والعهود . وتقول الرواية الإسلامية المعاصرة فى وصف محنة أهل مالقة « وكان مصابهم مصاباً عظيما تحزن له القلوب وتذهل له النفوس ، وتبكى لمصابهم العيون »(٢).

- ٢ -

ولنعد الآن إلى قصة السفارات التى أوفدها أبو عبد الله الزغل إلى ملوك إفريقيه ومصر وقسطنطينية يستغيث بهم ، ويلتمس نصرتهم . والتجاء الأندلس إلى ملوك العدوة فى طلب الغوث والنجدة أمر طبيعى وتقليد أندلسى قديم ، أشرنا إليه مراراً فيما تقدم . ولكن دول المغرب كانت يومئذ يسودها الضعف والتفرق ، ولم يكن

---

(١) هذا ما ورد ضمن وثيقة محفوظة بدار المحفوظات الإسبانية العامة **Achivo General de Simaneas; P. R. 11-5**

(٢) أخبار العصر ص ٢٧ و ٢٨ .

فى استطاعتها أن تهرع إلى انجاد الأندلس ، كما فعلت فى الماضى غير مرة . ولم يلب نداء مولاى الزغل سوى شراذم ضئيلة من المجاهدين المتطوعين ، جازت البحر إلى الأندلس ، واشتركت فى نضالها الأخير .

وأما استغاثة الأندلس بمصر فلم تقع إلا فى عهد متأخر ، وذلك حينما ضعف أمر بنى مرين ملوك العدوة الأقوياء ، وانقطعوا عن العبور إلى الأندلس ، وشغلوا بأمر الدفاع عن أنفسهم . وقد ذكرنا فيما تقدم قصة السفارة الأندلسية التى بعث بها السلطان أبو عبد الله الأيسر إلى سلطان مصر الظاهر چقمق فى سنة ٨٤٤ هـ ( ١٤٤٠ م ) ، وكيف أنها لم تسفر عن أية نتائج عملية . على أنه لم يكن ثمة ريب فى أن الحوادث الأندلسية المفجعة ، كانت قد ذاعت يومئذ فى أنحاء العالم الإسلامى ، واهتز لمصابها أمراء الإسلام قاطبة . وكان صداها يتردد فى بلاط القاهرة وغيره من قصور المشرق ، وكان أمراء الأندلس وزعماؤها مذ لاح لهم شبح الخطر الداهم ، يتجهون بأبصارهم إلى دول المغرب والمشرق معاً ، وكانت كتبهم ونداءاتهم فى تلك الآونة العصيبة تترى على فاس والقاهرة وقسطنطينية . وفى صحف العصر ما يدل على أن مصر كانت بنوع خاص ، تتبع حوادث الاندلس باهتمام وجزع ، فإن ابن إياس مؤرخ مصر فى ذلك العصر لم يفته أن يدون فى حولياته هذه الحوادث تباعاً ، فنراه يقول فى حوادث ذى الحجة سنة ٨٨٦هـ (١٤٨١م ) ، ما يأتى : « وفيه جاءت الأخبار من بلاد الغرب أن أبا عبد الله محمد بن أبى الحسن على بن سعد ابن الأحمر قد ثار على أبيه الغالب بالله صاحب غرناطة وملكها من أبيه ، وجرت بينهما أموريطول شرحها ، وآل الأمر بعد ذلك إلى خروج الأندلس عن المسلمين ، وملكها الفرنج والأمر لله فى ذلك » . وفى حوادث رجب سنة ٨٩٠هـ (١٤٨٥م ) . « وفى رجب جاءت الأخبار بوفاة ملك الأندلس صاحب غرناطة ، وهو الغالب بالله أبو الحسن » . وفى حوادث جمادى الآخرة سنة ٨٩١ هـ ( ١٤٨٦ م ) « إن صاحب غرناطة ( أبا عبد الله ) توجه إلى عمه يسأله أن يرسل له نجدة تعينه على قتال صاحب قشتالة ، وان الفتن هنالك قائمة والأمر لله »[1]. وهكذا كانت حوادث الأندلس تتردد رغم بعد المسافة وصعوبة المواصلة فى مصر ، ويدونها مؤرخ مصر المعاصر ، وإن كان فى إيرادها تنقصه الدقة والوضوح .

وكانت مصر ترتبط يومئذ مع ثغور الأندلس ولاسيما مالقة وألمرية بعلائق

( ١ ) راجع ابن إياس : تاريخ مصر ( بولاق ) ج ٢ ص ٢١٦ و٢٣٠ و٢٣٧ .

تجارية وثيقة . وكان لمصر هيبتها التالدة بين الدول النصرانية منذ الحروب الصليبية وبالأخص لأنها تحكم البقاع النصرانية المقدسة ، وبين رعاياها ملايين من النصارى . ولم يكن غريباً فى تلك الآونة أن تفكر الأندلس إبان محنتها القاسية مرة أخرى ، فى الإستغاثة بمصر بعد أن رأت قصور الدول المغربية عن إنجادها . وكان من الطبيعى أن تهتم دول الإسلام من أقصاها إلى أقصاها بمصير الأمة الأندلسية ، وأن تفكر فى التماس السبيل إلى غوثها إن استطاعت إلى ذلك سبيلا . ولا تشير المصادر الإسلامية إلى فكرة أو سياسة معينة ، وضعتها أواعتزمتها الدول الإسلامية لتحقيق هذه الغاية ، ولكنها تشير فقط إلى سفارة أندلسية وفدت على بلاط مصر . على أن المصادر الغربية تشير بالعكس إلى أن خطة كهذه قد وضعت ونظمت . وخلاصة ما تقوله فى ذلك هو أن المشرق كله اهتز لحوادث الأندلس ، وسقوط قواعدها السريع فى يد النصارى ، وأن بايزيد الثانى سلطان الترك والأشرف قايتباى سلطان مصر ، تهادنا موقتاً الرغم مما كان بينهما من خصومات مضطرمة وحروب دموية ، وعقدا محالفة لإنجاد الأندلس وإنقاذ دولة الإسلام فيها ، ووضعا لذلك خطة مشتركة خلاصتها أن يرسل بايزيد الثانى أسطولا قوياً لغزو جزيرة صقلية التى كانت يومئذ من أملاك اسبانيا ، ليشغل بذلك اهتمام فرناندو وإيسابيلا ، وأن تبعث سريات كبيرة من الجند من مصر وإفريقية ، تجوز البحر إلى الأندلس ، لتنجد جيوشها وقواعدها(١) . ومن الصعب أن نعتقد بأن مثل هذه الخطة الموحدة ، يمكن أن يتفق عليها بين مصر وقسطنطينية فى مثل الظروف التى كانت تجوزها علائق البلدين يومئذ ؛ فقد كانت علائق جفاء وقطيعة ، وكان الترك يتربصون بمصر ويطمحون إلى غزوها ، وكانت مصر تخشى العدوان ويسودها التوجس والحذر ، وكان انفصام العلائق بين تركيا ومصر على هذا النحو أبعد من أن يسمح بعقد مثل هذا التحالف بينهما . وكل ما يمكن قوله فى هذا الشأن هو أن فكرة إنجاد الأندلس كانت تلقى فى بلاط القاهرة وقسطنطينية نفس العطف ، وإن لم يتفاهما فى ذلك على خطة موحدة .

وعلى أى حال فمن المحقق الذى لاريب فيه أن مصر قد تلقت استغاثة الأندلس ، ووضعت خطة دبلوماسية خاصة لإسعافها وإنجادها . وقد وصلت سفارة الأندلس إلى مصر فى أواخر سنة ٨٩٢ هـ ( نوفمبر سنة ١٤٨٧م ) . ويصف ابن إياس هذه

(١) راجع : Irving : Conquest of Granada p. 172

السفارة فيما يأتى : « وفى ذى القعدة ( سنة ٨٩٢هـ ) جاء قاصد من عند ملك الغرب صاحب الأندلس ، وعلى يده مكاتبة من مرسله تتضمن أن السلطان يرسل له تجريدة تعينه على قتال الفرنج ، فإنهم أشرفوا على أخذ غرناطة وهو فى المحاصرة معهم . فلما سمع السلطان ذلك ، اقتضى رأيه أن يبعث إلى القسوس الذين بالقمامة التى بالقدس بأن يرسلوا كتاباً على يد قسيس من أعيانهم ، إلى ملك الفرنج صاحب نابل ، بأن يكاتب صاحب إشبيلية بأن يحل عن أهل مدينة غرناطة ويرحل عنهم ، وإلا يشوش السلطان على أهل القمامة ، ويقبض على أعيانهم ، ويمنع جميع طوائف الفرنج من الدخول إلى القمامه ويهدمها ، فأرسلوا قاصدهم وعلى يده كتاب إلى صاحب نابل ، كما أشار السلطان ، فلم يفد ذلك شيئاً وملك الفرنج مدينة غرناطة فيما بعد »[1] . وفى رواية ابن إياس شيء من اللبس . ذلك أن حصار النصارى الأخير لغرناطة ، لم يبدأ إلا فى مارس سنة ١٤٩١ الموافق جمادى الثانية سنة ٨٩٦هـ ، فالأمر لم يكن متعلقاً إذاً بإنقاذ غرناطة . وكانت جيوش فرناندو وإيسابيلا منذ بداية سنة ٨٩٢ هـ تتدفق حسبما رأينا على أراضى مولاى الزغل لكى تنتزع منه الثغور الجنوبية . وقد استولت على بَلّش مالقة فى جمادى الأولى من هذا العام ( مايو ١٤٨٧ ) ، ثم زحفت توا على مالقة ، وضربت حولها الحصار فى جمادى الثانية ( يونيه سنة ١٤٨٧ م ) . وقد وصل صريخ الأندلس إلى مصر فى أواخر سنة ٨٩٢ هـ ، وذلك بعد أن سقطت مالقة فى يد النصارى بنحو ثلاثة أشهر . وإذاً فمن الواضح أن هذا الصريخ كان متعلقاً بإنقاذ مالقة ، وأنه كان صادراً من مولاى الزغل بطل الأندلس والمدافع عنها يومئذ ، والمشفق عليها من السقوط ، ولم يصدر من صاحب غرناطة وهو ابن أخيه أبوعبد الله محمد ، وقد كان يومئذ يعيش آمناً فى ظل الهدنة الغادرة التى عقدها مع النصارى .

ولم يكن من الميسور على مصر أن تلبى نداء الأندلس بطريقة فعالة ، فترسل إليها الأمداد أو المساعدات المادية على ما بينهما من بعد الشقة ، وعلى ماكان يشغل مصر يومئذ من الحوادث الداخلية ، وتوجسها من عدوان الترك على حدودها الشمالية . ولكن مصر حاولت مع ذلك أن تعاون الأندلس بطريق الدبلوماسية ، والضغط السياسى . وسلك بلاط القاهرة فى ذلك خطة تدل بذكائه وحزمه ، وتدل بالأخص بوقوفه على مجرى الشئون الخارجية ، وتطور العلائق الدبلوماسية فى هذا العصر .

---

( ١ ) تاريخ مصر ج ٢ ص ٢٤٦ .

ذلك أن سلطان مصر الملك الأشرف ، أجاب عن سفارة الأندلس بتوجيه سفارة مصرية إلى البابا وملوك النصرانية . واختار لأدائها راهبين من رعاياه النصارى ، أحدهما القس أنطونيو ميلان رئيس دير القديس فرنسيس فى بيت المقدس ، وعهد إليهما بكتب إلى البابا وهو يومئذ إنوصان الثامن ، وإلى ملك نابل ( نابولى) فرناندو الأول ، وإلى فرناندو وإيسابيلا ملكى قشتالة وأراجون . وفى هذه الكتب يعاتب سلطان مصر ملوك النصارى على ما ينزل بأبناء دينه المسلمين فى مملكة غرناطة ، وعلى توالى الإعتداء عليهم ، وغزو أراضيهم ، وسفك دمائهم ، فى حين أن رعاياه النصارى فى مصر وبيت المقدس ، وهم ملايين ، يتمتعون بجميع الحريات ، والحمايات ، آمنين على أنفسهم وعقائدهم وأملاكهم . ولهذا فهو يطلب إلى ملكى قشتالة وأراجون الكف عن هذا الاعتداء ، والرحيل عن أراضى المسلمين ، وعدم التعرض لهم ، ورد ما أخذ من أراضيهم ، ويطلب إلى البابا وملك نابل أن يتدخلا لدى ملكى قشتالة وأراجون ، لردهما عن إيذاء المسلمين والبطش بهم ، هذا وإلا فان ملك مصر سوف يضطر إزاء هذا العدوان ، أن يتبع نحو رعاياه النصارى سياسة التنكيل والقصاص ، ويبطش بكبار الأحبار فى بيت المقدس ، ويمنع دخول النصارى كافة إلى الأراضى المقدسة ، بل ويهدم قبر المسيح ذاته وكل الأديار والمعابد والآثار النصرانية المقدسة(١) .

وغادر القس أنطونيو ميلان وزميله الديار المصرية ، لتأدية سفارة مصر إلى ملوك النصرانية . ولسنا نعرف موعد هذا الرحيل بالضبط ، ولكن السفيرين وصلا إلى اسبانيا فى خريف سنة ١٤٨٩ م ، أعنى لنحو عام ونصف من وصول صريخ الأندلس إلى القاهرة . وكانت مالقة قد سقطت فى يد النصارى منذ عامين واستولوا على طائفة أخرى من الحصون والقواعد ، ثم تحولوا بعد ذلك إلى بسطة حسبما يجىء ، وضرب فرناندو حولها الحصار . وهنالك أمام أسوار بسطة وفد القس أنطونيو ميلان وزميله إلى معسكر النصارى فى أواخر سنة ١٤٨٩ م ، فاستقبلهما فرناندو بحفاوة وترحاب ، واستلم كتاب السلطان ، واستمع إلى رسالتهما بعناية . وكان السفيران قد عرجا فى طريقهما على رومة ونابل أولا ، وقدما كتب السلطان إلى البابا

---

( ١ ) ابن إياس فى تاريخ مصر ج ٣ ص ٢٤٦ و Prescott: Ferdinand and Isabella p.272 و Irving : ibid. p. 227 . وظاهر أن فى رواية ابن إياس عن تأليف سفارة مصر بعض النقص ، ولكن ملخصه لمحتويات الكتب السلطانية فى منتهى الدقة .

إنوصان الثامن والى ملك نابل، فكتب البابا إلى فرناندو وإيسابيلا يسألهما عما يجيب به على مطالب السلطان ووعيده ، وكتب ملك نابل ( فرناندو الأول ) إليهما يستفهم عن سير الحرب الأندلسية ، ويلومهما على اضطهاد المسلمين ، وينصح بالكف عنه حتى لا يتعرض نصارى المشرق إلى قصاص السلطان . ويرجع تدخل ملك نابل على هذا النحو ، إلى خلاف بينه وبين ملك أراجون على حقوق عرش نابل ، وإلى تخوفه من أن يرتد فرناندو إلى محاربته متى تم ظفره بفتح الأندلس . ثم زار القسان أيضاً مدينة جيان حيث كانت الملكة إيسابيلا ، وأبلغاها موضوع سفارتهما ولقيا منها نفس الحفاوة والترحاب[1] .

ولم ير فرناندو وإيسابيلا فى مطالب السلطان ووعيده ما يحملهما على تغيير خطتهما ، فى الوقت الذى أخذت فيه قواعد الأندلس الباقية تسقط تباعاً فى أيديهما واقترب فيه أجل الظفر النهائى ؛ ولكنهما رأيا مع ذلك إجابة السلطان ، فكتبا إليه فى أدب ومجاملة ، « أنهما لا يفرقان فى المعاملة بين رعاياهما المسلمين والنصارى ، ولكنهما لا يستطيعان صبراً على ترك أرض الآباء والأجداد فى يد الأجانب ، وأن المسلمين إذا شاءوا حياة فى ظل حكمهما راضين مخلصين ، فانهم سوف يلقون منهما نفس ما يلقاه الرعايا الآخرون من الرعاية » ، وبذا ارتد القسان إلى المشرق يحملان جواب الملكين إلى السلطان ، ومعهما طائفة من التحف والهدايا .

ولسنا نعرف ماذا كان مصير هذه الرسالة ، ولكنا نرجح أنها وصلت إلى بلاط القاهرة ، وإن كنا لا نلمس لها أثراً فى حوادث هذا العصر . وليس فى تصرفات حكومة مصر يومئذ ما يدل على أن السلطان نفذ وعيده ، باتخاذ إجراءات معينة ضد النصارى أوضد الآثار النصرانية المقدسة . والواقع أن بلاط القاهرة كان يشغل عندئذ بحركات بايزيد الثانى ، وصد غاراته المتكررة على الحدود الشمالية . وكان الاضطراب من جهة أخرى يسود شئون مصر الداخلية ، ومن ثم فإنه يبدو أن محاولة مصر إنقاذ الأندلس قد وقفت عند هذا الحد . ولم تتعد قيام مصر بمظاهرة دولية تقوم على استغلال الظروف والمؤثرات الدينية . وهكذا فشلت هذه المحاولة الدبلوماسية الفطنة التى بذلتها مصر ، وتركت الأندلس إلى قضائها المحتوم .

— ٣ —

وكان سقوط مالقة أمنع الثغور الأندلسية فى يد النصارى ضربة أليمة للمملكة

---

(١) Irving : ibid ; p. 258 ; Prescott : ibid ; p.278

الإسلامية الممزقة ، يحرمها من كثير من ضروب الإمداد والغوث التى كانت تأتيها من وراء البحر ، وكان واضحاً أن ملك قشتالة كان يرمى إلى قطع هذه الأمداد بكل الوسائل . ولم يكن باقياً بعد ضياع جبل طارق ومالقة ، بيد المسلمين من الثغور سوى ألمرية والمنكب ، وإليهما كانت تفد جموع المتطوعة والمجاهدين ، بالرغم من بعدهما عن شواطئ العدوة ، وكان لابد من الاستيلاء عليهما ، قبل أن تقطع كل صلة للأندلس نهائياً بعدوة المغرب وشمال إفريقية . وقضى فرناندو قبل تنفيذ هذه الخطة زهاء عام ، بعمل على تطهير منطقة مالقة ، والاستيلاء على ما بقى من الحصون الشرقية والغربية ، حتى استولى عليها جميعاً ولم يبق منها بيد المسلمين شيء .

وفى ربيع سنة ١٤٨٨م (٨٩٣هـ) زحف فرناندو على أطراف مملكة غرناطة الشرقية ، وكانت لبعدها عن العاصمة ، أقل استعداداً للدفاع ، وانتهت هذه الحملة باستيلاء النصارى على بيرة ، والبلشين وأشكر (١) وغيرها من القواعد الشمالية الشرقية ، وذلك بالرغم من كون أهلها كانوا داخلين فى الصلح المعقود مع أبى عبد الله ، وكان على ملك قشتالة لو أنه أوفى بعهوده ، أن يتركهم حتى ينتهى أمد الصلح المذكور (٢) . وقد عثرنا على نص العهد الذى أصدره الملكان الكاثوليكيان لأهل أشكر ، وهو نموذج للعهود التى صدرت لباقى البلاد المفتوحة فى هذه المنطقة ، وفيه يتعهد الملكان ، بقبول أهل أشكر بين رعاياهما وتحت حمايتهما ، وأن لا يؤخذ شيء من أمتعتهم أو يصيبهم أى مكروه ، وألا يدفعوا من الضرائب إلا ما كانوا يؤدونه لملوكهم المسلمين ، وألا يرغموا على محاربة إخوانهم مسلمى غرناطة ، وأن يسمح لهم باستبقاء زعمائهم وفقهائهم ، وعوائدهم وشريعتهم ، وأنه يحق لهم الإقامة فى أى جزء من أراضى مملكة قشتالة ، كما يحق لهم العبور إلى المغرب أحراراً ودون أى قيد ، وأن يعامل السكان جميعاً ذكوراً أو أناثاً ، بالرفق والكرامة وألا يغصبهم أحد فى دورهم ، أو يسىء إليهم أو يتلف شيئاً من أمتعتهم أو محاصيلهم ، وألا يعاشر نصرانى مسلمة ، أو مسلم نصرانية ، ومن فعل ذلك يعاقب بالموت وتصادر أملاكه ، وأن يدفع الكراء العادل لمن يطلب منهم للعمل فى بناء حصن

---

(١) بيرة وبالإسبانية **Vera** تقع شمال شرق ألمرية على مقربة من البحر المتوسط ، والبلشان هما بلج أو « بلش الحسناء » **Velez Rubio** ، و« بلش البيضاء » **Velez Blanco** ، وهما تقعان شمالى شرق مدينة بسطة **Baza** ، وأشكر وهى بالإسبانية **Huescar** تقع شمال غرب البلشين .

(٢) **Gaspar y Remiro: ibid; p. 43**

المدينة(١) . وسنرى فيما يلى من الحوادث أن الملكين الكاثوليكيين ، يغدقان أمثال هذه العهود لسائر البلاد المفتوحة ، ولكن دون أية نية صادقة فى الوفاء بها .

وفى الوقت الذى اقتربت فيه القوات القشتالية ، من مدينة بسطة ، أمنع قاعدة فى ولايات غرناطة الشرقية، لتضرب حولها الحصار ، سار فرناندو فى بعض قواته إلى ثغر المنكّب(٢)، الواقع فى منتصف المسافة بين مالقة وألمرية، وحاصره ، وكان يدافع عنه القائد محمد بن الحاج . ومع أنه لم يك ثمة شك فى النتيجة المحتومة ، فقد دافع المسلمون عن ثغرهم ، واعتصموا به نحو ثلاثة أشهر ، وكبدوا القشتاليين بعض الخسائر . ثم وقعت المفاوضة فى التسليم ، وأصدر الملكان الكاثوليكيان للقائد ابن الحاج ومعاونه الفقيه أبى عبد الله الزليخى ، عهداً خلاصته ، أنه إذا سلم القصبة وكل حصونها فى ظرف تسعة أيام، فإنه يقبل هو وولده وصحبه وقرباه، كما يقبل الوزراء والقواد والفقهاء وسائر أهل المنكب بين رعايا قشتالة ، وأنهم يتركون آمنين فى ديارهم وأنفسهم وأموالهم ، ويحتكمون إلى شريعتهم ، وتترك لهم مساجدهم وصوامعهم ، ولا يؤخذ منهم خيلهم أوسلاحهم إلا طاقات البارود ، وأنه إذا تم التسليم فى الموعد المذكور ، فإنه تقدم إلى القائد المذكور هبة قدرها ثلاثة آلاف دوبلا قشتاليا ، وأنه إذا شاء العبور إلى المغرب مع ولده وأسرته ، فإنه تقدم إليه سفينة حسنة للجواز فيها مع سائر متاعه دون كراء أو مغرم ، وأنه لا تمس أملاك الأهالى ، ولهم بيعها أوقبض ريعها إذا عبروا إلى المغرب ، وهكذا سلم ثغر المنكب إلى القشتاليين ، فى شهر ديسمبر سنة ١٤٨٩ ( المحرم سنة ٨٩٥هـ ). ولم يبق للمسلمين من الثغور سوى ألمرية ، التى طوقها العدو فى نفس الوقت بقواته ، وأصبحت تحت رحمته وشيكة التسليم .

ولما تم قطع علائق الأندلس على هذا النحو مع عدوة المغرب وشمال إفريقية ، بدأ فرناندو فى تنفيذ خطته النهائية للقضاء على ما بقى فى الداخل من المملكة الإسلامية وكانت مملكة غرناطة قد انقسمت كما رأينا إلى شطرين ، الأنحاء الشرقية وتشمل وادى آش وأعمالها ويحكمها الأمير محمد بن سعد أبو عبد الله الزغل ، والأنحاء الغربية

---

( ١ ) تحفظ هذه الوثيقة ببلدية « أشكر » **Archivo del Ayuntamiento de Huescar** ، وقد نقلناها عن مجموعة : **Documentos Inéditos para la Historia de Espana Vol. III, p. 170-173**

( ٢ ) وهى بالإسبانية **Almunecar**

وتشمل مدينة غرناطة وأعمالها ، ويحكمها الأمير أبو عبد الله محمد بن على . فقرر فرناندو أن يبدأ بإتمام الاستيلاء على الأنحاء الشرقية ، وأن يقضى أولا على سلطان أبى عبد الله الزغل لما كان يخشاه من عزمه وشديد بأسه ، فما كاد ينتهى من إخضاع ثغر المنكب وتطويق ثغر ألمرية حتى قرر تضييق الخناق على مدينة بسطة ، وكانت قواته تطوقها حسبما تقدم ، وكانت الملكة إيسابيلا مع حاشيتها فى جيان على مقربة من الجيش الفاتح ؛ وكانت بسطة أهم القواعد الشرقية التى يسيطر عليها مولاى الزغل بعد وادى آش مقر حكمه ؛ ولم يستطع الزغل أن يغادر معقله فى وادى آش للدفاع عن بسطة ، خشية أن يهاجمه ابن أخيه أبو عبد الله فى غيبته ، فأرسل إليها حامية مختارة من أنجاد الفرسان بقيادة صهره الأمير يحيى النيار الذى تعرفه التواريخ القشتالية « بسيدى يحيى » . وحاول القشتاليون الإطباق على بسطة ومحاصرتها فردهم المسلمون عن أسوارها غير مرة ، ونشبت بين الفريقين خارج الأسوار عدة معارك حامية منى فيها النصارى بخسائر فادحة ؛ ومع أن النصارى بدأوا هجومهم على بسطة فى شهر رجب سنة ٨٩٤هـ ( يونيه سنة ١٤٨٩ م ) فإنهم لم يستطيعوا تطويقها ومحاصرتها بصورة فعلية إلا بعد ذلك بثلاثة أشهر ، وهنا امتنع المسلمون داخل المدينة بعد أن أثخنوا فى عدوهم غير مرة ، واستنفدوا أقواتهم المدخرة . وضيق النصارى الحصار على بسطة مدى ثلاثة أشهر أخرى ، حتى ضاق أهلها بالحصار ذرعاً ، وقلت الأقوات واشتد الكرب ، ولما رأى المسلمون أنه لم يبق فى الدفاع ثمة أمل ، وقد نفدت المؤن ، وفتك الجوع والمرض بالعامة ، اعتزموا مفاوضة القشتاليين فى التسليم ؛ وبالرغم مما أبداه زعيمهم يحيى النيار فى البداية من براعة فى تنظيم الدفاع عن بسطة وألمرية ، وبالرغم مما أبداه من بسالة فى المعارك التى نشبت مع القشتاليين ، فإنه رأى فى النهاية أن يترك هذا الصراع اليائس ، وأن يفوز من المعركة بأحسن ما يستطاع لنفسه وذويه . وقد حصلنا على نص الوثيقة التى عقدها القائد يحيى مع مندوب الملك فرناندو ، الدون جوتيرى دى كارديناس ، وهى تعرض لنا بمحتوياتها المثيرة ، صورة من ذلك الدرك المؤلم الذى يدفع اليأس إليه أولئك القادة الذين يغدون بعد حياة حافلة بالإخلاص والبسالة ، تحت إغراء العدو وهباته ، خونة مارقين مرتدين .

وقد حررت هذه الوثيقة فى المعسكر الملكى قرب مدينة ألمرية فى ٢٥ ديسمبر سنة ١٤٨٩ ، وفيها يؤكد فرناندو للقائد يحيى النيار زعيم بسطة وألمرية ، بأنه

سوف يستقبله تحت حمايته هو وولده وأبناء عمه ، وينزلهم فى داره ، ويعاملهم بما يليق بهم معاملة أشراف مملكته ، ويدافع عنهم وعن أملاكهم وأتباعهم ، ثم يقول ملك قشتالة مخاطباً يحيى :

وأنه إذا صحت عزيمتكم حقاً على اعتناق النصرانية ، وعلى أن تخدمنى وتعاوننى برجالك ، فإنى سوف أكتم ذلك طول مدة الفتح ، حتى لا يتقول عليك رجالك ، ولهذا فإنك تستقبل التعميد المقدس سراً فى غرفتى ، حتى لا يعرفه المسلمون إلا بعد تسليم وادى آش .

« وأن الكروم والقرى والحصون التى تؤول إليك بالميراث عن والدك أمير ألمرية ، أهبها لك لتملكها وتتصرف فيها كما تشاء ، وعهدى لك بذلك أنا والملكة زوجى .

« وأنه لن تدفع أنت وابنك وأبناء عمك وأعقابك وحشمك ، أى مغرم أو جزية فى سائر مملكتى إلى الأبد .

« وأنه تشريفاً لشخصك يسمح لك بأن يصحبك عشرون فارساً مسلحون بكل ما يرغبون ، وأن تتجول بهم حيث شئت فى أنحاء مملكتى ،ويتمتع ولدك بمثل ذلك .

« وأنه إذا تنازل صهرك ملك وادى آش عن نصف الملاحات التى أهبها إليه ، فإنى أهبك دخلا قدره خمسمائة وخمسون ألف مرافيدى فى ملاحات دلاية ، وفضلا عن ذلك ، فإنه إذا تم تسليم وادى آش فى الموعد المتفق عليه ، فإنى مكافأة لك على جهودك فى خدمتى لدى ملك وادى آش وغيره من القادة ، أهبك عشرة آلاف ريال ، وأقدم لك سائر البراءات اللازمة بما تقدم »(١) .

وتعهد الملكان الكاثوليكيان فى نفس الوقت لأهل بسطة ، بإقرار ما طلبوا من الشروط ، وفى مقدمتها أن يؤمنوا فى النفس والمال ، وأن يحتفظوا بدينهم وشريعتهم وعوائدهم . وهكذا سلمت بسطة ، ودخلها النصارى فى العاشر من محرم سنة ٨٩٥هـ ( أوائل ديسمبر سنة ١٤٨٩م ) وغادرها معظم أهلها إلى وادى آش ، حاملين ما استطاعوا من أمتعتهم وأموالهم ، وهرعت جميع الحصون والمحلات القريبة إلى التسليم والدخول فى طاعة ملك النصارى ، وسلمت ألمرية بعد ذلك بقليل فى فبراير سنة ١٤٩٠ م ( ربيع الأول سنة ٨٩٥ هـ ) ، ومنحت للتسليم شروطاً خلاصتها

(١) Archivo General de Simancas; P.R. 11-11

أن يحتفظ المسلمون بدينهم وشريعتهم وأموالهم، وأن تخفف عنهم أعباء الضرائب، وألا يولى عليهم يهودى، وألا يدخل نصرانى فى « الجماعة »، وأن يختار الأولاد الذين يولدون من أمهات من النصارى لأنفسهم، الدين الذى يريدون عند البلوغ، وغير ذلك من المنح المغرية الخادعة التى بذلت لسائر البلاد المفتوحة. وهكذا بسط فرناندو سلطانه على قواعد الأندلس الشرقية كلها من البحر إلى الشمال، ولم يبق خارجاً عن طاعته، سوى مدينة وادى آش مقر مولاى الزغل.

ولم تمض أسابيع قلائل على ذلك، حتى أثمرت خيانة يحيى النيار ثمرتها، لدى صهره أبى عبد الله الزغل، فسارع بدوره إلى الانضواء تحت لواء ملك النصارى، وكان الزغل منذ التجأ إلى وادى آش، يرقب سير الحوادث بجزع، ويرى قواعد الأندلس تسقط بالتعاقب، ودون أن ينجدها منجد، ويرى أمل الإنقاذ يخبو تباعاً. فلما سقطت بسطة آخر القواعد التى يسيطر عليها، واتجه النصارى نحو وادى آش معقله الوحيد الباقى، ورأى بالرغم من شجاعته وبسالته أنه يغالب المستحيل، وأن جيوش النصرانية تحيط به من كل صوب، اعتزم أمره، وسار إلى معسكر ملك النصارى يعرض عليه طاعته، والانضواء تحت لوائه، فأجابه فرناندو إلى مطالبه، وبايعه الزغل وسائر قادته بالخضوع والطاعة؛ ودخل النصارى مدينة وادى آش فى أوائل صفر سنة ٨٩٥هـ (٣٠ ديسمبر سنة١٤٨٩). وعقد الزغل مع ملكى قشتالة معاهدة سرية على نمط المعاهدة التى عقدها صهره يحيى، ونص فيها على طائفة من المنح والإمتيازات، خلاصتها أن يستقر الزغل سيداً فى مدينة أَنْدَرَش وما إليها، وأن يكون له ألفا تابع من بنى وطنه، وأن يمنح معاشا سنويا كبيراً، وأن يمنح دخل نصف ملاحات بلدة الملاحة، وأن يرسل فى استحضار أبنائه الأمراء من غرناطة نظراً لخصومته مع ملكها، وأن تكون جميع أملاكه وأملاك ذويه فى غرناطة حرة من كل حق ومغرم، وأن تكون هذه العهود ملزمة لملكى قشتالة ولعقبهما من بعدهما، وأخيراً أن يوافق البابا على هذه العهود[1]. بيد أنه لم يمض قليل على ذلك حتى شعر مولاى الزغل أنه يستحيل عليه الاستمرار فى ذلك الوضع المهين، فنزل لفرناندو عن حقوقه وامتيازاته لقاء مبلغ ضخم، وجاز البحر إلى المغرب، ونزل فى وهران أولا ثم انتقل إلى

(١) Archivo General de Simancas, P. R. 11-12. وراجع ايضاً: Gaspar y Remiro: ibid; p. 48.

تلمسان ، واستقر يقضى بها بقية حياته فى غمر من الحسرات والندم ، ولبث عقبه هنالك عصوراً يعرفون ببنى سلطان الأندلس؛ وجاز معه كثيرون من الكبراء الذين أيقنوا أن نهاية الإسلام بالأندلس قد غدت قضاء محتوماً(١) .

وقد نقل إلينا صاحب أخبار العصر رواية مفادها أن تسليم مولاى الزغل لملك قشتالة كانت نوعاً من الخيانة المقصودة ، وأنه تنازل هو وقواده عن البلاد التى كانت تحت أيديهم طوعاً مقابل قبض ثمنها ، وذلك لكى ينتقم الزغل من ولد أخيه الأمير أبى عبد الله محمد بن على صاحب غرناطة ، فتصبح بعد خضوع سائر أنحاء الأندلس وحيدة تحت رحمة النصارى ، وترغم على التسليم إليهم ، وينتهى بذلك إمارة أميرها وحكمه(٢) ، وهى رواية لا تتفق فى نظرنا مع ما أثر عن مولاى الزغل من ضروب العزم والبسالة والشهامة والغيرة الإسلامية ، التى رأيناها ماثلة خلال هذه الحوادث المؤسية ، وإنما استسلم الزغل وخضع ، وحاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه ، نزولا على حكم ظروف قاهرة لم ير إلى مغالبتها سبيلا .

---

(١) أخبار العصر ص ٣١ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٦١٣ و ٦١٤ . وراجع Prescott: ibid; p. 285

(٢) أخبار العصر ص ٣٢ .

# الفصل الثالث

## الصراع الأخير

تجديد الصلح بين الملكين الكاثوليكيين وأبى عبد الله . مطالبة الملكين بتسليم غرناطة . ثورة أبى عبد الله . الحماسة فى غرناطة . غزو فرناندو لبسائط غرناطة . رد المسلمين للنصارى . خروج أبى عبد الله للغزو . المعارك بين المسلمين والنصارى . محاولة أبى عبد الله استرداد المنكب . حوادث وادى آش . فرناندو يعلن الأمان . هجرة المسلمين من القواعد الذاهبة . تأهب فرناندو لافتتاح غرناطة . زحفه عليها . عيث النصارى فى المروج . محاصرة النصارى لغرناطة . فرناندو ينشىء أمامها مدينة شنتفى . موقف غرناطة وأحوالها . بسالتها فى الدفاع . موسى بن أبى الغسان فارس غرناطة . يثير حماسة الشعب . يقود الفرسان ويزعج النصارى . تنظيم الدفاع داخل المدينة . اشتداد الحصار وانقطاع الأمداد . تقرير حاكم المدينة . تصميم موسى على الدفاع . فرناندو يزحف على المدينة . خروج المسلمين للقائه. هزيمة المسلمين وارتدادهم . أهوال الحصار . اجتماع السلطان والقادة . تقرير التسليم . اعتراض موسى . ندب الوزير أبى القاسم عبدالملك للمفاضة . رواية عن التسليم . وثيقة تؤيد هذه الرواية . موقف أبى عبدالله والقادة . مفاوضات التسليم . شروط التسليم وضماناته . معاهدة سرية بضمان حقوق أبى عبد الله وتقرير مصيره . حلف الملكين باحترام الشروط . توقيع وثيقة التسليم . ارتياب موسى ونذيره . إذعان أبى عبد الله والجماعة . أقوال موسى ونبوءته . مغادرته لغرناطة . مصيره الغامض . الحزن واليأس فى غرناطة . التعجيل بإجراءات التسليم . إرسال الرهائن إلى فرناندو . دخول القشتاليين غرناطة . يرفعون الصليب فوق الحمراء . رواية عربية معاصرة عن دخول فرناندو غرناطة . أهبة أبى عبد الله لمغادرة عاصمة ملكه . المناظر المؤسية و الركب الباكى . قصيدة شوقى فى وصفها . اللقاء بين أبى عبد الله وفرناندو . « زفرة العربى الأخيرة » . رثاء الأندلس .

لم يبق على ملكى قشتالة وأراجون ، فرناندو وإيسابيلا ، بعد أن دانت لهما سائر الثغور والقواعد الأندلسية الجنوبية والشرقية ، لإتمام خطتهما فى القضاء على دولة الإسلام بالأندلس ، سوى الاستيلاء على غرناطة آخر القواعد الباقية بيد المسلمين ؛ ولم تكن غرناطة يومئذ مملكة أو دولة ، بل كانت رمزاً فقط للمملكة الإسلامية الذاهبة ، وكانت واسطة عقد تصرمت سائر حباته ، وكانت كالمصباح المرتجف يخبو ضوءه سراعاً ، فلم يكن يقتضى إطفاؤه سوى الضربة الأخيرة .

وقد رأى فرناندو وإيسابيلا أن الوقت قد حان لتسديد هذه الضربة ، عقب استسلام مولاى الزغل وسقوط وادى آش وبسطة وألمرية . ونحن نعرف أنه على أثر سقوط مدينة لَوْشة فى يد النصارى فى شهر مايو سنة ١٤٨٦ ، وحصول

أبي عبد الله فى أيدى الملكين الكاثوليكيين للمرة الثانية ،عقد أبو عبد الله معهما معاهدة صلح جديدة لمدة عامين ، تطبق فى غرناطة والبلاد التى تدخل فى طاعة أبي عبد الله . وفى ظل هذا الصلح المسموم دخل أبوعبد الله غرناطة ، واسترد العرش ومن ورائه تأييد فرناندو وعونه . ومن الواضح أن فرناندو قد اقتضى فى نصوص هذا الصلح ، ثمن هذا التأييد والعون . والظاهر أن هذا الصلح قد تجدد لمدة عامين آخرين ، حسبما تدل على ذلك وثيقة صادرة عن أبي عبد الله نفسه فى المحرم سنة ٨٩٥ هـ ( ديسمبر سنة ١٤٨٩ ) ، وهى عبارة عن خطاب موجه منه إلى قادة وأشياخ بلدة أجيجر ، وفيه ينوه أبو عبد الله بهذا « الصلح السعيد » المعقود لعامين ، ويدعو إلى الدخول فيه ، وينعى على معارضيه مواقفهم ، التى انتهت بسقوط بسطة « التى أفجعت المسلمين وفلت غرب الدين »(١) .

وبالرغم من أننا لا نعرف نصوص هذا الصلح مفصلة ، فإن بعض الروايات القشتالية تذكر لنا أن أبا عبد الله ، قد تعهد فى هذا الصلح ، بأن يسلم مدينة غرناطة للملكين الكاثوليكيين ، متى تم تسليم بسطة وألمرية ووادى آش(٢) . وعلى أى حال ففى فاتحة سنة ١٤٩٠م ( أوائل صفر ٨٩٥هـ ) أرسل الملكان الكاثوليكيان إلى السلطان أبى عبد الله ، سفارة على يد فارسين ، هما كونثالو فرنانديث قائد حصن إليورة ، ومرتين ألاركون قائد حصن موكلين ، ليخاطباه فى موضوع التسليم(٣) . وتقول الرواية الإسلامية المعاصرة ، إن ملك قشتالة لم يطلب تسليم غرناطة ذاتها ، ولكنه اكتفى بأن طلب إلى أبى عبد الله تسليم مدينة الحمراء أو قصور الحمراء مقر الملك والحكم ، وأن يبقى مقيما فى غرناطة ، فى طاعته وتحت حمايته ، أسوة بما فعلته سائر نواحى الأندلس(٤) ، أو أن يقطعه أية مدينة أخرى من مدن الأندلس يختار الإقامة فيها ، وأن يمدة بمال جزيل(٥) .

---

( ١ ) نشر هذه الوثيقة الأستاذ جسبار ريميرو فى كتابه الذى سبقت الإشارة إليه **Documentos Arabes de la Corte Nazari de Granada** وقد استخرجها مع وثائق أخرى صادرة عن أبى عبد الله من مجموعة فرناندو دى ثافرا سكرتير الملكين الكاثوليكيين .

( ٢ ) **Prescott : Ferdinand and Isabella, p. 284**

( ٣ ) راجع رواية **Hernando de Baeza** القشتالية المنشورة بعناية المستشرق ميلر ضمن أخبار العصر ( ص ٩٢ ) .

( ٤ ) أخبار العصر ص ٣٣ .

( ٥ ) نفح الطيب ج ٢ ص ٦١٤ .

فماذا كان جواب أبي عبد الله ؟ لقد كان فى سابق مواقفه ، وممالأته لملك قشتالة ، ومحالفته إياه ودخوله فى طاعته، وما يدين له به من تغلبه على عمه ومنافسه الزغل ، وجلوسه على العرش ، ما يحمل الملكين الكاثوليكيين ، على توقع استسلامه وخضوعه . ولكن حدث عكس ما توقعه الملكان . ولدينا وثيقة توضح لنا موقف أبي عبد الله فى هذه المناسبة ، هى عبارة عن خطاب صادر منه إلى الملكين الكاثوليكيين ، يشير فيه إلى قدوم « القائد غنصال والقائد مرتين » بكتبهما إليه، وأنه يرسل إليهما خديمه، القائد أبا القاسم المليح، ليحدثهما فى هذا الموضوع . وبالرغم من اللهجة المهذبة ، المقرونة بعبارات الخضوع والطاعة ، التى اختتمت بها الرسالة ، فقد كان جواب أبي عبد الله للملكين الكاثوليكيين ، رفضا لما طلباه . وتاريخ هذه الرسالة هو ٢٩ صفر سنة ٨٩٥ هـ (٢٢ يناير سنة ١٤٩٠)(١) . والظاهر أن رسول أبي عبد الله لم ينجح فى مهمته ، وعاد إلى مليكه يخبره بإصرار الملكين الكاثوليكيين على طلبهما . وهنا تقول الرواية القشتالية ، إن أبا عبد الله اشتدت دهشته ، لإصرار الملكين الكاثوليكيين ، واعتزم أن يشهر عليهما الحرب، لولا أن نصحه بعض الأكابر بالروية والتريث . وعلى ذلك فقد أرسل أبو عبدالله وزيره يوسف بن كماشه ، ومعه تاجر كبير من سراة غرناطة ، له علائق طيبة مع النصارى ، يدعى ابراهيم القيسى ، إلى الملكين الكاثوليكيين فى إشبيلية ، لإقناعهما بالعدول عن مطلبهما ، ولكنهما عادا خائبين . وعلى ذلك فقد استؤنفت الحرب بين المسلمين والنصارى(٢) .

وهنا نقف قليلا لنتأمل هذا الموقف الجديد ، من جانب أبي عبد الله . أجل كانت الخطوب والمحن التى جازتها الأندلس فى هذه الأعوام المليئة بالحوادث ، قد جعلت من أبي عبد الله رجلا آخر ، وكان هذا الأمير الضعيف يرقب سير الحوادث جزعاً ، ويستشف من ورائها القدر المحتوم ، وكان قد تخلص بانسحاب عمه من الميدان من منافسه القوى ، ولكنه فقد فى الوقت نفسه أقوى عضد يمكن الاعتماد عليه فى الدفاع والمقاومة ؛ وكانت سائر قواعد الأندلس الأخرى قد غدت نهائياً من أملاك مملكة قشتالة ، وعين لها حكام من النصارى ، وتدجن من بقى من أهلها أو غدوا مدجنين **Mudéjares** يدينون بطاعة ملك النصارى .

---

(١) نشرت هذه الرسالة ضمن المجموعة التى نشرها الأستاذ جسبار ريمير و فى كتابه السالف الذكر .

(٢) راجع رواية **Hernando de Baeza** المنشورة فى أخبار العصر ( ص ٩٣ ) .

وذاعت بها الدعوة النصرانية ، وارتد كثير من المسلمين حرصاً على أوطانهم ومصالحهم أو اتقاء الريب والمطاردة ، ولكن كثيراً منهم ممن أشفقوا على أنفسهم ودينهم ، جازوا البحر إلى المغرب ، وهرعت جموع غفيرة أخرى منهم إلى غرناطة معقل الإسلام الوحيد الباقى ، حتى غدت الحاضرة تموج بسكانها الجدد ، وحتى أصبحت تضم بين أسوارها وأرباضها أكثر من أربعمائة ألف نفس . وكانت موجة عامة من اليأس والنقمة تغمر هذه الألوف ، التى أوذيت فى الأوطان والأنفس والولد والمال ، دون أن تجنى ذنباً أو جريرة ، وكانت فكرة التسليم للعدو الباغى أو مهادنته ، تلقى استنكاراً عاماً . ولم يكن أبوعبد الله يجهل هذا الاتجاه العام ، فلما وفد إليه سفيرا ملكى قشتالة فى طلب التسليم ، ثارت نفسه لهذا الغدر والتجنى ، وأدرك وربما لأول مرة ، فداحة الخطأ الذى ارتكبه فى محالفة هذا الملك الغادر ، ومعاونته على بنى وطنه ودينه ؛ ولما أصر فرناندو على تجنيه جمع أبو عبد الله الكبراء والقادة فأجمعوا على رفض ما طلبه الملكان النصرانيان، وأعلنوا عزمهم الراسخ على الدفاع حتى الموت عن وطنهم ودينهم (١) ، وأبلغ أبوعبد الله ملك قشتالة بأنه لم يعد له القول والفصل فى هذا الأمر ، وأن الشعب الغرناطى يأبى كل تسليم أومهادنة ، ويصمم على المقاومة والدفاع (٢) .

هكذا كان جواب أبى عبد الله لملكى قشتالة ، وهكذا حمل الأمير الضعيف بعزم شعبه، من الاستكانة والمهادنة إلى التحدى والمقاومة . وهنا يبدو لنا أبوعبد الله شخصية أخرى تنزع عنها صفات الخور والاستسلام والخضوع الذى يدنو إلى الخيانة ، لتتشح بثوب من العزة والكرامة ، والحمية الدينية والوطنية . أجل دوت غرناطة بصيحة الحرب والجهاد ، وخرجت سريات من الجند المسلمين ، لتعيث فى الأراضى النصرانية القريبة . وفى ربيع سنة ١٤٩٠ ( ٨٩٥ هـ ) خرج ملك قشتالة فى قواته وهو يضطرم سخطاً ، وزحف على بسائط غرناطة فعاث فيها ، وانتسف الزروع واستاق الماشية ، وخرب الضياع والقرى ، ووصل فى عيثه وتخريبه حتى أسوار الحاضرة ذاتها ، وبرز المسلمون لقتاله وعلى رأسهم أميرهم أبوعبد الله ، ووقعت بين الفريقين فى ظاهر غرناطة ، عدة ملاحم دموية ارتحل النصارى على أثرها ، ولم يستطيعوا الدنو من المدينة ( رجب ٨٩٥ هـ — يوليه ١٤٩٠ م ) .

---

( ١ ) أخبار العصر ص ٣٤ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٦١٤ .

( ٢ ) Prescott : ibid ; p. 290

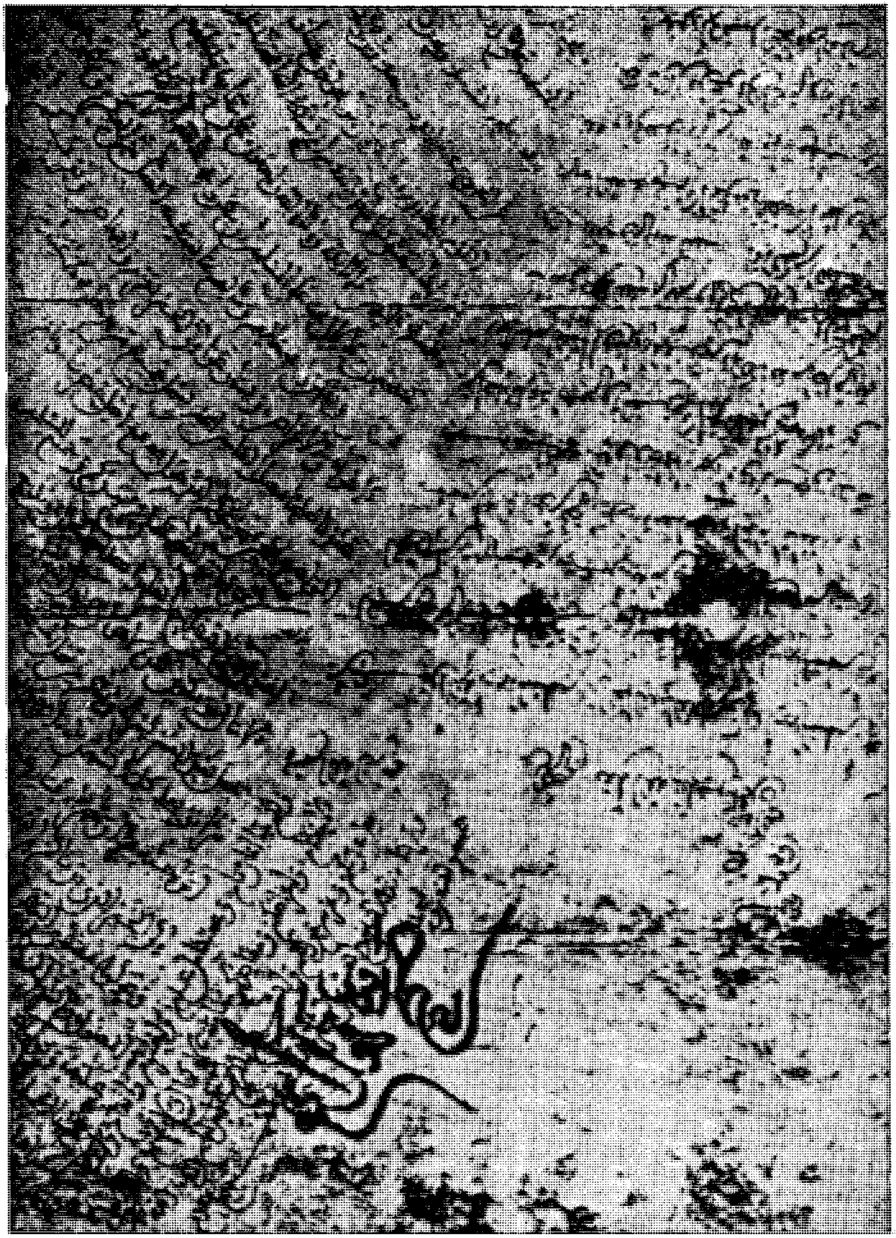

صورة خطاب مرسل من السلطان أبي عبد الله محمد إلى قائد وأشياخ بلدة أجيجر يدعوهم فيه إلى طاعته والدخول فى الصلح الذى عقده مع الملك فرناندو الكاثوليكى ، مؤرخ فى المحرم سنة ٨٩٥ هـ ( ديسمبر ١٤٨٩ م ) ، ومحفوظة بمحفوظات بلدية غرناطة .

وعمد فرناندو حين العودة إلى تحصين بعض الحصون القريبة من غرناطة ، مثل برج الملاحة وبرج رومة وغيرهما ، وشحنها بالرجال والعدد استعداداً للمعارك القادمة .

وعلى أثر ارتحال القشتاليين ، خرج أبو عبد الله فى قواته يحاول استرداد بعض الحصون والمراكز القريبة ، فاستولى على قرية البذول عنوة ، ثم استولى على غيرها من القرى ، ودبت فى المسلمين فى تلك الأنحاء روح جديدة ، وثار أهل البشرات ( البشرّة ) وما حولها على حكامهم النصارى ، وثار أهل وادى آش فى الوقت نفسه واضطرموا لما رأوه من وثبة أبى عبد الله وعزمه بنزعة جديدة إلى المقاومة ، وبعثوا إليه يطلبون عونه . وسار أبو عبد الله فى قواته يريد حصن أندَرَش[١] لما علمه من ثورة المسلمين هنالك ، وكان عمه الأمير محمد بن سعد ( الزغل ) لايزال به ، فلما سمع بمقدمه خرج مع صحبه إلى ألمرية ، وبقى بها إلى أن جاز البحر إلى المغرب قدمنا ، واستولى أبو عبد الله على أندرش وغيرها من المحلات والحصون القريبة منها[٢] ، ورتب بها حاميات من المسلمين للدفاع عنها ( شعبان ٨٩٥ هـ ) .

واستمرت هذه المعارك المحلية مدى حين سجالا بين المسلمين والنصارى ، فاسترد النصارى حصن أندرش لأسابيع قليلة من فقده ، وغادره الفرسان المسلمون إذ كانوا قلة لم تستطع للعدو دفعاً . وفى شهر رمضان سنة ٨٩٥هـ ( أغسطس ١٤٩٠ ) خرج أبو عبد الله فى قواته إلى قرية همدان القريبة[٣] ، فافتتحها واخترق المسلمون أبراجها الكثيفة ، وكانوا يخشون أن تمتنع عليهم لحصانتها ، واغتنموا منها مقادير وفيرة من الذخائر والأطعمة ، وأسروا من حاميتها نحو مائتين ، وعاد المسلمون إلى غرناطة فرحين ظافرين ، وغمرت الحاضرة المسلمة موجة من البشر والتفاؤل

وفى أواخر رمضان خرج أبو عبد الله فى قواته يريد افتتاح ثغر المنكّب ، وإعادة الصلة بين الأندلس وشواطىء المغرب ، وهى صلة يعلق عليها المسلمون أهمية خاصة ، ويعتبرونها من أبواب الغوث والإنقاذ ، واستولى أبو عبد الله فى طريقه على حصن شلوبانية[٤] الواقع شرقى المنكب بعد قتال عنيف ؛ وعلم النصارى بمحاولة

( ١ ) تقع أندرش **Andarax** جنوب شرقى غرناطة على مقربة من البحر الأبيض المتوسط .

( ٢ ) أخبار العصر ص ٣٦ و ٣٧ .

( ٣ ) تقع قرية همدان **Alhendin** ، جنوب غربى غرناطة على قيد بضعة كيلومترات منها . وتراجع مواقع هذه الأماكن جميعا فى خريطة مملكة غرناطة المفصلة التى أثبتت فى أول الكتاب .

( ٤ ) وبالإسبانية **Salobreña** ، وقد سبق التعريف بها .

أبى عبد الله ، فهرعت حاميات بلِّش ومالقة إلى المنكب لإنجادها . ورأى أبو عبدالله أنه لايستطيع مهاجمتها ، وترامت إليه الأنباء بأن ملك قشتالة قد عاد بجنده إلى مرج غرناطة يعيث فيه فساداً وتخريباً ، فارتد أدراجه . وكان فرناندو قد هاله ما حدث من الاضطراب والتصدع فى المناطق المفتوحة ، فاعتزم السير من قرطبة بجيشه إلى تلك الأنحاء . والواقع أن بوادر الانتقاض والثورة كانت قد اشتدت فى وادى آش وما حولها من الضياع والقرى ، وأخذ ظفر المسلمين فى تلك المعارك المحلية يذكى عزم الثوار ويشجعهم ؛ وخشى النصارى عواقب هذه الحركة ، فضاعفوا قوى الحاميات فى تلك الأنحاء ، واحتالوا على أهل وادى آش فأخرجوا معظمهم من المدينة إلى السهول المجاورة(١) . واستجاب أبو عبد الله إلى نداء أهل وادى آش وعاونهم بالرجال والدواب على نقل أمتعتهم وأموالهم ، وعلى الرحيل بالأهل والولد إلى غرناطة ، ونقل من تلك القرى والضياع مقادير وافرة من الحبوب والأطعمة وغيرها . وماكادت جموع المسلمين ترتد راجعة إلى غرناطة ، حتى ظهر فرناندو بجيشه أمام وادى آش ، ورأى أن يأخذ الأمر باللين والرفق ، فأذاع الأمان لمن عاد إلى وطنه ، وأذن لمن شاء بالرحيل ، وغادر المسلمون وادى آش وأعمالها . وحدث مثل ذلك فى ألمرية وبسطة ، فترك المسلمون بيوتهم وأوطانهم حاملين ما استطاعوا من أمتعتهم وأموالهم ، وسارت منهم جموع غفيرة إلى غرناطة ، وجازت جموع أخرى البحر إلى المغرب ، وأقفرت تلك الأنحاء من معظم سكانها المسلمين ، وبعث إليها ملك قشتالة بجموع من النصارى لتعميرها ، وانتهز أبو عبد الله فرصة هذا الاضطراب ، فاستولى على حصن أندَرَش للمرة الثانية ، واستولى على عدد آخر من الحصون الهامة(٢) .

وهنا أيقن ملك قشتالة أنه لابد لاستتباب الأمور فى المناطق الإسلامية المفتوحة ، من الاستيلاء على غرناطة ، التى مازالت تثير بمثلها وصلابتها روح الثورة فى تلك الأوطان المغلوبة على أمرها ، فقضى الشتاء كله ( سنة ١٤٩٠ ) فى الاستعداد والأهبة . وفى أوائل سنة ١٤٩١ خرج فرناندو فى قواته معتزماً أن يقاتل الحاضرة الإسلامية حتى ترغم على التسليم . ويقدر بعض المؤرخين هذا

(١) Lafuente Alcantara: ibid; V. III. p. 53

(٢) أخبار العصر ص ٣٨ – ٤٨ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٦١٤ . وراجع أيضاً : Prescott : ibid; p. 290 & 291 ، ويوجد فرق يسير فى التفاصيل بين الروايتين الإسلامية والنصرانية .

الجيش الذى أعد لافتتاح غرناطة بخمسين ألف مقاتل من الفرسان والمشاة ، ويقدره البعض الآخر بثمانين ألفاً[١] ، وزود فرناندو جيشه بالمدافع والعدد الضخمة ، والذخائر والأقوات الوفيرة . وأشرف ملك قشتالة بجيشه على فحص غرناطة La Vega الواقع جنوب غربى الحاضرة الإسلامية ، فى اليوم الثالث والعشرين من ابريل سنة ١٤٩١ م ( ١٢ جمادى الثانية سنة ٨٩٦هـ ) وعسكر على ضفاف نهر شَنيل ، على قيد فرسخين من غرناطة ، فى ظاهر قرية تسمى «عتقة». وأرسل فى الحال بعض جنده إلى حقول البشرّات القريبة التى تمد غرناطة بالمؤن فأتلفوا زروعها ، وهدموا قراها ، وأمعنوا فى أهلها قتلا وأسراً ، وحولوا المرج الأخضر إلى بسيط من القفر الموحش ، وقطعوا بذلك عن غرناطة مورداً من أهم مواردها[٢] .

وضرب فرناندو حول الحاضرة الإسلامية الحصار الصارم ، وصمم على متابعته حتى تفتح أو تستسلم ، وقرر تأكيداً لهذا العزم أن ينشىء لجيشه فى المكان الذى عسكر فيه ، مدينة مسورة تقيه برد الشتاء إذا ما حل ، وتم بناء هذه المدينة الجديدة فى ثلاثة أشهر ، وأسمتها الملكة إيسابيلا ( سانتا فيه ) Santa Fé وبالعربية ( شنتفى ) أو الإيمان المقدس ، وذلك تنويهاً بالمغزى الدينى لهذه الحرب الصليبية ، وما زالت هذه المدينة التاريخية تقوم حتى اليوم ، فى المكان الذى أنشئت فيه على قيد مسافة قريبة من جنوب غربى غرناطة . ويصفها المؤرخ الإسبانى بأنها « المدينة الإسبانية الوحيدة التى لم تطأها قط قدم مسلم »[٣] .

— ٢ —

وهكذا بدأ الفصل الأخير فى الصراع بين النصرانية والإسلام فى اسبانيا ؛ ولم يك ثمة شك فى نتيجة هذا الصراع ، الذى أعدت له اسبانيا النصرانية عدتها الحاسمة ، ومهدت له جميع الوسائل والسبل . بلد إسلامى وحيد هو البقية الباقية من دولة عظيمة تالدة ، يحيط به العدو كالموج الزاخر من كل ناحية ، مزوداً بالعُدد والمؤن الموفورة ، وقد قطعت كل موارده وصلاته مع الخارج . كان هذا موقف غرناطة آخر الحواضر الإسلامية بالأندلس فى صيف سنة ١٤٩١م . على

---

( ١ ) Prescott : ibid; p. 291

( ٢ ) أخبار العصر ص ٤٤ و Prescott : ibid ; p. 294

( ٣ ) Prescott : ibid ; p. 295

أن غرناطة لم تكن مع ذلك غنما سهلا ، فقد كانت منيعة بموقعها وظروفها ، تحميها من الشرق آكام جبل شُلير (سيرّا نفادا) الشامخة ، وتحميها من الجنوب أعنى من الجانب المواجه للمعسكر النصرانى ، أسوار وأبراج فى منتهى الكثافة والمناعة . وكانت غرناطة تموج يومئذ بالوافدين إليها من مختلف القواعد الإسلامية الذاهبة ، وتضم بين أسوارها من السكان أكثر من أربعمائة ألف نفس ، ومع أن هذا العدد الضخم من الأنفس كان عبئاً ثقيلا على مواردها المحدودة ، فقد كان من بينهم على الأقل زهاء عشرين ألفاً من الصفوة المختارة من الفروسة الأندلسية ، التى ألفت ملاذها الأخير فى العاصمة المحصورة . ومن جهة أخرى فقد كانت الحاضرة الإسلامية منذ بعيد تلمح شبح الخطر الداهم يتربص بها دائماً ، وكانت تعيش فى أهبة دائمة لمواجهته ، وتجمع ما استطاعت من الأقوات والمؤن . فلما دهمها الحصار كانت على أهبة تامة لدفاع طويل الأمد .

كانت غرناطة تستشعر قدرها المحتوم ، ولكنها لم ترد أن تستسلم إلى هذا القدر القاهر ، قبل أن تستنفد فى اجتنابه كل وسيلة بشرية ، ومن ثم كان دفاعها من أمجد ما عُرف فى تاريخ المدن المحصورة والقواعد الذاهبة ، ولم يكن هذا الدفاع قاصراً على تحمل ويلات الحصار مدى أشهر ، بل كان يتعداه إلى ضروب رائعة من الإقدام والبسالة ، فقد خرج المسلمون خلال الحصار ، لقتال العدو المحاصر مراراً عديدة ، يهاجمونه ويثخنون فى محلاته ، ويفسدون عليه خططه وتدابيره . وتشير الرواية الإسلامية كما تشير الرواية النصرانية إلى هذه المعارك الأخيرة التى وقعت فى بسائط غرناطة بين المسلمين والنصارى[1] . وتنوه الرواية النصرانية بما كان يبديه الفرسان المسلمون من الشجاعة والإقدام والبراعة ، أولئك الأنجاد البواسل هم البقية الباقية من الفروسة الأندلسية ، التى لبثت قروناً زهرة الفروسية فى العصور الوسطى .

وكان روح الفروسة المسلمة فى تلك الآونة العصيبة فارس رفيع المنبت والخلال ، وافر العزم والبراعة ، هو موسى بن أبى الغسان[2] وهو سليل إحدى

---

(١) أخبار العصر ص ٤٥ ؛ وكذلك Irving : ibid; p. 293 & foll.

(٢) لم تعثر فى المصادر العربية التى بين أيدينا على ذكر لموسى أو أعماله ؛ ومرجعنا فى ذلك هو المؤرخ الإسبانى كوندى (Condé : ibid;V. III. p. 254) ، ويقول كوندى إنه نقل روايته عن مصادر عربية ؛ ولكنه كعادته لم يذكر لنا هذه المصادر . وأشار الوزير محمد بن عبدالوهاب الغسانى فى رحلته إلى من يدعى « موسى أخى السلطان حسن المتغلب عليه بغرناطة » (رحلة الوزير=

الأسر العريقة التى تتصل ببيت الملك ، وأحد هذه الأصول العربية القديمة التى عرفت برائع فروسيتها ، وعميق بغضها للنصارى ، والتى كانت ترى الموت خيراً ألف مرة من أن يصبح الوطن العزيز مهاداً للكفر . ولم يكن بين أنجاد غرناطة يومئذ من هو أبرع من موسى فى الطعان والفروسية ، وكان مذ تبوأ أبوعبد الله محمد عرش غرناطة ، ينقم منه استكانته وخضوعه لملك النصارى ، ويعمل بكل ما وسع لإذكاء روح الحماسة والجهاد ، وتنظيم الفروسة الغرناطية وتدريبها ، وقيادة السرايا إلى أراضى العدو ، ومفاجأة حصونه وحامياته فى الأنحاء المجاورة . ولما بعث فرناندو الخامس إلى أبى عبد الله يطلب تسليم الحمراء ، كان موسى من أشد المعارضين فى إجابة هذا المطلب المهين ، وكان لعزمه وحماسته أكبر أثر فى تطور الموقف ، وحمل الأمير والشعب على اعتزام الجهاد ، والدفاع إلى آخر رمق ، وكان قوله المأثور يومئذ : « ليعلم ملك النصارى أن العربى قد ولد للجواد والرمح ، فإذا طمح إلى سيوفنا فليكسبها ، وليكسبها غالية . أما أنا فخير لى قبر تحت أنقاض غرناطة ، فى المكان الذى أموت مدافعاً عنه ، من أفخم قصور نغنمها بالخضوع لأعداء الدين » .

وهكذا دوت غرناطة بصيحة الحرب . ولما أشرف ملك قشتالة بجموعه على مرج غرناطة ، كان موسى معبود الجند والشعب ، وكان زعيم الفروسة المسلمة يقودها كلما سنحت الفرصة إلى الحصون والقلاع النصرانية المجاورة فتثخن فيها ، وكانت عوداته الظافرة تثير فى الشعب أيما حماسة ، وكان فرناندو يرسل جنده لإتلاف المزارع والحقول المجاورة ، فكان موسى ينظم السرايا لإزعاج قواته ، وقطع مواصلاته وانتزاع مؤنه ، ولكن جيوش النصارى ما لبثت أن ملأت فحص شنيل (La Vega) وطوقت غرناطة ، وشددت فى حصارها ، واضطر المسلمون إلى الامتناع بمدينتهم صابرين جلدين . وقسم الدفاع عن المدينة بين

— المنشورة بعناية معهد فرانكو ص ١٣ ) . ولكن الرواية الإسلامية المعاصرة لاتذكر لنا أن السلطان أبا الحسن كان له أخ يسمى بهذا الاسم . وعلى أى حال فإن قصة موسى تشغل حيزاً كبيراً فى الروايات الإسبانية التى كتبت عن فتح غرناطة . ومن أشهرها رواية القس أنطونيو أجابيدا **Antonio Agapida** ، المخطوطة المحفوظة بمكتبة الإسكوريال ، وهى التى اتخذها واشنطون إيرفنج أساسا لكتابه **Conquest of Granada** . وقد وردت خلال هذه الرواية كثير من الأقوال والروايات المشجية المتعلقة بحوادث سقوط غرناطة . ونحن ننقل هنا أقوال الرواية القشتالية عن موسى وفروسيته لا على أنها محققة من الناحية التاريخية ، ولكن لأنها تقدم لنا صوراً رائعة لدفاع المسلمين عن دينهم ووطنهم وآخر قواعدهم .

زعماء الجيش والأسر ، فتولى موسى قيادة الفرسان يعاونه نعيم بن رضوان ومحمد ابن زائدة . وتولى آل الثغرى حراسة الأسوار ، وتولى زعماء القصبة والحمراء حماية الحصون . ولم تكن المعارك الحريثة التى كان يخوضها المسلمون خارج الأسوار من آن لآخر ، سوى عنوان أخير لفروستهم وبسالتهم ولكنها لم تكن لتغنى شيئاً ، أمام ضغط العدو وتفوقه وتصميمه .

ذلك أن ملك قشتالة لم يترك وسيلة لإحكام الحصار وإرهاق المدينة المحصورة ، وإرغامها على التسليم ؛ فقطع جميع علائقها مع الخارج سواء من البر أو البحر ، ورابطت السفن الإسبانية فى مضيق جبل طارق ، وعلى مقربة من الثغور الجنوبية ، لتحول دون وصول أية أمداد من إفريقية . والواقع أنه لم يكن ثمة أمام الغرناطيين أى أمل فى الغوث والإنقاذ من هذه الناحية . ذلك أن معظم ثغور المغرب الشمالية والغربية ، ومنها سبتة وطنجة ، كانت قد سقطت فى أيدى البرتغاليين ، وكانت دولة بنى وطّاس التى قامت يومئذ فى المغرب الأقصى ما تزال ضعيفة فى بدايتها ، وكانت أبعد عن التفكير فى القيام بأى عمل حربى خطير ضد النصارى . هذا إلى أن إمارات المغرب الواقعة فى الضفة الأخرى ، كانت كلها فى حالة ضعف وتفكك وكانت تخشى بأس قوة اسبانيا البحرية وتسعى إلى كسب صداقتها وحمايتها . وعلى ذلك فقد كان حصار غرناطة محكماً من البر والبحر ، ولم يبق أمامها سوى طريق البشرّات الجنوبية من ناحية جبل شُلير ( سيرّا نفادا ) تجلب منها بعض الأقوات والمؤن بصعوبة[١] . ولبثت المدينة المحصورة تعانى مصائب الحصار صابرة جلدة ، حتى دخل الشتاء ، وغصت هذه الوهاد والشعب بالثلوج ، واشتد الجوع والبلاء بالمحصورين . عندئذ تقدم حاكم المدينة أبو القاسم عبد الملك ذات يوم إلى مجلس الحكم ، وقرر أن المؤن الباقية لا تكفى إلا لأمد قصير ، وأن اليأس قد دب إلى قلوب الجند والعامة ، وأن الاستمرار فى الدفاع عبث لا يجدى[٢] . ولكن موسى ابن أبى الغسان اعترض كعادته بشدة ، وقرر أن الدفاع ممكن وواجب ، وبث بادرة جديدة من الحماسة فى الرؤساء والقادة . فاستسلم السلطان أبو عبد الله محمد الى تلك الروح ، وسلم إلى القادة أمر الدفاع ، وتولى موسى كعادته قيادة الفرسان ؛ وكان فى مقدمة مساعديه فارسان من أنجاد العصر هما نعيم بن رضوان ومحمد بن زائدة .

---

( ١ ) أخبار العصر ص ٤٦ .

( ٢ ) Lafuente Alcantara : ibid ; V. III. p. 67

ثم أمر بفتح الأبواب ، وأعد فرسانه أمامها ليل نهار ، فاذا اقتربت سَرية من النصارى دهمها الفرسان المسلمون ، وأثخنوا فيها ، ومزقت على هذا النحو صفوف من النصارى . وكان موسى يقول لفرسانه « لم يبق لنا سوى الأرض التى نقف عليها فإذا فقدناها فقدنا الإسم والوطن » .

وأخيراً رأى ملك قشتالة أن يزحف بقواته على أسوار المدينة ، فخرج المسلمون إلى لقائه وعلى رأسهم أبو عبد الله وموسى ، ونشبت بين الفريقين فى فحص غرناطة عدة معارك دموية ، وكان الفرسان المسلمون وعلى رأسهم موسى روح المعركة وقوامها ، وكان أبو عبد الله يقود الحرس الملكى ، وكان القتال رائعاً خضب فيه كل شبر من الأرض بدماء الفريقين ، ولكن المشاة المسلمين كانوا ضعافا لا يعتمد عليهم فمزقوا بسرعة ، وتبعهم فرسان الحرس الملكى إلى أبواب المدينة وعلى رأسهم أبو عبد الله ، وعبثاً حاول موسى أن يجمع شمل الجند ، وأن يدعوهم للذود عن أوطانهم ونسائهم وكل ما هو مقدس لديهم ، وألفى نفسه وحيداً فى الميدان مع فرسانه المخلصين ، وقد تضاءل عددهم وأثخن الباقون منهم جراحاً ؛ فاضطر عندئذ أن يرتد إلى المدينة وهو يرتجف غضباً ويأساً .

وهنا أوصد المسلمون أبواب المدينة وامتنعوا بأسوارها جزعين مكتئبين ، يرون شبح النهاية المحتومة ماثلا ، فلم تبق سوى أيام أو أسابيع قلائل ، حتى يصبح سقوط الوطن العزيز فى يد العدو أمراً واقعاً ، وحتى تصبح أنفسهم وأموالهم وحرياتهم ودينهم رهناً فى يد القدر . وكان قد مضى على حصار غرناطة منذ بدأ الربيع حتى دخول الشتاء زهاء سبعة أشهر ، والمسلمون يغالبون أهوال الحصار ، وتتفاقم محنتهم شيئاً فشيئاً . فلما جاءت خاتمة المعارك مبددة لكل أمل فى الإنقاذ ، واشتد فتك الجوع والحرمان والمرض ، ودب اليأس إلى قلوب الناس جميعاً ، لم يبق مناص من إعادة النظر فى الموقف. فدعا أبو عبد الله مجلساً من كبار الجند والفقهاء والأعيان ، فاجتمعوا فى بهو الحمراء الكبير ( بهو قمارش) ، واليأس باد فى وجوههم ، وشرح لهم أبو القاسم عبد الملك كيف وصل الخطب إلى ذروته ، فهلكت أنجاد الفرسان ، وخبت قوى الدفاع ، ونضبت الأقوات والمؤن ، واشتد البلاء بالناس ، وغاض كل أمل فى تلقى الأمداد من عدوة المغرب . وصرح «الجماعة» بأن الشعب لا يقوى بعد على تحمل ويلات الدفاع ، وأنه لم يبق سوى التسليم أو الموت

واتفق الجميع على وجوب التسليم[١] . ولم يرتفع بالاعتراض سوى صوت واحد هو صوت موسى بن أبى الغسان ، فقد حاول كعادته أن يبث بكلماته الملتهبة قبساً أخيراً من الحماسة ؛ وكان مما قال : « لم تنضب كل مواردنا بعد ، فما زال لنا مورد هائل للقوة كثيراً ما أدى المعجزات : ذلك هو يأسنا ، فلنعمل على إثارة الشعب ، ولنضع السلاح فى يده ، ولنقاتل العدو حتى آخر نسمة ، وإنه لخير لى أن أحصى بين الذين ماتوا دفاعاً عن غرناطة ، من أن أحصى بين الذين شهدوا تسليمها » .

على أن كلماته لم تؤثر فى هذه المرة ، فقد كان يخاطب رجالا نضب الأمل فى قلوبهم ، وغاضت كل حماسة ، ووصلوا إلى حالة من اليأس لا تنجع فيها البطولة ، ولا يحسب للأبطال حساب ، بل يعلو نصح الشيوخ ويغلب . وهكذا حدث فإن السلطان أبا عبد الله فوض الأمر للجماعة ، واتفق الجماعة من خاصة وعامة على مفاوضة ملك قشتالة فى التسليم ، واختير الوزير القائد أبو القاسم عبد الملك للقيام بتلك المهمة ؛ وكان ذلك فى أكتوبر سنة ١٤٩١ ( أواخر سنة ٨٩٦ هـ ) .

وهنا يسدل الستار على تلك المناظر الرائعة المؤثرة ، التى تقدمها الرواية لنا عن بسالة المسلمين فى الدفاع عن مدينتهم ، وعلى ذلك الموقف الباهر الذى اتخذه أبو عبد الله مدى حين ، واتشح فيه بثوب البطل المدافع عن ملكه وأمته ودينه ، وتبرز لنا طائفة من الحقائق المؤلمة التى تصم أولئك الزعماء والقادة ، الذين جنحوا فى النهاية إلى المساومة بحقوق أمتهم ، واستغلالها لمآربهم الخاصة .

يقول لنا صاحب أخبار العصر ، إن كثيراً من الناس زعموا أن أمير غرناطة ووزيره وقواده كان قد تقدم الكلام بينهم وبين ملك قشتالة سراً فى تسليم غرناطة ، ولم يجرأوا على المجاهرة بعزمهم خشية انتقاض الشعب ، وأنهم لبثوا حيناً يلاطفون الشعب ويملقونه ، حتى ألفوا السبيل ممهداً للعمل برضاء الشعب وموافقته ، ويستشهد أصحاب هذه الرواية بما حدث من انقطاع المعارك بين المسلمين والنصارى حيناً قبل بدء المفاوضة فى التسليم . وتزيد الرواية على ذلك بأن القواد المسلمين الذين اضطلعوا بهذه المفاوضة تلقوا تحفاً وأموالا جزيلة من ملك قشتالة[٢] .

وقد كنا نميل فى البداية إلى الارتياب فى صحة هذه الرواية ونأبى أن نعتقد

---

( ١ ) أخبار العصر ص ٤٨ و ٤٩ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٦١٥ .

( ٢ ) أخبار العصر ص ٤٨ ، و ٤٩ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٦١٥ .

فى صحة هذه الوقائع المشينة المنسوبة إلى زعماء غرناطة ، وهم الذين تشيد الرواية النصرانية ذاتها بحماستهم وشجاعتهم وبسالتهم ، فى الذود عن وطنهم ومدينتهم . بيد أننا وقفنا بعد ذلك على ما يؤيد صحة الرواية الإسلامية ودقتها فيما تشير إليه من حقائق مؤلمة . ذلك أنه فى نفس الوقت الذى اتجه فيه رأى الجماعة إلى المفاوضة فى التسليم ، كانت تبذل فى الخفاء مساع أخرى لتحقيق ما يمكن تحقيقه من الضمانات والمغانم الخاصة لأبى عبد الله وأفراد أسرته ووزرائه ، وكان الملكان الكاثوليكيان يرميان إلى استخلاص غرناطة بأى ثمن غير الحرب ، ولايدخران وسعاً فى بذل أية تضحية أومنحة لإغراء الزعماء والقادة لتذليل هذه المهمة . وهكذا كللت هذه المساعى الخفية بالنجاح ، وفى نفس الوقت الذى عقدت فيه معاهدة التسليم ، عقدت معاهدة سرية أخرى يمنح فيها أبوعبد الله وأفراد أسرته ووزراؤه منحاً خاصة بين ضياع وأموال نقدية وحقوق مالية وغيرها . وقد أبقيت هذه المعاهدة فى طى الكتمان ، ولم يقف عليها سوى نفر من الخاصة . وهذا هو ما يشير إليه صاحب أخبار العصر .

وهنالك فوق ذلك ما يدل على أن أبا عبد الله وكثيراً من الوزراء والقادة ، قد حاولوا مذ تجهمت الحوادث ، وبدأ حصار غرناطة ، التصرف فى أملاكهم ، وباع أبو عبد الله عن يد وكيله القائد أبى القاسم بن سودة حديقته المعروفة بجنة عصام ، خارج غرناطة ، وذلك فى جمادى الأولى سنة ٨٩٦ هـ ( أوائل أبريل ١٤٩١ م ) . وباع بعض وزراء وفرسان آخرين أملاكهم فى نفس هذه المنطقة ، وفى نفس هذا التاريخ ، وباع الوزير عبد الله بن أبى الفرج قرية يملكها فى ضاحية المدينة ، فى أواخر المحرم سنة ٨٩٧ هـ ( أواخر نوفمبر ١٤٩١ م )(١) .

على أنه يبدو من التعسف والمبالغة مع تقرير هذه الحقائق المؤلمة ، أن نلجأ إلى اتهام أبى عبد الله ووزرائه بالخيانة المقصودة ؛ ففى غمار المحنة الطاحنة التى كان يعانيها الشعب والقادة ، وإزاء الظروف القاهرة التى لم يكن من حكمها محيص ، وفى اللحظة التى انقطع فيها كل أمل فى الغوث والإنقاذ ، لم يك ثمة سبيل سوى الموت أو مفاوضة العدو الظافر . وقد اختار زعماء غرناطة هذا السبيل الأخير ، ولو أنهم

---

( ١ ) راجع كتاب « وثائق عربية غرناطية » الذى سبقت الإشارة إليه ، الوثيقة رقم ٦٥ ( ص ١١١ ) ، والوثيقة رقم ٧٣ ( ص ١٢١ ) . والوثائق رقم ٧٤ و ٧٥ و ٧٦ ، و ٧٧ ( ص ١٢٢ — ١٢٥ ) .

اختاروا الموت تحت أنقاض مدينتهم دفاعاً عنها لأحرزوا لذكراهم الخلود وإعجاب التاريخ ، ولكن يبدو أنه لم يكن ثمة من موقف الشعب الغرناطى ويأسه وتبرمه بما أصابه من ويلات الحصار ، ما يشجع على المضى فى دفاع لا يجدى .

وتلقى الرواية القشتالية ذاتها ضوءاً على الظروف التى حملت أبا عبد الله ووزراءه على السعى إلى مفاوضة ملك قشتالة ، فيقول لنا مارمول الذى كتب روايته بعد ذلك بنحو سبعين عاماً ما يأتى :

« ولما رأى الزغيبى ( أبو عبد الله ) أن مدينة غرناطة لا تستطيع دفاعاً ، ولا تأمل الغوث والإمداد ، ونزولا على رغبة السواد الأعظم من الشعب ، الذى لم يعد يصبر على هذا الأمر الفادح ، أرسل يطلب الهدنة من الملكين الكاثوليكيين لكى يستطيع خلالها أن يتفاهم على شروط الصلح التى يمكن التسليم بمقتضاها »(١).

ويقول لافونتى ألقنطرة : «اشتدت وطأة الجوع على المحصورين ، وأصبحت الجماهير الصاخبة تجوب أنحاء المدينة تنذر الأغنياء بالويل ، وتبعث الرجفة إلى أبى عبد الله وأعوانه . وإزاء هذا التهديد دعا الأمير مجلسا من الزعماء والقادة ، وطلب إليهم البحث فيما يمكن عمله لتجنب الأخطار التى تهدد المدينة فى الداخل والخارج . وقال الشيوخ والفقهاء إنه لم يبق سبيل سوى التسليم أو الموت ، وأشار أهل الرأى بأن يقوم أبو القاسم بإذن من أبى عبد الله بمفاوضة النصارى »(٢).

والخلاصة أنه لا مجال هنا للتحدث عن الخيانة فى وصف ذلك الموقف المريب الذى وقفه أبو عبد الله ووزراؤه ، وحاولوا أن يحققوا لأنفسهم فيه مغانم خاصة ؛ ولكنا نستطيع أن نتحدث عن الأثرة والخور والضعف الإنسانى ، والتعلق بأسباب السلامة ، وانتهاز الفرص .

— ٣ —

سار القائد أبو القاسم عبد الملك ، مندوب أبى عبد الله إلى معسكر الملكين الكاثوليكيين ليؤدى مهمته الأثمة . وقد اضطلع هذا القائد ، فضلا عن المفاوضة فى تسليم غرناطة ، بالمفاوضة فى سائر الاتفاقات اللاحقة التى عقدت بين أبى عبد الله ، وبين ملكى قشتالة ، ونرى اسمه مذكوراً فى معظم الوثائق القشتالية الغرناطية التى أبرمت فى هذه الفترة ، باعتباره دائماً مندوب أبى عبد الله المفوض.

---

(١) Luis del Marmol: ibid ; Lib. I., Cap. XIX

(٢) Lafuente Alcantara: ibid ; V. III, p. 97

ولم نعثر على تفاصيل تختص بشخصية هذا الوزير أونشأته ، ولكن الذى يبدو لنا من مواقفه وتصرفاته أنه كان سياسياً عملياً يؤمن إيماناً قوياً بسياسة التسليم والخضوع للنصارى ، وانتهازيا يرى انتهاز الفرص بأى الأثمان[١] . واستقبل فرناندو مندوب ملك غرناطة بحفاوة . وندب لمفاوضته أمينه فرناندو دى ثافرا ، وقائده جونزالڤو دى كُردبا ، وكان خبيراً بالشئون الإسلامية ، عارفاً باللغة العربية ، وجرت المفاوضات بين الفريقين بمنتهى التكتم ، أحياناً فى غرناطة وأحياناً فى قرية جرليانة[٢] القريبة الواقعة جنوب شرقى سانتافيه . ويبدو من الخطابات التى تبودلت بين أبى عبدالله وبين الملكين الكاثوليكيين فى تلك الفترة الدقيقة من حياة الأمة الأندلسية ، أن حديث المفاوضة قد بدأ بين الفريقين فى أوائل سبتمبر سنة ١٤٩١ ، وأن القائد أبا القاسم بن عبد الملك كان يعاونه فى المفاوضة الوزير يوسف بن كُماشه ، وقد كان مثله من خاصة أبى عبد الله ومن أنصار سياسة التسليم ، وأن أبا عبد الله طلب فى خطاب أرسله إلى الملكين الكاثوليكيين أن تكون المفاوضات سرية حتى تتحقق غايتها المرجوة ، وذلك خشية من انتقاض الشعب الغرناطى ونزعاته ؛ هذا إلى أن الوزيرين الغرناطيين كتبا إلى الملكين الكاثوليكيين خطاباً يؤكدان فيه إخلاصهما وولاءهما ، واستعدادهما لخدمتهما حتى تتحقق رغباتهما كاملة ، وفى ذلك كله ما يلقى ضوءاً واضحاً على الموقف المريب الذى وقفه أبوعبد الله ووزراؤه من مسألة التسليم[٣] .

واستمرت المفاوضات بضعة أسابيع ، وانتهى الفريقان إلى وضع معاهدة للتسليم وافق عليها الملكان ، ووقعت فى اليوم الخامس والعشرين من شهر نوفمبر سنة ١٤٩١ ( ٢١ محرم سنة ٨٩٧ هـ ) .

وقد تضمنت هذه الوثيقة الشهيرة ، التى قررت مصير آخر القواعد الأندلسية ومصير الأمة الأندلسية ، شروطاً عديدة بلغت ستة وخمسين مادة . وقد لخصت

---

( ١ ) يذكر اسم أبى القاسم عبد الملك فى الوثائق القشتالية محرفاً : أبو القاسم عبد المليح أوأبو القاسم المليخ ، وهو الأكثر شيوعاً : **Bulcacin Bulcasem el Muléh** . ومن الغريب أن هذا التحريف غلب فيما بعد على كتابة اسمه بالعربية ، فنراه يكتب فى بعض الوثائق أبوالقاسم المليخ .

( ٢ ) هى اليوم قرية **Churiana** ، وهى من ضواحى غرناطة .

( ٣ ) تحفظ الصور القشتالية لهذه الخطابات ضمن مجموعة فرناندو دى ثافرا ببلدية غرناطة ، وقد نشرها العلامة **Garrido Atienza** فى مجموعة الوثائق الخاصة بتسليم غرناطة المسماة :

**Las Capitulaciónes para la Entrega de Granada (Granada 1910) p. 200-217**

لنا الرواية الإسلامية معظم محتوياتها مع شيء من التحريف(١) ولكنا ننقل الآن ولأول مرة ، إلى العربية ، محتويات هذه المعاهدة عن نصوصها القشتالية الرسمية فى توسع وإفاضة . وإليك مضمون هذه المحتويات

أن يتعهد ملك غرناطة ، والقادة ، والفقهاء والوزراء والعلماء ، وكافة الناس ، سواء فى غرناطة والبيّازين وأرباضهما ، بأن يسلموا طواعية واختياراً ، وذلك فى ظرف ستين يوماً تبدأ من تاريخ هذه المعاهدة ، قلاع الحمراء والحصن ، وأبوابها وأبراجها ، وأبواب غرناطة والبيازين ، إلى الملكين الكاثوليكيين ، أو إلى من يندبانه من رجالهما ، على ألا يسمح لنصرانى أن يصعد إلى الأسوار القائمة بين القصبة والبيازين ، حتى لا يكشف أحوال المسلمين ، وأن يعاقب من يفعل ذلك. وضماناً لسلامة هذا التسليم ، يقدم الملك المذكور مولاى أبو عبد الله والقادة المذكورون ، إلى جلالتيهما ، قبل تسلم الحمراء بيوم واحد ، خمسمائة شخص صحبة الوزير ابن كماشه ، من أبناء وإخوة زعماء غرناطة والبيازين ، ليكونوا رهائن فى يديهما لمدة عشرة أيام ، تُصلح خلالها الحمراء . وفى نهاية هذا الأجل يرد أولئك الرهائن أحراراً . وأن يقبل جلالتهما ، ملك غرناطة وسائر القادة والزعماء ، وسكان غرناطة والبشرّات وغيرهما من الأراضى ، رعايا وأتباعا تحت حمايتهما ورعايتهما (١) .

وأنه حينما يرسل جلالتهما رجالها لتسلم الحمراء المذكورة ، فعليهم أن يدخلوا من باب العشار ومن باب نجدة ، ومن طريق الحقول الخارجية ، وألا يسيروا إليها من داخل المدينة ، حينما يأتون لتسلمها وقت التسليم (٢) .

وأنه متى تم تسليم الحمراء والحصن ، يرد إلى الملك المذكور مولاى أبى عبد الله ولده المأخوذ رهينة لديهما ، وكذلك يرد سائر الرهائن المسلمين الذين معه ، وسائر حشمه الذين لم يعتنقوا النصرانية (٣) .

ويتعهد جلالتهما ، وخلفاؤهما إلى الأبد ، بأن يترك الملك المذكور أبو عبد الله والقادة ، والوزراء ، والعلماء ، والفقهاء ، والفرسان ، وسائر الشعب ، تحت حكم شريعتهم ، وألا يؤمروا بترك شيء من مساجدهم وصوامعهم ، وأن تترك لهذه المساجد مواردها كما هى ، وأن يقضى بينهم وفق شريعتهم وعلى يد قضاتهم ، وأن يحتفظوا بتقاليدهم وعوائدهم (٤) .

(١) أخبار العصر ص ٤٨ و ٥٠ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٦١٥ و ٦١٦ .

وألا يؤخذ منهم خيلهم أو سلاحهم الآن أوفيما بعد ، سوى المدافع الكبيرة والصغيرة فإنها تسلم (٥) .

وأنه يحق لسائر سكان غرناطة والبيازين وغيرهما ، الذين يريدون العبور إلى المغرب ، أن يبيعوا أموالهم المنقولة لمن شاءوا ، وأنه يحق للملكين شراءها بمالهما الخاص (٦) .

وأنه يحق للسكان المذكورين أن يعبروا إلى المغرب ، أو يذهبوا أحراراً إلى أية ناحية أخرى ، حاملين أمتعتهم وسلعهم ، وحليهم من الذهب والفضة وغيرها . ويلتزم الملكان بأن يجهزا فى بحر ستين يوماً من تاريخه ، عشر سفن فى موانيهما يعبر فيها الذين يريدون الذهاب إلى المغرب . وأن يقدما خلال الأعوام الثلاثة التالية السفن ، لمن شاء العبور ، وتبقى السفن خلال هذه المدة تحت طلب الراغبين فيه ، ولا يقتضى منهم خلال هذه المدة أى أجر أو مغرم ، وأنه يحق العبور لمن يشاء بعد ذلك ، نظير دفع مبلغ « دوبل » واحد عن كل شخص ، وأنه يحق لمن لم يتمكن من بيع أملاكه ، أن يوكل لإدارتها ، وأن يقتضى ريعها حيثما كان (٧) .

وألا يرغم أحد من المسلمين أو أعقابهم ، الآن أو فيما بعد ، على تقلد شارة خاصة بهم (٨) .

وأن ينزل الملكان ، للملك أبى عبد الله المذكور ، ولسكان غرناطة والبيازين وأرباضهما ، لمدة ثلاث سنوات تبدأ من تاريخه ، عن سائر الحقوق التى يجب عليهم أداؤها عن دورهم ومواشيهم (٩) .

وأنه يجب على الملك أبى عبد الله ، وسكان غرناطة والبيازين وأرباضهما والبشرات وأراضيها ، أن يسلموا وقت تسليم المدينة طواعية ودون أية فدية ، سائر الأسرى النصارى الذين تحت أيديهم (١٠) .

وأنه لا يسمح لنصرانى ، أن يدخل مكاناً لعبادة المسلمين دون ترخيص ، ويعاقب من يفعل ذلك (١٢) .

وألا يولى على المسلمين مباشر يهودى ، أو يمنح أية سلطة أو ولاية عليهم (١٣) .

وأن يعامل الملك أبو عبد الله المذكور ، وسائر السكان المسلمين ، برفق وكرامة ، وأن يحتفظوا بعوائدهم وتقاليدهم ، وأن يؤدى للفقهاء حقوقهم المأثورة وفقاً للقواعد المرعية (١٤) .

وأنه إذا قام نزاع بين المسلمين ، فصل فيه وفقاً لأحكام شريعتهم ، وتولاه قضاتهم (١٥) .

وألا يكلفوا بإيواء ضيف أو تؤخذ منهم ثياب أو دواجن أو أطعمة أو ماشية أو غيرها دون إرادتهم (١٦) .

وأنه إذا دخل نصرانى منزل مسلم قهراً عنه ، عوقب على فعله (١٧) .

وأنه فيما يتعلق بشئون الميراث ، يحتفظ المسلمون بنظمهم ، ويحتكمون إلى فقهائهم وفقاً لسنن المسلمين (١٨) .

وأنه يحق لسائر سكان غرناطة والبشرات وغيرهما الداخلين فى هذا العهد ، الذين يعلنون الولاء لجلالتهما ، فى ظرف ثلاثين يوماً من التسليم ، أن يتمتعوا بالإعفاءات الممنوحة ، مدى السنوات الثلاث (١٩) .

وأن يبقى دخل الجوامع والهيئات الدينية أو أية أشياء أخرى مرصودة على الخير ، وكذا دخل المدارس ، متروكاً لنظر الفقهاء ، وألا يتدخل جلالتهما بأية صورة ، فى شأن هذه الصدقات أو يأمران بأخذها فى أى وقت (٢٠) .

وأنه لا يؤخذ أى مسلم بذنب ارتكبه شخص آخر ، فلا يؤخذ والد بذنب ولده أو ولد بذنب والده ، أو أخ بذنب أخ ، أو ولد عم بذنب ولد عم ، ولا يعاقب إلا من ارتكب الجرم (٢١) .

وأنه إذا كان مسلم أسيراً ، وفر إلى مدينة غرناطة أو البيازين أو أرباضهما أو غيرهما ، فإنه يعتبر حراً ، ولا يسمح لأحد بمطاردته إلا إن كان من العبيد أو من الجزائر (٢٤) .

وألا يدفع المسلمون من الضرائب أكثر مما كانوا يدفعون لملوكهم المسلمين (٢٥)

وأنه يحق لسكان غرناطة والبيازين والبشرات وغيرهما ، ممن عبروا إلى المغرب ، أن يعودوا خلال الأعوام الثلاثة التالية ، وأن يتمتعوا بكل ما يحتويه هذا الاتفاق (٢٦) .

كما يحق لمن عبر منهم إلى المغرب ، ولم ترضه الإقامة هنالك ، أن يعود خلال الأعوام الثلاثة ، وأن يتمتع بكل ما فى هذا الاتفاق (٢٨) .

وأنه يحق لتجار غرناطة وأرباضها والبشرات وسائر أراضيها ، أن يتعاملوا فى سلعهم آمنين ، عابرين إلى المغرب وعائدين ، كما يحق لهم دخول سائر النواحى التابعة لجلالتهما ، وألا يدفعوا من الضرائب سوى التى يدفعها النصارى (٢٩) .

وأنه إذا كان أحد من النصارى — ذكراً أو أنثى — اعتنق الإسلام ، فلا يحق لإنسان أن يهدده أو يؤذيه بأية صورة ، ومن فعل ذلك يعاقب (٣٠) .

وأنه إذا كان مسلم قد تزوج بنصرانية واعتنقت الإسلام ، فلا ترغم على العودة إلى النصرانية ، بل تسأل فى ذلك أمام المسلمين والنصارى ، وألا يرغم أولاد « الروميات » ذكوراً أو إناثاً ، على اعتناق النصرانية (٣١) .

وأنه لا يرغم مسلم أو مسلمة قط على اعتناق النصرانية (٣٢) .

وأنه إذا شاءت مسلمة متزوجة أو أرملة أو بكر اعتناق النصرانية بدافع الحب ، فلا يقبل ذلك منها ، حتى تسئل وتوعظ وفقاً للقانون ؛ وإذا كانت قد استولت خلسة على حلى أو غيرها من دار أهلها أو أى شىء آخر ، فإنها ترد لصاحبها ، وتتخذ الإجراءات ضد المسئول (٣٣) .

وألا يطلب الملكان ، أو يسمحا بأن يُطلب إلى الملك المذكور مولاى أبى عبد الله ، أوخدمه أو أحد من أهل غرناطة أو البيازين وأرباضهما والبشرات وغيرهما ، من الداخلة فى هذا العهد ، بأن يردوا ما أخذوه أيام الحرب من النصارى أو المدجنين ، من الخيل أو الماشية أو الثياب أو الفضة أو الذهب أوغيرها ، أو من الأشياء الموروثة ، ولا يحق لأحد يعلم بشىء من ذلك أن يطالب به (٣٤) .

وألا يُطلب إلى أى مسلم ، يكون قد هدد أوجرح أوقتل أسيراً أو أسيرة نصرانية ، ليس أو ليست فى حوزته ، رده أو ردها الآن أوفيما بعد (٣٥) .

وألا يدفع عن الأملاك والأراضى السلطانية ، بعد انتهاء السنوات الثلاث الحرة ، من الضرائب إلا وفقاً لقيمتها ، وعلى مثل الأراضى العادية (٣٦) .

وأن يطبق ذلك أيضاً على أملاك الفرسان والقادة المسلمين ، فلا يدفع عنها أكثر مما يدفع عن الأملاك العادية (٣٧) .

وأن يتمتع اليهود من أهل غرناطة والبيازين وأرباضهما ، والأراضى التابعة لها ، بما فى هذا العهد من الامتيازات ، وأن يسمح لهم بالعبور إلى المغرب خلال ثلاثة أشهر ، تبدأ من يوم ١٨ ديسمبر (٣٨) .

وأن يكون الحكام والقواد والقضاة ، الذين يعينون لغرناطة والبيازين والأراضى التابعة لهما ، ممن يعاملون الناس بالكرامة والحسنى ، ويحافظون على الإمتيازات الممنوحة ، فإذا أخل أحدهم بالواجب ، عوقب وأحل مكانه من يتصرف بالحق (٣٩) .

وأنه لا يحق للملكين أو لأعقابهما إلى الأبد ، أن يسألوا الملك المذكور أبى عبد الله ، أوأحداً من المسلمين المذكورين بأية صورة ، عن أى شىء يكونوا

قد عملوه ، حتى حلول يوم تسليم الحمراء المذكورة ، وهى فترة الستين يوماً المنصوص عليها(٤٠) .

وأنه لا يُولى عليهم أحد من الفرسان أو القادة أو الخدم ، الذين كانوا تابعين لملك وادى آش[1] (٤١).

وأنه إذا وقع نزاع بين نصرانى أو نصرانية ومسلم أو مسلمة ، فإنه ينظر أمام قاضى نصرانى وآخر مسلم ، حتى لا يتظلم أحد مما يقضى به ( ٤٢ ) .

وأن يقوم الملكان بالإفراج عن الأسرى المسلمين ذكوراً وإناثاً ، من أهل غرناطة والبيازين وأرباضهما وأراضيهما ، إفراجاً حراً دون أية نفقة من فدية أوغيرها ، وأن يكون الإفراج عمن كان من هؤلاء الأسرى بالأندلس فى ظرف خمسة الأشهر التالية ، وأما الأسرى الذين بقشتالة فيفرج عنهم خلال الثمانية أشهر التالية . وبعد يومين من تسليم الأسرى النصارى لجلالتيهما يفرج عن مائتين من الأسرى المسلمين ، منهم مائة من الرهائن ومائة أخرى (٤٤) .

وأنه إذا دخلت أية محلة من نواحى البشرات فى طاعة جلالتيهما ، فإنها يجب أن تسلم إليهما كل الأسرى النصارى ذكوراً وإناثاً ، فى ظرف خمسة عشر يوماً من تاريخ الانضمام ، وذلك دون أية نفقة (٤٦) .

وأن تعطى الضمانات للسفن المغربية الراسية الآن فى مملكة غرناطة ، لكى تسافر فى أمان ، على ألا تكون حاملة أى أسير نصرانى ، وألا يحدث لها أحد ضرراً أو إتلافاً ، وألا يؤخذ منها شىء ، ولا ضمان لمن تحمل منها أسرى من النصارى ، ويحق لجلالتيهما إرسال من يقوم بتفتيشها لذلك الغرض (٤٧) .

وألا يُدعى أو يؤخذ أحد من المسلمين للحرب رغم إرادته ، وإذا شاء جلالتاهما استدعاء الفرسان ، الذين لهم خيول وسلاح ، للعمل فى نواحى الأندلس فيجب أن يدفع لهم الأجر من يوم الرحيل حتى يوم العودة (٤٨) .

وأنه يجب على كل من عليه دين أو تعهد ، أن يؤديه لصاحب الحق ؛ ولا يحق لهم التحرر من هذه الحقوق (٥٢) .

وأن يكون المأمورون القضائيون الذين يعينون لمحاكم المسلمين ، مسلمين ، الآن وإلى الأبد (٥٣) .

---

(١) المقصود هنا هو مولاى الزغل .

وأن يكون المتولون لوظائف الحسبة الخاصة بالمسلمين ، أيضاً مسلمين ، وألا يتولاها نصرانى الآن وفى أى وقت (٥٤) .

وأن يقوم الملكان فى اليوم الذى تسلم إليهما فيه الحمراء والحصن والأبواب كما تقدم ، بإصدار مراسيم الإمتيازات ، للملك أبى عبد الله وللمدينة المذكورة ، ممهورة بتوقيعهما ، ومختومة بخاتمهما الرصاص ذى الأهداب الحريرية ، وأن يصدق عليها ولدهما الأمير ، والكردينال المحترم دسبينا ، ورؤساء الهيئات الدينية ، والعظماء والدوقات والمركيزون والكونتات والرؤساء ، حتى تكون ثابتة وصحيحة الآن ، وفى كل وقت ( ٥٦ ثافرا ) ( ٤٣ سيمانقا ) .

وقد ذيلت المعاهدة ، بنبذة خلاصتها ، أن ملكى قشتالة يؤكدان ويضمنان بدينهما وشرفهما الملكى ، القيام بكل ما يحتويه هذا العهد من النصوص ، ويوقعانه باسميهما ويمهرانه بخاتميهما ، وعليها تاريخ تحريرها وهو يوم ٢٥ نوفبر سنة ١٤٩١ (١)

ثم ذيلت بعد ذلك ، وبتاريخ لاحق هو يوم ٣٠ ديسمبر سنة ١٤٩٢ ، أعنى بعد تسليم غرناطة بعام ، بتوكيد جديد يأمر فيه الملكان وولدهما الأمير ، وسائر عظماء المملكة بالمحافظة على محتويات هذا العهد ، وألا يعمل ضده شىء ، أو ينقض منه شىء ، الآن وإلى الأبد ، وأنهما يؤكدان ويقسمان بدينهما وشرفهما الملكى بأن يحافظا ، ويأمران بالمحافظة على كل ما يحتويه بندا بندا إلى الأبد ، وقد ذيل هذا التوكيد بتوقيع الملكين ، وتوقيع ولدهما وجمع كبير من الأمراء والأحبار والأشراف والعظماء (٢) .

* * *

وفى نفس اليوم الذى وقعت فيه معاهدة تسليم غرناطة ، وهو يوم ٢٥ نوفبر

---

( ١ ) رجعنا فى ترجمة وتلخيص نصوص معاهدة التسليم إلى الوثيقتين الرسميتين اللتين تضمنتا نصوص هذه المعاهدة ، وهما أولا ، الوثيقة المحفوظة بدار المحفوظات العامة فى سيمانقا **Archivo general de Simancas** ، وتحمل رقم **P.R. 11-207** ضمن مجموعة **(Capitulaciónes con Moros y Caballeros de Castilla)**. وهى تملأ إحدى عشرة لوحة كبيرة ومحررة بالقشتالية القديمة ولدينا منها صورة فتوغرافية . وثانيا ، الوثيقة المعروفة بوثيقة فرناندو دى ثافرا ، أمين الملكين الكاثوليكيين وتحفظ بمجموعة دى ثافرا ببلدية غرناطة ، وقد نشرت ضمن مجموعة وثائق تسليم غرناطة :
**Las Capitulaciones para la Entrega de Granada, por Miguel Garrido Atienzā (Granada 1910) p. 269 - 295**

( ٢ ) راجع مجموعة وثائق تسليم غرناطة السالفة الذكر ( ص ٢٨٩ و ٢٩٠ ) .

سنة ١٤٩١م ، وفى نفس المكان الذى وقعت فيه ، وهو المعسكر الملكى بمرج غرناطة، أبرمت معاهدة أخرى أوملحق سرى للمعاهدة الأولى، يتضمن الحقوق والإمتيازات والمنح ، التى تعطى للسلطان أبى عبد الله ، ولأفراد أسرته وحاشيته، وذلك متى نفذ تعهداته التى تضمنتها المعاهدة من تسليم غرناطة والحمراء ، وحصونها .

وتتلخص هذه الحقوق والامتيازات والمنح فيما يأتى :

أن يمنح الملكان الكاثوليكيان لأبى عبد الله ولأولاده وأحفاده وورثته إلى الأبد ، حق الملكية الأبدية ، فيما يملكانه من محلات وضياع فى بلاد برجة ، ودلاية ومرشانة ، ولوشار ، وأندرش ، وأجيجر ، وأرجبة ، وبضعة بلاد أخرى مجاورة ، وكل ما يخصها من الضرائب وحقوق الريع ، وما بها من الدور والأماكن والقلاع والأبراج ، لتكون كلها له ولأولاده وأعقابه وورثته بحق الملكية الأبدية ، يتمتع بكل ريعها وعشورها وحقوقها ، وأن يتولى القضاء فى النواحى المذكورة باعتباره سيدها ، وباعتباره فى الوقت نفسه تابعاً وخاضعاً لجلالتيهما ، وله حق بيع الأعيان المذكورة ورهنها ، وأن يفعل بها ما يشاء ومتى شاء ، وأنه متى أراد بيعها ، فإنه يعرض ذلك أولا على جلالتيهما فإذا لم يريدا شراءها ، فله أن يبيعها لمن شاء .

وأن يحتفظ جلالتهما بقلعة أدرة ، وسائر القلاع الواقعة على الشاطىء .

وأن يعطى جلالتهما إلى الملك المذكور مولاى أبى عبد الله ، هبة قدرها ثلاثون ألف جنيه قشتالى من الذهب (كاستيليانو) ، يبعثان بها إليه ، عقب تسليم الحمراء ، وقلاع غرناطة الأخرى التى يجب تسليمها ، وذلك فى الموعد المحدد .

وأن يهب جلالتهما للملك المذكور ، كل الأراضى والرحى والحدائق ، والمزارع التى كان يملكها أيام أبيه السلطان أبى الحسن ، سواء فى غرناطة أوفى البشرات ، لتكون ملكاً له ولأولاده ولعقبه وورثته ، ملكية أبدية ، وله أن يبيعها أو يرهنها وأن يتصرف فيها كيفما شاء .

وأن يهب جلالتهما أيضاً ، إلى الملكات والدته وإخواته وزوجته ، وإلى زوجة أبى الحسن ، كل الحدائق والمزارع والأراضى والطواحين والحمامات ، التى يملكنها فى غرناطة والبشرات ، تكون ملكاً لهن ولأعقابهن إلى الأبد ، ولهن بيعها ورهنها والتمتع بها وفقاً لما تقدم .

وأن تكون سائر الأراضى الخاصة بالملك المذكور والملكات المذكورات ، وزوجة مولاى أبى الحسن ، معفاة من الضرائب والحقوق الآن وإلى الأبد .

وألا يطلب جلالتهما أو أعقابهما إلى ملك غرناطة أو حشمه أوخدمه رد ما أخذوه فى أيامهم سواء من النصارى أو المسلمين من الأموال والأراضى .

وأنه إذا شاء الملك المذكور أبو عبد الله ، والملكات المذكورات ، وزوجة مولاى أبىالحسن وأولادهم وأحفادهم وأعقابهم ، وقوادهم وخدمهم وأهل دارهم ، وفرسانهم وغيرهم ، صغاراً وكباراً ، العبور إلى المغرب ، فإن جلالتهما يجهزان الآن أو فى أى وقت سفينتين لعبور الأشخاص المذكورين ، متى شاءوا ، تحملهم وكل أمتعتهم وماشيتهم وسلاحهم ، وذلك دون أية أجر أو نفقة .

وأنه إذا لم يتمكن الملك المذكور وأولاده وأحفاده وأعقابه ، والملكات المذكورات ، وزوجة مولاى أبى الحسن . والقواد والحشم والخدم ، وقت عبورهم إلى المغرب ، من بيع أملاكهم المشار إليها ، فإن لهم أن يوكلوا من شاءوا لقبض ريعها ، وإرساله حيث شاءوا دون أى قيد أو مغرم .

وأنه يحق للملك المذكور متى شاء ، أن يرسل من يرى ، من خدمه أو قادته إلى المغرب بسلع أوغيرها من إيراداته ، وذلك دون قيد أومغرم .

وأنه يحق للملك المذكور ، متى خرج من غرناطة ، أن يسكن أو يقيم متى شاء ، فى الأراضى التى أقطعت له ، وأن يخرج هو وخدمه وقواده وعلماؤه وقضاته وفرسانه ، الذين يريدون الخروج معه ، بخيلهم وماشيتهم متقلدين أسلحتهم ، وكذلك نساؤهم وخدمهم ، وألا يؤخذ منهم شيء سوى المدافع ، وألا يفرض عليهم الآن أو فى أى وقت ، وضع علامة خاصة فى ثيابهم أو بأية صورة ، وأن يتمتعوا بسائر الإمتيازات المقررة فى عهد تسليم غرناطة .

وأنه فىاليوم الذى يتم فيه تسليم الحمراء وحصونها ، يصدر جلالتهما المراسيم اللازمة بالمنح المذكورة ، موقعة ومختومة ، ومصدق عليها من ابنهما الأمير والكردينال وسائر العظماء[1] .

* * *

تلك هى الشروط التى وضعت لتسليم آخر القواعد الأندلسية ، وتلك هى

---

(١) تحفظ النسخة القشتالية لهذه المعاهدة السرية التىعقدت بين الملكين الكاثوليكيين وأبى عبدالله بدار المحفوظات العامة فى سيمانقا **Archivo general de Simancas** وتحمل رقم **P.R. Leg. II. Fol. 206** وقد حصلنا منها على صورة فتوغرافية .

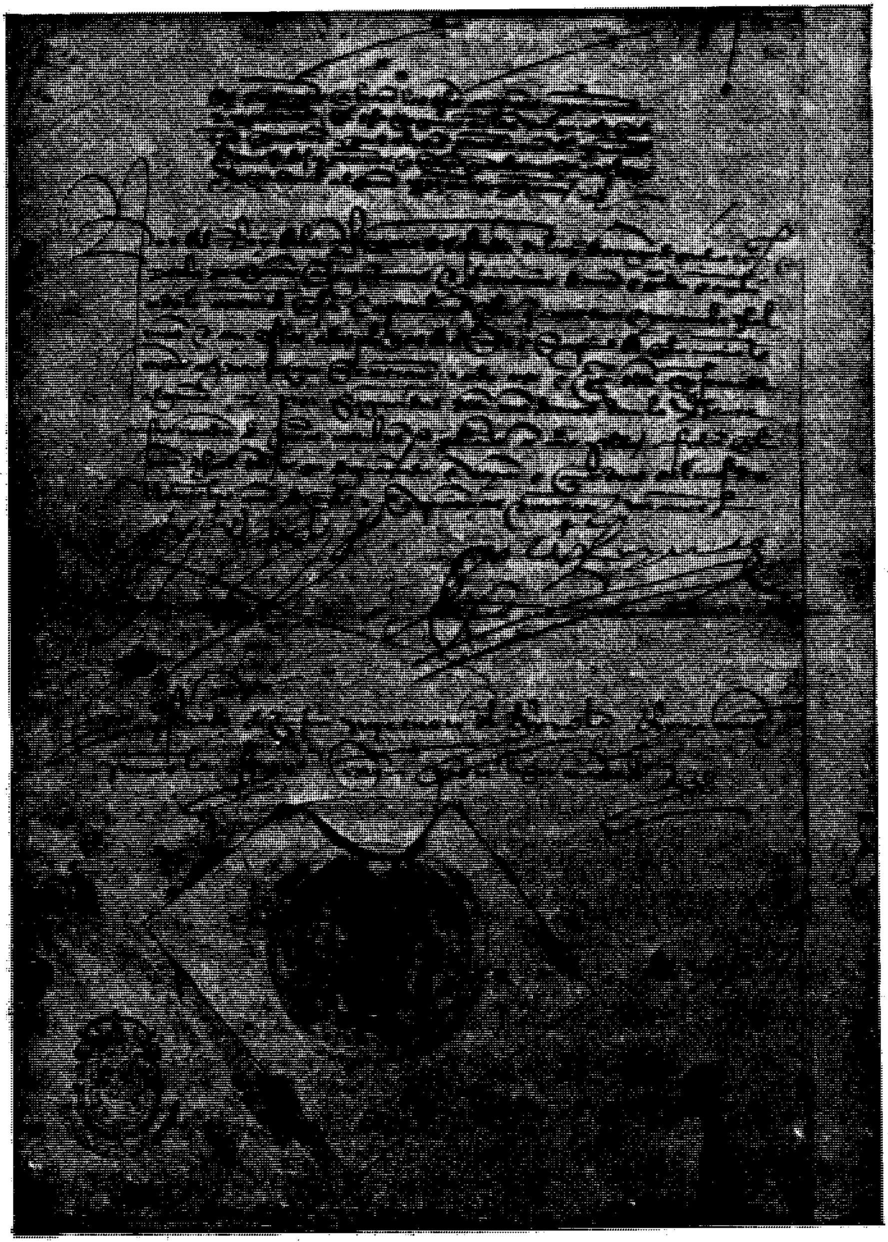

الصفحة الأخيرة من معاهدة التسليم التى أصدرها الملكيان الكاثوليكيان لأبى عبد الله وأهل غرناطة ، مؤرخة فى ٢٥ نوفبر سنة ١٤٩١ م (٢١ محرم ٨٩٧ هـ) ، وعليها توقيعا فرناندو وإيسابيلا ، وتوقيع سكرتيرهما فرناندو دى ثافرا ، وختم مملكة قشتالة . والأصل محفوظ بدار المحفوظات العامة فى سيمانقا ويحمل رقم P. R. 11 - 207

الإمتيازات والمنح التى منحت لآخر ملوك الأندلس . فأما فيما يتعلق بغرناطة ومصاير الأمة المغلوبة ، فقد كانت هذه الشروط المسهبة ، والتى اشتملت على سائر الضمانات المتعلقة بتأمين النفس والمال ، وسائر الحقوق المادية ، وصون الدين والشعائر ، والكرامة الشخصية ،أفضل ما يمكن الحصول عليه فى مثل هذه المحنة ، لو أخلص العدو الظافر فى عهوده . ولكن هذه العهود لم تكن فى الواقع ، حسبما أيدت الحوادث فيما بعد ، سوى ستار الغدر والخيانة ، وقد نقضت هذه الشروط الخلابة كلها لأعوام قلائل من تسليم غرناطة ، ولم يتردد المؤرخ الغربى نفسه فى أن يصفها « بأنها أفضل مادة لتقدير مدى الغدر الإسبانى فيما تلا من العصور »(١) . وقد بذل فرناندو ما بذل من عهود وضمانات وامتيازات لأهل غرناطة ، بعد ما لقيت جيوشه من الصعاب ، وما منيت به من الخسائر الفادحة ، أمام أسوار مالقة وبسطة ، ولأنه كان يعلم أن الحاضرة الأندلسية الأخيرة ، تموج بعشرات الألوف من المدافعين ، وأنه يقتضى لأخذها عنوة بذل جهود مضنية ، وتحمل تضحيات عظيمة ؛ وقد لجأ فرناندو ، إلى جانب إرهاق غرناطة بالحصار الصارم ، إلى البذل والرشوة لإغراء الزعماء والقادة ، وعلى رأسهم أبو عبد الله ، وذلك لكى يصل إلى تحقيق غايته المنشودة بطريق سلمية مأمونة ، وجاءت نصوص المعاهدة السرية مؤيدة لما أشارت إليه الرواية الإسلامية المعاصرة ، من ريب وشكوك تحيط بموقف أبى عبد الله ووزرائه وقادته .

وعاد أبو القاسم عبد الملك والوزير ابن كماشة يحملان شروط التسليم ، وصحبهما فرناندو دى ثافرا أمين ملك قشتالة ومبعوثه ، وأدخل سراً إلى قصر الحمراء ، وجمع أبو عبد الله الفقهاء وأكابر الجماعة فى بهو الحمراء الكبير ( بهو قمارش ) ، وبعد مناقشات طويلة عاصفة ، تمت الموافقة على المعاهدة ، وحملها دى ثافرا ممهورة بتوقيع أبى عبد الله إلى معسكر ملك قشتالة .

وقد انتهت إلينا عن هذه الجلسة الحاسمة فى تاريخ الأمة الأندلسية ، وعن موقف فارس غرناطة موسى بن أبى الغسان ، رواية قشتالية مؤثرة ، قد تصطبغ بلون الأسطورة ، ومع ذلك فإنها تنم عن روح الانتقاض والسخط ، التى كانت تضطرم بها بعض النفوس الأبية الكريمة التى كانت ترى الموت خيراً من التسليم لأعداء الوطن والدين .

(١) Prescott : ibid ; p. 296

تقول الرواية المذكورة ، إنه حينما اجتمع الزعماء فى بهو الحمراء الكبير ، ليوقعوا عهد التسليم ، وليحكموا على دولتهم بالذهاب، وعلى أمتهم بالفناء والمحو ، عندئذ لم يملك كثير منهم نفسه من البكاء والعويل . ولكن موسى لبث وحده صامتاً عابساً وقال : « أتركوا العويل للنساء والأطفال ، فنحن رجال لنا قلوب لم تخلق لإرسال الدمع ولكن لتقطر الدماء، وإنى لأرى روح الشعب قد خبت حتى ليستحيل علينا أن ننقذ غرناطة ؛ ولكن ما زال ثمة بديل للنفوس النبيلة . ذلك هو موت مجيد ، فلنمت دفاعاً عن حرياتنا وانتقاماً لمصائب غرناطة ، وسوف تحتضن أمنا الغبراء أبناءها أحراراً من أغلال الفاتح وعسفه ؛ ولئن لم يظفر أحدنا بقبر يستر رفاته ، فإنه لن يعدم سماء تغطيه ، وحاشا الله أن يقال إن أشراف غرناطة خافوا أن يموتوا دفاعاً عنها »[1] .

ثم صمت موسى ، وساد المجلس سكون الموت ، وسرح أبو عبد الله البصر حوله ، فإذا اليأس مائل فى تلك الوجوه التى أضناها الألم، وإذا كل عزم قد غاض فى تلك القلوب الكسيرة الدامية . عندئذ صاح « الله أكبر لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، ولا راد لقضاء الله . تالله لقد كتب عليّ أن أكون شقياً، وأن يذهب الملك على يدى » . وصاحت الجماعة على أثره « الله أكبر ولا راد لقضاء الله » ، وكرروا جميعاً أنها إرادة الله ولتكن ، وأنه لا مفر من قضائه ولا مهرب ، وأن شروط ملك النصارى أفضل ما يمكن الحصول عليه . فلما رأى موسى أن اعتراضه عبث لا يجدى وأن الجماعة قد أخذت فعلا فى توقيع صك التسليم ، نهض مغضباً وصاح : « لا تخدعوا أنفسكم ، ولا تظنوا أن النصارى سيوفون بعهدهم ، ولا تركنوا إلى شهامة ملكهم . إن الموت أقل ما نخشى ، فأمامنا نهب مدننا وتدميرها ، وتدنيس مساجدنا ، وتخريب بيوتنا ، وهتك نسائنا وبناتنا ؛ وأمامنا الجور الفاحش ، والتعصب الوحشى ، والسياط والأغلال ، وأمامنا السجون والأنطاع والمحارق . هذا ما سوف نعانى من مصائب وعسف ، وهذا ما سوف تراه على الأقل تلك النفوس الوضيعة ، التى تخشى الآن الموت الشريف . أما أنا فوالله لن أراه » . ثم غادر المجلس واخترق بهو الأسود (كورة السباع) عابساً حزيناً ، وجاز إلى أبهاء الحمراء الخارجية ، دون أن يرمق أحداً أو يفوه بكلمة ، ثم ذهب إلى داره وغطى نفسه بسلاحه ، واقتعد غارب جواده المحبوب ، واخترق

---

(١) Condé ; ibid : V. III. p. 256 & 257

شوارع غرناطة ، حتى غادرها من باب إلبيرة ، ولم يره إنسان أو يسمع به بعد ذلك قط .

هذا ما تقوله الرواية القشتالية عن نهاية موسى بن أبى الغسان[1] . ولكن مؤرخاً اسبانياً قديماً هو القس أنطونيو أجاپيدا يحاول أن يلقى ضياء على مصيره ، فيقول إن سَرية من الفرسان النصارى تبلغ نحو الخمسة عشر ، التقت فى ذلك المساء بعينه ، على ضفة نهر « شنيل » بفارس مسلم قد دججه السلاح من رأسه إلى قدمه ، وكان مغلقاً خوذته شاهراً رمحه ، وكان جواده غارقاً مثله فى رداء من الصلب. فلما رأوه مقبلا عليهم طلبوا إليه أن يقف وأن يعرف بنفسه ، فلم يجب الفارس المسلم ، ولكنه وثب إلى وسطهم وطعن أحدهم برمحه وانتزعه عن سرجه فألقاه إلى الأرض ، ثم انقض على الباقين يثخن فيهم طعاناً ، وكانت ضرباته ثائرة قاتلة ، وكأنه لم يشعر بما أثخنه من جراح ، ولم يرد إلا أن يقتل وأن يسيل الدم ، وكأنه إنما يقاتل للانتقام فقط ، وكأنما يتوق إلى أن يقتل دون أن يعيش لينعم بظفره . وهكذا لبث يبطش بالفرسان النصارى حتى أفنى معظمهم ، غير أنه أصيب فى النهاية بجرح خطر ، ثم سقط جواده من تحته بطعنة أخرى ، فسقط إلى الأرض ، ولكنه ركع على ركبتيه واستل خنجره ، وأخذ يناضل عن نفسه . فلما رأى أن قواه قد نضبت ، ولم يرد أن يقع أسيراً فى يد خصومه ، ارتد إلى ما ورائه بوثبة أخيرة ، وألقى بنفسه إلى مياه النهر ، فابتلعته لفوره ، ودفعه سلاحه الثقيل إلى الأعماق .

يقول الراوية المذكور ، إن هذا الفارس الملثم هو موسى بن أبى الغسان ، وإن بعض العرب المتنصرين فى المعسكر الإسبانى ، عرفوا جواده المقتول ، وهى رواية لا بأس بها ، غير أن الحقيقة لم تعرف قط[2] .

— ٤ —

وما كادت أنباء الموافقة على عهد التسليم تذاع حتى عم الحزن ربوع غرناطة ، وتسربت فى الوقت نفسه بعض أنباء غامضة عن المعاهدة السرية ، وعما حققه أبو عبد الله ووزراؤه لأنفسهم من المغانم الخاصة ، وسرى الهمس بين العامة ، واضطرم سواد الشعب يأساً وسخطاً على قادته ، ولا سيا أبى عبد الله الذى اعتبر

---

(١) هذه هى رواية كوندى فيما نقل عن مصادر عربية غير معروفة Condé; Ibid. V. III. p. 257

(٢) راجع هذه الرواية فى : Irving: Conquest of Granada; Ch. 97

مصدر كل مصائبه ومحنه ، وتعالى النداء بوجوب الدفاع عن المدينة حتى آخر نسمة . وحدثت حركة انتقاض ، خشى أبو عبد الله والقادة ، أن تقضى على خططهم وتدابيرهم ، ولكنها انهارت قبل أن تنتظم ، وأضحى كل يفكر فى مصيره .

واستقبل المسلمون عهود ملك قشتالة فى تردد وتوجس ، والشك يساورهم فى إخلاص أعدائهم ، وإزاء ذلك أعلن الملكان الكاثوليكيان ، فى يوم ٢٩ نوفمبر مع قسم رسمى بالله ، أن جميع المسلمين سيكون لهم مطلق الحرية فى العمل فى أراضيهم أو حيث شاءوا ، وأن يحتفظوا بشعائر دينهم ومساجدهم كما كانوا ، وأن يسمح لمن شاء منهم بالهجرة إلى المغرب . ولكن الإيمان والعهود لم تكن حسبما تقدم ، عند ملكى قشتالة ، سوى ذريعة الخيانة والغدر ، ووسيلة لتحقيق المآرب بطريق الخديعة الشائنة . وقد كانت هذه أبرز صفات فرناندو الكاثوليكى ، فهو لم يتردد قط فى أن يعمل لتحقيق غاياته بأى الوسائل ، أو أن يقطع أى عهد أو يقدم أى تأكيد ، دون أن ينوى قط الوفاء بما تعهد .

ولكن الشعب الغرناطى استمر فى وجومه وتوجسه ويأسه ، ولم تهدأ الخواطر المضطرمة ، وكان أبو عبد الله والقادة يخشون تفاقم الأحوال ، وإفلات الأمر من أيديهم ، فاعتزموا العمل على التعجيل بالتسليم ، حرصاً على سلامة المدينة وسلامة الزعماء ، وألا ينتظروا مرور الستين يوماً التى نصت عليها المعاهدة . وفى يوم ٢٠ ديسمبر أرسل أبو عبد الله وزيره يوسف بن كماشه إلى فرناندو مع خمسمائة من الرهائن من الوجوه والأعيان ، تنفيذاً لنص المعاهدة ، وليعرب له عن حسن نية مليكه واستعداده ، كما حمل إليه هدية تتألف من سيف ملوكى وجوادين عربيين مسرجين بعدد ثمينه . واتفق مع ملك قشتالة على تسليم المدينة فى الثانى من يناير سنة ١٤٩٢م ( الثانى من ربيع الأول ٨٩٧هـ ) أى لتسع وثلاثين يوماً فقط من توقيع عهد التسليم(١) .

---

(١) تخلط معظم الروايات الإسلامية بين تاريخ توقيع المسلمين عهد تسليم غرناطة ، وبين تاريخ استيلاء النصارى الفعلى عليها . وهى تضع هذا التاريخ فى الثانى من ربيع الأول سنة ٨٩٧ هـ ( ٢ يناير سنة ١٤٩٢ ) ( أخبار العصر ص ٥٠ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٦١٥ ؛ وأزهار الرياض ج ١ ص ٦٥ ) . والواقع أن عهد التسليم وقع كما رأينا فى ٢٥ نوفمبر سنة ١٤٩١ م ( ٢١ محرم سنة ٨٩٧ هـ ) وهو يعتبر تاريخ سقوط غرناطة الرسمى فى يد النصارى ، وذلك بعد تخلى المسلمين عن الدفاع عنها ؛ ولم نجد بين الروايات الإسلامية سوى رواية واحدة هى رواية الوادى آشى تتفق مع الرواية النصرانية فى هذا التفريق فهو يقول إن استيلاء النصارى على غرناطة وقع فى المحرم سنة ٨٩٧ هـ ، وهو تاريخ توقيع عهد التسليم ( راجع أزهار الرياض ج ١ ص ٦١ ) .

وقد وصلت إلينا روايات عديدة عن حوادث هذا اليوم المؤسى ومناظره — يوم احتلال القشتاليين لمدينة غرناطة ، آخر الحواضر الإسلامية بالأندلس — ، والرواية الغالبة التى يتفق عليها معظم المؤرخين الإسبان تقدم إلينا التفاصيل الآتية عن حوادث هذا اليوم المشهود .

فى صباح هذا اليوم ، كان المعسكر النصرانى فى شنتفى يموج بالضجيج والابتهاج . وكانت الأوامر قد صدرت ، والأهبة قد اتخذت لاحتلال المدينة . وكان قد اتفق بين أبى عبد الله والملك فرناندو أن تطلق من الحمراء ثلاثة مدافع تكون إيذاناً بالاستعداد للتسليم . ولم يشأ فرناندو أن يسير إلى الحاضرة الإسلامية بنفسه ، قبل التحقق من خضوعها التام ، واستتباب الأمن والسلامة فيها . فأرسل إليها قوة من ثلاثة آلاف جندى وسرية من الفرسان ، وعلى رأسها الكردينال پيدرو دى مندوسا مطران اسبانيا الأكبر . وكان من المتفق عليه أيضاً بين فرناندو وأبى عبد الله ألا يخترق الجيش النصرانى شوارع المدينة ، بل يسير توا إلى قصبة الحمراء ، حتى لا يقع حادث أو شغب . ومن ثم فقد اخترق الجند القشتاليون الفحص إلى ضاحية أرميليا Armilla ( أرملة ) الواقعة جنوبى غرناطة ، ثم عبروا نهر شنيل ، واتجهوا توا إلى قصر الحمراء من ناحية التل المسمى « تل الرحى » Questa de los Molinos ، الواقع غربى المدينة وجنوبى غربى الحمراء .

وسار الملك فرناندو فى الوقت نفسه فى قوة أخرى ، ورابط على ضفة شنيل ، ومن حوله أكابر الفرسان والخاصة فى ثيابهم الزاهية ، حتى يمهد الكردينال الطريق لمقدم الركب الملكى . وانتظرت الملكة إيسابيلا فى سرية أخرى من الفرسان فى أرميليا ، على قيد مسافة قريبة .

ووصل الجند القشتاليون إلى مدينة غرناطة من هذه الطريق المنحرفة نحو الظهر ، وكانت أبواب الحمراء قد فتحت وأخليت أبهاؤها استعداداً للساعة الحاسمة .

وهنا تختلف الرواية . فيقال إن الذى استقبل الكردينال مندوسا وصحبه هو الوزير ابن كماشه ، الذى ندب للقيام بتلك المهمة المؤلمة ، وسلم الحرس المسلمون السلاح والأبراج . وكان يسود المدينة كلها ، ويسود القصبة والقصر ، وما إليه ، سكون الموت .

وفى رواية أخرى أن أبا عبد الله قد شهد بنفسه تسليم الحمراء ، وأنه حينما تقدم القشتاليون من تل الرحى صاعدين نحو الحمراء ، تقدم أبو عبد الله من

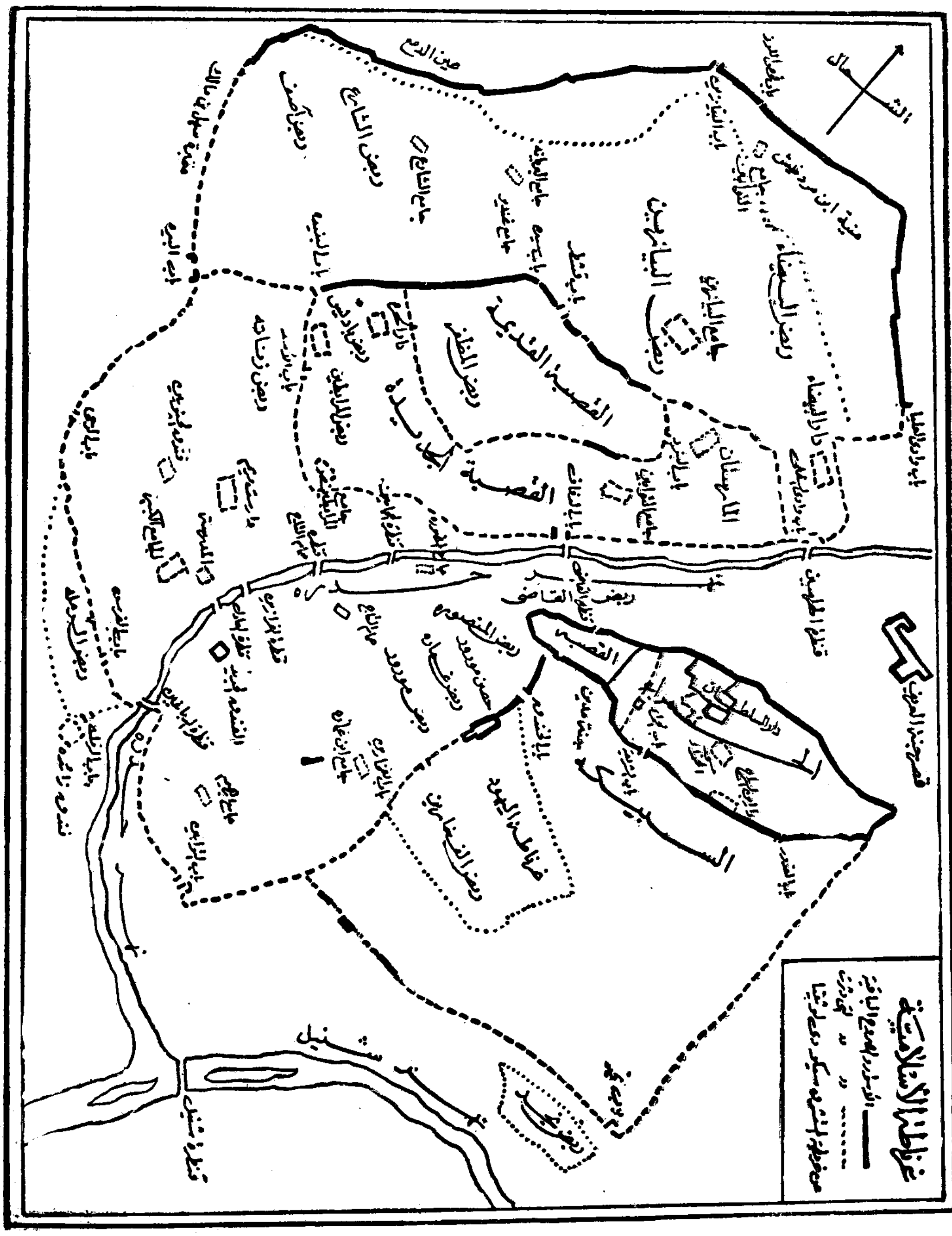
غرناطة الإسلامية
الشمال

باب الطباق السبع راجلا ، يتبعه خمسون من فرسانه وحشمه . فلما عرف الكردينال أبا عبد الله ، ترجل عن جواده ، وتقدم إلى لقائه ، وحياه باحترام وحفاوة ، ثم ابتعد الرجلان قليلا ، وتحدثا برهة على انفراد . ثم قال أبو عبدالله بصوت مسموع :(١)

«هيا يا سيدى ، فى هذه الساعة الطيبة ، وتسلم هذه القصور — قصورى — باسم الملكين العظيمين اللذين أراد لهما الله القادر أن يستوليا عليها ، لفضائلهما وزلات المسلمين » .

فوجه الكردينال إلى أبى عبد الله بعض عبارات المواساة ، ودعاه لأن يقيم فى خيمته فى المعسكر الملكى طيلة الوقت الذى يمكثه فى شنتفى ، فقبل أبو عبد الله شاكراً . ثم سار فى فرسانه وحشمه للقاء الملك الكاثوليكى .

وتم تسليم القصور الملكية والأبراج على يد الوزير ابن كماشه ، الذى ندبه أبو عبد الله للقيام بهذه المهمة . وما كاد الكردينال وصحبه يجوزون إلى داخل القصر الإسلامى المنيف ، حتى رفعوا فوق برجه الأعلى ، وهو المسمى برج الحراسة Torre de la Vela صليباً فضياً كبيراً ، هو الذى كان يحمله الملك فرناندو خلال حرب غرناطة ، كما رفعوا إلى جانبه علم قشتالة وعلم القديس ياقب ، وأعلن المنادى من فوق البرج بصوت جهورى ثلاثا أن غرناطة أصبحت ملكاً للملكين الكاثوليكيين ، وأطلقت المدافع تدوى فى الفضاء . ثم انطلقت فرقة الرهبان الملكية ترتل صلاة « الحمد لله » Te Deum laudamus ، على أنغام الموسيقى . وهكذا كان كل ما هنالك يؤكد الصفة الصليبية العميقة لهذه الحرب التى شهرتها اسبانيا النصرانية على الأمة الأندلسية ، وعلى الإسلام فى اسبانيا .

وفى أثناء ذلك كان أبو عبد الله ، فى طريقه إلى لقاء الملك الكاثوليكى . وكان فرناندو يرابط كما قدمنا على ضفة نهر شنيل ، على مقربة من المسجد ، الذى حول فيما بعد إلى كنيسة « سان سبستيان » . وهنالك لقى أبو عبد الله عدوه الظافر ، وسلمه مفاتيح الحمراء . وسوف نصف منظر هذا اللقاء المؤثر فيما بعد .

وكذلك قدم أبو عبد الله خاتمه الذهبى ، الذى كان يوقع به على الأوامر الرسمية ، إلى الكونت دى تندليا الذى عين محافظاً للمدينة .

وسار فى صحبه بعد ذلك فى طريق شنتفى ، يتبعه أهله ، أمه وزوجته وإخواته ، وكان موكباً مؤسياً . وعرج فى طريقه على محلة الملكة إيسابيلا فى أرميليا . فاستقبلته

(١) المفروض أن أبا عبد الله كان يتحدث بالقشتالية ، وهى لغة كان يجيد التكلم بها .

وأسرته برقة ومجاملة ، وحاولت تخفيف آلامه ، وسلمته ولده الصغير الذى كان ضمن رهائن التسليم .

وهنا تعود الرواية فتختلف اختلافاً بيناً. فيقول البعض إن الملكين الكاثوليكيين دخلا قصر الحمراء فى نفس اليوم. وينفى البعض الآخر ذلك ، ومنهم صاحب « أخبار العصر » ، ويقول إنهما لم يدخلاه إلا بعد ذلك ببضعة أيام .

تقول الرواية الأولى ، إن الملكة إيسابيلا ، سارت على أثر استقبالها لأبى عبد الله ، وانضمت بصحبها إلى الملك فرناندو ، ثم سار الإثنان إلى الحمراء ، بينما انتشر القشتاليون فى الساحة المجاورة . ودخل الملكان من « باب الشريعة » ، حيث استقبلهما الكردينال مندوسا والوزير ابن كماشه ، وأعطى مفاتيح الحمراء إلى الدون دیجو دى مندوسا الذى عين حاكما للمدينة . وبعد أن تجول الملكان قليلا فى القصر ، وشهدا جماله وروعته ، عادا إلى شنتفى . وبقى الكونت دى تندليا فى الحمراء مع حامية قوية من خمسمائة جندى .

ثم عاد الملكان فزارا الحمراء زيارتهما الرسمية فى يوم ٦ يناير ، وسارا فى موكب فخم من الأمراء والكبراء وأشراف العقائل ، ودخلا غرناطة من باب إلبيرة ، ثم جازا إلى الحمراء من طريق مرتفع غمارة ، ودخلا قصر الحمراء وجلسا فى بهو قمارش أو المشور[1] حيث كان يجلس الملوك المسلمون فى نفس المكان على عرشهم ، على عرش أعده الكونت دى تندليا ، وهنالك أقبل أشراف قشتالة للتهنئة ، وكذلك بعض الفرسان المسلمين ، الذين أتوا ليقدموا شعائر التحية والتجلة لسادتهم الجدد .

وفى خلال ذلك كان الملكان الكاثوليكيان ، قد أفرجا عن رهائن المسلمين الخمسمائة ، وفى مقدمتها ولد أبى عبد الله ، وأفرج المسلمون من جانبهم عن الأسرى النصارى ، وعددهم نحو سبعمائة أسير رجالا ونساء . وتعهد القشتاليون من جانبهم ، أن يطلقوا سراح الأسرى المسلمين فى سائر مملكة قشتالة ، فى ظرف خمسة أشهر بالنسبة للأسرى الموجودين بالأندلس ، وثمانية أشهر بالنسبة للأسرى الموجودين فى بقية أراضى قشتالة .

تلك خلاصة الرواية القشتالية عن تسليم غرناطة ومدينة الحمراء للملكين الكاثوليكيين . بيد أن هنالك رواية أخرى لشاهد عيان ، كتبها فارس فرنسى كان يقاتل فى صفوف الجيش القشتالى ، وشهد بنفسه حفلات التسليم ، ونشرت

---

(١) وهو المسمى أيضاً بهو السفراء ، وسوف نعود إلى وصفه عند الكلام على قصر الحمراء .

روايته فى القرن السادس عشر ضمن مؤلف عنوانه La Mar de las Historias « بحر التواريخ » . وهذه خلاصتها :

أن الذى أوفده الملكان الكاثوليكيان لاستلام الحمراء فى يوم ٢ يناير ، هو الأستاذ الأعظم رئيس جمعية شنت ياقب ، جوتيرى دى كارديناس ، وليس الكاردينال مندوسا حسبما تروى التواريخ القشتالية . وأنه تسلم القصر والأبراج وأخرج منها الحرس المسلمين ، ووضع بها الحرس النصارى ، وأنه رفع الصليب الكبير فوق برج الحراسة ثلاث مرات ، والمسلمون من أسفل يصعدون الزفرات ويذرفون الدموع ، ثم لوح بعد ذلك بعلم شنت ياقب ثلاث مرات ، ونُصب إلى جانب الصليب ، وصاح المنادى بعد ذلك : القديس يعقوب ثلاثاً . قشتالة ثلاثاً .غرناطة لسيدنا الدون فرناندو ودونيا إيسابيل ثلاثاً .

وأن الملك فرناندو لما رأى الصليب ، وهو فى جنده من أسفل ، ترجل وجثا على ركبتيه ، وجثا الجند جميعاً شكراً لله . ثم أطلقت المدافع ابتهاجاً .

وفى اليوم التالى الثالث من يناير ، سار الكردينال مندوسا والكونت دى تنديا ، الذى عين محافظاً للحمراء ، إلى قصبة الحمراء فى نحو ألف فارس وألفى راجل ، وسلم إليه الأستاذ الأعظم مفاتيح القصر والحصن .

وفى اليوم الثامن من يناير ، سار الملكان الكاثوليكيان إلى غرناطة ، فى موكب حافل من الأمراء والأكابر والأحبار والأشراف ، وتسلم الملكان مدينة الحمراء بصفة رسمية . وأقيم القداس فى الجامع الأعظم ، وحول الجامع منذ ذلك اليوم إلى كتدرائية غرناطة .

وفى ذلك اليوم أقيمت مأدبة عظيمة فى قصر الحمراء ، ومدت الموائد الحافلة فى أبهاء القصر العظيمة ، وجلس إليها الملكان والأمراء والعظماء ، وكانت مأدبة رائعة .

ويستخلص من هذه الزواية ، التى يؤيدها مؤرخون آخرون ، أن أبا عبد الله لم يستقبل الملكين الكاثوليكيين ولا مندوبيهما وقت التسليم ، ولم تقع بينه وبين الكردينال ولا بين الملكين ، الأحاديث التى سبقت الإشارة إليها .

وإلى جانب ذلك يرى بعض النقدة المحدثين ، أن أبا عبد الله حينما خرج للقاء الملكين الكاثوليكيين ، قد فعل ذلك وهو فى صحبه وحشمه فقط دون أهله ، وأنه خرج يومئذ من داره الملكية الخاصة بحى البيازين ، ولم يخرج من قصر الحمراء ، وأنه كان يعيش فى هذه الدار مع أهله وولده مذ عاد من الأسر ،

حتى أعلن الخلاف والحرب على الملكين الكاثوليكيين[1] ، وأنه كان يشعر وهو فى هذه الدار ، أنه بين أنصاره ومؤيديه ، وأخيراً أنه كان قد أمر بإخلاء قصر الحمراء ، وندب من يقوم بمهمة التسليم فى اليوم الثانى من يناير . وفى هذا اليوم خرج فى نفر من صحبه ، ليقدم إلى الملكين الكاثوليكيين شعائر التحية والخضوع ، ثم عاد إلى داره فبقى بها أياماً ، حتى سويت مسألة مصيره مع الملكين الكاثوليكيين

على أنه يبدو لنا من تتبع حوادث حصار غرناطة ، وما تلاه من مفاوضات على التسليم ، أن الرواية الراجحة فى هذا الشأن ، هو أن أبا عبدالله ، حتى مع افتراض أنه لم يشهد رسوم التسليم ، ولم يقم بها بنفسه ، كان يقيم بقصر الحمراء ، يحيط به وزراؤه وقواده طيلة هذه الأحداث الخطيرة ،أو على الأقل منذ بدأت مفاوضات التسليم بينه وبين الملكين الكاثوليكيين ،ومنذ أبرمت بينهما معاهدة التسليم ، حتى يوم الحسم النهائى الذى تم فيه ذلك التسليم ، وأنه خرج فى ذلك اليوم المشهود من الحمراء للقاء عدوه الظافر . ومن المعقول أن تكون الحمراء قد أخليت قبل ذلك استعداداً لتسليمها لسادتها الجدد، وذلك حسبما يشير إليه صاحب «أخبار العصر»[2].

هذا وتلقى الرواية الإسلامية المعاصرة ضوءاً على دخول ملك قشتالة مدينة غرناطة ، وتصفه على النحو الآتى :

« فلما كان اليوم الثانى لربيع الأول عام سبعة وتسعين وثمانمائة ( ٢ يناير سنة ١٤٩٢ ) أقبل ملك الروم بجيوشه حتى قرب من البلد، وبعث جناحاً من جيشه فدخلوا مدينة الحمراء ، وأقام هو ببقية الجيوش خارج البلد، لأنه كان يخاف من الغدر ، وكان طلب من أهل البلد حين وقع الإتفاق على ماذكر ، رهوناً من أهل البلد ليطمئن بذلك ، فأعطوه خمسمائة رجل منهم ، وأقعدهم بمحلته . فلما اطمأن من أهل البلد ، ولم ير منهم غدراً ، سرح جنوده لدخول البلد والحمراء ، فدخل منهم خلق كثير وبقى هو خارج البلد ، وأشحن الحمراء بكثير من الدقيق والطعام والعدة، وترك فيها قائداً من قواده، وانصرف راجعاً إلى محلته .. ثم إن ملك الروم

---

( ١ ) راجع فى روايات تسليم غرناطة : **Lafuente Alcantara (y citaciónes); ibid, V·III p. 72 & 73; Mamol: Historia del Rebeliôn y Castigo de los Moriscos del Reino de Granada, Lib. I. Cap. XX ; Gaspar y Remiro : Entrada de los Reyes Católicos en Granada al Tiempo de su Rendición.(Revista del Centro de Estudios historicos de Granada y su Reino - Ano I., Num. I, p. 7 - 24)**

( ٢ ) أخبار العصر ص ٥٠ .

سرح الناس الذين كانوا عنده مرتهنين ، ومؤمنين فى أموالهم وأنفسهم مكرمين . وأقبل فى جيوشه حين اطمأن ، فدخل مدينة الحمراء فى بعض خواصه ، وبقى الجند خارج البلد ، وبقى يتنزه فى الحمراء فى القصور والمنارة المشيدة إلى آخر النهار ، ثم خرج بجنوده وصار إلى محلته . فمن غد أخذ فى بناء الحمراء وتشييدها ، وتحصينها وإصلاح شأنها ، وفتح طرقها ، وهو مع ذلك يتردد إلى الحمراء بالنهار ويرجع بالليل لمحلته ، فلم يزل كذلك إلى أن اطمأنت نفسه من غدر المسلمين ، فحينئذ دخل البلد ، ودار فيه فى نفر من قومه وحشمه ... »(١) .

* * *

وهكذا اختتمت المأساة الأندلسية ، واستولى القشتاليون على غرناطة آخر الحواضر الإسلامية فى اسبانيا ، وخفق علم النصرانية ظافراً فوق صرح الإسلام المغلوب ، وانتهت بذلك دولة الإسلام بالأندلس ، وطويت إلى الأبد تلك الصفحة المجيدة المؤثرة من تاريخ الإسلام ، وقضى على الحضارة الأندلسية الباهرة ، وآدابها وعلومها وفنونها ، وكل ذلك التراث الشامخ ، بالفناء والمحو .

شهد المسلمون احتلال العدو الظافر لحاضرتهم ودار ملكهم ، وموطن آبائهم وأجدادهم ، وقلوبهم تتفطر حزناً وأسى . على أن هذه المناظر المحزنة ، كانت تحجب مأساة أليمة أخرى ؛ تلك هى مأساة الملك التعس أبى عبد الله آخر ملوك بنى الأحمر وآخر ملوك الإسلام بالأندلس .

فقد تقرر مصيره ، وبينت حقوقه وامتيازاته وفقاً للمعاهدة السرية التى عقدت بينه وبين الملكين الكاثوليكيين . وقد نصت المعاهدة المذكورة على أن يقطع أبو عبد الله طائفة من الأراضى والضياع فى برجة ودلاية وأندرش وأجيجر وأرجبة ولوشار وبضعة بلاد أخرى من أعمال منطقة البشرات ، وهذه البلاد يقع بعضها فى جنوب غربى ولاية المرية ، والبعض الآخر قبالتها فى جنوب شرقى ولاية غرناطة ، وأن يحكم أبو عبد الله فى هذه المنطقة باسم ملك قشتالة وتحت حمايته ، ويتمتع بدخلها وسائر غلاتها وحقوقها . وقد حددت إقامته ، أو اختار هو الإقامة فى إحداها وهى بلدة أندرَش الواقعة على النهر الأخضر شمالى ثغر أدرة الصغير .

ولما اقترب اليوم المروع — يوم التسليم — قام أبو عبد الله باتخاذ أهبته للرحيل مع أهله وحشمه وخاصته . وفى صباح اليوم الثانى من يناير سنة ١٤٩٢ ، فى الوقت

(١) أخبار العصر ص ٥٠ و ٥١ .

للذى اقترب فيه النصارى من أسوار غرناطة ، كان أبو عبد الله قد غادر قصره وموطن عزه ومجد آبائه إلى الأبد ، فى مناظر تثير الأسى والشجن .

وهنالك روايتان ، فهل خرج أبو عبد الله عندئذ لآخر مرة من الحمراء مع أهله وحشمه وأمتعته ؟ أم هل خرج بمفرده فى صحبه من الحمراء للقاء الملكين الكاثوليكيين ، ثم لحق به بعد ذلك ركب أهله وأمتعته ؟ وهل سار توآ إلى طريق البشرّات حيث تعين محل إقامته ، أم عرج على المعسكر القشتالى الملكى فى شنتفى فلبث فيه مع أهله أياماً ، ثم سار بعد ذلك إلى البشرات ؟

أما الرواية الأولى ، وهى أكثر الروايات ذيوعاً لدى المؤرخين القشتاليين ، فتجرى على النحو الآتى :

فى فجر اليوم الثانى من يناير ، وهو اليوم الذى حدد لتسليم الحمراء ، كان رنين البكاء يتردد فى غرف قصر الحمراء وأبهائه ، وكانت الحاشية منهمكة فى حزم أمتعة الملك المخلوع وآله ، وقد ساد الوجوم كل محيا ، واحتبست الزفرات فى الصدور . وماكادت تباشير الصبح تبدو ، حتى غادر القصر ، ركب قاتم موئر هو ركب الملك المنفى ، يحمل أمواله وأمتعته ، ومن ورائه أهله وصحبه القلائل ، وحوله كوكبة من الفرسان المخلصين . وكانت أمه الأميرة عائشة تمتطى صهوة جوادها ، يشع الحزن من محياها الوقور ، وكان باقى السيدات من آله وحشمه ، يرسلن الزفرات العميقة والدموع السخينة . واخترق الركب غرناطة فى صمت البكور وستره ؛ وحين بلغ الباب الذى سيغادر منه المدينة إلى الأبد ، ضج الحراس بالبكاء لرؤية ذلك المنظر المؤلم ؛ ثم اتجه الركب صوب نهر شنيل فى طريق البشرات .

وليس أبلغ فى وصف هذه المناظر المؤسية من قول شوقى طيب الله ثراه :(١)

مشت الحادثات فى غرف الحمـ ... راء مشى النعش فى دار عرس
هتكت عزة الحجاب وفضت ... سدة الباب من سمير وأنس
عرصات تخلت الخيل عنها ... واستراحت من احتراس وعس
ومغارة على الليالى وضاء ... لم تجد للعشى تكرار مس

* * *

آخر العهد بالجزيرة كانت ... بعد عرك من الزمان وضرس
فتراها تقول راية جيش ... باد بالأمس بين أسر وحس

(١) من قصيدته السينية الأندلسية الشهيرة ، التى ينحو فيها نحو البحترى فى سينيته .

ومفاتيحهـــا مقـــاليد ملك    باعها الوارث المضيع ببخس
خرج القوم فى كتائب صم    عن حفاظ كموكب الدفن خرس
ركبـــوا بالبحـــار نعشـــا    وكانت تحت آبائهم هى العرش أمس

* * *

وأما أبو عبد الله ، فقد اتجه إلى وجهة أخرى ليتجرع كأسه المرة إلى الثمالة ، وكان قد تقرر اللقاء فى صباح ذلك اليوم بينه وبين ملك قشتالة ، فخرج من باب مدينة الحمراء المسمى باب الطباق السبع Siete Suelos ، فى طريقه إلى لقاء عدوه الظافر ، وسيده الجديد ، فى نفر من الفرسان والخاصة . فاستقبله فرناندو بترحاب وحفاوة فى محلته على ضفة نهر شنيل . وتصف لنا الرواية القشتالية هذا المنظر المؤثر فتقول إن أبا عبد الله حين لمح فرناندو هم بترك جواده ، ولكن فرناندو بادر بمنعه وعانقه بعطف ومودة ، فقبل أبوعبد الله ذراعه اليمنى إيماءة الخضوع . ثم قدم إليه مفتاحى البابين الرئيسيين للحمراء قائلا : « إنهما مفتاحى هذه الجنة ، وهما الأثر الأخير لدولة المسلمين فى اسبانيا ، وقد أصبحت أيها الملك سيد تراثنا وديارنا وأشخاصنا . وهكذا قضى الله ، فكن فى ظفرك رحيما عادلا » . وتضيف الرواية القشتالية إلى ذلك أن فرناندو تناول المفتاحين قائلا : « لا تشك فى وعودنا ، ولا تعوزنك الثقة خلال المحنة ، وسوف تعوض لك صداقتنا ما سلبه القدر منك »(١) . بيد أن مؤرخاً قشتالياً عاش قريباً من ذلك العصر ، يقدم إلينا رواية أخرى ربما كانت أقرب إلى الصحة والمعقول ، وهى أن مفاتيح الحمراء قدمها القائد ابن كماشه مأمور التسليم إلى الملك فرناندو حينما وصل إلى الباب الرئيسى ، وأن فرناندو ناولها بدوره إلى قائده لوبث دى مندوسا ( كونت تندليا ) الذى عينه حاكماً عسكرياً لغرناطة(٢) . وسار أبو عبد الله بعد ذلك صحبة فرناندو ، إلى حيث كانت الملكة إيسابيلا فى ضاحية أرمليا ، فقدم إليها تحياته وطاعته . ثم ارتد إلى طريق البشرات ليلحق بأسرته وخاصته . وهنا تقول الرواية القشتالية إن أباعبد الله

---

(١) تردد معظم التواريخ القشتالية اللاحقة وصف هذا المنظر الذى يصطبغ بلون الأسطورة . وقد خلدته ريشة المصور الإسبانى فى أكثر من لوحة شهيرة تعرض فى المتاحف الإسبانية ، وحفرته يد الفنان فى داخل كنيسة طليطلة العظمى . راجع فى ذلك : L. Alcantara : ibid ; V. III p. 73

(٢) Luis del Marmol : Rebelión y Castigo de los Moriscos de Granada, Lib. I, Cap. XX

أشرف أثناء مسيره فى شعب تل البذول ( بادول ) على منظر غرناطة ، فوقف يسرح بصره لآخر مرة فى هاتيك الربوع العزيزة التى ترعرع فيها ، وشهدت مواطن عزه وسلطانه ، فانهمر فى الحال دمعه ، وأجهش بالبكاء . فصاحت به أمه عائشة : « أجل فابتك كالنساء ، ملكاً لم تستطع أن تدافع عنه كالرجال » . وتعرف الرواية الإسبانية تلك الأكمة التى كانت مسرحاً لذلك المنظر المحزن باسم شعرى مؤثر هو « زفرة العربى الأخيرة » El ultímo Suspiro del Moro ، وما تزال قائمة معروفة حتى اليوم ، يعينها سكان تلك المنطقة للسائح المتجول .

ثم تقول الرواية أيضاً إن باب الحمراء الذى خرج منه أبو عبد الله لآخر مرة ، وهو باب الطباق السبع قد سد عقب خروجه برجاء منه إلى ملك قشتالة ، وبنى مكانه ، حتى لا يجوزه من بعده إنسان(١). وما زالت الرواية تعين لنا مكان هذا الباب بين الأطلال الدارسة . وهو يقع فى طرف الهضبة فى الجنوب الشرقى منها على مقربة من« برج الماء » . وقد رأيناه ، وقد سد فراغه حقيقة بالبناء .

وأما الرواية الأخرى ، وهى الأقل ذيوعاً ، فخلاصتها أن أبا عبد الله خرج من الحمراء فى صبيحة يوم التسليم بمفرده وفى نفر من صحبه إلى لقاء الملكين الكاثوليكيين وخرج بعد ذلك ركب أهله وأمتعته من الدار الملكية بحى البيازين ليلتقى به بعد انتهاء مهمته ، وأنه لم يسر بعد ذلك توآ إلى البشرّات ، بل سار بأهله وأمتعته إلى المعسكر القشتالى فى شنتفى ، فقضى به أياماً ، حتى سويت المسائل المتعلقة بمصيره ، ثم سار الجميع بعد ذلك إلى أندرش التى اختارها أبو عبد الله مستقراً ومقاماً .

* * *

وقد كان لمحنة الأندلس المؤلمة ونهايتها المحزنة ، وقع عميق فى جنبات العالم الإسلامى ، ولا سيما فى أمم المغرب ، فى الضفة الأخرى من البحر . غير أن هذه المحنة الغامرة لم تثر وحى الشعر ، كما أثاره من قبل سقوط الثغور والقواعد الأندلسية ، أيام أن كان للدولة الإسلامية بقية من القوة والأمل . ذلك أن دولة الشعر الأندلسى كانت قد انهارت منذ بعيد ، وتحطمت الأقلام ، وعقدت المحنة الغامرة كل لسان . ومع ذلك فقد صدرت فى رثاء الأندلس نفثات قوية مؤثرة تهز أوتار القلوب ، معظمها من الضفة الأخرى من البحر من شعراء المغرب .

ومن أشهر المراثى التى نظمت فى رثاء الأندلس عقب المحنة بقليل ، رثاء طويل

(١) Marmol:ibid; Lib. I ; Cap. XX ; L. Alcantara; ibid ;V. III. p. 80.

مؤثر لشاعر أندلسي مجهول، يبدو أنه عاصر حوادث المحنة من بدايتها حتى نهايتها. وإليك مقتطفات من تلك المرثية المشجية التي رتبت وفقاً للوقائع والتواريخ :

أحقاً خبا من جو رندة نورها ... وقد كسفت بعد الشموس بدورها
وقد أظلمت أرجاؤها وتزلزلت ... منازلها ذات العلا وقصورها
فيا ساكني تلك الديار كريمة ... سقى عهدكم مزن يصوب نميرها
أحقاً أخلائي القضاء أبادكم ... ودارت عليكم بالصروف دهورها
فقتل وأسر لا يفادي وفرقة ... لدى عرصات الحشر يأتي سفيرها

* * *

فواحسرتا كم من مساجد حولت ... وكانت إلى البيت الحرام شطورها
وواأسفا كم من صوامع أوحشت ... وقد كان معتاد الأذان يزورها
فمحرابها يشكو لمنبرها الجوى ... وآياتها تشكو الفراق وسورها
وكم طفلة حسناء فيها مصونة ... إذا أسفرت يسبي العقول سفورها
فأضحت بأيدي الكافرين رهينة ... وقد هتكت بالرغم منها ستورها[1]
وكم فيهم من مهجة ذات ضجة ... ترد لو انضمت عليها قبورها
لها روعة من وقعة البين دائم ... أساها وعين لا يكف هديرها
وكم من صغير في حجر أمه ... فأكبادها حراء لفح هجيرها
وكم من صغير بدل الدهر دينه ... وهل يتبع الشيطان إلا صغيرها

* * *

لأندلس ارتجت لها وتضعضعت ... وحق لديها محوها ودثورها
منازلها مصدورة وبطاحها ... مدائنها موتورة وثغورها
تهائمها مفجوعة ونجودها ... وأحجارها مصدوعة وصخورها
وقد لبست ثوب الحداد ومزقت ... ملابس حسن كان يزهو حبورها
فأحياؤها تبدي الأسى وجمادها ... يكاد لفرط الحزن يبدو ضميرها
فالقة الحسناء ثكلى أسيفة ... قد استفرغت ذبحاً وقتلا حجورها
وجزت نواصيها وشلت يمينها ... وبدل الويل المبين سرورها

(١) يكرر الشاعر في هذه الأبيات نفس المعاني التي وردت في مرثية أبي الطيب الرندي الشهيرة.

وقد كانت الغربية الجنن التى ... تقيها فأضحى جنة الحرب سورها
وبلِّش قطعت رجلهـا بيمينهـا ... ومن سريان الداء بان قطورها
وضحت على تلك الثنيات حجرها ... فأقفر مغناها وطاشت حجورها
وبالله إن جئت المنكّب فاعتبر ... فقد خف ناديها وجف نضيرها
ألا ولتقف ركب الأسى بمعـالم ... قد ارتج باديها وضج حضورها
بدار العلا حيث الصفات كأنهـا ... من الخلد والمأوى غدت تستطيرها
محـل قرار الملك غرناطة التى ... هى الحضرة العليا زهتها زهورها
ترى الأسى أعلامها وهى خُشَّع ... ومنـبرها مسـتعبر وسريرها
ومأمومها ساهى الحجى وإمامها ... وزائرها فى مأتم ومزورها
وبَسْطة ذات البسط ما شعرت بما ... دهاها وأنى يستقيم شـعورها
وما أنس لا أنس المريَّة إنهـا ... قتيلة أوجال أزيل عـذارها
منازل آبائى الكرام ومنشئ ... وأولى أوطان غذانى خيرها(١)

ثم يشير الشاعر بعد هذا الترتيب التاريخى لسقوط قواعد الأندلس ، إلى محاولة الإسبان تنصير المسلمين لأول مرة ، وما ترتب على ذلك من قيام الثورة فى بعض الجهات :

وجاءت إلى استئصال شأفة ديننا ... جيوش كموج هبت دبورها
علامات أخذ ما لنا قبل بهـا ... جنايات أخذ قـد جناها مثيرها
فلا تنمحى إلا بمحو أصولها ... ولا تنجلى حتى تخط أصورها
معاشر أهل الدين هبوا لصعقـة ... وصاعقة وارى الجسوم ظهورها
أصابت منـار الدين فانهد ركنه ... وزعزع من أكنافه مستطيرها
إلا واسـتعدوا للجهـاد عزائماً ... يلوح على ليل الوغى مستنيرها
بأنفس صـدق موقنات بأنهـا ... إلى الله من تحت السيوف مصيرها
تروم إلى دار السـلام عرائساً ... على الله فى ذاك النعيم مهورها(٢)

---

(١) يبدو من هذا البيت أن الشاعر كان من أهل المرية ونشأ بها .

(٢) نشر هذه المرثية وهى فى أكثر من مائة بيت أحد أدباء الجزائر ، مقرونة بترجمة فرنسية تحت عنوان : **Une Elégie andalouse sur la guerre de Grenade** وذكر الناشر وهو صويلح محمد ، أنه نقلها عن مخطوط محفوظ بمكتبة الجزائر ومؤرخ فى شعبان سنة ٨٩٧ هـ ( يونيه سنة ١٤٩٢ م ) أعنى بعد سقوط غرناطة ببضعة أشهر . والظاهر أنه حينما وضعت هذه القصيدة كان الإسبان قد بدأوا محاولتهم الأولى لتنصير المسلمين .

هذا وقد صدرت عن أدباء المغرب ، فى الضفة الأخرى من البحر ، طائفة كبيرة من المراثى البليغة ، فى نعى الأندلس والإشادة بفضائلها ، وفداحة الخطب فيها . وكان شعراء المغرب لقربهم من مسرح الحوادث ، ووقوفهم على كثير من الأخبار والسير المفجعة عن إخوانهم بالأندلس ، أشد من غيرهم تأثراً بالمحنة ، وأكثرهم إفاضة فى ندب ويلاتها(١) .

(١) نقل إلينا المقرى فى أزهار الرياض بعض هذه المراثى المغربية ، ومن ذلك قصيدة أبى العباس أحمد بن محمد الصنهاجى المشهور بالدقون ( ج ١ ص ١٠٤ وما بعدها ) .

# الفصل الرابع

## ختـــام المأســـاة

وقع محنة الأندلس فى العالم الإسلامى . سفارة فرناندو إلى بلاط مصر . موضوع هذه السفارة حسبما دونها بيترو مارتيرى . صدى المأساة فى المغرب . مسير أبى عبد الله إلى أندرش وحياته فيها. خطة الملكين الكاثوليكيين لإبعاده عن الأندلس . الاتفاق على بيع حقوقه وجوازه إلى المغرب . نص قبول أبى عبد الله . جوازه إلى فاس والتجاؤه إلى ملكها . دفاع أبى عبد الله المسمى بالروض العاطر الأنفاس . الوزير المقيلى كاتب هذا الدفاع . بعض ما ورد فى الدفاع من المنظوم . بعض ما ورد فيه من المنثور . اعتذار أبى عبد الله ودفعه لتهمة التفريط والخيانة . استعراض لموقفه وتصرفاته . معترك الفتنة الذى أودى بمملكة غرناطة . تبعة أبى عبد الله . حياته بمدينة فاس . وفاته وعقبه . حمراء غرناطة . تاريخها وأوصافها . ما بقى من أبنيتها وأبهائها . تشويه الإسبان لجمالها الأثرى . روعتها وتراثها القصصى . تغدو مسرحاً لحوادث غرناطة . ما يدور حولها من الأساطير . الأساطير الغرامية . أصل هذه الأساطير ومغزاها . قصيدة شوقى فى رثاء الحمراء .

لم يكن سقوط غرناطة فى يد النصارى حادثاً فجائياً ، بل كان بالعكس نتيجة طبيعية ، لما تقدمه من الحوادث الاندلسية ، وكان خاتمة محتومة لاستشهاد طويل الأمد . ومع ذلك فقدكان لسقوط غرناطة أوبعبارة أخرى لانتهاء دولة الإسلام فى الأندلس ، وقع عميق فى الضفة الأخرى من البحر ، فى أمم المغرب التى لبثت عصوراً ترتبط بالأندلس بأوثق الروابط ، وفى سائر أنحاء العالم الإسلامى .

وكان للحادث أيضاً وقعه العميق فى سائر الأمم النصرانية ؛ فقد ابتهجت له أيما ابتهاج ، واعتبرته من بعض الوجوه عوضاً لسقوط قسطنطينية فى قبضة الإسلام قبل ذلك بأربعين عاماً . وخلدت ذكرى الحادث فى رومة بإقامة قداس أعظم ، واستمر ابتهاج الشعب أياماً . ورحبت سائر قصور أوربا بالنبأ ، وأقامت لإحيائه الحفلات الدينية والمدنية ، منوهة بفضل فرناندو وإيسابيلا فى تحقيق هذه الأمنية العظيمة(١) .

وقد كانت الأندلس تثير منذ البداية جزع الأمم الإسلامية وعطفها . ولكن الأمم الإسلامية لم تستطع أن تبذل أى مجهود عملى لإنقاذ الأندلس من قدرها المحتوم ،

---

( ١ ) Prescott : Ferd. & Isabelia p. 299 والهامش .

ولم يتحقق من جهة أخرى ماكانت ترجوه مصر بتدخلها السياسى لدى ملوك النصرانية من أثر ملطف فى سير الحوادث الأندلسية . وقدكانت مصر بالرغم من بعدها تتبع أحوال الأندلس باهتمام خاص، لم ينتقص منه سوى اضطراب شئونها الداخلية فى ذلك الحين . ولما استولى النصارى على غرناطة ، وحققت بذلك أمنية اسبانيا التاريخية كاملة شاملة، لم ينس ملك قشتالة ما جاء فى سفارة سلطان مصر من وعيد بأن ينكل برعاياه النصارى، ولم يقنع بالخطاب الذى وجهه إليه على يد سفيريه الراهبين . فلما استقرت الأمور وخضعت سائر الأراضى الإسلامية ، رأى فرناندو أن يسعى إلى إقناع سلطان مصر ، بما يلقاه مسلمو الأندلس من الرعاية والرفق فى ظل الحكم الجديد ، فأوفد إلى بلاط القاهرة سفارة جديدة . وكان سفيره إلى السلطان هو پيترو مارتيرى دى أنجلريا ، وهو حبر نابه ، وكاتب ومؤرخ كبير ، وكان من مستشارى الملك . ندبه فرناندو لهذه السفارة فى أغسطس سنة ١٥٠١ ، وزوده بالكتب والوثائق اللازمة . ووصل مارتيرى إلى الإسكندرية بعد رحلة بحرية شاقة عن طريق إيطاليا واليونان فى أواخر شهر ديسمبر ، ثم وصل إلى القاهرة فى آخر يناير ، وكان سلطان مصر فى ذلك الحين الملك الأشرف جان بلاط ، فاستقبل سفير الملكين الكاثوليكيين عقب وصوله برفق ورعاية ، ولكن نقلت إليه على أثر ذلك أقاويل كثيرة من بعض الأشراف والمغاربة والأندلسيين المنفيين ، الذين استنكروا مسلكه وتكريمه لسفير ملك استولى على أراضى المسلمين فى الأندلس ، وهو الآن يسومهم الخسف والعذاب . فبعث إلى السفير يرجوه الانصراف من حيث أتى خوفاً من سوء العواقب ، ولكن مارتيرى بعث إلى السلطان يشرح له خطورة الأمر ، ويصف عظمة مليكيه ، وروعة سلطانهما الباذخ الذى يمتد حتى أواسط البحر الأبيض المتوسط، وكونهما يستطيعان الانتقام والإضرار بمن يسىء إليهما . فعاد السلطان واستقبله فى مقابلة سرية خاصة استمرت من الصباح إلى الظهر . وكان ذلك فى السادس من فبراير سنة ١٥٠٢ (شعبان سنة ٩٠٧ هـ) ، وألقى مارتيرى بين يديه خطاباً ضافياً فند فيه ما ينسب لمليكه من الاستيلاء ظلماً على غرناطة ، واضطهاده للمسلمين ، وقهرهم على التنصير ؛ وبين مارتيرى حق سيده فى الفتح ، وكونه يحكم مئات الألوف من الرعايا المسلمين الذين يعيشون فى بلنسية وأراجون ، وهم جميعاً يتمتعون بشعائرهم أحراراً ، واستطاع بكياسته وبراعته ، أن يقنع السلطان بصدق رسالته ، وحسن نيات مليكيه ، وقدم إلى

السلطان شهادات من حكام الثغور المغربية ، تفيد بأن المسلمين المهاجرين إلى المغرب يصلون إلى الشواطىء مع نسائهم وأولادهم فى أمن وسلام ، ويلقون من مندوبى الملكين كل رفق ورعاية[1] ، واستطاع فوق ذلك بذلاقته أن يقنع السلطان بأن يجيب مطالبه فى إعفاء نصارى بيت المقدس من طائفة من المغارم والفروض .

ويصف لنا مارتيرى قصر السلطان بأنه يقوم على ربوة ، على نمط قصر الڤاتيكان فى رومة ، وقصر الحمراء فى غرناطة ؛ ويصف السلطان بأنه رجل فى نحو الخمسين من عمره ، ذو لحية كعادة أهل البلاد ، ولكن صغيرة نحيلة ، وهو مهيب الطلعة ذو وجه عبل أسمر ، وهيئة حوشية نوعاً ، وعينين صغيرتين غائرتين ؛ وحركاته ثقيلة ، وقوامه فوق المتوسط حسبما يبدو من جلسته ، وهو يرتدى ثوباً لا يختلف كثيراً عما يسميه أهل غرناطة « بالجبة ».

ويورد مارتيرى أثناء وصف حوادث سفارته نبذة طويلة عن تاريخ مصر الإسلامية ، ووصفاً ضافياً للقاهرة والنيل والأهرام ، ووصفه قوى شائق[2] .

وهكذا كان الصدى الأليم الذى أثارته حوادث الأندلس فى الأمم الإسلامية يخبو شيئاً فشيئاً . ولم تمض أعوام قلائل حتى أسدل عليها فى المشرق حجاب من النسيان ولكن ذكرى الأندلس وحوادثها ، لبثت حية قوية فى عدوة المغرب عصوراً أخرى . ذلك أن المأساة الأندلسية لم تنته بسقوط غرناطة ، بل كان عليها أن تجوز ثمة فصولا مفجعة أخرى ، قبل أن تصل إلى نهايتها . وكانت هذه الفواجع أول ما تلقى صداها العميق فى الضفة الأخرى من البحر ، حيث كانت العدوة دائما ملاذ الضحايا الأخير .

— ٢ —

ولنبدأ الحديث عن مصير الملك المنكود أبى عبد الله محمد بن على آخر ملوك الأندلس ، فقد غادر غرناطة ، ساعة استيلاء النصارى عليها ، وسار مع آله وصحبه وحشمه إلى منطقة البشرّات ، واستقر هنالك فى بلدة أنْدَرَش ، وهى إحدى

---

(١) **Marmol : ibid ; Lib. I. Cap. XXVI**

(٢) بيترو مارتيرى دى أنجلريا **Pietro Martiri de Angleria** إيطالى النشأة ، ولد سنة ١٤٥٥ وتوفى سنة ١٥٢٥ . وكان حبراً وكاتباً كبيراً . شهد حرب غرناطة الأخيرة إلى جانب فرناندو . وكتب عن سفارته إلى مصر باللاتينية كتاباً خاصاً عنوانه **Legatio Babylonice** ؛ وقد ترجم إلى الإسبانية بعنوان **Una Embajada de los Reyes Catolicos a Egipto** (سفارة من الملكين الكاثوليكيين إلى مصر) وقد نقلنا منه ملخص هذه السفارة حسبما تقدم . ولمارتيرى مؤلفات أخرى فى تاريخ اسبانيا فى ذلك العصر .

البلاد التى أقطعت له فى تلك المنطقة ، ليقيم فيها فى ظل ملك قشتالة وتحت حمايته ، وصحبه إلى وطنه الجديد ، كثير من الفرسان والسادة والفقهاء ، وفى مقدمتهم وزيراه يوسف بن كماشه ، وأبو القاسم عبد الملك ( المليخ ) ، وكانا ألصق الناس به ، وأقربهم إلى ثقته . وكانت أسرة السلطان المنفى تتألف من والدته السلطانة عائشة ، وأخته عائشة ، وزوجه مريم ( أو مريمة ) وولده الصغير[١] . أما أخوه الأصغر يوسف فكان قد قتل فى ألمرية أيام الفتنة بتحريض أبيه السلطان أبى الحسن حسبما قدمنا .

وكان أبو عبد الله عندئذ ، فتى فى نحو الثلاثين من عمره . وبالرغم من أننا لا نعرف بالضبط تاريخ مولده ، فإن صديقه المؤرخ القشتالى هرناندو دى بايثا ، يقول لنا إنه كان فى نحو العشرين ، يوم استطاع الفرار من سجن أبيه السلطان أبى الحسن فى سنة ١٤٨٢ ( ٨٨٧ هـ ) ، وبذلك يكون سنه وقت تسليم غرناطة نحو الثلاثين[٢] .

وقد تركت لنا الرواية القشتالية المعاصرة أيضاً ، وصفاً لشخص أبى عبدالله ، خلاصته أنه كان ممشوق القد، حسن الطلعة ، شاحب اللون ، له عينان سوداوان نجلاوان ، ولحية قوية[٣] .

وعاش أبو عبد الله وآله وصحبه ، فى تلك المملكة الصغيرة الذليلة حيناً ،

---

( ١ ) تشير بعض الوثائق المعقودة بين الملكين الكاثوليكيين وأبى عبد الله إلى « إخواته » مما يدل على أنه كانت له أكثر من أخت . والمرجح أن عائشة كانت كبراهن .

( ٢ ) راجع رواية **Hernando de Baeza** القشتالية المنشورة ضمن كتاب أخبار العصر ص٦٣.

( ٣ ) **Lafuente Alcantara: ibid, V. III. p. 74** . هذا وقد انتهت إلينا عن أبى عبد الله صورتان اسبانيتان ، كانت تحفظ إحداهما من قبل ، بمتحف قصر جنة العريف قبل إلغائه ، وفيها يبدو أبوعبد الله بوجه وسيم ولون جميل وشعر كثيف أصفر ولحية مفروقة . ويرتدى ثوباً أصفر ، يظلله حرير أسود ، وعلى رأسه قلنسوة عالية . وقد نقلت هذه الصورة فيما بعد إلى إيطاليا ، وأضحت ملكاً لبعض الأسر الخاصة . والصورة الثانية تحفظ اليوم بمتحف غرناطة المسمى **Casa de los Tiros** والمعروف أنها رسمت لأبى عبد الله حينما كان فى أسر الملكين الكاثوليكيين ، عقب موقعة اللسانة ، وهى عبارة عن لوحة صغيرة الحجم ، وفيها يبدو أبوعبد الله فتى فى عنفوانه ، بوجه عريض وأنف منسق ، وعينين خضراوين ، ونظرات حادة ، تغشاها الكآبة ، وشعر كستنى غزير ، ولحية صغيرة مفروقة . وقد رسمت حول عنقه حلقة رمزية لوقوعه فى الأسر . وقد شهدنا هذه الصورة ، أثناء وجودنا بغرناطة ، ونقلنا عنها صورة فتوغرافية هى التى نشرناها من قبل ( فى ص ٢٠٧ ) .

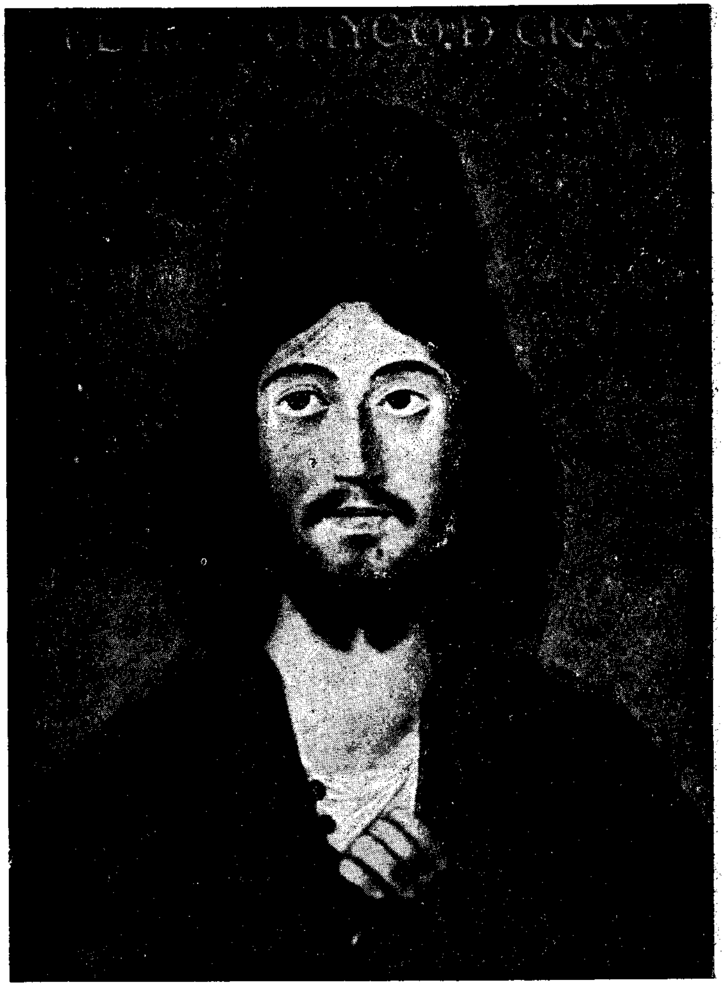

أبو عبد الله محمد آخر ملوك الأندلس
عن الصورة التي كانت محفوظة من قبل بمتحف جنة العريف بغرناطة .

وأنشأ له فى أندرش بلاطاً صغيراً . وتقول لنا الرواية القشتالية ، إنه كان يعيش هنالك فى ترف ورغد ، وإنه كان يعشق الصيد ويقضى فيه كثيراً من أوقاته ، ويجوب أطراف مملكته الصغيرة فوق جواده[1] .

وكان فرناندو وإيسابيلا ، بالرغم من انتصارهما الشامل ، وقضائهما الأخير على المملكة الأندلسية ، قد لبثا يتوجسان فى أعماق نفسيهما ، من بقاء السلطان المخلوع فى الأراضى الإسبانية ، ويخشيان أن يكون مثار القلاقل والفتن ، ويتوقان إلى إبعاده وحاشيته عنها ، مبالغة فى الحيطة ، واتقاء لكل خطر ، وكان يفرضان على أبى عبد الله رقابة صارمة ، ويتلقيان أدق التقارير والأنباء ، عن حركاته وسكناته ، وكانت عينهما الساهرة على رقابته ، الوزيران الماكران يوسف بن كماشه وأبوالقاسم عبد الملك[2] . ولم يمض على إقامة أبى عبد الله فى أندرش زهاء عام ، حتى بدأ الملكان الكاثوليكيان يسعيان سرًّا ، فى تحقيق غايتهما الأخيرة ، وكان سبيلهما إلى ذلك أيضاً ابن كماشه وأبا القاسم . فى مارس سنة ١٤٩٣ وقعت مفاوضات جديدة بين الوزيرين ، وبين فرناندو دى ثافرا أمين الملكين الكاثوليكيين ، فى شأن مغادرة أبى عبد الله الأراضى الإسبانية ، والعبور إلى المغرب . ويقال إن أبا عبد الله لم يأذن لوزيريه فى إجراء هذه المفاوضات ، ولم يعلم بأمرها حتى تمخضت عن مشروع جديد ، يقرر فيه أبو عبد الله بتنازله عن جميع حقوقه وأملاكه ، نظير ثمن معين ، ويتعهد بالعبور إلى المغرب . ويقال إن الملك المنكود ، حينما عرض عليه ابن كماشة هذا الاتفاق ، ثار لعقده ، وكاد يبطش بوزيره ، ولكنه عاد فاستمع إلى شرح الوزير ونصحه ، بأن البقاء فى أرض العدو ، وفى ظل العبودية والهوان ، لم يبق له محل ، وأنه ليس مكفول السلامة والطمأنينة ، وأن العبور إلى أرض الإسلام خير وأبقى . هذا ولعل أبوعبد الله نفسه قد أدرك ، كما أدرك عمه مولاى الزغل من قبل ، أن تلك الحياة الذليلة التى فرضت عليه ، لا تخلق به ولا تجمل ، وأنه يستحيل عليه البقاء فى هذا الوضع المؤلم ، كتابع لملك قشتالة . وعلى أى حال فقد اقتنع أبو عبد الله ، بوجهة نظر وزيره . ولكنه أرسل أمينه ومدير شئونه أبا القاسم عبد الملك ( المليخ ) ، ليسعى إلى تعديل الاتفاق لمصلحته . وبعد مفاوضات جديدة ، وضع الاتفاق النهائى ، الذى قبله السلطان

---

(١) Lafuente Alcantara: ibid; V. III. p. 80

(٢) Lafuente Alcantara : ibid, V. III. p. 81

المخلوع . وخلاصته أنه يتعهد بالعبور إلى المغرب ، فى موعد أقصاه نهاية شهر أكتوبر سنة ١٤٩٣ ، وأنه يتنازل عن سائر ضياعه ، فى أندرش ولوشار وبرشينا وغيرها ، وكذلك عن أملاكه الأخرى بغرناطة ، بالبيع للملكين الكاثوليكيين ، وذلك نظير ثمن إجمالى قدره واحد وعشرون ألف جنيه قشتالى (كاستليانو) من الذهب الحر ، أوالدوقات المضروبة ، من الذهب الخالص . كما يتنازل أبو عبد الله عن اختصاصه المدنى والجنائى . ويحمل إليه المال قبل رحيله بثمانية أيام ، ويقدم إليه الملكان عربتين لحمل متاعه ، وسفناً ينتقل عليها مع صحبه ، إلى المغرب ، ويتضمن الاتفاق نصوصاً أخرى ببيع الأميرات لأملاكهن ، إلى الملكين الكاثوليكيين ، وكذلك ببيع الوزير ابن كماشه والوزير أبى القاسم كل لأملاكه ، نظير مقادير من المال ، وبنفس الشروط .

تلك خلاصة الإتفاق الأخير ، الذى عقد بين الملكين الكاثوليكيين ، وبين آخر ملوك الأندلس ، للتنازل عن سائر حقوقه وحقوق آله وصحبه ، ومغادرته لأرض الوطن القديم ، بصورة نهائية . ويحمل هذا الاتفاق ، تاريخ ١٥ ابريل سنة ١٤٩٣ ، وتملأ نسخته القشتالية عشر صفحات كبيرة . وهو يمتاز دون سائر الوثائق القشتالية الأخرى ، التى تتعلق بهذه الفترة ، بأنه يحمل فى ذيله موافقة أبى عبد الله بالعربية ممهورة بتوقيعه وخاتمه ، وإلى القارئ نص هذه الموافقة ، التى تدلى ألفاظها ومعانيها بكثير من العبر المؤلمة: (١)

« الحمد لله إلى السلطان والسلطانة أضيافى ، أنا الأمير محمد بن على بن نصر خديمكم ، وصلتنى من مقامكم العلى ، العقيد وفيها جميع الفصول ، الذى عقدها عنى وبكم التقديم ، من خديمى القائد أبو القاسم المليخ ، ووصلت بخط يدكم الكريمة عليها ، وبطابعكم العزيز ، كيف هيت مذكورة بهذا الذى هى تصلكم . وإنى نوثق ونحلف أنى رضيت بها ، بكلام الوفا مثل خديم جيد . وترى هذا خط يدى وطابعى أرقيته عليها ، لتظهر صحة قولى . ووصلت بتاريخ الثالث والعشرين من شهر رمضان المعظم عام ثمانية وتسعون وثمانمائة . أنا كاتبه محمد بن على بن نصر

(١) حصلنا على صورة فتوغرافية لهذه الوثيقة ، وهى تحفظ بدار المحفوظات العامة فى سيمانقا **Archivo general de Simancas** برقم **P. R. 11 - 3** ، وتعرض الصفحة الأخيرة ، التى تضمنت خط أبى عبد الله ، فى قاعة المعرض بدار المحفوظات ، كما تعرض صورة مكبرة من موافقة أبى عبد الله ، بمتحف مدريد الحربى مقرونة بترجمة قشتالية .

رضيت وقبلت جميع ما فى هذا المكتوب الثابت ، وتقبل بيدى ، إلى أضيافى السلطان والسلطانة مدّ لى هنا كما » .

وهكذا اعتزم أبو عبد الله أمره ، وعول فى النهاية على مغادرة الوطن المغلوب وتوفيت زوجته أثناء ذلك ، فلم يحل الرزء دون مضيه ، فى اتخاذ أهبة الرحيل . وفى أوائل شهر أكتوبر سنة ١٤٩٣ ، غادر أبو عبد الله الوطن القديم ، فى غمر من الحسرات والأسى ، وجاز البحر إلى المغرب ، بأسرته وأمواله وحشمه ، من ثغر أدرة الصغيرة الواقع جنوبى برجة ، فى سفينة كبيرة أعدت لجوازه ، وعبر فى نفس الوقت من ثغر المنكب ؛ عدد كبير من الوزراء والقادة والأكابر ، من صحبه ممن آثروا الرحيل ، وبلغ جميع الذين عبروا مع الملك المخلوع ألفاً ومائة وثلاثين شخصاً (١) .

ونزل أبو عبد الله أولا فى مليلة ثم قصد إلى فاس واستقر بها(٢). وتقدم إلى ملكها السلطان أبى عبد الله محمد الشيخ ، زعيم بنى وَطّاس(٣) الذين خلفوا بنى مرين فى الملك، مستجيراً به ، مستظلا بلوائه ورعايته ، معتذراً عما أصاب الإسلام فى الأندلس على يده ، متبرئا مما نسب إليه من إثم وتفريط فى حق الوطن والدين .

وهذا الدفاع الشهير الذى يقدمه إلينا أبو عبد الله عن موقفه وتصرفه ، هو قطعة رائعة من الفصاحة السياسية والبيان الساحر ، وهو يدل فى روحه وقوته وروعته ، على فداحة التبعة التى شعر آخر ملوك الأندلس أنه يحملها أمام الله والتاريخ ، وأمام الأمم الإسلامية والأجيال القادمة كلها ، وعلى أن هذا الأمير المنكود لم يرد أن ينحدر إلى غمر النسيان والعدم ، محكوماً عليه دون أن يبسط للتاريخ قضيته ، فيصدر حكمه فيها على ضوء أقواله ودفاعه .

وقد كتب هذا الدفاع الشهير ، الفريد فى التاريخ الإسلامى ، على لسان أبى عبد الله

---

(١) Lafuente Alcantara: ibid, V. III. p. 81 . ويقول صاحب أخبار العصر إن الذين رحلوا مع أبى عبد الله بلغوا نحو سبعمائة فقط (طبعة تطوان ص ٤٧) .

(٢) أزهار الرياض ج ١ ص ٦٧ و ٧١ .

(٣) هم بطن من بطون بنى مرين . وقد ظهروا فى بداية أمرهم بتولى الوزارة ، ونشأت بينهم وبين بنى مرين فيما بعد خصومة ومنافسة . وقام كبيرهم ومؤسس دولتهم أبو عبد الله محمد الشيخ بن زكريا أولا فى ثغر آصيلا ، واستفحل أمره ثم زحف على فاس واستولى عليها فى سنة ٨٧٦ هـ (١٤٧٢ م) ثم غلب على سائر الجهات والقبائل المحيطة بها ، وقامت فوق أنقاض ملك بنى مرين دولة مغربية جديدة .

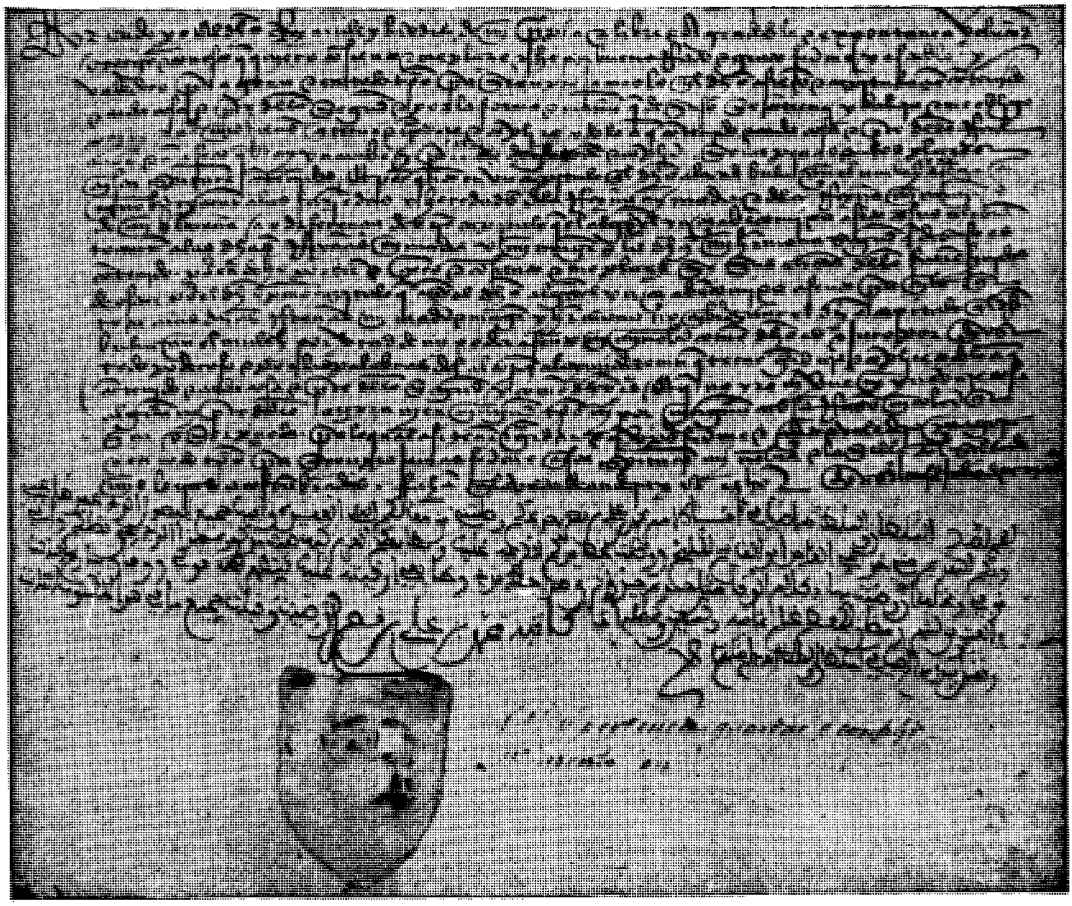

ذيل المعاهدة النهائية التى عقدت بين الملكين الكاثوليكيين وأبى عبد الله بتاريخ ١٥ ابريل سنة ١٤٩٣ وفيها يتعهد ببيع أملاكه ومغادرة اسبانيا نهائياً . وقد ذيل عليها أبوعبد الله بخطه بالقبول ، وبصمها بخاتمه وذلك بتاريخ ٢٣ رمضان سنة ٨٩٨ هـ (٧ أغسطس سنة ١٤٩٣) . والأصل محفوظ بدار المحفوظات العامة فى سيمانقا برقم P.R. 11-3

وزيره وكاتبه ، محمد بن عبد الله العربى العقيلى ، فى رسالة مستفيضة قوية مؤثرة ، موجهة إلى ملك فاس ، وجعل لها عنواناً شعرياً مشجياً هو : « الروض العاطر الأنفاس فى التوسل إلى المولى الإمام سلطان فاس » . وقد كان العقيلى من أعلام البلاغة فى هذا العصر .

ولما عول أبو عبد الله على الرحيل إلى المغرب جاز العقيلى البحر مع أميره ، وجازت قبل سقوطه غرناطة وبعده إلى المغرب جمهرة كبيرة من أقطاب العلم والأدب ، هم البقية الباقية من مجتمع الأندلس الفكرى[1]. وللعقيلى آثار فى النظم والنثر ، تبدو لروعتها كأنها نفثات أخيرة ، لآداب الأندلس المحتضرة ، وكان دفاع أبى عبد الله من أبدعها وأروعها .

ونقل إلينا المقرى مؤرخ الأندلس هذا الدفاع الشهير بنصه فى مؤلفه الجامع « نفح الطيب » ، وكذلك فى كتابه « أزهار الرياض »[2]. وقد قدم له كاتبه بعد الديباجة بقصيدة رائعة جاء فى مطلعها :

| | |
|---|---|
| مولى الملوك ملوك العرب والعجم | رعيا لما مثله يرعى من الذمم |
| بك استجرنا وأنت نعم الجار لمن | جار الزمان عليه جور منتقم |
| حتى غدا ملكه بالرغم مستلباً | وأفظع الخطب ما يأتى على الرغم |
| حكم من الله حتم لا مرد له | وهل مرد لحكم منه منحتم |
| وهى الليالى وقاك الله صولتها | تصول حتى على الآساد فى الأجم |
| كنا ملوكاً لنا فى أرضنا دول | نمنا بها تحت أفنان من النعم |
| فأيقظتنا سهام للردى صُيُبٌ | يُرمى بأفجع حتف من بهن رُمى |
| فلا تنم تحت ظل الملك نومتنا | وأى ملك بظل الملك لم ينم |
| يبكى عليه الذى كان يعرفه | بأدمع مزجت أمواهها بدم |

ومنها فى التوسل والاعتذار وهو لب موضوعها :

| | |
|---|---|
| وصل أواصر قد كانت لنا اشتبكت | فالملك بين ملوك الأرض كالرحم |
| وابسط لنا الخلق المرجو باسطه | واعطف ولا تنحرف واعذر ولا تلم |
| لا تأخذنا بأقوال الوشاة ولم | نذنب ولو كثرت أقوال ذى الوخم |
| فما أطقنا دفاعاً للقضاء وما | ارادت انفسنا ما حل من نقم |

---

(١) راجع أزهار الرياض ج ١ ص ٧١ .

(٢) نفح الطيب ج ٢ ص ٦١٧ — ٦٢٨ ، وأزهار الرياض ج ١ ص ٧٢ — ١٠٢ .

ولا ركوباً بإزعاج لسابحة     فى زاخر بأكنف الموج ملتطم
والمرء مالم يعنه الله أضيع من     طفل تشكى بفقد الأم فى اليتم
وكل ماكان غير الله يحرسه     فإن محروسه لحم على وضم

* * *

ولا تعاتب على أشياء قد قدرت     وخط مسطورها فى اللوح بالقلم
وعدّ عما مضى إذ لا ارتجاع له     وعُـد أحرارنا فى جملة الخدم
إيه حنانيك يابن الأكرمين على     ضيف ألم بفاس غير محتشم
فأنت أنت ولولا أنت ما نهضت     بنا إليها خطا الوخادة الرسم
رحماك يا راحماً ينمى إلى رُحما     فى النفس والأهل والأتباع والحشم
فكم مواقف صدق فى الجهاد لنا     والخيل عالكة الأشداق للجم
والسيف يخضب بالمحمرّ من علق     ما ابيضّ من سبل واسود من لمم
ولاترى صدر عضب غير منقصف     ولا ترى متن لدن غير منحطم
حتى دهينا بدهيا لا اقتدار بها     سوى على الصون للأطفال والحرم

* * *

تالله ما أضمرت غشا ضمائرنا     ولا طوت صحة منها على سقم
لكن طلبنا من الأمر الذى طلبت     ولاتنا قبلنا فى الأعصر الدهم
فخاننا عنده الجدُّ الخئون ومن     تقعد به نكبات الدهر لم يقم
فاسود ما اخضر من عيش دهته عداً     بالأسمر اللدن أو بالأبيض الخذم
وشتت البين شملا كان منتظماً     والبين أقطع للموصول من جلم
فرب مبنى شديد قد أناخ به     ركب البلا فقرته أدمع الديم
قمنا لديه أصيلانا نسائله     أعيا جوابا وما بالربع من أرم
وما ظننا بأن نبقى إلى زمن     نرى به غرر الأحباب كالحمم
لكن رضاً بالقضا الجارى وإن طويت     منا الضلوع على برح من الألم
لبيك يا من دعانا نحو حضرته     دعاء ابراهيم الحجاج للحرم
وأعط الأمن الذى رصت قواعده     على أساس وفاء غير منهدم
خليفة الله وافاك العبيد فكن     فى كل فضل وطَوْل عند ظنهم
وبين أسلافنا ما قد علمت به     من اعتقاد بحكم الإرث مقتسم
وأنت منهم كأصل مطلع غصنا     أو كالشراك الذى قد قدّ من أدم

وقد خطوت خطاهم فى مآثرهم  فلم يُذمُّوا إذن فيها ولم تُذم

وهى طويلة فى أكثر من مائة بيت ، وفيها يعطف الشاعر بعد ذلك على مديح ملوك فاس ، وجهادهم فى الأندلس ، والإشادة بعلائقهم القديمة مع بنى الأحمر ملوك غرناطة ، ومما يقول فى ذلك :

أهل الحفيظة يوم الروع يحفظهم  من عصمة الله ما يربى على العِصم
بأس تطير شرار منه محرقة  لكل مدَّرع بالحزم محتزم
هم بطائفة التثليث قد فتكوا  كمثل ما يفتك السرحان بالغنم
وإن يلثِّمهم يوم الوغى رهج  أنسوْك ما ذكروه عن ذوى اللُّثُم
تضىء آراؤهم فى كل معضلة  إضاءة السُّرج فى داج من الظلم
هذا ولو من حياء ذاب محتشم  لذاب منهم حياءً كل محتشم
طابت مدائحهم إذ طابت انفسهم  فاشتقت النسمات اسما من النَّسم

وفى مديح السلطان القائم أبى عبد الله الوطاسى قوله :

أنسى الخلائف فى حلم وفى شرف  وفى سخاء وفى علم وفى فهم
فجاز معتمداً منهم ومعتضداً  وامتاز عن قائم منهم ومعتصم
وناصر الدين فى الإقبال فاق وفى  محبة العلم أزرى بابنه الحكم
أفعال أعدائه معتلة أبداً  متى يرم جزمها بالحذف تنجزم

ويلى هذه القصيدة الطويلة دفاع أبى عبد الله المنثور ، فى أسلوب يفيض قوة وبياناً ، وفيه يشير أبوعبد الله إلى حوادث الأندلس، ويعتذر عن محنته ، ويعترف بخطئه فى عبارات مؤثرة ، ويقول بعد الديباجة موجهاً خطابه إلى سلطان فاس:

« هذا مقام العائذ بمقامكم ، المتعلق بأسباب ذمامكم ، المترجى لعواطف قلوبكم ، وعوارف إنعامكم ، المقبل الأرض تحت أقدامكم . المتلجلج اللسان عند محاولة مفاتحة كلامكم . وماذا الذى يقول من وجهه خجل ، وفؤاده وجل ، وقضيته المقضية عن التنصل والاعتذار تجل . بيد أنى أقول لكم ما أقوله لربى ، واجترائى عليه أكثر ، واجترامى إليه أكبر : اللهم لا برىء فأعتذر ، ولا قوى فأنتصر ، لكنى مستقيل مستنيل ، مستعتب مستغفر ، وما أبرئ نفسى إن النفس لأمارة بالسوء » .

« على أنى لا أنكر عيوبى ، فأنا معدن العيوب ، ولا أجحد ذنوبى فأنا جبل الذنوب ، إلى الله أشكر عُجرى وبُجرى وسقطاتى وغلطاتى ... » .

بيد أنه يدفع عن نفسه تهم التفريط والزيغ والخيانة ويقول:

« فمثلى كان يفعل أمثالها ، ويحمل من الأوزار المضاعفة أحمالها ، ويهلك نفسه ويحيط أعمالها ، عياذاً بالله من خسران الدين ، وإيثار الجاحدين والمعتدين ، قد ضللت إذن وما أنا من المهتدين . وايم الله لو علمت شعرة فى فودى تميل إلى تلك الجهة لقلعتها ، بل لقطفت ما تحت عمامتى من هامتى وقطعتها . غير أن الرعاع فى كل وقت وأوان ، للملك أعداء وعليه أحزاب وأعوان ... وأكثر ما تسمعه الكذب ، وطبع جمهور الخلق إلا من عصمه الله إليه منجذب ، ولقد قذفنا من الأباطيل بأحجار ، ورمينا بما لا يرمى به الكفار ، فضلا عن الفجار ، وجرى من الأمر المنقول على لسان زيد وعمرو ، ما لكم منه حفظ الجبار ... أكثر المكثرون ، وجهد فى تعثيرنا المتعثرون ، ورمونا عن قوس واحدة ، ونظمونا فى سلك الملاحدة . أكفراً أيضاً كفراً ، غفراً اللهم غفراً . وهل زدنا على أن طلبنا حقنا ممن رام محقه ومحقنا ، فطاردنا فى سبيله عُداة كانوا لنا غائظين ، فانفتق علينا فتق لم يمكنا له رتق ، وما كنا للغيب حافظين » .

ثم يقول أبو عبد الله ، لئن كان قد نزل به القضاء فثلّ عرشه ، ونُكس لواؤه ، ومُلِك مثواه ، فهو مِثْل من سواه فى ذلك . ولئن كان مروعاً مصير غرناطة ومصير ملكها وأنجادها ، فإنها لم تنفرد بين قواعد الإسلام بذلك المصير المحزن . ألم يقتحم التتار بغداد ، عروس الإسلام ومثوى الخلافة ، ومهد العلوم ، ويستبيحوا ذمارها وحُرَمها ، ويسحقوا الخلافة وكل معالمها ورسومها ؟ وماذا كانت تستطيع غرناطة إزاء قدر محتوم ، وقضاء لا مرد له ؟ « والقضاء لا يرد ولا يصد ، ولا يغالب ولا يطالب ، والدائرات تدور ، ولابد من نقص وكمال للبدور ، والعبد مطيع لا مطاع ، وليس يطاع إلا المستطاع ، وللخالق القدير جلت قدرته ، فى خليقته علم غيب ، للأذهان عن مداه انقطاع » .

ثم يعطف إلى التجائه إلى ساحة السلطان بقوله : « وأبيها لقد أرهقتنا إرهاقاً ، وجرعتنا من صاب الأوصاب كأساً دهاقاً ، ولم نفزع إلى غير بابكم المنيع الجناب ، المتفتح حين سدت الأبواب ، ولم نلبس غير لباس نعمائكم ، حين خلعنا ما ألبسنا الملك من الأثواب . وإلى أمه يلجأ الطفل لجأ اللهفان ، وعند الشدائد تمتاز السيوف من الأجفان ، ووجه الله تعالى يبقى ، وكل من عليها فان » .

ويشير أبو عبد الله إلى رفضه لما عرضه عليه ملك اسبانيا ، من الإقامة فى كنفه

وتحت حمايته فيقول : « ولقد عرض علينا صاحب قشتالة مواضع معتبرة خير فيها ، وأعطى من أمانه ، المؤكد فيه خطه بإيمانه ، ما يقنع النفوس ويكفيها ، فلم نر ونحن من سلالة الأحمر مجاورة الصُّفر ، ولا سوغ لنا الإيمان ، الإقامة بين ظهرانى الكفر ما وجدنا عن ذلك مندوحة ولو شاسعة ، وأمنّا من المطالب المشاغب ، حمة شر لنا لاسعة » .

ثم يشير إلى أنه تلقى كذلك دعوات كريمة من المشرق للذهاب والإقامة ، ولكنه آثر الجواز إلى المغرب ، دار آبائه من قبل ، وملاذهم دائماً عند النوائب ، ولم يرتض سوى الانضواء إلا لذلك الجناب ، أعنى سلاطين المغرب ، الذين أوصى آباؤه وأجداده بالانضواء إليهم ، وقت الخطر الداهم .

ويختم أبو عبد الله دفاعه برثاء مؤثر لملكه ومصيره فيقول : « ثم عزاء حسناً وصبراً جميلا ، عن أرض أورثها من شاء من عباده ، معقباً لهم ومديلا ، سادلا عليهم من ستور الإملاء الطويلة سدولا ، « سنة الله التى قد خلت من قبل ، ولن تجد لسنة الله تبديلا » ، فليطر طائر الوسواس المرفرف مطيراً ، كان ذلك فى الكتاب مسطوراً ، ولم نستطع عن مورده صدوراً ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً » .

ويعود أبو عبد الله بعد هذا الدفاع المستفيض المؤثر ، إلى الإشادة بخلال سلاطين فاس ومآثرهم ، ويقرر أنه يضع نفسه تحت حماية السلطان ورعايته منتظماً فى سلك أوليائه ، متشرفاً بخدمة عليائه » ، ليقضى بقية عمره فى كنفه مصوناً من المخاطر والضيم .

* * *

تلك خلاصة الدفاع الشهير الذى تركته آخر ملوك الأندلس للخلف من بعده. وهو دفاع حار مؤثر يذكرنا بتلك الإعتذارات الشهيرة ( أبولوچيا ) ، التى لجأ إليها الأقدمون فى ظروف مختلفة ، لتبرير بعض المواقف والآراء . وفيه يقف أبو عبد الله موقف المذنب البرىء معاً ، فهو لا يتنصل من جميع الأخطاء ، ولكنه يتنصل من تبعة ما حدث ، ويصور نفسه قبل كل شىء ضحية القدر ، ويدفع عن نفسه بالأخص تهمة التفريط والخيانة والزيغ . فإلى أى حد تتفق هذه الصورة مع الحقيقة ، ومع منطق الحوادث والظروف التى وقعت فيها المأساة ؟ لقد تبوأ أبو عبد الله عرش غرناطة لأول مرة وهو فتى فى الحادية والعشرين ، ثم عاد إلى تبوئه بعد ذلك بعدة أعوام ، وكان جلوسه فى كل مرة نتيجة حرب أهلية مخربة

طاحنة . وقد نشأ هذا الأمير الضعيف فى بلاط منحل ، يضطرم بصنوف الدس والخصومة ، ولم تهيئه تربيته وصفاته للاضطلاع بمهام الملك الخطيرة ، ولاسيما فى مثل تلك الظروف الدقيقة ، التى كانت تجوزها مملكة محتضرة . أجل كانت الأندلس تسير إلى قدرها المحتوم ، قبل المأساة ببعيد ، ولم يك ثمة شك فى مصير غرناطة ، بعد أن سقطت جميع القواعد الأندلسية الأخرى فى يد العدو القوى الظافر ؛ ولكن ليس من شك أيضاً فى أن الأواخر من ملوك غرناطة ، يحملون كثيراً من التبعة ، فى التعجيل بوقوع المأساة . فنحن نراهم يجنحون إلى الدعة والخمول ، ويتركون شئون الدفاع عن المملكة ، ويجنحون إلى حروب أهلية يمزق فيها بعضهم بعضاً ، والعدو من ورائهم متربص ومتوثب يرقب الفرص . وقد كان هذا شأن مملكة غرناطة وشأن بنى الأحمر ، ولاسيما منذ أوائل القرن التاسع الهجرى أو أوائل القرن الرابع عشر الميلادى . ومنذ عهد الأمير على أبى الحسن ، تبلغ الحرب الأهلية ذروتها الخطرة ، ويغدو مصير المملكة الإسلامية رهين رحمة القدر ، وقد شاء القدر أن يكون السلطان أبوالحسن ، وأخوه الأمير محمد بن سعد المعروف بالزغل ، وولده أبو عبد الله محمد أبطال المأساة الأخيرة ، حملتهم نفس الأطماع والأهواء الخطرة ، فانحدروا إلى معترك الحرب الأهلية ، وشغلتهم الحرب الأهلية طول الوقت عن أن يقدروا حقائق الموقف ، وأن يستشعروا الخطر الداهم ، وأن يستجمعوا قواهم المشتركة لمواجهة العدو المشترك ، وانحدر أبوعبد الله إلى أخطر ما فى هذه المعركة المميتة من وسائل الإغراء والتفوق ، فجنح إلى محالفة العدو الخالد ، ولم يحجم عن أن يستعدى ملك النصارى على أبيه وعمه ، كى ينتزع الملك لنفسه ، فلما ظفر بعرش غرناطة بمؤازرة ملك قشتالة ، لم يكن سوى صنيعته وأسير وحيه . وكان عمه الزغل قد بسط سلطانه على الأنحاء الشرقية والجنوبية ، فلم يحجم عن مهاجمته فى نفس الوقت الذى هاجمه فيه ملك النصارى لينتزع منه ما تحت يده ، وكان الزغل فى الوقع بطل المعركة الأخيرة ، وقد أبدى فى مقاومة العدو بسالة رائعة خلدتها سير العصر ؛ ولم يشعر أبوعبد الله بفداحة خطئه ، إلا حينما تحول إليه حليفه الغادر ملك قشتالة بجيشه الضخم ، ليحاصر غرناطة ويضربها الضربة الأخيرة ، وكانت قوى غرناطة ومواردها قد بددت فى حروب أهلية عقيمة ، فلم يغن دفاعها شيئاً أمام القوة القاهرة والقدر المحتوم ، فكانت النكبة ، وكانت الخاتمة المؤسية .

ولم يكن موقف أبى عبد الله خلال تلك اللحظات الحاسمة فى مصيره ومصير أمته ، سوى موقف الأمير الضعيف المتخاذل ، الذى يسعى إلى سلامة نفسه وإنقاذ ما يمكن إنقاذه من ذلك التراث العريض الذى أصبح وشيك الزوال ، وهو موقف لم يكن بلا شك مشرفاً ، ولا متفقاً مع مقتضيات البسالة والتضحية والشهامة .

أليس لنا بعد ذلك أن نحكم على آخر ملوك الأندلس ؟ إن أبا عبد الله يحمل أمام الله والتاريخ تبعة لا ريب فيها . بيد أنه من الحق أيضاً أن نقول إنها ليست تبعة الخيانة المقصودة أو الجريمة العمد ، بل هى تبعة « التفريط » ، والتخاذل ، والخطأ ، وعدم التبصر فى العواقب .

على أن أبا عبد الله ، مع ما يستحقه من لوم التاريخ وإدانته على النحو المتقدم ، يستحق فى نظرنا تقديراً خاصاً ، لما وفق إليه من الاحتفاظ بدينه ودين آبائه وأجداده . والواقع أن فداحة المحنة التى نزلت به ، وظروف الإغراء التى كانت تحيط به ، والتى حملت بعض أكابر الزعماء والقادة المسلمين على التنصر ، حسبما نوضح بعد ، وسعى الملكين الكاثوليكيين المتعصبين إلى تنصير من يمكن تنصيره من الزعماء المسلمين بكل الوسائل : هذه الظروف كلها كانت خليقة بأن تحمل أبى عبد الله على الاستجابة إلى دواعى التحريض والإغراء فتزل قدمه إلى الدرك السحيق الذى انحدر إليه بعض قادته ووزرائه ، ولكنه استطاع أن يخرج من هذه الغمار معتصماً بدينه المتين ، وهو ما يشير إليه بحرارة فى دفاعه المتقدم .

* * *

استقر أبو عبد الله بعد جوازه إلى فاس فى ظل بنى وطّاس ، وشيد بها قصوراً على طراز الأندلس ، رآها وتجول فيها المقرى مؤرخ الأندلس بعد ذلك بنحو قرن وربع (١٠٢٧ هـ — ١٦١٨ م)[١] . ويروى أنه لما نزل أبو عبد الله وصحبه مدينة فاس ، أصابت الناس بها شدة عظيمة من الجوع والغلاء والوباء ، حتى غادرها كثير من أهلها ، ورجع بعض الأندلسيين إلى بلادهم ، وتقاعس كثير منهم عن الجواز إلى المغرب خوف الشدة والفاقة[٢] . وعاش الملك المخلوع فى منفاه طويلاً يجرع كأسه المرة حتى الثمالة ، ويتقلب فى غمر الحسرات والذكريات المفجعة ، ويشهد خلال هذه الفترة المؤلمة ، جهود السياسة الإسبانية فى سحق

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ٦١٧ .
(٢) أزهار الرياض ج ١ ص ٦٨ .

الإسلام بالأندلس ، وسحق مدنيته وكل رسومه وآثاره ، ويشهد يد الفناء والمحو ، تعمل لاستئصال هذا الشعب الأندلسى النبيل التالد ، من الأرض التى لبث يرعاها ثمانية قرون ، وينثر فى أرجائها فيض عبقريته .

وتختلف الرواية فى تاريخ وفاة أبى عبد الله اختلافاً بيناً . فيقول لنا المقرى فى « نفح الطيب » ، إنه توفى بفاس سنة أربعين وتسعمائة ( ١٥٣٤ م ) وإنه « دفن بإزاء المصلى خارج باب الشريعة »[١] . ثم يعود فى « أزهار الرياض » فيقول إنه توفى بفاس فى سنة أربعة وعشرين وتسعمائة ( ١٥١٨ م )[٢] . وتذكر لنا الرواية القشتالية القريبة من ذلك العصر أن أبا عبد الله توفى قتيلا فى موقعة أبى عقبة الشهيرة التى نشبت بين السلطان أحمد أبى العباس الوطاسى حفيد أبى عبد الله محمد الوطاسى ، وبين خصومه السعديين الأشراف الخوارج عليه ، واشترك فيها أبو عبدالله محارباً إلى جانب أصدقائه وحماته الوطاسيين . وقد حدثت هذه الموقعة فى سنة ٩٤٣ هـ (١٥٣٦م ) وهزم فيها بنو وطاس هزيمة شديدة[٣] ، فاذا صحت هذه الرواية[٤] ، فإن أبا عبد الله يكون قد توفى فى نحو الخامسة والسبعين من عمره . بيد أننا نرجح رواية المقرى الأولى ، وهى أن أبا عبد الله توفى بقصره فى فاس سنة ٩٤٠ هـ . أما روايته الثانية ، وهى أنه توفى فى سنة ٩٢٤ هـ ، فالمرجح أنها تحريف رقمى للأولى . وترك أبوعبد الله ولدين هما أحمد ويوسف ، واستمر عقبه متصلا معروفاً بفاس مدى أحقاب ، ولكنهم انحدروا قبل بعيد إلى هاوية البؤس والفاقة . ويذكر لنا المقرى أنه رآهم وتتبع أخبارهم حتى سنة ١٠٣٧ هـ ( ١٦٢٨م ) ، وأنهم كانوا معدمين يعيشون من أموال الصدقات[٥] .

---

( ١ ) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ٦١٧ ؛ ويتابع السلاوى المقرى فى روايته ( الإستقصاء ج ٢ ص ١٦٨ ) .

( ٢ ) أزهار الرياض ج ٢ ص ١٦٨ .

( ٣ ) الإستقصاء ج ٢ ص ١٧٧ .

( ٤ ) هذه هى رواية **Luis del Marmol** فى كتابه **Rebeliôn y Castigo de los Moriscos: Lib. I. Cap. XXI** ، ويعلق هذا المؤرخ على هذه الرواية قائلا : « ومن سخرية القدر أن يموت هذا الملك دفاعا عن مملكة أخرى ، بينما هو لم يجرؤ أن يموت دفاعا عن مملكته » . وينقل هذه الرواية عنه كثير من المؤرخين الإسبان والبرتغاليين . راجع **Lafuente Alacantara; ibid;V. III. p. 84** . وينقل صاحب الإستقصاء هذه الرواية عن مؤرخ برتغالى ( ج ٢ ص ١٦٨ ) . وينقلها واشنطن ايرفنج فى الملحق الخاص بأبى عبد الله فى آخر كتابه : **Conquest of Granada**

( ٥ ) نفح الطيب ج ٢ ص ٦١٧ .

ولم نعثر على تاريخ وفاة الأميرة الباسلة عائشة الحرة والدة أبي عبد الله ، ولابد أنها توفيت قبله بمدة طويلة .

ويعرف أبو عبد الله محمد آخر ملوك الأندلس بأبي عبد الله، الغالب بالله وهي شعار سائر ملوك غرناطة ، ويعرف في الرواية الإسبانية ، بمحمد الحادي عشر ، وبالملك الصغير El Rey Chico ، تمييزاً له من عمه أبي عبد الله الزغل ، ويلقب أيضاً بالزغيبي ومعناها المنكود أوعاثر الجد، تنويهاً بأحداث حياته المؤسية . وبما أصاب الإسلام على يديه من الخطوب والمحن[1] .

— ٣ —

ولابد لنا قبل أن نختتم الكلام على تلك الصفحة المؤسية من تاريخ الأندلس ، أن نتحدث عن ذلك الصرح الخالد الذي مازال رمزاً حياً لتلك المأساة المفجعة، التي اختتمت بين جدرانه الصامتة ، واقترنت باسمه إلى الأبد ، ونعني بذلك حمراء غرناطة ، ذلك الصرح الذي يمثل في تاريخ الأندلس عصراً بأسره ، وحضارة بأسرها، والذي ما يزال يثير بجلاله وروعته، كثيراً من المواقف والذكريات الخالدة .

لبثت حمراء غرناطة زهاء قرنين عنواناً لمجد الإسلام ودولته ، وملاذاً ساطعاً للحضارة الأندلسية ، التي كانت أنوارها الباهرة تشع في أرجاء أوربا ، خلال حلك العصور الوسطى ، فلما أشرفت الدولة الإسلامية على الفناء ، غدت حمراء غرناطة قبرها الأخير ، وطوت بين جدرانها صفحتها المجيدة .ومازالت الحمراء وساحاتها الشاسعة ، وأبهاؤها الفخمة ، وأبراجها الشامخة ، منذ أكثر من أربعة قرون عنواناً للمجد الذاهب ، وشاهداً صامتاً لجليل الحوادث والذكريات .

وتاريخ الحمراء هو تاريخ الصروح والهياكل العظيمة، التي تتبوأ مقامها الراسخ في تاريخ الدول التي شادتها ، والعصور التي شهدتها ، فهو جزء لا ينفصل من تاريخ الأندلس ، كما أن قصر الڤاتيكان جزء لا ينفصل من تاريخ البابوية . وما تاريخ الحمراء وسير بناتها وسادتها ، إلا تاريخ مملكة غرناطة ، وما الحمراء ذاتها، وما تعرضه من روعة في الصنع والإنشاء ، وما تحوي من بدائع الفن والزخرف ، إلا صفحة جامعة من تاريخ الحضارة الأندلسية ، فالسائح المتأمل في جنبات هذا

---

(١) الزغيبي مصغر « زغبي » ، ومعناها في لغة أهل غرناطة : المنكود أو التعيس .ومعناها وفقاً لمارمول « التعس الصغير » « الرجل المسكين » **Le petit Malheureux : Le pauvre Homme** (راجع دوزي . **Supp. aux Dict. arabes p. 594**) .

الصرح الخالد ، لا يسعه إلا أن يرتد بذهنه إلى الماضى البعيد ، فيذكر قصة أمة مجيدة ، كانت سيدة هذه الأرض والمهاد ، وحضارة زاهرة كانت تفيض على هذه الأرض والمهاد ، عظمة ونعماء ونوراً .

وللحمراء تاريخ قديم يرجع إلى القرن الرابع الهجرى ( العاشر الميلادى ) أيام الدولة الإسلامية الكبرى . وقد كانت يومئذ قلعة متواضعة . وتتحدث الرواية الأندلسية المعاصرة عن قلعة بنيت على ضفة نهر حدرُّه El Darro اليسرى ، تسمى قلعة الحمراء ، وتذكرها بالأخص أيام الحروب الأهلية التى اضطرمت فى منطقة غرناطة ، بين المولدين والبطون العربية ، ومما قاله شاعر من شعراء ذلك العصر هو عبد الله العبلى ، فى الإشارة إلى فتن غرناطة وإلى قلعة الحمراء :

منازلهم منهم قفــار بلاقــع تجارى السَّفا فيها الرياحُ الزعازع
وفى القلعة الحمراء تبديد جمعهم وفيهــا عليهم تستدير الوقائع
كما جدَّلت آباءهم فى خلالها أسنتها والمرهفــاتُ القواطع

ولما تولى باديس بن حَبُّوس زعيم البربر حكم غرناطة ، واتخذها قاعدة لملكه فى أوائل القرن الخامس الهجرى ، أنشأ سوراً ضخماً حول التل الذى تقع عليه القلعة المذكورة ، وأنشأ فى داخله قصبة ( قلعة ) اتخذها مقاماً له ، ومركزاً لحكومته ، وسميت بالقلعة الحمراء ، تجديداً لاسمها القديم . ثم زيد فى القلعة ، واتسع نطاقها بمضى الزمن ، وغدت حصن غرناطة وقصبتها أو بعبارة أخرى معقلها الرئيسى . ولما غلب محمد بن الأحمر على غرناطة فى سنة ٦٣٥هـ ( ١٢٣٨م ) ، أنشأ فوق هذا الموقع القديم ، وداخل الأسوار ، حصنه أو قصره الذى أطلق عليه اسم الحمراء ، وجلب له الماء من نهر حدرُّه ، واتخذه قاعدة للملك ، وأنشأ فيه عدة أبراج منيعة منها البرج الكبير المسمى برج الحراسة Torre de la Vela ، والبرج المقابل له ، وأنشأ له سوراً ضخماً يمتد حتى مستوى الهضبة . والظاهر أنه بنى مسكنه فى الجنوب الغربى من الحصن ، أعنى فى نفس المكان الذى يقوم عليه قصر الإمبراطور شرلكان . ومن المرجح أن اسم الحمراء يرجع إلى قيام قصر ابن الأحمر فوق أطلال قلعة الحمراء القديمة ، وليس إلى تسميته باسمه . وقد ذكر البعض أن إطلاق اسم الحمراء على صرح غرناطة الملكى يرجع إلى احمرار أبراجه الشاهقة ، أو إلى لون الآجر الأحمر الذى بنيت به الأسوار الخارجية . وقيل أيضاً إن التسمية ترجع إلى لون المشاعل الحمراء التى كان يجرى البناء ليلا على ضوئها . ولكنا نؤثر الأخذ

بالتعليل الأول فهو أقوى وأرجح . وما زالت ثمة بجوار قصر الحمراء أطلال القلعة القديمة تحمل إلى اليوم اسم « قلعة الأبراج الحمراء » **Castillo de Torres bermejas** وهو ما يؤيد صحة هذا التعليل لاسم « الحمراء »(١) .

واستمر فى البناء من بعد محمد بن الأحمر ، ولده محمد الفقيه الملقب بالغالب بالله ، فأنشأ الحصن والقصر الملكى فى أواخر القرن السابع الهجرى ، وأنشأ حفيده محمد إلى جانب القصر فى الجنوب الشرقى منه ، مسجداً بديعاً افتن فى ترقيشه وزخرفته(٢) فى المكان الذى تحتله اليوم كنيسة سانتا ماريا ، التى بنيت فى القرن السابع عشر ؛ ولم يبق اليوم من آثار مسجد الحمراء سوى مصباح برونزى فخم محفوظ بمتحف مدريد الوطنى .

وقد بنيت معظم أجنحة الحمراء الملكية فى القرن الرابع عشر فى عهد السلطان أبى الوليد إسماعيل ، وولده يوسف أبى الحجاج ، وابنه محمد الغنى بالله . ولسنا نعرف شيئاً محققاً عن المهندسين أو الفنانين الذين قاموا على إنشائها . وتدين الحمراء بفخامتها الرائعة إلى السلطان يوسف أبى الحجاج ، الملك الشاعر والفنان الموهوب ، فقد زاد فى القصر زيادة كبيرة ، وأكمل بهو قمارش الضخم ، والبرج الشاهق الذى يعلوه ، وأسبغ عليه روائع الفن والزخرف ، وأنشأ العقد الشاهق الذى يكون مدخل القصر الرئيسى ، وهو المسمى « باب الشريعة » وهو يحمل فوق عقده ، اسمه وتاريخ إنشائه ( ٧٤٩ هـ — ١٣٤٨م ) . وكان اسم الحمراء يطلق على هذه المجموعة الملكية الفخمة كلها .

وتقع أبنية الحمراء فوق هضبة مرتفعة يبلغ طولها ٧٣٦ متراً وعرضها نحو مائتى متر ، وتشغل نحو خمسة وثلاثين فداناً . ويحيط بالحمراء سور ضخم يتخلله ثلاثة عشر برجاً ، بقى منها إلى اليوم عدة ، منها برج قمارش وهو أعظمها ، وبرج السلاح ، وبرج المتزين ، وبرج العقائل ، وبرج الأسيرة وغيرها(٣) . ويجرى

---

( ١ ) راجع المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد ج ٢ ص ١٢٥ ، ومقدمة المستشرق جاينجوس لأطلس « الحمراء » **Alhambra** الذى تقدمت الإشارة إليه ، ص ٥ الهامش وص ٧ و ٨ . وراجع أيضاً المستشرق سيبولد فى **Ency. de l'Islam** تحت كلمة **Alhambra**

( ١ ) اللمحة البدرية ص ٥٠ . وراجع الإحاطة فى أخبار غرناطة ج ١ ص ٥٥٤ و ٥٥٥ .

( ٣ ) وهى بالإسبانية على التوالى **'Torre de Comares' 'T. de las Armas' 'T. del Peinador' 'T. de las Damas' T. de la Cautiva** وفيما عدا برج قمارش ، فإن هذه الأسماء كلها من تسمية الإسبان .

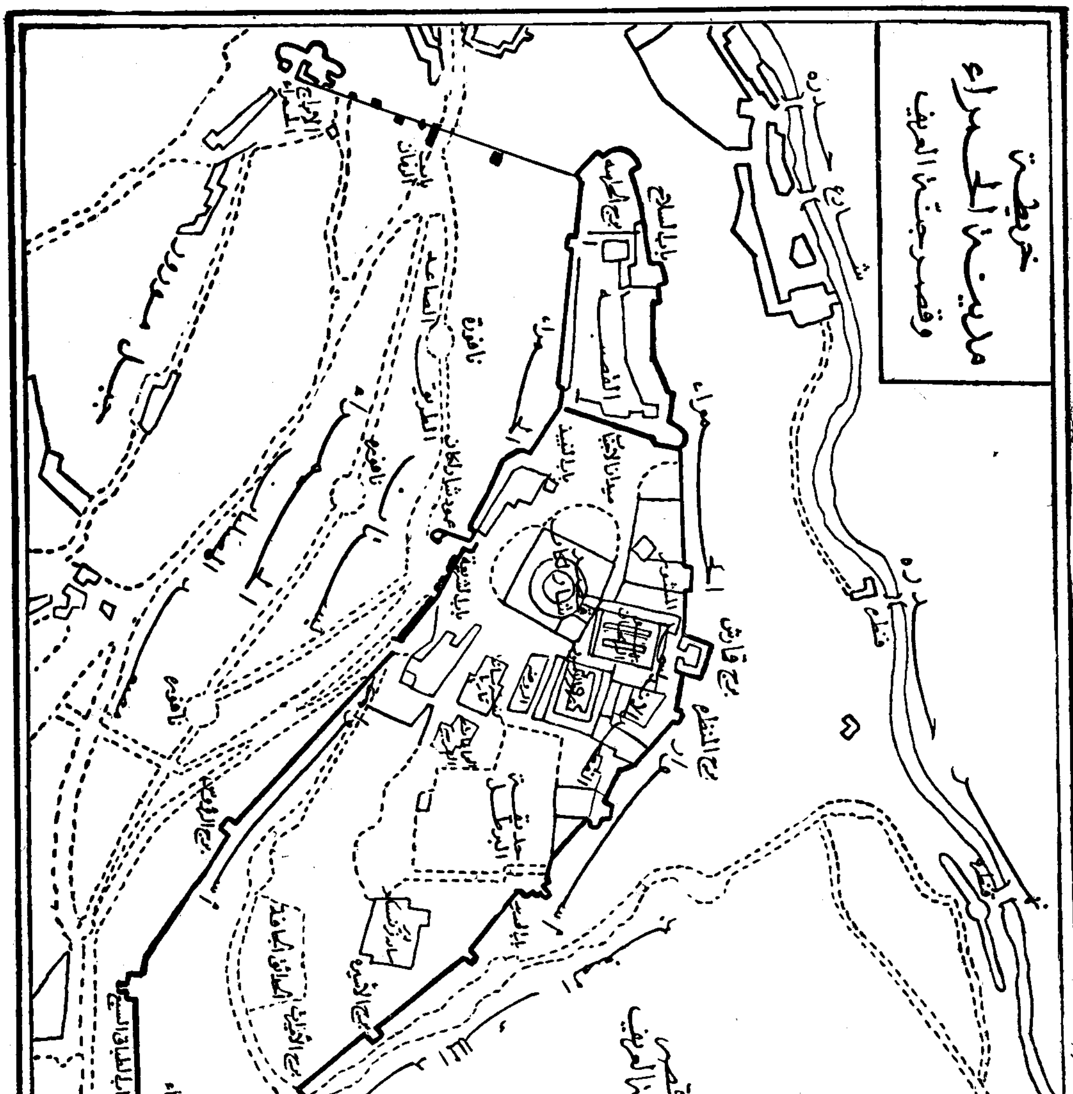
خريطة
مدينة الحمراء
وقصر جنة العريف

نهر حدرُه فى الوادى الواقع فى غربها، وقد جف اليوم مجراه وغطى معظمه . وموقع الحمراء ذو جمال طبيعى نادر ، فهى تشرف من الشمال والغرب إشرافاً شاملا على المدينة وعلى فحص غرناطة La Vega ، وتشرف من الشرق والجنوب على آكام جبال سيرّا نفادا ( جبل شُلير ) . ولم يبق اليوم من قلعة الحمراء التى كانت تشغل منحدر الهضبة فى الشمال الغربى ، سوى أسوارها الخارجية وأبراجها . وأما القصر الملكى فقد بقيت معظم أجزائه . ويعتبر قصر الحمراء من أبدع الآثار الإسلامية التى أبقت عليها حوادث الزمن ، وليس له مثيل فى الحسن والروعة من حيث عمده الرخامية الرائعة، وعقوده، وسقوفه ذات الزخرف البديع ؛ ويغمره الضوء والهواء بوفرة ، ويبدو فى مجموعه فى منتهى الظرف والإناقة . ويقع إلى جنوب الهضبة وشرقها بستان عظيم من صنع الإسبان ، تتخلله طرق حديثة صاعدة ، وقد كان مكانه أيام المسلمين الساحة المعروفة بالسبيكة ، وهو يغص أيام الربيع والصيف بالبلابل ، ويتخلله خرير الماء المتدفق عن عدد كبير من الجداول والنوافير ، وكان يجاور الحمراء أيام المسلمين حدائق منزرعة بأشجار البرتقال والورود والريحان . ويُدخل إلى هضبة الحمراء من بابها الرئيسى المسمى « باب الرمان » Puerta de Granadas وهو من صنع الإسبان ، وقد بنى أيام الإمبراطور شرلكان ، وهو عبارة عن عقد حجرى ضخم ، نصبت فى أعلاه ثلاث رمانات صخرية على هيئة مثلث . ثم تسير فى طريق صاعدة حتى « باب الشريعة » وهو مدخل الحمراء ، وهو عقد ضخم يبلغ ارتفاعه خمسة عشر متراً .

ويفضى باب الشريعة إلى مجاز معقود ، ثم إلى درب صغير صاعد ، ينتهى إلى ميدان أطلق عليه الإسبان اسم « ميدان الأجباب » Plaza de los Aljibis ومنه ترى لأول مرة مجموعة الصروح والأماكن الأثرية التى تضمها قصبة الحمراء .

فإلى يمينك ترى القصر الذى أنشأه الإمبراطور شرلكان جنوبى قصر الحمراء ، وعلى موقع بعض أجزائه ، وإلى يسارك ترى الساحة التى يطلق عليها اسم القصبة أو الحصن ، وفى نهايتها البرج الضخم المسمى « برج الحراسة » Torre de la Vela وهو يشرف عالياً على مرج غرناطة كله ، وهذا البرج هو الذى اختاره الإسبان عند دخولهم غرناطة لرفع الصليب ، وما يزال هذا الصليب الذى وضع يوم دخول الإسبان قائماً فى مكانه ، وهو صليب خشبى كبير وضع فى الزاوية الشمالية الغربية .

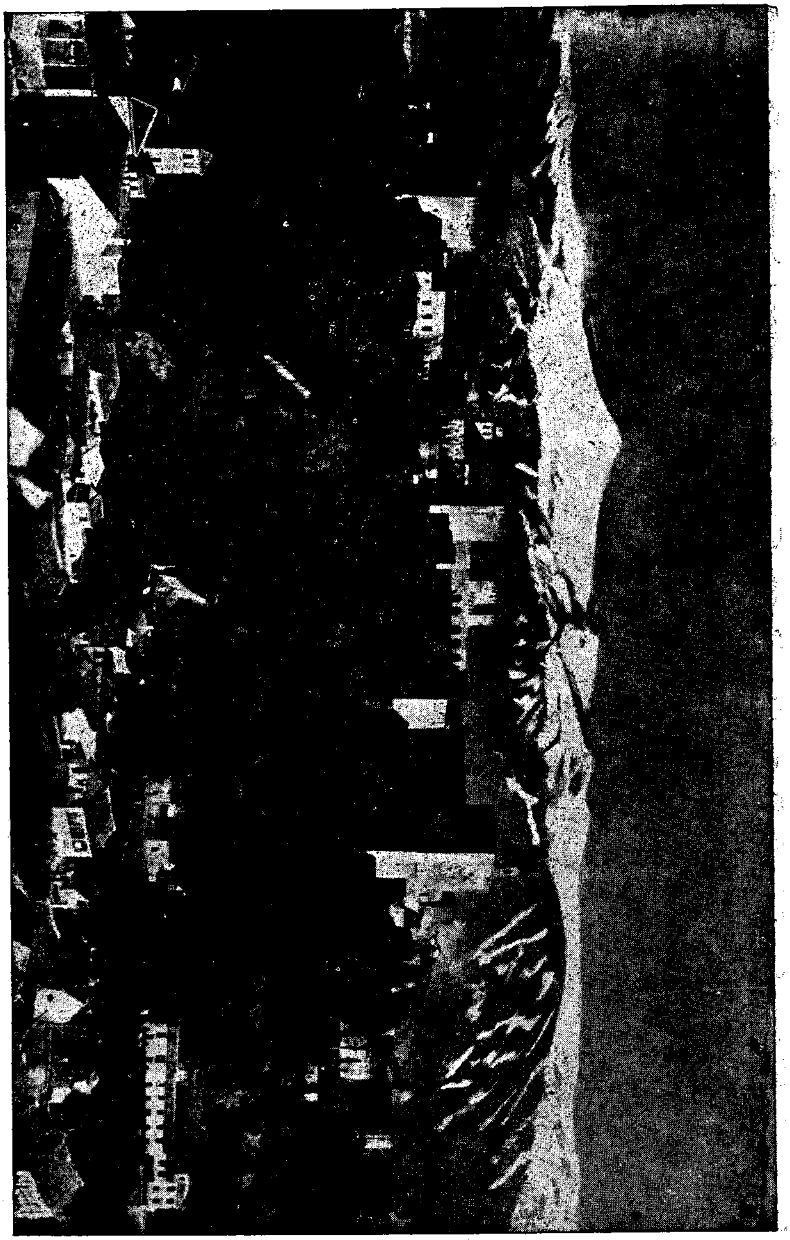

غرناطة : منظر عام للمدينة الحمراء وقد ظهرت من ورائها جبال سيرا نفادا مجللة بالثلوج .

وأمامك ترى جانباً من قصر الحمراء ، وهو الذى يسميه الإسبان « القصر العربى » Palacio Arabe .

ويمكن أن نقسم أبنية قصر الحمراء إلى مجموعتين أو جناحين كبيرين ، الأول قصر قمارش ، الذى يضم البهو المسمى بهذا الإسم وبرجه الشاهق ، وقد كان هذا الجناح هو المقام الرسمى لملوك غرناطة ، وسمى بقصر قمارش نسبة إلى البهو الفخم الذى يقع تحت برج قمارش ، والذى كان يعقد فيه السلطان مجالسه الرسمية ، وكان به مجلس العرش .

والثانى قصر السباع ، وهو الذى يتوسطه بهو الأسود أو بهو السباع ونافورته الشهيرة .

## ١ — قصر قمارش

والجناح الأول هو أول ما يرى الزائر ، تتقدمه الساحة المعروفة « بفناء البركة » Patio de Al-Berca ، أو فناء الريحان ، وهى عبارة عن فناء كبير مستطيل مكشوف ، تتوسطه بركة من الماء تظللها أشجار الريحان .

ويفضى فناء الريحان من ناحيته الشمالية ، إلى بهو صغير به قبلة زينت بنقوش بديعة ، ويفضى هذا البهو الصغير بدوره إلى أعظم وأفخم أبهاء الحمراء ، وهو بهو قمارش ، أو بهو السفراء Salón de Embajadores كما يسميه الإسبان .

وبهو قمارش ، هو عبارة عن بهو مستطيل ، طوله ثمانية عشر متراً وعرضه أحد عشر ، تعلوه قبة خشبية شاهقة يبلغ ارتفاعها ثلاثة وعشرون متراً ، وقد حفرت زخارفها على شكل النجوم ، وزخرفت جدرانها على نفس الطراز ، وفى هذا البهو كان يعقد مجلس العرش ، ولهذا سمى أيضاً بالمشور . ويعلو بهو قمارش ، البرج المسمى بهذا الاسم وهو برج شاهق فى مثل مساحته .

وقد بدأ بإنشاء بهو قمارش ، السلطان أبو الوليد إسماعيل ، فى أوائل القرن الثامن للهجرة (أوائل الرابع عشر الميلادى) وأكمله ولده السلطان يوسف أبو الحجاج . وأروع ما فيه زخارف قبته التى احتفظت بنقوشها الأصلية ؛ أما نقوش الجدران ، فإنها مع جمالها ليست إلا تجديداً مقلداً لنقوشها القديمة ، قام به الفنانون الإسبان . وقد وردت فيها العبارة الآتية مكررة « عز لمولانا السلطان أبى الحجاج » ، وتخللها فى سائر جوانبها شعار بنى نصر المشهور ، وهو « ولا غالب إلا الله » .

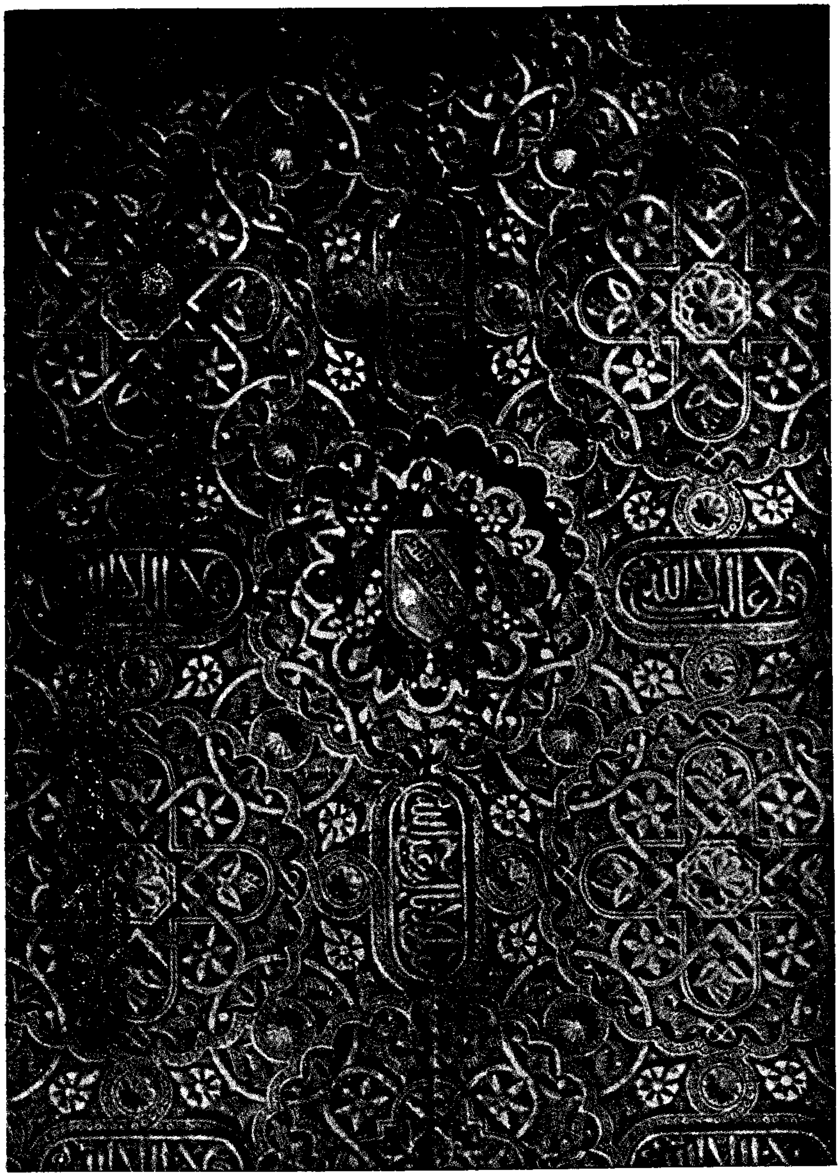

الحمراء : من زخارف بهو السفراء ( بهو قمارش ) .

ويفضى بهو البركة من ناحيته اليمنى إلى فناء سفلى يعرف بفناء السرو ، وقد زرعت فيه بالفعل بعض أشجار السرو. وليس لهذا الفناء أهمية أثرية تذكر ، وهو من صنع الإسبان ، وإلى جانبه يقع جناح الحمامات السلطانية .

وتقع شرقى فناء البركة ، قاعة الأختين Sala de las dos Hermanas ، وقد سميت بهذا الاسم لأن أرضها تحتوى على قطعتين متساويتين من الرخام ، فريدتين فى ضخامة الحجم .

٢ — قصر السباع

وتفضى قاعة الأختين من بابها الجنوبى ، إلى أجمل وأشهر أجنحة الحمراء ، ونعنى بهو السباع ، أو بهو الأسود وما إليه .

ويعتبر فناء السباع أو كورة السباع Patio de los Leones ، أجمل وأرشق أبهاء الحمراء . وقد قام بإنشائه السلطان محمد الغنى بالله ، الذى حكم من سنة ١٣٥٤ — ١٣٩١م ، وما زال اسمه ماثلا فى مواضع كثيرة من هذا الجناح .

وهو عبارة عن فناء مستطيل مكشوف ، طوله خمسة وثلاثون متراً ، وعرضه عشرون ، تحيط به من الجوانب الأربع مشرفيات أو أروقة ذات عقود ، تحملها مائة وأربعة وعشرون عموداً من الرخام الأبيض ، صغيرة الحجم ، متناهية فى الجمال والرشاقة ، وعليها أربع قباب مضلعة ، تقع كل واحدة منها وسط ضلع من أضلاع المستطيل .

وفى وسط الفناء نافورة الأسود الشهيرة ، وهى عبارة عن نافورة ماء ، يحمل حوضها المرمرى المستدير الضخم ، اثنا عشر أسداً على شكل دائرة ، وقد نقشت فوق دائرة هذا الحوض اثنى عشر بيتا من قصيدة ابن زمرك الشهيرة فى وصف الحمراء ، أمام كل أسد بيت منها ، وهذا مطلعها :

تبارك من أعطى الإمام محمدا      مغانىَ زانت بالجمال المغانيــا
والا فهذا الروض فيه بدايع      أبى الله أن يلقى لها الحسن ثانيا

وفى منتصف الناحية الجنوبية من بهو السباع ، يوجد مدخل قاعة بنى سراج Sala de los Abencerrajes ، وهو اسم الأسرة الغرناطية الشهيرة ، التى لعبت دوراً كبيراً فى حوادث غرناطة الأخيرة . وهى عبارة عن مستطيل طوله اثنا عشر متراً وعرضه ثمانية ، وفوقه قبة عالية مضلعة ، وفى وسطه حوض نافورة مرمرى

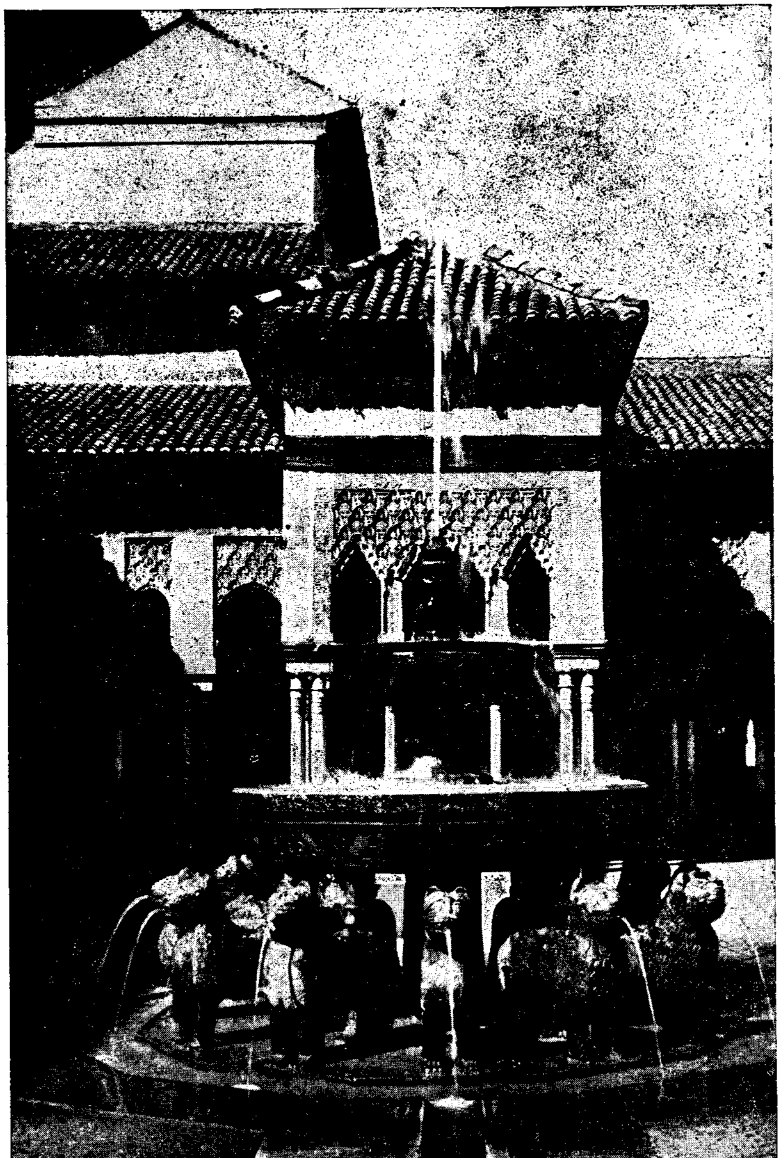

نافورة الأسود ومن ورائها الشرفة الوسطى لبهو الأسود .

مستدير ، وفى قاعه بقع داكنة ثابتة ، تزعم الأسطورة أنها آثار من دماء بنى سراج ، الذين دبر لهم السلطان كميناً ، واستدرجهم إلى الحمراء ، ودبر مقتلهم فى هذه القاعة واحداً بعد الآخر .

وفى الناحية الشرقية لفناء الأسود ، يوجد مدخل القاعة التى تسمى قاعة الملوك أو قاعة العدل Sala de los Reyes ، وبها ثلاث عقود أو حنايا ، رسمت فى سقف الحنية الوسطى منها ، صور عشرة فرسان مسلمين ، يلبسون العمائم ويجلسون على وسائد ، وهيئاتهم تشع بالوقار والعزة ، ويقول بعض الباحثين إن هذه هى صور ملوك غرناطة العشرة ، الذين سبقوا أبى عبد الله فى تولى العرش .

وفى شمال فناء الأسود يقع البهو المسمى «منظرة اللندراخا» Mirador de Lindar. ja.

ويوجد بين قاعة الأختين وبين منظرة اللندراخا ، باب يفضى إلى ساحة مستطيلة لم تكن من أبنية الحمراء الأصلية ، ولكنها أنشئت أيام الإمبراطور شرلكان . ويتصل بهذه الساحة رواق ضيق يفضى إلى متزين الملكة Peinador de la Reina ، وهو عبارة عن بهو صغير منخفض ، وقد أنشىء فى القرن السادس عشر ، ورسمت على جدرانه صور وزخارف نصرانية من طراز عصر الأحياء .

تلك هى محتويات قصر الحمراء ؛ ولا يتسع المقام هنا لننقل إلى القارئ ، ما نقش على جدرانه ، وما فى قبابه من النقوش والقصائد العديدة . ولكن الذى يلفت النظر بنوع خاص ، أن شعار بنى نصر وهو « ولاغالب إلا الله » ، قد نقش فى كل ركن من أركانه ، وكل ناحية من نواحيه . وتكرار هذا الشعار على هذا النحو يبعث إلى النفوس شعور النبوءة والنذير ، ويذكرها بالمأساة الخالدة ، التى توالت حوادثها بين هذه الجدران الصامتة ، التى يكاد الأسى يرتسم على زخارفها العربية ونقوشها الإسلامية(١) .

وهناك على مقربة من قصر الحمراء ، يقع أثر أندلسى آخر هو قصر جنة العريف El Generalife ، وهو يقوم على ربوة مستقلة عالية ، تقع فى ركن منعزل فى شمال شرقى الهضبة ، ويشرف من ربوته العالية على صروح قصبة الحمراء ، وتبدو من ورائه آكام جبال سيرّا نقادا الشامخة ( جبل الثلج ) . وهو عبارة عن صرح صغير أنيق المنظر ، قد اختلطت أوضاعه العربية السفلى ، بما أنشأه الملوك

---

( ١ ) يجد القارئ وصفاً ضافياً لقصر الحمراء ومنشآته ، ونقوشه ، فى كتابى « الآثار الأندلسية الباقية » . الطبعة الثانية ص ١٨٤ — ٢١٤ .

الإسبان فوقها من أبنية دخيلة ، وتجوز إليه من مدخل بسيط متواضع ، يفضى إلى ساحة فسيحة ، قد أقيم على جانبها رواقان ضيقان طويلان ، وفى وسطها بركة ماء ، وقد غرست حولها الرياحين والزهور الساحرة .

وقد كان قصر جنة العريف فيما يبدو مصيفاً أو متنزهاً لسلاطين غرناطة ، يؤمونه للاستجمام والراحة ، والاستمتاع بجمال موقعه ، وروعة المناظر الطبيعية التى تحيط به .

* * *

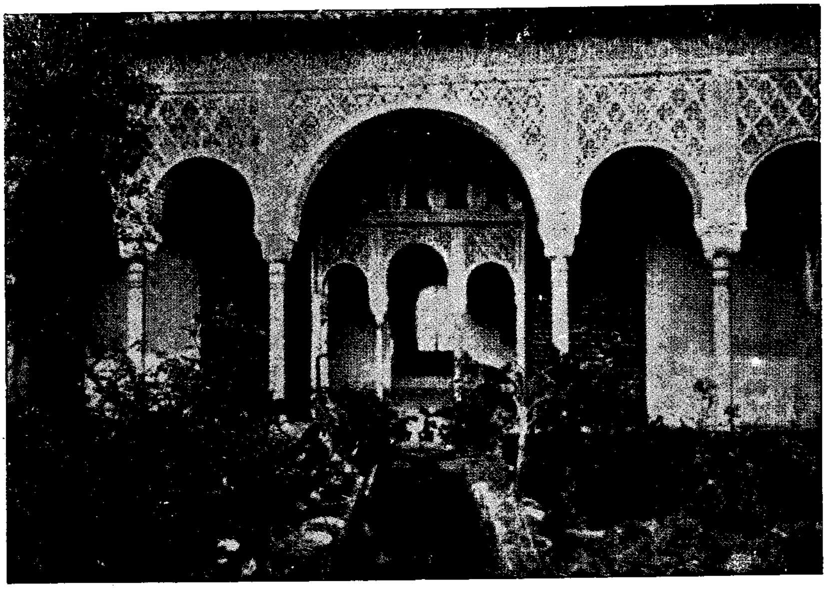

واجهة قصر جنة العريف

ولم ينج هذا الأثر الإسلامى العظيم، عنوان الحضارة الأندلسية الباهرة ، من يد العدوان والتشويه المنظم . فقد كان مثل بناته المغلوبين ضحية للسياسة الإسبانية الغاشمة ، وقد عمل الإسبان منذ سقوط غرناطة على محو جمال الحمراء الرائع بأعمال تخريب وتشويه متتالية ، فمسخوا الزخارف والنقوش أومحوها ، ونقلوا الأثاث والرياش أو أتلفوه ، وبنى الإمبراطور شرلكان فى سنة ١٥٢٦ إلى جانب الحمراء فى الجنوب الغربى منها قصراً جديداً ، وهدم معظم القصر الشتوى القديم ليفسح مكاناً للقصر الجديد . وعمل فيليب الخامس ( ١٧٠٠ — ٤٦ ) على مسخ طراز الغرف العربى ، واستبداله بالطراز الإيطالى ؛ وأتم تشويه القصر بإقامة حواجز

سدت المنافذ والطرق بين مختلف الأجنحة . وعلى الجملة فقد تركت الحكومات الإسبانية المتعاقبة هذا الأثر الإسلامى العظيم فى زوايا الإهمال ، وأسلمته إلى يد العفاء والتخريب ، ولم تعن بإصلاحه وترميمه فى العصور الأولى إلا مرة واحدة ، فى أواسط القرن السادس عشر . وفى سنة ١٥٩٠ وقع بالحمراء حريق تسبب عن انفجار مصنع بارود مجاور ، فأصابها بأضرار كبيرة . ومنذ القرن السابع عشر تغلب مظاهر الخراب على الحمراء ، ويسودها النسيان والوحشة . وفى سنة ١٨٠٢ — أيام الغزو النابليونى — نسف الفرنسيون بعض أبراجها ولم ينج القصر إلا بأعجوبة . وفى أواسط القرن التاسع عشر ، أفاقت الحكومة الإسبانية من سباتها الطويل ، وعنيت بإصلاح الحمراء وترميمها ، واستمر الترميم والإصلاح فيها زهاء نصف قرن ، وتبدو الحمراء اليوم فى ثوبها المجدد ، وقد جددت الزخارف والنقوش القديمة فى معظم الأبهاء ، وفقاً لأوضاعها ونصوصها القديمة ، ولكن تتخللها أخطاء المطابقة والنقل فى مواطن كثيرة .

ولكن الحمراء مازالت بالرغم من كل ما أصابها من ضروب التشويه والإهمال ، تعتبر أعظم الآثار الأندلسية الباقية ، كما تعتبر أكمل نموذج للفن الأندلسى فى تطوره النهائى ، بعد تحرره من أثر الفن البيزنطى . وهى اليوم علم على غرناطة تشتهر بها عاصمة الأندلس القديمة فى سائر الآفاق ، ويهرع إليها الرواد من كل صوب ليصعدوا إلى هضبة الحمراء ، ويقضون لحظات فى تأمل صرحها الرائع (١) .

* * *

وقد لبثت الحمراء بأبراجها المنيعة ، وأجنحتها الملوكية البديعة ، زهاء قرنين مقاماً فخماً لملوك غرناطة ، وحصناً أميناً يعتصمون به وقت الخطر والأزمات العامة ، حتى شهدت فى النهاية ذهاب ملكهم ، كما شهدت من قبل عظمتهم وسلطانهم .

وإلى جانب الحوادث التاريخية التى كانت الحمراء مسرحها ، والتى فصلناها فى مواضعها ، تتبوأ القصة والأسطورة فى تاريخ الحمراء مكاناً كبيراً ، وتقدم للقصصى مادة شائقة مؤثرة . ويرجع معظم هذا القصص إلى الفترة الأخيرة من حياة مملكة غرناطة ، وإلى حوادث مصرعها النهائى ، وقد كانت الحمراء كما رأينا مسرح كثير من حوادث المأساة ، وكانت بالأخص مسرح فصلها الختامى .

---

(١) هذا وقد رجعنا فى كتابة هذا الفصل أيضاً إلى كتاب **Alhambra** المنشور بعناية السنيور **M. Gomez - Moreno** فى سلسلة **El Arte en Espana** .

أجل إن للحمراء إلى جانب تاريخها الحافل ، تراثها من القصص والأساطير ، وهو تراث يمتزج أحياناً بالتاريخ الحق ، ويجنح أحياناً إلى الأسطورة الشائقة . بيد أنه يثير الشجن دائماً ، وينفث الإعجاب والسحر . ذلك أنه مستمد من الحوادث والذكريات العظيمة ، التى ترتبط بتاريخ غرناطة ، ومن الروايات المؤثرة التى ذاعت عن مصرعها ، وعن بسالة فروسها ، حين المعركة الحاسمة ، وعن خلال مجتمعها ، ومخاوفه وهواجسه وآماله . وإذا كان المؤرخ لا يجد فى هذا التراث دائماً ، مادة وثيقة يستطيع الوقوف بها ، فإنه يجد على الأقل صوراً مؤثرة مما تسبغه الروايات المعاصرة ، على تلك الحوادث العظيمة ، من ألوان الروع والشجن والأسى .

وفى هذه الحوادث المشجية يغلب التاريخ على الرواية والقصة . ولكن توجد إلى جانب ذلك طائفة من الأساطير الشائقة ، التى أحاطت بها الرواية الإسبانية قصة الحمراء ، وقصة أبهائها وأبراجها . وأول ما يروى فى ذلك أن منشئ قصر الحمراء السلطان محمد الغالب بالله ( ابن الأحمر ) ( ٦٧١–٧٠١ هـ ) كان ساحراً ، وأنه استعان بالسحر والشياطين فى إنشاء الحصن والقصر ، ومن ثم استطاعت الجدران والأبراج المنيعة أن تغالب فعل الحوادث والعواصف والزلازل حتى يومنا ، دون أن تتصدع أو تنهار . والسر فى ذلك يرجع إلى الطلاسم والتعاويذ السحرية التى تحمى البناء من كل شر . وتقول الأسطورة إن الحمراء لن تنهدم أو تسقط إلا حين يميل اللسان المثبت فى أسفل البرج الخارجى ، ويصل إلى موضع القفل ، فعندئذ تنهار الحمراء دفعة واحدة ، وتنكشف جميع الكنوز التى أودعها المسلمون فى أعماقها .

وعلى ذكر هذه الكنوز تقول الأسطورة إن المسلمين عندما سقطت غرناطة فى أيدى النصارى ، كانوا يعتقدون أن سقوطها حادث موقت ، وأن دولة المسلمين فى الأندلس لن تلبث أن تعود قوية عزيزة ، وأن بعدهم عن أوطانهم لن يطول ، ولذلك عمدوا إلى إخفاء ذخائرهم وحليهم وأموالهم فى أعماق الحمراء ، فى جوانب متعددة منها ، وأنهم لجأوا فى حفظها وحمايتها إلى السحر ، فرصدوا لحفظها الطلاسم والأسماء . وقد يبدو حراسها أحياناً فى صور مردة أو وحوش ، أو فرسان مسلمين مدججين بالسلاح ، يسهرون عليها أبد الدهر جامدين لا يغمض لهم طرف . وليس فى الحمراء برج أو بهو أو قاعة ، إلا اقترن ذكرها بقصة هذه الكنوز الخفية ؛ وكانت الأسطورة تضطرم من عصر إلى آخر ، ولاسيما فى جنوبى اسبانيا ،

كلما كشفت المباحث الأثرية فى أنحاء الحمراء أو حولها ، عن بعض النقود والتحف الإسلامية .

وتقدم إلينا الرواية بعض الأساطير المروعة عن « بهو السباع » والبهو الذى يقابله وهو المسمى بهو بنى سراج . فأما بهو السباع فتزعم الرواية أنه كان مسرحاً دموياً لمصرع بعض أبناء السلطان أبى الحسن . وأما بهو بنى سراج فتقول الرواية إنه كان مسرحاً لمصرع بنى سراج أعرق الأسر الغرناطية وأوفرها جاهاً وفروسة ، وكانت فى أواخر عهد السلطان أبى الحسن قد انتظمت إلى جانب خصومه ، وأمعنت فى مناوأته ، فقرر إهلاكهم(1) . وقيل إن عميدهم محمد بن سراج ، وهو من أكابر الفرسان والسادة ، هام بحب أميرة من البيت المالك ، فوجد عليه السلطان وقرر سحق الأسرة كلها ، ودبر كميناً لإهلاكهم ، فدعا أكابرهم ذات مساء إلى حفل أقامه ، وأدخلوا واحداً بعد واحد بترتيب معين ، من باب البهو المذكور ، وكلما دخل أحدهم بادره القتلة ونحروه على حافة الحوض الرخامى الواقع وسطها ، حتى أعدموا جميعاً ، وفقدت الأسرة كل أنجادها . وسمى المكان من ذلك الحين « بهو بنى سراج » . وما زالت ثمة بقع داكنة فى قاع الحوض الذى سالت فيه دماء القتلى تقول الرواية إنها بقع من دمائهم ، وانها لن تمحى قط ، وتزيد الأسطورة على ذلك أنه ما زالت تسمع فى ذلك البهو فى بعض الليالى أنات خافتة ، وقعقعة سلاح ، وأنه حدث أكثر من مرة أى رأى حراس الحمراء فى جوف الليل ، بعض الجند المسلمين ، وقد لمعت أثوابهم الزاهية وأسلحتهم البراقة ، يقطعون البهو جيئة وذهاباً(2) .

وهناك طائفة كبيرة من الأساطير الغرامية ، تروى عن الملوك والسادة الذين

---

(1) راجع رواية هرناندو دى بايثا المنشورة ضمن « أخبار العصر » ص ٦٦ .

(2) يلاحظ أن الرواية الإسلامية لا تحدثنا عن هذه المأساة بشىء . ولكن الرواية والأغانى الإسبانية تكثر الحديث عنها . ويشير الوزير محمد بن عبد الوهاب الغسانى سفير ملك المغرب إلى ملك اسبانيا فى أواخر القرن السابع عشر إلى تلك الأسطورة فى رحلته نقلا عن التواريخ لإسبانية ( راجع رحلة الوزير فى افتكاك الأسير ص ٢٤ ) . وقد كانت حوادث هذه المأساة المزعومة وما اقترن بها من الأساطير مستقى خصباً لكتاب القصص . وقد وضع الكاتب الفرنسى شاتوبريان عن بنى سراج قصة عنوانها مغامرات آخر بنى سراج (**Aventures du dernier Abencérrages**) يحدثنا فيها عن فتى أندلسى هو آخر سليل لبنى سراج ، وكانت الأسرة قد نزحت إلى تونس عقب سقوط غرناطة ، وعاشت هناك فى فقر وضعة ، فاعتزم الفتى أن يحج إلى غرناطه موطن آبائه القديم ، وهنالك هام حباً بفتاة اسبانية رائعة الحسن ، وهامت بحبه ، ولكن اختلاف الدين حال دون زواجهما ، فارتد الفتى المسلم إلى الصحراء وانقطع أثره ، وعاشت حبيبته فى عزلة محتفظة بحبه وذكراه .

سكنوا الحمراء، وعن أبهائها الفخمة وأبراجها القاتمة . ويقال إن كثيراً من الأميرات والغيد الحسان الذين استحقوا اللعنة الملكية زجوا إلى أقبيتها أو أبراجها السحيقة وأعدموا فى ظلماتها . ومن ذلك ماتزعمه الأسطورة من أن سلطاناً مستبداً من سلاطين غرناطة سجن بناته الثلاث فى أحد أبراج الحمراء ، ولم يك يسمح لهن إلا بالتريض ليلا فى بعض التلال المجاورة بحيث لا يراهن إنسان قط ، وأن أولئك الأميرات الثلاث ما زلن يظهرن فى بعض الليالى المقمرة فى هاتيك التلال ، يمتطين جيادهن الفخمة ، وتسطع حليهن النفيسة تحت أشعة القمر ، فإذا حاول إنسان أن يخاطبهن أو يزعجهن ، اختفين فى الحال تحت جنح الظلام .

وقد ذاعت هذه الأساطير عن الحمراء وعن ملوكها ، ودونت عقب سقوط غرناطة ، فى بعض التواريخ والقصص المغرق . ومن ذلك كتاب ظهر فى أواخر القرن السادس عشر عنوانه «حروب غرناطة الأهلية» **Guerras civiles de Granada** وزعم مؤلفه، وهو اسبانى من أهل مرسية يدعى خينس بيرث دى إيتا **Gines Perez de Hita** أنه نقله عن مؤلف لكاتب أندلسى يدعى ابن أمين ، وهو مزيج من بعض الوقائع التاريخية المحرفة ، وكثير من القصص الخرافية ، ويدور معظمه حول حوادث غرناطة الأخيرة ومعاركها الأهلية ، وأحوال بلاطها وما يقع فيه من مكائد ودسائس سياسية وغرامية ، ومنافسات بنى سراج وبنى الثغرى وغيرهم من أنجاد غرناطة . وقد ذاع هذا المؤلف فى اسبانيا ولاسيما فى ريف الأندلس ، وترجم إلى لغات عديدة . بيد أنه يبدو من سياقه أنه لا يمكن أن يكون ترجمة لرواية عربية ، وكل ما هنالك أنه مزيج من بعض الأساطير النصرانية والشعبية، التى ذاعت فى ذلك العصر عن حوادث غرناطة ، وأذكاها خيال الأحبار ، والفرسان ، وأذكتها بالأخص عوامل دينية وسياسية خاصة .

هذا بعض ما يروى من قصص الحمراء وأساطيرها . وإذا كان المؤرخ لا يستطيع أن يقف بهذا التراث المغرق من القصص والأساطير ، فإنه يستطيع على الأقل أن يستخرج منه مغزى بليغاً ، وهو مغزى ينم فى كثير من الأحيان عما كان للأندلس المسلمة فى اسبانيا وفى الغرب ، من عظم الهيبة والشأن ، وما كان لذكريات غرناطة وحمرائها من بالغ الروع والسحر والإجلال[1] .

* * *

(١) جمع الكاتب الأمريكى واشنطون إيرفنج **W. Irving** طائفة من الأساطير والقصص التى تتعلق بالحمراء وكنوزها وملوكها فى كتابه : **Tales of the Alhambra**

ورحم الله شوقى إذ يقول فى سينيته الأندلسية الشهيرة فى رثاء الحمراء :

لا ترى غير وافدين على التـــا ريخ ساعين فى خشوع ونكس
نقلوا الطرف فى نضارة آس من نقوش وفى عصارة ورس
وقبــاب من لازورد وتـبر كالربى الشم بين ظل وشمس
وخطوط تكفلت للمعـــانى ولألفاظهـــا بأزين لبس
وترى مجلس السباع خــلاء مقفر القاع من ظباء وخُنس
لا « الثريا » ولا جوارى الثريا ينزلن فيـــه أقمار إنس
مرمر قامت الأســود عليــه كلة الظفر لينــات المجس
تنثر المـاء فى الحياض جمانا يتنزى على ترائب ملس
آخر العهـد بالجزيرة كانت بعد عرك من الزمان وضرس
يا دياراً نزلت كالخلد ظـــلا وجنًى دانيــاً وسلسال أنس
لا تحس العيون فوق رباهــا غير حور حُو المراشف لعس
كسيت أفرخى بظلك ريشــا وربا فى رباك واشتد غرسى
هم بنو مصر لا الجميل لديهم بمضــاع ولا الصنيع بمنسى
من لسان على ثنــائك وقف وجنان على ولائك حبس
حسبهم هــذه الطلول عظات من جديد على الدهور ودرس
وإذا فاتك التفات إلى المـــا ضى فقد غاب عنك وجه التأسى

# مأساة الموريسكيّين

## أو العرب المتنصِّرين

٨٩٧ ــ ١٠١٨ هـ : ١٤٩٢ ــ ١٦٠٩ م

# الكتاب الثالث

## مراحل الاضطهاد والتنصير

# الفصل الأول

## بدء التحول فى حياة المغلوب

نقص الروايات العربية عن المأساة الأندلسية . علة هذا النقص . اهتمام الرواية الإسبانية بالإفاضة فيها . هجرة الأندلسيين إلى المغرب . إنشاؤهم لمدينة تطوان . بداية عصر الإستعباد . السياسة الإسبانية ومصير المسلمين . أقوال الرواية القشتالية . اتجاه ملكى اسبانيا إلى النكث . تعليق النقد الحديث . بدء الاضطهاد . تحوير المعاهدة . خمنيس يحاول تنصير المسلمين . بعض من تنصر من أكابرهم . إحراق الكتب العربية . تعليق النقد الحديث على هذا العمل . الروايات الإسلامية عن مأساة التنصير . صدى المحنة فى مصر . نفى المسلمين من البرتغال . أمة الموريسكيين أو العرب المتنصرين . قرار مجلس الدولة . الثورة فى بعض النواحى . التنصير المغصوب . نشاط فرناندو وإيسابيلا . إستغاثة المسلمين بملك مصر . سفارة فرناندو إليه . الثورة فى ڤليا لونجا وهزيمة الإسبان . جنوح فرناندو إلى اللين . أقوال الرواية الإسلامية عن هذه الحوادث . حشد المسلمين والمتنصرين فى أحياء خاصة . تحريم إحراز السلاح عليهم . حظر هجرتهم إلى غرناطة . تحريم بيع الأملاك .

لم يكن ظفر اسبانيا النصرانية بالاستيلاء على غرناطة ، وسحق دولة الإسلام فى الأندلس ، سوى بداية النهاية فى مصير الأمة الأندلسية ؛ ولم يكن فقد السيادة القومية ، وفقد الإستقلال والحرية ، والذلة السياسية ، والاضطهاد الدينى والاجتماعى ، وهى المحن التى تنزل عادة بالأمم المغلوبة ، سوى لمحة يسيرة مما كتب على الأمة الأندلسية أن تعانيه على يد اسبانيا النصرانية . أجل كان مصير مسلمى الأندلس بعد فقد دولتهم وزوال مملكتهم ، من أروع ما عرفت الأمم الكريمة المغلوبة ، وكان مأساة من أبلغ مآسى التاريخ .

تلك هى مأساة الموريسكين أو العرب المتنصرين ، ومن الأسف أن الرواية الإسلامية لم تخص تاريخ الأمة الأندلسية بعد سقوط غرناطة بكثير من عنايتها ، ولم ينته إلينا عن تلك المأساة سوى رسائل وشذور يسيرة ، بل لم ينته إلينا سوى القليل عن مراحل التاريخ الأندلسى الأخيرة قبل سقوط غرناطة ، ولا توجد لدينا عن تلك المرحلة سوى رواية إسلامية واحدة هى كتاب « أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر » الذى سبقت الإشارة اليه غير مرة ، والذى كتبه فى سنة ٩٤٧ هـ ( ١٥٤٠ م ) أعنى بعد سقوط غرناطة بخمسين سنة ، كاتب مجهول كان فيما يبدو

من أشراف غرناطة الذين بقوا فيها، وأرغموا على التنصر، ولكنهم بقوا مع ذلك مسلمين فى روحهم وسريرتهم . وقد كانت هذه الرواية أساساً لكل ماكتبه المسلمون المتأخرون عن سقوط غرناطة . ولم تصل إلينا إلى جانب هذه الرواية الوحيدة ، سوى رسائل وشذور وقصائد نقلها إلينا المقرى مؤرخ الأندلس فى مؤلفه « أزهار الرياض » ، ومعظمها مما كتبه أدباء المغرب عقب وقوع المأساة بقليل .

ونستطيع أن نرجع هذا النقص فى الرواية الإسلامية عن حوادث المأساة الأندلسية إلى عاملين : الأول هو أنه فى عصور الإنحلال والسقوط تخمد الحركات الأدبية والفكرية ، وتقل العناية بالتدوين التاريخى، كما تقل فى جميع نواحى التفكير والأدب ، وأن نظام الطغيان المطبق والاضطهاد المروع ، الذى فرض على العرب المتنصرين، كان كفيلا بإخماد كل صوت وتحطيم كل قلم . والثانى وهو مانرجحه ، هو فقد معظم الكتب والوثائق العربية التى وضعت فى هذا الوقت، والتى استطاع المقرى أن ينقل إلينا شذوراً منها ، مما يدل على أن بعضها كان موجوداً حتى عصره أعنى فى القرن السابع عشر . ومن الغريب أن صاحب « أخبار العصر» لم يقدم إلينا عن مأساة العرب المتنصرين سوى نبذة يسيرة ، مع أنه عاصر معظم حوادثها ، وشهدها على الأغلب. ولسنا نجد مانفسر به هذا الصمت من جانب الرواية الإسلامية الوحيدة، التى انتهت إلينا عن سقوط غرناطة، وما تلاه من الحوادث والخطوب، إلا نظام الإرهاب الشامل ، الذى سحق كل متنفس للشعب المغلوب .

على أن هذه المرحلة المؤلمة من تاريخ الأمة الأندلسية ، تشغل بالعكس فى تاريخ اسبانيا القومى حيزاً كبيراً يمتد زهاء قرن وربع ، وتخصه الرواية الإسبانية بكثير من عنايتها . ولكن الرواية الإسبانية تتأثر دائماً بالعوامل القومية والدينية إلى أبعد حد ، وتنظر دائماً إلى ذلك الإستشهاد المفجع ، الذى فرضته اسبانيا على العرب المتنصرين ، وإلى تلك الأعمال المروعة التى كانت ترتكبها محاكم التحقيق(١) باسم الدين ، وإلى تلك الوسائل البربرية ، التى اتخذت لتشريد العرب المتنصرين وإبادتهم ، بعين الكبرياء والرضى ، وترى فيها دائماً نوعاً من الإنقاذ القومى ، وتطهيراً للدين والوطن من آثار الإسلام الأخيرة . وهى تحيط هذه المرحلة من تاريخ اسبانيا ، بكثير من القصص والأساطير الحماسية ، التى تشيد بظفر اسبانيا

(١) هى المعروفة خطأ « بمحاكم التفتيش » **Inquisition, Inquisición** ، وسنعود إلى الكلام عليها .

النصرانية ، وبما أسبغته العناية الإلهية على خطتها وسياستها ، فى إبادة تراث الإسلام والعرب المتنصرين ، وفى القضاء إلى الأبد على آثار تلك الدولة الإسلامية المجيدة ، التى ازدهرت فى اسبانيا زهاء ثمانية قرون ، وعلى حضارتها وآدابها ، وكل ذلك التراث العظيم الباهر .

على أن الرواية الإسبانية بالرغم من تأثرها العميق بالعوامل القومية والدينية ، تعرض علينا حوادث هذا النضال الأخير فى أسلوب مؤثر . وقد لا تضن فى بعض المواطن والمواقف بعطفها ، وأحياناً بإعجابها ، على تلك الأمة المغلوبة الباسلة ، التى لبثت تناضل حتى الرمق الأخير عن كرامتها ، وعن تراثها القومى والروحى .

— ٢ —

لبثت السياسة الإسبانية بعد سقوط غرناطة ، وبعد أن حققت اسبانيا النصرانية بالقضاء على دولة الإسلام فى الأندلس ، أعظم أمانيها القومية ، مدى حين تلتزم جانب الرواية والاعتدال .

ولما غادر فرناندو وإيسابيلا غرناطة بعد دخولها ، أوصيا حاكمها الجديد الكونت تندليا ( المركيز دى مونتخار فيما بعد ) بالرفق فى معاملة الرعايا الجدد ، والعمل على التقريب بين العناصر . وكان من أثر ذلك فى البداية أن رغب الكثيرون فى البقاء ، واشتروا الرباع العظيمة من الراحلين بأبخس الأثمان(١) . وهناك من جهة أخرى ما يدل على أنه ماكاد يتم تسليم غرناطة حتى بدأ أعيان المسلمين فى بيع أملاكهم وضياعهم إلى القادة والأشراف القشتاليين الذين قدموا للتوطن فى المدينة المفتوحة ، فمثلا باع القائد أبو عبد الله محمد الينشتى إلى القائد القشتالى أندريس قلدرون حديقته ومنزله بباب الفخارين ، وذلك فى جمادى الثانية سنة ٨٩٧ هـ ( مارس ١٤٩٢م ) ؛ وباعت فاطمة بنت أبى القاسم الأبار إلى نفس القائد القشتالى حديقتها الكائنة بربض باب الفخارين ، وذلك فى نفس التاريخ ، وباع عدة آخرون من المسلمين أملاكهم فى مرج غرناطة وفى عين الدمع ، إلى بعض أعيان القشتاليين ، وذلك فى نفس السنة (١٤٩٢م)(٢) . واتخذت الأهبة من جهة أخرى لنقل المسلمين الراغبين فى الهجرة إلى المغرب ، وهاجر كثير من أشراف غرناطة ، وفى مقدمتهم

---

(١) أزهار الرياض ، ج ١ ص ٦٧ .

(٢) راجع : « وثائق عربية غرناطية » الوثائق رقم ١٨١ ( ص ١٣٠ ) ، ورقم ١٨٤ ( ص ١٣٤ ) ورقم ٨٥ ( ص ١٣٥ ) .

بنو سراج وغيرهم من أنجاد غرناطة القدماء، وأقفرت مناطق بأسرها من أعيان المسلمين، ولاسيما منطقة البشرات . وكان تدفق سيل المهاجرين دليلا على أن الشعب المغلوب، لم يكن واثقاً فى ولاء سادته الجدد، وأنه كان ينظر إلى المستقبل بعين التوجس والريب .

ويفصل لنا صاحب أخبار العصر بعض حركات الهجرة التى وقعت على أثر سقوط غرناطة، فيقول لنا إن من بقى من المسلمين فى مالقة عبروا البحر إلى باديس وعبر أهل ألمرية إلى تلمسان ، وعبر أهل الجزيرة الخضراء إلى طنجة ، وعبر أهل رندة وبسطة وحصن موجر وقرية قردوش وحصن مرتيل إلى تطوان وأحوازها، وعبر أهل لوشة وقرية الفخار وبعض أهل غرناطة ومرشانة وأهل البشرّة إلى أراضى قبيلة غمارة ، وعبر أهل بيرة وبرجة وأندرش إلى ما بين طنجة وتطوان، وعبر أهل بلّش إلى سلا ، وخرج كثير من أهل غرناطة إلى بجاية ووهران وقابس وصفاقص وسوسة ، وخرج أهل مدينة طريف إلى آسفى وأزمور[1] .

وقد كان ممن هاجر من غرناطة إلى العدوة عقب سقوطها بقليل جماعة من أهلها برياسة زعيم جندى هو أبو الحسن على المنظرى ( أو المندرى ) وكان من أكابر جند الجيش الغرناطى ، فنزلوا فى موقع قرية مرتيل ( أومرتين) الواقع على البحر على مقربة من تطوان، وكانت يومئذ خربة مهجورة، فاستأذن الأندلسيون سلطان فاس، محمداً الشيخ الوطّاسى ، فى تعميرها وسكناها ، فأذن لهم ، فأقاموا فوق موقعها القديم محلة حصينة بها مسجد وقصبة ، وكان ذلك فى سنة ٨٩٨ ﻫ ( أواخر سنة ١٤٩٢م ) . وفى رواية أخرى أن الأندلسيين الذين عمروا تطوان لأول مرة ، وفدوا إلى العدوة قبل سقوط غرناطة ببضعة أعوام فى سنة ٨٨٨ ﻫ ( ١٤٨٣ م ) ، وأنهم كانوا نحو ستين أو ثمانين . ثم جاء من بعدهم عقب سقوط غرناطة قوم آخرون ، قاموا بتوسيعها وتحصينها ، وعلى أى حال فإن المرجح أن هجرة المنظرى وقومه كانت عقب سقوط غرناطة، وأن هذا الفوج من المهاجرين الأندلسيين هو الذى يجب أن يحسب حسابه فى تعمير تطوان وتحصينها . ومن ذلك الحين تغدو تطوان ملاذا لكثير من الأسر الأندلسية التى أرغمت على التنصير، ثم آثرت الهجرة إلى دار الإسلام فراراً من اضطهاد الإسبان ومحاكم التحقيق ، وعادت إلى دينها القديم ، وما تزال بها أعقابهم إلى اليوم[2] .

---

( ١ ) أخبار العصر ( طبعة العرايش ) ص ٤٨ .

( ٢ ) راجع الإستقصاء للسلاوى (ج ٢ ص١٦٢ ) ، ومختصر تاريخ تطوان للسيد محمد داود =

وهكذا أبدى فرناندو وإيسابيلا فى الأعوام الأولى رفقاً وليناً فى معاملة المسلمين ، ولاح مدى حين أن اسبانيا النصرانية تنوى أن تحافظ على العهود التى قطعت ، وعاش المسلمون بضعة أعوام فى نوع من السكينة والاطمئنان .

ولكن السياسة الإسبانية كانت تخشى دائماً ذلك الشعب الذكى النابه ، وكانت الكنيسة تجيش دائماً بنزعتها الصليبية القديمة ، وتضطرم رغبة فى القضاء على البقية الباقية من الأمة الإسلامية فى اسبانيا ؛ وكانت مملكة غرناطة القديمة ما تزال تضم كتلة مسلمة كبيرة ، تربطها بثغور المغرب صلات وثيقة ، هذا عدا ما كان من جموع المدجّنين فى منطقة بلنسية ، وفى منطقة سرقسطة وغيرها من بلاد أراجون ، وكان كثير من أولئك المدجنين ، إلى ما بعد سقوط غرناطة بأعوام عديدة ، يحتفظون بدينهم الإسلامى . وكان وجود هذه الكتلة المسلمة فى قلب اسبانيا النصرانية ، شغلا شاغلا للسياسة الإسبانية .

والظاهر أن السياسة الإسبانية ، لبثت مدى حين مترددة فى انتهاج المسلك الذى تسلكه إزاء المسلمين ، وقد كانوا من أهم عوامل النشاط والرخاء والعرفان فى اسبانيا ، وكانت براعتهم قدوة فى الزراعة والصناعة والعلوم والفنون ، وخلالهم قدوة فى النشاط والمثابرة والزهد والعفة والرفق ، وكانوا على الجملة من أفضل

---

= ( ص ١٤ – ١٧ ) . وقد أتيح لى أن أزور تطوان غير مرة ، أن أتجول فى ربوعها القديمة ، وهى اليوم تكون القسم الشرقى والشمالى من مدينة تطوان الحديثة ، وما تزال بها بقايا المسجد والقصبة المنسوبين لأبى الحسن المنظرى . وقد علمت من صديقى العلامة السيد محمد داود مؤرخ تطوان ، أنه ما يزال يوجد بها إلى اليوم كثير من أعقاب الأسر الموريسكية القديمة ، ما تزال تحمل أسماءها الموريسكية معربة لا تبغى بها بديلا لأنها عنوان الأرومة الأندلسية . وإليك طائفة من هذه الأسماء نوردها كما تثبت بالعربية ، ونورد مقابلها الإسبانى :

ملينة ( **Molina** ) . أولاد مرتين ( **Martin** ) . مدينة ( **Medina** ) . مراريش (**Morales**) . الطريس(**Las Torres**) . صالص (**Salas**) . برميخو (**Bermejo**) . مرشينة (**Marchina**) . قسطيلية (**Castillo**) . بايص (**Paez**) . الركينة (**Requina**) . لوقش (**Lucas**) . راغون (**Aragon**) .

وفى معظم مدن المغرب الأخرى مثل الرباط وسلا والدار البيضاء ومراكش وفاس وغيرها ، يوجد أعقاب كثير من الأسر الموريسكية . يحملون حتى اليوم ألقابهم الموريسكية القديمة معربة . وقد أورد لنا صاحب كتاب « مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح » جملة كبيرة منها ، مثل أسر بركاش . وبلافريج . ونكيطو . وملاط . ودنية . والرندة . وملين . ومرينو . واشكلانط . ربلانيو . وإبيرو . ولباريس . وكريسبو . وكيلطو . ومربيش . ورودياس . وبلامينو . وباينة . وبونو . والقسطالى . وفرتون . وقديره . وفلوريش . وغيرها ( الكتاب المذكور ص ٢١٥ ) .

العناصر الذين يمكن أن تضمهم دولة متمدنة[1] . ولكن الكنيسة كانت تضطرم حماسة فى سبيل تحقيق مثلها ، ولم تكن السياسة الإسبانية فى تلك الفترة من تاريخ اسبانيا سوى أداة لينة فى يد الكنيسة ، التى بلغت عندئذ ذروة قوتها ونفوذها .

ويصف لنا مؤرخ اسبانى عاش قريباً من ذلك العصر ، نيات الكنيسة نحو المسلمين فى قوله : « إنه منذ استولى فرناندو على غرناطة ، كان الأحبار يطلبون إليه بإلحاح ، أن يعمل على سحق طائفة محمد من اسبانيا ، وأن يطلب إلى المسلمين الذين يودون البقاء ، إما التنصير ، أو بيع أملاكهم والعبور إلى المغرب ؛ وأنه ليس فى ذلك خرق للعهود المقطوعة لهم ، بل فيه إنقاذ لأرواحهم ، وحفظ لسلام المملكة ، لأنه من المستحيل أن يعيش المسلمون فى صفاء وسلام مع النصارى ، أو يحافظون على ولائهم للملوك ، ما بقوا على الإسلام ، وهو يحثهم على مقت النصارى أعداء دينهم »[2] .

ولم نكن هذه السياسة فى الواقع بعيدة عما يخالج ملكى اسبانيا ، فرناندو الخامس وزوجه الملكة المتعصبة إيسابيلا الكاثوليكية ، من شعور نحو المسلمين ، ولم تكن العهود التى قطعت للمسلمين بتأمينهم فى أنفسهم وأموالهم ، واحترام دينهم وشعائرهم ، لتحول دون تحقيق أغراض السياسة القومية . ذلك أن فرناندو لم يحجم قط عن أن يقطع العهود والمواثيق متى كانت سبيلا لتحقيق مآربه ، وأن يسبغ على سياسته الغادرة ثوب الدين والورع ، ولكنه لم يعتبر نفسه قط ملزماً بعهود يقطعها متى أصبحت تعارض سياسته وغاياته .

ويعلق النقد الغربى الحديث على ذلك بقوله : « ولو نفذت هذه العهود ( العهود التى قطعت لمسلمى غرناطة ) بولاء ، لتغير مستقبل اسبانيا كل التغيير ، ولحمع الامتزاج الرفيق بين الأجناس ، ولغاض الإسلام مع الزمن ، ولتفوقت المملكة الإسبانية فى فنون الحرب والسلم ، وتوطدت قوتها ورخاؤها . ولكن ذلك كان غريباً على روح العصر الذى انقضى ، وأفضى التعصب والجشع إلى المطاردة والظلم ، وأنزلت الكبرياء القشتالية بالمغلوبين ذلة مروعة ، فاتسعت الهوة بين الأجناس على كر الزمن ، حتى استعصى الموقف ، وأدى إلى علاج كان من جرائه أن تحطم رخاء اسبانيا »[3] .

---

(١) Dr. Lea : The Moriscos ; p. 7

(٢) Luis del Marmol : Rebelión y Castigo de los Moriscos de Granada ; Lib. I Cap. XXII

(٣) Dr. Lea : The Moriscos, p. 22

وأخذت سياسة الإرهاق تجرف فى طريقها كل شىء ، ونشط ديوان التحقيق ، (Inquisition) أو الديوان المقدس ، يدعمه وحى الكنيسة وتأييد العرش ، إلى مزاولة قضائه المدمر . وكانت مهمة هذه المحاكم الكنسية المروعة أن تعمل على حماية الدين (الكثلكة) ، ومطاردة الكفر والزيغ بكل ما وسعت ، وكان جل ضحاياها فى البداية من اليهود والمسلمين ، ثم الموريسكيين أو العرب المتنصرين . وسنعرض فى فصل خاص إلى تاريخ هذه المحاكم وإجراءاتها ووسائلها ، التى تنافى كل عدالة وكل قضاء متمدن .

وهكذا فإنه لم تمض بضعة أعوام على تسليم غرناطة ، حتى بدت نيات السياسة الإسبانية واضحة نحو المسلمين ، وكانت الكنيسة تحاول خلال ذلك أن تعمل لتحقيق غايتها أعنى تنصير المسلمين بالوعظ والإقناع ، ومختلف وسائل التأثير المادية ، ولكن هذه الجهود لم تسفر عن نتائج تذكر ، فجنحت الكنيسة عندئذ إلى سياسة العنف والمطاردة ، وأذعنت السياسة الإسبانية لوحى الكنيسة ، ولم تذكر ما قطعت من عهود مؤكدة للمسلمين باحترام دينهم وشعائرهم . وكان روح هذه السياسة العنيفة حبران كبيران ، هما الكردينال خمنيس مطران طليطلة ، ورأس الكنيسة الإسبانية ، والدون ديجو ديسا «المحقق العام» لديوان التحقيق[1] .

وحاولت السياسة الإسبانية من جانبها أن تسبغ على هذه التصرفات ثوب الحق والعدالة ، فأخذت فى تحوير العهود والنصوص التى تضمنتها معاهدة التسليم ، وتعديلها وتفسيرها بطريق التعسف والتحكم ، ثم خرقها نصاً فنصاً ، واستلاب الحقوق والضمانات الممنوحة تباعاً ، فأغلقت المساجد ، وحظر على المسلمين إقامة شعائرهم ، وانتهكت عقائدهم وشريعتهم[2] . وأدرك المسلمون ما ترمى إليه السياسة الكنسية من محو دينهم ولغتهم وشخصيتهم ، ودوت فى آذانهم تلك الكلمة الخالدة والنبوءة الصادقة ، التى ألقاها إليهم فارس غرناطة يوم اعتزموا التسليم للعدو :

« أتعتقدون أن القشتاليين يحفظون عهودهم ، وأن يكون لهذا الملك الظافر من الشهامة والكرم ما له من حسن الطالع ؟ لشد ما تخطئون . إنهم جميعاً ظمئون إلى دمنا ، والموت خير ما تلقون منهم ، إن ما ينتظركم شر الإهانات ، والانتهاك والرق ؛

---

(١) كان المحقق العام **General Inquisitor** وهو قاضى قضاة الديوان ، يمثل يومئذ أعظم السلطات الدينية والقضائية فى اسبانيا .

(٢) أخبار العصر ص ٥٤ .

ينتظركم نهب منازلكم ، واغتصاب نسائكم وبناتكم ، وتدنيس مساجدكم ، تنتظركم المحارق الملتهبة ، لتجعل منكم حطاماً هشيما » .

وكان فرناندو يخشى فى البداية عواقب التسرع فى تنفيذ هذه السياسة ، لأن الأمن لم يكن قد توطد بعد فى المناطق المفتوحة ، ولأن المسلمين لم ينزع سلاحهم تماماً ، وقد يؤدى الضغط إلى الثورة ، فتعود الحرب كما كانت. ولكنه انتهى إلى الخضوع لرأى الكنيسة ، واستدعى الكردينال خمنيس إلى غرناطة ليعمل على تحقيق مهمة تنصير المسلمين ، فوفد عليها فى شهر يوليه سنة ١٤٩٩ (٩٠٥هـ) ، ودعا أسقفها الدون تالافيرا إلى اتخاذ وسائل فعالة لتنصير المسلمين ، وأمر بجمع فقهاء المدينة ودعاهم إلى اعتناق النصرانية ، وأغدق عليهم التحف والهدايا ، فأقبل بعضهم على التنصير ، وتبعهم جماعة كبيرة من العامة ، واستعمل الوعد والوعيد والبذل والإرغام ، فى تنصير بعض أعيان المسلمين .

وكان قد اعتنق النصرانية قبيل سقوط غرناطة وبعدها ، جماعة من الأمراء والوزراء ، وفى مقدمتهم الأميران سعد ونصر ، ولدا السلطان أبى الحسن من زوجه النصرانية البزابيث دى سوليس المعروفة باسم ثريا ، فقد تنصرا ومنحا ضياعاً فى أرجبة ، وتسمى أحدهما باسم « الدوق فرناندو دى جرانادا » (أى صاحب غرناطة) ، وخدم قائداً فى الجيش القشتالى ، واشتهر بغيرته فى خدمة العرش ، وتسمى الثانى باسم « دون خوان دى جرانادا »[1] . وتنصر سيدى يحيى النيار قائد ألمرية وابن عم مولاى الزغل ، عقب تسليمه لألمرية ، وتسمى باسم « الدون بيدرو دى جرانادا » وتنصرت زوجه السيدة مريم ابنة الوزير بنيغش ، وتنصر ابنه على ، باسم « الدون ألونسو دى جرانادا ڤنيجاس » ، وتزوج من دونيا خوانا دى مندوثا وصيفة الملكة . وتنصر الوزير أبو القاسم بن رضوان بنيغش ، ومعظم أفراد أسرته ، وعادت أسرته تحمل لقبها القشتالى القديم Los Venegas ، واشتهرت فى تاريخ اسبانيا الحديث ، وأنجبت كثيراً من أكابر القادة والأحبار. ونصر آل الثغرى الذين اشتهروا فى الدفاع عن مالقة وغرناطة قسرا ، وسمى عميدهم باسم « جونثالڤو فرنانديث ثجرى » ، وتنصر الوزير يوسف بن كماشه وانتظم فى سلك الرهبان . وهكذا اجتاحت موجة التنصير كثيراً من الأكابر والعامة معاً .

وتمركزت حركة التنصير فى غرناطة بالأخص فى حى البيّازين ، حيث حول

---

(١) Hernando de Baeza : ibid, p. 65

مسجده فى الحال إلى كينسة سميت باسم « سان سلبادور »[1]. واحتج بعض أكابر المسلمين على هذه الأعمال ، ولكن ذهب احتجاجهم وتمسكهم بالعهود المقطوعة سدى. وثار أهل البيازين وتحصنوا بحيهم، ونددوا بخرق العهود ، فبذل الكردينال خمنيس وحاكم المدينة ، جهوداً فادحة لإقناعهم بالهدوء والسكينة ، وبذلا لهم من التأكيدات والضمانات الكلامية ما شاءوا[2] .

ولم يقف الكردينال خمنيس عند تنظيم هذه الحركة الإرهابية ، التى انتهت بتوقيع التنصير المغصوب ، على عشرات الألوف من المسلمين ، ولكنه قرنها بارتكاب عمل بربرى شائن ، هوأنه أمر بجمع كل ما يستطاع جمعه من الكتب العربية من أهالى غرناطة وأرباضها ، ونظمت أكداساً هائلة فى ميدان باب الرملة، أعظم ساحات المدينة ، ومنها كثير من المصاحف البديعة الزخرف ، وآلاف من كتب الآداب والعلوم ، وأضرمت النيران فيها جميعاً ، ولم يستثن منها سوى ثلاثمائة من كتب الطب والعلوم ، حملت إلى الجامعة التى أنشأها فى مدينة ألكالا دى هنارس[3] ، وذهبت ضحية هذا الإجراء الهمجى عشرات ألوف من الكتب العربية ، هى خلاصة ما بقى من تراث التفكير الإسلامى فى الأندلس[4] .

ولسنا نحن فقط الذين نصف عمل خمنيس بالبربرية والهمجية ، بل قالها ويقولها مفكرو الغرب أنفسهم ، فمثلا يشير العلامة الإيطالى الأب سكياپرللى Schiaparelli فى مقدمة إحدى كتبه إلى « التعصب الكاثوليكى ، وثورات خمنيس

---

(١) ما تزال كنيسة « سان سلبادور » **San Salvador** ، تقوم حتى اليوم على موقع مسجد البيازين القديم ، وما تزال توجد فى مؤخرتها بعض عقود المسجد القديمة .

(٢) **Luis del Marmol : ibid, I. Cap. XXIII**

(٣) **Alcalâ de Henares** ، وتسمى فى الرواية العربية بقلعة عبد السلام أوقلعة النهر لوقوعها على نهر هنارس ، أحد أفرع نهر التاجه ، وهى تقع فى جنوب غربى وادى الحجارة فى منتصف المسافة بينها وبين مدريد .

(٤) مختلف المؤرخون الإسبان فى تقدير عدد الكتب العربية التى ذهبت ضحية هذا الإجراء ، فيقدرها دى روبلس **E, de Robles** ، الذى كتب بعد ذلك بقرن كتاباً عن حياة الكردينال خمنيس، **Compenido de la Vida y Hazanas del Cardinal Ximenez** ، بمليون وخمسة آلاف كتاب. ويقدرها برمندث دى بدرانا **B. de Pedraza** الذى كتب بعده بقليل ، بمائة وخمسة وعشرين ألفاً فى كتابه **Historia Eclesiastica de Granada** ، ويقدرها البعض الآخر بخمسة آلا ف فقط ، ويقدرها كوندى بثمانين ألفاً ، وربما كان تقديره أقرب إلى المعقول . راجع **Prescott : Ferd. and Isabella .p 451 - 53 & notes.**

الكردينال خمنيس دى سيسنيروس

البربرية ، التى ترتب عليها حرق المصاحف والكتب الإسلامية الأخرى لمسلمى غرناطة ، وذلك لكى يتوسل بذلك إلى تنصيرهم » .

ويقول المؤرخ الأمريكى وليم پرسكوت : « إن هذا العمل المحزن لم يقم به همجى جاهل ، وإنما حبر مثقف ، وقد وقع لا فى ظلام العصور الوسطى ، ولكن فى فجر القرن السادس عشر ، وفى قلب أمة مستنيرة ، تدين إلى أعظم حد بتقدمها إلى خزائن الحكمة العربية ذاتها »(١) .

ثم يشير إلى ما ترتب على هذا العمل بقوله : « لقد غدت الآداب العربية نادرة فى مكتبات نفس البلد الذى نشأت فيه ، وإن الدراسات العربية التى كانت من قبل زاهرة فى اسبانيا ، حتى فى العصور الأقل لمعاناً ، انهارت لأنها عدمت غذاء يؤدها ؛ وهكذا كانت النتائج المحزنة للمطاردة الأدبية ، التى يراها البعض أشد تقويضاً من تلك التى توجه إلى الحياة ذاتها » .

على أن هذا العمل الذى يثير غضب النقد الغربى الحديث وزرايته ، يجد مع ذلك بين العلماء الإسبان من يبرره بل ويمجده . وقد تولى المستشرق سيمونيت الدفاع عن الكردينال خمنيس ، الذى يصفه بأنه أحد أمجاد الكنيسة الإسبانية ، فى رسالة عنوانها : « الكردينال خمنيس دى سيسنيروس والمخطوطات العربية الغرناطية »(٢) يقول فيها ، إن ما قام به الكردينال من حرق الكتب أمر لا غبار عليه ، إذ هو إعدام للشئ الضار ، وهو بالعكس أمر محمود ، كما تعدم عناصر العدوى وقت الوباء ، وإن الملكين الكاثوليكيين قد أمرا عقب تنصير المسلمين أن تؤخذ منهم كتب الشريعة والدين ، لكى تحرق فى سائر مملكة غرناطة ، وألا يبقى لديهم سوى الكتب التى لا علاقة لها بالدين الذى نبذوه ، وإن تأجيل تنفيذ هذا الأمر حتى عهد الملكة خوانا ، كان تسامحاً وتساهلا ، وقد استشارت الملكة مجلسها ، وأصدرت بتاريخ ٢٠ يونيه سنة ١٥١١ أمراً ملكياً ، تلزم فيه جميع السكان الذين تنصروا حديثاً ، سواء فى غرناطة أوغيرها من نواحى مملكة غرناطة ، أن يسلموا سائر الكتب العربية التى لديهم سواء فى الدين أوالشريعة أوكتب الطب والفلسفة والتاريخ أو غيرها إلى قاضى الجهة ، وذلك فى ظرف خمسين يوماً من تاريخ هذا الأمر ،

(١) W. Prescott : ibid, p. 453 & 454

(٢) F. Javier Simonet : El Cardinal Ximenez de Cisneros y los Manuscritos Arabigo - Granadinos

لكى يفحصها القضاة ، وتؤخذ منها كتب الدين والسنة ، ويرخص القضاة بعد ذلك بحيازة غيرها .

ويدافع سيمونيت عن تصرف الكردينال خمنيس بحماسة ، ويقول إن إحراقه للكتب ، يمكن أن يقارن بما وقع من أعمال مماثلة خلال الثورات الحديثة ، منذ البروتستانتية الإنجليزية والألمانية إلى الثورة الفرنسية ، وأنه خلال هذه الثورات ، قد أحرق أو أتلف كثير من الآثار الأدبية والفنية فى كثير من البلاد الأوربية ، وأنه لا يمكن مقارنة عمل خمنيس ، بما وقع من إحراق مكتبة الإسكندرية (المزعوم) ، بأمر الخليفة عمر ، وأن معظم الكتب العربية قد أخرج من اسبانيا مع الهجرة ، ومع من هاجروا من المسلمين من القواعد الأندلسية المختلفة ، وأخيراً أن كثيراً منها قد جمع أيام الملك فيليب الثانى وأودع بقصر الإسكوريال(١) .

ذلك هو ملخص رسالة المستشرق سيمونيت فى الدفاع عن تصرف الكردينال خمنيس ، وهو دفاع يبدو ركيكاً مصطنعاً إزاء أحكام النقد الغربى المستنير ، وتطبعه نزعة تحيز وتعصب واضحة ، تبدو فى كل ما كتبه هذا العلامة الإسبانى عن الأمة الأندلسية ، وهو لا يمكن مهما أسبغ عليه من المقارنات ، أن يزيل أثر هذه الوصمة المشينة من حياة خمنيس ، أو من التاريخ الإسبانى .

ولنعد إلى حديث تنصير المسلمين ، فنقول إن ما حدث فى غرناطة ، حدث فى باقى البلاد والنواحى الأخرى ، فنصر أهل البشرّات والمرية وبسطة ووادى آش فى العام التالى ، أعنى فى سنة ١٥٠٠ ، وعم التنصير سائر أنحاء مملكة غرناطة . على أن هذه الحركة التى نظمت لتنصير بقية الأمة الأندلسية والتى لم تدخر فيها أساليب الوعود والوعيد والإغراء والإكراه ، لم تقع دون قلاقل واضطرابات عديدة حسبما نفصل بعد .

وكان الإغراء بالتنصير يتخذ أحياناً ، شكل هبات ومنح جماعية لبلدة أو منطقة بأسرها ، كما حدث بالنسبة لأهل وادى ألكرين ( الإقليم ) ولانخرون والبشرّات ، فقد أصدر الملكان الكاثوليكيان مرسوماً ( فى ٣٠ يوليه سنة ١٥٠٠ ) بإبراء سائر أهالى النواحى المذكورة ، الذين تنصروا أو يتنصرون ، من جميع الحقوق والتعهدات المفروضة على الموريسكيين لصالح العرش ، ورفعها عن منازلهم وأراضيهم وسائر أملاكهم المنقولة والثابتة ، وهبتهما لهم ، وإلغاء ضريبة الرأس

---

(١) Simonet : ibid, p. 3, 8-10, 17, 18, 20-27 & 31

المفروضة عليهم لمدة ست سنوات ، وإقالتهم من الغرامة التى فرضت عليهم من جراء ثورتهم ، وقدرها خمسون ألف دوقية ، هذا إلى منح وإبراءات أخرى تضمنها المرسوم المشار إليه[١] .

وصدر كذلك مرسوم مماثل من الملكين الكاثوليكيين فى ٣٠ سبتمبر سنة ١٥٠٠ ، إلى « المسلمين » القاطنين بحيهم Moreria بمدينة بسطة ، بإقالة الذين تنصروا منهم أو يتنصرون ، من جميع الفروض والمغارم التى فرضت على الموريسكيين ، وتحريرهم منها سواء بالنسبة لأنفسهم أو منازلهم وأموالهم الثابتة والمنقولة من يوم التنصير ، وألا يدخل أحد منازلهم ضد إرادتهم ، ومن فعل عوقب بغرامة فادحة ، وأن يعفوا من سائر الذنوب التى ارتكبت ضد خدمة العرش ، وأن تحترم جميع العقود والمحررات التى كتبت بالعربية ، وصادق عليها فقهاؤهم وقضاتهم ، وأن يعامل المتنصرون منهم كسائر النصارى الآخرين فى بسطة ، ولهم أن ينتقلوا وأن يعيشوا فى أى مكان آخر من أراضى مملكة قشتالة ، دون قيد أو عائق ، إلى غير ذلك من المنح والامتيازات[٢] .

وصدر أخيراً مرسوم بالعفو عن جميع سكان « حى المسلمين » Moreria بغرناطة والقرى الملحقة بها ، بالنسبة لجميع الذنوب والأخطاء ، التى ارتكبت حتى يوم تنصيرهم ، وألا يتخذ فى شأنها أى إجراء ، سواء ضد أشخاصهم أو أملاكهم[٣] .

ولم تقدم الرواية الإسلامية المعاصرة إلينا كثيراً من التفاصيل عن هذه الحوادث والتطورات ، ولكنها تكتفى بأن تجمل مأساة تنصير المسلمين فى هذه الكلمات المؤثرة :

« ثم بعد ذلك دعاهم ( أى ملك قشتالة ) إلى التنصير ، وأكرههم عليه وذلك فى سنة أربع وتسعمائة ، فدخلوا فى دينهم كرهاً ، وصارت الأندلس كلها نصرانية ، ولم يبق فيها من يقول « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » إلا من يقولها فى قلبه ، وفى خفية من الناس ، وجعلت النواقيس فى صوامعها بعد الأذان ، وفى مساجدها الصور والصلبان ، بعد ذكر الله وتلاوة القرآن ، فكم فيها من عين باكية وقلب حزين ، وكم فيها من الضعفاء والمعذورين ، لم يقدروا على الهجرة واللحوق بإخوانهم المسلمين ، قلوبهم تشتعل ناراً ، ودموعهم تسيل سيلا غزيراً ، وينظرون إلى

---

(١) يحفظ هذا المرسوم بدار المحفوظات الإسبانية العامة Archivo general de Simancas برقم P. R 11 - 98 ، وقد حصلنا منه على صورة فتوغرافية .

(٢) Archivo general de Simancas : P. R. 11 - 107

(٣) Arch. gen. Leg. 28 ; Fol. 22

أولادهم وبناتهم يعبدون الصلبان ، ويسجدون للأوثان ، ويأكلون الخنزير والميتات ، ويشربون الخمر التى هى أم الخبائث والمنكرات ، فلا يقدرون على منعهم ولا على نهيهم ، ولاعلى زجرهم ، ومن فعل ذلك عوقب بأشد العقاب ، فيالها من فجيعة ما أمرها ، ومصيبة ما أعظمها ، وطامة ما أكبرها » . ثم يختتم بقوله : « وانطفأ من الأندلس الإسلام والإيمان ، فعلى هذا فليبك الباكون ، ولينتحب المنتحبون ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، كان ذلك فى الكتاب مسطورا ، وكان أمر الله قدراً مقدورا »[1] .

ونقل إلينا المقرى نبذة من رسالة أخرى ، يشير كاتبها إلى تنصير مسلمى الأندلس فيما يلى :

« وتعرفنا من غير طريق ، وعلى لسان غير فريق ، أن قطر الأندلس طرق أهله خطب لم يجد فى سالف الدهر. وذلك أنهم أكرهوا بالقتل إن لم يقع منهم النطق بما يقتضى فى الظاهر الكفر ، ولم يقبل منهم الأسر. وكان الابتداء فى ذلك من أهل غرناطة ، وخصوصاً أهل واسطتها لقلة الناس ، وكونهم من الرعية الدهماء ، مع عدم العصبية بسبب اختلاف الأجناس ، وعلم النصارى بأن من بقى بها من المسلمين إنما هم أسارى فى أيديهم ، وعيال عليهم ، وبعد أن انتزعوا منهم الأسلحة والمعاقل ، وعتوا فيهم بالخروج والجلاء ، فلم يبق من المسلمين طائل ، ونقض اللعين طاغية النصارى عهوده ، ونشر بمحض الغدر بنوده .... الخ »[2] .

وجاء فى رواية أخرى هذا الوصف لمأساة التنصير : « إن طاغية قشتالة وأرغون صدم غرناطة صدمة ، وأكره على الكفر من بقى بها من الأمة ، بعد أن هيض جناحهم ، وركدت رياحهم ، وجعل بعد جنده الخاسر على جميع جهات الأندلس ينثال ، والطاغية يزدهى فى الكفر ويختال ، ودين الإسلام تنثر بالأندلس نجومه ، وتطمس معالمه ورسومه ؛ فلو رأيتم ما صنع الكفر بالإسلام بالأندلس وأهليه ، لكان كل مسلم يندبه ويبكيه ، فقد عبث البلاء برسومه ، وعفى على أقماره ونجومه ، ولو حضرتم من جبر بالقتل على الإسلام ، وتوعد بالنكال والمهالك العظام ، ومن كان يعذب فى الله بأنواع العذاب ، ويدخل به من الشدة فى باب ويخرج من باب ، لأنساكم مصرعه ، وساءكم مقطعه ، وسيوف النصارى

---

(١) أخبار العصر ص ٥٤ و ٥٥ و ٥٦ .

(٢) أزهار الرياض ج ١ ص ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١

إذ ذاك على رؤوس الشرذمة القليلة من المسلمين مسلولة ، وأفواه الذاهلين محلولة ، وهم يقولون : ليس لأحد بالتنصر إن يمطل ، ولا يلبث حيناً ولا يمهل ، وهم يكابدون تلك الأهوال ، يطلبون لطف الله على كل حال » .

وقد تردد صدى هذه المحنة التى نزلت بمسلمى الأندلس بسرعة سائر فى جنبات العالم الإسلامى ، فنرى ابن إياس مؤرخ مصر ، وهو راوية معاصر ، يدون فى حوادث صفر سنة ٩٠٦ ﻫ ( أغسطس سنة ١٥٠٠ م ) أعنى عقب محنة التنصير بأشهر قلائل ما يأتى : « وفيه جاءت الأخبار من المغرب بأن الفرنج قد استولوا على غرناطة التى هى دار ملك الأندلس ، ووضعوا فيها السيف بالمسلمين ، وقالوا من دخل ديننا تركناه ، ومن لم يدخل قتلناه ، فدخل فى دينهم جماعة كثيرة من المغاربة خوفاً على أنفسهم من القتل ، ثم ثار عليهم المسلمون ثانياً وانتصفوا عليهم بعض شىء ، واستمر الحرب ثائراً بينهم ، والأمر لله تعالى فى ذلك »(١) .

أما المسلمون الذين بقوا فى مملكة البرتغال ، فقد كان مصيرهم فيما يبدو أفضل من مصير إخوانهم مسلمى الأندلس . فقد قضى العرش البرتغالى بإخراجهم من أراضى المملكة فى سنة ١٤٩٦م ، والسماح لهم بالعبور إلى المغرب أو إلى حيث شاءوا ، ونظراً لما لقوه من صعاب فى اختراق الأراضى الإسبانية ، فقد أصدر الملكان الكاثوليكيان ، تحقيقاً لرغبة ملك البرتغال ، مرسوماً ( فى ابريل سنة ١٤٩٧ ) يصرح فيه للمسلمين البرتغاليين ونسائهم وأولادهم وخدمهم ، أن يخترقوا أراضى مملكة قشتالة ، وأن يذهبوا بأموالهم وأمتعتهم إلى البلاد الأخرى ، وأن يبقوا فى أراضى قشتالة الوقت الذى يرغبون ثم يغادرونها بأموالهم متى شاءوا ، وفقط لا يسمح لهم بحمل الذهب والفضة إلى الخارج ، ويؤمنون فى أنفسهم وأموالهم ضد كل اعتداء ولا يؤخذ منهم شىء بلا حق(٢) .

* * *

تلك هى المأساة التى استحالت فيها بقية الأمة الأندلسية بالتنصير المفروض ، إلى طائفة جديدة ، عرفت من ذلك التاريخ بالموريسكيين Moriscos ، أو المسلمين الأصاغر أو العرب المتنصرين(٣) . وقد فرض التنصير على المسلمين فرضاً ، ولم تحجم

---

( ١ ) ابن إياس ( بولاق ) ج ٢ ص ٣٩٢ .

( ٢ ) **Arch. gen. de Simancas, P.R. Leg. 28 Fol. 3**

( ٣ ) **Moriscos** هى تصغير كلمة **Moros** ، ومعناها المسلمون أو العرب الأصاغر ، رمزاً إلى ما انتهت إليه الأمة الأندلسية من السقوط والانحلال .

السلطات الكنسية والمدنية ، عن اتخاذ أشد وسائل العنف . ولم يستكن المسلمون إلى هذا العنف دون تذمر ودون مقاومة ، وسرت إليهم أعراض الثورة ولاسيما فى المناطق الجبلية ، حيث كان ما يزال ثمة قبس من الحماسة الدينية . وكانت السياسة الإسبانية تلتمس الوسيلة للتخلص نهائياً من العهود المقطوعة ، فألفت فى التذمر والمقاومة سندها ، وقرر مجلس الدولة بأن المسلمين أصبحوا خطراً على الدين والدولة ، ولاسيما بعد ما تبين من جنوحهم إلى الثورة ، ومحاولتهم الاتصال بإخوانهم فى المغرب ومصر وقسطنطينية ، وقضى بوجوب اعتناق المسلمين للنصرانية ، ونفى المخالفين منهم من الأراضى الإسبانية . وهكذا حاول مجلس الدولة أن يسبغ صفة الحق والعدالة على التنصير المغصوب ، وعلى كل ما يتخذ لتحقيقه من إجراءات العسف والإرهاق .

وقع هذا القرار على المسلمين وقع الصاعقة ، وسرعان ماسرت إليهم الحمية القديمة ، فاعلنوا الثورة فى معظم نواحى غرناطة ، وفى ربض البيّازين وفى البشرّات واشتد الهياج بالأخص فى بلفيق ، وفى أندرش حيث نسف حاكم البلدة مسجدها بالبارود ، وفى نيخار وجوبخار وغيرها ، واعتزم المسلمون الموت فى سبيل دينهم وحريتهم ، ولكنهم كانوا عزلا ، وكانت جنود النصرانية صارمة شديدة الوطأة فمزقتهم بلا رأفة ؛ وكثر بينهم القتل ، وسبيت نساؤهم ، وقضى بالموت على مناطق بأسرها ، ما عدا الأطفال الذين دون الحادية عشرة ، فقد حولوا إلى نصارى . وحمل التعلق بالوطن وخوف الفاقة وهموم الأسرة ، كثيراً منهم على الإذعان والتسليم ، فقبلوا التنصير المغصوب ملاذاً للنجاة ؛ ولجأت الحكومة بعد إخماد الهياج فى غرناطة والبيازين إلى أساليب الرفق ، فبعثت بالعمال والقسس فى مختلف الأنحاء ، ولم يدخر هؤلاء وسعاً فى اجتذاب المسلمين بالوعيد والوعود ، وهكذا ذاع التنصر فى سائر مملكة غرناطة القديمة(١) .

وفى الوقت نفسه اضطر المسلمون المدجّنون فى آبلة وسمورة ، وبلاد أخرى فى جلّيقية ، إلى اعتناق النصرانية ، وكانوا حتى ذلك الوقت يحتفظون بدينهم القديم .

ونشط فرناندو إلى إخماد الهياج حيث يقع . وفى الوقت الذى غدا فيه التنصير أمراً محتوماً ، وأضحى فرناندو يعتبر نفسه فى حل من عهوده المقطوعة للمسلمين ، تقدم إليه ديسا المحقق العام بوجوب إنشاء ديوان للتحقيق فى غرناطة ، لكى يعاون على

(١) Marmol : ibid, l. Cap. XXVII ، وكذلك Prescott : ibid ; p. 462

مطاردة الزيغ بوسائله الفعالة . فألفت لجنة ملكية للتحقيق فى حوادث غرناطة ، وقبض على كثير من المسلمين بتهمة التحريض ، وهرع آلاف أخر منهم إلى اعتناق النصرانية خيفة السجن والمطاردة . وعارض فرناندو وإيسابيلا فى إنشاء ديوان التحقيق فى غرناطة ذاتها ، واقترحا أن تحال شئونها إلى اختصاص ديوان التحقيق فى قرطبة ، وألا يقدم المسلمون أو الموريسكيون إلى الديوان إلا لتهم خطيرة، ولكن الكنيسة لم تقنع باتخاذ الإجراءات الجزئية ، ومضت تعمل لغايتها الشاملة . وكان فرناندو من جهة أخرى لا يزال يتوجس من المسلمين شراً ، ويرى فى منطق الكنيسة قوة ، وهو أن احتفاظ المسلمين بدينهم يقوى الروابط بينهم وبين إخوانهم فى إفريقية ، وأن اسبانيا ما تزال تضم بين جوانحها عدواً يخشى بأسه ، وأن فى تنصير المسلمين أو إخراجهم من اسبانيا ، سلام اسبانيا ونقاء دينها .

وكانت الكلمة للكنيسة دائماً، ففى ٢٠ يوليه سنة ١٥٠١ أصدر فرناندو وإيسابيلا أمراً ملكياً خلاصته « أنه لما كان الله قد اختارهما لتطهير مملكة غرناطة من الكفرة » فإنه يحظر وجود المسلمين فيها ، فإذا كان بها بعضهم فإنه يحظر عليهم أن يتصلوا بغيرهم ، خوفاً من أن يتأخر تنصيرهم ، أو بأولئك الذين نصروا لئلا يفسدوا إيمانهم ، ويعاقب المخالفون بالموت أو مصادرة الأموال .

وحاول المسلمون فى يأسهم أن يلجأوا إلى معاونة سلطان مصر ، فأرسلوا إليه كتبهم يصفون إكراههم على التنصر ، ويطلبون إليه أن ينذر ملك اسبانيا بأنه سوف ينكل بالنصارى المقيمين فى مملكته ، إذا لم يكف عنهم ، فنزل سلطان مصر عند هذه الرغبة ، وأرسل إلى فرناندو يخطره بما تقدم ؛ وانتهز فرناندو هذه الفرصة فأوفد إلى بلاط القاهرة ( سنة ١٥٠١ ) سفارته التى تحدثنا عنها فيما تقدم والتى كان سفيره فيها بيترو مارتيرى الحبر الكاتب والمؤرخ . فأدى مارتيرى سفارته ببراعة ، واستطاع أن يقنع السلطان بما يلقاه مسلمو الأندلس من الرعاية ، وأن يطمئنه على مصيرهم[1] .

وهكذا خبت آمال المسلمين تباعاً ، ولم تصمد الثورة إلا فى المنطقة الجبلية الواقعة بين آكام ثليا لونجا وسيرّا ڤرمليا ( الجبال الحمراء ) بجوار رندة ، حيث احتشدت بعض البطون المغربية ، وحيث استطاع الثوار أن يقتحموا شعب الجبال ، وأن يفتكوا بعمال الحكومة وجندها . وسير فرناندو إلى تلك المنطقة حملة قوية تحت

---

(١) راجع : Prescott : ibid ; p. 287 ؛ وكذلك Dr. Lea : The Moriscos, p. 36

إمرة قائده الشهير ألونسو دى آجيلار دوق قرطبة ، ونفذ الجند الإسبان إلى شعب ڤليا لونجا ، ووقعت الواقعة الحاسمة بين المسلمين والنصارى ، فهزم النصارى هزيمة فادحة وقتل منهم عدد جم ، وكان قائدهم آجيلار وعدة آخرون من السادة الأكابر ، فى مقدمة القتلى ( مارس سنة ١٥٠١ ) .

فكان لهذه النكبة التى نزلت بالجنود الإسبان وقوادهم ، أعمق وقع فى البلاط الإسبانى . وهرع فرناندو إلى غرناطة ، ورأى بالرغم مما كان يحدوه من عوامل السخط والانتقام ، أن يجنح إلى اللين والمسالمة ، فأعلن العفو عن الثوار بشرط أن يعتنقوا النصرانية فى ظرف ثلاثة أشهر ، أويغادروا اسبانيا تاركين أملاكهم للدولة ، فآثر معظمهم النفى والجواز إلى إفريقية ، وهاجرت منهم جموع كبيرة إلى فاس ووهران وبجاية وتونس وطرابلس وغيرها ، وقدمت الحكومة الإسبانية السفن اللازمة لنقلهم مغتبطة لرحيلهم[1] ، إذ كانوا أشد العناصر مراساً وأكثرها نزوعاً إلى الثورة . واستقر الباقون وهم الكثرة الغالبة من المسلمين فى البلاد خاضعين مستسلمين ، وقد وصفهم دى پدراثا ، وهو مؤرخ من أحبار الكنيسة عاش قريباً من ذلك العصر بقوله : إنهم شعب ذو مبادئ أخلاقية متينة ، أشراف فى معاملاتهم وتعاقدهم ، ليس بينهم عاطل ، وكلهم عامل ، يعطفون أشد العطف على فقرائهم[2] .

ولم يفت الرواية الإسلامية أن تشير إلى هذه الصفحة الأخيرة من جهاد المسلمين الباسل فى سبيل دينهم ، فقد نقل إلينا المقرى عنها ما يأتى :

« وبالجملة فإنهم ( أى أهل غرناطة ) تنصروا عن آخرهم بادية وحاضرة ، وامتنع قوم عن التنصر ، واعتزلوا النصارى فلم ينفعهم ذلك ، وامتنعت قرى وأماكن كذلك منها بلفيق وأندرش وغيرها ، فجمع لهم العدو الجموع واستأصلهم عن آخرهم قتلا وسبياً ، إلا ماكان من جبل بلنقة ( أى ڤليا لونجا ) ، فإن الله تعالى أعانهم على عدوهم ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، مات فيها صاحب قرطبة ، وأخرجوا على الأمان إلى فاس بعيالهم وما خف من أموالهم دون الذخائر . ثم بعد هذا كله كان من أظهر التنصير من المسلمين ، يعبد الله خفية ويصلى ، فشدد عليهم النصارى فى البحث ، حتى أنهم أحرقوا منهم كثيراً بسبب ذلك ، ومنعوهم من

(١) Prescott : ibid ; p. 467

(٢) P. Longàs (Cit. B. de Pedraza ; Hist. Eclesiastica) : Vida Religiosa de los Moriscos (p. LII).

حمل السكين الصغيرة ، فضلا عن غيرها من الحديد ، وقاموا فى بعض الجبال على النصارى مراراً ، ولم يقيض الله تعالى لهم ناصراً»(١) .

ومضت السياسة الإسبانية فى اضطهادها المسلمين والموريسكيين بمختلف الفروض والوسائل . وكان من الإجراءات الشاذة التى اتخذت فى هذا السبيل ، تشريع أصدره فرناندو بإلزام المسلمين والموريسكيين فى المدن ، بالسكنى فى أحياء خاصة بهم ، على نحو ماكان متبعاً نحو اليهود فى العصور الوسطى ونفذ هذا التشريع فى غرناطة عقب حركة التنصير الشامل ، وأفرد بها للمسلمين والمتنصرين حيان ، أحدهما يضم نحو خمسمائة منزل وهو الحى الصغير وهو داخل المدينة ، والثانى يضم نحو خمسة آلاف منزل ، ويشمل ضاحية البيازين . وكانت الأحياء التى يشغلها المسلمون أو المتنصرون فى المدن الأندلسية تسمى « موريريا » **Moreria** أو أحياء الموريسكيين ، على نحو ماكانت أحياء اليهود الخاصة تسمى « الجيتو » **Ghetto** . وكانت تفصل بينها وبين أحياء النصارى أسوار كبيرة ، وكان عدد المسلمين الذين بقوا فى غرناطة يبلغ فى ذلك الحين نحو أربعين ألفاً (٢) .

وصدر فى نفس الوقت فى سبتمبر سنة ١٥٠١ ، قانون يحرم على المسلمين إحراز السلاح علناً أو سراً ، وينص على معاقبة المخالفين لأول مرة بالحبس والمصادرة ، ثم بالموت بعد ذلك ، وهو قانون تكرر صدوره بعد ذلك غير مرة ، فى ظروف وعصور مختلفة ، وكان يطبق بصرامة بالأخص كلما حدث من الموريسكيين هياج أو مقاومة مسلحة تخشى عواقبها .

وكانت السياسة الإسبانية تخشى احتشاد الموريسكيين وتجمعاتهم فى مملكة غرناطة ، ولهذا صدر فى فبراير سنة ١٥١٥ مرسوم ملكى أعلن فى طليطلة ، وفيه يحرم بتاتاً على المسلمين المتنصرين حديثاً ، والمدجنين من أى جهة من مملكة قشتالة ،

---

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ٦١٦ و ٦١٧ . وراجع أخبار العصر ص ٥٥ .

(٢) **Dr. Lea : The Moriscos; p. 31, 151 & 152** . ويبدو هذا الالتزام بسكنى المسلمين فى أحياء خاصة فى غرناطة وغيرها من المدن الأندلسية القديمة فى كثير من المراسم الملكية التى صدرت منذ سنة ١٥٠٠ . مثال ذلك المرسوم الصادر بالإعفاء لأهل بسطة ، والذى أشرنا إليه من قبل **Arch. gen. P.R. 11 — 107** ، والمرسوم الصادر بالعفو عن سكان « حى المسلمين » **Moreria** فى غرناطة الذى سبقت الإشارة إليه أيضاً ( ص ٣٢٠ ) .

أن يخترقوا أراضى مملكة غرناطة ، ويعاقب المخالفون بالموت والمصادرة . ونص هذا المرسوم أيضاً بأنه يحرم بتاتاً على المتنصرين حديثاً فى مملكة غرناطة أو فى أية جهة أخرى من المملكة ، أن يبيعوا أملاكهم لأى شخص دون ترخيص سابق ، ومن فعل عوقب بالموت والمصادرة ، وذلك لأنه تبين كما ورد فى المرسوم ، أن كثيراً من المسلمين المتنصرين يبيعون أملاكهم ، ويحصلون على أثمانها ، ثم يعبرون إلى المغرب ، وهنالك يعودون إلى الإسلام (١) .

(١) Archivo general de Simancas, P. R. Legajo 8, Fol. 120.

# الفصل الثانى

## ديوان التحقيق الإسبانى

### ومهمته فى إبادة الأمة الأندلسية

أصل الفكرة فى محاكم التحقيق الأولى . إجراءاتها وعقوباتها . التوسع فى اختصاصاتها . قيام محاكم التحقيق فى أراجون . النزعة الصليبية فى اسبانيا . مطاردة اليهود المتنصرين . محاولة البابوية إقامة الديوان فى قشتالة . معارضة فرناندو وإيسابيلا . مساعى الأحبار والقس تركيمادا . موافقة فرناندو وإيسابيلا . صدور المرسوم البابوى بإنشاء ديوان التحقيق فى قشتالة . قيام ديوان التحقيق الإسبانى . بداية نشاطه فى إشبيلية . اتساع نطاق أعماله . إنشاء المجلس الأعلى أو السوبريما . المحقق العام . جهود تركيمادا فى تنظم الديوان . إجراءات ديوان التحقيق . التبليغ وطرقه وآثاره . الأحبار المقررون . القبض على المتهم . سجون الديوان . المحاكمة وإجراءاتها . الإحالة على التعذيب . أحكام التعذيب . تعليق الدون لورنتى . أنواع التعذيب واجراءاته . الأستجواب . الدفاع والمرافعات . الأحكام. تنفيذ العقوبة . حكم الإعدام . الأوتو دافى . محاكمة الغائبن والمتوفين .أثر الأحكام . بطش الديوان وحصانة المحققين . موقف العرش . خمنيس وجهوده فى إصلاح الديوان . شارل الخامس وموقفه من الديوان . بدء مطاردة المدجنن والموريسكيين . مهمة محاكم التحقيق . فكرة القضاء على الأمة الأندلسية . ديوان التحقيق يضطلع بهذه المهمة . اضطهاد الموريسكيين وريب الكنيسة فى إخلاصهم . تحرجهم من دينهم الجديد . أقوال الرواية القشتالية . وثيقة عربية تؤيد تمسكهم سراً بدينهم القديم ، وتحايلهم على نبذ شعائر النصرانية . السياسة الإسبانية نحو الموريسكيين . إجراءات القمع . ذرائع الإتهام . الشبهات الخطرة . الموريسكيون فى غرناطة وبلنسية . استغاثة الموريسكيين بالسلطان با يزيد الثانى . وثيقة عربية عن أحوالهم وآلامهم .

قام ديوان التحقيق (La Inquisición) فى مطاردة الموريسكيين بأعظم دور ، وترك فى مأساتهم أعمق الأثر ، ومن ثم فإنه يجدر بنا أن نتحدث عن تاريخ هذه المحاكم الشهيرة ، ونظمها وأعمالها الرهيبة .

ويرجع قيام محاكم التحقيق إلى فكرة الرقابة القديمة على العقيدة ، والتحقق من سلامتها ونقائها . وقد ظهرت فكرة التحقيق فى أمر العقائد فى الكنيسة الرومانية فى عصر مبكر جداً ، وبدئ بتطبيقها منذ أوائل القرن الثالث عشر ، فكان البابا يعهد إلى الأساقفة وإلى الآباء الدومنيكيين ، فى تعقب المارقين والكفرة ومعاقبتهم . وطبق هذا النظام منذ البداية فى إيطاليا وألمانيا وفرنسا . وكان مندوبو البابوية

يتجولون فى مختلف الأنحاء، لتقصى أخبار الكفرة والقبض عليهم ومعاقبتهم، وكانت تعقد لذلك مجالس كنسية مؤقتة كانت هى النواة الأولى لمحاكم التحقيق، تعمل حيث يوجد الكفرة والملاحدة، ثم تحل متى تمت مهمة مطاردتهم والقضاء عليهم .

ثم أنشئت بعد ذلك مراكز ثابتة لمحاكم التحقيق، أقيم معظمها فى أديار الآباء الدومنيكيين والفرنسيسكانيين. ولم تك ثمة فى هذه العصور سجون خاصة أو مراكز خاصة لمحاكم التحقيق، وإنما كان يتخذ من أى مكان صالح مركزاً أوسجناً . وكان الأساقفة يتولون رياسة هذه المحاكم، ولهم سلطة مطلقة . وكانت التحقيقات والمرافعات تجرى بطريقة سرية، وتصدر الأحكام على المتهمين نهائية غير قابلة للطعن . وكان يسمح للنساء والصبية والعبيد بالشهادة ضد المتهم وليس له، ويؤخذ الإعتراف من المتهم بالخديعة والتعذيب . وكان التعذيب يعتبر طبقاً للقوانين الكنسية وسيلة غير مشروعة للاعتراف، ولكن البابوية لم تجد بأساً من إقرار هذه الوسيلة . وكانت السجون التى يستعملها ديوان التحقيق مظلمة رهيبة، يموت فيها الكثيرون من المرض والآلام النفسية . وكان السجناء يصفدون عادة بالأغلال الثقيلة . وكانت العقوبات الرئيسية هى السجن المؤبد والإعدام والمصادرة . وكانت السلطات الدينية والبابوية تحصل على أوفر نصيب من الأموال المصادرة، وتحصل السلطات المدنية أيضاً على نصيبها منها . وألفى ديوان التحقيق ميداناً خصباً لنشاطه فى مطاردة الألبيين (١) وغيرهم من الملاحدة الذين ظهروا منذ أوائل القرن الثالث عشر فى جنوب فرنسا . وفى عهد لويس التاسع ملك فرنسا وضع أول قانون ينظم إجراءات هذه المحاكم الكنسية الجديدة .

وكان ديوان التحقيق فى تلك العصور يصدر أيضاً أحكامه ضد الكتب المحرمة، ويأمر بإحراقها، ومن ذلك أحكام صدرت بإحراق التلمود وبعض كتب أرسطو وغيرها من كتب الفلسفة فى العهد القديم .

ثم اتسع اختصاص محاكم التحقيق بمضى الزمن، فلم تبق مهمتها قاصرة على مطاردة الكفر، والزيغ فى العقيدة، بل تعدته إلى مطاردة السحر والسحرة والعرافة والعرافين، وشبه هؤلاء بالكفرة . وجاء بعد ذلك دور اليهود، فاتهموا بسب النصرانية وأخذت عليهم مزاولة الربا، وتتبعهم ديوان التحقيق بالمطاردة والعقاب. على أن الديوان لم ينس دائماً أن مهمته الأصلية تنحصر فى مطاردة الكفر والزيغ، والمحافظة على سلامة العقيدة الكاثوليكية ونقائها .

(١) نسبة إلى « ألبى » وهى مدينة بجنوبى فرنسا، وكانت من أهم مراكز هذه الطائفة الملحدة .

— ٢ —

تلك هى الظروف التى قامت فيها محاكم التحقيق الأولى ، فى مختلف أنحاء أوربا ، فى إيطاليا وألمانيا وفرنسا . ويرجع قيام ديوان التحقيق الإسبانى إلى نفس البواعث الدينية ، ولكنه نشأ مع ذلك نشأة مستقلة ، وأحاطت بقيامه ظروف خاصة .

وقد أنشئت محاكم التحقيق فى مملكة أراجون منذ أوائل القرن الثالث عشر ، ووضعت لها فى سنة ١٢٤٢م إجراءات جديدة ، كان لها فيما بعد أكبر الأثر فى صوغ نظم ديوان التحقيق الإسبانى . وعرف هذا الديوان الأرجونى بالديوان القديم وعكف حيناً على مطاردة طوائف الألبيين ، وإخماد دعوتهم فى أراجون ، ولم يلبث أن غدا سلطانه ، وغدت وسائله وإجراءاته مثار الرهبة والروع .

على أن هذه لم تكن سوى بداية محدودة المدى لنشاط ديوان التحقيق الإسبانى . ذلك أن ظروف اسبانيا النصرانية فى ذلك العصر ، واضطرام الصراع الأخير بينها وبين اسبانيا المسلمة ، ورجحان كفتها فى ميدان الحرب والسياسة ، كانت كلها تذكى النزعة الصليبية ، التى كانت تجيش بها اسبانيا دائماً . وكانت الأمة الأندلسية قد استحالت منذ القرن الرابع عشر ، إلى طوائف كبيرة من المدجنين فى مهاد عزها القديم ، فى قشتالة وأراجون ، ولم تبق منها سوى بقية أخيرة تحتشد فى مملكة غرناطة الصغيرة ، التى كان مصيرها المحتوم يلوح قوياً فى الأفق . وكان تفوق اسبانيا النصرانية ونصرها المضطرد ، يذكى عوامل التعصب الدينى الذى تبثه الكنيسة وترعاه ، وتتخذه اسبانيا الظافرة يومئذ شعارها المفضل فى ميدان السياسة . وكانت موجة من التعصب تضطرم فى هذا الوقت بالذات ، حول طوائف المتنصرين من اليهود (Conversos) ؛ وكان أولئك المحدثون فى النصرانية ، قد سما شأنهم ووصل كثير منهم إلى المناصب الكنسية الكبيرة ، وإلى مجلس الملك ، وتبوأوا بأموالهم ونفوذهم مكانة قوية فى الدولة والمجتمع ، وكان أحبار الكنيسة ينظرون إليهم بعين الريب ، ويعتبرونهم شراً من اليهود الخلص أنفسهم ، ويتهمونهم بالإلحاد والزيغ ، ومزاولة شعائرهم القديمة سراً . ولما تفاقم الإتهام من حولهم صدر فى سنة ١٤٦٥م فى عهد الملك هنرى الرابع ملك قشتالة ، أمر ملكى إلى الأساقفة ، بالاستقصاء والبحث فى دوائرهم ، وتتبع هذا اللون من المروق والزيغ ومعاقبة المارقين ، وتلا ذلك موجة من الاضطهاد اتخذت صورة المحاكمات الدينية ،

وأحرق عدد من أولئك المتنصرين . ولكن قشتالة التى شغلت يومئذ بمشاكلها الداخلية ، لم تعن بأمر المتنصرين ولم تزعجهم . وهنا تدخل البابا سكستوس الرابع ، وحاول أن يدخل نظام التحقيق فى قشتالة ، فأرسل إليها مبعوثاً بابوياً مزوداً بكل السلطات ، للتحقيق والقبض على المارقين ومعاقبتهم . ولكن فرناندو وإيسابيلا وقفا فى وجه هذه المحاولة حرصاً على سلطانهما ، وحداً من سلطة الكنيسة ، وأغضت إيسابيلا مدى حين عن تحريض الأحبار ، على مطاردة الكبراء المنتمين إلى أصل يهودى إذ كانت تثق بهم وبصادق نياتهم وغيرتهم فى خدمة الدولة والعرش .

على أن هذه المقاومة لم تلبث طويلا . ذلك أن كل الظروف كانت تمهد لظفر السياسة الكنسية ، فلم تلبث أن غلبت مساعى الأحبار ، وقبل الملكان إنشاء ديوان التحقيق فى قشتالة ، ليضطلع بمثل المهام الخطيرة التى يضطلع بها فى أراجون . وهنا يقال إن الفضل فى إقناع الملكة إيسابيلا بتحقيق هذه الفكرة يرجع إلى القس توماس دى تُركيمادا رئيس دير الآباء الدومنيكان فى سانتا كروث بشقوبية ، وقد كان معترف الملكة وله عليها نفوذ قوى ، فقيل إنه استطاع أن يحصل منها قبل اعتلائها العرش ، على وعد بأنها متى ظفرت بالملك ، فإنها تكرس حياتها لسحق الكفر وحماية الكثلكة ، وأنه كان أكثر العاملين على إقناعها بالموافقة على إنشاء ديوان التحقيق . وفى سنة ١٤٧٨ أرسل فرناندو وإيسابيلا سفيرهما إلى البابا ، للحصول على المرسوم البابوى ، وصدر المرسوم بالفعل فى نوفمبر من هذا العام بالتصريح بإنشاء ديوان التحقيق فى قشتالة ، وتعيين المحققين « لمطاردة الكفر ومحاكمة المارقين » ، واتخذت الخطوة الحاسمة لتنفيذ المرسوم فى سبتمبر سنة ١٤٨٠ ، حيث ندب المحققون الثلاثة الأول ، وأنشئت محكمة التحقيق الأولى فى إشبيلية . وهكذا بدأ ديوان التحقيق الإسبانى نشاطه المروع فى قشتالة .

— ٣ —

وبدأ الديوان أعماله فى إشبيلية بإصدار قرارات يحث فيها كل شخص أن يساعد الديوان ، فى البحث عن الملحدين والكفرة ، وكل من فى عقيدتهم زيغ ، وفى جمع الأدلة على إدانتهم ، وفى التبليغ عنهم بأية وسيلة ، وانقضت العاصفة بالأخص على اليهود المتنصرين ، وكانت منهم طائفة كبيرة فى إشبيلية ، فلم يمض عام حتى بلغت ضحاياهم ألوفاً أحرق منهم عدد كبير ، وعوقب الكثيرون بالسجن والغرامات الفادحة ، والمصادرة والتجريد من الحقوق المدنية .

وحاول كثير من المتنصرين النجاة بالفرار إلى ضياع الأشراف ، فصدر أمر ملكى بتسليم الهاربين إلى محكمة التحقيق ، وهدد الأشراف بفقد وظائفهم والنفى من الكنيسة ، إذا تخلوا عن تنفيذ الأمر . وحاول بعض أكابر المتنصرين فى الوقت نفسه تدبير مؤامرة ، لمقاومة محكمة التحقيق والفتك بأعضائها ، ولكن المؤامرة اكتشفت وقبض على كثير منهم ، وقضى بإعدام البعض حرقاً ، وبذا سحقت كل مقاومة لنشاط الديوان الجديد .

واتسع نشاط الديوان بسرعة ، واستصدر الملكان من البابا مرسوماً بتعيين سبعة من « المحققين » الجدد ( فبراير سنة ١٤٨٢ ) ، وأنشئت على أثر ذلك محاكم التحقيق فى قرطبة وجيان وشقوبية وطليطلة وبلد الوليد ، وشمل نشاط الديوان سائر أنحاء المملكة الإسبانية ( قشتالة وأراجون ) .

وكان فرناندو وإيسابيلا يرميان إلى أن تسبغ الصفة القومية على ديوان التحقيق ، وأن يكون سلطانه مستمداً من العرش ، أكثر مما هو مستمد من البابوية . ولتحقيق هذه الغاية رؤى أن ينظم الديوان على أسس جديدة . وكان الديوان قد غدا فى الواقع أداة هامة مرهوبة الجانب ، ولابد لهذه الأداة من سلطة عليا تقوم بالتوجيه والإرشاد. ومن ثم فقد صدر المرسوم البابوى فى سنة ١٤٨٣ بإنشاء مجلس أعلى لديوان التحقيق (Suprema) له اختصاص مطلق فى كل مايتعلق بشئون الدين ، ويتألف من أربعة أعضاء منهم الرئيس ، وأطلق على منصب الرئيس منصب « المحقق العام » Inquisitor-General ، وصدر المرسوم البابوى فى أكتوبر سنة ١٤٨٣ بتعيين القس توماس دى تركيمادا معترف الملكين ، فى هذا المنصب الخطير ، وخول فى الوقت نفسه سلطة مطلقة فى وضع دستور جديد للديوان المقدس .

وكان تركيمادا حبراً شديد التعصب ، وافر البأس والعزم ، فبذل فى تنظيم الديوان وتوطيد سلطانه جهوداً عظيمة ، وبث إليه روحاً من الصرامة . وكان جل غايته أن يجعل من ديوان التحقيق الإسبانى ، أداة قومية تعمل وفقاً لحاجات اسبانيا ، وقد وفق فى تحقيق هذه الغاية إلى أبعد حد . وبدئ بوضع دستور الديوان الجديد فى سنة ١٤٨٥ ، على يد جمعية من المحققين العامين عقدت فى إشبيلية ، ووضعت طائفة من القرارات واللوائح ، ثم عقدت بعد ذلك جمعية أخرى فى بلد الوليد سنة ١٤٨٨ ووضعت عدة لوائح جديدة ، وعقدت جمعية ثالثة فى آبلة سنة ١٤٩٨ . وتولى المجلس الأعلى ( السوبريما ) بعد ذلك صياغة اللوائح وتنقيحها . وكان هذا

التنظيم عظيم الأثر فى تطور ديوان التحقيق الإسبانى . ذلك أنه غدا من ذلك الحين محكمة قومية مستقلة ، وغدا سلطة يخافها أعظم العظماء فى اسبانيا ، ويرتجف لذكرها الفرد العادى ، وأضحى نشاطها الرهيب ، وقضاؤها المدمر ، عنصراً بارزاً فى التاريخ الإسبانى ، يقوم بدوره الفعال فى دفع اسبانيا إلى شفا المنحدر ، الذى لبثت تتردى فى غمره زهاء ثلاثة قرون .

ولبث تُركيمادا فى منصب المحقق العام حتى توفى فى سنة ١٤٩٨ . وفى عهده اشتد نشاط محاكم التحقيق واتسعت أعمالها ، وكان هذا القس المتعصب بالرغم من تقشفه ، يعتبر بعد العرش أعظم سلطة فى اسبانيا ، ويعيش فى قصور باذخة ، وله حرس كبير من الفرسان والمشاة . وكان من جراء شدته وعسفه أن ندب البابا سنة ١٤٩٤ إلى جانبه خمسة من المحققين العامين ، يتمتع كل منهم بنفس سلطته . ولما توفى خلفه فى منصب المحقق العام ديجو ديسا أسقف جيان ، واستمر فى منصبه حتى سنة ١٥٠٧ م .

— ٤ —

ونقدم الآن عرضاً موجزاً لإجراءات ديوان التحقيق . وسنرى أنها بأصولها وتفاصيلها ، أبعد ما يكون عن مبادئ المنطق والعدالة ، وأشد ما يكون عسفاً وقسوة وهمجية .

تبدأ قضايا الديوان أو محاكماته الفرعية ، بالتبليغ أوما يقوم مقامه ، كورود عبارة فى قضية منظورة تلقى شبهة على أحد ما . ولافرق بين أن يكون التبليغ من شخص معين أويكون غفلا . ففى الحالة الأولى يدعى المبلغ ويذكر أقواله وشهوده ، وتعتبر أقوال المبلغ وشهوده « تحقيقاً تمهيدياً » . كذلك يمكن التبليغ بواسطة « الإعتراف » الذى يتلقاه القسس ، ولهم أن يبلغوا عما يقعون عليه من حالات الإشتباه فى العقائد ، ولا توضح لهم الوقائع التى يُسئلون عنها بل يسئلون بصفة عامة ، عما إذا كانوا قد رأوا أو سمعوا شيئاً يناقض الدين الكاثوليكى أوحقوق الديوان . ويقوم الديوان فى الوقت نفسه بإجراء التحريات السرية المحلية عن المبلغ ضده . ثم تعرض نتيجة التحقيق التمهيدى على « الأحبار المقررين » ليقرروا ما إذا كانت الوقائع والأقوال المنسوبة إلى المبلغ ضده تجعله مرتكباً لجريمة الكفر أوتلقى عليه فقط شبهة ارتكابها . وقرارهم يحدد الطريقة التى تتبع فى سير القضية . ويقسم المقررون يمين الكتمان أيضاً ، وكان معظم أولئك المقررين من القسس الجهلاء المتعصبين ، ومن ثم فقد كانت

أخلاقهم وآراؤهم ، بل ذممهم وشرفهم مثاراً للريب ، وكان رأيهم الإدانة دائماً إلا في أحوال نادرة .

وعلى أثر صدور هذا التقرير ، يصدر النائب أمره بالقبض على المبلغ ضده وزجه إلى سجن الديوان السرى . وكانت سجون الديوان المخصصة لاعتقال المتهمين بالكفر أو الزيغ ، وهى المعروفة بالسجون السرية ، غاية فى الشناعة والروعة ، تتصل مباشرة بغرف التحقيق والعذاب ، عميقة مظلمة رطبة تغص بالحشرات والجرذان . ويصفد المتهمون بالأغلال(١) . ويقول لورنتى مؤرخ ديوان التحقيق الإسبانى إن أفظع ما فى أمر هذه السجون هو أن من يزج إليها ، يسقط فى الحال فى نظر الرأى العام ، وتلحقه وصمة لا تلحقه من أى سجن آخر مدنى أو دينى ، وفيها يسقط فى غمار حزن لا يوصف وعزلة عميقة دائمة ، ولا يعرف إلى أى مدى وصلت قضيته ، ولا ينعم بتعزية مدافع عنه . غير أن لورنتى ينفى تصفيد المتهمين بالأغلال الثقيلة فى أرجلهم وأيديهم وأعناقهم ، ويقول إن هذا الإجراء لم يكن يتبع إلا فى أحوال نادرة(٢) . ويقول الدكتور لى : «كان القبض الذى يجريه ديوان التحقيق فى ذاته عقوبة خطيرة . ذلك أن أملاك السجين كلها تصادر وتصفى على الفور ، وتقطع جميع علائقه بالعالم حتى تنتهى محاكمته . وتستغرق المحاكمة عادة من عام إلى ثلاثة ، لا يعرف السجين أو أسرته خلالها شيئاً عن مصيره ، وتدفع نفقات سجنه من ثمن أملاكه المصفاة ، وكثيراً ما تستغرقه المحاكمة »(٣) .

ولا يخطر المتهم بالتهم المنسوبة إليه ، ولكنه يمنح عقب القبض عليه ثلاث جلسات فى ثلاثة أيام متوالية ، تعرف بجلسات الرأى أو الإنذار ، وفيها يطلب إليه أن يقرر الحقيقة ، ويوعد بالرأفة إذا قرر وفق ماينسب إليه ، وينذر بالشدة والنكال إذا كذب أو أنكر ، لأن «الديوان المقدس» لا يقبض على أحد دون قيام الأدلة الكافية على إدانته ، وهى طريقة غادرة محيرة . فإذا اعترف المتهم بما ينسب إليه ولو كان بريئاً ، اختصرت الإجراءات وقضى عليه بعقوبة أخف ، ولكنه إذا اعترف بأنه كافر مطبق ، فإنه

---

(١) Dr. Lea : History of the Inquisition of Spain, V.I. Chap. IV

(٢) Don S.A.Llorente : Historia Critica de la Inquisicion de Espana(1815-1817)
وهو مؤلف نقدى ضخم ويمتاز بكون مؤلفه اسبانى ، وهو حبر خدم ديوان التحقيق أعواماً طويلة . وكان فى أواخر حياته يشغل فيه منصب السكرتير العام .

(٣) Dr. Lea : The Moriscos of Spain

لا ينجو من عقوبة الموت ، مهما كانت الوعود التى بذلت له بالرأفة والعفو .

فإذا أبى المتهم الاعتراف بعد الجلسات الثلاث ، وضع النائب له قرار الإتهام طبقاً لما ورد فى التحقيق من الوقائع ، وذلك مهما كانت الأدلة المقدمة من الركاكة والضعف . بيد أن أفظع ما يحتويه القرار هو إحالة المتهم على التعذيب ، وغالباً ما يطلب النائب هذه الإحالة ، وذلك بالرغم من اعتراف المتهم بما ينسب إليه ، لأنه يفترض دائماً أنه أخفى أو كذب فى اعترافه . وتصدر المحكمة قرار التعذيب مجتمعة بهيئة غرفة مشورة . وكان قرار التعذيب فى العصور الأولى يصدر عقب الاشتباه والقبض فوراً . وقد استعمل التعذيب فى محاكم التحقيق للحصول على الإعتراف ، منذ منتصف القرن الثالث عشر . وكان التعذيب فى قشتالة إجراء يسوغه القضاء العادى ، وكان يعتبر وسيلة مشروعة لنيل الإعتراف ، فلم يكن غريباً أن يدمجه ديوان التحقيق فى دستوره . وقد نوه كثير من المؤرخين بروعة الإجراءات والوسائل التى كانت تلجأ إليها محاكم التحقيق فى توقيع العذاب . ويعلق عليها دون لورنتى بقوله : « لست أقف لأصف ضروب التعذيب التى كان يوقعها ديوان التحقيق على المتهمين ، فقد رواها بما تستحق من الدقة كثير من المؤرخين ، ولكنى أصرح أن أحداً منهم لا يمكن أن يتهم بالمبالغة فيما روى . ولقد تلوت كثيراً من القضايا ، فارتجفت لها اشمئزازاً وروعاً ، ولم أر فى « المحققين » الذين التجأوا إلى تلك الوسيلة إلا رجالا بلغ جمودهم حد الوحشية »(١) . بيد أن مؤرخا حديثاً لديوان التحقيق هو الدكتور لى يرى فى هذه الأقوال مبالغة ، ويقول لنا إن ديوان التحقيق لم يكن فى إجراءاته الخاصة بالتعذيب ، أكثر قسوة أو إرهاقا من القضاء العادى ، وأن ديوان التحقيق الرومانى ، كان فى إجراءاته أشد قسوة وفظاعة من الديوان الإسبانى(٢) .

وكانت معظم أنواع التعذيب المعروفة فى العصور الوسطى ، تستعمل فى محاكم التحقيق ، ومنها تعذيب الماء ، وهو عبارة عن توثيق المتهم فوق أداة تشبه السلم وربط ساقيه وذراعيه إليها ، مع خفض رأسه إلى أسفل ، ثم توضع فى فمه من زلعة جرعات كبيرة ، وهو يكاد يختنق ، وقد يصل ما يتجرعه إلى عدة لترات . وتعذيب « الجاروكا » وهو عبارة عن ربط يدى المتهم وراء ظهره ، وربطه بحبل حول راحتيه وبطنه ، ورفعه وخفضه معلقاً ، سواء بمفرده أو مع أثقال تربط معه ،

---

(١) Llorente : ibid.

(٢) Dr. Lea: The History of the Inquisition ; V. III. Ch. VII.

وتعذيب الأسياخ المحمية للقدم ، والقوالب المحمية للبطن والعجز ، وسحق العظام بآلات ضاغطة ، وتمزيق الأرجل ، وفسخ الفك ، وغيرها من الوسائل البربرية المثيرة .

ولم يك ثمة حدود مرسومة لروعة التعذيب وآلامه . ولما كان التعذيب يعتبر خطراً لا تؤمن عواقبه ، نظراً لاختلاف المتهمين فى قوة البنية والاحتمال المادى والعقلى ، فإنه لم يك ثمة قواعد معينة تتبع فى إجراء التعذيب ، بل كان الأمر يترك لتقدير القضاة وحكمهم وضمائرهم[1]. ولا يحضر التعذيب سوى الجلاد والأحبار المحققون ، والطبيب إذا اقتضى الأمر ، ولا يخطر المتهم بأسباب إحالته على التعذيب ، ولا يسئل ليقرر وقائع معينة ، بل يعذب ليقرر ما شاء ، ويمكن الطعن فى القرار بطريق الاستئناف أمام المجلس الأعلى ( السوپريما ) إلا فى أحوال استثنائية . ولكن الطعن لا يقبل ولا ينظر ، حيثما كان القانون صريحاً فى وجوب إجراء التعذيب . وقد يأمر الطبيب بوقف التعذيب إذا رأى حياة المتهم فى خطر ، ولكن التعذيب يستأنف متى عاد المتهم إلى رشده أو جف دمه ، فإذا اعترف المتهم واعتبر القضاة اعترافه صحيحاً ، بمعنى أنه يتضمن عنصر التوبة ، كف عن تعذيبه ، وإذا استطاع المتهم احتمال العذاب وأصر على الإنكار ، لم يفده ذلك شيئاً ، لأن القضاة يتخذون غالباً من الوقائع المنسوبة للمتهم أدلة على الإدانة ، ويحكم عليه طبقاً لهذا الاعتبار . ويجب أن يؤيد المعترف ما قاله وقت التعذيب ، باعتراف حر يقرره فى اليوم التالى ، وذلك حتى يؤكد صحة الإعتراف ، فإذا أنكر أو غير شيئاً أعيد إلى التعذيب .

وبعد انتهاء التعذيب يحمل المتهم ممزقاً دامياً إلى قاعة الجلسة ، ليجيب عن التهم التى توجه إليه لأول مرة ، ويسئل عند تلاوة كل تهمة عن جوابه عنها مباشرة ، ثم يسئل عن دفاعه . وكان مبدأ الدفاع أمراً مقرراً من الوجهة النظرية ، فإن كان له دفاع ، اختارت المحكمة له محامياً من المقيدين فى سجل الديوان للدفاع عنه ، وقد يسمح للمتهم باختيار محام من الخارج فى بعض الأحوال الاستثنائية ، ويقسم المحامى اليمين بأن يؤدى مهمته بأمانة ، وألا يعرقل الإجراءات بسوء نية ، وأن يتخلى عن موكله إذا تبين له فى أية مرحلة من مراحل الدعوى ، أن الحق ليس فى جانبه . على أن الدفاع لم يكن فى الغالب سوى ضرب من السخرية ، ولم يكن عملا مأمون العاقبة ، ولم يكن يسمح للمحامى أن يطلع على أوراق القضية الأصلية ، أو يتصل بالمتهم

---

(١) Dr. Lea : Ibid; V. III ; p. 22

على انفراد ، بل تقدم إليه خلاصة التحقيق مرفقة بقرار الإحالة وقرار الإتهام . وكان المحامى الذى يبدى فى تأدية مهمته غيرة خاصة ، يخاطر بأن يقع تحت سخط الديوان .

وبعد المرافعة واستجواب المتهم ، تحالُ القضية على الأحبار المقررين ليبدوا فيها رأيهم من جديد . وكانت هذه خطوة حاسمة فى الواقع ، لأنها تمهيد إلى الحكم النهائى . ويصدر الأحبار المقررون قرارهم ، وقلما كان يختلف عن القرار الأول . فإذا كان الحكم بالإدانة ، كان للمتهم فرصة الاستئناف أمام المجلس الأعلى ( السوپريما ) . بيد أنها كانت على الأغلب فرصة عقيمة ، إذ قلما كان المجلس الأعلى ينقض حكماً من الأحكام . وكان للمتهم أيضاً أن يلتمس العفو من الكرسى الرسولى . وكانت الخزانة البابوية تغنم من هذه الإلتماسات أموالا طائلة ، فكانت فرصة لا يستفيد منها سوى ذوى الغنى الطائل .

وقلما كان يصدر حكم البراءة أو « الإقالة » ، إذ أن أقل شك فى براءة المتهم براءة مطلقة ، كان يوجب اعتباره مذنباً من النوع الخفيف de Levi ، وعندئذ تصدر عليه عقوبات تتناسب مع ذنبه ، ويقضى عليه أن يتطهر من كل شبهة للكفر وفقاً لإجراءات معينة . وإذا قضى بالبراءة وهو ما يندر وقوعه ، أطلق سراح المتهم ، وأعطيت له شهادة بطهارته من الذنوب ، وهى كل ما يعوض به ، عما أصابه فى شخصه وفى شرفه وماله ، من ضروب الأذى والألم .

وأما إذا قضى بالإدانة ، فإن الحكم لا يبلغ إلى المتهم إلا عند التنفيذ ، وهو أجراء من أشنع الإجراءات الجنائية التى عرفت ، فيؤخذ المتهم من السجن دون أن يدرى مصيره الحقيقى ، ويجوز رسوم الإيمان « الأوتودافى » Auto-da-fé وهى الرسوم الدينية التى تسبق التنفيذ ، وخلاصتها أن يلبس الثوب المقدس ، ويوضع فى عنقه حبل وفى يده شمعة ، ويؤخذ إلى الكنيسة ليجوز رسوم التوبة ، ثم يؤخذ إلى ساحة التنفيذ ، وهنالك يتلى عليه الحكم لأول مرة . وقد يكون الحكم فى حالة التهم الخطيرة بالسجن المؤبد والمصادرة ، أو بالإعدام حرقاً فى حالة « الكفر الصريح » ، وقد يكون فى حالة الذنوب الخفيفة ، بالسجن لمدة محدودة أو بالغرامة ، وهو ما يسمى حكم « التوفيق » . وكانت أحكام الإعدام ، هى الغالبة فى عصور الديوان الأولى فى قضايا الكفر . وكان التنفيذ يقع فى ساحات المدن الكبيرة ، وفى احتفال رسمى يشهده الأحبار والكبراء بأثوابهم الرسمية ، وقد يشهده الملك . وكان يقع على الأغلب جملة ،

فينفذ حكم الحرق فى عدد من المحكوم عليهم ، قد يبلغ العشرات أحياناً ، وينتظم الضحايا فى موكب (الأوتودافى) Auuto-da-fé التى اشتهرت فى اسبانيا منذ القرن الخامس عشر ، والتى كانت بالرغم من مناظرها الرهيبة من الحفلات العامة ، التى تهرع لشهودها جموع الشعب . ومما يذكر فى ذلك ، أن فرناندو الكاثوليكى كان من عشاق هذه المواكب الرهيبة ، وكان يسره أن يشهد حفلات الإحراق ، وكان يمتدح الأحبار المحققين كلما نظمت حفلة منها(١) .

وكان قضاء محاكم التحقيق بطيئاً ، يبث اليأس فى النفوس ، وكان الأمر يترك لهوى القضاة فى تحديد مواعيد دعوة المتهم ، والسير بإجراءات الدعوى ، وكانت الإجراءات والمرافعات تستغرق وقتاً طويلا ، وقد تستغرق الأعوام أحياناً ، وقد يموت المتهم فى سجنه قبل أن يصدر الحكم فى قضيته .

وكان دستور ديوان التحقيق يجيز محاكمة الموتى والغائبين . وتصدر الأحكام فى حقهم وتوقع العقوبات عليهم كالأحياء ، فتصادر أموالهم وتعمل لهم تماثيل تنفذ فيها عقوبة الحرق ، أو تنبش قبورهم وتستخرج رفاتهم ، لتحرق فى موكب « الأوتودافى » ، وكذلك يتعدى أثر الأحكام الصادرة بالإدانة من المحكوم عليه إلى أسرته وولده ، فيقضى بحرمانهم من تولى الوظائف العامة ، وامتهان بعض المهن الخاصة ، وبذا يؤخذ الأبرياء بذنب المحكوم عليه(٢) .

— ٥ —

هذا استعراض موجز لإجراءات تلك المحاكم الكنسية الشهيرة ، التى سودت بقضائها المروع صحف التاريخ الإسبانى زهاء ثلاثة قرون .

وقد بث ديوان التحقيق منذ قيامه بقضائه وأساليبه ، حوله جواً من الرهبة والروع . ولما ذاع بطشه وعسفه ، عمد كثير من النصارى المحدثين من يهود ومسلمين إلى الفرار ، حتى اضطرت الحكومة إلى أن تصدر فى سنة ١٥٠٢ ، قراراً يحرم على ربان أية سفينة وأى تاجر ، أن ينقل معه نصرانياً محدثاً دون ترخيص خاص ، وقبض بهذه الصورة على كثيرين من النصارى المحدثين ، فى مختلف الثغور الإسبانية ، وأحيلوا إلى محاكم التحقيق .

---

(١) **Dr. Lea : Ibid ; V.I.**

(٢) رجعت فى معظم ما ورد عن دستور ديوان التحقيق وإجراءاته ، إلى كتابى « ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى » الفصل الأول ص ٢٤ – ٣٢ .

وكان أعضاء محاكم التحقيق يتمتعون بحصانة خارقة ، وسلطان مطلق تنحنى أمامه أية سلطة ، وتحمى أشخاصهم وتنفذ أوامرهم بكل وسيلة . وكان من جراء هذه السلطة المطلقة ، وهذا التحلل من كل مسئولية ، أن ذاع فى هذه المحاكم العسف وسوء استعمال السلطة ، والقبض على الأبرياء دون حرج ، بل كثيراً ماوجد بين المحققين رجال من طراز إجرامى ، لا يتورعون عن ارتكاب الغصب والرشوة وغيرها لملء جيوبهم ، وكانت أحكام الغرامة والمصادرة أخصب مورد ، لاختلاس المحققين والمأمورين وعمال الديوان وقضاته ، وكانت الخزينة الملكية ذاتها تغنم مئات الألوف من هذا المورد ، هذا بينما يموت أصحاب هذه الأموال الطائلة فى السجن جوعاً(١).

وكان يبلغ من عسف الديوان أحياناً أن يبسط حكم الإرهاب فى بعض المناطق ، وهذا ماحدث فى قرطبة على يد المحقق العام لوسيرو ، الذى يعتبر من أشد المحققين قسوة وإجراماً . ففى عهده ذاعت جرائم النهب واغتصاب البنات والزوجات ، وتعالت الصيحة بالشكوى من هذا العدوان الفظيع ، الذى يجرى باسم الديوان المقدس ، وفى ظله ، والذى يصم اسم الديوان والحكومة ، واستغاث كبراء قرطبة بالملك ، وجرت فى الموضوع تحقيقات طويلة انتهت بالقبض على المحقق العام وعزله(٢) .

وكان العرش يعلم بأمر هذه الآثام المثيرة ، التى تصم سمعة الديوان والمحققين ، ولا يستطيع دفعاً لها ، لما بلغه الديوان من السلطان الذى لا يناهضه سلطان آخر ، ولأن العرش كان يرى فيه فى الوقت نفسه ، أصلح أداة لتنفيذ سياسته فى إبادة الموريسكيين . وفى الوصية التى تركها فرناندو الكاثوليكى عند وفاته فى يناير سنة ١٥١٦ ، لحفيده شارل الخامس (كارلوس كنتو أوشرلكان) ، ما يلقى ضياء على هذه الحقائق ، ففيها يحث على حماية الكثلكة والكنيسة ، واختيار المحققين ذوى الضمائر الذين يخشون الله ، لكى يعملوا فى عدل وحزم ، لخدمة الله وتوطيد الدين الكاثوليكى ، كما يجب أن يضطرموا حماسة لسحق طائفة محمد(٣) .

ولما توفى فرناندو ، كان المحقق العام هو الكردينال خمنيس مطران طليطلة ، الذى أبدى من الحماسة فى مطاردة المسلمين وتنصيرهم ، ما سبقت الإشارة إليه ، وقد حاول خمنيس أن يطهر قضاء الديوان وسمعته ، فعزل كثيراً من المحققين الذين

---

(١) Dr. Lea : ibid ; V.I. p. 190-192

(٢) Dr. Lea : ibid ; V.I. p 210

(٣) Dr. Lea : ibid ; cit. Mariana; V.I. p. 215

لا يُرغب فيهم ، ولكنه لم يعش طويلا ليتم برنامجه فى الإصلاح ، فعادت المساوئ القديمة أشد ماكانت ، وسار الديوان فى قضائه المدمر وأساليبه المثيرة ، لا يلوى على شيء . ولما جلس شارل الخامس على العرش كتب إليه مجلس قشتالة يقول : إن سلام المملكة وتوطيد سلطانه ، يتوقفان على تأييده لديوان التحقيق . ولم ير شارل بعد فترة من التردد ، إلا أن ينزل عند هذا النصح ، وأن يفسح الطريق لسلطان الديوان القاهر ، وذهبت كل الجهود للحد من عسف الديوان وعيثه سدى ، وتوطد سلطان الديوان بقشتالة مدى قرون ثلاثة ، كانت فى الواقع أخطر ما فى حياة الشعب الإسبانى(١)

— ٦ —

وقد رأينا كيف أنشئ ديوان التحقيق الإسبانى فى الأصل ، لمطاردة الكفر وحماية الكثلكة من شبه المروق والزيغ ، وكان إنشاؤه فى قشتالة قبيل انهيار مملكة غرناطة بقليل ، وكان اليهود الذين تمتعوا عصوراً بالحرية والأمن ، فى ظل الحكم الإسلامى ، أول ضحايا سياسة الإرهاق والمحو التى رسمتها اسبانيا الجديدة . ذلك أنه ماكادت تسقط غرناطة فى أيدى الملكين الكاثوليكيين وماكاد اليهود ينتقلون إلى الحكم الجديد ، حتى شهرت عليهم السياسة الإسبانية حربها الصليبية ، وأصدر الملكان قرارهما الشهير فى ٣٠ مارس سنة ١٤٩٢ ، وهو يقضى بأن يغادر سائر اليهود — الذين لم يتنصروا — من أى سن وظرف ، أراضى مملكة قشتالة فى ظرف أربعة أشهر من تاريخ القرار ، وألا يعودوا إليها قط ، ويعاقب المخالفون بالموت والمصادرة ، ويجب ألا يقوم أحد من سكان مملكة قشتالة على حماية أو إيواء أى يهودى أو يهودية سراً أو جهراً متى انتهى هذا الأجل ، ولليهود أن يبيعوا أملاكهم خلال هذه المدة ، وأن يتصرفوا فيها وفق مشيئتهم(٢) . فأذعن كثير من اليهود للتنصير إشفاقاً على الوطن والمال ، وهلك كثير منهم فى سجون الديوان المقدس ومحارقه ، أوشردوا فى مختلف الأقطار بعد التجريد والحرمان . بل لم ينج المتنصرون منهم ، من المطاردة والإرهاق لأقل الشبه حسبما قدمنا . ولقيت طوائف المدجنين من بقايا الأمة الأندلسية ، وهى التى بقيت فى بعض مدن قشتالة وأراجون فى ظل الحكم النصرانى ، نفس المصير المحزن . وبدأ ديوان التحقيق نشاطه فى قشتالة منذ

---

(١) Dr. Lea : ibid; V. I. p. 250

(٢) Archivo general de Simancas : P. R. Legajo 28 ; Fol. 6

سنة ١٤٨٠ ، قبيل انهيار مملكة غرناطة بقليل ، وأقيمت محارقه الأولى فى إشبيلية عاصمة المملكة . فلما سقطت غرناطة ، وطويت بسقوطها صفحة الدولة الإسلامية فى الأندلس ، ووقع ملايين المسلمين فى قبضة اسبانيا النصرانية ، ولما أكره المسلمون على التنصير ، واستحالت بقايا الأمة الأندلسية إلى طوائف الموريسكيين ، ألفى ديوان التحقيق فى هذا المجتمع النصرانى المحدث أخصب ميدان لنشاطه ، وغدت محاكم التحقيق يد الكنيسة القوية فى تحقيق غايتها البعيدة . ذلك أن هذه المحاكم الشهيرة كانت تضطلع بمهمة مزدوجة دينية وسياسية معاً ، فكانت تعمل باسم الدين لتحقيق أغراض السياسة ، وكان للسياسة الإسبانية بعد ظفرها النهائى بإخضاع الأمة الأندلسية أمنية أخطر وأبعد مدى ، هى القضاء على بقايا هذه الأمة المسلمة ، وسحق دينها وكل خواصها الجنسية والاجتماعية ، وإدماجها فى المجتمع النصرانى . ولم تشأ السياسة الإسبانية ، أن تترك تحقيق هذه الغاية لفعل الزمن والتطور التاريخى ، بل رأت نزولا على وحى الكنيسة وتوجيهها المباشر ، أن تعجل بإجراءات التنصير والقمع ، وأن تذهب فى ذلك إلى حدود من الإسراف والغلو ، هى التى أسبغت على مأساة الموريسكيين أو العرب المتنصرين صبغتها المفجعة ، كما أسبغت على السياسة الإسبانية المعاصرة وصمة عار ، لم يمحها إلى اليوم كر الأجيال والعصور .

وقد اضطلع ديوان التحقيق الإسبانى بأعظم قسط من هذه الإجراءات الهمجية التى أريد بها تنفيذ حكم الإعدام فى أمة بأسرها ، وأخضعت غرناطة لقضاء ديوان التحقيق منذ سنة ١٤٩٩ ، أعنى منذ أكره المسلمون على التنصير ، ولكنها جُعلت من اختصاص محكمة التحقيق فى قرطبة ، وهكذا بدأ الديوان المقدس أعماله فى غرناطة ، بحماسة يذكيها احتشاد الضحايا من حوله . ولم تغفل الرواية الإسلامية أن تشير إلى محارق ديوان التحقيق ، أو إحراق المسلمين بتهمة المروق أو الزيغ ، ولم يجد المسلمون الذين آثروا البقاء فى الوطن القديم ، وأكرهوا على التنصير واعتناق الدين الجديد ، ملاذاً أو عاصما من الإضطهاد والمطاردة . ذلك أن الموريسكيين أو العرب المتنصرين لبثوا دائماً موضع البغض والريب ، وأبت اسبانيا النصرانية بعد أن أرغمتهم على اعتناق دينها ، أن تضمهم إلى حظيرتها ، وأبت الكنيسة الإسبانية أن تؤمن بإخلاصهم لدينهم الجديد ، ولبثت تتوجس من رجعتهم وحنانهم لدينهم القديم ، وترى فيهم دائماً منافقين مارقين . وهكذا كانت السياسة الإسبانية ، كما كانت الكنيسة الإسبانية ، أبعد من أن تقنع بتنصير المسلمين الظاهرى ، وإنما كانت

ترمى إلى إبادتهم ، ومحو اثارهم ودينهم وحضارتهم ، وكل ذكرياتهم .

والواقع أن الموريسكيين لبثوا بالرغم من تنصرهم ، نزولا على حكم القوة والإرهاب ، مخلصين فى سرائرهم لدينهم القديم ، ولم تستطع الكنيسة بالرغم من جهودها الفادحة أن تحملهم على الولاء لدين قاسوا فى سبيل اعتناقه ضروباً مروعة من الآلام النفسية والاضطهاد المضنى ، وإليك ما يقوله فى ذلك مؤرخ إسبانى كتب قريباً من ذلك العصر ، وأدرك الموريسكيين وعاش بينهم حيناً فى غرناطة :

«كانوا يشعرون دائماً بالحرج من الدين الجديد ، فإذا ذهبوا إلى القداس أيام الآحاد ، فذلك فقط من باب مراعاة العرف والنظام ، وهم لم يقولوا الحقائق قط خلال الاعتراف . وفى يوم الجمعة يحتجبون ويغتسلون ويقيمون الصلاة فى منازلهم المغلقة ، وفى أيام الآحاد يحتجبون ويعملون . وإذا عُمد أطفالهم ، عادوا فغسلوهم سراً بالماء الحار ، ويسمون أولادهم بأسماء عربية ، وفى حفلات الزواج متى عادت العروس من الكنيسة بعد تلقى البركة ، تنزع ثيابها النصرانية وترتدى الثياب العربية ، ويقيمون حفلاتهم وفقاً للتقاليد العربية »(١) .

وقد انتهت إلينا وثيقة عربية هامة تلقى ضوءاً كبيراً على أحوال الموريسكيين فى ظل التنصير ، وتعلقهم بدينهم القديم ، وكيف كانوا يتحيلون لمزاولة شعائرهم الإسلامية خفية ، ويلتمسون من جهة أخرى سائر الوسائل والأعذار الشرعية التى يمكن أن تبرر مسلكهم ، وتشفع لهم لدى ربهم ، مما يرغمون على اتباعه من الشعائر النصرانية .

وهذه الوثيقة هى عبارة عن رسالة وجهت من أحد فقهاء المغرب إلى جماعة العرب المتنصرين ممن يسميهم « الغرباء » يقدم إليهم بعض النصائح التى يعاون اتباعها على تنفيذ أحكام الإسلام خفية ، وبطريق التورية والتستر . وتاريخ هذه الرسالة هو غرة رجب سنة ٩١٠ هـ ، ( ٢٨ نوفمبر سنة ١٥٠٤ ) . وإليك نص هذه الوثيقة :

« الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما . إخواننا القابضين على دينهم ، كالقابض على الجمر ، من أجزل الله ثوابهم ، فيما لقوا فى ذاته ، وصبروا النفوس والأولاد فى مرضاته، الغرباء القرباء إن شاء الله، من مجاورة نبيه فى الفردوس الأعلى من جناته، وارثو سبيل السلف الصالح ،

(١) Marmol: ibid ; II. Cap. 1

فى تحمل المشاق ، وإن بلغت النفوس إلى التراق ، نسأل الله أن يلطف بنا ، وأن يعيننا وإياكم على مراعات حقه ، بحسن إيمان وصدق ، وأن يجعل لنا ولكم من الأمور فرجاً ، ومن كل ضيق مخرجاً . بعد السلام عليكم ، من كاتبه إليكم ، من عبيد الله أصغر عبيده ، وأحوجهم إلى عفوه ، ومزيده ، عبيد الله تعالى أحمد ابن بوجمعة المغراوى ثم الوهرانى ، كان الله للجميع بلطفه وستره ، سائلا من إخلاصكم وغربتكم حسن الدعاء ، بحسن الخاتمة والنجاة من أهوال هذه الدار ، والحشر مع الذين أنعم الله عليهم (F. 2) من الأبرار ، وموكداً عليكم فى ملازمة دين الإسلام آمرين به من بلغ من أولادكم . إن لم تخافوا دخول شر عليكم من إعلام عدوكم بطويتكم ، فطوبى للغرباء الذين يصلحون إذا فسد الناس ، وإن ذاكر الله بين الغافلين كالحى بين الموتى ؛ فاعلموا أن الأصنام خشب منجور ، وحجر جلمود لا يضر ولاينفع ، وأن المُلك ملك الله ما اتخذ الله من ولد ، وماكان معه من إله . فاعبدوه ، واصطبروا لعبادته ، فالصلاة ولو بالإيماء ، والزكاة ولوكأنها هدية لفقيركم أو رياء ؛ لأن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن إلى قلوبكم ، والغسل من الجنابة ولو عوماً فى البحور ، وإن منعتم فالصلاة قضاء بالليل لحق النهار ، وتسقط فى الحكم طهارة الماء ؛ وعليكم بالتيمم ولو مسحاً بالأيدى للحيطان ، فإن لم يمكن فالمشهور سقوط الصلاة وقضاؤها لعدم الماء (F. 3-1) والصعيد إلا أن يمكنكم الإشارة إليه بالأيدى والوجه إلى تراب طاهر أوحجر أو شجر مما يتيمم به ، فاقصدوا بالإيماء ، نقله ابن ناجى فى شرح الرسالة لقوله عليه السلام : فأتوا منه ما استطعتم . وإن أكرهوكم فى وقت صلاة إلى السجود للأصنام أوحضور صلاتهم فأحرموا بالنية ، وانووا صلاتكم المشروعة ، وأشيروا لما يشيرون إليه من صنم ، ومقصودكم الله ، وإن كان لغير القبلة تسقط فى حقكم كصلاة الخوف عند الالتحام ؛ وإن أجبروكم على شرب خمر ، فاشربوه لا بنية استعماله ، وإن كلفوا عليكم خنزيراً فكلوه ناكرين إياه بقلوبكم ، ومعتقدين تحريمه ، وكذا إن أكرهوكم على محرم ، وإن زوجوكم بناتهم ، فجائز لكونهم أهل الكتاب ، وإن أكرهوكم (F. 3-2) على إنكاح بناتكم منهم ، فاعتقدوا تحريمه لولا الإكراه ، وأنكم ناكرون لذلك بقلوبكم ، ولو وجدتم قوة لغيرتموه . وكذا إن أكرهوكم على رباً أوحرام فافعلوا منكرين بقلوبكم ، ثم ليس عليكم إلا رءوس أموالكم ، وتتصدقون بالباقى ، إن تبتم لله تعالى . وإن أكرهوكم على كلمة الكفر ، فإن أمكنكم التورية والإلغاز

فافعلوا ، وإلا فكونوا مطمئنى القلوب بالإيمان إن نطقتم بها ناكرين لذلك ، وإن قالوا اشتموا محمداً فإنهم يقولون له مُمَد ، فاشتموا مُمَدًا ، ناوين أنه الشيطان أو ممد اليهود فكثير بهم اسمه . وإن قالوا عيسى ابن الله ، فقولوها إن أكرهوكم ، وانووا إسقاط مضاف أى عبد اللاه مريم معبود بحق . وإن قالوا قولوا المسيح ابن الله فقولوها إكراهاً ، وانووا بالإضافة للملك كبيت الله لا يلزم أن يسكنه أو يحل به ؛ وإن قالوا قولوا مريم زوجة له فانووا بالضمير ابن عمها الذى تزوجها فى بنى إسرائيل ثم فارقها قبل البناء . قاله السهيلى فى تفسير المبهم من الرجال فى القرآن . أو زوجها الله منه بقضائه وقدره . وإن قالوا عيسى توفى بالصلب ، فانووا من التوفية والكمال والتشريف من هذه ، وإماتته وصلبه وإنشاد ذكره ، وإظهار الثناء عليه بين الناس ، وأنه استوفاه الله برفعه إلى العلو ، ومايعسر عليكم فابعثوا (F. 4. I) فيه إلينا نرشدكم إن شاء الله على حسب ماتكتبون به ، وأنا أسأل الله أن يديل الكره للإسلام حتى تعبدوا الله ظاهراً بحول الله من غير محنة ولا وجلة ، بل بصدمة الترك الكرام . ونحن نشهد لكم بين يدى الله أنكم صدقتم الله ورضيتم به . ولابد من جوابكم . والسلام عليكم جميعاً . بتاريخ غرة رجب عام عشرة وتسع مائة ، عرف الله خيره » .

« يصل إلى الغرباء إن شاء الله تعالى »(١) .

ومن ثم فقد لبث الموريكسيون ، شغلا شاغلا للكنيسة وللسياسة الإسبانية ، فهم عنصر بغيض فى المجتمع الإسبانى ، وهم خطر على الدولة وعلى الوطن ، وهم بالرغم من ردتهم مازالوا خونة مارقين ، وما زالوا أعداء للدين فى سريرتهم . وكان يذكى هذا البغض والتحامل ضد الموريسكيين كل تذمر من جانبهم . فلما دفعهم اليأس إلى الثورة فى مفاوز البشرّات ، ولما آنست السياسة الإسبانية أن هذه البقية الممزقة من الأمة الأندلسية القديمة ، ما زالت تجيش برمق من الحياة والكرامة ،

---

(١) عثرت على هذه الوثيقة خلال بحوثى فى مكتبة الڤاتيكان الرسولية برومة . وهى تقع ضمن مجموعة خطية من المخطوطات البورجوانية (Borgiani) . وقد وصف هذا المخطوط فى فهرس مكتبة الفاتيكان (فهرس دللاڤيدا) بأنه « المقدمة القرطبية » . وفى صفحة عنوانه بأنه «كتاب نزهة المستمعين». وتشغل هذه الوثيقة فى المخطوط المشار إليه أربع صفحات ( ١٣٦ – ١٣٩ ) ومن جهة أخرى فقد عثرت بنص هذه الوثيقة مثبتا فى إحدى مخطوطات الألخميادو المحفوظة بمكتبة أكاديمية التاريخ بمدريد ( مجموعة ساڤدرا ) . وتوجد ترجمتها القشتالية فى كتاب :

**P. Longas : La Vida Religiosa de los Moriscos (P. 305-307)**

رأت أن تضاعف إجراءات القمع والمطاردة، ضد هذا الشعب المهيض الأعزل ، حتى لا ينبض بالحياة مرة أخرى .

وكانت ثورة البشرات نذير فورة جديدة، من هجرة الموريسكيين إلى ماوراء البحر ، فجازت منهم إلى إفريقية جموع عظيمة كما قدمنا ، ولكن الكثرة الغالبة منهم بقيت فى الوطن القديم، هدفاً للاضطهاد المنظم، والقمع الذريع المدنى والدينى ؛ فإلى جانب الأوامر الملكية بمنع الهجرة ، وحظر التصرف فى الأملاك أوحمل السلاح وغيرها من القوانين المقيدة للحقوق والحريات ، كان ديوان التحقيق من جانبه ، يشدد الوطأة على الموريسكيين ، ويرقب كل حركاتهم وسكناتهم ، ويغمرهم بشكوكه وريبه ، ويتخذ من أقل الأمور والمصادفات ذرائع لاتهامهم بالكفر والزيغ ، ومعاقبتهم بأشد العقوبات وأبلغها . وقد نقل إلينا الدون لورنتى مؤرخ ديوان التحقيق الإسبانى ، وثيقة من أغرب الوثائق القضائية، تضمنت طائفة من القواعد والأصول التى رأى الديوان المقدس أن يأخذ بها العرب المتنصرين ، فى تهمة الكفر والمروق ، وإليك ما ورد فى تلك الوثيقة الغريبة :

« يعتبر الموريسكى أو العربى المتنصر قد عاد إلى الإسلام ، إذا امتدح دين محمد ، أوقال إن يسوع المسيح ليس إلهاً ، وليس إلا رسولا ، أو أن صفات العذراء أو اسمها لا تناسب أمه ، ويجب على كل نصرانى أن يبلغ عن ذلك ، ويجب عليه أيضاً أن يبلغ عما إذا كان قد رأى أوسمع ، بأن أحداً من الموريسكيين يباشر بعض العادات الإسلامية ، ومنها أن يأكل اللحم فى يوم الجمعة ، وهو يعتقد أن ذلك مباح ، وأن يحتفل يوم الجمعة بأن يرتدى ثياباً أنظف من ثيابه العادية ، أو يستقبل المشرق قائلا بسم الله ، أو يوثق أرجل الماشية قبل ذبحها، أويرفض أكل تلك التى لم تذبح ، أو ذبحتها امرأة ، أو يختن أولاده أو يسميهم بأسماء عربية ، أو يعرب عن رغبته فى اتباع هذه العادة ، أويقول إنه يجب ألا يعتقد إلا فى الله وفى رسوله محمد ، أو يقسم بأيمان القرآن، أو يصوم رمضان ويتصدق خلاله ، ولايأكل ولا يشرب إلا عند الغروب ، أو يتناول الطعام قبل الفجر (السحور) ، أويمتنع عن أكل لحم الخنزير وشرب الخمر ، أو يقوم بالوضوء والصلاة ، بأن يوجه وجهه نحو الشرق ويركع ويسجد ويتلو سوراً من القرآن، أو أن يتزوج طبقاً لرسوم الشريعة الإسلامية ، أوينشد الأغانى العربية ، أو يقيم حفلات الرقص والموسيقى العربية ، أو أن يستعمل النساء الخضاب فى أيديهن أوشعورهن ، أويتبع

قواعد محمد الخمس ، أو يملس بيديه على رؤوس أولاده أو غيرهم تنفيذاً لهذه القواعد ، أو يغسل الموتى ويكفنهم فى أثواب جديدة ، أو يدفنهم فى أرض بكر ، أو يغطى قبورهم بالأغصان الخضراء ، أو أن يستغيث بمحمد وقت الحاجة منعتاً إياه بالنبى ورسول الله ، أو يقول إن الكعبة أول معابد الله ، أو يقول إنه لم ينصر إيماناً بالدين المقدس ، أو إن آباءه وأجداده قد غنموا رحمة الله لأنهم ماتوا مسلمين ... الخ »(١) .

كانت هذه الشبه وأمثالها ، تتخذ ذريعة للتنكيل بالموريسكيين ، بالرغم من تنصرهم وانتمائهم إلى دين سادتهم الجدد . ومن الطبيعى أن يكون موقف المسلمين الذين آثروا الاحتفاظ بدينهم أدق وأخطر ، وكانت قد بقيت منهم جماعات كبيرة فى غرناطة وبلنسية وغيرها ، يعيشون فى غمرة من الجزع الدائم ، وكانت محارق ديوان التحقيق تلتهم الكثير من هؤلاء وهؤلاء ، لأقل الشبه والوشايات . ولقد كان الإسراف فى مطاردة المسلمين والموريسكيين ، نذير السخط فالثورة ، ولكن الثورة أخمدت ، ولم تعدل السياسة الإسبانية عن مسلكها ، وضاعفت محاكم التحقيق إجراءات القمع والتنكيل . وقد انتهت إلينا عن تلك الفترة الدقيقة من تاريخ الموريسكيين وثيقة عربية ذات أهمية خاصة ، كتبها فيما يظهر أندلسى متنصر ( موريسكى ) إلى بايزيد الثانى سلطان الترك العثمانيين ، يستغيث به ويستصرخه ، لنصرة إخوانه العرب المتنصرين ، ويصف له فى شعر ركيك ولكن قوى التعبير ، ما تنزل له اسبانيا النصرانية برعاياها الجدد ، وما يصيب المتنصرين من عسف ديوان التحقيق ، وروائع مطاردته وعقوباته . وإليك بعض ما ورد فى تلك القصيدة المؤثرة ، فى وصف أنواع الاضطهاد والعسف ، التى نزلت بالعرب المتنصرين ، وذلك بعد ديباجة نثرية قصيرة ، وديباجة شعرية طويلة فى تحية السلطان بايزيد :

| | |
|---|---|
| فلما دخلنا تحت عقد ذمامهم | بدا غدرهم فينا بنقض العزيمة |
| وخان عهوداً كان قد غرّنا بهـا | ونصرنا كرهاً بعنف وسطوة |
| وكل كتاب كان فى أمر ديننا | ففى النـار ألقوه بهزء وحقرة |
| ولم يتركوا فيهـا كتاباً لمسـلم | ولا مصحفاً يخـلى به للقراءة |
| ومن صام أو صلى ويعلم حاله | ففى النار يلقوه على كل حالة |

(١) Don Antonio Llorente : Historia Critica de la Iquisición de Espana
وأيضاً Dr. Lea : The Moriscos ; p. 130-131

ومن لم يجئ منا لموضع كفرهم ... يعاقبه اللباط شر العقوبة
ويلطم خديه ويأخذ ماله ... ويجعله فى السجن فى سوء حالة
وفى رمضان يفسدون صيامنا ... بأكل وشرب مرة بعد مرة
وقد أمرونا أن نسب نبينا ... ولا نذكرنه فى رخاء وشدة
وقد سمعوا قوماً يغنون باسمه ... فأدركهم منهم أليم المضرة
وعاقبهم حكامهم وولاتهم ... بضرب وتغريم وسجن وذلة
وقد بدلت أسماؤنا وتحولت ... بغير رضا منا وغير إرادة
فآها على تبديل دين محمد ... بدين كلاب الروم شر البرية
وآهاً على تلك الصوامع علقت ... نواقيسهم بها نظير الشهادة
وآها على تلك البلاد وحسنها ... لقد أظلمت بالكفر أعظم ظلمة
وصارت لعبادة الصليب معاقلا ... وقد أمنوا فيها وقوع الإغارة
وصرنا عبيداً لا أسارى نفتدى ... ولا مسلمين نُطقهم بالشهادة
فلو أبصرت عيناك ما صار حالنا ... إليه لجادت بالدموع الغزيرة
فياولنا يا بؤس ما قد أصابنا ... من الضر والبلوى وثوب المذلة[1]

وهذه الأبيات تنم بالرغم من ركاكتها عن دقة مدهشة، فى تتبع أعمال السياسة الإسبانية، لمطاردة العرب المتنصرين، وفى وصف إجراءات محاكم التحقيق وعقوباتها. والظاهر أن صاحبها كان من الكبراء المتصلين بالشئون العامة. والمرجح أن هذه الرسالة وجهت إلى السلطان بايزيد الثانى، عقب ثورة البشرات وما تلاها من إجراءات القمع المشددة ضد العرب المتنصرين، وذلك حوالى سنة ١٥٠٥، وقد توفى السلطان بايزيد الثانى سنة ١٥١٢، فلابد أن تكون الرسالة قد وجهت إليه قبل ذلك. ونحن نعرف أنها لم تكن أول رسالة من نوعها، وجهها مسلمو الأندلس والعرب المتنصرون إلى قصور قسطنطينية ومصر والمغرب، فقد أشرنا فيما تقدم إلى سفارة السلطان أبى عبد الله الأيسر إلى سلطان مصر الملك الظاهر چقمق يستمد عونه، ثم إلى سفارة مولاى الزغل سلطان غرناطة إلى بلاط مصر وبلاط قسطنطينية، يستغيث بهما ويستصرخهما لإنجاده، وإلى ما قام به بلاط مصر من توجيه سفارته إلى فرناندو الخامس، يحذره من المضى فى إرهاق المسلمين، وينذره باضطهاد النصارى الذين

(١) أورد لنا المقرى فى أزهار الرياض تلك القصيدة بأكلها، وهى طويلة فى نحو مائة بيت (ج ١ ص ١٠٩ — ١١٥).

يعيشون فى المملكة المصرية ، وما كان من تكرار نذيره إلى ملك اسبانيا ، حينما اشتدت وطأة التنصير على مسلمى الأندلس ؛ ولكن تدخل مصر وقسطنطينية على هذا النحو لم يغن شيئا ، وهذا ما يشير إليه صاحب القصيدة المذكورة فى قوله مخاطباً السلطان بايزيد :

وقد بلغ المكتوب منكم إليهم　　فلم يعملوا منه جميعاً بكلمة
وما زادهم إلا اعتداء وجرأة　　علينا وإقداماً بكل مساءة
وقد بلغت إرسال مصر إليهم　　وما نالهم غدر وهتك حرمة
وقالوا لتلك الرسل عنا بأننا　　رضينا بدين الكفر من غير قهرة
لقد كذبوا فى قولهم وكلامهم　　علينا بهذا القول أكبر فرية
ولكن خوف القتل والحرق ردنا　　نقول كما قالوه من غير نية

وقد كانت السياسة الإسبانية تتخذ من هذه الرسائل ، التى يوجهها العرب المتنصرون إلى إخوانهم المسلمين فيما وراء البحر ، كلما تفاقمت آلامهم ومحنتهم ، ذريعة للاشتداد فى مطاردتهم ، واعتبارهم خطراً على سلامة الدولة ، لأنهم يأتمرون بها مع ملوك الدول الإسلامية أعداء اسبانيا النصرانية .

# الفصل الثالث

## ذروة الاضطهاد وثورة الموريسكيين

نظرة اسبانيا إلى الموريسكيين . وفاة فرناندو الكاثوليكى وخلاله . سياسة الرفق فى عهد شارل الخامس . عود الاضطهاد . قرار المحكمة الملكية فى ظلامة المسلمن . تعليق المؤرخ كوندى. ثورة المسلمن فى سرقسطة و بلنسية . تنصير المسلمين فى أراجون . القوانن و القرارات المرهقة . مساعى الموريسكيين فى بلنسية وغرناطة . مراسم جديدة ضد الموريسكيين . تحريم الهجرة إلى الثغور. قرار بالعفو عن الموريسكيين فى مدينة دلكامبو. التردد بين الشدة والرفق فى عهد شارل الخامس . ولده فيليب الثانى . التنصر يعم الموريسكيين . تحريض الكنيسة لفيليب الثانى . تحريم السلاح على الموريسكيين . تحريم استعمال اللغة العربية والثياب والتقاليد العربية . إعلان القانون فى غرناطة . سخط الموريسكيين . فشل السعى إلى التخفيف . اضطراب الخواطر فى غرناطة . العزم على الثورة . خطة ابن فرج لإضرامها. قصيدة عربية فى وصف آلام الموريسكيين . استغاثتهم بأمراء المغرب . نذير الانفجار. محاولة ابن فرج لإثارة غرناطة . ارتداده إلى الهضاب الجنوبية . انتشار الثورة . فتك الموريسكيين بالنصارى . فرناندو دى ڤالور أومحمد بن أمية سلطان الموريسكيين . الفتك بالنصارى فى منطقة البشرات . أهبة الإسبان لقمع الثورة . مسير المركيز منديخار لمقاتلة الموريسكيين . اتساع نطاق الثورة . هزيمة الموريسكيين وفرارمحمد بن أمية . معركة دامية أخرى. الفتك بالموريسكيين فى غرناطة . عود محمد بن أمية. استغاثته بأمراء المغرب وسلطان الترك . تشريد الموريسكيين فى البيازين . مصرع محمد بن أمية . ابن عبورأومولا عبدالله يخلفه فى الرياسة . غارات الموريسكيين على أحواز غرناطة . تعيين دون خوان قائداً عاماً لغرناطة . مسيره إلى مقاتلة الثوار. المعارك الطاحنة بين الفريقين . الحكومة الإسبانية تجنح إلى اللين . محاولات الإسبان لعقد الصلح . المفاوضات بين الفريقين . خطاب لابن عبو . تصميم مولاى عبد الله على القتال. اجتياح الإسبان للمناطق الثائرة . مرسوم بنفى الموريسكيين إلى الداخل. الحوادث الدموية . قوانين جديدة مرهقة . مصرع مولاى عبد الله . انهيار الثورة الموريسكية .

لبث الموريسكيون فى عهد فرناندو الخامس ( الكاثوليكى ) زهاء عشرين عاماً ، يتراوحون بين الرجاء واليأس ، ويرزحون تحت غمر المطاردة المنظمة . وكان هذا الشعب المهيض الذى أدخل قسراً فى حظيرة النصرانية ، والذى أنكرته مع ذلك اسبانيا سيدته الجديدة ، وأنكرته الكنيسة التى عملت على تنصيره ، يحاول أن يروض نفسه على حياته الجديدة ، وأن يتقبل مصيره المنكود بإباء وجلد . ولكن اسبانيا النصرانية ، لبثت ترى فى هذه البقية الباقية من الأمة الأندلسية ، عدوها القديم الخالد ، وتتصور أن هذا المجتمع المهيض الأعزل ، الذى أحكمت أغلالها فى عنقه ،

ما يزال مصدر خطر دائم على سلامتها وطمأنينتها ، ومن ثم كان هذا الإمعان فى مطاردته وإرهاقه ، بمختلف الفروض والقيود والمغارم ، وفى انتهاك عواطفه وحرماته ، وفى تعذيبه وتشريده ، وكان يلوح أن ليس لهذا الإستشهاد الطويل المؤثر من آخر سوى الفناء ذاته .

توفى فرناندو الكاثوليكى فى ٢٣ يناير سنة ١٥١٦ ، بعد أن عانت بقية الأمة الأندلسية من غدره وعسفه ما عانت ؛ وكانت زوجه الملكة إيسابيلا قد سبقته إلى القبر ، قبل ذلك بأحد عشر عاماً ، فى ٢٦ نوفمبر سنة ١٥٠٤ ، ودفنت تحقيقاً لرغبتها فى غرناطة ، فى دير سان فرنسيسكو القائم فوق هضبة الحمراء ، ودفن فرناندو إلى جانب زوجه بالحمراء ، تحقيقاً لوصيته ، ثم نقل رفاتهما فيما بعد إلى كنيسة غرناطة العظمى ، التى أقيمت فوق موقع مسجد غرناطة الجامع ، فى عهد حفيدهما الإمبراطور شارلكان ، وأقيم لهما فيها ضريح رخامى فخم ، ما يزال حتى اليوم فى مقدمة مزارات غرناطة النصرانية . وفى دفن فاتحى غرناطة الإسلامية فى حرم جامع غرناطة القديم ، مغزى خاص ينطوى على تنويه ظاهر بظفر اسبانيا ، وظفر النصرانية على الإسلام .

وقد كان الغدر والرياء ، أبرز صفات هذا الملك العظيم المظفر ، الذى أتيح له القضاء على دولة الإسلام بالأندلس . وقد نوه بهذه الصفة الذميمة أكابر المؤرخين المعاصرين واللاحقين ، ومنهم المؤرخون القشتاليون أنفسهم[١] . ويقول معاصره الفيلسوف السياسى مكيافيللى فى حقه : « إن فرناندو الأرجونى غزا غرناطة فى بداية حكمه ، وكان هذا المشروع دعامة سلطانه . وقد استطاع بمال الكنيسة والشعب أن يمد جيوشه ، وأن يضع بهذه الحرب أسس البراعة العسكرية التى امتاز بها بعد ذلك ، وقد كان دائماً يستعمل الدين ذريعة ليقوم بمشاريع أعظم ، وقد كرس نفسه بقسوة تسترها التقوى لإخراج المسلمين من مملكته وتطهيرها منهم ، وبمثل هذه الذريعة غزا إفريقية ، ثم هبط إلى إيطاليا ، ثم هاجم فرنسا ... »[٢] .

---

(١) فمثلا يقول المؤرخ ثوريتا **Zurita** ، وهو من أكابر المؤرخين الإسبان فى القرن السادس عشر فى وصفه : « وكان مشهوراً لا بين الأجانب فقط ، ولكن بين مواطنيه أيضاً ، بأنه لا يحافظ على الصدق ، ولا يرعى عهداً قطعه ، وأنه كان يفضل دائماً تحقيق صالحه الخاص ، على كل ما هو عدل وحق » . راجع : **Prescott, cit. Zurita (Anales) ; ibid ; p. 697 (note)**

(٢) **Machiavelli : The Prince (Everyman), p. 177 & 178.**

وكانت سياسة فرنناندو الكاثوليكى مثال الغدر المثير فى جميع ما اتخذه نحو معاملة المسلمين عقب تسليم غرناطة ، وما تلاه من حوادث تنصيرهم قسراً ، ثم اضطهادهم ، ومطاردتهم بأقسى الوسائل ، وأشدها إيلاماً لمشاعرهم وأرواحهم .

فلما توفى فرناندو ، وخلفه حفيده شارل أوكارلوس الخامس ( الإمبراطور شارلكان ) بعد فترة قصيرة من وصاية الكردينال خمنيس على العرش ، تنفس الموريسكيون الصعداء ، وهبت عليهم ريح جديدة من الأمل ، ورجوا أن يكون العهد الجديد خيراً من سابقه . وأبدى الملك الجديد فى الواقع شيئاً من اللين والتسامح ،

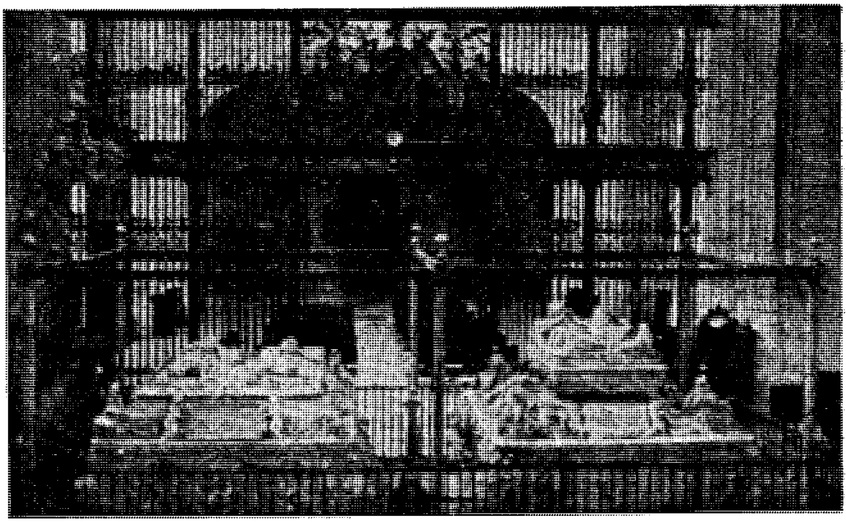

ضريح فرناندو وإيسابيلا بكنيسة غرناطة العظمى

نحو المسلمين والموريسكيين ، وجنحت محاكم التحقيق إلى نوع من الاعتدال فى مطاردتهم ، وكفت عن التعرض لهم فى أراجون بسعى النبلاء والسادة ، الذين يعمل المسلمون فى ضياعهم . ولكن هذه السياسة المعتدلة لم تدم سوى بضعة أعوام ، وعادت العناصر الرجعية فى البلاط وفى الكنيسة ، فغلبت كلمتها ، وصدر مرسوم جديد فى ١٢ مارس سنة ١٥٢٤ يحتم تنصير كل مسلم بقى على دينه ، وإخراج كل من أبى النصرانية من اسبانيا ، وأن يعاقب كل مسلم أبى التنصير أو الخروج فى المهلة الممنوحة بالرق مدى الحياة ، وأن تحول جميع المساجد الباقية إلى كنائس .

عندئذ استغاث المسلمون بالإمبراطور ، والتمسوا عدله وحمايته ، على يد وفد

منهم يعثوه إلى مدريد ، ليشرح للمليك ظلاماتهم وآلامهم ( سنة ١٥٢٦ ) . فندب الإمبراطور محكمة كبرى من النواب والأحبار والقادة وقضاة التحقيق ، برياسة المحقق العام لتنظر فى ظلامة المسلمين ، ولتقرر بالأخص ما إذا كان التنصير الذى وقع على المسلمين بالإكراه ، يعتبر صحيحاً ملزماً ، بمعنى أنه يحتم عقاب المخالف بالموت ، أم يطبق القرار الجديد عليهم كمسلمين. وقد أصدرت المحكمة قرارها بعد مناقشات طويلة ، بأن التنصير الذى وقع على المسلمين صحيح لا تشوبه شائبة ، لأنهم سارعوا بقبوله اتقاء لما هو شرمنه ، فكانوا بذلك أحراراً فى قبوله . ويعلق المؤرخ الغربى النصرانى على ذلك القرار بقوله : « وهكذا اعتبر التنصير الذى فرضه القوى على الضعيف ، والظافر على المغلوب ، والسيد على العبد ، منشئاً لصفة لا يمكن لإرادة معارضة أن تزيلها »[١] . وعلى أثر ذلك صدر أمر ملكى بأن يرغم سائر المسلمين الذين نصروا كرهاً ، على البقاء فى اسبانيا ، باعتبارهم نصارى ، وأن ينصر كل أولادهم ، فإذا ارتدوا عن النصرانية ، قضى عليهم بالموت والمصادرة ، وقضى الأمر فى الوقت نفسه ، بأن تحول جميع المساجد الباقية فى الحال إلى كنائس .

فكان لهذه القرارات لدى المسلمين أسوأ وقع ، وما لبثت الثورة أن نشبت فى معظم الأنحاء التى يقطنها المسلمون ، فى أحواز سرقسطة وفى منطقة بلنسية وغيرها ، وأخمدت هذه الثورات المحلية الضئيلة تباعاً . ولكن بلنسية كان لها شأن آخر . ذلك أنها كانت تضم حشداً كبيراً من المسلمين ، يبلغ زهاء سبعة وعشرين ألف أسرة[٢] ، وكان وقوعها على البحر يمهد للمسلمين سبل الإتصال بإخوانهم فى المغرب ، ومن ثم فقد كانت دائماً فى طليعة المناطق الثائرة ، وكانت الحكومة الإسبانية تنظر إليها باهتمام خاص ؛ فلما فرض التنصير العام أبدى المسلمون فى بلنسية مقاومة عنيفة ، ولجأت جموع كبيرة منهم إلى ضاحية ( بنى وزير ) Benaguacil ، واضطرت الحكومة أن تجرد عليهم قوة كبيرة مزودة بالمدافع ؛ وأرغم المسلمون فى النهاية على التسليم والخضوع ، وأرسل إليهم الإمبراطور إعلان الأمان على أن ينصروا ، وعدلت عقوبة الرق إلى الغرامة[٣] .

---

( ١ ) راجع تاريخ De Marlés الذى وضعه بالاقتباس من تاريخ كوندى : Hist. de la Domination des Arabes en Espagne ; V. III. p. 389

( ٢ ) Llorente ; ibid.

( ٣ ) Dr. Lea : The Moriscos ; p. 91 & 92

وفى باقى ولايات أراجون ، أشفق السادة والنبلاء على مصالحهم وضياعهم من الخراب ، إذا اضطهد المسلمون ومزقوا كما حدث فى بلنسية ، فأوضحوا للإمبراطور خطأ هذه السياسة ، وأكدوا له أن المسلمين فى أراجون جماعة هادئة عاملة ذلولة ، لم ترتكب جرماً قط ، ولم تبدر منهم خطيئة دينية أو سياسية ، ومعظمهم زراع فى أراضى الملك والسادة ، ومنهم صناع مهرة ، فإخراجهم من أراجون خسارة

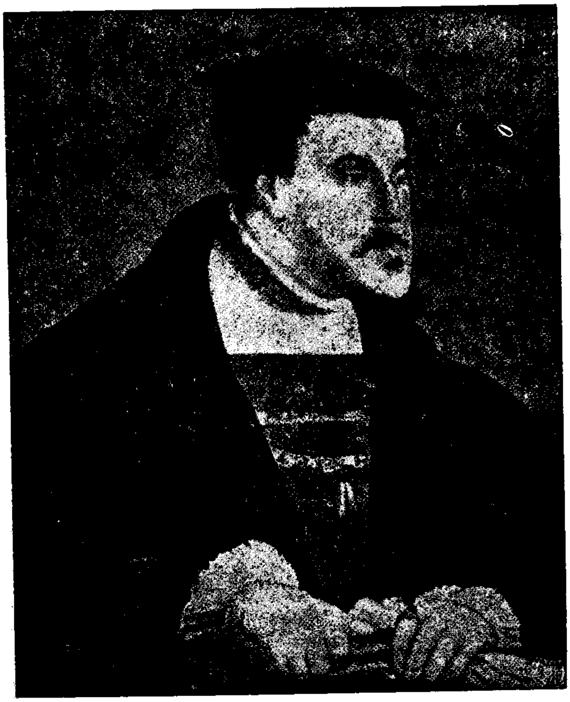

شارل الخامس ( الإمبراطور شارلكان )

فادحة ، ولا داعى لإرغامهم على التنصير ، لأن ذلك لا يعنى إخلاصهم للدين الجديد ، ومن الخير أن يتركوا فى سلام ؛ ولكن مساعى السادة فى هذا السبيل ذهبت عبثاً ، وأصر الإمبراطور على أن يطبق التشريع الجديد على جميع مسلمى أراجون ، وأصدر أوامره إلى ديوان التحقيق أن يقوم بتلك المهمة ، فأذعن المسلمون إلى التنصير راغمين ، وتم بذلك تنصيرهم جميعاً ( سنة ١٥٢٦ ) .

وتوالت الأوامر والقوانين المرهقة ، فصدر قانون يحظر على الموريسكيين بيع الحرير والذهب والفضة والحلى والأحجار الكريمة ، وحتم على كل مسلم بقى على

دينه أن يحمل شارة زرقاء فى قبعته، وحظر عليهم حمل السلاح إطلاقاً ، وإلا عوقب المخالفون بالجلد، وأمروا بأن يسجدوا فى الشوارع متى مر كبير الأحبار. وفى بلنسية صدر قرار بأن يغادر المسلمون الأراضى الإسبانية من طريق الشمال ، وحظر على السادة أن يبقوهم فى ضياعهم ، وإلا عوقبوا بالغرامة الفادحة . فعاد المسلمون فى بلنسية إلى الثورة، وقاوموا جند الحكومة حيناً ، ولكن الثورة ما لبثت أن أخمدت ، وتقدم المسلمون خاضعين على يد وفد منهم مثل فى البلاط ، يعرضون الدخول فى النصرانية ، على أن تحقق لهم بعض المطالب والظروف المخففة ، فلا يمتد إليهم قضاء ديوان التحقيق مدى أربعين عاماً ، لا فى أنفسهم ولا فى أموالهم، وأن يحتفظوا خلال هذه المدة بلغتهم وملابسهم القومية ، وبعض حقوقهم فى الزواج والميراث طبقاً لتقاليدهم ، وأن ينفق على من كان منهم من الفقهاء من دخل الأراضى التى وقفها المسلمون لأغراض البر ، ويرصد الباقى لإنشاء الكنائس الجديدة، وأن يسمح لهم بحمل السلاح وتخفيض الضرائب(١) . ولكن مجلس الدولة رأى أن يطبق عليهم سائر الأوامر ، التى طبقت على الموريسكيين فى غرناطة وغيرها ، وأن يسمح لهم بالاحتفاظ بلغتهم وأزيائهم مدى عشرة أعوام فقط ، وأن يمنحوا بعض الإمتيازات فيما يتعلق بالزواج ودفع الضرائب . وكانت هذه المنح أفضل ما يمكن نيله فى هذه الظروف ، فأقبل المسلمون فى منطقة بلنسية على التنصير أفواجاً ، عدا أقلية صغيرة آثرت المضى فى المقاومة ، ومزقتها جند الإمبراطور بعد قليل ، وألفت محاكم التحقيق غير بعيد ، فى مجتمع الموريسكيين فى بلنسية ، ميداناً خصباً لنشاطها .

وحذا الموريسكيون فى غرناطة حذو إخوانهم فى بلنسية ، فسعوا لدى البلاط فى تخفيف الأوامر والقوانين المرهقة التى فرضت عليهم ، وانتهزوا فرصة زيارة الإمبراطور لغرناطة ( سنة ١٥٢٦ ) فقدموا إليه على يد ثلاثة من أكابرهم ، هم الدون فرناندو بنجاس والدون ميشيل داراجون ودبجو لويز بنشارا ، وهم من سلالة أمراء غرناطة الذين نصروا منذ الفتح ، مذكرة يشرحون فيها ظلامتهم ، وما يعانونه من آلام المطاردة والإرهاق المستمر ، ولاسيما من أعمال القسس والقضاء الدينى ؛ فندب الإمبراطور لجنة محلية للتحقيق فى أمر الموريسكيين فى سائر أنحاء غرناطة ، ثم عرضت نتائج بحثها على مجلس دينى قرر ما يأتى : أن يترك الموريسكيون استعمال لغتهم العربية وثيابهم القومية، وأن يتركوا استعمال الحمامات ،

P. Longás : Vida Religiosa de los Moriscos, p. XLII (١)

وأن تفتح أبواب منازلهم أيام الحفلات وأيام الجمع والسبت ، وألا يقيموا رسوم المسلمين أيام الحفلات ، وألا يتسموا بأسماء عربية . ولكن تنفيذ هذه القرارات أرجئ بأمر الإمبراطور ؛ ثم أعيد إصدارها ، ثم أرجئ تنفيذها مرة أخرى .

وصدرت عدة أوامر ملكية بالعفو عن الموريسكيين فيما تقدم من الذنوب ، فإذا عادوا طبقت عليهم أشد القوانين والفروض ، فأذعن الموريسكيون لكل ما فرض عليهم ، ولكنهم افتدوا من الإمبراطور بمبلغ طائل من المال ، حق ارتداء ملابسهم القومية ، وحق الإعفاء من المطاردة إذا اتهموا بالردة(١) .

وكان الإمبراطور شارلكان حينما أصدر قراره بتنصير المسلمين ، قد وعد بتحقيق المساواة بينهم وبين النصارى فى الحقوق والواجبات ، ولكن هذه المساواة لم تحقق قط ، وشعر العرب المتنصرون منذ الساعة الأولى، أنهم مازالوا موضع الريب والإضطهاد ، وفرضت عليهم فروض وضرائب كثيرة لا يخضع لها النصارى ، وكانت وطأة الحياة تثقل عليهم شيئاً فشيئاً ، وتترى ضدهم السعايات والإتهامات ، وقد غدوا فى الواقع أشبه بالرقيق منهم بالرعايا الأحرار. ولما شعرت السلطات بميل الموريسكيين إلى الهجرة ، وفشت فيهم هذه الرغبة ، صدر قرار فى سنة ١٥٤١ ؛ يحرم عليهم تغيير مساكنهم ، كما حرم عليهم النزوح إلى بلنسية ، التى كانت دائماً طريقهم المفضل إلى ركوب البحر ، ثم صدر قرار بتحريم الهجرة من أى الثغور إلا بترخيص ملكى نظير رسم فادح . وكانت السياسة الإسبانية تخشى دائماً اتصال الموريسكيين بمسلمى المغرب ، وكان ديوان التحقيق يسهر على حركة الهجرة ويعمل على قمعها بمنتهى الشدة، ومع ذلك فقد كانت الأنباء تأتى من سفراء اسبانيا فى البندقية وغيرها من الثغور الإيطالية ، بأن كثيراً من الموريسكيين الفارين ، يمرون بها فى طريقهم إلى إفريقية والشرق الإسلامى(٢) .

وخلال هذا الاضطهاد الغامر ، كانت السياسة الإسبانية فى بعض الأحيان ، تجنح إلى شيء من الرفق ، فنرى الإمبراطور فى سنة ١٥٤٣ يبلغ « المحققين العامين » بأنه تحقيقاً لرغبة مطران طليطلة والمحقق العام ، قد أصدر أمره بالعفو عن المسلمين المتنصرين من أهل « مدينة دلكامبو » و « أريفالو » فيما ارتكبوه من ذنوب الكفر والمروق ، وأنه يكتفى بأن يطلب إليهم الإعتراف بذنوبهم أمام الديوان

(١) Dr. Lea : The Moriscos; p. 214 & 215 و P. Longas: ibid; p. XLIII

(٢) Dr. Lea: ibid ; p. 187 & 189

( ديوان التحقيق ) ، ثم ترد إليهم أملاكهم الثابتة والمنقولة التى أخذت منهم إلى الأحياء منهم ، ويسمح لهم بتزويج أبنائهم وبناتهم من النصارى الخلص ، ولا تصادر المهور التى دفعوها للخزينة بسبب الذنوب التى ارتكبوها ، بل تبقى هذه المهور للأولاد الذين يولدون من هذا الزواج ، وأن يتمتع بهذا الإمتياز النصرانيات الخلص اللاتى يتزوجن من الموريسكيين ، بالنسبة للأملاك التى يقدمها الأزواج الموريسكيون برسم الزواج أوالميراث[1] .

وهكذا لبثت السياسة الإسبانية أيام الإمبراطور شارلكان ( ١٥١٦—١٥٥٥ ) إزاء الموريسكيين ، تتردد بين الإقدام والإحجام، واللين والشدة . بيد أنها كانت على وجه العموم أقل عسفاً وأكثر اعتدالا ، منها أيام فرناندو وإيسابيلا . وفى عهده نال الموريسكيون كثيراً من ضروب الإعفاء والتسامح الرفيقة نوعاً ، ولكنهم لبثوا فى جميع الأحوال موضع القطيعة والريب ، عرضة للإرهاق والمطاردة ، ولبثت محاكم التحقيق تجد فيهم دائماً ميدان نشاطها المفضل .

— ٢ —

على أن هذه السياسة المعتدلة نوعاً ، لم يتح لها الاستمرار فى عهد ولده وخلفه فيليب الثانى ( ١٥٥٥ — ١٥٩٨ ) . وكان التنصر قد عم الموريسكيين يومئذ ، وغاضت منهم كل مظاهر الإسلام والعروبة ؛ ولكن قبساً دفيناً من دين الآباء والأجداد ، كان لا يزال يجثم فى قراره هذه النفوس الأبية الكليمة ، ولم تنجح اسبانيا النصرانية بسياستها البربرية فى اكتساب شيء من ولائها المغصوب . وكان الموريسكيون يحتشدون جماعات كبيرة وصغيرة فى غرناطة وفى بسائطها ، وفى منطقة البشرات الجبلية ، تتوسطها الحاميات الإسبانية والكنائس ، لتسهر الأولى على حركاتهم ، وتسهر الثانية على إيمانهم وضمائرهم ، وكانوا يشتغلون بالأخص بالزراعة والتجارة ، ولهم صلات تجارية واجتماعية وثيقة بثغور المغرب ، وهو ماكانت ترقبه السلطات الإسبانية دائماً بكثير من الحذر والريب .

وكانت بقية من التقاليد والمظاهر القديمة ، ما زالت تربط هذا الشعب الذى زادته المحن والخطوب اتحاداً ، وتعلقاً بتراثه القومى والروحى ؛ وكانت الكنيسة تحيط هذا الشعب العاق ، الذى لم تنجح تعاليمها فى النفاذ إلى أعماق نفسه ، بكثير من البغضاء والحقد . فلما تولى فيليب الثانى ألفت فرصتها فى إذكاء عوامل الاضطهاد

---

( ١ ) Arch. gen. de Simancas; P.R. Leg. 28, Fol. 49

والتعصب ، التي خبت نوعاً فى عهد أبيه شارل الخامس . وكان هذا الملك المتعصب حبراً فى قرارة نفسه ، يخضع لوحى الأحبار والكنيسة ، ويرى فى الموريسكيين ما تصوره الكنيسة والسياسة الرجعية ، عنصراً بغيضاً خطراً دخيلا على المجتمع الإسبانى ، فلم تمض أعوام قلائل على تبوئه الملك ، حتى ظهرت بوادر التعصب والتحريض ضد الموريسكيين ، فى طائفة من القوانين والفروض المرهقة .

وكانت مسألة السلاح فى مقدمة المسائل ، التى كانت موضع الاهتمام والتشدد ، وقد عنيت السياسة الإسبانية منذ البداية بتجريد الموريسكيين من السلاح ، واتخذت أيام فرناند و إجراءات لينة نوعاً ، فكان يسمح بحمل أنواع معينة من السلاح المنزلى كالسكين وغيرها ، وذلك بترخيص ورسوم معينة . ولكن الحكومة خشيت بعد ذلك عواقب هذا التسامح ، فأخذت تشدد فى الترخيص ، وجرد المسلمون فى بلنسية من سلاحهم جملة ، وقيل لهم حينما أذعنوا للتنصير ، أنهم سيعاملون كالنصارى فى سائر الحقوق والواجبات ويرد لهم سلاحهم ، ولكن الحكومة لم تف بعهدها . وفى سنة ١٥٤٥ صدر قرار بمنع حمل السلاح كافة ، ولكنه نفذ بشيء من اللين . وفى سنة ١٥٦٣ ، فى عهد فيليب الثانى ، صدر قانون جديد بحرم حمل السلاح على الموريسكيين ، إلا بترخيص من الحاكم العام ، وأحيط تنفيذه بمنتهى الشدة ، فأثار صدوره سخط الموريسكيين ، وكان السلاح ضرورياً للدفاع عن أنفسهم فى محلاتهم المنعزلة النائية ،

بيد أن قانون تحريم السلاح ، لم يكن سوى مقدمة لقانون أقسى وأشد إيلاماً ، هو القانون الخاص بتحريم استعمال اللغة العربية ، وارتداء الثياب العربية ، على الموريسكيين . وقد لبثت اللغة والتقاليد العربية فى الواقع للموريسكيين ، أوثق الروابط بماضيهم وتراثهم ، وكانت عماد قوتهم المعنوية ، ومن ثم كانت عناية السياسة الإسبانية ، بالعمل على محوها بطريق التشريع الصارم ، والقضاء بذلك على آخر الروابط التى تربط الموريسكيين ، بماضيهم وتراثهم القومى . وقد فكر بعض أحبار الكنيسة أن يتعلم القسس الذين يقومون بحركة التنصير اللغة العربية ، لكى يستطيعوا إقناع الموريسكيين بلغتهم ، والنفاذ إلى أعماق نفوسهم ، ولكن فيليب الثانى لم يوافق على هذا الرأى ، وآثر أن تعلم القشتالية لأبناء الموريسكيين منذ طفولتهم ؛ وكانت السياسة الإسبانية قد حاولت تنفيذ مشروعها منذ عهد الإمبراطور شارلكان ، فصدر فى سنة ١٥٢٦ قانون يحرم على الموريسكيين التخاطب باللغة العربية وارتداء الثياب العربية ، واستعمال الحمامات ، وإقامة الحفلات على الطريقة الإسلامية ، ولكنه لم ينفذ بشدة ،

والتمس الموريسكيون فى بلنسية وغرناطة وقف تنفيذه أربعين عاماً، يحتفظون خلالها بلغتهم وثيابهم القومية ، وقرنوا ملتمسهم بمطالب أخرى تتعلق بتطبيق شريعتهم وتقاليدهم، وتخفيف الضرائب عن كاهلهم، وبالرغم من أن مطالبهم لم تجب يومئذ كلها ، فإن قانون تحريم اللغة والثياب القومية ، أرجىء تنفيذه مرة بعد أخرى ، وأجيز للموريسكيين استعمال اللغة والثياب القومية ، نظير ضريبة معينة ، واستمر هذا المنح سارياً حتى عهد فيليب الثانى ، وكان يجمع من هذه الضريبة مبلغ طائل . ولكن فيليب الثانى كان ملكاً شديد التعصب ، كثير التأثر بنفوذ الأحبار ، وكانت الكنيسة ترى أن بقاء اللغة العربية من أشد العوامل لمنع تغلغل النصرانية فى نفوس الوريسكيين ، وأنه لابد من القضاء على ذلك الحاجز الصخرى الذى تتحطم عليه جهود الكنيسة ؛ وكانت قد مضت فوق ذلك أربعون عاماً مذ صدر قانون التحريم فى عهد الإمبراطور شارلكان ، ولم يبق للموريسكيين بذلك حجة ولا ملتمس ، وانتهت الكنيسة كالعادة بإقناع الملك بصواب رأيها ، فلم يلبث أن استجاب لتحريضها ، وأمر فى مايو سنة ١٥٦٦ بأن يجدد القانون القديم بتحريم اللغة والثياب العربية ، وهكذا حاول بطريق التشريع أن يسدد الضربة الأخيرة للغة الموريسكيين وتقاليدهم العربية ، فأصدر هذا القانون الهمجى الذى لم يسمع بصدور مثله فى تاريخ المجتمعات المتمدنة .

ويقضى هذا القانون بأن يمنح الموريسكيون ثلاثة أعوام لتعلم اللغة القشتالية ، ثم لا يسمح بعد ذلك لأحد أن يتكلم أو يكتب أو يقرأ العربية أو يتخاطب بها ، سواء بصفة عامة أو بصفة خاصة ، وكل معاملات أو عقود تجرى بالعربية تكون باطلة ولا يعتد بها لدى القضاء أو غيره . ويجب أن تسلم الكتب العربية ، من أية مادة فى ظرف ثلاثين يوماً إلى رئيس المجلس الملكى فى غرناطة ، لتفحص وتقرأ، ثم يرد غير الممنوع منها إلى أصحابها لتحفظ لديهم مدى الأعوام الثلاثة فقط . وأما الثياب فيمنع أن يصنع منها أى جديد مما كان يستعمل أيام المسلمين ، ولا يصنع منها إلا ما كان مطابقاً لأزياء النصارى ، وحتى لايتلف منها ما كان من زى المسلمين فإنه يسمح بارتداء الثياب الحريرية منها لمدة عام ، والصوفية لمدة عامين ، ثم لا يسمح باستعمالها بعد ذلك . ويحظر التحجب على النساء الموريسكيات وعليهن أن يكشفن وجوههن ، وأن يرتدين عند الخروج المعاطف والقبعات على نحو ما تفعل النساء الموريسكيات فى أراجون . ويحظر فى الحفلات إجراء أية رسوم

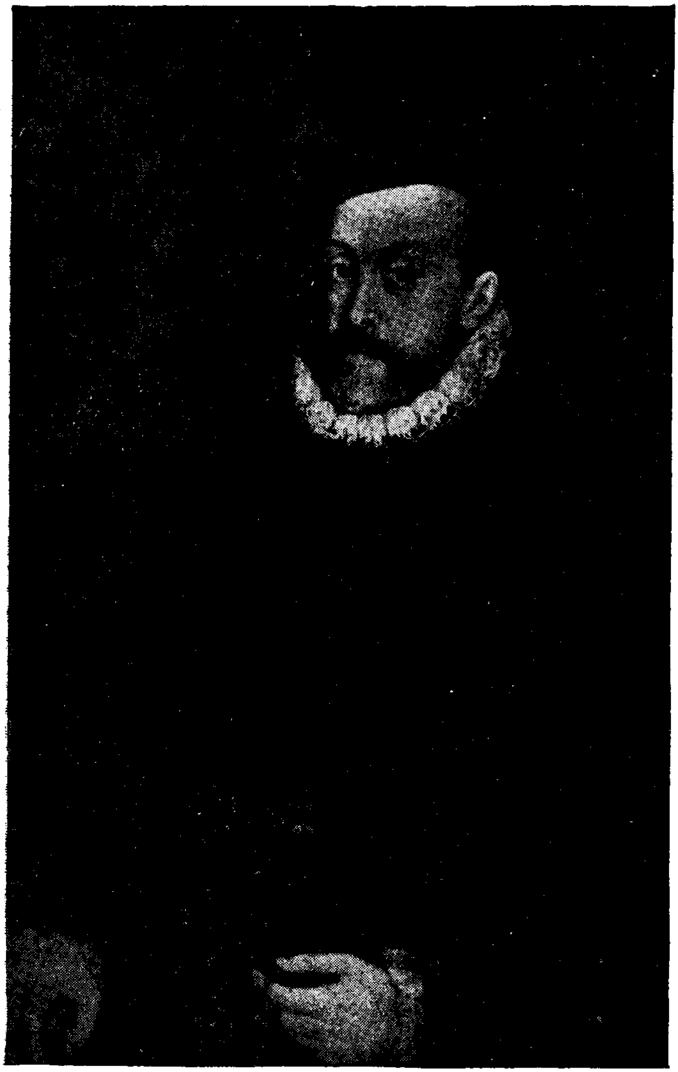

الملك فيليب الثانى

عن صورة « سانشيث كويليو » المحفوظة بمتحف « البرادو » بمدريد .

إسلامية ، ويجب أن يجرى كل ما فيها طبقاً لعرف الكنيسة وعرف النصارى ؛ ويجب أن تفتح المنازل أثناء الاحتفال ، وكذلك أيام الجمعة وأيام الأعياد، ليستطيع القسس ورجال السلطة أن يروا ما يقع بداخلها من المظاهر والرسوم المحرمة . ويحرم إنشاد الأغانى القومية ، ولا يشهر الزمر ( الرقص العربى ) أو ليالى الطرب بالآلات ، أو غيرها من العوائد الموريسكية ، ويحرم الخضاب بالحناء . ولا يسمح بالاستحمام فى الحمامات ، ويجب أن تهدم سائر الحمامات العامة والخاصة . ويحرم استعمال الأسماء والألقاب العربية ، ومن يحملها يجب عليه أن يبادر بتركها . ويجب أخيراً على الموريسكيين الذين يستخدمون العبيد السود أن يقدموا رخصهم باستخدامهم للنظر فيما إذا كان حرياً بأن يسمح لهم باستبقائهم (١).

هذه هى نصوص ذلك القانون الهمجى الذى أريد به تسديد الضربة القاتلة لبقايا الأمة الأندلسية ، وذلك بتجريدها من مقوماتها القومية الأخيرة . وقد فرضت على المخالف عقوبات فادحة ، تختلف من السجن إلى النفى والإعدام ؛ وكان إحراز الكتب والأوراق العربية ولاسيما القرآن ، يعتبر فى نظر السلطات من أقوى الأدلة على الردة ، ويعرض المتهم لأقسى أنواع العذاب والعقاب .

أعلن هذا القانون المروع فى غرناطة فى يوم أول يناير سنة ١٥٦٧ ، وهو اليوم الذى سقطت فيه غرناطة ، واتخذته اسبانيا عيداً قومياً تحتفل به فى كل عام ، وأمر ديسا رئيس المجلس الملكى بإذاعته فى غرناطة ، وسائر أنحاء مملكتها القديمة ، وتولى إذاعته موكب من القضاة شق المدينة ، ومن حوله الطبل والزمر ، وعلق فى ميدان باب البنود أعظم ميادينها القديمة ، وفى سائر ميادينها الأخرى ، وفى ربض البيازين ، فوقع لدى الموريسكيين وقع الصاعقة ، وفاضت قلوبهم الكسيرة سخطاً وأسى ويأساً ، وأحيط تنفيذه بمنتهى الشدة ، فحطمت الحمامات تباعاً . واجتمع زعماء الموريسكيين وتباحثوا فيما يجب عمله إزاء هذه المحنة الجديدة ، وحاولوا أن يسعوا بالضراعة والحسنى لإلغاء هذا القانون أو على الأقل لتخفيف وطأته ، ورفعوا احتجاجهم أولا إلى الرئيس ديسا ، عن يد رئيس جماعتهم مولاى فرنسيسكو نونيز ، فخاطب الرئيس ديسا ، وبين له ما فى القانون من شدة وتناقض وخرق للعهود ، وطلب إرجاء تنفيذه . ثم قرروا التظلم للعرش . وحمل رسالتهم

---

(١) نقلنا نصوص هذا القانون عن مارمول ، وقد عاصر صدوره . انظر : Marmol: ibid; Lib. II. Cap. VI . وراجع أيضاً : P. Longas: ibid; p. XLV.XLVI :

إلى فيليب الثانى ، وإلى وزيره الطاغية الكردينال اسبينوسا ، سيد اسبانى نبيل من أعيان غرناطة يدعى الدون خوان هنريكس ، وكان يعطف على هذا الشعب المنكود ، ويرى خطر السياسة التى اتبعت لإبادته ، وسار معه إلى مدريد اثنان من أكابرهم هما خوان هرناندث من أعيان غرناطة ، وهرناندو الحبقى من أعيان وادى آش ، والتمس الوفد إلى الملك إرجاء تنفيذ القانون كما حدث أيام أبيه ، وبعث الدون هنريكس بمذكرة إلى جميع أعضاء مجلس الملك يبين فيها ما يترتب على تنفيذ القانون من حرج واضطراب ، ولكن مساعيه كلها ذهبت عبثاً ، وأجاب الكردينال اسبينوسا ، بأن جلالته مصمم على تنفيذ القانون ، وأنه أصبح أمراً واقعاً . وكذا عرض المركيز دى مونديخار حاكم غرناطة على الملك اعتراض الموريسكيين ، وأوضح له خطورة الموقف ، وأن اليأس قد يدفعهم إلى الثورة ، وأن الترك ، أصبحوا فى شواطىء المغرب على مقربة من اسبانيا ، وأن الموريسكيين شعب عدو لا يدين بالولاء ، فلم تفد هذه الاعتراضات شيئاً ، وقيل إن الموريسكيين شعب جبان ، ولا سلاح لديه ولا حصون . وهكذا حملت سياسة العنف والتعصب فى طريقها كل شىء ، ونفذت الأحكام الجديدة فى المواعيد التى حددت لها ، ولم تبد السلطات فى تنفيذها أى رفق أو مهادنة(١) .

ولم يحظ بلمحة من الرفق سوى الموريسكيين فى بلنسية ، وكان زعيمهم وكبير أشرافهم كوزمى بن عامر من المقربين إلى البلاط ، فسعى للتخفيف عنهم ، وكللت مساعيه بالنجاح فى بعض النواحى ، وهو أن يعامل الموريسكيون بالرفق فى حالة الإتهام بالردة ، ولا تنزع أملاكهم بتهمة المروق ، وذلك على أن يدفعوا إتاوة سنوية قدرها ألفان وخمسمائة مثقال لديوان التحقيق(٢) .

وأما فى غرناطة فقد بلغ اليأس بالموريسكيين ذروته ، فتهامسوا على المقاومة والثورة ، والذود عن أنفسهم إزاء هذا العسف المضنى ، أو الموت قبل أن تنطفىء فى قلوبهم وضمائرهم ، آخر جذوة من الكرامة والعزة ، وقبل أن تقطع آخر صلاتهم بالماضى المجيد والتراث العزيز ، وكانت نفوسهم ماتزال تضطرم ببقية من شغف النضال والدفاع عن النفس ، وكانوا يرون فى المناطق الجبلية القريبة ملاذاً للثورة ،

---

(١) Prescott : Philip II of Spain; V. III. p. 12-29; Marmol: ibid; II. Cap. وكذلك Dr. Lea : The Moriscos p. 150, 151 & 230.240 IX & XIII

(٢) Dr. Lea : ibid; p. 126

ويؤملون أن يصلوا بالمقاومة إلى إلغاء هذا القانون الهمجى أو تخفيفه .

وهنا يبدأ الصراع الأخير بين الموريسكيين واسبانيا النصرانية . ومن الأسف أننا لم تتلق عن هذه المرحلة المؤسية والأخيرة من تاريخ الأمة الأندلسية ، شيئاً من الروايات العربية ، وهى تقف كما رأينا عند محنة التنصير الأولى عقب سقوط غرناطة ، فلابد لنا هنا من أن نرجع إلى الرواية النصرانية دون سواها .

سرى إلى الموريسكيين يأس بالغ يذكيه السخط العميق فعولوا على الثورة ، موثرين الموت على ذلك الإستشهاد المعنوى الهائل . ونبتت فكرة الثورة أولا فى غرناطة حيث يقيم أعيان الموريسكيين ، وحيث كانت جمهرة كبيرة منهم تحتشد فى ضاحية « البيازين » . وكان زعيم الفكرة ومثير ضرامها موريسكى يدعى فرج بن فرج ؛ وكان فرج صباغاً بمهنته ، ولكنه حسبما تصفه الرواية القشتالية ، كان رجلا جريئاً وافر العزم والحماسة ، يضطرم بغضاً للنصارى ، ويتوق إلى الانتقام الذريع منهم ؛ ولاغرو فقد كان ينتسب إلى بنى سراج ، وهم كما رأينا من أشراف غرناطة وفرسانها الأنجاد أيام الدولة الإسلامية . وكان ابن فرج كثير التردد على أنحاء البشرّات ، وثيق الصلة بمواطنيه ، فاتفق الزعماء على أن يتولى حشد قوة كبيرة منهم ، تزحف سراً إلى غرناطة ، وتجوز إليها من ضاحية البيازين ، ثم تفاجىء حامية الحمراء وتسحقها ، وتستولى على المدينة ، وحددوا للتنفيذ « يوم الخميس المقدس » من شهر ابريل سنة ١٥٦٨ ، إذ يشغل النصارى يومئذ باحتفالاتهم وصلواتهم . ولكن أنباء هذا المشروع الخطير تسربت إلى السلطات منذ البداية ، فاتخذت التحوطات لدرئه ، وعززت حامية غرناطة وحاميات الثغور ، واضطر الموريسكيون إزاء هذه الأهبة ، أن يرجئوا مشروعهم إلى فرصة أخرى .

ووضع أديب من زعماء الثورة يدعى باسمه المسلم محمد بن محمد بن داود ، قصيدة ملتهبة يصف فيها آلام بنى وطنه ، ويستمد فيها الغوث والعون من الله ونبيه ، فضبطت معه فى ثغر أدرة ، وأرسلت إلى البلاط مع ترجمتها القشتالية ، وإليك ملخص ما ورد فى هذه القصيدة التى تعتبر كأنها صرخة ألم أخيرة لشعب شهيد :

تفتتح القصيدة بحمد الله والثناء عليه والتنويه بقدرته ، وخضوع جميع الناس والأشياء لحكمه ، ثم يقول أن استمعوا إلى قصة الأندلس المحزنة ، وهى تلك الأمة العظيمة ، التى غدت اليوم ضعيفة مهيضة ، يحيط بها الكفرة من كل صوب ، وأضحى أبناؤها كالأغنام الذين لا راعى لهم .

وفى كل يوم نسام سوء العذاب ، ولا حيلة لنا سوى المصانعة ، حتى ينقذنا الموت مما هو شر وأدهى .

وقد حكّموا فينا اليهود الذين لا عهد لهم ولا ذمام ، وفى كل يوم يبحثون عن ضلالات وأكاذيب وخدع وانتقامات جديدة .

ونرغم على مزاولة الشعائر النصرانية وعبادة الصور ، وهى مسخ للواحد القهار ، ولايجرؤ أحد على التذمر أوالكلام . وإذا ما قرع الناقوس ألقى القس عظته بصوت أجش ، وفيها يشيد بالنبيذ ولحم الخنزير ، ثم تنحنى الجماعة أمام الأوثان دون حياء ولاخجل ...

ومن عَبَد الله بلغته قضى عليه بالهلاك ، ومن ضبط ألقى إلى السجن وعذب ليل نهار حتى يرضخ لباطلهم .

ثم يصف وسائل إرهاقهم والتضييق عليهم ، من التسجيل والتفتيش وغيرها ، وما يفرض عليهم من الضرائب الفادحة ، وكيف تؤدى عن الحى والميت ، والكبير والصغير والغنى والفقير ، وكيف يرهقهم القضاة الظلمة ، ولا يفلت من ظلمهم كائن ، وكيف يلقى بهم فى السجن ، ويرغمون على التنصير بالاعتقال والتعذيب ، وكيف تهشم أوصال الفرائس ، ثم تحمل إلى الميدان لتحرق أمام الجمع الحاشد .

وكيف تكدس المظالم على رؤوسهم تكديساً ، ويسومهم الخسف أصاغر النصارى ، وكل منهم يفتن فى ضروب الإضطهاد .

ثم يقول : ولقد علقوا يوم العيد ( عيد سقوط غرناطة ) ، فى ميدان باب البنود ، قانوناً جديداً ، وأخذوا يدهمون الناس فى نومهم ، ويفتحون كل باب ، يزمعون تجريدنا من ثيابنا وقديم عاداتنا ، ويمزقون الثياب ويحطمون الحمامات .

ونحن إذ نيأس من عدل الإنسان نستغيث بالنبى ، معتمدين على ثواب الآخرة ، وقد حثنا شيوخنا على الصلاة والصوم ، وأن نقصد وجه الله ، فهو الذى يرحمنا فى نهاية الأمر »(١) .

وضبط فى نفس الوقت مع ابن داود خطاب موجه من أحد زعماء البيازين إلى رؤساء المغرب وإخوانهم فى الدين . وكان هذا الكتاب واحداً من كتب عديدة وجهت خفية ، إلى أمراء الثغور فى المغرب ، يطلبون إليهم الغوث والعون ، فحمل

---

(١) أورد مارمول ترجمة قشتالية كاملة لهذه القصيدة ومنها لخصنا ماتقدم . راجع :
**Marmol: ibid; III. Cap. IX**

الكتاب إلى حاكم غرناطة، وفيه يناشد كاتبه إخوانه بالمغرب، ويستحلفهم الغوث بحق روابط الدين والدم، ويصف ماقرره النصارى «من إرغامهم على ترك اللغة، وتركها فقد للشريعة، وكشف الوجوه الحيية المحتشمة، وفتح الأبواب، وما أنزل بهم من محن السجن والأسر ونهب الأملاك» ويطلب إليهم أن يبلغوا استغاثتهم إلى سلطان المشرق، قاهر أعدائه، ثم يقول: «لقد غمرتنا الهموم وأعداؤنا يحيطون بنا إحاطة النار المهلكة. إن مصائبنا لأعظم من أن تحتمل، ولقد كتبنا إليكم فى ليال تفيض بالعذاب والدمع، وفى قلوبنا قبس من الأمل، إذا كانت ثمة بقية من الأمل فى أعماق الروح المعذب»[1]؛ ولكن الحكومات المغربية كانت مشغولة بمشاكلها الداخلية، فلم يلب داعى الغوث سوى جماعة من المتطوعين، الذين نفذوا سراً إلى إخوانهم فى البشرّات، ومنهم كثيرون من البحارة المجاهدين، الذين كانوا حرباً عواناً على الثغور والسفن الإسبانية فى ذلك العصر.

واستمر الموريسكيون على عزمهم وأهبتهم، وأرسلت خطابات عديدة من ابن فرج وزملائه إلى مختلف الأنحاء يدعون فيها إخوانهم إلى التأهب وإخطار سائر إخوانهم. وفى شهر ديسمبر سنة ١٥٦٨ وقع حادث كان نذير الانفجار، إذ اعتدى الموريسكيون على بعض المأمورين والقضاة الإسبانيين فى طريقهم إلى غرناطة، ووثبت جماعة منهم فى نفس الوقت بشرذمة من الجند، كانت تحمل كمية كبيرة من البنادق، ومثلت بهم جميعاً. وفى الحال سار ابن فرج على رأس مائتين من أتباعه، ونفذ إلى المدينة ليلا، وحاول تحريض مواطنيه فى «البيازين» على نصرته، ولكنهم أبوا أن يشتركوا فى مثل هذه المغامرة الجنونية. ولقد كان موقفهم حرجاً فى الواقع، لأنهم يعيشون إلى جانب النصارى على مقربة من الحامية، وهم أعيان الطائفة ولهم فى غرناطة مصالح عظيمة، يخشون عليها من انتقام الإسبان. بيد أنهم كانوا يؤيدون الثورة: يؤيدونها برعايتهم ونصحهم ومالهم؛ فارتد ابن فرج على أعقابه واجتاز شعب جبل شلير (سيرّا نفادا) إلى الهضاب الجنوبية، فيما بين بلّش والمرية. فلم تمض بضعة أيام، حتى عم ضرام الثورة جميع الدساكر والقرى الموريسكية فى أنحاء البشرات، وهرعت الجموع المسلحة إلى ابن فرج، ووثب الموريسكيون بالنصارى القاطنين فيما بينهم، ففتكوا بهم ومزقوهم شر تمزيق.

---

(١) أورد مارمول أيضاً ترجمة قشتالية كاملة لهذا الخطاب. راجع ; **Marmol : ibid III. Cap .IX**

— ٣ —

اندلع لهيب الثورة فى أنحاء الأندلس، ودوت بصيحة الحرب القديمة ، وأعلن الموريكسيون استقلالهم ، واستعدوا لخوض معركة الحياة أو الموت . وبدأ الزعماء باختيار أمير يلتفون حوله ، ويكون رمز مُلكهم القديم، فوقع اختيارهم على فتى من أهل البيازين يدعى الدون فرناندو دى كردوبا وڤالور[١] . وكان هذا الإسم النصرانى القشتالى ، يحجب نسبة عربية إسلامية رفيعة . ذلك أن فرناندو دى ڤالور كان ينتمى فى الواقع إلى بنى أمية ، وكان سليل الملوك والخلفاء ، الذى سطعت فى ظلهم الدولة الإسلامية فى الإندلس، زهاء ثلاثة قرون . وكان فتى فى العشرين تنوه الرواية القشتالية المعاصرة بوسامته ونبل طلعته ، وكان قبل انتظامه فى سلك الثوار مستشاراً ببلدية غرناطة، ذا مال ووجاهة . وكان الأمير الجديد يعرف خطر المهمة التى انتدب لها ، وكان يضطرم حماسة وجرأة وإقداماً . ففى الحال غادر غرناطة سراً إلى الجبال ، ولجأ إلى شيعته آل ڤالور فى قرية برذنار Beznar ، فهرعت إليه الوفود ، والجموع من كل ناحية ، واحتفل الموريسكيون بتتويجه فى التاسع والعشرين من ديسمبر ( سنة ١٥٦٨ ) فى احتفال بسيط مؤثر ، فرشت فيه على الأرض أعلام إسلامية ذات أهلة ، فصلى عليها الأمير متجهاً صوب مكة ، وقبلأ حد أتباعه الأرض رمزاً بالخضوع والطاعة ؛ وأقسم الأمير أن يموت فى سبيل دينه وأمته ، وتسمى باسم ملوكى عربى هو محمد بن أمية صاحب الأندلس وغرناطة، واختار عمه المسمى فرناندو الزغوير ( الصغير ) ، واسمه المسلم ابن جوهر قائداً عاماً لجيشه، وقدكان صاحب الفضل الأكبر فى اختياره للرياسة ، وانتخب ابن فرج كبيراً للوزراء ، ثم بعثه على رأس بعض قواته إلى هضاب البشرّات ، ليجمع ما استطاع من أموال الكنائس ؛ واتخذ مقامه فى أعماق الجبال فى مواقع منبعة ، وبعث رسله فى جميع الأنحاء ، يدعون الموريسكيين إلى خلع طاعة النصارى والعود إلى دينهم القديم[٢] .

ووقعت نقمة الموريسكيين بادئ ذى بدء ، على النصارى المقيمين بين ظهرانيهم فى أنحاء البشرات، ولاسيما القسس وعمال الحكومة، وكان هؤلاء يقيمون فى محلات متفرقة سادة قساة، يعاملون الموريسكيين بمنتهى الصرامة والزراية، وكان

( ١ ) كردوبا أى قرطبة ، وڤالور قرية غرناطية تقع على مقربة من أجيجر .

( ٢ ) Marmol : ibid; IV, Cap. VII

القسس بالأخص سبب بلائهم ومصائبهم ، ومن ثم فقدكانوا صحايا الثورة الأولى . وانقض ابن فرج ورجاله على النصارى فى تلك الأنحاء ومزقوهم تمزيقاً ، وقتلوا القسس وعمال الحكومة ، ومثلوا بهم أشنع تمثيل ؛ وكانت حسبما تقول الروايات القشتالية مذبحة عامة ، لم ينج منها حتى النساء والأطفال والشيوخ . وذاعت أنباء المذبحة الهائلة فى غرناطة ، فوجم لها الموريسكيون والنصارى معاً ، وكل يخشى عواقبها الوخيمة ؛ وكان الموريسكيون يخشون أن يبطش النصارى بهم انتقاماً لمواطنيهم ؛ وكان النصارى يخشون أن يزحف جيش الموريسكيين على غرناطة ، فتسقط المدينة فى أيديهم ، وعندئذ يحل بهم النكال الرائع . بيد أن الرواية القشتالية تنصف هنا محمد بن أمية ، فتقول إنه لم يحرض على هذه المذابح ، ولم يوافق عليها ، بل لقد ثارلها وحاول أن يحول دون وقوعها ، وعزل نائبه ابن فرج عن القيادة ، فنزل راضياً واندمج فى صفوف المجاهدين . وهنا يختفى ذكره ولايبدو على مسرح الحوادث بعد(١) .

— ٤ —

وكانت غرناطة فى أثناء ذلك ترتجف سخطاً وروعاً ، وكان حاكمها المركيز دى منديخار يتخذ الأهبة لقمع الثورة منذ الساعة الأولى . بيد أنه لم يكن يقدر مدى الإنفجار الحقيقى ، فغصت غرناطة بالجند ، ووضع الموريسكيون أهل البيازين تحت الرقابة ، رغم احتجاجاتهم وتوكيدهم بأن لا علاقة لهم بالثائرين من مواطنيهم ؛ وخرج منديخار من غرناطة بقواته فى ٢ يناير سنة ١٥٦٩ ، تاركاً حكم المدينة لابنه الكونت تندليا ، وعبر جبل شلير ( سيرّا نفادا ) ، وسار توّاً إلى أعماق البشرات حيث يحتشد جيش الثوار . وكانت الثورة الموريسكية فى تلك الأثناء قد عمت أنحاء البشرات الشرقية والجنوبية ، واضطرمت فى أجيجر وبرجة وأدرة وأندرش ودلاية ولوشار ومرشانة وشلوبانية وغيرها من البلاد والقرى . واستطاع الموريسكيون أن يتغلبوا بسهولة على معظم الحاميات الإسبانية المتفرقة فى تلك الأنحاء ، بل لقد سرت الثورة إلى أطراف مملكة غرناطة القديمة ، حيث اندلع لهيبها فى وادى المنصورة فى قراه ودساكره ، ولم يتخلف عن الاشتراك فى الثورة سوى رندة ومربلة ومالقة ، وكانت بها حاميات اسبانية قوية ، ونشبت الثورة

---

( ١ ) Prescott:PhilipII;V.III.Ch. II. وكذلك ؛ Dr. Lea:The Moriscos p.237

فى معظم أنحاء ألمرية ، وهكذا عمت الثورة الموريسكية معظم أنحاء الأندلس ، واشتد الأمر بنوع خاص فى بسطة ووادى آش وألمرية[1] .

وكان محمد بن أمية متحصناً بقواته فى آكام بوكبرا الوعرة ، وكان الموريسكيون رغم نقص مواردهم وسلاحهم ، قد حذقوا حرب الجبال ومفاجآتها ، فما كاد الإسبان يقتربون حتى انقضوا عليهم ، ونشبت بين الفريقين معركة عنيفة ، ارتد الموريكسيون على أثرها إلى سهول بطرنة ، وتخلف كثيرون منهم ولاسيما النساء ، ففتك الإسبان بهم فتكاً ذريعاً ، وحاول منديخار أن يتفاهم مع الثائرين على العفو ، وأن يخلدوا إلى السكينة ، وبعث إليهم بعض المسالمين من مواطنيهم . وكتب الدون ألونسو ڤنيجاس ( بنيغش ) سليل الأسرة الغرناطية القديمة إلى ابن أمية يعاتبه ، وأنه قد جانب العقل والحزم فى القيام بهذه الحركة التى تعرضه وتعرض أمته للهلاك ، ونصحه بالتوبة والتماس العفو . وكان محمد بن أمية يميل إلى الصلح والتفاهم ، وتبودلت بالفعل المكاتبة بينه وبين المركيز دى منديخار فى أمر التسليم ، ولكن المتطرفين من أنصاره ولاسيما المتطوعين المغاربة ، رفضوا الصلح ، فاستؤنفت المعارك ، ورجحت كفة الإسبان ، وهزم الموريسكيون مرة أخرى ، وأعلن المركيز دى منديخار أن الأسرى الموريسكيين يعتبرون رقيقاً ، وفرّ محمد بن أمية ، وأسرت أمه وزوجه وأخواته . وأصيب الإسبان بهزيمة شديدة فى آكام « جواخاريس » وقتل منهم مائة وخمسون جندياً مع ضباطهم ، ولكن الموريسكيين آثروا الارتداد ، وقتل الإسبان من تخلف منهم أشنع قتل ، وكان ممن تخلف منهم زعيم باسل يدعى « الزمار » أسره الإسبان مع ابنته الصغيرة ، وأرسلوه إلى غرناطة حيث عذبوه عذاباً وحشياً إذ نزع لحمه من عظامه حياً ، ثم مزقت أشلاؤه . وهكذا كانت أساليب الإسبان ومحاكم التحقيق إزاء العرب المتنصرين .

واختفى محمد بن أمية مدى حين فى منزل قريبه « ابن عبو » ، وكان من أنجاد الزعماء أيضاً ، وطارده الإسبان دون أن يظفروا به . على أن هذه الهزائم لم تنل من عزم الموريسكيين ، فقد احتشدوا فى شرقى البشرات فى جموع عظيمة ، وأخذوا يهددون ألمرية ، فسار إليهم المركيز « لوس ڤيليس » على رأس جيش آخر ، ووقعت بين الفريقين عدة معارك شديدة ، قتل فيها كثير من الفريقين ، ومزق الموريسكيون ، وفتك الإسبان كعادتهم بالأسرى ، وقتلوا النساء والأطفال قتلاذريعاً.

---

(١) Marmol: ibid; IV; Cap. XXXVI

ووقعت فى نفس الوقت فى غرناطة مذبحة مروعة أخرى ، فقد كان فى سجنها العام نحو مائة وخمسين من أعيان الموريسكيين ، اعتقلوا رهينة وكفالة بالطاعة ، فأذاع الإسبان أن الموريسكيين سيهاجمون غرناطة لإنقاذ السجناء ، بمؤازرة مواطنيهم فى البيازين ، وعلى ذلك صدر الأمر بإعدام السجناء ، فانقض الجند عليهم وذبحوهم فى مناظر مروعة من السفك الأثيم .

وكان لهذه الحوادث الأخيرة أثر فى إذكاء الثورة ، وكان نذيراً جديداً للموريسكيين بأن الموت فى ساحة الحرب خير مصير يلقون ، فسرى إليهم لهب الثورة بأشد من قبل ، وطافت بهم صيحة الإنتقام ، فانقضوا على الحاميات الإسبانية المبعثرة فى أنحاء البشرّات ومزقوها تمزيقاً ، وهزموا قوة إسبانية تصدت لقتالهم ، واحتشدت جموعهم مرة أخرى تملأ الهضاب والسهل ، وعاد محمد بن أمية ثانية إلى تبوىء عرشه الخطر ، والتف حوله الموريسكيون أضعاف ما كانوا ، وبعث أخاه عبدالله إلى قسطنطينية بطلب العون من سلطانها ، وأرسل فى نفس الوقت إلى أمير الجزائر وإلى سلطان مراكش الشريفى يطلب الإنجاد والغوث ؛ ولكن سلاطين قسطنطينية لم يلبوا ضراعة الموريسكيين بالرغم من تكرارها منذ سقوط غرناطة ، وأرسل أمير الجزائر مشجعاً ومعتذراً عن عدم إمكان إرسال السفن ، ووعد سلطان مراكش بالمساعدة والغوث ، ولكن هذا الصريخ المتكرر من جانب الموريسكيين لم ينتج أثره المنشود ، ولم يلبه غير إخوانهم المجاهدين فى إفريقية ، فقد استطاعت جموع جريئة مخاطرة ، أن تجوز إلى الشواطىء الإسبانية ، ومنهم فرقة من الترك المرتزقة ، وأن تهرع إلى نصرة المنكوبين .

وهكذا عاد النضال إلى أشده ، وخشى الإسبان من احتشاد الموريسكيين فى البيازين ضاحية غرناطة ، فصدر قرار بتشريدهم فى بعض الأنحاء الشمالية . وكانت مأساة جديدة مزقت فيها هذه الأسر التعسة ، وفرق فيها بين الآباء والأبناء والأزواج والزوجات ، فى مناظر مؤثرة تذيب القلب ، وسار المركيز لوس ڤيليس فى نفس الوقت إلى مقاتلة الموريسكيين ، فى سهول المنصورة على مقربة من أراضى مرسية ، ونشبت بينه وبينهم وقائع غير حاسمة ، ولم يستطع متابعة القتال لنقص فى الأهبة والمؤن ؛ وكان بينه وبين زميله مندخار خصومة ومنافسة ، كانتا سبباً فى اضطراب الخطط المشتركة . واتهم مندخار بالعطف على الموريسكيين فاستدعى إلى مدريد ، وأقيل من القيادة ، واتخذت مدريد خطوتها الحديدة الحاسمة فى هذا الصراع الذى لا رحمة فيه ولا هوادة .

بينما كانت هذه الحوادث والمعارك الدموية تضطرم فى هضاب الأندلس وسهولها وتحمل إليها أعلام الخراب والموت ، إذ وقع فى المعسكر الموريسكى حادث خطر ، هو مصرع محمد بن أمية . وكان مصرعه نتيجة المؤامرة والخيانة ، وكانت عوامل الخلاف والحسد، تحيط هذا العرش بسياج من الأهواء الخطرة . وكان محمد بن أمية يثير بين مواطنيه بظرفه ورقيق شمائله كثيراً من العطف ، ولكنه كان يثير بصرامته وبطشه ، الحقد فى نفوس نفر من ضباطه . وتقص علينا الرواية القشتالية سيرة مقتله فتقول ، إنه كان ثمة ضابط من هؤلاء يدعى دبجوالجوازيل ( الوزير ) له عشيقة حسناء تسمى زهرة ، فانتزعها محمد منه قسراً ، فحقد عليه وسعى لإهلاكه بمعاونة خليلته ، فزور على لسانه خطاباً إلى القائد العام « ابن عبو » يحرضه على التخلص من المرتزقة الترك ، وكان ثمة منهم فرقة فى المعسكر الموريسكى ، فعلم الترك بأمر الخطاب ، واقتحموا المعسكر إلى مقر ابن أمية وقتلوه ، بالرغم من احتجاجه وتوكيد براءته ، واستقبل الجند الحادث بالسكون . وفى الحال اختار الزعماء ملكاً جديداً هو ابن عبو ، واسمه الموريسكى دبجو لوبيث ، وهو ابن عم الملك القتيل ، فتسمى بمولاى عبد الله محمد ، وأعلن ملكاً على الأندلس بنفس الاحتفال المؤثر الذى وصفناه . وكان مولاى عبد الله أكثر فطنة وروية وتدبراً ، فحمل الجميع على احترامه ، واشتغل مدى حين بتنظيم الجيش ، واستقدم السلاح والذخيرة من ثغور المغرب ، واستطاع أن يجمع حوله جيشاً مدرباً قوامه زهاء عشرة آلاف ، بين مجاهد ومرتزق ومغامر .

وفى أواخر أكتوبر سنة ١٥٦٩ سار مولاى عبد الله بجيشه صوب « أرجبة » وهى مفتاح غرناطة ، واستولى عليها بعد حصار قصير ، فذاعت شهرته وهرع الموريسكيون فى شرق البشرات إلى إعلان طاعته ، وامتدت سلطته جنوباً حتى بسائط رندة ومالقة ، وكثرت غارات الموريسكيين على فحص غرناطة La Vega ، وقد كان قبل سقوطها ميدان المعارك الفاصلة بين المسلمين والنصارى ؛ وكان فيليب الثانى حينما رأى استفحال الثورة الموريسكية ، وعجز القادة المحليين عن قمعها ، قد عين أخاه الدون خوان قائداً عاماً لولاية غرناطة ؛ ولما رأى الدون خوان اشتداد ساعد الموريسكيين اعتزم أن يسير لمحاربتهم بنفسه ، فخرج فى أواخر ديسمبر على رأس جيشه ، وسار صوب وادى آش ، وحاصر بلدة « جليرا » وهى من أمنع مواقع الموريسكيين ، وكان يدافع عنها زهاء ثلاثة آلاف موريسكى ، منهم فرقة

تركية ، فهاجمها الإسبان عدة مرات وصوبوا إليها نار المدافع بشدة ، فسقطت فى أيديهم بعد مواقع هائلة ، أبدى فيها الموريسكيون والنساء الموريسكيات أعظم ضروب البسالة ، وقتل عدد من الأكابر الإسبان وضباطهم ، ودخلها الإسبان دخول الضوارى المفترسة ، وقتلوا كل من فيها ولم يفروا النساء والأطفال ، وكانت مذبحة رائعة ( فبراير سنة ١٥٧٠ ) ، وتوغل الدون خوان بعد ذلك فى شعب الجبال حتى سيرون الواقعة على مقربة من بسطة ، وكانت هنالك قوة أخرى من الموريسكيين بقيادة زعيم يدعى «الحبقى» تبلغ بضعة آلاف ، ففاجأت الإسبان فى سيرون ومزقت بعض سراياهم ، وأوقعت الرعب والخلل فى صفوفهم ، وقتل منهم عدد كبير ، ولم يستطع الدون خوان أن يعيد النظام إلا بصعوبة ؛ فجمع شتات جيشه ، وطارد الموريسكيين ،واستمر فى سيره جنوباً حتى وصل إلى أندرش فى مايو سنة ١٥٧٠ ،

وهنا رأت الحكومة الإسبانية أن تجنح إلى شىء من اللين ، خشية عواقب هذا النضال الرائع ، فبعث الدون خوان رسله إلى الزعيم « الحبقى» يفاتحه فى أمر الصلح ، وصدر أمر ملكى بالوعد بالعفو عن جميع الموريسكيين الذين يقدمون خضوعهم فى ظرف عشرين يوماً من إعلانه ، ولهم أن يقدموا ظلاماتهم ، فتبحث بعناية ، وكل من رفض الخضوع ، ما عدا النساء والأطفال دون الرابعة عشرة ، قضى عليه بالموت . فلم يصغ إلى النداء أحد . ذلك أن الموريسكيين أيقنوا نهائياً أن اسبانيا النصرانية لا عهد لها ولا ذمام ، وأنها غير أهل للوفاء ، فعاد الدون خوان إلى استئناف المطاردة والقتال ، وانقض الإسبان على الموريكسيين محاربين ومسالمين ، يمعنون فيهم قتلا وأسراً ، وسارت قوة بقيادة دون سيزا إلى شمال البشرّات ، واشتبكت مع قوات مولاى عبد الله فى معارك غير حاسمة ، وسارت مفاوضات الصلح فى نفس الوقت عن طريق الحبقى ؛ وكان مولاى عبد الله قد رأى تجهم الموقف ، ورأى أتباعه ومواطنيه يسقطون من حوله تباعاً ، والقوة الغاشمة تجتاح فى طريقها كل شىء ، فمال إلى الصلح والمسالمة ، واستخلاص ما يمكن استخلاصه من براثن القوة القاهرة .

وتقدم للوساطة بين الثوار وبين الدون خوان كبير من أهل وادى آش يدعى الدون هرناندو دى براداس ، وكانت له صلات طيبة مع زعماء الموريسكيين قبل الثورة . وقد انتهت إلينا فى ذلك وثيقة مؤثرة هى عبارة عن خطاب كتبه مولاى عبد الله إلى دون هرناندو هذا يعرض استعداده للصلح والمفاوضة ، وفيه تبدو لغة الموريسكيين العربية فى دور احتضارها ، ويبدو أسلوب اللهجة الغرناطية التى انتهى الموريسكيون

دون خـــوان

إلى التحدث والكتابة بها بعد نحو ثمانين عاماً من الكبت والمطاردة . وإليك ما ورد فى هذا الخطاب الذى ربما كان آخر وثيقة عربية عثر بها البحث الحديث :

١ الحمد لله وحدهو قبل الكلم

٢ اسلم الكرمو على من اكرمهو الكرمو سيديا وحبيبى وعز اسر عنديا دن هرنندو ونى نعلم حرمتكم ين

٣ اكن انت تقول يجى عنديا يجى عند أخكم وحبك وتجى مطمن وكل ميجكم فليا

٤ وذمتى وكن انت تريد تترطل فذى المبرك مين سلح كل متعمل تعملومعى ونى

٥ نعمل معك كل مَتريد بحق وبل غدر وذهرلى مين الحبقى ين اشمكين يعمل

٦ معلمن وتطلعنى على حق وذهر لى ين اشم طلب طلب يرحو وينسو ويسحبو وبعد رعى

٧ ودين انى نعرف حرمتك بهذا شى وحرمتك اعمل الذى يذهر لكم وعمل متيسلح بنترر .

٨ وبين وعسى يقذيا الله خير بينين وتكن حرمتكم اسبب فذا شى وعملن فعدلكم يل اش

٩ كن معى من يكتب لى يل كينكن كتبت لكم أكثر وسلموا عليكم ورحمتو الله وبركتو الله

١٠ كتيب الكتب يوم الثليث فشهر وليو فعم ..

ملاى عبد الله(١)

وكتب الدون ألونسو دى ڤنيجاس ( بنيغش ) أيضاً إلى مولاى عبد الله يحثه على المسالمة ، والتنكب عن هذا الطريق الخطر ، ورد عليه عبدالله يلقى المسئولية على أولى الأمر ، وعلى ما أحدثوه من بدع جعلت الحياة مستحيلة على الشعب الموريسكى(٢) . وجرت المفاوضات بين الزعيم الحبقى قائد قوات الثورة ، وبين

---

( ١ ) نشر هذا الخطاب وصورته الفتوغرافية التى ننقلها هنا العلامة المستشرق **M. Alarcón** فى مجموعة بالإسبانية عنوانها: **Miscelánco de Estudios y Textos Arabes (Madrid 1915) ; p. 691** وقد وجد هذا الخطاب فى مجموعة المخطوطات الشرقية للمركيز بنيافلور **Pena Flor** ، وتحفظ نسخته العربية فيها برقم ٢٤٦ ، وتحفظ ترجمته القشتالية برقم ٢٤٥ . وقد أورد مارمول ترجمته القشتالية فى الكتاب التاسع الفصل التاسع .

( ٢ ) **Marmol : ibid; VIII. Cap. XXVII**

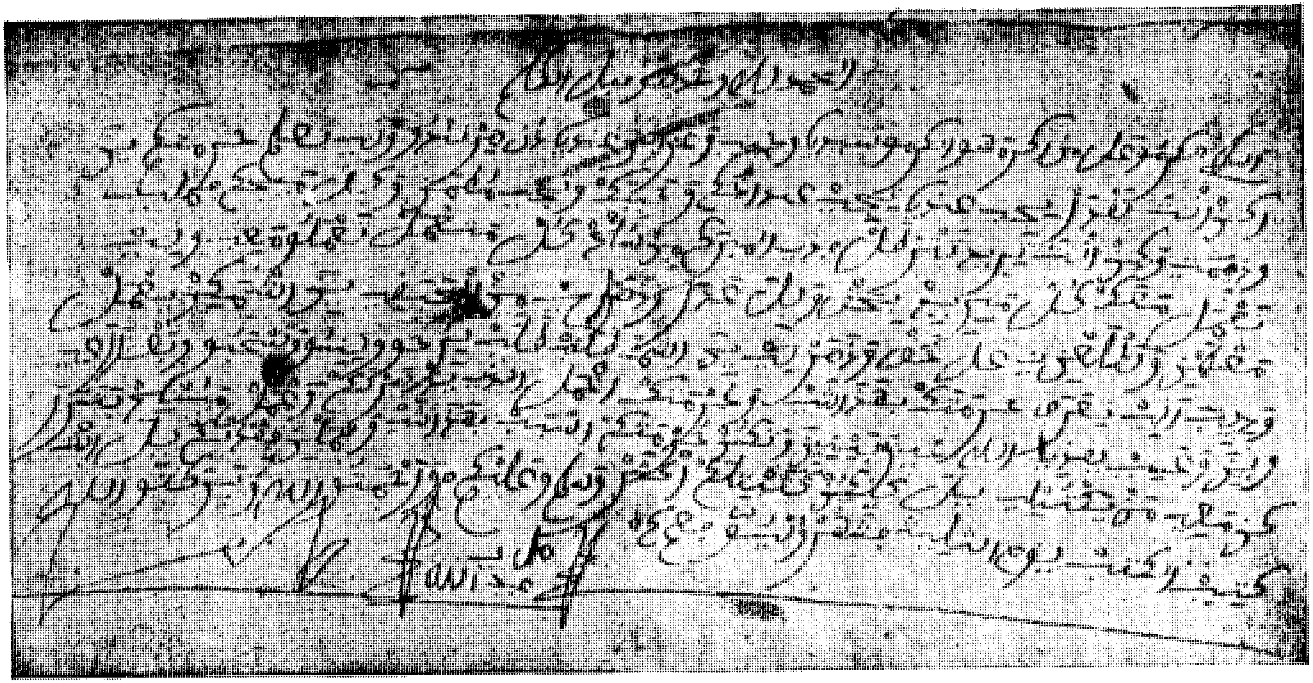

صورة خطاب مولاى عبد الله إلى دون هرناندو دى براداس مكتوب بخطه ومذيل بتوقيعه .

الدون هرناندو دى براداس، واتفق فى النهاية على أن يتقدم الحبقى إلى الدون خوان بإعلان خضوعه، وطلب العفو لمواطنيه، فيصدر العفو العام عن الموريسكيين، وتكفل الحكومة الإسبانية حمايتها لهم أينما ارتأت مقامهم. وفى ذات مساء سار الحبقى فى سرية من فرسانه إلى معسكر الدون خوان فى أندرش، وقدم له الخضوع وحصل على العفو المنشود.

ولكن هذا الصلح لم يرض بالأخص مولاى عبد الله وباقى الزعماء، لأنهم لمحوا فيه نية اسبانيا النصرانية فى نفيهم ونزعهم عن أوطانهم، ففيم كانت الثورة إذاً وفيم كان النضال؟ لقد ثار الموريسكيون لأن اسبانيا أرادت أن تنزعهم لغتهم وتقاليدهم، فكيف بها إذ تعتزم أن تنزعهم ذلك الوطن العزيز، الذى نشأوا فى ظلاله الفيحاء، والذى يضم تاريخهم وكل مجدهم وذكرياتهم؟ أنكر الموريسكيون ذلك الصلح المجحف، وارتاب مولاى عبد الله فى موقف الحبقى، إذ رآه يروج لهذا الصلح بكل قواه، ويدعو إلى الخضوع والطاعة للعدو، فاستقدمه لمعسكره بالحيلة وهنالك أعدم سراً.

ووقف الدون خوان على ذلك بعد أسابيع من الانتظار والتريث، وبعث رسوله إلى مولاى عبد الله، فأعلن إليه أنه يترك الموريسكيين أحراراً فى تصرفاتهم. بيد أنه يأبى الخضوع ما بقى فيه رمق ينبض، وأنه يؤثر أن يموت مسلماً مخلصاً لدينه ووطنه، على أن يحصل على مُلْك اسبانيا بأسره. والظاهر أن مولاى عبد الله كانت قد وصلته أمداد من المغرب شدت أزره وقوت أمله، وعادت الثورة إلى اضطرامها حول رندة، وأرسل مولاى عبد الله أخاه الغالب ليقود الثوار فى تلك الأنحاء، وثارت الحكومة الإسبانية لهذا التحدى، واعتزمت سحق الثوار بما ملكت، فسار الدون خوان فى قواته إلى وادى آش، وسار جيش آخر من غرناطة بقيادة دون ركيصانص إلى شمال البشرّات، وسار جيش ثالث إلى بسائط رندة، واجتاح الإسبان فى طريقهم كل شىء، وأمعنوا فى التقتيل والتخريب، وعبثاً حاولت السرايا الموريسكية أن تقف فى وجه هذا السيل فمزقت تباعاً، وهدم الإسبان الضياع والقرى والمعاقل، وأتلفت الأحراش والحقول، حتى لا يبقى للثائرين مثوى أو مصدر للقوت، وأخذت الثورة تنهار بسرعة، وفر كثير من الموريسكيين إلى إخوانهم فى إفريقية، ولم يبق أمام الإسبان سوى مولاى عبد الله وجيشه الصغير. بيد أن مولاى عبد الله لبث معتصما بأعماق الجبال، يحاذر الظهور أمام هذا السيل الجارف

وفى ٢٨ أكتوبر سنة ١٥٧٠ ، أصدر فيليب الثانى قراراً بنفى الموريسكيين من مملكة غرناطة إلى داخل البلاد ، ومصادرة أملاكهم العقارية ، وترك أملاكهم المنقولة يتصرفون فيها . ويقضى هذا القرار بأن الموريسكيين فى غرناطة والفحص ووادى لكرين (الإقليم) وجبال بونتوفيرحتى مالقة ، وجبال رندة ومربلة ، يؤخذون إلى ولاية قرطبة ، ومن هنالك يفرقون فى أراضى ولايتى إسترامادورة وجليقية . والموريكسيون فى وادى آش وبسطة ووادى المنصورة يؤخذون إلى جنجالة والبسيط ثم يفرقون فى أراضى قلعة رباح ومونتيل . والموريسكيون فى ألمرية يؤخذون إلى ولاية إشبيلية. ونفذ القرار الجديد بمنتهى الصرامة والتحوط ، وجمع الموريسكيون المسالمون من غرناطة وبسطة ووادى آش وغيرها ، وسيقوا إلى الكنائس أكداساً ، يحيط بهم الجند فى كل مكان ، ونزعوا من أوطانهم وربوعهم العزيزة ، وشتتوا على النحو المتقدم فى مختلف أنحاء قشتالة وليون (١) .

ووقعت أثناء تنفيذ هذا القرار مناظر دموية ، حيث جنح رجال الحكومة فى بعض الأنحاء ولاسيما فى رندة ، إلى نهب المنفيين والفتك بالنساء والأطفال . ولما سمع الموريسكيون المعتصمون بالجبال هذه الأنباء انحدروا إلى السهل ، وقتلوا كثيراً من الجند المثقلين بالغنائم . وكان مصير المنفيين مؤلماً ، إذ هلك الكثير منهم من المشاق والمرض ، وعانى الذين سلموا منهم مرارة غربة جديدة مؤلمة ، ونص على وجوب وضعهم تحت الرقابة الدائمة ، وتسجيلهم وتسجيل مساكنهم فى سجلات خاصة ، وعين لهم حيث وجدوا مشرفاً خاصاً يتولى شئونهم ، وحرم عليهم أن يغيروا مساكنهم إلا بتصريح ملكى ، وحرم عليهم بتاتاً أن يسافروا إلى غرناطة ، وفرضت على المخالفين عقوبات شديدة تصل إلى الموت ؛ وهكذا شرد الموريسكيون فى مملكة غرناطة أفظع تشريد ، وانهار بذلك مجتمعهم القوى المتماسك فى الوطن القديم (٢) .

ولم يبق إلا أن يسحق مولاى عبد الله وجيشه الصغير ، وكان هذا الأمير المنكود يرى قواه وموارده تذوب بسرعة ، وقد انهار كل أمل فى النصر أو السلم الشريف ، بيد أنه لبث مختفياً فى أعماق جبال البشرات بين آكام برشول وترقليس مع شرذمة من جنده المخلصين . وفى مارس سنة ١٥٧١ كشف بعض الأسرى سر مخبئه للإسبان ، فأوفدوا رسلهم إلى معسكره فى بعض المغائر ، وهنالك استطاعوا

(١) Marmol : ibid; X . Cap. VI.

(٢) Dr. Lea: The Moriscos p. 256, 258 & 265

إغراء ضابط مغربى من خاصته يدعى جونثالڤو « الشنيش » . وكان الشنيش يحقد عليه لأنه منعه من الفرار إلى المغرب ؛ وأغدق الإسبان له المنح والوعود ، وقطعوا له عهداً بالعفو الشامل ، وضمان النفس والمال ، وأن ترد إليه زوجته وابنته الأسيرتان ، إذا استطاع أن يسلمهم مولاى عبد الله حياً أو ميتاً . وكان الإغراء قوياً مثيراً ، فدبر الضابط الخائن خطته لاغتيال سيده ، وفى ذات يوم فاجأه مع شرذمة من أصحابه ، فقاوم مولاى عبد الله ما استطاع ، ولكنه سقط أخيراً مثخناً بجراحه ، فألقى الخونة جثته من فوق الصخور لكى يراها الجميع ، ثم حملها الإسبان إلى غرناطة ، وهناك استقبلوها فى حفل ضخم ، ورتبوا موكباً أركبت فيه الجثة مسندة إلى بغل ، وعليها ثياب كاملة كأنما هى إنسان حى ، ومن ورائها أفواج كثيرة من الموريسكيين الذين سلموا عقب مصرع زعيمهم ، ثم حملت إلى النطع وأجرى فيها حكم الإعدام ، فقطع رأسها ثم جرت فى شوارع غرناطة مبالغة فى التمثيل والنكال ، ومزقت أربعاً ، وأحرقت بعد ذلك فى الميدان الكبير ، ووضع الرأس فى قفص من الحديد ، رفع فوق سارية فى ضاحية المدينة تجاه جبال البشرات[1] .

* * *

وهكذا انهارت الثورة الموريسكية وسحقت ، وخبت آخر جذوة من العزم والنضال ، فى صدور هذا المجتمع الأبى المجاهد ، وقضت المشانق والمحارق والمحن المروعة ، على كل نزعة إلى الخروج والنضال ، وهبت روح من الرهبة والاستكانة المطلقة ، على ذلك المجتمع المهيض المعذب ، وعاش الموريسكيون لا يسمع لهم صوت ، ولا تقوم لهم قائمة ، فى ظل العبودية الشاملة والإرهاق المطلق ، حقبة أخرى .

---

(١) Marmol : ibid; X. Cap. VIII

# الكتابُ الرابع

# نهاية النّهاية

# الفصل الأول

## توجس السياسة الإسبانية

### وعصر الغارات البحرية الإسلامية

الموريسكيون قوة أدبية واجتماعية . بعض ما قيل فى وصفهم . تعلقهم بتراثهم الروحى . يكتبون كتبهم بالألخميادو. نشاط ديوان التحقيق فى مطاردتهم . قضية موريسكية شهيرة . عدد الموريسكيين . ما يقوله عنهم سفير البندقية. أقوال ثرفانتس . براعتهم الاقتصادية . تخوف السياسة الإسبانية من وجودهم. صلات الموريسكيين بمسلمى إفريقية والترك . دسائس ومؤامرات مزعومة . غارات البحارة المجاهدين على الشواطىء الإسبانية . البحر المتوسط مسرح القراصنة منذ العصور الوسطى . ظهور المغامرين المسلمين فى هذه المياه . ظهور البحارة الترك والموريسكيين . النزعة الانتقامية فى هذه الغارات . تحوط اسبانيا ضد الغارات . غارات المجاهدين المغاربة . معاونة الموريسكيين للبحارة المغيرين . ظهور أوروج وخير الدين . استيلاء خير الدين على الجزائر والثغور المغربية . غاراته المتوالية على الشواطىء الإسبانية . توالى صريخ الموريسكيين . تحطيم سلطان البحارة الترك لمشاريع اسبانيا فى المغرب . استنصار أمراء المغرب باسبانيا . غارات طرغود خلف خير الدين . غارات البحارة التونسيين . انزعاج اسبانيا ولوم الموريسكيين. اتساع نطاق الغارات فى البحر المتوسط . انتشار تجارة الرقيق . حوادث المغرب الأقصى . فرار الأمير الشيخ إلى اسبانيا واستغاثته بفيليب الثانى . الموريسكيون يحرضون مولاى زيدان على غزو اسبانيا . استيلاء الإسبان على ثغر العرائش . مقتل الشيخ وانتهاء مغامراته . الكفاح بين مولاى زيدان واسبانيا .

كان انهيار الثورة الموريسكية وسحق الموريسكيين ، خاتمة عهد من الكفاح المرير بين شعب مهيض أعزل ، يحاول أن يحتفظ بشخصيته وكرامته وحقه فى الحياة ، وبين القوة الغاشمة ، التى تريد أن تسحق فى بقية الأمة المغلوبة ، كل أثر للحياة الحرة الكريمة . ولكن الثورة الموريسكية كانت من جهة أخرى ، نذيراً عميق الأثر للسياسة الإسبانية . ذلك أن الموريسكيين لبثوا بالرغم من تجريدهم من كل مظاهر القوة المادية ، قوة أدبية واجتماعية تخشى بأسها .وكان هذا الشعب المستكين الأعزل ما يزال رغم ضعفه وذلته ، يملأ جنبات الجزيرة بفنونه ونشاطه المنتج ، ويحتل مكانة بارزة فى الشئون الاقتصادية . وكانت الكنيسة ماتزال تنفث إلى الدولة تحريضها البغيض ، على مجتمع لم تطمئن لولائه وصدق إيمانه . وقد وصف المطران جريرو الموريسكيين فى سنة ١٥٦٥ بقوله: « إنهم خضعوا للتنصير ،

ولكنهم لبثوا كفرة فى سرائرهم ، وهم يذهبون إلى القداس تفادياً للعقاب ، ويعملون خفية فى أيام الأعياد ، ويحتفلون يوم الجمعة أفضل من احتفالهم بيوم الأحد ، ويستحمون حتى فى ديسمبر ، ويقيمون الصلاة خفية ، ويقدمون أولادهم للتنصير خضوعاً للقانون ، ثم يغسلونهم لمحو آثار التنصير ، ويجرون ختان أولادهم ، ويطلقون عليهم أسماء عربية ، وتذهب عرائسهم إلى الكنيسة فى ثياب أوربية ، فإذا عدن إلى المنزل استبدلنها بثياب عربية ، واحتفل بالزواج طبقاً للرسوم العربية»(١)

والظاهر أن هذه الأقوال تنطوى على كثير من الصدق . ذلك أن الأمة الموريسكية المهيضة ، بقيت بالرغم مما يصيبها من شنيع العسف والإرهاق ، متعلقة بتراثها الروحى القديم . وبالرغم مما فرض على الموريسكيين من نبذ دينهم ولغتهم ، فقد لبث الكثير منهم مسلمين فى سرائرهم ، يزاولون شعائرهم القديمة خفية ، ويكتبون أحكام الإسلام والأدعية والمدائح النبوية بالقشتالية الأصلية ، أو بالقشتالية المكتوبة بأحرف عربية ، وهى التى تعرف بالألخميادو Aljamiado أى « الأعجمية » وهو ما نعود إلى التحدث عنه بعد . وقد انتهى إلينا الكثير من الكتب الدينية والأدعية والمدائح الإسلامية الموريسكية مكتوبة « بالألخميادو » وكثير منها يدور حول سيرة النبى العربى ، وشرح تعاليم القرآن والسنة ، يتخللها كثير من الخرافات والأساطير المقدسة(٢) . بيد أنها تدل بما كانت تجيش به هذه النفوس المعذبة من إخلاص راسخ لدينها القديم ، وأن التبست عليهم أصوله وشعائره بمضى الزمن .

وقد لبث ديوان التحقيق على نشاطه ضد الموريسكيين طوال القرن السادس عشر ، ولم يفتر هذا النشاط حتى أواخر هذا القرن ، مما يدل على أن آثار الإسلام الراسخة بقيت بالرغم من كر الأعوام وتوالى المحن ، دفينة فى قلب الشعب المضطهد ، تنضح آثارها من آن لآخر . يدل على ذلك ما تسجله محفوظات الديوان ، من أن قضايا الموريسكيين أمام محاكم التحقيق ، بلغت فى سنة ١٥٩١ ، ٢٩١ قضية ، وبلغت فى العام التالى ١١٧ قضية ، وظهر فى حفلة « الأوتو دافى » Auto da-fé التى أقيمت فى ٥ سبتمبر سنة ١٦٠٤ ثمانية وستون موريسكياً ، نفذت فيهم الأحكام ،

---

(١) Marmol: ibid,II.Cap.I وكذلك : Dr. Lea : The Moriscos; p. 213 & 214

(٢) وضع القس الإسبانى Pedro Longás عن حياة الموريسكيين الدينية كتابه الذى سبقت الإشارة إليه غير مرة Vida Religiosa de los Moriscos (Mardrid 1914) ، وفيه يورد كثيراً من رسومهم وعوائدهم الدينية ، وكثيراً من الآيات والمدائح النبوية بالقشتالية .

وظهر فى حفلة ٧ يناير سنة ١٦٠٧ ثلاثة وثلاثون موريسكياً ، واستعمل التعذيب فى محاكمتهم خمس عشرة مرة ، وكان الإتهام يوجه أحياناً إلى الموريسكيين جملة ، على أثر بعض الحملات الفجائية على المحلات الموريسكية ؛ فقد حدث مثلا فى سنتى ١٥٨٩ و ١٥٩٠ ، أن سجلت فى قرية مسلاتها الموريسكية بالقرب من بلنسية مائة قضية ، وسجلت فى قرية كارليت مائتان ، واتهم أربعون أسرة بصوم شهر رمضان .

والواقع أنه كان من الصعب ، على من بقيت فى نفوسهم جذوة أخيرة من دين الآباء ، ولم يخمدها تعاقب جيلين أو ثلاثة من النصرانية المفروضة ، أن يكونوا دائماً بمنجاة من الإتهام ، ولهذا كان الشعب الموريسكى بأسره أينما وجد ، عرضة للاتهام بالحق وبالباطل . وإذا كانت ثمة فترات يهدأ فيها نشاط محاكم التحقيق ، فذلك يرجع بالأخص إلى استعمال الرشوة مع المأمورين ، أو الحصول على براءات الحصانة بالمال . وتوضح لنا قضية بنى عامر زعماء الموريسكيين فى بلنسية هذه الحقيقة أتم وضوح .

كانت أسرة بنى عامر من أعرق الأسر المسلمة القديمة ، التى أكرهت على التنصير ، وكان زعماؤها إخوة ثلاثة ، هم : دون كوزمى ودون خوان ودون هرناندو بنى عامر ، ومنزل الأسرة فى بنجوازيل ( بنى وزير ) ضاحية بلنسية . وكان الثلاثة من ذوى المكانة والنفوذ ، يسمح لهم بحمل السلاح وامتيازات أخرى ، محرمة على الموريسكيين . فى مايو سنة ١٥٦٧ صدر قرار محكمة التحقيق باتهامهم ، وتقرر القبض عليهم ، ولكن بعد أن وافقت المحكمة العليا (سوپريما ) نظراً لخطر مكانتهم ، فاختفى الإخوة الثلاثة حيناً ؛ ولكن الدون كوزمى قدم نفسه للسلطات فى يناير سنة ١٥٦٨ ، وقرر فى التحقيق أنه يعتقد أنه نصر طفلا ، ومع ذلك فإنه لا يعتبر نفسه نصرانياً بل مسلماً ، وأنه جرى خلال حياته على مراعاة الشعائر الإسلامية ، ولم يذهب إلى المعترف إلا خضوعاً للأوامر ، على أنه يبغى أن يكون فى المستقبل نصرانياً ، وأن يؤدى ما يطلبه المحققون إليه ، ولم يقدم دون كوزمى خلال محاكمته أى دفاع ، ولكنه أفرج عنه فى ١٥ يوليه بضمان قدره ألفى دوقة ، على أن يبقى فى بلنسية ولا يبرحها ؛ ومع ذلك فقد سافر دون كوزمى إلى مدريد ، وحصل على عفو عنه وعن أخويه من الملك والمحكمة العليا ، نظير فداء قدره سبعة آلاف دوقة ، واستطاع فوق ذلك بنفوذه القوى ، أن يحصل للموريسكيين فى بلنسية على قرار التوفيق الصادر فى سنة ١٥٧١ حسبما قدمنا .

وفى سنة ١٥٧٧ جددت التهم القديمة ضد بنى عامر ، وقبض على كوزمى وأخيه خوان ، وحوكم كوزمى وشرح للمحكمة عقيدته الدينية ، وهى مزيج من الإسلام والنصرانية ، وعقدت الجلسات الأولى ، ولكن القضية أوقفت قبل أن يصل التحقيق إلى مرحلة التعذيب ، مما يدل على أن بنى عامر استطاعوا بالرغم من سوء حالتهم المالية يومئذ ، أن يحصلوا على براءتهم وإطلاق سراحهم بدفع مبلغ آخر من المال(١) .

وهكذا نرى أن الموريسكيين استطاعوا بالرغم من العسف المنظم ، الذى فرضته الدولة والكنيسة عليهم زهاء قرن ، أن يحتفظوا فى قرارة نفوسهم الكليمة ، ببقية راسخة من تراثهم الروحى القديم .

هذا من ناحية الدين والعقيدة ؛ وأما من الناحية الاجتماعية ، فقد كان الموريسكيون يكونون مجتمعاً متماسكاً متضامناً ، قوياً بنشاطه ودأبه وذكائه ، وقد بلغ عددهم فى أواخر القرن السادس عشر وفقاً لتقدير سفير البندقية زهاء ستمائة ألف نفس ، وقدر البعض الآخر عددهم يومئذ بأربعمائة ألف نفس ، وهو عدد ضخم بالنسبة لمجموع سكان اسبانيا فى ذلك الحين ، وهو لم يتعد الثمانية ملايين . ووصفهم سفير البندقية فى سنة ١٥٩٥ ، أى بعد قرن من سقوط غرناطة ، بأنهم شعب ينمو باضطراد فى العدد والثروة ، وأنهم لا يذهبون إلى الحرب ، ولكن يكرسون نشاطهم للتجارة واجتناء الربح . وذكر الكاتب الإسبانى الكبير ثرفانتيس(٢) فى بعض رسائله أن الموريسكيين يتكاثرون وكلهم يتزوج ، ولا يدخلون أولادهم قط فى سلك الكهنوت أو الجيش ، ويقتصدون فى الإنفاق ويكتنزون المال ، فهم الآن أغنى الطوائف فى اسبانيا . وأما عن الناحية الاقتصادية فقد قيل إن الموريسكيين كانوا يحتكرون تجارة الأغذية ، ويضعون يدهم على المحاصيل عند نضجها ، ومنهم تجار البقالة والماشية ، ومنهم القصابون والخبازون وأصحاب الفنادق وغيرهم ، وهم لا يشترون العقارات احتفاظاً بحرية استعمال أموالهم ، وقد كان ذلك من أسباب غناهم وقوتهم الإقتصادية(٣) .

---

(١) Dr. Lea : History of the Inquisition ; V. III. p. 362 - 365

(٢) مجيل ثرفانتس دى ساڤدرا ( ١٥٤٧ – ١٦١٦ ) من أعظم كتاب اسبانيا وشعرائها ، وهو مؤلف قصة الفروسية الشهيرة « دون كيخوتى دى لامانشا » .

(٣) Dr. Lea : The Moriscos p. 204 & 210

كانت اسبانيا النصرانية إذاً، أبعد من أن تطمئن إلى مجتمع العرب المتنصرين ، فقد كانوا فى نظر الكنيسة أبداً كفرة مارقين ، وكانت الدولة من جانبها تلتمس المعاذير لاضطهاد هذا المجتمع الدخيل ومطاردته ، فهى تخشى أن يعود إلى الثورة ، وهى تخشى من صلاته المستمرة مع مسلمى إفريقية ومع سلطان الترك ، وهى مازالت تحلم بتطهير اسبانيا من الآثار الأخيرة للشعب الفاتح ، والقضاء إلى الأبد على تلك الصفحة من تاريخ اسبانيا .

* * *

والواقع أن صلات الموريسكيين مع أعداء اسبانيا ، لبثت شغلا شاغلا للسياسة الإسبانية . وقد كانت الممالك والإمارات المغربية فى الضفة الأخرى من البحر ، على استعداد دائماً لأن تصغى إلى هذا الشعب المنكود ، سليل إخوانهم الأمجاد فى الدين ، وأن تعاونه كلما سنحت الفرص . وكان سلاطين الترك يتلقون من الموريسكيين صريخ الغوث من آن لآخر ، وكانت المنافسة بين الترك واسبانيا يومئذ على أشدها ، فى مياه البحر المتوسط ، وكانت طوائف الموريسكيين تعيش على مقربة من الثغور الشرقية والجنوبية . وأكثر من ذلك أن السياسة الإسبانية كانت تخشى دسائس فرنسا خصيمتها القوية يومئذ ، وتخشى تفاهمها المحتمل مع الموريسكيين . وكانت هذه الظروف كلها تحمل اسبانيا النصرانية ، على أن تعتبر الموريسكيين خطراً قومياً يجب التحوط منه ، والعمل على درئه بكل الوسائل .

وتسوق الرواية الإسبانية إلينا دلائل هذا الخطر فى حوادث كثيرة . ففى سنة **١٥٧٣** وقفت السلطات الإسبانية على أنباء مفادها أن أمراء تلمسان والجزائر يدبرون حملة بحرية لمهاجمة « المرسى الكبير » فى مياه بلنسية ، يعاونهم الموريسكيون فيها بالثورة ، ولذا بادرت السلطات بنزع السلاح من الموريسكيين فى بلنسية ، وقيل بعد ذلك إن هذه الحملة المغربية كانت ستقترن بغزوة فرنسية لأراجون ، ينظمها حاكم بيارن الفرنسى ، وأن سلطان الترك وسلطان الجزائر كلاهما يؤيد المشروع ، وأن أساطيل الغزو كانت تزمع النزول فى مياه برشلونة وفى دانية ، وفيما بين مرسية وبلنسية ، وأن الفضل فى فشل هذا المشروع كله يرجع إلى حزم الدون خوان ونزع سلاح الموريسكيين . ومما يدل على أن اسبانيا لبثت حيناً على توجسها من فرنسا ودسائسها لدى الموريسكيين ، ما تسوقه الرواية الإسبانية من أن هنرى الرابع ملك فرنسا ، كانت له فى ذلك مشاريع خطرة ، ترمى إلى غزو اسبانيا من

ناحية بلنسية ، حيث يوجد حشد كبير من الموريسكيين ، وأن زعماء الموريسكيين وعدوا بإضرام نار الثورة ، وتقديم عدد كبير من الجند ، ولم يطلبوا سوى السلاح ، وكان من المنتظر أن تقوم الثورة الموريسكية فى سنة ١٦٠٥ ، ولكن المؤامرة اكتشفت فى الوقت المناسب ، وانهار مشروع الغزو . وهذه الروايات العديدة التى جمعها « ديوان التحقيق » الإسبانى على يد أعوانه وجواسيسه ، تنقصها الأدلة التاريخية الحقة(١) .

على أن الخطر الحقيقى ، كان يتمثل فى غارات المجاهدين من خوارج البحر المسلمين ، على الثغور والشواطىء الإسبانية . وتملأ سير هذه الغارات فراغاً كبيراً فى الرواية الإسبانية ، وتسبغ عليها الرواية صفة الإنتقام للأندلس الشهيدة . وقد لبثت هذه الغارات طوال القرن السادس عشر ، واستمرت دهراً بعد إخراج العرب المتنصرين من اسبانيا . ويشير المقرى مؤرخ الأندلس إلى مغزى هذه الغارات البحرية بعد إخراج الموريسكيين ، فيقول إنهم انتظموا فى جيش سلطان المغرب ، وسكنوا سلا وكان منهم من الجهاد فى البحر ما هو مشهور الآن(٢) .

ويجب أن نذكر أن مياه البحر المتوسط شرقه وغربه ، كانت خلال العصور الوسطى ، دائماً مسرحاً سهلا للأساطيل الإسلامية . فمنذ أيام الأغالبة والفاطميين ، ومنذ خلافة قرطبة ثم المرابطين والموحدين ، كانت الأساطيل الإسلامية تجوس أواسط هذا البحر وغربيه ، وكانت الدول الإسلامية الأندلسية والمغربية ، ترتبط مع الدول النصرانية الواقعة فى شمال هذا البحر ، مثل البندقية وجنوة وبيزة ، بمعاهدات ومبادلات تجارية هامة ،وكان التسامح يسود يومئذ علائق المسلمين والنصارى ، وتغلب المصالح التجارية والمعاملات المنظمة ، على النزعات الدينية والمذهبية .

وقد كانت المغامرات البحرية الحرة وأعمال «القرصنة» ، توجد فى هذه العصور دائماً ، إلى جانب نشاط الأساطيل الرسمية . وكان البحر المتوسط منذ أقدم العصور مسرحاً لهذه المغامرات ، وكان معظم خوارج البحر ( القراصنة ) يومئذ من النصارى ، من الأمم التى غزت البحر فى عصور متقدمة ، مثل اليونان وأهل سردانية وجنوة ومالطة . وفى أيام الصليبيين ازدهرت المغامرات فى البحر المتوسط ،

(١) Dr. Lea : The Moriscos; p. 281 - 284 & 286 - 288

(٢) نفح الطيب ج ٢ ص ٦١٧ . وقد أنجز المقرى كتابه سنة ١٦٣٠ .

واستمر النصارى عصوراً زعماء هذه المهنة. ولم تكن ثمة بحريات منظمة تقوم بمطاردة أولئك الخوارج . وكانت المغانم الوفيرة من الإتجار فى الرقيق ، والبضائع المهربة ، وافتداء الرقيق ، تذكى عزمهم ، وتدفع إليهم بسيل من المغامرين من سائر الأمم ، ولما ظهرت الأساطيل الكبرى منذ القرن الرابع عشر ، ضعف أمر أولئك المغامرين . ولم تكن هذه المياه خلوا من نشاط المغامرين المسلمين ، ولكنهم لم يظهروا فى هذا الميدان إلا منذ القرن الخامس عشر ، حينما ضعف أمر الأندلس والدول المغربية وسادتها الفوضى ، واضطربت العلائق البحرية والتجارية المنظمة بين دول المغرب والدول النصرانية . وكانت الشواطىء المغربية تقدم إليهم المراسى الصالحة . ولما اشتد ساعد البحرية التركية بعد استيلاء الترك على قسطنطينية ، زاد نشاط المغامرين المسلمين فى البحر . وكان سقوط غرناطة واضطهاد الإسبان للمسلمين ، إيذاناً بتطور هذه المغامرات البحرية ، ونزول الأندلسيين والموريسكيين المنفيين إلى ميدانها واتخاذها مدى حين صورة الجهاد والإنتقام القومى والدينى ، لما نزل بالأمة الأندلسية الشهيدة من ضروب العسف والإرهاق(١) .

وقد بدأت هذه الغارات البحرية على الشواطىء الإسبانية ، عقب استيلاء الإسبان على غرناطة ، وأكراههم للمسلمين على التنصير . فى ذلك الحين غادر الأندلس آلاف من الأندلسيين المجاهدين ، أنفوا العيش فى الوطن القديم ، فى مهاد الذلة والاضطهاد ، تحت نير الإسبان ، وعبروا البحر إلى عدوة المغرب ، وقلوبهم تفيض حقداً ويأساً ، واستقروا فى بعض القواعد الساحلية ، مثل وهران والجزائر وبجاية ، ووهب الكثيرون منهم حياتهم للجهاد فى سبيل الله ، والانتقام من أولئك الذين قضوا على وطنهم ، وظلموا أمتهم ، وانتهكوا حرمة دينهم .وكان البحر يهيىء لهم هذه الفرصة ، التى لم تهيؤها لهم الحرب البرية . وكانت شواطىء المغرب بطبيعتها الوعرة ، وثغورها ومراسيها وخلجانها الكثيرة ، التى تحميها وتحجبها الصخور العالية ، أصلح ملاذ لمشاريع أولئك البحارة المجاهدين والقراصنة المغيرين . وكانت الجزائر وبجاية وتونس أفضل قواعدهم للرسو والإقلاع ، وكانت هذه الغارات البحرية تعتمد بالأخص على عنصر المفاجأة ، وتنجح فى معظم الأحيان فى تحقيق غاياتها .

ويصف بيترومارتيرى هذه الغارات بإسهاب ويقول إن فرناندو الخامس أمر فى سنة ١٥٠٧ ، للتحوط ضد هذه الغارات بإخلاء الشاطىء الجنوبى ، من جبل طارق

(١) Lane - Poole : The Barbary Corsairs p. 26 & 27

إلى ألمرية ، لمدى فرسخين إلى الداخل . ثم صدرت مراسم متعددة تحظر على الموريسكيين السفر على أبعاد معينة من الشواطىء ، ولكن هذا التحوط لم يغن شيئاً واستمرت الغارات على حالها . وكان اللوم يلقى فى ذلك منذ البداية على الموريسكيين ولاسيما أهل بلنسية . وكان الموريسكيون كلما اشتدت عليهم وطأة الاضطهاد والمطاردة ، اتجهوا إلى إخوانهم فى المغرب ، يستصرخونهم للتدخل والانتقام . وكان المجاهدون المغاربة ، يغيرون فى سفنهم على الشواطىء الإسبانية ، ويخطفون النصارى الإسبان ، ويجعلونهم رقيقاً يباع فى أسواق المغرب ، وكان الموريسكيون يزودون الحملات المغيرة بالمعلومات الوثيقة ، عن أحوال الشواطىء ومواضع الضعف فيها ويمدونها بالأقوات والمؤن . وكانت هذه الحملات تجهز فى أحيان كثيرة لنقل الموريسكيين الراغبين فى الهجرة ، وقد استطاعت خلال القرن السادس عشر ، أن تنقل منهم إلى الشواطىء الإفريقية جماعات كبيرة .

وقد ظهر منذ أوائل القرن السادس عشر فى الميدان ، عنصر جديد أذكى موجة الغارات البحرية فى هذه المياه . ذلك أن البحارة الترك ، وعلى رأسهم الأخوان الشهيران أوروج ( عروج ) وخير الدين[1] ، اندفعوا من شرقى البحر المتوسط إلى غربيه ، فى طلب المغامرة والكسب . وفى سنة ١٥١٧ سار أوروج فى قوة برية وبعض السفن إلى الجزائر واستولى عليها . ولما قتل فى العام التالى فى معركة نشبت بينه وبين الإسبان ، استولى أخوه خير الدين على الجزائر ، ثم استولى على معظم الثغور المغربية الساحلية ، وعينه السلطان سليم حاكماً على هذه الأنحاء ، وأمده بالسفن والجند . وتألق نجم خير الدين من ذلك الحين ، وأضحى اسمه يقرن بذكر أعظم أمراء البحر فى هذا العصر . وكان من معاونيه نخبة من أمهر الربابنة الترك ، مثل طرغود الذى خلفه فى الرياسة فيما بعد ، وصالح ريس ، وسنان اليهودى ، وإيدين ريس وغيرهم من المغامرين ، الذين اشتهروا بالجرأة والبراعة . وبسط أولئك البحارة الترك سلطانهم على معظم جنبات البحر المتوسط ، واشتهروا بغاراتهم على الشواطىء الإيطالية والإسبانية ، والتف حولهم معظم المجاهدين والمغامرين من

---

( ١ ) ويعرف كلاهما فى الرواية الأوربية « باربا روسا » أو ذو اللحية الحمراء . وقد انتهى إلينا عن مغامرات هذين الأخوين الشهيرين وغاراتهما البحرية كتاب بالعربية منقول عن أصل تركى ، نشر فى الجزائر سنة ١٩٣٤ بعنوان « غزوات عروج وخير الدين » . والظاهر أنه من تأليف راوية معاصر أو قريب من العصر .

المغاربة والموريسكيين . وبدأ خيرالدين غاراته فى المياه الإسبانية بمهاجمة الشواطىء الشرقية ، وقطع خلال هذه الغارة ثلاثة أشهر عاث فيها فى البقاع الساحلية ، وجمع فى سفنه كثيراً من الموريسكيين الراغبين فى الهجرة ، وأسر كثيراً من الإسبان . وعرج أثناء عوده على جزيرة منورقة . وكان من أهم الغارات التى نظمها خيرالدين على الشواطىء الإسبانية غارة وقعت فى سنة ١٥٢٩ ؛ وذلك أن جماعة من الموريسكيين فى بلنسية فاوضوه لكى ينقلهم خلسة إلى عدوة المغرب ، فأرسل عدة سفن بقيادة نائبيه إيدين ريس ، وصالح ريس ، إلى المياه الإسبانية ، ورست السفن المغيرة ليلا عند أوليفا الواقعة شمال غربى دانية أمام مصب نهر « ألتيا » ، ونزلت منها إلى البر قوة استطاعت أن تجمع من الأنحاء المجاورة نحو ستمائة من الموريسكيين الراغبين فى الهجرة ، وهنا فاجأت السفن المغيرة عدة من السفن الإسبانية الكبيرة ، وطاردتها حتى مياه الجزائر الشرقية ( البليار) . ولكن سفن « القراصنة » انقلبت فجأة من الدفاع إلى الهجوم ، وانقضت على السفن الإسبانية وأغرقت بعضها ، وأسرت البعض الآخر ، وسارت سالمة إلى الجزائر تحمل الموريسكيين الفارين ، وعدداً من أكابر الإسبان أخذوا أسرى ، ومعها عدة من السفن الإسبانية الفخمة . وكان صريخ الموريسكيين يتوالى إلى خير الدين وحلفائه من أمراء المغرب ولاسيما أيام الثورات المحلية التى تشتد فيها وطأة الإسبان على الأمة المغلوبة ، ومن ثم فقد توالت بعوث خير الدين وغاراته على الشواطىء الإسبانية ، وتتابعت الفرص لدى الموريسكيين ، للفرار والهجرة رفق السفن المغيرة ، حتى بلغ ما نقلته سفن خير الدين منهم إلى شواطىء المغرب نحو سبعين ألفا[١] .

وكان سلطان خير الدين وزملائه البحارة الترك فى المياه المغربية عاملا فى تحطيم كثير من مشاريع اسبانيا البحرية فى المغرب . وكان الإسبان قد استولوا على ثغر وهران منذ سنة ١٥٠٥ ، واحتلوا مياه تونس سنة ١٥٣٥ ، بانضواء أميرها الحفصى المعزول تحت لوائهم ، وكان كثير من أمراء الثغور والقواعد المغربية الذين يهدد الترك سلطانهم يتجهون بأبصارهم إلى الإسبان للاحتفاظ برياستهم . ولدينا

---

( ١ ) راجع كتاب الأستاذ لاين پول **The Barbary Corsairs** فى الفصول الأول والثانى والثالث ، حيثما يورد كثيراً من التفاصيل الشائقة ، عن هذه الغارات البحرية ، وعن مغامرات أوروج وخير الدين . وراجع كتاب « غزوات عروج وخير الدين » الذى سبقت الإشارة إليه ص ١٩ و ٤٨ و ٨١ و ٨٢ .

أمير البحر خير الدين

عن صورة بلاثكيث المحفوظة بمتحف البرادو بمدريد ، وهى صورة رائعة بالحجم الطبيعى ، وفيها يبدو خير الدين مرتدياً ثوباً طويلا أحمر ، وعباءة بيضاء ، وقلنسوة صغيرة حمراء ، وله شارب طويل أشهب .

صور من عدة وثائق موجهة من هؤلاء الأمراء إلى الإمبراطور شرلكان ؛ يستنصرون به ، ويقطعون العهد على أنفسهم بطاعته ، والانضواء تحت حمايته ، وهى تدلى بموضوعها وأسلوبها بما انتهت إليه الجبهة الإسلامية فى المغرب فى هذا العهد من التخاذل والتفرق المؤلم(١) .

وفى سنة ١٥٥٩ قام أمير البحر التركى طرغود ، الذى خلف خير الدين فى الرياسة ، بغارة كبيرة على الشواطىء الإسبانية ، واستطاع أن يحمل معه ألفى وخمسمائة موريسكى ؛ وفى سنة ١٥٧٠ ، استطاعت السفن المغيرة أن تحمل معها جميع الموريسكيين فى بالميرا . وفى سنة ١٥٨٤ سار أسطول من الجزائر إلى ثغر بلنسية وحمل ألفين وثلاثمائة . وفى العام التالى استطاعت السفن المغيرة أن تحمل جميع سكان مدينة كالوسا . وبلغت الغارات البحرية التى وقعت على الشواطىء الإسبانية بين سنتى ١٥٢٨ و١٥٨٤ ثلاثاً وثلاثين . هذا عدا الغارات المحلية التى كانت تقوم بها سفن صغيرة لحمل جماعات من الموريسكيين المهاجرين . وقد وصف لنا الكاتب الإسبانى الكبير ثرفانتيس هذه الغارات البحرية المروعة فى صور مثيرة شائقة ، ولا غرو فقد كان هو أيضاً من ضحاياها ، إذ أسر فى الغارات التى وقعت سنة ١٥٧٥ ، وحمل أسيراً إلى الجزائر ، ولبث يرسف فى أسره بضعة أعوام حتى تم افتداؤه فى سنة ١٥٨٠(٢) .

وكان ممن عملوا فى الجهاد فى البحر فى ذلك الحين ضد الإسبان بعض أكابر الزعماء الموريسكيين المنفيين الذين غدوا من أثر الاضطهاد من ألد أعداء اسبانيا مثل الريس بلانكيو Blanquillo ، والريس أحمد أبو على من أشونية ، ومراد الكبير جواديانو من مدينة ثيوداد ريال ( المدينة الملكية ) وغيرهم . وقد أبلى هؤلاء

---

( ١ ) حصلنا على مجموعة من هذه الوثائق من دار المحفوظات الإسبانية العامة Arch.gen. de Simancas ومنها وثيقة هى عبارة عن اتفاق معقود بين أبى عبد الله محمد الحسن سلطان تونس والإمبراطور شرلكان بتاريخ ١٢ صفر سنة ٩٤٢ هـ (١٣ أغسطس سنة ١٥٣٥) يتعهد فيه السلطان بتسليم مدينة بونه للإمبراطور شرلكان بشروط معينة ويحمل توقيعهما . وخطاب كتبه السلطان المذكور إلى الإمبراطور بتاريخ ذى الحجة سنة ٩٤٢ ( ١٥٣٥ ) يحدثه فيه عن شئون قصبة بونة . وخطاب من أبى عبد الله المتوكل أمير تلمسان إلى السلطانة الإنبرطريس ( الإمبراطورة ) دونيا إيزابيل ( زوجة الإمبراطور شرلكان ) مؤرخ فى سنة ٩٣٩ هـ (١٥٣٢) ، وخطاب من أبى عبد الله محمد بن القاضى صاحب حصن كوكو بالمغرب الأوسط إلى الإمبراطور مؤرخ سنة ٩٤٩ هـ ( ١٥٤٢م ) يستحثه فيه لقتال الترك وإراحة الناس منهم ... الخ .

( ٢ ) Dr. Lea : History of the Inquisition in Spain ; V. III. p. 363

الزعماء الموريسكيون فى البحر خير بلاء ، وكانوا خير مرشد لإحكام الغارات البحرية على الشواطىء الإسبانية ، ومضاعفة عصفها وعيثها .

ووقعت فى سنة ١٦٠٢ غارة كبيرة ، قام بها بحار مغامر يدعى مراد الريس على مدينة لورقة الواقعة غرب قرطاجنة على مقربة من الشاطىء ، وحمل عدداً من الأسرى ؛ وكثرت الغارات فى الأعوام التالية على الشاطىء الجنوبى ، وظهر فيما بعد أن منظمها بحار إنجليزى مغامر ، يحشد فى سفنه نواتية من المغاربة ، وكان يعيث فى الشواطىء الأندلسية ويقتنص الأسرى النصارى ، ويبيعهم عبيداً فى أسواق المغرب .

وكانت ثغور تونس فى ذلك الوقت نفسه ، فى أيام حاكمها عثمان داى ( سنة ١٠٠٧ — ١٠١٩هـ ١٥٩٨ — ١٦١٠ م ) ، ملاذاً لطائفة قوية من البحارة المغامرين ، كانت تتكرر غاراتهم على الشواطىء الإسبانية بلا انقطاع . وكان من أشهر أولئك البحارة المغامرين يومئذ ، عمر محمد باى الذى اشتهر بجرأته وبراعته ، وقد قام بعدة غارات جريئة على شواطىء اسبانيا الجنوبية ، وكان فى كل مرة يعود مثقلا بالغنائم والسبى[1] .

وهكذا لبثت الغارات البحرية عصراً ، تزعج الحكومة الإسبانية ، وقد زاد عددها واشتد عيثها ، بالأخص منذ منتصف القرن السادس عشر ؛ وكان هذا غريباً فى الواقع ، إذ كانت اسبانيا يومئذ سيدة البحار ، وكانت أساطيلها الضخمة ، تجوب مياه الأطلنطيق حتى بحر الشمال وجزائر الهند الغربية ، وتسيطر على مياه البحر المتوسط الغربية . بيد أنها لم تستطع أن تقمع هذه الغارات الصغيرة المفاجئة ، التى كانت يقوم بها على الأغلب جماعات مجاهدة ، من القراصنة المغاربة ، فى سفن صغيرة ، تدفعهم روح من المغامرة والاستبسال ، وكان اللوم يلقى فى ذلك دائماً على الموريسكيين ، ولاسيما سكان الثغور منهم ، فهم الذين يمدون هذه الحملات المغيرة بالمعلومات ، ويزودونها بالمؤن والعون ، ويعينون لها موضع الرسو والإقلاع ، وقد كانت تأتى على الأغلب لمعاونتهم على الفرار إلى ثغور المغرب ، وقد كان الموريكسيون بالرغم من اضطهادهم ، والتشدد فى مراقبتهم ، على اتصال دائم بمسلمى إفريقية وأمراء المغرب جميعاً .

لبثت هذه الغارات البحرية عصراً شغلا شاغلا للحكومة الإسبانية لا تجد سبيلا إلى قمعها أو التخلص من آثارها . وكان اقترانها خلال القرن السادس عشر بنضال

---

( ١ ) كتاب المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس ص ١٩٢ .

الموريسكيين ، عنصراً بارزاً فى تنظيمها وتوجيهها ، وكانت فكرة الانتقام للأمة الشهيدة ، تجثم فى معظم الأحيان وراء هذه الغارات المخربة . ولما تم نفى الموريسكيين من الأراضى الإسبانية حسبما نفصل بعد ، زادت هذه الفكرة وضوحاً واشتدت وطأة الغارات ، بما انتظم فى صفوف المجاهدين من المنفيين ، وغدت سلا بالأخص بمرفئها البديع ، الذى تحميه الخلجان المحجوبة مركزاً لأولئك المجاهدين ، ومنها توجه أقوى الحملات المغيرة على الشواطىء الإسبانية(١) .

ولبث البحارة الترك عصراً ، يتزعمون هذه الغارات البحرية ، وجل اعتمادهم على النواتية المغامرين من المغاربة والموريسكيين ؛ ثم أخذت هذه الغارات تفقد مغزاها القديم بمضى الزمن ، وتنقلب إلى حملات ناهبة ، تنظم على الشواطىء الإيطالية كما تنظم على الشواطىء الإسبانية ، وترمى قبل كل شىء إلى تغذية أسواق المغرب والشرق الأدنى ، بأسراب الرقيق . وكان يشترك مع البحارة الترك والمغاربة مغامرون من الإفرنج من سائر الأمم . وألفى الباشوات أو الدايات الترك ، الذين بسطوا حكمهم منذ أواخر القرن السادس عشر على طرابلس وتونس والجزائر ، فى هذه الحملات الناهبة ، فرصة سانحة للغنم ، فكانوا يمدون الرؤساء والزعماء بصنوف العون ، عند الحط والإقلاع فى ثغورهم ، وكان الرؤساء من جانبهم ، يقدمون إلى خزينة الباشا أو الداى عشر الغنائم . واسترق بهذه الطريقة عشرات الألوف من النصارى ، واستمرت هذه الغارات بعد ذلك زمناً طويلا(٢) .

وحدثت فى تلك الآونة التى اشتدت فيها الغارات البحرية على الشواطىء الإسبانية ، فى أوائل عهد فيليب الثالث ، فى عدوة المغرب أحداث أخرى ، زادت فى توجس السياسة الإسبانية ، من مساعى الموريسكيين فى استعداء مسلمى إفريقية . وذلك أنه على أثر وفاة السلطان أحمد المنصور ملك المغرب فى سنة ١٠١٢ هـ (١٦٠٣ م) اضطرمت الحرب الأهلية بين أبنائه الثلاثة ، أبى عبد الله المأمون المعروف بالشيخ ، وكان ولى عهده الذى اختاره للملك من بعده ،

---

(١) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ٦١٧ .

(٢) استمرت غارات القراصنة فى البحر المتوسط طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وكانت بعض الدول الأوربية تعمل على تشجيعها لمضايقة البعض الآخر ، والإضرار بتجارتها . ومنذ القرن السابع عشر تعمل انجلترا وهولندة وفرنسا على مقاومة هذه الحملات البحرية الجريئة والقضاء عليها ، وذلك بمهاجمة الشواطىء المغربية وتدمير ثغورها ، ولا سيما تونس والجزائر . على أنها لم تنقطع نهائياً إلا بعد أن غزت فرنسا الجزائر واستولت عليها فى سنة ١٨٣٠ .

وأبى فارس الملقب بالواثق بالله ، ومولاى زيدان . وكان أعيان فاس وعلماؤها ، قد بايعوا عقب وفاة المنصور ، لولده زيدان ، وبايع أهل مراكش لولده أبى فارس ولكن معركة نشبت بين زيدان وأخيه الشيخ ، انتهت بهزيمة زيدان ، واستيلاء الشيخ على فاس . ثم نشبت بعد ذلك بين الأبناء الثلاثة سلسلة من المعارك الأهلية المتوالية ، كانت سجالا بينهم ، وهزم خلالها مولاى زيدان غير مرة ، ودخل العاصمة مراكش غير مرة . واستمرت هذه الحرب الأهلية ، بضع سنوات ( ١٠١٢ — ١٠١٦ هـ ) ، وانتهت آخر الأمر ، بانتصار مولاى زيدان واستيلائه على الملك ، ومقتل أخيه أبى فارس ، وفرار الشيخ فى أهله وولده . ولكن الشيخ لم يستكن للهزيمة ، بل فكر فى الاستنصار بالإسبان ، فعبر البحر مع أسرته وأمه الخيزران إلى اسبانيا ، واستغاث بملكها فيليب الثالث ، وتعهد بأن يقدم ثغر العرائش إلى اسبانيا نظير معاونته على استرداد عرشه . وكان ذلك فى أوائل سنة ١٦٠٨ ( ١٠١٧ هـ )(١) . وهنا أرسل الموريسكيون فى بلنسية ، رسلهم إلى مولاى زيدان ، يوضحون له سهولة غزو اسبانيا ومحاربتها ، وأنهم على استعداد لأن يقدموا له مائتى ألف مقاتل ، متى أقدم على الغزو واحتلال أحد الثغور الإسبانية الهامة ؛ ولكن السلطان زيدان لم يحفل بهذا العرض ، وأجاب الرسل بأنه لن يحارب خارج بلاده(٢) . واستجاب فيليب الثالث لدعوة الشيخ ، وأرسل معه بعض قواته وسفنه إلى شاطىء المغرب ، فنزل الشيخ وحلفاؤه الإسبان أولا فى حجر باديس ، غربى مليلة وذلك فى رمضان سنة ١٠١٩ هـ ( أوائل سنة ١٦١٠م ) ، ثم انتقل فى صحبه إلى قصر عبد الكريم ( القصر الكبير ) ، وبعث سرية من رجاله ، فقامت بإخلاء العرائش من أهلها المسلمين قسرا ، وبعد مقاومة عنيفة ، وسلمتها إلى الإسبان ، تحقيقاً لتعهد الشيخ . وحاول الشيخ أن يعتذر عن تصرفه بأن الإسبان ، احتجزوا أهله وولده ، وأنه فعل ذلك فى سبيل افتدائهم ، واستصدر فتوى بشرعية تصرفه من بعض العلماء . ولكن ذلك لم يغنه شيئاً ، واشتد السخط عليه ، وانفض عنه كثير من أنصاره . ثم سار الشيخ فى قواته إلى تطاون ( تيطوان ) ، وأخذ يعيث فسادا فى تلك المنطقة ، وما زال فى

---

( ١ ) كتاب نزهة الحادى بأخبار ملوك القرن الحادى لأبى عبد الله اليفرنى ( طبع فاس ) ص ١٦٢ — ١٦٧ ، وراجع الإستقصاء ج ٣ ص ١٠٢ .

( ٢ ) Dr. Lea : The Moriscos ; p. 289-290

مغامراته حتى تصدى له بعض زعماء غمارة وقتلوه على مقربة من تطاون ، وذلك فى رجب سنة ١٠٢٢ هـ (١٦١٣ م) ، وانتهى بذلك أمره ، وتوطد بذلك مركز مولاى زيدان ، وتمكن عرشه ، وإن كان قد لبث بعد ذلك حيناً فى مقارعة الخوارج عليه من أبناء الشيخ وغيرهم[1] . واستمر السلطان زيدان حتى وفاته فى سنة ١٠٣٧ هـ (١٦٢٧ م) أعنى بعد نفى الموريسكيين بنحو تسعة عشر عاماً ، فى كفاح دائم مع اسبانيا . وحدث خلال هذا الكفاح ذات مرة فى سنة ١٦١٢ م ، أن غنمت السفن الإسبانية فى مياه المغرب على شاطىء الأطلنطى فيما بين آسفى وأغادير ، مركباً لمولاى زيدان شحنت بالتحف ، وبها ثلاث آلاف سفر من كتب الدين والأدب والفلسفة[2] ، وكان مولاى زيدان قد غادر مراكش تحت ضغط الحوادث ، وركب البحر ماتجئاً إلى الجنوب وحمل معه مكتبته الثمينة وتحفه ، فانتهبها الإسبان على هذا النحو ، وحملت هذه الكتب إلى اسبانيا ، وضمت فيما بعد إلى مجموعة الكتب الأندلسية بقصر الإسكوريال .

---

(١) نزهة الحادى بأخبار ملوك القرن الحادى ص ١٦٨ و١٦٩ . وراجع الاستقصاء ج ٣ ص ١٠٦ .

(٢) الإستقصاء ج ٣ ص ١٣٠ .

# الفصل الثانى

## مأســـاة النـــفى

قضية الموريسكين مشكلة قومية لإسبانيا . استحالة العرب المتنصرين إلى شعب جديد . تشعب الآراء حول التخلص منهم . ولاية فيليب الثالث . مشروع دوق دى ليرما للقضاء على الموريسكين . تقرير المطران ربيرا ومقترحاته . مجلس الدولة يبحث مشروع نفى الموريسكين . مقترحات اللجنة الملكية . قرار مجلس الدولة . الإستعداد للتنفيذ . صدور مرسوم النفى النهائى . ما يحتويه المرسوم من الأحكام . موقف الموريسكين . تظلم المدجنين . بدء التنفيذ فى بلنسية . الرحيل إلى وهران وتلمسان. المنفيون من لقنت . مقاومة الموريسكين فى بعض الأنحاء . إعلان قرار النفى فى قشتالة . إحصاءات عن المنفيين . إعلان قرار النفى فى غرناطة . إعلانه فى باقى الجهات . تفرق المنفيين فى مختلف الثغور . الإعتداء على المنفيين . عدد الموريسكيين الذين أخرجوا من اسبانيا . رواية موريسكية عن أحوال الموريسكيين وظروف النفى . رواية المقرى عن مأساة النفى . روايات عربية أخرى . آثار الموريسكيين الأخيرة فى اسبانيا .

تلك هى البواعث والظروف التى حملت اسبانيا النصرانية ، على التوجس من العرب المتنصرين ، واعتبارهم خطراً قومياً يجب العمل على درئه والتخلص منه . وكان هذا التوجس يزيد على كر الأعوام ، وتذكيه الحوادث المتوالية : ثورات الموريسكيين ولاسيما ثورة غرناطة الكبرى ، وغارات القراصنة على الشواطىء الإسبانية ، وصلات الموريسكيين الدائمة بمسلمى إفريقية وبلاط قسطنطينية ؛ وسواء أكان هذا الخطر حقيقياً يهدد سلامة اسبانيا ، أم كان للتحامل والبغض أثر فى تصويره ، فقد غدت قضية العرب المتنصرين ، غير بعيد فى نظر السياسة الإسبانية ، مشكلة قومية خطيرة يجب التذرع لمعالجتها بأشد الوسائل وأنجعها .

وكانت السياسة الإسبانية ، تعتزم منذ أواخر عهد فيليب الثانى ، أن تتخذ خطوتها الحاسمة ، فى شأن الموريسكيين . وكان هذا الملك المتعصب يعتزم نفى الموريسكيين بعد الذى عانته اسبانيا فى قمع ثورتهم ، ووضع بالفعل فى سنة ١٥٨٢ مشروعاً لنفيهم ، ولكن مشاغل السياسة الخارجية حالت دون تحقيق مشروعه . وكان قد مضى يومئذ زهاء قرن على سقوط غرناطة ، واستحالت بقية الأمة الأندلسية إلى شعب جديد ، لا تكاد تربطه بالماضى المجيد سوى ذكريات

غامضة . وكان التنصر قد عم الموريسكيين يومئذ ، وغدا أبناء قريش ومضر بحكم القوة والإرهاق ، نصارى يشهدون القداس فى الكنائس ، ويتكلمون ويكتبون القشتالية ؛ غير أنهم لبثوا مع ذلك فى معزل ، وأبت اسبانيا النصرانية ، بعد أن فرضت عليهم دينها ولغتها ومدنيتها ، أن تضمهم إلى حظيرتها القومية . وكانت ما تزال ثمة منهم جموع كبيرة فى بلنسية ومرسية وغرناطة ، وغيرها من القواعد الأندلسية القديمة ، وكانوا مايزالون رغم العسف والإرهاق ، والاضطهاد والتشريد والذلة ، قوة أدبية واجتماعية خطيرة ، وعنصراً بارزاً فى إنتاج اسبانيا القومى ، ولاسيما فى الصناعات والفنون . ولكن السياسة الإسبانية كانت تخشاهم بالرغم من ضعفهم وخضوعهم ، بعد أن فشلت بوسائلها الهمجية البغيضة فى كسب محبتهم وولائهم . وكان ديوان التحقيق من جهة أخرى ، ومن ورائه الأحبار والكنيسة ، يعتبرهم بالرغم من تنصرهم ، أبدا وصمة فى نقاء النصرانية ، ويتصور الإسلام دائماً يجرى كالدم فى عروقهم .

وقد تضاربت آراء الساسة والأحبار الإسبان ، فى شأن الخطوة الحاسمة التى يجب اتخاذها ، للقضاء على خطر الموريسكيين . ورأى بعض أكابر الأحبار أن خطر الموريسكيين لا يزول إلا بالقضاء على الموريسكيين أنفسهم . وكان مما اقترحه المطران ربيرا أن يقضى عليهم بالرق ، وأن يؤخذ منهم كل عام بضعة آلاف للعمل فى السفن ومناجم الهند ، حتى يتم إفناؤهم بهذه الطريقة ، وذهب البعض الآخر إلى وجوب قتل الموريسكيين دفعة واحدة ، أو قتل البالغين منهم ، واسترقاق الباقين وبيعهم عبيداً ، وكان مما اقترحه بعض وزراء فيليب الثانى أن يجمع الموريكسيون ، ويحملوا على السفن ثم يغرقوا فى عرض البحر[1]. واستمرت السياسة الإسبانية حينا تتلمس المخرج وسط هذه الحلول الهمجية ، حتى توفى فيليب الثانى ( سنة ١٥٩٨) وخلفه ولده فيليب الثالث. وكان هذا الملك الفتى ، ضعيف الرأى والإرادة ، يتأثر كأبيه بنفوذ الأحبار ، ويخضع لوحى وزيره وصفيه الدوق دى لبرما . وكان الدوق من أشد أنصار فكرة القضاء على الموريسكيين ، وقد أشار بها منذ سنة ١٥٩٩ ، ووضع لتنفيذها مشروعاً ، خلاصته أن الموريسكيين إنما هم عرب ، ويجب أن يعدم الشبان والكهول منهم ، ما بين الخامسة عشرة والستين ، أو أن يسترقوا ويرسلوا للعمل فى السفن ، وتنزع أملاكهم . أما الرجال والنساء الذين جاوزوا الستين ،

---

(١) Dr. Lea : The Moriscos, p. 296-299

فينفوا إلى المغرب ، وأما الأطفال فيؤخذوا ويربوا فى المعاهد الدينية ، وهو مشروع أقره مجلس الدولة ، وأخذ يعمل سراً لحشد القوى اللازمة لحصر عدد الموريسكيين فى اسبانيا .

وفى سنة ١٦٠١ قدم المطران ربيرا إلى الملك ، تقريراً يقول فيه إن الدين هو دعامة المملكة الإسبانية ، « وإن الموريسكيين لا يعترفون ، ولا يتقبلون البركة ولا الواجبات الدينية الأخيرة ، ولا يأكلون لحم الخنزير ، ولا يشربون النبيذ ، ولايعملون شيئاً من الأمور التى يعملها النصارى » ثم يوضح الأسباب التى تدعو إلى عدم الثقة فى ولائهم بقوله : « إن هذا المروق العام لا يرجع إلى مسألة العقيدة ، ولكنه يرجع إلى العزم الراسخ فى أن يبقوا مسلمين ، كما كان آباؤهم وأجدادهم ، ويعرف المحققون العامون أن الموريسكيين بعد أن يعتقلوا عامين وثلاثة وتشرح لهم العقيدة فى كل مناسبة ، يخرجون دون أن يعرفوا كلمة منها . والخلاصة أنهم لا يعرفون العقيدة ، لأنهم لا يريدون معرفتها ، ولأنهم لا يريدون أن يعملوا شيئاً يجعلهم يبدون نصارى »(١) ، ثم يقول المطران فى تقرير آخر ، إن الموريسكيين كفرة متعنتون يستحقون القتل ، وإن كل وسيلة للرفق بهم قد فشلت ، وإن اسبانيا تتعرض من جراء وجودهم فيها ، إلى أخطار كثيرة ، وتتكبد فى رقابتهم ، والسهر على حركاتهم ، وإخماد ثوراتهم ، كثيراً من الرجال والمال . ثم يقترح أن تؤلف محكمة سرية من الأحبار ، تقضى بردة الموريسكيين وخيانتهم ، ثم تحكم علناً بوجوب نفيهم ومصادرة أملاكهم ، وأنه لا ضير على الملك فى ذلك ولاحرج . ولكن مشروع المطران لم ينفذ ، لأن مجلس الدولة كان يرى أن يسير فى تحقيق غايته سراً ، وألا تصطبغ إجراءاته فى ذلك بالصبغة الدينية .

ومضت بضعة أعوام أخرى ، والفكرة تبحث وتختمر وتتوطد ، حتى كانت حوادث المغرب فى أواخر سنة ١٦٠٧ ، وما نسب للموريسكيين من صلة بمولاى زيدان ومشاريعه لغزو اسبانيا ، وعزمهم على الثورة . عندئذ بادر مجلس الدولة بالاجتماع فى أواخر يناير سنة ١٦٠٨ ، واستعرضت جميع الآراء والمشاريع السابقة ، وبحثت جميع الاقتراحات ؛ وكرر المطران ربيرا اقتراحه بوجوب نفى الموريسكيين إلى المغرب ، وقال بأن النفى أرفق ما يمكن عمله ، وأيد رأيه معظم الأعضاء الآخرين وذكروا أن نفى الموريسكيين أصبح ضرورة لا مفر منها ، لأنهم يتكاثرون بسرعة ،

(١) P. Longás : Vida Religiosa de los Moriscos ; p. LXVIII

بينما يتناقص عدد النصارى القدماء . وبحثت تفاصيل المشروع ووسائله، وما يجب اتخاذه من التحوطات لضمان تنفيذه ، خصوصاً وقد بدأت أنباء المشروع تتسرب إلى الموريسكيين ، وظهرت بينهم أعراض الهياج فى سرقسطة وبلنسية . وكانت الخطوة التالية أن عُهد بدرس المشكل كله ، إلى لجنة خاصة على رأسها الدوق دى لبرما ، ووضعت هذه اللجنة أسس المشروع التمهيدية بعد كبير جدل ؛ وخلاصتها أن يمنح الموريسكيون شهراً لبيع أملاكهم ومغادرة اسبانيا إلى حيث شاءوا ، فمن جاز منهم إلى إفريقية منح السفر الأمين ، ومن جاز إلى أرض نصرانية أوصى به خيراً ، ومن تخلف عن الرحيل بعد انقضاء هذه المدة ، عوقب بالموت والمصادرة ؛ ولم يعترض أحد على هذه الأسس فى ذاتها ، على أن هذه الأسس الرفيقة نوعاً لم يؤخذ بها .

وفى يناير سنة ١٦٠٩ بحث مجلس الدولة المسألة لآخر مرة ، وقدم تقريراً ينصح فيه بوجوب نفى الموريسكيين ، لأسباب دينية وسياسية فصلها ، وأهمها تعرض اسبانيا يومئذ لخطر الغزو من مراكش وغيرها ، وقيام الأدلة على أن الموريسكيين جميعاً خونة مارقون، يستحقون الموت والرق، ولكن اسبانيا تؤثر الرفق بهم، وتكتفى بنفيهم من أراضيها . وتقرر أن ينفذ المشروع كله فى خريف هذا العام ، وأرسلت الأوامر إلى حكام صقلية ونابولى وميلان، بإعداد جميع السفن الممكنة لنقل الموريسكيين ، وجميع القوات اللازمة لحراستهم، واجتمعت منذ أوائل الصيف فى مياه ميورقة ، عشرات من السفن المطلوبة ، وسارت أهبة التنفيذ بسرعة ونشاط .

وهكذا انتهت السياسة الإسبانية بعد فترة من التردد، إلى اتخاذ خطوتها الحاسمة فى القضاء على البقية الباقية من الموريسكيين ، وتحقيق أمنيتها القديمة ،فى « تطهير » اسبانيا نهائياً من آثار الإسلام وآثار العرب ،ومحو تلك الصفحة الأخيرة لشعب عظيم تالد .

— ٢ —

وفى ٢٢ سبتمبر سنة ١٦٠٩ أعلن قرار ( مرسوم ) النفى النهائى للموريسكيين أو العرب المتنصرين ، فساد بينهم الروع والاضطراب ، وإليك نصوص هذا القرار الشهير فى صحف المآسى والاستشهاد :

يبدأ القرار بالتنويه بخيانة الموريسكيين ، واتصالهم بأعداء اسبانيا ، وإخفاق كل الجهود التى بذلت لتنصيرهم ، وضمان ولائهم ، وما استقر عليه رأى الملك من نفيهم جميعاً إلى بلاد البربر ( المغرب ) . وبناء على ذلك فإنه يجب على جميع

الموريسكيين من الجنسين ، أن يرحلوا مع أولادهم ، فى ظرف ثلاثة أيام من نشر هذا القرار ، من المدن والقرى إلى الثغور التى يعينها لهم مأمورو الحكومة ، والموت عقوبة المخالفين ؛ وأن لهم أن يأخذوا من متاعهم ما يستطاع حمله على ظهورهم ، وأن السفن قد أعدت لنقلهم إلى بلاد المغرب ، وسوف تتكفل الحكومة بإطعامهم أثناء السفر ، ولكن عليهم أن يأخذوا ما استطاعوا من المؤن ، وأنه يجب عليهم أن يبقوا خلال مهلة الأيام الثلاثة فى أماكنهم رهن إشارة المأمورين ، ومن وجد متجولا بعد ذلك يكون عرضة للنهب والمحاكمة ، أو الإعدام فى حالة المقاومة . وقد منح الملك السادة كل الأملاك العقارية والأمتعة الشخصية التى لم تحمل ، فإذا عمد أحد إلى إخفاء الأمتعة أو دفنها ، أو أضرم النار فى المنازل أو المحاصيل ، عوقب جميع سكان الناحية بالموت . ونص القرار على استبقاء ستة فى المائة فقط من الموريسكيين للانتفاع بهم فى صون المنازل ، والعناية بمعامل السكر ، ومحصول الأرز ، وتنظيم الرى ، وإرشاد السكان الجدد ، وهؤلاء يختارهم السادة ، من بين الأسر الأكثر خبرة وأشد ولاء للنصرانية . أما الأطفال فإذا كانوا دون الرابعة ، فإنه يسمح لهم بالبقاء إذا شاءوا (كذا) ورضى آباؤهم أو أولياؤهم ، وإذا كانوا دون السادسة ، سمح لهم بالبقاء إذا كانوا من أبناء النصارى القدماء ، (أعنى من غير العرب المتنصرين) ، وسمح كذلك بالبقاء لأمهم الموريسكية ؛ فإذا كان الأب موريسكياً والأم نصرانية أصيلة ، نفى الأب وبقى الأولاد الذين دون السادسة مع أمهم . كذلك يسمح بالبقاء للموريسكيين الذين أقاموا بين النصارى مدى عامين ، ولم يختلطوا « بالجماعة » إذا زكاهم القسس . وحظر القرار إخفاء الهاربين أو حمايتهم . ويعاقب المخالف بالأشغال الشاقة لمدة ستة أعوام . كذلك حظر على الجنود والنصارى القدماء ، أن يتعرضوا للموريسكيين أو يهينوهم بالقول أو الفعل ، وهدد المخالفون بالعقاب الصارم . وأخيراً نص على السماح لعشرة من الموريسكيين بالعودة عقب كل نقلة ، لكى يشرحوا لإخوانهم كيف تم النقل إلى المغرب على أحسن حال .

وقع قرار النفى على الموريسكيين وقع الصاعقة ، وسادهم الوجوم والذهول . وكان عصر الثورة والمقاومة قد ولى ، ونهكت قواهم ، ونضبت مواردهم . وكانت الحكومة الإسبانية قد اتخذت عدتها للطوارىء ، وحشدت قواتها فى جميع الأنحاء الموريسكية ، واجتمع زعماء الموريسكيين وفقهاؤهم فى بلنسية ، وقرروا أنه لا أمل فى المقاومة وأنه لا مناص من الخضوع ، واستقر الرأى على أن يرحلوا جميعاً ، وألا

يبقى منهم أحد ، حتى ولا نسبة الستة فى المائة التى سمح ببقائها ، وأن من بقى منهم اعتبر مرتداً مارقاً . ومع ذلك فقد وقعت ثورات محلية ، وتأهبت بعض الجماعات المحتشدة فى المناطق الجبلية للمقاومة ، وعاثت فى الأنحاء المجاورة ، ولكنها كانت فورة المحتضر ، فأخمدت حركاتهم بسرعة وقتل منهم عدد جم .

وتظلم كثير من المدجنين من قرار النفى ، وقالوا إنهم اعتنقوا النصرانية طوعاً قبل التنصير الإجبارى ، وغدوا نصارى واسبانيين قبل كل شىء ، فصدر الأمر إلى الأساقفة ببحث ظلاماتهم ، وأن يسمح بالبقاء لمن توفرت فيه منهم شروط الولاء والإخلاص(١) .

أما الكثرة الساحقة من الموريسكيين فقد هرعت إلى اتخاذ أهبة الرحيل ، وأخذوا فى بيع ما تيسر بيعه من المتاع ، وتدفقت السلع على الأسواق ، من الماشية والحبوب والسكر والعسل والملابس والأثاث وغيرها ، لتباع بأبخس الأثمان . وبدئ بتنفيذ قرار النفى فى الجهات التى نشر فيها أولا ، وهى أعمال بلنسية منذ أوائل أكتوبر (سنة ١٦٠٩) . وخرجت أول شحنة من هذه الكتلة البشرية المعذبة على سفن الحكومة من ثغر دانية وبعض الثغور القريبة ، وقدرت بثمانية وعشرين ألف نفس ، حملوا إلى ثغر وهران فى الضفة الأخرى من البحر ، وقد كان يومئذ بيد الإسبان ، ثم نقلوا إلى تلمسان بحماية فرقة من الجند المرتزقة ، وهناك استظلوا بحماية السلطان؛ وعاد البعض منهم إلى اسبانيا ليروى عن رحيل الراحلين ، وكيف وصلوا فى أمن وسلام . ومع ذلك فقد آثر معظم المهاجرين السفر بأجر ، على سفن غير التى عينتها الحكومة ، لنقل المهاجرين وإطعامهم دون أجر ؛ واضطرت الحكومة تلقاء ذلك ، أن تستدعى عدداً كبيراً من السفن الحرة ، إلى مياه بلنسية ؛ ورحل بهذه الطريقة من ثغر بلنسية زهاء خمسة عشر ألفا ، معظمهم من الموسرين والمتوسطين ؛ ورحل المنفيون من ثغر لقنت على عزف الموسيقى ونشيد الأغانى ، وهم يشكرون الله على العود إلى أرض الآباء والأجداد؛ ولما سئل فقيه من زعمائهم عن سبب اغتباطهم ، أجاب بأنهم كثيراً ماسعوا إلى شراء قارب أو سرقته ، للفرار إلى المغرب ، مستهدفين لكثير من المخاطر ، فكيف إذا عرضت لنا فرصة السفر الأمين مجاناً ، لاننتهزها للعود إلى أرض الأجداد ، حيث نستظل بحماية سلطاننا ، سلطان الترك ، وهنالك نعيش أحراراً مسلمين لا عبيداً كما كنا ؟

(١) Dr. Lea : History of the Inquisition in Spain ; Vol. III. p. 399

الملك فيليب الثالث

عن صورة بلاثكيث المحفوظة بمتحف البرادو بمدريد ، وفيها يبدو أحمر الشعر واللحية والشارب ، فوق جواد أشهب

وكانت الجنود تحرس المنفيين فى معظم الأحوال، حماية لهم من جشع النصارى الإسبان الذين انتظموا فى عصابات لمهاجمة المنفيين ونهبهم وقتلهم أحياناً. وفضلا عن ذلك فإن تنفيذ قرار النفى لم يجر دائماً فى يسر وسهولة، فقد رأينا أن كثيراً من الموريسكيين فى المناطق الجبلية أبوا الخضوع للأوامر لعدم ثقتهم فى ولاء الحكومة، وفضلوا المقاومة حتى الموت، واحتشدوا بالأخص فى «وادى أجوار» حيث اجتمع منهم زهاء خمسة عشر ألفاً، وفى مويلا دى كورتيس حيث اجتمع نحو تسعة آلاف فبادرت قوات الحكومة بمحاصرة وادى أجوار وفتكت بالموريسكيين العزل، وقتلت منهم بضعة آلاف، ومات كثير منهم من الجوع والبرد. وأخيراً سلم من بقى منهم وحملوا قسراً إلى ميناء السفر، وسبى الجند منهم كثيراً من النساء والأطفال، باعوهم رقيقاً، ولم يصل منهم إلى شواطىء المغرب سوى القليل، وفى مويلا دى كورتيس لم يبق منهم عند الإبحار سوى ثلاثة آلاف؛ ولبثت فلولهم تقاوم مستميتة، وتبث الاضطراب نحو عام حتى قضى عليها(١).

وصدر قرار النفى فى قشتالة فى ١٥ سبتمبر سنة ١٦٠٩. ولكن أجل تنفيذه حتى ينفذ أولا فى بلنسية، ولم ينفذ بالفعل إلا فى أواخر ديسمبر، ومنح الموريسكيون فيه شهراً للسفر بنفس الشروط التى تضمنها قرار النفى فى الأندلس؛ وسافر منهم فى اتجاه الشمال إلى حدود فرنسا نحو أربعة آلاف عائلة، وسافر إلى قرطاجنة نحو عشرة آلاف بحجة السفر إلى الأراضى النصرانية، وذلك لكى يحتفظوا بأولادهم الصغار، ولكن تسرب الكثير منهم إلى الثغور المغربية.

وبلغ عدد المنفيين فى الثلاثة أشهر الأولى زهاء مائة وخمسين ألفاً، وسافر منهم ألوف كثيرة من الأغنياء والموسرين على نفقتهم الخاصة، وقصدت جموع كثيرة من الموريسكيين فى أراجون قدرت بنحو خمسة وعشرين ألفاً، إلى ولاية نافار الفرنسية، ودخل فرنسا من قشتالة نحو سبعة عشر ألفاً، وسمح لهم هنرى الرابع ملك فرنسا بالتوطن فيما وراء نهر الجارون، بشرط بقائهم على دين الكثلكة، وأن تهيىء السفن لمن أراد السفر منهم إلى شواطىء المغرب.

أما فى غرناطة وأنحاء الأندلس، فقد أعلن قرار النفى فى ١٢ يناير سنة ١٦١٠ بعد أن عدلت بعض أحكامه، وفيه يمنح الموريسكيون للرحيل ثلاثين يوماً، ويباح لهم أن يبيعوا سائر أملاكهم المنقولة وأخذ ثمنها، على أن يقتنى به عروض أو بضائع

(١) Dr. Lea : History of the Inquisition ; Vol. III. p. 397 & 398

اسبانية ، ولا يسمح لهم بأن يحملوا معهم من النقد أو الذهب أو الحلى ، إلا ما يكفى نفقات الرحلة بالبر والبحر. وأما الأملاك العقارية فتصادر لجهة العرش. وقد استقبل الموريسكيون فى الأندلس قرار النفى بالاستبشار والرضى ، ويقدر من نزح منهم إلى المغرب ، سواء على سفن الحكومة أو السفن الحرة ، بنحو مائة ألف نفس ، وقد نزح معظمهم إلى مراكش.

ثم توالى إعلان قرار النفى ، فى جميع الجهات التى تضم مجتمعات موريسكية ، فى سائر أنحاء المملكة الإسبانية. فى قطلونية وأراجون فى مايو سنة ١٦١٠ ، ثم فى إشبيلية وإسترمادوره ، ثم فى مرسية وغيرها. وتأخر تنفيذه فى مرسية نحو أربعة أعوام حتى يناير سنة ١٦١٤ ، وخرج من مرسية زهاء خمسة عشر ألفاً ، واتجهت جموع كثيرة من الشمال إلى الثغور الجنوبية.

واتجهت بعض الجماعات منهم إلى الثغور الإيطالية مباشرة ، أو عن طريق فرنسا ، ومنها أبحرت إلى مصر والشام وقسطنطينية[1]. وبلغ السلطان أحمد سلطان الترك ، ما أصاب الكثير منهم فى أرض فرنسا من الاعتداء والنهب ، فأرسل إلى ملكتها (وهى يومئذ مارى دى مديتشى الوصية على ولدها لويس الثالث عشر) يحتج على هذا الإيذاء ، ويطلب حماية المنفيين[2]. وكان بين هؤلاء الذين اتجهوا نحو المشرق ، بعض طوائف اليهود الأندلسيين ، ولاسيما طائفة « الحسديم » التى ما زالت تقيم حتى اليوم فى قسطنطينية ، ويقيم بعضها فى مصر.

ونفذ قرار النفى فى كل مكان بصرامة ووحشية ، واستمرت السفن شهوراً بل أعواماً تحمل أكداساً من تلك الكتلة البشرية المعذبة ، فتلقى بها هنا ، وهنالك ، فى مختلف الثغور الإفريقية ، فى غمر من المناظر المروعة المفجعة.

وقد رويت روايات كثيرة محزنة عن مصير بعض جماعات المنفيين ، فإن الذين نزلوا منهم فى وهران ليسيروا منها إلى داخل البلاد المغربية ، اعتدت عليهم بعض العصابات الناهبة ، لما كان معروفاً من أنهم يحملون أموالا وحلياً نفيسة ، وسبى كثير من نسائهم. وقد كان منهم فى الواقع كثير من الأغنياء والأشراف القدماء ، ولاسيما من أهل إشبيلية ، وكتب الكونت أجيلار حاكم وهران ، أن كثيرين منهم بقوا فى وهران ، خوفاً من اعتداء الأعراب ، وقيل إن ثلثى القادمين إلى وهران

(١) المقرى فى نفح الطيب ج ٢ ص ٦١٧.

(٢) Dr. Lea : The Moriscos ; p. 364

أو أكثر من ذلك ، هلكوا من المرض أو نتيجة الاعتداء ، ومن ثم فإن كثيرين منهم عادوا إلى اسبانيا ، والتمسوا إلى السلطات أن يبقوا نصارى وأن يكونوا عبيداً . وقد ألفى هؤلاء بعض الأسر التى قبلت استرقاقهم ، واعترض على ذلك رجال الدين ، وصدرت الأوامر برفض نزولهم إلى الشواطىء الإسبانية ؛ ولكن كثيرين تسربوا إلى أنحاء بلنسية وغيرها ، وبقوا فى اسبانيا رغم جميع الجهود التى بذلت لإخراجهم(١) .

وقد اختلف المؤرخون أيما اختلاف ، فى تقدير عدد الموريسكيين الذين أخرجوا من اسبانيا تطبيقاً لقرار النفى ، ويقول نابارتى وهو من أعظم مؤرخى اسبانيا ، إنه قد نفى من اسبانيا فى مختلف العصور ، نحو مليونين من اليهود ، وثلاثة ملايين من الموريسكيين . ويقدر آخرون المنفيين من الموريسكيين بأربعمائة ألف أو تسعمائة ألف ، ويقدرهم دون لورنتى مؤرخ «ديوان التحقيق» بمليون ، ويقدرهم المستشرق فون هامار بثلاثمائة ألف وعشرة آلاف . وفى الرواية العربية الموريسكية التى نثبتها فيما بعد ، يقدر عدد المنفيين الموريسكيين بستمائة ألف ، ونحن نميل إلى الاعتقاد بأن عدد من نفى من الموريسكيين لا يمكن أن يتجاوز هذا القدر ، وقد كان مجموعهم فى أواخر القرن السادس عشر لا يتجاوز ستمائة ألف حسبما قدمنا . ويقدر من هلك من الموريسكيين أو استرق منهم أثناء مأساة النفى بنحو مائة ألف نفس(٢) .

وقد عاد معظم الموريسكيين ، الذين نفوا إلى إفريقية والمشرق ، إلى الإسلام دين الآباء والأجداد ، ولم تخمد مائة عام من التنصير المغصوب ، والإرهاق المستمر جذوة الإسلام فى نفوسهم ، وقد لبث على كر العصور متغلغلا فى أعماق سرائرهم .

وبذلك ينتهى الفصل الأخير من مأساة الموريسكيين أو العرب المتنصرين ، وتطوى إلى الأبد صفحة شعب ، من أنبل وأمجد شعوب التاريخ ، وحضارة من أزهر الحضارات .

— ٣ —

وتقدم إلينا الرواية الغربية ، تفاصيل ضافية عن مأساة الموريسكيين ، منذ بدايتها إلى نهايتها ، وتخصها بكثير من التعليق والنقد . ولكن الرواية الإسلامية مقلة فى هذا الموطن ، شأنها فى تاريخ الأندلس منذ سقوط غرناطة ، فهى لا تعنى بتتبع

---

(١) Lea : The Moriscos ; p. 363 & 364 . وراجع نفح الطيب ج ٢ ص ٦١٧ .

(٢) راجع : Lea : The Moriscos ; p. 259

مصير العرب المتنصرين ، كما تعنى الرواية الغربية ، ولا تقدم إلينا عن مأساة النفى سوى بعض الشذور والإشارات الموجزة .

وأهم وأوفى ما وقفنا عليه من ذلك ، رواية معاصرة عن أحوال الموريسكيين ، ومساعيهم السرية للمحافظة على دينهم ، وظروف نفيهم ، كتبها موريسكى عاش فى جيان وغيرها من قواعد الأندلس الجنوبية فى أواخر عهد الموريسكيين ، ثم هاجر إلى تونس قبيل النفى بقليل ، وكتب فيما بعد بالعربية كتابا عنوانه : « الأنوار النبوية فى آباء خير البرية » ، يتحدث فى نهايته فى فصل خاص عن الموريسكيين المهاجرين ، وشرف نسبهم ، وينوه بحسن إيمانهم وتمسكهم بالإسلام دين آبائهم وأجدادهم ، ووردت خلال هذا الفصل حقائق تاريخية هامة ، عن النفى وأسبابه وملابساته . وقد رأينا أن ننقله فيما يلى :(١)

« قد كثر الإنكار علينا معشر أشراف الأندلس من كثير من إخواننا فى الله بهذه الديار الإفريقية من التونسيين وغيرهم ، حفظهم الله تعالى ، بقولهم من أين لهم هذا الشرف ، وقد كانوا ببلاد الكفار ، دمرهم الله ، ولهم مئون من السنين كذا وكذا ، ولم يبق فيهم من يعرف ذلك من مدة الإسلام وقد اختلطوا مع النصارى ، أبعدهم الله تعالى ، إلى غير ذلك من الكلام الذى لا نطيل به ولا أذكره هنا صونا لعرضهم وحبى فيهم .

« مع أنى صغير السن حين دخولنا هذه الديار عمرها الله تعالى بالإسلام وأهله بجاه النبى المختار فقد أطلعنى الله تعالى على دين الإسلام بواسطة والدى رحمة الله عليه وأنا ابن ستة أعوام وأقل ، مع أنى كنت إذ ذاك أروح إلى مكتب النصارى لأقرأ دينهم ، ثم أرجع إلى بيتى فيعلمنى والدى دين الإسلام ، فكنت أتعلم فيهما معاً ، وسنى حين حملت إلى مكتبهم أربعة أعوام . فأخذ والدى لوحاً من عود الجوز كأنى أنظر الآن إليها مملسا ، فكتب لى فيه حروف الهجاء وهو يسألنى حرفاً حرفاً

---

(١) مؤلف هذا الكتاب هو حسبما ورد فى نسخته المخطوطة ، محمد بن عبد الرفيع بن محمد الشريف الحسينى الجعفرى الأندلسى ، المتوفى سنة ١٠٥٢ هـ (١٦٥٢ م) ، أعنى بعد نفى الموريسكيين باثنتين وأربعين عاما . وتوجد هذه النسخة الوحيدة منه بخزانة الرباط بالمكتبة الكتانية رقم **1238** ، ومذكور فى نهاية الكتاب ، أنه قد تم تحريره بحضرة تونس سادس شعبان سنة ١٠٤٤ هـ (١٦٤٤ م) . ويشغل الفصل الخاص بأحوال الموريسكيين فيه من ص ٣١٩ إلى ص ٣٣٦ . وقد نقل هذا الفصل الشاعر المغربى محمد بوجندار مع بعض التصرف فى كتابه المسمى « مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح » (الرباط ١٣٤٥ هـ) ص ٢٠٠ — ٢١٤ .

عن حروف النصارى تدريباً وتقريباً ، فإذا سميت له حرفاً أعجمياً كتب لى حرفاً عربياً ، فيقول حينئذ هكذا حروفنا ، حتى أستوفى لى جميع حروف الهجاء فى كرتين ؛ فلما فرغ من الكرة الأولى ، أوصانى أن أكتم ذلك حتى عن والدتى وعمى وأخى ، وجميع قرابتنا ، وأمرنى أن لا أخبر أحداً من الخلق . وشدد على الوصية ، وصار يرسل والدتى التى تسئلنى ما الذى يعلمك والدك فأقول لها لا شىء. وكذا كان يفعل عمى وأنا أنكر أشد الإنكار . ثم أروح إلى مكتب النصارى وآتى إلى الدار فيعلمنى والدى إلى أن مضت مدة .

« وقد كان والدى رحمه الله ، يلقننى حينئذ ماكنت أقوله حين رؤيتى للأصنام ... فلما تحقق والدى أنى أكتم أمور دين الإسلام عن الأقارب فضلا عن الأجانب ، أمرنى أن أتكلم بإفشائه لوالدتى وعمى ، وبعض أصحابه الأصدقاء فقط ، وكانوا يأتون إلى بيتنا فيتحدثون فى أمر الدين ، وأنا أسمع . فلما رأى حزمى مع صغر سنى ، فرح كثيراً غاية ، وعرفنى بأصدقائه وأحبائه وإخوانه فى دين الإسلام ، فاجتمعت بهم واحدا واحدا ، وسافرت الأسفار لأجتمع بالمسلمين الأخيار ، من جيان ، مدينة ابن مالك ، إلى غرناطة ، وإلى قرطبة وإشبيلية ، وطليطلة ، وغيرها من مدن الجزيرة الخضراء ، أعادها الله تعالى للإسلام ، فتلخص لى من معرفتهم أنى ميزت سبعة رجال كانوا كلهم يحدثونى بأمور غرناطة وماكان بها فى الإسلام حينئذ ، فباجتماعى بهم حصل لى خير كثير ، وقد قرأوا كلهم على شيخ من مشايخ غرناطة ، أعادها الله للإسلام ، يقال له الفقيه اللوطورى رحمه الله تعالى ونفعنا به ، فإنه كان رجلا صالحاً ، ولياً لله ، فاضلا زاهداً ، ورعاً ، عارفاً سالكاً ، ذا مناقب ظاهرة مشهورة ، وكرامات طاهرة مأثورة ، قد قرأ القرآن الكريم فى مكتب الإسلام بغرناطة ، قبل استيلاء أعداء الدين عليها ، وهو ابن ثمانية أعوام وقرأ الفقه وغيره على مشايخ أجلا حسب الإمكان . ثم بعد مدة يسيرة ، انتزعت غرناطة من أيدى المسلمين أجدادنا ، وقد أذن العدو فى ركوب البحر والخروج منها لمن أراده ، وبيع ماعنده ، وإتيانه لهذه الديار الإسلامية وذلك فى مدة ثلاثة أعوام ، ومن أراد أن يقيم على دينه وماله فليفعل ، بعد شروط اشترطوها ، وإلزامات كتبها عدو الدين على أهل الإسلام . فلما تحركوا لذلك أجدادنا ، وعزموا على ترك ديارهم وأموالهم ، ومفارقة أوطانهم للخروج من بينهم ، وجاز إلى هذه الديار التونسية ، والحضرة الخضراء بغتة من جاز إليها حينئذ ، ودخلوا فى زقاق

الأندلس المعروف الآن بهذا الاسم ، وذلك سنة اثنين وتسعمائة ، وكذا للجزائر وتطاون وفاس ومراكش وغيرها ، ورأى العدو العزم فيهم لذلك ، نقض العهد ، فردهم رغم أنوفهم من سواحل البحر إلى ديارهم ، ومنعهم قهراً عن الخروج واللحوق بإخواتهم ، وقرابتهم بديار الإسلام ، وقد كان العدو يظهر شيئاً ، ويفعل بهم شيئاً آخر ، مع أن المسلمين أجدادنا استنجدوا مراراً ملوك الإسلام ، كملك فاس ومصر حينئذ ، فلم يقع من أحدهما إلا بعض مراسلات ، ليقضى الله أمراً كان مفعولا .

« ثم بقى العدو يحتال بالكفر عليهم غصباً ، فابتدأ يزيل لهم اللباس الإسلامى ، والجماعات ، والحمامات ، والمعاملات الإسلامية ، شيئاً فشيئاً ، مع شدة امتناعهم والقيام عليه مرار ، وقتالهم إياه ، إلى أن قضى الله سبحانه ما قد سبق من علمه ، فبقينا بين أظهرهم ، وعدو الدين يحرق بالنار من لاحت عليه إمارة الإسلام ، ويعذبه بأنواع العذاب ، فكم أحرقوا ، وكم عذبوا ، وكم نفوا من بلادهم ، وضيعوا من مسلم ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، حتى جاء النصر والفرج من عند الله سبحانه ، وحرك القلوب للهروب ، وكان ذلك سنة ثلاثة عشرة وألف ، فخرج منا بعض للمغرب ، وبعض للمشرق خفية ، مظهراً دين الكفار أبعدهم الله ، فخرج بعض أحبابنا وإخواننا وهو الفقيه الأجل محمد أبو العباس أحمد الحنفى ، المعروف بعبد العزيز القرشي ، ومعه أحد أخواله ، إلى مدينة بلغراد من عمالة القسطنطينية ، فالتقيا بالوزير مراد باشا وزير السلطان المعظم المرحوم السلطان أحمد بن السلطان محمد نجل آل عثمان نصرهم الله تعالى وأيدهم ، فأخبراه بما حل بإخواننا بالأندلس من الشدة بفرانسة وغيرها ، فكتب أمراً لصاحب فرانسة دمرها الله ، بإعلام السلطان نصره الله ، يأمره بأن يخرج من كان عنده من المسلمين بالأندلس وخدام آل عثمان ، ويوجههم إليه فى سفن من عنده مع ما يحتاجون إليه . فلما قرىء الأمر السلطانى فى ديوان الفرنسيس ، فسمعه من كان عنده مرسلا من قبل صاحب الجزيرة الخضراء ، وهو اللعين فيليبو الثالث ، فأرسل لسيده ، يخبره بالواقع ، وأن السلطان أحمد آل عثمان ، أرسل أمره إلى فرانسة ، وأمر صاحبها أن يخرج من كان عنده من الأندلس ، فقبل كلامه ، وأمر بإخراج المسلمين ، وأذن لمن جاء من الأندلس بأن لا بأس عليهم ، وأن يركبوا عنده فى سواحله مراكبه ، ويبلغهم إلى حيث شاءوا من بلاد المسلمين . فلما أحس بهذا الأمر عدو الله فيليبو صاحب إسبانية ، دخله الرعب والخوف الشديد ، وأمر حينئذ فجمع أكابر

القسيسين والرهبان والبطارقة ، وطلب منهم الرأى ، وما يكون عليه العمل فى شأن المسلمين الذين هم ببلاده كافة ، فبدا الشأن فى أهل بلنسية ، فأخذوا الرأى ، وأجمعوا كلهم على إخراج المسلمين كافة من مملكته ، وأعطاهم السفن ، وكتب أوامر وشروطاً فى شأنهم ، وفى كيفية إخراجهم ، وشدد على عماله بالوصية ، والاستحفاظ على كافة المسلمين من الأندلس . نعم أريد أن أذكر لك نبذة يسيرة اختصرتها ، وترجمتها ، من جملة أسباب ذكرها الملك الكافر أبعده الله ، فى أوامره ، التى كتبها فى شأن إخواننا الأندلس حين إخراجهم من الجزيرة الخضراء ، لتكون على بصيرة من أمرهم ، وتعلم بعض الأسباب التى أخرجوا لأجلها على التحقيق ، لا كما يزعم بعض الحاسدين ، وليؤيد ما قدمناه آنفاً من أمر السلطان أحمد آل عثمان ، وتكمل الفايدة ، ولئلا يساء الظن بنا معشر الأندلس

« قال الملك الكافر ، أبعده الله تعالى وزلزله آمين : لما كانت السياسة السلطانية الحسنة الجيدة موجبة لإخراج من يكدر المعاش على كافة الرعية النصرانية ، فى مملكتها التى تعيش عيشاً رغداً صالحاً ، والتجربة أظهرت لنا عياناً ، أن الأندلس الذين هم متولدون من الذين كدروا مملكتنا فيما مضى ، بقيامهم علينا ، وقتلهم أكابر مملكتنا ، والقسيسين والرهبان الذين كانوا بين أظهرهم ، وقطعهم لحومهم ، وتمزيقهم أعضاءهم ، وتعذيبهم إياهم بأنواع العذاب ، الذى لم يسمع فيما تقدم مثله ، مع عدم توبتهم فيما فعلوه ، وعدم رجوعهم رجوعاً صالحاً من قلوبهم ، لدين النصرانية ، وأنه لم ينفع فيهم وصايانا ، ورأينا عيانا أن كثيراً منهم قد أحرقوا بالنار ، لاستمرارهم على دين المسلمين ، وظهر منهم العناد بعيشهم فيه خفية ، واستنجادهم كذلك عون السلطان العثمانى ، لينصرهم علينا ، وظهر لى أن بينهم وبينه مراسلات إسلامية ، ومعاملات دينية ، وقد تيقنت ذلك من إخبارات صادقة وصلت إلى . ومع هذا أن أحداً منهم لم يأت إلينا ليخبرنا بما هم يدبرونه فى هذه المدة بينهم ، وفيما سبق من السنين ، بل كتموه بينهم ؛ علمت بذلك أن كلهم قد اتفقوا على رأى واحد ، ودين واحد ، ونيتهم واحدة ؛ وظهر لى أيضاً ، ولأرباب العقول والمتدينين من القسيسين والرهبان والبطارقة الذين جمعتهم لهذا الأمر واستشرت ، مع أن من ابقائهم بيننا ينشأ عنه فساد كبير ، وهول شديد بسلطنتنا ، وأن بإخراجهم من بيننا يصلح الفساد الناشىء من إبقائهم بمملكتى ، أردت إخراجهم من سلطنتنا جملة ، ليزول بذلك الكدر الواقع ، والمتوقع للنصارى

الذين هم رعيتنا ، طائعين لأوامرنا ودينا ، ورميتهم إلى بلاد المسلمين أمثالهم ، لكونهم مسلمين . انتهى المراد بأكثر لفظه ولم أتعرض لذكر شروط كتبها ودققها .

« فانظر رحمك الله ، كيف شهد عدو الدين ، الملك الكافر ، بأنهم مسلمون ، واعترف أنه لم يقدر على إزالة دينهم من قلوبهم ، وأنهم متمسكون كلهم به ؛ مع أنه كان يحرق منهم من ظهر عليه الدين ، ثم وصفهم بالعناد لرؤيته فيهم لوائح المسلمين وإماراتهم ، فأى علامة أكبر من صبرهم على النار لدين الحق ، ومن استنجادهم ملك دين الإسلام المؤيد لحماية الدين ، أمير المسلمين السلطان أحمد آل عثمان نصرهم الله تعالى ، فهذا غاية الخير والعز والبركة لهذه الطائفة الطاهرة الأندلسية التى قال فيها شيخنا الأستاذ القطب الغوث سيدى أبو الغيث القشاش نفعنا الله به دنيا وأخرى فى بعض مكاتبه التى كان يكاتبهم بها ، فقال لى وسلم على هؤلاء الأنصار الأطهار الأخيار فإنه لا يحبكم إلا مؤمن ولا يبغضكم إلا منافق .

« فخرجوا كلهم سنة تسعة عشر وألف . ووجد فى دفاتر السلطان الكافر ، أبعده الله تعالى ، أن جملة من أخرج من أهل الأندلس كافة ، نيف وستمائة ألف نسمة ، كبيراً وصغيراً . فكانت هذه الواقعة ، منقبة عظيمة ، وفضيلة عجيبة ، لجماعتنا الأندلس زادهم الله شرفاً بمنه . وأمر أيضاً بإخراج من كان مسجوناً فى كافة مملكته ، وكل من كان أمر بإحراقه فأخرجه ، وعفا عنه ، وزوده وأرسله إلى بلاد الإسلام سالماً . ولا يخفى أن هذا أمر عظيم ، ومحال عادة ، فسبحان رب السموات ورب الأرض الذى إذا أراد أمراً قال له كن فيكون . فيالها من أعجوبة ما أعظمها ، ومن فضيلة ما أشرفها ، ومن كرامة ما أجملها ، ومن نعمة ما أكبرها ، فما سمع من أول الدنيا إلى آخرها مثل هذه الواقعة » .

* * *

وقد صدر قرار النفى كما قدمنا فى ٢٢ سبتمبر سنة ١٦٠٩ ، وهو يوافق جمادى الثانية سنة ١٠١٨ هـ . ولكن الرواية الإسلامية تضع تاريخ القرار أحياناً فى سنة ١٠١٦ هـ أو ١٠١٧ هـ ، وهو تحريف واضح . وأقرب إلى الصحة ، ما ذكره ابن عبد الرفيع فى روايته المتقدمة وهو سنة ١٠١٩ هـ ( ١٦١٠ م ) .

قال المقرى مؤرخ الأندلس ، وقد كان معاصراً للمأساة : « إلى أن كان إخراج النصارى إياهم ( أى العرب المتنصرين ) بهذا العصر القريب أعوام سبعة عشرة وألف فخرجت ألوف بفاس ، وألوف أخر بتلمسان من وهران ، وجمهورهم خرج بتونس

فتسلط عليهم الأعراب ومن لا يخشى الله تعالى فى الطرقات ، ونهبوا أموالهم ، وهذا ببلاد تلمسان وفاس ، ونجا القليل من هذه المضرة . وأما الذين خرجوا بنواحى تونس ، فسلم أكثرهم ، وهم لهذا العهد عمروا قراها الخالية وبلادها ، وكذلك بتطاون وسلا وفيجة الجزائر . ولما استخدم سلطان المغرب الأقصى منهم عسكرا جراراً وسكنوا سلا ، كان منهم من الجهاد فى البحر ، ماهو مشهور الآن . وحصنوا قلعة سلا وبنوا بها القصور والحمامات والدور ، وهم الآن بهذه الحال . ووصل جماعة إلى القسطنطينية العظمى ، وإلى مصر والشأم وغيرها من بلاد الإسلام ، وهم لهذا العهد على ما وصفت »(١) .

وقال ابن دينار التونسى ، وقد كتب بعد المأساة بنحو سبعين عاماً ، فى أخبار سنة ١٠١٧ هـ : « وفى هذه السنة والتى تلتها ، جاءت الأندلس من بلاد النصارى ، نفاهم صاحب إسبانية ، وكانوا خلقاً كثيراً ، فأوسع لهم عثمان داى فى البلاد ، وفرق ضعفاءهم على الناس ، وأذن لهم أن يعمروا حيث شاءوا ، فاشتروا الهناشير وبنوا فيها ، واتسعوا فى البلاد ، فعمرت بهم ، واستوطنوا فى عدة أماكن ، وعمروا نحو عشرين بلداً ، وصارت لهم مدن عظيمة ، وغرسوا الكروم والزيتون والبساتين ، ومهدوا الطرقات ، وصاروا يعتبرون من أهل البلاد »(٢) .

وقال صاحب « الخلاصة النقية » ، وهو من الكتاب المتأخرين : « وفى سنة ست عشرة وألف ، قدمت الأمم الجالية من جزيرة الأندلس ، فأوسع لهم صاحب تونس عثمان داى كنفه ، وأباح لهم بناء القرى فى مملكته ، فبنوا نحو العشرين قرية ، واغتبط بهم أهل الحضرة ، وتعلموا حرفهم وقلدوا ترفهم »(٣) .

وهذه النصوص الموجزة ، هى كل ما تقدم إلينا الرواية الإسلامية عن نفى العرب المتنصرين ، وقد لبثت رواية المقرى عن المأساة ، مصدراً لكل ماكتبه الكتاب المتأخرون(٤) . وربما كان هذا النقص راجعاً إلى أنه لم يعن أحد من كتاب المغرب المعاصرين ، باستيفاء التفاصيل الضافية المؤثرة عن المأساة ، أولعله قد ضاع ماكتبه المعاصرون عنها فيما ضاع ، مما كتب عن المراحل الأخيرة لتاريخ الأندلس

---

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ٦١٧ .
(٢) المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس (تونس) ص ١٩٣ .
(٣) الخلاصة النقية (تونس) ص ٩١ .
(٤) راجع الإستقصاء ج ٣ ص ١٠١ ، حيث تنقل هذه النصوص .

والعرب المتنصرين ، ولم تصلنا منه على يد المقرى سوى لمحات يسيرة .

وهكذا بذلت اسبانيا كل ما وسعت لإخراج البقية الباقية ، من فلول الأمة الأندلسية ، ولم تدخر وسيلة بشرية للقضاء على آثار الموريسكيين إلا اتخذتها . ومع ذلك فإن آثار الموريسكيين لم تنقطع بعد النفى بصورة نهائية . فقد رأينا أن كثيرين من المنفيين قد عادوا إلى اسبانيا ، فراراً مما لقوا فى رحيلهم من ضروب الإعتداء المفزع ، وأسلموا أنفسهم رقيقاً يقتنى . كذلك كانت ثمة جماعات من الأسرى المسلمين ، من مغاربة وغيرهم ، ممن يؤخذون فى المعارك البحرية مع المغيرين ، يباعون رقيقاً فى اسبانيا ، ويفرض عليهم التنصير . ومع أنه صدر قرار بحظر وجودهم فى العاصمة الإسبانية ، فإنه كان من الصعب إخراجهم من المملكة ، نظراً لما ترتب لأصحابهم عليهم من الحقوق ، وكان البعض منهم يفلح فى ابتياع حريته ، ويعيد حياة الموريسكيين سراً ، وأخيراً توجست الحكومة الإسبانية من وجودهم ، فصدر فى سنة ١٧١٢ قرار بنفيهم ، خلال المدد التى يحددها القضاة المحليون ، وسمح لهم بأن يأخذوا معهم أسرهم وأموالهم إلى إفريقية .

وقد كان من المستحيل بعد ذلك كله ، أن يبقى فى البلاد أحد من الموريسكيين أو سلالتهم ، وقد كانت ذكراهم أو أشباحهم ، تثير حولها أيما توجس وتعصب . وكان من المتعذر أن يفلت أحد منهم من بطش ديوان التحقيق ، وكان الديوان المقدس أبدا على أهبته لضبط أية قضية ضد موريسكى مختف أوعبد متنصر ، لكن هذه القضايا كانت نادرة مما يدل على انقراض هذا العنصر بمضى الزمن . بيد أن أسرى المعارك البحرية الذين كانوا يكرهون على التنصير ، كان بعضهم ينبذ النصرانية خفية ، وكن معظم هؤلاء من الموريسكيين الذين عادوا إلى الإسلام ، وخرجوا إلى الجهاد فى البحر ، وكان ديوان التحقيق طوال القرن السابع عشر يجد بينهم فرائس من آن لآخر . وعلى الجملة فإن آثار الموريسكيين والإسلام لم تعف نهائياً من اسبانيا ، وقد لبث كثير من الأسر والأفراد الموريسكيين ، الذين اندمجوا فى المجتمع الإسبانى ، على صلاتهم الخفية بالماضى البعيد ، وقد ضبطت خلال القرن الثامن عشر أمام محاكم التحقيق بعض قضايا الموريسكيين ، كانوا يجرون شعائر الإسلام خفية ، وضبط فى سنة ١٧٦٩ مسجد صغير فى قرطاجنة ، أنشأه المتنصرون المحدثون ، مما يدل على أنه كانت ما تزال ثمة آثار ضئيلة للموريسكيين والإسلام .

ولا تقدم إلينا محفوظات ديوان التحقيق منذ أواخر القرن الثامن عشر، أى ذكر للموريسكيين، أو الإسلام والمسلمين، مما يدل على أن الآثار الأخيرة لمأساة الموريسكيين قد غاضت، وأسبل عليها الزمن عفاءه إلى الأبد[١].

على أن يقال أخيراً إنه ما زالت ثمة إلى اليوم، فى بلنسية وفى غرناطة ومقاطعة لا منشا، جماعات من الإسبان تغلب عليها تقاليد الموريسكيين فى اللباس والعادات، ويجهلون الطقوس النصرانية الخالصة[٢].

والحقيقة أنه يصعب على الباحث أن يعتقد أن اسبانيا النصرانية، قد استطاعت حقاً بكل ما لجأت إليه من الوسائل المغرقة، أن تقضى نهائياً على آثار الأمة العربية فإن تاريخ الحضارة يدلنا على أنه من المستحيل، أن تجتث آثار السلالات البشرية، خصوصاً متى لبثت آماداً متخلفة متداخلة، وعلى أن حضارة أمة من الأمم إنما هى خلاصة لتفاعل الأجيال المتعاقبة، وفى وسع مؤرخ الحضارة أن يلمس فى تكوين المجتمع الإسبانى الحاضر، ولاسيما فى الجنوب فى ولايات الأندلس القديمة، وفى خصائصه وتقاليده، وفى حياته الاجتماعية، وفى حضارته على العموم، كثيراً من الخلال والظواهر، التى ترجع فى روحها إلى تراث العرب والحضارة الإسلامية.[٣]

---

(١) Lea : The Moriscos p. 391 & 392

(٢) Lea : ibid ; p. 365

(٣) استطعت خلال رحلاتى الأندلسية المتوالية أن أتبين هذه الظاهرة، وأن أشعر بها شعوراً قوياً، ولا سيما فى غرناطة، وقد تناولت مظاهرها المادية والأدبية فى فصل خاص فى كتابى «الآثار الأندلسية الباقية» الطبعة الثانية ص ٤٣٦ — ٤٤٤.

# الفصل الثالث

## تأملات وتعليقات عن آثار المأساة

مأساة الموريسكين وعلاقتها بانحطاط اسبانيا . آثار نفى الموريسكين المخربة . ركود الزراعة وخراب الضياع الكبيرة . تأثر محاكم التحقيق . ذيوع العملة الزائفة . تقرير مجلس الدولة عن الاضطراب الاقتصادى . تعليقات الدكتور لى . خطأ السياسة الإسبانية . آراء التفكير الإسبانى . تأييد الأحبار لسياسة الإبادة . حملة دون لورنتى عليها . رأى الكردينال ريشليو . آراء المؤرخين الإسبان . مأساة النفى بين التأييد والإنكار . آراء لافونتى وخانير وبكاتوستى ومننديث إى بلايو . تعليقات النقد الحديث . أقوال الدكتور لى . أقوال العلامة سكوت . أقوال مننديث بيدال . أقوال المستشرق كوندى . تعليق المستشرق لاين بول .

تلك هى قصة الموريسكيين أو العرب المتنصرين : قصة مؤسية تفيض بألوان الإستشهاد المحزن ، ولكن تفيض فى نفس الوقت بصحف من الإباء والبسالة والجلد ، تخلق بأعظم وأنبل الشعوب . وقد لبثت السياسة البربرية التى اتبعتها اسبانيا النصرانية ، واتبعها ديوان التحقيق الإسبانى ، إزاء العرب المتنصرين على كر العصور ، مثار الإنكار والسخط ، يدمغها المفكرون الغربيون ، والإسبان أنفسهم ، حتى يومنا بأقسى النعوت والأحكام .

ويرى النقد الحديث ، أن العمل على إبادة الموريسكيين ، كان ضربة شديدة لعظمة اسبانيا ورخائها ؛ ولم تنهض اسبانيا قط من عواقب هذه السياسة الغاشمة ، بل انحدرت منذ نفى الموريسكيين ، من أوج عظمتها التى سطعت فى عصر شارلكان وفيليب الثانى ، إلى غمرة التدهور والإنحلال التى ما زالت تلازمها حتى عصرنا .

بل ترجع عوامل هذا الإنحلال ، إلى ما قبل مأساة الموريسكيين ببعيد ، أو بعبارة أخرى إلى السياسة التى اتبعتها اسبانيا النصرانية ، نحو الأمة الأندلسية ، منذ بداية عصر الغلبة والفتح ، فى أوائل القرن الثالث عشر . فقد كانت القواعد والولايات الإسلامية الزاهرة ، تسقط تباعاً فى يد اسبانيا النصرانية ، ولكنها كانت تفقد فى نفس الوقت أهميتها العمرانية والاقتصادية ، إذ كانت العناصر الإسلامية الذكية النشيطة من السكان ، تغادرها إلى القواعد الإسلامية الباقية ، فراراً من عسف

النصارى، وتغادرها حاملة أموالها وفنونها وصنائعها، تاركة وراءها الخراب والفقر والضيق الاقتصادى . واستمر سيل هذه الهجرة المخربة زهاء قرنين، حتى سقطت غرناطة، واحتشدت البقية الباقية من الأمة الأندلسية فى المنطقة الجنوبية، فى بعض القواعد الأندلسية القديمة، مثل بلنسية ومرسية، وهاجرت قبل سقوط غرناطة وبعده، جموع غفيرة من المسلمين إلى إفريقية، واستحالت الأمة الأندلسية غير بعيد، إلى شعب مهيض ممزق هو شعب الموريسكيين أو العرب المتنصرين . ومع ذلك فقد لبثت هذه الأقلية الأندلسية المضطهدة، عاملا خطيراً فى اقتصاد اسبانيا القومى، وفى ازدهار زراعتها وتجارتها وفنونها وصناعاتها. وكان الموريسكيون يحملون الكثير من تراث الأمة المغلوبة، وإلى نشاطهم ودأبهم، يرجع ازدهار الضياع الكبيرة التى يملكها السادة الإقطاعيون . فلما اشتد بهم الإضطهاد والعسف، وأخذت يد الإبادة تعمل لتمزيق طوائفهم، وسحق نشاطهم وقتل مواهبهم، ولما اتخذت اسبانيا النصرانية أخيراً خطوتها الحاسمة بإخراجهم، كانت الضربة القاضية لرخاء اسبانيا ومواردها، فانحط الإنتاج الزراعى الذى برع الموريسكيون فيه، وخربت الضياع الكبيرة بفقد الأيدى الماهرة، وكسدت التجارة التى كان الموريسكيون من أنشط عناصرها، وركدت ريح الصناعة، وعفت كثير من الصناعات التالدة التى كانوا أساتذتها، وغاضت الفنون الرفيعة التى استأثروا بها منذ أيام الدولة الإسلامية . وأحدثت هذه العوامل بمضى الزمن نتائجها المخربة، فتناقص عدد السكان، وانكمشت المدن الكبيرة، وذوى عمرانها، وتضاءلت موارد الخزينة العامة، وشلت جهود الإصلاح والتقدم، ولم يمض على إخراج الموريسكيين زهاء قرن، حتى أصبح سكان المملكة الإسبانية كلها ستة ملايين، وكان سكان قشتالة وحدها أيام سقوط غرناطة سبعة ملايين، وفقدت معظم المدن الكبرى مثل قرطبة وإشبيلية وطليطلة وغرناطة أربعة أخماس سكانها، وعم الفقر والخراب مئات المناطق والمدن، وخيم على اسبانيا كلها جو من الفاقة والركود والانحلال .

وإذا كان النقد الحديث، ينوه بخطورة السياسة التى اتبعتها اسبانيا، فى إبادة الأمة الأندلسية ونفى الموريسكيين، كعامل قوى الأثر فيما أصاب اسبانيا من أسباب الدمار والبؤس والانحطاط، التى لم تبرأ منها حتى عصرنا، فإنه يعتمد فى هذا الرأى على طائفة من النتائج المادية والأدبية، التى ترتبت على « النفى »، وحرمان اسبانيا من الثروات العقلية والفنية والصناعية، التى كانت تتمتع بها الأمة الأندلسية .

وقد ظهرت هذه الآثار المخربة ، بالأخص فى محيط الزراعة والصناعة ، وكان تدهور إيراد الضياع الكبيرة ، وإيراد الكنائس والأديار ، دليلا على ما أصاب قوة اسبانيا المنتجة ، الزراعية والصناعية ، بسبب نفى طائفة كبيرة ، من أنشط طوائف السكان وأغزرهم إنتاجاً . وكان من الحقائق المعروفة أن السكان الإسبان ، كانوا يبغضون الأعمال الزراعية والفنية ، ويعتبرونها أمراً شائناً ، وأن الإسبانى لا يربى أولاده لمزاولة العمل الشريف ، وأن أولئك الذين لا يجدون عملا فى الجيش أو الحكومة ، يلتحقون بالكنيسة . ويبدى المؤرخ الإسبانى الكبير نابارِيتى أسفه لوجود أربعة آلاف مدرسة فى عصره ( أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ) ، يتعلم فيها أبناء الفلاحين ، بينما تهجر الحقول ، ولأن أولئك الذين لا يجدون منهم عملا فى الكنيسة لنقص تعليمهم ، يحترفون التسول أو التشرد أو السرقة . وقد كتب سفراء البندقية منذ القرن السادس عشر إلى حكومتهم ينوهون بهذه الحقائق ، ويصفون الإسبان بأنهم زراع وعمال كسالى ، يحتقرون العمل اليدوى ، حتى أن ما يمكن عمله في البلاد الأخرى فى شهر ، يعمله الإسبان فى أربعة أشهر [١] .

ويردد الوزير محمد بن عبد الوهاب الغسانى سفير سلطان المغرب مولاى اسماعيل إلى اسبانيا ، وقد زارها فى سنة ١٦٩١ ، أعنى بعد النفى بثمانين عاماً ، عن الإسبان مثل هذا الرأى إذ يقول فى رحلته :

« وبحصول هذه البلاد الهندية ( يقصد أمريكا ) ومنفعتها وكثرة الأموال التى تجلب منها ، صار هذا الجنس الإسبنيولى اليوم أكثر النصارى مالا ، وأقواهم مدخولا ، إلا أن الترف والحضارة غلبت عليهم ، فقلما تجد أحداً من هذا الجنس يتاجر أو يسافر للبلدان بقصد التجارة كعادة غيرهم من أجناس النصارى مثل الفلامنك والإنجليز والفرنسيس والجنوبين وأمثالهم ، وكذلك الحرفة التى يتداولها السقطة والرعاع وأراذل القوم يتأبى عنها هذا الجنس ، ويرى لنفسه فضيلة على غيره من الأجناس المسيحيين » [٢] .

وقد كان النبلاء والأحبار ، وأصحاب الضياع الكبيرة بوجه عام ، يعتمدون فى تعهد أراضيهم وفلاحتها ، على نشاط الموريسكيين وبراعتهم ؛ فلما وقع النفى

---

( ١ ) Lea : The Moriscos ; p. 379 - 381

( ٢ ) رحلة الوزير الغسانى المسماة « رحلة الوزير فى افتكاك الأسير » ( العرائش ١٩٤٠ ) ص ٤٤ و ٤٥ .

جمد النشاط الزراعي ، وخلت معظم الضياع من الزراع ، وأقفر كثير من القرى ، وهدمت ضياع كثيرة لخلوها من السكان ، ولاسيما في منطقة بلنسية ، واضطر النبلاء إلى استقدام العمال الزراعيين من الجزائر الشرقية ( البليار ) وأنحاء البرنيه وقطلونية ؛ ومع ذلك فقد حدث نقص ملحوظ في غلات الضياع الكبيرة ، ولم ينتفع النبلاء بما أصابوه من الاستيلاء على الأراضي التي نزعت ، وتعذر عليهم تعميرها وفلاحتها ، وحاق بهم الضيق حتى اضطر العرش إلى منح كثيرين منهم نفقات سنوية من خاصة أمواله ، هذا فضلا عما أصاب طوائف السكان الأخرى ، التي كانت تتصل بالموريكسيين في المعاملات والتبادل ، من العسر والضيق .

وكما انحط دخل الكنائس والأديار ، فكذلك خسر ديوان التحقيق شطراً كبيراً من دخله ، مما كان يصيبه من مصادرة أموال الموريسكيين والحكم عليهم بالغرامات الفادحة ، واضطرت الحكومة أن تعول كثيراً من محاكم التحقيق ، التي أوشكت على الإفلاس ، من جراء اختفاء الجماعة التي كانت تزدهر بمطاردتها واستصفاء أموالها . وقد بيعت أملاك الموريسكيين وأراضيهم بمبالغ كبيرة ، ولكن العرش استولى عليها ، ووزع معظمها على أصفيائه من الوزراء والنبلاء والأحبار ، ولم ينل ديوان التحقيق سوى جزء يسير منها .

ويقدمون مثلا لما أصاب اسبانيا من الخراب من جراء «النفي» ، هو مثل مدينة ثيوداد ريال ( المدينة الملكية )(١) عاصمة لامنشا ، فقد أسس هذه المدينة ألفونسو العالم في القرن الثالث عشر ، ومنح سكانها شروطاً حرة مغرية ، شجعت كثيراً من اليهود والمسلمين على النزوح إليها . وفي سنة ١٢٩٠م كان دافعو الضرائب فيها من اليهود (٨٨٢٨) ، فلما أخرج اليهود منها في سنة ١٤٩٢ ، حل محلهم الموريسكيون من غرناطة ، ولما أخرج منها هؤلاء مع المدجنين القدماء ، خربت المدينة وعفا رخاؤها وانحطت زراعتها ، وخربت صناعة النسيج التي أنشأها الموريسكيون فيها ، وهبط عدد سكانها في سنة ١٦٢١ إلى ٥٠٦٠ نفساً ونحو ألف أسرة فقط ، في حين أنها كانت تضم من السكان قبل « النفي » اثنتي عشرة ألف أسرة(٢) .

وكان مما ترتب على نفي الموريسكيين أيضاً ، ذيوع العملة الفضية الزائفة ، وقد تركوا وراءهم منها مقادير عظيمة ، وكانت لهم بصنعها براعة خاصة . وأحدث

---

(١) Ciudad Real

(٢) Lea : The Moriscos ; p. 372 - 384

ذيوع النقد الزائف اضطراباً شديداً فى المعاملات ، وحاولت الحكومة جمعه ، والمعاقبة على ترويجه بعقوبات رادعة بلغت حد الإعدام ، ولكنها لم تفلح فى استئصال الشر ، واستمرت هذه الحركة أعواماً طويلة ، وعمد الإسبان بدورهم إلى التزييف ، وعوقب كثير منهم أمام محاكم التحقيق والمحاكم المدنية ، وعانى التجار والمتعاملون كثيراً من الضرر والإرهاق .

ولم تمض أعوام قلائل على نفى الموريسكيين ، حتى ظهرت هذه الآثار المخربة كلها فى حياة المجتمع الإسبانى بصورة مزعجة ، وهال العرش والحكومة ما أصاب الأمة من ضروب البؤس والخراب ، وطلب رئيس الحكومة الدوق دى لبرما فى سنة ١٦١٨ ، إلى مجلس الدولة ، أن ينظر فى هذا الأمر ، ويعمل على تحقيقه ومعالجته ؛ وقدم مجلس الدولة تقريره بعد عام ، وأشير فيه إلى خراب المدن والقرى ، ولكنه لم يشر إلى نفى الموريسكيين ، وإلى تكاثر عدد رجال الدين وتزييف العملة ، وبغض الشعب للعمل الشريف ، بل حاول أن يرجع الشر إلى فداحة الضرائب ، وإلى الترف الذى تعيش فيه الطبقات الممتازة ، وإسراف الملك فى الإغداق على أصفيائه ؛ وكذلك اهتم مجلس النواب ( الكورتيس ) بالأمر وقدم عنه تقريراً إلى الملك . ومع أن التقارير الحكومية التى وضعت عن هذه المحنة ، لم تشر إلى نفى الموريسكيين كعامل أساسى فيما أصاب اسبانيا من الخراب والفقر ، فقد كان فى القرارات الملكية ما ينطق بهذه الحقيقة . ففى سنة ١٦٢٢ أصدر الملك فيليب الرابع ، قراراً بخفض الضرائب فى بلنسية يشير فيه إلى هجرة السكان ، وإلى ماخسرته المدينة من ضروب الدخل ، التى كانت تجبى على ما يستهلكه الموريسكيون ، وما خسره التجار من انقطاع التعامل معهم .

على أن جهود العرش والحكومة ، لم تجد شيئاً فى تخفيف هذه الضائقة ، التى طافت بالمجتمع الإسبانى ، وشملت سائر الطبقات سواء فى الإنتاج أو الاستهلاك . ومضى وقت طويل قبل أن تستقر الأحوال نوعاً ، وتفيق الزراعة والصناعة والتجارة من الضربة التى أصابتها .

يقول الدكتور لى : « إنه لا يمكن لفريق من السكان ، كان يعتمد عليه مدى القرون ، فى القيام بقسط عظيم من الإنتاج والتنظيمات المالية فى البلاد ، أن يمزق فجأة وينبذ ، دون أن يبث ذلك الخراب الواسع ، ويثير معتركا من المشاكل يمتد أثرها إلى أجيال مرهقة » .

ثم ينعى على السياسة الإسبانية تخبطها وقصر نظرها فيقول : « وإنه لمن خواص السياسة الإسبانية فى ذلك العصر ، أنه لم يفكر أحد فى هذه الشئون ، ولم يحتط لها أحد فى المباحثات الطويلة ، التى جرت فى قضية الموريسكيين . وقد حدثت ثمة مناقشات لا نهاية لها حول مختلف المشاريع ومزاياها ، والوسائل التى ينفذ بها النفى ، وماذا يسمح به للمنفيين ، وماذا يكون مصير الأطفال . ولكن النتائج المحتملة تركت للمصادفة ، واحتقرت التفاصيل العملية ، واحتقر رخاء الفرد ، وهو ما يوضح فشل السياسة الإسبانية »(١) .

تلك هى النتائج المادية الواضحة ، الإقتصادية والاجتماعية ، التى جنتها اسبانيا النصرانية من جراء سياستها المبيتة لإبادة الأمة الأندلسية . فقد لبثت اسبانيا زهاء قرن ، تعمل بأقسى وسائل الإرهاق والمطاردة ، على استصفاء ما بقى من فلول الأمة الأندلسية ، فى الأرض التى بسطت عليها زهاء ثمانية قرون ، ظلال الرخاء والأمن ، وضوء العلم والعرفان ، ولم تطق حتى بعد أن استحالت هذه الفلول ، إلى شراذم معذبة مهيضة ، وأكرهت على نبذ دينها ولغتها وتقاليدها ، أن تبقى عليها ، وعلى ماتبقى لها من مواهب وقوى منتجة ، ورأت فى سبيل أسطورة من التعصب والجهالة ، أن تقضى عليها بالتشريد والنفى النهائى ، وأن تخرج من بين سكانها زهاء نصف مليون من أفضل العناصر العاملة . وكان من سوء طالع اسبانيا أن جاء نفى الموريسكيين ، فى وقت أخذت فيه عظمة اسبانيا ورخاؤها ، ينحدران سراعاً إلى الحضيض ، وجنح المجتمع الإسبانى إلى حياة الدعة والخمول ، وأخذ سكانها فى التدهور ، فجاء نفى الموريسكيين ضربة جديدة لحيوية اسبانيا ، التى أخذت فى التفكك والذبول ، وتركت وراءها جرحاً عميقاً لم يقو الزمن على محو آثاره بصورة حاسمة . ومن ثم فإنه من الواضح أن يعلق النقد الحديث أهمية بالغة على نفى الموريكسيين ، ويعتبره عاملا بعيد المدى فيما أصاب اسبانيا الحديثة ، من ضروب التفكك والإنحلال .

على أن التفكير الإسبانى يختلف فى قبول هذا الرأى وتقدير مداه ؛ ويهاجمه وينكره بالأخص رجال الدين ، وقد كانوا منذ البداية روح هذه السياسة المخربة ، وأكبر العاملين على تنفيذها . وقد استقبل رجال الدين نفى الموريسكيين بأعظم مظاهر الغبطة والرضى ، واعتبروه ذروة النصر الدينى ؛ ويقول أحدهم وهو القس بليدا وهو من مؤرخى القرن الماضى ، فى كتابه الذى نشره دفاعاً عن هذا الإجراء :

---

(١) Lea : The Moriscos ; p. 387

« بأن عصر اسبانيا الذهبي بدأ بذهاب الموريسكيين ، وان اسبانيا قد حققت به وحدتها الدينية ، وأنقذت من مشاغلها الداخلية ، وأن النفي كان أعظم حادث بعد بعث المسيح ، واعتناق اسبانيا للنصرانية »[١]. ويقول حبر آخر : « لقد زعم الموريسكيون أن رخاء اسبانيا قد ذهب مذ أكرهوا على التنصير ، ولكن الرخاء قد عم بنفيهم ، وازدهرت التجارة ، وساد الأمن فى الداخل والخارج »[٢]. ويقول الحبر بثنتى دى لافونتى فى تاريخه الديني ، إنه من السخرية أن يقال إن نفي الموريسكيين كان سبباً فى انحطاط اسبانيا ، فإن أمة قد تفقد مائة وخمسين ألفاً فى وباء أو حرب أهلية . ثم يتساءل فى تهكم لماذا ينحى على فيليب الثالث بمثل هذا اللوم ؟ على أنه يعترف مع ذلك بأن النفي كان سبباً فى تدهور دخل الأشراف والكنائس[٣].

ويرى آخرون من الأحبار أن اسبانيا قد دفعت بالنفي ثمناً باهظاً ، ولكن تحملهم نزعة فلسفية فيقولون إن وفرة الرخاء تذهب بالفضائل ، وإنه لا بأس من التقشف مع الإيمان ، وإن الفقراء استطاعوا بعد إجلاء الموريكسيين أن يجدوا أعمالا[٤].

ولكن حبراً ومؤرخاً اسبانيا كبيراً ، هو دون لورنتى مؤرخ ديوان التحقيق ، يحدثنا عن وسائل الديوان ونفي الموريسكيين فى قوله : « كانت هذه الوسائل بقسوتها الشائنة ، تذكى روع الموريسكيين من تلك المحكمة الدموية ، وكانوا بدلا من التعلق بالنصرانية ، وهو ما كانت تؤدى إليه معاملتهم بشيء من الإنسانية - يزدادون مقتاً لدين لم تحملهم على اعتناقه سوى القوة ، وكان هذا سبب الإضطرابات التى أدت فى سنة ١٦٠٩ إلى نفي هذا الشعب ، وعدده يبلغ المليون يومئذ ، وهى خسارة فادحة لاسبانيا تضاف إلى خسائرها الفادحة ، ففى مائة وتسع وثلاثين سنة انتزع ديوان التحقيق من اسبانيا ثلاثة ملايين ، ما بين يهود ومسلمين وموريسكيين »[٥].

ويقول الكردينال ريشليو الفرنسى ، وهو من أعظم أحبار الكنيسة فى مذكراته وكان معاصراً للمأساة : « إنها أشد ما سجلت صحف الإنسانية جرأة ووحشية » .

* * *

(١) Bleda : Defensio fidei in Causa Neophglorum sive Morischorum in Hispania

(٢) Lea : The Moriscos ; p. 366

(٣) Lea : ibid, p. 394 & 396

(٤) Lea : ibid, p. 367

(٥) Llorente : Historia Critica de la Inquisición de Espana (1815-1817)

هذا عن الأحبار . وأما عن آراء البحث الإسبانى الحديث ، فإنها تختلف فى تقدير آثار نفى الموريسكيين اختلافاً بيناً ، بيد أنها تميل على الأغلب إلى الاعتراف بفداحة الآثار المخربة التى أصابت اسبانيا من جرائه ، وإلى اعتباره عاملا قوياً فى تدهور اسبانيا وانحلالها. بيد أنها مع ذلك تحاول الاعتذار عن النفى، ويرى البعض أنه كان إجراء طبيعياً ، وضرورة لا محيص منها ، وينكر البعض الآخر أنه كان كارثة أو أنه ترتبت عليه آثار مخربة . وقد رأينا أن نورد هنا طائفة من آراء عدة من أكابر المؤرخين والمفكرين الإسبان المحدثين ، وأن نوردها بدقة وإفاضة تسمحان بفهم الروح الإسبانية ، إزاء هذا الحدث التاريخى الخطير ، وتقديرها على حقيقتها .

يقول دانفيلا إى كوليادو :

« وهكذا تحقق نفى الموريسكيين الإسبان ، بغض النظر عن كونهم شبانا أوشيوخاً ، صالحين ، أو عقماء ، مذنبين أو أبرياء . وكانت مسألة الوحدة السياسية تحمل فى ثنيتها ضرورة الوحدة الدينية ؛ وضع خطتها الملكان الكاثوليكيان، وحاول تحقيقها الإمبراطوركارلوس الخامس (شارلكان) وفيليب الثانى ، ولكنهما ارتدا خشية من عواقبها . أما فيليب الثالث ، فكان يزاول سلطانه عن يد أصفيائه ، ولذا ألفى سلطة العرش الدينية والسياسية ، أيسر وأهون . وكانت الحرب الدينية تضطرم ضد الجنس الأندلسى ، وقد ألفت عواطف الروح الرقيقة نفسها ، وجهاً لوجه أمام المسألة السياسية . ودخلت الإنسانية والدين فى صراع وخرج الدين ظافراً وفقدت اسبانيا أنشط أبنائها ، وانتزع الأبناء من حجور أمهاتهم وحنان آبائهم ، ولم يلق الموريسكى أية رأفة أو رحمة . ولكن الوحدة الدينية بدت ساطعة رائعة فى سماء اسبانيا ، واغتبطت الأمة إذ أضحت واحدة فى جميع مشاعرها العظيمة .

«كان الموريسكيون شديدى المراس . وكان الوطن ينشد وحدة معنوية ، تغدو متممة للوحدة السياسية ، التى تحققت باندماج سائر العروش فى شبه الجزيرة ، وكان عنصر تناقض قوى ، كالذى تمثله طائفة الموريسكيين ، لا يكون فقط عقبة شديدة يصعب تذليلها ، ولكنه كان استحالة مطلقة ، تحول دون تحقيق الغاية ، التى تتجه إليها الحركة العامة للفكر القومى . وكانت الصعوبة كلها تجثم فى الدين. ولم تكن اللغة التى تبدو خاصة قومية أخرى ، تكون يومئذ أو فى أى وقت عقبة تمثل هذه الخطورة ، ففى شمال اسبانيا ، وفى شرقها ، توجد اللهجات المختلفة ، من الجليقية والقطلونية والميورقية والبلنسية وغيرها . وكذلك يوجد مثل هذا

التباين فى النظم القضائية ، والثياب والعادات الخاصة بكل منطقة ، ولكن ذلك لم يكن عقبة كأداء فى سبيل وحدة الدين ، والروح القومى ، ولم يخلق مثل المعضلة الدائمة ، التى خلقها الدين بالنسبة للموريسكيين ، والتى جعلتهم فى حالة دائمة من التربص والتوجس . إن ما بذله كارلوس الخامس وفيليب الثانى ، لإخضاع الموريسكيين للنصرانية ، مما لا يمكن وصفه ، ولكن جهودهم كلها ذهبت عبثاً . ذلك أنه بعد ثلاثة قرون من الخضوع ، لبث الموريكسيون فى عصر فيليب الثالث ، يضطرمون بنفس الروح المتمردة ، التى كانت لأسلافهم الذين أخضعوا بالسيف ، وقد ارتضوا حالتهم كمحنة موقتة عابرة ، ولم ينبذوا الأمل قط ، ولم يتركوا قط الوسائل التى يعتقدون أنها تمكنهم ذات يوم من الأخذ بالثأر ، واسترداد استقلالهم وسيادتهم » .

ثم يقول : « وإنها لخرافة أن يقال إن الموريسكيين كانوا عنصراً مفيداً فى إنتاج اسبانيا ، ولو أنهم كذلك لحملوا الرخاء إلى بلاد المغرب حيث ذهبوا »(١).

ويقول المؤرخ الكبير مودستو لافونتى ، وسنرى أنه يذهب فى الصراحة وتقدير الحقائق المنزهة إلى أبعد حد :

« وعلى أى حال فإن مراسيم فيليب الثالث الشهيرة ضد الموريسكيين ، قد جردت اسبانيا — وقد كانت يومئذ جد مقفرة من السكان بسبب الإدارة السيئة والحروب المستمرة — من طائفة كبيرة من السكان ، أو بعبارة أخرى من السكان الزراعيين والتجاريين والصناعيين ، من السكان المنتجين ، أولئك الذين يساهمون بأكبر قسط فى الضرائب . وكان أقل ما فى ذلك تسرب الملايين من الدوقيات ، التى حملتها الطائفة المنفية معها ؛ فى الوقت التى كانت فيه المملكة تعانى من قلة النقد ، فكان نقص الذهب الفجائى على هذا النحو أشد وطأة عليها . وكذلك وقع ضرر أفدح بذيوع النقد الزائف أو المنقوص ، الذى روجه المنفيون بسوء قصد قبل رحيلهم . وأسوأ ما فى ذلك كله ، هو أنه فقد برحيلهم العنصر العامل الذكى المتمرس فى الفنون النافعة . وهم قد بدأوا بالزراعة ، وزراعة السكر والقطن والحبوب ، التى كان لهم فى إنتاجها التفوق الجم ، وذلك لنظامهم المدهش فى الرى بواسطة السواقى والقنوات ، وتوزيع المياه بواسطة هذه الشرايين توزيعاً مناسباً ،

---

(١) M. Danvila y Collado : La Expulsiôn de los Moriscos Espanoles. (Madrid 1889) p. 320-22

كان له أثره فى الإنتاج العظيم الذى امتازت به مروج بلنسية وغرناطة ؛ ثم تابعوا بنسج الأصواف والحرائر ، وصنع الورق والجلود المدبوغة ، وهى صناعات برع الموريسكيون فيها أيما براعة ، وانتهوا بمزاولة الحرف الميكانيكية ، وهى حرف كان الإسبان لكسلهم وتكبرهم يحتقرونها ، ومن ثم فقد احتكرها الموريكسيون واختصوا بها . وقد عانى كل شىء من نقص فى السواعد وفى البراعة ، وهو نقص جعلت المفاجأة من المستحيل تداركه ، ثم غدا بعد ذلك ملؤه مبهظاً بطيئاً صعبا .

« ويقول نفس المؤرخ البلنسى الذى شهد النفى ، وكتب عقب إتمامه ، إنه ترتب على ذلك أن بلنسية ، وهى حديقة اسبانيا الغناء ، استحالت إلى قفر جاف موحش . وحدث هنالك كما حدث فى قشتالة ، وفى باقى البلاد ، أن بدا شبح الجوع الداهم ؛ وبالرغم من أنه قد جىء بسكان جدد إلى الأماكن التى هجرها الموريسكيون، لكى يتدربوا على العمل فى الحقول والمصانع والمعامل ، إلى جانب أولئك القلائل الذين ارتضوا البقاء ( وهو اعتراف مخجل بلاريب) . على أن مثل هذا التمرن لم يؤت نتائجه السريعة ، والتدرب والدأب ليسا من الفضائل التى ترتجل ، ولم يكن من السهل أن يعوض مثل هذا الجنس من البشر ، وهو الذى استطاع بعبقريته ، ومركزه الخاص فى البلاد ، ووفرة براعته ، وجلده ، أن يحقق ما يشبه قهر الطبيعة ، واستغلالها لسائر مبتكراته . وهكذا حل مكان ضجيج القرى ، الصمت الموحش فى الأماكن المهجورة ، وبدلا من السيل المستمر من العمال والصناع فى الطرق، حل خطر لقاء الأشرار الذين يذرعونها، ويجثمون فى أطلال القرى المهجورة . وإذا كان ثمة بعض السادة الإقطاعيين قد غنموا من تراث المنفيين ، فقد كان عدد الذين خسروا أعظم بكثير ، وبلغ الأمر بالبعض أن طلبوا نفقات للطعام . أما الذين غنموا ، فقد كانوا بلاشك هم الدوق دى ليرما وأسرته وقد استولوا على نصيب مما تحصل من بيع منازل الموريسكيين .

« ومن ثم فقد اعتبر نفى الموريسكيين من الناحية الاقتصادية ، بالنسبة إلى اسبانيا أفدح إجراء مخرب يمكن تصوره . وإنه ليمكن أن نغض الطرف عن المبالغة التى دفعت بأحد الساسة الأجانب ، وهو الكردينال ريشليو ، أن يسميه « أعرق إجراء فى الجرأة والبربرية مما عرفه التاريخ فى أى عصر سابق » والحق أن الصدع الذى أصاب ثروة اسبانيا العامة من جرائه ، كان من الفداحة بحيث أنه ليس من المبالغة أن نقول إنه لم يبرأ حتى عصرنا .

« فأما من الناحية الدينية ، فقد كان هذا الإجراء ، ثمرة الأفكار التى سادت فى اسبانيا قبل ذلك بقرون ، وثمرة البغض التقليدى المتأصل، الذى يكنه الشعب لغالبيه وأعدائه الألداء القدماء . وليس مما يمكن إنكاره ، أنه كان مؤيداً لفكرة الوحدة الدينية ، التى دأب على العمل لتحقيقها وإكمالها الملوك الإسبان والشعب الإسبانى. بيد أنا لانعتقد أنه كان من البراعة ( ما عدا اعتباره صراعاً مقرراً هو من خصائص العصور الوسطى ) أن نصل إلى الوحدة الدينية بطريق إفناء أولئك الذين يعتنقون عقائد أخرى. وقد كانت البراعة أن نعمل على اجتذاب المخالفين المعاندين ، بالتعاليم والإقناع ، والحزم ، والرفق ، وتفوق الحضارة .

وأما كونه إجراء سياسياً، قصد به إلى تحقيق سلامة الدولة وسلامها، فقد كان ممكناً أن نبرر اتخاذه لوكانت المؤامرات حقيقية وخطيرة، وكانت الخطط شنيعة ، وكانت الوسائل قوية، والخطر داهماً ، وذلك كما افترض الوزير المقرب، والأسقف ربيرا والنصحاء الآخرون . أجل لم يك ثمة شك فى أنه كانت هنالك مكاتبات وعلائق ومشاريع معادية لإسبانيا ، بين بعض الموريسكيين البلنسيين وبين المغاربة والترك ، بل بينهم وبين بعض الفرنسيين . بيد أننا لم نقتنع بأن هذه الخطط كانت من الجسامة والخطر بمثل ماكان يصورها أنصار النفى ، ولم نقتنع بأن النصارى المحدثين فى بلنسية كان لهم من القوة ما يمكن أن يثير مخاوف ذات شأن ، كما أنه لم يكن ثمة ما يثير المخاوف من جانب الموريسكيين فى أراجون وفى مرسية ، مثلما زعمت الوفود التى أتت من هذين الإقليمين ، وكذلك لم يكن الموريسكيون فى قشتالة يعرفون التآمر أو يقدرون عليه . وعلى أى حال فإنه متى ذكرنا ، أننا بعد مضى أكثر من قرن على قهر الموريسكيين وإخضاعهم لقوانين المملكة، وتفريقهم ومزجهم بالإسبان والنصارى ، لم نوفق إلى تأليفهم فى العادات والعقائد ، أو أن ندمج بقية الأمة المغلوبة فى الكتلة الكبرى للأمة الغالبة ، ولم نوفق إلى جعلهم نصارى واسبانيين ، ثم لجأنا بلا ضرورة إلى وسيلة إفناء جيل برمته ، متى ذكرنا ذلك فإنا لا نستطيع أن ننظر بعطف إلى مهارة فيليب الثالث والملوك الذين سبقوه، ولا إلى حزمهم أوسياستهم »(١) .

ويقول فلورثيو خانير ، وهو يحذر حذو لافونتى فى تقديره وتعليله ، وينقل بعض أقواله :

---

(١) Modesto Lafuente : Historia General de Espana (Madrid 1862) T. VIII, p. 211-214

« ومع ذلك ، فإنه لمصلحة الدين ، والسلام الداخلى ، وسلامة الدولة ، قد وقع الإغضاء عن المزايا التى كان يسبغها الموريكسيون على الصناعة والتجارة والزراعة ، بل وعلى ثروة الأمة الإسبانية كلها ، وذلك حينما أخرج بواسطة مراسيم فيليب الثالث ، آلاف من الصناع الموريسكيين ، يحملون معهم بذور الحضارة والحرث . وقد قال كامبومانس الشهير : « إن بدء تدهور صناعاتنا يرجع إلى سنة ١٦٠٩ ، حينما بدئ بنفى الموريسكيين . فمن ذلك الحين ، تبدأ مع خراب المصانع صيحات الأمة المتوالية ؛ وعبثاً يحاول ساستنا أن ينسبوا بؤس القرن السابع عشر ، إلى أسباب أخرى ، فهى وإن كانت جزئية ، لا يمكن أن تضارع ضربة بهذه المفاجأة ، وهى ضربة لم تستطيع الأمة حتى اليوم أن تنهض من عثارها » . ولقد أحدثت مزاولة العرب للمهن الفنية فى الإسبان أثرين سيئين ، الأول أنهم اعتبروا هذه المهن من الأمور الشائنة ، والثانى أنهم لم يتعلموا شيئاً منها حتى لا يتشبهوا بأولئك الذين يزاولونها . وهم قد بدأوا بالزراعة وزراعة السكر والقطن والحبوب ، التى كان للموريسكيين فى إنتاجها التفوق الجم ، وذلك لنظامهم المدهش فى الرى بواسطة السواقى والقنوات ، وتوزيع المياه بواسطة هذه الشرايين توزيعاً مناسباً ، كان له أثره فى الإنتاج العظيم الذى امتازت به مروج بلنسية وغرناطة الخصبة ؛ ثم تابعوا بنسج الأصواف والحرائر ، وصنع الورق والجلود المدبوغة ، وهى صناعات برع فيها الموريكسيون أيما براعة ، وانتهوا بمزاولة الحرف الميكانيكية وهى حرف كان الإسبان لكسلهم وتكبرهم يحتقرون مزاولتها ؛ ومن ثم فقد كان الموريسكيون يحتكرونها ، وقد وقع من جراء ذلك نقص فى الأيدى وفى المهارة كان من المستحيل ملؤه فى الحال ، ثم غدا بعد ذلك ملؤه مبهظاً بطيئاً صعباً . وقد بلغ النقص فى الأنفس ، وفقاً للدراسات التى قمنا بها لنتائج الحادث ، على الأقل نحو مليون . ثم يأتى بعد ذلك نقص العملة الذهبية ، بسبب الكميات الكبيرة التى حملوها معهم من الدوقيات ، وأخيراً يأتى ذيوع النقد الزائف أو ناقص الوزن ، وهو الذى ملئوا به المملكة قبل نزوحهم منها ، على أن الضرر الفادح الذى لم يعوض لسنين بعيدة ، هو بلا ريب ما أصاب الزراعة والصناعة والتجارة .

« ومن ثم ففى وسعنا أن نقول عن بلادنا بحق ، إن بلاد العرب السعيدة ، قد استحالت إلى بلاد العرب القفراء ، وعن بلنسية بوجه خاص ، إن حديقة اسبانيا الغناء قد استحالت إلى صحراء جافة مشوهة . وقد حل شبح الجوع بالاختصار

فى كل مكان ، وحل مكان المرح الصاخب للقرى العامرة ، الصمت الموحش فى الأمكنة المهجورة ؛ وبدلا من أن ترى أمامك العمال والصناع ، فإنك تغامر بأن تقابل قطاع الطرق يملؤونها ويجثمون فى أطلال القرى المهجورة . ولئن كان ثمة فريق من السادة الملاك الذين أفادوا من تراث المنفيين ، فقد كان ثمة عدد أكبر بكثير ممن خسروا ، وانتهى بعضهم إلى الموقف المؤلم ، بأن يلتمسوا من الحكومة نفقة لإطعامهم ، ولم يك بينهم أحد قط ممن غنم كما غنم الدوق دى لرما وأسرته ، وقد استولوا على جزء من أثمان بيع منازل الموريسكيين ، بلغ نحو خمسة ملايين ونصف ريال .

« وإذاً فقد كان نفى الموريسكيين من الناحية الإقتصادية ، يعتبر بالنسبة إلى اسبانيا ، أفدح إجراء مخرب يمكن تصوره . وإنه ليمكن أن نتسامح فى المبالغة التى يصفه بها سياسى أجنبى هو الكردينال ريشليو ، حيث يصفه بأنه « أعرق إجراء فى الجرأة والبربرية مما عرفه التاريخ فى أى عصر سابق » . والحق أن الصدع الذى منيت به ثروة اسبانيا العامة من جرائه ، كان من الفداحة بحيث أنه ليس من المبالغة أن نقول إنه لم يبرأ حتى يومنا »(١). بيد أن خانير مع ذلك يقول إن النفى كان ضرورة دينية وسياسية ، وإن الوحدة الدينية ، تغدو اليوم أسطع جوهرة للأمة الإسبانية .

ويعلق المؤرخ الإجتماعى بكاتوستى ، فى الفصل الذى عقده عن « بؤس اسبانيا العام » فى كتابه عن « عظمة اسبانيا وانحلالها » على نفى الموريسكيين بما يأتى :

« كان نفى الموريسكيين من أفدح المصائب التى نزلت باسبانيا . أجل لقد وجد أيام الملكين الكاثوليكيين بعض المتعصبين الذين كانوا يقترحون هذا النفى ويعملون له . ولكنهم وجدوا عقبة كأداة فى معارضة الملكة إيسابيلا . وفى سنة ١٥٢٩ ، بذل أسقف إشبيلية ، جهوداً مضاعفة فى هذا السبيل ، وكذا طوال حكم فيليب الثانى ، كان هذا الموضوع يثار من وقت إلى آخر . ولكن أمكن فقط فى عصر فيليب الثالث المحزن ، أن يرتكب هذا الخطأ الفادح .

« والمسئولية الكبرى التى تقع على عاتق هذا الملك ، وعلى نصحائه وأسلافه ، تتلخص فى أنهم لم يحموا مصالح الموريسكيين المادية ، فيمهدوا لتلك الطائفة العاملة ، سبل الحياة المستقرة الهادئة ؛ ولم يكن لهم من القوة أو الكياسة أو الحزم ما يمكنهم

(١) D. Florecio Janer : Condición Social de los Moriscos de Espana (Madrid 1875) p. 100 & 101

من إخضاع هذه الطائفة المتمردة ، التي عاشت في اسبانيا في أوقات ، كانت فيها الأحقاد في أوج اضطرامها بين الغالبين والمغلوبين ؟

« ولقد أثار الإسراف في فرض الضرائب وبخس الأعمال ، والاضطهاد الديني ، ومساوئ ديوان التحقيق ، هذه الأرواح التي قابلت حكومة ضعيفة التدبير ، حتى أنه أضحى من المحتوم أن يتخذ هذا الإجراء الشاذ المتطرف .

« إن المؤرخين والساسة الذين دافعوا عن نفي الموريسكيين ، بعضهم للدفاع عن أخطاء هذه المدرسة ، وبعضهم لكي يشيد بالعمل الرائع ، إنما يدافعون عن أمور سيئة ، أو يرغبون في أن يضعوا السياسة والسلطة فوق رأس الأمة ، وهم في تبرير مثل هذا الإجراء ، لم يراعوا إلا ضرورة الساعة . وإذا فرضنا جدلا ضرورته السياسية باسم السلام والسكينة العامة ، وهي التي اتخذت لتبرير كثير من الأخطاء ، بل وكثير من الجرائم ، فإنا لانستطيع أن ننسى أن هذا الموقف المحزن ، قد خلقته أخطاء السلطة التي واجهت تلك المشكلة القاسية ، ورأت أن تقصي الموريسكيين عن اسبانيا ، لأنها شعرت أنها عاجزة عن إخماد ثوراتهم المستمرة .

إن فقد هذه السواعد في الأعمال الزراعية ، وفي كثير من الفنون والأعمال ، والازدراء الذي كان الإسبان يضمرونه لهذه الطائفة ولنشاطها ، والسرعة التي وقعت بها هذه الخسارة ، وعدم تحوط الحكومة ، التي لم تحاول بأية وسيلة أن تعوض عن نشاطها ، وزيادة الضرائب وغيرها من المغارم ، التي أضحى عبؤها يقع فقط على عاتق الشعب الإسباني ، لكي يعوض ذلك ماخسرته الدولة مما كان يؤديه الموريكسيون : هذه ربما كانت الأسباب السريعة للبؤس العام .

ولقد قام بعض المؤرخين ببحوث مدهشة لتقدير عدد المنفيين ، ونحن لا نجاريهم في ذلك ، إذ يبدو لنا العدد أمراً لا أهمية له . وسواء أكان المنفيون كثرة أوقلة ، فقد كانوا هم الوحيدون الذين يعملون ، وقد أحدث خروجهم من المملكة اضطراباً خطيراً .

بمثل هذه العوامل ، وصل البؤس الداخلي في المملكة إلى حد لا يمكن تصوره ، ولا تمكن مقارنته ، هذا بينما كان البلاط يغرق في الحفلات الشائقة ، وينسب لفيليب الثالث ما كان يمكن صدوره من فيليب الثاني أوكارلوس الخامس »(١) .

(١) D. Felipe Picatosti : Estudios sobre la Grandeza y Decadencia de Espana. (Madrid 1887). p. 101 & 102

ويرى العلامة مننديث إى بلايو ، وهو من أعظم المفكرين ، والنقدة الإسبان المحدثين ، أن نفى الموريسكيين كان نتيجة محتومة لسير التاريخ ، ويشرح رأيه فى كتابه عن « الخوارج الإسبان » على النحو الآتى :

« ولنقل الآن رأينا فى مسألة النفى بكل وضوح وإخلاص ، وذلك بالرغم من أنه يستطيع أن يتكهن به من تتبع القصة السابقة ، بروية وبلا تحيز ، ولن أتردد فى الجهر به ، وإن كان من المؤسف أن يكون ثمة ما أخر إبداءه . فهل كان من الممكن أن يقوم الدين الإسلامى بيننا فى القرن السادس عشر؟ من الواضح أن لا ، بل ولا يمكن أن يكون ذلك الآن فى أى جزء من أوربا . فكيف يستسيغ وجوده فى تركيا أولئك الإنسانيون الأجانب الذين يصفوننا بالبربرية لأننا قمنا بإجراء النفى ؟ وإنهم لأسوأ مائة مرة من المسلمين الخلص ، مهما كان دينهم عائق لكل تمدن ، أولئك النصارى المنافقون ، والمرتدون والمارقون ، الذين لم يحسن إخضاعهم وأولئك الإسبان الأوغاد ، الأعداء الداخليون ، خميرة كل غزو أجنبى ، الجنس الذى لا يقبل الاندماج ، كما أثبتت ذلك التجارب المحزنة مدى قرن ونصف . فهل يعتبر ذلك تبريراً لأولئك الذين مزقوا عهود غرناطة ، أو لأولئك الثوار الذين أضرموا الهياج فى بلنسية ونصروا الموريسكيين بصورة منافية للدين ؟ كلا على الإطلاق . بيد أنه وقد سارت الأمور منذ البداية على هذا النحو ، فإنه لم يكن من الممكن أن تكون ثمة نتيجة أخرى ، فقد كانت الأحقاد والشكوك المتبادلة ، تضطرم باستمرار بين النصارى القدامى والمحدثين ، وقد لطخت بقاع البشرات بالدماء غير مرة ، وفقد الأمل فى تحقيق التنصير بالوسائل السلمية ، وذلك بالرغم من تسامح ديوان التحقيق ، والغيرة الطيبة التى أبداها رجال مثل تلافيرا ، وڤيلانيڤا ، وريبرا ، وإذاً فلم يك ثمة محيص من النفى . وأكرر أن فيليب الثانى قد أخطأ فى كونه لم ينفذه فى الوقت المناسب . وإنه لمن الحق أن نعتقد أن الصراع من أجل البقاء والمعارك ، والمذابح بين الأجناس ، تنتهى بصورة أخرى غير النفى أو الفناء . ذلك أن الجنس الأدنى ينهار دائماً ، ويفوز بالنصر مبدأ القومية الأقوى .

وأما إن النفى كان حدثاً مقوضاً ، فهذا ما لا ننكره ، فإنه من المقرر أنه فى العالم يمتزج الخير والشر دائماً . وخسارة مليون بأسره من الناس ، لم تكن هى السبب الأساسى فى إقفار بلادنا من السكان ، وإن كان لها أثر فى ذلك . وبعد فإن ذلك يجب ألا يعد إلا كإحدى قطرات الماء فى جانب نفى اليهود ، واستعمار أمريكا ،

والحروب الخارجية فى مائة مكان معاً ، وعدد الجند النظاميين الضخم ، وهى أسباب نوه بها كلها بإيجاز اقتصاديونا القدامى ، ومنهم من لم يتردد كالحبر فرناندث نابارتى فى نقد نفى الموريسكيين بعد وقوعه بأعوام قليلة . وما كانت بل وليست الأجزاء المقفرة من السكان فى اسبانيا ، هى التى تركها العرب ، كما أنها ليست أسوأها زراعة ، وهو مايدل على أن الخسارة التى لحقت بالزراعة ، من جراء نفى كبار الزراع المسلمين ، لم تكن عميقة أو باقية الأثر ، كما قد يتبادر إلى الذهن ، لو أننا وقفنا فقط عند عويل أولئك الذين تأملوا الحقول المجدبة غداة تنفيذ أوامر النفى . ونحن أبعد من أن نعتقد مع الشاعر الساذج الشيوعى نوعاً جسبار دى أجيلار ، أنه لم يخسر بالنفى سوى السادة الذين فقدوا أتباعهم المسلمين ، وأن الكثرة من الناس قد غنمت ، وغدا :

الأغنياء فقراء ، والفقراء أغنياء

والصغار كباراً ، والكبار صغاراً

ذلك أن مثل هذه النظريات ، وان أملاها الإخلاص والحماسة الشعبية ، اللذان يضطرم بهما الشاعر ، ليست إلا من أسخف وأضل ضروب الاقتصاد السياسى . ذلك أن مملكة بلنسية كلها كان لزاماً أن تخسر ، وقد خسرت برحيل مثل هذا العدد الجم من عمال مهرة هادئين مثابرين ، وقد كانوا حسبما يصفهم السكرتير فرنسيسكو إدياكيث « يكفون وحدهم لإحداث الخصب والرخاء فى سائر الأرض ، لبراعتهم فى الزراعة ، وقناعتهم فى الطعام » . هذا بينما يصف هذا السكرتير النصارى القدماء بقوله « إنهم قليلو الخبرة فى الزراعة » . على أنه من المحقق أنهم تعلموا ، وأن بلنسية قد عمرت فيما بعد ، وأن سائر الطرق الزراعية ونظم الرى البديعة ، التى ربما كان من الخطأ أن تنسب إلى العرب وحدهم ، قد أحييت فى هذه المناطق حتى أيامنا .

وإذا كان تدهور الزراعة مما لا ينكر ، ولعله مبالغ فيه ، فإن تأثر الصناعة كان أقل . ذلك لأن الصناعة كانت قبل ذلك بنصف قرن قد أصيبت باضمحلال واضح ، وكذلك لأن الصناعات الرئيسية ، إذا استثنينا الورق والحرير ، لم تكن فى أيدى الموريسكيين ، وقد كانوا دائماً عمالا أكثر منهم صناعاً . فإذا قيل مثلا إن المناسج التى بلغ عددها من قبل فى إشبيلية ستة عشر ألفاً ، لم يبق منها فى عهد فيليب الخامس سوى ثلاثمائة ، ونسب ذلك كله إلى واقعة النفى ، فإن أصحاب هذا

القول ينسون أنه لم يكن فى إشبيلية أحد من الموريسكيين ، وأن هذه المصانع كانت قد تركت قبل النفى بخمسين عاماً ، كأنما آثر أجدادنا أن يحققوا الثراء بالحرب فى إيطاليا وبلاد الفلاندر ، وبغزو أمريكا ، وكأنهم كانوا ينظرون باحتقار سخيف مؤسف للفنون والأعمال الصناعية . إن اكتشاف العالم الجديد ، والثروات التى كانت تتدفق من هنالك ، فتثير الجشع ، وتذكى أطماعاً يسهل تحقيقها : ذلك هو السبب الحقيقى الذى أسكت مناسجنا وأمحل زراعتنا ، وجعل منا أول طائفة من المغامرين المحظوظين ، ثم بعد ذلك شعباً من الأشراف المتسولين ، وإنه لمن المضحك أن ننسب إلى سبب واحد ، ربما كان أقل الأسباب ، ما كان نتيجة لأخطاء اقتصادية يعسر علينا أن نتبين علاقتها بالتعصب الدينى .

والخلاصة أنه متى تدبرنا المزايا والمضار ، فإننا ننظر إلى إجراء النفى العظيم ، بنفس الحماسة التى امتدحه بها لوبى دى ڤيجا وثرڤانتس ، وكل اسبانيا فى القرن السابع عشر ، باعتباره ظفراً لوحدة الجنس ووحدة الدين واللغة ، والتقاليد . أما الأضرار المادية فقد شفاها الزمن ، وقد استحال ما كان صحراء بلقع قاتمة ، إلى مهاد خصبة وحدائق غناء . وأما الذى لا يشفى ، وأما الذى يترك دائماً الأحقاد الدموية الأبدية ، فهى جرائم تشبه جرائم الوندال . ولما هدأت آثار النفى ، أضحى النفى ليس فقط إجراء محموداً ، بل كذلك إجراء ضرورياً . لم يكن ميسوراً أن تحل العقدة ، فكان لابد من قطعها ، ومثل هذه النتائج تقترن دائماً بالانقلابات المفروضة »[1] .

ويعلق العلامة الدكتور لى ، وهو من أحدث الباحثين فى هذا الموضوع على آراء المفكرين والمؤرخين الإسبان بقوله : « إذا كان نفى الموريسكيين كما يقول مننديث إى بلايو ، نتيجة محتومة لقانون تاريخى ، وإذا كان قد غدا ضرورة فى عهد فيليب الثالث ، فقد كانت ضرورة مصطنعة ، خلقها تعصب القرن السادس عشر ، وإذا كان وجود المدجنين ، منذ أيام ملوك ليون وقشتالة وأراجون فى الأراضى الإسبانية ، من الأمور المأمونة ، وذلك فى الوقت الذى كان فيه زعماء اسبانيا النصرانية يشغلون بحروب أهلية مضطرمة ، ويواجهون دول العرب والمرابطين والموحدين القوية ، وإذا كان فى وسع الملوك النصارى فى هذه العصور

(1) **M. Menendez y Pelayo : Historia de los Heterodoxes Espanoles p. 339 - 843**

المضطربة ، أن يركنوا إلى ولاء رعاياهم المسلمين أثناء الحرب ، وأن يفيدوا من نشاطهم أثناء السلم ، فإن الضرورة السياسية للوحدة الدينية ، بعد أن غدت اسبانيا دولة قوية موحدة ، وغدا المسلمون طوائف ممزقة ، لم تكن بلا ريب سوى ضرب من الخيال المغرق الذى يخلقه التعصب . وقد كان هذا التعصب ، نتيجة لتعاليم الكنيسة المستمرة ، وهى التعاليم التى اعتنقتها اسبانيا منذ غدت قوة عالمية . وما أن انحدرت اسبانيا إلى طريق التعصب ، حتى دفعه توقد المزاج الإسبانى إلى نهايته المحتومة باكتمال لا نظير له . ولما قضت غطرسة الكردينال خمنيس العنيفة ، على ثقة المسلمين فى عدالة اسبانيا وشرفها ، اتخذت الخطوة المحتومة فى طريق لم تكن له سوى نهاية واحدة ... ولقد كان الموريسكيون بالضرورة أعداء فى الداخل ، حملوا بكل وسيلة على بغض دين فرض عليهم بالقوة ، وتبلورت مثله فى الظلم والاضطهاد وفظائع ديوان التحقيق ، وكان من المستحيل فى ظل المؤثرات الدينية ، التى غلبت على السياسة الإسبانية ، أن يعامل الموريسكيون بالرفق والتسامح ، وبهما فقط يمكن العمل على إرضائهم ، وتحقيق رخائهم ، وبث محبة النصرانية فى قلوبهم . وقد كانت كل محاولة لتلطيف الموقف ، تزيده سوءاً حتى غدوا إغراء دائماً لاتصال كل عدو من الخارج ، ومثاراً دائماً لجزع السياسة الإسبانية . فلما اضمحلت قوة اسبانيا ، وفقد حكامها الثقة بالنفس ، لم يكن ثمة بد من أن يتوج قرن من الغدر والظلم ، بالنفى والإبعاد . وقلما يقدم لنا التاريخ مثلا ، كوفئت فيه السيئة بأمثالها ، وطمت كوارثه ، كذلك الذى ترتب على جهود الكردينال خمنيس بما يطبعها من تعصب مضطرم » .

ثم يقول : « على أنه مهما كان من فداحة الضربة ، فقد كان الميسور تداركها بسرعة لو أن اسبانيا كانت تملك الحيوية القوية ، التى مكنت أمماً أخرى من أن تنهض من كوارث أشد . إن انحلال اسبانيا لا يرجع فقط إلى خسارتها لجزء من السكان ، بنفى اليهود والعرب المتنصرين ، فقد كان من المستطاع أن تعوض هذه الخسارة ؛ ولكن الخطب يرجع إلى أن اليهود والعرب المتنصرين كانوا من الناحية الإقتصادية أقيم عنصر بين سكانها ، وكان نشاطهم معيناً لحياة الآخرين ، وبينما كانت أمم أوربا الأخرى تنهض وتسير إلى الأمام فى مضمار التقدم ، كانت اسبانيا وشعارها أن تضحى كل شىء فى سبيل الوحدة الدينية ، تنحدر سراعاً إلى غمر البؤس والشقاء ، وتغدو جنة للأحبار والقساوسة ، وعمال ديوان التحقيق ، تخمد

فيها كل نزعة إلى الرقى العقلى ، وتقطع فيها كل صلة مع العالم الخارجى ، ويشل فيها كل جهد يبذل فى سبيل التقدم المادى . وقد كان من العبث أن تنهمر ثروات العالم الجديد، إلى أيدى شعب لا تقل مواهبه الطبيعية عن أى شعب آخر ، وإلى أرض كانت مواردها عظيمة ، مثلما كانت حينما جعلتها براعة العرب ونشاطهم فى طليعة الأمم الأوربية ازدهاراً . ومهما كانت قيمة الخدمات التى أدتها إيسابيلا الكاثوليكية والكردينال خمنيس ، فإن السيئ فى عملهما يفوق الحسن ، لأنهما علما الأمة أن الوحدة الدينية هى أول غاية يجب تحقيقها ، وقد ضحت فى سبيل هذه الغاية برخائها المادى ورقيها العقلى »[١] .

وأخيراً يجمل الدكتور لى خلاصة بحثه المستفيض فى مأساة الموريسكيين فى هذه العبارة الموجزة القوية ؛ « إن تاريخ الموريسكيين لا يتضمن فقط مأساة تثير أبلغ عطف ، ولكنه أيضاً خلاصة لجميع الأخطاء والأهواء ، التى اتحدت لتنحدر باسبانيا فى زهاء قرن ، من عظمتها أيام شارل الخامس إلى ذلتها فى عصر كارلوس الثانى »[٢] .

ويقول العلامة سكوت : « لقد كانت نتائج هذه الجريمة التى ارتكبت ضد الحضارة ، سواء البعيد منها والمباشر ، ضربة لاسبانيا . فقد عصفت بموارد عيشها ، ودفع بها القحط إلى الخراب ، وأضحى من الضرورة أن تمد الحكومة يد الغوث إلى كثير من الأسر النبيلة ، التى أودى بثرواتها تصرف العرش الانتحارى ، وخيم الصمت والوجوم على مناطق شاسعة ، كان يغمرها الخصب الأخضر ، وظهر اللصوص والخوارج على القانون مكان الزراع والصناع ، وحل الجزاء المروع عقب مأساة لم تقدم على مثلها لحسن الطالع أية أمة أخرى ، مأساة أنزلت منذ وقوعها بالأمة التى ارتكبت فظائعها ، كل صنوف الدمار والويل حتى الجيل الأخير »[٣] .

ويمكن أن نلخص رأى النقد الإسبانى المعاصر فيما سمعته من العلامة الأستاذ مننديث پيدال ، أعظم المؤرخين والنقدة الإسبان فى عصرنا ، فقد حدثته وأنا بمدريد عن قضية الموريسكيين ونفيهم ، فأدلى إلى بالآراء الآتية :

« لا ريب أن اسبانيا قد منيت من جراء نفى الموريسكيين بخسارة مادية لأنها

(١) Dr. Lea : The Moriscos ; p. 395 - 397 & 399 - 401

(٢) Lea : The Moriscos, p V.

(٣) Scott : The Moorish Empire in Europe ; V. III. p. 328

خسرت بإخراجهم شعباً مجداً عاملا بارعاً فى الزراعة والصناعة ، ولكن الواقع أن حركة الإنقلاب البروتستانتى حملت اسبانيا على أن تتبع من جانبها سياسة كاثوليكية شديدة ، وكان من جراء ذلك أن اشتدت فى معاملة الموريسكيين ، ويمكن أن نصف هذه السياسة بأنها كانت عنيفة مغرقة .

ولم يكن نفى الموريسكيين خطوة موفقة ، وكان أيضاً من آثار الحركة الرجعية الكاثوليكية . وماكان ملك قوى مثل فيليب الثانى ليقدم على اتخاذ مثل هذه الخطوة ، ولكن ولده فيليب الثالث كان ملكاً ضعيفاً يعوزه الذكاء والحصافة . وقد غلبت السياسة الدينية والكنسية فى هذه المسألة . ويبدو خطأ هذه السياسة بالأخص من الناحية العنصرية ، فإن العلامة ربيرا يعتقد مثلا أن الموريسكيين كان نصفهم على الأقل من الإسبان الخلص الذين اعتنقوا الإسلام فى عهود مختلفة، ثم أرغموا على التنصير بعد سقوط غرناطة وصاروا موريسكيين .

ويسلم الأستاذ پيدال بأن نفى الموريسكيين كان من عوامل انحلال اسبانيا ، ولكنه يرى من المبالغة أن يقال إنه السبب الرئيسى لهذا الانحلال . ثم يقول : « الواقع أن هذه مسألة معقدة ، وأعتقد أن من أهم أسباب انحلال اسبانيا ، عنف السياسة الكنسية المناهضة لحركة الإصلاح الدينى — البروتستانتية — وهو عنف لم يقع مثله فى أى بلد أوربى آخر بل انفردت به اسبانيا والكنيسة الإسبانية » .

ويبدى دى ماريليس الذى اتخذ مؤلف كوندى أساساً لكتابه عن « تاريخ دولة المسلمين فى اسبانيا والبرتغال » حماسة فى تقدير تراث الأمة الأندلسية وما أصاب اسبانيامن جراء القضاء عليها، ويعلق فى خاتمة تاريخه على مأساة الموريسكيين فى تلك العبارات الشعرية المؤثرة :

« وهكذا اختفى من الأرض الإسبانية إلى الأبد ذلك الشعب الباسل اليقظ الذكى المستنير ، الذى أحيى بهمته وجده تلك الأراضى ، التى أسلمتها كبرياء القوط الخاملة إلى الجدب ، فدر عليها الرخاء والفيض ، واحتفر لها عديد القنوات ، ذلك الشعب الذى أحاطت شجاعته الفياضة فى السعود والشدائد معاً ، عرش الخلفاء بسياج من البأس ، والذى أقامت عبقريته بالمران والتقدم والدرس ، فى مدنه صرحاً خالداً من الأنوار ، التى كان ضوؤها المنبعث ينير أوربا ، ويبث فيها شغف العلم والعرفان ، والذى كان روحه الشهم يطبع كل أعماله بطابع لا نظير له من العظمة والنبل ، ويسبغ عليه فى نظر الخلف ، لوناً غامضاً من العظمة الخارقة ، ودهاناً سحرياً

من البطولة ، يذكرنا بعصور هومير السحرية ، ويقدم لنا فيهم أنصاف آلهة اليونان ، ولكن شيئاً لا يدوم فى هذا العالم . فإن هذا الشعب قاهر القوط ، الذى كان يبدو أنه صائر خلال القرون ، إلى أقصى الأجيال ، قد ذهب ذهاب الأشباح ؛ وعبثاً يسائل اليوم السائح الفريد ، قفار الأندلس الحزنة ، التى كان يعمرها من قبل شعب غنى منعم . ظهر العرب فجأة فى اسبانيا ، كالقبس الذى يشق عباب الهواء بضوئه ، وينشر لهبه فى جنبات الأفق ، ثم يغيض سريعاً فى عالم العدم ، ظهروا فى اسبانيا فملأوها فجأة بنشاطهم وثمار براعتهم ، وأظلها كوكب من المجد شملها من البرنيه إلى صخرة طارق ، ومن المحيط إلى شواطىء برشلونة . ولكن هوى يضطرم إلى الحرية والاستقلال ، وخلقاً متقلباً يميل إلى الخفة والمرح ، ونسيان الفضائل القديمة ، وميل نكد إلى التمرد والثورة ، يثيره دائماً خيال ملتهب ، وشهوات وأطماع عنيفة ، ونزعة إلى التغلب وغيرها ، من عوامل الاضمحلال ، قد عملت شيئاً فشيئاً ، على هدم ذلك الصرح العتيد ، الذى شاده رجال كطارق وعبد الرحمن الناصر ومحمد بن الأحمر ، وأفضت بالعرب إلى خلافات داخلية ، فلت من بأسهم وحملتهم إلى هاوية الفناء .

خرج ملايين العرب من اسبانيا ، حاملين أموالهم وفنونهم ، ثروات الدولة ، فماذا أنشأ الإسبان مكانهم ؟ لا نستطيع أن نجيب بشىء ، الا أن حزناً خالداً يغمر هذه الأرض ، التى كانت من قبل تتنفس فيها أبهج الطبائع . أن ثمة بعض الآثار المشوهة ما زالت تقوم فى هذه البقاع الموحشة ، ولكن صرخة حقيقية تدوى من أعماق هذه الأطلال الدارسة : الشرف والمجد العربى المغلوب ، والانحلال والبؤس للإسبانى الظافر » (١) .

ويقول الأستاذ لاين پول فى مقدمة كتابه عن « العرب فى اسبانيا » : « لبثت اسبانيا فى يد المسلمين ثمانية قرون ، وضوء حضارتها الزاهرة يبهر أوربا ، وازدهرت بقاعها الخصبة بمجهود الفاتحين ، وأنشئت المدائن العظيمة فى سهول الوادى الكبير ، فلم يبق ثمة ما يذكرنا بماضيها المجيد ، سوى الأسماء والأسماء فقط — وتقدمت بها الآداب والعلوم والفنون ، دون سائر الأمم الأوربية ، ولم تثمر وتكتمل زهرة العلوم

(١) De Marlès : Histoire de la Domination des Arabes et des Maures en Espagne et Portugal (redigé sur l'Histoire de M. Joseph Condé). V. III. p 404 - 406

الرياضية والفلكية والنباتية ، والتاريخ والفلسفة والتشريع ، إلا فى اسبانيا المسلمة ، فكل ما يدعو إلى عظمة أمة وسعادتها ، وكل ما يؤدى إلى رقى باهر وحضارة سامية ، فاز به مسلمو اسبانيا .

ثم ذوت عظمة اسبانيا بسقوط غرناطة . وقد سطعت لمدى قصير أشعة من ضوء الحضارة العربية ، فوق الأرض التى كان ينعشها بحرارته . ثم تضاءلت عظمة عصور فرديناند وإيسابيلا ، وشارل الخامس ، وفيليب الثانى ، وكلومبوس وكورتيس وبيثارو ، لتموت بموتها دولة عظيمة . ثم خفقت أعلام الخراب بسيادة ديوان التحقيق وسادت اسبانيا بعد ذلك ظلمة خالكة ؛ فأصبح لا يعرف الأطباء بأرض كانت علومها منيرة إلا بالجهل والقصور ... وقضى على فنون إشبيلية وطليطلة وألمرية وعفت صناعاتها ، وسحقت المعاهد العامة حتى تزول بزوالها آثار الإسلام ، وخربت المدائن الكبيرة ، وذوت نضرة الوديان الخصبة ، فحل البؤساء والدهماء واللصوص مكان الطلاب والتجار والفرسان : ذلك مبلغ انحطاط اسبانيا بعد إقصائها للعرب ، وهكذا يبدو البون شاسعاً بين أدوار تاريخها »[1].

---

(1) Lane-Poole : The Moors in Spain

# الكتاب الخامس

# نظم الحكم

## والحياة الاجتماعية والفكرية في مملكة غرناطة

# الفصل الأول

## نظم الحكم فى مملكة غرناطة

### وخواصها الإجتماعية

مكانة الحضارة الأندلسية . ذويها عقب انهيار الخلافة . انتعاشها أيام الطوائف . ركودها أيام المرابطين وانتعاشها أيام الموحدين . بنو زهر . ابن ميمون وابن رشد . الإضطهاد الفكرى أيام الموحدين . الآداب والفنون فى هذا العهد . مملكة غرناطة وخواصها الطبيعية . دولة بنى الأحمر أو الدولة النصرية . شعارها الحكم المطلق . الوزراء الطغاة . أخطار هذا النظام . حمية الشعب الغرناطى . مناصب الحكم الرئيسية . الوزارة . خواصها ومهامها . قيادة الجيوش . الجيش والأسطول . قاضى الجماعة أو قاضى القضاة . الحسبة . صاحب الشرطة . إقليم غرناطة ومواردها . تقدم الرى والزراعة . غرس الحدائق . بسائط غرناطة . الصناعات الأندلسية . التجارة الخارجية . الموارد السلطانية . الضرائب . تكوين الأمة الأندلسية . أحوال المجتمع الأندلسى . الفروسة الأندلسية .

تعرض لنا الحضارة الأندلسية ، صفحة من أجمل وأروع صحف الحضارة الإسلامية ، والحضارة الإنسانية ، بصفة عامة . وقد نشأت حضارة الإسلام فى الأندلس فى بيئة وظروف خاصة ، واكتسبت بفعل المؤثرات التاريخية والإقليمية والاجتماعية ، لونها الخاص ومميزاتها الخاصة .

وتحتل قصة الحضارة الأندلسية ، فى تاريخ الحضارات الأوربية مكانة رفيعة ، وتملأ فراغاً كبيراً . ولكنها لم تنل مع الأسف مكانها من الرعاية والدرس فى المصادر الإسلامية ، ولم تكتب حتى اليوم كتابة شافية . وأغلب ما كتب عنها فى مصادرنا ، شذور ونبذ متفرقة غير متناسقة ، وتراجم لأعلام التفكير والأدب لم يعن فيها بدراسة الجوانب الهامة . وإنه لمن الإسراف أن نقول ، إننا نستطيع أن نستعرض هذه القصة الباهرة المتعددة النواحى ، فى فصل أو فصول ، من سفر يخصص لكتابة تاريخ المراحل الأخيرة ، من حياة الأمة الأندلسية . على أننا سوف نحاول مع ذلك أن نستعرض صور الحضارة الأندلسية فى ظل مملكة غرناطة ، استكمالا لموضوعنا ، وأن نلقى بذلك شيئاً من الضياء على النظم والأحوال ، التى عاشت فى ظلها الأمة الأندلسية فى مراحلها الأخيرة ، وما انتهت إليه فى ميدان التفكير والآداب والفنون .

وكما أن مصادرنا الإسلامية فى هذا القسم من تاريخ الأندلس قليلة ضنينة، فهى كذلك بالنسبة لصور الحضارة الأندلسية ، وقد هلكت معظم الآثار والوثائق الأندلسية المتعلقة بهذا العصر ، كما رأينا على يد الإسبان ، ولم يسعفنا فى ذلك سوى بعض الآثار القليلة الباقية ، التى نجت من المحنة ، ولاسيما آثار ابن الخطيب ، وما نقله إلينا المقرى عن آثار ووثائق ضاعت ، وكان له فضل إيصالها إلينا .

* * *

وإذا كان تاريخ الأندلس السياسى ، يقدم إلينا صوره المتباينة، من الإضطرام والركود ، والقوة والضعف ، فكذا شأن الحضارة الأندلسية . فقد وصلت فى ظل الخلافة الأموية فى عهد عبد الرحمن الناصر وولده الحكم المستنصر ، حينما وصلت الدولة الإسلامية إلى أوج سلطانها السياسى ، إلى ذروة القوة والبهاء ، وإن لم تصل يومئذ إلى ذروة نضجها الفكرى . ولما انهارت الخلافة الأموية ، واضمحلت النظم السياسية والاجتماعية ، وسادت الثورة والفوضى أرجاء الأندلس، وهلكت معظم الآثار العمرانية والفكرية فى غمر الفتنة ، ذوت الحضارة الأندلسية مدى حين، حتى قامت دول الطوائف فوق أنقاض الدولة الأموية ، واستطاعت بالرغم من صغرها ، وتنافسها وتطاحنها فى ميدان الحرب، أن تعيد لمحة من بهاء الدولة الإسلامية ، وسطعت آيات الحضارة الأندلسية فى قصورها ومنشآتها ، وفى مجتمعاتها ، وأينعت فى ظلها دولة التفكير والأدب ، وعرفت الأندلس فى هذه الحقبة المضطربة من تاريخها ، طائفة من أعظم مفكريها وأدبائها وشعرائها ، مثل الفيلسوف ابن حزم المتوفى سنة ٤٥٦ هـ ( ١٠٦٤ م ) وابن حيان أعظم مؤرخى الأندلس ، وقد توفى سنة ٤٦٩ هـ ( ١٠٧٦ م ) ، وتلميذه الحميدى المتوفى سنة ٤٨٨ هـ ( ١٠٩٥ م ) . ومن الأدباء والشعراء ، ابن زيدون المتوفى سنة ٤٦٢هـ ( ١٠٦٩ م ) ، وابن عبدون المتوفى سنة ٥٢٠هـ ( ١١٢٦م ) وعشرات آخرين من الكتاب والشعراء ، يقدمهم إلينا الفتح بن خاقان فى مؤلفه « قلائد العقيان » . بل لقد كان ملوك الطوائف أنفسهم فى طليعة العلماء والأدباء والشعراء، مثل الأمير العالم عمر بن الأفطس صاحب بطليوس ، والشاعرين الكبيرين ، المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية ، والمعتصم بن صمادح صاحب ألمرية[1] . ولكن

(١) توفى ابن الأفطس قتيلا بيد المرابطن سنة ٤٨٨ هـ ؛ وتوفى ابن عباد فى الأسر بالمغرب فى شوال سنة ٤٨٨ هـ ؛ وتوفى المعتصم بن صمادح فى سنة ٤٨٤ هـ .

سرعان ما انكمشت هذه النهضة الفكرية والأدبية الزاهرة ، عقب مصرع دول الطوائف ، واستيلاء المرابطين على الأندلس فى سنة ٤٨٤ هـ ( ١٩٠١ م ) . وكان أولئك البربر الصحراويون قوماً غلاظاً ، يؤثرون مهاد الجندية والخشونة ، وتغلب عليهم الأفكار الرجعية العتيقة ، لم تأخذهم مظاهر الحضارة الأندلسية المصقولة ، ولم تكن — إذا استثنينا العلوم الدينية — تهزهم أصداء الشعر والآداب الرفيعة ، اللهم إلا ماكان من حشدهم لبعض أكابر الكتاب الأندلسيين فى البلاط المرابطى ، ليكونوا ترجمانا للدولة . وحتى العلوم الدينية كانت تدرس فى ظلهم فى إطار خاص يغلب فيه علم الفروع على الأصول ، ومن ثم فقد طوردت فى ظلهم — فضلا عن الكتب الفلسفية والعلمية — كتب الأصول المشرقية ، وفى مقدمتها كتب الغزالى . وترتب على ذلك أن ركدت فى ظلهم دولة التفكير والأدب وذوى بهاء الحضارة الأندلسية . أجل ، سطعت فى ظل دولتهم القصيرة الأمد ، فى ميدان التفكير الأندلسى ، جمهرة من الشخصيات اللامعة من حفاظ وكتاب وشعراء ، وعلماء ، مثل الحافظ ابن الحد الفهرى المتوفى سنة ٥١٥ هـ ( ١١٢١م ) ، وأبو عبد الله بن أبى الخصال المتوفى سنة ٥٤٠هـ ( ١١٤٥م ) ، وأبو بكر الصيرفى المتوفى سنة ٥٧٠ هـ ( ١١٧٤ م ) . وأبو بكر الطرطوشى الفيلسوف السياسى المتوفى سنة ٥٢٠ هـ ( ١١٢٦ م ) ، صاحب كتاب « سراج الملوك » ، والفتح ابن خاقان المتوفى سنة ٥٣٥ هـ ( ١١٤٠ م ) ، وابن بسام الشنتريني صاحب « الذخيرة » المتوفى سنة ٥٤٢ هـ ( ١١٤٧م ) ، وابن قزمان أمير الزجل الأندلسى المتوفى سنة ٥٥٥ هـ ( ١١٦٠م ) ، ومن العلماء أبو القاسم خلف بن عباس القرطبى الطبيب الأشهر المتوفى سنة ٥١٩ هـ ( ١١٢٢م ) ، وابن باجة الطبيب الفيلسوف المتوفى سنة ٥٣٣ هـ ( ١١٣٨ م ) — وهو المعروف باللاتينية باسم Avempace . ولكن ظهور هؤلاء وأضرابهم فى هذه الفترة ، لم يكن إلا أثراً من آثار النهضة الفكرية والأدبية فى ظل دول الطوائف (١) .

وفى ظل دولة الموحدين ، التى خلفت دولة المرابطين فى حكم الأندلس ، انتعشت الحضارة الأندلسية والتفكير الأندلسى . وقد نشأ الموحدون كالمرابطين فى مهاد الخشونة والتقشف ، ولكنهم كانوا أوسع أفقاً ، وأكثر قبولا لثمار التمدن .

---

( ١ ) تناولنا سير الحركة الفكرية الأندلسية خلال العهد المرابطى بتفصيل واف فى كتابنا « عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس » ( القسم الأول ) ص ٤٣٨ — ٤٧٤ .

وكان لدولتهم بالأخص صبغة علمية دينية ، إذ كان موئسسها المهدى ابن تومرت ، من أئمة التفكير الدينى . وأبدى خلفاؤه عبد المؤمن وبنوه اهتماماً بالعلوم والفنون ، وأطلقت حرية التفكير والبحث ، وكانت قد صفدت فى عهد المرابطين ، وأفرج عن كتب الغزالى وغيره من مفكرى المشرق ، وكانت قد طوردت ومنعت فى أيامهم بالمغرب والأندلس . وفى تلك الفترة بالذات أعنى فى أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع الهجرى ، بلغ التفكير الأندلسى ذروة النضج ، وتفجرت ينابيع النبوغ ، وظهرت طائفة من أعظم أقطاب العلم والأدب . وكان فى طليعة أقطاب العلم فى هذا العصر ، بنو زهر الإشبيليون ، وعميدهم الوزير والطبيب الأشهر أبو العلاء زهر ابن عبد الملك بن زهر ، ثم ولده أبو مروان عبد الملك بن زهر المتوفى سنة ٥٥٧ هـ ( ١١٦١ م ) ، وهو المعروف باللاتينية باسم Avenzoar . ويعتبر ابن زهر أعظم طبيب ومشخص فى العصور الوسطى بعد أبى بكر الرازى ، ويعتبره ابن رشد أعظم طبيب بعد جالينوس ، ويعتبر كتابه « التيسير » من أعظم مراجع الطب فى العصور الوسطى ، وكان لموءلفاته التى ترجمت كغيرها إلى اللاتينية فى عصر مبكر ، أثر عظيم فى سير البحوث الطبية فى أوربا ، وخلفه فى مهنته ولده الطبيب الأشهر أبو بكر بن زهر ، وحظى لدى حكومة الموحدين ، وتوفى سنة ٥٩٥ هـ ( ١١٩٨ م ) . وظهر إلى جانب هؤلاء عدة من أقطاب الفلاسفة ، مثل أبى بكر ابن طفيل الوادى آشى ، المتوفى سنة ٥٨١ هـ ( ١١٨٥م ) ، وهو صاحب رسالة حى بن يقظان الشهيرة ، والإمام الفيلسوف أبى الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبى ، المتوفى سنة ٥٩٤ هـ ( ١١٩٨م ) . والرئيس موسى بن ميمون اليهودى القرطبى ، المتوفى سنة ٦٠٢ هـ ( ١٢٠٥ م ) .

وفى حياة ابن ميمون وابن رشد بالأخص ، ما يمثل لنا طرفاً من سياسة الموحدين تجاه التفكير ، وترددها بين التسامح والاضطهاد . فقد كان ابن ميمون من أعظم الأطباء والفلاسفة فى عصره ، ولكنه اضطهد ليهوديته خلال الإضطهاد العام ، الذى لقيه اليهود فى ظل عبد المؤمن خليفة الموحدين ، فغادر الأندلس إلى المشرق ، ونزل بمصر وخدم بلاطها ، وعين طبيباً خاصاً للسلطان صلاح الدين ، وندب للتدريس بالقاهرة . وقد كان ابن رشد بلا ريب أعظم فلاسفة الإسلام ومفكريه فى ذلك العصر ، ولد بقرطبة سنة ٥٢٠هـ (١١٢٦م) واتصل منذ فتوته بأبى يوسف يعقوب ابن عبد المؤمن ، المشرف على شئون الأندلس ، وكان الأمير مثل أبيه يجمع حوله

أعلام المفكرين والعلماء؛ وبرع ابن رشد فى الفقه والطب والفلسفة ، وتولى قضاء إشبيلية فى سنة ٥٦٥ هـ ، ثم ولى قضاء قرطبة ، واستمر زهاء خمسة وعشرين عاماً ، يتقلب فى مناصب القضاء والإدارة ، فى ظل حكومة الموحدين بالأندلس والمغرب ، وتولى أثناء ذلك منصب الطبيب الخاص للخليفة أبى يعقوب يوسف ، ثم لولده الخليفة يعقوب المنصور بعد وفاته . واتهمه بعض خصومه بالزندقة والخروج على شريعة الإسلام ، فأمر الخليفة المنصور بنفيه إلى بلدة اليسّانة على مقربة من غرناطة ، وفرضت عليه رقابة شديدة ، ثم عفا عنه واستَرد مكانته فى أواخر حياته ، واستدعى ثانية إلى مراكش ، وهنالك توفى بعد قليل فى سنة ٥٩٥ هـ ( ١١٩٨م) . وأعظم آثار ابن رشد هو شروحه لفلسفة أرسطو ، فى المنطق وما وراء الطبيعة ، وقد ترجمت إلى اللاتينية منذ القرن الثالث عشر ، وكانت مفتاح الدراسات الأرسطوطالية فى العصور الوسطى . وقد كان يغمرها الغموض والحلك ، قبل أن يتصدى ابن رشد لشرحها . وغدت شروح ابن رشد فى الوقت نفسه أساساً لكثير من المباحث الفلسفية ، التى ازدهرت أيام حركة الإحياء الأوربى . بل يرى مؤرخو الفلسفة ، أن الفلسفة الجدلية الأوربية استمدت من العرب والفلسفة العربية ، أكثر مما استمدت من قسطنطينية التى كانت مستودعاً لتراث الفلسفة اليونانية . وكتب ابن رشد فى الطب مؤلفه « الكليات » وهو من أهم الآثار الطبية فى العصور الوسطى ، وقد ترجم إلى اللاتينية وغيرها من اللغات الأوربية منذ القرن الثالث عشر . ولابن رشد طائفة كثيرة أخرى من الرسائل والبحوث الفلسفية والكلامية .

وكانت الفلسفة على الأغلب علماً خطراً فى ظل حكومة الموحدين ، وقد رأيت ماكان من اضطهاد ابن رشد ونفيه بسبب آرائه الفلسفية ، وقد كان من ضحايا هذا الإضطهاد ، فى هذا العصر ، مفكر أندلسى آخر هو ابن حبيب الإشبيلى ، الذى اتهم بالزندقة بسبب آرائه الفلسفية ، أيام المأمون بن المنصور ، وقتل لهذا السبب[1] . وهكذا كانت الفلسفة أيام الموحدين قرينة الإلحاد والزندقة ، وكانت خطراً يجتنبه كثير من مفكرى العصر .

وظهر فى تلك الفترة ، إلى جانب هؤلاء العلماء ، جمهرة من أقطاب الرواية والأدب ، مثل أبى القاسم خلف بن بشكوال القرطبى المتوفى سنة ٥٧٨ هـ ( ١١٨٣ م ) ، وهو مؤلف كتاب الصلة الذى ذيل به على كتاب علماء الأندلس

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ١٣٨ .

لابن الفرضى[1] وابن بدرون الإشبيلى المتوفى فى فاتحة القرن السابع ، وهو شارح قصيدة ابن عبدون الشهيرة فى رثاء بنى الأفطس ، وابن الصابونى الصدفى الإشبيلى الشاعر ، المتوفى فى سنة ٦٠٤ هـ (١٢٠٧ م) ، وقد قال ابن الأبار فى حقه « ذهبت الآداب بذهابه ، وختمت الأندلس شعراءها » .

وازدهرت المعاهد العلمية أيام الموحدين بالمغرب والأندلس ، وكانت المعاهد الأندلسية فى إشبيلية وقرطبة وغرناطة وبلنسية ومرسية ، يومئذ مجمع العلوم والمعارف الرفيعة فى تلك العصور ، وكانت مقصد الطلاب من كل فج ، وكانت مزودة بالمكتبات التى تضم أنفس الكتب والمصنفات ، فى مختلف العولم والفنون[2]

وعنى الموحدون أيضاً برعاية الفنون ، وأقيمت فى عهدهم فى معظم قواعد الأندلس ، طائفة من المساجد والصروح العظيمة ، التى تمتاز بجمالها الفنى . وكان يعقوب المنصور حفيد عبد المؤمن ، من أشدهم شغفاً بالمنشآت الفخمة ، ومن آثاره الشهيرة بالأندلس مسجد إشبيلية الجامع ومنارته العظيمة التى بقيت إلى اليوم وحولها الإسبان إلى برج الأجراس لكنيسة إشبيلية العظمى التى بنيت مكان الجامع ، وهى من أروع الآثار الأندلسية الباقية ، ويطلق عليها الإسبان اسم « لاخيرالدا » La Giralda

وكذلك تقدمت الزراعة والصناعة والتجارة فى عهد الموحدين ، وازدهرت الزراعة بنوع خاص ، وارتقت أساليبها الفنية ، وتنوعت المحاصيل وانتشرت زراعة الفاكهة ، فى أحواز بلنسية وإشبيلية ، وتقدمت الصناعات الحربية والمدنية ، ولاسيما صناعة الأقمشة الممتازة ، والصناعات الجلدية ، وصناعة الورق وغيرها . وازدهرت التجارة وعم الرخاء . وكانت ثغور الأندلس مثل بلنسية ودانية وإشبيلية وألمرية ومالقة ، من أعظم مراكز التجارة الخارجية فى هذا العصر .

ولما اضمحل شأن الموحدين ، وضعف أمرهم بالمغرب والأندلس ، فى أوائل القرن السابع الهجرى ، واجتاحت الثورة معظم القواعد والثغور الأندلسية ، ونهض المتغلبون يتنافسون فى اجتناب أسلاب الدولة الذاهبة ، شعرت اسبانيا النصرانية بدنو الفرصة السانحة ، لاقتطاع ما يمكن اقتطاعه من أطراف الأندلس الممزقة .

(١) وقد نشر ضمن المكتبة الأندلسية فى مجلدين طبع مدريد فى سنة ١٨٨٣ .

(٢) تناولنا سير الحركة الفكرية الأندلسية فى عصر الموحدين بتفصيل واف فى كتابنا « عصر المرابطين والموحدين » (القسم الثانى) ص ٦٤٤ — ٧٢٦ .

وبدأت قواعد الأندلس التالدة ، تسقط تباعاً فى يد النصارى . وشغلت الأندلس بمحنتها الغامرة ، وانصرفت إلى متابعة الجهاد ، ومدافعة المغيرين عليها بكل ما وسعت ، فانكمشت فنون السلم ، وتضاءلت دولة التفكير والأدب ، وإن كانت المحنة قد أذكت لوعة الشعر ، وبعثت إلينا بطائفة جمة من أروع المراثى ، التى ما زالت تحتفظ إلى يومنا بكثير من قوتها وروعتها .

— ٢ —

وانجلت الفتن الداخلية ، وانجلى الصراع بين اسبانيا المسلمة واسبانيا النصرانية بعد نحو ثلث قرن ، عن سقوط معظم القواعد الأندلسية التالدة ، مثل قرطبة وإشبيلية وبلنسية ومرسية وجيان وغيرها ، فى أيدى النصارى ، وانكمشت رقعة الأندلس تباعاً ، وانحصرت فى الركن الجنوبى الغربى للمملكة الإسلامية القديمة ، فى مملكة غرناطة الصغيرة ، التى برزت من غمر الفوضى ، واستقرت فى رقعتها المتواضعة ، بين نهر الوادى الكبير والبحر ، وهرعت إليها معظم الأسر الأندلسية القديمة ، التى أبت التدجن والبقاء فى ظل حكم النصارى ؛ ولم يمض سوى قليل ، حتى غدت مستودع تراث الأندلس القومى والسياسى ، ومستودع الحضارة الأندلسية والتفكير الأندلسى .

وكانت مملكة غرناطة ، بالرغم من صغرها وانكماش رقعتها ، تضم ثروات عظيمة من الموارد الطبيعية ، فإلى جانب وديانها الخصبة النضرة التى تغص بالبسائط الخضراء والجنات الفيحاء ، والتى تجود بها الحبوب والكروم والزيتون والفواكه وغيرها ، توجد الجبال الوعرة تخترقها من كل صوب ، وبها الكثير من الثروات المعدنية ، ومن بينها الذهب والفضة والرصاص والحديد [1] . وتفيض الأنهار والنهيرات العديدة على بسائطها الماء الغزير . وكانت ثغورها وهى ثغور الأندلس الجنوبية ، ولاسيما مالقة وألمرية ، من أغنى الثغور الإسبانية وأزخرها بالحركة التجارية ، وكانت ولاية غرناطة وحدها تضم من البلاد والقرى العامرة نيفاً ومائة بلدة وقرية ذكرها لنا ابن الخطيب ، وقد دثر الكثير منها اليوم [2]. أما غرناطة عاصمة المملكة ، فقد غدت عقب سقوط القواعد الأندلسية الأخرى فى يد النصارى ، أعظم القواعد الأندلسية الباقية ، وأغناها وأكثرها ازدحاماً بالسكان . وكانت بحمرائها المطلة عليها من ربوتها المنيعة ، وشوارعها الزاخرة ، وميادينها الفسيحة ، وقصورها

(١) الإحاطة فى أخبار غرناطة ( القاهرة ١٩٥٦ ) ج ١ ص ١٠٤ .

(٢) الإحاطة ، ج ١ ص ١٣٣ — ١٣٨ .

البديعة ، وحدائقها ومتنزهاتها اليانعة ، من أجمل مدن العصور الوسطى . وكانت غاية فى الحصانة ، سواء بموقعها الطبيعى ، أو بأسوارها الكثيفة ، التى يتخللها ألف وثلاثمائة برج منيع ، وكانت تضم فى أيامها الزاهرة من السكان مع أرباضها وضواحيها زهاء نصف مليون من الأنفس ، وذلك بما تقاطر عليها من سيل المهاجرين من المدن الأندلسية الأخرى. وكان بوسع العاصمة وقت الحرب ، أن تعبىء وحدها زهاء خمسين ألف مقاتل ، وكانت أبهاء قصر الحمراء تتسع وحدها لأربعين ألف رجل(١) .

وقد رأينا كيف نشأت مملكة غرناطة ، على يد رجل ذى عبقرية هادئة ، ولكن واسعة الأفق ، هو محمد بن الأحمر ، زعيم بنى نصر ، وكيف استمر أعقابه يتوارثون عرش غرناطة أكثر من قرنين ، حتى سقطت فى أيدى النصارى. وتسمى دولتهم بالدولة النصرية أودولة بنى الأحمر ، وقد تسمى زعيمهم ومؤسس دولتهم بأمير المسلمين ، وهو اللقب الذى كان يتسم به ملوك العدوة ( المغرب ) فى تلك العصور ، وغلب هذا اللقب على سلاطين غرناطة حتى نهاية دولتهم ، وكان يقرن فى أحيان كثيرة بلقب « الغالب بالله » .

وكان ملوك بنى نصر ، كسائر ملوك العصور الوسطى ، يدينون بمبدأ الحكم المطلق ، ولايرون له بديلا . على أنه فى وقت الخطر العام والأحداث الخطيرة ، كان السلطان يستعين برأى الزعماء والقادة ذوى العصبية والتوجيه . وكان السلطان يستأثر بكل سلطة حقيقية ، ويباشر مهام الأمور بنفسه ، إلا فى فترات قليلة يستأثر بالسلطة فيها وزير قوى ، كما حدث فى عهد السلطان أبى عبد الله محمد الملقب بالمخلوع ( ٧٠١ — ٧٠٨ هـ ) ، حيث استأثر بالحكم وزيره أبوعبد الله ابن الحكيم اللخمى . وعهد السلطان أبى عبد الله محمد بن اسماعيل ( ٧٢٥ — ٧٣٣ هـ ) ، حيث استبد بالحكم دونه وزيره ابن المحروق ، وعهد أخيه السلطان أبى الحجاج يوسف (٧٣٣ — ٧٥٥ هـ ) حيث استبد بالحكم الحاجب أبو النعيم رضوان ، ثم فى عهد السلطان الغنى بالله (٧٥٥ — ٧٩٣هـ ) حيث استبد بالحكم حيناً وزيره ابن الخطيب . وكان نظام الطغيان الذى يفرضه الوزير المتغلب ، ينتهى فى كل مرة بانقلاب عنيف ، ويستعيد السلطان سلطته الحقيقية ، فى غمرة من الحوادث الدموية .

وكان هذا النظام المطلق الذى يسود حكومة غرناطة، يؤدى إلى نشوب الثورة

(١) Prescott: (Cit, Zurita): Ferdinand and Isabella; p. 189

فى أحيان كثيرة ، ويذكى من عواملها فى الوقت نفسه ، تطاحن الأحزاب فى البلاط والجيش . وكان هذا النظام يتطور أحياناً فى ظل الملوك الضعاف إلى نوع من الإقطاع ، ويستأثر بعض الزعماء الأقوياء والأسر ذات العصبية ، بحكم المدن والثغور وكان الشعب الغرناطى سريع التقلب والغضب ، يأخذ فى الثورات والإنقلابات السياسية بأعظم قسط .

وكانت مناصب الحكم الرئيسية فى حكومة غرناطة ، تنحصر فى الوزارة وقيادة الجيوش والقضاء . فأما الوزارة فكانت تسند غالباً إلى أحد الأعلام من رجال القلم ، وبين وزراء الدولة النصرية ثبت حافل من هؤلاء ، مثل ابن الحكيم اللخمى ، وابن الجياب ، وابن الخطيب ، وتلميذه ابن زمرك ، وكلهم من أقطاب الكتابة والشعر . وكانت مهام الوزارة تتلخص فى أن يتلقى الوزير أوامر السلطان ، ويعمل على تنفيذها ، ويقوم بتوزيع مختلف الأعمال على أرباب المناصب ، ويعنى بتحرير المكاتبات السلطانية ، وصياغة المراسيم ، وكان أكابر الكتاب من الوزراء يجدون فى هذه المهمة بالذات مجالا لعرض براعتهم النثرية والتحريرية . ولدينا فى مختلف الرسائل التى تركها لنا ابن الخطيب أروع نماذج للرسائل السلطانية التى تمتاز بأسلوبها العالى ، وبيانها القوى[1] ، وكان الوزير فى بعض الأحيان يقوم بقيادة الجيش ، ويسير على رأسه للغزو ، كما حدث أيام الحاجب رضوان ، وأحياناً يتولى الوزير مهام السلطنة فى غياب السلطان ، كما حدث أيام ابن الخطيب ، حيث كان ينوب عن السلطان حين تغيبه فى الغزو . وقد أسبغ على ابن الخطيب أيام وزارته لقب « ذى الوزارتين » ، وهو لقب لم يحمله فى ظل الدولة النصرية سواه وابن الحكيم الرندى وزير السلطان محمد المخلوع ، ويترتب عليه أن يتمتع الوزير بمقام الرياسة العليا ويغدو فى مرتبة « الحاجب » ، ويتناول ضعف مخصصاته . ولم يحمل من وزراء الدولة النصرية لقب الحاجب سوى الحاجب رضوان ، وزير السلطان يوسف أبى الحجاج .

وكان الوزير يستعين بطائفة من « الكتاب » لتنفيذ مختلف المهام . وللسلطان كاتب سر أو أمين خاص . وكثيراً ما يرتقى « الكاتب » إلى منصب الوزير . والخلاصة أن الوزير كان رأس السلطة التنفيذية الحقيقية ، وهو الذى يشرف سواء

---

(١) وقد أورد ابن الخطيب عدداً كبيراً منها فى كتابه ، « ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب » وهو ما يزال مخطوطاً .

بطريقة مباشرة أو بتوجيه سلطانه القوى ، على تصريف شئون المملكة ، وتوجيه سياستها الداخلية والخارجية .

وأما قيادة الجيوش ، فكانت أهم المناصب فى دولة تواجه إغارة العدو على أراضيها باستمرار . وكان يختص بهذا المنصب الخطير ، منذ أواخر القرن السابع الهجرى أسرة بنى العلاء ، أحد بطون بنى مرين ملوك العدوة، وكان توليهم لقيادة الجيوش الأندلسية، نتيجة للتحالف التى توثقت أواصره بين بنى الأحمر وبنى مرين عصراً[1]. وقد اشتهر أولئك القواد المغاربة بالبراعة والشجاعة، وكانت لهم فى ميادين الحرب والجهاد مواقف مشهورة . وكان المتولى لمنصب القيادة العامة يلقب بشيخ الغزاة ، وكانت الجنود المغربية عنصراً بارزاً فى الجيش الأندلسى ، وقد تخلفت بالأندلس منذ أيام المرابطين والموحدين جموع كثيرة من البربر[2]. وكانوا لبداوتهم وخشونتهم يؤثرون الحياة العسكرية على الحياة المدنية ، وقد زاد عددهم بالأخص أيام عبور الجيوش المرينية إلى الأندلس . وبالرغم مما أداه القواد والجند المغاربة لمملكة غرناطة ، من الخدمات الجليلة فى ميدان الحرب، فقد كانوا أحياناً خطراً على النظام والعرش ، وكان لبنى العلاء شيوخ الغزاة أطماع سياسية ، ظهرت خطورتها فى بعض الثورات والإنقلابات العنيفة .

وقد كانت قوة غرناطة العسكرية ، فى الواقع عماد حياتها ، التى استطالت أكثر من قرنين ، وذلك بالرغم من القوى الجرارة المعادية ، التى لبثت باستمرار ترهقها ، وتستنفد مواردها . وكان الجيش الأندلسى ، فضلا عما كان يزخر به من العناصر المجاهدة الباسلة ، من البربر وجند البشرّات وغيرها ، من المناطق الجبلية ، يتمتع بكثير من المزايا البارزة، فكان يضم فرقاً من أبرع الرماة ، وكان بالأخص يتفوق بفرق الفرسان، التى اشتهرت فى تلك العصور ببراعتها التى لاتبارى. وإلى جانب ذلك كانت الطبيعة تحبو غرناطة برعايتها ، وتساعدها التلال المرتفعة والمفاوز الوعرة ، التى تتخللها فى كل ناحية ، على شدة المقاومة ، وإتقان حرب العصابات التى ترهق الجيوش المنظمة . وكانت القواعد الأندلسية، من جراء الحروب المتواصلة ، قد حولت جميعها إلى قلاع منيعة ، وشيدت الحصون القوية فى كل مكان يصلح للمقاومة . وكان للحاجب رضوان النصرى وزير السلطان يوسف أبى الحجاج ثم ولده الغنى بالله ، فى ذلك مجهود بارز، حيث أنشأ سور غرناطة الكبير المحيط

(١) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ٥٣٨ . (٢) راجع ص ٧٣ من هذا الكتاب .

بربض البيازين، وشيد سلسلة من الأبراج المنيعة أربت على أربعين، تمتد من شرق المملكة إلى غربها[1] . وأهم من ذلك كله أن مسلمي الأندلس، كانوا قد وقفوا فيما يبدو على سر البارود[2]، واستعملوه منذ منتصف القرن الرابع عشر، حسبما فصلنا في موضع سابق[3] . وكان لذلك كله أثر واضح في تمكين مملكة غرناطة الصغيرة، من الوقوف في وجه عدوها القوى بنجاح، طيلة هذه العصور .

وكان للقوى البحرية أيضاً شأنها، في كفاح الأندلس من أجل حياتها، وكانت مملكة غرناطة تسيطر من ثغورها الشهيرة : جبل طارق والجزيرة وطريف ومالقة، على مدخل البحر الأبيض المتوسط، وكانت أهم مهام الأسطول، بعد حماية الشواطىء والثغور، تأمين الصلة المباشرة بين مملكة غرناطة، وبين إخوانها المسلمين فيما وراء البحر في المغرب الأقصى، وقد استطاعت الأساطيل الأندلسية والمغربية، أن تحتفظ بسيادتها في هذه المياه عصوراً، وكان انهيار قوة غرناطة البحرية، وسقوط ثغورها في يد النصارى، نذير السقوط النهائي .

وكان أرفع المناصب القضائية، منصب قاضي الجماعة، وهو ما يقابل في الأندلس، منصب قاضي القضاة في مصر الإسلامية . وقاضي الجماعة هو أيضاً قاضي الحضرة أو قاضي غرناطة، والغالب أن يجمع في نفس الوقت بين منصبه ومنصب خطيب الحمراء، أو خطيب الجامع الأعظم[4]، وهو أيضاً من المناصب الدينية الرفيعة . وكان القضاء يجرى في مملكة غرناطة، على مذهب الإمام مالك، وهو مذهب الأندلس المفضل منذ أواخر القرن الثاني الهجرى . وكان يجرى تعيين قاضي الجماعة « بظهير » أي مرسوم ملكي . وكانت كلمة « الظهير » هي الغالبة في مملكة غرناطة للتعبير عن المراسيم والقوانين السلطانية، وهي ما زالت تستعمل حتى اليوم في المغرب الأقصى، حيث يوصف المرسوم بأنه « ظهير ملكي » . وكان لكل مدينة قاضيها وخطيبها، ولا يشغل مناصب القضاء سوى أكابر العلماء والفقهاء .

ويتبع القضاء وظيفة الحسبة وهي أيضاً وظيفة دينية، تقوم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويختص صاحبها بمطاردة المنكرات، والتعزير والتأديب على

---

(١) الإحاطة في أخبار غرناطة ج ١ ص ٥١٧ .

(٢) Prescott : Ferdinand and Isabella p. 193-194

(٣) راجع ص ٢١٢ من هذا الكتاب .

(٤) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ٧٠ و ٧٤ و ١٩٧ .

قدرها ، والعمل على احترام الأحكام الشرعية ، وقمع الغش والاختلاس في المعاملات ، وأمور المعيشة والمكاييل والموازين ، وله أيضاً أن يحمل الناس على أداء المصالح العامة ، مثل تمهيد الطرقات والإضاءة بالليل وغير ذلك .

وكان يعهد بحفظ النظام والأمن إلى متولى الشرطة ، وكان يسمى أيام الدولة الأموية صاحب الشرطة ، ويعتبر منصبه من أعظم المناصب القضائية والإدارية ، وكان ينتخب عادة من كبار القواد أو الخاصة ، ويتمتع بسلطات قضائية وإدارية واسعة . ثم سمى بعد ذلك بصاحب المدينة وصاحب الليل . وكان يعتبر فى منصبه تابعاً للوزارة ، مسئولا أمامها ، وكان جل اختصاصه أن يتولى حفظ النظام والأمن ، ومطاردة المجرمين وأهل الفساد ، وتنفيذ العقوبات الجنائية ، من الحد والتعزير وغيرهما فيمن وجب عليه ذلك ، وهو الذى يتولى الإتهام والتحقيق وتوقيع العقوبة ، دون تدخل القاضى ، ويعاونه فى مهمته جماعات من الحراس ، تجوب أنحاء المدينة ليلا ، وتشرف على حراسة الطرق والأمكنة وتعقب الجناة[١] .

— ٣ —

وقد أشرنا فيما تقدم ، إلى ما كانت تتمتع به مملكة غرناطة ، بالرغم من انكماش رقعتها من الموارد والثروات الطبيعية الوفيرة . وكانت الزراعة منذ أيام الدولة الأندلسية الكبرى ، من أعظم موارد الأندلس ، وكانت وديان اسبانيا الخصبة ، التى تتخللها عدة من الأنهار العظيمة ، وتربتها البديعة ، وأقليمها المتقلب بين الحرارة والبرودة ، تفسح أعظم مجال لشعب عامل ذكى . وكان مسلمو الأندلس من أنبغ الشعوب ، فى فلاحة الأرض وتربية الماشية وغرس الحدائق ، وتنظيم طرق الرى ، ومعرفة أحوال الجو ، وكل ما يتعلق بفنون الزراعة وخواص النبات ، وكانت مزارعهم وحدائقهم مضرب الأمثال فى الجودة والنماء ؛ وقد نقل العرب من المشرق وشمال إفريقية إلى اسبانيا كثيراً من الأشجار والمحاصيل ، كالقطن والأرز وقصب السكر والزعفران والنخيل ، وكانت بسائط شبه الجزيرة الإسبانية فى أيامهم رياضاً نضرة ، وكانت غياض القمح وغابات الزيتون ، وحدائق البرتقال والتوت والكروم ، من أبدع ما ترى العين فى وديان الأندلس ومروجها النضرة . وأما نبوغ مسلمى الأندلس فى تنظيم وسائل الرى والصرف ، واستجلاب الماء وتوزيعه بالطرق الفنية ، فما زالت تشهد به آثارهم الباقية إلى الآن ، فى وديان الأندلس ، من القناطر والجداول الدارسة .

(١) ابن خلدون : المقدمة ج ١ ص ٢٠٩ و ٢١٠ ؛ ونفح الطيب ج ١ ص ١٠١ .

وقد أقيمت أيام الدولة الأموية عدة من القناطر الشهيرة، وحفرت ترع ومصارف لا حصر لها، فى مختلف أنحاء اسبانيا، وكلها مما يشهد لصانعها بالمهارة والتفوق. وقد شاهدت أثناء تجوالى فى اسبانيا بعض المناطق التى ما زالت تقوم فى زراعتها على مشاريع الرى الأندلسية القديمة مثل منطقة لاردة وأحوازها ومنطقة بلنسية وأحوازها ومرسية وأحوازها. وكان لأهل الأندلس شهرة خاصة فى غرس الحدائق وتنسيقها، وقد كانت حدائق الرصافة والزهراء والزاهرة، بدائع تشهد لهم بوفرة البراعة وحسن الذوق، وكانت روعتها مستقى خصباً لخيال الشعراء والكتاب، وما زالت هذه البراعة حتى اليوم علماً على جمال الحدائق الأندلسية. وقد اتخذت فنون الزراعة على يد الأندلسيين طابعاً علمياً، وألفت فيها الكتب القيمة. وقد انتهى إلينا من آثارهم فى ذلك كتاب «الفلاحة» لابن بصال الطليطلى (القرن الحادى عشر الميلادى)، وكتاب «الفلاحة» أيضاً لتلميذه أبى زكريا ابن العوام الإشبيلى (أواخر القرن الثانى عشر)، ومؤلف ثالث فى «الفلاحة» أيضاً للطغنرى الغرناطى[1]. وفى هذه الكتب كلها ما يدل على مبلغ ما وصل إليه مسلمو الأندلس من معرفة بخواص التربة، واستخراج كنوز الأرض، وطرق الرى والصرف، وأحوال الطقس وغيرها.

وكانت مملكة غرناطة بالرغم مما يتخللها من الجبال والهضاب الوعرة، تضم كثيراً من الوديان والبسائط الخصبة، وكانت ضفاف شنيل سلسلة من البسائط الخضراء، تتخللها مئات الترع والقنوات؛ وكان المرج الشهير، الواقع غربى غرناطة La Vega، وهو الذى لبث أكثر من قرنين مسرحاً للمعارك المستمرة بين المسلمين والنصارى، بحقوله وحدائقه النضرة، كأنه قطعة من الجنان، أودعها المسلمون كل براعتهم. وكانت المحاصيل المختلفة تتعاقب طول العام، وتنتج البلاد كل ما يكفيها من الأطعمة والمؤن. وكانت مزارع الكروم الأندلسية الشهيرة، تغطى مساحات واسعة فى غرناطة ومالقة وشريش.

وكذلك ضرب مسلمو الأندلس فى الصناعة بأوفر سهم. وكانت اسبانيا المسلمة أيام قوتها، أعظم الأمم الصناعية فى أوربا؛ وكانت ثرواتها المعدنية، من الحديد والرصاص والزئبق والذهب والفضة وغيرها، تمدها بأسباب التفوق فى هذا الميدان.

---

(١) نشر كتاب «الفلاحة» لابن بصال بعناية معهد مولاى الحسن بتطوان سنة ١٩٥٥، وتوجد نسخة مخطوطة من كتاب «الفلاحة» لابن العوام بمكتبة دير الإسكوريال. وكذلك توجد نسخة من كتاب الطغنرى.

وقد اشتهرت الأندلس بنوع خاص ، بصناعة الأسلحة الجيدة ، تنتجها بوفرة وتصدرها إلى أمم أوربا وإفريقية . وكذا اشتهرت بصناعة الصوف والحرير ، والأقمشة الملونة الممتازة ، وصناعة الجلود الدقيقة التى برع فيها أهل قرطبة بنوع خاص . وطبق مسلمو الأندلس تفوقهم فى الكيمياء فى ميدان الصناعة ، فبرعوا فى صنع الأدوية والعقاقير ، واستخراج العطور من الأزهار ، وتركيب الأصباغ المختلفة ، ولاسيما اللون الذهبى ، وغيره من الألوان الزاهية . وقد استطاعت مملكة غرناطة ، أن تستبقى كثيراً من الصناعات الأندلسية القديمة ، فاستمرت غرناطة مركزاً عظيما لصناعة الأسلحة والذخائر ، وكان تفوقها فى هذه الصناعة من أسباب قوتها ، وتمكنها طويلا من مدافعة أعدائها . وكذلك استمرت صناعة الحرير على تقدمها وازدهارها ، ولاسيما فى مالقة وألمرية ، وكانت يومئذ من أعظم موارد الأندلس . وقد نقلت المدن الإيطالية ، التى اشتهرت بصناعة الحرير فى العصور الوسطى ، عن الأندلسيين معظم فنونهم وطرائقهم فى هذه الصناعة المربحة ، وكانت مدينة فيرنتزا ( فلورنس ) تستورد كميات كبيرة من الحرير الخام من غرناطة ، حتى أواخر القرن الخامس عشر[1] . ولبثت صناعة الأوانى الخزفية الجميلة ، مزدهرة حتى العصر الأخير ، وما زالت بقايا هذه الصناعة الأندلسية القديمة قائمة حتى اليوم فى بعض المدن الإسبانية ولاسيما فى إشبيلية ومالقة ، وما زالت المتاحف الإسبانية تغص بكثير من الأوانى الخزفية الأندلسية والموريسكية البديعة الصنع والزخرف . وكذلك لبثت صناعة الجلود الفاخرة الملونة ، حتى نفى الموريسكيين ، وقد نقلت بعد نفيهم على يدهم إلى أوربا . واشتهرت الأندلس أيضاً بصناعة الورق ، وأنشئت لها المصانع العظيمة ولاسيما فى طليطلة وشاطبة ، ونقلها الإسبان عن المسلمين ، ثم انتقلت إلى أوربا عن طريق فرنسا ، وذاعت فيها منذ القرن الثالث عشر . وقد اكتشف الغزيرى ، عدة مخطوطات بمكتبة الإسكوريال ، ترجع إلى القرن الحادى عشر ، كتبت على ورق مصنوع من القطن ، وأخرى ترجع إلى القرن الثانى عشر ، كتبت على ورق مصنوع من الكتان ، وكان لهذه الصناعة مكانتها فى مملكة غرناطة .

أما التجارة فقد بلغت شأواً بعيداً فى الأندلس ، وذلك لحسن موقعها وكثرة ثغورها ، وتوسطها بين أوربا وإفريقية ، وانتظام صلاتها البحرية ، مع سائر ثغور

---

Prescott : Ferdinand Isabella : p. 191 (١)

البحر المتوسط . وكانت علائقها التجارية تمتد حتى قسطنطينية ، وثغور الشأم والإسكندرية ، وترسو سفنها التجارية فى الثغور الإيطالية ، ولاسيما جنوة ورومة والبندقية . وكانت ثغورها تزخر بمختلف الواردات ، من بلاد أوربا وإفريقية والمشرق . وازدهرت الحركة التجارية فى غرناطة ولاسيما التجارة الخارجية ، وكان للجنويين وغيرهم ، من الأمم ذات الصلات الإقتصادية الوثيقة بالأندلس ، منشآت تجارية فى غرناطة . وعقدت غرناطة مع جمهورية جنوة ومع مملكة أراجون معاهدات تجارية عديدة أشرنا إلى بعضها فيما تقدم . وكانت خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر من أعظم المراكز التجارية فى جنوب أوربا ، حتى لقد وصفها بعض المؤرخين المعاصرين بأنها « مدينة جميع الأمم » . ويقول مؤرخ إسبانى « إن شهرة سكانها فى الأمانة والثقة ، بلغت إلى حد أن كلمتهم المجردة ، كان يعتمد عليها ، أكثر مما يعتمد على عقد مكتوب بيننا »(١) .

وكان الرخاء يسود مملكة غرناطة طوال أيامها ، وقلما كانت تصدع منه الثورات الطارئة أو الحروب المتواصلة . وكانت موارد الخزينة أو الموارد السلطانية كثيرة منوعة ، تتكون من ضريبة الأراضى المزرعة ، وتبلغ فى المتوسط نحو سبع قيمة المحصول ، والأموال المرسومة على السفن الواردة والصادرة ، ودخل دار السكة ، ودخل بيت المال ، من زكاة وصدقات وميراث من لاوارث له ، وأخماس الغنائم التى كانت تحصل من العدو ، ومختلف الضرائب التجارية والمهنية . وكانت للعرش فوق ذلك أملاك ومزارع عظيمة فى فحص غرناطة ( المرج ) تعرف بالمستخلص . وكانت الضرائب فى مملكة غرناطة على وجه العموم . أكثر مما كانت عليه فى الدول الإسلامية السابقة . وقد يرجع ذلك من بعض الوجوه إلى استمرار الصراع بلا انقطاع بينها وبين النصارى . وقدر دخل مملكة غرناطة فى تلك العصور ، بنحو مليون ومائتى ألف دوقة(٢) ، وهى قيمة لا يستهان بها فى ذلك العصر ؛ وكان يتولى الإشراف على شئون الدخل والخرج وأعمال الجباية موظف كبير يسمى « صاحب الأشغال » ، وكانت ثمة طوائف كبيرة من الشعب الغرناطى تتمتع بالثراء ، ويقتنى الكثيرون الحلى والجواهر النفيسة ولاسيما أبناء الطبقات العليا . وكانت غرناطة

(١) Prescott : ibid ; p. 190

(٢) الدوقة هى عملة ذهبية كانت ذائعة فى أوربا فى العصور الوسطى وتبلغ قيمتها نحو نصف جنيه من عملتنا الحديثة .

تتمتع فوق ذلك بنقد سليم ثابت[١] ، تخرجه دار السكة الملكية التى اشتهرت بأمانتها ودقتها ، ولايتطرق إليه شىء من ذلك الزغل الذى كان فى أحيان كثيرة يؤدى إلى الانهيار المالى .

— ٤ —

وقد أشرنا فى بداية هذا الكتاب ، إلى تكوين الأمة الأندلسية فى مراحلها الأخيرة فى ظل مملكة غرناطة ، وإلى خصائصها العنصرية . والحقيقة أن المجتمع الأندلسى بمختلف عناصره الأصيلة والدخيلة ، كان قد استحال بمضى الزمن ، وتعاقب الحوادث والدول ، والمؤثرات الإجتماعية والإقليمية ، إلى أمة عربية إسلامية ذات طابع مستقل ومميزات خاصة ، تدعمها طائفة من الخلال البديعة ، وتصقلها حضارة رفيعة زاهرة . ثم قامت مملكة غرناطة التى اجتمعت فيها بقية الأمة الأندلسية لتعرض لنا خلال حياتها الطويلة ، المراحل الأخيرة لعظمة الأمة الأندلسية ، وحضارتها .

وقد وصف لنا ابن الخطيب فى « الإحاطة » ، أحوال المجتمع الأندلسى ، وخواصه الجنسية والعقلية والاجتماعية ، فى هذا العصر ، الذى مالت فيه شمس الأندلس إلى الأفول . فذكر لنا أن الشعب الأندلسى ، كان يتمتع بصفات أخلاقية طيبة ، وأن صورهم حسنة ، وأنوفهم معتدلة ، وألوانهم بيضاء ، وشعورهم سوداء ، وقدودهم متوسسطة ، وألسنتهم عربية فصيحة ، تغلب عليها الإمالة ، وأنسابهم عربية ، وفيهم كثير من البربر والمهاجرين[٢] .

وكان نساؤهم يتميزن بالجمال والسحر ، واعتدال السمن ، ونعومة الجسم ، ورشاقة الحركة ، ونبل الكلام ، وحسن المحاورة ، ولكن يندر الطول فيهن . وقد بلغن فى التفنن فى الزينة شأواً بعيداً ، يسرفن فى الأصباغ والعطور ، والتزين بنفيس الحلى .

وكان اللباس الغالب بين الأندلسيين شتاء ، الملف[٣] المصبوغ على اختلاف أصنافه وألوانه ؛ ويرتدون فى الصيف ، الكتان والحرير والقطن والأردية الإفريقية ، والمقاطع التونسية ، والمآزر المشقوقة « فتبصرهم فى المساجد أيام الجمع ، كأنهم الأزهار المفتحة ، فى البطاح الكريمة ، تحت الأهوية المعتدلة »[٤] .

---

(١) ابن الخطيب فى الإحاطة ج ١ ص ١٤٣ ، واللمحة البدرية ص ٢٩ .
(٢) الإحاطة ج ١ ص ١٤٠ .  (٣) نسيج من الصوف .
(٤) الإحاطة ج ١ ص ١٤١ .

ومما يجدر ذكره ، أن العمامة كانت يومئذ قد اختفت تقريباً كلباس رأس بين الشعب الأندلسى ، ولم يكن يلبسها سوى العلماء والقضاة[١] . وقد حلت القلانس منذ عهد بعيد مكان العمائم . وكان أهل شرق الأندلس أسبق من غيرهم فى نبذ العمامة ، وذاعت القلانس بينهم منذ أوائل القرن السابع ، حتى كان أمراؤهم وشيوخهم وقضاتهم يلبسون القلانس ، وكان كثير من أمراء المسلمين مثل ابن مردنيش وغيره يرتدون الثياب القشتالية[٢] . ولم يلبس ملوك بنى الأحمر العمامة ، بل فضلوا القلنسوة (كاب) واتخذوها لباساً حتى آخر دولتهم . وكان بمتحف جنة العريف بغرناطة قبل إلغائه ، صورة يقال إنها لأبى عبد الله آخر ملوك الأندلس ، وهى تصوره بقلنسوة عالية[٣] . وأما القضاة فقد احتفظوا بالعمامة كلباس رسمى . وتوجد فى سقف قاعة الملوك أو قاعة العدل بقصر الحمراء ، صورة تمثل مجلس القضاة وهم بالعمائم والبرانس ، وهى الصورة التى يعتقد البعض أنها تمثل ملوك غرناطة .

وكان الأمراء والأكابر ، وفريق كبير من أبناء الطبقات الميسورة ، يؤثرون ارتداء الثياب الإفرنجية ، اقتداء بجيرانهم النصارى ، ولاسيما فى عصور الأندلس الأخيرة . وأما ثياب الجندى الأندلسى فقد كانت فى العصور المتأخرة مشابهة لثياب الجند النصارى ، وكذلك عدتهم وسلاحهم ونظامهم فى الصفوف ، ثم عدلوا فى عصر ابن الخطيب عن هذا الزى ، إلى الجواشن المختصرة والبيضات المذهبة ، والسروج العربية . وكانت الجنود البربرية من جانبها ، تحافظ على زيها المغربى[٤] .

وكان أهل الأندلس مضرب الأمثال فى النظافة ، يبالغون فى العناية بنظافة أبدانهم وثيابهم ، ويكثرون من الاستحمام . وقد كانت هذه العادات فيما بعد ، حينما أكره المسلمون على التنصير ، من الشبه التى تثيرها ضدهم محاكم التحقيق ، للتدليل على تشبثهم بالإسلام ، وارتدادهم عن النصرانية .

وكان المجتمع الغرناطى يعيش فى رخاء وسعة ، تكثر لديه الأقوات فى الشتاء والصيف ، ولاسيما الفاكهة من العنب والتين والزبيب والتفاح والقسطل والجوز واللوز وغيرها ، ويدخرها الناس يابسة على كر الفصول ، ومتى حل الصيف ، هرع الناس إلى الفحوص (المروج) أعنى الضواحى ، للتمتع بجمال البسائط النضرة ، ونسيمها العليل[٥] .

---

(١) الإحاطة ج ١ ص ١٤٢ .
(٢) راجع ص ٨١ و ٩٩ من هذا الكتاب .
(٣) نشرنا هذه الصورة فى ص ٢٧٥ .
(٤) الإحاطة ج ١ ص ١٤٢ .
(٥) راجع ابن الخطيب فى الإحاطة ج ١ ص ١٤٣ و ١٤٤ ، واللمحة البدرية ص ٢٧ — ٢٩ .

وكان احتفالهم بالأعياد أنيقاً ، ولكن فى حدود الإعتدال والاقتصاد . وكان الشعب الغرناطى يعشق مباهج الحياة والحفلات العامة ، وكانت الحياة لديه كأنها سلسلة من الأعياد المتواصلة . وكان الغناء ذائعاً ، ويكثر فى المنتديات والمقاهى العامة ، حيث يجتمع الشباب بكثرة ؛ ولم تنس غرناطة مرحها حتى فى أيام محنتها، ولم تغلبها الكآبة إلا حينما أصبح العدو على الأبواب يهدد حياتها(١) .

وقد استمرت الفروسة الأندلسية فى مملكة غرناطة على ازدهارها ، ولبثت عصوراً تجذب الأنظار باكتمالها وروعتها ورقة شمائلها . وفضلا عن كونها كانت عماد الدفاع القومى ، حسبما أشرنا من قبل ، فقد كانت مظاهرها وحفلاتها من أمتع المباهج العامة ، فى ميدان كان التسامح المؤثر يسود فيه علائق المسلمين والنصارى، بالرغم مما كان يدور بين الفريقين من صراع مستمر . وقد اشتهر ملوك غرناطة ، فضلا عن الجود ، بميلهم نحو الحرية والتسامح ، فكان الأمراء المسلمون والنصارى يتبادلون الزيارات ، وكانوا يتلاقون أيام السلم وفى المفاوضات أنداداً كراماً . ومن أشهر مظاهر هذا التواصل ماحدث فى ربيع سنة ١٤٦٣ ، حيث سار هنرى الرابع ملك قشتالة إلى أراضى غرناطة ، وزار ملكها ابن اسماعيل، والتقى الملكان فى مكان بقرب الفحص La Vega ، ضربت فيه خيمة ملكية أمام أبواب العاصمة ، ولما انتهت الزيارة وتبادل الفريقان الهدايا ، رافقت ملك النصارى كوكبة من الفرسان المسلمين، وشيعته حتى الحدود . وكذلك كان الفرسان المسلمون والنصارى يتبادلون الزيارات ، وكثيراً ما كان الفرسان النصارى يقصدون إلى غرناطة، لقضاء مصالحهم وتسوية منازعاتهم ، وكذا كان كثير من الأسر القشتالية النبيلة ، يلجأ إلى حماية ملك المسلمين كلما شعرت بالإضطهاد والحيف ، وكان فى مقدمة هؤلاء آل ڤيلا وآل كاسترو ؛ وكانت مباريات الفروسة وحفلاتها تتوالى فى غرناطة ، وفيها يبدى الفرسان المسلمون ضروباً رائعة من البراعة والرشاقة . وكان من أهم مميزات هذه الحفلات الشهيرة اختلاط الجنسين ، فكان نساء غرناطة ، البارعات فى الحسن والإناقة ، يشهدن هذه الحفلات وغيرها من الحفلات العامة سافرات، ويسبغن بوجودهن عليها روعة وسحراً، وكن يتمتعن بقسط وافر من الحرية الاجتماعية(٢)،

---

(١) الإحاطة ج ١ ص ١٤٣ ، واللمحة البدرية ص ٢٨ ؛ وكذلك فى Prescott: Ferd.&Isabella,p· 192

(٢) Prescott : Ferdinand & Isabella, p. 192

# الفصل الثاني

## الحركة الفكرية فى مراحلها الأولى

الحركة الفكرية الأندلسية فى أوائل القرن السابع . الشعر والأدب . ابن حريق . ابن مرج الكحل. ابن الجيان المرسى . ابن الأبار القضاعى . أبو الطيب الرندى . أقطاب اللغة . الفقه وعلوم الدين . المؤرخون . العلوم . أبو بكر بن زهر . ابن البيطار المالقى . بنو الأحمر حماة العلوم والآداب . محمد الفقيه وولده المخلوع . السلطان أبو الحجاج . الأمير الأديب أبو الوليد اسماعيل . الوزراء الكتاب والشعراء . ازدهار الشعر والأدب . ركود الحركة العلمية . ابن الحكم الرندى . حياته وشعره. ابن خميس التلمسانى . أبو الجيان الغرناطى . الرئيس ابن الجياب . ابن جابر الضرير . أقطاب اللغة . علماء الفقه والدين . التصوف . المؤرخون والرحل . العلوم .

أتينا فى الفصل السابق ، على لمحة من سير الحركة الفكرية ، فى ظل الدولة الإسلامية بالأندلس ، حتى بداية القرن السابع الهجرى ، أعنى إلى ما قبل قيام مملكة غرناطة بقليل . ونريد الآن أن نتحدث عن سير العلوم والآداب والفنون، فى ظل مملكة غرناطة ذاتها . وسنحاول أن نتوسع فى هذا الحديث قدر الاستطاعة، وإن كانت المصادر العربية، ضنينة فى ذلك حسبما أشرنا ، أولا لهلاك معظم الآثار والوثائق الأندلسية المتعلقة بهذه المرحلة من تاريخ الأندلس ، وثانياً لأن كثيراً من المفكرين والكتاب المتأخرين ، الذين رأوا الوطن الأندلسى مشرفاً على السقوط فى يد العدو ، بادروا بالهجرة إلى المغرب والبلاد الإسلامية الأخرى ، وأقفرت الأندلس بذلك من مفكريها وأدبائها .

بيد أنه يجدر بنا قبل ذلك ، أن نعنى بالفترة العصيبة المضطربة التى جازتها الأندلس ، فى أواخر أيام الموحدين قبيل قيام مملكة غرناطة . وقد شهدت الأندلس فى هذه الفترة ، أعنى فى أوائل القرن السابع الهجرى ، سلسلة من الأحداث الجسام. ذلك أن سلطان الموحدين أخذ ينهار سراعا ، واضطرمت ثورة ابن هود فى الولايات الشرقية ، وأخذت قواعد الأندلس الكبرى ، تسقط تباعاً فى يد النصارى ، واستطاع ابن الأحمر فى الوقت نفسه ، أن ينشىء مملكة غرناطة فى جنوبى الأندلس . وكان من جراء الفوضى السياسية التى غمرت الأندلس يومئذ ، أن تصدعت الحركة

الأدبية ، وانتثر شملها ، وفقدت وسيلة الاستقرار والتجمع ، وشغل الأدباء والمفكرون يومئذ بالمحنة وآثارها . وغادر الأندلس فى تلك الفترة ، كثير من الكتاب والعلماء الذين توقعوا سوء المصير ، وآثروا العمل فى جو أكثر استقراراً وطمأنينة ، مثل الشيخ محيي الدين ابن عربى المرسى قطب التصوف الشهير ، وابن البيطار المالقى ، وابن الأبار القضاعى ، وابن حمدون الحميرى النحوى ، وابن سعيد الأندلسى ، وكثيرون غيرهم ، ممن رحلوا إلى المشرق أو عبروا البحر إلى المغرب.

وهكذا طلعت أوائل القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) على الأندلس ، بأحداثها وفتنها المتوالية ، والحركة الفكرية فى ربوعها حائرة غير مستقرة ، يتبدى ضوؤها باهتاً ، فى ظل دول وإمارات تتصدع أركانها تباعاً . ومع ذلك فقد ظل تراث الأندلس الفكرى فى هذه الفترة متواصلا ، يمتاز على اضطرابه بكثير من نواحى القوة والنضج ، التى امتاز بها فى ظل دولة الموحدين ، وقت أن كانت فى عنفوانها .

وسوف نستعرض فيما يلى أعلام التفكير والأدب فى تلك الفترة المضطربة ، التى مهدت حوادثها لقيام مملكة غرناطة ، فهى ليست فى الواقع سوى حلقة اتصال ، بين العصر الذى اختتمته الأندلس الكبرى ، وبين العصر الذى بدأت فيه حياتها الجديدة(١) .

## الشعر والأدب

وكانت الحركة الأدبية يومئذ ما تزال فى عنفوانها . وكانت دولة النثر والنظم تحتل مكانتها الرفيعة ، بل لقد بعثت الأحداث والمحن ، التى توالت على الأندلس يومئذ ، إلى الشعر بكثير من أسباب الإنفعال والقوة . فامتلأت الأندلس يومئذ بالشعر المؤسى ، والمراثى القوية المؤثرة ، التى نقل المقرى إلينا كثيراً منها ، فى كتابيه نفح الطيب وأزهار الرياض .

وكان من أعلام الشعر فى تلك الفترة ، على بن محمد بن أحمد بن حريق الشاعر البلنسى المتوفى فى سنة ٦٢٢ هـ (١٢٢٧ م) ؛ كان شاعراً مجيداً كثير النظم ، ذاع

---

(١) عرضنا فى هذا الفصل بإيجاز إلى عدد من العلماء والكتاب والشعراء الذين تناولناهم فى خاتمة كتابنا « عصر المرابطين والموحدين » فى القسم الذى خصصناه للحركة الفكرية الأندلسية (القسم الثانى ص ٦٤٤ — ٧٢٦) حسبما أشرنا إليه من قبل . وقد كان هذا التكرار العرضى ضرورة للمحافظة على السياق ، وللتمهيد لما سيرد من بعده خلال العصر الغرناطى .

شعره فى الأندلس ، وكتب فوق ذلك عدة كتب فى الأدب(١) .

ومنهم ابن مرج الكحل ، وهو أبو عبد الله محمد بن إدريس بن على ، أصله من جزيرة شُقر ، وكان من شعراء عصره . وبرع بنوع خاص فى الغزل والشعر الوصفى المبتكر ، وعاش حيناً فى غرناطة ، وذاع صيته فى سائر نواحى الأندلس ، وتوفى سنة ٦٣٣ هـ ( ١٢٣٥ م ) . ومن شعره يصف عشة ،بنهر لفنداق الذى يمر بلوشة :

عرج بمنعرج الكثيب الأعفر　　بين الفرات وبين شط الكوثر
ولتغتبقها قهـوة ذهبيـــة　　من راحتى أحوى المراشف أحور
والروض بين مفضض ومذهّب　　والزهـر بين مدرهم ومدنّر
والنهر مرقـوم الأباطح والربـا　　بمصندل من زهره ومعصفر
وكأنه وكأن خضرة شـطه　　سيف يسيل على بسـاط أخضر
وكأن ذاك الحبـاب فـرنده　　مهما طفا فى صفحه كالجوهر(٢)

ومنهم عزيز بن عبد الملك القيسى ؛ كان من أعيان مرسية واشترك فى حوادثها السياسية ، واستطاع أن يظفر بإمارتها لمدى قصير ،وتوفى سنة ٦٣٨هـ (١٢٤٠ م) قتيلا ، فى معركة نشبت بينه وبين خصومه ، وكان شاعر مجيداً ، ومن قوله عندما حلت به المحنة :

نصحت فلم أفلح وخانوا فأفلحوا　　فأعقبنى نصحى بدار هوان(٣)

ومنهم على بن ابراهيم بن على المعروف بابن الفخار ، أصله من شريش وكان من أعلام الكتابة والنظم وتولى القضاء حيناً، وتوفى سنة ٦٤٢هـ (١٢٤٤م)(٤)

ومنهم إبراهيم بن سهل الإشبيلى . وقد كان يهودياً ثم أسلم ، وبرع فى الشعر ولاسيما فى التوشيح ، ومن أبدع شعره قصيدة طويلة نظمها فى مدح النبى . وقد توفى غريقاً فى النهر ، وهو شاب فى عنفوانه ، وذلك سنة ٦٤٩ هـ ( ١٢٥١م ). ومن شعره قوله :

مضى الوصل إلا منية تبعث الأسى　　أدارى بها همى إذا الليل عسعسا

---

( ١ ) ابن الأبار فى تكلمة الصلة ( رقم ١٨٩٥ ) ، وصلة الصلة لأبى جعفر ابن الزبير ص١٢٩

( ٢ ) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ٢٦ و٢٧ و٢٨ .

( ٣ ) راجع صلة الصلة ص ١٦٥ ، وابن الأبار فى التكلة رقم ١٩٥٢ .

( ٤ ) راجع صلة الصلة ص ١٣٥ ، والتكلة رقم ١٩٠٧ .

أتانى حديث الوصل زوراً على النوى | أعيد ذلك الزور اللذيذ المؤنسا
ويا أيها الشوق الذى جاء زائراً | أصبت الأمانى خذ قلوباً وأنفسا

ومن موشحاته :

ليل الهوى يقظان | والحب ترب السهر
والصبر لى خوان | والنوم من عينى برى[1]

ومنهم أبوعبد الله محمد بن الحيان المرسى ، صديق ابن هود وكاتبه . وكان عالماً بالحديث والرواية ، بارعاً فى النثر والنظم . تولى الوزارة حيناً لابن هود ، وهو الذى كتب عن لسانه وصيته الشهيرة لأخيه . ولما استولى النصارى على مرسية سنة ٦٤١ هـ ، غادرها إلى أوريولة ، ثم نزح إلى المغرب ، واستقر بمدينة بجاية ، وتوفى هنالك سنة ٦٥٠ هـ ( ١٢٥٢ م ) . وكان ابن الحيان صغير القد ، حتى ليخاله الناظر إليه طفلا ، ومن شعره قصيدته الدالية المشهورة التى مطلعها :

ياحادى الركب قف بالله ياحادى | وارحم صبابة ذى نأى وإبعاد[2]

ومنهم الفقيه والكاتب الشاعر المؤرخ ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبى بكر القضاعى البلنسى ، المعروف بابن الأبار . ولد سنة ٥٩٥ هـ وبرز فى الفقه واللغة ، وبرع فى النثر والنظم ، وتولى الكتابة للأمير أبى جميل زيان أمير بلنسية ، حفيد ابن مردنيش . ولما حاصر النصارى بلنسية سنة ٦٣٦ هـ ( ١٢٣٨ م ) واشتد الخطب بالمسلمين ، أرسل أميرها زيان كاتبه ابن الأبار ، سفيراً إلى أبى زكريا الحفصى أمير تونس ، يستغيث به ويستنصره على العدو . وألقى ابن الأبار بهذه المناسبة بين يدى أبى زكريا قصيدته السينية الشهيرة ، يردد فيها صريخ الأندلس ، ويصف آلامها ومحنها ، وهذا مطلعها :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا | إن السبيل إلى منجاتها درسا
وهب لها من عزيز النصر ما التمست | فلم يزل عز النصر منك ملتمسا

وهى من غرر القصائد التى ذاعت بالأندلس أيام المحنة . ولما سقطت بلنسية بعد ذلك بقليل فى يد النصارى ، نزح ابن الأبار فى أهله إلى تونس ، وعاش هنالك حيناً فى كنف أميرها المستنصر الحفصى . ولكنه تغير عليه بعد ذلك ونكبه ، ثم أمر

---

( ١ ) راجع نفح الطيب ج ٤ ص ٣٠٤ .

( ٢ ) راجع نفح الطيب ج ٤ ص ٤٣٢ وما بعدها ، حيث ينقل وصية ابن هود لأخيه ؛ وص ٤٤٠ وما بعدها حيث يذكر طائفة من نظم ابن الحيان .

بقتله متأثراً بتحريض خصومه ، وأحرقت كتبه فى موضع قتله ، وذلك فى سنة ٦٥٩ هـ ( ١٢٦٠ م ) . ولابن الأبار كثير من الشعر الجيد . ومن قوله فى الغزل :

لم تدر ما خلدت عيناك فى خلدى ... من الغرام ولاما كابدت كبدى
أفديك من رائد رام الدنو فلم ... يسطعه من فرق فى القلب متقد
خاف العيون فوافانى على عجل ... معطلا جيده إلا من الجيد

ومنه يصف نهراً :

ونهر كما ذابت سبائك فضة ... حكى بمجانيه العطاف الأراقم
إذا الشفق استولى عليه احمراره ... تراءى قضيباً مثل دامى الصوارم

وكتب ابن الأبار فى الأدب والتاريخ . ومن آثاره تكملة كتاب الصلة لابن بشكوال ، ترجم فيها لأعيان أهل الأندلس وعلمائها وشعرائها . وله أيضاً كتاب الحلة السيراء ، ترجم فيها لطائفة مختارة من أعيان الأندلس من أمراء ووزراء وكتاب وشعراء ، وهو قيم جداً بالنسبة لتاريخ الطوائف وتاريخ عصره[1] . وله مؤلفات أخرى مثل كتاب تحفة القادم ، وفيه يقدم طائفة مختارة من نظم شعراء الأندلس الذين سبقت وفاتهم مولده ، وبعض الطارئين عليها من الغرباء ؛ وإيماض البرق ؛ وكتاب الإعتاب ، أو إعتاب الكتاب ، ويشتمل على تراجم طائفة من كتاب الأندلس وبعض الكتاب المشارقة ، وغيرها ، وهى آثار وصل معظمها إلينا[2] .

ومنهم أبو الطيب صالح بن شريف الرندى . وكان أديباً شاعراً جزلا . بيد أننا لا نعرف كثيراً عن حياته ، ولانعرف إلا أنه كانت من أهل رندة كما يدل على ذلك لقبه ؛ وقد ولد بها فى سنة ٦٠١ هـ ، وتوفى سنة ٦٨٤ هـ . ويصفه ابن عبدالملك فى « التكملة » أنه « خاتمة أدباء الأندلس » . وكان بارعاً فى النثر والنظم معاً .

---

( ١ ) نشر كتاب التكملة فى مجلدين ضمن المكتبة الأندلسية ، ونشر كتاب الحلة السيراء بعناية المستشرق دوزى ( ليدن سنة ١٨٥١ ) ، ولكن مع إغفال بعض التراجم . وتوجد منه نسخة خطية كاملة بمكتبة الإسكوريال ( رقم ١٦٥٤ الغزيرى ) . وقد قام بتحقيقها ونشرها الدكتور حسين مؤنس فى مجلدين ( القاهرة ١٩٦٤ ) .

( ٢ ) راجع فى ترجمة ابن الأبار ، فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٢٦ — ٢٢٧ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٧٨—٥٨٠ ؛ وراجع فى محنته ومقتله ، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية للزركشى ( تونس ١٢٨٩ هـ ) ص ٢٧ . ويضع الزركشى تاريخ وفاته فى سنة ٦٥٨ هـ . هذا وتوجد نسخة خطية من كتاب تحفة القادم بمكتبة الإسكوريال تحمل ( رقم ٣٥٦ الغزيرى ) ، كما توجد بها نسخة من كتاب إعتاب الكتاب وهى تحمل ( رقم ١٧٣١ الغزيرى ) .

وله مقامات بديعة فى أغراض شتى . وكان كثير الوفود على غرناطة والتردد على بلاطها . وقد عاش الرندى فى عصر الفتنة الكبرى التى اضطرمت بها الأندلس فى أواسط القرن السابع الهجرى ، والتى تمخضت عن قيام مملكة غرناطة وسقوط معظم القواعد الأندلسية الكبرى فى يد النصارى ، وقال فى المحنة مرثيته الشهيرة التى أتينا على ذكرها فى موضعها ، والتى خلدت ذكره إلى يومنا . وقد وهم المقرى فاعتقد أنه قد عاش فى أواخر القرن التاسع الهجرى ، أو عصر سقوط الأندلس النهائى[1] . ومن شعره فى الغزل والتصوف :

سلم على الحى بذات العرار ... وحى من أجل الحبيب الديار
وخل من لام على حبهم ... فما على العشاق فى الذل عار
ولا تقصر فى اغتنام المنى ... فما ليالى الأنس إلا قصار
وإنما العيش لمن رامه ... نفس تدارى وكؤوس تدار
وروحه الراح وريحانه ... فى طيبه بالوصل أو بالعقار[2]
لا صبر للشىء على ضده ... والخمر والهم كماء ونار

وكان الرندى من خاصة المقربين إلى السلطان محمد بن الأحمر ، وكان يطرب لشعره ، ومن أشهر قصائده فى مدح السلطان قصيدته التى مطلعها :

سرى والحب أمر لايرام ... وقد أغرى به الشئون والغرام

وكتب الرندى برسم السلطان كتاباً فى التاريخ سماه « روض الأنس ونزهة النفس » . ونثره لا يقل روعة عن شعره[3] .

* * *

وظهر فى تلك الفترة أيضاً جماعة من أقطاب اللغة ، مثل على بن محمد بن خروف الإشبيلى المتوفى سنة ٦٠٩هـ (١٢١٢م) ، وقد طاف بقواعد الأندلس والمغرب ، وذاع صيته ، ووضع شرحاً لكتاب سيبويه[4] ؛ وعمر بن محمد الأزدى الإشبيلى

---

(١) راجع أزهار الرياض ج ١ ص ٤٧ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٩٥

(٢) تراجع القصيدة بأكملها فى نفح الطيب ج ٢ ص ٥٩٥ و٤٩٦ .

(٣) نقلنا ملخص ترجمة صالح بن شريف عن مخطوط « الإحاطة فى تاريخ غرناطة » المحفوظ بالإسكوريال . واطلعنا فى المغرب على نسخة مخطوطة من تاريخه المذكور ، وهو مجلد كبير فى تاريخ الإسلام والخلفاء الراشدين والدولتين الأموية والعباسية .

(٤) راجع ترجمته فى صلة الصلة ص ١٢٢ .

المعروف بالشلوبين ، وكان إماماً فى العربية ، وبرع فى النحو والفقه ، وتوفى سنة ٦٤٥ هـ ( ١٢٤٧ م )(١) .

وظهر جماعة فى الفقه وعلوم الدين ، مثل على ابن أحمد بن محمد الغسانى ، من أهل وادى آش ، وقد ألف فى شرح « الموطأ » كتاباً ضخماً سماه « نهج السالك للتفقه فى مذهب مالك » ، ووضع شرحاً لكتاب مسلم ، وتوفى سنة ٦٠٩ هـ (١٢١٢)(٢) ؛ وعمر بن عبد المجيد بن عمر الأزدى الرندى المحدث ، المتوفى سنة ٦١٦ هـ ( ١٢١٨م )(٣) ، وقرينه ومواطنه المحدث المؤرخ عيسى بن سليمان الرعينى الرندى ، المتوفى سنة ٦٣٢ هـ ( ١٢٣٤ م )(٤) .

ونبغ فى تلك الفترة بالذات ، أعظم متصوفة الأندلس الشيخ محيى الدين أبو بكر الطائى المعروف بابن عربى ، وقد ولد بمرسية سنة ٥٦٠ هـ ونزح إلى المشرق فى شبابه ، وحج وطاف بمعظم قواعده ، وبقى به حتى توفى سنة ٦٣٨ هـ ( ١٢٤٠ م ) ، وله ثبت حافل من المصنفات الجليلة ، منها كتاب فصوص الحكم ، والفتوحات المكية ، والتدبيرات الإلهية ، وعشرات غيرها ، ذكرها صاحب فوات الوفيات ، وله شعر جيد(٥) .

ونستطيع أن نذكر من المؤرخين فى تلك الفترة ، إلى جانب ابن الأبار القضاعى ، الذى سبقت ترجمته ، على بن موسى بن سعيد الأندلسى ، المعروف بابن سعيد المغربى ، وهو أديب ورحالة وسليل أسرة من الأدباء والمؤرخين ، تعاقب منها قبله خمسة فى مدى قرن ، على تصنيف مؤلف ضخم فى فضائل مدن الأندلس والمغرب والمشرق ، يضم كتابين كبيرين هما : كتاب « المشرق فى حلى المشرق » « والمغرب فى حلى المغرب » وأتمه على بن موسى آخر من نبغ من هذه الأسرة . وقد ولد فى غرناطة سنة ٦١٠ هـ وتوفى بدمشق سنة ٦٧٣هـ ( ١٢٧٤ م ) ، وطاف بقواعد الأندلس والمغرب والمشرق ، ومؤلفه الكبير أثر أدبى وتاريخى وجغرافى

---

( ١ ) راجع ترجمته فى صلة الصلة ص ٧١ .

( ٢ ) راجع ترجمته فى صلة الصلة ص ١٢١ .

( ٣ ) راجع ترجمته فى صلة الصلة ص ٧١ .

( ٤ ) « « « « ص ٥١ .

( ٥ ) راجع فى ترجمة ابن عربى ، فوات الوفيات ص ٢٤١ — ٢٤٣ .

جليل بارع الأسلوب(١) . وله كتب أخرى ذكر منها صاحب فوات الوفيات ، المرقص والمطرب ، وملوك الشعر . وله شعر رقيق .

## العـــلوم

وكان للعلوم أيضاً مجالها بالأندلس فى أوائل القرن السابع الهجرى ، وربما كانت هذه آخر مرحلة ازدهر فيها العلم الأندلسى ،واستطاع أن يحتفظ بقبس من تقاليده القديمة الراسخة .

وكان ممن ظهر فى تلك الحقبة ، أبو الفضل محمد بن عبد المنعم الحليانى ، الطبيب والشاعر الأديب ، أصله من جليانة من أعمال غرناطة ، ونبغ فى الطب فى ظل الموحدين ، ثم رحل إلى المشرق ، وطاف بمصر والشأم ، ونظم كثيراً فى الإلهيات والرياضيات وآداب النفس(٢) .

ومنهم أبو بكر بن عبد الملك بن زهر الإشبيلى ، سليل أسرة بنى زهر الشهيرة ، التى نبغ منها فى الطب والكيمياء والصيدلة ، أبو العلاء بن زهر ، ثم ولده عبدالملك حسبما سبقت الإشارة إليه ، ثم ابنه أبو بكر هذا ، وقد برع كأبيه وجده فى الطب والكيمياء ، وكان من أعظم أطباء الأندلس فى أواخر القرن السادس الهجرى .

ومنهم أبو العباس أحمد بن محمد بن مفرج الأموى المعروف بابن الرومية الإشبيلى العلامة الطبيب والنباتى ، وقد اشتهر بالأندلس فى أوائل القرن السابع الهجرى ، وكان إماماً فى الحديث وحجة فى علم النبات لا يبارى . ولد بإشبيلية سنة ٥٦١ هـ وتوفى بها سنة ٦٣٧ هـ ( ١٢٣٩ م ) . وله مؤلفات نفيسة فى النبات والطب . منها شرح حشائش دياسقوريدس ، وأدوية جالينوس ، والرحلة النباتية ، والمستدركة ، وله كتاب فى الأدوية المفردة على نمط الكتب التى ألفها بنو زهر فى هذا الموضوع(٣) .

وكان من أعظم علماء الأندلس فى هذا العصر ، ابن البيطار المالقى العالم

---

( ١ ) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ١٣٧ . وقد انتهت إلينا من هذا الأثر الضخم نسخة مشوهة ناقصة ، وهى محفوظة بدار الكتب المصرية رقم ٢٧١٢ ،تاريخ . وقد نشر أخيراً كتاب « المغرب فى حلى المغرب » فى جزأين محققاً بعناية الدكتور شوقى ضيف وصادراً عن دار المعارف بالقاهرة (١٩٥٣–١٩٥٥ ) .

( ٢ ) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ١٦ ، وقد أورد المقرى شيئاً من شعره .

( ٣ ) ترجم له ابن الخطيب فى الإحاطة ( ج ١ ص ٢١٥ وما بعدها ) . وراجع نفح الطيب ج ٢ ص ١٣٧ .

النباتي والطبيب المشهور ، وهو ضياء الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد ، ولد بمالقة فى أواخر القرن السادس الهجرى ، ودرس على أبى العباس النباتى ، ثم غادر الأندلس فى شبابه ، وطاف بأنحاء المغرب ، وقدم إلى مصر أيام الملك الكامل ، فدخل طبيباً فى خدمته ، ثم خدم ابنه الملك الصالح من بعده ، وعنى بدراسة النبات والأعشاب فى مصر والشأم وآسيا الصغرى وبلاد اليونان ، وألف فى ذلك كتابين ؛ «كتاب الجامع فى الأدوية المفردة » تناول فيه الأدوية النباتية المعروفة فى عصره ، ورتبها على حروف المعجم ، وكتاب « المغنى فى الأدوية المفردة » ، وهو مرتب على مداواة الأعضاء ، وله أيضا كتاب « الأفعال الغريبة والخواص العجيبة » . ودرس عليه ابن أبى أصيبعة العالم المشهور ، وصاحب معجم تراجم الأطباء ، وقد أشاد ببراعته وغزارة علمه ، ودقة فهمه لكتب الأقدمين . وتوفى ابن البيطار بدمشق سنة ٦٤٦ هـ ( ١٢٤٨ م )[(١)] .

وظهر فى هذا العصر علماء آخرون فى الرياضيات والفلك ، وكان منهم مطرّف الإشبيلى ، وقد برع فى الفلك ، واشتغل بالتصنيف فيه ، وكان ينسب إلى الزندقة بسبب اعتكافه فى هذا الشأن ، فكان يخفى تصانيفه ونتائج بحوثه عن أهل عصره[(٢)] .

— ٢ —

وهكذا كانت الحركة الفكرية بالأندلس فى النصف الأول من القرن السابع الهجرى ، تحاول رغم اضطرابها أن تعمل على وصل ماضيها بحاضرها . فلما نهضت مملكة غرناطة من غمر الفوضى ، وبدأت الأندلس حياتها الجديدة فى ظل هذه المملكة الفتية الجديدة ، أخذت الحركة الفكرية فى الاستقرار ، وآنست جواً من الهدوء والطمأنينة . وكان ملوك غرناطة جرياً على سنن ملوك الأندلس السالفين ، من حماة العلوم والآداب ، وكان بلاط غرناطة يسطع بتقاليده الأدبية الزاهرة ، كما سطعت من قبل قصور ملوك الطوائف ، وكان أمراء بنى الأحمر أنفسهم فى طليعة العلماء والأدباء . واشتهر عميدهم ومؤسس دولتهم محمد بن الأحمر ، بحمايته للعلم والأدب ، وكانت له أيام خاصة يستقبل فيها الشعراء وينشدونه قصائدهم[(٣)] ،

( ١ ) راجع فوات الوفيات ج ١ صح ٢٠٤ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٤٤ و ٤٥ .
( ٢ ) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ١٣٨ .
( ٣ ) اللمحة البدرية ص ٣١ .

وكان من خاصة شعرائه الأثيرين لديه صالح بن شريف الرندى حسبما قدمنا . وكان ابنه محمد الفقيه عالماً ضليعاً ، يعشق مجالس العلم ويؤثر العلماء بعطفه ، ويقرض الشعر[١] ، وكذا كان ولده أبو عبد الله محمد الملقب بالمخلوع ، عالماً شاعراً ينظم الشعر المستظرف ، وقد أوردلنا ابن الخطيب قصيدة من شعره يقول فيها :

واعــدنى وعداً وقــد أخلفــا أقل شيء فى المــلاح الوفا
وحال عن عهــدى ولم يرعه ما ضره لو أنه أنصــــــفا
ما بالهــــا لم تتعطف عــــلى صب لهـــا ما زال مستعطفـــا
يستطلع الأنباء من نحــــوها ويرقب البرق إذا ما هفـــا[٢]

وبلغت الحركة الفكرية والأدبية ذروة ازدهارها ، فى مملكة غرناطة ، فى عصر السلطان أبى الحجاج يوسف بن اسماعيل النصرى ( ٧٣٣ — ٧٥٥ ﻫ ) ، وولده السلطان محمد الغنى بالله ( ٧٥٥ — ٧٩٣ ﻫ ) . وكان السلطان أبو الحجاج نفسه ، عالماً أديباً يشغف بالفنون . واشتهر الأمير أبو الوليد اسماعيل بن السلطان يوسف الثانى بأدبه وبارع نثره ، وهو صاحب كتاب « نثير الجمان فيمن ضمنى وإياهم الزمان » الذى يترجم فيه لأعلام عصره فى الشعر والأدب[٣] .

وكان من بين وزراء الدولة النصرية وكتابها ، كثير من أعلام الشعر والأدب . ويكفى أن نذكر فى هذا المقام ابن الحكيم الرندى ، وابن الجياب ، وابن الخطيب ، وابن زمرك ، والشريف العقيلى خاتمة أدباء الأندلس ووزرائها ، وهم جميعاً من أقطاب الحركة الأدبية فى مملكة غرناطة ، ومن أعلام وزرائها وسادتها ، وسنعود إلى التحدث عنهم فيما بعد .

ومما تجدر ملاحظته ، أن الحركة الفكرية الأندلسية فى ذلك العصر ، تكاد تنحصر فى النواحى الأدبية ، فقد ازدهر الأدب والشعر ، وحفلت غرناطة بجمهرة من أكابر الأدباء والشعراء ، ولكن العلوم العقليه أصابها الركود ، وقلما نجد فى هذه الفترة أحداً من أقطاب الطب والفلسفة أو العلوم الرياضية ، أوغيرها من العلوم المحضة ، التى ازدهرت من قبل بالأندلس ، ونبغ فيها ثبت حافل من أكابر

---

( ١ ) اللمحة البدرية ص ٣٨ .

( ٢ ) راجع هذه القصيدة فى اللمحة البدرية ص ٤٩ ، وراجع الإحاطة ج ١ ص ٥٥٣ و ٥٥٤ .

( ٣ ) نفح الطيب ج ٢ ص ٤٠٤ ، وراجع أزهار الرياض ج ١ ص ١٨٦ . وتوجد نسخة مخطوطة وحيدة من هذا الكتاب بدار الكتب المصرية .

العلماء والفلاسفة ، هذا بينما احتفظت الآداب فى مملكة غرناطة بروائها وازدهارها ، حتى اللحظة الأخيرة من حياتها .

وقد تقلبت الحركة الفكرية الأندلسية فى المائتين وخمسين عاماً التى عاشتها مملكة غرناطة ، فى أطوار ثلاثة : طور الفتوة ، وطور النضج ، وطور الإنحلال الأخير . وسوف نحاول أن نستعرض هذه الأطوار الثلاثة تباعاً ، ذاكرين أقطاب التفكير والأدب فى كل مرحلة منها .

— ٣ —

ويبدأ الطور الأول باستقرار مملكة غرناطة وتوطدها ، فى أواخر القرن السابع الهجرى وأوائل القرن الثامن .

وقد حفلت هذه الفترة التى بزغت فيها شمس الأندلس من جديد ، بجمهرة من الشعراء والأدباء والعلماء ، وازدهر الأدب ، واستعاد الشعر بنوع خاص ، كثيراً من روعته ورونقه القديم .

وكان فى طليعة شعراء هذه الفترة ، الكاتب البليغ والأديب البارع ، الوزير ابن الحكيم . وهو أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن ابراهيم بن يحيى اللخمى الرندى وأصلهم من بيوتات إشبيلية ، وكان جد والده يحيى طبيباً عرف بالحكيم ، وأسبغ لقبه على الأسرة . ولما اضطرمت الفتنة بالأندلس أيام الطوائف ، انتقلت الأسرة إلى رندة ، وولد ابن الحكيم برندة سنة ٦٦٠ هـ ، ووفد على غرناطة فتى ، أيام السلطان أبى عبد الله محمد المعروف بالفقيه ، فولاه كتابته فى ديوان الإنشاء . ثم تقلد بعد وفاته الوزارة لولده السلطان أبى عبد الله محمد المخلوع ، إلى جانب وزيره أبى سلطان عزيز الدانى . فلما توفى أبو سلطان ، انفرد ابن الحكيم بالوزارة ، ولقب بذى الوزارتين لجمعه بين الكتابة والوزارة . واستبد بالحكم حيناً حتى نشبت الثورة فى غرناطة ضد السلطان أبى عبد الله المخلوع وحكومته الطاغية ، وقتل فيها ابن الحكيم يوم عيد الفطر سنة ٧٠٨ هـ ( ١٣٠٨ م ) حسبما أسلفنا فى موضعه . وكان ابن الحكيم شاعراً مجيداً وكاتباً بليغاً وخطيباً ذلقاً ، وقد وصفه ابن الخطيب فى الإحاطة بقوله : « كان علماً فى الفضيلة والسراوة ومكارم الأخلاق ، كريم النفس ، واسع الإيثار ، متين الحرمة ، عالى الهمة ، كاتباً بليغاً ، أديباً ، شاعراً » ، وفى كتاب « عائد الصلة » بقوله : « كان فريد دهره سماحة وبشاشة ولوذعية وانطباعاً ، رقيق الحاشية ،

نافذ العزمة ، مهتزاً للمديح ، طلقاً للآمال ، كهفاً للغريب »[1] وزار ابن الحكيم المشرق ، وحج ودرس وتلقى عن مشايخه . ومن شعر ابن الحكيم قوله :

ما أحسن العقل وآثاره     لو لازم الإنسان إيثاره
يصون بالعقل الفتى نفسه     كما يصون الحر أسراره
لاسيما إن كان فى غربة     يحتاج أن يعرف مقداره

ومن قوله فى الغزل :

هل إلى رد عشيات الوصـــال     سبب أم ذاك من ضرب المحال
وليـــال ما تبقى بعــــــدها     غير أشواقى إلى تلك الليـال
إذ مجال الوصل فيها مسرحى     ونعيمى آمـــر فيهـــا ووال
ولحـــالات التراضى جـــولة     مزجت بين قبول واقتبـــال
وغـزال قد بدا لى وجهــــه     فرأيت البدر فى حال الكمال
ما أمال التيــه من أعطـــافه     لم يكن إلا على خصل اعتدال
خص بالحسن فـــا أنت ترى     بعده للناس حظاً فى الجمـال

وقوله :

ألا واصــل مواصـلة العقـار     ودع عنـك التخلق بالوقـار
وقم واخلع عـذارك فى غزال     يحـق لمثـله خلع العـــذار
قضيب مائس من فوق دعص     تعمم بالدجى فـوق النهار
ولاح بخـــده ألف ولام     فصـــار معرفا بين الدرارى[2]

وكان ولده أبو بكر محمد بن الحكيم أيضاً من أعلام الأدب والشعر فى تلك الفترة ، وقد تولى مثله الوزارة فيما بعد ، وكان من أساتذة ابن الخطيب ، وقد ألف فى الأدب كتاباً سماه « بالموارد المستعذبة »[3] .

ومن أكابر الشعراء فى تلك الفترة أبو عبد الله محمد بن خميس التلمسانى ، أصله من تلمسان كما يدل عليه اسمه . ووفد على غرناطة واتصل بالوزير ابن الحكيم ومدحه ، ونزل بألمرية سنة ٧٠٦ هـ واتصل بحاكمها القائد أبى الحسن بن كماشة ،

---

(١) راجع الإحاطة ج ٢ ص ٢٧٩ .

(٢) راجع فى ترجمة ابن الحكيم وشعره : الإحاطة ج ٢ ص ٢٧٨ — ٣٠٣ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٧ — ٩ ، وج ٢ ص ٢٦٣ — ٢٧١ .

(٣) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ٢٦٣ .

ومدحه فأجزل صلته ، ووصفه ابن خاتمة بأنه من فحول الشعراء وأعلام البلغاء ، وقد جمع شعره فى ديوان سمى « الدر النفيس فى شعر ابن خميس » . وكانت وفاته قتيلا بغرناطة يوم مقتل مخدومه الوزير ابن الحكيم وذلك فى يوم عيد الفطر سنة ٧٠٨ هـ ( ١٣٠٨ م ) ، ويمتاز شعره بالجودة والروعة ، ومن نظمه قوله :

نظرت إليك بمثل عينى جوذر وتبسمت عن مثل سمطى جوهر
عن ناصع كالدر أو كالبرق أو كالطلح أو كالاقحوان مؤشر
تجرى عليه من لماها نطفة بل خمرة لكنها لم تعصر
لو لم يكن خمراً سلافاً ريقها تزرى وتلعب بالنهى لم تخطر

وقوله :

عجباً لها أيذوق طعم وصالها من ليس يأمل أن يمر ببالها
وأنا الفقير إلى تعلة ساعة منها وتمنعنى زكاة جمالها
كم ذا وعن عينى الكرى متأنف يبدو ويخفى فى خفى مطالها
يسمو لها بدر الدجى متضائلا كتضاؤل الحسناء فى أسمالها

ومنه :

أتت ولكن بعد طول غياب وفرط لجاج ضاع فيه شبابى
وما زلت والعليا تعنى غريمها أعلل نفسى دائماً بمثاب
وهيهات من بعد الشباب وشرخه يلذ طعامى أو يسوغ شرابى
خدعت بهذا العيش قبل بلائه كما يخدع الصادى يلمع سراب

ومنه قوله فى الحنين إلى بلده تلمسان قصيدة من أبدع قصائده هذا مطلعها :

تلمسان لو أن الزمان بها يسخو منى النفس لادار السلام ولا الكرخ
ودارى بها الأولى التى حيل دونها مثار الأسى لو أمكن الحنق اللبخ
وعهدى بها والعمر فى عنفوانه ومنه شبابى لا أجين ولا مطخ(١)

ومنهم أبو حيان الغرناطى ، محمد بن يوسف بن على ، ولد بغرناطة سنة ٦٥٤ هـ وطاف بالمشرق ، وتوفى بمصر سنة ٧٤٥ هـ ( ١٣٤٤ م ) ، وكان فوق تضلعه فى الحديث والتفسير بارعاً فى اللغة والأدب ، إماماً فى النثر ، ونظم

---

( ١ ) راجع فى أخبار ابن خميس شعره : نفح الطيب ج ٣ ص ١٨٤ – ١٩٤ ؛ وأزهار الرياض ج ٣ ص ٣٠٣ .

الموشحات ، وقد ترك مؤلفات كثيرة في التفسير واللغة والأدب ، وله شعر كثير ومن نظمه قوله فى موشحته :

إن كان ليل داج . وخاننا الإصباح . فنورها الوهاج . يغنى عن المصباح
سـلافة تبـدو كالكوكب الأزهر
مزاجها شـهد وعرفهـا عنـبر
يا حبـذا الورد منها وإن سكر(١)

وكان الرئيس أبو الحسن على بن الجياب ، وزير السلطان يوسف أبى الحجاج وكاتبه ، فى طليعة أقطاب النثر والنظم فى تلك الفترة ؛ ولد بغرناطة سنة ٦٧٣هـ ، وبرع فى الشعر والأدب ، وتقلب فى مناصب الكتابة حتى غدا رئيساً لديوان الإنشاء، وكان من معاونيه فى الكتابة لسان الدين بن الخطيب وقد ورث منصبه عقب وفاته . وتوفى ابن الجياب ضمن ضحايا الوباء الكبير سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٨م) . ومن شعره قوله :

لله عصر الشباب عصرا فتح للخـير كل باب
حفظت ما شئت فيه حفظا كنت أراه بلا ذهـاب
حتى إذا ما المشيب وافى نَدَّ ولـكن بلا إياب

ومنه فى الوعظ :

يا أيهـا الممسـك البخيـل إلهـك المنفق الكفيـل
أنفق وثق بالإله ترع فإن إحسـانه جزيل(٢)

ومن شعراء ذلك العصر أبو عبد الله محمد بن جابر الأندلسى الهوارى الضرير ، وقد رحل إلى المشرق ، ومدح بعض أمرائه ، وقصد إلى سلطان ماردين فأجزل صلته ، وقد أشار ابن بطوطة الرحالة إلى ذلك عند ذكره فى رحلته لسلطان ماردين(٣) ؛ ولابن جابر موشحات كثيرة ومدائح جيدة فى الصحابة وآل البيت ، ومن شعره فى الغزل قوله :

شغفت بها حيناً من الدهر لم يكن سوى سكب دمعى فى محبتها كسبى
وما أصل هـذا كله غير نظـرة إلى مقلة منهـا أصغت لها قلبى

(١) راجع ترجمته وشيئاً من شعره فى فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٨٢ — ٢٨٥ .
(٢) راجع ترجمة ابن الجياب وشعره : نفح الطيب ج ٣ ص ٢٢٣ — ٢٢٩ .
(٣) نفح الطيب ٤ ص ٣٩٣ ؛ ورحلة ابن بطوطة ج ١ ص ١٥٠ .

ومنـــه :

تجنت فجن فى الهوى كل عاقل ... رآها وأحـوال المحب جنـون
وما وعدت إلا غلت فى مطالها ... كذلك وعـد الغانيات يكون

ومنه فى الحكم :

مهـلا فما شـيم الوفا منقادة ... لمن ابتغى من نيلها أوطارا
رتب المعـالى لا تنال بحيـلة ... يوماً ولو جهـد الفتى أوطارا

وقال يتشوق إلى حمراء غرناطة :

دامت على الحمراء حمر مدامعى ... والقلب فيما بين ذلك ذائب
طال المـدى بى عنهم ولربمـا ... قد عاد من بعد الإطالة غائب

* * *

وظهر من أقطاب اللغة فى تلك الفترة عدة ، منهم أبو بكر محمد بن إدريس القرانى القضاعى المتوفى سنة ٧٠٧ هـ ( ١٣٠٧ م ) . وقد كتب فى علم العروض كتاب « الختام المفضوض عن خلاصة علم العروض » ومنه نسخة بمكتبة الإسكوريال (١) .

ومنهم أبو جعفر أحمد بن ابراهيم بن الزبير الحافظ النحوى شيخ ابن الخطيب الأب ، وقد ولد بجيان سنة ٦٢٦ هـ وتوفى سنة ٧٠٨ هـ (١٣٠٨ م) . قال ابن الخطيب فى حقه : « انتهت إليه رياسة العربية بالأندلس » ؛ وكان عالماً بالقرآن والحديث ، مجيداً للنثر والنظم ، ولى القضاء بغرناطة ، واتصل بسلطانها الأمير أبى عبد الله محمد بن محمد بن الأحمر فأكرم مثواه ، وقد صنف كتباً عدة فى مختلف الفنون ، ومن آثاره المنشورة كتاب « صلة الصلة » الذى ألفه ذيلا على كتاب الصلة لابن بشكوال (٢) .

ومنهم أبو الحسن على بن يحيى الفزارى المالقى المعروف بابن البرزى المتوفى سنة ٧٥٠ هـ ( ١٣٤٩ م ) ، وكان بارعاً فى اللغة ، وله شعر يصفه ابن الخطيب بالضعف والهزال .

ومنهم أبو عبد الله محمد بن على الفخّار البيرى ، كان شيخ النحاة بالأندلس فى عصره ؛ درس عليه الكثيرون ومنهم ابن الخطيب وابن زمرك ، وقد وصفه

( ١ ) المستشرق بروكلمان فى تاريخ الأدب العربى Geschichte der Arabischen Litteratur 1943 .B . II. p. 259.

( ٢ ) راجع فى ترجمة ابن الزبير ، كتاب « صلة الصلة » المنشور بعناية الأستاذ ليڤى بروڤنسال فى المقدمة ص : و–ج . وكذلك الإحاطة ج ١ ص ١٩٥ – ٢٠٠ .

ابن الخطيب فى الإحاطة « بالإمام المجمع على إمامته فى العربيه ، المفتوح عليه من الله فيها حفظاً واطلاعاً ، واضطلاعاً ، ونقلا وتوجيها بما لا مطمع فيه لسواه » ، وكانت وفاته بغرناطة سنة ٧٥٤ هـ ( ١٣٥٣ م )(١) .

* * *

ونبغ من علماء الدين والفقه فى تلك الفترة ، القاسم بن عبد الله بن الشط الأنصارى الإشبيلى ، المتوفى سنة ٧٢٥ هـ ( ١٣٢٤ م ) وله كتاب « البرنامج » عن قضاة الأندلس (٢) . وأبو القاسم بن جزى الكلبى ( محمد بن أحمد بن محمد ) وهو من أهل غرناطة ، وأصل سلفه من ولبة بولاية الغرب ، كان فقيها حافظا مشاركا فى فنون كثيرة ، ولاسيما اللغة والفقه ، والقراءات والأدب . اشتغل بالتدريس بغرناطة ، وتولى منصب الخطابة بالجامع الأعظم ، وله عدة مؤلفات منها كتاب « التسهيل لعلوم التنزيل » و« الأنوار السنية فى الألفاظ السنية » و« القوانين الفقهية فى تلخيص مذهب المالكية » وكتاب « تقريب الوصول إلى علم الأصول » وغيرها ، وله فهرسة اشتملت على طائفة كبيرة من علماء المشرق والمغرب ، وولد بغرناطة سنة ٦٩٣ هـ وتوفى قتيلا فى موقعة طريف سنة ٧٤١ هـ(٣) .

وازدهر التصوف فى هذا العصر ، وكان من أقطابه يومئذ أبو الحسن على ابن فرحون القرشى القرطبى ، المتوفى سنة ٧٥١ هـ ( ١٣٥٠ م ) ؛ وأبو اسحاق ابراهيم بن يحيى الأنصارى المرسى ، وقد ولد فى سنة ٦٨٧ هـ وتوفى بغرناطة سنة ٧٥١ هـ ( ١٣٥٠ م ) ، وله كتاب « زهرة الأكمام » فى قصة يوسف ؛ وأبو عبد الله محمد بن محمد الأنصارى المالقى المولود سنة ٦٤٩ هـ ، والمتوفى سنة ٧٥٤ هـ ( ١٣٥٣ م ) ، وله كتاب « بغية السالك فى أشرف المسالك » فى مراتب الصوفية وطرائق المريدين (٤) .

وظهر من المؤرخين ، محمد بن يحيى بن أبى بكر بن سعيد الأنصارى المالكى . وقد ولد سنة ٦٧٤ هـ ، وتولى الخطابة والقضاء بغرناطة ، وتوفى قتيلا فى

---

( ١ ) نفح الطيب ج ٣ ص ١٨٢ و ١٩٦ .

( ٢ ) بروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٤ .

( ٣ ) نفح الطيب ( عن الإحاطة ) ج ٣ ص ٢٧١ ، وبروكلمان المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٥ .

( ٤ ) بروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٥ .

سنة ٧٤١ هـ (١٣٤٠ م) فى موقعة طريف . ومن آثاره كتاب « التمهيد والبيان فى مقتل الشهيد عثمان بن عفان »[١] .

ومن الرحل والرواة ، أبو البقاء خالد بن عيسى البلوى ، وقد رحل إلى إفريقية والمشرق بين سنتى ٧٤٦ و ٧٤٠ هـ ، وكتب عن رحلته كتاب « تاج المفرق فى تحلية علماء المشرق » وانتفع فى مؤلفاته بما كتبه ابن جبير عن المشرق[٢] .

* * *

وأما العلوم فلم تزدهر مثل إزدهارها فى الماضى ، ولم تشغل فى الحركة الفكرية سوى مجال محدود . وكان من أشهر علماء ذلك العصر أبوزكريا يحي بن هذيل حكيم غرناطة وفيلسوفها المتوفى سنة ٧٥٣ هـ (١٣٥٣ م) ، وقد برع فى الطب والفلسفة والعلوم والرياضة ، وكان من شيوخ ابن الخطيب[٣] وقد وصفه ابن الخطيب فى الإحاطة بأنه « درة بين الناس معطلة ، وخزانة على كل فائدة مقفلة » ونوه بروعة محاضراته وأدبه . وله شعر جمع فى ديوان سمى « بالسليمانيات » . وقد نقل إلينا المقرى طائفة من نظمه[٤] . ونستطيع أن نضع فى العلماء المعاصرين أيضاً شيخ ابن الخطيب أبا عثمان سعد بن أحمد بن ليون التجيبى ، وكان من أكابر الأئمة فى الفقه ، واختصر عدة من أمهات الكتب مثل كتاب « بهجة المجالس » لابن عبد البر . وكتب كتباً فى الهندسة والفلاحة[٥] .

---

(١) بروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٠ ، وتوجد من هذا الكتاب نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية .

(٢) بروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٦ ، وتوجد من كتابه نسخة خطية بدار الكتب المصرية .

(٣) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ٥٢ . وص ٢٥٨ .

(٤) نفح الطيب ج ٣ ص ٢٥٨ — ٢٦٣ .

(٥) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ٣٠٢ .

# الفصل الثالث

## عهـــد النضج والازدهار

تقدم الحركة الفكرية . ابن سلبطور الشاعر . أبو القاسم الحسينى . ابن خاتمة . ابن الخطيب . نشأته وحياته . سفارته إلى المغرب وقصيدته للسلطان . وصفه لحياته فى الوزارة . سقوطه وجوازه إلى المغرب . احتفاء السلطان به وإنشاده فى حضرته . ابن الخطيب وابن خلدون . ما قاله الأمير ابن الأحمر فى تقدير ابن الخطيب . تهنئته للسلطان . عوده إلى الأندلس وإلى تولى الوزارة . وصفه لجهوده يومئذ . ما ينسب إليه من طغيان . فقده لحظوته وجوازه إلى المغرب . كيد خصومه له . اتهامه بالزندقة . تطور الحوادث فى المغرب . تفاهم بلاط غرناطة مع سلطان المغرب على الإيقاع به . الوزير ابن زمرك يلاحقه فى فاس . اتهامه ومصرعه . مؤلفاته وآثاره . أثره فى تطور الحركة الأدبية . ابن زمرك تلميذ ابن الخطيب . نشأته وحياته . مكانته الأدبية . نماذج من شعره وموشحاته . الموازنة بينه وبين ابن الخطيب. بقية الشعراء والأدباء فى تلك الفترة . الفقهاء . المؤرخون .

شهدت الحركة الفكرية الأندلسية فى مملكة غرناطة ، مرحلة النضج فى أواسط القرن الثامن الهجرى وأواخره ، وشهدت فى النصف الأخير من هذا القرن ، ذروة قوتها وازدهارها .ولا غرو فهذه الفترة هى التى سطع فيها ابن الخطيب ، أعظم مفكرى الأندلس ، وأعظم كتابها وشعرائها فى ذلك العصر . وامتازت هذه الفترة ، بروعة إنتاجها الأدبى فى النثر والنظم ، وربما كان للأحداث والفتن الداخلية الخطيرة التى جازتها الأندلس يومئذ ، أكبر أثر فى تغذية هذه الحركة الممتازة ،وإمدادها بمختلف الإنفعالات القوية ، التى طبعت إنتاجها .

وقد بدأت هذه الحركة فى عصر السلطان أبى الحجاج يوسف بن اسماعيل ، أعظم سلاطين بنى نصر (٧٣٣ – ٧٥٥ هـ) وأشدهم حماسة فى تعضيد الآداب والفنون ، واستمرت من بعده طوال القرن الثامن الهجرى ، وحفلت بعدد كبير من الأدباء والشعراء الممتازين . وقد استعرضنا الكثير منهم فيما تقدم حتى منتصف القرن الثامن ، وسنمضى هنا فى استعراض بقية هذا الثبت الحافل حتى أواخر هذا القرن .

كان من أكابر الشعراء فى بداية هذه الفترة ، ابن سلبطور شاعر ألمرية ،وهو أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد بن سلبطور الهاشمى ، والظاهر أنه قد يرجع إلى أصل من أصول المولدين الإسبان ،.كما يدلى بذلك اسمه سلبطور Salvador ؛

وقد نشأ بألمرية ، وبرع فى الأدب ، وتدرب منذ فتوته على ركوب البحر وقيادة السفن ، وناب فى قيادة الأسطول عن خاله القائد أبى على الرنداحى أحد أبناء أسرة الرنداحى، التى اشتهرت عصراً بقيادتها للأساطيل الأندلسية وأساطيل سبتة . واشتهر ابن سلبطور برائق نظمه . وفى أواخر حياته انحرف عن جادة الصواب، وانكب على ملاذه وشهواته ، وأضاع كل ثروته ، حتى ساءت حالته ، وانحدر إلى هاوية الفقر والبؤس ، فعبر البحر إلى العدوة ، وتوفى بمراكش سنة ٧٥٥ ه (١٣٥٤ م) . ومن شعره يمتدح السلطان حين حل بألمرية :

أثغرك أم سمط من الدر ينظم ... وريقك أم مسك من الراح تختم
ووجهك أم باد من الصبح نير ... وفرعك أم داج من الليل مظلم
أعلل منك الوجد والليل ملتقى ... وهل ينفع التعليل والخطب مؤلم
وأقنع من طيف الخيال بزورة ... لو ان جفونى بالمنــام تنعم(١)

ومنهم أبوعبد الله محمد بن جُزى، الكاتب الشاعر، ولد بغرناطة سنة ٧٢١ ه، وانتظم منذ فتوته بين كتاب السلطان أبى الحجاج يوسف ،وحظى لديه ومدحه بطائفة من القصائد الرنانة ، ثم غضب عليه ونكبه ، فغادر الأندلس إلى العدوة ، ودخل فى خدمة السلطان أبى عنان المرينى ومدحه ؛ وكان بارعاً فى النثر والنظم ؛ ذكره ابن الأحمر فى « نثير الجمان » وأشاد بمقدرته ، ووصفه بأنه أعظم شاعر فى عصره . وكانت وفاته بمراكش سنة ٧٥٧ ه (١٣٥٦ م)(٢). وهو الذى أنشأ رحلة ابن بطوطة من مذكرات صاحبها حسبما ينوه بذلك فى خاتمة الكتاب(٣) .

ومنهم قاضى الجماعة ، أبو القاسم محمد بن أحمد الشريف الحسينى ، ولد سنة ٦٩٧ ه ، وتوفى بغرناطة سنة ٧٦٠ ه (١٣٥٨ م) ،ولى رياسة القضاء ، وكان فوق تضلعه فى الحديث والفقه ، شاعراً مجيداً ، وكتب فى العروض والأدب، وجمع شعره فى ديوان أسماه « جهد المقل »(٤) .

ومنهم أبو جعفر أحمد بن على بن محمد بن خاتمة الأنصارى؛ ولد بألمرية

---

(١) نفح الطيب (عن الإحاطة) ج ٣ ص ٤٥٠ .
(٢) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ٢٨٤ وما بعدها ، وأزهار الرياض ج ٢ ص ١٨٩ ومابعدها وفيه يورد بعض شعره .
(٣) أزهار الرياض ج ٢ ص ١٩٥ ، ورحلة ابن بطوطة (مصر) ج ٢ ص ٢٠٧
(٤) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ١٠٧ .

سنة ٧٢٤ هـ . وتوفى سنة ٧٧٠هـ (١٣٦٩م) . وكان أديباً كبيراً وشاعراً مبرزاً . وقد خصه ابن الخطيب فى الإحاطة بترجمة قوية[١]، ووصفه بأنه « صدر يشار إليه، متفنن، مشارك، قوى الإدراك، سديد النظر، قوى الذهن، جيد القريحة » . ووصفه فى كتابه « التاج المحلى » بقوله : « ناظم درر الألفاظ، ومقلد جواهر الكلام، نحور الرواة ولبات الحفاظ » .

وكتب ابن خاتمة عن مسقط رأسه ألمرية، كتاباً أسماه « مزية ألمرية على غيرها من البلاد الأندلسية »، وكتب عن الوباء الكبير الذى عصف بالأندلس سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٨ م) رسالة عنوانها ؛ « تحصيل غرض القاصد فى تفصيل المرض الوافد » يصف فيها عصف الوباء وسيره بمدينة ألمرية[٢] . وله ديوان شعر محفوظ بمكتبة الإسكوريال . ومن شعره قوله من قصيدة طويلة :

من لم يشاهد موقفاً لفراق ... لم يدر كيف توله العشاق
إن كنت لم تره فسائل من رأى ... يخبرك عن ولهى وعن أشواقى
من حر أنفاس وخفق جوانح ... وصدوع أكباد وفيض مآق
دهى الفؤاد فلا اللسان بناطق ... عند الوداع ولا بلفظ فراق

وقوله من قصيدة أخرى :

لولا حيائى من عيون النرجس ... للثمت خد الورد بين السندس
ورشفت من ثغر الأقاحة ريقها ... وضممت أعطاف الغصون الميس
شتان بين مظاهر ومخاتل ... وعف الحجا ومطهر ومدنس
ومجمجم بالعذل باكرنى به ... والطير أفصح مسعد بتأنس[٣]

وقوله :

هو الدهر لا يبقى على عائذ به ... فمن شاء عيشاً يصطبر لنوائبه
فمن لم يصب فى نفسه فمصابه ... بفوت أمانيه وفقد حبائبه

وكتب ابن خاتمة إلى صديقه ابن الخطيب، حينما أزمع الرحلة عن الأندلس، رسالة مؤثرة يخاطبه فيها بقوله : « إنكم بهذه الجزيرة شمس أفقها، وتاج مفرقها،

---

(١) تراجع هذه الترجمة فى الإحاطة ج ١ ص ٢٤٧ — ٢٦٧ .

(٢) توجد من هذه الرسالة نسخة مخطوطة ضمن مجموعة تحفظ بمكتبة الإسكوريال (رقم ١٧٨٥ الغزيرى) .

(٣) تراجع هاتان القصيدتان فى الإحاطة ج ١ ص ٢٥٢ — ٢٥٤ و ٢٥٥ — ٢٥٧ .

وواسطة سلكها ، وطراز ملكها ، وقلادة نحرها ، وفريدة دهرها ، وعقد جيدها المنصوص ، وتمام زينتها على المعلوم والمخصوص ؛ ثم أنتم مدار أفلاكها ، وسر سياسة أملاكها ، وترجمان بيانها ، ولسان إحسانها ، وطبيب مارستانها ، والذى عليه عقد إدارتها ، وبه قوام إمارتها » . وقد رد عليه ابن الخطيب برسالة مؤثرة كذلك تفيض بلاغة وبياناً[1] .

— ٢ —

نعرض بعد ذلك ، إلى ألمع فترة فى الحركة الفكرية ، فى ظل مملكة غرناطة ، وهى الحركة التى كان قطبها ومحورها ، أعظم مفكرى الأندلس ، وأعظم شعرائها وكتابها ، فى القرن الثامن الهجرى ، ونعنى لسان الدين بن الخطيب .

وقد أشرنا فيما تقدم إلى نشأة ابن الخطيب ، واستعرضنا طرفاً من حياته السياسية ، ونريد هنا أن نبسط القول فى حياته الفكرية والأدبية .

وهو لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن الخطيب ؛ ولد فى لوشة من أعمال غرناطة ، فى بيت من أكرم بيوت الأندلس فى شهر رجب سنة ٧١٣ هـ ( ١٣١٣ م ) ، ثم انتقل بيتهم من لوشة إلى غرناطة . وخدم أبوه عبد الله فى القصر الخاص فى عهد السلطان يوسف أبى الحجاج . وتلقى ابن الخطيب دراسة حسنة . ودرس الطب والفلسفة والشريعة والأدب ، وبرز فى النثر والنظم منذ حداثته ، ولما توفى أبوه فى سنة ٧٤١ هـ قتيلا فى موقعة طريف حل مكانه فى خدمة القصر ، وهو فتى فى عنفوانه ، وتولى أمانة السر للوزير أبى الحسن بن الجياب ، وزير السلطان يوسف . ولما توفى ابن الجياب فى الوباء الكبير سنة ٧٤٩ هـ ، خلفه فى الوزارة والكتابة ، إلى جانب كبير الوزراء الحاجب أبى النعيم رضوان ، وندبه السلطان لبعض السفارات والمهام السياسية . ولما توفى السلطان أبو الحجاج يوسف (٧٥٥ هـ) ، وخلفه ولده محمد الغنى بالله ، استمر الحاجب رضوان فى الاضطلاع برياسة الوزارة ، واستمر ابن الخطيب إلى جانبه فى منصبه ، وندب للوصاية على الأمراء القصر ، وأرسله السلطان لأول ولايته ( أواخر سنة ٧٥٥ هـ ) سفيراً إلى السلطان أبى عنان المرينى سلطان المغرب ، على رأس وفد من وزراء

---

( ١ ) راجع الإحاطة حيث يورد رسالة ابن خاتمة ورد ابن الخطيب عليها ج ١ ص ٢٦١—٢٦٧ وكذلك أزهار الرياض ج ١ ص ٢٦٥ — ٢٧٠ . وراجع عن ابن خاتمة نفح الطيب ج ٣ ص ١٨٤ و ٤١١ ما بعدها ؛ وكذلك بروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٥٩ .

الأندلس ، يستنصره ويستغيث به على مقاومة طاغية قشتالة ، وأنشد ابن الخطيب بين يدى السلطان قصيدة يقول فيها :

خليفة الله ساعد القدر علاك ما لاح فى الدجى قمر
ودافعت عنك كف قدرته ما ليس يستطيع دفعه البشر
وجهك فى النائبات بدر دجى لنا وفى المحل كفك المطر
والناس طرا بأرض أندلس لولاك ما أوطنوا ولا عمروا
وجملة الأمر أنه وطن فى غير علياك ما له وطر

فاهتز السلطان لقصيدته ، ووعدهم بإجابة ملتمسهم وتحقيق رغباتهم(١) .

ثم وقعت الثورة فى غرناطة فى شهر رمضان سنة ٧٦٠ هـ ( ١٣٥٩ م ) ، وقتل الحاجب رضوان ، وأقصى الغنى بالله عن الملك ، وفر إلى وادى آش ، وخلفه على العرش أخوه اسماعيل ، وولى ابن الخطيب الوزارة للملك الجديد حيناً ، ولكن سرعان ما غضب عليه ، وأمر باعتقاله ومصادرة أمواله . ويصف لنا ابن الخطيب فى ترجمته لنفسه ، فى نهاية كتاب الإحاطة ، هذه المراحل الأولى من حياته فى قوله : « فقلدنى السلطان سره ( يريد أبا الحجاج ) ولما يستكمل الشباب ، واستعملنى فى السفارة إلى الملوك ، واستنابنى بدار ملكه ، ورمى إلى بخاتمه وسيفه ، وائتمننى على صون حضرته وبيت ماله ، وسجوف حرمه . ومعقل أمتناعه . ولما هلك السلطان ، ضاعف ولده حظوتى ، وأعلى مجلسى ، وقصر المشورة على نصحى ، إلى أن كانت الكائنة ، فاقتدى فى أخوه المتغلب على الأمر ، فسجل الاختصاص وعقد القلادة ، ثم حمله أهل الشحناء من أعوان ثورته ، على القبض على ، فكان ذلك » .

وتدخل السلطان أبو سالم ملك المغرب ، فى شأن السلطان المخلوع الغنى بالله ، وكانت تربطه به مودة وصداقة ، مذ كان أيام محنته يلوذ بحمايته بغرناطة ، وأرسل إلى ملك غرناطة الجديد سفيراً يطلب إجازة الغنى بالله ووزيره المعتقل إلى المغرب ، فأجابه السلطان اسماعيل إلى مطلبه ، وجاز الغنى بالله وابن الخطيب إلى المغرب ووصلا إلى فاس فى أوائل شهر المحرم سنة ٧٦١ هـ ، واستقبلهما السلطان أبو سالم بترحاب ، واحتفل بقدومهما فى يوم مشهود ، وأنشده ابن الخطيب يومئذ قصيدته المشهورة ، التى يدعوه فيها لنصرة سلطانه وهذا مطلعها :

---

( ١ ) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ٥٣ ؛ وابن خلدون ج ٧ ص ٣٣٣ .

سلا هل لديها من مخبرة ذكر … وهل أعشب الوادى ونم به الزهر
وهل باكر الوسمىُّ داراً على اللوى … عفت آيها إلا التوهم والذكر
بلادى التى عاطيت مشمولة الهوى … بأكنافها والعيش فينان مخضر
وجوِّى الذى ربى جناحى وكره … فها أنا ذا ما لى جناح ولا وكر

ومنهـا :

قصدناك يا خير الملوك على النوى … لتنصفنا مما جنى عبدك الدهر
كففنا بك الأيام عن غلوائها … وقد رابنا منها التعسف والكبر
وعُذنا بذاك المجد فانصرم الردى … ولذنا بذاك العزم فانهزم الشر
ولما أتينا البحر يرهب موجه … ذكرنا نداك الغمر فاحتقر البحر

ومنهـا :

وأنت الذى تدعى إذا دهم الردى … وأنت الذى ترجى إذا أخلف القطر
ومثلك من يرعى الدخيل ومن دعا … بيالمرين جاءه العـز والنصر
وخـذ يا إمام الحق بالحق ثأره … ففى ضمن ما تأتى به العز والأجر(١)

وكان لإنشاد ابن الخطيب فى السامعين أعظم وقع . ويقول لنا ابن خلدون، وقد كان من شهود ذلك الحفل ، إن ابن الخطيب أبكى سامعيه تأثراً وأسى . وكان هذا أول لقاء بين هذين المفكرين العظيمين ، اللذين تجمع بينهما مشابهات عدة . فقد كان كلاهما أستاذ عصره فى التفكير والكتابة ، وقد خاض كلاهما نفس الحياة السياسية المضطربة ، وأخذ بقسط بارز فى حوادث عصره ، وفى توجيه شئونه ؛ وكان ابن خلدون يشغل فى دول المغرب ، نفس المركز الذى يشغله ابن الخطيب بالأندلس ، وقد استأثر فى المغرب بزعامة التفكير والكتابة ، التى يستأثر بها ابن الخطيب فى الأندلس . وتوثقت بين المفكرين العظيمين مدى حين ، أواصر المودة والصداقة ، ثم فرقت بينهما عوامل الغيرة والتنافس ، حينما عبر ابن خلدون بعد ذلك إلى الأندلس ، واتصل بسلطانها الغنى بالله . وكان كل منهما يقدر صاحبه ويجل مواهبه ، وقد ترجم كلاهما صاحبه بما ينم عن هذا التقدير والإجلال ، فيقول لنا ابن خلدون مثلا فى ترجمته لابن الخطيب إنه « بلغ فى الشعر والترسل حيث لا يجارى فيهما ، وملأ الدولة بمدايحه ، وانتشرت فى الآفاق قدماه » . ثم ينوه بعد ذلك

(١) تراجع هذه القصيدة بأكلها فى نفح الطيب ج ٣ ص ٤٥ — ٤٧ ، وأزهار الرياض ج ١ ص ١٩٦ — ٢٠٠ .

بروعة رسائله السلطانية ، وبراعته فى الإدارة والحكم[1] .

ويصف لنا الأمير أبو الوليد اسماعيل بن الأحمر ، معاصر ابن الخطيب ، خلاله ومواهبه « فى كتابه نثير الجمان » فى تلك العبارات الرنانة :

« هو شاعر الدنيا ، وعلم الفرد والثنيا ، وكاتب الأرض إلى يوم العرض ، لا يدافع مدحه فى الكتب ، ولا يمنح فيه إلى العتب ، آخر من تقدم فى الماضى ، وهو نفيس العدوتين ، ورئيس الدولتين ، بالاطلاع على العلوم العقلية ، والإمتاع بالفهوم النقلية » . ثم يشير بعد ذلك إلى قسوته فى الهجاء ، وإلى كونه قد هجا ابن عمه سلطان الأندلس بما لا يليق ويجمل[2] .

وتجول ابن الخطيب حيناً بالمغرب ، واستقر بسلا ، وتوالت مدائحه للسلطان أبى سالم ، ومنها قصيدة طويلة يهنئ فيها السلطان بفتح تلمسان (٧٦١هـ) هذا مطلعها :

أطاع لسانى فى مديحك إحسانى      وقد لهجت نفسى بفتح تلمسان
فأطلعتها تفتر عن شنب المنى      وتسفر عن وجه من السعد حيانى
كما ابتسم النوار عن أدمع الحيـا      وجف بخد الورد عارض نيسان
كما صفقت ريح الشمال شمولهـا      فبان ارتياح السكر فى غصن البان[3]

وبعث إلى السلطان فى الوقت نفسه من سلا ، برسالة بليغة يهنئه فيها بذلك الفتح الكبير[4] .

أنفق ابن الخطيب ومليكه فى المتفى زهاء عامين ونصف ، حتى مهدت حوادث الأندلس لسقوط المغتصب ، واستطاع الغنى بالله بمعاونة الوزير عمر المتغلب على المغرب ، أن يسترد ملكه ، وذلك فى جمادى الآخرة سنة ٧٦٣ هـ ( ١٣٦١ م ) ، ورد السلطان وزيره ابن الخطيب إلى سابق مكانته فى الوزارة ؛ ولكنه لم ينعم تلك المرة بسابق حظوته ونفوذه ، إذ كان ينافسه فى السلطة شيخ الغزاة عثمان بن يحيى ، الذى قربه السـلطان وأولاده عطفه ، لما قام به

---

( ١ ) كتاب العبر ج ٧ ص ٣٣٢ وما بعدها .

( ٢ ) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ٣٣٤ ، حيث ينقل تلك الفقرات . وتوجد من كتاب « نثير الجمان » نسخة خطية وحيدة بدار الكتب المصرية تحفظ برقم ١٨٦٣ آداب .

( ٣ ) وردت هذه القصيدة بأكملها فى نفح الطيب ج ٣ ص ١٦ — ١٩ ؛ وفى بعض أجزائها ينحو ابن الخطيب نحو أبى البقاء فى مرثيته الأندلسية .

( ٤ ) وردت هذه الرسالة فى نفح الطيب ج ٣ ص ١٩ و ٢٠ .

من معاونته فى استرداد ملكه . ونشبت بين الرجلين منافسة شديدة ، وما زال ابن الخطيب يحرض السلطان ويحذره من نفوذ عثمان وآله ، ويذكره بسابق غدرهم ، حتى استجاب السلطان إلى تحريضه ونكبهم ( رمضان سنة ٧٦٤ هـ ) ، وبذا خلا له الجو ، وتبوأ ذروة النفوذ والسلطان .

ويصف لنا ابن الخطيب ، جهوده وعمله فى الوزارة يومئذ فى قوله : « ثم صرفت الفكر إلى بناء الزاوية والمدرسة والتربة ، بكر الحسنات بهذه الخطة ، بل بالجزيرة فيما سلف من المدة ، فتأتى بمنة الله تعالى من صلاح السلطان ، وعفاف الحاشية ، والأمن ، وروم الثغور ، وتثمير الجباية ، وإنصاف الحماة والمقاتلة ، ومقارعة الملوك المجاورة ، فى إيثار المصلحة الدينية ، والصدع فوق المنابر ، ضماناً من السلطان ، بترياق سم الثورة ، وإصلاح بواطن الخاصة والعامة... »[1] .

غير أن معظم الروايات تدل من جهة أخرى ، على أن ابن الخطيب جنح عندئذ إلى الاستبداد وسوء المسلك والسيرة . وإليك كيف يصف صديقه ومعاصره ابن خلدون هذه المرحلة من حياته :

« وغلب على هوى السلطان ، ودفع إليه تدبير الدولة ، وخلط بنيه بندمائه وأهل حكومته ، وانفرد ابن الخطيب بالحل والعقد ، وانصرفت إليه الوجوه ، وعلقت به الآمال ، وغشى بابه الخاصة والكافة ، وغصت به بطانة السلطان وحاشيته ، فتفننوا فى السعاية فيه »[2] .

وأنفق ابن الخطيب بضعة أعوام أخرى فى الوزارة وهو يستأثر بكل سلطة ويتصرف تصرف الحاكم المطلق ، ويثير حوله ضراماً من البغضاء والحسد . وكان السلطان يعرض فى البداية عن الإصغاء لأعدائه والوشاة به ، ولكنه بدأ فى النهاية يتأثر بسعايتهم . وشعر ابن الخطيب أنه قد بدأ يتغير عليه ، وخشى العاقبة ، فعول على مغادرة الأندلس ، واستأذن السلطان فى تفقد الثغور الغربية ، وسار إليها فى نفر من خاصته ومعه ولده على ، وما كاد يصل إلى جبل الفتح ( جبل طارق ) ، حتى عبر البحر إلى سبتة ( ٧٧٢ هـ ) ، وذلك بتفاهم سابق بينه وبين السلطان عبد العزيز المرينى ، ملك المغرب ، وكان يقيم يومئذ فى تلمسان عقب افتتاحه لها ، فقصد إليها ابن الخطيب ، واستقبله السلطان بحفاوة ، وأنزله أكرم منزل ، وبعث سفيراً إلى الأندلس ليسعى فى استقدام أسرة الوزير المنفى ، فأتى بها معززة مكرمة ،

---

( ١ ) نفح الطيب ج ٣ ص ٤١ .    ( ٢ ) ابن خلدون فى كتاب العبر ج ٧ ص ٣٣٥ .

وتبوأ ابن الخطيب فى بلاط ملك المغرب أسمى مكانة . وغص خصوم ابن الخطيب بغرناطة ، بنجاته على هذا النحو ، فعولوا على ملاحقته وسحق هيبته ، فاتهموه بالزندقة والخروج على شريعة الإسلام ، والطعن فى النبى ، والقول بالحلول ، وسلوك مذهب الفلاسفة الملحدين ، واستندوا فى ذلك إلى بعض أقوال وردت فى رسائله ومقالاته أولوها وفق مقاصدهم . وكان تلميذه وخلفه فى الوزارة أبو عبد الله بن زمرك ، أكبر مروج لهذه الدعاية ، وتولى صوغ الإتهام القاضى أبو الحسن على بن عبد الله النباهى عدو ابن الخطيب الألد ، وأفتى بوجوب حرق كتبه التى تتناول العقائد والأخلاق ، فأحرقت فى غرناطة بمحضر من الفقهاء والمدرسين والعلماء « لما تضمنته من المقالات التى أوجبت ذلك عندهم وحققته لديهم » ( سنة ٧٧٣ هـ )[1] . ووجه أبو الحسن إلى ابن الخطيب بالمغرب رسالة شديدة ، ينوه فيها بما ارتكبه من الطعن فى حق النبى ، ويقول : « فإنه نقل عنكم فى هذا الباب أشياء منكرة ، يكبر فى النفوس التكلم بها ، أنتم تعلمونها وهى التى زرعت فى القلوب ما زرعت من بغضكم وإيثار بعدكم ، مع استشعار الشفقة والوجل ، من وجه آخر عليكم ، ولولا أنكم سافرتم قبل تقلص السلطة عنكم ، لكانت الأمة المسلمة امتعاضاً لدينها ودنياها ، قد برزت بهذه الجهات لطلب الحق منكم » . ثم يعدد مثالبه فى الحكم قائلا : « فليس يعلم أنه صدر عن مثلكم من خدام الدول ، ما صدر من العبث ، فى الإبشار والأموال ، وهتك الأعراض وإفشاء الأسرار ، وكشف الأستار ، واستعمال المكر والحيل والغدر ، فى غالب الأحوال ، للشريف والمشروف والخادم والمخدوم »[2] . وسجل القاضى أبو الحسن تهمة الزندقة على ابن الخطيب ، وصادق السلطان على حكمه ، وأرسل القاضى رسله إلى السلطان عبد العزيز ، يطالب بتنفيذ حكم الشرع فى الوزير الملحد وهو الإعدام ، فأنف السلطان لطلبه وعنف رسل الأندلس ، وقال لهم : « هلا أنفذتم فيه حكم الشرع وهو عندكم ، وأنتم عالمون بما كان عليه » وردهم خائبين ، وزاد فى إكرام ابن الخطيب ورعايته[3] .

---

( ١ ) كتاب المرقبة العليا ، أو تاريخ قضاة الأندلس لأبى الحسن النباهى المنشور بعناية الأستاذ ليفى بروفنسال ص ٢٠٢ .

( ٢ ) نفح الطيب ج ٣ ص ٦٩ .

( ٣ ) راجع ابن خلدون فى كتاب العبر ج ٧ ص ٣٣٥ و ٣٣٦ ؛ ونفح الطيب ج ٣ ص ٦٧ و ٦٨ .

ولما توفى السلطان عبد العزيز بعد ذلك بقليل ( ٧٧٤ هـ ) ، وخلفه ولده السعيد طفلا على العرش ، غادر بلاطُ المغرب تلمسان ، وسار ابن الخطيب برفقة الوزير أبى بكر بن غازى القائم بالدولة ، ونزل بفاس ، واقتنى الضياع والدورر ، واستمر على مكانته فى الدولة . ولكن حوادث المغرب ما لبثت أن تمخضت عن انقلاب جديد . ذلك أن الثورة نشبت فى شمال المغرب ، على يد بعض الزعماء من بنى مرين . وعضدت حكومة الأندلس هذه الحركة وأمدتها بالعون ، ونادى الثوار بولاية الأمير أحمد بن السلطان أبى سالم . وحاول الوزير ابن غازى مقاومة الثوار فلم يفلح ، واقتحم الخوارج فاس فأذعن الوزير ، وخلع الملك الطفل السعيد ، وجلس السلطان أحمد على العرش وذلك فى أوائل سنة ٧٧٦ هـ (١٣٧٤م) .

وكان ابن الخطيب قد لجأ فى أثناء ذلك إلى البلد الجديد ( ضاحية فاس ) ، وكان التفاهم قد تم بين السلطان ابن الأحمر ( الغنى بالله ) وزعماء الفتنة ، بشأن ابن الخطيب ومصيره ؛ فلما وقع الانقلاب بادر السلطان الجديد بالقبض على ابن الخطيب واعتقاله ، تنفيذاً للعهد الذى قطعه لابن الأحمر ، ولم يدخر وزيره سليمان بن داود ، وقد كان من ألد خصوم ابن الخطيب ، جهداً فى تشديد النكير عليه وتدبير مصرعه . وكان ابن الأحمر يتوق إلى الانتقام من وزيره السابق ، لما نمى إليه من أنه كان يحرض السلطان عبد العزيز على غزو الأندلس . وبعث ابن الأحمر وزيره أبا عبد الله بن زمرك إلى فاس ليعمل على تحقيق هذه الغاية ، وعقد السلطان أحمد مجلساً من رجال الدولة وأهل الشورى ، استدعى إليه ابن الخطيب لمناقشته ، ومواجهته بالتهم المنسوبة إليه ، وأخصها تهمة الزندقة ، استناداً إلى ما ورد فى بعض رسائله ، وعزر ابن الخطيب وعذب أمام الملأ ، وأفتى بعض الفقهاء المتعصبين بوجوب قتله ، ودس عليه الوزير سليمان بعض الأوغاد فقتلوه خنقاً فى سجنه ، وأخذت جثته فى الغد وأضرمت فيها النار ، ثم دفنت خارج فاس على مقربة من باب المحروق ؛ وما زال قبره المتواضع قائماً هنالك فى مكانه حتى يومنا(١) .

وهكذا ذهب الكاتب والمفكر الكبير ، ضحية الجهالة والتعصب والأحقاد

---

( ١ ) كتبت ترجمة مستفيضة لحياة ابن الخطيب ، والحوادث السياسية التى تقلب فيها ، صدرت بها كتاب « الإحاطة فى أخبار غرناطة » ، الذى عنيت بتحقيقه ، وصدر منه الجزء الأول بالقاهرة فى سنة ١٩٥٦ ( ص ٣٠ — ٨٢ ) .

السياسية الوضيعة ؛ وقد نقل إلينا صديقه ابن خلدون عنه أبياتاً من الشعر ، كان يرددها وهو فى سجنه ، ويرثى بها نفسه توقعاً لمصيره المحزن :

بعدنا وإن جاورتنا البيوت     وجئنا بوعظ ونحن صُموت
وأنفاسنا سكنت دفعة     كجهر الصلاة تلاه القنوت
وكنا عظاماً فصرنا عظاما     وكنا نقوت فها نحن قوت
وكنا شموس سماء العلا     غربن فناحت عليها البيوت
فقل للعدا ذهب ابن الخطيب     وفات ومن ذا الذى لا يفوت
فمن كان يفرح منكم له     فقل يفرح اليوم من لا يموت(١)

* * *

ومن الصعب علينا أن نلم بمجهود ابن الخطيب الفكرى والأدبى فى هذا المقام الضيق . والحقيقة أن ابن الخطيب كان عبقرية متعددة الجوانب ، فكان طبيباً وفيلسوفاً وشاعراً وكاتباً ، وكان سياسياً ومؤرخاً ، وقد ترك لنا تراثاً ضخماً منوعاً ، من مؤلفات عديدة ، أدبية وتاريخية وطبية ، وطائفة كبيرة من غرر القصائد والموشحات ، ورسائل أدبية وسياسية لا تحصى ؛ ومن أشهر رسائله بنوع خاص رسائله السلطانية ، التى كان يكتبها عن حوادث عصره برسم ملوك المغرب ، وتلك التى كان يوجهها إلى أهل الأندلس من وقت إلى آخر ، يحثهم فيها على الجهاد ، والذود عن وطن يتربص به العدو ، ويعتزم القضاء عليه ؛ وهى رسائل تدلى بما كان لابن الخطيب من فكر ثاقب وبصيرة نافذة ، هذا فضلا عما تمتاز به من روعة البيان والأسلوب .

ونستطيع أن نذكر من مؤلفات ابن الخطيب الكتب الآتية :

الإحاطة فى أخبار غرناطة وهو أشهر آثاره التاريخية والأدبية . التاج المحلى فى مساجلة القدح المعلى . ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب ، وهو يضم طائفة من أشهر رسائله السلطانية . اللمحة البدرية فى الدولة النصرية . رقم الحلل فى نظم الدول ، وهو تاريخ شعرى لدول الإسلام والأندلس . نفاضة الجراب وعلالة الاغتراب ، وفيه يصف أحواله وأخباره أثناء إقامته منفياً بالمغرب . كناسة الدكان بعد انتقال السكان . معيار الاختيار فى ذكر المشاهد والديار . السحر والشعر ، وهو من مختاراته الشعرية . ويوجد من هذه الآثار كلها نسخ مخطوطة بمكتبة دير الإسكوريال

(١) كتاب العبر ج ٧ ص ٣٤١ ، و٣٥٢ ؛ وأزهار الرياض ج ١ ص ٢٣١ .

والكتيبة الكامنة فى أدباء المائة الثامنة . وأعمال الأعلام ، وكلاهما يوجد بمكتبة أكاديمية التاريخ الملكية بمدريد .

ومن مؤلفاته الطبية : عمل من طب لمن حب ، وهو كتاب فى وصف الأمراض والعلاج ألفه للسلطان أبى سالم المرينى ( ومنه نسخة خطية بخزانة القرويين وأخرى بمكتبة مدريد الوطنية ) . والرجز فى عمل الترياق . رسالة تكوين الجنين. الوصول لحفظ الصحة فى الفصول . مُقنعة السائل فى المرض الهائل ، وفيه يصف أعراض الوباء الكبير فى سنة ٧٤٩ هـ ( ومنه نسخة بمكتبة الإسكوريال ) .

ومن مؤلفاته السياسية : رسالة فى السياسة . كتاب الإشارة إلى أدب الوزارة، ( وهما أيضاً بالإسكوريال ) وقد نقلهما المقرى فى نفح الطيب[١] .

وله ديوان شعر عنوانه : « الصيب والجهام ، والماضى والكهام » توجد منه نسخة مخطوطة بخزانة جامع القرويين بفاس .

ولابن الخطيب تراث حافل من الرسائل الأدبية والسياسية التى وردت فى مختلف مؤلفاته ، وقد نقل إلينا المقرى منها العدد الجم، ونقل إلينا ابن خلدون بعض ماكان يتبادله معه من رسائل خاصة[٢] .

ويفرد المقرى فى كتابه نفح الطيب مجلدين كاملين ( هما الثالث والرابع ) لابن الخطيب وأخباره ، وشعره ونثره ، وشيوخه وتلاميذه ؛ وقد نقل إلينا فيهما ، من مختلف كتبه ورسائله ، فصولا وشذوراً لا تحصى ، كما نقل إلينا وصيته لأولاده ، وهى من أبدع ماكتب[٣] .

وكان ابن الخطيب من أئمة الموشحات الأندلسية ، ومن أشهر نظمه الموشحة الذائعة الصيت التى مطلعها :

جادَك الغيث إذا الغيث هَمَى ... يا زمان الوصل بالأندلس
لم يكن وصلك إلا حلماً ... فى الكرى أو خُلسة المختلس

( ١ ) يراجع الثبت الكامل لمؤلفات ابن الخطيب وأمكنة وجودها ، وما نشر منها وما لم ينشر ، فى مقدمة كتاب الإحاطة الذى سبقت الإشارة إليه (ج ١ ص ٦٨ — ٧٨ ) .

( ٢ ) راجع كتاب العبر ج ٧ ص ٤٢١ — ٤٣٠ ، وكذلك التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا ( القاهرة ١٩٥١ ) . وقد أورد لنا المقرى فى أزهار الرياض ثبتاً لآثار ابن الخطيب (ج ١ ص ١٨٩ و١٩٠ ) .

( ٣ ) راجع نفح الطيب ج ٤ ص ٤١٩ — ٤٢٦ .

إذ يقود الدهر أشتات المنى     ينقل الخطو على ما يرسم
زمراً بين فرادى وثنا     مثل ما يدعو الوفود الموسم
والحيا قد جلل الروض سنا     فثغور الزهر منه تبسم[1]

— ٣ —

كان ابن الخطيب قطب الشعر والنثر فى عصره، وكان محور الحركة الفكرية الأندلسية كلها، فى أواسط القرن الثامن الهجرى، تجتمع إليه وتلتف حوله؛ وقد أتينا على ذكر بعض أكابر الشعراء من معاصريه، المتقدمين عنه، مثل ابن الجياب وابن سلبطور وابن خاتمة. وسنأتى هنا على ذكر أقطاب الشعر والأدب من معاصريه المتأخرين عنه. بيد أنه يجب أن نلاحظ أن عبقرية ابن الخطيب الأدبية، قد طبعت هذه المرحلة كلها، من تاريخ الحركة الفكرية الأندلسية، بطابعها القوى، وبعثت إليها كثيراً من أسباب القوة والروعة، حتى ليسوغ لنا أن نقول إن مدرسة ابن الخطيب الأدبية، امتدت منذ عصره إلى أواخر القرن الثامن، وأوائل القرن التاسع الهجرى.

بل يلوح لنا أن الأثر القوى الذى بثته هذه المدرسة الأدبية الباهرة، لم يقتصر على مملكة غرناطة، بل تعدى حدود الأندلس المسلمة إلى قواعد الأندلس الذاهبة، التى دخلت فى حوزة النصارى وتدجن أهلها، فبدا بها شعاع ضئيل من النبوغ الأدبى القديم، وظهر فيها بعض الشعراء الموهوبين، بالرغم من مضى أكثر من قرن على خضوعها لحكم اسبانيا النصرانية. فمثلا نجد بين كتاب بلنسية وشعرائها يومئذ، الفقيه أبا جعفر بن عبد الملك العذرى، ومما كتبه لابن الخطيب فى بعض الشئون:

إنى بمجدك لم أزل مستيقناً     أن لا يهدم بالتغير ما بنى
إذ أنت أعظم ماجد يعزى له     صنع وأكرم من عفا عمن جنى

وكتب له أيضاً:

إن كان دهر قد أساء وجارا     فذمام مجدك لا يضيع جارا
فلأنت أعظم ملجأ ينجى إذا     ما الدهر أنجد موعداً وأغارا[2]

(١) راجع هذه الموشحة بأكملها فى نفح الطيب ج ٤ ص ١٩٨ وما بعدها.
(٢) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ٤٢٦.

وكان الوزير ابن زَمرك ، تلميذ ابن الخطيب وخلفه فى الوزارة ، أعظم شخصية تزعمت من بعده الحركة الأدبية بالأندلس . وهو محمد بن يوسف بن محمد الصريحى الشهير بأبى عبد الله بن زمرك ، أصله من شرق الأندلس ، ونزحت أسرته إلى غرناطة . واستقرت بربض البيازين حى غرناطة الشمالى . وبه ولد أبو عبدالله سنة ٧٣٣ هـ (١٣٣٣ م) ودرس دراسة حسنة فى غرناطة وفاس ، وخدم حيناً فى بلاط السلطان أبى سالم المرينى . ولما نفى السلطان الغنى بالله إلى المغرب ، اتصل به ابن زمرك وانقطع إليه . ثم عاد حين استرد ملكه ، فولاه كتابة السر وغمره بعطفه . وظهر ابن زمرك يومئذ ببارع أدبه ، وروعة نظمه ونثره ؛ وينوه ابن الخطيب فى الإحاطة بذكائه وخلاله ، وتفوقه فى الدرس والأدب ، ويصفه بالعبارات الآتية : « شعلة من شعل الذكاء ، تكاد تحتدم جوانبه ، كثير الرقة ، فكه ، غزل ، مع حياء وحشمة ... ثاقب الذهن ، أصيل الحفظ ، ظاهر النبل ، بعيد مدى الإدراك » ثم يصف شعره بأنه « مترام إلى هدف الإجادة ، كلف بالمعانى البديعة ، والألفاظ الصقيلة ، غزير المادة » .

وعمل ابن زَمرك فى كتابة السر فى كنف ابن الخطيب وتحت رعايته . ولكنه كان ضالعاً مع خصومه ، فلما انقضت العاصفة على ابن الخطيب وأصابته المحنة ، كان ابن زمرك فى طليعة أعدائه الساعين إلى هلاكه . وقد خلفه فى الوزارة عقب فراره ، وهو الذى تولى مهمة السعى لدى بلاط فاس فى محاكمته وإعدامه حسبما أسلفنا .

واستمر ابن زمرك على حظوته ونفوذه أعواماً طويلة ، ولكنه كان لطغيانه وغطرسته وحدة لسانه ، يثير حوله كثيراً من البغض والخصومة . وفى أواخر عهد الغنى بالله فقد حظوته ونفوذه ، واعتقل ونفى خارج غرناطة ؛ ولكنه عاد بعد وفاته إلى الحضرة . وفى بداية عهد السلطان محمد بن يوسف الثانى ، أعيد إلى الوزارة ، فأساء السيرة ، واشتد عيثه وطغيانه ، وكثر خصومه . وفى ذات ليلة من أواخر سنة ٧٩٧ هـ (١٣٩٥م) دهمه فى منزله جماعة من المتآمرين ، فقتلوه وولديه وخدمه شر قتلة . وينوه المقرى بما فى ذلك من عبر الدهر ، إذ كان ابن زمرك هو الساعى إلى مقتل أستاذه ابن الخطيب ، فكان أن دارت عليه الدائرة ، وقتل مثله ولكن بصورة أقسى وأشنع [1] .

---

(١) نفح الطيب ج ٤ ص ٢٨٦ — ٢٩٠ ، وينقل إلينا المقرى ترجمة ابن زمرك عن كتاب معاصره الأمير اسماعيل بن الأحمر ، وينقل إلينا فى أزهار الرياض كثيراً من موشحاته (ج٢ص١٧٧

ولابن زَمرك شعر كثير جيد نقل إلينا المقرى منه قصائد وموشحات عديدة ، فمن شعره قوله يمتدح سلطان الأندلس الغنى بالله فى سنة ٧٦٥ هـ :

لعل الصبا إن صافحت روض نعمان ... تؤدى أمان القلب عن ظبية البان
وماذا على الأرواح وهى طليقة ... لو احتملت أنفاسها حاجة العانى
وما حال من يستودع الريح سره ... وبطاها وهى النوم بكتمان
وكالطيف أستقريه فى سنة الكرى ... وهل تنقع الأحلام غلة ظمآن
إمام أعاد الملك بعد ذهابه ... إعادة لا تأبى الحسام ولا وانى
فغادر أطلال الضلال دوارسا ... وجدد للإسلام أرفع بنيان
وشيدها والمجد يشهد دولة ... محافلها تزاهى بيمن وإيمان

ومن قوله من قصيدة طويلة يصف فيها دار الملك ( الحمراء ) :

فكم فيه للأبصار من متنزه ... تجد به نفس الحليم الأمانيا
وتهوى النجوم الزهر لو ثبتت به ... ولم تك فى أفق السماء جواريا
به البهو قد حاز البهاء وقد غدا ... به القصر آفاق السماء مباهيا
وكم حلة قد جللت بحليها ... من الوشى تنسى السابرى اليمانيا
وكم من قسى فى ذرة ترفعت ... على عمد بالنور باتت حواليا
فتحسبها الأفلاك دارت قسيها ... تظل عمود الصبح إذ بات باديا
سوارى قد جاءت بكل غريبة ... فطارت بها الأمثال تجرى سواريا
بل المرمر المجلو قد شف نوره ... فيجلو من الظلماء ما كان داجيا
به البحر دفاع العباب تخاله ... إذا ما انبرى وفد النسيم مباريا
إذا ما جلت أيد الصبا متن صفحة ... أرتنا دروعاً آكسبتنا الأياديا

ومن قوله يشيد بأعمال الأميرين سعد ونصر ، ولدى السلطان ، فى ميدان الجهاد :

يا آل نصر أنتم سُرج الهدى ... فى كل خطب قد تجهم مظلم
الفاتحون لكل صعب مقفل ... والفارجون لكل خطب مبهم
والباسمون إذا الكماة عوابس ... والمقدمون على السواد الأعظم
أبناء أنصار النبى وحزبه ... وذوى السوابق والجوار الأعظم

ومن قوله فى الغزل :

---

= وما بعدها) . وقد أورد المستشرق بروكلمان (ج٢ص٢٢٩) تاريخ مقتله فى سنة ٧٩٥ هـ (١٣٩٣م) ولكن رواية ابن الأحمر هى الأرجح .

قيـادى قد تملكه الغـــرام　　ووجـدى لا يطاق ولا يرام
ودمعى دونه صوب الغوادى　　وشجوى فوق ما يشكو الحمام
إذا ما الوجد لم يبرح فؤادى　　على الدنيا وساكنها السـلام

ولابن زمرك موشحات كثيرة رائعة ، ومنها موشحته الشهيرة فى الإشادة بغرناطة ومحاسنها إذ يقول :

نسيم غرناطة عليـل　　لكنه يبرئ العليـل
وروضها زهره بليـل　　ورشـفه ينقع الغليل
سقى بنجد ربا المصلى　　مباكراً روضه الغمام　　سقى بنجد ربا المصـلى
تبسم الزهر فى الكمام　　والروض بالحسن قد تجلى　　وجرد النهر عن حسام
ودوحها ظله ظليـل　　يحسن فى ربعه المقبل
والبرق والجو مستطيل　　يلعب بالصارم الصقيل
عقيلة تاجهـا السبيكة　　تطل بالمركب المنيف　　كأنهـا فوقه مليكة
كرسيها جنة العريف　　تطلع من عسجد سبيكة　　شموسها كلما تطيف
أبدعك الخالق الجميل　　يا منظراً كله جميـل
قلبى إلى حسنه يميـل　　وقلبنا قد صبا جميل[1]

ونكتفى بما تقدم فى الاقتباس من شعر الوزير ابن زمرك . ويلوح لنا أنه قد يتفوق فى شاعريته على أستاذه ابن الخطيب ، وأن إنتاجه الشعرى ولاسيما فى الموشحات قد يتفوق على إنتاج أستاذه ، على أنه لا ريب أنه يقصر عن مجاراة ابن الخطيب ، فى كثير من نواحى التفكير والإنتاج الأخرى .

* * *

وظهر من أعلام تلك المدرسة الزاهرة ، إلى جانب ابن الخطيب وابن زمرك ، عدة آخرون من الشعراء والكتاب ، منهم أبو سعيد فرج بن لب ؛ ولد سنة ٧٠١ هـ وتوفى سنة ٧٨٢ هـ ( ١٣٨٠ م ) ، وكان من أشهر أساتذة المدرسة النصرية ( جامعة غرناطة ) ، وقد ولى خطابة الجامع الأعظم حيناً ، وكان فوق تضلعه فى الفقه شاعراً مجيداً ، وقد ترك لنا مجموعة من الفتاوى المشهورة ، وطائفة من الشعر الجيد ، ومن نظمه قوله :

( ١ ) راجع ترجمة ابن زمرك وهى التى نقلها المقرى عن ابن الأحمر ، فى نفح الطيب ج ٤ ص ٨٧ وما بعدها ؛ وقد نقل إلينا المقرى كثيراً من قصائده وشعره (ج ٤ ص ٢٩٦ — ٣٥٤ ) .

خذوا للهوى من قلبي اليوم ما أبقى ... فما زال قلبي كله للهوى رقا
دعوا القلب فى لظى الوجد ناره ... فنار الهوى الكبرى وقلبي هو الأشقى
سلوا اليوم أهل الوجد ماذا به لقوا ... فكل الذى يلقون بعض الذى ألقى
فإن كان عبد يسأل العتق سيداً ... فلا تبغى من مالكي فى الهوى عتقا(١)

ومنهم القاضي أبو محمد بن عطية بن يحيى المحاربي كاتب الإنشاء ، وكان بارعاً فى النظم والنثر وخطيباً مفوهاً ؛ أصله من وادى آش وبها ولد سنة ٧٠٩ هـ ، وتولى القضاء بها . ووفد على غرناطة سنة ٧٥٦هـ ودرس على ابن الخطيب وغيره من أكابر الشيوخ ، وتولى الكتابة السلطانية حيناً . ومن شعره قوله :

ألا أيها الليل البطىء الكواكب ... متى ينجلى صبح بليل المآرب
وحتى متى أرعى النجوم مراقباً ... فمن طالع منها على إثر غارب
أحدث نفسى أن أرى الركب سائراً ... وذنبي يقصيني بأقصى المغارب
فلا فزت من نيل الأمانى بطائل ... ولا قمت فى حق الحبيب بواجب(٢)

ومنهم الأمير الأديب أبو الوليد اسماعيل بن يوسف بن محمد بن الأمير الرئيس أبي سعيد فرج أمير مالقة المعروف بالأمير ابن الأحمر ، وقد سبقت الإشارة إليه . وكان أديباً ضليعاً ، وقد تناول فى كتابه « نثير فرائد الجمان فى نظم فحول الزمان »(٣) ، أكابر الكتاب والشعراء فى القرن الثامن الهجرى ، وأفاض بنوع خاص فى ذكر ابن الخطيب وتلميذه ابن زمرك ، ونقل عنه المقرى فى كتابيه نفح الطيب وأزهار الرياض ، معظم ماكتب عن أدباء عصره ، ونقل عنه بالأخص كثيراً مما كتبه عن ابن زمرك حسبما بينا فى موضعه ، وللأمير ابن الأحمر كتاب آخر عنوانه « نثير الجمان فى شعر من نظمنى واياه الزمان » يحتوى على اثنى عشر بابا ، يتحدث فيها عن شعر ملوك بنى الأحمر ، وشعر ملوك بنى حفص ، وبنى مرين ، وبنى عبد الواد ، وعن شعر وزراء الأندلس وقضاتها وكتابها ، وكتاب وقضاة المغرب فى عصره(٤) . ولعل الأمير ابن الأحمر

---

(١) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ٢٦٧ و٢٦٨ .
(٢) نفح الطيب ج ٤ ص ٣٦٢ — ٣٦٥ .
(٣) وتوجد منه نسخة بدار الكتب المصرية تحفظ برقم ٧٩١٣ أدب .
(٤) وتوجد منه نسخة وحيدة مخطوطة بدار الكتب المصرية ناقصة الأول وتحفظ برقم ١٨٦٣ آداب اللغة العربية .

فى أواخر القرن الثامن ، وتوفى سنة ٨٠٧ هـ ( ١٤٠٤ م )[١] .

ومنهم أبو عبد الله الشريشى تلميذ ابن الخطيب ومساعده ( أمينه ) ،وكان مؤدباً لأبناء السلطان ، وهو الذى تولى نقل كتاب الإحاطة لابن الخطيب من مسوداته ، بتكليف منه لاشتغاله بشئون الوزارة ، فجاء فى ستة مجلدات ، وكان الشريشى فى الوقت نفسه من علماء القرآن والسنة[٢] .

ونستطيع أن نذكر إلى جانب هذه الجمهرة الممتازة من الشعراء والأدباء ، عدة من الفقهاء والمؤرخين ، منهم ابن فرحون برهان الدين ابراهيم بن على اليعمرى الأندلسى المتوفى سنة ٧٩٩ هـ ( ١٣٩٧ م ) ، وكان فقيهاً ومؤرخاً ، ومن أشهر مؤلفاته كتاب « الديباج المذهب فى معرفة علماء أعيان المذهب » ، وهو تراجم طبقات المالكية . وقد طبع مراراً بالمغرب ومصر ، وكتاب « طبقات علماء العرب » ومنه نسخة بالإسكوريال[٣] .

ومنهم أبو الحسن على بن عبد الله بن محمد الجذامى المالقى النباهى ، ولد بمالقة سنة ٧١٣ هـ ودرس على أشياخها . ثم وفد على غرناطة ، وتولى القضاء ، ثم عين كاتباً بالديوان . وانتهى إلى ولاية قضاء الجماعة بغرناطة .ونشبت بينه وبين ابن الخطيب خصومة شديدة ، وتبادلا الطعن والهجاء اللاذع فى عدة رسائل ومقالات ، ولما نكب ابن الخطيب وغادر الأندلس ، كان النباهى فى مقدمة متهميه بالكفر والزندقة والساعين إلى هلاكه حسبما قدمنا . وتوفى فى أواخر القرن الثامن . ومن آثاره الباقية كتاب يسمى « بالإكليل فى تفضيل التخيل » وهو كتاب أدبى وضعه مؤلفه على لسان نخلة وكرمة . ويعرف أحياناً « بنزهة البصائر » وهو العنوان الذى تحمله نسخته الخطية الموجودة بمكتبة الإسكوريال . وقد وردت به نبذة حسنة عن تاريخ الدولة النصرية حتى عصر المؤلف[٤] . وكتاب « المرقبة العليا فيمن يستحق

---

( ١ ) وللأمير ابن الأحمر أيضاً كتاب فى تاريخ بنى مرين عنوانه « النفحة النسرينية واللمحة المرينية » وهو كتاب صغير الحجم ومنه نسخة مخطوطة بالإسكوريال ( رقم ١٧٦٩ الغزيرى) .

( ٢ ) نفح الطيب ج ٤ ص ٧٥٧ .

( ٣ ) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ٢٩٨ و٢٩٩ ؛ وبروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٣ .

( ٤ ) تحفظ هذه النسخة بمكتبة الإسكوريال برقم ١٦٥٣ الغزيرى . وهى قديمة وتحمل تاريخاً لقرءاتها هو سنة ٧٨١ هـ ( ١٣٧٩ م ) . وتوجد منه نسخة خطية أخرى بخزانة الرباط .

القضاء والفتيا » وهو تاريخ لقضاء الأندلس[١] .

ومنهم الفقيه أبو القاسم بن سلمون الكنانى الغرناطى قاضى الجماعة بغرناطة المتوفى سنة ٧٦٧ هـ ( ١٣٦٥ م ) ، ومن آثاره كتاب « العقد المنظم للحكام فيما يجرى بين أيديهم من الوثائق والأحكام[٢] ؛ وأبو عبد الله محمد بن على بن إسحق الرندى المتوفى سنة ٧٩٢ هـ ( ١٣٨٩ م ) ، وكان من أقطاب التصوف ، وقد كتب كتاب « الرسائل الكبرى » و « غاية المواهب العلية بشرح الحكم العطائية »[٣] .

وأما فى ميدان العلوم فلم نعثر على ما يدل على ازدهارها فى تلك الفترة ؛ على أننا نستطيع أن نذكر أن ابن الخطيب كان إلى جانب أدبه الممتاز ، عالماً بالطب والفلسفة ، وكان من تلاميذه الطبيب العالم ابن المهنا شارح ألفية ابن سينا ، وشرحه عليها من أقيم الشروح[٤] .

---

( ١ ) وقد قام على نشره الأستاذ ليڤى بروڤنسال ، ونشره بعنوان « تاريخ قضاة الأندلس » . ( القاهرة سنة ١٩٤٨ ) . وراجع فى ترجمة النباهى الكتاب المشار إليه ( المقدمة ) ، وأزهار الرياض ج ٢ ص ٥ — ٧ . وراجع بروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٢ .

( ٢ ) بروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٤ .

( ٣ ) بروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٥ .

( ٤ ) راجع نفح الطيب ٤ ص ٧٥٦ .

# الفصل الرابع

## العصر الأخير والآثار الباقية

ركود الحركة الفكرية . الشعراء الذين ظهروا في هذا العصر . القاضى أبو بكر بن عاصم. ولده أبو يحيى . بعض الكتاب والأدباء . الشريف العقيلى وزير أبى عبد الله . ماحدث بعد سقوط غرناطة . القضاء على اللغة العربية . الألخميادو لغة الموريسكيين السرية . كتاب الألخميادو . الأدب الموريسكى وخصائصه . نماذج من تراث الألخميادو . الشهاب الحجرى وابن غانم . محاولة اسبانيا القضاء على تراث الأندلس . إيداع الكتب العربية الباقية بقصر الإسكوريال . المجموعة العربية فى الإسكوريال . حجبها عن أعين الباحثين . معجم الغزيرى. انتفاع البحث الحديث بالآثار الأندلسية . الفن فى الأندلس . تطوره منذ القرن الرابع الهجرى . ازدهاره أيام الناصر وابنه المستنصر. تقدمه أيام الطوائف . ركوده أيام المرابطين والموحدين . الفن فى مملكة غرناطة . الموسيقى الأندلسية . الآثار الأندلسية الباقية .

بدأت مملكة غرناطة منذ أوائل القرن التاسع الهجرى تستقبل عصرها الأخير ، وأخذ الاستقرار ، والسلم النسبى الذى تمتعت به حيناً فى أواخر القرن الثامن ، وأوائل القرن التاسع ، يتصرم شيئاً فشيئاً ، وأخذت من ذلك الحين تواجه طائفة من الثورات والانقلابات الداخلية المتوالية ، وتواجه فى الوقت نفسه طوالع الصراع الأخير بينها وبين اسبانيا النصرانية ، التى أخذت منذ منتصف القرن التاسع ( القرن الخامس عشر الميلادى ) توثق أواصر اتحادها ، وتستجمع قواها لإنزال ضربتها الأخيرة بعدوتها القديمة التالدة اسبانيا المسلمة .

وماكانت الحركة الفكرية لتزدهر فى مثل هذا الأفق الكدر ، ولذا نجد فى هذا العصر فراغاً ملحوظاً فى ميادين التفكير والأدب فى الأندلس المحتضرة ، ولا نعثر إلا بقلة من المفكرين والأدباء الذين ظهروا فى تلك الفترة متفرقين متباعدين .

وكان ممن ظهر فى ميدان التفكير والأدب فى تلك الفترة على بن عاصم شاعر السلطان يوسف الثانى وقد جمع له مجموعة شعرية فى سنة ٧٩٣ هـ ( ١٣٩١ م )[(١)].

والقاضى أبو بكر محمد بن عاصم القيسى الغرناطى ، وقد كان أعظم شخصية

---

( ١ ) بروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٥٩ .

ظهرت فى هذا الميدان فى مملكة غرناطة فى أوائل القرن التاسع الهجرى . ولد بغرناطة سنة ٧٦٠هـ ( ١٣٥٨ م ) وتوفى بها سنة ٨٣٩ هـ ( ١٤٢٦ م ) ، وبرع فى النحو والمنطق والبيان والفقه ، وتولى الوزارة للسلطان يوسف الثانى سنة ٧٩٣هـ (١٣٩١م) ثم ولى قضاء الجماعة بغرناطة ، وبرز فى النثر والنظم ، ووضع عدة قصائد وأراجيز ، تناول فيها بعض مسائل من علم الأصول ، والقراءات والفرائض والنحو وغيرها . وله كتاب « تحفة الأحكام فى نقط العقود والأحكام » . وهو مختصر فى الفقه ، وقد طبع بمصر وترجم إلى الفرنسية . وله أيضاً كتاب « حدائق الأزهار فى مستحسن الأجوبة والمضحكات والحكم والأمثال والحكايات والنوادر » كتبه للسلطان يوسف . ويعرف بابن الخطيب الثانى لبراعته وجودة نثره ونظمه(١) .

وكذلك برع ولده العلامة الفقيه أبو يحيى بن عاصم فى النثر والنظم ، وتولى كأبيه منصب الكتابة والوزارة ، وكتب شرحاً على كتاب أبيه « تحفة الأحكام » وكتب رسالة فلسفية تاريخية عن أحوال غرناطة فى عصره ، وما دهاها من آثار التفرق والفتنة ، ووصف فيها أساليب السياسة الإسبانية ، فى الكيد والتفريق بين المسلمين ، أسماها « جنة الرضى فى التسليم لما قدر الله وقضى » . ونقل إلينا منها المقرى فى أزهار الرياض نبذاً عديدة تشهد بمقدرة صاحبها ، وعميق تفكيره ورائق أسلوبه(٢) .

وأبو الحسن سلام بن عبد الله الباهلى الإشبيلى ، وقد كتب سنة ٨٣٩ (١٤٢٥م) كتاب « الذخائر والأعلاق فى أدب النفوس ومكارم الأخلاق »(٣) .

ومنذ منتصف القرن التاسع الهجرى ، تضمحل الحركة الفكرية فى مملكة غرناطة شيئاً فشيئاً . ولا غرو فقد كانت غرناطة تخوض فى تلك الفترة بالذات ، مرحلة الصراع الأخير ، وكانت الحرب الأهلية تمزق أوصالها ، وخطر الفناء الداهم يبدو لها قوياً فى الأفق .

بيد أن شعاعاً أخيراً كان يبدو فى تلك الظلمات المدلهمة . فنرى فى أواخر

---

( ١ ) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ٨ و ٩ ؛ وبروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٤

( ٢ ) راجع أزهار الرياض ج ١ ص ٥٠ وما بعدها ، وص ١٦٧ ومابعدها . وتوجد من هذه الرسالة نسخة خطية بالخزانة الملكية بالرباط .

( ٣ ) بروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٥٩ . وقد طبع الكتاب المشار إليه بالقاهرة سنة ١٩٢٨ .

القرن التاسع ، فى الوقت الذى كانت غرناطة تسلم فيه أنفاسها الأخيرة ، عدة من المفكرين والأدباء الذين يستحقون الذكر والتنويه .

وكان من هؤلاء القاضى أبوعبد الله محمد بن على بن محمد بن القاسم الأصبحى المعروف بابن الأزرق المتوفى سنة ٨٩٥ هـ ( ١٤٩٠ م ) ، أصله من وادى آش ، وتولى قضاء الجماعة بغرناطة . وكان بارعاً فى النثر والنظم والتاريخ . ومن آثاره كتاب فى السياسة الملكية عنوانه : « الإبريز المسبوك فى كيفية أدب الملوك » ( سنة ٨٣٨ هـ ) . وكتاب « بدائع السلك فى طبائع الملك » لخص فيه كثيراً من آراء ابن خلدون فى مسائل الرياسة والملك وعلق عليها ، وأتى فى موضوعها بزيادات جديدة ، وقسمه إلى أربعة كتب ، الأول فى حقيقة الملك والخلافة وسائر أنواع الرياسة ، والكتاب الثانى فى أركان الملك وقواعد مبناه ضرورة وكمالا ، والثالث فيما يطالب به السلطان تيسيراً لأركان الملك وتأسيساً لقواعده ، والرابع فى عوائق الملك وعوارضه[1]. وله أيضاً كتاب « روضة الأعلام بمنزلة العربية من علوم الإسلام » . ولما ساءت الأحوال فى غرناطة وأشرفت على السقوط ، عبر البحر إلى تلمسان ، ثم ارتحل إلى المشرق ، ونزل بالقاهرة فى عصر السلطان الأشرف قايتباى ، واتصل به ، وحاول أن يستحث همته لتسيير جيش إلى الأندلس لاسترداد غرناطة[2] ؛ ومن شعره المؤثر حين نزل النصارى بمرج غرناطة :

مشوق بخيمات الأحبة مولع ... تذكره نجد وتغريه لعلع
مواضعكم يا لائمين على الهوى ... فلم يبق للسلوان فى القلب موضع
ومن لى بقلب تلتظى فيه زفرة ... ومن لى بجفن تنهمى منه أدمع
رويدك فارقب للطائف موقعاً ... وخل الذى من شره يتوقع
وصبراً فإن الصبر خير تميمة ... ويا فوز من قد كان للصبر يرجع
وبت واثقاً باللطف من خير راحم ... فألطافه من لمحة العين أسرع[3]

---

(١) بروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٦ ؛ وأزهار الرياض ج ١ ص ٧١ ، وج ٣ ص ٣١٨ و٣١٩ . وقد طبع كتاب الإبريز المسبوك بالجزائر . وتوجد من كتاب « بدائع السلك » نسختان خطيتان فى خزانة الرباط ( المكتبة الجلاوية ) ، إحداها قديمة كتبت فى سنة ٩٩٨ هـ ، والأخرى حديثة .

(٢) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ٤٩ – ٥١ .

(٣) أزهار الرياض ج ٣ ص ٣١٨ ، و٣١٩ .

ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد الحداد الشهير بالوادى آشى ، وهو أيضاً من أهل وادى آش ، وكان أديباً بارعاً وله تعليقات كثيرة على أدباء عصره ، وقد غادر غرناطة قبيل سقوطها بقليل ونزل بتلمسان(١) .

وأبو الحسن على بن محمد القرشي البسطى ، وقد ولد فى بسطة ودرس فى غرناطة وتلمسان وتونس ، ورحل إلى المشرق وأدى فريضة الحج ، ثم استقر بعد عوده فى غرناطة . ولما اشتد ضغط النصارى على غرناطة عبر البحر إلى تلمسان ، وعاش هناك حيناً حتى توفى سنة ٨٩١ هـ ( ١٤٨٦ م ) . وقد برع البسطى فى الرياضيات ووضع كتباً فى الحساب والجبر(٢) .

وأبو الحسن على بن قاسم بن محمد التجيبي الزقاق وقد درس فى غرناطة وفاس وتولى الخطابة فى غرناطة . ولما سقطت غرناطة فى يد النصارى ، عبر البحر إلى المغرب ، وتوفى سنة ٩١٢ هـ ( ١٥٠٦ م ) . ومن آثاره كتاب « المنهج المنتخب إلى أصول المذهب » فى الفقه المالكى(٣) .

ومن أواخر الشعراء الذين ظهروا فى هذه الفترة ، فترة الانهيار الأخيرة ، شاعر من نوع خاص ، هو عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم القيسى . وقد ترك لنا ديوانا ، يضم قصائد عديدة تشير إلى بعض أحداث العصر مثل سقوط جبل طارق وحصار مالقة وسقوط أرشدونة وبلش وغيرهما من قواعد مملكة غرناطة ؛ ويستدل من بعض إشاراته إلى أنه قضى ردحا من الزمن فى أسر القشتاليين ؛ وهو يعترف لنا فى مقدمة ديوانه بأنه شعره « منحط من الدرجة المتوسطة » ، ولكنه مع ذلك مغتبط بنظمه وإنشاده . والظاهر أن عبد الكريم القيسى قد عاش حتى سقوط غرناطة أوقبله بقليل ، إذ يضم ديوانه قصيدة فى رثاء ابن الأزرق ، وهو قد توفى فى سنة ٨٩٥هـ ، والديوان فى جملته يلقى أضواء كثيرة على أحداث الصراع الأخير الذى انتهى بسقوط غرناطة ، وتشير قصائده إلى كثير من شخصيات العصر من قادة ، وكتاب ، وقضاة وغيرهم(٤) .

---

(١) راجع أزهار الرياض ج ١ ص ٥٥ و٧١ .

(٢) بروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٦ .

(٣) بروكلمان ، المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٥ .

(٤) توجد نسخة مخطوطة من هذا الديوان بخزانة الرباط رقم ١٩٨ق (مخطوطات الأوقاف) ، وهو يقع فى ١٥٣ صفحة من القطع المتوسط .

ومن نظم عبد الكريم المذكور قوله :

خليلى ما مثلى يقوم ذليلا ... ويحمل من ضيم الزمان ثقيلا
ويرضى بعيش يدال ببسطة ... يجدد من خطب الهموم جليلا
فلا تعذل فى رحيلى عنكما ... فإنى لما أنعى عزمت رحيلا

وقوله حينما اتصل به خبر سقوط جبل طارق فى يد الاسبان :

أوارى أوارى القلب مع شدة ... اللفح فتبكه عين دمعها داهم السفح
وأخفى الذى ألقى من الحزن والأسى ... وظاهر حالى الدهر يؤذن بالصفح
وأبدى من التقطب للفتح حالة تسوء ... صديقى فى مساء وفى صبح

على أن أعظم شخصية ظهرت فى تلك الفترة القاتمة فى ميدان التفكير والأدب هى شخصية الوزير والكاتب الشاعر أبى عبد الله محمد بن عبد الله العربى المعروف بالشريف العقيلى ، وزير أبى عبد الله محمد آخر ملوك الأندلس وكاتبه . وكان فوق تضلعه فى الفقه ، إمام عصره فى النثر والنظم ، وقد وصفه الوادى آشى بأنه « شاعر العصر ، مالك زمامى النظم والنثر » وبأنه « إمام هذه الصناعة ، وفارس حلبة القرطاس والبراعة ، وواسطة عقد البلاغة والبراعة » . ووصفه أيضاً بحق بأنه خاتمة أدباء الأندلس .

ومن شعره يمدح السلطان أبا عبد الله حينما ولاه منصب الكتابة قوله :

أوجه سعدى انحط عنه اللثام ... أم بدر أفقى فض عنه الغمام
كأنما أقبس نور البهام ... ن وجه مولانا الإمام الهمام
ابن أبى الحسن الأسرى الذى ... قد كان للأملاك مسك الختام
ضرغام قد أنجب شهباً له ... فى صدق بأس ومضاء اعتزام
دام له النصر الذى جاءه ... والسيف من طلى أعاديه دام

ومنه قوله حينما نزل النصارى بمرج غرناطة :

بالطبل فى كل يوم ... وبالنفير نراع
وليس من بعد هذا ... وذاك إلا القراع
يارب خيرك يرجو ... من هيض منه الذراع
لا تسلبنى صبرا ... منه لقلبى ادراع

التى كتبها على لسان السلطان أبى عبد الله إلى سلطان المغرب ، وعنوانها « الروض العاطر الأنفاس فى التوسل إلى المولى الإمام سلطان فاس »[١] . ومهد لها بعد الديباجة بقصيدته الرائعة التى مطلعها :

مولى الملوك ملوك العرب والعجم　　رعيا لما مثله يرعى من الذمم
بك استجرنا ونعم الجار أنت لمن　　جار الزمان عليه جور منتقم

وقد سبق أن أتينا على ذكر هذه الرسالة المؤثرة الفريدة ، فى موضعها ، وأوردنا طرفاً من قصيدة العقيلى ، ومن أقواله التى يخاطب بها السلطان أبوعبد الله سلطان فاس مستجيراً به ، ملتجئاً إلى حمايته ، معتذراً إليه عما بدر منه .

وعبر البحر إلى المغرب قبيل سقوط غرناطة وبعده جمهرة من العلماء والأدباء، هم البقية الباقية من مجتمع الأندلس الفكرى[٢] . وقد آثروا مغادرة الوطن القديم على التعرض لفقد الحرية ، وامتهان الدين والكرامة القومية ، ومذلة العبودية ، فى ظل حكم يضطرم نحو الأمة المغلوبة بغضاً وتعصباً .

— ٢ —

وكان سقوط غرناطة فى يد اسبانيا النصرانية فى سنة ٨٩٧ هـ ( ١٤٩٢ م ) ، نذيراً بانهيار صرح الأمة الأندلسية القومى والاجتماعى ، وتبدد تراثها الفكرى والأدبى ؛ وكانت اسبانيا النصرانية ترمى قبل كل شىء ، إلى القضاء على خواص الأمة المغلوبة الدينية والفكرية ، وعلى سائر الروابط الأدبية التى تربطها بماضيها المجيد؛ وقد نجحت السياسة الإسبانية ، يدعمها طغيان الكنيسة وعسف ديوان التحقيق ، فى تحقيق هذه الغاية إلى أبعد حد ؛ فلم يمض على سقوط غرناطة نحو خمسين عاماً ، حتى استحالت بقية الأمة الأندلسية إلى شعب جديد ، يستبدل بدينه القديم — الإسلام — بالنصرانية المفروضة ، ويتكلم القشتالية ، وتغيض البقية الباقية من خصائصه القديمة ، شيئاً فشيئاً ، تحت ضغط التشريعات والإجراءات التعسفية المرهقة .

وكانت الأمة الأندلسية خلال هذا الإستشهاد المحزن ، الذى فرض عليها ، تحاول بكل وسيلة أن تستبقى ماوسعت ، من تراثها الفكرى والروحى القديم ، فكان الموريكسيون بالرغم من دخولهم فى النصرانية ، يتعلقون سراً بدينهم القديم ، وكثير منهم يؤدون شعائر الإسلام خفية ، وديوان التحقيق من ورائهم يطاردهم

( ١ ) نشر المقرى هذه الرسالة بأكلها فى نفح الطيب ج ١ ص ٦١٧ — ٦٢٨ ؛ وفى أزهار الرياض ج ١ ص ٧٢ — ١٠٢ .
( ٢ ) راجع أزهار الرياض ج ١ ص ٧١ .

بمنتهى القسوة حسبما فصلنا فى موضعه . وكانوا يحافظون جهدهم على لغتهم العربية . ولكن السياسة الإسبانية المرهقة ، فطنت منذ الساعة الأولى إلى أهمية اللغة فى تدعيم الروح القومية ، فعولت على سحق العربية وكل آثارها ، وصدر منذ أيام الإمبراطور شارلكان فى سنة ١٥٢٦ ، أول قانون لتحريم التخاطب بالعربية على الموريسكيين ، ولكنه لم يطبق بشدة . وكانت العربية ما تزال حتى ذلك الوقت لغة لأدب يحتضر ، وكانت ما تزال لغة التعاقد والتعامل ، لا فى أنحاء مملكة غرناطة القديمة وحدها ، ولكن أيضاً فى مجتمعات المدجنين القاصية فى أراجون حسبما تدل عليه وثائق عثرنا عليها[1] . وكان يوجد ثمة بين الموريسكيين من ينظم بها الشعر . وقد أشرنا فيما تقدم إلى القصيدة التى أرسلها الموريكسيون إلى السلطان بايزيد الثانى يلتمسون فيها النجدة والغوث ، وهى قصيدة تنم بالرغم من ركاكتها عن روح شعرية مؤثرة . واستمر المورسسكيون عصراً آخر يوجهون رسائلهم العربية إلى مسلمى المغرب . وكانت السياسة الإسبانية تضيق ذرعاً بالعربية ، وتزداد منها توجساً . فعادت فى عهد فيليب الثانى لتتخذ خطوتها الحاسمة فى القضاء عليها . وصدر فى سنة ١٥٦٦ قانون جديد صارم يحرم على الموريسكيين التخاطب بالعربية أو التعامل بها على نحو ما فصلنا ، وطبق القانون بمنتهى الشدة . وكانت العربية قد أخذت تغيض شيئاً فشيئاً فى غمر العسف والاضطهاد ، فجاء القانون الجديد ضربة قاضية لمظاهرها الباقية . وفى هذا الوقت بالذات نشهد نفثات العربية الأخيرة لدى الموريسكيين فى بعض قصائدهم السرية الثورية . وفى لغة الخطاب الذى نشرناه فيما تقدم لمولاى عبد الله آخر زعماء الثورة الموريسكية ما يوضح لنا مدى الانحلال الذى انتهت إليه اللغة العربية فى ذلك العصر .

ولم تمض فترة قصيرة على تطبيق القانون الجديد بتحريم العربية نهائياً ، وفرض القشتالية كلغة للتخاطب والتعامل على الموريسكيين ، حتى اختفت المظاهر والآثار الأخيرة للعربية . ومع ذلك فقد وجد الموريسكيون فى القشتالية ذاتها متنفس تفكيرهم وأدبهم القديم ، فكانوا يكتبون القشتالية سراً بأحرف عربية ، وأسفر ذلك بمضى

---

(١) ومن ذلك وثيقة زواج بالعربية مؤرخة يوم الأحد ١٧ يوليه الموافق ١٠ رمضان سنة ٩٢٨ هـ (١٥٢٢ م) بين « الشب الكريم محمد خشان وبين المقدم القاضى ابراهيم ذاعمر فى الثيبة الكريمة فاطمة بنت على سانته من ربض مسلمى منمدينة قلعة أيوب » ، وهى بخط عربى ردىء (مكتبة مدريد الوطنية مجموعة الألخميادو رقم 4968 وثيقة نمرة ٩) .

الزمن عن خلق لغة جديدة اشتقت أصلا من القشتالية لغتهم المفروضة ، واختلطت بها ألفاظ عربية وأعجمية مختلفة من اللهجات المعاصرة والقديمة ، ولاسيما اللغة الرومانية . وكانت هذه اللغة الرومانية Lengua Romanica لغة المستعربين أيام الدولة الإسلامية ، وكانت معروفة ذائعة فى قرطبة وغيرها من الحواضر الأندلسية التى تقيم بها طوائف كبيرة من النصارى المستعربين ، وكان يتكلم بها بعض أكابر الصقالبة فى البلاط ، ويعرفها بعض العلماء المسلمين. وكان المسلمون الأندلسيون يستعملون أحياناً بعض عبارات من هذه اللغة الرومانية ، ولاسيما فى الكتابات العلمية ، ويسمونها فى كتبهم « باللطينية » ،(أعنى اللاتينية ) ، وقد تسرب منها بمضى الزمن كثير من الألفاظ فى الزجل الأندلسى ، ولاسيما زجل ابن قزمان . وفى مملكة غرناطة ، كانت اللغة العربية الشعبية ، يتسرب إليها كثير من الألفاظ الرومانية والقشتالية(١) ، وهذه هى التى تسربت بالأخص فيما بعد إلى لغة الموريسكيين السرية ، التى لجأوا إلى ابتكارها حينما حرمت عليهم لغتهم الأصلية ، واحتفظوا لها بالأحرف العربية .

وتعرف هذه اللغة التى اتخذها الموريكسيون بالأخص متنفساً لدينهم القديم « بالألخميادو» Aljamiado ، وهو تحريف اسبانى لكلمة « الأعجمية » ، وقد لبثت زهاء قرنين سراً مطموراً حتى ظفر بعض العلماء الإسبان بمجموعة من مخطوطاتها فى أوائل القرن الماضى ، وعندئذ ظهرت عنها المعلومات الأولى . ويقول العلامة مننديث إى پلايو فى تعريفها ، بأنها هى اللغة الرومانية القشتالية Romana Castelaa تكتب بأحرف عربية . ويقول المستشرق ساڤدرا فى تعليل قيامها « إن الطابع الدينى الذى كان يفصل بين الموريسكيين وباقى الإسبان يطغى على إنتاجهم الأدبى ، وكأنما هو قرين طبيعى للمنتجات العربية ، فهم لكى يحتفظوا بجذوة حية من العقيدة المحمدية ، كتب العلماء والفقهاء ،كتباً « عما يجب أن يعتقده وأن يحفظه كل مسلم حسن الإيمان » عن صفات الله ، وعن بعض المسائل الفقهية ، وفقاً لمذهب مالك ، وكتبوا عن التاريخ المقدس ، والقصص الدينى ، وتعبير الرؤيا وغير ذلك »(٢) .

(١) R. Menéndez Pidal : Orígines del Espanol p. 418, 429 & 431

(٢) E. Saavedra : Discurso leido ante la Real Academia Espanola (Madrid 1878)

وهكذا كتب الموريكسيون القرآن سراً باللغة العربية ، مقروناً بشروح وتراجم ألخميادية ، وكتبوا سيرة الرسول والمدائح النبوية ، وقصص الأنبياء ، وبعض كتب الفقه والحديث بالألخميادو — وهو رسم لغتهم العزيزة — ، مع كتابة البسملة والآيات القرآنية دائماً خلال هذه النصوص السرية باللغة العربية ، ويلاحظ أن معظم كتب الألخميادو المذكورة تكتب بالشكل الكامل ، حتى يمكن قراءتها بطريقة صحيحة .

واستعمل الموريسكيون الألخميادو فى أدبهم ، وفى التعبير عن أفكارهم ومُثلهم فى النثر والنظم . ومن أشهر شعرائهم محمد ربدان Rabadán أو الراعى وقد كان حياً فى أوائل القرن السابع عشر ، وأصله من روطة خالون من أراجون . وله نظم كثير ، وقصائد قصصية ، وأخرى دينية . ومن آثاره فى القصص الدينى كتاب عن « هول يوم الحساب » و« قصة النبى منذ بدء الخليقة » وأغنيات دينية ، وأسماء الله الحسنى ، وكلها بالنظم . وشعره يمتاز بالجزالة والسهولة . ومن شعراء الموريسكيين أيضاً ابراهيم دى بلفاد ، وخوان ألفونسو ، ومنهم الشاعر محمد الحرطوشى ، وقد كان من أهل بيانة ، ومنهم أخيراً شاعر موريسكى مجهول ، عاش فى تونس فى أوائل القرن السابع عشر بعد النفى ، واشتهر بنقده لمسرحيات « لوبى دى ڤيجا » شاعر اسبانيا الأكبر .

ومن أشهر كتاب الألخميادو الكاتب الفقيـه المسمى « فتى أبرالو » El Mancebo de Avéralo ، وهو مؤلف لكتب فى التفسير ، وتلخيص السنة ؛ وقد طاف بمعظم أنحاء اسبانيا ، وشهد مصائب قومه ووصفها ، وتلقى العلوم الإسلامية القديمة عن عالمتين بارعتين فى الشريعة هما « مسلمة أبده La Mora de Ubéda» ، و« مسلمة آبلة » La Mora de Avila ، وألف كذلك فى القصص الدينى .

وعنى الموريسكيون بنوع خاص بكتابة القصص وترجمته ، ومن آثارهم المعروفة فى ذلك كتاب « حديث القصر الذهبى » Alhadiz de Alcázar del Oro وكتاب الحروب ، و« حديث على والأربعين جارية » ، بيد أن أعظم كتبهم القصصية الحماسية هو كتاب « قصة الإسكندر ذى القرنين » ، والتنويه ببطولة الإسكندر يرجع إلى شخصيته ، ولأنه ذكر فى القرآن ، وأنه بعث لكى يحارب ملوك الأرض ويحطم الأصنام ويقتل عبادها .

ومن أشهر كتب الموريسكيين الألخميادية ، كتب المدائح النبوية والأدعية ،

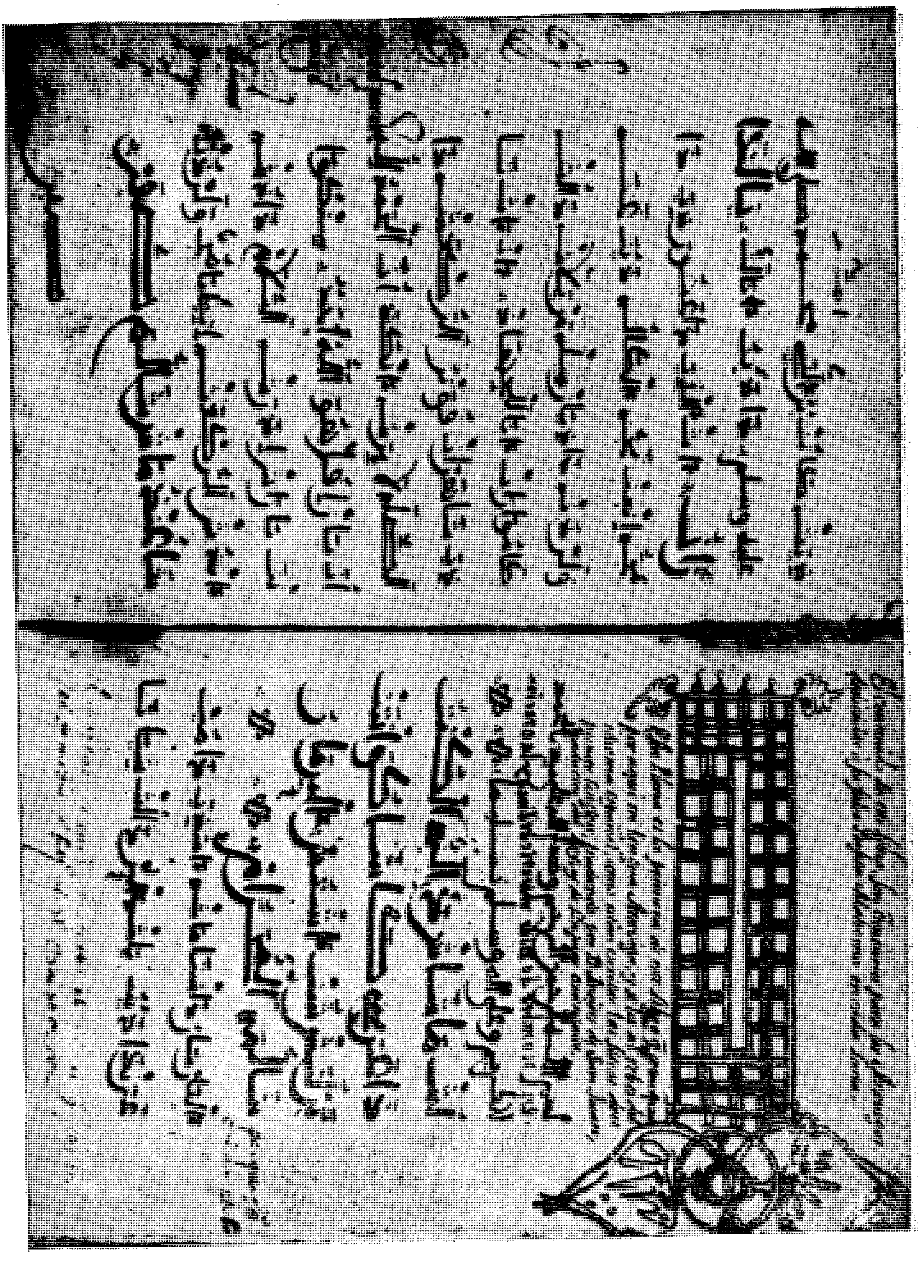

الصفحتان الأوليان من كتاب في « الأدعية النبوية » مكتوب بالأعجمية ، وفي نهايته بالعربية الركيكة أنه كتب سنة ٩٩٧ هـ (١٥٧٩ م) ، ومخطوط بمكتبة مدريد الوطنية رقم ٥٣٠٦ .

والواقع أن كتابة المدائح النبوية باللغة القشتالية ترجع إلى عصر مبكر ، وقد كتبها المدجنون بهذه اللغة منذ القرن الثالث عشر ، وانتشرت بعد ذلك بين طوائف المدجنين فى مختلف مدن قشتالة وأراجون . ثم كتبها الموريسكيون بالألخميادو أو القشتالية العربية .

والظاهرة الواضحة فى الأدب الموريسكى ، هو أن كتاب الألخميادو كانوا يفكرون ويكتبون بالروح العربية ، وإن كان تعبيرهم عن ذلك يجرى بالقشتالية ، وأنهم كانوا يتأثرون فى الأسلوب بلهجات مقاطعاتهم المختلفة ، أكثر من تأثرهم بقواعد اللغة .

ويرى النقدة أن نثر كتاب الألخميادو أفضل من نظمهم ، وأنه نثر مطبوع خال من التكلف ، ومن الملحوظ فيه بنوع خاص تسرب الألفاظ العربية الصحيحة إليه من آن لآخر ، والأدب الموريسكى لا يتجه إلى مراعاة الرونق والتنميق ، ولكنه يرمى قبل كل شىء إلى تصوير التاريخ والتقاليد القومية فى إطار دينى . وبالرغم مما يغلب عليه من الضعف والركاكة بصفة عامة ، فإنه يصل أحياناً إلى مرتبة الطلاوة ، بل يصل أحياناً إلى مرتبة البلاغة . وأفضل مثل لذلك شعر ربدان(١) .

كما يرى البعض ، أنه وإن لم تكن للأدب الموريسكى ثروة من الجمال أو قيمة أدبية ذات شأن ، فإن له قيمة تاريخية واجتماعية هامة ، فى الكشف عن التقاليد والعادات ، وأنه قد ترك أثره فى اللغة الإسبانية ، وفى الشعر الإسبانى ، وفى الأفكار الدينية وغيرها .

بل وقد نوه غير واحد من الكتاب الإسبان ، بما كان عليه الأدب الموريسكى بالرغم من ضعفه وضآلة شأنه ، من شاعرية ، وشعور بالجمال ، وخيال ممتع ، وذوق سليم . ويعلق الدون برونات على اختفاء الموريسكيين واختفاء أدبهم بعبارات شعرية يقول فيها : « إن السياسة الإسبانية لم تكتف بنفى الموريسكيين ، وما ترتب عليه من نضوب حقولنا ومصانعنا وخزائننا ، ولم يقتصر الأمر على انتصار التعصب ، وبربرية ديوان التحقيق ، بل تعداه إلى اختفاء الشعر ، وشعور الجمال الموريسكى ، والأدب السليم الذى رفع سمعة تاريخنا » .

---

(١) راجع : **Menéndez y Pelayo : Historia de los Heterodoxes Espanoles** ، **p. 345 - 349** وكذلك **E.Saavedra : ibid.**
وراجع الموسوعة الإسبانية العامة تحت كلمة **Aljamia**

صفحتان من كتاب فى التفسير مكتوب بالألخميادو ومحفوظ بمكتبة مدريد الوطنية برقم ٥٢٥٢

ثم يقول : « إنه اختفى بطرد الموريسكيين ، الأدب المعطر ، والشاعرية الشعبية ، والخيال الممتع ، ومصدر الوحي الذى كانوا يمثلونه . وقد غاض باختفائهم من شعرنا هذا التلوين والفن والحيوية والإلهام والحماسة ، التي كانت من خواصهم ، وحل محلها الظلام فى الأفق الأدبي خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر»[1] .

وقد اطلعنا خلال إقامتنا بمدريد على كثير من الكتب والوثائق الألخميادية ولاسيما فى المكتبة الوطنية التي تحتفظ منها بطائفة كبيرة ، ومنها كتب صلوات وأدعية وفقه ، ومعظمها يفتتح بالبسملة والصلاة على النبي ، وقد لفت نظرنا بالأخص مخطوط منها ، وهو كتاب فى الصلاة والأدعية ، تدل عبارته الاختتامية على أن اللغة العربية كانت ما تزال بالرغم من تحريمها ومطاردتها ، تدرس وتكتب سراً حتى أواخر القرن السادس عشر ، وإليك نص العبارة المذكورة :

« أفرغ للعبد من الله تعالى المعترف بذنبه الراجي غفران ذنبه ، على بن محمد بن محمد شُكار من بلاد مزماذيانى اليوم الآخر من جمادى الثانى يوما أربعة ولعشرين من شهر ماروس من يوم من ثلث منه عام ثمانية وتسعين تسع مائة من الحجرة النبي صلى الله عليه وسلم . ولعددا من المسيح منه عام وتسع وثمانين ألف وخمسمائة آمين آمين يارب العالمين . تمت بحمد الله وحسن عونه وكان الفراغة ثم صلاة العصر »[2] .

واطلعنا كذلك على عدة من كتب الأدب الموريسكى ، ومنها قطعة مخطوطة من كتاب يوسم بأنه « قصيدة يوسف » ، وهو كتاب شعرى عن حياة يوسف لمؤلف مجهول[3] .

وهناك أيضاً طائفة من الكتب الدينية ، ومنها كتب فى السيرة النبوية والتفسير والحديث والصلوات ، وعدد كبير من الوثائق الموريسكية المختلفة ، وكثير منها يفتتح بالبسملة ويتخللها ، اسم الله والصلاة على رسوله .

---

(١) D. Pascual Boronat : Los Moriscos Espanoles y su Expulsión. p. 384, 386, & 389

(٢) يحفظ هذا المخطوط بالمكتبة الوطنية بمدريد برقم 5306 بفهرس المخطوطات العربية .

(٣) يحفظ هذا المخطوط بالمكتبة الوطنية برقم R. 247 . وتوجد من هذا الأثر الموريسكى أيضاً قطعة مخطوطة بمكتبة أكاديمية التاريخ بمجموعة جاينجوس ، وقد وضع العلامة المؤرخ الأستاذ مننديث بيدال عن هذا المؤلف كتاباً نقدياً نشر فيه النص الألخميادى مقروناً بتخريج اسبانى بعنوان : La Poema de Yuçuf (Granada 1952) .

على أن هذه الآثار الدينية التى حاول الموريسكيون أن يدونوا فيها تعاليم الإسلام وسيرة النبي ، تحتوى فى أحيان كثيرة على بعض التعاليم النصرانية ، تمتزج بتعاليم الإسلام ، وتعرض فيها المثل الإسلامية أحياناً فى صور المثل النصرانية ، وقد يصور النبي العربى من بعض النواحى فى صور المسيح . ويرجع هذا المزيج الغريب إلى ظروف العصر ، وإلى ضغط المطاردة الدينية التى لبث الموريسكيون تحت روعها ، وإلى رهبة محاكم التحقيق التى استمرت فى عسفها ومطارداتها الدموية . بيد أن الآثار الدينية التى خلفها الموريسكيون تنم فى معظمها عن بغضهم للنصرانية ومثلها وتقاليدها ، مما يدل على أن تسرب التعاليم النصرانية إلى كتبهم لم يكن سوى نتيجة لظروف العصر التى باعدت قسراً بينهم وبين تعاليم دينهم الحقيقية .

وقد وجدت فى أواخر القرن السادس عشر بدير ساكرومونتى القريب من غرناطة ، ألواح من الرصاص عليها كتابات دينية باللاتينية والعربية ، تتحدث عن حياة المسيح والرسل ومريم ، وعن الإسلام وبعض قواعده ، وتمزج فيها التعاليم الإسلامية بالتعاليم المسيحية . وقد رأى بعض الباحثين أن هذه الألواح كتبها الموريسكيون ، وفيها يحاول علماؤهم أن يجدوا حلا وسطاً للتوفيق بين الدينين ، وأن يصنعوا مزيجاً معقولا من العقيدتين . وقد حملت هذه الألواح فيما بعد إلى رومة ، وترجم قسمها اللاتيني ، ثم حكم بأنها أوهام وخرافات وضعت لمسخ الدين المسيحى وهدمه[1] .

هذا ، ويوجد ثمة بعض الكتاب الموريسكيين ، الذين استطاعوا أن يغادروا اسبانيا فى أواخر العهد الموريسكى ، قبيل النفى بقليل ، وأن يكتبوا بالعربية لغة آبائهم وأجدادهم ، بعض الآثار التى انتهت إلينا ، ولدينا من هؤلاء مثلان بارزان، الأول ، هو باسمه الأندلسى ، محمد بن عبد الرفيع الحسينى الأندلسى الذى سبقت الإشارة إليه ، وقد هاجر قبل النفى إلى تونس ، وترك لنا بالعربية كتابه « الأنوار النبوية فى آباء خير البرية » ، وهو الذى اقتبسنا منه ، ما كتبه فى خاتمته عن أحوال إخوانه الموريسكيين ، وعن البواعث التى حملت اسبانيا على نفيهم[2] .

---

( ١ ) **Menéndez y Pelayo : Historia de los Heterodoxes Espanoles.p.354**

( ٢ ) وتوجد منه نسخة خطية بخزانة الرباط ( المكتبة الكتانية رقم **1238** ) ، ومذكور فى نهايته أنه تم تحريره بتونس فى سادس شعبان سنة ١٠٤٤ هـ

والثانى هو حسبما يسمى نفسه باسمه الأندلسى ، أحمد بن القاسم بن أحمد الفقيه قاسم بن الشيخ الحجرى ، ويعرف بالشهاب الحجرى ، وكذلك بآفوقاى ، وهو موريسكى من أحواز غرناطة ، استطاع أن يغادر الأندلس فى سنة ١٠٠٧ هـ ( ١٥٩٨ م ) ، أعنى قبل النفى بثلاثة عشر عاما . ويروى لنا الشهاب ، قصة فراره من اسبانيا فى خاتمة كتابه « العز والمنافع » الذى نتحدث عنه فيما بعد ، على النحو الآتى :

« وأقول اعلم أن أول ما تكلمت به ببلاد الأندلس ، كان بالعربية ، وكانت النصارى دمَّرهم الله ، تحكم فى من يجدوه يقرأ العربية ، فتعلمت القراءة الأعجمية للأخذ والاعطى ، ثم ألهمنى الله سبحانه أن أخرج من تلك البلاد إلى بلاد المسلمين لما تحققت أن الكفار ، كانوا فى الثغور يبحثون عن كل من يرد عليهم لعلهم يجدونه أندلسيا مخفيا ليحكموا فيه لأنهم كانوا منعوهم من الثغور ليلا يهربوا إلى بلاد المسلمين ، فجلست سنين ، نتعلم الكلام والأخذ فى كتبهم ليحسبوا أنى منهم إذ أمشى إلى بلادهم للخروج منها لبلاد الإسلام . ولما أن جئت إلى البلاد التى هى على حاشية البحر ، حيث هو الحرس الشديد ، وجلست بينهم فلم يشكوا فى بما رأوا منى من الكلام والحال والكتابة ، وجئت من بينهم إلى بلاد المسلمين ، وبهذه النية تعلمت وبلغت فى كتبهم . ولكل امرئ ما نوى . ثم رأيت أن بسبب التعليم انه كان بنية القرب من الله ببلاد المسلمين ، فتح لى بذلك العلم المنهى عنه ببيان الملوك المسدودة عن كثير من الناس » .

وقد اتصل الشهاب الحجرى ، عقب وصوله إلى المغرب ، بالسلطان أحمد المنصور ، ملك المغرب يومئذ ، واشتغل مترجماً للبلاط ، فى عهد المنصور وولده السلطان مولاى زيدان المتوفى سنة ١٠٣٧هـ ( ١٦٢٧ م ) ، إذ كان يجيد الإسبانية إلى جانب العربية . واستعمله السلطان فوق ذلك للسفارة عنه فى بعض البلاد الأوربية ، ورحل الشهاب فى أواخر حياته إلى المشرق ، وأدى فريضة الحج . ولما عاد ، نزل بتونس ، وقربه أميرها الداى مراد يومئذ . وهنالك توثقت أواصر الصداقة بينه وبين زميل موريسكى مهاجر يسمى باسمه الأندلسى الرئيس ابراهيم ابن أحمد بن غانم بن محمد بن زكريا الأندلسى . وكان الرئيس ابراهيم هذا فيما يبدو من زعماء الجند ، وقد ألف بالإسبانية ( الأعجمية ) كتابا فى فن الجهاد بالمدافع . فقام الشهاب الحجرى بترجمته إلى العربية ، وسماه « كتاب العز والرفعة

والمنافع للمجاهدين فى سبيل الله بالمدافع » ، ووصف نفسه فى صفحة العنوان بأنه « ترجمان سلاطين مراكش » . وقد انتهى هذا الكتاب الفريد إلينا ، وهو يحتوى على خمسين بابا فى وصف البارود ، والآلات الحربية القاذفة ، وتركيب المدافع واختلافها ، ووصف أدواتها ، وطرق تعميرها ، والرمى بها إلى غير ذلك . ويتخلل ذلك رسوم توضيحية لمختلف أجزاء المدفع(١) .

ويشير الشهاب فى كتابه المذكور إلى المقرى مؤرخ الأندلس ، وإلى كتابه الجامع « نفح الطيب » فى قوله : « وقد صح من كتب التواريخ التى جمعها العلامة الشيخ أحمد المقرى فى كتابه بمصر فى الكتاب الجامع للتواريخ على بلاد الأندلس أعادها الله إلى الإسلام » ، وقد عاش الرجلان فى نفس العصر . والظاهر أن الشهاب الحجرى قد لقى المقرى بمصر خلال مروره بها فى طريقه إلى الحج ، أو خلال العود منه ، وذلك فى نحو سنة ١٠٤٠ هـ (١٦٣١م) قبيل وفاة المقرى بقليل .

وقد كتب الشهاب الحجرى فوق ذلك كتابا آخر عنوانه « رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب » . والأحباب هنا فيما يبدو هم إخوانه المسلمون فيما وراء البحر فى عدوة المغرب ، ولكن هذه « الرحلة » لم تصلنا مع الأسف ، ولم يصل إلينا منها سوى شذور يسيرة جداً ، نقلها بعض الكتاب المغاربة المتأخرين ، وأكبر الظن أن رحلة الشهاب المفقودة كانت تحتوى على معلومات هامة ونفيسة عن أحوال مواطنيه العرب المتنصرين ، ولعل البحث يظفر بها يوما ما .

ومما يلفت النظر من أقوال الشهاب عن أحوال اسبانيا يومئذ ، ما نقله إلينا صاحب كتاب « نزهة الحادى » من الرحلة المذكورة ، قول الشهاب « إن جزيرة الأندلس ، استردادها من أيدى الكفار سهل ، واسترجاعها منهم قريب . ولما دخلت فى أيام المنصور مراكش ، وجدت عنده من الخيل نحوا من ستة وعشرين ألفاً ، فلو تحركت هذه لفتحتها ، ولاستولى عليها فى الحين »(٢) .

---

(١) توجد منه نسخة مخطوطة بخزانة الرباط تحفظ برقم ج 87 ، وتقع فى ٢٦١ صفحة كبيرة ، ومذكور فى صفحة العنوان أنه من تأليف الرئيس ابراهيم بن أحمد بن غانم بن محمد بن زكريا ، كتبه بالأعجمية ، وترجمه له بالعربية ترجمان سلاطين مراكش ، أحمد بن قاسم بن أحمد الحجرى الأندلسى » . وتوجد منه كذلك نسخة بالخزانة التيمورية بدار الكتب المصرية رقم ٩٧ فروسية ، ونسخة أخرى بدار الكتب رقم ٧١ فنون حربية .

(٢) كتاب نزهة الحادى ص ٩٩ .

وأخيراً ، فقد وضع الشهاب أيضاً عقب عوده من الحج ، كتابا عنوانه «ناصر الدين على القوم الكافرين» يؤيد فيه رسالة الإسلام ، ويفند معتقدات النصارى

— ٣ —

وقد أبدت السياسة الإسبانية اهتماماً خاصاً بالقضاء على تراث الأندلس الفكرى ، وبدأت بارتكاب فعلتها الشائنة فى سنة ١٤٩٩ م أعنى لأعوام قلائل من سقوط غرناطة ، فجمعت الكتب العربية ، وأحرقت بأمر الكردينال خمنيس حسبما فصلنا من قبل ، ولم تبق معاول التعصب والجهالة إلا على بقية صغيرة من الكتب العربية ، جمعت فيما بعد من مختلف الأنحاء ، وأودعت أيام فيليب الثانى فى قصر الإسكوريال على مقربة من مدريد ، وحجبت عن كل باحث ومتطلع . وفى أوائل القرن السابع عشر ، وقع حادث كان سبباً فى مضاعفة المجموعة العربية الإسبانية . ذلك أن السفن الإسبانية استطاعت أن تأسر مركباً مغربية لمولاى زيدان ملك المغرب ، كانت مشحونة بالكتب ومختلف التحف ، وبها ثلاثة آلاف سفر من كتب الدين والأدب والفلسفة وغيرها . وتضع الرواية الإسبانية تاريخ هذا الحادث فى سنة ١٦١٢ فى عصر فيليب الثالث ، وذلك حينما اشتد اضطراب العلائق بين اسبانيا والمملكة المغربية(١) . وقد حملت هذه المجموعة النفيسة من الكتب العربية إلى اسبانيا ، وأودعت قصر الإسكوريال ، إلى جانب بقية التراث الأندلسى التى كانت مودعة فيه منذ أيام فيليب الثانى . وكانت مجموعة مولاى زيدان المغربية تحتوى على عدد كبير من الكتب الأندلسية التى كثر استنساخها ، واقتناؤها بالمغرب ، بعد سقوط غرناطة .

ولبثت هذه المجموعة من المخطوطات العربية الأندلسية مودعة بمكتبة الإسكوريال الملكية حتى أواسط القرن السابع عشر ، وكانت تبلغ يومئذ عدة آلاف ، وكانت أغنى وأنفس مجموعة من نوعها بإسبانيا . ولكن محنة جديدة أصابت هذه البقية الباقية من تراث الأندلس . ففى سنة ١٦٧١ شبت النار فى الإسكوريال ، والتهمت معظم هذا الكنز الفريد ، ولم ينقذ منه سوى ألفين ، هى التى مازالت تثوى حتى اليوم فى أقبية مكتبة الإسكوريال التى يشرف عليها الآباء الأوغسطنيون . وكانت الحكومة الإسبانية أثناء هذه العصور تحرص على إخفاء الآثار العربية عن كل قارئ

---

(١) الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى للسلاوى ج ٣ ص ١٢٨ ؛ وراجع ص ٣٩٢ من هذا الكتاب .

وباحث ، كأنما كانت تخشى أن تتسرب روح التفكير الإسلامى إلى تفكير اسبانيا النصرانية ، بعد أن بذلت لقتل هذا الروح كل وسيلة ممكنة . وكان الكتاب الإسبان أنفسهم ، تحملهم نزعة الدين والجنس ، يعرضون عن كل بحث وتنقيب فى هذه المصادر النفيسة ، التى تلقى أكبر ضوء على تاريخ اسبانيا المسلمة وحضارتها فى العصور الوسطى ، ويكتفون فى كتابة هذه المرحلة الطويلة الباهرة من تاريخ بلادهم ، بالرجوع إلى المصادر الإسبانية التى تفيض بالتحامل والتعصب وغمر الخرافات . ولم تفق الحكومة الإسبانية من جمودها ، ولم تفكر فى تنظيم تراث الأندلس الفكرى والتعريف به ، قبل أواسط القرن الثامن عشر ، فعندئذ انتدبت عالماً شرقياً يجمع بين الثقافتين الشرقية والغربية ، هو ميخائيل الغزيرى اللبنانى ، الذى يعرف فى الغرب باسم كازيرى Casiri ، وعهدت إليه بدرس الآثار العربية ، ووضع فهرس جامع لها . وكان الغزيرى بنشأته وثقافته الشرقية رجل المهمة ، فلبى دعوة الحكومة الإسبانية ، وعين فى سنة ١٧٤٩ مديراً لمكتبة الإسكوريال ، وأنفق هنالك بضعة أعوام يدرس المخطوطات العربية ويحققها ، ثم بدأ يوضع فهرسه الجامع الذى عهد إليه بوضعه . وفى سنة ١٧٦٠ صدر الجزء الأول من هذا الفهرس باللاتينية بعنوان Bibliotheca Arabico - Hispana Escurialensis «المكتبة العربية الإسبانية فى الإسكوريال» ؛ وصدره الغزيرى بمقدمة طويلة تحدث فيها عن قيمة هذه المخطوطات العربية وأهميتها ، وقسم هذه الآثار إلى عدة فنون ، وبدأ بكتب اللغة وعلومها ، ثم الشعر وأبوابه ، ثم الفلسفة وما يتعلق بها ، ثم الأخلاق فالطب والتاريخ الطبيعى ، فالرياضة والهندسة والفلك ، فالفقه وعلوم الدين والقرآن ، وهى تشمل أكبر مجموعة . ثم الآثار النصرانية . وتبلغ محتويات هذا الجزء الأول من الفهرس ١٦٢٨ مجلداً . وفى ١٧٧٠ ظهر الجزء الثانى من الفهرس ، محتوياً على كتب الجغرافيا والتاريخ ومنتهياً برقم ١٨٥١ ، وهو جملة ما أثبته الغزيرى فى فهرسه .

وكان أهم ما اتجهت إليه الأنظار بعد ظهور معجم الغزيرى ، هو التنقيب فى مجموعة الإسكوريال عن الروايات العربية المتعلقة بتاريخ اسبانيا المسلمة ، وسياسة الحكومات الإسلامية ، وخواص المجتمع الإسلامى ، فعنى طائفة من الباحثين الإسبان فى أواخر القرن الثامن عشر ومنهم أندريس وماسدى ، يبحث تاريخ العلوم والآداب العربية ، فأخرج أندريس كتابه عن «أصول الأدب» ، وأخرج

ماسدى مؤلفه عن « تاريخ اسبانيا والحضارة الإسبانية »(١). ثم جاء العلامة كوندى فوضع لأول مرة تاريخاً لاسبانيا المسلمة(٢)، يعتمد فيه على الروايات العربية، وظهر هذا المؤلف بين سنتى ١٨١٠ و١٨١٢. وبالرغم من أن مؤلف كوندى يحتوى على كثير من الأخطاء التاريخية، فقد كان أول مجهود غربى من نوعه يعرض للغرب قضية العرب فى اسبانيا من الناحية العربية، وفيه يقف الغرب لأول مرة على وجهات النظر الأندلسية، وخواص النظم والسياسة الإسلامية. ويبدى كوندى فى كثير من المواطن حماسة فى الدفاع عن العرب، والإشادة بخلالهم ومواقفهم وحضارتهم، ويصدر فى بعض المواطن، أشد الأحكام على أمته وسياسة مواطنيه.

وأخذت المصادر العربية الأندلسية، تمثل من ذلك الحين فى كل بحث يتعلق بتاريخ الأندلس. وكان العلامة المستشرق الهولندى رينهارت دوزى أعظم باحث غربى، توفر على دراسة التاريخ الأندلسى، ودراسة مصادره العربية والغربية، وكتابه القيم « تاريخ المسلمين فى اسبانيا حتى فتح المرابطين »(٣)، من أنفس ماكتب فى هذا الباب، وذلك بالرغم مما يبدو فيه من أن لآخر من تعليقات يطبعها التحامل. وتوالت بعد ذلك جهود الباحثين الغربيين فى دراسة تاريخ اسبانيا المسلمة وكتابته. وصدرت بعد كتاب دوزى خلال القرن الماضى فى هذ الموضوع، عدة كتب قيمة، إسبانية وإنجليزية وفرنسية وغيرها، يمتاز الكثير منها بدقة البحث وروح الإنصاف.

وقام المستشرق الفرنسى هارتفج ديرنبور فى أواخر القرن الماضى بدراسة جديدة للمجموعة الأندلسية بالإسكوريال، ووضع لها فهرساً جديداً بالفرنسية عنوانه: « المخطوطات العربية فى الإسكوريال» Les Manuscrits Arabes de l'Escurial نحا فيه نحو الغزيرى فى ترتيبه وترقيمه، وعثر على نحو مائة مخطوط أخرى لم يثبتها الغزيرى فى معجمه. بيد أنه لم يصدر من هذا الفهرس الجديد سوى جزئين يشتملان على كتب اللغة والبلاغة والشعر والأدب والفلسفة والأخلاق والسياسة. وأصدر الأستاذ ليڤى بروڤنسال بعد وفاة ديرنبور جزءاً ثالثاً من هذا الفهرس مشتملا على

---

(١) **Historia critica de Espana y la Cultura espanola**

(٢) **Historia de la Dominación de los Arabes en Espana**

(٣) **Histoire des Musulmans d'Espagne juspaqu'à la Conquête de l'Andalousie par les Almoravides**

كتب الدين والجغرافيا والتاريخ . ومازال هذا الفهرس الجديد لمجموعة الإسكوريال الأندلسية ، ينقصه استعراض كتب الطب والتاريخ الطبيعي والرياضة والفقه ، كما ينقصه ذكر الكتب التي غابت عن الغزيري وعددها نحو مائة كتاب .

وقد كان التنقيب في تراث الآثار الأندلسية ، والتعريف بها على هذا النحو ، فتحاً عظيما في تاريخ اسبانيا المسلمة ، وتاريخ الحضارة الإسلامية . فقد كان الغرب حتى أواخر القرن الثامن عشر ، لا يعرف من هذا التاريخ سوى ما تعرضه الرواية الإسبانية من شذور مشوهة مغرضة ، وكانت مئات من الحقائق تغمرها حجب التعصب والتحامل ، فجاءت وثائق الإسكوريال تبدد هذه الحجب ، وتقدم الأدلة الساطعة على عظمة هذه الصفحة من تاريخ اسبانيا ، وتعرض لنا مئات الحقائق عن تفوق الحضارة الأندلسية ، ومبلغ ما وصلت اليه من الإزدهار والتقدم .

ومما هو جدير بالذكر أن ملوك المغرب بذلوا أكثر من محاولة لاسترداد الكتب العربية من اسبانيا ، وكان يحدوهم في ذلك شعور بأن هذا التراث الفكرى للأمة الأندلسية الشهيدة إنما هو تراثهم المشترك ، وأن المغرب هو الوارث الطبيعي لهذا التراث ، خصوصا وقد كان بين محتوياته مكتبة مولاى زيدان التي انتهبت في عرض البحر حسبما قدمنا . ففي سنة ١١٠٢ هـ ( ١٦٩١ م ) بعث مولاى اسماعيل عاهل المغرب العظيم ، وزيره الكاتب محمد بن عبد الوهاب الغسانى سفيراً إلى كارلوس الثانى ملك اسبانيا ، وكان من مهمته إلى جانب السعى في تحرير الأسرى المغاربة ، أن يسعى في استرداد الكتب العربية ، وقد نجح السفير في تحقيق الشطر الأول من مهمته ، ولكنه لم ينجح في تحقيق الشطر الثانى . وفي سنة ١١٧٩ هـ ( ١٧٦٥ م ) أرسل مولاى محمد بن عبد الله سلطان المغرب ، كاتبه أحمد بن مهدى الغزّال ، سفيراً إلى كارلوس الثالث ملك اسبانيا ليضطلع بنفس المهمة المزدوجة ، أعنى العمل على تحرير الأسرى المغاربة ، واسترداد الكتب العربية ، ولكنه لم يحرز في مهمته بشأن الكتب نجاحا يذكر ، وإن كان قد استطاع أن يحصل من الإسبان على قدر من الكتب العربية ليس بينها شيء من محتويات الإسكوريال(١).

---

( ١ ) ترك لنا كل من هذين السفيرين كتابا عن مهمته : فكتب الوزير محمد بن عبدالوهاب كتابه المسمى « رحلة الوزير في افتكاك الأسير » ( تطوان ١٩٣٩ ) . وكتب الثانى أحمد الغزال كتابه « نتيجة الإجتهاد في المهادنة والجهاد » ( تطوان ١٩٤١ ) .

— ٤ —

بقى أن نتحدث عن الفن فى الأندلس، وسيكون حديثنا عن ذلك عاماً . ذلك أن الفن فى مملكة غرناطة آخر دول الإسلام بالأندلس ، لم يكن سوى المرحلة الأخيرة لسير الفن الأندلسى .

وقد نشأ الفن الإسلامى فى البداية نشأة متواضعة . ونريد بالفن هنا معناه الدقيق الخالص.فالتصوير والنحت والنقش والزخرفة والموسيقى والغناء وما إليها، مما ينعت فى عصرنا بالفنون الجميلة ، يقع تحت هذا المعنى . بيد أن هنالك معنى أوسع للفن فقد يشمل فنون الهندسة والعمارة وما إليها، ولا بأس من أن نعامله بهذا المعنى الأعم فى الوقت نفسه . وهذه النشأة المتواضعة للفن الإسلامى ترجع بالأخص إلى عوامل دينية . فقد نشأ الإسلام خصيم الوثنية ، يضطرم بغضاً لمظاهرها ورسومها ، وقد كان النحت والتصوير والنقوش الرمزية ، وقت ظهور الإسلام من مظاهر الوثنية ورسومها البارزة ، فكان الإسلام يخاصمها ويطاردها . ولم يشأ الإسلام أن يفسح صدره لهذه المظاهر والرسوم كما فعلت النصرانية، حيث اعتنقتها وشملتها برعايتها ، وازدانت بها كنائسها وهياكلها العظيمة منذ القرن الأول للميلاد . ثم غدت فيها بعد مثاراً للخلاف الطائفى ، واعتبرت رمزاً لعبادة الصور ، وثارت حولها تلك المناقشات والخصومات البيزنطية الشهيرة . بيد أن هذه الخصومة التى شهرها الإسلام فى عصره الأول على التماثيل والصور ، رموز الوثنية ومظاهرها ، لم تلبث أن خفت وطأتها منذ القرن الثانى للهجرة ، حينما قامت الإمبراطورية الإسلامية ، وأنشئت فى أرجائها الصروح الإسلامية العظيمة ، وبدت الخلافة فى عظمتها الدنيوية ، وأخذت بقسطها من الترف والبهاء والبذخ . عندئذ عنى الخلفاء بالفنون وازدانت قصورهم ومعاهدهم وحدائقهم ، بمظاهر الفن الرفيع ، واعتمد على الاقتباس بادئ بدء من تراث الفنون الفارسية واليونانية والرومانية ، والبيزنطية بنوع خاص ، واقتبس عرب الأندلس أيضاً من تراث الفن القوطى . ولم يمض بعيد حتى امتزج الاقتباس بالابتكار ، وبدا الفن الإسلامى فى مظاهره المستقلة . وبلغ منذ القرن الثالث للهجرة ، سواء فى بغداد أو قرطبة مستوى رفيعاً من الروعة والبهاء . وبرع المسلمون فى صنع الزخارف والنقوش والرسوم والصور الدقيقة ، وانتهوا فى الموسيقى إلى ذروة الافتنان والبراعة ، وازدهر الفن الإسلامى فى المشرق والمغرب أيما ازدهار .

وبلغ الفن الإسلامى فى الأندلس أوج ازدهاره فى القرن الرابع الهجرى. ويجب أن نلاحظ أن مسلمى الأندلس كانوا أسبق الأمم الإسلامية إلى صنع التماثيل والصور وقد زينوا قصورهم ومعاهدهم منذ القرن الثالث، بالتماثيل والصور والنقوش، التى تمثل الحيوان والنبات والطير. أما التماثيل والصور البشرية، فكانت تلقى نوعاً من التحريم العام. وفى عصر عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ) خطا الفن الأندلسى خطوة أخرى، فصنعت التماثيل والصور البشرية، وزينت بها القصور والمعاهد الخلافية، وكما أن عصر الناصر كان أعظم عصور الدولة الإسلامية فى الأندلس، فكذلك كان أعظم عصور الفن الأندلسى.

وقد كان قصر قرطبة الكبير حتى عهد الناصر، موضع العناية والرعاية من جميع أمراء بنى أمية، وكان مجمع البهاء والرواء والفن. ولكن الناصر آثر أن ينشئ له ضاحية ملوكية جديدة، تكون آية فى الفخامة والبهاء، فأنشأ مدينة الزهراء وقصورها ومعاهدها الباهرة، وأفاض عليها من ألوان البذخ والبهاء، وبدائع الفن والزخرف، آيات رائعات. وكانت نقوش الزهراء ورسومها وتماثيلها، أبدع ما أخرج الفن الإسلامى فى الأندلس. ولا يتسع المقام للإفاضة فى وصف عظمة الزهراء، وروائعها الفنية، فنحيل القارئ إلى ما أورده صاحب نفح الطيب فى هذا الشأن من مختلف الروايات والفصول(١). ولكنا نخص بالذكر هنا مثلين رائعين من آيات الفن الباهر، التى زينت بها قصور الزهراء، فمن ذلك أسد عظيم الصورة بديع الصنعة شديد الروعة، لم يشاهد أبهى منه فيما صنع الملوك الأوائل، مطلى بالذهب، وعيناه جوهرتان لهما ضوء ساطع، قد أقيم على بحيرة قصر الناعورة، يجوز الماء إلى مؤخره من قناة تحمل إليه الماء العذب، من جبل قرطبة على حنايا معقودة، فيدفع الماء إلى البحيرة فى منظر رائع(٢). ومن ذلك الحوض البديع الذى جلبه الناصر لاستحمامه، وأقيم عليه اثنا عشر تمثالا من الذهب الأحمر، مرصعة بالدر النفيس مما صنع بدار الصناعة بقرطبة: أسد إلى جانبه غزال ثم تمساح، يقابلها ثعبان وعقاب وفيل، وفى الجانبين حمامة وشاهين وطاووس ودجاجة وديك وحدأة ونسر، كلها من ذهب مرصع بالجوهر النفيس، وتخرج الماء من أفواهها(٣).

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٥ و٢٤٦ و٢٦٤ — ٢٦٦؛ وابن خلدون ج ٤ ص ١٤٤؛ وراجع Murphy : Mohamedan Empire in Spain. p. 167-174

(٢) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٤. (٣) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٤.

وهنا أيضاً أعنى فى عصر الناصر ، نرى لأول مرة فيما يظهر ، تماثيل الإنسان وصوره تمثل فى الفن الأندلسى ، إلى جانب تماثيل الحيوان وصوره . فيروى أن الناصر أمر أن تنقش صورة جاريته وحظيته « الزهراء » على باب قصر الزهراء ، وهذه الجارية فيما يروى هى التى حملته على بناء الزهراء وتسميتها باسمها[1] . وزينت أبهاء الزهراء بتماثيل وصور بشرية[2]. فكانت ظاهرة فنية جديدة .

يقول العلامة الأثرى الإسبانى الأستاذ مورينو مشيراً إلى عصر عبدالرحمن الناصر :

« جاء هذا الملك ، وقد دخل الشرق الإسلامى فى دور الانحطاط ، ودخل العهد البيزنطى بالعكس فى أسطع مراحله ، وعمل الخليفة الإسبانى ، وهو حليف القيصر اليونانى على إحياء الحضارة ، فعادت بفضله تزدهر فى جانبي البحر المتوسط ، وتولت قرطبة بقوتها الروحية زعامة العالم ، ووصلت اسبانيا المسلمة فى عهد الناصر إلى ذروة التماسك والتناسق الاجتماعى والرخاء ؛ وآل ذلك إلى ولده الحكم ، فاستعمله فى أعمال الحضارة ، وهكذا تحقق قيام بلاط جديد فى الزهراء الرائعة التى بدأت أطلالها الآن تبدو للعيان ، وبعد ذلك زيد المسجد الجامع ، وأسبغت عليه آيات الفخامة والروعة .

على أن الفن القرطبي يصل إلى ذروته فى طراز العقود المتشابكة المتقاطعة فى تشكيلات هندسية ، وهو ما يخدم نفس الأغراض التى تقوم بها العقود القوطية ، متقدمة عليها قرنين ، وخاضعة لمبدأ أساسى زخرفى ، ومنسقة مع طرازها القرطبى »[3] .

وبلغ الفن الأندلسى فى عصر الناصر وابنه الحكم المستنصر ، ذروة القوة والبهاء ، ومازالت اسبانيا النصرانية تحتفظ ببعض تحف فنية نادرة من تراث ذلك العصر ، نذكر منها وعل الزهراء الشهير ، وهو تمثال وعل من البرونز زين جسمه بالنقوش والزخارف العربية البديعة ، وتاج عمود من المرمر به زخارف دقيقة مدهشة ، وقد نقش عليه اسم الحكم المستنصر بالله واسم حاجبه ، وقد وجد كلاهما فى حفائر مدينة الزهراء ، وكلاهما يحفظ اليوم بمتحف قرطبة ، ومنها صندوق من العاج البديع نقشت عليه صور فرسان وأشخاص ووعول آية فى الدقة ، وذكر عليه اسم

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٥ .

(٢) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٥ و Murphy : ibid, p. 292

(٣) M. Gomez Morena : "La Civilización arabe y sus Monumentos en España" Art. en "Arquitectura" (Nov. 1919)

صاحبه وهو عبد الملك بن أبى عامر ولد الحاجب المنصور ، وتاريخ صنعه وهو سنة ٣٩٥ هـ (١٠٠٥ م) ، ويحفظ اليوم بمتحف كنيسة بنبلونة العظمى ، ويوجد فى مدينة جيرونة صندوق بديع الصنع من أيام الحكم الثانى ، وفى كتدرائية مدينة سمورة صندوق آخر يرجع إلى نفس العصر . ويوجد من تحف العهد الغرناطى كثير من النقوش والزخارف المرمرية التى تحفظ اليوم بمتحف غرناطة ؛ وفى متحف مدريد الوطنى مصباح برونزى رائع الصنع أصله من مصابيح مسجد الحمراء ؛ وتوجد فى متحف الحمراء جرة كبيرة من القيشانى الملون زينت بزخارف مذهبة رائعة ، وهى من مخلفات قصر الحمراء . هذا إلى طائفة كبيرة أخرى من التحف البرونزية والمعدنية والخزفية ، والبسط والأنسجة الأندلسية والموريسكية ، مبعثرة فى مختلف المتاحف الإسبانية . وقد أتيح لنا أن نشاهد معظم هذه التحف الفريدة ، وأن نتأمل روائعها[1] .

هذا وقد برع الأندلسيون فى الصناعات الفنية الدقيقة ، مثل صناعة الحلى الفائقة والتحف العاجية والجلدية ، ونافسوا فيها صناعة بيزنطية . وما زالت بعض المدن الأندلسية القديمة مثل قرطبة وطليطلة وغرناطة تحتفظ حتى اليوم فى بعض صناعاتها الدقيقة ، ببقية من هذه البراعة الفنية الأندلسية . فما زالت طليطلة تشتهر حتى يومنا بصناعة الأسلحة المزخرفة ، وتشتهر قرطبة بصناعة الجلود الدقيقة المزخرفة . وكانت غرناطة بالأخص تتفوق فى صنع الأقمشة الحريرية المذهبة ، والبسط الأنيقة ، والتحف البرونزية والزجاجية والأسلحة ، وكانت أنسجتها المطرزة بالذهب تخلب ألباب الشعوب الأوربية . وهى مازالت حتى اليوم تتفوق فى أصناف من الدانتلا الرائعة . وهذه الصناعات اليدوية الدقيقة مازالت متأثرة بجمال الزخرف الإسلامى أعظم تأثير . وكانت القصور والمعاهد العامة ، والمساجد الجامعة بالأندلس فى تلك العصور ، معرضاً لأبدع ما تمخض عنه الفن الرفيع يومئذ من صنوف الزخارف والرسوم والتحف الفنية . ومن ذلك أنه كان بجامع قرطبة تنور من نحاس أصفر يحمل ألف مصباح ، وقد زين بصور ونقوش رائعة ، يعجز عن وصفها القلم[2] . وقد امتازت المدرسة المحافظة بالتفوق فى نوع جديد

(١) نشرنا أوصاف هذه التحف الأثرية الأندلسية وصورها فى كتابنا الآثار الأندلسية الباقية فى اسبانيا والبرتغال — الطبعة الثانية . ص (٣٧ و٤٣ و١٨١ و٣٢٠ و٣٣٧ و ٣٥٥)

(٢) نفح الطيب ج ٣ ص ٢٤٥ .

من الزخارف ، يقوم على رسوم الشجر والأوراق والأغصان والأشكال المماثلة المبتكرة ، دون الصور التى تمثل الإنسان والحيوان ؛ ذلك لأنها كانت تقوم على احترام التقاليد الدينية القديمة ، واشتهرت هذه المدرسة فى العصور الوسطى ، وكان لهـا أثر عميق فى تطور الفن الأوربى ، وما زالت تعرف بالنماذج العربية ( الأرابسك )(١).

وسطع الفن الأندلسى أيام الطوائف مدى حين ، ونثر ملوك الطوائف ولاسيما بنو عباد فى إشبيلية ، وبنو ذى النون فى طليطلة ، حولهم آيات من البذخ والترف والبهاء ، وأغدقوا على قصورهم ومعاهدهم بدائع الفن وروائعه ، مما أفاض فى وصفه المؤرخون والكتاب والشعراء . وكان بنو عباد فى إشبيلية أعظم حماة للفنون والآداب . وكان قصر المأمون بن ذى النون ملك طليطلة آية رائعة من آيات الفن والبهاء ، وكان روشنه الشهير الذى بنى وسط بحيرة القصر ، من الزجاج الملون المزين بالنقوش الذهبية ، مستقى خصباً لخيال الشعراء ، وكانت حافة البحيرة مزدانة بصفوف من تماثيل الأسود التى تقذف الماء من أفواهها ، وهى لا تزال تقذف الماء ولاتفتر ، وتنظم لآلىء الحباب بعد ما نثر(٢) . وأنشأ المقتدر بالله أبو جعفر أحمد بن هود أمير سرقسطة فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى قصره الرائع المسمى « بقصر السرور » ، وكان أروع ما فيه بهوه العظيم الذى زينت جدراته بالنقوش والتحف الذهبية البديعة والذى كان يسمى لذلك « بمجلس الذهب » . ولما سقطت سرقسطة فى يد النصارى شوهت معالم هذا القصر وأدخلت عليه تعلايلات وتغييرات عديدة قضت على محاسنه وبدائعه العربية . ومازال يقوم على موقعه السابق الصرح الذى يسمى اليوم بقصر الجعفرية Palacio Aljarafia . وقد اشتهر المقتدر بن هود ، فى التاريخ وفى الشعر ، بقصره الفخم ومجلسه الرائع ، ذى النقوش والتحف الذهبية البديعة وهو القائل فى وصفه(٣) :

قصر السرور ومجلس الذهب   بكما بلغت نهاية الطرب
لو لم يحز ملكى خلافــــكما   لكان لدى كفاية الأرب

---

( ١ ) Murphy: ibid, p. 291-Aschbach: Geschichte der Omajaden in Spanien; B. II. p. 352.

( ٢ ) نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٧ و٢٨٢ ؛ وقلائد العقيان للفتح بن خاقان ص ١٩٤و١٩٥ .

( ٣ ) نفح الطيب ج ١ ص ٢٥٠ . وراجع كتابى « دول الطوائف » ص ٢٧٢ .

ولم يكن هذا الهوى الفنى قاصراً على الأمراء والكبراء ، فقد روى لنا المقرى أنه كان ببعض حمامات إشبيلية تمثال بديع الصنع ، قال فيه الشاعر :

ودمية مرمر تزهو بجيـــد  تناهى فى التورد والبياض
لهـا ولد ولم تعرف حليلا  ولا ألمت بأوجاع المخاض
ونعلم أنهـــا حجر ولكن  تتيمنا بألحـــاظ مراض

وفى عهد المرابطين والموحدين خبت دولة الفن الإسلامى فى الأندلس نوعاً ، ذلك لأن أولئك الغزاة البربر ، الذين كانوا يضطرمون بروح دينية محافظة ، لم يقدروا الفنون والآداب على نحو ما كانت أيام الخلفاء الأندلسيين . ومع ذلك ، فقد كان لدى الموحدين ، بالرغم من طابعهم الدينى المحافظ ، طموح فنى ، ظهر أثره أولا فى إقامة المنشآت الدفاعية العظيمة ، ثم ظهر فى إقامة المساجد والقصور ، سواء فى المغرب أو الأندلس . وقد كان قصر إشبيلية ، الذى أنشأه أبو يعقوب يوسف وجامع إشبيلية الأعظم ، ومنارته العظيمة التى أنشأها ولده الخليفة المنصور ، والتى مازالت قائمة إلى اليوم بعد أن حولت إلى برج لأجراس كنيسة إشبيلية العظمى ، التى أقيمت فوق موقع المسجد الجامع : كانت هذه المنشآت العظيمة عنواناً لعظمة الفنون والزخارف الإسلامية فى عصر الموحدين .

وازدهرت الفنون والآداب كرة أخرى فى مملكة غرناطة . وكان بنو الأحمر حماة كرماء للفنون . ونلاحظ أن الفن الأندلسى بلغ فى هذا العصر ذروة التحرر والافتنان أيضاً ، وتوسع الفنانون المسلمون فى تصميم المناظر والرسوم . ولم يقتصر الأمر على الصور والرسوم والتماثيل المفردة ، بل تعداه إلى المناظر المصورة ، وإلى المجموعات المنحوتة . وقد كانت مملكة غرناطة على صغر رقعتها ، وضعفها من الوجهتين العسكرية والسياسية ، تحدث من الناحية الحضارية والفنية فى قشتالة ، جارتها الكبيرة القوية ، أثرها العميق . يقول الأستاذ مورينو : « إنه منذ عهد سان فرناندو إلى عهد هنرى الرابع ، كان الكثير من عناصر حضارة قشتالة ، وهندستها المدنية ، وفنونها الزخرفية الدينية ، وكل ضروب الإناقة والمتعة فى الحياة — كانت كلها قائمة على الاقتباس من الأندلس »[1] . وما زالت حمراء غرناطة ، وما زالت أبهاؤها ومجالسها الرائعة ، تنبئ عما انتهت إليه آخر دول الإسلام فى الأندلس من البذخ والبهاء ، وعما بلغه الفن الأندلسى فى هذه المرحلة

(١) M. Gomez-Moreno : Arquitectura (Nov. 1919)

الأخيرة من حياة الإسلام فى اسبانيا ، من الدقة والافتنان . وسوف يبقى قصر الحمراء ، وما يحتويه من النقوش والزخارف والصور الفريدة ، رمزاً خالداً للعمارة الإسلامية ، ولروعة الفن الإسلامى فى الأندلس .

وقد كان لفنون العمارة الأندلسية فى مختلف عصورها أعمق الآثار داخل شبه الجزيرة الإسبانية ،فكانت القصور الملكية فى الممالك الإسبانية النصرانية ، نماذج من القصور الملكية الأندلسية ؛ وتطورت فيها مظاهر الحصون الرومانية القديمة ، وظهرت عليها مسحة أندلسية . وكان هذا التأثير أشد وأعمق فى حياة النبلاء القشتاليين ، وفى طراز مساكنهم المدنية ، فقد حل مكان المنزل المحزن الموحش ، المكون من غرف قليلة الضوء قليلة التهوية ، المنزل الذى تغمره أشعة الشمس ، والذى تطل الأروقة الداخلية على فنائه ، وفيه الماء الجارى ، وفى داخل جدرانه الأربعة تتذوق الحياة كاملة ، وتبدو عليه البسمة . وقد أسبغت هذه المنازل على اسبانيا طابعها الخاص[1]. وما زال طراز المنازل الأندلسية قائماً واضحاً فى مدن أندلسية قديمة مثل إشبيلية وغرناطة وشريش ، وهذا الطراز من المنازل تفضله الأرستقراطية بنوع خاص . بل لقد كان أثر الفن المعمارى الأندلسى قوياً فى الكنائس ذاتها ؛ ففى كثير من الكنائس الإسبانية والبرتغالية الأثرية ترى خطة المسجد ظاهرة فى عقودها وأروقتها . وقد أقيمت أبراج كثير من الكنائس الشهيرة على نمط المنارة الإسلامية ، واتخذت منارة الخيرالدا الشهيرة بإشبيلية نموذجاً لكثير من الأبراج فى كنائس اسبانيا الجنوبية . بل لقد تسرب تأثير الفن الإسلامى إلى الهياكل ذاتها ، فنرى مثلا مصلى دير « الهوبلجاس » أو الدير الملكى فى مدينة برغش ، وقد صنعت على الطراز الإسلامى ، وعليها قبة عربية مقرنصة الزخارف . ولما تضاءلت رقعة اسبانيا المسلمة ، وسقطت معظم القواعد الأندلسية فى يد الإسبان ، لبث المدجنون عصوراً ينقلون الفنون الإسلامية إلى صروح اسبانيا النصرانية . وكانت غرناطة ترسل العرفاء إلى قشتالة ليقوموا بإصلاح الصروح الإسلامية القديمة فى المدن الأندلسية القديمة التى استولت عليها قشتالة .

نعرض بعد ذلك لناحية أخرى من الفن الإسلامى فى الأندلس هى الموسيقى . وقد كان للموسيقى بين فنون الحضارة الإسلامية أيما شأن ، وكان ازدهارها بالأخص فى بغداد وقرطبة ، حيث بلغت حضارة الإسلام ذروة العظمة والنضج .

---

(١) M. Gomez-Moreno : Arquitectura (Nov. 1919)

وكان ازدهارها فى عصر مبكر جداً منذ أواخر القرن الثانى للهجرة ، فى ظل الدولة العباسية الفتية . وكان أول من كتب عن الموسيقى من المسلمين ، الكندى والفارابى ، وقد ترجمت كتبهما إلى اللاتينية منذ القرن الحادى عشر الميلادى . ويبدو أثر الموسيقى الشرقية واضحاً فى الكتابات الموسيقية اللاتينية ؛ وفضلاعن الكتابة ، فقد كانت الطرائق والمعارف الموسيقية المشرقية تنقل إلى الغرب عن طريق السماع والاتصال الشخصى ؛ وينطبق ذلك بنوع خاص على اسبانيا المسلمة ، حيث ازدهرت الموسيقى ، وتنوعت طرائقها منذ القرن التاسع الميلادى . وكانت الأندلس قد تلقت منذ أوائل هذا القرن قبساً من النهضة الموسيقية المشرقية ، فنزح زرياب الموسيقى غلام الموصليين[1] أساطين الموسيقى والغناء لهذا العهد ، إلى الأندلس فى عصر عبد الرحمن بن عبد الحكم ( أوائل القرن الثالث ) ، فاستقبله بنفسه وبالغ فى إكرامه ، وأغدق عليه العطف والبذل . وكان زرياب موسيقياً عظيما ومغنياً ساحراً ، فذاع فنه فى الأندلس والمغرب ، وأنشأ بالأندلس مدرسة موسيقية وغنائية باهرة ، استطال نشاطها وأثرها حتى عصر الطوائف ، وازدهرت أيام الطوائف فى إشبيلية فى ظل بنى عباد بنوع خاص[2] . وسطع فى مملكة غرناطة قبس من هذه النهضة ، وظهر أثر الموسيقى الأندلسية فى تطور الموسيقى والغناء ، فى قشتالة وغيرها من أنحاء اسبانيا فى عصر مبكر ، ثم انتقل هذا الأثر إلى أوربا ، واشتهرت الموسيقى الأندلسية فى غرب أوربا فى العصور الوسطى ، وكان لها أثرها فى تطور الموسيقى الغربية . ويقول لنا الأستاذ موريسو إن الأغانى الأصلية للموسيقى الحديثة ، كانت اقتباساً أندلسياً ، وانها كانت فى الأصل تكتب بلغة « الرومانش » اللاتينية التى كانت تغلب فى اللهجة الشعبية الأندلسية ، ومع أنه لم يبق لنا حتى اليوم شىء من هذا الشعر الرومانشى ، فإن آثاره تكثر فى أزجال شاعر قرطبى هو « ابن قزمان »[3] . وبرع المسلمون فى العزف على كثير من الآلات الموسيقية المعروفة حتى اليوم ، واخترعوا الكثير منها ولاسيما « القيثارة » التى كانوا يعتبرونها أجمل الآلات الموسيقية . وكان للموسيقى الأندلسية أثر كبير فى تطور الموسيقى الإسبانية القديمة ، وما يزال كثير من الأوضاع

---

( ١ ) ابراهيم الموصلى وولده إسحاق وولده حماد .

( ٢ ) ابن خلدون ، المقدمة ص ٣٥٧ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ١٠٩ وما بعدها .

( ٣ ) M.Gomez-Moreno : Arquitectura (Nov: 1919)

والتقاليد الموسيقية الأندلسية ، تمثل مثولا قوياً فى فنون الموسيقى والرقص والغناء الإسبانية الحديثة[1] .

وقد كانت الأمة الأندلسية أمة مرهفة الشعور والحس ، تعشق الفن الجميل ، وتحب الحياة الناعمة المترفة ، وتجنح إلى المرح والطرب . وقد وصف لنا ابن الخطيب لمحة من هذا الترف ، الذى كان عنواناً لحياة الأمة الأندلسية فى عصورها الأخيرة ، وذكر لنا كيف كان الشعب يعشق الغناء والموسيقى ، وكيف كانت غرناطة تموج بالمقاهى الغنائية التى يؤمها الشعب من سائر الطبقات[2] . وقد اشتهر الرقص الأندلسى بجماله وافتنانه فى مجتمعات العصور الوسطى ، ومازال شعب غرناطة المرح الطروب مقبلا خلال كفاحه الطويل ، على حياته المترفة الناعمة ، حتى أصبح العدو على الأبواب .

وللأندلسيين آثار قيمة فى الموسيقى العلمية والعملية . وفى مكتبة الإسكوريال مخطوط عربى نفيس للفيلسوف أبى نصر الفارابى عن الموسيقى وعناصرها ومبادئها وأوضاعها وأنغامها ، وكذلك عن الآلات الموسيقية المختلفة وأشكالها وتراكيبها[3] . وهو دليل على ما بلغه المسلمون فى هذا الفن من الرسوخ والابتكار .

وقد يرى بعض الباحثين الغربيين أن الأندلسيين تلقوا معظم تراثهم الفنى ، عن الفن النصرانى . وفى هذا الرأى مبالغة ، فقد اقتبس الأندلسيون من فنون القوط والفرنج والبيزنطيين والبنادقة ، ولكنهم كانوا مبتكرين أيضاً ، وكانوا منشئين لفن إسلامى محض ، بما أسبغوه عليه من ألوان الإفتنان الرائع التى اختصوا بها ، وتميز بها تراثهم الفنى مدى الأحقاب .

— ٥ —

هذا . وقد غاضت اليوم من الأندلس كل مظاهرها القديمة ، وأصبحت سائر القواعد الأندلسية القديمة اليوم ، مدناً اسبانية نصرانية ، وقد اختفت معظم الصروح والآثار الأندلسية ، ولم تبق منها اليوم سوى بقية صغيرة ، متناثرة هنا وهناك ؛ وإذا تركنا جامع قرطبة ( وهو اليوم كنيسة قرطبة العظمى ) ، وحمراء

---

( ١ ) Murphy : ibid ; p. 296 ، وهذا ما يستطيع أن يلاحظه كل من زار اسبانيا وشهد حفلاتها الموسيقية والغنائية .

( ٢ ) راجع الإحاطة ج ١ ص ١٤٢ و١٤٣ .

( ٣ ) وعنوانه « اسطقسات علم الموسيقى » ( معجم الغزيرى ج ١ ص ٣٤٧ ) .

غرناطة ، ومنار إشبيلية ( وهو اليوم برج الأجراس لكنيستها العظمى ) ، إذا تركنا هذه الصروح الأندلسية العظيمة الباقية جانباً ، كان معظم الصروح والآثار الأندلسية التي قدر لها أن تنجو من أحداث الزمن ، يتمثل في بضعة أنواع معينة من المنشآت الأثرية يمكن حصرها فيما يلي :

أولا — القصبات الأندلسية ، والقصبة هي القلعة وملحقاتها ، وكانت تبنى عادة فوق أعلى ربوة تشرف على المدينة ، وتستعمل للسيطرة عليها والدفاع عنها ، كما تستعمل مقراً للأمير أو الحاكم ، ويلحق بها عادة قصر ومسجد . والقصبة هي أكثر الآثار الأندلسية ذيوعاً ، ولا تكاد تخلو قاعدة أندلسية قديمة حتى اليوم من القصبة أو بعض أطلالها ؛ وتوجد أشهر القصبات الأندلسية اليوم في مالقة وألمرية وجبل طارق وشاطبة وبطليوس وماردة باسبانيا ، وشلب وأشبونة وشنترة وشنترين بالبرتغال .

ثانياً — القصور ، وهي الكلمة التي حرف الإسبان مفردها إلى كلمة Alcázar أي القصر . وتوجد في طليطلة وإشبيلية وغرناطة ، وإطلاق هذه الكلمة الإسبانية على صرح من الصروح الأثرية ، يفيد في الحال أنه يرجع إلى أصل أندلسي أو أنه أنشئ على أنقاض قصر أندلسي ، كما هو الشأن في قصر إشبيلية Alcázar de Sevilla .

ثالثا — القناطر الأندلسية ، وتوجد منها نماذج في طليطلة ، وقرطبة ، ورندة ، وغرناطة .

كذلك يوجد كثير من بقايا الأسوار والأبواب والحمامات الأندلسية القديمة ، والأطلال التي تركت إلى جانب بعض الكنائس ، التي أقيمت فوق أنقاض المساجد القديمة ، من منارات حولت إلى أبراج للأجراس ، ومن عقود أو أسوار أو مشارف دارسة . كما يوجد عدد عديد من الذخائر والتحف واللوحات الأندلسية المبعثرة هنا وهنالك ، في بعض الكنائس والمتاحف الإسبانية ، وهذا كله إلى ما خلفه الفن الأندلسي من أثر خالد ، في طراز كثير من الصروح الإسبانية التاريخية ، من كنائس وقصور وأبواب وعقود ، وفي زخارفها ونقوشها ، وما خلفه فن المدجنين الذي اشتق من الفن الأندلسي ، من الآثار الظاهرة ، في طراز كثير من الصروح التي أنشئت في مختلف المدن الإسبانية ، منذ القرن الثالث عشر إلى القرن السادس عشر وذلك حسبما أشرنا من قبل .

على أن هذه البقية الباقية من الآثار الأندلسية تمثل بالرغم من قلتها ، العصور والأطوار المختلفة للفن الأندلسى ، ومنها نستطيع أن نقف على خصائص كل عصر وأطواره . وليس هنا مقام التحدث عن هذه الآثار ، فقد أفردنا لذلك مؤلفاً خاصاً ، تناولنا الحديث فيه عن الآثار الأندلسية الباقية فى سائر قواعد الأندلس القديمة[١]، ولكنا نود أن نسجل هذه الحقيقة ، التى يشعر بها السائح المتجول ، كما يشعر بها العالم الباحث ، وهى أن هذه الآثار والأطلال الصامتة ، كلها تشهد بما كان لهذا الشعب الأندلسى الذكى النبيل ، من قدم راسخ فى ميدان العلوم والفنون ، وكلها تبدو بما يتجلى فيها من روعة أثرية ، ومن براعة علمية وفنية ، عنواناً لحضارة عظيمة .

(١) هو كتاب « الآثار الأندلسية الباقية فى اسبانيا والبرتغال » ( القاهرة سنة ١٩٥٦ و١٩٦١ ) .

# ثبت المراجع

— ١ —


نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقرى ( القاهرة وبولاق ) .
أزهار الرياض فى أخبار عياض للمقرى ( القاهرة ) .
تاريخ ابن خلدون المسمى كتاب العبر ( بولاق ) .
التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً ( لجنة التأليف والترجمة القاهرة ١٩٥١ ) .
الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة لابن بسام ( القسم الثالث مخطوط أكاديمية التاريخ بمدريد ) .
الإحاطة فى أخبار غرناطة لابن الخطيب ( ج ١ و ٢ القاهرة سنة ١٣١٩هـ ) .
الإحاطة فى أخبار غرناطة لابن الخطيب ( ج ١ القاهرة سنة ١٩٥٦ ) .
اللمحة البدرية فى تاريخ الدولة النصرية لابن الخطيب ( القاهرة ١٣٤٧ هـ ) .
الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية ( تونس ١٣٣٧ هـ ) .
أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر المنشور بعناية المستشرق ميللر ( جوتنجن سنة ١٨٦٣ ) .
( نبذة العصر فى أخبار ملوك بنى نصر ) المنشور بعناية معهد فرانكو — ( العرائش سنة ١٩٤٠ ) .
تاريخ قضاة الأندلس لأبى الحسن النباهى المنشور بعناية الأستاذ ليڤى بروڤنسال ( القاهرة ١٩٤٨ ) .
قلائد العقيان للفتح بن خاقان ( القاهرة ١٢٨٤ هـ ) .
صلة الصلة لأبى جعفر بن الزبير المنشور بعناية الأستاذ ليڤى بروڤنسال
تكملة الصلة لابن الأبار ( المكتبة الأندلسية ) .
الحلة السيراء لابن الأبار المنشور بعناية العلامة دوزى ( ليدن سنة ١٨٥١) .
تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين لأشباخ وترجمة محمد عبد الله عنان ( القاهرة ١٩٥٨ ) .

الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية لمؤلف مجهول ( الجزائر سنة ١٩٢٠ ) .
نزهة الحادى بأخبار ملوك القرن الحادى لأبى عبد الله محمد اليفرنى ( طبع فاس ) .
بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد للوزير يحيى بن خلدون المنشور بعناية الأستاذ الفرد بل ( طبع الجزائر سنة ١٩٠٣ و ١٩١٠ ) .
الإستقصاء لأخبار دول المغرب الاقصى للسلاوى ( القاهرة ) .
المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس لابن دينار ( تونس ) .
الخلاصة النقية فى أمراء إفريقية لأبى عبد الله الباجى المسعودى ( تونس ) .
مختصر تاريخ تطوان للسيد محمد داود .
مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح لأبى عبد الله محمد أبوجندار ( الرباط ١٣٤٥ هـ ) .
رحلة الوزير فى افتكاك الأسير للوزير محمد بن عبد الوهاب الغسانى ( العرائش ١٩٤٠ ) .
غزوات عروج وخير الدين ( الجزائر سنة ١٩٣٤ ) .
وثائق عربية غرناطية من القرن التاسع الهجرى للأستاذ سيكودى لوثينا ( المنشور بعناية المعهد المصرى بمدريد ١٩٦١ ) .
السلوك فى دول الملوك للمقريزى ( لجنة التأليف والترجمة القاهرة ) .
صبح الأعشى للقلقشندى ( القاهرة ) .
الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع للسخاوى ( القاهرة ) .
فوات الوفيات لابن شاكر الكتبى ( بولاق ) .
تاريخ ابن إياس المسمى بدائع الزهور ( بولاق ) .
الروض المعطار لأبى عبد الله الحميرى المنشور بعناية الأستاذ ل. بروفنسال (القاهرة) .
معجم البلدان لياقوت الحموى ( القاهرة ) .
رحلة ابن بطوطة ( القاهرة ) .

مصادر مخطوطة

ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب لابن الخطيب ( الإسكوريال ١٨٣٥ الغزيرى ) ؛ وكناسة الدكان ( رقم ١٧١٢ ) ؛ ونفاضة الجراب ( رقم ١٧٥٥ ) وغيرها من آثاره المخطوطة بالإسكوريال .

ديوان ابن الخطيب المسمى « الصبب والجهام والماضى والكهام » ( خزانة جامع القرويين بفاس ) .

أسنى المتاجر فى بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر وما يترتب على ذلك من العقوبات والزواجر ( الإسكوريال رقم ١٧٥٨ الغزيرى ).

التكملة لابن عبد الملك المراكشى ( الإسكوريال رقم ١٦٨٢ والرباط ) .

الإكليل فى تفضيل النخيل ( أو نزهة البصائر ) لأبى الحسن النباهى ( الإسكوريال رقم ١٦٥٣ الغزيرى ) .

الياقوتة الحلية فى الذرية السعيدية المرينية المباركة العبدالحقية ( مكتبة مدريد الوطنية ) .

النفحة النسرينية واللمحة المرينية ، للأمير إسماعيل بن الأحمر ( الإسكوريال ١٧٦٩ الغزيرى ) .

الأنوار النبوية فى آباء خير البرية لمحمد بن عبد الرفيع الأندلسى الموريسكى المحفوظ بخزانة الرباط ( المكتبة الكتانية ) برقم 1238

كتاب العز والرفعة والمنافع للمجاهدين فى سبيل الله بالمدافع للرئيس ابن غانم الأندلسى الموريسكى ، وترجمة الشهاب الحجرى الموريسكى ومحفوظ بخزانة الرباط برقم ج 87 .

الروض الباسم فى حوادث العمر والتراجم لعبد الباسط بن خليل الحنفى المصرى ( مكتبة الفاتيكان رقم ٧٢٨ و٧٢٩ .Borg ) .

نثير الجمان فى شعر من نظمنى وإياه الزمان للأمير اسماعيل بن الأحمر ( دار الكتب المصرية رقم ١٨٦٣ آداب اللغة العربية ) .

- ٢ -

R. Dozy : Histoire des Musulmans d'Espagne jusqu'à la conquête
» des Almoravides (Lévy-Provençal 1932).
» : Recherches sur l'Histoire et Littérature de l'Espagne pendant le moyen-âge.
» : Supplément aux Dictionnaires Arabes.
Lévy-Provençal : L'Espagne Musulmane au Xème Siècle.
De Marlès : Histoire de la Domination des Arabes et des Maures en Espagne et Portugal (redigé sur l'Histoire de M. Joseph Condé).
P. Gayangos : Mohamedan Dynasties in Spain.
( وهو ترجمه القسم التاريخى من كتاب نفح الطيب مع تعليقات وهوامش )
W. Prescott : History of Ferdinand and Isabella the Catholic (London, Sonnenschein).
» : History of the Reign of Philip the Second (London 1855).
Scott : The Moorish Empire in Europe.
H. Ch. Lea : History of the Inquisition in Spain.
» » : History of the Moriscos of Spain; their Conversion and Expulsion (London 1901).
Owen Jones & Jules Goury : The Alhambra (London 1844).
W. Irving : A Chronicle of the Conquest of Granada (Everyman's),
Murphy : Mohamedan Empire in Spain.
Lane-Poole : The Barbary Corsairs.
» » : The Moors in Spain.
C. Brockelmann : Geschichte der arabischen Litteratur.
M. Casiri : Bibliotheca Arabico-Hispana Escurialensis.
F.J. Simonet : Descripción del Reino de Granada (Granada 1872).
» » : El Cardinal Ximénez de Cisneros y los Manuscritos : Arábigo-Granadinos.
Isidro de las Cagigas : Los Mudéjares (Madrid 1940).
Prieto y Vives : De como debió nacer el Reino de Granada.
R. y. de Linares : Escrituras Arabes pertenecientes al Archivo de Nuestra Senora del Pilar de Zaragoza (en Homenaje a F. Codera, Zaragoza 1904).
A. G. Palencia : Los Mozárabes de Toledo en los Siglos XII 8 XIII (Madrid 1926-1930).

A.G. Palencia : Moros y Cristianos en España Medieval (Madrid 1945)
P. Boigues : Apuntes sobre las Escrituras Mozárabes Toledanas.
Alarcón y Santón y R. G. de Linares : Los Documentos Arabes diplomaticos del Archivo de la Corona de Aragón.
J. Condé : Historia de la Dominación de los Arabes en Espana.
Lafuente Alcántara : Historia de Granada (Granada 1904).
Luis del Marmol Carvajal : Historia del Rebelión y Castigo de los Moriscos de Granada.
Hernando de Baeza : Las Cosas de Granada (ed. por M. Müller, Göttingen 1863).
M. Gaspar y Remiro : Documentos Arabes de la Corte Nazari de Granada.
» » » » : Entrada de los Reyes Católicos en Granada al Tiempo de su Rendición (Revista de Centro de Estudios Hist. de Granada).
Documentos Inéditos para la Historia de Espana.
M. Garrido Atienza : Las Capitulaciónes para la Entrega de Granada (Granada 1910).
P. Martiri de Angleria : Legatio Babylonico (Una Embajada de los Reyes Católicos a Egipto).
M. Gomez-Moreno : El Arte en Espana.
A. Llorente : Historia Critica de la Inquisición de España (Madrid 1817)
M. Alarcón : Misceláneo de Estudios y Textos Arabes(Madrid 1915)
M. Danvila y Collado : La Expulsión de los Moriscos Españoles (Madrid 1889)
Florecio Janer : Condición Social de los Moriscos de Espana (Madrid 1857).
Modesto Lafuente : Historia General de España (Madrid 1882).
D. Felipe Picatosti : Estudios sobre la Grandeza y Decadencia de Espana (Madrid 1887).
M· Menéndez y Pelayo : Historia de los Heterodoxes Españoles.
D. Pascual Boronat : Los Moriscos Espanoles y su Expulsión.
R. Menéndez Pidal : Origines del Español.
F. Saavedra : Discurso leido ante la Real Academia Espanola (Madrid 1878).
Al-Andalus (Revista de las Escuelas de Estudios Arabes de Madrid y Granada).

# فهرست الموضوعات

٥٢٤


صفحة

مقـــدمة ... ... ... ... ... ... ... ... ... . ... ٣

## تاريخ مملكة غرناطة

## الكتاب الأول

### مملكة غـــرناطة

### منذ قيامها حتى عصر السلطان أبى الحسن

الفصل الأول : الأندلس الغاربة ... ... ... ... ... ... ... ... ١٦

الفصل الثانى : نشأة مملكة غرناطة وقيام الدولة النصرية ... ... ... ٢٧

الفصل الثالث : طوائف الأمة الأندلسية فى عصر الإنحلال ... ... ٥٥

الفصل الرابع : طبيعة الصراع بين الأندلس واسبانيا النصرانية ... ٧٤

الفصل الخامس : تاريخ اسبانيا النصرانية منذ أوائل القرن الحادى عشر
حتى قيام مملكة غرناطة ... ... ... ... ... ... ... ٨٤

الفصل السادس : مملكة غرناطة عقب وفاة ابن الأحمر وعصر الجهاد
المشترك بين بنى الأحمر وبنى مرين ... ... ... ... ٩٤

الفصل السابع : مملكة غرناطة فى النصف الأول من القرن الثامن الهجرى
وذروة الصراع بين بنى مرين واسبانيا النصرانية ... ١١٧

الفصل الثامن : الأندلس بين المد والجزر ... ... ... ... ... ... ١٣٨

الفصل التاسع : تاريخ اسبانيا النصرانية منذ قيام مملكة غرناطة
حتى اتحاد مملكتى قشتالة وأراجون ... ... ... ... ١٦٩

## الكتاب الثانى

### نهاية دولة الإسلام فى الأندلس

الفصل الأول : الأندلس على شفا المنحدر ... ... ... ... ... ... ١٨٨

الفصل الثانى : بداية النهاية ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٢١٥

صفحة

الفصل الثالث : الصراع الأخير ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٢٢٩

الفصل الرابع : ختام المأساة ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٢٧١

# مأســـاة الموريسكيين

## أو العرب المتنصرين

## الـكتاب الثالث

### مراحل الإضطهاد والتنصير

الفصل الأول : بدء التحول فى حياة المغلوب ... ... ... ... ... ... ٣٠٨

الفصل الثانى : ديوان التحقيق الإسبانى ومهمته فى إبادة الأمة الأندلسية ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٣٢٨

الفصل الثالث : ذروة الإضطهاد وثورة الموريسكيين ... ... ... ... ... ٣٤٩

## الـكتاب الرابع

### نهـاية النهـاية

الفصل الأول : توجس السياسة الإسـبانية وعصر الغارات البحرية الإسـلامية ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٣٧٨

الفصل الثانى : مأسـاة النفى ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٣٩٣

الفصل الثالث : تأملات وتعليقات عن آثار المأساة ... ... ... ... ... ٤١١

## الـكتاب الخامس

### نظم الحكم والحياة الإجتماعية والفكرية فى مملكة غرناطة

الفصل الأول : نظم الحكم فى مملكة غرناطة وخواصها الإجتماعية ... ٤٣٤

الفصل الثانى : الحركة الفكرية فى مراحلها الأولى ... ... ... ... ... ٤٥٢

الفصل الثالث : عهد النضج والأزدهار... ... ... ... ... ... ... ... ٤٦٩

الفصل الرابع : العصر الأخير والآثار الباقية ... ... ... ... ... ... ٤٨٨

ثبت المراجع ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٥١٩

# فهرست الخرائط والصور والوثائق


صفحة

١ ــ خريطة مملكة غرناطة وعدوة المغرب ... ... ... ... صدر الكتاب
٢ ــ « الاندلس والممالك الاسبانية فى أواخر عصر الموحدين ... ٢٩
٣ ــ « الأندلس بعد الانهيار ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٨٩
٤ ــ « غرناطة الإسلامية ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٢٥٩
٥ ــ « مدينة الحمراء وقصر جنة العريف ... ... ... ... ... ... ٢٩١


## الصــــور


١ ــ ألفونسو العالم ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ١٠٤
٢ ــ إيسابيلا الكاثوليكية ملكة قشتالة ... ... ... ... ... ... ... ١٨١
٣ ــ فرناندو الكاثوليكى ملك أراجون ... ... ... ... ... ... ... ١٨٣
٤ ــ أبو عبد الله محمد سلطان غرناطة وآخر ملوك الاندلس ... ... ٢٠٧
٥ ــ أبوعبد الله محمد آخر ملوك الأندلس ــ صورة أخرى ... ... ... ٢٧٥
٦ ــ منظر عام لمدينة الحمراء ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٢٩٣
٧ ــ من زخارف بهو السفراء ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٢٩٥
٨ ــ نافورة الأسود والشرفة الوسطى لفناء الأسود ... ... ... ... ٢٩٧
٩ ــ واجهة قصرجنة العريف ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٢٩٩
١٠ ــ الكردينال خمنيس دى سيسنيروس ... ... ... ... ... ... ... ٣١٧
١١ ــ ضريح فرناندووإيسابيلا بكنيسة غرناطة ... ... ... ... ... ٣٥١
١٢ ــ الإمبراطور شارلكان ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٣٥٣
١٣ ــ الملك فيليب الثانى ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٣٥٩
١٤ ــ دون خوان ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٣٧١
١٥ ــ أمير البحر خير الدين ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٣٨٧
١٦ ــ الملك فيليب الثالث ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ٣٩٩


## الوثائق


١ ــ وثيقة مدجنية مؤرخة فى سنة ٨٠١هـ (١٣٩٨م) ومحفوظة ببلدية بنبلونة ٥٩
٢ ــ وثيقة مستعربية من مجموعة دير سان كليمنتى بطليطلة مؤرخة فى سنة ١١٧٣م ٧١

صحفة

٣ — معاهدة التحالف المعقودة بين محمد بن الأحمر وملك أراجون فى سنة ٧٠١ هـ (١٣٠١ م) ... ... ... ... ... ... ... ... ١١١

٤ — معاهدة الصلح المعقودة بين السلطان أبى الوليد اسماعيل وملك أراجون فى سنة ٧٢١ هـ (١٣٢١ م) ... ... ... ... ... ... ١١٩

٥ — وثيقة بتجديد معاهدة الصلح السابقة معقودة بين السلطان محمد ابن اسماعيل وملك أراجون فى سنة ٧٢٦ هـ (١٣٢٥ م) ... ... ١٢٣

٦ — رسالة مرسلة من السلطان يوسف أبى الحجاج إلى دون ألفونسو ملك أراجون فى سنة ٧٣٥ هـ (١٣٣٥ م) ... ... ... ... ... ١٣١

٧ — وثيقة اعتماد صادرة من السلطان أبى الحجاج إلى وزيره القائد ابن كماشة سفيره إلى بيدرو الرابع ملك أراجون ومؤرخة سنة ٧٤٥هـ (١٣٤٤م) ١٣٣

٨ — وثيقة صادرة من السلطان أبى الحسن المرينى باعتماد الصلح المعقود بين سلطان غرناطة وملك أراجون مؤرخة فى سنة ٧٤٦ هـ (١٣٤٥ م) ١٣٥

٩ — رسالة موجهة من السلطان الأيسر إلى قادة حصن قارش مؤرخة فى سنة ٨٣١ هـ (١٤٢٨ م) ... ... ... ... ... ... ... ... ١٥٧

١٠ — صورة جانب من معاهدة التحالف والخضوع المعقودة بين يوسف ابن المول وخوان الثانى ملك قشتالة فى سنة ٨٣٥ هـ (١٤٣٢ م) ١٥٩

١١ — مرسوم صادر من السلطان أبى الحسن إلى رسول الملكين الكاثوليكين بقبول التحكيم ومؤرخ فى سنة ٨٨٢ هـ (١٤٧٨ م) ... ... ... ١٩٣

١٢ — خطاب مرسل من السلطان أبى عبد الله محمد إلى قائد وأشياخ أجيجر يدعوهم إلى طاعته مؤرخ فى سنة ٨٩٥ هـ (١٤٨٩ م) ... ... ٢٣٣

١٣ — الصفحة الأخيرة من معاهدة التسليم التى أصدرها الملكان الكاثوليكيان لأبى عبدالله وأهل غرناطة وعليها توقيعا فرناندو وإيسابيلا (١٤٩١م) ٢٥٣

١٤ — ذيل المعاهدة النهائية التى عقدت بين الملكين الكاثوليكين وأبى عبد الله وفيها يتعهد بمغادرة الأندلس ، وعليها توقيعه وخاتمه (١٤٩٣م) ٢٧٩

١٥ — صورة خطاب مولاى عبد الله إلى دون هرناندو دى براداس مكتوب بخطه ومذيل بتوقيعه ... ... ... ... ... ... ٣٧٣

١٦ — الصفحتان الأوليان من كتاب فى الأدعية النبوية محرر بالألخميادو ٤٩٧

١٧ — صفحتان من كتاب فى التفسير محرر بالألخميادو ... ... ... ٤٩٩

# فهرست البلدان والأماكن

## ـ ا ـ


آبدة ؛ ٢٠، ٣٣، ٨٨، ١٠٠، ١٤٩، ٤٩٦

الأبراج الحمراء ؛ ٢٩٠

آبلة ؛ ١٩، ١٧١، ١٧٧، ٣٢٣، ٣٣٢

أبو عقبة ، موقعة ؛ ٢٨٧

أجيجر ؛ ٢٣٠، ٢٥١، ٢٦٤، ٣٦٦

أدرة ؛ ٢٥١، ٢٦٤، ٢٧٨، ٣٦٢، ٣٦٦

أراجون ؛ ٣٤، ٣٦، ٥٧، ٦٢، ٦٣، ٦٨، ٧٨، ٨٤-٩١، ١١٠، ١٢٠، ١٢١، ١٢٧، ١٤٠، ١٤٤، ١٤٨، ١٦٣، ١٧٢، ١٧٩، ١٨٠، ١٨٤، ١٨٥، ١٩٤، ٢١٠، ٢٢١، ٢٢٩، ٢٧٢، ٣١٢، ٣٣٠-٣٣٢، ٣٤٠، ٣٥١، ٣٥٣، ٣٥٨، ٣٨٢، ٤٠٠، ٤٠١، ٤٢١، ٤٩٤، ٤٩٦، ٤٩٨

أرجبة ، ٥٥، ٢٥١، ٢٦٤، ٣١٥، ٣٦٩

أرشدونة ؛ ٥٥، ١٥٨، ١٦١، ١٩٢، ٤٩١

الأرك ، موقعة ؛ ١٩، ٧٥، ٧٧، ٨٦، ٨٧، ١٠٠، ١٣٦

أركش ؛ ٤٥

أرمليا ؛ ٢٥، ٢٥٨، ٢٦٠، ٢٦٦

أريڤالو ؛ ٣٥٥

أزمور ؛ ٣١١

إسبانيا المسلمة ؛ ١٩، ٢٠، ٧٨، ٧٩، ٨٤-٨٦، ٣٣٠، ٣٣٢، ٤٤٠، ٤٤٦، ٤٨٨، ٥٠٥، ٥٠٧، ٥١٠، ٥١٤، ٥١٥

اسبانيا ، اسبانيا النصرانية ؛ ١٦، ١٨-٢١، ٣٤، ٣٧، ٤٣، ٦٣، ٦٥، ٦٧، ٦٨، ٧٤-٨٠، ٨٢ - ٨٨، ٩٥، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٧، ١٣٠، ١٦٨، ١٧٠، ١٧٥، ١٧٦، ١٨٠، ١٨٤، ١٨٥، ١٩١، ١٩٤، ١٩٥، ٢١٩، ٢٢١، ٢٣٦، ٢٣٩، ٢٦٠، ٢٦٤، ٢٦٦، ٢٧٢، ٣٠٣، ٣٠٣، ٣٠٨-٣١٠، ٣١٢، ٣١٣، ٣١٩، ٣٢٤، ٣٣٠، ٣٣٣، ٣٤٠، ٣٤١، ٣٤٦، ٣٤٨-٣٥٢، ٣٥٥، ٣٥٦، ٣٦٠ - ٣٦٢، ٣٧٠، ٣٧٤، ٣٨١-٣٨٣، ٣٨٦، ٣٨٩، ٣٩٠، ٣٩٢-٣٩٩، ٤٠٢، ٤٠٩، ٤١٩-٤٢١، ٤٢٣، ٤٢٤، ٤٢٦-٤٣٢، ٤٣٩، ٤٤٠، ٤٤٥، ٤٨١، ٤٨٨، ٤٩٣، ٥٠٢، ٥٠٧، ٥١٠، ٥١٤، ٥١٥

إستجة ؛ ٢٠، ٣٣، ٤٨، ١٠٠، ١٠٦، ١٥٨

استرامادوره ؛ ٣٧٥، ٤٠١

أسترفة ؛ ١٩

آسفى ؛ ٣١١، ٣٩٢

الاسكندرية ؛ ٢٧٢، ٤٤٨، ٤٩٦

الاسكندرية ، موقعة ؛ ١٤٧

آسيا الصغرى ؛ ٤٦٠

أشبونة ؛ ٢٠، ٥١٧

إشبيلية ، وولاية ؛ ٢٠، ٢٢، ٢٨، ٣٠، ٣٢، ٣٧، ٣٩، ٤٣-٤٥، ٥٠، ٥٥-٥٧، ٦٣، ٦٥، ٧٠، ٧٥، ٨٧، ٨٨، ٩٠، ٩١، ١٠١، ١٠٢، ١٠٦، ١٠٩، ١٣٢، ١٤٢، ١٤٨، ١٤٩، ١٦٣، ١٧٠، ١٧١، ١٩٤، ٢٢٠، ٢٣١، ٣٣١، ٣٣٢، ٣٤١، ٣٧٥، ٤٠١، ٤٠٤، ٤١٢، ٤٢٦، ٤٣٢، ٤٣٥، ٤٣٨ - ٤٤٠، ٤٤٧، ٤٥٩، ٤٦٢، ٥١٢-٥١٥، ٥١٧

أشكر ؛ ٥٥، ٢٢٣

أشونة ؛ ٣٨٨

أطريرة ؛ ١٤٨

أغادير ؛ ٣٩٢

إفراغة ؛ ٢٠

إفريقية ؛ ٣٦، ٣٧، ٣٩، ٦٨، ٧٢، ٢١١، ٢١٦، ٢١٧، ٢١٩، ٢٣٩، ٣٢٥، ٣٤٥، ٣٥٠، ٣٥٥، ٣٦٨، ٣٧٤، ٣٨٩، ٣٩٠، ٣٩٦، ٤٠٢، ٤١٢، ٤٤٧، ٤٤٨

البسيط ؛ ٣٧٥

إلبيرة ؛ ٢١، ٢٢، ٢٧، ٥٦، ١١٨، ١٤٢، ١٦٠

إلبيرة ، موقعة ؛ ١٢٠

آلحامة ؛ ٥٥٢، ٢٠١، ٢٠٢، ٢١٥

الحرم الشريف ؛ ١٢٩

الخبرونا ،موقعة ؛ ١٧٤

الصخرة ؛ ١٥١، ١٩٥، ٢٠١

العرائش ؛ ٣٩١

العقاب ، موقعة ؛ ١٩، ٢٠، ٧٥، ٧٧، ٨٦، ٩٥، ٩٦، ١٢٨

الغرب ، ولاية ؛ ٢٠، ٢٨، ٣٦، ٣٩، ٤٣،

٤٩، ٧٢، ٨٨، ١٥١، ٤٦٧
الغرب الإسلامى ؛ ٧٧، ١٣٩
القبذاق ؛ ١١٠
ألكالا دى هنارس ؛ ٣١٦
اللسانة ، وموقعة ؛ ٢٠٣، ٢٠٨
المانيا ، ٣٢٨، ٣٣٠
ألمدور ؛ ٢٠
ألمرية ، وولاية ؛ ٣٣، ٣٥، ٤٠، ٥٢، ٦٣، ١١٥، ١١٦، ١٢١، ١٢٦، ١٣٠، ١٤٤، ١٥٦ ١٦٣، ١٦٧، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٨، ٢٢٢، ٢٢٤ -٢٢٦، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٦٤، ٢٦٩ ٢٧٤ ، ٣١١ ، ٣١٥، ٣١٩، ٣٦٤ ، ٣٦٧ ، ٣٧٥، ٣٨٥، ٤٣٢، ٤٣٥، ٤٣٩، ٤٤٠، ٤٤٧ ٤٦٣، ٤٧٠، ٤٧١، ٥١٧
الملاحة ؛ ٢٢٧
المنصورة ؛ ٥٥، ٣٦٨
المنكب ؛ ٥٥، ١٠٢، ١٠٥، ١٠٦، ١٥٠، ٢٠٤، ٢٠٩، ٢٢٢، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٣٤، ٢٣٥ ٢٦٩، ٢٧٨
أمريكا ؛ ٤٢٥، ٤٢٧
أنتقيرة ؛ ٥٥، ١٤٣
أندرش ؛ ٥٥، ٢٢٧، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٥١ ، ٢٦٤، ٢٦٧ ، ٢٧٣ ، ٢٧٦، ٢٧٧، ٣١١ ، ٣٢٣، ٣٢٥، ٣٦٦، ٣٧٠، ٣٧٤
أندلس ؛ ١٦ - ٢٢، ٢٨، ٣٠-٣٥، ٣٧، ٣٨، ٤٠ - ٤٣، ٤٦-٤٩، ٥١، ٥٤-٥٦، ٦١، ٦٢، ٦٨ ، ٧٢-٧٩، ٨١-٨٦، ٨٨، ٩٠، ٩١، ٩٥، ٩٧ - ١٠٠، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٥-١٠٩، ١١٣، ١١٤، ١١٦، ١٢٠ ، ١٢٢، ١٢٤-١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٣٤، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٩، ١٤١ - ١٤٧ ، ١٥٥، ١٦٢، ١٦٦، ١٦٧، ١٧٠ ، ١٨٨ ، ١٩٠، ١٩١ ، ١٩٤، ١٩٥، ١٩٩ ، ٢٠١ ، ٢٠٣، ٢٠٦ ، ٢٠٨، ٢١١، ٢١٦ - ٢٢١ ، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣١، ٢٣٤ ، ٢٣٦، ٢٤٩، ٢٥٤، ٢٥٨، ٢٦١، ٢٦٤ ، ٢٦٧ ، ٢٧٠-٢٧٣، ٢٧٨، ٢٨٠، ٢٨٢ ، ٢٨٥-٢٨٨، ٣٠٠، ٣٠١، ٣٠٣، ٣١٦ ٣٢١ ، ٣٢٢، ٣٥٠، ٣٦٢ ، ٣٦٥، ٣٦٧ - ٣٦٩ ، ٣٨٣، ٣٨٤، ٤٠٠-٤٠٨، ٤٣١ ، ٤٣٤ - ٤٤٠، ٤٤٣ - ٤٤٥ ، ٤٤٧، ٤٥٠ ، ٤٥٢ - ٤٦٢، ٤٦٩-٤٧١، ٤٧٤، ٤٧٦، ٤٧٨
٤٨١، ٤٨٢، ٤٨٦، ٤٨٨، ٤٩٠، ٤٩٣ ، ٥٠٢، ٥٠٨، ٥٠٩، ٥١١، ٥١٣، ٥١٥، ٥١٦
أنيشة ، موقعة ؛ ٣٦
أوربا ؛ ٦٣ ، ٧٦، ٢٨٧، ٤٢٥، ٤٢٨ ، ٤٤٧، ٤٤٨، ٥١٥
أوريولة ؛ ٢٠، ٣٦، ٤١، ٥٦، ٩٢
أوليڤا ؛ ٣٨٦
الأهرام ؛ ٢٧٣
إيطاليا ؛ ١٣٠، ١٧٩، ٢٧٢، ٣٢٨، ٣٣٠، ٣٥٠، ٤٢٧

## ب — ث

باب البنود ؛ ٢٦ ، ٣٦٠، ٣٦٣
باب البيازين ؛ ٢٦
باب إلبيرة ؛ ٢٦ ، ٢٦١
باب الرمان ؛ ٢٩٢
باب الرملة ، ميدان ؛ ٢٦، ٣١٦
باب الشريعة ؛ ٢٦، ٢٦١، ٢٨٧، ٢٩٠، ٢٩٢
باب الطباق السبع ؛ ٢٦٠، ٢٦٦، ٢٦٧
باب العشار ؛ ٢٤٥
باب فحص اللوز ؛ ٢٦
باب الفخارين ؛ ٣١٠
الباب المحروق : ٤٧٨
باب نجدة ؛ ٢٤٥
باجة ؛ ٢٠، ٢٨
باديس ؛ ٣١١، ٣٩١
باغة ؛ ١٢٦، ١٤٩، ١٥١
بالميرا ؛ ٣٨٨
بجاية ؛ ١٢٧، ٣١١، ٣٢٥، ٣٨٤، ٤٥٥
البذول ؛ ٢٣٤، ٢٦٣
بربشتر ؛ ١٧
البرتغال ؛ ٢٠، ٤٣، ٤٦، ٧٩، ٨٥، ٨٨، ٩٠، ١٢٧، ١٧٤، ٥١٧
برج الأسيرة ؛ ٢٩٠
برج الحراسة ؛ ٢٦٠، ٢٦٢، ٢٨٩، ٢٩٢
برج رومة ؛ ٢٣٤
برج السلاح ؛ ٢٩٠
برج العقائل : ٢٩٠
برج قمارش ؛ ٢٠٠، ٢٠١
برج الماء ؛ ٢٦٧
برج المتزين ؛ ٢٩٠

برج الملاحة ؛ ٢٣٤
برجة؛ ٥٥، ٢٥١، ٢٦٤، ٢٧٨، ٣١١، ٣٦٦
برذنار ؛ ٣٦٥
برشانة ؛ ٥٥
برشلونة ؛ ٧٨ ، ٣٨٢ ، ٤٣١
برشينا ؛ ٢٧٧
برغة ؛ ١٤٨
برغش ؛ ٥١٤
بركونة ؛ ٤٣
بروڤانس ؛ ١٧٦
بسطة ؛ ٣٩، ٥٠، ٥٥، ٨٨، ٢٠٨، ٢٢١ ،
٢٢٤-٢٢٧ ، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣٥، ٢٥١، ٣١١
٣١٩، ٣٢٠، ٣٢٦، ٣٦٧، ٣٧٠، ٣٧٥، ٤٩١
البشرات ؛ ٥٥، ٢٣٤، ٢٣٦، ٢٣٩، ٢٤٥،
٢٤٦، ٢٤٧-٢٤٩، ٢٥١ ، ٢٦٤-٢٦٧، ٢٧٣
٣١١، ٣١٩، ٣٢٣، ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٤٧، ٣٥٦
٣٦٢، ٣٦٤-٣٧٠ ، ٣٧٤، ٣٧٥، ٤٢٥، ٤٤٣
بطرنا ؛ ٤٣، ٣٦٧
بطليوس ؛ ٢٠، ٣١، ٣٢، ٥٦، ٤٣٥، ٥١٧
بغداد ؛ ٣١، ٢٨٣، ٥١٥
بلاد البشكنس ؛ انظر ناڤار ( نبرة )
بلاط الشهداء ؛ ٢١
البلد الجديد ؛ ٤٧٨
بلد الوليد ؛ ١٧٥، ١٨٢، ٣٢٢
بلدية بنبلونة ؛ ٥٨، ٥٩
البلشان ؛ ٢٢٣
بلش الحسناء ( بلج ) ؛ ٢٠٨، ٢٢٣
بلش البيضاء ؛ ٢٠٨، ٢٢٣
بلش مالقة ؛ ٥٥، ١١٦، ١٣٤، ٢٠٣، ٢٠٩،
٢١٣، ٢١٥، ٢١٦، ٢٢٠، ٢٣٥، ٣١١ ،
٣٦٤، ٤٩١
بلغراد ؛ ٤٠٥
بلفيق ؛ ٣٢٣
بللنقة ؛ ١٩٥
بلنسية، وولاية؛ ٢٠، ٣٤، ٣٥-٣٧، ٥٠، ٥٦،
٥٧، ٦٢ ، ٦٣، ٧٠، ٧٥، ٨١، ٩٠-٩٢ ،
١٢٠، ١٧٧ ، ١٩٩، ٢١٠، ٢٧٢ ، ٣١٢ ،
٣٤٦، ٣٥٢ - ٣٥٥، ٣٥٧، ٣٥٨، ٣٦١، ٣٨٠
٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ٣٨٥، ٣٨٦، ٣٨٨، ٣٩١،
٣٩٤ ، ٣٩٦-٣٩٨، ٤٠٢، ٤٠٦، ٤١٠ ،
٤١٢ ، ٤١٤ ، ٤١٥، ٤٢٠، ٤٢٢، ٤٢٥ ،
٤٢٦ ، ٤٣٩، ٤٤٠، ٤٤٦، ٤٥٥، ٤٨١
بنبلونة ؛ ٥٨
البندقية ؛ ٣٥٥، ٣٨٣، ٤٤٨
بني وزير ؛ ٣٥٢، ٣٨٠
بوكيرا ؛ ٣٦٧
بهو السباع ؛ انظر فناء السباع .
بهو قمارش ( بهو السفراء ) ؛ ٢٤٠، ٢٥٤ ،
٢٥٥، ٢٦١، ٢٩٠، ٢٩٤
البيازين ، ربض ؛ ٢٥، ١٢٦، ٢٠٨، ٢٠٩،
٢١٣ ، ٢٤٥-٢٤٩ ، ٢٦٢، ٢٦٧، ٣١٥ ،
٣١٦، ٣٢٣ ، ٣٢٦ ، ٣٦٠، ٣٦٢-٣٦٥ ،
٣٦٨، ٤٤٤، ٤٨٢
بيارن ؛ ٣٨٢
بياسة ؛ ٢٠، ٧٠، ١٢٠، ٢١٢
بيانة ؛ ٤٩٦
بيت المقدس ؛ ٧٨، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٧٣
بيرة ؛ ٥٥، ١٢٢، ٢٢٣، ٣١١
بيزه ؛ ٣٨٣
بيغ ؛ ٤٣
تركيا ؛ ٦٦، ٢١٩، ٤٢٥
تطوان (تطاون) ؛ ١١٤، ٣١١ ، ٣٩١ ،
٣٩٢، ٤٠٥، ٤٠٨
تطيلة ؛ ٢٠، ٦٣
تل الرحى ؛ ٢٥٨
تل الحمراء ؛ ٢٣
تلمسان ؛ ٣٢، ٩٦، ٩٧ ، ١١٣، ١٤٤ ،
٢٢٨، ٣١١، ٣٨٢، ٣٩٨، ٤٠٧، ٤٠٨ ،
٤٦٤، ٤٧٥، ٤٧٦، ٤٩٠، ٤٩١
تورو ؛ ١٨٢
تونس ؛ ١٨، ٢٨، ٤٠، ٤٨، ١٢٥، ١٥٥،
١٥٦، ٣٢٥ ، ٣٨٤، ٣٨٦، ٣٨٩، ٣٩٠ ،
٤٠٣ ، ٤٠٧، ٤٠٨، ٤٥٥، ٤٩١، ٤٩٦ ،
٥٠١، ٥٠٢
الثغر الأعلى ؛ ٢٠، ٧٥، ١٦٦
ثيوداد ريال ؛ ٣٨٨، ٤١٤

## ج — ح

جامع إشبيلية ؛ ٤٥، ٤٣٩، ٥١٣
جامع الحمراء ؛ ١١٢
جامع القرويين ؛ ٤٧
جامع القصبة ؛ ٤٠

جامع غرناطة ؛ ٢٤، ٢٦، ٣٦، ٣٥٠، ٤١٧، ٤٨٤
جامع قرطبة ؛ ٣٤، ٩٠، ٩١، ٥١٠، ٥١١، ٥١٦
جامعة غرناطة ؛ ٢٦
جبال البرنيه ؛ ٧٧، ٨٤، ٨٥، ١٤٣، ٤١٤، ٤٣١
جبال بونتو ؛ ٣٧٥
جبال رندة ؛ ٣٧٥
جبال قسنطينة ؛ ٢١٣
جبل شلير ؛ انظر سيرا نفادا .
جبل طارق ؛ ٥٥، ٨٢، ١١٥، ١٢٢، ١٢٤، ١٢٧، ١٢٩، ١٣٠، ١٣٢، ١٣٧، ١٣٩، ١٤٥، ١٥١، ١٥٣، ١٦١، ١٦٥، ١٧١، ١٧٣، ١٧٦، ٢١٦، ٢٢٣، ٣٨٤، ٤٣١، ٤٤٤، ٤٧٦، ٤٩١، ٥١٧
جرليانة ؛ ٢٤٤
الجزائر ؛ ٣٦٨، ٣٨٢، ٣٨٤-٣٨٦، ٤٠٥، ٤٠٨
الجزائر الشرقية ؛ ٣٥، ٦٢، ٩١، ١٧٨، ٣٨٦، ٣٨٨، ٣٩٠، ٤١٤
الجزيرة ، الجزيرة الخضراء ؛ ٢٢، ٣٣، ٤١، ٤٣، ٥١، ٥٥، ٩٩، ١٠١-١٠٣، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٨، ١٠٩، ١١٥، ١١٧، ١٢٢-١٢٤، ١٢٧، ١٢٨-١٣٠، ١٤٩، ١٧٢، ١٧٣، ٣١١، ٤٤٤
جزيرة شقر ؛ ٤٥٤
جزيرة صقلية ؛ ٦١، ١٥٢، ١٧٦، ١٧٨، ٢١٩، ٣٩٦
جزيرة منورقة : ٩٢، ٣٨٦
جزيرة ميورقة ؛ ٢٠، ٩١، ٩٢
جليانة ؛ ٤٥٩
جليرا ؛ ٣٦٩
جليقية ؛ ٨٦، ٨٧، ٢٢٣، ٣٧٥
جنة العريف ، قصر ؛ ٢٣، ٢٤، ١٤٠، ٢٩٨، ٢٩٩
جنة عصام ؛ ٢٤٢
جنجالة ؛ ٤١، ١٦٤، ٣٧٥
جنوه ؛ ٣٨٣، ٤٤٨
جواخاريس ؛ ٣٦٧
جيان ، وولاية ؛ ٢٠، ٣١، ٣٨، ٣٩، ٤١-٤٣، ٥٠، ٥٥، ٥٦، ٦٥، ٧٠، ٨٨، ٩٠، ١١٠، ١٤٨، ١٤٩، ١٥١، ١٥٨، ١٦٥، ٢٢٢، ٢٢٥، ٣٣٢، ٤٠٤
الجيتو ( حى اليهود ) ؛ ٣٢٦
جيرة ؛ ١٤٨
جيرونة ؛ ٥١١
الحجاز ؛ ١٦٢
الحمراء ، مدينة ، قصر ، حصن ؛ ٢٣، ٢٤-٢٦، ٥٢، ٥٣، ٨٣، ١١٨، ١٢٥، ١٣٦، ١٤٠، ١٤٧، ١٥٠، ١٥٥، ١٥٦، ١٦٠، ١٦٣، ١٦٧، ١٩٥، ١٩٨-٢٠١، ٢٠٨، ٢٣٠، ٢٣٨، ٢٤٠، ٢٤٥، ٢٤٩-٢٥٢، ٢٥٤، ٢٥٨، ٢٦٠-٢٦٧، ٢٧٣، ٢٨٧، ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩٢، ٢٩٤، ٢٩٦، ٢٩٨-٣٠١، ٣٠٣، ٣٥٠، ٣٦٢، ٤٤١، ٤٥٠، ٥١٣، ٥١٤، ٥١٦
حصن أرجونة ؛ ٣٨، ٤٢، ٤٣، ٩٠
حصن إليورة ؛ ٢١٠، ٢٣٠
حصن أيامونتى ؛ ١٥١
حصن ذكوين ؛ ٢٠٦
حصن قرطبة ؛ ٢٠٦
حصن قلنبيرة ؛ ٢١١
حصن قمارش ؛ ٢١٦
حصن المقورة ؛ ٤٦
حصن اللوز ؛ ٥٥، ٥٨، ١٦٠
حصن مجريط : ١٠٥
حصن مرتيل ؛ ٣١١
حصن المعودة ؛ ١٠٠
حصن المنكب ؛ ١١٤
حصن موجر ؛ ٣١١
حصن موكلين ؛ ٢٠٥، ٢٠٦، ٢١٠، ٢١١، ٢٣٠
حصن مونتميور ؛ ٢١٦
حمص ؛ ٥٠ ، وانظر إشبيلية .
حوزمؤمل ؛ ٢٥
الخان ؛ ٢٥
الخزانة ؛ ٤٣
الخيرالدا (منار إشبيلية) : ٤٣٩، ٥١٤، ٥١٧

## د — ز

الدار البيضاء ؛ ٣١٢
دانية ؛ ٢٠، ٣٦، ٥٦، ٧٥، ٩٢، ٣٨٢، ٣٨٦، ٤٣٩

درعة ؛ ٩٦
دلاية ؛ ٥٥،٢٢٦،٢٥١،٢٦٤،٣٦٦
دمشق ؛ ٤٥٨،٤٦٠
دير الآباء الدومنيكان ؛ ٣٣١
دير سان فرنسيسكو ؛ ٣٥٠
ديرساكرومونتي ؛ ٥٠١
دير سان كلمنتي : ٦٨،٧١
ديرالقديس فرنسيس ؛ ٢٢١
الدير الملكي ببرغش ؛ ٥١٤
رأس طرف الغار ؛ ١٢٧
الرباط ؛ ٣١٢
الرصافة ؛ ٤٤٦
رندة ؛ ٥٥،٩٩،١٠٥،١١٢،١١٦،١٣٤، ١٤١ ، ١٤٨،١٥١ ، ١٥٨، ١٦٠،١٩٤ ، ٢٠٦،٢١١ ، ٢١٥ ، ٣١١،٣٢٤،٣٦٦ ، ٣٦٩،٣٧٤،٣٧٥،٤٥٦،٥١٧
ريه ؛ ٢٢
روسيون ؛ ١٧٩
روطة ؛ ٤٥،٤٩٦
رومة ؛ ٩١،٢٢١،٢٧١،٢٧٣،٤٤٨،٥٠١
الزاهرة ؛ ٤٤٦
الزلاقة ، موقعة ؛ ١٨،٢٠،٧٥،٧٧،٨٦، ١٠٠،١٣٦
الزهراء ؛ ٤٤٦،٥٠٩،٥١٠

## س — غ

سبتة ؛ ٤٧،١١٣،١١٤،١٢٨،١٤٥،٢٣٩
السبيكة ؛ ٢٣،٢٤،٥٣،٢٩٢
سجلماسة ؛ ٩٦
سردانية ؛ ٣٨٣
سرقسطة ؛ ٢٠ ، ٢٨ ، ٣١، ٥٨، ٦٨،٧٥ ، ١٧٧،٣١٢،٣٥٢،٣٩٧،٥١٢
سلا ؛ ٩٦،٣١١،٣١٢،٣٨٣،٣٩٠،٤٠٨، ٤٧٤ ،٤٧٥
سمورة ؛ ١٩،١٨٢
سوسة ؛ ٣١١
سيرا ڤرملبا ؛ ٣٢٤
سيرا نڤادا ؛ ٢٣،٥٥،٢٣٣،٢٩٢،٢٩٨، ٣٦٤،٣٦٦
سيرون ؛ ٣٧٠
شاطبة ؛ ٢٠ ، ٣٦ ، ٥٠، ٥٦، ٧٥ ، ٩٢ ، ١٢٠،٤٤٧،٥١٧
الشام ؛ ٧٧،١٢٩،٤٠١،٤٠٨،٤٤٧، ٤٥٩،٤٦٠
شانت ياقب ؛ ٨٤،٢٦٢
شذونة ؛ ٢٢،٤٥
الشرق الإسلامي ؛ ٣٥٥،٥١٠
الشرقية ، موقعة ؛ ٢٠٣
شرق الأندلس ؛ ٣٥،٣٦،٣٨،٤١،٥٧، ٧٢،٢٢٦،٤٥٠،٤٨٢
شريش ، وموقعة ؛ ٢٠ ، ٢١ ، ٣٩، ٤٥ ، ٤٧،٤٩ ، ٩٩،١٠١ ، ١٠٦،١٠٧، ١٠٩ ، ٤٤٦،٤٥٤،٥١٤
شقوبية ؛ ١٨٢،٣٣١،٣٣٢
شقورة ؛ ١٩
شلطيش ؛ ٤٦
شلمنقة ؛ ١٩،٧٩
شلوقة ؛ ٤٥
شلب ؛ ٢٠،٢٨،٤٣،٥١٧
شلوبانية، وقلعة ؛ ٥٥،١٠٢،١٥٠،١٥٣، ١٥٦،٢٣٤،٣٦٦
شنترة ؛ ٢٠،٥١٧
شنترين ؛ ٢٠،٥١٧
شنتفي ؛ ٢٣٦،٢٤٤،٢٥٨،٢٦٠،٢٦١ ، ٢٦٥ ، ٢٦٧
شنتمرية الغرب ؛ ٢٠،٤٥
صفاقس ؛ ٣١١
صقلية ؛ انظر جزيرة صقلية
طبيرة ؛ ٤٣
طرابلس ؛ ٣٢٥ ، ٣٩٠
طرش ؛ ٥٥
طرطوشة ؛ ٢٠،٦٣
طريف ؛ ٥٥،٩٩،١٠٩،١١٠،١١٥ ، ١٢٧،١٢٩،٣١١،٤٤٤
طريف ، موقعة ؛ ١٢٧،١٢٨،١٧٢،٤٦٨، ٤٧٢
طليطلة ؛ ١٨،٢٠،٦٣،٧٠،٧٤،٧٥،٨١، ٩١،١٠٥،١٦٠ ، ٣٣٢،٤٠٤،٤١٢،٤٣٢، ٤٤٧،٥١١،٥١٢،٥١٧
طنجة ؛ ٩٩،١١٠،١١٤،٢٣٩،٣١١
عتقة ؛ ٢٣٦
عدوة المغرب ؛ انظر المغرب .

العرائش ؛ ٣٩١
عسقلونة ؛ ٦٣
عين الدمع ؛ ٣١٠
غرناطة، وولاية ؛ ١٧، ٢١-٢٨، ٣٠ - ٣٢ ،
٣٩ ، ٤٠، ٤٢ ، ٤٣، ٤٥، ٥٠، ٥٣، ٥٥ -
٥٧، ٦٣، ٦٥، ٦٦، ٧٠، ٧٢، ٧٣، ٨٢ ،
٨٣، ٩٤، ٩٩، ١٠٣-١٠٦، ١١٠، ١١٢ -
١١٦، ١١٨، ١٢٢، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٨ ،
١٣٤، ١٣٦، ١٣٧-١٤٣، ١٤٧-١٥٦، ١٥٨
١٦٠ - ١٦٨، ١٧١-١٧٥، ١٧٨، ١٩١، ١٩٤-
١٩٦، ١٩٧، ٢٠٠-٢١٧، ٢٢٠، ٢٢٥، ٢٢٧،
٢٢٨، ٢٣٠، ٢٣٢ ، ٢٣٤ - ٢٥٢، ٢٥٤ ،
٢٥٦-٢٦٧، ٢٧١-٢٧٤، ٢٧٧، ٢٨٠-٢٨٥
٢٨٩ ، ٢٩٦، ٢٩٩-٣٠٣، ٣٠٨-٣٢٤ ،
٣٢٦، ٣٤٠ - ٣٤٢ ، ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٥٠ ،
٣٥١، ٣٥٤، ٣٥٨، ٣٦٠-٣٦٩، ٣٧٤-٣٧٦
٣٨١، ٣٨٤، ٣٩٣، ٣٩٤، ٤٠٠، ٤٠٢، ٤٠٤
٤١٠، ٤١٢، ٤٢٠ ، ٤٢٢، ٤٣٢، ٤٣٨ -
٤٤٠ ، ٤٤٤، ٤٤٦، ٤٤٨، ٤٥٠، ٤٥١ ،
٤٥٤ ، ٤٥٧، ٤٥٨ ، ٤٦١، ٤٦٢، ٤٦٤
٤٦٥ ، ٤٦٧، ٤٦٨، ٤٧٠، ٤٧٢، ٤٧٣ ،
٤٧٧ ، ٤٨٢، ٤٨٥-٤٩١، ٤٩٣، ٥٠١-٥٠٤
٥١١، ٥١٤، ٥١٦، ٥١٧
غليانة ؛ ٤٥
الغوطة ؛ ٢٤

## ف ـ ك

فارو ؛ ٤٦
فاس ؛ ٤٧، ٩٦، ٩٧، ٩٩، ١١٤، ١١٦ ،
١٢٢ ، ١٤٦، ١٦٥، ٢٧٨ ، ٢٨٢، ٢٨٤،
٢٨٦، ٢٨٧، ٣١٢، ٣٢٥، ٣٩١، ٤٠٤ ،
٤٠٧، ٤٠٨، ٤٧٨، ٤٨٢، ٤٩١
الفرنتيرة ؛ ٤٣، ٤٩، ٥٥، ٨٢، ٩٩، ١٠٦
فرنسا ؛ ١٤٣، ١٤٥، ١٧٧، ١٧٩، ٣٢٨-
٣٣٠، ٣٥٠، ٣٨٢، ٤٠٠، ٤٠١، ٤٤٧
الفحص = فحص غرناطة ؛ انظر المرج .
فحص شريش ؛ ٣٣
الفخار ؛ ٣١١
ڤليالونجا ؛ ٣٢٤، ٣٢٥
فناء البركة ؛ ٢٩٤، ٢٩٦
فناء السباع ؛ ١٩٩، ٢٥٥، ٢٩٦، ٢٩٨ ،
٣٠٢، ٣٠٤
فناء السرور ؛ ٢٩٦
فيرتنزا ( فلورنس ) ؛ ٤٤٧
قابس ؛ ٣١١
قادس ؛ ٢٠، ٤٣، ٤٥، ٤٦، ٤٩، ٥٥، ١٧٠
قاعة الأختين ؛ ٢٩٦، ٢٩٨
قاعة الملوك ؛ ٢٩٨، ٤٥٠
قاعة بنى سراج ؛ ٢٩٦، ٣٠٢
القاهرة ؛ ١٢٩، ١٤٧، ١٦٢، ٢١٨، ٢٢١،
٢٧٢، ٢٧٣، ٣٢٤، ٤٩٠
القبذاق ؛ ١١٠
قردوش ؛ ٣١١
قرطاجنة ؛ ٣٦، ٤١، ٣٨٩، ٤٠٠، ٤٠٩
قرطبة ؛ ٢٠ ، ٢٧، ٢٨، ٣٠، ٣١، ٣٣،
٣٤، ٣٧، ٣٩، ٥٠، ٥٦، ٦٣، ٦٥، ٦٧، ٧٠،
٧٥، ٨١ ، ٨٨، ٩٠، ١٠٠، ١٠٥، ١٥٥ ،
٢٠٣، ٢٠٤ ، ٢٣٥، ٣٢٤، ٣٣٢ ، ٣٣٩ ،
٣٤١ ، ٣٧٥، ٤٠٤، ٤١٢، ٤٣٨، ٤٣٩ ،
٤٤٧، ٤٩٥، ٥١٠، ٥١١، ٥١٥، ٥١٧
قرمونة ؛ ٣٩، ٤٣، ٥٦، ١٠٦، ١٤٩
قسطنطينية ؛ ١٦٨، ٢١٧-٢١٩، ٣٢٣، ٤٧
٣٤٨، ٣٦٨، ٣٨٤، ٤٠١، ٤٠٨، ٤٣٨، ٤٤٨
قشتالة ؛ ٣٠، ٣٢، ٤٤، ٥٧، ٦٢، ٦٣، ٦٥
٧٧، ٧٨، ٨١، ٨٥ - ٨٨، ٩١، ١٠١، ١٠٣
١٠٥، ١٠٦، ١١٠، ١١٢، ١١٥، ١٢٦، ١٢٧
١٤٤، ١٤٨، ١٥٠، ١٥١، ١٥٣، ١٥٥، ١٥٨
١٦٠ ، ١٦٣ ، ١٦٦، ١٧٠-١٨٠، ١٨٢،
١٨٤-١٨٦، ١٩٢، ١٩٤، ١٩٥، ٢١٠، ٢١٧
٢٢٤ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٨٤،
٣٣٠ - ٣٣٢، ٣٤٠، ٤٠٠، ٤١٢ ، ٤٢٠ ؛
٤٢١، ٤٩٨، ٥١٣، ٥١٤، ٥١٥
قصبة الحمراء ؛ ٢٣٥، ٢٩٢
قصر الإسكوريال ؛ ٣٢٩، ٣٩٢، ٥٠٤
قصر إشبيلية ؛ ٥١٣، ٥١٧
قصر الجعفرية ( قصر السرور ) ؛ ٥١٢
قصر الحمراء ؛ انظر الحمراء
قصر الزهراء ؛ ٥١٠
قصر السباع ؛ ٢٩٤
قصر الڤاتيكان ؛ ٢٧٣ ، ٢٨٨
قصر الناعورة ؛ ٥٠٩
قصر باديس ؛ ٤٠
قصر شارلكان ؛ ٢٨٩

قصر شنيل ، قصر السيد ؛ ٢٥
قصر عبد الكريم ( القصر الكبير ) ؛ ٣٩١
قصر قرطبة ؛ ٥٠٩
قصر قمارش ؛ ١٩٩، ٢٩٤
قصر مصمودة ؛ ٩٩
قطلونية ؛ ٨٦، ١٧٦، ٤٠١، ٤١٤
قلعة ابن سلامة ؛ ١٦٣
قلعة الحمراء ؛ ١٥٦
قلعة أيوب ؛ ٦٣
قلعة بنى سعيد ؛ ١٢٨
قلعة بنى موريل ؛ ١٦٣
قلعة جابر ؛ ٤٣
قلعة رباح ؛ ٤٢، ٧٩، ٣٧٥
قمارش ؛ ٥٥، ١٠٨
القمامة ؛ ٢٢٠، ٢٢١
قنطرة شنيل ؛ ٢٣، ٢٦
قيجاطة ؛ ١١٠
كازورلا ؛ ١٦١
كالوسا ؛ ٣٨٨
كتدرائية إشبيلية ؛ ٦٥، ٤٣٨، ٥١٣
كتدرائية بنبلونة ؛ ٥١١
كتدرائية سرقسطة ؛ ٥٧
كتدرائية سمورة ؛ ٥١١
كتدرائية غرناطة ؛ ٨٣، ٢٦٢، ٣٥٠
الكعبة ؛ ٣٤٦
كنيسة سانتاماريا ؛ ٢٩٠
كنيسة سان سالبادور ؛ ٣١٦
كنيسة سان سبستيان ؛ ٢٦٠
كنيسة طليطلة العظمى ؛ ٢٦٦

## ل — ى

لاردة ؛ ٤٤٦
لامنشا ؛ ٤١٠ ، ٤١٤
لبلة ؛ ٢٠، ٤٦، ٥٦، ١٠٦
لقنت ؛ ٢٠، ٣٦، ٤١، ٥٦، ٣٩٨
لك ؛ ١٩
اللسانة ( اليسانة ) ؛ ٢٠٣ ، ٢٠٨، ٤٣٨
لورقة ؛ ١٢٦، ١٥٠، ٣٨٩
لوشار ؛ ٢٥١، ٢٦٤، ٢٧٧، ٣٦٦
لوشة ؛ ٣٣، ٥٥ ، ١٦٠، ٢٠١-٢٠٣ ، ٢٠٥، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١٣، ٢١٥ ، ٢٢٩ ، ٣١١، ٤٥٤، ٤٧٢
ليون ؛ ٣٢، ٣٣، ٧٧، ٨٤، ٨٦، ٨٧، ١٨٢، ٣٧٥
ماردة ؛ ٢٠، ٣٢، ٥٦، ٥١٧
ماردين : ٤٦٥
مالطة ؛ ٣٨٣
مالقة ، وولاية ؛ ٢٨، ٣٠، ٣٩، ٤٠، ٥١ ، ٥٥، ٦٣، ٩٩، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٦، ١٠٩ ، ١١٣، ١٢٥، ١٣٤، ١٤١ ، ١٦٠، ١٦٧ ، ١٩٢، ١٩٤، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٦، ٢٠٩ ، ٢١٣ ، ٢١٦-٢١٨، ٢٢٠-٢٢٤، ٢٥٤ ، ٣١١ ، ٣١٥، ٣٦٦، ٣٦٩، ٣٧٥، ٤٣٩ ، ٤٤٠، ٤٤٤، ٤٤٦، ٤٤٧، ٤٨٦، ٤٩١، ٥١٧
المارستان الأعظم ؛ ١٤٧
متحف الحمراء ؛ ٥١١
متحف جنة العريف ؛ ٤٥٠
متحف غرناطة ؛ ٢٦، ٥١١
متحف قرطبة ؛ ٥١٠
متحف مدريد الوطنى ؛ ٢٩٠، ٥١١
متزين الملكة ؛ ٢٩٨
مدرسة غرناطة النصرية ؛ ١٢٦، ٤٨٤
مدريد ؛ ٣٦١، ٤٨٠، ٥٠٠، ٥٠٤
مدينه دلكامبو ؛ ٣٥٥
مراكش ؛ ٣٠، ٣٢، ٩٦، ٢١٨، ٣١٢، ٣٩١، ٣٩٧، ٤٠١، ٤٠٥، ٤٣٨، ٤٧٠، ٥٠٣
مربلة ؛ ٥٥، ١٠٣، ١٣٤، ٣٦٦، ٣٧٥
مرتش ، وموقعة ؛ ٤٢، ١١٨، ١٢١
مرتفع غمارة ؛ ٢٦١
مرتيل ، قرية ؛ ٣١١
المرج = مرج غرناطة ؛ ٢٤، ٤١، ٦٨، ١٤٢، ١٥٠، ١٦٠، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٨، ٢٤٠ ، ٢٥١، ٣١٠، ٣٦٩، ٣٧٥، ٤٤٦، ٤٤٨، ٤٥١، ٤٩٠، ٤٩٢
مرسية ، وولاية ؛ ٣٠، ٣١، ٣٤-٣٧، ٤١، ٤٢، ٥٠، ٥٥-٥٧، ٦٣، ٧٠، ٧٥، ٨٨، ٩٠، ١١٢، ١١٨، ١٢٦ ، ١٥٠، ١٥٥، ١٦٤ ، ١٩٩، ٣٦٨، ٣٨٢، ٣٩٤، ٤٠١، ٤١٢ ، ٤٢١، ٤٤٠، ٤٤٦، ٤٥٤، ٤٥٥، ٤٥٨
المرسى الكبير ؛ ٣٨٢
مرشانة ؛ ١٤٩، ٢٥١، ٣١١، ٣٦٦
مسجد الحمراء ؛ ٢٩٠، ٥١١
مسلاتة ؛ ٣٨٠

المشرق ؛ ١٣٠، ٢١١، ٢١٨، ٢١٩، ٢٧٣،
٢٨٤، ٤٠١ ، ٤٠٥ ، ٤٢٧، ٤٤٥، ٤٤٨،
٤٥٣، ٤٥٨ ، ٤٥٩، ٤٦٣، ٤٦٥، ٤٩٠ ،
٤٩١ ، ٥٠٢ ، ٥٠٨

مصر ؛ ٦٦، ٧٧، ٧٨، ١٢٩، ١٦١، ٢١١ ،
٢١٨-٢٢٢ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣، ٣٢٢، ٣٢٤ ،
٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٤٠١، ٤٥٩، ٤٦٠، ٤٦٤،
٤٨٦، ٥٠٣

المغرب ؛ ١٨، ٣٠-٣٢، ٣٧، ٣٨، ٤٤، ٤٦،
٦٠ ، ٦٦ ، ٧٥ ، ٨١، ٩٢، ٩٥-٩٧، ٩٩-١٠٣
١٠٥، ١٠٨-١١٠، ١١٣، ١١٦، ١١٧ ،
١٢٢، ١٢٤، ١٢٦-١٣٢، ١٤٠، ١٥٣، ١٦٥-
١٦٧ ، ١٧٠، ١٧٢، ١٨٩-١٩١، ٢١٠ ،
٢١٦-٢١٨، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٧، ٢٣٢ ،
٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤٦، ٢٤٧ ،
٢٥٢، ٢٥٧، ٢٦٧، ٢٧١، ٢٧٣، ٢٧٦-٢٨٠
٢٨٤، ٢٨٦، ٣٠٩-٣١٣، ٣٢٢، ٣٢٣ ،
٣٢٧، ٣٤٢، ٣٤٧، ٣٥٢، ٣٦١، ٣٦٣ ،
٣٨٤-٣٨٦، ٣٨٩-٣٩٢، ٣٩٥، ٤٠٠، ٤٠١،
٤٠٥، ٤٠٨، ٤١٩، ٤٢٧، ٤٤٣، ٤٥٢ ،
٤٥٣، ٤٥٥، ٤٥٨، ٤٦٠، ٤٧٠ ، ٤٧٣ -
٤٧٨، ٤٨٢ ، ٤٨٦ ، ٤٩١ - ٤٩٣، ٥٠٧ ،
٥٠٨، ٥١٣، ٥١٥

المغرب الأقصى ؛ ٩٥، ٩٧، ٢٣٩، ٤٤٤
المغرب الأوسط ؛ ٩٥
مقبرة الحمراء ؛ ١٣٦
مكتبة أكاديمية التاريخ ، ١٧، ٥١٩
مكتبة الإسكندرية ؛ ٣١٩
مكتبة الإسكوريال ؛ ٦٠ ، ١٣٠ ، ١٩٦ ،
٤٤٧، ٤٨٠، ٤٨٦، ٥٠٤، ٥٠٧، ٥١٦
مكتبة الڤاتيكان ؛ ١٦٧، ٣٤٤
مكتبة مدريد الوطنية ؛ ٥٠٠
مكناسة ؛ ٢٠، ٩٦
مكة ؛ ٣٦٥
مليلة ؛ ٢٧٨
منظرة اللنداخا ؛ ٢٩٨
موريريا ( حى الموريسكيين ) ؛ ٣٢٦
مونتيل ، موقعة ؛ ٨٢، ١٤٣، ١٧٣، ١٧٤،
٣٧٥
مونتى فريو ؛ ١٦٣، ١٦٤
ميرتلة ؛ ٢٨

نابل ، ومملكة ؛ ١٧٦، ١٧٧، ١٧٩، ٢٢٠،
٢٢٢، ٢٩٦
ناڤار ( نبرة ) ؛ ٦٠، ٧٧، ٨٦، ٨٧، ١٧٩
نافورة السباع ؛ ٢٩٦
نهر ألتيا ؛ ٣٨٦
نهر أندرش ؛ ٥٥
نهر أوديل ؛ ٤٦
نهر إيبرو ؛ ٨٥
نهر التاجه ؛ ٢٠
نهر دويرة ؛ ١٩، ٨٤
نهر حدره ؛ ٢٣، ٢٠١، ٢٨٩، ٢٩٢.
نهر سالادو ؛ ١٢٧، ١٧٢
نهر شنيل ؛ ٢٣ ، ٢٥، ٥٥، ٢٠٢، ٢٠٣،
٢٣٦، ٢٥٦، ٢٥٨، ٢٦٠، ٢٦٥، ٢٦٦ ،
٤٤٦
نهر اللوار ؛ ٧٧
نهر المنصورة ؛ ٥٥
نهر النيل ؛ ٢٧٣
نهر وادى أنة ؛ ٤٦
نهر الوادى الكبير ؛ ٣٧، ٤٤، ٥٥، ٩٠،
١٠٦، ٤٣٢، ٤٤٠
همدان ؛ ٢٣٤
وادى أجوار ؛ ٤٠٠
وادى آش ؛ ٣٩، ٥٥، ٨٨، ١٠٨، ١١٦ ،
١٢٢ ، ١٤٠، ١٤٢، ١٥٦، ١٦٠، ٢٠١ ،
٢٠٢، ٢١٤، ٢١٦ ، ٢١٧، ٢٢٤-٢٢٧ ،
٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٤٩، ٣١٩ ،
٣٦١، ٣٦٧، ٣٦٩، ٣٧٠، ٣٧٤، ٣٧٥،
٤٥٨، ٤٧٣ ، ٤٨٥، ٤٩١
وادى غفو ؛ ٩٧
وادى لكرين ؛ ٣١٩، ٣٧٥
وادى لكه ، وموقعة ؛ ٢١٢، ٣٣٠
وادى ملوية ؛ ٩٥
وادى المنصورة ؛ ٣٦٦، ٣٧٥
وجدة ؛ ٩٧
وشقة ؛ ٢١٢
وهران ؛ ٢٢٧، ٣١١، ٣٢٥، ٣٨٤، ٣٨٦،
٣٩٨، ٤٠١
ولبة ؛ ٣٠، ٤٦، ٤٦٧
يابرة ؛ ٢٠

# فهرست القبائل والطوائف والدول


الأسبتارية ؛ ٧٨، ٧٩
الأغالبة ؛ ٣٨٣
الأليبون ؛ ٩١، ٣٢٩، ٣٣٠
الامبراطورية الرومانية المقدسة ؛ ١٧٠
الأمة الأندلسية ؛ ١٦، ١٨، ٢١، ٣٨، ٤١، ٧٠، ٧٢، ٧٥، ٧٦، ٨٣، ١٥٤، ١٦٦، ١٨٤، ١٨٨، ٢١٩، ٢٤٤، ٢٥٤، ٢٦٠، ٣٠٣، ٣٠٩، ٣١٩، ٣٢٢، ٣٣٠، ٣٤٠، ٣٤١، ٣٤٩، ٣٥٠، ٣٦٠، ٣٦٢، ٣٨٤، ٣٩٣، ٤١١، ٤١٢، ٤١٦، ٤٣٠، ٤٣٤، ٤٤٩، ٤٩٣
آل البيت ؛ ٤٦٥
آل هوهنشتاوفن ؛ ١٧٠، ١٧٦
البابوية؛ ٦٢، ٦٥، ٢٨٨، ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٣٢
البربر ؛ ٢٣، ٢٧، ٥٦، ٧٠، ٧٢، ٧٣، ٧٧، ٤٤٣
البروتستانتية ؛ ٣١٩، ٤٣٠
بنو أبي العلاء ؛ ١٠٧، ١١٨، ١٢٤، ١٢٥، ٤٤٣
بنو اسرائيل ؛ انظر اليهود .
بنو أشقيلولة ؛ ٤٠، ٤١، ٥١، ٩٨، ٩٩-١٠٣
بنو أضحى ؛ ١٦٦
بنو الأحمر ؛ انظر بنو نصر .
بنو الأفطس ؛ ٤٣٩
بنو الثغرى؛ ١٦٦، ٢١٧، ٢٣٩، ٣٠٣، ٣١٥
بنو أمية ؛ ٢٧، ٢٨، ٥٠٩
بنو حفص ؛ ٤٨٥
بنو حمود ؛ ٢٧، ٢٨
بنو خلدون ؛ ١٤٢
بنو ذو النون ؛ ٥١٢
بنو زهر ؛ ٤٣٧، ٤٥٩
بنوسراج ؛ ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦، ١٦٣، ١٦٦، ١٦٧، ٢٠٠، ٢٩٦، ٢٩٨، ٣٠٢، ٣٠٣، ٣١١، ٣٦٣
بنو عامر ؛ ٢٧
بنو عامر الموريسكيون ؛ ٣٨٠، ٣٨٣
بنو عباد ؛ ٢٨، ٥١٢، ٥١٥
بنو عبد الواد ؛ ٩٥، ٤٨٥
بنو عبد المؤمن ؛ ٢٨
بنو قسى ؛ ٧٢
بنو مرين ، ودولة ؛ ٣٢، ٤٧، ٧٣، ٩٥-٩٩، ١٠٣، ١٠٥-١١٦، ١١٨، ١٢٢، ١٢٩، ١٣٦، ١٤١، ١٤٢، ١٦٢، ١٦٥، ١٦٦، ١٩١، ٢١٨، ٢٧٨، ٤٤٣، ٤٧٨، ٤٨٥
بنو نصر ؛ ١٧، ٢٥، ٣٨، ٤٠، ٤٢، ٥١، ٥٢، ٥٤، ٩٤، ١٠٧، ١١٥، ١٢٥، ١٣٦، ١٣٩، ١٥٦، ١٥٨، ١٩١، ١٩٩، ٢٠٦، ٢٦٤، ٢٨٢، ٢٨٤، ٢٨٥، ٤٤١ - ٤٤٣، ٤٥٠، ٤٦٩، ٤٨٥، ٤٨٦
بنو وطاس، ودولة ؛ ١٦٥، ٢٣٩، ٢٧٨، ٢٨٦
التتار ؛ ٢٨٣
الترك العثمانيون ؛ ١٦٨، ٢١٩، ٢٢٠، ٣٤٦، ٣٦١، ٣٦٨، ٣٨٢، ٣٨٤، ٣٨٦، ٤٢١
الخلافة الأموية، والدولة؛ ١٦، ٢٢، ٢٧، ٥٦، ٧٩، ٤٣٥، ٤٤٦
الخلافة العباسية ، والدولة ؛ ٣١، ٥١٥
خلافة قرطبة ؛ ٣٨٣
الخلافة الموحدية ؛ ٣٠-٣٢، ٤٧، ٤٨، ٨٨، ٩٥-٩٧، ٤٣٦، ٤٥٧
الدولة النصرية ؛ انظر بنو نصر
الرومان ؛ ٢٢
زناتة ، قبيلة ؛ ٧٣، ٩٥، ١٠٧
الصقالبة ؛ ٤٩٥
الصليبيون ؛ ٧٨، ٣٨٣
صنهاجة ، قبيلة ؛ ٢٧
الصحابة ؛ ٣٨، ٤٦٥
الطوائف ، ملوك ، ودولة ؛ ١٦-١٨، ٢٨، ٣٧، ٤٦، ٥٤، ٧٤، ٧٧، ٨٤، ٨٥، ١٠١، ١٠٦، ٤٣٥، ٤٣٦، ٤٥٦، ٤٦٠، ٤٦٢، ٥١٢، ٥١٥
العرب ؛ ٢٢، ٧٠، ٧٢، ٧٦، ٧٧، ٩٥، ٣٩٦، ٤١٠، ٤٢٦، ٤٢٧، ٤٢٩، ٤٣١، ٤٣٢، ٤٤٥، ٥٠٦

العرب المتنصرون ؛ انظر الموريسكيون .
غمارة ، قبيلة ؛ ٢٠٦، ٣١١
الفاطميون ؛ ٣٨٣
فرسان المعبد ( الداوية ) ؛ ٧٨، ٧٩
فرسان القنطرة ( القديس يوليان ) ؛ ٧٩
فرسان قلعة رباح ؛ ٧٩
الفرنج ؛ ١٤٧، ٢٢٠، ٣٢٢
قريش ؛ ٣٩٤
القشتاليون ؛ ٣٠، ٣٣، ٤٦-٤٩، ٥٣، ٨٨، ٩٠، ١٠٠، ١٠٢، ١٠٣، ١١٥، ١١٧، ١١٨، ١٢١، ١٢٧، ١٤٨، ١٥١، ١٥٣، ١٦١، ١٦٤، ١٦٥، ١٧١، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٦، ١٨٢، ١٩٤، ١٩٥، ٢٠٦ - ٢٠٨، ٢١٠ - ٢١٣، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٣٤، ٢٥٨، ٢٦٤، ٣١٤، ٤٩١
القوط ؛ ٢١، ٢٢، ٤٧، ٤٣١
المدجنون ؛ ٥٦، ٥٧، ٦٠، ٦٢-٦٨، ٧٠، ٩٣، ١٢٠، ١٤٨، ١٧٣، ١٩٩، ٢٣١، ٢٤٧، ٣١٢، ٣٢٣، ٣٢٦، ٣٣٠، ٣٤٠، ٤٩٤، ٤٩٨، ٥١٤، ٥١٧
المرابطون ؛ ١٨، ٢٠، ٢٨، ٥٦، ٦٨، ٧٢ - ٧٥، ٧٧، ٧٩، ٨١، ٩٥، ٩٧، ٩٩، ١٠١، ١٠٦، ١٠٧، ١٩١، ٣٨٣، ٤٢٧، ٤٣٦، ٤٣٧، ٤٤٣، ٥١٣
مضر ؛ ٣٩٤
مغراوة ، قبيلة ؛ ٧٣، ٩٥
مملكة أراجون ؛ ٨٥، ٩١، ١٣٠، ١٥١، ١٥٢، ١٧٨، ٣٣٠، ٤١٨
مملكة البرتغال ؛ ٣٢٢
مملكة غرناطة ؛ ٢١، ٣٧، ٣٨، ٤٠-٤٢، ٤٥، ٥٠، ٥٣، ٥٤، ٦٦، ٧٠، ٧٤، ٨١، ٨٣، ٩٤، ١٠٧، ١١٢، ١٢٧، ١٣٠، ١٥١، ١٥٢، ١٥٤، ١٥٥، ١٦٠، ١٦١، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٨، ١٧١، ١٧٤، ١٧٦، ١٨٥، ١٨٩، ١٩١، ١٩٥، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢١٠، ٢١٢، ٢١٤، ٢١٥، ٢١٧، ٢٢١، ٢٢٣، ٣٠٠، ٣١٨، ٣٢٣، ٣٢٤، ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٣٠، ٣٤٠، ٣٤١، ٤٤٠-٤٤٩، ٤٥١، ٤٥٢، ٤٥٧، ٤٦٠-٤٦٢، ٤٦٩، ٤٧٢، ٤٨٨، ٤٨٩، ٤٩٤، ٤٩٥، ٥١٣، ٥١٥
مملكة قشتالة ؛ ٧٤، ١١٨، ١٣٠، ١٣٦، ١٥٤، ١٦٨، ٢٢٣، ٢٦١، ٣٢٠، ٣٢٢
المملكة اللاتينية ؛ ٧٨
مملكة ليون ؛ ٨٥، ٨٧، ٨٨
الموحدون ؛ ١٨-٢٠، ٢٥، ٢٨-٣٢، ٣٥، ٣٨، ٤٠، ٤١، ٤٤، ٤٥، ٥٦، ٧٢، ٧٣، ٧٥، ٧٧، ٧٩، ٨١، ٨٦، ٩٥ - ٩٩، ١٩١، ٢١١، ٣٨٣، ٤٢٧، ٤٣٧-٤٣٩، ٤٤٣، ٤٥٩، ٥١٣
الموريسكيون ؛ ٦٧، ١٩٧، ٣٠٨، ٣١٠، ٣١٤، ٣٢٠، ٣٢٢، ٣٢٤، ٣٢٦، ٣٢٨، ٣٤١- *
٣٥١، ٣٥٣-٣٦٢، ٣٦٤-٣٧٠، ٣٧٤-٤٠٣، ٤٠٩-٤٣٠، ٤٤٧، ٤٩٣-٤٩٦، ٤٩٨، ٥٠٠، ٥٠١، ٥٠٣
المولدون ؛ ٧٠، ٧٢، ٢٨٩
النصارى المعاهدون ؛ ٦٦-٦٩، ٧٢، ٤٩٥
النورمان ؛ ١٧
الوندال ؛ ٤٢٧
اليهود ؛ ٥٧، ٦٤، ١٢٠، ١٢١، ١٦٥، ١٧٣، ٢٤٧، ٣١٤، ٣٢٦، ٣٢٩، ٣٣٠، ٣٣٨، ٣٤٠، ٣٤٤، ٣٦٣، ٤٠١، ٤٠٢، ٤١٤، ٤١٧، ٤٢٨، ٤٣٧

# فهرست الأعـــلام


— ا —

ابراهيم بن زرور ؛ ١٤٢
ابراهيم بن سهل الإشبيلى ؛ ٤٤٤،٤٥٤
ابراهيم بن يحيى الأنصارى ؛ ٤٦٧
ابراهيم القيسى ؛ ٢٣١
ابراهيم دى بلفاد ؛ ٤٩٦
ابن أبى أصيبعة ؛ ٤٦٠
ابن أبى الخصال ؛ ٤٣٦
ابن الأبار القضاعى ؛٣٦،٣٧،٩٢،٤٣٩ ، ٤٥٣،٤٥٥،٤٥٦،٤٥٨
ابن الأحمر ، محمد بن يوسف ؛٣٨،٣٩-٤٤، ٤٦ - ٥٣، ٨١، ٨٢، ٨٨، ٩٠، ٩٤، ٩٥، ١٦٠، ١٧٠، ٢٨٩، ٢٩٠، ٤٣١، ٤٤١، ٤٥٢، ٤٥٧، ٤٦٠
ابن الأزرق ، الأصبحى ؛ ٤٩٠، ٤٩١
ابن اسماعيل ، السلطان ؛ ١٦٤-١٦٧، ١٧٦، ٤٥١
ابن أشقيلولة ، أبو اسحاق؛ ٤٠، ١٠٨
ابن أشقيلولة ، أبوالحسن ؛ ٤٠، ٩٩، ١٠٨
ابن أشقيلولة، أبو محمد ؛ ٥١، ١٠٤
ابن البرزى ، على بن يحيى ؛ ٤٦٦
ابن البيطار المالقى ؛ ٤٥٣، ٤٥٩، ٤٦٠
بن الجد الفهرى ؛ ٤٣٦
ابن الجياب ، أبو الحسن على ؛ ١٢٦، ٤٤٢، ٤٦١، ٤٦٥، ٤٧٢، ٤٨١
ابن الجيان المرسى ؛ ٤٥٥
ابن الحكيم الرندى ؛ ١١٢، ١١٣، ١١٤، ٤٤١، ٤٤٢، ٤٦١-٤٦٤
ابن الحكيم ، أبو بكر؛ ٤٦٣
ابن الخطيب ، عبد الله ؛١٢٦، ٤٦٦، ٤٧٢
ابن الخطيب ،لسان الدين ؛٢٣، ٢٤، ٤٩، ٥١، ٧٣، ١٢٦، ١٣٢، ١٣٤، ١٣٩، ١٥٠ ، ١٦٦، ١٧٣، ١٧٤، ١٨٩، ١٩٠، ٤٣٥ ، ٤٤٠-٤٤٢، ٤٤٩، ٤٥٠، ٤٦١-٤٦٣، ٤٦٥ - ٤٨٧، ٤٨٩، ٥١٦
ابن الدباغ ، أبو اسحق ؛ ١٩
ابن الرومية ، أبو العباس ؛ ٤٥٩، ٤٦٠
ابن الزبير ، أبو جعفر ؛ ٤٦٦
ابن الشط الأنصارى ؛ ٤٦٧
ابن الصابونى ؛ ٤٣٩
ابن العزفى ؛ ١١٣
ابن العوام ، أبو زكريا ؛ ٤٤٦
ابن الفخار ؛ ٤٥٤
ابن الفرضى ؛ ٤٣٩
ابن المحروق ؛ ١٢١، ١٢٢ ، ٤٤١
ابن المهنا ؛ ٤٨٧
ابن إياس ؛ ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٠، ٣٢٢
ابن باجة ؛ ٤٣٦
ابن بدرون ؛ ٤٣٩
ابن بسام ؛ ١٧ ، ٤٣٦
ابن بشكوال ؛ ٤٣٨، ٤٥٦، ٤٦٦
ابن بصال ؛ ٤٤٦
ابن بطوطة ؛ ١٣٢، ١٣٤، ٤٦٥، ٤٧٠
ابن تومرت ، المهدى ؛ ٣١، ٤٣٧
ابن جابر الضرير ؛ ٤٦٥
ابن جبير ؛ ٤٦٨
ابن جزى ، أبو عبد الله ؛ ٤٧٠
ابن جزى ، أبو القاسم ؛ ٤٦٧
ابن حبيب الإشبيلى ؛ ٤٣٨
ابن حريق ؛ ٤٥٣
ابن حزم ؛ ٤٣٥
ابن حفصون ؛ ٧١
ابن حمدون الحميرى ؛ ٤٥٣
ابن حيان ؛ ١٧، ٤٣٥
ابن خاتمة ، أبو جعفر؛ ١٣٠، ٤٦٤، ٤٧٠، ٤٧١، ٤٨١
ابن خالد ؛ ٣٩
ابن خروف الإشبيلى ؛ ٤٥٧
ابن خلدون ؛ ١٠٥، ١١٨، ١٣٩، ١٤١ ، ١٤٢، ١٧٣، ١٩٠، ٤٧٤، ٤٧٦، ٤٧٩، ٤٩٠
ابن خميس التلمسانى ؛ ٤٦٣

ابن دبنار ؛ ٤٠٨
ابن رشد ، الجد ؛ ٦١، ٦٨
ابن رشد ، الحفيد ؛ ٤٣٧، ٤٣٨
ابن زمرك ، أبو عبد الله ؛ ١٤٥، ١٥٠، ٢٩٦، ٤٤٢، ٤٦١، ٤٧٧، ٤٧٨، ٤٨٢-٤٨٥
ابن زهر ، أبو بكر ؛ ٤٣٥، ٤٥٩
ابن زهر ، أبو العلاء ؛ ٤٣٧، ٤٥٩
ابن زهر ، عبد الملك ؛ ٤٣٧، ٤٥٩
ابن زيدون ؛ ٤٣٥
ابن سراج ، الوزير ؛ ١٦١
ابن سعيد الأندلسي ؛ ٤٥٣، ٤٥٨
ابن سلبطور ؛ ٤٦٩، ٤٨١
ابن شعيب ، الرئيس ؛ ٤٤
ابن صناديد ، عبد الملك بن يوسف ؛ ٥٢
ابن طفيل ، أبو بكر ؛ ٤٣٧
ابن عبد البر ، الوزير ؛ ١٦١، ١٦٣
ابن عبد البر ؛ ٤٦٨
ابن عبد الرفيع الأندلسي ؛ ٤٠٣، ٤٠٧، ٥٠١
ابن عبد الملك المراكشي ؛ ٤٥٦
ابن عبدون ؛ ٤٣٥، ٤٣٩
ابن عبو ؛ انظر مولاى عبد الله .
ابن عربي ، محيى الدين ؛ ٤٥٣، ٤٥٨
ابن غازى ، الوزير ؛ ٤٧٨
ابن غانم الأندلسي ؛ ٥٠١
ابن فرج الموريسكى ؛ ٣٦٢، ٣٦٤، ٣٦٦
ابن فرحون القرشي ؛ ٤٦٧
ابن فرحون ، برهان الدين ؛ ٤٨٦
ابن كماشة ، أبو الحسن ؛ ١٣٠، ٤٦٣
ابن كماشة ، يوسف ؛ ٢٠٤، ٢٣١، ٢٤٤، ٢٥٤، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٦، ٢٧٤، ٢٧٦، ٢٧٧، ٣١٥
ابن قزمان ؛ ٤٣٦، ٤٩٥
ابن ليون التجيبى ؛ ٤٦٨
ابن مرج الكحل ؛ ٤٥٤
ابن محفوظ ؛ ٤٣، ٤٦
ابن مردنيش ، محمد بن سعد ؛ ٤٠، ٧٢، ٨١، ١٩٩، ٤٥٠، ٤٥٥
ابن ميمون ؛ ٧٣، ٤٣٧
ابن هشام ، الوزير؛ ٩٩
ابن هود ، المتوكل ؛ ٢٨، ٣١-٣٥، ٣٨، ٤٠، ٨٨، ٩٠، ٤٥٢، ٤٥٥
ابن هود ، محمد بن على ؛ ٤١
ابن هود ، المقتدر ؛ ٥١٢
ابن يونس ؛ ٤٨
أبو ابراهيم ، اسحاق بن يوسف ، السيد ؛ ٢٥
أبو الحسن بن مسعود ؛ ١٢١
أبو الحسن البسطى ؛ ٤٩١
أبو الحسن السعيد الموحدى ؛ ٣٢، ٩٦
أبو الحسن الفزارى ؛ ٤٦٦
أبو الحسن المرينى ، السلطان؛ ١٢٢، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٧، ١٣٢، ١٣٦، ١٣٧، ١٧٢
أبو الحسن المنظرى ؛ ٣١١
أبو الحسن النباهى ؛ ٤٧٧، ٤٨٦
أبو الحسن النصرى ، السلطان ؛ ١٦٧، ١٨٤، ١٩١، ١٩٢، ١٩٤-١٩٨، ٢٠٠-٢٠٤، ٢٠٨، ٢١٨، ٢٣٨، ٢٥١، ٢٥٢، ٢٧٤، ٣٠٢، ٣١٥
أبو الخطار الكلبى ؛ ٢٢
أبو الربيع المرينى ؛ ١١٤، ١١٦
أبو الطيب الرندى (صالح بن شريف) ؛ ٤٩، ٥٠، ٥٢، ١٠٢، ٤٥٦، ٤٥٧، ٤٦١
أبو العباس ، السيد ؛ ٣١
أبو العباس المرينى ؛ ١٥٠
أبو العلاء إدريس الموحدى ؛ ٣٠
أبو القاسم بن سلمون ؛ ٤٨٧
أبو القاسم بن سوده ؛ ٢٤٢
أبو القاسم الحسينى ؛ ٤٧٠
أبو القاسم بنيغش ؛ ١٩٣، ١٩٥، ٣١٥
أبو القاسم العزفى ؛ ٤٨
أبو القاسم القرطبى (خلف بن عباس)؛ ٤٣٦
أبو القاسم المليح(عبدالملك)؛ ٢٣١، ٢٣٩-٢٤١، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٥٤، ٢٧٤، ٢٧٦، ٢٧٧
أبو بكر الرازى ؛ ٤٣٧
أبو بكر السعيد ؛ ١٤٠
أبو بكر الطرطوشى ؛ ٤٣٦
أبو بكر بن عاصم ؛ ٤٨٨، ٤٨٩
أبو بكر بن عبد الحق (أبويحيى) ؛ ٩٦
أبو بكر بن غازى ؛ ٤٧٨
أبو ثابت المرينى ؛ ١١٣، ١١٤
أبو ثابت عامر ، شيخ الغزاة ؛ ١٢٤
أبو جعفر بن عبد الملك العذرى؛ ٤٨١
أبو حمو ؛ انظر عبد الرحمن بن موسى .
أبو حيان الغرناطى ؛ ٤٦٤

أبو ديوس ، الواثق بالله ؛ ٣٢، ٩٧
أبو زكريا الحفصي ؛ ٣٦ ، ٣٧، ٣٩، ٤٠، ٩٢، ٤٥٥
أبو زيان المريني ؛ ٩٩، ١٠٦
أبو زيد عبد الرحمن ، السيد ؛ ٣٥
أبو سالم المريني ؛ ١١٣، ١٤٠، ١٤١، ١٨٩، ٤٧٣، ٤٧٥، ٤٨٢
أبو سعيد ، الرئيس؛ ٥١، ١٤١
أبو سعيد عثمان المريني ؛ ٩٦، ١١٧، ١٢٢، ١٥٣، ١٦٥
أبو سعيد فرج بن محمد بن يوسف ؛ ٥١
أبو عبد الله الرميمي ؛ ٣٤، ٣٥، ٤٠
أبو عبد الله الزليخى ؛ ٢٢٤
أبو عبد الله الشريشي ؛ ٤٨٥
أبو عبد الله الشيخ ؛ ٣٩٠
أبو عبد الله العقيلي ؛ ٢٨٠، ٤٦١، ٤٩٢، ٤٩٣
أبو عبد الله الوادي آشي ؛ ٤٩١، ٤٩٢
أبو عبد الله الوطاسي ؛ ٢٧٨
أبو عبد الله الينشتي ؛ ٣١٠
أبو عبد الله محمد ، السلطان ؛ ١٩٦ - ١٩٨، ٢٠٠ - ٢١٠، ٢١٣-٢١٥، ٢١٨، ٢٢٠، ٢٢٣، ٢٢٥، ٢٢٨، ٢٣٠-٢٣٥، ٢٣٨-٢٤٦، ٢٤٨، ٢٥٠-٢٦٧، ٢٧٣-٢٨٨، ٢٩٨، ٤٥٠، ٤٩٢، ٤٩٣
أبو عبد الله محمد ، سلطان تونس ؛ ٣٨٨
أبو عبد الله الوطاسي ؛ ٢٧٨، ٢٨٢، ٣١١
أبو علي الرنداحي ؛ ٤٧٠
أبوعمر بن المرابط ؛ ١٠١
أبو عنان المريني ؛ ١٣٢، ١٣٩، ١٤٠، ١٤١، ٤٧٠، ٤٧٢
أبو فارس الحفصي ؛ ١٥٥، ١٥٦، ١٥٨
أبو الحارس الواثق بالله ؛ ٣٩١
أبو مالك المريني ؛ ١٢٤، ١٢٧
أبو محمد بن عطيه المحاربي ؛ ٤٨٥
أبو محمد عبد الواحد الموحدي ؛ ٢٨، ٣٠
أبومروان الباجي ؛ ٣٩
بو معرف ، محمد بن عبد الحق ؛ ٤٧، ٩٦
أبو يحيى الحفصي ؛ ١٢٥
أبو يحيى بن عاصم ؛ ٤٨٩
أبو يحيى بن يحيى ؛ ٩١
أبو يعقوب بن المنصور ؛ ١٠٠، ١٠٣، ١٠٦، ١٠٨، ١٠٩، ١١٣، ١١٤، ١٣٧
أبو يعقوب يوسف الموحدي ؛ ٤٣٧، ٤٣٨، ٥١٣
أبو يوسف المنصور المريني ، ٤٧، ٥١، ٨١، ٩٦-١٠٣، ١٠٥-١٠٧، ١٣٧، ١٧٠، ١٧١
أجيلار الكونت دي ؛ ٤٠١
أحمد المنصور ؛ ٣٩٠، ٣٩١، ٥٠٢، ٥٠٣
أحمد بن أبي سالم ؛ ١٤٦، ٤٧٨
أحمد أبو علي الموريسكي ؛ ٣٨٨
أحمد العثماني ، السلطان ؛ ٤٠١، ٤٠٥، ٤٠٦
أحمد بن أبو جمعة المغراوي ؛ ٣٤٣
أحمد بن قسي ؛ ٧٢
أحمد بن مهدي الغزال ؛ ٥٠٧
أحمد بن يحيى الونشريشي ؛ ٦١
أحمد الوطاسي ؛ ٢٨٧
الأحنف السلطان ؛ ١٦٢-١٦٤، ١٩٧
ادريس ، المأمون الموحدي ؛ ٣٠ - ٣٢، ٨١، ٤٣٨
إدريس بن أبي العلا ؛ ١٤٠، ١٤٢
ادوارد ، ولي عهد انجلترا ؛ ١٤٣، ١٧٣
ادوارد الثالث ؛ ١٧٤
أردونيو الثاني ؛ ٧٧، ٨٠
أرسطو ؛ ٣٢٩، ٤٣٨
إسبينوسا ، الكردينال ؛ ٣٦١
الإسترداد ، حروب؛ ١٩، ٢٠، ٢٦، ٦٥، ٧٦، ٧٩، ٨٣
الإسلام؛ ٢١، ٣٤، ٥٠، ٥٣، ٥٤، ٦٠، ٦٧، ٧٠، ٧٥، ٧٧، ٧٨، ٨٣، ٨٦، ٩٨، ١٣٦، ١٦٨، ١٨١، ١٩٨، ٢٢٨، ٢٣٦، ٢٦٣، ٢٧١، ٢٧٨، ٢٨٨، ٣٠٩، ٣١٠، ٣١٣، ٣٤٥، ٣٧٩، ٣٨١، ٣٩٦، ٤٣٢، ٥٠١، ٥٠٨، ٥١٣
إسماعيل ، أبو الوليد السلطان ؛ ١١٦-١٢١، ١٢٥، ١٧١، ٢١٢، ٢٩٠، ٢٩٤
إسماعيل ، مولاي؛ ٤١٣، ٥٠٧
إسماعيل ، بن السلطان يوسف ؛ ١٤٠، ١٤١، ٤٦١، ٤٧٣
إسماعيل بن الأحمر الكاتب؛ ٤٧٠، ٤٧٥، ٤٨٥

الأشرف جان بلاط ؛ ٢٧٢
الأشرف شعبان ؛ ١٤٧
الأشرف قايتباى ؛ ٢١٦، ٢١٩، ٢٢١، ٤٩٠
الاخميادو ؛ ٦٧، ٣٧٩، ٤٩٥، ٤٩٦، ٤٩٨
الإنفانت فيليب ؛ ٨١، ١٠٣
الأيسر، السلطان ؛ ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٨، ١٦٠-١٦٣، ١٧٥، ١٩٦، ١٩٧، ٢١٨، ٣٤٧
السعيد بن عبد العزيز المرينى ؛ ١٤٦، ٤٧٨
السيد الكمبيادور ؛ ٨٠، ٨١
الفارو دى لونا ؛ ١٧٥
ألفونسو المحارب ؛ ٦٨، ٧٨، ٨٥
ألفونسو الثالث الأرجونى ؛ ٩١، ١٧٧
ألفونسو الرابع الأرجونى ؛ ١٣٠، ١٧٧
ألفونسو الخامس ؛ ١٧٩
ألفونسو السادس ؛ ١٨، ٧٤، ٨٠
ألفونسو الثامن ؛ ٧٥، ٨٦، ٨٧
ألفونسو التاسع ؛ ٣٢، ٨٧، ٨٨
ألفونسو العاشر، الحكيم ؛ ٣٦، ٤١، ٤٨، ٤٩، ٥١، ٥٧، ٦٥، ٨١، ٩٠، ٩٥، ١٠٣-١٠٦، ١٦٩، ١٧٠-١٧٢، ٢١١، ٤١٤
ألفونسو الحادى عشر ؛ ٨٢، ١١٨، ١٢٤، ١٢٦، ١٢٨، ١٣٢، ١٤٣، ١٧١، ١٧٣، ١٧٤
ألفونسو ريموندس (السابع) ؛ ٧٩، ٨١، ٨٧
ألفونسو هنريكيز ؛ ٨٦
ألفونسو الخامس، ملك البرتغال ؛ ١٨٢
الكامل، الملك ؛ ٤٦٠
ألونسو دى أجيلار ؛ ٣٢٥
ألونسو دى فنيجاس ؛ ٣٦١، ٣٧٢
إلنيورا دى كزمان ؛ ١٤٣، ١٧٢، ١٧٣
أندريس ؛ ٥٠٥
أنطونيو أجابيدا ؛ ٢٣٨، ١٥٦
أنطونيو ميلان، القس ؛ ٢٢١
إنوسان الرابع ؛ ٦٢
إنوسان الثامن ؛ ٢٢١، ٢٢٢
الأوتوداف ؛ ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٧٩
أوروج، أمير البحر ؛ ٣٨٥
إيدين ريس ؛ ٣٨٥، ٣٨٦
إيرفنج، وشنطون ؛ ٢٣٨، ٢٨٧، ٢٨٨
إيسابيلا الكاثوليكية ؛ ٢٦، ٨٣، ١٧٥، ١٧٦، ١٨٠، ١٨٢، ١٨٤، ١٨٥، ١٩٤، ٢٠٥، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢٢، ٢٢٥، ٢٢٩، ٢٥٨، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٦، ٢٧١، ٢٧٦، ٣١٠، ٣١٢، ٣١٣، ٣٢٤، ٣٣١، ٣٣٢، ٣٥٠، ٣٥٦، ٤٢٣، ٤٢٩، ٤٣٢
إيسابيلا البرتغالية ؛ ١٧٥
ايسابيلا دى سوليس ؛ انظر ثريا الرومية.

## ب — خ

باديس بن حبوس ؛ ٢٨، ٢٨٤
البارود ؛ ٢١٢، ٢١٣
بايزيد الثانى ؛ ٢١٩، ٢٢٢، ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٤٨، ٤٩٤
بترونلا الارجونية ؛ ٨٥
بثنتى دى لافونتى ؛ ٤١٧
برسكوت، وليم ؛ ٣١٨
برمودو الثانى ؛ ٨١
برمودو الثالث ؛ ٨٤
برنجاريا، ابنة ألفونسو النبيل ؛ ٨٨
برونات، دون ؛ ٤٩٨
بكاتوستى ؛ ٤٢٣
بلانش دى بوربون ؛ ١٤٣، ١٧٣، ١٧٩
بلانكيو الموريسكى، الريس ؛ ٣٨٨
بلتران دى لا كويڤا ؛ ١٨٠
بليدا، القس ؛ ٤١٦
بياتريس، الأميرة ؛ ١٧٤
بيترو مارتيرى ؛ ٢٧٢، ٢٧٣، ٣٢٤، ٣٨٤
بيثارو ؛ ٤٣٢
بيدال، مننديث ؛ ٨٠، ٤٣٠، ٤٢٩، ٤٩٥
بيدرو الأول ملك أراجون ؛ ٨٧
بيدرو الثانى ملك أراجون ؛ ٩١
بيدرو الثانى ملك قشتالة (دون بطره) ؛ ٩١، ١٤١، ١٧٤
بيدرو الثالث (القاسى) ؛ ٨٢، ١٣٢، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٨، ١٧٣، ١٧٨
بيدرو الثالث ملك أراجون ؛ ١٧٦
بيدرو الرابع ملك أرجون ؛ ١٣٠، ١٤٧، ١٧٧، ١٧٨
تاشفين بن يعقوب ؛ ١١٤
تالاڤيرا ؛ ٣١٥، ٤٢٥
تركيمادا، توماس دى ؛ ٣٣١-٣٣٣
تندليا، كونت ؛ ٢٦٠-٢٦٢، ٢٦٦، ٣١٠، ٣٦١، ٣٦٦، ٣٦٧

ڤرڤانتس ؛ ٣٨١، ٣٨٨، ٤٢٧
ڤريا الرومية ؛ ١٩٨-٢٠٠، ٢٠٤، ٣٠٤، ٣٠٥
ڤوريتا ؛ ٣٥٠
جاينجوس ، المستشرق ؛ ٥٢، ١٦٦، ٢٩٠
جرماط بن مرين ؛ ٩٥
جريرو ، المطران ؛ ٣٧٨
جسبار دى أجيلار ؛ ٤٢٦
جنه هنريكيز ؛ ١٧٩
حوتيرى دى كارديناس؛ ٢٢٥، ٢٦٢
جوفرى تنوريو ؛١٢٧
جومث مورينو ؛ ٣٠٠، ٥٠٩، ٥١٣، ٥١٥
جونزالفو دى كوردبا ؛ ٢٤٤
الحاجب المنصور ؛ ٦٩، ٧٧، ٤٨٩
حامد الثغرى ؛ ٢٠٦
الحبق ؛ ٣٦١، ٣٧٠، ٣٧٢-٣٧٤
حبوس بن ماكسن ؛ ٢٨
الحرة ، الأميرة ؛ ١٢٩
الحروب الصليبية ؛ ٧٧، ٢١١، ٢١٨
الحكم بن هشام ؛ ٦٧، ٧٢
الحكم المستنصر ؛ ٤٣٥، ٥١٠، ٥١١
الحميدى ؛ ٤٣٥
خالد الوزير ؛ ١٤٩
خالد بن عيسى البلوى ؛ ٤٦٨
خانير ، فلورثيو ؛ ٦٣، ٤٢١، ٤٢٣
خايمى الأول(الفاتح) ؛ ٣٤-٣٦، ٦٢، ٦٤ ، ٩٠، ٩١-٩٣، ١٧٠، ١٧٦، ١٧٨
خايمى الثانى ؛ ١١٠، ١١٥، ١٢٠، ١٢١، ١٧٧
خزانة جامع القرويين ؛ ٤٨٠
خمنيس ، الكردينال ؛ ٣١٤-٣١٩، ٣٣٩، ٣٥١، ٤٢٨، ٤٢٩، ٥٠٤
خايمى الثالث صاحب ميورقة ؛ ١٧٨
خوان ، دون ، أخو فيليب الثانى ؛ ٣٦٩، ٣٧٠، ٣٧٢، ٣٧٤، ٣٨٢
خوان الأول ملك قشتالة ؛ ١٧٤، ١٧٨
خوان الثانى ملك قشتالة؛ ١٥١، ١٥٣، ١٥٨، ١٦٤، ١٧٥
خوان الأول الأرجونى ؛ ١٧٨
خوان الثانى الأرجونى ؛١٧٨-١٨٠، ١٨٤
خوان بن عامر ؛ ٣٨٠، ٣٨١
خوان ألفونسو ؛ ٤٩٦
خوانا ، الملكة ؛ ٣١٨
خوانا بلترنيخا ؛ ١٨٠، ١٨٢
خوانا دى مندوثا ؛ ٣١٥
خير الدين ، أمير البحر ؛ ٣٨٥، ٣٨٦، ٣٨٨
الخيزران ، أم الشيخ المأمون ؛ ٣٩١
خنيث بيرث دى إيتا ؛ ٣٠٣
خيل ، دو ن ؛ ٤٨


## د — ز


دانثيلا إى كوليادو ؛ ٤١٨
دون بطره غرسيس ؛ ٦٦
دوزى ، رينهارت ؛ ٨٠، ٥٠٦
دونيا إيزابيل ، الإمبراطورة ؛ ٣٨٨
دى جسكلان ؛ ١٤٣
ديرنبور ، المستشرق ؛ ٦٥ ، ٥٠٦
ديسا المحقق العام ؛ ٣١٤، ٣٢٣، ٣٦٠
دسبينا ، الكردينال ؛ ٢٥٠
دى ليرما ، دوق ؛ ٣٩٤، ٣٩٦، ٤١٥، ٤٢٠، ٤٢٣
ديوان التحقيق ، ومحاكم ؛ ٨٣، ١٨٤، ٣٠٩، ٣١١، ٣١٤، ٣٢٣، ٣٢٤، ٣٢٨-٣٤١، ٣٤٥- ٣٤٧، ٣٥١-٣٥٦، ٣٦١، ٣٧٩، ٣٨٠، ٣٨٣ ٣٩٤، ٤٠٩-٤١١، ٤١٤، ٤١٥، ٤١٧، ٤٢٤ ٤٢٥، ٤٢٨، ٤٣٢، ٤٥٠، ٤٩٣، ٤٩٨، ٥٠١
دىلاس كاخيجاس ، المستشرق ؛ ٤٠
دى ماريليس ؛ ٤٣٠
ديسفوريدس ؛ ٤٥٩
الرازى ، المؤرخ ؛ ٣٨
راميرو ، ملك ليون ؛ ٧٧
راميرو الراهب ملك أراجون ؛ ٨٥
ريرا ، المطران ؛ ٣٩٤، ٣٩٥، ٤٢١، ٤٢٥، ٤٢٥، ٤٣٠
ردريجو ألونسو ؛ ٤٢
الرشيد الموحدى ؛ ٣١، ٣٢، ٩٦
رضوان النصرى ؛ ١٢٢، ١٢٤، ١٢٥، ١٣٩، ١٤٠، ١٩٢، ٤٢١، ٤٤٢، ٤٤٣، ٤٧٢
ركيصانص ، دون ؛ ٣٧٤
ريشليو ، الكردينال ؛ ٤١٧، ٤٢٠، ٤٢٣
ريمون برنجار ؛ ٧٨، ٨٥
رينان ؛ ٨٠
زاوى بن زيرى الصنهاجى ؛ ٢٧، ٢٨

زرياب ؛ ٥١٥
الزغل ، أبو عبد الله محمد بن سعد ؛ ١٩١، ١٩٢، ١٩٤، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٦، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٣-٢٢٠، ٢٢٤-٢٣١، ٢٣٤، ٢٧٦، ٢٨٥، ٢٨٨، ٣١٥، ٣٤٧
الزمار ؛ ٣٦٧
زيان بن مردنيش ، أبو جميل ؛ ٣٣، ٣٥-٣٧، ٩٠، ٩١، ٩٢، ٤٥٥
زيدان ؛ مولاى ؛ ٣٩١، ٢٩٢، ٣٩٥، ٥٠٢، ٥٠٤، ٥٠٧


## س — ظ


ساقدرا ، المستشرق ؛ ٤٩٥
سانشو ، ملك ليون ؛ ٨٠، ٨١
سانشو الكبير ، ملك ناقار ؛ ٨٤
سانشو ، ملك قشتالة ( الباسل ) ؛ ٨١، ٨٧، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٩، ١١٠، ١٧٠، ١٧١
سان فرناندو ؛ انظر فرناندو الثالث .
السخاوى ، شمس الدين ؛ ١٦٢
سعد بن عبادة ؛ ٣٨
سعد بن محمد بن يوسف ( المستعين ) ؛ ١٦٤، ١٦٧، ١٨٥، ١٩١
سعد بن أبي الحسن ؛ ٢٠٠، ٣١٥
سكستوس الرابع ، البابا ؛ ٣٣١
سكوت ؛ ٤٢٩
سكيابريللى ، المستشرق ؛ ٣١٦
سلام بن عبد الله الباهلى ؛ ٤٨٩
سليم ، السلطان ؛ ٣٨٥
سليمان بن داود ؛ ١٤٦، ٤٧٨
سنان اليهودى ؛ ٣٨٥
السويريما ؛ ٣٣٢، ٣٣٦، ٣٣٧
سيبولد ، المستشرق ؛ ٢٢، ١٥٥
سيكودى لوثينا ؛ ١٩٧
سيمونيت ، المستشرق ؛ ٢٢، ٣١٨، ٣١٩
شاتوبريان ؛ ٣٠٢
شارل الخامس ، ملك فرنسا ؛ ١٤٣
شارل دانجو ؛ ١٧٦
شارلكان ، الامبراطور ؛ ٢٦، ٢٩٣، ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٣٩، ٣٤٠، ٣٥٠، ٣٥١-٣٥٨، ٣٨٨، ٤١١، ٤١٨، ٤١٩، ٤٢٩، ٤٣٢، ٤٩٤
شارلمان ؛ ٧٧
شفارتز ، برتولد ؛ ٢١٢
شقاف ، قائد الفحص ؛ ٤٤
الشهاب الحجرى ( أفوقاى ) ؛ ٥٠٢-٥٠٤
شوق ، أحمد ؛ ٢٦٥، ٣٠٤
الشيخ المأمون ؛ ٣٩٠-٣٩٢
الصالح بن الكامل ، الملك ؛ ٤٦٠
الصالح بن الناصر قلاوون ؛ ١٢٩
صالح ريس ؛ ٣٨٥، ٣٨٦
صالح بن شريف ؛ انظر أبو الطيب الرندى
صلاح الدين ، السلطان ؛ ٧٧، ٤٣٧
طارق بن زياد ؛ ٢١، ٤٣١
طرغود ؛ ٣٨٥، ٣٨٨
الطغنرى ؛ ٤٤٦
الظاهر جقمق ، السلطان ؛ ١٦٢، ٢١٨، ٣٤٧


## ع — غ


العادل الموحدى ؛ ٣٠
عامر بن إدريس ؛ ٤٧، ٤٨، ١٠٧
عائشة الحرة ؛ ١٩٦-٢٠١، ٢٠٤، ٢١٣، ٢٩٥، ٢٦٧، ٢٧٤، ٢٨٨
عبد الباسط بن خليل المصرى ؛ ١٦٧
عبد الحق بن خالد بن محيو ؛ ٩٦
عبد الحق بن عثمان المرينى ؛ ١٥٨، ١٦٥
عبد الرحمن بن عبد الحكم ؛ ٦٧، ٥١٥
عبد الرحمن الداخل ؛ ٧٧
عبد الرحمن الناصر ؛ ٧٧، ٨٠، ١٩٩، ٤٣١، ٤٣٥، ٥٠٩، ٥١٠
عبد الرحمن بن موسى ، أبو حمو ؛ ١٤٤
عبد العزيز المرينى ؛ ١٤٥، ١٤٦، ٤٧٧، ٤٧٨
عبد الكريم القيسى ؛ ٤٩١
عبد الله بن أبي العلاء ؛ ١٠٧
عبد الله بن أشقيلولة ؛ ٤٠
عبد الله بن بلكين ؛ ٢٨
عبد الله العبلى ؛ ٢٨٩
عبد الله المرينى ؛ ١٥٣
عبد الله ، مولاى ، ( ابن عبو) ؛ ٣٦٩-٣٧٢، ٣٧٤-٣٧٦، ٤٩٤
عبد الملك المنصور ؛ ٥١١
عبد المؤمن بن على ؛ ١٠٨، ١٢٢، ٤٣٧
عتبة بن يحيى المغيلى ؛ ٣٩
عثمان بن أبي العلاء ؛ ١٠٨، ١١٣، ١١٢، ١٢٤

عثمان داى ؛ ٣٨٩، ٤٠٨
عثمان بن يحيى : ١٤٥، ٤٧٥، ٤٧٦
عزيز الدانى ؛ ١٠٢، ١٠٩، ١١٣-١١٥، ١١٨، ٤٦٢
عزيز بن عبد الملك القيسى ؛ ٤٥٤
عصر الإحياء الأوربى ؛ ١٧٩، ٢٩٨، ٤٣٨
على بن أحمد الغسانى ؛ ٤٥٨
على بن بدر الدين بن رحو ؛ ١٤٢
على بن سعيد اليحصبى ؛ ٥٢
على بن عاصم ؛ ٤٨٨
على بن قاسم الزقاق ؛ ٤٩١
على بن يوسف بن تاشفين ؛ ٦٨
على العطار ؛ ٢٠٢
عمر ، الخليفة ؛ ٣١٩
عمر بن الأفطس ، المتوكل ؛ ٤٣٥
عمر بن السعود ؛ ١١٠
عمر بن عبد الله ؛ ١٤١، ٤٧٥
عمر بن عبد المجيد الأزدى ؛ ٤٥٨
عمر بن محمد الأزدى ( الشلوبين ) ؛ ٤٥٧
عمر محمد باى ؛ ٣٨٩
عيسى ، المسيح ؛ ٣٤٤، ٣٤٥، ٤٧١، ٥٠١
عيسى بن الحسن بن منديل ؛ ١٣٩
عيسى بن سليمان الرعينى ، ٤٥٨
غرسية ملك نافار ؛ ٨١
غرسية راميرس ؛ ٨٥
الغزالى ؛ ٤٣٦، ٤٣٧
الغزيرى ، ميخائيل ؛ ٤٤٧، ٥٠٥، ٥٠٦
الغنى بالله محمد ، السلطان ؛ ٨٢، ١٣٩-١٤٣، ١٤٥-١٥٠، ١٧٣، ٢٩٠، ٢٩٦، ٤٤١، ٤٤٣، ٤٦١، ٤٧٢-٤٧٥، ٤٧٨، ٤٨٢، ٤٨٣


## ف — ك


الفارابى ؛ ٥١٥، ٥١٦
الفتح بن خاقان ؛ ٤٣٥، ٤٣٦
فرج بن اسماعيل ؛ ١٠٨، ١٠٩، ١١٣، ١١٦
فرج بن لب ؛ ٤٨٤
فرناندو الأول الأرجونى ؛ ١٧٩
فرناندو الثالث ؛ ٣٠، ٣٢، ٣٣، ٣٦، ٤٢-٤٥، ٨١، ٨٨، ٩٠، ٩١، ٩٥، ١٦٠، ١٦٩
فرناندو الرابع ؛ ١١٥، ١٧١
فرناندو الوصى ( صاحب أنتقيرة ) ؛ ١٥١، ١٥٣، ١٧٥، ١٧٨
فرناندو البرتغالى ، ١٧٤
فرناندو ملك نابل ؛ ١٧٩، ٢٢١
فرناندو الخامس ( الكاثوليكى ) ؛ ٢٦، ٨٣، ١٧٦، ١٨٠، ١٨٢، ١٨٤، ١٨٥، ١٩٤، ١٩٦، ٢٠٣-٢٠٦، ٢١٠، ٢١٣، ٢١٧، ٢١٩، ٢٢٠-٢٣٦، ٢٣٨، ٢٤٤، ٢٥٤، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٦٠-٢٦٢، ٢٦٦، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٦، ٣١٠، ٣١٢، ٣١٣، ٣١٥، ٣٢٣، ٣٢٥، ٣٢٦، ٣٣١، ٣٣٨، ٣٣٩، ٣٤٧-٣٥١، ٣٥٦، ٣٥٧، ٣٨٤
فرناندو وإيسابيلا ( الملكان الكاثوليكيان ) ؛ ٢٦، ٦٥، ١٨٤، ١٨٥، ٢٠٥، ٢٠٨، ٢١٠، ٢٢٤، ٢٢٦، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٤٢-٢٥١، ٢٥٧-٢٦٧، ٢٧٢، ٢٧٤-٢٧٧، ٢٨٦، ٣١٨، ٣٢٠، ٣٢٢، ٣٣٢، ٣٤٠، ٤١٨، ٤٢٣
فرناندو الزغوير ؛ ٣٦٥
فرناندو دى ثافرا ؛ ٢٤٤، ٢٥٤، ٢٧٦
فرناندودى ڤالور ؛ انظر محمد بن أمية
فون هامار ؛ ٤٠٢
فيليب الثانى ؛ ٣١٩، ٣٥٦-٣٦٠، ٣٦٩، ٣٧٤، ٣٧٥، ٣٩٤، ٤١١، ٤١٨، ٤١٩، ٤٢٣، ٤٢٥، ٤٣٠، ٤٣٢، ٤٩٤، ٥٠٤
فيليب الثالث ؛ ٨٣، ٣٩٠، ٣٩١، ٤٠٥، ٤١٧، ٤١٨، ٤١٩، ٤٢٢-٤٢٤، ٤٣٠، ٥٠٤
فيليب الرابع ؛ ٤١٥
فيليب الخامس ؛ ٢٩٩، ٤٢٦
القادر بن ذى النون ؛ ٨١
قبره ، الكونت دى ؛ ٢٠٣، ٢٠٨
قسى ، الكونت ؛ ٧٢
القلقشندى ؛ ١٢٩
قومس أهل الذمة ؛ ٦٧
كارل مارتل ؛ ٧٦
كارلوس الثانى ؛ ٤٢٩، ٥٠٧
كارلوس الثالث ؛ ٥٠٧
كارلوس الخامس ؛ انظر شارلكان
كارلوس ، أمير ڤيانا ؛ ١٧٩
كامبومانس ؛ ٤٢٢
كورتيس ، هرناندو ؛ ٤٣٢
كلومبوس ، كريستوف ؛ ٤٣٢
الكندى ؛ ٥١٥
الكورتيس ؛ ٤٣، ١٦٠، ١٧٤، ١٧٥

١٧٨، ١٨٠، ٤١٥
كوزى بن عامر ؛ ٣٦١، ٣٨٠، ٣٨٧
كونثالث دى لونا ؛ ١٥٨
كوندى، يوسف ؛ ١٥٦، ٢٣٧، ٤٣٠، ٥٠٦
كونستانس ، الملكة ؛ ١٧٤، ١٧٥

## ل — ى

لافونتى ألقنطرة ؛ ٢٤٣
لافونتى ، موديستو ؛ ٤١٩، ٤٢١
لاين بول ؛ ٤٣١
لوبى دى ڤيجا ؛ ٤٢٧، ٤٩٨
لورنتى ، أنتونيو؛ ٣٣٤، ٣٣٥، ٤٠٢، ٤١٧
لوس ڤيلبس ؛ ٣٦٧، ٣٦٨
لوسيرو ، المحقق العام ؛ ٣٣٩
لويس التاسع ؛ ٣٢٩
لويس الثالث عشر ؛ ٤٠١
لى ، هنرى تشارلس ؛ ٣٣٣، ٣٣٥، ٤٢٧، ٤٢٩
ليڤى بروڤنسال ؛ ٥٠٦
مارمول ، لويس دل ؛ ٢٤٣، ٣٦٤
مارى دى مديتشى ؛ ٤٠١
ماريا البرتغالية ؛ ١٧٢
ماريا دى مولينا ؛ ١٧١
ماسدى ؛ ٥٠٦
مالك ، الإمام ؛ ٧٣، ٤٤٤، ٤٩٥
مالك بز المرحل ؛ ٤٧
المأمون بن ذى النون ؛ ٨٠، ٥١٢
مانفردوق بنڤونتم ؛ ١٧٦
محاكم التحقيق ؛ انظر ديوان التحقيق .
محمد بن أحمد الشريف ؛ ٤٧٠
محمد بن ادريس ؛ ١٠٧
محمد بن اسماعيل ( السلطان ) ؛ ١٢١، ١٢٢، ١٢٤، ١٢٥، ٤٤١
محمد بن اسماعيل ، صاحب الجزيرة ؛ ١٢١
محمد بن أشقيلولة ؛ ٩٩، ١٠٢
محمد بن أمية الموريسكى ؛ ٣٦٥، ٣٦٧-٣٦٩
محمد بن داود الموريسكى ؛ ٣٦٢، ٣٦٣
محمد بن زائدة ؛ ٢٣٩
محمد بن سراج ، ٣٠٢
محمد بن عاصم القيسى ؛ ٤٨٨
محمد بن عبد الله ، مولاى؛ ٥٠٧
محمد بن عبد المنعم الجليانى ؛ ٤٥٩
محمد بن عبد الوهاب الغسانى ؛ ٢٣٧، ٣٠٢، ٥٠٧
محمد بن على الفخار البيرى ؛ ٤٦٦
محمد بن على بن موسى ؛ ٩١
محمد بن محمد الأنصارى ؛ ٤٦٧
محمد بن محمد الرميمى ؛ ٥٢
محمد بن محمد بن محمد بن يوسف ( المخلوع ) ؛ ١٠٨ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١٣٦ ، ٢٩٠ ، ٤٤١، ٤٤٢، ٤٦٢
محمد بن محمد بن يوسف ( الفقيه ) ؛ ٥١، ٩٤، ٩٨ ، ٩٩، ١٠١-١٠٣ ، ١٠٥، ١٠٧، ١٠٨، ١١٠، ٣٠٠، ٤٦٢، ٤٦٦
محمد بن يوسف ؛ انظر ابن الأحمر
محمد بن يوسف بن الغنى بالله ؛ ١٥٠، ١٥٨، ٤٨٢
محمد بن الحاج ؛ ٢٢٤
محمد الحرطوشى ؛ ٤٩٦
محمد ربدان الموريسكى ؛ ٤٩٦، ٤٩٨
محمد الزغير ؛ ١٥٥، ١٥٦
محمد الشيخ الوطاسى ؛ ١٦٥، ٢٨٧
محمد الفاتح ؛ ١٦٨
محمد الفرسوطى ، القائد ؛ ١٩٢
محمد الناصر الموحدى ؛ ١٩، ٧٥، ٩٦
مدينا سيدونيا ، دوق ؛ ١٦٥
مراد الريس ؛ ٣٨٩
مراد باشا ؛ ٤٠٥
مراد ، الداى ؛ ٥٠١
مراد جواديانو ؛ ٣٨٨
المرتضى بالله الموحدى ؛ ٣٢
المرتضى ، الخليفة الأموى ؛ ٢٧
مرتين ملك أراجون ؛ ٨٢، ١٥١، ١٧٨
مرتين ملك صقلية ؛ ١٥١، ١٧٨
مريم ، مريمة ؛ ٢٧٤
مريم بنت بنيغش ؛ ٣١٥
المستنصر الحفصى ؛ ٤٨، ٤٥٥
المستنصر العباسى ؛ ٣١
المستنصر الموحدى ؛ ٢٨
مسعود بن خيار ؛ ٤٤
مشيخة الغزاة ؛ ١٠٧، ١٤٥، ٤٤٣
مطرف الاشبيلى ؛ ٤٦٠

المعتمد بن عباد ؛ ٤٣٥
المعتصم بن صمادح ؛ ٤٣٥
المقرى ، شهاب الدين ؛ ١٢٩،١٥٥،١٩٦، ٢٠٩ ، ٢٧٠ ، ٢٨٦،٢٨٧،٣٠٩،٣٢١ ، ٣٢٥-٤٠٧،٤٥٣،٤٨٠،٤٨٢،٤٨٣،٤٨٩، ٥٠٣
المقريزى ؛ ١٢٩
مكيافيللى ؛ ٣٥٠
الملكان الكاثوليكيان ؛ انظر فرناندو وايسابيلا
مندوسا ، الكردينال ؛ ٢٥٨،٢٦٠-٢٦٢
متنديث إى بلايو ؛ ٤٢٥،٤٢٧
موسى بن أبى الغسان ؛ ٢٣٧-٢٤١،٢٥٤-٢٥٦،٣١٤
موسى بن رحو ؛ ١٠٧
مونديخار ، المركيز ؛ ٣٦٦،٣٦٧
نابارينى ، المؤرخ ؛ ٤٠٢،٤٢٦
الناصر بن قلاوون ؛ ١٢٩
النبى العربى ؛ ٣١٣،٣٣٩،٣٤٦،٣٧٩، ٥٠١
نصر بن أبى الحسن ؛ ٢٠٠
نصر بن محمد الغنى بالله ؛ ٤٨٣
نصر بن محمد ، أبو الجيوش ؛ ١١٤،١١٦
النصرانية ؛ ٥٣،٧٧،١٤٤،٢٣٦،٢٧٢ ، ٣٢٣،٣٢٤،٣٤٩،٣٩٤،٣٩٧،٤١٧،٥٠١، ٥٠٨
نعيم بن رضوان ؛ ٢٣٩
نونيودى لارا ؛ ٤٨،١٠٠
الوباء الكبير ؛ ١٢٦،١٣٠،٤٦٥،٤٧١، ٤٧٢
هرناندو دى بايثا ؛ ١٩٨،٢٧٤،٣٠٢
هرناندو دى براداس ؛ ٣٧٠،٣٧٢،٣٧٤
هشام بن عبد الرحمن ؛ ٧٣
هشام المؤيد ؛ ١٩٩
هنرى الثالث ملك قشتالة ؛ ١٥١
هنرى الرابع ملك قشتالة ؛ ٨٧،١٦٤،١٧٤، ١٧٦ ، ١٨٠ ، ١٨٢،١٩٢ ، ١٩٤،٣٣٠، ٤٥١،٥١٣
هنرى الرابع ملك فرنسا ؛ ٣٨٢،٤٠٠
هنرى دى ترستمارا ؛ ١٤٣،١٤٤،١٧٤،١٧٨
هومير ؛ ٤٣٠
يحيى بن خلدون ؛ ٤٤
يحيى بن ذى النون ؛ ٧٤
يحيى بن الصائغ ؛ ٤٩
يحيى بن محمد بن رحو ؛ ١٢٥،١٤٠
يحيى بن غانية ؛ ٨١
يحيى بن الناصر الموحدى ؛ ٣٠
يحيى بن هذيل ؛ ٤٦٨
يحيى النيار ( سيدى يحيى ) ؛ ٢٢٥،٢٢٧ ، ٣١٥
يحيى بن يحيى الوطاسى ؛ ١٦٥
يعقوب المنصور ؛ ١٩،٧٥،٧٧،٨٦،١٠٨، ٤٣٨،٥١٣
يغمراسن بن زيان ؛ ٩٦،٩٩،١٠٢
يوسف السراج ؛ ١٥٥
يوسف بن تاشفين ؛ ١٨،١٠٨
يوسف أبو الحجاج ؛ ١٢٥،١٢٨،١٣٠، ١٣٢،١٣٤،١٣٦،١٣٩،٢١٢،٢٩٠، ٢٩٤ ٤٤١-٤٤٣،٤٦٥،٤٧٢،٤٧٣
يوسف الثانى ؛ ١٤٢،١٤٩،١٥٠،٤٨٩
يوسف الثالث ؛ ١٥٣،١٦١
يوسف بن أبى الحسن ، ٢٠٠،٢٠٨،٢٧٤
يوسف بن المول ؛ ١٥٨،١٦٠
يوسف بن سراج ؛ ١٥٤،١٥٦
يوسف بن سعد ؛ ١٦٧،١٩١،١٩٨
يوسف بن سعيد ، أبو الحجاج ؛ ٢٥
يوسف بن يوسف الثانى ؛ ١٥٠،١٥٤